

مقتوبه عن نسخة مخطیة كاملة، ومنه مطبوعة الشعب واكثر من
قصر نسخ مخطیة اخرى يستوعب مجموعها التفسیر كله.

تفسیر الفراسة العظیم

للسیاف

أبی الفیثراؤنا عیال بن محمد بن کثیر القرشی الدمشقی

(۷۰۰ - ۷۷۴ هـ)

تحقیق

سایم بن محمد السلامة

وإهداء من

سلطان راجه محمد بن توفیق البکیر

تأطیرها

محقو عن نسخة خطية كاملة ، وعن مطبوعة الشعب واكثر من
عشر نسخ خطية أخرى يستوعب مجموعها التفسير كله .

تفسير القرآن العظيم

للمحافظ

أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كشير القرشي الدمشقي
(٧٠٠ - ٧٧٤ هـ)

تحقيق

سامي بن محمد السلامة

الجزء الأول

الفاتحة - البقرة

دار طيبة للنشر والتوزيع

الفهرس

٥ م	الإهداء
٧ م	مقدمة التحقيق

القسم الأول

الدراسة

١٣ م	المبحث الأول: ترجمة الحافظ ابن كثير
١٨ م	المبحث الثاني: كتاب تفسير القرآن العظيم

القسم الثاني

النص المحقق

٥	مقدمة ابن كثير
١٧	كتاب فضائل القرآن
١٠١	سورة الفاتحة
١٤٩	سورة البقرة

فهرس السور

سورة آل عمران ٥

سورة النساء ٢٠٥

فهرس السور

الصفحة	السورة
٥	سورة المائدة
٢٣٧	سورة الأنعام
٣٨٧	سورة الأعراف

فهرس السور

٥	سورة الإنفال
١٠١	سورة التوبة
٢٤٥	سورة يونس
٣٠٢	سورة هود
٣٦٥	سورة يوسف
٤٢٨	سورة الرعد
٤٧٦	سورة إبراهيم
٥٢٤	سورة الحجر
٥٥٥	سورة النحل

فهرس السور

الصفحة	السورة
٥	سورة الإسراء
١٣٣	سورة الكهف
٢١١	سورة مريم
٢٧١	سورة طه
٣٣١	سورة الأنبياء
٣٨٩	سورة الحج
٤٥٩	سورة المؤمنون

فهرس السور

٥	سورة النور
٩٢	سورة الفرقان
١٣٥	سورة الشعراء
١٧٨	سورة النمل
٢٢٠	سورة القصص
٢٦٣	سورة العنكبوت
٢٩٧	سورة الروم
٣٣٠	سورة لقمان
٣٥٨	سورة السجدة
٣٧٥	سورة الأحزاب
٤٩٤	سورة سبأ
٥٣٢	سورة فاطر
٥٦١	سورة يس

فهرس السور

٥	سورة الصافات
٥١	سورة ص
٨٤	سورة الزمر
١٢٦	سورة غافر
١٦١	سورة فصلت
١٨٩	سورة الشورى
٢١٨	سورة الزخرف
٢٤٥	سورة الدخان
٢٦٤	سورة الجاثية
٢٧٤	سورة الأحقاف
٣٠٦	سورة محمد (القتال)
٣٢٥	سورة الفتح
٣٦٤	سورة الحجرات
٣٩٢	سورة ق
٤١٣	سورة الذاريات
٤٢٧	سورة الطور
٤٤٢	سورة النجم
٤٧٠	سورة القمر
٤٨٨	سورة الرحمن
٥١٢	سورة الواقعة

فهرس السور

السورة	رقم الصفحة
الحديد	٥
المجادلة	٣٤
الحشر	٥٦
المتحنة	٨٢
الصف	١٠٤
الجمعة	١١٥
المنافقون	١٢٥
التغابن	١٣٥
الطلاق	١٤٢
التحریم	١٥٨
المملك	١٧٤
القلم	١٨٤
الحاقة	٢٠٨
المعارج	٢٢٠
نوح	٢٣١
الجن	٢٣٨
الزمل	٢٤٩
المدثر	٢٦١
القيامة	٢٧٥
الإنسان	٢٨٥
المرسلات	٢٩٦
النبأ	٣٠٢
النازعات	٣١٢
عبس	٣١٩
التكوير	٣٢٨
الانفطار	٣٤١
المطففين	٣٤٦
الانشاق	٣٥٥



رقم الصفحة	السورة
٣٦٣	البروج
٣٧٤	الطارق
٣٧٧	الأعلى
٣٨٤	الغاشية
٣٩٠	الفجر
٤٠٢	البلد
٤١٠	الشمس
٤١٦	الليل
٤٢٣	الضحى
٤٢٩	الشرح
٤٣٤	التين
٤٣٦	العلق
٤٤١	القدر
٤٥٤	البينة
٤٥٩	الزلزلة
٤٦٥	العاديات
٤٦٨	القارعة
٤٧٢	التكاثر
٤٧٩	العصر
٤٨١	الهمزة
٤٨٣	الفيل
٤٩١	قريش
٤٩٣	الماعون
٤٩٨	الكوثر
٥٠٦	الكافرون
٥٠٩	النصر
٥١٤	المسد
٥١٨	الإخلاص
٥٣٠	الفلق
٥٣٠	الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

الاهُداء

إلى والديّ ...

ربّ ارحمهما كما ربياني صغيّرا

سراج

مقدمة التحقيق

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ ، نَحْمَدُهُ ، وَنَسْتَعِينُهُ ، وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا ، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يَضِلَّ لَهُ ، فَلَا هَادِيَ لَهُ .
وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠ ، ٧١] .

أما بعد :

فهذا هو كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ، لِلإمام العلامة ، الْمُفَسِّرِ ، الْمُؤَرِّخِ ، الْحُجَّةِ الْخَافِظِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَمَرَ بْنِ ضَوْءِ بْنِ كَثِيرٍ الْقُرَشِيِّ الشَّافِعِيِّ الدَّمَشْقِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَقْدَمُهُ لِقَرَاءِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ ، بَعْدَ مُضِيِّ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَانِ عَلَى طَبْعَتِهِ الْأُولَى تَقْرِيْبًا ، كَادَتْ - خِلَالَ هَذِهِ الْفَتْرَةِ - أَنْ تُخْفَى مَعَالِمُهُ ، وَتَنْمَحَى مُمَيِّزَاتُهُ مِنْ جَرَاءِ عَيْثِ الْوَرَّاقِينَ ، وَمُمَارَسَاتِ الْمُتَاكِّلِينَ مِنْ صَحَفِيِّينَ وَكُتُبِيِّينَ .

أَقْدَمُهُ بَعْدَ أَنْ قُمْتُ بِأَعْيَاءِ تَحْقِيقِهِ وَضَبْطِ نَصِّهِ ، وَتَخْرِيجِ أَحَادِيثِهِ وَالتَّعْلِيقِ عَلَيْهِ ، عَلَى نَحْوِ يُسِّرِ الْفَائِدَةِ مِنْهُ ، وَيُحَقِّقُ رَغْبَةَ أَهْلِ الْعِلْمِ الَّذِينَ طَالَمَا تَمَنَّوْا أَنْ يُنْشَرَ هَذَا الْكِتَابُ نَشْرَةً عِلْمِيَّةً مُوثَّقَةً ، خَالِيَةً مِنَ التَّحْزِيفِ ، وَالسَّقْطِ وَالتَّصْحِيفِ .

وَتَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مِنْ أَعْظَمِ وَأَجَلِّ كُتُبِ التَّفْسِيرِ ، أَمْضَى فِيهِ مُؤَلَّفُهُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - عُمُرًا طَوِيلًا وَهُوَ يُقَلِّبُ فِيهِ بَيْنَ الْفَيْئَةِ وَالْأُخْرَى ، مُحَلِّيًا إِيَّاهُ بِفَائِدَةٍ تَخْطُرُ لَهُ ، أَوْ حِكَايَةِ قَوْلٍ أَرْمَعَ تَحْقِيقُهُ .

وَقَدْ اِحْتَوَى تَفْسِيرُهُ عَلَى الْكَثِيرِ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ مِنْ مَصَادِرِ شَتَّى ، حَتَّى أَتَى عَلَى مُسْتَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ فَكَادَ يَسْتَوْعِبُهُ ، كَمَا نَقَلَ عَنْ مَصَادِرٍ لَا ذِكْرَ لَهَا فِي عَالَمِ الْمَخْطُوطَاتِ ، كَتَفْسِيرِ الْإِمَامِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ مَرْدُويه ، وَتَفْسِيرِ الْإِمَامِ عَبْدِ بْنِ حُمَيْدٍ ، وَتَفْسِيرِ الْإِمَامِ ابْنِ الْمُنْذِرِ ، وَغَيْرِهَا كَثِيرٌ .

كَمَا تَضَمَّنَ تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بَعْضَ الْمُبَاحِثِ الْفِقْهِيَّةِ وَالْمَسَائِلِ اللَّغَوِيَّةِ ، وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ

السيوطي : لم يؤلف على نمط مثله .

والطريقة التي اتبعتها الحافظ ابن كثير في كتابه أن يذكر الآية ، ثم يذكر معناها العام ، ثم يورد تفسيرها من القرآن أو من السنة أو من أقوال الصحابة والتابعين ، وأحياناً يذكر كل ما يتعلق بالآية من قضايا أو أحكام ، ويحشد لذلك الأدلة من الكتاب والسنة ، ويذكر أقوال المذاهب الفقهية وأدلتها والترجيح بينها .

وقد أبان الحافظ ابن كثير عن طريقته في مقدمة تفسيره ، قال : « فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : فَمَا أَحْسَنُ طَرُقِ التَّفْسِيرِ ؟ فَالْجَوَابُ : إِنَّ أَصَحَّ الطَّرُقِ فِي ذَلِكَ أَنْ يُفَسِّرَ الْقُرْآنُ بِالْقُرْآنِ ، فَمَا أَجْمَلَ فِي مَكَانٍ فَإِنَّهُ قَدْ بَسَطَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ، فَإِنْ أَعْيَاكَ فَعَلَيْكَ بِالسُّنَّةِ ؛ فَإِنَّهَا شَارِحَةٌ لِلْقُرْآنِ وَمَوْضُحَةٌ لَهُ ، وَحِينَئِذٍ إِذَا لَمْ نَجِدِ التَّفْسِيرَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي السُّنَّةِ رَجَعْنَا فِي ذَلِكَ إِلَى أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ ؛ فَإِنَّهُمْ أَدْرَى بِذَلِكَ لِمَا شَاهَدُوا مِنَ الْقُرْآنِ وَالْأَحْوَالِ الَّتِي اخْتَصَّوْا بِهَا ، وَلِمَا لَهُمْ مِنَ الْفَهْمِ التَّامِّ وَالْعِلْمِ الصَّحِيحِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، لَا سِيَّمَا عُلَمَاءَهُمْ وَكِبَرَاءَهُمْ كَالْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ، وَالْأَئِمَّةِ الْمُهْتَدِينَ الْمُهْدِيِّينَ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ - وَإِذَا لَمْ تَجِدِ التَّفْسِيرَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي السُّنَّةِ وَلَا وَجَدْتَهُ عَنِ الصَّحَابَةِ فَقَدْ رَجَعَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ فِي ذَلِكَ إِلَى أَقْوَالِ التَّابِعِينَ » .

طبعت الكتاب :

وقد طبع هذا التفسير لأول مرة في المطبعة الأميرية من سنة ١٣٠٠ هـ إلى سنة ١٣٠٢ هـ بهامش تفسير « فتح البيان » لصديق حسن خان ، ثم طبعه الشيخ رشيد رضا - رحمه الله - ومعه تفسير البغوي في تسعة مجلدات بأمر جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود - رحمه الله - من سنة ١٣٤٣ هـ إلى سنة ١٣٤٧ هـ ، واجتهد - رحمه الله - في تصحيحه ما استطاع ، ولكن فاتته الشئ الكثير .

ثم تداول المطابع طبعه طبعت تجارية ، ليس فيها تصحيح ولا تحقيق ولا مراجعة ، وإنما اعتمدوا طبعة « المنار » ، فأخذوها بما فيها من أغلاط ، ثم زادوها ما استطاعوا من غلط أو تحريف . فكان انتفاع الناس بهذا التفسير انتفاعاً قاصراً ؛ لما امتلأت به طبعاته من غلط وتحريف ، يجب معهما أن يعاد طبعه طبعة علمية مُحَقَّقة ، ويرجع فيها إلى النسخ المخطوطة منه ما أمكن ، ثم الرجوع إلى مصادر السنة التي ينقل عنها الحافظ ابن كثير ، وإلى كتب رجال الحديث والتراجم لتصحيح أسماء الرجال في الأسانيد ، وهم شئ كثير وعدد ضخم^(١) .

حتى جاءت سنة ١٣٩٠ هـ فخرجت طبعة جديدة لهذا التفسير من دار الشعب بتحقيق الأساتذة :

(١) عمدة التفسير للشيخ أحمد شاکر (١ / ٦) .

عبد العزيز غنيم ، ومُحمَّد أحمد عاشور ، ومحمد إبراهيم البنا .

لكنهم اعتمدوا على نسخة الأزهر ، وهي نسخة قديمة وجيدة ، لكن بمقارنتها ببقية النسخ فإنها يكثر فيها السقط والتصحيف^(١) .

وقد تعقَّب الدكتور إسماعيل عبد العال هذه الطبعة في كتابه « ابن كثير ومنهجه في التفسير »^(٢) ثم قال :

« وأرى من الواجب على من يتصدى لتحقيق تفسير ابن كثير - تحقيقاً علمياً دقيقاً سليماً من المآخذ - ألا يعتمد على نسخة واحدة ، بل عليه أن يجمع كل النسخ المخطوطة والمطبوعة ، ويوازن بينها مع إثبات الزيادة والنقص ، والتحريف والتصحيف » .

وكنْتُ منذُ خمس سنوات قد بدأتُ العملَ على تحقيق هذا الكتاب بجمع مخطوطاته ، وتوثيق نصوصه وإصلاح ما وقع في طبعاته السابقة من تحريف ونقص ، حتى خرج في هيئة أحسب أنها أقرب ما تكون إلى ما أراده المصنف - رحمه الله .

وقد ساعدني في كثير من مراحل العمل إخوة أفاضل ، فلهم مني خالص الدعاء وجزيل الشكر .

وبعد :

فقد مرَّتْ على أثناء العمل في هذا الكتاب سنون شديدة ، الله وحده بها عليم ، قاسيتُ فيها شدائد ، وواجهتُ فيها عقبات ، إلا أن همتي أبت إلا إتمامه ، ونفسي تآقت إلى التشرف بخدمته . وقد كابدتُ في هذا الكتاب جهدي ، وبذلتُ فيه مالي ، واستنفقتُ له وقتي ، فكَمْ من ليالٍ أنفقتُها في تصويب تحريف ، أو تقويم تصحيف .

أقولُ ذلك ملتصقاً العذر من عالم سقط على زكلي ، أو قارئ وقع على خطأ ، فمثلُ هذا العمل الكبير لا بُدَّ أن تظهر فيه بعض الأخطاء المطبعية ، والأوهام اليسيرة ، وصدق المُرني - رحمه الله - حين قال : « لو عورض كتاب سبعين مرة لوجد فيهِ خطأ ، أبى الله أن يكون صحيحاً غير كتابه » ، فالمرجو من أهل العلم أن يرسلوا لي ما لديهم من ملاحظات أو استدراك أو تعقيب حتى أتدارك ذلك في الطبعة اللاحقة إن شاء الله .

ولا أنسى في ختام كلمتي أن أرفع شكرى إلى مقام والدي اللذين كان لهما الفضل في تنشيتي ، وإرشادي إلى العلم وحبّه ، والاجتهاد في طلبه : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً ﴾ [نوح : ٢٨] .

(١) وقد سدت هذه الطبعة فراغاً آنذاك ، ولكن يتعين بعد اليوم عدم اعتمادها في دراسة أو قراءة لكثرة ما فيها من السقط والاهام .

(٢) ص ١٢٨ .

وأشكُرُ الأستاذَ الفاضلَ / سعد بن صالح الطويل ، وكيلَ عمادةِ شؤونِ المكتباتِ بجامعةِ الإمامِ محمد بن سعود الإسلامية سابقاً ، والأستاذَ الفاضلَ / صالح الحجى ، مديرَ قسمِ المخطوطاتِ بجامعةِ الملكِ سعود ، وأشكُرُ كُلَّ أخٍ ساعدني أو شجّعني لمواصلةِ طريقي .

واللهَ أسألُ أنْ يَنْفَعَ به الجميعَ ، وأنْ يجعلَهُ خالصاً لوجهِهِ الكَرِيمِ ، وأنْ يَكُونَ منَ الثَّلاثِ التي يَنْقُطِعُ عَمَلُ ابْنِ آدَمَ إذا ماتَ إلا مِنْهَا ، وأنْ يَكْتُبَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ أَهْلِ الأَجَرِ والثَّوْبَةِ ، إنه وَلِيُّ ذَلِكَ والقَادِرُ عليه ، وصَلَّى اللهُ وَسَلَّمْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ .

وكتبه :

سامي بن محمد بن عبد الرحمن بن سلامة

الرياض : ٥ / ٥ / ١٤١٧ هـ

القسم الأول الدراسة

وقد اشمل على بحثين:

المبحث الأول: ترجمة الحافظ ابن كثير.

المبحث الثاني: كتاب تفسير القرآن العظيم.

المبحث الأول

ترجمة الحافظ ابن كثير

١ - نسبه وميلاده :

هو الإمام الحافظ ، المحدث ، المؤرخ ، عماد الدين ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن ضوء بن درع القرشي الدمشقي الشافعي .

ولد بقرية « مجدل » من أعمال بصرى ، وهى قرية أمه ، سنة سبعمئة للهجرة أو بعدها بقليل .

٢ - نشأته :

نشأ الحافظ ابن كثير فى بيت علم ودين ، فأبوه عمر بن حفص بن كثير أخذ عن النواوى والفزارى وكان خطيب قريته ، وتوفى أبوه وعمره ثلاث سنوات أو نحوها ، وانتقلت الأسرة بعد موت والد ابن كثير إلى دمشق فى سنة (٧٠٧ هـ) ، وخلف والده أخوه عبد الوهاب ، فقد بذل جهداً كبيراً فى رعاية هذه الأسرة بعد فقدها لوالدها ، وعنه يقول الحافظ ابن كثير : « وقد كان لنا شقيقاً ، وبنا رفيقاً شفوفاً ، وقد تأخرت وفاته إلى سنة (٥٠ هـ) فاشتغلت على يديه فى العلم فيسر الله منه ما تيسر وسهل منه ما تعسر » (١) .

٣ - شيوخه :

- ١ - شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية ، رحمه الله .
- ٢ - الحافظ أبو الحجاج يوسف المزى ، رحمه الله .
- ٣ - الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي ، رحمه الله .
- ٤ - الشيخ أبو العباس أحمد الحجار الشهير بـ « ابن الشحنة » .
- ٥ - الشيخ أبو إسحاق إبراهيم الفزارى ، رحمه الله .
- ٦ - الحافظ كمال الدين عبد الوهاب الشهير بـ « ابن قاضى شهبة » .
- ٧ - الإمام كمال الدين أبو المعالى محمد بن الزملى ، رحمه الله .
- ٨ - الإمام محبى الدين أبو زكريا يحيى الشيبانى ، رحمه الله .
- ٩ - الإمام علم الدين محمد القاسم البرزالي ، رحمه الله .
- ١٠ - الشيخ شمس الدين أبو نصر محمد الشيرازى ، رحمه الله .
- ١١ - الشيخ شمس الدين محمود الأصبهاني ، رحمه الله .
- ١٢ - عفيف الدين إسحاق بن يحيى الأمدى الأصبهاني ، رحمه الله .

(١) البداية والنهاية (١٤ / ٣٢) .

- ١٣ - الشيخ بهاء الدين القاسم بن عساكر ، رحمه الله .
- ١٤ - أبو محمد عيسى بن المطعم ، رحمه الله .
- ١٥ - عفيف الدين محمد بن عمر الصقلی ، رحمه الله .
- ١٦ - الشيخ أبو بكر محمد بن الرضى الصالحی ، رحمه الله .
- ١٧ - محمد بن السويدي ، بارع في الطب .
- ١٨ - الشيخ أبو عبد الله بن محمد بن حسين بن غيلان ، رحمه الله .
- ١٩ - الحافظ أبو محمد عبد المؤمن الدمياطی ، رحمه الله .
- ٢٠ - موسى بن علي الجيلي ، رحمه الله .
- ٢١ - جمال الدين سليمان بن الخطيب ، قاضى القضاة .
- ٢٢ - محمد بن جعفر اللباد ، شيخ القراءات .
- ٢٣ - شمس الدين محمد بن بركات ، رحمه الله .
- ٢٤ - شمس الدين أبو محمد عبد الله المقدسى ، رحمه الله .
- ٢٥ - الشيخ نجم الدين بن العسقلانى .
- ٢٦ - جمال الدين أبو العباس أحمد بن القلانسی ، رحمه الله .
- ٢٧ - الشيخ عمر بن أبى بكر البسطی ، رحمه الله .
- ٢٨ - ضياء الدين عبد الله الزربندى النحوى ، رحمه الله .
- ٢٩ - أبو الحسن علي بن محمد بن المنتزه ، رحمه الله .
- ٣٠ - الشيخ محمد بن الزراد ، رحمه الله .

٤ - تلاميذه :

- ١ - الحافظ علاء الدين بن حجي الشافعى ، رحمه الله .
- ٢ - محمد بن محمد بن خضر القرشى ، رحمه الله .
- ٣ - شرف الدين مسعود الأنطاكى النحوى ، رحمه الله .
- ٤ - محمد بن أبى محمد بن الجزرى ، شيخ علم القراءات ، رحمه الله .
- ٥ - ابنه محمد بن إسماعيل بن كثير ، رحمه الله .
- ٦ - الإمام ابن أبى العز الحنفى ، رحمه الله .
- ٧ - الحافظ أبو المحاسن الحسينى ، رحمه الله .

٥ - مؤلفاته :

أ - فى علوم القرآن :

- ١ - تفسير القرآن العظيم : وسيأتى الكلام عليه فى البحث الثانى إن شاء الله تعالى .
- ٢ - فضائل القرآن : وهو ملحق بالتفسير فى النسخة البريطانية ، والنسخة المكية ، وقد اعتمدت إلحاقه بالتفسير لقرب موضوعه من التفسير ؛ ولأن هاتين النسختين هما آخر عهد ابن كثير لتفسيره .

وقد طبعت مفردة بتحقيق الأستاذ محمد البنا فى مؤسسة علوم القرآن ببيروت .

ب - فى السنة وعلومها :

٣ - أحاديث الأصول .

٤ - شرح صحيح البخارى .

- ٥ - التكميل فى الجرح والتعديل ومعرفة الثقات والمجاهيل : منه نسخة بدار الكتب المصرية برقم (٢٤٢٢٧) فى مجلدين ، وهى ناقصة ولدى مصورة عنها .

- ٦ - اختصار علوم الحديث : نشر بمكة المكرمة سنة (١٣٥٣هـ) بتحقيق الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة ، ثم شرحه الشيخ أحمد شاكر ، رحمه الله ، وطبع بالقاهرة سنة (١٣٥٥هـ) .

- ٧ - جامع المسانيد والسنن الهادى لأقوم سنن : منه نسخة بدار الكتب المصرية برقم (١٨٤) حديث ، ونشره مؤخراً الدكتور عبد المعطى أمين قلعجى ، وطبع بدار الكتب العلمية ببيروت .

- ٨ - مسند أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه .

- ٩ - مسند عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه : نشره الدكتور عبد المعطى أمين قلعجى ، وطبع بدار الوفاء بمصر .

- ١٠ - الأحكام الصغرى فى الحديث .

- ١١ - تخريج أحاديث أدلة التنبيه فى فقه الشافعية .

- ١٢ - تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب : طبع مؤخراً بتحقيق الكيسى ، ونشر فى مكة .

- ١٣ - مختصر كتاب « المدخل إلى كتاب السنن » للبيهقى .

- ١٤ - جزء فى حديث الصور .

- ١٥ - جزء فى الرد على حديث السجل .

- ١٦ - جزء فى الأحاديث الواردة فى فضل أيام العشرة من ذى الحجة .

- ١٧ - جزء فى الأحاديث الواردة فى قتل الكلاب .

- ١٨ - جزء فى الأحاديث الواردة فى كفارة المجلس .

ج- في الفقه وأصوله :

١٩ - الأحكام الكبرى .

٢٠ - كتاب الصيام .

٢١ - أحكام التنبيه .

٢٢ - جزء في الصلاة الوسطى .

٢٣ - جزء في ميراث الأبوين مع الأخوة .

٢٤ - جزء في الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها .

٢٥ - جزء في الرد على كتاب الجزية .

٢٦ - جزء في فضل يوم عرفة .

٢٧ - المقدمات في أصول الفقه .

د- في التاريخ والمناقب :

٢٨ - البداية والنهاية : مطبوع عدة طبعات في مصر وبيروت ، أحسنها الطبعة التي حققها

الدكتور على عبد الستار وآخرون .

والنهاية مطبوع في مصر بتحقيق أحمد عبد العزيز .

٢٩ - جزء مفرد في فتح القسطنطينية .

٣٠ - السيرة النبوية : مطبوع باسم الفصول في سيرة الرسول بدمشق .

٣١ - طبقات الشافعية : منه نسخة في شستريتي بإيرلندا ، وقد طبع مؤخراً في مصر .

٣٢ - الواضح النفيس في مناقب محمد بن إدريس : منه نسخة في شستريتي بإيرلندا .

٣٣ - مناقب ابن تيمية .

٣٤ - مقدمة في الأنساب .

٦ - ثناء العلماء عليه :

كان ابن كثير ، رحمه الله ، من أفذاذ العلماء في عصره ، أثنى عليه معاصروه ومن بعدهم الثناء

الجم :

فقد قال الحافظ الذهبي في طبقات شيوخه : « وسمعت مع الفقيه المفتي المحدث ، ذي الفضائل ،

عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البصري الشافعي . . سمع من ابن الشحنة وابن الزراد وطائفة ، له عناية بالرجال والمتون والفقه ، خرج وناظر وصنف وفسر وتقدم » (١) .

وقال عنه أيضاً في المعجم المختص : « الإمام المفتي المحدث البار ، فقيه متفنن ، محدث متقن ،

مفسر نقال » (٢) .

(١) طبقات الحفاظ للذهبي (٤ / ٢٩) وعمدة التفسير لأحمد شاكر (١ / ٢٥) .

(٢) المعجم المختص للذهبي .

وقال تلميذه الحافظ أبو المحاسن الحسيني : « صاهر شيخنا أبا الحجاج المزى فأكثر ، وأفتى ودرس وناظر ، وبرع في الفقه والتفسير والنحو وأمعن النظر في الرجال والعلل » (١) .

وقال العلامة ابن ناصر الدين : « الشيخ الإمام العلامة الحافظ عماد الدين ، ثقة المحدثين ، عمدة المؤرخين ، علم المفسرين » (٢) .

وقال ابن تغرى بردى : « لازم الاشتغال ، ودأب وحصل وكتب وبرع في الفقه والتفسير والفقه والعربية وغير ذلك ، وأفتى ودرس إلى أن توفي » (٣) .

وقال ابن حجر العسقلاني : « كان كثير الاستحضار ، حسن المفاكهة ، سارت تصانيفه في البلاد في حياته ، وانتفع الناس بها بعد وفاته » (٤) .

وقال ابن حبيب : « إمام روى التسبيح والتهليل ، وزعيم أرباب التأويل ، سمع وجمع وصنف وأطرب الأسماع بالفتوى وشنف ، وحدث وأفاد ، وطارت أوراق فتاويه إلى البلاد ، واشتهر بالضبط والتحرير ، وانتهت إليه رئاسة العلم في التاريخ ، والحديث والتفسير » (٥) .

وقال العيني : « كان قدوة العلماء والحفاظ ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ ، وسمع وجمع وصنف ، ودرس ، وحدث ، وألف ، وكان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ ، واشتهر بالضبط والتحرير ، وانتهى إليه رئاسة علم التاريخ والحديث والتفسير وله مصنفات عديدة مفيدة » (٦) .

وقال تلميذه ابن حجي : « أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث ، وأعرفهم بجرحها ورجالها وصحيحها وسقيمها ، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك ، وكان يستحضر شيئاً كثيراً من الفقه والتاريخ ، قليل النسيان ، وكان فقيها جيد الفهم ، ويشارك في العربية مشاركة جيدة ، ونظم الشعر ، وما أعرف أني اجتمعت به على كثرة ترددي إليه إلا واستفدت منه » (٧) .

وقال الداودي : « أقبل على حفظ المتون ، ومعرفة الأسانيد والتعلل والرجال والتاريخ حتى برع في ذلك وهو شاب » (٨) .

٦ - وفاته وراثؤه :

في يوم الخميس السادس والعشرين من شهر شعبان سنة أربع وسبعين وسبعمائة توفي الحافظ ابن كثير بدمشق ، ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية ، رحمه الله .

وقد ذكر ابن ناصر الدين أنه « كانت له جنازة حافلة مشهودة ، ودفن بوصية منه في تربة شيخ الإسلام ابن تيمية بمقبرة الصوفية » .

وقد قيل في رثائه ، رحمه الله :

وجادوا بدمع لا يبير غزير

لفقدك طلاب العلوم تأسفوا

لكان قليلاً فيك يابن كثير

ولو مزجوا ماء المدامع بالدماء

(١) ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني ص ٥٨ ، وعمدة التفسير لأحمد شاكر (١ / ٢٦) .

(٢) الرد الوافر . (٣) النجوم الزاهرة (١١ / ١٢٣) .

(٤) الدرر الكامنة .

(٥) شذرات الذهب لابن العماد (٦ / ٢٣٢) .

(٦) النجوم الزاهرة (١١ / ١٢٣) .

(٧) شذرات الذهب لابن العماد (٦ / ٢٣٢) .

(٨) طبقات المفسرين .

المبحث الثاني كتاب تفسير القرآن العظيم

١ - تاريخ كتابته :

لم يحدد الحافظ ابن كثير ، رحمه الله ، تاريخ بدايته فى كتابة هذا التفسير ولا تاريخ انتهائه منه ، لكن ثمة دلائل تدل على تاريخ انتهائه منه ، فإنه ذكر عند تفسير سورة الأنبياء شيخه المزى ودعا له بطول العمر مما يفهم منه أنه قد ألف أكثر من نصف التفسير فى حياة شيخه المزى المتوفى سنة (٧٤٢ هـ) .

واقبس منه الإمام الزيلعى فى كتابه تخريج أحاديث الكشاف (٢ / ١٨٠) والزيلعى توفى سنة (٧٦٢ هـ) ، مما يدل على أن كتاب الحافظ ابن كثير انتشر فى هذه الفترة .

هذا وتعتبر النسخة المكية أقدم النسخ التى وقعت بأيدينا ، وقد جاء بآخرها : « آخر كتاب فضائل القرآن وبه تم التفسير للحافظ العلامة الرحلة الجهبذ مفيد الطالبين الشيخ عماد الدين إسماعيل الشهير بابن كثير ، على يد أفقر العباد إلى الله الغنى محمد بن أحمد بن معمر المقرئ البغدادي ، عفا الله عنه ونفعه بالعلم ، ووفقه للعمل به امين بتاريخه يوم الجمعة عاشر جمادى الآخرة من سنة تسع وخمسين وسبعمائة هلالية هجرية » .

٢ - أهميته :

يعد تفسير الحافظ ابن كثير ، رحمه الله ، من الكتب التى كتب الله لها القبول والانتشار ، فلا تكاد تخلو منه اليوم مكتبة سواء كانت شخصية أو عامة .

وقد نهج الحافظ ابن كثير فيه منهجاً علمياً أصيلاً ، وساقه بعبارة فصيحة وجمل رشيقة ، وتتجلى لنا أهمية تفسير الحافظ ابن كثير ، رحمه الله ، فى النقاط التالية :

١ - ذكر الحديث بسنده .

٢ - حكمه على الحديث فى الغالب .

٣ - ترجيح ما يرى أنه الحق ، دون التعصب لرأى أو تقليد بغير دليل .

٤ - عدم الاعتماد على القصص الإسرائيلية التى لم تثبت فى كتاب الله ولا فى صحيح سنة رسول الله ﷺ ، وربما ذكرها وسكت عليها وهو قليل .

٥ - تفسيره ما يتعلق بالأسماء والصفات على طريقة سلف الأمة ، رحمهم الله ، من غير تحريف ولا تأويل ولا تشبيه ولا تعطيل .

٦ - استيعاب الأحاديث التى تتعلق بالآية ، فقد استوعب ، رحمه الله ، الأحاديث الواردة فى عذاب القبر ونعيمه عند قوله تعالى : ﴿ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ ،

وكذا استوعب أحاديث الإسراء والمعراج عند قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ ، وكذا الأحاديث الواردة في الصلاة على النبي عند قوله الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ ، وكذا الأحاديث الواردة في فضل أهل البيت عند تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ ، وغير هذا كثير (١) .

وقد قال السيوطي في ترجمة الحافظ ابن كثير : « له التفسير الذى لم يؤلف على غلط مثله » . وقال الشوكاني : « وله تصانيف ، منها التفسير المشهور وهو فى مجلدات ، وقد جمع فيه فأوعى ، ونقل المذاهب والأخبار والآثار ، وتكلم بأحسن كلام وأنفسه ، وهو من أحسن التفاسير إن لم يكن أحسنها » .

٣ - مصادره :

أما مصادر الحافظ ابن كثير فى تفسيره فقد سردها الدكتور إسماعيل عبد العال فى كتابه « ابن كثير ومنهجه فى التفسير » أنقلها هنا حسب ترتيب المواضع :

أولاً : الكتب السماوية :

١ - القرآن الكريم .

٢ - التوراة ، وأشار أنه نقل من نسختين .

٣ - الإنجيل .

ثانياً : فى التفسير وعلوم القرآن :

أ - فى التفسير :

٤ - تفسير آدم بن أبى إياس ، المتوفى سنة / ٢٢٠ هـ أو ٢٢١ هـ .

٥ - تفسير أبى بكر بن المنذر ، المتوفى سنة / ٣١٨ هـ .

٦ - تفسير ابن أبى حاتم ، المتوفى سنة / ٢٢٣ هـ . (ط) قسم منه .

٧ - تفسير أبو مسلم الأصبهاني (محمد بن بحر) ، المتوفى سنة / ٣٢٢ هـ ، واسم كتابه : « جامع التأويل لمحكم التنزيل » .

٨ - تفسير ابن أبى فنجح (عبد الله بن يسار الأعرج المكي مولى ابن عمر) .

٩ - تفسير البغوى (أبو محمد الحسن بن مسعود بن محمد الفراء) ، المتوفى سنة ٥١٦ هـ ، واسم كتابه (معالم التنزيل) . (ط) .

١٠ - تفسير ابن تيمية (تقى الدين أبى العباس أحمد بن عبد الحليم) ، المتوفى سنة ٧٢٨ هـ ،

وهو جزء فى تفسير قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ . (ط) .

(١) مقدمة الشيخ مقل الوادعى (ص ٥) .

- ١١ - تفسير الثعلبي (أحمد بن محمد بن إبراهيم أبو إسحاق النيسابوري) ، المتوفى سنة ٤٢٧ هـ (مخطوط) في المكتبة المحمودية .
- ١٢ - تفسير الجبائي (أبي علي) المتوفى سنة ٣٠٣ هـ .
- ١٣ - تفسير ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي) ، المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، واسم الكتاب (زاد المسير في علم التفسير) وهو مخطوط بدار الكتب تحت رقم ١٢٣ تفسير في أربعة مجلدات . (ط) .
- ١٤ - تفسير ابن دحيم (أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن دحيم) ، المتوفى سنة ٣١٩ هـ .
- ١٥ - تفسير الرازي (محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري أبو عبد الله المشهور بفخر الدين الرازي) ، المتوفى سنة ٦٠٦ هـ ، وكتابه يسمى «التفسير الكبير» المشهور بمفاتيح الغيب . (ط) .
- ١٦ - تفسير الزمخشري (جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الخوارزمي) ، المتوفى سنة ٥٣٨ هـ وكتابه يدعى (الكشف عن حقائق التنزيل ، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) . (ط) .
- ١٧ - تفسير السدي الكبير ، المتوفى سنة ١٣٧ هـ - ٧٤٥ م .
- ١٨ - تفسير سنيد بن داود ، المتوفى سنة ٢٢٦ هـ .
- ١٩ - تفسير شجاع بن مخلد ، المتوفى سنة ٢٣٥ هـ .
- ٢٠ - تفسير الطبري ، المتوفى سنة ٣١٠ هـ (ط) .
- ٢١ - تفسير عبد بن حميد ، المتوفى سنة ٢٤٩ هـ .
- ٢٢ - تفسير عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، المتوفى سنة ١٨٢ هـ .
- ٢٣ - تفسير عبد الرزاق الصنعاني ، المتوفى سنة ٢١١ هـ . (ط) .
- ٢٤ - تفسير ابن عطية العوفي ، المتوفى سنة ١١١ هـ .
- ٢٥ - تفسير القرطبي (أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي) ، المتوفى سنة ٦٧١ هـ ، وتفسيره يسمى « الجامع لأحكام القرآن الكريم » . (ط) .
- ٢٦ - تفسير مالك بن أنس إمام دار الهجرة ، وهو جزء مجموع له .
- ٢٧ - تفسير الماوردي (أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب) ، المتوفى سنة ٤٥٠ هـ ، واسم تفسيره « النكت والعيون » .
- ٢٨ - تفسير ابن مردويه .
- ٢٩ - تفسير الواحدي (علي بن أحمد بن محمد بن علي أبي الحسن) ، المتوفى سنة ٤٦٨ هـ . (ط) الوسيط .
- ٣٠ - تفسير وكيع بن الجراح ، المتوفى سنة ١٩٧ هـ .

ب- فى علوم القرآن :

٣١ - « البيان » لأبى عمرو الدانى (الحافظ أبى عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد المعروف بالدانى (٣٧١ - ٤٤٤ هـ) ، وهو حافظ محدث مفسر ، واسم الكتاب « جامع البيان فى القراءات السبع » وهو من أحسن مصنفاته يشتمل على نيف وخمسمائة رواية وطريق ، قيل : إنه جمع فيه كل ما يعلمه فى هذا العلم .

٣٢ - « التبيان » لأبى زكريا النواوى (محبى الدين يحيى بن شرف النووى المتوفى سنة ٦٧٧ هـ) ، أما اسم الكتاب فهو « التبيان فى آداب حملة القرآن » ، وقد رتب على عشرة أبواب ثم اختصره ، وسماه « مختار التبيان » (ط) .

٣٣ - جزء فيمن جمع القرآن من المهاجرين للحافظ ابن السمعانى القاضى أبى سعيد عبد الكريم بن أبى بكر ، محمد بن أبى المظفر المنصور التميمى المروزى ، المتوفى سنة ٥١٢ هـ .

٣٤ - جميع مصاحف الأئمة .

٣٥ - شرح الشاطبية للشيخ شهاب الدين أبى شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى الدمشقى المتوفى سنة ٦٦٥ هـ) .

٣٦ - فضائل القرآن لأبى عبيد القاسم بن سلام ، المتوفى سنة ٢٢٤ هـ . (ط) .

٣٧ - مصحف أبى بن كعب ، وهو أحد الأربعة الذين جمعوا القرآن (زيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل ، وأبو زيد الأنصارى) ، وقد توفى أبى سنة ١٩ هـ وقيل ٢٠ أو ٢٢ أو ٢٣ .

٣٨ - معانى القرآن للزجاج (أبى إسحاق إبراهيم بن السرى الزجاج المتوفى سنة ٣١١ هـ) . (ط) .

٣٩ - النسخ والنسوخ لأبى عبيد القاسم بن سلام . (ط) .

ثالثا : كتب السنة وعلوم الحديث وشروحه :

أ- الكتب الستة مضافاً إليها مسند أحمد بن حنبل :

٤٠ - الجامع الصحيح للإمام البخارى . (ط) .

٤١ - صحيح مسلم للإمام أبى الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى ، المتوفى سنة (٢٦١ هـ - ٨٧٥ م) . (ط) .

٤٢ - سنن أبى داود (سليمان بن الجارود بن الأشعث الأزدي السجستانى) ، المتوفى سنة ٢٧٥ هـ (٨٨٩ م) . (ط) .

٤٣ - سنن الترمذى (الجامع) لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سهل الترمذى ، المتوفى (٢٧٩ هـ - ٨٩٢ م) . (ط) .

٤٤ - سنن النسائى (أبى عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى) ، المتوفى سنة ٣٠٣ هـ (٩١٥ م) . (ط) .

٤٥ - سنن ابن ماجه (أبى عبد الله محمد بن يوسف بن ماجه القزوينى) ، المتوفى سنة ٣٢٧ هـ (٨٨٦ م) . (ط) .

٤٦ - مسند الإمام أحمد بن حنبل (أبى عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الذهلي) ، المتوفى ٢٤١ هـ - ٨٥٥ م ، وصاحب المذهب الحنبلى المشهور . (ط) .

ب - بقية كتب السنة وعلوم الحديث وشروحه :

٤٧ - أحاديث الأصول للحافظ ابن كثير .

٤٨ - الأحوذى فى شرح الترمذى للإمام أبى بكر محمد بن العربى ، المتوفى سنة ٥٤٣ هـ ، واسم الكتاب (عارضة الأحوذى فى شرح الترمذى) . (ط) .

٤٩ - الأسماء والصفات للبيهقى (أبى بكر أحمد بن الحسين بن على البيهقى) ، المتوفى سنة ٤٥٣ هـ ، والكتاب يتضمن الأحاديث الواردة فى أسماء الله تعالى وصفاته وهو مطبوع بمطبعة أنوار أحمدى بالهند سنة ١٣١٣ هـ .

٥٠ - الأربعين الطائية لأبى الفتوح محمد بن محمد بن على الطائى الهمدانى ، المتوفى سنة ٥٥٥ هـ . وقد ذكر فيه أنه أملأ أربعين حديثاً من مسموعاته عن أربعين شيخاً ، كل حديث عن واحد من الصحابة ، فذكر ترجمته وفضائله ، وأورد عقيب كل حديث بعض ما اشتمل عليه من الفوائد ، وشرح غريبه وأتبع بكلمات مستحسنة وسماه (الأربعين فى إرشاد السائر إلى منازل اليقين) .

٥١ - الأطراف لأبى الحجاج المزى . (ط) باسم تحفة الأشراف .

٥٢ - الأفراد للدارقطنى (أبى الحسن على بن عمر الدارقطنى الشافعى) المولود فى دار قطن من محال بغداد (٣٠٦ هـ - ٩١٨ م) والمتوفى (٣٨٥ هـ - ٩٩٥ م) أما اسم الكتاب فهو : (فوائد الأفراد) .

٥٣ - الأمالى لأحمد بن سليمان النجاد (أبى بكر أحمد بن سليمان بن الحسن الحنبلى المعروف بالنجاد ، فقيه محدث) ، توفى ٣٤٨ هـ - ٩٦٠ م ، ويبدو أن كتابه هذا هو ما أملاه فى دروسه التى كان يعقدها بعد صلاة الجمعة (وكانت له حلقتان فى جامع المنصور : حلقة قبل الصلاة للفتوى على مذهب الإمام أحمد ، وبعد الصلاة لإملاء الحديث ، واتسعت رواياته وانتشرت أحاديثه ومصنفاته ، وكان رأساً فى الفقه رأساً فى الحديث) .

٥٤ - الأنواع والتقايسم فى الحديث لابن حبان (الحافظ محمد بن أحمد بن حبان البستى) المولود فى بست من نواحي سجستان بين هراة وغزنة ، والمتوفى (٣٥٤ هـ - ٩٦٥ م) (ط) بترتيب الفارسى .

٥٥ - الثقات لابن حبان . (ط) .

٥٦ - جامع الأصول لابن الأثير (المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى الجزرى المتوفى ٦٠٦ هـ) أما الكتاب فهو (جامع الأصول من أحاديث الرسول) جمع فيه ابن الأثير الأصول الستة : البخارى ، ومسلم ، والموطأ ، وأبو داود ، والنسائى ، والترمذى ، وله مختصر يسمى (تيسير الوصول إلى جامع الأصول) لابن الديبع الشيبانى ، المتوفى سنة ٩٤٤ هـ وهو مطبوع بالمكتبة التجارية بتحقيق الشيخ حامد الفقى ، وبحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط .

- ٥٧ - جامع الثوري (سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري) ، المتوفى سنة ١٦١ هـ وجامعه يسمى (الجامع الكبير) يجرى مجرى الحديث رواه عنه جماعة منهم يزيد بن أبي حكيم وعبد الله بن الوليد ، وله أيضاً (كتاب الجامع الصغير وكتاب الفرائض) .
- ٥٨ - الجامع لأدب الراوى والسماع : للخطيب البغدادي (أبي أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب) ، البغدادي والمتوفى سنة ٤٦٣ هـ . (ط) .
- ٥٩ - جامع المسانيد لابن الجوزي .
- ٦٠ - الجرح والتعديل لابن أبي حاتم . (ط) .
- ٦١ - جزء في الأحاديث التي تنهى عن إتيان النساء في أدبارهن للذهبي .
- ٦٢ - جزء في الأحاديث الواردة في الاستغفار للدارقطني .
- ٦٣ - جزء في الأحاديث الواردة في فضل الأيام العشرة من ذى الحجة لابن كثير .
- ٦٤ - جزء في الأحاديث الواردة في كفارة المجلس لابن كثير .
- ٦٥ - جزء في حديث الصور لابن كثير أيضاً .
- ٦٦ - جزء في الرد على حديث السجل لابن كثير كذلك .
- ٦٧ - الخلافات للبيهقي . قال السبكي في طبقات الشافعية : (وأما كتاب الخلافات فلم يسبق إلى نوعه ، ولم يصنف مثله ، وهو طريقة مستقلة حديثة لا يقدر عليها إلا مبرز في الفقه والحديث قيم بالنصوص) . (ط) .
- ٦٨ - دلائل النبوة لأبي زرعة الرازي (عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد فروخ الرازي) (أبي زرعة) محدث حافظ ، توفي (٢٦٤ هـ - ٨٧٨ م) .
- ٦٩ - دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني (أحمد بن عبد الله الأصبهاني) ، المتوفى سنة ٤٢٠ هـ ، صاحب حلية الأولياء ، وكتابه ذاك ثلاثة أجزاء ، ذكر منها مؤلفها الأحاديث الواردة في شأن النبي ﷺ وما يتعلق بحياته ونشأته وبعثته وزواجه وغزواته إلخ . وهو مطبوع بمطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدكن بالهند سنة ١٣٢٠ هـ .
- ٧٠ - دلائل النبوة للبيهقي ، وموضوعه كسالفه . (ط) .
- ٧١ - السنة للطبراني ، (أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني) صاحب المعاجم الثلاثة (الكبير والأوسط والأصغر) (٢٦٠ - ٣٦٠ هـ) .
- ٧٢ - السنن لأبي بكر بن عاصم (الحافظ أحمد بن عمر الشيباني) ، المتوفى ٢٨٧ هـ . (ط) .
- ٧٣ - سنن أبي بكر الأثرم ، (من أصحاب أحمد بن حنبل واسمه أحمد بن محمد بن هاني ويكنى أبا بكر) ، له من الكتب كتاب السنن في الفقه على مذاهب أحمد وشواهد من الحديث ، وكتاب التاريخ وكتاب العلل وكتاب النسخ والنسخ في الحديث .
- ٧٤ - سنن أبي بكر البيهقي . (ط) .

- ٧٥ - سنن الدارقطني . (ط) .
- ٧٦ - سنن سعيد بن منصور الخراساني ، المتوفى ٢٢٧ هـ ، وله تفسير كما ذكر الثعلبي في الكشف (ط) قسم منه .
- ٧٧ - شرح البخاري للحافظ ابن كثير ، وهو من الكتب المفقودة .
- ٧٨ - شرح مسلم للنووي . (ط) .
- ٧٩ - صحيح ابن خزيمة (محمد بن إسحاق النيسابوري) ، المتوفى سنة ٣١١ هـ . (ط) . قسم منه .
- ٨٠ - علل الخلال (أبي بكر أحمد بن محمد بن هارون البغدادي الحنبلي المعروف بالخلال) ، المتوفى ٣١١ هـ . (ط) .
- ٨١ - المحدث الفاضل بين الراوي والواعي للرامهرمزي (الحافظ أبي محمد الحسن بن عبد الرحمن ابن خلاد الرامهرمزي) ، المتوفى ٢٦٠ هـ ٩٧١ م . (ط) .
- ٨٢ - المختارة للضياء المقدسي ، واسمه « الأحاديث المختارة » يقول ابن كثير في كتابه (اختصار علوم الحديث) : (وقد جمع الشيخ ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي في ذلك كتاباً سماه (المختارة) ، ولم يتم ، وكان بعض الحفاظ من مشايخنا يرجحه على مستدرك الحاكم والله أعلم) ، وعلق الشيخ شاكر على هذا فقال : كأنه يعني شيخه الحافظ ابن تيمية ، رحمه الله ، وقال السيوطي في اللآلئ : (ذكر الزركشي في تخريج الرافعي أن تصحيحه أعلى مزية من تصحيح الترمذي وابن حبان) وقال ابن كثير في البداية والنهاية : (وهي أجود من مستدرك الحاكم لو كمل) . (ط) قسم منه .
- ٨٣ - المراسيل لأبي داود . (ط) .
- ٨٤ - المستخرج على البخاري للحافظ أبي بكر البرقاني (أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب الخوارزمي) ، المتوفى ٤٢٥ هـ .
- ٨٥ - المستخرج على الصحيحين للضياء المقدسي .
- ٨٦ - مستدرك الحاكم للنيسابوري (أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن حمد بن نعيم الضبي النيسابوري الشهير بالحاكم وبابن البيع) ، المتوفى ٤٠٤ هـ ، وكتابه يسمى (المستدرك على الصحيحين) ، وفيه يدافع الحاكم عن كثير من الأحاديث التي لم يدخلها البخاري ومسلم في صحيحيهما ويبرهن على أنها مستكملة لشروطهما تماماً وإن عدلا عن ضمها إلى كتائيهما . (ط) .
- ٨٧ - مسند أبي بكر البزار (أحمد بن عمرو البصري البزار) ، المتوفى ٢٩١ هـ أو ٢٩٢ هـ . (ط) . قسم منه .
- ٨٨ - مسند أبي بكر الحميدي (الحافظ عبد الله بن الزبير المكي) ، المتوفى ٢١٩ هـ . (ط) .
- ٨٩ - مسند أبي بكر الصديق لابن كثير .

- ٩٠ - مسند أبي داود الطيالسي ، سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي الفارسي مولى بني الزبير المتوفى ٢٠٢ هـ ، وقيل ٢٠٤ هـ ، والكتاب مطبوع بحيدر آباد بالهند سنة ١٢٢١ هـ .
- ٩١ - مسند أبي يعلى الموصلي (الحافظ أحمد بن علي بن المثنى الموصلي) ، المتوفى ٣٠٧ هـ - ٩١٨ م . (ط) .
- ٩٢ - مسند الحارث بن أبي أسامة (أبي محمد الحارث بن محمد بن أبي أسامة التهمي البغدادي) ١٨٦ - ٢٨٢ هـ .
- ٩٣ - مسند الدارمي (عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي السمرقندي ، شيخ مسلم وأبي داود والترمذي) ، المتوفى ٢٥٥ هـ - ٨٦٩ م ، وقد نشر الكتاب في حيدر آباد سنة ١٣٠٩ هـ ، وفي دلهي سنة ١٣٣٧ هـ .
- ٩٤ - مسند الشافعي (الإمام الكبير صاحب المذهب المعروف باسمه محمد بن إدريس الشافعي) المولود (١٥٠ هـ - ٧٦٧ م) والمتوفى (٢٠٤ هـ - ٨٢٠ م) (ط) .
- ٩٥ - مسند ابن عباس رضي الله عنه ، الجزء الثاني منه للحافظ أبي يعلى الموصلي .
- ٩٦ - مسند عبد بن حميد .
- ٩٧ ، ٩٨ - مسند عمر بن الخطاب للحافظ ابن كثير . (ط) .
- ٩٩ - المسند الكبير لابن كثير (واسمه جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم سنن) . (ط) .
- ١٠٠ - مسند محمد بن يحيى العبدى (الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منده بن الوليد العبدى) ، المتوفى ٣٩٥ هـ - ١٠٠٥ م .
- ١٠١ - مسند الهيثم بن كليب (ابن شريح الشاشي أبي سعيد) ، المتوفى ٣٣٥ هـ - ٩٤٥ م وكتابه يسمى (المسند الكبير في الحديث) في مجلدين . (ط) قسم منه .
- ١٠٢ - مشكل الحديث لأبي جعفر الطحاوي (أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي المصري الطحاوي) ، المتوفى ٣٢١ هـ ، وقيل : ٣٢٢ هـ . (ط) .
- ١٠٣ - مشكل الحديث لابن قتيبة (عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري أبي محمد) ، المتوفى ٢١٣ - ٢٧٦ هـ . (ط) .
- ١٠٤ - مصنف عبد الرزاق الصنعاني . (ط) .
- ١٠٥ - المطولات للطبراني . (ط) .
- ١٠٦ - معجم أبي العباس الدغولي ، المتوفى (٣٢٥ هـ - ٩٣٧ م) (أبي العباس محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله السرخسي الدغولي) .
- ١٠٧ - معجم أبي القاسم البغوي (عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي ، ويعرف بابن بنت منيع) المتوفى ٣١٧ هـ ، وله المعجم الكبير والمعجم الصغير وكتاب السنن على مذاهب الفقهاء .
- ١٠٨ - المعجم الكبير للطبراني . (ط) .

- ١٠٩ - الموضوعات لأبى الفرج الجوزى . قال ابن كثير عنه : (وقد صنف الشيخ أبو الفرج الجوزى كتاباً حافلاً فى الموضوعات غير أنه أدخل فيه ما ليس منه وخرج عنه ما كان يلزمه ذكره فسقط عليه ولم يهتد إليه) . (ط) الصغرى منه .
- ١١٠ - الموطأ للإمام مالك . (ط) .
- ١١١ - نوادر الأصول للترمذى واسم الكتاب كاملاً (نوادر الأصول فى معرفة أخبار الرسول) لأبى عبد الله محمد بن على الحكيم الترمذى . (ط) . مجردا عن الأسانيد .
- رابعا : مصادره فى الفقه وأصوله :
- ١١٢ - الأحكام الكبرى للحافظ ابن كثير .
- ١١٣ - الإرشاد فى أصول الفقه لإمام الحرمين الجوينى أبى المعالى عبد الملك بن عبد الله بن يوسف المتوفى ٤٧٨ هـ . (ط) .
- ١١٤ - الاستذكار لأبى عمر بن عبد البر (يوسف بن عبد البر النمرى القرطبى الأندلسى) ، المتوفى ٦٤٣ . (ط) .
- ١١٥ - الإملاء للإمام الشافعى .
- ١١٦ - الأم للإمام الشافعى . (ط) .
- ١١٧ - الأموال الشرعية وبيان جهاتها ومصارفها لأبى عبيد القاسم بن سلام . (ط) .
- ١١٨ - الإيجاز فى علم الفرائض لابن اللبان (أبى الحسين محمد بن عبد الله بن اللبان المصرى) ، المتوفى ٤٠٢ هـ .
- ١١٩ - الإيضاح لأبى على الطبرى (أبى على الحسن بن القاسم الطبرى الشافعى) ، المتوفى ٣٠٥ هـ ، واسم الكتاب (الإيضاح فى الفروع) .
- ١٢٠ - الخواشى للمنذرى (للحافظ عبد العظيم بن عبد العظيم بن عبد القوى بن عبد الله المنذرى زكى الدين أبى محمد محدث فقيه) .
- ١٢١ - جزء فى تطهير المساجد لابن كثير .
- ١٢٢ - جزء فى الذبيحة التى لم يذكر اسم الله عليها .
- ١٢٣ - جزء فى فضل يوم عرفة لابن كثير .
- ١٢٤ - جزء فى الميراث لابن كثير .
- ١٢٥ - الشامل للصباغ (واسمه الشامل فى فروع الشافعية) لأبى نصر عبد السيد بن محمد المعروف بابن الصباغ الشافعى ، المتوفى ٤٧٧ هـ ، قال ابن خلكان : وهو من أجود كتب الشافعية وأصحها نقلاً .
- ١٢٦ - شرح المذهب للنووى . قال ابن كثير : (اعتنى - النووى - بالتصنيف فجمع شيئاً كثيراً ، منها ما أكمله ، ومنها ما لم يكمله ، فما كمل شرح مسلم والروضة ، والمنهاج ، والرياض ، والأذكار ،

والتبيان ، وتحرير التنبيه وتصحيحه وتهذيب الأسماء واللغات وطبقات الفقهاء وغير ذلك .
ومما لم يتمه - ولو كمل لم يكن له نظير في بيان : شرح المذهب الذى سماه (المجموع)
وصل فيه إلى كتاب الربا فأبدع فيه وأجاد ، وأفاد وأحسن الانتقاء وحرر الفقه فيه فى المذهب
وغيره وحرر الحديث على ما ينبغى . (ط) .

١٢٧ - الشرح الكبير للرافعى (أبى القاسم عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القزوينى الرافعى) ،
المتوفى سنة ٦٢٣ هـ ، وكتابه يسمى : (العزيز فى شرح الوجيز) وله أيضاً الشرح الصغير
و (المحرر) و (شرح مسند الشافعى) . (ط) .

١٢٨ - الصلاة للمروزي (أبى عبد الله محمد بن نصر المروزي) كان من أشهر محدثين فى زمانه ،
توفى ٢٩٤ هـ - ٩٠٦ م . (ط) .

١٢٩ - الصيام لابن كثير .

١٣٠ - العبادة للكامل الهذلى (أبى القاسم يوسف بن على بن جبارة بن محمد الهذلى المغربى
المتوفى ٤٦٥ هـ - ١٠٧٤ م) .

١٣١ - العدة للرافعى .

١٣٢ - فضائل الأوقات للبيهقى .

١٣٣ - فضائل الصلاة على النبى ﷺ لأحمد بن فارس اللغوى ، أبى الحسين القزوينى ، المتوفى
(٣٩٥ هـ - ١٠٠٤ م) .

١٣٤ - فضل الصلاة على النبى ﷺ للقاضى إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل الأذرى أبى إسحاق ،
المتوفى ٢٨٢ هـ - ٨٩٦ م . (ط) .

١٣٥ - كتاب جمعه الذهبى فى الكبائر . (ط) .

١٣٦ - كتاب لابن تيمية فى إبطال التحليل تضمن النهى عن تعاطى الوسائل المفضية إلى كل باطل .
(ط) . ضمن الفتاوى .

١٣٧ - كشف الغطاء فى تبیین الصلاة الوسطى للحافظ أبى محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطى .

١٣٨ - المحلى لابن حزم (أبى محمد بن حزم على الظاهرى) ، المتوفى ٤٥٦ هـ . (ط) .

١٣٩ - المختصر للإمام الشافعى .

١٤٠ - مصنف للإمام أبى عبد الله البخارى فى مسألة القراءة خلف الإمام . (ط) .

١٤١ - المقدمات لابن كثير .

١٤٢ - النهاية للإمام الجوينى ، واسم الكتاب (نهاية المطلب فى دراية المذهب) .

١٤٣ - الياسقى لجنكيزخان المتوفى (٦٢٤ هـ) والكتاب عبارة عن أحكام اقتبست من شرائع شتى من
اليهودية والنصرانية والإسلام وغير ذلك وكان دستور التتار .

خامسا : فى التاريخ والسير والتراجم :

- ١٤٤ - الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر . (ط) .
- ١٤٥ - أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير . (ط) .
- ١٤٦ - أسماء الصحابة للحافظ أبى نعيم الأصبهاني .
- ١٤٧ - الإكليل للهمداني (أبى محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني اليمني) ، المتوفى سنة ٣٣٤ هـ ، والكتاب يسمى « الأكامل فى أنساب حمير وأيام ملوكها » وهو كتاب عظيم الفائدة يتم فى عشر مجلدات ، ويشتمل على عشرة متون .
- ١٤٨ - البداية والنهاية لابن كثير . (ط) .
- ١٤٩ - تاريخ الخطيب للبغدادى . (ط) .
- ١٥٠ - تاريخ ابن عساكر (على بن الحسن) ، المتوفى سنة ٥٧١ هـ . (مخطوط) .
- ١٥١ - التاريخ الكبير للإمام البخارى . (ط) .
- ١٥٢ - تاريخ مكة للأزرقي (أبى الوليد محمد بن عبد الله الأزرقي) ، توفى بعد سنة ٢٤٤ هـ بقليل . (ط) .
- ١٥٣ - تهذيب الأسماء واللغات للنوى « جمع فيه الأسماء والألفاظ الموجودة فى كتب : مختصر أبى إبراهيم المزنى ، والمهذب ، والتنبيه ، والوسيط ، والوجيز ، والروضة ، وهو الكتاب الذى اختصرته من شرح الوجيز للإمام أبى القاسم الرافعى » . (ط) .
- ١٥٤ - التنوير فى مولد السراج المنير للحافظ أبى الخطاب عمر بن دحية (عمر بن الحسن بن على بن محمد بن دحية الكلبي الأندلسي الظاهري المذهب « مجد الدين - أبى الخطاب - أبى الفضل - أبى حفص » ، المحدث الحافظ ، المتوفى ٦٣٢ هـ - ١٢٣٥ م) .
- ١٥٥ - جزء فى فتح القسطنطينية للحافظ ابن كثير .
- ١٥٦ - الروض الأنف للسهيلى (عبد الرحمن بن عبد الله السهيلى) ، المتوفى ٥٨١ هـ - ١١٨٥ م ، وكتابه يدعى « الروض الأنف الباسم » فى شرح السيرة . (ط) .
- ١٥٧ - سيرة عمر بن الخطاب لابن كثير .
- ١٥٨ ، ١٥٩ - السيرة لابن كثير (مطولة وموجزة) . (ط) .
- ١٦٠ - سيرة الفقهاء للفقهاء يحيى بن إبراهيم بن مزين الطليطلى أبى زكريا من أهل قرطبة بالأندلس .
- ١٦١ - الشفاء للقاضى عياض اليعصبى ، المتوفى (٥٤٤ هـ - ١١٤٩ م) . (ط) .
- ١٦٢ - الطبقات الكبرى لابن سعد (أبى عبد الله محمد بن سعد بن منيع) تلميذ الواقدي ومساعدته ، فلقب من أجل ذلك ، كان الواقدي توفى (٢٣٠ هـ - ٨٤٥ م) . (ط) .
- ١٦٣ - معرفة الصحابة لابن منده (أبى عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد المعروف بابن منده ، حفيد أبى عبد الله محمد بن يحيى) .

- ١٦٤ - معرفة الصحابة للموصلى (الحافظ أبى يعلى الموصلى) .
- ١٦٥ - مغازى الأموى سعيد بن يحيى الأموى .
- ١٦٦ - مغازى عبد الله بن لهيعة ، المتوفى (١٧٤ هـ - ٧٩٠ م) .
- ١٦٧ - المغازى لمحمد بن إسحاق بن يسار ، صاحب السيرة ، المتوفى (١٥٠ أو ٥ هـ) . (ط)
قسم منه .
- ١٦٨ - المغازى لموسى بن عقبة بن أبى العباس الأسدى ، المتوفى سنة ١٤١ هـ .
- ١٦٩ - (نهاية البداية والنهاية) لابن كثير ، وقد ذكره بقوله (كتاب فى التحذير من الفتن) . (ط) .
- سادساً : فى علوم اللغة :
- ١٧٠ - الجمل لابن القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجى .
- ١٧١ - الزاهر لابن الأنبارى (أبى بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار المشهور بابن الأنبارى المتوفى ٢٢٨ هـ) . (ط) .
- ١٧٢ - الصحاح لأبى نصر إسماعيل بن حماد الجوهري ، المتوفى ٣٩٣ هـ وقيل : ٣٩٨ أو ٤٠٠ هـ . (ط) .
- ١٧٣ - الغريب لأبى عبيد القاسم بن سلام . (ط) . هذه أربعة كتب فى علوم اللغة ، منها ما ذكر مرة واحدة « كالزاهر » لابن الأنبارى ، ومنها ما ذكر كثيراً كالغريب والصحاح : أما « الجمل » فكان يرجع إليه ابن كثير إذا احتاج إليه فى مسألة نحوية أو تركيب لغوى .
- سابعاً : مصادر فى موضوعات مختلفة :
- ١٧٤ - إثبات عذاب القبر للبيهقى .
- ١٧٥ - الأذكار للنسائى .
- ١٧٦ - الأذكار للنووى . (ط) .
- ١٧٧ - الأذكار للمعرى (الحسن بن على بن شبيب بن المحدثين الفقهاء) .
- ١٧٨ - الأذكار وفضائل الأعمال للحافظ ابن كثير .
- ١٧٩ - الأشراف على مذاهب الأشراف للوزير أبى المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة ، المتوفى ٥٦٠ هـ - ١١٦٥ م .
- ١٨٠ - الاعتقاد للبيهقى . (ط) .
- ١٨١ - الأنباة على ذكر أصول القبائل الرواة لابن عبد البر .
- ١٨٢ - الأهوال لابن أبى الدنيا (أبى بكر عبد الله أو عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا القرشى بالولاء) ، المتوفى ٢٨١ هـ - ٨٩٤ م . (ط) .
- ١٨٣ - التذكرة للقرطبى . (ط) .
- ١٨٤ - التفكير والاعتبار لابن أبى الدنيا .

- ١٨٥ - التقوى لابن أبي الدنيا .
- ١٨٦ - التوحيد للإمام ابن إسحاق بن خزيمة .
- ١٨٧ - جزء فى الإسراء والمعراج للحسن بن عرفة بن يزيد العبدى البغدادى (أبى على) ، المحدث .
- ١٨٨ - جزء فى دخول مؤمن الجن الجنة لابن كثير .
- ١٨٩ - جزء مجموع فى الجراد لابن عساكر .
- ١٩٠ - خطبة لمروان بن الحكم .
- ١٩١ - الخمول والتواضع لابن أبى الدنيا . (ط) .
- ١٩٢ - ذم الطفيليين للخطيب البغدادى .
- ١٩٣ - ذم المسكر لابن أبى الدنيا . (ط) .
- ١٩٤ - الرد على الجهمية للإمام أحمد بن حنبل . (ط) .
- ١٩٥ - الرد على الجهمية للدارمى (عثمان بن سعيد بن خالد التميمى الدارمى (أبى سعيد) المتوفى ٢٨٠ هـ - ٨٩٤ م) . (ط) .
- ١٩٦ - الزهد لعبد الله بن المبارك ، ويكنى أبا عبد الرحمن ، المتوفى سنة ١٨١ هـ . (ط) .
- ١٩٧ - السابق واللاحق للخطيب البغدادى .
- ١٩٨ - السر المكتوم فى مخاطبة الشمس والنجوم ، المنسوب لأبى عبد الله الرازى .
- ١٩٩ - صفة أهل الجنة للحافظ أبى عبد الله المقدسى .
- ٢٠٠ - صفة العرش لمحمد بن عثمان بن أبى شيبة ، المتوفى سنة ٢٩٧ هـ .
- ٢٠١ - صفة النار للحافظ ابن كثير .
- ٢٠٢ - العجائب الغربية للحافظ محمد بن المنذر (أبى عبد الرحمن محمد بن المنذر بن سعيد بن عثمان السلمى المعروف بشكر) .
- ٢٠٣ - الفكاهة للزبير بن بكار (أبى عبد الله الزبير بن بكار بن أحمد بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير) ، المتوفى ٢٥٦ هـ - ٨٧٠ م .
- ٢٠٤ - القبور لابن أبى الدنيا .
- ٢٠٥ - القصد والأمم بمعرفة أصول أنساب العرب لابن عبد البر .
- ٢٠٦ - كتاب فى الروح للحافظ أبى عبد الله بن منده .
- ٢٠٧ - ما قررتة المجامع النصرانية سنة ٤٠٠ هـ نقلا عن سعيد بن بطريق، يعد من علماء النصارى .
- ٢٠٨ - مسانيد الشعراء لابن مردويه .
- ٢٠٩ - مساوئ الأخلاق (الجزء الثانى منه) لأبى بكر الخرائطى (محمد بن جعفر بن سهل الخرائطى) ، المتوفى ٣٢٧ هـ - ٩٣٨ م . (ط) .
- ٢١٠ - المستقصى للحافظ البهائى .

- ٢١١ - المشهور فى أسماء الأيام والشهور للشيخ علم الدين السخاوى . (على بن محمد بن عبد الرحمن الهمداني شيخ القراء بدمشق المتوفى ٦٤٣ هـ) .
- ٢١٢ - المعارف لابن قتيبة . (ط) .
- ٢١٣ - مقدمة فى الأنساب لابن كثير .
- ٢١٤ - مقصورة ابن دريد (أبى بكر محمد بن الحسن بن دريد المتوفى سنة ٣٢١ هـ) .
- ٢١٥ - مكارم الأخلاق للخرائطى . (ط) .
- ٢١٦ - النسب للزبير بن بكار . (ط) .
- ٢١٧ - نواذر الأصول للقرطبى .

هذه مصادر ابن كثير ، رحمه الله ، فى تفسيره ، ومن خلال هذا العدد الهائل من المصادر يتضح لنا الجهد العظيم الذى بذله الحافظ ابن كثير ، رحمه الله ، فى إخراج كتابه .

٤- رأيه فى الإسرائيليات :

الحافظ ابن كثير ، رحمه الله له كلمات قوية فى شأن الإسرائيليات وروايتها ، وتفسيره يعد من الكتب الخالية من الإسرائيليات، اللهم إلا القليل الذى يحكيه ثم ينه عليه، والنادر الذى يسكت عنه ، وقد نبهت عليه فى الحاشية .

ومن كلماته فى الإسرائيليات (١) :

قال فى مقدمة تفسيره - بعد أن ذكر حديث « بَلَّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً » وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حَرَجَ ، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » - : « ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تُذكر للاستشهاد ، لا للاعتضاد . فإنها على ثلاثة أقسام : أحدها : ما علمنا صحته مما بأيدينا مما نشهد له بالصدق ، فذاك صحيح . والثانى : ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه . والثالث : ما هو مسكوت عنه ، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل ، فلا نؤمنُ به ولا نكذبه ، وتجاوزُ حكايته لما تقدم . وغالبُ ذلك مما لا فائدة فيه تعودُ إلى أمر ديني . ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب فى مثل هذا كثيراً ، ويأتى عن المفسرين خلافٌ بسبب ذلك . كما يذكرون فى مثل أسماء أصحاب الكهف ولون كلبهم وعدتهم ، وعصا موسى من أى شجر كانت؟ وأسماء الطيور التى أحيها الله لإبراهيم ، وتعيين البعض الذى ضربَ به القتلُ من البقرة ، ونوع الشجرة التى كلمَ الله منها موسى إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى فى القرآن ، مما لا فائدة فى تعيينه تعود على المكلفين فى دنياهم ولا دينهم . ولكن نقلُ الخلاف عنهم فى ذلك جائز . كما قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْبُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ إلى آخر الآية [الكهف : ٢٢] .

وقال عند تفسير الآية : (٥٠) من سورة الكهف - بعد أن ذكر أقوالاً فى « إبليس » واسمه ومن أى قبيل هو ؟ ! - : « وقد روى فى هذا آثار كثيرة عن السلف ، وغالبها من الإسرائيليات التى تُنقل لينظر فيها ، والله أعلم بحال كثير منها ، ومنها ما قد يُقَطَّع بكذبه ، لمخالفته للحق الذى بأيدينا .

(١) استفدت هذه الكلمات من عمدة التفسير للشيخ أحمد شاكر (١ / ١٤ - ١٨) ومن كتاب « ابن كثير وتفسيره » للدكتور إسماعيل عبد العال (ص ٢٢٨ - ٢٣٢) .

وفى القرآن غُنيَّةً عن كلِّ ما عدها من الأخبار المتقدمة ؛ لأنها لا تكاد تخلوا من تبديل وزيادة ونقصان ، وقد وُضِعَ فيها أشياء كثيرة . وليس لهم من الحفاظ المتقين الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء ، والسادة والأتقياء ، والبررة والنجباء ، من الجهابذة النقّاد ، والحفّاظ الجياد ، الذين دَوَّنوا الحديث وحرّروه ، وبيّنوا صحيحه من حسنه من ضعيفه ، من منكره وموضوعه ومتروكه ومكذوبه ، وعرفوا الواضّعين والكذّابين والمجهولين ، وغير ذلك من أصناف الرجال . كلُّ ذلك صيانةً للجناب النبويّ والمقام المحمديّ ، خاتم الرسل وسيد البشر ، ﷺ . أن يُنسب إليه كذبٌ أو يُحدّث عنه بما ليس منه . فرضى الله عنهم وأرضاهم ، وجعل جنّات الفردوس مأواهم . وقد فعَلَّ .

وقال عند تفسير الآيات (٥١ - ٥٦) من سورة الأنبياء ، بعد إشارته إلى حال إبراهيم ، عليه السلام ، مع أبيه ، ونظره إلى الكواكب والمخلوقات - : « وما قصّه كثيرٌ من المفسّرين وغيرهم ، فعامّتها أحاديثُ بنى إسرائيل . فما وافق منها الحقّ بما بأيدينا عن المعصوم قبلناه ، لموافقته الصحيح ، وما خالف منها شيئاً من ذلك ردّدناه ، وما ليس فيه موافقةٌ ولا مخالفةٌ ، لا نصدّقه ولا نكذّبه ، بل نجعله وقفاً . وما كان من هذا الضرب منها فقد رخص كثير من السلف في روايته . وكثيرٌ من ذلك مما لا فائدة فيه ، ولا حاصل له مما يُتّفَع به في الدين . ولو كانت فائدته تعود على المكلفين في دينهم لبيّنته هذه الشريعة الكاملة الشاملة . والذي نسلّكه في هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية ، لما فيها من تضييع الزمان ، ولما اشتمل عليه كثيرٌ منها من الكذب المروّج عليهم . فإنهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها . كما حرّره الأئمة الحفّاظ المتّقون من هذه الأمة » .

وقال عند تفسير الآية : (١٠٢) من سورة البقرة : « وقد روى في قصة هاروتَ وماروتَ عن جماعة من التابعين ، كمجاهد والسّدى والحسن البصرى وقتادة وأبى العالية والزهرى والربيع بن أنس ومقاتل ابن حيّان وغيرهم ، وقصّها خلقٌ من المفسّرين ، من المتقدّمين والمتأخرين . وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بنى إسرائيل ، إذ ليس فيها حديثٌ مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى . وظاهرُ سياق القرآن إجمالُ القصة من غير بسط ولا إطناب فيها ، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أَرادَه الله تعالى ، والله أعلم بحقيقة الحال » .

وقال في أول سورة ق : « وقد روى عن بعض السلف أنهم قالوا : ق ، جبل مُحيطٌ بجميع الأرض ، يقال له جبل قاف !!! وكأنّ هذا - والله أعلم - من خرافات بنى إسرائيل التي أخذها عنهم بعضُ الناس ، لمّا رأى من جواز الرواية عنهم بما لا يصدّق ولا يكذّب . وعندى أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم ، يلبسون به على الناس أمرَ دينهم . كما افترى في هذه الأمة - مع جلالة قدر علمائها وحفّاظها وأئمتها - أحاديثٌ عن النبي ﷺ ، وما بالعهد من قدّم . فكيف بأمة بنى إسرائيل ، مع طول المدى ، وقلة الحفاظ النقّاد فيهم ، وشربهم الخمر ، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه وتبديل كُتب الله وآياته . وإنما أباح الشارعُ الرواية عنهم في قوله : « وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » فيما قد يُجوزُه العقل . فأما فيما تحيله العقول ، ويحكم فيه بالبطلان ، ويغلب على الظنون كذبه ، فليس من هذا القبيل » .

وقال عند تفسير الآيات (٤١ - ٤٤) من سورة النمل - وقد ذكر في قصة ملكة سبأ أثراً طويلاً عن ابن عباس ، وَصَفَهُ بأنه « منكر غريب جداً » - ثم قال : « والأقربُ في مثل هذه السياقات أنها متلقاةٌ عن أهل الكتاب ، مما وُجد في صُحُفهم ، كروايات كعب وَوَهَب ، سامحهما الله فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل ، من الأوابد والغرائب والعجائب ، مما كان وما لم يكن ، ومما حُرِفَ وبدِّلَ ونُسِخَ . وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصحُّ منه وأنفعُ وأوضحُ وأبلغُ . والله الحمد والمنة » .

وقال عند تفسير الآية : (٤٦) من سورة العنكبوت - بعد أن رَوَى الحديث : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » - قال : « ثم ليُعلم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل وما أقل الصدق فيه ، ثم ما أقل فائدته » .

وقال عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلِي فِيهَا مَأْرَبٌ أُخْرَى ﴾ [طه : ١٨] : « أى مصالح ومنافع وحاجات أخرى غير ذلك ، وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التى أبهمته ، فقيل : كانت تضىء له بالليل ، وتحرس له الغنم إذا نام ، ويغرسها فتصير شجرة تظله ، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة ، والظاهر أنها لم تكن كذلك ، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى ، عليه الصلاة والسلام ، صيرورتها ثعباناً ، فما كان يفر منها هارباً ، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية » .

٥ - العنوان والتوثيق :

إن صحة نسبة كتاب التفسير للحافظ ابن كثير أمر مقطوع به ، ولولا أن الباحثين اعتادوا ذكر هذا الفصل وإلا لما ذكرته لشهرة هذا التفسير .

ومن ذكر هذا التفسير وعزاه لمؤلفه :

١ - الزيلعى فى تخريج أحاديث الكشاف .

٢ - الحافظ ابن حجر فى فتح البارى .

٣ - ابن أبى العز فى شرح العقيدة الطحاوية .

٤ - السيوطى فى الدر المنثور .

٥ - الشوكانى فى فتح القدير .

٦ - الشيخ سليمان بن عبد الله بن الشيخ محمد عبد الوهاب فى تيسير العزيز الحميد .

٧ - الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى فتح المجيد .

وأما عنوانه ، فالمشهور « تفسير القرآن العظيم » ، وجاء ذلك على طرة النسخة « ط » ، وبعض النسخ تسميه : « تفسير ابن كثير » .

٦ - نسخ الكتاب :

يعتبر تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير من الكتب التى انتشرت فى خزائن المكتبات الإسلامية ، فقد وجدت نسخه فى مكة والرياض ومصر واسطنبول والهند والمغرب وإيرلندا وباريس .

والاختلاف بين هذه النسخ اختلاف كبير ، فالنسخ التى فى الرياض مثلاً يغلب عليها الاختصار وحذف الأسانيد والتصرف فى الكتاب ، هذا فى الغالب فلا يستغرب ، أو أقول : لا يعتمد أن توجد نسخة ليس فيها قصة العتبى المذكورة فى سورة النساء ؛ لأن هذه النسخة حديثة جداً مع ما ذكرت من المنهج فى النسخ الموجودة فى نجد وغيرها من النسخ المعتمدة ذكر هذه القصة ، وقد نبهت عليها فى موضعها .

وكم يجد الباحث نفسه متحيراً أمام إثبات نص ثبت فى نسخة ولم يثبت فى الأخرى ، لذلك فقد حاولت قدر المستطاع جمع مخطوطات الكتاب لكى تزول هذه العقبة فوقع لى - والحمد لله - قدر منها ، وإليك وصفها :

١ - النسخة الأزهرية (هـ) :

وأحياناً أطلق عليها الأصل .

وهى نسخة محفوظة بمكتبة الأزهر برقم (١٦٨) تفسير ، وتحتوى على الكتاب كاملاً فى سبعة مجلدات ، وفى المجلد الثالث منها خروم .

وصفها الشيخ أحمد شاكر بأنها : نسخة يغلب عليها الصحة ، والخطأ فيها قليل .

وطبعت بدار الشعب سنة (١٣٩٠ هـ) بتحقيق عبد العزيز غنيم ، ومحمد أحمد عاشور ، ومحمد إبراهيم البنا .

وبالتبع فإنها نسخة جيدة ، لكنها لا توصف بأنها أصح النسخ ، بل غيرها أفضل منها لو كمل .

وقد اعتمدت على طبعة دار الشعب المأخوذة عن هذه النسخة لأمرين :

الأول : أنى حاولت الحصول على مصورة لهذه النسخة فلم أستطع ، فأرسلت إلى المكتبة طلباً للتصوير ، ثم أرسلت الطلب بصورة رسمية عن طريق جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ثم علمت بعد ذلك أن هذا دأب هذه المكتبة ، وأخبرت عن طرق لاستخراج المخطوطة من هذه المكتبة لكن هذه الطرق ليست موافقة لعملى .

الثانى : أن عمل الأخوة فى طبعة الشعب عمل جيد فى إخراج النص حسب ما ورد فى المخطوطة ، ولهم اجتهادات أصابوا فى بعضها وأخطؤوا فى بعضها ، فأقررتهم على ما أصابوا فيه ، ولم أوافقهم على ما أخطؤوا فيه ، وقد اعتمدت إشاراتهم إلى المخطوطة فى الهامش ، فاستفدت منها وسلكت فى ذلك مسلكاً جيداً حتى كأن العمل على المخطوطة لا المطبوعة .

الناسخ : محمد بن على الصوفى .

تاريخ النسخ : فرغ الكاتب من نسخها فى العاشر من جمادى الأولى سنة (٨٢٥ هـ) .

عدد الأوراق : ٢١٩٥ .

٢ - نسخة تشتربتى (ط) :

وهى نسخة محفوظة بمكتبة تشتربتى بإيرلندا برقم (٣٤٣٠) ، وتحتوى على الجزء الأول ويبدأ

من أول التفسير وينتهي بتفسير الآية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الآية : [البقرة : ٢١٨] ، وهو آخر الجزء التاسع من أجزاء المؤلف ، وفيها سقط وبها حواش من خط المؤلف وعليها تصحيحات ، وهى من مصورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وهى فى غاية الدقة والحسن لو كملت .

الناسخ : أحمد بن محمد بن المحب ، المتوفى سنة (٧٧٦ هـ) ، وله ترجمة فى الدرر الكامنة (١ / ٢٤٤) .

تاريخ النسخ : يظهر أنها كتبت فى عهد المؤلف ، فيها حواش بخطه ، وكتبتها توفى سنة (٧٧٦ هـ) أى بعد وفاة الحافظ ابن كثير بعامين .

عدد الأوراق : ٢٢٤ مقاس ٣ ر ١٨ × ٧ ر ٢٦ سم .

عدد الأسطر : ٢٧ سطراً .

الخط : نسخ معتاد ممتاز .

٣ - نسخة تشستربتي (ب) :

وهى نسخة محفوظة بمكتبة تشستربتي بإيرلندا برقم (٤٠٥٢) ، وتحتوى على الجزء الأول - ناقص بشئ يسير من المقدمة - ويبدأ بـ « فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : فما أحسن طرق التفسير ؟ » وينتهي بتفسير الآية : (٤٧) من سورة البقرة وهى قوله تعالى ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ .

بها حواش كثيرة وتصحيحات ، والخبر منتشر على بعض الصفحات .

وهى من مصورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

الناسخ : لم يعرف ، والظاهر أنه معاصر للمؤلف .

تاريخ النسخ : كتبت فى القرن الثامن تقديراً ، أى : فى عهد المؤلف ، رحمه الله .

عدد الأوراق : ١٧٧ مقاس ٥ ر ١٥ × ٢٢ سم .

عدد الأسطر : ١٩ سطراً .

الخط : نسخ معتاد جيد .

٤ - نسخة الحرم المكي (ج) :

وهى نسخة محفوظة بمكتبة الحرم المكي بمكة المكرمة برقم (٩١) وتحتوى على الجزء الأول ، ويبدأ بأول التفسير ، وينتهي عند قوله تعالى ﴿ إِنَّ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ الآية [النساء : ٣١] .

وكأن النسخة ملفقة من نسختين ، فإن الخط يستمر نسخاً معتاداً إلى الآية (٢٥٥) من سورة البقرة ثم خط مغاير وهو أقدم من الأول ويستمر إلى الآية المذكورة .

وعلى النسخ أثر البلبل فى كثير من أوراقه .

الناسخ : لم يعرف .

تاريخ النسخ : جاء بعد تفسير الآية (٢٥٥) من سورة البقرة وهو نهاية الخط الأول : « وكان الفراغ من نسخ هذا الجزء يوم السبت المبارك فى ثمانية وعشرين مضيئ من شهر جمادى الآخر من شهور سنة ستة وعشرين ومائتين وألف من الهجرة النبوية » ، والخط الآخر لعله من خطوط القرن العاشر .

عدد الأوراق : ٤١١ مقاس ٢٩ × ٢٠ سم .

عدد الأسطر : ٢٠ - ٢٥ سطراً .

٥ - نسخة الحميدية (أ) :

وهى نسخة محفوظة بالمكتبة الحميدية بتركيا ، وتحتوى على الكتاب كاملاً ، وخطها دقيق ومزينة بالذهب ، وهى حديثة ومنقولة عن نسخة معتمدة .

الناسخ : لم يعرف .

تاريخ النسخ : كتبت سنة (؟) .

عدد الأسطر : ٣٥ - ٤٠ سطراً .

٦ - نسخة الحرم المكى (ف) :

وهى نسخة محفوظة بمكتبة الحرم المكى بمكة المكرمة برقم (٩١) وتحتوى على تفسير أول سورة النحل إلى نهاية تفسير سورة الأحزاب .

وهى نسخة رديئة وخطها متحد مع خط القسم الثانى من النسخة (ج) ، وبها أثر الرطوبة .

الناسخ : لم يعرف .

تاريخ النسخ : لعله من خطوط القرن العاشر .

عدد الأوراق : ٢٣٦ مقاس ٢٩ × ٢٠ سم .

عدد الأسطر : ٣٧ سطراً .

٧ - نسخة الحرم المكى (ك) :

وهى نسخة محفوظة بمكتبة الحرم المكى بمكة برقم (٩١) ، وتبدأ من أول سورة الأعراف ، وتنتهى بنهاية تفسير سورة التوبة .

والنسخة جيدة ، وعليها تصويبات وتقييدات بالهامش وفيها أثر رطوبة .

الناسخ : لم يعرف .

تاريخ النسخ : كتبت سنة (٧٨٠ هـ) .

عدد الأوراق : ٢٢٨ مقاس ٢٧ × ١٨ سم .

عدد الأسطر : ٢٦ سطراً .

الخط : نسخ معتاد قديم .

٨ - نسخة جامعة الرياض (د) :

وهي نسخة محفوظة بجامعة الملك سعود بالرياض برقم (٤٠٥٢) وتبدأ من تفسير الآية : ٣١ من سورة النساء ، وتنتهى بتفسير الآية ٣٦ من سورة التوبة .

وهي نسخة حديثة وخطها مقروء ، لكن يغلب عليها الاختصار وحذف الأسانيد .
الناسخ : لم يعرف .

تاريخ النسخ : كتبت في حدود سنة (١١٥٥ هـ) أو بعدها بقليل .

عدد الأوراق : ٢١٨ .

عدد الأسطر : ٢٣ سطراً .

٩ - نسخة الحرم المكي (س) :

وهي نسخة محفوظة بمكتبة الحرم المكي برقم (٩١) ، وتبدأ بتفسير سورة سبأ وتنتهى بتفسير سورة فصلت .

وهي نسخة مقابلة على أصل المؤلف ، كما جاء في آخر ورقة ، وعليها أثر البلبل في كثير من أوراقها .

الناسخ : محمد بن بهاء الدين عبد الله الشجاعى .

تاريخ النسخ : سنة (٧٦٩ هـ) .

عدد الأوراق : ١٧٨ مقاس : ٢٦ × ١٨ سم .

عدد الأسطر : ٢٤ سطراً .

الخط : نسخ معتاد .

١٠ - نسخة مكتبة الأوقاف ببغداد (م) :

وهي نسخة قديمة ، وهي أقدم نسخ التفسير ، والموجود منها ثلاثة أجزاء ، الجزء الرابع في مكتبة تشترى برقم (٣١٤٣) ، ويبدأ بتفسير سورة الأنعام ، وينتهي بتفسير الآية (٦٠) من سورة الأنفال . والجزآن التاسع والعاشر محفوظان بمكتبة الحرم المكي برقم (٩١) ويبدأ الجزء التاسع بتفسير سورة الشورى وينتهي العاشر بآخر الكتاب ، وبذيله كتاب فضائل القرآن ، وطرة الجزآن مزخرفة بشكل بديع بالذهب ، ومكتوب فيها عنوان الكتاب ، وعلى النسخة أثر البلبل في كثير من أوراقه .

الناسخ : محمد بن أحمد بن معمر المقرئ البغدادي .

تاريخ النسخ : سنة (٧٥٩ هـ) .

عدد الأوراق : المجلد الرابع : ٢٢٩ ، والمجلد التاسع : ٢٧٥ ، المجلد العاشر : ٢٣٨

مقاس : ٢٩ × ١٩ سم .

عدد الأسطر : ٢١ سطراً .

الخط : نسخ معتاد واضح .

١١ - نسخة آيا صوفيا (و) :

وهي نسخة محفوظة بمكتبة آياصوفيا بتركيا برقم (١٢٢) ، وتبدأ بأول الكتاب ، وتنتهي بنهاية تفسير سورة آل عمران ، وهي نسخة بديعة وقديمة ولو كملت لكنت أصح النسخ .

وقد ذكر بروكلمان في تاريخ الأدب العربي أنها موجودة بعدة أرقام ، ففرحت بذلك ، وكلفت أحد الأخوة بالبحث عن هذه الأرقام ، فزار المكتبة ووجد أن تلك الأرقام هي أرقام لتفسير معالم التنزيل للبغوي ، رحمه الله .

وهذه النسخة مقابلة بنسخة مقروءة على المؤلف ، رحمه الله .

الناسخ : لم يعرف .

تاريخ النسخ : سنة (٨٠٦ هـ) .

عدد الأوراق : ٤١٨ .

عدد الأسطر : ١٧ سطراً .

١٢ - نسخة ولي الدين جار الله (ر) :

وهي نسخة محفوظة بمكتبة ولي الدين جار الله بتركيا ، وتبدأ بتفسير سورة آل عمران وتنتهي بتفسير الآية : ٩٥ من سورة المائدة . وهذا هو الجزء الثاني من هذه النسخة .

الناسخ : لم يعرف .

تاريخ النسخ : سنة (٨٣٧ هـ) .

عدد الأوراق : ٣٣٠ .

عدد الأسطر : ٢٣ سطراً .

١٣ - نسخة ولي الدين جار الله (ت) :

وهي نسخة محفوظة بمكتبة ولي الدين جار الله بتركيا ، وهي مجلدان : المجلد الرابع : ويبدأ من تفسير سورة التوبة ، وينتهي بنهاية تفسير سورة الحج .

المجلد الخامس - هكذا وأظن صوابه السادس - : ويبدأ من تفسير أول القصص حتى آخر سورة الحجرات .

الناسخ : على بن يعقوب الشهير بابن المخلص .

تاريخ النسخ : سنة (٧٩٩ هـ) .

عدد الأوراق : المجلد الرابع : ٣٢٧ والمجلد الخامس : ٢٨٤ .

عدد الأسطر : ٢٥ - ٢٧ سطراً .

النسخ المساعدة :

١٤ - نسخة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية :

وهي محفوظة برقم (٣٦١٣) ، وتحتوى على أول الكتاب إلى نهاية تفسير سورة آل عمران ، وعدد أوراقها : ٢٠٥ .

الناسخ : سعد بن كسران .

تاريخ النسخ : النسخة حديثة وتاريخها قريب فيما أظن وهي وقف على أهل بلدة الحريق ، قرب الرياض .

١٥ - نسخة مؤسسة الملك فيصل الخيرية :

وهي نسخة حديثة كتبت سنة ١٢٩٤ هـ ، وتحتوى على أول الكتاب إلى نهاية تفسير سورة آل عمران ، وهي مهداة للمؤسسة ، وعليها وقف باسم إبراهيم بن عبد اللطيف سنة ١٣٠٦ هـ . وعدد أوراقها : ٣٩٨ .

١٦ - طبعة دار الراية بتحقيق الشيخ مقبل الوادعي ، حفظه الله :

وهي طبعة معتمدة على ما سبقها من الطبعات ، والأخطاء فيها كثيرة جداً .

توزيع النسخ على السور المفسرة

النسخ المساعدة		النسخ المخطوطة						السورة
مؤسسة فيصل	جامعة الإمام	و	جـ	ب	ط	هـ	أ	البقرة
مؤسسة فيصل	جامعة الإمام		و	ج	ر	هـ	أ	آل عمران
	ط - الوادعي		جـ	د	ر	هـ	أ	النساء
				د	ر	هـ	أ	المائدة
				د	م	هـ	أ	الأنعام
			ك	د	م	هـ	أ	الأعراف
			ك	د	م	هـ	أ	الأنفال
			ك	د	ت	هـ	أ	التوبة
					ت	هـ	أ	يونس
					ت	هـ	أ	هود
					ت	هـ	أ	يوسف
					ت	هـ	أ	الرعد
					ت	هـ	أ	إبراهيم
					ت	هـ	أ	الحجر
				ف	ت	هـ	أ	النحل
				ف	ت	هـ	أ	الإسراء
				ف	ت	هـ	أ	الكهف
				ف	ت	هـ	أ	مريم
				ف	ت	هـ	أ	طه
				ف	ت	هـ	أ	الأنبياء
				ف	ت	هـ	أ	الحج
					ف	هـ	أ	المؤمنون
					ف	هـ	أ	النور
					ف	هـ	أ	الفرقان
					ف	هـ	أ	الشعراء
					ف	هـ	أ	النمل
				ت	ف	هـ	أ	القصص
				ت	ف	هـ	أ	العنكبوت
				ت	ف	هـ	أ	الروم
				ت	ف	هـ	أ	لقمان
				ت	ف	هـ	أ	السجدة

تابع توزيع النسخ على السور المفسرة

النسخ المخطوطة				السورة
أ	هـ	ف	ت	الأحزاب
أ	هـ	ت	س	سبأ
أ	هـ	ت	س	فاطر
أ	هـ	ت	س	يس
أ	هـ	ت	س	الصفات
أ	هـ	ت	س	ص
أ	هـ	ت	س	الزمر
أ	هـ	ت	س	غافر
أ	هـ	ت	س	فصلت
أ	هـ	ت	م	الشورى
أ	هـ	ت	م	الزخرف
أ	هـ	ت	م	الدخان
أ	هـ	ت	م	الجاثية
أ	هـ	ت	م	الأحقاف
أ	هـ	ت	م	محمد
أ	هـ	ت	م	الفتح
أ	هـ	ت	م	الحجرات
أ	هـ	م		سور المفصل « من ق إلى
				الناس »
ط	م	ج		فضائل القرآن

٧ - منهج التحقيق :

- ١ - إخراج نص التفسير على ما يغلب على الظن أنه نص المؤلف ، وذلك بمقابلة النسخ المخطوطة ، وإثبات الصحيح من الفروق عند الاختلاف .
- ٢ - بذلت جهدي في تقويم النص بالرجوع إلى مصادر الحديث وكتب الرجال المطبوعة والمخطوطة .
- ٢ - وضعت الزيادات التي تزيد بها نسخة على النسخ الأخرى بين قوسين هكذا [] إذا كان ذلك مستقيماً مع سلامة النص .
- ٤ - تجنبت ذكر السقط في النسخ إلا عند الحاجة لأن ذلك يحتاج إلى إطالة في الهوامش لكثرة السقط في بعض النسخ .
- ٥ - عزوت الآيات القرآنية الكريمة التي يستشهد بها المؤلف في التفسير بجانبها مع مراعاة ضبطها بالشكل .
- ٦ - خرجت الأحاديث التي ذكرها الحافظ ابن كثير في تفسيره بعزوها إلى أماكنها إن كان الحافظ ذكر مصادرها .
- وما كان في الصحيحين أو أحدهما فأكتفى بالعزو إليه، وإن كان في غيرهما ذكرت مواضع ما أشار إليه الحافظ من مصادر وأزيد في ذلك أحياناً ، وقد سلكت طريقة الاختصار في التخريج ما أمكن وموضعه إن شاء الله كتاب في تخريج أحاديث التفسير، كما هي عادة الأئمة، رحمهم الله .
- ٧ - ضبطت بالشكل النصوص النبوية .
- ٨ - ضبطت الأسماء والكنى والأنساب التي يحتاج إلى ضبطها .
- ٩ - شرحت بعض المفردات الغريبة .
- ١٠ - أحياناً تدعو الحاجة إلى تعليق أو تعقيب على بعض المواطن في التفسير لبيان خطأ ، أو بطلان قصة ، أو الإشارة إلى بعض الإسرائيليات ونقدها .
- ١١ - إعادة توزيع النص وإخراجه بشكل يعين القارئ ويسهل عليه المراجعة والقراءة ، مع العناية بعلامات الترقيم كالفاصلة والأقواس والخططين للجمل الاعتراضية .
- ١٢ - وضع اسم السورة ورقم الآية في أعلى كل صفحة تيسراً للقارئ .
- ١٣ - قمت بوضع ترجمة مختصرة للمؤلف ، ونبذة مختصرة عن الكتاب (١) .
- ١٤ - قمت بوضع فهرس عامة للكتاب .
- وقد ساعدني في كثير من مراحل هذا العمل أخوة أفاضل سواء في مقابلة النسخ أو في شكل النص أو في تصحيح الملازم، فאלله أسأل أن يثبنا وإياهم ويجزينا وإياهم خير الجزاء .

(١) وكنت قد وعدت أثناء الكتاب بوضع مبحث يتعلق بالنسخ التفسيرية ودراسة أسانيدھا وأعتذر عن هذا الآن ، لكنني رأيت إخراجه مستقلاً لتعلقه بالتفسير المأثور عموماً ، والله الموفق .

في سنة ١٢٠٠

اللوحة الأولى من نسخة «ف»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وما توفيتني إلا بالله
تفسير سورة الرعد
هي مدنية لأن صدرها إلى ثلث وثمانين آية منها نزل
وقد نجران وكان قد وُهم في سنة تسع من الهجرة كما سيأتي به
ذلك أن شاء الله تعالى عند تفسير آية المباهلة منها وقد ذكرنا
ما ورد في فضلها مع سورة البقرة في أول تفسير البقرة
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لا إله إلا الله هو إلى القبة
ترك عليك الكتاب بالحق مُصدقًا لما بين يديه وأنزل التوراة
من قبل هدي للناس وأنزل الفرقان أن الذين كفروا ما مات
لهم عذاب شديد والله عزير ذو انتقام وقد ذكرنا الحديث
الوارد في أن اسم الله الأعظم في هذين الآيتين لا إله إلا الله
القيوم . والله لا إله إلا الله هو إلى القيوم عند تفسير آية الكرسي
وتقدم الكلام على قوله تعالى الرعد في أول سورة البقرة بما عني عن إعاد
وتقدم أيضًا الكلام على قوله لا إله إلا الله هو إلى القيوم في تفسير آية
الكرسي . وتترك عليك الكتاب بالحق . يعني نزل
عليك القرآن يا محمد بالحق أي لا شك فيه ولا ريب بل هو منزل من
عز وجل أنزل بعلمه والملائكة شهدون وكفى به شهيدًا روي
مصدقًا لما بين يديه أي من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد
الأنبياء فهي تصدقه بما أخبر به وبشرت في قديم الزمان وهو
لأنه طابق ما أخبر به وبشرت من الوعد من الله بأرسال محمد صلى
عليه وسلم وأنزل القرآن العظيم عليه وقوله وأنزل التوراة . أي
على موسى بن عمران . والإنجيل . أي على عيسى بن مريم . من قبل هذا القرآن
هدي للناس أي في نمايهما وأنزل الفرقان وهو الفارق بين الهدى

خطہ ارسادس

نفسِ مودہ سارو فی مکہ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الارض وله الحمد
في الآخرة وهو الخبير العليم ما لم يكن في
الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء
وما يخرج منها وهو الرحيم الغفور
تعالى عن تشبيه الكرمه الى الحمد المطلق في الدنيا
والآخرة لانه السميع العليم على اهل الدنيا والآخرة المالك
لكل الحاجه في حبه ذلك كما قال الله وهو الله لا اله
الا هو له الحمد في الآخرة والآخرة له الحكم واليه ترجعون
لهذا اول الحمد الحمد لله الذي له ما في السموات وما في
الارض اي الحمد راضيه وعظيمة وبحسب تكميلها في كل
الحمد وان لنا في الآخرة ولا اله الا الله المالك الحمد
الآخرة وهو المعبود ابد العبود طول العبودية له
وهو الحكيم اي في قوله وافعاله وقدرته وقدرته
اي في قوله ولا تعبد
ذلك عن الزمركي حبيب حلقه حكم الله
سبحانه في الارض وما يخرج منها
الحمد في الارض واشب البدر في الدنيا وما يخرج منها
الحمد في الآخرة واشب البدر في الآخرة وما يخرج منها
الحمد في الدنيا والآخرة واشب البدر في الدنيا والآخرة
الحمد في الدنيا والآخرة واشب البدر في الدنيا والآخرة

ونقول ^{١٢٠١٨} يَعَالِي حَقِّي تَبِينْ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلُ بَيْكْتِ بَرَكَةٍ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 أَيْ لَفِي بِلَّهِ شَهِيدًا عَلَى أَعْيَالِ عِبَادِهِ وَأَقْوَالِهِمْ وَهُوَ شَهِيدٌ أَنَّ مُحَمَّدًا
 فِيمَا أُخْبِرَ عَنْهُ كَمَا قَالَ لَكُنْ لَكَ شَهِيدًا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَ
 بَعْلَهُ وَالْمَلَائِكَةُ شَهِدُونَ وَفَوَسَّ الْإِلَهِمْ فِي يَدِهِ
سُورَةُ الْحَاقَّةِ أَي فِي شَيْءٍ مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ وَهَذَا لَا يَسْتَكْبِرُونَ
 فِيهِ عَنِ الْعِلْمِ لَمْ يَدْرُوا مَا يَدْرُونَ مِنْهُ بَلْ هُوَ عِنْدَهُمْ هَدًى لَا يَبْغَاوْنَ
 وَهُوَ كَلِمَةٌ لَا يَجَالُوهَا وَدَافِعٌ لَا رَيْبَ فِيهِ بِالْإِسْمِ أَيْ فِي الدُّنْيَا
 حَسْبُكَ أَحْمَدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ حَسْبُكَ خَلْفُكَ عَمُّكَ عَسَدُ اللَّهِ مِنْ مُحَمَّدٍ حَسْبُكَ
 الْإِنصَارِيُّ أَنْ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ الْعِزِّ صَعِدَ الْمُنْبَرِ فَمَدَّ يَدَهُ وَأَنَّى عَلَيْهِمْ قَالَ
 أَمَا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي لَمْ أَجْعَلْكُمْ لِمَا رَأَيْتُمْ فِيكُمْ وَلِكُنْزٍ
 وَكُنْزٌ فِي هَذَا الْإِسْمِ الَّذِي أَسْمَى إِلَيْهِ صَابِرُونَ فَعَلَّ أَنْ يَصْدُرَ بِهَذَا
 الْإِسْمِ أَحْمَدُ وَالْمَكْتُوبُ بِهِ هَالِكٌ ثُمَّ نَزَلَ ٥ وَمَعْنَى قَوْلِهِ رَضِيَ إِلَيْهِ
 عَنْهُ أَنَّ الْمَصْدَقَ بِهِ أَحْمَدُ أَي لَأَنَّهُ لَا يَعْمَلُ لَهُ عَمَلٌ مِثْلُهُ وَلَا يَحْزُرُ مِنْهُ
 وَلَا خَافَ مِنْ حَوْلِهِ وَمَعَ ذَلِكَ مَصْدُوقٌ بِهِ مَوْفِقٌ بِرُغْوَةٍ وَهُوَ مَعَ
 ذَلِكَ تَحَادِيٌّ لِلْعِصْمَةِ وَعِزَّتِهِ وَسُكُونُهُ وَدَوْرُهُ يَوْمَ أَحْمَدُ فَيُحْدِثُ
 الْأَعْتَابَ وَالْإِحْقَاقَ اللَّغَةُ صَعِيدُ الْعَقْلِ قَوْلُهُ وَالْمَكْتُوبُ بِهِ
 هَالِكٌ هَذَا وَخَلَعَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ثُمَّ قَالَ يَعَالِي مَقَرُّ أَعْلَى أَنَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَكُلُّ شَيْءٍ مُحِيطٌ وَأَوَانُهُ السَّاعَةُ لَدَيْهِ يَسِيرُ تَهْلُ
 عَلَيْهِ بَيَارِكٌ وَتَعَالَى إِلَّا أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ بِأَيِّ الْخَلْقِ وَأَيِّ كَلِمَةٍ
 حَتَّى يَهْرَهُ وَفِي تَضَمُّنِهِ وَحَتَّى طَلَى عَلَيْهِ وَهُوَ الْمَعْرُوفُ فِيهَا
 كَلِمَةً خَصَمَهُ فَمَا يَشَاءُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ٥

أَحْمَدُ تَقْدِيرُ جَمْعِ التَّحْدِيدِ نَعْنَى أَنَّهُ كَانَتْهَا
 الْعِدَّةُ لِلَّهِ تَعَالَى فَمِنْهَا كُنْزٌ لِلَّهِ الشَّيْءُ بِدَارِ
 مَا فِيهَا وَبِالدَّرَجَةِ الْعَظِيمَةِ وَذَلِكَ الْعِزُّ الْوَسْطَانِيُّ
 الْعِدَّةُ لِلْجَمْعِ سَمْعٌ وَسَمْعٌ وَسَمْعٌ بِدَوْنِ الْحَدِّ هَامِلَةٌ
 مَدْرُورٌ

ملح سائد ماض
 المرفف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ رَبِّ يَسِّرْ لِي
نفس سورة الاعراف وهي مكية
المصر كتاب أولك إليك فلا يكن في
صدرك جرح منه لنذريه ولا يكن في
البعو اما ازل الكلام من ربكم ولا تسعوا من
كذبه اولنا قلنا لا ما ذكره
قد تقدم الكلام في أول سورة البقرة على ما يتعلق بالمعاني وشططه واختلاف
الناس فيه وقال بن جرير حدثنا سفيان بن زكعي عن ابن سيرين عن عطاء
بالسبب عن أبي الصبح عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال سعيده
بن جبر كتاب ازل الكافي هذا كتاب ازل الكافي من ربك فلا يكن في
صدرك جرح منه قال مجاهد وثقان والسدي مثل منه وقيل فلا يخرج به في البلاغة
والانذار به واضربوا صبرا ولا تغرم من الرسل ولما قال لنذريه اي ازل اليك
لنذريه الكافرون وذكرى للمؤمنين ثم قال تعالى غاطبا للعالم انعم اما ازل الكلام
من ربكم اي اتقوا النار التي التي جلا بكتاب ازل من ربكم كل شيء مملوكم
ولا تسعوا من دونه اوليا اي لا تخفوا عما جاء به الرسول الى عباده فتكونوا قد عدتم
حكم الله لا حكم غيره قليلا من ذكره في قوله وما اكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين
وقوله وان يطع الاذن من في الارض من عباده عن سبيل الله وقوله وما يؤمن الا وهم بالله وهم
مشركون ٥ وكفى من ذرية اهلكا ما يهلكها يهلكها ما يسبها
بنا لله اللهم فليكون كما كان دعواهم اذ جاءهم
بأسنا الا ان قالوا انا كنا ظالمين فليست في الدين
ارسل النعمان ونسأل الله ليعلمهم بما كان عليه
يقول تعالى كما من ذرية اهلكا ما يهلكها يهلكها ما يسبها فاعلمهم ذاك خبري الدنيا
ببرصه لئلا يظنوا كما قال تعالى ولقد استهزى برسل من تلك الخف بالذين
يحجروا عنهم ما كان اذاه يستهزئ وقال تعالى وكان من ذرية اهلكا ما
هي طامة في جوارحه على عروبهما ويبرحطة وقصير شديد وقال تعالى



عنوان الجزء الرابع من نسخة «م» المحفوظة بشستربرتي

بسم الله الرحمن الرحيم سورة براءة مدنية

إية من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم
من المشركين فسبحوا في الأرض أربعة
أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وإن الله
مخزي الكافرين هذه السورة

الكريمة من أو آخر ما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم
كما قال البخاري ما أبو الوليد ما شعبة عن أبي إسحق قال
سمعت البراء يقول أنزلت يستفتونك قل الله يفتيكم
في الكلالة ولم يخبرني أنزلت براءة وإنما لا يسميها أولها
لأن الصحابة لم يلبثوا المسملة في أولها في المصحف إلا ما
والاقتداء في ذلك بالخير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه
وارضاه كما قال الرمذي ما عهد بن يسار ما يحيى
ابن سعيد ومحمد بن جعفر وابن أبي عدي وسهل بن يوسف
قالوا أحدنا عوف بن أبي حمزة أخبرني يزيد الفارسي
أخبرني ابن عباس قال قلت لعثمان بن عفان ما حملكم
أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المن
فقرتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم
ووصعتموها في السبع الطول ما حملكم على ذلك فقال عثمان
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما ماني عليه الزمان وهو نزل عليه
السور ودوات العدد فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض ما كان يكتب
فيقول صفوا هذه الآيات في السورة التي نزل فيها لئلا إذا نزلت
عليه الآية فيقول صفوا هذه الآية السورة التي نزل فيها كما
وجدوا وكانت الأنفال من أول ما نزلت بالمدينة وكانت براءة
من آخر القرآن وصح كانت قصتها شبيهة بعضها وحسب اهتمامها
وقص رسول الله صلى الله عليه وسلم ولرسولنا اهتمامها من أجل ذلك
نزلت بينهما ولم يسمها سطر بسم الله الرحمن الرحيم فوضعها في السبع الطول

هذه السورة الإكرامية نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أجمع من غزوه تبوك
وهم بالبحر ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك
وأنهم يطوفون بالبيت عمرة فكره محال عليهم فبعث أبا بكر الصديق رضي الله
عنه أميراً على الحج هذه السنة لقيم للناس من أسكنهم ويعلم المشركين أن لا يحجوا
بعد عامهم هذا وإن شاذي في الناس براءة فلما قتل أبعد بعلي بن أبي طالب ليكون
بلغاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لكونه عصية له كما سيأتي بيانه
فتقوله براءة من الله ورسوله إلى الذين عادتهم من المشركين فيجوعوا في الأرض
أربعة أشهر اختلقت القسرون لها هنا اختلافاً كثيراً قالون هذه الآية
لذوي العهود المطلقة غير الموقته أوله عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة
أشهر فاما من كان له عهد موقت فاجله بلامدته مما كان لقوله تعالى
فامتوا إليهم عهدهم بلامدتهم أن الله يحب المتقين ولما سيأتي في الملاحق ومن كان
بينه وبين رسول الله عهد فعهد بلامدته وهذا حسن الأقوال وأقواها
وقد اختاره ابن جرير رحمه الله وروى عن الكلبي ومحمد بن كعب القرظي وغير واحد
وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى براءة من الله ورسوله إلى الذين
عادتهم من المشركين فيجوعوا في الأرض أربعة أشهر قال حدثنا الله للذين عاهدوا
رسوله أربعة أشهر سمحون فيها حيث ما شاؤوا واجل أحل من ليس له عهد أن لا يدخل
الأشهر الحرم من يوم التحويل إلى أسلح المحرم خمسين ليلة فإذا أسلح الأشهر الحرم
أمره أن يضع السيف فيمن عاهد وكذا رواه العوفي عن ابن عباس وقال
بعد قوله فذلك خمسون ليلة فامر الله بنيه أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه
وبينه عهد فتعلم حتى يدخلوا في الإسلام وأمر من كان له عهد إذا أسلح
أربعة أشهر من يوم التحويل إلى عشر تحلون من ربيع الآخر أن يضع فيهم السيف أيضاً
حتى يدخلوا في الإسلام وقال أبو معشر المدني محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا
بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أمراً على الموسم سنة تسع وبعث علي
بن أبي طالب سلاطيناً وأربعين أياً من براءة بقراها على الناس يؤجل للمشركين
أربعة أشهر سمحون في الأرض فقراها عليهم يوم عرفة أجل للمشركين عشرين

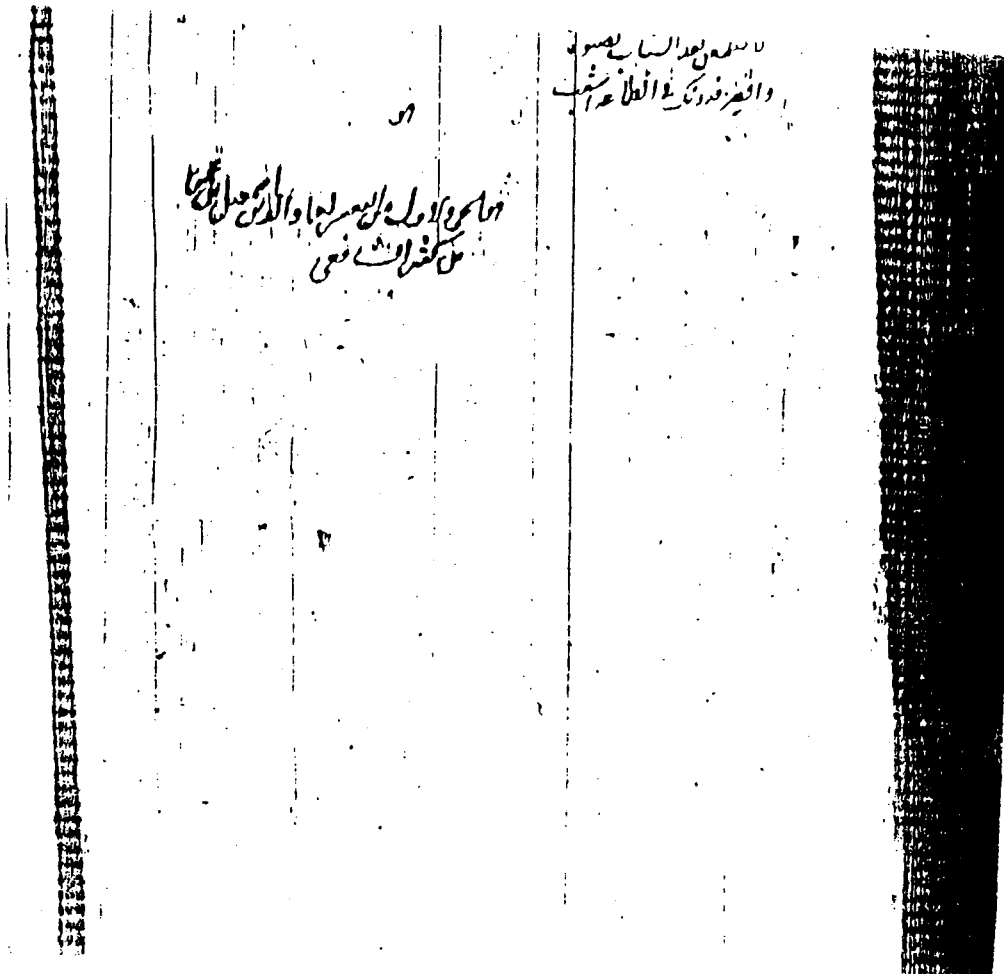
تفسير سورة القصص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللوحة الأولى من المجلد الخامس من نسخة «ت»

من ذلك وأمر بصلى ذكور بني إسرائيل ولن تنفع جدز من قدر لأن أجل الله قداد
ولل إجل باب فلهذا قال وزيدان من على الذين استنصعوا في الأرض وبجلاهم
ومن لم في الأرض ونري فرعون وهلمان وحنود فما منهم ما كانوا يرون في قتلهم
ذلك ما قال وأورثنا القوم الذين نوايئض خفون في الأرض مثا في الأرض وبغارها
فيها ونفت طله الجني غيبي إسرائيل ما صبروا وأورثنا ما كان يصنع فرعون وقومه ما كانوا يعبد
وقال لذلك وأورثناها بني إسرائيل إلا فرعون بحوله ووقته أن يجزيه بني فما نفعه ذلك
الملك العظيم الذي لا يخالفه الفدي بل فقد حكمه وحرق قلبه في أنكر ما كان يكون هالكا
على يدي موشى بل يكون هذا الغلام الذي اخترت من وجوده وقتد في بيته الوفا من الولد
وأنا منشاه ومرباه على فراشه وفي دارك وغدا واه زطاعله وأنت تربيته وتلدله
وحثك وهلاكك وهلاك جنودك على يديه لتعلم أن الرب السماوات العلى هو الفاه
الغالب العظيم العزيز القوي الشديد المحال الذي ما شأنه وما لم يشأ لم يكن
وأرغبنا إلى أم موسى أن تضعه فأن اخفت عليه فالفية في أبيهم ولما نجا
أن أراد به اليك وجعلت من المرشدين فالنقل إلى فرعون ليتوث لهم عدو
ففرعون وجها ما من دسوسهما ما نوايا طين وقالت امرأة فرعون لفرعون
فصلك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نخذه ونرادكم بربيتهم
ذكر أن فرعون لما التزم من قتل ذكور بني إسرائيل جاثت اليه أن يفي بني إسرائيل فيلوث ما
يلوث من الإعمال الشاقة فعادوا فرعون أنه يوشع أن يسترهم في الكوت شيوعهم وغلا
لا يغشون وكشأهم لا يمل أن يفي ما يقوم به رجالهم في العمل فخلص ذلك اليها فامر فقتل
عاما ونزحهم عاما فولد هرون في السنة التي ينزكون فيها وولد موسى عليه السلام في السنة
فقتلوا فيها الولدان وكانت فرعون لئلا يولدوا فقتلوا ذلك وقولاً يمشرون على التآمر
رأيت ما حلت لخصوا أسمها فادان ولداها لا ينفهاها لاسية التي كان ولدت للمرأة جارية
نزلها وذهبن وان ولدت علما خلق لوليك الياحون بايدهم التي تار له فقتلوه ومض
فهم الله لما حملت موشى صلى الله عليه وسلم به ليطر علمها في بل الحلالين ها ولم يظن لها الديات
ولكن لما وضعت ذكر أضاقته به ذرعا وخافت عليه خوف أشد بدوا إخوته كجازا يدا وكان موسى
صلى الله عليه وسلم لا يراه أحدا إلا إخيه فالتسعيد من إبه طبعاً وشرعاً قال الله تعالى واليقين

لوحة من نسخة «د»



فان قال قائل فما احسن طرقي للتفسير فالجواب ان اوسع الطرق في ذلك ان يفسر القرآن بالقرآن فما اعمل في مكان فانه قد فسّر في موضع اخر فانه ان اجمالك ذلك فطبيقتك بالسنة فانها شارة للقرآن وموصية له بل قد قال الامام ابو عبد الله محمد بن ادریس الشافعي رحمه الله كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن قال الله تعالى انا انزلنا الكتاب بالحق لتحكم به الناس بما اراكم الله ولا تكن الخاسرين خشيما وقال تعالى وانزلنا الكتاب الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون وقال تعالى وما انزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه فهدى ورحمة لقوم يؤمنون ولما سدا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا اني اوتيت القرآن ومثله معه يعني السنة والسنة ايضا تنزل عليه بالوحي كما ينزل عليه القرآن الا انها لا تنزل كما تنزل القرآن وقد استدلال الامام الشافعي رحمه الله عليه وغيره من الائمة على ذلك باذله ككثرته للنسب هذا موضع ذلك والعرض انك تطلب تفسير القرآن منه فان لم تجد في السنة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه الى اليمن ثم لم يزل يقول بكتاب الله قال فان لم تجد قال بسنة رسول الله قال فان لم تجد قال اجتهد برأيي قال فعزب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدره وقال الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضي رسول الله وهذا الحديث في المساند المشتهر باسناد جيد كما هو مقرر في موضعه وحينئذ اذا لم تجد في السنة في القرآن ولا في السنة رجعتنا في ذلك الى اقوال الصحابة فانهم ادرى بالسنة

بسم الله الرحمن الرحيم رب بر ولا تقصر فاستجب الدعاء العالم العلامة الأمام
المصنف القدوة ملا محمد العلي واريث الانبياء بركة الاسلام مجلة الاعلام في السنة ومن
به هه حينا الله بما دالدين ابو الفضل اسعيل بن عمر بن كثير البصلي في الشافعي رحمه الله
وادخله الجنة بكماله شفيق به الذي افصح كتابه بالحمد فقال الحمد لله رب العالمين الرحمن
الرحيم مالك يوم الدين وقال الحمد لله الذي انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا
فيما ليتربا مشددا من لده وبشر المؤمنين الذين عملوا الصالحات ان لهم اجرا حسنا
ما كنت فيه ابدا وبشر الذين قالوا اخذنا الله ولدا ما لهم به من علم ولا لآبائهم ببرت كلمة تخرج
من افواههم ان يقولون الا كذبا وافصح خلقه بالحمد فقال الحمد لله الذي خلق السموات
والارض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا منهم يعدلون واهتم بالحمد فقال بعد
ذكر ما اهل الجنة واسفل النار وترجم الملائكة خاضعين من حوله المهرش يحون بحدسهم وقضي
بهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ولهذا اما لاسه شافعي هو الله لا اله الا هو له الحمد
في الاولى والاخرة وله الحكم واليه ترجعون كما قال الحمد لله الذي خلق السموات وما في الارض
وله الحمد في الارض وهو الحكيم الخبير وله الحمد في الاولى والاخرة في جميع ما خلق وما هو خالق
هو المود في ذلك كله كما يقول المصلي اللهم يا كريم الذي ملا السموات وملا الارض وملا ما تحت
من شئ بعد ولهذا ايلهم اهل الجنة شئ محلا في الدنيا واليوم الآخر في جميع ما خلق وما هو خالق
عند انفسهم لما يرون من عظيم نعمه عليهم وما تشرعوا به من عظيم سلطانة فيهم في الدنيا واليوم الآخر
كما قال تعالى ان الذين اخرجوا وعلوا الصالحات ربهم بهم بارا من محرم الزنا
في جنات النعيم دعوا فيها سبحانك اللهم وحسبهم فيها مستغنى ان الحمد لله رب العالمين
الحمد لله الذي ارسل رسله مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل
وحسبهم بالذي لا اله الا هو في الهادي لا وضحى السبل ارسله الى جميع خلقه من الارض والعرش

بسم الله الرحمن الرحيم تفسير سورة الشعراء وهي مكية
 حرعشق كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز
 الحكيم له ما في السموات وما في الأرض وهو العلي العظيم
 تكاد السموات تنفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون
 بحمدهن وهم يستغفرون لمن في الأرض إلا أن الله هو الغفور
 القدوم الكلام على الحروف المقطعة وتدرى في هذا ما هو الغياض
 فقال صبيحة زهير بن عبد الوهاب بن عبد الحواري أبو الغيرة عبد
 الله بن النضر بن الحجاج عن أرطاة بن النضر قال جازل لابن عباس وعنه
 حفيظ بن الميم قال أخبرني عن تفسير قول الله عز وجل قال فاطمة ثم عرضت
 ثم كرمته فاعرض عنه فلم يجبه بشي وإن مثاله ثم كرمته فاعرض عنه
 أنا ابنك بها قد عرفت أن هذا زهير بن النضر بن عبد الله بن عبد الله
 أبو عبد الله بنزل عن أبيه من هذا المشرق يعني عليه مدينتي دمشق الزميرية
 شقانا إذا أذن الله في زوال ملكهم وانقطاع دولتهم وتبعث الله على أجداننا
 نائلا لليل فتنصب سوداء مظلمة فلا تعرفت كأنها المكن وبصبح صابحتها
 متجعة كيف أدلت فما هو إلا باض يومها ذلك حجبهم بها كرجاء عند شتم
 تحبب الله بها يومهم فذلك قوله عز وجل يعني من الله وفنيت وقضاهم على
 يعني عذابه سفيح سفيحون ومعنى واقع بها من المدينتين هـ
 وأعرّب فيه ما رواه الخطيب أبو يعلى الموصلي في هذا الذي من مسند ابن عباس عنه
 وعنه ذلك ورضي النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك ولكن إنسان ضعيف حجب
 وقوله كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم
 كما أنزل إليك هذا القرآن كذلك أنزل الكتب والعرف على الأنبياء صلوات



عنوان الجزء التاسع من نسخة «م» المحفوظة بمكتبة الحرم المكي



عنوان الجزء العاشر من نسخة «م» المحفوظة بمكتبة الحرم المكي

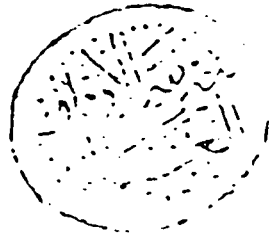
بسم الله الرحمن الرحيم سورة المجمل
يا أيها النبي لم حرّموا الخمر لك تبني عَصَاكَ وَأَوَاحُكُ وَوَعْدُكَ
رَجِمَ ٥ قَدْ قُضِيَ لَكَ مَخْلُوعُ الْيَمَانِ كَرَّمَ اللَّهُ مَوْطِنَهُ
وَلَهُ الْعِلْمُ الْحَكِيمُ ٥ وَإِذَا لَسَرْنَا إِلَى يَمِينِ أَرْجُلَيْهِ
نُكِنَّا بِهِ وَأَظْهَرْنَا لَهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَهْمَتِهِ وَأَعْرَضْنَا عَنْ بَعْضِ
بَهْمَتِهِ قُلُوبَنَا ٥ هَذَا أَقَالَ نَبِيُّ الْعِلْمِ الْحَكِيمِ ٥ أَنْ تَوْبَانَا
فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ ٥
وَصَلِّحْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَهْدِكَ لَكَ ظَهْرُ مَعْنَى رَبِّهِ أَنْ
أَنْ يُبَدِّلَهُ أَرْوَاحًا بِخَيْرٍ مِنْكُمْ سَمِعْتَ مَوْعِدَاتٍ فَانْتَبِهْ ٥
يَا أَيُّهَا الْعَالَمِينَ إِنَّمَا يُنْفِخُ النَّفْثَاتُ فِي أَنْفُسِكُمْ مِنْ تَحْتَ الْكُرْسِيِّ
أَخْبَثُ فِي هَذِهِ رُسُلًا مِنْهُ لَذِكْرِ آلِ إِبْرَاهِيمَ ٥ فِي شَأْنِ ط
رَسُولٍ أَمْسَلْنَا لَهُ عَلَيْهِ سَلَامٌ فَذُكِّرْتُمْ نَزَّلْنَا تَوْحِيدَ الْيَمَانِ لِمَحْمَدٍ ٥
بَعَثْنَا رُسُلًا لِرَوَاجِكُمُ الْإِيمَةَ قَالَتْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الشَّافِعِيُّ أَجْرَانَا
بِرَحْمَةِ الْيَمَانِ ٥ كَمَا كُنَّا نَسْتَعِينُ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
كَانَتْ تَلْفَافُهُ عَلَيْهِ سَلَامٌ فَلَمَّا نَزَلَ بِهِ عَلَيْهِ وَجْهَتُهُ خِيَرَةً لَهُ رَسُودًا
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ كُنْ ٥ فَفَعَلَ اللَّهُ لَكَ الْإِيمَةَ ٥ وَقَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِمِ الرَّحْمَنُ ٥ ثُمَّ قَالَ أَبُو عَتَايَةَ حَدَّثَنِي زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ أَنَّ رَسُولَ
جَاءَ أَسْلَمُهُ وَسَلَّمَ أَصَابَتْهُمُ أَرْحَمُ فِي مَيْمٍ بَعَثَ تَلْفَافُهُ فَقَالَتْ ابْنُ
سَلَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَأَمَّا جَعَلْنَا عَلَيْهِ حَرَامًا فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى
الْحَلَالُ خَلَفَ لِمَنَابِتٍ لَا يُضَيِّعُهَا فَإِنَّ لَهَا لَهَا يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَحْمَدٍ مَا
وَالْزَيْدَةُ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ حَرَامًا لَمْ تَوْهَكْ أَرْوَدُ ٥ أَلْحَنَ

1

www.besturdubooks.wordpress.com

١٠٢

عَلَى سَيِّدِ افْتَرِ الْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ الْغَنِيِّ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ مُعْرِ الْفَرَّيِّ الْبَغْدَادِيِّ
 عَفَا اللَّهُ عَنْهُ وَنَعِمَ بِالْعِلْمِ وَوَقَلَ الْعِلْمَ بِأَيْمُنٍ وَحَرَسَ لَهُ عِدَّةً مَالِكَةً أَيْزِي
 كَ رِيخِ يَوْمِ أَحْمَدَ عَاشُرَ حُمَا إِلَى الْآخِرِينَ سَنَةِ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَبِحَمْدِهِ هَلَالَهُ فَجْهَهُ
 صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَى شَرَفِهَا
 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا وَظَاهِرًا وَبَاطِنًا وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأَمِيِّ
 وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ كَثِيرًا



بسم الله الرحمن الرحيم ونسئله الاعانة والتشيم
الحمد لله الذي افتتح كتابه بالحمد فقال الحمد لله رب العالمين الرحمن
الرحيم مالك يوم الدين وقال تعا الحمد لله الذي انزل على عبده
الكتاب ولم يجعل له عوجا قوما لينذر باءا سائدا من لدنه و
يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجرا حسنا ما كثر فيه ابدا
وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم ولا اباؤهم كبرت كلمة
تخرج من افواههم ان يقولون الا كذبا وافتتح خلقه بالحمد فقال تعا
الحمد لله الذي خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا
بربهم يعدلون واختمه بالحمد فقال بعد ما ذكر مال اهل الجنة واهل النار وركب
الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل
الحمد لله رب العالمين ولهذا قال تعا وهو الله لا اله الا هو له الحمد في الاولى و
الاخرة وله الحكم واليه ترجعون كما قال تعا الحمد لله الذي له ما في السموات وما
في الارض وله الحمد في الاخرة وهو الحكيم الخبير فله الحمد في الاولى والاخرة
اي في جميع ما خلق وما هو خالق هو المحمود في ذلك كله كما يقول المصلي اللهم ربنا
لك الحمد ملء السموات وملء الارض وملء ما شئت من شئ بعد ولهذا يلهم
اهل الجنة تسبيحه وتحميده كما يلهمون النفس ان يسبحونه ويحمده وانه عده
انفسهم لما يرون من عظيم نعمه عليهم وكما اقدرته وعظيم سلطانه وتوالي منته
ودوام احسانه اليهم كما قال تعا ان الذين امنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم
بأمرانهم تجري من تحتهم الانهار في جنات النعيم دعواهم فيها سجاياك اللهم وتخيمهم
فيها سلام واخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين والحمد لله الذي ارسل رسوله
مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وختمهم بالنبي الامي العربي
المكي الهادي لا وضح السبل ارسله الى جميع خلقه من الانس والجن من لدن بعثته
الى قيام الساعة كما قال تعا قل يا ايها الناس اني رسول الله اليكم جميعا الذي له ملك
السموات والارض لا اله الا هو يحيي ويميت فامنوا بالله ورسوله النبي الامي الذي
يؤمن بالله وكلماته واتبعوا لعلكم تترشدون وقال تعا لا نذكركم به ومن بلغ فمن

بلغه

كتاب الشعب - تفسير ابن كثير

٢٩٦

صعيد ، عن قتادة ، عن صفوان بن محرز ، عن حكيم بن حزام قال : بيّا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع أصحابه إذ قال لهم : « هل تسمعون ما أسمع ؟ » قالوا : « ما نسمع من شيء » . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « (أسمع) أطيع السماء وما تلام أن تشتط ، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك راكم أو ساجد » .

وقال أيضاً : حدثنا محمد بن عبد الله بن قهزاذ ، حدثنا أبو معاذ الفضل بن خالد النحوي ، حدثنا عبيد بن سليمان الباهلي ، سمعت الضحاك بن مزاحم ، يحدث عن مسروق بن الأجدع ، عن عائشة أنها قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما في السماء الدنيا موضع قدم إلا وعليه ملك ساجد أو قائم ، وذلك قول الملائكة : (وما منا إلا له مقام معلوم) وإنّا لنحن الصافون . وإنّا لنحن المسبحون (١) » .

وهذا مرفوع غريب جداً رواه عن محمود بن آدم ، عن أبي معاذ ، عن الأعرشي ، عن أبي الضحى ، عن مسروق ، عن ابن مسعود أنه قال : إن من السموات سماء ما فيها موضع شبر إلا وعليه جبهة ملك أو قدماء قائماً ، ثم قرأ : (وإنّا لنحن الصافون . وإنّا لنحن المسبحون) .

ثم قال : حدثنا أحمد بن سيار : حدثنا أبو جعفر محمد بن خالد الدمشقي المعروف بابن أمه ، حدثنا المغيرة بن عمر بن عطيّة من بني عمرو بن عوف ، حدثني سليمان بن أيوب ، عن سالم بن عوف ، حدثني عطاء بن زيد (٢) بن مسعود من بني الحنظلي (٣) ، حدثني سليمان بن عمرو بن الربيع ، من بني سالم ، حدثني عبد الرحمن بن العلاء ، من بني ساعدة ، عن أبيه العلاء بن سعد - وقد شهد الفتح وما بعده - : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال يوماً لجلسائه : « هل تسمعون ما أسمع ؟ » قالوا وما نسمع يا رسول الله ؟ قال : « أطلت السماء وحق لها أن تشتط ، إنه ليس فيها موضع قدم إلا وعليه ملك قائم أو راكم أو ساجد ، وقال الملائكة : (وإنّا لنحن الصافون . وإنّا لنحن المسبحون) » . وهذا إسناد غريب جداً .

ثم قال : حدثنا إسحاق بن محمد بن إسماعيل القسري ، حدثنا عبد الملك بن قدامة ، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عمر : أن عمر جاء والصلاة قائمة ، ونفر ثلاثة جلوس ، أحدهم أبرجشش الليثي ، فقال : قوموا فصلوا مع رسول الله . فقام اثنان وأبى أبو جحشش أن يقوم . وقال : لا أقوم حتى يأتي رجل هو أقوى مني ذراعين (٤) ، وأشد مني بطشاً فبصرعي ، ثم يئدس وجهي في التراب : قال عمر : فصرعته ودست وجهه في التراب فأنى عثمان بن عفان فحججني عنه ، فخرج عمر مغضباً حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ما رأيك يا أبا حفص ؟ » فذكر له ما كان منه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن رضى عمر رحمة (٥) » والله لو ددت أنك جئتني برأس الخيث ، فقام عمر يتوجه (٦) نحوه ، فلما أبعد ناداه فقال : « اجلس حتى أحرك بكى الرب عز وجل - عن صلاة أبي جحشش ، إن لله في السماء الدنيا ملائكة خشوعاً لا يرمعون رموسهم حتى تقوم الساعة . فإذا قامت رفعوا

(١) انظر تفسير الآية ١٦٥ من سورة الصافات ، فقد أخرجه ابن كثير عن الضحاك بن سميرة : ٢٨/٧ .

(٢) كذا في مخطوطة الأزهر ، وفي أسد الغابة : « يزيد » .

(٣) في المخطوطة : « من بني الحنظلي » . والمثبت عن أسد الغابة ٧٦/٤ ، والطبعات السابقة من هذا التفسير .

(٤) في المستدرك : « ذراعاً » .

(٥) ما بين القوسين عن المستدرك ، والطبعات السابقة ، وفي مخطوطة الأزهر مكانه : « إن رضى عمر ... » ثم يياض .

(٦) أي : يتوجه نحوه .

إسناده إلى المصنف

وأسانيدى إلى ابن كثير كثيرة ، وهى تمر بعدد من تلاميذه ، منها :

ما أرويه عن الشيخ عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائى ، والشيخ عبد الوهاب بن عبد العزيز ابن زيد الزيد ، كلاهما عن الشيخين : محمد الشاذلى النيفر ، وعبد القادر بن كرامة الله النجارى ، كلاهما عن الشيخ عمر بن حمدان المحرسى ، عن محمد المكى بن مصطفى - المعروف بابن عزور - عن الشيخ أحمد بن إبراهيم بن عيسى النجدى ، عن الشيخ عبد الرحمن ابن حسن بن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ، عن جده شيخ الإسلام ، عن عبد الله بن إبراهيم بن سيف الفرضى النجدى ، عن أبى المواهب بن تقى الدين الحنبلى ، عن النجم الغزى ، عن أبيه البدر محمد بن الرضى محمد الغزى الدمشقى ، عن الحافظ السيوطى ، عن بهاء الدين أبى البقاء البلقينى ، عن ابن الحسانى ، عن ابن كثير - رحمه الله .

وأروى عن الفريوائى ، والزيد ، كلاهما عن الشيخين : حماد بن محمد الأنصارى ، وأبى تراب الظاهرى ، كلاهما عن والد الثانى : الشيخ عبد الحق الهاشمى ، عن أحمد بن عبد الله بن سالم البغدادى ، عن عبد الرحمن بن حسن ابن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ، عن جده شيخ الإسلام ، عن عبد الله بن إبراهيم بن سيف النجدى ، عن أبى المواهب محمد بن عبد الباقي بن عبد الباقي الحنبلى ، عن أبيه ، عن المعمر عبد الرحمن البهوتى الحنبلى ، عن الجمال يوسف بن زكريا ، عن أبيه القاضى زكريا الأنصارى ، عن الحافظ ابن حجر ، عن ابن الجزرى ، عن ابن كثير - رحمه الله .

وأروى عن عبد الوهاب الزيد ، عن الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الزهرانى ، عن الشيخ سليمان ابن حمدان ، عن الشيخ عبد الستار الدهلوى ، عن أبى بكر خوقير ، عن أحمد بن إبراهيم ابن عيسى ، عن عبد الرحمن بن حسن ابن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ، عن جده شيخ الإسلام ، عن محمد حياة السندى ، عن عبد الله بن سالم البصرى ، عن المسند زين العابدين الطبرى ، عن أبيه ، عن الشمس الرملى ، عن الحافظ السخاوى ، عن الحافظ ابن حجر ، عن ابن عنقة البسكرى ، عن ابن كثير - رحمه الله .

وأروى عن عبد الوهاب الزيد ، عن الشيخ أبى تراب الظاهرى ، عن الشيخ أحمد شاکر ، عن عبد الستار الدهلوى ، عن أبى بكر خوقير ، عن أحمد بن إبراهيم بن عيسى ، عن عبد الرحمن بن حسن ابن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ، عن عبد الرحمن الجبرتى المصرى ، عن مرتضى الزبيدى ، عن عمر بن عقيل الحسينى ، عن عبد الله بن سالم البصرى ، عن عبد الله بن محمد الديرى الدمياطى ، عن سلطان المزاحى ، عن نور الدين على الزيادى ، عن الجمال يوسف بن عبد الله الأرمونى ، عن الحافظ السيوطى ، عن المحب أبى المعالى الطبرى ، والرضى أبى حامد المخزومى ، وأبى بكر المرشدى ، كلهم عن الشهاب بن حجبى ، عن ابن كثير - رحمه الله .

وأروى عن عبد الوهاب الزيد ، عن الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن السعد ، عن الشيخ حمود

التويعرى ، عن الشيخ عبد الله بن عبد العزيز العنقري ، عن الشيخ سعد بن حمد بن عتيق ، عن ابن عيسى ، عن عبد الرحمن بن حسن ، عن حسن القويسيني ، عن داود القلعى ، عن أحمد الجوهري ، عن عبد الله بن سالم البصري ، عن المسند زين العابدين بن عبد القادر الطبري ، عن أبيه ، عن المعمر عبد الواحد بن إبراهيم الحصارى ، عن الحافظ السخاوى ، عن الحافظ ابن حجر ، عن سعد الدين النواوى ، عن ابن كثير - رحمه الله .

وأروى عن عبد الرحمن الفريوائى ، وعبد الوهاب الزيد ، كلاهما عن الشيخ محمد بن عبد الله ابن أَدُ الشنقيطى ، عن الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى ، عن الشيخ على بن ناصر أبى وادى ، عن السيد نذير حسين الدهلوى ، عن محمد إسحاق ، عن عبد العزيز بن ولى الله الدهلوى ، عن أبيه ، عن أبى الطاهر الكردى ، عن الصفى أحمد بن محمد بن العجل اليمنى ، عن يحيى بن مكرم الطبرى ، عن الحافظ السيوطى ، عن ابن مقبل الحلبي ، عن ابن اليونانية ، عن ابن كثير - رحمه الله .

وأروى عن عبد الرحمن الفريوائى ، وعبد الوهاب الزيد ، كلاهما عن الشيخ بديع الدين الراشدى السندى ، وأبى تراب الظاهرى ، كلاهما عن أبى الوفاء ثناء الله الأفرتسى ، عن السيد نذير حسين ، عن محمد إسحاق ، عن عبد العزيز بن ولى الله الدهلوى ، عن أبيه ، عن أبى الطاهر محمد ابن إبراهيم الكردى ، عن أبيه ، عن الصفى القشاشى ، عن أبى المواهب الشناوى ، عن الشمس الرملى ، عن الحافظ زكريا الأنصارى ، عن الحافظ ابن حجر ، عن ابن الحريرى ، عن ابن كثير - رحمه الله .

وأروى عن عبد الوهاب الزيد ، عن الشيخ أحمد بن يحيى النجمى ، عن الشيخ عبد الله بن محمد القرعاوى ، عن الشيخ أحمد الله القرشى ، عن السيد نذير حسين ، عن عبد الرحمن الكزبرى ، عن الشيخ مصطفى الرحمتى ، عن الشيخ عبد الغنى النابلسى ، عن النجم الغزى ، عن أبيه ، عن الحافظ زكريا الأنصارى ، عن الحافظ ابن حجر ، عن محمد بن سلمان البغدادى - نزيل القاهرة - عن ابن كثير - رحمه الله .

وأروى عن عبد الوهاب الزيد ، عن الشيخ عبد المنان بن عبد الحق النورفورى ، عن أبى الخير السلفى ، عن الشيخ محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ، عن السيد نذير حسين عن محمد عابد السندى ، عن عبد الله ابن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ، عن أبيه شيخ الإسلام ، عن محمد حياة السندى ، عن حسن العجيحى ، عن أحمد بن محمد بين العجل اليمنى ، عن يحيى بن مكرم الطبرى ، عن الحافظ السيوطى ، عن الشمس محمد بن محمد العقبى ، والنجم أبى القاسم بن عمر بن محمد بن محمد بن محمد بن فهد المكى ، كلاهما عن ابن الجزرى ، عن ابن كثير - رحمه الله .

وأروى عن عبد الوهاب الزيد ، عن الشيخ محمد حياة السندى السلفى ، عن السيد نذير حسين - بالإجازة العامة - عن عبد الرحمن الكزبرى ، عن الزبيدى ، عن المعمر السابق بن عرام ، عن البابلى ، عن محمد حجازى ، عن المعمر محمد بن أركماس الحنفى ، عن الحافظ ابن حجر عن محمد الحبتي عن ابن كثير - رحمه الله .

(وهذا من أعلى الأسانيد إلى الحافظ ابن كثير - رحمه الله) .

وأروى عن عبد الوهاب الزيد ، عن الشيخ شمس الدين بن محمد أشرف الأفغانى ، والشيخ أحمد الله الفيروزفورى ، كلاهما عن الحافظ محمد الجوندلوى ، عن الحافظ عبد المنان الوزير آبادى ، عن حسين بن محسن الأنصارى ، عن محمد بن ناصر الحازمى وأحمد بن محمد على الشوكانى ، كلاهما عن والد الثانى الإمام الشوكانى ، عن السيد عبد القادر بن أحمد ، عن السيد سليمان بن يحيى بن عمر بن مقبول الأهدل ، عن أحمد بن محمد الأهدل ، عن أحمد النخلى ، عن البابلى ، عن إبراهيم اللقانى ، عن الرملى ، عن الحافظ زكريا الأنصارى ، عن الحافظ ابن حجر ، عن ابن الحسبانى عن ابن كثير - رحمه الله .

وأروى عن عبد الوهاب الزيد ، عن الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن أبى بكر الإحسانى ، عن عبد الحى الكتانى ، عن حسين بن محسن الأنصارى ، عن محمد بن ناصر الحازمى ، وأحمد بن محمد بن على الشوكانى ، كلاهما عن والد الثانى الإمام الشوكانى ، عن يوسف بن محمد بن علاء الدين المزجاجى ، عن أبيه ، عن جده عن إبراهيم الكردى ، عن أحمد بن محمد المدنى ، عن الشمس الرملى ، عن الحافظ زكريا الأنصارى ، عن الحافظ ابن حجر ، عن الشهاب ابن حجى ، عن ابن كثير - رحمه الله .

وأروى عن عبد الوهاب الزيد ، عن الشيخ القاضى محمد إسماعيل العمرانى اليمانى ، عن القاضى عبد الله حميد عن الشيخ على السدمى ، عن جدّ العمرانى القاضى محمد بن محمد العمرانى ، عن الإمام الشوكانى ، عن السيد عبد القادر الكوكبانى ، عن عبد الخالق بن أبى بكر المزجاجى ، عن أبى طاهر الكردى ، عن عبد الله بن سالم البصرى ، عن الشمس محمد بن على المكتبى ، عن النجم محمد بن البدر الغزى ، عن أبيه ، عن الحافظ السيوطى ، عن ناصر الدين أبى الفتح محمد بن شهاب الدين أحمد بن أبى بكر البوصيرى ، عن محمد الحبتى ، عن ابن كثير - رحمه الله .

القسم الثاني النص المحقق

مقدمة ابن كثير^(١)

قال الشيخ الإمام الأوحى، البارع الحافظ المتقن، عماد الدين أبو الفداء^(٢) إسماعيل بن الخطيب أبى حفص عمر بن كثير البصرى الشافعى، رحمه الله تعالى، ورضى عنه:

الحمد لله الذى افتتح كتابه بالحمد فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٢-٤]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا. قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا. مَا كُنْ فِيهِ أَبَدًا. وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا. مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ١-٥]، وافتتح خلقه بالحمد، فقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، واختتمه بالحمد، فقال بعد ذكر مآل أهل الجنة وأهل النار: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]؛ ولهذا قال [الله]^(٣) تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠]، كما قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١].

فله الحمد فى الأولى والآخرة، أى فى جميع ما خلق وما هو خالق، هو المحمود فى ذلك كله، كما يقول المصلى: «اللهم ربنا لك الحمد، ملء السموات وملء الأرض، وملء ما شئت من شىء بعد»^(٤)؛ ولهذا يُلهم أهل الجنة تسبيحه وتحميده كما يُلهمون النَّفس، أى يسبحونه ويحمدونه عدد أنفاسهم؛ لما يرون من عظيم نعمه عليهم، وكمال قدرته وعظيم سلطانه، وتوالى مننه ودوام إحسانه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٩، ١٠].

والحمد لله الذى أرسل رسله ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وختمهم بالنبي الأُمى العربى المكى الهادى لأوضح السبل، أرسله إلى جميع خلقه من الإنس والجن، من لدن بعثته إلى قيام الساعة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ

(١) بعدها فى ج: «رب يسر ولا تعسر» وفى ط: «رب يسر وأعن يا كريم».

(٢) فى ج: «قال الشيخ العالم العلامة الأوحى الحافظ، المجتهد القدوة، علامة العلماء، وارث الأنبياء، بركة الإسلام، حجة الأعلام، محبى السنة، ومن عظم الله به علينا المنة عماد الدين أبو الفضل».

(٣) زيادة من ج.

(٤) هذا اقتباس من حديث رواه مسلم فى صحيحه برقم (٧٧١) من حديث البراء بن عازب، رضى الله عنه.

إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمَّا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿[الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿لَا نُذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعجم، وأسود وأحمر، وإنس وجان، فهو نذير له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]. فمن كفر بالقرآن بمن ذكرنا ^(١) فالنار موعده، بنص الله تعالى، وكما قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ. وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥].

وقال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ» ^(٢). قال مجاهد: يعنى: الإنس والجن. فهو، صلوات الله وسلامه عليه، رسول الله إلى جميع الثقلين: الإنس والجن، مبلِّغاً لهم عن الله ما أوحاه إليه من هذا الكتاب العزيز الذى ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه نَذَبَهُمْ إِلَى تَفْهَمِهِ، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

فالواجب على العلماء الكشف عن معانى كلام الله، وتفسير ذلك، وطلبه من مظانه، وتعلُّم ذلك وتعليمه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

فدَمَّ الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله إليهم، وإقبالهم على الدنيا وجمعها، واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله.

فعلينا - أيها المسلمون - أن ننتهى عما ذمَّهم الله تعالى به، وأن نأتمر بما أمرنا به، من تعلُّم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه، وتفهمه وتفهمه، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ. اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٦، ١٧].

ففى ذكره تعالى لهذه الآية بعد التى قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيى الأرض بعد موتها، كذلك يلين القلوب بالإيمان بعد قسوتها من الذنوب والمعاصى، والله المؤمل المسؤول أن يفعل بنا ذلك، إنه

(١) فى ج: «ذكرناه».

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٥٢١) من حديث جابر، رضى الله عنه.

جواد كريم.

فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟

فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يُفسر القرآن بالقرآن، فما أُجمل في مكان فإنه قد فُسر في موضع آخر، فإن أعيانك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، رحمه الله: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤].

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»^(١)، يعني: السنة. والسنة أيضاً تنزل عليه بالوحي، كما ينزل^(٢) القرآن؛ إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن، وقد استدلل الإمام الشافعي، رحمه الله^(٣)، وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك.

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنة. كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «بم تحكم؟». قال: بكتاب الله. قال: «فإن لم تجد؟». قال: بسنة رسول الله. قال: «فإن لم تجد؟». قال: أجتهد برأى. قال: فضرب رسول الله ﷺ في صدره، وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضى رسول الله»^(٤). وهذا الحديث في المساند^(٥) والسنن بإسناد جيد، كما هو مقرر في موضعه.

وحيثئذ، إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدركوا بذلك، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبرائهم، كالأئمة الأربعة والخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعبد الله بن مسعود، رضي الله عنه^(٦).

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير^(٧): حدثنا أبو كريب، حدثنا جابر بن نوح، حدثنا الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، قال: قال عبد الله - يعني ابن مسعود -: والذي لا إله غيره، ما نزلت آية من^(٨) كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت؟ وأين نزلت؟ ولو أعلم مكان أحد أعلم

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (١٣١/٤) وأبو داود في السنن برقم (٤٦٠٤) من حديث المقدم بن معدى كرب، رضي الله عنه.

(٢) في ب: «كما ينزله عليه».

(٣) في ب: «رحمة الله عليه».

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند (٢٣٠/٥) وأبو داود في السنن برقم (٣٥٩٢) والترمذي في السنن برقم (١٣٢٨) من طرق عن شعبة عن أبي عون عن الحارث بن عمرو عن ناس من أصحاب معاذ عن معاذ به، وقال الترمذي: «هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده عندى بم متصل، وأبو عون الثقفي اسمه محمد بن عبيد الله». وللشيخ ناصر الألباني مبحث ممتع بين فيه كلام العلماء في نقد الحديث. انظر: السلسلة الضعيفة برقم (٨٨١).

(٥) في ج: «المسانيد».

(٨) في ب: «في».

(٧) في ب: «جرير الطبري».

(٦) في ب: «عنهم».

بكتاب الله منى تناله المطايا لأيتيه^(١). وقال الأعمش أيضاً، عن أبي وائل، عن ابن مسعود قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن^(٢).

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئونا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً^(٣).

ومنهم الخبر البحر عبد الله بن عباس، ابن عم رسول الله ﷺ، وترجمان القرآن وبركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل»^(٤).

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن مسلم قال^(٥): قال عبد الله - يعني ابن مسعود -: نعم ترجمان القرآن ابن عباس^(٦). ثم رواه عن يحيى بن داود، عن إسحاق الأزرق، عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم بن صبيح أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود أنه قال: نعم الترجمان للقرآن ابن عباس^(٧). ثم رواه عن بُدَّار، عن جعفر ابن عون، عن الأعمش^(٨)، به كذلك.

فهذا إسناد صحيح إلى ابن مسعود: أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة. وقد مات ابن مسعود، رضى الله عنه، في سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح، وعمر بعده ابن عباس ستاً وثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود؟

وقال الأعمش عن أبي وائل: استخلف عليّ عبد الله بن عباس على الموسم، فخطب الناس، فقرأ في خطبته سورة البقرة، وفي رواية: سورة النور، ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا^(٩).

ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في تفسيره، عن هذين الرجلين: عبد الله بن مسعود وابن عباس، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب، التي أباحها رسول الله ﷺ حيث قال: «بلغوا عني ولو آية»، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» رواه البخاري عن عبد الله^(١٠)؛ ولهذا كان عبد الله بن عمرو يوم اليرموك قد أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث منهما بما فهمه

(١) تفسير الطبري (٨٠/١) وجابر بن نوح ضعيف لكنه توبع، فرواه البخاري في صحيحه برقم (٥٠٠٢) عن عمر بن حفص عن أبيه عن الأعمش به.

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٨٠/١) من طريق الحسين بن واقد عن الأعمش به.

(٣) رواه الطبري في تفسيره (٨٠/١) من طريق جرير عن عطاء عن أبي عبد الرحمن السلمي.

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند (٣٢٧/١، ٢٦٦، ٣١٤) وأصله في صحيح البخاري برقم (٧٥).

(٥) في ب: «كذا قال».

(٦) تفسير الطبري (٩٠/١).

(٧) تفسير الطبري (٩٠/١) ورواه الحاكم في المستدرک (٥٣٧/٣) من طريق سفيان به.

(٨) تفسير الطبري (٩٠/١) ورواه أبو خثيمة في العلم برقم (٤٨) من طريق جعفر بن عون به.

(٩) رواه الطبري في تفسيره (٨١/١) والفسوى في تاريخه (٤٩٥/١) من طريق الأعمش به.

(١٠) صحيح البخاري برقم (٣٤٦١).

من هذا الحديث من الإذن في ذلك.

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد، لا للاعتضاد، فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح^(١).

والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجاوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني؛ ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيراً، ويأتى عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعدتهم، وعصا موسى من أى الشجر كانت؟ وأسماء الطيور التى أحيها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذى ضرب به القتل من البقرة، ونوع الشجرة التى كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى فى القرآن، مما لا فائدة فى تعيينه تعود على المكلفين فى دنياهم ولا دينهم. ولكن نقل الخلاف عنهم فى ذلك جائز، كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامُنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢]، فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب فى هذا المقام وتعليم ما ينبغى فى مثل هذا، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث، فدل على صحته إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما، ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فقال فى مثل هذا: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾، فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس، ممن أطلعه الله عليه؛ فلماذا قال: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ أى: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب. فهذا أحسن ما يكون فى حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال فى ذلك المقام، وأن تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته؛ لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهم فالأهم. فأما من حكى خلافاً فى مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص، إذ قد يكون الصواب فى الذى تركه. أو يحكى الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال، فهو ناقص أيضاً. فإن صحح غير الصحيح عامداً فقد تعمد الكذب، أو جاهلا فقد أخطأ، وكذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته، أو حكى أقوالاً متعددة لفظاً ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى، فقد ضيع الزمان، وتكثر بما ليس بصحيح، فهو كلابس ثوبى زور، والله الموفق للصواب.

[قال سفيان بن عيينة عن عبد الله بن أبى يزيد: كان ابن عباس إذا سئل عن الآية فى القرآن قال به، فإن لم يكن وكان عن رسول الله ﷺ أخبر به، فإن لم يكن فعن أبى بكر وعمر، رضى الله عنهما، فإن لم يكن اجتهد برأيه]^(٢).

(١) فى ج: «صحيح للاعتقاد».

(٢) زيادة من ط، ب.

فصل

إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جبر^(١)، فإنه كان آية في التفسير، كما قال محمد بن إسحاق: حدثنا أبان بن صالح، عن مجاهد، قال: عَرَضْتُ المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه، وأسأله عنها^(٢).

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا طلق بن غنام، عن عثمان المكي، عن ابن أبي مليكة قال: رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن، ومعه ألواحه، قال: فيقول له ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله^(٣). ولهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به^(٤).

وكسعيد بن جبيرة، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق ابن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم، فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ، يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً، وليس كذلك، فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره، ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد في كثير من الأماكن، فليفتن اللبيب لذلك، والله الهادي.

وقال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين في الفروع ليست حجة، فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني: أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك.

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام، لما رواه محمد بن جرير، رحمه الله، حيث قال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا سفيان، حدثني عبد الأعلى، هو ابن عامر الثعلبي، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «من قال في القرآن برأيه، أو بما لا يعلم، فليتبوأ مقعده من النار»^(٥).

وهكذا أخرجه الترمذي والنسائي، من طرق، عن سفيان الثوري، به. ورواه أبو داود، عن مُسَدَّد، عن أبي عوَّانة، عن عبد الأعلى، به^(٦). وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

(١) في ج، ط: «جبيرة».

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٩٠/١).

(٣) تفسير الطبري (٩٠/١).

(٤) رواه الطبري في تفسيره (٩١/١) من طريق أبي بكر الحنفي سمعت سفيان فذكره.

(٥) تفسير الطبري (٧٧/١).

(٦) سنن الترمذي برقم (٢٩٥٢) وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٠٨٤) وسنن أبي داود برقم (٣٦٥٢). والحديث مداره على عبد الأعلى ابن عامر قال أبو زرعة: ضعيف، وتركه ابن مهدي.

وهكذا رواه ابن جرير - أيضاً - عن يحيى بن طلحة اليربوعي، عن شريك، عن عبد الأعلى، به مرفوعاً^(١). ولكن رواه محمد بن حميد، عن الحكم بن بشير، عن عمرو بن قيس الملائي، عن عبد الأعلى، عن سعيد، عن ابن عباس، فوقفه^(٢). وعن محمد بن حميد، عن جرير، عن ليث، عن بكر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس من قوله^(٣)، فالله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا العباس بن عبد العظيم العنبري، حدثنا حبان بن هلال، حدثنا سهيل أخو حزم، حدثنا أبو عمران الجوني، عن جندب؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ»^(٤).

وقد روى هذا الحديث أبو داود، والترمذي، والنسائي من حديث سهيل بن أبي حزم القطعي، وقال الترمذي: غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم في سهيل^(٥).

وفى لفظ لهم: «من قال في كتاب الله برأيه، فأصاب، فقد أخطأ» أي: لأنه قد تكلف ما لا علم له به، وسلك غير ما أمر به، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ؛ لأنه لم يأت الأمر من بابه، كمن حكم بين الناس على جهل فهو في النار، وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر، لكن يكون أخف جرماً ممن أخطأ، والله أعلم، وهكذا سمي الله القذبة كاذبين، فقال: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٣]، فالقاذف كاذب، ولو كان قد قذف من زنى في نفس الأمر؛ لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به، ولو كان أخبر بما يعلم؛ لأنه تكلف ما لا علم له به، والله أعلم.

ولهذا تخرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به، كما روى شعبة، عن سليمان، عن عبد الله بن مرة، عن أبي معمر، قال: قال أبو بكر الصديق، رضى الله عنه: أي أرض تقلني؟ وأي سماء تظلني؟ إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم^(٦).

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا محمد^(٧) بن يزيد، عن العوام بن حوشب، عن إبراهيم التيمي؛ أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١]، فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني؟ إذا أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم. منقطع^(٨).

وقال أبو عبيد أيضاً: حدثنا يزيد، عن حميد، عن أنس؛ أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر:

(١) تفسير الطبري (٧٧/١).

(٢) تفسير الطبري (٧٨/١) ورواه وكيع عن عبد الأعلى فوقفه، رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٥١٢/١٠).

(٣) تفسير الطبري (٧٨/١).

(٤) تفسير الطبري (٧٩/١).

(٥) سنن أبي داود برقم (٣٦٥٢) وسنن الترمذي برقم (٢٩٥٣) وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٠٨٦).

(٦) رواه الطبري في تفسيره (٧٨/١).

(٧) في ب: «محمود».

(٨) فضائل القرآن (ص ٢٢٧) ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (٥١٣/١٠) عن محمد بن عبيد عن العوام بن حوشب به.

﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١]، فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر^(١).

وقال عبد بن حميد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس، قال: كنا عند عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، وفي ظهر قميصه أربع رقاع، فقرأ: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ فقال: ما الأب؟ ثم قال: إن هذا لهو التكلف^(٢)، فما عليك ألا تدريه^(٣).

وهذا كله محمول على أنهما، رضى الله عنهما، إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب، وإلا فكونه نبتاً من الأرض ظاهر لا يجهل، لقوله: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا. وَعِنَّا﴾ الآية [عبس: ٢٧، ٢٨].

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة: أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها، فأبى أن يقول فيها^(٤). إسناده^(٥) صحيح.

وقال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة، قال: سأل رجل ابن عباس عن ﴿يَوْمَ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] فقال له ابن عباس: فما ﴿يَوْمَ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]؟ فقال له الرجل: إنما سألتك لتحدثني. فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله تعالى في كتابه، الله أعلم بهما. فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم^(٦).

وقال - أيضاً - ابن جرير: حدثني يعقوب - يعنى ابن إبراهيم - حدثنا ابن علية، عن مهدي بن ميمون، عن الوليد بن مسلم، قال: جاء طلق بن حبيب إلى جندب بن عبد الله، فسأله عن آية من القرآن؟ فقال: أخرج عليك إن كنت مسلماً إلا ما قمت عني، أو قال: أن تجالسني^(٧).

وقال مالك، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب: إنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن، قال: إنا لا نقول في القرآن شيئاً^(٨).

وقال الليث، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب: إنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن^(٩).

وقال شعبة، عن عمرو بن مرة، قال: سأل رجل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن فقال: لا

(١) فضائل القرآن (ص ٢٢٧) ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠/٥١٢) عن يزيد به، ورواه الحاكم في المستدرک (٢/٥١٤) من طريق يزيد عن حميد به، وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

(٢) في ج: «التكلف يا عمر».

(٣) ورواه ابن سعد في الطبقات (٣/٣٢٧)، ورواه البخاري في صحيحه برقم (٧٢٩٣) عن سليمان بن حرب به مختصراً ولفظه: «نهينا عن التكلف».

(٤) تفسير الطبري (١/٨٦).

(٥) في ب: «إسناده».

(٦) فضائل القرآن (ص ٢٢٨).

(٧) تفسير الطبري (١/٨٦).

(٨) رواه الطبري في تفسيره (١/٨٥) من طريق ابن وهب عن مالك به.

(٩) رواه الطبري في تفسيره (١/٨٦) من طريق ابن وهب عن مالك به.

تسألني عن القرآن، وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه منه شيء، يعنى: عكرمة^(١).

وقال ابن شوذب: حدثني يزيد بن أبي يزيد، قال: كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام، وكان أعلم الناس، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت، كأن لم يسمع^(٢).

وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن عبدة الضبي، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عبيد الله بن عمر، قال: لقد أدركتُ فقهاء المدينة، وإنهم ليعظمون القول في التفسير، منهم: سالم بن عبد الله، والقاسم ابن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع^(٣).

وقال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح، عن الليث، عن هشام بن عروة، قال: ما سمعت أبي تأول آية من كتاب الله قط^(٤).

وقال أيوب، وابن عون، وهشام الدستوائي، عن محمد بن سيرين: سألت عبيدة السلماني، عن آية من القرآن فقال: ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل^(٥) القرآن؟ فاتق الله، وعليك بالسداد^(٦).

وقال أبو عبيد: حدثنا معاذ، عن ابن عون، عن عبد الله بن مسلم بن يسار، عن أبيه، قال: إذا حدثت عن الله فقف، حتى تنظر ما قبله وما بعده^(٧).

حدثنا هشيم، عن مغيرة، عن إبراهيم، قال: كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه^(٨).

وقال شعبة عن عبد الله بن أبي السرف، قال: قال الشعبي: والله ما من آية إلا وقد سألت عنها، ولكنها الرواية عن الله عز وجل^(٩).

وقال أبو عبيد: حدثنا هشيم، حدثنا عمر بن أبي زائدة، عن الشعبي، عن مسروق، قال: اتقوا التفسير، فإنما هو الرواية عن الله^(١٠).

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تخرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به؛ فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً، فلا حرج عليه؛ ولهذا روى عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد؛ فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما

(١) رواه الطبري في تفسيره (٨٧/١) وابن أبي شيبه في المصنف (٥١١/١٠) من طريق محمد بن جعفر عن شعبة به.

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٨٦/١) عن العباس بن الوليد عن أبيه عن ابن شوذب به.

(٣) تفسير الطبري (٨٥/١).

(٤) فضائل القرآن (ص ٢٢٩).

(٥) في ج: «أنزل».

(٦) رواه الطبري في تفسيره (٨٦/١) من طريق ابن علي عن أيوب وابن عون به.

(٧) فضائل القرآن (ص ٢٢٩).

(٨) فضائل القرآن (ص ٢٢٩) ورواه أبو نعيم (٢٢٢/٤) من طريق جرير عن المغيرة به.

(٩) رواه الطبري في تفسيره (٨٧/١) من طريق سعيد بن عامر عن شعبة به.

(١٠) فضائل القرآن (ص ٢٢٩).

سئل عنه مما يعلمه، لقوله تعالى: ﴿لَتَبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، ولما جاء في الحديث المروى من طرق: «من سئل عن علم فكتمه، ألجم يوم القيامة بلجام من نار»^(١).

فأما الحديث الذي رواه أبو جعفر بن جرير:

حدثنا عباس بن عبد العظيم، حدثنا محمد بن خالد بن عثمة، حدثنا جعفر بن محمد بن الزبير، حدثني هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: ما كان النبي ﷺ يفسر شيئاً من القرآن إلا آيا تُعد، علمهن إياه جبريل، عليه السلام. ثم رواه عن أبي بكر محمد بن يزيد الطرسوسي، عن معن بن عيسى، عن جعفر بن خالد، عن هشام، به.^(٢)

فإنه حديث منكر غريب، وجعفر هذا هو ابن محمد بن خالد بن الزبير بن العوام القرشي الزبيرى، قال البخارى: لا يتابع في حديثه، وقال الحافظ أبو الفتح الأزدي: منكر الحديث.

وتكلم عليه الإمام أبو جعفر بما حاصله أن هذه الآيات مما لا يعلم إلا بالتوقيف عن الله تعالى، مما وقفه عليها جبريل. وهذا تأويل صحيح لو صح الحديث؛ فإن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه، ومنه ما يعلمه العلماء، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها، ومنه ما لا يعذر أحد في جهله، كما صرح بذلك ابن عباس، فيما قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا مؤمل، حدثنا سفيان، عن أبي الزناد [عن الأعرج]^(٣)، قال: قال ابن عباس: التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالة، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله^(٤).

قال ابن جرير: وقد روى نحوه في حديث في إسناده نظر:

حدثني يونس بن عبد الأعلى الصدفي، أنبأنا ابن وهب قال: سمعت عمرو بن الحارث يحدث عن الكلبي، عن أبي صالح، مولى أم هانئ، عن عبد الله بن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل القرآن على أربعة»^(٥) أحرف: حلال وحرام، لا يعذر أحد بالجهالة به. وتفسير تفسره [العرب، وتفسير

(١) جاء من حديث أبي هريرة، ومن حديث أنس، وأبي سعيد الخدري، رضى الله عنهم. أما حديث أبي هريرة، فرواه أحمد في المسند (٢٦٣/٢) وأبو داود في السنن برقم (٣٦٥٨) والترمذي في السنن برقم (٢٦٤٩) وابن ماجه في السنن برقم (٢٦١) من طريق على ابن الحكم عن عطاء عن أبي هريرة، وقال الترمذي: «حديث حسن». وأما حديث أنس، فرواه ابن ماجه في السنن برقم (٢٦٤) من طريق يوسف بن إبراهيم عن أنس، وقال البوصيري في الزوائد (١١٧/١): «هذا إسناد ضعيف». وأما حديث أبي سعيد، فرواه ابن ماجه في السنن برقم (٢٦٥) من طريق محمد بن داب عن صفوان بن سليم عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبي سعيد، وقال البوصيري في الزوائد (١١٨/١): «هذا إسناد ضعيف».

(٢) تفسير الطبري (٨٤/١) ورواه أبو يعلى في مسنده (٢٣/٨) من طريق معن القزاز عن فلان بن محمد بن خالد، عن هشام بن عروة به، ورواه البزار في مسنده برقم (٢١٨٥) «كشف الأستار» عن محمد بن المثنى، عن محمد بن خالد بن عثمة، عن حفص - أظنه ابن عبد الله - عن هشام عن أبيه به.

(٣) زيادة من نسخة مساعدة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

(٤) تفسير الطبري (٧٥/١).

(٥) في هـ، ب: «سبعة» والمثبت من جـ، والطبري.

تفسره^(١) العلماء. ومتشابه لا يعلمه إلا الله، عز وجل، ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب^(٢).
والنظر الذى أشار إليه فى إسناده هو من جهة محمد بن السائب الكلبي؛ فإنه متروك الحديث؛
لكن قد يكون إنما وهم فى رفعه. ولعله من كلام ابن عباس، كما تقدم، والله أعلم بالصواب.

(١) زيادة من ج، والطبرى.

(٢) تفسير الطبرى (١/٧٦).

كتاب فضائل القرآن

قال البخارى، رحمه الله:

كيف نزول الوحي وأول ما نزل:

قال ابن عباس: المهيمن الأمين القرآن، أمين على كل كتاب قبله: حدثنا عبيد الله بن موسى عن شيبان عن يحيى عن أبى سلمة قال: أخبرتنى عائشة وابن عباس قالا: لبث النبى ﷺ بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن، وبالمدينة عشراً^(١).

ذكر البخارى، رحمه الله، كتاب «فضائل القرآن» بعد كتاب التفسير؛ لأن التفسير أهم ولهذا بدأ به، [ونحن قدمنا الفضائل قبل التفسير وذكرنا فضل كل سورة قبل تفسيرها ليكون ذلك باعثاً على حفظ القرآن وفهمه والعمل بما فيه والله المستعان]^(٢).

وقول ابن عباس فى تفسير المهيمن إنما يريد به البخارى قوله تعالى فى المائدة بعد ذكر التوراة والإنجيل: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]. قال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله:

حدثنا المثنى، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنى معاوية عن على - يعنى ابن أبى طلحة - عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ قال: المهيمن: الأمين. قال: القرآن أمين على كل كتاب قبله^(٣). وفى رواية: شهيدا عليه^(٤). وقال سفيان الثورى وغير واحد من الأئمة عن أبى إسحاق السبيعى، عن التميمى، عن ابن عباس: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ قال: مؤتمناً^(٥). وينحو ذلك قال مجاهد والسدى وقتادة وابن جريج والحسن البصرى وغير واحد من أئمة السلف. وأصل الهيمنة: الحفظ والارتقاب، يقال إذا رَقَبَ الرجل الشئ وحفظه وشهده: قد هيمن فلان عليه، فهو يهيمن هيمنة وهو عليه مهيمن، وفى أسماء الله تعالى: المهيمن، وهو الشهيد على كل شئ، والرقيب: الحفيظ بكل شئ.

وأما الحديث الذى أسنده البخارى: أنه، عليه السلام، أقام بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن، وبالمدينة عشراً، فهو مما انفرد به البخارى دون مسلم، وإنما رواه النسائى من حديث شيبان وهو ابن عبد الرحمن، عن يحيى وهو ابن أبى كثير، عن أبى سلمة عنها^(٦).

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا يزيد عن داود بن أبى هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا فى ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك فى عشرين سنة، ثم

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٨، ٤٩٧٩).

(٢) جاء فى م: «فجرنا على منواله وسننه مقتدين به» وما أثبتته من ط، ج.

(٣) تفسير الطبرى (٣٧٩/١٠) ط. المعارف.

(٤) تفسير الطبرى (٣٧٧/١٠) ط. المعارف.

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (٣٧٨/١٠) ط. المعارف.

(٦) سنن النسائى الكبرى برقم (٧٩٧٧).

قرأ ﴿وَقَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]. هذا إسناد صحيح^(١). أما إقامته بالمدينة عشرا فهذا ما لا خلاف فيه، وأما إقامته بمكة بعد النبوة فالمشهور ثلاث عشرة سنة؛ لأنه، عليه الصلاة والسلام، أوحى إليه وهو ابن أربعين سنة، وتوفى وهو ابن ثلاث وستين سنة على الصحيح، ويحتمل أنه حذف ما زاد على العشرة اختصارا في الكلام؛ لأن العرب كثيرا ما يحذفون الكسور في كلامهم، أو أنهما إنما اعتبرا قرن جبريل، عليه السلام، به عليه السلام. فإنه^(٢) قد روى الإمام أحمد أنه قرن به، عليه السلام، ميكائيل في ابتداء الأمر، يلقي إليه الكلمة والشيء، ثم قرن به جبريل.

ووجه مناسبة هذا الحديث بفضائل القرآن: أنه ابتدئ بنزوله في مكان شريف، وهو البلد الحرام، كما أنه كان في زمن شريف وهو شهر رمضان، فاجتمع له شرف الزمان والمكان؛ ولهذا يستحب إكثار تلاوة القرآن في شهر رمضان؛ لأنه ابتدئ نزوله فيه؛ ولهذا كان جبريل يعارض به رسول الله ﷺ في كل سنة في شهر رمضان، فلما كان في السنة التي توفى فيها عارضه به مرتين تأكيدا وتثبيتاً.

وأیضا فی هذا الحديث بیان أنه من القرآن مکی ومنه مدنی، فالمکی: ما نزل قبل الهجرة، والمدنی: ما نزل بعد الهجرة، سواء كان بالمدينة أو بغيرها من أى البلاد كان، حتى ولو كان بمكة أو عرفة. وقد أجمعوا على سور أنها من المکی وأخر أنها من المدنی، واختلفوا في آخر، وأراد بعضهم ضبط ذلك بضوابط في تقييدها عسر ونظر، ولكن قال بعضهم: كل سورة في أولها شيء من الحروف المقطعة فهي مكية إلا البقرة وآل عمران، كما أن كل سورة فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهي مدنية وما فيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾. فيحتمل أن يكون من هذا ومن هذا، والغالب أنه مكي. وقد يكون مدنيا كما في البقرة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا^(٣) رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢٠]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

قال أبو عبيد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا من سمع الأعمش يحدث عن إبراهيم بن علقمة: كل شيء في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه أنزل بالمدينة، وما كان ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فإنه أنزل بمكة^(٤). ثم قال: حدثنا علي بن معبد، عن أبي المليح، عن ميمون بن مهران، قال: ما كان في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ و﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ فإنه مكي، وما كان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه مدني^(٥).

ومنهم من يقول: إن بعض السور نزل مرتين، مرة بالمدينة ومرة بمكة، والله أعلم. ومنهم من يستثنى من المكي آيات يدعى أنها من المدني، كما في سورة الحج وغيرها.

والحق في ذلك ما دل عليه الدليل الصحيح، فالله أعلم. وقال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن

(١) فضائل القرآن (ص ٢٢٢) ورواه الحاكم في المستدرک (٢/ ٢٢٢) من طريق يزيد بن هارون به، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(٢) في م: «اتقوا» وهو خطأ.

(٣) في ط: «فكانه».

(٤، ٥) فضائل القرآن (ص ٢٢٢).

صالح، عن معاوية بن صالح بن علي بن أبي طلحة، قال: نزلت بالمدينة سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والحج، والنور، والأحزاب، والذين كفروا، والفتح، والحديد، والمجادلة، والحشر، والمتحنة، والحواريون، والتغابن، و﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ و﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ والفجر، ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَى﴾ و﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ و﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ و﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ و﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ وسائر ذلك بمكة^(١).

وهذا إسناد صحيح عن ابن أبي طلحة مشهور، وهو أحد أصحاب ابن عباس الذين رواوا عنه التفسير، وقد ذكر في المدنى سورا فى كونها مدنية نظر، وفاته الحجرات والمعوذات.

الحديث الثانى: وقال البخارى: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا معتمر قال: سمعت أبى عن أبى عثمان قال: أنبت أن جبريل، عليه السلام، أتى النبى ﷺ وعنده أم سلمة، فجعل يتحدث، فقال النبى ﷺ: «من هذا؟» أو كما قال، قالت: هذا دحية الكلبي، فلما قام قلت: والله ما حسبه إلا إياه، حتى سمعت خطبة النبى ﷺ يُخبر خبر جبريل. أو كما قال، قال أبى: فقلت لأبى عثمان: ممن سمعت هذا؟ فقال: من أسامة بن زيد. وهكذا رواه أيضا فى علامات النبوة عن عباس بن الوليد النرسى، ومسلم فى فضائل أم سلمة عن عبد الأعلى بن حماد [ومحمد بن عبد الأعلى]^(٢) كلهم عن معتمر بن سليمان به^(٣).

والغرض من إيراد هذا الحديث هاهنا أن السفير بين الله وبين محمد ﷺ جبريل عليه السلام وهو ملك كريم ذو وجهة وجلالة ومكانة كما قال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ . وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ الآيات [التكوير: ١٩ - ٢٢]. فمدح الرب تبارك وتعالى عبديه ورسوليه جبريل ومحمداً ﷺ وسنستقصى الكلام على تفسير هذا الكتاب^(٤) فى موضعه إذا وصلنا إليه إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

وفى الحديث فضيلة عظيمة لأم سلمة، رضى الله عنها - كما بينه مسلم رحمه الله - لرؤيتها لهذا الملك العظيم، وفضيلة أيضا لدحية بن خليفة الكلبي، وذلك أن جبريل، عليه السلام، كان كثيرا ما يأتى رسول الله ﷺ على صورة دحية وكان جميل الصورة، رضى الله عنه، وكان من قبيلة أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي، كلهم ينسبون إلى كلب بن وبرة وهم قبيلة من قضاة، وقضاة قيل: إنهم من عدنان، وقيل: من قحطان، وقيل: بطن مستقل بنفسه، والله أعلم.

(١) فضائل القرآن (ص ٢٢١).

(٢) زيادة من ج، م.

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٨٠)، (٣٦٣٤)، وصحيح مسلم برقم (٢٤٥١).

(٤) فى جـ. «المكان».

الحديث الثالث: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليث بن سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»^(٢).

ورواه أيضا في [كتاب] ^(٣) الاعتصام عن عبد العزيز بن عبد الله ومسلم والنسائي عن قتيبة جميعا، عن الليث بن سعد، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبيه - واسمه كيسان المقبري - به.

وفى هذا الحديث فضيلة عظيمة للقرآن المجيد على كل معجزة أعطيها نبي من الأنبياء، وعلى كل كتاب أنزله، وذلك أن معنى الحديث: ما من نبي إلا أعطى من المعجزات ما آمن عليه البشر، أى: ما كان دليلا على تصديقه فيما جاءهم به واتبعه من أتباعه من البشر، ثم لما مات الأنبياء لم يبق لهم معجزة بعدهم إلا ما يحكيه أتباعهم عما شاهدوه فى زمانه، فأما الرسول الخاتم للرسالة محمد ﷺ فإنما كان معظم ما آتاه الله وحيا منه إليه منقولا إلى الناس بالتواتر، ففى كل حين هو كما أنزل، فلماذا قال: «فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا»، وكذلك وقع، فإن أتباعه أكثر من أتباع الأنبياء لعموم رسالته ودوامها إلى قيام الساعة، واستمرار معجزته؛ ولهذا قال الله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣] ثم تحداهم إلى أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]، وقصر التحدى على هذا المقام فى السور ^(٤) المكية كما ذكرنا وفى المدنية أيضا كما فى سورة البقرة، حيث يقول تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤] فأخبرهم بأنهم عاجزون عن معارضته بمثله، وأنهم لا يفعلون ذلك فى المستقبل أيضا، وهذا وهم أفصح الخلق وأعلمهم بالبلاغة والشعر وقريض الكلام وضروبه، لكن جاءهم من الله مالا قبل لأحد من البشرية من الكلام الفصيح البليغ، الوجيز، المحتوى على العلوم الكثيرة الصحيحة النافعة، والأخبار الصادقة عن الغيوب الماضية والآتية، والأحكام العادلة والمحكمة، كما قال تعالى: ﴿وَوَسَّتُ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبى، حدثنا محمد بن إسحاق قال: ذكر محمد بن كعب القرظى عن الحارث بن عبد الله الأعور قال: قلت: لآتين أمير المؤمنين، فلا سأله عما سمعت العشية [قال] ^(٥): فجئته بعد العشاء، فدخلت عليه، فذكر الحديث. قال: ثم

(١) فى ج: «رسول الله».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٩٨١)، (٧٢٧٤).

(٣) زيادة من ج.

(٤) فى ج، ط: «السورة».

(٥) زيادة من ج، هـ.

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أتاني جبريل فقال: يا محمد، أمتك مختلفة بعدك». قال: «فقلت له: فأين المخرج يا جبريل؟» قال: فقال: «كتاب الله به يقصم الله كل جبار، من اعتصم به نجا، ومن تركه هلك، مرتين، قول فصل وليس بالهزل، لا تخلقه الألسن، ولا تنفى عجائبه، فيه نبأ من كان قبلكم، وفصل ما بينكم، وخبر ما هو كائن بعدكم» هكذا رواه الإمام أحمد^(١). وقال أبو عيسى الترمذى: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا حسين بن علي الجعفي، حدثنا حمزة الزيات، عن أبي المختار الطائي، عن ابن أخي الحارث الأعور، عن الحارث الأعور، قال: مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث فدخلت على علي فقلت: يا أمير المؤمنين، ألا ترى الناس قد خاضوا في الأحاديث؟ قال: أو قد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: أما إنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون فتنة» فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ١، ٢]، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم». خذها إليك يا أعور، ثم قال: هذا حديث غريب لانعرفه إلا من حديث حمزة الزيات، وإسناده مجهول وفي حديث الحارث مقال^(٢).

قلت: لم ينفرد بروايته حمزة بن حبيب الزيات، بل قد رواه محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظي، عن الحارث الأعور، فبرئ حمزة من عهده، على أنه وإن كان ضعيف الحديث إلا أنه إمام في القراءة والحديث، مشهور من رواية الحارث الأعور وقد تكلموا فيه، بل قد كذبه بعضهم من جهة رأيه واعتقاده، أما إنه تعمد الكذب في الحديث فلا، والله أعلم.

وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين على، رضى الله عنه، وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح على أنه قد روى له شاهد عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ.

قال الإمام العلم أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه فضائل القرآن: حدثنا أبو اليقظان، حدثنا عمار بن محمد الثوري أو غيره عن أبي إسحاق الهجري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «إن هذا القرآن مأدبة الله تعالى فتعلموا من مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله عز وجل، وهو النور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه، لا يعوج فيقوم، لا يزيغ فيستعيب، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، فاتلوه، فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنة، أما إنني لا أقول لكم آلف حرف، ولكن ألف عشر، ولام عشر، وميم عشر»^(٣). وهذا غريب من هذا الوجه، وقد رواه محمد بن فضيل عن أبي إسحاق

(١) المسند (٩١/١).

(٢) سنن الترمذى برقم (٢٩٠٦).

(٣) فضائل القرآن (ص ٢١) ورواه الحاكم في المستدرک (١/٥٥٥) من طريق الهجرى به.

الهجرى، واسمه إبراهيم بن مسلم، وهو أحد التابعين، ولكن تكلموا فيه كثيرا.

وقال أبو حاتم الرازى: لين ليس بالقوى. وقال أبو الفتح الأزدي: رَفَاع كثير الوهم. قلت: فيحتمل، والله أعلم، أن يكون وهم فى رفع هذا الحديث، وإنما هو من كلام ابن مسعود، ولكن له شاهد من وجه آخر، والله أعلم.

وقال أبو عبيد أيضا: حدثنا حجاج عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله بن مسعود قال: لا يسأل عبد عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فإنه يحب الله ورسوله^(١).

الحديث الرابع: قال البخارى: حدثنا عمرو بن محمد، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبي، عن صالح بن كيسان، عن ابن^(٢) شهاب، قال: أخبرني أنس بن مالك أن الله تابع الوحي على رسوله ﷺ قبل وفاته حتى توفاه أكثر ما كان الوحي، ثم توفى رسول الله ﷺ بعد. وهكذا رواه مسلم عن عمرو بن محمد هذا - وهو الناقد - وحسن الحلوانى وعبد بن حميد والنسائى عن إسحاق ابن منصور الكوسج، أربعتهم عن يعقوب بن إبراهيم بن سعد الزهرى به^(٣).

ومعناه: أن الله تعالى تابع نزول الوحي على رسول الله ﷺ شيئا بعد شيء كل وقت بما يحتاج إليه، ولم تقع فترة بعد الفترة الأولى التى كانت بعد نزول الملك أول مرة بقوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] فإنه استلبت الوحي بعدها حينما يقال: قريبا من سنتين أو أكثر، ثم حمى الوحي وتتابع، وكان أول شيء نزل بعد تلك الفترة ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر: ١، ٢].

الحديث الخامس: حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان عن الأسود بن قيس قال: سمعت جندبا يقول: اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأثته امرأة فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا تركك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالضُّحَى. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى. مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ١-٣]^(٤).

وقد رواه البخارى فى غير موضع أيضا، ومسلم والترمذى والنسائى من طرق آخر^(٥)، عن سفيان - وهو الثورى - وشعبة بن الحجاج كلاهما عن الأسود بن قيس العبدى، عن جندب بن عبد الله البجلي، به. وسيأتى الكلام على هذا الحديث فى تفسير سورة الضحى إن شاء الله تعالى.

والمناسبة فى ذكر هذا الحديث والذى قبله فى فضائل القرآن: أن الله تعالى له برسوله عناية

(١) فضائل القرآن (ص ٢١).

(٢) فى ط، ج: «أبى».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٨٢) وصحيح مسلم برقم (٣٠١٦).

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٩٨٣).

(٥) صحيح البخارى برقم (١١٢٥، ٤٩٥٠، ٤٩٥١) وصحيح مسلم برقم (١٧٩٧) وسنن الترمذى برقم (٣٣٤٥) وسنن النسائى

الكبرى برقم (١١٦٨١).

عظيمة ومحبة شديدة، حيث جعل الوحي متابعا عليه ولم يقطعه عنه؛ ولهذا إنما أنزل عليه القرآن مفرقا ليكون ذلك فى أبلغ العناية والإكرام.

قال البخارى، رحمه الله: نزل القرآن بلسان قريش والعرب، قرأنا عربيا، بلسان عربى مبين، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب^(١)، عن الزهرى: أخبرنى أنس بن مالك قال: فأمر عثمان بن عفان زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن ينسخوها فى المصاحف، وقال لهم: إذا اختلفتم أنتم وزيد فى عربية من عربية القرآن، فاكتبوها بلسان قريش، فإن القرآن نزل بلسانهم، ففعلوا^(٢).

هذا الحديث قطعة من حديث سيأتى قريبا والكلام عليه ومقصود البخارى منه ظاهر، وهو أن القرآن نزل بلغة قريش، وقريش خلاصة العرب؛ ولهذا قال أبو بكر بن أبى داود: حدثنا عبد الله بن محمد بن خلاد، حدثنا يزيد، حدثنا شيان، عن عبد الملك بن عمير، عن جابر بن سمرة، قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: لا يلى فى مصاحفنا هذه إلا غلمان قريش أو غلمان ثقيف. وهذا إسناد صحيح^(٣). وقال أيضا: حدثنا إسماعيل بن أسد، حدثنا هوزة، حدثنا عوف، عن عبد الله بن فضالة، قال: لما أراد عمر أن يكتب الإمام أقعد له نفرا من أصحابه وقال: إذا اختلفتم فى اللغة فاكتبوها بلغة مضر، فإن القرآن نزل بلغة رجل من مضر^(٤)، وقد قال الله تعالى: ﴿قُرْأَنَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ الآية [فصلت: ٤]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

ثم ذكر البخارى، رحمه الله، حديث يعلى بن أمية أنه كان يقول: ليتنى أرى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه الوحي. فذكر الحديث الذى سأل عن أحرم بعمره وهو متمطخ بطيب وعليه جبة، وقال: فنظر رسول الله ﷺ ساعة ثم فجأه الوحي، فأشار عمر إلى يعلى أى: تعال، فجاء يعلى، فأدخل رأسه فإذا هو محمر الوجه يغط كذلك ساعة، ثم سرى عنه، فقال: «أين الذى سألنى عن العمرة أنفا؟» فذكر أمره بنزع الجبة وغسل الطيب.

وهذا الحديث رواه جماعة^(٥) من طرق عديدة^(٦)، والكلام عليه فى كتاب الحج، ولا تظهر مناسبة ما بينه وبين هذه الترجمة، ولا يكاد، ولو ذكر فى الترجمة التى قبلها لكان أظهر وأبين، والله أعلم.

(١) فى ج: «سفيان».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٩٨٤).

(٣) المصاحف (ص ١٧).

(٤) المصاحف (ص ١٧).

(٥) ط، ج: «الجماعة».

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٩٨٥)، وبرقم (١٨٤٧، ١٧٨٩) وصحيح مسلم برقم (١١٨٠) وسنن أبى داود برقم (١٨١٩، ١٨٢٠).

وسنن الترمذى برقم (٨٣٦) وسنن النسائى (١٣٠/٥).

جمع القرآن

قال المؤلف، رحمه الله^(١): فائدة جليلة حسنة: ثبت في الصحيحين عن أنس قال: جمع القرآن على عهد النبي ﷺ أربعة، كلهم من الأنصار؛ أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. ف قيل له: من أبو زيد؟ قال: أحد عمومتى. وفي لفظ للبخارى عن أنس قال: مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة؛ أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، ونحن ورثناه.

قلت: أبو زيد هذا ليس بمشهور؛ لأنه مات قديماً، وقد ذكره في أهل بدر، وقال بعضهم: سعيد ابن عبيد. ومعنى قول أنس: «ولم يجمع القرآن». يعنى من الأنصار سوى هؤلاء، وإلا فمن المهاجرين جماعة كانوا يجمعون القرآن كالصديق، وابن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة وغيرهم.

قال الشيخ أبو الحسن الأشعري، رحمه الله: قد علم بالاضطرار أن رسول الله ﷺ قدم أبا بكر في مرض الموت ليصلى بالناس، وقد ثبت في الخبر المتواتر أن رسول الله ﷺ قال: «ليوم القوم أقرؤهم»^(٢)، فلو لم يكن الصديق أقرأ القوم لما قدمه عليهم. نقله أبو بكر بن زنجويه في كتاب فضائل الصديق عن الأشعري.

وحكى القرطبي في أوائل تفسيره عن القاضي أبي بكر الباقلاني أنه قال - بعد ذكره حديث أنس ابن مالك هذا -: فقد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان، وعلي، وتميم الداري، وعبد الله بن الصامت، وعبد الله بن عمرو بن العاص. فقول أنس: «لم يجمعه غير أربعة» يحتمل لم يأخذه تلقياً من في رسول الله ﷺ غير هؤلاء الأربعة، وأن بعضهم تلقى بعضه عن بعض. قال: وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ لأجل سبقهم إلى الإسلام، وإعظام الرسول لهم^(٣).

قال القرطبي: لم يذكر القاضي ابن مسعود وسالماً مولى أبي حذيفة، وهما ممن جمع القرآن^(٤). [نقلت هذه من على ظهر الجزء الأول من أجزاء المؤلف]^(٥) ١. هـ.

حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم بن سعد، حدثنا ابن شهاب، عن عبيد بن السباق، أن زيد بن ثابت قال: أرسل إلى أبو بكر - مقتل أهل اليمامة - فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر: إن عمر بن الخطاب أتاني، فقال: إن القتل قد استحرَّ بقرء القرآن، وإنني أخشى أن يستحر القتل بالقرء في المواطن فيذهب كثير من القرآن، وإنني أرى أن تأمر بجمع القرآن. فقلت لعمر: كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خير فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدرى لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد

(١) في م: «قال المؤلف، رحمه الله، فيما وجد على ظهر الجزء الأول من تفسيره» وسيأتي هذا في ط في آخر الفائدة.

(٢) رواه مسلم في صحيحه برقم (٦٧٢) من حديث عقبة بن عمرو، رضى الله عنه.

(٣) (٤) تفسير القرطبي (٥٧/١).

(٥) زيادة من ط.

كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير. فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر، رضى الله عنهما. فتتبع القرآن أجمعه من العُسْب واللِّخَاف وصدور الرجال، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع غيره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر، رضى الله عنهم^(١).

وقد روى البخارى هذا [الحديث]^(٢) فى غير موضع من كتابه، ورواه الإمام أحمد والترمذى والنسائى من طرق عن الزهرى به^(٣).

وهذا من أحسن وأجل وأعظم ما فعله الصديق، رضى الله عنه، فإنه أقامه الله بعد النبى ﷺ مقاماً لا ينبغي لأحد بعده، قاتل الأعداء من مانعى الزكاة، المرتدين، والفرس والروم، ونفذ الجيوش، وبعث البعث والسرايا، ورد الأمر إلى نصابه بعد الخوف من تفرقه وذهابه، وجمع القرآن العظيم من أماكنه المتفرقة حتى تمكن القارئ من حفظه كله، وكان هذا من سر قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فجمع الصديق الخير وكف الشرور، رضى الله عنه وأرضاه. ولهذا روى غير واحد من الأئمة منهم وكيع وابن زيد وقبيصة عن سفيان الثورى عن إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير عن عبد خير، عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، أنه قال: أعظم الناس أجراً فى المصاحف أبو بكر، إن أباً بكر كان أول من جمع القرآن بين اللوحين^(٤). إسناده صحيح.

وقال أبو بكر بن أبى داود فى كتاب المصاحف: حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا عبدة، عن هشام، عن أبيه، أن أباً بكر هو الذى جمع القرآن بعد النبى ﷺ، يقول: ختمه^(٥). صحيح أيضاً. وكان عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، هو الذى تنبه لذلك لما استحر القتل بالقراء، أى اشتد القتل وكثر فى قراء القرآن يوم اليمامة، يعنى يوم اليمامة، يعنى يوم قتال مسيلمة الكذاب وأصحابه ومن بنى حنيفة بأرض اليمامة فى حديقة الموت، وذلك أن مسيلمة التف معه من المرتدين قريب من مائة ألف، فجهز الصديق لقتاله خالد بن الوليد فى قريب من ثلاثة عشر ألفاً، فالتقوا معهم^(٦)، فانكشف الجيش الإسلامى لكثرة من فيه من الأعراب، فنادى القراء من كبار الصحابة: يا خالد، يقولون: ميزنا من هؤلاء الأعراب فتميزوا^(٧) منهم، وانفردوا، فكانوا قريباً من ثلاثة آلاف، ثم صدقوا الحملة، وقاتلوا قتالاً شديداً، وجعلوا يتنادون: يا أصحاب سورة البقرة، فلم يزل ذلك دأبهم حتى فتح الله

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٨٦).

(٢) زيادة من جـ.

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٧٩، ٤٩٨٩) والمسند (١/ ١٠) وسنن الترمذى برقم (٣١٠٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (٧٩٩٥).

(٤) رواه أبو عبيد فى فضائل القرآن (ص ١٥٦) وابن أبى داود فى المصاحف (ص ١١).

(٥) المصاحف (ص ١٢).

(٦) فى جـ: «بهم».

(٧) فى جـ: «فميزوا».

عليهم وولّى جيش الكفار^(١) فارا، وأتبعهم السيوف المسلمة فى [أقنيتهم]^(٢) قتلا وأسرا، وقتل الله مسيلمة، وفرق شمل أصحابه، ثم رجعوا إلى الإسلام، ولكن قتل من القراء يومئذ قريب من خمسمائة، رضى الله عنهم، فلهذا أشار عمر على الصديق بأن يجمع القرآن؛ لئلا يذهب منه شيء بسبب موت من يكون يحفظه من الصحابة بعد ذلك فى مواطن القتال، فإذا كتب وحفظ صار ذلك محفوظا فلا فرق بين حياة من بلغه أو موته، فراجع الصديق قليلا ليثبت فى الأمر، ثم وافقه، وكذلك راجعهما زيد بن ثابت فى ذلك ثم صارا^(٣) إلى ما رأياه، رضى الله عنهم أجمعين، وهذا المقام من أعظم فضائل زيد بن ثابت الأنصارى؛ ولهذا قال أبو بكر بن أبى داود: حدثنا عبد الله بن محمد بن خلّاد، حدثنا يزيد، حدثنا مبارك بن فضالة، عن الحسن؛ أن عمر بن الخطاب سأل عن آية من كتاب الله فقليل: كانت مع فلان فقتل يوم اليمامة، فقال: إنا لله، فأمر بالقرآن فجمع فكان أول من جمعه فى المصحف^(٤).

هذا منقطع، فإن الحسن لم يدرك عمر، ومعناه: أشار بجمعه فجمع؛ ولهذا كان مهيمنا على حفظه وجمعه كما رواه ابن أبى داود حيث قال: حدثنا أبو الطاهر^(٥)، حدثنا ابن وهب، حدثنا عمر ابن طلحة الليثى، عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، أن عمر لما جمع القرآن كان لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شاهدان^(٦).

وذلك عن أمر الصديق له فى ذلك، كما قال أبو بكر بن أبى داود: حدثنا أبو الطاهر، حدثنا ابن وهب، أخبرنى ابن أبى الزناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: لما استحر القتل بالقراء يومئذ فرق أبو بكر، رضى الله عنه، أن يضيع، فقال لعمر بن الخطاب ولزيد بن ثابت: فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه^(٧). منقطع حسن.

ولهذا قال زيد بن ثابت: وجدت آخر سورة التوبة، يعنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ إلى آخر الآيتين [التوبة: ١٢٨، ١٢٩] مع أبى خزيمة الأنصارى، وفى رواية: مع خزيمة بن ثابت الذى جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادتين لم أجدها مع غيره فكتبوها عنه لأنه جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادتين فى قصة الفرس التى ابتاعها رسول الله ﷺ من الأعرابى، فأنكر الأعرابى البيع، فشهد خزيمة هذا بتصديق رسول الله ﷺ، فأمضى شهادته وقبض الفرس من الأعرابى. والحديث رواه أهل السنن^(٨) وهو مشهور، وروى أبو جعفر الرازى عن الربيع عن أبى العالية أن أبى ابن كعب أملاها عليهم مع خزيمة بن ثابت^(٩).

وقد روى ابن وهب عن عمرو^(١٠) بن طلحة الليثى، عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن يحيى

(٣) فى ط: «صاروا».

(٢) فى ط: «أقنيتهم».

(١) فى ج: «الكفر».

(٤) المصاحف (ص ١٦).

(٥) فى ج: «الظاهر».

(٦) المصاحف (ص ١٧).

(٧) المصاحف (ص ١٢).

(٨) سنن أبى داود برقم (٣٦٠٧) وسنن النسائى (٣٠٢/٧).

(٩) رواه أحمد فى المسند (١٣٤/٥) من طريق عمر بن شقيق عن أبى جعفر به.

(١٠) فى ط: «عمر».

ابن عبد الرحمن بن حاطب؛ أن عثمان شهد بذلك أيضاً^(١).

وأما قول زيد [بن ثابت]^(٢): «فتبعت القرآن أجمعه من العُسْب واللَّخاف وصدور الرجال» وفي رواية: «من العُسْب والرَّقاع والأضلاع»، وفي رواية: «من الأكتاف والأقتاب وصدور الرجال».

أما العُسْب فجمع عسيب. قال أبو النصر إسماعيل بن حماد الجوهري: وهو من السعف فوق الكَرْب لم ينبت عليه الخوص، وما نبت عليه الخوص فهو السعف.

واللَّخاف: جمع لَخْفَة وهي القطعة من الحجارة مستدقة، كانوا يكتبون عليها وعلى العُسْب وغير ذلك، مما يمكنهم الكتابة عليه مما يناسب ما يسمعون من القرآن من رسول الله ﷺ.

ومنهم من لم يكن يحسن الكتابة أو يثق بحفظه، فكان يحفظه، فتلقاه زيد بن ثابت من هذا من عسيبه، ومن هذا من لخافه، ومن صدر هذا، أى من حفظه وكانوا أحرص شيء على أداء الأمانات وهذا من أعظم الأمانة؛ لأن رسول الله ﷺ أودعهم ذلك ليبلغوه إلى من بعده كما قال [الله]^(٣) تعالى: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» [المائدة: ٦٧]، ففعل، صلوات الله وسلامه عليه، ما أمر به؛ ولهذا سألهم في حجة الوداع يوم عرفة على رؤوس الأشهاد والصحابة أوفر ما كانوا مجتمعين، فقال: «إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون»^(٤). فقالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يشير بأصبعه إلى السماء، وينكبها عليهم ويقول: «اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد». رواه مسلم عن جابر^(٥). وقد أمر أمته أن يبلغ الشاهد الغائب وقال: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»^(٦) يعنى: ولو لم يكن مع أحدكم سوى آية واحدة فليؤدها إلى من وراءه، فبَلِّغُوا عنه ما أمرهم به، فأدوا القرآن قرآناً، والسنة سنة، لم يلبسوا هذا بهذا؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «من كتب عني سوى القرآن فليمحاه»^(٧) أى: لثلا يختلط بالقرآن، وليس معناه: ألا يحفظوا السنة ويرووها، والله أعلم.

فلهذا نعلم بالضرورة أنه لم يبق من القرآن مما أداه الرسول ﷺ إليهم إلا وقد بلغوه إلينا، والله الحمد والمنة، فكان الذى فعله الشيخان أبو بكر وعمر، رضى الله عنهما، من أكبر المصالح الدينية وأعظمها، من حفظهما كتاب الله فى الصحف؛ لئلا يذهب منه شيء بموت من تلقاه عن رسول الله ﷺ، ثم كانت تلك الصحف عند الصديق أيام حياته، ثم أخذها عمر بعده محروسة معظمة مكرمة، فلما مات كانت عند حفصة أم المؤمنين، رضى الله عنها، حتى أخذها منها أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

قال البخارى، رحمه الله: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم، حدثنا ابن شهاب، عن

(١) رواه ابن أبى داود فى المصاحف (ص ١٧).

(٢) (٢، ٣) زيادة من م.

(٤) فى ط، ج: «مجيون».

(٥) صحيح مسلم برقم (١٢١٨).

(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو، رضى الله عنهما.

(٧) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٢٩٩) من حديث أبى سعيد، رضى الله عنه.

أنس بن مالك، حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان بن عفان رضى الله عنهما وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفرغ حذيفة اختلافهم فى القراءة. فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد ابن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما أنزل بلسانهم. ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن فى محل صحيفة أو مصحف أن يحرق. قال ابن شهاب الزهري: فأخبرني خارجة ابن زيد بن ثابت: سمع زيد بن ثابت قال: فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، التمسناها فوجدناها مع خزيمه بن ثابت الأنصارى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، فألحقناها فى سورتها فى المصحف^(١).

وهذا - أيضا - من أكبر مناقب أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه، فإن الشيخين سبقاه إلى حفظ القرآن أن يذهب منه شىء وهو جمع الناس على قراءة واحدة؛ لئلا يختلفوا فى القرآن، ووافقه على ذلك جميع الصحابة، وإنما روى عن عبد الله^(٢) بن مسعود شىء من التغضب بسبب أنه لم يكن ممن كتب المصاحف وأمر أصحابه بغل مصاحفهم لما أمر عثمان بحرقه ماعدا المصحف الإمام، ثم رجع ابن مسعود إلى الوفاق حتى قال على بن أبى طالب، رضى الله عنه: لولم يفعل ذلك عثمان لفعلته أنا. فاتفق الأئمة^(٣) أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، رضى الله عنهم، على أن ذلك من مصالح الدين، وهم الخلفاء الذين قال رسول الله ﷺ: «عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى»^(٤). وكان السبب فى هذا حذيفة بن اليمان، رضى الله عنه لما^(٥) كان غازيا فى فتح أرمينية وأذربيجان، وكان قد اجتمع هناك أهل الشام والعراق وجعل حذيفة يسمع منهم قراءات على حروف شتى، ورأى منهم اختلافا وافتراقا، فلما رجع إلى عثمان أعلمه وقال لعثمان: أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى.

وذلك أن اليهود والنصارى مختلفون فيما بأيديهم من الكتب، فاليهود بأيديهم نسخة من التوراة، والسامرة يخالفونهم فى ألفاظ كثيرة ومعان أيضا، وليس فى توراة السامرة حرف الهمزة ولا حرف الياء، والنصارى - أيضا - بأيديهم توراة يسمونها العتيقة وهى مخالفة لنسختى اليهود والسامرة، وأما

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٨٧، ٤٩٨٨).

(٢) فى ط، ج: «عبد الرحمن».

(٣) رواه أحمد فى المسند (١٢٦/٤) وأبو داود فى السنن برقم (٤٦٠٧) والترمذى فى السنن برقم (٢٦٧٦) وقال الترمذى: «حديث حسن صحيح».

(٥) فى ط، ج: «فإنه».

الأنجيل التي بأيدي النصارى فأربعة: إنجيل مرقس، وإنجيل لوقا وإنجيل متى، وإنجيل يوحنا، وهي مختلفة - أيضا - اختلافا كثيرا، وهذه الأنجيل الأربعة كل منها لطيف الحجم منها ما هو قريب من أربع عشرة ورقة بخط متوسط، ومنها ما هو أكثر من ذلك إما بالنصف أو بالضعف، ومضمونها سيرة عيسى وأيامه وأحكامه وكلامه وفيه شيء قليل مما يدعون أنه كلام الله، وهي مع هذا مختلفة، كما قلنا، وكذلك التوراة مع ما فيها من التبديل والتحريف، ثم هما منسوخان بعد ذلك بهذه الشريعة المحمدية المطهرة.

فلما قال حذيفة لعثمان ذلك أفزعه وأرسل إلى حفصة أم المؤمنين أن ترسل إليه بالصحف التي عندها مما جمعه الشيخان ليكتب ذلك في مصحف واحد، وينفذه إلى الآفاق، ويجمع الناس على القراءة به وترك ما سواه، ففعلت حفصة وأمر عثمان هؤلاء الأربعة وهم زيد بن ثابت الأنصاري، أحد كتاب الوحي لرسول الله ﷺ، وعبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي، أحد فقهاء الصحابة ونجبائهم علما وعملا وأصلا وفضلا، وسعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية القرشي الأموي، وكان كريما جوادا ممدحا، وكان أشبه الناس لهجة برسول الله ﷺ وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي، فجلس هؤلاء نفر يكتبون القرآن نسخا، وإذا اختلفوا في وضع الكتابة على أي لغة رجعوا إلى عثمان، كما اختلفوا في التابوت أكتبونه بالتاء والهاء، فقال زيد بن ثابت: إنما هو التابوه. وقال الثلاثة القرشيون: إنما هو التابوت فراجعوا^(١) إلى عثمان فقال: اكتبوه بلغة قريش، فإن القرآن نزل بلغتهم.

وكان عثمان - والله أعلم - رتب السور في المصحف، وقدم السبع الطوال وثني بالمئين؛ ولهذا روى ابن جرير وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث غير واحد من الأئمة الكبار، عن عوف الأعرابي، عن يزيد الفارسي، عن ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينها ولم تكتبوا بينها سطر «بسم الله الرحمن الرحيم»، ووضعتموها في السبع الطوال؟ ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، فإذا أنزلت عليه الآية فيقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، وحسبت أنها منها وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر «بسم الله الرحمن الرحيم» فوضعتها في السبع الطوال^(٢).

(١) في ط: «فراجعوا».

(٢) تفسير الطبري (١٠٢/١) وسنن أبي داود برقم (٧٨٦) وسنن الترمذي برقم (٣٠٨٦) وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٠٠٧) ويزيد الفارسي مجهول وقد انفرد بهذا الحديث.

ففهم من هذا الحديث أن ترتيب الآيات والصور أمر توقيفي متلقى عن الرسول ﷺ، وأما ترتيب السور فمن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه؛ ولهذا ليس لأحد أن يقرأ القرآن إلا مرتباً؛ فإن نكسه أخطأ خطأ كبيراً. وأما ترتيب السور فمستحب اقتداء بعثمان، رضى الله عنه، والأولى إذا قرأ أن يقرأ متوالياً كما قرأ عليه، الصلاة والسلام، فى صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين وتارة بسبح وهل أتاك حديث الغاشية، فإن فرق جاز، كما صح أن رسول الله ﷺ قرأ فى العيد بقاف واقتربت الساعة، رواه مسلم عن أبى واقد^(١) فى الصحيحين عن أبى هريرة، رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة: الم السجدة، وهل أتى على الإنسان^(٢).

وإن قدم بعض السور على بعض جاز أيضاً، فقد روى حذيفة أن رسول الله ﷺ قرأ البقرة ثم النساء ثم آل عمران. أخرجه مسلم^(٣).

وقرأ عمر فى الفجر بسورة النحل ثم بيوسف. ثم إن عثمان رد المصحف إلى حفصة، فلم تزل عندها حتى أرسل إليها مروان بن الحكم يطلبها فلم تعطه حتى ماتت، فأخذها من عبد الله بن عمر فحرقها لثلاث يكون فيها شيء يخالف المصاحف التى نفذها عثمان إلى الآفاق، مصحفاً إلى أهل مكة، ومصحفاً إلى البصرة، وآخر إلى الكوفة، وآخر إلى الشام، وآخر إلى اليمن، وآخر إلى البحرين، وترك عند أهل المدينة مصحفاً، رواه أبو بكر بن أبى داود عن أبى حاتم السجستاني، سمعه يقول^(٤). وصحح القرطبي أنه إنما نفذ إلى الآفاق أربعة مصاحف. وهذا غريب، وأمر بما عدا ذلك من مصاحف الناس أن يحرق لثلاث تختلف قراءات الناس فى الآفاق، وقد وافقه الصحابة فى عصره على ذلك ولم ينكره أحد منهم، وإنا نقم عليه ذلك أولئك الرهط الذين تمالؤوا عليه وقتلوه، قاتلهم الله، وفى ذلك جملة ما أنكروه مما لا أصل له، وأما سادات المسلمين من الصحابة، ومن نشأ فى عصرهم ذلك من التابعين، فكلهم وافقوه.

قال أبو داود الطيالسى وابن مهدي وغندر عن شعبة، عن علقمة بن مرثد، عن رجل، عن سويد ابن غفلة، قال على حين حرق عثمان المصاحف: لو لم يصنعه هو لصنعه^(٥).

وقال أبو بكر بن أبى داود: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا شعبة عن أبى إسحاق^(٦)، عن مصعب بن سعد بن أبى وقاص، قال: أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف فأعجبهم ذلك، أو قال: لم ينكر ذلك منهم أحد^(٧). وهذا إسناد صحيح.

وقال أيضاً: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الصواف، حدثنا يحيى بن كثير، حدثنا ثابت بن عمارة

(١) صحيح مسلم برقم (٨٩١).

(٢) صحيح البخارى برقم (٨٩١) وصحيح مسلم برقم (٨٨٠).

(٣) صحيح مسلم برقم (٧٧٢).

(٤) المصاحف لابن أبى داود (ص ٤٣).

(٥) رواه ابن أبى داود فى المصاحف (ص ١٩).

(٦) المصاحف (ص ١٩).

(٧) فى ج: «أبى مصعب».

الحنفى، قال: سمعت غنيم بن قيس المازنى قال: قرأت القرآن على الحرفين جميعا، والله ما يسرنى أن عثمان لم يكتب المصحف، وأنه ولد لكل مسلم كلما أصبح غلام، فأصبح له مثل ماله. قال: قلنا له: يا أبا العنبر، ولم؟ قال: لو لم يكتب عثمان المصحف لطفق الناس يقرؤون الشعر^(١).

حدثنا يعقوب بن سفيان، حدثنا محمد بن عبد الله، حدثني عمران بن حدير، عن أبي مجلز قال: لولا أن عثمان كتب القرآن لألفت الناس يقرؤون الشعر. حدثنا أحمد بن سنان قال: سمعت ابن مهدي يقول: خصلتان لعثمان بن عفان ليستا لأبى بكر ولا لعمر: صبره نفسه حتى قتل مظلوماً، وجمعه الناس على المصحف^(٢).

وأما عبد الله بن مسعود فقد قال إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن حميد^(٣) بن مالك قال: لما أمر عثمان بالمصاحف - يعنى بتحريقها - ساء ذلك عبد الله بن مسعود وقال: من استطاع منكم أن يغل مصحفاً فليغلل، فإنه من غل شيئاً جاء بما غل يوم القيامة.

ثم قال عبد الله: لقد قرأت القرآن من في رسول الله ﷺ سبعين سورة وزيد صبي، أفأترك ما أخذت من في رسول الله ﷺ^(٤).

وقال أبو بكر: حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان، حدثنا سعيد بن سليمان^(٥)، حدثنا ابن شهاب، عن الأعمش، عن أبي وائل، قال: خطبنا ابن مسعود على المنبر فقال: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]، غلوا مصاحفكم، وكيف تأمرونى أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت، وقد قرأت القرآن من في رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة، وإن زيد بن ثابت ليأتى مع الغلمان له ذؤابتان، والله ما نزل من القرآن شئ إلا وأنا أعلم فى أى شئ نزل، وما أحد أعلم بكتاب الله منى، وما أنا بخيركم، ولو أعلم مكانا تبلغه الإبل أعلم بكتاب الله منى لأتيته. قال أبو وائل: فلما نزل عن^(٦) المنبر جلست فى الحلق، فما أحد ينكر ما قال^(٨). أصل هذا مخرج فى الصحيحين^(٩) وعندهما: ولقد علم أصحاب محمد أنى أعلمهم بكتاب الله. وقول أبى وائل: «فما أحد ينكر ما قال»، يعنى: من فضله وعلمه وحفظه، والله أعلم.

وأما أمره بغلّ المصاحف وكتماها، فقد أنكره عليه غير واحد. قال الأعمش عن إبراهيم، عن علقمة، قال: قدمت الشام فلقيت أبا الدرداء، فقال: كنا نعد عبد الله جبانا^(١٠)، فما باله يواثب الأمراء^(١١). وقال أبو بكر بن أبى داود: باب رضا عبد الله بن مسعود بجمع عثمان المصاحف بعد ذلك: حدثنا عبد الله بن سعيد ومحمد بن عثمان العجلي قالوا: حدثنا أبو أسامة، حدثني الوليد بن قيس، عن عثمان بن حسان العامري، عن فُلْه الجعفى قال: فزعت فيمن فزع إلى عبد الله فى

(١) المصاحف (ص ١٩).

(٢) فى ج: «عمير».

(٣) المصاحف (ص ٢١).

(٤) فى ج: «سلمان».

(٥) المصاحف (ص ٢٣).

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٠٠٠) وصحيح مسلم برقم (٢٤٦٢).

(٧) فى المصاحف: «حنانا».

(٨) المصاحف (ص ٢٥).

(٩) فى ج: «من».

(١٠) فى ط، ج: «أبو».

المصاحف، فدخلنا عليه، فقال رجل من القوم: إنا لم نأتك زائرين، ولكننا جئنا حين راعنا هذا الخبر، فقال: إن القرآن أنزل على نبيكم من سبعة أبواب، على سبعة أحرف - أو حروف - وإن الكتاب قبلكم كان ينزل - أو نزل - من باب واحد على حرف واحد^(١). وهذا الذى استدل به أبو بكر، رحمه الله، على رجوع ابن مسعود فيه نظر، من جهة أنه لا يظهر من هذا اللفظ رجوع عما كان يذهب إليه، والله أعلم.

وقال أبو بكر أيضا: حدثنا عمى، حدثنا أبو رجاء، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن مصعب بن سعد قال: قام عثمان فخطب الناس فقال: [يا]^(٢) أيها الناس عهدكم بنبيكم منذ ثلاث عشرة وأنتم تمترون فى القرآن، وتقولون: قراءة أبى وقراءة عبد الله، يقول الرجل: والله ما تقيم قراءتك وأعزم على كل رجل منكم ما كان معه من كتاب الله لما جاء به، فكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة، ثم دخل عثمان فدعاهم رجلاً رجلاً فناشدهم: لسمعت رسول الله ﷺ أمله عليك فيقول: نعم، فلما فرغ من ذلك عثمان قال: من أكتب الناس؟ قالوا: كاتب رسول الله ﷺ زيد بن ثابت. قال: فأى الناس أعرب؟ قالوا: سعيد بن العاص. قال عثمان: فليمل سعيد، وليكتب زيد. فكتب زيد مصاحف ففرقها فى الناس، فسمعت بعض أصحاب رسول الله ﷺ يقولون^(٣): قد أحسن^(٤). إسناده^(٥) صحيح.

وقال أيضا: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن زيد، حدثنا أبو بكر، حدثنا هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن كثير بن أفلح قال: لما أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له اثني عشر رجلاً من قريش والأنصار، فيهم أبى بن كعب وزيد بن ثابت، قال: فبعثوا إلى الربعة التى فى بيت عمر فجاء بها، قال: وكان عثمان يتعاهدهم، وكانوا إذا تدارؤوا فى شىء آخره. قال محمد: فقلت لكثير - وكان فيهم فيمن يكتب -: هل تدرون لم كانوا يؤخرونه؟ قال: لا. قال محمد: فظننت ظناً إنما كانوا يؤخرونها لينظروا أحدثهم عهداً بالعرضة الأخيرة فيكتبونها على قوله^(٦). صحيح أيضا.

قلت: الربعة هى الكتب المجتمعة، وكانت عند حفصة، رضى الله عنها، فلما جمعها عثمان، رضى الله عنه، فى المصحف، ردها إليها، ولم يحرقها فى جملة ما حرقه مما سواها، إلا أنها هى بعينها الذى كتبه، وإنما رتبته، ثم إنه كان قد عاهدها على أن يردها إليها، فما زالت عندها حتى ماتت، ثم أخذها مروان بن الحكم فحرقها وتآول فى ذلك ما تآول^(٧) عثمان، كما رواه أبو بكر بن أبى داود:

حدثنا محمد بن عوف، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري، أخبرنى سالم بن عبد الله:

(١) المصاحف (ص ٢٥).

(٢) زيادة من ج، ط.

(٣) فى ط، ج: «يقول».

(٤) المصاحف (ص ٣١).

(٥) فى ج، ط: «إسناده».

(٦) المصاحف (ص ٣٣).

(٧) فى ط: «أول».

أن مروان كان يرسل إلى حفصة يسألها الصحف التي كتب منها القرآن، فتأبى حفصة أن تعطيه إياها. قال سالم: فلما توفيت حفصة ورجعنا من دفنها أرسل مروان بالعزيمة إلى عبد الله بن عمر ليرسلن إليه بتلك الصحف، فأرسل بها إليه عبد الله بن عمر فأمر بها مروان فشقت، وقال مروان: إنما فعلت هذا لأن ما فيها قد كتب وحفظ بالمصحف، فخشيت إن طال بالناس زمان ^(١) أن يرتاب في شأن هذه الصحف مرتاب أو يقول: إنه كان شيء منها لم يكتب ^(٢). إسناده صحيح.

وأما ما رواه الزهري ^(٣) عن خارجة عن أبيه في شأن آية الأحزاب وإلحاقهم إياها في سورتها، فذكره ^(٤) لهذا بعد جمع عثمان فيه نظر، وإنما هذا كان حال جمع الصديق الصحف كما جاء مصرحاً به في غير هذه الرواية عن الزهري، عن عبيد بن السباق، عن زيد بن ثابت، والدليل على ذلك أنه قال: «فألحقناها» ^(٥) في سورتها من المصحف وليست هذه الآية ملحقة في الحاشية في المصاحف العثمانية. فهذه الأفعال ^(٦) من أكبر القربات التي بادر إليها الأئمة الراشدون أبو بكر وعمر، رضي الله عنهما، حفظا على الناس القرآن، جمعا لئلا يذهب منه شيء وعثمان، رضي الله عنه، جمع قراءات الناس على مصحف واحد ووضعه على العريضة الأخيرة التي عارض بها جبريل رسول الله ﷺ في آخر رمضان من عمره، عليه الصلاة والسلام، فإنه عارضه به عامئذ مرتين؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ لفاطمة ابنته لما مرض: «وما أرى ذلك إلا لاقترب أجلى». أخرجه في الصحيحين ^(٧).

وقد روى أن علياً، رضي الله عنه، أراد أن يجمع القرآن بعد رسول الله ﷺ مرتباً بحسب نزوله أولاً فاولاً، كما رواه ^(٨) ابن أبي داود حيث قال: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا ابن فضيل، عن أشعث، عن محمد بن سيرين قال: لما توفي النبي ﷺ أقسم على ألا يرتدي برداء إلا لجمعة حتى يجمع القرآن في مصحف ففعل، فأرسل، إليه أبو بكر، رضي الله عنه، بعد أيام: أكرهت إمارتي يا أبا الحسن؟ فقال: لا والله إلا أنني أقسمت ألا أرتدي برداء إلا لجمعة. فبايعه ثم رجع ^(٩). هكذا رواه وفيه انقطاع، ثم قال: لم يذكر المصحف أحد إلا أشعث ^(١٠)، وهو لين الحديث ^(١١)، وإنما رووا ^(١٢): حتى أجمع القرآن، يعني أتم حفظه، فإنه يقال للذي يحفظ القرآن: قد جمع القرآن.

قلت: وهذا الذي قاله أبو بكر أظهر، والله أعلم، فإن علياً لم ينقل عنه مصحف على ما قيل ولا غير ذلك، ولكن قد توجد مصاحف على الوضع العثماني، يقال: إنها بخط علي، رضي الله عنه، وفي ذلك نظر، فإنه في بعضها: كتبه علي بن أبي طالب، وهذا لحن من الكلام ^(١٣)؛ وعلي،

(١) في ج: «الزمان».

(٢) المصاحف (ص ٣٢).

(٣) رواه ابن أبي داود في المصاحف (ص ٣٧) عن الزهري.

(٤) في ج: «فذكر».

(٥) في ط، ج: «وألحقناها».

(٦) في ج: «الآيات».

(٧) صحيح البخاري برقم (٦٢٨٥، ٦٢٨٦) وصحيح مسلم برقم (٢٤٥٠).

(٨) في ج: «روى».

(٩) المصاحف (ص ١٦).

(١٠) في ج: «الأشعث».

(١١) في ج، ط: «وهو ابن الحرث».

(١٢) في ج، ط: «رواه».

(١٣) وقد ذكر «كوركيس عواد» في كتابه «أقدم مخطوطات في العالم» بعض هذه المصاحف وأماكنها وأرقامها في إيران وطاشقند، ولا يشك عاقل أنها ليست من خط علي، رضي الله عنه.

رضى الله عنه، من أبعد الناس عن ذلك فإنه كما هو المشهور عنه هو أول من وضع علم النحو، فيما رواه عنه أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلى، وأنه قسم الكلام إلى اسم وفعل وحرف، وذكر أشياء أخر تمها أبو الأسود بعده، ثم أخذه الناس عن أبى الأسود فوسعوه ووضحوه، وصار علما مستقلا.

وأما المصاحف العثمانية الأئمة فأشهرها اليوم الذى فى الشام بجامع دمشق عند الركن شرقى المقصورة المعمورة بذكر الله، وقد كانت قديماً بمدينة طبرية ثم نقل منها إلى دمشق فى حدود ثمان عشرة وخمسمائة، وقد رأيت كتاباً عزيزاً جليلاً عظيماً ضخماً بخط حسن مبين قوى بحجر محكم فى رق أظنه من جلود الإبل، والله أعلم، زاده الله تشريفاً وتكريماً وتعظيماً^(١).

فأما عثمان، رضى الله عنه، فما يعرف أنه كتب بخطه هذه المصاحف، وإنما كتبها زيد بن ثابت فى أيامه، ربما وغيره، فنسبت إلى عثمان لأنها بأمره وإشارته، ثم قرئت على الصحابة بين يدي عثمان، ثم نفذت إلى الآفاق، رضى الله عنه، وقد قال أبو بكر بن أبى داود:

حدثنا على بن حرب الطائى، حدثنا قريش^(٢) بن أنس، حدثنا سليمان التيمى، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد مولى بنى^(٣) أسيد، قال: لما دخل المصريون على عثمان ضربه بالسيف على يده فوقعت على: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، فمد يده فوقعت: والله إنها لأول يد خطت المفصل^(٤).

وقال أيضاً: حدثنا أبو طاهر، حدثنا ابن وهب قال: سألت مالكا عن مصحف عثمان، فقال لى: ذهب. يحتمل أنه سأله عن المصحف الذى كتبه بيده، ويحتمل أن يكون سأله عن المصحف الذى تركه فى المدينة، والله أعلم.

قلت: وقد كانت الكتابة فى العرب قليلة جداً، وإنما أول ما تعلموا ذلك ما^(٥) ذكره هشام بن محمد بن السائب الكلبي وغيره: أن بشر بن عبد الملك أكيدر دومة تعلم الخط من الأنبار، ثم قدم مكة فتزوج الصهباء بنت حرب بن أمية أخت أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية فعلمه حرب بن أمية وابنه سفيان، وتعلمه عمر بن الخطاب من حرب بن أمية، وتعلمه معاوية من عمه سفيان بن حرب، وقيل: إن أول من تعلمه من الأنبار قوم من طيء من قرية هناك يقال لها: بقة، ثم هذبوه ونشروه فى جزيرة العرب فتعلمه الناس. ولهذا قال أبو بكر بن أبى داود: حدثنا عبد الله بن محمد الزهرى، حدثنا سفيان عن مجاهد عن الشعبي قال: سألنا المهاجرين من أين تعلمتم الكتابة؟ قالوا: من أهل الحيرة. وسألنا أهل الحيرة: من أين تعلمتم الكتابة؟ قالوا: من أهل الأنبار^(٦).

قلت: والذى كان يغلب على زمان السلف الكتابة المكتوفة ثم هذبها أبو على مقلة الوزير، وصار

(١) ذكر «كوركيى عواد» فى كتابه المتقدم ذكره (ص ٣٤) أن مصحفاً فى متحف الآثار الإسلامية بتركيا مكتوب على الرق كتب فى آخره أنه مصحف، عثمان، رضى الله عنه، وهو فى هذا المتحف برقم (٤٥٧).

(٢) فى ط، ج: «أبى».

(٣) فى ج: «يونس».

(٤) لم أجد هذا الأثر والذى بعده فى المصاحف.

(٥) فى ط، ج: «كما».

(٦) المصاحف (ص ٩).

له في ذلك منهج وأسلوب في الكتابة، ثم قربها على بن هلال البغدادي المعروف بابن البواب وسلك الناس وراءه. وطريقته في ذلك واضحة جيدة. والغرض أن الكتابه لما كانت في ذلك الزمان لم تحكم جيداً، وقع في كتابة المصاحف اختلاف في وضع الكلمات من حيث صناعة الكتابة لا من حيث المعنى، وصنف الناس في ذلك، واعتنى بذلك الإمام الكبير أبو عبيد القاسم بن سلام، رحمه الله، في كتابه فضائل القرآن^(١)، والحافظ أبو بكر بن أبي داود، رحمه الله، فبوبا على ذلك^(٢)، وذكر قطعة صالحة هي من صناعة القرآن، ليست مقصدنا ههنا؛ ولهذا نص الإمام مالك، رحمه الله، على أنه لا توضع المصاحف إلا على وضع كتابة الإمام، ورخص في ذلك غيره، واختلفوا في الشكل والنقط فمن مرخص ومن مانع، فأما كتابة السور وآياتها والتعشير والأجزاء والأحزاب فكثير^(٣) في مصاحف زماننا، والأولى اتباع السلف الصالح.

ثم قال البخاري: ذكر كتاب النبي ﷺ. وأورد فيه من حديث الزهري، عن ابن السباق، عن زيد ابن ثابت، أن أبا بكر الصديق قال له: وكنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ وذكر نحوه ما تقدم في^(٤) جمعه للقرآن^(٥)، وقد تقدم، وأورد حديث زيد بن ثابت في نزول: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥]^(٦)، وسيأتي الكلام عليه في سورة النساء إن شاء الله تعالى، ولم يذكر البخاري أحداً من الكتاب في هذا الباب سوى زيد بن ثابت، وهذا عجب، وكأنه لم يقع له حديث يورده سوى هذا، والله أعلم.

وموضع هذا في كتاب السيرة عند ذكر كتابه عليه السلام.

ثم قال البخاري، رحمه الله:

أنزل القرآن على سبعة أحرف

حدثنا سعيد بن عفير، حدثنا الليث، حدثني عقيل عن ابن شهاب قال: حدثني عبيد الله بن عبد الله؛ أن عبد الله بن عباس حدثه: أن رسول الله ﷺ قال: «أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف»^(٧).

وقد رواه - أيضاً - في بدء الخلق، ومسلم من حديث يونس، ومسلم - أيضاً - من حديث معمر، كلاهما عن الزهري بنحوه^(٨)، ورواه ابن جرير من حديث الزهري به^(٩)، ثم قال الزهري: بلغني أن تلك السبعة الأحرف إنما هي في الأمر الذي يكون واحداً لا تختلف في حلال ولا في حرام.

(١) فضائل القرآن (ص ٢٣٧ - ٢٤٣).

(٢) المصاحف (ص ١٤٥ - ١٧٦).

(٤) في ج: «من».

(٣) في ط، ج: «فكثر».

(٥) صحيح البخاري برقم (٤٩٨٩).

(٦) صحيح البخاري برقم (٤٩٩٠).

(٧) صحيح البخاري برقم (٤٩٩١).

(٨) في ج: «نحوه».

(٩) صحيح البخاري برقم (٣٢١٩) وصحيح مسلم برقم (٨١٩) وتفسير الطبري (٢٩/١).

وهذا مبسوط في الحديث الذي رواه الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام حيث قال:

حدثنا يزيد ويحيى بن سعيد كلاهما عن حميد الطويل، عن أنس بن مالك، عن أبيّ بن كعب قال: ما حاك في صدرى شيء منذ أسلمت، إلا أننى قرأت آية وقرأها آخر غير قراءتى فقلت: أقرأنيها رسول الله ﷺ فقال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فأمن رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، أقرأتنى آية كذا وكذا؟ قال: «نعم»، وقال الآخر: أليس تقرأنى آية كذا وكذا؟ قال: «نعم». فقال: «إن جبريل وميكائيل أتاني فقعده جبريل عن يميني وميكائيل عن يساري، فقال جبريل: اقرأ القرآن على حرف، فقال ميكائيل: استزده، حتى بلغ سبعة أحرف وكل حرف شاف كاف»^(١).

وقد رواه النسائي من حديث يزيد - وهو ابن هارون - ويحيى بن سعيد القطان كلاهما عن حميد الطويل، عن أنس، عن أبيّ بن كعب بنحوه^(٢). وكذا رواه ابن أبي عدى ومحمود^(٣) بن ميمون الزعفراني ويحيى بن أيوب كلهم عن حميد به^(٤). وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا أبو الوليد، حدثنا حماد بن سلمة، عن حميد، عن أنس، عن عبادة بن الصامت، عن أبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» فأدخل بينهما عبادة بن الصامت^(٥).

وقال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: حدثنا يحيى بن سعيد عن إسماعيل بن أبي خالد، حدثني عبد الله بن عيسى عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبيّ بن كعب، قال: كنت في المسجد فدخل رجل فقراً قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقراً سوى قراءة صاحبه، فقمنا جميعاً، فدخلنا على رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل هذا فقراً قراءة غير قراءة صاحبه، فقال لهما النبي ﷺ: «اقرأ»، فقراً، فقال: «أصبتما». فلما قال لهما النبي ﷺ الذي قال كبر على ولا إذا كنت في الجاهلية، فلما رأى الذي غشيني ضرب في صدرى ففضضت عرقاً، وكأنما أنظر إلى [رسول]^(٦) الله فرقاً فقال: «يا أباي، إن ربي أرسل إلى أن اقرأ القرآن على حرف، فرددت إليه أن هون على أمتي، فأرسل إلى أن اقرأه على حرفين، فرددت إليه أن هون على أمتي، فأرسل إلى أن اقرأه على سبعة أحرف، ولك بكل ردة مسألة تسألنيها». قال: «قلت: اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى فيه الخلق حتى إبراهيم عليه السلام». وهكذا رواه مسلم من حديث إسماعيل بن أبي خالد به^(٧).

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا محمد بن فضيل، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبيه، عن جده، عن أبيّ بن كعب، قال: قال

(١) فضائل القرآن (ص ٢٠١).

(٢) سنن النسائي الكبرى برقم (٧٩٨٦).

(٣) في ط، ج: «محمد».

(٤) رواه الطبري في تفسيره (٣٣/١).

(٥) تفسير الطبري (٣٤/١).

(٦) زيادة من ج.

(٧) المسند (١٢٧/٥) وصحيح مسلم برقم (٨٢٠).

رسول الله ﷺ: «إن الله أمرني أن أقرأ القرآن على حرف واحد، فقلت: خفف عن أمتي، فقال^(١): أقرأه على حرفين، فقلت: اللهم ربّ خفف عن أمتي، فأمرني أن أقرأه على سبعة أحرف من سبعة أبواب الجنة كلها شافٍ كافٍ»^(٢).

وقال ابن جرير: حدثنا يونس عن ابن وهب: أخبرني هشام بن سعد، عن عبيد الله بن عمر، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبي بن كعب، أنه قال: سمعت رجلاً يقرأ في سورة النحل قراءة تخالف قراءتي، ثم سمعت آخر يقرأها بخلاف ذلك، فانطلقت بهما إلى رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذين يقرآن في سورة النحل فسألتهما: من أقرأكما^(٣)؟ فقالا: رسول الله ﷺ، فقلت: لأذهبن بكما إلى رسول الله ﷺ إذ خالفتما ما أقرأني رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأحدهما: «اقرأ». فقرأ، فقال: «أحسنت» ثم قال للآخر: «اقرأ». فقرأ، فقال: «أحسنت». قال أبي: فوجدت في نفسي وسوسة الشيطان حتى احمر وجهي، فعرف ذلك رسول الله ﷺ في وجهي، فضرب يده في صدرى ثم قال: «اللهم أخسئ»^(٤) الشيطان عنه، يا أبي، أتاني آت من ربي فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد، فقلت: رب، خفف عني، ثم أتاني الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على حرفين^(٥) فقلت: رب، خفف عن أمتي، ثم أتاني الثالثة، فقال: مثل ذلك وقلت له مثل ذلك، ثم أتاني الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف، ولك بكل ردة مسألة، فقلت: يارب، اللهم اغفر لأمتي، يارب، اغفر لأمتي، واختبأت الثالثة شفاعة لأمتي يوم القيامة^(٦). إسناده صحيح.

قلت: وهذا الشك الذي حصل لأبي في تلك الساعة هو، والله أعلم، السبب الذي لأجله قرأ عليه رسول الله ﷺ قراءة إبلاغ وإعلام ودواء لما كان حصل له سورة ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخرها لاشتغالها على قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً. فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ [البينة: ٢، ٣]، وهذا نظير تلاوته سورة الفتح حين أنزلت مرجعه، عليه السلام، من الحديبية على عمر بن الخطاب، وذلك لما كان تقدم له من الأسئلة لرسول الله ﷺ ولأبي^(٧) بكر الصديق، رضى الله عنهما، في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ﴾ [الفتح: ٢٧].

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المشني، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن أبي ليلى، عن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ كان عند أخباته بني غفار، فأتاه جبريل فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف، قال: «أسأل الله معافاته ومغفرته، فإن أمتي لا تطيق ذلك». ثم أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين. قال:

(١) في ط، ج: «قال».

(٢) تفسير الطبري (٣٧/١).

(٣) في ط، ج: «أقرأهما».

(٤) في ج: «أذهب».

(٥) في ط، ج: «ثم لأبي».

(٦) تفسير الطبري (٤١/١).

(٧) في ط، ج: «حرف واحد».

«أسأل الله معافاته ومغفرته، فإن أمتى لا تطيق ذلك». ثم جاءه الثالثة قال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف قال: «أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتى لا تطيق ذلك». ثم جاءه الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأبما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا^(١).

وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائي من رواية شعبة به، وفي لفظ لأبي داود عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أباي، إني أقرئت القرآن فقليل لى: على حرف أو حرفين؟ فقال الملك الذى معى: قال على حرفين. قلت: على حرفين. فقليل لى: على حرفين أو ثلاثة؟ فقال الملك الذى معى: قل على ثلاثة. قلت: على ثلاثة. حتى بلغ سبعة أحرف ثم قال: ليس منها إلا شاف كاف إن قلت: سميعا عليما، عزيزا حكيما، ما لم تختتم آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب»^(٢).

وقد روى ثابت بن قاسم نحواً من هذا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ^(٣) ومن كلام ابن مسعود، رضى الله عنه، نحو ذلك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن على الجعفى، عن زائدة، عن عاصم، عن زر، عن أبي قال: لقي رسول الله ﷺ جبريل عند أحجار المراء، فقال رسول الله ﷺ لجبريل: «إني بعثت إلى أمة أميين فيهم الشيخ العاسى، والعجوز الكبيرة، والغلام، فقال: مرهم فليقرؤوا القرآن على سبعة أحرف»^(٤).

وأخرجه الترمذى من حديث عاصم بن أبي النجود، عن زر، عن أبي بن كعب، به^(٥)، وقال: حسن صحيح.

وقد رواه أبو عبيد عن أبي النضر، عن شيان، عن عاصم بن أبي النجود، عن زر، عن حذيفة أن رسول الله ﷺ لقي جبريل عند أحجار المراء، فذكر الحديث^(٦)، والله أعلم.

وهكذا رواه الإمام أحمد عن عفان، عن حماد، عن عاصم، عن زر، عن حذيفة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لقيت جبريل عند أحجار المراء، فقلت: يا جبريل، إني أرسلت إلى أمة أمية؛ الرجل، والمرأة، والغلام، والجارية، والشيخ الفانى، الذى لم يقرأ كتاب قط فقال: إن القرآن أنزل على سبعة أحرف»^(٧).

وقال أحمد أيضاً: حدثنا وكيع وعبد الرحمن، عن سفيان، عن إبراهيم بن مهاجر، عن ربيعى ابن حراش: حدثنى من لم يكذبنى - يعنى حذيفة - قال: لقي النبى ﷺ جبريل عند أحجار المراء

(١) تفسير الطبرى (١/ ٤٠).

(٢) صحيح مسلم برقم (٨٢٠) وسنن أبي داود برقم (١٤٧٨) وسنن النسائي (١٥٣/٢).

(٣) ورواه أحمد فى المسند (٢٣٢/٢، ٤٤٠) من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة، رضى الله عنه.

(٤) المسند (١٣٢/٥) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٧٣٩) «موارد» من طريق زائدة به مثله.

(٥) سنن الترمذى برقم (٢٩٤٤).

(٦) فضائل القرآن لأبى عبيد (ص ٢٠٢).

(٧) المسند (٥/ ٣٩١، ٤٠٠).

فقال: إن أمتك يقرؤون القرآن على سبعة أحرف، فمن قرأ منهم على حرف فليقرأ كما علم، ولا يرجع عنه. وقال عبد الرحمن: إن في أمتك الضعيف، فمن قرأ على حرف فلا يتحول منه إلى غيره رغبة عنه^(١). وهذا إسناد صحيح ولم يخرجه.

حديث آخر في معناه عن سليمان بن صرد: قال ابن جرير: حدثنا إسماعيل بن موسى السدي، حدثنا شريك عن أبي إسحاق، عن سليمان بن صرد - يرفعه - قال: «أتاني ملكان، فقال أحدهما: اقرأ. قال: على كم؟ قال: على حرف. قال: زده، حتى انتهى إلى سبعة أحرف»^(٢). ورواه النسائي في اليوم والليلة عن عبد الرحمن بن محمد بن سلام عن إسحاق الأزرق عن العوام بن حوشب، عن أبي إسحاق، عن سليمان بن صرد قال: أتى أبي بن كعب رسول الله ﷺ برجلين اختلفا في القراءة، فذكر الحديث^(٣).

وهكذا رواه أحمد بن محمد بن مَنِيع عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب به، ورواه أبو عبيد عن يزيد بن هارون، عن العوام، عن أبي إسحاق، عن سليمان بن صرد، عن أبي أنه أتى النبي ﷺ برجلين، فذكره^(٤).

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق، عن فلان العبدى - قال ابن جرير: ذهب عنى اسمه - عن سليمان بن صرد، عن أبي بن كعب قال: رحت إلى المسجد، فسمعت رجلاً يقرأ فقلت: من أقرأك؟ قال: رسول الله ﷺ، فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ، فقلت: استقرئ هذا. قال: فقرأ، فقال: «أحسن». قال: قلت: إنك أقرأتني كذا وكذا! فقال: «وأنت قد أحسنت». فقلت: قد أحسنت قد أحسنت. قال: فضرب بيده على صدرى ثم قال: «اللهم أذهب عن أبي الشك». قال: ففضت عرقاً، وامتلاً جوفى فرقا. قال: ثم قال: «إن الملكين أتاني، فقال أحدهما: اقرأ القرآن على حرف، وقال الآخر: زده. قال: قلت: زدني. فقال^(٥): اقرأه على حرفين، حتى بلغ سبعة أحرف فقال: اقرأه على سبعة أحرف»^(٦).

وقد رواه أبو عبيد عن حجاج، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن شتير^(٧) العبدى، عن سليمان بن صرد^(٨) عن أبي، عن النبي ﷺ بنحو ذلك^(٩)، ورواه أبو داود عن أبي داود الطيالسي، عن همام، عن قتادة، عن يحيى بن يعمر، عن سليمان بن صرد، عن أبي بن كعب بنحوه^(١٠).

(١) المسند (٥/٣٨٥، ٤٠١).

(٢) تفسير الطبرى (١/٣٠).

(٣) سنن النسائي الكبرى برقم (١٠٥٠٦).

(٤) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص ٢٠١).

(٥) في ط، ج: «قال».

(٦) تفسير الطبرى (١/٣٢).

(٧) في فضائل أبي عبيد: «صغير».

(٨) في ط، ج: «حدد».

(٩) فضائل القرآن (ص ٢٠٢).

(١٠) سنن أبي داود برقم (١٤٧٧).

فهذا الحديث محفوظ من حيث الجملة عن أبيّ بن كعب، والظاهر أن سليمان بن صرد الخزاعي شاهد على ذلك، والله أعلم.

حديث آخر عن أبي بكرة: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «أتاني جبريل وميكائيل، عليهما السلام، فقال جبريل: اقرأ القرآن على حرف واحد، فقال ميكائيل: استزده، فقال: اقرأ على سبعة أحرف، كلها شاف كاف، ما لم تختتم آية رحمة بآية عذاب^(١) أو آية عذاب برحمة^(٢)».

وهكذا رواه ابن جرير عن أبي كُريب، عن زيد بن الحباب، عن حماد بن سلمة به، وزاد في آخره كقولك: هلم وتعال^(٣).

حديث آخر عن سمرة: قال الإمام أحمد: حدثنا بهز وعفان كلاهما عن حماد بن سلمة، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن سمرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف». إسناده صحيح، ولم يخرجوه^(٤).

حديث آخر عن أبي هريرة: قال الإمام أحمد: حدثنا أنس بن عياض، حدثني أبو حازم، عن أبي سلمة - لا أعلمه إلا عن أبي هريرة - أن رسول الله ﷺ قال: «نزل القرآن على سبعة أحرف، وراء في القرآن كفر - ثلاث مرات - فما علمتم منه فاعملوا وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه». ورواه النسائي عن قتيبة عن أبي ضمرة أنس بن عياض به^(٥).

حديث آخر عن أم أيوب: قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان عن عبيد الله وهو ابن أبي يزيد - عن أبيه، عن أم أيوب - يعني امرأة أبي أيوب الأنصارية - أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف، أيها قرأت جزاك^(٦)»^(٧). وهذا إسناده صحيح ولم يخرجوه أحد من أصحاب الكتب الستة.

حديث آخر عن أبي جهيم: قال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن يزيد بن خصيفة، عن مسلم بن سعيد مولى الحضرمي^(٨)، وقال غيره: عن بسر بن سعيد، عن أبي جهيم الأنصاري؛ أن رجلين اختلفا في آية من القرآن، كلاهما يزعم أنه تلاها من رسول الله ﷺ، فمشيا جميعا حتى أتيا رسول الله ﷺ، فذكر أبو جهيم أن رسول الله ﷺ قال: «إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف، فلا

(١) في ط، ج: «ما لم تختتم آية رحمة بعذاب».

(٢) المسند (٤١/٥).

(٣) تفسير الطبري (٤٢/١).

(٤) المسند (١٦/٥).

(٥) المسند (٢/٣٠٠) وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٠٩٣).

(٦) في ط: «أجزأه».

(٧) المسند (٦/٤٣٣، ٤٦٢).

(٨) في فضائل أبي عبيد: «مولى ابن الحضرمي».

تَمَارُوا، فَإِنْ مَرَأَ فِيهِ كُفْرٌ^(١). هكذا رواه أبو عبيد على الشك^(٢)، وقد رواه الإمام أحمد على الصواب، فقال: حدثنا أبو سلمة الخزاعي، حدثنا سليمان بن بلال، حدثني يزيد بن خصيفة، أخبرني بسر بن سعيد، حدثني أبو جهيم؛ أن رجلين اختلفا في آية من القرآن فقال هذا: تلقيتها من رسول الله ﷺ وقال هذا: تلقيتها من رسول الله ﷺ فسألا النبي ﷺ فقال: «القرآن يقرأ على سبعة أحرف، فلا تماروا في القرآن، فإن مرأاً في القرآن كفر»^(٣). وهذا إسناد صحيح - أيضاً - ولم يخرجوه.

ثم قال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث، عن يزيد بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم، عن بسر^(٤) بن سعيد، عن أبي قيس - مولى عمرو بن العاص - أن رجلاً قرأ آية من القرآن، فقال له عمرو - يعني ابن العاص -: إنما هي كذا وكذا، بغير ما قرأ الرجل، فقال الرجل: هكذا أقرأنيها رسول الله ﷺ [فخرجنا إلى رسول الله ﷺ]^(٥) حتى أتياه، فذكرا ذلك له، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف، فأى ذلك قرأتم أصبتم، فلا تماروا في القرآن، فإن مرأاً فيه كفر»^(٦). ورواه الإمام أحمد عن أبي سلمة الخزاعي، عن عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد، عن بسر^(٧) بن سعيد، عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص به نحوه، وفيه: «فإن المرأ فيه كفر أو إنه الكفر به»^(٨). وهذا - أيضاً - حديث جيد^(٩).

حديث آخر عن ابن مسعود: قال ابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني حيوة بن شريح، عن عقيل بن خالد، عن سلمة بن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: «كان الكتاب الأول نزل من باب واحد وعلى حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب وعلى سبعة أحرف: زاجر، وأمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال، فأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، وافعلوا ما أمرتم به، وانتهوا عما نهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا: آمنا به كل من عند ربنا»^(١٠). ثم رواه عن أبي كُرَيْبٍ عن المحاربي، عن ضمرة بن حبيب، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن ابن مسعود من كلامه^(١١) وهو أشبه^(١٢). والله أعلم.

(١) فضائل القرآن (ص ٢٠٢).

(٢) قال الشيخ أحمد شاکر في حاشيته على الطبري (١/ ٤٤): «قوله: على الشك، إنما للحديث طريقان: الأول: إسماعيل بن جعفر يرويه عن يزيد عن مسلم بن سعيد، وسليمان يرويه عن يزيد عن بسر - أخو مسلم، فأشار أبو عبيد أثناء الإسناد إلى الرواية الأخرى دون أن يذكر إسنادهما».

(٣) المسند (٤/ ١٧٠).

(٥) زيادة من ج، ط.

(٤) في ج: «بشر».

(٧) في ج: «بشر».

(٦) فضائل القرآن (ص ٢٠٢).

(٨) في ط: «آية الكفر».

(٩) المسند (٤/ ٢٠٤).

(١٠) تفسير الطبري (١/ ٦٨).

(١١) تفسير الطبري (١/ ٦٩).

(١٢) قال الشيخ أحمد شاکر: «وهو الصحيح، حيث صرح بذلك الطبري بقوله: وروى عن ابن مسعود من قبله، أما الإسناد السابق فقد قال ابن عبد البر: حديث لا يثبت؛ لأنه من رواية أبي سلمة بن عبد الرحمن عن ابن مسعود، ولم يلق ابن مسعود».

فصل

قال أبو عبيد: قد تواترت^(١) هذه الأحاديث كلها عن الأحرف السبعة إلا ما حدثني عفان، عن حماد بن سلمة، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة بن جندب، عن النبي ﷺ قال: «نزل القرآن على ثلاثة أحرف»^(٢).

قال أبو عبيد: ولا نرى المحفوظ إلا السبعة لأنها المشهورة، وليس معنى تلك السبعة أن يكون الحرف الواحد يقرأ على سبعة أوجه، وهذا شيء غير موجود، ولكنه عندنا أنه نزل سبع لغات متفرقة في جميع القرآن من لغات العرب، فيكون الحرف الواحد منها بلغة قبيلة والثاني بلغة أخرى سوى الأولى، والثالث بلغة أخرى سواهما، كذلك إلى السبعة، وبعض الأحياء أسعد بها وأكثر حظا فيها من بعض، وذلك بين في أحاديث تترى، قال: وقد روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: نزل القرآن على سبع لغات، منها خمس بلغة العجز من هوازن^(٣).

قال أبو عبيد: والعجز هم بنو أسعد^(٤) بن بكر، وجشم بن بكر، ونصر بن معاوية، وثقيف هم عليا^(٥) هوازن الذين قال أبو عمرو بن العلاء: أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم يعني دارم. ولهذا قال عمر: لا يملئ في مصاحفنا إلا غلمان قريش أو ثقيف^(٦).

قال ابن جرير: واللغتان الأخريان: قريش وخزاعة رواه قتادة عن ابن عباس، ولكن لم يلقه^(٧).

قال أبو عبيد: وحدثنا هُشَيْمٌ عن حصين بن عبد الرحمن، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس؛ أنه كان يسأل عن القرآن فينشد فيه الشعر. قال أبو عبيد: يعني: أنه كان يستشهد به على التفسير^(٨). حدثنا هُشَيْمٌ عن أبي بشر، عن سعيد أو مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٧]، قال: ما جمع وأنشد:

قد اتسقن لو يجدن سائقا^(٩)

حدثنا هُشَيْمٌ، أنبأنا^(١٠) حصين، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤]، قال: الأرض، قال: وقال ابن عباس: قال أمية بن أبي الصلت:

عندهم لحم بحرٍ ولحم ساهرة^(١١)

(١) في جد: «تواردت».

(٢) فضائل القرآن (ص ٢٠٣) ورواه من طريق البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٣٨٥).

(٣) فضائل القرآن (ص ٢٠٤). (٤) في ط: «سعد».

(٥) في ط: «علياء».

(٦) فضائل القرآن (ص ٢٠٤).

(٧) تفسير الطبري (١/ ٦٦).

(٨) فضائل القرآن (ص ٢٠٥).

(٩) فضائل القرآن (ص ٢٠٦). (١٠) في ط، جد: «عن».

(١١) فضائل القرآن (ص ٢٠٦)، وكتب بين قوسين:

وما فاهوا به لهم مقيم

وفيهما لحم ساهر وبحر

حدثنا يحيى بن سعيد عن سفيان، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: كنت لا أدري ما ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها. يقول: أنا ابتدأتها^(١). إسناده جيد أيضا.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري، رحمه الله، بعد ما أورد طرفا مما تقدم: وصح وثبت أن الذي نزل به القرآن من ألسن العرب البعض منها دون الجمع^(٢)، إذا كان معلوما أن ألسنتها ولغاتها أكثر من سبع بما يعجز عن إحصائه ثم قال: وما برهانك على ما قلته دون أن يكون معناه ما قاله مخالفوك، من أنه نزل بأمر وزجر، وترغيب وترهيب، وقصص ومثل، ونحو ذلك من الأقوال فقد علمت قائل ذلك من سلف الأمة وخيار الأئمة؟ قيل له: إن الذين قالوا ذلك لم يدعوا أن تأويل الأخبار التي تقدم ذكرها، هو ما زعمت أنهم قالوه في الأحرف السبعة، التي نزل بها القرآن دون غيره فيكون ذلك لقولنا مخالفا، وإنما أخبروا أن القرآن نزل على سبعة أحرف، يعنون بذلك أنه نزل على^(٣) سبعة أوجه، والذي قالوا من ذلك كما قالوا، وقد روينا بمثل الذي قالوا من ذلك عن رسول الله ﷺ وعن جماعة من الصحابة، من أنه نزل من سبعة أبواب الجنة، كما تقدم. يعني كما تقدم في رواية عن أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود: أن القرآن نزل من سبعة أبواب الجنة^(٤).

قال ابن جرير: والأبواب السبعة من الجنة هي المعاني التي فيها من الأمر والنهي، والترغيب والترهيب، والقصص والمثل، التي إذا عمل بها العامل وانتهى إلى حدودها المنتهى، استوجب بها الجنة.

ثم بسط القول في هذا بما حاصله: أن الشارع رخص للأمة التلاوة على سبعة أحرف، ثم لما رأى الإمام أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه، اختلاف الناس في القراءة، وخاف من تفرق كلمتهم - جمعهم على حرف واحد، وهو هذا المصحف الإمام، قال: واستوثقت له الأمة على ذلك بالطاعة، ورأت أن فيما فعله من ذلك الرشد والهداية، وتركت القراءة الأحرف الستة التي عزم عليها إمامها العادل في تركها طاعة منها له، ونظر منها لأنفسها وعن بعدها من سائر أهل ملتها، حتى درست من الأمة معرفتها، وتعفت آثارها، فلا سبيل اليوم لأحد إلى القراءة بها لدثورها وعفو آثارها. إلى أن قال: فإن قال من ضعفت معرفته: وكيف جاز لهم ترك قراءة أقرأهموها رسول الله ﷺ وأمرهم بقراءتها؟ قيل: إن أمره إياهم بذلك لم يكن أمر إيجاب وفرض، وإنما كان أمر إباحة ورخصة؛ لأن القراءة بها لو كانت فرضا عليهم لوجب أن يكون العلم بكل حرف من تلك الأحرف السبعة عند من يقوم بنقله الحجة، ويقطع خبره العذر، ويزيل الشك من قراءة الأمة، وفي تركهم نقل ذلك كذلك أوضح الدليل على أنهم كانوا في القراءة بها مخيرين. إلى أن قال: فأما ما كان من اختلاف القراءة في رفع حرف ونصبه وجره وتسكين حرف وتحريكه، ونقل حرف إلى آخر مع اتفاق

(١) فضائل القرآن (ص ٢٠٦).

(٢) في ط: «الجميع».

(٣) في ط، ج: «من».

(٤) تفسير الطبري (١/٤٧).

الصورة فى معنى قول النبى ﷺ: «أمرت أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف» بعزل؛ لأن المراء فى مثل هذا ليس بكفر، فى قول أحد من علماء الأمة، وقد أوجب ﷺ بالمراء فى الأحرف السبعة الكفر، كما تقدم^(١).

الحديث الثانى: قال البخارى، رحمه الله: حدثنا سعيد بن عفير، حدثنا الليث، حدثنا عقيل، عن ابن شهاب قال: أخبرنى عروة بن الزبير: أن المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن عبد القارئ حدثاه^(٢) أنهما سمعا عمر بن الخطاب يقول: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرأها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره فى الصلاة، فتبصرت حتى سلم فلبته بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ. فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرأنيها! فقال رسول الله ﷺ: «أرسله، اقرأ يا هشام»، فقرأ عليه القراءة التى سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أنزلت»، ثم قال: «اقرأ يا عمر»، فقرأت القراءة التى أقرأني، فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أنزلت. إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقروا ما تيسر منه»^(٣).

وقد رواه الإمام أحمد والبخارى - أيضا - ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذى من طرق عن الزهري^(٤)، ورواه الإمام أحمد - أيضا - عن ابن مهدي، عن مالك، عن الزهري، عن عروة، عن عبد الرحمن بن عبد، عن عمر، فذكر الحديث بنحوه^(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حرب بن ثابت، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة، عن أبيه، عن جده قال: قرأ رجل عند عمر فغير عليه فقال: قرأت على رسول الله ﷺ فلم يغير على قال: فاجتمعا عند النبى ﷺ، فقرأ الرجل على النبى ﷺ فقال له: «قد أحسنت». قال: فكان عمر وجد من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «يا عمر، إن القرآن كله صواب، ما لم يجعل عذاب مغفرة أو مغفرة عذابا»^(٦).

وهذا إسناد حسن. وحرب بن ثابت هذا يكنى بأبى ثابت، لا نعرف أحداً جرحه.

وقد اختلف العلماء فى معنى هذه السبعة الأحرف وما أريد منها على أقوال: قال أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح الأنصارى القرطبى المالكي فى مقدمات تفسيره: وقد اختلف العلماء فى المراء بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولاً، ذكرها أبو حاتم محمد بن حبان البستي، ونحن نذكر منها خمسة أقوال.

(١) تفسير الطبرى (٤٩/١).

(٢) فى ط، ج: «أخبراه».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٩٢).

(٤) المسند (٢٤/١) وصحيح البخارى برقم (٢٤١٩) وصحيح مسلم برقم (٨١٨) وسنن أبى داود برقم (١٤٧٥) وسنن النسائي

(٢/١٥٠) وسنن الترمذى برقم (٢٩٤٣).

(٥) المسند (٤٠/١).

(٦) المسند (٣٠/٤).

قلت: ثم سردها القرطبي، وحاصلها ما أنا موره ملخصا:

فالأول - وهو قول أكثر أهل العلم، منهم سفيان بن عيينة، وعبد الله بن وهب، وأبو جعفر بن جرير، والطحاوي -: أن المراد سبعة أوجه من المعاني المتقاربة بألفاظ مختلفة نحو: أقبل وتعال وهلم. وقال الطحاوي: وأبين ما ذكر في ذلك حديث أبي بكرة قال: جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال: اقرأ على حرف، فقال ميكائيل: استزده فقال: اقرأ على حرفين، فقال ميكائيل: استزده، حتى بلغ سبعة أحرف، فقال: اقرأ فكل شاف كاف إلا أن تخط آية رحمة بآية عذاب، أو آية عذاب بآية رحمة، على نحو هلم وتعال وأقبل واذهب واسرع وعجل.

وروي عن ورقاء عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب: أنه كان يقرأ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمَ مِنْ نُورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]: «للذين آمنوا أمهلونا» «للذين آمنوا آخرونا» «للذين آمنوا ارقبونا»، وكان يقرأ: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْأَوْا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٠]: «مروا فيه» «سعوا فيه». قال الطحاوي وغيره: وإنما كان ذلك رخصة أن يقرأ الناس القرآن على سبع لغات، وذلك لما كان يتعسر على كثير من الناس التلاوة على لغة قريش، وقرأه رسول الله ﷺ لعدم علمهم بالكتابة والضبط وإتقان الحفظ وقد ادعى الطحاوي والقاضي الباقلاني والشيخ أبو عمرو بن عبد البر أن ذلك كان رخصة في أول الأمر، ثم نسخ بزوال العذر وتيسير الحفظ وكثرة الضبط وتعلم الكتابة.

قلت: وقال بعضهم: إنما كان الذي جمعهم على قراءة واحدة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه، أحد الخلفاء الراشدين المهديين المأمورين باتباعهم، وإنما جمعهم عليها لما رأى من اختلافهم في القراءة المفضية إلى تفرق الأمة وتكفير بعضهم بعضاً، فرتب لهم المصاحف الأئمة على العريضة الأخيرة التي عارض بها جبريل رسول الله ﷺ في آخر رمضان من عمره، عليه الصلاة والسلام، وعزم عليهم ألا يقرؤوا بغيرها، وألا يتعاطوا الرخصة التي كانت لهم فيها سعة، ولكنها أفضت إلى الفرقة والاختلاف، كما ألزم عمر بن الخطاب الناس بالطلاق الثلاثة المجموعة حين تابعوا فيها وأكثروا منها، قال: فلو أنا أمضيناها عليهم، فأمضاه عليهم. وكان كذلك ينهى عن المتعة في أشهر الحج لئلا ينقطع زيارة البيت في غير أشهر الحج. وقد كان أبو موسى يفتي بالتمتع فترك فتياه اتباعاً لأمر المؤمنين وسمعا وطاعة لأئمة المهديين.

القول الثاني: أن القرآن نزل على سبعة أحرف، وليس المراد أن جميعه يقرأ على سبعة أحرف، ولكن بعضه على حرف وبعضه على حرف آخر. قال الخطابي: وقد يقرأ بعضه بالسبع لغات كما في قوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠] و﴿يَرْتَع وَيَلْعَبُ﴾ [يوسف: ١٢]. قال القرطبي: ذهب إلى هذا القول أبو عبيد، واختاره ابن عطية. قال أبو عبيد: وبعض اللغات أسعد به من بعض، وقال القاضي الباقلاني: ومعنى قول عثمان: إنه نزل بلسان قريش، أى: معظمه، ولم يبق دليل على أن جميعه بلغة قريش كله، قال الله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، ولم يقل: قرشياً. قال: واسم العرب يتناول جميع القبائل تناولا واحداً، يعنى حجازها ويمناها، وكذلك قال الشيخ أبو عمر بن

عبدالبر، قال: لأن غير لغة قريش موجودة في صحيح القراءات بتحقيق الهمزات، فإن قريشا لا تهمز. وقال ابن عطية: قال ابن عباس: ما كنت أدري ما معنى: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]، حتى سمعت أعربيا يقول لبثر ابتدا حفرها: أنا فطرتها.

القول الثالث: أن لغات القرآن السبع منحصرة في مضر على اختلاف قبائلها خاصة؛ لقول عثمان: إن القرآن نزل بلغة^(١) قريش، وقريش هم بنو النضر بن الحارث على الصحيح من أقوال أهل النسب، كما نطق به الحديث في سنن ابن ماجه وغيره.

القول الرابع - وحكاها الباقلاني عن بعض العلماء -: أن وجوه القراءات ترجع إلى سبعة أشياء، منها ما تتغير حركته ولا تتغير صورته ولا معناه مثل: ﴿وَيَضِيقُ صُدْرِي﴾ [الشعراء: ١٣] و «يضيق»، ومنها ما لا تتغير صورته ويختلف معناه مثل: ﴿فَقَالُوا إِنَّا بَاعِدٌ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩] و «باعد بين أسفارنا»، وقد يكون الاختلاف في الصورة والمعنى بالحرف مثل: ﴿نَنْشُرُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، و «نَشْرُهَا»^(٢)، أو بالكلمة مع بقاء المعنى [مثل]^(٣): ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، أو «كالصوف المنفوش» أو باختلاف الكلمة بالتقدم والتأخر مثل: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ١٩]، أو «سكرة الحق بالموت»، أو بالزيادة مثل «تسع وتسعون نعجة أثني»، «وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين»^(٤). «فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور».

القول الخامس: أن المراد بالأحرف السبعة معاني القرآن وهي: أمر، ونهى، ووعد، ووعد، وقصص، ومجادلة، وأمثال. قال ابن عطية: وهذا ضعيف؛ لأن هذه لا تسمى حروفاً، وأيضاً فالإجماع أن التوسعة لم تقع في تحليل حلال^(٥)، ولا في تغيير شيء من المعاني، وقد أورد القاضي الباقلاني في هذا حديثاً، ثم قال: وليست هذه هي التي أجاز لهم القراء^(٦) بها^(٧).

فصل

قال القرطبي: قال كثير من علمائنا كالداودي وابن أبي صفرة وغيرهما: هذه القراءات السبع التي تنسب لهؤلاء القراء السبعة ليست هي الأحرف السبعة التي اتسعت الصحابة في القراءة بها، وإنما هي راجعة إلى حرف واحد من السبعة وهو الذي جمع عليه عثمان المصحف. ذكره ابن النحاس وغيره.

قال القرطبي: وقد سوغ كل واحد من القراء السبعة قراءة الآخر وأجازها، وإنما اختار القراءة المنسوبة إليه لأنه رآها أحسن والأولى^(٨) عنده. قال: وقد أجمع المسلمون في هذه الأمصار على الاعتماد على ما صح عن هؤلاء الأئمة فيما رووه ورأوه من القراءات، وكتبوا في ذلك مصنفات واستمر الإجماع على الصواب وحصل ما وعد الله به من حفظ الكتاب^(٩).

قال البخاري، رحمه الله:

- | | | |
|--------------------------------|----------------------|-----------------------|
| (١) في جـ: «بلسان». | (٢) في جـ: «ينشرها». | (٣) زيادة من ط. |
| (٤) كذا في جـ، ط. | (٥) في جـ: «حرام». | (٦) في جـ: «القراءة». |
| (٧) تفسير القرطبي (١/٤٢ - ٤٧). | | |
| (٨) في م: «وأولى». | | |
| (٩) تفسير القرطبي (١/٤٦). | | |

تأليف القرآن

حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف: أن ابن جريج أخبرهم قال: وأخبرني يوسف ابن ماهك قال: إني لعند عائشة أم المؤمنين، رضى الله عنها، إذ جاءها عراقي فقال: أى الكفن خير؟ قالت: ويحك! وما يضرك، قال: يا أم المؤمنين، أربنى مصحفك، قالت: لم؟ قال: لعلى أولف القرآن عليه، فإنه يقرأ غير مؤلف، قالت: وما يضرك أيه قرأت قبل، إنما أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام ولو نزل أول شيء: ولا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرٌ﴾ [القمر: ٤٦]، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده، قال: فأخرجت له المصحف فأملت عليه آى السور^(١). وهكذا رواه النسائي من حديث ابن جريج به^(٢)، والمراد من التأليف ههنا ترتيب سورته. وهذا العراقي سأل أولاً عن أى الكفن خير، أى: أفضل، فأخبرته عائشة، رضى الله عنها، أن هذا لا ينبغي أن يعتنى بالسؤال عنه ولا القصد له ولا الاستعداد، فإن فى هذا تكلفاً لا طائل تحته، وكانوا فى ذلك الزمان يصفون أهل العراق بالتعنت فى الأسئلة، كما سأل بعضهم عبد الله بن عمر عن دم البعوض يصيب الثوب فقال عبد الله بن عمر: انظروا أهل العراق، يسألون عن دم البعوضة، وقد قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ! ^(٣). ولهذا لم تبالغ معه عائشة، رضى الله عنها، فى الكلام لثلاثاً يظن أن ذلك أمر مهم، وإلا فقد روى أحمد وأهل السنن من حديث سمرة وابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «البسوا من ثيابكم البياض، وكفنوا فيها موتاكم، فإنها أطهر وأطيب»^(٤) وصححه الترمذى من الوجهين.

وفى الصحيحين عن عائشة، رضى الله عنها، أنها قالت: كفن رسول الله ﷺ فى ثلاثة أثواب بيض سحولية، ليس فيها قميص ولا عمامة^(٥). وهذا محرر فى باب الكفن من كتاب الجنائز.

ثم سألها عن ترتيب القرآن فانتقل إلى سؤال كبير، وأخبرها أنه يقرأ غير مؤلف، أى: غير مرتب السور. وكان هذا قبل أن يبعث أمير المؤمنين عثمان، رضى الله عنه، إلى الآفاق بالمصاحف الأئمة المؤلفة على هذا الترتيب المشهور اليوم، وقبل الإلزام به، والله أعلم.

ولهذا أخبرته: أنك لا يضرك بأى سورة بدأت، وأن أول سورة نزلت فيها ذكر الجنة والنار،

(١) صحيح البخارى برقم (٣٩٩٣).

(٢) سنن النسائي الكبرى برقم (٧٩٨٧).

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٧٥٣).

(٤) حديث ابن عباس فى المسند (٢٣١/١، ٢٤٧) وسنن أبى داود برقم (٣٨٧٨) وسنن النسائي (١٤٩/٨) وسنن الترمذى برقم (٩٩٤) وسنن ابن ماجه برقم (١٤٧٢)، وحديث سمرة فى المسند (٢٠/٥) وسنن الترمذى برقم (٢٨١١) وسنن النسائي (٢٠٥/٨).

(٥) صحيح البخارى برقم (١٢٦٤) وصحيح مسلم برقم (٩٤١).

وهذه إن لم تكن «اقرأ» فقد يحتمل أنها أرادت اسم جنس لسور المفصل التي فيها الوعد والوعيد، ثم لما انقاد الناس إلى التصديق أمروا ونهوا بالتدريج أولاً فأولاً، وهذا من حكمة الله ورحمته، ومعنى هذا الكلام: أن هذه السورة أو السور التي فيها ذكر الجنة والنار ليس البداءة بها في أوائل المصحف، مع أنها من أول ما نزل، وهذه البقرة والنساء من أوائل ما في المصحف، وقد نزلت عليه في المدينة وأنا عنده.

فأما ترتيب الآيات في السور فليس في ذلك رخصة، بل هو أمر توقيفي عن رسول الله ﷺ، كما تقدم تقرير ذلك؛ ولهذا لم ترخص له في ذلك، بل أخرجت له مصحفها، فأملت عليه آي السور، والله أعلم. وقول عائشة: لا يضرك بأى سورة بدأت، يدل على أنه لو قدم بعض السور أو آخر، كما دل عليه حديث حذيفة وابن مسعود، وهو في الصحيح أنه، عليه السلام، قرأ في قيام الليل بالبقرة ثم النساء^(١) ثم آل عمران^(٢). وقد حكى القرطبي عن أبي بكر بن الأنباري في كتاب الرد أنه قال: فمن آخر سورة مقدمة أو قدم أخرى مؤخرة كمن أفسد نظم الآيات وغير الحروف والآيات^(٣)، وكان مستنده اتباع مصحف عثمان، رضى الله عنه، فإنه مرتب على هذا النحو المشهور، والظاهر أن ترتيب السور فيه منه ما هو رجع إلى رأى عثمان، وذلك ظاهر في سؤال ابن عباس له في ترك البسملة في أول براءة، وذكره الأنفال من الطول، والحديث في الترمذي وغيره بإسناد جيد وقوى. وقد ذكرنا عن على أنه كان قد عزم على ترتيب القرآن بحسب نزوله.

ولقد حكى القاضي الباقلاني: أن أول مصحفه كان: «اقرأ باسم ربك الأكرم» وأول مصحف ابن مسعود: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ثم البقرة، ثم النساء على ترتب مختلف، وأول مصحف أبي: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، ثم النساء، ثم آل عمران، ثم الأنعام، ثم المائدة، ثم كذا على اختلاف شديد، ثم قال القاضي: ويحتمل أن ترتيب السور في المصحف على ما هو عليه اليوم من اجتهاد الصحابة، رضى الله عنهم، وكذا ذكره مكى في تفسير سورة براءة قال: فأما ترتيب الآيات والبسملة في الأوائل فهو من النبي ﷺ.

وقال ابن وهب في جامعه: سمعت سليمان بن بلال يقول: سئل ربيعة: لم قدمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة؟ فقال: قدمتا وألف القرآن على علم ممن ألفه، وقد أجمعوا على العلم بذلك، فهذا مما ينتهى إليه ولا يسأل عنه. قال ابن وهب: وسمعت مالكا يقول: إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعون من النبي ﷺ^(٤).

قال أبو الحسن بن بطلال: إنا نجد^(٥) تأليف سورة في الرسم والخط خاصة ولا يعلم أن أحداً منهم

(١) في ج: «بالنساء».

(٢) رواه مسلم في صحيحه برقم (٧٧٢).

(٣) تفسير القرطبي (١/ ٦٠).

(٤) ذكره القرطبي في تفسيره (١/ ٥٩، ٦٠).

(٥) في ط، ج: «إنما يجب».

قال: إن ترتيب ذلك واجب في الصلاة وفي قراءة القرآن ودرسه، وأنه لا يحل لأحد أن يقرأ الكهف قبل البقرة، ولا الحج قبل^(١) الكهف، ألا ترى إلى قول عائشة: ولا يضرك أیه قرأت قبل. وقد كان النبي ﷺ يقرأ في الصلاة السورة في ركعة، ثم يقرأ في الركعة الأخرى بغير السورة التي تليها.

وأما ما روى عن ابن مسعود وابن عمر أنهما كرها أن يقرأ القرآن منكوساً^(٢). وقالوا: إنما ذلك منكوس القلب، فإنما عنيا بذلك من يقرأ السورة منكوسةً فيبتدئ بآخرها إلى أولها، فإن ذلك حرام محذور.

ثم قال البخاري: حدثنا آدم، عن شعبة، عن أبي إسحاق قال: سمعت عبد الرحمن بن يزيد قال: سمعت ابن مسعود يقول في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء: إنهن من العتاق الأول، وهن من تلادي^(٣). انفرد البخاري بإخراجه والمراد منه ذكر ترتيب هذه السور في مصحف ابن مسعود كالمصاحف العثمانية، وقوله: «من العتاق الأول» أي: من قديم ما نزل، وقوله: «وهن من تلادي» أي: من قديم ما قنيت وحفظت. والتالذ في لغتهم: قديم المال والمتاع، والطارف حديثه وجديده، والله أعلم.

وحدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، حدثنا أبو إسحاق: سمع البراء بن عازب يقول: تعلمت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قبل أن يقدم النبي ﷺ^(٤). وهذا متفق عليه، وهو قطعة من حديث الهجرة، والمراد منه أن ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ مكية نزلت قبل الهجرة، والله أعلم.

ثم قال: حدثنا عبدان، عن أبي حمزة، عن الأعمش، عن شقيق قال: قال عبد الله: لقد علمت النظائر التي^(٥) كان النبي ﷺ يقرأهن اثنين اثنين في كل ركعة، فقام عبد الله ودخل معه علقمة، وخرج علقمة فسألناه فقال: عشرون سورة من أول المفصل على تأليف ابن مسعود، آخرهن من الحواميم حم الدخان وعم يتساءلون.

وهذا التأليف الذي عن ابن مسعود غريب مخالف لتأليف عثمان، رضى الله عنه، فإن المفصل في مصحف عثمان، رضى الله عنه، من سورة الحجرات إلى آخره وسورة الدخان، لا تدخل فيه بوجه، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن الطائفي، عن عثمان بن عبد الله ابن أوس الثقفي عن جده أوس بن حذيفة قال: كنت في الوفد الذين أتوا النبي ﷺ فذكر حديثاً فيه: أن رسول الله ﷺ كان يسمر معهم بعد العشاء فمكث عنا ليلة لم يأتنا، حتى طال ذلك علينا بعد العشاء. قال: قلنا: ما أمكثك عنا يا رسول الله؟ قال: «طراً على حزب من القرآن، فأردت ألا أخرج حتى أقضيه». قال: فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ حين أصبحنا، قال: قلنا: كيف تحزبون القرآن؟

(٢) في ج: «مقلوباً».

(١) في ط، ج: «بعد».

(٣) صحيح البخاري برقم (٤٩٩٤).

(٤) صحيح البخاري برقم (٤٩٩٥).

(٥) في ط: «الذي».

قالوا: نحزبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة سورة، وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصل من قاف حتى يختم^(١).

ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى الطائفي به^(٢)، وهذا إسناد حسن.

فصل

فأما نقط المصحف وشكله، فيقال: إن أول من أمر به عبد الملك بن مروان، فتصدى لذلك الحجاج وهو بواسط، فأمر الحسن البصري ويحيى بن يعمر ففعلا ذلك، ويقال: إن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلى، وذكروا أنه كان لمحمد بن سيرين مصحف قد نقطه له يحيى بن يعمر^(٣)، والله أعلم.

وأما كتابة الأعشار على الحواشى فينسب إلى الحجاج أيضا، وقيل: بل أول من فعله المأمون، وحكى أبو عمرو الدانى عن ابن مسعود أنه كره التعشير فى المصحف، وكان يحكه^(٤)، وكره مجاهد ذلك أيضا.

وقال مالك: لا بأس به بالخبر، فأما بالألوان المصبغة فلا. وأكره تعداد آى السور فى أولها فى المصاحف الأمهات، فأما ما يتعلم فيه الغلمان فلا أرى به بأسا.

وقال قتادة: بدؤوا فنقطوا، ثم خمسوا، ثم عشروا. وقال يحيى بن أبى كثير: أول ما أحدثوا النقط على الباء والتاء والثاء، وقالوا: لا بأس به، هو نور له، أحدثوا نقطا عند آخر الآى، ثم أحدثوا الفواتح والخواتم.

ورأى إبراهيم النخعى فاتحة سورة كذا، فأمر بمحوها وقال: قال ابن مسعود: لا تخطوا بكتاب الله ما ليس فيه. قال أبو عمرو الدانى: ثم قد أطبق المسلمون فى ذلك فى سائر الآفاق على جواز ذلك فى الأمهات وغيرها.

ثم قال البخارى، رحمه الله:

كان جبريل يعرض القرآن على النبى ﷺ

قال مسروق عن عائشة، عن فاطمة، رضى الله عنها، أسر إلى رسول الله ﷺ: أن جبريل كان يعارضنى بالقرآن كل سنة وأنه عارضنى العام مرتين ولا أراه إلا حضر أجلي. هكذا ذكره معلقا وقد أسنده فى موضع آخر^(٥).

ثم قال: حدثنا يحيى بن قزعة، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن الزهرى، عن عبد الله بن عبيد الله،

(١) المسند (٩/٤).

(٢) سنن أبى داود برقم (١٣٩٣) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٤٥).

(٣) رواه ابن أبى داود فى المصاحف (ص ١٦٠).

(٤) رواه أبو عبيد فى فضائل القرآن (ص ٢٤٠).

(٥) صحيح البخارى (٤٣/٩) «فتح».

عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون في شهر رمضان؛ لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة، وهذا الحديث متفق عليه^(١)، وقد تقدم الكلام عليه في أول الصحيح وما فيه من الحكم والفوائد، والله أعلم.

ثم قال: حدثنا خالد بن يزيد، حدثنا أبو بكر، عن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: كان يعرض على النبي ﷺ القرآن كل عام مرة، فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه، وكان يعتكف كل عام عشرا فاعتكف عشرين في العام الذي قبض.

ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجة من غير وجه عن أبي بكر - وهو ابن عياش - عن أبي حصين، واسمه عثمان بن عاصم، به^(٢). والمراد من معارضته له بالقرآن كل سنة: مقابله على ما أوحاه إليه عن الله تعالى، ليبقى ما بقى، ويذهب ما نسخ تأكيداً، أو استنباطاً وحفظاً؛ ولهذا عرضه في السنة الأخيرة من عمره، عليه السلام، على جبريل مرتين، وعارضه به جبريل كذلك؛ ولهذا فهم، عليه السلام، اقتراب أجله وعثمان، رضى الله عنه، جمع المصحف الإمام على العرضة الأخيرة، وخصّ بذلك رمضان من بين الشهور؛ لأن ابتداء الإيحاء كان فيه؛ ولهذا يستحب دراسة القرآن وتكراره فيه، ومن ثم اجتهاد الأئمة فيه في تلاوة القرآن، كما تقدم ذكرنا لذلك.

القراء من أصحاب النبي ﷺ

حدثنا حفص بن عمر، حدثنا شعبة، عن عمرو، عن إبراهيم، عن مسروق: ذكر عبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود، فقال: لا أزال أحبه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله، وسالم، ومعاذ بن جبل، وأبى بن كعب»، رضى الله عنهم^(٣).

وقد أخرجه البخارى في المناقب في غير موضع، ومسلم والنسائي من حديث شعبة، عن عمرو ابن مرة به^(٤).

وأخرجاه والترمذى والنسائي - أيضاً - من حديث الأعمش عن أبى وائل، عن مسروق به^(٥). فهؤلاء الأربعة اثنان من المهاجرين الأولين عبد الله بن مسعود وسالم مولى أبى حذيفة، وقد كان سالم هذا من سادات المسلمين وكان يؤم الناس قبل مقدم النبي ﷺ في المدينة، واثنان من الأنصار معاذ بن جبل، وأبى بن كعب، وهما سيدان كبيران، رضى الله عنهم أجمعين.

ثم قال: حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبى، حدثنا الأعمش، حدثنا شقيق بن سلمة قال: خطبنا

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٩٧) وصحيح مسلم برقم (٢٣٠٨).

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٩٩٨) وسنن أبى داود برقم (٢٤٦٦) وسنن النسائي الكبرى برقم (٧٩٩٢) وسنن ابن ماجة برقم (١٧٦٩).

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٩٩).

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٨٠٦، ٣٧٥٨) وصحيح مسلم برقم (٢٤٦٤) وسنن النسائي الكبرى برقم (٧٩٩٦).

(٥) صحيح البخارى برقم (٣٧٦٠) وصحيح مسلم برقم (٢٤٦٤) وسنن الترمذى برقم (٣٨١٠) وسنن النسائي الكبرى برقم (٧٩٩٧).

عبد الله فقال: والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة، والله لقد علم أصحاب النبي ﷺ أني من أعلمهم بكتاب الله وما أنا بخيرهم. قال شقيق: فجلست في الخلق أسمع ما يقولون، فما سمعت راداً يقول غير ذلك^(١).

حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة قال: كنا بحمص، فقرأ ابن مسعود سورة يوسف فقال رجل: ما هكذا أنزلت، فقال: قرأت على رسول الله ﷺ فقال: «أحسن» ووجد منه ريح الخمر، فقال: أتجترئ أن تكذب بكتاب الله وتشرب الخمر؟! فجلده الحد^(٢).

حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثنا مسلم، عن مسروق قال: قال عبد الله: والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت^(٣) سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، ولو أعلم أحدا أعلم مني ببلغه الإبل لركبت إليه^(٤).

وهذا كله حق وصدق، وهو من إخبار الرجل بما يعلم عن نفسه ما قد يجهله غيره، فيجوز ذلك للحاجة، كما قال تعالى إخبارا عن يوسف لما قال لصاحب مصر: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، وكيفيه مدحا وثناء قول رسول الله ﷺ: «استقرئوا القرآن من أربعة»، فبدأ به.

وقال أبو عبيد: حدثنا مصعب بن المقدام عن سفيان عن الأعمش عن إبراهيم، عن علقمة، عن عمر عن النبي ﷺ قال: «من أحب أن يقرأ القرآن غصاً كما أنزل فليقرأه على حرف ابن أم عبد»^(٥). وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبي معاوية، عن الأعمش به مطولا، وفيه قصة^(٦)، وأخرجه الترمذي والنسائي من حديث أبي معاوية وصححه الدارقطني^(٧)، وقد ذكرته في مسند عمر^(٨)، وفي مسند الإمام أحمد - أيضا - عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ومن أحب أن يقرأ القرآن غصاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»^(٩)، وابن أم عبد هو عبد الله بن مسعود، وكان يعرف بذلك.

ثم قال البخاري: حدثنا حفص بن عمر، حدثنا همام، حدثنا قتادة قال: سألت أنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ؟ قال: أربعة، كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن

(١) صحيح البخاري برقم (٥٠٠٠).

(٢) صحيح البخاري برقم (٥٠٠١).

(٣) في ج: «ما نزلت».

(٤) صحيح البخاري برقم (٥٠٠٢).

(٥) فضائل القرآن (ص ٢٢٥).

(٦) المسند (١/ ٢٥، ٢٦).

(٧) سنن الترمذي برقم (١٦٩) وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٢٥٦).

(٨) مسند عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - للمؤلف (ص ١٧١ - ١٧٣) وقال: «وهذا الحديث لا يشك أنه محفوظ، وهذا الاضطراب لا يضر صحته، والله أعلم».

(٩) المسند (٢/ ٤٤٦).

جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. ورواه مسلم من حديث همام^(١).

ثم قال البخاري: تابعه الفضل، عن حسين بن واقد، عن ثمامة، عن أنس^(٢).

حدثنا معلى بن أسد، حدثنا عبد الله بن المثنى قال: حدثني ثابت البناني وثمانة عن أنس بن مالك قال: مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. قال: ونحن ورثناه^(٣).

فهذا الحديث ظاهره أنه لم يجمع القرآن من الصحابة سوى هؤلاء الأربعة فقط، وليس هذا هكذا، بل الذي لاشك فيه أنه جمعه غير واحد من المهاجرين أيضاً، ولعل مراده: لم يجمع القرآن من الأنصار؛ ولهذا ذكر الأربعة من الأنصار، وهم أبي بن كعب في الرواية الأولى المتفق عليها وفي الثانية من أفراد البخاري: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، وكلهم مشهورون إلا أبا زيد هذا، فإنه غير معروف إلا في هذا الحديث، وقد اختلف في اسمه فقال الواقدي: اسمه قيس بن السكن بن قيس بن زعواء بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار^(٤).

وقال ابن نمير: اسمه سعد بن عبيد بن النعمان بن قيس بن عمرو بن زيد بن أمية من الأوس. وقيل: هما اثنان جمعا القرآن، حكاه أبو عمر بن عبد البر، وهذا بعيد وقول الواقدي أصح لأنه خزرجي؛ لأن أنساً قال: ونحن ورثناه، وهم من الخزرج، وفي بعض ألفاظه^(٥): وكان أحد عمومتى. وقال قتادة عن أنس: افتخر الحيان الأوس والخزرج، فقالت الأوس: منا غسيل الملائكة حنظلة بن أبي عامر، ومنا الذي حمته الدبر عاصم بن ثابت، ومنا الذي اهتز لموته العرش سعد بن معاذ، ومنا من أجزت شهادته بشهادة رجلين خزيمة بن ثابت.

فقالت الخزرج: منا أربعة جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد.

فهذا كله يدل على صحة قول الواقدي، وقد شهد أبو زيد هذا بدرا، فيما ذكره غير واحد. وقال موسى بن عقبة عن الزهري: قتل أبو زيد قيس بن السكن يوم جسر^(٦) أبي عبيدة على رأس خمس عشرة^(٧) من الهجرة، والدليل على أن^(٨) من المهاجرين من جمع القرآن أن الصديق، رضى الله عنه، قدمه رسول الله ﷺ في مرضه^(٩) إماماً على المهاجرين والأنصار، مع أنه ﷺ قال: «يَوْمَ الْقَوْمِ أَقْرؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ»^(١٠)، فلو لا أنه كان أقْرؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ لما قدمه عليهم. هذا مضمون ما قرره

(١) صحيح البخاري برقم (٥٠٠٣) وصحيح مسلم برقم (٢٤٦٥).

(٢) في ج: «أنس بن مالك».

(٣) صحيح البخاري برقم (٥٠٠٤).

(٤) انظر: الإصابة (٣/ ٢٤٠).

(٥) في ط: «الألفاظ».

(٦) في ط: «خيبر».

(٩) في ج، ط: «زمته».

(١٠) رواه مسلم في صحيحه برقم (٦٧٢) من حديث أبي مسعود الأنصاري.

(٨) في ط: «أنه».

(٧) في ط: «عشرة سنة».

الشيخ أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعري، وهذا التقرير لا يُدفع ولاشك^(١) فيه، وقد جمع الحافظ ابن السمعاني في ذلك جزءاً، وقد بسطت تقرير ذلك في كتاب مسند الشيخين، رضى الله عنهما. ومنهم عثمان بن عفان وقد قرأه في ركعة - كما سنذكره - وعلى بن أبي طالب يقال: إنه جمعه على ترتيب ما أنزل، وقد قدمنا هذا. ومنهم عبد الله بن مسعود، وقد تقدم عنه أنه قال: ما من آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت^(٢)؟ وفيه نزلت؟ ولو علمت أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه المطى لذهبت إليه. ومنهم سالم مولى أبي حذيفة، كان من السادات النجباء والأئمة الأتقياء وقد قتل يوم اليمامة شهيداً. ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ وترجمان القرآن، وقد تقدم عن مجاهد أنه قال: قرأت القرآن على ابن عباس مرتين، أقفه عند كل آية وأسأله عنها. ومنهم عبد الله بن عمرو، كما رواه النسائي وابن ماجة من حديث ابن جريج عن عبد الله بن أبي مليكة، عن يحيى بن حكيم بن صفوان، عن عبد الله بن عمرو قال: جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «اقرأ في شهر». وذكر تمام الحديث^(٣).

ثم قال البخاري: حدثنا صدقة بن الفضل، حدثنا يحيى، عن سفيان، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال عمر: على أفضانا، وأبى أقرانا، وإنا لنَدع من لحن أبي، وأبى يقول: أخذته من في رسول الله ﷺ، فلا أتركه لشيء قال الله تعالى: ﴿مَا نَسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]^(٤).

وهذا يدل على أن الرجل الكبير قد يقول الشيء يظنه صواباً وهو خطأ في نفس الأمر؛ ولهذا قال الإمام مالك: ما من أحد إلا يؤخذ من قوله ويرد إلا قول صاحب هذا القبر، أى: فكله مقبول، صلوات الله وسلامه عليه. ثم ذكر البخاري فضل فاتحة الكتاب وغيرها، وسنذكر فضل كل سورة عندها ليكون ذلك أنسب. ثم قال:

نزول السكينة والملائكة عند القراءة

وقال الليث: حدثني يزيد بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم، عن أسيد بن الحضير قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، وفرسه مربوطة عنده، إذ جالت الفرس، فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت^(٥)، فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها، فأشفق أن تصيبه، فلما اجتزاه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال: «اقرأ يا بن حضير، اقرأ يا بن حضير». قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريباً، فرفعت رأسي وانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلّة، فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها قال: «أو تدري^(٦) ما ذاك؟». قال: لا، قال: «الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت

(١) في ط: «ولا يشك».

(٢) في ط: «أنزلت».

(٣) في ط: «الرسول».

(٤) سنن النسائي الكبرى برقم (٨٠٦٤) وسنن ابن ماجة برقم (١٣٤٦).

(٥) صحيح البخاري برقم (٥٠٠٥).

(٦) في ط: «وتدري».

(٦) في ج، ط: «فجالت الفرس».

ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم». قال ابن الهاد: وحدثني هذا الحديث عبد الله بن خباب عن أبي سعيد الخدري عن أسيد بن حضير^(١).

هكذا أورد البخاري هذا الحديث معلقا، وفيه انقطاع في الرواية الأولى، فإن محمد بن إبراهيم ابن الحارث التيمي المدني تابعي صغير لم يدرك أسيدا لأنه مات سنة عشرين، وصلى عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنهما. ثم فيه غرابة من حيث إنه قال: وقال الليث: حدثني يزيد بن الهاد ولم أره بسند متصل عن الليث بذلك، إلا ما ذكره الحافظ أبو القاسم بن عساكر في الأطراف أن يحيى بن عبد الله بن بكير رواه عن الليث كذلك^(٢).

وقد رواه الإمام أبو عبيد في فضائل القرآن فقال: حدثنا عبد الله بن صالح ويحيى بن بكير، عن الليث، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي، عن أسيد ابن حضير، فذكر الحديث إلى آخره، ثم قال: [قال]^(٣) ابن الهاد: وحدثني عبد الله بن خباب، عن أبي سعيد، عن أسيد بن حضير بهذا^(٤).

وقد رواه النسائي في فضائل القرآن، عن محمد بن عبد الله بن [عبد]^(٥) الحكم عن شعيب بن الليث، وعن علي بن محمد بن علي، عن داود بن منصور، كلاهما عن الليث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن يزيد بن عبد الله، وهو ابن الهاد، عن عبد الله بن خباب، عن أبي سعيد، عن أسيد، به^(٦). ورواه يحيى بن بكير، عن الليث كذلك أيضا، فجمع بين الإسنادين. ورواه في المناقب عن أحمد بن سعيد الرباطي، عن يعقوب بن إبراهيم، عن أبيه، عن يزيد بن الهاد، عن عبد الله بن خباب، عن أبي سعيد، أن أسيد بن حضير بينما هو ليلة يقرأ في مرثد، الحديث. ولم يقل: عن أسيد، ولكن ظاهره أنه عنه، والله أعلم^(٧).

وقال أبو عبيد: حدثني عبد الله بن صالح، عن الليث، عن ابن شهاب، عن ابن كعب بن مالك، عن أسيد بن حضير: أنه كان على ظهر بيته يقرأ القرآن وهو حسن الصوت، ثم ذكر مثل هذا الحديث أو نحوه^(٨):

حدثنا قبيصة، عن حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلي، عن أسيد ابن حضير قال: قلت: يا رسول الله، بينما أنا أقرأ الباردة بسورة، فلما انتهيت إلى آخرها سمعت

(١) صحيح البخاري برقم (٥٠١٨).

(٢) انظر: تحفة الأشراف للزمي (١/٧٢).

(٣) زيادة من ط.

(٤) فضائل القرآن (ص ٢٦).

(٥) زيادة من ط.

(٦) سنن النسائي الكبرى برقم (٨٠٧٤).

(٧) سنن النسائي الكبرى برقم (٨٢٤٤).

(٨) فضائل القرآن (ص ٢٧).

وجبة من خلفي، حتى ظننت أن فرسى تطلق، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ أبا عتيك» [مرتين]^(١) قال: فالتفت إلى أمثال المصابيح ملء بين السماء والأرض، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ أبا عتيك». فقال: والله ما استطعت أن أمضى فقال: «تلك الملائكة نزلت لقراءة القرآن، أما إنك لو مضيت لرأيت الأعاجيب»^(٢).

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق سمع البراء يقول: بينما رجل يقرأ سورة الكهف ليلة إذ رأى دابته تركض، أو قال: فرسه يركض، فنظر فإذا مثل الضبابة أو مثل الغمامة، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «تلك السكينة نزلت للقرآن، أو تنزلت على القرآن»^(٣). وقد أخرجه صاحبها الصحيح من حديث شعبة^(٤). والظاهر أن هذا هو أسيد بن الحضير، رضى الله عنه، فهذا ما يتعلق بصناعة الإسناد، وهذا من أغرب تعليقات البخارى، رحمه الله، ثم سياق ظاهر فيما ترجم عليه من نزول السكينة والملائكة عند القراءة.

وقد اتفق نحو هذا الذى وقع لأسيد بن الحضير لثابت بن قيس بن شماس كما قال أبو عبيد: حدثنا عباد بن عباد عن جرير بن حازم، عن عمه جرير بن زيد^(٥)، أن أشياخ أهل المدينة حدثوه: أن رسول الله ﷺ قيل له: ألم تر ثابت بن قيس بن شماس لم تزل داره البارحة تزهو مصابيح؟ قال: «فلعله قرأ سورة البقرة». قال: فسئل ثابت فقال: قرأت سورة البقرة^(٦).

وفى الحديث المشهور الصحيح: «ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه فيما بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتْهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده» رواه مسلم عن أبي هريرة^(٧).

ولهذا قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، وجاء فى بعض التفاسير: أن الملائكة تشهده. وقد جاء فى الصحيحين عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر، فيعرج إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادى؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون»^(٨).

(١) زيادة من ط.

(٢) فضائل القرآن (ص ٢٢٧).

(٣) مسند الطيالسي برقم (٧١٤).

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٦١٤) وصحيح مسلم برقم (٧٩٥).

(٥) فى ط، م: «يزيد».

(٦) فضائل القرآن (ص ٢٧).

(٧) صحيح مسلم برقم (٢٦٩٩).

(٨) صحيح البخارى برقم (٥٥٥) وصحيح مسلم برقم (٦٣٢).

من قال: لم يترك النبي ﷺ إلا ما بين الدفتين

حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا سفیان، عن عبد العزيز بن رفيع قال: دخلت أنا وشداد بن معقل على ابن عباس، فقال له شداد بن معقل: أترك النبي ﷺ من شيء؟ قال: ما ترك إلا ما بين الدفتين. قال: ودخلنا على محمد بن الحنفية فسألناه فقال: ما ترك إلا ما بين الدفتين.

تفرد به البخاري^(١)، ومعناه: أنه، عليه السلام، ما ترك مالا ولا شيئا يورث عنه، كما قال عمرو ابن الحارث أخو جويرية بنت الحارث: ما ترك رسول الله ﷺ دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ولا شيئا^(٢). وفي حديث أبي الدرداء: «إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»^(٣). ولهذا قال ابن عباس: وإنما ترك ما بين الدفتين يعني: القرآن، والسنة مفسرة له ومبينة وموضحة له، فهي تابعة له، والمقصود الأعظم كتاب الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية [فاطر: ٣٢]، فالأنبياء، عليهم السلام، لم يخلقوا للعالم يجمعونها ويورثونها، إنما خلقوا للآخرة يدعون إليها ويرغبون فيها؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة»^(٤)، وكان أول من أظهر هذه المحاسن من هذا الوجه أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، لما سئل عن ميراث النبي ﷺ، فأخبر عنه بذلك، ووافقه على نقله عنه، عليه السلام، غير واحد من الصحابة؛ منهم عمر وعثمان وعلي والعباس وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وأبو هريرة وعائشة وغيرهم، وهذا ابن عباس يقول - أيضا - عنه عليه السلام، رضى الله عنهم أجمعين.

فضل القرآن على سائر الكلام

حدثنا هُذَيْبَةُ بن خالد أبو خالد، حدثنا همام، حدثنا قتادة، حدثنا أنس بن مالك، عن أبي موسى، رضى الله عنهما، عن النبي ﷺ: «مثل الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة، طعمها طيب وريحها طيب. والذى لا يقرأ القرآن كالتمر، طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر، ومثل الفاجر الذى لا يقرأ القرآن كمثل الخنظلة طعمها مر ولا ريح لها»^(٥). وهكذا رواه فى مواضع أخر مع بقية الجماعة من طرق عن قتادة به^(٦).

ووجه مناسبة الباب لهذا الحديث: أن طيب الرائحة دار مع القرآن وجودا وعدما، فدل على شرفه على ما سواه من الكلام الصادر من البر والفاجر. ثم قال: حدثنا مُسَدَّدٌ، حدثنا يحيى، عن سفیان، حدثنى عبد الله بن دينار، قال: سمعت ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «إنما أجلكم فى أجل من خلا

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠١٩).

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٧٣٩، ٤٤٦١).

(٣) رواه أبو داود فى السنن برقم (٣٦٤١) وابن ماجه فى السنن برقم (٢٢٣) وابن حبان فى صحيحه برقم (٨٠) «موارد».

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٠٩٣) ومسلم فى صحيحه برقم (١٧٥٨).

(٥) صحيح البخارى برقم (٥٠٢٠).

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٤٢٧، ٥٠٥٩) وصحيح مسلم برقم (٧٩٧) وسنن أبى داود برقم (٤٨٣٠) وسنن الترمذى برقم (٢٨٦٥)

وسنن النسائى (١٢٤/٨، ١٢٥) وسنن ابن ماجه برقم (٢١٤).

من الأمم كما بين صلاة العصر ومغرب الشمس، ومثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالا، فقال: من يعمل لى إلى نصف النهار على قيراط؟ فعملت اليهود فقال: من يعمل لى من نصف النهار إلى العصر؟ فعملت النصارى، ثم أنتم تعملون من العصر إلى المغرب بقيراطين، قالوا: نحن أكثر عملا وأقل عطاء! قال: هل ظلمتكم من حقكم؟ قالوا: لا. قال: فذلك فضلى أوتيه من شئت»^(١).

تفرد به من هذا الوجه، ومناسبته للترجمة: أن هذه الأمة مع قصر مدتها فضلت الأمم الماضية مع طول مدتها، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وفى المسند والسنن عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله»^(٢). وإنما فازوا بهذا ببركة الكتاب العظيم الذى شرفه الله تعالى على كل كتاب أنزله، جعله مهيمنا عليه، وناسخا له، وخاتما له؛ لأن كل الكتب المتقدمة نزلت إلى الأرض جملة واحدة، وهذا القرآن نزل منجما بحسب الوقائع لشدة الاعتناء به وبمن أنزله عليه، فكل مرة كنزول كتاب من الكتب المتقدمة، وأعظم الأمم المتقدمة هم اليهود والنصارى، فاليهود استعملهم الله من لدن موسى إلى زمان عيسى، والنصارى من ثم إلى أن بعث محمد ﷺ، ثم استعمل أمته إلى قيام الساعة، وهو المشبه بآخر النهار، وأعطى الله المتقدمين قيراطا قيراطا، وأعطى هؤلاء قيراطين قيراطين، ضعفى ما أعطى أولئك، فقالوا: أى ربنا، ما لنا أكثر عملا وأقل أجرا؟ فقال: هل ظلمتكم شيئا؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلى أى: الزائد على ما أعطيتكم أوتيه من أشياء كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. لئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٨، ٢٩].

الوصايا بكتاب الله

حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا مالك بن مغول، حدثنا طلحة بن مُصَرِّف قال: سألت عبد الله ابن أبى أوفى: أوصى النبي ﷺ؟ قال: لا. فقلت: كيف كتب على الناس الوصية، أمروا بها ولم يوص؟ قال: أوصى بكتاب الله، عز وجل^(٣).

وقد رواه فى مواضع أخر مع بقية الجماعة، إلا أبا داود من طرق عن مالك بن مغول به^(٤)، وهذا نظير ما تقدم عن ابن عباس: «ما ترك إلا ما بين الدفتين»، وذلك أن الناس كتب عليهم الوصية فى أموالهم كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]. وأما هو ﷺ فلم يترك شيئا يورث عنه، وإنما ترك ماله صدقة جارية من

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠٢١).

(٢) المسند (٣/٥) وسنن الترمذى برقم (٣٠٠١) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٨٧، ٤٢٨٨) وقال الترمذى: «حديث حسن».

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٠٢٢).

(٤) صحيح البخارى برقم (٢٧٤٠، ٤٤٦٠) وصحيح مسلم برقم (١٦٣٤) وسنن الترمذى برقم (٢١١٩) وسنن النسائى (٦/ ٢٤٠).

وسنن ابن ماجه برقم (٢٦٩٦).

بعده، فلم يحتج إلى وصية في ذلك ولم يوص إلى خليفة يكون بعده على التنصيب؛ لأن الأمر كان ظاهراً من إشارته وإيمائه إلى الصديق؛ ولهذا لما هم بالوصية إلى أبي بكر ثم عدل عن ذلك فقال: «ياأبي الله والمؤمنون إلا أبا بكر»^(١)، وكان كذلك، وإنما أوصى الناس باتباع كتاب الله تعالى.

من لم يتغن بالقرآن وقول الله تعالى:

﴿أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، حدثنا عقيل، عن ابن شهاب قال: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، أنه كان يقول: قال رسول الله ﷺ: «لم يأذن الله لشئ، ما أذن لنبي أن يتغن بالقرآن»، وقال صاحب له: يريد يجهر به فرد من هذا الوجه. ثم رواه عن علي بن عبد الله بن المدينى، عن سفيان بن عيينة، عن الزهري به^(٢). قال سفيان: تفسيره: يستغن به، وقد أخرجه مسلم والنسائي من حديث سفيان بن عيينة^(٣)، ومعناه: أن الله ما استمع لشئ كاستماعه لقراءة نبي يجهر بقراءته ويحسنها، وذلك أنه يجتمع في قراءة الأنبياء طيب الصوت لكمال خلقهم وتمام الخشية، وذلك هو الغاية في ذلك.

وهو، سبحانه وتعالى، يسمع أصوات العباد كلهم برهم وفاجرهم، كما قالت عائشة، رضى الله عنها: سبحان الله الذي وسع سمعه الأصوات^(٤). ولكن استماعه لقراءة عباده المؤمنين أعظم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]، ثم استماعه لقراءة أنبيائه أبلغ كما دل عليه هذا الحديث العظيم، ومنهم من فسر الأذن ههنا بالأمر، والأول أولى لقوله: «ما أذن الله لشئ ما أذن لنبي أن يتغن بالقرآن» أى: يجهر به، والأذن: الاستماع؛ لدلالة السياق عليه، وكما قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ. وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ. وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ. وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ. وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١ - ٥] أى: وحق لها أن تستمع أمره وتطيعه، فالأذن هو الاستماع؛ ولهذا جاء في حديث رواه ابن ماجة بسند جيد عن فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ: «الله أشد أذناً إلى الرجل»^(٥) الحسن الصوت بالقرآن [يجهر به]^(٦) من صاحب القينة إلى قينته^(٧).

وقال سفيان بن عيينة: إن المراد بالتغن: يستغن به، فإن أراد: أنه يستغن عن الدنيا، وهو الظاهر من كلامه الذى تابعه عليه أبو عبيد القاسم بن سلام وغيره، فخلافاً للظاهر من مراد الحديث؛ لأنه قد فسر بعض رواته بالجهر، وهو تحسين القراءة والتحزين بها^(٨).

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٢١٧) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٣٨٧) من حديث عائشة، رضى الله عنها.

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٠٢٣)، (٥٠٢٤).

(٣) صحيح مسلم برقم (٧٩٢) وسنن النسائى (١٨٠/٢).

(٤) رواه النسائى فى السنن (١٦٨/٦) ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٣٨٥) معلقاً.

(٥) فى ط، ج: «أذن الرجل». (٦) زيادة من ابن ماجة.

(٧) سنن ابن ماجة برقم (١٣٤٠).

(٨) نقل الحافظ ابن حجر فى الفتح (٧٠/٩) عن ابن الجوزى أربعة أقوال فى معنى يتغن: تحسين الصوت، الاستغناء، التحزن كما قال الشافعى، التشاغل به. قال: وحكى ابن الأنبارى قولاً خامساً وهو التلذذ والاستحلاء.

قال حرمله: سمعت ابن عيينة يقول: معناه: يستغنى به، فقال لى الشافعى: ليس هو هكذا، ولو كان هكذا لكان يتغانى به، وإنما هو يتحزن ويترنم به، ثم قال حرمله: وسمعت ابن وهب يقول: يترنم به، وهكذا نقل المزنى والربيع عن الشافعى، رحمه الله.

وعلى هذا فتصدير البخارى الباب بقوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]، فيه نظر؛ لأن هذه الآية الكريمة ذكرت ردا على الذين سألوا عن آيات تدل على صدقه، حيث قال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ. أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [العنكبوت: ٥٠، ٥١]. ومعنى ذلك: أو لم يكفهم آية دالة على صدقك إنزالنا القرآن عليك وأنت رجل أُمى ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لِأَرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] أى: وقد جئت فيه بخبر الأولين والآخرين فأين هذا من التغنى بالقرآن وهو تحسين الصوت به أو الاستغناء به عما عداه من أمور الدنيا، فعلى كل تقدير تصدير الباب بهذه الآية الكريمة فيه نظر^(١).

فصل

فى إيراد أحاديث فى معنى الباب وذكر

أحكام التلاوة بالأصوات

قال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح، عن قباث بن رزين، عن على بن رباح اللخمي، عن عقبة بن عامر قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوما ونحن فى المسجد نتدارس القرآن، فقال: «تعلموا كتاب الله واقتنوه». قال: وحسبت أنه قال: «وتغنوا به»، فوالذى نفسى بيده، لهو أشد تفلتا من المخاض من العقل^(٢).

وحدثنا عبد الله بن صالح، عن موسى بن على، عن أبيه، عن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ مثل ذلك إلا أنه قال: «واقتنوه وتغنوا به»^(٣) ولم يشك، وهكذا رواه أحمد والنسائى فى فضائل

(١) قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٦٨/٩): «أشار بهذه الآية إلى ترجيح تفسير ابن عيينة: يتغنى: يستغنى، كما سيأتى فى هذا الباب عنه، وأخرجه أبو داود عن ابن عيينة ووکیع جميعاً، وقد بین إسحاق بن راهويه عن ابن عيينة أنه استغناء خاص، وكذا قال أحمد عن وکیع: يستغنى به عن أخبار الأمم الماضية، وقد أخرج الطبري وغيره من طريق عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال: جاء ناس من المسلمين بكتب وقد كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود، فقال النبى ﷺ: «كفى يقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبیهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم» فنزل: ﴿أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾. وقد خفى وجه مناسبة تلاوة هذه الآية على كثير من الناس كابن كثير، فنفى أن يكون لذكرها وجه، على أن ابن بطال مع تقدمه قد أشار إلى المناسبة فقال: قال أهل التأويل فى هذه الآية، فذكر أثر يحيى بن جعدة مختصراً قال: فالمراد بالآية: الاستغناء عن أخبار الأمم الماضية، وليس المراد الاستغناء الذى هو ضد الفقر، قال: وإتباع البخارى الترجمة بالآية يدل على أنه يذهب إلى ذلك. وقال ابن التين: يفهم من الترجمة: أن المراد بالتغنى الاستغناء؛ لكونه أتبعه الآية التى تضمن الإنكار على من لم يستغن بالقرآن على غيره، فحملة على الاكتفاء به وعدم الافتقار إلى غيره، وحملة على ضد الفقر من جملة ذلك».

(٢) فضائل القرآن (ص ٢٩).

(٣) فضائل القرآن (ص ٢٩).

القرآن، من حديث موسى بن علي، عن أبيه به^(١)، ومن حديث عبد الله بن المبارك، عن قباث بن رزين، عن علي بن رباح، عن عقبة، وفي بعض ألفاظه: خرج علينا ونحن نقرأ القرآن فسلم علينا، وذكر الحديث. ففيه دلالة على السلام على القارئ.

ثم قال أبو عبيد: حدثنا أبو اليمان، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم، عن المهاصر بن حبيب قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أهل القرآن، لا توسدوا القرآن، واتلوه حق تلاوته آتاء الليل والنهار، وتغنوه واقتنوه، واذكروا ما فيه لعلكم تفلحون»^(٢) وهذا مرسل.

ثم قال أبو عبيد: قوله: «تغنوه»: يعني: اجعلوه غناءكم من الفقر، ولا تعدوا الإقلال منه فقرا. وقوله: «واقتنوه»، يقول: اقتنوه، كما تقتنون الأموال اجعلوه مالكم.

وقال أبو عبيد: حدثني هشام بن عمار، عن يحيى بن حمزة، عن الأوزاعي، حدثني إسماعيل ابن عبيد الله بن أبي المهاجر، عن فضالة بن عبيد، عن النبي ﷺ قال: «الله أشد أذناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته»^(٣).

قال أبو عبيد: هذا الحديث بعضهم يزيد في إسناده يقول: عن إسماعيل بن عبيد الله عن مولى فضالة عن فضالة، وهكذا رواه ابن ماجة، عن راشد بن سعيد بن أبي راشد، عن الوليد، عن الأوزاعي عن إسماعيل بن عبيد الله عن ميسرة مولى فضالة عن فضالة عن النبي ﷺ: «الله أشد أذناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن [يجهر به]»^(٤) من صاحب القينة إلى قينته»^(٥). قال أبو عبيد: يعني: الاستماع. وقوله في الحديث الآخر: «ما أذن الله لشيء» أي: ما استمع.

وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا محمد بن حميد، حدثنا سلمة بن الفضل، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن، عن ابن أبي مليكة، حدثنا القاسم بن محمد، حدثنا السائب قال: قال لى سعد: يا بن أخي، هل قرأت القرآن؟ قلت: نعم. قال: غن به، فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «غنوا بالقرآن، ليس منا من لم يغن بالقرآن، وابكوا، فإن لم تقدرُوا على البكاء فتباكوا»^(٦).

وقد روى أبو داود من حديث الليث وعمرو بن دينار كلاهما عن عبد الله بن أبي مليكة، عن عبيد الله بن أبي نهيك، عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»^(٧).

ورواه ابن ماجة من حديث ابن أبي مليكة، عن عبد الرحمن بن السائب، عن سعد بن أبي

(١) المسند (١٤٦/٤) وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٠٣٤).

(٢) فضائل القرآن (ص ٢٩).

(٣) فضائل القرآن (ص ٧٧، ٧٨).

(٤) زيادة من ابن ماجة.

(٥) سنن ابن ماجة برقم (١٣٤٠).

(٦) وفي إسناده محمد بن حميد الرازي وهو متروك.

(٧) سنن أبي داود برقم (١٤٦٩، ١٤٧٠).

وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن نزل بحرف، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، وتغنوا به، فمن لم يتغن به فليس منا»^(١).

وقال أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سعيد^(٢) بن حسان المخزومي، عن ابن أبي مليكة، عن عبد الله بن أبي نهيك، عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»^(٣). [قال وكيع: يعني: يستغنى به]^(٤).

ورواه^(٥) أيضا عن الحجاج وأبي النضر، كلاهما عن الليث بن سعد، وعن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، كلاهما عن عبد الله بن أبي مليكة به^(٦). وفي هذا الحديث كلام طويل يتعلق بسنده ليس هذا موضعه، والله أعلم.

وقال أبو داود: حدثنا عبد الأعلى بن حماد، حدثنا عبد الجبار بن الورد، سمعت ابن أبي مليكة، يقول عبيد الله بن أبي يزيد: مر بنا أبو لبابة فاتبعناه حتى دخل بيته فدخلنا عليه، فإذا رجل رث البيت، رث الهيئة، فانتسبنا له، فقال: تجار كسبة، فسمعتة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن». قال: فقلت لابن أبي مليكة: يا أبا محمد، أرايت إذا لم يكن حسن الصوت قال: يحسنه ما استطاع. تفرد به أبو داود^(٧).

فقد فهم من هذا أن السلف، رضى الله عنهم، إنما فهموا من التغنى بالقرآن: إنما هو تحسين الصوت به، وتخزينه، كما قاله الأئمة، رحمهم الله، ويدل على ذلك - أيضا - ما رواه أبو داود حيث قال: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن طلحة، عن عبد الرحمن بن عوسجة، عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»^(٨).

وأخرجه النسائي وابن ماجه من حديث شعبة، عن طلحة وهو ابن مصرف به^(٩).

وأخرجه النسائي من طرق آخر عن طلحة^(١٠)، وهذا إسناد جيد.

وقد وثق النسائي، وابن حبان عبد الرحمن بن عوسجة هذا، ونقل الأزدى عن يحيى بن سعيد القطان أنه قال: سألت عنه بالمدينة، فلم أرهم يحمده^(١١).

(١) سنن ابن ماجه برقم (١٣٣٧) وقال البوصيري في الزوائد (٤٣٤/١): «هذا إسناد فيه أبو رافع واسمه إسماعيل بن رافع، ضعيف متروك».

(٢) في ط، م: «سفيان».

(٣) المسند (١٧٢/٥).

(٤) زيادة من ج، ط.

(٥) في ط: «ورواه أحمد».

(٦) المسند (١٧٥/١، ١٧٩).

(٧) سنن أبي داود برقم (١٤٧١).

(٨) سنن أبي داود برقم (١٤٦٨).

(٩) سنن النسائي (١٧٩/٢) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٤٢).

(١٠) سنن النسائي (١٧٩/٢).

(١١) وانظر: تهذيب الكمال للمزى (٣٢٢/١٧) وابن حجر - رحمه الله - اختار توثيقه في التقریب.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة قال: نهاني أيوب أن أحدث بهذا الحديث: «زينوا القرآن بأصواتكم». قال أبو عبيد: وإنما كره أيوب فيما نرى، أن يتأول الناس بهذا الحديث الرخصة من رسول الله ﷺ في الألحان المبتدعة، فلهذا أنهاه أن يحدث به^(١).

قلت: ثم إن شعبة روى الحديث متوكلاً على الله، كما روى له، ولو ترك كل حديث يتأول مبطل لترك من السنة شيء كثير، بل قد تطرقوا إلى تأويل آيات كثيرة وحملوها على غير محاملها الشرعية المرادة، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والمراد من تحسين الصوت بالقرآن: تطريبه وتحزينه والتخشع به، كما رواه الحافظ الكبير بقى بن مخلد، حيث قال: حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا يحيى بن سعيد الأموى، حدثنا طلحة بن يحيى ابن طلحة، عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو رأيتمنى وأنا أستمع قراءتك البارحة». قلت: أما والله لو علمت أنك تستمع قراءتى لحبرتها لك تحبيراً. ورواه مسلم من حديث طلحة به وزاد: «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود»^(٢). وسيأتى هذا فى بابهِ حيث يذكره البخارى، والغرض أن أبا موسى قال: لو أعلم أنك تستمع لحبّرتَه لك تحبيراً، فدل على جواز تعاطى ذلك وتكلفه، وقد كان أبو موسى كما قال، عليه السلام، قد أعطى صوتاً حسناً كما سنذكره إن شاء الله، مع خشية تامة ورقة أهل اليمن الموصوفة، فدل على أن هذا من الأمور الشرعية.

قال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح، عن الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة قال: كان عمر إذا رأى أبا موسى قال: ذكرنا ربنا يا أبا موسى، فيقرأ عنده^(٣).

وقال أبو عبيد: وحدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا سليمان التيمى، أنبأ عنه، حدثنا أبو عثمان النهدي قال: كان أبو موسى يصلى بنا، فلو قلت: إني لم أسمع صوت صنج قط، ولا بربط قط، ولا شيئاً قط أحسن من صوته^(٤).

وقال ابن ماجة: حدثنا العباس بن عبد الرحمن^(٥) الدمشقى، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنى حنظلة بن أبى سفيان أنه سمع عبد الرحمن بن سابط الجمحى يحدث عن عائشة قالت: أبطأت على رسول الله ﷺ ليلة بعد العشاء، ثم جئت فقال: «أين كنت؟». قلت: كنت أستمع قراءة رجل من أصحابك لم أسمع مثل قراءته وصوته من أحد، قالت: فقام فقامت معه حتى استمع له، ثم التفت إلى فقال: «هذا سالم مولى أبى حذيفة، الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثل هذا»^(٦). إسناده جيد.

وفى الصحيحين عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور، فما

(١) فضائل القرآن (ص ٨١).

(٢) صحيح مسلم برقم (٧٩٣).

(٣) فضائل القرآن (ص ٧٩).

(٤) فضائل القرآن (ص ٧٩). وقال الحافظ ابن حجر: «سنده صحيح».

(٥) فى ج: «عثمان».

(٦) سنن ابن ماجة برقم (١٣٣٨).

سمعت أحدا أحسن صوتاً أو قال: قراءة منه. وفي بعض ألفاظه: فلما سمعته قرأ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، خلت أن فؤادى قد انصدع^(١). وكان جبير لما سمع هذا بعد مشركاً على دين قومه، وإنما قدم في فداء الأسارى بعد بدر، وناهيك بمن تؤثر قراءته في المشرك المصّر على الكفر! وكان هذا سبب هدايته ولهذا كان أحسن القراءة ما كان عن خشوع القلب، كما قال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن ليث، عن طاوس قال: أحسن الناس صوتاً بالقرآن أخشاهم لله^(٢).

حدثنا قبيصة، عن سفيان، عن ابن جريج، عن ابن طاوس، عن أبيه، وعن الحسن بن مسلم، عن طاوس قال: سئل رسول الله ﷺ: أى الناس أحسن صوتاً بالقرآن؟ فقال: «الذى إذا سمعته رأيته يخشى الله»^(٣).

وقد روى هذا متصلاً من وجه آخر، فقال ابن ماجة: حدثنا بشر بن معاذ الضريّر، حدثنا عبد الله بن جعفر المدينى، حدثنا إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع، عن أبى الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذى إذا سمعته يقرأ حسبتموه يخشى الله»^(٤)، ولكن عبد الله بن جعفر هذا، وهو والد على بن المدينى، وشيخه ضعيفان، والله أعلم.

والغرض أن المطلوب شرعاً إنما هو التحسين بالصوت الباعث على تدبر القرآن وتفهمه والخشوع والخضوع والانقياد للطاعة، فأما الأصوات بالنغمات المحدثّة المركبة على الأوزان والأوضاع الملّية والقانون الموسيقيّ، فالقرآن ينزه عن هذا ويجل ويعظم أن يسلك فى أدائه هذا المذهب، وقد جاءت السنة بالزجر عن ذلك، كما قال الإمام العلم أبو عبيد القاسم بن سلام، رحمه الله:

حدثنا نعيم بن حماد، عن بَقِيَّة بن الوليد، عن حصين بن مالك الفزارى: سمعت شيخاً يكنى أبا محمد يحدث عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «أقروا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الفسق وأهل الكتائبين، ويجىء قوم من بعدى يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنوح، لا يجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم»^(٥).

حدثنا يزيد، عن شريك، عن أبى اليقظان عثمان بن عمير، عن زاذان أبى عمر، عن عليم قال: كنا على سطح ومعنا رجل من أصحاب النبى ﷺ. قال يزيد: لا أعلمه إلا قال: عابس الغفارى، فرأى الناس يخرجون فى الطاعون فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يفرون من الطاعون، فقال: يا طاعون خذنى، فقالوا: تمنى الموت وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يتمنين أحدكم الموت»؟ فقال: إنى أبادر خصالاً سمعت رسول الله ﷺ يتخوفهن على أمتة: «بيع الحكم، والاستخفاف بالدم، وقطيعة الرحم، وقوم يتخذون القرآن مزامير يقدمون أحدهم ليس بأفقههم ولا أفضلهم إلا ليغنيهم

(١) صحيح البخارى برقم (٧٦٥، ٤٨٥٤) وصحيح مسلم برقم (٤٦٣).

(٢) (٣، ٢) فضائل القرآن (ص ٨٠).

(٤) سنن ابن ماجة برقم (١٣٣٩).

(٥) فضائل القرآن (ص ٨٠) وقال الذهبي فى ترجمة حصين بن مالك فى الميزان (١/ ٥٥٣): «تفرد عنه بقية، ليس بمعتمد، والخبر منكرو».

[به] ^(١) غناء» وذكر خصلتين آخرين ^(٢).

وحدثنا إبراهيم بن يعقوب، عن ليث بن أبي سليم، عن عثمان بن عمير، عن زاذان، عن عابس الغفاري، عن النبي ﷺ مثل ذلك أو نحوه. وحدثنا يعقوب بن إبراهيم، عن الأعمش، عن رجل، عن أنس بن مالك: أنه سمع رجلا يقرأ القرآن بهذه الألحان التي أحدث الناس، فأنكر ذلك ونهى عنه ^(٣).

هذه طرق حسنة في باب الترهيب، وهذا يدل على أنه محذور كبير، وهو قراءة القرآن بالألحان التي يسلك بها مذاهب الغناء، وقد نص الأئمة، رحمهم الله، على النهي عنه، فأما إن خرج به إلى التمثيط الفاحش الذي يزيد بسببه حرفا أو ينقص حرفا، فقد اتفق العلماء على تحريمه، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا روح، حدثنا عبيد الله بن الأحنس، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن» ^(٤).

ثم قال: وإنما ذكرناه لأنهم اختلفوا على ابن أبي مليكة فيه، فرواه ابن عبد الجبار بن الورد عنه عن أبي لبابة، ورواه عمرو بن دينار والليث عنه عن أبي نهيك عن سعد، ورواه عسل بن سفيان عنه، عن عائشة ^(٥)، ورواه نافع مولى ابن عمر عنه، عن ابن الزبير ^(٦).

اغتياب صاحب القرآن

حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، حدثني سالم بن عبد الله: أن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا حسد إلا في ^(٧) اثنتين: رجل آتاه الله الكتاب فقام به آناء الليل، ورجل أعطاه الله مالا فهو يتصدق به آناء الليل والنهار» ^(٨).

انفرد به البخاري من هذا الوجه، واتفقا على إخراجهم من رواية سفيان عن الزهري ^(٩)، ثم قال البخاري: حدثنا علي بن إبراهيم، حدثنا روح، حدثنا شعبة، عن سليمان: سمعت ذكوان، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار»، فسمعه جاره له فقال: ليتني أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل، «ورجل آتاه الله مالا فهو يهلكه في الحق»، فقال رجل: ليتني أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل ^(١٠).

ومضمون هذين الحديثين: أن صاحب القرآن في غبطة وهو حسن الحال، فينبغي أن يكون شديد

(١) زيادة من ط.

(٢) فضائل القرآن (ص ٨١) والخصلتين هما: إمرة السفهاء، وكثرة الشرط.

(٣) فضائل القرآن (ص ٨١).

(٤) مسند البزار برقم (٢٣٣٢) «كشف الأستار».

(٥) رواه البزار في مسنده برقم (٢٣٣٤) «كشف الأستار» والحاكم في المستدرک (١/ ٥٧٠) وقال الحاكم: «إسناده شاذ».

(٦) رواه البزار في مسنده برقم (٢٣٣٥) «كشف الأستار».

(٧) في ج، ط: «على».

(٨) صحيح البخاري برقم (٥٠٢٥).

(٩) صحيح البخاري برقم (٧٥٢٩) وصحيح مسلم برقم (٨١٥).

(١٠) صحيح البخاري برقم (٥٠٢٦).

الاغتراب بما هو فيه، ويستحب تغييبه بذلك، يقال: غبطه يغبطه غبطاً: إذا تمنى ما هو فيه من النعمة، وهذا بخلاف الحسد المذموم وهو تمنى زوال نعمة المحسود عنه، سواء حصلت لذلك الحاسد أو لا وهذا مذموم شرعاً، مهلكٌ، وهو أول معاصي إبليس حين حسد آدم، عليه السلام، على ما منحه الله تعالى من الكرامة والاحترام والإعظام. والحسد الشرعى المدوح هو تمنى مثل حال ذلك الذى هو على حالة سارة؛ ولهذا قال عليه السلام: «لا حسد إلا فى اثنتين»، فذكر النعمة القاصرة وهى تلاوة القرآن آناء الليل والنهار، والنعمة المتعدية وهى إنفاق المال بالليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩]، وقد روى نحو هذا من وجه آخر، فقال عبد الله بن الإمام أحمد: وجدت فى كتاب أبى بخط يده: كتب إلى أبو توبة الربيع بن نافع، فكان فى كتابه: حدثنا الهيثم بن حميد، عن زيد بن واقد، عن سليمان بن موسى، عن كثير بن مرة، عن يزيد بن الأحنس، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تنافس بينكم إلا فى اثنتين: رجل أعطاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار، ويتبع ما فيه، فيقول رجل: لو أن الله أعطانى مثل ما أعطى فلانا فأقوم^(١) كما يقوم به، ورجل أعطاه الله مالا فهو ينفقه ويتصدق، فيقول رجل: لو أن الله أعطانى مثل ما أعطى فلانا فأصدق به^(٢)». وقريب من هذا ما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا عبادة بن مسلم، حدثنى يونس بن خباب، عن أبى سعيد البخترى الطائى، عن أبى كبشة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ثلاث أقسم عليهن، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه، فأما الثلاث التى أقسم عليهن: فإنه ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله بها عزاً، ولا يفتح عبد باب مسألة إلا فتح الله له باب فقر، وأما الذى أحدثكم حديثاً فاحفظوه، فإنه قال: إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالا وعلماً فهو يتقى فيه ربه ويصل رحمه، ويعمل لله فيه حقه»، قال: «فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالا فهو يقول: لو كان لى مال عملت بعمل فلان» قال: «فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علماً فهو يخط فى ماله بغير علم لا يتقى فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعمل لله فيه حقه، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علماً فهو يقول: لو كان لى مال لفعلت بعمل فلان». قال: «هى نيته فوزرهما فيه سواء»^(٣).

وقال أيضاً: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن سالم بن أبى الجعد، عن أبى كبشة الأنمارى قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر: رجل آتاه الله مالا وعلماً فهو يعمل به فى ماله ينفقه فى حقه، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالا فهو يقول: لو كان لى مثل مال هذا عملت فيه مثل الذى يعمل». قال رسول الله ﷺ: «فهما فى الأجر سواء، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علماً فهو يخط فى غير حقه، ورجل لم يؤته الله مالا ولا علماً فهو يقول: لو كان لى مثل

(١) فى ط، م: «فيقوم به».

(٢) المسند (٤/١٠٥).

(٣) المسند (٤/٢٣١).

هذا غملت فيه مثل الذى يعمل». قال رسول الله ﷺ: «فهما فى الوزر سواء». إسناده صحيح^(١).

خيركم من تعلم القرآن وعلمه

حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا شعبة، أخبرنى علقمة بن مرثد، سمعت سعد بن عبيدة، عن أبى عبد الرحمن، عن عثمان بن عفان، عن النبى ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». وأقرأ أبو عبد الرحمن فى إمرة عثمان، رضى الله عنه، حتى كان الحجاج قال: وذلك الذى أقعدنى مقعدى هذا^(٢).

وقد أخرج الجماعة هذا الحديث سوى مسلم من رواية شعبة عن علقمة بن مرثد عن سعد بن عبيدة عن أبى عبد الرحمن وهو عبد الله بن حبيب السلمى - رحمه الله^(٣).

وحدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن علقمة بن مرثد، عن أبى عبد الرحمن السلمى، عن عثمان ابن عفان قال: قال النبى ﷺ: «إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه»^(٤).

وهكذا رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه من طرق عن سفيان، عن علقمة، عن أبى عبد الرحمن، من غير ذكر سعد بن عبيدة^(٥)، كما رواه شعبة ولم يختلف عليه فيه، وهذا المقام مما حكم لسفيان الثورى فيه على شعبة، وخطأ بئدار يحيى بن سعيد فى روايته ذلك عن سفيان، عن علقمة، عن سعد بن عبيدة، عن أبى عبد الرحمن وقال: رواه الجماعة من أصحاب سفيان عنه، بإسقاط سعد بن عبيدة، ورواية سفيان أصح فى هذا المقام المتعلق بصناعة الإسناد، وفى ذكره طول لولا المبالغة لذكرناه، وفيما ذكر كفاية وإرشاد إلى ما ترك، والله أعلم.

والغرض أنه، عليه الصلاة والسلام، قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وهذه من صفات المؤمنين المتبعين للرسول، وهم الكمل فى أنفسهم، المكملون لغيرهم، وذلك جمع بين النفع القاصر والمتعدى، وهذا بخلاف صفة الكفار الجبارين الذين لا ينفعون، ولا يتركون أحدا ممن أمكنهم أن ينتفع، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]، وكما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَهُمْ يُنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَتُونَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]، فى أصح قولى^(٦) المفسرين فى هذا، وهو أنهم ينهون الناس عن اتباع القرآن مع نأيهم وبعدهم عنه، فجمعوا بين التكذيب والصد، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيَّاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٧]، فهذا شأن^(٧) الكفار، كما أن شأن خيار الأبرار أن يكمل فى نفسه وأن يسعى فى تكميل غيره كما قال عليه السلام: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، وكما قال [الله]^(٨) تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ

(١) المسند (٤/ ٢٣٠).

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٠٢٧).

(٣) سنن أبى داود برقم (١٤٥٢) وسنن الترمذى برقم (٢٩٠٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٣٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣١١).

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٠٢٨).

(٥) سنن الترمذى برقم (٢٩٠٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٣٨) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٢).

(٦) فى جد: «قول». (٧) فى ط، ج: «شأن شرار». (٨) زيادة من ط.

دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ [فصلت: ٣٣]، فجمع بين الدعوة إلى الله سواء كان بالأذان أو بغيره من أنواع الدعوة من تعليم القرآن والحديث والفقه وغير ذلك، مما يُبتغى به وجه الله، وعمل هو في نفسه صالحا، وقال قولاً صالحاً، فلا أحد أحسن حالاً من هذا. وقد كان أبو عبد الرحمن السلمي الكوفي - أحد أئمة الإسلام ومشايخهم - من رغب في هذا المقام، فقعد يعلم الناس في^(١) إمارة عثمان إلى أيام الحجاج قالوا: وكان مقدار ذلك الذي مكث فيه يعلم القرآن سبعين سنة، رحمه الله، وآتاه الله ما طلبه ودامه. آمين.

قال^(٢) البخارى، رحمه الله: حدثنا عمرو بن عون، حدثنا حماد عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: أتت النبي ﷺ امرأة فقالت: إنها قد وهبت نفسها لله ورسوله، فقال: «ما لى فى النساء من حاجة». فقال رجل: زوجنيها قال: [«أعطاها ثوباً»]، قال: لا أجد، قال: «أعطاها ولو خاتماً من حديد»، فاعتل له، فقال^(٣): «ما معك من القرآن». قال: كذا وكذا. فقال: «قد زوجتكها بما معك من القرآن»^(٤).

وهذا الحديث متفق على إخرجه من طرق عديدة، والغرض منه أن الذى قصده البخارى أن هذا الرجل تعلم^(٥) الذى تعلمه من القرآن، وأمره النبي ﷺ أن يعلمه تلك المرأة، ويكون ذلك صداقاً لها على ذلك، وهذا فيه نزاع بين العلماء، وهل يجوز أن يجعل مثل هذا صداقاً؟ أو هل يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن؟ وهل هذا كان خاصاً بذلك الرجل؟ وما معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «زوجتكها بما معك من القرآن»؟ أسبب ما معك من القرآن؟ كما قاله أحمد بن حنبل: نكرمك بذلك أو بعوض ما معك، وهذا أقوى، لقوله فى صحيح مسلم: «فعلمها»^(٦)، وهذا هو الذى أراده البخارى ههنا وتحرير باقى الخلاف المذكور فى كتاب النكاح والإجارة، والله المستعان.

القراءة عن ظهر قلب

إنما أفرد البخارى فى هذه الترجمة^(٧) حديث أبى حازم عن سهل بن سعد، الحديث الذى تقدم الآن، وفيه أنه، عليه السلام، قال لرجل: «فما معك من القرآن؟». قال: معى سورة كذا وكذا، لسور عددها. قال: «أتقرؤهن»^(٨) عن ظهر قلبك؟. قال: نعم. قال: «أذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن»^(٩).

وهذه الترجمة من البخارى، رحمه الله، مشعرة بأن قراءة القرآن عن ظهر قلب أفضل، والله أعلم. ولكن الذى صرح به كثيرون من العلماء أن قراءة القرآن من المصحف أفضل؛ لأنه يشتمل على التلاوة والنظر فى المصحف وهو عبادة، كما صرح به غير واحد من السلف، وكرهوا أن يمضى على الرجل يوم لا ينظر فى مصحفه، واستدلوا على فضيلة التلاوة فى المصحف بما رواه الإمام العلم^(١٠)

(٣) زيادة من جـ.

(٢) فى جـ: «ثم قال».

(١) فى جـ: «من».

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٠٢٩).

(٧) فى جـ: «هذا الوجه».

(٦) فى جـ: «فعلمها».

(٥) فى جـ: «يعلمها».

(٨) فى جـ: «أتقرأ».

(٩) صحيح البخارى برقم (٥٠٣٠).

(١٠) فى جـ: «العالم».

أبو عبيد في كتاب^(١) فضائل القرآن حيث قال:

حدثنا نعيم بن حماد، عن بقة بن الوليد، عن معاوية بن يحيى، عن سليم بن مسلم، عن عبد الله بن عبد الرحمن، عن بعض أصحاب النبي ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «فضل قراءة القرآن نظرا على من يقرأه ظهرا، كفضل الفريضة على النافلة»^(٢) وهذا الإسناد ضعيف^(٣)، فإن معاوية بن يحيى هو الصدفي أو الأطرابلسي، وأيهما كان فهو ضعيف.

وقال الثوري عن عاصم، عن زر، عن ابن مسعود قال: أديموا النظر في المصحف^(٤).

وقال حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن ماهك، عن ابن عباس، عن عمر: أنه كان إذا دخل بيته نشر المصحف فقرأ فيه^(٥).

وقال حماد أيضا: عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن ابن مسعود: أنه كان إذا اجتمع إليه إخوانه نشروا المصحف، فقرأوا، وفسر لهم^(٦). إسناد صحيح.

وقال حماد بن سلمة: عن حجاج بن أرطاة، عن ثوير بن أبي فاختة، عن ابن عمر قال: إذا رجع أحدكم من سوقه فليشر المصحف وليقرأ^(٧). وقال الأعمش عن خيثمة: دخلت على ابن عمر وهو يقرأ في المصحف فقال: هذا جزئي الذي أقرأ به الليلة^(٨).

فهذه الآثار تدل على أن هذا أمر مطلوب لئلا يعطل المصحف فلا يقرأ منه، ولعله قد يقع لبعض الحفظة نسيان فيتذكر منه، أو تحريف كلمة أو آية أو تقديم أو تأخير، فالاستنبات أولى، والرجوع إلى المصحف أثبت من أفواه الرجال، فأما تلقين القرآن فمن الملقن أحسن؛ لأن الكتابة لا تدل على كمال الأداء، كما أن المشاهد من كثير ممن يحفظ من الكتابة فقط يكثر تصحيحه وغلطه، وإذا أدى الحال إلى هذا منع منه إذا وجد شيئا يوقفه على لفظ^(٩) القرآن، فأما عند العجز عمن يلحق فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها، فيجوز عند الضرورة ما لا يجوز عند الرفاهية، فإذا قرأ في المصحف - والحالة هذه - فلا حرج عليه، ولو فرض أنه قد يحرف بعض الكلمات عن لفظها على لغته ولفظه، فقد قال الإمام أبو عبيد:

حدثني هشام بن إسماعيل الدمشقي، عن محمد بن شعيب، عن الأوزاعي؛ أن رجلا صحبهم في سفر قال: فحدثنا حديثا ما أعلمه إلا رفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا قرأ فحرف أو أخطأ كتبه الملك كما أنزل»^(١٠).

(١) في ط: «كتابه».

(٢) فضائل القرآن (ص ٤٦).

(٣) في ط: «وهذا الإسناد فيه ضعف».

(٤) فضائل القرآن (ص ٤٦) وقال ابن حجر: «إسناده صحيح».

(٥) فضائل القرآن (ص ٤٦).

(٦) فضائل القرآن (ص ٤٧).

(٧) فضائل القرآن (ص ٤٦).

(٨) فضائل القرآن (ص ٤٧).

(٩) في ط: «ألفاظ».

(١٠) فضائل القرآن (ص ٤٧).

وحدثنا حفص بن غياث، عن الشيباني^(١)، عن بكير^(٢) بن الأخنس قال: كان يقال: إذا قرأ الأعجمي والذي لا يقيم القرآن كتبه الملك كما أنزل. وقال بعض العلماء: المدار في هذه المسألة على الخشوع في القراءة، فإن كان الخشوع عند القراءة على ظهر القلب فهو أفضل، وإن كان عند النظر في المصحف^(٣) فهو أفضل فإن استويا فالقراءة نظراً أولى؛ لأنها أثبت وتمتاز بالنظر في المصحف قال الشيخ أبو زكريا النووي^(٤)، رحمه الله، في التبيان: والظاهر أن كلام السلف وفعلهم محمول على هذا التفصيل.

تنبيه:

إن كان البخاري، رحمه الله، أراد بذكر^(٥) حديث سهل للدلالة على أن تلاوة القرآن عن ظهر قلب أفضل منها في المصحف، ففيه نظر؛ لأنها قضية عين، فيحتمل أن ذلك الرجل كان لا يحسن الكتابة ويعلم ذلك رسول الله ﷺ منه، فلا يدل على أن التلاوة عن ظهر قلب أفضل مطلقاً في حق من يحسن ومن لا يحسن، إذ لو دل هذا لكان ذكر حال رسول الله ﷺ وتلاوته عن ظهر قلب - لأنه أُمي لا يدرى الكتابة - أولى من ذكر هذا الحديث بمفرده.

الثاني: أن سياق الحديث إنما هو لأجل استنبات أنه يحفظ تلك السور عن ظهر قلب؛ ليتمكن تعليمها لزوجته، وليس المراد ههنا: أن هذا أفضل من التلاوة نظراً، ولا عدمه^(٦)، والله سبحانه وتعالى أعلم.

استذكار القرآن وتعااهده

حدثنا عبد الله بن يوسف، أخبرنا مالك، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت» هكذا رواه مسلم والنسائي من حديث مالك [به]^(٧). وقال الإمام أحمد^(٨): حدثنا عبد الرزاق، حدثنا^(٩) معمر، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل القرآن إذا عاهد عليه صاحبه فقرأه بالليل والنهار، كمثل رجل له إبل، فإن عقلها حفظها، وإن أطلق عقلها ذهبت، فكذاك صاحب القرآن». أخرجه، قاله^(١٠) ابن الجوزي في جامع المسانيد، وإنما هو من أفراد مسلم من حديث عبد الرزاق به^(١١)، وحدثنا محمد بن عرعة، حدثنا شعبة، عن منصور، عن أبي وائل،

(١) في ج: «النسائي».

(٢) في ج: «بكر».

(٣) في ط: «المصحف أكثر».

(٤) في ط: «النواوي».

(٥) في ط: «بذكره».

(٦) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٧٨/٩) بعد أن ذكر كلام الحافظ ابن كثير هنا: «ولا يرد على البخاري شيء مما ذكر؛ لأن المراد بقوله: باب القراءة عن ظهر قلب، مشروعيتها أو استحبابها، والحديث مطابق لما ترجم به، ولم يتعرض لكونها أفضل من القراءة نظراً، وقد صرح كثير من العلماء أن القراءة من المصحف نظراً أفضل من القراءة عن ظهر قلب».

(٧) صحيح البخاري برقم (٥٠٣١) وصحيح مسلم برقم (٧٨٩) وسنن النسائي (١٥٤/٢).

(٨) المسند (٣٥/٢).

(٩) في ط: «أخبرنا».

(١٠) في ج: «قال».

(١١) صحيح مسلم برقم (٧٨٩).

عن عبد الله قال: قال النبي ﷺ: «بئس ما لأحدهم أن يقول: نسيت آية كيت وكيت، بل نسي، واستذكروا القرآن فإنه أشد تفصيلاً من صدور الرجال من النعم»^(١).

تابعه بشر. هو ابن محمد السخيتاني، عن ابن المبارك، عن شعبة.

وقد رواه الترمذى عن محمود بن غيلان، عن أبي داود الطيالسي، عن شعبة به^(٢)، وقال: حسن صحيح. وأخرجه النسائي من رواية شعبة^(٣).

وحدثنا عثمان، حدثنا جرير، عن منصور مثله. وتابعه ابن جريج عن عبدة، عن شقيق: سمعت عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ^(٤)، وهكذا أسنده مسلم من حديث ابن جريج به^(٥)، ورواه النسائي في اليوم والليلة من حديث محمد بن جحادة، عن عبدة^(٦) وهو ابن أبي لبابة به^(٧). وهكذا رواه مسلم عن عثمان وزهير بن حرب وإسحاق بن إبراهيم عن جرير به^(٨)، وستأتي رواية البخارى له عن أبي نعيم، عن سفيان الثوري، عن منصور به، والنسائي من رواية ابن عيينة عن منصور به، فقد رواه هؤلاء عن منصور به مرفوعاً في رواية هؤلاء كلهم^(٩)، وقد رواه النسائي عن قتيبة، عن حماد بن زيد، عن منصور، عن أبي وائل، عن عبد الله موقوفاً^(١٠)، وهذا غريب وفي مسند أبي يعلى^(١١)، فإنما هو نسي بالتخفيف^(١٢).

حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا أبو أسامة، عن بريد، عن أبي بردة، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «تعاهدوا القرآن، فوالذي نفسى بيده، لهو أشد تفصيلاً من الإبل في عقلها». وهكذا رواه مسلم عن أبي كريب محمد بن العلاء وعبد الله بن براد^(١٣) الأشعري، كلاهما عن أبي أسامة حماد ابن أسامة به^(١٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا موسى بن علي:

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠٣٢).

(٢) سنن الترمذى برقم (٤٩٢٢).

(٣) سنن النسائي (١٥٤/٢).

(٤) صحيح البخارى (٧٩/٩) «فتح».

(٥) صحيح مسلم برقم (٧٩٠).

(٦) فى ج: «عبدة».

(٧) سنن النسائي الكبرى برقم (١٠٥٦٠).

(٨) صحيح مسلم برقم (٧٩٠).

(٩) صحيح البخارى برقم (٥٠٣٩) وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٠٤٢).

(١٠) سنن النسائي الكبرى برقم (١٠٥٦٤).

(١١) مسند أبي يعلى (٦٩/٩).

(١٢) قال القرطبي: معنى التثقل: أنه عوقب بوقوع النسيان عليه التفريط فى معاهدته واستذكاره. ومعنى التخفيف: أن الرجل ترك غير ملتفت إليه، وهو كقوله تعالى: «نسوا الله فنسيهم» [التوبة: ٦٧] أى: تركهم فى العذاب أو تركهم من الرحمة.

(١٣) فى ج: «بردة».

(١٤) صحيح البخارى برقم (٥٠٣٣) وصحيح مسلم برقم (٧٩١).

سمعت أبي يقول: سمعت عقبة بن عامر يقول: [قال رسول الله ﷺ] ^(١): «تعلموا كتاب الله، وتعاهدوه وتغنوا به، فوالذي نفسى بيده، لهو أشد تفلتا من المخاض فى العقل» ^(٢).

ومضمون هذه الأحاديث الترغيب فى كثرة تلاوة القرآن واستذكاره وتعاهده؛ لئلا يعرضه حافظه للنسيان ^(٣)، فإن ذلك خطر كبير، نسأل الله العافية منه، فإنه قال الإمام أحمد:

حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا خالد، عن يزيد بن أبى زياد، عن عيسى بن فائد، عن رجل، عن سعد بن عبادة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أمير عشرة إلا ويؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يفكه عن ذلك الغل إلا العدل، وما من رجل قرأ القرآن فنسيه إلا لقي الله يوم القيامة يلقاه وهو أجذم» ^(٤).

هكذا رواه جرير بن عبد الحميد، ومحمد بن فضيل، عن يزيد بن أبى زياد، كما رواه خالد بن عبد الله ^(٥). وقد أخرجه أبو داود عن محمد بن العلاء عن ابن إدريس، عن يزيد بن أبى زياد، عن عيسى بن فائد، عن سعد بن عبادة عن النبى ﷺ بقصة نسيان القرآن، ولم يذكر الرجل المبهمة ^(٦).

وكذا رواه أبو بكر بن عياش، عن يزيد بن أبى زياد، وقد رواه شعبة عن يزيد فوهم فى إسناده، ورواه وكيع عن أصحابه، عن يزيد، عن عيسى بن فائد، عن النبى ﷺ مرسلًا. وقد رواه الإمام أحمد فى مسنده عن عبادة بن الصامت فقال:

حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا يزيد بن أبى زياد، عن عيسى بن فائد، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يفكه منها إلا عدله، وما من رجل تعلم القرآن ثم نسيه إلا لقي الله يوم القيامة أجذم» ^(٧).

وكذا رواه أبو عوانة، عن يزيد بن أبى زياد، ففيه اختلاف، لكن هذا فى باب التهيب مقبول - والله أعلم - لاسيما إذا كان له شاهد من وجه آخر، كما قال أبو عبيد.

حدثنا حجاج، عن ابن جريج قال: حدثت عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «عرضت على أجور أمتى حتى القذاة والبعرة يخرجها الرجل من المسجد، وعرضت على ذنوب أمتى فلم أر ذنباً أكبر من آية أو سورة من كتاب الله أوتيتها رجل فنسيها». قال ابن جريج: وحدثت عن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أكبر ذنب توافى به أمتى يوم القيامة سورة من كتاب الله أوتيتها رجل فنسيها» ^(٨).

(١) زيادة من ط، والمسنَد.

(٢) المسند (١٤٦/٤).

(٣) فى ط: «إلى النسيان».

(٤) المسند (٣٨٥/٥).

(٥) رواه أبو عبيد فى الفضائل (ص ١٠٣) من طريق جرير، ورواه ابن أبي شيبة فى المصنف (٤٧٨/١٠) من طريق ابن فضيل.

(٦) سنن أبى داود برقم (١٤٧٤).

(٧) المسند (٣٢٣/٥).

(٨) فضائل القرآن (ص ١٠٣).

وقد روى أبو داود والترمذى وأبو يعلى والبزار وغيرهم من حديث ابن أبي رواد، عن ابن جريج، عن المطلب بن عبد الله بن حنطب، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «عرضت على أجور أمتي حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد، وعرضت على ذنوب أمتي، فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها»^(١).

قال الترمذى: غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه، وذاكرت به البخارى فاستغربه، وحكى البخارى عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى أنه أنكر سماع المطلب من أنس بن مالك.

قلت: وقد رواه محمد بن يزيد الآدمى^(٢)، عن ابن أبي رواد، عن ابن جريج عن الزهرى، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ به. والله أعلم.

وقد أدخل بعض المفسرين هذا المعنى فى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦]، وهذا الذى قاله هذا - وإن لم يكن هو المراد جميعه - فهو بعضه، فإن الإعراض عن تلاوة القرآن وتعرضه للنسيان وعدم الاعتناء به فيه تهاون كثير وتفريط شديد، نعوذ بالله منه؛ ولهذا قال عليه السلام: «تعاهدوا القرآن»، وفى لفظ: «استذكروا القرآن، فإنه أشد تفصيلاً من صدور الرجال من النعم».

التَّفَصَّى: التخلص يقال: تَفَصَّى فلان من البلية: إذا تخلص منها، ومنه: تفصى النوى من التمرة: إذا تخلص منها، أى: إن القرآن أشد تفلتاً من الصدور من النعم إذا أرسلت من غير عقال.

وقال أبو عبيد: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم قال: قال عبد الله - يعنى ابن مسعود -: إني لأمقت القارئ أن أراه سميماً نسياً للقرآن^(٣).

حدثنا عبد الله بن المبارك، عن عبد العزيز بن أبي رواد قال: سمعت الضحاك بن مزاحم يقول: ما من أحد تعلم القرآن ثم نسيه إلا بذنب يحدثه؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وإن نسيان القرآن من أعظم المصائب^(٤).

ولهذا قال إسحاق بن راهويه وغيره: يُكره لرجل أن يمر عليه أربعون يوماً لا يقرأ فيها القرآن، كما أنه يُكره له أن يقرأ فى أقل من ثلاثة أيام، كما سيأتى هذا، حيث يذكره البخارى بعد هذا، وكان الأليق أن يتبعه هذا الباب، ولكن ذكر بعد هذا قوله:

القراءة على الدابة

حدثنا حجاج، حدثنا شعبة، أخبرنى أبو إياس قال: سمعت عبد الله بن مغفل، رضى الله عنه،

(١) سنن أبى داود برقم (٤٦١) وسنن الترمذى برقم (٢٩١٦) ومسنند أبى يعلى (٧/٢٥٣).

(٢) فى ج: «الأموى».

(٣) فضائل القرآن (ص ١٠٤) وفيه انقطاع بين النخعى وابن مسعود.

(٤) فضائل القرآن (ص ١٠٤).

قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وهو يقرأ على راحلته سورة الفتح^(١).

وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة سوى ابن ماجة من طرق، عن شعبة، عن أبي إياس، وهو معاوية بن قرة به^(٢)، وهذا - أيضا - له تعلق بما تقدم من تعاهد القرآن وتلاوته سفرا وحضرا، ولا يكره ذلك عند أكثر العلماء إذا لم يتله القارئ في الطريق، وقد نقله ابن أبي داود عن أبي الدرداء أنه كان يقرأ في الطريق، وقد روى عن عمر بن عبد العزيز أنه أذن في ذلك، وعن الإمام مالك أنه كره ذلك، كما قال ابن أبي داود: وحدثني أبو الربيع، أخبرنا ابن وهب [قال]^(٣): سألت مالكا عن الرجل يصلى في آخر الليل، فيخرج إلى المسجد، وقد بقى من السورة التي كان يقرأ فيها شيء، فقال: ما أعلم القراءة تكون في الطريق.

وقال الشعبي: تكره قراءة القرآن في ثلاثة مواطن: في الحمام، وفي الحشوش، وفي الرحى وهي تدور. وخالفه في القراءة في الحمام كثير من السلف: أنها لا تكره، وهو مذهب مالك والشافعي وإبراهيم النخعي وغيرهم، وروى ابن أبي داود عن علي بن أبي طالب: أنه كره ذلك، ونقله ابن المنذر عن أبي وائل شقيق بن سلمة، والشعبي والحسن البصري ومكحول وقبيصة بن ذؤيب، وهو رواية عن إبراهيم النخعي، ومحكى عن أبي حنيفة، رحمهم الله، أن القراءة في الحمام تكره وأما القراءة في الحشوش فكراهتها ظاهرة، ولو قيل بتحريم ذلك صيانة لشرف القرآن لكان مذهباً، وأما القراءة في بيت الرحى وهي تدور فلثلا يعلو غير القرآن عليه، والحق يعلو ولا يُعلَى، والله أعلم.

تعليم الصبيان القرآن

حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير قال: إن الذي تدعونه المفصل هو المحكم، قال: وقال ابن عباس: توفي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين وقد قرأت المحكم^(٤).

حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيْمٌ، أخبرنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: جمعت المحكم في عهد النبي ﷺ فقلت له: وما المحكم؟ قال: «المفصل»^(٥).

انفرد بإخراجه البخاري، وفيه دلالة على جواز تعلم الصبيان القرآن؛ لأن ابن عباس أخبر عن سنه حين موت الرسول ﷺ، وقد كان جمع المفصل، وهو من الحجرات، كما تقدم ذلك، وعمره آنذاك عشر سنين. وقد روى البخاري أنه قال: توفي رسول الله ﷺ وأنا مختون^(٦). وكانوا لا يختنون الغلام حتى يحتلم، فيحتمل أنه تجوز في هذه الرواية بذكر العشر، وترك ما زاد عليها من

(١) صحيح البخاري برقم (٥٠٣٤).

(٢) صحيح مسلم برقم (٧٩٤) وسنن أبي داود برقم (١٤٦٧) والشمائل للترمذي برقم (٣٠٢) وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٠٦٢).

(٣) زيادة من ط.

(٤) صحيح البخاري برقم (٥٠٣٥).

(٥) صحيح البخاري برقم (٥٠٣٦).

(٦) صحيح البخاري برقم (٦٢٩٩).

الكسر، والله أعلم.

وعلى كل تقدير، ففيه دلالة على جواز تعليمهم القرآن في الصبا، وهو ظاهر، بل قد يكون مستحبا أو واجبا؛ لأن الصبي إذا تعلم القرآن بلغ وهو يعرف ما يصلى به، وحفظه في الصغر أولى من حفظه كبيرا، وأشد علوقا بخاطره وأرسخ وأثبت، كما هو المعهود من حال الناس، وقد استحب بعض السلف أن يترك الصبي في ابتداء عمره قليلا للعب، ثم توفر همته على القراءة، لئلا يلزم أولا بالقراءة فيملها ويعدل عنها إلى اللعب، وكره بعضهم تعليمهم القرآن وهو لا يعقل ما يقال له، ولكن يترك حتى إذا عقل وميز علم قليلا قليلا، بحسب همته ونهمته وحفظه وجودة ذهنه، واستحب عمر ابن الخطاب، رضى الله عنه، أن يلحق خمس آيات خمس آيات، رويناه عنه بسند جيد^(١).

نسيان القرآن

وهل يقول: نسيت آية كذا وكذا، وقول الله تعالى:

﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى. إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦، ٧]

حدثنا الربيع بن يحيى، حدثنا زائدة، حدثنا هشام، عن عروة، عن عائشة قالت: لقد سمع النبي ﷺ رجلا يقرأ في المسجد فقال: «يرحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا من سورة كذا».

وحدثني محمد بن عبيد بن ميمون، حدثنا عيسى بن يونس، عن هشام وقال: أسقطتهن من سورة كذا وكذا. انفرد به أيضا. تابعه على بن مسهر وعبدية عن هشام^(٢).

وقد أسندهما البخاري في موضع آخر، ومسلم معه في عبدة^(٣).

وحدثنا أحمد بن أبي رجاء، حدثنا أبو أسامة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: سمع رسول الله ﷺ رجلا يقرأ في سورة بالليل فقال: «يرحمه الله، فقد أذكرني آية كذا وكذا كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا». ورواه مسلم من حديث أبي أسامة حماد بن أسامة^(٤).

الحديث الثاني: حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن منصور، عن أبي وائل، عن عبد الله، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «بئس ما لأحدهم أن يقول: نسيت آية كيت وكيت، بل هو نُسِيَ» ورواه مسلم والنسائي، من حديث منصور به^(٥). وقد تقدم. وفي مسند أبي يعلى: «فإنما هو نُسِيَ»، بالتخفيف، هذا لفظه.

وفي هذا الحديث - والذي قبله - دليل على أن حصول النسيان للشخص ليس بنقصٍ له إذا كان

(١) مسند الفاروق للمؤلف (١/ ١٧٠).

(٢) صحيح البخاري برقم (٥٠٣٧).

(٣) صحيح البخاري برقم (٦٣٣٥) وصحيح مسلم برقم (٧٨٨).

(٤) في ج، ط: «قد».

(٥) صحيح البخاري برقم (٥٠٣٨) وصحيح مسلم برقم (٧٨٨).

(٦) صحيح البخاري برقم (٥٠٣٩) وصحيح مسلم برقم (٧٩٠) وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٠٤٢).

بعد الاجتهاد والحرص، وفي حديث ابن مسعود أدب في التعبير عن حصول ذلك، فلا يقول: نسيت آية كذا، فإن النسيان ليس من فعل العبد، وقد يصدر عنه أسبابه من التناسي والتغافل والتهاون المفضي إلى ذلك، فأما النسيان نفسه فليس بفعله؛ ولهذا قال: «بل هو نسي»، مبنى لما لم يسم فاعله، وأدب - أيضا - في ترك إضافة ذلك إلى الله تعالى، وقد أسند النسيان إلى العبد في قوله: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤] وهو، والله أعلم، من باب المجاز السائغ بذكر المسبب وإرادة السبب؛ لأن النسيان إنما يكون عن سبب قد يكون ذنبا، كما تقدم عن الضحاك بن مزاحم، فأمر الله تعالى بذكره ليذهب الشيطان عن القلب كما يذهب عند النداء بالأذان، والحسنة تذهب السيئة، فإذا زال السبب للنسيان انزاح، فحصل الذكر لشيء بسبب ذكر الله تعالى، والله أعلم.

من لم ير بأساً أن يقول:

سورة البقرة، وسورة كذا وكذا

حدثنا عمر بن حفص بن غياث^(١)، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثني إبراهيم، عن علقمة وعبد الرحمن بن يزيد، عن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «الآيتان من آخر سورة البقرة، من قرأ بهما في ليلة كفتاه»^(٢).

وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة من حديث عبد الرحمن بن يزيد وصاحبنا الصحيح والنسائي وابن ماجة من حديث علقمة، كلاهما عن أبي مسعود عقبة بن عامر الأنصاري البكري^(٣).

الحديث الثاني: ما رواه من حديث الزهري، عن عروة، عن المسور وعبد الرحمن بن عبد القارئ، كلاهما عن عمر قال: سمعت هشام بن حكيم [بن حزام]^(٤) يقرأ سورة الفرقان... وذكر الحديث بطوله، كما تقدم، وكما سيأتي^(٥).

الحديث الثالث: ما رواه من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: سمع رسول الله ﷺ قارئاً يقرأ من الليل في المسجد، فقال: «يرحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا آية، كنت أسقطهن من سورة كذا وكذا»^(٦).

وهكذا في الصحيحين عن ابن مسعود: أنه كان يرمى الجمرة من الوادي ويقول: هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة^(٧). وكره بعض السلف ذلك، ولم يروا إلا أن يقال: السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، كما تقدم من رواية يزيد الفارسي عن ابن عباس، عن عثمان أنه قال: إذا نزل شيء من

(١) في ج: «عتاب».

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٠٤٠).

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٠٠٨، ٥٠٥١، ٥٠٠٨) وصحيح مسلم برقم (٨٠٧، ٨٠٨) وسنن أبى داود برقم (١٣٩٧) وسنن الترمذى برقم (٢٨٨١) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠١٨، ٨٠١٩) وسنن ابن ماجة برقم (١٣٦٨، ١٣٦٩).

(٤) زيادة من ط، ج.

(٥) صحيح البخارى برقم (٥٠٤١).

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٠٤٢).

(٧) صحيح البخارى برقم (١٧٤٧) وصحيح مسلم برقم (١٢٩٦).

القرآن يقول رسول الله ﷺ: «اجعلوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا»، ولا شك أن هذا أحوط وأولى، ولكن قد صحت الأحاديث بالرخصة في الآخر، وعليه عمل الناس اليوم في ترجمة السور في مصاحفهم، وبالله التوفيق.

الترتيل في القراءة

وقول الله ^(١) عز وجل: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]، وقوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦] أن يهذ كهذ الشعر، يفرق: يفصل، قال ابن عباس: ﴿فَرَقْنَاهُ﴾: فصلناه.

حدثنا أبو النعمان، حدثنا مهدي بن حدثنا واصل [وهو ابن حيان الأحذب] ^(٢)، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: غدونا على عبد الله. فقال رجل: قرأت المفصل البارحة، فقال: هذا كهذ الشعر، إنا قد سمعنا القراءة، وإنى لأحفظ القراءات التي كان يقرأ بهن النبي ﷺ ثمان عشرة سورة من المفصل، وسورتين من آل حم ^(٣).

ورواه مسلم عن شيبان بن فروخ، عن مهدي بن ميمون، عن واصل - وهو ابن حيان الأحذب - عن أبي وائل شقيق بن سلمة عن ابن مسعود به ^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن زياد بن نعيم، عن مسلم بن مخراق، عن عائشة أنه ذكر لها أن ناسا يقرءون القرآن في الليل مرة أو مرتين، فقالت: أولئك قرءوا ولم يقرءوا، كنت أقوم مع النبي ﷺ ليلة التمام، فكان يقرأ سورة البقرة وآل عمران والنساء، فلا يمر بآية فيها تخوف إلا دعا الله واستعاذ، ولا يمر بآية فيها استبشار إلا دعا الله ورغب إليه ^(٥).

الحديث الثاني: حدثنا قتيبة، حدثنا جرير، عن موسى بن أبي عائشة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: ١٦]: كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبريل بالوحي، وكان مما يحرك به لسانه وشفته فيشتد عليه. وذكر تمام الحديث كما سيأتى، وهو متفق عليه، وفيه والذي قبله دليل على استحباب ترتيل القراءة والترسل فيها من غير هذرمة ولا سرعة مفرطة، بل بتأمل وتفكر، قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن ^(٦) سفيان، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارْقَ، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها» ^(٧).

(٢) زيادة من جـ.

(١) في جـ، ط: «وقوله».

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٠٤٣).

(٤) صحيح مسلم برقم (٨٢٢).

(٥) المسند (٩٢/٦).

(٦) في ط: «عن».

(٧) المسند (١٩٢/٢).

وقال أبو عبيد: حدثنا جرير، عن مغيرة، عن إبراهيم قال: قرأ علقمة على عبد الله، فكأنه عجل، فقال عبد الله: فذاك أبي وأمي، رتل فإنه زين القرآن. قال: وكان علقمة حسن الصوت بالقرآن^(١).

وحدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن أبي جمرة قال: قلت لابن عباس: إني سريع القراءة وإنني أقرأ القرآن في ثلاث فقال: لأن أقرأ البقرة^(٢) في ليلة فأدبرها وأرتلها أحب إلى من أن أقرأ كما تقول^(٣).

وحدثنا حجاج، عن شعبة وحماد بن سلمة، عن أبي جمرة، عن ابن عباس نحو ذلك، إلا أن في حديث حماد: أحب إلى من أن أقرأ القرآن أجمع هزيمة^(٤).
ثم قال البخاري، رحمه الله:

مد القراءة

حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا جرير بن حازم الأزدي، حدثنا قتادة قال: سألت أنس بن مالك عن قراءة النبي ﷺ فقال: كان يمد مداً^(٥).

وهكذا رواه أهل السنن، من حديث جرير بن حازم به^(٦)، وحدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا همام، عن قتادة قال: سئل أنس بن مالك: كيف كانت قراءة النبي ﷺ؟ فقال: كانت مداً، ثم قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم. يمد بسم الله، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم. انفرد به البخاري من هذا الوجه^(٧)، وفي معناه الحديث الذي رواه الإمام أبو عبيد: حدثنا أحمد بن عثمان، عن عبد الله بن المبارك، عن الليث بن سعد، عن ابن أبي مليكة، عن يعلى بن مملك، عن أم سلمة: أنها نعتت قراءة رسول الله ﷺ قراءة مفسرة حرفاً حرفاً^(٨).

وهكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل، عن يحيى بن إسحاق، وأبو داود عن يزيد بن خالد الرملي، والترمذي والنسائي، كلاهما عن قتبية، كلهم عن الليث بن سعد به^(٩). وقال الترمذي: حسن صحيح.

ثم قال أبو عبيد: وحدثنا يحيى بن سعيد الأموي، عن ابن جريج، عن ابن أبي مليكة، عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته؛ بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. وهكذا.

(١) فضائل القرآن (ص ٧٤).

(٢) في ج: «القرآن».

(٣، ٤) فضائل القرآن (ص ٧٤).

(٥) صحيح البخاري برقم (٥٠٤٥).

(٦) سنن أبي داود برقم (١٤٦٥) وسنن النسائي (١٧٩/٢) والشامائل للترمذي برقم (٣٠٨) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٥٣).

(٧) صحيح البخاري برقم (٥٠٤٦).

(٨) فضائل القرآن (ص ٧٤).

(٩) المسند (٦/ ٣٠٠) وسنن أبي داود برقم (١٤٦٦) وسنن النسائي (١٨١/٢) وسنن الترمذي برقم (٢٩٢٣).

رواه أبو داود والترمذى من حديث ابن جريج^(١). وقال الترمذى: غريب وليس إسناده بمتصل، يعنى: أن عبد الله بن عبيد الله بن أبي مُلَيْكَةَ لم يسمعه من أم سلمة، وإنما رواه عن يعلى بن مَمْلَك، كما تقدم، والله أعلم.

الترجيع

حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شعبة، حدثنا أبو إياس قال: سمعت عبد الله بن مغفل قال: رأيت النبي ﷺ وهو على ناقته - أو جملة - وهى تسير به، وهو يقرأ سورة الفتح قراءة لينة وهو يرجع^(٢).

وقد تقدم هذا الحديث فى القراءة على الدابة وأنه من المتفق عليه، وفيه أن ذلك كان يوم الفتح، وأما الترجيع: فهو التردد فى الصوت كما جاء - أيضا - فى البخارى أنه جعل يقول: (آ آ آ)، وكان ذلك صدر من حركة الدابة تحته، فدل على جواز التلاوة عليها، وإن أفضى إلى ذلك ولا يكون ذلك من باب الزيادة فى الحروف، بل ذلك مغتفر للحاجة، كما يصلى على الدابة حيث توجهت به، مع إمكان تأخير ذلك الصلاة إلى القبلة، والله أعلم.

حسن الصوت بالقراءة

حدثنا محمد بن خلف أبو بكر، حدثنا أبو يحيى الحماني، حدثنا بريد بن عبد الله بن أبي بردة، عن جده أبي بردة، عن أبي موسى الأشعري، عن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا موسى، لقد أوتيت مزمارة من مزامير آل داود»^(٣)، وهذا رواه الترمذى عن موسى بن عبد الرحمن الكندى، عن أبي يحيى الحماني^(٤) - واسمه عبد الحميد بن عبد الرحمن - وقال: حسن صحيح. وقد رواه مسلم من حديث طلحة بن يحيى بن طلحة، عن أبي بردة، عن أبي موسى^(٥)، وفيه قصة، وقد تقدم الكلام على تحسين الصوت عند قول البخارى: من لم يتغن بالقرآن، وذكرنا هنا أحكاما كافية عن إعادتها ههنا، والله أعلم.

من أحب أن يسمع القرآن من غيره

حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم بن عبيدة، عن عبد الله قال: قال لى النبي ﷺ: «اقرأ على القرآن». قلت: عليك أقرأ وعليك أنزل؟! قال: «إني أحب أن أسمعه من غيرى».

وقد رواه الجماعة إلا ابن ماجه، من طرق عن الأعمش^(٦)، وله طرق يطول ذكرها وبسطها، وقد

(١) فضائل القرآن (ص ٧٥) وسنن أبي داود برقم (٤٠٠١) وسنن الترمذى برقم (٢٩٢٧).

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٠٤٧).

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٠٤٨).

(٤) سنن الترمذى برقم (٣٨٥٥).

(٥) صحيح مسلم برقم (٧٩٣).

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٠٤٩) وصحيح مسلم برقم (٨٠٠) وسنن أبي داود برقم (٣٦٦٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٧٥).

وسنن الترمذى برقم (٣٠٢٥).

تقدم فيما رواه مسلم من حديث طلحة بن يحيى بن طلحة، عن أبي بردة، عن أبي موسى: أن رسول الله ﷺ قال له: «يا أبا موسى، لو رأيته وأنا أستمع لقراءتك البارحة». فقال: أما والله لو أعلم أنك تستمع قراءتي لحببته لك تحبيرا.

وقال الزهري، عن أبي سلمة: كان عمر إذا رأى أبا موسى قال: ذكرنا ربنا يا أبا موسى. فيقرأ عنده.

وقال أبو عثمان النهدي: كان أبو موسى يصلي بنا، فلو قلت: إني لم أسمع صوت صنج قط ولا بربط قط، ولا شيئا قط أحسن من صوته.

قول المقرئ للقارئ: حسبك

حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ علي». فقلت: يا رسول الله، اقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال: «نعم»، فقرأت عليه سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال: «حسبك الآن» [فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان] (١) (٢).

أخرجه الجماعة إلا ابن ماجه، من رواية الأعمش به (٣)، ووجه الدلالة ظاهر، وكذا الحديث الآخر: «اقرأوا القرآن ما اختلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا».

في كم يقرأ القرآن

وقول الله تعالى: ﴿فَأَقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [الزمل: ٢٠]

حدثنا علي، حدثنا سفيان، قال: قال لي ابن شبرمة: نظرت كم يكفى الرجل من القرآن فلم أجد سورة أقل من ثلاث آيات. فقلت: لا ينبغي لأحد أن يقرأ أقل من ثلاث آيات. قال سفيان: أخبرنا منصور، عن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن يزيد، أخبره علقمة عن أبي مسعود، فلقيته وهو يطوف بالبيت، فذكر النبي ﷺ أن من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه (٤).

وقد تقدم أن هذا الحديث متفق عليه، وقد جمع البخاري فيما بين عبد الرحمن بن يزيد وعلقمة عن أبي مسعود وهو صحيح؛ لأن عبد الرحمن سمعه أولا من علقمة، ثم لقي أبا مسعود وهو يطوف فسمعه منه، وعلى هذا هو ابن المديني وشيخه هو سفيان بن عيينة، وما قاله عبد الله بن شبرمة - فقيه الكوفة في زمانه - استنباط حسن، وقد جاء في حديث في السنن: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب وثلاث آيات» (٥)، ولكن هذا الحديث - أعني حديث أبي مسعود - أصح وأشهر وأخص، ولكن وجه مناسبتة

(١) زيادة من ط.

(٢) صحيح البخاري برقم (٥٠٥٠).

(٣) صحيح مسلم برقم (٨٠٠) وسنن أبي داود برقم (٣٦٦٨) وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٠٧٨) والشمائل للترمذي برقم (٣٠٦).

(٤) صحيح البخاري برقم (٥٠٥١).

(٥) كذا قال الحافظ ابن كثير، ولم أقع عليه في السنن الأربعة، وقد رواه ابن عدى في الكامل (٢٩/٥) من طريق عمر بن يزيد المدائني عن عطاء عن ابن عمر، رضى الله عنه، مرفوعاً بلفظ: «لا تجزئ في المكتوبة إلا بفاتحة الكتاب وثلاث آيات فصاعداً». والمدائني منكر الحديث كما قال ابن عدى.

للترجمة التي ذكرها البخاري فيه نظر، والله أعلم^(١).

والحديث الثاني أظهر في المناسبة وهو قوله: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن مغيرة، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو قال: أنكحني أبي امرأة ذات حسب، فكان يتعاهد كَتَّه فيسألها عن بعلها فتقول: نعم الرجل من رجل لم يطأ لنا فراشا، ولم يفتش لنا كنفًا منذ أتيناها، فلما طال ذلك عليه ذكر للنبي ﷺ، فقال: «ألقني به»، فلقيته بعد، فقال: «كيف تصوم؟». قلت: كل يوم. قال: «وكيف تختتم؟». قال: كل ليلة. قال: «صم كل شهر ثلاثة، واقرأ القرآن في كل شهر». قال: قلت: إني أطيق أكثر من ذلك. قال: «صم ثلاثة أيام في الجمعة». قلت: أطيق أكثر من ذلك. قال: «أفطر يومين وصوم يوما». قلت: أطيق أكثر من ذلك. قال: «صم أفضل الصوم صوم داود، صيام يوم وإفطار يوم، واقرأ في كل سبع ليل مرة»، فليتنى قبلت رخصة رسول الله ﷺ! وذلك أني كبرت وضعفت، فكان يقرأ على بعض أهله السبع من القرآن بالنهار والذي يقرأ يعرضه بالنهار ليكون أخف عليه بالليل، وإذا أراد أن يتقوى أفطر أياما وأحصى وصام مثلهن، كراهية أن يترك شيئا فارق عليه النبي ﷺ. وقال بعضهم: في ثلاث وفي خمس وأكثرهم على سبع^(٢).

وقد رواه في الصوم، والنسائي - أيضا - عن بُنْدَار عن غُنْدَر، عن شعبة، عن مغيرة، والنسائي من حديث حصين، كلاهما عن مجاهد به^(٣).

ثم روى البخاري ومسلم وأبو داود من حديث يحيى بن أبي كثير، عن محمد بن عبد الرحمن - مولى بنى زهرة^(٤) - عن أبي سلمة: قال: وأحسبني قال: سمعت أنا من أبي سلمة، عن عبد الله بن عمرو قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ القرآن في شهر». قلت: إني أجد قوة. قال: «فاقرأه في سبع ولا تزدد على ذلك»^(٥). فهذا السياق ظاهره يقتضي المنع من قراءة القرآن في أقل من سبع، وهكذا الحديث الذي رواه أبو عبيد:

حدثنا حجاج وعمر بن طارق ويحيى بن بكير، كلهم عن ابن لهيعة، عن حبان بن واسع، عن أبيه، عن قيس بن أبي صعصعة؛ أنه قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، في كم أقرأ القرآن؟ فقال: «في كل خمس عشرة». قال: إني أجد في أقوى من ذلك، قال: «ففي كل جمعة»^(٦).

وحدثنا حجاج عن شعبة، عن محمد بن ذكوان - رجل من أهل الكوفة - قال: سمعت عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود يقول: كان عبد الله بن مسعود يقرأ القرآن في غير رمضان من

(١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٩٥/٩): «وقد خفيت مناسبة حديث أبي مسعود بالترجمة على ابن كثير، والذي يظهر أنها من جهة أن الآية المترجم بها تناسب ما استدلل به ابن عيينة من حديث أبي مسعود، والجامع بينهما أن كلا من الآية والحديث يدل على الاكتفاء بخلاف ما قال ابن شبرمة».

(٢) صحيح البخاري برقم (٥٠٥٢).

(٣) صحيح البخاري برقم (١٩٧٨) وسنن النسائي (٢٠٩/٤، ٢١٠).

(٤) في ط: «أبي هريرة».

(٥) صحيح البخاري برقم (٥٠٥٣) وصحيح مسلم برقم (١١٥٩) وسنن أبي داود برقم (١٣٨٨) لكنه عند أبي داود من طريق أبان العطار عن يحيى بن أبي كثير عن محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة، والله أعلم.

(٦) فضائل القرآن (ص ٨٧).

الجمعة إلى الجمعة^(١).

وعن حجاج، عن شعبة، عن أيوب: سمعت أبا قلابه، عن أبي المهلب قال: كان أبي بن كعب يختم القرآن في كل ثمان.

وحدثنا علي بن عاصم، عن خالد، عن أبي قلابه قال: كان أبي بن كعب يختم القرآن في كل ثمان.

وكان تميم الداري يختمه في كل سبع، وحدثنا هُشَيْم، عن الأعمش، عن إبراهيم: أنه كان يختم القرآن في كل سبع^(٢).

وحدثنا جرير، عن منصور، عن إبراهيم قال: كان الأسود يختم القرآن في كل ست، وكان علقمة يختمه في كل خمس^(٣).

فلو تركنا ومجرد هذا لكان الأمر في ذلك جلياً، ولكن دلت أحاديث أخرجوها^(٤) على جواز قراءته فيما دون ذلك، كما رواه الإمام أحمد في مسنده: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا حبان ابن واسع، عن أبيه، عن سعد بن المنذر الأنصاري؛ أنه قال: يا رسول الله، أقرأ القرآن في ثلاث؟ قال: «نعم». قال: فكان يقرؤه حتى توفي^(٥).

وهذا إسناد جيد قوى حسن، فإن حسن بن موسى الأشيب ثقة متفق على جلالته روى له الجماعة وابن لهيعة، إنما يخشى من تدليسه وسوء حفظه، وقد صرح ههنا بالسماع، وهو من الأئمة العلماء بالديار المصرية في زمانه، وشيخه حبان بن واسع بن حبان وأبوه، كلاهما من رجال مسلم، والصحابي لم يخرج له أحد من أهل الكتب الستة، وهذا على شرط كثير منهم، والله أعلم.

وقد رواه أبو عبيد، رحمه الله، عن ابن كثير^(٦)، عن ابن لهيعة، عن حبان بن واسع، عن أبيه، عن سعد بن المنذر الأنصاري أنه قال: يا رسول الله، أقرأ القرآن في ثلاث؟ قال: «نعم، إن استطعت». قال: فكان يقرؤه كذلك حتى توفي^(٧).

حديث آخر: قال أبو عبيد: حدثنا يزيد، عن همام، عن قتادة، عن يزيد بن عبد الله بن الشخير، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يفقه من قرأه في أقل من ثلاث». وهكذا أخرجه أحمد وأصحاب السنن الأربعة من حديث قتادة به^(٨). وقال الترمذي: حسن صحيح.

حديث آخر: قال أبو عبيد: حدثنا يوسف بن الغرق، عن الطيب بن سليمان، حدثنا عمرة بنت

(١) فضائل القرآن (ص ٨٧).

(٢) فضائل القرآن (ص ٨٨).

(٤) في ط: «آخر».

(٥) لم أقع عليه في المطبوع من المسند، وقد ذكره الحافظ ابن حجر في أطراف المسند (٢/٤٦٥).

(٦) في ط: «بكبير».

(٧) فضائل القرآن (ص ٨٨).

(٨) فضائل القرآن (ص ٨٩) والمسند (١٨٩/٢، ١٦٥) وسنن أبي داود برقم (١٣٩٤) وسنن الترمذي برقم (٢٩٤٩) وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٠٦٧) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٤٧).

عبد الرحمن: أنها سمعت عائشة تقول: كان رسول الله ﷺ لا يختم القرآن في أقل من ثلاث^(١). هذا حديث غريب وفيه ضعف، فإن الطيب بن سليمان هذا بصرى، ضعفه الدارقطني، وليس هو بذلك المشهور، والله أعلم.

وقد كره غير واحد من السلف قراءة القرآن في أقل من ثلاث، كما هو مذهب أبي عبيد وإسحاق وابن راهويه وغيرهما من الخلف - أيضا - قال أبو عبيد: حدثنا يزيد، عن هشام بن حسان، عن حفصة، عن أبي العالية، عن معاذ بن جبل أنه كان يكره أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث^(٢). صحيح.

وحدثنا يزيد، عن سفيان، عن علي بن بذيمة، عن أبي عبيدة قال: [قال]^(٣) عبد الله: من قرأ القرآن في أقل من ثلاث فهو راجز. وحدثنا حجاج، عن شعبة، عن علي بن بذيمة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله مثله سواء^(٤).

وحدثنا حجاج، عن شعبة، عن محمد بن ذكوان، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه؛ أنه كان يقرأ القرآن في رمضان في ثلاث^(٥). إسناده صحيح.

وفي المسند عن عبد الرحمن بن شبل مرفوعا: «اقرأوا القرآن، ولا تغفلوا فيه، ولا تحفوا عنه، ولا تأكلوا به، ولا تستكثروا به»^(٦).

فقوله: «لا تغفلوا فيه» أى: لا تبالغوا في تلاوته بسرعة في أقصر مدة، فإن ذلك ينافي التدبر غالبا؛ ولهذا قابله بقوله: «ولا تحفوا عنه» أى: لا تتركوا تلاوته.

فصل

وقد ترخص جماعة^(٧) من السلف في تلاوة القرآن في أقل من ذلك؛ منهم أمير المؤمنين عثمان ابن عفان، رضى الله عنه.

قال أبو عبيد: حدثنا حجاج، عن ابن جريج، أخبرني ابن خصفة، عن السائب بن يزيد: أن رجلا سأل عبد الرحمن بن عثمان التيمي عن صلاة طلحة بن عبيد^(٨) فقال: إن شئت أخبرتك عن صلاة عثمان، رضى الله عنه، فقال: نعم. قال: قلت: لأعطين الليلة على الحجر، فقلت، فلما قمت إذا أنا برجل مقنع يزحمنى، فنظرت فإذا عثمان بن عفان، فتأخرت عنه، فصلى فإذا هو يسجد سجود القرآن، حتى إذا قلت: هذه هوادى الفجر، أوتر بركعة لم يصل غيرها^(٩). وهذا إسناده

(١) فضائل القرآن (ص ٨٨، ٨٩).

(٢) فضائل القرآن (ص ٨٩).

(٣) زيادة من ط.

(٤) فضائل القرآن (ص ٨٩).

(٥) فضائل القرآن (ص ٩٠).

(٦) المسند (٤٢٨/٣) من طريق زيد بن سلام عن جده عن أبي راشد عن عبد الرحمن بن شبل به مرفوعا، وقال الحافظ ابن حجر: «سند قوى».

(٨) فى ط: «عبيد الله».

(٧) فى ط: «جماعات».

(٩) فضائل القرآن (ص ٩٠).

صحيح .

قال^(١): وحدثنا هُشَيْمٌ، عن منصور، عن ابن سيرين قال: قالت نائلة بنت الفرافصة الكلبية حيث دخلوا على عثمان ليقتلوه: إن يقتلوه أو يدعوه، فقد كان يحيى الليل كله بركعة يجمع فيها القرآن. وهذا حسن أيضا^(٢).

وقال - أيضا -: حدثنا أبو معاوية، عن عاصم بن سليمان، عن ابن سيرين: إن تميما الدارى قرأ القرآن فى ركعة^(٣).

حدثنا حجاج بن شعبة، عن حماد، عن سعيد بن جبير: أنه قال: قرأت القرآن فى ركعة فى البيت - يعنى الكعبة^(٤).

وحدثنا جرير، عن منصور، عن إبراهيم، عن علقمة أنه قرأ القرآن فى ليلة، طاف بالبيت أسبوعا، ثم أتى المقام فصلى عنده فقرأ بالطول، ثم طاف بالبيت أسبوعا، ثم أتى المقام فصلى عنده فقرأ بالمئين، ثم طاف بالبيت أسبوعا، ثم أتى المقام فصلى عنده فقرأ بالالف، ثم طاف بالبيت أسبوعا، ثم أتى المقام فصلى عنده فقرأ ببقية القرآن^(٥).

وهذه كلها أسانيد صحيحة، ومن أغرب ما ههنا: ما رواه أبو عبيد: حدثنا سعيد بن عُفَيْرٍ، عن بكر بن مضر، أن سليم بن عتر التجيبى كان يختم القرآن فى ليلة ثلاث مرات، ويجمع ثلاث مرات. قال: فلما مات قالت امرأته: رحمك الله، إن كنت لترضى ربك وترضى أهلك، قالوا: وكيف ذلك؟ قالت: كان يقوم من الليل فيختم القرآن، ثم يلم بأهله ثم يغتسل، ويعود فيقرأ حتى يختم ثم يلم بأهله، ثم يغتسل، ويعود فيقرأ حتى يختم، ثم يلم بأهله ثم يغتسل، ويخرج إلى صلاة الصبح^(٦).

قلت: كان سليم بن عتر تابعيا جليلا ثقة نبيلًا، وكان قاضيا بمصر أيام معاوية وقاصها، ثم قال أبو حاتم: روى عن أبي الدرداء، وعنه ابن زحر، ثم قال: حدثني محمد بن عوف، عن أبي صالح كاتب الليث، حدثني حرمله بن عمران، عن كعب بن علقمة قال: كان سليم بن عتر من خير التابعين^(٧).

وذكره ابن يونس فى تاريخ مصر.

وقد روى ابن أبى داود عن مجاهد أنه كان يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء.

وعن منصور قال: كان على الأزدي يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء كل ليلة من رمضان.

وعن إبراهيم بن سعد قال: كان أبى يحتبى فما يحل حبوته حتى يختم القرآن.

قلت: وروى عن منصور بن زاذان: أنه كان يختم فيما بين الظهر والعصر، ويختم أخرى فيما

(١) فى ط: «ثم قال».

(٢ - ٦) فضائل القرآن (ص ٩١).

(٧) الجرح والتعديل (٤/ ٢١١، ٢١٢).

بين المغرب والعشاء، وكانوا يؤخرونها قليلاً.

وعن الإمام الشافعى، رحمه الله: أنه كان يختم فى اليوم واللييلة من شهر رمضان ختمتين، وفى غيره ختمة.

وعن أبى عبد الله البخارى - صاحب الصحيح -: أنه كان يختم فى اللييلة ويومها من رمضان ختمة.

ومن غريب هذا وبديعه ما ذكره الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى الصوفى قال: سمعت الشيخ أبا عثمان المغربى يقول: كان ابن الكاتب يختم بالنهار أربع ختمات، وبالليل أربع ختمات.

وهذا نادر جداً. فهذا وأمثاله من الصحيح عن السلف محمول إما على أنه ما بلغهم فى ذلك حديث مما تقدم، أو أنهم كانوا يفهمون ويتفكرون فيما يقرؤونه مع هذه السرعة، والله أعلم.

قال الشيخ أبو زكريا النووى فى كتابه التبيان بعد ذكر طرف مما تقدم: (والاختيار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر يحصل له كمال فهم ما يقرؤه، وكذا من كان مشغولاً بنشر العلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصد له، وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل والهذرة^(١)).

ثم قال البخارى، رحمه الله:

البكاء عند القراءة

وأورد فيه من رواية الأعمش، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ على». قلت: اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إني أشتهى أن أسمع من غيري». قال: فقرأت النساء، حتى إذا بلغت: «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً» [النساء: ٤١]، قال لى: «كف أو أمسك»، فرأيت عيناه تذرفان^(٢).

وهذا من المتفق عليه كما تقدم، وكما سيأتى إن شاء الله.

من رأى بقرأة القرآن

أو تأكل به أو فجر به

حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا سفيان، حدثنا الأعمش، عن خيثمة، عن سويد بن غفلة، قال^(٣) على، رضى الله عنه: سمعت النبى ﷺ يقول: «يأتى فى آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة»^(٤).

(١) التبيان (ص ٧٦).

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٠٥٥).

(٣) فى ط: «عن».

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٠٥٧).

وقد روى في موضعين آخرين، ومسلم وأبو داود والنسائي، من طرق عن الأعمش به^(١): حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا مالك، عن يحيى بن سعيد، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم، ويقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر في النصل^(٢) فلا يرى شيئاً، وينظر في القدح فلا يرى شيئاً، وينظر في الريش فلا يرى شيئاً، ويتمارى في الفوق^(٣)».

ورواه في موضع آخر، ومسلم - أيضاً - والنسائي من طرق عن الزهري، عن أبي سلمة به^(٤).

حدثنا مُسَدَّد بن مسرهد، حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن أبي موسى، رضى الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأثرجة طعمها طيب وريحها طيب، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به كالتمر طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كالحنظلة طعمها مر أو خبيث وريحها مر^(٥)».

ورواه في موضع آخر مع بقية الجماعة من طرق، عن قتادة به^(٦).

ومضمون هذه الأحاديث التحذير من المراءاة بتلاوة القرآن التي هي من أعظم القرب، كما جاء في الحديث: «واعلم أنك لن تتقرب إلى الله بأعظم مما خرج منه^(٧)» يعنى: القرآن.

والمذكورون في حديث على وأبي سعيد هم الخوارج، وهم الذين لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، وقد قال في الرواية الأخرى: «يحقر أحدكم قراءته مع قراءتهم، وصلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم». ومع هذا أمر بقتلهم لأنهم مراؤون في أعمالهم في نفس الأمر، وإن كان بعضهم قد لا يقصد ذلك، إلا أنهم أسسوا أعمالهم على اعتقاد غير صالح، فكانوا في ذلك كالمذمومين في قوله: «أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارُ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» [التوبة: ١٠٩]، وقد اختلف العلماء في تكفير الخوارج وتفسيقهم ورد روايتهم، كما سيأتى [تفصيله]^(٨) في موضعه إن شاء الله.

(١) صحيح البخارى برقم (٣٦١١، ٦٩٣٠) وصحيح مسلم برقم (١٠٦٦) وسنن أبى داود برقم (٤٧٦٧) وسنن النسائى (١١٩/٧).

(٢) فى ط: «السهم».

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٠٥٨).

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٦١٠، ٦٩٣٣) وصحيح مسلم برقم (١٠٦٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٥٦٠).

(٥) صحيح البخارى برقم (٥٠٥٩).

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٤٢٧)، (٧٥٦٠) وصحيح مسلم برقم (٧٩٧) وسنن أبى داود برقم (٤٨٣٠) وسنن الترمذى برقم (٢٨٦٥) وسنن النسائى (١٢٤/٨) وسنن ابن ماجه برقم (٢١٤).

(٧) رواه أحمد فى المسند (٢٦٨/٥) والترمذى فى السنن برقم (٢٩١١) من طريق ليث بن أبى سليم عن زيد بن أوطاة عن أبى امامة به مرفوعاً، وقال الترمذى: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

(٨) زيادة من ط.

والمنافق المشبه بالريحانة التي لها الريح ظاهر وطعمها مر هو المرائي بتلاوته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

ثم قال البخارى:

اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم

حدثنا أبو النعمان محمد بن الفضل عارم، حدثنا حماد بن زيد، عن أبي عمران الجونى، عن جندب بن عبد الله، رضى الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا» [عنه] (١) (٢).

حدثنا عمرو بن على بن بحر الفلاس، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا سلام بن أبى مطيع، عن أبى عمران الجونى، عن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا» [عنه] (٣) (٤).

تابعه الحارث بن عبيد وسعيد بن زيد، عن أبى عمران، ولم يرفعه حماد بن سلمة وأبان. وقال غندر: عن شعبة، عن أبى عمران قال: سمعت جندباً. قوله: وقال ابن عون، عن أبى عمران، عن عبد الله بن الصامت، عن عمر قوله. وجندب أصح وأكثر (٥) (٦).

وقد رواه فى موضع آخر، ومسلم كلاهما عن إسحاق بن منصور، عن عبد الصمد، عن همام، عن أبى عمران به (٧)، ومسلم - أيضاً - عن يحيى بن يحيى، عن الحارث بن عبيد أبى قدامة، عن أبى عمران به، ورواه مسلم - أيضاً - عن أحمد بن سعيد، عن حبان بن هلال، عن أبان العطار، عن أبى عمران به مرفوعاً (٨).

وقد حكى البخارى: أن أبان وحماد بن سلمة لم يرفعا، فالله أعلم.

ورواه النسائى والطبرانى من حديث مسلم بن إبراهيم، عن هارون بن موسى الأعور النحوى، عن أبى عمران به.

(١) زيادة من ط والبخارى.

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٠٦٠).

(٣) زيادة من البخارى.

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٠٦١).

(٥) فى النسخ: «أكثر وأصح» والتصويب من البخارى.

(٦) قال الحافظ ابن حجر: «أى أصح سنداً وأكثر طرقاً وهو كما قال، فإن الجرم الغفير رواه عن أبى عمران عن جندب إلا أنهم اختلفوا عليه فى رفعه ووقفه، والذين رفعوه ثقات فالحكم لهم، وأما رواية ابن عون فشاذة لم يتابع عليها».

(٧) صحيح البخارى برقم (٧٣٦٥) وصحيح مسلم برقم (٢٦٦٧).

(٨) صحيح مسلم برقم (٢٦٦٧).

ورواه النسائي - أيضا - من طرق عن سفيان، عن حجاج بن فرافصة، عن أبي عمران به مرفوعاً^(١)، وفي رواية عن هارون بن زيد بن أبي الزرقاء، عن أبيه، عن سفيان عن حجاج، عن أبي عمران، عن جندب موقوفاً، ورواه محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، عن إسحاق الأزرق، عن عبد الله بن عون، عن أبي عمران، عن عبد الله بن الصامت، عن عمر قوله.

قال أبو بكر بن أبي داود: لم يخطئ ابن عون في حديث قط إلا في هذا، والصواب عن جندب. [ورواه الطبراني عن علي بن عبد العزيز عن مسلم بن إبراهيم وسعيد بن منصور قالاً: حدثنا الحارث بن عبيد، عن أبي عمران، عن جندب مرفوعاً]^(٢)^(٣).

فهذا مما تيسر من ذكر طرق هذا الحديث على سبيل الاختصار، والصحيح منها ما أرشد إليه شيخ هذه الصناعة^(٤) أبو عبد الله البخاري، رحمه الله، من أن الأكثر والأصح: أنه عن جندب بن عبد الله مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ.

ومعنى الحديث أنه، عليه السلام، أرشد وحض أمته على تلاوة القرآن إذا كانت القلوب مجتمعة على تلاوته، متفكرة فيه، متدبرة له، لا في حال شغلها وملالها، فإنه لا يحصل المقصود من التلاوة بذلك كما ثبت في الحديث أنه قال عليه الصلاة والسلام: «اكلفوا من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا»^(٥)، وقال: «أحب الأعمال إلى الله ما داوم عليه صاحبه وإن قل»، وفي اللفظ الآخر: «أحب الأعمال إلى الله أدومها [وإن قل]»^(٦)^(٧).

ثم قال البخاري: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا شعبة، عن عبد الملك بن ميسرة، عن النزال ابن سبرة، عن عبد الله - هو ابن مسعود - أنه سمع رجلاً يقرأ آية سمع النبي ﷺ خلالها، فأخذت بيده فانطلقت إلى النبي ﷺ فقال: «كلاكما محسن فافقرا» أكبر علمي قال: «فإن من كان قبلكم اختلفوا فأهلكهم الله عز وجل».

وأخرجه النسائي من رواية شعبة به^(٨)، وهذا في معنى الحديث الذي تقدمه، وأنه ينهى عن الاختلاف في القراءة والمنازعة في ذلك والمراء فيه كما تقدم النهي عن ذلك، والله أعلم.

وقريب من هذا ما رواه عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه: حدثنا أبو محمد سعيد بن محمد الجرمي، حدثنا يحيى بن سعيد الأموي، عن الأعمش، عن عاصم، عن زر بن حبيش قال: قال عبد الله ابن مسعود: تمارينا في سورة من القرآن فقلنا: خمس وثلاثون آية، ست وثلاثون آية قال: فانطلقنا

(١) سنن النسائي الكبرى برقم (٨٠٩٦).

(٢) زيادة من ط.

(٣) المعجم الكبير (١٦٣/٢).

(٤) في ط: «البضاعة».

(٥) رواه البخاري في صحيحه برقم (٤٣) ومسلم في صحيحه برقم (٧٨٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٦) زيادة من ط، م.

(٧) رواه مسلم في صحيحه برقم (٧٨٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٨) صحيح البخاري برقم (٥٠٦٢) وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٠٩٥).

إلى رسول الله ﷺ فوجدنا علياً بناصية فقلنا له: اختلفنا في القراءة، فاحمر وجه رسول الله ﷺ، فقال على: إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تقرؤوا كما قد علمتم^(١).

وهذا آخر ما أورده البخارى، رحمه الله، فى كتاب^(٢) فضائل القرآن، جل منزله، وتعالى قائله، والله الحمد والمنة.

كتاب الجامع

لأحاديث شتى تتعلق بتلاوة القرآن

وفضائله وفضل أهله

فصل

قال أحمد: حدثنا معاوية بن هشام، حدثنا شيبان، عن فراس، عن عطية، عن أبى سعيد قال: قال نبى الله عليه الصلاة والسلام^(٣): «يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة: اقرأ واصعد، فيقرأ ويصعد بكل آية درجة، حتى يقرأ آخر شيء معه»^(٤).

وقال أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حيوة، حدثنا بشير بن أبى عمرو الخولانى؛ أن الوليد بن قيس التجيبى حدثه أنه سمع أبا سعيد الخدرى يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون خلف من بعد الستين سنة، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا، ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدوا تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر».

قال بشير: فقلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ قال: المنافق كافر به، والفاجر يتكلم به، والمؤمن يؤمن به^(٥).

وقال أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا الليث، حدثنى يزيد بن أبى حبيب، عن أبى الخير، عن أبى الخطاب، عن أبى سعيد أنه قال: إن رسول الله ﷺ عام تبوك خطب الناس وهو مسند ظهره إلى نخلة فقال: «ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس؟ إن من خير الناس رجلاً عمل فى سبيل الله على ظهر فرسه أو على ظهر بعيره أو على قدميه حتى يأتية الموت، وإن من شر الناس رجلاً فاجراً جريئاً يقرأ كتاب الله، لا يرعوى إلى شيء منه»^(٦).

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عمر بن هياج الكوفى، حدثنا الحسين بن عبد الأول، حدثنا محمد بن الحسن الهمدانى، عن عمرو بن قيس، عن عطية، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: من شغله قراءة القرآن عن دعائى أعطيته أفضل ثواب السائلين».

(١) زوائد المسند (١/ ١٠٥، ١٠٦).

(٢) فى ط: «كتابه».

(٣) فى ط: «ﷺ».

(٤) المسند (٣/ ٤٠).

(٥) المسند (٣/ ٣٨).

(٦) المسند (٣/ ٣٧، ٥٨).

وقال رسول الله ﷺ: «إن فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»، ثم قال: تفرد به محمد بن الحسن ولم يتابع عليه^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبيدة الحداد، حدثني عبد الرحمن بن بديل بن ميسرة، حدثني أبي، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله أهليين من الناس». قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «أهل القرآن هم أهل الله وخاصته»^(٢).

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن علي بن شعيب السمسار، حدثنا خالد بن خدّاش، حدثنا جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه: كان إذا ختم القرآن جمع أهله وولده فدعا لهم^(٣).

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا محمد بن عباد المكي، حدثنا حاتم بن إسماعيل عن شريك، عن الأعمش، عن يزيد بن أبان، عن الحسن، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «القرآن غنى لا فقر بعده ولا غنى دونه»^(٤).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا عبد الله بن المحرر، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء حلية، وحلية القرآن الصوت الحسن»^(٥). ابن المحرر ضعيف.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا بكر بن سواده، عن وفاء الخولاني، عن أنس بن مالك قال: بينما نحن نقرأ فينا العربى والعجمى والأسود والأبيض، إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «أنتم فى خير تقرؤون كتاب الله وفيكم رسول الله ﷺ وسيأتى على الناس زمان يثقفونه كما يثقف القدح، يتعجلون أجورهم ولا يتأجلونها»^(٦).

وقد رواه الإمام أحمد - أيضا - عن حسن، عن ابن لهيعة، عن بكر، عن وفاء، عن سهل بن سعد، عن النبى ﷺ فذكره^(٧).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا عبد الله بن الجهم، حدثنا عمرو بن أبى قيس، عن عبد ربه بن عبد الله، عن عمر بن نيهان، عن الحسن، عن أنس؛ أن النبى ﷺ قال: «إن البيت الذى يقرأ فيه القرآن يكثر خيره، والبيت الذى لا يقرأ فيه القرآن يقل خيره»^(٨).

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا الفضل بن الصباح، حدثنا أبو عبيدة، عن محتسب، حدثني يزيد

(١) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٩٢٦) من طريق محمد بن الحسن الهمداني به، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب».

(٢) المسند (١٢٨/٣).

(٣) المعجم الكبير (٢٤٢/١) وقال الهيثمى فى المجمع (١٧٢/٧): «رجاله ثقات».

(٤) المعجم الكبير (٢٥٥/١) وقال الهيثمى فى المجمع (١٥٨/٧): «رواه أبو يعلى وفيه يزيد بن أبان الرقاشى وهو ضعيف».

(٥) مسند البزار برقم (٢٣٣٠) «كشف الاستار».

(٦) المسند (١٤٦/٣).

(٧) المسند (٣٣٨/٥).

(٨) مسند البزار برقم (٢٣٢١) «كشف الاستار» وقال الهيثمى فى المجمع (١٧١/٧): «فيه عمر بن نيهان ضعيف».

الرقاشي، عن أنس قال: قعد أبو موسى في بيت واجتمع إليه ناس، فأنشأ يقرأ عليهم القرآن، قال: فقال رسول الله ﷺ: «أفستطيع أن تقعدني حيث لا يراني منهم أحد؟». قال: نعم. قال: فخرج رسول الله ﷺ فأقعدته الرجل حيث لا يراه منهم أحد، فسمع قراءة أبي موسى فقال: «إنه ليقرأ على مزمار من مزامير داود، عليه السلام»^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا مصعب بن سلام، حدثنا جعفر - هو ابن محمد بن علي بن الحسين - عن أبيه، عن جابر بن عبد الله قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: «أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وإن أفضل الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة» ثم يرفع صوته وتحمر وجنتاه، ويشد غضبه إذا ذكر الساعة، كأنه منذر جيش. قال: ثم يقول: «أتتكم الساعة هكذا - وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى - صبحتكم الساعة ومستكم، من ترك مالا فلأهله، ومن ترك دينًا أو ضياعًا فإلى وعلى»^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب - يعني ابن عطاء - أنبأنا أسامة بن زيد اللثي، عن محمد ابن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد، فإذا قوم يقرؤون القرآن فقال: «اقرأوا القرآن وابتغوا به وجه الله - عز وجل - من قبل أن يأتي بقوم يقيمونه إقامة القدر، يتعجلونه ولا يتأجلونه»^(٣).

قال أحمد - أيضا -: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا خالد، حدثنا حميد الأعرج، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقرأ القرآن، وفيما العجمي والأعرابي قال: فاستمع فقال: «اقرأوا فكل حسن، وسيأتي قوم يقيمونه كما يقام القدر، يتعجلونه ولا يتأجلونه»^(٤).

وقال أبو بكر البزار: حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء، حدثنا عبد الله بن الأجلح، عن الأعمش، عن المعلی الكندي، عن عبد الله بن مسعود قال: إن هذا القرآن شافع مشفع، من اتبعه قاده إلى الجنة، ومن تركه أو أعرض عنه - أو كلمة نحوها - رجّ في قفاه إلى النار»^(٥). وحدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الله بن الأجلح، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن النبي ﷺ بنحوه^(٦).

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أحمد بن عبد العزيز بن مروان أبو صخر، حدثني بكر بن يونس، عن موسى بن علي، عن أبيه، عن يحيى بن أبي كثير اليمامي، عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ ألف آية كتب الله له قنطارا، والقنطار مائة رطل، والرطل اثنتا عشرة أوقية،

(١) مسند أبي يعلى (١٣٣/٧ - ١٣٥) وفيه يزيد الرقاشي ضعيف.

(٢) المسند (٣/٣١٠).

(٣) المسند (٣/٣٥٧).

(٤) المسند (٣/٣٩٧).

(٥) مسند البزار برقم (١٢١) «كشف الأستار».

(٦) مسند البزار برقم (١٢٢) «كشف الأستار».

والوقية ستة دنائير، والدينار أربعة وعشرون قيراطا، والقيراط مثل أحد، ومن قرأ ثلاثمائة آية قال الله لملائكته: نصب عبدى لى، أشهدكم يا ملائكتى أننى قد غفرت له، ومن بلغه عن الله فضيلة فعمل بها إيماناً به ورجاء ثوابه، أعطاه الله ذلك وإن لم يكن ذلك كذلك»^(١).

وقال أحمد: حدثنا جرير، عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن كالبيت الخرب»^(٢).

قال البزار: لا نعلمه يروى عن ابن عباس إلا من هذا الوجه.

وقال الطبرانى: حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة، حدثنى أبى قال: وجدت فى كتاب أبى بخطه عن عمران بن أبى عمران، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من اتبع كتاب الله هداه الله من الضلالة، ووقاه سوء الحساب يوم القيامة، وذلك أن الله عز وجل يقول: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلْ وَلَا يَشْقَى﴾» [طه: ١٢٣]^(٣).

وقال الطبرانى: حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح، حدثنا أبى، حدثنا ابن لهيعة، عن عمرو بن دينار، عن طاووس، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحسن الناس قراءة من قرأ القرآن يتحزن به»^(٤).

وقال - أيضا - : حدثنا أبو يزيد القراطيسى، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا عبدة بن سليمان، عن سعيد أبى سعد البقال، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أحسنوا الأصوات بالقرآن»^(٥).

وروى - أيضا - بسنده إلى الضحاك عن ابن عباس مرفوعا: «أشرف أمتى حملة القرآن»^(٦).

وقال الطبرانى: حدثنا معاذ بن المنى، حدثنا إبراهيم بن أبى سويد الذارع^(٧)، حدثنا صالح المرى، عن قتادة، عن زرارة بن أوفى عن ابن عباس قال: سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: أى الأعمال أحب إلى الله؟ فقال: «الحال المرتحل». قال: يا رسول الله، ما الحال المرتحل؟ قال: «صاحب القرآن يضرب فى أوله حتى يبلغ آخره، وفى آخره حتى يبلغ أوله»^(٨).

(١) معجم الشيوخ لأبى يعلى (٧٤) وإسناده ضعيف لعلتين: العلة الأولى: ضعف بكر بن يونس، والعلة الثانية: الانقطاع بين يحيى ابن أبى كثير وجابر.

(٢) المسند (٢٢٣/١).

(٣) المعجم الكبير (٤٨/١٢) وقال الهيثمى فى المجمع (١٦٩/١): «فيه أبو شيبة وهو ضعيف جداً».

(٤) المعجم الكبير (٧/١١).

(٥) المعجم الكبير (١٨/١٢) وأبو سعد البقال ضعيف، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

(٦) المعجم الكبير (١٢٥/١٢) من طريق سعد الجرجاني عن نهشل - وكلاهما ضعيف - عن الضحاك به.

(٧) فى ط: «الزرع».

(٨) المعجم الكبير (١٦٨/١٢) ورواه الحاكم فى المستدرک (٥٦٨/١) من طريق صالح المرى به، وقال: «تفرد به صالح المرى، وهو من زهاد أهل البصرة». وتعقبه الذهبى فقال: «صالح متروك».

ذكر الدعاء المأثور

لحفظ القرآن وطرده النسيان

قال [الحافظ]^(١) أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا محمد بن إبراهيم القرشي، حدثني أبو صالح وعكرمة، عن ابن عباس قال: قال علي بن أبي طالب: يا رسول الله، القرآن يتفلت من صدري، فقال النبي ﷺ: «أعلمك كلمات ينفعك الله بهن وينفع من علمته». قال: قال: نعم بأبي وأمي، قال: «صل ليلة الجمعة أربع ركعات تقرأ في الأولى بفاتحة الكتاب ويس، وفي الثانية بفاتحة الكتاب وحم الدخان، وفي الثالثة بفاتحة الكتاب والتم تنزيل السجدة، وفي الرابعة بفاتحة الكتاب وتبارك المفصل، فإذا فرغت من التشهد فاحمد الله واثن عليه، وصل على النبيين، واستغفر للمؤمنين، ثم قل: اللهم ارحمني بترك المعاصي أبدا ما أبقيتني، وارحمني من أن أتكلف ما لا يعينني، وارزقني حسن النظر فيما يرضيك عني، اللهم بديع السموات والأرض، ذا الجلال والإكرام والعزة التي لا ترام، أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تلزم قلبي حفظ^(٢) كتابك كما علمتني، وارزقني أن أتلوه على النحو الذي يرضيك عني، وأسألك أن تنور بالكتاب بصري، وتطلق به لساني، وتفرج به عن قلبي، وتشرح به صدري، وتستعمل به بدني، وتقويني على ذلك وتعينني على ذلك^(٣)، فإنه لا يعينني على الخير غيرك، ولا يوفق له إلا أنت، فافعل ذلك ثلاث جمع أو خمسا أو سبعا تحفظه بإذن الله وما أخطأ مؤمنا قط». فأتى النبي ﷺ بعد ذلك بسبع فأخبره بحفظ القرآن والحديث، فقال النبي ﷺ: «مؤمن ورب الكعبة»، علم أبو الحسن^(٤)، علم أبو الحسن^(٥) «هذا سياق الطبراني^(٦)».

وقال أبو عيسى الترمذي في كتاب الدعوات: حدثنا أحمد بن الحسن، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا ابن جريج، عن عطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس، عن ابن عباس أنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه علي بن أبي طالب فقال: بأبي أنت وأمي، تفلت هذا القرآن من صدري فما أجدني أقدر عليه، فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا الحسن، أفلا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن، وينفع بهن من علمته، ويثبت ما تعلمت في صدرك؟» قال: أجل يا رسول الله، فعلمني، قال: «إذا كان ليلة الجمعة فإن استطعت أن تقوم في ثلث الليل الآخر فإنها ساعة مشهودة، والدعاء فيها مستجاب، وقد قال أخى يعقوب لبنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨]، يقول: حتى تأتي ليلة الجمعة، فإن لم تستطع فقم في وسطها، فإن لم تستطع فقم في أولها فصل أربع ركعات، تقرأ في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وسورة يس، وفي الركعة الثانية بفاتحة الكتاب وحم الدخان، وفي الركعة الثالثة بفاتحة الكتاب والتم تنزيل السجدة، وفي الركعة

(١) زيادة من ط.

(٢) في المعجم الكبير: «عليه».

(٣، ٤) في المعجم الكبير: «أبا حسن».

(٦) المعجم الكبير (٣٦٧/١١) ورواه من طريق ابن الجوزي في الموضوعات (١٣٨/٢) وقال: «هذا حديث لا يصح، ومحمد بن إبراهيم مجروح، وأبو صالح لا نعلمه إلا إسحاق بن نجيح وهو متروك».

الرابعة بفتح الكتاب وتبارك المفصل، فإذا فرغت من التشهد، فاحمد الله وأحسن الشاء على الله، وصل علىّ وأحسن وعلى سائر النبيين، واستغفر للمؤمنين والمؤمنات، وإخوانك الذين سبقوك بالإيمان، ثم قل في آخر ذلك: اللهم ارحمني بترك المعاصي أبدا ما أبقيتنى، وارحمنى أن أتكلف ما لا يعيننى، وارزقنى حسن النظر فيما يرضيك عنى، اللهم بديع السموات والأرض، ذا الجلال والإكرام والعزة التى لا ترام، أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تلزم قلبى حفظ كتابك كما علمتنى، وارزقنى أن أتلوه على النحو الذى يرضيك عنى، اللهم بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام والعزة التى لا ترام، أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك، أن تنور بكتابك بصرى، وأن تطلق به لسانى، وأن تفرج به عن قلبى، وأن تشرح به صدرى، وأن تغسل به بدنى، فإنه لا يعيننى على الحق غيرك ولا يؤتیه إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، يا أبا الحسن، تفعل ذلك ثلاث جمع أو خمسا أو سبعا تجاب بإذن الله تعالى، والذى بعثنى بالحق ما أخطأ مؤمنا قط». قال ابن عباس: فوالله ما لبث علىّ إلا خمسا أو سبعا حتى جاء [علىّ] (١) رسول الله ﷺ فى مثل ذلك المجلس، فقال: يا رسول الله، والله إنى كنت فيما خلا لا آخذ إلا أربع آيات أو نحوهن، فإذا قرأتُهن على نفسى تفلتن وأنا أتعلّم اليوم أربعين آية أو نحوها، فإذا قرأتها على نفسى فكأنما كتاب الله بين عيني، ولقد كنت أسمع الحديث، فإذا ردّدته تفلت، وأنا اليوم أسمع الأحاديث، فإذا تحدثتُ بها لم أحرّم منها حرفا، فقال له رسول الله ﷺ عند ذلك: «مؤمن ورب الكعبة يا أبا الحسن».

ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم. كذا قال، وقد تقدم من غير طريقه. ورواه الحاكم فى مستدركه من طريق الوليد، ثم قال: على شرط الشيخين حيث صرح الوليد بالسماع من ابن جريج، فالله أعلم - فإنه فى المتن غرابة بل نكارة (٢)، والله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا العمرى، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل القرآن مثل الإبل المعقلة إن تعاهدها صاحبها أمسكها، وإن تركها ذهب».

ورواه - أيضا - عن محمد بن عبيد ويحيى بن سعيد، عن عبيد الله العمرى به (٣).

ورواه - أيضا - عن عبد الرزاق، عن معمر، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر مرفوعاً نحوه (٤).

وقال البزار: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا حميد بن حماد بن أبى الحوار، حدثنا مسعر، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: سئل رسول الله ﷺ: أى الناس أحسن قراءة؟ قال: «من إذا سمعته يقرأ رؤيت أنه يخشى الله، عز وجل» (٥).

(١) زيادة من الترمذى.

(٢) سنن الترمذى برقم (٣٥٧٠) والمستدرک (٣١٦/١، ٣١٧) وأعل بثلاث علل: الأولى: عننة ابن جريج. الثانية: تدليس بقية فإنه يدلّس تدليس التسوية. الثالثة: سليمان الدمشقى تكلم فيه من جهة حفظه.

(٣) المسند (٢٣/٢)، (١٧/٢)، (٣٠).

(٤) المسند (٣٥/٢).

(٥) مسند البزار برقم (٢٣٣٦) «كشف الأستار» وفيه حماد بن حميد ضعيف.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارْقَ ورتّل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»^(١).

وقال أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثني حيي بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ^(٢) فقال: يا رسول الله، إني أقرأ القرآن فلا أجد قلبي يعقل عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن قلبك حثي الإيمان، وإن العبد يعطى الإيمان قبل القرآن»^(٣).

وبهذا الإسناد: أن رجلا جاء بابن له فقال: يا رسول الله، إن ابني هذا يقرأ المصحف بالنهار ويبيت بالليل، فقال رسول الله ﷺ: «ما تنقم أن ابنك يظل ذاكرا ويبيت سالما»^(٤).

وقال أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، عن حيي، عن أبي عبد الرحمن، عن عبد الله بن عمرو، أن النبي ﷺ قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أرى رب، منعه الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعه النوم بالليل فشفعني فيه»، قال: «يفشعان»^(٥).

وقال أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن عبد الرحمن بن جبير، عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أكثر منافقي أمتي قراؤها»^(٦).

وقال أحمد: حدثنا وكيع، حدثني همام، عن قتادة، عن يزيد بن عبد الله بن الشخير، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يَفقه». ورواه - أيضا - عن غُندر، عن شعبة، عن قتادة به^(٧). وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن إسحاق بن راهويه، حدثنا أبي، حدثنا عيسى بن يونس، ويحيى بن أبي الحجاج التميمي، عن إسماعيل بن رافع، عن إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ القرآن فكأنما استدرجت النبوة بين جنبه، غير أنه لا يوحى إليه، ومن قرأ القرآن فرأى أن أحداً أُعطيَ أفضل مما أُعطيَ فقد عَظُمَ ما صَغُرَ الله، وصَغُرَ ما عَظُمَ الله، وليس ينبغي لحامل القرآن أن يَسْفَهَ فيمن يَسْفَه، أو يَغْضَبَ فيمن يَغْضَب، أو يَحْتَدَّ فيمن يَحْتَدُّ، ولكن يعفو ويصفح، لفضل القرآن»^(٨).

(١) المسند (١٩٢/٢).

(٢) في مسند أحمد: «رسول الله».

(٣) المسند (١٧٢/٢).

(٤) المسند (١٧٣/٢).

(٥) المسند (١٧٤/٢).

(٦) المسند (١٧٥/٢).

(٧) المسند (١٦٤/٢، ١٩٣، ١٩٥).

(٨) قال الهيثمي في المجمع (١٥٩/٧): «فيه إسماعيل بن رافع وهو متروك».

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم، حدثنا عباد بن مسرة، عن الحسن، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة»^(١).

وقال البزار: حدثنا محمد بن حرب، حدثنا يحيى بن المتوكل، حدثنا عنبسة بن مهران عن الزهري، عن سعيد وأبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «مراء في القرآن كفر». ثم قال: عنبسة: هذا ليس بالقوى. وعنده فيه إسناد آخر^(٢).

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو بكر، حدثنا ابن إدريس، حدثنا المقبري، عن جده، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه»^(٣)،^(٤).

وقال الطبراني: حدثنا موسى بن حازم الأصبهاني، حدثنا محمد بن بكر الحضرمي، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن يحيى بن الحارث الذمري، عن القاسم أبي عبد الرحمن، عن فضالة بن عبيد، وتميم الداري، عن النبي ﷺ قال: «من قرأ عشر آيات في ليلة كتبت له قنطار، والقنطار خير من الدنيا وما فيها، فإذا كان يوم القيامة يقول ربك، عز وجل: اقرأ وارق بكل آية درجة حتى ينتهي إلى آخر آية معه، يقول ربك: اقبط، فيقول العبد بيده: يارب أنت أعلم. فيقول: بهذه الخلد وبهذه النعيم»^(٥).

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة معقس بن عمران بن حطان قال: قال: دخلت مع أبي على أم الدرداء، رضى الله عنها، فسألها أبي: ما فضل من قرأ القرآن على من لم يقرأ؟ قالت: حدثني عائشة قالت: جعلت درج الجنة على عدد آي القرآن، فمن^(٦) قرأ ثلث القرآن ثم دخل الجنة كان على الثلث من درجها، ومن قرأ نصف القرآن كان على النصف من درجها، ومن قرأ كله كان في عليين، لم يكن فوقه إلا نبي أو صديق أو شهيد^(٧).

وقال الطبراني: حدثنا مسعدة^(٨) بن سعد العطار المكي، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي، حدثنا إسحاق بن إبراهيم مولى جميع بن حارثة الأنصاري، حدثنا عبد الله بن ماهان الأزدي، حدثني فائد مولى عبيد الله بن أبي رافع، حدثني سكين بنت الحسين بن علي، عن أبيها قال: قال رسول الله ﷺ: «حملة القرآن عرفاء أهل الجنة يوم القيامة»^(٩).

وروى الطبراني من حديث بقة، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن المهاصر بن حبيب، عن عبيدة

(١) المسند (٣٤١/٢).

(٢) ورواه أبو نعيم في الحلية (١٩٢/٥) من طريق محمد بن حرب الواسطي به، وقال: «غريب من حديث مكحول، لم نكتبه إلا من حديث ابن حرب».

(٣) في ط: «غرابته».

(٤) مسند أبي يعلى (٤٣٦/١١) وقال الهيثمي في المجمع (١٦٣/٧): «فيه عبد الله بن سعيد بن أبي سعيد المقبري وهو متروك».

(٥) المعجم الكبير (٥٠/٢).

(٦) في ط: «من».

(٧) تاريخ دمشق (١٧/١٠) «المخطوط».

(٨) في ط: «مسورة».

(٩) المعجم الكبير (١٣٢/٣) وقال الهيثمي في المجمع (١٦١/٧): «فيه إسحاق المدني وهو ضعيف».

الملكي، عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول: «يا أهل القرآن، لا توسدوا القرآن، واتلوه حق تلاوته من آناء الليل والنهار، وتغنوه وتَقَنُّوه، واذكروا ما فيه لعلكم تفلحون، ولا تستعجلوا ثوابه، فإن له ثوابين»^(١)»^(٢).

وفى حديث عقبة بن عامر نحوه، كما تقدم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا ابن لهيعة، عن مِشْرِح، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن القرآن جُعِلَ في إهابٍ ثم أُلْقِيَ في النار ما احترق»^(٣).

تفرد به. قيل: معناه: أن الجسد الذي يقرأ القرآن [لا تمسه النار]^(٤).

وفى سنن ابن ماجه من طريق المغيرة بن نَهيك، عن عقبة بن عامر مرفوعاً: «من تعلم القرآن»^(٥) ثم تركه فقد عصاني»^(٦).

وفى حديث رواه أبو يعلى من طريق ليث، عن مجاهد، عن أبي سعيد مرفوعاً: «عليك بتقوى الله، فإنها رأس كل خير، وعليك بالجهاد، فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن، فإنه نورٌ لك في الأرض وذكرٌ لك في السماء، واخزن لسانك إلا من خير، فإنك بذلك تغلب الشيطان»^(٧).

وهكذا أذكر آثاراً مروية عن ابن أمّ عبد^(٨) أحد قُرَّاء القرآن من الصحابة المأمور بالتلاوة على نحوهم^(٩).

روى الطبراني، عن الدبري، عن عبد الرزاق، عن معمر، عن أبي إسحاق، قال ابن مسعود: كل آية في كتاب الله خيرٌ مما في السماء والأرض^(١٠).

ومن طريق شعبة، عن أبي إسحاق، عن مرة قال ابن مسعود: من أراد العلم فليتبوأ من القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين^(١١).

ومن طريق سُفيان وشعبة، عن ساعد^(١٢) بن كهيل، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: إن هذا القرآن ليس فيه حرف إلا له حدٌ، ولكل حد مَطْلَعٌ^(١٣).

ومن حديث الثوري، عن إسماعيل بن أبي خالد^(١٤)، عن سيار أبي الحكم، عن ابن مسعود أنه قال: أعربوا هذا القرآن فإنه عربي، وسيجيء قوم يُتَقَفُّونه وليسوا بخياركم^(١٥).

(١) في ط: «ثوابا».

(٢) قال الهيثمي في المجمع (٢/٢٥٢): «رواه الطبراني في الكبير وفيه أبو بكر بن أبي مريم وهو ضعيف».

(٣) المسند (٤/١٥١).

(٤) زيادة من ط.

(٥) في سنن ابن ماجه: «الرمي».

(٦) سنن ابن ماجه برقم (٢٨١٤).

(٧) مسند أبي يعلى (٢/٢٨٤) وليث بن أبي سليم ضعيف.

(٨) في ط: «عن ابن أم عبد الله بن مسعود». (٩) في ط: «حرفهم».

(١٠) المعجم الكبير (٩/١٤٥).

(١١) المعجم الكبير (٩/١٤٦).

(١٢) في ط: «سلمة».

(١٣) المعجم الكبير (٩/١٤٦).

(١٤) في ط: «إسماعيل بن خالد». (١٥) المعجم الكبير (٩/١٥٠).

والثوري، عن عاصم، عن زرّ، عن ابن مسعود قال: أديموا النظر في المصحف، وإذا اختلفتم في ياءٍ أو تاءٍ فاجعلوها ياءً، ذكروا القرآن فإنه مذكّر^(١).

وقال عبد الرزاق، عن إسرائيل، عن عبد العزيز بن رفيع، عن شدّاد^(٢) بن معقل، سمعت ابن مسعود يقول: أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما يبقى من دينكم الصلاة، وليزغن قومٌ من بين أظهركم. قالوا: يا أبا عبد الرحمن، ألسنا نقرأ القرآن وقد أثبتناه خلاقاً لهم، ولينزغن قومٌ من بين أظهركم. قالوا: يا أبا عبد الرحمن، ألسنا نقرأ القرآن وقد أثبتناه في مصاحفنا؟ قال: يسرى على القرآن ليلاً فيذهب به من أجواف الرجال فلا يبقى في الأرض منه شيء - وفي رواية: لا يبقى في مصحف منه شيء - ويصبح الناس فقراءً كالبهائم. ثم قرأ عبد الله: ﴿وَلَمَّا شَتَا لَنذَهِبَنَّا بِالَّذِي أُوْحِيَإِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٦]^(٣).

وقال الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا أبو نعيم، حدثني شعبة، عن علي بن بزيمة^(٤)، عن أبي عبيدة بن عبد الله، عن أبيه قال: من قرأ القرآن في أقلّ من ثلاثٍ فهو راجز^(٥). قال هشام عن الحسن: إنه بلغه عن ابن مسعود مثل ذلك.

ومن طريق الأعمش، عن أبي وائل قال: كان عبد الله بن مسعود يقلّ الصوم، فيقال له في ذلك، فيقول: إني إذا صُمتُ ضَعُفْتُ عن القراءة والصلاة، والقراءة والصلاة أحبُّ إليّ^(٦).

مقدمة مفيدة

قال أبو بكر بن الأنباري: حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، عن حجاج بن منهال، عن همام، عن قتادة قال: نزل في المدينة من القرآن البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، وبراءة، والرعد، والنحل، والحج، والنور، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والحجرات، والحديد، والرحمن، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والصف، والمنافقون، والتغابن، والطلاق، ويا أيها النبي لم تحرم، وإلى رأس العشر، وإذا زلزلت، وإذا جاء نصر الله. هؤلاء السور نزلت بالمدينة، وسائر القرآن نزل بمكة.

فأما عدد آيات القرآن فستة آلاف آية، ثم اختلف فيما زاد على ذلك على أقوال، فمنهم من لم يزد على ذلك، ومنهم من قال: ومائتا آية وأربع آيات، وقيل: وأربع عشرة آية، وقيل: ومائتان وتسع عشرة، وقيل: ومائتان وخمس وعشرون آية، وست وعشرون آية، وقيل: ومائتا آية، وست وثلاثون آية. حكى ذلك أبو عمرو الداني في كتاب البيان^(٧).

وأما كلماته، فقال الفضل بن شاذان، عن عطاء بن يسار: سبع وسبعون ألف كلمة وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة.

وأما حروفه، فقال عبد الله بن كثير، عن مجاهد: هذا ما أحصينا من القرآن وهو ثلاثمائة ألف

(١) المعجم الكبير (٩/١٥٢).

(٢) في ط: «مقداد».

(٣) المعجم الكبير (٩/١٥٢) والمصنف لعبد الرزاق (٥٩٨٠).

(٤) في ط: «علي بن زيد».

(٥) المعجم الكبير (٩/١٥٤).

(٦) المعجم الكبير (٩/١٩٥).

(٧) تفسير القرطبي (١/٦٥).

حرفٍ وواحدٌ وعشرون ألفَ حَرْفٍ ومائةٌ وثمانونَ حرفاً.

وقال الفضل، عن عطاء بن يسار: ثلاثمائة ألف حرف وثلاثة وعشرون ألفاً وخمسة عشر حرفاً. وقال سَلَامٌ أبو محمد الحماني: إنَّ الحجاج جمع القراء والحفاظ والكتّاب فقال: أخبروني عن القرآن كُلُّه كم من حرف هو؟ قال: فحسبناه فأجمعوا أنه ثلاثمائة ألف حَرْفٍ وأربعون ألفاً وسبعمائة وأربعون حرفاً. قال: فأخبروني عن نصفه. فإذا هو إلى الفاء من قوله في الكهف: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ [الكهف: ١٩]، وثُلثه الأول عند رأس مائة آية من براءة، والثاني عليّ رأس مائة أو إحدى ومائة من الشعراء، والثالث إلى آخره. وسبَّعه الأول إلى الدال من قوله: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ [النساء: ٥٥]. والسبَّع الثاني إلى الباء من قوله في الأعراف: ﴿حَبِطَتْ﴾ [الأعراف: ١٤٧]، والثالث إلى الألف الثانية من: ﴿أَكْلَهَا﴾ في الرعد [الرعد: ٣٥]، والرابع إلى الألف من قوله في الحج: ﴿جَعَلْنَا مَنَسْكَ﴾ [الحج: ٦٧]، والخامس إلى الهاء من قوله في الأحزاب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، والسادس إلى الواو من قوله في الفتح: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوءِ﴾ [الفتح: ٦]، والسابع إلى آخر القرآن. قال سلام أبو محمد: عملنا ذلك في أربعة أشهر.

قالوا: وكان الحجاج يقرأ في كلِّ ليلة ربع القرآن، فالأول إلى آخر الأنعام، والثاني إلى ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ [الكهف: ١٩]، والثالث إلى آخر الزمر، والرابع إلى آخر القرآن. وقد ذكر الشيخ أبو عمرو الداني في كتابه البيان خلافاً في هذا كله، والله أعلم^(١).

وأما التحزيب والتجزئة فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين كما في الربعات في المدارس وغيرها، وقد ذكرنا فيما تقدم الحديث الوارد في تحزيب الصحابة للقرآن، والحديث في مسند أحمد وسنن أبي داود وابن ماجه وغيرهما^(٢) عن أوس بن حذيفة أَنَّهُ سَأَلَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي حَيَاتِهِ: كَيْفَ يُحَزِّبُونَ الْقُرْآنَ؟ قالوا: ثلاث وخمسة وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة، وحزبُ المَفْصَلِ من قاف حتى يختم^(٣).

قال القرطبي: أجمعوا أنه ليس في القرآن شيء من التراكيب الأعجمية؟ وأجمعوا أن فيه أعلاماً من الأعجمية كإبراهيم ونوح، ولوط، واختلفوا: هل فيه شيء من غير ذلك بالأعجمية؟ فأنكر ذلك الباقلاني والطبري وقالوا: ما وقع فيه ما يوافق الأعجمية، فهو من باب ما توافقت فيه اللغات^(٤).

فصل

واختلفوا^(٥) في معنى السورة: ممَّ هي مشتقة؟ فقيل: من الإبانة والارتفاع. قال النابغة:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سَوْرَةً تَرَى كُلَّ مَلِكٍ دُونَهَا يَتَذَبَذَبُ^(٦)

فكان القارئ ينتقل بها من منزلة إلى منزلة. وقيل: لشرفها وارتفاعها كسور البلد. وقيل: سميت

(١) انظر: تفسير القرطبي (١/٦٤).

(٢) في ط: «غيرهما».

(٣) المسند (٩/٤) وسنن أبي داود برقم (١٣٩٣) وسنن ابن ماجه برقم (٤٣٨).

(٤) تفسير القرطبي (١/٦٨).

(٥) في ط: «واختلف».

(٦) البيت في تفسير الطبري (١/١٠٥).

سُورَةٌ لكونها قِطْعَةٌ من القرآن وجزءاً منه، مأخوذ من أسَّارَ الإناء وهو البقية، وعلى هذا فيكون أصلها مهموزاً، وإنما خففت فأبدلت الهمزة واواً لانضمام ما قبلها. وقيل: لتمامها وكمالها لأن العرب يسمون الناقة التامة سُورَةً.

قلت: ويحتمل أن يكون من الجمع والإحاطة لآياتها كما سُمِّي سورُ البلد لإحاطته بمنزله ودوره، والله أعلم.

وجمع السورة سورٌ بفتح الواو، وقد تُجمع^(١) على سوراتٍ وسوراتٍ. وأما الآية فمن العلامة على انقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها وانفصاله، أى: هى بائنة من أختها. قال^(٢) الله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، وقال النابغة: تَوَهَّمْتُ آيَاتَ لَهَا فَعَرَفْتُهَا لَسْتَهُ أَعْوَامٌ وَذَا الْعَامُ سَابِعٌ^(٣) وقيل: لأنها جماعة حروفٍ من القرآن وطائفة منه، كما يقال: خرج القوم بآيتهم، أى: بجماعتهم. قال الشاعر^(٤):

خَرَجْنَا مِنَ النَّقَبِينَ لَا حَيَّ مِثْلُنَا
بَايْتَنَا نُرْجِي اللَّقَاحَ الْمَطَافِلَا

وقيل: سُمِّيَتْ آيَةً لأنها عَجَبٌ يَعْجِزُ الْبَشَرَ عَنِ التَّكَلُّمِ بِمِثْلِهَا. قال سيبويه: وأصلها آيَّةٌ مثل أَكْمَةٍ وَشَجَرَةٍ، تَحَرَّكَتِ الْيَاءُ وَافْتَتَحَ مَا قَبْلَهَا فَقَلْبَتْ أَلِفًا فَصَارَتْ آيَةً، بهمزة بعدها مدة. وقال الكسائي: آيَّةٌ عَلَى وَزْنِ أَمَنَةٍ، فَقَلْبَتْ أَلِفًا، ثُمَّ حُذِفَتْ لِالتَّبَاسُهَا. وقال الفراء: أصلها آيَّةٌ - بتشديد الياء - فَقَلْبَتْ الْأُولَى أَلِفًا، كَرَاهِيَةَ التَّشْدِيدِ فَصَارَتْ آيَةً، وَجَمَعَهَا: آيٌ وَآيَاٌ وَآيَاتٌ.

وأما الكلمة فهي اللفظ الواحد، وقد تكون على حرفين مثل: ما ولا وله ولك، وقد يكون أكثر. وأكثر ما يكون^(٥) عشرة أحرف: ﴿لَيْسْتَ خَلْفَنَهُمْ﴾ [النور: ٥٥]، و ﴿أَنْلَزْ مُكْمُوها﴾ [هود: ٢٨]، ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقد تكون الكلمة آية، مثل: والفجر، والضحى، والعصر، وكذلك: الم، وطه، ويس، وحم - فى قول الكوفيين - و ﴿حَمَّ . عَسَقَ﴾ عندهم كلمتان. وغيرهم لا يسمي هذه آيات بل يقول: هى فواتح السور. وقال أبو عمرو الداني: لا أعلم كلمةً هى وحدها آيةٌ إلا قوله: ﴿مَدَّاهُمَاتَانِ﴾ فى سورة الرحمن [الرحمن: ٦٤].

آخر المقدمة

(١) فى ط: «يجمع».

(٢) فى ط: «ومنه قول».

(٣) البيت فى تفسير القرطبي (١/٦٦).

(٤) البيت لبرج بن مسهر الطائي، وهو فى تفسير القرطبي (١/٦٦).

(٥) فى ط: «تكون».

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة الكتاب

يقال لها: الفاتحة، أى فاتحة الكتاب خطأ، وبها تفتح^(١) القراءة فى الصلاة^(٢)، ويقال لها أيضا: أم الكتاب عند الجمهور، وكره أنس، والحسن وابن سيرين كرها تسميتها بذلك، قال الحسن وابن سيرين: إنما ذلك اللوح المحفوظ، وقال الحسن: الآيات المحكمات: هن أم الكتاب، ولذا كرها^(٣) - أيضا - أن يقال لها أم القرآن، وقد ثبت فى [الحديث]^(٤) الصحيح عند الترمذى وصححه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم»، ويقال لها: الحمد، ويقال لها: الصلاة؛ لقوله عليه السلام^(٥) عن ربه: «قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله: حمدنى عبدى» الحديث. فسميت الفاتحة: صلاة؛ لأنها شرط فيها. ويقال لها: الشفاء، لما رواه الدارمى عن أبى سعيد مرفوعا: «فاتحة الكتاب شفاء من كل سم»^(٦). ويقال لها: الرقية، لحديث أبى سعيد فى الصحيح حين رقى بها الرجل السليم، فقال له رسول الله ﷺ: «وما يدريك أنها رقية؟». وروى الشعبى عن ابن عباس أنه سماها: أساس القرآن، قال: فأساسها^(٧) بسم الله الرحمن الرحيم، وسماها سفيان بن عيينة: الواقعة. وسماها يحيى بن أبى كثير: الكافية؛ لأنها تكفى عما عداها ولا يكفى ما سواها عنها، كما جاء فى بعض الأحاديث المرسلة: «أم القرآن عوض من غيرها، وليس غيرها عوضا عنها»^(٨). ويقال لها: سورة الصلاة والكنز، ذكرهما الزمخشري فى كشافه.

وهى مكية، قاله^(٩) ابن عباس وقتادة وأبو العالية، وقيل: مدنية، قاله^(١٠) أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهري. ويقال: نزلت مرتين: مرة بمكة، ومرة بالمدينة، والأول أشبه لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧]، والله أعلم^(١١). وحكى أبو الليث السمرقندى أن نصفها نزل بمكة ونصفها الآخر نزل بالمدينة، وهو غريب جدًا، نقله القرطبى عنه.

وهى سبع آيات بلا خلاف، [وقال عمرو بن عبيد: ثمان، وقال حسين الجعفى: ستة]^(١٢)، وهذان شاذان^(١٣). وإنما اختلفوا فى البسملة: هل هى آية مستقلة من أولها كما هو عند جمهور قراء الكوفة وقول الجماعة من الصحابة والتابعين وخلق من الخلف، أو بعض آية أو لا تعد من أولها بالكلية، كما هو قول أهل المدينة من القراء والفقهاء؟ على ثلاثة أقوال، سيأتى تقريره^(١٤) فى موضعه إن شاء الله تعالى، وبه الثقة.

(١) فى أ: «يفتح».

(٢) فى أ: «الصلوات».

(٣) فى أ: «كذا».

(٤) فى أ: «ﷺ».

(٥) زيادة من أ.

(٦) فى أ: «وأساسها».

(٨) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (١٦٥/٢) من طريق مكحول عن عبادة به مرسلًا، ورواه الحاكم فى المستدرک (٢٣٨/١) من طريق الزهري عن محمود بن الربيع عن عبادة به مرفوعا بهذا اللفظ، وهذا غير محفوظ. وقد جاء من طرق أخرى موصولة ذكرها الفاضل محمد طرهونى فى كتابه «موسوعة فضائل القرآن» (٤٠/١ - ٤٣).

(٩) فى أ: «قال».

(١٠) فى ج: «والله تعالى أعلم».

(١١) فى أ: «ست».

(١٢) فى أ: «تقريرها».

(١٣) زيادة من ج.

قالوا: وكلماتها خمس وعشرون كلمة، وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفاً. قال البخارى فى أول كتاب التفسير: وسميت أم الكتب: أنه يبدأ بكتابتها فى المصاحف، ويبدأ بقراءتها فى الصلاة^(١)، وقيل: إنما^(٢) سميت بذلك لرجوع معانى القرآن كله^(٣) إلى ما تضمنته. قال ابن جرير: والعرب تسمى كل جامع أمر^(٤) أو مقدم لأمر - إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع - أمّا، فتقول^(٥) للجلدة التى تجمع الدماغ: أم الرأس، ويسمون لواء الجيش ورايتهم التى يجتمعون تحتها أمّا، واستشهد^(٦) بقول ذى الرمة:

على رأسه أم لنا نفتدى بها جماع أمور ليس^(٧) نعصى لها أمرا^(٨)

يعنى: الرمح. قال: وسميت مكة: أم القرى لتقدمها أمام جميعها وجمعها ما سواها، وقيل: لأن الأرض دحيت منها.

ويقال لها أيضاً: الفاتحة؛ لأنها تفتح بها القراءة، وافتتحت الصحابة بها كتابة المصحف الإمام، وضح تسميتها بالسبع المثاني، قالوا: لأنها تنشئ فى الصلاة، فتقرأ فى كل ركعة، وإن كان للمثنائى معنى آخر غير هذا، كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله^(٩).

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أنا ابن أبى ذئب وهاشم بن هاشم عن ابن أبى ذئب، عن المقبرى، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال لأُم القرآن: «هى أم القرآن، وهى السبع المثاني، وهى القرآن العظيم»^(١٠)، ثم رواه عن إسماعيل بن عمر عن ابن أبى ذئب به، وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى: حدثنى يونس بن عبد الأعلى، أنا ابن وهب، أخبرنى ابن أبى ذئب، عن سعيد المقبرى، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «هى أم القرآن، وهى فاتحة الكتاب، وهى السبع المثاني»^(١٢).

وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن موسى بن مردويه فى تفسيره: حدثنا أحمد بن محمد بن زياد، ثنا محمد بن غالب بن حارث، ثنا إسحاق بن عبد الواحد الموصلى، ثنا المعافى بن عمران، عن عبد الحميد بن جعفر، عن نوح بن أبى بلال، عن المقبرى، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله رب العالمين سبع آيات: بسم الله الرحمن الرحيم إحداهن، وهى السبع المثاني والقرآن العظيم، وهى أم الكتاب»^(١٣)،^(١٤).

(١) صحيح البخارى (١٥٥/٨) «فتح».

(٢) فى أ: «أنها». (٣) فى أ: «إليها».

(٤) فى أ: «فيقول». (٦) فى أ: «واستشهدوا».

(٧) فى أ، و: «لا».

(٨) تفسير الطبرى (١٠٧/١).

(٩) فى أ: «الله تعالى».

(١١) المسند (٤٤٨/٢).

(١٢) تفسير الطبرى (١٠٧/١).

(١٣) بعدها فى أ، ج: «وفاتحة الكتاب».

(١٤) ورواه الثعلبى فى تفسيره (١/ ١٨) من طريق محمد بن حسان عن المعافى بن عمران عن عبد الحميد به، ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٤٥/٢) من طريق نوح بن أبى بلال عن المقبرى به.

وقد رواه الدارقطني - أيضا - عن أبي هريرة مرفوعا بنحوه^(١) أو مثله، وقال: كلهم ثقات^(٢). ورواه البيهقي عن علي^(٣) وابن عباس^(٤) وأبي هريرة^(٥) أنهم فسروا قوله تعالى: ﴿سَبَّأً مِّنَ الْمُنَافِي﴾ [الحجر: ٨٧] بالفاتحة، وأن البسملة هي الآية السابعة منها، وسيأتي تمام هذا عند البسملة. وقد روى الأعمش عن إبراهيم قال: قيل لابن مسعود: لم لم تكتب الفاتحة في مصحفك؟ قال: لو كتبتها لكتبتها في أول كل سورة. قال أبو بكر بن أبي داود: يعني حيث يقرأ في الصلاة، قال: واكتفيت بحفظ المسلمين لها عن كتابتها.

وقد قيل: إن الفاتحة أول شيء نزل من القرآن، كما ورد في حديث رواه البيهقي في دلائل النبوة^(٦) ونقله الباقلاني أحد أقوال ثلاثة هذا [أحدها]^(٧) وقيل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾. كما في حديث جابر في الصحيح^(٨). وقيل: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] وهذا هو الصحيح، كما سيأتي تقريره في موضعه، والله^(٩) المستعان.

ذكر ما ورد في فضل الفاتحة

قال الإمام أحمد بن محمد بن حنبل، رحمه الله، في مسنده: حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة، حدثني خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد بن المَعْلَى، رضى الله عنه، قال: كنت أصلى فدعاني رسول الله ﷺ، فلم أجبه حتى صليت وأتيت، فقال: «ما منعك أن تأتيني؟». قال: قلت: يا رسول الله، إني كنت أصلى. قال: «ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]»، ثم قال: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد». قال: فأخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت: يا رسول الله، إنك قلت: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن». قال: «نعم، الحمد لله رب العالمين هي: السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته».

وهكذا رواه البخاري عن مسدد، وعلى بن المدني، كلاهما عن يحيى بن سعيد القطان، به^(١٠). ورواه في موضع آخر من التفسير، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه من طرق عن شعبة، به^(١١). ورواه الواقدي عن محمد بن معاذ الأنصاري، عن خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد بن المَعْلَى، عن أبي بن كعب، فذكر نحوه. وقد وقع في الموطأ للإمام مالك بن أنس، ما ينبغى التنبيه عليه، فإنه رواه مالك عن العلاء بن عبد

(١) في أ: «نحوه».

(٢) سنن الدارقطني (٣١٢/١) من طريق أبي بكر الحنفي عن عبد الحميد بن جعفر عن نوح بن مرفوعا، ثم قال أبو بكر الحنفي: «ثم لقيت نوحاً فحدثني عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة بمثله ولم يرفعه».

(٣) شعب الإيمان للبيهقي برقم (٢٣٥٣) من طريق الثوري عن السدي عن عبد خير عن علي بن أبي طالب.

(٤) شعب الإيمان برقم (٢٣٥٦) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٥) شعب الإيمان برقم (٢٣٥٤).

(٦) دلائل النبوة للبيهقي (١٥٨/٢)، وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (١٠/٣) بعد أن أورده من طريق البيهقي: «وهو مرسل، وفيه غرابة وهو كون الفاتحة أول ما نزل».

(٧) زيادة من جـ.

(٨) صحيح البخاري برقم (٤٩٢٣، ٤٩٢٦، ٤٩٥٤) وصحيح مسلم برقم (١٦١).

(٩) في أ، و: «وبالله».

(١٠) المسند (٤٥٠/٣) وصحيح البخاري برقم (٥٠٠٦) وبرقم (٤٤٧٤).

(١١) صحيح البخاري برقم (٤٦٤٧، ٤٧٠٣) وسنن أبي داود برقم (١٤٥٨) وسنن النسائي (١٣٩/٢) وسنن ابن ماجه برقم (٣٧٨٥).

الرحمن بن يعقوب الحرقي: أن أبا سعيد مولى عامر بن كريز أخبرهم، أن رسول الله ﷺ نادى أبا ابن كعب، وهو يصلى فى المسجد، فلما فرغ من صلاته لحقه، قال: فوضع النبى ﷺ يده على يدى، وهو يريد أن يخرج من باب المسجد، ثم قال: «إنى لأرجو ألا تخرج من باب المسجد حتى تعلم سورة ما أنزل^(١) فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الفرقان^(٢) مثلها». قال أبى: فجعلت أبطى فى المشى رجاء ذلك، ثم قلت: يا رسول الله، ما السورة التى وعدتنى؟ قال: «كيف تقرأ إذا افتتحت^(٣) الصلاة؟». قال: فقرأت عليه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حتى أتيت على^(٤) آخرها، فقال رسول الله ﷺ: «هى هذه السورة، وهى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أعطيت^(٥)».

فأبو سعيد هذا ليس بأبى سعيد بن المعلّى، كما اعتقده ابن الأثير فى جامع الأصول ومن تبعه^(٦)، فإن ابن المعلّى صحابى أنصارى، وهذا تابعى من موالى خزاعة، وذاك الحديث متصل صحيح، وهذا ظاهره أنه منقطع، إن لم يكن سمعه أبو سعيد هذا من أبى بن كعب، فإن كان قد سمعه منه فهو على شرط مسلم، والله أعلم. على أنه قد روى عن أبى بن كعب من غير وجه كما قال الإمام أحمد:

حدثنا عفان، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم، حدثنا العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبى هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ على أبى بن كعب، وهو يصلى، فقال: «يا أبى»، فالتفت ثم لم يجبه، ثم قال: أبى، فخفف. ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ، فقال: السلام عليك أى رسول الله. قال: «وعليك السلام»، [قال]^(٧): «ما منعك أى أبى إذ^(٨) دعوتك أن تجيبني؟». قال: أى رسول الله، كنت فى الصلاة، قال: «أو لست تجد فيما أوحى الله إلى^(٩)»: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. قال: بلى يا رسول الله، لا أعود؟ قال: «أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل لا فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى الفرقان^(١٠) مثلها؟» قلت: نعم، أى رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «إنى لأرجو ألا أخرج من هذا الباب حتى تعلمها». قال: فأخذ رسول الله ﷺ بيدي يحدثنى، وأنا أتبطأ^(١١)، مخافة أن يبلغ قبل أن يقضى الحديث، فلما دنونا من الباب قلت: أى رسول الله، ما السورة التى وعدتنى^(١٢)؟ قال: «ما تقرأ فى الصلاة؟». قال: فقرأت عليه أم القرآن، قال: «والذى نفسى بيده، ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور، ولا فى الفرقان مثلها؛ إنها السبع المثانى».

(٣) فى ج: «فتحت».

(٢) فى و: «القرآن».

(١) فى أ: «ما نزل».

(٤) فى ج: «إلى».

(٥) الموطأ (٨٣/١).

(٦) جامع الأصول (٤٦٦/٨).

(٧) زيادة من ج، والمسنند.

(٨) فى ج، ط: «أن».

(٩) فى هـ، أ: «أوحى إلى» والمثبت من ج، ط، و، والمسنند.

(١١) فى ج، ط: «أتباطأ».

(١٠) فى أ: «القرآن».

(١٢) فى ج: «وعدتنى بها».

ورواه الترمذى، عن قتيبة، عن الدَّرَّاءِ وَرَدِي، عن العلاء، عن ^(١) أبيه، عن أبي هريرة، فذكره ^(٢)، وعنده: إنها من السبع المثاني والقرآن العظيم الذى أعطيته، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح.

وفى الباب، عن أنس بن مالك، ورواه عبد الله بن [الإمام] ^(٣) أحمد، عن إسماعيل بن أبي مَعْمَر، عن أبي أسامة، عن عبد الحميد بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن أبي بن كعب، فذكره مطولاً بنحوه أو قريباً منه ^(٤).

وقد رواه الترمذى والنسائى جميعاً ^(٥)، عن أبي عمار حسين بن حريث، عن الفضل بن موسى، عن عبد الحميد بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل أم القرآن، وهى السبع المثاني، وهى مقسومة بينى وبين عبدى»، هذا لفظ النسائى. وقال الترمذى: حسن غريب.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا هاشم، يعنى ابن البريد ^(٦)، حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل، عن ابن جابر، قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقد أهرق الماء، فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فلم يرد علىّ، قال: فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فلم يرد علىّ، قال: فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فلم يرد علىّ، قال: فانطلق رسول الله ﷺ يمشى، وأنا خلفه حتى دخل رحله، ودخلت أنا المسجد، فجلست كثيراً حزناً، فخرج علىّ رسول الله ﷺ قد تطهر، فقال: «عليك ^(٧) السلام ورحمة الله، وعليك السلام ورحمة الله، وعليك السلام ورحمة الله»، ثم قال: «ألا أخبرك يا عبد الله بن جابر بأخير سورة فى القرآن؟». قلت: بلى، يا رسول الله. قال: «اقرأ: الحمد لله رب العالمين، حتى تختتمها» ^(٨).

هذا إسناد جيد، وابن عقيل تحتج ^(٩) به الأئمة الكبار، وعبد الله بن جابر هذا هو الصحابى، ذكر ابن الجوزى أنه هو العبدى، والله أعلم. ويقال: إنه عبد الله بن جابر الأنصارى البياضى، فيما ذكره الحافظ ابن عساكر ^(١٠).

واستدلوا بهذا الحديث وأمثاله على تفاضل بعض الآيات والسور على بعض، كما هو المحكى عن كثير من العلماء، منهم: إسحاق بن راهويه، وأبو بكر بن العربى، وابن الحصار من المالكية. وذهبت طائفة أخرى إلى أنه لا تفاضل فى ذلك؛ لأن الجميع كلام الله، ولثلاث يومهم التفضيل نقص

(١) بداية المخطوطة ب.

(٢) المسند (٤١٢/٢، ٤١٣) وسنن الترمذى برقم (٢٨٧٨).

(٣) زيادة من ج، ط، أ.

(٤) زوائد المسند (١١٤/٥).

(٥) سنن الترمذى برقم (٣١٢٤) وسنن النسائى (١٣٩/٢).

(٦) فى أ: «اليزيد».

(٧) المسند (١٧٧/٤).

(٨) فى ط: «يحتج».

(٩) وهو الذى رجحه الحافظ ابن حجر فى كتابه «تعجيل المنفعة» (ص ١٤٥).

المفضل عليه، وإن كان الجميع فاضلاً، نقله القُرطُبي عن الأشعرى، وأبى بكر الباقلاني، وأبى حاتم ابن حبان البستي، ويحيى بن يحيى، ورواية عن الإمام مالك [أيضاً] ^(١).

حديث آخر: قال البخارى فى فضائل القرآن: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا وهب، حدثنا هشام، عن محمد، عن معبد، عن أبى سعيد الخدرى، قال: كنا فى مسير لنا، فنزلنا، فجاءت جارية فقالت: إن سيد الحى سليم، وإن نَفَرْنَا غَيَّب، فهل منكم ^(٢) راق؟ فقام معها رجل ما كنا نأبئه برقية، فرقاه، فبرأ، فأمر له بثلاثين شاة، وسقانا لبناً، فلما رجع ^(٣) قلنا له: أكنت تحسن رقية، أو كنت ترقى؟ قال: لا، ما رقيت إلا بأم الكتاب. قلنا: لا تُحَدِّثُوا شيئاً حتى نأتى، أو نسأل رسول الله ﷺ، فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي ﷺ فقال: «وما كان يُدريه أنها رقية، أقسموا واضربوا لى بسهم».

وقال أبو معمر: حدثنا عبد الوارث، حدثنا هشام، حدثنا محمد بن سيرين، حدثنى معبد بن سيرين، عن أبى سعيد الخدرى بهذا.

وهكذا رواه مسلم، وأبو داود من رواية هشام، وهو ابن حسان، عن ابن سيرين، به ^(٥). وفى بعض روايات مسلم لهذا الحديث: أن أبا سعيد هو الذى رقى ذلك السليم، يعنى: اللديغ يسمونه بذلك تفاؤلاً.

حديث آخر: روى مسلم فى صحيحه، والنسائى فى سننه، من حديث أبى الأحوص سلام بن سليم، عن عمار بن رُزَيْق ^(٦)، عن عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبیر، إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبیر بصره إلى السماء، فقال: هذا باب قد فتح من السماء، ما فتح قط. قال: فنزل منه ملك، فأتى النبى ﷺ، فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، ولن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته. وهذا لفظ النسائى ^(٧).

ولمسلم نحوه حديث آخر: قال مسلم: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلى، هو ابن راهويه، حدثنا سفيان بن عيينة، عن العلاء، يعنى ابن عبد الرحمن بن يعقوب الحرقي ^(٨) عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، قال: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها أم ^(٩) القرآن فهى خِداج - ثلاثاً - غير تمام». [فَقِيلَ لَأَبَى هَرِيرَةَ: إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الْإِمَامِ، قَالَ: اقْرَأْ بِهَا فِى نَفْسِكَ؛ فَإِنِى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِى وَبَيْنَ عَبْدِى نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِى مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» [الفاتحة: ٢]، قَالَ اللَّهُ: حَمَدْنِى عَبْدِى، وَإِذَا قَالَ: «الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ»

(٣) فى ج: «رجعنا».

(٢) فى ج، ط: «معكم».

(١) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٤) فى ط: «النبى».

(٥) صحيح البخارى برقم (٥٠٠٧) وصحيح مسلم برقم (٢٢٠١).

(٦) فى أ، و: «رزيق».

(٧) صحيح مسلم برقم (٨٠٦) وسنن النسائى (١٣٨/٢).

(٩) فى ج، ط، ب: «بأم».

(٨) فى أ: «الحرمى».

[الفاتحة: ٣]، قال الله: أثنى على عبدى، فإذا قال: ﴿مَالِكُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، قال^(١): مجدنى عبدى - وقال مرة: «فوض إلى عبدى - فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، قال: هذا بينى وبين عبدى، ولعبدى ما سأل، فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، قال^(٢): هذا لعبدى ولعبدى ما سأل».

وهكذا رواه النسائى، عن إسحاق بن راهويه^(٣). وقد رواه - أيضاً - عن قتيبة، عن مالك، عن العلاء، عن أبى السائب مولى هشام بن زهرة، عن أبى هريرة، به^(٤)، وفى هذا السياق: «نصفها لى ونصفها لعبدى، ولعبدى ما سأل».

وكذا رواه ابن إسحاق، عن العلاء، وقد رواه مسلم من حديث ابن جريج، عن العلاء، عن أبى السائب هكذا^(٥).

ورواه - أيضاً - من حديث ابن أبى أويس، عن العلاء، عن أبيه وأبى السائب، كلاهما عن أبى هريرة^(٦).

وقال الترمذى: هذا حديث حسن، وسألت أبا زُرْعَةَ عنه فقال: كلا الحديثين صحيح، من قال: عن العلاء، عن أبيه، وعن العلاء عن أبى السائب^(٧).

وقد روى هذا الحديث عبد الله ابن الإمام أحمد، من حديث العلاء، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن أبى بن كعب مطولاً^(٨).

قال^(٩) ابن جرير: حدثنا صالح بن مسمار المروزى، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا عَنَسَةُ بن سعيد، عن مُطَرِّف بن طريف، عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عَجْرَةَ، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، وله ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال: حمدنى عبدى، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قال: أثنى على عبدى. ثم قال: هذا لى وله مابقى»^(١٠).

وهذا غريب من هذا الوجه.

(١) فى ج، ط: «قال الله».

(٢) فى ج، ط، ب: «آمين قال».

(٣) صحيح مسلم برقم (٣٩٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠١٣).

(٤) صحيح مسلم برقم (٣٩٥) وسنن النسائى (١٣٥/٢).

(٥) (٦، ٥) صحيح مسلم برقم (٣٩٥).

(٦) سنن الترمذى برقم (٢٩٥٣).

(٨) لم أقع عليه فى المطبوع من المسند، وذكره الحافظ ابن حجر فى أطراف المسند (١/ ٢٣٠).

(٩) فى ج، ط، ب: «وقال».

(١٠) تفسير الطبرى (١/ ٢٠١) ورواه ابن أبى حاتم فى تفسيره (١٧/ ١) من طريق زيد بن الحباب به، وفى إسناده انقطاع، سعد بن إسحاق لم يسمع من جابر، وقد حاول الشيخ أحمد شاكر إثبات اتصاله فى حاشيته على الطبرى ولكن لا يسلم له بما قال، والله أعلم.

ثم الكلام على ما يتعلق بهذا الحديث مما يختص بالفاتحة^(١) من وجوه:

أحدها: أنه قد أطلق فيه لفظ الصلاة، والمراد القراءة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]، أى: بقراءتك، كما جاء مصرحاً به فى الصحيح، عن ابن عباس^(٢)، وهكذا قال فى هذا الحديث: «قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، فنصفها لى ونصفها لعبدى، ولعبدى ما سأل»، ثم بين تفضيل هذه القسمة فى قراءة الفاتحة فدل على عظم^(٣) القراءة فى الصلاة، وأنها من أكبر أركانها، إذا أطلقت العبادة وأريد بها^(٤) جزء واحد منها وهو القراءة؛ كما أطلق لفظ القراءة والمراد به الصلاة فى قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، والمراد صلاة الفجر، كما جاء مصرحاً به فى الصحيحين: من أنه يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، فدل هذا كله على أنه لا بد من القراءة فى الصلاة، وهو اتفاق من العلماء.

ولكن اختلفوا فى مسألة نذكرها فى الوجه الثانى، وذلك أنه هل يتعين للقراءة فى الصلاة فاتحة الكتاب، أم تجزئ هى أو غيرها؟ على قولين مشهورين، فعند أبى حنيفة ومن وافقه من أصحابه وغيرهم أنها لا تتعين، بل مهما قرأ به من القرآن أجزاء فى الصلاة، واحتجوا بعموم قوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [الزمل: ٢٠]، وبما ثبت فى الصحيحين، من حديث أبى هريرة فى قصة المسىء صلاته^(٥): أن رسول الله ﷺ قال له: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن»^(٦) قالوا: فأمره بقراءة ما تيسر، ولم يعين له الفاتحة ولا غيرها، فدل على ما قلناه.

والقول الثانى: أنه تتعين قراءة الفاتحة فى الصلاة، ولا تجزئ الصلاة بدونها، وهو قول بقية الأئمة: مالك والشافعى وأحمد بن حنبل وأصحابهم وجمهور العلماء؛ واحتجوا على ذلك بهذا الحديث المذكور، حيث قال صلوات الله وسلامه عليه: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهى خِذَاجٌ» والخِذَاج هو: الناقص كما فسر به فى الحديث: «غير تمام». واحتجوا - أيضاً - بما ثبت فى الصحيحين من حديث الزهرى، عن محمد بن الربيع، عن عبادة بن الصامت، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»^(٧). وفى صحيح ابن خزيمة وابن حبان، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجزئ صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن»^(٨). والأحاديث فى هذا الباب كثيرة، ووجه المناظرة ههنا يطول ذكره، وقد أشرنا إلى مأخذهم فى ذلك، رحمهم الله.

ثم إن مذهب الشافعى وجماعة من أهل العلم: أنه تجب قراءتها فى كل ركعة. وقال آخرون: إنما تجب قراءتها فى معظم الركعات، وقال الحسن وأكثر البصريين: إنما تجب قراءتها فى ركعة واحدة من

(١) فى ج، ط، ب، أ، و: «مما يختص بحكم الفاتحة».

(٢) صحيح البخارى برقم (٧٤٩٠) وصحيح مسلم برقم (٤٤٦).

(٣) فى ج، ط، ب: «عظمة».

(٤) فى ج، ط، ب: «به».

(٥) فى ج، ط: «المسىء فى صلاته».

(٦) صحيح البخارى برقم (٧٩٣) وصحيح مسلم برقم (٣٩٧).

(٧) صحيح البخارى برقم (٧٥٦) وصحيح مسلم برقم (٣٩٤).

(٨) صحيح ابن خزيمة برقم (٤٩٠) وصحيح ابن حبان برقم (٤٥٧) «موارد».

الصلوات، أخذ بمطلق الحديث: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب». وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي: لا تتعين^(١) قراءتها، بل لو قرأ بغيرها أجزأه لقوله: ﴿فَأَقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠]، [كما تقدم]^(٢)، والله أعلم. وقد روى ابن ماجه من حديث أبي سفيان السعدي، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد مرفوعاً: «لا صلاة لمن لم يقرأ في كل ركعة بالحمد وسورة في فريضة أو غيرها»^(٣). وفي صحة هذا نظر، وموضح^(٤) تحرير هذا كله في كتاب الأحكام الكبير، والله أعلم.

الوجه الثالث: هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء:

أحدها: أنه تجب عليه قراءتها، كما تجب على إمامه؛ لعموم الأحاديث المتقدمة.

والثاني: لا تجب على المأموم قراءة بالكلية لا الفاتحة ولا غيرها، لا في الصلاة الجهرية ولا السرية، لما رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة» ولكن في إسناده ضعف^(٥). ورواه مالك، عن وهب بن كيّسان، عن جابر من كلامه^(٦). وقد روى هذا الحديث من طرق، ولا يصح شيء منها عن النبي ﷺ، والله أعلم.

والقول الثالث: أنه تجب القراءة على المأموم في السرية، لما^(٧) تقدم، ولا تجب^(٨) في الجهرية لما ثبت في صحيح مسلم، عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به؛ فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنتصتوا» وذكر بقية الحديث^(٩).

وكذا رواه أهل السنن؛ أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «وإذا قرأ فأنتصتوا»^(١٠). وقد صححه مسلم بن الحجاج أيضاً، فدل هذان الحديثان على صحة هذا القول وهو قول قديم للشافعي، رحمه الله، ورواية عن الإمام أحمد بن حنبل^(١١).

(١) في ج، ط: «لا يتعين». (٢) زيادة من ج، ط.

(٣) سنن ابن ماجه برقم (٨٣٩) وقال البوصيري في الزوائد (٢٩١/١): «هذا إسناده ضعيف، أبو سفيان السعدي واسمه طريف بن شهاب، وقيل: ابن سعد، قال ابن عبد البر: أجمعوا على ضعفه». وأبو سفيان قد توبع، تابعه قتادة، فرواه عن أبي نضرة عن أبي سعيد مرفوعاً بلفظ: «أمرنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر» أخرجه أبو داود في السنن برقم (٨١٨).

(٤) في ج، ط: «وموضع».

(٥) رواه أحمد في المسند (٣٣٩/٣) وقد أطنب الإمام الزيلعي في الكلام على طرق هذا الحديث في كتابه «نصب الراية» (١٤٦-٢/١٤) مما أغنى عن ذكره هنا.

(٦) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٦٠/٢) من طريق مالك، وقال: «هذا هو الصحيح عن جابر من قوله: غير مرفوع».

(٧) في ج: «كما». (٨) في ج، ط، ب: «ولا تجب ذلك».

(٩) صحيح مسلم برقم (٤١٤).

(١٠) سنن أبي داود برقم (٦٠٤) وسنن النسائي (١٤١/٢، ١٤٢) وسنن ابن ماجه برقم (٨٤٦) قال أبو داود: «وهذه الزيادة: «وإذا قرأ فأنتصتوا» ليست بمحفوظة، الوهم عندنا من أبي خالد». وقد صحح هذه الزيادة مسلم في صحيحه، وتعقبه الدارقطني في التتبع (ص ٢٣٩). وانظر جواب أبي مسعود الدمشقي في: حاشية التتبع، وللشيخ ناصر الألباني بحث حول هذه الزيادة في الأرواء (١٢١/٢) وهو حسن.

(١١) في ج: «أحمد».

والغرض من ذكر هذه المسائل ههنا بيان اختصاص سورة الفاتحة بأحكام لا تتعلق بغيرها من السور، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن سعيد^(١) الجوهري، حدثنا غسان بن عبيد، عن أبي عمران الجوني، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وضعت جنبك على الفراش، وقرأت فاتحة الكتاب و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فقد أمنت من كل شيء إلا الموت»^(٢).

الكلام على تفسير الاستعاذة^(٣)

قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ. وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ. وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ. وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦ - ٩٨] وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ. وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٦].

فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها، وهو أن الله يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه، ليرده عنه طبعه الطيب الأصل^(٤) إلى المادة^(٥) والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة؛ إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً ولا يتغنى غير هلاك ابن آدم، لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل؛ كما قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧] وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] وقال: ﴿أَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]، وقد أقسم للوالد آدم إنه لمن الناصحين، وكذب، فكيف معاملته لنا وقد قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٨، ٩٩] ؟

- قالت طائفة من القراء وغيرهم: نتعوذ بعد القراءة واعتمدوا على ظاهر سياق الآية، ولدفع الإعجاب بعد فراغ العبادة؛ ومن ذهب إلى ذلك حمزة فيما ذكره^(٧) ابن قلوفا عنه، وأبو حاتم السجستاني، حكى ذلك أبو القاسم يوسف بن علي بن جبارة الهذلي المغربي في كتابه «الكامل». وروى عن أبي هريرة - أيضا - وهو غريب.

(١) في ج: «سعد».

(٢) مسند البزار برقم (٣١٠٩) «كشف الأستار» وفيه غسان بن عبيد، قال ابن عدي: «الضعف على أحاديثه بين».

(٣) في ط، أ: «الكلام على تفسير أحكام الاستعاذة»، وفي ج: «الكلام على تفسيرها».

(٤) في ج: «الأصيل».

(٥) في ج، أ، ط: «الموالة».

(٦) في ج، ط: «وقال الله».

(٧) في ج، ط: «فيما نقله».

[ونقله فخر الدين محمد بن عمر الرازي^(١) في تفسيره عن ابن سيرين في رواية عنه قال: وهو قول إبراهيم النخعي وداود بن علي الأصبهاني الظاهري، وحكى القرطبي عن أبي بكر بن العربي عن المجموعة عن مالك، رحمه الله تعالى، أن القارئ يتعوذ بعد الفاتحة. واستغربه ابن العربي. وحكى قول ثالث وهو الاستعاذة أولاً وآخرها جمعاً بين الدليلين نقله فخر الدين^(٢)]^(٣).

والمشهور الذي عليه الجمهور أن الاستعاذة لدفع الوسواس فيها، إنما تكون قبل التلاوة، ومعنى الآية عندهم: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] أى: إذا أردت القراءة كقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٦] أى: إذا أردتم القيام.

والدليل على ذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ بذلك؛ قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: حدثنا محمد بن الحسن بن آتش^(٤)، حدثنا جعفر بن سليمان، عن علي بن علي الرفاعي الشكري، عن أبي المتوكل الناجي، عن أبي سعيد الخدري، قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبر قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك». ويقول: «لا إله إلا الله»^(٥) ثلاثاً، ثم يقول: «أعوذ بالله السميع العليم، من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه».

وقد رواه أهل السنن الأربعة من رواية جعفر بن سليمان، عن علي بن علي، وهو الرفاعي^(٦)، وقال الترمذي: هو أشهر حديث في هذا الباب.

وقد فسر. الهمز بالموتة وهى الخنق، والنَّفخ بالكبر، والنفث بالشعر. كما رواه أبو داود وابن ماجه من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة، عن عاصم العزّي، عن نافع ابن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: رأيت رسول الله ﷺ حين دخل فى الصلاة، قال: «الله أكبر كبيراً، ثلاثاً، الحمد لله كثيراً، ثلاثاً، سبحان الله بكرة وأصيلاً، ثلاثاً، اللهم إني أعوذ بك من الشيطان من همزه ونفخه ونفثه».

قال عمرو: وهمزه الموتة، ونفخه الكبير، ونفثه الشعر^(٧). وقال ابن ماجه: حدثنا علي بن المنذر، حدثنا ابن فضيل، حدثنا عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السلمى، عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم، وهمزه ونفخه ونفثه».

قال: همزه: الموتة، ونفثه: الشعر، ونفخه: الكبير^(٨).

(١) فى و: «الدينورى».

(٢) تفسير القرطبي (٨٨/١).

(٣) زيادة من ط، أ، و. (٤) فى جميع النسخ والمسنَد: «أنس» والصواب ما أثبتناه.

(٥) فى ج، ب، و: «ويقول: الله أكبر».

(٦) المسند (٥٠/٣) وسنن أبي داود برقم (٧٧٥) وسنن الترمذى برقم (٢٤٢) وسنن النسائى (١٣٢/٢) وسنن ابن ماجه برقم (٨٠٤).

(٧) سنن أبي داود برقم (٧٦٤) وسنن ابن ماجه برقم (٨٠٧) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٤٤٣) من طريق شعبة به.

(٨) سنن ابن ماجه برقم (٨٠٨) ورواه ابن خزيمة فى صحيحه برقم (٤٧٢) من طريق محمد بن فضيل به، وقال البوصيرى فى الزوائد

(٢٨٥/١): «هذا إسناد ضعيف، عطاء بن السائب اختلط بآخره، وسمع منه محمد بن الفضيل بعد الاختلاط».

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن يوسف، حدثنا شريك، عن يعلى بن عطاء، عن رجل حدثه: أنه سمع أبا أمامة الباهلي يقول: كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة كبر ثلاثاً، ثم قال: «لا إله إلا الله»، ثلاث مرات، «وسبحان الله وبحمده»، ثلاث مرات. ثم قال: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه»^(١).

وقال الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي في مسنده: حدثنا عبد الله بن عمر بن أبان الكوفي، حدثنا علي بن هاشم بن البريد، عن يزيد بن زياد، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبي بن كعب، قال: تلاحي رجلان عند النبي ﷺ، فتمزج أنف أحدهما غضباً، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم شيئاً لو قاله ذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

وكذا رواه النسائي في اليوم والليلة، عن يوسف بن عيسى المروزي، عن الفضل بن موسى، عن يزيد بن زياد بن أبي الجعد^(٢)، به^(٣).

وقد روى هذا الحديث أحمد بن حنبل، عن أبي سعيد، عن زائدة، وأبو داود عن يوسف بن موسى، عن جرير بن عبد الحميد، والترمذي، والنسائي في اليوم والليلة عن بُندَار، عن ابن مهدي، عن الثوري، والنسائي - أيضاً - من حديث زائدة بن قدامة، ثلاثهم عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن معاذ بن جبل، قال: استب رجلان عند النبي ﷺ، فغضب أحدهما غضباً شديداً حتى خيل إلى أن أحدهما يتمزج أنفه من شدة غضبه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب» قال: ما هي يا رسول الله؟ قال: «يقول: اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم». قال: فجعل معاذ يأمره، فأبى [ومحك]^(٤)، وجعل يزداد غضباً. وهذا لفظ أبي داود^(٥).

وقال الترمذي: مرسل، يعني أن عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يلق معاذ بن جبل، فإنه مات قبل سنة عشرين.

قلت: وقد يكون عبد الرحمن بن أبي ليلى سمعه من أبي بن كعب، كما تقدم وبلغه عن معاذ ابن جبل، فإن هذه القصة شهدا غير واحد من الصحابة، رضى الله عنهم.

قال البخاري: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن عدي بن ثابت، قال: قال سليمان بن صرد: استب رجلان عند النبي ﷺ، ونحن عنده جلوس، فأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد،

(١) المسند (٢٥٣/٥).

(٢) في أ: «الجعدية».

(٣) سنن النسائي الكبرى برقم (١٠٢٢٣).

(٤) زيادة من ج، ط، ب وأبي داود، وفي أ، و «ومحل».

(٥) المسند (٢٤٤/٥) وسنن أبي داود برقم (٤٧٨٠) وسنن الترمذي برقم (٣٤٥٢) وسنن النسائي الكبرى برقم (١٠٢٢١، ١٠٢٢٢).

لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول رسول الله ^(١) ﷺ؟ قال: إنى لست بمجنون ^(٢).

وقد رواه - أيضاً - مع مسلم، وأبى داود، والنسائي، من طرق متعددة، عن الأعمش، به ^(٣).
وقد جاء فى الاستعاذة أحاديث كثيرة يطول ذكرها ههنا، وموطنها كتاب الأذكار وفضائل الأعمال، والله أعلم. وقد روى أن جبريل، عليه السلام، أول ما نزل بالقرآن على رسول الله ﷺ أمره بالاستعاذة، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير:

حدثنا أبو كريب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمار، حدثنا أبو روق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس، قال: أول ما نزل جبريل على محمد ﷺ قال: يا محمد، استعذ. قال: «أستعذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم»، ثم قال: قل: بسم الله الرحمن الرحيم. ثم قال: «اقرأ باسم ربك الذي خلق». قال عبد الله: وهى أول سورة أنزلها الله على محمد ﷺ، بلسان جبريل ^(٤).

وهذا الأثر غريب، وإنما ذكرناه ليعرف، فإن فى إسناده ضعفاً وانقطاعاً، والله أعلم.

مسألة: وجمهور العلماء على أن الاستعاذة مستحبة ليست بمحتمة يَأْتُم تاركها، وحكى فخر الدين عن عطاء بن أبى رباح وجوبها فى الصلاة وخارجها كلما أراد القراءة قال: وقال ابن سيرين: إذا تعوذ مرة واحدة فى عمره فقد كفى فى إسقاط الوجوب، واحتج فخر الدين لعطاء بظاهر الآية: ﴿فَاسْتَعِذْ﴾، وهو أمر ظاهره الوجوب وبمواظبة النبى ﷺ عليها، ولأنها تدرأ شر الشيطان وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولأن الاستعاذة أحوط وهو أحد مسالك الوجوب. وقال بعضهم: كانت واجبة على النبى ﷺ دون أمته، وحكى عن مالك أنه لا يتعوذ فى المكتوبة ويتعوذ لقيام شهر رمضان فى أول ليلة منه.

مسألة: وقال الشافعى فى الإملاء: يجهر بالتعوذ، وإن أسر فلا يضر، وقال فى الأم بالتخفيف لأنه أسر ابن عمر وجهر أبو هريرة، واختلف قول الشافعى فيما عدا الركعة الأولى: هل يستحب التعوذ فيها؟ على قولين، ورجح عدم الاستحباب، والله أعلم. فإذا قال المستعذ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كفى ذلك عند الشافعى وأبى حنيفة وزاد ^(٥) بعضهم: أعوذ بالله السميع العليم، وقال آخرون: بل يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم، قاله الثورى والأوزاعى وحكى عن بعضهم أنه يقول: أستعذ بالله من الشيطان الرجيم لمطابقة أمر الآية ولحديث الضحاك عن ابن عباس المذكور والأحاديث الصحيحة، كما تقدم، أولى بالاتباع من هذا، والله أعلم.

مسألة: ثم الاستعاذة فى الصلاة إنما هى للتلاوة وهو قول أبى حنيفة ومحمد. وقال أبو يوسف:

(١) فى ج، ط: «النبى».

(٢) صحيح البخارى برقم (٦١١٥).

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٦١٠) وسنن أبى داود برقم (٤٧٨١) وسنن النسائى الكبيرى برقم (١٠٢٢٤، ١٠٢٢٥).

(٤) تفسير الطبرى (١/١١٣).

(٥) فى أ: «وقرأ».

بل للصلاة، فعلى هذا يتعوذ المأموم وإن كان لا يقرأ، ويتعوذ في العيد بعد الإحرام وقبل تكبيرات العيد، والجمهور بعدها قبل القراءة.

ومن لطائف الاستعاذة أنها طهارة للنفوس مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث، وتطيب له وتهيئ لتلاوة كلام الله وهي استعانة بالله واعتراف له بالقدرة وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه، ولا يقبل مصانعة، ولا يدارى بالإحسان، بخلاف العدو من نوع الإنسان كما دلت على ذلك آيات القرآن في ثلاث من المثاني، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥]، وقد نزلت الملائكة لمقاتلة العدو البشري يوم بدر، ومن قتله العدو البشري كان شهيداً، ومن قتله العدو الباطني كان طريداً، ومن غلبه العدو الظاهر كان مأجوراً، ومن قهره العدو الباطن كان مفتوناً أو موزوراً، ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان.

فصل: والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر، والعيادة تكون لدفع الشر، واللياذ يكون لطلب جلب الخير كما قال المتنبي:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظما أنت كاسره ولا يهيضون عظما أنت جابره^(١)

فصل

معنى الاستعاذة

ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أي: أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنياي، أو يصدني عن فعل ما أمرت به، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه؛ فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله؛ ولهذا أمر الله تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته^(٢) بإسداء الجميل إليه، ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل؛ لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه، وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة، قوله في الأعراف: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر، ثم قال: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وقال تعالى في سورة «قد أفلح المؤمنون»: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ. وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ. وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦ - ٩٨]، وقال تعالى في سورة «حم السجدة»: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا

(١) ذكر البيهقي الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٢٧٥/١١) وقال: «وقد بلغني عن شيخنا العلامة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية - رحمه الله - أنه كان ينكر على المتنبي هذه المبالغة في مخلوق ويقول: إنما يصلح هذا لجناب الله - سبحانه وتعالى - وأخبرني العلامة شمس الدين ابن القيم - رحمه الله - أنه سمع الشيخ تقي الدين المذكور يقول: ربما قلت هذين البيتين في السجود أدعو الله بما تضمناه من الذل والخضوع».

(٢) في ج: «بمداراته».

السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالنَّارِ هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ. وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [فصلت: ٣٤ - ٣٦].

والشيطان في لغة العرب مشتق من شَطَنَ إذا بعد، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقه عن كل خير، وقيل: مشتق من شاط لأنه مخلوق من نار، ومنهم من يقول: كلاهما صحيح في المعنى، ولكن الأول أصح، وعليه يدل كلام العرب؛ قال أمية بن أبي الصلت في ذكر ما أوتي سليمان، عليه^(١) السلام:

أَيُّمَا شَاطِنٍ عَصَاهُ عَكَاهُ ثُمَّ يُلْقَى فِي السَّجْنِ وَالْأَغْلَالِ^(٢)
فَقَالَ: أَيُّمَا شَاطِنٍ، وَلَمْ يَقُلْ: أَيُّمَا شَائِطٍ.

وقال النابغة الذبياني - وهو: زياد بن عمرو بن معاوية بن جابر بن ضباب بن يربوع بن مرة بن سعد بن ذبيان -:

نَأَتْ بِسَعَادٍ عَنْكَ نَوَى شَطُونُ فَبَأَنْتَ وَالْفَوَادُ بِهَا رَهَيْنَ^(٣)
يقول: بعدت بها طريق بعيدة.

[وقال سيبويه: العرب تقول: تشيطن فلان إذا فَعَلَ فَعَلَّ الشيطان ولو كان من شاط لقالوا: تشيط^(٤)].

والشيطان^(٥) مشتق من البعد على^(٦) الصحيح؛ ولهذا يسمون كل ما^(٧) تمرد من جنى وإنسى وحيوان شيطانا، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وفي مسند الإمام أحمد، عن أبي ذر، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر، تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن»، فقلت: أو للإنس شياطين؟ قال: «نعم»^(٨). وفي صحيح مسلم عن أبي ذر - أيضاً - قال: قال رسول الله ﷺ: «يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب الأسود». فقلت: يا رسول الله، ما بال الكلب الأسود من الأحمر والأصفر^(٩)؟ فقال: «الكلب الأسود شيطان»^(١٠).

وقال ابن وهب: أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، ركب برذونا، فجعل يتبختر به، فجعل لا يضربه فلا يزداد إلا تبخترا، فنزل عنه، وقال: ما حملتموني^(١١) إلا على شيطان، ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسى. إسناده^(١٢) صحيح^(١٣).

(١) في ج، ب: «عليه الصلاة والسلام».

(٢) البيت في تفسير الطبرى (١١٢/١) واللسان، مادة «عكا» ومادة «شطن».

(٣) البيت في تفسير الطبرى (١١٢/١).

(٤) زيادة من ج، ط. ب: «الشيطان».

(٥) في ج، ط، ب: «من».

(٦) في ج، ط: «وهو».

(٧) في ج، ط، ب، أ، و: «من الأصفر».

(٨) المسند (١٧٨/٥).

(٩) رواه الطبرى في تفسيره (١١١/١).

(١٠) في ب: «ما حملتمون».

(١١) في ب: «ما حملتمون».

(١٢) رواه الطبرى في تفسيره (١١١/١).

والرَّجِيم: فعيل بمعنى مفعول، أى: إنه مرجوم مطرود عن الخير كله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكُرَاقِبِ. وَحَفَظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ. لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ. إِلَّا مَنْ خَطَفَ الْخُطْفَةُ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦ - ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ. إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

[وقيل: رجيم بمعنى راجم؛ لأنه يرمم الناس بالوسواس والرباثة والأول أشهر]^(١).

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (١)

افتتح بها الصحابة كتاب الله، واتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النمل، ثم اختلفوا: هل هي آية مستقلة فى أول كل سورة، أو من أول كل سورة كتبت فى أولها، أو أنها بعض آية من أول كل سورة، أو أنها كذلك فى الفاتحة دون غيرها، أو أنها [إنما]^(٢) كتبت للفصل، لا أنها^(٣) آية؟ على أقوال للعلماء سلفاً وخلفاً، وذلك مبسوط فى غير هذا الموضع.

(وفى سنن أبى داود بإسناد صحيح، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.)

وأخرجه الحاكم أبو عبد الله النيسابورى فى مستدركه أيضاً^(٤)، وروى مرسلًا عن سعيد بن جبيرة. وفى صحيح ابن خزيمة، عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ قرأ البسملة فى أول الفاتحة فى الصلاة وعدّها آية، لكنه من رواية عمر بن هارون البلخى، وفيه ضعف، عن ابن جريج، عن ابن أبى مليكة، عنها^(٥).

وروى له الدارقطنى متابعا، عن أبى هريرة مرفوعاً^(٦). وروى مثله عن على وابن عباس وغيرهما^(٧).

ومن حكى عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة: ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وأبو هريرة، وعلى. ومن التابعين: عطاء، وطاوس، وسعيد بن جبيرة، ومكحول، والزهرى، وبه يقول عبد الله بن المبارك، والشافعى، وأحمد بن حنبل، فى رواية عنه، وإسحاق بن راهويه، وأبو عبيد القاسم بن سلام، رحمهم الله.

(٣) فى أ: «لأنها».

(٢) زيادة من ج، ط، ب.

(١) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٤) سنن أبى داود برقم (٧٨٨) والمستدرک (١٣١/١) من طريق سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس رضى الله عنه.

(٥) صحيح ابن خزيمة برقم (٤٩٣).

(٦) سنن الدارقطنى (٣٠٩/١، ٣١٠) من ثلاث طرق كلها معلولة.

(٧) سنن الدارقطنى (٣٠٢/١) عن على بن أبى طالب، وطرقه كلها ضعيفة، و(٣٠٣/١) عن ابن عباس من طريقين ضعيفين، وسيأتى كلام العلماء على الجهر بالبسملة وهذا مقرر عليه.

وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما : ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وقال الشافعي في قول، في بعض طرق مذهبه: هي آية من الفاتحة وليست من غيرها، وعنه أنها بعض آية من أول كل سورة، وهما غريان .

(وقال داود: هي آية مستقلة في أول كل سورة لا منها)، وهذه رواية عن الإمام أحمد بن حنبل. وحكاها أبو بكر الرازي، عن أبي الحسن الكرخي، وهما من أكابر أصحاب أبي حنيفة، رحمهم الله^(١). هذا ما يتعلق بكونها من الفاتحة أم لا .

(فأما ما يتعلق بالجهر بها، فمفترع على هذا؛ فمن رأى أنها ليست منها فلا يجهر بها، وكذا من قال: إنها آية من^(٢) أولها، وأما من قال بأنها من أوائل السور فاختلوا؛ فذهب الشافعي، رحمه الله، إلى أنه يجهر بها مع الفاتحة والسورة، وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين سلفاً وخلفاً^(٣)، فجهر بها من الصحابة أبو هريرة، وابن عمر، وابن عباس، ومعاوية، وحكاها ابن عبد البر، والبيهقي عن عمر وعلى، ونقله الخطيب عن الخلفاء الأربعة، وهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلى، وهو غريب. ومن التابعين عن سعيد بن جبيرة، وعكرمة، وأبي قلاب، والزهرى، وعلى بن الحسين، وابنه محمد، وسعيد بن المسيب، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، وسالم، ومحمد بن كعب القرظي، وأبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وأبي وائل، وابن سيرين، ومحمد بن المنكدر، وعلى بن عبد الله بن عباس، وابنه محمد، ونافع مولى ابن عمر، وزيد بن أسلم، وعمر بن عبد العزيز، والأزرق بن قيس، وحبيب بن أبي ثابت، وأبي الشعثاء، ومكحول، وعبد الله بن معقل بن مقرن. زاد البيهقي: وعبد الله بن صفوان، ومحمد بن الحنفية. زاد ابن عبد البر: وعمرو بن دينار.

والحجة في ذلك أنها بعض الفاتحة، فيجهر بها كسائر أبعاضها، وأيضاً فقد روى النسائي في سننه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما، والحاكم في مستدركه، عن أبي هريرة: أنه صلى فجهر في قراءته بالبسملة، وقال بعد أن فرغ: إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ. وصححه الدارقطني والخطيب والبيهقي وغيرهم^(٤) .

وروى أبو داود والترمذي، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يفتح الصلاة بيسم الله الرحمن الرحيم. ثم قال الترمذي: وليس إسناده بذلك^(٥).

وقد رواه الحاكم في مستدركه، عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ يجهر بيسم الله الرحمن الرحيم، ثم قال: صحيح^(٦). (وفي صحيح البخاري، عن أنس بن مالك أنه سئل عن قراءة

(١) ولشيخ الإسلام ابن تيمية تفصيل في هذه المسألة، فراجع في: الفتاوى (٢٢/٤٣٨ - ٤٤٣).
(٢) في ج، ط، ب: «في».
(٣) في ج، ط، ب، أ، و: «خلفاً وسلفاً».

(٤) سنن النسائي (٢/١٣٤) وصحيح ابن خزيمة برقم (٤٩٩) وصحيح ابن حبان برقم (٤٥٠) «موارد» والمستدرک (١/٢٣٢).

(٥) سنن الترمذي برقم (٢٤٥).

(٦) المستدرک (١/٢٠٨) وفي إسناده عبد الله بن عمرو بن حسان، كذبه الدارقطني، وقال على بن المديني: يضع الحديث؛ لذلك تعقب الذهبي الحاكم على تصحيحه فقال: «ابن حسان كذبه غير واحد، ومثل هذا لا يخفى على المصنف» - أي الحاكم.

رسول الله ﷺ فقال: كانت قراءته مداً، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، يمد بسم الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم^(١).

(وفي مسند الإمام أحمد، وسنن أبي داود، وصحيح ابن خزيمة، ومستدرک الحاكم، عن أم سلمة، قالت^(٢): كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. وقال الدارقطني: إسناده صحيح^(٣)).

وروى الشافعي، رحمه الله، والحاكم في مستدركه، عن أنس: أن معاوية صلى بالمدينة، فترك البسملة، فأنكر عليه من حضر من المهاجرين ذلك، فلما صلى المرة الثانية بسم^(٤).

وفي هذه الأحاديث، والآثار التي أوردناها كفاية ومقنع في الاحتجاج لهذا القول عما عداها، فأما المعارضات والروايات الغريبة، وتطبيقاتها، وتعليلها وتضعيفها، وتقريرها، فله موضع آخر.

وذهب آخرون إلى أنه لا يجهر بالبسملة في الصلاة، وهذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعة وعبدالله ابن مغفل، وطوائف من سلف التابعين والخلف، وهو مذهب أبي حنيفة، والثوري، وأحمد بن حنبل.

وعند الإمام مالك: أنه لا يقرأ البسملة بالكلية، لا جهراً ولا سراً، واحتجوا بما في صحيح مسلم، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ يفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله رب العالمين^(٥). وبما في الصحيحين، عن أنس بن مالك، قال: صليت خلف النبي ﷺ، وأبى بكر وعمر وعثمان، فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين. ولمسلم: لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا في آخرها^(٦). ونحوه في السنن عن عبد الله بن مغفل، رضى الله عنه^(٧).

فهذه مأخذ الأئمة، رحمهم الله، في هذه المسألة وهي قريية؛ لأنهم أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسر، والله الحمد والمنة^(٨).

فصل

في فضلها

قال الإمام العالم الخبير العابد أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم، رحمه الله، في تفسيره:

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠٤٦).

(٢) فى ج، ط، ب: «أنها قالت».

(٣) المسند (٣٠٢/٦) وسنن أبي داود برقم (١٤٦٦) والمستدرک (١٣١/٢).

(٤) المستدرک (٢٣٣/١).

(٥) صحيح مسلم برقم (٤٩٨).

(٦) صحيح البخارى برقم (٧٤٣) وصحيح مسلم برقم (٣٩٩).

(٧) سنن الترمذى برقم (٢٤٤) وسنن النسائى (١٣٥/٢) وسنن ابن ماجه برقم (١٨٥).

(٨) لشيخ الإسلام ابن تيمية كلام متين فى هذه المسألة راجعه فى: الفتاوى (٤١٠/٢٢ - ٤٣٧)، وانظر الكلام على أحاديث الباب موسعاً فى: نصب الراية للزيلعى (٣٢٣/١ - ٣٦٢).

حدثنا أبي، حدثنا جعفر بن مسافر، حدثنا زيد بن المبارك الصنعاني، حدثنا سلام بن وهب الجندى، حدثنا أبي، عن طاوس، عن ابن عباس؛ أن عثمان بن عفان سأل رسول الله ﷺ عن بسم الله الرحمن الرحيم. فقال: «هو اسم من أسماء الله، وما بينه وبين اسم الله الأكبر، إلا كما بين سواد العينين وبياضهما»^(١) من القرب.

وهكذا رواه أبو بكر بن مردويه، عن سليمان بن أحمد، عن علي بن المبارك، عن زيد بن المبارك، به^(٢).

وقد روى الحافظ ابن مردويه من طريقين، عن إسماعيل بن عياش، عن إسماعيل بن يحيى، عن مسعر، عن عطية، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن عيسى ابن مريم أسلمته أمه إلى الكتاب ليعلمه، فقال المعلم: اكتب، قال^(٣): ما أكتب؟ قال: بسم الله، قال له عيسى: وما باسم الله؟ قال المعلم: ما أدري^(٤). قال له عيسى: الباء بهاء الله، والسين سنؤه، والميم مملكته، والله إله الآلهة، والرحمن رحمن الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة».

وقد رواه ابن جرير من حديث إبراهيم بن العلاء، الملقب: زبريق، عن إسماعيل بن عياش، عن إسماعيل بن يحيى، عن ابن أبي مليكة، عن حدثه، عن ابن مسعود، ومسعر، عن عطية، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ، فذكره^(٥). وهذا غريب جداً، وقد يكون صحيحاً إلى من دون رسول الله ﷺ، ويكون من الإسرائيليات لا من المرفوعات، والله أعلم.

وقد روى جوير^(٦)، عن الضحّاك، نحوه من قبله.

وقد روى ابن مردويه، من حديث يزيد بن خالد، عن سليمان بن بريدة، وفي رواية عن عبد الكريم أبي^(٧) أمية، عن ابن بريدة، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أنزلت على آية لم تنزل على نبي غير سليمان بن داود وغيري، وهى بسم الله الرحمن الرحيم»^(٨).

وروى بإسناده عن عبد الكبير^(٩) بن المعافى بن عمران، عن أبيه، عن عمر بن ذر، عن عطاء ابن أبي رباح، عن جابر بن عبد الله، قال: لما نزل ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ هرب الغيم إلى المشرق، وسكنت الرياح، وهاج البحر، وأصغت البهائم بأذانها، ورُجِمَت الشياطين من السماء،

(١) فى جـ: «سواد العين وبياضها».

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (١٢/١) ورواه الخطيب فى تاريخه (٣١٣/٧)، والحاكم فى المستدرک (٥٥٢/١) من طريق زيد بن المبارك به. وقال الذهبى فى ترجمة سلام بن وهب فى الميزان (١٨٢/٢): «أتى بخبر منكر، بل كذب ثم ساق هذا الخبر».

(٣) فى جـ: «فقال». (٤) فى جـ: «لا أدري».

(٥) تفسير الطبرى (١٢١/١) ورواه ابن عدى فى الكامل (٣٠٣/١) بمثل طريق الطبرى وقال: «هذا حديث باطل الإسناد لا يرويه غير إسماعيل». أ. هـ. وانظر: حاشية الشيخ أحمد شاكر على تفسير الطبرى.

(٨) فى جـ: «النبي».

(٧) فى جـ: «بن».

(٦) فى جـ: «جبر».

(٩) ورواه ابن أبي حاتم فى تفسيره من طريق عبد الكريم بن أبي أمية، عن ابن بريدة، عن أبيه به مرفوعاً، ورواه الدارقطنى فى السنن (٣١٠/١) من طريق عبد الكريم بن أبي أمية به، قال الحافظ ابن كثير: «هذا حديث غريب، وإسناده ضعيف» وسيأتى عند تفسير الآية: ٣٠ من سورة النمل.

(١٠) فى هـ: «عبد الكريم»، والتصويب من جـ، ط، ب، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم.

وحلف الله تعالى بعزته وجلاله^(١) ألا يسمى اسمه على شيء إلا بارك فيه^(٢).

[وقال وكيع عن الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود قال: من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، ليجعل الله له من كل حرف منها جنة من كل واحد، ذكره ابن عطية والقرطبي^(٣) ووجهه ابن عطية ونظره بحديث: «فقد رأيت بضعة وثلاثين ملكا يتندرونها»^(٤) لقول الرجل: ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، من أجل أنها بضعة وثلاثون حرفا وغير ذلك]^(٥).

وقال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عاصم، قال: سمعت أبا تيممة يحدث، عن رديف النبي ﷺ قال: عثر بالنبي ﷺ، فقلت: تعس الشيطان. فقال النبي ﷺ: «لا تقل تعس الشيطان. فإنك إذا قلت: تعس الشيطان تعاضم، وقال: بقوتى صرعت، وإذا قلت: باسم الله، تصاغر حتى يصير مثل الذباب».

هكذا وقع في رواية الإمام أحمد^(٦)، وقد روى^(٧) النسائي في اليوم والليلة، وابن مردويه في تفسيره، من حديث خالد الحذاء، عن أبي تيممة وهو الهجيمي، عن أبي المليح بن أسامة بن عمير، عن أبيه، قال: كنت رديف النبي ﷺ، فذكره، وقال: «لا تقل هكذا، فإنه يتعاضم حتى يكون كالبيت، ولكن قل: بسم الله، فإنه يصغر حتى يكون كالذباب»^(٨).

فهذا من تأثير بركة باسم الله؛ ولهذا تستحب في أول كل عمل وقول. فتستحب في أول الخطبة لما جاء: «كل أمر^(٩) لا يبدأ فيه بيسم الله الرحمن الرحيم، فهو أجزم»^(١٠)، [وتستحب البسمة عند دخول الخلاء ولما ورد من الحديث في ذلك]^(١١) [١٢]، وتستحب في أول الوضوء لما جاء في مسند الإمام أحمد والسنن، من رواية أبي هريرة، وسعيد بن زيد، وأبي سعيد مرفوعاً: «لا وضوء لمن لم

(١) في ج: «وبجلاله».

(٢) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٢٦/١) للثعلبي في تفسيره.

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية (٥٤/١).

(٤) الحديث رواه البخاري في صحيحه برقم (٧٩٩) من حديث رفاعه بن رافع رضى الله عنه.

(٥) زيادة من ط، ب، أ، و.

(٦) المسند (٥٩/٥).

(٧) في ج، ط، ب: «رواه».

(٨) سنن النسائي الكبرى برقم (١٠٣٨٩) ورواه من طريق ابن المبارك عن خالد الحذاء، عن أبي تيممة، عن أبي المليح، عن ردف رسول الله ﷺ، وقال النسائي: «وهو الصواب».

(٩) في و: «خطبة».

(١٠) رواه بهذا اللفظ الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع» (١٢٨/٢) من طريق مبشر بن إسماعيل، عن الأوزاعي، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، وللشيخ أحمد الغمارى رسالة سماها: «الاستعاذة والحسبة من صحيح حديث البسمة» بين فيها ضعف هذا الحديث، بعد أن جمع طرقه، وهى رسالة قيمة فلتراجع.

(١١) جاء من حديث على، وأنس، رضى الله عنهما، أما حديث على، فقد رواه الترمذى في السنن برقم (٦٠٦) من طريق خلاد الصفار عن الحكم، عن أبي إسحاق، عن أبي جحيفة، عن على، رضى الله عنه، مرفوعاً بلفظ: «ستر ما بين أعين الجن وعورات بني آدم إذا دخل أحدهم الخلاء أن يقول: بسم الله». وأما حديث أنس، فيرويه العمري عن عبد العزيز بن المختار بن صهيب عن أنس مرفوعاً بلفظ: «إذا دخلتم الخلاء فقولوا: بسم الله، أعوذ بالله من الخبث والخبائث» والحديث في الصحيحين من دون هذه الزيادة.

(١٢) زيادة من ج، ط، أ، و.

يذكر اسم الله عليه^(١)، وهو حديث حسن. ومن العلماء من أوجبها عند الذكر ههنا، ومنهم من قال بوجوبها مطلقاً، وكذا تستحب عند الذبيحة في مذهب الشافعي وجماعة، وأوجبها آخرون عند الذكر، ومطلقاً في قول بعضهم، كما سيأتى بيانه في موضعه إن شاء الله، وقد ذكر الرازى في تفسيره في فضل البسملة أحاديث منها: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أتيت أهلَكَ فسم الله؛ فإنه إن وجد لك ولد كتب لك بعدد أنفاسه وأنفاس ذريته حسنات». وهذا لا أصل له، ولا رأيه في شيء من الكتب المعتمد عليها ولا غيرها.

وهكذا تستحب عند الأكل لما في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لربيبة عمر بن أبي سلمة: «قل: باسم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك»^(٢). ومن العلماء من أوجبها والحالة هذه، وكذلك تستحب عند الجماع لما في الصحيحين، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: باسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً»^(٣).

ومن ههنا ينكشف لك أن القولين عند النحاة في تقدير المتعلق بالباء في قولك: باسم الله، هل هو اسم أو فعل متقاربان وكل قد ورد به القرآن؛ أما من قدره باسم، تقديره: باسم الله ابتدائي، فلقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: ٤١]، ومن قدره بالفعل [أمرأ وخبرأ نحو: ابدأ بيسم الله أو ابتدأت بيسم الله]^(٤)، فلقوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وكلاهما صحيح، فإن الفعل لا بُدَّ له من مصدر، فلك أن تقدر الفعل ومصدره، وذلك بحسب الفعل الذى سميت قبله، إن كان قياماً أو قعوداً أو أكلاً أو شرباً أو قراءة أو وضوءاً أو صلاة، فالمشروع ذكر [اسم]^(٥) الله فى الشروع فى ذلك كله، تبركاً وتيمناً واستعانة على الإتمام والتقبل، والله أعلم؛ ولهذا روى ابن جرير وابن أبى حاتم، من حديث بشر بن عمار، عن أبى روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: إن أول ما نزل به جبريل على محمد^(٦) ﷺ قال: يا محمد قل: أستعِذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قال: قل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. قال: قال له جبريل: قل: باسم الله يا محمد، يقول: اقرأ بذكر الله ربك، وقم، واقعد بذكر الله. [هذا]^(٧) لفظ ابن جرير^(٨).

وأما مسألة الاسم: هل هو المسمى أو غيره؟ ففيها للناس ثلاثة أقوال:

[أحدها: أن الاسم هو المسمى، وهو قول أبى عبيدة وسيبويه، واختاره الباقلانى وابن فورك، وقال فخر الدين الرازى - وهو محمد بن عمر المعروف بابن خطيب الرى - فى مقدمات تفسيره:

(١) أما حديث أبى هريرة، فرواه أحمد فى المسند (٤١٨/٢) وأبو داود فى السنن برقم (١٠١) وابن ماجه فى السنن برقم (٣٩٩)، وأما حديث سعيد بن زيد، فرواه الترمذى فى السنن برقم (٢٥)، وأما حديث أبى سعيد، فرواه أحمد فى المسند (٤١/٣) وابن ماجه فى السنن برقم (٣٩٧).

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٠٢٢) وهو فى صحيح البخارى برقم (٥٣٧٦).

(٣) صحيح البخارى برقم (١٤١) وصحيح مسلم برقم (١٤٣٤). (٤) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٥) زيادة من ج، ط، ب. (٦) فى ج: «على رسوله».

(٧) زيادة من ج. (٨) تفسير الطبرى (١١٧/١) وفى إسناده ضعفاً وانقطاعاً تقدم بيانه.

قالت الحشوية والكرامية والأشعرية: الاسم نفس المسمى وغير التسمية، وقالت المعتزلة: الاسم غير المسمى ونفس التسمية، والمختار عندنا: أن الاسم غير المسمى وغير التسمية، ثم نقول: إن كان المراد بالاسم هذا اللفظ الذي هو أصوات مقطعة وحروف مؤلفة، فالعلم الضروري حاصل أنه غير المسمى وإن كان المراد بالاسم ذات المسمى، فهذا يكون من باب إيضاح الواضحات وهو عبث، فثبت أن الخوض في هذا البحث على جميع التقديرات يعجز مجرى العبث.

ثم شرع يستدل على مغايرة الاسم للمسمى، بأنه قد يكون الاسم موجوداً والمسمى مفقوداً كلفظة المعلوم وبأنه قد يكون للشيء أسماء متعددة كالمترادفة وقد يكون الاسم واحداً والمسميات متعددة كالمشترك، وذلك دال على تغاير الاسم والمسمى، وأيضاً فالاسم لفظ وهو عرض والمسمى قد يكون ذاتاً ممكنة أو واجبة بذاتها، وأيضاً فلفظ النار والثلج لو كان هو المسمى لوجد اللفظ بذلك حر النار أو برد الثلج ونحو ذلك، ولا يقوله عاقل، وأيضاً فقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال النبي ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً»^(١)، فهذه أسماء كثيرة والمسمى واحد وهو الله تعالى، وأيضاً فقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أضافها إليه، كما قال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤، ٩٦]، ونحو ذلك. والإضافة تقتضي المغايرة وقوله: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أى: فادعوا الله بأسمائه، وذلك دليل على أنها غيره، واحتج من قال: الاسم هو المسمى، بقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٧٨] والمتبارك هو الله. والجواب: أن الاسم معظم لتعظيم الذات المقدسة، وأيضاً فإذا قال الرجل: زينب طالق، يعنى امرأته طالق، طلقت، ولو كان الاسم غير المسمى لما وقع الطلاق. والجواب: أن المراد أن الذات المسماة بهذا الاسم طالق. قال الرازي: وأما التسمية فإنها جعل الاسم معيناً لهذه الذات فهي غير الاسم أيضاً، والله أعلم^(٢).

﴿اللَّهُ﴾: عَلَّمَ على الرب تبارك وتعالى، يقال: إنه الاسم الأعظم؛ لأنه يوصف بجميع الصفات، كما قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ. هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٤]، فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وفي الصحيحين، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة»^(٣)، وجاء تعداها في رواية الترمذى، [وابن

(١) سيأتي تخريجه في التخريج التالي.

(٢) زيادة من ط، أ، و.

(٣) صحيح البخارى برقم (٧٣٩٢) وصحيح مسلم برقم (٢٦٧٧).

ماجه^(١)، وبين^(٢) الروايتين اختلاف زيادات ونقصان، وقد ذكر فخر الدين الرازى فى تفسيره عن بعضهم أن لله خمسة آلاف اسم: ألف فى الكتاب والسنة الصحيحة، وألف فى التوراة، وألف فى الإنجيل، وألف فى الزبور، وألف فى اللوح المحفوظ^(٣).

وهو اسم لم يسم به غيره تبارك وتعالى؛ ولهذا لا يعرف فى كلام العرب له اشتقاق من فعل ويفعل، فذهب من ذهب من النحاة إلى أنه اسم جامد لا اشتقاق له. وقد نقل القرطبى عن جماعة من العلماء منهم الشافعى والخطابى وإمام الحرمين والغزالى وغيرهم، وروى عن الخليل وسيبويه أن الألف واللام فيه لازمة. قال الخطابى: ألا ترى أنك تقول: يا الله، ولا تقول: يا الرحمن، فلولا أنه من أصل الكلمة لما جاز إدخال حرف النداء على الألف واللام^(٤). وقيل: إنه مشتق، واستدلوا عليه بقول رُبَّة بن العجاج:

لله در الغانيات المدة سبحن واسترجعن من تألهي^(٥)

فقد صرح الشاعر بلفظ المصدر، وهو التأله، من أله يألوه وإلهة وتألها، كما روى أن ابن عباس قرأ: «ويذكرك وإلا هتك» قال: عبادتك، أى: أنه كان يُعبد ولا يُعبد، وكذا قال مجاهد وغيره.

وقد استدل بعضهم على كونه مشتقاً بقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] أى المعبود فى السموات والأرض، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، ونقل سيبويه عن الخليل: أن أصله: إلاه، مثل فعال، فأدخلت الألف واللام بدلاً من الهمزة. قال سيبويه: مثل الناس، أصله: أناس، وقيل: أصل الكلمة: لاه، فدخلت الألف واللام للتعظيم وهذا اختيار سيبويه. قال الشاعر:

لاه ابن عمك لا أفضلت فى حسب عنى ولا أنت ديانى فتخزونى^(٦)

قال القرطبى: بالخاء المعجمة، أى: فتسوسنى، وقال الكسائى والفراء: أصله: الاله حذفوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى فى الثانية، كما قال: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ [الكهف: ٣٨] أى: لكن أنا، وقد قرأها كذلك الحسن، قال القرطبى: ثم قيل: هو مشتق من وله: إذا تحير، والوله ذهاب العقل؛ يقال: رجل واله، وامرأة ولهى، وماء موله: إذا أرسل فى الصحارى، فالله تعالى تحير أولو الأبواب والفكر فى حقائق صفاته، فعلى هذا يكون أصله: ولاه، فأبدلت الواو همزة، كما قالوا فى وشاح: أشاح، ووسادة: أسادة، وقال فخر الدين الرازى: وقيل: إنه مشتق من ألّهت إلى فلان، أى: سكنت إليه، فالحقول لا تسكن إلا إلى ذكره، والأرواح لا تفرح إلا بمعرفته؛ لأنه الكامل على الإطلاق دون

(١) سنن الترمذى برقم (٣٥٠٢) وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٦١) ورواية الترمذى متكلم فيها.

(٢) فى و: «وفى». (٣) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٤) تفسير القرطبى (١/١٠٣).

(٥) البيت فى اللسان، مادة «مده» وفى تفسير الطبرى (١/١٢٣).

(٦) البيت لذى الإصبع العدوانى، وهو من شواهد ابن عقيل برقم (٢٠٨) على شرح الألفية، ولسان العرب، مادة «لاه».

غيره قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] قال: وقيل: من لاه يلوه: إذا احتجب. وقيل: اشتقاقه من أله الفصيل: إذ ولع بأمه، والمعنى: أن العباد مألوهون مولعون بالتضرع إليه في كل الأحوال، قال: وقيل: مشتق من أله الرجل يأله: إذا فزع من أمر نزل به فألّاه، أى: أجاره، فالمجير لجميع الخلائق من كل المضار هو الله سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، وهو المنعم لقوله: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وهو المطعم لقوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، وهو الموجد لقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

وقد اختار فخر الدين أنه اسم علم مشتق البتة، قال: وهو قول الخليل وسيبويه وأكثر الأصوليين والفقهاء، ثم أخذ يستدل على ذلك بوجوه:

منها: أنه لو كان مشتقاً لاشتراك في معناه كثيرون، ومنها: أن بقية الأسماء تذكر صفات له، فتقول: الله الرحمن الرحيم الملك القدوس، فدل أنه ليس بمشتق، قال: فأما قوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ. اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ١، ٢]، على قراءة الجر فجعل ذلك من باب عطف البيان، ومنها قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وفي الاستدلال بهذه على كون هذا الاسم جامداً غير مشتق نظر، والله أعلم.

وحكى فخر الدين عن بعضهم أنه ذهب إلى أن اسم الله تعالى عبرانى لا عربى، ثم ضعفه، وهو حقيق بالتضعيف كما قال، وقد حكى فخر الدين هذا القول ثم قال: واعلم أن الخلق قسمان: واصلون إلى ساحل بحر المعرفة، ومحرومون قد بقوا في ظلمات الحيرة وتيه الجهالة؛ فكأنهم قد فقدوا عقولهم وأرواحهم؛ وأما الواجدون فقد وصلوا إلى عرصة النور وفسحة الكبرياء والجلال، فتأهوا في ميادين الصمدية، وبادوا في عرصة الفردانية، فثبت أن الخلق كلهم والهون في معرفته، وروى عن الخليل بن أحمد أنه قال: لأن الخلق يألّهون إليه بنصب اللام وجرها لغتان، وقيل: إنه مشتق من الارتفاع، فكانت العرب تقول لكل شيء مرتفع: لاهاً، وكانوا يقولون إذا طلعت الشمس: لاهت.

وأصل ذلك الإله، فحذفت الهمزة التي هي فاء الكلمة، فالتقت اللام التي هي عينها مع اللام الزائدة في أولها للتعريف فأدغمت إحداهما في الأخرى، فصارتا في اللفظ لاماً واحدة مشددة، وفخمت تعظيماً، فقيل: الله.

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾: اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم، وفي كلام ابن جرير ما يفهم حكاية الاتفاق على هذا، وفي تفسير بعض السلف ما يدل على ذلك، كما تقدم في الأثر، عن عيسى، عليه السلام، أنه قال: والرحمن رحمن الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة.

وقد زعم بعضهم أنه غير مشتق إذ لو كان كذلك لاتصل بذكر المرحوم وقد قال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وحكى ابن الأنبارى فى الزاهر عن المبرد: أن الرحمن اسم عبرانى ليس بعربى، وقال أبو إسحاق الزجاج فى معانى القرآن: وقال أحمد بن يحيى: الرحيم عربى، والرحمن عبرانى، فلهذا جمع بينهما. قال أبو إسحاق: وهذا القول مرغوب عنه ^(١). وقال القرطبى: والدليل على أنه مشتق ما أخرجه الترمذى وصححه عن عبد الرحمن بن عوف، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمى، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته» ^(٢). قال: وهذا نص فى الاشتقاق فلا معنى للمخالفة والشقاق.

قال: وإنكار العرب لاسم الرحمن لجهلهم بالله وبما وجب له، قال القرطبى: هما بمعنى واحد كندمان ونديم قاله أبو عبيد، وقيل: ليس بناء فعلان كفعيل، فإن فعلان لا يقع إلا على مبالغة الفعل نحو قولك: رجل غضبان، وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول، قال أبو على الفارسى: الرحمن: اسم عام فى جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى، والرحيم إنما هو فى جهة المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وقال ابن عباس: هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر، أى أكثر رحمة، ثم حكى عن الخطابى وغيره: أنهم استشكلوا هذه الصفة، وقالوا: لعله أرفق كما جاء فى الحديث: «إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله وإنه يعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف» ^(٣). وقال ابن المبارك: الرحمن إذا سئل أعطى، والرحيم إذا لم يسأل يغضب، وهذا كما جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى صالح الفارسى الخوزى عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه» ^(٤)، وقال بعض الشعراء:

لاتطلبن بنى آدم حاجة وسل الذى أبوابه لا تغلق ^(٥)

الله يغضب أن تركت سؤاله وبنى آدم حين يسأل يغضب

(١) فى أ: «فيه».

(٢) سنن الترمذى برقم (١٩٠٧) من طريق سفيان عن الزهرى، عن أبى سلمة، عن عبد الرحمن بن عوف، رضى الله عنه، وقال الترمذى: «حديث سفيان عن الزهرى حديث ضعيف».

(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٥٩٣) من حديث عائشة، رضى الله عنها، ورواه أبو داود فى السنن برقم (٤٨٠٧) من حديث عبد الله بن مغفل، رضى الله عنه.

(٤) سنن الترمذى برقم (٣٣٧٣) وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٢٧). وقال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٩٥/١١): «وهذا الخوزى - أى أبو صالح - مختلف فيه، ضعفه ابن معين، وقواه ابن معين، وظن الحافظ ابن كثير أنه أبو صالح السمان فجزم بأن أحمد تفرد بتخريجه، وليس كما قال، فقد جزم شيخه المزى فى الأطراف بما قلته». قلت: قد رأيت أن الحافظ هنا بين أنه الخوزى الفارسى، فآظن أن ما وقع منه إنما هو وهم.

(٥) ذكره القرطبى فى التفسير (١٠٦/١) غير منسوب.

قال^(١) ابن جرير: حدثنا السري بن يحيى التميمي، حدثنا عثمان بن زُفر، سمعت العززمي يقول: الرحمن الرحيم، قال: الرحمن لجميع الخلق، الرحيم، قال: بالمؤمنين. قالوا: ولهذا قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٥٩] وقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته، وقال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] فخصهم باسمه الرحيم، قالوا: فدل على أن الرحمن أشد مبالغة في الرحمة لعمومها في الدارين لجميع خلقه، والرحيم خاصة بالمؤمنين، لكن جاء في الدعاء المأثور: رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما.

واسمه تعالى الرحمن خاص به لم يُسم به غيره كما قال تعالى: ﴿قُلْ اذْعُوا اللَّهَ أَوْ اذْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾. ولما تجهرم مسيلمة الكذاب وتسمى برحمن اليمامة كساه الله جلاباب الكذب وشهر به؛ فلا يقال إلا مسيلمة الكذاب، فصار يُضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضرة من أهل المدر، وأهل الوبر من أهل البادية والأعراب.

وقد زعم بعضهم أن الرحيم أشد مبالغة من الرحمن؛ لأنه أكد به، والتأكيد^(٢) لا يكون إلا أقوى من المؤكد، والجواب أن هذا ليس من باب التوكيد^(٣)، وإنما هو من باب النعت [بعد النعت]^(٤)، ولا يلزم فيه ما ذكره، وعلى هذا فيكون تقديم اسم الله الذي لم يسم به أحد غيره، ووصفه أولاً بالرحمن الذي منع من التسمية به لغيره، كما قال تعالى: ﴿قُلْ اذْعُوا اللَّهَ أَوْ اذْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]. وإنما تجهرم مسيلمة اليمامة في التسمية به ولم يتابعه على ذلك إلا من كان معه في الضلالة. وأما الرحيم فإنه تعالى وصف به غيره، حيث قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] كما وصف غيره بذلك من أسمائه في قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

والحاصل: أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره، ومنها ما لا يسمى به غيره، كاسم الله والرحمن والخالق والرازق ونحو ذلك؛ فلهذا بدأ باسم الله، ووصفه بالرحمن؛ لأنه أخص وأعرف من الرحيم؛ لأن التسمية أولاً إنما تكون بأشرف^(٥) الأسماء، فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص.

فإن قيل: فإذا كان الرحمن أشد مبالغة؛ فهلا اكتفى به عن الرحيم؟ فقد روى عن عطاء الخراساني ما معناه: أنه لما تسمى غيره تعالى بالرحمن، جرى بلفظ الرحيم ليقطع التوهم بذلك، فإنه لا يوصف بالرحمن الرحيم إلا الله تعالى. كذا رواه ابن جرير عن عطاء. ووجهه بذلك، والله أعلم.

وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن، حتى رد الله عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلْ اذْعُوا اللَّهَ أَوْ اذْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]؛ ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله ﷺ لعلي: «اكتب بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم. رواه البخاري^(٦)، وفي بعض الروايات: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠].

(١) في ج، ط، ب: «وقال». (٢) في ج، ط: «والمؤكد». (٣) في ج، ط، ب: «التأكيد».

(٤) زيادة من ج، ط، ب، أ، و. (٥) في ج، ط، ب: «بأشهر». (٦) صحيح البخاري برقم (٢٧٣١)، (٢٧٣٢).

والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جُحود وعناد وتعنت في كفرهم؛ فإنه قد وجد في أشعارهم في الجاهلية^(١) تسمية الله تعالى بالرحمن، قال ابن جرير: وقد أنشد لبعض الجاهلية الجهَّال^(٢):

أَلَا ضَرَبْتُ تِلْكَ الْفَتَاةُ هَجِيئَهَا
أَلَا قَضَبَ الرَّحْمَنُ رَبِّي يَمِينَهَا^(٣)

وقال سلامة بن جندل الطهوي:

عَجَلْتُمْ عَلَيْنَا عَجَلْتِينَا عَلَيْكُمْ
وَمَا يَشَأُ الرَّحْمَنُ يَعْقِدُ وَيُطْلِقُ^(٤)

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمارة، حدثنا أبو روق، عن الضحَّاك، عن عبد الله بن عباس، قال: الرحمن: الفعلان من الرحمة، وهو من كلام العرب، وقال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ٣]، الرقيق الرفيق بمن أحب أن يرحمه، والبعيد الشديد على من أحب أن يعنف عليه، وكذلك أسماؤه كلها.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا حماد بن مَسْعَدَةَ، عن عوف، عن الحسن، قال: الرحمن اسم ممنوع^(٥).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد [بن] ^(٦) يحيى بن سعيد القطان، حدثنا زيد بن الحباب، حدثني أبو الأشهب، عن الحسن، قال: الرحمن: اسم لا يستطيع الناس أن يتحلوه، تسمى به تبارك وتعالى^(٧).

وقد جاء في حديث أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان يقطع قرآنه حرفاً حرفاً ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. الرَّحْمَنُ الرَّحِيمِ. مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٨)، فقرأ بعضهم كذلك وهم طائفة من الكوفيين ومنهم من وصلها بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وكسر الميم لالتقاء الساكنين وهم الجمهور. وحكى الكسائي عن بعض العرب أنها تقرأ بفتح الميم وصلة الهمزة فيقولون: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فنقلوا حركة الهمزة إلى الميم بعد تسكينها كما قرئ^(٩) قوله تعالى: ﴿الَمْ. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ قال ابن عطية: ولم ترد بهذا قراءة عن أحد فيما علمت^(١٠).

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢)

القراء السبعة على ضم الدال من قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وهو مبتدأ وخبر. وروى عن سفيان بن عيينة ورؤية بن العجاج أنهما قالوا: «الحمد لله» بالنصب وهو على إضمار فعل، وقرأ ابن أبي

(١) في ج، ط، ب: «في أشعار الجاهلية».

(٢) البيت في تفسير الطبري (١٣١/١) غير منسوب.

(٣) البيت في تفسير الطبري (١٣١/١).

(٤) تفسير الطبري (١٣٤/١).

(٥) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٦) تفسير ابن أبي حاتم (١٣/١).

(٨) رواه أحمد في المسند (٣٠٢/٦) وأبو داود في السنن برقم (٤٠٠١) من طريق ابن جريج عن ابن أبي مليكة، عن أم سلمة، رضى الله عنها، وصححه ابن خزيمة والدارقطني.

(٩) في أ: «فسر».

(١٠) المحرر الوجيز (٥٩/١)، (٦٠).

عبلة: «الحمد لله» بضم الدال واللام اتباعاً للثاني الأول وله شواهد لكنه شاذ، وعن الحسن وزيد ابن على: «الحمد لله» بكسر الدال اتباعاً للأول الثاني.

قال أبو جعفر بن جرير: معنى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الشكر لله خالصاً دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحد، في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وغذاهم به من نعيم العيش، من غير استحقاق منهم ذلك عليه، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم، فلربنا الحمد على ذلك كله أولاً وآخرأ.

[وقال ابن جرير: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: ثناء أثنى به على نفسه وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه فكأنه قال: قولوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾] (١).

قال: وقد قيل: إن قول القائل: الحمد لله، ثناء عليه بأسمائه وصفاته الحسنی (٢)، وقوله: الشكر لله ثناء عليه بنعمه وأياديه، ثم شرع في رد ذلك بما حاصله أن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون (٢) كلا من الحمد والشكر مكان (٣) الآخر.

[وقد نقل السلمي هذا المذهب أنهما سواء عن جعفر الصادق وابن عطاء من الصوفية. وقال ابن عباس: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾. كلمة كل شاعر، وقد استدلل القرطبي لابن جرير بصحة قول القائل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ شكراً] (٤) (٥).

وهذا الذي ادعاه ابن جرير فيه نظر؛ لأنه اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكر لا يكون إلا على المتعدية، ويكون بالجنان واللسان والأركان، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولسانى والضمير المحجبا

ولكنهم (٦) اختلفوا: أيهما أعم، الحمد أو الشكر؟ على قولين، والتحقيق أن بينهما عموماً وخصوصاً، فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية، تقول: حمّدت لفروسيته وحمّدت لكرمه. وهو أخص لأنه لا يكون إلا بالقول، والشكر أعم من حيث ما يقعان عليه (٧)؛ لأنه يكون بالقول والعمل (٨) والنية، كما تقدم، وهو أخص لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية، لا يقال: شكرته لفروسيته، وتقول: شكرته على كرمه وإحسانه إلى. هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين، والله أعلم.

وقال أبو نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهري: الحمد نقيض الذم، تقول: حمّدت الرجل أحمدته حمداً

(١) زيادة من ج، ط، أ، و. (٢) في ج، ط، أ، و: «بأسمائه الحسنی وصفاته العلى». (٣) في ج: «موضع».

(٤) تفسير القرطبي (١/١٣٤).

(٥) زيادة من ج، ط، أ، و. (٦) في ج، ط، ب، أ، و: «لكن».

(٧) في ج، ط، ب، أ، و: «به».

(٨) في ط، ب: «والفعل».

ومحمدة^(١)، فهو حميد ومحمود، والتحميد أبلغ من الحمد، والحمد أعم من الشكر. وقال في الشكر: هو الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف، يقال: شكرته، وشكرت له. وباللام أفصح^(٢).

[وأما المدح فهو أعم من الحمد؛ لأنه يكون للحى وللميت وللجماد - أيضاً - كما يمدح الطعام والمال ونحو ذلك، ويكون قبل الإحسان وبعده، وعلى الصفات المتعدية واللازمة أيضاً فهو أعم^(٣).

ذكر أقوال السلف في الحمد

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو معمر القطيعي، حدثنا حفص، عن حجاج، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: قال عمر: قد عَلِمْنَا سبحانه الله، ولا إله إلا الله، فما الحمد لله؟ فقال على: كلمة رضىها الله لنفسه^(٤).

ورواه غير أبي معمر، عن حفص، فقال: قال عمر لعلى، وأصحابه عنده: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والله أكبر، قد عرفناها، فما الحمد لله؟ قال^(٥) على: كلمة أحبها [الله]^(٦) لنفسه، ورضيها لنفسه، وأحب أن يقال^(٧).

وقال على بن زيد بن جُدعان، عن يوسف بن مهران، قال: قال ابن عباس: الحمد لله كلمة الشكر، وإذا قال العبد: الحمد لله، قال: شكرنى عبدى.

رواه ابن أبي حاتم.

وروى - أيضاً - هو وابن جرير، من حديث بشر بن عمار، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس: أنه قال: الحمد لله هو الشكر لله والاستخذاء له، والإقرار له بنعمه وهدايته وابتدائه وغير ذلك.

وقال كعب الأحبار: الحمد لله ثناء الله. وقال الضحاك: الحمد لله رداء الرحمن. وقد ورد الحديث بنحو ذلك.

قال ابن جرير: حدثنى سعيد بن عمرو السكوني، حدثنا بقية بن الوليد، حدثنى عيسى بن إبراهيم، عن موسى بن أبي حبيب، عن الحكم بن عمير، وكانت له صحبة قال: قال النبي ﷺ: «إذا

(١) فى ج: «حمداً ومجده» وفى ط: «حمداً فهو حميد».

(٢) انظر: لسان العرب لابن منظور، مادة «حمد».

(٣) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (١٤/١).

(٥) فى ط، ب: «فقال».

(٦) زيادة من ج، ط.

(٧) رواه الأشج عن حفص، لكنه خالفه فيه، وضعيف الحافظ هنا يفيد أنه لا مخالفة قال ابن أبي حاتم فى تفسيره (١٥/١): «كذا رواه أبو معمر القطيعي عن حفص، وحدثنا به الأشج فقال: ثنا حفص - وخالفه فيه - فقال فيه: قال عمر لعلى، رضى الله عنهما، وأصحابه عنده: لا إله إلا الله، والحمد لله، والله أكبر قد عرفناها، فما سبحانه الله؟ فقال على: كلمة أحبها لنفسه، ورضيها لنفسه، وأحب أن يقال». وكلام الحافظ يفيد أنه لا مخالفة، فلعله اطلع عليه من رواية أخرى أو أنه سقط نظر، والله أعلم.

قلت: الحمد لله رب العالمين، فقد شكرت الله، فزادك^(١).

وقد روى الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا روح، حدثنا عوف، عن الحسن، عن الأسود بن سريع، قال: قلت: يا رسول الله، ألا أنشدك محامد حمدت بها ربى، تبارك وتعالى؟ فقال: «أما إن ربك يحب الحمد»^(٢).

ورواه النسائي، عن على بن حجر، عن ابن عليه، عن يونس بن عبيد، عن الحسن، عن الأسود ابن سريع، به^(٣).

وروى الترمذى، والنسائي وابن ماجه، من حديث موسى بن إبراهيم بن كثير، عن طلحة بن خراش، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله»^(٤).

وقال الترمذى: حسن غريب.

وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله إلا كان الذى أعطى أفضل مما أخذ»^(٥). قال القرطبي فى تفسيره، وفى نوادر الأصول عن أنس عن النبى ﷺ قال: «لو أن الدنيا كلها بحذافيرها فى يد رجل من أمتى ثم قال: الحمد لله، لكان الحمد لله أفضل من ذلك»^(٦). قال القرطبي وغيره: أى لكان إلهامه الحمد لله أكبر نعمة عليه من نعم الدنيا؛ لأن ثواب الحمد لا يقنى ونعيم الدنيا لا يبقى، قال الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]. وفى سنن ابن ماجه عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ حدثهم: «أن عبداً من عباد الله قال: يارب، لك الحمد كما ينبغى

(١) تفسير الطبرى (١/١٣٦) وفى إسناده عيسى بن إبراهيم، قال البخارى: منكر الحديث، وشيخه موسى ضعفه أبو حاتم وغيره، والحكم بن عمير قال فيه أبو حاتم: «روى عن النبى ﷺ؛ لا يذكر السماع ولا لقاء، أحاديث منكرة، من رواية ابن أخيه موسى بن أبى حبيب وهو شيخ ضعيف الحديث، ويروى عن موسى بن أبى حبيب عيسى بن إبراهيم وهو ذاهب الحديث سمعت أبى يقول ذلك. أ. هـ. مستفاداً من حاشية العلامة أحمد شاكر على تفسير الطبرى.

(٢) المسند (٣/٤٣٥) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٩٥): «رجال رجال الصحيح» وهو منقطع، فالحسن لم يسمع من الأسود، رضى الله عنه.

(٣) سنن النسائى الكبرى برقم (٧٧٤٥).

(٤) سنن الترمذى برقم (٣٣٨٠) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٦٦٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٠٠).

(٥) سنن ابن ماجه برقم (٣٨٠٥) من طريق أبى عاصم، عن شبيب بن بشر عن أنس به، وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/١٩٢): «هذا إسناده حسن، شبيب بن بشر مختلف فيه».

(٦) قال الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٢/٢٦٧): «موضوع»، ورواه ابن عساكر (١٥/٢٧٦/٢) عن أبى الفضل - محمد بن عبد الله بن محمد بن همام بن المطلب الشيبانى: حدثنى محمد بن عبد الحى بن سويد الحربى الحافظ، نا زريق، نا عمران بن موسى الجندى سابورى - نزيل بردعة - نا سورة بن زهير الغامرى - من أهل البصرة - حدثنى هشيم عن الزبير بن عدى عن أنس بن مالك مرفوعاً. وهذا موضوع أفته أبو الفضل هذا، قال الخطيب (٥/٤٦٦، ٤٦٧): «كان يروى غرائب الحديث وسؤالات الشيوخ، فكتب الناس عنه، بانتخاب الدارقطنى، ثم بان كذبه، فمزقوا حديثه، وأبطلوا روايته، وكان بعد يضع الأحاديث للرافضة. قال حمزة بن محمد بن طاهر الدقاق: كان يضع الحديث، وكان له سمت ووقار. وقال لى الأزهري: كان أبو الفضل دجالاً كاذباً». ورواه ابن عساكر عنه فى ترجمة أبى الفضل هذا. ومن بينه وبين هشيم لم أعرفهم غير زريق، والظاهر أنه ابن محمد الكوفى، روى عن حماد بن زيد، قال الذهبي: «ضعفه الأمير ابن ماکولا».

لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها، فصعدا إلى السماء فقالا: يا رب، إن عبدا قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها، قال الله - وهو أعلم بما قال عبده -: ماذا قال عبدي؟ قالوا: يارب إنه قد قال: يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك. فقال الله لهما: اكتباهما كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها^(١). وحكى القرطبي عن طائفة أنهم قالوا: قول العبد: الحمد لله رب العالمين، أفضل من قول: لا إله إلا الله؛ لاشتمال الحمد لله رب العالمين على التوحيد مع الحمد، وقال آخرون: لا إله إلا الله أفضل لأنها الفصل بين الإيمان والكفر، وعليها يقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله كما ثبت في الحديث المتفق عليه وفي الحديث الآخر في السنن: «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»^(٢). وقد تقدم عن جابر مرفوعاً: «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله». وحسنه الترمذى.

والألف واللام فى الحمد لاستغراق جميع أجناس الحمد، وصنوفه لله تعالى كما جاء فى الحديث: «اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله». الحديث^(٣).

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والرب هو: المالك المتصرف، ويطلق فى اللغة على السيد، وعلى المتصرف للإصلاح، وكل ذلك صحيح فى حق الله تعالى.

[ولا يستعمل الرب لغير الله، بل بالإضافة تقول: رب الدار رب كذا، وأما الرب فلا يقال إلا لله عز وجل، وقد قيل: إنه الاسم الأعظم]^(٤).

والعالمين: جمع عالم، [وهو كل موجود سوى الله عز وجل]^(٥)، والعالم جمع لا واحد له من لفظه، والعوالم أصناف المخلوقات [فى السموات والأرض]^(٦) فى البر والبحر، وكل قرن منها وجيل يسمى عالماً أيضاً.

قال بشر بن عمار، عن أبى روق، عن الضحاك، عن ابن عباس: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: [الفاتحة: ٢] الحمد لله الذى له الخلق كله، السموات والأرضون، ومن فيهن وما بينهن، مما نعلم، وما لا نعلم.

وفى رواية سعيد بن جبير، وعكرمة، عن ابن عباس: رب الجن والإنس. وكذلك قال سعيد بن

(١) سنن ابن ماجه برقم (٣٨٠١) من طريق صدقة بن بشير عن قدامة بن إبراهيم، عن ابن عمر رضى الله عنهما، وقال البوصيرى فى الزوائد (١٩١/٣): «هذا إسناد فيه مقال، قدامة بن إبراهيم ذكره ابن حبان فى الثقات، وصدقة بن بشير لم أر من جرحه ولا من وثقه، وباقى رجال الإسناد ثقات».

(٢) رواه الترمذى فى السنن برقم (٣٥٨٥) من طريق حماد بن أبى حميد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده به، وقال الترمذى: «هذا حديث غريب من هذا الوجه، وحماد بن أبى حميد هو محمد بن أبى حميد، وهو أبو إبراهيم الأنصارى المدينى وليس بالقوى عند أهل الحديث».

(٣) جاء من حديث أبى سعيد، وسعد بن أبى وقاص، رضى الله عنهما، أما حديث أبى سعيد، فرواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٤٤٠٠) من طريق خالد بن يزيد عن ابن أبى ذئب، عن زيد بن أسلم، عن عطاء، عن أبى سعيد الخدرى. وأما حديث سعد، فرواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٤٣٩٩) من طريق أبى بلج، عن مصعب بن سعد عن أبيه سعد بن أبى وقاص.

(٤) (٥) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٦) زيادة من ج، ط.

جبير، ومجاهد وابن جريج، وروى عن علي [نحوه]^(١). وقال^(٢) ابن أبي حاتم: بإسناد لا يعتمد عليه.

واستدل القرطبي لهذا القول بقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] وهم الجن والإنس. وقال الفراء وأبو عبيدة: العالم عبارة عما يعقل وهم الإنس والجن والملائكة والشياطين ولا يقال للبهائم: عالم، وعن زيد بن أسلم وأبي عمرو بن العلاء^(٣) كل ما له روح يرتزق. وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة مروان بن محمد بن مروان بن الحكم - وهو آخر خلفاء بني أمية ويعرف بالجعد ويلقب بالحمار - أنه قال: خلق الله سبعة عشر ألف عالم أهل السموات وأهل الأرض عالم واحد وسائر ذلك لا يعلمه^(٤) إلا الله، عز وجل.

وقال قتادة: رب العالمين، كل صنف عالم.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالى ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال: الإنس عالم، والجن عالم، وما سوى^(٥) ذلك ثمانية عشر ألف عالم، أو أربعة عشر ألف عالم، هو يشك، من الملائكة على الأرض، وللأرض أربع زوايا، في كل زاوية ثلاثة آلاف عالم، وخمسمائة عالم، خلقهم [الله]^(٦) لعبادته. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

[وهذا كلام غريب يحتاج مثله إلى دليل صحيح]^(٧).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الفرات، يعني ابن الوليد، عن معتب^(٨) بن سمى، عن ثُبَيْع، يعني الحميري، في قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال: العالمين ألف أمة فستمائة في البحر، وأربعمائة في البر. [وحكى مثله عن سعيد بن المسيب]^(٩).

وقد روى نحو هذا مرفوعاً كما قال الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى في مسنده:

حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبيد بن واقد القيسي، أبو عباد، حدثني محمد بن عيسى بن كيسان، حدثنا محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله، قال: قلّ الجراد في سنة من سني عمر التي ولى فيها فسأل عنه، فلم يخبر بشيء، فاغتم لذلك، فأرسل راكباً يضرب إلى اليمن، وآخر إلى الشام، وآخر إلى العراق، يسأل: هل روى من الجراد شيء أم لا؟ قال: فأتاه الراكب الذي من قبل اليمن بقبضة من جراد، فألقاها بين يديه، فلما رآها كبر، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(٣) في و: «أبي محيصن العالم».

(٢) في ط، ب: «قاله».

(١) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٦) زيادة من ج.

(٥) في ج: «وما عدا».

(٤) في و: «يعلمهم».

(٧) زيادة من ج، ط.

(٨) كذا وقع في النسخ وأصل تفسير ابن أبي حاتم، ووقع في كتب الرجال «مغيث».

(٩) زيادة من ج، ط.

«خلق الله ألف أمة، ستمائة في البحر وأربعمائة في البر، فأول شيء يهلك من هذه الأمم الجراد، فإذا هلك^(١) تتابعت مثل النظام إذا قطع سلكه»^(٢).

محمد بن عيسى هذا - وهو الهلالي - ضعيف.

وحكى البغوي عن سعيد بن المسيب أنه قال: «الله ألف عالم؛ ستمائة في البحر وأربعمائة في البر. وقال وهب بن منبه: «الله ثمانية عشر ألف عالم؛ الدنيا عالم منها. وقال مقاتل: «العوالم ثمانون ألفاً. وقال كعب الأحبار: لا يعلم عدد العوالم إلا الله عز وجل. نقله كله البغوي، وحكى القرطبي عن أبي سعيد الخدري أنه قال: «إن الله أربعين ألف عالم؛ الدنيا من شرقها إلى مغربها عالم واحد منها، وقال الزجاج: «العالم كل ما خلق في الدنيا والآخرة. قال القرطبي: وهذا هو الصحيح أنه شامل لكل العالمين؛ كقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ مَوْقِنِينَ﴾ والعالم مشتق من العلامة (قلت): لأنه علم دال على وجود خالقه وصانعه ووحدانيته كما قال ابن المعتز:

فيا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شيء له آية تدل على أنه واحد

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٣)﴾

وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ تقدم الكلام عليه في البسمة بما أغنى عن إعادته.

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾

قرأ بعض القراء: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. وقرأ آخرون: ﴿مَالِكِ﴾^(٣).

وكلاهما صحيح متواتر في السبع.

[ويقال: «ملك أيضاً، وأشيع نافع كسرة الكاف فقراً: «ملكى يوم الدين»، وقد رجح كلا من القراءتين مرجحون من حيث المعنى، وكلاهما صحيحة حسنة، ورجح الزمخشري ملك؛ لأنها قراءة أهل الحرمين ولقوله: ﴿لِمَنَ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾، وقوله: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ وحكى عن أبي حنيفة أنه قرأ «ملك يوم الدين» على أنه فعل وفاعل ومفعول، وهذا غريب شاذ جداً]^(٤).

وقد روى أبو بكر بن أبي داود في ذلك شيئاً غريباً حيث قال: حدثنا أبو عبد الرحمن الأذرمي، حدثنا عبد الوهاب عن عدى^(٥) بن الفضل، عن أبي المطرف، عن ابن شهاب: أنه بلغه أن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان ومعاوية وابنه يزيد بن معاوية كانوا يقرءون: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وأول من حدث «ملك» مروان^(٦).

قلت: مروان عنده علم بصحة ما قرأه، لم يطلع عليه ابن شهاب، والله أعلم.

وقد روى من طرق متعددة أوردها ابن مَرْذُويه أن رسول الله ﷺ كان يقرؤها: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٧) ومالك مأخوذة من الملك، كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرُثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠] وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ. مَلِكِ النَّاسِ﴾ [الناس: ١، ٢] وملك: مأخوذ من الملك كما قال تعالى: ﴿لِمَنَ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] وقال: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وقال: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ

(١) في ج، ط، ب: «هلكت».

(٢) ورواه ابن عدى في الكامل (٢٤٥/٦)، (٣٥٢/٥) والخطيب في تاريخه (٢١٨/١١) من طريق عبيد بن واقد به نحوه. وقال ابن عدى: «قال عمرو بن علي: محمد بن عيسى بصري صاحب محمد بن المنكدر، ضعيف منكر الحديث، روى عن محمد بن المنكدر، عن جابر، عن عمر، عن النبي ﷺ في «الجراد». وقال ابن عدى أيضاً: «عبيد بن واقد لا يتابع عليه».

(٣) في ج، ط، ب: قرأ بعض القراء: «مالك» وقرأ آخرون: «ملك».

(٤) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٥) في هـ: «عبد الوهاب بن عدى بن الفضل».

(٦) المصاحف لابن أبي داود (ص ١٠٤).

(٧) ورواه أبو بكر بن أبي داود في المصاحف (ص ١٠٥) والحاكم في المستدرک (٢٣٢/٢) من طريق ابن فضيل عن الأعمش عن أبي صالح، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قرأ: «مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ» زاد ابن أبي حاتم: «أو قال: «مالك». ورواه أبو بكر بن أبي داود في المصاحف (ص ١٠٥) والحاكم في المستدرک (٢٣٢/٢) من طريق ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن أم سلمة أن النبي ﷺ كان يقرأ: «مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ».

الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا [الفرقان: ٢٦].

وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفية عما عداه، لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام في الدنيا والآخرة، وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدعى أحد هنالك شيئاً، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه، كما قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨] وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، وقال: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]. وقال الضحّاك عن ابن عباس ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ يقول: لا يملك أحد في ذلك اليوم معه حكماً، كملكهم في الدنيا. قال: ويوم الدين يوم الحساب للخلاق، وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، إلا من عفا عنه. وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف، وهو ظاهر.

وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه ذهب إلى أن تفسير ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾: أنه القادر على إقامته، ثم شرع يضعفه. والظاهر أنه لا منافاة بين هذا القول وما تقدم^(١)، وأن كلا من القائلين بهذا وبما قبله يعترف بصحة القول الآخر، ولا ينكره، ولكن السياق أدل على المعنى الأول من هذا، كما قال: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٢٦] والقول الثاني يشبه قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، والله أعلم. والملك في الحقيقة هو الله عز وجل؛ قال الله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾. وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً (أخضع اسم عند الله رجل تسمى بملك الأملاك ولا مالك إلا الله)، وفيهما عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يقبض الله الأرض ويطوى السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض؟ أين الجبارين؟ أين المتكبرون؟ وفي القرآن العظيم: ﴿لَمَنَ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ فأما تسمية غيره في الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ﴾، ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾، وفي الصحيحين: (مثل الملوك على الأسرة). والدين: الجزاء والحساب؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يوفيهُم اللَّهُ دينَهُمُ الْحَقَّ﴾، وقال: ﴿أَيْنَا لَمَدِينُونَ﴾ أى مجزيون محاسبون، وفي الحديث: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت» أى حاسب نفسه لنفسه؛ كما قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتأهبوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

[قرأ السبعة والجمهور بتشديد الياء من ﴿إِيَّاكَ﴾ وقرأ عمرو بن فايد بتخفيفها مع الكسر وهى قراءة شاذة مردودة؛ لأن «إيا» ضوء الشمس. وقرأ بعضهم: «إياك» بفتح الهمزة وتشديد الياء، وقرأ بعضهم: «هياك» بالهاء بدل الهمزة، كما قال الشاعر:

فهياك والأمر الذى إن تراحبت
موارده ضاقت عليك مصادره

و﴿نَسْتَعِينُ﴾ بفتح النون أول الكلمة فى قراءة الجميع سوى يحيى بن وثاب والأعمش فإنهما كسراها وهى لغة بنى أسد وربيعة وبنى تميم وقيس^(٢).

العبادة فى اللغة من الذلة، يقال: طريق مُعَبَّد، وبغير مُعَبَّد، أى: مذل، وفى الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف.

وقدم المفعول وهو ﴿إِيَّاكَ﴾، وكرر؛ للاهتمام والحرص، أى: لا نعبد إلا إياك، ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة. والدين يرجع كله^(٣) إلى هذين المعنيين، وهذا كما قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فالأول تبرؤ من الشرك، والثانى تبرؤ من الحول والقوة، والتفويض

(١) فى ج، ط: «وبين ما تقدم». (٢) زيادة من ج، ط، أ، و. (٣) فى ط: «كله يرجع».

إلى الله، عز وجل. وهذا المعنى فى غير آية من القرآن، كما قال تعالى: ﴿فَاغْبُذْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]، وكذلك هذه الآية الكريمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب، وهو مناسبة^(١)؛ لأنه لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى؛ فلهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وفى هذا دليل على أن أول السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنی، وإرشاد لعباده أن يثنوا عليه بذلك؛ ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك، وهو قادر عليه، كما جاء فى الصحيحين، عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»^(٢). وفى صحيح مسلم، من حديث العلاء بن عبد الرحمن، مولى الحرقة، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، فنصفها لى ونصفها لعبدى، ولعبدى ما سأل، إذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] قال: حمدنى عبدى، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ٣] قال: أثنى على عبدى، فإذا قال: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، قال الله: مجدنى عبدى، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] قال: هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل، فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] قال: هذا لعبدى ولعبدى ما سأل»^(٣).

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يعنى: إياك نوحى ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على طاعتك وعلى أمورنا كلها.

وقال قتادة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: يأمركم أن تخلصوا له العبادة، وأن تستعينوه على أمركم. وإنما قدم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأن العبادة له هى المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها، والاهتمام والحزم هو أن يقدم^(٤) ما هو الأهم فالأهم، والله أعلم.

فإن قيل: فما معنى النون فى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإن كانت للجمع فالداعى واحد، وإن كانت للتعظيم فلا تناسب هذا المقام؟ وقد أجيب: بأن المراد من ذلك الإخبار عن جنس العباد والمصلين فرد منهم، ولا سيما إن كان فى جماعة أو إمامهم، فأخبر عن نفسه وعن إخوانه^(٥) المؤمنين بالعبادة التى خلقوا لأجلها^(٦)، وتوسط لهم بخير، ومنهم من قال: يجوز أن تكون للتعظيم، كأن العبد قيل له: إذا كنت فى العبادة فأنت شريف وجاهك عريض فقل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وإذا كنت خارج العبادة فلا تقل: نحن ولا فعلنا، ولو كنت فى مائة ألف أو ألف ألف لافتقار الجميع إلى الله عز وجل. ومنهم من قال: ألطف فى التواضع من إياك أعبد، لما فى الثانى من تعظيمه نفسه

(١) فى ج، ط: «مناسب». (٢) صحيح البخارى برقم (٧٥٦) وصحيح مسلم برقم (٣٩٤). (٣) صحيح مسلم برقم (٣٩٥).

(٤) فى ج، ط، ب: «والحزم تقديم». (٥) فى أ، و: «إخوانه». (٦) فى و: «من أجلها».

من جعله نفسه وحده أهلاً لعبادة الله تعالى الذي لا يستطيع أحد أن يعبد حقه عبادته، ولا يشئ عليه كما يليق به، والعبادة مقام عظيم^(١) يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى، كما قال بعضهم:

لا تدعنى إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائي

وقد سمي الله رسوله بعبده في أشرف مقاماته [فقال]^(٢): ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيَّ عَبْدَهُ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، فسماه عبداً عند إنزاله عليه وقيامه في الدعوة وإسرائه به، وأرشدته إلى القيام بالعبادة في أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين له، حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ. وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٩].

وقد حكي فخر الدين في تفسيره عن بعضهم: أن مقام العبودية أشرف من مقام الرسالة؛ لكون العبادة تصدر^(٣) من الخلق إلى الحق والرسالة من الحق إلى الخلق؛ قال: ولأن الله متولى مصالح عبده، والرسول متولى مصالح أمته^(٤)، وهذا القول خطأ، والتوجيه أيضاً ضعيف لا حاصل له، ولم يتعرض له فخر الدين بتضعيف ولا رده. وقال بعض الصوفية: العبادة إما لتحصيل ثواب ورد عقاب؛ قالوا: وهذا ليس بطائل إذ مقصوده تحصيل مقصوده، وإما للتشريف بتكاليف الله تعالى، وهذا - أيضاً - عندهم ضعيف، بل العالى أن يعبد الله لذاته المقدسة الموصوفة بالكمال، قالوا: ولهذا يقول المصلى: أصلى لله. ولو كان لتحصيل الثواب ودرء^(٥) العذاب لبطلت صلاته. وقد رد ذلك عليهم آخرون وقالوا: كون العبادة لله، عز وجل، لا ينافي أن يطلب معها ثواباً، ولا أن يدفع عذاباً، كما قال ذلك الأعرابي: أما إنى لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ إنما أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار فقال النبى ﷺ: «حولها دندندن»^(٦).

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

قراءة الجمهور بالصاد.

وقرئ: «السرائ» وقرئ بالزاي، قال الفراء: وهى لغة بنى عذرة وبلقين^(٧) وبنى كلب. لما تقدم الثناء على المسؤول، تبارك وتعالى، ناسب أن يعقب بالسؤال؛ كما قال: «فنصفها لى ونصفها لعبدى، ولعبدى ما سأل» وهذا أكمل أحوال السائل، أن يمدح مسؤوله، ثم يسأل حاجته [وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله: ﴿اهْدِنَا﴾]^(٨)؛ لأنه أنجح للحاجة وأنجح للإجابة، ولهذا أرشد الله تعالى إليه لأنه الأكمل، وقد يكون السؤال بالإخبار عن حال السائل واحتياجه، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] وقد يتقدمه مع ذلك وصف المسؤول، كقول ذى النون: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وقد يكون بمجرد الثناء

(٣) فى أ، و: «تصرفه».

(٢) زيادة من و.

(١) فى أ: «شريف».

(٥) فى أ: «ورده».

(٤) فى و: «العبد».

(٦) رواه أحمد فى المسند (٤٧٤/٣) وأبو داود فى السنن برقم (٧٩٢) وابن حبان فى صحيحه برقم (٥١٤) من طريق الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة، رضى الله عنه.

(٧) فى أ: «بلقيس».

(٨) زيادة من ج، ط، أ، و.

على المسؤول، كقول الشاعر:

أذكر حاجتى أم قد كفانى حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوما كفاه من تعرضه الثناء

والهداية ههنا: الإرشاد والتوفيق، وقد تعدى الهداية بنفسها كما هنا^(١): ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فتضمن معنى ألهمنا، أو وفقنا، أو ارزقنا، أو اعطنا؛ ﴿وَهْدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] أى: بينا له الخير والشر، وقد تعدى بإلى، كقوله تعالى: ﴿اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١] ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصفات: ٢٣] وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] وقد تعدى باللام، كقول أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] أى وفقنا لهذا وجعلنا له أهلاً^(٢).

وأما الصراط المستقيم، فقال الإمام أبو جعفر بن جرير: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن «الصراط المستقيم» هو الطريق الواضح الذى لا اعوجاج فيه.

وكذلك ذلك فى لغة جميع العرب، فمن ذلك قول جرير بن عطية الخطفى:

أمير المؤمنين على صراطٍ إذا اعوج المواردُ مُستقيم

قال: والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصر. قال: ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله فى كل قول وعمل، وصف باستقامة أو اعوجاج، فتصف المستقيم باستقامته، والمعوج باعوجاجه.

ثم اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف فى تفسير الصراط، وإن كان يرجع حاصلها إلى شىء واحد، وهو المتابعة لله وللرسول؛ فروى أنه كتاب الله، قال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنى يحيى بن يمان، عن حمزة الزيات، عن سعد، وهو أبو^(٣) المختار الطائى، عن ابن أخى الحارث الأعور، عن الحارث الأعور، عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الصراط المستقيم كتاب الله»^(٤).

وكذلك رواه ابن جرير، من حديث حمزة بن حبيب الزيات، وقد [تقدم فى فضائل القرآن فيما]^(٥) رواه أحمد والترمذى من رواية الحارث الأعور، عن على مرفوعاً: «وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم»^(٦).

(٢) فى ط: «وجعلنا أهلاً له».

(١) فى ج، ط، ب: «كما هاهنا».

(٣) فى أ، و: «ابن».

(٤) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٢٠).

(٥) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٦) سنن الترمذى برقم (٢٩٠٦).

وقد روى هذا موقوفاً عن علي، وهو أشبه^(١)، والله أعلم.

وقال الثوري، عن منصور، عن أبي وائل، عن عبد الله، قال: الصراط المستقيم. كتاب الله، وقيل: هو الإسلام. وقال الضحاك، عن ابن عباس، قال: قال جبريل لمحمد، عليهما السلام: قل: يا محمد، اهدنا الصراط المستقيم. يقول: اهدنا^(٢) الطريق الهادي، وهو دين الله الذي لا عوج فيه. وقال ميمون بن مهران، عن ابن عباس، في قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: ذاك الإسلام.

وقال إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، قالوا: هو الإسلام.

وقال عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: الإسلام. قال: هو أوسع مما بين السماء والأرض.

وقال ابن الحنفية في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: قال هو دين الله، الذي لا يقبل من العباد غيره.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: اهدنا الصراط المستقيم، قال: هو الإسلام.

وفي [معنى]^(٣) هذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده، حيث قال: حدثنا الحسن بن سوار أبو العلاء، حدثنا ليث يعني ابن سعد، عن معاوية بن صالح: أن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، حدثه، عن أبيه، عن النواس بن سمعان، عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب، قال: ويحك، لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه. فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم».

وهكذا رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير من حديث الليث بن سعد به^(٤).

ورواه الترمذي والنسائي جميعاً، عن علي بن حجر عن بقية، عن جبير^(٥) بن سعد، عن خالد ابن معدان، عن جبير بن نفير، عن النواس بن سمعان، به^(٦).

(١) رواه موقوفاً الطبري في تفسيره (١٧٢/١) وقد سبق الكلام على هذا الحديث في فضائل القرآن.

(٢) في ج، ط، ب، أ، و: «والهمنا».

(٣) زيادة من ج، ط.

(٤) المسند (١٨٢/٤) وتفسير ابن أبي حاتم (٢١/١) وتفسير الطبري (١٧٦/١).

(٥) في و: «يحيى».

(٦) سنن الترمذي برقم (٢٨٦٣) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٢٣٣).

وهو إسناد صحيح، والله أعلم.

وقال مجاهد: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، قال: الحق. وهذا أشمل، ولا منافاة بينه وبين ما تقدم.
وروى ابن أبي حاتم وابن جرير، من حديث أبي النضر هاشم بن القاسم؛ حدثنا حمزة بن المغيرة، عن عاصم الأحول، عن أبي العالية: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: هو النبي ﷺ، وصاحبه من بعده، قال عاصم: فذكرنا ذلك للحسن، فقال: صدق أبو العالية ونصح.
وكل هذه الأقوال صحيحة، وهي متلازمة، فإن من اتبع النبي ﷺ، واقتدى باللذين من بعده أبي بكر وعمر، فقد اتبع الحق، ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام، ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن، وهو كتاب الله وحبله المتين، وصراطه المستقيم، فكلها صحيحة يصدق بعضها بعضاً، والله الحمد.

وقال الطبراني: حدثنا محمد بن الفضل السقطي، حدثنا إبراهيم بن مهدي المصيصي، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن عبد الله، قال: الصراط المستقيم الذي تركنا عليه رسول الله ﷺ^(١). ولهذا قال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي - أعني: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ - أن يكون معنياً به: وفقنا للثبات على ما ارتضيته ووفقت له مَنْ أنعمت عليه من عبادك، من قول وعمل، وذلك هو الصراط المستقيم؛ لأن من وفق لما وفق له من أنعم الله عليهم^(٢) من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، فقد وفق للإسلام، وتصديق الرسل، والتمسك بالكتاب، والعمل بما أمره الله به، والانزجار عما زجره عنه، واتباع منهاج النبي ﷺ، ومنهاج الخلفاء الأربعة، وكل عبد صالح، وكل ذلك من الصراط المستقيم.
فإن قيل: كيف^(٣) يسأل المؤمن الهداية في كل وقت من صلاة وغيرها، وهو متصف بذلك؟ فهل^(٤) هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا؟

فالجواب: أن لا، ولولا احتياجه ليلاً ونهاراً إلى سؤال الهداية لما أرشده الله إلى ذلك؛ فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى في تثبيته على الهداية، ورسوخه فيها، وتبصره، وازدياده منها، واستمراره عليها، فإن العبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله، فأرشده تعالى إلى أن يسأله في كل وقت أن يمدّه بالمعونة والثبات والتوفيق، فالسعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله؛ فإنه تعالى قد تكفل بإجابة الداعي إذا دعاه، ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر إليه آناء الليل وأطراف النهار، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ الآية [النساء: ١٣٦]، فقد أمر الذين آمنوا بالإيمان، وليس في ذلك تحصيل الحاصل؛ لأن المراد الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال المعينة على ذلك، والله أعلم.

وقال تعالى آمراً لعباده المؤمنين أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَزُغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾، وقد كان الصديق رضي الله عنه يقرأ بهذه الآية في الركعة الثالثة من صلاة المغرب بعد الفاتحة سراً. فمعنى قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ استمر بنا عليه ولا تعدل بنا إلى غيره.

(١) المعجم الكبير (٢٤٥/١٠). (٢) في ط، ب: «عليه». (٣) في ط، ب: «كيف». (٤) في ج ب: «وهل».

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾.

قد تقدم الحديث فيما إذا قال العبد: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخرها أن الله يقول: «هذا لعبدي ولعبدي ما سأل». وقوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ مفسر للصراط المستقيم. وهو بدل منه عند النحاة، ويجوز أن يكون عطف بيان، والله أعلم.

و﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾^(١): هم المذكورون في سورة النساء، حيث قال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا. ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

وقال الضحاك، عن ابن عباس: صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك، من ملائكتك، وأنبيائك، والصديقين، والشهداء، والصالحين؛ وذلك نظير ما قال ربنا تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [النساء: ٦٩].

وقال أبو جعفر، عن الربيع بن أنس: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ قال: هم النبيون.

وقال ابن جريج، عن ابن عباس: هم المؤمنون. وكذا قال مجاهد. وقال وكيع: هم المسلمون. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم النبي ﷺ ومن معه.

والتفسير المتقدم، عن ابن عباس أعم، وأشمل، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾: [قرأ الجمهور: «غير» بالجر على النعت، قال الزمخشري: وقرئ بالنصب على الحال، وهي قراءة رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب، ورويت عن ابن كثير، وذو الحال الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ والعامل: ﴿أَنْعَمْتَ﴾ والمعنى^(٢): أهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم ممن تقدم وصفهم ونعتهم، وهم أهل الهداية والاستقامة، والطاعة لله ورسوله، وامثال أوامره وترك نواهيه وزواجره، غير صراط المغضوب عليهم، [وهم]^(٣) الذين فسدت إرادتهم، فعملوا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق، وأكد الكلام بلا، ليدل على أن ثم مسلكين فاسدين، وهما طريقتا اليهود والنصارى.

وقد زعم بعض النحاة أن ﴿غَيْرَ﴾ ههنا استثنائية، فيكون على هذا منقطعاً لاستثنائهم من المنعم عليهم وليسوا منهم، وما أوردناه أولى، لقول الشاعر^(٤):

كَأَنَّكَ مِنْ جِمالِ بَنِي أَقِيشٍ يَقْعَقُعُ عِنْدَ^(٥) رَجُلِيهِ بَشَنٍّ

أى: كأنك جمل من جمال بني أقيش، فحذف الموصوف واكتفى بالصفة^(٦)، وهكذا، ﴿غَيْرَ﴾

(٣) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٥) فى ج: «بين».

(٢) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٤) هو النابغة الذبياني، والبيت فى تفسير الطبرى (١/١٧٩).

(٦) فى ط: «واكتفى بالضاف إليه».

الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴿١﴾. أى: غير صراط المغضوب عليهم.

اكتفى بالمضاف إليه عن ذكر المضاف، وقد دل عليه سياق الكلام، وهو قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ثم قال تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

ومنهم من زعم أن (لا) فى قوله: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، زائدة، وأن تقدير الكلام عنده: غير المغضوب عليهم والضالين، واستشهد ببيت العجاج:

فى بئر لا حور سرى^(١) وما شعر^(٢)

أى فى بئر حور. والصحيح ما قدمناه. ولهذا روى أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب فضائل القرآن، عن أبى معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: أنه كان يقرأ: «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَغَيْرِ الضَّالِّينَ». وهذا إسناد صحيح^(٣)، [وكذا حكى عن أبى بن كعب أنه قرأ كذلك]^(٤)، وهو محمول على أنه صدر منه على وجه التفسير، فيدل على ما قلناه من أنه إنما جرى بها لتأكيد النفى، [لثلاث يتوهم أنه معطوف على ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾]^(٥)، وللفرق بين الطريقتين، لتجنب كل منهما؛ فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به، واليهود فقدوا العمل، والنصارى فقدوا العلم؛ ولهذا كان الغضب لليهود، والضلال للنصارى، لأن من علم وترك استحق الغضب، بخلاف من لم يعلم. والنصارى لما كانوا قاصدين شيئاً لكنهم لا يهتدون إلى طريقه، لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه، وهو اتباع الرسول الحق، ضلوا، وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب [كما قال فيهم: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾]^(٦) [المائدة: ٦٠]، وأخص أوصاف النصارى الضلال [كما قال: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾]^(٧) [المائدة: ٧٧]، وبهذا جاءت الأحاديث والآثار. [وذلك واضح بين]^(٨).

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، قال: سمعت سِمَاك بن حرب، يقول: سمعت عباد بن حبيش، يحدث عن عدى بن حاتم، قال: جاءت خيل رسول الله ﷺ، فأخذوا عمتى وناساً، فلما أتوا بهم إلى رسول الله ﷺ صَفُّوا له، فقالت: يا رسول الله، ناء الوافد وانقطع الولد، وأنا عجوز كبيرة، ما بى من خدمة، فمَنْ عَلَى مَنْ الله عليك. قال: «من وافدك؟» قالت: عدى بن حاتم، قال: «الذى فر من الله ورسوله!» قالت: فمَنْ عَلَى، فلما رجع، ورجل إلى جنبه^(٩)، ترى أنه على، قال: سليه حُمْلَانَا، فسألته، فأمر لها، قال: فأتتنى، فقالت: لقد فعل فعله ما كان أبوك يفعلها، فإنه قد أتاه فلان فأصاب منه، وأتاه فلان فأصاب منه، فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان، أو صبي، وذكر قريبهم من النبى ﷺ، قال: فعرفت أنه ليس بملك كسرى ولا قيصر، فقال:

(١) فى ج، ط: «سعى».

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (١/ ١٩٠).

(٣) فضائل القرآن (ص ١٦٢).

(٤ - ٦) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٨) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٧) زيادة من ج، ط.

(٩) فى ج: «فلما رجع ودخل إلى ختنه».

«يا عدى، ما أفرك^(١) أن يقال^(٢): لا إله إلا الله؟ فهل من إله إلا الله؟ قال: ما أفرك^(٣) أن يقال: الله أكبر، فهل شيء أكبر^(٤) من الله، عز وجل؟». قال: فأسلمت، فرأيت وجهه استبشر، وقال: «المغضوب^(٥) عليهم اليهود، وإن الضالين النصارى^(٦)».

وذكر الحديث، ورواه الترمذى، من حديث سماك بن حرب^(٧)، وقال: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديثه.

قلت: وقد رواه حماد بن سلمة، عن سماك، عن مُرِّي بن قَطَرٍ، عن عدى بن حاتم، قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله: «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ» قال: «هم اليهود» ﴿وَالضَّالِّينَ﴾ قال: «النصارى هم الضالون». وهكذا رواه سفيان بن عيينة، عن إسماعيل بن أبى خالد، عن الشعبي، عن عدى بن حاتم، به^(٨).

وقد روى حديث عدى هذا من طرق، وله ألفاظ كثيرة يطول ذكرها.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن بُذَيْلِ الْعُقَيْلِيِّ، أخبرنى عبد الله بن شَقِيقٍ، أنه أخبره من سمع النبي ﷺ، وهو بوادى القرى، وهو على فرسه، وسأله رجل من بنى القين، فقال: يا رسول الله، من هؤلاء؟ قال: «المغضوب عليهم - وأشار إلى اليهود - والضالون هم النصارى»^(٩).

وقد رواه الجُرَيْرِيُّ وعروة، وخالد الحذاء، عن عبد الله بن شقيق، فأرسلوه^(١٠)، ولم يذكروا من سمع النبي ﷺ. ووقع فى رواية عروة تسمية عبد الله بن عمر، فالله أعلم.

وقد روى ابن مردويه، من حديث إبراهيم بن طهمان، عن بديل بن مسيرة، عن عبد الله بن شقيق، عن أبى ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن المغضوب عليهم، قال: «اليهود»، [قال]^(١١): قلت: الضالين، قال: «النصارى»^(١٢).

وقال السُّدِّى، عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ: «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ»: هم اليهود، ﴿وَالضَّالِّينَ﴾: هم النصارى.

وقال الضحاك، وابن جريج، عن ابن عباس: «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ»: اليهود، ﴿وَالضَّالِّينَ﴾:

(١) فى أ: «ما أمرك». (٢) فى ج: «تقول». (٣) فى أ: «ما أمرك».

(٤) فى ج: «فهل من شيء هو أكبر».

(٥) فى ج، ط، ب: «إن المغضوب».

(٦) المسند (٣٧٨/٤).

(٧) سنن الترمذى برقم (٢٩٥٣، ٢٩٥٤) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٢٧٩) «موارد» من طريق محمد بن بشار عن غندر به.

(٨) رواه الحميدى فى مسنده (٤٠٦/٢) عن سفيان به.

(٩) تفسير عبد الرزاق (٦١/١).

(١٠) رواه الطبرى فى تفسيره (١٨٦/١، ١٨٧).

(١١) زيادة من ط، ب، أ، و.

(١٢) قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (١٥٩/٨): «أخرجه ابن مردويه بإسناد حسن عن أبى ذر».

[هم] ^(١)النصارى.

وكذلك قال الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد، وقال ابن أبي حاتم: ولا أعلم بين المفسرين فى هذا اختلافاً.

وشاهد ما قاله هؤلاء الأئمة من أن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون، الحديث المتقدم، وقوله تعالى فى خطابه مع بنى إسرائيل فى سورة البقرة: ﴿بِشْمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠]، وقال فى المائدة ^(٢): ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرَّةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

وفى السيرة ^(٣) ^(٤)، عن زيد بن عمرو بن نفيل؛ أنه لما خرج هو وجماعة من أصحابه إلى الشام يطلبون الدين الحنيف، قالت له اليهود: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله. فقال: أنا من غضب الله أفر. وقالت له النصارى: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من سخط الله فقال: لا أستطيعه. فاستمر على فطرته، وجانب عبادة الأوثان ودين المشركين، ولم يدخل مع أحد من اليهود ولا النصارى، وأما أصحابه فتنصروا ودخلوا فى دين النصرانية؛ لأنهم وجدوه أقرب من دين اليهود إذ ذاك، وكان منهم ورقة بن نوفل، حتى هداه الله بنبيه لما بعثه آمن بما وجد من الوحي، رضى الله عنه.

(مسألة): والصحيح من مذاهب العلماء أنه يغتفر الإخلال بتحرير ما بين الضاد والطاء لقرب مخرجيهما؛ وذلك أن الضاد مخرجها من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس، ومخرج الطاء من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا، ولأن كلاً من الحرفين من الحروف المجهورة ومن الحروف الرخوة ومن الحروف المطبقة، فلهذا كله اغتفر استعمال أحدهما مكان الآخر لمن لا يميز ذلك والله أعلم. وأما حديث: «أنا أفصح من نطق بالضاد» فلا أصل له والله أعلم.

فصل

اشتملت هذه السورة الكريمة، وهى سبع آيات، على حمد الله وتمجيده والثناء عليه، بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا ^(٥)، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين، وعلى إرشاده عبده ^(٦) إلى سؤاله والتضرع إليه، والتبرؤ من حولهم وقوتهم، وإلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالألوهية تبارك وتعالى، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الدين القويم، وتثبيتهم عليه حتى يفضى بهم ذلك إلى جواز الصراط الحسى يوم القيامة، المفضى بهم إلى جنات النعيم فى جوار النبين، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

واشتملت على الترغيب فى الأعمال الصالحة؛ ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل، لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضالون. وما أحسن ما جاء إسناد الإنعام إليه فى قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وحذف الفاعل فى الغضب فى قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وإن كان هو الفاعل لذلك فى الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ

(١) زيادة من ج. (٢) فى ج: «وقال تعالى». (٣) فى ط: «وفى السنن». (٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢٢٤/١).

(٥) فى ج: «إرشاد عبده»، وفى ط، ب: «إرشاد عبده».

(٦) فى ج، ط، ب، أ، و: «العلماء».

تَرَى إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴿١٤﴾ الآية [المجادلة: ١٤]، وكذلك إسناد الضلال إلى من قام به، وإن كان هو الذى أضلهم بقدره، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]. وقال: ﴿مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المنفرد بالهداية والإضلال، لا كما تقوله الفرقة القدرية ومن حذا حذوهم، من أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه^(١)، ويحتجون على بدعتهم^(٢) بمشابهة من القرآن، ويتركون ما يكون فيه صريحاً فى الرد عليهم، وهذا حال أهل الضلال والغى، وقد ورد فى الحديث الصحيح: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم»^(٣). يعنى فى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧]، فليس - بحمد الله - لمبتدع فى القرآن حجة صحيحة؛ لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل مفرقاً بين الهدى والضلال، وليس فيه تناقض ولا اختلاف؛ لأنه من عند الله، تنزيل من حكيم حميد^(٤).

فصل

يستحب لمن قرأ الفاتحة أن يقول بعدها: آمين [مثل: يس]^(٥)، ويقال: آمين. بالقصر أيضاً [مثل: يمين]^(٦)، ومعناه: اللهم استجب، والدليل على ذلك^(٧) ما رواه الإمام أحمد وأبو داود، والترمذى، عن وائل بن حجر، قال: سمعت النبى ﷺ قرأ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فقال: «آمين»، مد^(٨) بها صوته، ولأبى داود: رفع بها صوته^(٩)، وقال الترمذى: هذا حديث حسن. وروى عن على، وابن مسعود وغيرهم.

وعن أبى هريرة، قال: كان رسول الله ﷺ إذا تلا: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال: «آمين» حتى يسمع من يليه من الصف الأول. رواه أبو داود، وابن ماجه، وزاد: يرتج^(١٠) بها المسجد^(١١)، والدارقطنى وقال: هذا إسناد حسن.

وعن بلال أنه قال: يا رسول الله، لا تسبقنى بآمين. رواه أبو داود^(١٢).

(١) فى ب: «يفعلون ذلك ويختارونه».

(٢) فى ج، ط، ب: «على بدعتهم».

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٥٤٧) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٦٦٥) من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٤) فى ج، ط، ب: «خير».

(٥، ٦) زيادة من ج، ط.

(٧) فى ج، ط: «على استحباب التأمين».

(٨) فى ج: «مد».

(٩) المسند (٣١٦/٤) وسنن أبى داود برقم (٩٣٢) وسنن الترمذى برقم (٢٤٨).

(١٠) فى ج، ط، ب: «فیرتج».

(١١) سنن أبى داود برقم (٩٣٤) وسنن ابن ماجه برقم (٨٥٣).

(١٢) سنن أبى داود برقم (٩٣٧).

ونقل أبو نصر القشيري^(١) عن الحسن وجعفر الصادق أنهما شددا الميم من آمين مثل: ﴿آمِينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢].

قال أصحابنا وغيرهم: ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة، ويتأكد في حق المصلي، وسواء كان منفرداً أو إماماً أو مأموماً، وفي جميع الأحوال، لما جاء في الصحيحين، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه» ولسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال أحدكم في الصلاة: آمين، والملائكة^(٢) في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه»^(٣).

[قيل: بمعنى من وافق تأمينه تأمين الملائكة في الزمان، وقيل: في الإجابة، وقيل: في صفة الإخلاص]^(٤).

وفي صحيح مسلم عن أبي موسى مرفوعاً: «إذا^(٥) قال، يعنى الإمام: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فقولوا: آمين. يجبكم الله»^(٦).

وقال جُوَيْر، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: قلت: يا رسول الله، ما معنى آمين؟ قال: «رب افعل»^(٧).

وقال الجوهري: معنى آمين: كذلك فليكن، وقال الترمذي: معناه: لا تخيب رجاءنا، وقال الأکثرون: معناه: اللهم استجب لنا، وحكى القرطبي عن مجاهد وجعفر الصادق وهلال بن كيسان: أن آمين اسم من أسماء الله تعالى وروى عن ابن عباس مرفوعاً ولا يصح، قاله أبو بكر بن العربي المالكي^(٨).

وقال أصحاب مالك: لا يؤمن الإمام ويؤمن المأموم، لما رواه مالك عن سُمَيٍّ، عن أبي صالح، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «وإذا قال، يعنى الإمام: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فقولوا: آمين». الحديث^(٩). واستأنسوا - أيضاً - بحديث أبي موسى: «وإذا قرأ: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فقولوا: آمين».

وقد قدمنا في المتفق عليه: «إذا أمن الإمام فأمنوا» وأنه عليه الصلاة والسلام كان يؤمن إذا قرأ^(١٠): ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

(١) في أ: «التستري».

(٢) في ج: «وقالت الملائكة».

(٣) صحيح البخارى برقم (٧٨٠) وصحيح مسلم برقم (٤١٠).

(٤) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٥) في ج، ط: «وإذا».

(٦) صحيح مسلم برقم (٤٠٤).

(٧) ورواه الثعلبي في تفسيره كما في الدر المنثور (٤٥/١) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس مثله، وكلا الإسنادين ضعيفان.

(٨) تفسير القرطبي (١/١٢٨).

(٩) الموطأ (١/٨٧) ورواه البخارى في صحيحه برقم (٧٩٦) ومسلم في صحيحه برقم (٤٠٩) من طريق مالك به.

(١٠) في ج: «كانوا يؤمنوا خلفه إذا قرأ».

وقد اختلف أصحابنا في الجهر بالتأمين للمأموم في الجهرية، وحاصل الخلاف أن الإمام إن نسي التأمين جهر المأموم به قولاً واحداً، وإن أمن الإمام جهرأ فالجديد أنه لا يجهر المأموم وهو مذهب أبي حنيفة، ورواية عن مالك؛ لأنه ذكر من الأذكار فلا يجهر به كسائر أذكار الصلاة. والقديم أنه يجهر به، وهو مذهب أحمد بن حنبل، والرواية الأخرى عن مالك، لما^(١) تقدم: «حتى يرتج المسجد».

ولنا قول آخر ثالث: أنه إن كان المسجد صغيراً لم يجهر المأموم^(٢)؛ لأنهم يسمعون قراءة الإمام، وإن كان كبيراً جهر ليبليغ التأمين من في أرجاء المسجد، والله أعلم.

وقد روى الإمام أحمد في مسنده، عن عائشة، رضى الله عنها، أن رسول الله ﷺ ذكرت عنده اليهود، فقال: «إنهم لن يحسدونا»^(٣) على شيء كما يحسدونا^(٤) على الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين^(٥)، ورواه ابن ماجه، ولفظه: «ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين»^(٦)، وله عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على قول: آمين، فأكثروا من قول: آمين»^(٧) وفي إسناده طلحة بن عمرو، وهو ضعيف.

وروى ابن مردويه، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «آمين: خاتم رب العالمين على عباده المؤمنين»^(٨).

وعن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت آمين في الصلاة وعند الدعاء، لم يعط أحد قبلي إلا أن يكون موسى، كان موسى يدعو، وهارون يؤمن، فاختموا الدعاء بآمين، فإن الله يستجيبه لكم»^(٩).

قلت: ومن هنا نزع بعضهم في الدلالة بهذه الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوَا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ. قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩]، فذكر الدعاء عن موسى وحده، ومن سياق الكلام ما يدل على أن

(١) في ج: «كما». (٢) في ج: «الإمام».

(٣) في ج: «لم يحسدونا»، وفي ط، ب، أ، و: «لم يحسدونا».

(٤) في أ: «يحسدونا».

(٥) المسند (١٣٥/٦).

(٦) سنن ابن ماجه برقم (٨٥٦) من طريق حماد بن سلمة، عن سهيل، عن أبي صالح، عن أبيه، عن عائشة مرفوعاً، وقال البوصيري في الزوائد (٢٩٧/١): «هذا إسناد صحيح احتج مسلم بجميع رواته».

(٧) سنن ابن ماجه برقم (٨٥٧) من طريق يزيد بن صبيح، عن طلحة بن عمرو، عن عطاء، عن ابن عباس مرفوعاً.

(٨) ورواه ابن عدى في الكامل (٤٤٠/٦) من طريق مؤمل عن أبي أمية بن يعلى عن المقبري عن أبي هريرة به، وقال ابن عدى: «لا يرويه عن أبي أمية بن يعلى - وإن كان ضعيفاً - غير مؤمل هذا».

(٩) ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده برقم (١٦٧) «بغية الباحث» من طريق - مولى خالد - عن أنس بن مالك به، وزرعى بن عبد الرحمن ضعيف.

هارون أمّن، فنزل منزلة من دعا، لقوله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩]، فدلّ ذلك على أن من أمّن على دعاء فكأنما قاله؛ فلهذا قال من قال: إن المأموم لا يقرأ لأن تأمينه على قراءة الفاتحة بمنزلة قراءتها؛ ولهذا جاء في الحديث: «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة»، وكان بلال يقول: لا تسبقني بآمين. فدلّ هذا المنزع على أن المأموم لا قراءة عليه في الجهرية، والله أعلم.

ولهذا قال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن الحسن، حدثنا عبد الله بن محمد بن سلام، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا جرير، عن ليث بن أبي سليم، عن كعب، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قال الإمام: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فقال: آمين، فتوافق^(١) آمين أهل الأرض آمين أهل السماء، غفر الله للعبد ما تقدم من ذنبه. ومثل من لا يقول: آمين، كمثّل رجل غزا مع قوم، فاقترعوا، فخرجت سهامهم، ولم يخرج سهمه، فقال: لِمَ لَمْ يخرج سهمي؟ ف قيل: إنك لم تقل: آمين»^(٢).

(١) في ج، ط، ب، و، أ: «فوافق».

(٢) ورواه أبو يعلى في مسنده (٢٩٦/١١) عن أبي خيثمة عن جرير به، وليث بن أبي سليم ضعيف.

[بسم الله الرحمن الرحيم]^(١)

تفسير سورة البقرة

خمسة وعشرون ألفاً وخمسمائة حرف، وستة آلاف ومائة وعشرون كلمة، ومائتان وستة وثمانون آية في عدد الكوفي وعدد على بن أبي طالب رضى الله عنه.

ذكر ما ورد في فضلها

قال الإمام أحمد: حدثنا عارم، حدثنا معتمر، عن أبيه، عن رجل، عن أبيه، عن معقل بن يسار؛ أن رسول الله ﷺ قال: «البقرة سنّام القرآن وذروته، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً، واستخرجت: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] من تحت العرش، فوصلت بها، أوفصلت بسورة البقرة، ويس: قلب القرآن، لا يقرؤها رجل يريد الله، والدار الآخرة إلا غفر له، واقرووها على موتاكم». انفرد به أحمد^(٢).

وقد رواه أحمد - أيضاً - عن عارم، عن عبد الله بن المبارك، عن سليمان التيمي^(٣)، عن أبي عثمان - وليس بالنهدي - عن أبيه، عن معقل بن يسار، قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرووها على موتاكم» يعني: يس^(٤).

فقد بينّا بهذا الإسناد معرفة المبهمة في الرواية الأولى. وقد أخرج هذا الحديث على هذه الصفة في الرواية الثانية أبو داود، والنسائي، وابن ماجه^(٥).

وقد روى الترمذى من حديث حكيم بن جبير، وفيه ضعف، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء سنّام، وإن سنّام القرآن البقرة، وفيها آية هي سيدة آى القرآن: آية الكرسي»^(٦).

وفى مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذى والنسائي، من حديث سهيل^(٧) بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، فإن البيت الذى يقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان»^(٨) وقال الترمذى: حسن صحيح.

(١) زيادة من ج، ط.

(٢) المسند (٢٦/٥).

(٣) فى ج: «التيمي».

(٤) المسند (٢٦/٥) وأبو عثمان لم يوثقه سوى ابن حبان وأبوه لا يعرف، وقد اتضح أن الحديث مضطرب، اختلف فيه على سليمان التيمي.

(٥) سنن أبي داود برقم (٣١٢١) وسنن النسائي الكبرى برقم (١٠٩١٣) وسنن ابن ماجه برقم (١٤٤٨).

(٦) سنن الترمذى برقم (٢٨٧٨) ورواه الحاكم فى المستدرک (٢/٢٥٩) من طريق حكيم بن جبیر به.

(٧) فى أ: «سهل».

(٨) المسند (٢/٢٨٤) وصحيح مسلم برقم (٧٨٠) وسنن الترمذى برقم (٢٨٧٧) وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٠١٥).

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثني ابن أبي مريم، عن ابن^(١) لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سنان بن سعد، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يخرج من البيت إذا سمع سورة البقرة تقرأ فيه»^(٢).

سنان بن سعد، ويقال بالعكس، وثقه ابن معين، واستنكر حديثه أحمد بن حنبل وغيره.
وقال أبو عبيد: حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن سلمة بن كهيل، عن أبي الأحوص، عن عبد الله، يعني ابن مسعود، قال: إن الشيطان يفر من البيت الذي يسمع فيه سورة البقرة. ورواه النسائي في اليوم والليلة، وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث شعبة^(٣)، ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وقال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن كامل، حدثنا أبو إسماعيل الترمذي، حدثنا أيوب بن سليمان ابن بلال، حدثني أبو بكر بن أبي أويس، عن سليمان بن بلال، عن محمد بن عجلان، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ألفين أحدكم يضع إحدى رجله على الأخرى يتغنى، ويدع سورة البقرة يقرأها؛ فإن الشيطان يفر من البيت تقرأ فيه سورة البقرة، وإن أصفر البيوت الجوف، الصفر من كتاب الله».

وهكذا رواه النسائي في اليوم والليلة، عن محمد بن نصر، عن أيوب بن سليمان، به^(٤).

وروى الدارمي في مسنده عن ابن مسعود قال: ما من بيت تقرأ فيه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط^(٥). وقال: إن لكل شيء سناما، وإن سنام القرآن سورة البقرة، وإن لكل شيء لبابا، وإن لباب القرآن المفصل^(٦). وروى - أيضا - من طريق الشعبي قال: قال عبد الله بن مسعود: من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة أربع من أولها وآية الكرسي وآيتان بعدها وثلاث آيات من آخرها^(٧)، وفي رواية: لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ولا شيء يكرهه ولا يقرآن على مجنون إلا أفاق.

وعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء سناما، وإن سنام القرآن البقرة، من قرأها في بيته ليلة^(٨) لم يدخله الشيطان^(٩) ثلاث ليال، ومن قرأها في بيته نهائراً لم يدخله

(١) في ج: «أبي».

(٢) فضائل القرآن (ص ١٢١).

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص ١٢١) وسنن النسائي الكبرى برقم (١٠٨٠٠) والمستدرک (٢/ ٢٦٠).

(٤) سنن النسائي الكبرى برقم (١٠٧٩٩) ورواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٣٢٩٢) «مجمع البحرين» من طريق حلو بن السري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله به مرفوعاً وخالفهما - أي ابن عجلان وحلو بن السري - شعبة، فرواه عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله فوقه، أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن برقم (١٧٦) وشعبة أوثق الناس في أبي إسحاق، ورواه ابن الضريس في فضائل القرآن برقم (١٦٥) من طريق إبراهيم، عن أبي الأحوص، عن عبد الله موقوفاً.

(٥) سنن الدارمي برقم (٣٣٧٥).

(٦) سنن الدارمي برقم (٣٣٧٧).

(٧) سنن الدارمي برقم (٣٣٨٣).

(٨) في ط، ب: «شيطان».

(٩) في أ: «ليلة».

الشيطان^(١) ثلاثة أيام».

رواه أبو القاسم الطبراني، وأبو حاتم، وابن حبان في صحيحه^(٢).

وقد روى الترمذي، والنسائي، وابن ماجه من حديث عبد الحميد بن جعفر، عن سعيد المقبري، عن عطاء مولى أبي أحمد، عن أبي هريرة، قال: بعث رسول الله ﷺ بعثا وهم ذوو عدد، فاستقرأهم فاستقرأ كل واحد منهم، يعنى ما معه من القرآن، فأتى على رجل من أحدثهم سناً، فقال: «ما معك يا فلان؟» قال: معى كذا وكذا وسورة البقرة، فقال: «أمعك سورة البقرة؟» قال: نعم. قال: «اذهب فأنت أميرهم»، فقال رجل من أشرافهم: والله ما منعنى أن أتعلم البقرة^(٣) إلا أنى خشيت ألا أقوم بها. فقال رسول الله ﷺ: «تعلموا القرآن واقرؤوه؛ فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكاً يفوح ريحه فى كل مكان، ومثل من تعلمه، فيرقد وهو فى جوفه، كمثل جراب أوكى على مسك»^(٤).

هذا لفظ رواية الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن. ثم رواه من حديث الليث، عن سعيد، عن عطاء مولى أبي أحمد مرسلًا، فالله أعلم^(٥).

قال^(٦) البخاري: وقال الليث: حدثني يزيد بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم، عن أسيد بن حضير^(٧)، قال: بينما هو يقرأ من الليل^(٨) سورة البقرة، وفرسه مربوطة عنده، إذ جالت الفرس، فسكت، فسكنت، فقرأ^(٩) فجالت الفرس، فسكت، فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها. فأشفق أن تصيبه، فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال: «اقرأ يا ابن حضير^(١٠)». قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى، وكان منها قريباً، فرفعت رأسى وانصرفت إليه، فرفعت رأسى إلى السماء، فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها، قال: «وتدرى ما ذاك؟». قال: لا. قال: «تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت»^(١١) ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم^(١٢).

وهكذا رواه الإمام العالم أبو عبيد القاسم بن سلام، فى كتاب فضائل القرآن، عن عبد الله بن صالح، ويحيى بن بكير، عن الليث، به^(١٣).

وقد روى من وجه آخر^(١٤)، عن أسيد بن حضير، كما تقدم^(١٥)، والله أعلم.

(١) فى ط، ب: «شيطان».

(٢) المعجم الكبير (١٦٣/٦) وصحيح ابن حبان برقم (١٧٢٧) «موارد».

(٣) فى أ: «سورة البقرة».

(٤) سنن الترمذي برقم (٢٨٧٦) وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٧٤٩).

(٥) فى ج: «فالله تبارك وتعالى أعلم». (٦) فى ب: «وقال».

(٨) فى ج، ط: «فى». (٩) فى ط: «ثم قرأ».

(١١) فى أ: «لأصبح».

(١٢) صحيح البخارى برقم (٥٠١٨).

(١٣) فضائل القرآن (ص ٢٦).

(١٤) فى ج، ط، ب، أ، و: «وجوه آخر».

(١٥) سبق تخريجه فى فضائل القرآن.

(٧) فى ج، ط، ب، أ، و: «الحضير».

(١٠) فى ج، أ: «الحضير».

وقد وقع نحو من هذا لثابت بن قيس بن شماس^(١)، رضى الله عنه، وذلك فيما رواه أبو عبيد [القاسم]^(٢): حدثنا عباد بن عباد، عن جرير بن حازم، عن جرير^(٣) بن يزيد: أن أشياخ أهل المدينة حدثوه: أن رسول الله ﷺ، قيل له: ألم تر ثابت بن قيس بن شماس؟ لم تزل داره البارحة تزهر مصابيح، قال: «فلعله قرأ سورة البقرة». قال: فسئل ثابت، فقال: قرأت سورة البقرة^(٤).

وهذا إسناد جيد، إلا أن فيه إيهاما، ثم هو مرسل، والله أعلم.

[ذكر]^(٥) ما ورد في فضلها مع آل عمران

قال^(٦) الإمام أحمد: حدثنا أبو نعيم، حدثنا بشير بن مهاجر^(٧)، حدثني عبد الله بن بريدة، عن أبيه، قال: كنت جالسا عند النبي ﷺ فسمعتة يقول: «تعلموا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة». قال: ثم سكت ساعة، ثم قال: «تعلموا سورة البقرة، وآل عمران، فإنهما الزهراوان، يُظَلَّان صاحبهما يوم القيامة، كأنهما غمامتان أو غيايتان، أو فرقان من طير صَوَّافٍ، وإن القرآن يلقي صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك. فيقول: أنا صاحبك القرآن الذى أظمتك فى الهواجر، وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة. فيعطى الملك يمينه والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه حلتين، لا يقوم لهما^(٨) أهل الدنيا، فيقولان: بم كسينا هذا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن. ثم يقال: اقرأ واصعد فى درج الجنة وغرفها. فهو فى صعود ما دام يقرأ هَذَا كان أو ترتيلا».

وروى ابن ماجه من حديث بشير بن المهاجر^(٩) بعضه^(١٠)، وهذا إسناد حسن^(١١) على شرط مسلم، فإن بشيرا هذا أخرج له مسلم، ووثقه ابن معين، وقال النسائي: ليس به بأس، إلا أن الإمام أحمد قال فيه: هو منكر الحديث، قد اعتبرت أحاديثه فإذا هى تجيء بالعجب. وقال البخارى: يخالف فى بعض حديثه. وقال أبو حاتم الرازى: يكتب حديثه ولا يحتج به. وقال ابن عدى: روى ما لا يتابع عليه. وقال الدارقطنى: ليس بالقوى.

قلت: ولكن لبعضه شواهد؛ فمن ذلك حديث أبى أمامة الباهلى؛ قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الملك بن عمرو حدثنا هشام، عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلام، عن أبى أمامة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اقرؤوا القرآن؛ فإنه شافع لأصحابه يوم القيامة، اقرؤوا الزهراوين: البقرة وآل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صوافٍ يحاجان عن أهلهما^(١٢) ثم قال: «اقرؤوا البقرة فإن أخذها بركة^(١٣)، وتركها حسرة، ولا تستطيعها

(١) فى ط، ب: «الشماس». (٢) زيادة من ط.

(٤) فضائل القرآن لأبى عبيد (ص ٢٧) وتقدم تخريجه فى فضائل القرآن أيضاً.

(٥) زيادة من أ، و.

(٦) فى ج، ط: «وقال».

(٧) فى ط، ب: «المهاجر».

(٩) فى ج: «المهاجر به».

(٨) فى أ، و: «عليهما».

(١٠) المسند (٣٤٨/٥) وسنن ابن ماجه برقم (٣٧٨١).

(١٢) فى ج: «عن أهلها يوم القيامة».

(١٣) فى أ: «حسنة».

وقد رواه مسلم في الصلاة من حديث معاوية بن سلام، عن أخيه زيد بن سلام، عن جده أبي سلام مَطْوَور الحَبَشِيِّ، عن أبي أمامة صُدِّي بن عجلان [الباهلي]^(٢) به^(٣).

الزهرأوان: المنيران. والغياية: ما أظلك من فوقك. والفرق: القطعة من الشيء، والصواف: المصطفة المتضامة^(٤). والبطلة السحرة، ومعنى «لا تستطيعها» أى: لا يمكنهم حفظها، وقيل: لا تستطيع النفوذ في قارئها، والله أعلم.

ومن ذلك حديث النَّوَّاس^(٥) بن سَمْعَانَ. قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا الوليد بن مسلم، عن محمد بن مهاجر، عن الوليد بن عبد الرحمن الجرشي، عن جبير بن نفير، قال: سمعت النّوَّاس بن سَمْعَانَ الكلابي، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمهم سورة البقرة وآل عمران». وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: «كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرقي، أو كأنهما فرقان من طير صَوَافٍ^(٦) يُحَاجَّان عن صاحبهما»^(٧).

ورواه مسلم، عن إسحاق بن منصور، عن يزيد بن عبد ربه، به^(٨).

والترمذي، من حديث الوليد بن عبد الرحمن الجرشي، به^(٩). وقال: حسن غريب.

وقال أبو عبيد: حدثنا حجاج، عن حماد بن سلمة، عن عبد الملك بن عمير، قال: قال حماد: أحسبه عن أبي منيب، عن عمه؛ أن رجلاً قرأ البقرة وآل عمران، فلما قضى صلاته قال له كعب: أقرأت البقرة وآل عمران؟ قال: نعم. قال: فوالذي نفسي بيده، إن فيهما اسم الله الذي إذا دعى به استجاب^(١٠). قال: فأخبرني به. قال: لا، والله لا أخبرك به، ولو أخبرتك لأوشكت أن تدعوه بدعوة أهلك فيها أنا وأنت^(١١).

[قال أبو عبيد]^(١٢): وحدثنا عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح، عن سليم بن عامر: أنه سمع أبا أمامة يقول: إن أخاً لكم^(١٣) أرى في المنام أن الناس يسلكون في صدع جبل وعر طويل، وعلى رأس الجبل شجرتان خضراوان تهتفان: هل فيكم من يقرأ سورة البقرة؟ وهل فيكم من يقرأ سورة آل عمران؟ قال: فإذا قال الرجل: نعم. دننا منه بأعذاقهما، حتى يتعلق بهما فنخطران به

(١) المسند (٢٤٩/٥).

(٢) زيادة من ج، ب، أ، و.

(٣) صحيح مسلم برقم (٨٠٤).

(٤) في ج: «المتصلة».

(٥) في أ: «صاحب لهما».

(٦) المسند (١٨٣/٤) وصحيح مسلم برقم (٨٠٥).

(٧) سنن الترمذي برقم (٢٨٨٣).

(٨) في ط: «أجاب».

(٩) فضائل القرآن (ص ١٢٦).

(١٠) في ج: «أخاكم».

(١١) في ج: «نواس».

(١٢) في ج، ط: «من طير صاف».

(١٣) زيادة من ب.

الجبيل^(١).

[قال أبو عبيد]^(٢): وحدثنا عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح، عن أبي عمران: أنه سمع أم الدرداء تقول: إن رجلاً من قرأ القرآن أغار على جاره، فقتله، وإنه أقيده به^(٣)، فقتل، فما زال القرآن ينسل منه سورة سورة، حتى بقيت البقرة وآل عمران جمعة، ثم إن آل عمران انسلت منه، وأقامت البقرة جمعة، فقبل لها: ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩] قال: فخرجت كأنها السحابة العظيمة^(٤).

قال أبو عبيد: أراه، يعنى: أنهما كانتا معه في قبره تدفعان عنه وتؤنسانه، فكانتا من آخر ما بقى معه من القرآن.

وقال - أيضاً -: حدثنا أبو مسهر الغساني، عن سعيد بن عبد العزيز التنوخي: أن يزيد بن الأسود الجُرشي كان يحدث^(٥): أنه من قرأ البقرة وآل عمران في يوم، برئ من النفاق حتى يمسي، ومن قرأهما في ليلة برئ من النفاق حتى يصبح، قال: فكان يقرؤهما كل يوم وليلة سوى جزئه^(٦).

[قال أيضاً]^(٧): وحدثنا يزيد، عن وقاء^(٨) بن إياس، عن سعيد بن جبير، قال: قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: من قرأ البقرة وآل عمران في ليلة كان - أو كتب - من القانتين^(٩).

فيه انقطاع، ولكن ثبت في الصحيحين^(١٠): أن رسول الله ﷺ قرأ بهما^(١١) في ركعة واحدة^(١٢).

[ذكر]^(١٣) ما ورد في فضل السبع الطول

قال أبو عبيد: حدثنا هشام بن إسماعيل الدمشقي، عن محمد بن شعيب، عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أبي المليح، عن وائلة بن الأسقع، عن النبي ﷺ، قال: «أعطيت السبع الطوال مكان التوراة، وأعطيت المثني مكان الإنجيل، وأعطيت المثاني^(١٤) مكان الزبور، وفضلت بالمفصل»^(١٥).

هذا حديث غريب، وسعيد بن بشير، فيه لين.

وقد رواه أبو عبيد [أيضاً]^(١٦)، عن عبد الله بن صالح، عن الليث، عن سعيد بن أبي هلال، قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال... فذكره، والله أعلم. ثم قال^(١٧): حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن عمرو^(١٨) بن أبي عمرو، مولى المطلب بن عبد الله بن حنطب، عن حبيب بن هند الأسلمي،

(١) فضائل القرآن (ص ١٢٦).

(٢) زيادة من و.

(٣) في ج، ط، ب: «منه».

(٥) في ج: «يحدثه».

(٤) فضائل القرآن (ص ١٢٦، ١٢٧).

(٦) فضائل القرآن (ص ١٢٧).

(٨) في هـ: «ورقاء».

(٧) زيادة من ب، و.

(٩) فضائل القرآن (ص ١٢٧).

(١٠) في ج، ط، ب، أ، و: «الصحيح».

(١١) في ج، ط، ب، و: «قرأ بهن»، وفي أ: «قرأهن».

(١٢) الحديث وقع لى في سنن النسائي (١٧٧/٢) من حديث حذيفة، رضى الله عنه.

(١٣) زيادة من أ، و.

(١٤) في أ: «وأعطيت السبع المثاني».

(١٥) فضائل القرآن (ص ١٢٠) ورواه الطبري في تفسيره (١/ ١٠٠) من طريق رواد بن الجراح عن سعيد بن بشير به، ورواه الطبري

في تفسيره (١/ ١٠٠) من طريق الطيالسي عن عمران - أبي العوام - عن قتادة به، ورواه الطبري في تفسيره (١/ ١٠١) من طريق

ليث بن أبي سليم عن أبي بردة عن أبي المليح به نحوه.

(١٦) في ج: «عمر».

(١٧) في ب: «قال أيضاً».

عن عروة، عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «من أخذ السبع فهو حَبْرٌ»^(١).

وهذا أيضاً غريب، وحبيب بن هند بن أسماء بن هند بن حارثة الأسلمي، روى عنه عمرو بن أبي عمرو وعبد الله بن أبي بكر، وذكره أبو حاتم الرازي ولم يذكر فيه جرحاً، فإله أعلم.

وقد رواه الإمام أحمد، عن سليمان بن داود، وحسين، كلاهما عن إسماعيل بن جعفر، به^(٢).

ورواه - أيضاً - عن أبي سعيد، عن سليمان بن بلال، عن حبيب بن هند، عن عروة، عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «من أخذ السبع الأول من القرآن فهو حَبْرٌ»^(٣).

قال أحمد: وحدثننا حسين، حدثنا ابن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ مثله^(٤).

قال عبد الله بن أحمد: وهذا أرى فيه، عن أبيه، عن الأعرج، ولكن كذا كان في الكتاب بلا «أبي»^(٥)، أغفله أبي، أو كذا هو مرسل، ثم قال أبو عبيد: حدثنا هُشَيْمٌ، أخبرنا أبو بشر، عن سعيد ابن جبير، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧]، قال: هي السبع الطول: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس. قال: وقال مجاهد: هي السبع الطول. وهكذا قال مكحول، وعطية بن قيس، وأبو محمد الفارسي^(٦)، وشَدَاد بن عبيد الله، ويعحي ابن الحارث الذماري في تفسير الآية بذلك، وفي تعدادها، وأن يونس هي السابعة.

فصل

والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف، قال بعض العلماء: وهي مشتملة على ألف خبر، وألف أمر، وألف نهى.

وقال العادون: آياتها مائتان وثمانون وسبع آيات، وكلماتها ستة آلاف كلمة ومائة وإحدى وعشرون كلمة، وحروفها خمسة^(٧) وعشرون ألفاً وخمسمائة حرف، فإله أعلم.

قال ابن جرير، عن عطاء، عن ابن عباس: نزلت بالمدينة سورة البقرة.

وقال خَصِيف، عن مجاهد، عن عبد الله بن الزبير، قال: أنزل بالمدينة سورة البقرة.

وقال الواقدي: حدثني الضحاك بن عثمان، عن أبي الزناد، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه، قال: نزلت البقرة بالمدينة.

وهكذا قال غير واحد من الأئمة والعلماء، والمفسرين، ولا خلاف فيه.

(١) فضائل القرآن (ص ١٢٠).

(٢) المسند (٧٣/٦).

(٣) المسند (٨٢/٦).

(٤) المسند (٧٣/٦).

(٥) في ج، ط، ب، أ، و: «فلا أدري».

(٦) في ج: «خمس».

(٧) في ج، ط، ب: «القاري».

وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن مَعْمَر، حدثنا الحسن بن علي بن الوليد [الفارسي] ^(١)، حدثنا خلف بن هشام؛ حدثنا عُبَيْس ^(٢) بن ميمون، عن موسى بن أنس بن مالك، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا: سورة البقرة، ولا سورة آل عمران، ولا سورة النساء، وكذا القرآن كله، ولكن قولوا: السورة التي يذكر فيها البقرة، والتي يذكر فيها آل عمران، وكذا القرآن كله» ^(٣).

هذا حديث غريب لا يصح رفعه، وعيسى بن ميمون هذا هو أبو سلمة الخواص، وهو ضعيف الرواية، لا يحتج به. وقد ثبت في الصحيحين ^(٤)، عن ابن مسعود: أنه رمى الجمرة من بطن الوادي، فجعل البيت عن يساره، ومنى عن يمينه، ثم قال ^(٥): هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة. أخرجاه ^(٦).

وروى ابن مَرْدُويه، من حديث شعبة، عن عقيل بن طلحة، عن عتبة بن فرقد ^(٧)، قال: رأى النبي ﷺ في أصحابه تأخراً ^(٨)، فقال: «يا أصحاب سورة البقرة» ^(٩). وأظن هذا كان يوم حنين، حين ولوا مدبرين أمر العباس فناداهم: «يا أصحاب الشجرة»، يعني أهل بيعة الرضوان. وفي رواية: «يا أصحاب البقرة» ^(١٠)؛ ولينشطهم بذلك، فجعلوا يقبلون من كل وجه ^(١١). وكذلك يوم اليمامة مع أصحاب مسيلمة، جعل الصحابة يفرون لكثافة حَشْر ^(١٢) بنى حنيفة، فجعل المهاجرون والأنصار يتنادون: يا أصحاب سورة البقرة، حتى فتح الله عليهم ^(١٣). رضى الله عن أصحاب رسول الله أجمعين.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . آلم (١)﴾

قد اختلف المفسرون في الحروف المقطعة التي في أوائل السور، فمنهم من قال: هي مما استأثر الله بعلمه، فردوا علمها إلى الله، ولم يفسروها [حكاه القرطبي في تفسيره عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلى وابن مسعود رضى الله عنهم به، وقاله عامر الشعبي وسفيان الثوري والربيع بن خثيم، واختاره

(١) زيادة من ج، ط، ب، أ، و. (٢) في هـ: «عيسى».

(٣) ورواه الطبراني في الأوسط برقم (٣٤٥٠) «مجمع البحرين» والبيهقي في شعب الإيمان برقم (٢٥٨٢) من طريق عُبَيْس بن ميمون، عن موسى بن أنس به، وقال البيهقي: «عُبَيْس بن ميمون منكر الحديث، وهذا لا يصح، وإنما روى عن ابن عمر من قوله».

(٤) في ج، ط، ب، أ، و: «الصحيح». (٥) في و: «يقول».

(٦) صحيح البخاري برقم (١٧٤٧) وصحيح مسلم برقم (١٢٩٦).

(٧) في هـ: «مرید»، وهو خطأ. (٨) في ج: «تأخراً في أصحابه».

(٩) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٣٣/١٧) من طريق علي بن قتيبة عن شعبة عن عقيل بن أبي طلحة به، وجاء من حديث أنس، رواه أبو يعلى في مسنده (٢٨٩/٦) من طريق عمرو بن عاصم عن أبي العوام عن معمر عن الزهري عن أنس رضى الله عنه.

(١٠) في ب: «سورة البقرة».

(١١) جاء من حديث العباس، رواه مسلم في صحيحه برقم (١٧٧٥) من طريق الزهري، عن كثير بن عباس عن أبيه العباس رضى الله عنه.

(١٢) في ج، ط، ب، و: «حيش».

(١٣) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٥٠٢/١٢) من طريق هشام بن عروة، عن أبيه قال: «كان شعار أصحاب النبي ﷺ يوم مسيلمة: يا أصحاب سورة البقرة».

أبو حاتم بن حبان^(١)[٢].

ومنهم من فسرها، واختلف هؤلاء في معناها، فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما هي أسماء السور [قال العلامة أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري في تفسيره: وعليه إطباق الأكثر، ونقله عن سيويه أنه نص عليه]^(٣)، ويعتضد هذا بما ورد في الصحيحين، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة: الم السجدة، وهل أتى على الإنسان^(٤).

وقال سفيان الثوري، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: أنه قال: الم، وحَم، والمص، وص، فواتح افتتح الله بها القرآن.

وكذا قال غيره، عن مجاهد. وقال مجاهد في رواية أبي حذيفة موسى بن مسعود، عن شبل، عن ابن أبي نجيح. عنه، أنه قال: الم، اسم من أسماء القرآن.

وهكذا قال قتادة، وزيد بن أسلم. ولعل هذا يرجع إلى معنى قول عبد الرحمن بن زيد: أنه اسم من أسماء السور^(٥)، فإن كل سورة يطلق عليها اسم القرآن، فإنه يبعد أن يكون «المص» اسماً للقرآن كله؛ لأن المتبادر إلى فهم سامع من يقول: قرأت «المص»، إنما ذلك عبارة عن سورة الأعراف، لا لمجموع القرآن. والله أعلم.

وقيل: هي اسم من أسماء الله تعالى. فقال الشعبي: فواتح السور من أسماء الله تعالى، وكذلك قال سالم بن عبد الله، وإسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير، وقال شعبة عن السدي: بلغني أن ابن عباس قال: الم اسم من أسماء الله الأعظم، هكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث شعبة.

ورواه ابن جرير عن بُندَار، عن ابن مَهْدِي، عن شعبة، قال: سألت السدي عن حم وطس والم، فقال: قال ابن عباس: هي اسم الله الأعظم.

وقال ابن جرير: وحدثننا محمد بن المثنى، حدثنا أبو النعمان، حدثنا شعبة، عن إسماعيل السدي، عن مرة الهمداني، قال: قال عبدالله: فذكر نحوه [وَحكى مثله عن علي وابن عباس]^(٦).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو قسم أقسم الله به، وهو من أسماء الله تعالى.

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث ابن عُلَيَّة، عن خالد الحذاء، عن عكرمة أنه قال: الم، قسم.

وروي^(٧) - أيضاً - من حديث شريك بن عبد الله، عن عطاء بن السائب، عن أبي الضحى، عن ابن عباس: الم، قال: أنا الله أعلم.

وكذا قال سعيد بن جبير. وقال السُّدِّي عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن

(١) تفسير القرطبي (١/١٥٤).

(٢) (٣) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٤) صحيح البخاري برقم (٨٩١) وصحيح مسلم برقم (٨٨٠).

(٥) في ط، ب، أ، و: «السورة». (٦) زيادة من ج، ط، ب، أ، و. (٧) في ج: «وروي».

مرة الهمذاني عن ابن مسعود. وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: الم. قال: أما الم فهي حروف استفتحت من حروف هجاء أسماء الله تعالى.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿الْم﴾، قال: هذه الأحرف الثلاثة من التسعة والعشرين حرفاً دارت فيها الألسن كلها، ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه، وليس منها حرف إلا وهو من آلائه وبلائه، وليس منها حرف إلا وهو في مدة أقوام وآجالهم. قال عيسى ابن مريم، عليه السلام، وعَجَب، فقال: وأعَجَبَ أنهم ينطقون بأسمائه ويعيشون في رزقه، فكيف يكفرون به؛ فالألف مفتاح اسم الله، واللام مفتاح اسمه لطيف^(١)، والميم مفتاح اسمه مجيد^(٢)، فالألف آلاء الله، واللام لطف الله، والميم مجد الله، والألف^(٣) سنة، واللام ثلاثون سنة، والميم أربعون سنة^(٤). هذا لفظ ابن أبي حاتم. ونحوه رواه ابن جرير، ثم شرع يوجه كل واحد من هذه الأقوال ويوفق بينها، وأنه لا منافاة بين كل واحد منها وبين الآخر، وأن الجمع ممكن؛ فهي أسماء السور، ومن أسماء الله تعالى يفتح بها السور، فكل حرف منها دلّ على اسم من أسمائه وصفة من صفاته، كما افتتح سورا كثيرة بتحميده وتسبيحه وتعظيمه، قال: ولا مانع من دلالة الحرف منها على اسم من أسماء الله، وعلى صفة من صفاته، وعلى مدة وغير ذلك، كما ذكره الربيع ابن أنس عن أبي العالية؛ لأن الكلمة الواحدة تطلق على معان كثيرة، كلفظة الأمة فإنها تطلق ويراد به الدين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢، ٢٣]. وتطلق ويراد بها الرجل المطيع لله، كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] وتطلق ويراد بها الجماعة، كقوله: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ [النحل: ٣٦] وتطلق ويراد بها الحين من الدهر، كقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥] أى: بعد حين على أصح القولين، قال: فكذاك هذا.

هذا حاصل كلامه موجهاً، ولكن هذا ليس كما ذكره أبو العالية، فإن أبا العالية زعم أن الحرف دل على هذا، وعلى هذا، وعلى هذا معاً، ولفظة الأمة وما أشبهها^(٥) من الألفاظ المشتركة في الاصطلاح، إنما دل في القرآن في كل موطن على معنى واحد دل عليه سياق الكلام، فأما حمله على مجموع محامله إذا أمكن فمسألة مختلف فيها بين علماء الأصول، ليس هذا^(٦) موضع البحث فيها، والله أعلم؛ ثم إن لفظ الأمة يدل على كل^(٧) معانيه في سياق الكلام بدلالة الوضع، فأما دلالة الحرف الواحد على اسم يمكن أن يدل على اسم آخر من غير أن يكون أحدهما أولى من الآخر في التقدير أو الإضمار بوضع ولا بغيره، فهذا مما لا يفهم إلا بتوقيف، والمسألة مختلف فيها، وليس فيها إجماع حتى يحكم به.

(١) في ج: «اسمه اللطيف»، وفي أ: «اسم لطيف». (٢) في ج: «المجيد». (٣) في ج، ط، ب، أ، و: «فالآلف».

(٤) زيادة من ج، ط، ب.

(٥) في ج، ط، ب، أ، و: «وما أشبهه».

(٦) في أ: «هنا».

(٧) في ط، ب: «كل من».

وما أنشدوه من الشواهد على صحة إطلاق الحرف الواحد على بقية الكلمة، فإن في السياق ما يدل على ما حذف بخلاف هذا، كما قال الشاعر:

قلنا قفى لنا فقالت قاف لا تحسبى أنا نسينا الإيجاف^(١)

تعنى: وقفت. وقال الآخر:

ما للظلم عال كيف لا يا ينقدُّ عنه جلده إذا يا^(٢)

قال ابن جرير: كأنه أراد أن يقول: إذا يفعل كذا وكذا، فاكتمى بالياء من يفعل، وقال الآخر:

بالخير خيرات وإن شراً فـ لا أريد الشر إلا أن تا^(٣)

يقول: وإن شراً فشر، ولا أريد الشر إلا أن تشاء، فاكتمى بالفاء والتاء من الكلمتين عن بقيتهما، ولكن هذا ظاهر من سياق الكلام، والله أعلم.

[قال القرطبي: وفي الحديث: «من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة»^(٤) الحديث. قال شقيق: هو أن يقول في اقتل: إق]^(٥).

وقال خفيف، عن مجاهد؛ أنه قال: فواتح السور كلها «ق وص وحم وطسم والـر» وغير ذلك هجاء موضوع. وقال بعض أهل العربية: هي حروف من حروف المعجم، استغنى بذكر ما ذكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها، التي هي تتمة الثمانية والعشرين حرفاً، كما يقول القائل: ابني يكتب في: ا ب ت ث، أى: في حروف المعجم الثمانية والعشرين فيستغنى بذكر بعضها عن مجموعها. حكاه ابن جرير.

قلت: مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً، وهى: ال م ص ر ك ي ع ط س ح ق ن، يجمعها قولك: نص حكيم قاطع له سر. وهى نصف الحروف عدداً، والمذكور منها أشرف من المتروك، وبيان ذلك من صناعة التصريف.

[قال الزمخشري: وهذه الحروف الأربعة عشر مشتملة على أنصاف أجناس الحروف يعنى من المهموسة والمجهورة، ومن الرخوة والشديدة، ومن المطبقة والمفتوحة، ومن المستعلية والمنخفضة ومن حروف القلقلة. وقد سردها مفصلة ثم قال: فسبحان الذى دقت فى كل شىء حكمته، وهذه الأجناس المعدودة ثلاثون بالمذكورة منها، وقد علمت أن معظم الشىء وجله ينزل منزلة كله]^(٦).

(١) البيت فى تفسير الطبرى (٢١٢/١).

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٢١٣/١).

(٣) البيت فى تفسير الطبرى (٢١٣/١) وينسب إلى القيم بن أوس كما ذكره المحقق الفاضل.

(٤) تفسير القرطبي (١٥٦/١) والحديث رواه ابن ماجه فى السنن برقم (٢٦٢٠) من طريق يزيد بن أبى زياد، عن الزهرى، عن سعيد، عن أبى هريرة رضى الله عنه به مرفوعاً، وقال البوصيرى فى الزوائد (٣٣٤/٢): «هذا إسناد ضعيف، يزيد بن أبى زياد الدمشقى قال فيه البخارى وأبو حاتم: منكر الحديث».

تنبيه: وقع فى بعض النسخ المساعدة: قال سفيان، بدل شقيق، والذي فى تفسير القرطبي موافق لما ههنا، وقد روى هذا القول عن سفيان الأصبهانى فى الترغيب والترهيب برقم (٢٣٢٩).

(٥) زيادة من ج، ط، أ، و. (٦) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

ومن ههنا لحظ^(١) بعضهم فى هذا المقام كلاماً، فقال: لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه وتعالى عبثاً ولا سدى؛ ومن قال من الجهلة: إنه فى القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلىة، فقد أخطأ خطأ كبيراً، فتعين أن لها معنى فى نفس الأمر، فإن صح لنا فيها عن المعصوم شىء قلنا به، وإلا وقفنا حيث وقفنا، وقلنا: ﴿أَمَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

ولم يجمع العلماء فيها على شىء معين، وإنما اختلفوا، فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه، وإلا فالوقف حتى يتبين. هذا مقام .

المقام الآخر فى الحكمة التى اقتضت إيراد هذه الحروف فى أوائل السور، ما^(٢) هى؟ مع قطع النظر عن معانيها فى أنفسها. فقال بعضهم: إنما ذكرت لتعرف بها أوائل السور. حكاه ابن جرير، وهذا ضعيف؛ لأن الفصل حاصل بدونها فيما لم تذكر فيه، وفيما ذكرت فيه بالبسملة تلاوة وكتابة.

وقال آخرون: بل ابتدئ بها لتُفتح لاستماعها أسماعُ المشركين - إذ^(٣) تواصلوا بالإعراض عن القرآن - حتى إذا استمعوا له تلى عليهم المؤلف منه. حكاه ابن جرير - أيضاً - ، وهو ضعيف أيضاً؛ لأنه لو كان كذلك لكان ذلك فى جميع السور لا^(٤) يكون فى بعضها، بل غالبها ليس كذلك، ولو كان كذلك - أيضاً - لانبغى^(٥) الابتداء بها فى أوائل الكلام معهم، سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك. ثم إن هذه السورة التى تليها أعنى البقرة وآل عمران مدينتان ليستا خطاباً للمشركين؛ فانتقض ما ذكره بهذه الوجوه.

وقال آخرون: بل إنما ذكرت هذه الحروف فى أوائل السور التى ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه [تركب]^(٦) من هذه الحروف المقطعة التى يتخاطبون بها.

ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع فى تسع وعشرين سورة؛ ولهذا يقول تعالى: ﴿الْقَم. ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ١، ٢]. ﴿الْقَم. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ. نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران: ١ - ٣]. ﴿الْقَم. كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: ١، ٢]. ﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١]. ﴿الْقَم. تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ١، ٢]. ﴿حَم. تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١، ٢]. ﴿حَم. عَسَقَ. كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ١ - ٣]، وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن^(٧) النظر، والله أعلم.

(٣) فى ط: «إذا».

(٢) فى ط: «وما».

(١) فى ب، و: «لخص»، وفى ج، ط: «يخص».

(٥) فى ج، ط: «لا ينبغى».

(٤) فى ب: «ولا».

(٦) زيادة من ج، ط، ب.

(٧) فى ط: «أنعم».

وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم، فقد ادعى ما ليس له، وطار في غير مطاره، وقد ورد في ذلك حديث ضعيف، وهو مع ذلك أدل على بطلان هذا المسلك من التمسك به على صحته. وهو ما رواه محمد بن إسحاق بن يسار، صاحب المغازي، حدثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله بن رثاب، قال: مر أبو ياسر^(١) بن أخطب، في رجال من يهود، برسول الله ﷺ، وهو يتلو فاتحة سورة البقرة: ﴿الْأَمَّ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ [هُدًى لِلْمُتَّقِينَ]﴾^(٢) [البقرة: ١، ٢] فأتى أخاه حبي بن أخطب في رجال من اليهود، فقال: تعلمون - والله - لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل الله عليه: ﴿الْأَمَّ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فقال: أنت سمعته؟ قال: نعم. قال: فمشى حبي بن أخطب في أولئك النفر من اليهود^(٣) إلى رسول الله ﷺ: فقالوا: يا محمد، ألم يذكر أنك تتلو فيما أنزل الله عليك: ﴿الْأَمَّ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾^(٤)؟ فقال رسول الله ﷺ: «بلى». فقالوا: جاءك^(٥) بهذا جبريل من عند الله؟ فقال: «نعم». قالوا: لقد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه^(٦) بين لنبي منهم ما مدة ملكه وما أجل أمته غيرك. فقام^(٧) حبي بن أخطب، وأقبل على من كان معه، فقال لهم: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة، أفتدخلون في دين نبي، إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة؟ ثم أقبل على رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، هل مع هذا غيره؟ فقال: «نعم»، قال: ما ذاك؟ قال: «المص»، قال: هذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد سبعون^(٨)، فهذه إحدى وثلاثون^(٩) ومائة سنة. هل مع هذا يا محمد غيره^(١٠)؟ قال: «نعم». قال: ما ذاك^(١١)؟ قال: «الر». قال: هذا^(١٢) أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والراء مائتان. فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة. فهل مع هذا يا محمد غيره؟ قال: «نعم»، قال: ماذا؟ قال: «المر». قال: فهذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والراء مائتان، فهذه إحدى وسبعون ومائتان، ثم قال: لقد لبس علينا أمرك يا محمد، حتى ما ندرى أقليلاً أعطيت أم كثيراً. ثم قال: قوموا عنه. ثم قال أبو ياسر^(١٣) لأخيه حبي بن أخطب، ولمن معه من الأحبار: ما يدريكم؟ لعله قد جمع هذا لمحمد كله إحدى وسبعون وإحدى وثلاثون^(١٤) ومائة وإحدى وثلاثون ومائتان وإحدى وسبعون ومائتان، فذلك سبعمائة وأربع سنين^(١٥). فقالوا: لقد تشابه علينا أمره، فيزعمون أن هؤلاء الآيات نزلت فيهم: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧] ^(١٦).

(١) في ج: «أبو ياسر». (٢) زيادة من ج. (٣) في ج، ط: «من يهود». (٤) زيادة من ب. (٥) في ج، ط: «أجاءك». (٦) في ج: «ما نعلمهم». (٧) في أ: «فقال». (٨) في ج: «تسعون»، وفي ط، ب، أ، و: «ستون». (٩) في ج: «إحدى وستون». (١٠) في ج، أ، و: «هل مع هذا غيره يا محمد». (١١) في ج، ط، ب، و: «ماذا». (١٢) في ج، ط، ب: «هذه». (١٣) في ج: «أبو ياسر». (١٤) في ج: «إحدى وستون». (١٥) في ج: «أربع وثلاثين سنة». (١٦) ورواه البخاري في التاريخ الكبير (٢٠٨/٢) والطبري في تفسيره (٢١٧/١) من طريق ابن إسحاق، وأطنب العلامة أحمد شاكر في الكلام عليه في حاشية تفسير الطبري.

فهذا مداره على محمد بن السائب الكلبي، وهو ممن لا يحتاج بما انفرد به، ثم كان مقتضى هذا المسلك إن كان صحيحاً أن يحسب ما لكل حرف من الحروف الأربعة عشر التي ذكرناها، وذلك يبلغ منه جملة كثيرة، وإن حسبت مع التكرار فأتيت وأعظم^(١)، والله أعلم.

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢)

قال ابن جرير: قال ابن عباس: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾: هذا الكتاب. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والسدي ومقاتل بن حيان، وزيد بن أسلم، وابن جرير: أن ذلك بمعنى هذا، والعرب تقارض بين هذين الاسمين من أسماء الإشارة فيستعملون كلا منهما مكان الآخر، وهذا معروف في كلامهم.

و ﴿ الْكِتَابُ ﴾: القرآن. ومن قال: إن المراد بذلك الكتاب الإشارة إلى التوراة والإنجيل، كما حكاه ابن جرير وغيره، فقد أبعد النجعة وأغرق^(٢) في النزاع، وتكلف ما لا علم له به.

والرَّيب: الشك، قال السدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود، وعن أناس^(٣) من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾: لا شك فيه.

وقاله أبو الدرداء وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو مالك ونافع مولى ابن عمر وعطاء وأبو العالية والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان والسدي وقتادة وإسماعيل بن أبي خالد. وقال ابن أبي حاتم: لا أعلم في هذا خلافاً.

[وقد يستعمل الريب في التهمة قال جميل:]

بشينة قالت يا جميل أربتنى

فقلت كلانا يا بشين مريب

واستعمل - أيضاً - في الحاجة كما قال بعضهم^(٤):

قضينا من تهامة كل ريب

وخير ثم أجمنا السيوف^(٥)

ومعنى الكلام: أن هذا الكتاب - وهو القرآن - لا شك فيه أنه نزل^(٦) من عند الله، كما قال تعالى في السجدة: ﴿ أَلَمْ تَنْزِلُ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [السجدة ١، ٢]. [وقال بعضهم: هذا خبر ومعناه النهي، أى: لا ترتابوا فيه]^(٧).

ومن القراء من يقف على قوله: ﴿ لَا رَيْبَ ﴾. ويتبدى بقوله: ﴿ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ والوقف على قوله تعالى: ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أولى للآية التي ذكرنا، ولأنه يصير قوله: ﴿ هُدًى ﴾ صفة للقرآن، وذلك أبلغ من كون: ﴿ فِيهِ هُدًى ﴾.

و ﴿ هُدًى ﴾: يحتمل من حيث العربية أن يكون مرفوعاً على النعت، ومنصوباً على الحال.

(١) في و: «أظم وأعظم»، وفي أ: «أعظم وأعظم». (٢) في ج: «أغرب». (٣) في ج، ط: «ناس». (٤) هو كعب بن مالك، والبيت في اللسان، مادة «ريب». (٥) زيادة من ج، ط، أ، و. (٦) في ج، ط، ب: «منزل». (٧) زيادة من ج، ط.

وخصت الهداية للمتقين. كما قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]. ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن؛ لأنه هو في نفسه هدى، ولكن لا يناله إلا الأبرار، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وقد قال السدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: نوراً^(١) للمتقين.

وقال الشعبي: هدى من الضلالة. وقال سعيد بن جبير: تبيان للمتقين. وكل ذلك صحيح.

وقال السدي: عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال: هم المؤمنون^(٢).

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أى: الذين يحذرون من الله عقوبته فى ترك ما يعرفون من الهدى، ويرجون رحمته فى التصديق بما جاء به.

وقال أبو روق، عن الضحاك، عن ابن عباس: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال: المؤمنون الذين يتقون^(٣) الشرك بى، ويعملون بطاعتي.

وقال سفيان الثوري، عن رجل، عن الحسن البصري، قوله: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال: اتقوا ما حرم الله عليهم، وأدوا ما افترض عليهم.

وقال أبو بكر بن عياش: سألنى الأعمش عن المتقين، قال: فأجبتة. فقال [لى]^(٤): سل عنها الكلبى، فسألته فقال: الذين يجتنبون كبائر الإثم. قال: فرجعت إلى الأعمش، فقال: نرى أنه كذلك. ولم ينكره.

وقال قتادة: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾: هم الذين نعتهم الله بقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾. الآية والتي بعدها [البقرة: ٣، ٤].

واختار ابن جرير: أن الآية تعم ذلك كله، وهو كما قال.

وقد روى الترمذى وابن ماجه، من رواية أبى عقيل عبد الله بن عقيل، عن عبد الله بن يزيد، عن ربيعة بن يزيد، وعطية بن قيس، عن عطية السعدى، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس^(٥)». ثم قال الترمذى: حسن غريب^(٦).

(١) فى ج، ب: «نور».

(٢) فى ج: «يتعبدون».

(٣) زيادة من ج، ط، ب.

(٤) فى ب: «البأس».

(٥) فى ب: «البأس».

(٦) سنن الترمذى برقم (٢٤٥١) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢١٥).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن عمران، حدثنا إسحاق بن سليمان، يعني الرازي، عن المغيرة بن مسلم، عن ميمون أبي حمزة، قال: كنت جالساً عند أبي وائل، فدخل علينا رجل، يقال له: أبو عفيف، من أصحاب معاذ، فقال له شقيق بن سلمة: يا أبا عفيف، ألا تحدثنا عن معاذ بن جبل؟ قال: بلى سمعته يقول: يحبس الناس يوم القيامة في بقيع واحد، فينادى مناد: أين المتّقون؟ فيقومون في كَنَف من الرّحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر. قلت: من المتّقون؟ قال: قوم اتّقوا الشّرك وعبادة الأوثان، وأخلصوا لله العبادة، فيمرون إلى الجنة^(١).

وأصل التقوى: التوقى مما يكره لأن أصلها وقوى من الوقاية. قال النابغة:

سقط النصف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

وقال الآخر:

فألقت قناعاً دونه الشمس واتقت بأحسن موصولين كف ومعصم

وقد قيل: إن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، سأل أبيّ بن كعب عن التقوى، فقال له: أما سلكت طريقاً ذا شوك؟ قال: بلى، قال: فما عملت؟ قال: شمرت واجتهدت، قال: فذلك التقوى. وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال:

خل الذنوب صغيرها وكيبرها ذاك التقى
واصنع كماش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

وأنشد أبو الدرداء يوماً:

يريد المرء أن يؤتى مناه ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء فائدتى ومالى وتقوى الله أفضل ما استفادا

وفى سنن ابن ماجه عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما استفاد المرء بعد تقوى الله خيراً من زوجة صالحة، إن نظر إليها سرتة، وإن أمرها أطاعته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحتة فى نفسها وماله»^(٢).

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (٣)

قال أبو جعفر الرازي، عن العلاء بن المسيب بن رافع، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص، عن عبد الله، قال: الإيمان التصديق.

(١) تفسير ابن أبى حاتم (٣٣/١) وفى إسناده ميمون القصاب ضعيف.
(٢) سنن ابن ماجه برقم (١٨٥٧) من طريق عثمان بن أبى العاتكة عن على بن زيد عن القاسم، عن أبى أمامة رضى الله عنه، وقال البوصيرى فى الزوائد (٧٠/٢): «هذا إسناده فيه على بن زيد بن جدعان وهو ضعيف، وعثمان بن أبى العاتكة مختلف فيه».

وقال على بن أبى طلحة وغيره، عن ابن عباس، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: يصدقون.

وقال معمر عن الزهري: الإيمان العمل.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: يخشون.

قال ابن جرير وغيره: والأولى أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولاً واعتقاداً وعملاً، قال: وقد تدخل الخشية لله فى معنى الإيمان، الذى هو تصديق القول بالعمل، والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله وكتبه ورسله، وتصديق الإقرار بالفعل. قلت: أما الإيمان فى اللغة فيطلق على التصديق المحض، وقد يستعمل فى القرآن، والمراد به ذلك، كما قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]، وكما قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، وكذلك إذا استعمل مقروناً مع الأعمال؛ كقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الإنشقاق: ٢٥]، والتين: [٦]، فأما إذا استعمل مطلقاً فالإيمان الشرعى المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً. هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة، بل قد حكاه الشافعى وأحمد بن حنبل وأبو عبيد وغير واحد إجماعاً: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص. وقد ورد فيه آثار كثيرة وأحاديث أوردنا^(١) الكلام فيها فى أول شرح البخارى، والله الحمد والمنة.

ومنهم من فسره بالخشية، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [الملك: ١٢]، وقوله: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، والخشية خلاصة الإيمان والعلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وأما الغيب المراد ههنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه، وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد.

قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، فى قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال: يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وجنته وناره ولقائه، ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث، فهذا غيب كله.

وكذا قال قتادة بن دعامة.

وقال السدى، عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس؛ وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبى^(٢) ﷺ: أما الغيب فما غاب عن العباد من أمر الجنة، وأمر النار، وما ذكر فى القرآن.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد، عن عكرمة، أو عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ قال: بما جاء منه، يعنى: من الله تعالى.

وقال سفيان الثورى، عن عاصم، عن زرّ، قال: الغيب القرآن.

(١) فى ج، ط: «وأفردنا». (٢) فى ج، ط: «رسول الله».

وقال عطاء بن أبي رباح: من آمن بالله فقد آمن بالغيب.

وقال إسماعيل بن أبي خالد: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال: بغيب الإسلام.

وقال زيد بن أسلم: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال: بالقدر. فكل هذه متقاربة في معنى واحد؛ لأن جميع هذه المذكورات من الغيب الذي يجب الإيمان به.

وقال سعيد بن منصور: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمارة بن عمير، عن عبد الرحمن بن يزيد^(١)، قال: كنا عند عبد الله بن مسعود جلوساً، فذكرنا أصحاب رسول الله ﷺ وما سبقوا به، قال: فقال عبد الله: إن أمر محمد ﷺ كان بينا لمن رآه، والذي لا إله غيره ما آمن أحد قط إيماناً أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ إلى قوله: ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١ - ٥]^(٢).

وهكذا رواه ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم في مستدركه، من طرق، عن الأعمش، به^(٣).

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وفى معنى هذا الحديث الذي رواه [الإمام]^(٤) أحمد، حدثنا أبو المغيرة، أخبرنا الأوزاعي، حدثني أسيد^(٥) بن عبد الرحمن، عن خالد بن دريك، عن ابن محيريز، قال: قلت لأبي جمعة: حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ قال: نعم، أحدثك حديثاً جيداً: تغدينا^(٦) مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح، فقال: يا رسول الله، هل أحد^(٧) خير منا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك. قال: «نعم»، قوم من بعدكم يؤمنون بى ولم يرونى^(٨).

طريق أخرى: قال أبو بكر بن مردويه فى تفسيره: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن مسعود، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا معاوية بن صالح، عن صالح بن جببر، قال: قدم علينا أبو جمعة الأنصارى، صاحب رسول الله ﷺ بيت المقدس، ليصلى فيه، ومعنا يومئذ رجاء ابن حيوة، فلما انصرف^(٩) خرجنا نشيعه، فلما أراد الانصراف قال: إن لكم جائزة وحقا؛ أحدثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ، قلنا: هات رحمك الله. قال: كنا مع رسول الله ﷺ ومعنا معاذ ابن جبل عاشر عشرة، فقلنا: يا رسول الله، هل من قوم أعظم أجراً منا؟ آمنا بك واتبعناك، قال:

(١) فى أ: «زيد».

(٢) سنن سعيد بن منصور برقم (١٨٠) تحقيق د. الحميد.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٣٤/١) والمستدرک (٢/٢٦٠).

(٤) زيادة من ج، ط، ب، أ، و. (٥) فى هـ: «أسد».

(٦) فى ج: «فعدنا».

(٧) فى ج: «أحد».

(٨) المسند (١٠٦/٤) قال الحافظ ابن حجر فى الإصابة (٣٣/٤): «واختلف فيه على الأوزاعي، فقال الأكثر: عن أسيد بن خالد بن دريك عن ابن محيريز. وقال ابن شماس: عن الأوزاعي عن أسيد بن صالح بن محمد حدثني أبو جمعة به» وقال فى فتح الباري (٦/٧): «إسناده حسن».

(٩) فى ج: «انصرفنا».

«ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحي من السماء، بل قوم من بعدكم يأتيهم كتاب بين لوحين يؤمنون به ويعملون بما فيه، أولئك أعظم منكم أجراً» مرتين^(١).

ثم رواه من حديث ضَمْرَةَ بن ربيعة، عن مرزوق بن نافع، عن صالح بن جبير، عن أبي جمعة، بنحوه^(٢).

وهذا الحديث فيه دلالة على العمل بالرجادة التي اختلف فيها أهل الحديث، كما قررته في أول شرح البخاري؛ لأنه مدحهم على ذلك وذكر أنهم أعظم أجراً من هذه الحيشة لا مطلقاً.

وكذا الحديث الآخر الذي رواه الحسن بن عرفة العبدى: حدثنا إسماعيل بن عياش الحمصى، عن المغيرة بن قيس التميمي، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «أى الخلق أعجب إليكم إيماناً؟». قالوا: الملائكة. قال: «وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟». قالوا: فالنبيون. قال: «وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟». قالوا: فنحن. قال: «وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟». قال: فقال رسول الله ﷺ: «ألا إن أعجب الخلق إلى إيماننا لقَوْمٌ يكونون من بعدكم يجدونَ صحفاً فيها كتاب يؤمنون بما فيها»^(٣).

قال أبو حاتم الرازي: المغيرة بن قيس البصرى منكر الحديث.

قلت: ولكن قد روى أبو يعلى في مسنده، وابن مردويه في تفسيره، والحاكم في مستدركه، من حديث محمد بن أبي حميد، وفيه ضعف، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر، عن النبي ﷺ، بمثله أو نحوه. وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه^(٤)، وقد روى نحوه عن أنس بن مالك مرفوعاً^(٥)، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن محمد المسندى، حدثنا إسحاق بن إدريس، أخبرني إبراهيم بن جعفر بن محمود بن سلمة الأنصارى، أخبرني جعفر بن محمود، عن جدته تويلة^(٦) بنت أسلم، قالت: صليت الظهر أو العصر في مسجد بنى حارثة، فاستقبلنا مسجد إيلياء^(٧)، فصلينا سجدين، ثم جاءنا من يخبرنا: أن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت^(٨) الحرام، فتحول النساء مكان الرجال، والرجال مكان النساء، فصلينا السجدين الباقيتين، ونحن مستقبلون^(٩) البيت الحرام.

قال إبراهيم: فحدثني رجال من بنى حارثة: أن رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك قال: «أولئك قوم

(١) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣/٤) عن بكر بن سهل عن عبد الله بن صالح به.

(٢) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣/٤) من طريق ضمرة بن ربيعة به.

(٣) جزء الحسن بن عرفة برقم (١٩).

(٤) مسند أبي يعلى (١٤٧/١) والمستدرک (٨٥/٤) وتعقب الذهبي الحاكم فقال: «بل ضعفاء».

(٥) رواه الزوار في مسنده (٢٨٤٠) «كشف الاستار» من طريق سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أنس رضى الله عنه، وقال: «غريب من

حديث أنس».

(٦) في هـ: «نويلة». (٧) في جـ: «المسجد الأقصى». (٨) في جـ، ط: «بيت الله».

(٩) في ط، ب، أ، و: «مستقبلوا».

آمنوا بالغيب»^(١).

هذا حديث غريب من هذا الوجه.

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٣)

قال ابن عباس: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أى: يقيمون الصلاة بفروضها.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: إقامة^(٢) الصلاة إتمام^(٣) الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها.

وقال قتادة: إقامة^(٤) الصلاة المحافظة على مواقيتها، ووضوئها، وركوعها وسجودها.

وقال مقاتل بن حيان: إقامتها: المحافظة على مواقيتها، وإسباغ الطهور فيها^(٥)، وتمام ركوعها وسجودها^(٦) وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبي ﷺ، فهذا إقامتها.

وقال على بن أبى طلحة، وغيره عن ابن عباس: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ قال: زكاة أموالهم.

وقال السدى، عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس: وعن مرة عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ^(٧) ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ قال: هى نفقة الرجل على أهله، وهذا قبل أن تنزل الزكاة.

وقال جُوَيْر، عن الضحاك: كانت النفقات قربات^(٨) يتقربون بها إلى الله على قدر ميسرتهم وجهدهم، حتى نزلت فرائض الصدقات: سبعُ آيات فى سورة براءة، مما يذكر فيهن الصدقات، هن الناسخات المُثَبَّتَات.

وقال قتادة: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾: فأنفقوا مما أعطاكم الله، هذه الأموال عوارى وودائع عندك يا ابن آدم، يوشك أن تفارقها.

واختار ابن جرير أن الآية عامة فى الزكاة والنفقات، فإنه قال: وأولى التأويلات وأحقها بصفة القوم: أن يكونوا لجميع اللازم لهم فى أموالهم مُؤَدِّينَ، زكاة كان ذلك أو نفقة مَنْ لزمته نفقته، من أهل أو عيال وغيرهم، ممن تجب عليهم نفقته بالقرابة والملك وغير ذلك؛ لأن الله تعالى عم وصفهم ومدحهم بذلك، وكل من الإنفاق والزكاة مدوح به محمود عليه.

قلت: كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال، فإن الصلاة حق الله وعبادته، وهى مشتملة على توحيده والثناء عليه، وتمجيده والابتهاال إليه، ودعائه والتوكل عليه؛ والإنفاق هو

(١) تفسير ابن أبى حاتم (٣٦/١) وفى إسناده إسحاق بن إدريس قال البخارى: «تركه الناس». وقال ابن معين: «يضع الحديث». ورواه

الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٤/٢٠٧) من طريق إبراهيم بن حمزة الزبيرى. عن إبراهيم بن جعفر عن أبيه به نحوه.

(٢) فى ج، ط: «إقام». (٣) فى ج، ط، ب: «تمام».

(٤) فى ج: «لها». (٥) فى ج: «إقام».

(٦) فى ج: «وإتمام الركوع والسجود». (٧) فى ج: «النبي».

(٨) فى ج، ط، ب: «قرباناً».

الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدى إليهم، وأولى الناس بذلك القرباء والأهلون والمماليك، ثم الأجانب، فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ ولهذا ثبت في الصحيحين، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «بُنِيَ الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت»^(١). والأحاديث في هذا كثيرة.

وأصل الصلاة في كلام العرب الدعاء، قال الأعشى:

لها حارس لا يبرح الدهر بيتها
وإن ذُبَحَتْ صلى عليها وزمَما^(٢)
وقال أيضاً^(٣):

وقابلها الريح فى دنّها
أنشدهما ابن جرير مستشهدا على ذلك.
وصلّى على دنّها وارتمس^(٤)

وقال الآخر - وهو الأعشى أيضاً -:

تقول بتى وقد قرّبتُ مرتحلاً
عليك مثلُ الذى صليتِ فاغتمضى
يارب جنبُ أبى الأوصابِ والوجعَا
نوما فإن لجنبِ المرءِ مضطجعَا

يقول عليك: من الدعاء مثل الذى دعيته لى. وهذا ظاهر، ثم استعملت الصلاة فى الشرع فى ذات الركوع والسجود والأفعال المخصوصة فى الأوقات المخصوصة، بشروطها المعروفة، وصفاتها، وأنواعها [المشروعة]^(٥) المشهورة.

وقال ابن جرير: وأرى أن الصلاة المفروضة سميت صلاة؛ لأن المصلّى يتعرض لاستنجاح طلبته من ثواب الله بعمله، مع ما يسأل ربه من^(٦) حاجته^(٧).

[وقيل: هى مشتقة من الصلّوين إذا تحركا فى الصلاة عند^(٨) الركوع، وهما عرقان يمتدان من الظهر حتى يكتنفا^(٩) عجب الذنب، ومنه سُمى المصلّى وهو الثانى للسابق فى حلبة الخيل، وفيه نظر، وقيل: هى مشتقة من الصلى، وهو الملازمة للشئ من قوله: ﴿لَا يَصْلَاهَا﴾ أى: يلزمها ويدوم فيها ﴿إِلَّا الْأَشْقَى﴾ [الليل: ١٥] وقيل: مشتقة من تصليّة الخشبة فى النار لتقوم، كما أن المصلّى يقوم عوجه بالصلاة: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] واشتقاقها من الدعاء أصح وأشهر، والله أعلم^(١٠).

وأما الزكاة فسياًتى الكلام عليها فى موضعه، إن شاء الله.

(١) صحيح البخارى برقم (٨) وصحيح مسلم برقم (١٦).

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (١/٢٤٢).

(٣) فى ب: «الآخر».

(٤) البيت فى تفسير الطبرى (١/٢٤٢).

(٥) زيادة من ط.

(٦) فى ج، ط، ب، أ، و: «فيها».

(٧) فى أ، و: «حاجاته».

(٨) فى أ: «يكشفا».

(٩) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(١٠) فى أ: «فى».

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (٤).

قال ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أى: يصدقون بما جئت به من الله، وما جاء به من قبلك من المرسلين، لا يفرقون بينهم، ولا يجحدون ما جاؤوهم به من ربهم ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أى: بالبعث والقيامة، والجنة، والنار، والحساب، والميزان.

وإنما سميت الآخرة لأنها بعد الدنيا. وقد اختلف المفسرون فى الموصوفين هاهنا: هل هم الموصوفون بما تقدم من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] ومن هم؟ على ثلاثة أقوال حكاه ابن جرير:

أحدهما^(١): أن الموصوفين أولاً هم الموصوفون ثانياً، وهم كل مؤمن، مؤمنو العرب ومؤمنو أهل الكتاب وغيرهم، قاله مجاهد، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة.

والثانى: هما واحد، وهم مؤمنو أهل الكتاب، وعلى هذين تكون الواو عاطفة صفات على صفات، كما قال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى. الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى. وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى. فَجَعَلَ غُثَاءً أَحْوَى﴾ [الأعلى: ١ - ٥] وكما قال الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتبية فى المزدحم

فعطفت الصفات بعضها على بعض، والموصوف واحد.

والثالث: أن الموصوفين أولاً مؤمنو العرب، والموصوفون ثانياً بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية مؤمنو^(٢) أهل الكتاب، نقله السدى فى تفسيره، عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة، واختاره ابن جرير، ويستشهد لما قال بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ الآية [آل عمران: ١٩٩]، وبقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ آمَنُوا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٤]. وثبت فى الصحيحين، من حديث الشعبى عن أبى بردة عن أبى موسى: أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبىه وآمن بى، ورجل مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل أدب جاريته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها»^(٣).

وأما ابن جرير فما استشهد على صحة ما قال إلا بمناسبة، وهى أن الله تعالى وصف فى أول هذه السورة المؤمنين والكافرين، فكما أنه صنف الكافرين إلى صنفين: منافق وكافر، فكذلك المؤمنون صنفهم إلى عربى وكتابى.

قلت: والظاهر قول مجاهد فيما رواه الثورى، عن رجل، عن مجاهد. ورواه غير واحد، عن

(١) فى ج، ط، ب، أ، و: «أحدهما».

(٢) فى ج، ط، ب: «المؤمنى».

(٣) صحيح البخارى برقم (٩٧) وصحيح مسلم برقم (١٥٤).

ابن أبى نَجِيج، عن مجاهد أنه قال: أربع آيات من أول سورة البقرة فى نعت المؤمنين، وآيتان فى نعت الكافرين، وثلاث عشرة فى المنافقين، فهذه الآيات الأربع عامة فى كل مؤمن اتصف بها من عربى وعجمى، وكتابى من إنسى وجنى، وليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الأخرى، بل كل واحدة مستلزمة للأخرى وشرط معها، فلا يصح الإيمان بالغيب وإقام الصلاة والزكاة إلا مع الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ، وما جاء به من قبله من الرسل والإيقان بالآخرة، كما أن هذا لا يصح إلا بذاك، وقد أمر الله تعالى المؤمنين بذلك، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ الآية [النساء: ١٣٦]. وقال: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [النساء: ٤٧] وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨] وأخبر تعالى عن المؤمنين كلهم بذلك، فقال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٨٥] وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ﴾ [النساء: ١٥٢] وغير ذلك من الآيات الدالة على أمر جميع المؤمنين بالإيمان بالله ورسله وكتبه. لكن لمؤمنى أهل الكتاب خصوصية، وذلك أنهم مؤمنون بما بأيديهم^(١) مفصلا، فإذا دخلوا فى الإسلام وآمنوا به مفصلا كان لهم على ذلك الأجر مرتين، وأما غيرهم فإنما يحصل له الإيمان، بما تقدم مجملا، كما جاء فى الصحيح: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، ولكن قولوا: آمنا بالذى^(٢) أنزل إلينا وأنزل إليكم^(٣)»، ولكن قد يكون إيمان كثير من العرب بالإسلام الذى بعث به محمد ﷺ أتم وأكمل وأعم وأشمل من إيمان من دخل منهم فى الإسلام، فهم وإن حصل لهم أجران من تلك الحثيثة، فغيرهم [قد]^(٤) يحصل له من التصديق ما يُنِيف ثوابه على الأجرين اللذين حصلا لهم، والله أعلم.

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥).

يقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ أى: المتصفون بما تقدم: من الإيمان بالغيب، وإقام الصلاة، والإنفاق من الذى رزقهم الله، والإيمان بما أنزل إلى الرسول ومن قبله من الرسل، والإيقان بالدار الآخرة، وهو يستلزم الاستعداد لها من العمل بالصالحات وترك المحرمات.

﴿عَلَى هُدًى﴾ أى: نور وبيان وبصيرة من الله تعالى. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة.

(١) فى ج: «بما فى أيديهم». (٢) فى ط، ب، أ، و: «بما».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٤٨٥، ٧٣٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٤) زيادة من ط، ب.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أى: على نور من ربهم، واستقامة على ما جاءهم، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى: الذين أدركوا ما طلبوا، ونجوا من شر ما منه هربوا.

وقال ابن جرير: وأما معنى قوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ فإن معنى ذلك: أنهم على نور من ربهم، وبرهان واستقامة وسداد، بتسديد الله إياهم، وتوفيقه لهم وتأويل قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى المنجحون المدركون ما طلبوا عند الله بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسله، من الفوز بالثواب، والخلود فى الجنات، والنجاة مما أعد الله لأعدائه من العقاب^(١).

وقد حكى ابن جرير قولاً عن بعضهم أنه أعاد اسم الإشارة فى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ إلى مؤمنى أهل الكتاب الموصوفين بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية، على ما تقدم من الخلاف. [قال]^(٢): وعلى هذا فيجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ منقطعاً^(٣) مما قبله، وأن يكون مرفوعاً على الابتداء وخبره ﴿[أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَ]﴾^(٤) وأولئك هم المفلحون. واختار أنه عائد إلى جميع من تقدم ذكره من مؤمنى العرب وأهل الكتاب، لما رواه السدى عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس؛ وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: أما الذين يؤمنون بالغيب، فهم المؤمنون من العرب، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك هم المؤمنون من أهل الكتاب. ثم جمع الفريقين فقال: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وقد تقدم من الترجيح أن ذلك صفة للمؤمنين عامة، والإشارة عائدة عليهم، والله أعلم. وقد نقل هذا عن مجاهد، وأبى العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، رحمهم الله.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح المصرى، حدثنا أبى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنى عبيد الله بن المغيرة عن أبى الهيثم واسمه سليمان بن عبد، عن عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ وقيل له: يا رسول الله، إنا نقرأ من القرآن فرجوا، ونقرأ من القرآن فنكاد أن نياس، أو كما قال. قال: فقال: «أفلا أخبركم عن أهل الجنة وأهل النار؟». قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «آلَمْ يَكُنْ لَكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ؟» إلى قوله تعالى: ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ هؤلاء أهل الجنة. قالوا: إنا نرجو أن نكون هؤلاء. ثم قال: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿عَظِيمٌ﴾ هؤلاء أهل النار. قالوا: لسنأهم يا رسول الله. قال: «أجل»^(٥).

(١) تفسير الطبرى (١/٢٤٩).

(٢) زيادة من ج، ب، أ، و.

(٣) فى ج، ط، ب، أ، و: «مقطعة».

(٤) زيادة من ج، ط، ب.

(٥) تفسير ابن أبى حاتم (١/٤٠).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦)

يقول تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: غطوا الحق وستره، وقد كتب الله تعالى عليهم ذلك، سواء عليهم إنذارك وعدمه، فإنهم لا يؤمنون بما جئتهم به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] وقال فى حق المعاندين من أهل الكتاب: ﴿وَلَقَدْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ الآية [البقرة: ١٤٥] أى: إن من^(١) كتب الله عليه الشقاوة فلا مُسعد له، ومن أضله فلا هادى له، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، وبلغهم الرسالة، فمن استجاب لك فله الحظ الأوفر، ومن تولى فلا تحزن عليهم ولا يهمدنك ذلك؛ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، و﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة فى الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة فى الذكر الأول.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: بما أنزل إليك، وإن قالوا: إنا قد آمنا بما جاءنا قبلك ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: إنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك، وجحدوا ما أخذ عليهم من الميثاق، فقد^(٢) كفروا بما جاءك، وبما عندهم مما جاءهم به غيرك، فكيف يسمعون منك إنذاراً وتحذيراً، وقد كفروا بما عندهم من علمك؟!

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، قال: نزلت هاتان الآيتان فى قادة الأحزاب، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

والمعنى الذى ذكرناه أولاً، وهو المروى عن ابن عباس فى رواية ابن أبى طلحة، أظهر، ويفسر^(٣) ببقية الآيات التى فى معناها، والله أعلم.

وقد ذكر ابن أبى حاتم ههنا حديثاً، فقال: حدثنا أبى، حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح المصرى، حدثنا أبى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنى عبد الله بن المغيرة، عن أبى الهيثم^(٤)، عن عبد الله ابن عمرو، قال: قيل: يا رسول الله، إنا نقرأ من القرآن فنرجو، ونقرأ فنكاد أن نياس، فقال: «ألا أخبركم»، ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هؤلاء أهل النار». قالوا: لسنأهم يا رسول الله؟ قال: «أجل»^(٥).

(١) فى ج: «إلا أنه من». (٢) فى ج، ط، ب: «وقد». (٣) فى ج: «وتفسيره»، وفى ط، ب: «ويفسره».

(٤) فى ج: «القسم».

(٥) تفسير ابن أبى حاتم (١/٤٢).

[وقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: محله من الإعراب أنه جملة مؤكدة للتي قبلها: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَلَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ أى هم كفار فى كلا الحالين؛ فلهذا أكد ذلك بقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ويحتمل أن يكون ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبراً لأن تقديره: إن الذين كفروا لا يؤمنون، ويكون قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَلَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ جملة معترضة، والله أعلم^(١).

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٧).

قال السدى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾ أى: طبع الله. وقال قتادة فى هذه الآية: استحوز عليهم الشيطان إذ أطاعوه؛ فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، فهم لا يبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون.

وقال ابن جريج: قال مجاهد: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ قال: نبئت أن الذنوب على القلب تحف به^(٢) من كل نواحيه حتى تلتقى عليه، فالتقاؤها عليه الطبع، والطبع الختم، قال ابن جريج: الختم على القلب والسمع. قال ابن جريج: وحدثني عبد الله بن كثير، أنه سمع مجاهداً يقول: الزان أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الأقفال، والأقفال أشد ذلك كله.

وقال الأعمش: أرانا مجاهد بيده فقال: كانوا يرون أن القلب فى مثل هذه^(٣) - يعنى: الكف - فإذا أذنّب العبد ذنباً ضُمّ منه. وقال بأصبعه الخنصر هكذا، فإذا أذنّب ضَمّ. وقال بأصبع أخرى، فإذا أذنّب ضَمّ، وقال بأصبع أخرى هكذا، حتى ضم أصابعه كلها، ثم قال^(٤): يطبع عليه بطابع. وقال مجاهد: كانوا^(٥) يرون أن ذلك: الرين.

ورواه ابن جرير: عن أبى كُرَيْب، عن وَكِيع، عن الأعمش، عن مجاهد، بنحوه.

وقال ابن جرير: وقال بعضهم: إنما معنى قوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ إخبار من الله عن تكبرهم، وإعراضهم عن الاستماع لما دُعُوا إليه من الحق، كما يقال: إن فلاناً لأَصَمَّ عن هذا الكلام، إذا امتنع من سماعه، ورفع^(٦) نفسه عن تفهمه تكبراً.

قال: وهذا لا يصح؛ لأن الله قد أخبر أنه هو الذى ختم على قلوبهم وأسماعهم.

(قلت): وقد أطنب الزمخشري فى تقرير ما رده ابن جرير ههنا وتأول الآية من خمسة أوجه وكلها ضعيفة جداً، وما جراه على ذلك إلا اعتزاله؛ لأن الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق إليها قبيح عنده - تعالى الله عنه فى اعتقاده - ولو فهم قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَئِكَ مَرَّةً وَنَذَرْنَاهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاءً وفاقاً على تماديهم فى الباطل وتركهم الحق، وهذا عدل منه تعالى حسن وليس بقبيح، فلو أحاط علماً بهذا لما قال ما قال والله أعلم.

قال القرطبي: وأجمعت الأمة على أن الله عز وجل قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم كما قال: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ وذكر حديث تقليب القلوب: «ويا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك»، وذكر حديث حذيفة الذى فى الصحيح عن رسول الله ﷺ قال: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأى قلب أنكرها

(١) زيادة من ج، ط، ب، أ، و. (٢) فى ج، ط، ب، أ، و: «وقال: الطبع نبئت الذنوب على القلب فحفت به».

(٣) فى ج، ط، ب، أ، و: «هذا». (٤) فى ط، ب: «قال: ثم». (٥) فى ج، ط، ب: «وكانوا». (٦) فى ج: «يرفع».

نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مرباد كالكوز مجحياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً) الحديث.

قال^(١): والحق عندي في ذلك ما صَحَّ بنظيره^(٢) الخبر عن رسول الله ﷺ، وهو ما حدثنا به محمد ابن بشار، حدثنا صفوان بن عيسى، حدثنا ابن عجلان، عن القعقاع، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَتَزَعَّ واستعْتَبَ صَقَلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُو قَلْبَهُ، فَذَلِكَ الزَّانُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَأَلَّا بِلَ رَانَعِ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»^(٣).

وهذا الحديث من هذا الوجه قد رواه الترمذی والنسائي، عن قتيبة، عن الليث بن سعد، وابن ماجه عن هشام بن عمار عن حاتم بن إسماعيل والوليد بن مسلم، ثلاثتهم عن محمد بن عجلان، به^(٤).

وقال الترمذی: حسن صحيح.

ثم قال ابن جرير: فأخبر رسول الله ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر عنها^(٥) مخلص، فذلك^(٦) هو الختم والطبع الذي ذكر^(٧) في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ نظير الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف، التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض^(٨) ذلك عنها ثم حلها، فكذلك^(٩) لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم وعلى سمعهم إلا بعد فض خاتمه وحلّه رباطه [عنها]^(١٠).

واعلم أن الوقف التام على قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ جملة تامة، فإن الطبع يكون على القلب وعلى السمع، والغشاوة - وهي الغطاء - تكون على البصر، كما قال السدي في تفسيره عن أبي مالك، عن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ^(١١) في قوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ يقول: فلا يعقلون ولا يسمعون، ويقول: وجعل على أبصارهم غشاوة، يقول: على أعينهم فلا يبصرون.

قال^(١٢) ابن جرير: حدثني محمد بن سعد^(١٣)، حدثنا أبي، حدثني عمي الحسين بن الحسن، عن أبيه، عن جده، عن ابن عباس: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾: والغشاوة على أبصارهم. وقال: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، يعني ابن داود، وهو سني، حدثني حجاج، وهو ابن محمد الأعور، حدثني ابن جريج قال: الختم على القلب والسمع، والغشاوة على البصر، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخَيِّمَ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤]، وقال: ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى

(١) في ج، ط: «قال ابن جرير».

(٢) في ج: «ما صح به بنظره».

(٣) تفسير الطبري (٢٦٠/١).

(٤) سنن الترمذی برقم (٣٣٣٤) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٥٨) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٤٤).

(٥) في أ، و: «منها».

(٦) في ج: «فلذلك».

(٧) في و: «ذكره الله».

(٨) في ج: «فلذلك».

(٩) في ج، ط: «النبى».

(١٠) في ج، ط: «وقال».

(١١) في أ: «سفيان».

بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴿١﴾ [الجاهلية: ٢٣] (١).

قال (٢) ابن جرير: ومن نصب غشاوة من قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ (٣) يحتمل (٣) أنه نصبها بإضمار فعل، تقديره: وجعل على أبصارهم غشاوة، ويحتمل أن يكون نصبها على الاتباع، على محل ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة: ٢٢]، وقول الشاعر:

عَلَفْتُهَا تَبْنَاءَ وَمَاءَ بَارِداً حَتَّى شَتَّتْ هَمَالَةً عَيْنَاهَا (٤)

وقال الآخر:

ورَأَيْتَ زَوْجَكَ فِي الْوَعَى مُتَقَلِّداً سَيْفاً وَرُمَحاً (٥)

تقديره: وسقيتها ماء بارداً، ومعتقلاً رمحاً.

لما تقدم وصف المؤمنين في صدر السورة بأربع آيات، ثم عرّف حال الكافرين بهاتين الآيتين، شرع تعالى في بيان حال المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويطنون الكفر، ولما كان أمرهم يشبهه على كثير من الناس أطنب في ذكرهم بصفات متعددة، كل منها نفاق، كما أنزل (٦) سورة براءة فيهم، وسورة المنافقين فيهم، وذكرهم في سورة النور وغيرها من السور، تعريفاً لأحوالهم لتجنب، ويجتنب من تلبس (٧) بها أيضاً، فقال تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ .

النفاق: هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادي، وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي وهو من أكبر الذنوب، كما سيأتى تفصيله (٨) في موضعه، إن شاء الله تعالى، وهذا كما قال ابن جريج: المنافق يخالف قوله فعله، وسرّ علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مغيبه.

وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية؛ لأن مكة لم يكن فيها نفاق، بل كان خلافه، من الناس من كان يظهر الكفر مُسْتَكْرَهاً، وهو في الباطن مؤمن، فلماً هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام، على طريقة مشركي العرب، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل: بنو قَيْنُقَاع حلفاء الخزرج، وبنو النَّضِير، وبنو قُرَيْظَةَ حلفاء الأوس، فلماً قدم رسول الله ﷺ المدينة، وأسلم من أسلم

(١) تفسير الطبري (١/٢٦٥).

(٢) في ج: «وقال».

(٣) في ج: ط: «فيحتمل».

(٤) البيت في تفسير الطبري (١/٢٦٤).

(٥) البيت في تفسير الطبري (١/٢٦٥) وهو للحارث المخزومي.

(٦) في ج: «كما أنزلت».

(٧) في ج: «يتلبس».

(٨) في ج: «تفسيره».

من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج، وقل من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سلام، رضى الله عنه، ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضاً؛ لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف، بل قد كان عليه، الصلاة والسلام، وأدعَ اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالى المدينة، فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته، وأعلى الإسلام وأهله، قال عبد الله بن أبى بن سلول، وكان رأساً فى المدينة، وهو من الخزرج، وكان سيد الطائفتين فى الجاهلية، وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم، فجاءهم الخير وأسلموا، واشتغلوا عنه، فبقى فى نفسه من الإسلام وأهله، فلما كانت وقعة بدر قال: هذا أمر قد تَوَجَّهَ فأظهر الدخول فى الإسلام، ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته، وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثمَّ وَجَدَ النفاق فى أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد، لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرهاً، بل يهاجر ويترك ماله، وولده، وأرضه رغبة فيما عند الله فى الدار الآخرة.

قال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يعنى: المنافقين من الأوس والخزرج ومن كان على أمرهم.

وكذا فسرها بالمنافقين أبو العالية، والحسن، وقتادة، والسدى.

ولهذا نبه الله، سبحانه، على صفات المنافقين لئلا يغترّ بظاهر أمرهم المؤمنون، فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم، ومن اعتقاد إيمانهم، وهم كفار فى نفس الأمر، وهذا من المحذورات الكبار أن يظن بأهل الفجور خير، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أى: يقولون ذلك قولاً ليس وراءه شىء آخر، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ١] أى: إنما يقولون ذلك إذا جاؤوك فقط، لا فى نفس الأمر؛ ولهذا يؤكدون فى الشهادة بأن ولام التأكيد فى خبرها؛ كما أكدوا قولهم: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وليس الأمر كذلك، كما أكذبهم الله فى شهادتهم، وفى خبرهم هذا بالنسبة إلى اعتقادهم، بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، وبقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر، يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك، وأن ذلك نافعهم عنده، وأنه يروج عليه كما يروج على بعض المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَعْتَصِمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُخْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]؛ ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: وما يغترون بصنيعهم ولا يخدعون إلا أنفسهم، وما يشعرون بذلك من أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢].

ومن القراء من قرأ: « وما يخادعون^(١) إلا أنفسهم»، وكلا القراءتين ترجع إلى معنى واحد.

(١) فى ج، ط، ب: «يخدعون».

قال ابن جرير: فإن قال قائل: كيف يكون المنافق لله وللمؤمنين مخادعاً، وهو لا يظهر بلسانه خلاف ما هو له معتقد إلا تقية؟

قيل: لا تمتنع^(١) العرب من أن تسمى من أعطى بلسانه غير الذى فى ضميره تقية، لينجو مما هو له خائف، مخادعاً، فكذلك المنافق، سمي مخادعاً لله وللمؤمنين، بإظهاره ما أظهر^(٢) بلسانه تقية، مما تخلص به من القتل والسب^(٣) والعذاب العاجل، وهو لغير ما أظهر، مستبطن، وذلك من فعله - وإن كان خداعاً للمؤمنين فى عاجل الدنيا - فهو لنفسه بذلك من فعله خادع، لأنه يُظهر لها بفعله ذلك بها أنه يعطيها أمنيته، ويُسقيها كأس^(٤) سرورها، وهو موردها به حياض عطبها، ومُجرعها بها كأس عذابها، ومُزيرها^(٥) من غضب الله وأليم عقابه ما لا قبل لها به، فذلك خديعته نفسه، ظناً منه - مع إساءته إليها فى أمر معادها - أنه إليها محسن، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ إعلاماً منه عبادة المؤمنين أن المنافقين بإساءتهم إلى أنفسهم فى إسخاطهم^(٦) عليها ربهم بكفرهم، وشكهم وتكذيبهم، غير شاعرين ولا دارين، ولكنهم على عمياء من أمرهم مقيمون^(٧).

وقال ابن أبى حاتم: أنبأنا على بن المبارك، فيما كتب إلى، حدثنا زيد بن المبارك، حدثنا محمد ابن ثور، عن ابن جريج، فى قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ قال: يظهرون «لا إله إلا الله» يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم، وفى أنفسهم غير ذلك^(٨).

وقال سعيد، عن قتادة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ. يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ نعت المنافق عند كثير: خنع الأخلاق يصدق بلسانه وينكر بقلبه ويخالف بعمله، يصبح على حال ويمسى على غيره، ويمسى على حال ويصبح على غيره، يتكفأ تكفأ السفينة كلما هبَّت ریح هبَّ معها.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (١٠).

قال السدى، عن أبى مالك وعن أبى صالح، عن ابن عباس؛ وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ فى هذه الآية: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾، قال: شك، ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ قال: شكاً.

وقال [محمد]^(٩) بن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبیر، عن ابن عباس [فى قوله]^(١٠): ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ قال: شك.

(١) فى ج: «لا تمتنع».

(٢) فى أ، و: «ما أظهره».

(٣) فى أ: «السي».

(٤) فى ج: «بكأس».

(٥) فى أ: «ويزيدها».

(٦) فى ج: «باسخاطهم».

(٧) تفسير الطبرى (٢٧٣/١).

(٨) تفسير ابن أبى حاتم (٤٦/١).

(٩) زيادة من ج.

(١٠) زيادة من و.

وكذلك قال مجاهد، وعكرمة، والحسن البصرى، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة.

وعن عكرمة، وطاوس: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾: يعنى: الرياء.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ قال: نفاق ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ قال: نفاقاً، وهذا كالأول.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ قال: هذا مرض فى الدين، وليس مرضاً فى الأجساد، وهم المنافقون. والمرض: الشك الذى دخلهم فى الإسلام ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ قال: زادهم رجساً، وقرأ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، قال: شراً إلى شرهم وضلالة إلى ضلالتهم.

وهذا الذى قاله عبد الرحمن، رحمه الله، حسن، وهو الجزء من جنس العمل، وكذلك قاله الأولون، وهو نظير قوله تعالى أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾: وقرئ «يكذبون»، وقد كانوا متصفين بهذا وهذا، فإنهم كانوا كذبة يكذبون بالحق يجمعون بين هذا وهذا. وقد سئل القرطبى وغيره من المفسرين عن حكمة كفه، عليه السلام، عن قتل المنافقين مع علمه بأعيان بعضهم، وذكروا أجوبة عن ذلك منها ما ثبت فى الصحيحين: أنه قال لعمر: «أكره أن يتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه»^(١)، ومعنى هذا خشية أن يقع بسبب ذلك تغير لكثير من الأعراب عن الدخول فى الإسلام ولا يعلمون حكمة قتله لهم، وأن قتله إياهم إنما هو على الكفر، فإنهم إنما يأخذونه بمجرد ما يظهر لهم فيقولون: إن محمداً يقتل أصحابه، قال القرطبى: وهذا قول علمائنا وغيرهم كما كان يعطى المؤلف لقلوبهم مع علمه بشر اعتقادهم. قال ابن عطية: وهى طريقة أصحاب مالك نص عليه محمد بن الجهم والقاضى إسماعيل والأبهرى وابن الماجشون. ومنها: ما قال مالك، رحمه الله: إنما كف رسول الله ﷺ عن المنافقين لبيان لأئمة أن الحاكم لا يحكم بعلمه.

قال القرطبى: وقد اتفق العلماء عن بكرة أبيهم على أن القاضى لا يقتل بعلمه، وإن اختلفوا فى سائر الأحكام، قال: ومنها ما قال الشافعى: إنما منع رسول الله ﷺ من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم؛ لأن ما يظهرونه يجب ما قبله. ويؤيد هذا قوله، عليه السلام، فى الحديث المجمع على صحته فى الصحيحين وغيرهما: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله، عز وجل»^(٢). ومعنى هذا: أن من قالها جرت عليه أحكام الإسلام ظاهراً، فإن كان يعتقدونها وجد ثواب ذلك فى الدار الآخرة، وإن لم يعتقدوها لم ينفعه فى الآخرة جريان الحكم عليه فى الدنيا، وكونه كان

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٠٢) وصحيح مسلم برقم (٣٣١٤).

(٢) صحيح البخارى برقم (٢٥) وصحيح مسلم برقم (٢٢) من حديث ابن عمرو رضى الله عنهما.

خليط أهل الإيمان ﴿يَنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ الآية [الحديد: ١٤]؛ فهم يخالطونهم في بعض المحشر، فإذا حقت المحقوقية تميزوا منهم وتخلفوا بعدهم ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبا: ٥٤] ولم يمكنهم أن يسجدوا معهم كما نطقت بذلك الأحاديث، ومنها ما قاله بعضهم: إنه إنما لم يقتلهم لأنه كان يخاف من شرهم مع وجوده، عليه السلام، بين أظهرهم يتلو عليهم آيات الله مبینات، فأما بعده فيقتلون إذا أظهروا النفاق وعلمه المسلمون، قال مالك: المنافق في عهد رسول الله ﷺ هو الزنديق اليوم. قلت: وقد اختلف العلماء في قتل الزنديق إذا أظهر الكفر هل يستتاب أم لا. أو يفرق بين أن يكون داعية أم لا، أو يتكرر منه ارتداده أم لا أو يكون إسلامه ورجوعه من تلقاء نفسه أو بعد أن ظهر عليه؟ على أقوال موضع بسطها وتقريرها وعزوها كتاب الأحكام.

(تنبيه) قول من قال: كان عليه الصلاة والسلام يعلم أعيان بعض المنافقين إنما مستنده حديث حذيفة بن اليمان في تسمية أولئك الأربعة عشر منافقاً في غزوة تبوك الذين هموا أن يفتكوا برسول الله ﷺ في ظلمات الليل عند عقبة هناك؛ عزموا على أن ينفروا به الناقة ليسقط عنها فأوحى الله إليه أمرهم فأطلع على ذلك حذيفة. ولعل الكف عن قتلهم كان لمدرک من هذه المدارك أو لغيرها والله أعلم.

فأما غير هؤلاء فقد قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿لَكِنَّ لَمْ يَنْتَهُ الْمُتَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجَفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخْدُوا وَقَتْلُوا قَتْلًا﴾ ففيها دليل على أنه لم يغر بهم ولم يدرك على أعيانهم وإنما كانت تذكر له صفاتهم فيتوسمها في بعضهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمُ فَعَرَفْتُمُ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ وقد كان من أشهرهم بالنفاق عبد الله بن أبي بن سلول وقد شهد عليه زيد بن أرقم بذلك الكلام الذي سبق في صفات المنافقين ومع هذا لما مات [صلى عليه] ﷺ وشهد دفنه كما يفعل ببقية المسلمين، وقد عاتبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيه فقال: «إني أكره أن تتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه» وفي رواية في الصحيح «إني خيرت فاخترت» وفي رواية «لو أني أعلم لو زدت على السبعين يغفر الله له لزدت».

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ١٢﴾.

قال السدي في تفسيره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الطيب الهمداني، عن ابن مسعود، وعن أناس^(١) من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾: أما لا تفسدوا في الأرض، قال: الفساد هو الكفر، والعمل بالمعصية.

وقال أبو جعفر، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قال: يعني: لا تعصوا في الأرض. وكان فسادهم ذلك معصية الله؛ لأنه من عصي الله في الأرض أو أمر بمعصية الله، فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة. وهكذا قال الربيع بن أنس، وقتادة.

وقال ابن جريج، عن مجاهد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قال: إذا ركبوا معصية الله، ففعلوا كذا وكذا، قالوا: إنما نحن على الهدى، مصلحون.

(١) في ط، ب: «ناس». (٢) في أ: «النبى».

وقد قال وَكِيع، وعيسى بن يونس، وعثام بن على، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن عباد بن عبد الله الأسدي، عن سلمان الفارسي: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ قال سلمان: لم يجيء أهل هذه الآية بعد.

وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن عثمان بن حكيم، حدثنا عبد الرحمن بن شريك، حدثني أبي، عن الأعمش، عن زيد بن وهب وغيره، عن سلمان، في هذه الآية، قال: ما جاء هؤلاء بَعْدُ^(١). قال ابن جرير: يحتمل أن سلمان أراد بهذا أن الذين يأتون بهذه الصفة أعظم فساداً من الذين كانوا في زمان النبي ﷺ، لا أنه عنى أنه لم يَمْضِ ممن تلك صفته أحد^(٢).

قال ابن جرير: فأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه، وشكهم في دينه الذي لا يُقْبَلُ من أحد عمل إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والريب، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله، إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً. فذلك إفساد المنافقين في الأرض، وهم يحسبون أنهم يفعلهم ذلك مصلحون فيها^(٣).

وهذا الذي قاله حسن، فإن من الفساد في الأرض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] فقطع الله الموالاة بين المؤمنين والكافرين، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤] ثم قال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥] فالمنافق لما كان ظاهره الإيمان اشتبه أمره على المؤمنين، فكأن الفساد من جهة المنافق حاصل؛ لأنه هو الذي غَرَّ المؤمنين بقوله الذي لا حقيقة له، ووالى الكافرين على المؤمنين، ولو أنه استمر على حالته^(٤) الأولى لكن شره أخف، ولو أخلص العمل لله وتطابق قوله وعمله لأفلح وأنجح؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي: نريد أن نداری الفريقين من المؤمنين والكافرين، ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء، كما قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي: إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب. يقول الله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: ألا إن هذا الذي يعتمدونه ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد، ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فساداً.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣).

يقول [الله]^(٥) تعالى: وإذا قيل للناس قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ: ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ أي: كإيمان الناس بالله وملائكته

(١) تفسير الطبري (٢٨٨/١). (٢) تفسير الطبري (٢٨٩/١). (٣) في أ، و: لحاله. (٤) زيادة من (أ). (٥)

وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنة والنار وغير ذلك، مما أخبر المؤمنين به وعنه، وأطيعوا الله ورسوله في أمثال الأوامر وترك الزواجر ﴿قَالُوا أَنْزِلْ عَلَيْنَا آيَةً﴾، يعنون - لعنهم الله - أصحاب رسول الله ﷺ، رضى الله عنهم، قاله أبو العالية والسدى في تفسيره، بسنده عن ابن عباس وابن مسعود وغير واحد من الصحابة، وبه يقول الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم، يقولون: أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة وعلى طريقة واحدة وهم سفهاء!!

والسفهاء: جمع سفيه، كما أن الحكماء جمع حكيم [والحلماء جمع حليم]^(١)، والسفيه: هو الجاهل الضعيف الرأى القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار؛ ولهذا سمي الله النساء والصبيان سفهاء، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥] قال عامة علماء السلف: هم النساء والصبيان.

وقد تولى الله، سبحانه، جوابهم في هذه المواطن كلها، فقال^(٢): ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ فأكد وحصر السفاهة فيهم.

﴿وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعنى: ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل، وذلك أردى لهم وأبلغ فى العمى، والبعد عن الهدى.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥).

يقول [الله]^(٣) تعالى: وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا: ﴿آمَنَّا﴾ أى: أظهروا لهم الإيمان والموالة والمصافاة، غروراً منهم للمؤمنين ونفاقاً ومصانعة وتقية، وليشركوهم فيما أصابوا من خير ومغنم، ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ يعنى: وإذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا^(٤) إلى شياطينهم. فضمن ﴿خَلَوْا﴾ معنى انصرفوا؛ لتعديته بآلى؛ ليدل على الفعل المضمر والفعل المفلوظ^(٥) به. ومنهم من قال: «إلى» هنا بمعنى «مع»، والأول أحسن، وعليه يدور كلام ابن جرير.

وقال السدى عن أبى مالك: ﴿خَلَوْا﴾ يعنى: مضوا، و﴿شَيَاطِينِهِمْ﴾ يعنى: سادتهم وكبراءهم ورؤساءهم من أحبار اليهود ورؤوس المشركين والمنافقين.

قال السدى في تفسيره، عن أبى مالك وعن أبى صالح، عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، عن ناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ يعنى: هم رؤوسهم من الكفر. وقال الضحاك عن ابن عباس: وإذا خلوا إلى أصحابهم، وهم شياطينهم.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبيرة، عن ابن

(٣) زيادة من أ.

(٢) فى أ: «كما قال».

(١) زيادة من ط، ب، و.

(٥) فى ط، ب، أ، و: «المفلوظ».

(٤) فى أ، و: «أو ذهبوا أو خلصوا».

عباس: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ من يهود الذين يأمرهم بالكذب وخلاف ما جاء به الرسول.

وقال مجاهد: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾: إلى أصحابهم من المنافقين والمشركين.

وقال قتادة: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ قال: إلى رؤوسهم، وقادتهم في الشرك، والشر.

وبنحو ذلك فسرَّه أبو مالك، وأبو العالية، والسدي، والرَّبِيع بن أنس.

قال ابن جرير: وشياطين كل شيء مَرَدُّته، وتكون الشياطين من الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وفي المسند عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «نعوذ بالله من شياطين الإنس والجن». فقلت: يا رسول الله، وللإنس شياطين؟ قال: «نعم»^(١).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾: قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أى إنا على مثل ما أنتم عليه ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ أى: إنما نحن نستَهْزِئُ بالقوم ونلعب بهم.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: قالوا إنما نحن مستهزئون ساخرون بأصحاب محمد ﷺ.

وكذلك قال الربيع بن أنس، وقاتدة.

وقوله تعالى جواباً لهم ومقابلة على صنيعهم: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

قال^(٢) ابن جرير: أخبر الله تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة، فى قوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمَ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]. قال: فهذا وما أشبهه، من استهزاء الله، تعالى ذكره، وسخريته ومكره وخديعته للمنافقين، وأهل الشرك به عند قائل هذا القول، ومتأول هذا التأويل.

قال: وقال آخرون: بل استهزاؤه بهم توبيخه إياهم، ولومه لهم على ما ركبوا من معاصيه، والكفر به.

قال: وقال آخرون: هذا وأمثاله على سبيل الجواب، كقول الرجل لمن يخدعه إذا ظفر به: أنا الذى خدعتك. ولم تكن منه خديعة، ولكن قال ذلك إذ صار الأمر إليه، قالوا: وكذلك قوله: ﴿وَمَكْرُوهٌ وَالْمَكْرُوهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤] و﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ على الجواب، والله

(١) المسند (١٧٨/٥).

(٢) فى ط، ب: «وقال».

لا يكون منه المكر ولا الهزء، والمعنى: أن المكر والهزء حاق بهم.

وقال آخرون: قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾. الله يستهزئ بهم، وقوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾: [النساء: ١٤٢]، وقوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾، و[التوبة: ٧٩] و﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] وما أشبه ذلك، إخبار من الله تعالى أنه يجازيهم^(١) جزاء الاستهزاء، ويعاقبهم^(٢) عقوبة الخداع، فأخرج خبره عن جزائه إياهم وعقابه لهم مخرج خبره عن فعلهم الذي عليه استحقاق العقاب في اللفظ، وإن اختلف المعنيان، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤]، فالأول ظلم، والثاني عدل، فهما وإن اتفق لفظاهما فقد اختلف معناهما.

قال: وإلى هذا المعنى وجَّهوا كل ما في القرآن من نظائر ذلك.

قال: وقال آخرون: إن معنى ذلك: أن الله أخبر عن المنافقين أنهم إذا خلَّوا إلى مَرَدَّتِهِمْ قالوا: إنا معكم على دينكم، في تكذيب محمد ﷺ وما جاء به، وإنما نحن بما يظهر لهم - من قولنا لهم: صدقنا بمحمد، عليه السلام، وما جاء به مستهزئون؛ فأخبر الله تعالى أنه يستهزئ بهم، فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا، يعنى من عصمة دمايتهم وأموالهم خلاف الذى لهم عنده فى الآخرة، يعنى من العذاب والنكال^(٣).

ثم شرع ابن جرير يوجه هذا القول وينصره؛ لأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله، عز وجل، بالإجماع، وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك.

قال: وبنحو ما قلنا فيه روى الخبر عن ابن عباس: حدثنا أبو كريب، حدثنا عثمان، حدثنا بشر، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، فى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، قال: يسخر بهم للنقمة منهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: قال السدى، عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن أناس^(٤) من الصحابة [قالوا]^(٥): يمدهم: يملئ لهم.

وقال مجاهد: يزيدهم.

قال ابن جرير: والصواب يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم فى عتوهم وتمردهم، كما قال: ﴿وَنَقَلَبْ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

(٢) فى ط، ب، أ، و: «ومعاقبهم».

(١) فى ط، أ، و: «مجازيهم».

(٣) تفسير الطبرى (٣٠٣/١).

(٥) زيادة من ب، و.

(٤) فى ج، ط، ب: «ناس».

والطغيان: هو المجاوزة في الشيء. كما قال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]، وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: في كفرهم يترددون.

وكذا فسر السدي بسنده عن الصحابة، وبه يقول أبو العالية، وقتادة، والربيع بن أنس، ومجاهد، وأبو مالك، وعبد الرحمن بن زيد: في كفرهم وضلالتهم.

قال ابن جرير: والعَمَهُ: الضلال، يقال: عمه فلان يَعْمَهُ عَمَهَا وَعُمُوها: إذا ضل.

قال: وقوله: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: في ضلالهم^(١)، وكفرهم الذي غمرهم دَنَسُهُ، وَعَلَاهُم رَجْسُهُ، يترددون [حيارى]^(٢) ضُلَالًا^(٣)، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلا؛ لأن الله تعالى قد طبع على قلوبهم وختم عليها، وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها، فلا يبصرون رُشْدًا، ولا يهتدون سبيلا.

[وقال بعضهم: العمى في العين، والعمه في القلب، وقد يستعمل العمى في القلب - أيضا -: قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] ويقال: عمه الرجل يعمه عموها فهو عمه وعامه، وجمعه عمّه، وذهبت إبله العمهاء: إذا لم يدر أين ذهبت]^(٤).

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٦).

قال السدي في تفسيره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ﴾ قال: أخذوا الضلالة وتركوا الهدى.

وقال [محمد]^(٥) بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ﴾ أى: الكفر بالإيمان.

وقال مجاهد: آمنوا ثم كفروا.

وقال قتادة: استحبوا الضلالة على الهدى [أى: الكفر بالإيمان]^(٦). وهذا الذي قاله قتادة يشبهه في المعنى قوله تعالى في ثمود: ﴿وَأَمَّا^(٧) ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

وحاصل قول المفسرين فيما تقدم: أن المنافقين عَدَكُوا عن الهدى إلى الضلال، واعتاضوا عن الهدى بالضلالة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ﴾: أى بذلوا الهدى ثمنًا للضلالة، وسواء في ذلك من كان منهم قد حصل له الإيمان ثم رجع عنه إلى الكفر، كما قال

(١) في ج: «ضلال».

(٢) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٣) زيادة من ط.

(٤) زيادة من ج.

(٥) في ب، أ، و: «ضلالتهم».

(٦) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٧) في هـ: «فأما» وهو خطأ.

تعالى فيهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣]، أو أنهم استحبوا الضلالة على الهدى، كما يكون^(١) حال فريق آخر منهم، فإنهم أنواع وأقسام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا رِبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أى: ما ربحت صفقتهم فى هذه البيعة، ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾: أى: راشدين فى صنعهم ذلك.

قال^(٢) ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة ﴿فَمَا رِبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾: قد - والله - رأيتهم يخرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السنة إلى البدعة. وهكذا رواه ابن أبى حاتم، من حديث يزيد بن زريع، عن سعيد، عن قتادة، بمثله سواء.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمُّ بَكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨)﴾.

[يقال: مثل ومثل ومثيل - أيضا - والجمع أمثال، قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾]^(٣) [العنكبوت: ٤٣].

وتقرير هذا المثل: أن الله، سبحانه، شبههم فى اشتراطهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد التبصرة إلى العمى، بمن استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتأنس بها فبينما هو كذلك إذ طفت نارُه، وصار فى ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدى، وهو مع ذلك أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لو كان ضياء لما أبصر؛ فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء^(٤) المنافقون فى استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم الغى على الرشد. وفى هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا، كما أخبر عنهم تعالى فى غير هذا الموضع، والله أعلم.

وقد حكى هذا الذى قلناه فخر الدين الرازى فى تفسيره عن السدى ثم قال: والتشبيه ههنا فى غاية الصحة؛ لأنهم بإيمانهم اكتسبوا أولاً نورا ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك النور فوقعوا فى حيرة عظيمة فإنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين .

وزعم ابن جرير أن المضروب لهم المثل ههنا لم يؤمنوا فى وقت من الأوقات، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

والصواب: أن هذا إخبار عنهم فى حال نفاقهم وكفرهم، وهذا لا ينفى أنه كان حصل لهم إيمان قبل ذلك، ثم سلّوه وطبع على قلوبهم، ولم يستحضر ابن جرير، رحمه الله، هذه الآية ههنا وهى

(٣) زيادة من ج، ط.

(٢) فى ط: «وقال».

(١) فى ج، ط، ب، أ، و: «كما قد يكون».

(٤) فى ج: «هم».

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]؛ فلهذا وجه [ابن جرير]^(١) هذا المثل بأنهم استضاءوا بما أظهروه من كلمة الإيمان، أى فى الدنيا، ثم أعقبهم ظلمات يوم القيامة.

قال: وصح ضرب مثل الجماعة بالواحد، كما قال: ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩] أى: كدوران عيني الذى يغشى عليه من الموت، وقال تعالى: ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بِعَثْكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، وقال بعضهم: تقدير الكلام: مثل قصتهم كقصته الذى استوقد ناراً. وقال بعضهم: المستوقد واحد لجماعة معه. وقال آخرون: الذى ههنا بمعنى الذين كما قال الشاعر:

وإن الذى حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد^(٢)

قلت: وقد التفت فى أثناء المثل من الواحد^(٣) إلى الجمع، فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ. صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ وهذا أفصح فى الكلام، وأبلغ فى النظام، وقوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أى: أذهب عنهم ما ينفعهم، وهو النور، وأبقى لهم ما يضرهم، وهو الإحراق والدخان ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾: لا يهتدون إلى سبل^(٤) خير ولا يعرفونها، وهم مع ذلك ﴿صُمُّ﴾ لا يسمعون خيراً ﴿بُكْمٌ﴾ لا يتكلمون بما ينفعهم ﴿عُمَىٰ﴾ فى ضلالة وعماية البصيرة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] فلهذا لا يرجعون إلى ما كانوا عليه من الهداية التى باعوها بالضلالة.

ذكر أقوال المفسرين من السلف بنحو ما ذكرناه:

قال السدى فى تفسيره، عن أبى مالك وعن أبى صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة، فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾: زعم أن ناساً دخلوا فى الإسلام مقدّمين نبي الله ﷺ المدينة، ثم إنهم نافقوا، فكان مثلهم كمثل رجل كان فى ظلمة، فأوقد ناراً، فأضاءت ما حوله من قذى، أو أذى، فأبصره حتى عرف ما يتقى منه^(٥)، فبينما^(٦) هو كذلك إذ طفئت ناره، فأقبل لا يدرى ما يتقى من أذى، فكذلك المنافق: كان فى ظلمة الشرك فأسلم، فعرف الحلال والحرام، و [عرف]^(٧) الخير والشر، فبينما^(٨) هو كذلك إذ كفر، فصار لا يعرف الحلال من

(١) زيادة من و.

(٢) البيت للأشهب بن ربيعة، كما فى اللسان، مادة «فلج».

(٣) فى ج، ط، ب، أ، و: «الوحدة».

(٤) فى ط، ب: «سبيل».

(٥) فى ج، ط، ب: «منها».

(٨) فى أ، و: «فبينما».

(٧) زيادة من ج.

(٦) فى أ، و: «فبينما».

الحرام، ولا الخير من الشر.

وقال مجاهد: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ^(١)﴾ أما إضاءة النار فإقبالهم^(٢) إلى المؤمنين، والهدى.

وقال عطاء الخراساني في قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ قال: هذا مثل المنافق، يبصر أحياناً ويعرف أحياناً، ثم يدركه عمى القلب.

وقال ابن أبي حاتم: وروى عن عكرمة، والحسن، والسدي، والربيع بن أنس نحو قول عطاء الخراساني.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ إلى آخر الآية، قال: هذه صفة المنافقين. كانوا قد آمنوا حتى أضاء الإيمان في قلوبهم، كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا^(٣)، ثم كفروا فذهب الله بنورهم فانتزع، كما ذهب بضوء هذه النار فتركهم في ظلمات لا يبصرون.

وقال العوفي، عن ابن عباس، في هذه الآية، قال: أما النور: فهو إيمانهم الذي كانوا يتكلمون به، وأما الظلمة: فهي ضلالتهم وكفرهم الذي كانوا يتكلمون به، وهم قوم كانوا على هدى، ثم نزع منهم، فعتوا بعد ذلك.

وأما قول ابن جرير فيشبه ما رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ قال: هذا مثل ضربه الله للمنافقين أنهم كانوا يعتزون بالإسلام، فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفىء، فلما ماتوا سلبهم الله ذلك العز، كما سلب صاحب النار ضوءه.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾: فإنما ضوء النار ما أوقدتها، فإذا خمدت ذهب نورها، وكذلك المنافق، كلما تكلم بكلمة الإخلاص، بلا إله إلا الله، أضاء له، فإذا شك وقع في الظلمة.

وقال الضحاك [في قوله]^(٤): ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾: أما نورهم فهو إيمانهم الذي تكلموا به.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾: فهي^(٥) لا إله إلا الله؛ أضاءت لهم فأكلوا بها وشربوا وأمنوا في الدنيا، ونكحوا النساء، وحقنوا دماءهم، حتى إذا ماتوا ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون.

وقال سعيد، عن قتادة في هذه الآية: إن المعنى: أن المنافق تكلم بلا إله إلا الله فأضاءت له الدنيا، فناكح بها المسلمين، وغازاهم بها، ووارثهم بها، وحقن بها دمه وماله، فلما كان عند الموت

(٣) في ج: «استوقدوا ناراً».

(٢) في ج، ط، ب: «فإقباله».

(١) في ج: «ما حوله ذهب الله بنورهم».

(٥) في ج: «فهو».

(٤) زيادة من ج، ط، ب.

سلبها المنافق؛ لأنه^(١) لم يكن لها أصل في قلبه، ولا حقيقة في عمله^(٢).

﴿وَتَرَكْهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾: قال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَتَرَكْهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ يقول: في عذاب إذا ماتوا.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَتَرَكْهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾: أى يبصرون الحق ويقولون به، حتى إذا خرجوا من ظلمة الكفر أطفؤوه بكفرهم^(٣) ونفاقهم فيه، فتركهم الله في ظلمات الكفر، فهم لا يبصرون هدى، ولا يستقيمون على حق.

وقال السدى في تفسيره بسنده: ﴿وَتَرَكْهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾: فكانت الظلمة نفاقهم.

وقال الحسن البصرى: ﴿وَتَرَكْهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾، فذلك^(٤) حين يموت المنافق، فيظلم عليه عمله عمل السوء، فلا يجد له عملاً من خير عمل به يصدق^(٥) به قول: لا إله إلا الله^(٦).

﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَى﴾: قال السدى بسنده ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَى﴾: فهم خرس عمى^(٧).

وقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَى﴾ يقول: لا يسمعون الهدى ولا يبصرونه ولا يعقلونه، وكذا قال أبو العالية، وقتادة بن دعامة.

﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾: قال ابن عباس: أى لا يرجعون إلى هدى، وكذلك^(٨) قال الربيع بن أنس.

وقال السدى بسنده: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾: إلى الإسلام.

وقال قتادة: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾: أى لا يتوبون^(٩)، ولا هم يذكرون.

﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مِّشْوًا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾.

وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين، وهم قوم يظهر لهم الحق تارة، ويشكّون تارة أخرى، فقلوبهم في حال شكهم وكفرهم وترددهم ﴿كَصَيْبٍ﴾، والصيب: المطر؛ قاله ابن مسعود، وابن عباس، وناس من الصحابة، وأبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء،

(١) فى ج: «لأنها». (٢) فى ج: «علمه». (٣) فى ج: «طعنوا بكفرهم به». (٤) فى ج: «فبذلك». (٥) فى ج: «يصدق». (٦) فى ط، ب، و: «إلا هو». (٧) فى ج: «عمى خرس». (٨) فى ج، ط، ب، أ: «وكذا». (٩) فى ج: «لا يؤمنون».

والحسن البصرى، وقتادة، وعطية العوفى، وعطاء الخراسانى، والسدى، والربيع بن أنس.
وقال الضحاك: هو السحاب.

والأشهر هو المطر نزل من السماء، فى حال ظلمات، وهى الشكوك والكفر والنفاق. ﴿وَرَعْدٌ﴾ وهو ما يزعج القلوب من الخوف، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفرع، كما قال تعالى: ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [هُمُ الْعَدُو] ^(١) ﴿[المنافقون: ٤]﴾ وقال: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ. لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٦، ٥٧].

والبرق: هو ما يلمع فى قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين فى بعض الأحيان، من نور الإيمان؛ ولهذا قال: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أى: ولا يُجْدَى عنهم حذرهم شيئاً؛ لأن الله محيط [بهم] ^(٢) بقدرته، وهم تحت مشيئته وإرادته، كما قال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ. فِرْعَوْنُ وَثَمُودَ. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ. وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج: ١٧ - ٢٠]

[والصواعق: جمع صاعقة، وهى نار تنزل من السماء وقت الرعد الشديد، وحكى الخليل بن أحمد عن بعضهم صاعقة، وحكى بعضهم صاعقة وصعقة وصاعقة، ونقل عن الحسن البصرى أنه: قرأ «من الصواعق حذر الموت» بتقديم القاف وأنشدوا لأبى النجم:

يحكوك بالثقولة القواطع شفق البرق عن الصواعق ^(٣)

قال النحاس: وهى لغة بنى تميم وبعض بنى ربيعة، حكى ذلك القرطبى فى تفسيره ^(٤).

ثم قال: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ أى: لشدة وقوته فى نفسه، وضعف بصائرهم، وعدم ثباتها للإيمان.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ يقول: يكاد مُحَكَّمُ القرآن يدل على عورات المنافقين.

وقال ابن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾: أى لشدة ضوء الحق، كلما أضاء لهم مشوا فيه ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾: أى كلما ظهر لهم من الإيمان شئ استأنسوا ^(٥) به واتبعوه، وتارة تعرض لهم الشكوك أظلمت قلوبهم فوقفوا حائرين.

(١) زيادة من ج، ط.

(٢) زيادة من ج، ط، ب.

(٣) البيت فى اللسان، مادة «صقع» وهو فيه:

تشفق البرق عن الصواعق
(٥) فى أ: «استأنسوا».

يحكون بالمصقولة القواطع

(٤) زيادة من ج، ط، ب، أ.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوَافٍ فِيهِ﴾ يقول: كلما أصاب المنافقين من عز الإسلام اطمأنوا إليه، وإن أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر، كقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ [وَأِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ] ^(١)﴾ الآية [الحج: ١١].

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوَافٍ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ أى: يعرفون الحق ويتكلمون به، فهم فى قولهم به على استقامة فإذا ارتكسوا منه ^(٢) إلى الكفر ﴿قَامُوا﴾ أى: متحيرين.

وهكذا قال أبو العالية، والحسن البصرى، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدى بسنده، عن الصحابة وهو أصح وأظهر. والله أعلم.

وهكذا يكونون ^(٣) يوم القيامة عندما يعطى الناس النور بحسب إيمانهم، فمنهم من يعطى من النور ما يضىء له مسيرة فراسخ، وأكثر من ذلك وأقل من ذلك، ومنهم من يطفأ نوره تارة ويضىء له أخرى، فيمشى ^(٤) على الصراط تارة ويقف أخرى. ومنهم من يطفأ نوره بالكلية وهم الخُلُص من المنافقين، الذين قال تعالى ^(٥) فيهم: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣] وقال فى حق المؤمنين: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ﴾ الآية [الحديد: ١٢] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحریم: ٨].

ذكر الحديث الوارد فى ذلك:

قال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ الآية [الحديد: ١٢]: ذكر لنا أن النبى ^(٦) ﷺ كان يقول: «من المؤمنين من يضىء نوره من المدينة إلى عدن، أو بين ^(٧) صنعاء ودون ذلك، حتى إن من المؤمنين من لا يضىء نوره إلا موضع قدميه». رواه ابن جرير.

ورواه ابن أبى حاتم من حديث عمران بن داود ^(٨) القطان، عن قتادة، بنحوه.

وهذا كما قال المنهال بن عمرو، عن قيس بن السكن، عن عبد الله بن مسعود، قال: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يرى ^(٩) نوره كالنخلة، ومنهم من يرى ^(١٠) نوره كالرجل القائم، وأدناهم نوراً على إبهامه يطفأ مرة ويقد ^(١١) مرة.

(٣) فى جـ: «يكذبون»، وفى أ: «يكون».

(٢) فى أ: «فيه».

(١) زيادة من جـ.

(٦) فى جـ، ط، ب، أ، و: «أن نبى الله».

(٥) فى جـ، ط، ب، أ، و: «الله».

(٤) فى أ، و: «ومنهم من يمشى».

(٩) فى و: «يؤتى».

(٨) فى أ: «داود».

(٧) فى جـ، ط، ب: «أبين و».

(١١) فى جـ: «ويتقد».

(١٠) فى أ، و: «يؤتى».

وهكذا رواه ابن جرير، عن ابن مثنى، عن ابن إدريس، عن أبيه، عن المنهال.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسى^(١)، حدثنا ابن إدريس، سمعت أبي يذكر عن المنهال بن عمرو، عن قيس بن السكن، عن عبد الله بن مسعود: ﴿نورهم يسعى بين أيديهم﴾ [التحریم: ٨]، قال: على قدر أعمالهم يرون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه يتقد مرة ويطفأ أخرى.

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا أبو يحيى الحماني، حدثنا عتبة^(٢) بن اليقظان، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: ليس أحد من أهل التوحيد إلا يعطى نوراً يوم القيامة، فأما المنافق فيطفأ نوره، فالؤمن مشفق مما يرى من إطفاء نور المنافقين، فهم يقولون: ربنا أتمم لنا نورنا.

وقال الضحاك بن مزاحم: يعطى كل من كان يظهر الإيمان في الدنيا يوم القيامة نوراً؛ فإذا انتهى إلى الصراط طفى نور المنافقين، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا، فقالوا: ﴿ربنا أتمم لنا نورنا﴾.

فإذا تقرر هذا صار الناس أقساماً: مؤمنون خلّص، وهم الموصوفون بالآيات الأربع في أول البقرة، وكفار خلّص، وهم الموصوفون بالآيتين بعدها، ومنافقون، وهم قسمان: خلّص، وهم المضروب لهم المثل الناري، ومنافقون يترددون، تارة يظهر لهم لُمع من الإيمان وتارة يخبو^(٣)، وهم أصحاب المثل المائي، وهم أخف حالاً من الذين قبلهم.

وهذا المقام يشبه^(٤) من بعض الوجوه ما ذكر في سورة النور، من ضرب مثل المؤمن^(٥) وما جعل الله في قلبه من الهدى والنور، بالمصباح^(٦) في الزجاجة التي كأنها كوكب دري، وهى قلب المؤمن المفطور على الإيمان واستمداده من الشريعة الخالصة الصافية الواصلة إليه من غير كدر ولا تخليط، كما سيأتى تقريره في موضعه، إن شاء الله.

ثم ضرب مثل العباد من الكفار، الذين يعتقدون أنهم على شيء، وليسوا على شيء، وهم أصحاب الجهل المركب، في قوله:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾ الآية [النور: ٣٩].

ثم ضرب مثل الكفار الجهال الجهل البسيط، وهم الذين قال [الله]^(٧) فيهم: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠] فقسم الكفار ههنا إلى قسمين: داعية ومقلد، كما ذكرهما في أول سورة الحج: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ

(١) في ج: «الطالسي». (٢) في ج: «عتية». (٣) في أ: «تخير». (٤) في ج: «وهذا شبه». (٥) في ج: «المؤمنين». (٦) في ج: «المصباح الذي». (٧) زيادة من ج، ط.

مُرِيدٌ [الحج: ٣] وقال بعده: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨] (١) وقد قسم الله (٢) المؤمنين في أول الواقعة وآخرها (٣)، وفي سورة الإنسان، إلى قسمين: سابقون وهم المقربون، وأصحاب يمين وهم الأبرار.

فتلخص (٤) من مجموع هذه الآيات الكريمات: أن المؤمنين صنفان: مقربون وأبرار، وأن الكافرين صنفان: دعاة ومقلدون، وأن المنافقين - أيضاً - صنفان: منافق خالص، ومنافق فيه شعبة من نفاق. كما جاء في الصحيحين، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ: «ثلاث من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه واحدة منه كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان» (٥).

استدلوا به على أن الإنسان قد تكون فيه شعبة من إيمان، وشعبة من نفاق. إما عملى لهذا الحديث، أو اعتقادي كما دلت عليه الآية، كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض العلماء، كما تقدم، وكما سيأتى، إن شاء الله. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا أبو معاوية يعنى شيبان، عن ليث، عن عمرو بن مرة، عن أبي البختري، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوب أربعة: قلب أجرد، فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مُصَفَّحٌ؛ فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن، سراج فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص، عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ومثل الإيمان فيه كمثّل البقلة، يمدّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثّل القرحة يمدّها القيح والدم، فأى المديتين (٦) غلبت على الأخرى غلبت عليه» (٧). وهذا إسناد جيد حسن.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة، أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ قال: لما تركوا من الحق بعد معرفته. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: قال ابن عباس (٨): أى إن الله على كل ما أراد بعباده من نقمة، أو عفو، قدير.

وقال ابن جرير: إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع؛ لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط، و[أنه] (٩) على إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير، ومعنى ﴿قَدِيرٌ﴾: قادر، كما أن معنى ﴿عَلِيمٌ﴾: عالم.

(١) في ج، ب: قدم الآية الثامنة على الآية الثالثة من سورة الحج.

(٢) في أ: «في أول البقرة وآخرها»، وفي ج: «في أول الواقعة وفي آخرها».

(٣) في ج: «فصل».

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٤) وصحيح مسلم برقم (٥٨) ولنظرة: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً - والرابعة - وإذا خاصم فجر».

(٥) في ج: «المدين».

(٦) المسند (١٧/٣).

(٧) في ج، ط، ب، و: «ابن إسحاق».

(٨) زيادة من ج.

[وذهب ابن جرير الطبري ومن تبعه من كثير من المفسرين أن هذين المثليين مضروبان لصنف واحد من المنافقين وتكون «أو» في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ بمعنى الواو، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطْعَمُهُمْ أَنَّمَا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]، أو تكون للتخيير، أى: أضرب لهم مثلاً بهذا وإن شئت بهذا، قاله القرطبي. أو للتساوى مثل جالس الحسن أو ابن سيرين، على ما وجهه الزمخشري: أن كلا منهما مساوٍ للآخر في إباحة الجلوس إليه، ويكون معناه على قوله: سواء ضربت لهم مثلاً بهذا أو بهذا فهو مطابق لحالهم.

قلت: وهذا يكون باعتبار جنس المنافقين، فإنهم أصناف ولهم أحوال وصفات كما ذكرها الله تعالى في سورة براءة - ومنهم - ومنهم - ومنهم - يذكر أحوالهم وصفاتهم وما يعتمدونه من الأفعال والأقوال، فجعل هذين المثليين لصنفين منهم أشد مطابقة لأحوالهم وصفاتهم، والله أعلم، كما ضرب المثليين في سورة النور لصنفى الكفار الدعاة والمقلدين في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ إلى أن قال: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾ الآية [النور: ٣٩، ٤٠]؛ فالأول للدعاة الذين هم في جهل مركب، والثاني لذوى الجهل البسيط من الاتباع المقلدين، والله أعلم بالصواب^(١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)﴾.

شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته، بأنه تعالى هو المنعم على عبده، بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغهم عليهم النعم الظاهرة والباطنة، بأن جعل لهم الأرض فراشاً، أى: مهداً كالفرش مقرر موطأة مثبتة بالرواسي الشامخات، ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾، وهو السقف، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢] وأنزل لهم من السماء ماء - والمراد به السحاب ههنا - في وقته عند احتياجهم إليه، فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد؛ رزقاً لهم ولأنعامهم، كما قرر هذا في غير موضع^(٢) من القرآن. ومن أشبه آية بهذه الآية قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا^(٣) وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤] ومضمونه: أنه الخالق الرازق مالك الدار، وساكنيها، ورازقهم، فهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يُشرك به غيره؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. وفي الصحيحين عن ابن مسعود، قال: قلت: يا رسول الله، أى الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندا، وهو خلقك» الحديث^(٤). وكذا حديث معاذ:

(١) زيادة من ج، ط، ب، أ، و. (٢) فى ج: «غير هذا الموضع».

(٣) فى ج: «فراشاً» وهو خطأ.

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٦١) وصحيح مسلم برقم (٦٨).

«أتدري ما حق الله على عباده؟ أن يعبدوه لا^(١) يشركوا به شيئاً» الحديث^(٢)، وفي الحديث الآخر: «لا يقولن أحدكم: ما شاء الله وشاء فلان. ولكن ليقل^(٣): ما شاء الله، ثم شاء فلان»^(٤).

وقال حماد بن سلمة: حدثنا عبد الملك بن عمير، عن ربيع بن حراش، عن الطفيل بن سخرية، أخى عائشة أم المؤمنين لأمها، قال: رأيت فيما يرى النائم، كأنى أتيت على نفر من اليهود، فقلت: من أنتم؟ فقالوا: نحن اليهود، قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: عزير ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. قال: ثم مررت بنفر من النصارى، فقلت: من أنتم؟ قالوا: نحن النصارى. قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته، فقال: «هل أخبرت بها أحداً؟» فقلت: نعم. فقام، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلمت كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده». هكذا رواه ابن مردويه في تفسير هذه الآية من حديث حماد بن سلمة، به^(٥). وأخرجه ابن ماجه من وجه آخر، عن عبد الملك بن عمير به، بنحوه^(٦).

وقال سفيان بن سعيد الثوري، عن الأجلح بن عبد الله الكندي، عن يزيد بن الأصم، عن ابن عباس، قال: قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت. فقال: «أجعلت لله ندا^(٧)؟ قل: ما شاء الله وحده». رواه ابن مردويه، وأخرجه النسائي، وابن ماجه من حديث عيسى بن يونس، عن الأجلح، به^(٨).

وهذا كله صيانة، وحماية لجناب التوحيد، والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال: قال الله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ» للفريقين جميعاً من الكفار والمنافقين، أى: وحدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم.

وبه عن ابن عباس: «فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» أى: لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التى لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره وقد علمتم أن الذى يدعوكم إليه

(١) فى ج: «ولا».

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٣٧٣) ومسلم فى صحيحه برقم (٣٠).

(٣) فى ج: «ليقول».

(٤) رواه أبو داود فى السنن برقم (٤٩٨٠) من حديث حذيفة رضى الله عنه.

(٥) ورواه الإمام أحمد فى المسند (٧٢/٥) من طريق بهز وعفان عن حماد بن سلمة به.

(٦) رواه ابن ماجه فى السنن برقم (٢١١٨) عن هشام بن عمار، عن سفيان، عن عبد الملك بن عمير به. وقال البوصيرى فى الزوائد

(١٥١/٢): «هذا إسناده رجاله ثقات على شرط البخارى لكنه منقطع بين سفيان وبين عبد الملك بن عمير».

(٧) فى ج: «أنداداً».

(٨) سنن النسائي الكبرى برقم (١٠٨٢٥) وسنن ابن ماجه برقم (٢١١٧) وقال البوصيرى فى الزوائد (١٥٠/١): «هذا فيه الأجلح بن

عبد الله، مختلف فيه».

الرسول ﷺ من توحيده هو الحق الذى لا شك فيه. وهكذا قال قتادة.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن عمرو بن أبى عاصم، حدثنا أبى عمرو، حدثنا أبى الضحاك بن مخلد أبو عاصم، حدثنا شبيب بن بشر، حدثنا عكرمة، عن ابن عباس، فى قول الله، عز وجل^(١): ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا [وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ]﴾^(٢) قال: الأنداد هو الشرك، أخفى من ديب النمل على صفاء سوداء فى ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلان، وحياتى، ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط فى الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها «فلان». هذا^(٣) كله به شرك.

وفى الحديث: أن رجلا قال لرسول الله ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: «أجعلتنى لله ندا». وفى الحديث الآخر: «نعم القوم أنتم، لولا أنكم تنددون، تقولون: ما شاء الله، وشاء فلان».

قال^(٤) أبو العالية: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾: أى عدلاء شركاء. وهكذا قال الربيع بن أنس، وقاتادة، والسدى، وأبو مالك: وإسماعيل بن أبى خالد.

وقال مجاهد: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال: تعلمون أنه إله واحد فى التوراة والإنجيل.

ذكر حديث فى معنى هذه الآية الكريمة:

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو خلف موسى بن خلف، وكان يُعَدُّ من البدلاء، حدثنا يحيى بن أبى كثير، عن زيد بن سلام، عن جده ممتور، عن الحارث الأشعري: أن نبى الله ﷺ قال: «إن الله، عز وجل، أمر يحيى بن زكريا، عليه السلام، بخمس كلمات أن يعمل بهن، وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن، وكان يبطئ بها، فقال له عيسى، عليه السلام: إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن، فإذا أن تبليهن، وإما أن أبليهن. فقال: يا أخى، إني أخشى إن سبقتنى أن أعذب أو يخسف بى». قال: «فجمع يحيى بن زكريا بنى إسرائيل فى بيت المقدس، حتى امتلأ المسجد، فقعده على الشرف، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن، وأمركم أن تعملوا بهن، وأولهن: أن تعبدوا الله^(٥) لا تشركوا به شيئا، فإن مثل ذلك مثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بورق أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدى غلته^(٦) إلى غير سيده فأيكسره^(٧) أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأمركم بالصلاة؛ فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت، فإذا صليتم فلا تلتفتوا. وأمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك فى عصابة، كلهم يجد ريح المسك، وإن خلوف فم الصائم عند الله أطيب^(٨) من ريح المسك. وأمركم بالصدقة؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فشده يديه إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال لهم: هل لكم أن أفندى

(٣) فى ج: «لأن هذا».

(٦) فى ج، أ: «عمله».

(٢) زيادة من ج، ط.

(٥) فى ج: «الله وحده».

(٨) فى ب: «أطيب عند الله».

(١) فى ج: «تعالى».

(٤) فى ج: «وقال».

(٧) فى ج: «سره».

نفسى^(١)؟ فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه. وأمركم بذكر الله كثيراً؛ وإن مثل ذلك كمثّل رجل طلبه العدو سراعاً فى أثره، فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان فى ذكر الله.

قال: وقال رسول الله ﷺ: «وأنا آمركم بخمس أمرنى بهن: الجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد فى سبيل الله؛ فإنه من خرج من الجماعة قيدَ شبرٍ فقد خلع رِبْقَةَ الإسلام من عنقه، إلا أن يراجع ومن دعا بدعوى جاهلية فهو من جثيَّ جهنم». قالوا: يا رسول الله، وإن صام وصلى^(٢)؟ فقال: «وإن صلى وصام»^(٣) وزعم أنه مسلم؛ فادعوا المسلمين بأسمائهم على ما سماهم^(٤) الله، عز وجل: المسلمين المؤمنين عباد الله»^(٥).

هذا حديث حسن، والشاهد منه فى هذه الآية قوله: «وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً».

وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، وقد استدل به كثير من المفسرين كالرازى وغيره على وجود الصانع فقال: وهى دالة على ذلك بطريق الأولى، فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ووضعها فى مواضع النفع بها محكمة، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب، وقد سئل: ما الدليل على وجود الرب تعالى؟ فقال: يا سبحان الله، إن البعرة لتدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟

وحكى فخر الدين عن الإمام مالك أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل باختلاف اللغات والأصوات والنغمات، وعن أبى حنيفة أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود البارئ تعالى، فقال لهم: دعونى فإنى مفكر فى أمر قد أخبرت عنه ذكروا لى أن سفينة فى البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهى مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخرق الأمواج العظام حتى تتخلص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد. فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل، فقال: ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوى والسفلى وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع!! فهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه.

وعن الشافعى: أنه سئل عن وجود الصانع، فقال: هذا ورق التوت طعمه واحد تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم، وتأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاة والبعير والأنعام فتلقيه بعرأ وروثاً، وتأكله الطباء فيخرج منها المسك وهو شيء واحد.

وعن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عن ذلك فقال: ههنا حصن حصين أملس، ليس له باب

(١) فى ج، ب، أ، و: «نفسى منكم». (٢) فى ج: «وصلى وزعم أنه مسلم». (٣) فى أ: «وإن صلى وإن صام».

(٤) فى ج، ط: «بل بما سماهم».

(٥) المستد (٤/ ١٣٠).

ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز، فبينما هو كذلك إذ انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت مليح، يعنى بذلك البيضة إذا خرج منها الدجاجة.

وسئل أبو نواس عن ذلك فأشدد:

تأمل فى نبات الأرض وانظر
إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات
بأحداق هى الذهب السيك
على قضب الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريك

وقال ابن المعتز:

فيا عجباً كيف يعصى الإله
أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شىء له آية
تدل على أنه واحد

وقال آخرون: من تأمل هذه السموات فى ارتفاعها واتساعها وما فيها من الكواكب الكبار والصغار المنيرة من السيارة ومن الثوابت، وشاهدها كيف تدور مع الفلك العظيم فى كل يوم وليلة دويرة ولها فى أنفسها سير يخصصها، ونظر إلى البحار الملتفة للأرض من كل جانب، والجبال الموضوعة فى الأرض لتقر ويسكن ساكنوها مع اختلاف أشكالها وألوانها كما قال: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ. وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨]، وكذلك هذه الأنهار السارحة من قطر إلى قطر لمنافع العباد وما زرا فى الأرض من الحيوانات المتنوعة والنبات المختلف الطعوم والأرياح والأشكال والألوان مع اتحاد طبيعة التربة والماء، علم وجود الصانع وقدرته العظيمة وحكمته ورحمته بخلقه ولطفه بهم وإحسانه إليهم وبره بهم لا إله غيره ولا رب سواه، عليه توكلت وإليه أنيب، والآيات فى القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جداً.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٣) فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٢٤).

ثم شرع تعالى فى تقرير النبوة بعد أن قرر أنه ^(١) لا إله إلا هو، فقال مخاطباً للكافرين: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ يعنى: محمداً ﷺ ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ من مثل ما جاء به إن زعمتم أنه من عند غير الله، فعارضوه بمثل ما جاء به، واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله، فإنكم لا تستطيعون ذلك.

(١) فى أ: «بأن».

قال ابن عباس: ﴿شُهَدَاءُكُمْ﴾ أعوانكم [أى: قوماً آخرين يساعدونكم على ذلك] ^(١).

وقال السدى، عن أبى مالك: شركاءكم [أى استعينوا بالهتكتم فى ذلك بمدونكم وينصروكم] ^(٢).

وقال مجاهد: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ قال: ناس يشهدون به [يعنى: حكام الفصحاء] ^(٣).

وقد تحداهم الله تعالى بهذا فى غير موضع من القرآن، فقال فى سورة القصص: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩] وقال فى سورة سبحان: ﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقال فى سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، وقال فى سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٧، ٣٨] وكل هذه الآيات مكية.

ثم تحداهم [الله تعالى] ^(٤) بذلك - أيضاً - فى المدينة، فقال فى هذه الآية: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنْهُ﴾ [فى] ^(٥) شك ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ يعنى: محمداً ﷺ. ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ يعنى: من مثل [هذا] ^(٦) القرآن؛ قاله مجاهد وقتادة، واختاره ابن جرير. بدليل قوله: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾ [هود: ١٣] وقوله: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨] وقال بعضهم: من مثل محمد ﷺ، يعنى: من رجل أمى مثله. والصحيح الأول؛ لأن التحدى عام لهم كلهم، مع أنهم أفصح الأمم، وقد ^(٧) تحداهم بهذا فى مكة والمدينة مرات عديدة، مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه، ومع هذا عجزوا عن ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ «ولن»: لنفى التأييد ^(٨)، أى: ولن تفعلوا ذلك أبداً. وهذه - أيضاً - معجزة أخرى، وهو أنه أخبر أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبداً ^(٩)، وكذلك وقع الأمر، لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن، وأنى يتأتى ذلك لأحد، والقرآن كلام الله خالق كل شىء؟ وكيف يشبهه كلام الخالق كلام المخلوقين؟!

ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى، قال الله تعالى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾: [هود: ١]، فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه أو بالعكس على الخلاف، فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يجارى ولا يدانى، فقد أخبر عن مغيبات ماضية وآتية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء، وأمر بكل خير، ونهى عن كل شر كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أى: صدقاً فى الأخبار وعدلاً فى الأحكام، فكله حق وصدق وعدل وهدى ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء،

(١ - ٣) زيادة من ج، ط.

(٤) زيادة من ج.

(٥) زيادة من ج، ط.

(٦) زيادة من أ، و.

(٧) فى أ: «وهو قد».

(٨) فى ج، ب، أ، و: «التأييد فى المستقبل».

(٩) فى ج، ط، أ: «أبد الأبدين ودهر الدهرين».

كما يوجد فى أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التى لا يحسن شعرهم إلا بها، كما قيل فى الشعر: إن أعذبه أكذبه، وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها فى وصف النساء أو الخيل أو الخمر، أو فى مدح شخص معين أو فرس أو ناقة أو حرب أو كائنة أو مخافة أو سبع، أو شىء من المشاهدات المتعينة التى لا تفيد شيئاً إلا قدرة المتكلم المعبر على التعبير على الشىء الخفى أو الدقيق أو إبرازه إلى الشىء الواضح، ثم تجد له فيها بيتاً أو بيتين أو أكثر هى بيوت القصيد وسائرهما هذر لا طائل تحته.

وأما القرآن فجميعه فصيح فى غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً وإجمالاً ممن فهم كلام العرب وتصارييف التعبير، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها فى غاية الحلاوة، سواء كانت مبسطة أو وجيزة، وسواء تكررت أم لا، وكلما تكرّر حلا وعلا، لا يخلق عن كثرة الرد، ولا يمل منه العلماء، وإن أخذ فى الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والأذان، ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن، كما قال فى الترغيب: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] وقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال فى التهذيب: ﴿أَفَأَمَنْتُمْ أَنْ يَخْشِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ [الإسراء: ٦٨]، ﴿أَأَمَنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْشِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَمُورُ . أَمْ أَمَنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ [الملك: ١٦، ١٧]، وقال فى الزجر: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وقال فى الوعد: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧]، إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة، وإن جاءت الآيات فى الأحكام والأوامر والنواهي، اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب، والنهى عن كل قبيح رذيل دنىء؛ كما قال ابن مسعود وغيره من السلف: إذا سمعت الله تعالى يقول فى القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأوعها سمعك فإنه خير ما يأمر به أو شر ينهى عنه. ولهذا قال تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]، وإن جاءت الآيات فى وصف المعاد وما فيه من الأهوال وفى وصف الجنة والنار وما أعد الله فىهما لأولياؤه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم، بشرت به وحذرت وأندرت؛ ودعيت إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات، وزهدت فى الدنيا ورغبت فى الآخرة، وثبتت على الطريقة المثلى، وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القويم، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم.

ولهذا ثبت فى الصحيحين، عن أبى هريرة رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ، قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله

إلى، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا^(١) يوم القيامة» لفظ^(٢) مسلم. وقوله: «وإنما كان الذي أوتيته وحيا» أى: الذى اختصصت به من بينهم هذا القرآن المعجز^(٣) للبشر أن يعارضوه، بخلاف غيره من الكتب الإلهية، فإنها ليست معجزة [عند كثير من العلماء]^(٤)، والله أعلم. وله عليه الصلاة والسلام من الآيات الدالة على نبوته، وصدقه فيما جاء به ما لا يدخل تحت حصر، والله الحمد والمنة.

[وقد قرر بعض المتكلمين الإعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة وقول المعتزلة فى الصوفية، فقال: إن كان هذا القرآن معجزاً فى نفسه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله ولا فى قواهم معارضته، فقد حصل المدعى وهو المطلوب، وإن كان فى إمكانهم معارضته بمثله ولم يفعلوا ذلك مع شدة عداوتهم له، كان ذلك دليلاً على أنه من عند الله؛ لصرفه إياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك، وهذه الطريقة وإن لم تكن مرضية لأن القرآن فى نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته، كما قررنا، إلا أنها تصلح على سبيل التنزل والمجادلة والمنافحة عن الحق وبهذه الطريقة أجاب فخر الدين فى تفسيره عن سؤاله فى السور القصار كالعصر و﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾^(٥).

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أما الوقود، بفتح الواو، فهو ما يلقى فى النار لإضرارها كالخطب ونحوه، كما قال: ﴿وَأَمَّا الْفَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

والمراد بالحجارة ههنا: هى حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المنتنة، وهى أشد الأحجار حرا إذا حميت، أجارنا الله منها.

قال عبد الملك بن ميسرة الزرّاد^(٦)، عن عبد الرحمن بن سابط، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله بن مسعود، فى قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ قال: هى حجارة من كبريت، خلقها الله يوم خلق السموات والأرض فى السماء الدنيا، يعدها للكافرين. رواه ابن جرير، وهذا لفظه. وابن أبى حاتم، والحاكم فى مستدركه وقال: على شرط الشيخين^(٧).

وقال السدى فى تفسيره، عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾: أما الحجارة فهى حجارة فى النار من كبريت أسود، يعذبون به مع النار.

وقال مجاهد: حجارة من كبريت أنتن من الجيفة. وقال أبو جعفر محمد بن على: [هى]^(٨) حجارة من كبريت. وقال ابن جريج: حجارة من كبريت أسود فى النار، وقال لى عمرو بن دينار:

(١) فى ج: «تبعاً».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٩٨١)، وصحيح مسلم برقم (١٥٢).

(٣) فى ط: «المفهم».

(٤) زيادة من ج، ط، ب، أ.

(٥) زيادة من ج، ط، ب.

(٦) فى ج: «الرزاز».

(٧) تفسير الطبرى (٣٨١/١) وتفسير ابن أبى حاتم (٨٥/١) والمستدرک (٦١/٢).

(٨) زيادة من ج.

أصلب من هذه الحجارة وأعظم.

[وقيل: المراد بها: حجارة الأصنام والأنداد التي كانت تعبد من دون الله كما قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الآية [الأنبياء: ٩٨]؛ حكاه القرطبي وفخر الدين ورجحه على الأول؛ قال: لأن أخذ النار في حجارة الكبريت ليس بمنكر فجعلها هذه الحجارة أولى، وهذا الذي قاله ليس بقوى؛ وذلك أن النار إذا أضمرت بحجارة الكبريت كان ذلك أشد حرها وأقوى لسعيرها، ولا سيما على ما ذكره السلف من أنها حجارة من كبريت معدة لذلك، ثم إن أخذ النار في هذه الحجارة - أيضاً - مشاهد، وهذا الجص يكون أحجاراً فتعمل فيه بالنار حتى يصير كذلك. وكذلك سائر الأحجار تفخرها النار وتحرقها. وإنما سبق هذا في حر هذه النار التي وعدوا بها، وشدة ضرامها وقوة لهبها كما قال: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]. وهكذا رجح القرطبي أن المراد بها الحجارة التي تسعر بها النار لتحمى ويشتد لهبها قال: ليكون ذلك أشد عذاباً لأهلها، قال: وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «كل مؤذ في النار» وهذا الحديث ليس بمحفوظ ولا معروف^(١)، ثم قال القرطبي: وقد فسر بمعنيين، أحدهما: أن كل من أذى الناس دخل النار^(٢)، والآخر: كل ما يؤذى فهو في النار يتأذى به أهلها من السباع والهوم وغير ذلك^(٣).

وقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾: الأظهر أن الضمير في ﴿أُعِدَّتْ﴾، عائد إلى النار التي وقودها الناس والحجارة، ويحتمل عوده إلى الحجارة، كما قال ابن مسعود، ولا منافاة بين القولين في المعنى؛ لأنهما متلازمان.

و ﴿أُعِدَّتْ﴾ أى: أرصدت وحصلت للكافرين بالله ورسوله، كما قال [محمد]^(٤) بن إسحاق، عن محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أى: لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر.

وقد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن لقوله: ﴿أُعِدَّتْ﴾ أى: أرصدت وهيئت وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك منها: «تحتاج الجنة والنار»، ومنها: «استأذنت النار ربها فقالت: رب أكل بعضى بعضاً فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف»، وحديث ابن مسعود سمعنا وجبة فقلنا ما هذه؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذا حجر ألقى به من شفير جهنم منذ سبعين سنة الآن وصل إلى قعرها» وهو عند مسلم^(٥)، وحديث صلاة الكسوف وليلة الإسراء وغير ذلك من الأحاديث المتواترة في هذا المعنى وقد خالفت المعتزلة بجهلهم في هذا ووافقهم القاضى منذر بن سعيد البلوطى قاضى الأندلس.

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (٢٩٩/١١) من طريق المفيد عن الأشج، عن على رضى الله عنه به مرفوعاً.

(٢) فى أ: «عذب فى النار».

(٣) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٤) زيادة من ج.

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٨٤٤).

تنبيه ينبغي الوقوف عليه:

قوله: ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ وقوله في سورة يونس: ﴿بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨] يعم كل سورة في القرآن طويلة كانت أو قصيرة؛ لأنها نكرة في سياق الشرط فتعم كما هي في سياق النفي عند المحققين من الأصوليين كما هو مقرر في موضعه، فالإعجاز حاصل في طوال السور وقصارها، وهذا ما أعلم فيه نزاعاً بين الناس سلفاً وخلفاً، وقد قال الإمام العلامة فخر الدين الرازي في تفسيره: فإن قيل: قوله: ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ يتناول سورة الكوثر وسورة العصر، و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله أو بما يقرب منه ممكن. فإن قلتم: إن الإتيان بمثل هذه السور خارج عن مقدور البشر كان مكابرة، والإقدام على هذه المكابرات مما يطرق بالتهمة^(١) إلى الدين: قلنا: فلهذا السبب اخترنا الطريق الثاني، وقلنا: إن بلغت هذه السورة في الفصاحة حد الإعجاز فقد حصل المقصود، وإن لم يكن كذلك، كان امتناعهم من المعارضة مع شدة دواعيهم إلى تهوين أمره معجزاً^(٢)، فعلى التقديرين يحصل المعجز^(٣)، هذا لفظه بحروفه. والصواب: أن كل سورة من القرآن معجزة لا يستطيع البشر معارضتها طويلة كانت أو قصيرة.

قال الشافعي، رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم: ﴿وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر]. وقد روي عن عمرو بن العاص أنه وفد على مسيلمة الكذاب قبل أن يسلم، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم بمكة في هذا الحين؟ فقال له عمرو: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة فقال: وما هي؟ فقال: ﴿وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾، ففكر ساعة ثم رفع رأسه فقال: ولقد أنزل على مثلها، فقال: وما هو؟ فقال: يا وبر يا وبر، إنما أنت أذنان وصدر، وسائرك حقير فقر، ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني لأعلم إنك تكذب^(٤).

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مِثْلَهَا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥).

لما ذكر تعالى ما أعد له لأعدائه من الأشقياء الكافرين به^(٥) وبرسله من العذاب والنكال، عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به^(٦) وبرسله، الذين صدّقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة. وهذا معنى تسمية القرآن «مثنى» على أصح أقوال^(٧) العلماء، كما سنسطه في موضعه، وهو أن يذكر الإيمان ويتبعه بذكر الكفر، أو عكسه، أو حال السعداء ثم الأشقياء، أو عكسه. وحاصله ذكر الشيء ومقابله. وأما ذكر الشيء ونظيره فذاك التشابه، كما سنوضحه إن شاء الله؛ فلهذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، فوصفها بأنها تجري من تحتها

(١) في أ: «الفهم».

(٢) في أ: «معجز».

(٤) سيأتي الكلام على هذه القصة عند تفسير سورة العصر.

(٧) في ج: «قولي».

(٥، ٦) في ج: «بالله تعالى».

الأنهار، كما وصف النار بأن وقودها الناس والحجارة، ومعنى ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أى: من تحت أشجارها وغرفها، وقد جاء فى الحديث: أن أنهارها تجري من^(١) غير أخدود، وجاء فى الكوثر أن حافتيه قباب اللؤلؤ المجوف، ولا منافاة بينهما، وطينها المسك الأذفر، وحصابؤها اللؤلؤ والجوهر، نسأل الله من فضله [وكرمه]^(٢) إنه هو البر الرحيم.

وقال ابن أبى حاتم: قرئ على الربيع بن سليمان: حدثنا أسد بن موسى، حدثنا ابن ثوبان، عن عطاء بن قرّة، عن عبد الله بن ضمرة، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنهار الجنة تُفَجَّرُ من تحت تلال - أو من تحت جبال - المسك»^(٣).

وقال أيضا: حدثنا أبو سعيد، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، قال: قال عبد الله: أنهار الجنة تفجر من جبل مسك.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾: قال السدى فى تفسيره، عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ قال: إنهم أتوا بالثمرة فى الجنة، فلما نظروا إليها قالوا: هذا الذى رزقنا من قبل فى [دار]^(٤) الدنيا. —

وهكذا قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ونصره ابن جرير.

وقال عكرمة: ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ قال: معناه: مثل الذى كان بالأمس، وكذا قال الربيع بن أنس. وقال مجاهد: يقولون: ما أشبهه به.

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل تأويل ذلك هذا الذى رزقنا من ثمار الجنة من قبل هذا^(٥)، لشدة مشابهة بعضه بعضاً، لقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ قال سنيّد بن داود: حدثنا شيخ من أهل المصيصة، عن الأوزاعى، عن يحيى بن أبى كثير، قال: يؤتى أحدهم بالصحفة^(٦) من الشئ، فيأكل منها ثم يؤتى^(٧) بأخرى فيقول: هذا الذى أتينا به من قبل. فتقول الملائكة: كُلْ، فاللون واحد، والطعم مختلف.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عامر^(٨) بن يساف، عن يحيى ابن أبى كثير، قال: عشب الجنة الزعفران، وكتبانها المسك، ويطوف عليهم الولدان بالفواكه فيأكلونها^(٩)، ثم يؤتون بمثلها، فيقول لهم أهل الجنة: هذا الذى أتيتمونا أنفا به، فيقول لهم الولدان: كلوا، فإن اللون واحد، والطعم مختلف. وهو قول الله تعالى: ﴿وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾.

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية: ﴿وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ قال: يشبه

(١) فى ج، ط، ب، أ، و: «فى». (٢) زيادة من ج، ط، ب.

(٣) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٨٧) ورواه أبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٣١٣) من طريق الربيع بن سليمان به، ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٦٢٢) «موارد» من طريق القراطيسى عن أسد بن موسى عن ابن ثوبان به.

(٤) زيادة من ج. (٥) فى ج: «هذه». (٦) فى ج، ب: «بالصحفة».

(٧) فى ج: «يأتى». (٨) فى أ: «عباس». (٩) فى ج: «فيأكلون».

بعضه بعضاً، ويختلف فى الطعم.

وقال ابن أبى حاتم: وروى عن مجاهد، والربيع بن أنس، والسدى، نحو ذلك.

وقال ابن جرير بإسناده عن السدى فى تفسيره، عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة، فى قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ يعنى: فى اللون والمراى، وليس يشبهه^(١) فى الطعم.

وهذا اختيار ابن جرير.

وقال عكرمة: ﴿وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ قال: يشبه ثمر الدنيا، غير أن ثمر الجنة أطيب.

وقال سفيان الثورى، عن الأعمش، عن أبى ظبيان، عن ابن عباس: لا يشبه شئ مما فى الجنة ما فى الدنيا إلا فى الأسماء. وفى رواية: ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء. رواه ابن جرير، من رواية الثورى، وابن أبى حاتم من حديث أبى معاوية كلاهما عن الأعمش، به.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ قال: يعرفون أسمائه كما كانوا فى الدنيا: التفاح بالتفاح، والرمان بالرمان، قالوا فى الجنة: هذا الذى رزقنا من قبل فى الدنيا، وأتوا به متشابهها، يعرفونه وليس هو مثله فى الطعم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قال ابن أبى طلحة، عن ابن عباس: مطهرة من القذر والأذى.

وقال مجاهد: من الحيض والغائط والبول والنخام والبزاق والمنى والولد.

وقال قتادة: مطهرة من الأذى والمأثم. وفى رواية عنه: لا حيض ولا كلف. وروى عن عطاء والحسن والضحاك وأبى صالح وعطية والسدى نحو ذلك.

وقال ابن جرير: حدثنى يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال: المطهرة التى لا تحيض. قال: وكذلك خلقت حواء، عليها السلام، حتى عصت، فلما عصت قال الله تعالى: إني خلقتك مطهرة وسأدريك كما أدميت هذه الشجرة. وهذا غريب.

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا إبراهيم بن محمد، حدثنى جعفر بن محمد بن حرب، وأحمد بن محمد الجورى^(٢)، قالوا: حدثنا محمد بن عبيد الكندى، حدثنا عبد الرزاق بن عمر البزيعى، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن شعبة، عن قتادة، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ فى قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قال: «من الحيض والغائط والنخاعة والبزاق»^(٣).

هذا حديث غريب. وقد رواه الحاكم فى مستدركه، عن محمد بن يعقوب، عن الحسن بن على ابن عفان، عن محمد بن عبيد، به. وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(١) فى ج: «يشبه». (٢) فى ج، ط، ب: «الجوارى».

(٣) ورواه أبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٣٦٣) من طريق عبد الله بن محمد بن يعقوب عن محمد بن عبيد به.

وهذا الذى ادعاه فيه نظر؛ فإن عبد الرزاق بن عمر البزيعي^(١) هذا قال فيه أبو حاتم بن حبان البُستى: لا يجوز الاحتجاج به^(٢).

قلت: والأظهر أن هذا من كلام قتادة، كما تقدم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: هذا^(٣) هو تمام السعادة، فإنهم مع هذا النعيم فى مقام أمين من الموت والانقطاع فلا آخر له ولا انقضاء، بل فى نعيم سرمدى أبدي على الدوام، والله المسئول أن يحشرنا فى زمرة نعيم، إنه جواد كريم، بر رحيم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)﴾.

قال السدى فى تفسيره، عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين، يعنى قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] وقوله: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩] الآيات الثلاث، قال المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله تعالى هذه الآية إلى قوله: ﴿هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: لما ذكر الله العنكبوت والذباب، قال المشركون: ما بال العنكبوت والذباب يذكران؟ فأنزل الله [تعالى هذه الآية]^(٤): ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾^(٥).

وقال سعيد، عن قتادة: أى إن الله لا يستحيى من الحق أن يذكر شيئاً ما، قل أو كثر، وإن الله حين ذكر فى كتابه الذباب والعنكبوت قال أهل الضلالة: ما أراد الله من ذكر هذا؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾.

قلت: العبارة الأولى عن قتادة فيها إشعار أن هذه الآية مكية، وليس كذلك، وعبارة رواية سعيد، عن قتادة أقرب والله أعلم. وروى ابن جريج عن مجاهد نحو هذا الثانى عن قتادة.

وقال ابن أبى حاتم: روى عن الحسن وإسماعيل بن أبى خالد نحو قول السدى وفتادة.

وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس فى هذه الآية قال: هذا مثل ضربه الله للدنيا؛ إذ

(٢) المجروحين (٢/ ١٦٠).

(٤) زيادة من ط.

(١) فى أ: «الربيعى».

(٣) فى ج، ط: «وهذا».

(٥) تفسير عبد الرزاق (١/ ٦٤).

البعوضة تحيا ما جاعت، فإذا سمنت ماتت. وكذلك مثل هؤلاء^(١) القوم الذين ضرب لهم هذا المثل في القرآن، إذا امتلؤوا من الدنيا رياء أخذهم الله تعالى عند ذلك، ثم تلا: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٤٤].

هكذا رواه ابن جرير، ورواه ابن أبي حاتم من حديث أبي جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية، بنحوه، فالله أعلم.

فهذا اختلافهم في سبب النزول، وقد اختار ابن جرير ما حكاه السدي؛ لأنه أمس بالسورة، وهو مناسب، ومعنى الآية: أنه تعالى أخبر أنه لا يستحيى، أى: لا يستكف، وقيل: لا يخشى أن يضرب مثلاً ما، أى: أى مثل كان، بأى شيء كان، صغيراً كان أو كبيراً.

و«ما» ههنا للتقليل^(٢)، وتكون ﴿بَعُوضَةً﴾ منصوبة على البدل، كما تقول: لأضربن ضرباً ما، فيصدق بأدنى شيء [أو تكون «ما» نكرة موصوفة ببعوضة]^(٣). واختار ابن جرير أن ما موصولة، و﴿بَعُوضَةً﴾ معربة بإعرابها، قال: وذلك سائغ^(٤) فى كلام العرب، أنهم يعربون صلة ما ومن بإعرابها لأنهما يكونان معرفة تارة، ونكرة أخرى، كما قال حسان بن ثابت:

وَكَفَى^(٥) بِنَا فَضْلاً عَلَى مَنْ غَيْرِنَا حُبُّ^(٦) النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ إِيَّانَا^(٧)

قال: ويجوز أن تكون ﴿بَعُوضَةً﴾ منصوبة بحذف الجار، وتقدير الكلام: إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلاً ما بين بعوضة إلى ما فوقها.

[وهذا الذى اختاره الكسائى والفراء. وقرأ الضحاك وإبراهيم بن أبى عبله ورويت «بعوضة» بالرفع، قال ابن جنى: وتكون صلة لما وحذف العائد كما فى قوله: ﴿ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ﴾ [الأنعام: ١٥٤] أى: على الذى أحسن هو أحسن، وحكى سيبويه: ما أنا بالذى قائل لك شيئاً، أى: يعنى بالذى هو قائل لك شيئاً]^(٨).

وقوله: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ فيه قولان: أحدهما: فما دونها فى الصغر، والحقارة، كما إذا وصف رجل باللؤم والشح، فيقول السامع^(٩): نعم، وهو فوق ذلك، يعنى فيما وصفت. وهذا قول الكسائى وأبى عبيدة، قال الرازى: وأكثر المحققين، وفى الحديث: «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»^(١٠). والثانى: فما فوقها: فما هو أكبر منها؛ لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة. وهذا [قول قتادة بن دعامة و]^(١١) اختيار ابن جرير.

(١) فى أ: «هذا». (٢) فى ج، ط، ب، أ، و: «للتقليل زائدة». (٣) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٤) فى ج، أ، و: «شائع». (٥) فى ج، ب، أ، و: «يكفى». (٦) فى ج: «حث».

(٧) البيت فى تفسير الطبرى (١/ ٤٠٤).

(٨) زيادة من ج، ط، ب. (٩) فى ج: «القابل».

(١٠) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٣٢٠) من طريق عبد الحميد بن سليمان عن أبى حازم، عن سهل بن سعد رضى الله عنه به مرفوعاً، وفيه عبد الحميد بن سليمان ضعيف.

(١١) زيادة من ج، ط.

[ويؤيده ما رواه مسلم عن عائشة، رضى الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة»^(١)].^(٢)

فأخبر أنه لا يستصغر^(٣) شيئاً يضرب به مثلاً ولو كان فى الحقارة والصغر كالبعوضة، كما [لم يستنكف عن خلقها كذلك لا يستنكف من]^(٤) ضرب المثل بالذباب والعنكبوت فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلُ مَا تَسْتَمْعُونَ لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]، وقال: ﴿مِثْلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مِثْلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ . يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مِثْلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ [وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ رِزْقًا حَسَنًا]^(٥)﴾ [النحل: ٧٥] ثم قال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مِثْلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ [هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ]^(٦)﴾ [النحل: ٧٦]، كما قال: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مِثْلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]، وقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مِثْلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ [وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ]^(٧)﴾ [الزمر: ٢٩]، وقد قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] وفى القرآن أمثال كثيرة.

قال بعض السلف: إذا سمعت المثل فى القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسى؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾.

وقال مجاهد قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مِثْلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا﴾: الأمثال صغيرها وكبيرها يؤمن بها المؤمنون ويعلمون أنها الحق من ربهم، ويهديهم الله بها.

وقال قتادة: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أى: يعلمون أنه كلام الرحمن، وأنه من عند الله.

وروى عن مجاهد والحسن والربيع بن أنس نحو ذلك.

وقال أبو العالية: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعنى: هذا المثل: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مِثْلًا﴾، كما قال فى سورة المائدة: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ

(١) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٢).

(٢) زيادة من ج، ط، أ، و. (٣) فى ج: «لا يستنكف».

(٤) زيادة من ج، ط. (٥) زيادة من ج، ط. (٦، ٧) زيادة من ج.

أَوْتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ [المدثر: ٣١]، وكذلك قال ههنا: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾.

قال السدى فى تفسيره، عن أبى مالك وعن أبى صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ يعنى: المنافقين، ﴿ويَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ يعنى المؤمنين، فيزيد هؤلاء ضلالة إلى ضلالهم^(١) لتكذيبهم بما قد علموه حقاً يقيناً، من المثل الذى ضربه الله بما ضربه لهم^(٢)، وأنه لما ضربه له موافق، فذلك^(٣) إضلال الله إياهم به ﴿ويَهْدِي بِهِ﴾ يعنى بالمثل كثيراً من أهل الإيمان والتصديق، فيزيدهم هدى إلى هداهم وإيماناً إلى إيمانهم، لتصديقهم بما قد علموه حقاً يقيناً أنه موافق ما^(٤) ضربه الله له مثلاً وإقرارهم به، وذلك هداية من الله لهم به ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ قال: هم المنافقون^(٥).

وقال أبو العالية: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾: قال: هم أهل النفاق. وكذا قال الربيع بن أنس. وقال ابن جريج عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ يقول: يعرفه الكافرون فيكفرون به.

وقال قتادة: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾: فسقوا، فأضلهم الله على فسقهم. وقال ابن أبى حاتم: حَدَّثْتُ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ سَلِيمَانَ، عَنْ أَبِي سِنَانٍ، عَنْ عمرو بن مرة، عن مصعب بن سعد، عن سعد ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾: يعنى الخوارج.

وقال شعبة، عن عمرو بن مرة، عن مصعب بن سعد، قال: سألت أبى فقلت: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ إلى آخر الآية، فقال: هم الخوارج. وهذا الإسناد إن صح عن سعد بن أبى وقاص، رضى الله عنه، فهو تفسير على المعنى، لا أن^(٦) الآية أريد منها التنصيص على الخوارج، الذين خرجوا على على بالنهروان، فإن أولئك لم يكونوا حال نزول الآية، وإنما هم داخلون بوصفهم فيها مع من دخل؛ لأنهم سموا خوارج لخروجهم على^(٧) طاعة الإمام والقيام بشرائع الإسلام.

والفاسق فى اللغة: هو الخارج عن الطاعة أيضاً. وتقول العرب: فسقت الرطبة: إذا خرجت من قشرتها^(٨)؛ ولهذا يقال للفأرة: فويسقة، لخروجها عن جحرها للفساد. وثبت فى الصحيحين، عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «خمس فواسق يُقتلن فى الحل والحرم: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور»^(٩).

(١) فى ج، ط، ب: «ضلالتهم».

(٢) فى ج، ط، أ: «لما ضربه له».

(٣) فى ج: «فوافق ذلك».

(٤) فى ج، ط: «لما».

(٥) فى ج: «أهل النفاق».

(٦) فى ج: «لأن»، وفى ط: «إلا أن».

(٧) فى ج، ط، ب، أ: «عن».

(٨) فى أ: «قشرها».

(٩) صحيح البخارى برقم (٣٣١٤) وصحيح مسلم برقم (١١٩٨).

فالفاسق يشمل^(١) الكافر والعاصي، ولكن فسق الكافر أشد وأفحش، والمراد من الآية الفاسق الكافر، والله أعلم، بدليل^(٢) أنه وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وهذه الصفات صفات الكفار المبينة لصفات المؤمنين، كما قال تعالى في سورة الرعد: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابُ. الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ. وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ الآيات، إلى أن قال: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩ - ٢٥].

وقد اختلف أهل التفسير في معنى العهد الذى وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه، فقال بعضهم: هو وصية الله إلى خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته فى كتبه، وعلى لسان رسله. ونقضهم^(٣) ذلك هو تركهم العمل به.

وقال آخرون: بل هى^(٤) فى كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم، وعهد الله الذى نقضوه هو ما أخذه الله عليهم فى التوراة من العمل بما فيها واتباع محمد ﷺ إذا بعث والتصديق به، وبما جاء به من عند ربهم، ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته وإنكارهم ذلك، وكتمانهم علم ذلك [عن^(٥) الناس بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبينه للناس ولا يكتُمونه، فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم، واشتروا به ثمناً قليلاً. وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله وقول مقاتل بن حيان.

وقال آخرون: بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق. وعهده إلى جميعهم فى توحيدهم: ما وضع لهم^(٦) من الأدلة الدالة على ربوبيته، وعهده إليهم فى أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التى لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتى بمثلها^(٧) الشاهدة لهم على صدقهم، قالوا: ونقضهم ذلك: تركهم^(٨) الإقرار بما ثبت لهم صحته بالأدلة وتكذيبهم الرسل والكتب مع علمهم أن ما أتوا به حق، وروى أيضاً عن مقاتل بن حيان^(٩) نحو هذا، وهو حسن، [وإليه مال الزمخشري، فإنه قال: فإن قلت: فما المراد بعهد الله؟ قلت: ما ركز فى عقولهم من الحجة على التوحيد، كأنه أمر وصاهم به ووثقه عليهم وهو معنى قوله: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] إذ أخذ الميثاق عليهم فى الكتب المنزلة عليهم لقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].^(١٠)

وقال آخرون: العهد الذى ذكره [الله]^(١١) تعالى هو العهد الذى أخذه عليهم حين أخرجهم من

(٣) فى ج: «وبغضهم».

(٦) فى ج، ط: «إليهم».

(٩) فى ج، ط، أ، و: «بن حيان أيضاً».

(١١) زيادة من ج.

(٢) فى ط: «الدليل».

(٥) زيادة من ج، ط.

(٨) فى ج: «عدم».

(١٠) زيادة من ج، ط، أ، و.

صلب آدم الذي وصف في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى [شَهِدْنَا] ^(١)﴾ الآيتين [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣] ونقضهم ^(٢) ذلك تركهم الوفاء به. وهكذا روى عن مقاتل بن حيان أيضاً، حكى هذه الأقوال ابن جرير في تفسيره.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ إلى قوله: ﴿الْخَاسِرُونَ﴾ قال: هي ست خصال من ^(٣) المنافقين إذا كانت فيهم الظَّهْرَةُ ^(٤) على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا أؤتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض، وإذا كانت الظَّهْرَةُ ^(٥) عليهم أظهروا الخصال ^(٦) الثلاث: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا أؤتمنوا خانوا.

وكذا ^(٧) قال الربيع بن أنس أيضاً. وقال السدي في تفسيره بإسناده، قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ قال: هو ما عهد إليهم في القرآن فأقروا به ثم كفروا فنقضوه.

وقوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ قيل: المراد به صلة الأرحام والقربات، كما فسره قتادة كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢] ورجحه ابن جرير. وقيل: المراد أعم من ذلك فكل ما أمر الله بوصله وفعله قطعه وتركه.

وقال مقاتل بن حيان في قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾. قال ^(٨): في الآخرة، وهذا كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وقال الضحاك عن ابن عباس: كل شيء نسبته الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل خاسر، فإنما يعني به الكفر، وما نسبته إلى أهل الإسلام فإنما يعني به الذنب.

وقال ابن جرير في قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الخاسرون: جمع خاسر، وهم الناقصون أنفسهم [و] ^(٩) حظوظهم بمعصيتهم الله من رحمته، كما يخسر الرجل في تجارته بأن يوضع من رأس ماله في بيعه، وكذلك الكافر والمنافق خسر بحرمان الله إياه رحمته التي خلقها لعباده في القيامة أحوج ما كانوا إلى رحمته، يقال منه: خسر الرجل يخسر خسراً وخُسْراناً وخَساراً، كما قال جرير بن عطية ^(١٠):

إِنْ سَلِطًا فِي الْخَسَارِ إِنَّهُ
أَوْلَادُ قَوْمٍ خُلِقُوا أَقْنَهُ ^(١١)

(١) زيادة من جـ.

(٢) في جـ: «وبغضهم».

(٣) في جـ، ط: «في».

(٤، ٥) في جـ: «الظهيرة».

(٦) في جـ: «أخفوا هذه الخصال».

(٧) في جـ: «وقال».

(٨) في أ: «أى».

(٩) زيادة من جـ.

(١٠) في أ: «خطيئة».

(١١) البيت في تفسير الطبري (١/ ٤١٧).

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٨).

يقول تعالى محتجاً على وجوده وقدرته، وأنه الخالق المتصرف في عباده: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ أى: كيف تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره! ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ أى: قد كنتم عدماً فأخرجكم إلى الوجود، كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]، وقال: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ [الإنسان: ١] والآيات في هذا كثيرة.

وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١] قال: هي التي في البقرة: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾.

وقال ابن جريج^(١)، عن عطاء، عن ابن عباس ﴿كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾: أمواتا في أصلاب آبائكم، لم تكونوا شيئاً حتى خلقكم، ثم يميتكم مودة الحق، ثم يحييكم حين يبعثكم. قال: وهي مثل قوله: ﴿رَبَّنَا﴾^(٢) أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ.

وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ قال: كنتم تراباً قبل أن يخلقكم^(٣)، فهذه ميتة، ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى. فهذه ميتتان وحياتان، فهو كقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾.

وهكذا روى عن السدى بسنده، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة - وعن أبي العالية والحسن البصري ومجاهد وقتادة وأبي صالح والضحاك وعطاء الخراساني نحو ذلك.

وقال الثوري، عن السدى عن أبي صالح: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قال: يحييكم^(٤) في القبر^(٥)، ثم يميتكم.

وقال ابن جرير عن يونس، عن ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ خلقهم في^(٦) ظهر آدم ثم أخذ^(٧) عليهم الميثاق، ثم أماتهم ثم خلقهم في الأرحام، ثم أماتهم، ثم أحياهم يوم القيامة. وذلك كقول الله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾.

(١) في ج، ط: «جرير». (٢) زيادة من ج، ط، أ، و. (٣) في ج: «أخلقكم».

(٤) في أ: «يحيهم». (٥) في ج: «القبور». (٦) في ج، ط: «من».

(٧) في ج، ط: «فأخذ».

وهذا غريب والذي قبله. والصحيح ما تقدم عن ابن مسعود وابن عباس، وأولئك الجماعة من التابعين، وهو كقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٦].

[وعبر عن الحال قبل الوجود بالموت بجامع ما يشتركان فيه من عدم الإحساس، كما قال في الأضنام: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل: ٢١]، وقال: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣] ^(١).

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢٩).

لما ذكر تعالى دلالة من خلقهم وما يشاهدونه في أنفسهم، ذكر دليلاً آخر مما يشاهدونه من خلق السموات والأرض، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ أى: قصد إلى السماء، والاستواء ههنا تضمن ^(٢) معنى القصد والإقبال؛ لأنه عدى بالي ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ أى: فخلق السماء سبعا. والسماء ههنا اسم جنس، فلهذا قال: ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أى: وعلمه محيط بجميع ما خلق ^(٣). كما قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] وتفصيل هذه الآية في سورة حم السجدة وهو قوله: ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلْسَائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩ - ١٢].

ففى هذا دلالة على أنه تعالى ابتداء بخلق الأرض أولا، ثم خلق السموات سبعا، وهذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسافله ثم أعاليه بعد ذلك. وقد صرح المفسرون بذلك، كما سنذكره بعد هذا إن شاء الله. فأما قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا. رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا. وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا. وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا. وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٢] فقد قيل: إن ﴿ثُمَّ﴾ ههنا إنما هى لعطف الخبر على الخبر، لا لعطف الفعل على الفعل، كما قال الشاعر:

قل لمن ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جده ^(٤)

وقيل: إن الدحى كان بعد خلق السموات. رواه ابن أبى طلحة، عن ابن عباس.

(١) زيادة من جد، ط، أ، و.

(٢) فى جد، ط: «مضمن».

(٣) فى جد: «وعلمه محيط بجميع الخلق»، وفى ط: «وعلمه محيط بالاشياء بجميع ما خلق».

(٤) البيت فى معنى اللبيب لابن هشام غير منسوب. أ. هـ. مستفاداً من حاشية الشعب.

وقد قال السدى فى تفسيره، عن أبى مالك - وعن أبى صالح عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١) قال: إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئاً غير ما خلق قبل الماء. فلما أراد أن يخلق الخلق، أخرج من الماء دخاناً، فارتفع فوق الماء فسماه عليه، فسماه سماء. ثم أبس الماء فجعله أرضاً واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين فى يومين فى الأحد والإثنين، فخلق الأرض على حوت، والحوت هو النون الذى ذكره الله فى القرآن: ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾^(٢)، والحوت فى الماء، والماء على ظهر صفاة، والصفاة على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة فى الريح، وهى الصخرة التى ذكر^(٣) لقمان - ليست فى السماء ولا فى الأرض، فتحرك الحوت فاضطرب، فترزلت الأرض، فأرسى عليها الجبال ففترت، فالجبال تفخر على الأرض، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾^(٤) [النحل: ١٥]. وخلق الجبال فيها، وأقوات أهلها وشجرها وما ينبغى لها فى يومين، فى الثلاثاء والأربعاء، وذلك حين يقول: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُوا بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ [فصلت: ٩، ١٠]. يقول: أنبت شجرها ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ يقول: أقواتها لأهلها ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠] يقول: من سأل فهكذا الأمر. ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] وذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس، فجعلها سماء واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع سموات فى يومين، فى الخميس والجمعة، وإنما سمى يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض، ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢] قال: خلق الله فى كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذى^(٥) فيها، من البحار وجبال البرد وما لا نعلم، ثم زين السماء الدنيا بالكواكب، فجعلها زينة وحفظاً^(٦)، تحفظ من الشياطين. فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش، فذلك حين يقول: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] ويقول: ﴿كَانَتْ رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقال ابن جرير: حدثنى المثنى، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنى أبو معشر عن سعيد بن أبى سعيد، عن عبد الله بن سلام أنه قال: إن الله بدأ الخلق يوم الأحد، فخلق الأرضين فى الأحد والإثنين، وخلق الأقوات والرواسى فى الثلاثاء والأربعاء، وخلق السموات فى الخميس والجمعة، وفرغ فى آخر^(٧) ساعة من يوم الجمعة، فخلق فيها آدم على عجل، فتلك الساعة التى تقوم فيها الساعة.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ قال: خلق الله الأرض قبل السماء، فلما خلق الأرض ثار منها دخان، فذلك حين يقول: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾

(١) زيادة من ج. (٢) فى ج: «والقلم وما يسطرون». (٣) فى ب: «ذكرها».

(٤) فى ج: «وجعل لها رواسى من فوقها أن تميد بكم»، وفى ط: «وجعل لها رواسى أن تميد بكم»، وفى ب: «وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بكم».

(٥) فى ج، ط: «الذين». (٦) فى أ: «وحفظها». (٧) فى ج: «وأخر».

﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ قال: بعضهن فوق بعض، وسبع أرضين، يعنى بعضهن تحت بعض.

وهذه الآية دالة على أن الأرض خلقت قبل السماء، كما قال فى آية السجدة: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لَيْنِ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩ - ١٢] فهذه وهذه دالتان على أن الأرض خلقت قبل السماء، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعاً بين العلماء إلا ما نقله ابن جرير عن قتادة: أنه زعم أن السماء خلقت قبل الأرض، وقد توقف فى ذلك القرطبى فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَا أَسْفَلَ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءَ بَنَاهَا . رَفَعَ سَمَكُهَا فَسَوَّاهَا . وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا . وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا . أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣١] قالوا: فذكر خلق السماء قبل الأرض. وفى صحيح البخارى^(١): أن ابن عباس سئل عن هذا بعينه، فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء، وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديماً وحديثاً، وقد قررنا ذلك فى تفسير سورة النازعات، وحاصل ذلك أن الدحى مفسر بقوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا . أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا . وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠ - ٣٢] ففسر الدحى بإخراج ما كان مودعاً فيها بالقوة إلى الفعل لما اكتملت صورة المخلوقات الأرضية ثم السماوية دحى بعد ذلك الأرض، فأخرجت ما كان مودعاً فيها من المياه، فنبتت النباتات على اختلاف أصنافها وصفاتها وألوانها وأشكالها، وكذلك جرت هذه الأفلاك فدارت بما فيها من الكواكب الثابتة والسيارة، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقد ذكر ابن أبى حاتم وابن مردويه فى تفسير هذه الآية الحديث الذى رواه مسلم والنسائى فى التفسير - أيضاً - من رواية ابن جريج قال: أخبرنى إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله ابن رافع مولى أم سلمة، عن أبى هريرة، قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة من آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل»^(٢).

وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم، وقد تكلم عليه على بن المدينى والبخارى وغير واحد من الحفاظ، وجعلوه من كلام كعب، وأن أباً هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأحبار، وإنما اشتبه على بعض الرواة فجعلوه^(٣) مرفوعاً، وقد حرر ذلك البيهقى^(٤).

(١) صحيح البخارى (٨ / ٥٥٥) «فتح».

(٢) تفسير ابن أبى حاتم (١ / ١٠٣) وصحيح مسلم برقم (٢٧٨٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٠١٠).

(٣) فى ج، ط، ب: «فجعله».

(٤) الأسماء والصفات (ص ٢٧٦) وللعلامة عبد الرحمن المعلمى كلام متين فى تصحيح هذا الحديث ورد الشبه عنه فى كتابه «الأنوار الكاشفة» (ص ١٨٥ - ١٩٠) فليراجع فإنه مهم.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾.

يخبر^(١) تعالى بامتنانه على بنى آدم، بتنويهه بذكرهم فى الملائكة على قبل إيجادهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ أى: واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة، واقتصر على قومك ذلك. وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية [وهو أبو عبيدة]^(٢)، أنه زعم أن «إذ» ههنا زائدة، وأن تقدير الكلام: وقال ربك. ورده ابن جرير.

قال القرطبي: وكذا رده جميع المفسرين حتى قال الزجاج: هذا اجتراء^(٣) من أبى عبيدة.

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أى: قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]. وقال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠]. وقال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [مريم: ٥٩]. [وقرئ فى الشاذ: «إنى جاعل فى الأرض خليفة» حكاة الزمخشري وغيره ونقلها القرطبي عن زيد بن علي^(٤)]. وليس المراد ههنا بالخليفة آدم، عليه السلام، فقط، كما يقوله طائفة من المفسرين، وعزاه القرطبي إلى ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل، وفى ذلك نظر، بل الخلاف فى ذلك كثير، حكاة فخر الدين الرازي فى تفسيره وغيره، والظاهر أنه لم يرد آدم عيناً إذ لو كان كذلك لما حسن قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ فإنهم^(٥) إنما أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمإ مسنون [أو فهموا من الخليفة أنه الذى يفصل بين الناس ويقع بينهم من المظالم ويرد عنهم المحارم والمآثم، قاله القرطبي^(٦)، أو أنهم قاسوهم على من سبق، كما سنذكر أقوال المفسرين فى ذلك.

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبنى آدم، كما قد يتوهمه بعض المفسرين [وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول، أى: لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه وههنا لما أعلمهم أنه سيخلق فى الأرض خلقاً. قال قتادة: وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ الآية]^(٧)، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة فى ذلك، يقولون: يا ربنا، ما الحكمة فى خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد فى الأرض ويسفك الدماء، فإن كان المراد عبادتك، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك، أى: نصلى لك كما سيأتى، أى: ولا يصدر منا شيء من ذلك، وهلا وقع الاقتصار علينا؟ قال الله تعالى مجيباً لهم عن هذا السؤال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى: إنى أعلم من المصلحة^(٨) الراجعة فى خلق هذا الصنف على المفاسد التى ذكرتموها^(٩) ما لا تعلمون أنتم؛ فإننى سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد فيهم

(٣) فى أ: «إجرام».

(١) فى ج: «أخير».

(٢) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٥) فى ج، ب: «فإن الله».

(٤) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٦، ٧) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٩) فى ج: «الذى ذكروها».

(٨) فى ج: «بالمصلحة».

الصدّيقون والشهداء، والصالحون والعباد، والزهاد والأولياء، والأبرار والمقربون، والعلماء العاملون والخاصعون، والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله، صلوات الله وسلامه عليهم.

وقد ثبت في الصحيح^(١): أن الملائكة إذا صعدت إلى الرب تعالى بأعمال عباده سألهم وهو أعلم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون. وذلك لأنهم يتعاقبون فينا ويجمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيمكث هؤلاء ويصعد أولئك بالأعمال كما قال عليه السلام: «يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل» فقولهم: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون من تفسير قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقيل: معنى قوله جواباً لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أن لي حكمة مفصلة في خلق هؤلاء والحالة ما ذكرتم لا تعلمونها، وقيل: إنه جواب لقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى: من وجود إبليس بينكم وليس هو كما وصفتم أنفسكم به. وقيل: بل تضمن قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ طلباً منهم أن يسكنوا الأرض بدل بنى آدم، فقال الله تعالى لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أن بقاءكم في السماء أصلح لكم وأليق بكم. ذكرها فخر الدين مع غيرها من الأجوبة، والله أعلم.

ذكر أقوال المفسرين ببسط ما ذكرناه:

قال ابن جرير: حدثني القاسم بن الحسن قال: حدثنا الحسين قال: حدثني الحجاج، عن جرير ابن حازم، ومبارك، عن الحسن وأبي بكر، عن الحسن وقتادة، قالوا: قال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قال لهم: إني فاعل. وهذا معناه أنه أخبرهم بذلك.

وقال السدي: استشار الملائكة في خلق آدم. رواه ابن أبي حاتم، قال^(٢): وروى عن قتادة نحوه. وهذه العبارة إن لم ترجع إلى معنى الأخبار ففيها تساهل، وعبارة الحسن وقتادة في رواية ابن جرير أحسن، والله أعلم.

﴿فِي الْأَرْضِ﴾: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد^(٣)، حدثنا عطاء ابن السائب، عن عبد الرحمن بن سابط أن رسول الله ﷺ قال: «دُحِيتِ الْأَرْضُ مِنْ مَكَّةَ، وَأَوَّلُ مَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ الْمَلَكَةُ، فَقَالَ اللَّهُ: إني جاعل في الأرض خليفته، يعنى مكة»^(٥).

وهذا مرسل، وفي سنده ضعف، وفيه مُدْرَجٌ، وهو أن المراد بالأرض مكة، والله أعلم؛ فإن الظاهر أن المراد بالأرض أعم من ذلك.

﴿خَلِيفَةً﴾: قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة أن الله تعالى قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

(١) صحيح مسلم برقم (٦٣٢) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه.

(٢) في ج، ط: «وقال».

(٣) في ج، ط، ب: «النبى».

(٥) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٠٨).

قالوا^(١): ربنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون فى الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا.

قال ابن جرير: فكان تأويل الآية على هذا: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ منى، يخلفنى فى الحكم بين خلقى، وإن ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه فى طاعة الله والحكم^(٢) بالعدل بين خلقه. وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقه^(٣) فمن غير خلفائه.

قال ابن جرير: وإنما [كان تأويل الآية على هذا]^(٤) معنى الخلافة التى ذكرها الله إنما هى خلافة قرن منهم قرنا.

قال: والخليفة الفعيلة من قومك، خلف فلان فلانا فى هذا الأمر: إذا قام مقامه فيه بعده، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤]. ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم: خليفة؛ لأنه خلف الذى كان قبله، فقام بالأمر مقامه، فكان منه خلفاً.

قال: وكان محمد بن إسحاق يقول فى قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يقول: ساكنا وعامرا يسكنها ويعمرها خلفا ليس منكم.

قال ابن جرير: وحدثنا أبو كريب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمار، عن أبى روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: أول من سكن الأرض الجن، فأفسدوا فيها وسفكوا فيها الدماء، وقتل بعضهم بعضا. قال: فبعث الله إليهم إبليس، فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم^(٥) بجزائر البحور وأطراف الجبال. ثم خلق آدم وأسكنه إياها، فلذلك قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٦).

وقال سفيان الثوري، عن عطاء بن السائب، عن ابن سابط: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ قال: يعنون [به]^(٧) بنى آدم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال الله للملائكة: إني أريد أن أخلق فى الأرض خلقا وأجعل فيها خليفة وليس لله، عز وجل، خلق إلا الملائكة، والأرض ليس فيها خلق، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها [ويسفك الدماء]^(٨)؟!

وقد تقدم ما رواه السدى، عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة: أن الله أعلم الملائكة بما يفعل ذرية آدم، فقالت الملائكة ذلك. وتقدم أنفا^(٩) ما رواه الضحاك، عن ابن عباس: أن الجن أفسدوا فى الأرض قبل بنى آدم، فقالت الملائكة ذلك، فقاوسا هؤلاء بأولئك.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن محمد الطنفسى، حدثنا أبو معاوية، حدثنا

(٣) فى ج، ط، أ: «حقها».

(٢) فى ج: «وحكم».

(١) فى ج: «فقالوا».

(٥) فى ج: «الحقوم».

(٤) زيادة من ج.

(٦) تفسير الطبرى (١/ ٤٥٠).

(٧) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٩) فى ج، ط: «أيضا».

(٨) زيادة من ج.

الأعمش، عن بُكَيْر^(١) بن الأحنس، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو، قال: كان الجن بنو الجان في الأرض قبل أن يخلق آدم بألفى سنة، فأفسدوا في الأرض، وسفكوا الدماء، فبعث الله جندا من الملائكة فضربوهم، حتى أحقوهم بجزائر البحور، فقال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ قال: إني أعلم ما لا تعلمون^(٢).

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع، عن أبي العالية في قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ إلى قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣] قال: خلق الله الملائكة يوم الأربعاء وخلق الجن يوم الخميس، وخلق آدم يوم الجمعة؛ فكفر قوم من الجن، فكانت الملائكة تهبط إليهم في الأرض فتقاتلهم، فكانت الدماء بينهم، وكان الفساد في الأرض، فمن ثم قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ كما أفسدت الجن ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ كما سفكوا.

قال ابن أبي حاتم: وحدثننا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا مبارك ابن فضالة، حدثنا الحسن، قال: قال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قال لهم: إني فاعل. فأمنوا بربههم^(٣)، فعلمهم علماً وطوى عنهم علماً علمه ولم يعلموه، فقالوا بالعلم الذي علمهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؟ ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال الحسن: إن الجن كانوا في الأرض يفسدون^(٤) ويسفكون الدماء، ولكن جعل الله في قلوبهم أن ذلك سيكون فقالوا بالقول الذي علمهم.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة في قوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾: كان [الله]^(٥) أعلمهم أنه إذا كان في الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء، فذلك حين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾^(٦).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام الرازي، حدثنا ابن المبارك، عن معروف، يعني ابن خربوذ المكي، عن سمع أبا جعفر محمد بن علي يقول: السَّجِّلُ ملك، وكان هاروت وماروت من أعوانه، وكان له في كل يوم ثلاث لمحات ينظرهن في أم الكتاب، فنظر نظرة لم تكن له فأبصر فيها خلق آدم وما فيه من الأمور، فأسر ذلك إلى هاروت وماروت، وكانا من أعوانه، فلما قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ قالوا ذلك استطالة على الملائكة.

وهذا أثر غريب. وبتقدير صحته إلى أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين الباقر، فهو نقله عن أهل الكتاب، وفيه نكارة توجب رده، والله أعلم. ومقتضاه أن الذين قالوا ذلك إنما كانوا اثنين فقط،

(١) في أ: «بكر».

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٠٩).

(٣) في أ، و: «أفأمنوا برأيهم».

(٤) في ج: «يفسدون في الأرض».

(٥) زيادة من ج، ط، ب، أ.

(٦) تفسير عبد الرزاق (١/ ٦٥).

وهو خلاف السياق.

وأغرب منه ما رواه ابن أبي حاتم - أيضاً - حيث قال: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن أبي عبد الله، حدثنا عبد الله بن يحيى بن أبي كثير، قال: سمعت أبي يقول: إن الملائكة الذين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ كانوا عشرة آلاف، فخرجت نار من عند الله فأحرقتهم.

وهذا - أيضاً - إسرائيلي منكر كالذي قبله، والله أعلم.

وقال ابن جريج: إنما تكلموا بما أعلمهم الله أنه كائن من خلق آدم، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾.

وقال ابن جرير: وقال بعضهم: إنما قالت الملائكة ما قالت: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؛ لأن الله أذن لهم^(١) في السؤال عن ذلك، بعد ما أخبرهم^(٢) أن ذلك كائن من بنى آدم، فسألته الملائكة، فقالت على التعجب منها: وكيف يعصونك يارب وأنت خالقهم؟! فأجابهم ربهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، يعنى: أن ذلك كائن منهم. وإن لم تعلموه أتم ومن بعض من تروونه لى طائعا.

قال: وقال بعضهم: ذلك من الملائكة على وجه الاسترشاد عما لم يعلموا من ذلك، فكأنهم قالوا: يارب خبرنا، مسألة [الملائكة]^(٣) استخبار منهم، لا على وجه الإنكار. واختاره ابن جرير.

وقال سعيد عن قتادة قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فاستشار الملائكة فى خلق آدم، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ وقد علمت الملائكة من علم الله أنه لا شئ أكره إلى الله من سفك الدماء والفساد فى الأرض ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال إنني أعلم ما لا تعلمون فكان فى علم الله أنه سيكون من تلك الخليقة أنبياء ورسول وقوم صالحون وساكنون الجنة، قال: وذكر لنا عن ابن عباس أنه كان يقول: إن الله لما أخذ فى خلق آدم قالت الملائكة: ما الله خالق خلقاً أكرم عليه منا ولا أعلم منا، فابتلوا بخلق آدم، وكل خلق مبتلى كما ابتليت السموات والأرض بالطاعة فقال: ﴿إِنِّي طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾: قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: التسبيح: التسبيح، والتقديس: الصلاة^(٤).

وقال السدى، عن أبى مالك وعن أبى صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال: يقولون: نصلى لك.

وقال مجاهد: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال: نعظمك ونكبرك.

(١) فى أ، و: «لها». (٢) فى أ، و: «ما أخبرها».

(٣) زيادة من ج.

(٤) تفسير عبد الرزاق (١/ ٦٥).

وقال الضحاك: التقديس: التطهير.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال: لا نعصى ولا نأتى شيئاً نكرهه.

وقال ابن جرير: التقديس: هو التعظيم والتطهير، ومنه قولهم: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، يعنى بقولهم: سُبُّوحٌ، تنزيه له، وبقولهم: قدوس، طهارة وتعظيم له. ولذلك قيل للأرض: أرض مقدسة، يعنى بذلك المطهرة. فمعنى قول الملائكة إذا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، ننزهك ونبرئك مما يضيفه إليك أهل الشرك بك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾: ننسبك إلى ما هو من صفاتك، من الطهارة من الأدناس وما أضاف إليك أهل الكفر بك.

[وفى صحيح مسلم عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ سئل: أى الكلام أفضل؟ قال: «ما اصطفى الله لملائكته سبحانه الله وبحمده»^(١). وروى البيهقى عن عبد الرحمن بن قرط أن رسول الله ﷺ ليلة أسرى به سمع تسييحاً فى السموات العلاء «سبحان العلى الأعلى سبحانه وتعالى»^(٢) [٣].

﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال قتادة: فكان فى علم الله أنه سيكون فى تلك الخليفة أنبياء ورسول وقوم صالحون وساكنو الجنة، وسيأتى عن ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من الصحابة والتابعين أقوال فى حكمة قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقد استدل القرطبى وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما يختلفون فيه، ويقطع تنازعهم، ويتنصر لمظلومهم من ظالمهم، ويقيم الحدود، ويزجر عن تعاطى الفواحش، إلى غير ذلك من الأمور المهمة التى لا يمكن إقامتها إلا بالإمام، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

والإمامة تنال بالنص كما يقوله طائفة من أهل السنة فى أبى بكر، أو بالإيماء إليه كما يقول آخرون منهم، أو باستخلاف الخليفة آخر بعده كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب، أو يتركه شورى فى جماعة صالحين كذلك كما فعله عمر، أو باجتماع أهل الحل والعقد على مبايعته أو بمبايعة واحد منهم له فيجب التزامها عند الجمهور وحكى على ذلك^(٤) إمام الحرمين الإجماع، والله أعلم، أو بقهر واحد الناس على طاعته فتجب لثلا يودى ذلك إلى الشقاق والاختلاف، وقد نص عليه الشافعى.

وهل يجب الإشهاد على عقد الإمامة؟ فيه خلاف، فمنهم من قال: لا يشترط، وقيل: بلى ويكفى شاهدان، وقال الجبائى: يجب أربعة وعاقده ومعقود له، كما ترك عمر، رضى الله عنه، الأمر شورى بين ستة، فوقع الأمر على عاقد وهو عبد الرحمن بن عوف، ومعقود له وهو عثمان، واستنبط

(١) صحيح مسلم برقم (٢٧٣١).

(٢) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٢/ ٧) من طريق مسكين بن ميمون عن عروة بن رويم، عن عبد الرحمن بن قرط رضى الله عنه به مرفوعاً وسيأتى من رواية الطبرانى عند تفسير الآية: ٤٤ من سورة الإسراء.

(٣) زيادة من ج، ط، ب، أ.

(٤) فى أ: «تلك».

وجوب الأربعة الشهود من الأربعة الباقين وفي هذا نظر، والله أعلم.

ويجب أن يكون ذكراً حراً بالغاً عاقلاً مسلماً عدلاً مجتهداً بصيراً سليم الأعضاء خبيراً بالحروب والآراء قرشياً على الصحيح، ولا يشترط الهاشمي ولا المعصوم من الخطأ خلافاً للغلاة الروافض، ولو فسق الإمام هل ينزل أم لا؟ فيه خلاف، والصحيح أنه لا ينزل لقوله عليه الصلاة والسلام: «إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان»^(١)، وهل له أن يعزل نفسه؟ فيه خلاف، وقد عزل الحسن ابن علي نفسه وسلم الأمر إلى معاوية لكن كان هذا لعذر وقد مدح علي ذلك.

فأما نصب إمامين في الأرض أو أكثر فلا يجوز لقوله عليه الصلاة والسلام: «من جاءكم وأمركم جميع يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائناً من كان»^(٢). وهذا قول الجمهور، وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد منهم إمام الحرمين، وقالت الكرامية: يجوز نصب إمامين فأكثر كما كان علي ومعاوية إمامين واجبي الطاعة، قالوا: وإذا جاز بعث نبين في وقت واحد وأكثر جاز ذلك في الإمامة؛ لأن النبوة أعلى رتبة بلا خلاف، وحكى إمام الحرمين عن الأستاذ أبي إسحاق أنه جوز نصب إمامين فأكثر إذا تباعدت الأقطار واتسعت الأقاليم بينهما، وتردد إمام الحرمين في ذلك، قلت: وهذا يشبه حال خلفاء بني العباس بالعراق والفاطميين بمصر والأمويين بالمغرب.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْني أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) ﴿

هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة، بما اختصه به من علم أسماء كل شيء دونهم، وهذا كان بعد سجودهم له. وإنما قدم هذا الفصل على ذاك، لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة، حين سألوا عن ذلك، فأخبرهم [الله]^(٣) تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون؛ ولهذا ذكر تعالى^(٤) هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم، فقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾.

وقال السدي، عن حدثه، عن ابن عباس: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: عرض عليه أسماء ولده إنساناً إنساناً، والدواب، فقيل: هذا الحمار، هذا الجمل، هذا الفرس.

وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: هي هذه الأسماء التي يتعارف

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم (٧٠٥٥) من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه.

(٢) رواه مسلم في صحيحه برقم (١٨٥٢) من حديث عرفة رضى الله عنه.

(٣) زيادة من جـ. (٤) في جـ: «ذكر تبارك وتعالى»، وفي ب: «ذكر الله تعالى».

بها الناس: إنسان، ودابة، وسماء، وأرض، وسهل، وبحر، وجمل^(١)، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها.

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير، من حديث عاصم بن كليب، عن سعيد بن معبد، عن ابن عباس: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: علمه اسم الصحيفة والقدر، قال: نعم حتى الفسوة والفُسية^(٢).

وقال مجاهد: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: علمه اسم كل دابة، وكل طير، وكل شيء.

وكذلك روى عن سعيد بن جبيرة وقتادة وغيرهم من السلف: أنه علمه أسماء كل شيء. وقال الربيع في رواية عنه: أسماء الملائكة. وقال حميد الشامي: أسماء النجوم. وقال عبد الرحمن بن زيد: علمه أسماء ذريته كلهم.

واختار ابن جرير أنه علمه أسماء الملائكة وأسماء الذرية؛ لأنه قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ وهذا عبارة عما يعقل. وهذا الذي رجح به ليس بلازم، فإنه لا ينفي أن يدخل معهم غيرهم، ويعبر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغليب. كما قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥].

[وقد قرأ عبد الله بن مسعود: «ثم عرضهن» وقرأ أبي بن كعب: «ثم عرضها» أى: السموات]^(٣).

والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها: ذواتها وأفعالها؛ كما قال ابن عباس حتى الفسوة والفُسية. يعنى أسماء الذوات والأفعال المكبر والمصغر؛ ولهذا قال البخارى فى تفسير هذه الآية من كتاب التفسير من صحيحه: حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا هشام، حدثنا قتادة، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال - وقال لى خليفة: حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا سعيد، عن قتادة عن أنس، عن النبى ﷺ قال - : «يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا؟ فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلقتك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هُناكم؛ ويذكر ذنبه فيستحيى؛ اثتوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، فيأتونه فيقول: لست هُناكم. ويذكر سؤاله ربه ما ليس له به علم فيستحيى. فيقول: اثتوا خليل الرحمن، فيأتونه، فيقول: لست هُناكم؛ فيقول: اثتوا موسى عبداً كلمه الله، وأعطاه التوراة، فيأتونه، فيقول: لست هُناكم. ويذكر قتل النفس بغير نفس، فيستحيى من ربه؛ فيقول: اثتوا عيسى عبداً الله ورسوله وكلمة الله وروحه، فيأتونه، فيقول: لست هُناكم؛ اثتوا محمداً عبداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتونى، فأنتلق حتى أستاذن على ربي، فيؤذن لى، فإذا رأيت ربي وقعتُ ساجداً، فیدعنى ما شاء الله، ثم يقال: ارفع رأسك، وسل تعطه، وقل

(٣) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٢) فى ج: «الفشوة والفُشية».

(١) فى ج، ط، ب: «وجبل».

يُسْمَع، واشفع تُشَفَّع، فأرفع رأسي، فأحمده بتحميد^(١)، ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أعود إليه، وإذا رأيت ربي مثله^(٢)، ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة^(٣)، ثم أعود الرابعة فأقول: ما بقى فى النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود^(٤).

هكذا ساق البخارى هذا الحديث ههنا. وقد رواه مسلم والنسائي من حديث هشام، وهو ابن أبى عبد الله الدستوائى، عن قتادة، به^(٥). وأخرجه مسلم والنسائي وابن ماجه من حديث سعيد، وهو ابن أبى عروبة، عن قتادة^(٦). ووجه إيراده ههنا والمقصود منه قوله عليه الصلاة والسلام: «فَيَأْتُونَ آدَمَ فيقولون: أنت أبو الناس خلقتك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء»، فدل هذا على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات؛ ولهذا قال: «ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ» يعنى: المسميات؛ كما قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة قال: ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة «فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

وقال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا» ثم عرض الخلق على الملائكة. وقال ابن جريج، عن مجاهد: «ثُمَّ عَرَضَهُمْ»: عرض أصحاب الأسماء على الملائكة.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثني الحجاج، عن جرير بن حازم ومبارك بن فضالة، عن الحسن - وأبى بكر، عن الحسن وقاتدة - قالوا: علمه اسم كل شيء، وجعل يسمى كل شيء باسمه، وعرضت عليه أمة أمة.

وبهذا الإسناد عن الحسن وقاتدة فى قوله: «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»: إني لم أخلق خلقاً إلا كنتم أعلم منه، فأخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. وقال الضحاك عن ابن عباس: «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»: إن كنتم تعلمون^(٧) لم أجعل فى الأرض خليفة.

وقال السدى، عن أبى مالك وعن أبى صالح، عن ابن عباس - وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: إن كنتم صادقين أن بنى آدم يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء.

وقال ابن جرير: وأولى الأقوال فى ذلك تأويل ابن عباس ومن قال بقوله، ومعنى ذلك فقال: أنبئوني بأسماء من عَرَضْتُهُ عليكم أيها الملائكة القائلون: أتجعل فى الأرض من يفسد فيها ويسفك

(١) فى ج: «تحميداً». (٢) فى ج: «فإذا رأيته عملت مثله».

(٣) فى ج، ط: «فأدخلهم الجنة ثم أعود إليه، فإذا رأيت ربي عملت مثله، ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٤٧٦).

(٥) صحيح مسلم برقم (١٩٣) وسنن النسائي الكبرى برقم (١٠٩٨٤).

(٦) صحيح مسلم برقم (١٩٣) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٢٤٣) وسنن ابن ماجه برقم (٤٣١٢).

(٧) فى ج: «إن كنتم عالمين».

الدماء، من غيرنا أم منا، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ إن كنتم صادقين في قيلكم: إني إن جعلتُ خليفتي في الأرض من غيركم عصاني ذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء، وإن جعلتكم فيها أتعلموني واتبعتم أمري بالتعظيم لى والتقديس، فإذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدونهم، فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد أخرى أن تكونوا غير عالمين.

[وقوله]^(١): ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، وأن يعلموا شيئاً إلا ما علمهم الله تعالى؛ ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أى: العليم بكل شيء، الحكيم فى خلقك وأمرك وفى تعليمك من تشاء ومنعك من تشاء، لك الحكمة فى ذلك، والعدل التام.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، عن حجاج، عن ابن أبى مُلَيْكَةَ، عن ابن عباس: سبحان الله، قال: تنزيه الله نفسه عن السوء. [قال]^(٢): ثم قال عمر لعلى وأصحابه عنده: لا إله إلا الله، قد عرفناها^(٣)، فما سبحان الله؟ فقال له على: كلمة أحبها الله لنفسه، ورضيها، وأحب أن يقال^(٤).

قال: وحدثنا أبى، حدثنا ابن نفيل، حدثنا النضر بن عريى قال: سأل رجل ميمون بن مهران عن «سبحان الله»، فقال: اسم يُعْظَمُ الله به، ويُحَاشَى به من السوء.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾: قال زيد بن أسلم. قال: أنت جبريل، أنت ميكائيل، أنت إسرافيل، حتى عدد الأسماء كلها، حتى بلغ الغراب.

وقال مجاهد فى قول الله: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ قال: اسم الحمامة، والغراب، واسم كل شيء.

وروى عن سعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، نحو ذلك.

فلما ظهر فضل آدم، عليه السلام، على الملائكة، عليهم السلام، فى سرّده ما علمه الله تعالى من أسماء الأشياء، قال الله تعالى للملائكة: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أى: أَلَمْ أَتَقَدَّمْ إِلَيْكُمْ أَنَّى أَعْلَمُ الْغَيْبِ الظَّاهِرِ وَالْخَفِيِّ، كما قال [الله]^(٥) تعالى: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِ الْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، وكما قال تعالى إخباراً عن الهدهد أنه

(١) زيادة من أ. (٢) زيادة من ج، ط، أ، و. (٣) فى ج، ط: «عرفناه».

(٤) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ١١٧).

(٥) زيادة من أ.

قال لسليمان: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٥، ٢٦].

وقيل فى [معنى]^(١) قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ غير ما ذكرناه؛ فروى الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قال: يقول: أعلم السر كما أعلم العلانية، يعنى: ما كنتم إبليس فى نفسه من الكبر والاعتزاز.

وقال السدى، عن أبى مالك وعن أبى صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة، قال: قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ فهذا الذى أبدوا ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يعنى: ما أسر إبليس فى نفسه من الكبر.

وكذلك قال سعيد بن جبیر، ومجاهد، والسدى، والضحاك، والثورى. واختار ذلك ابن جرير. وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، والحسن، وقتادة: هو قولهم: لم يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه.

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فكان الذى أبدوا قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ وكان الذى كتموا بينهم قولهم: لن^(٢) يخلق ربنا خلقاً إلا كنا نحن أعلم منه وأكرم. فعرفوا أن الله فضل عليهم آدم فى العلم، والكرم.

وقال ابن جرير: حدثنا يونس، حدثنا ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فى قصة الملائكة وآدم: فقال الله للملائكة: كما لم تعلموا هذه الأسماء فليس لكم علم، إنما أردت أن أجعلهم ليفسدوا فيها، هذا عندى قد علمته؛ ولذلك^(٣) أخفيت عنكم أنى أجعل فيها من يعصينى ومن يُطيعنى، قال: وسبق من الله ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] قال: ولم تعلم الملائكة ذلك ولم يدروه قال: ولما^(٤) رأوا ما أعطى الله آدم من العلم أقروا له بالفضل^(٥).

وقال ابن جرير: وأولى الأقوال فى ذلك قول ابن عباس، وهو أن معنى قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾: وأعلم - مع علمى غيب السموات والأرض - ما تظهرونه بالستكم وما كنتم تخفون^(٦) فى أنفسكم، فلا يخفى علىّ شيء، سواء عندى سرائركم، وعلانياتكم.

والذى أظهره بالستهم قولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها، والذى كانوا يكتُمون ما كان عليه منظوياً إبليس من الخلاف على الله فى أوامره^(٧)، والتكبر عن طاعته.

(٢) فى ج: «لم».

(٤) فى ج، ط: «فلما».

(٧) فى ج، ط، ب: «فى أمره».

(١) زيادة من ج، أ، و.

(٣) فى ج، ب: «فلذلك».

(٥) تفسير الطبرى (١/ ٤٩٧).

(٦) فى أ، و: «تخفونه».

قال: وصح ذلك كما تقول العرب: قُتِلَ الجيش وهُزِمُوا، وإنما قتل الواحد أو البعض، وهزم الواحد أو البعض، فيخرج الخبر عن المهزوم منه والمقتول مخرج الخبر عن جميعهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحِجْرَاتِ﴾ [الحجرات: ٤] ذكر أن الذي نادى إنما كان واحداً من بنى تميم، قال: وكذلك قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٤).

وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته، حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم. وقد دل على ذلك أحاديث - أيضاً - كثيرة منها حديث الشفاعة المتقدم، وحديث موسى، عليه السلام: «رَبِّ، أرني آدم الذي أخرجنا ونفسه من الجنة»، فلما اجتمع به قال: «أنت آدم الذي خلقه» (١) الله بيده، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته. قال . . . وذكر الحديث كما سيأتي.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمار، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: كان إبليس من حَيٍّ من أحياء الملائكة يقال لهم: الجن، خلقوا من نار السموم، من بين الملائكة، وكان اسمه الحارث، وكان خازناً من خزان الجنة، قال: وخلقت الملائكة كلهم من نور غير هذا الحى. قال: وخلقت الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار، [وهو لسان النار الذى يكون فى طرفها إذا لهبت قال: وخلق الإنسان من طين] (٢). فأول من سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء، وقتل بعضهم بعضا. قال: فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة - وهم هذا الحى الذين يقال لهم: الجن - فقتلهم إبليس ومن معه، حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال، فلما فعل إبليس ذلك اغترّ فى نفسه، فقال: قد صنعت شيئاً لم يصنعه أحد. قال: فاطّلع الله على ذلك من قلبه، ولم يطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه، فقال الله تعالى للملائكة الذين معه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. فقالت الملائكة مجيبين له: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ كما أفسدت الجن وسفكت الدماء، وإنما بعثنا عليهم (٣) لذلك؟ فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. يقول: إني قد اطلعت من (٤) قلب إبليس على ما لم تطلعوا عليه من كبره واغتراره، قال: ثم أمر بترية آدم فرفعت، فخلق الله آدم من طين لازب - واللازب: اللزج الصلب (٥) - من حمى مسنون منتن، وإنما كان حمأً مسنوناً بعد التراب. فخلق منه آدم بيده، قال: فمكث أربعين ليلة جسداً ملقى. فكان إبليس يأتيه فيضربه برجله، فيصلصل، أى فيصوت. قال: فهو قول الله تعالى: ﴿مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] يقول: كالشيء المنفرج الذى ليس

(١) فى ب، أ، و: «خلقك». (٢) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٣) فى ج: «إليهم». (٤) فى ج: «على».

(٥) فى ب، أ، و: «الطيب».

بُصِّمَتْ. قال: ثم يدخل في فيه ويخرج من دبره، ويدخل من^(١) دبره، ويخرج من فيه. ثم يقول: لست شيئاً - للصلصلة - ولشيء ما خلقت، ولئن سلَّطْتُ عليك لأهلكنك، ولئن سلَّطْتُ على لأعصينك. قال: فلما نفخ الله فيه من روحه، أتت النفخة من قبل رأسه، فجعل لا يجرى شيء منها في جسده إلا صار لحماً ودماً. فلما انتهت النفخة إلى سُرَّتِه نظر إلى جسده فأعجبه ما رأى من جسده، فذهب لينهض فلم يقدر، فهو قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ^(٢) الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١] قال: ضَجَرَ لا صَبَرَ له على سراء ولا ضراء. قال: فلما تمت النفخة في جسده عطس، فقال: «الحمد لله رب العالمين» بإلهام الله. فقال [الله]^(٣) له: «يرحمك الله يا آدم^(٤)». قال: ثم قال [الله]^(٥) تعالى للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة دون الملائكة الذين في السموات: اسجدوا لآدم. فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس أبى واستكبر، لما كان حدث نفسه من الكبر والاغترار. فقال: لا أسجد له، وأنا خير منه وأكبر سناً وأقوى خلقاً، خلقتني^(٦) من نار وخلقته من طين. يقول: إن النار أقوى من الطين. قال: فلما أبى إبليس أن يسجد أبلسه الله، أى: آيسه من الخير كله، وجعله شيطاناً رجيماً عَقُوبَةً لمعصيته، ثم علَّم آدم الأسماء كلها، وهى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس: إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها. ثم عرض هذه الأسماء على أولئك الملائكة، يعنى: الملائكة الذين كانوا مع إبليس، الذين خلقوا من نار السموم، وقال لهم: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ يقول: أخبرونى بأسماء هؤلاء ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: إن كنتم تعلمون لم أجعل فى الأرض خليفة. قال: فلما علمت الملائكة موجدة الله عليهم فيما تكلموا به من علم الغيب، الذى لا يعلمه غيره، الذى ليس لهم به علم قالوا: سبحانك، تنزيهاً لله من أن يكون أحد يعلم الغيب غيره، وتبنا إليك ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ تبرئاً منهم من علم الغيب، إلا ما علمتنا كما علمت آدم، فقال: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ يقول: أخبرهم بأسمائهم ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ﴾ [يقول: أخبرهم]^(٧) ﴿بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾ أيها الملائكة خاصة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولا يعلم غيرى ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ يقول: ما تظهرون ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يقول: أعلم السر كما أعلم العلانية، يعنى: ما كتم إبليس فى نفسه من الكبر والاغترار^(٨).

هذا سياق غريب، وفيه أشياء فيها نظر، يطول مناقشتها، وهذا الإسناد إلى ابن عباس يروى به تفسير مشهور.

وقال السدى فى تفسيره، عن أبى مالك وعن أبى صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن

(٢) فى هـ: «وخلق»، والمثبت من باقى النسخ، وهو الصواب.

(٤) فى جـ: «يرحمك يا آدم ربك».

(٦) فى جـ: «فخلقتني».

(١) فى ب: «فى».

(٣) زيادة من أ، و.

(٥) زيادة من جـ.

(٧) زيادة من أ، و.

(٨) تفسير الطبرى (١/ ٤٥٥).

مسعود، وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ: (١) لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش، فجعل إبليس على مُلك السماء الدنيا، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم: الجن، وإنما سموا الجن لأنهم خزان الجنة، وكان إبليس مع مُلكه خازناً، فوقع في صدره كبر وقال: ما أعطاني الله هذا إلا لمزية لى علي الملائكة. فلما وقع ذلك الكبر فى نفسه (٢) اطلع الله على ذلك منه. فقال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قالوا (٣): ربنا، وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون فى الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً. قالوا: ربنا، ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿يعنى: من شأن إبليس. فبعث الله جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها، فقالت الأرض: إني أعوذ بالله منك أن تقبض (٤) منى أو تشيننى فرجع ولم يأخذ، وقال: رب منى (٥) عاذت بك فأعذتها، فبعث ميكائيل، فعاذت منه فأعادها، فرجع فقال كما قال جبريل، فبعث ملك الموت فعاذت منه. فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره، فأخذ من وجه الأرض، وخلط ولم يأخذ من مكان واحد، وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين، فصعد به قبل التراب حتى عاد طيناً لازباً - واللازب: هو الذى يلتزق ببعضه ببعض - ثم قال للملائكة: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ. فَإِذَا سُوِّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧١، ٧٢] فخلق الله بيده لئلا يتكبر إبليس عنه، ليقول له: تتكبر عما عملت بيدي، ولم أتكبر أنا عنه. فخلقته (٦) بشراً، فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة، فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه، وكان أشدهم فزعاً منه (٧) إبليس، فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار وتكون له صلصلة. فذلك حين يقول: ﴿مَنْ صَلَّصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] ويقول: لأمر ما خلقت. ودخل من فيه فخرج من دبره، وقال للملائكة: لا ترهبوا من هذا، فإن ربكم صمدٌ وهذا أجوف. لئن سلطت عليه لأهلكنه، فلما بلغ الحين الذى يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح، قال للملائكة: إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له. فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح فى رأسه، عطس، فقالت الملائكة: قل: الحمد لله. فقال: الحمد لله. فقال له الله: رحمك ربك. فلما دخلت الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة. فلما دخل الروح فى (٨) جوفه اشتهى الطعام، فوثب قبل أن تبلغ (٩) الروح رجليه عجلان (١٠) إلى ثمار الجنة، فذلك حين يقول تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٠، ٣١]، أبى واستكبر وكان من الكافرين. قال الله له: ما منعك أن تسجد إذ أمرتك لما خلقت بيدي؟ قال: أنا خير منه، لم أكن لأسجد لمن (١١) خلقته من طين. قال الله له: اخرج منها فما يكون لك، يعنى: ما ينبغي لك ﴿أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾

(٣) فى ط، ب: «فقالوا».

(٢) فى ج: «فى صدره».

(١) فى ج، ط، ب: «رسول الله».

(٦) فى ج، ط: «بخلقه».

(٥) فى ج، ط، ب: «رب إنها».

(٤) فى أ، و: «تنقص».

(٩) فى ج: «أن يدخل».

(٨) فى ج: «إلى».

(٧) فى ج، ب، ط: «أشدهم منه فزعاً».

(١١) فى ج، ب: «لبشر».

(١٠) فى ج: «عجلاً».

[الأعراف: ١٣] والصغار: هو الذل. قال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ثم عرض الخلق على الملائكة ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن بنى آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، فقالوا^(١): ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ قال الله: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قال: قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا﴾ فهذا الذي أبدوا ﴿وَأَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ يعنى: ما أسر إبليس فى نفسه من الكبر.

فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور فى تفسير السدى، ويقع فيه إسرائيليات كثيرة، فلعل بعضها مدرج^(٢) ليس من كلام الصحابة، أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة. والله أعلم. والحاكم يروى فى مستدركه بهذا الإسناد بعينه أشياء، ويقول: [هو]^(٣) على شرط البخارى.

والغرض أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم دخل إبليس فى خطابهم؛ لأنه - وإن لم يكن من عنصرهم - إلا أنه كان قد^(٤) تشبه بهم وتوسم بأفعالهم؛ فلهذا دخل فى الخطاب لهم، وذم فى مخالفة الأمر. وسنبسط المسألة إن شاء الله تعالى - عند قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠].

ولهذا قال محمد بن إسحاق، عن خلاد، عن^(٥) عطاء، عن طاوس، عن ابن عباس: قال: كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل^(٦)، وكان من سكان الأرض، وكان من أشد الملائكة اجتهادا، وأكثرهم علما؛ فذلك دعاه إلى الكبر، وكان من حى يسمون جناً.

وفى رواية عن خلاد، عن عطاء، عن طاوس - أو مجاهد - عن ابن عباس، أو غيره، بنحوه. وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سعيد^(٧) بن سليمان، حدثنا عباد - يعنى: ابن العوام - عن سفيان بن حسين، عن يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: كان إبليس اسمه عزازيل^(٨)، وكان من أشرف الملائكة من ذوى الأجنحة الأربعة، ثم أبلس بعد.

وقال سنيد^(٩)، عن حجاج، عن ابن جريج، قال: قال ابن عباس: كان^(١٠) إبليس من أشرف^(١١) الملائكة وأكرمهم قبيلة، وكان خازنا على الجنان، وكان له سلطان سماء الدنيا، وكان له سلطان الأرض.

وهكذا روى الضحاك وغيره عن ابن عباس، سواء.

وقال صالح مولى التوأمة، عن ابن عباس: إن من الملائكة قبيلة يقال لهم: الجن، وكان إبليس

(١) فى أ، و: «فقالوا له». (٢) فى ب: «مدرجاً». (٣) زيادة من ج، ط، ب، أ، و. (٤) فى ج: «قد كان». (٥) فى ج، ط، ب: «خلاد بن». (٦) فى ج، ط، ب: «عزرائيل». (٧) فى ب: «سعد». (٨) فى ج: «عزرائيل». (٩) فى ج: «سعيد». (١٠) فى ج: «وكان». (١١) فى ج: «من أشرف».

منهم، وكان يسوس ما بين السماء والأرض، فعصى، فمسخه الله شيطاناً رجيماً. رواه ابن جرير.

وقال قتادة عن سعيد بن المسيب: كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عدى بن أبى عدى، عن عوف، عن الحسن، قال: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قَطُّ، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس. وهذا إسناد صحيح عن الحسن. وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم سواء.

وقال شهر بن حوشب: كان إبليس من الجن الذين طردتهم الملائكة، فأسره بعض الملائكة فذهب به إلى السماء، رواه ابن جرير.

وقال سنيّد بن داود: حدثنا هُشَيْم، أنبأنا عبد الرحمن بن يحيى، عن موسى بن غمير وعثمان بن سعيد بن كامل، عن سعد^(١) بن مسعود، قال: كانت الملائكة تقاتل الجن، فسبى إبليس وكان صغيراً، فكان مع الملائكة، فتعبد معها، فلما أمروا بالسجود لآدم سجدوا، فأبى إبليس. فلذلك قال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن سنان القزاز، حدثنا أبو عاصم، عن شريك، عن رجل، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: إن الله خلق خلقاً، فقال: اسجدوا لآدم. فقالوا: لا نفعل. فبعث الله عليهم نارا فأحرقتهم، ثم خلق خلقاً آخر، فقال: إني خالق بشرأ من طين، اسجدوا لآدم. قال: فأبوا. فبعث الله عليهم نارا فأحرقتهم. ثم خلق هؤلاء، فقال: اسجدوا لآدم. قالوا: نعم. وكان إبليس من أولئك الذين أبوا أن يسجدوا لآدم^(٢). وهذا غريب، ولا يكاد يصح إسناده، فإن فيه رجلاً مبهماً، ومثله لا يحتج به، والله أعلم.

وقال قتادة في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ فكانت الطاعة لله، والسجدة أكرم الله آدم بها أن أسجد له ملائكته.

وقال في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ حسد عدو الله إبليس آدم، عليه السلام، على ما أعطاه الله من الكرامة، وقال: أنا نارى وهذا طينى. وكان بدء الذنوب الكبير، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم، عليه السلام.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، حدثنا صالح بن حيّان، حدثنا عبد الله بن بُريدة: قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ من الذين أبوا، فأحرقتهم النار.

وقال أبو جعفر، عن الربيع، عن أبى العالية: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ يعنى: من العصاة.

وقال السدى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾: الذين لم يخلقهم الله يومئذ يكونون بعد.

(١) فى ج: «سعيد».

(٢) تفسير الطبرى (١/ ٥٠٨).

وقال محمد بن كعب القرظي: ابتدأ الله خلق إبليس على الكفر والضلالة، وعمل بعمل الملائكة، فصيره إلى ما أبدى عليه خلقه من الكفر، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

وقال بعض الناس: كان هذا سجود تحية وسلام وإكرام، كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبْوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠] وقد كان هذا مشروعاً في الأمم الماضية ولكنه نسخ في ملتنا، قال معاذ^(١): قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلمائهم، فأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك، فقال: «لا، لو كنت أمراً بشراً أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها»^(٢)، ورجحه الرازي، وقال بعضهم: بل كانت السجدة لله وآدم قبله فيها كما قال: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] وفي هذا التنظير نظر، والأظهر أن القول الأول أولى، والسجدة لآدم إكراماً وإعظماً واحتراماً وسلاماً، وهى طاعة لله، عز وجل؛ لأنها امتثال لأمره تعالى، وقد قواه الرازي في تفسيره وضعف ما عداه من القولين الآخرين وهما كونه جعل قبله إذ لا يظهر فيه شرف، والآخر: أن المراد بالسجود الخضوع لا الانحناء ووضع الجبهة على الأرض وهو ضعيف كما قال.

قلت: وقد ثبت في الصحيح: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر»^(٣) وقد كان في قلب إبليس من الكبر - والكفر - والعناد ما اقتضى طرده وإبعاده عن جناب الرحمة وحضرة القدس؛ قال بعض المعربين: وكان من الكافرين أى: وصار من الكافرين بسبب امتناعه، كما قال: ﴿فَكَانَ مِنَ الْمَغْرِقِينَ﴾ [هود: ٤٣]، وقال: ﴿فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥] وقال الشاعر:

بتيها قفر والمطى كأنها قطا الحزن قد كانت فراخاً بيوضها

أى: قد صارت، وقال ابن فورك: تقديره: وقد كان في علم الله من الكافرين، ورجحه القرطبي، وذكر ههنا مسألة فقال: قال علماؤنا من أظهر الله على يديه ممن ليس بنبي كرامات وخوارق للعادات فليس ذلك دالا على ولايته، خلافاً لبعض الصوفية والرافضة هذا لفظه. ثم استدل على ما قال: بأننا لا نقطع بهذا الذى جرى الخارق على يديه أنه يوافي الله بالإيمان، وهو لا يقطع لنفسه بذلك، يعنى والولى الذى يقطع له بذلك فى نفس الأمر.

قلت: وقد استدل بعضهم على أن الخارق قد يكون على يدى غير الولي، بل قد يكون على يد الفاجر والكافر، أيضاً، بما ثبت عن ابن صياد أنه قال: هو الدخ حين خبأ له رسول الله ﷺ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠]، وبما كان يصدر عنه أنه كان يملأ الطريق إذا غضب حتى ضربه عبد الله بن عمر، وبما ثبت به الأحاديث عن الدجال بما يكون على يديه من الخوارق الكثيرة من أنه يأمر السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، وتتبعه كنوز الأرض

(١) فى و: «معاوية».

(٢) رواه أحمد فى المسند (٢٢٧ / ٥).

(٣) صحيح مسلم برقم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

مثل اليعاسيب، وأنه يقتل ذلك الشاب ثم يحييه إلى غير ذلك من الأمور الموهولة. وقد قال يونس بن عبد الأعلى الصدفي: قلت للشافعي: كان الليث بن سعد يقول: إذا رأيتم الرجل يمشى على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة، فقال الشافعي: قصر الليث، رحمه الله، بل إذا رأيتم الرجل يمشى على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة، وقد حكى فخر الدين وغيره قولين للعلماء: هل المأمور بالسجود لآدم خاص بملائكة الأرض، أو عام في ملائكة السموات والأرض، وقد رجح كلا من القولين طائفة، وظاهر الآية الكريمة العموم: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [الحجر: ٣٠، ٣١، ص: ٧٣، ٧٤] فهذه أربعة أوجه مقوية للعموم، والله أعلم.

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٥) فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (٣٦).

يقول الله تعالى إخباراً عما أكرم به آدم، بعد أن أمر الملائكة^(١) بالسجود له، فسجدوا إلا إبليس: إنه أباحه الجنة يسكن منها حيث يشاء، ويأكل منها ما شاء^(٢)، رَغَدًا، أى: هنيئاً واسعاً طيباً.

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه، من حديث محمد بن عيسى الدامغانى، حدثنا سلمة بن الفضل، عن ميكائيل، عن ليث، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر، قال: قلت: يا رسول الله؛ أريت آدم، أنبيأ كان؟ قال: «نعم، نبيا رسولا، كلمه الله قبلا، فقال: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾»^(٣).

وقد اختلف في الجنة التي أسكنها آدم، أهى في السماء أم في الأرض؟ والاكثرون على الأول، [وحكى القرطبي عن المعتزلة والقدرية القول بأنها في الأرض]^(٤)، وسيأتى تقرير ذلك في سورة الأعراف، إن شاء الله تعالى، وسياق الآية يقتضى أن حواء خلقت قبل دخول آدم^(٥) الجنة. وقد صرح بذلك محمد بن إسحاق، حيث قال: لما فرغ الله من معاتبة إبليس، أقبل على آدم وقد علّمه الأسماء كلها، فقال: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، إلى قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾^(٦). قال: ثم ألقيت السنة على آدم - فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم، عن ابن عباس وغيره - ثم أخذ ضِلْعاً من أضلاعه من شقه الأيسر، ولأم مكانه لحماً، وآدم نائم لم يهب من

(١) في ج، ط، ب، أ، و: «أمر ملائكته». (٢) في ج، ط: «ما يشاء».

(٣) ورواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ١٠) من طريق أبي عمر الشامي، عن عبيد الخشخاش، عن أبي ذر بنحوه، ورواه أبو الشيخ في العظمة برقم (١٠١٦) من طريق جعفر بن الزبير، عن القاسم، عن أبي أمامة، عن أبي ذر بنحوه، ورواه أحمد في المسند (٥/ ٢٦٥) من طريق علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة مرفوعاً بنحوه.

(٤) زيادة من ج، ط، ب، أ، و. (٥) في ب، و: «آدم إلى». (٦) في أ: «وما كنتم تكتمون».

نومه، حتى خلق الله من ضلعه تلك زوجته حواء، فسواها امرأة ليسكن إليها. فلما كُشف عنه السُّنة وهبَّ من نومه، رآها إلى جنبه، فقال - فيما يزعمون والله أعلم -: لحمي ودمي وروحي^(١). فسكن إليها. فلما زوجَه الله، وجعل له سكنا من نفسه، قال له قَبَلًا: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

ويقال: إن خلق حواء كان بعد دخوله الجنة، كما قال السدي في تفسيره^(٢)، ذكره عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: أخرج إبليس من الجنة، وأسكن آدم الجنة، فكان يمشي فيها وحشاً ليس له زوج يسكن إليه، فنام نومة فاستيقظ، وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، فسألها: ما أنت؟ قالت: امرأة. قال: ولم خلقت؟ قالت: لتسكن إلى. قالت له الملائكة - ينظرون ما بلغ من علمه -: ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء. قالوا: ولم سميت حواء؟ قال: إنها خلقت من شيء حي. قال الله: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾.

وأما قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ فهو اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم. وقد اختلف في هذه الشجرة: ما هي؟

فقال السدي، عن حدثه، عن ابن عباس: الشجرة التي نهى عنها آدم، عليه السلام، هي الكرْم. وكذا قال سعيد بن جبیر، والسدي، والشعبي، وجَعْدَةُ بن هُبَيْرَة، ومحمد بن قيس.

وقال السدي - أيضاً - في خبر ذكره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ هي الكرْم. وتزعم يهود أنها الخنطة.

وقال ابن جرير وابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل بن سمرة الأحمسي، حدثنا أبو يحيى الحماني، حدثنا النضر أبو عمر الخزاز، عن عِكْرِمَة، عن ابن عباس، قال: الشجرة التي نُهي عنها آدم، عليه السلام، هي السنبلة.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن عيينة وابن المبارك، عن الحسن بن عمار، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، قال: هي السنبلة.

وقال محمد بن إسحاق، عن رجل من أهل العلم، عن حجاج، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: هي البر.

وقال ابن جرير: وحدثني المثني بن إبراهيم، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا القاسم، حدثني

(١) في ج، ب، أ، و: «وزوجتي». (٢) في ج، ط، ب، أ، و: «في خبر».

رجل من بنى تميم، أن ابن عباس كتب إلى أبى الجلد يسأله عن الشجرة التى أكل منها آدم، والشجرة التى تاب عندها آدم. فكتب إليه أبو الجلد: سألتنى عن الشجرة التى نهى عنها آدم، وهى السنبلة، وسألتنى عن الشجرة التى تاب عندها آدم، وهى الزيتون^(١).

وكذلك فسره الحسن البصرى، ووهب بن منبه، وعطية العوفى، وأبو مالك، ومحارب^(٢) بن دثار، وعبد الرحمن بن أبى ليلى.

وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أهل اليمن، عن وهب بن منبه: أنه كان يقول: هى البر، ولكن الحية منها فى الجنة ككلى البقر، ألين من الزبد وأحلى من العسل.

وقال سفيان الثورى، عن حصين، عن أبى مالك: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ قال: النخلة.

وقال ابن جرير، عن مجاهد: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ قال: تينة. وبه قال قتادة وابن جريج.

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية: كانت الشجرة من أكل منها أحدث، ولا ينبغي أن يكون فى الجنة حدث، وقال عبد الرزاق: حدثنا عمر بن عبد الرحمن بن مهرب^(٣)، قال: سمعت وهب بن منبه يقول: لما أسكن الله آدم وزوجته الجنة، ونهاه عن أكل الشجرة، وكانت شجرة غصونها متشعب بعضها من^(٤) بعض، وكان لها ثمر تأكله الملائكة لخلدهم، وهى الثمرة التى نهى الله عنها آدم وزوجته.

فهذه أقوال ستة فى تفسير^(٥) هذه الشجرة.

قال الإمام العلامة أبو جعفر بن جرير، رحمه الله^(٦): والصواب فى ذلك أن يقال: إن الله جل ثناؤه، نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة، دون سائر أشجارها^(٧)، فأكلا منها، ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين؟ لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك فى القرآن ولا من السنة الصحيحة. وقد قيل: كانت شجرة البر، وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل: كانت شجرة التين. وجائز أن تكون واحدة منها، وذلك علم، إذا علم ينفع العالم به علمه، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به، والله أعلم. [وكذلك رجح الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره وغيره وهو الصواب]^(٨).

وقوله تعالى: ﴿فَازْلَمَ الشَّيْطَانُ عَنَّا﴾: يصح أن يكون الضمير فى قوله: ﴿عَنَّا﴾ عائداً إلى

(١) تفسير الطبرى (١/ ٥١٧).

(٢) فى جد: «مجاهد». (٣) فى جد: «مهدي». (٤) فى جد، ط، ب: «فى».

(٥) فى جد، ط، ب، أ، و: «تعيين».

(٦) تفسير الطبرى (١/ ٥٢٠، ٥٢١).

(٧) فى جد: «سائر الأشجار».

(٨) زيادة من جد، ط، أ، و.

الجنة، فيكون معنى الكلام كما قال^(١) [حمزة و]^(٢) عاصم بن بهدلة، وهو ابن أبي النجود: فأزالهما، أى: فنجأهما. ويصح أن يكون عائداً على أقرب المذكورين، وهو الشجرة، فيكون معنى الكلام كما قال الحسن وقتادة ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ أى: من قبيل^(٣) الزلل، فعلى هذا يكون تقدير الكلام ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أى: بسببها، كما قال تعالى: ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مِنَ الْفِكِّ﴾ [الذاريات: ٩] أى: يصرف بسببه من هو مأفوك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أى: من اللباس والمنزل الرحب والرزق الهنيء والراحة.

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أى: قرار وأرزاق وآجال ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أى: إلى وقت مؤقت ومقدار معين، ثم تقوم القيامة.

وقد ذكر المفسرون من السلف كالسدي بأسانيده، وأبى العالية، ووهب بن منبه وغيرهم، ههنا أخباراً إسرائيلية عن قصة الحية، وإبليس، وكيف جرى من دخول إبليس الجنة وسوسسته، وسنسط ذلك، إن شاء الله، فى سورة الأعراف، فهناك القصة أبسط منها ههنا، والله الموفق.

وقد قال ابن أبى حاتم ههنا: حدثنا على بن الحسن بن إشكاب، حدثنا على بن عاصم، عن سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبى بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم رجلاً طويلاً، كثير شعر الرأس، كأنه نخلة سحوق، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يشد^(٤) فى الجنة، فأخذت شجرة، فنازعها، فناداه الرحمن: يا آدم، منى تفر! فلما سمع كلام الرحمن قال: يارب، لا، ولكن استحياء»^(٥).

قال: وحدثني جعفر بن أحمد بن الحكم القومشى^(٦) سنة أربع وخمسين ومائتين، حدثنا سليم^(٧) ابن منصور بن عمار، حدثنا على بن عاصم، عن سعيد، عن قتادة، عن أبى بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما ذاق آدم من الشجرة فرَّ هارباً؛ فتعلقت شجرة بشعره، فنودى: يا آدم، أفراراً منى؟ قال: بل حياء منك، قال: يا آدم اخرج من جوارى؛ فبعزتى لا يساكننى فيها من عصانى، ولو خلقت مثلك ملء الأرض خلقاً ثم عصونى لأسكنتهم دار العاصين»^(٨).

هذا حديث غريب، وفيه انقطاع، بل إعضال بين قتادة وأبى بن كعب، رضى الله عنهما^(٩).

وقال الحاكم: حدثنا أبو بكر بن بألويه^(١٠)، عن محمد بن أحمد بن النضر، عن معاوية بن عمرو، عن زائدة، عن عمارة بن معاوية البجلي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: ما أسكن

(١) فى جـ، ط: «كما قرأ». (٢) زيادة من جـ، ط. (٣) فى جـ، ط، ب: «من قبل».

(٤) فى جـ: «يستدير».

(٥) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ١٢٩).

(٦) فى هـ: «القرشى».

(٨) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ١٣٠).

(٩) فى جـ، ب، و: «عنه».

(١٠) فى جـ: «مألويه».

آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وقال عبد بن حميد في تفسيره: حدثنا رَوْح، عن هشام، عن الحسن، قال: لبث آدم في الجنة ساعة من نهار، تلك الساعة ثلاثون ومائة سنة من أيام الدنيا.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، قال: خرج آدم من الجنة للساعة التاسعة أو العاشرة، فأخرج آدم معه غصناً من شجر الجنة، على رأسه تاج من شجر الجنة وهو الإكليل من ورق الجنة.

وقال السدي: قال الله تعالى: ﴿ أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعاً ﴾ فهبطوا فنزل آدم بالهند، ونزل معه الحجر الأسود، وقبضة^(١) من ورق الجنة فبثه بالهند، فنبتت شجرة الطيب، فإنما أصل ما يجاء به من الهند من الطيب من قبضة الورق التي هبط بها آدم، وإنما قبضها آدم أسفاً على الجنة حين أخرج منها^(٢).

وقال عمران بن عيينة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: أهبط آدم من الجنة يدحنا، أرض بالهند.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن عطاء، عن سعيد عن ابن عباس قال: أهبط آدم، عليه السلام، إلى أرض يقال لها: دَحْنَا، بين مكة والطائف.

وعن الحسن البصري، قال: أهبط آدم بالهند، وحواء بجدة، وإبليس بدَسْتَمِيسَانَ^(٣) من البصرة على أميال، وأهبطت الحية بأصبهان. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث، حدثنا محمد بن سعيد بن سابق، حدثنا عمرو بن أبي قيس، عن ابن عدى^(٤)، عن ابن عمر، قال: أهبط آدم بالصفاء، وحواء بالمروة.

وقال رجاء بن سلمة: أهبط آدم، عليه السلام، يده على ركبتيه مطأطئاً رأسه، وأهبط إبليس مشبكاً بين أصابعه رافعاً رأسه إلى السماء.

وقال عبد الرزاق: قال مَعْمَرُ: أخبرني عَوْفٌ، عن قَسَامَةَ بن زهير، عن أبي موسى، قال: إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض، علّمه صنعة كل شيء، وزوده من ثمار الجنة، فشاركهم هذه من ثمار الجنة، غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير^(٥).

وقال الزهري، عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) في ج، ط، ب، أ، و: «فأنزل معه بالحجر الأسود ويقبضه».

(٢) في ج، ط، ب: «وإنما قبضها آدم حين أخرج من الجنة أسفاً على الجنة حين أخرج منها».

(٣) في و: «بدست ميسان». (٤) في ج، ط، ب، أ، و: «عمرو بن أبي قيس عن الزبير عن ابن عدى».

(٥) تفسير عبد الرزاق (١/ ٦٦).

«خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها» رواه مسلم والنسائي^(١).

وقال فخر الدين: اعلم أن في هذه الآيات تهديداً عظيماً عن كل المعاصي من وجوه: الأول: أن من تصور ما جرى على آدم بسبب إقدامه على هذه الزلة الصغيرة كان على وجل شديد من المعاصي، قال الشاعر:

يا ناظرا يرنو بعيني راقداً ومشاهداً للأمر غير مشاهد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي درج الجنان ونيل فوز العابد
أنسيت ربك حين أخرج آدمًا منها إلى الدنيا بذنب واحد

قال فخر الدين عن فتح الموصلي أنه قال: كنا قوماً من أهل الجنة فسانا إبليس إلى الدنيا، فليس لنا إلا الهم والحزن حتى نرد إلى الدار التي أخرجنا منها. فإن قيل: فإذا كانت جنة آدم التي أسكنها في السماء كما يقوله الجمهور من العلماء، فكيف يمكن إبليس من دخول الجنة، وقد طرد من هنالك طرداً قديراً، والقدرى لا يخالف ولا يمانع؟ فالجواب: أن هذا بعينه استدل به من يقول: إن الجنة التي كان فيها آدم في الأرض لا في السماء، وقد بسطنا هذا في أول كتاب البداية والنهاية، وأجاب الجمهور بأجوبة، أحدها: أنه منع من دخول الجنة مكرماً، فأما على وجه الردع والإهانة، فلا يمتنع؛ ولهذا قال بعضهم: كما جاء في التوراة أنه دخل في فم الحية إلى الجنة، وقد قال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما وهو خارج باب الجنة، وقال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما وهو في الأرض، وهما في السماء، ذكرها الزمخشري وغيره. وقد أورد القرطبي ههنا أحاديث في الحيات وقتلهن وبيان حكم ذلك، فأجاد وأفاد^(٢).

﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٣٧).

قيل: إن هذه^(٣) الكلمات مفسرة بقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]؛ روى هذا عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبي العالية، والربيع بن أنس، والحسن، وقتادة، ومحمد بن كعب القرظي، وخالد بن معدان، وعطاء الخراساني، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال أبو إسحاق السبيعي، عن رجل من بني تميم، قال: أتيت ابن عباس، فسألته: [قلت]^(٤): ما الكلمات التي تلقى آدم من ربه؟ قال: علم [آدم]^(٥) شأن الحج.

(١) صحيح مسلم برقم (٨٥٤) وسنن النسائي (٣/ ٨٩).

(٢) تفسير القرطبي (١/ ٣١٣ - ٣١٧).

(٣) في ج، ط: «هؤلاء». (٤) زيادة من ط، ب، و.

(٥) زيادة من ج.

وقال سفيان الثوري، عن عبد العزيز بن^(١) رُفيع، أخبرني من سمع عبيد بن عمير، وفي رواية: [قال]^(٢): أخبرني مجاهد، عن عبيد بن عمير، أنه قال: قال آدم: يارب، خطيئتي التي أخطأت شيء كتبت على قبل أن تخلقني، أو شيء ابتدئته من قبل نفسي؟ قال: بل شيء كتبت على قبلك قبل أن أخلقك. قال: فكما كتبت على فاغفر^(٣) لي. قال: فذلك قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾.

وقال السدي، عمن حدثه، عن ابن عباس: فتلقى آدم من ربه كلمات، قال: قال آدم، عليه السلام: يارب، ألم تخلقني بيدك؟ قيل^(٤): له: بلى. ونفخت في من روحك؟ قيل^(٥): له: بلى. وعطست فقلت: يرحمك الله، وسبقت رحمتك غضبك؟ قيل^(٦): له: بلى، وكتبت على أن أعمل هذا؟ قيل^(٧): له: بلى. قال: أفرأيت إن تبت هل أنت راجعي إلى الجنة؟ قال: نعم.

وهكذا رواه العوفي، وسعيد بن جبير، وسعيد بن مَعْبُد، عن ابن عباس، بنحوه. ورواه الحاكم في مستدركه من حديث سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه^(٨) وهكذا فسر السدي وعطية العوفي.

وقد روى ابن أبي حاتم ههنا حديثاً شبيهاً بهذا فقال: حدثنا علي بن الحسن بن إشكاب، حدثنا علي بن عاصم، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال آدم، عليه السلام: أ رأيت يارب إن تبت ورجعت، أعائدي إلى الجنة؟ قال: نعم. فذلك قوله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾»^(٩).

وهذا حديث غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ قال: إن آدم لما أصاب الخطيئة قال: يارب، أ رأيت إن تبت وأصلحت؟ قال الله: إذن أرجعك إلى الجنة فهي من الكلمات. ومن الكلمات أيضاً: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد أنه كان يقول في قول الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ قال: الكلمات: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فارحمني، إنك^(١٠) خير الراحمين. اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فتب علي، إنك أنت التواب الرحيم.

(١) في ج: «عن». (٢) زيادة من ج، ط، ب. (٣) في ج، ب: «فاغفره».

(٤ - ٧) في ج: «قال».

(٨) المستدرک (٢/ ٥٤٥).

(٩) تفسير ابن حاتم (١/ ١٣٥).

(١٠) في ج: «فاغفر لي أنت».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أى: إنه يتوب على من تاب إليه وأناب، كقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقوله: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧١]، وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب ويتوب على من يتوب وهذا من لطفه بخلقه ورحمته بعبده، لا إله إلا هو التواب الرحيم.

وذكرنا فى المسند الكبير من طريق سليمان بن سليم عن ابن بريدة وهو سليمان عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «لما أهبط الله آدم إلى الأرض طاف بالبيت سبعا، وصلى خلف المقام ركعتين، ثم قال: اللهم إنك تعلم سرى وعلايتى فاقبل معذرتى، وتعلم حاجتى فأعطنى سؤلى، وتعلم ما عندى فاغفر ذنوبى، أسألك إيمانا يباشر قلبى، ويقينا صادقا حتى أعلم أنه لن يصيبنى إلا ما كتبت لى. قال فأوحى الله إليه إنك قد دعوتنى بدعاء أستجيب لك فيه ولمن يدعونى به، وفرجت همومه وغمومه، ونزعت فقره من بين عينيه، وأجرت له من وراء كل تاجر زينة الدنيا وهى كلمات عهد وإن لم يزدّها» رواه الطبرانى فى معجمه الكبير^(١).

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)﴾.

يقول تعالى مخبراً عما أنذر به آدم وزوجته وإبليس حتى^(٢) أهبطهم من الجنة، والمراد الذرية: أنه سينزل الكتب، ويبعث الأنبياء والرسل؛ كما قال أبو العالية: الهدى الأنبياء والرسل والبيان. وقال مقاتل بن حيان: الهدى محمد ﷺ. وقال الحسن: الهدى القرآن. وهذان القولان صحيحان، وقول أبى العالية أعم.

﴿فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ﴾ أى: من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى: فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا، كما قال فى سورة طه: ﴿قَالَ اهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣] قال ابن عباس: فلا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة. ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمًى﴾ [طه: ١٢٤] كما قال ههنا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أى: مخلدون فيها، لا محيد لهم عنها، ولا محيص.

وقد أورد ابن جرير، رحمه الله، ههنا حديثاً ساقه من طريقين، عن أبى مسلمة سعيد بن يزيد،

(١) جامع المسانيد والسنن برقم (٧٤٢) ولم أقع عليه فى المطبوع من المعجم الكبير.

(٢) فى جد، ط، ب، أ، و: «حين».

عن أبي نضرة المنذر بن مالك بن قطعة^(١)، عن أبي سعيد - واسمه سعد بن مالك بن سنان الخدري - قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، لكن أقواماً أصابتهم النار بخطاياهم، أو بذنوبهم فأماتتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحماً أذن في الشفاعة». وقد رواه مسلم من حديث شعبة عن أبي سلمة، به^(٢).

[وذكر هذا الإهباط الثاني لما تعلق به ما بعده من المعنى المغاير للأول، وزعم بعضهم أنه تأكيد وتكرير، كما تقول: قم قم، وقال آخرون: بل الإهباط الأول من الجنة إلى السماء الدنيا، والثاني من سماء الدنيا إلى الأرض، والصحيح الأول، والله تعالى أعلم بأسرار كتابه]^(٣).

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (٤٠) وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) ﴿

يقول تعالى أمرا بنى إسرائيل بالدخول في الإسلام، ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام، ومُهيّجاً لهم بذكر أبيهم إسرائيل، وهو نبي الله يعقوب، عليه السلام، وتقديره: يا بنى العبد الصالح المطيع لله كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق، كما تقول: يا ابن الكريم، افعل كذا. يا ابن الشجاع، بارز الأبطال. يا ابن العالم، اطلب العلم ونحو ذلك.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] فإسرائيل هو يعقوب، عليه السلام، بدليل ما رواه أبو داود الطيالسي: حدثنا عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، قال: حدثني عبد الله بن عباس قال: حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ، فقال لهم: «هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب؟». قالوا: اللهم نعم. فقال النبي ﷺ: «اللهم اشهد»^(٤) (٥).

وقال الأعمش، عن إسماعيل بن رجاء، عن عمير مولى ابن عباس، عن عبد الله بن عباس؛ أن إسرائيل كقولك: عبد الله.

وقوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾: قال مجاهد: نعمة الله التي أنعم بها عليهم فيما سمي وفيما سوى ذلك؛ فَجَرَّ لَهُمُ الْحَجَرَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَنَ وَالسَّلْوى، وَأَنْجَاهُمْ مِنْ عِبَادَةِ آلِ فِرْعَوْنَ.

(١) في ج: «قصعة».

(٢) تفسير الطبري (١/ ٥٥٢) وصحيح مسلم برقم (١٨٥).

(٣) زيادة من ج، ط، ب، أ، و. (٤) في ج: «اللهم فاشهد».

(٥) رواه أحمد في المسند (١/ ٢٧٣) عن حسين، عن عبد الحميد بن بهرام به.

وقال أبو العالية: نعمته أن جعل منهم الأنبياء والرسل، وأنزل عليهم الكتب.

قلت: وهذ كقول موسى، عليه السلام، لهم: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠] يعنى فى زمانهم.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فى قوله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أى: بلائى عندكم وعند آبائكم لما كان نجاهم به من فرعون وقومه ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ قال: بعهدى الذى أخذت فى^(١) أعناقكم للنبي محمد ﷺ إذا جاءكم. ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أى: أنجز لكم ما وعدتكم عليه بتصديقه واتباعه، بوضع ما كان عليكم من الإصر والأغلال التى كانت فى أعناقكم بذنوبكم التى كانت من أخطائكم.

[وقال الحسن البصرى: هو قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية [المائدة: ١٢]. وقال آخرون: هو الذى أخذه الله عليهم فى التوراة أنه سيبعث من بنى إسماعيل نبياً عظيماً يطيعه جميع الشعوب والمراد به محمد ﷺ فمن اتبعه غُفِرَ له ذنبه وأدخله الجنة وجعل له أجران. وقد أورد فخر الدين الرازى ههنا بشارات كثيرة عن الأنبياء عليهم السلام بمحمد ﷺ^(٢).

وقال أبو العالية: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ قال: عهده إلى عباده: دينه الإسلام أن يتبعوه.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ قال: أرض عنكم وأدخلكم الجنة.

وكذا قال السدى، والضحاك، وأبو العالية، والربيع بن أنس.

وقوله: ﴿وَأَيَّيَ فَرَاهُبُونَ﴾ أى: فآخشون؛ قاله أبو العالية، والسدى، والربيع بن أنس، وقتادة.

وقال ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَأَيَّيَ فَرَاهُبُونَ﴾: أى أنزل بكم ما أنزل^(٣) بمن كان قبلكم من آبائكم من النِّقَمَاتِ التى قد عرفتم من المسخ وغيره.

وهذا انتقال من الترغيب إلى التهيب، فدعاهم إليه بالرغبة والرغبة، لعلهم يرجعون إلى الحق واتباع الرسول والاعتاظ بالقرآن وزواجه، وامتنال أوامره، وتصديق أخباره، والله الهادى لمن يشاء إلى صراطه المستقيم؛ ولهذا^(٤) قال: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ [مُصَدِّقًا] ماضياً منصوباً على الحال من ﴿بِمَا﴾ أى: بالذى أنزلت مصدقاً أو من الضمير المحذوف من قولهم: بما أنزلته مصدقاً، ويجوز أن يكون مصدرأ من غير الفعل وهو قوله: ﴿لِّمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا﴾^(٥) يعنى به: القرآن الذى أنزله على محمد النبي الأمى العربى بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً مشتملاً على الحق من الله

(١) فى ج، ط، ب: «من».

(٢) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٣) فى ج، ط، ب: «ما أنزلت».

(٤) فى ج: «فلهذا».

(٥) زيادة من ج، ب، و.

تعالى، مصداقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل.

قال أبو العالية، رحمه الله، فى قوله: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ يقول: يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم يقول: لأنهم يجدون محمداً ﷺ مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل.

وروى عن مجاهد والربيع بن أنس وقتادة نحو ذلك.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ [قال بعض المفسرين: أول فريق كافر به ونحو ذلك] ^(١). قال ابن عباس: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم.

وقال أبو العالية: يقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾: أول ^(٢) من كفر بمحمد ﷺ [يعنى من جنسكم أهل الكتاب بعد سماعهم بمحمد وبمبعثه] ^(٣).

وكذا قال الحسن، والسدى، والربيع بن أنس.

واختار ابن جرير أن الضمير فى قوله: ﴿بِهِ﴾ عائذ على القرآن، الذى تقدم ذكره فى قوله: ﴿بِمَا أُنزِلَتْ﴾.

وكلا القولين صحيح؛ لأنهما متلازمان، لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد ﷺ، ومن كفر بمحمد ﷺ فقد كفر بالقرآن.

وأما قوله: ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ فيعنى به أول من كفر به من بنى إسرائيل؛ لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثير، وإنما المراد أول من كفر به من بنى إسرائيل مباشرة، فإن يهود المدينة أول بنى إسرائيل خوطبوا بالقرآن، فكفرهم به يستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم.

وقوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يقول: لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتى وتصديق رسولى بالدنيا وشهواتها، فإنها قليلة فانية، كما قال عبد الله بن المبارك: أنبأنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن هارون بن زيد ^(٤)، قال: سئل الحسن، يعنى البصرى، عن قوله تعالى: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ قال: الثمن القليل الدنيا بحذافيرها.

وقال ابن لهيعة: حدثنى عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبيرة، فى قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: وإن آياته: كتابه الذى أنزله ^(٥) إليهم، وإن الثمن القليل: الدنيا وشهواتها.

وقال السدى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يقول: لا تأخذوا طمعاً قليلاً، ولا تكتموا ^(٦) اسم

(١) زيادة من ج، ب، و. (٢) زيادة من ج.

(٣) زيادة من ج، ط، ب، أ، و. (٤) فى ج، ط، ب، أ، و: «بن يزيد».

(٥) فى ج: «آياته التى أنزل». (٦) فى ج، ب: «وتكتموا».

الله لذلك الطمع وهو الثمن.

وقال أبو جعفر، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يقول: لا تأخذوا عليه أجراً. قال: وهو مكتوب عندهم في الكتاب الأول: يا ابن آدم، علّم مجّانا كما علّمت مجّانا.

وقيل: معناه لا تعتاضوا عن البيان والإيضاح ونشر العلم النافع في الناس بالكتمان واللبس لتستمرروا على رياستكم في الدنيا القليلة الحقيمة الزائلة عن قريب، وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم علماً مما يتبعى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يرح رائحة الجنة يوم القيامة»^(١)، وأما تعليم العلم بأجرة، فإن كان قد تعين عليه فلا يجوز أن يأخذ عليه أجرة، ويجوز أن يتناول من بيت المال ما يقوم به حاله وعياله، فإن لم يحصل له منه شيء وقطعه التعليم عن التكسب، فهو كما لم يتعين عليه، وإذا لم يتعين عليه فإنه يجوز أن يأخذ عليه أجرة عند مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء، كما في صحيح البخاري عن أبي سعيد في قصة اللديغ: «إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله»^(٢)، وقوله في قصة المخطوبة: «زوجتكها بما معك من القرآن»^(٣)، فأما حديث عبادة بن الصامت، أنه علم رجلاً من أهل الصفة شيئاً من القرآن فأهدى له قوساً، فسأل عنه رسول الله ﷺ فقال له: «إن أحببت أن تطوق بقوس من نار فأقبله» فتركه، رواه أبو داود^(٤)، وروى مثله عن أبي بن كعب مرفوعاً^(٥)، فإن صح إسناده فهو محمول عند كثير من العلماء منهم: أبو عمر بن عبد البر على أنه لما علمه الله لم يجز بعد هذا أن يعتاض عن ثواب الله بذلك القوس، فأما إذا كان من أول الأمر على التعليم بالأجرة فإنه يصح كما في حديث اللديغ وحديث سهل في المخطوبة، والله أعلم.

﴿وَيَايَا فَاتَّقُونَ﴾: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عمر الدوري، حدثنا أبو إسماعيل المؤدب، عن عاصم الأحول، عن أبي العالية، عن طلق بن حبيب، قال: التقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله، والتقوى أن تترك معصية الله مخافة عذاب الله على نور من الله.

ومعنى قوله: ﴿وَيَايَا فَاتَّقُونَ﴾: أنه تعالى يتوعددهم فيما يعتمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافه^(٦)، ومخالفتهم الرسول، صلوات الله وسلامه عليه.

(١) سنن أبي داود برقم (٣٦٦٤).

(٢) صحيح البخاري برقم (٥٠٠٧) وهذا اللفظ هو لفظ حديث ابن عباس.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم (٥١٤٩) من حديث سهل بن سعد رضى الله عنه.

(٤) سنن أبي داود برقم (٣٤١٦).

(٥) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٢٥ / ٦) من طريق عبد الرحمن بن أبي مسلم، عن عطية بن قيس، عن أبي بن كعب رضى الله عنه به مرفوعاً، وهو منقطع.

(٦) في أ: «إظهاره الباطل».

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (٤٣).

يقول تعالى ناهياً لليهود عما كانوا يعتمدونه، من تلبيس^(١) الحق بالباطل، وتمويهه به^(٢)، وكتمانهم الحق وإظهارهم الباطل: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا﴾ (٣) الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ؛ فمنهاهم عن الشيئين معاً، وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به؛ ولهذا قال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾: لا تخلطوا الحق بالباطل والصدق بالكذب.

وقال أبو العالية: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ يقول: ولا تخلطوا الحق بالباطل، وأدوا النصيحة لعباد الله من أمر محمد ﷺ.

ويروى^(٤) عن سعيد بن جبيرة والربيع بن أنس، نحوه.

وقال قتادة: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ [قال]^(٥): ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام؛ إن دين الله الإسلام، واليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله.

وروى عن الحسن البصري نحو ذلك.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى: لا تكتُموا ما عندكم من المعرفة برسولى وبما جاء به، وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم فيما تعلمون من الكتب التى بأيديكم. وروى عن أبى العالية نحو ذلك.

وقال مجاهد، والسدى، وقاتدة، والربيع بن أنس: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ يعنى: محمداً ﷺ.

[قلت: ﴿وَتَكْتُمُوا﴾ يحتمل أن يكون مجزوماً، ويجوز أن يكون منصوباً، أى: لا تجمعوا بين هذا وهذا كما يقال: لا تأكل السمك وتشرب اللبن. قال الزمخشري: وفى مصحف ابن مسعود: «وتكتُمون الحق» أى: فى حال كتمانكم الحق وأنتم تعلمون حال أيضاً، ومعناه: وأنتم تعلمون الحق، ويجوز أن يكون المعنى: وأنتم تعلمون ما فى ذلك من الضرر العظيم على الناس من إضلالهم عن الهدى المفضى بهم إلى النار إلى أن سلخوا ما تبدونه لهم من الباطل المشوب بنوع من الحق لتروجه عليهم، والبيان الإيضاح وعكسه الكتمان وخلط الحق بالباطل]^(٦).

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ قال مقاتل: قوله تعالى لأهل الكتاب: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: أمرهم أن يصلوا مع النبى ﷺ ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾: أمرهم أن يؤتوا الزكاة، أى: يدفعونها إلى النبى ﷺ ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾: أمرهم أن يركعوا مع الراكعين من أمة محمد ﷺ.

(١) فى ج، ط، ب: «تلبسهم».

(٢) فى ج، ب: «تمويههم».

(٣) فى ج: «وتكتُمون» وهو خطأ.

(٤) فى ج، ط، ب، أ، و: «وروى».

(٥) زيادة من ج، ط، ب.

(٦) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

يقول: كونوا منهم ومعهم.

وقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾^(١) يعنى بالزكاة: طاعة الله والإخلاص.

وقال وكيع، عن أبي جناب، عن عكرمة عن ابن عباس، فى قوله: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ قال: ما يوجب الزكاة؟ قال: مائتان فصاعدا.

وقال مبارك بن فضالة، عن الحسن، فى قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ قال: فريضة واجبة، لا تنفع الأعمال إلا بها وبالصلاة.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عثمان بن أبى شيبة، حدثنا جرير عن أبى حيان [العجمي] ^(٢) التيمى، عن الحارث العكلى فى قوله: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ قال: صدقة الفطر.

وقوله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاٰكِعِينَ﴾ أى: وكونوا مع المؤمنين فى أحسن أعمالهم، ومن أخص ذلك وأكملها^(٣) الصلاة.

[وقد استدلل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة، وبسط ذلك فى كتاب الأحكام الكبير إن شاء الله، وقد تكلم القرطبى على مسائل الجماعة والإمامة فأجاد]^(٤).

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٤٤).

يقول تعالى: كيف يليق بكم - يا معشر أهل الكتاب، وأنتم تأمرون الناس بالبر، وهو جماع الخير - أن تنسوا أنفسكم، فلا تأمروا بما تأمرون الناس به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب، وتعلمون ما فيه على من قصر فى أوامر الله؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم؛ فتنبها من رقدتكم، وتبصروا من عمايتكم. وهذا كما قال عبد الرزاق عن معمر، عن قتادة فى قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ قال: كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه، وبالبر، ويخالفون، فغيرهم الله، عز وجل. وكذلك قال السدى.

وقال ابن جريج: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ ﴾: أهل الكتاب والمنافقون كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة، ويدعون العمل بما يأمرون به الناس، فغيرهم الله بذلك، فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أى: تتركون أنفسكم ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أى: تنهون الناس عن الكفر بما

(١) زيادة من ج، ط، ب.

(٢) زيادة من ج.

(٣) فى أ، و: «وأجمله».

(٤) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

عندكم من النبوة والعهد من التوراة، وتتركون أنفسكم، أى: وأنتم^(١) تكفرون بما فيها من عهدى إليكم فى تصديق رسولى، وتنقضون ميثاقى، وتجحدون ما تعلمون^(٢) من كتابى.

وقال الضحاك، عن ابن عباس فى هذه الآية، يقول: تأمرون الناس بالدخول فى دين محمد ﷺ وغير ذلك مما أمرتم^(٣) به من إقام الصلاة، وتنسون أنفسكم.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنى على بن الحسن، حدثنا مسلم الجرمي، حدثنا مَخْلَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ، عَنْ أَيُّوبَ السَّخْتِيَانِي، عَنْ أَبِي قَلَابَةَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ قَالَ: قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: لَا يَفْقَهُ الرَّجُلُ كُلَّ الْفَقْهِ حَتَّى يَمُتَ النَّاسُ فِي ذَاتِ اللَّهِ، ثُمَّ يَرْجِعَ إِلَى نَفْسِهِ فَيَكُونَ لَهَا أَشَدَّ مَقْتًا.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى هذه الآية: هؤلاء اليهود إذا جاء الرجل يسألهم عن الشيء ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء أمره بالحق، فقال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

والغرض أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع ونبههم على خطئهم^(٤) فى حق أنفسهم، حيث كانوا يأمرُونَ بِالْخَيْرِ وَلَا يَفْعَلُونَهُ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ ذَمُّهُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ بِالْبِرِّ مَعَ تَرْكِهِمْ لَهُ، بَلْ عَلَى تَرْكِهِمْ لَهُ، فَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ [مَعْرُوف]^(٥) وَهُوَ وَاجِبٌ عَلَى الْعَالَمِ، وَلَكِنْ [الوَاجِبُ وَ] ^(٦) الْأَوَّلَى بِالْعَالَمِ أَنْ يَفْعَلَ مَعَ أَمْرِهِمْ بِهِ، وَلَا يَتَخَلَفَ عَنْهُمْ، كَمَا قَالَ شُعَيْبٌ، عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هُود: ٨٨]. فَكُلُّ مَنْ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَفَعَلَهُ وَاجِبٌ، لَا يَسْقُطُ أَحَدُهُمَا بترك الآخر على أصح قولى العلماء من السلف والخلف. وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنْ مَرْتَكِبُ الْمَعَاصِيَ لَا يَنْهَى غَيْرَهُ عَنْهَا، وَهَذَا ضَعِيفٌ وَأَضْعَفُ مِنْهُ تَمَسُّكُهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ؛ فَإِنَّهُ لَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهَا. وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْعَالَمَ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْهُ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِنْ ارْتَكَبَهُ. [قَالَ مَالِكٌ عَنْ رَبِيعَةَ: سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ يَقُولُ لَهُ: لَوْ كَانَ الْمَرْءُ لَا يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ مَا أَمَرَ أَحَدٌ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا نَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ. وَقَالَ مَالِكٌ: وَصَدَقَ مَنْ ذَا الَّذِي لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ؟ قُلْتُ]^(٧): وَلَكِنَّهُ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - مَذْمُومٌ عَلَى تَرْكِ^(٨) الطَّاعَةِ وَفَعَلِهِ الْمَعْصِيَةِ، لَعَلَّمَهُ بِهَا وَمُخَالَفَتَهُ عَلَى بَصِيرَةٍ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ يَعْلَمُ كَمَنْ لَا يَعْلَمُ؛ وَلِهَذَا جَاءَتْ الْأَحَادِيثُ فِي الْوَعِيدِ عَلَى ذَلِكَ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيُّ فِي مَعْجَمِهِ الْكَبِيرِ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ الْمَعْلَى الدَّمَشَقِيُّ وَالْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ الْمُعَمَّرِيُّ، قَالَا: حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عَمَّارٍ، حَدَّثَنَا عَلَى

(١) فى جـ: «أى أنتم».

(٢) فى جـ: «بما تعملون».

(٣) فى جـ: «مما أمرتكم».

(٤) فى جـ: «خطاياهم».

(٥) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

(٦) زيادة من جـ، ط، أ.

(٨) فى جـ، ب: «على تركه».

(٧) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

ابن سليمان الكلبي، حدثنا الأعمش، عن أبي تَمِيمَةَ الهُجَمِيِّ، عن جندب بن^(١) عبد الله، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل العالم الذى يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضىء للناس ويحرق نفسه»^(٢).

هذا حديث غريب من هذا الوجه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده: حدثنا وكيع، حدثنا حماد بن سلمة، عن على بن زيد هو ابن جدعان، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أسرى بى على قوم شفاههم تُقَرِّضُ بمقاريض»^(٣) من نار. قال: قلت: من هؤلاء؟ قالوا: خطباء من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرؤن الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون؟^(٤).

ورواه عبد بن حميد فى مسنده، وتفسيره، عن الحسن بن موسى، عن حماد بن سلمة، به.

ورواه ابن مردويه فى تفسيره، من حديث يونس بن محمد المؤدب، والحجاج بن منهل، كلاهما عن حماد بن سلمة، به.

وكذا رواه يزيد بن هارون، عن حماد بن سلمة به.

ثم قال ابن مردويه: حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم، حدثنا موسى بن هارون، حدثنا إسحاق بن إبراهيم التستري ببلخ، حدثنا مكى بن إبراهيم، حدثنا عمر بن قيس، عن على بن زيد^(٥)، عن ثمامة، عن أنس، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مررت ليلة أسرى بى على أناس تقرض شفاههم وألسنتهم بمقاريض من نار. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟» قال: هؤلاء خطباء أمتك، الذين يأمرؤن الناس بالبر وينسون أنفسهم.

وأخرجه ابن حبان فى صحيحه، وابن أبى حاتم، وابن مردويه - أيضاً - من حديث هشام الدَّسْتَوَائِيَّ، عن المغيرة - يعنى ابن حبيب - ختن مالك بن دينار، عن مالك بن دينار، عن ثمامة، عن أنس بن مالك، قال: لما عرج برسول الله ﷺ مرّ بقوم يُقَرِّضُ شفاههم^(٦)، فقال: «يا جبريل، من هؤلاء؟» قال: هؤلاء الخطباء من أمتك يأمرؤن الناس بالبر وينسون أنفسهم؛ أفلا يعقلون؟^(٧).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا الأعمش، عن أبى وائل، قال: قيل لأسماء - وأنا رديفه -: ألا تكلم عثمان؟ فقال: إنكم تُرَوْنَ أنى لا أكلمه إلا أسمعكم. إنى لا أكلمه فيما بينى وبينه ما دون أن أفتتح أمراً - لا أحب أن أكون أول من افتتحه، والله لا أقول لرجل:

(١) فى ج: «عن».

(٢) المعجم الكبير (٢/ ١٦٥) وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ١٨٥): «رجاله موثقون».

(٣) فى ج، ب: «تقرض شفاههم بمقاريض».

(٤) المسند (٣/ ١٢٠).

(٥) فى أ: «بن يزيد».

(٦) فى ج، ط، ب، أ، و: «تقرض من شفاههم».

(٧) صحيح ابن حبان برقم (٣٥) «موارد» وتفسير ابن أبى حاتم (١/ ١٥١).

إنك خير الناس. وإن كان على أميراً - بعد أن^(١) سمعت رسول الله ﷺ يقول، قالوا: وما سمعته يقول؟ قال: سمعته يقول: «يُجَاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق به أفتابه^(٢)، فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار، فيقولون: يا فلان ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتية، وأنهاكم عن المنكر وآتية^(٣)».

ورواه البخارى ومسلم، من حديث سليمان بن مهران الأعمش، به نحوه^(٤).

[وقال أحمد: حدثنا سيار بن حاتم، حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يعافى الأمين يوم القيامة ما لا يعافى العلماء»^(٥). وقد ورد فى بعض الآثار: أنه يغفر للجاهل سبعين مرة حتى يغفر للعالم مرة واحدة، ليس من يعلم كمن لا يعلم. وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]. وروى ابن عساکر فى ترجمة الوليد بن عقبة عن النبى ﷺ، قال: «إن أناساً من أهل الجنة يطلعون على أناس من أهل النار فيقولون: بم دخلتم النار؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم، فيقولون: إنا كنا نقول ولا نفعل»^(٦) رواه من حديث الطبرانى عن أحمد بن يحيى بن حيان^(٧) الرقى عن زهير بن عباد الرواسى عن أبى بكر الداهرى^(٨) عن عبد الله بن حكيم عن إسماعيل بن أبى خالد عن الشعبي عن الوليد بن عقبة فذكره^(٩).

وقال الضحاك، عن ابن عباس: أنه جاءه رجل، فقال: يا ابن عباس، إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، قال: أو بلغت ذلك؟ قال: أرجو. قال: إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل. قال: وما هن؟ قال: قوله عز وجل^(١٠): ﴿اتَّامِرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾. أحكمت هذه؟ قال: لا. قال: فالحرف الثانى. قال: قوله تعالى: ﴿لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣] أحكمت هذه؟ قال: لا. قال: فالحرف الثالث. قال: قول العبد الصالح شعيب، عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨] أحكمت هذه الآية؟ قال: لا. قال: فابدأ بنفسك.

رواه ابن مردويه فى تفسيره .

وقال الطبرانى^(١١): حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا زيد بن الحريش، حدثنا عبد الله بن خراش، عن العوام بن حوشب، عن [سعيد بن]^(١٢) المسيب بن رافع، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله

(١) فى ج، ب: «إذ».

(٢) المسند (٥/ ٢٠٥).

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٢٦٧) وصحيح مسلم برقم (٢٩٨٩).

(٥) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٢/ ٧) من طريق الإمام أحمد وقال: «هذا حديث غريب تفرد به سيار عن جعفر، ولم نكتبه إلا من حديث أحمد بن حنبل». وقال عبد الله بن أحمد: «هذا حديث منكر حدثني به أبى، وما حدثني به إلا مرة».

(٦) انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٦/ ٣٣٦).

(٧) فى ج: «حماد»، والصواب ما أثبتناه.

(٨) فى ج: «الزاهرى»، والصواب ما أثبتناه.

(١٠) فى ج: «قوله تعالى».

(٩) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(١١) فى أ: «القرطبي».

(١٢) زيادة من ط، أ، و.

ﷺ: «من دعا الناس إلى قول أو عمل ولم يعمل هو به لم يزل فى ظل سخط الله حتى يكف أو يعمل ما قال، أو دعا إليه»^(١).

إسناده فيه ضعف؛ وقال إبراهيم النخعى: إني لأكره القصص الثلاث آيات قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢٠، ٢٣]، وقوله إخباراً عن شعيب: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وما أحسن ما قال مسلم بن عمرو:

ما أقبح التزهيد من واعظ	يزهد الناس ولا يزهد
لو كان فى تزهيده صادقاً	أضحى وأمسى بيته المسجد
إن رفض الناس فما باله	يستفتح الناس ويستترقد
الرزق مقسوم على من ترى	يسقى له الأبيض والأسود

وقال بعضهم: جلس أبو عثمان الخيرى الزاهد يوماً على مجلس التذكير فأطال السكوت، ثم أنشأ يقول:

وغير تقى يأمر الناس بالتقى	طبيب يداوى والطبيب مريض
قال: فضج الناس بالبكاء. وقال أبو العتاهية الشاعر:	
وصفت التقى حتى كأنك ذو تقى	وريح الخطايا من شأنك تقطع
وقال أبو الأسود الدؤلى:	

لا تنه عن خلق وتأتى مثله	عار عليك إذا فعلت عظيم
فابدأ بنفسك فانها عن غيرها	فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل إن وعظت ويقتدى	بالقول منك وينفع التعليم

وذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة عبد الواحد بن زيد البصرى العابد الواعظ قال: دعوت الله أن يرينى رفيقى فى الجنة، فقليل لى فى المنام: هى امرأة فى الكوفة يقال لها: ميمونة السوداء، فقصدت الكوفة لأراها. فقليل لى: هى ترعى غنما بواد هناك، فجئت إليها فإذا هى قائمة تصلى والغنم ترعى

(١) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٢/ ٧) من طريق الطبرانى، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢٧٦): «فيه عبد الله بن خراش وثقه ابن حبان وقال: يخطئ، وضعفه الجمهور، وبقيّة رجاله ثقات».

حولها وبينهن الذئاب لا ينفرون منه، ولا يسطوا الذئاب عليهن. فلما سلمت قالت: يا ابن زيد، ليس الموعد هنا إنما الموعد ثم، فسألتها عن شأن الذئاب والغنم. فقالت: إنى أصلحت ما بينى وبين سيدى فأصلح ما بين الذئاب والغنم. فقلت لها: عطينى. فقالت: يا عجباً من واعظ يوعظ، ثم قالت: يا ابن زيد، إنك لو وضعت موازين القسط على جوارحك لخبرتكم بمكتوم مكنون ما فيها، يا ابن زيد، إنه بلغنى ما من عبد أعطى من الدنيا شيئاً فابتغى إليه تائباً إلا سلبه الله حب الخلوة وبدله بعد القرب

يا واعظاً قام لا حساب	يزجر قوما عن الذنوب
تنه عنه وأنت السقيم حقاً	هذا من المنكر العجيب
تنه عن الغنى والتمادى	وأنت فى النهى كالمريب
لو كنت أصلحت قبل هذا	غيك أو تبت من قريب
كان لما قلت يا حبيبى	موضع صدق من القلوب ^(١)

البعد وبعد الأئس الوحشة ثم أنشأت تقول:

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)﴾.

يقول تعالى^(٢) أمراً عبده، فيما يؤملون من خير الدنيا والآخرة، بالاستعانة بالصبر والصلاة، كما قال مقاتل بن حيان فى تفسير هذه الآية: استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض، والصلاة.

فأما الصبر فقليل: إنه الصيام، نص عليه مجاهد.

[قال القرطبي وغيره: ولهذا سمي رمضان شهر الصبر كما نطق به الحديث]^(٣).

وقال سفيان الثوري، عن أبى إسحاق، عن جرّ بن كليب، عن رجل من بنى سليم، عن النبى ﷺ، قال: «الصوم نصف الصبر».

وقيل: المراد بالصبر الكف عن المعاصى؛ ولهذا قرنه بأداء العبادات وأعلاها: فعل الصلاة.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبيد الله بن حمزة بن إسماعيل، حدثنا إسحاق بن سليمان، عن أبى سنان، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن، وأحسن منه الصبر عن محارم الله.

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٥/ ٢٥٣).

(٢) فى ج: «تعالى مخبراً». (٣) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

[قال] ^(١): وروى عن الحسن البصرى نحو قول عمر .

وقال ابن المبارك عن ابن لهيعة عن مالك بن دينار، عن سعيد بن جبير، قال: الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب فيه، واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد، لا يرى ^(٢) منه إلا الصبر .

وقال أبو العالية فى قوله: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ على مرضاة الله، واعلموا أنها من طاعة الله .

وأما قوله: ﴿وَالصَّلَاةِ﴾: فإن الصلاة من أكبر العون على الثبات فى الأمر، كما قال تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٥] .

وقال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبى زائدة، عن عكرمة بن عمار، عن محمد بن عبد الله الدؤلى، قال: قال عبد العزيز أخو حذيفة، قال حذيفة، يعنى ابن اليمان: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى . ورواه أبو داود [عن محمد بن عيسى عن يحيى بن زكريا عن عكرمة بن عمار كما سيأتى] ^(٣) ^(٤) .

وقد رواه ابن جرير، من حديث ابن جريج، عن عكرمة بن عمار، عن محمد بن عبيد بن أبى قدامة، عن عبد العزيز بن اليمان، عن حذيفة، قال: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ^(٥) .

[ورواه بعضهم عن عبد العزيز ابن أخى حذيفة؛ ويقال: أخى حذيفة مرسلأ عن النبى ﷺ؛ وقال محمد بن نصر المروزى فى كتاب الصلاة: حدثنا سهل بن عثمان أبو مسعود ^(٦) العسكرى، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبى زائدة قال: قال عكرمة بن عمار: قال محمد بن عبد الله الدؤلى: قال عبد العزيز: قال حذيفة: رجعت إلى النبى ﷺ، ليلة الأحزاب وهو مشتمل فى شملة يصلى، وكان إذا حزبه أمر صلى ^(٧) . وحدثنا عبيد الله بن معاذ، حدثنا أبى، حدثنا شعبة عن أبى إسحاق سمع حارثة بن مضرب سمع علياً يقول: لقد رأيتنا ليلة بدر وما فىنا إلا نائم غير رسول الله ﷺ يصلى ويدعو حتى أصبح ^(٨) ^(٩) .

(٢) فى ج: «فلا يرى» .

(١) زيادة من ج، ط، ب .

(٣) المسند (٥/ ٣٨٨) وسنن أبى داود برقم (١٣١٩) .

(٤) زيادة من ج، ط، أ، و .

(٥) تفسير الطبرى (١٢/٢) .

(٦) فى ط: «ابن مسعود»، والصواب ما أثبتناه .

(٧) تعظيم قدر الصلاة برقم (٢١٢) .

(٨) تعظيم قدر الصلاة برقم (٢١٣) .

(٩) زيادة من ج، ط، ب، أ، و .

قال ابن جرير: وروى عنه، عليه الصلاة والسلام، أنه مر بأبى هريرة، وهو منبطح على بطنه، فقال له: «اشكنب درد» [قال: نعم]^(١) قال: «قم فصل فإن الصلاة شفاء»^(٢) [ومعناه: أيرجعك بطنك؟ قال: نعم]^(٣). قال ابن جرير: وقد حدثنا محمد بن العلاء ويعقوب بن إبراهيم، قالا: حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا عُمَيْيَّة بن عبد الرحمن، عن أبيه: أن ابن عباس نُعِيَ إليه أخوه قُثَم وهو فى سفر، فاسترجع، ثم تنحَّى عن الطريق، فأناخ فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشى إلى راحلته وهو يقول: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(٤). وقال سُنيْد، عن حجاج، عن ابن جرير: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ قال: إنهما معونتان على رحمة الله.

والضمير فى قوله: ﴿وَأِنَّهَا﴾ عائد إلى الصلاة، نص عليه مجاهد، واختاره ابن جرير.

ويحتمل أن يكون عائدا على ما يدل عليه الكلام، وهو الوصية بذلك، كقوله تعالى فى قصة قارون: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاها إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥] أى: وما يلقى هذه الوصية إلا الذين صبروا ﴿وَمَا يُلَقَّاها﴾ أى: يؤتاها ويلهمها ﴿إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

وعلى كل تقدير، فقوله تعالى: ﴿وَأِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ أى: مشقة ثقيلة إلا على الخاشعين. قال ابن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى المصدقين بما أنزل الله. وقال مجاهد: المؤمنین حقا. وقال أبو العالية: إلا على الخاشعين الخائفين، وقال مقاتل بن حيان: إلا على الخاشعين يعنى به المتواضعين. وقال الضحاك: ﴿وَأِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ قال: إنها لثقيلة إلا على الخاضعين^(٥) لطاعته، الخائفين سَطَوَاتِهِ، المصدقين بوعده ووعيده.

وهذا يشبه ما جاء فى الحديث: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه»^(٦).

وقال ابن جرير: معنى الآية: واستعينوا أيها الأخبار من أهل الكتاب، بحبس أنفسكم على طاعة الله وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر، المقربة من رضا الله، العظيمة إقامتها إلا على المتواضعين لله المستكينين لطاعته المتذللين من مخافته.

(١) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٢) تفسير الطبرى (٢/ ١٣) وانظر ما كتبه المحقق الفاضل عن معنى: «اشكنب درد».

(٣) زيادة من ج، ط، ب.

(٤) تفسير الطبرى (٢/ ١٤).

(٥) فى ج: «الخاشعين».

(٦) رواه أحمد فى المسند (٥/ ٢٣١) من حديث معاذ رضى الله عنه.

هكذا قال، والظاهر أن الآية وإن كانت خطاباً في سياق إنذار بنى إسرائيل، فإنهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصيص، وإنما هي عامة لهم، ولغيرهم. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾: هذا من تمام الكلام الذى قبله، أى: وإن الصلاة أو الوصاة^(١) لثقيلة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم، أى: [يعلمون أنهم]^(٢) محشورون إليه يوم القيامة، معروضون عليه، وأنهم إليه راجعون، أى: أمورهم راجعة إلى مشيئته، يحكم فيها ما يشاء بعدله، فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات.

فأما قوله: ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾: قال^(٣) ابن جرير، رحمه الله: العرب قد تسمى اليقين ظناً، والشك ظناً، نظير تسميتهم الظلمة سُدفة، والضياء سُدفة، والمغيث صارخاً، والمستغيث صارخاً، وما أشبه ذلك من الأسماء التى يسمى بها الشئ وضده، كما قال دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ:

فقلت لهم ظنُّوا بألفى مدججٍ سرَّاتهم فى الفارسيِّ المُسرِّدِ^(٤)

يعنى بذلك تيقنوا بألفى مدجج يأتكم، وقال عَمِيرة بن طارق:

بأنَّ يَعتَزُّوا^(٥) قومي وأقعد فيكم وأجعل منى الظنَّ غيباً مرجماً^(٦)

يعنى: وأجعل منى اليقين غيباً مرجماً، قال: والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أن الظنَّ فى معنى اليقين، أكثر من أن تحصر، وفيما ذكرنا لمن وفق لفهمه كفاية، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمَجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣].

ثم قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو عاصم، حدثنا سفيان، عن جابر، عن مجاهد، قال: كل ظن فى القرآن يقين، أى: ظننت وظنوا.

وحدثنى المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا أبو داود الحَقَرِيّ، عن سفيان عن ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد، قال: كل ظن فى القرآن فهو علم. وهذا سند صحيح.

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾: قال: الظن ههنا يقين.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن مجاهد، والسدى، والربيع بن أنس، وقتادة نحو قول أبى العالية.

(١) فى أ: «الوصية».

(٢) زيادة من ج، ب، أ.

(٣) فى ط، ب: «فقال».

(٤) البيت فى تفسير الطبرى (٢/ ١٨).

(٥) فى ج: «نصروا»، وفى ب، أ: «تعبروا».

(٦) البيت فى تفسير الطبرى (٢/ ١٨).

وقال سُنَيْدٌ، عن حجاج، عن ابن جريج: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ علموا أنهم ملاقوا ربهم، كقوله: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ﴾ [الحاقة: ٢٠] يقول: علمت.

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

قلت: وفي الصحيح: «أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أزوجك، ألم أكرمك، ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأدرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. فيقول الله تعالى: أظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول الله: اليوم أنساك كما نسيتني». وسيأتي مبسوطا عند قوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] إن شاء الله، والله تعالى أعلم.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٤٧).

يذكرهم تعالى سالفَ نعمه على آبائهم وأسلافهم، وما كان فضلهم به من إرسال الرسل منهم وإنزال الكتب عليهم وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاكُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ قال: بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان في ذلك الزمان؛ فإن لكل زمان عالماً.

وروى عن مجاهد، والربيع بن أنس، وقتادة، وإسماعيل بن أبي خالد نحو ذلك. ويجب الحمل على هذا؛ لأن هذه الأمة أفضل منهم، لقوله تعالى خطاباً لهذه الأمة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وفي المساند والسنن^(١) عن معاوية بن حيدة القشيري، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنتم تُوفُونَ سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله». والأحاديث في هذا كثيرة تذكر عند قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

[وقيل: المراد تفضيل بنوع ما من الفضل على سائر الناس، ولا يلزم تفضيلهم مطلقاً، حكاه فخر الدين الرازي وفيه نظر. وقيل: إنهم فضلوا على سائر الأمم لاشتغال أمتهم على الأنبياء منهم، حكاه القرطبي في تفسيره، وفيه نظر؛ لأن ﴿الْعَالَمِينَ﴾ عام يشمل من قبلهم ومن بعدهم من الأنبياء، فإبراهيم الخليل قبلهم وهو أفضل من سائر أنبيائهم، ومحمد بعدهم وهو أفضل من جميع الخلق وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، صلوات الله وسلامه عليه وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين^(٢)].

(١) في ج، أ، و: «وفي السنن والمسند».

(٢) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٤٨) .

لما ذكرهم [الله] ^(١) تعالى بنعمه أولاً، عطف على ذلك التحذير من حلول نقمه بهم يوم القيامة فقال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أى: لا يغني أحد عن أحد كما قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقال: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣] فهذه ^(٢) أبلغ المقامات: أن كلا من الوالد وولده لا يغني أحدهما عن الآخر شيئاً، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ يعني عن الكافرين، كما قال: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وكما قال عن أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]، وقوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أى: لا يقبل منها فداء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١]. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تَقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ٧٠]، وقال: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [الحديد: ١٥]؛ فأخبر تعالى أنهم إن لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به، ووافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه، فإنه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعاة ذى جاه، ولا يقبل منهم فداء، ولو بملء الأرض ذهباً، كما قال تعالى: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِي يَوْمَ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال: ﴿لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾ [إبراهيم: ٣١].

[وقال سنيد: حدثني حجاج، حدثني ابن جريج قال: قال مجاهد: قال ابن عباس: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ قال: بدل، والبدل: الفدية، وقال السدى: أما عدل فيعدلها من العذاب يقول: لو جاءت بملء الأرض ذهباً تفتدى به ما تقبل منها، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ^(٣) . وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، فى قوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ يعني: فداء. قال ابن أبى حاتم: وروى عن أبى مالك، والحسن، وسعيد بن جبیر، وقتادة، والربيع بن أنس، نحو ذلك.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا الثورى، عن الأعمش، عن إبراهيم التيمى، عن أبيه عن على، رضى الله عنه، فى حديث طويل، قال: والصرف والعدل: التطوع والفريضة.

وكذا قال الوليد بن مسلم، عن عثمان بن أبى العاتكة ^(٤)، عن عمير بن هانىء.

(١) زيادة من و. (٢) فى ج، ط، ب: «فهذا». (٣) زيادة من ج، ط، ب، أ، و. (٤) فى ج، أ: «العالية».

وهذا القول غريب هنا، والقول الأول أظهر فى تفسير هذه الآية، وقد ورد حديث يقويه، وهو ما قال ابن جرير: حدثنى نَجِيج بن إبراهيم، حدثنا على بن حكيم، حدثنا حميد بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عَمْرُو بن قيس الملائي^(١)، عن رجل من بنى أمية - من أهل الشام أحسن عليه الثناء - قال: قيل: يا رسول الله، ما العدل؟ قال: «العدل القدية»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أى: ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله، كما تقدم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه ولا يقبل منهم فداء. هذا كله من جانب التلطف، ولا لهم ناصر من أنفسهم، ولا من غيرهم، كما قال: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠] أى: إنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعا، ولا ينقذ أحدا من عذابه منقذ، ولا يجيره منه أحد، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]. وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ. وَلَا يُوثِقُ وِثْقَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦]، وقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ. بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٥، ٢٦]، وقال: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٨].

قال الضحاك عن ابن عباس فى قوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ ما لكم اليوم لا تمانعون منا؟ هيهات ليس ذلك لكم اليوم.

قال^(٣) ابن جرير: وتأويل قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يعنى: أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر، كما لا يشفع لهم شافع، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية. بطلت هنالك^(٤) المحاباة واضمحلت الرشى والشفاعات، وارتفع من القوم التعاون والتناصر، وصار الحكم إلى عدل^(٥) الجبار الذى لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء، فيجزى بالسيئة مثلها وبالحسنة^(٦) أضعافها وذلك نظير قوله تعالى: ﴿وَقَفَّوْهُمْ إِنَّهُمْ مُسْتَوْلُونَ. مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ. بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٤ - ٢٦].

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَدْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (٤٩) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠).

يقول تعالى^(٧): واذكروا يا بنى إسرائيل نعمتى عليكم ﴿إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أى:

(١) فى ج: «الملا».

(٢) تفسير الطبرى (٢/ ٣٤).

(٣) فى ج: «وقال».

(٤) فى ج: «هنا».

(٥) فى ج: «فيجزى السيئة مثلها والحسنة».

(٦) فى ج، ط، ب: «العدل».

(٧) فى ج: «يقول الله تبارك وتعالى».

خلصتكم منهم وأنقذتكم من أيديهم صعبة^(١) موسى، عليه السلام، وقد كانوا يسومونكم، أى: يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب. وذلك أن فرعون - لعنه الله - كان قد رأى رؤيا هالته، رأى ناراً خرجت من بيت المقدس فدخلت دور القبط ببلاد مصر، إلا بيوت بنى إسرائيل، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يد رجل من بنى إسرائيل، ويقال: بل تحدث سماره عنده بأن بنى إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم، يكون لهم به دولة ورفعة، وهكذا جاء فى حديث الفتون، كما سيأتى فى موضعه [فى سورة طه]^(٢)، إن شاء الله، فعند ذلك أمر فرعون - لعنه الله - بقتل كل [ذى]^(٣) ذكر^(٤) يولد بعد ذلك من بنى إسرائيل، وأن تترك البنات، وأمر باستعمال بنى إسرائيل فى مشاق الأعمال وأراذلها.

وهنا فسر العذاب بذبح الأبناء، وفى سورة إبراهيم عطف عليه، كما قال: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦]، وسيأتى تفسير^(٥) ذلك فى أول سورة القصص، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة والمعونة والتأييد.

ومعنى ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ أى: يولونكم، قاله أبو عبيدة، كما يقال سامه خطة خسف إذا أولاه إياها، قال عمرو بن كلثوم:

إذا ما الملك سام الناس خسفاً أبينا أن نقر الخسف فينا

وقيل: معناه: يديمون عذابكم، كما يقال: سائمة الغنم من إدامتها الرعى، نقله القرطبي، وإنما قال ههنا: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ ليكون ذلك تفسيراً للنعمة عليهم فى قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ ثم فسر بهذا لقوله ههنا ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، وأما فى سورة إبراهيم فلما قال: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥] أى: بأياديه ونعمه عليهم فناسب أن يقول هناك: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾، فعطف عليه الذبح ليدل على تعدد النعم والأيادى.

وفرعون علم على كل من مَلَكَ مصر، كافراً من العماليق^(٦) وغيرهم، كما أن قيصر علم على كل من ملك الروم مع الشام كافراً، وكذلك كسرى لكل من مَلَكَ الفرس، وتبع لمن ملك اليمن كافراً [والنجاشى لمن ملك الحبشة، وبطليموس لمن ملك الهند]^(٧)، ويقال: كان اسم فرعون الذى كان فى زمن موسى، عليه السلام: الوليد بن مصعب بن الريان، وقيل: مصعب بن الريان، وأيا ما كان فعليه لعنة الله، [وكان من سلالة عمليق بن داود بن إرم بن سام بن نوح، وكنيته أبو مرة، وأصله فارسي من استخر]^(٨).

(١) فى جـ: «صعبة».

(٢) زيادة من جـ، ط.

(٣) زيادة من جـ.

(٤) ف أ: «ولد».

(٥) فى جـ: «العمالق».

(٦) (٨، ٧) زيادة من جـ، ط، أ، و.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قال ابن جرير: وفى الذى فعلنا بكم من إنجائنا إياكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم. أى: نعمة عظيمة عليكم فى ذلك^(١).

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس [فى]^(٢) قوله: ﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قال: نعمة. وقال مجاهد: ﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قال: نعمة من ربكم عظيمة. وكذا قال أبو العالية، وأبو مالك، والسدى، وغيرهم.

وأصل البلاء: الاختبار، وقد يكون بالخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَبَلُّوكُم بِالْخَيْرِ وَالْخَيْرِ فَتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال: ﴿وَبَلَّوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

قال ابن جرير: وأكثر ما يقال فى الشر: بلوته أبلوه بلاءً، وفى الخير: أبلية إبلاء وبلاء، قال زهير ابن أبى سلمى:

جَزَى الله بِالْإِحْسَانِ مَا فَعَلَا بِكُمْ وَأَبْلَاهُمَا خَيْرَ الْبَلَاءِ الَّذِى يَبْلُو^(٣)

قال: فجمع بين اللغتين؛ لأنه أراد فأنعم الله عليهما خير النعم التى يَحْتَبِرُ بها عباده.

[وقيل: المراد بقوله: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ﴾: إشارة إلى ما كانوا فيه من العذاب المهيّن من ذبح الأبناء واستحياء النساء؛ قال القرطبى: وهذا قول الجمهور ولفظه بعد ما حكى القول الأول، ثم قال: وقال الجمهور: الإشارة إلى الذبح ونحوه، والبلاء ههنا فى الشر، والمعنى فى الذبح مكروه وامتحان]^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ معناه: وبعد أن أنقذناكم من آل فرعون، وخرجتم مع موسى، عليه السلام، خَرَجَ^(٥) فرعون فى طلبكم، ففرقنا بكم البحر، كما أخبر تعالى عن ذلك مفصلاً^(٦) كما سيأتى فى مواضعه^(٧)، ومن أبسطها فى سورة الشعراء إن شاء الله.

﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ أى: خلصناكم منهم، وحجزنا بينكم وبينهم، وأغرقناهم وأنتم تنظرون؛ ليكون ذلك أشفى لصدوركم، وأبلغ فى إهانة عدوكم.

قال^(٨) عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن أبى إسحاق الهمداني، عن عمرو بن ميمون الأودى فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ قال: لما خرج موسى ببني إسرائيل، بلغ ذلك فرعون فقال: لا تتبعوهم حتى تصيح الديكة. قال: فوالله ما صاح ليلتئذ ديك

(١) فى جـ: «أى نعمة عليكم عظيمة فى ذلك».

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٢/ ٤٩).

(٣) زيادة من جـ، ط، أ، و.

(٤) فى جـ: «مفصلاً عن ذلك».

(٥) فى جـ: «وخرج».

(٦) فى جـ، ط: «وقال».

(٧) فى جـ: «مفصلاً».

حتى أصبحوا؛ فدعا بشاة فذُبِحت، ثم قال: لا أفرغ من كبدها حتى يجتمع إلى ستمائة ألف من القبط. فلم يفرغ من كبدها حتى اجتمع إليه ستمائة ألف من القبط ثم سار، فلما أتى موسى البحر، قال له رجل من أصحابه، يقال له: يوشع بن نون: أين أمر ربك؟ قال: أمامك، يشير إلى البحر. فأقحم يوشع فرسه في البحر حتى بلغ الغمر، فذهب به الغمر، ثم رجع. فقال: أين أمر ربك يا موسى؟ فوالله ما كذبت وما كُذبت^(١). فعل ذلك ثلاث مرات، ثم أوحى الله إلى موسى: ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فضربه ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] يقول: مثل الجبل. ثم سار موسى ومن معه وأتبعهم فرعون في طريقهم، حتى إذا تناموا فيه أطبقه الله عليهم فلذلك قال: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾^(٢).

وكذلك قال غير واحد من السلف، كما سيأتى بيانه فى موضعه^(٣). وقد ورد أن هذا اليوم كان يوم عاشوراء، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا عفان، حدثنا عبد الوارث، حدثنا أيوب، عن عبد الله بن سعيد بن جبير، عن أبيه، عن ابن عباس، قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا اليوم الذى تصومون؟». قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله عز وجل فيه بنى إسرائيل من عدوهم^(٤)، فصامه موسى، عليه السلام. فقال رسول الله ﷺ: «أنا أحق بموسى منكم». فصامه رسول الله ﷺ، وأمر بصومه.

وروى هذا الحديث البخارى، ومسلم، والنسائى، وابن ماجه من طرق، عن أيوب السخيتانى، به^(٥) نحو ما تقدم.

وقال أبو يعلى الموصلى: حدثنا أبو الربيع، حدثنا سلام - يعنى ابن سليم - عن زيد العمى عن يزيد الرقاشى عن أنس، عن النبى ﷺ قال: «فلق الله البحر لبنى إسرائيل يوم عاشوراء»^(٦). وهذا ضعيف من هذا الوجه فإن زيدا العمى فيه ضعف، وشيخه يزيد الرقاشى أضعف منه.

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣)﴾.

(١) فى ج: «ولا كذبت»، وفى ط: «وكذبت».

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ٦٧).

(٣) فى أ: «كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله».

(٤) فى ج: «من الغرق»، وفى ط: «من غرقهم».

(٥) المسند (١/ ٢٩١) وصحيح البخارى برقم (٢٠٠٤) وصحيح مسلم برقم (١١٣٠).

(٦) مسند أبى يعلى (٧/ ١٣٣).

يقول تعالى: واذكروا نعمتى عليكم فى عفوى عنكم، لَمَّا عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه، عند انقضاء أمد المواعدة، وكانت أربعين يوماً، وهى المذكورة فى الأعراف، فى قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾ [الأعراف: ١٤٢] قيل: إنها ذو القعدة بكماله وعشر من ذى الحجة، وكان ذلك بعد خلاصهم من قوم فرعون وإنجائهم من البحر.

وقوله: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعنى: التوراة ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾: وهو ما يَفْرُق بين الحق والباطل، والهدى والضلال ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. وكان ذلك - أيضاً - بعد خروجهم من البحر، كما دل عليه سياق الكلام فى سورة الأعراف. ولقوله^(١) تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصَٰئِرٍ لِلنَّاسِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].

وقيل: الواو زائدة، والمعنى: ولقد آتينا موسى الكتاب والفرقان وهذا غريب، وقيل: عطف عليه وإن كان المعنى واحداً، كما فى قول الشاعر:

وقدمت الأديم لراقشيه فالفى قولها كذباً ومينا

وقال الآخر:

ألا حبذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأى والبعد
فالكذب هو المين، والنأى: هو البعد. وقال عترة:
حييت من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم
فعطف الإقفار على الإقواء وهو هو.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ٥٤﴾.

هذه صفة توبته تعالى على بنى إسرائيل من عبادة العجل، قال الحسن البصرى، رحمه الله، فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ فقال: ذلك حين وقع فى قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع حين قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ الآية [الأعراف: ١٤٩].

قال: فذلك حين يقول موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾.

وقال أبو العالية، وسعيد بن جبير، والربيع بن أنس: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾: أى إلى خالقكم.

قلت: وفى قوله ههنا: ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ تنبيه على عظم جرمهم، أى: فتوبوا إلى الذى خلقكم

وقد عبدتم معه غيره.

(١) فى ج: «وكفوله».

وروى النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث يزيد بن هارون، عن الأصمغ بن زيد الوراق عن القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال: قال^(١) الله تعالى: إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم كل من لقي من ولد ووالد^(٢)، فيقتله بالسيف، ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن. فتأب أولئك الذين كانوا خفي على موسى وهارون ما أطلع الله من ذنوبهم، فاعترفوا بها، وفعلوا ما أمروا به فغفر الله تعالى للقاتل والمقتول. وهذا^(٣) قطعة من حديث الفتون، وسيأتى في تفسير سورة طه بكماله، إن شاء الله^(٤).

وقال ابن جرير: حدثني عبد الكريم بن الهيثم، حدثنا إبراهيم بن بشار، حدثنا سفيان بن عيينة، قال: قال أبو سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال موسى لقومه: ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾. قال: أمر موسى قومه - من أمر ربه عز وجل - أن يقتلوا أنفسهم قال: واحتبى الذين عبدوا^(٥) العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل، فأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظلّة^(٦) شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضاً، فأنجلت الظلّة^(٧) عنهم، وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهم كانت له توبة، وكل من بقى كانت له توبة.

وقال ابن جرير: أخبرني القاسم بن أبي بزة أنه سمع سعيد بن جبيرة ومجاهداً يقولان في قوله تعالى: ﴿ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ قالوا: قام بعضهم إلى بعض بالخناجر فقتل بعضهم بعضاً، لا يحنو رجل على قريب ولا بعيد، حتى ألقى موسى بثوبه، فطرحوا ما بأيديهم، فكشّف عن سبعين ألف قتيل. وإن الله أوحى إلى موسى: أن حَسْبِي، فقد اكتفيت، فذلك حين ألقى موسى بثوبه، [وروى عن على رضي الله عنه نحو ذلك]^(٨).

وقال قتادة: أمر القوم بشديد من الأمر، فقاموا يتناحرون بالشفار يقتل بعضهم بعضاً، حتى بلغ الله فيهم نعمته، فسقطت الشفار من أيديهم، فأمسك عنهم القتل، فجعله لحيم توبة، وللمقتول شهادة.

وقال الحسن البصري: أصابتهم ظلمة حُدَس، فقتل بعضهم بعضاً [نقمة]^(٩)، ثم انكشف عنهم، فجعل توبتهم في ذلك.

وقال السدي في قوله: ﴿ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ قال: فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيف، فكان من قُتل من الفريقين شهيداً، حتى كثر القتل، حتى كادوا أن يهلكوا، حتى قتل بينهم^(١٠) سبعون ألفاً، وحتى دعا موسى وهارون: ربنا أهلك بني إسرائيل، ربنا البقية البقية،

(١) في ج: «فقال». (٢) في ط: «أو والد». (٣) في ج: «وهذه».

(٤) وهو في سنن النسائي الكبير برقم (١١٣٢٦) وسيأتى عند الموضع الذي أشار إليه الحافظ ابن كثير.

(٥) في ج، ط، ب: «عكفوا». (٦) في ج، ط، ب، أ، و: «ظلمة».

(٧) في ج، ط، ب، أ، و: «الظلمة». (٨) زيادة من ج، ط، ب، وفي أ، و: «وروى عن على رحمة الله عليه نحو ذلك».

(٩) زيادة من أ. (١٠) في ج، ط، ب: «منهم».

فأمرهم أن يضعوا السلاح وتاب عليهم، فكان من قتل منهم من الفريقين شهيداً، ومن بقى مكفراً عنه؛ فذلك قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

وقال الزهري: لما أمرت بنو إسرائيل بقتل أنفسهم، برزوا ومعهم موسى، فاضطربوا بالسيوف، وتطاعنوا بالخنجر، وموسى رافع يديه، حتى إذا أفنوا بعضهم^(١)، قالوا: يا نبي الله، ادع الله لنا. وأخذوا بعضديه يسندون يديه، فلم يزل أمرهم على ذلك، حتى إذا قبل الله توبتهم قبض أيديهم بعضهم عن بعض، فألقوا السلاح، وحزن موسى وبنو إسرائيل للذي كان من القتل فيهم، فأوحى الله، جل ثناؤه، إلى موسى: ما يحزنك؟ أما من قتل منكم فحى عندى يرزقون، وأما من بقى فقد قبلت توبته. فسرّ بذلك موسى، وبنو إسرائيل.

رواه ابن جرير بإسناد جيد عنه.

وقال ابن إسحاق: لما رجع موسى إلى قومه، وأحرق العجل وذراه في اليم، خرج إلى ربه بمن اختار من قومه، فأخذتهم الصاعقة، ثم بُعثوا، فسأل موسى ربه التوبة لبنى إسرائيل من عبادة العجل. فقال: لا، إلا أن يقتلوا أنفسهم قال: فبلغنى أنهم قالوا لموسى: نصبر لأمر الله. فأمر موسى من لم يكن عبد العجل أن يقتل من عبده. فجلسوا بالأفنية وأصلت عليهم القوم السيوف، فجعلوا يقتلونهم، وبكى موسى، وبهش إليه النساء والصبيان، يطلبون العفو عنهم، فتاب الله عليهم، وعفا عنهم وأمر موسى أن ترفع عنهم السيوف.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما رجع موسى إلى قومه، وكان^(٢) سبعون^(٣) رجلاً قد اعتزلوا مع هارون العجل لم يعبدوه. فقال لهم موسى: انطلقوا إلى موعد ربكم. فقالوا: يا موسى، ما من^(٤) توبة؟ قال: بلى، ﴿فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية، فاخترطوا السيوف والجرزة والخنجر والسكاكين. قال: وبعث عليهم ضيابة. قال: فجعلوا يتلامسون بالأيدى، ويقتل بعضهم بعضاً. قال: ويلقى الرجل أباه وأخاه فيقتله ولا يدرى. قال: ويتنادون [فيها]^(٥): رحم الله عبداً صبر نفسه حتى يبلغ الله رضاه، قال: فقتلهم شهداء، وتيب على أحيائهم، ثم قرأ: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)﴾.

يقول تعالى: واذكروا نعمتى عليكم فى بعثى لكم بعد الصعق، إذ سألتهم رؤيتى جهرة عياناً، مما لا يستطيع^(٦) لكم ولا لأمثالكم، كما قال ابن جريج، قال ابن عباس فى هذه الآية: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا

(١) فى ج، أ: «بعضهم بعضاً».

(٢) فى ج: «وكانوا».

(٣) فى أ: «سبعين».

(٤) فى أ: «هل من».

(٥) زيادة من ج، ط، ب، أ.

(٦) فى ج: «يتطبع».

مُوسَى لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴿٥٥﴾ قال: علانية.

وكذا قال إبراهيم بن طهمان عن عباد بن إسحاق، عن أبي الحويرث، عن ابن عباس، أنه قال في قول الله تعالى: ﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾: أى علانية، أى حتى نرى الله.

وقال قتادة، والربيع بن أنس: ﴿حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾: أى عياناً.

وقال أبو جعفر عن الربيع بن أنس: هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه. قال: فسمعوا كلاماً، فقالوا: ﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ قال: فسمعوا صوتاً فصعقوا، يقول: ماتوا.

وقال مروان بن الحكم، فيما خطب به على منبر مكة: الصاعقة: صيحة من السماء.

وقال السدى في قوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ الصاعقة: نار.

وقال عروة بن رُوَيْم في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ قال: فصعق بعضهم وبعض ينظرون^(١)، ثم بعث هؤلاء وصعق هؤلاء.

وقال السدى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله، ويقول: رب، ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم ﴿لَوْ شِئْتُ أَهْلَكْتُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف: ١٥٥]. فأوحى الله إلى موسى أن هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل، ثم إن الله أحياهم فقاموا وعاشوا^(٢) رجلٌ رجلٌ، ينظر^(٣) بعضهم إلى بعض: كيف يحيون؟ قال: فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وقال الربيع بن أنس: كان موتهم عقوبة لهم، فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم. وكذا قال قتادة.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن حميد، حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحاق، قال: لما رجع موسى إلى قومه فرأى ما هم عليه من عبادة العجل، وقال لأخيه وللسامري ما قال، وحرَّق العجل وذراه في اليم، اختار موسى منهم سبعين^(٤) رجلاً الخيِّراً فالخير، وقال: انطلقوا إلى الله وتوبوا إلى الله مما صنعتكم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم. فخرج بهم إلى طور سيناء^(٥) لميقات وقتة له ربه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم، فقال له السبعون، فيما ذكر لى، حين صنعوا ما أمرهم به وخرجوا للقاء الله، قالوا: يا موسى، اطلب لنا إلى ربك نسمع كلام ربنا، فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلمه الله^(٦) وقع على جبهته نور ساطع،

(٢) في ج: «ينظر».

(٤) في ج: «سبعون» وهو خطأ.

(٦) في ج: «كلمه ربه».

(٣) في ج، ط، ب: «فمنظر».

(٥) في ج: «الطور سينين».

لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه^(١) بالحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجوداً^(٢) فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه: افعل ولا تفعل. فلما فرغ إليه من أمره انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم، فقالوا لموسى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ فأخذتهم الرجفة^(٣)، وهى الصاعقة، فماتوا جميعاً. وقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه، ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ [وَأَيَّاي] ^(٤)﴾ [الأعراف: ١٥٥] قد سفهوا، أفتهلك من ورائى من بنى إسرائيل بما يفعل السفهاء منا؟ أى: إن هذا لهم هلاك. اخترت منهم سبعين رجلاً، الخيّر فالخير، أرجع إليهم وليس معى منهم رجل واحد! فما الذى يصدقونى به ويأمنونى عليه بعد هذا؟ ﴿إِنَّا هَدَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فلم يزل موسى يناشد ربه، عز وجل، ويطلب إليه، حتى ردّ إليهم أرواحهم، وطلب إليه التوبة لبنى إسرائيل من عبادة العجل، فقال: لا؛ إلا أن يقتلوا أنفسهم^(٥).

هذا سياق محمد بن إسحاق.

وقال إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير: لما تاب بنو إسرائيل من عبادة العجل وتاب الله عليهم بقتل بعضهم بعضاً كما أمرهم به، أمر الله موسى أن يأتيه فى كل أناس من بنى إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موسى، فاختر موسى قومه سبعين رجلاً على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا. وساق البقية.

[وهذا السياق يقتضى أن الخطاب توجه إلى بنى إسرائيل فى قوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ والمراد السبعون المختارون منهم، ولم يحك كثير من المفسرين سواه، وقد أغرب فخر الدين الرازى فى تفسيره حين حكى فى قصة هؤلاء السبعين: أنهم بعد إحيائهم قالوا: يا موسى، إنك لا تطلب من الله شيئاً إلا أعطاك، فادعه أن يجعلنا أنبياء، فدعا بذلك فأجاب الله دعوته، وهذا غريب جداً، إذ لا يعرف فى زمان موسى نبي سوى هارون ثم يوشع بن نون، وقد غلط أهل الكتاب أيضاً فى دعواهم أن هؤلاء رأوا الله عز وجل، فإن موسى الكلیم، عليه السلام، قد سأل ذلك فمنع منه فكيف يناله هؤلاء السبعون؟

القول الثانى فى الآية^(٦): قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى تفسير هذه الآية: قال لهم موسى - لما رجع من عند ربه بالألواح، قد كتب فيها التوراة، فوجدهم يعبدون العجل، فأمرهم بقتل أنفسهم، ففعلوا، فتاب الله عليهم، فقال: إن هذه الألواح فيها كتاب الله، فيه^(٧) أمركم الذى أمركم به ونهيكم الذى نهاكم عنه. فقالوا: ومن يأخذه بقولك أنت؟ لا والله حتى نرى الله جهرة، حتى

(١) فى جـ: «دونهما».

(٢) فى جـ: «سجداً».

(٣) فى ط: «الصاعقة».

(٤) زيادة من جـ، ط، أ، و.

(٥) تفسير الطبرى (٢/ ٧٧).

(٦) فى جـ: «فيها كتاب الله الذى».

(٧) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

يطلع الله علينا فيقول: هذا كتابي فخذوه، فماله لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى! وقرأ قول الله: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾. قال: فجاءت غضبة من الله، فجاءتهم صاعقة بعد التوبة، فصعقتهم فماتوا أجمعون. قال: ثم أحياهم الله من بعد موتهم، وقرأ قول الله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله. فقالوا: لا، فقال: أى شيء أصابكم؟ فقالوا: أصابنا أنا متنا ثم حيينا. قال^(١): خذوا كتاب الله. قالوا: لا. فبعث الله ملائكة فنتقت الجبل فوقهم.

[وهذا السياق يدل على أنهم كلفوا بعد ما أحيوا. وقد حكى الماوردي فى ذلك قولين: أحدهما: أنه سقط التكليف عنهم لمعاينتهم الأمر حتى صاروا مضطرين إلى التصديق؛ والثاني: أنهم مكلفون لثلا يخلو عاقل من تكليف، قال القرطبي: وهذا هو الصحيح لأن معايتهم للأمر الفظيعة لا تمنع تكليفهم؛ لأن بنى إسرائيل قد شاهدوا أموراً عظيماً من خوارق العادات، وهم فى ذلك مكلفون وهذا واضح، والله أعلم]^(٢).

﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٥٧).

لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم، شرع يذكرهم - أيضاً - بما أسبغ عليهم من النعم، فقال: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ وهو جمع غمامة، سمي بذلك لأنه يغمّ السماء، أى: يوارئها ويسترها. وهو السحاب الأبيض، ظلّلوا به فى التيه ليقبهم حر الشمس. كما رواه النسائي وغيره عن ابن عباس فى حديث الفتون، قال: ثم ظلل عليهم فى التيه بالغمام.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن ابن عمر، والربيع بن أنس، وأبى مجلز، والضحاك، والسدى، نحو قول ابن عباس.

وقال الحسن وقتادة: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ [قال]^(٣): كان هذا فى البرية^(٤)، ظلل عليهم الغمام من الشمس.

وقال ابن جرير^(٥): قال آخرون: وهو غمام أبرد من هذا، وأطيب.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل، عن ابن أبى نجیح، عن مجاهد: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾^(٦) قال: ليس بالسحاب، هو الغمام الذى يأتى الله فيه يوم القيامة، ولم يكن إلا لهم.

وهكذا رواه ابن جرير، عن المثنى بن إبراهيم، عن أبى حذيفة.

(٢) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٤) فى أ: «فى التية».

(٦) فى ج، ط: «عليهم» وهو خطأ.

(١) فى ج: «فقال».

(٣) زيادة من ج، ط.

(٥) فى ج، ط: «ابن جرير».

وكذا رواه الثوري، وغيره، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد. وكأنه يريد، والله أعلم، أنه ليس من زِيّ هذا السحاب، بل أحسن منه وأطيب وأبهى منظراً، كما قال سنيد في تفسيره عن حجاج بن محمد، عن ابن جريج قال: قال ابن عباس: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ قال: غمام أبرد من هذا وأطيب، وهو الذي يأتي الله فيه في قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠] وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر. قال ابن عباس: وكان معهم في التيه.

وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾: اختلفت عبارات المفسرين في المن: ما هو؟ فقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: كان المن ينزل عليهم على الأشجار، فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاؤوا. وقال مجاهد: المن: صمغة. وقال عكرمة: المن: شيء أنزله الله عليهم مثل الطل، شبه الرب الغليظ.

وقال السدي: قالوا: يا موسى، كيف لنا بما ههنا؟ أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المن، فكان يسقط على شجر^(١) الزنبيل.

وقال قتادة: كان المن ينزل عليهم في محلته^(٢) سقوط الثلج، أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، يأخذ الرجل منهم قدر ما يكفيه يومه ذلك؛ فإذا تعدى ذلك فسد ولم يبق، حتى إذا كان يوم سادسه، ليوم جمعته، أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه؛ لأنه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر معيشته ولا يطلبه لشيء، وهذا كله في البرية.

وقال الربيع بن أنس: المن شراب كان ينزل عليهم مثل العسل، فيمزجونه بالماء ثم يشربونه.

وقال وهب بن منبه - وسئل عن المن - فقال: خبز الرقاق مثل الذرة أو مثل النقي.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا إسرائيل، عن جابر، عن عامر وهو الشعبي، قال: عسلكم هذا جزء من سبعين جزءاً من المن.

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنه العسل.

ووقع في شعر أمية بن أبي الصلت، حيث قال:

فراى الله أنهم بمَضِيع	لا بدى مَزَرَع ولا مَثْمُورا
فسناها عليهم غاديات	وترى مَزْنَهُم خلايا وخورا
عَسَلًا ناطفاً وماء فِراتاً	وحلياً ذا بهجة مرمورا ^(٣)

(٢) في أ: «في نخلتهم».

(١) في ط: «الشجرة»، وفي ب: «الشجر».

(٣) الأبيات في تفسير الطبري (٢/ ٩٤، ٩٥).

فالناطف: هو السائل، والحليب المرمور: الصافي منه.

والغرض أن عبارات المفسرين متقاربة في شرح المن، فمنهم من فسرهُ بالطعام، ومنهم من فسرهُ بالشراب والظاهر، والله أعلم، أنه^(١) كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب^(٢) وغير ذلك، مما ليس لهم فيه عمل ولا كد، فالمن المشهور إن أكل وحده كان طعاماً وحلاوة، وإن مزج مع الماء صار شراباً طيباً، وإن ركب مع غيره صار نوعاً آخر، ولكن ليس هو المراد من الآية وحده؛ والدليل على ذلك قول البخاري:

حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن عبد الملك، عن عمرو بن حُرَيْث^(٣)، عن سعيد^(٤) بن زيد، رضى الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «الْكَمَاءُ مِنَ الْمَنِّ، وماؤها شفاء للعين».

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد، عن سفيان بن عيينة، عن عبد الملك، وهو ابن عمير، به^(٥).

وأخرجه الجماعة في كتبهم، إلا أبا داود، من طرق عن عبد الملك، وهو ابن عمير، به^(٦). وقال الترمذي: حسن صحيح. ورواه البخاري ومسلم والنسائي من رواية الحكم، عن الحسن العرني، عن عمرو بن حريث، به^(٧).

وقال الترمذي: حدثنا أبو عبيدة بن أبي السفر ومحمود بن غيلان، قالوا: حدثنا سعيد بن عامر، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «العجوة من الجنة، وفيها شفاء من السم، والكمأة من المن وماؤها شفاء للعين»^(٨).

تفرد بإخراجه الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث محمد بن عمرو، وإلا من حديث سعيد^(٩) بن عامر، عنه، وفي الباب عن سعيد بن زيد، وأبي سعيد وجابر.

كذا قال، وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردؤية في تفسيره، من طريق آخر، عن أبي هريرة، فقال: حدثنا أحمد بن الحسن^(١٠) بن أحمد البصري، حدثنا أسلم بن سهل، حدثنا القاسم بن عيسى، حدثنا طلحة بن عبد الرحمن، عن قتادة^(١١)، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين».

وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وطلحة بن عبد الرحمن هذا سلمى واسطى، يكنى بأبي

(١) في ج: «أن».

(٢) في ج: «أو شراب».

(٣) في ج: «حوشب».

(٤) في ج: «سفيان».

(٥) صحيح البخاري برقم (٤٤٧٨) والمسند (١/ ١٨٧).

(٦) صحيح البخاري برقم (٤٦٣٩) وصحيح مسلم برقم (٢٠٤٩) وسنن الترمذي برقم (٢٠٦٧) وسنن النسائي الكبرى برقم (٦٦٦٧).

(٧) صحيح البخاري برقم (٥٧٠٨) وصحيح مسلم برقم (٢٠٤٩) وسنن النسائي الكبرى برقم (١٠٩٨٨).

(٨) سنن الترمذي برقم (٣٠١٣).

(٩) في ج، أ، و: «الحسين».

(١٠) في ج: «محمد».

(١١) في ج: «عبادة».

محمد، وقيل: أبو سليمان المؤدب قال فيه الحافظ أبو أحمد بن عدى: روى عن قتادة أشياء لا يتابع عليها^(١).

ثم قال [الترمذى]^(٢): حدثنا محمد بن بشار، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة، عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة: أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ قالوا: الكمأة جُدري الأرض، فقال نبي الله ﷺ: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين، والعجوة من الجنة وهي شفاء من السم».

وهذا الحديث قد رواه النسائي، عن محمد بن بشار، به^(٣). وعنه، عن غُندَر، عن شعبة، عن أبي بشر جعفر بن إياس، عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة، به^(٤). وعن محمد بن بشار، عن عبد الأعلى، عن خالد الحذاء، عن شهر بن حوشب. بقصة الكمأة فقط^(٥).

وروى النسائي - أيضاً - وابن ماجه من حديث محمد بن بشار، عن أبي عبد الصمد عبد العزيز ابن عبد الصمد، عن مطر الوراق، عن شهر: بقصة العجوة عند النسائي، وبالقصتين عند ابن ماجه^(٦).

وهذه الطريق منقطعة بين شهر بن حوشب وأبي هريرة فإنه لم يسمعه^(٧) منه، بدليل ما رواه النسائي في الوليمة من سننه، عن علي بن الحسين الدرهمي^(٨)، عن عبد الأعلى، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غنم، عن أبي هريرة، قال: خرج رسول الله ﷺ وهم يذكرون الكمأة، وبعضهم يقول^(٩): جدرى الأرض، فقال: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين»^(١٠).

وروى عن شهر بن حوشب عن أبي سعيد وجابر، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمش، عن جعفر بن إياس، عن شهر بن حوشب، عن جابر ابن عبد الله وأبي سعيد الخدري، قالوا: قال رسول الله ﷺ: «الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين والعجوة من الجنة وهي شفاء من السم»^(١١).

قال^(١٢) النسائي في الوليمة أيضاً: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر جعفر بن إياس عن شهر بن حوشب، عن أبي سعيد وجابر، رضى الله عنهما، أن

(١) الكامل لابن عدى (٤ / ١١٤).

(٢) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٣) هو فى سنن النسائي الكبرى برقم (٦٦٧١) عن نصير بن الفرج، عن معاذ بن هشام به، ولم أقع عليه عن محمد بن بشار، وقد ذكره المزى عن محمد بن بشار فى تحفة الأشراف (١٠ / ١١٢).

(٤) سنن النسائي الكبرى برقم (٦٦٧٣).

(٥) سنن النسائي الكبرى برقم (٦٦٧٢).

(٦) سنن ابن ماجه برقم (٣٤٠٠).

(٧) فى ج: «لم يسمعه».

(٨) فى ج: «الدهرمي».

(٩) فى ج: «وبعضهم يذكرون».

(١٠) سنن النسائي الكبرى برقم (٦٦٧٠).

(١١) المسند (٣ / ٤٨).

(١٢) فى ج، ط: «وقال».

رسول الله ﷺ قال: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين»^(١). ثم رواه - أيضاً - وابن ماجه من طرق، عن الأعمش، عن أبي بشر، عن شهر عنهما، به^(٢).

وقد روي^(٣) - أعنى النسائي^(٤)، وابن ماجه - من حديث سعيد بن مسلم^(٥)، كلاهما عن الأعمش، عن جعفر بن إياس عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، زاد النسائي: [وحديث]^(٦) جابر، عن النبي ﷺ قال: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين»^(٧).

ورواه ابن مردويه، عن أحمد بن عثمان، عن عباس الدوري، عن لاحق بن صواب^(٨)، عن عمار بن رزيق^(٩)، عن الأعمش، كابن ماجه.

وقال ابن مردويه أيضاً: حدثنا أحمد بن عثمان، حدثنا عباس الدوري، حدثنا الحسن^(١٠) بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبي سعيد الخدري، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كمات، فقال: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين».

وأخرجه النسائي، عن عمرو بن منصور، عن الحسن بن الربيع^(١١)، ثم [رواه]^(١٢) ابن مردويه. رواه أيضاً عن عبد الله بن إسحاق عن الحسن بن سلام، عن عبيد الله بن موسى، عن شيبان^(١٣)، عن الأعمش به، وكذا رواه النسائي عن أحمد بن عثمان بن حكيم، عن عبيد الله بن موسى [به]^(١٤)(١٥).

وقد روى من حديث أنس بن مالك، رضى الله عنه، كما قال ابن مردويه:

حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم، حدثنا حمدون بن أحمد، حدثنا حوثة بن أشرس، حدثنا حماد، عن شعيب بن الحجاب^(١٦)، عن أنس: أن أصحاب رسول الله ﷺ تدارؤوا^(١٧) في الشجرة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فقال بعضهم: نحسبه الكمأة. فقال رسول الله ﷺ: «الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين، والعجوة من الجنة، وفيها شفاء من السم»^(١٨).

(١) لم أقع عليه في المطبوع من سنن النسائي الكبرى.

(٢) سنن ابن ماجه برقم (٣٤٥٣) ولم أقع عليه في سنن النسائي الكبرى المطبوعة.

(٣) في ج: «وقد روياه». (٤) في من ج، و: «النسائي من حديث جرير».

(٥) في ج: «مسلمة». (٦) زيادة من ج، و.

(٧) سنن النسائي الكبرى برقم (٦٦٧٦، ٦٦٧٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣٤٥٣) لكن وقع في سنن النسائي عن جرير عن الأعمش والله أعلم.

(٨) في ج: «صوان». (٩) في ج: «زريق». (١٠) في ج: «الحسين».

(١١) لم أقع عليه في المطبوع من سنن النسائي الكبرى. (١٢) زيادة من ج، ط، أ، و. (١٣) في ج: «سفيان».

(١٤) زيادة من ج، ط، أ.

(١٥) سنن النسائي الكبرى برقم (٦٦٧٨).

(١٦) في ج: «ابن الحجاب»، وفي أ: «ابن الحجاج». (١٧) في ج: «أصحاب النبي».

(١٨) في ج: «تذاكروا».

(١٩) ورواه ابن عدى في الكامل (٢/ ٣٧٠) من طريق حسان بن سياه عن ثابت عن أنس بنحوه.

وهذا الحديث محفوظ أصله من رواية حماد بن سلمة. وقد روى الترمذى والنسائى من طريقه شيئاً من هذا والله أعلم^(١) (٢).

[وقد]^(٣) روى عن شهر، عن ابن عباس، كما رواه النسائى - أيضاً - فى الوليمة، عن أبى بكر أحمد بن على بن سعيد، عن عبد الله بن عون الخزاز، عن أبى عبيدة الحداد، عن عبد الجليل بن عطية، عن شهر، عن عبد الله بن عباس، عن النبى ﷺ، قال: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين»^(٤).

فقد اختلف - كما ترى فيه - على شهر بن حوشب، ويحتمل عندى أنه حفظه ورواه من هذه الطرق كلها، وقد سمعه من بعض الصحابة وبلغه عن بعضهم، فإن الأسانيد إليه جيدة، وهو لا يعتمد الكذب، وأصل الحديث محفوظ عن رسول الله ﷺ، كما تقدم من رواية سعيد بن زيد. وأما السلوى فقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: السلوى طائر شبيه بالسَّمَانى، كانوا يأكلون منه.

وقال السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس^(٥) من الصحابة: السلوى: طائر يشبه السَّمَانى.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثنا قرّة بن خالد، عن جهضم، عن ابن عباس، قال: السلوى: هو السَّمَانى.

وكذا قال مجاهد، والشعبى، والضحاك، والحسن، وعكرمة، والربيع بن أنس، رحمهم الله.

وعن عكرمة: أما السلوى فطير^(٦) كطير يكون بالجنة^(٧)، أكبر من العصفور، أو نحو ذلك.

وقال قتادة: السلوى من طير إلى الحمرة، تحشرها عليهم الريحُ الجنوبُ. وكان الرجل يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإذا تعدى فسد ولم يبق عنده، حتى إذا كان يوم سادسه ليوم جمعته^(٨) أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه؛ لأنه كان يوم عبادة لا يشخص فيه لشيء ولا يطلبه.

وقال وهب بن منبه: السلوى: طير سمين مثل الحمام، كان يأتيهم فيأخذون منه من سبت إلى سبت. وفى رواية عن وهب، قال: سألت بنو إسرائيل موسى، عليه السلام، اللحم، فقال الله: لأطعمنهم من أقل لحم يعلم فى الأرض، فأرسل عليهم ريحاً، فأذرت عند مساكنهم السلوى، وهو السمانى^(٩)، مثل ميل فى ميل قيد رمح إلى^(١٠) السماء فخبؤوا للغد فتنن اللحم وختر الخبز.

(١) فى ج: «والله تبارك أعلم».

(٢) سنن الترمذى برقم (٣١١٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٢٦٢).

(٣) زيادة من ط.

(٤) سنن النسائى الكبرى برقم (٦٦٦٩).

(٥) فى ج: «فى طير».

(٦) فى ج: ط: «وعن أناس».

(٧) فى ج: «جمعة».

(٨) فى و: «فى الجنة».

(٩) فى ج: «فى».

(١٠) فى ج: «السمان».

وقال السدى: لما دخل بنو إسرائيل التيه، قالوا لموسى، عليه السلام: كيف لنا بما ههنا؟ أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المَنَّ فكان يسقط على الشجر^(١) الزنجبيل، والسلوى وهو طائر يشبه السمانى أكبر منه، فكان يأتى أحدهم فينظر إلى الطير، فإن كان سميناً ذبحه وإلا أرسله، فإذا سمن أتاها، فقالوا: هذا الطعام فأين الشراب؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر، فانفجرت^(٢) منه اثنتا عشرة عيناً، فشرب كل سبط من عين، فقالوا: هذا الشراب، فأين الظل؟ فَظَلَّلَ عليهم الغمام. فقالوا: هذا الظل، فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم^(٣) تطول معهم كما يطول الصبيان، ولا يَنخَرَقُ لهم ثوب، فذلك قوله تعالى: ﴿وَوَضَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾، وقوله: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠].

وروى عن وهب بن منبه، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو ما قاله السدى.
وقال سنيّد، عن حجاج، عن ابن جريج، قال: قال ابن عباس: خُلِقَ لهم فى التيه ثياب لا تخرق^(٤) ولا تدرن، قال ابن جريج: فكان الرجل إذا أخذ من المَنَّ والسلوى فوق طعام يوم فسد، إلا أنهم كانوا يأخذون فى يوم الجمعة طعام يوم السبت فلا يصبح فاسداً.
[قال ابن عطية: السلوى: طير بإجماع المفسرين، وقد غلط الهذلى فى قوله: إنه العسل، وأنشد فى ذلك مستشهداً:

وقاسمها بالله جهداً لأنتم ألد من السلوى إذا ما أشورها

قال: فظن أن السلوى عسلاً^(٥) قال القرطبي: دعوى الإجماع لا تصح؛ لأن المؤرخ أحد علماء اللغة والتفسير قال: إنه العسل، واستدل ببيت الهذلى هذا، وذكر أنه كذلك فى لغة كنانة؛ لأنه يسلى به ومنه عين سلوان، وقال الجوهري: السلوى العسل، واستشهد ببيت الهذلى - أيضاً -، والسلوان بالضم خرزة، كانوا يقولون إذا صب عليها ماء المطر فشربها العاشق سلا، قال الشاعر:

شربت على سلوان ماء مزة فلا وجديد العيش يا مى ما أسلو

واسم ذلك الماء السلوان، وقال بعضهم: السلوان دواء يشفى الحزين فيسلو والأطباء يسمونه (مفرج)، قالوا: والسلوى جمع بلفظ - الواحد - أيضاً، كما يقال: سمانى للمفرد والجمع وويلى كذلك، وقال الخليل واحده سلواة، وأنشد:

وإنى لتعرونى لذكراك هزة كما انتفض السلواة من بلل القطر

(١) فى ج: «على شجر». (٢) فى ج، ب: «فانفجرت».

(٣) فى ج: «لباسهم».

(٤) فى ج: «لا تخلق».

(٥) المحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٢٢٩).

وقال الكسائي: السلوى واحدة وجمعه سلاوى، نقله كله القرطبي^(١) [٢].

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾: أمر بإباحة وإرشاد وامتنان. وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، أى: أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا، كما قال: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [سبأ: ١٥] فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم، هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات والمعجزات القاطعات، وخوارق العادات، ومن ههنا تتبين فضيلة أصحاب محمد ﷺ^(٣) ورضى عنهم، على سائر أصحاب الأنبياء فى صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم، كما كانوا معه فى أسفاره وغزواته، منها عام تبوك، فى ذلك القيظ والحر الشديد والجهد، لم يسألوا خرق عادة، ولا إيجاد أمر، مع أن ذلك كان سهلا على الرسول ﷺ، ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه فى تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم، فجاء قدر مَبْرُك الشاة، فدعا [الله]^(٤) فيه، وأمرهم فملؤوا كل وعاء معهم. وكذا لما احتاجوا إلى الماء سأل الله تعالى، فجاءت سحابة فأمرتهم، فشربوا وسقوا الإبل وملؤوا أسقيتهم. ثم نظروا فإذا هى لم تجاوز العسكر. فهذا هو الأكمل فى الاتباع: المشى مع قدر الله، مع متابعة الرسول ﷺ.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩).

يقول تعالى لائماً لهم على نكولهم عن الجهاد ودخول^(٥) الأرض المقدسة، لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى، عليه السلام، فأمروا بدخول الأرض المقدسة التى هى ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل، وقتال من فيها من العماليق الكفرة، فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا، فرماهم الله فى التيه عقوبة لهم، كما ذكره تعالى فى سورة المائدة؛ ولهذا كان أصح القولين أن هذه البلدة هى بيت المقدس، كما نص على ذلك السدى، والربيع بن أنس، وقتادة، [وأبو مسلم الأصبهاني وغير واحد وقد قال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الآيات]^(٦) [المائدة: ٢١-٢٤].

وقال آخرون: هى أريحا [ويحكى عن ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد]^(٧)، وهذا بعيد؛ لأنها ليست على طريقهم، وهم قاصدون بيت المقدس لا أريحا [وأبعد من ذلك قول من ذهب أنها مصر، حكاه فخر الدين فى تفسيره، والصحيح هو الأول؛ لأنها بيت المقدس]^(٨). وهذا كان لما خرجوا من

(١) تفسير القرطبي (١/ ٤٠٨).

(٣) فى ط: «صلوات الله وسلامه عليه».

(٥) فى ب: «عن دخولهم».

(٢) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٤) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٦-٨) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون، عليه السلام، وفتحها الله عليهم عشية جمعة، وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلاً حتى أمكن الفتح، وأما أريحا فقريه ليست مقصودة لبنى إسرائيل، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب - باب البلد - ﴿سُجِّدُوا﴾ أى: شكراً لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، وردّ بلدهم^(١) إليهم وإنقاذهم من التيه والضلال.

قال العوفي في تفسيره، عن ابن عباس أنه كان يقول فى قوله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجِّدًا﴾: أى ركعاً.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو أحمد الزبيرى، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجِّدًا﴾ قال: ركعاً^(٢) من باب صغير.

ورواه الحاكم من حديث سفيان، به. ورواه ابن أبى حاتم من حديث سفيان، وهو الثورى، به^(٣). وزاد: فدخلوا من قبل استاههم.

[وقال الحسن البصرى: أمروا أن يسجدوا على وجوههم حال دخولهم، واستبعده الرازى، وحكى عن بعضهم: أن المراد بالسجود ههنا الخضوع لتعذر حمله على حقيقته]^(٤).

وقال خصيف: قال عكرمة، قال ابن عباس: كان الباب قبل القبلة.

وقال [ابن عباس و]^(٥) مجاهد، والسدى، وقتادة، والضحاك: هو باب الحطة من باب إيلياء بيت المقدس، [وحكى الرازى عن بعضهم أنه عن باب جهة من جهات القرية]^(٦).

وقال خَصِيف: قال عكرمة: قال ابن عباس: فدخلوا على شق. وقال السدى، عن أبى سعيد الأزدى، عن أبى الكنود، عن عبد الله بن مسعود: وقيل لهم ادخلوا الباب سجداً، فدخلوا مقنعي رؤوسهم، أى: رافعي رؤوسهم خلاف ما أمروا.

وقوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾: قال الثورى عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾: قال: مغفرة، استغفروا.

وروى عن عطاء، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، نحوه.

وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾: قال: قولوا: هذا الأمر حق، كما قيل لكم.

وقال عكرمة: قولوا: لا إله إلا الله.

وقال الأوزاعى: كتب ابن عباس إلى رجل قد سماه يسأله عن قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾،

(١) فى ج: «بلادهم». (٢) فى ج: «أى ركعاً».

(٣) تفسير الطبرى (٢/ ١١٣) والمستدرک (٢/ ٢٦٢) وتفسير ابن أبى حاتم (١/ ١٨٢).

(٤ - ٦) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

فكتب إليه: أن أقروا بالذنب.

وقال الحسن وقتادة: أى احطط عنا خطايانا.

﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾: هذا جواب الأمر، أى: إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات وضاعفنا لكم الحسنات.

وحاصل الأمر: أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها، والشكر على النعمة عندها والمبادرة إلى ذلك من المحبوب لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [سورة النصر] فسر بعض الصحابة بكثرة الذكر والاستغفار عند الفتح والنصر، وفسره ابن عباس بأنه نعى إلى رسول الله ﷺ أجله فيها، وأقره على ذلك عمر [ابن الخطاب]^(١)، رضى الله عنه. ولا منافاة بين أن يكون قد أمر بذلك عند ذلك، ونعى إليه روحه الكريمة أيضاً، ولهذا كان عليه السلام يظهر عليه الخضوع جداً عند النصر، كما روى أنه كان يوم الفتح - فتح مكة - داخلاً إليها من الثنية العليا، وإنه الخاضع لربه حتى إن عُنُونَهُ ليمس مَوْكِرَ رَحْلِهِ، يشكر الله على ذلك. ثم لما دخل البلد اغتسل وصلى ثماني ركعات وذلك ضُحًى، فقال بعضهم: هى صلاة الضحى، وقال آخرون: بل هى صلاة الفتح، فاستحبوا للإمام وللأمير إذا فتح بلداً أن يصلى فيه ثماني ركعات عند أول دخوله، كما فعل سعد بن أبى وقاص، رضى الله عنه، لما دخل إيوان كسرى صلى فيه ثماني ركعات، والصحيح أنه يفصل بين كل ركعتين بتسليم؛ وقيل: يصليها كلها بتسليم واحد، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾: قال البخارى: حدثنى محمد، حدثنا^(٢) عبد الرحمن بن مهدي، عن ابن المبارك، عن معمر، عن هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ، قال: «قيل لبنى إسرائيل: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ فدخلوا يزحفون على استاهمهم، فبدلوا وقالوا: حطة: حبة فى شعرة»^(٣).

ورواه النسائى، عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، عن^(٤) عبد الرحمن بن مهدي به موقوفاً^(٥). وعن محمد بن عبيد بن محمد، عن ابن المبارك ببعضه مسنداً، فى قوله تعالى: ﴿حِطَّةٌ﴾ قال: فبدلوا. فقالوا: حبة^(٦) حبة^(٧).

(٢) فى ج: «حدثنى محمد بن».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٤٧٩).

(٤) فى ج، ط: «بن».

(٥) سنن النسائى الكبرى برقم (١٠٩٨٩).

(٦) فى ج: «فقال حطة».

(٧) سنن النسائى الكبرى برقم (١٠٩٩٠).

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن هَمَّامِ بْنِ مُنْبِهٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: **«ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ**» فَبَدَلُوا، وَدَخَلُوا الْبَابَ يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِمَ، فَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ^(١)».

وهذا حديث صحيح، رواه البخاري عن إسحاق بن نصر، ومسلم عن محمد بن رافع. والترمذي عن عبد بن حميد، كلهم عن عبد الرزاق، به^(٢). وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال محمد بن إسحاق: كان تبديلهم^(٣) كما حدثني صالح بن كيسان، عن صالح مولى التوأمة، عن أبي هريرة، وعمن لا أنهم، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «دخّلوا الباب - الذي أمروا أن يدخلوا فيه سجداً - يزحفون على أستاههم، وهم يقولون: حنطة في شعيرة»^(٤).

وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح، وحدثنا سليمان بن داود، حدثنا عبد الله بن وهب، حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «قَالَ اللَّهُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: **«ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ**»». ثم قال أبو داود: حدثنا جعفر بن مسافر، حدثنا ابن أبي فديك، عن هشام بن سعد، مثله^{(٥) (٦)}.

هكذا رواه منفرداً به في كتاب الحروف مختصراً.

وقال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا إبراهيم بن مهدي، حدثنا أحمد بن محمد بن المنذر القزّاز، حدثنا محمد بن إسماعيل بن أبي فديك، عن^(٧) هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، قال: سرنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كان من آخر الليل، أجزنا في ثنية^(٨) يقال لها: ذات الحنظل، فقال رسول الله ﷺ: «ما مثل هذه الثنية الليلة إلا كمثل الباب الذي قال الله لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: **«ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ**»»^(٩).

وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن البراء: **«سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ [البقرة: ١٤٢] قَالَ الْيَهُودُ: قِيلَ لَهُمْ: ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا، قَالَ: رُكْعًا، وَقُولُوا: حِطَّةٌ: أَي مَغْفِرَةٌ، فَدَخَلُوا عَلَى**

(١) في ج، ط: «شعيرة».

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٦٤١) وصحيح مسلم برقم (٣٠١٥) وسنن الترمذي برقم (٢٩٥٦).

(٣) في ج، ط: «يتبدّلهم».

(٤) ورواه الطبري في تفسيره (١١٢ / ٢) عن محمد بن إسحاق، عن صالح بن كيسان، عن أبي هريرة، عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس.

(٥) في ج: «بمثله».

(٦) سنن أبي داود برقم (٤٠٠٦).

(٧) في ج: «حدثنا».

(٨) في ج: «ضربة».

(٩) ورواه البزار في منسده برقم (١٨١٢) عن إسحاق بن بهلول، عن محمد بن إسماعيل بن أبي فديك به نحوه، وقال الهيثمي في

المجمع (٦ / ١٤٤): «رجاله ثقات».

استأههم، وجعلوا يقولون: حنطة حمراء فيها شعيرة^(١)، فذلك قول الله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾.

وقال الثوري، عن السدي، عن أبي سعد الأزدي، عن أبي الكنود، عن ابن مسعود: ﴿وقولوا حنطة حبة حمراء فيها شعيرة^(٢)﴾، فأنزل الله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾.

وقال أسباط، عن السدي، عن مرة، عن ابن مسعود أنه قال: إنهم قالوا: «هطى سمعانا أربة مزبا» فهي بالعربية: حبة حنطة حمراء مثقوبة^(٣) فيها شعرة سوداء، فذلك قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾.

وقال الثوري، عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد، عن ابن عباس في قوله: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾: ركعاً من باب صغير، فدخلوا^(٤) من قبل استأههم، وقالوا: حنطة، فهو قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾.

وهكذا روى عن عطاء، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، ويحيى بن رافع.

وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق من الحديث أنهم بدلوا أمر^(٥) الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمروا أن يدخلوا سجداً، فدخلوا يزحفون على استأههم من قبل استأههم رافعي رؤوسهم، وأمروا أن يقولوا: حطة، أى: احطط عنا ذنوبنا، فاستهزؤوا فقالوا: حنطة فى شعرة^(٦). وهذا فى غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة؛ ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم، وهو خروجهم عن طاعته؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

وقال الضحاك عن ابن عباس: كل شىء فى كتاب الله من «الرجز» يعنى به العذاب.

وهكذا روى عن مجاهد، وأبى مالك، والسدي، والحسن، وقتادة، أنه العذاب. وقال أبو العالية: الرجز الغضب. وقال الشعبي: الرجز: إما الطاعون، وإما البرد. وقال سعيد بن جبيرة: هو الطاعون.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع، عن^(٧) سفيان، عن حبيب بن أبى ثابت، عن إبراهيم بن سعد - يعنى ابن أبى وقاص - عن سعد بن مالك، وأسامة بن زيد، وخزيمة بن ثابت، رضى الله عنهم، قالوا: قال رسول الله ﷺ: «الطاعون رجز عذاب عذب^(٨)» به من كان

(١، ٢) فى ج: «شعرة».

(٣) فى ج: «منقوشة».

(٤) فى ج: «يدخلون».

(٥) فى ج: «بدلوا ما أمر».

(٦) فى ج، أ: «شعيرة».

(٧) فى ج: «حدثنا».

(٨) فى أ: «عذب الله».

قبلكم»^(١).

وهكذا رواه النسائي من حديث سفيان الثوري به^(٢). وأصل الحديث في الصحيحين من حديث حبيب بن أبي ثابت: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها» الحديث^(٣).

قال^(٤) ابن جرير: أخبرني يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن يونس، عن الزهري، قال: أخبرني عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أسامة بن زيد عن رسول الله ﷺ، قال: «إن هذا الوجع والسقم رجز عذب به بعض الأمم قبلكم»^(٥). وهذا الحديث أصله مخرج في الصحيحين، من حديث الزهري، ومن حديث مالك، عن محمد بن المنكدر، وسالم أبي النضر، عن عامر بن سعد، بنحوه^(٦).

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيكم موسى، عليه السلام، حين استسقاني لكم، وتيسيري لكم الماء، وإخراجه لكم من حجر يحمل معكم، وتفجيرى الماء لكم منه من ثنتي عشرة عيناً لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها، فكلوا من المن والسلوى، واشربوا من هذا الماء الذى أنبعته لكم بلا سعى منكم ولا كد، وابدعوا الذى سخر لكم ذلك. ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها. وقد بسطه المفسرون فى كلامهم، كما قال ابن عباس: وجعل بين ظهرائهم حجر مربع وأمر موسى، عليه السلام، فضربه بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، فى كل ناحية منه ثلاث^(٧) عيون، وأعلم كل سبط عينهم، يشربون منها لا يرتحلون من منقلة إلا وجدوا ذلك معهم^(٨) بالمكان الذى كان منهم بالمنزل الأول.

وهذا قطعة من الحديث الذى رواه النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وهو حديث الفتون الطويل^(٩).

وقال عطية العوفى: وجعل لهم حجر مثل رأس الثور يحمل على ثور، فإذا نزلوا منزلاً وضعوه فضربه موسى بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، فإذا ساروا حملوه على ثور، فاستمسك الماء.

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٨٦).

(٢) سنن النسائي الكبرى برقم (٧٥٢٣).

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٧٢٨) وصحيح مسلم برقم (٢٢١٨).

(٤) فى ج: «وقال».

(٥) تفسير الطبرى (٢/ ١١٦).

(٦) صحيح البخارى برقم (٣٤٧٣، ٦٩٧٤) وصحيح مسلم برقم (٢٢١٨).

(٧) فى ج: «ثلاثة». (٨) فى ج: «ذلك منهم».

(٩) سيأتى بطوله فى تفسير سورة طه.

وقال عثمان بن عطاء الخراساني، عن أبيه: كان لبني إسرائيل حجر، فكان يضعه هارون ويضربه موسى بالعصا.

وقال قتادة: كان حجراً طورياً، من الطور، يحملونه معهم حتى إذا نزلوا ضربه موسى بعصاه.

[وقال الزمخشري: وقيل: كان من رخام وكان ذراعاً في ذراع، وقيل: مثل رأس الإنسان، وقيل: كان من أسس الجنة طوله عشرة أذرع على طول موسى. وله شعبتان تتقدان في الظلمة وكان يحمل على حمار، قال: وقيل: أهبطه آدم من الجنة فتوارثوه، حتى وقع إلى شعيب فدفعه إليه مع العصا، وقيل: هو الحجر الذي وضع عليه ثوبه حين اغتسل، فقال له جبريل: ارفع هذا الحجر فإن فيه قدرة ولك فيه معجزة، فحمله في مخلاته. قال الزمخشري: ويحتمل أن تكون اللام للجنس لا للعهد، أي اضرب الشيء الذي يقال له الحجر، وعن الحسن لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه، قال: وهذا أظهر في المعجزة وأبين في القدرة فكان يضرب الحجر بعصاه فينفجر ثم يضربه فييس، فقالوا: إن فقد موسى هذا الحجر عطشنا، فأوحى الله إليه أن يكلم الحجارة فتنفجر ولا يمسه بالعصا لعلهم يقرؤن^(١).

وقال يحيى بن النضر: قلت لجوير: كيف علم كل أناس مشربهم؟ قال: كان موسى يضع الحجر، ويقوم من كل سبط رجل، ويضرب موسى الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عيناً فينتضح من كل عين على رجل، فيدعو ذلك الرجل سبطه إلى تلك العين.

وقال الضحاك: قال ابن عباس: لما كان بنو إسرائيل في التيه شق لهم من الحجر أنهاراً.

وقال سفيان الثوري، عن أبي سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: ذلك في التيه، ضرب لهم موسى الحجر فصار فيه^(٢) اثنتا عشرة عيناً من ماء، لكل سبط منهم عين يشربون منها.

وقال مجاهد نحو قول ابن عباس.

وهذه القصة شبيهة بالقصة المذكورة في سورة الأعراف، ولكن تلك مكية، فلذلك كان الإخبار عنهم بضمير الغائب؛ لأن الله تعالى يقص ذلك^(٣) على رسوله ﷺ عما فعل بهم. وأما في هذه السورة، وهي البقرة فهي^(٤) مدنية؛ فلهذا كان الخطاب فيها متوجهاً إليهم. وأخبر هناك بقوله: ﴿فَأَنْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] وهو أول الانفجار، وأخبر ههنا بما آل إليه الأمر^(٥) آخراً وهو الانفجار فناسب ذكر الانفجار^(٦) ههنا، وذاك هناك، والله أعلم.

وبين السياقين تباين من عشرة أوجه لفظية ومعنوية قد سأل عنها الرازي في تفسيره وأجاب عنها بما عنده، والأمر في ذلك قريب والله تبارك وتعالى أعلم بأسرار كتابه.

(١) زيادة من ج، ط، أ، و. (٢) في ج: «منه».

(٣) في ج: «نص هنالك». (٤) في و: «فإنها».

(٥) في ج، و: «الحال». (٦) في ج: «ذكر هذا».

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾.

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إنزالى عليكم المن والسلوى، طعاماً طيباً نافعاً هنيئاً سهلاً، واذكروا دبركم وضجركم مما رزقناكم^(١) وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدنية من البقول ونحوها مما سألتهم. وقال الحسن البصرى رحمه الله: فبطروا ذلك ولم يصبروا عليه، وذكروا عيشهم^(٢) الذى كانوا فيه، وكانوا قوماً أهل أعداس وبصل وبقول وفوم، فقالوا: ﴿يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [وهم يأكلون المن والسلوى؛ لأنه لا يتبدل ولا يتغير كل يوم فهو كأكل واحد]^(٣). فالبقول والقيث والعدس والبصل كلها معروفة. وأما «الفوم» فقد اختلف السلف فى معناه فوقع فى قراءة ابن مسعود «وثومها» بالثاء، وكذلك فسره مجاهد فى رواية ليث بن أبى سليم، عنه، بالثوم. وكذا الربيع ابن أنس، وسعيد بن جبير.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عمرو بن رافع، حدثنا أبو عمارة يعقوب بن إسحاق البصرى، عن يونس، عن الحسن، فى قوله: ﴿وَفُومِهَا﴾ قال: قال ابن عباس: الثوم.

قالوا: وفى اللغة القديمة: فَوْمُوا لَنَا بمعنى: اختبزوا. وقال ابن جرير: فإن كان ذلك صحيحاً، فإنه من الحروف المبدلة كقولهم: وقعوا فى «عائور شرّ»، وعافور شرّ، وأثافى وأثائى، ومغافير ومغاثير^(٤). ذلك مما تقلب الفاء ثاء والثاء فاء لتقارب مخرجيهما، والله أعلم.

وقال آخرون: الفوم الحنطة، وهو البر الذى يعمل منه الخبز.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أنبأنا ابن وهب قراءة، حدثنى نافع بن أبى نعيم: أن ابن عباس سئل عن قول الله: ﴿وَفُومِهَا﴾: ما فومها؟ قال: الحنطة. قال ابن عباس: أما سمعت قول أحيحة بن الجلاح وهو يقول:

قد كنت أغنى الناس شخصاً واحداً ورَدَ المدينة عن زراعة فُوم^(٥)

وقال ابن جرير: حدثنا على بن الحسن، حدثنا مسلم الجرمى، حدثنا عيسى بن يونس، عن رشدين بن كُريّب، عن أبيه، عن ابن عباس، فى قول الله تعالى: ﴿وَفُومِهَا﴾ قال: الفوم الحنطة بلسان بنى هاشم.

(١) فى ج: «مما رزقناكم». (٢) فى ج: «شبههم».

(٣) زيادة من ج. (٤) فى و: «وما أشبه».

(٥) البيت فى تفسير الطبرى (٢/ ١٢٩).

وكذا قال على بن أبى طلحة، والضحاك^(١)، وعكرمة عن ابن عباس أن الفوم: الحنطة.
وقال سفيان الثوري، عن ابن جريج، عن مجاهد وعطاء: ﴿وَقَوْمَهَا﴾ قالوا: خبزها.
وقال هُشَيْم عن يونس، عن الحسن، وحصين، عن أبى مالك: ﴿وَقَوْمَهَا﴾ قال: الحنطة.
وهو قول عكرمة، والسدى، والحسن البصرى، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم، والله أعلم^(٢).

[وقال الجوهري: الفوم: الحنطة. وقال ابن دريد: الفوم: السنبلة، وحكى القرطبي عن عطاء وقتادة أن الفوم كل حب يختبز. قال: وقال بعضهم: هو الحمص لغة شامية، ومنه يقال لبائعه: فامى مغير عن فومى]^(٣).

وقال البخارى: وقال بعضهم: الحبوب التى تؤكل كلها فوم.
وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ فيه تقرير لهم وتوبيخ^(٤) على ما سألوا من هذه الأطعمة الدنية مع ما هم فيه من العيش الرغيد، والطعام الهنىء الطيب النافع.
وقوله: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ هكذا هو منون مصروف مكتوب بالآلف فى المصاحف الأئمة العثمانية، وهو قراءة الجمهور بالصرف.

قال ابن جرير: ولا أستجيز^(٥) القراءة بغير ذلك؛ لإجماع المصاحف على ذلك.
وقال ابن عباس: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ قال: مصرأ من الأمصار، رواه ابن أبى حاتم، من حديث أبى سعيد^(٦) البقال سعيد بن المرزبان، عن عكرمة، عنه.
قال: وروى عن السدى، وقتادة، والربيع بن أنس نحو ذلك.

وقال ابن جرير: وقع فى قراءة أبى بن كعب وابن مسعود: «اهبطوا مصر»، من غير إجراء يعنى من غير صرف. ثم روى عن أبى العالية، والربيع بن أنس أنهما فسرا ذلك بمصر فرعون.
وكذا رواه ابن أبى حاتم عن أبى العالية، وعن الأعمش أيضاً.

وقال ابن جرير: ويحتمل أن يكون المراد مصر فرعون على قراءة الإجراء أيضاً. ويكون ذلك من باب الاتباع لكتابة المصحف، كما فى قوله تعالى: ﴿قَوَارِيرًا . قَوَارِيرًا﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦]. ثم توقف فى المراد ما هو؟ أمصر فرعون أم مصر من الأمصار؟

وهذا الذى قاله فيه نظر، والحق أن المراد مصر من الأمصار كما روى عن ابن عباس وغيره،

(١) فى ط: «عن الضحاك». (٢) فى ج، ط، أ، و: «فالله أعلم».

(٣) زيادة من ج، ط، أ، و. (٤) فى ج: «وتوبيخ لهم».

(٥) فى أ: «ولا أستحسن». (٦) فى ج: «أبى سعد».

والمعنى على ذلك لأن موسى، عليه السلام، يقول لهم: هذا الذى سألتكم ليس بأمر عزيز، بل هو كثير فى أى بلد دخلتموه وجدتموه، فليس يساوى مع دناءته وكثرته فى الأمصار أن أسأل الله فيه؛ ولهذا قال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ أى: ما طلبتم، ولما كان سؤالهم^(١) هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه، لم يجابوا إليه، والله أعلم^(٢).

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٦١).

يقول تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أى: وضعت عليهم وألزموا بها شرعاً وقدرأً، أى: لا يزالون مستذلين، من وجدهم استذلهم وأهانهم، وضرب عليهم الصغار، وهم مع ذلك فى أنفسهم أذلاء متمسكون^(٣).

قال الضحاك عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ قال: هم أصحاب النيات^(٤)، يعنى أصحاب الجزية.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الحسن وقتادة، فى قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾ قال: يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون^(٥)، وقال الضحاك: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ قال: الذل. وقال الحسن: أذلهم الله فلا منعة لهم، وجعلهم الله تحت أقدام المسلمين. ولقد أدركتهم هذه الأمة وإن المجوس لتجبيهم الجزية.

وقال أبو العالية والربيع بن أنس والسدى: المسكنة الفاقة. وقال عطية العوفى: الخراج. وقال الضحاك: الجزية.

وقوله تعالى: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ قال الضحاك: استحقوا الغضب من الله، وقال الربيع ابن أنس: فحدث عليهم غضب من الله. وقال سعيد بن جبير: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾، يقول: استوجبوا سخطاً، وقال ابن جرير: يعنى بقوله: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾: انصرفوا ورجعوا، ولا يقال: باؤوا إلا موصولاً: إما بخير وإما بشر، يقال منه: باء فلان بذنبه يباء به بواء وبواء. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ [المائدة: ٢٩] يعنى: تنصرف متحملهما وترجع بهما، قد صارا عليك دونى. فمعنى الكلام إذاً: فرجعوا منصرفين متحملين غضب الله، قد صار عليهم من الله غضب، ووجب عليهم من الله سخط.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يقول تعالى:

(١) فى ج، ط: «كان سألهم».
(٢) فى ج: «مستذلين»، وفى ط، أ، و: «مستكينين».
(٣) فى ج، ط، و: «القبالات»، وفى أ: «السلالات».
(٤) فى ج: «القبالات»، وفى أ: «السلالات».
(٥) تفسير عبد الرزاق (١/ ٦٩).

هذا الذى جازيناهم من الذلة والمسكنة، وإحلال الغضب بهم^(١) بسبب استكبارهم عن اتباع الحق، وكفرهم بآيات الله، وإهانتهم حملة الشرع وهم الأنبياء وأتباعهم، فانتقصوهم إلى^(٢) أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم، فلا كبر أعظم من هذا، إنهم كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياء الله بغير الحق؛ ولهذا جاء فى الحديث المتفق على صحته أن رسول الله ﷺ قال: «الكبر بَطَرُ الحق، وغمَطُ الناس»^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، عن ابن عون، عن عمرو بن سعيد، عن حميد بن عبد الرحمن، قال: قال ابن مسعود: كنت لا أحجب عن النَّجْوَى، ولا عن كذا ولا عن كذا قال: فأتيت رسول الله ﷺ وعنده مالك بن مرارة الرهاوى، فأدركته^(٤) من آخر حديثه، وهو يقول: يا رسول الله، قد قَسَم لى من الجمال ما ترى، فما أحب أن أحداً من الناس فَضَلَنى بشراكين فما فوقهما أفليس ذلك هو البغى؟ فقال: «لا، ليس ذلك من البغى، ولكن البغى مَنْ بَطَر - أو قال: سفه - الحق وغمَط الناس». يعنى: رد الحق وانتقاص الناس، والازدراء بهم والتعاضم عليهم. ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبه من الكفر بآيات الله وقتل أنبيائهم، أحل الله بهم بأسه الذى لا يرد، وكساهم ذلاً فى الدنيا موصولاً بذل الآخرة جزاء وفقاً^(٥).

قال أبو داود الطيالسى: حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبى معمر، عن عبد الله ابن مسعود، قال: كانت بنو إسرائيل فى اليوم تقتل ثلاثمائة نبي، ثم يقيمون سوق بقلهم فى آخر النهار.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبان، حدثنا عاصم، عن أبى وائل، عن عبد الله - يعنى ابن مسعود - أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتل نبي، أو قتل نبياً، وإمام ضلالة وممثل من الممثلين»^(٦).

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾: وهذه علة أخرى فى مجازاتهم بما جوزوا به، أنهم كانوا يعصون ويعتدون، فالعصيان فعل المناهى، والاعتداء المجاوزة فى حد المأذون فيه أو المأمور به. والله أعلم.

(١) فى ج: «عليهم».

(٢) فى ج، ط، أ، و: «حتى».

(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

(٤) فى ج، ط: «قال فأدركت».

(٥) المسند (١/ ٣٨٥).

(٦) المسند (١/ ٤٠٧).

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢).

لما بين [الله] (١) تعالى حال من خالف أوامره وارتكب زواجه، وتعدى في فعل ما لا إذن فيه وانتهك المحارم، وما أحلّ بهم من النكاح، نبه تعالى على أن من أحسن من الأمم السالفة وأطاع، فإن له جزاء الحسن، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة؛ كل من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه، كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا ابن أبي عمر العدني، حدثنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قال: قال سلمان: سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم، فذكرت من صلاتهم وعبادتهم، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى آخر الآية.

وقال السدي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ الآية: نزلت في أصحاب سلمان الفارسي، بينا هو يحدث النبي ﷺ إذ ذكر أصحابه، فأخبره خبرهم، فقال: كانوا يصومون ويصلون ويؤمنون بك، ويشهدون (٣) أنك ستبعث نبياً، فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم، قال له نبي الله ﷺ: «يا سلمان، هم من أهل النار». فاشتد ذلك على سلمان، فأنزل الله هذه الآية، فكان إيمان اليهود: أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسى، عليه السلام؛ حتى جاء عيسى. فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسى، فلم يدعها ولم يتبع عيسى، كان هالكاً. وإيمان النصاري أن (٤) من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمناً مقبولا منه حتى جاء محمد ﷺ، فمن لم يتبع محمداً ﷺ منهم ويدع (٥) ما كان عليه من سنة عيسى والإنجيل - كان هالكاً.

وقال ابن أبي حاتم: وروى عن سعيد بن جبير نحو هذا.

قلت: وهذا لا ينافي ما روى علي بن (٦) أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية فأنزل الله بعد ذلك: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ

(١) زيادة من أ. (٢) في ج: «وقال».

(٣) في ج: «ويشهدوا».

(٤) في أ: «أنه».

(٥) في أ: «ولم يدع».

(٦) في ج: «عن ابن».

الإِسْلَامَ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ [آل عمران: ٨٥].

فإن هذا الذى قاله [ابن عباس]^(١) إخبار عن أنه لا يقبل من أحد طريقة ولا عملاً، إلا ما كان موافقاً لشريعة محمد ﷺ بعد أن بعثه [الله]^(٢) بما بعثه به، فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول فى زمانه فهو على هدى وسبيل ونجاة، فاليهود أتباع موسى، عليه السلام، الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة فى زمانهم.

واليهود من الهوادة وهى المودة أو التهود وهو التوبة؛ كقول موسى، عليه السلام: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أى: تبنا، فكأنهم سموا بذلك فى الأصل لتوبتهم ومودتهم فى بعضهم لبعض.

[وقيل: لنسبتهم إلى يهوذا أكبر أولاد يعقوب عليه السلام، وقال أبو عمرو بن العلاء: لأنهم يتهودون، أى: يتحركون عند قراءة التوراة]^(٣).

فلما بعث عيسى ﷺ^(٤) وجب على بنى إسرائيل اتباعه والانقياد له، فأصحابه وأهل دينه هم النصارى، وسموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم، وقد يقال لهم: أنصار أيضاً، كما قال عيسى، عليه السلام: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] وقيل: إنهم إنما سموا بذلك من أجل أنهم نزلوا أرضاً يقال لها ناصرة، قاله قتادة وابن جرير، وروى عن ابن عباس أيضاً، والله أعلم.

والنصارى: جمع نصران^(٥) كنشأوى جمع نشوان، وسكارى جمع سكران، ويقال للمرأة: نصرانة، قال الشاعر:

نصرانة لم تحنف^(٦)

فلما بعث الله محمداً ﷺ خاتماً للنبيين، ورسولاً إلى بنى آدم على الإطلاق، وجب عليهم تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانكفاف عما عنه زجر. وهؤلاء هم المؤمنون [حقاً]^(٧). وسميت أمة محمد ﷺ مؤمنين لكثرة إيمانهم وشدة إيقانهم، ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضى والغيوب الآتية. وأما الصابئون فقد اختلف فيهم؛ فقال سفيان الثورى، عن ليث بن أبى سليم، عن

(١) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٢) زيادة من أ.

(٣) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٤) فى ج: «عليه السلام».

(٥) فى ج: «نصرانى».

(٦) البيت فى تفسير الطبرى (٢/ ١٤٤) وهو لأبى الأخر الحماني، وهذا جزء منه وهو بتمامه:

فكلتاها خرت وأسجد رأسها كما سجدت نصرانة لم تحنف

(٧) زيادة من ج، ط، أ، و.

مجاهد، قال: الصابئون قوم بين المجوس واليهود والنصارى، ليس لهم دين. وكذا رواه ابن أبي نجیح، عنه وروى عن عطاء وسعيد بن جبیر نحو ذلك.

وقال أبو العالية والربيع بن أنس، والسدى، وأبو الشعثاء جابر بن زيد، والضحاك [وإسحاق بن راهويه]^(١): الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور.

[ولهذا قال أبو حنيفة وإسحاق: لا بأس بذبائهم ومنابحتهم]^(٢).

وقال هشيم عن مطرف: كنا عند الحكم بن عتيبة^(٣) فحدثه رجل من أهل البصرة عن الحسن أنه كان يقول في الصابئين: إنهم كالمجوس، فقال الحكم: ألم أخبركم بذلك.

وقال عبد الرحمن بن مهدي، عن معاوية بن عبد الكريم: سمعت الحسن ذكر الصابئين، فقال: هم قوم يعبدون الملائكة.

[وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا معتمر بن سليمان عن أبيه، عن الحسن قال: أخبر زياد أن الصابئين يصلون إلى القبلة ويصلون الخمس. قال: فأراد أن يضع عنهم الجزية. قال: فخير بعد أنهم يعبدون الملائكة]^(٤).

وقال أبو جعفر الرازي: بلغني أن الصابئين قوم يعبدون الملائكة، ويقرؤون الزبور، ويصلون إلى القبلة.

وكذا قال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن أبي الزناد، عن أبيه، قال: الصابئون قوم مما يلي العراق، وهم بكوثى، وهم يؤمنون بالنبين كلهم، ويصومون من كل سنة ثلاثين يوماً ويصلون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات.

وسئل وهب بن منبه عن الصابئين، فقال: الذي يعرف الله وحده، وليست له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفراً.

وقال عبد الله بن وهب: قال عبد الرحمن بن زيد: الصابئون أهل دين من الأديان، كانوا بجزيرة الموصل يقولون: لا إله إلا الله. وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي إلا قول: لا إله إلا الله، قال: ولم يؤمنوا برسول، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي ﷺ وأصحابه: هؤلاء الصابئون، يشبهونهم بهم، يعنى فى قول: لا إله إلا الله.

وقال الخليل^(٥): هم قوم يشبه دينهم دين النصارى، إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب، يزعمون

(١، ٢) زيادة من ج، ط، أ، و. (٣) فى ج: «عينية».

(٤) زيادة من ج، ط، أ، و. (٥) فى أ: «الخدري».

أنهم على دين نوح، عليه السلام. وحكى القرطبي عن مجاهد والحسن وابن أبي نجيح: أنهم قوم تركب دينهم بين اليهود والمجوس، ولا تؤكل ذبائحهم، قال ابن عباس: ولا تنكح نساؤهم. قال القرطبي: والذي تحصل من مذهبهم فيما ذكره بعض العلماء أنهم موحدون ويعتقدون تأثير النجوم، وأنها فاعلة؛ ولهذا أفتى أبو سعيد الأصبخري بكفرهم للقادر بالله حين سألهم، واختار فخر الدين الرازي أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب؛ بمعنى أن الله جعلها قبلة للعبادة والدعاء، أو بمعنى أن الله فوض تدبير أمر هذا العالم إليها، قال: وهذا القول هو المنسوب إلى الكشرايين الذين جاءهم إبراهيم الخليل، عليه السلام، راداً عليهم ومبطلا لقولهم.

وأظهر الأقوال، والله أعلم، قول مجاهد ومتابعيه، ووهب بن منبه: أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصراني ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه؛ ولهذا كان المشركون ينزون من أسلم بالصابئي، أي: إنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك.

وقال بعض العلماء: الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبي، والله أعلم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤)﴾

يقول تعالى مذكراً بنى إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له واتباع رسله، وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق رفع الجبل على رؤوسهم ليقروا بما عاهدوا عليه، ويأخذوه^(١) بقوة وحزم وهمّة وامتنال^(٢)، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١] فالطور هو الجبل، كما فسر بآية^(٣) الأعراف، ونص على ذلك ابن عباس، ومجاهد، وعطاء وعكرمة والحسن والضحاك والربيع بن أنس، وغير واحد، وهذا ظاهر^(٤).

وفي رواية عن ابن عباس: الطور ما أنبت من الجبال، وما لم يُنبِت فليس بطور.

وفي حديث الفتون: عن ابن عباس: أنهم لما امتنعوا عن الطاعة رفع عليهم الجبل ليسمعوا [فسجدوا]^(٥).

وقال السدي: فلما أبوا أن يسجدوا أمر الله الجبل أن يقع عليهم، فنظروا إليه وقد غشيهم،

(١) في ج، ط: «فأخذوه».

(٢) في أ: «امتنال أمر».

(٣) في ج، ط: «فسرنا به آية».

(٤) في ط: «وهذا الظاهر».

(٥) زيادة من ج.

فسقطوا سُجَّدًا [فسجدوا]^(١) على شق، ونظروا بالشق الآخر، فرحمهم الله فكشفه عنهم، فقالوا^(٢): والله ما سجدة أحب إلى الله من سجدة كشف بها العذاب عنهم، فهم يسجدون كذلك، وذلك قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ^(٣) الطُّورَ﴾.

وقال الحسن فى قوله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾: يعنى التوراة.

وقال أبو العالية، والربيع بن أنس: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أى بطاعة. وقال مجاهد: بقوة: بعمل بما فيه. وقال قتادة ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ القوة: الجد وإلا قذفته^(٤) عليكم.

قال: فأقروا بذلك: أنهم يأخذون ما أوتوا بقوة. ومعنى قوله: وإلا قذفته عليكم، أى^(٥): أسقطته عليكم، يعنى الجبل.

وقال أبو العالية والربيع: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ يقول: اقرؤوا ما فى التوراة واعملوا به.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ يقول تعالى: ثم بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم عنه وانثنيتم ونقضتموه ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أى: توبته^(٦) عليكم وإرساله النبيين والمرسلين إليكم ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ بنقضكم ذلك الميثاق فى الدنيا والآخرة.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ يا معشر اليهود، ما حلّ من البأس بأهل القرية التى عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره، إذ كان مشروعاً لهم، فتحيّلوا على اصطياد الحيتان فى يوم السبت، بما وضعوه لها من الشصوص والحبال والبرك قبل يوم السبت، فلما جاءت يوم السبت على عادتها فى الكثرة نشبت بتلك الحبال والحيل، فلم تخلص منها يومها ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت. فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة، وهى أشبه شئ بالأناسى فى الشكل^(٧) الظاهر وليست بإنسان حقيقة. فكذلك أعمال هؤلاء وحيلهم لما كانت مشابهة للحق فى الظاهر ومخالفة له فى الباطن، كان جزاؤهم من جنس عملهم. وهذه القصة مبسّطة فى سورة الأعراف، حيث يقول تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣] القصة بكمالها.

(٢) فى ج: «فقال».

(١) زيادة من ج، ب، أ، و.

(٤) فى ج، ب، أ، و: «دفنته».

(٣) فى ج: «فوقهم» وهو خطأ.

(٦) فى ج، ط، أ، و: «أى بتوبته».

(٥) فى ج، ب، أ، و: «دفنته إلا».

(٧) فى ج: «بالأناسى والشكل».

وقال السدى: أهل هذه القرية هم أهل «أيلة». وكذا قال قتادة، وسنورد أقوال المفسرين هناك مبسطة إن شاء الله وبه الثقة^(١).

وقوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قال: مسخت قلوبهم، ولم يمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

ورواه ابن جرير، عن المثني، عن أبي^(٢) حذيفة. وعن محمد بن عمرو^(٣) الباهلي، عن أبي عاصم، عن عيسى، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، به.

وهذا سند جيد عن مجاهد، وقول غريب خلاف الظاهر من السياق في هذا المقام وفي غيره، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مُتَوَبِّعًا عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ الآية [المائدة: ٦٠].

وقال العوفي في تفسيره عن ابن عباس: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾: فجعل [الله]^(٤) منهم القردة والخنازير. فزعم أن شباب القوم صاروا قردة والمشيخة صاروا خنازير.

وقال شيبان النحوي، عن قتادة: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾: فصار القوم قروداً تعاوى لها أذنان بعد ما كانوا رجالاً ونساء.

وقال عطاء الخراساني: نودوا: يا أهل القرية، ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون: يا فلان، ألم نهكم؟ فيقولون برؤوسهم، أى بلى.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا على بن الحسين^(٥)، حدثنا عبد الله بن محمد بن ربيعة بالمصيصة، حدثنا محمد بن مسلم - يعنى الطائفي - عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: إنما كان الذين اعتدوا في السبت فجعلوا قردة فؤاقا ثم هلكوا. ما كان للمسوخ^(٦) نسل^(٧).

وقال الضحاك، عن ابن عباس: فمسخهم الله قردة بمعصيتهم، يقول: إذ لا يحيون في الأرض إلا ثلاثة أيام، قال: ولم يعيش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل. وقد خلق الله القردة والخنازير وسائر الخلق في الستة الأيام التي ذكرها الله^(٨) في كتابه، فمسخ [الله]^(٩) هؤلاء القوم في صورة القردة، وكذلك يفعل بمن يشاء كما يشاء. ويحوله كما يشاء.

وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع، عن أبي العالية في قوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قال: يعنى

(١) في أ: «وبه الثقة والإعانة».

(٢) في ج، ب: «بن عمر».

(٣) في ج، ط، ب: «الحسن».

(٤) في ج: «للمسوخ».

(٥) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٠٩).

(٦) في ج، ط، ب: «التي ذكر الله».

(٧) زيادة من أ.

أذلة صاغرين. وروى عن مجاهد، وقتادة والربيع، وأبى مالك، نحوه.

وقال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، قال: قال ابن عباس: إن الله إنما افترض على بنى إسرائيل اليوم الذى افترض عليكم فى عيدكم - يوم الجمعة - فخالفوا إلى ^(١) السبت فعظموه، وتركوا ما أمروا به. فلما أبوا إلا لزوم السبت ابتلاهم الله فيه، فحرم عليهم ما أحل لهم فى غيره. وكانوا فى قرية بين أيلة والطور، يقال لها: «مدين»؛ فحرم الله عليهم فى السبت الحيتان: صيدها وأكلها. وكانوا إذا كان يوم السبت أقبلت إليهم شرعاً إلى ساحل بحرهم، حتى إذا ذهب السبت ذهب، فلم يروا حوتاً صغيراً ولا كبيراً. حتى إذا كان يوم السبت أتت شرعاً، حتى إذا ذهب السبت ذهب، فكانوا كذلك، حتى إذا طال عليهم الأمد وقرموا إلى الحيتان، عمد رجل ^(٢) منهم فأخذ حوتاً سراً يوم السبت، فخزمه بخيط، ثم أرسله فى الماء، وأوتد له وتدأ فى الساحل فأوثقه، ثم تركه. حتى إذا كان الغد جاء فأخذه، أى: إنى لم أخذه فى يوم السبت ثم انطلق به فأكله. حتى إذا كان يوم السبت الآخر، عاد لمثل ذلك، ووجد الناس ربح الحيتان، فقال أهل القرية: والله لقد وجدنا ربح الحيتان، ثم عثروا على صنيع ^(٣) ذلك الرجل. قال: ففعلوا كما فعل، وصنعوا ^(٤) سراً زماناً طويلاً، لم يعجل الله عليهم العقوبة ^(٥) حتى صادوها علانية وباعوها بالأسواق ^(٦). فقالت طائفة منهم من أهل البقية: ويحكم، اتقوا الله. ونهوه عما يصنعون. فقالت طائفة أخرى لم تأكل الحيتان، ولم تنه القوم عما صنعوا: ﴿لَمْ تَعْظُون قَوْمَ اللَّهِ مَهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾ لسخطنا أعمالهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

قال ابن عباس: فبينما هم على ذلك أصبحت تلك البقية فى أنديةهم ومساجدهم وفقدوا الناس فلا يرونهم قال: فقال بعضهم لبعض: إن للناس لشأناً! فانظروا ما هو. فذهبوا ينظرون فى دورهم، فوجدوها مغلقة عليهم، قد دخلوها ليلاً فغلقوها على أنفسهم، كما يغلق الناس على أنفسهم فأصبحوا فيها قردة، وإنهم ليعرفون الرجل بعينه وإنه لقرد، والمرأة بعينها وإنها لقردة، والصبي بعينه وإنه لقرد. قال: يقول ابن عباس: فلولا ما ذكر الله أنه أنجى الذين نهوا عن سوء لقلنا ^(٧): أهلك الجميع منهم، قال: وهى القرية التى قال الله جل ثناؤه لمحمد ﷺ: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ الآية [الأعراف: ١٦٣]. وروى الضحاك عن ابن عباس نحوه من هذا.

قال ^(٨) السدى فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قال: فهم أهل «أيلة»، وهى القرية التى كانت حاضرة البحر، فكانت الحيتان إذا كان يوم السبت - وقد حرم الله على اليهود أن يعملوا ^(٩) فى السبت شيئاً - لم يبق فى البحر حوت إلا خرج،

(١) فى ج، ط: «إلى يوم».

(٢) فى ج: «عمد رجلاً» وهو خطأ.

(٣) فى ج: «على صنع».

(٤) فى ج، ط، ب، أ، و: «وأكلوا».

(٦) فى ج: «فى الأسواق».

(٧) فى ج، ط، ب، أ، و: «لقد».

(٨) فى ج، ط، ب: «وقال».

(٩) فى ج، ط: «أن تعمل».

(٥) فى ج، ط، ب، أ، و: «بعقوبة».

حتى يخرجن خراطيمهن من الماء، فإذا كان يوم الأحد لزمن مَقْل البحر، فلم يرَ منهن شيء^(١) حتى يكون يوم السبت، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [كذلك نبأهم بما كانوا يَفْسُقُونَ^(٢)] ﴿[الأعراف: ١٦٣]. فاشتبه بعضهم السمك، فجعل الرجل يحفر الحفيرة، ويجعل لها نهراً إلى البحر، فإذا كان يوم السبت فتح النهر فأقبل الموج بالحياتن يضربها حتى يلقيها في الحفيرة، فيريد الحوت أن يخرج، فلا يطيق من أجل قلة ماء النهر، فيمكث فإذا كان يوم الأحد جاء فأخذه، فجعل الرجل يشوى السمك فيجد جاره ريحه فيسأله فيخبره، فيصنع مثل ما صنع جاره، حتى فشا فيهم أكل السمك، فقال لهم علماءهم: ويحكم! إنما تصطادون يوم السبت، وهو لا يحل لكم، فقالوا: إنما صدناه يوم الأحد حين أخذناه. فقال العلماء^(٣): لا ولكنكم صدتموه يوم فتحكم^(٤) الماء فدخل، قال: وغلبوا أن ينتهوا. فقال بعض^(٥) الذين نهوهم لبعض: ﴿لَمْ تَعْظُون قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، يقول: لم تعظوهم، وقد وعظموهم فلم يطيعوكم؟ فقال بعضهم: ﴿مُعَذِّبَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤] فلما أبوا قال المسلمون: والله لا نساكنكم في قرية واحدة. فقسموا القرية بجدار، ففتح المسلمون باباً والمعتدون في السبت باباً، ولعنهم داود، عليه السلام، فجعل المسلمون يخرجون من بابهم، والكفار من بابهم، فخرج المسلمون ذات يوم، ولم يفتح الكفار بابهم، فلما أبطروا عليهم تسور المسلمون عليهم الحائط، فإذا هم قردة يثب بعضهم على بعض، ففتحوا عنهم، فذهبوا في الأرض، فذلك قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦] وذلك حين يقول: ﴿لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨] فهم القردة.

قلت: والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد، رحمه الله، من أن مسخهم إنما كان معنوياً لا صورياً بل الصحيح أنه معنوي صوري، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾: قال بعضهم: الضمير في ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ عائد على القردة، وقيل: على الحياتن، وقيل: على العقوبة، وقيل: على القرية؛ حكاه ابن جرير.

والصحيح أن الضمير عائد على القرية، أي: فجعل الله هذه القرية، والمراد أهلها بسبب اعتدائهم في سبتهم ﴿نَكَالًا﴾ أي: عاقبناهم عقوبة، فجعلناها^(٦) عبرة كما قال الله عن فرعون: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ

(١) في ج: «شيئاً» وهو خطأ.

(٢) في ج، ط، ب، أ، و: «الفقهاء».

(٣) في أ، و: «فتحتم له».

(٤) في أ: «فقال بعضهم».

(٥) في ج، ط، ب، أ، و: «فجعلناها».

نَكَالَ الْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴿ [النازعات: ٢٥]، وقوله: ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أى من القرى. قال^(١) ابن عباس: يعنى جعلناها بما أحللنا بها من العقوبة عبرة لما حولها من القرى. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حولَكُم مِّنَ الْقَرْيِ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧]، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ الآية [الرعد: ٤١] على أحد الأقوال، فالمراد: لما بين يديها وما خلفها فى المكان، كما قال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس: لما بين يديها من القرى وما خلفها من القرى. وكذا قال سعيد بن جبير ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [قال]^(٢): من بحضرتها من الناس يومئذ.

وروى عن إسماعيل بن أبى خالد، وقتادة، وعطية العوفى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾^(٣) قال: ما [كان]^(٤) قبلها من الماضين فى شأن السبت.

وقال أبو العالية والربيع وعطية: ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾: لما^(٥) بقى بعدهم من الناس من بنى إسرائيل أن يعملوا مثل عملهم.

وكان هؤلاء يقولون: المراد بما بين يديها وما خلفها فى الزمان.

وهذا مستقيم بالنسبة إلى من يأتى بعدهم من الناس أن يكون أهل تلك القرية عبرة لهم، وأما بالنسبة إلى من سلف قبلهم من الناس فكيف يصح هذا الكلام أن تفسر الآية به وهو أن تكون عبرة لمن سبقهم؟ هذا لعل أحداً من الناس لا يقوله بعد تصوره، فتعين أن المراد بما بين يديها وما خلفها فى المكان، وهو ما حولها من القرى؛ كما قاله ابن عباس وسعيد بن جبير، والله أعلم.

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع عن أبى العالية: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ أى: عقوبة لما خلا من ذنوبهم.

وقال ابن أبى حاتم^(٦): وروى عن عكرمة، ومجاهد، والسدى، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، نحو ذلك.

وحكى القرطبى، عن ابن عباس والسدى، والفراء، وابن عطية ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ بين ذنوب القوم ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ لمن يعمل بعدها مثل تلك الذنوب، وحكى فخر الدين ثلاثة أقوال:

أحدها: أن المراد بما بين يديها وما خلفها: من تقدمها من القرى، بما عندهم من العلم بخبرها، بالكتب المتقدمة ومن بعدها.

الثانى: المراد بذلك من بحضرتها من القرى والأمم.

(١) فى ج، ط، ب، أ، و: «قاله».

(٢) زيادة من ج.

(٣) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٤) فى أ: «وقال ابن أبى جرير».

(٥) فى ج، ط، ب، أ، و: «المن».

والثالث: أنه جعلها تعالى عقوبة لجميع ما ارتكبه من قبل هذا الفعل وما بعده، قال: وهذا قول الحسن. قلت: وأرجح الأقوال أن المراد بما بين يديها وما خلفها: من بحضرتها من القرى التي يبلغهم خبرها، وما حل بها، كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الاحقاف: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تَصِيهِمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تَحُلُ قَرِيْبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ [الرعد: ٣١]، وقال ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الأنبياء: ٤٤]، فجعلها عبرة ونكالا لمن في زمانهم، وعبرة لمن يأتي بعدهم بالخبر المتواتر عنهم، ولهذا قال: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾: الذين من بعدهم إلى يوم القيامة.

وقال الحسن وقتادة: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾: بعدهم، فيتقون نقمة الله، ويحذرونها.

وقال السدي، وعطية العوفى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال: أمة محمد ﷺ.

قلت: المراد بالموعظة ههنا الزاجر، أى: جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنكال فى مقابلة ما ارتكبه من محارم الله، وما تحيلوا به من الحيل، فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم، كما قال الإمام أبو عبد الله بن بطة: حدثنا أحمد بن محمد بن مسلم، حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفرانى، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمرو [عن أبى سلمة]^(١)، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تتركبوا ما ارتكب^(٢) اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل»^(٣).

وهذا إسناد جيد، وأحمد بن محمد بن مسلم هذا وثقه الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادى، وباقي رجاله مشهورون على شرط الصحيح. والله أعلم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ

بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧)﴾.

يقول تعالى: واذكروا - يا بنى إسرائيل - نعمتى عليكم فى خرق العادة لكم فى شأن البقرة، وبيان القاتل من هو بسببها وإحياء الله المقتول، ونصه على من قتله منهم. [مسألة الإبل تنحر والغنم تذبح واختلفوا فى البقر فقيل: تذبح، وقيل: تنحر، والذبح أولى لنص القرآن ولقرب منحرها من مذبحها. قال ابن المنذر: ولا أعلم خلافا صحيحاً بين ما ينحر أو نحر ما يذبح، غير أن مالكا كره ذلك. وقد يكره الإنسان ما لا يحرم، وقال أبو عبد الله: أعلم أن نزول قصة البقرة على موسى،

(١) زيادة من ج، ط، ب، أ، و. (٢) فى ج، ط، ب، أ، و: «ما ارتكبت».

(٣) جزء الخلع وإبطال الحيل لابن بطة (ص ٢٤).

عليه السلام، في أمر القتل قبل نزول القسامة في التوراة.

بسط القصة [١] - كما قال ابن أبي حاتم -:

حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا هشام بن حسان، عن محمد ابن سيرين، عن (٢) عبدة السلماني، قال: كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له، وكان له مال كثير، وكان (٣) ابن أخيه وارثه، فقتله ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا، وركب بعضهم إلى (٤) بعض، فقال ذوو الرأي منهم والنهي: علام يقتل بعضكم بعضاً وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى، عليه السلام، فذكروا ذلك له، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوراً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾. قال: فلو لم يعترضوا [البقرة] (٥) لأجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم (٦) شددوا فشدد عليهم، حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: والله لا أنقصها من مِلء جلدتها ذهباً، فأخذوها بملء جلدتها ذهباً فذبحوها، فضربوه ببعضها فقام فقالوا: من قتلك؟ فقال: هذا، لابن أخيه. ثم مال ميتاً، فلم يعط من ماله شيئاً، فلم يُورث قاتل بعد.

ورواه ابن جرير من حديث أيوب، عن محمد بن سيرين، عن عبدة (٧)، بنحو من ذلك (٨)، والله أعلم.

ورواه عبد بن حميد في تفسيره: أنبأنا يزيد بن هارون، به.

ورواه آدم بن أبي إياس في تفسيره، عن أبي جعفر - هو الرازي - عن هشام بن حسان، به. وقال آدم بن أبي إياس في تفسيره: أنبأنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع، عن أبي العالية، في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ قال: كان رجل من بني إسرائيل، وكان غنياً، ولم يكن له ولد، وكان له قريب وكان وارثه، فقتله ليرثه، ثم ألقاه على مجمع الطريق، وأتى موسى، عليه السلام، فقال له: إن قريبي قتل وإني إلى أمر عظيم، وإني لا أجد أحداً يبين [لي] (٩) من قتله غيرك يا نبي الله. قال: فنأدى موسى في الناس، فقال: أنشد الله من كان عنده من هذا علم إلا بينه لنا، [قال] (١٠): فلم يكن عندهم علم، فأقبل القاتل على موسى عليه السلام، فقال له: أنت نبي الله فاسأل لنا ربك أن يبين لنا، فسأل ربه فأوحى الله إليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ فعجبوا من

(١) زيادة من ج، ط، ب، و.

(٢) في ط، ب: «وكان له».

(٣) في ج: «على».

(٤) في ج: «ولكن».

(٥) زيادة من ب.

(٦) في ج: «عبدة».

(٧) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢١٤) وتفسير الطبري (١/ ٣٣٧).

(٨) زيادة من أ.

(٩) زيادة من ط، ب، أ، و.

ذلك، فقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوءًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضَ ﴿١﴾ يَعْنِي: لَا هَرْمَةَ ﴿وَلَا بَكْرٌ﴾ يَعْنِي: وَلَا صَغِيرَةً ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أَيْ: نَصَفٌ بَيْنَ الْبَكْرِ وَالْهَرْمَةِ ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوثُهَا﴾ أَيْ: صَافٍ لَوْنُهَا ﴿تَسْرُ النَّازِرِينَ﴾ أَيْ: تَعْجَبُ النَّازِرِينَ ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهُ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ. قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذُلُولَ ﴿٢﴾ أَيْ: لَمْ يَذُلُّهَا ^(١) الْعَمَلُ ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ يَعْنِي: وَلَيْسَتْ بِذُلُولٍ تُثِيرُ الْأَرْضَ ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ يَقُولُ: وَلَا تَعْمَلُ فِي الْحَرْثِ ﴿مُسَلِّمَةً﴾ يَعْنِي: مُسَلِّمَةً مِنَ الْعُيُوبِ ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ يَقُولُ: لَا بِيَاضَ فِيهَا ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبِّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ قَالَ: وَلَوْ أَنَّ الْقَوْمَ حِينَ أَمَرُوا أَنْ يَذْبَحُوا بَقَرَةً، اسْتَعْرَضُوا بَقَرَةً مِنَ الْبَقَرِ فَذَبَّحُوهَا، لَكَانَتْ إِيَّاهَا، وَلَكِنْهُمْ شَدَدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ عَلَيْهِمْ، وَلَوْ أَنَّ الْقَوْمَ اسْتَشْنَوْا فَقَالُوا: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠]، لَمَا هَدَوْا إِلَيْهَا أَبَدًا. فَبَلَّغْنَا أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا الْبَقَرَةَ الَّتِي نَعْتُ لَهُمْ إِلَّا عِنْدَ عَجُوزٍ عِنْدَهَا يَتَامَى، وَهِيَ الْقِيَمَةُ عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا عَلِمَتْ أَنَّهُ لَا يَزْكُو لَهُمْ ^(٢) غَيْرَهَا، أَضْعَفَتْ عَلَيْهِمُ الثَّمَنَ. فَأَتَوْا مُوسَى فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا هَذَا النَّعْتِ إِلَّا عِنْدَ فَلَانَةٍ، وَأَنَّهَا سَأَلَتْهُمْ أَضْعَافَ ثَمْنِهَا. فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: إِنَّ اللَّهَ قَدْ كَانَ خَفَفَ عَلَيْكُمْ فَشَدَدْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَأَعْطَوْهَا رِضَاهَا وَحَكَمَهَا. فَفَعَلُوا، وَاشْتَرَوْهَا ^(٣) فَذَبَّحُوهَا، فَأَمَرَهُمْ مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنْ يَأْخُذُوا عَظْمًا ^(٤) مِنْهَا فَيَضْرِبُوا بِهِ الْقَتِيلَ، فَفَعَلُوا، فَرَجَعَ إِلَيْهِ رُوحُهُ، فَسَمِيَ لَهُمْ قَاتِلُهُ، ثُمَّ عَادَ مَيْتًا كَمَا كَانَ، فَأَخَذَ قَاتِلَهُ - وَهُوَ الَّذِي كَانَ أَتَى مُوسَى فَشَكَا إِلَيْهِ [مَقْتَلَهُ] ^(٥) - فَقَتَلَهُ اللَّهُ عَلَى أَسْوَأِ ^(٦) عَمَلِهِ.

وقال محمد بن جرير: حدثني ابن سعد ^(٧)، حدثني أبي، حدثني عمي، حدثني أبي، عن أبيه [عن جده] ^(٨)، عن ابن عباس، في قوله في شأن البقرة: وذلك أن شيخاً من بني إسرائيل على عهد موسى، عليه السلام، كان مكثراً من المال، وكان بنو أخيه فقراء لا مال لهم، وكان الشيخ لا ولد له وبنو أخيه ورثته فقالوا: ليت ^(٩) عمنا قد مات فورثنا ماله، وإنه لما تطاول عليهم ألا يموت عمهم، أتاهم الشيطان فقال لهم: هل لكم إلى أن تقتلوا عمكم، فترثوا ماله، وتغرّموا أهل المدينة التي لستم بها دينه، وذلك أنهما كانتا مدينتين، كانوا في إحدهما وكان القتل إذا قتل فطرح بين المدينتين ^(١٠)، قيس ما بين القتل والقريتين فأيهما ^(١١) كانت أقرب إليه غرمت الدية، وأنهم لما سؤل لهم الشيطان ذلك، وتطاول عليهم ألا يموت عمهم عمدوا إليه فقتلوه، ثم عمدوا فطرحوه على باب المدينة التي ليسوا فيها. فلما أصبح أهل المدينة جاء بنو أخى الشيخ، فقالوا: عمنا قتل على باب مدينتكم، فوالله

(٢) في أ: «أنهم لا يتركوا».

(٤) في ج: «عظمها».

(٦) في ج: «أشتر»، وفي أ: «سوء».

(٨) زيادة من أ، و.

(١٠) في ب: «القريتين».

(١) في ب، أ، و: «لم يذلها».

(٣) في ط: «واشتروا».

(٥) زيادة من و.

(٧) في ج، ط، ب، أ، و: «ابن أبي سعيد».

(٩) في ج: «يا ليت».

(١١) في ج، ط، ب، أ، و: «فأيهما».

لتغرم لنا دية عمنا. قال أهل المدينة: نقسم بالله ما قتلنا ولا علمنا^(١) قاتلاً، ولا فتحنا باب مدينتنا منذ أغلق حتى أصبحنا. وإنهم عمّدوا إلى موسى، عليه السلام، فلما أتوه قال بنو أخى الشيخ: عمنا وجدناه مقتولا على باب مدينتهم. وقال أهل المدينة: نقسم بالله ما قتلناه ولا فتحنا باب المدينة من حين أغلقناه حتى أصبحنا، وإنه جبريل^(٢) جاء بأمر^(٣) السميع العليم إلى موسى، عليه السلام، فقال: قل لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ فتضربوه ببعضها.

وقال السدى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ قال: كان رجل من بنى إسرائيل مكثراً من المال وكانت له ابنة، وكان له ابن أخ محتاج، فخطب إليه ابن أخيه ابنته، فأبى أن يزوجه، فغضب الفتى، وقال: والله لأقتلن عمى، ولأخذن ماله، ولأنكحن ابنته، ولأكلن ديته. فأتاه الفتى وقد قدم تجار فى بعض أسباط بنى إسرائيل، فقال: يا عم^(٤)، انطلق معى فخذ لى من تجارة هؤلاء القوم، لعلى أن أصيب منها^(٥)، فإنهم إذا رأوك معى أعطونى. فخرج العم مع الفتى ليلاً، فلما بلغ الشيخ ذلك السبط قتله الفتى، ثم رجع إلى أهله. فلما أصبح جاء كأنه يطلب عمه، كأنه لا يدرى أين هو، فلم يجده. فانطلق نحوه، فإذا هو بذلك السبط مجتمعين عليه، فأخذهم وقال: قتلتم عمى، فأدوا إلى ديته فجعل يبكى ويحشو التراب على رأسه، وينادى: واعماه. فرفعهم إلى موسى، فقضى عليهم بالدية، فقالوا له: يا رسول الله، ادع الله لنا^(٦) حتى يبين لنا من صاحبه، فيؤخذ صاحب الجريمة^(٧)، فوالله إن ديته علينا لهينة، ولكننا نستحيى أن نغير به فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فقال لهم موسى، عليه السلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ قالوا: نسألك عن القتل وعمن قتله، وتقول: اذبحوا بقرة. أتَهَرَأَ بنا! ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ قال ابن عباس: فلو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا وتعتوا [على]^(٨) موسى فشدد الله عليهم. فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾. والفارض: الهرمة التى لا تلد والبكر التى لم تلد إلا ولداً واحداً. والعوان: النصف التى بين ذلك، التى قد ولدت وولد ولدها ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾. قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها قال: نقى لونها ﴿تَسْرُ النَّازِرِينَ﴾ قال: تعجب الناظرين ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾. قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تشير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها ﴿من بياض ولا سواد ولا حمرة﴾ ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ فطلبوها فلم يقدروا عليها.

(١) فى جـ: «ما قتلناه ولا علمنا».

(٢) فى جـ: «يا عمى».

(٣) فى جـ: «بأمر ربه».

(٤) فى جـ: «فيها».

(٥) فى جـ: «يا عمى».

(٦) فى جـ: «يا عمى».

(٧) فى جـ: «فيها».

(٨) زيادة من جـ، أ.

وكان رجل فى^(١) بنى إسرائيل، من أبر الناس بأبيه، وإن رجلاً مَرَّ به معه لؤلؤٌ يبيعه، وكان أبوه نائماً تحت رأسه المفتاح، فقال له الرجل: تشتري^(٢) منى هذا اللؤلؤ بسبعين ألفاً؟ فقال له الفتى: كما أنت حتى يستيقظ أبى فأخذه منك بثمانين ألفاً. فقال الآخر: أيقظ أباك وهو لك بستين ألفاً، فجعل التاجر يحط له حتى بلغ ثلاثين ألفاً، وزاد الآخر على أن ينتظر أباه حتى يستيقظ حتى بلغ مائة ألف، فلما أكثر عليه قال: والله لا أشتريه منك بشيء أبداً، وأبى أن يوقظ أباه، فعوضه الله من ذلك اللؤلؤ أن جعل له تلك البقرة، فمرت به بنو إسرائيل يطلبون البقرة وأبصروا البقرة عنده، فسألوه أن يبيعهم إياها بقره ببقرة، فأبى، فأعطوه ثنتين فأبى، فزادوه حتى بلغوا عشراً، فأبى، فقالوا: والله لا نتركك حتى نأخذها منك. فانطلقوا به إلى موسى، عليه السلام، فقالوا: يا نبي الله، إنا وجدناها عند هذا فأبى أن يعطيناها وقد أعطيناها ثمناً فقال له موسى: أعطهم بقرتك. فقال: يا رسول الله، أنا أحق بمالى. فقال: صدقت. وقال للقوم: أرضوا صاحبكم، فأعطوه وزنها ذهباً، فأبى، فأضعفوا^(٣) له مثل ما أعطوه وزنها، حتى أعطوه وزنها عشر مرات ذهباً، فباعهم إياها وأخذ ثمنها، فذبحوها. قال: اضربوه ببعضها، فضربوه بالبضعة التى بين الكتفين، فعاش، فسألوه: من قتلك؟ فقال لهم: ابن أخى، قال: أقتله، فأخذ ماله، وأنكح ابنته. فأخذوا الغلام فقتلوه^(٤).

وقال سُنَيْدٌ: حدثنا حجاج، هو ابن محمد، عن ابن جُرَيْجٍ، عن مجاهد، وحجاج، عن أبى معشر، عن محمد بن كعب القرظى ومحمد بن قيس - دخل حديث بعضهم فى حديث بعض - قالوا: إن سبطاً من بنى إسرائيل لما رأوا كثرة شرور الناس، بنوا مدينة فاعتزلوا شرور الناس، فكانوا إذا أمسوا لم يتركوا أحداً منهم خارجاً إلا أدخلوه، وإذا افتتحوا^(٥) قام رئيسهم فنظر وأشرف، فإذا لم ير شيئاً فتح المدينة، فكانوا مع الناس حتى يمسا. قال: وكان رجل من بنى إسرائيل له مال كثير، ولم يكن له وارث غير أخيه، فطال عليه حياته فقتله ليرثه، ثم حمله فوضعه على باب المدينة، ثم كمن فى مكان هو وأصحابه. قال: فأشرف^(٦) رئيس المدينة على باب المدينة فنظر، فلم ير شيئاً ففتح الباب، فلما رأى القتيل رد الباب، فناده أخو المقتول وأصحابه: هيهات! قتلتموه ثم تردون الباب. وكان موسى لما رأى القتل كثيراً فى أصحابه بنى إسرائيل، كان إذا رأى القتيل بين ظهرانى القوم أخذهم، فكاد يكون بين أخى المقتول وبين أهل المدينة قتال، حتى لبس الفريقان السلاح، ثم كف بعضهم عن بعض، فأتوا موسى فذكروا له شأنهم. قالوا: يا رسول الله، إن هؤلاء قتلوا قتيلاً ثم ردوا الباب، وقال أهل المدينة: يا رسول الله قد عرفت اعتزالنا الشرور^(٧)، وبنينا مدينة، كما رأيت، نعتزل شرور الناس، والله ما قتلنا ولا علمنا قاتلاً. فأوحى الله تعالى إليه أن يذبحوا بقره فقال لهم موسى:

(١) فى ج: «من».

(٢) فى ج، ط، ب: «فأضعفوه».

(٤) تفسير الطبرى (٢/ ١٨٥).

(٦) فى و: «فتشرف».

(٥) فى ج، ط، ب، أ، و: «وإذا أصبحوا».

(٧) فى ج: «اعتزالنا عن الناس الشرور».

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾^(١).

وهذه السياقات [كلها]^(٢) عن عبيدة^(٣) وأبى العالية والسدى وغيرهم، فيها اختلاف ما، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بنى إسرائيل وهى مما يجوز نقلها^(٤)، ولكن لا نصدق ولا نكذب^(٥)، فلهذا لا نعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا، والله أعلم.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٧١).

أخبر تعالى عن تعنت بنى إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم. ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق عليهم، ولو أنهم ذبحوا أى بقرة كانت لوقعت الموضع عنهم، كما قال ابن عباس وعبيدة وغير واحد، ولكنهم شددوا فشدد عليهم، فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ ما هذه البقرة؟ وأى شىء صفتها؟

قال^(٦) ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عثام^(٧) بن على، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لو أخذوا أدنى بقرة اكتفوا بها، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم^(٨).

إسناد صحيح، وقد رواه غير واحد عن ابن عباس. وكذا قال عبيدة، والسدى، ومجاهد، وعكرمة، وأبو العالية وغير واحد.

وقال ابن جريج: قال [لى]^(٩) عطاء: لو أخذوا أدنى بقرة كفتهم. قال ابن جريج: قال رسول الله ﷺ: «إنما أمروا بأدنى بقرة، ولكنهم لما شددوا على أنفسهم شدد الله عليهم؛ وإيم الله لو أنهم لم يستثنوا ما بينت لهم آخر الأبد»^(١٠).

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ أى: لا كبيرة هَرمة ولا صغيرة لم يلحقها^(١١)

(١) ورواه الطبرى فى تفسيره (٢/ ١٨٨) من طريق سنيد.

(٢) زيادة من جـ.

(٣) فى أ: «أبى عبيدة».

(٤) فى أ: «فعله».

(٥) فى ط، ب: «لا تصدق ولا تكذب».

(٦) فى ط: «وقال».

(٧) فى جـ: «هشام».

(٨) تفسير الطبرى (٢/ ٢٠٤).

(٩) زيادة من جـ، ط، ب، و.

(١٠) رواه الطبرى فى تفسيره (٢/ ٢٠٥).

(١١) فى جـ، ط: «يلحقها»، وفى أ: «ينكحها».

الفحل، كما قاله أبو العالية، والسدى، ومجاهد، وعكرمة، وعطية العوفى، وعطاء الخراسانى^(١)،
ووهب بن منبه، والضحاك، والحسن، وقتادة، وقاله ابن عباس أيضاً.

وقال الضحاك، عن ابن عباس ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [يقول: نصف]^(٢) بين الكبيرة والصغيرة،
وهى أقوى ما يكون من الدواب والبقر وأحسن ما تكون. وروى عن عكرمة، ومجاهد، وأبى العالية،
والربيع بن أنس، وعطاء الخراسانى، والضحاك نحو ذلك.

وقال السدى: العوان: النَّصَفُ التى بين ذلك التى ولدت، وولد ولدها.

وقال هشيم، عن جوير، عن كثير بن زياد، عن الحسن فى البقرة: كانت بقرة وحشية.

وقال ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس: من لبس نعلا صفراء لم يزل فى سرور ما دام
لابسها، وذلك قوله^(٣) تعالى: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاطِرِينَ﴾. وكذا قال مجاهد، ووهب بن
منبه أنها كانت صفراء.

وعن ابن عمر: كانت صفراء الظِّلْف. وعن سعيد بن جبير: كانت صفراء القرن والظلف.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا نصر بن على، حدثنا نوح بن قيس، أنبأنا أبو رجاء،
عن الحسن فى قوله: ﴿بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ قال: سوداء شديدة السواد.

وهذا غريب، والصحيح الأول، ولهذا أكد صفرتها بأنه ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾.

وقال عطية العوفى: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾: تكاد تسود من صفرتها.

وقال سعيد بن جبير: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ قال: صافية اللون. وروى عن أبى العالية، والربيع بن
أنس، والسدى، والحسن، وقتادة نحوه.

وقال شريك، عن مغراء^(٤)، عن ابن عمر: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ قال: صاف^(٥).

وقال العوفى فى تفسيره، عن ابن عباس: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾: شديد الصفرة، تكاد من صفرتها
تبيض.

وقال السدى: ﴿تَسُرُّ النَّاطِرِينَ﴾ أى: تعجب الناظرين^(٦). وكذا قال أبو العالية، وقتادة،
والربيع بن أنس.

[وفى التوراة: أنها كانت حمراء، فلعل هذا خطأ فى التعريب أو كما قال الأول: إنها كانت
شديدة الصفرة تضرب إلى حمرة وسواد، والله أعلم]^(٧).

(٢) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٤) فى أ: «عن ابن عباس».

(٦) فى ج: «أى تعجبهم».

(١) فى ج: «الخراسانى وسيأتى».

(٣) فى ج، ب: «قول الله تعالى»، وفى ط: «قول الله».

(٥) فى ج، ط، ب: «صافى».

(٧) زيادة من ج، ط، ب، و.

وقال وهب بن منبه: إذا نظرت إلى جلدها يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها.
وقوله: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ أى: لكثرتها، فميز لنا هذه البقرة وصفها وحلّها لنا ﴿وَأَنَا إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ إذا بينتها لنا ﴿لَمْهْتَدُونَ﴾ إليها.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن يحيى الأودى^(١) الصوفى، حدثنا أبو سعيد أحمد بن داود الحداد، حدثنا سرور بن المغيرة الواسطى، ابن أخى منصور بن زاذان، عن عباد بن منصور، عن الحسن، عن أبي رافع، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا أن بنى إسرائيل قالوا: ﴿وَأَنَا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمْهْتَدُونَ﴾ ما أعطوا، ولكن استثنوا»^(٢).

ورواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره من وجه آخر، عن سرور بن المغيرة، عن^(٣) زاذان، عن عباد بن منصور، عن الحسن، عن حديث أبي رافع، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا أن بنى إسرائيل قالوا: ﴿وَأَنَا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمْهْتَدُونَ﴾ ما أعطوا أبداً، ولو أنهم اعترضوا بقرة من البقر فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا، فشدد الله عليهم»^(٤).

وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وأحسن أحواله أن يكون من كلام أبي هريرة، كما تقدم مثله^(٥) عن السدى، والله أعلم.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أى: إنها ليست مذللة بالحرثة ولا معدة للسقى فى السانية، بل هى مكربة حسنة صبيحة ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ صبيحة لا عيب فيها ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ أى: ليس فيها لون غير لونها.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ يقول: لا عيب فيها، وكذا قال أبو العالية والربيع، وقال مجاهد ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من الشية.

وقال عطاء الخراسانى: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ القوائم والخلق ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾. قال مجاهد: لا بياض ولا سواد. وقال أبو العالية والربيع، والحسن وقتادة: ليس فيها بياض. وقال عطاء الخراسانى: ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ قال: لونها واحد بهيم. وروى عن عطية العوفى، وهب بن منبه، وإسماعيل بن أبى خالد، نحو ذلك. وقال السدى: ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ من بياض ولا سواد ولا حمرة، وكل هذه الأقوال متقاربة [فى المعنى، وقد زعم بعضهم أن المعنى فى ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ﴾ ليست بمذللة بالعمل ثم استأنف فقال: ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ أى: يعمل عليها بالحرثة لكنها لا تسقى الحرث، وهذا ضعيف؛ لأنه فسر الذلول التى لم تذلل بالعمل بأنها لا تثير الأرض ولا تسقى الحرث كذا قرره القرطبى وغيره]^(٦).

(١) فى ج، ط: «الأزدى».

(٢) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٢٢٣).

(٣) فى ج، ط، ب: «بن».

(٤) قال الحافظ ابن حجر: «فيه عباد بن منصور وهو ضعيف».

(٥) فى ج، ط: «نقله».

(٦) زيادة من ج، ط، ب، أ.

﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾: قال قتادة: الْآنَ بَيَّنْتَ لَنَا، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: وقبل ذلك - والله^(١) - قد جاءهم الحق.

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾: قال الضحاك، عن ابن عباس: كادوا ألا يفعلوا، ولم يكن ذلك الذى أرادوا، لأنهم أرادوا ألا يذبحوها.

يعنى أنهم مع هذا البيان^(٢)، وهذه الأسئلة، والأجوبة، والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وفى هذا ذم لهم، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعت، فلهذا ما كادوا يذبحونها.

وقال محمد بن كعب، ومحمد بن قيس: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ لكثرة ثمنها.

وفى هذا نظر؛ لأن كثرة ثمنها لم يثبت إلا من نقل بنى إسرائيل، كما تقدم من حكاية أبى العالية والسدى، ورواه العوفى عن ابن عباس. وقال عبيدة، ومجاهد، ووهب بن منبه، وأبو العالية، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنهم اشتروها بمال كثير^(٣)، وفيه اختلاف، ثم قد قيل فى ثمنها غير ذلك. وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن عيينة، أخبرنى محمد بن سوقة، عن عكرمة، قال: ما كان ثمنها إلا ثلاثة دنانير^(٤). وهذا إسناد جيد عن عكرمة، والظاهر أنه نقله عن أهل الكتاب أيضاً.

قال ابن جرير: وقال آخرون: لم يكادوا أن يفعلوا ذلك خوف الفضيحة، إن اطلع الله على قاتل القتل الذى اختصموا فيه.

ولم يسنده عن أحد، ثم اختار أن الصواب فى ذلك أنهم لم يكادوا يفعلوا ذلك لغلاء ثمنها، وللفضيحة. وفى هذا نظر، بل الصواب - والله أعلم - ما تقدم من رواية الضحاك، عن ابن عباس، على ما وجهناه. وبالله التوفيق.

مسألة: استدل بهذه الآية فى حصر صفات هذه البقرة حتى تعينت أو تم تقييدها بعد الإطلاق على صحة السلم فى الحيوان كما هو مذهب مالك والأوزاعى والليث والشافعى وأحمد وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً بدليل ما ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ: «لا تنعت المرأة المرأة لزوجها كأنه ينظر إليها»^(٥). وكما وصف النبى ﷺ إبل الدية فى قتل خطأ وشبه العمد بالصفات المذكورة بالحديث، وقال أبو حنيفة والثورى والكوفيون: لا يصح السلم فى الحيوان لأنه لا تنضبط أحواله، وحكى مثله عن ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وعبد الرحمن بن سمرة وغيرهم.

(١) فى ج، ط: «والله أعلم».

(٢) فى ج: «الشان».

(٣) فى ب: «بشمن كثير».

(٤) تفسير عبد الرزاق (١/ ٧١).

(٥) صحيح البخارى برقم (٥٢٤١).

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)﴾.

قال البخارى: ﴿فَادَّارَأْتُمْ﴾: اختلفتم. وهكذا قال مجاهد فيما رواه ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن أبى حذيفة، عن شبل عن ابن أبى نجيج، عن مجاهد، أنه قال فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾: اختلفتم.

وقال عطاء الخراسانى، والضحاك: اختلفتم فيها. وقال ابن جريج ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾. قال: قال بعضهم أنتم قتلتموه.

وقال آخرون: بل أنتم قتلتموه. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾: قال مجاهد: ما تُغَيُّونَ. وقال ابن أبى حاتم: حدثنا عمرو بن مسلم البصرى، حدثنا محمد بن الطفيل العبدى، حدثنا صدقة بن رستم، سمعت المسيب بن رافع يقول: ما عمل رجل حسنة فى سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وما عمل رجل سيئة فى سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وتصديق ذلك فى كلام الله: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾. فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا. هذا البعض أى شىء كان من أعضاء هذه البقرة فالمعجزة حاصلة به.

وخرق العادة به كائن، وقد كان معينا فى نفس الأمر، فلو كان فى تعيينه لنا فائدة تعود علينا فى أمر الدين أو الدنيا لبينه الله تعالى لنا، ولكن أبهمه، ولم يجرى من طريق صحيح عن معصوم بيانه^(١)، فنحن نبهمه كما أبهمه الله.

ولهذا قال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عَفَّان بن مسلم، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: إن أصحاب بقرة بنى إسرائيل طلبوها أربعين سنة حتى وجدوها عند رجل فى بقر له، وكانت بقرة تعجبه، قال: فجعلوا يعطونه بها فيأبى، حتى أعطوه ملء مَسْكهَا دنانير، فذبحوها، فضربوه - يعنى القتل - بعضو منها، فقام تَشَخُّبٌ أوداجه دماً [فسألوه]^(٢)، فقالوا له: من قتلك؟ قال^(٣): قتلنى فلان^(٤).

وكذا قال الحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنه ضرب ببعضها.

وفى رواية عن ابن عباس: إنهم ضربوه بالعظم الذى يلى الغضروف.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَر، قال: قال أيوب، عن ابن سيرين، عن عبيدة: ضربوا القتل ببعض لحمها. وقال معمر: قال قتادة: فضربوه بلحم فخذها فعاش، فقال: قتلنى فلان.

وقال أبو أسامة، عن النضر بن عريى، عن عكرمة: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا﴾ [قال]^(٥): ف ضرب

(١) فى ج: «عن معصوم حدثنا به».

(٢) زيادة من ج.

(٣) فى ج: «عن معصوم حدثنا به».

(٤) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٢٢٩).

(٥) زيادة من ج، أ، و.

بفخذها فقام، فقال: قتلنى فلان.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن مجاهد، وقتادة، نحو ذلك.

وقال السدى: فضربوه بالبضعة التى بين الكتفين فعاش، فسألوه، فقال: قتلنى ابن أخى.

وقال أبو العالية: أمرهم موسى، عليه السلام، أن يأخذوا عظماً من عظامها، فيضربوا به القتل، ففعلوا، فرجع إليه روحه، فسمى لهم قاتله ثم عاد ميتاً كما كان.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: فضربوه ببعض آرابها [وقيل: بلسانها، وقيل: بعجب ذنبها]^(١).

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ أى: فضربوه فحيى. ونبه تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتل: جعل تبارك وتعالى ذلك الصنع حجة لهم على المعاد، وفاصلاً ما كان بينهم من الخصومة والفساد^(٢) والله تعالى قد ذكر فى هذه السورة ما خلقه فى^(٣) إحياء الموتى، فى خمسة مواضع: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦]. وهذه القصة، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وقصة الذى مرَّ على قرية وهى خاوية على عروشها، وقصة إبراهيم والطيور الأربعة.

ونبه تعالى بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيررتها^(٤) رميمًا، كما قال أبو داود الطيالسى: حدثنا شعبة، أخبرنى يعلى بن عطاء، قال: سمعت وكيع بن عُدُس، يحدث عن أبى رزین العُقَيْلى، قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيى الله الموتى؟ قال: «أما مررت بوادٍ مُّمَحَل، ثم مررت به خُضراً؟» قال: بلى. قال: «كذلك النشور». أو قال: «كذلك يحيى الله الموتى»^(٥). وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ. وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ. لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٣ - ٣٥].

مسألة: استدل لمذهب مالك فى كون قول الجريح: فلان قتلنى لوئاً بهذه القصة؛ لأن القتل لما حى سئل عن قتله فقال: قتلنى فلان، فكان ذلك مقبولاً منه؛ لأنه لا يخبر حينئذ إلا بالحق، ولا يتهم والحالة هذه، ورجحوا ذلك بحديث أنس: أن يهودياً قتل جارية على أوضاع لها، فوضع رأسها بين حجرين فقتل: من فعل بك هذا؟ أفلان؟ أفلان؟ حتى ذكر اليهودى، فأومأت برأسها، فأخذ اليهودى، فلم يزل به حتى اعترف، فأمر رسول الله ﷺ أن يرد رأسه بين حجرين^(٦)، وعند مالك: إذا كان لوئاً حلف أولياء القتل قسامة، وخالف الجمهور فى ذلك ولم يجعلوا قول القتل فى

(٢) فى ج، ط، ب، أ، و: «والعناد».

(١) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٣) فى ج، ط، ب، أ، و: «من».

(٤) فى ج، ط، ب، أ، و: «بعد صيرورتها».

(٥) مسند الطيالسى برقم (١٠٨٩).

(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٨٨٥).

ذلك لوئاً.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)﴾.

يقول تعالى توبيخاً لبني إسرائيل، وتقريعاً لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى، وإحيائه الموتى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ كله ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ التي لا تلين أبداً. ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وقال العوفي، في تفسيره، عن ابن عباس: لما ضُربَ المقتول ببعض البقرة جلس أحيا ما كان قط، فقيل له: من قتلك؟ فقال: بنو أخى قتلوني. ثم قبض. فقال بنو أخيه حين قبض: والله ما قتلناه، فكذبوا بالحق بعد إذا رأوا^(١). فقال^(٢) الله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ يعنى: بنى^(٣) أخى الشيخ ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾ فصارت قلوب بنى^(٤) إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات فهى فى قسوتها كالحجارة التى لا علاج لئينها أو أشد قسوة من الحجارة، فإن من الحجارة ما تتفجر منها العيون الجارية بالأنهار، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء، وإن لم يكن جارياً، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله، وفيه إدراك لذلك بحسبه، كما قال: ﴿تَسْبَحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّعِ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال ابن أبى نجيج، عن مجاهد أنه كان يقول: كل حجر يتفجر منه الماء، أو يتشقق عن ماء، أو يتردى من رأس جبل، لمن خشية الله، نزل بذلك القرآن.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾: أى وإن من الحجارة لألين من قلوبكم عما تدعون إليه من الحق ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

[وقال أبو على الجبائى فى تفسيره: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾: هو سقوط البرد من

(١) فى أ، و: «إذ رأوه».

(٢) فى ج: «ثم قال».

(٣) فى أ، و: «يعنى ابن».

(٤) فى ج: «قلوب بنوا» وهو خطأ.

السحاب. قال القاضي الباقلاني: وهذا تأويل بعيد وتبعه في استبعاده فخر الدين الرازي وهو كما قال؛ فإن هذا خروج عن ظاهر اللفظ بلا دليل، والله أعلم^(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا الحكم بن هشام الثقفي، حدثني يحيى بن أبي طالب - يعني يحيى بن يعقوب - في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْجِبَارَةِ لِمَا يُتَفَخَّرُ مِنْهُ الْإِنْتِهَارُ﴾ قال: هو كثرة البكاء ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لِمَا يَشْقَىٰ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ قال: قليل البكاء ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لِمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ قال: بكاء القلب، من غير دموع العين.

(وقد زعم بعضهم أن هذا من باب المجاز؛ وهو إسناد الخشوع إلى الحجارة كما أسندت الإرادة إلى الجدار في قوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَ﴾. قال الرازي والقرطبي وغيرهما من الأئمة: ولا حاجة إلى هذا فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ الآية، وقال: ﴿وَالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ يَسْجُدَانِ﴾ و﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ﴾ الآية، ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾، ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ الآية، ﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ﴾ الآية، وفي الصحيح: «هذا جبل يحبنا ونحبه»، وكحنين الجذع المتواتر خبره، وفي صحيح مسلم: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن»، وفي صفة الحجر الأسود أنه يشهد لمن استلمه بحق يوم القيامة، وغير ذلك مما في معناه. وحكى القرطبي قولاً أنها للتخيير؛ أي مثلاً لهذا وهذا وهذا مثل جالس الحسن أو ابن سيرين... وكذا حكاها الرازي في تفسيره وزاد قولاً آخر: إنها للإيهام بالنسبة إلى المخاطب كقول القائل أكلت خبزاً أو تمرأ، وهو يعلم أيهما أكل، وقال آخر: إنها بمعنى قول القائل كلوا حلواً أو حامضاً؛ أي لا يخرج عن واحد منهما؛ أي وقلوبكم صارت كالحجارة أو أشد قسوة منها لا تخرج عن واحد من هذين الشيئين. والله أعلم.

تنبيه:

اختلف علماء العربية في معنى قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ بعد الإجماع على استحالة كونها للشك، فقال بعضهم: «أو» ههنا بمعنى الواو، تقديره: فهي كالحجارة وأشد قسوة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطْعَمُ مِنْهُمْ إِمَاماً أَوْ كَفُوراً﴾ [الإنسان: ٢٤]، وكما قال النابغة الذبياني:

قالت ألا ليتم هذا الحمام لنا إلى حمامتنا أو نصفه فقدي^(٢)
تريد: ونصفه، قاله ابن جرير. وقال جرير بن عطية:

نال الخلافة أو كانت له قدراً كما أتى ربّه موسى على قدر^(٣)
قال ابن جرير: يعني نال الخلافة، وكانت له قدراً.

وحكى القرطبي قولاً: أنها للتخيير في مفهومها بهذا أو بهذا مثل جالس الحسن أو ابن سيرين، وكذا حكاها فخر الدين في تفسيره وزاد قولاً آخر وهو: أنها للإيهام وبالنسبة إلى المخاطب، كقول القائل: أكلت خبزاً أو تمرأ وهو يعلم أيهما أكل، وقولاً آخر وهو أنها بمعنى قول القائل: أكلت حلواً أو حامضاً، أي: لا يخرج عن واحد منهما، أي: وقلوبكم صارت في قسوتها كالحجارة أو أشد قسوة منها لا يخرج عن واحد من هذين الشيئين والله أعلم.

وقال آخرون: «أو» ههنا بمعنى بل، تقديره^(٤): فهي كالحجارة بل أشد قسوة، وكقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧] ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧] ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩] وقال آخرون: معنى^(٥) ذلك ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ عندكم. حكاها ابن جرير.

وقال آخرون: المراد بذلك الإيهام على المخاطب، كما قال أبو الأسود:

(١) زيادة من ج ط، ب، أ، و. (٢) البيت في تفسير الطبري (٢٣٦/٢). (٣) البيت في تفسير الطبري (٢٣٦/٢).

(٤) في ج، ط، ب: «فتقديره». (٥) في ج: «بمعنى».

أحبَّ محمداً حباً شديداً وعباساً وحمزةً والوصيا^(١)

فإن يك حُبُّهم رشداً أصبه ولست^(٢) بمخطئٍ إن كان غيًّا^(٣)

قال ابن جرير: قالوا: ولا شك أن أبا الأسود لم يكن شاكاً في أن حُبَّ من سَمَّى رَشَدًا، ولكنه أبهم على من خاطبه، قال: وقد ذكر عن أبي الأسود أنه لما قال هذه الأبيات قيل له: شككت؟ فقال: كلا والله. ثم انتزع بقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]. فقال: أو كان شاكاً من أخبر بهذا في الهادي منهم من الضلال^(٤)؟

وقال بعضهم: معنى ذلك: فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثليين، إما أن تكون مثل الحجارة في القسوة وإما أن تكون أشد منها قسوة.

قال ابن جرير: ومعنى ذلك على هذا التأويل: فبعضها كالحجارة قسوة، وبعضها أشد قسوة من الحجارة. وقد رجحه ابن جرير مع توجيه غيره.

قلت: وهذا القول الأخير يبقى شبيهاً بقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] مع قوله: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩] وكقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩] مع قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ الآية [النور: ٤٠]، أى: إن منهم من هو هكذا، ومنهم من هو هكذا، والله أعلم.

قال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن أيوب، حدثنا محمد بن عبد الله بن أبي الثلج، حدثنا علي بن حفص، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن حاطب، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة القلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسى».

رواه الترمذى فى كتاب الزهد من جامعه، عن محمد بن عبد الله بن أبي الثلج، صاحب الإمام أحمد، به. ومن وجه آخر عن إبراهيم بن عبد الله بن الحارث بن حاطب، به، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم^(٥).

[وروى البزار عن أنس مرفوعاً: «أربع من الشقاء: جمود العين، وقسى القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا»^(٦)] ^(٧).

(١) فى ج، ط، ب: «أو علياً».

(٢) فى ج، ط، ب: «وليس».

(٣) البيتان فى تفسير الطبرى (٢/ ٢٣٥، ٢٣٦).

(٤) فى ج، ط، ب، و: «من الضال».

(٥) سنن الترمذى برقم (٢٤١١) وأورده الإمام مالك فى الموطأ (٢/ ٩٨٦) بلاغاً عن عيسى عليه السلام.

(٦) مسند البزار برقم (٣٢٣٠) من طريق هانئ بن المتوكل، عن عبد الله بن سليمان وأبان عن أنس به مرفوعاً، وقال البزار: «عبد الله ابن سليمان حدث بأحاديث لم يتابع عليها»، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٢٦): «وفيه هانئ بن المتوكل، وهو ضعيف».

(٧) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

﴿ أَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُفِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ أَتَطْمَعُونَ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ أى: ينقاد^(١) لكم بالطاعة، هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود، الذين شاهد آباؤهم^(٢) من الآيات البينات ما شاهدوه^(٣)، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾ أى: يتأولونه على غير تأويله ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ أى: فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله؟ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ [المائدة: ١٣].

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال: ثم قال الله تعالى لنبيه ﷺ، ولمن معه من المؤمنين يؤسهم منهم: ﴿ أَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ وليس قوله: ﴿ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾: يسمعون التوراة. كلهم قد سمعها. ولكنهم الذين سألوا موسى رؤية ربهم فأخذتهم الصاعقة فيها.

قال محمد بن إسحاق: فيما حدثني بعض أهل العلم أنهم قالوا لموسى: يا موسى، قد حيل بيننا وبين رؤية الله تعالى، فأسمعنا كلامه حين يكلمك. فطلب ذلك موسى إلى ربه تعالى فقال: نعم، مرهم فليطهروا، وليطهروا ثيابهم ويصوموا ففعلوا، ثم خرج بهم حتى أتوا الطور، فلما غشيهم الغمام أمرهم موسى أن يسجدوا، فوقعوا سجوداً، وكلمه ربه تعالى، فسمعوا^(٥) كلامه يأمرهم وينهاهم، حتى عقلوا عنه ما سمعوا. ثم انصرف بهم إلى بنى إسرائيل، فلما جاؤوهم حَرَفَ فريق منهم ما أمرهم به، وقالوا حين قال موسى لبنى إسرائيل: إن الله قد أمركم بكذا وكذا. قال ذلك الفريق الذين ذكرهم الله: إنما قال كذا وكذا خلافاً لما قال الله عز وجل لهم، فهم الذين عنى الله لرسوله ﷺ.

وقال السدى: ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾ قال: هي التوراة، حرفوها.

وهذا الذى ذكره السدى أعم مما ذكره ابن عباس وابن إسحاق، وإن كان قد اختاره ابن جرير لظاهر السياق. فإنه ليس يلزم من سماع كلام الله أن يكون منه^(٦)، كما سمعه الكلیم موسى بن

(١) فى ج، ط: «ينقادوا».
(٢) فى ج: «ما آتاهم».
(٣) فى ط: «ما شاهدوه».
(٤) فى أ: «من بعد» وهو خطأ.
(٥) فى ج، ط، ب: «فلما سمعوا».
(٦) فى ج: «لمن يكون منه»، وفى ط: «لمن تكون منه».

عمران، عليه الصلاة والسلام^(١)، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] أى: مبلّغاً إليه؛ ولهذا قال قتادة فى قوله: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قال: هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ووعوه.

وقال مجاهد: الذين يحرفونه والذين يكتمونونه هم العلماء منهم.

وقال أبو العالية: عمدوا إلى ما أنزل الله فى كتابهم، من نعت^(٢) محمد ﷺ، فحرفوه عن مواضعه.

وقال السدى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: أى أنهم أذنبوا. وقال ابن وهب: قال ابن زيد فى قوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ قال: التوراة التى أنزلها الله عليهم يحرفونها يجعلون الحلال فيها حراماً، والحرام فيها حلالاً، والحق فيها باطلاً، والباطل فيها حقاً؛ إذا جاءهم المحق برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل^(٣) برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب، فهو فيه محق، وإن جاءهم أحد يسألهم شيئاً ليس فيه حق، ولا رشوة، ولا شىء، أمروه بالحق، فقال الله لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

وقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ الآية.

قال محمد بن إسحاق: حدثنا محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾: أى بصاحبكم رسول الله، ولكنه إليكم خاصة. ﴿وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا﴾: لا تحدثوا العرب بهذا، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم، فكان منهم. فانزل الله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أى: تقرون بأنه نبي، وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه، وهو يخبرهم أنه النبي الذى كنا ننتظر، ونجد فى كتابنا. اجحدوه ولا تقروا به. يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: يعنى المنافقين من اليهود. كانوا إذا لقوا أصحاب محمد ﷺ قالوا: آمنا.

وقال السدى: هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا. وكذا قال الربيع بن أنس، وقتادة وغير واحد من السلف والخلف، حتى قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فيما رواه ابن وهب عنه: كان رسول الله ﷺ قد قال: «لا يدخلن»^(٤) علينا قسبة المدينة إلا مؤمن. فقال رؤسائهم^(٥) من أهل الكفر والنفاق: اذهبوا فقولوا: آمنا، واكفروا إذا رجعت إلينا، فكانوا يأتون المدينة بالبكر، ويرجعون إليهم بعد العصر. وقرأ قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ

(١) فى ج: «كما سمعه الكلیم علیه السلام»، وفى ط: «كما سمعه الكلیم موسى بن عمران علیه الصلاة والسلام».

(٢) فى ج، ط: «من نص». (٣) فى ج: «الباطل».

(٤) فى ج: «لا يدخل».

(٥) فى ج: «فقال رؤسائهم» وهو خطأ.

آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ [آل عمران: ٧٢] وكانوا يقولون، إذا دخلوا المدينة: نحن مسلمون. ليعلموا خبر رسول الله ﷺ وأمره. فإذا رجعوا رجعوا إلى الكفر. فلما أخبر الله نبيه ﷺ قطع ذلك عنهم فلم يكونوا يدخلون. وكان المؤمنون يظنون أنهم مؤمنون^(١)، فيقولون: أليس قد قال الله لكم كذا وكذا؟ فيقولون: بلى. فإذا رجعوا إلى قومهم [يعنى الرؤساء]^(٢) قالوا: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ الآية^(٣).

وقال أبو العالية: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعنى: بما أنزل عليكم فى كتابكم من نعت^(٤) محمد ﷺ.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ قال: كانوا يقولون: سيكون نبي. فخلا بعضهم إلى بعض^(٥)، فقالوا: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾^(٦).

قول آخر فى المراد بالفتح: قال ابن جريج: حدثنى القاسم بن أبى بزة، عن مجاهد، فى قوله تعالى: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ قال: قام النبى ﷺ يوم قريظة تحت حصونهم، فقال: «يا إخوان^(٧) القردة والخنازير، ويا عبدة الطاغوت»، فقالوا: من أخبر بهذا^(٨) الأمر محمداً؟ ما خرج هذا القول^(٩) إلا منكم ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بما حكم الله، للفتح، ليكون لهم حجة عليكم. قال ابن جريج، عن مجاهد: هذا حين أرسل إليهم علياً^(١٠)، فأذوا محمداً ﷺ.

وقال السدى: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ من العذاب ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا وكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذبوا به. فقال بعضهم لبعض: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ من العذاب، ليقولوا: نحن أحب إلى الله منكم، وأكرم على الله منكم.

وقال عطاء الخراسانى: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعنى: بما قضى [الله]^(١١) لكم وعليكم.

وقال الحسن البصرى: هؤلاء اليهود، كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض، قال بعضهم: لا تحدثوا أصحاب محمد بما فتح الله عليكم بما فى كتابكم، فيحاجوكم^(١٢) به عند ربكم، فيخصموكم.

(١) فى ج: «أنهم يؤمنون». (٢) زيادة من ج، ب، أ، و.

(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (٢/ ٢٥٤) عن يونس عن ابن وهب به.

(٤) فى أ: «من بعث». (٥) فى ج، ط، ب: «فخلا بعضهم ببعض».

(٦) تفسير عبد الرزاق (١/ ٧١).

(٧) فى ج: «يا إخوان». (٨) فى ج، ط، ب: «من أخبر هذا».

(٩) فى أ، و: «هذا الأمر». (١٠) فى ج: «حين أرسل علياً إليهم».

(١١) زيادة من ج، أ. (١٢) فى ج، ط، ب: «ليحاجوكم».

وقوله: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾: قال أبو العالية: يعنى ما أسروا من كفرهم بمحمد ﷺ وتكذيبهم به، وهو^(١) يجدونه مكتوباً عندهم. وكذا قال قتادة.

وقال الحسن: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ قال: كان ما أسروا أنهم كانوا إذا تولوا عن أصحاب محمد ﷺ وخلا بعضهم إلى بعض، تناهوا أن يخبر أحد^(٢) منهم أصحاب محمد ﷺ بما فتح الله عليهم مما فى كتابهم، خشية أن يحاجهم أصحاب محمد ﷺ بما فى كتابهم عند^(٣) ربهم. ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يعنى: حين قالوا لأصحاب محمد ﷺ: آمنا. وكذا قال أبو العالية، والربيع، وقاتدة.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ﴾ أى: ومن أهل الكتاب، قاله مجاهد: والأميون جمع أمى، وهو: الرجل الذى لا يحسن الكتابة، قاله أبو العالية، والربيع، وقاتدة، وإبراهيم النخعى، وغير واحد^(٤)، وهو ظاهر فى قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ [إِلَّا أَمَانِيَّ]﴾^(٥) أى: لا يدرون ما فيه. ولهذا فى صفات النبى ﷺ أنه أمى؛ لأنه لم يكن يحسن الكتابة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِمِثْنِكَ إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبِطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] وقال عليه الصلاة والسلام: «إنا أمة أمية، لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا» الحديث. أى: لا نفتقر فى عبادتنا ومواقفتها إلى كتاب ولا حساب وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

وقال ابن جرير: نسبت العرب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلى أمه فى جهله بالكتاب دون أبيه، قال: وقد روى عن ابن عباس، رضى الله عنهما^(٦)، قول خلاف هذا، وهو ما حدثنا به أبو كريب: حدثنا عثمان بن سعيد، عن بشر بن عمار، عن أبى روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، فى قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ﴾ قال: الأميون قوم لم يصدقوا رسولا أرسله الله، ولا كتاباً أنزله الله، فكتبوا كتاباً بأيديهم، ثم قالوا لقوم سَفَلَة جُهَال: ﴿هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾. وقال: قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم، ثم سماهم أميين، لجحودهم كتب الله ورسله. ثم قال ابن جرير: وهذا التأويل^(٧) على خلاف ما يعرف من كلام العرب المستفيض بينهم. وذلك أن الأمى عند العرب: الذى لا يكتب^(٨).

قلت: ثم فى صحة هذا عن ابن عباس، بهذا الإسناد، نظر. والله أعلم.

(١) فى ج، ط، ب، أ، و: «وهم». (٢) فى ج: «يخبروا واحداً»، وفى أ: «يخبروا أحد».

(٣) فى ج: «وعند». (٤) فى أ: «وإبراهيم النخعى وغيرهم».

(٥) زيادة من ج، ط، ب. (٦) فى ط: «رضى الله عنه».

(٧) فى ج، ط، ب، أ، و: «وهذا التأويل تأويل».

(٨) تفسير الطبرى (٢/ ٢٥٩).

قوله ^(١) تعالى: ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾: قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾: إلا أحاديث. وقال الضحاك، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ يقول: إلا قولا يقولونه بأفواههم كذباً. وقال مجاهد: إلا كذباً. وقال سنيد، عن حجاج، عن ابن جريج عن مجاهد: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾ قال: أناس من يهود لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئاً، وكانوا يتكلمون بالظن ^(٢) بغير ما في كتاب الله، ويقولون: هو من الكتاب، أمانى يتمنونها. وعن الحسن البصرى، نحوه.

وقال أبو العالية، والربيع وقتادة: ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ يتمنون على الله ما ليس لهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾، قال: تمنوا فقالوا: نحن من أهل الكتاب. وليسوا منهم.

قال ابن جرير: والأشبه بالصواب قول الضحاك عن ابن عباس، وقول مجاهد: إن الأميين الذين وصفهم الله أنهم لا يفقهون من الكتاب - الذى أنزل ^(٣) الله على موسى - شيئاً، ولكنهم يتخرصون الكذب ويتخرصون الأباطيل كذباً وزوراً. والتمنى فى هذا الموضع هو تخلق الكذب وتخرصه. ومنه الخبر المروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه: «ما تغنيت ولا تمنيت». يعنى ما تخرصت الباطل ولا اختلقت الكذب ^(٤).

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ولا يدرون ما فيه، وهم يجحدون ^(٥) نبوتك بالظن.

وقال مجاهد: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾: يكذبون.

وقال قتادة: وأبو العالية، والربيع: يظنون الظنون بغير الحق.

وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية: هؤلاء صنف ^(٦) آخر من اليهود، وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله، وأكل أموال الناس بالباطل.

والويل: الهلاك والدمار، وهى كلمة مشهورة فى اللغة. وقال سفيان الثورى، عن زياد بن فياض: سمعت أبا عياض يقول: ويل: صديد فى أصل جهنم.

وقال عطاء بن يسار. الويل: واد فى جهنم لو سيرت فيه الجبال لماعت.

(١) فى ج، ط: «وقوله».

(٢) فى ج: «يتكلمون الظن».

(٣) فى ج، ط، ب: «الذى أنزل».

(٤) تفسير الطبرى (٢/ ٢٦٢).

(٥) فى ج: «هو صنف».

(٦) فى أ، و: «وهم يجدون».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن درّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ، قال: «ويل واد في جهنم، يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره».

ورواه الترمذي عن عبد بن حميد، عن الحسن بن موسى، عن ابن لهيعة، عن دراج، به ^(١). وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة.

قلت: لم ينفرده به ابن لهيعة كما ترى، ولكن الآفة ممن بعده، وهذا الحديث بهذا الإسناد - مرفوعاً - منكر، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا المثنى، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام بن صالح العشيري ^(٢)، حدثنا علي ابن جرير، عن حماد بن سلمة، عن عبد الحميد بن جعفر، عن كنانة العدوي، عن عثمان بن عفان، عن رسول الله ﷺ: «فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ». قال: «الويل جبل في النار. وهو الذي أنزل في اليهود؛ لأنهم حرقوا التوراة، زادوا فيها ما أحبوا، ومحووا منها ما يكرهون، ومحووا اسم محمد ﷺ من التوراة. ولذلك غضب الله عليهم، فرفع بعض التوراة، فقال: «فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ»» ^(٣).

وهذا غريب أيضاً جداً.

[وعن ابن عباس: الويل: السعير من العذاب، وقال الخليل بن أحمد: الويل: شدة الشر، وقال سيويه: ويل: لمن وقع في الهلكة، ويوح لمن أشرف عليها، وقال الأصمعي: الويل: تفجع والويل ترحم، وقال غيره: الويل الحزن ^(٤). وقال الخليل: وفي معنى ويل: ويح وويش وويه وويك وويب، ومنهم من فرق بينها، وقال بعض النحاة: إنما جاز الابتداء بها وهي نكرة؛ لأن فيها معنى الدعاء، ومنهم من جوز نصبها، بمعنى: الزمهم ويلاً. قلت: لكن لم يقرأ بذلك أحداً ^(٥).

وعن عكرمة، عن ابن عباس: «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ» قال: هم أحبار اليهود. وكذا قال سعيد، عن قتادة: هم اليهود.

وقال سفيان الثوري، عن عبد الرحمن بن علقمة: سألت ابن عباس عن قوله تعالى: «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ» قال: نزلت في المشركين وأهل الكتاب.

وقال السدي: كان ناس من اليهود كتبوا كتاباً من عندهم، يبيعونه من العرب، ويحدثونهم أنه من عند الله، ليأخذوا ^(٦) به ثمناً قليلاً.

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢٤٣ / ١) وسنن الترمذي برقم (٣١٦٤).

(٢) في ج: «العيري».

(٣) تفسير الطبري (٢ / ٢٦٨).

(٤) في أ: «الخوف».

(٥) زيادة من ج، ط، ب.

(٦) في ج، ط، ب: «فياخذوا».

وقال الزهري: أخبرني عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس أنه قال: يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيه، أحدث أخبار الله تقرؤونه^(١) محضاً^(٢) لم يشب؟ وقد حدثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً؛ أفلا^(٣) ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مُساءلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذي أنزل إليكم. رواه البخاري^(٤) من طرق عن الزهري.

وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: الثمن القليل: الدنيا بحذافيرها.

وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّهِ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ أي: فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب^(٥) والبهتان، والافتراء، وويل لهم مما أكلوا به من السحت، كما قال الضحاك عن ابن عباس: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ﴾ يقول: فالعذاب عليهم، من الذي كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب، ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ يقول: مما يأكلون به الناس السفلة وغيرهم.

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٠).

يقول تعالى إخباراً عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم، من أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينجون منها، فرد الله عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾^(٦) أي: بذلك؟ فإن كان قد وقع عهد فهو لا يُخْلِفُ عهده^(٧).

ولكن هذا ما جرى ولا كان. ولهذا أتى بـ «أم» التي بمعنى: بل، أي: بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه.

قال^(٨) محمد بن إسحاق، عن سيف بن سليمان^(٩)، عن مجاهد، عن ابن عباس: أن اليهود كانوا يقولون: هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نُعَذَّبُ بكل ألف سنة يوماً في النار، وإنما هي سبعة أيام معدودة^(١٠). فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ إلى قوله: ﴿خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢].

ثم رواه عن محمد، عن سعيد - أو عكرمة - عن ابن عباس، بنحوه.

وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾: اليهود قالوا^(١١): لن

(١) في ط: «يعرفونه»، وفي و: «تعرفونه». (٢) في ج، ط، و: «غضاً».

(٣) في ج: «أفلم».

(٤) صحيح البخاري برقم (٧٣٦٣، ٧٥٢٣، ٢٦٨٥).

(٥) في ج: «من الكتب». (٦) بعدها في ج: «فلن يخلف الله عهده».

(٧) في ج، ط، ب، أ، و: «وعده». (٨) في ج، ط: «وقال».

(٩) في ج: «سلمان». (١٠) في ج، ط، ب، أ، و: «أيام معدودات». (١١) في ج: «وقالوا».

تمسنا النار إلا أربعين ليلة، [زاد غيره: هي مدة عبادتهم العجل، وحكاها القرطبي عن ابن عباس وقتادة^(١)].

وقال الضحاك: قال ابن عباس: زعمت اليهود أنهم وجدوا في التوراة مكتوباً: أن ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة، إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم، التي هي نابتة في أصل الجحيم. وقال أعداء الله: إنما نعذب حتى ننتهي إلى شجرة الزقوم فنذهب جهنم وتهلك. فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ يعني: الأيام التي عبدنا فيها العجل^(٢).

وقال عكرمة: خاضعت اليهود رسول الله ﷺ^(٣)، فقالوا: لن ندخل النار إلا أربعين ليلة، وسيخلفنا إليها^(٤) قوم آخرون، يعنون^(٥) محمداً ﷺ وأصحابه، فقال رسول الله ﷺ بيده على رؤوسهم: «بل أنتم خالدون مخلدون لا يخلفكم إليها أحد». فأنزل الله: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ الآية.

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه رحمه الله: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا محمد بن محمد بن صخر، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا ليث بن سعد، حدثني سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم، فقال^(٦) رسول الله ﷺ: «اجمعوا لى من كان من اليهود ههنا» فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أبوكم؟» قالوا: فلان^(٧). قال: «كذبتكم، بل أبوكم فلان». فقالوا: صدقت وبررت، ثم قال لهم: «هل أنتم صادقون عن شيء إن سألتكم عنه؟». قالوا: نعم، يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفت في أبينا. فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أهل النار؟» فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها. فقال لهم رسول الله ﷺ: «اخشؤا، والله لا نخلفكم فيها أبداً». ثم قال لهم رسول الله ﷺ: «هل أنتم صادقون عن شيء إن سألتكم عنه؟». قالوا: نعم يا أبا القاسم. فقال: «هل جعلتم في هذه الشاة سم؟». فقالوا: نعم. قال^(٨): «فما حملكم على ذلك؟». فقالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك.

ورواه أحمد، والبخارى، والنسائي، من حديث الليث بن سعد، بنحوه^(٩).

(١) زيادة من ج، ط، ب، و.

(٢) تفسير عبد الرزاق (١ / ٧١، ٧٢).

(٣) في ج: «رسول الله ﷺ وأصحابه».

(٤) في ج، ط، أ، و: «يعنى»، وفي ب: «تعنى».

(٤) في ج: «فيها».

(٦) في ط، ب: «فقال لهم».

(٨) في ج، ط، ب: «فقال».

(٧) في ج: «قالوا: أبونا فلان».

(٩) المسند (٢ / ٤٥١) وصحيح البخارى برقم (٣١٦١، ٤٢٤٩) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٣٥٥).

﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨١)
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾.

يقول تعالى: ليس الأمر كما تمنيتم، ولا كما تشتهون، بل الأمر: أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته، وهو من وافى يوم القيامة وليس له حسنة، بل جميع عمله سيئات، فهذا من أهل النار، والذين آمنوا بالله ورسوله^(١)، وعملوا الصالحات - من العمل الموافق للشرعية - فهم^(٢) من أهل الجنة. وهذا المقام شبيهه بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا. وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤].

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن سعيد - أو عكرمة - عن ابن عباس: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ أى: عمل مثل أعمالكم، وكفر بمثل ما كفرتم به، حتى يحيط به كفره^(٣)، فماله من حسنة.

وفى رواية عن ابن عباس، قال: الشرك.

قال ابن أبي حاتم: وروى عن أبي وائل، وأبي العالية، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، نحوه^(٤).

وقال الحسن - أيضاً - والسدى: السيئة: الكبيرة من الكبائر.

وقال ابن جريج، عن مجاهد: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ قال: بقلبه.

وقال أبو هريرة، وأبو وائل، وعطاء، والحسن: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ قالوا: أحاط به شركه.

وقال الأعمش، عن أبي رزين، عن الربيع بن خثيم: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾، قال: الذى يموت على خطايا^(٥) من قبل أن يتوب. وعن السدى، وأبي رزين، نحوه.

وقال أبو العالية، ومجاهد، والحسن، فى رواية عنهما، وقتادة، والربيع بن أنس: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾: الكبيرة الموجبة.

وكل هذه الأقوال متقاربة فى المعنى، والله أعلم. ويذكر ههنا الحديث الذى رواه الإمام أحمد حيث قال:

حدثنا سليمان بن داود، حدثنا عمرو بن قتادة^(٦)، عن عبد ربه، عن أبي عياض، عن عبد الله

(١) فى أ: «ورسله».

(٢) فى ج، ط، ب، أ، و: «فهم».

(٣) فى ج: «فمتى يحيط عمله».

(٤) فى ج: «بنحوه».

(٥) فى أ، و: «على خطايا».

(٦) فى أ: «عن عمر بن صادق».

ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «يَاكُمْ ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه». وإن رسول الله ﷺ ضرب لهنّ مثلاً، كمثّل قوم نزلوا بأرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود، والرجل يجىء بالعود، حتى جمعوا سواداً^(١)، وأججوا ناراً، فأنضجوا ما قذفوا فيها^(٢).

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد، عن سعيد - أو عكرمة - عن ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: أى من آمن بما كفرتم به، وعمل بما تركتم من دينه، فلهم الجنة خالدون فيها. يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله، لا انقطاع له أبداً^(٣).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ
وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٨٣).

يُذَكِّرُ تبارك وتعالى بنى إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر، وأخذ ميثاقهم على ذلك، وأنهم تولوا عن ذلك كله، وأعرضوا قصداً وعمداً، وهم يعرفونه ويذكرونه، فأمرهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. وبهذا أمر جميع خلقه، ولذلك خلقهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تعالى، أن يعبد وحده لا شريك له، ثم بعده حق المخلوقين، وأكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين، ولهذا يقرن الله تعالى بين حقه وحق الوالدين، كما قال تعالى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْ أَلَدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤] وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية إلى أن قال: ﴿وَآتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٦]. وفى الصحيحين، عن ابن مسعود، قلت: يا رسول الله، أى العمل أفضل؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أى؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أى؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله»^(٤). ولهذا جاء فى الحديث الصحيح: أن رجلاً قال: يا رسول الله، من أبر؟ قال: «أملك». قال: ثم من؟ قال: «أملك». قال: ثم من؟ قال: «أباك». ثم أدناك أدناك^(٥).

(١) فى ج: «جمعوا أعوداً».

(٢) المسند (١/ ٤٠٢).

(٣) فى ج، ط، ب: «أبداً لا انقطاع له».

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٢٧، ٥٩٧٠، ٧٥٣٤) وصحيح مسلم برقم (٨٥).

(٥) فى ط: «ثم قال من».

(٦) جاء من حديث معاوية بن حيدة، رواه أبو داود فى السنن برقم (٥١٣٩)، ومن حديث كليب بن منفعة عن أبيه عن جده، رواه =

[وقوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾: قال الزمخشري: خبر بمعنى الطلب، وهو أكد. وقيل: كان أصله: ألا تعبدوا كما قرأها بعض السلف^(١)، فحذفت أن فارتفع، وحكى عن أبي وابن مسعود، رضى الله عنهما، أنهما قرأها: «لا تعبدوا إلا الله». وقيل: ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ مرفوع على أنه قسم، أى: والله لا تعبدون إلا الله، ونقل هذا التوجيه القرطبي فى تفسيره عن سيويه. وقال: اختاره المبرد والكسائي والفراء^(٢).

قال: ﴿وَالْيَتَامَى﴾ وهم: الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء. [وقال أهل اللغة: اليتيم فى بنى آدم من الآباء، وفى البهائم من الأم، وحكى الماوردي أن اليتيم أطلق فى بنى آدم من الأم أيضاً]^(٣). ﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾: الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم، وسيأتى الكلام على هذه الأصناف عند آية النساء، التى أمرنا الله تعالى بها صريحاً فى قوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية [النساء: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أى: كلموهم طيباً، ولينوا لهم جانباً، ويدخل فى ذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالمعروف، كما قال الحسن البصرى فى قوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾: فالْحُسْنُ من القول: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحلم، ويعفو، ويصفح، ويقول للناس حسناً كما قال الله، وهو كل خُلُق حسن رضىه الله.

وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا أبو عامر الخزاز، عن أبي عمران الجوني، عن عبد الله ابن الصامت، عن أبي ذر، رضى الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، وإن لم نجد فالق أخاك بوجه منطلق^(٤)».

وأخرجه مسلم فى صحيحه، والترمذى [وصححه]^(٥)، من حديث أبي عامر الخزاز، واسمه صالح بن رستم، به^(٦).

وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسناً، بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل، فجمع بين طرفى الإحسان الفعلى والقولى. ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمُعِين^(٧) من ذلك، وهو الصلاة والزكاة، فقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله، أى: تركوه وراء ظهورهم، وأعرضوا عنه على عمد بعد العلم به، إلا القليل منهم، وقد أمر تعالى هذه الأمة بنظير ذلك فى سورة النساء، بقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا

= أبو داود فى السنن برقم (٥١٤٠).

(١) فى أ: «كما قرأها من قرأها من السلف».

(٢) زيادة من ج، ط، ب، أ.

(٣) زيادة من ج، ط، ب، أ.

(٤) فى ط: «بوجه طلق».

(٥) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٦) المسند (٥/ ١٧٣) وصحيح مسلم برقم (٢٦٢٦) وسنن الترمذى برقم (١٨٣٣).

(٧) فى ج، ط، ب، أ، و: «بالمُعِين».

مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ [النساء: ٣٦] فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمة من الأمم قبلها، والله الحمد والمنة.

ومن النقول الغريبة ههنا ما ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره:

حدثنا أبي، حدثنا محمد بن خلف العسقلاني، حدثنا عبد الله بن يوسف - يعنى التَّيْسِي - حدثنا خالد بن صبيح، عن حميد بن عقبة، عن أسد بن وداعة: أنه كان يخرج من منزله فلا يلقى يهودياً ولا نصرانياً إلا سلم عليه، ف قيل له: ما شأنك؟ تسلم على اليهودى والنصرانى. فقال: إن الله يقول: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ وهو: السلام. قال: وروى عن عطاء الخراسانى، نحوه.

قلت: وقد ثبت فى السنة أنهم لا يبدؤون بالسلام، والله أعلم^(١).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تَفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ (٨٦)﴾.

يقول، تبارك وتعالى، منكراً على اليهود الذين كانوا فى زمان رسول الله ﷺ بالمدينة، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج، وذلك أن الأوس والخزرج، وهم الأنصار، كانوا فى الجاهلية عبّاد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل: بنو قينقاع. وبنو النضير حلفاء الخزرج. وبنو قريظة حلفاء الأوس. فكانت الحرب إذا نشبت^(٢) بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودى أعداءه، وقد يقتل اليهودى الآخر من الفريق الآخر، وذلك حرام عليه فى دينه ونص كتابه. ويخرجونهم من بيوتهم وينهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكوا الأسارى من الفريق المغلوب، عملاً بحكم التوراة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفْتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أى: لا يقتل بعضكم بعضاً، ولا يخرج من منزله، ولا يظاهر عليه، كما قال تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه برقم (٢١٦٦) عن أبى هريرة، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم فى طريق فاضطروه إلى أضيقه».

(٢) فى أ: «نشبت».

بَارِئِكُمْ ﴿﴾، [البقرة: ٥٤] وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحصى والسهر».

[وقوله] ^(١): ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أى: ثم أقررتكم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به.

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أَسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾، قال محمد بن إسحاق بن يسار: حدثني محمد بن أبى محمد، عن سعيد بن جبير - أو عكرمة - عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية، قال: أنبهم الله ^(٢) من فعلهم، وقد حرّم عليهم فى التوراة سفك دمائهم ^(٣)، وافترض عليهم فيها فداء أسراهم، فكانوا فريقين: طائفة منهم بنو قينقاع وإنهم ^(٤) حلفاء الخزرج، والنضير، وقريظة وإنهم ^(٥) حلفاء الأوس، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرجت النضير وقريظة مع الأوس، يظاهر ^(٦) كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه، حتى يتسافكوا دماءهم بينهم، وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم وما لهم. والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان، ولا يعرفون جنة ولا ناراً، ولا بعثاً ولا قيامة، ولا كتاباً، ولا حلالاً ولا حراماً، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم، تصديقاً لما فى التوراة، وأخذاً به؛ بعضهم من بعض، يفتدى بنو قينقاع ما كان من أسراهم فى أيدي ^(٧) الأوس، ويفتدى النضير وقريظة ما كان فى أيدي ^(٨) الخزرج منهم، ويطلقون ^(٩) ما أصابوا من دمائهم ^(١٠)، وقتلى من قتلوا منهم فيما بينهم، مظاهرة لأهل الشرك عليهم. يقول الله تعالى ذكره حيث أنبهم ^(١١) بذلك: ﴿أَفْتَرِشُونَ بَعْضُ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ أى: يفاديه بحكم التوراة ويقتله، وفى حكم التوراة ألا يفعل، ولا يخرج ^(١٢) من داره، ولا يُظَاهَر عليه من يُشرك بالله، ويعبد الأوثان من دونه، ابتغاء عرض الدنيا. ففى ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج - فيما بلغنى - نزلت هذه القصة ^(١٣).

وقال أسباط عن السدى: كانت قريظة حلفاء الأوس، وكانت النضير حلفاء الخزرج، فكانوا يقتتلون فى حرب سُمَيْرٍ، فيقاتل بنو قريظة مع حلفائهم النضير وحلفاءهم، وكانت النضير تقاتل قريظة

(٢) فى ج، ط، ب، أ، و: «أنبأهم الله بذلك».

(١) زيادة من ج، ط، أ.

(٣) فى ج: «سفك الدماء».

(٤، ٥) فى ج: «وهم».

(٧، ٨) فى ج: «يدى».

(٦) فى ج، ط، ب: «فظاهر».

(١٠) فى ج، ط، ب، أ، و: «من الدماء وقتلوا».

(٩) فى ج، ط، أ: «يطلبون».

(١٢) فى ج، ط، ب: «ويخرجه».

(١١) فى ج، ط، ب، أ، و: «حين أنبأهم».

(١٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٤٠) وتفسير الطبرى (٢/ ٣٠٥).

وحلفاءها، ويغلبونهم، فيخربون ديارهم، ويخرجونهم منها، فإذا أسر رجل من الفريقين كليهما، جمعوا له حتى يفدوه. فتعيرهم العرب بذلك، ويقولون: كيف تقاتلونهم وتفدونهم؟ قالوا: إنا أمرنا أن نفديهم، وحرّم علينا قتالهم، قالوا: فلم تقاتلونهم؟ قالوا: إنا نستحي أن نستذلّ حلفاؤنا^(١). فذلك حين عيرهم الله، فقال: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾.

وقال شعبة، عن السدي: نزلت هذه الآية في قيس بن الخطيم: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

وقال أسباط، عن السدي، عن عبد خير، قال: غزونا مع سلمان بن ربيعة الباهلي بَلَنْجَر^(٢)، فحاصرنا أهلها ففتحنا المدينة وأصبنا سبايا واشترى عبد الله بن سلام يهودية بسبعمئة، فلما مرّ برأس الجالوت نزل به، فقال له عبد الله: يا رأس الجالوت، هل لك في عجز ههنا من أهل دينك، تشتريها مني؟ قال: نعم. قال: أخذتها بسبعمئة درهم. قال: فإني أربحك سبعمئة أخرى. قال: فإني قد حلفت ألا أنقصها من أربعة آلاف. قال: لا حاجة لي فيها، قال: والله لتشتريها مني، أو لتكفرن بدينك الذي أنت عليه. قال: أدن مني، فدنا منه، فقرأ في أذنه التي في التوراة: إنك لا تجد مملوكاً من بني إسرائيل إلا اشتريته فأعتقته ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أَسَارَى تَفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾، قال: أنت عبد الله بن سلام؟ قال: نعم. قال: فجاء بأربعة آلاف، فأخذ عبد الله ألفين، ورد عليه ألفين.

وقال آدم بن أبي إياس في تفسيره: حدثنا أبو جعفر يعني الرازي، حدثنا الربيع بن أنس، أخبرنا أبو العالية: أن عبد الله بن سلام مر على رأس الجالوت بالكوفة، وهو يفادي من النساء من لم يقع عليها العرب، ولا يفادي من وقع عليها العرب، فقال^(٣) عبد الله بن سلام: أما إنه مكتوب عندك في كتابك أن تفاديهم كلهن.

والذي أرشدت إليه الآية الكريمة، وهذا السياق، ذم اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها، ومخالفة شرعها، مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة، فلماذا لا يؤمنون على ما فيها ولا على نقلها، ولا يصدقون فيما يكتُمونه من صفة رسول الله^(٤) ﷺ ونعته، ومبعثه ومخرجه، ومهاجره، وغير ذلك من شئونه، التي قد أُخبرَتْ بها الأنبياء قبله. واليهود عليهم لعائن الله يتكاثرون بينهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ جزاء على ما كتموه من كتاب الله الذي بأيديهم ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ﴿أَي: استحَبُّوها على الآخرة واختاروها﴾ ﴿فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ أي: لا يفتر عنهم ساعة واحدة ﴿وَلَا

(١) في أ، و: «نستذل بحلفائنا».

(٢) في ج: «بكنجر».

(٣) في ج، ط، ب، أ، و: «فقال له».

(٤) في ج: «صفة محمد».

هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٨٧﴾ أى: وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدى، ولا يجيرهم منه.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (٨٧).

ينعت، تبارك وتعالى، بنى إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة، والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم، فذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب - وهو التوراة - فحرفوها وبدلوها، وخالفوا أوامرها وأولوها. وأرسل الرسل والنبیین من بعده الذين يحكمون بشريعته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ الآية [المائدة: ٤٤]، ولهذا قال: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ قال السدى، عن أبى مالك: أتبعنا. وقال غيره: أردفنا. والكل قريب، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ [المؤمنون: ٤٤] حتى ختم أنبياء بنى إسرائيل بعيسى ابن مريم، فجاء بمخالفة التوراة فى بعض الأحكام، ولهذا أعطاه الله من البينات، وهى: المعجزات. قال ابن عباس: من إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله، وإبرائه الأسقام، وإخباره بالغيوب، وتأييده بروح القدس، وهو جبريل عليه السلام - ما يدلهم^(١) على صدقه فيما جاءهم به. فاشتد تكذيب بنى إسرائيل له وحسداهم وعنادهم لمخالفة التوراة فى البعض، كما قال تعالى إخباراً عن عيسى: ﴿وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ٥٠]. فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء عليهم السلام^(٢) أسوأ المعاملة، ففريقاً يكذبونه. وفريقاً يقتلونه، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم وبإلزامهم بأحكام التوراة التى قد تصرفوا فى مخالفتها، فلهذا كان يشق ذلك عليهم، فيكذبونهم، وربما قتلوا بعضهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

والدليل على أن روح القدس هو جبريل، كما نص عليه ابن مسعود فى تفسير هذه الآية، وتابعه على ذلك [ابن عباس و]^(٣) محمد بن كعب القرظى، وإسماعيل بن أبى خالد، والسدى، والربيع بن أنس، وعطية العوفى، وقتادة مع قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. [بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ]﴾^(٤) [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥] ما قال البخارى: وقال ابن أبى الزناد، عن أبيه، عن عروة، عن عائشة: إن رسول الله ﷺ وضع لسان بن ثابت منبراً فى المسجد، فكان ينافح عن رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيك»^(٥). وهذا من

(١) فى ج، ط، ب، أ، و: «يدلهم به».

(٢) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٣) فى ج: «عليهم الصلاة والسلام».

(٤) فى ج، ط، ب، أ، و: «عن نبيه».

(٥) زيادة من ج.

البخارى تعليق^(١).

وقد رواه أبو داود في سننه، عن لُؤين، والترمذى، عن على بن حجر، وإسماعيل بن موسى الفزارى، ثلاثهم عن عبد الرحمن بن أبى الزناد، عن أبيه وهشام بن عروة، كلاهما عن عروة، عن عائشة به^(٢). وقال الترمذى: حسن صحيح، وهو حديث أبى الزناد^(٣).

وفى الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة: أن عمر مر بحسان، وهو ينشد الشعر فى المسجد^(٤)، فلحظ إليه، فقال: قد كنت أنشد فيه، وفيه من هو خير منك. ثم التفت إلى أبى هريرة، فقال: أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول: أجب عنى، اللهم أیده بروح القدس؟. فقال: اللهم نعم^(٥).

وفى بعض الروايات: أن رسول الله ﷺ قال لحسان: «أهجهم - أو: هاجهم - وجبريل معك». [وفى شعر حسان قوله:

وجبريل رسول الله ينادى وروح القدس ليس به خفاء]^(٦)

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حسين المكى، عن شهر بن حوشب الأشعرى: أن نفرأ من اليهود سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: أخبرنا عن الروح. فقال: «أنشدكم بالله وبأيامه^(٧) عند بنى إسرائيل، هل تعلمون أنه جبريل؟ وهو الذى يأتينى؟» قالوا: نعم^(٨).

[وفى صحيح ابن حبان أظنه عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إن روح القدس نفخ^(٩) فى روعى: إن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب»^(١٠)] ^(١١).

أقوال أخرى:

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا منجاب بن الحارث، حدثنا بشر، عن أبى روق، عن الضحاك، عن ابن عباس: ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ قال: هو الاسم الأعظم الذى كان عيسى يُحى به

(١) وكذا عزاه المزي فى تحفة الاشراف (١٢ / ١٠) للبخارى، وقال الحافظ ابن حجر فى «النكت الطراف»: «لم أر هذا الموضع فى صحيح البخارى، وقد وصله أحمد والطبرانى ووصحه الحاكم».

(٢) سنن أبى داود برقم (٥٠١٥) وسنن الترمذى برقم (٢٨٤٦).

(٣) فى ط، ب، أ، و: «وهو حديث ابن أبى الزناد».

(٤) فى جـ: «وهو فى المسجد ينشد».

(٥) صحيح البخارى برقم (٣٢١٢) وصحيح مسلم برقم (٢٤٨٥).

(٦) زيادة من جـ، ط، ب، أ.

(٧) فى جـ، أ: «وبآياته».

(٨) ورواه الطبرى فى تفسيره (٢ / ٣٢٠) من طريق سلمة عن ابن إسحاق به.

(٩) فى و: «نفث».

(١٠) ورواه البغوى فى شرح السنة (١٤ / ٣٠٤) من طريق أبى عبيد عن هشيم عن إسماعيل بن أبى خالد عن زبيد الياضى، عن أخبره، عن ابن مسعود به مرفوعاً.

(١١) زيادة من جـ، ط، ب، و.

الموتى. وقال ابن جرير: حدثت عن المنجاب. فذكره. قال ابن أبي حاتم: وروى عن سعيد بن جبير نحو ذلك. [ونقله القرطبي عن عبيد بن عمير - أيضاً - قال: وهو الاسم الأعظم^(١)].

وقال ابن أبي نجيع: الروح هو حفظة على الملائكة.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس: القدس هو الرب تبارك وتعالى. وهو قول كعب. وقال السدي: القدس: البركة. وقال العوفي، عن ابن عباس: القدس: الطهر.

[وحكى القرطبي عن مجاهد والحسن البصري أنهما قالا: القدس: هو الله تعالى، وروحه: جبريل، فعلى هذا يكون القول الأول]^(٢).

وقال ابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب قال: قال ابن زيد^(٣) في قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ قال: أيد الله عيسى بالإنجيل روحاً كما جعل القرآن روحاً، كلاهما روح من الله، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

ثم قال ابن جرير: وأولى التأويلات في ذلك بالصواب قول من قال: الروح في هذا الموضع جبريل، لأن الله، عز وجل، أخبر أنه أيد عيسى به، كما أخبر في قوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ الآية [المائدة: ١١٠]. فذكر أنه أيد به، فلو كان الروح الذي أيد به هو الإنجيل، لكان قوله: ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ تكرير قول لا معنى له، والله أعز أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به.

قلت: ومن الدليل على أنه جبريل ما تقدم في أول السياق؛ والله الحمد^(٤).

وقال الزمخشري ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾: بالروح المقدسة، كما يقول: حاتم الجود ورجل صدق ووصفها بالقدس كما قال: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ فوصفه بالاختصاص والتقريب تكريمة، وقيل: لأنه لم تضمه الأصلاب والأرحام الطوامث، وقيل: بجبريل، وقيل: بالإنجيل، كما قال في القرآن: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقيل باسم الله الأعظم الذي كان يحيى الموتى بذكره، وتضمن كلامه قولاً آخر وهو أن المراد روح عيسى نفسه المقدسة المطهرة.

وقال الزمخشري في قوله: ﴿فَفَرِّقِيَا كَذَبَتَهُمْ وَفَرِّقِيَا قَتْلَوْنَ﴾: إنما لم يقل: وفريقاً قتلتم؛ لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل - أيضاً - لأنهم حاولوا قتل النبي ﷺ بالسم والسحر، وقد قال، عليه السلام، في مرض موته: «ما زالت أكلة خبير تعاودني فهذا أوان انقطاع أبهري»، وهذا الحديث في صحيح البخارى وغيره^(٥).

(١) زيادة من ج، ط، ب، أ، و. (٢) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٣) في ج: «قال ابن أبي زيد». (٤) في ج، ط: «والله الحمد والمنة».

(٥) صحيح البخارى برقم (٢٦١٧) وصحيح مسلم برقم (٢١٩٠).

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٨).

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أى: فى أكنة.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أى: لا تفقه.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [قال^(١)]: هى القلوب المطبوع عليها.

وقال مجاهد: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾: عليها غشاوة.

وقال عكرمة: عليها طابع. وقال أبو العالية: أى لا تفقه. وقال السدى: يقولون: عليها غلاف، وهو الغطاء.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ هو كقوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فى قوله: ﴿غُلْفٌ﴾ قال: يقول: قلبى فى غلاف فلا يَخْلُصُ إليه ما تقول، قرأ^(٢): ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾.

وهذا هو الذى رجحه ابن جرير، واستشهد مما روى من حديث عمرو بن مرة الجملى، عن أبى البختري، عن حذيفة، قال: القلوب أربعة. فذكر منها: وقلب أغلف مغضوب عليه، وذاك قلب الكافر.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الرحمن العرزمى، أنبأنا أبى، عن جدى، عن قتادة، عن الحسن فى قوله: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قال: لم تختن.

هذا^(٣) القول يرجع معناه إلى ما تقدم من عدم طهارة قلوبهم، وأنها بعيدة من الخير. قول آخر:

قال الضحاك، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قال قالوا: قلوبنا مملوءة علماً لا تحتاج إلى علم محمد، ولا غيره.

وقال عطية العوفى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أى: أوعية للعلم.

وعلى هذا المعنى جاءت قراءة بعض الأنصار^(٤)، فيما حكاه ابن جرير: «وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ» بضم اللام، أى: جمع غلاف، أى: أوعية، بمعنى أنهم ادعوا^(٥) أن قلوبهم مملوءة بعلم لا يحتاجون معه إلى علم آخر. كما كانوا يَمُنُّون^(٦) بعلم التوراة.

ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾، أى: ليس الأمر كما ادعوا بل

(٣) فى ج، ط، ب: «وهذا».

(٦) فى أ: «كما كانوا يكتُمون».

(٢) فى ج، ط، ب: «وقرأ».

(٥) فى ج: «أنهم زعموا».

(١) زيادة من ج، ط.

(٤) فى أ، و: «بعض الأمصار».

قلوبهم ملعونة مطبوع عليها، كما قال في سورة النساء: ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٥٥].

وقد اختلفوا في معنى قوله: ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ وقوله: ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، فقال بعضهم: فقليل من يؤمن منهم [واختاره فخر الدين الرازي وحكاه عن قتادة والأصم وأبى مسلم الأصبغاني]^(١) وقيل: فقليل إيمانهم. بمعنى أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد والثواب والعقاب، ولكنه إيمان لا ينفعهم، لأنه مخمور بما كفروا به من الذي جاءهم به محمد ﷺ.

وقال بعضهم: إنهم كانوا غير مؤمنين بشيء، وإنما قال: ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ وهم بالجميع كافرون، كما تقول العرب: قلما رأيت مثل هذا قط. تريد: ما رأيت مثل هذا قط. [وقال الكسائي: تقول العرب: من زنى بأرض قلما تنبت، أى: لا تنبت شيئاً]^(٢).

حكاه^(٣) ابن جرير، والله أعلم.

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٨٩).

يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ يعني اليهود ﴿ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ وهو: القرآن الذى أنزل على محمد ﷺ ﴿ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ يعنى: من التوراة، وقوله: ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى: وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، يقولون: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم، كما قال محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عُمَر بن قتادة الأنصارى، عن أشياخ منهم قال: قالوا: فينا والله وفيهم - يعنى فى الأنصار - وفى اليهود الذين كانوا جيرانهم، نزلت هذه القصة يعنى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ قالوا^(٤): كنا قد علوناهم دهرًا فى الجاهلية، ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب، فكانوا يقولون: إن نبيًا من [الأنبياء]^(٥) يبعث الآن نتبعه، قد أظل زمانه، نقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما بعث الله رسوله من قريش [واتبعناه]^(٦) كفروا به. يقول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾.

وقال الضحاك، عن ابن عباس، فى قوله: ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾، قال: يستظهرون يقولون: نحن نعين محمدًا عليهم، وليسوا كذلك، يكذبون.

(١) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٢) فى ج، ط، ب: «قال».

(٣) فى ج، ط، ب: «حكاها».

(٤) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٥) زيادة من ج.

وقال محمد بن إسحاق: أخبرني محمد بن أبي محمد، أخبرني عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن يهود^(١) كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه. فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه. فقال لهم معاذ بن جبل، وبشر بن البراء بن معرور، أخو بني سلمة^(٢): يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون عليها بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفوننا لنا بصفته. فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٣).

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يقول: يستنصرون بخروج محمد ﷺ على مشركي العرب - يعني بذلك أهل الكتاب - فلما بعث محمد ﷺ ورأوه من غيرهم كفروا به وحسدوه.

وقال أبو العالية: كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركي العرب، يقولون: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوباً عندنا حتى نعذب المشركين ونقتلهم. فلما بعث الله محمداً ﷺ، ورأوا أنه^(٤) من غيرهم، كفروا به حسداً للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ؛ فقال الله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

وقال قتادة: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: كانوا يقولون: إنه سيأتي نبي. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾.

وقال مجاهد: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ قال: هم اليهود.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، عن محمود بن لبيد، أخى بنى عبد الأشهل عن سلمة بن سلامة بن وقش، وكان من أهل بدر قال: كان لنا جار يهودى فى بنى عبد الأشهل قال: فخرج علينا يوماً من بيته قبل مبعث رسول الله ﷺ بيسير، حتى وقف على مجلس بنى عبد الأشهل. قال سلمة: وأنا يومئذ أحدث من فيهم سناً على بردة مضطجعا فيها بفناء أصلى. فذكر البعث والقيامة والحسنات والميزان والجنة والنار. قال ذلك لأهل شرك أصحاب أوثان لا يرون بعثاً كائناً بعد الموت، فقالوا له: ويحك يا فلان، ترى هذا كائناً أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار، يجوزون فيها بأعمالهم؟ فقال: نعم، والذي يحلف به، لود أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور فى الدنيا يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبق به عليه، وأن ينجو من تلك النار غداً. قالوا له: ويحك وما آية ذلك؟ قال: نبي

(١) فى ج، ط، ب، أ، و: «أن يهوداً». (٢) فى ج، ط، ب، أ، و: «وداود بن سلمة».

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٤٧) وتفسير الطبرى (٢/ ٢٣٣).

(٤) فى ج: «ورأوه».

يبحث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكة واليمن. قالوا: ومتى نراه؟ قال: فنظر إلى وأنا من أحدثهم سنًا، فقال: إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه. قال سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله ﷺ وهو بين أظهرنا، فأما به وكفر به بغياً وحسداً.

فقلنا: ويلك يا فلان، ألسنت بالذي قلت لنا؟ قال: بلى وليس به. تفرد به أحمد^(١).

وحكى القرطبي وغيره عن ابن عباس، رضى الله عنهما: أن يهود خيبر اقتتلوا فى زمان الجاهلية مع غطفان فهزمتهم غطفان، فدعى اليهود عند ذلك، فقالوا: اللهم إنا نسألك بحق النبی الامی الذى وعدتنا بإخراجه فى آخر الزمان، إلا نصرتنا عليهم. قال: فنصروا عليهم. قال: وكذلك كانوا يصنعون يدعون الله فينصرون على أعدائهم ومن نازلهم. قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا ﴾ أى من الحق وصفة محمد ﷺ كفروا به فلعنة الله على الكافرين.

﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (٩٠).

قال مجاهد: ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ﴾: يهودُ شَرَوْا الحقَّ بالباطل، وكتمانَ ما جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ بأن يبينوه.

وقال السدى: ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ﴾ يقول: باعوا به أنفسهم، يعنى: بئسما اعتاضوا لأنفسهم ورضوا به [وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمد ﷺ إلى تصديقه ومؤازرته ونصرته]^(٢).

وإنما حملهم على ذلك البغى والحسد والكراهية ﴿ أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ ولا حسد أعظم من هذا.

قال ابن إسحاق عن محمد، عن عكرمة أو سعيد، عن ابن عباس: ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أى: أن الله جعله من غيرهم ﴿ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ﴾ قال ابن عباس: فالغضب على الغضب، فغضبه عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهى معهم، وغضب بكفرهم بهذا النبى الذى أحدث الله إلیهم.

قلت: ومعنى ﴿ بَاءُوا ﴾: استوجبوا، واستحقوا، واستقروا بغضب على غضب. وقال أبو العالية: غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى، ثم غضب عليهم بكفرهم بمحمد، وبالقرآن^(٣)، عليهما السلام، [وعن عكرمة وقتادة مثله]^(٤).

(١) المسند (٣/ ٤٦٧).

(٢) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٣) فى ج، ط، ب، أ، و: «بكفرهم بمحمد والقرآن».

(٤) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

وقال السدى: أما الغضب الأول فهو حين غضب عليهم فى العجل، وأما الغضب الثانى فغضب عليهم حين كفروا بمحمد ﷺ [وعن ابن عباس مثله] (١).

وقوله: ﴿وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: لما كان كفرهم سببه البغى والحسد، ومنشأ ذلك التكبر، قوبلوا بالإهانة والصغار فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، [أى صاغرين حقيرين ذليلين راغمين] (٢).

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، حدثنا ابن عجلان، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبى ﷺ قال: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور الناس، يعلوهم كل شىء من الصغار، حتى يدخلوا سجنًا فى جهنم، يقال له: بولس فيعلوهم نار الأنبار يسقون» (٣) من طينة الخبال: عصارة أهل النار (٤).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُرْمَى بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعَجَلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أى: لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب ﴿آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [أى] (٥): على محمد ﷺ وصدقوه واتبعوه ﴿قَالُوا نُرْمَى بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾ أى: يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل ولا نقر إلا بذلك، ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ يعنى: بما بعده ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ أى: وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ الحق (٦) ﴿مُصَدِّقًا﴾ (٧) منصوب على الحال، أى: فى حال تصديقه لما معهم من التوراة والإنجيل، فالحجة قائمة عليهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ (٨) ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى: إن كنتم صادقين فى دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم، فلم تقتلتم الأنبياء الذين جاؤكم بتصديق التوراة التى بأيديكم والحكم بها وعدم نسخها، وأنتم تعلمون صدقهم؟ قتلتموهم بغياً [وحسداً] (٩) وعناداً واستكباراً على رسل الله، فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء، والآراء والتشهى (١٠)، كما قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]

(١)، (٢) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٣) فى ج، ط: «ويسقون».

(٤) المسند (٢/ ١٧٩).

(٦) فى و: «هو الحق».

(٥) زيادة من ط، ب، و.

(٨) زيادة من ج، ط، ب، و.

(٧) فى ج: «مصدقاً لما معهم».

(١٠) فى ج: «والشهوة».

(٩) زيادة من ج.

وقال السدى: فى هذه الآية يعيرهم الله تعالى: ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾.

وقال أبو جعفر بن جرير: قل يا محمد، ليهود بنى إسرائيل - [الذين]^(١) إذا قلت لهم: آمنوا بما أنزل الله قالوا: ﴿ نُوْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ﴾ -: لم تقتلون^(٢) - إن كنتم يا معشر اليهود مؤمنين بما أنزل الله عليكم - أنبياءه وقد حرم الله فى الكتاب الذى أنزل عليكم قتلهم، بل أمركم فيه باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم، وذلك من الله تكذيب لهم فى قولهم: ﴿ نُوْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ﴾ ، وتعير لهم.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى: بالآيات الواضحات^(٣) والدلائل القاطعة^(٤) على أنه رسول الله، وأنه لا إله إلا الله. والبيّنات هى: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والعصا، واليد، وفلق البحر، وتظليلهم بالغمام، والمن والسلوى، والحجر، وغير ذلك من الآيات التى شاهدوها ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ ﴾ أى: معبوداً من دون الله فى زمان موسى وآياته. وقوله: ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى: من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله كما قال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خَوَارٌ ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، ﴿ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [أى: وأنتم ظالمون]^(٥) فى هذا الصنيع الذى صنعتوه من عبادتكم العجل، وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٩٣).

يعدد، تبارك وتعالى، عليهم خطأهم ومخالفتهم للميثاق وعوتهم وإعراضهم عنه، حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ثم خالفوه؛ ولهذا قال: ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾. وقد تقدم تفسير ذلك. ﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾^(٦) قال: أشربوا [فى قلوبهم]^(٧) حبه، حتى خلص ذلك إلى قلوبهم. وكذا قال أبو العالية، والربيع بن أنس.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عصام بن خالد، حدثنى أبو بكر بن عبد الله بن أبى مريم الغسانى، عن خالد بن محمد الثقفى، عن بلال بن أبى الدرداء، عن أبى الدرداء، عن النبى ﷺ قال: «حُبِّكَ

(١) زيادة من ب. (٢) فى ج، ط: «تقتلون أنبياء الله من قبل».

(٣) فى ج، ط، ب: «الواضحة».

(٤) فى أ: «القاطعات».

(٥) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٦، ٧) زيادة من ج، ط، ب، و.

الشيء يُعْمَى وَيُصَمُّ.

ورواه أبو داود عن حيوة بن شريح عن بَقِيَّةَ، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم به^(١)، وقال السدي: أخذ موسى، عليه السلام، العجل فذبحه ثم حرقه بالمبرد، ثم ذراه في البحر، فلم يبق بحر يجرى يومئذ إلا وقع فيه شيء منه، ثم قال لهم موسى: اشربوا منه. فشرَبوا، فمن كان يحبه خرج على شاربيه الذهب. فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا إسرائيل^(٢)، عن أبي إسحاق، عن عمارة بن عبد^(٣) وأبي عبد الرحمن السلمي، عن علي بن أبي طالب، قال: عمد موسى إلى العجل، فوضع عليه المبارد، فبرده بها، وهو على شاطئ نهر، فما شرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب^(٤).

وقال سعيد بن جبيرة: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ قال: لما أحرق العجل بُرِدَ ثم نسف، فحسوا الماء حتى عادت وجوههم كالزعفران.

وحكى القرطبي عن كتاب القشيري: أنه ما شرب منه أحد ممن عبد العجل إلا جنَّ [ثم قال القرطبي]^(٥): وهذا شيء غير ما ههنا؛ لأن المقصود من هذا السياق، أنه ظهر النكير على شفاههم ووجوههم، والمذكور ههنا: أنهم أشربوا في قلوبهم حب العجل، يعني: في حال عبادتهم له، ثم أنشد قول النابغة في زوجته عثمة:

تغلغل حب عثمة في فؤادي	فباديه مع الخافي يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب	ولا حزن ولم يبلغ سرور
أكاد إذا ذكرت العهد منها	أطير لو أن إنساناً يطير

وقوله: ﴿قُلْ بِسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: بسما تعمدونه في قديم الدهر وحديثه، من كفركم بآيات الله ومخالفتكم الأنبياء، ثم اعتمادكم في كفركم بمحمد ﷺ - وهذا أكبر ذنوبكم، وأشد الأمور عليكم - إذ كفرتم بخاتم الرسل وسيد الأنبياء والمرسلين المبعوث إلى الناس أجمعين، فكيف تدعون لأنفسكم الإيمان وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة، من نقضكم المواثيق، وكفركم بآيات الله، وعبادتكم العجل؟!!

(١) المسند (٥ / ١٩٤) وسنن أبي داود برقم (٥١٣٠).

(٢) في أ: «حدثنا إسماعيل». (٣) في هـ: «عبد الله» وهو خطأ.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (١ / ٢٨٢).

(٥) زيادة من أ، و.

﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (٩٦).

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: يقول الله لنبية ﷺ: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى: ادعوا بالموت علي أى الفريقين أكذب. فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ أى: بعلمهم بما عندهم من العلم بك، والكفر بذلك، ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقى على الأرض يهودى إلا مات.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ ﴾: فسلوا الموت.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن عبد الكريم الجزرى، عن عكرمة، قوله: ﴿ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قال: قال ابن عباس: لو تمنى اليهود الموت لماتوا.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن محمد الطنائفى، حدثنا عثمان، سمعت الأعمش قال: لا أظنه إلا عن المنهال، عن سعيد بن جبير - عن ابن عباس، قال: لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه.

وهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس.

وقال ابن جرير فى تفسيره: وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا. ولرأوا مقاعدهم من النار. ولو خرج الذين يبأهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون^(١) أهلاً، ولا مالاً». حدثنا بذلك أبو كريب، حدثنا زكريا بن عدى، حدثنا عبيد الله^(٢) بن عمرو، عن عبد الكريم، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ.

ورواه الإمام أحمد، عن إسماعيل بن زيد^(٣) الرقى [أبى يزيد]^(٤)، حدثنا فرات، عن عبد الكريم، به^(٥).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن أحمد [قال]^(٦): حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن بشار،

(١) فى ج: «ولا يجدون». (٢) فى أ: «عبد الله».

(٣) فى ج: «عن إسماعيل عن زيد»، وفى أ، و: «عن إسماعيل بن يزيد».

(٤) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٥) تفسير الطبرى (٢/ ٣٦٢) والمسند (١/ ٢٤٨).

(٦) زيادة من ج.

حدثنا سرور بن المغيرة، عن عباد بن منصور، عن الحسن، قال: قول الله ما كانوا ليتمنوه بما قدمت أيديهم. قلت: أرأيتك لو أنهم أحبوا الموت حين قيل لهم: تمنوا، أترأهم كانوا ميتين؟ قال: لا، والله ما كانوا ليموتوا لو تمنوا الموت، وما كانوا ليتمنوه، وقد قال الله ما سمعت: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

وهذا غريب عن الحسن. ثم هذا الذي فسر به ابن عباس الآية هو المتعين، وهو الدعاء على أى الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة، ونقله^(١) ابن جرير عن قتادة، وأبى العالية، والربيع بن أنس، رحمهم الله.

ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة الجمعة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلَأِكُمْ ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٦ - ٨] فهم - عليهم لعائن الله - لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، دعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم، أو من المسلمين. فلما نكلوا عن ذلك علم كل أحد^(٢) أنهم ظالمون؛ لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك، فلما تأخروا علم كذبهم. وهذا^(٣) كما دعا رسول الله ﷺ وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم فى المناظرة، وعتوهم وعنادهم إلى المباهلة، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١] فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض: والله لئن باهلتهم هذا النبى لا يبقى منكم عين تطرف. فعند ذلك جنحوا إلى السلم وبذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فضربها عليهم. وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح، رضى الله عنه، أميناً. ومثل هذا المعنى أو قريب منه قوله تعالى لنبيه ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥]، أى: من كان فى الضلالة منا أو منكم، فزاده الله مما هو فيه ومد له، واستدرجه، كما سيأتى تقريره فى موضعه، إن شاء الله^(٤).

فأما من فسر الآية على معنى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: إن كنتم صادقين فى دعواكم، فتمنوا الآن الموت. ولم يتعرض هؤلاء للمباهلة كما قرره طائفة من المتكلمين وغيرهم، ومال إليه ابن جرير بعد ما قارب القول الأول؛ فإنه قال: القول فى تفسير^(٥) قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذه الآية مما احتج الله به لنبيه ﷺ على اليهود الذين كانوا

(١) فى ج: «ونقل».

(٢) فى أ: «واحد».

(٣) فى ج: «وهكذا».

(٤) فى ج: «إن شاء الله وبه الثقة».

(٥) فى ج، ط، ب، أ، و: «فى تأويله».

بين ظهرائي مُهَاجِرَه، وفضح بها أحبارهم وعلماءهم؛ وذلك أن الله أمر نبيه ﷺ إلى قضية عادلة بينه وبينهم، فيما كان بينه وبينهم من الخلاف، كما أمره أن يدعو الفريق الآخر من النصارى إذ خالفوه في عيسى ابن مريم، عليه السلام، وجادلوه فيه، إلى فاصلة بينه وبينهم من المباهلة. فقال لفريق [من] (١) اليهود: إن كنتم محقين فتمنوا الموت، فإن ذلك غير ضار بكم (٢)، إن كنتم محقين فيما تدعون من الإيمان وقرب المنزلة من الله، بل أعطيككم أميتكم من الموت إذا تمنيتم، فإنما تصيرون إلى الراحة من تعب الدنيا ونصبها وكدر عيشها، والفوز بجوار الله في جناته (٣)، إن كان الأمر كما تزعمون: من أن الدار الآخرة لكم خاصة دوننا. وإن لم تعطوها علم الناس أنكم المبطلون ونحن المحقون في دعوانا، وانكشف أمرنا وأمركم لهم فامتنعت اليهود من الإجابة إلى ذلك لعلمها (٤) أنها إن تمت الموت هلكت، فذهبت دنياها وصارت إلى خزي الأبد في آخرتها، كما امتنع فريق [من] (٥) النصارى.

فهذا الكلام منه أوله حسن، وأما آخره ففيه نظر؛ وذلك أنه لا تظهر الحجة عليهم على هذا التأويل، إذ يقال: لا يلزم من كونهم يعتقدون أنهم صادقون في دعواهم أن يتمنوا الموت فإنه لا ملازمة بين وجود الصلاح وتمنى الموت، وكم من صالح لا يتمنى الموت، بل يود أن يعمر ليزداد خيراً وترتفع درجته في الجنة، كما جاء في الحديث: «خيركم من طال عمره وحسن عمله» (٦). [وجاء في الصحيح النهى عن تمنى الموت، وفي بعض ألفاظه: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به إما محسناً فلعله أن يزداد، وإما مسيئاً فلعله أن يستعذب» (٧)] (٨). ولهم مع ذلك أن يقولوا على هذا: فما أنتم تعتقدون - أيها المسلمون - أنكم أصحاب الجنة، وأنتم لا تتمنون في حال الصحة الموت؛ فكيف تلزموننا بما لا نلزمكم؟

وهذا كله إنما نشأ من تفسير الآية على هذا المعنى، فأما على تفسير ابن عباس فلا يلزم شيء من ذلك، بل قيل لهم كلام نصف: إن كنتم تعتقدون أنكم (٩) أولياء الله من دون الناس، وأنكم أبناء الله وأحباءه، وأنكم أهل الجنة ومن عداكم [من] (١٠) أهل النار، فباهلوا على ذلك وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم، واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة. فلما تيقنوا ذلك وعرفوا صدقه نكلوا عن المباهلة لما يعلمون من كذبهم وافترائهم وكتمانهم الحق من صفة الرسول ﷺ ونعته، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويتحققونه. فعلم كل أحد باطلهم، وخزيهم، وضلالهم وعنادهم -

(١) زيادة من جـ. (٢) في أ، و: «غير ضايركم».

(٣) في جـ: «وجناته». (٤) في جـ، ط، ب، أ، و: «لعلمهم».

(٥) زيادة من جـ.

(٦) جاء من حديث عبد الله بن بسر، وأبي بكرة، وأبي هريرة رضى الله عنهم، فأما حديث عبد الله بن بسر، فرواه الترمذى في السنن

برقم (٢٣٢٩) وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه»، وأما حديث أبي بكرة، فرواه الترمذى في السنن برقم (٢٣٣٠)

وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأما حديث أبي هريرة، فرواه أحمد في المسند (٢/ ٢٣٥).

(٧) صحيح البخارى برقم (٥٦٧١) وصحيح مسلم برقم (٢٦٨٠) من حديث أنس رضى الله عنه.

(٨) زيادة من جـ، ب، أ، و.

(٩) في و: «أنهم».

(١٠) زيادة من أ.

عليهم لعائن الله المتتابعة^(١) إلى يوم القيامة.

[وسميت هذه المباهلة تمنياً؛ لأن كل محق يود لو أهلك الله المبطل المناظر له ولا سيما إذا كان في ذلك حجة له فيها بيان حقه وظهوره، وكانت المباهلة بالموت؛ لأن الحياة عندهم عظيمة عزيزة لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت]^(٢).

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَعْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ۖ أَى: [أحرص الخلق على حياة أى]^(٣): على طول عُمر، لما يعلمون من مآلهم السيئ وعاقبتهم عند الله الخاسرة؛ لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم. وما يحذرون^(٤) واقع بهم لا محالة، حتى وهم أحرص [الناس]^(٥) من المشركين الذين لا كتاب لهم. وهذا من باب عطف الخاص على العام.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ قال: الأعاجم.

ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث الثورى، وقال: صحيح على شرطهما، ولم يخرجاه. قال: وقد اتفقا على سند تفسير الصحابى^(٦).

وقال الحسن البصرى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَعْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ قال: المناق أحرص الناس على حياة، وهو أحرص على الحياة من المشرك ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ أى: أحد اليهود كما يدل عليه نظم السياق.

وقال أبو العالية: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾: يعنى المجوس، وهو يرجع إلى الأول.

﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾: قال الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: هو كقول الفارسى: «زه هزارسال» يقول: عشرة آلاف سنة. وكذا روى عن سعيد بن جبیر نفسه أيضاً.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن على بن الحسن بن شقيق قال: سمعت أبى يقول: حدثنا أبو حمزة، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس، فى قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: هو قول الأعاجم: «هزارسال نوروز مهرجان».

وقال مجاهد: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: حبيت إليهم الخطيئة طول العمر.

(١) فى ج، ط، ب: «التابعة»، وفى أ: «البالغة».

(٢) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٣) زيادة من ج، ب، أ، و.

(٤) فى أ: «وما يجدون».

(٥) زيادة من ط.

(٦) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٢٨٦) والمستدرک (٢/ ٢٦٣).

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ أى: ما هو بمنجيهِ من العذاب. وذلك أن المشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت، فهو يحب طول الحياة^(١) وأن اليهودى قد عرف ما له فى الآخرة من الخزى بما صنع^(٢) بما عنده من العلم. وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ قال: هم الذين عادوا جبريل.

وقال أبو العالية وابن عمر^(٣): فما ذاك بمغيثه^(٤) من العذاب ولا منجيهِ منه.

وقال عبد الرحمن بن زيد^(٥) بن أسلم [فى هذه الآية]^(٦): يهود أحرص على [هذه]^(٧) الحياة من هؤلاء، وقد ود هؤلاء أن^(٨) يعمر أحدهم ألف سنة، وليس ذلك بمزحزحه من العذاب لو عمر، كما أن عمر إبليس لم ينفعه إذ كان كافراً.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أى: خبير بصير بما يعمل عباده من خير وشر، وسيجازى كل عامل بعمله.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨)﴾.

قال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبرى رحمه الله: أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً [على]^(٩) أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بنى إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولى لهم، ثم اختلفوا فى السبب الذى من أجله قالوا ذلك. فقال بعضهم: إنما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرّت بينهم وبين رسول الله ﷺ فى^(١٠) أمر نبوته.

ذكر من قال ذلك

حدثنا أبو كُريب، حدثنا يونس بن بكير، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، عن ابن عباس أنه قال: حضرت عصابة من اليهود إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، حدثنا عن خلال نسألك عنهن، لا يعلمهن إلا نبى، فقال رسول الله ﷺ: «سلوا عما شئتم، ولكن اجعلوا لى

(١) فى أ: «طول العمر».

(٢) فى ج، ط، ب: «وإن عمر».

(٣) فى ج: «لا ذاك بمغيثه».

(٤) فى ج: «بن يزيد».

(٥) زيادة من ج، ط، ب، و.

(٦) فى ط، ب، أ، و: «هؤلاء لو».

(٧) زيادة من ج.

(٨) فى ج، ط، ب، أ: «من».

(٩) زيادة من ج، ط.

ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه، لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتكموه لتتابعننى على الإسلام». فقالوا: ذلك لك. فقال رسول الله ﷺ: «سلوني عما شئتم». فقالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن: أخبرنا أى الطعام حرم^(١) إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ وأخبرنا كيف ماء^(٢) المرأة وماء الرجل؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى؟ وأخبرنا بهذا النبى الأمى فى النوم^(٣) ووليه من الملائكة؟ فقال رسول الله ﷺ: «عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعننى؟» فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق. فقال: «نشدتكم^(٤) بالذى أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه، فنذر الله نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحوم^(٥) الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها؟». فقالوا: اللهم نعم. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اشهد^(٦) عليهم وأنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو، الذى أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله، وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكراً بإذن الله، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله؟». قالوا: اللهم نعم. قال: «اللهم اشهد». قال: «وأنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبى الأمى تنام عيناه ولا ينام قلبه؟». قالوا: اللهم نعم. قال: «اللهم اشهد». قالوا: أنت الآن، فحدثنا من وليك من الملائكة، فعندها نجتمعك أو نفارقك. قال: «فإن ولى جبريل، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه». قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك^(٧) وصدقناك. قال: «فما منعكم أن تصدقوه؟» قالوا: إنه عدونا. فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣] فعندها باؤوا بغضب على غضب^(٨).

وقد رواه الإمام أحمد فى مسنده، عن أبى النضر هاشم بن القاسم وعبد بن حميد فى تفسيره، عن أحمد بن يونس، كلاهما عن عبد الحميد بن بهرام، به^(٩).

ورواه الإمام أحمد - أيضاً - عن الحسين بن محمد المروزى، عن عبد الحميد، بنحوه [به] (١٠٠) (١١).

وقد رواه محمد بن إسحاق بن يسار: حدثنى عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حسين، عن شهر ابن حوشب، فذكره مرسلًا، وزاد فيه: قالوا: فأخبرنا عن الروح. قال: «أنشدكم بالله وبآياته^(١٢)

(٢) فى ج: «كيف يكون ماء».

(٤) فى ج: «أنشدكم».

(٦) فى ج: «اللهم أشهدك».

(١) فى ج، ط: «الذى حرم».

(٣) فى ج، ط، ب، أ، و: «فى التوراة».

(٥) فى ج: «لحم»، وفى ط، ب، أ، و: «لحمان».

(٧) فى ج: «لتابعناك» وفى ط: «بإيعناك».

(٨) تفسير الطبرى (٢/ ٣٧٧).

(٩) المسند (١/ ٢٧٨).

(١٠) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(١١) المسند (١/ ٢٧٣).

(١٢) فى ط، ب: «وبآيامه».

عند بنى إسرائيل، هل تعلمون أنه جبريل، وهو الذى يأتينى؟» قالوا: نعم، ولكنه لنا عدو، وهو ملك إنما يأتى بالشدة وسفك الدماء، فلو لا ذلك اتبعناك^(١). فأنزل الله فيهم: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو أحمد^(٢)، حدثنا عبد الله بن الوليد العجلي، عن بكير بن شهاب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، إنما نسألك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك. فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: ﴿اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦] قال: «هاتوا». قالوا: أخبرنا عن علامة النبى. قال: «تنام عيناه ولا ينام قلبه». قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف يذكر الرجل؟ قال: «يلتقى الماءان فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت»، قالوا: أخبرنا ما^(٣) حرم إسرائيل على نفسه. قال: «كان يشتكى عرق النساء، فلم يجد شيئاً يلائمه إلا ألبان كذا وكذا» - قال أحمد: قال بعضهم: يعنى الإبل، فحرم لحومها - قالوا: صدقت. قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: «ملك من ملائكة الله، عز وجل، موكل بالسحاب بيديه - أو فى يده - مخراق من نار يزجر به السحاب، يسوقه حيث أمره الله عز وجل». قالوا: فما هذا الصوت الذى نسمعه؟ قال: «صوته». قالوا: صدقت. إنما بقيت واحدة وهى التى نتابعك إن أخبرتنا^(٤): إنه ليس من نبي إلا له ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: «جبريل عليه السلام»، قالوا: جبريل ذاك الذى ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا، لو قلت: ميكائيل الذى ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان^(٥). فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ إلى آخر الآية.

ورواه الترمذى، والنسائى من حديث عبد الله بن الوليد، به^(٦). وقال الترمذى: حسن غريب.

وقال سنيّد فى تفسيره، عن حجاج بن محمد، عن ابن جريج: أخبرنى القاسم بن أبى بزة أن يهود سألوا النبى ﷺ عن صاحبه الذى ينزل^(٧) عليه بالوحي. قال: «جبريل». قالوا: فإنه لنا عدو، ولا يأتى إلا بالشدة والحرب والقتال. فنزل: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ الآية. قال ابن جريج: وقال مجاهد: قالت يهود: يا محمد، ما ينزل^(٨) جبريل إلا بشدة وحرب وقتال، وإنه لنا عدو. فنزل: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ الآية.

وقال البخارى: قوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ قال عكرمة: جبر، وميك، وإسراف: عبد. وإيل: الله. حدثنا عبد الله بن منير^(٩) سمع عبد الله بن بكر^(١٠)، حدثنا حميد، عن أنس بن مالك،

(١) فى ج: «لتبعناك». (٢) فى ج: «أبو عمر». (٣) فى ج، ط: «أخبرنا عما».

(٤) فى ب «أخبرتنا بها». (٥) فى ج: «لكننا تابعناك».

(٦) المسند (١/ ٢٧٤) وسنن الترمذى برقم (٣١١٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (٩٠٧٢).

(٧) فى أ: «نزل». (٨) فى ج، ط، أ: «ما نزل».

(٩) فى ج، ط، ب، أ، و: «بن نمير». (١٠) فى أ: «بن بكير».

قال: سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله ﷺ، وهو في أرض يخترف. فأتى النبي ﷺ، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن^(١) إلا نبي: ما أول أشرط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: «أخبرني بهن جبريل آنفاً». قال: جبريل؟ قال: «نعم». قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾. «أما أول أشرط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة [ماء الرجل]^(٢) نزعت». قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك^(٣) رسول الله. يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني^(٤). فجاءت اليهود، فقال النبي ﷺ: «أى رجل عبد الله بن سلام فيكم؟» قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا. قال: «أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام». فقالوا: أعاده الله من ذلك. فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فقالوا: شرنا وابن شرنا. فانتقصوه.

قال^(٥): هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله.

انفرد به البخاري من هذا الوجه^(٦)، وقد أخرجاه من وجه آخر، عن أنس بنحوه^(٧). وفي صحيح مسلم، عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ، قريب من هذا السياق^(٨)، كما سيأتي في موضعه^(٩).

وحكاية البخاري عن عكرمة ما تقدم هو المشهور أن «إيل» هو الله. وقد رواه سفيان الثوري، عن خصيف، عن عكرمة.

ورواه عبد بن حميد، عن إبراهيم بن الحكم، عن أبيه، عن عكرمة، ورواه ابن جرير، عن الحسين بن يزيد الطحان، عن إسحاق بن منصور، عن قيس، عن عاصم، عن عكرمة، أنه قال: جبريل اسمه عبد الله وميكائيل: عبيد الله. إيل: الله.

ورواه يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس، مثله سواء. وكذا قال غير واحد من السلف، كما سيأتي قريباً.

(١) في أ: «لا يعرفهن».

(٢) زيادة من جـ.

(٣) في جـ، ط: «وأن محمداً».

(٤) في جـ: «بهتوني».

(٥) في جـ: «فقال».

(٦) صحيح البخاري برقم (٤٤٨٠).

(٧) صحيح البخاري برقم (٣٣٢٩) من طريق مروان بن معاوية عن حميد، عن أنس، وصحيح البخاري برقم (٣٩٣٨) من طريق بشر

ابن المفضل، عن حميد، عن أنس.

(٨) صحيح مسلم برقم (٣١٥).

(٩) في جـ: «كما سيأتي في موضعه إن شاء الله».

[وقال الإمام أحمد في أثناء حديث سمرة بن جندب: حدثنا محمد بن سلمة، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنا محمد بن عمرو بن عطاء قال: قال لى على بن الحسين: اسم جبريل عبد الله، واسم ميكائيل: عبيد الله^(١).]

ومن الناس من يقول: «إيل» عبارة عن عبد، والكلمة الأخرى هي اسم الله؛ لأن كلمة «إيل» لا تتغير في الجميع، فوزانه: عبد الله، عبد الرحمن، عبد الملك، عبد القدوس، عبد السلام، عبد الكافي، عبد الجليل. فعبد موجودة في هذا كله، واختلفت الأسماء المضاف إليها، وكذلك جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ونحو ذلك، وفي كلام غير العرب يقدمون المضاف إليه على المضاف، والله أعلم.

ثم قال ابن جرير: وقال آخرون: بل كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بين عمر بن الخطاب وبينهم في أمر النبي ﷺ.

ذكر من قال ذلك

حدثني محمد بن المثني، حدثني ربيع بن عُلَيَّة، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي، قال: نزل عمر الروحاء، فرأى رجالاً يتدرون أحجاراً يصلون إليها، فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يزعمون أن رسول الله ﷺ صلى ههنا. قال: فكره ذلك. وقال: إنما رسول الله ﷺ أدركته الصلاة بواد فصلها ثم ارتحل، فتركه. ثم أنشأ يحدثهم، فقال: كنت أشهد اليهود يوم مدرّاسهم^(٢)، فأعجب من التوراة كيف تصدق الفرقان ومن الفرقان كيف يصدق التوراة؟ فبينما أنا عندهم ذات يوم، قالوا: يا ابن الخطاب، ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك. قلت: ولم ذلك؟ قالوا: إنك تغشانا وتأتينا. قلت: إني آتيكم فأعجب من الفرقان^(٣) كيف يصدق التوراة، ومن التوراة كيف تصدق الفرقان. قال: وم رسول الله ﷺ فقالوا: يا ابن الخطاب، ذاك صاحبكم فالحق به، قال: فقلت لهم عند ذلك: نشدتم^(٤) بالله الذي لا إله إلا هو، وما استرعاكم من حقه واستودعكم من كتابه: أتعلمون أنه رسول الله؟ قال: فسكتوا. فقال لهم عالمهم وكبيرهم: إنه قد غلّظ عليكم فأجيبوه. فقالوا: فأنت عالمنا وكبيرنا فأجبه أنت. قال: أما إذ نشدنا بما نشدنا به فإننا نعلم أنه رسول الله، قال: قلت: ويحكم فأني هلكتم؟! قالوا^(٥): إنا لم نهلك^(٦). [قال^(٧): قلت: كيف ذاك وأنتم تعلمون أنه رسول الله [ثم^(٨) لا تتبعونه ولا تصدقونه؟ قالوا: إن لنا عدوا من الملائكة وسلماً من الملائكة، وإنه قرن بنبوته عدونا من الملائكة. قال: قلت: ومن عدوكم ومن سلمكم؟ قالوا: عدونا جبريل، وسلمنا ميكائيل. قال: قلت: وفيهم عاديتهم جبريل، وفيهم سالتهم ميكائيل؟ قالوا: إن جبريل ملك الفضاظة والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا، وإن ميكائيل ملك الرأفة والرحمة والتخفيف ونحو هذا.

(٣) في أ، و: «القرآن».

(٢) في ج، أ: «يوم مدرّاستهم».

(١) زيادة من ج، ط.

(٦) في ج، ط: «إياكم يهلك».

(٥) في ج: «فقالوا».

(٤) في أ: «أنشدكم».

(٨) زيادة من ط.

(٧) زيادة من أ.

قال: قلت: وما منزلتهما من ربهما عز وجل؟ قالوا: أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره. قال: قلت: فو [الله] ^(١) الذى لا إله إلا هو، إنهما والذى بينهما لعدو لمن عاداهما وسلم لمن سالمهما ما ينبغى لجبريل أن يسالم عدو ميكائيل وما ينبغى لميكائيل أن يسالم عدو جبريل. قال: ثم قمت فاتبعت النبى ﷺ فلحقته وهو خارج من خوخة لبني فلان، فقال: يا ابن الخطاب، ألا أقرئك آيات نزلن ^(٢) قبل؟ «فقرأ على: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ حتى قرأ هذه الآيات. قال: قلت: بأبى وأمى يا رسول الله، والذى بعثك بالحق لقد جئت وأنا أريد أن أخبرك، فأسمع اللطيف الخبير قد سبقنى إليك بالخبر ^(٣)».

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن مجالد، أنبأنا عامر، قال: انطلق عمر إلى اليهود، فقال: أنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى: هل تجدون محمداً فى كتبكم؟ قالوا: نعم. قال: فما يمنعكم أن تتبعوه؟ قالوا: إن الله لم يبعث رسولا ^(٤) إلا جعل له من الملائكة كفلاً وإن جبريل كفّل محمداً، وهو الذى يأتيه، وهو عدونا من الملائكة، وميكائيل سلمنا؛ لو كان ميكائيل هو الذى يأتيه أسلمنا. قال: فإنى أنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى: ما منزلتهما من رب العالمين؟ قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله. قال عمر: وإنى أشهد ما ينزلان إلا بإذن الله، وما كان ميكائيل ليسالم عدو جبريل، وما كان جبريل ليسالم عدو ميكائيل. فبينما هو عندهم إذ مر النبى ﷺ فقالوا: هذا صاحبك يا ابن الخطاب: فقام إليه عمر، فأنابه، وقد أنزل الله، عز وجل، عليه: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ ^(٥).

وهذان الإسنادان يدلان على أن الشعبى حدث به عن عمر، ولكن فيه انقطاع بينه وبين عمر، فإنه لم يدرك وفاته ^(٦)، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا بشر ^(٧)، حدثنا يزيد بن زريع، عن سعيد، عن قتادة، قال: ذكر لنا أن عمر بن الخطاب انطلق ذات يوم إلى اليهود. فلما أبصروه ^(٨) رحبوا به، فقال لهم عمر: أما والله ما جئت لحبكم ولا للريبة فيكم، ولكن جئت لأسمع منكم. فسألهم وسألوه. فقالوا: من صاحبك ^(٩)؟ فقال لهم: جبريل. فقالوا: ذاك عدونا من أهل السماء، يُطلع محمداً على سرنا، وإذا جاء جاء الحرب والسنة، ولكن صاحب صاحبنا ميكائيل، وكان إذا جاء جاء الخصب والسلم. فقال لهم عمر: هل تعرفون جبريل وتنكرون محمداً ﷺ؟ ففارقهم عمر عند ذلك وتوجه نحو النبى ﷺ.

(٢) فى ج: «نزلت».

(١) زيادة من ج، ب، أ، و.

(٣) تفسير الطبرى (٢/ ٣٨٢).

(٤) فى ج: «نبيا رسولا».

(٥) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٢٩٠).

(٦) فى ج، ط، ب، أ، و: «زمانه».

(٧) فى أ: «محمد بن بشر».

(٩) فى أ، و: «صاحبكم».

(٨) فى ج، ط، ب، أ، و: «فلما انصرف».

ليحدثه حديثهم، فوجده قد أنزلت عليه هذه الآية: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (١).

ثم قال: حدثني الثنني، حدثنا آدم، حدثنا أبو جعفر عن قتادة، قال: بلغنا أن عمر أقبل إلى اليهود يوماً، فذكر نحوه. وهذا - أيضاً - منقطع، وكذلك رواه أسباط، عن السدي، عن عمر مثل هذا أو نحوه، وهو (٢) منقطع أيضاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار، حدثنا عبد الرحمن - يعني الدشتكي - حدثنا أبو جعفر، عن حصين بن عبد الرحمن، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أن يهوديا أتى (٣) عمر بن الخطاب، فقال: إن جبريل الذي يذكر صاحبكم عدو لنا. فقال عمر: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾، قال: فنزلت على لسان عمر، رضى الله عنه (٤).

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيْمٌ، أخبرنا حصين بن عبد الرحمن، عن ابن أبي ليلى في قوله: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ قال: قالت اليهود للمسلمين: لو أن ميكائيل كان الذي ينزل عليكم لتبعناكم، فإنه ينزل بالرحمة والغيث، وإن جبريل ينزل بالعذاب والنقمة، فإنه لنا عدو (٥). قال: فنزلت هذه الآية.

حدثني يعقوب قال: حدثنا هُشَيْمٌ، أخبرنا عبد الملك، عن عطاء، بنحوه. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن قتادة في قوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ قال: قالت اليهود: إن جبريل عدونا، لأنه ينزل بالشدة والسنة، وإن ميكائيل ينزل بالرخاء والعافية والخصب، فجبريل عدونا. فقال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ [الآية] (٦).

وأما تفسير الآية فقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى: من عادى جبريل فليعلم أنه الروح الأمين الذى نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له فى ذلك، فهو رسول من رسل الله ملكى [عليه وعلى سائر إخوانه من الملائكة السلام] (٧) ومن عادى رسولا فقد عادى جميع الرسل، كما أن من آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل، وكما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا. أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١] فحكم عليهم بالكفر المحقق، إذ آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم (٨)، وكذلك من عادى جبريل فإنه عدو لله؛

(١) تفسير الطبرى (٢/ ٣٨٣).

(٢) فى أ: «وهذا». (٣) فى ج، ط، ب، أ، و: «لقى».

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٩١) وهذا منقطع، ابن أبي ليلى لم يدرك عمر.

(٥) فى ج: «فإنه عدونا».

(٦) زيادة من ج.

(٨) فى أ: «وكفروا ببعض».

لأن جبريل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه، وإنما ينزل بأمر ربه كما قال: ﴿وَمَا تَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤]. وقد روى البخارى فى صحيحه، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب»^(١). ولهذا غضب الله لجبريل على من عاداه، فقال: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى: من الكتب المتقدمة ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: هدى لقلوبهم وبشرى لهم بالجنة، وليس ذلك إلا للمؤمنين. كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

ثم قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾، يقول تعالى: من عادانى وملائكتى ورسلى - ورسله تشمل رسله من الملائكة والبشر، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمَنْ النَّاسُ﴾ [الحج: ٧٥].

﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾^(٢) وهذا من باب عطف الخاص على العام، فإنهما دخلا فى الملائكة، ثم^(٣) عموم الرسل، ثم خصصا بالذكر؛ لأن السياق فى الانتصار لجبريل وهو السفير بين الله وأنبيائه، وقرن معه ميكائيل فى اللفظ؛ لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوهم وميكائيل وليهم، فأعلمهم أنه من عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضاً؛ لأنه - أيضاً - ينزل على الأنبياء بعض الأحيان، كما قرن^(٤) برسول الله ﷺ فى ابتداء الأمر، ولكن جبريل أكثر، وهى وظيفته، وميكائيل موكل بالقطر والنبات، هذاك بالهدى وهذا بالرزق، كما أن إسرافيل موكل بالصور للنفخ للبعث يوم^(٥) القيامة؛ ولهذا جاء فى الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يقول^(٦): «اللهم رب جبريل وإسرافيل وميكائيل^(٧) فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم»^(٨). وقد تقدم ما حكاه البخارى، ورواه ابن جرير^(٩) عن عكرمة أنه قال: جبر، وميك، وإسراف: عبید. وإيل: الله.

(١) صحيح البخارى برقم (٦٥٠ ٢).

(٢) فى ج، ط، ب: «وميكائيل».

(٣) فى أ: «فى».

(٤) فى ط، ب: «ليوم».

(٥) فى أ: «كما مر».

(٦) فى ج، ط، ب: «رب جبريل وميكائيل وإسرافيل».

(٧) فى ج، ط: «قال».

(٨) صحيح مسلم برقم (٧٧٠) من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٩) فى ب: «وغیره».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن الأعمش، عن إسماعيل بن رجاء، عن عمير^(١) مولى ابن عباس، عن ابن عباس، قال: إنما قوله: «جبريل» كقوله: «عبد الله» و«عبد الرحمن». وقيل^(٢): جبر: عبد. وإيل: الله.

وقال محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن علي بن الحسين، قال: أتدرون^(٣) ما اسم جبرائيل^(٤) من أسمائكم؟ قلنا: لا. قال: اسمه عبد الله، قال: فتدرون ما اسم ميكائيل من أسمائكم؟ قلنا: لا. قال: اسمه عبيد الله^(٥). وكل اسم مرجعه إلى «يل»^(٦) فهو إلى الله.

قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد وعكرمة والضحاك ويحيى بن يعمر نحو ذلك. ثم قال: حدثني أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثني عبد العزيز بن عمير قال: اسم جبريل في الملائكة خادم الله. قال: فحدثت^(٧) به أبا سليمان الداراني، فانتفض وقال: لهذا الحديث أحب إلى من كل شيء [وكتبه]^(٨) في دفتر كان بين يديه.

وفي جبريل وميكائيل لغات وقراءات، تذكر في كتب اللغة والقراءات، ولم نطوّل كتابنا هذا بسرد ذلك إلا أن يدور فهم المعنى عليه، أو يرجع الحكم في ذلك إليه، وبالله الثقة، وهو المستعان.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾: فيه إيقاع المظهر مكان المضمّر حيث لم يقل: فإنه عدو للكافرين. بل قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾، كما قال الشاعر:

لا أرى الموت يسبق^(٩) الموت شيء نغص^(١٠) الموتُ ذا الغنى والفقيرا

وقال آخر:

ليت الغراب غداة ينعب^(١١) دأبنا كان الغرابُ مقطّع الأوداج^(١٢)

وإنما أظهر الاسم ههنا لتقرير هذا المعنى وإظهاره، وإعلامهم أن من عادى أولياء الله فقد عادى الله، ومن عادى الله فإن الله عدو له، ومن كان الله عدوه فقد خسر الدنيا والآخرة، كما تقدم الحديث: «من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالحرب». وفي الحديث الآخر: «إني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب». وفي الحديث الصحيح: «وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ خَصَمْتُهُ».

(١) في أ: «عمر».

(٢) في ج، ط، ب، أ، و: «وقال».

(٣) في ج، ط، ب، أ، و: «تدرون».

(٤) في ج، ط، ب: «جبريل».

(٥) في ج: «عبد الله».

(٦) في أ، و: «إيل».

(٧) في ج: «فحدثت».

(٨) زيادة من ج.

(٩) في ج: «سوى».

(١٠) في ج، ط، ب: «سبق»، وفي أ: «مسبق» وفي و: «يسبق».

(١١) في ج: «ينعق».

(١٢) البيت في تفسير الطبري (٢/ ٣٩٦) وهو لجريز بن عطية.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرُّوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)﴾.

قال الإمام أبو جعفر بن جرير في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات [دلالات] ^(١) على نبوتك، وتلك الآيات هي ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود، ومكنونات سرائر أخبارهم، وأخبار أوائلهم من بنى إسرائيل، والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أخبارهم وعلمائهم، وما حرفة أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم، التي كانت في التوراة. فأطلع الله في كتابه الذي أنزله إلى نبيه محمد ﷺ؛ فكان في ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف نفسه، ولم يدعه إلى هلاكها الحسد ^(٢) والبغى، إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل ^(٣) ما جاء به محمد ﷺ من الآيات البينات التي وصفت، من غير تعلم تعلمه من بشرى ^(٤) ولا أخذ شيئاً ^(٥) منه عن آدمي. كما قال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يقول: فأنت تتلوه عليهم وتخبرهم به غدوة وعشية، وبين ذلك، وأنت عندهم أمي لا تقرأ ^(٦) كتاباً، وأنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه. يقول الله: في ذلك لهم عبرة وبيان، وعليهم حجة لو كانوا يعلمون.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنا محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال: قال ابن صوريا الفطيوны لرسول الله ﷺ: يا محمد، ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك. فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ

(١) في ج: «هلاكه بالحسد».

(٢) في ج: «من بشر».

(٣) في ج، ط، ب: «لم تقرأ».

(٤) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٥) في ج: «تصديق ذلك من أن يمثّل».

(٦) في ج، ط، ب: «شيء» وهو خطأ.

بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ». وقال مالك بن الصيف - حين بُعث رسولُ الله ﷺ وذكرهم^(١) ما أخذ عليهم من الميثاق، وما عهد إليهم في محمد ﷺ^(٢): «والله ما عهد إلينا في محمد ﷺ ولا أخذ [له]^(٣) علينا ميثاقاً. فأنزل الله: ﴿أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾.

وقال الحسن البصرى فى قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: نعم، ليس فى الأرض عهدٌ يعاهدون عليه إلا نقضوه ونبذوه، يعاهدون اليوم، وينقضون غداً.

وقال السدى: لا يؤمنون بما جاء به محمد ﷺ. وقال قتادة: ﴿نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ أى: نقضه فريق منهم.

وقال ابن جرير: أصل النبذ: الطرح والإلقاء، ومنه سُمى اللقيط: منبذاً، ومنه سُمى النبيذ، وهو التمر والزبيب إذا طرحا فى الماء. قال أبو الأسود الدؤلى:

نظرتُ إلى عنوانه فنبذته كنبيك نَعْلًا أَخْلَقْتَ مِنْ نَعَالِكَ^(٤)

قلت: فالقوم ذمهم الله بنبذهم العهود التى تقدم الله إليهم فى التمسك بها والقيام بحقها. ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، الذى فى كتبهم نعتُه وصفته وأخباره، وقد أمروا فيها باتباعه ومؤازرته ومناصرته، كما قال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]، وقال ههنا: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: أطرح طائفة منهم كتاب الله الذى بأيديهم، مما فيه البشارة بمحمد ﷺ وراء ظهورهم، أى: تركوها، كأنهم لا يعلمون ما فيها، وأقبلوا على تعلم السحر واتباعه. ولهذا أرادوا كيداً برسول الله ﷺ وسحروه فى مُشْطٍ ومُشَاقَّةٍ وجُفٍّ طُلْعَةٍ ذَكَرَ، تحت راعوثه بئر ذى أروان. وكان الذى تولى ذلك منهم رجل، يقال له: لبید بن الأعصم، لعنه الله؛ فأطلع الله على ذلك رسوله ﷺ، وشفاه منه وأنقذه، كما ثبت ذلك مبسوطاً فى الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين، رضى الله عنها، كما سيأتى بيانه^(٥).

قال^(٦) السدى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ قال: لما جاءهم محمد ﷺ عارضوه بالتوراة فخاصموه بها، فاتفقت التوراة والقرآن، فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت، فلم يوافق القرآن، فذلك قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقال قتادة فى قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال: إن القوم كانوا يعلمون، ولكنهم نبذوا علمهم، وكنتموه وجحدوا به.

(١) فى أ: «وما ذكر لهم».

(٢) فى أ: «وما عهد الله إليهم فيه». (٣) زيادة من أ.

(٤) البيت فى تفسير الطبرى (٢/ ٤٠١).

(٥) فى ج: «كما سيأتى بيانه إن شاء الله وبه الثقة»، وفى أ: «كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى».

(٦) فى ج، ط: «وقال».

وقال العوفي في تفسيره، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾: وكان حين ذهب ملك سليمان ارتد فثام من الجن والإنس واتبعوا الشهوات، فلما رجع^(١) الله إلى سليمان ملكه، وقام الناس على الدين كما كان أو أن سليمان، ظهر على كتبهم فدفنها تحت كرسيه، وتوفى سليمان، عليه السلام، حدثان ذلك، فظهر الإنس والجن على الكتب بعد وفاة سليمان، وقالوا: هذا كتاب من الله نزل^(٢) على سليمان وأخفاه عنا فأخذوا به فجعلوه ديناً. فأنزل الله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ واتبعوا الشهوات، [أى]^(٣): التي كانت [تتلو الشياطين]^(٤)، وهى المعازف واللعب وكل شئ يصد عن ذكر الله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، قال: كان آصف كاتب سليمان، وكان يعلم الاسم «الأعظم»، وكان يكتب كل شئ بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه، فلما مات سليمان أخرجه^(٥) الشياطين، فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً، وقالوا: هذا الذى كان سليمان يعمل بها^(٦). قال: فأكفره جهال الناس وسبوه، ووقف علماؤهم فلم يزل جهالهم يسبونه، حتى أنزل الله على محمد ﷺ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾^(٧).

وقال ابن جرير: حدثني أبو السائب سلم^(٨) بن جنادة السوائي، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، قال: كان سليمان، عليه السلام، إذا أراد أن يدخل الخلاء، أو يأتى شيئاً من نسائه، أعطى الجرادة - وهى امرأة - خاتمه. فلما أراد الله أن يتلى سليمان، عليه السلام، بالذى ابتلاه به، أعطى الجرادة ذات يوم خاتمه، فجاء^(٩) الشيطان فى صورة سليمان فقال لها: هاتى خاتمى. فأخذه فلبسه. فلما لبسه دانت له الشياطين والجن والإنس. قال: فجاءها سليمان، فقال: هاتى خاتمى فقالت: كذبت، لست سليمان. قال: فعرف سليمان أنه بلاء ابتلى به. قال: فانطلقت الشياطين فكتبت فى تلك الأيام كتباً فيها سحر وكفر، ثم دفنها تحت كرسى سليمان، ثم أخرجوها وقرؤوها^(١٠) على الناس، وقالوا: إنما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب. قال: فبرئ الناس من سليمان، عليه السلام، وأكفروه حتى بعث الله محمداً ﷺ وأنزل عليه: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾.

ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن حصين بن عبد الرحمن، عن عمران،

(١) فى ج: «فلما أرجع».

(٢) فى ج: «أنزل».

(٣) زيادة من ج.

(٤) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٥) فى ج، ط، أ، و: «أخرجته».

(٦) فى هـ: «به»، والصواب ما أثبتناه من ج، ط، ب، أ، و.

(٧) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٢٩٧).

(٨) فى ج: «فجاءها».

(٩) فى ج، ط، ب: «مسلم».

(١٠) فى ج، ط، ب، أ: «فقرؤوها».

وهو ابن الحارث قال: بينا نحن عند ابن عباس - رضى الله عنهما^(١) - إذ جاء^(٢) رجل فقال له: من أين جئت؟ قال: من العراق. قال: من أيّ؟ قال: من الكوفة. قال: فما الخبر؟ قال: تركتهم يتحدثون أن علياً خارج إليهم. ففزع ثم قال: ما تقول؟ لا أبا لك! لو شعرنا ما نكحنا نساءه، ولا قسمنا ميراثه، أما إنى سأحدثكم^(٣) عن ذلك: إنه كانت الشياطين يسترقون السمع من السماء، فيجىء أحدهم بكلمة حق قد سمعها، فإذا جُرّبَ منه صدق كذب معها سبعين كذبة، قال: فَتَشْرِبُهَا قلوب الناس. فأطلع الله عليها سليمان، عليه السلام، فدفنها تحت كرسيه. فلما توفى سليمان، عليه السلام، قام شيطانُ الطريق، فقال: أفلا أدلكم على كنز الممنع^(٤) الذى لا كنز له مثله؟ تحت الكرسى. فأخرجوه، فقالوا: هذا سحره^(٥) فتناسخها الأمم - حتى بقاياها ما يتحدث به أهل العراق - وأنزل الله عز وجل^(٦): ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾.

ورواه الحاكم فى مستدركه، عن أبى زكريا العنبرى، عن محمد بن عبد السلام، عن إسحاق بن إبراهيم، عن جرير، به^(٧).

وقال السدى فى قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ أى: على عهد سليمان. قال: كانت الشياطين تصعد إلى السماء، فتتعد منها مقاعد للسمع، فيستمعون من كلام الملائكة مما يكون فى الأرض من موت أو غيب^(٨) أو أمر، فيأتون الكهنة فيخبرونهم. فتحدث الكهنة الناس فيجدونه كما قالوا. حتى إذا أمنتهم الكهنة كذبوا لهم. وأدخلوا فيه غيره، فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة، فاكتب الناس ذلك الحديث فى الكتب، وفشا فى بنى إسرائيل أن الجن تعلم الغيب. فُبِعْثَ سليمان فى الناس فجمع تلك الكتب فجعلها فى صندوق، ثم دفنها تحت كرسيه. ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسى إلا احترق. وقال: لا أسمع أحداً يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلا ضربت عنقه. فلما مات سليمان، عليه السلام، وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان، وخلف بعد ذلك خَلَفَ تمثل شيطان فى صورة إنسان، ثم أتى نفراً من بنى إسرائيل، فقال لهم: هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبداً؟ قالوا: نعم. قال: فاحفروا تحت الكرسى. وذهب معهم وأراهم المكان، وقام ناحية، فقالوا له: فادُنْ. قال^(٩): لا ولكنى هاهنا فى أيديكم، فإن لم تجدوه فاقتلوني. فحفروا فوجدوا تلك الكتب. فلما أخرجوها قال الشيطان: إن سليمان إنما كان يضبط الإنس والشياطين^(١٠) والطير بهذا السحر. ثم طار وذهب. وفشا فى الناس أن سليمان كان

(١) فى ط: «عنه». (٢) فى ط، ب، أ، و: «إذ جاء».

(٣) فى ج، ط: «سأحدثك». (٤) فى ج: «الممنع».

(٥) فى ب، أ، و: «هذا سحر». (٦) فى ج: «الله تعالى».

(٧) تفسير الطبرى (٢/ ٤١٥) والمستدرک (٢/ ٢٦٥).

(٨) فى ج: «أو عيس».

(٩) فى ج: «فقال».

(١٠) فى ج: «والجن».

ساحراً. واتخذت بنو إسرائيل تلك الكتب، فلما جاء محمد ﷺ خاصموه بها^(١)؛ فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾.

وقال الربيع بن أنس: إن اليهود سألو محمداً ﷺ زماناً عن أمور من التوراة، لا يسألونه عن شيء من ذلك إلا أنزل الله تعالى عليه ما سألوه عنه، فيخصمهم^(٢)، فلما رأوا ذلك قالوا: هذا أعلم بما أنزل الله إلينا منا. وإنهم سألوه عن السحر وخصموه به، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾. وإن الشياطين عمّدوا إلى كتاب فكتبوا فيه السحر والكهانة وما شاء الله من ذلك، فدفنوه تحت مجلس سليمان، وكان [سليمان]^(٣)، عليه السلام، لا يعلم الغيب. فلما فارق سليمان الدنيا استخرجوا ذلك السحر وخدعوا الناس، وقالوا: هذا علم كان سليمان يكتبه ويحسد^(٤) الناس عليه. فأخبرهم النبي ﷺ بهذا الحديث فرجعوا من عنده وقد حزنوا، وأدحض الله حجّتهم.

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانٍ﴾ قال: كانت الشياطين تستمع^(٥) الوحي فما سمعوا من كلمة [إلا]^(٦) زادوا فيها مائتين مثلها. فأرسل سليمان، عليه السلام، إلى ما كتبوا من ذلك. فلما توفى سليمان وجدته الشياطين فعلمته الناس [به]^(٧)، وهو السحر.

وقال سعيد بن جبير: كان سليمان، عليه السلام، يتتبع ما في أيدي الشياطين من السحر فيأخذه منهم، فيدفنه تحت كرسیه في بيت خزانته، فلم يقدر الشياطين أن يصلوا إليه، فدبت^(٨) إلى الإنس، فقالوا لهم: أتدرون ما العلم^(٩) الذي كان سليمان يسخر به الشياطين والرياح وغير ذلك؟ قالوا: نعم. قالوا: فإنه في بيت خزانته وتحت كرسیه. فاستثار به^(١٠) الإنس واستخرجوه فعملوا^(١١) بها. فقال أهل الحجا: كان سليمان يعمل بهذا وهذا سحر. فأنزل الله تعالى على [لسان]^(١٢) نبيه محمد ﷺ براءة سليمان، عليه السلام، فقال: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار^(١٣): عمدت الشياطين حين عرفت موت سليمان بن داود، عليه السلام^(١٤)، فكتبوا أصناف السحر: «من كان يحب أن يبلغ كذا وكذا فليقل كذا وكذا». حتى إذا صنّفوا أصناف السحر جعلوه في كتاب. ثم ختموا بخاتم على نقش خاتم سليمان، وكتبوا في

(١) في ج: «بهذا».

(٢) في ج: «فيخصمهم».

(٣) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٤) في ج: «ويحشر»، وفي ط: «ففسد».

(٥) في ج، ط، أ، و: «تسمع».

(٦) زيادة من أ.

(٧) زيادة من ط.

(٨) في ج، ب، أ، و: «فدنت».

(٩) في ج: «أن العلم».

(١٠) في ج، ط، ب، أ، و: «فاستثارته».

(١١) في ج: «فعملوا».

(١٢) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(١٣) في ج، ط: «بشار».

(١٤) في ج، ب: «عليهما السلام».

عُنوانه: «هذا ما كتب آصف بن برخيا الصديق للملك سليمان بن داود، عليهما السلام»^(١)، من ذخائر كنوز العلم». ثم دفنوه تحت كرسيه واستخرجته^(٢) بعد ذلك بقايا بنى إسرائيل حتى أحدثوا ما أحدثوا. فلما عثروا عليه قالوا: والله ما كان سليمان بن داود إلا بهذا. فأفشوا السحر فى الناس [وتعلموه وعلموه]^(٣). وليس هو فى أحد أكثر^(٤) منه فى اليهود لعنهم الله. فلما ذكر رسول الله ﷺ فيما نزل عليه من الله، سليمان بن داود، وعده فيمن عدّه من المرسلين، قال من كان بالمدينة من يهود: ألا تعجبون من محمد! يزعم أن ابن داود كان نبياً، والله ما كان إلا ساحراً. وأنزل الله [فى]^(٥) ذلك من قولهم: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ الآية.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا حسين، حدثنا الحجاج^(٦)، عن أبى بكر، عن شهر بن حوشب، قال: لما سلب سليمان، عليه السلام، ملكه، كانت الشياطين تكتب السحر فى غيبة سليمان. فكتبت: «من أراد أن يأتى كذا وكذا فليستقبل الشمس، وليقل كذا كذا»^(٧)، ومن أراد أن يفعل كذا وكذا فليستدبر الشمس وليقل كذا وكذا. فكتبته وجعلت عنوانه: هذا ما كتب آصف بن برخيا للملك سليمان [بن داود]^(٨) من ذخائر كنوز العلم». ثم دفنته تحت كرسيه. فلما مات سليمان، عليه السلام، قام إبليس، لعنه الله، خطيباً، [ثم]^(٩) قال: يا أيها الناس، إن سليمان لم يكن نبياً، إنما كان ساحراً، فالتمسوا سحره فى متاعه وبيوته. ثم دلهم على المكان الذى دفن فيه. فقالوا: والله لقد كان سليمان ساحراً! هذا^(١٠) سحره، بهذا تعبّدنا، وبهذا قهرنا. وقال المؤمنون: بل كان نبياً مؤمناً. فلما بعث الله النبی ﷺ جعل يذكر الأنبياء حتى ذكر داود وسليمان. فقالت اليهود [لعنهم الله]^(١١): انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل. يذكر سليمان مع الأنبياء. إنما كان ساحراً يركب الريح، فأنزل الله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ الآية.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعاني، قال: حدثنا المعتمر بن سليمان، قال: سمعت عمران بن حدير، عن أبى مجلز، قال: أخذ سليمان، عليه السلام، من كل دابة عهداً، فإذا أصيب رجل فسأل بذلك العهد، خلى عنه. فزاد الناس السجع والسحر، وقالوا: هذا يعمل به

(١) فى ط: «عليه السلام».

(٢) فى ط: «واستخرجه».

(٣) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٤) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٥) فى ج، ط، ب، أ، و: «حجاج».

(٦) فى ج، ط، ب، أ، و: «كذا وكذا».

(٧) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٨) زيادة من ج.

(٩) فى ج: «وهذا».

(١٠) زيادة من ج.

سليمان. فقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾^(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عصام بن رواد، حدثنا آدم، حدثنا المسعودي، عن زياد مولى ابن مصعب، عن الحسن: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾ قال: ثلث الشعر، وثلث السحر، وثلث الكهانة.

وقال: حدثنا الحسن بن أحمد، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن بشار الواسطي، حدثني سرور بن المغيرة، عن عباد بن منصور، عن الحسن: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾: واتبعت اليهود على ملكه. وكان السحر قبل ذلك في الأرض لم يزل بها، ولكنه إنما اتبع على ملك سليمان.

فهذه نبذة من أقوال أئمة السلف في هذا المقام، ولا يخفى ملخص القصة والجمع بين أطرافها، وأنه لا تعارض بين السياقات على اللبيب الفهم، والله الهادي. وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ أى: واتبعت اليهود - الذين أوتوا الكتاب بعد إعراضهم عن كتاب الله الذى بأيديهم ومخالفتهم الرسول محمدا ﷺ - ما تتلو^(٢) الشياطين، أى: ما ترويه وتخبر به وتحدثه الشياطين على ملك سليمان. وعدها بعلى؛ لأنه ضمن تتلو: تكذب. وقال ابن جرير: «على»^(٣) ههنا بمعنى «فى»، أى: تتلو فى ملك سليمان. ونقله عن ابن جرير، وابن إسحاق.

قلت: والتضمين أحسن وأولى، والله أعلم.

وقول الحسن البصرى، رحمه الله: «قد كان السحر قبل زمان»^(٤) سليمان بن داود» صحيح لا شك فيه؛ لأن السحرة كانوا فى زمان^(٥) موسى، عليه السلام، وسليمان بن داود بعده، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّ لَّهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلَكًا يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٤٦]، ثم ذكر القصة بعدها، وفيها: ﴿وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١]. وقال قوم صالح - وهم قبل إبراهيم الخليل، عليه السلام، لنبيهم صالح: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣] أى: [من]^(٦) المسحورين على المشهور.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾: اختلف الناس فى هذا المقام، فذهب بعضهم إلى أن «ما» نافية، أعنى التى فى قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾. قال القرطبي: «ما» نافية ومعطوفة على قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾، ثم قال: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أَنْزَلَ﴾ أى: السحر ﴿عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ وذلك أن اليهود - لعنهم الله - كانوا يزعمون أنه نزل

(١) تفسير الطبرى (٢/ ٤١٤).

(٢) فى ج، ط، ب، أ، و: «ما تتلوه».

(٣) فى ج، ط، ب، أ، و: «قبل زمن».

(٤) فى ج: «زمن».

(٥) زيادة من ج، ط.

به جبريل وميكائيل فأكذبهم الله في ذلك وجعل قوله: ﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ بدلاً من: ﴿الشَّيَاطِينِ﴾ قال: وصح ذلك، إما لأن الجمع قد يطلق على الاثنين كما في قوله: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ [النساء: ١١]، أو يكون لهما اتباع أو ذكراً من بينهم لتمردهما، فتقدير الكلام عنده: تعلمون الناس السحر ببابل، هاروت وماروت، ثم قال: وهذا أولى ما حملت عليه الآية وأصح ولا يلتفت إلى ما سواه.

وروى ابن جرير بإسناده من طريق العوفي، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ يقول: لم ينزل الله السحر. وبإسناده، عن الربيع بن أنس، في قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ قال: ما أنزل الله عليهما السحر.

قال ابن جرير: فتأويل الآية على هذا: واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر، وما كفر سليمان، ولا أنزل الله السحر على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل، هاروت وماروت. فيكون قوله: ﴿بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾^(١) من المؤخر الذي معناه المقدم. قال: فإن قال لنا قائل: وكيف وجه تقديم ذلك؟ قيل: وجه تقديمه أن يقال: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ «من السحر» ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ وما أنزل الله «السحر» على الملكين، ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ ببابل هاروت وماروت فيكون معنياً بالملكين: جبريل وميكائيل، عليهما السلام؛ لأن سحرة اليهود فيما ذكر كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود، فأكذبهم الله بذلك، وأخبر نبيه محمداً ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر، وبرأ سليمان، عليه السلام، مما نحلوه من السحر، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل، وأن الذين يعلمونهم ذلك رجлан، اسم أحدهما هاروت، واسم الآخر ماروت، فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس، ورداً عليهم. هذا لفظه بحروفه^(٢).

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثت عن عبيد الله بن موسى، أخبرنا فضيل بن مرزوق، عن عطية ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ قال: ما أنزل الله على جبريل وميكائيل السحر.

حدثنا^(٣) الفضل بن شاذان، حدثنا محمد بن عيسى، حدثنا يعلى - يعنى ابن أسد - حدثنا بكر^(٤) - يعنى ابن مصعب - حدثنا الحسن بن أبي جعفر: أن عبد الرحمن بن أبزي كان يقرؤها: «وما أنزل على الملكين داود وسليمان».

وقال أبو العالية: لم ينزل عليهما السحر، يقول: علما الإيمان والكفر، فالسحر من الكفر، فهما ينهيان عنه أشد النهي. رواه ابن أبي حاتم.

(١) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٢) تفسير الطبري (٢/ ٤١٩، ٤٢٠).

(٣) في و: «وقال ابن أبي حاتم: حدثنا».

(٤) في ج، ط، ب: «بكر».

ثم شرع ابن جرير فى رد هذا القول، وأن «ما» بمعنى الذى، وأطال القول فى ذلك، وادعى^(١) أن هاروت وماروت ملكان أنزلهما الله إلى الأرض، وأذن لهما فى تعليم السحر اختباراً لعباده وامتحاناً، بعد أن بين لعباده أن ذلك مما ينهى عنه على السنة الرسل، وادعى أن هاروت وماروت مطيعان فى تعليم ذلك؛ لأنهما امثالاً ما أمرا به.

وهذا الذى سلكه غريب جداً! وأغرب منه قول من زعم أن هاروت وماروت قبيلان من الجن [كما زعمه ابن حزم]^(٢)!

وروى ابن أبى حاتم بإسناده. عن الضحاك بن مزاحم: أنه كان يقرؤها: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ ويقول: هما علجان من أهل بابل.

وَوَجَّهَ أصحابُ هذا القول الإنزال بمعنى الخلق، لا بمعنى الإيحاء، فى قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦]، ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، ﴿وَيُنْزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣]. وفى الحديث: «ما أنزل الله داء إلا أنزل له دواء». وكما يقال: أنزل الله الخير والشر.

[وحكى القرطبى عن ابن عباس وابن أبى والضحاك والحسن البصرى: أنهم قرؤوا: «وما أنزل على الملكين» بكسر اللام. قال ابن أبى: وهما داود وسليمان. قال القرطبى: فعلى هذا تكون «ما» نافيه أيضاً]^(٣).

وذهب آخرون إلى الوقف على قوله: ﴿يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [و«ما» نافية]^(٤)، قال ابن جرير: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا الليث، عن يحيى بن سعيد، عن القاسم بن محمد، وسأله رجل عن قول الله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ قال الرجل: يعلمان الناس السحر، ما أنزل عليهما^(٥)، أو يعلمان الناس ما لم ينزل عليهما؟ فقال القاسم: ما أبالى أيتهما كانت.

ثم روى عن يونس، عن أنس بن عياض، عن بعض أصحابه: أن القاسم قال فى هذه القصة: لا أبالى أى ذلك كان، إنى آمنت به.

وذهب كثيرون من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء، وأنهما أنزلا إلى الأرض، فكان من أمرهما ما كان. وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع رواه الإمام أحمد فى مسنده كما سنورده إن شاء الله تعالى. وعلى هذا فيكون الجمع بين هذا وبين ما ثبت من الدلائل على عصمة الملائكة أن هذين سبق فى علم الله لهما هذا، فيكون تخصيصاً لهما، فلا تعارض حينئذ، كما سبق فى علمه من أمر إبليس

(١) فى جـ: «وادعى على». (٢، ٣) زيادة من جـ، ط.

(٤) زيادة من جـ، ط، ب، و.

(٥) فى جـ: «إليهما».

ما سبق، وفي قول: إنه كان من الملائكة، لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ [طه: ١١٦]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك. مع أن شأن هاروت وماروت - على ما ذكر - أخف مما وقع من إبليس لعنه الله.

[وقد حكاه القرطبي عن علي، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وكعب الأحبار، والسدي، والكلبي^(١)].

ذكر الحديث الوارد في ذلك - إن صح سنده ورفع - وبيان الكلام عليه:

قال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله، في مسنده: حدثنا يحيى بن [أبي] بكير، حدثنا زهير ابن محمد، عن موسى بن جبير، عن نافع، عن عبد الله بن عمر: أنه سمع نبي الله ﷺ يقول: «إن آدم - عليه السلام - لما أهبطه الله إلى الأرض قالت الملائكة: أَيْ رَبِّ^(٢)، ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، قالوا: ربَّنَا، نحن أطوع لك من بنى آدم. قال الله تعالى للملائكة: هَلُمُّوا مَلَائِكِينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ حَتَّى نَهْبِطَهُمَا إِلَى الْأَرْضِ، فَنَنْظُرْ كَيْفَ يَعْمَلَانِ؟ قالوا: ربَّنَا، هاروت وماروت. فأهبطا إلى الأرض ومثلت لهما^(٤) الزَّهْرَةُ امرأة من أحسن البشر، فجاءتهما، فسألاها نفسها. فقالت: لا والله حتى تتكلما بهذه الكلمة من الإشراك. فقالا: والله^(٥) لا نشرك بالله شيئا أبداً. فذهبت عنهما ثم رجعت بصبي تحمله، فسألاها نفسها. فقالت: لا والله حتى تقتلا هذا الصبي. فقالا: لا، والله لا نقتله أبداً. ثم ذهبت فرجعت^(٦) بِقَدَحٍ خَمْرٍ تحمله، فسألاها نفسها. فقالت: لا والله حتى تشربا هذا الخمر. فشربا فسكرأ، فوقعا عليها، وقتلا الصبي. فلما أفاقا قالت المرأة: والله ما تركتما شيئا أبیتماه على إلا قد^(٧) فعلتماه حين سكرتما. فخيراً بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا.

وهكذا رواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه، عن الحسن بن سفيان، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يحيى بن أبي بكير، به^(٨).

وهذا حديث غريب من هذا الوجه، ورجاله كلهم ثقات من رجال الصحيحين، إلا موسى بن جبير هذا، وهو الأنصاري السلمي مولا هم المديني الحذاء، رَوَى عن ابن عباس وأبي أمامة بن سهل ابن حنيف، ونافع، وعبد الله بن كعب بن مالك. وروى عنه ابنه عبد السلام، وبكر بن مضر، وزهير بن محمد، وسعيد بن سلمة، وعبد الله بن لهيعة، وعمرو بن الحارث، ويحيى بن أيوب. وروى له أبو داود، وابن ماجه، وذكره ابن أبي حاتم في كتاب الجرح والتعديل، ولم يحك فيه شيئاً

(١) زيادة من ج، ط. (٢) زيادة من ط.

(٣) في ج: «يارب». (٤) في ج: «لهم».

(٥) في ج، ط: «لا والله». (٦) في ج، ط، ب: «فذهبت ثم رجعت».

(٧) في ج: «وقد».

(٨) المسند (٢/ ١٣٤) وصحيح ابن حبان برقم (١٧١٧) «موارد» وقال أبو حاتم في العلل (٢/ ٦٩): «هذا حديث منكر».

من هذا ولا هذا، فهو مستور الحال^(١)، وقد تفرد به عن نافع مولى ابن عمر، عن ابن عمر عن النبي ﷺ. وروى له متابع من وجه آخر عن نافع، كما قال ابن مردويه: حدثنا دَعْلَجُ بْنُ أَحْمَدَ، حدثنا هِشَامُ [بن علي بن هشام]^(٢)، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا سعيد بن سلمة، حدثنا موسى بن سَرْجِسَ، عن نافع، عن ابن عمر: سمع النبي ﷺ يقول. فذكره بطوله.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين - وهو سَيِّدُ بن داود صاحب التفسير - حدثنا الفرج بن فضالة، عن معاوية بن صالح، عن نافع، قال: سافرت مع ابن عمر، فلما كان من آخر الليل قال: يا نافع، انظر، طلعت الحمراء؟ قلت: لا - مرتين أو ثلاثاً - ثم قلت: قد طلعت. قال: لا مرحباً بها ولا أهلاً؟ قلت: سبحان الله! نجم مسخر سامع مطيع. قال: ما قُلت لك إلا ما سمعتُ من رسول الله ﷺ - أو قال: قال لي رسول الله ﷺ -: «إن الملائكة قالت: يارب، كيف صبرك على بني آدم في الخطايا^(٣) والذنوب؟ قال: إني ابتليتهم وعافيتهم. قالوا: لو كنا مكانهم ما عصيناك. قال: فاختاروا ملكين منكم. قال: فلم يألوا جهداً أن يختاروا، فاختاروا هاروت وماروت^(٤)».

وهذان - أيضاً - غريبان جداً. وأقرب ما في هذا أنه من رواية عبد الله بن عمر، عن كعب الأحبار، لا عن النبي ﷺ^(٥)، كما قال عبد الرزاق في تفسيره، عن الثوري، عن موسى بن عقبة، عن سالم، عن ابن عمر، عن كعب، قال^(٦): ذكرت الملائكة أعمال بني آدم، وما يأتون من الذنوب، فقليل لهم: اختاروا منكم اثنين، فاختاروا هاروت وماروت. فقال^(٧) لهما: إني أرسل إلى بني آدم رسلاً، وليس بيني وبينكم رسول، أنزلا لا تشركا بي شيئاً ولا ترنيا ولا تشربا الخمر. قال كعب: فوالله ما أمسيا من يومهما الذي أهبطا فيه حتى استكملا جميع ما نهيا عنه.

ورواه ابن جرير من طريقين، عن عبد الرزاق، به^(٨).

ورواه ابن أبي حاتم، عن أحمد بن عصام، عن مُؤَمَّلٍ، عن سفيان الثوري، به^(٩).

ورواه ابن جرير أيضاً: حدثني المثني، حدثنا المعلى - وهو ابن أسد - حدثنا عبد العزيز بن المختار، عن موسى بن عقبة، حدثني سالم أنه سمع عبد الله يحدث، عن كعب الأحبار، فذكره^(١٠). فهذا أصح وأثبت إلى عبد الله بن عمر من الإسنادين المتقدمين، وسالم أثبت في أبيه من مولاة

(١) الجرح والتعديل (٨ / ١٣٩) وذكره ابن حبان في الثقات (٧ / ٤٥١) وقال: «يخطئ ويخالف».

(٢) زيادة من ج، ط، و. (٣) في ط، ب: «الخطأ».

(٤) تفسير الطبري (٢ / ٤٣٣).

(٥) في ج: «رسول الله». (٦) في ط: «وقال».

(٧) في ج، ط، ب، و: «فقل».

(٨) تفسير عبد الرزاق (١ / ٧٣، ٧٤) وتفسير الطبري (٢ / ٤٢٩).

(٩) تفسير ابن أبي حاتم (١ / ٣٠٦).

(١٠) تفسير الطبري (٢ / ٤٣٠).

نافع. فدار الحديث ورجع إلى نقل كعب الأحبار، عن كتب بنى إسرائيل، والله أعلم.

ذكر الآثار الواردة في ذلك عن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين :

قال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا الحجاج^(١)، حدثنا حماد، عن خالد الحذاء، عن عمير بن سعيد، قال: سمعت علياً، رضى الله عنه، يقول: كانت الزهرة امرأة جميلة من أهل فارس، وإنها خاصمت إلى الملكين هاروت وماروت، فراوداها^(٢) عن نفسها، فأبت عليهما إلا أن يعلمها الكلام الذى إذا تكلم [المتكلم]^(٣) به يُعرج به إلى السماء. فعلمها فتكلمت به فخرجت إلى السماء. فمسخت كوكباً!

وهذا الإسناد [جيد و]^(٤) رجاله ثقات، وهو غريب جداً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الفضل بن شاذان، حدثنا محمد بن عيسى، حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا أبو معاوية، عن [ابن أبي]^(٥) خالد، عن عمير بن سعيد، عن على قال: هما ملكان من ملائكة السماء. يعنى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾^(٦).

ورواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره بسنده، عن مغيث، عن مولاة جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده، عن على - مرفوعاً. وهذا لا يثبت من هذا الوجه.

ثم رواه من طريقين آخرين، عن جابر، عن أبى الطفيل، عن على، قال: قال رسول الله ﷺ: لعن الله الزهرة، فإنها هى التى فتنت الملكين هاروت وماروت. وهذا أيضاً لا يصح^(٧)، وهو منكر جداً. والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثني المثنى بن إبراهيم، حدثنا الحجاج بن منهل، حدثنا حماد، عن على بن زيد، عن أبى عثمان النهدي، عن ابن مسعود وابن عباس أنهما قالاً جميعاً: لما كثر^(٨) بنو آدم وعصوا، دعت الملائكة عليهم والأرض والجبال ربنا لا تهلكهم^(٩) فأوحى الله إلى الملائكة: إني أزلت الشهوة والشیطان من قلوبكم، ولو نزلتم لفعلتهم أيضاً. قال: فحدثوا أنفسهم أن لو ابتلوا اعتصموا، فأوحى الله إليهم أن اختاروا ملكين من أفضلكم. فاختاروا هاروت وماروت. فأهبطا إلى الأرض، وأنزلت الزهرة إليهما فى صورة^(١٠) امرأة من أهل فارس يسمونها بيذخت. قال: فوقعا بالخطيئة^(١١). فكانت الملائكة يستغفرون للذين آمنوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:

(١) فى جـ: «المثنى بن الحجاج». (٢) فى جـ: «فراودوها».

(٣) زيادة من جـ، ط. (٤) زيادة من جـ.

(٥) زيادة من ط، ب، و.

(٦) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٣٠٣).

(٧) ورواه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة برقم (٦٥٤) من طريق عيسى بن يونس عن أخيه إسرائيل عن جابر عن أبى الطفيل عن على به.

(٨) فى جـ: «كثر سواد». (٩) فى جـ، ط: «تتهلكهم».

(١٠) فى جـ: «فى أحسن صورة». (١١) فى جـ: «بالخطيئة».

[٧]، فلما وقعا بالخطيئة استغفروا لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم. فخيراً بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختراروا^(١) عذاب الدنيا^(٢).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن جعفر الرقى، أخبرنا عبيد الله - يعنى ابن عمرو - عن زيد بن أبى أنيسة، عن المنهال بن عمرو ويونس بن خباب، عن مجاهد، قال: كنت نازلاً على عبد الله بن عمر فى سفر، فلما كان^(٣) ذات ليلة قال لغلّامه: انظر، طلعت الحمراء، لا مرحباً بها ولا أهلاً، ولا حياها الله، هى صاحبة الملكين. قالت الملائكة: يارب، كيف تدع عصاة بنى آدم وهم يفسكون الدم الحرام ويتهكون محارمك ويفسدون فى الأرض! قال: إني قد ابتليتهم، فعل^(٤) إن أبلتكم بمثل الذى ابتليتهم به فعلتم كالذى يفعلون. قالوا: لا. قال: فاختراروا من خياركم اثنين. فاختراروا هاروت وماروت. فقال لهما: إني مهبطكما إلى الأرض، وعاهدُ إليكما ألا تشركا ولا تزنيا ولا تخونا. فأهبطا إلى الأرض وألقى عليهما الشّبَق، وأهبطت لهما الزُّهرة فى أحسن صورة امرأة، فتعرضت لهما، فراوداهما^(٥) عن نفسها. فقالت: إني على دين لا يصح^(٦) لأحد أن يأتينى إلا من كان على مثله. قالوا: وما دينك؟ قالت: المجوسية. قالوا: الشرك! هذا شيء لا نقر به. فمكثت عنهما ما شاء الله. ثم تعرضت لهما فأراداهما عن نفسها. فقالت: ما شئتما، غير أن لى زوجاً، وأنا أكره أن يطلع على هذا منى فأفتضح، فإن أقررتما لى بدنى، وشرطتما لى أن تصعدا بى إلى السماء فعلتُ. فأقرا لها بدنيها وأتياها فيما يريان، ثم صعدا بها إلى السماء. فلما انتهيا بها إلى السماء اختطفتهما، وقطعت أجنحتهما^(٧)، فوقعا خائفين نادمين يبيكان، وفى الأرض نبي يدعو بين الجمعيتين، فإذا كان يوم الجمعة أجيب. فقالوا: لو أتينا فلاناً فسألناه فطلب^(٨) لنا التوبة! فأتياه، فقال: رحمك الله^(٩)، كيف يطلب أهل الأرض لأهل السماء! قالوا: إنا قد ابتلينا. قال: اثنيان^(١٠) يوم الجمعة. فأتياه، فقال: ما أحببت فيكما بشيء، اثنيان فى الجمعة الثانية. فأتياه، فقال: اختارا، فقد خيرتما، إن أحببتما معافاة الدنيا وعذاب الآخرة، وإن أحببتما فعذاب الدنيا وأنتما يوم القيامة على حكم الله. فقال أحدهما: إن الدنيا لم يمض منها إلا القليل. وقال الآخر: ويحك؟ إني قد أعطتك فى الأمر الأول فأطعننى الآن، إن عذاباً يفنى ليس كعذاب يبقى، وإننا يوم القيامة على حكم الله، فأخاف أن يعذبنا. قال: لا، إني أرجو إن علم الله أنا قد اخترنا عذاب الدنيا مخافة عذاب الآخرة ألا يجمعهما علينا. قال: فاختراروا عذاب الدنيا، فجعلوا فى بكرات من حديد فى قليب مملوءة من نار، عاليهما

(١) فى جـ، ط، ب: «فاختاروا».

(٢) تفسير الطبرى (٢/ ٤٢٨).

(٣) فى جـ: «بفعل».

(٤) فى جـ: «فلما كانت».

(٥) فى جـ، ط، ب: «لا يصلح».

(٦) فى جـ: «أجنتها».

(٧) فى جـ، ط، ب: «يطلب».

(٨) فى جـ: «ما رحمكم الله».

(٩) فى جـ: «فأثاني».

سافلهما^(١).

وهذا إسناد جيد إلى عبد الله بن عمر. وقد تقدم في رواية ابن جرير من حديث معاوية بن صالح، عن نافع، عنه رفعه. وهذا أثبت وأصح إسناداً. ثم هو - والله أعلم - من رواية ابن عمر عن كعب، كما تقدم بيانه من رواية سالم عن أبيه. وقوله: إن الزهرة نزلت في صورة امرأة حسناء، وكذا في المروى عن علي، فيه غرابة جداً.

وأقرب ما ورد في ذلك ما قال ابن أبي حاتم: حدثنا عصام بن رواد، حدثنا آدم، حدثنا أبو جعفر، حدثنا الربيع بن أنس، عن قيس بن عباد، عن ابن عباس، رضى الله عنهما^(٢)، قال: لما وقع الناس من بعد آدم، عليه السلام، فيما وقعوا فيه من المعاصي والكفر بالله، قالت الملائكة في السماء: يارب، هذا العالم الذى إنما خلقتهم لعبادتك وطاعتك، قد وقعوا فيما وقعوا فيه وركبوا الكفر وقتل النفس وأكل المال الحرام، والزنا والسرقة وشرب الخمر. فجعلوا يدعون عليهم، ولا يعذرونهم، ف قيل: إنهم فى غيب. فلم يعذروهم. ف قيل لهم: اختاروا منكم من أفضلكم ملكين، أمرهما وأنهاهما. فاختاروا هاروت وماروت. فأهبطا إلى الأرض، وجعل لهما شهوات بنى آدم، وأمرهما الله أن يعبداه ولا يشركا به شيئاً، ونهيا عن قتل النفس الحرام وأكل المال الحرام، وعن الزنا والسرقة وشرب الخمر. فلبثا فى الأرض زماناً يحكمان بين الناس بالحق وذلك فى زمان إدريس عليه السلام. وفى ذلك الزمان امرأة حسنها فى النساء كحسن الزهرة فى سائر الكواكب، وإنهما أتيا عليها فخصعا لها فى القول، وأراداها على نفسها فأبت إلا أن يكونا على أمرها وعلى دينها، فسألاها^(٣) عن دينها، فأخرجت لهما صنماً فقالت: هذا أعبد. فقالا: لا حاجة لنا فى عبادة هذا. فذهبا فَعَبَرَا ما شاء الله. ثم أتيا عليها فأراداها على نفسها، ففعلت مثل ذلك. فذهبا، ثم أتيا عليها فراوداها^(٤) على نفسها، فلما رأت أنهما قد أبيا أن يعبدا الصنم قالت لهما: اختارا إحدى الخلال الثلاث: إما أن تعبدا هذا الصنم، وإما أن تقتلا هذه النفس، وإما أن تشربا هذا الخمر. فقالا: كل هذا لا ينبغى، وأهون هذا شرب الخمر. فشربا الخمر فأخذت فيهما فواقعا^(٥) المرأة، فخشيا أن يخبر الإنسان عنهما فقتلاه^(٦)، فلما ذهب عنهما السكر وعلما ما وقعا فيه من الخطيئة أرادا أن يصعدا إلى السماء، فلم يستطيعا، وحيل بينهما وبين ذلك، وكشف الغطاء فيما بينهما وبين أهل السماء، فنظرت الملائكة إلى ما وقعا فيه، فعجبوا كل العجب، وعرفوا أنه من كان فى غيب فهو أقل خشية، فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمن فى الأرض، فنزل فى ذلك: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥] ف قيل لهما: اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة. فقالا: أما عذاب الدنيا فإنه ينقطع

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٣٠٦، ٣٠٧).

(٢) فى ج، ط، ب: «فسألا».

(٣) فى ج، ط: «عنه».

(٤) فى ج، ط، ب: «فأراداها».

(٥) فى ج: «فوقعا».

(٦) فى ج: «فقتلاها».

ويذهب، وأما عذاب الآخرة فلا انقطاع له. فاختارا عذاب الدنيا، فجعلا ببابل، فهما يعذبان^(١).

وقد رواه الحاكم في مستدركه مطولا عن أبي زكريا العنبري، عن محمد بن عبد السلام، عن إسحاق بن راهويه، عن حكام بن سلم^(٢) الرازي، وكان ثقة، عن أبي جعفر الرازي، به. ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. فهذا أقرب ما روى في شأن الزهرة، والله أعلم^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مسلم، حدثنا القاسم بن الفضل الحُدائي^(٤)، حدثنا يزيد - يعنى الفارسي - عن ابن عباس [قال]^(٥): إن أهل سماء الدنيا أشرفوا على أهل الأرض فرأوهم يعملون المعاصي^(٦)، فقالوا: يا رب، أهل الأرض كانوا يعملون بالمعاصي! فقال الله: أنتم معي، وهم غيبٌ عني. ف قيل لهم: اختاروا منكم ثلاثة، فاختاروا منهم ثلاثة على أن يهبطوا إلى الأرض، على أن يحكموا بين أهل الأرض، وجعل فيهم شهوة الآدميين، فأمرؤا ألا يشربوا خمرأ ولا يقتلوا نفسا، ولا يزنوا، ولا يسجدوا لوثن. فاستقال منهم واحد، فأقيل. فأهبط اثنان إلى الأرض، فأتتهما امرأة من أحسن الناس^(٧) يقال لها: مناهية^(٨). فهويأها جميعأ، ثم أتيا منزلها فاجتمعا عندها، فأراداها فقالت لهما: لا، حتى تشربا خمرى، وتقتلا ابن جارى، وتسجدا لوثنى. فقالا: لا نسجد. ثم شربا من الخمر، ثم قتلا، ثم سجدا. فأشرف أهل السماء عليهما. فقالت^(٩) لهما: أخبراني بالكلمة التى إذا قلتماها طرما. فأخبراها فطارت فمسخت جمرأ. وهى هذه الزهرة. وأما هما فأرسل إليهما سليمان بن داود، فخيرهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. فاختارا عذاب الدنيا. فهما مناطان بين السماء والأرض^(١٠).

وهذا السياق فيه زيادات كثيرة وإغراب ونكارة، والله أعلم بالصواب.

وقال عبد الرزاق: قال معمر: قال قتادة والزهرى، عن عبيد الله بن عبد الله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾: كانا ملكين من الملائكة، فأهبطا ليحكمما بين الناس. وذلك أن الملائكة سخروا من حكام بنى آدم، فحاكمت إليهما امرأة، فحافا لها. ثم ذهبا يصعدان فحيل بينهما وبين ذلك، وخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا. وقال معمر: قال قتادة: فكانا يعلمان الناس السحر، فأخذ عليهما ألا يعلما أحدا حتى يقولأ: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾^(١١). وقال أسباط عن السدى أنه قال: كان من أمر هاروت وماروت أنهما طعنا على أهل الأرض فى

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٣٠٥).

(٢) فى و: «بن سالم».

(٣) وقد أبطل الإمام ابن حزم قصة هاروت وماروت ورد على من ادعى شربهما الخمر وارتكابهما الزنا والقتل فى كتابه الفصل (٣/ ٣٠٣ - ٣٠٨، ٤/ ٦١ - ٦٥).

(٤) فى ج: «الحرانى».

(٥) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٦) فى ج، ط، أ، و: «بالمعاصي».

(٧) فى ج: «النساء».

(٨) فى أ: «أناهيد».

(٩) فى ج، ط، ب: «وقالت».

(١٠) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٣٠٨).

(١١) تفسير عبد الرزاق (١/ ٧٣).

أحكامهم، فقبل لهما: إني أعطيت بنى آدم عشرًا من الشهوات، فيها^(١) يعصونني. قال هاروت وماروت: ربنا، لو أعطيتنا تلك الشهوات ثم نزلنا لحكمنا بالعدل. فقال لهما: انزلا، فقد أعطيتكما تلك الشهوات العشر، فاحكما بين الناس. فنزلا ببابل دُنبَاوَنَد، فكانا يحكما، حتى إذا أمسيا عرجا، فإذا أصبحا هبطا، فلم يزالا كذلك حتى أتتهما امرأة تخاصم زوجها، فأعجبهما^(٢) حُسْنُهَا - واسمها بالعربية «الزَّهْرَة»، وبالنبطية «بيذخت»، وبالفارسية «أناهيد» - فقال أحدهما لصاحبه: إنها لتعجبني. قال الآخر: قد أردت أن أذكر لك فاستحييت منك. فقال الآخر: هل لك أن أذكرها لنفسها؟ قال: نعم ولكن كيف لنا بعذاب الله؟ قال الآخر: إنا لنرجو رحمة الله. فلما جاءت تخاصم زوجها ذكر إليها نفسها، فقالت: لا، حتى تقضيا لى على زوجي. فقضيا لها على زوجها، ثم واعدتهما خربة من الحَرْب يأتياها فيها، فأتياها لذلك. فلما أراد الذى يواقعها قالت: ما أنا بالذى أفعل حتى تخبراني بأى كلام تصعدان إلى السماء، وبأى كلام تنزلان منها؟ فأخبراهما، فتكلمت فصعدت، فأنساها الله ما تنزل به، فبقيت^(٣) مكانها، وجعلها^(٤) الله كوكبًا. فكان عبد الله بن عمر كلما رآها لعنها، فقال: هذه التى قتنت هاروت وماروت، فلما كان الليل أراد أن يصعدا فلم يطيقا، فعرفا الهلكة فخيرًا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. فاختارا عذاب الدنيا، فعلقا ببابل، وجعلا يكلمان الناس كلامهما وهو السحر.

وقال ابن أبى نَجِيج^(٥)، عن مجاهد: أما شأن هاروت وماروت، فإن الملائكة عجبت من ظلم بنى آدم، وقد جاءتهم الرسل والكتب والبينات، فقال لهم ربهم تعالى: اختاروا منكم ملكين أنزلهما يحكما فى الأرض بين بنى آدم فاختراروا فلم يألوا [إلا]^(٦) هاروت وماروت، فقال لهما حين أنزلهما: أعجبتما^(٧) من بنى آدم من ظلمهم ومن معصيتهم، وإنما تأتيتهم الرسل والكتب [والبينات]^(٨) من وراء وراء، وأنتما ليس بيني وبينكما رسول، فافعلا كذا وكذا، ودعا كذا كذا، فأمرهما بأمر ونهاهما، ثم نزلا على ذلك ليس أحد أطوع لله منهما، فحكما فعدلا. فكانا يحكما النهار بين بنى آدم، فإذا أمسيا عرجا فكانا مع الملائكة، وينزلان حين يصبحان فيحكما فيعدلان، حتى أنزلت عليهما الزهرة فى أحسن صورة امرأة تُخاصم، فقضيا عليها. فلما قامت وجد كل واحد منهما فى نفسه، فقال أحدهما لصاحبه: وجدت مثل الذى وجدت؟ قال: نعم. فبعثا إليها أن اثبتنا نقض لك. فلما رجعت قالوا وقضيا لها، فأتتهما فتكشفا لها عن عورتها، وإنما كانت شهوتها^(٩) فى أنفسهما، ولم يكونا كبنى آدم فى شهوة النساء ولذتها. فلما بلغا ذلك واستحلا افتتتا، فطارت الزهرة فرجعت حيث كانت. فلما أمسيا عرجا فزجرا فلم يؤذن لهما، ولم تحملهما أجنحتهما. فاستغاثا برجل من بنى آدم

(١) فى ط، ب: «فما». (٢) فى ج، ط، ب، أ، و: «فأعجبهما من».

(٣) فى ب، أ، و: «فثبتت». (٤) فى أ: «وخلقها».

(٥) فى ط: «جريج». (٦) زيادة من ج.

(٧) فى ج، ط، ب: «أعجبتم». (٨) زيادة من ج.

(٩) فى أ، و: «سواتهما».

فأتياء، فقالا: ادع لنا ربك. فقال: كيف يشفع أهل الأرض لأهل السماء؟ قالوا: سمعنا ربك يذكرك بخير في السماء. فوعدهما يوماً، وغدا يدعو لهما فدعا لهما، فاستجيب له، فخيراً بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فنظر أحدهما إلى صاحبه، فقال: ألا تعلم أن أفواج عذاب الله في الآخرة كذا وكذا في الخلد، وفي الدنيا تسع مرات مثلها؟ فأمر أن ينزلا ببابل، فثمَّ عذابهما. وزعم أنهما معلقان في الحديد مطويان، يصفقان بأجنحتهما.

وقد روى في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين، كمجاهد والسدي والحسن [البصري]^(١) وقتادة وأبي العالية والزهرى والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم، وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بنى إسرائيل؛ إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال.

وقد ورد أثر غريب وسياق عجيب في ذلك أحببنا أن ننبه عليه، قال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: حدثنا الربيع بن سليمان، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن أبي الزناد، حدثني هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة زوج النبي ﷺ [رضى الله عنها وعن أبيها]^(٢) أنها قالت: قدمت امرأة على من أهل دومة الجندل، جاءت تبتغي رسول الله ﷺ بعد موته حَدَاثَةً ذلك، تسأله عن شيء^(٣) دخلت فيه من أمر السحر، ولم تعمل به. قالت عائشة، رضى الله عنها، لعروة: يا ابن أختي، فرأيتها تبكى حين لم تجد رسول الله ﷺ فيشفئها كانت تبكى حتى إنى لأرحمها، وتقول: إنى أخاف أن أكون قد هلكت. كان لى زوج فغاب عني، فدخلت على عجز فشكلت ذلك إليها، فقالت: إن فعلت ما أمرك به فأجعله يأتيك. فلما كان الليل جاءتنى بكليين أسودين، فركبتُ أحدهما^(٤) وركبتُ الآخر، فلم يكن كشيء حتى وقفنا ببابل، وإذا برجلين معلقين بأرجلهم. فقالا: ما جاء بك؟ فقلتُ: أتعلم^(٥) السحر. فقالا: إنما نحن فتنة فلا تكفري، فارجعي. فأبيت وقلت: لا. قالوا: فاذهبي^(٦) إلى ذلك التنور، فبولي فيه. فذهبت ففزعتُ ولم أفعل، فرجعت إليهما، فقالا: أفعلت؟ فقلت: نعم. فقالا: هل رأيت شيئاً؟ فقلت: لم أر شيئاً. فقالا: لم تفعل، ارجعي إلى بلادك ولا تكفري [فإنك على رأس أمرى]^(٧). فأرئيتُ وأبيت^(٨). فقالا: اذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه. فذهبت فاقشعرت [وخفت]^(٩)، ثم رجعت إليهما فقلت: قد فعلت. فقالا: فما رأيت؟ فقلت: لم

(١) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.
(٢) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.
(٣) في أ، و: «عن أشياء».
(٤) في ج، ب، أ، و: «فقلنا نتعلم».
(٥) في أ، و: «فقلنا فاذهبا».
(٦) في ج، ب، أ، و: «فأبيت وأبيت».
(٧) زيادة من ج.
(٨) في ج، ب، أ، و: «فأبيت وأبيت».
(٩) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

أر شيئاً. فقالا: كذبت، لم تفعل، ارجعى إلى بلادك ولا تكفرى^(١)؛ فإنك على رأس أمرك. فأربيت وأبيت. فقالا: اذهبي إلى ذلك التنور، فبولى فيه. فذهبت إليه فبلت فيه، فرأيت فارساً مقنعاً^(٢) بحديد خرَج منى، فذهب فى السماء وغاب [عنى]^(٣) حتى ما أراه، فجتتهما فقلت: قد فعلت. فقالا: فما رأيت؟ قلت: رأيت فارساً مقنعاً خرج منى فذهب فى السماء، حتى ما أراه. فقالا: صدقت، ذلك إيمانك خرج منك، اذهبي. فقلت للمرأة: والله ما أعلم شيئاً وما قالوا لى شيئاً. فقالت: بلى، لم تريد شيئاً إلا كان، خذى هذا القمح فابذرى، فبذرت، وقلت: أطلعى^(٤). فأطلعت^(٥) وقلت: أحقلى فأحقلت^(٦)، ثم قلت: أفركى فأفركت. ثم قلت: أيسى فأيست^(٧). ثم قلت: أطحنى فأطحنت^(٨). ثم قلت: أخبزى فأخبزت^(٩). فلما رأيت أنى لا أريد شيئاً إلا كان، سَقَطَ فى يدى وندمت - والله - يا أم المؤمنين والله ما فعلت شيئاً قط ولا أفعله أبداً^(١٠).

ورواه ابن أبى حاتم عن الربيع بن سليمان، به مطولاً، كما تقدم^(١١). وزاد بعد قولها: ولا أفعله أبداً: فسألت أصحاب رسول الله ﷺ حَدَاثَةَ وفاة رسول الله ﷺ، وهم يومئذ متوافرون، فما دَرَوْا ما يقولون لها، وكلهم هاب وخاف أن يفتيها بما لا يعلمه، إلا أنه قد قال لها ابن عباس - أو بعض من كان عنده -: لو كان أبواك حين أو أحدهما [لكان يكفيانك]^(١٢).

قال هشام: فلو جاءتنا أفتيناها بالضممان [قال]^(١٣): قال ابن أبى الزناد: وكان هشام يقول: إنهم كانوا من أهل الورع والخشية^(١٤) من الله. ثم يقول هشام: لو جاءتنا مثلها اليوم لوجدت نوكى أهل حمق وتكلف بغير علم.

فهذا إسناد جيد إلى عائشة، رضى الله عنها.

وقد استدلل بهذا الأثر من ذهب إلى أن^(١٥) الساحر له تمكن فى قلب الأعيان؛ لأن هذه المرأة بَذَرَتْ واستغلت فى الحال.

وقال آخرون: بل ليس له قدرة إلا على التخيل، كما قال [الله]^(١٦) تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا

(١) فى ج: «ولم تكفرى».

(٢) فى ج: «معلقاً».

(٣) فى ج، ط: «اطلع فطلع».

(٤) فى ج: «أحقل فأحقل»، وفى أ، و: «فطلعت».

(٥) فى ج: «أيسى فيسى».

(٦) فى ج: «أطحن فطحن».

(٧) فى ج: «أخبزت».

(٨) فى ج: «أطحن فطحن».

(٩) فى ج: «أطحن فطحن».

(١٠) فى ج: «أطحن فطحن».

(١١) فى ج: «أطحن فطحن».

(١٢) فى ج: «أطحن فطحن».

(١٣) فى ج: «أطحن فطحن».

(١٤) فى ج: «أطحن فطحن».

(١٥) فى ج: «أطحن فطحن».

(١٦) فى ج: «أطحن فطحن».

(١) فى ج: «ولم تكفرى».

(٢) فى ج: «معلقاً».

(٣) فى ج، ط: «اطلع فطلع».

(٤) فى ج: «أحقل فأحقل»، وفى أ، و: «فطلعت».

(٥) فى ج: «أيسى فيسى».

(٦) فى ج: «أطحن فطحن».

(٧) فى ج: «أخبزت».

(٨) فى ج: «أطحن فطحن».

(٩) فى ج: «أطحن فطحن».

(١٠) فى ج: «أطحن فطحن».

(١١) فى ج: «أطحن فطحن».

(١٢) فى ج: «أطحن فطحن».

(١٣) فى ج: «أطحن فطحن».

(١٤) فى ج: «أطحن فطحن».

(١٥) فى ج: «أطحن فطحن».

(١٦) فى ج: «أطحن فطحن».

تَسْعَى ﴿ طه: ٦٦ ﴾ واستدل به على أن بابل المذكورة في القرآن هي بابل العراق، لا بابل دُنيَاوند^(١) كما قاله السدي وغيره. ثم الدليل على أنها بابل العراق ما قال^(٢) ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن صالح، حدثني ابن وهب، حدثني ابن لهيعة ويحيى بن أزهر، عن عمار بن سعد المرادي، عن أبي صالح الغفاري أن علي بن أبي طالب، رضى الله عنه [مر بابل وهو يسير، فجاء المؤذن يؤذنه بصلاة العصر، فلما برز منها أمر المؤذن فأقام الصلاة، فلما فرغ] قال: إن حبيبي ﷺ نهاني أن أصلى [بأرض المقبرة، ونهاني أن أصلى] ببابل فإنها ملعونة^(٣).

وقال أبو داود: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا ابن وهب، حدثني ابن لهيعة ويحيى بن أزهر، عن عمار بن سعد المرادي، عن أبي صالح الغفاري: أن عليا مر ببابل، وهو يسير، فجاء المؤذن يؤذنه بصلاة العصر، فلما برز منها أمر المؤذن فأقام الصلاة، فلما فرغ قال: إن حبيبي ﷺ نهاني أن أصلى في المقبرة، ونهاني أن أصلى بأرض بابل، فإنها ملعونة.

حدثنا أحمد بن صالح: حدثنا ابن وهب، أخبرني يحيى بن أزهر وابن لهيعة، عن الحجاج بن شداد، عن أبي صالح الغفاري، عن علي، بمعنى حديث سليمان بن داود، قال: فلما «خرج» مكان «برز»^(٤).

وهذا الحديث حسن عند الإمام أبي داود؛ لأنه رواه وسكت عنه^(٥)؛ ففيه من الفقه كراهية الصلاة بأرض بابل، كما تكره بديار ثمود الذين نهى رسول الله ﷺ عن الدخول إلى منازلهم، إلا أن يكونوا باكين.

قال أصحاب الهيئة: وبُعْدُ ما بين بابل، وهي من إقليم العراق، عن البحر المحيط الغربي، ويقال له: أوقيانوس^(٦) سبعون درجة، ويسمون هذا طولاً، وأما عرضها وهو بعد ما بينها وبين وسط الأرض من ناحية الجنوب، وهو المسامت لخط الاستواء، اثنان^(٧) وثلاثون درجة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾: قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن قيس^(٨) بن عباد، عن ابن عباس، قال: فإذا أتاهما الآتي يريد السحر نهياه أشد النهي، وقال له: إنما نحن فِتْنَةٌ فلا تكفر، وذلك أنهما علما الخير والشر والكفر والإيمان، فعرفا أن السحر من الكفر^(٩). [قال^(١٠): فإذا أبى عليهما أمراه أن يأتي مكان كذا وكذا، فإذا أتاه عاين الشيطان فَعَلِمَهُ، فإذا تعلم خرج منه النور، فنظر^(١١) إليه ساطعاً في السماء، فيقول: يا حسرتاه!

(١) في ط، ب، أ، و: «دنيانود».

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٣٠٤)، وما بين المعقوفين ليس في تفسير ابن أبي حاتم.

(٤) سنن أبي داود برقم (٤٩٠، ٤٩١).

(٥) في ج، ط، ب، أ، و: «وسكت عليه».

(٦) في ب: «أوليانوس».

(٨) في أ: «عن بشر».

(١٠) زيادة من ج، أ، و.

(٩) في ب: «أن الكفر من السحر».

(١١) في أ: «فينظر».

ياويله! ماذا أصنع^(١)؟

وعن الحسن البصرى أنه قال فى تفسير هذه الآية: نَعَمْ، أنزل الملكان بالسحر، ليعلما^(٢) الناس البلاء الذى أراد الله أن يبتلى به الناس، فأخذ عليهما الميثاق أن لا يعلما أحداً حتى يقولوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾. رواه ابن أبى حاتم، وقال قتادة: كان أخذ عليهما ألا يعلما أحداً حتى يقولوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ - أى: بلاء ابتلينا به - ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾.

وقال [قتادة و]^(٣) السدى: إذا أتاهما إنسان يريد السحر، وعظاه، وقالوا له: لا تكفر، إنما نحن فتنة. فإذا أبى قالوا له: ائت هذا الرماد، فبلّ عليه. فإذا بال عليه خرج منه نور فسطع حتى يدخل السماء، وذلك الإيمان. وأقبل شىء أسود كهيئة الدخان حتى يدخل فى مسامعه وكل شىء [منه]^(٤). وذلك غضب الله. فإذا أخبرهما بذلك علماه السحر، فذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ الآية.

وقال سنيّد، عن حجاج، عن ابن جريج فى هذه الآية: لا يجترئ على السحر إلا كافر.

وأما الفتنة فهى المحنة والاختبار، ومنه قول الشاعر:

وقد فتن الناس فى دينهم وخلى ابن عفان شراً طويلاً^(٥)

وكذلك^(٦) قوله تعالى إخباراً عن موسى، عليه السلام، حيث قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أى: ابتلاؤك واختبارك وامتحانك ﴿تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾^(٧) [الأعراف: ١٥٥].

وقد استدل بعضهم بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر، ويستشهد له بالحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المنثى، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن همام، عن عبد الله، قال: من أتى كاهناً أو ساحراً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ.

وهذا إسناد جيد^(٨)، وله شواهد أخرى.

وقوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ أى: فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ما يتصرفون به فيما يتصرفون فيه من الأفاعيل المذمومة، ما إنهم ليفرقون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف. وهذا من صنيع الشياطين، كما رواه مسلم فى صحيحه، من حديث الأعمش، عن أبى سفيان طلحة بن نافع، عن جابر بن عبد الله، رضى الله

(١) فى أ، و: «ماذا صنع». (٢) فى أ، و: «ليعلما» وهو خطأ.

(٣) زيادة من و. (٤) زيادة من أ، و.

(٥) البيت فى تفسير الطبرى (٢/ ٤٤٤) وانظر هناك الاختلاف فى قائله.

(٦) فى ط، ب، أ، و: «وكذا». (٧) فى ج، ط، ب، أ، و: «وتهدى من تشاء الآية».

(٨) فى ج، ط، ب، أ، و: «إسناد صحيح».

عنه^(١)، عن النبي ﷺ، قال: «إن الشيطان يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه فى الناس، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة، يجرى أحدهم فيقول: مازلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا. فيقول إبليس: لا والله ما صنعت شيئاً. ويجىء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله^(٢)، قال: فيقربه ويدنيه ويلتزمه، ويقول: نعم أنت^(٣)».

وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر: ما يخيّل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر، أو خلق أو نحو ذلك أو عقد أو بغضة، أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة.

والمرء عبارة عن الرجل، وتأنثه امرأة، ويشئى كل منهما ولا يجمعان، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: قال سفيان الثوري: إلا بقضاء الله. وقال محمد بن إسحاق إلا بتخلية الله بينه وبين ما أراد. وقال الحسن البصري: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، قال: نعم، من شاء الله سلطهم عليه، ومن لم يشأ الله لم يسلط، ولا يستطيعون ضر أحد إلا بإذن الله، كما قال الله تعالى، وفى رواية عن الحسن أنه قال: لا يضر هذا السحر إلا من دخل فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ أى: يضرهم فى دينهم، وليس له نفع يوازى ضرره.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ أى: ولقد علم اليهود الذى استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول^(٤) ﷺ لَمَنِ فعل فعلهم ذلك، أنه ماله فى الآخرة من خلاق.

قال ابن عباس ومجاهد والسدى: من نصيب. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ماله فى الآخرة من جهة عند الله^(٥)، وقال: وقال الحسن: ليس له دين.

وقال سعد^(٦) عن قتادة: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ قال: ولقد علم أهل الكتاب فيما عهد الله إليهم أن الساحر لا خلاق له فى الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾: يقول تعالى: ﴿وَلَيْسَ﴾ البديل ما استبدلوا به من السحر عوضاً عن الإيمان، ومتابعة الرسل^(٧)، لو كان لهم علم بما وعظوا به ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ أى: ولو أنهم آمنوا بالله ورسله واتقوا المحارم، لكان مثوبة الله على ذلك خيراً لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا

(١) فى ب: «عنهما».

(٢) فى ج: «وبين زوجة».

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٨١٣).

(٤) فى أ: «ماله فى الآخرة من خلاق».

(٥) فى أ: «متابعة الرسل».

(٦) فى أ: «الرسول».

(٧) فى ط، ب، و: «سعيد».

يَلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ [القصص: ٨٠].

وقد يستدل بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ من ذهب إلى تكفير الساحر، كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وقول طائفة من السلف. وقيل: بل لا يكفر، ولكن حده ضرب عنقه، لما رواه الشافعي وأحمد بن حنبل، رحمهما الله: أخبرنا سفيان، عن عمرو بن دينار، أنه سمع بجاله بن عبدة يقول: كتب [أمير المؤمنين]^(١) عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة. قال: فقتلنا ثلاث سواحر^(٢). وقد أخرجه البخاري في صحيحه أيضاً^(٣). وهكذا صح أن حفصة أم المؤمنين سحرتهما جارية لها، فأمرت بها فقتلت^(٤). قال أحمد بن حنبل: صح عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ [أذنوا]^(٥) في قتل الساحر.

وروى الترمذي من حديث إسماعيل بن مسلم، عن الحسن، عن جندب الأزدي أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حد الساحر ضرباً بالسيف»^(٦).

ثم قال: لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه. وإسماعيل بن مسلم يضعف في الحديث، والصحيح: عن الحسن عن جندب موقوفاً.

قلت: قد رواه الطبراني من وجه آخر، عن الحسن، عن جندب، مرفوعاً^(٧). والله أعلم.

وقد روى من طرق متعددة أن الوليد بن عقبة كان عنده ساحر يلعب بين يديه، فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيرد إليه رأسه، فقال الناس: سبحان الله! يحيى الموتى! ورآه رجل من صالحى المهاجرين، فلما كان الغد جاء مشتملاً على سيفه، وذهب يلعب لعبه ذلك، فاخترط الرجل سيفه فضرب^(٨) عنق الساحر، وقال: إن كان صادقاً^(٩) فليحى نفسه. وتلا قوله تعالى: ﴿أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣] فغضب الوليد إذ لم يستأذنه في ذلك فسجنه ثم أطلقه،^(١٠) والله أعلم.

وقال^(١١) أبو بكر الخلال: أخبرنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثني أبي، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثني أبو إسحاق، عن حارثة قال: كان عند بعض الأمراء رجل يلعب فجاء جندب مشتملاً

(١) زيادة من ج.

(٢) رواه عبد الله بن أحمد في مسائل أبيه، ط. المكتب الإسلامي برقم (١٥٤٢) عن أبيه عن سفيان به.

(٣) صحيح البخاري برقم (٣١٥٦).

(٤) رواه عبد الله بن أحمد في مسائل أبيه، ط. المكتب الإسلامي برقم (١٥٤٣) عن أبيه عن يحيى بن سعيد، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر: أن حفصة سحرتهما جاريتهما، فذكره.

(٥) زيادة من ج.

(٦) سنن الترمذي برقم (١٤٦٠).

(٧) المعجم الكبير (٢/ ١٦١) من طريق محمد بن الحسن بن سيار، عن خالد العبد عن الحسن عن سمرة به.

(٨) في ج: «وضرب». (٩) في أ، و: «إن كان ساحراً».

(١٠) الرجل الذى قتله هو جندب بن كعب، انظر القصة في: أسد الغابة لابن الأثير في ترجمة جندب بن كعب (١/ ٣٦١) وفي الإصابة للحافظ ابن حجر (١/ ٢٥١).

(١١) في و: «وقال الإمام».

على سيفه فقتله، فقال: أراه كان ساحراً، وحمل الشافعي، رحمه الله، قصة عمر، وحفصة^(١) على سحر يكون شركاً. والله أعلم.

فصل

حكى أبو عبد الله الرازي في تفسيره عن المعتزلة أنهم أنكروا وجود السحر، قال: وربما كفروا من اعتقد وجوده. قال: وأما أهل السنة فقد جوزوا أن يقدر الساحر أن يطير في الهواء، ويقلب الإنسان حماراً، والحمار إنساناً، إلا أنهم قالوا: إن الله يخلق الأشياء عندما يقول الساحر تلك الرقى و[تلك]^(٢) الكلمات المعينة، فأما أن يكون المؤثر في ذلك هو الفلك والنجوم فلا، خلافاً للفلاسفة والمنجمين والصابئة، ثم استدل على وقوع السحر وأنه بخلق الله تعالى، بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ومن الأخبار بأن رسول الله ﷺ سحر، وأن السحر عمل فيه، وبقصة تلك المرأة مع عائشة، رضى الله عنها، وما ذكرت تلك المرأة من إتيانها بابل وتعلمها السحر، قال: وبما يذكر^(٣) في هذا الباب من الحكايات الكثيرة، ثم قال بعد هذا:

المسألة الخامسة في أن العلم بالسحر ليس ببيع ولا محظور: اتفق المحققون على ذلك؛ لأن^(٤) العلم لذاته شريف، وأيضاً لعدم قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]؛ ولأن السحر لو لم يعلم لما أمكن الفرق بينه وبين المعجزة، والعلم بكون المعجز معجزاً واجب، وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب؛ فهذا يقتضى أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجباً، وما يكون واجباً فكيف يكون حراماً وقبيحاً؟!

هذا لفظه بحروفه في هذه المسألة، وهذا الكلام فيه نظر من وجوه، أحدها: قوله: «العلم بالسحر ليس ببيع». إن عني به ليس ببيع عقلاً، فمخالفة من المعتزلة يمنعون هذا^(٥)، وإن عني أنه ليس ببيع شرعاً، ففي هذه الآية الكريمة تبشيع^(٦) لتعلم السحر، وفي الصحيح: «من أتى عرافاً أو كاهناً، فقد كفر بما أنزل على محمد»^(٧). وفي السنن: «من عقد عقدة ونفث فيها فقد سحر»^(٨). وقوله: «ولا محظور اتفق المحققون على ذلك». كيف لا يكون محظوراً مع ما ذكرناه من الآية والحديث؟! واتفاق المحققين^(٩) يقتضى أن يكون قد نص على هذه المسألة أئمة العلماء أو أكثرهم، وأين نصوصهم على ذلك؟ ثم إدخاله [علم]^(١٠) السحر في عموم قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيه نظر؛ لأن هذه الآية إنما دلت على مدح العالمين بالعلم الشرعي، ولم

(١) في ج: «في قصة حفصة وعمر». (٢) زيادة من ج.

(٣) في ج: «وما يذكر». (٤) في ج، ط: «فإن».

(٥) في ج: «ذلك». (٦) في أ: «متنع».

(٧) صحيح مسلم برقم (٢٢٣٠) من حديث بعض أزواج النبي ﷺ وليس فيه: «كاهناً» والعراف من جملة أنواع الكهان.

(٨) رواه النسائي في السنن (٧/ ١١٢) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه.

(٩) في أ: «المحدثين».

(١٠) زيادة من ج، ب، أ، و. وفي ط: «تعلم».

قلت إن هذا منه؟ ثم ترقّيه^(١) إلى وجوب تعلّمه بأنه لا يحصل العلم بالمعجز إلا به، ضعيف بل فاسد؛ لأن معظم^(٢) معجزات رسولنا، عليه الصلاة والسلام^(٣)، هي القرآن العظيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. ثم إن العلم بأنه معجز لا يتوقف على علم السحر أصلاً، ثم من المعلوم بالضرورة أن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وعامتهم، كانوا يعلمون المعجز، ويفرّقون بينه وبين غيره، ولم يكونوا يعلمون السحر ولا تعلموه ولا علموه، والله أعلم.

ثم قد ذكر أبو عبد الله الرازي أن أنواع السحر ثمانية:

الأول: سحر الكُلدانيين والكُشدانيين، الذين كانوا يعبدون الكواكب السبعة المتحيرة، وهي السيارة، وكانوا يعتقدون أنها مُدبّرة العالم^(٤)، وأنها تأتي بالخير والشر، وهم الذين بعث^(٥) إليهم إبراهيم الخليل عليه السلام، مُبطلاً لمقالتهم ورادا لمذهبهم^(٦)، وقد استقصى في «كتاب السر المكتوم»، في مخاطبة الشمس والنجوم» المنسوب إليه فيما^(٧) ذكره القاضي ابن خلكان وغيره^(٨)، ويقال: إنه تاب منه. وقيل^(٩): إنه^(١٠) صنفه على وجه إظهار الفضيلة لا على سبيل الاعتقاد. وهذا هو المظنون به، إلا أنه ذكر فيه طرائقهم في مخاطبة كلّ من هذه الكواكب السبعة، وكيفية ما يفعلون وما يلبسونه، وما يتنسكون به.

قال: والنوع الثاني: سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية، ثم استدلّ على أن الوهم له تأثير، بأن الإنسان يمكنه أن يمشى على الجسر الموضوع على وجه الأرض، ولا يمكنه المشى عليه إذا كان ممدوداً على نهر أو نحوه. قال: وكما أجمعت الأطباء على نهى المرعوف^(١١) عن النظر إلى الأشياء الحُمْر، والمصروع إلى الأشياء القوية اللمعان أو الدوران، وما ذاك إلا لأن النفوس خلقت مُطبعة^(١٢) للأوهام.

قال: وقد اتفق العقلاء على أن الإصابة بالعين حق.

وله أن يستدل على ذلك بما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ، قال: «العين حقّ، ولو كان شيء سابقَ القدر لسبقته العين»^(١٣).

قال: فإذا عرفت هذا، فنقول: النفس التي تفعل هذه الأفاعيل قد تكون قوية جداً، فتستغنى في هذه الأفاعيل^(١٤) عن الاستعانة بالآلات والأدوات، وقد تكون ضعيفة فتحتاج إلى الاستعانة بهذه

(١) في ج، ب، أ، و: «لأن أعظم».

(١) في أ: «فرقه».

(٤) في ج: «مدبرة للعالم».

(٣) في ج: «ﷺ».

(٦) في ج، ط، ب، أ، و: «لما ذهبهم».

(٥) في من ج، ب، أ: «بعث الله».

(٨) وفيات الأعيان (٣/ ٣٨١).

(٧) في ب: «كما».

(١٠) في ج، ط، ب: «بل».

(٩) في ج، ط: «ويقال».

(١٢) في ج، ط، ب، و: «منطبعة»، وفي أ: «منطبقة».

(١١) في ج: «المرفوع»، وفي ط: «الموضوع».

(١٣) صحيح مسلم برقم (٢١٨٨) من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنه.

(١٤) في ج، ط، ب، أ، و: «هذه الأفعال».

الآلات. وتحقيقه أن النفس إذا كانت مستعلية^(١) على البدن شديدة الانجذاب إلى عالم السماوات، صارت كأنها رُوح من الأرواح السماوية، فكانت قوية على التأثير في مواد هذا العالم. وإذا كانت ضعيفة شديدة التعلق بهذه الذات^(٢) البدنية، فحينئذ لا يكون لها تصرف البتة إلا في هذا البدن. ثم أرشد إلى مداواة هذا الداء بتقليل الغذاء، والانقطاع عن الناس والرياء^(٣).

قلت: وهذا الذى يشير إليه هو التصرف بالحال، وهو على قسمين: تارة يكون حالاً صحيحة شرعية يتصرف بها فيما أمر الله ورسوله ﷺ، ويترك ما نهى الله عنه ورسوله، وهذه الأحوال مواهب من الله تعالى وكرامات للصالحين من هذه الأمة، ولا يسمى هذا سحراً فى الشرع. وتارة تكون الحال فاسدة لا يمثل صاحبها ما أمر الله ورسوله ﷺ ولا يتصرف بها فى ذلك. فهذه^(٤) حال الأشقياء المخالفين للشرعية، ولا يدل إعطاء الله^(٥) إياهم هذه الأحوال على محبته لهم، كما أن الدجال - لعنه الله - له من الخوارق للعادات^(٦) ما دلّت عليه الأحاديث الكثيرة، مع أنه مذموم شرعاً لعنه الله. وكذلك من شابهه من مخالفى الشرعية المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام. وبسط هذا يطول جداً، وليس هذا موضعه.

قال: النوع الثالث من السحر: الاستعانة بالأرواح الأرضية، وهم الجن، خلافاً للفلاسفة والمعتزلة: وهم على قسمين: مؤمنون، وكفار، وهم الشياطين. قال: واتصال النفوس الناطقة بها أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية، لما بينهما من المناسبة^(٧) والقرب، ثم إن أصحاب الصنعة وأرباب التجربة شاهدوا أن الاتصال بهذه الأرواح الأرضية يحصل بأعمال سهلة قليلة من الرقى والدخل^(٨) والتجريد. وهذا النوع هو المسمى بالعزائم وعمل التسخير^(٩).

النوع الرابع من السحر: التخيلات، والأخذ بالعيون والشعبذة، ومنه [على]^(١٠) أن البصر قد يخطئ ويستغل بالشئ المعين دون غيره، ألا ترى أن المشعبد الحاذق يظهر عمل شئ يذهل أذهان الناظرين به، ويأخذ عيونهم إليه، حتى إذا استفرغهم^(١١) الشغل بذلك الشئ بالتحديق ونحوه، عمل شيئاً آخر عملاً بسرعة شديدة، وحينئذ يظهر لهم شئ آخر غير ما انتظروه. فيتعجبون منه جداً، ولو أنه سكت ولم يتكلم بما^(١٢) يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعمل، ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجها، لفطن الناظرون لكل ما يفعله.

قال: وكلما كانت الأحوال التى تفيد حسن البصر نوعاً من أنواع الخلل^(١٣) أشدّ، كان العمل

(٢) فى ج، ط، ب، أ، و: «الذات».

(٤) فى ج: «فهذا».

(٦) فى ج: «والعادات».

(٨) فى ج، ط، ب، أ، و: «والدخن».

(١٠) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(١٢) فى ط: «بما».

(١) فى ج، ط، ب، و: «مشتغلة»، وفى أ: «مستقبلة».

(٣) فى ج، ط، ب، و: «والرياضة».

(٥) فى ج: «أعطاهم الله»، وفى أ: «على عطاء الله».

(٧) فى ج: «من المناسب».

(٩) فى ط، ب، أ، و: «وعمل تسخير».

(١١) فى ج: «إذا استقر».

(١٣) فى ج: «الخلل».

أحسن، مثل أن يجلس المشعبد فى موضع مضى جداً، أو مظلم، فلا تقف القوة الناطقة^(١) على أحوالها بكلالها^(٢)، والحالة هذه.

قلت: وقد قال بعض المفسرين: إن سحر السحرة بين يدي فرعون إنما كان من باب الشعبة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه: ٦٦] قالوا: ولم تكن تسعى فى نفس الأمر. والله أعلم.

النوع الخامس من السحر: الأعمام العجيبة التى تظهر من تركيب الآلات المركبة من النسب الهندسية، كفارس على فرس فى يده بوق، كلما مضت ساعة من النهار ضرب^(٣) بالبوق، من غير أن يمسه أحد. ومنها الصور التى تُصَوِّرُهَا الرُّومُ والهند، حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الإنسان، حتى يصورونها ضاحكة وباكية.

إلى أن قال: فهذه الوجوه من لطيب أمور المخايل. قال: وكان سحر سحرة فرعون من هذا القبيل.

قلت: يعنى ما قاله بعض المفسرين: إنهم عمدوا إلى تلك الحبال والعصى، فحشوها زئبقاً فصارت تتلوى بسبب ما فيها من ذلك الزئبق، فيخيل إلى الرائي أنها تسعى باختيارها. قال الرازى: ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات، ويندرج فى هذا الباب علم جرّ الأثقال بالآلات الخفيفة.

قال: وهذا فى الحقيقة لا ينبغى أن يعد من باب السحر؛ لأن لها أسباباً^(٤) معلومة يقينية^(٥)، من اطلع عليه قدر عليها.

قلت: ومن هذا القبيل حيل النصارى على عامتهم، بما يُروْنَهُمْ إياه من الأنوار، كقضية قُمَامَةِ الكنيسة التى لهم ببلد^(٦) المقدس، وما يحتالون به من إدخال النار خفية إلى الكنيسة، وإشعال ذلك القنديل بصنعة لطيفة تروج على العوام^(٧) [منهم]^(٨)، وأما الخواص فهم يعترفون بذلك، ولكن يتأولون أنهم يجمعون شمل أصحابهم على دينهم، فيرون ذلك سائغاً لهم. وفيه شبه^(٩) للجهلة الأغبياء من متعبدى^(١٠) الكرامية، الذين يرون جواز وضع الأحاديث فى الترويج والترهيب، فيدخلون فى عداد من قال رسول الله ﷺ فيهم^(١١): «من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

(٢) فى ج، ط، ب: «لكلالها»، وفى أ: «بكمالها».

(٤) فى أ: «أسباباً».

(٦) فى ج: «بيت» وفى و: «بالبلد».

(٨) زيادة من ج، ط، ب.

(١٠) فى أ: «متعدي».

(١) فى ج، ط، ب: «الباصرة».

(٣) فى ج، ط: «ضرب مرة».

(٥) فى ط، أ: «متيقنة».

(٧) فى ج، ط، ب: «الطعام».

(٩) فى ج: «وفيه شبهة»، فى أ: «وفيه شبه».

(١١) فى ج: «من قال فيهم رسول الله ﷺ».

النار^(١). وقوله: «حدثوا عنى ولا تكذبوا علىّ فإنه من يكذب علىّ يلج النار»^(٢).

ثم ذكر ههنا حكاية عن بعض الرهبان، وهو أنه سمع صوت طائر حزين^(٣) الصوت ضعيف الحركة، فإذا سمعته الطيور تَرَقَّ له فتذهب فتلقى في وكَّره من ثمر الزيتون، ليتبلغ^(٤) به، فعَمَدَ هذا الراهبُ إلى صنعة طائر على شكله، وتوصل إلى أن جعله أجوف، فإذا دخلته الريح يسمع له^(٥) صوت كصوت ذلك الطائر، وانقطع في صومعة ابتناها، وزعم أنها على قبر بعض صالحهم، وعلق ذلك الطائر في مكان منها، فإذا كان زمان الزيتون فتح باباً من ناحية، فتدخل الريح إلى داخل هذه الصورة، فيُسمعُ صوتها كذلك الطائر في شكله أيضاً، فتأتى الطيور فتحمل من الزيتون شيئاً كثيراً فلا ترى النصارى إلا ذلك الزيتون في هذه الصومعة، ولا يدرون ما سببه؟ ففتنهم بذلك، وأوهم^(٦) أن هذا من كرامات صاحب هذا القبر، عليهم لعائن الله المتتابعة^(٧) إلى يوم القيامة.

قال الرازى: النوع السادس من السحر: الاستعانة بخواص الأدوية يعنى فى الأطعمة والدهانات^(٨). قال: واعلم أنه لا سبيل إلى إنكار الخواص، فإن أثر المغناطيس مشاهد.

قلت: يدخل فى هذا القبيل كثير من يدعى الفقر ويتحيل على جهلة الناس بهذه الخواص، مدعياً أنها أحوال له^(٩)، من مخالطة النيران ومسك الحيات إلى غير ذلك من المحالات.

قال: النوع السابع من السحر: تعليق^(١٠) القلب، وهو أن يدعى الساحرُ أنه عرف الاسم الأعظم، وأن الجن يطيعونه وينقادون له فى أكثر الأمور، فإذا اتفق أن يكون السامع لذلك ضعيف العقل^(١١) قليل التمييز اعتقد أنه حق، وتعلق قلبه بذلك وحصل فى نفسه نوع من الرهب والمخافة، فإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة^(١٢)، فحينئذ يتمكن الساحر أن يفعل ما يشاء.

قلت: هذا النمط يقال له التنبلة، وإنما يروج على الضعفاء العقول من بنى آدم. وفى علم الفراسة ما يرشد إلى معرفة كامل العقل من ناقصه، فإذا كان المُتَنَبِّلُ حاذقاً فى علم الفراسة عرف من ينقاد له من الناس من غيره.

قال: النوع الثامن من السحر: السعى بالنميمة والتضريب^(١٣) من وجوه خفيفة لطيفة، وذلك شائع فى الناس.

(١) هذا الحديث رواه جمع من الصحابة عن النبى ﷺ عنهم الإمام الطبرانى فى جزء له فأوصلهم فوق الستين، وانظره فى: صحيح البخارى برقم (١٠٧) من حديث الزبير رضى الله عنه، وفى مقدمة صحيح مسلم برقم (٢ - ٤) من حديث أنس وأبى هريرة والمغيرة رضى الله عنهم.

(٢) رواه مسلم فى مقدمة صحيحه برقم (١) من حديث على رضى الله عنه.

(٣) فى ج، أ: «ليتلع».

(٤) فى أ، و: «حنين».

(٥) فى ج، ط، ب، أ، و: «يسمع منه».

(٦) فى ج، ط، ب: «التابعة»، وفى أ: «البالغة».

(٧) فى ج، أ: «فى الأطعمة والدهان».

(٨) فى ج، ط، ب، أ، و: «القلب».

(٩) فى ج: «أنها أحواله».

(١٠) فى ب، أ، و: «القلب».

(١١) فى ج: «القوى الحسية».

(١٢) فى ب: «التضريب».

قلت: النسيمة على قسمين، تارة تكون على وجه التحريش [بين الناس]^(١) وتفريق قلوب المؤمنين، فهذا حرام متفق عليه. فأما إذا^(٢) كانت على وجه الإصلاح [بين الناس]^(٣) واثتلاف كلمة المسلمين، كما جاء في الحديث: «ليس بالكذب من ينمّ خيراً، أو يكون على وجه التخذيل والتفريق بين جموع الكفرة»، فهذا أمر مطلوب، كما جاء في الحديث: «الحرب خُدعة». وكما فعل نُعَيْم بن مسعود^(٤) في تفريقه بين كلمة الأحزاب وبين^(٥) قريظة، وجاء إلى هؤلاء فنمى إليهم عن هؤلاء كلاماً، ونقل من هؤلاء إلى أولئك شيئاً آخر، ثم لأم بين ذلك، فتناكرت النفوس وافترقت. وإنما يحذو على مثل هذا الذكاء والبصيرة النافذة. والله المستعان.

ثم قال الرازي: فهذه جملة الكلام في أقسام السحر وشرح أنواعه وأصنافه.

قلت: وإنما أدخل كثيراً من هذه الأنواع المذكورة في فنّ السحر، للطائفة مداركها؛ لأن السحر في اللغة: عبارة عما لطّف وخفى سببه. ولهذا جاء في الحديث: «إن من البيان لسحراً»^(٦). وسمى السحور لكونه يقع خفياً آخر الليل^(٧). والسحر: الرثة، وهى محل الغذاء، وسميت بذلك لخفائها ولطف مجاريها إلى أجزاء البدن وغضونه، كما قال أبو جهل يوم بدر لعتبة: انتفخ سحر^(٨). أى: انتفخت رثته من الخوف. وقالت عائشة، رضى الله عنها: توفى رسول الله ﷺ بين سحرى ونحرى. وقال: «سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ»^(٩) [الأعراف: ١١٦]، أى: أخفوا عنهم عملهم، والله أعلم^(١٠).

[فصل]^(١١): وقد ذكر الوزير أبو المظفر يحيى بن هبيرة بن محمد بن هبيرة فى كتابه: «الإشراف على مذاهب الأشراف» باباً فى السحر، فقال: أجمعوا على أن السحر له حقيقة إلا أبا حنيفة، فإنه قال: لا حقيقة له عنده. واختلفوا فيما يتعلم السحر ويستعمله، فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد: يكفر بذلك. ومن أصحاب أبى حنيفة من قال: إن تعلمه ليتقيه أو ليجنبه فلا يكفر، ومن تعلمه معتقداً جوازه أو أنه ينفعه كَفَر. وكذا من اعتقد أن الشياطين تفعل له ما يشاء فهو كافر. وقال الشافعى، رحمه الله: إذا تعلم السحر قلنا له: صف لنا سحر^(١٢). فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة، وأنها تفعل ما يلتمس منها، فهو كافر. وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته فهو كافر.

قال ابن هبيرة: وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله؟ فقال مالك وأحمد: نعم. وقال الشافعى وأبو حنيفة: لا. فأما إن قتل بسحره إنساناً فإنه يُقتل عند مالك والشافعى وأحمد. وقال أبو حنيفة: لا

(١) زيادة من جد، ط، ب، أ، و.

(٢) فى جد، ط، ب، أ، و: «فأما إن».

(٤) فى جد: «ابن الأسود».

(٦) فى جد، ط، ب، أ، و: «سحراً».

(٨) فى جد، ب، أ، و: «سحره».

(١٠) فى جد: «والله تبارك وتعالى أعلم».

(٣) زيادة من جد، ط، ب، أ، و.

(٥) فى جد، ط، ب، أ، و: «وبنى».

(٧) فى جد: «الليلة».

(٩) فى جد: «الناس واسترهبوهم».

(١١) زيادة من جد، ط، ب، أ، و.

يقتل حتى يتكرر منه ذلك^(١)، أو يقر بذلك فى حقّ شخص^(٢) معين. وإذا قُتل فإنه يُقتل حداً عندهم إلا الشافعى، فإنه قال: يقتل - والحالة هذه - قصاصاً.

قال: وهل إذا تاب الساحر تُقبلُ توبته؟ فقال مالك، وأبو حنيفة وأحمد فى المشهور عنهما: لا تقبل. وقال الشافعى وأحمد فى الرواية الأخرى: تقبل. وأما ساحر أهل الكتاب فعند أبى حنيفة أنه يقتل، كما يقتل الساحر المسلم. وقال مالك والشافعى وأحمد: لا يقتل. يعنى لقصة لبيد بن أعصم^(٣).

واختلفوا فى المسلمة الساحرة، فعند أبى حنيفة^(٤): لا تقتل، ولكن تجبس. وقال الثلاثة: حكمها حكم الرجل، والله أعلم.

وقال أبو بكر الخلال: أخبرنا أبو بكر المروزي، قال: قرأ على أبى عبد الله - يعنى أحمد بن حنبل - عمرُ بن هارون، حدثنا يونس، عن الزهرى، قال: يقتل ساحر المسلمين ولا يقتل ساحر المشركين؛ لأن رسول الله ﷺ سحرته امرأة من اليهود فلم يقتلها.

وقد نقل القرطبى عن مالك، رحمه الله، أنه قال فى الذمى إذا سحر يقتل إن قتل سحره، وحكى بن خويز منداد عن مالك روايتين فى الذمى إذا سحر: إحداهما: أنه يستتاب فإن أسلم وإلا قتل، والثانية: أنه يقتل وإن أسلم، وأما الساحر المسلم فإن تضمن سحره كفرأ كفر عند الأئمة الأربعة وغيرهم لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾. لكن قال مالك: إذا ظهر عليه لم تقبل توبته لأنه كالزنديق، فإن تاب قبل أن يظهر عليه وجاءنا تائباً قبلناه ولم نقتله، فإن قتل سحره قتل. قال الشافعى: فإن قال: لم أتعمد القتل فهو مخطئ تجب عليه الدية.

مسألة: وهل يسأل الساحر حل سحره؟ فأجازه سعيد بن المسيب فيما نقله عنه البخارى، وقال عامر الشعبى: لا بأس بالنشرة، وكره ذلك الحسن البصرى، وفى الصحيح عن عائشة: أنها قالت: يا رسول الله، هلا تشتت، فقال: «أما الله فقد شفانى، وخشيت أن أفتح على الناس شراً»^(٥). وحكى القرطبى عن وهب: أنه قال: يؤخذ سبع ورقات من سدر فتدق بين حجرين ثم تضرب بالماء ويقرأ عليها آية الكرسي ويشرب منها المسحور ثلاث حسوات ثم يغتسل بباقيه فإنه يذهب ما به، وهو جيد للرجل الذى يؤخذ عن امرأته.

قلت: أنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله ﷺ فى إذهاب ذلك وهما المعوذتان، وفى الحديث: «لم يتعوذ المتعوذون بمثلهما»^(٦)، وكذلك قراءة آية الكرسي فإنها مطردة للشیطان. وقال أبو عبد الله القرطبى: وعندنا أن السحر حق، وله حقيقة يخلق الله عنده ما يشاء

(١) فى ج: «منه الفعل».

(٢) فى أ: «لقضية لبيد بن الأعصم».

(٣) فى ج، ط، ب، أ، و: «فعند أبى حنيفة أنها».

(٤) فى ج، ط، ب، أ، و: «فعند أبى حنيفة أنها».

(٥) صحيح البخارى برقم (٥٧٦٦) وصحيح مسلم برقم (٢١٨٩).

(٦) رواه النسائى فى السنن (٨ / ٢٥١) من حديث عقبة بن عامر رضى الله عنه.

خلافاً للمعتزلة وأبى إسحاق الإسفرايينى من الشافعية حيث قالوا: إنه تمويه وتخيل. قال: ومن السحر ما يكون بخفة اليد كالشعوذة والشعوذى البريد؛ خلفه سيره. قال ابن فارس: هذه الكلمة من كلام أهل البادية. قال القرطبى: ومنه ما يكون كلاماً يحفظ ورقى من أسماء الله تعالى، وقد يكون من عهود الشياطين ويكون أدوية وأدخنة وغير ذلك. قال: وقوله، عليه السلام: «إن من البيان لسحراً»^(١) يحتمل أن يكون مدحاً كما تقوله طائفة، ويحتمل أن يكون ذمّاً للبلاغة. قال: وهذا الأصح. قال: لأنها تصوب الباطل حين يوهم السامع أنه حق كما قال: «فلعل بعضكم أن يكون ألحن لحنه من بعض» فاقضى له الحديث.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٠٤)
مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥) ﴿

نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم، وذلك أن اليهود كانوا يعانئون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقص - عليهم لعائن الله - فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا. يقولون: راعنا. يورون^(٢) بالرعونة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيَا بَالْسِتِّهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦] وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم، بأنهم كانوا إذا سلموا إنما يقولون: السام عليكم. والسام هو: الموت. ولهذا^(٣) أمرنا أن نرد عليهم بـ «وعليكم». وإنه يستجاب لنا فيهم، ولا يستجاب لهم فينا.

والغرض: أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الرحمن بن ثابت، حدثنا حسان بن عطية، عن أبى منيب الجرشي، عن ابن عمر، رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت بين يدي الساعة بالسيف، حتى يعبد الله وحده لا شريك له. وجعل رزقى تحت ظل رمحى، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمرى، ومن تشبه بقوم فهو منهم».

وروى أبو داود، عن عثمان بن أبى شيبة، عن أبى النضر هاشم بن القاسم، به^(٤): «من تشبه بقوم فهو منهم».

(١) رواه أبو داود فى السنن برقم (٥٠١١) والترمذى فى السنن برقم (٢٨٤٥) من حديث ابن عباس رضى الله عنه، ورواه أبو داود فى

السنن برقم (٥٠١٢) من حديث بريدة رضى الله عنه.

(٢) فى ج، ط، ب: «ويورون»، وفى أ: «ويورون».

(٣) فى ج: «ولقد».

(٤) المسند (٢/ ٩٢) وسنن أبى داود برقم (٤٠٣١).

ففيه دلالة على النهى الشديد والتهديد والوعيد، على التشبه بالكفار فى أقوالهم وأفعالهم، ولباسهم وأعيادهم، وعبادتهم وغير ذلك من أمورهم التى لم تشرع لنا ولم تُقرر عليها.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا مسعر، عن مَعْن وَعَوْن - أو أحدهما - أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود، فقال: اعهد إلى. فقال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرעהَا سَمْعَكَ، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه^(١).

وقال الأعمش، عن خَيْثَمَةَ، قال: ما تقرأون فى القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه فى التوراة: «يأيها المساكين».

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن سعيد بن جبیر أو عكرمة، عن ابن عباس: ﴿رَاعِنَا﴾ أى: أرعنا^(٢) سمعك.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ قال: كانوا يقولون للنبي ﷺ: أرعنا سمعك. وإنما ﴿رَاعِنَا﴾ كقولك: عاطنا.

وقال ابن أبى حاتم: وروى أبى العالية، وأبى مالك، والربيع بن أنس، وعطية العوفى، وقتادة، نحو ذلك.

وقال مجاهد: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾: لا تقولوا خلافاً. وفى رواية: لا تقولوا: اسمع منا ونسمع منك.

وقال عطاء: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾: كانت لغة يقولها الأنصار فنهى الله عنها.

وقال الحسن: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾، قال: الراعن من القول السخرى منه. نهاهم الله أن يسخروا من قول محمد ﷺ، وما يدعوهم إليه من الإسلام. وكذا روى عن ابن جرير أنه قال مثله.

وقال أبو صخر: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ قال: كان رسول الله ﷺ، إذا أدبر ناداه من كانت له حاجة من المؤمنين، فيقول: أرعنا^(٣) سمعك. فأعظم الله رسوله الله ﷺ أن يقال ذلك له^(٤).

وقال السدى: كان رجل من اليهود من بنى قينقاع، يدعى رفاعة بن زيد^(٥)، يأتى النبي ﷺ، فإذا لقيه فكلمه قال: أرعنى سمعك واسمع غير مُسمع. وكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تُفخم بهذا، فكان ناس منهم يقولون: اسمع غير مسمع: غَيْرَ صَاغِر. وهى كالتى^(٦) فى سورة النساء. فتقدم الله إلى المؤمنين أن لا يقولوا: راعنا.

(١) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٣١٧).

(٢) فى أ: «أى راعنا».

(٣) فى أ: «فيقول راعنا».

(٤) فى ج: «أن يقال له ذلك».

(٥) فى ج: «بن يزيد».

(٦) فى ج: «هى التى».

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، بنحو من هذا.

قال ابن جرير: والصواب من القول في ذلك عندنا: أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه ﷺ: راعنا؛ لأنها كلمة كرهها الله تعالى أن يقولوها لنبيه ﷺ، نظير الذي ذكر عن النبي أنه قال: «لا تقولوا للعنب الكرم، ولكن قولوا: الحَبَلَة. ولا تقولوا: عبدى، ولكن قولوا: فتى». وما أشبه ذلك.

وقوله تعالى: ﴿مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يبين تعالى بذلك شدة عداوة^(١) الكافرين من الكتاب والمشركين، الذين حذر تعالى من مشابعتهم للمؤمنين؛ ليقطع المودة بينهم وبينهم. وينبّه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل، الذى شرعه لنبينهم محمد ﷺ، حيث يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) .

قال ابن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾: ما نبطل من آية.

وقال ابن جرير، عن مجاهد: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ أى: ما نَمْحُ من آية.

وقال ابن أبى نجیح، عن مجاهد: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ قال: ثبت خطها ونبدل حكمها. حَدَّثَ به عن أصحاب عبد الله بن مسعود.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن أبى العالية، ومحمد بن كعب القرظى، نحو ذلك.

وقال الضحاك: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾: ما نُنْسِكُ. وقال عطاء: أما ﴿ مَا نَنْسَخْ ﴾: فما نترك^(٢) من القرآن. قال ابن أبى حاتم: يعنى: تَرِكَ فلم ينزل على محمد ﷺ.

وقال السدى: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ نسخها: قبضها. قال ابن أبى حاتم: يعنى: قبضها: رفعها، مثل قوله: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة. وقوله: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى لهما ثالثاً».

وقال ابن جرير: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾: ما ننقل من حكم آية إلى غيره فنبدله ونغيره، وذلك أن يُحوّل الحلال حراماً، والحرام حلالاً، والمباح محظوراً، والمحظور مباحاً. ولا يكون ذلك إلا فى الأمر والنهى والحظر والإطلاق والمنع والإباحة. فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ. وأصل النسخ من نسخ الكتاب، وهو نقله من نسخة إلى أخرى غيرها، فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره،

(٢) فى أ: «فما ترك».

(١) فى أ: «شدة عداوته».

إنما هو تحويله ونقل عبادة إلى غيرها. وسواء نسخ حكمها أو خطها، وهى فى كلتا حالتها منسوخة. وأما علماء الأصول فاختلفت عباراتهم فى حد النسخ، والأمر فى ذلك قريب؛ لأن معنى النسخ الشرعى معلوم عند العلماء ولخص^(١) بعضهم أنه رفع الحكم بدليل شرعى متأخر. فاندرج فى ذلك نسخ الأخف بالأثقل، وعكسه، والنسخ لا إلى بدل. وأما تفاصيل أحكام النسخ وذكر أنواعه وشروطه فمبسوط فى فن أصول الفقه.

وقال الطبرانى: حدثنا أبو شبيب^(٢) عبيد الله بن عبد الرحمن بن واقد، حدثنا أبى، حدثنا العباس ابن الفضل، عن سليمان بن أرقم، عن الزهرى، عن سالم، عن أبيه، قال: قرأ رجلان سورة أقرأهما رسول الله ﷺ، فكانا يقرآن بها، فقاما ذات ليلة يصليان، فلم يقدرأ منها على حرف، فأصبحا غاديين على رسول الله ﷺ فذكرا ذلك له، فقال رسول الله ﷺ: «إنها مما نسخ وأنسى، فآلهوا عنها». فكان الزهرى يقرؤها: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا^(٣)﴾ بضم النون خفيفة^(٤). سليمان بن أرقم ضعيف.

[وقد روى أبو بكر بن الأنبارى، عن أبيه، عن نصر بن داود، عن أبى عبيد، عن عبد الله ابن صالح، عن الليث، عن يونس وعبيد وعقيل، عن ابن شهاب، عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف مثله مرفوعا، ذكره القرطبى^(٥)].^(٦)

قوله تعالى: ﴿أَوْ نُنسِهَا^(٧)﴾: فقرأ على وجهين: «ننساها وننسيها». فأما من قرأها: «ننساها» - بفتح النون والهمزة بعد السين - فمعناه: نؤخرها. قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ يقول: ما نبدل من آية، أو نتركها لا نبدلها.

وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾: ثبت خطها ونبدل حكمها. وقال^(٨) عبيد ابن عمير، ومجاهد، وعطاء: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾: نؤخرها ونرجئها. وقال عطية العوفى: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾: نؤخرها فلا ننسخها. وقال السدى مثله أيضاً، وكذا [قال]^(٩) الربيع بن أنس. وقال الضحاك: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ يعنى: الناسخ من المنسوخ. وقال أبو العالية: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ أى: نؤخرها عندنا.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا عبيد الله بن إسماعيل البغدادى، حدثنا خلف، حدثنا الحفاف، عن إسماعيل - يعنى ابن مسلم - عن حبيب بن أبى ثابت، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال:

(١) فى ط: «ويحذف». (٢) فى هـ: «أبو سنبل» وهو خطأ. (٣) فى ط: «أو ننسيها».

(٤) المعجم الكبير (١٢ / ٢٨٨).

(٥) ورواه الطحاوى فى مشكل الآثار برقم (٢٠٣٤) من طريق ابن وهب، عن يونس عن ابن شهاب، عن أبى أمامة به، وبرقم (٢٠٣٥) من طريق شعيب بن أبى حمزة عن الزهرى عن أبى أمامة به.

(٦) زيادة من ج، ط. (٧) فى ط، ب، أ: «أو ننساها».

(٨) فى ج، ط، أ: «وكما قال». (٩) زيادة من أ.

خطبنا عمر، رضى الله عنه، فقال: يقول الله عز وجل: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ أى: نؤخرها. وأما على قراءة: ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ فقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة فى قوله: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ قال: وكان الله تعالى ينسى نبيه ما يشاء، وينسخ ما يشاء.

وقال ابن جرير: حدثنا سواد^(١) بن عبد الله، حدثنا خالد بن الحارث، حدثنا عوف، عن الحسن أنه قال فى قوله: ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾^(٢) قال: إن نبيكم ﷺ أقرئ قرآنًا ثم نسيه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن نفل، حدثنا محمد بن الزبير الحرانى، عن الحجاج - يعنى الجزرى^(٣) - عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان مما ينزل على النبى ﷺ الوحى بالليل وينساه بالنهار، فأنزل الله، عز وجل: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾.

قال أبو حاتم: قال لى أبو جعفر بن نفيل: ليس هو الحجاج بن أرطاة، هو شيخ لنا جزرى.

وقال عبيد بن عمير: ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾: نرفعها من عندكم.

وقال ابن جرير: حدثنى يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هشيم، عن يعلى بن عطاء، عن القاسم بن ربيعة قال: سمعت سعد بن أبى وقاص يقرأ: « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا » قال: قلت له: فإن سعيد بن المسيب يقرأ: « أَوْ تُنْسِهَا ». قال: فقال^(٤) سعد: إن القرآن لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب، قال الله، جل ثناؤه: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ [الأعلى: ٦] «وَأَذْكُرُ بِكَ إِذَا نَسِيتَ» [الكهف: ٢٤]^(٥).

وكذا رواه عبد الرزاق، عن هشيم^(٦). وأخرجه الحاكم فى مستدركه من حديث أبى حاتم الرازى، عن آدم، عن شعبة، عن يعلى بن عطاء، به. وقال: على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن محمد بن كعب، وقتادة، وعكرمة، نحو قول سعيد.

وقال الإمام أحمد: أخبرنا يحيى، حدثنا سفيان الثورى، عن حبيب بن أبى ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال عمر: على أقضانا، وأبى أقرؤنا، وإنا لندع بعض ما يقول أبى، وأبى يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول، فلن أدعه لشيء. والله يقول: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾^(٧).

وقال البخارى: حدثنا عمرو بن على، حدثنا يحيى، حدثنا سفيان، عن حبيب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال عمر: أقرؤنا أبى، وأقضانا على، وإنا لندع من قول أبى، وذلك أن

(٢) فى ج، ب، أ: «أو ننسها».

(٤) فى ج: «فقال قال».

(١) فى ج، ط، ب، أ، و: «حدثنا سوار».

(٣) فى ج: «الجزرى».

(٥) تفسير الطبرى (٢/ ٤٧٥).

(٦) تفسير عبد الرزاق (١/ ٧٥).

(٧) المسند (٥/ ١١٣).

أبياً يقول: لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ. وقد قال الله: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾^(١).
وقوله: ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ أى: فى الحكم بالنسبة إلى مصلحة المكلفين، كما قال على ابن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا ﴾ يقول: خير لكم فى المنفعة، وأرفق بكم.
وقال أبو العالية: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ فلا نعمل بها، ﴿ أَوْ نُنْسِهَا ﴾ أى: نرجئها^(٢) عندنا، نأت بها أو نظيرها.

وقال السدى: ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ يقول: نأت بخير من الذى نسخناه، أو مثل الذى تركناه.

وقال قتادة: ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ يقول: آية فيها تخفيف، فيها رخصة، فيها أمر، فيها نهى.

وقوله: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾: يرشد تعالى بهذا إلى أنه المتصرف فى خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر وهو المتصرف، فكما يخلقهم كما يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقى من يشاء، ويصح من يشاء، ويمرض من يشاء، ويوفق من يشاء، ويخذل من يشاء، كذلك يحكم فى عباده بما يشاء، فيحل ما يشاء، ويحرم ما يشاء، ويبيح ما يشاء، ويحظر ما يشاء، وهو الذى يحكم ما يريد لا معقب لحكمه. ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون. ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالشىء لما فيه من المصلحة التى يعلمها تعالى، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى. فالطاعة كل الطاعة فى امتثال أمره واتباع رسله فى تصديق ما أخبروا. وامتنال ما أمروا. وترك ما عنه زجروا. وفى هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ، لكفر^(٣) اليهود وتزييف شبهتهم - لعنهم الله^(٤) - فى دعوى استحالة النسخ إما عقلاً، كما زعمه بعضهم جهلاً وكفراً، وإما نقلاً كما تخرصه آخرون منهم افتراءً وإفكاً.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: فتأويل الآية: ألم تعلم يا محمد أن لى ملك السموات والأرض وسلطانهما دون غيرى، أحكم فيهما وفيما يشاء، وأمر فيهما وفيما يشاء، وأنهى عما أشاء، وأنسخ وأبدل وأغير من أحكامى التى أحكم بها فى عبادى ما أشاء إذا أشاء، وأقر فيهما ما أشاء.

ثم قال: وهذا الخبر وإن كان من الله تعالى خطاباً لنبىه ﷺ على وجه الخبر عن عظمتة، فإنه منه تكذيب لليهود الذين أنكروا نسخَ أحكام التوراة، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد، عليهما الصلاة

(١) صحيح البخارى برقم (٤٤٨١).

(٢) فى ج: «نؤخرها»، وفى أ: «نركئها».

(٣) فى أ: «لكفار».

(٤) فى أ: «لعنة الله عليهم».

والسلام، لمجيئتهما^(١) بما جاء به من عند الله بتغيير ما غير الله من حكم التوراة. فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض وسلطانهما، وأن الخلق أهل مملكته وطاعته وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرهم بما يشاء، ونهيهم عما يشاء، ونسخ ما يشاء، وإقرار ما يشاء، وإنشاء ما يشاء من إقراره وأمره ونهيه.

[وأمر إبراهيم، عليه السلام، بذبح ولده، ثم نسخه قبل الفعل، وأمر جمهور بنى إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم، ثم رفع عنهم القتل كيلا يستأصلهم القتل]^(٢).

قلت: الذى يحمل اليهود على البحث فى مسألة النسخ، إنما هو الكفر والعناد، فإنه ليس فى العقل ما يدل على امتناع النسخ فى أحكام الله تعالى؛ لأنه يحكم ما يشاء كما يفعل ما يريد، مع أنه قد وقع ذلك فى كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية، كما أحل آدم تزويج بناته من بنيه، ثم حرم ذلك، وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات، ثم نسخ حل بعضها، وكان نكاح الأختين مباحاً لإسرائيل وبنيه، وقد حرم ذلك فى شريعة التوراة وما بعدها. وأشياء كثيرة يطول ذكرها، وهم يعترفون بذلك ويصدفون عنه. وما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية، فلا تصرف الدلالة فى المعنى، إذ هو المقصود، كما فى كتبهم مشهوراً من البشارة بمحمد ﷺ والأمر باتباعه، فإنه يفيد وجوب متابعتة، عليه السلام، وأنه لا يقبل عمل إلا على شريعته. وسواء قيل إن الشرائع المتقدمة مغيّاة إلى بعثته، عليه السلام، فلا يسمى ذلك نسخاً كقوله: ﴿ثُمَّ أَمُّوا الصَّيَّامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وقيل: إنها مطلقة، وإن شريعة محمد ﷺ نسختها، فعلى كل تقدير فوجوب اتباعه معين^(٣) لأنه جاء بكتاب هو آخر^(٤) الكتب عهداً بالله تبارك وتعالى.

ففى هذا المقام بين تعالى تقدير جواز النسخ، رداً على اليهود، عليهم لعائن الله، حيث قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ الآية، فكما أن له الملك بلا منازع، فكذلك له الحكم بما يشاء، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقرئ فى سورة آل عمران، التى نزل فى صدرها خطاباً مع أهل الكتاب، وقوع النسخ عند اليهود فى قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ الآية [آل عمران: ٩٣] كما سيأتى تفسيرها، والمسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ فى أحكام الله تعالى، لما له فى ذلك من الحكم البالغة، وكلهم قال بوقوعه. وقال أبو مسلم الأصبهاني المفسر: لم يقع شيء من ذلك فى القرآن، وقوله هذا ضعيف مردود مردول. وقد تعسف فى الأجوبة عما وقع من النسخ، فمن ذلك قضية العدة بأربعة أشهر وعشر بعد الحول، لم يجب عن ذلك بكلام مقبول، وقضية تحويل القبلة إلى الكعبة، عن بيت المقدس لم يجب

(١) فى ج، ط: «بمجيئتهما».

(٢) زيادة من ج، ط.

(٣) فى ط: «هو أحدث».

(٤) فى ط، ب: «متعين».

بشيء، ومن ذلك نسخ مصابرة المسلم لعشرة من الكفرة إلى مصابرة الاثني عشر، ومن ذلك نسخ وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ وغير ذلك، والله أعلم.

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝١٠٨ ﴾ .

نهى الله تعالى في هذه الآية الكريمة، عن كثرة سؤال النبي ﷺ عن الأشياء قبل كونها، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدِّلَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدِّلْ لَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] أى: وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم، ولا تسألوا عن الشيء قبل كونه؛ فلعله أن يحرم من أجل تلك المسألة. ولهذا جاء في الصحيح: «أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم، فحرم من أجل مسألته»^(١). ولما سُئِلَ رسول الله ﷺ عن الرجل يجد مع امرأته رجلاً، فإن تكلم تكلم بأمر عظيم، وإن سكّت سكّت عن مثل ذلك؛ فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها. ثم أنزل الله تعالى حكم الملاعة^(٢). ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة: أن رسول الله ﷺ كان ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال^(٣). وفي صحيح مسلم: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإن^(٤) نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»^(٥). وهذا إنما قاله بعد ما أخبرهم أن الله كتب عليهم الحج. فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ ثلاثاً. ثم قال، عليه السلام: «لا، ولو قلت: نعم لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم». ثم قال: «ذروني ما تركتكم» الحديث. وهكذا قال أنس بن مالك: نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يأتي^(٦) الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع^(٧).

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى في مسنده: حدثنا أبو كريب، حدثنا إسحاق بن سليمان، عن أبي سنان، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب، قال: إن كان ليأتى على السنة أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن شيء فأتهدب منه، وإن كنا لنتمنى الإعراب.

وقال البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا ابن فضيل، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، قال: ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد ﷺ؛ ما سأله إلا عن شئتي

(١) صحيح البخارى برقم (٧٢٨٩) وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٨) من حديث سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه.

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٣٠٨، ٥٢٥٩) ومسلم فى صحيحه برقم (١٤٩٢) من حديث سهل بن سعد رضى الله عنه.

(٣) صحيح البخارى برقم (١٤٧٧) وصحيح مسلم برقم (٥٩٣).

(٤) فى ط، ب، أ، و: «وإذا».

(٥) صحيح مسلم برقم (١٣٣٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٦) فى ج: «أن يجىء».

(٧) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٢).

عشرة مسألة، كلها في القرآن: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، و ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، و ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ [البقرة: ٢٢٠] يعنى: هذا وأشباهه^(١).

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ أى: بل تريدون. أو هى^(٢) على بابها فى الاستفهام، وهو إنكارى، وهو يعم المؤمنين والكافرين، فإنه، عليه السلام، رسول الله إلى الجميع، كما قال تعالى: ﴿يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣].

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد [بن جبيرة]^(٣)، عن ابن عباس، قال: قال رافع بن حُرَيْمَلَة - أو وهب بن زيد -: يا محمد، ائتنا بكتاب تُنَزِّلُهُ علينا من السماء نقرؤه، وفَجَّرَ لنا أنهاراً نَتَّبِعُكَ وَنُصَدِّقُكَ. فأنزل الله من قولهم: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِدِلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية فى قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ [وَمَنْ يَتَّبِدِلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ]^(٤)، قال: قال رجل: يا رسول الله، لو كانت كَفَّارَاتُنَا كَفَّارَاتِ^(٥) بنى إسرائيل! فقال النبى ﷺ: «اللهم لا نبغيها - ثلاثاً - ما أعطاكم الله خير مما أعطى بنى إسرائيل، كانت^(٦) بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم الخطيئة وجدها مكتوبة على بابه وكفَّارَتِها، فإن كفرها كانت له خزيًا فى الدنيا، وإن لم يكفرها كانت له خزيًا فى الآخرة. فما أعطاكم الله خير مما أعطى بنى إسرائيل». قال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلَمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقال: «الصلوات الخمس من الجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن». وقال: «من همَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه، وإن عملها كتبت سيئة واحدة، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة، وإن عملها كتبت له عشر أمثالها، ولا يهلك على الله إلا هالك». فأنزل الله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾.

وقال مجاهد: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾: أن يريهم الله جهرة، قال: سألت قريش محمداً ﷺ أن يجعل لهم الصفاً ذهباً. قال: «نعم وهو لكم كالمائدة لبنى إسرائيل إن كفرتم»، فأبوا ورجعوا.

وعن السدى وقتادة نحو هذا، والله أعلم.

والمراد أن الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شىء، على وجه التعتُّ والاقتراح، كما سألت بنو إسرائيل موسى، عليه السلام، تعتتاً وتكذيباً وعناداً، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِدِلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أى:

(١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١/ ٤٥٤) من طريق عبد الله بن عمر بن أبان، عن محمد بن فضيل به مطولاً.

(٢) فى ج: «وقيل بل هى».

(٣) زيادة من ج.

(٤) زيادة من ج، ط.

(٥) فى أ، و: «كفارات».

(٦) فى ج: «قال: كانت».

ومن يَشْتَرِ الكُفْرَ بِالْإِيمَانِ ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أى: فقد خرج عن ^(١) الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد لهم، إلى مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها، على وجه التعنت والكفر، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨ ، ٢٩].

وقال أبو العالية: يتبدل الشدة بالرخاء .

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ .

يحذر تعالى ^(٢) عباده المؤمنين عن سلوك طرائق الكفار من أهل الكتاب، ويعلمهم بعداوتهم لهم فى الباطن والظاهر وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم . ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو والاحتمال، حتى يأتى أمر الله من النصر والفتح . ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة . ويحثهم على ذلك ويرغبهم فيه، كما قال محمد بن إسحاق:

حدثني محمد بن أبي محمد، عن سعيد بن جبیر، أو عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان حبيُّ ابن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشدَّ يهودَ للعرب حسداً، إذ خصَّهم الله برسوله ﷺ، وكانا جَاهِدَيْنِ فى ردِّ الناس عن الإسلام ما استطاعا، فأنزل الله فيهما: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ الآية .

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهرى، فى قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ قال: هو كعب بن الأشرف .

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهرى، أخبرنى عبدالرحمن ابن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه: أن كعب بن الأشرف اليهودى كان شاعراً، وكان يهجو النبى ﷺ . وفيه ^(٣) أنزل الله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ إلى قوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ .

وقال الضحاك، عن ابن عباس: إن رسولا أميا يخبرهم بما فى أيديهم من الكتب والرسل ^(٤) والآيات، ثم يصدق بذلك كله مثل تصديقهم، ولكنهم جحدوا ذلك كفراً وحسداً وبغياً؛ ولذلك قال

(٢) فى ج: «يحذر تبارك وتعالى» .

(١) فى أ: «من» .

(٤) فى ج، ط، ب: «من الرسل والكتب» .

(٣) فى ط، ب: «وفيه» .

الله تعالى: ﴿كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ يقول: من بعد ما أضاء لهم الحق، لم يجهلوا منه شيئاً، ولكن الحسد حملهم على الجحود، فغيرهم ووبخهم ولامهم أشد الملامة، وشرع لنبيه ﷺ وللمؤمنين ما هم عليه من التصديق والإيمان والإقرار بما أنزل^(١) عليهم وما أنزل من قبلهم بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم.

وقال الربيع بن أنس: ﴿مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ﴾: من قبل أنفسهم. وقال أبو العالية: ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾: من بعد ما تبين [لهم]^(٢) أن محمداً رسول الله يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، فكفروا به حسداً وبغياً؛ إذ كان من غيرهم. وكذا قال قتادة والربيع والسدي.

وقوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ نَسَخَ ذلك قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] فَنَسَخَ هذا عفوهم عن المشركين. وكذا قال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقاتدة، والسدي: إنها منسوخة بآية السيف، ويرشد إلى ذلك أيضاً قوله: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان^(٣)، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني عروة بن الزبير: أن أسامة بن زيد أخبره، قال: كان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وكان رسول الله ﷺ يتأول من العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم بقتل، فقتل الله به من قتل من صناديد قريش^(٤).

وهذا إسناد^(٥) صحيح، ولم أره في شيء من الكتب الستة [ولكن له أصل في الصحيحين عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما]^(٦).

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يَحُثُّ^(٧) تعالى على الاشتغال بما ينفعهم وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة، من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة،

(١) في ج، ط، ب، أ، و: «أنزل الله».

(٢) زيادة من ب، أ، و.

(٣) في أ: «أبو الوليد».

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٣٣٣).

(٥) في ط، ب: «وهذا إسناد».

(٦) زيادة من ج، ط.

(٧) في ج، ط، ب، أ، و: «يحثهم».

حتى يمكن لهم الله^(١) النصر في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يعني: أنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل، ولا يضيع لديه، سواء كان خيراً أو شراً، فإنه سيجازي كل عامل بعمله.

وقال أبو جعفر بن جرير في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: وهذا الخبر من الله للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين، أنهم مهما فعلوا من خير أو شر، سرا أو علانية، فهو به بصير لا يخفى عليه منه شيء، فيجزئهم بالإحسان خيراً، وبالإساءة مثلاً. وهذا الكلام وإن كان خرج مخرج الخبر، فإن فيه وعداً ووعداً وأمرًا وزجراً. وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم ليجدوا في طاعته إذ كان ذلك مُدَحَّرًا^(٢) لهم عنده، حتى يثيبهم عليه، كما قال: ﴿وَمَا تَقْدِمُوا أَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، وليحذروا معصيته.

قال: وأما قوله: ﴿بَصِيرٌ﴾ فإنه مبصر صرف إلى «بصير»، كما صرف مبدع إلى «بديع»، ومؤلم إلى «أليم»، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا ابن بكير، حدثني ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، عن عقبة بن عامر، قال: رأيت رسول الله ﷺ يفسر^(٣) في هذه الآية ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ يقول: بكل شيء بصير^(٤).

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)﴾.

يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه، حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها، كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة أنهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]. فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم، ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك، وكما تقدم من^(٥) دعوهم أنه لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينتقلون إلى الجنة. ورد عليهم تعالى في ذلك، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوها بلا دليل ولا حجة.

(٢) في ب، ا، و: «مذخوراً».

(١) في ج، ط، ب: «يمكن الله لهم».

(٣) في ج، ط، ب، ا: «يقراء»، وفي و: «يقترئ».

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٣٣٦).

(٥) في ج، ط: «في».

ولا بينة، فقال: ﴿ تِلْكَ أَمَانُهُمْ ﴾.

وقال أبو العالية: أمانى تمنوها على الله بغير حق. وكذا قال قتادة والربيع بن أنس.

ثم قال: ﴿ قُلْ ﴾ أى: يا محمد، ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾.

وقال أبو العالية ومجاهد والسدى والربيع بن أنس: حجتكم. وقال قتادة: بيتكم على ذلك. ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ كما تدعونه^(١).

ثم قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أى: من أخلص العمل لله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ الآية: [آل عمران: ٢٠].

وقال أبو العالية والربيع: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ يقول: من أخلص لله.

وقال سعيد بن جبیر: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ ﴾: أخلص، ﴿ وَجْهَهُ ﴾ قال: دينه، ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أى: متبع فيه الرسول ﷺ. فإن للعمل^(٢) المتنبئ شرطين، أحدهما: أن يكون خالصاً لله وحده، والآخر: أن يكون صواباً موافقاً للشرعة. فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل؛ ولهذا قال ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ». رواه مسلم من حديث عائشة، عنه، عليه السلام.

فعمل الرهبان ومن شابههم - وإن فرض أنهم يخلصون فيه لله - فإنه لا يتقبل منهم، حتى يكون ذلك متابعاً للرسول [محمد]^(٣) ﷺ المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، وفيهم وأمثالهم، قال الله تعالى: ﴿ وَقَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْأً مُّثَوَّرًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بَقِيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ [النور: ٣٩].

روى عن أمير المؤمنين عمر أنه تأولها فى الرهبان كما سيأتى.

وأما إن كان العمل موافقاً للشرعة فى الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله فهو أيضاً مردود على فاعله وهذا حال المنافقين والمرائين، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ. الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ. وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ [الماعون: ٤ - ٧]، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠]. وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾.

وقوله: ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾: ضَمَّنَ لهم تعالى على ذلك تحصيل الاجور، وأمنهم مما يخافونه من المحذور ف ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ فيما يستقبلونه، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما مضى مما يتركونه، كما قال سعيد بن جبیر: ف ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ يعنى: فى الآخرة ﴿ وَلَا هُمْ

(٢) فى أ: «فى العمل».

(١) فى ج، ط، ب، و: «أى فيما تدعونه»، وفى أ: «أى مما تدعونه».

(٣) زيادة من ج، ط، ب.

يَحْزَنُونَ ﴿[يعنى: لا يحزنون]﴾^(١) للموت.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾: يبين به تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديتهم وتعاندتهم. كما قال محمد بن إسحاق:

حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جببر، عن ابن عباس، قال: لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ، اتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ، فقال رافع ابن خزيمة^(٢): ما أنتم على شيء، وكفر بعيسى وبالإنجيل. وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء. وجحد بنوة موسى وكفر بالتوراة. فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهما^(٣): ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾. قال: إن كلا يتلو في كتابه تصديق من كفر به، أى: يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة، فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى، وفي الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى، وما جاء^(٤) من التوراة من عند الله، وكل يكفر بما فى يد^(٥) صاحبه.

وقال مجاهد فى تفسير هذه الآية: قد كانت أوائل اليهود والنصارى على شيء.

وقال قتادة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ قال: بلى، قد كانت أوائل النصارى على شيء، ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا. ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ قال: بلى، قد كانت أوائل اليهود على شيء، ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا.

وعنه رواية أخرى كقول أبى العالية، والربيع بن أنس فى تفسيره^(٦) هذه الآية: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾: هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ.

وهذا القول يقتضى أن كلا من الطائفتين صدقت فيما رمت به الطائفة الأخرى. ولكن ظاهر سياق الآية يقتضى ذمهم فيما قالوه، مع علمهم بخلاف ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أى: وهم يعلمون أن شريعة التوراة والإنجيل، كل منهما قد كانت مشروعة فى وقت، ولكن تجاحدوا فيما بينهم عناداً وكفراً^(٧) ومقابلة للفساد بالفساد، كما تقدم عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة فى الرواية الأولى عنه فى تفسيرها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾: يُبين بهذا جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوا به من القول، وهذا من باب الإيماء والإشارة. وقد اختلف فيمن عنى بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا

(٢) فى أ: «بن خزيمة».

(٤) فى أ، و: «جاء به».

(٦) فى أ، و: «فى تفسير».

(١) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٣) فى ج: «من قوله».

(٥) فى ج، ط، ب: «بما فى يدي».

(٧) فى ج: «كفراً وعناداً».

يَعْلَمُونَ ﴿ فَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَقَتَادَةُ: ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ قَالَا: قَالَتِ النَّصَارَى مِثْلَ قَوْلِ الْيَهُودِ وَقِيلَهُمْ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قُلْتُ لِعَطَاءٍ: مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ؟ قَالَ: أُمَمٌ كَانَتْ قَبْلَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَقَبْلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فَهَمُ: الْعَرَبُ، قَالُوا: لَيْسَ مُحَمَّدٌ عَلَى شَيْءٍ.

واختار أبو جعفر بن جرير أنها عامة تصلح للجميع، وليس ثمَّ دليل قاطع يعين واحداً من هذه الأقوال، فالحمل على الجميع أولى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أى: إنه تعالى يجمع^(١) بينهم يوم المعاد، ويفصل بينهم بقضائه العدل الذى لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة. وهذا كقوله تعالى فى سورة الحج: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الحج: ١٧]، وكما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ [سبأ: ٢٦].

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١١٤).

اختلف المفسرون فى المراد من الذين منعوا مساجد الله^(٢) وسعوا فى خرابها على قولين:

أحدهما: ما رواه العوفى فى تفسيره، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ قال: هم النصارى. وقال مجاهد: هم النصارى، كانوا يطرحون فى بيت المقدس الأذى، ويمنعون الناس أن يصلوا فيه.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة فى قوله: ﴿ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ﴾: هو بُخْتَنَصْرٌ وأصحابه، خرَّب بيت المقدس، وأعانه على ذلك النصارى.

وقال سعيد، عن قتادة: قال: أولئك أعداء الله النصارى، حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بُخْتَنَصْرَ الْبَابِلِيِّ الْمَجُوسَى عَلَى تَخْرِيبِ بَيْتِ الْمَقْدَسِ.

وقال السدى: كانوا ظاهروا بُخْتَنَصْرَ عَلَى خَرَابِ بَيْتِ الْمَقْدَسِ حَتَّى خَرَبَهُ، وَأَمْرٌ بِهِ أَنْ تَطْرَحَ فِيهِ الْجِيفُ، وَإِنَّمَا أَعَانَهُ الرُّومُ عَلَى خَرَابِهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ بَنَى إِسْرَائِيلَ قَتْلُوا يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا. وَرَوَى نَحْوَهُ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ.

القول الثانى: ما رواه ابن جرير: حدثنى يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب قال: قال ابن

(١) فى أ: «يحكم».

(٢) فى ج: «مساجد الله أن يذكر فيها اسمه».

زيد في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ قال: هؤلاء المشركون حين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية، وبين أن يدخل مكة حتى نحر هديه بذي طوى وهادنهم، وقال لهم: ما كان أحد يصعد عن هذا البيت، وقد كان الرجل يلقي قاتل أبيه وأخيه فلا يصده. فقالوا: لا يدخل علينا من قتل آبائنا يوم بدر وفينا باق.

وفي قوله: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ قال: إذ قطعوا من يعمرها بذكره ويأتيها للحج والعمرة.

وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن سلمة قال: قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن قريشاً منعوا النبي ﷺ الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام، فأنزل الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾.

ثم اختار ابن جرير القول الأول، واحتج بأن قريشاً لم تسع في خراب الكعبة. وأما الروم فسعوا في تخريب بيت المقدس.

قلت: الذي^(١) يظهر - والله أعلم - القول الثاني، كما قاله ابن زيد، وروى عن ابن عباس؛ لأن النصارى إذا منعت اليهود الصلاة في البيت المقدس، كان دينهم أقوم من دين اليهود، وكانوا أقرب منهم، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولا إذ ذاك؛ لأنهم لعنوا من قبل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. وأيضاً فإنه تعالى لما وجه الذم في حق اليهود والنصارى، شرع في ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه من مكة، ومنعوه من الصلاة في المسجد الحرام، وأما اعتماده على أن قريشاً لم تسع في خراب الكعبة، فأى خراب أعظم مما فعلوا؟ أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه، واستحذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ . إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَتُصَيِّكُم مِّنْهُمْ مَّعْرَةٌ بَعِيرٌ عَلَّمَ لِدُخْلِ اللَّهِ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥]، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]، فإذا كان من هو كذلك مطروداً منها مصدوداً عنها، فأى خراب لها أعظم من ذلك؟ وليس المراد من عمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط، إنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها، ورفعها عن الدنس والشرك.

(١) في ط، ب: «قلت والذي».

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾: هذا خبر معناه الطلب، أى: لا تُمكنوا هؤلاء - إذا قَدَرْتُمْ عليهم - من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية. ولهذا لما فتح رسولُ الله ﷺ مكة أمر من العام القابل فى سنة تسع أن ينادى برحاب منى: «ألا لا يَحُجَّجْنَ»^(١) بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان، ومن كان له أجل فأجله إلى مدته». وهذا كان تصديقاً وعملاً بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ الآية [التوبة: ٢٨]، وقال بعضهم: ما كان ينبغى لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين على حال التهيب، وارتعاد الفرائض من المؤمنين أن يبيتشوا بهم، فضلاً أن يستولوا عليها أو يمنعوا^(٢) المؤمنين منها. والمعنى: ما كان الحق والواجب إلا ذلك، لولا ظلم الكفرة وغيرهم.

وقيل: إن هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد، وأنه يذل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم إلا خائفاً، يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل إن لم يسلم. وقد أنجز الله هذا الوعد كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام، وأوصى رسول الله ﷺ أن لا يَبْقَى بجزيرة العرب دينان، وأن تُجْلَى اليهود والنصارى منها، والله الحمد والمنة. وما ذاك إلا لتشريف أكناف المسجد الحرام وتطهير البقعة [المباركة]^(٣) التى بعث [الله]^(٤) فيها رسوله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً صلوات الله عليه^(٥). وهذا هو الخزي لهم فى الدنيا؛ لأن الجزء من جنس العمل. فكما صدوا المؤمنين^(٦) عن المسجد الحرام، صدوا عنه، وكما أجلوهم من مكة، أجّلوا منها. ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ على ما انتهكوا من حرمة البيت، وامتهنوه من نصب الأصنام حوله، والدعاء إلى غير الله عنده والطواف به عرباً، وغير ذلك من أفاعيلهم التى يكرهاها الله ورسوله.

وأما من فَسَّرَ بيت^(٧) المقدس، فقال كعب الأحبار: إن النصارى لما ظهروا على بيت المقدس خربوه^(٨)، فلما بعث الله محمداً ﷺ أنزل عليه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ الآية، فليس فى الأرض نصرانى يدخل بيت المقدس إلا خائفاً.

وقال السدى: فليس فى الأرض رومى يدخله اليوم إلا وهو خائف أن يُضْرَبَ^(٩) عنقه، أو قد أخيف بأداء الجزية فهو يؤديها.

(٢) فى ج، ط، ب: «ويمنعوا».

(٤) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٦) فى أ: «المسلمين».

(٨) فى أ: «حرقوه».

(١) فى ب، و: «ألا لا يحجج»، وفى أ: «أن لا يحجج».

(٣) زيادة من ج.

(٥) فى ج، ب، و: «صلوات الله وسلامه عليه».

(٧) فى ط، ب: «بيت».

(٩) فى ج، ط، ب: «أن تضرب».

وقال قتادة: لا يدخلون المساجد إلا مسارقة.

قلت: وهذا لا ينفي أن يكون داخلا في معنى عموم الآية فإن النصارى لما ظلموا بيت المقدس، بامتهان الصخرة التي كانت يصلى^(١) إليها اليهود، عوقبوا شرعاً وقَدَرًا بالذلة فيه، إلا في أحيان من الدهر امتحن^(٢) بهم بيت المقدس وكذلك اليهود لما عَصَوْا الله فيه أيضاً أعظم من عصيان النصارى كانت عقوبتهم أعظم، والله أعلم.

وفسر هؤلاء الخزى في الدنيا، بخروج المهدي عند السدى، وعكرمة، ووائل بن داود. وفسره قتادة بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون.

والصحيح أن الخزى في الدنيا أعم من ذلك كله، وقد ورد الحديث بالاستعاذة من خزى الدنيا وعذاب الآخرة كما قال الإمام أحمد: حدثنا الهيثم بن خارجة، حدثنا محمد بن أيوب بن ميسرة بن حابس^(٣): سمعت أبي يحدث، عن بُسر^(٤) بن أرطاة، قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: «اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا ومن عذاب الآخرة»^(٥).

وهذا حديث حسن، وليس هو في شيء من الكتب الستة، وليس لصحابيه وهو بُسر^(٦) بن أرطاة - ويقال: ابن أبي أرطاة - حديث سواء، وسوى [حديث]^(٧): «لا تقطع الأيدي في الغزو».

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (١١٥).

وهذا - والله أعلم - فيه تسلية للرسول ﷺ وأصحابه الذين أخرجوا^(٨) من مكة وفارقوا مسجدهم ومُصَلَّاهم، وقد كان رسول الله ﷺ يصلى بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه. فلما قدم المدينة وجّه إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، ثم صرفه الله إلى الكعبة بعدد، ولهذا يقول^(٩) تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام، في كتاب الناسخ والمنسوخ: حدثنا حجاج بن محمد، أخبرنا ابن جريج وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: أول ما نسخ من القرآن فيما ذكر لنا - والله أعلم - شأن القبلة: قال^(١٠) تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، فاستقبل

(١) في ج، ب، و: «كانت تصلى»، وفي أ: «كانت تصل».

(٢) في أ: «سخر».

(٤) في أ: «عن بشر».

(٥) المسند (٤/ ١٨١).

(٦) في أ: «وهو بشر».

(٧) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٨) في أ: «الذين خرجوا».

(٩) في ج: «يقول الله».

(١٠) في ج، ب، و: «قال الله».

رسول الله ﷺ فصلى نحو بيت المقدس، وترك البيت العتيق، ثم صرفه الله إلى بيته^(١) العتيق ونسخها، فقال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾^(٢).

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قال: كان أول ما نسخ من القرآن القبلة. وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة - وكان أهلها اليهود - أمره الله أن يستقبل بيت المقدس. ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو وينظر إلى السماء، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾^(٣) إلى قوله: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها، فأنزل الله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٤)، وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾.

وقال عكرمة عن ابن عباس: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ قال: قبلة الله أينما توجهت شرقاً أو غرباً. وقال مجاهد: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ [قال: قبلة الله]^(٥): حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها: الكعبة.

وقال ابن أبى حاتم بعد روايته الأثر المتقدم، عن ابن عباس، فى نسخ القبلة، عن عطاء، عنه: وروى عن أبى العالية، والحسن، وعطاء الخراسانى، وعكرمة، وقتادة، والسدى، وزيد بن أسلم، نحو ذلك.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض التوجه إلى الكعبة، وإنما أنزلها^(٦) تعالى ليعلم نبيه ﷺ وأصحابه أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة، حيث شاؤوا من نواحي المشرق والمغرب؛ لأنهم لا يوجهون وجوههم وجهاً من ذلك وناحية إلا كان جل ثناؤه فى ذلك الوجه^(٨) وتلك الناحية؛ لأن له تعالى المشرق والمغرب، وأنه لا يخلو منه مكان، كما قال تعالى: ﴿وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]، قالوا: ثم نسخ ذلك بالفرض الذى قرأ عليهم التوجه إلى المسجد الحرام.

هكذا قال، وفى قوله: «وإنه تعالى لا يخلو منه مكان»: إن أراد علمه تعالى فصحيح؛ فإن علمه تعالى محيط بجميع المعلومات، وأما ذاته تعالى فلا تكون محصورة فى شىء من خلقه، تعالى الله

(١) فى ج، أ، و: «البيت».

(٢) ورواه ابن أبى حاتم فى تفسيره (٣٤٦ / ١) من طريق حجاج بن محمد به، ورواه الخاكم فى المستدرک (٢ / ٢٦٧) من طريق ابن جريج عن عطاء به وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذا السياق».

(٣) زيادة من ج.

(٤) زيادة من ج، ط.

(٥) فى ط: «ثم».

(٦) فى أ: «التوجه».

(٧) فى ج: «أنزلها الله».

عن ذلك علواً كبيراً.

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ إذناً من الله أن يصلى التطوع حيث توجه من شرق أو غرب، فى مسيره فى سفره، وفى حال المسايقة وشدة الخوف.

حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا ابن إدريس، حدثنا عبد الملك - هو ابن أبى سليمان - عن سعيد بن جبير، عن ابن عمر: أنه كان يصلى حيث توجهت به راحلته. ويذكر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك، ويتأول هذه الآية: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

ورواه مسلم والترمذى والنسائى وابن أبى حاتم وابن مَرْدُويه، من طرق، عن عبد الملك بن أبى سليمان، به^(١). وأصله فى الصحيحين من حديث ابن عمر وعامر بن ربيعة، من غير ذكر الآية.

وفى صحيح البخارى من حديث نافع، عن ابن عمر: أنه كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها. ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالاً قياماً على أقدامهم، وركبانا مستقبلي القبلة وغير مستقبليها.

قال نافع: ولا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبى ﷺ^(٢).

مسألة: ولم يفرق الشافعى فى المشهور عنه، بين سفر المسافة وسفر العدوى، فالجميع عنه يجوز التطوع فيه على الراحلة، وهو قول أبى حنيفة خلافاً لمالك وجماعته، واختار أبو يوسف وأبو سعيد الأصبخري، التطوع على الدابة فى المصر، وحكاه أبو يوسف عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، واختاره أبو جعفر الطبرى، حتى للماشى أيضاً.

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية فى قوم عُمِيَّتْ عليهم القبلة، فلم يعرفوا شَطْرَهَا، فصلوا على أنحاء مختلفة، فقال الله^(٣): لى المشارق والمغارب فأين وليتم وجوهكم فهناك وجهى، وهو قبلتكم فيعلمكم بذلك أن صلاتكم ماضية.

حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي، حدثنا أبو أحمد الزبيرى، حدثنا أبو الربيع السمان، عن عاصم بن عبيد الله، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أبيه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى ليلة سوداء مظلمة، فنزلنا منزلاً فجعل الرجل يأخذ الأحجارَ فيعمل مسجداً يصلى فيه. فلما [أن]^(٤) أصبحنا إذا نحن قد صلينا على غير القبلة. فقلنا: يا رسول الله، لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ الآية.

(١) تفسير الطبرى (٢/ ٥٣٠) وصحيح مسلم برقم (٧٠٠) وسنن الترمذى برقم (٢٩٥٨) وسنن النسائى (١/ ٢٤٤) وتفسير ابن أبى حاتم (١/ ٣٤٤).

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٥٣٥).

(٣) فى أ: «فقال الله لهم».

(٤) زيادة من ط.

ثم رواه عن سفيان بن وكيع، عن أبيه، عن أبي الربيع السمان، بنحوه^(١).

ورواه الترمذى، عن محمود بن غيلان، عن وكيع. وابن ماجه، عن يحيى بن حكيم، عن أبي داود، عن أبي الربيع السمان^(٢).

ورواه ابن أبى حاتم، عن الحسن بن محمد بن الصباح، عن سعيد^(٣) بن سليمان، عن أبى الربيع السمان^(٤) - واسمه أشعث بن سعيد البصرى - وهو ضعيف الحديث.

وقال الترمذى: هذا حديث حسن. ليس إسناده بذلك، ولا نعرفه إلا من حديث أشعث السمان، وأشعث يُضعَف فى الحديث.

قلت: وشيخه عاصم أيضاً ضعيف^(٥).

قال البخارى: منكر الحديث. وقال ابن معين: ضعيف لا يحتج به. وقال ابن حبان: متروك، والله أعلم.

وقد روى من طرق أخرى، عن جابر.

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسير هذه الآية: حدثنا إسماعيل بن على بن إسماعيل، حدثنا الحسن بن على بن شبيب، حدثنى أحمد بن عبيد الله^(٦) بن الحسن؛ قال: وجدت فى كتاب أبى: حدثنا عبد الملك العزمى، عن عطاء، عن جابر، قال: بعث رسول الله ﷺ سريةً كنت فيها، فأصابتنا ظلمة فلم نعرف القبلة، فقالت طائفة منا: قد عرفنا القبلة، هى ههنا قبل السماك^(٧). فصلوا وخطوا خطوطاً، فلما أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة. فلما قفلنا من سفرنا^(٨) سألنا النبى ﷺ، فسكت، وأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَهُوَ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

ثم رواه من حديث محمد بن عبيد الله العزمى، عن عطاء، عن جابر، به^(٩).

وقال الدارقطنى: قرئ على عبد الله بن عبد العزيز - وأنا أسمع - حدثكم داود بن عمرو، حدثنا محمد بن يزيد^(١٠) الواسطى، عن محمد بن سالم، عن عطاء، عن جابر، قال: كنا مع رسول الله

(١) تفسير الطبرى (٢/ ٥٣١، ٥٣٢).

(٢) سنن الترمذى برقم (٣٤٥) وسنن ابن ماجه برقم (١٠٢٠).

(٣) فى و: «عن سعد».

(٤) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٣٤٤).

(٥) فى أ: «ضعيف الحديث».

(٦) فى هـ: «عبد الله».

(٨) فى أ: «سيرنا».

(٧) فى ج، ط، ب، أ، و: «قبل الشمال».

(٩) ورواه الدارقطنى فى السنن (١/ ٢٧١) من طريق إسماعيل بن على عن الحسن بن على بن شبيب به، ورواه البيهقى فى السنن

الكبرى (١٢/ ٢) من طريق محمد بن الحارث عن أحمد بن عبيد الله قال: وجدت فى كتاب أبى فذكر مثله، ورواه أيضاً (٢/ ١٠)

من طريق محمد بن يزيد الواسطى، عن محمد بن عبيد الله العزمى عن عطاء به.

(١٠) فى ج: «بن زيد».

ﷺ في مسير فأصابنا غيم، فتحيرنا فاختلفنا في القبلة، فصلى كل^(١) منا على حدة. وجعل أحدنا يخط بين يديه لنعلم أمكنتنا، فذكرنا ذلك للنبي ﷺ، فلم يأمرنا بالإعادة، وقال: «قد أجزأت صلاتكم».

ثم قال الدارقطني: كذا قال: عن محمد بن سالم، وقال غيره: عن محمد بن عبيد الله العرزمي، عن عطاء، وهما ضعيفان^(٢).

ثم رواه ابن مردويه أيضاً من حديث الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ بعث سرية فأخذتهم ضباباً، فلم يهتدوا إلى القبلة، فصلوا لغير القبلة. ثم استبان لهم بعد طلوع^(٣) الشمس أنهم صلُّوا لغير القبلة. فلما جاؤوا إلى رسول الله ﷺ حدثوه، فأنزل الله، عز وجل، هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

وهذه الأسانيد فيها ضعف، ولعله يشد بعضها بعضاً. وأما إعادة الصلاة لمن تبين له خطؤه ففيها قولان للعلماء، وهذه دلائل على عدم القضاء، والله أعلم.

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية في سبب النجاشي، كما حدثنا محمد بن بشار، حدثنا هشام بن معاذ^(٤)، حدثني أبي، عن قتادة: أن النبي ﷺ قال: «إن أخاً لكم قد مات فصلوا عليه». قالوا: نصلى على رجل ليس بمسلم؟ قال: فنزلت: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، قال قتادة: فقالوا: فإنه كان لا يصلى إلى القبلة. فأنزل الله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾^(٥). وهذا غريب، والله أعلم.

وقد قيل: إنه كان يصلى إلى بيت المقدس قبل أن يبلغه الناسخ إلى الكعبة، كما حكاه القرطبي عن قتادة، وذكر القرطبي أنه لما مات صلى عليه رسول الله ﷺ فأخذ بذلك من ذهب إلى الصلاة على الغائب، قال: وهذا خاص عند أصحابنا من ثلاثة أوجه: أحدها: أنه عليه السلام، شاهده حين صلى عليه طويت له الأرض. الثاني: أنه لما لم يكن عنده من يصلى عليه صلى عليه، واختاره ابن العربي، قال القرطبي: ويبعد أن يكون ملك مسلم ليس عنده أحد من قومه على دينه، وقد أجاب ابن العربي عن هذا لعلمهم لم يكن عندهم شرعية الصلاة على الميت. وهذا جواب جيد. الثالث: أنه عليه الصلاة والسلام إنما صلى عليه ليكون ذلك كالتأليف لبقية الملوك، والله أعلم.

(١) في ج، ط، ب، أ، و: «كل رجل».

(٢) سنن الدارقطني (١/ ٢٧١) ورواه الحاكم في المستدرک (١/ ٢٠٦) من طريق داود بن عمرو به، وقال: «هذا حديث صحيح رواه كلهم ثقات غير محمد بن سالم فإنني لا أعرفه بعدالة ولا جرح». قال الذهبي: قلت: «هو أبو سهل واه».

(٣) في ج، ط، ب، أ، و: «بعدها طلعت».

(٤) في ج، ط، ب، أ: «معاذ بن هشام».

(٥) تفسير الطبري (٢/ ٥٣٢).

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسير هذه الآية من حديث أبى معشر، عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين المشرق والمغرب قبلة لأهل المدينة وأهل الشام وأهل العراق».

وله مناسبة هاهنا، وقد أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى معشر، واسمه^(١) نجيح بن عبد الرحمن السندى المدنى، به^(٢): «ما بين المشرق والمغرب قبلة».

وقال الترمذى: وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة. وتكلم بعض أهل العلم فى أبى معشر من قبل حفظه، ثم قال الترمذى: حدثنى الحسن بن [أبى]^(٣) بكر المروزى، حدثنا المعلى بن منصور، حدثنا عبد الله بن جعفر المخرمى، عن عثمان بن محمد الأخنسى، عن سعيد^(٤) المقبرى، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «ما بين المشرق والمغرب قبلة»^(٥).

ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح.

وحكى عن البخارى أنه قال: هذا أقوى من حديث أبى معشر وأصح. قال الترمذى: وقد روى عن غير واحد من الصحابة: ما بين المشرق والمغرب قبلة - منهم عمر بن الخطاب، وعلى، وابن عباس.

وقال ابن عمر: إذا جعلت المغرب عن يمينك والمشرق عن يسارك، فما بينهما قبلة، إذا استقبلت القبلة.

ثم قال ابن مردويه: حدثنا على بن أحمد بن عبد الرحمن، حدثنا يعقوب بن يونس مولى بنى هاشم، حدثنا شعيب بن أيوب، حدثنا ابن نمير، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبى ﷺ، قال: «ما بين المشرق والمغرب قبلة».

وقد رواه الدارقطنى والبيهقى^(٦)، وقال المشهور: عن ابن عمر، عن عمر، قوله.

قال ابن جرير: ويحتمل: فأينما تولوا جوهكم فى دعائكم لى فهناك وجهى أستجيب لكم دعاءكم، كما حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنى حجاج، قال: قال ابن جريج: قال مجاهد: لما نزلت: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، قالوا: إلى أين؟ فنزلت: ﴿فَإَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

(١) فى و: «وابن».

(٢) سنن الترمذى برقم (٣٤٢) وسنن ابن ماجه برقم (١٠١١).

(٣) زيادة من ج.

(٤) فى أ: «عن شعبة».

(٥) سنن الترمذى برقم (٣٤٤).

(٦) سنن الدارقطنى (٢٧٠ / ١) وسنن البيهقى (٩ / ٢) وهو معلول والصواب وقفه. قال ابن أبى حاتم فى العلل (١ / ١٨٤): «سئل أبو زرعة عن حديث رواه يزيد بن هارون، عن محمد بن عبد الرحمن، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبى ﷺ: «ما بين المشرق والمغرب قبلة» قال أبو زرعة: «هذا وهم، الحديث حديث ابن عمر موقوف».

قال ابن جرير: ويعنى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾: يسع خلقه كلهم بالكفاية، والإفضال والجود^(١).

وأما قوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ فإنه يعنى: عليم بأعمالهم، ما يغيب عنه منها شيء، ولا يعزب عن علمه، بل هو بجميعها عليم.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧)﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة، والتي تليها على الرد على النصارى - عليهم لعائن الله - وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركى العرب، ممن^(٢) جعل الملائكة بنات الله، فأكذب الله جميعهم فى دعواهم وقولهم: إن لله ولدا. فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أى: تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً ﴿بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: ليس الأمر كما افتروا، وإنما له ملك السموات والأرض، وهو المتصرف فيهم، وهو خالقهم ورازقهم، ومقدرهم ومسخرهم، ومسيرهم ومصرفهم، كما يشاء. والجميع عبيد^(٣) له وملك له، فكيف يكون له ولد منهم، والولد إنما يكون متولداً من شيئين متناسبين، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير، ولا مشارك فى عظمته وكبريائه ولا صاحبة له، فكيف يكون له ولد! كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا. تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا. وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا. إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا. لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا. وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص].

فقرر^(٤) تعالى فى هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم، الذى لا نظير له ولا شبيه له، وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة، فكيف يكون له منها ولد! ولهذا قال البخارى فى تفسير هذه الآية من البقرة: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن عبد الله بن أبى حُسَيْن، حدثنا نافع بن جبير - هو ابن مطعم - عن ابن عباس، عن النبى ﷺ، قال: «قال الله تعالى: كَذَّبْنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمْنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّائِي فَيَزْعَمُ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّائِي فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ. فسبحانى^(٥) أن أتخذ صاحبة أو ولداً».

(١) فى ط: «بالكفاية والجود والإفضال»، وفى ب: «بالكفاية والإفضال والجود والإفضال».

(٢) فى ط: «والجميع عبد».

(٣) فى ب، أ: «من».

(٤) فى ط: «سبحانى».

(٥) فى أ، و: «يقرر».

انفرد به البخارى من هذا الوجه^(١).

وقال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن كامل، حدثنا محمد بن إسماعيل الترمذى، حدثنا إسحق بن محمد الفَرَوَى، حدثنا مالك، عن أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: كذبى ابن آدم ولم ينبغى له أن يكذبى، وشتمنى ولم ينبغ له أن يشتمنى، أما تكذبه إياى فقله: لن يعيدنى كما بدئى. وليس أول الخلق بأهون على من إعادته^(٢). وأما شتمه إياى فقله: اتخذ الله ولداً. وأنا الله الأحد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد»^(٣).

وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله؛ إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم»^(٤).

وقوله: ﴿كُلُّ لَه قَانُتُون﴾ قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أسباط، عن مطرف، عن عطية، عن ابن عباس، قال: ﴿قَانُتِين﴾ مصلين.

وقال عكرمة وأبو مالك: ﴿كُلُّ لَه قَانُتُون﴾: مُقَرُّون له بالعبودية. وقال سعيد بن جبیر: ﴿كُلُّ لَه قَانُتُون﴾ يقول: الإخلاص. وقال الربيع بن أنس: يقول كل له قائم يوم القيامة. وقال السدى: ﴿كُلُّ لَه قَانُتُون﴾ يقول: له مطيعون يوم القيامة.

وقال خَصِيف، عن مجاهد: ﴿كُلُّ لَه قَانُتُون﴾ قال: مطيعون، كن إنساناً فكان، وقال: كن حماراً فكان.

وقال ابن أبى نَجِيع، عن مجاهد: ﴿كُلُّ لَه قَانُتُون﴾: مطيعون. يقول: طاعة الكافر فى سجود ظله وهو كاره.

وهذا القول عن مجاهد - وهو اختيار ابن جرير - يجمع الأقوال كلها، وهو أن القنوت: هو الطاعة والاستكانة إلى الله، وذلك شرعى وقدرى، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا لَّهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

وقد ورد حديث فيه بيان القنوت فى القرآن ما هو المراد به، كما قال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرنى عمرو بن الحارث: أن دراجاً أبا السمع حدثه، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد الخدرى، عن رسول الله ﷺ، قال: «كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو

(١) صحيح البخارى برقم (٤٤٨٢).

(٢) فى أ: «بإعادته».

(٣) الحديث رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٩٧٤) من طريق شعيب عن أبى الزناد به، وفيه: «ولم يكن لى كفواً أحد».

(٤) صحيح البخارى برقم (٦٠٩٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٤) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه.

الطاعة».

وكذا رواه الإمام أحمد، عن حسن بن موسى، عن ابن لهيعة، عن درّاج بإسناده، مثله^(١).

ولكن هذا الإسناد ضعيف لا يعتمد عليه. ورفع هذا الحديث منكر، وقد يكون من كلام الصحابي أو من دونه، والله أعلم. وكثيراً ما يأتي بهذا الإسناد تفاسير فيها نكارة، فلا يغتر بها، فإن السند ضعيف، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: خالقهما على غير مثال سبق، قال مجاهد والسدى: وهو مقتضى اللغة. ومنه يقال للشيء المحدث: بدعة. كما جاء فى الصحيح لمسلم: «فإن كل محدثه بدعة [وكل بدعة ضلالة]^(٢)»^(٣). والبدعة على قسمين، تارة تكون بدعة شرعية، كقوله: فإن كل محدثه بدعة، وكل بدعة ضلالة. وتارة تكون بدعة لغوية، كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، عن جمعه إياهم على صلاة التراويح واستمرارهم: نعمت البدعة هذه.

وقال ابن جرير: وبديع السموات والأرض: مبدعهما. وإنما هو مُفْعِل فصرف إلى فَعِيل، كما صرف المؤلم إلى الأليم، والمسمع إلى السميع. ومعنى المبدع: المنشئ والمحدث ما لم يسبقه إلى إنشاء^(٤) مثله وإحداثه أحد.

قال: ولذلك سمى المبتدع فى الدين مبتدعاً؛ لإحداثه فيه ما لم يسبق^(٥) إليه غيره، وكذلك كل محدث فعلاً أو قولاً لم يتقدمه فيه متقدم، فإن العرب تسميه مبتدعاً. ومن ذلك قول أعشى^(٦) ثعلبة، فى مدح هوزة بن على الحنفى:

يُرعى إلى قول سادات الرجال إذا أبدوا له الحزم أو ما شاء ابتدعاً^(٧)

أى: يحدث ما شاء.

قال ابن جرير: فمعنى الكلام: فسبحان الله أنى يكون لله ولد، وهو مالك ما فى السموات والأرض، تشهد له جميعها بدلاتها عليه بالوحدانية، وتقر له بالطاعة، وهو بارئها وخالقها وموجدتها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه. وهذا إعلام من الله عباده أن ممن يشهد له بذلك المسيح، الذى أضافوا إلى الله بُنُوته؛ وإخبار منه لهم أن الذى ابتدع السموات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال، هو الذى ابتدع المسيح من غير والد بقدرته.

(١) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٣٤٨) والمسد (٣/ ٧٥).

(٢) زيادة من ط.

(٣) فى صحيح مسلم برقم (٨٦٧) من حديث جابر رضى الله عنه بلفظ: «وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة».

(٤) فى أ: «إلى أشباه». (٥) فى أ: «ما لم يسبقه». (٦) فى و: «بن».

(٧) البيت فى تفسير الطبرى (٢/ ٥٤٠).

وهذا من ابن جرير ، رحمه الله ، كلام جيد وعبارة صحيحة .

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾: يبين بذلك تعالى كمال قدرته وعظيم سلطانه ، وأنه إذا قَدَّرَ أمراً وأراد كونه ، فإنما يقول له: كن. أى: مرة واحدة، فيكون، أى: فيوجد على وفق ما أراد، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠] وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر: ٥٠] ، وقال الشاعر:

إذا ما أراد الله أمراً فإنما يقول له كن قوله فيكون

ونَبَّه تعالى بذلك أيضاً على أنه خلق عيسى بكلمة: كُنْ، فكان كما أمره الله تعالى، قال [الله:]^(١) تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩]

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (١١٨) .

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال رافع بن حُرَيْمَةَ لرسول الله ﷺ: يا محمد، إن كنت رسولاً من الله كما تقول، فقل لله فليُكَلِّمُنَا حتى نسمع كلامه. فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾.

وقال مجاهد[في قوله]^(٢): ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾ قال: النصراني تقوله .

وهو اختيار ابن جرير، قال: لأن السياق فيهم. وفي ذلك نظر.

[وحكى القرطبي ﴿ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ ﴾ أى: لو يخاطبنا بنبوتك يا محمد. قلت: وظاهر السياق أعم، والله أعلم]^(٣).

وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والسدى في تفسير هذه الآية: هذا قول كفار العرب ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ [مِثْلَ قَوْلِهِمْ]^(٤) ﴾، قالوا: هم اليهود والنصارى. ويؤيد هذا القول، وأن القائِلين ذلك هم مشركو العرب، قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

(٢) زيادة من أ.

(٤) زيادة من ج.

(١) زيادة من أ، و.

(٣) زيادة من ج، ط.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تَنزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]، وقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنشُورَةً﴾ [المدثر: ٥٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركي العرب وعتوهم وعنادهم وسؤالهم ما لا حاجة لهم به، إنما هو الكفر والمعاندة، كما قال من قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

وقوله: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: أشبهت قلوب مشركي العرب قلوب من تقدمهم في الكفر والعناد والعتو، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُونٌ . أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

وقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: قد وضَّحنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى، لمن أيقن^(١) وصدق واتبع الرسل، وفهم ما جاؤوا به عن الله تبارك وتعالى. وأما من ختم الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة فأولئك الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

[قوله تعالى]^(٢):

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ (١١٩).

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الرحمن بن صالح، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الفزاري عن شيبان النحوي، أخبرني قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ قال: «بَشِيرًا بِالْجَنَّةِ، وَنَذِيرًا مِنَ النَّارِ»^(٣).

وقوله: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾: قراءة أكثرهم^(٤): ﴿وَلَا تُسْأَلُ﴾ بضم التاء على الخبر. وفي قراءة أبي بن كعب: «وما تسأل» وفي قراءة ابن مسعود: «ولن تسأل عن أصحاب الجحيم»

(٢) زيادة من ط.

(١) في أ: «لمن اتقى».

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٣٥٤).

(٤) في ب، أ، و: «قراءة بعضهم».

نقلها^(١) ابن جرير، أي: لا نسألك عن كفر من كفر بك، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] وكقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ الآية [الغاشية: ٢١، ٢٢] وكقوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مِنْ يَخَافُ وَعِيدٍ﴾ [ق: ٤٥] وأشبه ذلك من الآيات.

وقرأ آخرون^(٢): «ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم» بفتح التاء على النهى، أي: لا تسأل عن حالهم، كما قال عبد الرزاق:

أخبرنا الثوري، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب القرظي، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليت شعري ما فعل أبوأي، ليت شعري ما فعل أبوأي، ليت شعري ما فعل أبوأي؟». فنزلت: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾، فما ذكرهما^(٣) حتى توفاه الله، عز وجل.

ورواه ابن جرير، عن أبي كريب، عن وكيع، عن موسى بن عبيدة، [وقد تكلموا فيه عن محمد بن كعب]^(٤) بمثله^(٥) وقد حكاه القرطبي عن ابن عباس ومحمد بن كعب قال القرطبي: وهذا كما يقال لا تسأل عن فلان؛ أي: قد بلغ فوق ما تحسب، وقد ذكرنا في التذكرة أن الله أحيا له أبويه حتى آمنّا، وأجبنا عن قوله: (إن أبي وأباك في النار). (قلت): والحديث المروى في حياة أبويه عليه السلام ليس في شيء من الكتب الستة ولا غيرها وإسناده ضعيف والله أعلم. ثم قال [ابن جرير]^(٦): وحدثني القاسم، حدثنا الحسين، حدثني حجاج، عن ابن جريج، أخبرني داود بن أبي عاصم: أن النبي ﷺ قال ذات يوم: «أين أبوأي؟». فنزلت: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾^(٧).

وهذا مرسل كالذي قبله. وقد رد ابن جرير هذا القول المروى عن محمد بن كعب [القرظي]^(٨) وغيره في ذلك، لاستحالة الشك من الرسول ﷺ في أمر أبويه. واختار القراءة الأولى. وهذا الذي سلكه هاهنا فيه نظر، لاحتمال أن هذا كان في حال استغفاره لأبويه قبل أن يعلم أمرهما، فلما علم ذلك تبرأ منهما، وأخبر عنهما أنهما من أهل النار [كما ثبت ذلك في الصحيح]^(٩) ولهذا أشباه كثيرة ونظائر، ولا يلزم ما ذكر^(١٠) ابن جرير. والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا فليح بن سليمان، عن هلال بن علي، عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. فقال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: يأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأمينين، وأنت عبدى ورسولى، سميتك المتوكل، لا فظ ولا غليظ ولا

(١) في ب، ط: «نقلهما». (٢) في أ: «وقرأ البصريون». (٣) في أ: «فما ذكره».

(٤) تفسير عبد الرزاق (٧٨/٥) وتفسير الطبري (٥٥٨/٢) وموسى بن عبيدة ضعيف جداً.

(٥) (٦) زيادة من ط، أ. (٧) تفسير الطبري (٥٥٩/٢).

(٨) زيادة من ط.

(٩) زيادة من أ.

(١٠) في أ، و: «ما ذكره».

سَخَّابٌ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالْسَيْئَةِ السَّيْئَةَ وَلَكِنْ يَغْفِرُ وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ حَتَّى يَقِيمَ بِهِ الْمَلَّةَ الْعُجْجَاءَ، بَأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَيَفْتَحُ بِهِ أَعْيُنًا عُمِيًّا، وَأَذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا.

انفرد بإخراجه البخارى، فرواه فى البيوع عن محمد بن سنان، عن فُلَيْحٍ، به^(١). وقال: تابعه عبد العزيز بن أبى سلمة، عن هلال. وقال سعيد: عن هلال، عن عطاء، عن عبد الله بن سلام. ورواه فى التفسير عن عبد الله، عن عبد العزيز بن أبى سلمة، عن هلال، عن عطاء، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، به^(٢). فذكر نحوه، فعبد الله هذا هو ابن صالح، كما صرح به فى كتاب الأدب. وزعم أبو مسعود الدمشقى أنه عبد الله بن رجاء.

وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسير هذه الآية من البقرة، عن أحمد بن الحسن بن أيوب، عن محمد بن أحمد بن البراء، عن المعافى بن سليمان، عن فليح، به. وزاد: قال عطاء: ثم لقيت كعب الأحبار، فسألته فما اختلفا فى حرف، إلا أن كعباً قال بَلُغْتَهُ: أَعْيُنًا عُمُومِي، وَأَذَانًا صُمُومِي، وَقُلُوبًا غُلُوفًا^(٣).

﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١٢٠) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١) ﴿

قال ابن جرير: يعنى بقوله^(٤) جل ثناؤه: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾: وليست اليهود - يا محمد - ولا النصارى براضية عنك أبداً، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله فى دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ أى: قل يا محمد: إن هدى الله الذى بعثنى به هو الهدى، يعنى: هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل.

قال قتادة فى قوله: ﴿قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ قال: خصومة علّمها الله محمداً ﷺ وأصحابه، يخاصمون بها أهل الضلالة. قال قتادة: وبلغنا أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا تزال طائفة من أمتى يقتتلون على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتى أمر الله».

قلت: هذا الحديث مُخَرَّجٌ فى الصحيح^(٥) عن عبد الله بن عمرو^(٦).

(١) المسند (٢/ ١٧٤) وصحيح البخارى برقم (٢١٢٥).

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٣٨).

(٣) فى ط: «وقلوباً غلفى».

(٤) فى ط: «فى قوله».

(٥) فى ط: «فى الصحيحين».

(٦) صحيح مسلم برقم (١٩٢٤).

﴿ وَلَقَدْ أَتَّعْتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾: فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى، بعد ما علموا من القرآن والسنة، عياداً بالله من ذلك، فإن الخطاب مع الرسول، والأمر لأمرته.

[وقد استدلل كثير من الفقهاء بقوله: ﴿ حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ حيث أفرد الملة على أن الكفر كله ملة واحدة كقوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ٦] فعلى هذا لا يتوارث المسلمون والكفار، وكل منهم يرث قرينه سواء كان من أهل دينه أم لا؛ لأنهم كلهم ملة واحدة، وهذا مذهب الشافعى وأبى حنيفة وأحمد فى رواية عنه. وقال فى الرواية الأخرى كقول مالك: إنه لا يتوارث أهل ملتين شتى، كما جاء فى الحديث، والله أعلم^(١).

وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾: قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: هم اليهود والنصارى. وهو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير.

وقال سعيد عن قتادة: هم أصحاب رسول الله ﷺ.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا إبراهيم بن موسى، وعبد الله بن عمران الأصبهاني، قالوا: حدثنا يحيى بن يمان حدثنا أسامة بن زيد، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ قال: إذا مر بذكر الجنة سأل الله الجنة، وإذا مر بذكر النار تعوذ بالله من النار^(٢).

وقال أبو العالية: قال ابن مسعود: والذى نفسى بيده، إن حق تلاوته أن يُحِلَّ حلاله ويحرم حرامه ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله.

وكذا رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة ومنصور بن المعتمر، عن ابن مسعود.

وقال السدى، عن أبى مالك، عن ابن عباس فى هذه الآية، قال: يُحِلُّونَ حلاله وَيُحَرِّمُونَ حرامه، ولا يُحَرِّقُونَهُ عن مواضعه.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن ابن مسعود نحو ذلك.

وقال الحسن البصرى: يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، يَكِلُون ما أشكل عليهم إلى عالمه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا ابن أبى زائدة، أخبرنا داود بن أبى هند، عن عكرمة، عن ابن عباس، فى قوله: ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ قال: يتبعونه حق اتباعه، ثم قرأ: ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴾ [الشمس: ٢]، يقول: اتَّبَعَهَا. قال: وَرُويَ عن عكرمة، وعطاء، ومجاهد، وأبى رزين، وإبراهيم النخعى نحو ذلك.

وقال سفيان الثورى: حدثنا زبيد، عن مرة، عن عبد الله بن مسعود، فى قوله: ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ

(١) زيادة من ط، أ.

(٢) تفسير ابن أبى حاتم (١/٣٥٧).

تِلَاوَتِهِ ﴿﴾ قال: يتبعونه حق اتباعه.

قال القرطبي: وروى نصر بن عيسى، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ قال: «يتبعونه حق اتباعه»، ثم قال: في إسناده غير واحد من المجهولين فيما ذكره الخطيب إلا أن معناه صحيح. وقال أبو موسى الأشعري: من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة. وعن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: هم الذين إذا مروا بآية رحمة سألوها من الله، وإذا مروا بآية عذاب استعاذوا منها، قال: وقد روى هذا المعنى عن النبي ﷺ أنه كان إذا مر بآية رحمة سأل، وإذا مر بآية عذاب تعوذ.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ خبر عن ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ أى: من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته، آمن بما أرسلتك به يا محمد، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ الآية [المائدة: ٦٦]. وقال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨]، أى: إذا أقمتموها حق الإقامة، وأمتمت بها حق الإيمان، وصدقت ما فيها من الأخبار بمبعث محمد ﷺ ونعته وصفته والأمر باتباعه ونصره ومؤازرته، قادكم ذلك إلى الحق واتباع الخير فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] أى: إن كان ما وعدنا به من شأن محمد ﷺ لواقعاً. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٤]. وقال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠] ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]. وفى الصحيح: «والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة: يهودى ولا نصرانى، ثم لا يؤمن بى، إلا دخل النار»^(١).

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٢٢) وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣) ﴿.

قد تقدم نظير هذه الآية فى صدر السورة، وكررت هاهنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبى

(١) صحيح مسلم برقم (١٥٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

الأمى الذى يجدون صفته فى كتبهم ونعته واسمه وأمره وأمه. يحذرهم^(١) من كتمان هذا، وكتمان ما أنعم به عليهم، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم، من النعم الدنيوية والدينية، ولا يحسدوا بنى عمّهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم. ولا يحملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه، والحيدة عن موافقته، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (١٢٤).

يقول تعالى مُنبِّهاً على شرف إبراهيم خليله، عليه السلام^(٢)، وأن الله تعالى جعله إماماً للناس يقتدى به فى التوحيد، حتى^(٣) قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ أى: واذكر - يا محمد - لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين يتحلون ملّة إبراهيم وليسوا عليها، وإنما الذى هو عليها مستقيم فأنت والذين^(٤) معك من المؤمنين، اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم، أى: اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أى: قام^(٥) بهن كلهن، كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]، أى: وفى جميع ما شرع له، فعمل به صلوات الله عليه، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿بِكَلِمَاتٍ﴾ أى: بشرائع وأوامر ونواه، فإن الكلمات تطلق، ويراد بها الكلمات القدريّة، كقوله تعالى عن مريم، عليها السلام: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا أَنْتَ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحریم: ١٢]. وتطلق ويراد بها الشرعية، كقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ]^(٦) [الأنعام: ١١٥]، أى: كلماته الشرعية. وهى إما خبر صدق، وإما طلب عدل إن كان أمراً أو نهياً، ومن ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أى: قام بهن. قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أى: جزاء على ما فعل، كما قام بالأوامر وترك الزواجر، جعله الله للناس قدوة وإماماً يقتدى به، ويحتذى حذوه.

(٢) فى ج: «عليه الصلاة والسلام».

(٤) فى ج: «فأنت والذى».

(٦) زيادة من ط.

(١) فى ج، ط، أ، و: «فحذرهم».

(٣) فى أ، و: «حين».

(٥) فى ج: «أى أقام».

وقد اختلف [العلماء]^(١) فى تفسير^(٢) الكلمات التى اختبر الله بها إبراهيم الخليل، عليه السلام. فروى عن ابن عباس فى ذلك روايات:

فقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، قال ابن عباس: ابتلاه الله بالمناسك. وكذا رواه أبو إسحاق السبيعي، عن التميمي، عن ابن عباس.

وقال عبد الرزاق - أيضاً -: أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ قال: ابتلاه الله بالطهارة: خمس فى الرأس، وخمس فى الجسد؛ فى الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس. وفى الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء^(٣).

قال ابن أبي حاتم: وروى عن سعيد بن المسيب، ومجاهد، والشعبي، والنخعي، وأبي صالح، وأبي الجلد، نحو ذلك.

قلت: وقريب من هذا ما ثبت فى صحيح مسلم، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «عَشْرٌ مِنَ الْفِطْرَةِ: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء» [قال مصعب]^(٤): ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة.

قال وكيع: انتقاص الماء، يعنى: الاستنجاء^(٥).

وفى الصحيحين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «الفطرة خمس: الختان، والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط». ولفظه لمسلم^(٦).

وقال ابن أبي حاتم: أنبأنا يونس بن عبد الأعلى، قراءة، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة، عن ابن هبيرة، عن حش^(٧) بن عبد الله الصنعاني، عن ابن عباس: أنه كان يقول فى هذه الآية: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، قال: عَشْرٌ، ست فى الإنسان، وأربع فى المشاعر. فأما التى فى الإنسان: حلق العانة، ونتف الإبط، والختان. وكان ابن هبيرة يقول: هؤلاء الثلاثة واحدة. وتقليم الأظفار، وقص الشارب، والسواك، وغسل يوم الجمعة. والأربعة التى فى المشاعر: الطواف، والسعى بين الصفا والمروة، ورمى الجمار، والإفاضة.

وقال داود ابن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: ما ابتلى بهذا الدين أحد فقام به

(٢) فى و: «تعيين».

(١) زيادة من أ.

(٣) تفسير عبد الرزاق (١/ ٧٦).

(٤) زيادة من ج، ط.

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٦١).

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٨٨٩) وصحيح مسلم برقم (٢٥٧).

(٧) فى ج، ط: «حنيش»، وفى أ: «حسين».

كله إلا إبراهيم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قلت له: وما الكلمات التي ابتلى الله إبراهيم بهن فأتمهن؟ قال: الإسلام ثلاثون سهماً، منها عشر آيات في براءة: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ [الْحَامِدُونَ]﴾^(١) إلى آخر الآية^(٢) [التوبة: ١١٢]، وعشر آيات في أول سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ و ﴿سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ وعشر آيات في الأحزاب: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [الآية: ٣٥] إلى آخر الآية، فأتمهن كلهن، فكتبت له براءة. قال الله: ﴿وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧].

هكذا رواه الحاكم، وأبو جعفر بن جرير، وأبو محمد بن أبي حاتم، بأسانيدهم إلى داود بن أبي هند، به^(٣). وهذا لفظ ابن أبي حاتم.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس، قال: الكلمات التي ابتلى الله بهن إبراهيم فأتمهن: فراق قومه - في الله - حين أمر بمفارقتهم. ومحاботته نمرود^(٤) - في الله - حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذي فيه خلافه. وصبره على قذفه إياه في النار ليحرقوه - في الله - على هول ذلك من أمرهم. والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده - في الله - حين أمره بالخروج عنهم، وما أمره به من الضيافة والصبر عليها بنفسه وماله، وما ابتلى به من ذبح ابنه حين أمره بذبحه، فلما مضى على ذلك من الله كله وأخلصه للبلاء^(٥)، قال الله له: ﴿أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على ما كان من خلاف الناس وفراقهم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا إسماعيل بن علفة، عن أبي رجاء، عن الحسن - يعني البصري - : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ [فَأَتَمَّهُنَّ]﴾^(٦) قال: ابتلاه بالكوكب فرضى عنه، وابتلاه بالقمر فرضى عنه، وابتلاه بالشمس فرضى عنه، وابتلاه بالهجرة فرضى عنه، وابتلاه بالختان فرضى عنه، وابتلاه بابنه فرضى عنه.

وقال ابن جرير: حدثنا بشر بن معاذ، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا سعيد، عن قتادة، قال: كان الحسن يقول: إى والله، ابتلاه بأمر فصبر عليه: ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر، فأحسن فى ذلك، وعرف أن ربه^(٧) دائم لا يزول، فوجه وجهه للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما كان من المشركين. ثم ابتلاه بالهجرة فخرج من بلاده وقومه حتى لحق بالشام مهاجراً إلى الله، ثم ابتلاه بالنار قبل الهجرة فصبر على ذلك. وابتلاه الله بذبح ابنه^(٨) والختان فصبر على ذلك.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن سمع الحسن يقول فى قوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ

(٢) فى و: «إلى آخر الآيات».

(١) زيادة من جـ.

(٣) تفسير الطبرى (٣/ ٨) وتفسير ابن أبى حاتم (١/ ٣٦٠).

(٥) فى جـ: «ذلك من البلاء كله وأخلصه للبلاء».

(٤) فى جـ: «ومحاботته بنمرود».

(٧) فى جـ: «أن الله ربه».

(٦) زيادة من أ.

(٨) فى ط: «بذبح ولده».

بِكَلِمَاتٍ [فَأْتَمَّهُنَّ] ^(١) قال: ابتلاه الله بذبح ولده، وبالنار، والكواكب ^(٢)، والشمس، والقمر.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا سلم بن قتيبة، حدثنا أبو هلال، عن الحسن
 ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ قال: ابتلاه بالكوكب، وبالشمس، والقمر، فوجده صابراً.

وقال العوفي في تفسيره، عن ابن عباس: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ فمنهن:
 ﴿إِنِّي ^(٣) جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، ومنهن: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾، ومنهن:
 الآيات في شأن المنسك والمقام الذي جعل لإبراهيم، والرزق الذي رزق ساكنو البيت، ومحمد بعث
 في دينهما.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا شبابة، عن ورقاء، عن ابن أبي
 نجيج، عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قال الله لإبراهيم: إني
 مبتليك بأمر فما هو؟ قال: تجعلني للناس إماماً. قال: نعم. قال: ومن ذريتي؟ ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي
 الظَّالِمِينَ﴾. قال: تجعل البيت مثابة للناس؟ قال: نعم. قال: وأمناً. قال: نعم. قال: وتجعلنا مسلمين
 لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك؟ قال: نعم. قال: وترزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله؟ قال:
 نعم.

قال ابن أبي نجيج: سمعته عن عكرمة، فعرضته على مجاهد، فلم ينكره.

وهكذا رواه ابن جرير من غير وجه، عن ابن أبي نجيج، عن مجاهد.

وقال سفيان الثوري، عن ابن أبي نجيج، عن مجاهد: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ
 فَأَتَمَّهُنَّ﴾، قال: ابتلى بالآيات التي بعدها: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي
 الظَّالِمِينَ﴾.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ [فَأَتَمَّهُنَّ] ^(٤)﴾ قال:
 الكلمات: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وقوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾، وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا
 مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، وقوله: ﴿وَعَاهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ
 الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ الآية، قال: فذلك كله من الكلمات التي ابتلى بهن إبراهيم.

وقال السدي: الكلمات التي ابتلى بهن إبراهيم ربُّه: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. رَبَّنَا
 وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ، ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ] ^(٥).

(٢) في أ، و: «الكواكب».

(٤، ٥) زيادة من أ.

(١) زيادة من ج.

(٣) في ج، ط: «قال إني».

[وقال القرطبي: وفي الموطأ وغيره، عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: إبراهيم، عليه السلام، أول من اختن وأول من ضاف الضيف، وأول من استحد، وأول من قلّم أظفاره، وأول من قص الشارب، وأول من شاب فلما رأى الشيب، قال: ما هذا؟ قال: وقار، قال: يا رب، زدني وقاراً. وذكر ابن أبي شيبة، عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه، قال: أول من خطب على المنابر إبراهيم، عليه السلام، قال غيره: وأول من برد البرد، وأول من ضرب بالسيف، وأول من استاك، وأول من استنجد بالماء، وأول من لبس السراويل، وروى معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أتخذ المنبر فقد أتخذته أبي إبراهيم، وإن أتخذ العصا فقد أتخذها أبي إبراهيم» قلت: هذا حديث لا يثبت، والله أعلم. ثم شرع القرطبي يتكلم على ما يتعلق بهذه الأشياء من الأحكام الشرعية^(١).

قال أبو جعفر بن جرير ما حاصله: أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر، وجائز أن يكون بعض ذلك، ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع. قال: ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له.

قال: غير أنه قد روى عن النبي ﷺ في نظير معنى ذلك خبران، أحدهما: ما حدثنا به أبو كريب، حدثنا رشدين بن سعد، حدثني زبان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس، قال: كان النبي ﷺ يقول: «ألا أخبركم لم سمي الله إبراهيم خليله ﷺ الذي وقى؟» [النجم: ٣٧]؛ لأنه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى: «فَسَبِّحْهُنَّ اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ» [الروم: ١٧] حتى يختم الآية^(٢).

قال: والآخر منهما: حدثنا به أبو كريب، أخبرنا الحسن، عن عطية، أخبرنا إسرائيل، عن جعفر ابن الزبير، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «وإبراهيم الذي وقى»: أتدرون ما وقى؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «وقى عمل يومه، أربع ركعات في النهار».

ورواه آدم في تفسيره، عن حماد بن سلمة. وعبد بن حميد، عن يونس بن محمد، عن حماد ابن سلمة، عن جعفر بن الزبير، به^(٣).

ثم شرع ابن جرير يضعف هذين الحديثين، وهو كما قال؛ فإنه لا تجوز روايتهما إلا ببيان ضعفهما، وضعفهما من وجوه عديدة، فإن كلا من السندين مشتمل على غير واحد من الضعفاء، مع ما في متن الحديث مما يدل على ضعفه [والله أعلم]^(٤).

ثم قال ابن جرير: ولو قال قائل: إن الذي قاله مجاهد وأبو صالح والربيع بن أنس أولى

(١) زيادة من ج، ط، أ.

(٢) تفسير الطبري (٣/ ١٥).

(٣) تفسير الطبري (٣/ ١٦).

(٤) زيادة من ج، ط، أ، و.

بالصواب من القول الذي قاله غيرهم كان مذهباً، فإن قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وقوله: ﴿وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ وسائر الآيات التي هي نظير ذلك، كالبيان عن الكلمات التي ذكر الله أنه ابتلى بهن إبراهيم.

قلت: والذي قاله أولاً من أن الكلمات تشمل جميع ما ذكر، أقوى من هذا الذي جوزه من قول مجاهد ومن قال مثله؛ لأن السياق يعطى غير ما قالوه، والله أعلم.

وقوله: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾: لما جعل الله إبراهيم إماماً، سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته، فأجيب إلى ذلك، وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون، وأنه لا ينالهم عهد الله، ولا يكونون أئمة فلا يقتدى بهم. والدليل على أنه أجيب إلى طَلَبَتِهِ قولُ الله (١) تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، فكل نبي أرسله الله، وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم، ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه (٢).

وأما قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فقد اختلفوا في ذلك، فقال خَصِيف، عن مجاهد في قوله: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: إنه سيكون في ذريتكَ ظالمون.

وقال ابن أبي نَجِيج، عن مجاهد: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: لا يكون لى إمام ظالم [يقتدى به] (٣). وفي رواية: لا (٤) أجعل إماماً ظالماً يقتدى به. وقال سفيان، عن (٥) منصور، عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: لا يكون إمام ظالم يقتدى به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثني أبي، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا شريك، عن منصور، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ قال: أما من كان منهم صالحاً فسأجعله إماماً يقتدى به. وأما من كان ظالماً فلا ولا نعمة عين.

وقال سعيد بن جبیر: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾: المراد به المشرك، لا يكون إمام ظالم. يقول: لا يكون إمام مشرك.

وقال ابن جُرَيج، عن عطاء، قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ فأبى أن يجعل من ذريته إماماً ظالماً. قلت لعطاء: ما عهده؟ قال: أمره.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا عمرو بن ثور القيساري (٦) فيما كتب إلى، حدثنا الفريابي، حدثنا إسرائيل، حدثنا سماك بن حرب، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال الله لإبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾. فأبى أن يفعل، ثم قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

(١) في ج: «قوله».

(٢) في ج: «وسلامه عليه وعليهم أجمعين».

(٣) زيادة من ط.

(٥) في أ: «سفيان بن».

(٤) في ج: «أن لا».

(٦) في أ: «القيساري».

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾: يخبره أنه كائن في ذريته ظالم لا ينال عهده - ولا ينبغي [له]^(١) أن يوليه شيئاً من أمره وإن كان من ذرية خليله - ومحسن ستنفذ فيه دعوته، وتبلغ له فيه ما أراد من مسأله.

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: يعني لا عهد لظالم عليك في ظلمه، أن تطيعه فيه.

وقال ابن جرير: حدثنا المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله، عن إسرائيل، عن مسلم الأعور، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: ليس للظالمين عهد، وإن عاهدته فانتقضه^(٢).

وروى عن مجاهد، وعطاء، ومقاتل بن حيان، نحو ذلك.

وقال الثوري، عن هارون بن عنترة، عن أبيه، قال: ليس لظالم عهد.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة، في قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: لا ينال عهد الله في الآخرة^(٣) الظالمين، فأما في الدنيا فقد ناله الظالم فأمن به، وأكل وعاش.

وكذا قال إبراهيم النخعي، وعطاء، والحسن، وعكرمة.

وقال الربيع بن أنس: عهد الله الذي عهد إلى عباده: دينه، يقول: لا ينال دينه الظالمين، ألا ترى أنه قال: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣]، يقول: ليس كل ذريتك يا إبراهيم على الحق.

وكذا روى عن أبي العالية، وعطاء، ومقاتل بن حيان.

وقال جوير، عن الضحاك: لا ينال طاعتي عدو لي يعصيني، ولا أنحلها إلا ولياً لي يطيعني.

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن حامد، حدثنا أحمد بن عبد الله بن سعيد الأسدي، حدثنا سليم بن سعيد الدامغاني، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن سعد ابن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن علي بن أبي طالب، عن النبي ﷺ، قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، قال: «لا طاعة إلا في المعروف»^(٤).

(٢) في ج، ط، أ، و: «فانتقضه».

(١) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٣) في ط: «لا ينال عهد الله ظالم في الآخرة».

(٤) قال البخاري في صحيحه برقم (٧٢٥٧): حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة، عن زيد، عن سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن، عن علي - رضى الله عنه - أن النبي ﷺ بعث جيشاً وأمر عليهم رجلاً، فأوقد ناراً وقال: ادخلوها، فأرادوا أن يدخلوها، وقال آخرون: إنما فررنا منها، فذكروا للنبي ﷺ، فقال للذين أرادوا أن يدخلوها: «لو دخلوها لم يزالوا فيها إلى يوم القيامة». وقال الآخرون: «لا طاعة في المعصية، إنما الطاعة في المعروف». فهذا هو أصل هذا الحديث من دون ذكر الآية، والله أعلم.

وقال السدى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ يقول: عهدي نبوتى.

فهذه أقوال مفسرى السلف فى هذه الآية على ما نقله ابن جرير، وابن أبى حاتم، رحمهما الله تعالى. واختار ابن جرير أن هذه الآية - وإن كانت ظاهرة فى الخبر - أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالماً. ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل، عليه السلام، أنه سيوجد من ذريتك من هو ظالم لنفسه، كما تقدم عن مجاهد وغيره، والله أعلم.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى (١٢٥)﴾.

قال العوفى، عن ابن عباس: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ يقول: لا يقضون منه وطراً، يأتونه، ثم يرجعون إلى أهلهم، ثم يعودون إليه.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾، يقول: يثوبون.

رواهما^(١) ابن جرير.

وقال ابن أبى حاتم: أخبرنا أبى، أخبرنا عبد الله بن رجاء، أخبرنا إسرائيل، عن مسلم، عن مجاهد، عن ابن عباس، فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال: يثوبون إليه ثم يرجعون. قال: وروى عن أبى العالية، وسعيد بن جبير - فى رواية - وعطاء، ومجاهد، والحسن، وعطية، والربيع بن أنس، والضحاك، نحو ذلك.

وقال ابن جرير: حدثنى عبد الكريم بن أبى عمير، حدثنى الوليد بن مسلم قال: قال أبو عمرو - يعنى الأوزاعى - حدثنى عبدة بن أبى لبابة، فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال: لا ينصرف عنه منصرف وهو يرى أنه قد قضى منه وطراً.

وحدثنى يونس، عن ابن وهب، قال: قال ابن زيد: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال: يثوبون إليه من البلدان كلها ويأتونه.

[وما أحسن ما قال الشاعر فى هذا المعنى، أورده القرطبى^(٢):

جعل البيتُ مثاباً لهم ليس منه الدهر يقضون الوطراً^(٣)

وقال سعيد بن جبير - فى الرواية الأخرى - وعكرمة، وقتادة، وعطاء الخراسانى ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أى: مجمعاً.

﴿وَأَمْنًا﴾: قال الضحاك عن ابن عباس: أى أمناً للناس.

(١) فى ج، ط: «رواه».

(٢) تفسير القرطبى (٢/ ١١٠).

(٣) زيادة من ج، ط، أ.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ يقول: أمناً من العدو، وأن يُحْمَلَ فيه السلاح. وقد كانوا في الجاهلية يُتَخَطَّفُ الناس من حولهم، وهم آمنون لا يُسَبَّون.

وروى عن مجاهد، وعطاء، والسدي، وقتادة، والربيع بن أنس، قالوا: من دخله كان آمناً.

ومضمون ما فسر به هؤلاء الأئمة هذه الآية: أن الله تعالى يذكر شرف البيت، وما جعله موصوفاً به شرعاً وقدرًا، من كونه مثابة للناس، أي: جعله مَحَلًّا تشتاق إليه الأرواح وتحن إليه، ولا تقضى منه وطراً، ولو ترددت إليه كل عام، استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم، عليه السلام، في قوله: ﴿فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ إلى أن قال: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ^(١)﴾ [إبراهيم: ٣٧-٤٠].
ويصفه تعالى بأنه جعله آمناً، من دخله أمن، ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمناً.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان الرجل يلقي قاتل أبيه أو أخيه فيه فلا يعرض له. كما وصفها في سورة المائدة بقوله تعالى^(٢): ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]، أي: يُرْفَع عنهم بسبب تعظيمها^(٣) السوء، كما قال ابن عباس: لو لم يحج الناس هذا البيت لأطبق الله السماء على الأرض؛ وما هذا الشرف إلا لشرف بانيه أولاً وهو خليل الرحمن، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ [الحج: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِّلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

وفي هذه الآية الكريمة نَبَّه على مقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده، فقال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. وقد اختلف المفسرون في المراد بالمقام ما هو؟ فقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن شبة النميري، حدثنا أبو خلف - يعني عبد الله بن عيسى - حدثنا داود بن أبي هند، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قال: مقام إبراهيم: الحرم كله. وروى عن مجاهد وعطاء مثل ذلك.

وقال [أيضاً]^(٤): حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، قال: سألت عطاء عن ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، فقال: سمعت ابن عباس قال: أما مقام إبراهيم الذي ذكر هاهنا، فمقام إبراهيم هذا الذي^(٥) في المسجد. ثم قال: و﴿مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾: يعد كثير، «مقام إبراهيم»: الحج كله. ثم فسره لى عطاء فقال: التعريف، وصلاتان بعرفة، والمشعر، ومنى، ورمى الجمار، والطواف بين الصفا والمروة. فقلت: أفسره ابن عباس؟ قال: لا. ولكن قال: مقام إبراهيم: الحج كله. قلت: أسمعت ذلك؟ لهذا أجمع. قال: نعم، سمعته منه.

(١) في ج: ط: «دعائي».

(٢) في ج: «بقوله تبارك وتعالى».

(٣) في ج: «لسبب تعظيمهم».

(٤) في ج: «الذي هو».

(٥) في ج: «الذي هو».

وقال سفيان الثوري، عن عبد الله بن مسلم، عن سعيد بن جبيرة: «وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى» قال: الحجر مقام إبراهيم نبي الله، قد جعله الله رحمة، فكان يقوم عليه ويناوله إسماعيل الحجارة. ولو غسل رأسه كما يقولون لاختلف رجلاه.

[وقال السدي: المقام: الحجر الذي وضعت زوجته إسماعيل تحت قدم إبراهيم حتى غسلت رأسه. حكاه القرطبي، وضعفه ورجحه غيره، وحكاه الرازي في تفسيره عن الحسن البصري وقتادة والربيع ابن أنس^(١)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، عن ابن جريج، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، سمع جابراً يحدث عن حجة النبي ﷺ قال: لما طاف النبي ﷺ، قال له عمر: هذا مقام أبينا إبراهيم؟ قال: نعم. قال: أفلا نتخذه مصلياً؟ فأنزل الله، عز وجل: «وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى»^(٢).

وقال عثمان بن أبي شيبة: أخبرنا أبو أسامة، عن زكريا، عن أبي إسحاق، عن أبي ميسرة قال: قال عمر: قلت: يا رسول الله، هذا مقام خليل ربنا؟ قال: نعم. قال: أفلا نتخذه مصلياً؟ فنزلت: «وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى»^(٣).

وقال ابن مردويه: حدثنا دعلج بن أحمد، حدثنا غيلان بن عبد الصمد، حدثنا مسروق بن المربان، حدثنا زكريا بن أبي زائدة، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عمر بن الخطاب، أنه مرَّ بمقام إبراهيم، فقال: يا رسول الله، أليس نقوم مقام خليل ربنا^(٤)؟ قال: «بلى». قال: أفلا نتخذه مصلياً؟ فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزلت: «وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى».

وقال ابن مردويه: حدثنا محمد^(٥) بن أحمد بن محمد القزويني، حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا الوليد، عن مالك بن أنس، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر، قال: لما وقف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة عند مقام إبراهيم، قال له عمر: يا رسول الله، هذا مقام إبراهيم الذي قال الله: «وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى»؟ قال: «نعم». قال الوليد: قلت لمالك: هكذا حدثك «وَاتَّخِذُوا»؟ قال: نعم. هكذا وقع في هذه الرواية. وهو غريب.

وقد روى النسائي من حديث الوليد بن مسلم، نحوه^(٦).

وقال البخاري: باب قوله: «وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى»: مثابة: يثوبون يرجعون.

(١) زيادة من ج، ط، أ.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٣٧٠).

(٣) ورواه الدارقطني في «الأفراد» كما في «أطراف الغرائب والأفراد» لابن القيسراني (ق ٣١) وقال: «غريب من حديث أبي إسحاق عن أبي ميسرة - عمرو بن شرحبيل - عن عمر، تفرد به زكريا بن أبي زائدة عنه».

(٤) في ج: «خليل الله».

(٦) سنن النسائي (٥/ ٢٣٦).

(٥) في أ، و: «حدثنا علي».

حدثنا مُسَدَّدٌ، حدثنا يحيى، عن حميد، عن أنس بن مالك قال: قال عمر بن الخطاب: وافقتُ ربي في ثلاث، أو وافقني ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. وقلت: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله آية الحجاب. وقال: وبلغني مُعَاتِبَةُ النَّبِيِّ ﷺ بعض نسائه، فدخلت عليهن^(١) فقلت: إن انتهيتن أو ليدلكن الله رسوله خيراً منكن، حتى أتيت إحدى نسائه، فقالت: يا عمر، أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت؟! فأنزل الله: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُدْلِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾ الآية [التحریم: ٥].

وقال ابن أبي مريم: أخبرنا يحيى بن أيوب، حدثني حميد، قال: سمعت أنساً عن عمر، رضى الله عنهما^(٢).

هكذا ساقه البخارى هاهنا، وعلق الطريق الثانية عن شيخه سعيد بن الحكم المعروف بابن أبي مريم المصرى. وقد تفرد بالرواية عنه البخارى من بين أصحاب الكتب الستة. وروى عنه الباقر بواسطه، وغرضه من تعليق هذا الطريق ليعين^(٣) فيه اتصال إسناد الحديث، وإنما لم يسنده؛ لأن يحيى ابن أيوب الغافقى فيه شىء، كما قال الإمام أحمد فيه: هو سيئ الحفظ، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْمٌ، حدثنا حُمَيْدٌ، عن أنس، قال: قال عمر، رضى الله عنه^(٤): وافقت ربي، عز وجل، في ثلاث، قلت: يا رسول الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. وقلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن؟ فنزلت آية الحجاب. واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه فى الغيرة. فقلت لهن: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُدْلِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾ [التحریم: ٥] فنزلت كذلك^(٥). ثم رواه أحمد، عن يحيى وابن أبي عدى، كلاهما عن حميد، عن أنس، عن عمر أنه قال: وافقت ربي في ثلاث، أو وافقني ربي في ثلاث، فذكره^(٦).

وقد رواه البخارى عن عمرو بن عون، والترمذى عن أحمد بن منيع، والنسائى عن يعقوب بن إبراهيم الدورقى، وابن ماجه عن محمد بن الصباح، كلهم عن هُشَيْمِ بْنِ بَشِيرٍ، به^(٧). ورواه الترمذى - أيضاً - عن عبد بن حميد، عن حجاج بن منهال، عن حماد بن سلمة. والنسائى عن هناد، عن

(١) فى ج: «عليهن بالحجاب».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٤٨٣).

(٣) فى ج: «ليتين».

(٥) المسند (١/ ٢٣).

(٦) رواية يحيى فى المسند (١/ ٣٦) ورواية ابن أبي عدى (١/ ٢٤).

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٩١٦) وسنن الترمذى برقم (٢٩٦٠) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦١١) وسنن ابن ماجه برقم (١٠٠٩).

يحيى بن أبي زائدة، كلاهما عن حميد، وهو ابن تيرويه الطويل، به^(١). وقال الترمذى: حسن صحيح. ورواه الإمام على بن المدينى، عن يزيد بن زريع، عن حميد، به. وقال: هذا من صحيح الحديث، وهو بصرى، ورواه الإمام مسلم بن الحجاج فى صحيحه بسند آخر، ولفظ آخر، فقال: حدثنا عقبة بن مكرم، أخبرنا سعيد بن عامر، عن جويرية بن أسماء، عن نافع، عن ابن عمر، عن عمر، قال: وافقت ربي فى ثلاث: فى الحجاب، وفى أسارى بدر، وفى مقام إبراهيم^(٢).

وقال أبو حاتم الرازى: حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى، حدثنا حميد الطويل، عن أنس بن مالك، قال: قال عمر بن الخطاب: وافقنى ربي فى ثلاث - أو وافقت ربي - قلت^(٣): يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، وقلت: يا رسول الله، لو حجبت النساء؟ فنزلت آية الحجاب. والثالثة: لما مات عبد الله بن أبى جاء رسول الله ﷺ ليصلى عليه. قلت: يا رسول الله، تصلى على هذا الكافر المنافق! فقال: «إيها عنك يا بن الخطاب»، فنزلت: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤]^(٤).

وهذا إسناد صحيح أيضاً، ولا تعارض بين هذا ولا هذا، بل الكل صحيح، ومفهوم العدد إذا عارضه منطوق قدم عليه، والله أعلم.

وقال ابن جريج^(٥): أخبرنى جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر: أن رسول الله ﷺ رمل ثلاثة أشواط، ومشى أربعاً، حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين، ثم قرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.

وقال ابن جرير: حدثنا يوسف بن سلمان^(٦)، حدثنا حاتم بن إسماعيل، حدثنا جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر قال: استلم رسول الله ﷺ الركن، فرمل ثلاثاً، ومشى أربعاً، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم، فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. فجعل المقام بينه وبين البيت، فصلى ركعتين.

وهذا قطعة من الحديث الطويل الذى رواه مسلم فى صحيحه، من حديث حاتم بن إسماعيل^(٧). وروى البخارى بسنده، عن عمرو بن دينار، قال: سمعت ابن عمر يقول: قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت سبعا، وصلى خلف المقام ركعتين^(٨).

فهذا كله مما يدل على أن المراد بالمقام إنما هو الحجر الذى كان إبراهيم، عليه السلام، يقوم عليه

(١) سنن الترمذى برقم (٢٩٥٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٩٩٨).

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٣٩٩).

(٣) فى ط: «فقلت».

(٤) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٧/ ٨٨) من طريق أبى حاتم الرازى به.

(٥) فى ج: «ابن جرير».

(٧) تفسير الطبرى (٣/ ٣٦) وصحيح مسلم برقم (١٢١٨).

(٨) صحيح البخارى برقم (٣٩٥، ١٧٩٣).

لبناء الكعبة، لما ارتفع الجدار آتاه إسماعيل، عليه السلام، به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار، كلما كَمَلَّ ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى، يطوف حول الكعبة، وهو واقف عليه، كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها هكذا، حتى تم جدارات الكعبة، كما سيأتى بيانه فى قصة إبراهيم وإسماعيل فى بناء البيت، من رواية ابن عباس عند البخارى. وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه، ولم يزل هذا معروفاً تعرفه العرب فى جاهليتها؛ ولهذا قال أبو طالب فى قصيدته المعروفة اللامية.

ومَوَطُّ إبراهيم فى الصخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعل^(١)

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضاً. وقال^(٢) عبد الله بن وهب: أخبرنى يونس بن يزيد، عن ابن شهاب: أن أنس بن مالك حدثهم، قال: رأيت المقام فيه أثر أصابعه، عليه السلام، وإخْمَصَ قدميه، غير أنه أذهب مسح الناس بأيديهم.

وقال ابن جرير: حدثنا بشر بن معاذ، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا سعيد، عن قتادة: «وَاتَّخَذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى»: إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه. ولقد تكلفت هذه الأمة شيئاً ما تكلفته الأمم قبلها، ولقد ذُكِرَ لنا من رأى أثر عَقْبِهِ وَأَصَابِعِهِ فيه^(٣)، فما زالت هذه الأمة يسحونه حتى اخلولق وانمحي.

قلت: وقد كان المقام ملصقاً بجدار الكعبة قديماً، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلى الحجر يمينه الداخل من الباب فى البقعة المستقلة هناك، وكان الخليل، عليه السلام^(٤)، لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك؛ ولهذا - والله أعلم - أمر بالصلاة هناك عند فراغ الطواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه، وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، رضى الله عنه^(٥)، [وهو]^(٦) أحدُ الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين، الذين أمرنا باتباعهم، وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله ﷺ: «اقتدوا بالَّذَيْنِ من بعدى أبى بكر وعمر». وهو الذى نزل القرآن بوفاقه فى الصلاة عنده؛ ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة، رضى الله عنهم أجمعين.

قال عبد الرزاق، عن ابن جُرَيْجٍ، حدثنى عطاء وغيره من أصحابنا، قالوا: أول من نقله عمر بن الخطاب، رضى الله عنه^(٧). وقال عبد الرزاق أيضاً، عن معمر، عن حميد الأعرج، عن مجاهد قال: أول من أخر المقام إلى موضعه الآن، عمر بن الخطاب، رضى الله عنه^(٨).

(١) البيت فى السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٧٣).

(٢) فى ج، ط: «كما قال».

(٣) فى ج: «عليه الصلاة والسلام».

(٤) زيادة من ج.

(٥) المصنف لعبد الرزاق برقم (٨٩٥٥).

(٦) المصنف لعبد الرزاق برقم (٨٩٥٣).

(٣) فى ج، ط: «فيها».

(٥) فى ج: «رضى الله تعالى عنه».

وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي^(١): أخبرنا أبو [الحسين بن]^(٢) الفضل القطان، أخبرنا القاضي أبو بكر أحمد بن كامل، حدثنا أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل السلمي، حدثنا أبو ثابت، حدثنا الدراوردي، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، رضى الله عنها: أن المقام كان في زمان رسول الله ﷺ، وزمان أبي بكر ملتصقاً بالبيت، ثم أخره عمر بن الخطاب، رضى الله عنه. وهذا إسناد صحيح مع ما تقدم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر العدني قال: قال سفيان - [يعني ابن عيينة]^(٣) وهو إمام المكيين في زمانه - كان المقام في^(٤) سُقْعَ البيت على عهد رسول الله ﷺ، فحوله عمر إلى مكانه بعد النبي ﷺ، وبعد قوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قال: ذهب السيل به بعد تحويل عمر إياه من موضعه هذا، فردّه عمر إليه.

وقال سفيان: لا أدري كم بينه وبين الكعبة قبل تحويله. قال سفيان: لا أدري أكان^(٥) لاصقاً بها أم لا؟^(٦).

فهذه الآثار متعاضدة على ما ذكرناه، والله أعلم.

وقد قال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا أبو عمرو، حدثنا محمد بن عبد الوهاب، حدثنا آدم، حدثنا شريك، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، قال: قال عمر: يا رسول الله، لو صلينا خلف المقام؟ فأنزل الله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. فكان المقام عند البيت، فحوله رسول الله ﷺ إلى موضعه هذا. قال مجاهد: قد كان عمر يرى الرؤى فينزل به القرآن^(٧).

هذا مرسل عن مجاهد، وهو مخالف لما تقدم من رواية عبد الرزاق، عن معمر، عن حميد الأعرج، عن مجاهد أن أول من أخرّ المقام إلى موضعه الآن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، وهذا أصح من طريق ابن مردويه، مع اعتضاد هذا بما تقدم، والله أعلم^(٨).

﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ

(٢) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٤) في هـ: «من» وهو خطأ.

(١) في أ، و: «علي بن الحسين».

(٣) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٥) في ج: «إن كان».

(٦) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٣٧٢).

(٧) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ١٦٩): «إسناده ضعيف».

(٨) وقد ألف سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ - رحمه الله - رسالتين فيما يتعلق بالمقام:

الأولى: في جواز نقل المقام سماها: «الجواب المستقيم في جواز نقل مقام إبراهيم» مطبوعة ضمن فتاواه (٥/ ١٧ - ٥٥).

والثانية: في الرد على الشيخ سليمان بن حمدان في اعتراضه على رسالة الشيخ عبد الرحمن المعلمي في جواز نقل المقام سماها:

«نصيحة الإخوان ببيان بعض ما في نقض المباني لابن حمدان من الخطب والجهل والبهتان» مطبوعة ضمن فتاواه (٥/ ٥٦ - ١٣٢).

وهما رسالتان قيمتان حشد فيهما - رحمه الله - جواز نقل المقام، واستشهد بكلام الحافظ ابن كثير هنا وكلام الحافظ ابن حجر في

فتح الباري، وهما تدلان على تبحره وسعة علمه - رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾
وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾
رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴿١٢٨﴾

قال الحسن البصري: قوله: ﴿وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ قال: أمرهما الله أن يطهراه من الأذى والنَّجَسِ ولا يصيبه من ذلك شيء.

وقال ابن جريج: قلت لعطاء: ما عهده؟ قال: أمره.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: أمرناه. كذا قال. والظاهر أن هذا الحرف إنما عدَّى بالي؛ لأنه في معنى: تقدمنا وأوحينا.

وقال سعيد جبير، عن ابن عباس، قوله: ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ﴾ قال: من الأوثان.
وقال مجاهد وسعيد بن جبير: ﴿طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾: إن ذلك من الأوثان والرفث وقول الزور والرجس.

قال ابن أبي حاتم: ورؤى عن عبيد بن عمير، وأبي العالية، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعطاء، وقتادة ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي﴾ أي: بلا إله إلا الله، من الشرك.

وأما قوله تعالى: ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ فالطواف بالبيت معروف، وعن سعيد بن جبير أنه قال في قوله تعالى: ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ يعني: من أتاه من غربة، ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾: المقيمين فيه. وهكذا روى عن قتادة، والربيع بن أنس: أنهما فسرا العاكفين بأهله المقيمين فيه، كما قال سعيد بن جبير.

وقال يحيى [بن] (١) القطان، عن عبد الملك - هو ابن أبي سليمان - عن عطاء في قوله: ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾، قال: من انتابه (٢) من الأمصار فأقام عنده (٣)، وقال لنا - ونحن مجاورون -: أنتم من العاكفين.

وقال وكيع، عن أبي بكر الهذلي، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: إذا كان جالساً فهو من العاكفين.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا ثابت، قال: قلت لعبد الله بن عبيد بن عمير: ما أراني إلا مُكَلِّمَ الأمير أن أُمْنَعِ الذين ينامون في

(٢) في ج، أ: «من أني».

(١) زيادة من أ.

(٣) في أ: «فأقام عندنا».

المسجد الحرام، فإنهم يجنبون^(١) ويحدثون. قال: لا تفعل، فإن ابن عمر سئل عنهم، فقال: هم العاكفون.

[ورواه عبد بن حميد عن سليمان بن حرب عن حماد بن سلمة، به]^(٢).

قلت: وقد ثبت في الصحيح أن ابن عمر كان ينام في مسجد الرسول ﷺ وهو عزب^(٣).

وأما قوله تعالى: ﴿وَالرُّكْعُ السُّجُودُ﴾: فقال وكيع، عن أبي بكر الهذلي، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿وَالرُّكْعُ السُّجُودُ﴾ قال: إذا كان مصلياً فهو من الركع السجود. وكذا قال عطاء وقتادة.

وقال ابن جرير، رحمه الله: فمعنى الآية: وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتي للطائفين. والتطهير الذي أمرهما به في البيت هو تطهيره من الأصنام وعبادة الأوثان فيه ومن الشرك. ثم أورد سؤالاً فقال: فإن قيل: فهل كان قبل بناء إبراهيم عند البيت شيء من ذلك الذي أمر بتطهيره منه؟ وأجاب بوجهين، أحدهما: أنه أمرهما بتطهيره مما كان يعبد عنده زمان قوم نوح من الأصنام والأوثان، ليكون ذلك سنة لمن بعدهما، إذ كان الله تعالى قد جعل إبراهيم إماماً يقتدى به، كما قال عبد الرحمن بن زيد: ﴿أَنْ طَهَّرَ بَيْتِي﴾ قال: من الأصنام التي يعبدون، التي كان المشركون يعظمونها. قلت: وهذا الجواب مقرر على أنه كان يعبد عنده أصنام قبل إبراهيم، عليه السلام، ويحتاج إثبات هذا إلى دليل عن المعصوم محمد.

الجواب الثاني: أنه أمرهما أن يخلصا [في]^(٤) بنائه لله وحده لا شريك له، فيبنيه مطهراً من الشرك والريب، كما قال جل ثناؤه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: ١٠٩]. قال: فكذلك قوله: ﴿وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ أي: ابنيا بيتي على طهر من الشرك بى والريب، كما قال السدي: ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي﴾: ابنيا بيتي للطائفين.

وملخص هذا الجواب: أن الله تعالى أمر إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، أن يبني الكعبة على اسمه وحده لا شريك له، للطائفين به والعاكفين عنده، والمصلين إليه من الركع السجود، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكْعِ السُّجُودِ﴾ الآيات [الحج: ٢٦ - ٣٧].

[وقد اختلف الفقهاء: أيما أفضل، الصلاة عند البيت أو الطواف؟ فقال مالك: الطواف به لأهل الأمصار أفضل من الصلاة عنده، وقال الجمهور: الصلاة أفضل مطلقاً، وتوجيه كل منهما يذكر في كتاب الأحكام]^(٥).

(٢) زيادة من و.

(١) في ج: «فإنهم يخبتون».

(٣) صحيح البخاري برقم (٤٤٠).

(٥) زيادة من أ.

(٤) زيادة من ج، ط، أ، و.

والمراد من ذلك الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته، المؤسس على عبادته وحده لا شريك له، ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

ثم ذكر أن البيت إنما أسس لمن يعبد الله وحده لا شريك له، إما بطواف أو صلاة، فذكر في سورة الحج أجزاءها الثلاثة: قيامها، وركوعها؛ وسجودها، ولم يذكر العاكفين لأنه تقدم ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ وفي هذه الآية الكريمة ذكر الطائفين والعاكفين، واجتزأ بذكر الركوع والسجود عن القيام؛ لأنه قد علم أنه لا يكون ركوع ولا سجود إلا بعد قيام. وفي ذلك - أيضاً - ردٌّ على من لا يحجه من أهل الكتابين: اليهود والنصارى؛ لأنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وعظمته، ويعلمون أن بنى هذا البيت للطواف في الحج والعمرة، وغير ذلك، وللاعتكاف والصلاة عنده، وهم لا يفعلون شيئاً من ذلك، فكيف يكونون ^(١) مقتدين بالخليل، وهم لا يفعلون ما شرع الله له! وقد حجَّ البيت موسى ابن عمران وغيره من الأنبياء، عليهم السلام، كما أخبر بذلك المعصوم، الذي لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤].

وتقدير الكلام إذاً: ﴿وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ [أى: تقدمنا لوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل] ^(٢) ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [أى: طهراه من الشرك والريب، وابنيه خالصاً لله، معقلاً للطائفين والعاكفين والركع السجود. وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية، ومن قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور: ٣٦] ومن السنة من أحاديث كثيرة، من الأمر بتطهيرها وتطيبها وغير ذلك، من صيانتها من الأذى والنجاسات ^(٣) وما أشبه ذلك. ولهذا قال، عليه السلام: «إنما بنيت المساجد لما بنيت له» ^(٤). وقد جمعتُ في ذلك جزءاً على حدة، والله الحمد والمنة.

وقد اختلف الناس في أول من بنى الكعبة، فقيل: الملائكة قبل آدم، وروى هذا عن أبي جعفر الباقر محمد بن علي بن الحسين، ذكره القرطبي وحكى لفظه، وفيه غرابة، وقيل: آدم، عليه السلام، رواه عبد الرزاق عن ابن جريج، عن عطاء وسعيد بن المسيب وغيرهم: أن آدم بناه من خمسة أجبل: من حراء وطور سيناء وطور زيتا وجبل لبنان والجودي، وهذا غريب أيضاً. وروى نحوه عن ابن عباس وكعب الأحبار وقتادة، وعن وهب بن منبه: أن أول من بناه شيث، عليه السلام، وغالب من يذكر هذا إنما يأخذه من كتب أهل الكتاب، وهى مما لا يصدق ولا يكذب ولا يعتمد عليها بمجرد، وأما إذا صح حديث في ذلك فعلى الرأس والعين.

(٢) زيادة من ج، ط، أ، و.

(١) فى ج: «كيف يكون».

(٣) فى ج: «والنجاسة».

(٤) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٥٦٩) من حديث بريدة رضى الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن بشار قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم حرم بيت الله وأمنه، وإنى حرمت المدينة ما بين لابتيها، فلا يُصادُ صيدها ولا يقطعُ عضاهها»^(١). وهكذا رواه النسائي، عن محمد بن بشار، عن بُندار، به^(٢).

وأخرجه مسلم، عن أبي بكر بن أبي شيبة، وعمرو الناقد، كلاهما عن أبي أحمد الزبيري، عن سفيان الثوري^(٣).

وقال ابن جرير - أيضاً -: حدثنا أبو كُريب وأبو السائب قالا: حدثنا ابن إدريس. وحدثنا أبوكريب، حدثنا عبد الرحيم الرازي، قالا جميعاً: سمعنا أشعث، عن نافع، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم كان عبد الله وخليه، وإنى عبدُ الله ورسوله. وإن إبراهيم حرم مكة، وإنى حرمت المدينة ما بين لابتيها، عضاهها وصيدها، لا يحمل فيها سلاح لقتال، ولا يقطع منها شجرة إلا لعلف بعير»^(٤).

وهذه الطريق غريبة، ليست في شيء من الكتب الستة، وأصل الحديث في صحيح مسلم من وجه آخر، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: كان الناس إذا رأوا أول الثمر، جاؤوا به إلى رسول الله ﷺ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال: «اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مُدُنَا. اللهم إن إبراهيمَ عبدك وخليك ونيبك، وإنى عبدك ونيبك. وإنه دعاك لمكة، وإنى أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة، ومثله معه». ثم يدعو أصغرَ وليد له، فيعطيه ذلك الثمر. وفي لفظ: «بركة مع بركة». ثم يعطيه أصغر من يحضره من الولدان. لفظ مسلم^(٥).

ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كُريب، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا بكر بن مضر، عن ابن الهاد، عن أبي بكر بن محمد، عن عبد الله بن عمرو بن عثمان، عن رافع بن خديج، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة، وإنى أحرم ما بين لابتيها».

انفرد بإخراجه مسلم، فرواه عن قتيبة، عن بكر بن مضر، به^(٦). ولفظه كلفظه سواء. وفي

(١) تفسير الطبري (٣/ ٤٨)، واللابتان: هما الحرتان بجانب المدينة، والعضاة: كل شجر عظيم له شوك، وقيل: العظيم من الشجر مطلقاً.

(٢) سنن النسائي الكبرى برقم (٤٢٨٤).

(٣) صحيح مسلم برقم (١٣٦٢).

(٤) تفسير الطبري (٣/ ٤٨).

(٥) صحيح مسلم برقم (١٣٧٣).

(٦) تفسير الطبري (٣/ ٤٩).

الصحيحين عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ لأبى طلحة: «التمس لى غلاماً من غلمانكم يخدمنى». فخرج بى أبو طلحة يردفنى وراءه، فكنت أخدم رسول الله ﷺ كلما نزل. وقال فى الحديث: ثم أقبلَ حتى إذا بدا له أحد قال: «هذا جبل يُحبُّنا ونحبه». فلما أشرف على المدينة قال: «اللهم إنى أحرم ما بين جبلَيْها، مثلما حرم به إبراهيم مكة، اللهم بارك لهم فى مُدَّهم وصاعهم». وفى لفظ لهما: «اللهم بارك لهم فى مكيالهم، وبارك لهم فى صاعهم، وبارك لهم فى مدَّهم». زاد البخارى: يعنى: أهل المدينة^(١).

ولهما أيضاً عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم اجعل بالمدينة ضِعْفَى ما جعلت بمكة من البركة»^(٢).

وعن عبد الله بن زيد بن عاصم، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها، وحرَّمتُ^(٣) المدينة كما حرم إبراهيم مكة، ودعوت^(٤) لها فى مداها وصاعها»^(٥) مثل ما دعا إبراهيم لمكة.

رواه البخارى وهذا لفظه^(٦)، ومسلم ولفظه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها وإنى حرَّمتُ المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وإنى دعوت لها فى صاعها ومداها بمثل ما دعا إبراهيم لأهل مكة»^(٧).

وعن أبى سعيد، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «اللهم إنَّ إبراهيم حرَّم مكة فجعلها حراماً، وإنى حرمت المدينة حراماً ما بين مأزميها، لا يهراق فيها دم، ولا يحمل فيها سلاح لقتال، ولا يخبط فيها شجرة إلا لعلف. اللهم بارك لنا فى مدينتنا، اللهم بارك لنا فى صاعنا، اللهم بارك لنا فى مُدَّننا، اللهم اجعل مع البركة بركتين». الحديث رواه مسلم^(٨).

والأحاديث فى تحريم المدينة كثيرة، وإنما أوردنا منها ما هو متعلق بتحريم إبراهيم، عليه السلام، لمكة، لما فى ذلك فى مطابقة الآية الكريمة.

[وَتَمَسَّكَ بِهَا مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنْ تَحْرِمَ مَكَّةَ إِنَّمَا كَانَ عَلَى لِسَانِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، وَقِيلَ: إِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ مِنْذُ خُلِقَتْ مَعَ الْأَرْضِ وَهَذَا أَظْهَرَ وَأَقْوَى]^(٩).

وقد وردت أحاديث أخرُ تدلُّ على أن الله تعالى حرم مكة قبل خلق السموات والأرض، كما

(١) صحيح مسلم برقم (١٣٦١).

(٢) صحيح البخارى برقم (١٨٨٥) وصحيح مسلم برقم (١٣٦٩).

(٣) فى ج، ط: «وإنى حرمت».

(٤) فى ج، ط: «صاعها ومداها».

(٥) صحيح البخارى برقم (٢١٢٩).

(٦) صحيح مسلم برقم (١٣٦٠).

(٧) صحيح مسلم برقم (١٣٧٤).

(٨) زيادة من ج، ط، أ.

(٩) فى ج، ط: «وإنى دعوت».

جاء في الصحيحين، عن عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة. وإنه لم يُحَل القتال فيه لأحد قبلى، ولم يحل لى إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة. لا يُعَصَد شوكه ولا ينفر صيده، ولا تُلْتَقَط لُقْطَتُهُ إلا من عرفها، ولا يختلى خلأها». فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر فإنه لقينهم وليوتهم. فقال: «إلا الإذخر» وهذا لفظ مسلم^(١). ولهما عن أبى هريرة نحو من ذلك^(٢).

ثم قال البخارى بعد ذلك: قال^(٣) أبان بن صالح، عن الحسن بن مسلم، عن صفية بنت شيبة: سمعت النبى ﷺ، مثله^(٤).

وهذا الذى علقه البخارى رواه الإمام أبو عبد الله بن ماجه، عن محمد بن عبد الله بن نمير، عن يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، عن أبان بن صالح، عن الحسن بن مسلم بن يناق، عن صفية بنت شيبة، قالت: سمعت النبى ﷺ يخطب عام الفتح، فقال: «يا أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام إلى يوم القيامة، لا يُعَصَد شجرها ولا يُنْفَر صيدها، ولا يأخذ لُقْطَتَهَا إلا مُنْشِدٌ». فقال العباس: إلا الإذخر؛ فإنه للبيوت والقبور. فقال رسول الله ﷺ: «إلا الإذخر»^(٥).

وعن أبى شريح العدوى أنه قال لعمر بن سعيد - وهو يبعث البعوث إلى مكة -: ائذن لى - أيها الأمير - أن أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح، سَمِعْتَهُ أَذْنَاى ووعاه قلبى، وأبصرته عيناى حين تكَلَّم به، إنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعصدها شجرة، فإن أحد ترَخَّصَ بقتال رسول الله ﷺ، فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم. وإنما أذن لى فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب». فقل لآبى شريح: ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يعيد عاصياً، ولا فاراً بدم، ولا فاراً بخربة.

رواه البخارى ومسلم، وهذا لفظه^(٦).

فإذا علم هذا فلا منافاة بين هذه الأحاديث الدالة على أن الله حرم مكة يوم خلق السموات

(١) صحيح البخارى برقم (١٨٣٤، ١٥٨٧، ٣١٨٩، ٣٠٧٧) وصحيح مسلم برقم (١٣٥٣).

(٢) صحيح البخارى برقم (١١٢، ٦٨٨٠) وصحيح مسلم برقم (١٣٥٥).

(٣) فى ج، ط: «وقال».

(٤) صحيح البخارى برقم (١٣٤٩).

(٥) سنن ابن ماجه برقم (٣١٠٩).

(٦) صحيح البخارى برقم (١٨٣٢) وصحيح مسلم برقم (١٣٥٤).

والأرض، وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم، عليه السلام، حرّمها؛ لأن إبراهيم بَلَغَ عن الله حكمه فيها وتحريمه إياها، وأنها لم تزل بلداً حراماً عند الله قبل بناء إبراهيم، عليه السلام، لها، كما أنه قد كان رسول الله ﷺ مكتوباً عند الله خاتم النبيين، وإن آدم لم تجدل في طينته، ومع هذا قال إبراهيم، عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ الآية. وقد أجاب الله دعاءه بما سبق في علمه وقدره. ولهذا جاء في الحديث أنهم قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن بدء أمرك. فقال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى ابن مريم، ورأت أمي كأنه^(١) خرج منها نور أضاءت له قصور الشام».

أى: أخبرنا عن بدء ظهور أمرك. كما سيأتى قريباً، إن شاء الله.

وأما مسألة تفضيل مكة على المدينة، كما هو قول الجمهور، أو المدينة على مكة، كما هو مذهب مالك وأتباعه، فتذكر في موضع آخر بأدلتها، إن شاء الله، وبه الثقة.

وقوله: تعالى إخباراً عن الخليل أنه قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ أى: من الخوف، لا يرعب أهله، وقد فعل الله ذلك شرعاً وقدرًا. كقوله تعالى^(٢): ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وقوله ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَفَتِ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] إلى غير ذلك من الآيات. وقد تقدمت الأحاديث في تحريم القتال فيها. وفي صحيح مسلم عن جابر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح»^(٣). وقال في هذه السورة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ أى: اجعل هذه البقعة بلداً آمناً، وناسب هذا؛ لأنه قبل بناء الكعبة. وقال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥] وناسب هذا هناك لأنه، والله أعلم، كأنه وقع دعاء ثانياً^(٤) بعد بناء البيت واستقرار أهله به، وبعد مولد إسحاق الذى هو أصغر سنًا من إسماعيل بثلاث عشرة سنة؛ ولهذا قال فى آخر الدعاء: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

قال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ قال: هو قول الله تعالى. وهذا قول مجاهد وعكرمة وهو الذى صوبه ابن جرير، رحمه الله تعالى: قال: وقرأ آخرون: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ فجعلوا ذلك من تمام دعاء إبراهيم، كما رواه أبو جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية قال: كان ابن عباس يقول: ذلك قول إبراهيم، يسأل ربه أن من كفر فأمتعته قليلاً.

(١) فى ج: «كأنها». (٢) فى ج: «كما قال الله تعالى»، وفى ط: «لقوله تعالى».

(٣) صحيح مسلم برقم (١٣٥٦).

(٤) فى ج، ط، أ: «دعاء مرة ثانية».

وقال أبو جعفر، عن ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ يقول: ومن كفر فارزقه أيضاً ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

وقال محمد بن إسحاق: لما عزل إبراهيم، عليه السلام، الدعوة عمن أبى الله أن يجعل له الولاية - انقطاعاً إلى الله ومحبه، وفراقاً لمن خالف أمره، وإن كانوا من ذريته، حين عرف أنه كائن منهم أنه ظالم ألا يناله عهده، بخبر الله له بذلك - قال الله: ومن كفر فإنني أرزق البر والفاجر وأمتعته قليلاً.

وقال حاتم بن إسماعيل عن حميد الخراط، عن عمار الدهني، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ قال ابن عباس: كان إبراهيم يحجرها على المؤمنين دون الناس، فأنزل الله ومن كفر أيضاً أرزقهم كما أرزق المؤمنين أخلق خلقاً لا أرزقهم؟! أمتعهم قليلاً، ثم اضطهرهم إلى عذاب النار وبئس المصير. ثم قرأ ابن عباس: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]. رواه ابن مردويه. وروى عن عكرمة ومجاهد نحو ذلك أيضاً. وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلَحُونَ. مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٣، ٢٤]، وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ. وَلَبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكَوَّنُونَ. وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعٌ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أى: ثم ألجئه بعد متاعه في الدنيا وبسطنا عليه من ظلها إلى عذاب النار وبئس المصير. ومعناه: أن الله تعالى ينظرهم ويمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كقوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ أُمَلِّتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨]، وفي الصحيحين: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله؛ إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيه»^(١)، وفي الصحيح أيضاً: «إن الله ليملى^(٢) للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته». ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾^(٣) [هود: ١٠٢].

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ

(١) سبق تخريج هذا الحديث قريباً.

(٢) في ج، ط: «يملى».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٦) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٣) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه.

الرَّحِيمُ: فالقواعد: جمع قاعدة، وهى السارية والأساس، يقول تعالى: واذكر - يا محمد - لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، البيت، ورفعهما القواعد منه، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، فهما فى عمل صالح، وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما، كما روى ابن أبى حاتم من حديث محمد بن يزيد بن خنيس المكي، عن وهيب بن الورد: أنه قرأ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ ثم يبكى ويقول: يا خليل الرحمن، ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مُشْفِقٌ أَنْ لَا يَتَقَبَّلَ مِنْكَ. وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين المخلصين^(١) فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ أى: يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، أى: خائفة ألا يتقبل منهم. كما جاء به الحديث الصحيح، عن عائشة، عن رسول الله ﷺ كما سيأتى فى موضعه.

وقال بعض المفسرين: الذى كان يرفع القواعد هو إبراهيم، والداعى إسماعيل. والصحيح أنهما كانا يرفعان ويقولان، كما سيأتى بيانه.

وقد روى البخارى هاهنا حديثاً سنورده ثم نُتبعه بآثار متعلقة بذلك. قال البخارى، رحمه الله:

حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن أيوب السخيتانى^(٢)، وكثير بن كثير بن المطلب بن أبى وداعة - يزيد أحدهما على الآخر - عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: أول ما^(٣) اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، عليهما^(٤) السلام. اتخذت منطقاً ليعفى أثرها على سارة. ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل، عليهما السلام، وهى ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم، عليه السلام، منطلقاً. فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شىء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت^(٥): الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذاً لا يضيعنا. ثم رجعت. فانطلق إبراهيم، عليه السلام، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات، ورفع يديه، قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، عليهما السلام، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ماء السقاء^(٧) عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى -

(١) فى أ، و: «المخلص».

(٢) فى ج: «عليه».

(٣) فى ج، ط: «رب» وهو خطأ.

(٤) فى أ، و: «الخلص».

(٥) فى ج: «أول من».

(٦) فى أ: «فقلت له».

(٧) فى أ، و: «نفد ما فى السقاء».

أو قال: يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها^(١)، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً. فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرفَ درعها، ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى. ثم أتت المروة، فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً. ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما».

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه، تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضاً. فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غوث فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه - أو قال: بجناحه - حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه، وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً».

قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافى الضيعة؛ فإن هاهنا بيتاً لله، عز وجل، يبنى هذا الغلام وأبوه، وإن الله، عز وجل، لا يضيع أهله. وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالراية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم - أو أهل بيت من جرهم - مقبلين من طريق كداء. فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على الماء، لنعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء. فأرسلوا جرياً أو جريين، فإذا هم بالماء. فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا. قال: وأم إسماعيل عند الماء. فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء. قالوا: نعم.

قال ابن عباس^(٢): فقال النبي ﷺ: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس. فنزلوا، وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم. حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام، وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجته امرأة منهم. وماتت أم إسماعيل، عليهما^(٣) السلام، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل ليطالع تركته. فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه. فقالت: خرج يبتغى لنا. ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشر، نحن في ضيق وشدة. وشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام، وقولى له: يغير عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل، عليه السلام، كأنه أنس شيئاً. فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسأل^(٤) عنك، فأخبرته، وسألنى كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا فى جهد وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرنى أن أقرأ عليك السلام، ويقول^(٥): «غير عتبة بابك». قال: ذاك أبى. وقد أمرنى أن أفارقك، فالحقى بأهلك. فطلّقها وتزوج منهم بأخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده. فدخل على امرأته، فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغى لنا. قال: كيف أنتم؟

(٢) فى ط: «عبد الله بن عباس».

(٤) فى ج، ط: «فسألنا».

(١) فى ج: «إليها».

(٣) فى ج، ط: «عليها».

(٥) فى أ: «يقول لك».

وسألها عن عيشهم وهَيْئَتِهِمْ. فقال: نحن بخير وسعة. وأثنت على الله، عز وجل. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شربكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم فى اللحم والماء. قال النبى ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حَب، ولو كان لهم، لدعا لهم فيه. قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه». قال: «فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام، ومريه يُثَبِّتَ عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل، عليه السلام، قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه^(١)، فسألنى عنك، فأخبرته، فسألنى: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير. قال: فأوصاك بشىء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبى، وأنت العتبة، أمرنى أن أمسكك. ثم لَبَثَ عنهم ما شاء الله، عز وجل، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يَبْرِى نَبْلًا^(٢) له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الولد بالوالد، والوالد بالولد. ثم قال: يا إسماعيل، إن الله أمرنى بأمر. قال: فاصنع ما أمرك ربك، عز وجل. قال: وتعينينى؟ قال: وأعينك. قال: فإن الله أمرنى أن أبني ههنا بيتاً - وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها - قال: فعند ذلك رَفَعَا القواعد من البيت فجعل^(٣) إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبنى، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٤)، قال: «فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾»^(٥).

[ورواه عبد بن حميد عن عبد الرزاق به مطولاً]^(٥).

ورواه ابن أبى حاتم، عن أبى عبد الله محمد بن حماد الظهرانى. وابن جرير، عن أحمد بن ثابت الرازى، كلاهما عن عبد الرزاق به مختصراً^(٦).

وقال أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا إسماعيل بن على بن إسماعيل، حدثنا بشر بن موسى، حدثنا أحمد بن محمد الأزرقى، حدثنا مسلم بن خالد الزنجى، عن عبد الملك بن جُرَيْج، عن كثير بن كثير، قال: كنت أنا وعثمان بن أبى سليمان، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حسين فى ناس مع سعيد بن جبير، فى أعلى المسجد ليلاً، فقال سعيد بن جبير: سلونى قبل أن لا ترونى. فسألوه عن المقام. فأنشأ يحدثهم عن ابن عباس، فذكر الحديث بطوله.

ثم قال البخارى: حدثنا عبد الله بن محمد. حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو^(٧)، حدثنا إبراهيم بن نافع، عن كثير بن كثير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان، خرج بإسماعيل وأم إسماعيل، ومعهم شَنَّةٌ فيها ماء، فجعلت أم إسماعيل تشرب من

(١) فى ج: «وأثنت عليه خيراً».

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٣٦٤).

(٥) زيادة من و.

(٦) تفسير ابن أبى حاتم (١) / (٣٨١).

(٧) فى أ: «بن عمير».

(٢) فى ج: «يبنى له بيتاً».

(٣) فى ج: «قال: فجعل».

الشَّئَةِ، فَيَدْرُ لِبْنِهَا عَلَى صَبِيهَا، حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ فَوَضَعَهَا تَحْتَ دُوْحَةٍ، ثُمَّ رَجَعَ إِبْرَاهِيمَ إِلَى أَهْلِهِ، فَاتَّبَعْتَهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، حَتَّى^(١) بَلَغُوا كَدَاءَ نَادَتِهِ^(٢) مِنْ وَرَائِهِ: يَا إِبْرَاهِيمَ، إِلَى مَنْ تَتْرَكُنَا؟ قَالَ: إِلَى اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ. قَالَتْ: رَضِيتُ بِاللَّهِ. قَالَ: فَارْجَعَتِ، فَجَعَلَتْ تَشْرَبُ مِنَ الشَّئَةِ، وَيَدْرُ لِبْنِهَا عَلَى صَبِيهَا حَتَّى لَمَّا فَنَى الْمَاءَ قَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ لَعَلَى أَحْسَ أَحَدًا. قَالَ: فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتْ الصِّفَا، فَنَظَرَتْ وَنَظَرَتْ هَلْ تَحْسُ أَحَدًا، فَلَمْ تَحْسُ أَحَدًا. فَلَمَّا بَلَغَتْ الْوَادِي سَعَتْ^(٣) حَتَّى أَتَتْ الْمِرْوَةَ، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ أَشْوَاطًا ثُمَّ قَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلْتُ، تَعْنِي الصَّبِيَّ، فَذَهَبَتْ فَنَظَرَتْ فَإِذَا هُوَ عَلَى حَالِهِ كَأَنَّهُ يَنْشَغُ لِلْمَوْتِ، فَلَمْ تَقْرَأْهَا نَفْسَهَا، فَقَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ لَعَلَى أَحْسَ أَحَدًا. قَالَ: فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتْ الصِّفَا، فَنَظَرَتْ وَنَظَرَتْ فَلَمْ تَحْسُ أَحَدًا، حَتَّى أَتَمَّتْ سَبْعًا، ثُمَّ قَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلْتُ، فَإِذَا هِيَ بِصَوْتٍ، فَقَالَتْ: أَغْثُ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْرٌ. فَإِذَا جَبْرِيلُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: فَقَالَ بِعَقْبِهِ هَكَذَا، وَغَمَزَ عَقْبَهُ عَلَى الْأَرْضِ. قَالَ: فَانْبَثَقَ الْمَاءُ، فَدَهَشَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَجَعَلَتْ تَحْفَرُ.

قَالَ: فَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ تَرَكْتَهُ لَكَانَ الْمَاءُ ظَاهِرًا^(٤)».

قَالَ: فَجَعَلَتْ تَشْرَبُ مِنَ الْمَاءِ وَيَدْرُ لِبْنِهَا عَلَى صَبِيهَا.

قَالَ: فَمَرَّ نَاسٌ مِنْ جُرْهُمَ بِيْطْنِ الْوَادِي، فَإِذَا هُمْ بِطَيْرٍ، كَأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا ذَلِكَ، وَقَالُوا: مَا يَكُونُ الطَّيْرُ إِلَّا عَلَى مَاءٍ فَبِعَثُوا رَسُولَهُمْ فَنَظَرُوا، فَإِذَا هُوَ بِالْمَاءِ. فَأَتَاهُمْ فَأَخْبَرَهُمْ. فَأَتُوا إِلَيْهَا فَقَالُوا: يَا أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، أَتَأْذِنِينَ لَنَا أَنْ نَكُونَ مَعَكَ - أَوْ نَسْكُنَ مَعَكَ؟ - فَبَلَغَ ابْنُهَا وَنَكَحَ فِيهِمْ^(٥) امْرَأَةً.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ بَدَأَ لِإِبْرَاهِيمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٦)، فَقَالَ لِأَهْلِهِ: إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرَكْتِي. قَالَ: فَجَاءَ فَسَلِمَ، فَقَالَ: أَيْنَ إِسْمَاعِيلُ؟ قَالَتْ امْرَأَتُهُ: ذَهَبَ يَصِيدُ. قَالَ: قَوْلِي لَهُ إِذَا جَاءَ: غَيْرَ عَتَبَةٍ بَيْتِكَ. فَلَمَّا جَاءَ أَخْبَرَتْهُ، قَالَ: أَنْتَ ذَاكَ، فَادْهَبِي إِلَى أَهْلِكَ.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ بَدَأَ لِإِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ: إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرَكْتِي. قَالَ: فَجَاءَ فَقَالَ: أَيْنَ إِسْمَاعِيلُ؟ فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ: ذَهَبَ يَصِيدُ. فَقَالَتْ: أَلَا تَنْزِلُ فَتَطْعَمُ وَتَشْرَبُ؟ فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ وَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتْ: طَعَامُنَا اللَّحْمُ، وَشَرَابُنَا الْمَاءُ. قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ.

قَالَ: فَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بَرَكَةٌ بِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ».

قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ بَدَأَ لِإِبْرَاهِيمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ لِأَهْلِهِ: إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرَكْتِي. فَجَاءَ فَوَافَقَ إِسْمَاعِيلَ مِنْ وَرَاءِ زَمْزَمٍ يَصْلُحُ نَبْلًا لَهُ^(٧). فَقَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنْ رَبِّكَ، عَزَّ وَجَلَّ، أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ لَهُ بَيْتًا. فَقَالَ: أَطْعَمْ رَبِّكَ، عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ: إِنَّهُ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ تَعِينَنِي عَلَيْهِ؟ فَقَالَ: إِذَنْ أَفْعَلْ - أَوْ كَمَا قَالَ - قَالَ: فَقَامَا^(٨)، [قَالَ]^(٩): فَجَعَلَ إِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، وَإِسْمَاعِيلُ يَنَاولُهُ الْحِجَارَةَ، وَيَقُولَانِ: «رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ

(٢) فِي ج: «سَأَلْتَهُ».

(٤) فِي ج: «ظَاهِرًا».

(٦) فِي ج، أ: «عَلَيْهِ السَّلَامُ».

(٨) فِي ج، ط: «فَقَامَا».

(٩) زِيَادَةٌ مِنْ ج، ط.

(١) فِي ج، ط: «حَتَّى لَمَّا».

(٣) فِي ج: «وَسَعَتْ».

(٥) فِي ج: «مِنْهُمْ».

(٧) فِي ج: «يَصْلُحُ بَيْتًا لَهُ».

الْعَلِيمِ». قال: حتى ارتفع البناء وضعف الشيخ عن نقل الحجارة. فقام على حجر المقام، فجعل يناوله الحجارة ويقولان: «رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

هكذا^(١) رواه من هذين الوجهين في كتاب الأنبياء^(٢).

والعجب أن الحافظ أبا عبد الله الحاكم رواه في كتابه المستدرک، عن أبي العباس الأصم، عن محمد بن سنان القزّاز، عن أبي علي عبيد الله بن عبد المجيد الحنفی، عن إبراهيم بن نافع، به. وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. كذا قال. وقد رواه البخاري كما ترى، من حديث إبراهيم بن نافع، كأن فيه اقتصاراً، فإنه لم يذكر فيه [شأن]^(٣) الذبح. وقد جاء في الصحيح، أن قرني الكباش كانا معلقين بالكعبة، وقد جاء أن إبراهيم، عليه السلام، كان يزور أهله بمكة على البراق سريعاً^(٤)، ثم يعود إلى أهله بالبلاد^(٥) المقدسة، والله أعلم. والحديث - والله أعلم - إنما فيه - مرفوع - أماكن صرح بها ابن عباس، عن النبي ﷺ.

وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في هذا السياق ما يخالف بعض هذا، كما قال ابن جرير:

حدثنا محمد بن بشار، ومحمد بن المثنى قالا: حدثنا مؤمل، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن حارث بن مضرب، عن علي بن أبي طالب، قال: لما أمر إبراهيم ببناء البيت، خرج معه إسماعيل وهاجر. قال: فلما قدم مكة رأى علي رأسه في موضع البيت مثل الغمامة، فيه مثل الرأس. فكلمه، قال: يا إبراهيم، ابن علي ظلي - أو قال علي قدرى - ولا تزد ولا تنقص: فلما بنى خرج، وخلف إسماعيل وهاجر، فقالت هاجر: يا إبراهيم، إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله. قالت: انطلق، فإنه لا يضيعنا. قال: فعطش إسماعيل عطشاً شديداً، قال: فصعدت هاجر إلى الصفا فنظرت فلم تر شيئاً، حتى أتت المروة فلم تر شيئاً، ثم رجعت إلى الصفا فنظرت فلم تر شيئاً، حتى أتت المروة فلم تر شيئاً، ثم رجعت إلى الصفا فنظرت فلم تر شيئاً، حتى فعلت ذلك سبع مرات، فقالت: يا إسماعيل، مت حيث لا أراك. فأتته وهو يفحص برجله من العطش. فناداه جبريل فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا هاجر أم ولد إبراهيم. قال: فإلى من وكلكما؟ قالت: وكلنا إلى الله. قال: وكلكما إلى كاف. قال: ففحص الغلام الأرض بأصبعه، فنبعت زمزم. فجعلت تحبس الماء فقال: دعيه فإنها رواء^(٦).

ففي هذا السياق أنه بنى البيت قبل أن يفارقهما، وقد يحتمل - إن كان محفوظاً - أن يكون أولاً

(١) في ط: «وهكذا».

(٢) صحيح البخاري برقم (٣٣٦٥).

(٣) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٤) في ج: «ثم يعود لأهله إلى البلاد».

(٥) تفسير الطبري (٦٩ / ٣).

(٤) في ج: «بمكة سريعاً على البراق».

وضع له حوطاً وتحجيراً، لا أنه بناه إلى أعلاه، حتى كبر إسماعيل فبنياه معاً، كما قال الله تعالى.

ثم قال ابن جرير: حدثنا هناد بن السرى، حدثنا أبو الأحوص، عن سماك، عن خالد بن عرعر، أن رجلاً قام إلى على، رضى الله عنه، فقال: ألا تخبرنى عن البيت، أهو أول بيت وضع فى الأرض؟ قال: لا، ولكنه أول بيت وضع فيه البركة^(١) مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً، وإن شئت أنبأتك كيف بنى: إن الله أوحى إلى إبراهيم أن ابن لى بيتاً فى الأرض، قال: فضاق إبراهيم بذلك ذرعاً فأرسل الله السكينة - وهى ريح خجوج، ولها رأسان - فأتبع أحدهما صاحبه، حتى انتهت إلى مكة، فتطوت^(٢) على موضع البيت كطى الحجة، وأمر إبراهيم أن يبنى حيث تستقر السكينة. فبنى إبراهيم وبقي حجر، فذهب الغلام يبنى شيئاً. فقال إبراهيم: أبغنى حجراً كما أمرك. قال: فانطلق الغلام يلتمس له حجراً، فأتاه به، فوجده قد ركب الحجر الأسود فى مكانه. فقال: يا أبه، من أتاك بهذا الحجر؟ فقال: أتانى به من لن يتكل^(٣) على بنائك، جاء به جبريل، عليه السلام، من السماء. فأتاه^(٤).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن بشر بن عاصم، عن سعيد بن المسيب، عن كعب الأحبار، قال: كان البيت غشاء على الماء قبل أن يخلق الله الأرض بأربعين عاماً، ومنه دحيت الأرض.

قال سعيد: وحدثنا على بن أبى طالب: أن إبراهيم أقبل من أرمينية، ومعه السكينة تدله على تبوء^(٥) البيت كما تتبوء العنكبوت بيتاً، قال: فكشفت عن أحجار لا يطيق^(٦) الحجر إلا ثلاثون رجلاً. قلت^(٧): يا أبا محمد، فإن الله يقول: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ قال: كان ذلك بعد.

وقال السدى: إن الله، عز وجل، أمر إبراهيم أن يبنى [البيت]^(٨) هو وإسماعيل: ابنيا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود، فانطلق إبراهيم، عليه السلام، حتى أتى مكة، فقام هو وإسماعيل، وأخذوا المعاول لا يدرى أن أين البيت؟ فبعث الله ريحاً، يقال لها: ريح الخجوج، لها جناحان ورأس فى صورة حية، فكشفت لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول، واتبعاها بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس. فذلك حين يقول [الله]^(٩) تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]. فلما بنى القواعد فبلغا مكان الركن. قال إبراهيم لإسماعيل: يا بنى، اطلب لى حجراً حسناً أضعه هاهنا. قال: يا أبت، إنى كسلان لغب.

(١) فى ج، ط، أ، و: «فى البركة». (٢) فى أ: «فطرت».

(٣) فى ج: «من لا يتكل».

(٤) تفسير الطبرى (٣/ ٧٠).

(٥) فى أ: «حتى بنوا».

(٦) فى ج، ط: «فقلت».

(٦) فى ط: «ولا يطيق».

(٩) زيادة من ج.

(٨) زيادة من ج، ط، أ، و.

قال: عَلَىٰ بِذَلِكَ فَانْطَلِقْ فَطَلَبُ^(١) له حجراً، فجاءه بحجر فلم يرضه، فقال ائتني بحجر أحسن من هذا، فانطلق يطلب له حجراً، وجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند، وكان أبيض، ياقوتة بيضاء مثل الثَّغَامَةِ، وكان آدم هبط به من الجنة فاسود من خطايا الناس، فجاءه إسماعيل بحجر فوجده عند الركن، فقال: يا أبة، من جاءك بهذا؟ قال: جاء به من هو أنشط منك. فبينا وهما يدعوان الكلمات التي ابتلى [بهن]^(٢) إبراهيم ربه، فقال: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وفى هذا السياق ما يدل على أن قواعد البيت كانت مبنية قبل إبراهيم. وإنما هدى إبراهيم إليها وبوئى لها. وقد ذهب إلى ذلك^(٣) ذاهبون، كما قال الإمام عبد الرزاق^(٤): أخبرنا معمر، عن أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ قال^(٥): القواعد التي كانت قواعد البيت قبل ذلك^(٦).

وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا هشام بن حسان، عن سوار - ختن عطاء - عن عطاء بن أبي رباح، قال: لما أهبط الله آدم من الجنة، كانت رجلاه في الأرض ورأسه في السماء يسمع كلام أهل السماء ودعاءهم، يأنس إليهم، فهابته^(٧) الملائكة، حتى شكت إلى الله في دعائها وفي صلاتها. فخفضه الله إلى الأرض، فلما فقد ما كان يسمع منهم استوحش حتى شكا ذلك إلى الله في دعائه وفي صلاته. فوجه إلى مكة، فكان موضع قدمه قرية، وخطوه مفازة، حتى انتهى إلى مكة، وأنزل الله ياقوته من ياقوت الجنة، فكانت على موضع البيت الآن. فلم يزل يطوف به حتى أنزل الله الطوفان، فرفعت تلك الياقوتة، حتى بعث الله إبراهيم، عليه السلام، فبناه. وذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾^(٨) [الحج: ٢٦].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج، عن عطاء، قال: قال آدم: إني لا أسمع أصوات الملائكة؟! قال: بخطيئتك، ولكن أهبط إلى الأرض، فابن لي بيتاً ثم احفف به، كما رأيت الملائكة تحف بييتي الذي في السماء. فيزعم الناس أنه بناه من خمسة أجبل: من حراء. وطور زيتا، وطور سيناء، وجبل لبنان والجدوى. وكان ربه من حراء. فكان هذا بناء آدم، حتى بناه إبراهيم، عليه السلام، بعد^(٩).

وهذا صحيح إلى عطاء، ولكن في بعضه نكارة، والله أعلم.

وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا معمر، عن قتادة، قال: وضع الله البيت مع آدم حين أهبط الله آدم إلى الأرض، وكان مهبطه بأرض الهند. وكان رأسه في السماء ورجلاه في الأرض، فكانت

(١) في ج، ط: «يطلب».

(٢) زيادة من جـ.

(٣) في جـ: «إلى هذا».

(٤) في ط: «عبد الرزاق أيضاً وأحمد».

(٥) في ط: «قالوا».

(٦) تفسير عبد الرزاق (١/ ٧٨).

(٧) في جـ: «فهابت».

(٨) رواه الطبري في تفسيره (٣/ ٥٩) من طريق عبد الرزاق به.

(٩) رواه الطبري في تفسيره (٣/ ٥٧) من طريق عبد الرزاق به.

الملائكة تهابه، فنقص إلى ستين ذراعاً؛ فحزن^(١) إذ فقد أصوات الملائكة وتسييحهم. فشكا ذلك إلى الله، عز وجل، فقال الله: يا آدم، إني قد أهبطت لك بيتاً تطوف به كما يطاف حول عرشي، وتصلى عنده كما يصلى عند عرشي، فانطلق إليه آدم، فخرج ومُدَّ له في خطوه، فكان بين كل خطوتين مفارقة. فلم تزل تلك المفارقة^(٢) بعد ذلك. فأتى آدم البيت فطاف به، ومن بعده من الأنبياء^(٣).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد^(٤)، حدثنا يعقوب القُمي، عن حفص بن حميد، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: وضع الله البيت على أركان الماء، على أربعة أركان، قبل أن تُخلَق الدنيا بألفي عام، ثم دحيت الأرض من تحت البيت.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني [عبد الله]^(٥) بن أبي نَجِيج، عن مجاهد وغيره من أهل العلم: أن الله لما بَوَّأ إبراهيم مكان البيت خرج إليه من الشام، وخرج معه بإسماعيل وبأمه هاجر، وإسماعيل طفل صغير يرضع، وحملوا - فيما حدثني - على البراق، ومعه جبريل يدله على موضع البيت ومعالم الحرم. وخرج معه جبريل، فكان لا يمر بقرية إلا قال: أبهذه أمرت يا جبريل؟ فيقول جبريل: امضه. حتى قدم به مكة، وهي إذ ذاك عضاة سَلَمَ وَسَمَرُ، وبها أناس يقال لهم: «العماليق» خارج مكة وما حولها. والبيت يومئذ ربوة حمراء مدرة، فقال إبراهيم لجبريل: أها هنا أمرت أن أضعهما؟ قال: نعم. فعمد بهما إلى موضع الحجر فأنزلهما فيه، وأمر هاجر أم إسماعيل أن تتخذ فيه عريشاً، فقال: ﴿رَبَّنَا^(٦) إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴿إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا هشام بن حسان، أخبرني حميد، عن مجاهد، قال: خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً بألفي سنة، وأركانه في الأرض السابعة^(٧).

وكذا قال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: القواعد في الأرض السابعة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن رافع، أخبرنا^(٨) عبد الوهاب بن معاوية، عن عبد المؤمن بن خالد، عن علياء بن أحمر: أن ذا القرنين قدم مكة فوجد إبراهيم وإسماعيل بينين قواعد البيت من خمسة أجبل. فقال: مالكما ولأرضي؟ فقال^(٩): نحن عبدان مأموران، أمرنا ببناء هذه الكعبة. قال: فهاتا بالبينة على ما تدعيان. فقامت خمسة أكبش، فقلن: نحن نشهد أن إبراهيم وإسماعيل عبدان مأموران، أمرا ببناء هذه الكعبة. فقال: قد رضيت وسلمت. ثم مضى.

(١) في ج، ط، أ: «فحزن آدم». (٢) في ج، ط: «المفاوز».

(٣) رواه الطبري في تفسيره (٣/ ٥٩) من طريق عبد الرزاق به.

(٤) في ج، ط: «حدثنا أبو حميد». (٥) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٦) في ج، ط، أ، و: «رب» وهو خطأ.

(٧) رواه الطبري في تفسيره (٣/ ٦٢) من طريق عبد الرزاق به.

(٨) في ج، ط: «حدثنا». (٩) في ج، ط، أ، و: «فقالا».

وَذَكَرَ الْأَزْرَقِيُّ فِي تَارِيخِ مَكَّةَ أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ طَافَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِالْبَيْتِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَقَدُّمِ زَمَانِهِ^(١)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ الْآيَةُ: الْقَوَاعِدُ: أُسَاسُهَا وَاحِدُهَا قَاعِدَةٌ. وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ: وَاحِدَتُهَا قَاعِدٌ.

حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مُحَمَّدٍ ابْنَ أَبِي بَكْرٍ أَخْبَرَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ، عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَلَمْ تَرَى أَنَّ قَوْمَكَ حِينَ بَنَوْا الْبَيْتَ^(٢) اقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَرُدُّهَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟ قَالَ: «لَوْلَا حَدَّثَانِ قَوْمَكَ بِالْكَفْرِ». فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: لَئِنْ كَانَتْ عَائِشَةُ سَمِعَتْ هَذَا^(٣) مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَرَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَرَكَ اسْتِلَامَ الرُّكْنَيْنِ اللَّذَيْنِ يَلِيَانِ الْحِجْرَ إِلَّا أَنَّ الْبَيْتَ لَمْ يُتِمَّمْ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٤).

وَقَدْ رَوَاهُ فِي الْحَجِّ عَنِ الْقَعْنَبِيِّ، وَفِي أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يُوسُفَ. وَمُسْلِمٌ عَنْ يَحْيَى ابْنَ يَحْيَى، وَمِنْ حَدِيثِ ابْنِ وَهَبٍ. وَالنَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْقَاسِمِ، كُلُّهُمْ عَنْ مَالِكٍ، بِهِ^(٥).

وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ أَيْضاً مِنْ حَدِيثِ نَافِعٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مُحَمَّدٍ بْنَ أَبِي بَكْرٍ بْنَ أَبِي قُحَافَةَ يُحَدِّثُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ، عَنْ عَائِشَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكَ حَدِيثُوا عَهْدَ بَجَاهِلِيَّةٍ - أَوْ قَالَ: بِكَفْرِ - لَأَنْفَقْتَ كَنْزَ الْكَعْبَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَجَعَلْتَ بَابَهَا بِالْأَرْضِ، وَلَأَدْخَلْتَ فِيهَا الْحِجْرَ»^(٦).

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ الْأَسْوَدِ، قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ الزُّبَيْرِ: كَانَتْ عَائِشَةُ تُسَرُّ إِلَيْكَ حَدِيثاً كَثِيراً، فَمَا حَدَّثْتُكَ فِي الْكَعْبَةِ؟ قَالَ قُلْتُ: قَالَتْ لِي: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا عَائِشَةُ، لَوْلَا قَوْمُكَ حَدِيثُ عَهْدِهِمْ - فَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: بِكَفْرِ - لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ، فَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ: بَاباً يَدْخُلُ مِنْهُ النَّاسُ، وَبَاباً يَخْرُجُونَ». فَفَعَلَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ.

انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ، فَرَوَاهُ هَكَذَا فِي كِتَابِ الْعِلْمِ مِنْ صَحِيحِهِ^(٧).

وَقَالَ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ يَحْيَى، أَخْبَرَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْلَا حَدَاثَةُ عَهْدِ قَوْمِكَ بِالْكَفْرِ لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ وَلَجَعَلْتُهَا عَلَى أُسَاسِ إِبْرَاهِيمَ، فَإِنْ قَرِشَا حِينَ بَنَى الْبَيْتَ^(٨) اسْتَقْصَرْتُ، وَلَجَعَلْتُ لَهَا خَلْفًا».

(١) تَارِيخُ مَكَّةَ (ص ٧٤).

(٢) فِي جَدِّ، ط، أ: «بَنَوْا الْكَعْبَةَ».

(٣) فِي جَدِّ: «سَمِعْتُ ذَلِكَ».

(٤) صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ بِرَقْمٍ (٤٤٨٤).

(٥) صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ بِرَقْمٍ (١٥٨٣)، وَصَحِيحُ مُسْلِمٍ بِرَقْمٍ (١٣٣٣) وَسَنَنُ النَّسَائِيِّ (٥ / ٢١٤).

(٦) صَحِيحُ مُسْلِمٍ بِرَقْمٍ (١٣٣٣).

(٧) صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ بِرَقْمٍ (١٢٦).

(٨) فِي جَدِّ: «بَنَى الْكَعْبَةَ».

قال: وحدثننا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب، قالا: حدثنا ابن نمير، عن هشام بهذا الإسناد. انفرد به مسلم^(١).

قال: وحدثنى محمد بن حاتم، حدثني ابن مهدي، حدثنا سليم بن حيّان، عن سعيد - يعني ابن ميناء - قال: سمعت عبد الله بن الزبير يقول: حدثتني خالتي - يعني عائشة رضي الله عنها - قالت: قال النبي ﷺ: «يا عائشة، لولا قومك حديث عهد^(٢) بـشرك، لهدمت الكعبة، فألزقتها بالأرض، ولجعلت لها بابين: باباً شرقياً، وباباً غربياً، وزدت فيها ستة أذرع من الحجر؛ فإن قريشاً اقتصرتها حيث بنت الكعبة». انفرد به أيضاً^(٣).

ذكر بناء قريش الكعبة بعد إبراهيم الخليل، عليه السلام، بمدد^(٤) طويلة

وقبل مبعث رسول الله ﷺ بخمس سنين

وقد نقل معهم في الحجارة، وله من العمر خمس وثلاثون سنة

صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة:

ولما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة، اجتمعت قريش لبنیان الكعبة، وكانوا يَهُمُّونَ بذلك^(٥) ليسقفوها، ويهابون هدمها، وإنما كانت رَضَماً فوق القامة، فأرادوا رفعها وتسقيفها، وذلك أن نفراً سرقوا كنز الكعبة، وإنما كان يكون في بئر في جَوْفِ الكعبة، وكان الذي وُجِدَ عنده الكنز دويك، مولى بنى مُلَيْح بن عمرو من خزاعة، فقطعت قريش يده. ويزعم الناس أن الذين سرقوه وضعوه عند دويك. وكان البحر قد رَمَى بسفينة إلى جُدَّة، لرجل من تجار الروم، فتحطمت، فأخذوا خشبها فأعدّوه لتسقيفها. وكان بمكة رجل قبطي نجار، فهبأ لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها، وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كانت تَطْرَحُ فيها ما يُهْدَى لها كل يوم، فَتَشْرِقُ^(٦) على جدار الكعبة، وكانت مما يهابون. وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا احزألت وكشّت وفتحت فاهها، فكانوا يهابونها، فبينا هي يوماً تَشْرِقُ على جدار الكعبة، كما كانت تصنع، بعث الله إليها طائراً فاخطفها، فذهب بها. فقالت قريش: إنا لنرجو أن يكون الله قد رَضِيَ ما أردنا، عندنا عامل رفيق، وعندنا خشب، وقد كفانا الله الحية.

فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنیانها، قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن

(١) صحيح مسلم برقم (١٣٣٣).

(٢) في ج: «حديث عهدهم».

(٣) صحيح مسلم برقم (١٣٣٣).

(٤) في ج: «لذلك».

(٥) في ج: «عمدة».

(٦) في ج، ط: «فتشرف».

مخزوم، فتناول من الكعبة حجراً، فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه. فقال: يا معشر قريش، لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيباً، لا يدخل فيها مهر بغي ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس.

قال ابن إسحاق: والناس ينحلون هذا الكلام الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر^(١) بن مخزوم^(٢).

قال: ثم إن قريشا تجزأت الكعبة، فكان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم، وكان ظهر الكعبة لبني جُمَح وسَهَم، وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي، ولبنى أسد بن عبد العزى بن قصي، ولبنى عدى ابن كعب بن لؤى، وهو الخطيم.

ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا^(٣) منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هدمها: فأخذ الموكل ثم قام عليها وهو يقول: اللهم لم ترع، اللهم إنا لا نريد إلا الخير. ثم هدم من ناحية الركنين، فتربص الناس تلك الليلة، وقالوا: ننظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً، ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء فقد رضى الله ما صنعنا. فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عمله، فهدم وهدم الناس معه، حتى إذا انتهى الهدم [بهم]^(٤) إلى الأساس، أساس إبراهيم، عليه السلام، أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة أخذ بعضها بعضاً^(٥).

قال [محمد بن إسحاق]^(٦): فحدثني بعض من يروى الحديث: أن رجلاً من قريش، ممن كان يهدمها، أدخل عتلة بين حجرين منها ليقلع بها أحدهما، فلما تحرك الحجر تنقضت مكة بأسرها، فانتهوا عن ذلك الأساس^(٧).

قال ابن إسحاق: ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها، حتى بلغ البنيان موضع الركن - يعني الحجر الأسود - فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوروا وتخالقوا، وأعدوا للقتال. فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً، ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، فسموا: لعقة الدم. فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً. ثم إنهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا.

فزعم بعض أهل الرواية: أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم - وكان عامئذ أسن

(١) في أ: «الوليد بن المغيرة بن عمر بن عبد الله».

(٢) السيرة النبوية لابن إسحاق (نص رقم ١٠٣) ط، حميد الله، المغرب.

(٣) في ج: «وخافوا». (٤) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٥) السيرة النبوية لابن إسحاق (نص رقم ١٠٥) ط، حميد الله، المغرب.

(٦) زيادة من ج، ط.

(٧) السيرة النبوية لابن إسحاق (نص رقم ١٠٦) ط، حميد الله، المغرب.

قريش كلهم - قال^(١): يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد، يقضى بينكم فيه. ففعلوا، فكان أول داخل رسول الله ﷺ. فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال [رسول الله] ﷺ: «هَلُمَّ إِلَى ثَوْبًا» فأتى به، فأخذ الركن - يعنى الحجر الأسود - فوضعه فيه بيده، ثم قال: «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب»، ثم [قال]^(٣): «ارفعوه جميعاً». ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ﷺ، ثم بنى عليه.

وكانت قريش تسمى رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي: الأمين. فلما فرغوا من البنيان وبنوها على ما أرادوا، قال الزبير بن عبد المطلب، فيما كان من أمر الحية التى كانت قريش تهاب بنيان الكعبة لها:

عجبت لما تصوبت ^(٤) العقاب	إلى الثعبان وهى لها اضطراب
وقد كانت يكون لها كشيخ	وأحياناً يكون لها وثاب
إذا قمنا إلى التأسيس شدت	تُهَيِّبُنَا البناءَ وَقَدْ تُهَابُ
فلما أن خَشِينَا الزَّجَرَ جاءت	عقاب تَتَلَبَّبُ لها انصباب
فضممتها إليها ثم خَلَّتْ	لنا البنيانَ ليس له حجاب
فَقُمْنَا حاشدين إلى بناء	لنا منه القواعدُ والتراب
غداة نُرَفِّعُ التأسيس منه	وليس على مُسَوِّينَا ثياب
أَعَزَّ به المليكُ بنى لُؤى	فليسَ لأصله منهم ذهاب
وقد حَشَدَتْ هُنَاكَ بنو عَدَى	ومرَّةً قد تَقَدَّمَهَا كلاب
فَبَوَّأْنَا المليكَ بذاك عَزَا	وعند الله يُلْتَمَسُ الثواب ^(٥)

قال ابن إسحاق: وكانت الكعبة على عهد النبي ﷺ ثمانية عشر ذراعاً، وكانت تكسى القباطى، ثم كُسِيت بعدُ البرود، وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف.

قلت: ولم تزل على بناء قريش حتى أحرقت^(٦) فى أول إمارة عبد الله بن الزبير بعد سنة ستين. وفى آخر ولاية يزيد بن معاوية، لما حاصروا ابن الزبير، فحينئذ نقضها ابنُ الزبير إلى الأرض وبنها على قواعد إبراهيم، عليه السلام، وأدخل فيها الحجر وجعل لها باباً شرقياً وباباً غربياً ملصقين

(١) فى ج، ط: «فقال». (٢) زيادة من ج.

(٣) زيادة من ط. (٤) فى ط: «صوبت».

(٥) السيرة النبوية لابن إسحاق (نص رقم ١١٦) ط، حميد الله، المغرب.

(٦) فى أ، و: «أحترقت».

بالأرض، كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين، رضى الله عنها، عن رسول الله ﷺ. ولم تزل كذلك مدة إمارته حتى قتله الحجاج، فردها إلى ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مروان له بذلك، كما قال مسلم بن الحجاج فى صحيحه:

حدثنا هناد بن السرى، حدثنا ابن أبى زائدة، أخبرنا ابن أبى سليمان، عن عطاء، قال: لما احترق البيت زمن يزيد بن معاوية حين غزاها أهل الشام، وكان من أمره ما كان، تركه ابن الزبير حتى قدم الناس الموسم يريد أن يجزئهم - أو يحزبهم - على أهل الشام، فلما صدر الناس قال: يا أيها الناس، أشيروا على فى الكعبة، أنقضها ثم أبني بناءها أو أصلح ما وهى منها؟ قال ابن عباس: فإنى^(١) قد فرق لى رأى فيها، أرى أن تصلح ما وهى منها، وتدع بيتاً أسلم الناس عليه^(٢)، وأحجاراً أسلم الناس عليها، وبعث عليها النبى ﷺ. فقال ابن الزبير: لو كان أحدهم احترق بيته ما رضى حتى يجده، فكيف بيت ربكم، عز وجل؛ إني مستخير ربى ثلاثاً ثم عازم على أمرى. فلما مضت ثلاث أجمع رأيه على أن ينقضها. فتحامها الناس أن ينزل بأول الناس يصعد فيه أمر من السماء، حتى صعد رجل، فألقى منه حجارة، فلما لم يره الناس أصابه شيء تابعوا، فنقضوه حتى بلغوا به الأرض. فجعل ابن الزبير أعمدة يستر^(٣) عليها الستور، حتى ارتفع بناؤه. وقال ابن الزبير: إني سمعت عائشة، رضى الله عنها، تقول: إن النبى ﷺ، قال: «لولا أن الناس حديث عهدهم بكفر، وليس عندي من النفقة ما يقوينى على بنائه، لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع، ولجعلت له باباً يدخل الناس منه، وباباً يخرجون منه^(٤)». قال: فأنأجد ما أنفق، ولست أخاف الناس. قال: فزاد فيه خمسة^(٥) أذرع من الحجر، حتى أبدى له أساساً^(٦) نظر الناس إليه فبنى عليه البناء. وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعاً، فلما زاد فيه استقصره فزاد فى طوله عشرة^(٧) أذرع، وجعل له بابين: أحدهما يدخل منه، والآخر يخرج منه. فلما قُتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره بذلك، ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أس نظر إليه العدول من أهل مكة، فكتب إليه عبد الملك: إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير فى شيء، أما ما زاده فى طوله فأقره. وأما ما زاد فيه من الحجر فردّه إلى بنائه، وسد الباب الذى فتحه. فنقضه وأعادّه إلى بنائه^(٨).

وقد رواه النسائى فى سننه، عن هناد، عن يحيى بن أبى زائدة، عن عبد الملك بن أبى سليمان، عن عطاء، عن ابن الزبير، عن عائشة بالمرفوع منه^(٩). ولم يذكر القصة، وقد كانت السنة إقرار ما فعله عبد الله بن الزبير، رضى الله عنه؛ لأنه هو الذى ودّه رسول الله ﷺ. ولكن خشى أن تنكره

(١) فى جـ: «فإنه». (٢) فى جـ، ط: «عليها». (٣) فى جـ، ط: «فستر». (٤) فى جـ: «وباباً يخرج الناس منه». (٥) فى جـ، ط: «خمس». (٦) فى جـ: «أساساً»، وفى أ: «أشياء»، وفى و: «أشأ». (٧) فى جـ: «عشر». (٨) صحيح مسلم برقم (١٣٣٣). (٩) سنن النسائى (٥/ ٢١٨).

قلوب بعض الناس لحدائث عهدهم بالإسلام وقرب عهدهم من الكفر. ولكن خفيت هذه السنة على عبد الملك؛ ولهذا^(١) لما تحقق ذلك عن عائشة أنها روت ذلك عن رسول الله ﷺ، قال: ودنا أنا تركناه وما تولى. كما قال مسلم:

حدثني محمد بن حاتم^(٢)، حدثنا محمد بن بكر^(٣)، أخبرنا ابن جريج، سمعت عبد الله بن عبيد بن عمير والوليد بن عطاء، يحدثان عن الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، قال عبد الله بن عبيد: وقد الحارث بن عبد الله على عبد الملك بن مروان في خلافته، فقال عبد الملك: ما أظن أبا حبيب - يعني ابن الزبير - سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمعه منها. قال الحارث: بلى، أنا سمعته منها. قال: سمعتها تقول ماذا؟ قال: قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن قومك استقصروا من بنيان البيت، ولولا حدائث عهدهم بالشرك أعدت ما تركوا منه، فإن بدا لقومك من بعدى أن يبنوه فهلومي لأريك ما تركوا منه». فأراها قريباً من سبعة^(٤) أذرع^(٥).

هذا حديث عبد الله بن عبيد [بن عمير]^(٦). وزاد عليه الوليد بن عطاء: قال النبي ﷺ: «ولجعلت لها بابين موضوعين في الأرض شرقياً وغربياً، وهل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها؟» قالت: قلت: لا. قال: «تعزراً ألا يدخلها إلا من أرادوا. فكان الرجل إذا هو أراد أن يدخلها، يدعونه حتى^(٧) يرتقى، حتى إذا كاد أن يدخل دفعوه فسقط». قال عبد الملك: فقلت للحارث: أنت سمعتها تقول هذا؟ قال: نعم. قال: فنكت ساعة بعصاه، ثم قال: وددت أني تركت وما تحمّل.

قال مسلم: وحدثناه محمد بن عمرو بن جبلة، حدثنا أبو عاصم (ح) وحدثنا عبد بن حميد، أخبرنا عبد الرزاق، كلاهما عن ابن جريج بهذا الإسناد، مثل حديث ابن^(٨) بكر^(٩).

قال: وحدثني محمد بن حاتم، حدثنا عبد الله بن بكر السهمي، حدثنا حاتم بن أبي صغيرة، عن أبي قزعة أن عبد الملك بن مروان بينما هو يطوف بالبيت إذ قال: قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على أم المؤمنين، يقول: سمعتها تقول: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، لولا حدثان قومك بالكفر لنقضت البيت حتى أزيد فيها^(١٠) من الحجر، فإن قومك قصروا في البناء». فقال الحارث بن عبد الله ابن أبي ربيعة: لا تقل هذا يا أمير المؤمنين، فأنا سمعت أم المؤمنين تحدث هذا. قال: لو كنت سمعته قبل أن أهدمه لتركته على ما بنى ابن الزبير^(١١).

(١) في أ: «ولكن». (٢) في ج: «محمد بن بكر حاتم».

(٣) في أ: «بن بكير». (٤) في ج، ط، أ، و: «سبع».

(٥) صحيح مسلم برقم (١٣٣٣).

(٦) زيادة من و. (٧) في أ، و: «حين».

(٨) في أ: «مثل حديث أبي».

(٩) صحيح مسلم برقم (١٣٣٣).

(١٠) في ج، ط، أ، و: «فيه».

(١١) صحيح مسلم برقم (١٣٣٣).

فهذا الحديث كالمقطوع به إلى عائشة أم المؤمنين، لأنه قد رُوي عنها من طرق صحيحة متعددة عن الأسود بن يزيد، والحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن محمد ابن أبي بكر الصديق، وعروة بن الزبير. فدل هذا على صواب ما فعله ابن الزبير. فلو ترك لكان جيداً.

ولكن بعد ما رجع الأمر إلى هذا الحال، فقد كره بعض العلماء أن يغير عن حاله، كما ذكر عن أمير المؤمنين هارون الرشيد - أو أبيه المهدي -: أنه سأل الإمام مالكا عن هدم الكعبة وردّها إلى ما فعله ابن الزبير. فقال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا تجعل كعبة الله مَلْعَبَةً للملوك، لا يشاء أحد^(١) أن يهدمها إلا هدمها. فترك ذلك الرشيد.

نقله عياض والنواوي، ولا تزال - والله أعلم - هكذا إلى آخر الزمان، إلى أن يخربها ذو السُويقتين من الحبشة، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يُخرب الكعبة ذو السُويقتين من الحبشة». أخرجاه^(٢).

وعن عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «كأنى به أسود أفحج، يقلعها حجراً حجراً». رواه البخاري^(٣).

وقال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: حدثنا أحمد بن عبد الملك الحراني، حدثنا محمد بن سلمة، عن ابن إسحاق، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، رضى الله عنهما^(٤)، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُخرب الكعبة ذو السُويقتين من الحبشة، ويسلبها حليتها»^(٥) ويجردها من كسوتها. ولكأنى أنظر إليه أصيلع أفيدع يضرب عليها بمسحاته ومِعوله^(٦).

الفَدَع: زَيْغٌ بين القدم وعظم الساق.

وهذا - والله أعلم - إنما يكون بعد خروج يأجوج ومأجوج، لما جاء في صحيح^(٧) البخاري عن أبي سعيد الخدري، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لِيُحَجَّنَ الْبَيْتُ وَلِيُعْتَمَرَ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ»^(٨).

وقوله تعالى حكاية لدعاء إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

(١) في أ، و: «لا يشاء الله».

(٢) صحيح البخاري برقم (١٥٩٦) وصحيح مسلم برقم (٢٩٠٩).

(٣) صحيح البخاري برقم (١٥٩٥).

(٤) في ج: «عنه». (٥) في ج: «ويسلبها قال حليتها».

(٦) المسند (٢/ ٢٢٠).

(٧) في ج: «في حديث».

(٨) صحيح البخاري برقم (١٥٩٣).

قال ابن جرير: يعنيان بذلك: وأجعلنا مسلمين^(١) لأمرك، خاضعين لطاعتك، لا نشرك معك في الطاعة أحداً سواك، ولا في العبادة غيرك.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إسماعيل بن رجاء بن حيان الحصني القرشي، حدثنا معقل بن عبيد الله، عن عبد الكريم: ﴿وَأَجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾ قال: مخلصين لك، ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ قال: مخلصه.

وقال أيضاً: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا المقدمي، حدثنا سعيد بن عامر، عن سلام بن أبي مطيع في هذه الآية ﴿وَأَجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ﴾ قال: كانا مسلمين، ولكنهما سألاه الثبات.

وقال عكرمة: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾ قال الله: قد فعلت. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ قال الله: قد فعلت.

وقال السدي: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾: يعنيان العرب.

قال ابن جرير: والصواب أنه يعمُّ العرب وغيرهم؛ لأن من ذرية إبراهيم بنى إسرائيل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

قلت: وهذا الذي قاله ابن جرير لا ينفيه السدي؛ فإن تخصيصهم بذلك لا ينفي من عداهم، والسياق إنما هو في العرب؛ ولهذا قال بعده: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ الآية، والمراد بذلك محمد ﷺ، وقد بعث فيهم كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢] ومع هذا لا ينفي رسالته إلى الأحمر والأسود، لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وغير ذلك من الأدلة القاطعة.

وهذا الدعاء من إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، كما أخبر الله تعالى عن عباده المتقين المؤمنين، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]. وهذا القدر مرغوب فيه شرعاً، فإن من تمام محبة عبادة الله تعالى أن يحب أن يكون من صُلبه من يعبد الله وحده لا شريك له؛ ولهذا لما قال الله تعالى لإبراهيم، عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ وهو قوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. وقد ثبت في صحيح مسلم، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(٢).

(١) في ج، أ: «واجعلنا مسلمين».

(٢) صحيح مسلم برقم (١٦٣١).

﴿وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا﴾: قال ابن جريج، عن عطاء ﴿وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا﴾: أخرجها لنا، عَلَّمْنَاهَا^(١).

وقال مجاهد ﴿وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا﴾: مذابحنا. وروى عن عطاء أيضاً، وقتادة نحو ذلك.

وقال سعيد بن منصور: حدثنا عتّاب بن بشير، عن خُصيف، عن مجاهد، قال: قال إبراهيم: ﴿أَرْنَا مَنَاسِكَنَا﴾ فأتاه جبرائيل، فأتى به البيت، فقال: ارفع القواعد. فرفع القواعد وأتم البنيان، ثم أخذ بيده فأخرجه فانطلق به إلى الصفا، قال: هذا من شعائر الله. ثم انطلق به إلى المروة، فقال: وهذا من شعائر الله؟. ثم انطلق به نحو^(٢) منى، فلما كان من العقبة إذا إبليس قائم عند الشجرة، فقال: كبر وارمه. فكبر وارماه. ثم انطلق^(٣) إبليس فقام عند الجمرة الوسطى، فلما جاز به^(٤) جبريل وإبراهيم قال له: كبر وارمه. فكبر وارماه. فذهب إبليس وكان الخبيث أراد أن يدخل في الحج شيئاً فلم يستطع، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام، فقال: هذا المشعر الحرام. فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به عرفات. قال: قد عرفت ما أريتك؟ قالها: ثلاث مرار. قال: نعم.

وروى عن أبي مجلز وقتادة نحو ذلك. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا حماد بن سلمة، عن أبي العاصم الغنوي، عن أبي الطفيل، عن ابن عباس، قال: إن إبراهيم لما أرى أوامر المناسك، عرض له الشيطان عند المسعى، فسابقه إبراهيم، ثم انطلق به جبريل حتى أتى^(٥) به منى، فقال: منّاخ الناس هذا. فلما انتهى إلى جمرة العقبة تعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم أتى به الجمرة الوسطى، فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات، حتى ذهب، ثم أتى به الجمرة القصوى، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، فأتى به جمعاً. فقال: هذا المشعر. ثم أتى به عرفة. فقال: هذه عرفة. فقال له جبريل: أعرفت؟^(٦).

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٢٩).

يقول تعالى إخباراً عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم - أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، أى من ذرية إبراهيم. وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قَدَّرَ الله السابق فى تعيين محمد - صلوات الله وسلامه عليه^(٨) - رسولاً فى الأميين إليهم، إلى سائر الأعجميين، من الإنس والجن، كما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا معاوية بن صالح، عن سعيد بن سُويد الكلبى، عن عبد الأعلى بن هلال السلمى، عن العرياض بن سارية قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى عند الله لخاتم

(١) فى ج، ط: «وعلمناها». (٢) فى أ: «إلى».

(٣) فى ج: «فانطلق». (٤) فى أ: «فلما حاذاه»، وفى و: «فلما حاذى به».

(٥) سنن سعيد بن منصور برقم (٢٢٠) تحقيق الدكتور سعيد الحميد.

(٦) فى ج، ط: «حتى أراه».

(٧) مسند الطيالسي برقم (٢٦٩٧).

(٨) فى ج: «ﷺ».

النبين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك، دعوة أبى إبراهيم، وبشارة عيسى بى، ورؤيا أمى التى رأت، وكذلك أمهات النبين^(١) يرين^(٢).

وكذلك^(٣) رواه ابن وهب، والليث، وكتبه عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح، وتابعه أبو بكر بن أبى مريم، عن سعيد بن سويد، به.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو النضر، حدثنا الفرج، حدثنا لقمان بن عامر: سمعت أبا أمامة قال: قلت: يا رسول الله، ما كان أول بدء أمرك؟ قال: «دعوة أبى إبراهيم، وبشرى عيسى بى، ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام»^(٤).

والمراد أن أول من نوه بذكره وشهره فى الناس، إبراهيم^(٥)، عليه السلام. ولم يزل ذكره فى الناس مذكوراً مشهوراً سائراً حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بنى إسرائيل نسباً، وهو عيسى ابن مريم، عليه السلام، حيث قام فى بنى إسرائيل خطيباً، وقال: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]؛ ولهذا قال فى هذا الحديث: «دعوة أبى إبراهيم، وبشرى عيسى ابن مريم».

وقوله: «ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام» قيل: كان مناماً رآته حين حملت به، وقصته على قومها فشاع فيهم واشتهر بينهم، وكان ذلك توطئة. وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه وثبوته ببلاد الشام، ولهذا تكون الشام فى آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى ابن مريم إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها. ولهذا جاء فى الصحيحين: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك»^(٦). وفى صحيح البخارى: «وهم بالشام»^(٧).

قال^(٨) أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، فى قوله: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ يعنى: أمة محمد ﷺ. فقيل له: قد استجيب لك، وهو كائن فى آخر الزمان. وكذا قال السدى وقتادة.

وقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعنى: القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ يعنى: السنة، قاله الحسن،

(١) فى أ: «المؤمنين».

(٢) المسند (٤/ ١٢٧).

(٣) فى ج، ط: «وكذا».

(٤) المسند (٥/ ٢٦٢).

(٥) فى ج: «إبراهيم الخليل».

(٦) هذا لفظ حديث ثوبان فى صحيح مسلم برقم (١٩٢٠) ورواه أيضاً بنحوه من حديث معاوية برقم (١٠٣٧) وهو فى صحيح

البخارى برقم (٧٤٦٠) من حديث معاوية رضى الله عنه برقم (٧٤٥٩) من حديث المغيرة رضى الله عنه.

(٧) صحيح البخارى برقم (٧٤٦٠) من حديث معاذ رضى الله عنه.

(٨) فى ج، ط: «وقال».

وقتادة، ومقاتل بن حيان، وأبو مالك وغيرهم. وقيل: الفهم في الدين. ولا منافاة.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعنى طاعة الله، والإخلاص.

وقال محمد بن إسحاق ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ قال: يعلمهم الخير في فعلوه، والشر في تقوه، ويخبرهم برضاه عنهم إذا أطاعوه واستكثروا من طاعته، وتجنبوا ما سخط من معصيته.

وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أى: العزيز الذى لا يعجزه شىء، وهو قادر على كل شىء، الحكيم فى أفعاله وأقواله، فيضع الأشياء فى محالها؛ لعلمه وحكمته وعدله.

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠)﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢)﴾.

يقول تبارك وتعالى ردّاً على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله، المخالف لملة إبراهيم الخليل، إمام الحنفاء، فإنه جرد توحيد ربه تبارك وتعالى، فلم يدع معه غيره، ولا أشرك به طرفه عين، وتبرأ من كل معبود سواه، وخالف فى ذلك سائر قومه، حتى تبرأ من أبيه، فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ. إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨، ٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ. إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لِأَوْاهٍ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٢]، ولهذا وأمثاله قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أى: عن طريقته ومنهجه. فيخالفها ويرغب عنها ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أى: ظلم نفسه بسفاهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال، حيث خالف طريق من اصطفى فى الدنيا للهداية والرشاد، من حداثة سنّه^(١) إلى أن اتخذه الله خليلاً، وهو فى الآخرة من الصالحين السعداء - فترك طريقه هذا ومسلكه وملته واتباع طُرُق الضلالة والغى، فأى سفه أعظم من هذا؟ أم أى ظلم أكبر من هذا؟ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

وقال أبو العالية وقتادة: نزلت هذه الآية فى اليهود؛ أحدثوا طريقاً ليست من عند الله وخالفوا ملة إبراهيم فيما أخذوه^(٢)، ويشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ

(١) فى أ: «من حداثة بنيته». (٢) فى ج، ط، أ، و: «فيما أحدثوه».

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: أمره الله^(١) بالإخلاص له والاستسلام والانقياد، فأجاب إلى ذلك شرعاً وقدرأً، وقوله: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾، أى: وصى بهذه الملة^(٢)، وهى الإسلام لله [أو يعود الضمير على الكلمة وهى قوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾]^(٣). لحرصهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة ووصوا أبناءهم بها من بعدهم؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [الزخرف: ٢٨] وقد قرأ بعض السلف «ويعقوب» بالنصب عطفأً على بنيه، كأن إبراهيم وصى بنيه وابن ابنه يعقوب بن إسحاق وكان حاضراً ذلك، وقد ادعى القشيري فيما حكاه القرطبي عنه أن يعقوب إنما ولد بعد وفاة إبراهيم، ويحتاج مثل هذا إلى دليل صحيح؛ والظاهر، والله أعلم، أن إسحاق ولد له يعقوب فى حياة الخليل وسارة؛ لأن البشارة وقعت بهما فى قوله: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ [هود: ٧١] وقد قرئ بنصب يعقوب ههنا على نزع الخافض، فلو لم يوجد يعقوب فى حياتهما لما كان لذكره من بين ذرية إسحاق كبير فائدة، وأيضاً فقد قال الله تعالى فى سورة العنكبوت: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾: [الآية: ٢٧] وقال فى الآية الأخرى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢]، وهذا يقتضى أنه وجد فى حياته، وأيضاً فإنه باني بيت المقدس، كما نطقت بذلك الكتب المتقدمة، وثبت فى الصحيحين من حديث أبى ذر قلت: يا رسول الله، أى مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام»، قلت: ثم أى؟ قال: «بيت المقدس»، قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة» الحديث^(٤). فزعم ابن حبان أن بين سليمان الذى اعتقد أنه باني بيت المقدس - وإنما كان جدّه بعد خرابه وزخرفه - وبين إبراهيم أربعين سنة، وهذا مما أنكر على ابن حبان، فإن المدة بينهما تزيد على ألف سنين، والله أعلم، وأيضاً فإن ذكر وصية يعقوب لبنيه سيأتى ذكرها قريباً، وهذا يدل على أنه ههنا من جملة الموصين.

وقوله: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أى: أحسنوا فى حال الحياة والزموا هذا ليرزقكم^(٥) الله الوفاة عليه. فإن المراء يموت غالباً على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه. وقد أجرى الله الكريم عادته بأن من قصد الخير وفق له ويسر^(٦) عليه. ومن نوى صالحاً ثبت عليه. وهذا لا يعارض ما جاء فى الحديث [الصحيح]^(٧): «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باعٌ أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»^(٨). وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باعٌ أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب،

(١) فى ج، ط، أ، و: «أمره تعالى». (٢) فى أ: «أى رضى بهذه المسألة».

(٣) زيادة من ج، ط، أ.

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٣٦٦) وصحيح مسلم برقم (٥٢٠).

(٥) فى ج: «يرزقكم». (٦) فى ط: «ويسره».

(٧) زيادة من ج، ط، أ، و. (٨) فى ج، ط، أ، و: «فيدخل النار».

فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها؛ لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث: «فيعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس». وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَىٰ. وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ. فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَىٰ. وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ. وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ. فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ١٠].

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)﴾.

يقول تعالى محتجاً على المشركين من العرب أبناء إسماعيل، وعلى الكفار من بنى إسرائيل - وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم^(١) السلام - بأن يعقوب لما حضرته الوفاة وصى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ وهذا من باب التغليب لأن إسماعيل عمه.

قال النحاس: والعرب تسمى العم أبا، نقله القرطبي؛ وقد استدل بهذه الآية من جعل الجد أبا وحجب به الإخوة، كما هو قول الصديق - رضى الله عنه - حكاه البخارى عنه من طريق ابن عباس وابن الزبير، ثم قال البخارى: ولم يختلف عليه، وإليه ذهب عائشة أم المؤمنين، وبه يقول الحسن البصرى وطاوس وعطاء، وهو مذهب أبى حنيفة وغير واحد من علماء السلف والخلف؛ وقال مالك والشافعى وأحمد فى المشهور عنه أنه يقاسم الإخوة؛ وحكى مالك عن عمر وعثمان وعلى وابن مسعود وزيد بن ثابت وجماعة من السلف والخلف، واختاره صاحب أبى حنيفة القاضى: أبو يوسف، ومحمد بن الحسن، ولتقريرها موضع آخر.

وقوله: ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أى: نُوَحِّدُهُ بالالوهية، ولا نشرك به شيئاً غيره ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أى: مطيعون خاضعون كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ^(٢)﴾ [آل عمران: ٨٣] والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة، وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. والآيات فى هذا كثيرة والأحاديث، فمنها قوله ﷺ^(٣): «نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد»^(٤).

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أى: مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أى: إن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيراً يعود

(١) فى ط: «عليه». (٢) فى ج: «وإليه ترجعون».

(٣) فى ج، ط: «عليه السلام».

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٤٤٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه. وأولاد العلات: هم الاخوة من الأب وأمهاتهم شتى.

نفعه نعليكم، فإن لهم أعمالهم التي عملوها ولكم أعمالكم: ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وقال أبو العالية، والربيع، وقتادة: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ يعنى: إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط [ولهذا جاء فى الأثر: من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه]^(١).

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ

الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٣٥).

قال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، حدثنى سعيد بن جبیر أو عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد^(٢). وقالت النصارى مثل ذلك. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾.

وقوله: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أى: لا نريد ما دعوتكم إليه من اليهودية والنصرانية، بل نتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أى: مستقيما. قاله محمد بن كعب القرظى، وعيسى بن جارية.

وقال خَصِيف عن مجاهد: مخلصاً. وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس: حاجاً. وكذا روى عن الحسن والضحاك، وعطية، والسدى.

وقال أبو العالية: الحنيف الذى يستقبل البيت بصلاته، ويرى أن حَجَّه عليه إن استطاع إليه سبيلا.

وقال مجاهد، والربيع بن أنس: حنيفاً، أى: متبعاً. وقال أبو قلابة: الحنيف الذى يؤمن بالرسول كلهم من أولهم إلى آخرهم.

وقال قتادة: الحنيفة: شهادة أن لا إله إلا الله. يدخل فيها تحريم الأمهات والبنات والخالات والعمات وما حرم الله، عز وجل^(٣)، والختان.

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٦).

أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلاً، وبما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً، ونص على أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء، وأن^(٤) لا يفرقوا بين أحد منهم، بل يؤمنوا بهم كلهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا

(١) زيادة من جد، ط، أ، و. (٢) فى جد: «تهتدى»، وفى ط: «تهدى».

(٣) فى جد: «الله تعالى». (٤) فى أ: «أنهم».

الجزء الأول - سورة البقرة: الآية (١٣٦) _____ ٤٤٩
 بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا . أُولَئِكَ هُمُ
 الْكَافِرُونَ حَقًّا ۖ الآية [النساء: ١٥٠، ١٥١].

وقال البخارى: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عثمان بن عُمر، أخبرنا على بن المبارك، عن
 يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن، عن أبى هريرة، قال: كان أهل الكتاب يقرؤون
 التوراة بالعبرانية ويُفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب
 ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا»^(١) (٢).

وقد روى مسلم وأبو داود والنسائي من حديث عثمان بن حكيم، عن سعيد بن يسار عن ابن
 عباس، قال، كان رسول الله ﷺ أكثر ما يصلى الركعتين اللتين قبل الفجر بـ ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ
 إِلَيْنَا﴾ الآية، والأخرى بـ ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بَأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٣) [آل عمران: ٥٢].

وقال أبو العالية والربيع وقتادة: الأسباط: بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً؛ ولد كل^(٤) رجل منهم أمة
 من الناس، فسموا الأسباط.

وقال الخليل بن أحمد وغيره: الأسباط فى بنى إسرائيل، كالبائى فى بنى إسماعيل؛ وقال
 الزمخشري فى الكشف: الأسباط: حفدة يعقوب وذراى أبنائه الاثنى عشر، وقد نقله الرازى عنه،
 وقرره ولم يعارضه. وقال البخارى: الأسباط: قبائل بنى إسرائيل، وهذا يقتضى أن المراد بالأسباط
 هاهنا شعوب بنى إسرائيل، وما أنزل الله تعالى من الوحى على الأنبياء الموجودين منهم، كما قال
 موسى لهم: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْت أَحَدًا مِّنَ
 الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠] وقال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] وقال
 القرطبى: وسموا الأسباط من السبط، وهو التتابع، فهم جماعة متتابعون. وقيل: أصله من السبط،
 بالتحريك، وهو الشجر، أى: هم فى الكثرة بمنزلة الشجر الواحدة سبطة. قال الزجاج: وبين لك
 هذا: ما حدثنا محمد بن جعفر الأنبارى، حدثنا أبو نجيد الدقاق، حدثنا الأسود بن عامر، حدثنا
 إسرائيل عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كل الأنبياء من بنى إسرائيل إلا عشرة: نوح
 وهود وصالح وشعيب وإبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمد - عليهم الصلاة والسلام.
 قال القرطبى: والسبط: الجماعة والقبيلة، الراجعون إلى أصل واحد.

وقال قتادة: أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا به، ويصدقوا بكتبه كلها وبرسله.

وقال سليمان بن حبيب: إنما أمرنا أن نؤمن بالتوراة والإنجيل، ولا نعمل بما فيها.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن محمد بن مُصعب الصورى، حدثنا مُؤمل، حدثنا عبيدالله

(١) فى أ، و: «وما أنزل الله»، وفى جـ: «وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٤٨٥).

(٣) صحيح مسلم برقم (٧٢٧) وسنن أبى داود برقم (١٢٥٩) وسنن النسائى (٢/ ١٥٥).

(٤) فى جـ: «وكذا كل».

ابن أبي حميد، عن أبي المليح، عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل، وليسمعكم القرآن»^(١).

﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) ﴾.

يقول تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا﴾ أي^(٢): الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ﴿بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾ أيها المؤمنون، من الإيمان بجميع كتب الله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ أي: فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه: ﴿وَأَنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: عن الحق إلى الباطل، بعد قيام الحجة عليهم ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: فسينصرك عليهم ويظفرك بهم ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: قرئ على يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، حدثنا زياد بن يونس، حدثنا نافع بن أبي نعيم، قال: أرسل إلى بعض الخلفاء مصحف عثمان بن عفان ليصلحه. قال زياد: فقلت له: إن الناس يقولون: إن مصحفه كان في حجره حين قُتل، فوقع الدم على ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. فقال نافع: بصرت عيني بالدم على هذه الآية وقد قدم^(٣).

وقوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾: قال الضحاک، عن ابن عباس: دين الله وكذا روى عن مجاهد، وأبي العالية، وعكرمة، وإبراهيم، والحسن، وقتادة، والضحاک، وعبد الله بن كثير، وعطية العوفى، والربيع بن أنس، والسدى، نحو ذلك.

وانتصاب ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾: إما على الإغراء كقوله ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ﴾ [الروم: ٣٠] أي: الزموا ذلك عليكموه. وقال بعضهم: بدل من قوله: ﴿مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾. وقال سيبويه: هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ كقوله: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ٣٦].

وقد ورد^(٤) في حديث رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه، من رواية أشعث بن إسحاق عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس أن نبي الله ﷺ قال: «إن بني إسرائيل قالوا: يا موسى، هل يصبغ ربك؟ فقال: اتقوا الله. فناداه ربه: يا موسى، سألوكم هل يصبغ ربك؟ فقل: نعم، أنا أصبغ الألوان: الأحمر والأبيض والأسود، والألوان كلها من صبغى». وأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾^(٥).

كذا وقع في رواية ابن مردويه مرفوعاً، وهو في رواية ابن أبي حاتم موقوف، وهو أشبه، إن صح إسناده، والله أعلم^(٦).

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٤٠٠/١) وفي إسناده عبيد الله بن أبي حميد متفق على ضعفه ويروى عن أبي المليح عجائب. انظر: الميزان (٥/٣) والتهذيب (٩/٧).

(٢) في و: «يعنى».

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٤٠٢/١).

(٤) في ط: «وقد روى». (٥) في ج، ط، أ، و: «نبي الله ﷺ».

(٦) تفسير ابن أبي حاتم (٤٠٣/١) ومن طريقه أبو الشيخ في العظمة برقم (١٣٨).

(٧) في ج: «والله تبارك وتعالى أعلم».

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١) ﴿

يقول الله تعالى مرشداً نبيه صلوات الله وسلامه عليه^(١) إلى درء مجادلة المشركين: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ أى: أتناظروننا فى توحيد الله والإخلاص له والانقياد، واتباع أوامره وترك زواجه ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ المتصرف فينا وفيكم، المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له! ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أى: نحن برآء منكم، وأنتم برآء منا، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَأَنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١] وقال تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠]. وقال تعالى إخباراً عن إبراهيم^(٢): ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠] وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٨].

وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾^(٣) وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ أى: نحن^(٤) برآء منكم كما أنتم برآء منا، ونحن له مخلصون، أى فى العبادة والتوجه. ثم أنكر تعالى عليهم فى دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا على ملتهم، إما اليهودية وإما النصرانية^(٥)، فقال: ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ﴾ يعنى: بل الله أعلم، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. الآية والتى بعدها. [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾: قال الحسن البصرى: كانوا يقرؤون فى كتاب الله الذى أتاهم: إن الدين [عند الله]^(٦) الإسلام، وإن محمداً رسول الله، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا برآء من اليهودية والنصرانية، فشهد الله بذلك، وأقروا به على أنفسهم لله، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك.

(٣) زيادة من و.

(٢) فى ج: «عن إبراهيم عليه السلام».

(١) فى ج: «ﷺ».

(٤) فى ج، ط: «أى ونحن».

(٥) فى ج، ط، أ، و: «أو النصرانية».

(٦) زيادة من ج، ط.

وقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: [فيه]^(١) تهديد ووعيد شديد، أى: [أن]^(٢) علمه محيط بعملكم، وسيجزىكم عليه.

ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أى: قد مضت ﴿أَلَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أى: لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وليس يغنى عنكم انتسابكم إليهم، من غير متابعة منكم لهم، ولا تغتروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا مثلهم منقادين لأوامر الله واتباع رسله، الذين بعثوا مبشرين ومنذرين، فإنه من كفر بنبي واحد فقد كفر بسائر الرسل، ولا سيما من كفر بسيد الأنبياء، وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجن من سائر المكلفين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله^(٣) أجمعين^(٤).

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٤٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤٣).

[قيل المراد بالسفهاء هاهنا: المشركون؛ مشركو العرب، قاله الزجاج. وقيل: أحبار يهود، قاله مجاهد. وقيل: المنافقون، قاله السدى. والآية عامة فى هؤلاء كلهم، والله أعلم]^(٥).

قال البخارى: حدثنا أبو نعيم، سمع زهيراً، عن أبي إسحاق، عن البراء، رضى الله عنه؛ أن النبى ﷺ صلى إلى بيت^(٦) المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها، صلاة العصر، وصلى معه قوم. فخرج رجل^(٧) ممن كان صلى معه، فمر على أهل المسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبى ﷺ قبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت. وكان الذى مات على القبلة قبل أن تحوّل قبل البيت رجالاً قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

انفرد به البخارى من هذا الوجه^(٨). ورواه مسلم من وجه آخر^(٩).

(١) زيادة من ج، ط. (٢) زيادة من ج، ط، أ، و. (٣) فى ج: «وعلى سائر أنبيائه».

(٤) فى أ: «أجمعين أبداً دائماً إلى يوم الدين ورضى الله تعالى عن أصحابه وأصحابهم المتبعين إلى يوم الحشر واليقين».

(٥) زيادة من ج، ط. (٦) فى ج: «إلى البيت». (٧) فى ط: «فخرج قوم».

(٨) صحيح البخارى برقم (٤٤٨٦).

(٩) صحيح مسلم برقم (٥٢٥).

وقال محمد بن إسحاق: حدثني إسماعيل^(١) بن أبي خالد، عن أبي إسحاق، عن البراء، قال: كان رسول الله ﷺ يصلي نحو بيت المقدس، ويكثر النظر إلى السماء ينتظر^(٢) أمر الله، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، فقال رجال^(٣) من المسلمين: ودذا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نُصرف إلى القبلة، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ وقال السفهاء من الناس، وهم أهل الكتاب: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فأنزل الله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ إلى آخر الآية.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا الحسن بن عطية، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: كان رسول الله ﷺ قد صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وكان يحب أن يُوجه نحو الكعبة، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال: فوجه نحو الكعبة. وقال السفهاء من الناس، وهم اليهود: ﴿مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ النَّبِيِّ كَانُوا عَلَيْهَا﴾ فأنزل الله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: إن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة، أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يُحب قبله إبراهيم، فكان يدعو الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُولُوا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ أي: نحوه. فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فأنزل الله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وقد جاء في هذا الباب أحاديث كثيرة، وحاصل الأمر أنه قد كان رسول الله ﷺ أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس، فكان بمكة يُصلي بين الركنين، فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس، قاله ابن عباس والجمهور، ثم اختلف هؤلاء هل كان الأمر به بالقرآن أو بغيره؟ على قولين، وحكى القرطبي في تفسيره عن عكرمة وأبي العالية والحسن البصري أن التوجه إلى بيت المقدس كان باجتهاده عليه الصلاة والسلام. والمقصود أن التوجه إلى بيت المقدس بعد مقدمه ﷺ المدينة، فاستمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهراً، وكان يكثر الدعاء والابتهال أن يُوجه إلى الكعبة، التي هي قبله إبراهيم، عليه السلام، فأجيب إلى ذلك، وأمر بالتوجه إلى البيت العتيق، فخطب رسول الله ﷺ الناس وأعلمهم بذلك. وكان أول صلاة صلاها إليها صلاة العصر، كما تقدم في الصحيحين من رواية البراء. ووقع عند النسائي من رواية أبي سعيد بن المعلى: أنها الظهر^(٤). وأما أهل قباء، فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر من اليوم الثاني، كما جاء في الصحيحين، عن ابن عمر أنه قال: بينما الناس بقباء في صلاة الصبح، إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد

(١) في أ: «حدثني المعلى».

(٢) في ط: «وينتظر».

(٣) في أ: «فقال رجل».

(٤) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٠٠٤).

أمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها. وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة^(١).

وفى هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به، وإن تقدم نزوله وإبلاغه؛ لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء، والله أعلم.

ولما وقع هذا حصل لبعض الناس - من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود - ارتياب وريغ عن الهدى وتخييط وشك، وقالوا: ﴿مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ أى: ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا، وتارة يستقبلون كذا؟ فأنزل الله جوابهم فى قوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أى: الحكم والتصرف والأمر كله لله، وحيثما تولوا فثم وجه الله، و﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] أى: الشأن كله فى امتثال أوامر الله، فحيثما وجهنا توجهنّا، فالطاعة فى امتثال أمره، ولو وجهنا فى كل يوم مرات إلى جهات متعددة، فنحن عبيده وفى تصريفه وخُدمته، حيثما وجهنا توجهنّا، وهو تعالى له بعبده ورسوله محمد - صلوات الله وسلامه عليه^(٢) - وأتمه عناية عظيمة؛ إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم، خليل الرحمن، وجعل توجهم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له، أشرف بيوت الله فى الأرض، إذ هى بناء إبراهيم الخليل، عليه السلام، ولهذا قال: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وقد روى الإمام أحمد، عن على بن عاصم، عن حصين بن عبد الرحمن، عن عمر^(٣) بن قيس، عن محمد بن الأشعث، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ - يعنى فى أهل الكتاب -: «إنهم لا يحسدوننا على شىء كما يحسدوننا على يوم الجمعة، التى هداها الله لها وضلوا عنها، وعلى القبلة التى هداها الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين»^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾: يقول تعالى: إنما حَوَّلْنَاكم إلى قبلة^(٥) إبراهيم، عليه السلام، واخترناها لكم^(٦) لنجعلكم خيار الأمم، لتكونوا يوم القيامة شُهَدَاءَ على الأمم؛ لأن الجميع^(٧) معترفون^(٨) لكم بالفضل. والوسط هاهنا: الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسباً وداراً، أى: خيرها. وكان رسول الله ﷺ وسطاً فى قومه، أى: أشرفهم نسباً، ومنه الصلاة الوسطى، التى هى أفضل الصلوات، وهى العصر، كما ثبت فى الصحاح وغيرها، ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً خصَّها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح^(٩) المذاهب، كما قال تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ

(١) صحيح البخارى برقم (٤٠٣) وصحيح مسلم برقم (٥٢٦).

(٢) فى ط: «ﷺ». (٣) فى ط، أ، و: «عن عمرو».

(٤) المسند (٦/ ١٣٤).

(٥) فى ط: «ملة».

(٦) فى أ: «واخترناها لكم»، وفى و: «واخترناكم لها».

(٧) فى ط: «معترفين» وهو خطأ.

(٨) فى أ: «الأمم».

(٩) فى ج: «وأصح».

أَبْيَكُمُ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴿[الحج: ٧٨].

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم. فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أئانا من نذير وما أئانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته» قال: فذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾^(١).

قال: الوسط^(٢): العدل، فتدعون، فتشهدون له بالبلاغ، ثم أشهد عليكم^(٣).

رواه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجة من طرق عن الأعمش، [به]^(٤)^(٥).

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء النبي يوم القيامة [ومعه الرجل والنبي]^(٦)، ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيدعى قومه، فيقال [لهم]^(٧): هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا. فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم. فيقال [له]^(٨): من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته: فيدعى بمحمد وأمته، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم. فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاءنا نبينا ﷺ فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا» فذلك قوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: «عدلاً» لتكونوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿﴾^(٩).

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، قال: «عدلاً»^(١٠).

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه وابن أبي حاتم من حديث عبد الواحد بن زياد، عن أبي مالك الأشجعي، عن المغيرة بن عتيبة^(١١) بن نهاس: حدثني مكتب لنا^(١٢)، عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ، قال: أنا وأمتي يوم القيامة على كَوْمٍ مُشْرِفِينَ عَلَى^(١٣) الخلائق. ما من الناس أحد إلا ودَّ أنه منَّا. وما من نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلغ رسالة ربه، عز وجل^(١٤).

(١) المسند (٣/ ٣٢٢).

(٢) في ج، ط: «قال: والوسط».

(٣) في ج: «يقول يشهد عليكم»، وفي ط: «وأشهد عليكم».

(٤) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٥) صحيح البخاري برقم (٣٣٣٩، ٤٤٨٧) وسنن الترمذي برقم (٢٩٦١) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٠٠٧) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٨٤).

(٦، ٧) زيادة من ج، أ، والمسند.

(٩) المسند (٣/ ٥٨).

(١٠) المسند (٣/ ٩).

(١١) في ج: «بن عيينة».

(١٢) في و: «مكاتب لنا».

(١٣) في ج: «مشرف على».

(١٤) ورواه الطبري في تفسيره (٣/ ١٤٧) من طريق ابن فضيل عن أبي مالك الأشجعي به.

وروى الحاكم فى مستدركه وابن مَرْدُويَه أيضاً، واللفظ له، من حديث مصعب بن ثابت، عن محمد بن كعب القرظى، عن جابر بن عبد الله، قال: شهد رسول الله ﷺ جنازة فى بنى سلمة، وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ، فقال بعضهم: والله - يا رسول الله - لنعم المرء كان، لقد كان عفيفاً مسلماً وكان... وأثنوا عليه خيراً. فقال رسول الله ﷺ: «أنت بما تقول». فقال الرجل: الله أعلم بالسرائر، فأما الذى بدا لنا منه فذاك. فقال النبى ﷺ: «وجبت». ثم شهد جنازة فى بنى حارثة، وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ، فقال بعضهم: يا رسول الله، بش المرء كان، إن كان لفظاً غليظاً، فأثنوا عليه شراً فقال رسول الله ﷺ لبعضهم: «أنت بالذى تقول». فقال الرجل: الله أعلم بالسرائر، فأما الذى بدا لنا منه فذاك. فقال رسول الله ﷺ: «وجبت».

قال مصعب بن ثابت: فقال لنا عند ذلك محمد بن كعب: صدق رسول الله ﷺ، ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

ثم قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا داود بن أبى الفرات، عن عبد الله بن بريدة، عن أبى الأسود أنه قال: أتيت المدينة فوافقتها، وقد وقع بها مرض، فهم يموتون موتاً ذريعاً. فجلست إلى عمر بن الخطاب، فمرت به جنازة، فأثنى على صاحبها خير. فقال: وجبت وجبت. ثم مر بأخرى فأثنى عليها شراً، فقال عمر: وجبت [وجبت]^(٢). فقال أبو الأسود: ما وجبت يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت كما قال رسول الله ﷺ: «أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة». قال: فقلنا. وثلاثة؟ قال: «وثلاثة». قال، فقلنا: واثنان؟ قال: «واثنان» ثم لم نسأله عن الواحد.

وكذا رواه البخارى، والترمذى، والنسائى من حديث داود بن أبى الفرات، به^(٣).

قال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن عثمان بن يحيى، حدثنا أبو قلابة الرقاشى، حدثنى أبو الوليد، حدثنا نافع بن عمر، حدثنى أمية بن صفوان، عن أبى بكر بن أبى زهير الثقفى، عن أبيه، قال: سمعت رسول الله ﷺ بالنباوة^(٤) يقول: «يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم». قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: بالثناء الحسن والثناء السيىء، أنتم شهداء الله فى الأرض». ورواه ابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن يزيد بن هارون^(٥). ورواه الإمام أحمد، عن يزيد بن هارون، وعبد الملك بن عمر^(٦)، وشريح، عن نافع عن ابن عمر، به^(٧).

(١) المستدرک (٢/ ٢٦٨) وتعقبه الذهبي بقوله: «فيه مصعب بن ثابت ليس بالقوى».

(٢) زيادة من أ.

(٣) المسند (١/ ٢٢) وصحيح البخارى برقم (١٣٦٨) وسنن الترمذى برقم (١٠٥٩) وسنن النسائى (٤/ ٥٠).

(٤) فى ج: «بالنباوة».

(٥) سنن ابن ماجه برقم (٤٢٢١) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٣٠١) «إسناد صحيح، رجاله ثقات».

(٦) فى ج، ط: «بن عمرو».

(٧) لم أجده فى المطبوع من المسند بهذا الطريق، وذكره الحافظ ابن حجر فى أطراف المسند (٦/ ٢٣١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ ۚ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾: يقول تعالى: إنما شرعنا لك - يا محمد - التوجه أولاً إلى بيت المقدس، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة، ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك حيثما توجهت ممن ينقلب على عقبيه، أى: مُرتدّاً عن^(١) دينه ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ أى: هذه الفعلة، وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة، أى: وإن كان هذا الأمر عظيماً فى النفوس، إلا على الذين هدى الله قلوبهم، وأيقنوا بتصديق الرسول، وأنَّ كلَّ ما جاء به فهو الحق الذى لا مرية فيه، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فله أن يكلف عباده بما شاء^(٢)، وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التامة والحجة البالغة فى جميع ذلك، بخلاف الذين فى قلوبهم مرض، فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكاً، كما يحصل للذين آمنوا إيقاناً وتصديقاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْكُمُ زَادَتْ هَذِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَّادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۚ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَّادَتْهُمْ رَجْسًا إِلَىٰ رَجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥] وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]. ولهذا كان من^(٣) تَبَّتْ عَلَىٰ تصديق الرسول ﷺ واتباعه فى ذلك، وتوجه حيث أمره الله من غير شك ولا ريب، من سادات الصحابة. وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلّوا القبليتين.

وقال البخارى فى تفسير هذه الآية:

حدثنا مُسَدَّدٌ، حدثنا يحيى، عن سُفْيَانَ، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: بينا الناس يصلّون الصبح فى مسجد قُبا إذ جاء رجل فقال: قد أنزل على النبى ﷺ قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها. فتوجهوا إلى الكعبة^(٤)

وقد رواه مسلم من وجه آخر، عن ابن عمر^(٥). ورواه الترمذى من حديث سفيان الثورى^(٦)، وعنده: أنهم كانوا ركوعاً، فاستداروا كما هم إلى الكعبة، وهم ركوع. وكذا رواه مسلم من حديث حمّاد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس، مثله^(٧). وهذا يدل على كمال طاعتهم لله ورسوله، وانقيادهم لأوامر الله عز وجل، رضى الله عنهم أجمعين.

(١) فى ج: «مرتداً على».

(٢) فى أ: «بما يشاء».

(٣) فى ج: «من كان».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٤٨٨).

(٥) صحيح مسلم برقم (٥٢٦).

(٦) سنن الترمذى برقم (٣٤١).

(٧) صحيح مسلم برقم (٥٢٧).

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أى: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك لا يضيع^(١) ثوابها عند الله، وفى الصحيح من حديث أبى إسحاق السبيعي، عن البراء، قال: مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس فقال الناس: ما حالهم فى ذلك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾^(٢).

[ورواه الترمذى عن ابن عباس وصححه^(٣)] ^(٤).

وقال ابن إسحاق: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي مُحَمَّدٍ، عَنْ عِكْرَمَةَ أَوْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أى: بالقبلة الأولى، وتصديقكم نبيكم، واتباعه إلى القبلة الأخرى. أى: ليعطيكم^(٥) أجرهما جميعاً. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

وقال الحسن البصرى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أى: ما كان الله ليضيع محمداً ﷺ وانصرافكم معه حيث انصرف ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها، فجعلت كلما وجدت صبياً من السبي أخذته فالصقته بصدورها، وهى تدور على ولدها، فلما وجدته ضمته إليها وألصقته ثديها. فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه طارحة ولدها فى النار، وهى تقدر على ألا تطرحه؟» قالوا: لا، يا رسول الله. قال: «فوالله، الله أرحم بعباده من هذه بولدها»^(٦).

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤٤).

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: كان أول ما نُسخ من القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة، وكان أكثر أهلها اليهود، فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، وكان يحب قبلة إبراهيم فكان يدعو إلى الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ﴿مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٧) وقال: ﴿فَأَيُّمَا تَوَلَّوْا فَوَجْهَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ

(١) فى ط، أ: «ما يضيع».

(٢) سبق تخريج الحديث قريباً.

(٣) سنن الترمذى برقم (٢٩٦٤).

(٤) زيادة من ج، ط، أ. (٥) فى أ: «ليضيعنكم»، وفى و: «ليعطينكم».

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٩٩٩) وصحيح مسلم برقم (٢٧٥٤).

(٧) زيادة من ط.

عَقِبَهُ ﴿١﴾.

وروى ابن مردويه من حديث القاسم العُمري، عن عمه عبید الله بن عمر، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس: قال: كان النبي ﷺ إذا سَلِمَ من صلاته إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء فأنزل الله: ﴿فَلَنُؤَلِّيكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ إلى الكعبة إلى الميزاب، يؤم به جبرائيل^(١) عليه السلام.

وروى الحاكم في مستدركه، من حديث شعبة عن يعلى بن عطاء، عن يحيى بن قمطة قال: رأيت عبد الله بن عمرو^(٢) جالساً في المسجد الحرام، بإزاء الميزاب، فتلا هذه الآية: ﴿فَلَنُؤَلِّيكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ قال: نحو ميزاب الكعبة.

ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه^(٣).

ورواه ابن أبي حاتم، عن الحسن بن عرفة، عن هُشَيْم، عن يعلى بن عطاء، به.

وهكذا قال غيره، وهو أحد قولي الشافعي، رحمه الله: إن الغرض إصابة عين القبلة. والقول الآخر وعليه الأكثر: أن المراد المواجهة^(٤)، كما رواه الحاكم من حديث محمد بن^(٥) إسحاق، عن عمير بن زياد الكندي، عن علي، رضى الله عنه، ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال: شطره: قبله. ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وهذا قول أبي العالية، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، وقتادة، والربيع بن أنس، وغيرهم. وكما تقدم في الحديث الآخر: ما بين المشرق والمغرب قبله.

[وقال القرطبي: روى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ما بين المشرق والمغرب قبله لأهل المسجد، والمسجد قبله لأهل الحرم، والحرم قبله لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتي^(٦)»]^(٧).

وقال أبو نعيم الفضل بن دكين:

حدثنا زهير، عن أبي إسحاق، عن البراء أن النبي ﷺ صَلَّى قَبْلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وكان يعجبه قبلته قبل البيت وأنه صَلَّى صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان يصلى معه، فمرَّ على أهل المسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صَلَّيتَ مع رسول الله ﷺ قَبْلَ مَكَّةَ، فداروا كما هم قبل البيت^(٨).

(١) في ط: «جبريل». (٢) في أ: «بن عمر».

(٣) المستدرک (٢/ ٢٦٩).

(٤) في ط، أ، و: «الوجهة». (٥) في ط: «محمد أبي».

(٦) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٩، ١٠) من طريق عمر بن حفص عن ابن جريج به، وقال البيهقي: «تفرد به عمر بن حفص المكي وهو ضعيف لا يحتج به، وروى بإسناد آخر ضعيف، عن عبد الله بن حبش كذلك مرفوعاً، ولا يحتج بمثله، والله أعلم».

(٧) زيادة من ج، ط، أ.

(٨) رواه البخاري في صحيحه برقم (٤٤٨٦) عن أبي نعيم.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء [قال] ^(١): لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يحول نحو الكعبة، فنزلت: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ ^(٢) ﴿فَصِرْ إِلَى الْكَعْبَةِ﴾.

وروى النسائي عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنا نغْدُو إلى المسجد على عهد رسول الله ﷺ، فتمر على المسجد فنصلي فيه، فمررنا يوماً - ورسول الله ﷺ قاعد على المنبر - فقلت: لقد حدث أمر، فجلست، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ حتى فرغ من الآية. فقلت لصاحبي: تعال نركع ركعتين قبل أن ينزل رسول الله ﷺ، فنكون أول من صلى، فتوارينا فصليناهما. ثم نزل النبي ﷺ فصلى للناس الظهر يومئذ ^(٣).

وكذا روى ابن مردويه، عن ابن عمر: أن أول صلاة صلاها رسول الله ﷺ إلى الكعبة صلاة الظهر، وأنها الصلاة الوسطى. والمشهور أن أول صلاة صلاها إلى الكعبة صلاة العصر، ولهذا تأخر الخبر عن أهل قباء إلى صلاة الفجر.

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدثنا رجاء بن محمد السقطي، حدثنا إسحاق بن إدريس، حدثنا إبراهيم بن جعفر، حدثني أبي، عن جدته أم أبيه نُوَيْلَةَ بنت مسلم، قالت: صَلَّيْنَا الظُّهْر - أو العصر ^(٤) - في مسجد بنى حارثة، فاستقبلنا مسجد إيلياء فصلينا ركعتين، ثم جاء مَنْ يحدثنا أن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت الحرام، فتحول النساء مكان ^(٥) الرجال، والرجال مكان ^(٦) النساء، فصلينا السجدين الباقيتين، ونحن مستقبلون ^(٧) البيت الحرام. فحدثني رجل من بنى حارثة أن النبي ﷺ قال: «أولئك رجال يؤمنون بالغيب» ^(٨).

وقال ابن مردويه أيضاً: حدثنا محمد بن علي بن دُحَيْم، حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا مالك بن إسماعيل النهدي، حدثنا قيس، عن زياد بن علاقة، عن عُمارة بن أوس قال: بينما نحن في الصلاة نحو بيت المقدس، ونحن ركوع، إذ أتى مناد بالباب: أن القبلة قد حُوِّلت إلى الكعبة. قال: فأشهد على إمامنا أنه انحرف فتحول هو والرجال والصبيان، وهم ركوع، نحو الكعبة ^(٩).

وقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾: أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض، شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، ولا يستثنى من هذا شيء، سوى النافلة في حال السفر، فإنه

(١) زيادة من ج، ط، و.

(٢) زيادة من ج.

(٣) سنن النسائي الكبرى (٤/ ١١٠).

(٤) في ج: «الظهر والعصر». (٥، ٦) في أ: «موضع».

(٧) في أ: «ونحن مستقبلون».

(٨) المعجم الكبير (٢٥/ ٤٣) وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ١٤): «فيه إسحاق بن إدريس الأسواري وهو ضعيف متروك».

(٩) ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (١/ ٣٣٥) عن شيبان عن قيس عن زياد به.

يصليها حيثما توجه قلبه وقلبه نحو الكعبة. وكذا في حال المسابقة في القتال يصلى على كل حال، وكذا من جهل جهة القبلة يصلى باجتهاده، وإن كان مخطئاً في نفس الامر، لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها.

مسألة: وقد استدل المالكية بهذه الآية على أن المصلى ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده كما ذهب إليه الشافعي وأحمد وأبو حنيفة، قال المالكية لقوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فلو نظر إلى موضع سجوده لاحتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء وهو ينافي كمال القيام. وقال بعضهم: ينظر المصلى في قيامه إلى صدره. وقال شريك القاضي: ينظر في حال قيامه إلى موضع سجوده كما قال جمهور الجماعة، لأنه أبلغ في الخضوع وأكد في الخشوع وقد ورد به الحديث، وأما في حال ركوعه فإلى موضع قدميه، وفي حال سجوده إلى موضع أنفه وفي حال قعوده إلى حجره.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أى: واليهود - الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرفكم عن بيت المقدس - يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها، بما في كتبهم عن أنبيائهم، من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأمته، وما خصه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة، ولكن أهل الكتاب يتكاثرون ذلك بينهم حسداً وكفراً وعناداً؛ ولهذا يهددهم تعالى بقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(١).

﴿وَلَنْ أَتِيَتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٤٥).

يخبر تعالى^(٢) عن كفر اليهود وعنادهم، ومخالفتهم ما^(٣) يعرفونه من شأن رسول الله ﷺ، وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به، لما اتبعوه وتركوا أهواءهم^(٤)، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. ولهذا قال هاهنا: ﴿وَلَنْ أَتِيَتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ﴾ [وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ]^(٥) إخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله تعالى به، وأنه كما هم مستمسكون^(٦) بأرائهم وأهوائهم، فهو أيضاً مستمسك^(٧) بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته، وأنه لا يتبع أهواءهم في جميع أحواله، وما كان^(٨) متوجهاً إلى بيت المقدس؛ لأنها^(٩) قبلة اليهود، وإنما ذلك عن أمر الله تعالى^(١٠). ثم حذر [الله]^(١١) تعالى من مخالفة

(١) في ج، ط: «تعلمون». (٢) في ج: «يخبر تبارك وتعالى». (٣) في ج: «ومخالفتهم لما».

(٤) في ج: «وتركوا أهوائهم» وهو خطأ. (٥) زيادة من ج. (٦) في ج، ط: «متمسكون».

(٧) في ج، ط: «متمسك». (٨) في ج، ط: «ولا كان». (٩) في ج، ط: «لكونها».

(١٠) في ج: «الله تعالى وطاعته». (١١) زيادة من ج.

الحق الذى يعلمه العالم إلى الهوى؛ فإن العالم الحجة عليه أقوم من غيره. ولهذا قال مخاطباً للرسول، والمراد الأمة: ﴿وَلَنْ أَتَّبِعَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قَبْلَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قَبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبَلَةَ بَعْضٍ وَلَنْ أَتَّبِعَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧)﴾.

يخبر تعالى^(١) أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ [كما يعرفون أبناءهم]^(٢) كما يعرف أحدهم ولده، والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال لرجل معه صغير: «ابنك هذا؟» قال: نعم يا رسول الله، أشهد به. قال: «أما إنه لا يجنى عليك ولا تحجى عليه»^(٣).

[قال القرطبي: ويروى أن عمر قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمداً ﷺ كما تعرف ولدك ابنك، قال: نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته، وإنى لا أدري ما كان من أمره. قلت: وقد يكون المراد ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ من بين أبناء الناس لا يشك أحد ولا يتمارى في معرفة ابنه إذا رآه من بين أبناء الناس كلهم]^(٤).

ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق^(٥) والإتقان العلمى ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ أى: ليكتُمون الناس ما فى كتبهم من صفة النبى ﷺ، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. ثم ثبت تعالى نبيه^(٦) والمؤمنين وأخبرهم بأن ما جاء^(٧) به الرسول ﷺ هو الحق الذى لا مرية فيه ولا شك، فقال: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

﴿وَلِكُلِّ وُجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٤٨)﴾.

قال العوفى، عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلِّ وُجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾. يعنى بذلك: أهل الأديان، يقول: لكل قبلة يرضونها، ووجهة الله حيث تَوَجَّه المؤمنون.

وقال أبو العالية: لليهودى وجهة هو موليها، وللنصرانى وجهة هو موليها، وهذاكم أنتم أيتها الأمة [المؤمنون]^(٩) للقبلة التى هى القبلة. وروى عن مجاهد، وعطاء، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدى نحو هذا.

(١) فى جـ: «يخبر تبارك وتعالى».

(٢) رواه أحمد فى المسند (٢٢٦/٢، ٢٢٨) وأبو داود فى السنن برقم (٤٤٩٥).

(٣) زيادة من ج، ط، أ.

(٤) فى جـ، ط، أ، و: «التحقيق».

(٥) فى جـ: «النبى ﷺ».

(٦) زيادة من جـ.

(٧) فى جـ: «النبى».

(٨) فى ط: «ما جاءهم به».

وقال مجاهد فى الرواية الأخرى: ولكن أمر كل قوم أن يصلوا إلى الكعبة.
 وقرأ ابن عباس، وأبو جعفر الباقر، وابن عامر: «ولكل وجهة هو مولاها».
 وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٤٨].
 وقال ها هنا: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أى: هو قادر على جمعكم من الأرض، وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَآتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥٠).

هذا أمر ثالث من الله تعالى^(١) باستقبال المسجد الحرام، من جميع أقطار الأرض.
 وقد اختلفوا فى حكمة هذا التكرار ثلاث مرات، فقل: تأكيد لأنه أول ناسخ وقع فى الإسلام على ما نص عليه ابن عباس وغيره، وقيل: بل هو منزل على أحوال، فالأمر الأول لمن هو مشاهد الكعبة، والثانى لمن هو فى مكة غائبا عنها، والثالث لمن هو فى بقية البلدان، هكذا وجهه فخر الدين الرازى. وقال القرطبى: الأول لمن هو بمكة، والثانى لمن هو فى بقية الأمصار، والثالث لمن خرج فى الأسفار، ورجح هذا الجواب القرطبى، وقيل: إنما ذكر ذلك لتعلقه بما قبله أو بعده من السياق، فقال: أولا ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فذكر فى هذا المقام إجابته إلى طلبته وأمره بالقبلة التى كان يود التوجه إليها ويرضاها؛ وقال فى الأمر الثانى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، فذكر أنه الحق من الله وارتقى عن المقام الأول، حيث كان موافقا لرضا الرسول ﷺ فبين أنه الحق أيضا من الله يحبه ويرتضيه، وذكر فى الأمر الثالث حكمة قطع حجة المخالف من اليهود الذين كانوا يتحجبون باستقبال الرسول ﷺ إلى قبلتهم، وقد كانوا يعلمون بما فى كتبهم أنه سيصرف إلى قبلة إبراهيم، عليه السلام، إلى الكعبة، وكذلك مشركو العرب انقطعت حجتهم لما صرف الرسول ﷺ عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم التى هى أشرف، وقد كانوا يعظمون الكعبة وأعجبهم استقبال الرسول ﷺ إليها، وقيل غير ذلك من الأجوبة عن حكمة التكرار، وقد بسطها فخر الدين وغيره، والله - سبحانه وتعالى - أعلم.

(١) فى ج: «من الله تبارك وتعالى».

وقوله: ﴿لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أى: أهل الكتاب؛ فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين أو لئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم فى التوجه إلى بيت المقدس. وهذا أظهر.

قال أبو العالية: ﴿لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ يعنى به أهل الكتاب حين قالوا: صُرف محمد إلى الكعبة.

وقالوا: اشتاق الرجل إلى بيت أبيه^(١) ودين قومه. وكان حجتهم على النبی ﷺ انصرافه إلى البيت الحرام أن قالوا: سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن مجاهد، وعطاء، والضحاك، والربيع بن أنس، وقتادة، والسدى، نحو هذا.

وقال هؤلاء فى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ يعنى: مشركى قُريش.

ووجه بعضهم حُجَّةَ الظلمة - وهى داحضة - أن قالوا: إن هذا الرجل يزعم أنه على دين إبراهيم: فإن كان توجهه إلى بيت المقدس على ملة إبراهيم، فلم رجع عنه؟ والجواب: أن الله تعالى اختار له التوجه إلى بيت المقدس أولاً لما له تعالى فى ذلك من الحكمة، فأطاع ربه تعالى فى ذلك، ثم صرّفه إلى قبلة إبراهيم - وهى الكعبة - فامتثل أمر الله فى ذلك أيضاً، فهو، صلوات الله وسلامه عليه، مطيع لله فى جميع أحواله، لا يخرج عن أمر الله طُرْفَةً عين، وأتمته تبع له.

وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ أى: لا تخشوا شبه الظلمة المتعنتين، وأفردوا الخشية لى، فإنه تعالى هو أهل أن يخشى منه.

وقوله: ﴿وَلَا تَمْنَعِيْكُمْ﴾ عطف على: ﴿لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أى: ولا تمنعني عليكم فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة، لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهاً ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أى: إلى ما ضلّت عنه الأمم هديناكم إليه، وخصصناكم به، ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيْكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَادْكُرُونِيْ أذكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِيْ وَلَا تَكْفُرُونَ (١٥٢)﴾.

يُذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم، يتلو عليهم آيات الله مبینات ويُزكّيهم، أى: يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمهم الكتاب - وهو القرآن - والحكمة - وهى السنة - ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون. فكانوا فى الجاهلية الجهلاء يُسفّهون بالقول الفرى، فانتقلوا ببركة رسالته، ويمن سفارته، إلى حال الأولياء، وسجاياء العلماء فصاروا أعمق الناس علماً، وأبرهم قلوباً، وأقلهم تكلفاً، وأصدقهم لهجة. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ

(١) فى أ: « فى بيت الله ».

وَيَزَكِّيهِمْ ﴿١٦٤﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وذم من لم يعرف قدر هذه النعمة، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨].

قال ابن عباس: يعنى بنعمة الله محمداً ﷺ؛ ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره، فقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾. قال مجاهد فى قوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾^(١) يقول: كما فعلت فاذكرونى.

قال عبد الله بن وهب، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم: أن موسى، عليه السلام، قال: يارب، كيف أشكرك؟ قال له ربه: تذكرنى ولا تنساني، فإذا ذكرتني فقد شكرتني، وإذا نسيتني فقد كفرتني.

وقال الحسن البصرى، وأبو العالية، والسدى، والربيع بن أنس: إن الله يذكر من ذكره، ويزيد من شكره ويعذب من كفره.

وقال بعض السلف فى قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] قال: هو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، أخبرنا يزيد بن هارون، أخبرنا عمارة الصيدلانى، حدثنا مكحول الأزدى قال: قلت لابن عمر: أرايت قاتل النفس وشارب الخمر والسارق والزانى يذكر الله، وقد قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾؟ قال: إذا ذكر الله هذا ذكره الله بلعنته، حتى يسكت.

وقال الحسن البصرى فى قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ قال: اذكرونى فيما افترضت عليكم أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسى.

وعن سعيد بن جبیر: اذكرونى بطاعتي أذكركم بمغفرتي، وفى رواية: برحمتي. وعن ابن عباس فى قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾^(٢) أذكركم قال: ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه. وفى الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، ومن ذكرنى فى ملاء ذكرته فى ملاء خير منه».

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: يا ابن آدم، إن ذكرتنى فى نفسك ذكرتك فى نفسى، وإن ذكرتنى فى ملاء ذكرتك فى ملاء من الملائكة - أو قال: [فى]^(٣) ملاء خير منهم - وإن دنوت منى شبراً دنوت منك ذراعاً، وإن دنوت منى ذراعاً دنوت منك باعاً، وإنى أتيتنى تمشى أتيتك أهول».

صحيح الإسناد: أخرجه البخارى من حديث قتادة^(٤). وعنده قال قتادة: الله أقرب بالرحمة. وقوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾: أمر الله تعالى بشكره، ووعد على شكره بمزيد الخير، فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا شعبة، عن الفضيل^(٥) بن فضالة - رجل من قيس -

(١) فى ط: «فيكم». وهو خطأ. (٢) فى هـ: «اذكرونى» والمثبت من ط.

(٣) زيادة من أ، والمسند.

(٤) المسند (٣/١٣٨) وصحيح البخارى برقم (٧٥٣٦).

(٥) فى أ: «عن الفضل».

حدثنا أبو رجاء العطاردي، قال: خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خز لم نره^(١) عليه قبل ذلك ولا بعده، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «من أنعم الله عليه نعمة فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه». وقال روح مرة: «على عبده»^(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٤).

لما فرغ تعالى^(٣) من بيان الأمر بالشكر شرع في بيان الصبر، والإرشاد إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها، أو في نقمة فيصبر عليها؛ كما جاء في الحديث: «عجباً للمؤمن. لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له: إن أصابته سراء فشكر، كان خيراً له؛ وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له».

وبين تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمّل المصائب الصبر والصلاة، كما تقدم في قوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]. وفي الحديث كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى.^(٤) والصبر صبران، فصبر على ترك المحارم والمأثم وصبر على فعل الطاعات. والقربات، والثاني أكثر ثواباً لأنه المقصود. كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الصبر في بابين، الصبر لله بما أحب، وإن ثقل على الأنفس^(٥) والأبدان، والصبر لله عما كره وإن نازعت إليه الأهواء. فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذين يسلم عليهم، إن شاء الله.

وقال على بن الحسين زين العابدين: إذا جمع الله الأولين والآخرين ينادى مناد: أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب؟ قال: فيقوم عتق من الناس، فتتلقاهم الملائكة، فيقولون: إلى أين يا بنى آدم؟ فيقولون: إلى الجنة. فيقولون: وقبل الحساب؟ قالوا: نعم، قالوا: ومن أنتم؟ قالوا: الصابرون، قالوا: وما كان صبركم؟ قالوا: صبرنا على طاعة الله، وصبرنا عن معصية الله، حتى توفانا الله. قالوا: أنتم كما قلت، ادخلوا الجنة، فنعم أجر العاملين.

قلت: ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وقال سعيد بن جبيرة: الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه، واحتسابه عند الله رجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو متجلد لا يرى منه إلا الصبر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾: يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء يرزقون، كما جاء في صحيح مسلم: «أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت»^(٦)، ثم تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك اطلاعة،

(١) في أ: «لم يرد».

(٢) المسند (٤/٤٣٨).

(٣) في ج: «لما فرغ تبارك وتعالى».

(٤) رواه أبو داود في السنن برقم (١٣١٩) من حديث حذيفة رضى الله عنه.

(٥) في ج: «وإن تقتل عليه الأنفس»، وفي ط: «فإن ثقل على الأنفس».

(٦) في أ: «حيث ما شاءت».

فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا، وأى شيء نبغى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ ثم عاد إليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا، قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا، فنقاتل فى سبيلك، حتى نقتل فىك مرة أخرى؛ لما يرون من ثواب الشهادة - فيقول الرب جلّ جلاله: إني كتبتُ أنهم إليها لا يرجعون^(١).

وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد، عن الإمام الشافعى، عن الإمام مالك، عن الزهرى، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ تَعْلَقُ فِى شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»^(٢).

ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضاً، وإن كان الشهداء قد خصصوا^(٣) بالذكر فى القرآن، تشريفاً لهم وتكريماً وتعظيماً^(٤).

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾.

أخبر تعالى أنه يتلى عباده [المؤمنين]^(٥)، أى: يختبرهم ويمتحنهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] فتارة بالسراء، وتارة بالضرأ من خوف وجوع، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُفِيَتْ لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢] فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه؛ ولهذا قال: لباس الجوع والخوف. وقال هاهنا ﴿بَشِيرٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ أى: بقليل من ذلك ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾ أى: ذهاب بعضها ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾ كموت الأصحاب والأقارب والأحباب ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ أى: لا تغلّ الحقائق والمزارع كعاداتها. كما قال بعض السلف: فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة. وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده، فمن صبر أثناءه [الله]^(٦)، ومن قنط أحلّ [الله]^(٧) به عقابه. ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾.

وقد حكى بعض المفسرين أن المراد من الخوف^(٨) هاهنا: خوف الله، وبالجموع: صيام رمضان، ونقص^(٩) الأموال: الزكاة، والأنفس: الأمراض، والثمرات: الأولاد.

وفى هذا نظر، والله أعلم.

ثم بيّن تعالى من الصابرون^(١٠) الذين شكرهم، قال: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أى: تسلّوا بقولهم هذا عما أصابهم، وعلموا أنهم ملك لله يتصرف فى عبده

(١) صحيح مسلم برقم (١٨٨٧) من حديث ابن مسعود رضى الله عنه ولفظه مختلف لكن معناه واحد.

(٢) المسند (٣/ ٤٥٥).

(٣) فى جـ: «قد خصوا». (٤) فى جـ: «تعظيماً وتكريماً».

(٥ - ٧) زيادة من جـ. (٨) فى جـ: «أن المراد بالخوف».

(٩) فى جـ: «وينقص». (١٠) فى جـ: «الصابرين».

بما^(١) يشاء، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده، وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة. ولهذا أخبر تعالى عما^(٢) أعطاهم على ذلك فقال: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أى: ثناء من الله عليهم ورحمة.

قال سعيد بن جبير: أى أمنة من العذاب ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾: قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: نعم العدلان ونعمت العلاوة ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ فهذان العدلان ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ فهذه العلاوة، وهى ما توضع بين العدلين، وهى زيادة فى الحمل وكذلك هؤلاء، أعطوا ثوابهم وزيدوا^(٣) أيضاً.

وقد ورد فى ثواب الاسترجاع، وهو قول^(٤): ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ عند المصائب أحاديث كثيرة. فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد:

حدثنا يونس، حدثنا ليث - يعنى ابن سعد - عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد، عن عمرو ابن أبى عمرو، عن المطلب، عن أم سلمة قالت: أتانى أبو سلمة يوماً من عند رسول الله ﷺ، فقال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولاً سررتُ به. قال: «لا يصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبتها، ثم يقول: اللهم اجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيراً منها، إلا فعل ذلك به». قالت أم سلمة: فحفظت ذلك منه، فلما توفى أبو سلمة استرجعت وقلت: اللهم اجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيراً منه، ثم رجعت إلى نفسى. فقلت: من أين لى خير^(٥) من أبى سلمة؟ فلما انقضت عدتى استأذن على رسول الله ﷺ - وأنا أدبغ إهاباً لى - فغسلت يدى من القَرْظ^(٦)، وأذنت له، فوضعت له وسادة آدم حشوها ليف، فقعدها عليها، فخطبني إلى نفسى، فلما فرغ من مقالته قلت: يا رسول الله، ما بى ألا يكون بك الرغبة، ولكنى امرأة فى غيرة شديدة، فأخاف أن ترى منى شيئاً يعذبني الله به، وأنا امرأة قد دخلتُ فى السن، وأنا ذات عيال، فقال: «أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها^(٧) الله، عز وجل، عنك. وأما ما ذكرت من السن فقد أصابنى مثل الذى أصابك، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالى». قالت: فقد سلمتُ لرسول الله ﷺ. فتزوجها رسول الله ﷺ، فقالت أم سلمة بعد: أبدلنى الله بأبى سلمة خيراً منه، رسول الله ﷺ^(٨).

وفى صحيح مسلم، عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ اللهم اجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيراً منها، إلا أجره الله من مصيبتها، وأخلف له خيراً منها». قالت: فلما توفى أبو سلمة قلت كما أمرنى رسول الله ﷺ، فأخلف الله لى خيراً منه: رسول الله ﷺ^(٩).

(١) فى ج: «كيف».

(٢) فى ج: «بما».

(٣) فى ج: «ويزيدوا».

(٤) فى ج: «وهو قوله».

(٥) فى ط: «خيراً».

(٦) فى أ: «القذى».

(٧) فى ج: «من الغيرة فيذهبها».

(٨) المسند (٤/ ٢٧).

(٩) صحيح مسلم برقم (٩١٨).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، وعباد بن عباد قالوا: حدثنا هشام بن أبي هشام، حدثنا عباد بن زياد، عن أمه، عن فاطمة ابنة^(١) الحسين، عن أبيها الحسين بن علي، عن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها - وقال عباد: قَدُمَ عهدها - فيُحَدِّثُ لذلك استرجاعاً، إلا جدد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب»^(٢).

ورواه ابنُ ماجة في سنَّته، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع، عن هشام بن زياد، عن أمه، عن فاطمة بنت الحسين، عن أبيها [الحسين]^(٣) ^(٤).

وقد رواه إسماعيل بن عُلَية، ويزيد بن هارون، عن هشام بن زياد^(٥)، عن أبيه، كذا عن فاطمة، عن أبيها.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق السالحي، أخبرنا حماد بن سلمة، عن أبي سنان قال: دفنتُ ابناً لى، فإني لفي القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة - يعنى الخولاني - فأخرجني، وقال لى: ألا أبشرك؟ قلت: بلى. قال: حدثني الضحاك بن عبد الرحمن بن عَرَزَب، عن أبي موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله^(٦): يا ملك الموت، قبضتَ ولد عبدي؟ قبضتَ قُرَّةَ عينه وثمره فؤاده؟ قال نعم. قال: فما^(٧) قال؟ قال: حمِّدك واسترجع، قال: ابنوا له بيتاً في الجنة، وسموه بيتَ الحمد».

ثم رواه عن علي بن إسحاق، عن عبد الله بن المبارك. فذكره^(٨). وهكذا رواه الترمذى عن سُوَيْد بن نصر، عن ابن المبارك، به^(٩). وقال: حسن غريب. واسم أبي سنان: عيسى بن سنان.

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٥٨) ﴿

قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود الهاشمي، أخبرنا إبراهيم بن سعد، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: قلتُ: أَرَأَيْتَ قولَ الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ قلتُ: فوالله ما على أحد جناح أن لا يطَّوَّفَ بهما؟ فقالت عائشة: بئسما قلت يا ابن أختي إنها لو كانت على ما أولَّتها^(١٠) عليه كانت: فلا جناح عليه

(١) في ج: «بنت».

(٢) المسند (١/ ٢٠١).

(٣) زيادة من ط.

(٤) سنن ابن ماجة برقم (١٦٠٠) وقال البوصيري في الزوائد (١/ ٥٢٨): «هذا إسناد فيه هشام بن زياد وهو ضعيف».

(٥) في ج، ط: «بن يزيد». (٦) في و: «إذا مات ولد العبد قال الله».

(٧) في ج: «فماذا».

(٨) المسند (٤/ ٤١٥).

(٩) سنن الترمذى برقم (١٠٢١).

(١٠) في ج: «كما أولَّتها».

ألا يطوف بهما، ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلّون لمناة الطاغية، التي كانوا يعبدونها عند المشلل. وكان من أهل لها يتخرج أن يطوف بالصفاء والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إنا كنا نتخرج أن نطوف بالصفاء والمروة في الجاهلية. فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾ قالت عائشة: ثم قد سنّ رسول الله ﷺ الطواف بهما، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما. أخرجاه في الصحيحين^(١).

وفي رواية عن الزهري أنه قال: فحدثت بهذا الحديث أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فقال: إن هذا العلم، ما كنت سمعته، ولقد سمعت رجالاً^(٢) من أهل العلم يقولون^(٣): إن الناس - إلا من ذكرت عائشة - كانوا يقولون: إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية. وقال آخرون من الأنصار: إنما أمرنا بالطواف بالبيت، ولم نؤمر بالطواف بين الصفاء والمروة، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ قال أبو بكر بن عبد الرحمن: فاعلها نزلت في هؤلاء وهؤلاء.

ورواه البخاري من حديث مالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة^(٤)، بنحو ما تقدم. ثم قال البخاري: حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنساً عن الصفاء والمروة قال: كنا نرى ذلك^(٥) من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾^(٦).

وذكر القرطبي^(٧) في تفسيره عن ابن عباس قال: كانت الشياطين تفرق بين الصفاء والمروة الليل كله، وكانت بينهما آلهة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن الطواف بينهما، فنزلت هذه الآية. وقال الشعبي: كان إساف على الصفاء، وكانت نائلة على المروة، وكانوا يستلمونهما فتخرجوا بعد الإسلام من الطواف بينهما، فنزلت هذه الآية قلت: وذكر ابن إسحاق في كتاب السيرة^(٨) أن إسافاً ونائلة كانا بشرين، فزنيا داخل الكعبة فمسخا حجرتين فنصبتهما قريش تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناس، فلما طال عهدهما عبداً، ثم حولا إلى الصفاء والمروة، فنصبا هنالك، فكان من طاف بالصفاء والمروة يستلمهما، ولهذا يقول أبو طالب في قصيدته المشهورة:

وحيث ينيخ الأشعرون ركايبهم بمفضى السيول من إساف ونائل

وفي صحيح مسلم [من]^(٩) حديث جابر الطويل، وفيه: أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه

(١) المسند (١٤٤/٦) وصحيح البخاري برقم (١٦٤٣).

(٢) في ج: «رجلاً». (٣) في ج: «يقول».

(٤) صحيح البخاري برقم (٤٤٩٥).

(٥) في ج: «أنها».

(٦) صحيح البخاري برقم (٤٤٩٦).

(٧) في أ: «وذكر الطبري».

(٨) السيرة النبوية لابن إسحاق رقم النص (٤) ط، حميد الله، المغرب.

(٩) زيادة من ج.

بالبیت، عاد إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من باب الصفا، وهو يقول: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ ثم قال: «أبدأ بما بدأ الله به». وفي رواية النسائي: «ابدؤوا بما بدأ الله به»^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا شريح، حدثنا عبد الله بن المؤمل، عن عطاء بن أبي رباح، عن صفية بنت شيبة، عن حبيبة بنت أبي تَجْرَةَ^(٢)، قالت: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة، والناس بين يديه، وهو وراءهم، وهو يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعى يدور به إزاره، وهو يقول: «اسعوا، فإن الله كتب عليكم السعى»^(٣).

ثم رواه الإمام أحمد، عن عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن واصل - مولى أبي عيينة - عن موسى ابن عبيدة^(٤)، عن صفية بنت شيبة، أن امرأة أخبرتها أنها سمعت النبي ﷺ بين الصفا والمروة يقول: «كُتِبَ عليكم السعى، فاسعوا»^(٥).

وقد استدلل بهذا الحديث على مذهب من يرى أن السعى بين الصفا والمروة ركن في الحج، كما هو مذهب الشافعي، ومن وافقه [ورواية عن أحمد وهو المشهور عن مالك]^(٦). وقيل: إنه واجب، وليس بركن [فإن تركه عمداً أو سهواً جبره بدم وهو رواية عن أحمد وبه تقول طائفة وقيل: بل مستحب، وإليه ذهب أبو حنيفة والثوري والشعبي وابن سيرين، وروى عن أنس وابن عمر وابن عباس وحكى عن مالك في العتبية، قال القرطبي: واحتجوا بقوله: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾]^(٧). وقيل: بل مستحب. والقول الأول أرجح، لأنه عليه السلام طاف بينهما، وقال: «لتأخذوا عنى مناسككم». فكل ما فعله في حَجَّته تلك واجب لابد من فعله في الحج، إلا ما خرج بدليل، والله أعلم [وقد تقدم قوله عليه السلام: «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعى»]^(٨).

فقد بين الله - تعالى - أن الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله، أي: مما شرع الله تعالى لإبراهيم الخليل في مناسك الحج، وقد تقدم في حديث ابن عباس أن أصل ذلك مأخوذ من تطواف^(٩) هاجر وتردادهما بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها، لما نفذ ماؤها وزادها، حين تركهما إبراهيم - عليه السلام - هنالك ليس عندهما أحد من الناس، فلما خافت الضيعة على ولدها هنالك، ونفذ ما عندها قامت تطلب الغوث من الله، عز وجل، فلم تنزل تردد^(١٠) في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة متدلة خائفة وجلّة مضطرة فقيرة إلى الله، عز وجل، حتى كشف الله كربتها، وآسن غربتها، وفرج شدتها، وأنبع لها زمزم التي ماؤها طعام طعم، وشفاء سقم، فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذلة وحاجته إلى الله في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه، وأن يلتجئ إلى الله،

(١) صحيح مسلم برقم (١٢١٨).

(٢) في ج: «بنت أبي تَجْرَةَ».

(٣) المسند (٦/ ٤٢١).

(٤) في أ: «بن عبيدة».

(٥) المسند (٦/ ٤٣٧).

(٦ - ٨) زيادة من ج، ط، أ. (٩) في ج: «تطوف»، وفي أ: «طواف».

(١٠) في ج: «نزل تتردد».

عز وجل ليزيح ما هو به من النقائص والعيوب، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم^(١)، وأن يثبت عليه إلى مماته، وأن يحولّه من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي، إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة، كما فعل بهاجر - عليها السلام.

وقوله: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ قيل: زاد في طوافه بينهما على قدر الواجب ثامنة وتاسعة ونحو ذلك. وقيل: يطوف بينهما^(٢) في حجة تطوع، أو عمرة تطوع. وقيل: المراد تطوع خيراً في سائر العبادات. حكى ذلك [فخر الدين]^(٣) الرازي، وعزى الثالث إلى الحسن البصري، والله أعلم. وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي: يثيب على القليل بالكثير ﴿عَلِيمٌ﴾ بقدر الجزاء فلا يبخس أحداً ثوابه و ﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦٢)﴾.

هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والهدى النافع للقلوب، من بعد ما بينه الله - تعالى - لعباده في كتبه، التي أنزلها على رسله.

قال^(٥) أبو العالية: نزلت في أهل الكتاب، كتموا صفة محمد ﷺ. ثم أخبر أنهم^(٦) يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك، فكما أن العالم يستغفر له كل شيء، حتى الحوت في الماء والطير في الهواء، فهؤلاء^(٧) بخلاف العلماء [الذين يكتُمون]^(٨)، فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. وقد ورد في الحديث المسند من طرق يشد بعضها بعضاً، عن أبي هريرة، وغيره: أن رسول الله ﷺ قال: «من سئل عن علم، فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»^(٩). والذي في الصحيح عن أبي هريرة أنه قال: لولا آية في كتاب الله ما حدثتُ أحداً شيئاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾ الآية^(١٠).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عمار بن محمد، عن ليث بن أبي سليم،

(١) في ج: «إلى صراط مستقيم»، وفي ط: «إلى صراطه المستقيم».

(٢) في أ، و: «ومن».

(٣) في أ: «بها».

(٤) زيادة من ج، ط، أ.

(٥) في ج: «وقال».

(٦) في ج: «أنه».

(٧) في ج: «فهو».

(٨) زيادة من ج، ط.

(٩) المسند (٢/ ٢٦٣) وقد توسع الحافظ الزيلعي في كتابه «تخريج أحاديث الكشاف» (١/ ٢٥٢ - ٢٥٧) في ذكر طرق هذا الحديث.

(١٠) صحيح البخاري برقم (١١٨) وصحيح مسلم برقم (٢٤٩٢).

عن^(١) المنهال بن عمرو، عن زاذان أبي عمر^(٢)، عن البراء بن عازب، قال: كنا مع النبي ﷺ في جنازة، فقال: «إن الكافر يُضْرَبُ ضربة بين عينيه، فيسمع صوته كل^(٣) دابة غير الثقلين، فتلعنه كل دابة سمعت صوته، فذلك قول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ يعني: دواب الأرض»^(٤).

[ورواه ابن ماجه عن محمد بن عمار بن محمد به]^(٥).

وقال عطاء بن أبي رباح: كل دابة والجن والإنس. وقال مجاهد: إذا أجذبت الأرض قالت البهائم: هذا من أجل عصاة بني آدم، لعن الله عصاة بني آدم. وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾: يعني تلعنهم ملائكة الله، والمؤمنون.

[وقد جاء في الحديث، أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان، وجاء في هذه الآية: أن كاتم العلم يلعنه الله والملائكة والناس أجمعون، واللاعنون أيضاً، وهم كل فصيح وأعجمي إما بلسان المقال، أو الحال أو لو كان له عقل أو يوم القيامة والله أعلم]^(٦).

ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب إليه فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا﴾ أي: رجعوا عما كانوا فيه وأصلحوا أعمالهم وأحوالهم وبيَّنوا للناس ما كانوا كتموه ﴿فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. وفي هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر، أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب الله عليه.

وقد ورد أن الأمم السالفة لم تكن التوبة تقبل^(٧) من مثل هؤلاء منهم، ولكن هذا من شريعة نبي التوبة ونبي الرحمة صلوات الله وسلامه عليه.

ثم أخبر تعالى عمن كفر به واستمر به الحال إلى مماته بأن ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ. خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في اللعنة التابعة^(٨) لهم إلى يوم القيامة^(٩)، ثم المصاحبة لهم في نار جهنم التي ﴿لَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ فيها، أي: لا ينقص عما هم فيه ﴿وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: لا يُغَيَّرُ^(١٠) عنهم ساعة واحدة، ولا يفتر، بل هو متواصل دائم، فنعوذ بالله من ذلك.

وقال أبو العالية وقتادة: إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله، ثم تلعه الملائكة، ثم يلعه الناس أجمعون.

فصل: لا خلاف في جواز لعن الكفار، وقد كان عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، وعمن بعده

(١) في ج: «قال». (٢) في أ: «زاذان بن عمر».

(٣) في ج، أ، و: «يسمعها».

(٤) هذا قطعة من حديث طويل رواه أبو داود في السنن برقم (٤٧٥٣، ٤٧٥٤) والنسائي في السنن (٧٨ / ٤) من طريق زاذان به، وسيأتي ذكره عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في تفسير سورة إبراهيم.

(٥، ٦) زيادة من ج، ط، أ.

(٧) في ج: «تقبل منهم». (٨) في ج: «الباقية».

(٩) في أ: «يوم الدين». (١٠) في ج، أ، و: «لا يفتر».

من الأئمة، يلعنون الكفرة في القنوت وغيره؛ فأما الكافر المعين، فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يلعن لأنا لا ندرى بما يختتم له، واستدل بعضهم بهذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، وقالت طائفة أخرى: بل يجوز لعن الكافر المعين. واختار ذلك الفقيه أبو بكر بن العربي المالكي، ولكنه احتج بحديث فيه ضعف، واستدل غيره بقوله، عليه السلام، في صحيح البخاري في قصة الذي كان يؤتى به سكران فيحده، فقال رجل: لعنه الله، ما أكثر ما يؤتى به، فقال رسول الله ﷺ: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله»^(١) قالوا: فعلة المنع من لعنه؛ بأنه يحب الله ورسوله فدل على أن من لا يحب الله ورسوله يلعن، والله أعلم.

﴿وَالَهُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦٣).

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَفَرُّدِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ، وَأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا عَدِيلَ لَهُ، بَلْ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَنَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. وقد تقدم تفسير هذين الاسمين في أول السورة^(٢). وفي الحديث عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد بن السكن، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَالَهُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ و ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١، ٢]»^(٣).

ثم ذكر الدليل على تفرده بالإلهية [بتفرده]^(٤) بخلق السموات والأرض وما فيهما، وما بين ذلك مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته، فقال:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٦٤).

يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تلك في [لطافتها و]^(٥) ارتفاعها واتساعها وكواكبها السيارة والثواب ودوران فللكها، وهذه الأرض في [كثافتها و]^(٦) انخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعُمرانها وما فيها من المنافع ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه، لا^(٧) يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] وتارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتقارضان، كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١] أي: يزيد من هذا في هذا، ومن هذا في هذا ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم (٦٧٨٠) من حديث عمر رضى الله عنه.

(٢) في ج، ط، أ، و: «في أول الفاتحة».

(٣) رواه أبو داود في السنن برقم (١٤٩٦) والترمذي في السنن برقم (٣٤٧٨) وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

(٤) زيادة من ج، ط. (٥) زيادة من أ.

(٦) في ط: «ولا».

أى: فى تسخير البحر لحمل السفن من جانب إلى جانب لمعاش الناس، والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم، ونقل هذا إلى هؤلاء وما عند أولئك إلى هؤلاء^(١) ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ . لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ . سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تَبَتُّ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٣ - ٣٦]. ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أى: على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه لا يخفى عليه شيء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦] ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ﴾ أى: تارة تاتى بالرحمة وتارة تاتى بالعذاب، تارة^(٢) تاتى مبشرة^(٣) بين يدى السحاب، وتارة تسوقه، وتارة تجمععه، وتارة تفرقه، وتارة تصرفه، [ثم تارة تاتى من الجنوب وهى الشامية، وتارة تاتى من ناحية اليمن وتارة صبا، وهى الشرقية التى تصدم وجه الكعبة، وتارة دبور وهى غربية تغد من ناحية دبر الكعبة والرياح تسمى كلها بحسب مرورها على الكعبة. وقد صنف الناس فى الرياح والمطر والأنواء كتباً كثيرة فيما يتعلق بلغاتها وأحكامها، وبسط ذلك يطول ههنا، والله أعلم^(٤).] ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [أى: سائر بين السماء والأرض]^(٥) يُسَخَّرُ إِلَى مَا يَشَاءُ اللَّهُ^(٦) من الأراضى والأماكن، كما يصرفه تعالى: ﴿لَايَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أى: فى هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: أخبرنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا أبو سعيد الدشتكى حدثنى أبى، عن أبيه، عن أشعث بن إسحاق، عن جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: أتت قريش محمداً ﷺ فقالوا: يا محمد إنما نريد أن تدعو ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً، فنشترى به الخيل والسلاح، فنؤمن بك ونقاتل معك. قال: «أوثقوا»^(٧) لى لئن دعوت ربى فجعل لكم الصفا ذهباً لتؤمنن بى». فأوثقوا له، فدعا ربه، فأتاه جبريل فقال: إن ربك قد أعطاهم الصفا ذهباً على أنهم إن لم يؤمنوا بك عذبهم عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين. قال محمد ﷺ: «رب لا، بل دعنى وقومى فلا تدعهم يوماً بيوم». فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ الآية.

(١) فى جد: «أولئك لهؤلاء». (٢) فى جد: «وتارة».

(٣) فى أ: «مسيرة». (٤) زيادة من جد، ط، أ.

(٥) زيادة من جد، أ، و.

(٦) فى جد: «مسخراً إلى ما شاء الله»، وفى ط: «مسخر إلى ما يشاء الله».

(٧) فى أ: «أوثقوا».

ورواه ابن أبي حاتم من وجه آخر، عن جعفر بن أبي المغيرة، به^(١). وزاد في آخره: وكيف يسألونك عن الصفا وهم يرون من الآيات ما هو أعظم من الصفا.

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيع، عن عطاء، قال: نزلت على النبي ﷺ بالمدينة: ﴿وَالْهَكْمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾. فقال كفار قريش بمكة: كيف يسع الناس إله واحد؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس﴾ إلى قوله: ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فهذا يعلمون أنه إله واحد، وأنه إله كل شيء وخالق كل شيء.

وقال وكيع: حدثنا سفيان، عن أبيه، عن أبي الضحى قال: لما نزلت: ﴿وَالْهَكْمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ إلى آخر الآية، قال المشركون: إن كان هكذا فليأتنا بآية. فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاختلاف الليل والنهار﴾ إلى قوله: ﴿يَعْقِلُونَ﴾.

ورواه آدم بن أبي إياس، عن أبي جعفر - هو الرازي - عن سعيد بن مسروق، والد سفيان، عن أبي الضحى، به.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا فَنَتَّبِعَهُم مِّنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)﴾.

يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا وما لهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا [له]^(٢) أنداداً، أى: أمثالا ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو، ولا ضد له ولا ند له، ولا شريك معه. وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أى الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»^(٣).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾: ولحبهم لله وتام معرفتهم به، وتوحيدهم له، لا يشركون به شيئاً، بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه، ويلجؤون في جميع أمورهم إليه. ثم توعد تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك فقال: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ

(١) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ١٢) من طريق يحيى الخمانى عن يعقوب القمى، عن جعفر بن أبي المغيرة به نحوه.

(٢) زيادة من ج.

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٤٧٧) وصحيح مسلم برقم (٦٨).

جَمِيعاً ﴿١﴾ قال بعضهم: تقدير الكلام: لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعاً، أى: إن الحكم له ^(١) وحده لا شريك له، وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلبيه وسلطانه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ كما قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثْقَاهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦] يقول: لو علموا ما يعاينونه ^(٢) هنالك، وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم، لا انتهوا عما هم فيه من الضلال.

ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم وتبرؤ المتبوعين من التابعين، فقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ] ^(٣) تَبَرَّأَتْ مِنْهُمْ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَهُمْ فِي دَارِ الدُّنْيَا، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣] ويقولون: ﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِينَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١]. والجن أيضاً تَبَرَّأَ مِنْهُمْ، وَيَتَنَصَّلُونَ مِنْ عِبَادَتِهِمْ لَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ. وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا. كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]. وَقَالَ الْخَلِيلُ لِقَوْمِهِ: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمُ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعْفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعْفُوا أَنْحُنُ صَدْدَنَاكُمْ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعْفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١ - ٣٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقوله: ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ أى: عاينوا عذاب الله، وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص ولم يجدوا عن النار مَعْدَلاً وَلَا مُصْرَفًا. قال عطاء عن ابن عباس ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ قال: المودة. وكذا قال مجاهد فى رواية ابن أبى نجيج.

وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾ أى: لو أن لنا عَوْدَةً ^(٤) إلى

(١) فى ج، ط: «إن الحكم لله». (٢) فى ج: «ما يعاينوه».

(٣) زيادة من ج.

(٤) فى ط: «دعوة».

الدار الدنيا حتى نَتَّبَرًا من هؤلاء ومن عبادتهم، فلا نلتفت إليهم، بل نوحده الله وحده بالعبادة. وهم كاذبون في هذا، بل لو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه. كما أخبر الله تعالى عنهم بذلك؛ ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يَرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ أي: تذهب وتضمحل كما قال الله تعالى: ﴿وَقَدَّمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ الآية [إبراهيم: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمَانُ مَاءً﴾ الآية [النور: ٣٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩).

لما بين تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه المستقل بالخلق، شرع يبين أنه الرازق لجميع خلقه، فذكر [ذلك] (١) في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالاً من الله طيباً، أي: مستطاباً في نفسه غير ضارٍّ للأبدان ولا للعقول ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان، وهي: طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه من تحريم البحائر والسوائب والوصائل ونحوها مما زينه لهم في جاهليتهم، كما في حديث عياض بن حمار الذي في صحيح مسلم، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: إن كل ما أمنحه (٢) عبادي فهو لهم حلال» وفيه: «وإني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحَرَمْتُ عليهم ما أحللتُ لهم» (٣).

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن عيسى بن شيبه (٤) المصري، حدثنا الحسين بن عبد الرحمن الاحتياطي، حدثنا أبو عبد الله الجوزجاني (٥) - رفيق إبراهيم ابن أدهم - حدثنا ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: تليت هذه الآية عند النبي ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ فقام سعد بن أبي وقاص، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة، فقال: «يا سعد، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده، إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوماً، وأيما عبد نبت لحمه من السُّحْتِ والربا فالنار أولى به» (٦).

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾: تنفير عنه وتحذير منه، كما قال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وقال تعالى: ﴿افْتَتَحْ ذُوهُ ذَوْرِيتهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

(٢) في جـ، ط، أ، و: «كل مال منحه».

(١) زيادة من أ.

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥).

(٤) في جـ: «شعبة»، وفي هـ: «شيبه».

(٥) في جـ: «الجرجاني».

(٦) المعجم الاوسط للطبراني برقم (٥٠٢٦) «مجمع البحرين».

وقال قتادة، والسدى فى قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ﴾: كل معصية لله فهى من خطوات الشيطان.

وقال عكرمة: هى نزعات الشيطان، وقال مجاهد: خطاه، أو قال: خطاياها.

وقال أبو مجلز: هى النذور فى المعاصى.

وقال الشعبى: نذر رجل أن ينحر ابنه فأفتاه مسروق بذبح كبش. وقال: هذا من خطوات الشيطان.

وقال أبو الضحى، عن مسروق: أتى عبد الله بن مسعود بضرع وملح، فجعل يأكل، فاعتزل رجل من القوم، فقال ابن مسعود: ناولوا صاحبكم. فقال: لا أريده. فقال: أصائم أنت؟ قال: لا. قال: فما شأنك؟ قال: حرمت أن أكل ضرعاً أبداً. فقال ابن مسعود: هذا من خطوات الشيطان، فاطعم وكفر عن يمينك.

رواه ^(١) ابن أبى حاتم، وقال أيضاً:

حدثنا أبى، حدثنا حسان بن عبد الله المصرى، عن سليمان التيمى، عن أبى رافع، قال: غضبت على امرأتى، فقالت: هى يوماً يهودية ويوماً نصرانية، وكل مملوك لها حر، إن لم تطلق امرأتك. فأتيت عبد الله بن عمر فقال: إنما هذه من خطوات الشيطان. وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة، وهى يومئذ أفقه امرأة فى المدينة. وأتيت عاصماً وابن عمر ^(٢) فقالا مثل ذلك.

وقال عبد بن حميد: حدثنا أبو نعيم ^(٣)، عن شريك، عن عبد الكريم، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ما كان من يمين أو نذر فى غضب، فهو من خطوات الشيطان، وكفارته كفارة يمين.

[وقال سعيد بن داود فى تفسيره: حدثنا عبادة بن عباد المهلبى عن عاصم الأحول، عن عكرمة فى رجل قال لغلامه: إن لم أجلك مائة سوط فامرأته طالق، قال: لا يجلد غلامه، ولا تطلق امرأته هذا من خطوات الشيطان] ^(٤).

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى: إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة، وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه، وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم، فدخل ^(٥) فى هذا كل كافر وكل مبتدع أيضاً.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صَمٌّ بِكُمْ عَمِي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١)﴾.

(١) فى ج: «روى هذا»، وفى ط، أ، و: «رواهن».

(٢) فى ط: «عاصم بن عمر».

(٣) فى ج: «عبد الله بن نعيم».

(٤) زيادة من ج، ط.

(٥) فى ط: «فدخل».

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُوَلَاءِ الْكُفْرَةُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ عَلَى رَسُولِهِ، وَاتْرَكُوا مَا أَنْتُمْ فِيهِ^(١) مِنَ الضَّلَالِ وَالْجَهْلِ، قَالُوا فِي جَوَابِ ذَلِكَ: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا﴾ أَيْ: وَجَدْنَا ﴿عَلَيْهِ آبَاءُنَا﴾ أَيْ: مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ: ﴿أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾ أَيْ: الَّذِينَ يَقْتَدُونَ بِهِمْ وَيَقْتَفُونَ أَثَرَهُمْ ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أَيْ: لَيْسَ لَهُمْ فَهْمٌ وَلَا هِدَايَةٌ!!
وروى ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: أنها نزلت في طائفة من اليهود، دعاهم رسولُ الله ﷺ إلى الإسلام، فقالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آبائنا. فأنزل الله هذه الآية.

ثم ضرب لهم تعالى مثلاً، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّءِ﴾ [النحل: ٦٠]، فقال: ﴿وَمِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيْ: فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْغَى وَالضَّلَالِ وَالْجَهْلِ كَالدُّوَابِّ السَّارِحَةِ الَّتِي لَا تَفْقَهُ مَا يُقَالُ لَهَا، بَلْ إِذَا نَعَقَ بِهَا رَاعِيهَا، أَيْ: دَعَاهَا إِلَى مَا يُرْسِدُهَا، لَا تَفْقَهُ مَا يَقُولُ وَلَا تَفْهَمُهُ، بَلْ إِنَّمَا تَسْمَعُ صَوْتَهُ فَقَطْ.

هكذا روى عن ابن عباس، وأبي العالية، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، والحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني والربيع بن أنس، نحو هذا.

وقيل: إنما هذا مثل ضرب لهم في دعائهم الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئاً، اختاره ابن جرير، والأول أولى؛ لأن الأصنام لا تسمع شيئاً ولا تعقله ولا تبصره، ولا بطش لها ولا حياة فيها^(٢). وقوله: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمِي﴾ أَيْ: صَمٌّ عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ، بَكْمٌ لَا يَتَفَوَّهُونَ بِهِ، عُمِي عَنْ رُؤْيَا طَرِيقِهِ وَمَسْلَكِهِ ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أَيْ: لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَفْهَمُونَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبَكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

وقوله: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمِي﴾ أَيْ: صُمٌّ عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ، بَكْمٌ لَا يَتَفَوَّهُونَ بِهِ، عُمِي عَنْ رُؤْيَا طَرِيقِهِ وَمَسْلَكِهِ ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أَيْ: لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَفْهَمُونَهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٧٣)﴾.

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى، وأن يشكروه على ذلك، إن كانوا عبيده، والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد:

حدثنا أبو النضر، حدثنا الفضيل بن مرزوق، عن عدى بن ثابت، عن أبي حازم، عن أبي هريرة

(١) في أ: «ما أنتم عليه».

(٢) في أ: «لأن الأصنام لا تسمع دعاء ولا نداء بل هي جمادات لا تسمع شيئاً».

قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يارب، يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام، وغذى بالحرام، فأنى يستجاب لذلك».

ورواه مسلم في صحيحه، والترمذي من حديث [فضيل]^(١) بن مرزوق^(٢). ولما امتن تعالى عليهم برزقه، وأرشدهم إلى الأكل من طيبه، ذكر أنه لم يُحرّم عليهم من ذلك إلا الميتة، وهي التي تموت حتف أنفها من غير تذكية، وسواء كانت منخقة أو موقوذة أو متردية أو نطيحة أو قد عدا عليها السبع.

وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر لقوله تعالى: ﴿أَحْلَلْ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة: ٩٦] على ما سيأتى، وحديث العنبر في الصحيح وفي المسند والموطأ والسنن قوله، عليه السلام، في البحر: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» وروى الشافعي وأحمد وابن ماجه والدارقطني من حديث ابن عمر مرفوعاً: «أحل لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطحال» وسيأتى تقرير ذلك في سورة المائدة^(٣).

ولبن الميتة وبيضها المتصل بها نجس عند الشافعي وغيره؛ لأنه جزء منها. وقال مالك في رواية: هو طاهر إلا أنه ينجس بالمجاورة، وكذلك أنفحة الميتة فيها الخلاف والمشهور عندهم أنها نجسة، وقد أوردوا على أنفسهم أكل الصحابة من جبن المجوس، فقال القرطبي في تفسيره هاهنا: يخالط اللبن منها يسير، ويعفى عن قليل النجاسة إذا خالط الكثير من المائع. وقد روى ابن ماجه من حديث سيف ابن هارون عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان النهدي، عن سلمان سئل رسول الله ﷺ عن السمن والجبن والفراء، فقال: «الحلال ما أحل الله في كتابه، والحرام ما حرم الله في كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه»^(٤).

وكذلك حرم عليهم لحم الخنزير، سواء ذكّى أو مات حتف أنفه، ويدخل شحمه في حكم لحمه^(٥)، إما تغليباً أو أن اللحم يشمل ذلك، أو بطريق القياس على رأى. و[كذلك]^(٦) حرم عليهم ما أهلك به لغير الله، وهو ما ذبح على غير اسمه^(٧) تعالى من الأنصاب والأنداد والأزلام، ونحو ذلك

(١) زيادة من أ.

(٢) المسند (٢/ ٣٢٨) وصحيح مسلم برقم (١٠١٥) وسنن الترمذي برقم (٢٩٨٩).

(٣) وسيأتى تخريج الحديثين عند تفسير أول سورة المائدة.

(٤) سنن ابن ماجه برقم (٣٣١٧) ورواه الترمذي في السنن برقم (١٧٢٦) من طريق سيف بن هارون به وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه». وروى سفيان وغيره عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان، عن سلمان قوله، وكان الحديث الموقوف أصح، وسألت البخاري عن هذا الحديث فقال: ما أراه محفوظاً، روى سفيان عن سليمان التيمي عن أبي عثمان، عن سلمان موقوفاً، قال البخاري: «وسيف بن هارون مقارب الحديث، وسيف بن محمد، عن عاصم ذاهب الحديث».

(٥) في ج: «ويدخل لحمه في حكم شحمه». (٦) زيادة من ج، أ، و. (٧) في ج: «غير اسم الله».

مما كانت الجاهلية ينحرون له. [وذكر القرطبي عن ابن عطية أنه نقل عن الحسن البصري: أنه سئل عن امرأة عملت عرساً للعبها فنحرت فيه جزوراً، فقال: لا تؤكل لأنها ذبحت لصنم؛ وأورد القرطبي عن عائشة أنها سئلت عما يذبحه العجم في أعيادهم فيهدون منه للمسلمين، فقالت: ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوه، وكلوا من أشجارهم^(١). ثم أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج إليها، عند فقد غيرها من الأطعمة، فقال: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أى: فى غير بغى ولا عدوان، وهو مجاوزة الحد ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أى: فى أكل ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقال مجاهد: فمن اضطر غير باغ ولا عاد، قاطعاً للسبيل، أو مفارقاً للأئمة، أو خارجاً فى معصية الله، فله الرخصة ومن خرج باغياً أو عادياً أو فى معصية الله فلا رخصة له، وإن اضطر إليه، وكذا روى عن سعيد بن جبير.

وقال سعيد - فى رواية عنه، ومقاتل بن حيان: غير باغ: يعنى غير مستحله. وقال السدى: غير باغ يبتغى فيه شهوته، وقال عطاء الخراسانى فى قوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ [قال]^(٢): لا يشوى من الميتة ليشتهي ولا يطبخه، ولا يأكل إلا العُلُقَةَ، ويحمل معه ما يبلغه الحلال، فإذا بلغه ألقاه [وهو قوله: ﴿وَلَا عَادٍ﴾ يقول: لا يعدو به الحلال]^(٣).

وعن ابن عباس: لا يشيع منها. وفسره السدى بالعدوان. وعن ابن عباس ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ قال: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ فى الميتة، ﴿وَلَا عَادٍ﴾ فى أكله. وقال قتادة: فمن اضطر غير باغ ولا عاد فى^(٤) أكله: أن يتعدى حلالاً إلى حرام، وهو يجد عنه مندوحة.

وحكى القرطبي عن مجاهد فى قوله: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ أى: أكره على أكل ذلك بغير اختياره. مسألة: ذكر القرطبي إذا وجد المضطر ميتة وطعام الغير بحيث لا قطع فيه ولا أذى، فإنه لا يحل له أكل الميتة بل يأكل طعام الغير بلا خلاف - كذا قال - ثم قال: وإذا أكله، والحالة هذه، هل يضمه أم لا؟ فيه قولان هما روايتان عن مالك، ثم أورد من سنن ابن ماجة من حديث شعبة عن أبى إياس جعفر بن أبى وحشية: سمعت عباد بن العنزى^(٥) قال: أصابتنا عاماً مخمصة، فأتيت المدينة^(٦). فأتيت حائطاً، فأخذت سنبلاً ففركته وأكلته، وجعلت منه فى كسائى، فجاء صاحب الحائط فضربنى وأخذ ثوبى، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال للرجل: «ما أطعمته إذ كان جائعاً أو ساعياً، ولا علمته إذ كان جاهلاً»^(٧). فأمره فرد إليه ثوبه، وأمر له بوسق من طعام أو نصف وسق، إسناد صحيح قوى جيد وله شواهد كثيرة: من ذلك حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده: سئل رسول الله ﷺ عن الثمر المعلق، فقال: «من أصاب منه من ذى حاجة بفيه غير متخذ خبنة»^(٨)، فلا شئ عليه^(٩) الحديث.

(١) زيادة من ج، أ.

(٢) زيادة من ج.

(٣) زيادة من و.

(٤) فى أ: «شرحيل الفتوى»، وفى ط: «بشر العنزى»، والصواب ما أثبتناه.

(٥) فى أ: «فأتيت الخففة».

(٦) فى أ: «فأتيت الخففة».

(٧) سنن ابن ماجة برقم (٢٢٩٨).

(٨) فى أ: «غير منحن جبيه».

(٩) رواه الترمذى فى السنن برقم (١٢٨٩) وقال: «هذا حديث حسن».

وقال مقاتل بن حيان فى قوله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: فيما أكل من اضطرار، وبلغنا - والله أعلم - أنه لا يزاد^(١) على ثلاث لقم.

وقال سعيد بن جبیر: غَفُورٌ لما أكل من الحرام. رحيم إذ أحل له الحرام فى الاضطرار. وقال وكيع: حدثنا الأعمش، عن أبى الضحى، عن مسروق قال: من^(٢) اضطرَّ فلم يأكل ولم يشرب، ثم مات دخل النار.

[وهذا يقتضى أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة. قال أبو الحسن الطبرى - المعروف بالكيالهراسى رفيق الغزالى فى الاشتغال: وهذا هو الصحيح عندنا؛ كالإفطار للمريض فى رمضان ونحو ذلك]^(٣).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (١٧٦).

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ [مما يشهد له بالرسالة]^(٤) ﴿مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعنى اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ فى كتبهم التى بأيديهم، مما تشهد^(٥) له بالرسالة والنبوة، فكتموا ذلك لثلاث تذهب رياستهم وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم إياهم، فخشوا - لعنهم الله - إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم، فكتموا ذلك إبقاء على ما كان يحصل لهم من ذلك، وهو نَزْرٌ يسير، فباعوا أنفسهم بذلك، واعتاضوا عن الهدى واتباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن الله بذلك النذر اليسير، فخابوا وخسروا فى الدنيا والآخرة؛ أما فى الدنيا فإن الله أظهر لعباده صِدْقَ رسوله، بما نصبه وجعله معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات، فصدقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه، وصاروا عوناً له على قتالهم، وباؤوا بغضب على غضب، وذمَّهم الله فى كتابه فى غير^(٦) موضع. من ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وهو عرض الحياة الدنيا ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ أى: إنما يأكلون ما يأكلونه فى مقابلة كتمان الحق ناراً تَأْجِجُ فى بطونهم يوم القيامة. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، وفى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الذى يأكل أو يشرب فى آنية الذهب

(١) فى أ: «أنه لا يزيد».

(٢) فى ج: «فمن».

(٣، ٤) زيادة من ج.

(٥) فى أ: «كالعهد».

(٦) فى ج، أ، و: «فى غير ما».

والفضة، إنما يُجْرَجُ في بطنه نار جهنم»^(١).

وقوله: ﴿وَلَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: وذلك لأنه غضبانٌ عليهم، لأنهم كتموا وقد علموا، فاستحقوا الغضب، فلا ينظر إليهم ولا يزكيهم، أى: يثنى^(٢) عليهم ويمدحهم بل يعذبهم عذاباً أليماً.

وقد ذكر ابن أبى حاتم وابن مردويه هاهنا [الحديث الذى رواه مسلم أيضاً من]^(٣) حديث الأعمش، عن أبى حازم، عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم [ولهم عذاب أليم]^(٤): شيخ زان، ومملك كذاب، وعائل مستكبر»^(٥).

ثم قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهَدَى﴾ أى: اعتاضوا عن الهدى، وهو نشر ما فى كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه والبشارة به من كتب الأنبياء واتباعه وتصديقه، استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه بالضلالة، وهو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته فى كتبهم ﴿وَالْعَذَابُ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ أى: اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب، وهو ما تعاطوه من أسبابه المذكورة.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾: يخبر تعالى أنهم فى عذاب شديد عظيم هائل، يتعجب من رأيهم فيها من صبرهم على ذلك، مع^(٦) شدة ما هم فيه من العذاب، والنكال، والأغلال عياداً بالله من ذلك.

[وقيل معنى قوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ أى: ما أدومهم لعمل المعاصى التى تفضى بهم إلى النار]^(٧).

وقوله: ﴿ذَلِكَ بَأْنُ اللَّهِ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أى: إنما استحقوا هذا العذاب الشديد لأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد ﷺ وعلى الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزواً، فكتابهم يأمرهم بإظهار العلم ونشره، فخالفوه وكذبوه. وهذا الرسول الخاتم يدعوهم إلى الله تعالى، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وهم يكذبونه ويخالفونه ويجحدونه، ويكتمون صفته، فاستهزؤوا بآيات الله المنزلة على رسوله؛ فلهذا استحقوا العذاب والنكال؛ ولهذا^(٨) قال: ﴿ذَلِكَ بَأْنُ اللَّهِ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا

(١) صحيح البخارى برقم (٥٦٣٤) وصحيح مسلم برقم (٢٠٦٥) من حديث أم سلمة رضى الله عنها .

(٢) فى أ: «أى: لا يثنى» .

(٣) زيادة من ج، أ .

(٤) زيادة من ج، وصحيح مسلم .

(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٠٧) .

(٦) فى ج، أ، و: «من» .

(٧) زيادة من أ .

(٨) فى ج: «فلهذا» .

وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة، على جمل عظيمة، وقواعد عميمة، وعقيدة مستقيمة، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبيد^(١) بن هشام الحلبي، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن عامر بن شق، عن عبد الكريم، عن مجاهد، عن أبي ذر: أنه سأل رسول الله ﷺ: ما الإيمان؟ فتلا عليه: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ﴾ إلى آخر الآية. قال: ثم سأله أيضاً، فتلاها عليه^(٢)، ثم سأله. فقال: «إذا عملت حسنة أحبها^(٣) قلبك، وإذا عملت سيئة أبغضها^(٤) قلبك»^(٥). وهذا منقطع؛ فإن^(٦) مجاهداً لم يدرك أبا ذر؛ فإنه مات قديماً.

وقال المسعودي: حدثنا القاسم بن عبد الرحمن، قال: جاء رجل إلى أبي ذر، فقال: ما الإيمان؟ فقرأ^(٧) عليه هذه الآية: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ﴾ حتى فرغ منها. فقال الرجل: ليس عن البر سألتك. فقال أبو ذر: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عما سألتني عنه، فقرأ عليه هذه الآية، فأبى أن يرضى كما أبيت [أنت]^(٨) أن ترضى فقال له رسول الله ﷺ - وأشار بيده -: «المؤمن إذا عمل حسنة سرته ورجا ثوابها، وإذا عمل سيئة أحرزته وخاف عقابها»^(٩). رواه ابن مردويه، وهذا أيضاً منقطع، والله أعلم.

وأما الكلام على تفسير هذه الآية، فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولاً بالتوجه إلى بيت المقدس، ثم حوّلهم إلى الكعبة، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين، فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله، عز وجل، وامثال أوامره، والتوجه حيثما وجه، واتباع ما شرع، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل، وليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق إلى المغرب بر ولا طاعة، إن لم يكن عن أمر الله وشرعه؛ ولهذا قال: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية، كما قال في الأضاحي والهدايا: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: ليس البر أن تَصَلُّوا ولا تعملوا. فهذا حين تحول من مكة إلى المدينة ونزلت الفرائض والحدود، فأمر الله بالفرائض والعمل بها.

(١) في ج: «حدثنا عبيدة». (٢) في ج: «فتلا عليه».

(٣) في ج: «فأحبها». (٤) في ج: «فأبغضها».

(٥) ورواه محمد بن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» برقم (٤٠٩) من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن عبد الكريم، عن مجاهد به.

(٦) في ج: «لأن». (٧) في ج: «فتلا».

(٨) زيادة من أ.

(٩) ورواه محمد بن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» برقم (٤٠٨) من طريق عبد الله بن يزيد والملائى، كلاهما عن المسعودي به نحوه، ورواه الحاكم (٢/ ٢٧٢) من طريق موسى بن أعين، عن عبد الكريم به نحوه، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبي: «قلت: وهو منقطع».

وروى عن الضحاك ومقاتل نحو ذلك.

وقال أبو العالية: كانت اليهود تُقبل^(١) قبل المغرب، وكانت النصارى تقبل^(٢) قبل المشرق، فقال الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ يقول: هذا كلام الإيمان وحقيقته^(٣) العمل. وروى عن الحسن والربيع بن أنس مثله.

وقال مجاهد: ولكن البر ماثبت في القلوب من طاعة الله، عز وجل.

وقال الضحاك: ولكن البر والتقوى أن تؤدوا الفرائض على وجوهها.

وقال الثوري: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ الآية، قال: هذه أنواع البر كلها. وصدق رحمه الله؛

فإن من اتصف بهذه الآية، فقد دخل في عرى الإسلام كلها، وأخذ بمجامع الخير كله، وهو الإيمان بالله وهو أنه لا إله إلا هو، وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله ﴿وَالْكِتَابِ﴾ وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، حتى ختمت بأشرفها، وهو القرآن المهيم على ما قبله من الكتب، الذي انتهى إليه كل خير، واشتمل على كل سعادة في الدنيا والآخرة، ونسخ [الله]^(٤) به كل ما سواه من الكتب قبله، وآمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقوله: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ أى: أخرجه، وهو مُحِبُّ له، راغب فيه. نص على ذلك ابن مسعود وسعيد بن جبير وغيرهما من السلف والخلف، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «أفضل الصدقة أن تصدَّقَ وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى، وتخشى الفقر».

وقد روى الحاكم في مستدركه، من حديث شعبة والثوري، عن منصور، عن زبيد، عن مرة، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾: أن^(٥) تعطيه وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى^(٦) وتخشى الفقر». ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه^(٧).

قلت وقد رواه وكيع عن الأعمش، وسفيان عن زبيد، عن مرة، عن ابن مسعود، موقوفاً، وهو أصح، والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: ٨، ٩].

وقال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وقوله: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] نط آخر أرفع من هذا [ومن هذا]^(٨)، وهو أنهم آثروا بما هم مضطرون إليه، وهؤلاء أعطوا^(٩) وأطعموا ما هم محبوبون له.

وقوله: ﴿ذَوِي الْقُرْبَى﴾ وهم: قرابات الرجل، وهم أولى من أعطى من الصدقة، كما ثبت في

(١) في ج: «تقبل». (٢) في ج: «وحقيقة».

(٤) زيادة من ج. (٥) في أ: «أى».

(٦) في أ: «العيش».

(٧) المستدرک (٢/ ٢٧٢).

(٨) زيادة من ج. (٩) في ج: «وهؤلاء أعطوه».

الحديث: «الصدقة على المساكين»^(١) صدقة، وعلى ذوى الرحم ثنتان: صدقة وصلة». فهم أولى الناس بك وبرك وإعطائك. وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم فى غير ما موضع من كتابه العزيز.

﴿وَالْيَتَامَى﴾ هم: الذين لا كاسب^(٢) لهم، وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب، وقد قال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَرُ، عن جوير، عن الضحاك، عن النزال بن سبرة، عن على، عن رسول الله ﷺ قال: «لا يَتَمَّ بعد حُلْمٍ».

﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ وهم: الذين لا يجدون ما يكفيهم فى قوتهم وكسوتهم وسكنائهم، فيعطون ما تُسَدُّ به حاجتهم وخلتهم. وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطواف الذى تَرده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفْطِنَ له»^(٣) فَيُتَصَدَّقَ عليه»^(٤).

﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ وهو: المسافر المجتاز الذى قد فرغت نفقته فيعطى ما يوصله إلى بلده، وكذا الذى يريد سفراً فى طاعة، فيعطى ما يكفيه فى ذهابه وإيابه، ويدخل فى ذلك الضيف، كما قال على ابن أبى طلحة، عن ابن عباس أنه قال: ابن السبيل هو الضيف الذى ينزل بالمسلمين، وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبو جعفر الباقر، والحسن، وقتادة، والضحاك والزهرى، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان.

﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ وهم: الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا وكيع وعبد الرحمن، قالا: حدثنا سفيان، عن مصعب بن محمد، عن يعلى بن أبى يحيى، عن فاطمة بنت الحسين، عن أبيها^(٥) - قال عبد الرحمن: حسين بن على - قال: قال رسول الله ﷺ: «للسائل حق وإن جاء على فرس». رواه أبو داود.

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ وهم: المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه فى كتابتهم. وسيأتى الكلام على كثير من هذه الأصناف^(٦) فى آية الصدقات من براءة، إن شاء الله تعالى. وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا شريك، عن أبى حمزة، عن الشعبى، حدثنى فاطمة بنت قيس: أنها سألت رسول الله ﷺ: أفى المال حق سوى الزكاة؟ قالت: فتلا على: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾^(٧).

ورواه ابن مردويه من حديث آدم بن أبى إياس، ويحيى بن عبد الحميد، كلاهما، عن شريك،

(١) فى أ: «على المسلمين».

(٢) فى أ: «لا مكاسب».

(٣) فى أ: «لا يجد ما يغنيه ولا ينظر له».

(٤) صحيح البخارى برقم (١٤٧٩) وصحيح مسلم برقم (١٠٣٩).

(٥) فى ج: «فاطمة بنت حسين عن أبيها»، وفى أ: «فاطمة بنت حسين بن على، عن حسين بن على».

(٦) فى ج: «من الأصناف هذه».

(٧) هو فى صحيح البخارى برقم (٣٣) وصحيح مسلم برقم (٥٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

عن أبي حمزة عن الشعبي، عن فاطمة بنت قيس، قالت: قال رسول الله ﷺ: «فى المال حق سوى الزكاة» ثم تلا^(١): ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ إلى قوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾. [وقد أخرجه ابن ماجة والترمذى^(٢) وضعف أبا حمزة ميمونا^(٣) الأعور، قال: وقد رواه بيان^(٤) وإسماعيل بن سالم عن الشعبي]^(٥).

وقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ أى: وأتم أفعال الصلاة فى أوقاتها بركوعها، وسجودها، وطمأنيتها، وخشوعها على الوجه الشرعى المرضى.

وقوله: ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ زَكَاةُ النَّفْسِ، وتخليصها من الأخلاق الدنية^(٦) الرذيلة، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وقول موسى لفرعون: ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى. وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات: ١٨، ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ. الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧].

ويحتمل أن يكون المراد زكاة المال^(٧)، كما قاله سعيد بن جبیر ومقاتل بن حیان ويكون المذكور من إعطاء^(٨) هذه الجهات والأصناف المذكورين إنما هو التطوع والبر والصلة؛ ولهذا تقدم فى الحديث عن فاطمة بنت قيس: أن فى المال حقاً سوى الزكاة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾، كقوله: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرعد: ٢٠] وعكس هذه الصفة النفاق، كما صح فى الحديث: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان». وفى الحديث الآخر: «إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»^(٩).

وقوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أى: فى حال الفقر، وهو البأساء، وفى حال المرض والأسقام، وهو الضراء. ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أى: فى حال القتال والتقاء الأعداء، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وأبو العالية، ومرة الهمدانى، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدى، ومقاتل بن حیان، وأبو مالك، والضحاك، وغيرهم.

وإنما نُصِبَ ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ على المدح والحث على الصبر فى هذه الأحوال لشدة وصعوبته، والله أعلم، وهو المستعان وعليه التكلان.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أى: هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا فى إيمانهم؛ لأنهم حققوا الإيمان القلبى بالأقوال والأفعال، فهؤلاء هم الذين صدقوا ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ

(١) فى ج، أ، و: «ثم قرأ».

(٢) سنن الترمذى برقم (٦٥٩) وسنن ابن ماجة برقم (١٧٨٩) وقال الترمذى: «هذا حديث ليس إسناده بذلك، وأبو حمزة يضعف فى

الحديث، وقد روى بيان وإسماعيل بن سالم عن الشعبي قوله، وهو أصح».

(٣) فى أ: «عوناً».

(٤) فى ج: «سيار» والصواب ما أثبتناه.

(٥) فى ج: «الذميمة».

(٦) زيادة من ج، أ.

(٧) فى أ، و: «من أعطى».

(٨) فى ج: «زكاة الملك».

(٩) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنه.

الْمُتَّقُونَ ﴿لَأَنَّهُمْ اتَّقُوا الْمُحَارِمَ وَفَعَلُوا الطَّاعَاتِ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ العدلُ في القصاص - أيُّها المؤمنون - حرِّكم ^(١) بحرِّكم، وعبدكم بعبدكم، وأنثاكم بأنثاكم، ولا تتجاوزوا وتعتدوا، كما اعتدى من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم، وسبب ذلك قريظة و[بنو] ^(٢) النضير، كانت بنو النضير قد غزت قريظة في الجاهلية وقهروهم، فكان إذا قتل النضري القرظي لا يقتل به، بل يُفَادَى بمائة وسق من التمر، وإذا قتل القرظي النضري قتل به، وإن فادوه فدوه بمائتي وسق من التمر ضعف دية ^(٣) القرظي، فأمر الله بالعدل في القصاص، ولا يتبع سبيل المفسدين المحرفين ^(٤) المخالفين لأحكام الله فيهم، كفرا وبغياً ^(٥)، فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ﴾.

وذكر في [سبب] ^(٦) نزولها ما رواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير ^(٧)، حدثني عبد الله بن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير، في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ يعني: إذا كان عمداً، الحر بالحر. وذلك أن حيين من العرب اقتتلوا في الجاهلية قبل الإسلام بقليل، فكان بينهم قتل وجراحات، حتى قتلوا العبيد والنساء، فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا، فكان أحد الحيين يتناول على الآخر في العدة والأموال، فحلفوا ألا يرضوا حتى يقتل بالعبد منا الحر منهم، وبالمراة منا الرجل منهم ^(٨)، فترلت فيهم.

﴿الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ﴾ منها منسوخة، نسختها ﴿النَّفْسُ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة:

[٤٥].

وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ﴾ وذلك أنهم لا يقتلون الرجل بالمراة، ولكن يقتلون الرجل بالرجل، والمراة بالمراة فأنزل الله: النفس بالنفس والعين بالعين، فجعل الأحرار في القصاص ^(٩) سواء فيما بينهم من العمد رجالهم ونسأؤهم في النفس، وفيما دون النفس، وجعل العبيد مستوين ^(١٠) فيما بينهم من العمد في النفس وفيما دون النفس رجالهم

(١) في ج، أ، و: «فاقتلوا حرِّكم».

(٢) زيادة من أ.

(٣) في ج: «ضعف دم».

(٤) في أ: «المجرمين».

(٥) في ج: «لهوا ولعبا».

(٦) زيادة من ج.

(٧) في ج: «والمراة منا بالرجل منهم».

(٨) في ج، أ: «بكر».

(٩) في ج: «القصاص والعبيد».

(١٠) في أ، و: «مستويين».

ونسأؤهم، وكذلك روى عن أبى مالك أنها منسوخة بقوله: ﴿النَّفْسُ بِالنَّفْسِ﴾.

مسألة: مذهب أبى حنيفة أن الحر يقتل بالعبد لعموم آية المائدة، وإليه ذهب الثورى وابن أبى ليلى وداود، وهو مروى عن على، وابن مسعود، وسعيد بن المسيب، وإبراهيم النخعى، وقتادة، والحكم، وقال البخارى، وعلى بن المدينى وإبراهيم النخعى والثورى فى رواية عنه: يقتل السيد بعبد؛ لعموم حديث الحسن عن سمرة: «من قتل عبده قتلناه، ومن جذعه جذعناه، ومن خصاه خصيناه»^(١)، وخالفهم الجمهور وقالوا: لا يقتل الحر بالعبد؛ لأن العبد سلعة لو قتل خطأ لم تجب فيه دية، وإنما تجب فيه قيمته، وأنه لا يقاد بطرفه ففى النفس بطريق أولى، وذهب الجمهور إلى أن المسلم لا يقتل بالكافر، كما ثبت فى البخارى عن على، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقتل مسلم بكافر»^(٢) ولا يصح حديث ولا تأويل يخالف هذا، وأما أبو حنيفة فذهب إلى أنه يقتل به لعموم آية المائدة.

مسألة: قال الحسن وعطاء: لا يقتل الرجل بالمرأة لهذه الآية، وخالفهم الجمهور لآية المائدة؛ ولقوله عليه السلام: «المسلمون تتكافأ دماؤهم»^(٣)، وقال الليث: إذا قتل الرجل امرأته لا يقتل بها خاصة.

مسألة: ومذهب الأئمة الأربعة والجمهور أن الجماعة يقتلون بالواحد؛ قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى غلام قتله سبعة فقتلهم، وقال: لو تمألاً عليه أهل صنعاء لقتلتهم، ولا يعرف له فى زمانه مخالف من الصحابة، وذلك كالإجماع. وحكى عن الإمام أحمد رواية: أن الجماعة لا يقتلون بالواحد، ولا يقتل بالنفس إلا نفس واحدة. وحكاه ابن المنذر عن معاذ وابن الزبير، وعبد الملك بن مروان والزهرى ومحمد بن سيرين وحبيب بن أبى ثابت؛ ثم قال ابن المنذر: وهذا أصح، ولا حجة لمن أباح قتل الجماعة^(٤). وقد ثبت عن ابن الزبير ما ذكرناه، وإذا اختلف الصحابة فسيبيل النظر.

وقوله: ﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾: قال مجاهد عن ابن عباس: ﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ فالعفو: أن يقبل الدية فى العمد، وكذا روى عن أبى العالية، وأبى الشعثاء، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، وعطاء، والحسن، وقتادة، ومقاتل بن حيان. وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ يقول: فمن ترك له من أخيه شىء يعنى: [بعد]^(٥) أخذ الدية بعد استحقاق الدم، وذلك العفو ﴿فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يقول: فعلى الطالب اتباع بالمعروف إذا قبل الدية ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ يعنى: من القاتل من غير ضرر ولا معك، يعنى المدافعة.

وروى الحاكم من حديث سفيان، عن عمرو، عن مجاهد، عن ابن عباس: ويؤدى المطلوب

(١) رواه أبو داود فى السنن برقم (٤٥١٥، ٤٥١٦) والترمذى فى السنن برقم (١٤١٤) وقال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب».

(٢) صحيح البخارى برقم (١١١).

(٣) رواه ابن ماجه فى السنن برقم (٢٦٨٣) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.

(٤) فى أ: «قتل جماعة بواحد». (٥) زيادة من ج، أ.

بإحسان. وكذا قال سعيد بن جبير، وأبو الشعثاء جابر بن زيد، والحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني، والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حيان.

مسألة: قال مالك - رحمه الله - في رواية ابن القاسم عنه وهو المشهور، وأبو حنيفة وأصحابه والشافعي في أحد قوليه: ليس لولى الدم أن يعفو على الدية إلا برضا القاتل، وقال الباقر: له أن يعفو عليها وإن لم يرض القاتل، وذهب طائفة من السلف إلى أنه ليس للنساء عفو، منهم الحسن، وقتادة، والزهري، وابن شبرمة، والليث، والأوزاعي، وخالفهم الباقر.

وقوله: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ يقول تعالى: إنما شرع لكم أخذ الدية في العمد تخفيفاً من الله عليكم ورحمة بكم، مما كان محتوماً على الأمم قبلكم من القتل أو العفو، كما قال سعيد بن منصور:

حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، أخبرني مجاهد، عن ابن عباس، قال: كتب على بني إسرائيل القصاص في القتلى، ولم يكن فيهم العفو، فقال الله لهذه الأمة^(١): ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد، ذلك تخفيف [من ربكم ورحمة]^(٢) مما كتب على من كان قبلكم، فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان^(٣).

وقد رواه غير واحد عن عمرو [بن دينار]^(٤)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه، عن عمرو بن دينار، به^(٥). [وقد رواه البخاري والنسائي عن ابن عباس]^(٦)؛ ورواه جماعة عن مجاهد عن ابن عباس، بنحوه.

وقال قتادة: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: رَحِمَ الله هذه الأمة وأطعمهم الدية، ولم تحل لأحد قبلهم، فكان أهل التوراة إنما هو القصاص وعفو ليس بينهم أَرَشُ^(٧)، وكان أهل الإنجيل إنما هو عفو أمروا به، وجعل لهذه الأمة القصاص والعفو والأرش.

وهكذا روى عن سعيد بن جبير، ومقاتل بن حيان، والربيع بن أنس، نحو هذا. وقوله: ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: يقول تعالى: فمن قتل بعد أخذ الدية أو قبولها، فله عذاب من الله أليم موجه شديد.

وكذا روى عن ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حيان: أنه هو الذي يقتل بعد أخذ الدية، كما قال محمد بن إسحاق، عن الحارث بن فضيل، عن سفيان بن أبي العوجاء، عن أبي شريح الخزاعي: أن النبي ﷺ قال: «من

(١) في أ: «فقال الله في هذه الآية».

(٢) سنن سعيد بن منصور برقم (٢٤٦) بتحقيق د. الحميد.

(٣) زيادة من جـ.

(٤) صحيح ابن حبان (٦٠١ / ٧) «الإحسان» وانظر لتمام تخريج هذا الحديث وذكر طرقه: حاشية الدكتور سعد الحميد - حفظه الله -

على سنن سعيد بن منصور.

(٥) زيادة من جـ، أ.

(٦) في جـ: «أثر».

أصيب بقتل أو خبل^(١) فإنه يختار إحدى ثلاث: إما أن يقتص، وإما أن يعفو، وإما أن يأخذ الدية؛ فإن أراد الرابعة فخذوا على يديه. ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالداً فيها» رواه^(٢) أحمد^(٣).

وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أعافى رجلاً قتل بعد أخذ الدية - يعنى: لا أقبل منه الدية - بل أقتله»^(٤).

وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾: يقول تعالى: وفي شرع القصاص لكم - وهو قتل القاتل - حكمة عظيمة لكم، وهى بقاء المهج وصونها؛ لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه، فكان فى ذلك حياة النفوس. وفى الكتب المتقدمة: القتل أنقى للقتل. فجاءت هذه العبارة فى القرآن أفصح، وأبلغ، وأوجز.

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾: قال أبو العالية: جعل الله القصاص حياة، فكم من رجل يريد أن يقتل، فتمنعه مخافة أن يقتل.

وكذا روى عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبى مالك، والحسن، وقاتدة، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان، ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يقول: يا أولى العقول والأفهام والتهى، لعلكم تنزجرون فتتركون محارم الله ومآثمه، والتقوى: اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠)﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨٢)﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين. وقد كان ذلك واجباً - على أصح القولين - قبل نزول آية الموارث، فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه، وصارت الموارث المقدرة فريضة من الله، يأخذها أهلها حتماً من غير وصية ولا تحمل منه^(٥) الموصى، ولهذا جاء الحديث فى السنن وغيرها عن عمرو بن عمرو بن خارجة قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب وهو يقول: «إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه، فلا وصية لوارث»^(٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن علية، عن يونس بن عبيد، عن محمد بن

(١) فى أ: «أو ختل». (٢) فى ج: «ورواه».

(٣) المسند (٤/ ٣١).

(٤) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (١/ ٤٢١) وعزاه لسمويه فى فوائده، وروى البيهقى فى السنن الكبرى (٨/ ٥٤) من طريق سعيد بن أبى عروبة عن مطر عن الحسن مرسلاً بنحوه، وروى أبو داود فى السنن برقم (٤٥٠٧) من طريق حماد عن مطر عن الحسن عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه مرفوعاً بنحوه.

(٥) فى و: «مآنة»، وفى أ: «مآنة».

(٦) سنن الترمذى برقم (٢١٢١) وسنن النسائى (٦/ ٢٤٧) وسنن ابن ماجه برقم (٢٧١٢).

سيرين، قال: جلس ابن عباس فقرأ سورة البقرة حتى أتى [على] ^(١) هذه الآية: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ فقال: نُسخَت هذه الآية.

وكذا رواه سعيد بن منصور، عن هُشَيْم، عن يونس، به. ورواه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح على شرطهما ^(٢).

وقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ قال: كان لا يرث مع الوالدين غيرهما إلا وصية للأقربين، فأنزل الله آية الميراث ^(٣)، فبين ميراث الوالدين، وأقر وصية الأقربين في ثلث مال الميت.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج بن محمد، أخبرنا ابن جريج، وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس، في قوله: ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾: نسختها هذه الآية: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧].

ثم قال ابن أبي حاتم: وروى عن ابن عمر ^(٤)، وأبى موسى، وسعيد بن المسيب، والحسن، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جببر، ومحمد بن سيرين، وعكرمة، وزيد بن أسلم، والربيع بن أنس، وقتادة، والسدي، ومقاتل بن حيان، وطاوس، وإبراهيم النخعي، وشريح، والضحاك، والزهرى: أن هذه الآية منسوخة نسختها آية الميراث.

والعجب من أبى عبد الله مُحَمَّد بن عمر ^(٥) الرازى - رحمه الله - كيف حكى في تفسيره الكبير عن أبى مسلم الأصفهاني ^(٦): أن هذه الآية غير منسوخة، وإنما هى مُفسَّرة بآية المواريث، ومعناه: كتب عليكم ما أوصى الله به من توريث ^(٧) الوالدين والأقربين. من قوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١] قال: وهو قول أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء. قال: ومنهم من قال: إنها منسوخة فيمن يرث، ثابتة فيمن لا يرث، وهو مذهب ابن عباس، والحسن، ومسروق، وطاوس، والضحاك، ومسلم بن يسار، والعلاء بن زياد.

قلت: وبه قال أيضاً سعيد بن جببر، والربيع بن أنس، وقتادة، ومقاتل بن حيان. ولكن على قول هؤلاء ^(٨) لا يسمى هذا نسخاً فى اصطلاحنا المتأخر؛ لأن آية الميراث إنما رفعت حكم بعض أفراد ما دل عليه عموم آية الوصاية، لأن «الأقربين» أعم من يرث ومن ^(٩) لا يرث، فرفع حكم من يرث بما عُنِيَ له، وبقي الآخر على ما دلت عليه الآية الأولى. وهذا إنما يتأتى على قول بعضهم: أن الوصاية فى ابتداء الإسلام إنما كانت نَدْباً حتى نُسخَت. فأما من يقول: إنها كانت واجبة وهو الظاهر من

(١) زيادة من جـ.

(٢) سنن سعيد بن منصور برقم (٢٥٢) بتحقيق الدكتور الحميد، والمستدرک (٢/ ٢٧٣).

(٣) فى أ: «المواريث». (٤، ٥) فى جـ: «ابن أبى عمر».

(٦) فى أ: «الأصفهاني».

(٧) فى جـ: «من تواريث». (٨) فى أ: «على قول هذا».

(٩) فى أ: «ومن».

سياق الآية - فيتعين أن تكون منسوخة بآية الميراث، كما قاله أكثرُ المفسرين والمعتبرين من الفقهاء؛ فإنَّ وجوب الوصية للوالدين والأقربين [الوارثين] ^(١) منسوخ بالإجماع. بل منهى عنه للحديث المتقدم: «إن الله قد أعطى كلَّ ذى حق حقه فلا وصية لوارث». فأية الميراث حكم مستقل، ووجوب من عند الله لأهل الفروض وللعصبات ^(٢)، رفع بها حكمُ هذه بالكلية. بقى الأقارب الذين لا ميراث لهم، يستحب له أن يُوصى لهم من الثلث، استثناءً بآية الوصية وشمولها، ولما ثبت فى الصحيحين، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصى فيه، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده». قال ابن عمر ما مرت على ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلا وعندى وصيتي ^(٣).

والآيات والأحاديث بالأمر ببر الأقارب والإحسان إليهم، كثيرة جداً. وقال عبد بن حميد فى مسنده: أخبرنا عبيد الله، عن مبارك بن حسان، عن نافع قال: قال عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، ثنتان لم يكن لك واحدة منهما: جعلت لك نصيباً فى مالك حين أخذتُ بكظمك؛ لأطهرك به وأزكئك، وصلاةُ عبادى عليك بعد انقضاء أجلك».

وقوله: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ أى: مالا. قاله ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبيرة، وأبو العالية، وعطية العوفى، والضحاك، والسدى، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان، وقتادة، وغيرهم. ثم منهم من قال: الوصية مشروعة سواء قلَّ المال أو كثر كالورثة ^(٤)، ومنهم من قال: إنما يُوصى إذا ترك مالا جزيلاً، ثم اختلفوا فى مقداره، فقال ابن أبى حاتم:

حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، أخبرنا سفيان، عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: قيل لعلى، رضى الله عنه: إن رجلاً من قريش قد مات، وترك ثلاثمائة دينار أو أربعمائة ^(٥)، ولم يوص. قال: ليس بشيء، إنما قال الله: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾.

قال: وحدثنا هارون بن إسحاق الهمداني، حدثنا عبدة - يعنى ابن سليمان - عن هشام بن عروة، عن أبيه: أن علياً دخل على رجل من قومه يعود، فقال له: أوصى؟ فقال له على: إنما قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾ إنما تركت شيئاً يسيراً، فاتركه لولدك.

وقال الحكم ^(٦) بن أبان: حدثنى عكرمة، عن ابن عباس: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ قال ابن عباس: من لم يترك ستين ديناراً لم يترك خيراً، قال الحكم ^(٧): قال طاوس: لم يترك خيراً من لم يترك ثمانين ديناراً. وقال قتادة: كان يقال: ألفا فما فوقها.

وقوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى: بالرفق والإحسان، كما قال ابن أبى حاتم:

(١) زيادة من ج، أ، و. (٢) فى ج: «والعصبات».

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٧٣٨) وصحيح مسلم برقم (١٦٢٧).

(٤) فى أ: «كالورثة». (٥) فى أ، و: «أربعمئة دينار».

(٦، ٧) فى ج: «الحاكم».

حدثنا الحسن بن أحمد، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن يسار^(١)، حدثني سرور بن المغيرة، عن عباد بن منصور، عن الحسن، قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ﴾ فقال: نعم، الوصية حق، على كل مسلم أن يوصي إذا حضره الموت بالمعروف غير المنكر.

والمراد بالمعروف: أن يوصى لأقربيه وصية لا تحجف بورثته، من غير إسراف ولا تقتير، كما ثبت في الصحيحين أن سعداً قال: يا رسول الله، إن لى مالا ولا يرثنى إلا ابنة لى، أفأوصى بثلاثى مالى؟ قال: «لا» قال: فبالشطر؟ قال: «لا» قال: فالثالث^(٢)؟ قال: «الثالث، والثالث كثير؛ إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس».

وفى صحيح البخارى: أن ابن عباس قال: لو أن الناس غَضُوا من الثالث إلى الربع فإن رسول الله ﷺ قال: «الثالث، والثالث كثير»^(٣).

وروى الإمام أحمد، عن أبى سعيد مولى بنى هاشم، عن ذيال بن عبيد بن حنظلة، سمعت حنظلة بن حذيم^(٤) بن حنيفة: أن جده حنيفة أوصى لیتيم فى حجره بمائة من الإبل، فشق ذلك على بنیه، فارتفعوا إلى رسول الله ﷺ. فقال حنيفة: إني أوصيت لیتيم لى بمائة من الإبل، كنا نسميها المطيبة. فقال النبى ﷺ: «لا، لا، لا. الصدقة: خمس، وإلا فعشر، وإلا فخمس عشرة، وإلا فعشرون، وإلا فخمس وعشرون، وإلا فثلاثون، وإلا فخمس وثلاثون، فإن أكثرت فأربعون». وذكر الحديث بطوله^(٥).

وقوله: ﴿فَمَنْ بَدَلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾: يقول تعالى: فمن بدل الوصية وحرّفها، فغير حكمها وزاد فيها أو نقص - ويدخل فى ذلك الكتمان لها بطريق الأولى - ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾. قال ابن عباس وغير واحد: وقد وقع أجر الميت على الله، وتعلق الإنم بالذين بدلوا ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى: قد اطلع على ما أوصى به الميت، وهو عليم بذلك، وبما بدله الموصى إليهم.

وقوله: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾: قال ابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدى: الجَنَفُ: الخطأ. وهذا يشمل أنواع الخطأ كلها، بأن زاد وارثاً بواسطة أو وسيلة، كما إذا أوصى ببيع الشئ الفلانى محابة، أو أوصى لابن ابنته ليزيدها، أو نحو ذلك من الوسائل، إما مخطئاً غير عامد، بل بطبعه وقوة شفقتة من غير تبصر، أو متعمداً أثماً فى ذلك، فللموصى - والحالة هذه - أن يصلح القضية^(٦)، ويعدل فى الوصية على الوجه الشرعى. ويعدل عن الذى أوصى به الميت إلى ما هو أقرب الأشياء إليه وأشبه الأمور به^(٧)، جمعاً بين مقصود الموصى

(١) فى أ، و: «بن بشار». (٢) فى ج: «فبالثالث».

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٧٤٣).

(٤) فى أ: «جديم»، وفى و: «جديم».

(٥) المسند (٦٧ / ٥).

(٦) فى أ: «القصة». (٧) فى ج: «المأمور به».

والطريق الشرعى . وهذا الإصلاح والتوفيق ليس من التبديل فى شىء . ولهذا عطف هذا - فبينه ^(١) - على النهى لذلك، ليعلم أن هذا ليس من ذلك بسبيل، والله أعلم.

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا العباس بن الوليد بن مزيد، قراءة، أخبرنى أبى، عن الأوزاعى، قال الزهرى: حدثنى عروة، عن عائشة، عن النبى ﷺ: أنه قال: «يُرَدُّ مِنْ صَدَقَةِ الْخَائِفِ ^(٢)» فى حياته ما يرد من وصية المجنف ^(٣) عند موته ^(٤).

وهكذا رواه أبو بكر بن مَرْدُويه، من حديث العباس بن الوليد، به . قال ابن أبى حاتم: وقد أخطأ فيه الوليد بن مزيد . وهذا الكلام إنما هو عن عروة فقط . وقد رواه الوليد بن مسلم، عن الأوزاعى، فلم يجاوز به عروة .

وقال ابن مردويه أيضاً: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا إبراهيم بن يوسف، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا عمر بن المغيرة، عن داود بن أبى هند، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: «الحيف فى الوصية من الكبائر» ^(٥).

وهذا فى رفعه أيضاً نظر ^(٦). وأحسن ما ورد فى هذا الباب ما قال عبد الرزاق: حدثنا مَعْمَرٌ، عن أشعث بن عبد الله، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعملُ بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى حاف فى وصيته فيختم له بشر عمله، فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة، فيعدل فى وصيته، فيختم له بخير عمله، فيدخل الجنة» ^(٧). قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩] ^(٨).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤)﴾ .

(١) فى أ: «فنبه». (٢) فى أ: «الخائف». (٣) فى أ: «المخيف».

(٤) ورواه أبو داود فى المراسيل برقم (١٩٤) من طريق عباس بن الوليد بن مزيد، عن أبيه، عن الأوزاعى، به . قال العباس: حدثنا به مرة، عن عروة، ومرة عن عروة، عن عائشة عن النبى ﷺ، ثم رواه أبو داود برقم (١٩٥) عن عروة مرسلًا، وبرقم (١٩٦) عن الزهرى مرسلًا.

(٥) ورواه الدارقطنى فى السنن (٤/ ١٥١) والعقلى فى الضعفاء (٣/ ١٨٩) والبيهقى فى السنن الكبرى (٦/ ٢٧١) من طريق عمر بن المغيرة به نحوه، ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٦/ ٢٧١) من طريق هشيم عن داود به موقوفًا، وقال: «هذا هو الصحيح موقوف، وكذلك رواه ابن عيينة وغيره عن داود موقوفًا، وروى من وجه آخر مرفوعًا، ورفعته ضعيف».

(٦) فى ج: «وهذا أيضاً فى رفعه نظر». (٧) فى ج: «تقديم وتأخير فى العبارتين».

(٨) المصنف برقم (١٦٤٥٥) ورواه أبو داود فى السنن برقم (٢٨٦٧) والترمذى فى السنن برقم (٢١١٧) من طريق أشعث بن جابر عن شهر بن حوشب، عن أبى هريرة بلفظ آخر وفيه: «ستين سنة» بدل السبعين، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح غريب».

يقول تعالى مخاطباً للمؤمنين من هذه الأمة وأمرأاً لهم بالصيام، وهو: الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله^(١)، عز وجل، لما فيه زكاة النفس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاق الرديئة والأخلاق الرذيلة. وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم، فلهم فيه أسوة، وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ الآية [المائدة: ٤٨]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لأن الصوم فيه تركية للبدن وتضييق لمسالك الشيطان؛ ولهذا ثبت في الصحيحين: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»^(٢) ثم بين مقدار الصوم، وأنه ليس في كل يوم، لئلا يشق على النفوس فتضعف عن حمله^(٣) وأدائه، بل في أيام معدودات. وقد كان هذا في ابتداء الإسلام يصومون من كل شهر ثلاثة أيام، ثم نسخ ذلك بصوم شهر رمضان، كما سيأتي بيانه. وقد روى أن الصيام كان أولاً كما كان عليه الأمم قبلنا، من كل شهر ثلاثة أيام - عن معاذ، وابن مسعود، وابن عباس، وعطاء، وقتادة، والضحاك بن مزاحم. وزاد: لم يزل هذا مشروعاً من زمان نوح إلى أن نسخ الله ذلك بصيام شهر رمضان.

وقال عباد بن منصور، عن الحسن البصري: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ﴾ فقال: نعم، والله لقد كتب الصيام على كل أمة قد خلت كما كتب^(٤) علينا شهراً كاملاً وأياماً معدودات: عدداً معلوماً. وروى عن السدي، نحوه.

وروى ابن أبي حاتم من حديث أبي عبد الرحمن المقرئ، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثني عبد الله بن الوليد، عن أبي الربيع، رجل من أهل المدينة، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «صيام رمضان كتبه الله على الأمم قبلكم...» في حديث طويل اختصر منه ذلك^(٥).

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن حدثه عن ابن عمر، قال أنزلت: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٦) كتب عليهم إذا صلى أحدهم العتمة ونام حرم [الله]^(٧) عليه الطعام والشراب والنساء إلى مثلها.

قال ابن أبي حاتم: وروى عن ابن عباس، وأبي العالية، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، ومقاتل بن حيان، والربيع بن أنس، وعطاء الخراساني، نحو ذلك.

وقال عطاء الخراساني، عن ابن عباس: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يعني بذلك: أهل الكتاب. وروى عن الشعبي والسدي^(٨)، وعطاء الخراساني، مثله.

(١) في ج: «خالصة لوجه الله تعالى».

(٢) صحيح البخاري برقم (٥٠٦٦) وصحيح مسلم برقم (١٤٠٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

(٣) في أ: «ليشق على النفوس فتضعف عن حكمه». (٤) في أ: «كما كتبه الله».

(٥) عزاه الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ١٧٨) لابن أبي حاتم وقال: «في إسناده مجهول».

(٦، ٧) زيادة من ج.

(٨) في ج: «عن السدي والشعبي».

ثم بين حكم الصيام على ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، فقال: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أى: المريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسفر؛ لما فى ذلك من المشقة عليهما، بل يفطران ويقضيان بعدة ذلك من أيام أخر. وأما الصحيح المقيم الذى يطبق الصيام، فقد كان مخيراً بين الصيام وبين الإطعام، إن شاء صام، وإن شاء أفطر، وأطعم عن كل يوم مسكيناً، فإن أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم، فهو خير، وإن صام فهو أفضل من الإطعام، قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وطاوس، ومقاتل بن حبان، وغيرهم من السلف؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا المسعودي، حدثنا عمرو بن مرة، عن عبد الرحمن ابن أبى ليلى، عن معاذ بن جبل، رضى الله عنه، قال: أحيلت الصلاة ثلاثة أحوال، وأحيل الصيام ثلاثة أحوال؛ فأما أحوال الصلاة فإن النبى ﷺ قدم المدينة، وهو يصلى^(١) سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس، ثم إن الله عز وجل أنزل عليه: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّنَكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ الآية [البقرة: ١٤٤] فوجهه الله إلى مكة. هذا حول.

قال: وكانوا يجتمعون للصلاة ويؤذن بها بعضهم بعضاً حتى نَقَسُوا أو كادوا يَنْقُسُونَ. ثم إن رجلاً من الأنصار، يقال له: عبد الله بن زيد، أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني رأيت فيما يرى النائم - ولو قلت: إني لم أكن نائماً لصدقت - أنى^(٢) بينا أنا بين النائم واليقظان إذ رأيت شخصاً عليه ثوبان أخضران، فاستقبل القبلة، فقال: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله - مثني حتى فرغ من الأذان، ثم أمهل ساعة، ثم قال مثل الذى قال، غير أنه يزيد فى ذلك: قد قامت الصلاة - مرتين - قال رسول الله ﷺ: «عَلَّمَهَا بِلَالاً فَلْيُؤْذِنْ بِهَا». فكان بلال أول من أذن بها. قال: وجاء عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فقال: يا رسول الله، [إنه]^(٣) قد طاف بى مثل الذى طاف به، غير أنه سبقنى، فهذان حالان^(٤).

قال: وكانوا يأتون الصلاة - قد سبقهم النبى ﷺ ببعضها، فكان الرجل يشير إلى الرجل إذا كم صلى، فيقول: واحدة أو اثنتين، فيصليهما، ثم يدخل مع القوم فى صلاتهم. قال: فجاء معاذ فقال: لا أجده على حال أبداً إلا كنتُ عليها، ثم قضيتُ ما سبقنى. قال: فجاء وقد سبقه النبى ﷺ ببعضها، قال: فثبتَ معه، فلما قضى رسول الله ﷺ قام فقضى، فقال رسول الله ﷺ: «إنه قد سن لكم معاذ، فهكذا فاصنعوا». فهذه ثلاثة أحوال^(٥).

وأما أحوال الصيام فإن رسول الله ﷺ قدم المدينة، فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، وصام عاشوراء، ثم إن الله فرض عليه الصيام، وأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا

(١) فى ج: «فصلى».

(٢) فى ج: «وانى».

(٣) زيادة من ج، أ، و.

(٤) فى ج، أ، و: «حولان».

(٥) المسند (٥/ ٢٤٦).

كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴿١﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ فكان مَنْ شَاءَ صَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَطْعَمَ مِسْكِينًا، فَأَجْزَأَ ذَلِكَ عَنْهُ. ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْزَلَ الْآيَةَ الْآخَرَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فَأَثْبَتَ اللَّهُ صِيَامَهُ عَلَى الْمُقِيمِ الصَّحِيحِ ^(١)، وَرَخَّصَ فِيهِ لِلْمَرِيضِ وَالْمَسَافِرِ، وَثَبَتَ الْإِطْعَامَ لِلْكَبِيرِ ^(٢) الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الصِّيَامَ، فَهَذَا هَلَالُ ^(٣).

قَالَ: وَكَانُوا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَأْتُونَ النِّسَاءَ مَا لَمْ يَنَامُوا، فَإِذَا نَامُوا امْتَنَعُوا، ثُمَّ إِنْ رَجَلَا مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ: صُرْمَةٌ، كَانَ يَعْمَلُ صَائِمًا حَتَّى أَمْسَى، فَجَاءَ إِلَى أَهْلِهِ فَصَلَّى الْعِشَاءَ، ثُمَّ نَامَ فَلَمْ يَأْكُلْ وَلَمْ يَشْرَبْ، حَتَّى أَصْبَحَ فَأَصْبَحَ صَائِمًا، فَرَأَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ جَهْدَ جَهْدًا شَدِيدًا، فَقَالَ: مَا لِي أَرَاكَ قَدْ جَهَدْتَ جَدًّا شَدِيدًا؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي عَمَلْتُ أَمْسَ فَجِئْتُ حِينَ جِئْتُ فَأَلْقَيْتُ نَفْسِي فَنِمْتُ فَأَصْبَحْتُ حِينَ أَصْبَحْتُ صَائِمًا. قَالَ: وَكَانَ عَمْرٌ قَدْ أَصَابَ مِنَ النَّسَاءِ بَعْدَ مَا نَامَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾.

وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ، وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ، مِنْ حَدِيثِ الْمَسْعُودِيِّ، بِهِ ^(٤).

وَقَدْ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ الزَّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ عَاشُورَاءَ يَصَامُ، فَلَمَّا نَزَلَ فَرَضَ رَمَضَانَ كَانَ مِنْ شَاءَ صَامَ وَمِنْ شَاءَ أَفْطَرَ ^(٥). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ وَابْنِ مَسْعُودٍ، مِثْلَهُ ^(٦).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كَمَا قَالَ مُعَاذٌ: كَانَ ^(٧) فِي ابْتِدَاءِ الْأَمْرِ: مِنْ شَاءَ صَامَ وَمِنْ شَاءَ أَفْطَرَ وَأَطْعَمَ عَنْ كُلِّ يَوْمٍ مِسْكِينًا. وَهَكَذَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كَانَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُفْطَرَ يَفْتَدِي، حَتَّى نَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا فَنَسَخَتْهَا ^(٨).

وَرَوَى أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ عُبَيْدِ اللَّهِ ^(٩)، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: هِيَ مَنْسُوخَةٌ. وَقَالَ السُّدِّيُّ، عَنْ مَرَّةٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ قَالَ يَقُولُ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أَيْ: يَتَجَشَّمُونَهُ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَكَانَ مِنْ شَاءَ صَامَ وَمِنْ شَاءَ أَفْطَرَ وَأَطْعَمَ مِسْكِينًا ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ﴾ قَالَ يَقُولُ: أَطْعَمَ مِسْكِينًا آخَرَ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فَكَانُوا كَذَلِكَ حَتَّى نَسَخَتْهَا: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

(١) فِي جَدِّ: «الصَّحِيحُ الْمُقِيمُ». (٢) فِي جَدِّ: «لِلنَّفَرِ».

(٣) فِي أ: «الْحَوْلَانِ».

(٤) سَنَنُ أَبِي دَاوُدَ بِرَقْمِ (٥٠٦، ٥٠٧).

(٥) صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ بِرَقْمِ (٤٥٠٢) وَصَحِيحُ مُسْلِمٍ بِرَقْمِ (١١٢٥).

(٦) حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ بِرَقْمِ (٤٥٠١) وَحَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ بِرَقْمِ (٤٥٠٣).

(٧) فِي جَدِّ: «وَكَانَ».

(٨) صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ بِرَقْمِ (٤٥٠٧).

(٩) فِي جَدِّ: «عَبْدُ اللَّهِ».

وقال البخارى أيضاً: حدثنا إسحاق، أخبرنا روح، حدثنا زكريا بن إسحاق، حدثنا عمرو بن دينار، عن عطاء سمع ابن عباس يقرأ: «وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ». قال ابن عباس: ليست منسوخة، هو للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما، فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً^(١).

وهكذا روى غير واحد عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، نحوه.

وقال أبو بكر بن أبى شيبة: حدثنا عبد الرحيم بن سليمان، عن أشعث بن سوار، عن عكرمة، عن ابن عباس [قال]^(٢): نزلت هذه الآية: «وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ» في الشيخ الكبير الذى لا يطيق الصوم ثم ضَعُفَ، فَرَخَّصَ له أن يطعم مكان كل يوم مسكيناً.

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد، حدثنا الحسين بن محمد بن بهرام المحرمى، حدثنا وهب بن بَقِيَّةَ، حدثنا خالد بن عبد الله، عن ابن أبى ليلي، قال: دخلت على عطاء في رمضان، وهو يأكل، فقال: قال ابن عباس: نزلت هذه الآية: «وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ»، فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً، ثم نزلت هذه الآية فنسخت الأولى، إلا الكبير الفانى إن شاء أطعم عن كل يوم مسكيناً وأفطر. فحاصل الأمر أن النسخ ثابت في حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه، بقوله: «فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ» وأما الشيخ الفانى [الهرم]^(٣) الذى لا يستطيع الصيام فله أن يُفْطِر ولا قضاء عليه، لأنه ليست له حال يصير إليها يتمكن فيها من القضاء، ولكن هل يجب عليه [إذا أفطر]^(٤) أن يطعم عن^(٥) كل يوم مسكيناً إذا كان ذا جِدة؟ فيه قولان للعلماء، أحدهما: لا يجب عليه إطعام؛ لأنه ضعيف عنه لِسْتُهُ، فلم يجب عليه فدية كالصبي؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وهو أحد قولى الشافعى. والثانى - وهو الصحيح، وعليه أكثر العلماء -: أنه يجب عليه فدية عن كل يوم، كما فسره ابن عباس وغيره من السلف على قراءة من قرأ: «وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ» أى: يتجشمونه، كما قاله ابن مسعود وغيره، وهو اختيار البخارى فإنه قال: وأما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام، فقد أطعم أنس - بعد أن^(٦) كبر عاماً أو عامين - كل يوم مسكيناً خبزاً ولحماً، وأفطر^(٧).

وهذا الذى علقه البخارى قد أسنده الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده، فقال: حدثنا عبید الله ابن مُعَاذٍ، حدثنا أبى، حدثنا عمران، عن أيوب بن أبى تيممة^(٨)، قال: ضعف أنس [بن مالك]^(٩) عن الصوم، فصنع جفنة من ثريد، فدعا ثلاثين مسكيناً فأطعمهم^(١٠).

ورواه عبد بن حميد، عن روح بن عبادة، عن عمران - وهو ابن حدير^(١١) - عن أيوب، به.

(١) صحيح البخارى برقم (٤٥٠٥).

(٢) زيادة من أ، و.

(٦) فى ج: « بعد ما ».

(٧) صحيح البخارى (١٧٩/٨) «فتح».

(٨) فى ج، أ: « بن أبى تميم ».

(١٠) مسند أبى يعلى (٢٠٤/٧) وقال الهيثمى فى المجمع (١٦٤/٣): « رجاله رجال الصحيح » لكنه منقطع.

(١١) فى و: « وهو ابن خدير ».

(٤، ٣) زيادة من ج، أ، و.

(٥) فى أ: « فى ».

(٩) زيادة من أ.

ورواه عبد أيضاً، من حديث ستة من أصحاب أنس، عن أنس - بمعناه.
ومما يلتحق بهذا المعنى: الحامل والمرضع، إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما، ففيهما خلاف
كثير بين العلماء، فمنهم من قال: يفطران ويفديان ويقضيان. وقيل: يفديان فقط، ولا قضاء. وقيل:
يجب القضاء بلا فدية. وقيل: يفطران، ولا فدية ولا قضاء. وقد بسطنا هذه المسألة مستقصاة في
كتاب الصيام الذي أفردناه^(١). والله الحمد والمنة.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن
شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ
الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُم وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ﴾ (١٨٥).

يمدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور، بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم فيه،
وكما اختصه بذلك، قد ورد الحديث بأنه الشهر الذي كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء.
قال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم، حدثنا عمران أبو
العوام، عن قتادة، عن أبي المليح، عن واثلة - يعني ابن الأسقع - أن رسول الله ﷺ قال: «أنزلت
صُحُفُ إبراهيم في أول ليلة من رمضان. وأنزلت التوراة لست مَضِينَ من رمضان، والإنجيل لثلاث
عَشْرَةَ خلت من رمضان»^(٢)، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان»^(٣).
وقد روى من حديث جابر بن عبد الله وفيه: أن الزبور أنزل^(٤) لثنتي عشرة [ليلة]^(٥) خلت من
رمضان، والإنجيل لثمانى عشرة، والباقي كما تقدم. رواه ابن مردويه.

أما الصحف والتوراة والزبور والإنجيل - فنزل كل منها^(٦) على النبي الذي أنزل عليه جملة
واحدة، وأما القرآن فإنما نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا، وكان ذلك في شهر
رمضان، في ليلة القدر منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]. وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ
فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، ثم نزل بعد مفراً^(٧) بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ. هكذا روى
من غير وجه، عن ابن عباس، كما قال إسرائيل، عن السدي، عن محمد بن أبي المجالد عن مِقْسَمٍ،
عن ابن عباس أنه سأل عطيّة بن الأسود، فقال: وقع^(٨) في قلبي الشك من قول الله تعالى: ﴿شَهْرُ
رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ
الْقَدْرِ﴾، وقد^(٩) أنزل في شوال، وفي ذى القعدة، وفي ذى الحجة، وفي المحرم، وصفر، وشهر
ربيع. فقال ابن عباس: إنه أنزل في رمضان، في ليلة القدر وفي ليلة مباركة جملة واحدة، ثم
أنزل^(١٠) على مواقع النجوم ترتيباً^(١١) في الشهور والأيام. رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه، وهذا

(٢) في «أ» بعدها: «وأنزل الزبور لثمانى عشرة خلت من رمضان».

(١) في أ: «الذي أوردناه».

(٣) المسند (١٠٧/٤).

(٤) في ج: «نزلت»، وفي أ: «نزل».

(٦) في ج: «منهما».

(٥) زيادة من أ.

(٩) في ج: «وهذا».

(٨) في و: «أوقع».

(٧) في و: «مفراً».

(١١) في أ: «رسلاً».

(١٠) في ج: «ثم نزل».

لفظه .

وفى رواية سعيد بن جبّير، عن ابن عباس قال: أنزل القرآن فى النصف من شهر رمضان إلى سماء الدنيا فجعل فى بيت العِزَّة، ثم أنزل على رسول الله ﷺ فى عشرين سنة لجواب كلام الناس .
وفى رواية عكرمة، عن ابن عباس، قال: نزل القرآن فى شهر رمضان فى ليلة القدر إلى هذه السماء الدنيا جملة واحدة، وكان الله يُحدِّثُ لِنبيه ما يشاء، ولا يجيء المشركون بمثل يخاصمون به إلا جاءهم الله بجوابه، وذلك قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً . وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣].

[قال فخر الدين: ويحتمل أنه كان ينزل فى كل ليلة قدر ما يحتاج الناس إلى إنزاله إلى مثله من اللوح إلى سماء الدنيا، وتوقف هل هذا أولى أو الأول؟ وهذا الذى جعله احتمالاً نقله القرطبى عن مقاتل بن حيان، وحكى الإجماع على أن القرآن نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا، وحكى الرازى عن سفيان بن عيينة وغيره أن المراد بقوله: ﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أى: فى فضله أو وجوب صومه، وهذا غريب جداً^(١).]

وقوله: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ : هذا مدح للقرآن الذى أنزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقه واتبعه ﴿وَبَيِّنَاتٍ﴾ أى: ودلائل وحجج بينة واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافى للضلال، والرشد المخالف للغى، ومفرقاً بين الحق والباطل، والحلال، والحرام.

وقد روى عن بعض السلف أنه كره أن يقال: إلا « شهر رمضان » ولا يقال: « رمضان »؛ قال ابن أبى حاتم:

حدثنا أبى، حدثنا محمد بن بكار بن الريان، حدثنا أبو معشر، عن محمد بن كعب القرظى، وسعيد - هو المقبرى - عن أبى هريرة، قال: لا تقولوا: رمضان، فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالى، ولكن قولوا: شهر رمضان.

قال^(٢) ابن أبى حاتم: وقد روى عن مجاهد، ومحمد بن كعب نحو ذلك، ورخص فيه ابن عباس وزيد بن ثابت.

قلت: أبو معشر هو نجيج بن عبد الرحمن المدنى إمام [فى]^(٣) المغازى، والسير، ولكن فيه ضعف، وقد رواه ابنه محمد عنه فجعله مرفوعاً، عن أبى هريرة، وقد أنكره عليه الحافظ ابن عدى^(٤) - وهو جدير بالإنكار - فإنه متروك، وقد وهم فى رفع هذا الحديث، وقد انتصر البخارى، رحمه الله، فى كتابه لهذا فقال: «باب يقال^(٥) رمضان»^(٦)، وساق أحاديث فى ذلك منها: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» ونحو ذلك.

(٣) زيادة من جـ.

(٢) فى جـ: « قال لى ».

(١) زيادة من جـ، أ.

(٤) الكامل لابن عدى (٥٣/٧).

(٥) فى جـ: « باب بأن يقال ».

(٦) الترجمة فى الصحيح (١١٢/٤) : « باب هل يقال رمضان أو شهر رمضان، ومن رأى كله واسعاً ».

وقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾: هذا إيجاب حتم على من شهد استهلال الشهر - أى كان مقيماً في البلد حين دخل شهر رمضان، وهو صحيح في بدنه - أن يصوم لا محالة. ونسخت هذه الآية الإباحة المتقدمة لمن كان صحيحاً مقيماً أن يفطر ويفدى بإطعام مسكين عن كل يوم، كما تقدم بيانه. ولما حتم الصيام أعاد ذكر الرخصة للمريض وللمسافر في الإفطار، بشرط القضاء فقال: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ معناه: ومن كان به مرض في بدنه يشق عليه الصيام معه، أو يؤذيه^(١)، أو كان على سفر أى في حال سفر - فله أن يفطر، فإذا أفطر فعليه بعدة ما أفطره في السفر من الأيام؛ ولهذا قال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ أى: إنما رخص لكم في الفطر في حال المرض وفي السفر، مع تحتمه في حق المقيم الصحيح، تيسيراً عليكم ورحمة بكم.

وهاهنا مسائل تتعلق بهذه الآية:

إحداها: أنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أن من كان مقيماً في أول الشهر ثم سافر في أثنائه، فليس له الإفطار بعذر السفر والحالة هذه، لقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾. وإنما يباح الإفطار لمسافر استهل الشهر وهو مسافر، وهذا القول غريب نقله أبو محمد بن حزم في كتابه المحلى، عن جماعة من الصحابة والتابعين. وفيما حكاه عنهم نظر، والله أعلم. فإنه قد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه خرج في شهر رمضان لغزوة الفتح، فسار^(٢) حتى بلغ الكديد، ثم أفطر، وأمر الناس بالفطر. أخرجه صاحبها الصحيح^(٣).

الثانية: ذهب آخرون من الصحابة والتابعين إلى وجوب الإفطار في السفر، لقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. والصحيح قول الجمهور، أن الأمر في ذلك على التخيير، وليس بحتم؛ لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان. قال: «فَمِنَّا الصَّائِمُ وَمِنَّا الْمَفْطَرُ، فلم يعب الصائم على المفطر، ولا المفطر على الصائم^(٤)». فلو كان الإفطار هو الواجب لأنكر عليهم^(٥) الصيام، بل الذي ثبت من فعل رسول الله ﷺ أنه كان في مثل هذه الحالة صائماً، لما ثبت في الصحيحين عن أبي الدرداء [قال]^(٦): خرجنا مع رسول الله ﷺ [في شهر رمضان]^(٧) في حرٍّ شديد، حتى إن كان أحداً ليضع يده على رأسه [من شدة الحر]^(٨)، وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة^(٩).

الثالثة: قالت طائفة منهم الشافعي: الصيام في السفر أفضل من الإفطار، لفعل النبي ﷺ كما تقدم، وقالت طائفة: بل الإفطار أفضل، أخذاً بالرخصة، ولما ثبت عن رسول الله ﷺ: أنه سئل عن الصوم في السفر، فقال: «من أفطر فحسن، ومن صام فلا جناح عليه»^(١٠). وقال في حديث آخر:

(٢) في أ، و: «فصام».

(١) في ج: «أو يمتد به».

(٣) صحيح البخارى برقم (١٩٤٨)، (٤٢٧٩) وصحيح مسلم برقم (١١١٣).

(٤) رواه مسلم في صحيحه برقم (١١١٨) من حديث أنس رضى الله عنه.

(٥) في أ، و: «عليهم في الصيام».

(٦) زيادة من و.

(٧) زيادة من ج، أ، و.

(٨) (٧، ٨) زيادة من ج، أ، و.

(٩) صحيح البخارى برقم (١٩٤٥) وصحيح مسلم برقم (١١٢٢).

(١٠) هذا لفظ حديث حمزة بن عمرو الأسلمي في صحيح مسلم برقم (١١٢١).

« عليكم برخصة الله التي رخص لكم »^(١). وقالت طائفة: هما سواء لحديث عائشة: أن حمزة بن عمرو الأسلمي قال: يا رسول الله، إني كثير الصيام، أفأصوم في السفر؟ فقال: « إن شئت فصم، وإن شئت فأفطر ». وهو في الصحيحين^(٢). وقيل: إن شق الصيام فالإفطار أفضل لحديث جابر: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً قد ظلَّ عليه، فقال: « ما هذا؟ » قالوا: صائم، فقال: « ليس من البر الصيام في السفر ». أخرجاه^(٣). فأما إن رغب عن السنة، ورأى أن الفطر مكروه إليه، فهذا يتعين عليه الإفطار، ويحرم عليه الصيام، والحالة هذه، لما جاء في مسند الإمام أحمد وغيره، وعن ابن عمر وجابر، وغيرهما: من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة^(٤).

الرابعة: القضاء، هل يجب متتابعاً أو يجوز فيه التفريق؟ فيه قولان: أحدهما: أنه يجب المتتابع، لأن القضاء يحكى الأداء. والثاني: لا يجب المتتابع، بل إن شاء فَرَّقْ، وإن شاء تابع. وهذا قول جمهور السلف والخلف، وعليه ثبتت الدلائل^(٥)؛ لأن المتتابع إنما وجب في الشهر لضرورة أدائه في الشهر، فأما بعد انقضاء رمضان فالمراد صيام أيام عدة ما أفطر. ولهذا قال تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ ثم قال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو سلمة الخزازي، حدثنا ابن^(٦) هلال، عن حميد بن هلال العدوي، عن أبي قتادة، عن الأعرابي الذي سمع النبي ﷺ يقول: «إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره»^(٧).

وقال أحمد أيضاً: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا عاصم بن هلال، حدثنا غاضرة بن عروة الفقيمي، حدثني أبي عروة، قال: كنا ننتظر النبي ﷺ فخرج رجلاً^(٨) يَقْطُرُ رَأْسَهُ مِنْ وَضوءٍ أو غَسَلٍ، فصلى، فلما قضى الصلاة جعل الناس يسألونه: علينا حرج في كذا؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن دين الله في يسر» ثلاثاً يقولها^(٩).

ورواه الإمام أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية من حديث مسلم بن إبراهيم، عن عاصم بن هلال، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة قال: حدثنا أبو التياح، سمعت أنس بن مالك يقول: إن رسول الله ﷺ قال: «يسروا، ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا». أخرجاه في الصحيحين^(١٠). وفي الصحيحين أيضاً: أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن: «بشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، وتطاوعا ولا تختلفا». وفي السنن والمسانيد أن رسول الله

(١) هذا لفظ حديث جابر وسيأتي.

(٢) صحيح البخاري برقم (١٩٤٣) وصحيح مسلم برقم (١١٢١).

(٣) صحيح البخاري برقم (١٩٤٦) وصحيح مسلم برقم (١١٢١).

(٤) المسند (٧١/٢).

(٥) في ج: «ثبت الأدلة». (٦) في أ، و: «حدثنا أبو».

(٧) المسند (٤٧٩/٣).

(٨) في أ، و: «فخرج رجل».

(٩) المسند (٦٩/٥).

(١٠) صحيح البخاري برقم (٦٩) وصحيح مسلم برقم (١٧٣٤).

ﷺ قال: «بعثت بالحنيفية السمحة»^(١).

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره: حدثنا عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم، حدثنا يحيى ابن أبي طالب، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، حدثنا أبو مسعود الجريري، عن عبد الله بن شقيق، عن محجن بن الأدرع: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يصلي فتراءاه بصره^(٢) ساعة، فقال: «أترأه يصلي صادقاً؟» قال: قلت: يا رسول الله، هذا أكثر أهل المدينة صلاة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تُسمعه فتُهلكه». وقال: «إن الله إنما أراد بهذه الأمة اليسر، ولم يرد بهم العسر»^(٣).

ومعنى قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ أي: إنما أرخص لكم في الإفطار للمرض^(٤) والسفر ونحوهما من الأعذار لإرادته بكم اليسر، وإنما أمركم بالقضاء لتكملوا عدة شهركم.

وقوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أي: ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم، كما قال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠] وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾^(٥) [النساء: ١٠٣]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَانْتَشَرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠] وقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ . وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩، ٤٠]؛ ولهذا جاءت السنة باستحباب التسبيح، والتحميد، والتكبير بعد الصلوات المكتوبات.

وقال ابن عباس: ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ إلا بالتكبير؛ ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير في عيد الفطر من هذه الآية: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ حتى ذهب داود بن علي الأصبهاني الظاهري إلى وجوبه في عيد الفطر؛ لظاهر الأمر في قوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ وفي مقابلته مذهب أبي حنيفة - رحمه الله - أنه لا يُشرع التكبير في عيد الفطر. والباقون على استحبابه، على اختلاف في تفاصيل بعض الفروع بينهم.

وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه، وترك محارمه، وحفظ حدوده، فلعلكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (١٨٦).

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن المغيرة، أخبرنا جرير، عن عبدة بن أبي برزة السجستاني^(٦)، عن الصُّلب^(٧) بن حكيم بن معاوية بن حيدة القشيري، عن أبيه، عن جده، أن

(١) صحيح البخارى برقم (٤٣٤١، ٤٣٤٢) وصحيح مسلم برقم (١٧٣٣).

(٢) فى أ، و: «بصره».

(٣) ورواه أحمد فى المسند (٥/ ٣٢) من طريق حماد عن الجريرى، عن عبد الله بن شقيق عن محجن نحوه.

(٤) زيادة من جـ.

(٥) فى أ: «للمريض».

(٦) فى جـ، أ، و: «السختياني».

(٧) فى جـ: «الصلت».

أعرباً قال: يا رسول الله، أقریب ربنا فنناجیه أم بعید فتناجیه؟ فسکت النبی ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾^(١).

ورواه ابن مَرْدُويه، وأبو الشيخ الأصبهاني، من حديث محمد بن أبي حميد، عن جرير، به.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا جعفر بن سليمان، عن عوف، عن الحسن، قال: سأل أصحاب رسول الله ﷺ [النبي ﷺ]^(٢): أين ربنا؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية^(٣).

وقال ابن جُرَيْج عن عطاء: أنه بلغه لما نزلت: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] قال الناس: لو نعلم أى ساعة ندعو؟ فنزلت: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي، حدثنا خالد الحذاء، عن أبي عثمان النهدي، عن أبي موسى الأشعري، قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى غَزَاة فجعَلنا لا نصعد شَرَفًا، ولا نعلو شَرَفًا، ولا نهبط وادياً إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير. قال: فدنا منا فقال: «يا أيها الناس، أربِعُوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً بصيراً، إن الذى تدعون أقرب إلى أحدكم من عُنُقِ راحلته. يا عبد الله بن قيس، ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله».

أخرجاه في الصحيحين، وبقية الجماعة من حديث أبي عثمان النهدي، واسمه عبد الرحمن بن مُل^(٤) عنه، بنحوه^(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا شعبة، حدثنا قتادة، عن أنس رضى الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بى، وأنا معه إذا دعانى»^(٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا على بن إسحاق، أخبرنا عبد الله، أخبرنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، حدثنا إسماعيل بن عبيد الله، عن كريمة بنت الخشخاش المزنية، قالت: حدثنا أبو هريرة: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: أنا مع عبدي ما ذكرنى، وتحركت بى شفتاه»^(٧).

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وكقوله لموسى وهارون، عليهما السلام: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]. والمراد من هذا: أنه تعالى لا يخيب دعاء داع، ولا يشغله عنه شيء، بل هو سميع الدعاء. وفيه ترغيب فى الدعاء، وأنه لا يضيع لديه تعالى، كما قال الإمام أحمد:

(١) ورواه الطبري فى تفسيره (٣/ ٤٨٠) من طريق جرير به، وانظر حاشيته فيها كلام جيد حول الصلب بن حكيم.

(٢) زيادة من ج، أ، و.

(٣) ورواه الطبري فى تفسيره (٣/ ٤٨١) من طريق عبد الرزاق به.

(٤) فى ج: «بن ملبك».

(٥) المسند (٤/ ٤٠٢).

(٦) المسند (٣/ ٢١٠).

(٧) المسند (٢/ ٥٤٠).

حدثنا يزيد، حدثنا رجل أنه سمع أبا عثمان - هو النهدي - يحدث عن سلمان - يعنى الفارسي - رضى الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى ليستحي أن يسط العبد إليه يديه يسأله فيهما خيرا فيردّهما خائبتين».

قال يزيد: سموا لى هذا الرجل، فقالوا: جعفر بن ميمون^(١).

وقد رواه أبو داود، والترمذى، وابن ماجة من حديث جعفر بن ميمون، صاحب الأئباط، به^(٢).

وقال الترمذى: حسن غريب. ورواه بعضهم، ولم يرفعه.

وقال الشيخ الحافظ أبو الحجاج المزى، رحمه الله، فى أطرافه: وتابعه أبو همام محمد بن الزبرقان، عن سليمان التيمى، عن أبى عثمان النهدي، به^(٣).

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو عامر، حدثنا على بن دؤاد أبو المتوكل الناجى، عن أبى سعيد: أن النبى ﷺ قال: «ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدّخرها له فى الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها» قالوا: إذاً نكثر. قال: «الله أكثر^(٤)»^(٥).

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن منصور الكوسج، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا ابن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن جبير بن نفير، أن عبادة بن الصامت حدثهم أن النبى ﷺ قال: «ما على ظهر الأرض من رجل مسلم يدعو الله، عز وجل، بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو كف عنه من السوء مثلها، ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم»^(٦).

ورواه الترمذى، عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى، عن محمد بن يوسف الفريابى، عن ابن ثوبان - وهو عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان - به^(٧). وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

وقال الإمام مالك، عن ابن شهاب، عن أبى عبيد - مولى ابن أزر - عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوتُ فلم يستجب لى».

أخرجاه فى الصحيحين من حديث مالك، به^(٨). وهذا لفظ البخارى، رحمه الله، وأثابه الجنة.

وقال مسلم أيضاً^(٩): حدثنى أبو الطاهر، حدثنا ابن وهب، أخبرنى معاوية بن صالح، عن ربيعة ابن يزيد، عن أبى إدريس الخولانى، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال: «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل». قيل: يا رسول الله، ما الاستعجال؟ قال: «يقول: قد

(١) المسند (٥/ ٤٣٨).

(٢) سنن أبى داود برقم (١٤٨٨) وسنن الترمذى برقم (١٤٨٨) وسنن ابن ماجة برقم (٣٨٦٥).

(٣) تحفة الأشراف (٤/ ٢٩).

(٤) فى ج: «أكثروا».

(٥) المسند (٣/ ١٨).

(٦) زوائد المسند (٥/ ٣٢٩).

(٧) سنن الترمذى برقم (٣٥٧٣).

(٨) الموطأ (١/ ٢١٣) وصحيح البخارى برقم (٦٨٤).

(٩) فى ج، أ: «وقال مسلم فى صحيحه».

دعوتُ، وقد دَعَوْتُ، فلم أَرِ يَسْتَجِبْ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عند ذلك، ويترك^(١) الدعاء^(٢).
وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا ابن^(٣) هلال، عن قتادة، عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل». قالوا: وكيف يستعجل؟ قال: «يقول: قد دعوتُ ربِّي فلم يَسْتَجِبْ لِي»^(٤).

وقال الإمام أبو جعفر الطبري في تفسيره: حدثني يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، حدثني أبو صخر: أن يزيد بن عبد الله بن قسيّط حدثه، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: ما من عَبْد مؤمن يدعو الله بدعوة فتذهب، حتى تُعَجَّلَ له في الدنيا أو تُدْخَر له في الآخرة إذا لم^(٥) يعجل أو يقنط. قال عروة: قلت: يا أمّاه^(٦)، كيف عجلته وقنوطه؟ قالت: يقول: سألت فلم أعط، ودعوت فلم أجب.

قال ابن قسيّط: وسمعت سعيد بن المسيب يقول كقول عائشة سواء.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا بكر بن عمرو، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ قال: «القلوب أوعى، وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتهم الله أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإنه لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل»^(٧).

وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن إسحاق بن أيوب، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن أبي بن نافع ابن معديكرب ببغداد، حدثني أبي بن نافع، حدثني أبي نافع بن معديكرب، قال: كنت أنا وعائشة سألتُ رسول الله ﷺ عن الآية: «أَجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا» قال: «يارب، مسألة عائشة». فهبط جبريل فقال: الله يقرئك السلام، هذا عبدى الصالح^(٨)، بالنية الصادقة، وقلبه نقى^(٩)، يقول: يا رب، فأقول: لبيك. فأقضى حاجته.

هذا حديث غريب من هذا الوجه^(١٠).

وروى ابن مردويه من حديث الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: حدثني جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قرأ: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا» الآية. فقال رسول

(١) في ج، أ، و: «ويدع».

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٧٣٥).

(٣) في ج: «حدثنا أبو».

(٤) المسند (٣/ ٢١٠).

(٥) في ج، أ: «إذا هو لم».

(٦) في أ، و: «يا أمّاه».

(٧) المسند (٢/ ١٧٧).

(٨) في ج: «عبدى أصلح».

(٩) في ج: «وقلبه نقى».

(١٠) ذكره ابن الأثير في أسد الغابة (٤/ ٥٣٠) وقال: «روى حديثه محمد بن إسحاق، عن إسحاق بن إبراهيم بن أبي بن نافع بن معديكرب، عن جده أبي، عن أبيه نافع بن معديكرب أنه قال، فذكر مثله» ثم قال ابن الأثير: «أخرجه أبو موسى وقال: عند ابن إسحاق هذا، وعند غيره: عن إسحاق بن إبراهيم أحاديث».

الله ﷻ: «اللهم أمرت بالدعاء، وتوكلت بالإجابة، لييك اللهم لييك، لييك لا شريك لك، لييك إن الحمد والنعمة لك، والمملك لا شريك لك، أشهد أنك فرد أحد صمد لم تلد ولم تولد ولم يكن لك كفواً أحد، وأشهد أن وعدك حق، ولقاءك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة آتية لا ريب فيها، وأنت تبعث من فى القبور»^(١).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا الحسن بن يحيى الأزرى^(٢)، ومحمد بن يحيى القطعى^(٣)، قالا: حدثنا الحجاج بن منهال، حدثنا صالح المرى، عن الحسن، عن أنس، عن النبى ﷺ قال: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، واحدة لك واحدة لى، وواحدة فيما بينى وبينك؛ فأما التى لى فتعبدنى لا تشرك بى شيئاً، وأما التى لك فما عملت من شىء وفيتكه»^(٤)، وأما التى بينى وبينك فمنك الدعاء وعلى الإجابة»^(٥).

وفى ذكره تعالى^(٦) هذه الآية الباعثة على الدعاء، متخللة بين أحكام الصيام، إرشاد إلى الاجتهاد فى الدعاء عند إكمال العدة، بل وعند كل فطر، كما رواه الإمام أبو داود الطيالسى فى مسنده:

حدثنا أبو محمد المليكى، عن عمرو - هو ابن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عمرو، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة». فكان عبد الله بن عمرو إذ أفطر دعا أهله، وولده ودعا^(٧).

وقال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة فى سننه: حدثنا هشام بن عمار، أخبرنا الوليد بن مسلم، عن إسحاق بن عبيد الله^(٨) المدنى، عن عبد الله^(٩) بن أبى مليكة، عن^(١٠) عبد الله بن عمرو، قال: قال النبى ﷺ: «إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد». قال عبد الله^(١١) بن أبى مليكة: سمعت عبد الله بن عمرو يقول إذا أفطر: اللهم إنى أسألك برحمتك التى وسعت كل شىء أن تغفر لى^(١٢).

وفى مسند الإمام أحمد، وسنن الترمذى، والنسائى، وابن ماجة، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷻ: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى^(١٣) يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون^(١٤) الغمام يوم القيامة، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول: بعزتى لأنصرنك ولو بعد حين»^(١٥).

(١) ورواه الديلمى فى مسند الفردوس برقم (١٧٩٨) وابن أبى الدنيا فى الدعاء كما فى الدر المنثور (١/ ٤٧٤) وإسناده واه.

(٢) فى ج: «الأزدى». (٣) فى ج: «المقطعى».

(٤) فى أ، و: «من شىء أو من عمل وفيتكه».

(٥) مسند البزار برقم (١٩) «كشف الاستار» وقال البزار: «تفرد به صالح المرى، وصالح المرى ضعفه الأئمة».

(٦) فى ج: «وفى ذكره تبارك وتعالى».

(٧) مسند الطيالسى برقم (٢٢٦٢).

(٨) فى هـ: «عبد الله»، والصواب ما أثبتناه. (٩) فى و: «عبيد الله».

(١٠) فى ج: «سمعت». (١١) فى و: «عبيد الله».

(١٢) سنن ابن ماجة برقم (١٧٥٣) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ٣٨): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات» وحسنه الحافظ ابن حجر فى «نتائج الأفكار».

(١٣) فى و: «حين». (١٤) فى أ: «فوق».

(١٥) المسند (٢/ ٤٤٥) وسنن الترمذى برقم (٣٥٩٨) وسنن ابن ماجة برقم (١٧٥٢).

﴿ أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧) ﴾ .

هذه رخصة من الله تعالى للمسلمين، ورفع لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة. فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة. والرفث هنا هو: الجماع. قاله (١) ابن عباس، وعطاء، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وطاوس، وسالم ابن عبد الله، وعمر بن دينار (٢)، والحسن، وقتادة، والزهرى، والضحاك، وإبراهيم النخعي، والسدي، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حيان.

وقوله: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والسدي، ومقاتل بن حيان: يعنى هن سكن لكم، وأنتم سكن لهن. وقال الربيع بن أنس: هن لحاف لكم وأنتم لحاف لهن.

وحاصله أن الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويُمَاسه ويضاجعه، فناسب أن يُرَخَّصَ لهم في المجامعة في ليل رمضان، لئلا يشق ذلك عليهم، ويخرجوا، قال الشاعر (٣):

إذا ما الضجيج ثنى جيدها تدَاعَتْ فكانت عليه لباسا

وكان السبب في نزول هذه الآية كما تقدم في حديث معاذ الطويل، وقال أبو إسحاق عن البراء ابن عازب قال: كان أصحاب النبي ﷺ إذا كان الرجل صائماً فنام قبل أن يفطر، لم يأكل إلى مثلها، وإن قيس بن صرمة (٤) الأنصاري كان صائماً، وكان يومه ذاك يعمل في أرضه، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال: هل عندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلب لك. فغلبته عينه فنام، وجاءت امرأته، فلما رآته نائماً قالت: خيبة لك! أمت؟ فلما انتصف النهار غشى عليه، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿ أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ ففرحوا بها فرحاً شديداً (٥).

ولفظ البخاري هاهنا من طريق أبي إسحاق: سمعت البراء قال: لما نزل صوم رمضان كانوا لا

(١) في أ: «كما قال».

(٢) في ج: «بن يسار».

(٣) هو النابغة الجعدي، والبيت في تفسير الطبري (٣/ ٤٩٠).

(٤) في و: «قيس بن أبي صرمة».

(٥) هذا اللفظ رواه الطبري في تفسيره (٣/ ٤٩٥).

يَقْرَبُونَ النِّسَاءَ، رَمَضَانَ كُلَّهُ، وَكَانَ رَجَالٌ يَخُونُونَ أَنْفُسَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾^(١).

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قال: كان المسلمون فى شهر رمضان إذا صلُّوا العشاء حَرَّمَ عليهم^(٢) النساء والطعام إلى مثلها من القابلة، ثم إن أناساً من المسلمين أصابوا من النساء والطعام فى شهر رمضان بعد العشاء، منهم عمر بن الخطاب، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُمْ﴾. وكذا روى العوفى عن ابن عباس.

وقال موسى بن عقبة، عن كُرَيْب، عن ابن عباس، قال: إن الناس كانوا قبل أن ينزل فى الصوم ما نزل فيهم يأكلون ويشربون، ويحل لهم شأن النساء، فإذا نام أحدهم لم يطعم ولم يشرب ولا يأتى أهله حتى يفطر من القابلة، فبلغنا أن عمر بن الخطاب بعدما نام ووجب عليه الصوم وَقَعَ على أهله، ثم جاء إلى النبى ﷺ فقال: أشكو إلى الله وإليك الذى صنعت. قال: «وماذا صنعت؟» قال: «إني سَوَّيْتُ لى نفسى، فوقعت على أهلى بعد ما نمت وأنا أريد الصوم. فزعموا أن النبى ﷺ قال: «ما كنت خليقاً أن تفعل». فنزل الكتاب: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾.

وقال سعيد بن أبى عَرُوبَةَ، عن قيس بن سعد^(٣)، عن عطاء بن أبى رباح، عن أبى هريرة فى قول الله تعالى^(٤): ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ قال: كان المسلمون قبل أن تنزل هذه الآية إذا صلُّوا العشاء الآخرة حَرَّمَ عليهم الطعام والشراب والنساء حتى يفطروا، وإن عمر بن الخطاب أصاب أهله بعد صلاة العشاء، وإن صرمة بن قيس الأنصارى غلبته عينه بعد صلاة المغرب، فنام ولم يشبع من الطعام، ولم يستيقظ حتى صلى رسول الله ﷺ العشاء، فقام فأكل وشرب، فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ فأخبره^(٥) بذلك، فأنزل الله عند ذلك: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ يعنى بالرفث: مجامعة النساء ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ يعنى: تجامعون النساء، وتأكلون وتشربون بعد العشاء ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُمْ﴾ يعنى: جامعوهن ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يعنى: الولد ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾. فكان ذلك عفواً من الله ورحمة.

وقال هُشَيْم، عن حصين بن عبد الرحمن، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، قال: قام عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فقال: يا رسول الله، إني أردت أهلى البارحة^(٦) على ما يريد الرجل أهله فقالت: إنها قد نامت، فظننتها تعتلّ، فواقعته، فنزل فى عمر: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾.

(١) صحيح البخارى برقم (٤٥٠٨).

(٢) فى ج: «سعد بن قيس».

(٣) فى ج: «حرم الله عليهم».

(٤) فى ج: «فى قوله تعالى».

(٥) فى ج: «فأخبراه».

(٦) فى ج: «البارحة أهلى».

وهكذا رواه شعبة، عن عمرو بن مرة، عن ابن أبي ليلى، به^(١).
وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني المثني، حدثنا سويد، أخبرنا ابن المبارك، عن ابن لهيعة،
حدثني موسى بن جبير - مولى بني سلمة - أنه سمع عبد الله بن كعب بن مالك يحدث عن أبيه قال:
كان الناس في رمضان إذا صام الرجل فأمسى فنام، حُرِّمَ عليه الطعام والشراب والنساء حتى يفطر من
الغد. فرجع عمر بن الخطاب من عند النبي ﷺ ذات ليلة وقد سَمَرَ عنده، فوجد امرأته قد نامت،
فأرادها، فقالت: إني قد نمت! فقال: ما نمت! ثم وقع بها. وصنع كعب بن مالك مثل ذلك. فغدا
عمر بن الخطاب إلى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ
وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُمْ﴾ [الآية] (٢) (٣).

وهكذا روى عن مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والسدي، وقتادة، وغيرهم في سبب نزول هذه
الآية في عمر بن الخطاب ومن صنع كما صنع، وفي صِرْمَة بن قيس؛ فأباح الجماع والطعام والشراب
في جميع الليل رحمة ورفقة.
وقوله: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾: قال أبو هريرة، وابن عباس^(٤)، وأنس، وشريح القاضي،
ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وعطاء، والربيع بن أنس، والسدي، وزيد بن أسلم، والحكم
ابن عتبة^(٥)، ومقاتل بن حيان، والحسن البصري، والضحاك، وقتادة، وغيرهم: يعني الولد.
وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يعني: الجماع.
وقال عمرو بن مالك النكري، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾
قال: ليلة القدر. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر قال: قال قتادة: وابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم. وقال سعيد
عن قتادة: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يقول: ما أحل الله لكم.
وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عطاء بن أبي رباح، قال:
قلت لابن عباس: كيف تقرأ هذه الآية: ﴿وَابْتَغُوا﴾ أو: «اتبعوا»؟ قال: أيتهما شئت: عليك بالقراءة
الأولى.

واختار ابن جرير أن الآية أعم من هذا كله.
وقوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُوا الصِّيَامَ
إِلَى اللَّيْلِ﴾: أباح تعالى الأكل والشرب، مع ما تقدم من إباحة الجماع في أي الليل شاء الصائم إلى
أن يتبين ضياء الصباح من سواد الليل، وعبر عن ذلك بالخيط الأبيض من الخيط الأسود، ورفع اللبس
بقوله: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أبو عبد الله البخاري: حدثنا ابن أبي

(١) رواه ابن مردويه في تفسيره من طريق عمرو بن عون، عن هشيم به. قال الحافظ ابن كثير في «مسند الفاروق» (٢/ ٥٦٦): «هذا
إسناد جيد وابن أبي ليلى مختلف في سماعه من عمر، ولكن قد روى من وجه آخر عن ابن أبي ليلى عن معاذ بن جبل أن عمر
فعل مثل هذا». ورواه الطبري في تفسيره (٣/ ٤٩٣) من طريق شعبة عن عمرو بن مرة به.

(٢) زيادة من جد، أ، و.

(٣) تفسير الطبري (٣/ ٤٩٦).

(٤) في جد: «قال الزهري عن ابن عباس». (٥) في أ: «عيينة»، وفي و: «عتيبة».

مريم، حدثنا أبو غَسَّانَ محمد بن مُطَرِّف، حدثني أبو حازم، عن سهل بن سعد، قال: أنزلت: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ ولم يُنَزَّلْ ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ وكان رجال إذا أرادوا الصوم، رَبطَ أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعد: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فعملوا أنما يعنى: الليل والنهار^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْم، أخبرنا حُصَيْن، عن الشعبي، أخبرني عَدِي بن حاتم قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ عمدت إلى عقالين، أحدهما أسود والآخر أبيض، قال: فجعلتهما تحت وسادتي، قال: فجعلت أنظر إليهما فلا تَبَيَّنَ^(٢) لى الأسود من الأبيض، ولا الأبيض من الأسود، فلما أصبحت غدوت على رسول الله ﷺ فأخبرته بالذي صنعت. فقال: «إِنَّ وسادك إذاً لعريض، إنما ذلك بياض النهار وسواد^(٣) الليل»^(٤).

أخرجاه في الصحيحين من غير وجه، عن عَدِي^(٥). ومعنى قوله: «إِنَّ وسادك إذاً لعريض» أى: إن كان يسعُ لوضع الخيط الأسود والخيط الأبيض المرادين من هذه الآية تحتها، فإنهما بياض النهار وسواد الليل. فيقتضى أن يكون بعرض المشرق والمغرب.

وهكذا وقع في رواية البخارى مفسراً بهذا: أخبرنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن حُصَيْن، عن الشعبي، عن عَدِي قال: أخذ عَدِي عقالا أبيض وعقالا أسود، حتى كان بعض الليل نظر فلم يتبين^(٦). فلما أصبح قال: يا رسول الله، جعلت تحت وسادتي. قال: «إِنَّ وسادك إذاً لعريض، أن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك»^(٧).

وجاء في بعض الألفاظ: إنك لعريض القفا. ففسره بعضهم بالبلادة، وهو ضعيف. بل يرجع إلى هذا؛ لأنه إذا كان وساده عريضاً فقفاه أيضاً عريض، والله أعلم. ويفسره رواية البخارى أيضاً: حدثنا قتيبة، حدثنا جرير، عن مُطَرِّف، عن الشعبي، عن عَدِي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أهما الخيطان؟ قال: «إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين». ثم قال: «لا، بل هو»^(٨) سواد الليل وبياض النهار^(٩).

وفى إباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر، دليل على استحباب السَّحُور؛ لأنه من باب الرخصة، والأخذ بها محبوب؛ ولهذا وردت السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ بالحث على السَّحُور [لأنه من باب الرخصة والأخذ بها]^(١٠)، ففى الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً»^(١١). وفى صحيح مسلم، عن عمرو بن العاص رضى الله عنه، قال: قال

(١) صحيح البخارى برقم (٤٥١١).

(٢) فى ج: «فلما يتبين».

(٣) فى ج: «من سواد».

(٤) المسند (٤/ ٣٧٧).

(٥) صحيح البخارى برقم (١٩١٦، ٤٥٠٩) وصحيح مسلم برقم (١٠٩٠).

(٦) فى أ، و: «فلم يستبين».

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٥٠٩).

(٨) فى مج: «بل هما».

(٩) صحيح البخارى برقم (٤٥١٠).

(١٠) زيادة من ج.

(١١) صحيح البخارى برقم (١٩٢٣) وصحيح مسلم برقم (١٠٩٥).

رسول الله ﷺ: «إِنْ فَصَلَ^(١) مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَكَلَةُ السَّحَرِ^(٢)»^(٣).
وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى^(٤)، هو ابن الطباع، حدثنا عبد الرحمن بن زيد،
عن أبيه، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «السَّحُورُ أَكْلُهُ بَرَكَةٌ؛ فَلَا
تَدْعُوهُ، وَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَجْرَعُ جُرْعَةً مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يَصَلُّونَ عَلَى الْمُتَسَحِّرِينَ»^(٥).
وقد ورد في الترغيب في السحور أحاديث كثيرة حتى ولو بجرعة من ماء، تشبهاً^(٦) بالأكليين.
ويستحب تأخيرها إلى قريب انفجار الفجر، كما جاء في الصحيحين، عن أنس بن مالك، عن زيد بن
ثابت، قال: تسحرنا مع رسول الله ﷺ، ثم قمنا إلى الصلاة. قال أنس: قلت لزيد: كم كان بين
الأذان والسحور؟ قال: قدر خمسين آية^(٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، عن سالم بن غيلان، عن
سليمان^(٨) بن أبي عثمان، عن عدي بن حاتم الحمصي، عن أبي ذرّ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا
تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْإِفْطَارَ وَأَخَّرُوا السَّحُورَ»^(٩). وقد ورد في أحاديث كثيرة أن رسول الله ﷺ
سمّاهُ الغدَاءَ المبارك، وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد، والنسائي، وابن ماجه من رواية حماد بن
سلمة، عن عاصم بن بهدلة، عن زرّ بن حبیش، عن حذيفة بن اليمان قال: تسحرنا مع رسول الله
ﷺ، وكان النهار إلا أن الشمس لم تطلع^(١٠). وهو حديث تفرد به عاصم بن أبي النجود، قاله
النسائي، وحمله على أن المراد قربُ النهار، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢] أي: قاربين انقضاء العدة، فإذا إمساك^(١١) أو ترك للفرّاق. وهذا
الذي قاله هو المتعين حمل الحديث عليه: أنهم تسحروا ولم يتيقنوا طلوع الفجر، حتى إن بعضهم ظن
طلوعه وبعضهم لم يتحقق ذلك. وقد روى عن طائفة كثيرة من السلف أنهم تسامحوا^(١٢) في
السحور عند مقاربة الفجر. روى مثل هذا عن أبي بكر، وعمر، وعلي، وابن مسعود، وحذيفة،
وأبي هريرة، وابن عمر، وابن عباس، وزيد بن ثابت، وعن طائفة كثيرة من التابعين، منهم: محمد
ابن علي بن الحسين، وأبو مجلز، وإبراهيم النخعي، وأبو الضحى، وأبو وائل، وغيره^(١٣) من
أصحاب ابن مسعود، وعطاء، والحسن، والحكم بن عتيبة^(١٤)، ومجاهد، وعروة بن الزبير، وأبو
الشعثاء جابر بن زيد. وإليه ذهب الأعمش معمر^(١٥) بن راشد. وقد حررنا أسانيد ذلك في كتاب

(١) في أ: «إن أفضل».

(٢) صحيح مسلم برقم (١٠٩٦).

(٣) في ج: «بن إسحاق».

(٤) المسند (٣/ ٤٤).

(٥) في أ: «تشبيهاً».

(٦) صحيح البخاري برقم (١٩٢١) وصحيح مسلم برقم (١٠٩٧).

(٧) في ج: «عن سلمان».

(٨) المسند (٥/ ١٧٢).

(٩) المسند (٥/ ٣٩٦) وسنن النسائي (٤/ ١٤٢) وسنن ابن ماجه برقم (١٦٩٥).

(١٠) في ج: «إمساك بمعروف».

(١١) في أ: «أنهم سامحوا».

(١٢) في ج: «ابن قتيبة»، وفي و: «ابن عتيبة».

(١٣) في ج، أ: «ومعمر».

الصيام المفرد، والله الحمد.

وحكى أبو جعفر بن جرير فى تفسيره، عن بعضهم: أنه إنما يجب الإمساك من طلوع الشمس كما يجوز الإفطار بغروبها.

قلت: وهذا القول ما أظن أحداً من أهل العلم يستقر له قدم عليه، لمخالفته نص القرآن فى قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ وقد ورد فى الصحيحين من حديث القاسم، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمنعكم^(١) أذان بلال عن سحورك، فإنه ينادى بليل، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر». لفظ البخارى^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا محمد بن جابر، عن قيس بن طلق، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الفجر المستطيل فى الأفق ولكنه المعترض الأحمر»^(٣). ورواه أبو داود، والترمذى ولفظهما: «كلوا واشربوا ولا يهيئكم الساطع المصعد، فكلوا واشربوا حتى يعترض لكم الأحمر»^(٤).

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا شعبة، عن شيخ من بنى قشير: سمعت سمرة بن جندب يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا يغرنكم نداء بلال وهذا البياض حتى ينفجر الفجر، أو يطلع الفجر».

ثم رواه من حديث شعبة وغيره، عن سودة بن حنظلة، عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يمنعكم من سحورك أذان بلال ولا الفجر المستطيل، ولكن الفجر المستطير فى الأفق»^(٥).

قال: وحدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، عن عبد الله بن سودة القشيري، عن أبيه، عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يغرنكم أذان بلال ولا هذا البياض، تعمدوا الصبح حين يستطير»^(٦).

ورواه مسلم فى صحيحه عن زهير بن حرب، عن إسماعيل بن إبراهيم - يعنى^(٧) ابن علية - مثله سواء^(٨).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا ابن المبارك، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان النهدي، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يمنع أحدكم أذان بلال عن سحوره - أو قال نداء بلال - فإن بلالا يؤذن - أو [قال]^(٩) ينادى - لينبه نائمكم وليرجع قائمكم، وليس الفجر أن يقول

(١) فى و: «لا يمنعكم».

(٢) صحيح البخارى برقم (١٩١٨، ٦٢٢) وصحيح مسلم برقم (١٠٩٢) وقوله: «لا يمنعكم أذان بلال عن سحورك» لم يقع فى البخارى من حديث عائشة وإنما من حديث عبد الله بن مسعود، هذا ما ظهر لى بعد البحث، والله أعلم.

(٣) المسند (٢٣ / ٤).

(٤) سنن أبى داود برقم (٢٣٤٨) وسنن الترمذى برقم (٧٠٥).

(٥) هذا الحديث لم أجده فى تفسير الطبرى المطبوع.

(٦) فى أ، و: «العمود الصبح حتى يستطير».

(٧) فى و: «هو».

(٨) صحيح مسلم برقم (١٠٩٤).

(٩) زيادة من و.

هكذا أو هكذا، حتى يقول هكذا».

ورواه من وجه آخر عن التيمي، به^(١).

وحدثني الحسن بن الزبرقان النخعي، حدثنا أبو أسامة عن محمد بن أبي ذئب، عن الحارث بن عبد الرحمن، عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «الفجر فجران، فالذي كأنه ذنب السرحان لا يُحرّم شيئاً، وأما المستطير الذي يأخذ الأفق، فإنه يحل الصلاة ويحرّم الطعام»^(٢). وهذا مرسل جيد.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج، عن عطاء قال: سمعت ابن عباس يقول: هما فجران، فأما الذي يسطع في السماء فليس يُحل ولا يحرم شيئاً، ولكن الفجر الذي يستين^(٣) على رؤوس الجبال، هو الذي يحرم الشراب. قال عطاء: فأما إذا سطع سطوعاً في السماء، وسطوعه أن يذهب في السماء طولا، فإنه لا يحرم به شراب لصيام ولا صلاة، ولا يفوت به حج^(٤)، ولكن إذا انتشر على رؤوس الجبال، حرم الشراب للصيام وفات الحج.

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس وعطاء، وهكذا روى عن غير واحد من السلف، رحمهم الله.

مسألة: ومن جعله تعالى الفجر غاية لإباحة الجماع والطعام والشراب لمن أراد الصيام، يُستدلّ على أنه من أصبح جنباً فليغتسل، وليتم صومه، ولا حرج عليه. وهذا مذهب الأئمة الأربعة وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً، لما رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة وأم سلمة، رضي الله عنهما، أنهما قالتا: كان رسول الله ﷺ يصبح جنباً من جماع غير احتلام، ثم يغتسل ويصوم^(٥). وفي حديث أم سلمة عندهما: ثم لا يفطر ولا يقضى. وفي صحيح مسلم، عن عائشة: أن رجلاً قال: يا رسول الله، تُدركني الصلاة وأنا جنب، فأصوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «وأنا تدركني الصلاة وأنا جنب، فأصوم». فقال: لست مثلنا - يا رسول الله - قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فقال: «والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقى»^(٦). فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا نودي للصلاة - صلاة الصبح - وأحدكم جنب فلا يصم يومئذ»^(٧)، فإنه حديث جيد الإسناد على شرط الشيخين، كما ترى^(٨)، وهو في الصحيحين عن أبي هريرة، عن الفضل بن عباس عن النبي

(١) لم أجد هذا الحديث في المطبوع من تفسير الطبري ورواه البخاري في صحيحه برقم (٦٢١، ٥٢٩٨) ومسلم في صحيحه برقم (١٠٩٣) من طريق أبي عثمان النهدي به.

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٥١٤).

(٣) في أ: «حتى يستين».

(٤) في أ: «به الحج».

(٥) صحيح البخاري برقم (١٩٢٥، ١٩٢٦) وصحيح مسلم برقم (١١٠٩).

(٦) صحيح مسلم برقم (١١٠٩).

(٧) المسند (٢/ ٣١٤).

(٨) في ج: «كما ترى على شرط الشيخين».

ﷺ^(١)، وفي سنن النسائي^(٢): عنه، عن أسامة بن زيد، والفضل بن عباس ولم يرفعه^(٣). فمن العلماء من علّل هذا الحديث بهذا، ومنهم من ذهب إليه، ويحكى هذا عن أبي هريرة، وسالم، وعطاء، وهشام بن عروة، والحسن البصري. ومنهم من ذهب إلى التفرقة بين أن يصحح جنباً نائماً فلا عليه، لحديث عائشة وأم سلمة، أو مختاراً فلا صومَ له، لحديث أبي هريرة. يحكى^(٤) هذا عن عروة، وطاوس، والحسن. ومنهم من فرق بين الفرض فيتمه ويقضيه وأما النَّفل فلا يضره. رواه الثوري، عن منصور، عن إبراهيم النخعي. وهو رواية عن الحسن البصري أيضاً، ومنهم من ادعى نسخ حديث أبي هريرة بحديثي عائشة وأم سلمة، ولكن لا تاريخ معه.

وادعى ابن حزم أنه منسوخ بهذه الآية الكريمة، وهو بعيد أيضاً، وأبعد؛ إذ لا تاريخ، بل الظاهر من التاريخ خلافه. ومنهم من حمل حديث أبي هريرة على نفى الكمال «فلا صوم له» لحديث عائشة وأم سلمة الدالين على الجواز. وهذا المسلك أقرب الأقوال وأجمعها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ يقتضى الإفطار عند غروب الشمس حكماً شرعياً، كما جاء في الصحيحين، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أقبل الليل من هاهنا وأدبر النهار من هاهنا، فقد أفطر الصائم»^(٥).

وعن سهل بن سعد الساعدي، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر» أخرجاه أيضاً^(٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعي، حدثنا قُرة بن عبد الرحمن، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «يقول الله، عز وجل: إن أحبَّ عبادى إلى أعجلهم فطراً».

ورواه الترمذى من غير وجه، عن الأوزاعي، به^(٧). وقال: هذا حديث حسن غريب.

وقال أحمد أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا عبید الله^(٨) بن إِيَاد، سمعت إِيَاد بن لَقِيط قال: سمعت لیلی امرأة بشير بن الحَصَاصِيَّة، قالت: أردت أن أصومَ يومين مواصلة، فمَنَعَنِي بشير وقال: إن رسول الله ﷺ نهى عنه. وقال: «يفعل ذلك النصرى، ولكن صُومُوا كما أمركم الله، وأتموا الصيامَ إلى الليل، فإذا كان الليل فأفطروا»^(٩).

[وروى الحافظ ابن عساكر، حدثنا بكر بن سهل، حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا يحيى بن

(١) صحيح البخارى برقم (١٩٢٥) وصحيح مسلم برقم (١١٠٩).

(٢) فى أ: «وفى سنن أبى داود والنسائي».

(٣) سنن النسائي الكبرى برقم (٢٩٣٣، ٢٩٣٤).

(٤) فى ج: «ويحكى».

(٥) صحيح البخارى برقم (١٩٥٤) وصحيح مسلم برقم (١١٠٠).

(٦) صحيح البخارى برقم (١٩٥٧) وصحيح مسلم برقم (١٠٩٨).

(٧) المسند (٢/ ٢٣٨) وسنن الترمذى برقم (٧٠٠، ٧٠١).

(٨) فى أ: «عبد الله».

(٩) المسند (٥/ ٢٢٥).

حمزة، عن ثور بن يزيد، عن علي بن أبي طلحة، عن عبد الملك بن أبي ذر، أن رسول الله ﷺ واصل يومين وليلة؛ فأتاه جبريل فقال: إن الله قد قبل وصالك، ولا يحل لأحد بعدك، وذلك بأن الله قال: ﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾، فلا صيام بعد الليل، وأمرني بالوتر قبل الفجر، وهذا إسناد لا بأس به، أورده في ترجمة عبد الملك بن أبي ذر في تاريخه^(١) (٢).

ولهذا ورد في الأحاديث الصحيحة النهى عن الوصال، وهو أن يصل صوم يوم بيوم آخر، ولا يأكل بينهما شيئاً. قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تواصلوا». قالوا: يا رسول الله، إنك تواصل. قال: «إني لست مثلكم، إني أبيتُ يُطعمني ربي ويسقيني». قال: فلم ينتهوا عن الوصال، فواصل بهم النبي ﷺ يومين وليتين، ثم رأوا الهلال، فقال: «لو تأخر الهلال لزدتكم» كالمُنْكَل بهم^(٣).

وأخرجاه في الصحيحين، من حديث الزهري به^(٤). وكذلك أخرجاه النهى عن الوصال من حديث أنس وابن عمر^(٥).

وعن عائشة، رضى الله عنها، قالت: نهى رسول الله ﷺ عن الوصال، رحمة لهم، فقالوا: إنك تواصل. قال: «إني لست كهيتكم، إني يطعمني ربي ويسقيني»^(٦).

فقد ثبت النهى عنه من غير وجه، وثبت أنه من خصائص النبي ﷺ، وأنه كان يقوى على ذلك ويعان، والأظهر أن ذلك الطعام والشراب في حقه إنما كان معنوياً لا حسيّاً، وإلا فلا يكون مواصلاً مع الحسى، ولكن كما قال الشاعر:

لها أحاديثٌ من ذكراك تشغلها عن الشراب وتُلهيها عن الزاد

وأما من أحب أن يُمْسك بعد غروب الشمس إلى وقت السحر فله ذلك، كما في حديث أبي سعيد الخدري، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تواصلوا، فأَيْكُمْ أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر». قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله. قال: «إني^(٧) لست كهيتكم، إني أبيت لى مَطْعَمٍ يطعمني، وساق يسقيني». أخرجاه في الصحيحين أيضاً^(٨).

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُريب، حدثنا أبو نعيم، حدثنا أبو إسرائيل العبسي^(٩)، عن أبي بكر ابن حفص، عن أمّ ولد حاطب بن أبي بلتعة: أنها مرت برسول الله ﷺ وهو يتسحر، فدعاها إلى الطعام. فقالت: إني صائمة. قال: وكيف تصومين؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فقال: «أين أنت من

(١) زيادة من ج، أ، و.

(٢) انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٥/ ١٩٢).

(٣) في ج: «لهم».

(٤) صحيح البخارى برقم (٦٨٥١) وصحيح مسلم برقم (١١٠٥).

(٥) حديث أنس في صحيح البخارى برقم (١٩٦١) وفي صحيح مسلم برقم (١١٠٤)، وحديث ابن عمر في صحيح البخارى برقم

(١٩٦٢) وفي صحيح مسلم برقم (١١٠٢).

(٦) صحيح البخارى برقم (١٩٦٤) وصحيح مسلم برقم (١١٠٥).

(٧) في ج: «إني».

(٨) صحيح البخارى برقم (١٩٦٣) ولم أقع عليه في صحيح مسلم.

(٩) في أ: «القيسي».

وصال آل محمد، من السَّحَرِ إِلَى السَّحَرِ^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا إسرائيل، عن عبد الأعلى، عن محمد بن علي، عن علي: أن النبي ﷺ كان يواصل من السَّحَرِ إِلَى السَّحَرِ^(٢).

وقد روى ابن جرير، عن عبد الله بن الزبير وغيره من السلف، أنهم كانوا يواصلون الأيام المتعددة [وقد روى ابن جرير عن عبد الله بن الزبير وغيره من السلف]^(٣)، وحمله منهم على أنهم كانوا يفعلون ذلك رياضة لأنفسهم، لا أنهم كانوا يفعلونه عبادة. والله أعلم. ويحتمل أنهم كانوا يفهمون من النهي أنه إرشاد، [أى]^(٤) من باب الشفقة، كما جاء في حديث عائشة: «رحمة لهم»، فكان ابن الزبير وابنه عامر ومن سلك سبيلهم يتجشمون ذلك ويفعلونه، لأنهم كانوا يجدون قوة عليه. وقد ذكر عنهم أنهم كانوا أول ما يفطرون على السمن والصبر لئلا تتخرق الأمعاء بالطعام أولاً. وقد روى عن ابن الزبير أنه كان يواصل سبعة أيام ويصبح في اليوم السابع أقواهم وأجلدهم. وقال أبو العالية: إنما فرض الله الصيام بالنهار فإذا جاء بالليل فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هذا في الرجل يعتكف في المسجد في رمضان أو في غير رمضان، فحرم الله عليه أن ينكح النساء ليلاً ونهاراً^(٥) حتى يقضى اعتكافه.

وقال الضحاك: كان الرجل إذا اعتكف فخرج من المسجد، جامع إن شاء، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ أى: لا تقربوهن ما دمت عاكفين في المسجد^(٦) ولا في غيره. وكذا قال مجاهد، وقتادة وغير واحد أنهم كانوا يفعلون ذلك حتى نزلت هذه الآية.

قال ابن أبي حاتم: وروى عن ابن مسعود، ومحمد بن كعب، ومجاهد، وعطاء، والحسن، وقتادة، والضحاك والسدي، والربيع بن أنس، ومقاتل، قالوا: لا يقربها وهو معتكف. وهذا الذي حكاه عن هؤلاء هو الأمر المتفق عليه عند العلماء: أن المعتكف يحرم عليه النساء ما دام معتكفاً في مسجده، ولو ذهب إلى منزله لحاجة لا بد له منها فلا يحل له أن يتلبث^(٧) فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك، من قضاء الغائط، أو أكل، وليس له أن يقبل امرأته، ولا يضمها إليه، ولا يشتغل بشيء سوى اعتكافه، ولا يعود المريض، لكن يسأل عنه وهو مار في طريقه.

وللاعتكاف أحكام مفصلة في بابه، منها ما هو مجمع عليه بين العلماء، ومنها ما هو مختلف فيه^(٨). وقد ذكرنا قطعةً صالحة من ذلك في آخر كتاب الصيام، والله الحمد^(٩).

ولهذا كان الفقهاء المصنفون يتبعون كتاب الصيام بكتاب الاعتكاف، اقتداء بالقرآن العظيم، فإنه نبه على ذكر الاعتكاف بعد ذكر الصوم. وفي ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتنبية على

(١) تفسير الطبري (٣/ ٥٣٧، ٥٣٨).

(٢) المسند (١/ ٩١، ١٤١).

(٣) زيادة من جـ. (٤) فى جـ، أ: «أو نهاراً».

(٦) فى أ: «فى المساجد». (٧) فى جـ: «أن يمكث».

(٨) فى أ: «فيها». (٩) فى جـ: «والله الحمد والمنة».

الاعتكاف في الصيام، أو في آخر^(١) شهر الصيام، كما ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ: أنه كان يعتكف العشرَ الأخيرَ من شهر رمضان، حتى توفاه الله، عز وجل. ثم اعتكف أزواجه من بعده. أخرجاه من حديث عائشة أم المؤمنين، رضى الله عنها^(٢). وفي الصحيحين أن صفية بنت حيى كانت^(٣) تزور النبي ﷺ وهو معتكف في المسجد، فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت لترجع إلى منزلها. وكان ذلك ليلاً - فقام النبي ﷺ ليمشى معها حتى تبلغ دارها، وكان منزلها في دار أسامة بن زيد في جانب المدينة، فلما كان ببعض الطريق لقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعَا - وفي رواية: توأريا - أى حياء من النبي ﷺ لكون أهله معه^(٤)، فقال لهما النبي ﷺ: «على رسلكما إنها صفية بنت حيى» أى: لا تسرعا، واعلما أنها صفية بنت حيى، أى: زوجتى. فقالا: سبحان الله يارسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإنى خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً» أو قال: «شرّاً»^(٥).

قال الشافعى، رحمه الله: أراد، عليه السلام، أن يعلم أمته التبرى من التهمة في محلها، لئلا يقعا في محذور، وهما كانا أتقى لله أن يظننا بالنبي ﷺ شيئاً. والله أعلم.

ثم المراد بالمباشرة: إنما هو الجماع ودواعيه من تقبيل، ومعانقة ونحو ذلك، فأما معاطاة الشيء ونحوه فلا بأس به؛ فقد ثبت في الصحيحين، عن عائشة، رضى الله عنها، أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يُدْنِي إِلَى رَأْسِهِ فَأَرْجُلُهُ وَأَنَا حَائِضٌ، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان. قالت عائشة: ولقد كان المريضُ يَكُونُ فِي الْبَيْتِ فَمَا أَسْأَلُ عَنْهُ إِلَّا وَأَنَا مَارَةٌ^(٦).

وقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أى: هذا الذى بيناه، وفرضناه، وحددناه من الصيام، وأحكامه، وما أبحنا فيه وما حرّمنا، وذكر^(٧) غاياته ورخصه وعزائمه، حدود الله، أى: شرعها الله وبينها بنفسه ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ أى: لا تجاوزوها، وتعدوها^(٨).

وكان الضحاك ومقاتل يقولان في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أى: المباشرة في الاعتكاف. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعنى هذه الحدود الأربعة، ويقرأ^(٩): ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ حتى بلغ: ﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ قال: وكان أبى وغيره من مشيختنا^(١٠) يقولون هذا ويتلونه علينا.

﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾ أى: كما بين الصيام وأحكامه وشرائعه وتفصيله، كذلك يبين سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى: يعرفون كيف يهتدون، وكيف يطيعون كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

(١) فى أ، و: «أو فى أواخر».

(٢) صحيح البخارى برقم (٢٠٣٣) وصحيح مسلم برقم (١١٧٢) واللفظ لمسلم.

(٣) فى ج، أ: «جاءت».

(٤) فى ج: «معه أهله».

(٥) صحيح البخارى برقم (٢٠٣٥، ٦٢١٩) وصحيح مسلم برقم (٢١٧٥) من حديث صفية رضى الله عنها.

(٦) صحيح البخارى برقم (٢٠٢٩) وصحيح مسلم برقم (٢٩٧).

(٧) فى ج: «وذكرنا».

(٨) فى ج: «تجاوزوها أو تعدوها».

(٩) فى ج: «ويقول».

(١٠) فى أ: «من مشايخنا».

[وَأَنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ] ^(١) [الحديد: ٩].

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٨٨).

قال على ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: هذا في الرجل يكون عليه مال، وليس عليه فيه بيّنة، فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام، وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أنه آثم أكل حرام. وكذا روى عن مجاهد، وسعيد بن جبّير، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسدي، ومقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا: لا تُخاصم وأنت تعلم أنك ظالم. وقد ورد ^(٢) في الصحيحين عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إنما أنا بشر، وإنما يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من نار، فليحملها، أو ليذرها» ^(٣). فدلّت هذه الآية الكريمة، وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر، فلا يحلّ في نفس الأمر حراماً هو حرام، ولا يحرم حلالاً هو حلال، وإنما هو يلزم ^(٤) في الظاهر، فإن طابق في ^(٥) نفس الأمر فذاك، وإلا فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا﴾ [أي طائفة] ^(٦) ﴿مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تعلمون بطلان ما تدعونه وتزوجون في كلامكم.

قال قتادة: اعلم - يابن آدم - أن قضاء القاضي لا يحلّ لك حراماً، ولا يحقّ لك باطلاً، وإنما يقضى القاضي بنحو ما يرى ^(٧) ويشهد به الشهود، والقاضي بشر يخطئ ويصيب، واعلموا أن من قضى له ببطل أن خصومته لم تنقض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة، فيقضى على المبطل للمحق بأجود مما قضى به للمبطل على المحق في الدنيا.

وقال أبو حنيفة: حكم الحاكم بطلاق الزوجة إذا شهد عنده شاهداً زور في نفس الأمر، ولكنهما عدلان عنده يحلها للأزواج حتى للشاهدين ويحرمها على زوجها الذي حكم بطلاقها منه، وقالوا: هذا كلعان المرأة، إنه يبينها من زوجها ويحرمها عليه، وإن كانت كاذبة في نفس الأمر، ولو علم الحاكم بكذبها لحدها ولما حرمها وهذا أولى.

مسألة: قال القرطبي: أجمع أهل السنة على أن من أكل مالاً حراماً ولو ما يصدق عليه اسم المال أنه يفسق، وقال بشر بن المعتمر في طائفة من المعتزلة: لا يفسق إلا بأكل مائتي درهم فما زاد، ولا يفسق بما دون ذلك، وقال الجبائي: يفسق بأكل درهم فما فوقه إلا بما دونه.

(١) زيادة من و، وفي ج، ط، أ، هـ: «الآية».

(٢) في ج: «وقد روى».

(٣) صحيح البخاري برقم (٢٤٥٨، ٦٩٦٧) وصحيح مسلم برقم (١٧١٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٤) في ج: «هو ملزم».

(٥) في ج: «ما في».

(٦) زيادة من ج، أ.

(٧) في ج: «على نحو ما ترى».

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَآتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٨٩) .
قال العوفي عن ابن عباس: سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلّة، فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾^(١) يعلمون بها حلّ دينهم، وعدة نسائهم، ووقت حجهم.

وقال أبو جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية: بلغنا أنهم قالوا: يا رسول الله، لم خلقت الأهلّة؟ فأنزل الله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾. يقول: جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم، وعدة نسائهم، ومحلّ دينهم.

وكذا روى عن عطاء، والضحاك، وقتادة، والسدي، والربيع بن أنس، نحو ذلك.
وقال عبد الرزاق، عن عبد العزيز بن أبي رواد، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «جعل الله الأهلّة مواقيت للناس. فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فعُدّوا ثلاثين يوماً».

ورواه الحاكم في مستدركه، من حديث ابن أبي رواد، به^(٢). وقال: كان ثقة عابداً مجتهداً شريف النسب، فهو صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وقال محمد بن جابر، عن قيس بن طلق؛ عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «جعل الله الأهلّة، فإذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا، فإن أغمى عليكم فأكملوا العدة ثلاثين»^(٣). وكذا روى من حديث أبي هريرة، ومن كلام عليّ بن أبي طالب، رضى الله عنه^(٤) ^(٥).

وقوله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَآتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾: قال البخاري: حدثنا عبيد الله^(٦) بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره، فأنزل الله ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَآتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾^(٧).

وكذا رواه أبو داود الطيالسي، عن شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء، قال: كانت الأنصار إذا قدموا من سفر لم يدخل الرجل من قبل بابه، فنزلت هذه الآية.

وقال الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر: كانت قريش تدعى الحُمس، وكانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام، فبينما رسول الله

(١) زيادة من أ.

(٢) المستدرک (١/ ٤٢٣).

(٣) رواه أحمد في المسند (٤/ ٢٣) من طريق محمد بن جابر به.

(٤) في جد: «عنهم».

(٥) حديث أبي هريرة رواه البخاري في صحيحه برقم (١٩٠٩) ومسلم في صحيحه برقم (١٠٨١).

(٦) في أ: «عبد الله».

(٧) صحيح البخاري برقم (٤٥١٢).

ﷺ في بستان إذ خرج من بابه، وخرج معه قُطْبَةُ بن عامر الأنصاري، فقالوا: يا رسول الله، إن قطبة ابن عامر رجل تاجر^(١)، وإنه خرج معك من الباب. فقال له: «ما حملك على ما صنعت؟» قال: رأيتك فعلته ففعلتُ كما فعلتَ. فقال: «إني [رجل] أحمس»^(٢). قال له: فإن ديني دينك. فأنزل الله ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾. رواه ابن أبي حاتم. ورواه العوفي عن ابن عباس بنحوه. وكذا روى عن مجاهد، والزهرى، وقتادة، وإبراهيم النخعي، والسدى، والربيع بن أنس.

وقال الحسن البصري: كان أقوام من أهل الجاهلية إذا أراد أحدهم سفراً وخرج من بيته يُريد سفره الذي خرج له، ثم بدا له بعد خروجه أن يُقيم ويدع سفره، لم يدخل البيت من بابه، ولكن يتسوره من قبل ظهره، فقال^(٣) الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا [وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى]﴾^(٤).

وقال محمد بن كعب: كان الرجل إذا اعتكف لم يدخل منزله من باب البيت، فأنزل الله هذه الآية.

وقال عطاء بن أبي رباح: كان أهل يثرب إذا رجعوا من عيدهم دخلوا منازلهم من ظهورها ويرون أن ذلك أدنى إلى البر، فقال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾. وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أى: اتقوا الله فافعلوا ما أمركم به، واتركوا ما نهاكم عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ غدا إذا وقفت بين يديه، فيجزيك^(٥) بأعمالكم على التمام، والكمال.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجَكُمُ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَكُمُ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلَكُمُ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنْ انتهوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انتهوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣)﴾.

قال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية فى قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ قال: هذه أول آية نزلت فى القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله، ويكف عمن كف عنه حتى نزلت سورة براءة. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم حتى قال: هذه منسوخة بقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وفى هذا نظر؛ لأن قوله: ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ إنما هو تهيج وإغراء بالأعداء الذين همّتهم قتال الإسلام وأهله، أى: كما

(١) فى ج: «فاجر». (٢) زيادة من ج، أ.

(٣) فى أ: «فأنزل».

(٤) زيادة من ج.

(٥) فى ج، أ: «فيجازيك».

يقاتلونكم فقاتلوهم أنتم، كما قال: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]؛ ولهذا قال في هذه الآية: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أى: لتكون همّتكم منبعثة على قتالهم، كما أن همّتهم منبعثة على قتالكم، وعلى إخراجهم من بلادهم التى أخرجوكم منها، قصاصاً.

وقد حكى عن أبى بكر الصديق، رضى الله عنه، أن أول آية نزلت فى القتال بعد الهجرة، ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ الآية [الحج: ٣٩] وهو الأشهر وبه ورد الحديث. وقوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أى: قاتلوا فى سبيل الله ولا تعتدوا فى ذلك ويدخل فى ذلك ارتكاب المناهى - كما قاله الحسن البصرى - من المثلة، والغلول، وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأى لهم ولا قتال فيهم، والرهبان وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة، كما قال ذلك ابن عباس، وعمر بن عبد العزيز، ومقاتل بن حيان، وغيرهم. ولهذا جاء فى صحيح مسلم، عن بُرَيْدَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كان يقول: «اغزوا فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلّوا، ولا تغدروا، ولا تُمَثِّلُوا، ولا تقتلوا وليداً، ولا أصحاب الصوامع». رواه الإمام أحمد^(١).

وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا بَعَثَ جيوشه قال: «أخرجوا باسم الله، قاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلّوا، ولا تُمَثِّلُوا، ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع». رواه الإمام أحمد^(٢).

ولأبى داود، عن أنس مرفوعاً، نحوه^(٣). وفى الصحيحين عن ابن عمر قال: وجدت امرأة فى بعض مغازى النبى ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا مُصْعَبُ بْنُ سَلَامٍ، حدثنا الأجلح، عن قيس بن أبى مسلم، عن ربِعى ابن حَرَّاشٍ، قال: سمعت حُذَيْفَةَ يَقُولُ: ضَرَبَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أمثالاً: واحداً، وثلاثة، وخمسة، وسبعة، وتسعة، وأحد عشر، فَضَرَبَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ منها مثلاً وترك سائرَهَا، قال: «إِنْ قَوْمًا كَانُوا أَهْلَ ضَعْفٍ وَمَسْكَنَةٍ، قَاتَلَهُمْ أَهْلٌ تَجِبَرُ وَعِدَاءٌ، فَأَظْهَرَ اللَّهُ أَهْلَ الضَّعْفِ عَلَيْهِمْ، فَعَمَدُوا إِلَى عَدُوِّهِمْ فَاسْتَعْمَلُوهُمْ وَاسْلُطُوهُمْ فَأَسْخَطُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ»^(٥).

هذا حديث حَسَنُ الإسناد. ومعناه: أن هؤلاء الضعفاء لما قدرُوا على الأقوياء، فاعتدوا عليهم واستعملوهم فيما لا يليق بهم، أسخطوا الله عليهم بسبب^(٦) هذا الاعتداء. والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة جداً.

ولما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس وقتل الرجال، نَبَّ تعالى على أن ما هم مشتملون^(٧) عليه من

(١) صحيح مسلم برقم (١٧٣١) والمسند (٥/ ٣٥٢).

(٢) المسند (١/ ٣٠٠).

(٣) سنن أبى داود برقم (٢٦١٤).

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٠١٥) وصحيح مسلم برقم (١٧٤٤).

(٥) المسند (٥/ ٤٠٧).

(٦) فى ج: «السب». (٧) فى ج: «مقيمون».

الكفر بالله والشرك به والصد عن سبيله أبلغ وأشد وأعظم وأطم من القتل؛ ولهذا قال: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾. قال أبو مالك: أى: ما أنتم مقيمون عليه أكبر من القتل.

وقال أبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضحاك، والربيع ابن أنس فى قوله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ يقول: الشرك أشد من القتل.

وقوله: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ كما جاء فى الصحيحين: «إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، ولم يحل لى إلا ساعة من نهار، وإنها ساعتي هذه حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعَصَّدُ شجره، ولا يُخْتَلَى خُلاه. فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم»^(١).

يعنى بذلك - صلوات الله وسلامه عليه - قتاله أهلها يوم فتح مكة، فإنه فتحها عنوة، وقتلت رجال منهم عند الخندمة، وقيل: صلحاً؛ لقوله: من أغلق بابيه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن.

[وقد حكى القرطبي: أن النهى عن القتال عند المسجد الحرام منسوخ. قال قتادة: نسخها قوله: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. قال مقاتل بن حيان: نسخها قوله: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾. وفى هذا نظر]^(٢).

وقوله: ﴿حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ يقول تعالى: لا تقاتلوهم عند المسجد الحرام إلا أن يبدؤوكم بالقتال فيه، فلکم حينئذ قتالهم وقتلهم دفعا للصيال^(٣)، كما بايع النبى ﷺ أصحابه يوم الحديبية تحت الشجرة على القتال، لَمَّا تَأَلَّبت عليه بطون قريش ومن والاهم من أحياء ثقيف والأحباش عامئذ، ثم كف الله القتال بينهم فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤]، وقال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَتُصَيِّبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥]، وقوله: ﴿فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى: فإن تركوا القتال فى الحرم، وأنابوا إلى الإسلام والتوبة، فإن الله [غفور رحيم]^(٤) يغفر ذنوبهم، ولو كانوا قد قتلوا المسلمين فى حرم الله، فإنه تعالى لا يتعاضطه ذنب أن يغفره لمن تاب منه إليه.

ثم أمر تعالى بقتال الكفار: ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أى: شرك. قاله ابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والربيع، ومقاتل بن حيان، والسدى، وزيد بن أسلم.

﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ أى: يكون دين الله هو الظاهر [العالى]^(٥) على سائر الأديان، كما ثبت فى الصحيحين: عن أبى موسى الأشعرى، قال: سئل النبى ﷺ عن الرجل يُقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أى ذلك فى سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو

(١) صحيح البخارى برقم (١٨٣٤) وصحيح مسلم برقم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.

(٢) زيادة من ج، أ. (٣) فى أ: «القتال».

(٤) زيادة من ج، ط، أ، و. (٥) فى ج، ط: «سئل رسول الله».

فى سبيل الله^(١). وفى الصحيحين: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»^(٢) وقوله: ﴿فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ يقول: فإن انتهوا عما هم فيه من الشرك، وقتال المؤمنين، فكفوا عنهم، فإن من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم، ولا عدوان إلا على الظالمين، وهذا معنى قول مجاهد: لا يُقاتل إلا من قاتل. أو يكون تقديره: فإن انتهوا فقد تخلصوا من الظلم، وهو الشرك. فلا عدوان عليهم بعد ذلك، والمراد بالعدوان هاهنا المعاقبة والمقاتلة، كقوله: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَأِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَوَّبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]. ولهذا قال عكرمة وقتادة: الظالم: الذى أبى أن يقول: لا إله إلا الله.

وقال البخارى: قوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾^(٣) الآية: حدثنا محمد ابن بشار، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، قال: أتاه رجلان فى فتنه ابن الزبير فقالا^(٤): إن الناس صنعوا^(٥) وأنت ابن عمر وصاحب النبى ﷺ فما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعنى أن الله حرم دم أخى. قالوا: ألم يقل الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ قال: قاتلنا حتى لم تكن فتنه وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنه ويكون الدين لغير الله. زاد عثمان ابن صالح^(٦)، عن ابن وهب قال: أخبرنى فلان وحيوة بن شريح، عن بكر بن عمرو المعافرى^(٧): أن بكير بن عبد الله حدثه، عن نافع: أن رجلا أتى ابن عمر فقال [له]^(٨): يا أبا عبد الرحمن، ما حملك على أن تحج عاماً وتعتمر^(٩) عاماً، وتترك الجهاد فى سبيل الله، وقد علمت ما رغب الله فيه؟ فقال: يا ابن أخى، بنى الإسلام على خمس: الإيمان بالله ورسوله، والصلوات الخمس، وصيام رمضان، وأداء الزكاة، وحج البيت. قال: يا أبا عبد الرحمن، ألا تسمع ما ذكر الله فى كتابه: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلُوا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]، ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال: فعلنا على عهد النبى ﷺ^(١٠) وكان الإسلام قليلا وكان الرجل يفتن فى دينه: إما قتلوه أو عذبوه^(١١)، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنه، قال: فما قولك فى على وعثمان؟ قال: أما عثمان فكان الله عفا عنه، وأما أنتم فكفرهتم أن تعفوا^(١٢) عنه، وأما على فابن عم رسول الله ﷺ وختنه، وأشار بيده فقال: هذا بيته حيث ترون^(١٣).

(١) صحيح البخارى برقم (٢٨١٠، ٣١٢٦) وصحيح مسلم برقم (١٩٠٤).

(٢) صحيح البخارى برقم (٢٥) وصحيح مسلم برقم (٢٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما.

(٣) زيادة من ج، ط. (٤) فى ط: «فقالوا».

(٥) فى و: «ضيعوا». (٦) فى ج: «عثمان بن أبى صالح».

(٧) فى أ: «المعافرى». (٨) زيادة من ج، ط، أ.

(٩) فى و: «وتقيم». (١٠) فى ج: «رسول الله».

(١١) فى أ، و: «أو يعذبوه». (١٢) فى ج: «يعفو».

(١٣) صحيح البخارى برقم (٤٥١٣ - ٤٥١٥).

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٩٤).

قال عكرمة، عن ابن عباس، والضحاك، والسدي، ومقسم، والربيع بن أنس، وعطاء وغيرهم: لما سار رسول الله ﷺ مُعْتَمِراً في سنة ست من الهجرة، وَحَبَسَهُ الْمُشْرِكُونَ عَنِ الدُّخُولِ وَالْوُصُولِ إِلَى الْبَيْتِ، وَصَدَّوهُ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ، وَهُوَ شَهْرُ حَرَامٍ، حَتَّى قَاضَاهُمْ عَلَى الدُّخُولِ مِنْ قَابِلٍ، فَدَخَلَهَا فِي السَّنَةِ الْآتِيَةِ، هُوَ وَمَنْ كَانَ [مَعَهُ] ^(١) مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَقْصَاهُ اللَّهُ مِنْهُمْ، فَتَزَلَّتْ فِي ذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا ليث بن سعد، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله، قال: لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يُغْزَى وَيُغْزَوْا ^(٢)، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ ^(٣).

هذا إسناد صحيح؛ ولهذا لما بلغ النبي ﷺ - وهو مُحَيِّمٌ بِالْحُدُوبِ - أن عثمان قد قتل - وكان قد بعثه في رسالة إلى المشركين - بايع أصحابه، وكانوا ألفاً وأربعمائة تحت الشجرة على قتال المشركين، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل كفَّ عن ذلك، وجنح إلى المسألة والمصالحة، فكان ما كان. وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين وتحصنَ فُلُهم بالطائف، عدلَ إليها، فحاصرها ودخل ذو القعدة وهو محاصرها بالمنجنيق، واستمر عليها إلى كمال أربعين يوماً، كما ثبت في الصحيحين عن أنس ^(٤). فلما كثر القتل في أصحابه انصرف عنها ولم تُفْتَحْ، ثم كر راجعاً إلى مكة واعتمر من الجعرانة، حيث قسم غنائم حنين. وكانت عُمرته هذه في ذي القعدة أيضاً عام ثمان، صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾: أمر بالعدل حتى في المشركين: كما قال: ﴿وَإِنْ عَاقِبْتُمْ فَاقْبُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]. وقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أن قوله: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ نزلت بمكة حيث لا شوكة ولا جهاد، ثم نسخ بآية الجهاد ^(٥) بالمدينة. وقد ردَّ هذا القول ابن جرير، وقال: بل [هذه] ^(٦) الآية مدنية بعد عُمره القُضِيَّة، وعزا ذلك إلى مجاهد، رحمه الله. وقد أطلق ههنا الاعتداء على الاقتصاص، من باب المقابلة، كما قال عمرو بن أم كلثوم:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقال ابن دريد:

(١) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٢) في ج: «إلا أن يغزوا الغزو»، وفي أ: «إلا أن يقر ويقروا».

(٣) المسند (٣/ ٣٤٥).

(٤) الحديث بهذا المعنى في صحيح مسلم برقم (١٠٥٩).

(٥) في ج، ط، أ، و: «بآية القتال».

(٦) زيادة من ج، ط، أ.

لى استواء إن موالى استوا لى التواء إن تعادى التوا

وقال غيره:

ولى فرس للحلم بالحلم ملجم ولى فرس للجهل بالجهل مسرج
ومن رام تقويمى فإنى مقوم ومن رام تعويجى فإنى معوج
وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾: أمرٌ لهم بطاعة الله وتقواه، وإخبارٌ بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد فى الدنيا والآخرة.

﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٩٥).

قال البخارى: حدثنا إسحاق، أخبرنا النضر، أخبرنا شعبة عن سليمان قال: سمعت أبا وائل، عن حذيفة: ﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ قال: نزلت فى النفقة^(١).
ورواه ابن أبى حاتم، عن الحسن بن محمد بن الصباح، عن أبى معاوية عن الأعمش، به مثله.
قال: وروى عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، وعطاء، والضحاك، والحسن، وقتادة، والسدى، ومقاتل بن حیان، نحو ذلك.

وقال الليث بن سعد، عن يزيد بن أبى حبيب، عن أسلم أبى عمران قال: حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرّقه، ومعنا أبو أيوب الأنصارى، فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة. فقال أبو أيوب: نحن أعلم بهذه الآية إنما نزلت فينا، صحبتنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر، اجتمعنا معشر الأنصار نجياً، فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره، حتى فشا الإسلام وكثر أهله، وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها، فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما. فنزل^(٢) فينا: ﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾. فكانت التهلكة [فى]^(٣) الإقامة فى الأهل والمال وترك الجهاد.

رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، وعبدُ بن حميد فى تفسيره، وابن أبى حاتم، وابن جرير^(٤)، وابن مردويه، والحافظ أبو يعلى فى مسنده، وابن حبان فى صحيحه، والحاكم فى مستدركه، كلهم من حديث يزيد بن أبى حبيب، به^(٥).

وقال الترمذى: حسن صحيح غريب. وقال الحاكم: على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.
ولفظ أبى داود عن أسلم أبى عمران: كنا^(٦) بالقسطنطينية - وعلى أهل مصر عقبة بن عامر؛

(١) صحيح البخارى برقم (٤٥١٦).

(٢) فى ج: «فقيم فيهم فنزلت».

(٣) زيادة من و.

(٤) فى ج: «وابن جرير وابن أبى حاتم».

(٥) سنن أبى داود برقم (٢٥١٢) وسنن الترمذى برقم (٢٩٧٢) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٠٢٩) وتفسير الطبرى (٣/ ٥٩٠).

وصحيح ابن حبان برقم (١٦٦٧) «موارد» والمستدرک (٢/ ٢٧٥).

(٦) فى ج: «إنا كنا».

وعلى أهل الشام رجل، يريد فضالة بن عبيد - فخرج من المدينة صف عظيم من الروم، فصفنا لهم فحمل رجل من المسلمين على الروم حتى دخل فيهم: ثم خرج إلينا فصاح الناس إليه فقالوا: سبحان الله، ألقى بيده إلى التهلكة. فقال أبو أيوب: يا أيها الناس، إنكم لتأولون هذه الآية على غير التأويل، وإنما نزلت فينا معشر الأنصار، وإنا لما أعز الله دينه، وكثر ناصروه قلنا فيما بيننا: لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها. فأنزل الله هذه الآية.

وقال أبو بكر بن عياش، عن أبي إسحاق السبيعي قال: قال رجل للبراء بن عازب: إن حملتُ على العدو وحدي فقتلوني أكنت ألقى بيدي إلى التهلكة؟ قال: لا، قال الله لرسوله: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤]، إنما هذا في النفقة. رواه ابن مردويه وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث إسرائيل، عن أبي إسحاق، به. وقال صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه^(١). ورواه الثوري، وقيس بن الربيع، عن أبي إسحاق، عن البراء - فذكره. وقال بعد قوله: ﴿لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾: ولكن التهلكة أن يذنب الرجل الذنب، فيلقى بيده إلى التهلكة ولا يتوب.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح - كاتب الليث - حدثني الليث، حدثنا عبد الرحمن بن خالد بن مسافر، عن ابن شهاب، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: أن عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث أخبره: أنهم حاصروا دمشق، فانطلق رجل من أزد شنوءة، فأسرع إلى العدو وحده ليستقبل، فعاب ذلك عليه المسلمون ورفعوا حديثه إلى عمرو بن العاص، فأرسل إليه عمرو فرده، وقال عمرو: قال الله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾. وقال عطاء بن السائب^(٢)، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾: ليس^(٣) ذلك في القتال، إنما هو في النفقة أن تمسك بيدك عن النفقة في سبيل الله. ولا تلق بيدك إلى التهلكة.

وقال حماد بن سلمة، عن داود، عن الشعبي، عن الضحاك بن أبي جبر^(٤) قال: كانت الأنصار يتصدقون وينفقون من أموالهم، فأصابتهم سنة، فأمسكوا عن النفقة في سبيل الله فنزلت: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾.

وقال الحسن البصري: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ قال: هو البخل. وقال سماك بن حرب، عن النعمان بن بشير في قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾: أن يذنب الرجل الذنب، فيقول: لا يغفر لي، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. رواه ابن مردويه.

وقال ابن أبي حاتم: وروى عن عبيدة السلماني، والحسن، وابن سيرين، وأبي قلابه - نحو ذلك. يعني: نحو قول النعمان بن بشير: إنها في الرجل يذنب الذنب فيعتقد أنه لا يغفر له، فيلقى بيده إلى التهلكة، أي يستكثر من الذنوب فيهلك. ولهذا روى على بن أبي طلحة عن ابن عباس:

(١) المستدرک (٢/ ٢٧٥).

(٢) في أ: «عطاء بن أبي السائب».

(٣) في ج: «وليس».

(٤) في أ: «بن أبي صبرة».

التهلكة: عذاب الله.

وقال ابن أبي حاتم وابن جرير جميعاً: حدثنا يونس، حدثنا ابن وهب، أخبرني أبو صخر، عن القرظي: أنه كان يقول في هذه الآية: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ قال: كان القوم في سبيل الله، فيتزود الرجل. فكان أفضل زاداً من الآخر، أنفق البائس^(١) من زاده، حتى لا يبقى من زاده شيء، أحب أن يواسى صاحبه، فأنزل الله: ﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^(٢).

وقال^(٣) ابن وهب أيضاً: أخبرني عبد الله بن عياش^(٤)، عن زيد بن أسلم في قول الله: ﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾: وذلك أن رجلاً كانوا يخرجون في بعوث يبعثها رسول الله ﷺ، بغير نفقة، فإما يقطع بهم، وإما كانوا عيالا، فأمرهم الله أن يستنفقوا مما رزقهم الله، ولا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة، والتهلكة أن يهلك رجال من الجوع أو العطش أو من المشى. وقال لمن بيده فضل: ﴿أَحْسِنُوا﴾^(٥) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.

ومضمون الآية: الأمر بالإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات، وخاصة^(٦) صرف الأموال في قتال الأعداء وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم، والإخبار عن ترك ذلك بأنه هلاك ودمار إن^(٧) لزمه واعتاده. ثم عطف بالأمر بالإحسان، وهو أعلى مقامات الطاعة، فقال: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَاتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّنْ رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ فَإِذَا أُمِنْتُمْ فَمِنَ تَمَتُّعٍ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١٩٦).

لما ذكر تعالى أحكام الصيام وعطف بذكر الجهاد، شرع في بيان المناسك، فأمر بإتمام الحج والعمرة، وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما^(٨)؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ أي: صددتم عن الوصول إلى البيت ومنعتم من إتمامهما. ولهذا اتفق العلماء على أن الشروع في الحج والعمرة ملزم، سواء قيل بوجوب العمرة أو باستحبابها، كما هما قولان للعلماء. وقد ذكرناهما

(١) في ج، ط، و: «أنفقوا الباقيين».

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٥٨٤).

(٣) في ج، ط، أ: «وبه قال».

(٤) في أ: «ابن عباس».

(٥) في ج، ط: «وأحسنوا» وهو الصواب.

(٦) في ج: «وحاصله».

(٧) في ج: «كمن»، وفي ط، أ: «لمن».

(٨) في ط: «فيها».

بدلائلها في كتابنا «الأحكام» مستقصى^(١)، والله الحمد والمنة.

وقال شعبة، عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن سلمة، عن علي: أنه قال في هذه الآية: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ قال: أن تُحْرِمَ من دُورَةِ أهلك.

وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، وطاوس. وعن سفيان الثوري أنه قال في هذه الآية: إتمامهما^(٢) أن تحرم من أهلك، لا تريد إلا الحج والعمرة، وتُهَلَّ من الميقات ليس أن تخرج لتجارة ولا حاجة، حتى إذا كنت قريباً من مكة قلت: لو حججت أو اعتمرت، وذلك يجرى، ولكن التمام أن تخرج له، ولا تخرج لغيره.

وقال مكحول: إتمامهما إنشاءهما جميعاً من الميقات.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن الزهري قال: بلغنا أن عمر قال في قول الله^(٣): ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [قال]^(٤): من تمامهما أن تُفْرَدَ كُلُّ واحد منهما من الآخر، وأن تعتمر في غير أشهر الحج؛ إن الله تعالى يقول: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾.

وقال هشيم عن ابن عون قال: سمعت القاسم بن محمد يقول: إن العمرة في أشهر الحج ليست بتامة^(٥)، فقليل له: العمرة في المحرم؟ قال: كانوا يرونها تامة. وكذا روى عن قتادة بن دعامة، رحمهما الله.

وهذا القول فيه نظر؛ لأنه قد ثبت أن رسول الله ﷺ اعتمر أربع عُمَرٍ كلها في ذي القعدة: عمرة الحديبية في ذي القعدة سنة ست، وعمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع، وعمرة الجعرانة في ذي القعدة سنة ثمان، وعمرته التي مع حجته أحرم بهما معاً في ذي القعدة سنة عشر، ولا اعتمر قط في غير ذلك بعد هجرته، ولكن قال لأم هانئ^(٦): «عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ تَعْدِلُ حُجَّةً مَعِيَ»^(٧). وما ذاك إلا لأنها [كانت]^(٨) قد عزمتم على الحج معه، عليه السلام، فاعتاقت عن ذلك بسبب الطهر، كما هو مبسوط في الحديث عند البخاري، ونَصَّ سعيد بن جبيرة على أنه من خصائصها، والله أعلم.

وقال السدي في قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أي: أقيموا الحج والعمرة. وقال علي بن أبي طلحة^(٩)، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ يقول: من أحرم بالحج أو بالعمرة^(١٠)، فليس له أن يحل حتى يتمهما، تمام الحج يوم النحر، إذا رمى جمرَةَ الْعَقْبَةِ، وطاف^(١١) بالبيت، وبالصفاء، والمروة، فقد حل.

وقال قتادة، عن زُرَّارة، عن ابن عباس أنه قال: الحج عرفة، والعمرة الطواف. وكذا روى الأعمش، عن إبراهيم عن علقمة في قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ قال: هي [في]^(١٢) قراءة عبد

(١) في ج: «المستقصى».

(٢) في ج: «إتمامهما».

(٣) في ج: «في قوله».

(٤) زيادة من ج.

(٥) في ج: «تامة»، وفي أ: «بتمامها».

(٦) في ج، ط، أ: «ولكن قال لتلك المرأة».

(٧) كذا وقع هنا أم هانئ وهو وهم، والصواب: أم سنان، والحديث في صحيح البخاري برقم (١٨٦٣).

(٨) في أ: «ابن أبي صالح».

(٩) زيادة من ج، ط، أ، و.

(١٠) في ج، ط: «بحج أو عمرة».

(١١) في ج، ط، و: «وزار».

(١٢) زيادة من أ.

الله: «وأقيموا»^(١) الحج والعمرة إلى البيت لا تُجاوز بالعمرة البيت. قال إبراهيم: فذكرت ذلك لسعيد ابن جبير، فقال: كذلك قال ابن عباس.

وقال سفيان عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة أنه قال: «وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت» وكذا روى الثوري أيضاً عن إبراهيم، عن منصور، عن إبراهيم أنه قرأ: «وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت».

وقرأ الشعبي: «وأتموا»^(٢) الحج والعمرة لله برفع العمرة، وقال: ليست بواجبة. وروى عنه خلاف ذلك.

وقد وردت أحاديث كثيرة من طرق متعددة، عن أنس وجماعة من الصحابة: أن رسول الله ﷺ جَمَعَ في إحرامه بحج وعمرة، وثبت عنه في الصحيح أنه قال لأصحابه: «من كان معه هدى فليهل بحج وعمرة»^(٣).

وقال في الصحيح أيضاً: «دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة».

وقد روى الإمام أبو محمد بن أبي حاتم في سبب نزول هذه الآية حديثاً غريباً فقال: حدثنا علي ابن الحسين، حدثنا أبو عبد الله الهروي، حدثنا غسان الهروي، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن عطاء، عن صفوان بن أمية أنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ مُتَضَمِّحاً بالزعران، عليه جبة، فقال: كيف تأمرني يا رسول الله في عمرتي؟ قال: فأنزل الله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «أين السائل عن العُمرة؟» فقال: ها أنا ذا. فقال له: «ألق عنك ثيابك، ثم اغتسل، واستنشق ما استطعت، ثم ما كنت صانعاً في حَجِّكَ فاصنعه في عمرتك»^(٤).

هذا حديث غريب وسياق عجيب، والذي ورد في الصحيحين، عن يعلى بن أمية في قصة الرجل الذي سأل النبي ﷺ وهو بالجعرانة فقال: كيف ترى في رجل أحرم بالعمرة وعليه جبة وخلق؟ فسكت رسول الله ﷺ، ثم جاءه الوحي، ثم رفع رأسه فقال: «أين السائل؟» فقال: ها أنا ذا فقال: «أما الجبة فانزعها، وأما الطيب الذي بك فاغسله، ثم ما كنت صانعاً في حجك فاصنعه في عُمَرَتِكَ»^(٥). ولم يذكر فيه الغسل والاستنشاق^(٦)، ولا ذكر نزول الآية^(٧)، وهو عن يعلى بن أمية، لا [عن]^(٨) صفوان بن أمية، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾: ذكروا أن هذه الآية نزلت في سنة ست، أي عام الحديبية، حين حال المشركون بين رسول الله ﷺ وبين الوصول إلى البيت، وأنزل الله في ذلك سورة الفتح بكاملها، وأنزل لهم رخصة: أن يذبحوا ما معهم من الهدى وكان سبعين بدنة، وأن يتحللوا من

(١) قى أ، و: «وأتموا». (٢) في ج: «وأقيموا».

(٣) صحيح مسلم برقم (١٢٣٦) من حديث أسماء رضى الله عنها.

(٤) صحيح مسلم برقم (١٢١٨) من حديث جابر رضى الله عنه.

(٥) ورواه ابن عبد البر في التمهيد (٢/ ٢٥١) من طريق محمد بن سابق، عن إبراهيم بن طهمان، عن أبي الزبير، عن عطاء، عن صفوان بن أمية به.

(٦) في ج: «ولا الاستنشاق». (٧) في ط: «نزول الحق».

(٨) زيادة من ج، ط.

إحرامهم، فعند ذلك أمرهم عليه السلام بأن يحلقوا رؤوسهم ويتحللوا. فلم يفعلوا انتظاراً للنسخ حتى خرج فحلق رأسه، ففعل الناس وكان منهم من قَصَرَ رأسه ولم يحلقه، فلذلك قال ﷺ: «رَحِمَ الله الْمُحَلِّقِينَ». قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ فقال في الثالثة: «والمقصرين»^(١). وقد كانوا اشتركوا في هديهم ذلك، كُلُّ سبعة في بَدَنَةٍ، وكانوا ألفاً وأربعمائة، وكان منزلهم بالحديبية خارج الحرم، وقيل: بل كانوا على طَرَفِ الحرم، فالله أعلم.

ولهذا اختلف العلماء هل يختص الحصر بالعدو، فلا يتحلل إلا من حصره عدو، لا مرض ولا غيره؟ على قولين:

فقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس، وابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس، وابن أبي نَجِيح [ومجاهد]^(٢)، عن ابن عباس، أنه قال: لا حَصْرَ إلا حَصْرُ العدو، فأما من أصابه مرض أو وجع أو ضلال فليس عليه شيء، إنما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا أُمِيتُمْ﴾، فليس الأمن حَصْرًا.

قال: وروى عن ابن عمر، وطاوس، والزهرى، وزيد بن أسلم، نحو ذلك.

والقول الثانى: أن الحصر أعم من أن يكون بعدو أو مرض أو ضلال - وهو التَّوَهُان عن الطريق أو نحو ذلك. قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا حَجَّاج الصَّوَّافُ، عن يحيى بن أبي كثير، عن عكرمة، عن الحجاج بن عمرو^(٣) الأنصارى، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كُسِرَ أو عَرِجَ فقد حل، وعليه حجة أخرى».

قال: فذكرت ذلك لابن عباس وأبى هريرة فقالا: صدق.

وأخرجه^(٤) أصحاب الكتب الأربعة من حديث يحيى بن أبي كثير، به^(٥). وفى رواية لأبى داود وابن ماجه: من عرج أو كُسِرَ أو مَرَضَ - فذكر معناه. ورواه ابن أبي حاتم، عن الحسن بن عرفة، عن إسماعيل بن عُلَيَّة، عن الحجاج بن أبى عثمان الصَّوَّاف، به. ثم قال: وروى عن ابن مسعود، وابن الزبير، وعلقمة، وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، ومجاهد، والنخعى، وعطاء، ومقاتل ابن حيان، أنهم قالوا: الإحصار من عدو، أو مرض، أو كسر.

وقال الثورى: الإحصار من كل شيء آذاه. وثبت فى الصحيحين عن عائشة: أن رسول الله ﷺ دَخَلَ على ضُبَاعَةَ بنت الزبير بن عبد المطلب، فقالت: يا رسول الله، إني أريد الحج وأنا شاكية. فقال: «حُجِّي واشترطى: أنْ مَحَلِّي حيثُ حَبَسْتَنِي»^(٦). ورواه مسلم عن ابن عباس بمثله^(٧). فذهب من ذهب من العلماء إلى صحة الاشتراط فى الحج لهذا الحديث. وقد علق الإمام محمد بن إدريس

(١) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٣٠١) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنه.

(٢) زيادة من ج، ط. (٣) فى أ: «بن عمر».

(٤) فى ج: «وقد أخرجه».

(٥) المسند (٣/ ٤٥٠) وسنن أبى داود برقم (١٨٦٢) وسنن الترمذى برقم (٩٤٠) وسنن النسائى (٥/ ١٩٨) وسنن ابن ماجه برقم (٣٠٧٨).

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٠٨٩) وصحيح مسلم برقم (١٢٠٧).

(٧) صحيح مسلم برقم (١٢٠٨).

الشافعي القول بصحة هذا المذهب على صحة هذا الحديث. قال البيهقي وغيره من الحفاظ: فقد صح، والله الحمد.

وقوله: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾: قال الإمام مالك، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي ابن أبي طالب أنه كان يقول: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾: شاة. وقال ابن عباس: الهدى من الأزواج الثمانية: من الإبل والبقر والمعز والضأن.

وقال الثوري، عن حبيب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾، قال: شاة. وكذا قال عطاء، ومجاهد، وطاوس، وأبو العالية، ومحمد بن علي بن الحسين، وعبد الرحمن بن القاسم، والشعبي، والنخعي، والحسن، وقتادة، والضحاك، ومقاتل بن حيان، وغيرهم مثل ذلك، وهو مذهب الأئمة الأربعة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن يحيى بن سعيد، عن القاسم، عن عائشة وابن عمر: أنهما كانا لا يريان ﴿مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ إلا من الإبل والبقر. قال: ورؤي عن سالم، والقاسم، وعروة بن الزبير، وسعيد بن جبير - نحو ذلك.

قلت: والظاهر أن مستند هؤلاء فيما ذهبوا إليه قضية^(١) الحديبية، فإنه لم ينقل عن أحد منهم أنه ذبح في تحلله ذاك شاة، وإنما ذبحوا الإبل والبقر، ففي الصحيحين عن جابر قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقر كل سبعة منا في بقرة^(٢).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ قال: بقدر يسارته^(٣).

وقال العوفي، عن ابن عباس: إن كان موسراً فمن الإبل، وإلا فمن البقر، وإلا فمن الغنم. وقال هشام بن عروة، عن أبيه: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ قال: إنما ذلك فيما بين الرخص والغلاء.

والدليل على صحة قول الجمهور فيما ذهبوا إليه من أجزاء ذبح الشاة في الإحصار: أن الله أوجب ذبح ما استيسر من الهدى، أي: مهما تيسر مما يسمى هدياً، والهدى من بهيمة الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، كما قاله الخبر البحر^(٤) ترجمان القرآن وابن عم الرسول ﷺ. وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، قالت: أهدى النبي ﷺ مرة غنماً^(٥). وقوله: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وليس معطوفاً على قوله: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ كما زعمه ابن جرير، رحمه الله؛ لأن النبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية لما حصرهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرم، حلّقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم، فأما في حال الأمن والوصول إلى الحرم فلا يجوز الحلّق ﴿حَتَّى يَبْلُغَ

(١) في ج، أ: «قصة».

(٢) صحيح مسلم برقم (١٣١٨).

(٣) في أ: «يساره».

(٤) في ط: «البحر الحبر».

(٥) صحيح البخاري برقم (١٧٠١) وصحيح مسلم برقم (١٣٢١).

الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ۖ وَيَفْرَغُ النَّاسُكَ مِنْ أَفْعَالِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، إِنْ كَانَ قَارِنًا، أَوْ مِنْ فَعْلٍ أَحَدَهُمَا إِنْ كَانَ مُفْرَدًا أَوْ مَتَمَتْعًا، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ حَفْصَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا شَأْنُ^(١) النَّاسِ حَلَّوْا مِنَ الْعُمْرَةِ، وَلَمْ تَحِلَّ أَنْتَ مِنْ عَمْرَتِكَ؟ فَقَالَ: «إِنِّي لَبَدْتُ رَأْسِي وَقَلَّدْتُ هَدْيِي، فَلَا أَحِلُّ حَتَّى أَنْحَرَ»^(٢).

وقوله: «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ ۖ قَالَ الْبَخَارِيُّ: حَدَّثَنَا آدَمُ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَصْبَهَانِيِّ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَعْقِلٍ، قَالَ: فَعَدْتُ إِلَى كَعْبِ بْنِ عَجْرَةَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ - يَعْنِي مَسْجِدَ الْكُوفَةِ - فَسَأَلْتُهُ عَنْ «فَفِدْيَةٍ مِّن صِيَامٍ»، فَقَالَ: حُمِلْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالْقَمَلُ يَتَنَاقَرُ عَلَى وَجْهِهِ. فَقَالَ: «مَا كُنْتُ أَرَى أَنْ الْجَهْدُ بَلَغَ بِكَ هَذَا! أَمَا تَجِدُ شَاةً؟» قُلْتُ: لَا. قَالَ: «صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعَمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ، لِكُلِّ مَسْكِينٍ نِصْفَ صَاعٍ مِنْ طَعَامٍ، وَاحْلِقْ رَأْسَكَ». فَتَزَلَّتْ فِيَّ خَاصَةً، وَهِيَ لَكُمْ عَامَةٌ^(٣).

وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، حَدَّثَنَا أَيُّوبُ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، عَنْ كَعْبِ بْنِ عَجْرَةَ قَالَ: أَتَى عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ وَأَنَا أَوْقَدْتُ تَحْتِ قَدْرٍ، وَالْقَمَلُ يَتَنَاقَرُ عَلَى وَجْهِهِ - أَوْ قَالَ: حَاجِبِي - فَقَالَ: «يُؤْذِيكَ»^(٤) هَوَامُ رَأْسِكَ؟. قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «فَاحْلِقْهُ، وَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعَمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ، أَوْ انْسُكْ نَسِيكَةً». قَالَ أَيُّوبُ: لَا أَدْرِي بِأَيِّتِهِنَّ بَدَأَ^(٥).

وقال أحمد أيضاً: حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، أَخْبَرَنَا أَبُو بَشِيرٍ^(٦)، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، عَنْ كَعْبِ بْنِ عَجْرَةَ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْحَدِيثِيَّةِ، وَنَحْنُ مُحْرَمُونَ، وَقَدْ حَصَرَهُ الْمُشْرِكُونَ^(٧)، وَكَانَتْ لِي وَفْرَةٌ، فَجَعَلْتُ الْهَوَامَ تَسَاقُطُ عَلَى وَجْهِهِ، فَمَرَّ بِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(٨) فَقَالَ: «أَيُّؤْذِيكَ هَوَامُ رَأْسِكَ؟» فَأَمَرَهُ أَنْ يَحْلِقَ. قَالَ: وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ»^(٩).

وكذا رواه عفان، عن شعبة، عن أبي بشر، وهو جعفر بن إياس، به. وعن شعبة، عن الحكم، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، به^(١٠). وعن شعبة، عن داود، عن الشعبي، عن كعب بن عجرة، نحوه.

ورواه الإمام مالك عن حميد بن قيس، عن مجاهد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن كعب ابن عجرة - فذكر نحوه^(١١).

وقال سعد^(١٢) بن إسحاق بن كعب بن عجرة، عن أبان بن صالح، عن الحسن البصري: أنه

(١) في ج: «ما بال».

(٢) صحيح البخاري برقم (١٧٢٥) وصحيح مسلم برقم (١٢٢٩).

(٣) صحيح البخاري برقم (٤٥١٧).

(٤) في ج: «أَيُّؤْذِيكَ».

(٥) المسند (٤ / ٢٤١).

(٦) في ج: «حدثنا يونس». (٧) في ج: «العدو».

(٨) في ج، ط، أ: «فمر بي النبي».

(٩) المسند (٤ / ٢٤١).

(١٠) رواه أحمد في المسند كما في أطرافه لابن حجر (٥ / ٢١٩).

(١١) الموطأ (١ / ٤١٧).

(١٢) في ط، أ: «وقال سعيد».

سمع كعب بن عُجْرَةَ يقول: فذبحت شاة. رواه ابن مَرْدُويَه. وروى أيضاً من حديث عمر بن قيس، سندل - وهو ضعيف^(١) - عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «النسك شاة، والصيام ثلاثة أيام، والطعام^(٢) فرق، بين ستة»^(٣).

وكذا روى عن علي، ومحمد بن كعب، وعكرمة^(٤)، وإبراهيم [النخعي]^(٥)، ومجاهد، وعطاء، والسدي، والربيع بن أنس.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا عبد الله بن وهب: أن مالك بن أنس حدثه^(٦)، عن عبد الكريم بن مالك الجزري، عن مجاهد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن كعب ابن عُجْرَةَ: أنه كان مع رسول الله ﷺ، فأذاه القمل في رأسه، فأمره رسول الله ﷺ أن يحلق رأسه، وقال: «صم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، مدين مدين لكل إنسان، أو انسك شاة، أى ذلك فعلت أجراً عنك»^(٧).

وهكذا روى ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ﴾، قال: إذا كان «أو» فأيه أخذت أجراً عنك.

قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وطاوس، والحسن، وحُميد الأعرج، وإبراهيم النخعي، والضحاك، نحو ذلك.

قلت: وهو مذهب الأئمة الأربعة وعامة العلماء أنه يُخَيَّرُ^(٨) في هذا المقام، إن شاء صام، وإن شاء تصدق بفرق، وهو ثلاثة أصع، لكل مسكين نصف صاع، وهو مَدَان، وإن شاء ذبح شاة وتصدق بها على الفقراء، أى ذلك فعل أجراه. ولما كان لفظ القرآن في بيان الرخصة جاء بالأسهل فالأسهل: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ﴾ وَلَمَّا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ بِذَلِكَ، أَرَشَدَهُ إِلَى الْأَفْضَلِ، فَالْأَفْضَلُ فَقَالَ: انسك شاة، أو أطعم ستة مساكين أو صم ثلاثة أيام. فكلّ حسن في مقامه. والله الحمد والمنة.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا أبو بكر بن عياش قال: ذكر الأعمش قال: سأل إبراهيم سعيد بن جبیر عن هذه الآية: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ﴾ فأجابه يقول: يُحْكَمُ عليه طعام، فإن كان عنده اشترى شاة، وإن لم يكن قومت الشاة دراهم، وجعل مكانها طعام فتصدق، وإلا صام بكل نصف صاع يوماً، قال إبراهيم: كذلك سمعت علقمة يذكر. قال: لما قال لى سعيد بن جبیر: من هذا؟ ما أظرفه! قال: قلت: هذا إبراهيم. فقال: ما أظرفه! كان يجالسنا. قال: فذكرت ذلك لإبراهيم، قال: فلما قلت: «يجالسنا» انتفض منها^(٩).

(١) فى جـ: «سندُه عنه ضعيف».

(٢) فى جـ: «والإطعام».

(٣) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (١/ ٥١٥) وعزاه لابن مردويه والواحدى.

(٤) فى جـ، ط، أ: «وعلقمة».

(٥) زيادة من جـ، ط.

(٦) فى جـ: «حدثهم».

(٧) الحديث فى الموطأ (١/ ٤١٧).

(٨) فى جـ، ط: «مخيرًا»، وفى و: «مخير».

(٩) تفسير الطبرى (٤/ ٧٤).

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا ابن أبي عمران، حدثنا عبيد الله^(١) بن معاذ، عن أبيه، عن أشعث، عن الحسن في قوله: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ﴾ قال: إذا كان بالمحرّم أذى من رأسه، حلّق وافتدى بأى هذه الثلاثة شاء، والصيام عشرة أيام، والصدقة على عشرة مساكين، كلّ مسكين مكوّكين: مكوكا من تمر، ومكوكا من برّ، والنسك شاة.

وقال قتادة، عن الحسن وعكرمة في قوله: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ﴾ قال: إطعام عشرة مساكين.

وهذان القولان من سعيد بن جبیر، وعلقمة، والحسن، وعكرمة قولان غريبان فيهما نظر؛ لأنه قد ثبتت السنة في حديث كعب بن عُجرة بصيام ثلاثة أيام، [لا عشرة و]^(٢) لا ستة، أو إطعام ستة مساكين أو نسك شاة، وأن ذلك على التخيير كما دلّ عليه سياق القرآن. وأما هذا الترتيب فإنما هو معروف في قتل الصيد، كما هو نص القرآن. وعليه أجمع الفقهاء هناك، بخلاف هذا، والله أعلم.

وقال هشيم: أخبرنا ليث، عن طاوس: أنه كان يقول: ما كان من دم أو طعام^(٣) فبمكة، وما كان من صيام فحيث شاء. وكذا قال عطاء، ومجاهد، والحسن.

وقال هشيم: أخبرنا حجاج وعبد الملك وغيرهما عن عطاء: أنه كان يقول: ما كان من دم فبمكة، وما كان من طعام وصيام فحيث شاء.

وقال هشيم: أخبرنا يحيى بن سعيد، عن يعقوب بن خالد، أخبرنا أبو أسماء مولى ابن جعفر، قال: حج عثمان بن عفان، ومعه على والحسين^(٤) بن على، فارتحل عثمان. قال أبو أسماء: وكنت مع ابن جعفر، فإذا نحن برجل نائم وناقته عند رأسه، قال: فقلت: أيها النؤوم^(٥). فاستيقظ، فإذا الحسين^(٦) بن على. قال: فحمله ابن جعفر حتى أتينا به السقيّا قال: فأرسل إلى على ومعه أسماء بنت عميس. قال: فمرضناه نحوا من عشرين ليلة. قال: قال على للحسين: ما الذى تجد؟ قال: فأوماً بيده إلى رأسه. قال: فأمر به على فحلّق رأسه، ثم دعا بيدته فنحراها. فإن كانت هذه الناقة عن الحلق ففيه أنه نحرها دون مكة. وإن كانت عن^(٧) التحلل فواضح.

وقوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ مِّنَ تَمَتُّعٍ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أى: إذا تمكثتم من أداء المناسك، فمن كان منكم متمتعاً بالعمرة إلى الحج، وهو يشمل من أحرم بهما، أو أحرم بالعمرة أولاً، فلما فرغ منها أحرم بالحج وهذا هو التمتع الخاص، وهو المعروف في كلام الفقهاء. والتمتع العام يشمل القسمين، كما دلت عليه الأحاديث الصحاح، فإن من الرواة من يقول: تمتع رسول الله ﷺ. وآخر يقول: قرّن. ولا خلاف أنه ساق الهدى^(٨).

وقال تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أى: فليذبح ما قدر عليه من الهدى، وأقله شاة، وله أن يذبح البقر؛ لأن رسول الله ﷺ ذبح عن نسائه البقر. وقال الأوزاعي،

(١) فى ج، أ: «عبد الله».

(٢) فى ج: «أو إطعام».

(٣) فى ج: «أو إطعام».

(٤) فى ج: «الحسن».

(٥) فى أ: «أيها النائم».

(٦) فى ج: «الحسن».

(٧) فى أ: «من».

(٨) فى أ، و: «أنه ساق هدياً».

عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلمة^(١)، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ ذبح بقرة عن نسائه، وكن متمتعات. رواه أبو بكر بن مَرْدَوِيهِ^(٢).

وفى هذا دليل على شرعية^(٣) التمتع، كما جاء فى الصحيحين عن عمران بن حصين قال: نزلت آية المتعة^(٤) فى كتاب الله، وفعلناها مع رسول الله ﷺ. ثم لم يُنْزَلْ قرآن يُحَرِّمُهُ، ولم يُنْهَ عنها، حتى مات. قال رجل برأيه ما شاء^(٥). قال البخارى: يقال: إنه عُمَرُ. وهذا الذى قاله البخارى قد جاء مصرحاً به أن عمر، رضى الله عنه، كان ينهى الناس عن التمتع، ويقول: إن^(٦) نأخذ بكتاب الله فإن الله يأمر بالتمام. يعنى قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾. وفى نفس الأمر لم يكن عمر، رضى الله عنه، ينهى عنها محرماً لها، إنما كان ينهى عنها ليكثر قصد الناس للبيت حاجين ومعتمرين، كما قد صرح به، رضى الله عنه.

وقوله: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾: يقول تعالى: فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام فى الحج، أى: فى أيام المناسك. قال العلماء: والأولى أن يصومها قبل يوم عرفة فى العشر^(٧)، قاله عطاء. أو من حين يحرم، قاله ابن عباس وغيره، لقوله: ﴿فِي الْحَجِّ﴾، ومنهم من يجوز صيامها من أول شوال، قاله طاوس ومجاهد وغير واحد. وجوز الشعبي صيام يوم عرفة وقبلة يومين، وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، والسدي، وعطاء، وطاوس، والحكم، والحسن، وحمام، وإبراهيم، وأبو جعفر الباقر، والربيع، ومقاتل بن حيان. وقال العوفي، عن ابن عباس: إذا لم يجد هدياً فعليه صيام ثلاثة أيام فى الحج قبل يوم عرفة، فإذا كان يوم عرفة الثالث فقد تم صومه وسبعة إذا رجع إلى أهله. وكذا روى أبو إسحاق عن وبرة، عن ابن عمر، قال: يصوم يوماً قبل التروية، ويوم التروية، ويوم عرفة. وكذا روى عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن على أيضاً.

فلو لم يصمها أو بعضها قبل [يوم]^(٨) العيد فهل يجوز أن يصومها فى أيام التشريق؟ فيه قولان للعلماء، وهما للإمام الشافعى أيضاً، القديم منهما أنه يجوز له صيامها لقول عائشة وابن عمر فى صحيح البخارى: لم يَرَخَّصْ فى أيام التشريق أن يُصَمَّنَ^(٩) إلا لمن لا يجد الهدى^(١٠). وكذا رواه مالك، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة. وعن سالم، عن ابن عمر [إنما قالوا ذلك لعموم قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ﴾]^(١١)، وقد روى من غير وجه عنهما. ورواه سفيان، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن على أنه كان يقول: من فاته صيام ثلاثة أيام فى الحج صامهن أيام

(١) فى هـ: «أبى مسلم»، والصواب ما أثبتناه من ج، أ.

(٢) ورواه أبو داود فى السنن برقم (١٧٥١) من طريق الوليد عن الأزاعى به.

(٣) فى ج: «على مشروعية». (٤) فى أ: «آية التمتع».

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٥١٨) وصحيح مسلم برقم (١٢٢٦).

(٦) فى أ: «إننا». (٧) فى أ: «فى العشرة».

(٨) زيادة من أ. (٩) فى أ: «أن يصوم».

(١٠) صحيح البخارى برقم (١٩٩٧).

(١١) زيادة من ج، أ.

(١٢) الموطأ: (١) / (٤٢٦).

التشريق. وبهذا يقول عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ اللَّيْثِيُّ^(١)، وعكرمة، والحسن البصري، وعروة بن الزبير؛ وإنما قالوا ذلك لعموم قوله: «فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ». والجديد من القولين: أنه لا يجوز صيامها أيام التشريق، لما رواه مسلم عن نَيْشَةَ^(٢) الهذلي، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله»^(٣).

وقوله: «وَسَبْعَةٌ إِذَا رَجَعْتُمْ»: فيه قولان:

أحدهما: إذا رجعتكم في الطريق. ولهذا قال مجاهد: هي رخصة إذا شاء صامها في الطريق. وكذا قال عطاء بن أبي رباح.

والقول الثاني: إذا رجعتكم إلى أوطانكم؛ قال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن يحيى بن سعيد، عن سالم، سمعت ابن عمر قال: «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ» قال: إذا رجع إلى أهله^(٤). وكذا روى عن سعيد بن جبيرة، وأبي العالية، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والزهرى، والربيع بن أنس. وحكى على ذلك أبو جعفر بن جرير الإجماع.

وقد قال البخارى: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن عُقَيْلٍ، عن ابن شهاب، عن سالم ابن عبد الله أن ابن عمر قال: تمتع رسول الله ﷺ في حَجَّةِ الْوَدَاعِ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ وَأَهْدَى فَسَاقَ مَعَهُ الْهَدْيَ مِنْ ذِي الْحُلَيْفَةِ، وبدأ رسول الله ﷺ فأهلَّ بالعمرة، ثم أهلَّ بالحج، فتمتع الناس مع النبي ﷺ بالعمرة إلى الحج. فكان من الناس من أهدى فساق الهدى، ومنهم من لم يهد. فلما قدم النبي ﷺ مكة قال للناس: «من كان منكم أهدى فإنه لا يحل لشيء حرم منه حتى يقضى حجه، ومن لم يكن منكم أهدى فليطف بالبيت وبالصفا والمروة، وليقصِّر وليحلل»^(٥)، ثم ليهل بالحج، فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله». وذكر تمام الحديث^(٦).

قال الزهرى: وأخبرني عروة، عن عائشة بمثل ما أخبرني سالم عن أبيه. والحديث مخرج في الصحيحين من حديث الزهرى، به^(٧).

وقوله: «تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ» قيل: تأكيد، كما تقول العرب: رأيت بعيني، وسمعت بأذني، وكتبت بيدي. وقال الله تعالى: «وَلَا طَائِرُ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ» [الأنعام: ٣٨] وقال: «وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينُكَ» [العنكبوت: ٤٨]، وقال: «وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمِ مِيقَاتِ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً» [الأعراف: ١٤٢].

وقيل: معنى «كَامِلَةٌ»: الأمرُ بإكمالها وإتمامها، اختاره ابن جرير. وقيل: معنى «كَامِلَةٌ» أى: مُجَزَّةٌ عن الهدى. قال^(٨) هُشَيْمٌ، عن عباد بن راشد، عن الحسن البصري، فى قوله: «تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ» قال: من الهدى.

(١) فى جـ: «الملكى».

(٢) فى جـ: «عن ابن نيشة».

(٣) صحيح مسلم برقم (١١٤١).

(٤) تفسير عبد الرزاق (١/ ٩٣).

(٥) فى جـ: «وليتحلل».

(٦) صحيح البخارى برقم (١٦٩١).

(٧) صحيح البخارى برقم (١٦٩٢) وصحيح مسلم برقم (١٢٢٨).

(٨) فى أ: «قاله».

وقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: قال ابن جرير: اختلف أهل التأويل فيمن عني بقوله: ﴿لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بعد إجماع جميعهم على أن أهل الحرم معنيون به، وأنه لا متعة لهم، فقال بعضهم: عني بذلك أهل الحرم خاصة دون غيرهم. حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان - هو الثوري - قال: قال ابن عباس ومجاهد: هم أهل الحرم. وكذا روى ابن المبارك، عن الثوري، وزاد: الجماعة عليه.

وقال قتادة: ذكر لنا أن ابن عباس كان يقول: يا أهل مكة، لا متعة لكم، أحلت لأهل الآفاق وحُرِّمت عليكم، إنما يقطع أحدكم وادياً - أو قال: يجعل بينه وبين الحرم وادياً^(١) - ثم يهل بعمرة. وقال عبد الرزاق: حدثنا^(٢) معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه قال: المتعة للناس - لا لأهل مكة - مَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ مِنَ الْحَرَمِ. وذلك قول الله عز وجل: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾. قال: وبلغني عن ابن عباس مثل قول طاوس.

وقال آخرون: هم أهل الحرم ومن بينه وبين المواقيت، كما قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن رجل، عن عطاء، قال: من كان أهله دون المواقيت، فهو كأهل مكة، لا يتمتع^(٣).

وقال عبد الله بن المبارك، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن مكحول، في قوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال: من كان دون الميقات.

وقال ابن جريج عن عطاء: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال: عرفة، ومرة، وعُرنة، وضُجَّان، والرجيع^(٤).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، سمعت الزهري يقول: من كان أهله على يوم أو نحوه تمتع. وفي رواية عنه: اليوم واليومين. واختار ابن جرير في ذلك مذهب الشافعي أنهم أهل الحرم، ومن كان منه على مسافة لا تقصر منها^(٥) الصلاة؛ لأن من كان كذلك يُعَدُّ حاضراً لا مسافراً، والله أعلم. وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فيما أمركم^(٦) وما نهاكم ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: لمن خالف^(٧) أمره، وارتكب ما عنه زجره.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٩٧).

اختلف أهل العربية في قوله: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ فقال بعضهم: [تقديره]^(٨): الحج حجٌّ أشهر معلومات، فعلى هذا التقدير يكون الإحرام بالحج فيها أكمل من الإحرام به فيما عداها، وإن كان ذاك صحيحاً والقول بصحة الإحرام بالحج في جميع السنة مذهب مالك، وأبي حنيفة، وأحمد

(١) في ط: «واديًا وادياً». (٢) في ط: «أخبرنا».

(٣) تفسير عبد الرزاق (١/ ٩٣).

(٤) في و: «الضجيج». (٥) في ج، ط، أ، و: «فيها».

(٦) في ط: «فيما أمركم به». (٧) في ط: «لن خاف».

(٨) زيادة من ج، أ، و.

ابن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وبه يقول إبراهيم النخعي، والثوري، والليث بن سعد. واحتجّ لهم بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] وبأنه أحد النسكين. فصح الإحرام به في جميع السنة كالعمرة.

وذهب الشافعي، رحمه الله، إلى أنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره^(١)، فلو أحرم به قبلها لم ينعقد إحرامه به، وهل ينعقد عمرة؟ فيه قولان عنه. والقول بأنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره مروى عن ابن عباس، وجابر، وبه يقول عطاء، وطاوس، ومجاهد، رحمهم الله، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾، وظاهره التقدير الآخر الذي ذهب إليه النحاة، وهو أن: وقت الحج أشهر معلّومات، فخصه بها من بين سائر شهور السنة، فدلّ على أنه لا يصح قبلها، كميات الصلاة.

قال الشافعي، رحمه الله: أخبرنا مسلم بن خالد، عن ابن جريج، أخبرني عمر بن عطاء، عن عكرمة، عن ابن عباس، أنه قال: لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في شهور^(٢) الحج، من أجل قول الله: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾. وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أحمد بن يحيى بن مالك السوسى، عن حجاج بن محمد الأعور، عن ابن جريج، به. ورواه ابن مردويه في تفسيره من طريقين، عن حجاج بن أرطاة، عن الحكم بن عتيبة^(٣)، عن مقسم، عن ابن عباس: أنه قال: من السنة ألا يحرم [بالحج]^(٤) إلا في أشهر الحج.

وقال ابن خزيمة في صحيحه: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن شعبة، عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس، قال: لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج، فإن من سنة الحج أن يحرم بالحج في أشهر الحج^(٥). وهذا إسناد صحيح، وقول الصحابي: «من السنة كذا» في حكم المرفوع عند الأكثرين، ولا سيما قول ابن عباس تفسيراً للقرآن، وهو ترجمانه.

وقد ورد فيه حديث مرفوع، قال^(٦) ابن مردويه: حدثنا عبد الباقي بن قانع^(٧)، حدثنا الحسن بن المثنى، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا سفيان، عن أبي الزبير، عن جابر، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في أشهر الحج».

وإسناده لا بأس به. لكن^(٨) رواه الشافعي، والبيهقي من طرق، عن ابن جريج، عن أبي الزبير، أنه سمع جابر بن عبد الله يسأل: أيهلّ بالحج قبل أشهر الحج؟ فقال: لا^(٩).

وهذا الموقوف أصح وأثبت من المرفوع، ويبقى حينئذ مذهب صحابي، يتقوى بقول ابن عباس: «من السنة أن لا يحرم بالحج إلا في أشهره». والله أعلم.

وقوله: ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾: قال البخاري: قال ابن عمر: هي شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة^(١٠). وهذا الذي علقه البخاري عنه بصيغة الجزم رواه ابن جرير موصولاً: حدثنا أحمد بن

(١) في ج: «إلا في أشهر الحج». (٢) في أ: «في أشهر».

(٣) في أ، و: «بن عينة». (٤) زيادة من ج.

(٥) صحيح ابن خزيمة برقم (٢٥٩٦).

(٦) في ج: «وقال». (٧) في ج: «بن نافع».

(٨) في ج: «ولكن».

(٩) الأم للشافعي (٢/ ١٣٦) والسنن الكبرى للبيهقي (٤/ ٣٤٣).

(١٠) صحيح البخاري (٣/ ٤١٩) «فتح».

حازم بن أبي غرزة^(١)، حدثنا أبو نعيم، حدثنا ورقاء، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر: «الحج أشهر معلومات» قال: شوال، وذو القعدة وعشر من ذي الحجة^(٢).

إسناد^(٣) صحيح، وقد رواه الحاكم أيضاً في مستدركه، عن الأصم، عن الحسن بن علي بن عفان، عن عبد الله بن نمير، عن عبيد الله^(٤)، عن نافع، عن ابن عمر - فذكره وقال: على شرط الشيخين^(٥).

قلت: وهو مروى عن عمر، وعلي، وابن مسعود، وعبد الله بن الزبير، وابن عباس، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، وإبراهيم النخعي، والشعبي، والحسن، وابن سيرين، ومكحول، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان. وهو مذهب الشافعي، وأبي حنيفة، وأحمد بن حنبل، وأبي يوسف، وأبي ثور، رحمهم الله. واختار هذا القول ابن جرير، قال: وصح إطلاق الجمع^(٦) على شهرين وبعض الثالث للتغليب، كما تقول العرب: «زرتك العام، ورأيتك اليوم». وإنما وقع ذلك في بعض العام واليوم؛ قال الله تعالى: «فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ» [البقرة: ٢٠٣] وإنما تعجل في يوم ونصف.

وقال الإمام مالك بن أنس [والشافعي في القديم]^(٧): هي^(٨): شوال وذو القعدة وذو الحجة بكماله. وهو رواية عن ابن عمر أيضاً؛ قال ابن جرير:

حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا شريك، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: شوال وذو القعدة وذو الحجة.

وقال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني ابن جريج، قال: قلت لنافع: أسمعت عبد الله بن عمر يسمى شهور الحج؟ قال: نعم، كان عبد الله يسمى: «شوال وذو القعدة وذو الحجة». قال^(٩) ابن جريج: وقال ذلك ابن شهاب، وعطاء، وجابر ابن عبد الله صاحب النبي ﷺ، وهذا إسناد صحيح إلى ابن جريج. وقد حكى هذا أيضاً عن طاوس، ومجاهد، وعروة بن الزبير، والربيع بن أنس، وقتادة. وجاء فيه حديث مرفوع، ولكنه موضوع، رواه الحافظ بن مردويه، من طريق حصين بن مخارق - وهو متهم بالوضع - عن يونس بن عبيد، عن شهر بن حوشب، عن أبي أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: «الحج أشهر معلومات: شوال وذو القعدة وذو الحجة»^(١٠).

وهذا كما رأيت لا يصح رفعه، والله أعلم.

وفائدة مذهب مالك أنه إلى آخر ذي الحجة، بمعنى أنه مختص بالحج، فيكره الاعتماد في بقية

(١) في ج: «بن أبي عزة».

(٢) تفسير الطبري (٤/ ١١٦).

(٣) في ج: «إسناده». (٤) في هـ، أ: «عبد الله»، والصواب ما أثبتناه من جـ، ط، و.

(٥) المستدرک (٢/ ٢٧٦).

(٦) في ط: «الجميع». (٧) زيادة من جـ، ط، أ، و.

(٨) في ج: «هو». (٩) في ج: «وقال».

(١٠) ورواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (١٦٩٣) «مجمع البحرين» من طريق محمد بن ثواب عن حصين بن مخارق به.

ذى الحجة، لا أنه يصح الحج بعد ليلة النحر.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، قال: قال عبد الله: الحج أشهر معلومات، ليس فيها عمرة. وهذا إسناد صحيح.

قال ابن جرير: إنما أراد من ذهب إلى أن أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة أن هذه الأشهر ليست أشهر العمرة، إنما هي للحج، وإن كان عمل الحج قد انقضى بانقضاء أيام منى، كما قال محمد بن سيرين: ما أحد من أهل العلم يشك في أن عمرة في غير أشهر الحج أفضل من عمرة في أشهر الحج.

وقال ابن عون: سألت القاسم بن محمد، عن العمرة في أشهر الحج، فقال: كانوا لا يرونها تامة.

قلت: وقد ثبت عن عمر وعثمان، رضى الله عنهما، أنهما كانا يحببان^(١) الاعتمار في غير أشهر الحج، وينهيان عن ذلك في أشهر الحج، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَمَنْ قَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ أى: أوجب بإحرامه حجاً. فيه دلالة على لزوم الإحرام بالحج والمضى فيه. قال ابن جرير: أجمعوا على أن المراد من القرض هاهنا الإيجاب والإلزام.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَمَنْ قَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ يقول: من أحرم بحج أو عمرة. وقال عطاء: القرض الإحرام. وكذا قال إبراهيم، والضحاك، وغيرهم.

وقال ابن جرير: أخبرني عمر بن عطاء، عن عكرمة، عن ابن عباس: أنه قال ﴿فَمَنْ قَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾: فلا ينبغي أن يلبي بالحج ثم يقيم بأرض. قال ابن أبي حاتم: ورؤى عن ابن مسعود، وابن عباس، وابن الزبير، ومجاهد، وعطاء، وإبراهيم النخعي، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، وسفيان الثوري، والزهرى، ومقاتل بن حيان - نحو ذلك.

وقال طاوس، والقاسم بن محمد: هو التلبية.

وقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ أى: من أحرم بالحج أو العمرة، فليجتنب الرفث، وهو الجماع، كما قال تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وكذلك يحرم تعاطى دواعيه من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك، وكذا التكلم به بحضرة النساء.

قال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني يونس: أن نافعاً أخبره: أن عبد الله ابن عمر كان يقول: الرفث إتيان النساء، والتكلم بذلك: الرجال والنساء إذا ذكروا ذلك بأفواههم.

قال ابن وهب: وأخبرني أبو صخر، عن محمد بن كعب، مثله.

قال ابن جرير: وحدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن قتادة، عن رجل، عن أبى العالية الرياحي، عن ابن عباس: أنه كان يحدو - وهو محرم - وهو يقول:

وَهْنٌ يَمْشِينَ بَنَاهِمِيسَا إِنَّ يَصْدُقَ الطَّيْرُ نَلَّ لَمِيسَا

قال أبو العالية فقلت: تكلم بالرفث وأنت محرم؟! قال: إنما الرفث ما قيل عند النساء^(٢).

(١) فى أ: «يحبان».

(٢) تفسير الطبرى (٤ / ١٢٦).

ورواه الأعمش، عن زياد بن حصين، عن أبي العالية، عن ابن عباس، فذكره.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا ابن أبي عدى، عن عَوْن^(١)، حدثني زياد بن حصين، حدثني أبي حصين بن قيس، قال: أصعدتُ مع ابن عباس في الحاج، وكنت خليلاً له، فلما كان بعد إحرامنا قال ابن عباس، فأخذ بذنب بعيره فجعل يلويه و[هو] ^(٢) يرتجز، ويقول:

وَهْنٌ يَمْشِينَ بَنَاهُمِيسَا
إِنْ يَصْدُقُ الطَّيْرُ نَتْلُ لَمِيسَا

قال: فقلت: أترفت وأنت محرم؟ فقال: إنما الرفت ما قيل عند النساء^(٣).

وقال عبد الله بن طاوس، عن أبيه: سألت ابن عباس عن قول الله تعالى: ﴿فَلَا رَفْثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ قال: الرفت التعريض بذكر الجماع، وهي العرابة في كلام العرب، وهو أدنى الرفت.

وقال عطاء بن أبي رباح: الرفت: الجماع، وما دونه من قول الفحش، وكذا قال عمرو بن دينار. وقال عطاء: كانوا يكرهون العرابة، وهو التعريض بذكر الجماع وهو مُحَرَّم.

وقال طاوس: هو أن تقول للمرأة: إِذَا حَلَلْتُ أَصْبِتُكَ. وكذا قال أبو العالية.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الرفت: غشيان النساء والقُبْل والغَمْز، وأن يُعَرِّضَ لَهَا بالفحش^(٤) من الكلام، ونحو ذلك.

وقال ابن عباس أيضاً وابن عمر: الرفت: غشيان النساء. وكذا قال سعيد بن جبيرة، وعكرمة، ومجاهد، وإبراهيم، وأبو العالية، وعطاء، ومكحول، وعطاء بن يسار، وعطية، وإبراهيم النخعي، والربيع والزهرى، والسدى، ومالك بن أنس، ومقاتل بن حيان، وعبد الكريم بن مالك، والحسن، وقتادة والضحاك، وغيرهم.

وقوله: ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ قال مَقْسَمٌ وغير واحد، عن ابن عباس: هي المعاصي. وكذا قال عطاء، ومجاهد، وطاوس، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، ومحمد بن كعب، والحسن، وقتادة، وإبراهيم النخعي، والزهرى، ومكحول، وابن أبان، والربيع بن أنس، وعطاء بن يسار، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حيان.

وقال محمد بن إسحاق، عن نافع، عن ابن عمر^(٥) قال: الفسوق: ما أصيبَ من معاصي الله به صَيِّدٌ أو غيره. وكذا روى ابن وهب، عن يونس، عن نافع أن عبد الله بن عمر كان يقول: الفسوق إتيان معاصي الله في الحرم.

وقال آخرون: الفسوق هاهنا السباب، قاله ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، ومجاهد، والسدى، وإبراهيم والحسن. وقد يتمسك لهؤلاء^(٦) بما ثبت في الصحيح^(٧): «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر».

(٢) زيادة من ج، ط، أ.

(١) في ج، ط، أ: «عن عوف».

(٣) تفسير الطبري (١٢٦/٤).

(٤) في ج: «يعرض لها الفحشاء»

(٦) في ج: «هؤلاء».

(٥) في ج: «أن عبد الله بن عمر».

(٧) في أ: «الصحيحين».

ولهذا رواه هاهنا الخبر أبو محمد بن أبي حاتم، رحمه الله، من حديث سفيان الثوري عن يزيد^(١)، عن أبي وائل، عن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»^(٢). وروى من حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه^(٣)، ومن حديث أبي إسحاق عن محمد بن سعد عن أبيه^(٤) [٥].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الفسوق هاهنا: الذبح للأصنام. قال الله تعالى: ﴿أَوْ فِسْقًا أَهْلًا لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

وقال الضحاك: الفسوق: التنازع بالألقاب.

والذين قالوا: الفسوق هاهنا هو جميع المعاصي، معهم الصواب، كما نهى تعالى عن الظلم في الأشهر الحرم، وإن كان في جميع السنة منهياً عنه، إلا أنه في الأشهر الحرم أكد؛ ولهذا قال: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، وقال في الحرم: ﴿وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْإِحَادِ يَظْلِمُ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

واختار ابن جرير أن الفسوق هاهنا: هو ارتكاب ما نهى عنه في الإحرام، من قتل الصيد، وحلق الشعر، وقلم الأظفار، ونحو ذلك، كما تقدم عن ابن عمر. وما ذكرناه أولى، والله أعلم. وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»^(٦).

وقوله: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ فيه قولان:

أحدهما: ولا مجادلة في وقت الحج وفي مناسكه، وقد بينه الله أتم بيان ووضحه أكمل إيضاح. كما قال وكيع، عن العلاء بن عبد الكريم: سمعت مجاهداً يقول: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قد بين الله أشهر الحج، فليس فيه جدال بين الناس.

وقال ابن أبي نجيع، عن مجاهد: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قال: لا شهر ينسأ، ولا جدال في الحج، قد تبين، ثم ذكر كيفية ما كان المشركون يصنعون في النسأ الذي ذمهم الله به.

وقال الثوري، عن عبد العزيز بن رفيع، عن مجاهد في قوله: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قال: قد استقام الحج، فلا جدال فيه. وكذا قال السدي.

وقال هشيم: أخبرنا حجاج، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قال: المرء في الحج.

(١) في أ: «عن زيد»، وفي و: «عن زبيد».

(٢) ورواه البخاري في صحيحه برقم (٦٠٤٤) ومسلم في صحيحه برقم (٦٣) من طريق منصور بن المعتمر عن أبي وائل به.

(٣) رواه الترمذي في السنن برقم (٢٦٣٤) والنسائي في السنن (١٢٢/٧).

(٤) رواه ابن ماجه في السنن برقم (٣٩٤١).

(٥) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٦) صحيح البخاري برقم (١٥٢١) وصحيح مسلم برقم (١٣٥٠).

وقال عبد الله بن وهب: قال مالك: قال الله تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ فالجدال في الحج - والله - أعلم - أن قريشاً كانت تقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة، وكانت العرب، وغيرهم يقفون بعرفة، وكانوا يتجادلون، يقول هؤلاء: نحن أصوب. ويقول هؤلاء: نحن أصوب. فهذا فيما نرى، والله أعلم.

وقال ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كانوا يقفون مَوَاقِفَ مختلفة يتجادلون، كُلُّهُمْ يدعى أن موقفه موقف إبراهيم فقطعه الله حين أعلم نبيه بالمناسك.

وقال ابن وهب، عن أبي صخر، عن محمد بن كعب، قال: كانت قريش إذا اجتمعت بمنى قال هؤلاء: حجنا أتم من حجكم. وقال هؤلاء: حجنا أتم من حجكم.

وقال حماد بن سلمة عن جبر^(١) بن حبيب، عن القاسم بن محمد أنه قال: الجدال في الحج أن يقول بعضهم: الحج غداً. ويقول بعضهم: اليوم.

وقد اختار ابن جرير مضمون هذه الأقوال، وهو قطع التنازع في مناسك الحج.

والقول الثاني: أن المراد بالجدال هاهنا: المخاصمة.

قال ابن جرير: حدثنا عبد الحميد بن بيان^(٢)، حدثنا إسحاق، عن شريك، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله - هو ابن مسعود - في قوله: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾. قال: أن تمارى صاحبك حتى تغضبه.

وبهذا الإسناد إلى أبي إسحاق، عن التميمي: سألت ابن عباس عن «الجدال» قال: المرء، تمارى صاحبك حتى تغضبه. وكذا روى مَقْسَمٌ والضحاك، عن ابن عباس. وكذا قال أبو العالية، وعطاء ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وجابر بن زيد، وعطاء الخراساني، ومكحول، وعمرو بن دينار، والسدي، والضحاك، والربيع بن أنس، وإبراهيم النخعي، وعطاء بن يسار، والحسن، وقتادة، والزهرى، ومقاتل بن حيان.

وقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قال الجدال: المرء والملاحاة، حتى تغضب أخاك وصاحبك، فنهى الله عن ذلك.

وقال إبراهيم النخعي: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قال: كانوا يكرهون الجدال. وقال محمد بن إسحاق، عن نافع، عن ابن عمر، قال: الجدال: السباب والمنازعة. وكذا روى ابن وهب، عن يونس، عن نافع: أن ابن عمر كان يقول: الجدال في الحج: السباب، والمرء، والخصومات، وقال ابن أبي حاتم: وروى عن ابن الزبير، والحسن، وإبراهيم، وطاوس، ومحمد بن كعب، قالوا: الجدال المرء.

وقال عبد الله بن المبارك، عن يحيى بن بشر^(٣)، عن عكرمة: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾: والجدال الغضب، أن تُغْضِبَ عليك مسلماً، إلا أن تستعيب مملوكاً فتغضبه من غير أن تضربه، فلا بأس عليك، إن شاء الله.

(١) في أ: «بن بشير».

(٢) في ج: «بن سنان».

(٣) في ج: «عن حسين»، وفي أ: «عن جبير».

قلت: ولو ضربه لكان جائزاً سائغاً. والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن إدريس، حدثنا محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه: أن أسماء بنت أبي بكر قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ حُجَّاجاً، حتى إذا كنا بالعَرَجِ نَزَلَ رسول الله ﷺ، فجلست عائشةُ إلى جنب رسول الله، وجلستُ إلى جنب أبي. وكانت^(١) زِمَانَةُ أبي بكر وزِمَالَةُ رسول الله ﷺ واحدة مع غلام أبي بكر، فجلس أبو بكر ينتظره إلى أن يطلع عليه، فأطْلَعَ وليس معه بغيره، فقال: أين بغيرك؟ فقال: أضللتُه البارحة. فقال أبو بكر: بغير واحد تُضِلُّهُ؟ فطفق يضربه، ورسول الله ﷺ يتبسم ويقول: «انظروا إلى هذا المُحْرِمِ ما يصنع؟».

وهكذا أخرجه أبو داود، وابن ماجه، من حديث ابن إسحاق^(٢). ومن هذا الحديث حكى بعضهم عن بعض السلف أنه قال: من تمام الحج ضَرْبُ الجمال. ولكن يستفاد من قول النبي ﷺ عن أبي بكر: «انظروا إلى هذا المُحْرِمِ ما يصنع؟» - كهيئة الإنكار اللطيف - أن الأولى ترك ذلك، والله أعلم.

وقد قال الإمام عبد بن حميد في مسنده: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن موسى بن عبيدة، عن أخيه عبد الله بن عبيدة^(٣)، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من قضَى نُسكَه وسَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، غفر له ما تقدم من ذنبه^(٤)»^(٥).

وقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾: لما نهاهم عن إتيان القبيح قولاً وفعلًا، حَثَّهم على فعل الجميل، وأخبرهم أنه عالم به، وسجزيهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾: قال العوفي، عن ابن عباس: كان أناس يخرجون من أهليهم ليست^(٦) معهم أزودة، يقولون: نَحْجُ بيت الله ولا يطعمنا. . فقال الله: تزودوا^(٧) ما يكف وجوهكم عن الناس.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة: قال: إن ناساً كانوا يحجون بغير زاد، فأنزل الله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾.

وكذا رواه ابن جرير عن عمرو - وهو الفلاس^(٨) - عن ابن عيينة.

قال ابن أبي حاتم: وقد روى هذا الحديث ورقاء، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس. قال: وما يرويه ابن عيينة أصح.

(١) في ط: «وكان».

(٢) المسند (٣٤٤/٦) وسنن أبي داود برقم (١٨١٨) وسنن ابن ماجه برقم (٢٩٣٣).

(٣) في ج: «عن أخيه عن عبد الله».

(٤) في ج: «ما تقدم من ذنبه وما تأخر».

(٥) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١١٤٨) وموسى بن عبيدة ضعيف.

(٦) في ج: «ليس».

(٧) في أ: «وتزودوا».

(٨) في ج: «وهو ابن العلاء» وفي أ: «أبو الفلاس».

قلت: قد رواه النسائي، عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومي، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو ابن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس [قال] ^(١): كان ناس يحجون بغير زاد، فأنزل الله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ ^(٢). وأما حديث ورقاء فأخرجه البخاري، عن ^(٣) يحيى بن بشر، عن ^(٤) شبابة ^(٥). وأخرجه أبو داود، عن أبي مسعود أحمد بن الفرات الرازي، ومحمد بن عبد الله المخزومي، عن شبابة، عن ورقاء، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان أهل اليمن تحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون ^(٦). فأنزل الله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ ^(٧). ورواه عبد بن حميد في تفسيره، عن شبابة [به] ^(٨). ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث شبابة، به.

وروى ابن جرير وابن مردويه من حديث عمرو بن عبد الغفار [عن محمد بن سوقة] ^(٩)، عن نافع، عن ابن عمر، قال: كانوا إذا أحرموا - ومعهم أزوادهم - رموا بها، واستأنفوا زاداً آخر ^(١٠)؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ فنهوا عن ذلك، وأمرُوا أن يتزودوا الكعك والدقيق والسويق. وكذا قال ابن الزبير، وأبو العالية، ومجاهد، وعكرمة، والشعبي، والنخعي، وسالم بن عبد الله، وعطاء الخراساني، وقتادة، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان.

وقال سعيد بن جبيرة: فتزودوا ^(١١) الدقيق والسويق والكعك ^(١٢) وقال وكيع [بن الجراح] ^(١٣) في تفسيره: حدثنا سفيان، عن محمد بن سوقة ^(١٤)، عن سعيد بن جبيرة: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ قال: الخشكنانج والسويق. وقال وكيع أيضاً: حدثنا إبراهيم المكي، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عمر، قال: إن من كرم الرجل طيب زاده في السفر. وزاد فيه حماد بن سلمة، عن أبي ريحانة أن ابن عمر كان يشترط على من صحبه الجوزة ^(١٥).

وقوله: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾: لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا أرشدتهم إلى زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوى إليها، كما قال: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]. لما ذكر اللباس الحسي نبه مرشداً إلى اللباس المعنوي، وهو الخشوع، والطاعة ^(١٦)، والتقوى، وذكر أنه خير من هذا، وأنفع.

قال عطاء الخراساني في قوله: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ يعني: زاد الآخرة.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا عبدان، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا مروان بن

(١) زيادة من جـ.

(٢) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٠٣٣).

(٣) في ط: «حدثنا».

(٤) في أ: «بن بشير نبا».

(٥) في ط: «شبابة قال».

(٦) في ط: «نحن متوكلون».

(٧) صحيح البخاري برقم (١٥٢٣) وسنن أبي داود برقم (١٧٣٠).

(٨) زيادة من أ، و.

(٩) تفسير الطبري (١٥٦/٤).

(١١) في جـ، ط، و: «يتزودوا» وفي أ: «تزودوا».

(١٢) في أ: «كما بينه».

(١٤) في جـ: «صوفة».

(١٣) زيادة من أ.

(١٦) في أ: «الخشوع في الطاعة».

(١٥) في ط، أ، و: «الجودة».

معاوية، عن إسماعيل عن قيس، عن جرير بن عبد الله، عن النبي ﷺ [قال] ^(١): « من يتزود في الدنيا يَنْفَعَهُ فِي الآخِرَةِ » ^(٢).

وقال مقاتل بن حيان: لما نزلت هذه الآية: ﴿ وَتَزَوَّدُوا ﴾ قام رجل من فقراء المسلمين فقال: يا رسول الله، ما نجد زاداً نتزوده. فقال رسول الله ﷺ: « تزود ما تكف به وجهك عن الناس، وخير ما تزودتم التقوى ». رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿ وَاتَّقُوا عِقَابِي ﴾ يقول: واتقوا عقابي، ونكالي، وعذابي لمن خالفني ولم يأتمر بأمرى، ياذوى العقول والأفهام.

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ (١٩٨) ﴾.

قال البخاري: حدثنا محمد، أخبرني ابن عيينة، عن عمرو، عن ابن عباس، قال: كانت عكاظ ومَجَنَّةً، وذو المجاز أسواق الجاهلية، فتأتموا أن يتجروا في المواسم ^(٣)، فنزلت: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ في مواسم الحج ^(٤).

وهكذا رواه عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وغير واحد، عن سفيان بن عيينة، به ^(٥).

ولبعضهم: فلما جاء الإسلام تأتموا أن يتجروا، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله هذه الآية. وكذلك ^(٦) رواه ابن جريج، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس، قال: كان متجر الناس في الجاهلية عكاظ ومَجَنَّةً وذو المجاز، فلما كان ^(٧) الإسلام كأنهم كرهوا ذلك، حتى نزلت هذه الآية.

وروى أبو داود، وغيره، من حديث يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: كانوا يَتَّقُونَ البيوع والتجارة في الموسم، والحج، يقولون: أيام ذكر، فأنزل الله: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ ^(٨).

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيْمٌ، أخبرنا حجاج، عن عطاء، عن ابن عباس: أنه قال: « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم في مواسم الحج ».

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: لا حرج عليكم في الشراء والبيع قبل

(١) زيادة من جد، ط، أ، و.

(٢) المعجم الكبير (٣٠٥/٢) وقال الهيثمي في المجمع (٣١١/١٠): « رجاله رجال الصحيح ».

(٣) في جد، ط: « في الموسم ».

(٤) صحيح البخاري برقم (٤٥١٩).

(٥) تفسير عبد الرزاق (٦٥/١) وسنن سعيد بن منصور برقم (٣٤٧).

(٦) في ط: « وكذا ».

(٧) في جد، ط: « فلما جاء ».

(٨) سنن أبي داود برقم (١٧٣١).

الإحرام وبعده. وهكذا رَوَى العوفى، عن ابن عباس.

وقال وكيع: حدثنا طلحة بن عمرو الحضرمى، عن عطاء، عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم فى مواسم الحج». [وقال عبد الرزاق: عن أبيه عينة، عن عبيد الله بن أبى يزيد: سمعت ابن الزبير يقول: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم فى مواسم الحج»^(١)].

ورواه عبد بن حميد، عن محمد بن الفضل، عن حماد بن زيد، عن عبيد الله^(٢) بن أبى يزيد، سمعت ابن الزبير يقرأ^(٣) - فذكر مثله سواء^(٤). وهكذا فسرهما مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومنصور بن المعتمر، وقتادة، وإبراهيم النخعى، والربيع بن أنس، وغيرهم.

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا شعبة بن سوار، حدثنا شعبة، عن أبى أميمة^(٥) قال: سمعت ابن عمر - وسئل عن الرجل يحج ومعه تجارة - فقرأ ابن عمر: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

وهذا موقوف، وهو قوى جيد^(٦). وقد روى مرفوعاً قال أحمد: حدثنا [أحمد بن]^(٧) أسباط، حدثنا الحسن بن عمرو الفقيمي، عن أبى أمارة التيمي، قال: قلت لابن عمر: إنا نُكْرِى، فهل لنا من حج، قال: أليس تطوفون بالبيت، وتأتون المَعْرَفَ، وترمون الجمار، وتحلقون رؤوسكم؟ قال: قلنا^(٨): بلى. فقال ابن عمر: جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عن الذى سألتنى فلم يجبه، حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾، فدعاه النبى ﷺ، فقال: «أنتم حجاج»^(٩).

وقال^(١٠) عبد الرزاق: أخبرنا الثورى، عن العلاء بن المسيب، عن رجل من بنى تيم الله قال: جاء رجل إلى عبد الله بن عمر، فقال: يا أبا عبد الرحمن، إنا قوم نُكْرِى، ويزعمون أنه ليس لنا حج. قال: ألسنتم تحرمون كما يحرمون، وتطوفون كما يطوفون، وترمون كما يرمون؟ قال: بلى. قال: فأنت حاج^(١١). ثم قال ابن عمر: جاء رجل إلى النبى ﷺ، فسأله عما سألت عنه، فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(١٢).

ورواه عبد [بن حميد فى تفسيره]^(١٣)، عن عبد الرزاق به. وهكذا روى هذا الحديث ابن^(١٤)

(١) زيادة من جد، ط، و. (٢) فى جد: «عبد الله».

(٤) فى و: يقرأ: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم فى مواسم الحج».

(٥) فى جد، ط: «عن أبى أمارة». (٦) فى أ: «جداً».

(٨) فى ط: «قال: قلت».

(٩) المسند (٢/١٥٥).

(١٠) فى جد، ط، أ، و: «وقد قال».

(١٢) ورواه الطبرى فى تفسيره (٤/١٦٩) من طريق عبد الرزاق به.

(١٣) زيادة من و.

(١٤) فى جد، ط، أ، و: «أبو».

حذيفة، عن الثوري، مرفوعاً. وهكذا روى من غير هذا الوجه مرفوعاً^(١).

وقال^(٢) ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عباد بن العوام، عن العلاء بن المسيب، عن أبي أمامة التيمي، قال: قلت لابن عمر: إنا أناس نُكْرَى في هذا الوجه إلى مكة، وإن ناساً يزعمون أنه لا حجّ لنا، فهل ترى لنا حجاً؟ قال: أَلَسْتُمْ تحرمون، وتطوفون بالبيت، وتقفون^(٣) المناسك؟ قال: قلت: بلى. قال: فَأَنْتُمْ حجاج. ثم قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن [مثل]^(٤) الذي سألت، فلم يدر ما يعود عليه - أو قال: فلم يردّ عليه شيئاً - حتى نزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فدعا الرجل، فتلاها عليه، وقال: «أَنْتُمْ حجاج»^(٥).

وكذا رواه مسعود بن سعد، وعبد الواحد بن زياد، وشريك القاضي، عن العلاء بن المسيب به مرفوعاً.

وقال ابن جرير: حدثني طليق^(٦) بن محمد الواسطي، حدثنا أسباط - هو ابن محمد - أخبرنا الحسن بن عمرو - هو الفقيمي - عن أبي أمامة التيمي. قال: قلت لابن عمر: إنا قوم نُكْرَى، فهل لنا من حج؟ فقال: أليس تطوفون بالبيت، وتأتون المَعْرَفَ، وترمون الجمار، وتحلقون رؤوسكم؟ قلنا: بلى. قال^(٧): جاء رجل إلى النبي ﷺ، فسأله عن الذي سألتني عنه، فلم يدر ما يقول له، حتى نزل جبريل، عليه السلام، بهذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ إلى آخر الآية، فقال النبي ﷺ: «أَنْتُمْ حجاج»^(٨).

وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا مندل، عن عبد الرحمن بن المهاجر، عن أبي صالح مولى عمر، قال: قلت: يا أمير المؤمنين، كنتم تتجرون في الحج؟ قال: وهل كانت معاشهم إلا في الحج؟

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾.

إنما صَرَفَ «عرفات» وإن كان علماً على مؤنث؛ لأنه في الأصل جمع كمسلمات ومؤمنات، سمى به بقعة معينة، فروعى فيه الأصل، فصرف. اختاره ابن جرير.

وعرفة: موضع الموقف^(٩) في الحج، وهي عمدة أفعال الحج؛ ولهذا روى الإمام أحمد، وأهل السنن، بإسناد صحيح، عن الثوري، عن بكير بن^(١٠) عطاء، عن عبد الرحمن بن يعمر الديلي،

(١) وانظر ذكر هذه الطرق في: حاشية الشيخ سعد الحميد على سنن سعيد بن منصور برقم (٣٥٢) فقد أجاد وأفاد، ولولا خشية الإطالة لقلته هنا.

(٢) في ج، ط، أ، و: «فقال». (٣) في ج، ط، أ، و: «تقفون».

(٤) زيادة من ج، ط، أ، و. (٥) ورواه ابن خزيمة في صحيحه برقم (٣٠٥١) من طريق مروان بن معاوية عن العلاء بن المسيب به، ورواه أبو داود في السنن برقم (١٧٣٣) من طريق عبد الواحد بن زياد عن العلاء بن المسيب به.

(٦) في ج: «طلق». (٧) في ج، ط: «فقال».

(٨) تفسير الطبري (١٦٤/٤).

(٩) في ج، ط، و: «موضع الوقوف»، وفي أ: «مواضع الوقوف».

(١٠) في ج، ط، أ، و: «عن» والمثبت من أ.

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحج عرفات - ثلاثاً - فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر، فقد أدرك. وأيام منى ثلاثة^(١)، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه»^(٢).

ووقت الوقوف من الزوال يومَ عرفة إلى طُلُوع الفجر الثاني من يوم النحر؛ لأنَّ النبي ﷺ وقف في حجة الوداع، بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس، وقال: «لتأخذوا عنى مناسككم»^(٣).

وقال في هذا الحديث: «فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك» وهذا مذهب مالك، وأبى حنيفة، والشافعي رحمهم الله. وذهب الإمام أحمد إلى أن وقت الوقوف من أول يوم عرفة. واحتجوا بحديث الشعبي، عن عروة بن مضر بن حارثة بن لام^(٤) الطائي قال: أتيت رسول الله ﷺ بالمزدلفة، حين خرج إلى الصلاة، فقلت: يا رسول الله، إنى جئت من جبلى^(٥) طيى، أكلت راحلتى، وأتعبت نفسى، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه، فهل لى من حج؟ فقال رسول الله ﷺ: «من شهد صلاتنا هذه، فوقف معنا حتى ندفع، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً، فقد تم حجه، وقضى تفعه».

رواه الإمام أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذى^(٧).

ثم قيل: إنما سميت عرفات لما رواه عبد الرزاق: أخبرنى ابن جريج قال: قال ابن المسيب: قال على بن أبى طالب: بعث الله جبريل، عليه السلام، إلى إبراهيم، عليه السلام، فحج به، حتى إذا أتى عرفة قال: عرفت، وكان قد^(٨) أتاها مرة قبل ذلك، فلذلك سميت عرفة.

وقال ابن المبارك، عن عبد الملك بن أبى سليمان، عن عطاء، قال: إنما سميت عرفة، أن جبريل كان يرى إبراهيم المناسك، فيقول: عرفتُ عرفتُ. فسمى «عرفات». وروى نحوه عن ابن عباس، وابن عمر وأبى مجلز، فالله أعلم.

وتسمى عرفات المشعر الحلال، والمشعر^(٩) الأقصى، والإل - على وزن هلال - ويقال للجبل فى وسطها: جبل الرحمة. قال أبو طالب فى قصيدته المشهورة:

وبالمشعر الأقصى إذا قصدوا له إلال إلى تلك الشراج القوابل^(١٠)

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا حماد بن الحسن بن عتبة، حدثنا أبو عامر، عن زمعة - هو ابن

(١) فى أ: «ثلاث».

(٢) المسند (٤/ ٣٣٥) وسنن أبى داود برقم (١٩٤٩) وسنن الترمذى برقم (٢٩٧٥) وسنن النسائى (٥/ ٢٦٤) وسنن ابن ماجه برقم (٣٠١٥).

(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٢٩٧) من حديث جابر رضى الله عنه.

(٤) فى ج: «ابن الإمام». (٥) فى ج، ط، أ: «من جبل».

(٦) فى ج: «أظلمت».

(٧) المسند (٤/ ١٥) وسنن أبى داود برقم (١٩٥٠) وسنن الترمذى برقم (٨٩١) وسنن النسائى (٥/ ٢٦٣) وسنن ابن ماجه برقم (٣٠١٦).

(٨) فى ج: «وقد كان».

(٩) فى ط: «المشعر الحرام».

(١٠) البيت فى السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٧٤).

صالح - عن سلمة - هو ابن وهَرَام^(١) - عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان أهل الجاهلية يقفون بعرفة حتى إذا كانت الشمس على رؤوس الجبال، كأنها العمائم على رؤوس الرجال، دفعوا، فأخبر رسول الله ﷺ الدفعة من عرفة حتى غربت الشمس.

ورواه ابن مَرْدُويه، من حديث زمعة بن صالح، وزاد: ثم وقف بالمزدلفة، وصلى الفجر بغلَس، حتى إذا أسفر^(٢) كل شيء، وكان في الوقت الآخر، دفع. وهذا حسن الإسناد.

وقال ابن جُرَيْج، عن محمد بن قيس، عن المِسْوَر بن مَخْرَمَةَ قال: خطَبنا رسولُ الله ﷺ، وهو بعرفات، فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: «أما بعد - وكان إذا خطب خطبة قال: أما بعد - فإن هذا اليوم الحج الأكبر، ألا وإن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون في هذا اليوم قبل أن تغيب الشمس، إذا كانت الشمس في رؤوس الجبال، كأنها عمائم الرجال في وجوهها، وإنا ندفع بعد أن تغيب الشمس، وكانوا يدفعون من المشعر الحرام بعد أن تطلع الشمس، إذا كانت الشمس في رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوهها وإنا ندفع قبل أن تطلع الشمس، مُخَالَفًا هَدْيَ أهل الشرك».

هكذا رواه ابن مَرْدُويه وهذا لفظه، والحاكم في مستدركه، كلاهما من حديث عبد الرحمن بن المبارك العيشي، عن عبد الوارث بن سعيد، عن ابن جريج، به. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. قال: وقد صح وثبت بما ذكرناه سماع المِسْوَر من رسول الله ﷺ، لا كما يتوهمه رعا أصحابنا أنه ممن له رؤية^(٣) بلا سماع^(٤).

وقال وكيع، عن شعبة، عن إسماعيل بن رجاء [الزبيدي]^(٥)، عن المعمر بن سويد، قال: رأيت عمر، رضى الله عنه، حين دفع من عرفة، كأنى أنظر إليه رجلاً أصلع على بعير له، يُوضِع^(٦)، وهو يقول: إنا وجدنا الإفاضة هي الإيضاع.

وفى حديث جابر بن عبد الله الطويل، الذى فى صحيح مسلم، قال فيه: فلم يزل واقفاً - يعنى بعرفة - حتى غربت الشمس، وذهبت^(٧) الصُّفْرَةُ قليلاً، حتى غاب القُرْصُ، وأردف أسامة خلفه، ودفع رسول الله ﷺ وقد شتقَ للقصواء الزَّمام، حتى إنَّ رأسها ليصيب مَورِكَ رحله، ويقول بيده اليمنى: «أيها الناس، السكينة السكينة». كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد، حتى أتى المَزْدَلِفَةَ فصلَّى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يُسَبِّحْ بينهما شيئاً، ثم اضطجع حتى طلع الفجر فصلَّى الفجر حين تبيَّن له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، فدعا الله وكبره وهللَّه ووحدَه، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً، فدفع قبل أن تطلع الشمس^(٨). وفى الصحيح^(٩)، عن أسامة بن زيد، أنه سئل كيف كان يسير رسول الله ﷺ حين دَفَعَ؟

(١) فى جد: «هو ابن هشام».

(٢) فى أ: «إذا استقر».

(٣) فى جد: «ممن له رواية».

(٤) المستدرک (٢/ ٢٧٧).

(٥) فى جد، ط، أ، و: «ويدت».

(٦) فى أ: «فوضع».

(٧) زيادة من و.

(٨) فى جد، ط، أ، و: «وفى الصحيحين».

(٩) صحيح مسلم برقم (١٢١٨).

قال: «كان يسير العنق، فإذا وجد فجوة نص»^(١). والعنق: هو انبساط السير، والنص، فوقه.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبو محمد ابن بنت الشافعي، فيما كتب إلي، عن أبيه أو عمه، عن سفيان بن عيينة قوله: ﴿فَإِذَا أَفْضُتُمْ مِنْ عَرَافَاتٍ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ وهي الصلاتين^(٢) جميعاً.

وقال أبو إسحاق السبيعي، عن عمرو بن ميمون: سألت عبد الله بن عمرو عن المشعر الحرام، فسكت حتى إذا هبطت أيدي رواحلنا بالمزدلفة قال: أين السائل عن المشعر الحرام؟ هذا المشعر الحرام.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، عن سالم قال: قال ابن عمر: المشعر الحرام المزدلفة كلها^(٣).

وقال هشيم، عن حجاج^(٤)، عن نافع، عن ابن عمر: أنه سئل عن قوله: ﴿فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ قال: فقال: هو الجبل وما حوله.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن المغيرة، عن إبراهيم قال: رآهم ابن عمر يزدهمون على قُزَحَ، فقال: علام يزدهم هؤلاء؟ كل ما هاهنا مشعر^(٥).

وروى عن ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، ومجاهد، والسدي، والربيع بن أنس، والحسن، وقتادة أنهم قالوا: هو ما بين الجبلين.

وقال ابن جريج: قلت لعطاء: أين المزدلفة؟ قال: إذا أفضت^(٦) من مأزمية عرفة فذلك إلى مُحَسَّرٍ. قال: وليس المأزمان مأزما عرفة من المزدلفة، ولكن مفاضهما^(٧). قال: فقف^(٨) بينهما إن شئت، قال: وأحب أن تقف دون قُزَحَ، هلُم إلينا من أجل طريق الناس.

قلت: والمشاعر هي المعالم الظاهرة، وإنما سميت المزدلفة المشعر الحرام؛ لأنها داخل الحرم، وهل الوقوف بها ركن في الحج لا يصح إلا به، كما ذهب إليه طائفة من السلف، وبعض أصحاب الشافعي، منهم: القفال، وابن خزيمة، لحديث عروة بن مضرَس؟ أو واجب، كما هو أحد قولي الشافعي يجبر بدم؟ أو مستحب لا يجب^(٩) بتركه شيء كما هو القول الآخر؟ في ذلك ثلاثة أقوال للعلماء، لبسطها موضع آخر غير هذا، والله أعلم.

(١) صحيح البخاري برقم (١٦٦٦، ٤٤١٣) وصحيح مسلم برقم (١٢٨٦).

(٢) كذا في ج، ط، وهو خطأ، والصواب: «الصلاتان».

(٣) رواه الطبري في تفسيره (٤/ ١٧٦) من طريق عبد الرزاق به.

(٤) في ج: «عن الحجاج».

(٥) رواه الطبري في تفسيره (٤/ ١٧٧، ١٧٨) من طريق عبد الرزاق به.

(٦) في ج، ط: «إذا أفضيت»، وفي أ: «إذا قضيت».

(٧) في أ، و: «مفاضهما».

(٨) في ج: «فتقف».

(٩) في ج: «لا يجبره».

وقال عبد الله بن المبارك، عن سفيان الثوري، عن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ قال: «عَرَفَةُ كلها موقف، وارفعوا عن عُرْنَةِ^(١)، وجمّع كلها موقف إلا مُحَسَّرًا^(٢)».

هذا حديث مرسل. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا سعيد بن عبد العزيز، حدثني سليمان بن موسى، عن جبير بن مطعم^(٣)، عن النبي ﷺ: قال: «كل عرفات موقف، وارفعوا عن عُرْنَةِ^(٤). وكل مزدلفة موقف وارفعوا عن مُحَسَّرٍ، وكل فجاج مكة منحر، وكل أيام التشريق ذبح^(٥)».

وهذا أيضاً منقطع، فإن سليمان بن موسى هذا - وهو الأشدق - لم يدرك جبير بن مطعم. ولكن رواه الوليد بن مسلم، وسويد بن عبد العزيز، عن سعيد بن عبد العزيز، عن سليمان، فقال الوليد: عن ابن لجبير^(٦) بن مطعم، عن أبيه. وقال سويد: عن نافع بن جبير بن مطعم، عن أبيه، عن النبي ﷺ، فذكره، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾: تنبيه لهم على ما أنعم به عليهم، من الهداية والبيان والإرشاد إلى مشاعر الحج، على ما كان عليه إبراهيم الخليل، عليه السلام؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ قيل: من قبل هذا الهدى، وقبل القرآن، وقبل الرسول. والكل متقارب، ومتلازم، وصحيح.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٩٩).

«ثم» هاهنا لعطف خبر على خبر وترتيبه عليه، كأنه تعالى أمر الواقف بعرفات أن يدفع إلى المزدلفة، ليذكر الله عند المشعر الحرام، وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات، كما كان جمهور الناس يصنعون، يقفون بها إلا قريشاً، فإنهم لم يكونوا يخرجون من الحرم، فيقفون في طرف الحرم عند أدنى الحل^(٨)، ويقولون: نحن أهل الله في بلدته، وقُطَّان بيته.

وقال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا محمد بن حازم، حدثنا هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يُسمَّون الحُمس، وكان^(٨) سائر العرب يقفون بعرفات. فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتى عرفات، ثم يقف بها ثم يُفيض

(١) فى أ، و: «عن عرفة».

(٢) رواه الطبرى فى التفسير (٤/ ١٧٩) وقد جاء موصولاً من حديث جابر رضى الله عنه، ورواه ابن ماجه فى السنن برقم (٣٠١٢) وأصله فى صحيح مسلم برقم (١٢١٨) أ. هـ مستفاداً من حاشية الشيخ أحمد شاكر على تفسير الطبرى.

(٣) فى ط: «عن جبير بن مطعم عن أبيه».

(٤) فى أ: «عرفات» وفى و: «عرنات».

(٥) المسند (٤/ ٨٢).

(٦) فى أ: «عن جبير».

(٧) فى أ: «الجليل».

(٨) فى ج، ط، أ: «وكانت».

منها، فذلك قوله: ﴿مَنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾^(١).

وكذا قال ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وقتادة، والسدى، وغيرهم. واختاره ابن جرير، وحكى عليه الإجماع، رحمهم الله.

وقال الإمام أحمد، حدثنا سُفيان، عن عمرو، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، قال: أضللتُ بغيراً لى بعرفة، فذهبت أطلبه، فإذا النبي ﷺ واقف، قلت: إن هذا من الحمس^(٢)، ما شأنه هاهنا؟

أخرجاه فى الصحيحين^(٣). ثم روى البخارى من حديث موسى بن عقبة، عن كُريب، عن ابن عباس ما يقتضى أن المراد بالإفاضة هاهنا هى الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمى الجمار^(٤). فالله أعلم. وحكاه ابن جرير، عن الضحاك بن مزاحم فقط. قال: والمراد بالناس: إبراهيم، عليه السلام. وفى رواية عنه: الإمام. قال ابن جرير^(٥): ولولا إجماعُ الحجة على خلافه لكان هو الأرجح.

وقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: كثيراً ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات؛ ولهذا ثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر ثلاثاً. وفى الصحيحين أنه ندب إلى التسبيح والتحميد والتكبير، ثلاثاً وثلاثين، ثلاثاً وثلاثين^(٦).

وقد روى ابن جرير هاهنا حديث^(٧) ابن عباس^(٨) بن مرداس السلمى فى استغفاره، عليه السلام، لأتمه عَشِيَّةَ عرفة، وقد أوردناه^(٩) فى جزء جمعناه فى فضل يوم عرفة^(١٠).

وأورد ابن مردويه هاهنا الحديث الذى رواه البخارى، عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرّ ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علىّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لى، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها فى ليلة فمات فى ليلة دخل الجنة، ومن قالها فى

(١) صحيح البخارى برقم (٤٥٢٠).

(٢) فى أ: «الحميس».

(٣) المسند (٨٠ / ٤) وصحيح البخارى برقم (١٦٦٤) وصحيح مسلم برقم (١٢٢٠).

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٥٢١).

(٥) فى ج: «ابن جريج». (٦) فى ج: «ثلاث وثلاثين وثلاث وثلاثين».

(٧) فى ط: «ههنا حديثاً حديث». (٨) فى ط: «حديث العباس».

(٩) فى ج: «أفردناه».

(١٠) قال الطبرى فى تفسيره (٤ / ١٩٢): «حدثنى إسماعيل بن سيف العجلي قال: حدثنا عبد القاهر بن السرى السلمى قال: حدثنا ابن كنانة - ويكنى أبا كنانة - عن أبيه، عن العباس بن مرداس السلمى قال: قال رسول الله ﷺ: «دعوت الله يوم عرفة أن يغفر لامتى ذنوبها، فأجابنى: أن قد غفرت، إلا ذنوبها بينها وبين خلقى، فأعدت الدعاء يومئذ، فلم أجب بشئ»، فلما كان غداة المزدلفة قلت: يارب، إنك قادر أن تعوض هذا المظلوم من ظلامته وتغفر لهذا الظالم، فأجابنى: أن قد غفرت» قال: فضحك رسول الله ﷺ، قال: فقلنا: يا رسول الله، رأيناك تضحك فى يوم لم تكن تضحك فيه!! قال: «ضحكت من عدو الله إبليس لما سمع بما سمع، إذ هو يدعو بالويل والثبور، ويضع التراب على رأسه».

يومه فمات دخل الجنة»^(١).

وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو: أن أبا بكر قال: يا رسول الله، علّمني دعاء أدعوه به فى صلاتي؟ فقال: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى، إنك أنت الغفور الرحيم»^(٢).

والأحاديث فى الاستغفار كثيرة.

﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢)﴾.

يأمر تعالى بذكره والإكثار منه بعد قضاء المناسك وفراغها.

وقوله: ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾: اختلفوا فى معناه، فقال ابن جرير، عن عطاء: هو^(٣) كقول الصبى: «أبّه أمّه»، يعنى: كما يلهج الصبى بذكر أبيه وأمه، فكذلك أنتم، فالهجو بذكر الله بعد قضاء النسك. وكذا قال الضحاك والربيع بن أنس. وروى ابن جرير من طريق العوفى، عن ابن عباس - نحوه.

وقال سعيد بن جبّير، عن ابن عباس [قال]^(٤): كان أهل الجاهلية يقفون فى الموسم^(٥)، فيقول الرجل منهم: كان أبى يطعم ويحمل الحمالات [ويحمل الديات]^(٦). ليس لهم ذكر غير فعّال آبائهم. فأنزل الله على محمد ﷺ: ﴿فَازْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن أنس بن مالك، وأبى وائل، وعطاء بن أبى رباح فى أحد قوليه، وسعيد بن جبّير، وعكرمة فى إحدى رواياته، ومجاهد، والسدى، وعطاء الخراسانى، والربيع بن أنس، والحسن، وقتادة، ومحمد بن كعب، ومقاتل بن حيان، نحو ذلك. وهكذا حكاه ابن جرير أيضاً عن جماعة، والله أعلم.

والمقصود منه الحث على كثرة الذكر لله عز وجل؛ ولهذا كان انتصاب قوله: ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ على التمييز، تقديره كذكركم آباءكم أو أشد منه ذكراً. و«أو» هاهنا لتحقيق الماثلة فى الخبر، كقوله: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقوله: ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾

(١) صحيح البخارى برقم (٦٣٠٦).

(٢) صحيح البخارى برقم (٧٣٧٨) وصحيح مسلم برقم (٢٧٠٥).

(٣) فى ج: «وهو».

(٤) زيادة من ج، ط.

(٥) زيادة من أ، و.

(٦) فى أ: «فى الموسم».

[النساء: ٧٧] ، ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧] ، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٩] . فليست هاهنا للشك قطعاً، وإنما هي لتحقيق الخبر عنه بأنه كذلك أو أزيد منه . ثم إنه تعالى أرشد إلى دُعائه بعد كثرة ذكره، فإنه مظنة الإجابة، وذم من لا يسأله إلا في أمر دنياه، وهو معرض عن أخراه، فقال: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلَقٍ﴾ أى: من نصيب ولا حظ . وتضمن هذا الذم التنفير عن التشبه^(١) بمن هو كذلك . قال سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف، فيقولون: اللهم اجعله عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن . لا يذكرون^(٢) من أمر الآخرة شيئاً، فأنزل الله فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلَقٍ﴾ وكان يجيء بعدهم آخرون [من المؤمنين]^(٤) فيقولون: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فأنزل الله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ . ولهذا مدح من يسأله للدنيا والآخرة، فقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فجمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا، وصرفت كل شر، فإن الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوى، من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنىء، وثناء جميل، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين، ولا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا . وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن^(٥) من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة، وأما النجاة من النار فهو يقتضى تيسير أسبابه في الدنيا، من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام^(٦) .

وقال القاسم بن^(٧) عبد الرحمن: من أعطى قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وجسداً صابراً، فقد أوتي في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ووقى عذاب النار .

ولهذا وردت السنة بالترغيب في هذا الدعاء . فقال البخارى: حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث، عن عبد العزيز، عن أنس بن مالك قال: كان النبى ﷺ يقول: «اللهم ربنا، آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»^(٨) .

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا عبد العزيز بن صهيب، عن أنس^(٩) قال: كان أكثر دعوة يدعو بها رسول الله ﷺ [يقول]^(١٠): «اللهم ربنا، آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار»^(١١) .

(١) فى أ: «عن التشبيه» .

(٢) فى ج: «لا يذكرون» .

(٤) زيادة من أ، و .

(٦) فى ج: «فى الحرام»، وفى أ: «واجتناب الحرام» .

(٣) فى و: «فمن الناس من» وهو الصواب .

(٥) فى ج: «وتوابع ذلك الأمن» .

(٧) فى أ، و: «قال القاسم أبو» .

(٨) صحيح البخارى برقم (٤٥٢٢) .

(٩) فى و: «حدثنا عبد العزيز بن صهيب قال: سأل قتادة أنساً: أى دعوة كان أكثر يدعو بها النبى ﷺ؟» .

(١١) المسند (٣/ ١٠١) .

(١٠) زيادة من و .

[وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها، وإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه]^(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد السلام بن شداد - يعنى أبا طالوت - قال: كنت عند أنس بن مالك، فقال له ثابت: إن إخوانك يحبون أن تدعو لهم. فقال: اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار. وتحدثوا ساعة حتى إذا أرادوا القيام، قال^(٢): يا أبا حمزة، إن إخوانك يريدون القيام فادع لهم فقال: تريدون أن أشقّ لكم الأمور، إذا آتاكم الله في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ووقاكم عذاب النار فقد آتاكم الخير كله.

وقال أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن أبي عدى، عن حميد، [وعبد الله بن بكر السهمي، حدثنا حميد]^(٣) عن أنس، أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد صار مثل الفَرْخ. فقال له رسول الله ﷺ: «هل تدعو»^(٤) الله بشيء أو تسأله إياه؟ قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبى به في الآخرة فعجله لى في الدنيا. فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله! لا تطيقه - أو لا تستطيعه - فهلا قلت: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾». قال: فدعا الله، فشفاه.

انفرد بإخراجه مسلم، فرواه من حديث ابن أبي عدى - به^(٦).

وقال الإمام الشافعى: أخبرنا سعيد بن سالم القداح، عن ابن جريج، عن يحيى بن عبيد - مولى السائب - عن أبيه، عن عبد الله بن السائب: أنه سمع النبي ﷺ يقول فيما بين الركن اليماني والركن الأسود: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٧). ورواه الثوري عن ابن جريج كذلك.

وروى ابن ماجه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، نحو ذلك. وفي سنده ضعف^(٨)، والله أعلم.

وقال ابن مردويه: حدثنا عبد الباقي، أخبرنا أحمد بن القاسم بن مساور، حدثنا سعيد بن سليمان، عن إبراهيم بن سليمان، عن عبد الله بن هرمز، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مررت على الركن إلا رأيت عليه ملكاً يقول: آمين. فإذا مررت عليه فقولوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾».

(١) زيادة من أ، و. (٢) في أ: «قالوا».

(٣) زيادة من مسند الإمام أحمد (٣/ ١٠٧).

(٤) في ج، ط: «هل كنت تدعو».

(٥) في ج، ط: «اللهم» وهو خطأ.

(٦) المسند (٣/ ١٠٧).

(٧) ورواه البغوي في شرح السنة (٧/ ١٢٨) من طريق الشافعى به، ورواه ابن حبان في صحيحه برقم (١٠٠١) «موارد» من طريق يحيى القطان عن ابن جريج به نحوه.

(٨) سنن ابن ماجه برقم (٢٩٥٧).

وقال الحاكم فى مستدركه: أخبرنا أبو زكريا العنبري، حدثنا محمد بن عبد السلام، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا جرير، عن الأعمش، عن مُسلم البطين، عن سعيد بن جبير قال: جاء رجلٌ إلى ابن عباس فقال: إني أجرت نفسى من قوم على أن يحملونى، ووضعت لهم من أجرتي على أن يدعوني أحج معهم، أفيجزى ذلك؟ فقال: أنت من الذين قال الله [فيهم] ^(١): ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. ثم قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه ^(٢).

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٠٣).

قال ابن عباس: «الأيام المَعْدُودَات» أيام التشريق، و«الأيام المعلومات» أيام العشر. وقال عكرمة: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ يعنى: التكبير أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات: الله أكبر، الله أكبر.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا موسى بن على، عن أبيه، قال: سمعت عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «يوم عَرَفَة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام، وهى أيام أكل وشرب» ^(٣).

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا هُشَيْم، أخبرنا خالد، عن أبى المليلح، عن نُبَيْشَةَ الهذلى قال: قال رسول الله ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله». رواه ^(٤) مسلم أيضاً ^(٥)، وتقدم حديث جبير بن مطعم: «عَرَفَة كلها موقف، وأيام التشريق كلها ذبح». وتقدم [أيضاً] ^(٦) حديث عبد الرحمن ابن يَعمَرَ الدَّيلى ^(٧): «وأيام منى ثلاثة، فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه».

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم وخلاّد بن أسلم، قالوا: حدثنا هُشَيْم، عن عمرو بن أبى سلمة، عن أبيه، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «أيام التشريق أيام طَعْم وذكر» ^(٨) ^(٩).

وحدثنا خلاّد بن أسلم، حدثنا رَوْح، حدثنا صالح، حدثني ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن حذافة يَطوف فى منى: «لا تصوموا هذه الأيام، فإنها أيام أكل وشرب، وذكر الله، عز وجل» ^(١٠).

(١) زيادة من جـ.

(٢) المستدرک (٢/ ٢٧٧).

(٣) المسند (٤/ ١٥٣).

(٤) فى جـ، ط: «ورواه».

(٥) المسند (٥/ ٧٥) وصحيح مسلم برقم (١١٤١).

(٦) زيادة من و.

(٧) فى أ: «معمر الديلمى».

(٨) فى جـ، ط، أ، و: «وذكر الله».

(٩، ١٠) تفسير الطبرى (٤/ ٢١١).

وحدثنا يعقوب، حدثنا هُشَيْمٌ، عن سفيان بن حسين، عن الزهري، قال: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة، فنأدى في أيام التشريق فقال: «إن هذه الأيام أيام أكل وشرب وذكر الله، إلا من كان عليه صَوْمٌ من هَدَى».

زيادة حسنة ولكن مرسلة. وبه قال هُشَيْمٌ، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عمرو بن دينار: أن رسول الله ﷺ بعث بشر بن سحيم، فنأدى في أيام التشريق فقال: «إن هذه الأيام أيام أكل وشرب وذكر الله».

وقال هُشَيْمٌ، عن ابن أبي ليلى، عن عطاء، عن عائشة قالت: نهى رسول الله ﷺ عن صوم أيام التشريق، قال: «هى أيام أكل وشرب وذكر الله».

وقال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن حكيم، عن مسعود بن الحاکم الزُرْقَى، عن أمه قالت: لكأنى^(١) أنظر إلى علىّ على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، حتى وقف^(٢) على شعب الأنصار وهو يقول: «يا أيها الناس، إنها ليست بأيام صيام، إنما هى أيام أكل وشرب وذكر»^(٣).

وقال مِقْسَمٌ عن ابن عباس: الأيام المعدودات: أيام التشريق، أربعة أيام: يوم النحر، وثلاثة [أيام]^(٤) بعده. وروى عن ابن عمر، وابن الزبير، وأبى موسى، وعطاء، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد ابن جبّير، وأبى مالك، وإبراهيم النخعى، [ويحيى بن أبى كثير]^(٥) والحسن، وقتادة، والسدى، والزهري، والربيع بن أنس، والضحاك، ومقاتل بن حيان، وعطاء الخراسانى، ومالك بن أنس، وغيرهم - مثل ذلك.

وقال على بن أبى طالب^(٦): هى ثلاثة، يوم النحر ويومان بعده، اذبح فى أيهنّ شئت، وأفضلها أولها.

والقول الأول هو المشهور وعليه دل ظاهر الآية الكريمة، حيث قال: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فدل على ثلاثة بعد النحر.

ويتعلق بقوله: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ ذكرُ الله على الأضاحى، وقد تقدم، وأن الراجح فى ذلك مذهب الشافعى، رحمه الله، وهو أن وقت الأضحية من يوم النحر إلى آخر أيام التشريق. ويتعلق به أيضاً الذكر المؤقت خلف الصلوات، والمطلق فى سائر الأحوال. وفى وقته أقوال^(٧) للعلماء، وأشهرها الذى عليه العمل أنه من صلاة الصبح يوم عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق، وهو آخر النحر الآخر. وقد جاء فيه حديث رواه الدارقطنى، ولكن لا يصح مرفوعاً^(٨)، والله أعلم. وقد ثبت أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، كان يكبر فى قبه، فيكبر أهل السوق

(١) فى أ: «وكأنى».

(٢) فى أ: «حتى وقفت».

(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (٤/ ٢١٣) من طريق ابن علية عن ابن إسحاق به.

(٤) زيادة من أ، و.

(٥) زيادة من أ، و.

(٦) فى أ: «وقال على بن أبى طلحة رضى الله عنه».

(٧) فى ج: «وفيه أقوال».

(٨) سنن الدارقطنى (٢/ ٤٩، ٥٠) من طرق عن جابر رضى الله عنه.

بتكبيره، حتى ترتج منى تكبيراً.

ويتعلق بذلك أيضاً التكبيرُ وذكر الله عند رمى الجمرات كل يوم من أيام التشريق. وقد جاء في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره: «إنما جعل الطواف بالبيت، والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار، لإقامة ذكر الله عز وجل»^(١).

ولما ذكر الله تعالى النِّفَر الأول والثاني، وهو تفرق الناس من موسم الحج إلى سائر الأقاليم والآفاق بعد اجتماعهم في المشاعر والمواقف، قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [أى: تجتمعون يوم القيامة]^(٢)، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٩].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُ قَوْلَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادَ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧)﴾.

قال السدي: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي، جاء إلى رسول الله ﷺ، وأظهر الإسلام وفي باطنه خلاف ذلك. وعن ابن عباس: أنها نزلت في نفر من المنافقين تكلموا في خبيث وأصحابه الذين قتلوا بالرَّجِيع وعابوهم، فأنزل الله في ذم المنافقين ومدح خبيث وأصحابه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾.

وقيل: بل ذلك عام في المنافقين كلهم وفي المؤمنين كلهم. وهذا قول قتادة، ومجاهد، والربيع ابن أنس، وغير واحد، وهو الصحيح.

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني الليث بن سعد، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن القرظي، عن نوف - وهو البكالي، وكان ممن يقرأ الكتب - قال: إني لأجد صفة ناس من هذه الأمة في كتاب الله المنزل: قوم يحتالون على الدنيا بالدين، أَلَسْتُمْ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وقلوبهم أمرّ من الصِّبْرِ، يلبسون للناس^(٣) مُسُوكَ الضَّأْنِ، وقلوبهم قلوب الذئاب. يقول الله تعالى: فعلى يجترئون! وبى يغترون! حلفت بنفسى لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم فيها^(٤) حيران. قال القرظي: تدبرتها في القرآن، فإذا هم المنافقون، فوجدتها: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُ قَوْلَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ الآية.

وحدثني محمد بن أبي معشر، أخبرني أبي أبو معشر نجيح قال: سمعت سعيداً المقبري يذكر محمد بن كعب القرظي، فقال سعيد: إن في بعض الكتب: [إنَّ الله]^(٥) عبادة أَلَسْتُمْ أَحْلَى مِنَ

(١) سنن أبي داود برقم (١٨٨٨).

(٢) في ج، ط، أ، و: «يلبسون لباس».

(٣) زيادة من ج.

(٤) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٥) في أ: «فيهم».

العسل، وقلوبهم أمرّ من الصبر، لبسوا للناس مُسُوك الضأن من اللين، يَجْتَرُونَ الدنيا بالدين. قال الله تعالى: **عَلَىٰ (١)** تَجْتَرُون! وبى تغترون! وعزتى لأبعثنّ عليهم فتنة تترك الحليم منهم حيران. فقال محمد بن كعب: هذا فى كتاب الله. فقال سعيد: وأين هو من كتاب الله؟ قال: قول الله: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا﴾ الآية. فقال سعيد: قد عرفتُ فيمن أنزلت هذه الآية. فقال محمد بن كعب: إن الآية تنزل فى الرجل، ثم تكون عامة بعد. وهذا الذى قاله القرطبي حسن صحيح.

وأما قوله: ﴿وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾: فقرأه ابن محيصة: «وَيَشْهَدُ اللَّهُ» بفتح الياء، وضم الجلالة ﴿عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾ ومعناها: أن هذا وإن أظهر لكم الحيل^(٢)، لكن الله يعلم من قلبه القبيح، كقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

وقراءة الجمهور بضم الياء، ونصب الجلالة ﴿وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾ ومعناه: أنه يُظْهِرُ للناس الإسلام ويبارز الله بما فى قلبه من الكفر والنفاق، كقوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ الآية [النساء: ١٠٨] هذا معنى ما رواه ابن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد، عن^(٣) عكرمة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس.

وقيل: معناه أنه إذا أظهر للناس الإسلام حَلَفَ وأشهد الله لهم: أن الذى فى قلبه موافق للسان. وهذا المعنى صحيح، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير، وعزاه إلى ابن عباس، وحكاه عن مجاهد، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَهُوَ أَلَدُ الْخِصَامِ﴾: الألد فى اللغة: [هو]^(٤) الأعوج، ﴿وتَنْذِرُ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧] أى: عوجاً. وهكذا المنافق فى حال خصومته، يكذب، ويَزُورَ عن الحق ولا يستقيم معه، بل يفترى ويفجر، كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

وقال البخارى: حدثنا قبيصة، حدثنا سفيان، عن ابن جريج، عن ابن أبى مليكة، عن عائشة تَرْفَعُهُ قال: «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»^(٥).

قال: وقال عبد الله بن يزيد: حدثنا سفيان، حدثنى ابن جريج، عن ابن أبى مليكة، عن عائشة، عن النبى ﷺ قال: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»^(٦).

وهكذا رواه عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ فى قوله: ﴿وَهُوَ أَلَدُ الْخِصَامِ﴾، عن ابن جريج، عن ابن أبى مليكة، عن عائشة، عن النبى ﷺ قال: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»^(٧).

(١) فى أ: «أعلى».

(٢) فى ج، و: «الجميل».

(٣) فى ج، ط: «أو».

(٤) زيادة من ج، ط.

(٥) ٦، صحيح البخارى برقم (٤٥٢٣).

(٦) تفسير عبد الرزاق (١/ ٩٧).

وقوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ أى: هو أعوج المقال، سيئ الفعل، فذلك قوله، وهذا فعله: كلامه كذب، واعتقاده فاسد، وأفعاله قبيحة.

والسعى هاهنا هو: القصد. كما قال إخباراً عن فرعون: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ سَعًى . فَحَشَرَ فَنَادَى . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى . فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى﴾ [النارعات: ٢٢-٢٦]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩] أى: اقصدوا واعمدوا ناوين بذلك صلاة الجمعة، فإن السعى الحسى إلى الصلاة منهى عنه بالسنة النبوية: «إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة والوقار».

فهذا المنافق ليس له همة إلا الفساد فى الأرض، وإهلاك الحرث، وهو: محل ثماء الزروع والثمار والنسل، وهو: نتاج الحيوانات للذين لا قوام للناس إلا بهما.

وقال مجاهد: إذا سعى فى الأرض فساداً، منع الله القطر، فهلك الحرث والنسل. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ أى: لا يحب من هذه صفته، ولا من يصدر منه ذلك.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ أى: إذا وعظ هذا الفاجر فى مقاله وفعله، وقيل له: اتق الله، وانزع عن قولك وفعلك، وارجع إلى الحق - امتنع وأبى، وأخذته الحمية والغضب بالإثم، أى: بسبب ما اشتمل عليه من الآثام، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْبِيَكُمْ بَشَرٌ مِّنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَّاهُمُ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشَّ الْمَصِيرَ﴾ [الحج: ٧٢]؛ ولهذا قال فى هذه الآية: ﴿فَحَسْبَهُ جَهَنَّمُ وَلِبِئْسَ الْمِهَادَ﴾ أى: هى كافيته عقوبة فى ذلك.

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الذميمة، ذكر صفات المؤمنين الحميدة، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾.

قال ابن عباس، وأنس، وسعيد بن المسيب، وأبو عثمان النهدي، وعكرمة، وجماعة: نزلت فى صهيب بن سنان الرومى، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة، منعه الناس أن يهاجر بماله، وإن أحب أن يتجرّد منه ويهاجر، فعّل. فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلّاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة. فقالوا^(١): ربح البيع. فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية. ويروى أن رسول الله ﷺ قال له: «ربح البيع صهيب، ربح البيع صهيب».

قال ابن مردويه: حدثنا محمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن عبد الله بن رسته، حدثنا سليمان ابن داود، حدثنا جعفر بن سليمان الضبّعى، حدثنا عوف، عن أبى عثمان النهدي، عن صهيب قال: لما أردت الهجرة من مكة إلى النّبي ﷺ قالت لى قريش: يا صهيب، قدّمت إلينا ولا مال لك،

(١) فى ج، و: «فقالوا له».

وتخرج أنت ومالك! والله لا يكون ذلك أبداً. فقلت لهم: رأيتم إن دَفَعْتُ إليكم مالى تُخْلُون عني؟ قالوا: نعم. فدفعْتُ إليهم مالى، فخلُّوا عني، فخرجت حتى قدمت المدينة. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «رَبِّحْ صَهِيبٌ، رَبِّحْ صَهِيبٌ» مرتين^(١).

وقال حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: أقبل صهيب مهاجراً نحو النبي ﷺ فاتبعه نَفَرٌ من قريش، فنزل عَنْ راحلته، وانتحل ما فى كنانته. ثم قال^(٢): يا معشر قريش، قد علمتم أتنى من أركامكم رجلاً، وأنتم والله لا تصلون إلى حتى أرسى كُلَّ سهم فى كنانتي، ثم أضرب بسيفى ما بقى فى يدي منه شَيْءٌ، ثم افعلوا ما شئتم، وإن شئتم دللتكم على مالى وقبىتى بمكة وخلصتم سبيلى؟ قالوا: نعم. فلما قَدِمَ على النبي ﷺ قال: «رَبِّحْ الْبَيْعَ، رَبِّحْ الْبَيْعَ». قال: ونزلت: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

وأما الأكثرون فحملوا ذلك على أنها نزلت فى كل مُجَاهِد فى سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]. ولما حمل هشام بن عامر بين الصنفين، أنكر عليه بعضُ الناس، فردَّ عليهم عُمَرُ بن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما، وتلوا هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) ﴿

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين به المصدقين برسوله: أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك.

قال العوفي، عن ابن عباس، ومجاهد، وطاوس، والضحاك، وعكرمة، وقتادة، والسدى، وابن زيد، فى قوله: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ﴾ يعنى: الإسلام.

وقال الضحاك، عن ابن عباس، وأبو العالية، والربيع بن أنس: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ﴾ يعنى: الطاعة. وقال قتادة أيضاً: المودعة.

وقوله: ﴿كَافَّةً﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية، وعكرمة، والربيع، والسدى، ومقاتل ابن حيان، وقتادة والضحاك: جميعاً، وقال مجاهد: أى اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر.

وزعم عكرمة أنها نزلت فى نَفَرٍ من أسلم من اليهود وغيرهم، كعبد الله بن سلام، وثعلبة وأسد

(١) ورواه ابن سعد فى الطبقات (٢/ ٢٢٧) عن هوزة، عن عوف، عن أبى عثمان قال: بلغنى أن صهيياً، فذكر نحوه. ورواه ابن

سعد فى الطبقات (٢/ ٢٢٨) وأبو نعيم فى الحلية (١/ ١٥١) من طريق على بن زيد عن سعيد بن المسيب، فذكر نحو القصة.

(٢) فى ج: «وقال»، وفى أ، و: «كما قال».

ابن عبّيد وطائفة استأذنوا رسول الله ﷺ في أن يُسَبِّتُوا، وأن يقوموا بالتوراة ليلاً. فأمرهم الله بإقامة شعائر الإسلام والاشتغال بها عما عداها. وفي ذكر عبد الله بن سلام مع هؤلاء نظر، إذ يبعد أن يستأذن في إقامة السبت، وهو مع تمام إيمانه يتحقق نسخه ورفع بطلانه، والتعويض عنه بأعياد الإسلام.

ومن المفسرين من يجعل قوله: ﴿كَافَّةً﴾ حالاً من الداخلين، أى: ادخلوا في الإسلام كلكم. والصحيح الأول، وهو أَنَّهُمْ أَمَرُوا [كلهم] ^(١) أن يعملوا بجميع شعب الإيمان وشرائع الإسلام، وهى كثيرة جداً ما استطاعوا منها. وقال ^(٢): ابن أبى حاتم: أخبرنا على بن الحسين، أخبرنا أحمد بن الصباح، أخبرنى الهيثم بن يمان، حدثنا إسماعيل بن زكريا، حدثنى محمد بن عون، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ - كذا قرأها بالنصب - يعنى مؤمنى أهل الكتاب، فإنهم كانوا مع الإيمان بالله مستمسكين ببعض أمر التوراة والشرائع التى أنزلت فيهم، فقال الله: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾، يقول: ادخلوا فى شرائع دين محمد ﷺ ولا تدعوا منها شيئاً، وحسبكم بالإيمان بالتوراة وما فيها.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ﴾ أى: اعملوا الطاعات ^(٣)، واجتنبوا ما يأمركم به الشيطان ف﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩]، و﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾. قال مطرف: أغش عباد الله لعبيد الله الشيطان.

وقوله: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أى: عدلتم عن الحق بعد ما قامت عليكم الحُجَجُ، فاعلموا أن الله عزيز [أى] ^(٤) فى انتقامه، لا يفوته هارب، ولا يغلبه غالب. حكيم فى أحكامه ونقضه وإبرامه؛ ولهذا قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس: عزيز فى نعمته، حكيم فى أمره. وقال محمد بن إسحاق: العزيز فى نصره ممن كفر به إذا شاء، الحكيم فى عذره وحجته إلى عباده.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٢١٠).

يقول تعالى مُهَدِّدًا للكافرين بمحمد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ يعنى: يوم القيامة، لفصل القضاء بين الأولين والآخرين، فيجزى كلّ عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر؛ ولهذا قال: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ كما قال: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا . وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا . وَجِيءَ يَوْمُئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر: ٢١ - ٢٣]، وقال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الآية [الأنعام: ١٥٨].

(٢) فى ج، ط: «كما قال».

(١) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٤) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٣) فى أ: «اعملوا بالطاعات».

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير هاهنا حديث الصور بطوله من أوله، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ. وهو حديث مشهور ساقه غير واحد من أصحاب المسانيد وغيرهم، وفيه: «أنَّ الناس إذا اهتموا لموقفهم^(١) في العرصات تشفعوا إلى ربهم بالأنبياء واحداً واحداً، من آدم فمن بعده، فكلهم يحيد عنها حتى ينتهوا إلى محمد، صلوات الله وسلامه عليه، فإذا جاؤوا إليه قال: أنا لها، أنا لها. فيذهب فيسجد لله تحت العرش، ويشفع عند الله في أن يأتي لفصل القضاء بين العباد، فيشفعه الله، ويأتي في ظلل من الغمام بعد ما تنشق^(٢) السماء الدنيا، وينزل من فيها من الملائكة، ثم الثانية، ثم الثالثة إلى السابعة، وينزل^(٣) حملة العرش والكرُويون^(٤)» قال: وينزل الجبار، عز وجل، في ظلل من الغمام والملائكة، ولهم زجل من تسبيحهم يقولون: سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان رب العرش ذي الجبروت^(٥)، سبحان الحى الذى لا يموت، سبحان الذى يميت الخلائق ولا يموت، سُبُّوح قدوس، رب الملائكة والروح، قدوس قدوس، سبحان ربنا الأعلى، سبحان ذي السلطان والعظمة، سبحانه أبداً أبداً^(٦).

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه هاهنا أحاديث فيها غرابة والله أعلم؛ فمنها ما رواه من حديث المنهال بن عمرو، عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، عن مسروق، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم، قياماً شاخصة أبصارهم إلى السماء، ينتظرون فصل القضاء، وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي^(٧)».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا أبو بكر بن عطاء بن مقدم، حدثنا معتمر بن سليمان، سمعت عبد الجليل القيسي، يحدث عن عبد الله بن عمرو: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ» الآية، قال: يهبط حين يهبط، وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب، منها: النور، والظلمة، والماء. فيصوت الماء في تلك الظلمة صوتاً تنخلع له القلوب.

قال: وحدثنا أبي: حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي، حدثنا الوليد قال: سألت زهير بن محمد، عن قول الله: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ» قال: ظلل من الغمام، منظوم من الياقوت^(٨)، مكلل بالجوهر والزبرجد.

وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد «فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ» قال: هو غير السحاب، ولم يكن قط إلا لبنى إسرائيل في تيههم حين تاهوا.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي

(١) في ط: «لموقفهم».

(٢) في ج: «بعد ما تنشق».

(٣) في ط: «وتنزل».

(٤) في أ: «الكرسيون».

(٥) في ج: «والجبروت».

(٦) تفسير الطبري (٤/ ٢٦٦) وسأيت الحديث بطوله عند تفسير الآية: ٧٣ من سورة الأنعام.

(٧) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٩/ ٤١٦، ٤١٧) من طريقين عن المنهال بن عمرو به مطولاً، وقال الذهبي: «إسناده حسن».

(٨) في أ، و: «منظوم بالياقوت».

ظَلَّلَ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ﴿١﴾ [قال] ^(١): يقول: والملائكة يجيئون في ظلل من الغمام، والله تعالى يجيء فيما يشاء - وهي في بعض القراءة: «هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله والملائكة في ظلل من الغمام» وهي كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

﴿سَلِّ بْنِ إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُدِلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢١١) زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾.

يقول تعالى مُخْبِرًا عن بني إسرائيل: كم قد شاهدوا مع موسى ﴿مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ أى: حجة قاطعة على صدقه فيما جاءهم به، كيده وعصاه وفلقه البحر وضربه الحجر، وما كان من تظليل الغمام عليهم فى شدة الحر، ومن إنزال المَنَّ والسلوى وغير ذلك من الآيات الدالات على وجود الفاعل المختار، وصدق من جرت هذه الخوارق على يديه، ومع هذا أعرض كثير منهم عنها، وبدلوا نعمة الله [كفرًا] ^(٢)، أى: استبدلوا بالإيمان بها الكفر بها، والإعراض عنها. ﴿وَمَنْ يُدِلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، كما قال إخبارًا عن كفر قريش: ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رَضُوا بها واطمأنوا إليها، وجمعوا الأموال ومنعوها عن مصارفها التى أمروا بها مما يُرْضَى الله عنهم، وسخروا من الذين آمنوا الذين أعرضوا عنها، وأنفقوا ما حصل لهم منها فى طاعة ربهم، وبذلوا ابتغاء وجه الله؛ فلهذا فازوا بالمقام الأسعد والخط الأوفر يوم معادهم، فكانوا فوق أولئك فى محشرهم ومنشَرهم، ومسيرهم ومأواهم، فاستقروا فى الدرجات فى أعلى عليين، وخلد أولئك فى الدركات فى أسفل السافلين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى: يرزق من يشاء من خلقه، ويعطيه عطاء كثيرًا جزيلا بلا حصر ولا تعداد فى الدنيا والآخرة ^(٣)، كما جاء فى الحديث: «ابن آدم، أنفق أنفق عليك»، وقال النبى ﷺ: «أنفق بلال ولا تخش من ذى العرش إقلا لا» ^(٤). وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ: ٣٩]، وفى ^(٥) الصحيح أن ملكين ينزلان من السماء صبيحة كل يوم، يقول ^(٦) أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا. ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا. وفى الصحيح ^(٧): «يقول

(١) زيادة من ج، ط.

(٢) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٣) فى ط: «فى الدنيا ولا فى الآخرة».

(٤) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٠ / ١٩٢) من طريق يحيى بن وثاب، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه مرفوعاً، وحسنه المنذرى فى الترغيب والترهيب (٢ / ٥١).

(٥) فى ج، أ، و: «وهو فى».

(٦) فى ج، ط: «فيقول».

(٧) فى أ: «وفى الصحيحين».

ابن آدم: مالى، مالى! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفנית، وما لبست فأبليت، وما تصدقت فأمضيت^(١)؟ وما سوى ذلك فذاهب وتاركة للناس.

وفى مسند الإمام أحمد عن النبى ﷺ أنه قال: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»^(٢).

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣)﴾.

قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو داود، أخبرنا همام، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان بين نوح وآدم^(٣) عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق. فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين. قال: وكذلك هي فى قراءة عبد الله: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا».

ورواه الحاكم فى مستدركه، من حديث بُنْدَارٍ عن محمد بن بشار. ثم قال: صحيح ولم يخرجاه^(٤).

وكذا روى أبو جعفر الرازى، عن أبى العالية، عن أبى بن كعب: أنه كان يقرؤها: «كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين».

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة فى قوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قال: كانوا على الهدى جميعاً، «فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين» فكان أول نبي بعث نوحاً. وهكذا قال مجاهد، كما قال ابن عباس أولاً.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يقول: كانوا كفاراً، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾.

والقول الأول عن ابن عباس أصح سنداً ومعنى؛ لأن الناس كانوا على ملة آدم، عليه السلام، حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً، عليه السلام، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض.

ولهذا قال: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ

(١) فى أ: «فأبقيت».

(٢) المسند (٦/ ٧١) من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٣) فى ط: «كان بين آدم ونوح».

(٤) تفسير الطبرى (٤/ ٢٧٥) والمستدرک (٢/ ٥٤٦).

أَوْتَرُهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴿٢١٣﴾ أى: من بعد ما قامت عليهم الحجج وما حملهم على ذلك إلا البغى من بعضهم على بعض، ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وقال عبد الرزاق: حدثنا معمر، عن سليمان الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة فى قوله: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ قال: قال النبى ﷺ: «نحن الآخرون الأولون»^(١) يوم القيامة نحن أول الناس دخولاً الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق فهذا اليوم الذى اختلفوا فيه، فهدانا له^(٢)، فالناس لنا فيه تبع، فغداً لليهود، وبعد غد للنصارى.

ثم رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن أبي هريرة^(٣).

وقال ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه فى قوله: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾: فاختلّفوا فى يوم الجمعة، فاتخذ اليهود يوم السبت، والنصارى يوم الأحد. فهدى الله أمة محمد ليوم الجمعة. واختلفوا فى القبلة؛ فاستقبلت النصارى المشرق، واليهود بيت المقدس، فهدى الله أمة محمد للقبلة. واختلفوا فى الصلاة؛ فمنهم من يركع ولا يسجد، ومنهم من يسجد ولا يركع، ومنهم من يصلى وهو يتكلم، ومنهم من يصلى وهو يمشى، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. واختلفوا فى الصيام، فمنهم من يصوم بعض النهار، ومنهم من يصوم عن بعض الطعام، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. واختلفوا فى إبراهيم، عليه السلام، فقالت اليهود: كان يهودياً، وقالت النصارى: كان نصرانياً، وجعله الله حنيفاً مسلماً، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. واختلفوا فى عيسى، عليه السلام، فكذّبت به اليهود، وقالوا لأمه بهتاناً عظيماً، وجعلته النصارى إلهاً وولداً، وجعله الله روحه، وكلمته، فهدى الله أمة محمد ﷺ للحق من ذلك.

وقال الربيع بن أنس فى قوله: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ أى: عند الاختلاف أنهم كانوا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف، أقاموا على الإخلاص لله عز وجل وحده، وعبادته لا شريك له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فأقاموا على الأمر الأول الذى كان قبل الاختلاف، واعتزلوا الاختلاف، وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة شهداء^(٤) على قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم شعيب، وآل فرعون، أن رسلهم قد بلغوهم، وأنهم قد كذبوا رسلهم.

وفى^(٥) قراءة أبى بن كعب: «وليكونوا شهداء على الناس يوم القيامة، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم»، وكان أبو العالية يقول: فى هذه الآية المخرج من الشبهات والضلالات والفتن.

وقوله: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أى: بعلمه، بما هداهم له. قاله ابن جرير: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أى: من

(١) فى أ: «السابقون».

(٢) فى أ: «فهدانا الله له».

(٣) تفسير عبد الرزاق (١/ ٩٩) والحديث مخرج فى الصحيحين.

(٤) فى أ: «شهداء».

(٥) فى أ، و: «وهى فى».

خلقه ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أى: وله الحكم^(١) والحجة البالغة. وفى صحيح البخارى ومسلم عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلى يقول: «اللهم، رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم^(٢) بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم»^(٣). وفى الدعاء المأثور: اللهم، أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا، ووفقنا لاجتنابه، ولا تجعله ملتبساً علينا فنفضل، واجعلنا للمتقين إماماً.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (٢١٤).

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ قبل أن تُبْتَلُوا وتختبروا وتمتحنوا، كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ وهى: الأمراض؛ والأسقام، والآلام، والمصائب والنوائب.

قال ابن مسعود، وابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومرة الهمدانى، والحسن، وقتادة، والضحاك، والربيع، والسدى، ومقاتل بن حيان: ﴿الْبِأْسَاءُ﴾: الفقر. قال ابن عباس: ﴿وَالضَّرَّاءُ﴾: السقم.

﴿وَزُلْزِلُوا﴾ خَوْفًا من الأعداء زلزالا شديداً، وامتحنوا امتحاناً عظيماً، كما جاء فى الحديث الصحيح عن حَبَّاب بن الأَرْت قال: قلنا: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ فقال: «إِنْ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانَ أَحَدُهُمْ يَوْضَعُ الْمُنْشَارَ عَلَى مَفْرَقٍ رَأْسَهُ فَيُخْلَصُ إِلَى قَدَمِهِ، لَا يَصْرِفُهُ^(٤) ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا بَيْنَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، لَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ». ثم قال: «والله ليطمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون».

وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣].

وقد حصل من هذا^(٥) جانب عظيم للصحابه، رضى الله عنهم، فى يوم الأحزاب، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا

(٢) فى أ: «أنت الحكيم».

(١) فى و: «وله الحكمة».

(٣) صحيح مسلم برقم (٧٧٠).

(٥) فى أ: «من ذلك».

(٤) فى ط: «لا يفتنه».

اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٠﴾ الآيات [الأحزاب: ١٠ - ١٢].

ولما سأل هرقلُ أبا سفيان: هل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: فكيف كان^(١) الحرب بينكم؟ قال: سَجَالًا، يدال علينا ونُدال عليه. قال: كذلك الرسل تُبْتَلَى، ثم تكون لها العاقبة^(٢) (٣).

وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي: سنتهم. كما قال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَنْعْنَاهُ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٨].

وقوله: ﴿وَزَلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ أي: يستفتحون على أعدائهم، ويدعون بقرب الفرج والمخرج، عند ضيق الحال والشدة. قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ كما قال: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦].

وكما تكون الشدة ينزل من النصر^(٤) مثلها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾. وفي حديث أبي رزين: «عَجِبَ رَبِّكَ^(٥) مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ، وَقُرْبِ غَيْثِهِ^(٦)، فَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ قَنْطِينًا، فَيَضْحَكُ، يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَهُمْ^(٧) قَرِيبٌ» الحديث^(٨).

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٢١٥).

قال مقاتل بن حيان: هذه الآية في نفقة التطوع. وقال السدي نسختها الزكاة. وفيه نظر. ومعنى الآية: يسألونك كيف ينفقون؟ قاله ابن عباس ومجاهد، فبين لهم تعالى ذلك، فقال: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ أي: اصرفوها في هذه الوجوه. كما جاء في الحديث: «أَمْلَكَ وَأَبَاكَ، وَأَخْتِكَ وَأَخَاكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ». وتلا ميمون بن مهران هذه الآية، ثم قال: هذه مواضع النفقة ما ذكر فيها طبلا ولا مزماراً، ولا تصاوير الخشب، ولا كسوة الحيطان.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أي: مهما صدَرَ منكم من فعل معروف، فإن الله يعلمه، وسيجزىكم على ذلك أوفر الجزاء؛ فإنه لا يظلم أحداً مثقال ذرة.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢١٦).

هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين: أَنْ يَكْفُؤُوا شَرَّ الْأَعْدَاءِ عَنْ حَوْزَةِ الْإِسْلَامِ.

(١) في أ، و: «فكيف كانت».

(٢) حديث هرقل رواه البخاري في صحيحه برقم (٧).

(٣) في أ، و: «الصبر».

(٤) في أ: «عجب ربكم».

(٥) في أ: «أن فرجكم».

(٦) في أ: «وقرب خيره».

(٧) في أ: «أن فرجكم».

(٨) رواه ابن ماجة في السنن برقم (١٨١) من طريق يعنى بن عطاء، عن وكيع بن عديس، عن أبي رزين به، وقال البوصيري في الزوائد (١/ ٨٥): «هذا إسناد فيه مقال».

وقال الزهري: الجهاد واجب على كل أحد، غزا أو قعد؛ فالقاعد عليه إذا استعين أن يعين، وإذا استغيث أن يغيث، وإذا استنفر أن ينفر، وإن لم يحتج إليه قعد.

قلت: ولهذا ثبت في الصحيح^(١): «من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بغزو مات ميتة جاهلية»^(٢). وقال عليه السلام يوم الفتح: «لا هجرة، ولكن جهاد ونية، إذا استنفرتم فأنفروا»^(٣).

وقوله: ﴿وَهُوَ كُرَّةُ لَكُمْ﴾ أى: شديد عليكم ومشقة. وهو كذلك، فإنه إما أن يقتل أو يجرح مع^(٤) مشقة السفر ومجالد الأعداء.

ثم قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أى: لأن القتال يعقبه النصر والظفر على الأعداء، والاستيلاء على بلادهم، وأموالهم، وذرائعهم، وأولادهم.

﴿وَعَسَى أَنْ تَحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾: وهذا عام فى الأمور كلها، قد يحب المرء شيئاً، وليس له فيه خيرة ولا مصلحة. ومن ذلك القعود عن القتال، قد يعقبه استيلاء العدو على البلاد والحكم.

ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى: هو أعلم بعواقب الأمور منكم، وأخبر بما فيه صلاحكم فى دنياكم وأخراكم؛ فاستجيبوا له، وانقادوا لأمره، لعلكم ترشدون.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨)﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن أبى بكر المقدمى، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، حدثنى الحضرمى، عن أبى السوار، عن جندب بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ بعث رهطاً، وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح [أو عبيدة بن الحارث]^(٥)، فلما ذهب ينطلق، بكى صباة^(٦) إلى رسول الله ﷺ، فجلس، فبعث عليهم مكانه عبد الله بن جحش، وكتب له كتاباً، وأمره ألا يقرأ

(١) فى أ: «فى الصحيحين».

(٢) صحيح مسلم برقم (١٩١٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٨٣٤، ٢٧٨٣، ٢٨٢٥) ومسلم فى صحيحه برقم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.

(٤) فى أ: «على». (٥) زيادة من ط، أ، و.

(٦) فى ج: «بكى صبيانه».

الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا، وقال: لا تُكْرِهَنَّ أَحَدًا عَلَى السَّيْرِ مَعَكَ مِنْ أَصْحَابِكَ. فلما قرأ الكتاب استرجع، وقال: سمعاً وطاعة لله ولرسوله. فخبَّرهم الخبر، وقرأ عليهم الكتاب، فرجع رجالان، وبقي بقيَّتُهُمْ، فلقوا ابنَ الحَضْرَمِيِّ فقتلوه، ولم يَدْرُوا أن ذلك اليوم من رجب أو من جُمَادَى. فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام! فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ الآية.

وقال السدي، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ بعث سرية، وكانوا سبعة نفر، عليهم عبد الله بن جحش الأسدي، وفيهم عمار بن ياسر، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وسعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان السلمي - حليف لبني نوفل - وسهيل بن بيضاء، وعامر بن فهيرة، وواقد بن عبد الله اليربوعي، حليف لعمر بن الخطاب. وكتب لابن جحش كتاباً، وأمره ألا يقرأه حتى ينزل بطن مَلَكٍ^(١)، فلما نزل بطن مَلَكٍ^(٢) فتح الكتاب، فإذا فيه: أن سر حتى تنزل بطن نخلة. فقال لأصحابه: من كان يريد الموت فليمض وليوص، فإنني موص وماض لأمر رسول الله ﷺ. فسار، فتخلف عنه سعد بن أبي وقاص، وعتبة، وأضلا راحلة لهما فأتيا بُحْرَانَ^(٣) يطلبانها، وسار ابن جحش إلى بطن نخلة، فإذا هو بالحكم بن كيسان، والمغيرة بن عثمان، وعمرو بن الحضرمي، وعبد الله بن المغيرة. وانفلت [ابن]^(٤) المغيرة، فأسروا الحكم بن كيسان والمغيرة^(٥) وقتل عمرو، قتله واقد بن عبد الله. فكانت أول غنيمة غنمها أصحاب النبي ﷺ.

فلما رجعوا إلى المدينة بالأسيرين^(٦) وما أصابوا المال، أراد أهل مكة أن يفادوا الأسيرين، فقال النبي ﷺ: «حتى ننظر ما فعل صاحبانا» فلما رجع سعد وصاحبه، فادى بالأسيرين، ففجر عليه المشركون وقالوا: إن محمداً يزعم أنه يتبع طاعة الله، وهو أول من استحل الشهر الحرام، وقتل صاحبنا في رجب. فقال المسلمون: إنما قتلناه في جمادى - وقيل: في أول رجب، وآخر ليلة من جمادى - وغمد المسلمون سيوفهم حين دخل شهر رجب. فأنزل الله يُعَيِّرُ أهل مكة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ لا يحل، وما صنعتُم أنتم يا معشر المشركين أكبر من القتل في الشهر الحرام، حين كفرتم بالله، وصددتم عنه محمداً ﷺ وأصحابه، وإخراج أهل المسجد الحرام منه، حين أخرجوا محمداً ﷺ أكبر من القتل عند الله.

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ وذلك أن المشركين صدّوا رسول الله ﷺ، وردّوه عن المسجد [الحرام]^(٧) في شهر حرام، ففتح الله على نبيه في شهر حرام من العام المقبل. فعاب المشركون على رسول الله ﷺ القتال في شهر حرام. فقال الله: ﴿وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرُ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ﴾ من القتال فيه. وأن محمداً ﷺ بعث سرية فلقوا عمرو بن الحضرمي، وهو مقبل من الطائف في آخر ليلة من جمادى، وأول ليلة من

(١، ٢) في ج: «مالك». (٣) في أ، و: «يجويان».

(٤، ٥) زيادة من أ. (٦) في ج، ط، أ، و: «بأسيرين».

(٧) زيادة من أ.

رجب. وأن أصحاب محمد ﷺ كانوا يظنون أن تلك الليلة من جمادى، وكانت أول رجب ولم يشعروا، فقتله رجل منهم وأخذوا ما كان معه. وأن المشركين أرسلوا يعيرونه بذلك. فقال الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾، وغير ذلك أكبر منه: صدّ عن سبيل الله، وكفر به والمسجد الحرام، وإخراج أهله منه^(١): إخراج أهل المسجد الحرام أكبر من الذى أصاب أصحاب محمد ﷺ، والشرك أشد منه.

وهكذا روى أبو سعد^(٢) البقال، عن عكرمة، عن ابن عباس أنها أنزلت^(٣) فى سرية عبد الله بن جحش، وقتل عمرو بن الحضرمي.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: نزل فيما كان من مصاب عمرو بن الحضرمي: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ إلى آخر الآية.

وقال عبد الملك بن هشام راوى السيرة، عن زياد بن عبد الله البكائي، عن محمد بن إسحاق بن يسار المدنى، رحمه الله، فى كتاب السيرة له، أنه قال: وبعث - يعنى رسول الله ﷺ - عبد الله بن جحش بن رثاب الأسدي فى رجب، متقفله من بدر الأولى، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتاباً، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه، فيمضى لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحداً. وكان أصحاب عبد الله بن جحش من المهاجرين. ثم من بنى عبد شمس بن عبد مناف: أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، ومن حلفائهم: عبد الله بن جحش، وهو أمير القوم، وعكاشة بن محصن بن حرثان، أحد بنى أسد ابن خزيمه، حليف لهم. ومن بنى نوفل بن عبد مناف: عتبة بن غزوان بن جابر، حليف لهم. ومن بنى زهرة بن كلاب: سعد بن أبي وقاص. ومن بنى عدى بن كعب: عامر بن ربيعة، حليف لهم من عتر بن وائل، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف بن عرين بن ثعلبة بن يربوع، أحد بنى تميم، حليف لهم. وخالد بن البكير أحد بنى سعد بن ليث، حليف لهم. ومن بنى الحارث بن فهر: سهيل بن بيضاء.

فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فيه فإذا فيه: «إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة، بين مكة والطائف، ترصد بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارهم». فلما نظر عبد الله بن جحش فى الكتاب قال: سمعاً وطاعة. ثم قال لأصحابه: قد أمرنى رسول الله ﷺ أن أمضى إلى نخلة، أرصد بها قريشاً، حتى آتية منهم بخبر، وقد نهانى أن أستكره أحداً منكم. فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ، فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد.

فسلك على الحجاز، حتى إذا كان بمعدن، فوق الفرع، يقال له: بجران^(٤)، أضل سعد بن

(١) فى ج: «منه أكبر عند الله». (٢) فى ط: «أبو سعيد».

(٣) فى ج، أ: «أنها نزلت». (٤) فى ج: «نجران».

أبى وقاص وعُتْبَةُ بن غزوان بغيراً لهما، كانا يَعْتَقَبَانِهِ، فتخلفا عليه فى طلبه، ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة، فمَرَّتْ به عير لقريش تحمل زيباً وأدماً وتجارة من تجارة قريش، فيها: عمرو بن الحضرمي، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان، والحكم بن كيسان، مولى هشام بن المغيرة.

فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريباً منهم، فأشرف لهم عكاشة بن محصن، وكان قد حلق رأسه، فلما رآه أمنوا وقالوا: عُمَارُ، لا بأس عليكم منهم. وتشاور القوم فيهم، وذلك فى آخر يوم من رجب، فقال القوم: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم، فليمتعنن منكم به، ولئن قتلتموهن لتقتلنهم فى الشهر الحرام. فتردد القوم، وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قَدَرُوا عليه منهم، وأخذ ما معهم. فرمى واقد بن عبد الله التميمي^(١) عمرو ابن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وأفلت القوم نوفل بن عبد الله فأعجزهم. وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالغير والأسيرين، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة.

قال ابن إسحاق: وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش: أن عبد الله قال لأصحابه: إن لرسول الله ﷺ مما غنمنا الخمس، وذلك قبل أن يَفْرِضَ الله الخمس من المغنم، فعزل لرسول الله ﷺ خمس العير، وقسم سائرهما بين أصحابه.

قال ابن إسحاق: فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال: «ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام». فوَقَّفَ العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ أسقط فى أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعَفَّفَهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا. وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه^(٢) الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال. فقال من يَرُدُّ عليهم من المسلمين ممن كان بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا فى شعبان.

وقالت: يهودُ تَفَاءَلُ بذلك على رسول الله ﷺ: عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله: عمرو: عمرت الحرب، والحضرمي: حضرت الحرب، وواقد بن عبد الله: وقدت الحرب. فجعل الله عليهم ذلك لا لهم.

فلما أكثر الناس فى ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أى: إن كنتم قتلتم فى الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام، وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل من قتلتم^(٣) منهم، ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أى: قد كانوا يفتنون المسلم فى دينه، حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه^(٤)، فذلك أكبر عند الله من القتل: ﴿وَلَا

(١) فى أ: «السهمي».

(٢) فى ج: «فيها».

(٣) فى أ: «يفتنون المسلمين فى دينهم حتى يردوهم إلى الكفر بعد إيمانهم».

(٤) فى ج: «من قتل».

يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴿٢١٧﴾ أى: ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه، غير تائبين ولا نازعين.

قال ابن إسحاق: فلما نزل القرآن بهذا من الأمر، وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشَّقِّ قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وبعثت إليه قريش فى فداء عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، فقال رسول الله ﷺ: لا تُفديكموهما حتى يقدم صاحبانا - يعنى سعد بن أبى وقاص وعتبة ابن غزوان - فإننا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم. فقدم سعد وعتبة، فأفداهما رسول الله ﷺ منهم.

فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً. وأما عثمان بن عبد الله فلق بركة، فمات بها كافراً.

قال ابن إسحاق: فلما تجلّى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن، طمَعُوا فى الأجر، فقالوا: يا رسول الله، أنطمع أن تكون لنا غزوة نُعطى فيها أجر المجاهدين [المهاجرين] ^(١)؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فوضعهم الله من ذلك على أعظم الرجاء.

قال ابن إسحاق: والحديث فى هذا عن الزهرى، ويزيد بن رومان، عن عروة.

وقد روى يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قريباً من هذا السياق. وروى موسى بن عقبة عن الزهرى نفسه، نحو ذلك.

وروى شعيب بن أبى حمزة، عن الزهرى، عن عروة بن الزبير نحواً من هذا أيضاً، وفيه: فكان ابن الحضرمى أول قتيل قتل بين المسلمين والمشركين، فركب وفد من كفار قريش حتى قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة فقالوا: أيحل القتال فى الشهر الحرام؟ فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ [قِتَالٍ فِيهِ] ^(٢) الآية. وقد استقصى ذلك الحافظ أبو بكر البيهقى فى كتاب «دلائل النبوة».

ثم قال ابن هشام عن زياد، عن ابن إسحاق: وقد ذكر عن بعض آل عبد الله [بن جحش] ^(٣): أن الله قسم الفىء حين أحله، فجعل أربعة أخماس لمن أفاءه، وخمساً إلى الله ورسوله. فوقع على ما كان عبد الله بن جحش صنع فى تلك العير ^(٤).

قال ابن هشام: وهى أول غنيمة غنمها المسلمون. وعمر بن الحضرمى أول من قتل المسلمون، وعثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان أول من أسر المسلمون ^(٥).

قال ابن إسحاق: فقال أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، فى غزوة عبد الله بن جحش، ويقال: بل عبد الله بن جحش قالها، حين قالت قريش: قد أحلّ محمد وأصحابه الشهر الحرام، فسفكوا فيه

(٢) زيادة من ج، ط.

(١) زيادة من ج.

(٣) زيادة من أ.

(٤، ٥) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٦٠٥).

الدم، وأخذوا فيه المال، وأسروا فيه الرجال. قال ابن هشام: هي لعبد الله بن جحش:

تَعْدُونَ قَتْلًا فِي الْحَرَامِ عَظِيمَةً	وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صَدُودُكُمْ عَمَّا يَقُولُ مُحَمَّدٌ	وكفر به والله راء وشاهد
وَإِخْرَاجُكُمْ مِنْ مَسْجِدِ اللَّهِ أَهْلَهُ	لئلا يرى الله في البيت ساجد
فَانًا وَإِنْ عَيَّرْتُمُونَا بِقَتْلِهِ	وأرجف بالإسلام باغ وحاسد
سَقَيْنَا مِنْ ابْنِ الْخَضِرِيِّ رَمَاحَنَا	بنخلة لما أوقد الحرب واقد
دَمًا وَابْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَثْمَانُ بَيْنَنَا	ينازعه غل من القد عاند

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩)﴾
 فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَكُمُ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي ميسرة، عن عمر أنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت هذه الآية التي في البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾^(١) فدعى عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء: ٤٣]، فكان منادى رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى: ألا يقربن الصلاة سكران. فدعى عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في المائدة. فدعى عمر، فقرئت عليه، فلما بلغ: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]؟ قال عمر: انتهينا، انتهينا^(٢).

وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي من طرق، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق^(٣). وكذا رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي ميسرة، واسمه عمرو ابن شُرَحْبِيلَ الهمداني الكوفي، عن عمر. وليس له عنه سواه، لكن قال أبو زرعة: لم يسمع منه. والله أعلم. وقال علي بن المديني: هذا الإسناد صالح وصححه الترمذي. وزاد ابن أبي حاتم - بعد قوله: انتهينا -: إنها تذهب المال وتذهب العقل. وسيأتي هذا الحديث أيضاً مع ما رواه أحمد من

(١) زيادة من ج.

(٢) المسند (١/ ٥٣).

(٣) سنن أبي داود برقم (٣٦٧٠) وسنن الترمذي برقم (٣٠٤٩) وسنن النسائي (٨/ ٢٨٦).

طريق أبي هريرة أيضاً^(١) - عند قوله في سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠] الآيات.

فقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾: أما الخمر فكما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: إنه كل ما خامر العقل. كما سيأتى بيانه في سورة المائدة، وكذا الميسر، وهو القمار.

وقوله: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾: أما إثمهما فهو في الدين، وأما المنافع فدنوية، من حيث إن^(٢) فيها نفع البدن، وتهضيم الطعام، وإخراج الفضلات، وتشحيد بعض الأذهان، ولذة الشدة المطربة التي فيها، كما قال حسان بن ثابت في جاهليته:

ونشربها فتركنا ملوكاً وأسداً لا ينهنها اللقاء^(٣)

وكذا بيعها والانتفاع بثمرها. وما كان يقيمُهم بعضهم من الميسر فينفعه على نفسه أو عياله. ولكن هذه المصالح لا توازي مضرته ومفسدته الراجحة، لتعلقها بالعقل والدين، ولهذا قال: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا﴾؛ ولهذا كانت هذه الآية ممهدة لتحريم الخمر على البتات، ولم تكن مصرحة بل معرضة؛ ولهذا قال عمر، رضى الله عنه، لما قرئت عليه: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، حتى نزل التصريح بتحريمها في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١] وسيأتى الكلام على ذلك في سورة المائدة إن شاء الله، وبه الثقة.

قال ابن عمر، والشعبي، ومجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذه^(٤) أول آية نزلت في الخمر: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ [وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ]^(٥)﴾، ثم نزلت الآية التي في سورة النساء، ثم التي في المائدة، فحرمت الخمر^(٦).
وقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾: قرئ بالنصب وبالرفع^(٧)، وكلاهما حسن متجه قريب.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبان، حدثنا يحيى أنه بلغه: أن معاذ بن جبل وثعلبة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، إن لنا أرقاء وأهلين [فما ننفق]^(٨) من أموالنا. فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾^(٩).

وقال الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ قال: ما يفضل عن

(١) في ج: «عنه».

(٢) في و: «إن كان فيها».

(٣) البيت في تفسير الطبري (٤/ ٣٢٧).

(٤) في أ: «هذا».

(٥) زيادة من ج.

(٦) في أ: «فحرمت الخمر فله الحمد».

(٧) في ج: «بالرفع والنصب».

(٨) زيادة من أ.

(٩) وهذا منقطع، فإن يحيى بن سعيد بينه وبين معاذ قرن من الزمان.

أهلك .

وكذا روى عن ابن عمر، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب، والحسن، وقتادة، والقاسم، وسالم، وعطاء الخراساني، والربيع بن أنس، وغير واحد: أنهم قالوا في قوله: ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾: يعني الفضل.

وعن طاوس: اليسير من كل شيء، وعن الربيع أيضاً: أفضل مالك، وأطيبه. والكل يرجع إلى الفضل.

وقال عبد بن حميد في تفسيره: حدثنا هوزة بن خليفة، عن عوف، عن الحسن: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ قال: ذلك ألا تجهد مالك ثم تقعد تسأل الناس.

ويدل على ذلك ما رواه ابن جرير: حدثنا علي بن مسلم، حدثنا أبو عاصم، عن ابن عجلان، عن المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رجل: يا رسول الله، عندى دينار؟ قال: «أنفقه على نفسك». قال: عندى آخر؟ قال: «أنفقه على أهلك». قال: عندى آخر؟ قال: «أنفقه على ولدك». قال: عندى آخر؟ قال: «فأنت أبصر».

وقد رواه مسلم في صحيحه^(١). وأخرج مسلم أيضاً عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلاهلك، فإن فضل شيء عن أهلك فلذى قرابتك، فإن فضل عن ذى قرابتك شيء فهكذا وهكذا»^(٢).

وعنده عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»^(٣).

وفى الحديث أيضاً: «ابن آدم، إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفّاف»^(٤).

ثم قد قيل: إنها منسوخة بآية الزكاة، كما رواه علي بن أبي طلحة، والعمري عن ابن عباس، وقاله عطاء الخراساني والسدي، وقيل: مبنية بآية الزكاة، قاله مجاهد وغيره، وهو أوجه.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾. في الدنيا والآخرة ﴿أى﴾: كما فصل لكم هذه الأحكام وبينها وأوضحها، كذلك يبين لكم سائر الآيات فى أحكامه ووعدته، ووعدته، لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة.

(١) تفسير الطبرى (٤/ ٣٤٠)، وأما قول الخافظ بأنه فى صحيح مسلم، فقد قال الشيخ أحمد شاكر - رحمه الله -: «وهم - رحمه الله - فإن الحديث ليس فى صحيح مسلم على اليقين بعد طول التتبع منى ومن أخى السيد محمود». قلت: لم يذكره المزى فى تحفة الأشراف معزواً لمسلم، وإنما عزاه لأبى داود وغيره.

(٢) صحيح مسلم برقم (٩٩٧).

(٣) هو فى صحيح البخارى برقم (١٤٢٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه، وهو فى صحيح مسلم برقم (١٠٣٤) من حديث حكيم بن حزام رضى الله عنه.

(٤) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٠٣٦) من حديث أبى امامة رضى الله عنه.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى فى زوال الدنيا وفنائها، وإقبال الآخرة وبقائها.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن محمد الطنّافسى، حدثنا أبو أسامة، عن الصّعق العيشى^(١)، قال: شهدت الحسن - وقرأ هذه الآية من البقرة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾. فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ قال: هى والله لمن تفكر فيها، ليعلم أن الدنيا دار بلاء، ثم دار فناء، وليعلم أن الآخرة دار جزاء، ثم دار بقاء.

وهكذا قال قتادة، وابن جُرَيْج، وغيرهما.

وقال عبد الرزاق عن مَعْمَر، عن قتادة: لتعلموا فضل الآخرة على الدنيا. وفى رواية عن قتادة: فَأَثَرُوا الآخرة على الأولى.

[وقد ذكرنا عند قوله تعالى فى سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] آثاراً كثيرة عن السلف فى معنى التفكير والاعتبار]^(٢).
وقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتَكُمْ﴾ الآية: قال ابن جرير:

حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا جرير، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٤] و﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] انطلق من كان عنده يتيم فعزّل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم^(٣).

وهكذا رواه أبو داود، والنسائي، وابن أبى حاتم، وابن مردويه، والحاكم فى مستدركه من طرق، عن عطاء بن السائب، به^(٤). وكذا رواه على بن أبى طلحة، عن ابن عباس. وكذا رواه السدى، عن أبى مالك وعن أبى صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود - بمثله. وهكذا ذكر^(٥) غير واحد فى سبب نزول هذه الآية كمجاهد، وعطاء، والشعبي، وابن أبى ليلى، وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف.

قال وكيع بن الجراح: حدثنا هشام الدستوائى^(٦)، عن حماد، عن إبراهيم قال: قالت عائشة:

(١) فى ج، أ، و: «التميمى».

(٢) زيادة من جـ.

(٣) تفسير الطبرى (٤/ ٣٥٠).

(٤) سنن أبى داود برقم (٢٨٧١) وسنن النسائي (٦/ ٢٥٦) والمستدرک (٢/ ٢٧٨).

(٥) فى جـ: «وهكذا رواه».

(٦) فى جـ: «حدثنا صاحب الدستوائى»، وفى أ: «حدثنا هشام صاحب الدستوائى».

إني لأكره أن يكون مال اليتيم عندى عُرَّة^(١) حتى أخلط طعامه بطعامي وشرابه بشرابي .
 فقوله: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ أى: على حدة ﴿وَأَنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ أى: وإن خلطتم
 طعامكم بطعامهم وشرابكم بشرابهم، فلا بأس عليكم؛ لأنهم إخوانكم فى الدين؛ ولهذا قال:
 ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمَفْسِدَ مِنَ الْمَصْلِحِ﴾ أى: يعلم مَنْ قَصْدُهُ ونيته الإفساد أو الإصلاح .
 وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَكُمُ إِنَّ اللَّهَ غَزِيرٌ حَكِيمٌ﴾ أى: ولو شاء لضيق عليكم وأخرجكم^(٢)،
 ولكنه وسع عليكم، وخفف عنكم، وأباح لكم مخالطتهم بالتي هي أحسن، كما قال: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا
 مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، بل قد جوز الأكل منه للفقير بالمعروف، إما بشرط
 ضمان البدن لمن أيسر، أو مجاناً كما سيأتى بيانه فى سورة النساء، إن شاء الله، وبه الثقة .

﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمَنَّ وَلَأَمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا
 تَنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى
 النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٢١) .

هذا تحريم من الله عزّ وجل على المؤمنين أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان . ثم إن كان
 عمومها مراداً، وأنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية، فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب
 بقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ
 مُحْصَيْنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ [وَلَا تُتَخَذِي أَخْدَانٍ]^(٣) [المائدة: ٥] .

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمَنَّ﴾: استثنى
 الله من ذلك نساء أهل الكتاب . وهكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومكحول،
 والحسن، والضحاك، وزيد بن أسلم، والربيع بن أنس، وغيرهم .
 وقيل: بل المراد بذلك المشركون^(٤) من عبدة الأوثان، ولم يُرد أهل الكتاب بالكلية، والمعنى
 قريب من الأول، والله أعلم .

فأما ما رواه ابن جرير: حدثني عبيد بن آدم بن أبى إياس العسقلانى، حدثنا أبى ، حدثنا عبد
 الحميد بن بهرام الفزارى، حدثنا شهر بن حوشب قال: سمعت عبد الله بن عباس يقول: نهى رسولُ
 الله ﷺ عن أصناف النساء، إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات، وحرّم كل ذات دين غير الإسلام،
 قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥] . وقد نكح طلحة بن عبيد الله
 يهودية، ونكح حذيفة بن اليمان نصرانية، فغضب عمر بن الخطاب غضباً شديداً، حتى همّ أن يسطو
 عليهما . فقالا: نحن نطلق يا أمير المؤمنين، ولا تغضب! فقال: لئن حلّ طلاقهن لقد حلّ نكاحهن،
 ولكنى أترزعهن منكم صغرة قماءة^(٥) - فهو حديث غريب جداً . وهذا الأثر عن عمر غريب أيضاً .

(١) فى ج: «عندى حدة» . (٢) فى أ، و: «وأخرجكم» .

(٣) زيادة من جـ . (٤) فى أ، و: «المشركين» .

(٥) تفسير الطبرى (٤/ ٣٦٤) .

قال أبو جعفر بن جرير، رحمه الله، بعد حكايته الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات: وإنما كره عمر ذلك، لثلاث يزهّد الناس في المسلمات، أو لغير ذلك من المعاني، كما حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا ابن إدريس، حدثنا الصلت بن بهرام، عن شقيق قال: تزوج حذيفة يهودية، فكتب إليه عمر: خلّ سبيلها، فكتب إليه: أتزعم أنها حرام فأخلّي سبيلها؟ فقال: لا أزعم أنها حرام، ولكنني أخاف أن تعاطوا المومسات منهن^(١).

وهذا إسناد صحيح، وروى الخلال عن محمد بن إسماعيل، عن وكيع، عن الصلت^(٢)، نحوه.

وقال ابن جرير: حدثني موسى بن عبد الرحمن المسروقي، حدثنا محمد بن بشر، حدثنا سفيان^(٣) بن سعيد، عن يزيد بن أبي زياد، عن زيد بن وهب قال: قال [لى]^(٤) عمر بن الخطاب: المسلم يتزوج النصرانية، ولا يتزوج النصراني المسلمة. قال: وهذا أصح إسناداً من الأول^(٥) (٦).

ثم قال: وقد حدثنا تميم بن المنتصر، أخبرنا إسحاق الأزرق^(٧)، عن شريك، عن أشعث بن سوار، عن الحسن، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «تتزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نساءنا».

ثم قال: وهذا الخبر - وإن كان في إسناده ما فيه - فالقول به لإجماع الجميع من الأمة على صحة القول^(٨) به^(٩).

كذا قال ابن جرير، رحمه الله.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا وكيع، عن جعفر بن بُرْقَان، عن ميمون بن مهران، عن ابن عمر: أنه كره نكاح أهل الكتاب، وتأول^(١٠): «وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ».

وقال البخاري: وقال ابن عمر: لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول: ربها^(١١) عيسى^(١٢).

وقال أبو بكر الخلال الحنبلي: حدثنا محمد بن هارون^(١٣)، حدثنا إسحاق بن إبراهيم (ح) وأخبرني محمد بن علي، حدثنا صالح بن أحمد: أنهما سألا أبا عبد الله أحمد بن حنبل، عن قول

(١) تفسير الطبري (٤/ ٣٦٦).

(٢) في ج: «عن الفضل».

(٣) في ج: «وهذا إسناد أصح من الأول».

(٤) زيادة من ج.

(٥) تفسير الطبري (٤/ ٣٦٧).

(٦) في أ: «وقد حدثنا تميم بن المنتصر، أخبرنا عثمان بن المنتصر، أخبرنا إسحاق الأزرق».

(٧) في ج، أ، و: «الجميع من الأمة عليه».

(٨) تفسير الطبري (٤/ ٣٦٧).

(٩) في ج: «ولا يتأول».

(١٠) في أ: «ربنا».

(١١) صحيح البخاري برقم (٥٢٨٥) وهو هنا موصولاً عن ابن عمر.

(١٢) في أ، و: «محمد بن أبي هارون».

الله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ﴾، قال: مشركات العرب الذين يعبدون الأوثان^(١).
 وقوله: ﴿وَلَا أُمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾: قال السدى: نزلت في عبد الله بن رواحة، كانت له أمه سوداء، فغضب عليها فلطمها، ثم فرغ، فأتى رسول الله ﷺ، فأخبره خبرها. فقال له: «ما هي؟» قال: تصوم، وتصلى، وتحسن الوضوء، وتشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله. فقال: «يا أبا عبد الله، هذه مؤمنة». فقال: والذي بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجنها^(٢). ففعل، فطعن عليه ناس من المسلمين، وقالوا: نكح أمة. وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين، وينكحوهم رغبة في أحسابهم، فأنزل الله: ﴿وَلَا أُمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾.

وقال عبد بن حميد: حدثنا جعفر بن عون، حدثنا عبد الرحمن بن زياد الإفريقى، عن عبد الله ابن يزيد، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «لا تنكحوا النساء لحسنهن، فعسى حسنهن أن يرديهن، ولا تنكحوهن على أموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن»^(٣)، وانكحوهن على الدين، فلا أمة سوداء خرماء ذات دين أفضل»^(٤). والإفريقى ضعيف.

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها ولجمالها، ولدينها؛ فاظفر بذات الدين تربت يداك»^(٥). ولمسلم عن جابر مثله^(٦). وله، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»^(٧).

وقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ أى: لا تزوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات، كما قال تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهَا﴾ [الممتحنة: ١٠].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ أى: ولرجل مؤمن - ولو كان عبداً حبشياً - خير من مشرك، وإن كان رئيساً سرياً^(٨) ﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أى: معاشرتهم ومخالطتهم تبعث على حب الدنيا واقتنائها وإيثارها على الدار الآخرة، وعاقبة ذلك وخيمة ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ أى: بشره وما أمر به وما نهى عنه ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾

(١) في ج: أ، و: «الأصنام».

(٢) في ج: «أن يطغيهن».

(٤) المنتخب لعبد بن حميد برقم (٣٢٨).

(٥) صحيح البخارى برقم (٥٠٩٠) وصحيح مسلم برقم (١٤٦٦).

(٦) صحيح مسلم برقم (٧١٥).

(٧) صحيح مسلم برقم (١٤٥٧).

(٨) في ج: «شريفاً».

(٢٢٢) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لَأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس: أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحابُ النبي [النبي] ^(١) ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ مَا أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ حتى فرغ من الآية. فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح». فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه! فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا: يا رسول الله، إن اليهود قالت كذا وكذا، أفلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن ^(٢) قد وجدَّ عليهما، فخرجا، فاستقبلتهما ^(٣) هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ، فأرسل في آثارهما، فسقاها، فعرفا أن لم يجدَّ عليهما.

رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة ^(٥).

فقوله: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ يعني [في] ^(٦) الفرج، لقوله: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» ^(٧)؛ ولهذا ذهب كثير من العلماء أو أكثرهم إلى أنه تجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج.

قال أبو داود: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن أيوب، عن عكرمة، عن بعض أزواج النبي ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا أراد من الحائض شيئاً، ألقى على فرجها ثوباً ^(٨).

وقال أبو داود أيضاً: حدثنا القَعْنَبِيُّ، حدثنا عبد الله - يعني ابن عمر بن غانم - عن عبد الرحمن - يعني ابن زياد - عن عمار بن غُرَاب: أن عمّة له حدثته: أنها سألت عائشة قالت: إحدانا تحيض، وليس لها ولزوجها فراش إلا فراش واحد؟ قالت: أخبرك بما صنع رسول الله ﷺ: دخل فمضى إلى مسجده - قال أبو داود: تعني مسجد بيتها - فما انصرف حتى غلبتني عيني، وأوجعه البرد، فقال: «ادني مني». فقلت: إني حائض. فقال: «اكشفي عن فخذي». فكشفت فخذي، فوضع خده وصدره على فخذي، وحنيت ^(٩) عليه حتى دفني ونام ^(١٠).

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا أيوب عن كتاب أبي قلابة: أن مسروقاً ركب إلى عائشة، فقال: السلام على النبي وعلى أهله ^(١١). فقالت عائشة: أبو ^(١٢)

(١) زيادة من أ، و.

(٢) في أ، و: «فاستقبلتهما».

(٣) المسند (٣/ ١٣٢) وصحيح مسلم برقم (٣٠٢).

(٤) في ج، أ، و: «إلا الجماع».

(٥) زيادة من أ.

(٦) سنن أبي داود برقم (٢٧٢).

(٧) في أ: «وحننت».

(٨) سنن أبي داود برقم (٢٧٠).

(٩) في ج: «الصلاة على النبي وعلى آله».

(١٠) في أ: «ابن».

عائشة! مرحباً مرحباً. فأذنوا له فدخل، فقال: إني أريد أن أسألك ^(١) عن شيء، وأنا أستحي. فقالت: إنما أنا أمك، وأنت ابني. فقال: ما للرجل من امرأته وهي حائض؟ فقالت: له كل شيء إلا فرجها ^(٢).

ورواه أيضاً عن حميد بن مسعدة، عن يزيد بن زريع، عن عيينة بن عبد الرحمن بن جوشن، عن مروان الأصفر، عن مسروق قال: قلت لعائشة: ما يحل للرجل من امرأته إذا كانت حائضاً؟ قالت: كل شيء إلا الجماع.

وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وعكرمة.

وروى ابن جرير أيضاً، عن أبي كريب، عن ابن أبي زائدة، عن حجاج، عن ميمون بن مهران، عن عائشة قالت: له ما فوق الإزار.

قلت: وتحل مضاجعتها ومواكبتها بلا خلاف. قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يأمرني فأغسل رأسه وأنا حائض، وكان يتكئ في حجرى وأنا حائض، فيقرأ القرآن ^(٣). وفي الصحيح عنها قالت: كنت أتعرق العرق وأنا حائض، فأعطيه النبي ﷺ، فيضع فمه في الموضع الذى وضعت فمى فيه، وأشرب الشراب فأناوله، فيضع فمه في الموضع الذى كنت أشرب ^(٤).

وقال أبو داود: حدثنا مسدد، حدثنا يحيى، عن جابر بن صبح ^(٥): سمعت خلاساً الهجرى قال: سمعت عائشة تقول: كنت أنا ورسول الله ﷺ نبيت في الشعار الواحد، وإنى حائض طامث، فإن أصابه منى شيء، غسل مكانه لم يعده، وإن أصاب - يعنى ثوبه - شيء غسل مكانه لم يعده، وصلى فيه ^(٦).

فأما ما رواه أبو داود: حدثنا سعيد بن عبد الجبار، حدثنا عبد العزيز - يعنى ابن محمد - عن أبي اليمان، عن أم ذرة، عن عائشة: أنها قالت: كنت إذا حضت نزلت عن المثال على الحصير، فلم تقرب رسول الله ﷺ ولم ندن منه حتى نظهر ^(٧) - فهو محمول ^(٨) على التزهر والاحتياط.

وقال آخرون: إنما تحل له مباشرتها فيما عدا ما تحت الإزار، كما ثبت في الصحيحين، عن ميمونة بنت الحارث الهلالية قالت: كان النبي ﷺ إذا أراد أن يياشر امرأة من نسائه أمرها فاتزرت وهي حائض ^(٩). وهذا لفظ البخارى. ولهما عن عائشة نحوه ^(١٠).

وروى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه من حديث العلاء بن الحارث، عن حزام

(١) فى أ: «إنى سائلك».

(٢) تفسير الطبرى (٤ / ٣٧٨).

(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٩٧).

(٤) صحيح مسلم برقم (٣٠٠).

(٥) فى ج، أ، و: «صبيح».

(٦) سنن أبى داود برقم (٢٦٩).

(٧) سنن أبى داود برقم (٢٧١).

(٨) فى ج: «محمول». (٩) فى ج: «كان رسول الله».

(١٠) صحيح البخارى برقم (٣٠٣) وصحيح مسلم برقم (٢٩٤).

(١١) صحيح البخارى برقم (٣٠٠) وصحيح مسلم برقم (٢٩٣).

ابن حكيم، عن عمه عبد الله بن سعد الأنصاري: أنه سأل رسول الله ﷺ: ما يحل لي من امرأتي وهي حائض؟ قال: «ما^(١) فوق الإزار»^(٢).

ولأبي داود أيضاً، عن معاذ بن جبل قال: سألت رسول الله ﷺ عما يحل لي من امرأتي وهي حائض^(٣). قال: «ما فوق الإزار والتعفف عن ذلك أفضل». وهو رواية عن عائشة - كما تقدم - وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وشريح.

فهذه الأحاديث وما شابهها حجة من ذهب إلى أنه يحل له ما فوق الإزار منها، وهو أحد القولين في مذهب الشافعي رحمه الله، الذي رجحه كثير من العراقيين وغيرهم. ومأخذهم^(٤) أنه حريم الفرج، فهو حرام، لثلا يتوصل إلى تعاطي ما حرم الله عز وجل، الذي أجمع العلماء على تحريمه، وهو المباشرة في الفرج. ثم من فعل ذلك فقد أثم، فيستغفر الله ويتوب إليه. وهل يلزمه مع ذلك كفارة أم لا؟ فيه قولان:

أحدهما: نعم، لما رواه الإمام أحمد، وأهل السنن، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ في الذي يأتي امرأته وهي حائض: «يتصدق بدينار، أو نصف دينار»^(٥). وفي لفظ للترمذي: «إذا كان دماً أحمر فدينار، وإن كان دماً أصفر فنصف دينار». وللإمام أحمد أيضاً، عنه: أن رسول الله ﷺ جعل في الحائض تصاب، ديناراً فإن أصابها وقد أدبر الدم عنها ولم تغتسل، فنصف دينار.

والقول الثاني: وهو الصحيح الجديد من مذهب الشافعي، وقول الجمهور: أنه لا شيء في ذلك، بل يستغفر الله عز وجل، لأنه لم يصح عندهم رفع هذا الحديث، فإنه [قد]^(٦) روى مرفوعاً كما تقدم وموقوفاً، وهو الصحيح عند كثير من أئمة الحديث، فقله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ تفسير لقوله: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ ونهى عن قربانهن بالجماع ما دام الحيض موجوداً، ومفهومه حله إذا انقطع، [وقد قال به طائفة من السلف. قال القرطبي: وقال مجاهد وعكرمة وطاوس: انقطاع الدم يحلها لزوجها ولكن بأن تتوضأ]^(٧).

وقوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ فيه ندب وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال. وذهب ابن حزم إلى وجوب الجماع بعد كل حيضة، لقوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ وليس له في ذلك مستند، لأن هذا أمر بعد الحظر. وفيه أقوال لعلماء الأصول، منهم من يقول: إنه للوجوب كالمطلق. وهؤلاء يحتاجون إلى جواب ابن حزم، ومنهم من يقول: إنه للإباحة، ويجعلون تقدم النهي عليه قرينة صارفة له عن الوجوب، وفيه نظر. والذي ينهض عليه الدليل أنه يرد الحكم إلى ما كان عليه الأمر قبل النهي، فإن كان واجباً فواجب، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ

(١) في ج: «لك ما».

(٢) المسند (٤/ ٣٤٢) وسنن أبي داود برقم (٢١٢) وسنن الترمذي برقم (١٣٣) وسنن ابن ماجه برقم (٦٥١).

(٣) سنن أبي داود برقم (٢١٣).

(٤) في أ، و: «ومأخذ».

(٥) المسند (١/ ٢٣٠) وسنن أبي داود برقم (٢٦٦) وسنن الترمذي برقم (١٣٦) وسنن النسائي الكبرى برقم (٢٨٢).

(٦) زيادة من ج.

(٧) زيادة من ج، أ.

فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴿التوبة: ٥﴾، أو مباحاً فمباح، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠] وعلى هذا القول تجتمع الأدلة، وقد حكاه الغزالي وغيره، واختاره بعض أئمة المتأخرين، وهو الصحيح.

وقد اتفق العلماء^(١) على أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتى تغتسل بالماء أو تتيمن، إن^(٢) تعذر ذلك عليها بشرطه، [إلا يحيى بن بكير من المالكية وهو أحد شيوخ البخاري، فإنه ذهب إلى إباحة وطء المرأة بمجرد انقطاع دم الحيض، ومنهم من ينقله عن ابن عبد الحكم أيضاً، وقد حكاه القرطبي عن مجاهد وعكرمة عن طاوس كما تقدم]^(٣). إلا أن أبا حنيفة، رحمه الله، يقول^(٤) فيما إذا انقطع دمها لأكثر الحيض، وهو عشرة أيام عنده: إنها تحل بمجرد الانقطاع ولا تفتقر إلى غسل [ولا يصح لأقل من ذلك المزيد في حلها من الغسل ويدخل عليها وقت صلاة إلا أن تكون دمثة، فيدخل بمجرد انقطاعه]^(٥)، والله أعلم.

وقال ابن عباس: ﴿حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ أي: من الدم ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ أي: بالماء. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، ومقاتل بن حيان، والليث بن سعد، وغيرهم.

وقوله: ﴿مَنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: يعنى الفرج؛ قال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَأَتَوْهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ يقول في الفرج ولا تعدوه^(٦) إلى غيره، فمن فعل شيئاً من ذلك فقد اعتدى.

وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة: ﴿فَأَتَوْهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: أن تعتزلوهن. وفيه دلالة حينئذ على تحريم الوطء في الدبر، كما سيأتى تقريره قريباً.

وقال أبو رزين، عكرمة، والضحاك وغير واحد: ﴿فَأَتَوْهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ يعنى: طاهرات غير حيض، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ أي: من الذنب وإن تكرر^(٧) غشيانته، ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي: المنتزهين عن^(٨) الأقدار والأذى، وهو ما نهوا عنه من إتيان الحائض، أو في غير المأني.

وقوله: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس: الحَرْث موضع الولد ﴿فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ أي: كيف شئتم مقبلة ومدبرة في صِمام واحد، كما ثبتت بذلك الأحاديث.

قال البخاري: حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان عن ابن المنكدر قال: سمعت جابراً قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فزلت: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾. ورواه داود^(٩)، من حديث سفيان الثوري به^(١٠).

(٣) زيادة من ج، أ.

(٢) في ج: «أو».

(١) في ج: «جمهور العلماء».

(٥) زيادة من ج.

(٤) في ج: «إلا أبا حنيفة وصاحبيه فإنهم رحمهم الله يقولون».

(٨) في ج، أ: «من».

(٧) في ج: «وإن تكون».

(٦) في ج: «ولا تعداه».

(٩) في ج، أ، و: «ورواه مسلم وأبو داود».

(١٠) صحيح البخاري برقم (٤٥٢٨).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني مالك بن أنس وابن جريج وسفيان بن سعيد الثوري: أن محمد بن المنكدر حدثهم: أن^(١) جابر بن عبد الله أخبره: أن اليهود قالوا للمسلمين: من أتى امرأة وهى مدبرة جاء الولد أحول، فأنزل الله عز وجل: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾.

قال ابن جريج فى الحديث: فقال رسول الله ﷺ: «مقبلة ومدبرة، إذا كان ذلك فى الفرج».

وفى حديث بهز بن حكيم بن معاوية بن حيدة القشيري، عن أبيه، عن جده أنه قال: يا رسول الله، نساؤنا ما نأتى منها وما نذر؟ قال: «حرتك، أتت حرتك أنى شئت، غير ألا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا فى البيت^(٢)». الحديث، رواه أحمد، وأهل السنن^(٣).

حديث آخر: قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة عن يزيد ابن أبي حبيب، عن عامر بن يحيى، عن حنش بن عبد الله، عن عبد الله بن عباس قال: أتى ناس من حمير إلى رسول الله ﷺ، فسألوه عن أشياء، فقال له رجل: إنى أحب النساء، فكيف ترى فى ذلك؛ فأنزل الله: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾^(٤).

حديث آخر: قال أبو جعفر الطحاوى فى كتابه «مشكل الحديث»: حدثنا أحمد بن داود بن موسى، حدثنا يعقوب بن كاسب، حدثنا عبد الله بن نافع، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدرى: أن رجلاً أصاب امرأة فى دبرها، فأنكر الناس عليه ذلك، فأنزل الله: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾، ورواه ابن جرير عن يونس وعن يعقوب، به^(٥).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم^(٦)، عن عبد الرحمن بن سابط قال: دخلت على حفصة ابنة^(٧) عبد الرحمن بن أبي بكر فقلت: إنى سائلك عن أمر، وإنى^(٨) أستحيى أن أسألك. قالت: فلا تستحيى يا ابن أخى. قال: عن إتيان النساء فى أدبارهن؟ قالت: حدثتني أم سلمة أن الأنصار كانوا لا يجيئون النساء، وكانت اليهود تقول: إنه من جئى امرأته كان الولد أحول، فلما قدم المهاجرون المدينة نكحوا فى نساء الأنصار، فجبوهن، فأبت امرأة أن تطيع زوجها وقالت: لن تفعل ذلك حتى أتى رسول الله ﷺ. فدخلت على أم سلمة فذكرت لها ذلك، فقالت: اجلسى حتى يأتى رسول الله ﷺ، فلما جاء رسول الله ﷺ استحييت الأنصارية أن تسأله، فخرجت، فحدثت أم سلمة رسول الله ﷺ فقال: «ادعى الأنصارية»: فدُعيت، فتلا عليها هذه الآية: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ صماماً واحداً.

(١) فى ج: «عن».

(٢) فى ج، أ، و: «فى البيت».

(٣) المسند (٥/ ٣) وسنن أبي داود برقم (٢١٤٣) وسنن النسائي الكبرى برقم (٩١٦٠).

(٤) ورواه الطبرى فى تفسيره (٤١٣/ ٤) والطبرانى فى المعجم الكبير (٢٣٧/ ١٢) من طريق ابن لهيعة به.

(٥) مشكل الآثار برقم (٦١١٨).

(٦) فى ج: «بن خثيم».

(٧) فى أ: «بنت».

(٨) فى ج: «وأنا».

ورواه الترمذى، عن بُندَار، عن ابن مهدي، عن سفيان، عن ابن خثيم^(١)، به^(٢). وقال: حسن.

قلت: وقد روى من طريق حماد بن أبي حنيفة، عن أبيه، عن ابن خثيم^(٣)، عن يوسف بن ماهك، عن حفصة أم المؤمنين: أن امرأة أتها فقالت: إن زوجي يأتيني مُحْيِيَّةً ومستقبلة فكرهته، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «لا بأس إذا كان في صمام واحد»^(٤).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا يعقوب - يعنى القمى^(٥) - عن جعفر، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هلك! قال: «ما الذى أهلكك؟» قال: حولت رحلى البارحة! قال: فلم يرد عليه شيئاً. قال: فأوحى الله إلى رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾: أقبل وأدبر، واتق الدبر والحیضة.

رواه الترمذى، عن عبد بن حميد، عن حسن بن موسى الأشيب، به^(٦). وقال: حسن غريب.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رشدين، حدثنى الحسن بن ثوبان، عن عامر ابن يحيى المعافى، عن حنش، عن ابن عباس قال: أنزلت هذه الآية: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ فى أناس من الأنصار، أتوا النبي ﷺ، فسألوه، فقال النبي ﷺ: «آتها على كل حال، إذا كان فى الفرج»^(٧).

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا الحارث بن سريج^(٨)، حدثنا عبد الله بن نافع، حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبى سعيد قال: أنفر رجل امرأته على عهد رسول الله ﷺ، فقالوا: أنفر فلان امرأته، فأنزل الله عز وجل: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾^(٩).

وقال أبو داود: حدثنا عبد العزيز بن يحيى أبو الأصبغ، قال: حدثنى محمد - يعنى ابن سلمة - عن محمد ابن إسحاق، عن أبان بن صالح، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: إن ابن عمر - والله يغفر له - أوهم، إنما كان أهل هذا الحى من الأنصار - وهم أهل وثن - مع أهل هذا الحى من يهود - وهم أهل كتاب - وكانوا يرون لهم فضلاً عليهم فى العلم، فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم، وكان من أمر أهل الكتاب لا يأتون النساء إلا على حرف، وذلك أستر ما تكون المرأة، فكان هذا الحى من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم، وكان هذا الحى من قريش يَشْرَحُونَ النساء شرحاً منكراً، ويتلذذون بهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات. فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من

(١) فى ج: «خيثم».

(٢) المسند (٣٠٤/٦) وسنن الترمذى برقم (٢٩٧٩).

(٣) فى ج: «خيثم».

(٤) مسند أبى حنيفة برقم (١٠٢).

(٥) المسند (٢٩٧/١) وسنن الترمذى برقم (٢٩٨٠).

(٦) المسند (٢٦٨/١).

(٧) فى هـ: «شريح».

(٨) مسند أبى يعلى (٣٥٤/٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٣١٩/٦): «شيخه الحارث بن سريج، ضعيف كذاب» ولكنه توبع، تابعه يعقوب بن حميد، فرواه عن عبد الله بن نافع عن هشام، عن زيد بن أسلم به، أخرجه الطحاوى فى مشكل الآثار برقم (٦١١٨) وقد سبق.

الانصار، فذهب يصنع بها ذلك، فأنكرته عليه، وقالت: إنما كنا نُؤتى علي حرف. فاصنع ذلك وإلا فاجتنبني، فسرى أمرهما، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ أي: مقبلات، ومدبرات، ومستلقيات - يعنى بذلك موضع الولد^(١).

تفرد به أبو داود، ويشهد^(٢) له بالصحة ما تقدم من الأحاديث، ولا سيما رواية أم سلمة، فإنها مشابهة لهذا السياق.

وقد روى هذا الحديث الحافظ أبو القاسم الطبراني من طريق محمد بن إسحاق، عن أبان بن صالح، عن مجاهد قال: عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه^(٣) عند كل آية منه^(٤)، وأسأله عنها، حتى انتهت إلى هذه الآية: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾، فقال ابن عباس: إن هذا الحى من قريش كانوا يشرحون^(٥) النساء بمكة، ويتلذذون بهن. فذكر القصة بتمام سياقها^(٦).

وقول ابن عباس: «إن ابن عمر - والله يغفر له - أوهم». كأنه يشير إلى ما رواه البخارى:

حدثنا إسحاق، حدثنا النضر بن شميل، أخبرنا ابن عون عن نافع قال: كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه، فأخذت عليه يوماً فقرأ سورة البقرة، حتى انتهى إلى مكان قال^(٧): أتدرى فيم أنزلت؟ قلت: لا. قال: أنزلت فى كذا وكذا. ثم مضى. وعن عبد الصمد قال: حدثنى أبى، حدثنى أيوب، عن نافع، عن ابن عمر: ﴿فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ قال: يأتيها فى...^(٨). هكذا رواه البخارى، وقد تفرد به من هذه الوجوه^(٩).

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، حدثنا ابن عون، عن نافع قال: قرأت ذات يوم: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾، فقال ابن عمر: أتدرى فيم نزلت؟ قلت: لا. قال: نزلت فى إتيان النساء فى أديارهن^(١٠).

وحدثنى أبو قلابة، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثنى أبى، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر: ﴿فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ قال: فى الدبر^(١١).

وروى من حديث مالك، عن نافع، عن ابن عمر، ولا يصح.

وروى النسائي، عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، عن أبى بكر بن أبى أويس، عن سليمان ابن بلال، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر: أن رجلاً أتى امرأته فى دبرها، فوجد فى نفسه من ذلك

(١) سنن أبى داود برقم (٢١٦٤).

(٢) فى ج: «وشهد».

(٣) فى ح، أ، و: «أوقفه عليه».

(٤) فى ج: «فيه».

(٥) فى ج: «يشرحون».

(٦) المعجم الكبير (٧٧/١١).

(٧) فى ج: «فقال».

(٨) بياض فى جميع النسخ، وفى فتح البارى ٨/ ١٣٠: «كذا وقع فى جميع النسخ، لم يذكر ما بعد الظرف وهو المجرور، ووقع فى الجمع بين الصحيحين للحميدى: يأتيها فى الفرج. وهو من عنده بحسب ما فهمه» ومستفاد من هامش ط. الشعب.

(٩) صحيح البخارى برقم (٤٥٢٦).

(١٠) تفسير الطبرى (٤٠٤/٤).

(١١) تفسير الطبرى (٤٠٦/٤).

وجداً شديداً، فأنزل الله: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾^(١).

قال أبو حاتم الرازي: لو كان هذا عند زيد بن أسلم، عن ابن عمر لما أولع^(٢) الناس بنافع. وهذا تعليل منه لهذا الحديث.

وقد رواه عبد الله بن نافع، عن داود بن قيس، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن ابن عمر - فذكره.

وهذا محمول على ما تقدم، وهو أنه يأتيها في قبلها من دبرها، لما رواه النسائي أيضاً عن علي ابن عثمان النخيلي، عن سعيد بن عيسى، عن المفضل^(٣) بن فضالة عن عبد الله بن سليمان الطويل، عن كعب بن علقمة، عن أبي النضر: أنه أخبره أنه قال لنافع مولى ابن عمر: إنه قد أكثر عليك القول: إنك تقول عن ابن عمر إنه أفتى أن تؤتى النساء في أدبارهن قال: كذبوا علي، ولكن سأحدثك كيف كان الأمر: إن ابن عمر عرض المصحف يوماً وأنا عنده، حتى بلغ: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ

لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾: فقال: يا نافع، هل تعلم من أمر هذه الآية؟ قلت^(٤): لا. قال: إنا كنا معشر قريش نجبي^(٥) النساء، فلما دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار، أردنا منهن مثل ما كنا نريد فإذا هن قد كرهن ذلك وأعظمه، وكانت نساء الأنصار قد أخذن بحال اليهود، إنما يؤتين على جنوبهن، فأنزل الله: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾^(٦).

وهذا إسناد صحيح، وقد رواه ابن مردويه، عن الطبراني، عن الحسين بن إسحاق، عن زكريا^(٧) ابن يحيى كاتب العمري، عن مفضل بن فضالة، عن عبد الله بن عياش^(٨)، عن كعب بن علقمة، فذكره. وقد روي عن ابن عمر خلاف ذلك صريحاً، وأنه لا يباح ولا يحل كما سيأتي، وإن كان قد نسب هذا القول إلى طائفة من فقهاء المدينة وغيرهم، وعزاه بعضهم إلى الإمام مالك في كتاب السر^(٩)، وأكثر الناس ينكر أن يصح ذلك عن الإمام مالك، رحمه الله. وقد وردت الأحاديث المروية من طرق متعددة بالزجر عن فعله وتعاطيه؛ فقال الحسن بن عرفة:

حدثنا إسماعيل بن عياش^(١٠)، عن سهيل^(١١) بن أبي صالح، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «استحيوا، إن الله لا يستحي من الحق، لا يحل مأتى النساء في حشوشهن»^(١٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن عبد^(١٣) بن شداد عن رجل عن خزيمة بن ثابت: أن رسول الله ﷺ نهى أن يأتي الرجل امرأته في دبرها^(١٤).

(١) سنن النسائي الكبرى برقم (٨٩٨١).

(٢) في ج: «لما ولع».

(٣) في جميع المخطوطات: «المفضل»، والصواب ما أثبتناه.

(٤) في ج، أ: «قال».

(٥) في أ: «نجب».

(٦) سنن النسائي الكبرى برقم (٨٩٧٨).

(٧) في أ: «عن أبي زكريا».

(٨) في أ: «عياش».

(٩) في أ: «السير».

(١٠) في أ: «عياش».

(١١) في ج، أ: «عن سهل».

(١٢) ورواه الدارقطني في السنن (٢٨٨/٣) من طريق الحسن بن عرفة به.

(١٣) في ج، أ: «عن عبد الله».

(١٤) المسند (٢١٥/٥) وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٩٨٥، ٨٩٨٦) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٢٤) وانظر الاختلاف فيه في: سنن

النساء. (٣١٦/٥ - ٣١٩).

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا يعقوب، سمعت أبي يحدث، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة ابن الهاد: أن عبيد الله بن الحصين الوالبي حدثه أن هرمي بن عبد الله الواقفي حدثه: أن خزيمة بن ثابت الخطمي حدثه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يستحيى الله من الحق، لا يستحيى الله من الحق - ثلاثاً - لا تأتوا النساء في أعجازهن».

ورواه النسائي، وابن ماجه من طرق، عن خزيمة بن ثابت. وفي إسناده اختلاف كثير.

حديث آخر: قال أبو عيسى الترمذي، والنسائي: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن الضحاک بن عثمان، عن مخرمة بن سليمان، عن كريب، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة في الدبر». ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب (١). وهكذا أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢). وصححه ابن حزم أيضاً. ولكن رواه النسائي، عن هناد، عن وكيع، عن الضحاک، به (٣) موقوفاً.

وقال عبد: أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن ابن طاوس، عن أبيه: أن رجلاً سأل ابن عباس عن إتيان المرأة في دبرها قال (٤): تسألني عن الكفر! [إسناد صحيح] (٥).

وكذا رواه النسائي، من طريق ابن المبارك، عن معمر (٦) - به نحوه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن النبي ﷺ قال: «الذي يأتي امرأته في دبرها هي اللوطية الصغرى» (٧).

وقال عبد الله بن أحمد: حدثني هبة، حدثنا همام، قال: سئل قتادة عن الذي يأتي امرأته في دبرها. فقال قتادة: حدثنا عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده: أن النبي ﷺ قال: «هي اللوطية الصغرى».

قال قتادة: وحدثني عقبة بن وسّاج، عن أبي الدرداء قال: وهل يفعل ذلك إلا كافر؟ (٨).

وقد روى هذا الحديث يحيى بن سعيد القطان، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أبي أيوب، عن عبد الله بن عمرو (٩) بن العاص، قوله. وهذا أصح، والله أعلم.

وكذلك رواه عبد بن حميد، عن يزيد بن هارون، عن حميد الأعرج، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو، موقوفاً من قوله.

طريق أخرى: قال جعفر الفريابي: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة، عن عبد الرحمن بن زياد بن العم، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة لا ينظر

(١) سنن الترمذي برقم (١١٦٥) وسنن النسائي الكبرى برقم (٩٠٠١).

(٢) صحيح ابن حبان برقم (١٣٠٢) «موارد».

(٣) سنن النسائي الكبرى برقم (٩٠٠٢).

(٤) في ج: «فقال». (٥) زيادة من ج، أ، و.

(٦) في ه: «عن عكرمة» وهو خطأ.

(٧) المسند (٢/٢١٠).

(٨) زوائد المسند (٢/٢١٠).

(٩) في ج: «عمر».

الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم، ويقول: ادخلوا النار مع الداخلين: الفاعل والمفعول به، والناكح يده، وناكح البهيمة، وناكح المرأة في دبرها، وجامع بين المرأة وابنتها، والزاني بحليلة جاره، والمؤذى جاره حتى يلغنه^(١).

ابن لهيعة وشيخه ضعيفان.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن عاصم، عن عيسى بن حطان، عن مسلم بن سلام، عن علي بن طلق، قال: نهى رسول الله ﷺ أن تؤتى النساء في أدبارهن؛ فإن الله لا يستحي من الحق^(٢).

وأخرجه أحمد أيضاً، عن أبي معاوية، وأبو عيسى الترمذي من طريق أبي معاوية أيضاً، عن عاصم الأحول [به]^(٣) وفيه زيادة، وقال: هو حديث حسن^(٤).

ومن الناس من يورد هذا الحديث في مسند علي بن أبي طالب، كما وقع في مسند الإمام أحمد ابن حنبل^(٥)، والصحيح أنه على بن طلق.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن سهيل بن أبي صالح، عن الحارث بن مخلد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الذي يأتي امرأته في دبرها لا ينظر الله إليه».

وحدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا سهيل، عن الحارث بن مخلد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ^(٦): «لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته في دبرها». وكذا رواه ابن ماجه من طريق سهيل^(٧).

وحدثنا وكيع، حدثنا سفيان عن سهيل بن أبي صالح، عن الحارث بن مخلد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون من أتى امرأة في دبرها». وهكذا رواه أبو داود، والنسائي من طريق وكيع، به^(٨).

طريق أخرى: قال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني: أخبرنا أحمد بن القاسم بن الريان، حدثنا أبو عبد الرحمن النسائي، حدثنا هناد، ومحمد ابن إسماعيل - واللفظ له - قالوا: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون من أتى امرأة في دبرها»^(٩).

(١) ورواه أبو الشيخ في مجلس من حديثه (١/٦٢، ٢)، وابن بشران في الامالي (١/٨٦، ٢) من طرق عن عبد الرحمن بن زياد الأفرقي به. أ. هـ مستفاداً من إرواء الغليل للألباني (٥٩/٨).

(٢) ذكره ابن حجر في أطراف المسند (٣٨٤/٤) ولم أجده في المطبوع.

(٣) زيادة من ج، أ.

(٤) ذكره الحافظ ابن حجر في أطراف المسند (٣٨٤/٤) وسنن الترمذي برقم (١١٦٤).

(٥) المسند (٨٦/١). (٦) في أ، و: «عن أبي هريرة عن النبي».

(٧) المسند (٣٤٤/٢) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٢٣).

(٨) المسند (٤٤٤/٢) وسنن أبي داود برقم (٢١٦٢) وسنن النسائي الكبرى برقم (٩٠١٥).

(٩) رواه أبو نعيم في جزء له عالٍ عن أحمد بن القاسم بن الريان، قال الذهبي: «فيه ما ينكر».

ليس هذا الحديث هكذا فى سنن النسائى، وإنما الذى فيه عن سهيل، عن الحارث بن مخلد، كما تقدم.

قال شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبى: ورواية أحمد بن القاسم بن الريان هذا الحديث بهذا السند، وهم منه، وقد ضعفوه.

طريق أخرى: رواها ^(١) مسلم بن خالد الزنجى، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «ملعون من أتى النساء فى أدبارهن». ومسلم بن خالد فيه كلام، والله أعلم.

طريق أخرى: رواها الإمام أحمد، وأهل السنن من حديث حماد بن سلمة، عن حكيم الأثرم، عن أبى تيممة الهذيمى، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «من أتى حائضاً أو امرأة فى دبرها، أو كاهناً فصدقه، فقد كفر بما أنزل على محمد» ^(٢).

وقال الترمذى: ضعف البخارى هذا الحديث. والذى قاله البخارى فى حديث حكيم [الأثرم] ^(٣) عن أبى تيممة: لا يتابع فى حديثه ^(٤).

طريق أخرى: قال النسائى: حدثنا عثمان بن عبد الله، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن من كتابه، عن عبد الملك بن محمد الصنعانى، عن سعيد بن عبد العزيز، عن الزهرى، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «استحيوا من الله حق الحياء، لا تأتوا النساء فى أدبارهن» ^(٥). تفرد به النسائى من هذا الوجه.

قال حمزة بن محمد الكنانى الحافظ: هذا حديث منكر باطل من حديث الزهرى، ومن حديث أبى سلمة ومن حديث سعيد؛ فإن كان عبد الملك سمعه من سعيد، فإنما سمعه بعد الاختلاط، وقد رواه الزهرى عن أبى سلمة أنه كان ينهى عن ذلك، فأما عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فلا. انتهى كلامه.

وقد أجاد وأحسن الانتقاد؛ إلا أن عبد الملك [بن محمد] ^(٦) الصنعانى لا يعرف أنه اختلط، ولم يذكر ذلك أحد غير حمزة الكنانى، وهو ثقة، ولكن تكلم فيه دُحيم، وأبو حاتم، وابن حبان، وقال: لا يجوز الاحتجاج به، فالله أعلم. وقد تابعه زيد بن يحيى بن عبيد، عن سعيد بن عبد العزيز. وروى من طريقين آخرين، عن أبى سلمة. ولا يصح منها شيء.

طريق أخرى: قال النسائى: حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان الثورى، عن ليث بن أبى سليم، عن مجاهد، عن أبى هريرة قال: إتيان الرجال النساء ^(٨) فى

(١) فى ج: «رواية»، وفى أ، و: «ورواه».

(٢) المسند (٤٠٨/٢) وسنن أبى داود برقم (٣٩٠٤) وسنن الترمذى برقم (١٣٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (٩٠١٦) وسنن ابن ماجه برقم (٦٣٩).

(٣) زيادة من ج، أ، وفى و: «حكيم الترمذى».

(٤) التاريخ الكبير (١٧/٣).

(٥) سنن النسائى الكبرى برقم (٩٠١٠).

(٦) زيادة من ج، أ، و. (٧) فى ج: «عن». (٨) فى ج، أ: «والنساء».

أدبارهن كفر^(١).

ثم رواه، عن بُندَار، عن عبد الرحمن، به. قال: من أتى امرأة^(٢) في دبرها ملك^(٣) كفره^(٤). هكذا رواه النسائي، من طريق الثوري، عن ليث، عن مجاهد، عن أبي هريرة موقوفاً. وكذا رواه من طريق علي بن بذيمة، عن مجاهد، عن أبي هريرة - موقوفاً^(٥). ورواه بكر بن خنيس، عن ليث، عن مجاهد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «من أتى شيئاً من الرجال والنساء في الأدبار فقد كفر» والموقوف أصح، وبكر بن خنيس ضعفه غير واحد من الأئمة، وتركه آخرون^(٦).

حديث آخر: قال محمد بن أبان البلخي: حدثنا وكيع، حدثنا زمعة بن صالح، عن ابن طاوس، عن أبيه - وعن عمرو بن دينار، عن عبد الله بن يزيد بن الهاد قالاً: قال عمر بن الخطاب: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يستحي من الحق، لا تأتوا النساء في أدبارهن»^(٧).

وقد رواه النسائي: حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقاني، عن عثمان بن اليمان، عن زمعة بن صالح، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن الهاد، عن عمر قال: «لا تأتوا النساء في أدبارهن»^(٨).

وحدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا يزيد بن أبي حكيم، عن زمعة بن صالح، عن عمرو بن دينار، عن طاوس، عن عبد الله بن الهاد الليثي قال: قال عمر رضى الله عنه: استحيوا من الله، فإن الله لا يستحي من الحق، لا تأتوا النساء في أدبارهن^(٩). الموقوف أصح.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا غُندَر ومعاذ بن معاذ قالاً: حدثنا شعبة عن عاصم الأحول، عن عيسى بن حطان، عن مسلم بن سلام، عن طلق بن يزيد - أو يزيد بن طلق - عن النبي ﷺ قال: «إن الله لا يستحي من الحق، لا تأتوا النساء في أستاههن»^(١٠).

وكذا رواه غير واحد، عن شعبة. ورواه عبد الرزاق، عن معمر، عن عاصم الأحول، عن عيسى بن حطان، عن مسلم بن سلام، عن طلق بن علي، والأشبه أنه علي بن طلق، كما تقدم، والله أعلم.

حديث آخر: قال أبو بكر الأثرم في سنته: حدثنا أبو مسلم الحرّمي، حدثنا أخى أنيس بن إبراهيم^(١١) أن أباه إبراهيم بن عبد الرحمن بن القعقاع أخبره، عن أبيه أبي القعقاع، عن ابن مسعود،

(١) سنن النسائي الكبرى برقم (٩٠١٨).

(٢) في ج، أ، و: «امرأته».

(٣) في ج: «تلك»، وفي أ: «وذلك».

(٤) سنن النسائي الكبرى برقم (٩٠١٩).

(٥) سنن النسائي الكبرى برقم (٩٠٢١).

(٦) رواه العقيلي في الضعفاء الكبير (١٤٩/١).

(٧) ذكره الدارقطني في العلل (١٦٧/٢) قال: «ولم يذكر طاوساً في حديث عمرو بن دينار. وقول عثمان بن اليمان أصحها».

(٨) سنن النسائي الكبرى برقم (٩٠٠٨).

(٩) سنن النسائي الكبرى برقم (٩٠٠٩).

(١٠) ذكره الحافظ ابن حجر في أطراف المسند (٣٨٤/٤) من طريق غندر في مسند علي بن طلق. ولا أدري كيف وقع هنا يزيد بن

طلق، وقد بين الحافظ الصواب في ذلك، والله أعلم.

(١١) في أ: «أخى أنيس بن أبي تميم».

رضى الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «محاش النساء حرام»^(١).

وقد رواه إسماعيل بن علي، وسفيان الثوري، وشعبة، وغيرهم، عن أبي عبد الله الشقري - واسمه سلمة بن بن تمام: ثقة - عن أبي القعقاع، عن ابن مسعود - موقوفاً. وهو أصح.

طريق أخرى: قال ابن عدى: حدثنا أبو عبد الله المحاملي، حدثنا سعيد بن يحيى الأموي، حدثنا محمد بن حمزة، عن زيد بن ربيع عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تأتوا النساء في أعجازهن»^(٢)، محمد بن حمزة هو الجزري، وشيخه فيهما مقال.

وقد روى من حديث أبي بن كعب^(٣)، والبراء بن عازب، وعقبة بن عامر^(٤)، وأبي ذر، وغيرهم. وفي كل منها^(٥) مقال لا يصح معه الحديث، والله أعلم.

وقال الثوري، عن الصلت بن بهرام، عن أبي المعتمر، عن أبي جويرية^(٦) قال: سألت رجل علياً عن إتيان المرأة في دبرها، فقال: سفلت، سفل الله بك! ألم تسمع إلى قول الله عز وجل: «اتَّاتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ» [الأعراف: ٨٠].

وقد تقدم قول ابن مسعود، وأبي الدرداء، وأبي هريرة، وابن عباس، وعبد الله بن عمرو في تحريم ذلك، وهو الثابت بلا شك عن عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما، أنه يحرمه.

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الدارمي في مسنده: حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا الليث، عن الحارث بن يعقوب، عن سعيد بن يسار أبي الحباب قال: قلت لابن عمر: ما تقول في الجوارى، أنحمض لهن؟ قال: وما التحميض؟ فذكر الدبر. فقال: وهل يفعل ذلك أحد من المسلمين؟

وكذا رواه ابن وهب وقتيبة، عن الليث، به. وهذا إسناد صحيح ونص صريح منه بتحريم ذلك، فكل ما ورد عنه مما يحتمل ويحتمل فهو مردود إلى هذا المحكم^(٧).

وقال ابن جرير: حدثني عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا أبو زيد عبد الرحمن بن أحمد بن أبي الغمر^(٨)، حدثني عبد الرحمن بن القاسم، عن مالك بن أنس أنه قيل له: يا أبا عبد الله، إن الناس يروون عن سالم بن عبد الله أنه قال: كذب العبد، أو العليج، على أبي [عبد الله]^(٩) فقال مالك: أشهد على يزيد بن رومان أنه أخبرني، عن سالم بن عبد الله، عن ابن عمر مثل ما قال نافع. فقيل له: فإن الحارث بن يعقوب يروى عن أبي الحباب سعيد بن يسار: أنه سأل ابن عمر فقال له: يا أبا عبد الرحمن، إنا نشترى الجوارى أفنحمض لهن؟ فقال: وما التحميض؟ فذكر له الدبر. فقال ابن عمر: أف! أف! أف! أيفعل ذلك مؤمن - أو قال: مسلم - فقال مالك: أشهد على ربيعة

(١) ورواه الدولابي في الكنى (٢/٨٥).

(٢) الكامل لابن عدى (٣/٢٠٦).

(٣) حديث أبي بن كعب رواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٥٤٥٧) من طريق أبي قلابة، عن زر بن حبیش، عن أبي بن كعب به.

(٤) حديث عقبة بن عامر رواه ابن عدى في الكامل (٤/١٤٨) من طريق ابن لهيعة، عن مشر بن هاعان، عن عقبة به.

(٥) في أ: «منهما». (٦) في ج: «عن أبي جرير به»، وفي أ: «عن أبي جويرية». (٧) في ج، أ: «هذا الحكم».

(٨) في ج، أ، و: «أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي الغمر».

(٩) زيادة من ج.

لأخبرني عن أبي الحباب، عن ابن عمر، مثل ما قال نافع^(١).

وروى النسائي، عن الربيع بن سليمان، عن أصبغ بن الفرّج الفقيه، حدثنا عبد الرحمن بن القاسم قال: قلت لمالك: إن عندنا بمصر الليث بن سعد يحدث عن الحارث بن يعقوب، عن سعيد^(٢) بن يسار، قال: قلت لابن عمر: إنا نشترى الجوارى، فنحمض لهن؟ قال: وما التحميص؟ قلت: نأتيهن في أدبارهن. فقال: أف! أف! أو يعمل هذا مسلم؟ فقال لي مالك: فأشهد على ربيعة لحدثني عن سعيد بن يسار أنه سأل ابن عمر، فقال: لا بأس به^(٣).

وروى النسائي أيضاً من طريق يزيد بن رومان، عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر أن ابن عمر^(٤) كان لا يرى بأساً أن يأتي الرجل المرأة في دبرها^(٥).

وروى معن^(٦) بن عيسى، عن مالك: أن ذلك حرام.

وقال أبو بكر بن زياد النيسابوري: حدثني إسماعيل بن حصن، حدثني إسماعيل^(٧) بن روح: سألت مالك بن أنس: ما تقول في إتيان النساء في أدبارهن؟ قال: ما أنتم قوم عرب. هل يكون الحرث إلا موضع الزرع، لا تعدو الفرّج.

قلت: يا أبا عبد الله، إنهم يقولون: إنك تقول ذلك؟! قال: يكذبون على، يكذبون على.

فهذا هو الثابت عنه، وهو قول أبي حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل وأصحابهم قاطبة. وهو قول سعيد بن المسيب، وأبي سلمة، وعكرمة، وطاوس، وعطاء، وسعيد بن جبيرة، وعروة بن الزبير، ومجاهد بن جبر^(٨)، والحسن وغيرهم من السلف: أنهم أنكروا ذلك أشد الإنكار، ومنهم من يطلق على فاعله^(٩) الكفر، وهو مذهب جمهور العلماء.

وقد حكى في هذا شيء عن بعض فقهاء أهل المدينة، حتى حكوه عن الإمام مالك، وفي صحته عنه نظر.

[وقد روى ابن جرير في كتاب النكاح له وجمعه عن يونس بن عبد الأحوص بن وهب بإباحته^(١٠).]

قال الطحاوي: روى أصبغ بن الفرّج، عن عبد الرحمن بن القاسم قال: ما أدركت أحداً أقتدى به في ديني يشك في أنه حلال. يعني وطء المرأة في دبرها، ثم قرأ: ﴿نَسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ ثم قال: فأى شيء أبين من هذا؟ هذه حكاية الطحاوي.

وقد روى^(١١) الحاكم، والدارقطني، والخطيب البغدادي، عن الإمام مالك من طرق ما يقتضيه

(١) تفسير الطبري (٤/٤٠٥).

(٢) في أ: «عن سفيان».

(٣) سنن النسائي الكبرى برقم (٨٩٧٩).

(٤) في أ، و: «أن عبد الله بن عمر».

(٥) سنن النسائي الكبرى برقم (٨٩٨٠).

(٦) في هـ: «معمراً والصواب ما أثبتناه من جـ، أ، و». (٧) في جـ، أ، و: «حدثني اسراويل». (٨) في جـ: «بن جبيرة».

(٩) في أ، و: «على فعله». (١٠) زيادة من جـ، أ، و. (١١) في جـ: «وقد أورد».

إباحة ذلك. ولكن فى الأسانيد ضعف شديد، وقد استقصاها شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبى فى جزء جمعه فى ذلك، فإله أعلم.

وقال الطحاوى: حكى لنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أنه سمع الشافعى يقول: ما صح عن النبى ﷺ فى تحليله ولا تحريمه شىء. والقياس أنه حلال. وقد روى ذلك أبو بكر الخطيب، عن أبى سعيد الصيرفى، عن أبى العباس الأصم، سمعت محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، سمعت الشافعى يقول... فذكر. قال أبو نصر بن الصباغ: كان الربيع يحلف بالله الذى لا إله إلا هو: لقد كذب - يعنى ابن عبد الحكم - على الشافعى فى ذلك فإن الشافعى نص على تحريمه فى ستة^(١) كتب من كتبه، والله أعلم.

وقال القرطبى فى تفسيره: ومن ينسب إليه هذا القول - وهو إباحة وطء المرأة فى دبرها - سعيد ابن المسيب ونافع وابن عمر ومحمد بن كعب القرظى وعبد الملك بن الماجشون. وهذا القول فى العتبية. وحكى ذلك عن مالك فى كتاب له أسماء كتاب السر، وحذاق أصحاب مالك ومشايخهم ينكرون ذلك الكتاب، ومالك أجل من أن يكون له كتاب السر ووقع هذا القول فى العتبية وذكر ابن العربى أن ابن شعبان أسند هذا القول إلى زمرة كبيرة من الصحابة والتابعين وإلى مالك من رواية كثيرة من كتاب جماع النسوان وأحكام القرآن هذا لفظه قال: وحكى الكياهراسى الطبرى عن محمد بن كعب القرظى أنه استدلى على جواز ذلك بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ. وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ الشعراء: [١٦٥، ١٦٦].

يعنى مثله من المباح ثم رده بأن المراد بذلك من خلق الله لهم من فروج النساء لا أدبارهن قلت: وهذا هو الصواب وما قاله القرظى. إن كان صحيحاً إليه فخطأ. وقد صنف الناس فى هذه المسألة مصنفات منهم أبو العباس القرطبى وسمى كتابه إظهار إدبار من أجاز الوطء فى الأدبار.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أى: من فعل الطاعات، مع امتثال ما نهاكم عنه من ترك المحرمات؛ ولهذا قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾ أى: فيحاسبكم على أعمالكم جميعاً. ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: المطيعين لله فيما أمرهم، التاركين ما عنه^(٢) زجرهم.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا حسين، حدثنى محمد بن كثير، عن عبد الله بن واقد، عن عطاء - قال: أراه عن ابن عباس - : ﴿وَقَدِّمُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قال: يقول: «باسم الله»، التسمية عند الجماع.

وقد ثبت فى صحيح البخارى، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتى أهله قال: باسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد فى ذلك لم يضره الشيطان أبداً»^(٣).

(١) فى ج: «فى ست».

(٢) فى أ: «ما عنهم».

(٣) صحيح البخارى برقم (١٤١).

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٢٤) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ .

يقول تعالى: لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعة لكم من البر وصلة الرحم إذا حلفتكم على تركها، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، فلا استمرار على اليمين آثم لصاحبها من الخروج منها بالتكفير. كما قال البخارى:

حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن همام بن منبه، قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة»، وقال رسول الله ﷺ: «والله لأن يلج أحدكم يمينه في أهله آثم له عند الله من أن يعطى كفارته التي افترض الله عليه». وهكذا رواه مسلم، عن محمد بن رافع^(١)، عن عبد الرزاق، به. ورواه أحمد، عنه، به^(٢).

ثم قال البخارى: حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا يحيى بن صالح، حدثنا معاوية، هو ابن سلام، عن يحيى، وهو ابن أبى كثير، عن عكرمة، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من استلج^(٣) في أهله بيمين، فهو أعظم إثماً، ليس تغنى الكفارة»^(٤).

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ قال: لا تجعلن عرضة ليمينك^(٥) ألا تصنع الخير، ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير.

وهكذا قال مسروق، والشعبى، وإبراهيم النخعى، ومجاهد، وطاوس، وسعيد بن جبیر، وعطاء، وعكرمة، ومكحول والزهرى، والحسن، وقتادة، ومقاتل بن حیان، والربيع بن أنس، والضحاك، وعطاء الخراسانى، والسدى. ويؤيد ما قاله هؤلاء الجمهور ما ثبت فى الصحيحين، عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني والله - إن شاء الله - لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذى هو خير وتحملتھا»^(٦)، وثبت فيهما أيضاً أن رسول الله ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة: «يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإذا حلفت على يمين فرأيت خيراً منها فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك»^(٧).

وروى مسلم، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً

(١) فى ج: «بن نافع».

(٢) صحيح البخارى برقم (٦٦٢٤، ٦٦٢٥) وصحيح مسلم برقم (١٦٥٥).

(٣) فى ج: «من استلج»، وفى أ: «من أسلج».

(٤) صحيح البخارى برقم (٦٦٢٦).

(٥) فى أ: «ليمينكم».

(٦) صحيح البخارى برقم (٦٦٢٣) وصحيح مسلم برقم (١٦٤٩).

(٧) صحيح البخارى برقم (٦٦٢٢، ٧١٤٦) وصحيح مسلم برقم (١٦٥٢).

منها، فليكفر عن يمينه، وليفعل الذى هو خير»^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم، حدثنا خليفة بن خياط، حدثني عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فتركها كفرتها»^(٢).

ورواه أبو داود من طريق عبيد الله بن الأخنس، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا نذر ولا يمين فيما لا يملك ابن آدم، ولا فى معصية الله، ولا فى قطعة رحم، ومن حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليدعها، وليأت الذى هو خير، فإن تركها كفرتها»^(٣).

ثم قال أبو داود: والأحاديث عن النبى ﷺ كلها: «فليكفر عن يمينه» وهى الصحاح.

وقال ابن جرير: حدثنا على بن سعيد الكندى، حدثنا على بن مسهر، عن حارثة بن محمد، عن عمرة، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على قطعة رحم أو معصية، فبره أن يحنث فيها ويرجع عن يمينه»^(٤).

وهذا حديث ضعيف؛ لأن حارثة [هذا]^(٥) هو ابن أبى الرجال محمد بن عبد الرحمن، متروك الحديث، ضعيف عند الجميع.

ثم روى ابن جرير عن ابن جبير^(٦)، وسعيد بن المسيب، ومسروق، والشعبي: أنهم قالوا: لا يمين فى معصية، ولا كفارة عليها^(٧).

وقوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ أى: لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللأغية، وهى التى لا يقصدها الخالف، بل تجرى على لسانه عادة من غير تعقيد ولا تأكيد، كما ثبت فى الصحيحين من حديث الزهرى، عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف فقال فى حلفه: واللّات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله»^(٨) فهذا قاله لقوم حديثى^(٩) عهد بجاهلية، قد أسلموا وألستهم قد ألفت ما كانت عليه من الحلف باللات من غير قصد، فأمرُوا أن يتلفظوا بكلمة الإخلاص، كما تلفظوا بتلك الكلمة من غير قصد، لتكون هذه بهذه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^(١٠) كما قال فى الآية الأخرى فى المائدة: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩].

قال أبو داود: باب لغو اليمين: حدثنا حميد بن مسعدة الشامى^(١١) حدثنا حسان - يعنى ابن

(١) صحيح مسلم برقم (١٦٥٠).

(٢) المسند (١٨٥/٢).

(٣) سنن أبى داود برقم (٣٢٧٤).

(٤) تفسير الطبرى (٤٤٢/٤).

(٥) زيادة من ج، أ.

(٦) فى ج، أ: «عن ابن عباس».

(٧) فى أ: «والكفارة منها».

(٨) صحيح البخارى برقم (٤٨٦٠، ٦٦٥٠) وصحيح مسلم برقم (١٦٤٧).

(٩) فى ج: «لقوم حديثو» وهو خطأ.

(١٠) فى أ: «والله غفور رحيم» وهو خطأ.

(١١) فى ج: «أحمد بن مسعدة الشامى».

إبراهيم - حدثنا إبراهيم - يعنى الصائغ - عن عطاء: فى اللغو فى اليمين، قال: قالت عائشة: إن رسول الله ﷺ قال: «هو كلام الرجل فى بيته: كلا والله وبلى والله»^(١).

ثم قال أبو داود: رواه داود بن أبى الفرات، عن إبراهيم الصائغ، عن عطاء، عن عائشة موقوفاً. ورواه الزهرى، وعبد الملك، ومالك بن معول، كلهم عن عطاء، عن عائشة، موقوفاً أيضاً.

قلت: وكذا رواه ابن جريج، وابن أبى ليلى، عن عطاء، عن عائشة، موقوفاً.

ورواه ابن جرير، عن هناد، عن وكيع، وعبد، وأبى معاوية، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة فى قوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] قالت: لا والله، بلى والله.

ثم رواه عن محمد بن حميد، عن سلمة، عن ابن إسحاق، عن هشام، عن أبيه، عنها. وبه، عن ابن إسحاق، عن الزهرى، عن القاسم، عنها. وبه، عن سلمة^(٢) عن ابن أبى نجیح، عن عطاء، عنها.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهرى، عن عروة^(٣)، عن عائشة فى قوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ قالت: هم القوم يتدارؤون^(٤) فى الأمر، فيقول هذا: لا والله، وبلى والله، وكلا والله يتدارؤون فى الأمر: لا تعقد عليه قلوبهم^(٥).

وقد قال ابن أبى حاتم: أخبرنا هارون بن إسحاق الهمداني، حدثنا عبدة - يعنى ابن سليمان - عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة فى قول الله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ قالت: هو قول الرجل: لا والله، وبلى والله.

وحدثنا أبى، حدثنا أبو صالح كاتب الليث، حدثنى ابن لهيعة، عن أبى الأسود، عن عروة قال: كانت عائشة تقول: إنما اللغو فى المزاحه والهزل، وهو قول الرجل: لا والله، وبلى والله. فذاك لا كفارة فيه، إنما الكفارة فيما عقد عليه قلبه أن يفعله، ثم لا يفعله.

ثم قال ابن أبى حاتم: وروى عن ابن عمر، وابن عباس فى أحد أقواله، والشعبى، وعكرمة فى أحد قوليه، وعطاء، والقاسم بن محمد، ومجاهد فى أحد قوليه، وعروة بن الزبير، وأبى صالح، والضحاك فى أحد قوليه، وأبى قلابه، والزهرى، نحو ذلك.

الوجه الثانى: قرئ على يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى الثقة، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة: أنها كانت تتأول هذه الآية - يعنى قوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ وتقول: هو الشئ يحلف عليه أحدكم، لا يريد منه إلا الصدق، فيكون على غير ما حلف عليه.

ثم قال: وروى عن أبى هريرة، وابن عباس - فى أحد قوليه - وسليمان بن يسار، وسعيد بن جبير، ومجاهد - فى أحد قوليه - وإبراهيم النخعى - فى أحد قوليه - والحسن، وزرارة بن أوفى،

(١) سنن أبى داود برقم (٣٢٥٤).

(٢) فى ج: «عن إسحاق».

(٣) فى ج: «عن عبدة».

(٤) فى ج: «يتدارؤون».

(٥) ورواه الطبرى فى تفسيره (٤٢٨/٤) من طريق عبد الرزاق به.

وأبى مالك، وعطاء الخراساني، وبكر بن عبد الله، وأحد قولى عكرمة، وحبيب بن أبى ثابت، والسدى، ومكحول، ومقاتل، وطاوس، وقتادة، والربيع بن أنس، ويحيى بن سعيد، وربيع، نحو ذلك.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن موسى الحرشى^(١)، حدثنا عبد الله بن ميمون المالى، حدثنا عوف الأعرابى عن الحسن بن أبى الحسن، قال: مر رسول الله ﷺ بقوم ينتضلون - يعنى: يرمون - ومع رسول الله ﷺ رجل من أصحابه، فرمى رجل من القوم فقال: أصبت والله وأخطأت والله. فقال الذى مع النبى ﷺ: حنث الرجل يا رسول الله. قال: «كلا، أيمان الرماة لغو لا كفارة فيها ولا عقوبة» هذا مرسل حسن عن الحسن^(٢).

وقال ابن أبى حاتم: وروى عن عائشة القولان جميعاً.

حدثنا عصام بن رواد، أخبرنا آدم، أخبرنا شيبان، عن جابر، عن عطاء بن أبى رباح، عن عائشة قالت: هو قوله: لا والله، وبلى والله، وهو يرى أنه صادق، ولا يكون كذلك.

أقوال آخر: قال عبد الرزاق، عن هشيم، عن مغيرة، عن إبراهيم: هو الرجل يحلف على الشىء ثم ينساه.

وقال زيد بن أسلم: هو قول الرجل: أعمى الله بصرى إن لم أفعل كذا وكذا، أخرجنى الله من مالى إن لم آت كذا، فهو هذا.

قال ابن أبى حاتم: وحدثنا على بن الحسين، حدثنا مسدد، حدثنا خالد، أخبرنا عطاء، عن طاوس، عن ابن عباس قال: لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان.

وأخبرنى أبى، أخبرنا أبو الجماهر، حدثنا سعيد بن بشير، حدثنى أبو بشر، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: لغو اليمين أن تحرم ما أحل الله لك، فذلك ما ليس عليك فيه كفارة، وكذا روى عن سعيد بن جبیر.

وقال أبو داود «باب اليمين فى الغضب»: حدثنا محمد بن المنهال، أنبأنا يزيد بن زريع، حدثنا حبيب المعلم، عن عمرو بن شعيب، عن سعيد بن المسيب: أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث، فسأل أحدهما صاحبه القسمة فقال: إن عدت تسألنى عن القسمة، فكل مالى فى رتاج الكعبة. فقال له عمر: إن الكعبة غنية عن مالك، كفر عن يمينك وكلم أخاك، سمعت^(٣) رسول الله ﷺ يقول: «لا يمين عليك، ولا نذر فى معصية الرب عز وجل، ولا فى قطعة الرحم، وفيما^(٤) لا تملك»^(٥).

وقوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾: قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: هو أن يحلف على الشىء وهو يعلم أنه كاذب. قال مجاهد وغيره: وهى كقوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمْ الْإِيمَانَ﴾ الآية [المائدة: ٨٩].

(١) فى ج: «الجرشى».

(٢) تفسير الطبرى (٤/٤٤٤).

(٣) فى ج: «فسمعت».

(٤) فى ج: «ولا فيما».

(٥) سنن أبى داود برقم (٣٢٧٢) ووقع فيه: «باب اليمين فى قطعة الرحم».

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى: غفور لعباده، حلیم عليهم^(١).

﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)﴾.

الإيلاء: الحلف، فإذا حلف الرجل ألا يجامع زوجته مدة، فلا يخلو: إما أن يكون أقل من أربعة أشهر، أو أكثر منها، فإن كانت أقل، فله أن ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته، وعليها أن تصبر، وليس لها مطالبتها بالفيئة^(٢) فى هذه المدة، وهذا كما ثبت فى الصحيحين عن عائشة: أن رسول الله آلى من نسائه شهراً، فنزل لتسع وعشرين، وقال: «الشهر تسع^(٣) وعشرون»^(٤) ولهما عن عمر بن الخطاب نحوه^(٥). فأما إن زادت المدة على أربعة أشهر، فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر: إما أن يفىء - أى: يجامع - وإما أن يطلق، فيجبره الحاكم على هذا أو هذا لئلا يضر بها. ولهذا قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ أى: يحلفون على ترك الجماع من نسائهم، فيه دلالة على أن الإيلاء يختص بالزوجات دون الإماء كما هو مذهب الجمهور. ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ أى: ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف، ثم يوقف ويطالب بالفيئة^(٦) أو الطلاق. ولهذا قال: ﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾ أى: رجعوا إلى ما كانوا عليه، وهو كناية عن الجماع، قاله ابن عباس، ومسروق والشعبي، وسعيد بن جبير، وغير واحد، ومنهم ابن جرير رحمه الله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى: لما سلف من التقصير فى حقهن بسبب اليمين.

وقوله: ﴿فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فيه دلالة لأحد قولى العلماء - وهو القديم عن الشافعى: أن المولى^(٧) إذا فاء بعد الأربعة الأشهر^(٨) أنه لا كفارة عليه. ويعتضد بما تقدم فى الآية التى قبلها، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فتركها كفارتها»^(٩)، كما رواه أحمد وأبو داود^(١٠) والذى عليه الجمهور وهو الجديد من مذهب الشافعى أن عليه الكفارة لعموم وجوب التكفير على كل حالف، كما تقدم أيضاً فى الأحاديث الصحاح. والله أعلم.

وقد ذكر الفقهاء وغيرهم - فى مناسبة تأجيل^(١١) المولى بأربعة أشهر - الأثر الذى رواه الإمام مالك بن أنس، رحمه الله، فى الموطأ، عن عمرو^(١٢) بن دينار قال: خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول:

تطاوَلَ هذا الليلُ واسودَّ جانبُهُ وأرقتى ألا خليلَ الأعبِ
فوالله لولا الله أنى أراقبُهُ لحركتُ من هذا السريرِ جوانبِهِ

(١) فى ج: «حلیم عنهم». (٢) فى ج: «بالفىء». (٣) فى أ، و: «الشهر يكون تسع».

(٤) صحيح مسلم برقم (١٤٧٥) وهو عند البخارى من حديث أم سلمة برقم (٥٢٠٢).

(٥) صحيح البخارى برقم (٥١٩١) وصحيح مسلم برقم (١٤٧٩).

(٦) فى ج: «بالفىء». (٧) فى ج: «الآلى». (٨) فى ج: «الأربعة أشهر».

(٩) فى أ: «فتركها كفارة».

(١٠) المسند (١٨٥/٢) وسنن أبى داود برقم (٣٢٧٤).

(١١) فى ج: «تأخير». (١٢) فى أ، و: «عن عبد الله».

فسأل عمر ابنته حفصة، رضى الله عنها: كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت: ستة أشهر أو أربعة أشهر. فقال عمر: لا أحبس أحداً من الجيوش أكثر من ذلك^(١).

وقال: محمد بن إسحاق، عن السائب بن جبير، مولى ابن عباس - وكان قد أدرك أصحاب النبي ﷺ - قال: ما زلت أسمع حديث عمر أنه خرج ذات ليلة يطوف بالمدينة، وكان يفعل ذلك كثيراً؛ إذ مر بامرأة من نساء العرب^(٢) مغلقة بابها [وهى]^(٣) تقول.

تطاول هذا الليل وازورّ جانبه	وأرقنى ألا ضجيجَ الأعبُـه
ألاعبه طوراً وطوراً كأنما	بدا قمرأً فى ظلمة الليل حاجبه
يسرّ به من كان يلهو بقربه	لطيف الحشا لا يحتويه أقاربه
فوالله لولا الله لا شئ غيره	لنقض من هذا السرير جوانبه
ولكننى أخشى رقيباً موكلأ	بأنفسنا لا يفتّر الدهر كتابه

ثم ذكر بقية ذلك كما تقدم، أو نحوه^(٤). وقد روى هذا من طرق، وهو من المشهورات^(٥).

وقوله: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾: فيه دلالة على أنه لا يقع الطلاق^(٦) بمجرد مضي الأربعة أشهر كقول الجمهور^(٧)، وذهب آخرون إلى أنه يقع بمضي الأربعة أشهر تطليقة، وهو مروي بأسانيد صحيحة عن عمر، وعثمان، وعلى، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وزيد بن ثابت، وبه يقول ابن سيرين، [ومسروق]^(٨) والقاسم، وسالم والحسن، وأبو سلمة، وقتادة، وشريح القاضي، وقبيصة بن ذؤيب، وعطاء، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وسليمان بن طرخان التيمي، وإبراهيم النخعي، والربيع بن أنس، والسدى.

ثم قيل: إنها تطلق بمضي الأربعة أشهر طلقة رجعية؛ قاله سعيد بن المسيب، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، ومكحول، وربيعة، والزهرى، ومروان بن الحكم. وقيل إنها تطلق طلقة بائنة، روى عن على، وابن مسعود، وعثمان، وابن عباس، وابن عمر، وزيد بن ثابت، وبه يقول: عطاء وجابر بن زيد، ومسروق وعكرمة، والحسن، وابن سيرين، ومحمد بن الحنفية، وإبراهيم، وقبيصة بن ذؤيب، وأبو حنيفة، والثورى، والحسن بن صالح، وكل من قال: إنها^(٩) تطلق بمضي الأربعة أشهر أوجب عليها العدة، إلا ما روى عن ابن عباس وأبى الشعثاء: أنها إن كانت حاضت ثلاث حيض فلا عدة عليها، وهو قول الشافعى، والذي عليه الجمهور^(١٠) أنه يوقف فيطالب إما بهذا أو هذا^(١١)، ولا يقع عليها^(١٢) بمجرد مضيها طلاق.

(١) ذكره الحافظ ابن كثير فى مسند الفاروق (٤٢٢/١) ونقله القرطبى فى التفسير (١٠٨/٣).

(٢) فى ج: «من نساء الغزاة».

(٣) زيادة من ج، أ، و.

(٤) ذكره الحافظ ابن كثير فى مسند الفاروق (٤٢٢/١).

(٥) فى ج: «من المشهور».

(٦) فى ج: «لا يقع شئ».

(٧) فى أ: «الجمهور من المتأخرين».

(٨) فى أ: «بأنها».

(٩) فى ج، أ: «أو بهذا».

(١٠) فى ج، أ: «الجمهور من المتأخرين».

(١١) فى ج، أ: «عليه».

وروى مالك، عن نافع، عن عبد الله بن عمر أنه قال: إذا ألقى الرجل من امرأته لم يقع عليه طلاق وإن مضت أربعة أشهر، حتى يوقف، فإما أن يطلق، وأما أن يفى. وأخرجه البخاري^(١).

وقال الشافعي، رحمه الله: أخبرنا سفيان بن عيينة، عن يحيى بن سعيد، عن سليمان بن يسار قال: أدركت بضعة عشر من أصحاب النبي ﷺ كلهم يوقف المولى قال الشافعي: وأقل ذلك ثلاثة عشر. ورواه الشافعي عن علي بن رضى الله عنه: أنه وقف المولى. ثم قال: وهكذا نقول، وهو موافق لما روينا عن عمر، وابن عمر، وعائشة، وعن عثمان، وزيد بن ثابت، وبضعة عشر من أصحاب النبي ﷺ. هكذا قال الشافعي، رحمه الله.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن عمر، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه قال: سألت اثني عشر رجلاً من الصحابة عن الرجل يولى من امرأته، فكلهم يقول: ليس عليه شيء حتى تمضي أربعة أشهر فيوقف، فإن فاء وإلا طلق.

ورواه الدارقطني من طريق سهيل.

قلت: وهو مروى عن عمر، وعثمان، وعلي، وأبي الدرداء، وعائشة أم المؤمنين، وابن عمر، وابن عباس. وبه يقول سعيد بن المسيب، وعمر بن عبد العزيز، ومجاهد، وطاوس، ومحمد بن كعب، والقاسم. وهو مذهب مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وأصحابهم، رحمهم الله، وهو اختيار ابن جرير أيضاً، وهو قول الليث [بن سعد]^(٢)، وإسحاق بن راهويه، وأبي عبيد، وأبي ثور، وداد، وكل هؤلاء قالوا: إن لم يفى ألزم بالطلاق، فإن لم يطلق عليه الحاكم، والطلقة تكون رجعية له رجعتها في العدة.

وانفرد مالك بأن قال: لا يجوز له رجعتها حتى يجامعها في العدة وهذا غريب جداً.

﴿وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبَعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٢٨).

هذا الأمر من الله سبحانه وتعالى للمطلقات المدخول بهن من ذوات الأقراء، بأن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء، أى: بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء؛ ثم تتزوج إن شاءت، وقد أخرج الأئمة الأربعة من هذا العموم الأمة إذا طُلِّقت، فإنها تعتدّ عندهم بقرءين، لأنها على النصف من الحرية، والقرء لا يتبعض^(٣)، فكمّل لها قرءان. ولما رواه ابن جريح عن مظاهر بن أسلم^(٤) المخزومي المدني، عن القاسم، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: « طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حیضتان ».

(١) الموطأ (٢/٥٥٦) وصحيح البخاري برقم (٥٢٩١).

(٢) زيادة من جـ.

(٣) فى جـ: « لا يتقصص ».

(٤) فى جـ: « عن عطاء هو ابن أسلم ».

رواه أبو داود، والترمذى وابن ماجه^(١). ولكن مظاهر هذا ضعيف بالكلية. وقال الحافظ الدارقطنى وغيره: الصحيح أنه من قول القاسم بن محمد نفسه.

ورواه ابن ماجه من طريق عطية العوفى عن ابن عمر مرفوعاً^(٢). قال الدارقطنى: والصحيح ما رواه سالم ونافع، عن ابن عمر قوله. وهكذا روى عن عمر بن الخطاب. قالوا: ولم يعرف بين الصحابة خلاف. وقال بعض السلف: بل عدتها كعدة الحرة لعموم الآية؛ ولأن هذا أمر جبلى^(٣) فكان الإمام والخراثر^(٤) فى هذا سواء، والله أعلم، حكى هذا القول الشيخ أبو عمر بن عبد البر، عن محمد بن سيرين وبعض أهل الظاهر، وضعفه.

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو اليمان، حدثنا إسماعيل - يعنى ابن عيَّاش^(٥) - عن عمرو بن مهاجر، عن أبيه: أن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية قالت: طُلِّقت على عهد رسول الله ﷺ، ولم يكن للمطلقة عدة، فأنزل الله، عز وجل، حين طُلِّقت أسماء العدة للطلاق، فكانت أول من نزلت فيها العدة للطلاق، يعنى: ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾^(٦).

هذا حديث غريب من هذا الوجه.

وقد اختلف السلف والخلف والأئمة فى المراد بالأقراء ما هو^(٧)؟ على قولين:

أحدهما: أن المراد بها: الأطهار، وقال مالك فى الموطأ عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة أنها قالت: انتقلت حفصة بنت عبد الرحمن بن أبى بكر، حين دخلت فى الدم من الحيضة الثالثة، قال الزهرى: فذكرت ذلك لعمرة بنت عبد الرحمن، فقالت: صدق عروة. وقد جادلها فى ذلك ناس فقالوا: إن الله تعالى يقول فى كتابه: ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ فقالت عائشة: صدقتم، وتدرون ما الأقراء؟ إنما الأقراء: الأطهار^(٨).

وقال مالك: عن ابن شهاب، سمعت أبا بكر بن عبد الرحمن يقول: ما أدركت أحداً من فقهاءنا إلا وهو يقول ذلك، يريد قول عائشة. وقال مالك: عن نافع، عن عبد الله بن عمر، أنه كان يقول: إذا طلق الرجل امرأته فدخلت فى الدم من الحيضة الثالثة فقد برئت منه وبرئ منها. وقال مالك: وهو الأمر عندنا. وروى مثله عن ابن عباس وزيد بن ثابت، وسالم، والقاسم، وعروة، وسليمان بن يسار، وأبى بكر بن عبد الرحمن، وأبان بن عثمان، وعطاء ابن أبى رباح، وقتادة، والزهرى، وبقية الفقهاء السبعة، وهو مذهب مالك، والشافعى [وغير واحد وداود وأبى ثور، وهو رواية عن أحمد، واستدلوا عليه بقوله تعالى: ﴿فَطَلَّوْهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١] أى: فى الأطهار. ولما كان الطهر الذى يطلق فيه محتسباً، دل على أنه أحد الأقراء الثلاثة المأمور بها؛ ولهذا قال هؤلاء: إن المعتدة

(١) سنن أبى داود برقم (٢١٨٩) وسنن الترمذى برقم (١١٨٢) وسنن ابن ماجه برقم (٢٠٨٠).

(٢) سنن ابن ماجه برقم (٢٠٧٩).

(٥) فى أ: «ابن عباس».

(٤) فى ج: «الأحرار والإمام».

(٣) فى ج: «جبلى».

(٦) ورواه أبو داود فى السنن برقم (٢٢٨١) من طريق يحيى بن صالح، عن إسماعيل بن عيَّاش بـ.

(٧) فى أ: «ما هي».

(٨) الموطأ (٢/ ٥٧٧).

تنقضى عدتها وتبين من زوجها بالطعن في الحيضة الثالثة، وأقل مدة تصدق فيها المرأة في انقضاء عدتها اثنان وثلاثون يوماً ولحظتان^(١).

واستشهد أبو عبيد وغيره على ذلك بقول الشاعر - وهو الأعشى -:

ففى كل عام أنت جاشمُ غزوة تشدّ لأقصاها عزيمَ عزائك
مُورثةً عدّاً، وفى الحى رفعة لما ضاع فيها من قُروء نساك^(٢)

يمدح أميراً من أمراء العرب أثر الغزو على المقام، حتى ضاعت أيام الطهر من نسائه لم يواقعهن فيها.

والقول الثانى: أن المراد بالأقراء: الحيض، فلا تنقضى العدة حتى تطهر من الحيضة الثالثة، زاد آخرون: وتغتسل منها. وأقل وقت تصدق فيه المرأة في انقضاء عدتها ثلاثة وثلاثون يوماً ولحظة. قال الثورى: عن منصور، عن إبراهيم، عن علقمة قال: كنا عند عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فجاءته امرأة فقالت: إن زوجى فارقتى بواحدة أو اثنتين^(٣)، فجاءنى [وقد وضعت مائى]^(٤) وقد نزعت ثيابى وأغلقت بابى. فقال عمر لعبد الله - يعنى ابن مسعود - [ما ترى؟ قال]^(٥): أراها امرأته، ما دون أن تحل لها الصلاة. قال [عمر]:^(٦) وأنا أرى ذلك^(٧).

وهكذا^(٨) روى عن أبى بكر الصديق، وعمر، وعثمان، وعلى، وأبى الدرداء، وعبادة بن الصامت، وأنس بن مالك، وابن مسعود، ومعاذ، وأبى بن كعب، وأبى موسى الأشعرى، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وعلقمة، والأسود، وإبراهيم، ومجاهد، وعطاء، وطاوس، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومحمد بن سيرين، والحسن، وقتادة، والشعبى، والربيع، ومقاتل بن حيان، والسدى، ومكحول، والضحاك، وعطاء الخراسانى، أنهم قالوا: الأقراء: الحيض.

وهذا مذهب أبى حنيفة وأصحابه، وأصح الروايتين عن الإمام أحمد بن حنبل، وحكى عنه الأثرم أنه قال: الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: الأقراء الحيض. وهو مذهب الثورى، والأوزاعى، وابن أبى ليلى، وابن شبرمة، والحسن بن صالح بن حى، وأبى عبيد، وإسحاق بن راهويه.

ويؤيد هذا ما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود والنسائى، من طريق المنذر بن المغيرة، عن عروة بن الزبير، عن فاطمة بنت أبى حبيش^(٩)، أن رسول الله ﷺ قال لها: «دعى الصلاة أيام

(١) زيادة من ج، أ.

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٥١٢/٤).

(٣) فى ج: «أو اثنتين».

(٤-٦) زيادة من تفسير الطبرى (٥٠٣/٤).

(٧) رواه الطبرى فى تفسيره (٥٠٣/٤).

(٨) فى ج: «وهذا».

(٩) فى ج: «حسن».

أقرائك»^(١). فهذا لو صح لكان صريحاً في أن القرء هو الحيض، ولكن المنذر هذا قال فيه أبو حاتم: مجهول ليس بمشهور. وذكره ابن حبان في الثقات.

وقال ابن جرير: أصلُ القرء في كلام العرب: «الوقت لمجيء الشيء المعتاد مجيئه في وقت معلوم، ولإدبار الشيء المعتاد إدباره لوقت معلوم». وهذه العبارة تقتضي أن يكون مشتركاً بين هذا وهذا، وقد ذهب إليه بعض [العلماء] ^(٢) الأصوليين فالله أعلم. وهذا قول الأصمعي: أن القرء هو الوقت. وقال أبو عمرو بن العلاء: العرب تسمى الحيض: قرءاً، وتسمى الطهر: قرءاً، وتسمى الحيض مع الطهر جميعاً: قرءاً. وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر: لا يختلف أهل العلم بلسان العرب والفقهاء أن القرء يراد به الحيض ويراد به الطهر، وإنما اختلفوا في المراد من الآية ما هو على قولين.

وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ أي: من حبَل أو حيض. قاله ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، والشعبي، والحكم بن عيينة ^(٣)، والربيع بن أنس، والضحاك، وغير واحد.

وقوله: ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: تهديد لهن على قول خلاف الحق. ودل هذا على أن المرجع في هذا إليهن؛ لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتين، وتتعد إقامة البينة غالباً على ذلك، فرد الأمر إليهن، وتوعدن فيه، لئلا تخبر بغير الحق إما استعجالاً منها لانقضاء العدة، أو رغبة منها في تطويلها، لما لها في ذلك من المقاصد ^(٤). فأمرت أن تخبر بالحق في ذلك من غير زيادة ولا نقصان.

وقوله: ﴿وَيُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ أي: وزوجها الذي طلقها أحق بردتها ما دامت في عدتها، إذا كان مراده بردها الإصلاح والخير. وهذا في الرجعات. فأما المطلقات البوائن فلم يكن حال نزول هذه الآية مطلقة بائن، وإنما صار ذلك لما حُصروا في الطلقات الثلاث، فأما حال نزول هذه الآية فكان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة، فلما قصرُوا في الآية التي بعدها على ثلاث طلقات ^(٥)، صار للناس مطلقة بائن وغير بائن. وإذا تأملت هذا تبين لك ضعف ما سلكه بعض الأصوليين، من استشهادهم على مسألة عود الضمير - هل يكون مخصصاً لما تقدمه من لفظ العموم أم لا؟ - بهذه الآية الكريمة، فإن التمثيل بها غير مطابق لما ذكره، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن، فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه بالمعروف، كما ثبت في صحيح مسلم، عن جابر، أن رسول الله ﷺ قال في خطبته، في حجة الوداع: «فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف» ^(٦). وفي حديث بهز بن حكيم، عن معاوية بن حيدة القشيري، عن أبيه، عن جده، أنه قال: يا رسول الله، ما حق زوجة أحدنا؟

(١) سنن أبي داود برقم (٢٨٠) وسنن النسائي (١٢١/١).

(٢) في ج: «بن قتيبة».

(٤) في أ: «من المفاسد».

(٥) زيادة من ج.

(٥) في أ: «ثلاث تطليقات».

(٦) صحيح مسلم برقم (١٢١٨).

قال: « أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت»^(١). وقال وكيع عن بشير بن سليمان، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: إني لأحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تزين لي المرأة؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَاللِّرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي: في الفضيلة في الخلق، والمنزلة، وطاعة الأمر، والإنفاق، والقيام بالمصالح، والفضل في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عزيز في انتقامه من عصاه وخالف أمره، حكيم^(٢) في أمره وشرعه وقدره.

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠)﴾.

هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته، وإن طلقها مائة مرة ما دامت في العدة، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهم الله عز وجل إلى ثلاث طلاقات، وأباح الرجعة في المرة والثنتين، وأبانها بالكلية في الثالثة، فقال: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾.

قال أبو داود، رحمه الله، في سننه: «باب في نسخ المراجعة بعد الطلاقات الثلاث»: حدثنا أحمد ابن محمد المروزي، حدثني علي بن الحسين بن واقد، عن أبيه، عن يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ^(٣)﴾ الآية: وذلك أن الرجل كان إذا طلق امرأته فهو أحق برجعته، وإن طلقها ثلاثاً، فنسخ ذلك فقال^(٤): ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ الآية.

ورواه النسائي عن زكريا بن يحيى، عن إسحاق بن إبراهيم، عن علي بن الحسين، به^(٥).

(١) رواه أبو داود في السنن برقم (٢١٤٣).

(٢) في ج: «وحكيم».

(٣) بعدها في ج: «إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر».

(٤) في ج: «فقال الله».

(٥) سنن أبي داود برقم (٢١٩٥) وسنن النسائي (٢١٢/٦).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا عبدة - يعني ابن سليمان - عن هشام بن عروة، عن أبيه، أن رجلاً قال لامرأته: لا أطلقك أبداً ولا أؤويك أبداً. قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلقك، حتى إذا دنا أجلك راجعتك. فأتت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك^(١)، فأنزل الله عز وجل: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾.

وهكذا رواه ابن جرير في تفسيره من طريق جرير بن عبد الحميد، وابن إدريس. ورواه عبد بن حميد في تفسيره، عن جعفر بن عون، كلهم عن هشام، عن أبيه. قال: كان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها ما شاء، ما دامت في العدة، وإن رجلاً من الأنصار غضب على امرأته فقال: والله لا أؤويك ولا أفارقك. قالت: وكيف ذلك. قال: أطلقك فإذا دنا أجلك راجعتك، ثم أطلقك، فإذا دنا أجلك راجعتك. فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ قال: فاستقبل الناس الطلاق، من كان طلق ومن لم يكن طلق.

وقد رواه أبو بكر بن مردويه، من طريق محمد بن سليمان، عن يعلى بن شبيب - مولى الزبير - عن هشام، عن أبيه، عن عائشة فذكره بنحو ما تقدم. ورواه الترمذي، عن قتيبة، عن يعلى بن شبيب به. ثم رواه عن أبي كريب، عن ابن إدريس، عن هشام، عن أبيه مرسلاً. وقال: هذا أصح^(٢). ورواه الحاكم في مستدركه، من طريق يعقوب بن حميد بن كاسب، عن يعلى بن شبيب به، وقال صحيح الإسناد^(٣).

ثم قال ابن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا إسماعيل بن عبد الله، حدثنا محمد بن حميد، حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحاق، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: لم يكن للطلاق وقت، يطلق الرجل امرأته ثم يراجعها ما لم تنقض العدة، وكان بين رجل من الأنصار وبين أهله^(٤) بعض ما يكون بين الناس^(٥)، فقال: والله لأتركك لا أيماً ولا ذات زوج، فجعل يطلقها حتى إذا كادت^(٦) العدة أن تنقضي راجعها، ففعل ذلك مراراً، فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ﴾. فوقت الطلاق ثلاثاً لا رجعة فيه بعد الثالثة، حتى تنكح زوجاً غيره. وهكذا روى عن قتادة مرسلاً. وذكره السدي، وابن زيد، وابن جرير كذلك، واختار أن هذا تفسير^(٧) هذه الآية.

وقوله: ﴿فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ﴾ أي: إذا طلقته^(٨) واحدة أو اثنتين، فأنت مخير فيها^(٩) ما دامت عدتها باقية، بين أن تردها إليك ناوياً بالإصلاح بها والإحسان إليها، وبين أن تتركها حتى تنقضي عدتها، فتبين منك، وتطلق سراحها محسناً إليها، لا تظلمها من حقها شيئاً، ولا

(١) في ج: «ذلك له».

(٢) سنن الترمذي برقم (١١٩٢) ورواه مالك في الموطأ (٥٨٨/٢) عن هشام بن عروة، عن أبيه به مرسلاً.

(٣) المستدرک (٢٧٩/٢) وتعقبه الذهبي بأن يعقوب بن حميد ضعفه غير واحد.

(٤) في أ: «وبين امرأته».

(٥) في أ: «بين النساء».

(٦) في أ: «إذا كانت».

(٧) في ج: «إذا طلقها».

(٨) في أ: «أن هذا تفسيره».

(٩) في أ: «مخير فيهما».

تُضَارَّ بها.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: إذا طلق الرجل امرأته تطليقتين، فليتيق الله في الثالثة، فإما^(١) أن يمسخها بمعروف فيحسن صحابتهما^(٢)، أو يسرحها [بإحسان]^(٣) فلا يظلمها من حقها شيئاً.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أخبرنا ابن وهب، أخبرني سفيان الثوري، حدثني إسماعيل بن سميع، قال: سمعت أبا رزين يقول: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت قول الله عز وجل: ﴿فَأَمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ﴾ أين الثالثة؟ قال: «التسريح بإحسان».

ورواه عبد بن حميد في تفسيره، ولفظه: أخبرنا يزيد بن أبي حكيم، عن سفيان، عن إسماعيل ابن سميع، أن أبا^(٤) رزين الأسدي يقول: قال رجل: يا رسول الله، أرأيت قول الله: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾، فأين الثالثة؟ قال: «التسريح بإحسان الثالثة»^(٥).

ورواه الإمام أحمد أيضاً. وهكذا رواه سعيد بن منصور، عن خالد بن عبد الله، عن إسماعيل بن زكريا وأبي معاوية، عن إسماعيل بن سميع، عن أبي رزين، به^(٦). وكذا رواه قيس بن الربيع، عن إسماعيل بن سميع عن أبي رزين به مراسلاً. ورواه ابن مردويه [أيضاً]^(٧) من طريق عبد الواحد^(٨) ابن زياد، عن إسماعيل بن سميع، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ، فذكره^(٩). ثم قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن عبد الرحيم، حدثنا أحمد بن يحيى، حدثنا عبيد الله بن جرير بن جبلة^(١٠)، حدثنا ابن عائشة^(١١)، حدثنا حماد بن سلمة، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ذكر الله الطلاق مرتين، فأين الثالثة؟ قال: «إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان»^(١٢).

وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾^(١٣) أي: لا

(١) في ج: «فلها». (٢) في ج: «صحابتها». (٣) زيادة من ج، أ، و.

(٤) في ج: «عن إسماعيل سمع أبا».

(٥) ورواه الطبري في تفسيره (٥٤٥/٤) من طريق يحيى بن سعيد وابن مهدي، كلاهما عن سفيان الثوري به.

(٦) ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٣٤٠/٧) من طريق سعيد بن منصور به، ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (٢٥٩/٥) عن أبي معاوية به.

(٧) زيادة من و. (٨) في ج: «من طريق عبد الرحمن».

(٩) ورواه الدارقطني في السنن (٤١٤) من طريق ليث بن حماد، عن عبد الواحد بن زياد به، وقال: «كذا قال عن أنس، والصواب عن إسماعيل بن سميع عن أبي رزين مرسل عن النبي ﷺ».

(١٠) في ج: «عبيد الله بن جرير بن خالد»، وفي أ: «عبد الله بن جرير بن صلة».

(١١) في ج: «ابن عيينة».

(١٢) ورواه الدارقطني في السنن (٤، ٣/٤) من طريق عبد الله بن جرير بن جبلة به، وصححه ابن القطان في بيان الوهم والإيهام، وانظر كلامه في تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي (١٤٢/١).

(١٣) زيادة من ج.

يحل لكم أن تُصَاجِرُوهُنَّ وَتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ، لِيَفْتَدِينَ مِنْكُمْ بِمَا أُعْطِيْتُمُوهُنَّ مِنَ الْأَصْدَقَةِ أَوْ يَبْعُضَهُ، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ﴾ [النساء: ١٩]، فأما إن وهبته المرأة شيئاً عن طيب نفس منها. فقد قال تعالى: ﴿فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤]، وأما إذا تشاقق الزوجان، ولم تقم المرأة بحقوق الرجل وأبغضته ولم تقدر على معاشرته، فلها أن تفتدى منه بما أعطاها، ولا حرج عليها في بذلها، ولا عليه في قبول ذلك منها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ الآية.

فأما إذا لم يكن لها عذر وسألت الافتداء منه، فقد قال ابن جرير:

حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الوهاب - وحدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية - قالوا جميعاً: حدثنا أيوب، عن أبي قلابة، عن ثوبان، عن رسول الله ﷺ قال: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلْتَ زَوْجَهَا طَلَاقَهَا مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ^(١)، فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ»^(٢).

وهكذا رواه الترمذی، عن بندار، عن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي به^(٣). وقال حسن: قال: ويروى، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان. ورواه بعضهم، عن أيوب بهذا الإسناد. ولم يرفعه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن أبي قلابة - قال: وذكر أبا أسماء وذكر ثوبان - قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلْتَ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ فِي غَيْرِ مَا بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ».

وهكذا رواه أبو داود، وابن ماجه، وابن جرير، من حديث حماد بن زيد، به^(٤).

طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن ليث، عن أبي إدريس، عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلْتَ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ فِي غَيْرِ مَا بَأْسٍ، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهَا رَائِحَةَ الْجَنَّةِ». وقال: «المختلعات هن المنافقات»^(٥).

ثم رواه ابن جرير والترمذی جميعاً، عن أبي كريب، عن مزاحم بن ذؤاد بن عُلْبَةَ، عن أبيه، عن ليث، هو ابن أبي سليم^(٦)، عن أبي الخطاب، عن أبي زُرْعَةَ، عن أبي إدريس، عن ثوبان قال:

(١) في ج: «في غير ما بأس».

(٢) تفسير الطبري (٤/٥٦٩).

(٣) سنن الترمذی برقم (١١٨٧).

(٤) المسند (٥/٢٣٨) وسنن أبي داود برقم (٢٢٢٦) وسنن ابن ماجه برقم (٢٠٥٥) وتفسير الطبري (٤/٥٧٠).

(٥) تفسير الطبري (٤/٥٦٨).

(٦) في ج: «عن ليث هو ابن القاسم بن أبي سليم».

قال رسول الله ﷺ: «المختلعات هن المنافقات». ثم قال الترمذى: غريب من هذا الوجه، وليس إسناده بالقوى^(١).

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب حدثنا حفص بن بشر، حدثنا قيس بن الربيع، عن أشعث بن سوار، عن الحسن^(٢)، عن ثابت بن يزيد، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المختلعات المنتزعات هن المنافقات»^(٣).

غريب من هذا الوجه ضعيف .

حديث آخر: قال ابن ماجه: حدثنا بكر بن خلف أبو^(٤) بشر، حدثنا أبو عاصم، عن جعفر بن يحيى بن ثوبان، عن عمه عمار بن ثوبان، عن عطاء، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسأل امرأة زوجها الطلاق فى غير كُنْهِهِ فَتَجِدَ رِيحَ الْجَنَّةِ، وإن ريحها ليوجد»^(٥) من مسيرة أربعين عاماً^(٦).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا أيوب، عن الحسن عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ: «المختلعات والمنتزعات هن المنافقات»^(٧).

ثم قد قال طائفة كثيرة من السلف وأئمة الخلف: إنه لا يجوز الخلع إلا أن يكون الشقاق والنشوز من جانب المرأة، فيجوز للرجل حينئذ قبول الفدية، واحتجوا بقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا [إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ] ^(٨)﴾ الآية. قالوا: فلم يشرع الخلع إلا فى هذه الحالة، فلا يجوز فى غيرها إلا بدليل، والأصل عدمه، ومن ذهب إلى هذا ابن عباس، وطاوس، وإبراهيم، وعطاء، [والحسن]^(٩)، والجمهور حتى قال مالك والأوزاعى: لو أخذ منها شيئاً وهو مضار لها وجب رده إليها، وكان الطلاق رجعياً. قال مالك: وهو الأمر الذى أدركت الناس عليه^(١٠). وذهب الشافعى، رحمه الله، إلى أنه يجوز الخلع فى حالة الشقاق، وعند الاتفاق بطريق الأولى والأخرى، وهذا قول جميع أصحابه قاطبة. وحكى الشيخ أبو عمر بن عبد البر فى كتاب «الاستذكار» له، عن بكر بن عبد الله المزنى، أنه ذهب إلى أن الخلع منسوخ بقوله: ﴿وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ [النساء: ٢٠]. ورواه ابن جرير عنه^(١١). وهذا قول ضعيف ومأخذ مردود على قائله. وقد ذكر ابن جرير، رحمه الله، أن هذه الآية نزلت فى شأن^(١٢) ثابت بن قيس بن شماس وامراته حبيبة بنت عبد الله بن أبى بن سلول. ولنذكر طرق حديثها، واختلاف ألفاظه:

(١) تفسير الطبرى (٥٦٨/٤) وسنن الترمذى برقم (١١٨٦).

(٢) فى ج: «عن الحسين».

(٣) تفسير الطبرى (٥٦٨/٤).

(٤) فى ج: «توجد».

(٦) سنن ابن ماجه برقم (٢٠٥٤) وقال البوصيرى فى الزوائد (١٣٣/٢): «هذا إسناده ضعيف».

(٧) المسند (٤١٤/٢) وهو منقطع، الحسن لم يسمع من أبى هريرة، وانظر كلام الحافظ ابن حجر فى الفتوح (٤٠٣/٩).

(٨) زيادة من ج. (٩) زيادة من ج، أ، و. (١٠) فى ج: «أدركت عليه الناس».

(١١) تفسير الطبرى (٥٨٠/٤).

(١٢) فى ج: «فى بيان».

قال الإمام مالك في موطنه : عن يحيى بن سعيد، عن عَمْرَةَ بنت عبد الرحمن بن سعد^(١) بن زرارة، أنها أخبرته عن حبيبة بنت سهل الأنصارية، أنها كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس، وأن رسول الله ﷺ خرج إلى الصَّحْبِ فوجد حبيبة بنت سهل عند بابه في الغَلَسِ، فقال رسول الله ﷺ: «من هذه؟» قالت: أنا حبيبة بنت سهل. فقال: «ما شأنك؟» فقالت: لا أنا ولا ثابت بن قيس - لزوجها - فلما جاء زوجها ثابت بن قيس قال له رسول الله ﷺ: «هذه حبيبة بنت سهل قد ذكرت ما شاء الله أن تذكر». فقالت حبيبة: يا رسول الله، كل ما أعطاني عندي. فقال رسول الله ﷺ: «خذ منها». فأخذ منها وجلست في أهلها.

وهكذا رواه الإمام أحمد، عن عبد الرحمن بن مهدي، عن مالك بإسناده - مثله^(٢). ورواه أبوداود، عن القعنبي، عن مالك. والنسائي، عن محمد بن مسلمة، عن ابن القاسم، عن مالك به^(٣).

حديث آخر: عن عائشة: قال أبو داود وابن جرير: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا أبو عامر، حدثنا أبو عمرو السدوسي، عن عبد الله - يعنى ابن أبي بكر - عن عمرة، عن عائشة، أن حبيبة بنت سهل كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس، فضربها فكسر نُغْضَها^(٤)، فأنت رسول الله ﷺ بعد الصبح فاشتكت إليه، فدعا رسول الله ﷺ ثابتاً^(٥) فقال: «خذ بعض مالها وفارقها». قال: ويصلح ذلك يا رسول الله؟ قال: «نعم». قال: فإنني أصدقتهما حديقتين، فهما بيدها. فقال النبي ﷺ: «خذهما وفارقها». ففعل^(٦).

وهذا لفظ ابن جرير. وأبو عمرو السدوسي هو سعيد بن سلمة بن أبي الحسام.

حديث آخر فيه: عن ابن عباس رضي الله عنه:

قال البخاري: حدثنا أزهر بن جميل، حدثنا عبد الوهاب الثقفي، حدثنا خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله، ما أعتب عليه في خلق ولا دين، ولكنني أكره الكفر في الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «أتردين عليه حقيقته؟» قالت: نعم. قال رسول الله ﷺ: «أقبل الحديقة وطلقها تطليقة»^(٧).

وكذا رواه النسائي، عن أزهر بن جميل بإسناده، مثله^(٨). ورواه البخاري أيضاً، عن إسحاق الواسطي، عن خالد هو ابن عبد الله الطحان، عن خالد، هو ابن مهران الحذاء، عن عكرمة به،

(١) في ج: «بن أسعد».

(٢) الموطأ (٥٦٤/٢) والمسند (٤٣٣/٦).

(٣) سنن أبي داود برقم (٢٢٢٧) وسنن النسائي (١٦٩/٦).

(٤) في ج، و: «فكسر بعضها».

(٥) في ج، أ، و: «ثابت» وهو خطأ.

(٦) سنن أبي داود برقم (٢٢٢٨) وتفسير الطبري (٥٥٤/٤).

(٧) صحيح البخاري برقم (٥٢٧٣).

(٨) سنن النسائي (١٦٩/٦).

نحوه^(١).

وهكذا رواه البخارى أيضاً من طرق، عن أيوب، عن عكرمة، عن ابن عباس، به^(٢). وفى بعضها أنها قالت: لا أطيعه، تعنى: بغضاً. وهذا الحديث من أفراد البخارى من هذا الوجه.

ثم قال: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب، عن عكرمة، أن جميلة رضى الله عنها^(٣). كذا قال، والمشهور أن اسمها حبيبة [كما تقدم]^(٤).

قال الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره: حدثنا موسى بن هارون، حدثنا أزهر بن مروان الرقاشى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس، أن جميلة بنت سلول أتت النبى ﷺ فقالت: والله ما أعتب على ثابت بن قيس بن شماس فى دين ولا خلق، ولكننى أكره الكفر بعد الإسلام، ولا أطيعه بغضاً. فقال النبى ﷺ: «تردين عليه حديثه؟» قالت: نعم، فأمره رسول الله ﷺ أن يأخذ منها حديثه ولا يزداد.

وهكذا رواه ابن ماجة عن أزهر بن مروان، بإسناده مثله سواء، وهذا إسناده جيد مستقيم^(٥)، ورواه أيضاً أبو القاسم البغوى، عن عبيد الله القواريرى، عن عبد الأعلى، مثله، لكن^(٦) قال ابن جرير:

حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا الحسين بن واقد، عن ثابت، عن عبد الله بن رباح^(٧)، عن جميلة بنت أبى بن سلول: أنها كانت تحت ثابت بن قيس، فنشزت عليه، فأرسل إليها النبى ﷺ فقال: «يا جميلة، ما كرهت من ثابت؟» قالت: والله ما كرهت منه ديناً ولا خلقاً، إلا أنى كرهت دمايته! فقال لها: «أتردين الحديث؟» قالت: نعم. فردت الحديث، وفرق بينهما^(٨).

قال^(٩) ابن جرير أيضاً: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: قرأت على فضيل، عن أبى جرير^(١٠)، أنه سأل عكرمة: هل كان للخلع أصل؟ قال: كان ابن عباس يقول: إن أول خلع كان فى الإسلام فى أخت عبد الله بن أبى، أنها أتت رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، لا يجمع^(١١) رأسى ورأسه شئ أبداً، إنى رفعت جانب الحباء، فرأيت أقبلى فى عدة، فإذا هو أشدهم سواداً، وأقصرهم قاماً وأقبحهم وجهاً. قال زوجها: يا رسول الله، إنى أعطيتها أفضل مالى، حقيقة لى، فإن ردت^(١٢) على حديثى؟ قال: «ما تقولين؟» قالت: نعم، وإن شاء ردت. قال: ففرق بينهما^(١٣).

(١) صحيح البخارى برقم (٥٢٧٤).

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٢٧٥، ٥٢٧٦).

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٢٧٧).

(٤) زيادة من ج، أ.

(٥) سنن ابن ماجة برقم (٢٠٥٦).

(٦) فى ج: «ولكن».

(٨) تفسير الطبرى (٤/٥٥٦).

(٩) فى ج، أ: «وقال».

(١٢) فى ج: «فإن رددت».

(١٣) تفسير الطبرى (٤/٥٥٢) وانظر حاشيته فإنها متينة (٤/٥٥٣، ٥٥٤).

(١١) فى ج: «لا يجمع».

(١٠) فى ج، أ، و: «عن ابن جرير».

حديث آخر: قال ابن ماجة: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن حجاج، عن عمرو ابن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: كانت حبيبة بنت سهل تحت ثابت بن قيس بن شماس، وكان رجلاً دميماً، فقالت: يا رسول الله، والله لولا مخافة الله إذا دخل على بصقت في وجهه! فقال رسول الله ﷺ: «أتردين عليه حديثه؟» قالت: نعم. فردت عليه حديثه. قال: ففرق بينهما رسول الله ﷺ (١).

وقد اختلف الأئمة، رحمهم الله، في أنه: هل يجوز للرجل أن يفاديهما بأكثر مما أعطاهما؟ فذهب الجمهور إلى جواز ذلك، لعموم قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾. وقال ابن جرير:

حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، أخبرنا أيوب، عن كثير مولى سمرة: أن عمر أتى بامرأة ناشز، فأمر بها إلى بيت كثير الزبل، ثم دعا بها فقال: كيف وجدت؟ فقالت: ما وجدت راحة منذ كنت عنده إلا هذه الليلة التي حبستني. فقال لزوجها: اخلعها ولو من قرطها (٢).

ورواه عبد الرزاق، عن معمر، عن أيوب، عن كثير مولى سمرة، فذكر مثله، وزاد: فحبسها فيه ثلاثة أيام.

قال (٣) سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن حميد بن عبد الرحمن: أن امرأة أتت عمر بن الخطاب، فشكت زوجها، فأباتها في بيت الزبل. فلما أصبحت قال لها: كيف وجدت مكانك؟ قالت: ما كنت عنده ليلة أقر لعيني من هذه الليلة. فقال: خذ ولو عقاصها (٤).

وقال البخاري: وأجاز عثمان الخلع دون عقاص رأسها.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن عبد الله بن محمد بن عقيل: أن الربيع بنت معوذ بن عفراء حدثته قالت: كان لي زوج يُقِلُّ على الخير إذا حضرنى، ويحرمنى إذا غاب عنى. قالت: فكانت منى زلة يوماً، فقلت له: أختلع منك بكل شيء أملكه؟ قال: نعم. قالت: ففعلت. قالت (٥): فخاصم عمى معاذ بن عفراء إلى عثمان بن عفان، فأجاز الخلع، وأمره أن يأخذ عقاص رأسى فما دونه، أو قالت: ما دون عقاص الرأس (٦).

ومعنى هذا: أنه يجوز أن يأخذ منها كل ما بيدها من قليل وكثير، ولا يترك لها سوى عقاص شعرها. وبه يقول ابن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وإبراهيم النخعي، وقبيصة بن ذؤيب، والحسن بن صالح، وعثمان البتي. وهذا مذهب مالك، والليث، والشافعي، وأبي ثور، واختاره ابن جرير.

(١) سنن ابن ماجة برقم (٢٠٥٧) وقال البوصيري في الزوائد (١٣٤/٢): «هذا إسناد ضعيف؛ لتدليس الحجاج وهو ابن أرملة».

(٢) تفسير الطبري (٥٧٦/٤).

(٣) في ج: أ: «وقال».

(٤) رواه الطبري في تفسيره (٥٧٦/٤) من طريق عبد الأعلى عن سعيد به.

(٥) في ج: «قال».

(٦) ورواه الطبري في تفسيره (٥٧٨/٤) عن عبد الرزاق به.

وقال أصحاب أبي حنيفة، رحمهم الله: إن كان الإضرار من قبلها جاز أن يأخذ منها ما أعطاها، ولا تجوز الزيادة عليه، فإن ازداد جاز في القضاء: وإن كان الإضرار من جهته لم يجز أن يأخذ منها شيئاً، فإن أخذ جاز في القضاء.

وقال الإمام أحمد، وأبو عبيد، وإسحاق بن راهويه: لا يجوز أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها. وهذا قول سعيد بن المسيب، وعطاء، وعمرو بن شعيب، والزهرى، وطاوس، والحسن، والشعبي، وحمام بن أبي سليمان، والربيع بن أنس.

وقال معمر، والحكم: كان على يقول: لا يأخذ من المختلة فوق ما أعطاها. وقال الأوزاعي: القضاة لا يجيزون أن يأخذ منها أكثر مما ساق إليها.

قلت: ويستدل لهذا القول بما تقدم من رواية قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس، في قصة ثابت بن قيس: فأمره رسول الله ﷺ أن يأخذ منها الحديقة ولا يزداد، وبما روى عبد بن حميد حيث قال: أخبرنا قبيصة، عن سفيان، عن ابن جريج، عن عطاء: أن النبي ﷺ كره أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها يعنى المختلة^(١)، وحملوا معنى الآية على معنى ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ أى: من الذى أعطاها؛ لتقدم قوله: ﴿وَلَا [يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ] تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ أى: من ذلك. وهكذا كان يقرؤها الربيع بن أنس: «فلا جناح عليهما فيما افتدت به منه» رواه ابن جرير؛ ولهذا قال بعده: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

فصل

قال الشافعى: اختلف أصحابنا فى الخلع، فأخبرنا سفيان عن عمرو بن دينار، عن طاوس، عن ابن عباس فى رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه بعد^(٢): «يَتَزَوَّجُهَا إِنْ شَاءَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ قَرَأَ إِلَى: ﴿أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ قال الشافعى: وأخبرنا سفيان، عن عمرو [ابن دينار]^(٤)، عن عكرمة قال: كل شيء أجازته المال فليس بطلاق.

وروى غير الشافعى، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن طاوس، عن ابن عباس: أن إبراهيم بن سعد بن أبى وقاص سألهم فقال: رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه، أيتزوجها؟ قال: نعم، ليس الخلع بطلاق، ذكر الله الطلاق فى أول الآية وآخرها، والخلع فيما بين ذلك، فليس الخلع بشيء، ثم قرأ: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ﴾ وقرأ: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾.

(١) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٣١٤/٧) من طريق سعيد بن منصور، عن سفيان به.

(٢) فى ج: «اختلعت بعد منه».

(٤) زيادة من ج.

وهذا الذى ذهب إليه ابن عباس رضى الله عنهما ^(١) - من أن الخلع ليس بطلاق، وإنما هو فسخ - هو رواية عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وابن عمر. وهو قول طاوس، وعكرمة. وبه يقول أحمد ابن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبو ثور، وداود بن علي الظاهري. وهو مذهب الشافعي في القديم، وهو ظاهر الآية الكريمة.

والقول الثاني في الخلع: أنه طلاق بائن إلا أن ينوى أكثر من ذلك. قال مالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن جُمُهان مولى الأسلميين ^(٢)، عن أم بكر الأسلمية: أنها اختلعت من زوجها عبد الله ابن خالد بن أسيد، فأتيا عثمان بن عفان في ذلك، فقال: تطليقة؛ إلا أن تكون سميت شيئاً فهو ما سميت. قال الشافعي: ولا أعرف جُمُهان. وكذا ضعف أحمد بن حنبل هذا الأثر، والله أعلم.

وقد روى نحوه عن عمر، وعلى، وابن مسعود، وابن عمر. وبه يقول سعيد بن المسيب، والحسن، وعطاء، وشريح، والشعبي، وإبراهيم، وجابر بن زيد. وإليه ذهب مالك، وأبو حنيفة، وأصحابه، والثوري، والأوزاعي، وعثمان التبي، والشافعي في الجديد. غير أن الحنفية عندهم أنه متى نوى المخالغ بخلعه تطليقة أو اثنتين ^(٣) أو أطلق فهو واحدة بائنة. وإن نوى ثلاثاً فثلاث. وللشافعي قول آخر في الخلع، وهو: أنه متى لم يكن بلفظ الطلاق، وعرى عن النية فليس هو بشيء بالكلية.

مسألة:

وذهب مالك، وأبو حنيفة، والشافعي، وأحمد وإسحاق في رواية عنهما، وهى المشهورة؛ إلى أن المختلعة عدتها عدة المطلقة بثلاثة قروء، إن كانت ممن تحيض. وروى ذلك عن عمر، وعلى، وابن عمر. وبه يقول سعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار، وعروة، وسالم، وأبو سلمة، وعمر بن عبد العزيز، وابن شهاب، والحسن، والشعبي، وإبراهيم النخعي، وأبو ^(٤) عياض، وجلاس بن عمرو، وقتادة، وسفيان الثوري، والأوزاعي، والليث بن سعد، وأبو عبيد. قال الترمذي: وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة وغيرهم. ومأخذهم في هذا أن الخلع طلاق، فتعتد كسائر المطلقات.

والقول الثاني: أنها تعتد بحيضة واحدة تستبرئ بها رحمها. قال ابن أبي شيبة: حدثنا يحيى بن سعيد، عن عبيد الله ^(٥) بن عمر، عن نافع أن الربيع اختلعت من زوجها، فأتى عمها عثمان، رضى الله عنه، فقال: تعتد حيضة. قال: وكان ابن عمر يقول: تعتد ثلاث حيض، حتى قال هذا عثمان، فكان ابن عمر يفتي به ويقول: عثمان خيرنا وأعلمنا ^(٦).

وحدثنا عبدة، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر قال: عدة المختلعة حيضة.

وحدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي، عن ليث، عن طاوس، عن ابن عباس قال: عدتها حيضة. وبه يقول عكرمة، وأبان بن عثمان، وكل من تقدم ذكره ممن يقول: إن الخلع فسخ ^(٧) - يلزمه

(٣) فى ج: «أو ثنتين».

(٢) فى أ: «الأسلميين».

(١) فى ج: «عنه».

(٥) فى أ: «عبد الله».

(٤) فى ج: «وابن».

(٦) المصنف لابن أبي شيبة (١١٤/٥).

(٧) فى ج: «فسحة».

القول بهذا، واحتجوا لذلك بما رواه أبو داود، والترمذى، حيث قال كل واحد منهما: حدثنا محمد ابن عبد الرحيم البغدادي، حدثنا علي بن بحر، حدثنا هشام بن يوسف، عن معمر، عن عمرو بن مسلم، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها على عهد النبي ^(١) ﷺ، فأمرها النبي ﷺ أن تعتد بحيضة ^(٢). ثم قال الترمذى: حسن غريب. وقد رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن عمرو بن مسلم، عن عكرمة مرسلًا.

حديث آخر: قال الترمذى: حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا الفضل بن موسى، عن سفيان، حدثنا محمد بن عبد الرحمن وهو مولى آل ^(٣) طلحة، عن سليمان بن يسار، عن الربيع بنت معوذ ابن عفراء: أنها اختلعت على عهد رسول الله ﷺ، فأمرها النبي - أو أمرت - أن تعتد بحيضة. قال الترمذى: الصحيح أنها أمرت أن تعتد بحيضة ^(٤).

طريق أخرى: قال ابن ماجة: حدثنا علي بن سلمة النيسابورى، حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد، حدثنا أبي عن ابن إسحاق، أخبرني عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، عن الربيع بنت معوذ بن عفراء قال: قلت لها: حدثيني حديثك. قالت: اختلعت من زوجي، ثم جئت عثمان، فسألت: ماذا على من العدة؟ قال ^(٥): لا عدة عليك، إلا أن يكون حديث عهد بك ^(٦)، فتمكثين عنده حتى تحيضى حيضة. قالت: وإنما تبع فى ذلك قضاء رسول الله ﷺ فى مريم المغالية، وكانت تحت ثابت بن قيس، فاختلعت منه ^(٧).

وقد روى ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن أبي سلمة ومحمد بن عبد الرحمن بن ثوبان، عن الربيع بنت معوذ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يأمر امرأة ثابت بن قيس حين اختلعت منه أن تعتد بحيضة.

مسألة :

وليس للمخالع أن يراجع المختلعة فى العدة بغير رضاها عند الأئمة الأربعة وجمهور العلماء؛ لأنها قد ملكت نفسها بما بذلت له من العطاء. وروى عن عبد الله بن أبي أوفى، وماهان الحنفى، وسعيد بن المسيب، والزهرى أنهم قالوا: إن رد إليها الذى أعطاه ^(٨) جاز له رجعتها فى العدة بغير رضاها، وهو ^(٩) اختيار أبي ثور، رحمه الله. وقال سفيان الثورى: إن كان الخلع بغير لفظ الطلاق فهو فرقة ولا سبيل له عليها. وإن كان سمي طلاقا ^(١٠) فهو أملك لرجعتها ما دامت فى العدة. وبه يقول داود بن علي الظاهري: واتفق الجميع على أن للمختلعة أن يتزوجها فى العدة. وحكى الشيخ أبو عمر

(١) فى ج: «على عهد رسول الله».

(٢) سنن أبي داود برقم (٢٢٢٩) وسنن الترمذى برقم (١١٨٥).

(٣) فى ج: «مولى أبى».

(٤) سنن الترمذى برقم (١١٨٥).

(٥) فى ج: «فقال».

(٦) فى ج: «حديث عهدك».

(٧) سنن ابن ماجة برقم (٢٠٥٨).

(٨) فى ج: «الذى أعطته».

(٩) فى أ: «وهذا».

(١٠) فى ج: «سمى الطلاق».

بن عبد البر، عن فرقة أنه لا يجوز له ذلك، كما لا يجوز لغيره، وهو قول شاذ مردود.
مسألة:

وهل له أن يوقع عليها طلاقاً آخر في العدة؟ فيه ثلاثة ^(١) أقوال للعلماء:

أحدهما ^(٢): ليس له ذلك؛ لأنها قد ملكت نفسها وبانت منه. وبه يقول ابن عباس، وابن الزبير، وعكرمة، وجابر بن زيد، والحسن البصري، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبو ثور.

والثاني: قال مالك: إن أتبع الخلع طلاقاً من غير سكوت بينهما وقع، وإن سكوت بينهما لم يقع. قال ابن عبد البر: وهذا يشبه ما روى عن عثمان، رضى الله عنه.

والثالث: أنه يقع عليها الطلاق بكل حال ما دامت في العدة، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، والثوري، والأوزاعي. وبه يقول سعيد بن المسيب، وشريح، وطاوس، وإبراهيم، والزهرى، والحكم، وحماد بن أبى سليمان. وروى ذلك عن ابن مسعود، وأبى الدرداء. قال ابن عبد البر: وليس ذلك بثابت عنهما.

وقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أى: هذه الشرائع التى شرعها لكم هى حدوده، فلا تتجاوزوها. كما ثبت فى الحديث الصحيح: «إن الله حد حدوداً فلا تعتدوها، وفرض فرائض فلا تضيعوها، وحرم محارم فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان، فلا تسألوا عنها» ^(٣).

وقد يستدل بهذه الآية من ذهب إلى أن جمع الطلقات الثلاث بكلمة واحدة حرام، كما هو مذهب المالكية ومن وافقهم، وإنما السنة عندهم أن يطلق واحدة واحدة، لقوله: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ ثم قال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ويقولون ذلك بحديث محمود بن لبيد الذى رواه النسائى فى سننه حيث قال: حدثنا سليمان بن داود، أخبرنا ابن وهب عن مخرمة بن بكير عن أبيه، عن محمود بن لبيد قال: أخبر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً فقام غضبان، ثم قال: «أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم؟! حتى قام رجل فقال: يا رسول الله، ألا أقتله؟» ^(٤)، فيه انقطاع.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ أى: إنه إذا طلق الرجل امرأته طليقة ثالثة بعدما أرسل عليها الطلاق مرتين، فإنها تحرم عليه حتى تنكح زوجاً غيره، أى: حتى يطأها

(٢) فى ١: «أحدها».

(١) فى ج: «ثلاث» وهو خطأ.

(٣) رواه الحاكم فى المستدرک (١١٥/٤) من طريق داود بن أبى هند، عن مكحول، عن أبى ثعلبة الخشنى رضى الله عنه به مرفوعاً، وتصحيح الحافظ له هنا متعقب، فإن الحديث فيه انقطاع واختلاف ذكرهما الحافظ ابن رجب فى جامع العلوم والحكم (١٥٠/٢) ط. الرسالة.

(٤) سنن النسائى (١٤٢/٦).

زوج آخر فى نكاح صحيح، فلو وطئها واطئ فى غير نكاح، ولو فى ملك يمين لم تحل للأول؛ لأنه ليس بزواج، وهكذا لو تزوجت، ولكن لم يدخل بها الزوج لم تحل للأول، واشتهر بين كثير من الفقهاء عن سعيد بن المسيب، رحمه الله، أنه يقول: يحصل المقصود من تحليلها ^(١) للأول بمجرد العقد على الثانى. وفى صحته عنه نظر، على أن الشيخ أبا عمر بن عبد البر قد حكاه عنه فى الاستذكار، فالحمد لله أعلم.

وقد قال أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: حدثنا ابن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن علقمة بن مرثد، عن سالم بن رزين، عن سالم بن عبد الله ^(٢)، عن سعيد بن المسيب، عن ابن عمر، عن النبى ﷺ فى الرجل يتزوج المرأة فيطلقها قبل أن يدخل بها البتة، فيتزوجها زوج آخر فيطلقها، قبل أن يدخل بها: أترجع إلى الأول؟ قال: «لا، حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتها» ^(٣).

هكذا وقع فى رواية ابن جرير، وقد رواه الإمام أحمد فقال:

حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن علقمة بن مرثد، سمعت سالم بن رزين يحدث عن سالم بن عبد الله، يعنى: ابن عمر، عن سعيد بن المسيب، عن ابن عمر، عن النبى ﷺ: فى الرجل تكون له المرأة فيطلقها، ثم يتزوجها رجل فيطلقها قبل أن يدخل بها، فترجع إلى زوجها الأول؟ فقال رسول الله ﷺ: «حتى يذوق العسيلة» ^(٤).

وهكذا رواه النسائى، عن عمرو بن على الفلاس، وابن ماجه عن محمد بن بشار بن دار ^(٥)، كلاهما عن محمد بن جعفر غندر، عن شعبة، به كذلك ^(٦). فهذا من رواية سعيد بن المسيب عن ابن عمر مرفوعاً، على خلاف ما يحكى عنه، فبعيد أن يخالف ما رواه بغير مستند، والله أعلم.

وقد روى أحمد أيضاً، والنسائى، وابن جرير هذا الحديث من طريق سفيان الثورى، عن علقمة ابن مرثد، عن رزين بن سليمان الأحمرى، عن ابن عمر قال: سئل النبى ﷺ عن الرجل يطلق امرأته ثلاثاً فيتزوجها آخر، فيغلق الباب ويرخى الستر ثم يطلقها، قبل أن يدخل بها: هل تحل للأول؟ قال: «لا، حتى يذوق العسيلة» ^(٧).

وهذا لفظ أحمد، وفى رواية لأحمد: سليمان ^(٨) بن رزين.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا محمد بن دينار، حدثنا يحيى بن يزيد الهنائى، عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل كانت تحته امرأة فطلقها ثلاثاً فتزوجت بعده رجلاً، فطلقها قبل أن يدخل بها: أتحل لزوجها الأول؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، حتى يكون الآخر قد ذاق من عسيلتها وذاق من عسيلته».

(٢) فى أ: «سالم بن عبيد».

(١) فى أ: «تحليلها».

(٣) تفسير الطبرى (٤/٥٩٦).

(٤) المسند (٢/٨٥).

(٥) فى ج: «بشار بن دينار».

(٦) سنن النسائى (٦/١٤٨) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٣٣).

(٧) المسند (٢/٢٥) وسنن النسائى (٦/١٤٩) وتفسير الطبرى (٧/٥٩٦).

(٨) فى ج: «عن سليمان».

ورواه ابن جرير، عن محمد بن إبراهيم الأنماطي، عن هشام بن عبد الملك، حدثنا محمد بن دينار، فذكره^(١).

قلت: ومحمد بن دينار بن صندل^(٢) أبو بكر الأزدي ثم الطاحي البصري، ويقال له: ابن أبي الفرات: اختلفوا فيه، فمنهم من ضعفه، ومنهم من قواه وقبله وحسن له^(٣). وقال^(٤) أبو داود: إنه تغير قبل موته، فالله أعلم.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا عبيد بن آدم بن أبي إياس العسقلاني، حدثنا أبي، حدثنا شيبان، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن أبي الحارث الغفاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ في المرأة^(٥) يطلقها زوجها ثلاثا فتتزوج زوجها غيره، فيطلقها قبل أن يدخل بها، فيريد الأول أن يراجعها، قال: «لا، حتى يذوق الآخر عسيلتها».

ثم رواه من وجه آخر عن شيبان، وهو ابن عبد الرحمن، به^(٦). وأبو الحارث غير معروف.

حديث آخر: قال ابن جرير:

حدثنا ابن مثنى، حدثنا يحيى، عن عبيد الله، حدثنا القاسم، عن عائشة: أن رجلا طلق امرأته ثلاثا، فتزوجت زوجها فطلقها قبل أن يمسه، فسئل رسول الله ﷺ: أتحل للأول؟ فقال: «لا، حتى يذوق من عسيلتها كما ذاق الأول».

أخرجه البخاري، ومسلم، والنسائي، من طرق، عن عبيد الله بن عمر العمري، عن القاسم بن عبد الرحمن بن أبي بكر، عن عمته عائشة، به^(٧).

طريق أخرى: قال ابن جرير:

حدثنا عبيد الله بن إسماعيل الهباري، وسفيان بن وكيع، وأبو هشام الرفاعي قالوا: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ^(٨) عن رجل طلق امرأته، فتزوجت رجلا غيره، فدخل بها ثم طلقها قبل أن يواقعها: أتحل لزوجها الأول؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا تحل لزوجها الأول حتى يذوق الآخر عسيلتها وتذوق عسيلته».

وكذا رواه أبو داود عن مسدد، والنسائي عن أبي كريب، كلاهما عن أبي معاوية، وهو محمد ابن حازم الضرير، به^(٩).

طريق أخرى: قال مسلم في صحيحه:

(١) المسند (٢٤٨/٣) وتفسير الطبري (٥٩٤/٤).

(٢) في ج: «بن مندل».

(٣) في ج: «وحسنه له».

(٤) في ج، أ، و: «وذکر».

(٥) في ج: «في امرأة».

(٦) تفسير الطبري (٥٩٣/٤).

(٧) تفسير الطبري (٥٩٢/٤) وصحيح البخاري برقم (٥٢٦١) وصحيح مسلم برقم (١٤٣٣) وسنن النسائي (١٤٨/٦).

(٨) في أ: «سألت رسول الله»، وفي و: «سئل النبي».

(٩) تفسير الطبري (٥٨٩/٤) وسنن أبي داود برقم (٢٣٠٩) وسنن النسائي (١٤٦/٦).

حدثنا محمد بن العلاء الهمداني، حدثنا أبو أسامة، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ سئل عن المرأة يتزوجها الرجل فيطلقها، فتتزوج رجلاً فيطلقها قبل أن يدخل بها: أتحل لزوجها الأول؟ قال: « لا ، حتى يذوق عسيلتها».

قال مسلم: وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا ابن فضيل: وحدثنا أبو كريب، حدثنا أبو معاوية جميعاً، عن هشام بهذا الإسناد^(١).

وقد رواه البخاري من طريق أبي معاوية محمد بن حازم، عن هشام به^(٢). ونفرد به مسلم من الوجهين الآخرين. وهكذا رواه ابن جرير من طريق عبد الله بن المبارك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة مرفوعاً بنحوه أو مثله^(٣). وهذا إسناد جيد. وكذا رواه ابن جرير أيضاً، من طريق علي بن زيد بن جدعان، عن امرأة أبيه أمينة^(٤) أم محمد عن عائشة، عن النبي ﷺ بمثله^(٥)، وهذا السياق مختصر من الحديث الذي رواه البخاري: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا يحيى، عن هشام، حدثني أبي، عن عائشة، عن النبي ﷺ. وحدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا عبدة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: أن رفاعَةَ القرظي تزوج امرأة ثم طلقها، فتزوجت آخر فأتت النبي ﷺ، فذكرت له أنه لا يأتيها، وأنه ليس معه إلا مثل هدبة الثوب فقال: « لا ، حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك»^(٦).

تفرد به من هذين الوجهين.

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الأعلى، عن معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: دخلت امرأة رفاعَةَ القرظي - وأنا وأبو بكر عند النبي ﷺ - فقالت: إن رفاعَةَ طلقني البتة، وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني، وإنما عنده مثل الهدبة، وأخذت هدبة من جلبابها، وخالد ابن سعيد بن العاص بالبواب لم يؤذن له، فقال: يا أبا بكر، ألا تنهى هذه عما تجهر به بين يدي رسول الله ﷺ! فما زاد رسول الله ﷺ على التبسم، وقال رسول الله ﷺ: «كأنك تريدين أن ترجعي إلى رفاعَةَ، لا ، حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك»^(٧).

وهكذا رواه البخاري من حديث^(٨) عبد الله بن المبارك، ومسلم من حديث عبد الرزاق، والنسائي من حديث يزيد بن زريع، ثلاثتهم عن معمر به^(٩). وفي حديث عبد الرزاق عند مسلم: إن

(١) صحيح مسلم برقم (١٤٣٣).

(٢) صحيح البخاري برقم (٥٢٦٥).

(٣) تفسير الطبري (٤/ ٥٩٠).

(٤) في جد: «أمنة».

(٥) تفسير الطبري (١١/ ٥٩٢).

(٦) صحيح البخاري برقم (٥٣١٧).

(٧) المسند (٦/ ٣٤).

(٨) في جد: «من طريق».

(٩) صحيح البخاري برقم (٦٠٨٤) وصحيح مسلم برقم (١٤٣٣) وسنن النسائي (٦/ ١٤٦).

رفاعة طلقها آخر ثلاث تطليقات. وقد رواه الجماعة إلا أبا داود من طريق سفيان بن عيينة، والبخارى من طريق عقيل، ومسلم من طريق يونس بن يزيد [وعنده ثلاث تطليقات، والنسائي من طريق أيوب ابن موسى، ورواه صالح بن أبي الأخضر^(١) كلهم عن الزهري، عن عروة، عن عائشة، به^(٢)].

وقال مالك عن المسور بن رفاع القرظي عن الزبير بن عبد الرحمن بن الزبير: أن رفاع بن سموال طلق امرأته تيممة بنت وهب في عهد رسول الله ﷺ ثلاثاً، فنكحت عبد الرحمن بن الزبير، فاعترض عنها فلم يستطع أن يمسه، ففارقها، فأراد رفاع أن ينكحها، وهو زوجها الأول الذي كان طلقها، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فنهاه عن تزويجها، وقال: «لا تحل لك حتى تذوق العسيلة» كذا رواه أصحاب الموطأ عن مالك وفيه انقطاع^(٣). وقد رواه إبراهيم بن طهمان، وعبد الله بن وهب، عن مالك، عن رفاع، عن الزبير بن عبد الرحمن، عن أبيه، فوصله^(٤).

فصل

والمقصود من الزوج الثاني أن يكون راعياً في المرأة، قاصداً لدوام عشرتها، كما هو المشروع من التزويج، واشترط الإمام مالك مع ذلك أن يطأها الثاني وطئاً مباحاً، فلو وطئها وهي محرمة أو صائمة أو معتكفة أو حائض أو نفساء أو الزوج صائم أو محرم أو معتكف، لم تحل للأول بهذا الوطء. وكذا لو كان الزوج الثاني ذمياً لم تحل للمسلم بنكاحه؛ لأن أنكحة الكفار باطلة عنده. واشترط الحسن البصري فيما حكاه عنه الشيخ أبو عمر بن عبد البر أن ينزل الزوج الثاني، وكأنه تمسك^(٥) بما فهمه من قوله عليه السلام: «حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك»، ويلزم على هذا أن تنزل المرأة أيضاً. وليس المراد بالعسيلة المنى لما رواه الإمام أحمد والنسائي، عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إن العسيلة الجماع»^(٦)، فأما إذا كان الثاني إنما قصده أن يحلها للأول، فهذا هو المحلل الذي وردت الأحاديث بذهمه ولعنه، ومتى صرح بمقصوده في العقد بطل النكاح عند جمهور الأئمة^(٧).

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك

الحديث الأول: عن ابن مسعود. قال الإمام أحمد:

(١) زيادة من ج، أ، و.

(٢) صحيح البخارى برقم (٢٦٣٩) وصحيح مسلم برقم (١٤٣٣) وسنن الترمذى برقم (١١١٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (٥٦٠٤) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٣٢)، كلهم من طريق سفيان بن عيينة، وصحيح البخارى برقم (٥٢٦٠) من طريق عقيل، وصحيح مسلم برقم (١٤٣٣) من طريق يونس بن يزيد.

(٣) الموطأ (٢/٥٣١).

(٤) انظر: التمهيد لابن عبد البر (١٣/٢٢٠، ٢٢١).

(٥) فى ج: «وكانه يتمسك».

(٦) المسند (٦/٦٢).

(٧) فى ج: «جمهور الأئمة رحمهم الله».

حدثنا الفضل بن دُكَيْن، حدثنا سفيان، عن أبي قيس، عن الهزيل، عن عبد الله قال: لعن رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة، والمحلل والمحلل له، وآكل الربا وموكله^(١).

ثم رواه أحمد، والترمذي، والنسائي من غير وجه، عن سفيان، وهو الثوري، عن أبي قيس واسمه عبد الرحمن بن ثروان الأودي، عن هزيل بن شرحبيل الأودي، عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ^(٢) به. ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. قال: والعمل على هذا عند أهل العلم من الصحابة، منهم: عمر، وعثمان، وابن عمر. وهو قول الفقهاء من التابعين، ويروى ذلك عن علي، وابن مسعود، وابن عباس.

طريق أخرى: عن ابن مسعود. قال الإمام أحمد: حدثنا زكريا بن عدي، حدثنا عبيد الله، عن عبد الكريم، عن أبي الواصل، عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله المحلل والمحلل له»^(٣).

طريق أخرى: روى الإمام أحمد، والنسائي، من حديث الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن الحارث الأعور، عن عبد الله بن مسعود قال: آكل الربا وموكله، وشاهداه وكتبته إذا علموا به، والواصلة، والمستوصلة، ولاوى الصدقة، والمعتدى فيها، والمترد على عقبيه إعراضا بعد هجرته، والمحلل والمحلل له، ملعونون على لسان محمد ﷺ يوم القيامة^(٤).

الحديث الثاني: عن علي رضي الله عنه. قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن جابر [وهو ابن يزيد الجعفي]^(٥)، عن الشعبي، عن الحارث، عن علي قال: لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله، وشاهديه وكتبته، والواشمة والمستوشمة للحسن، ومانع الصدقة، والمحلل، والمحلل له، وكان ينهى عن النوح^(٦).

وكذا رواه عن غندر، عن شعبة، عن جابر، وهو ابن يزيد الجعفي، عن الشعبي عن الحارث، عن علي، به.

وكذا رواه من حديث إسماعيل بن أبي خالد، وحسين بن عبد الرحمن، ومجالد بن سعيد، وابن عون، عن عامر الشعبي، به.

(١) المسند (٤٤٨/١).

(٢) المسند (٤٤٨/١) وسنن الترمذي برقم (١١٢٠) وسنن النسائي (١٤٩/٦).

(٣) المسند (٤٥٠/١).

(٤) المسند (٤٦٤/١) وسنن النسائي (١٤٧/٨) ورواه ابن حبان في صحيحه برقم (١١٥٤) «موارد» من طريق الأعمش به.

(٥) زيادة من ج.

(٦) المسند (١٠٧/١).

وقد رواه أبو داود، والترمذى، وابن ماجة من حديث الشعبى، به^(١). ثم قال أحمد: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي قال: لعن رسول ﷺ صاحب الربا، وأكله، وكاتبه، وشاهده، والمحلل، والمحلل له^(٢).

الحديث الثالث: عن جابر: قال الترمذى:

حدثنا أبو سعيد الأشج، أخبرنا أشعث بن عبد الرحمن بن زبيد الياشى، حدثنا مجالد، عن الشعبى، عن جابر بن عبد الله وعن الحارث، عن علي: أن رسول الله ﷺ لعن المحلل والمحلل له^(٣). ثم قال: وليس إسناده بالقائم، ومجالد ضعفه غير واحد من أهل العلم، منهم أحمد بن حنبل. قال: ورواه ابن نمير، عن مجالد، عن الشعبى، عن جابر بن عبد الله، عن علي. قال: وهذا وهم من ابن نمير، والحديث الأول أصح.

الحديث الرابع: عن عقبة بن عامر: قال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة:

حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح المصرى، حدثنا أبى، سمعت الليث بن سعد يقول: قال أبو مصعب مشرح هو: ابن هاعان، قال عقبة بن عامر: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بالتيس المستعار؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «هو المحلل، لعن الله المحلل والمحلل له»^(٤).

تفرد به ابن ماجة. وكذا رواه إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني، عن عثمان بن صالح، عن الليث، به، ثم قال: كانوا ينكرون على عثمان فى هذا الحديث إنكاراً شديداً.

قلت: عثمان هذا أحد الثقات، روى عنه البخارى فى صحيحه. ثم قد تابعه غيره، فرواه جعفر الفريابى عن العباس المعروف بابن فريق^(٥)، عن أبى صالح عبد الله بن صالح، عن الليث به، فبرئ من عهده والله أعلم.

الحديث الخامس: عن ابن عباس. قال ابن ماجة:

حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو عامر، عن زمعة بن صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له^(٦).

طريق أخرى: قال الإمام الحافظ خطيب دمشق أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني السعدى: حدثنا ابن أبى مريم، حدثنا إبراهيم بن إسماعيل بن أبى حبيبة^(٧)، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: سئل رسول الله ﷺ عن نكاح المحلل قال: «لا، إلا نكاح

(١) سنن أبى داود برقم (٢٠٧٦) وسنن الترمذى (١١١٩) وسنن ابن ماجة برقم (١٩٣٥).

(٢) المسند (٨٨/١).

(٣) سنن الترمذى برقم (١١١٩).

(٤) سنن ابن ماجة برقم (١٩٣٦) وقال البوصيرى فى الزوائد (١٠٢/٢): «هذا إسناد مختلف فيه من أجل أبى مصعب».

(٥) فى ج: «بابن فريق».

(٦) سنن ابن ماجة برقم (١٩٣٤) وقال البوصيرى فى الزوائد (١٠٢/٢): «هذا إسناد ضعيف لضعف زمعة بن صالح الجندى».

(٧) فى هـ: «بن أبى حنيفة» وهو خطأ.

رغبة، لا نكاح دُلْسَة ولا استهزاء بكتاب الله، ثم يذوق عسيلتها»^(١).

ويتقوى هذان الإسنادان ^(٢) بما رواه أبو بكر بن أبي شيبة، عن حميد بن عبد الرحمن، عن موسى بن أبي الفرات، عن عمرو بن دينار، عن النبي ﷺ بنحو من هذا^(٣)، فيتقوى كل من هذا المرسل والذي قبله بالآخر، والله أعلم.

الحديث السادس: عن أبي هريرة. قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو عامر، حدثنا عبد الله، هو ابن جعفر، عن عثمان بن محمد، عن المقبري، عن أبي هريرة قال: لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له^(٤).

وهكذا رواه أبو بكر بن أبي شيبة، والجوزجاني، والبيهقي، من طريق عبد الله بن جعفر القرشي^(٥). وقد وثقه أحمد بن حنبل، وعلى بن المديني، ويحيى بن معين وغيرهم. وأخرج له مسلم في صحيحه، عن عثمان بن محمد الأحنسي - وثقه ابن معين - عن سعيد المقبري، وهو متفق عليه.

الحديث السابع: عن ابن عمر. قال الحاكم في مستدركه:

حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا محمد بن إسحاق الصغاني^(٦)، حدثنا سعيد بن أبي مريم، حدثنا أبو غسان^(٧) محمد بن مطرف المدني، عن عمر^(٨) بن نافع، عن أبيه أنه قال: جاء رجل إلى ابن عمر، فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثاً، فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه، ليحلها لأخيه: هل تحل للأول؟ فقال: لا، إلا نكاح رغبة، كنا نعد هذا سفاحاً على عهد رسول الله ﷺ. ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه^(٩).

وقد رواه الثوري، عن عبد الله بن نافع، عن أبيه، عن ابن عمر، به. وهذه الصيغة مشعرة بالرفع. وهكذا روى أبو بكر بن أبي شيبة، والجوزجاني، وحرب الكرماني، وأبو بكر الأثرم، من حديث الأعمش، عن المسيب بن رافع، عن قبيصة بن جابر، عن عمر أنه قال: لا أوتى بمحلل ولا محلل له إلا رجمتها^(١٠).

وروى البيهقي من حديث ابن لهيعة، عن بكير بن الأشج، عن سليمان بن يسار: أن عثمان بن عفان رفع إليه رجل تزوج امرأة ليحلها لزوجها، ففرق بينهما. وكذا روى عن علي، وابن عباس،

(١) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٢٦/١١) من طريق إسحاق بن محمد الفروي، عن إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة به.

(٢) في أ، و: «ويتقوى هذا الإسناد».

(٣) المصنف لابن أبي شيبة (٢٩٥/٤).

(٤) المسند (٣٢٢/٢).

(٥) المصنف لابن أبي شيبة (٢٩٦/٤) وسنن البيهقي الكبير (٢٠٨/٧).

(٦) في ج، أ: «الصنعاني».

(٧) في أ، و: «أبو يمان».

(٨) في أ: «عن عمرو».

(٩) المستدرک (١٩٩/٢).

(١٠) المصنف لابن أبي شيبة (٢٩٤/٤).

وغير واحد من الصحابة، رضى الله عنهم.

وقوله: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ أى: الزوج الثانى بعد الدخول بها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ أى: المرأة والزوج الأول ﴿إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أى: يتعاشرا بالمعروف [وقال مجاهد: إن ظنا أن نكاحهما على غير دلسه] ^(١) ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أى: شرائعه وأحكامه ﴿يَبَيِّنُهَا﴾ أى: يوضحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وقد اختلف الأئمة، رحمهم الله، فيما إذا طلق الرجل امرأته طليقة أو طليقتين، وتركها حتى انقضت عدتها، ثم تزوجت بآخر فدخل بها، ثم طلقها فانقضت عدتها، ثم تزوجها الأول: هل تعود إليه بما بقى من الثلاث، كما هو مذهب مالك، والشافعى، وأحمد بن حنبل، وهو قول طائفة من الصحابة، رضى الله عنهم؟ أو يكون الزوج الثانى قد هدم ما قبله من الطلاق، فإذا عادت إلى الأول تعود بمجموع الثلاث، كما هو مذهب أبى حنيفة وأصحابه رحمهم الله؟ وحجتهم أن الزوج الثانى إذا هدم الثلاث فلأن يهدم ما دونها بطريق الأولى والأخرى، والله أعلم.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنِ أَجَلَهُنَّ فَأُمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢٣١).

هذا أمر من الله عز وجل للرجال إذا طلق أحدهم المرأة طلاقاً له عليها فيه رجعة، أن يحسن فى أمرها إذا انقضت عدتها، ولم يبق منها إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها، فإذا أن يسكها، أى: يرجعها إلى عصمة نكاحه بمعروف، وهو أن يشهد على رجعتها، وينوى عشرتها بالمعروف، أو يسرحها، أى: يتركها حتى تنقضى عدتها، ويخرجها من منزله بالتي هى أحسن، من غير شقاق ولا مخاصمة ولا تقابح، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَتَعْتَدُوا﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، ومسروق، والحسن، وقتادة، والضحاك، والربيع، ومقاتل بن حيان وغير واحد: كان الرجل يطلق المرأة، فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها ضراراً، لئلا تذهب إلى غيره، ثم يطلقها فتعتد، فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق لتطول عليها العدة، فنهاهم الله عن ذلك، وتوعدهم عليه فقال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أى: بمخالفته أمر الله تعالى.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا﴾: قال ابن جرير: عند هذه الآية:

أخبرنا أبو كريب، أخبرنا إسحاق بن منصور، عن عبد السلام بن حرب، عن يزيد بن عبد الرحمن، عن أبى العلاء الأودى، عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبى موسى: أن رسول الله

(١) زيادة من و.

ﷺ غضب على الأشعرين، فأتاه أبو موسى فقال: يا رسول الله، أغضبت على الأشعرين؟! فقال: يقول أحذكم: قد طلقت، قد راجعت، ليس هذا طلاق المسلمين، طلقوا المرأة في قُبْلِ عدتها^(١).

ثم رواه من وجه آخر^(٢)، عن أبي خالد الدالاني، وهو يزيد بن عبد الرحمن، وفيه كلام. وقال مسروق: هو^(٣) الذي يطلق في غير كنهه، ويضار امرأته بطلاقها وارتجاعها، لتطول عليها العدة.

وقال الحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني، والربيع، ومقاتل بن حيان: هو الرجل يطلق ويقول: كنت لاعباً أو يعتق أو ينكح ويقول: كنت لاعباً. فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ فألزم الله بذلك.

وقال ابن مردويه: حدثنا إبراهيم بن محمد، حدثنا أبو أحمد الصيرفي، حدثني جعفر بن محمد السمسار، عن إسماعيل بن يحيى، عن سفيان، عن ليث، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: طلق رجل امرأته وهو يلعب، لا يريد الطلاق؛ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ فألزمه رسول الله ﷺ الطلاق.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عصام بن زوَاد، حدثنا آدم، حدثنا المبارك بن فضالة، عن الحسن، هو البصري، قال: كان الرجل يطلق ويقول: كنت لاعباً أو يعتق^(٤) ويقول: كنت لاعباً وينكح ويقول: كنت لاعباً فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾، وقال رسول الله ﷺ: «من طلق أو أعتق أو نكح أو أنكح، جاداً أو لاعباً، فقد جاز عليه».

وكذا رواه ابن جرير من طريق الزهري، عن سليمان بن أرقم، عن الحسن، مثله. وهذا مرسل^(٥). وقد رواه ابن مردويه، من طريق عمرو بن عبيد، عن الحسن، عن أبي الدرداء، موقوفاً عليه. وقال أيضاً:

حدثنا أحمد بن الحسن^(٦) بن أيوب، حدثنا يعقوب بن أبي يعقوب، حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا أبو معاوية، عن إسماعيل بن سلمة، عن الحسن، عن عبادة بن الصامت، في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ قال: كان الرجل على عهد النبي ﷺ يقول للرجل زوجتك ابنتي ثم يقول: كنت لاعباً. ويقول: قد أعتقت، ويقول: كنت لاعباً فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ فقال رسول الله ﷺ: «ثلاث من قالهن لاعباً أو غير لاعب، فهن جائزات عليه: الطلاق، والعتاق، والنكاح»^(٧).

(١) تفسير الطبري (١٤/٥).

(٢) في ج: «ثم رواه ابن ماجه من وجه آخر».

(٣) في ج: «وهو».

(٤) في ج: «ويعتق».

(٥) تفسير الطبري (١٣/٥) ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠٦/٥) من طريق آخر، فرواه عن عيسى بن يونس، عن عمرو، عن الحسن به.

(٦) في ج: «ابن الحسين».

(٧) ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده برقم (٥٠١) «زوائد» من طريق آخر، فرواه من طريق ابن لهيعة، عن عبيد الله بن أبي جعفر، عن عبادة بن الصامت به مرفوعاً.

والمشهور في هذا الحديث الذي رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه من طريق عبد الرحمن بن حبيب بن أردك، عن عطاء، عن ابن مائهك، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث جدهن جد، وهزلهن جد: النكاح، والطلاق، والرجعة»^(١). وقال الترمذي: حسن غريب.

وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: في إرساله الرسول بالهدى والبيئات إليكم ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أي: السنة ﴿يَعْظُمُ بِهِ﴾ أي: يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على ارتكاب المحارم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فيما تأتون وفيما تذرّون ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: فلا يخفى عليه شيء من أموركم السرية والجهرية، وسيجازيكم على ذلك.

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢)﴾.

قال على ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طليقة أو طليقتين، فتتقاضى عدتها، ثم يبدو له أن يتزوجها^(٢) وأن يراجعها، وتريد المرأة ذلك، فيمنعها أولياؤها من ذلك، فنهى الله أن يمنعوها. وكذا^(٣) روى العوفي، عنه، وكذا قال مسروق، وإبراهيم النخعي، والزهري والضحاك أنها نزلت في ذلك. وهذا الذي قالوه ظاهر من الآية، وفيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها، وأنه لا بد في تزويجها^(٤) من ولي، كما قاله الترمذي وابن جرير عند هذه الآية، كما جاء في الحديث: لا تزوج المرأة المرأة، ولا تزوج المرأة نفسها، فإن الزانية هي التي تزوج نفسها^(٥). وفي الأثر الآخر: لا نكاح إلا بولي مرشد، وشاهدي عدل. وفي هذه المسألة نزاع بين العلماء محرر في موضعه من كتب الفروع، وقد قررنا ذلك في كتاب «الأحكام»، والله الحمد والمنة.

وقد روى أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار المزني وأخته، فقال البخاري، رحمه الله، في كتابه الصحيح عند تفسير هذه الآية:

حدثنا عبيد الله بن سعيد، حدثنا أبو عامر العقدي، حدثنا عباد بن راشد، حدثنا الحسن قال: حدثني معقل بن يسار قال: كانت لي أخت تخطب إلي - قال البخاري: وقال إبراهيم، عن يونس، عن الحسن: حدثني معقل بن يسار. وحدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا يونس، عن الحسن: أن أخت معقل بن يسار طلقها زوجها، فتركها حتى انقضت عدتها، فخطبها، فأبى معقل،

(١) سنن أبي داود برقم (٢١٩٤) وسنن الترمذي برقم (١١٨٤) وسنن ابن ماجه برقم (٢٠٣٩).

(٢) في جد: «ثم يبدو له تزويجها».

(٣) في جد: «وذلك».

(٤) في جد: «في النكاح».

(٥) رواه ابن ماجه في السنن برقم (١٨٨٢) من طريق محمد بن مروان عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة مرفوعاً به، وقال البوصيري في الزوائد (٨٤/٢): «هذا إسناد مختلف فيه».

فنزلت: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكَحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾^(١).

وهكذا رواه أبو داود، والترمذى، وابن ماجة، وابن أبى حاتم، وابن جرير، وابن مردويه من طرق متعددة، عن الحسن، عن معقل بن يسار، به^(٢). وصححه الترمذى أيضاً، ولفظه عن معقل بن يسار: أنه زوج أخته رجلاً من المسلمين، على عهد رسول الله ﷺ، فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدة، فهويها وهويته، ثم خطبها مع الخطاب، فقال له: يالكع^(٣)، أكرمتك بها وزوجتكها، فطلقتها! والله لا ترجع إليك أبداً، آخر ما عليك قال: فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعْلِها، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبَنَ أَجَلَهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فلما سمعها معقل قال: سَمِعْتُ لِرَبِّى وَطَاعَةً ثُمَّ دَعَا، فقال: أزواجك وأكرمك، زاد ابن مردويه: وكفرت عن يمينى.

وروى ابن جرير^(٤)، عن ابن جريج قال: هى جمل بنت يسار كانت تحت أبى البداح، وقال سفيان الثورى، عن أبى إسحاق السبيعى قال: هى فاطمة بنت يسار. وهكذا ذكر غير واحد من السلف: أن هذه الآية نزلت فى معقل بن يسار وأخته. وقال السدى: نزلت فى جابر بن عبد الله، وابنة عم له، والصحيح الأول، والله أعلم.

وقوله: ﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أى: هذا الذى نهيناكم عنه من منع الولايا أن يتزوجن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف، يأتمر به ويتعظ به وينفعل له ﴿مَنْ كَانَ مِنْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أى: يؤمن بشرع الله، ويخاف وعيد الله وعذابه فى الدار الآخرة^(٥)، وما فيها من الجزاء ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أى: اتباعكم شرع الله فى رد المولات إلى أزواجهن، وترك الحمية فى ذلك، أزكى لكم وأطهر لقلوبكم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ أى: من المصالح فيما يأمر به وينهى عنه ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى: الخيرة فيما تأتون ولا فيما تذررون.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بَوْلَدهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بَوْلَدهُ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢٣٣).

(١) صحيح البخارى برقم (٤٥٢٩).

(٢) سنن أبى داود برقم (٢٠٨٧) وسنن الترمذى برقم (٢٩٨١) وتفسير الطبرى (١٧/٥، ١٨) ولم يعزه المزى فى تحفة الاشراف لسنن ابن ماجة.

(٥) فى جد: «فى الدنيا والآخرة».

(٤) فى جد: «ابن جريج».

(٣) فى أ: «فقال له وكيع».

هذا إرشاد من الله تعالى^(١) للوالدات: أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة، وهى ستتان، فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك؛ ولهذا^(٢) قال: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ وذهب أكثر الأئمة إلى أنه لا يحرم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما لم يحرم.

قال^(٣) الترمذى: «باب ما جاء أن الرضاعة لا تحرم إلا فى الصغر^(٤) دون الحولين»: حدثنا قتيبة، حدثنا أبو عوانة، عن هشام بن عروة، عن فاطمة بنت المنذر، عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء فى الثدي، وكان قبل الفطام». وقال: هذا حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم: أن الرضاعة لا تحرم إلا ما كان دون الحولين، وما كان بعد الحولين الكاملين فإنه لا يحرم شيئاً. وفاطمة بنت المنذر ابن الزبير بن العوام، وهى امرأة هشام بن عروة^(٥).

قلت: تفرد الترمذى برواية هذا الحديث، ورجاله على شرط الصحيحين، ومعنى قوله: إلا ما كان فى الثدي، أى: فى محل^(٦) الرضاعة قبل الحولين، كما جاء فى الحديث، الذى رواه أحمد، عن وكيع وغندر، عن شعبة، عن عدى بن ثابت، عن البراء بن عازب قال: لما مات إبراهيم ابن النبى ﷺ قال: «إن له مرضعاً^(٧) فى الجنة». وهكذا أخرجه البخارى من حديث شعبة^(٨)، وإنما قال، عليه السلام، ذلك؛ لأن ابنه إبراهيم، عليه السلام، مات وله سنة وعشرة أشهر، فقال: «إن له مرضعاً فى الجنة» يعنى: تكمل رضاعه، ويؤيده ما رواه الدارقطنى، من طريق الهيثم بن جميل، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحرم من الرضاع إلا ما كان فى الحولين»، ثم قال: لم يسنده عن ابن عيينة غير الهيثم بن جميل، وهو ثقة حافظ^(٩).

قلت: وقد رواه الإمام مالك فى الموطأ، عن ثور بن زيد، عن ابن عباس موقوفاً^{(١٠)(١١)}. ورواه الدراوردي عن ثور، عن عكرمة، عن ابن عباس وزاد: «وما كان بعد الحولين فليس بشيء»، وهذا أصح. وقال أبو داود الطيالسى، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا رضاع بعد فصال، ولا يتم بعد احتلام»، وتغام الدلالة من هذا الحديث فى قوله: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]. وقال: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]. والقول بأن الرضاعة لا تحرم بعد الحولين مروي عن

(١) فى ج: «من الله تبارك وتعالى». (٢) فى ج: «فلهذا». (٣) فى ج: «وقال».

(٤) فى أ: «فى الصغير».

(٥) سنن الترمذى برقم (١١٥٢).

(٦) فى ج، أ: «فى حال».

(٧) فى أ، و: «إن ابني مات وإن له مرضعاً».

(٨) المسند (٤/ ٣٠٠) وصحيح البخارى برقم (١٣٨٢).

(٩) سنن الدارقطنى (٤/ ١٧٤).

(١٠) فى هـ: «مرفوعاً» والصواب ما أثبتناه من ج، أ، و، وهو ما نبه عليه الشيخ أحمد شاكر - رحمه الله.

(١١) الموطأ (٢/ ٦٠٢).

على، وابن عباس، وابن مسعود، وجابر، وأبى هريرة، وابن عمر، وأم سلمة، وسعيد بن المسيب، وعطاء، والجمهور. وهو مذهب الشافعى، وأحمد، وإسحاق، والثورى، وأبى يوسف، ومحمد، ومالك فى رواية، وعنه: أن مدته سنتان وشهران، وفى رواية: وثلاثة أشهر. وقال أبو حنيفة: سنتان وستة أشهر، وقال زفر بن الهذيل: ما دام يرضع فإلى ثلاث سنين، وهذا رواية عن الأوزاعى. قال مالك: ولو فطم الصبى دون الحولين فأرضعته امرأة بعد فصاله لم يحرم؛ لأنه قد صار بمنزلة الطعام، وهو رواية عن الأوزاعى، وقد روى عن عمر وعلى أنهما قالوا: لارضاع بعد فصال، فيحتمل أنهما أرادا الحولين كقول الجمهور، سواء فطم أو لم يفطم، ويحتمل أنهما أرادا الفعل، كقول مالك، والله أعلم.

وقد روى فى الصحيح^(١) عن عائشة، رضى الله عنها: أنها كانت ترى رضاع الكبير يؤثر فى التحريم، وهو قول عطاء بن أبى رباح، والليث بن سعد، وكانت عائشة تأمر بمن تختار أن يدخل عليها من الرجال لبعض نسائها فترضعه، وتحتج فى ذلك بحديث سالم مولى أبى حذيفة حيث أمر النبى ﷺ امرأة أبى حذيفة أن ترضعه، وكان كبيراً، فكان يدخل عليها بتلك الرضاعة، وأبى ذلك سائر أزواج النبى ﷺ، ورأين^(٢) ذلك من الخصائص، وهو قول الجمهور. وحجة الجمهور - منهم الأئمة الأربعة، والفقهاء السبعة، والأكابر من الصحابة، وسائر أزواج رسول الله ﷺ سوى عائشة - ما ثبت فى الصحيحين، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «انظروا من إخوانكن، فإنما الرضاعة من المجاعة»^(٣). وسيأتى الكلام على مسائل الرضاع، وفيما يتعلق برضاع الكبير، عند قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].

وقوله: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى: وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف، أى: بما جرت به عادة أمثالهن فى بلدهن من غير إسراف ولا إقتار، بحسب قدرته فى يساره وتوسطه وإقتاره، كما قال تعالى: ﴿لَيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]. قال الضحاك: إذا طلق [الرجل]^(٤) زوجته وله منها ولد، فأرضعت له ولده، وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف.

وقوله: ﴿لَا تُضَارُّ وَالِدَةُ بَوْلِهَا﴾ أى: لا تدفعه^(٥) عنها لتضر أباه بتربيته، ولكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه اللبن^(٦) الذى لا يعيش بدون تناوله غالباً، ثم بعد هذا لها رفعه عنها إن شاءت، ولكن إن كانت مضارة لأبيه فلا يحل لها ذلك، كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضرر لها. ولهذا قال: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بَوْلُهُ﴾ أى: بأن يريد أن ينتزع الولد منها إضراراً بها، قاله مجاهد، وقتادة، والضحاك، والزهرى، والسدى، والثورى، وابن زيد، وغيرهم.

(١) فى أ: «فى الصحيحين». (٢) فى ج: «ويروى».

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٦٤٧) وصحيح مسلم برقم (١٤٥٥).

(٤) زيادة من ج.

(٥) فى ج: «البأ».

(٦) فى أ، و: «بأن تدفعه».

وقوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾. قيل: فى عدم الضرر لقريبه^(١)، قاله مجاهد، والشعبى، والضحاك. وقيل: عليه مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدته الطفل، والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها، وهو قول الجمهور. وقد استقصى ذلك ابن جرير فى تفسيره. وقد استدلل بذلك من ذهب من الحنفية والحنبلية إلى وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، وهو مروي عن عمر بن الخطاب، وجمهور السلف، ويرشح ذلك بحديث الحسن، عن سَمرة مرفوعاً: من ملك ذا رحم محرم عَتَقَ عليه^(٢).

وقد ذُكر أن الرضاعة بعد الحولين ربما ضرت^(٣) الولد إما فى بدنه أو عقله، وقد قال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة: أنه رأى امرأة تُرضع بعد الحولين. فقال: لا ترضع.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أى: فإن اتفقا والدا الطفل على فطامه قبل الحولين، ورأيا فى ذلك مصلحة له، وتشاورا فى ذلك، وأجمعا^(٤) عليه، فلا جناح عليهما فى ذلك، فيؤخذُ منه: أن انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكتفى، ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر، قاله الثوري وغيره، وهذا فيه احتياط للطفل، وإلزام للنظر فى أمره، وهو من رحمة الله^(٥) بعباده، حيث حجر على الوالدين فى تربية طفلهما وأرشدتهما إلى ما يصلحه ويصلحهما كما قال فى سورة الطلاق: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَكُمْ فَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمَ فَمُتْرَضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾ [الطلاق: ٦].

وقوله: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى: إذا اتفقت الوالدة والوالد على أن يتسلم منها الولد^(٦)، إما لعذر منها، أو عذر له، فلا جناح عليهما فى بذله، ولا عليه فى قبوله منها إذا سلمها أجرتها الماضية بالتي هى أحسن، واسترضع لولده غيرها بالأجرة بالمعروف. قاله غير واحد.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: فى جميع أحوالكم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أى: فلا يخفى عليه شئ من أحوالكم وأقوالكم.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٣٤).

هذا أمر من الله^(٧) للنساء اللاتي يتوفى عنهن أزواجهن: أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال^(٨)، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بهن بالإجماع، ومستنده فى غير

(١) فى أ: «بقريبته»، وفى و: «بقريبه».

(٢) رواه أبو داود فى السنن برقم (٣٩٤٩) والترمذى فى السنن برقم (١٣٦٥) من طريق عاصم الأحول عن الحسن به، وقال الترمذى: «هذا حديث لا نعرفه مسنداً إلا من حديث حماد بن سلمة. وقد روى بعضهم هذا الحديث عن قتادة عن الحسن، عن عمر شيئاً من هذا»، ولفظه عندهما: «من ملك ذا رحم محرم فهو حر».

(٣) فى أ: «جزت». (٤) فى ج، أ: «واجتمع». (٥) فى ج: «من رحمه الله تعالى».

(٦) فى أ، و: «الولد ويسترضع له غيرها». (٧) فى ج: «من الله تعالى». (٨) فى ج: «ليالى».

المدخول بها عُموم الآية الكريمة، وهذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى: أن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة فمات ولم يدخل بها، ولم يفرض لها؟ فترددوا إليه مراراً^(١) فى ذلك فقال: أقول فيها برأى، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه: [أرى]^(٢) لها الصداق كاملاً. وفى لفظ: لها صداق مثلها، لا وكس، ولا شَطَط، وعليها العدة، ولها الميراث. فقام معقل بن سنان^(٣) الأشجعى فقال: سمعت رسول الله ﷺ قضى به فى بَرُوع بنت واشق. ففرح عبد الله بذلك فرحاً شديداً. وفى رواية: فقام رجال من أشجع، فقالوا: نشهد أن رسول الله ﷺ قضى به فى بَرُوع بنت واشق^(٤).

ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها، وهى حامل، فإن عدتها بوضع الحمل، ولو لم تمكث بعده سوى لحظة؛ لعموم قوله: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]. وكان ابن عباس يرى: أن عليها أن تتربص بأبعد الأجلين من الوضع، أو أربعة أشهر وعشر، للجمع بين الآيتين، وهذا مأخذ جيد ومسلك قوى، لولا ما ثبتت به السنة فى حديث سبيعة الأسلمية، المخرج فى الصحيحين من غير وجه: أنه توفى عنها زوجها سعد بن خولة، وهى حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، وفى رواية: فوضعت حملها بعده بليال، فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بَعَكْكَ، فقال لها: ما لى أراك متجملة؟ لعلك ترجين النكاح. والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر. قالت سبيعة: فلما قال لى ذلك جمعت على ثيابى حين أمسيت، فأتيت رسول الله ﷺ، فسألته عن ذلك، فأفتانى بأنى قد حللت حين وضعت، وأمرنى بالتزويج إن بدا لى^(٥).

قال أبو عمر بن عبد البر: وقد روى أن ابن عباس رجع إلى حديث سبيعة، يعنى لما احتج عليه به. قال: ويصحح ذلك عنه: أن أصحابه أفتوا بحديث سبيعة، كما هو^(٦) قول أهل العلم قاطبة. وكذلك يستثنى من ذلك الزوجة إذا كانت أمة، فإن عدتها على النصف من عدة الحرة، شهران وخمس ليال، على قول الجمهور؛ لأنها لما كانت على النصف من الحرة فى الحد، فكذلك^(٧) فلتكن على النصف منها فى العدة. ومن العلماء - كمحمد بن سيرين وبعض الظاهرية - من يسوى بين الزوجات الحرائر والإماء فى هذا المقام؛ لعموم الآية، ولأن العدة من باب الأمور الجبلية^(٨) التى تستوى فيها الخليفة. وقد ذكر سعيد بن المسيب، وأبو العالية وغيرهما: أن الحكمة فى جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً؛ لاحتمال اشتغال الرحم على حمل، فإذا انتظر به هذه المدة ظهر إن كان موجوداً، كما جاء فى حديث ابن مسعود الذى فى الصحيحين وغيرهما: «إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك

(١) فى ج، أ، و: «إليه شهراً». (٢) زيادة من أ، و. (٣) فى هـ، ج، ط، أ: «معقل بن يسار» والثبت هو الصواب.

(٤) المسند (٢٨٠/٤) وسنن أبى داود برقم (٢٢١٤، ٢٢١٥) وسنن الترمذى برقم (١١٤٥) وسنن النسائى (١٢١/٦) وسنن ابن ماجه برقم (١٨٩١).

(٥) صحيح البخارى برقم (٥٣١٩) وصحيح مسلم برقم (١٤٨٤).

(٦) فى ج: «وهو». (٧) فى ج: «وكذلك». (٨) فى أ: «الجبلية».

فينفخ فيه الروح»^(١). فهذه ثلاث أربعينات بأربعة أشهر، والاحتياط بعشر بعدها لما قد ينقص بعض الشهور، ثم لظهور الحركة بعد نفخ الروح فيه، والله أعلم.

قال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة: سألت سعيد بن المسيب: ما بال العشر؟ قال: فيه ينفخ الروح. وقال الربيع بن أنس: قلت لأبي العالية: لِمَ صارت هذه العشر مع الأشهر الأربعة؟ قال: لأنه ينفخ فيها الروح. رواهما ابن جرير. ومن هاهنا ذهب الإمام أحمد، في رواية عنه، إلى أن عدة أم الولد عدة الحرة هاهنا؛ لأنها صارت فراشا كالحرائر، وللحديث الذي رواه الإمام أحمد، عن يزيد ابن هارون، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن رجاء بن حيوة، عن قبيصة بن ذؤيب، عن عمرو بن العاص أنه قال: لا تُلْبَسُوا علينا سنة نبينا، عدة أم الولد إذا توفي عنها سيدها أربعة أشهر وعشر^(٢).

ورواه أبو داود، عن قتيبة، عن غُندَر - وعن ابن المثنى، عن عبد الأعلى. وابن ماجه، عن علي ابن محمد، عن وكيع - ثلاثهم عن سعيد بن أبي عروبة، عن مَطَرُ الوراق، عن رجاء بن حيوة، عن قبيصة، عن عمرو بن العاص، فذكره^(٣).

وقد روى عن الإمام أحمد أنه أنكر هذا الحديث، وقيل: إن قبيصة لم يسمع عمراً، وقد ذهب إلى القول بهذا الحديث طائفة من السلف، منهم: سعيد بن المسيب، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وابن سيرين، وأبو عياض^(٤)، والزهري، وعمر بن عبد العزيز. وبه كان يأمر يزيد بن عبد الملك بن مروان، وهو أمير المؤمنين. وبه يقول الأوزاعي، وإسحاق بن راهويه، وأحمد بن حنبل، في رواية عنه. وقال طاوس وقاتادة: عدة أم الولد إذا توفي عنها سيدها نصفُ عدة الحرة: شهران وخمس ليال. وقال أبو حنيفة وأصحابه، والثوري، والحسن بن صالح بن حَيٍّ: تعتد بثلاث حيض. وهو قول علي، وابن مسعود، وعطاء، وإبراهيم النخعي. وقال مالك، والشافعي، وأحمد في المشهور عنه: عدتها حيضة. وبه يقول ابن عمر، والشعبي، ومكحول، والليث، وأبو عبيد، وأبو ثور، والجمهور. قال الليث: ولو مات وهي حائض أجزأتها. وقال مالك: فلو كانت ممن لا تحيض فثلاثة أشهر. وقال الشافعي والجمهور: شهر، وثلاثة أحب إلى. والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يستفاد من هذا وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها، لما ثبت في الصحيحين، من غير وجه، عن أم حبيبة وزينب بنت جحش أمى المؤمنين، أن رسول الله ﷺ قال: « لا يحل لامرأة تؤمن

(١) صحيح البخارى برقم (٣٢٠٨) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٣).

(٢) المسند (٢٠٣/٤).

(٣) سنن أبى داود برقم (٢٣٠٨) وسنن ابن ماجه برقم (٢٠٨٣).

(٤) فى ج: « وأبو عاص ».

بالله واليوم الآخر أن تُحد على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً^(١). وفى الصحيحين أيضاً، عن أم سلمة: أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن ابنتي تُوفى عنها زوجها، وقد اشتكت عيها، أفنكحها؟ فقال: « لا ». كل ذلك يقول: « لا » مرتين أو ثلاثاً. ثم قال: « إنما هى أربعة أشهر وعشراً^(٢)، وقد كانت إحداكن فى الجاهلية تمكث سنة ». قالت زينب بنت أم سلمة: كانت المرأة إذا توفى عنها زوجها دخلت حفشاً، ولبست شر ثيابها، ولم تمس طيباً ولا شيئاً، حتى تمر بها سنة، ثم تخرج فتعطى بَعْرَة فترمى بها، ثم تؤتى بدابة - حمار أو شاة أو طير - فتقتض به فقلما تفتض بشيء إلا مات^(٣).

ومن هاهنا ذهب كثير من العلماء إلى أن هذه الآية ناسخة للآية التى بعدها، وهى قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ الآية [البقرة: ٢٤٠]، كما قاله ابن عباس وغيره، وفى هذا نظر كما سيأتى تقريره.

والغرض أن الإحداد هو عبارة عن ترك الزينة من الطيب، ولبس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحلى وغير ذلك وهو واجب فى عدة الوفاة قولاً واحداً، ولا يجب فى عدة الرجعية قولاً واحداً، وهل يجب فى عدة البائن؟ فيه قولان.

ويجب الإحداد على جميع الزوجات المتوفى عنهن أزواجهن، سواء فى ذلك الصغيرة والآيسة^(٤)، والحرّة والأمة، والمسلمة والكافرة، لعموم الآية. وقال الثورى وأبو حنيفة وأصحابه: لا إحداد على الكافرة. وبه يقول أشهب، وابن نافع من أصحاب مالك. وحجة قائل هذه المقالة قوله ﷺ: « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تُحد على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً^(٥) ». قالوا: فجعله تعبد^(٦). وألحق أبو حنيفة وأصحابه والثورى الصغيرة بها، لعدم التكليف. وألحق أبو حنيفة وأصحابه الأمة المسلمة لنقصها^(٧). ومحل تقرير ذلك كله فى كتب الأحكام والفروع، والله الموفق للصواب.

وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أى: انقضت عدتهن^(٨). قاله الضحاك والربيع بن أنس، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ قال الزهرى: أى: على أوليائها ﴿فِيمَا فَعَلْنَ﴾ يعنى: النساء اللاتى انقضت عدتهن. قال العوفى^(٩)، عن ابن عباس: إذا طلقت المرأة أو مات عنها زوجها، فإذا انقضت عدتها فلا جناح عليها أن تتزين وتتصنع وتعرض للتزويج، فذلك المعروف. روى عن مقاتل بن حيان نحوه، وقال ابن جريج عن مجاهد: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال: هو النكاح الحلال الطيب. وروى عن الحسن، والزهرى، والسدى نحو ذلك.

(١) صحيح البخارى برقم (٥٣٣٧) وصحيح مسلم برقم (١٤٨٦) من حديث زينب بنت جحش رضى الله عنها، وصحيح البخارى برقم (٥٣٣٤) وصحيح مسلم برقم (١٤٨٦) من حديث أم حبيبة رضى الله عنها.

(٢) فى ج: « وعشراً ».

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٣٣٦) وصحيح مسلم برقم (١٤٨٨).

(٤) فى ج: « الصغير والكبير ». (٥) فى ج: « عليه السلام ».

(٦) فى ج: « مقيداً ». (٧) فى ج: « لبعضها ».

(٨) فى ج، أ، و: « عدتها ». (٩) فى ج: « قال الوالى ».

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْكُمْ سَتَذَكَّرُوْنَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوْهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوْهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥)﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أن تُعَرِّضُوا بخطبة النساء في عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح. قال الثوري وشعبة وجريز وغيرهم، عن منصور، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ قال: التعريض أن تقول: إني أريد التزويج، وإني أحب امرأة من أمرها ومن أمرها - يعرض لها بالقول بالمعروف - وفي رواية: وددت أن الله رزقني امرأة ونحو هذا. ولا يَنْصِبُ للخطبة. وفي رواية: إني لا أريد أن أتزوج غيرك إن شاء الله، ولوددت أني وجدت امرأة صالحة، ولا ينصب لها ما دامت في عدتها. ورواه البخاري تعليقا، فقال: قال لي طلق بن غنّام، عن زائدة، عن منصور، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ هو أن يقول: إني أريد التزويج، وإن النساء لمن حاجتي، ولوددت أنه تيسر لي امرأة صالحة^(١).

وهكذا قال مجاهد، وطاوس، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، وإبراهيم النخعي، والشعبي، والحسن، وقتادة، والزهرى، ويزيد بن قسيط، ومقاتل بن حيان، والقاسم بن محمد، وغير واحد من السلف والأئمة في التعريض: إنه يجوز للمتوفى عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطبة. وهكذا حكم المطلقة المبتوتة يجوز التعريض لها، كما قال النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس، حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص: آخر ثلاث تطليقات. فأمرها أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم، وقال لها: « فإذا حللت فأذنيني ». فلما حلت خطب عليها أسامة بن زيد مولاه، فزوجه إياه^(٢).

فأما المطلقة الرجعية: فلا خلاف في أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها ولا التعريض لها، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أى: أضمرتم في أنفسكم خطبتن^(٣)، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾^(٤) يَعْلَمُ مَا تَكُنْ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿[القصص: ٦٩]، وكقوله: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ [الممتحنة: ١]؛ ولهذا قال: ﴿عِلْمَ اللَّهِ أَنْكُمْ سَتَذَكَّرُوْنَهُنَّ﴾ أى: في أنفسكم، فرفع الحرج عنكم في ذلك، ثم قال: ﴿وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوْهُنَّ سِرًّا﴾ قال أبو مجلز، وأبو الشعثاء - جابر بن زيد - والحسن البصري، وإبراهيم النخعي وقتادة، والضحاك، والربيع بن أنس، وسليمان التيمي، ومقاتل ابن حيان، والسدي: يعنى الزنا. وهو معنى رواية العوفي عن ابن عباس، واختاره ابن جرير.

(١) صحيح البخارى برقم (٥١٢٤).

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٤٨٠).

(٣) فى ج: « والله » وهو خطأ.

(٤) فى ج، أ، و: « من خطبتن ».

وقال على بن أبي طلحة، عن أبي عباس: ﴿وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ : لا تقل لها : إني عاشق، وعاهديني ألا تتزوجي غيري، ونحو هذا. وكذا روى عن سعيد بن جبيرة، والشعبي، وعكرمة، وأبي الضحى، والضحاك، والزهرى، ومجاهد، والثوري: هو أن يأخذ ميثاقها ألا تتزوج غيره، وعن مجاهد: هو قول الرجل للمرأة: لا تفوتي بنفسي، فإني ناكحك.

وقال قتادة: هو أن يأخذ عهد المرأة، وهى فى عدتها ألا تنكح غيره، فنهى الله عن ذلك وقدم فيه، وأحل الخطبة والقول بالمعروف.

وقال ابن زيد: ﴿وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ هو أن يتزوجها فى العدة سرّاً، فإذا حلت أظهر ذلك.

وقد يحتمل أن تكون الآية عامة فى جميع ذلك؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ قال^(١) ابن عباس، ومجاهد وسعيد بن جبيرة، والسدى، والثوري، وابن زيد: يعنى به: ما تقدم من إباحة التعريض. كقوله: إني فيك لراغب. ونحو ذلك.

وقال محمد بن سيرين: قلت لعبيدة: ما معنى قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾؟ قال: يقول لوليها: لا تسبقني بها، يعنى: لا تزوجها حتى تعلمنى. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ يعنى: ولا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضى العدة. قال ابن عباس، ومجاهد، والشعبي، وقاتادة، والربيع بن أنس، وأبو مالك، وزيد بن أسلم، ومقاتل بن حيان، والزهرى، وعطاء الخراساني، والسدى، والثوري، والضحاك: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ يعنى: حتى تنقضى العدة.

وقد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد فى مدة العدة. واختلفوا فيمن تزوج امرأة فى عدتها فدخل بها، فإنه يفرق بينهما، وهل تحرم عليه أبداً؟ على قولين: الجمهور على أنها لا تحرم عليه، بل له أن يخطبها إذا انقضت عدتها. وذهب الإمام مالك إلى أنها تحرم عليه على التأييد. واحتج فى ذلك بما رواه عن ابن شهاب، وسليمان بن يسار: أن عمر، رضى الله عنه، قال: أيما امرأة نكحت فى عدتها، فإن زوجها الذى تزوجها^(٢) لم يدخل بها، فرق بينهما، ثم اعتدت بقية عدتها من زوجها الأول، ثم كان الآخر خاطباً من الخطاب، وإن كان دخل بها فرق بينهما، ثم اعتدت بقية عدتها من الأول^(٣)، ثم اعتدت من الآخر، ثم لم ينكحها أبداً^(٤).

قالوا: ومأخذ هذا: أن الزوج لما استعجل ما أجل الله، عوقب بنقيض قصده، فحرم عليه على التأييد، كالقاتل يحرم^(٥) الميراث. وقد روى الشافعى هذا الأثر عن مالك. قال البيهقي: وذهب إليه فى القديم ورجع عنه فى الجديد، لقول على: إنها تحل له.

قلت: ثم هو^(٦) منقطع عن عمر. وقد روى الثوري، عن أشعث، عن الشعبي، عن مسروق:

(١) فى ج: «وقال». (٢) فى ج، أ، و: «زوجها التى تزوج بها». (٣) فى ج: «من زوجها الأول».

(٤) الموطأ (٢/٥٣٥). (٥) فى ج: «يحرم عليه». (٦) فى ج: «قلت وهو».

أن عمر رجع عن ذلك وجعل لها مهرها، وجعلهما يجتمعان.
وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ توعدهم على ما يقع في ضمائرهم من أمور النساء، وأرشدهم إلى إضمار الخير دون الشر، ثم لم يؤيسهم من رحمته، ولم يقنطهم من عائدته، فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٣٦).

أباح تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها وقبل الدخول بها. قال ابن عباس، وطاوس، وإبراهيم، والحسن البصري: المس: النكاح. بل ويجوز أن يطلقها قبل الدخول بها، والفرض لها إن كانت مفوضة، وإن كان في هذا انكسار لقلبها؛ ولهذا أمر تعالى بامتاعها، وهو تعويضها عما فاتها بشيء تعطاه من زوجها بحسب حاله، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره.

وقال سفيان الثوري، عن إسماعيل بن أمية، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: متعة الطلاق أعلاه الخادم، ودون ذلك الورق، ودون ذلك الكسوة.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: إن^(٢) كان موسراً متعها بخادم، أو شبه ذلك، وإن كان معسراً أمتعها بثلاثة أثواب.

وقال الشعبي: أوسط ذلك: درع وخمار وملحفة وجلباب. قال: وكان شريح يمتع بخمسائة. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن أيوب، عن ابن سيرين قال: كان يمتع بالخادم، أو بالنفقة، أو بالكسوة، قال: ومتع الحسن بن علي بعشرة آلاف^(٣)، ويروى أن المرأة قالت:

متاع قليل من حبيب مفارق

وذهب أبو حنيفة، رحمه الله، إلى أنه متى تنازع الزوجان في مقدار المتعة وجب لها عليه نصف مهر مثلها. وقال الشافعي في الجديد: لا يجبر الزوج على قدر معلوم، إلا على أقل ما يقع عليه اسم المتعة، وأحب ذلك إلى أن يكون أقله ما تجزئ فيه الصلاة. وقال في القديم: لا أعرف في المتعة قدراً^(٤)، إلا أنى أستحسن ثلاثين درهماً؛ لما روى عن ابن عمر، رضى الله عنهما^(٥).

وقد اختلف العلماء أيضاً: هل تجب المتعة لكل مطلقة، أو إنما تجب المتعة لغير المدخول بها التي لم يفرض لها؟ على أقوال:

أحدها: أنه تجب المتعة لكل مطلقة، لعموم قوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى

الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١] ولقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨]، وقد كن مفروضاً لهن ومدخولاً بهن، وهذا

(١) في ج، أ، و: «غفور حلیم» وهو الصواب. (٢) في أ: «إذا».

(٣) ورواه الطبري في تفسيره (١٢٣/٥) من طريق عبد الرزاق به.

(٤) في ج، أ، و: «وقتها». (٥) في ج: «عنه». (٦) في ج: «وقد كن مدخولاً بهن ومفروضاً لهن».

قول سعيد ابن جبير، وأبى العالمة، والحسن البصرى. وهو أحد قولى الشافعى، ومنهم من جعله الجديد الصحيح، فالله أعلم.

والقول الثانى: أنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس، وإن كانت مفروضاً لها لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَعَتُهُنَّ وَسِرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩]، قال شعبة وغيره، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب قال: نسخت هذه الآية التى فى الأحزاب الآية التى فى البقرة.

وقد روى البخارى فى صحيحه، عن سهل بن سعد، وأبى أسيد أنهما قالا: تزوج رسول الله ﷺ أميمة بنت شراحيل، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها فكأنما ^(١) كرهت ذلك، فأمر أبى أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقين ^(٢) ^(٣).

والقول الثالث: أن المتعة إنما تجب للمطلقة إذا لم يدخل بها، ولم يفرض ^(٤) لها، فإن كان قد دخل بها وجب لها مهر مثلها إذا كانت مفوضة، وإن كان قد فرض لها وطلقها قبل الدخول، وجب لها عليه شطره، فإن دخل بها استقر الجميع، وكان ذلك عوضاً لها عن المتعة، وإنما المصابة التى لم يفرض لها ولم يدخل بها فهذه التى دلت هذه الآية الكريمة على وجوب متعتها. وهذا قول ابن عمر، ومجاهد. ومن العلماء: من استحباها لكل مطلقة ممن عدا المفوضة المفارقة قبل الدخول: وهذا ليس بمنكور ^(٥)، وعليه تحمل آية التخيير فى الأحزاب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾، [البقرة: ٢٤١].

ومن العلماء من يقول: إنها مستحبة مطلقاً. قال ابن أبى حاتم: حدثنا كثير بن شهاب القزوينى، حدثنا محمد بن سعيد بن سابق، حدثنا عمرو - يعنى ابن أبى قيس - عن أبى إسحاق، عن الشعبى قال: ذكروا له المتعة، أيجس فيها؟ فقرأ: ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ﴾ قال الشعبى: والله ما رأيت أحداً حبس ^(٦) فيها، والله لو كانت واجبة لحبس فيها القضاة.

﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصَفْ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢٣٧).

وهذه الآية الكريمة مما يدل على اختصاص المتعة بما دلت عليه الآية الأولى ^(٧)، حيث إنما أوجب فى هذه الآية نصف المهر المفروض، وإذا طلق الزوج قبل الدخول، فإنه لو كان ثم واجب آخر من

(١) فى أ، و: «فكأنها».

(٢) فى ج: «دراقتين».

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٢٢٦).

(٤) فى ج: «ولم يعرض».

(٥) فى ج: «أحسن».

(٦) فى أ: «الكريمة».

(٧) فى ج: «أحسن».

متعة لبينها^(١)، لاسيما وقد قرنهما بما قبلها من اختصاص المتعة بتلك الحالة^(٢)، والله أعلم.
وتشطير الصداق - والحالة هذه - أمر مجمع عليه بين العلماء، لاختلاف بينهم في ذلك، فإنه متى كان قد سمي لها صداقاً ثم فارقها قبل دخوله بها، فإنه يجب لها نصف ما سمي من الصداق، إلا أن عند الثلاثة أنه يجب جميع الصداق إذا خلا بها الزوج، وإن لم يدخل بها، وهو مذهب الشافعي في القديم، وبه حكم الخلفاء الراشدون، لكن^(٣) قال الشافعي: أخبرنا مسلم بن خالد، أخبرنا ابن جريج، عن ليث بن أبي سليم، عن طاوس، عن ابن عباس أنه قال: - في الرجل يتزوج المرأة فيخلو بها ولا يمسه ثم يطلقها - ليس لها إلا نصف الصداق؛ لأن الله يقول: ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾ قال الشافعي: هذا أقوى^(٤)، وهو ظاهر الكتاب.
قال البيهقي: وليث بن أبي سليم وإن كان غير محتج^(٥) به، فقد رويناه من حديث ابن أبي طلحة، عن ابن عباس فهو يقوله^(٦).

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ أى: النساء عما وجب لها على زوجها من النصف، فلا يجب لها عليه شيء.

قال السدي، عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ قال: إلا أن تغفو الثيب فتدع حقها. قال الإمام أبو محمد بن أبي حاتم، رحمه الله: وروى عن شريح، وسعيد بن المسيب، وعكرمة، ومجاهد، والشعبي، والحسن، ونافع، وقتادة، وجابر بن زيد، وعطاء الخراساني، والضحاك، والزهرى، ومقاتل بن حيان، وابن سيرين، والربيع بن أنس، والسدي، نحو ذلك. قال: وخالفهم محمد بن كعب القرظي فقال: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ يعنى: الرجال، وهو قول شاذ لم يتابع عليه. انتهى كلامه.

وقوله: ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ قال ابن أبي حاتم: ذكر عن ابن لهيعة، حدثني عمرو ابن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ [قال]^(٧): «ولى عقدة النكاح الزوج». وهكذا أسنده ابن مردويه من حديث عبد الله بن لهيعة، به^(٨). وقد أسنده ابن جرير، عن ابن لهيعة، عن عمرو بن شعيب أن رسول الله ﷺ، فذكره^(٩)، ولم يقل: عن أبيه، عن جده فالله أعلم.

ثم قال ابن أبي حاتم، رحمه الله: وحدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا جرير، يعنى ابن حازم،^(١٠) عن عيسى - يعنى ابن عاصم - قال: سمعت شريحاً يقول: سألتني على بن طالب^(١١)

(١) فى أ: «لمسها». (٢) فى ج: «المتعة مهما دلت عليه الآية الأولى بتلك الحالة».

(٣) فى ج: «ولكن». (٤) فى ج، و: «بهذا أقول»، وفى أ: «بهذا القول». (٥) فى ج: «غير صحيح».

(٦) فى أ، و: «فهو مقوله». (٧) زيادة من ج، أ، و.

(٨) ورواه الدارقطني فى السنن (٢٧٩/٣) من طريق قتيبة عن ابن لهيعة به، وذكر البيهقي فى السنن الكبرى (٢٥١/٧) وقال: «هذا غير محفوظ، وابن لهيعة غير محتج به، والله أعلم».

(٩) تفسير الطبرى (١٥٧/٥).

(١٠) فى ج: «يعنى ابن أبي حاتم». (١١) فى أ: «على بن أبي طلحة»، وفى و: «على بن أبي طالب».

عن الذى بيده عقدة النكاح. فقلت له: هو ولى المرأة. فقال على: لا، بل هو الزوج.
ثم قال: وفى إحدى الروايات عن ابن عباس، وجبير بن مطعم، وسعيد بن المسيب، وشريح -
فى أحد قوليه - وسعيد بن جبير، ومجاهد، والشعبى، وعكرمة، ونافع، ومحمد بن سيرين،
والضحاك، ومحمد بن كعب القرظى، وجابر بن زيد، وأبى مجلز، والربيع بن أنس، وإياس بن
معاوية، ومكحول، ومقاتل بن حيان: أنه الزوج.
قلت: وهذا هو الجديد من قولى ^(١) الشافعى، ومذهب أبى حنيفة. وأصحابه، والثورى، وابن
شبرمة، والأوزاعى، واختاره ابن جرير. ومأخذ هذا القول: أن الذى بيده عقدة النكاح حقيقة الزوج،
فإن بيده ^(٢) عقدها وإبرامها ونقضها وإنهادهما، وكما أنه لا يجوز للولى أن يهب شيئاً من مال المولية
للغير، فكذلك فى الصداق.

قال ^(٣): والوجه الثانى: حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى مريم، حدثنا محمد بن مسلم، حدثنا عمرو
ابن دينار، عن ابن عباس - فى الذى ذكر الله بيده عقدة النكاح - قال: ذلك أبوها أو أخوها، أو من
لا تنكح إلا بإذنه، وروى عن علقمة، والحسن، وعطاء، وطاوس، والزهرى، وربيعه، وزيد بن
أسلم، وإبراهيم النخعى، وعكرمة فى أحد قوليه، ومحمد بن سيرين - فى أحد قوليه: أنه الولى.
وهذا مذهب مالك، وقول ^(٤) الشافعى فى القديم؛ ومأخذه أن الولى هو الذى أكسبها إياه، فله
التصرف فيه بخلاف سائر ماله.

وقال ابن جرير: حدثنا سعيد بن الربيع الرازى، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة
قال: أذن الله فى العفو وأمر به، فأى امرأة عفت جاز عفوها، فإن شحت وضنت عفا وليها وجاز
عفو.

وهذا يقتضى صحة عفو الولى، وإن كانت رشيدة، وهو مروى عن شريح. لكن أنكر عليه
الشعبى، فرجع عن ذلك، وصار إلى أنه الزوج وكان يباهل عليه.

وقوله: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾: قال ابن جرير: قال بعضهم: خوطب به الرجال، والنساء.
حدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، سمعت ابن جريج يحدث عن عطاء بن أبى رباح، عن ابن
عباس: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ قال: أقربهما للتقوى الذى يعفو.

وكذا روى عن الشعبى وغيره، وقال مجاهد، والضحاك، ومقاتل بن حيان، والربيع بن أنس،
والثورى: الفضل ^(٥) هاهنا أن تعفو المرأة عن شطرها، أو إتمام الرجل الصداق لها. ولهذا قال: ﴿وَلَا
تَسْأُوا الْفَضْلَ [بَيْنَكُمْ]﴾ ^(٦) أى: الإحسان، قاله سعيد. وقال الضحاك، وقتادة، والسدى، وأبو وائل:
المعروف يعنى: لا تهملوه بل استعملوه بينكم.

وقد قال أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا موسى بن إسحاق،

(٣) فى ج: «وقال».

(٢) فى ج: «فإن بيدها».

(١) فى ج: «من مذهب».

(٥) فى ج: «والفضل».

(٤) فى ج: «وهو قول».

(٦) زيادة من ج.

حدثنا عقبة بن مكرم، حدثنا يونس بن بكير، حدثنا عبيد الله ^(١) بن الوليد الوصافي، عن عبد الله ابن عبيد، عن علي بن أبي طالب، أن رسول الله ﷺ قال: « لِيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ عَصُوفٌ، يَعْصُ الْمُؤْمِنُ عَلَى مَا فِي يَدَيْهِ وَيَنْسَى الْفَضْلَ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، شَرَارٌ يَبَايِعُونَ كُلَّ مُضْطَرٍّ، وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ بَيْعِ الْمُضْطَرِّ، وَعَنْ بَيْعِ الْغَرَرِ، فَإِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْرٌ فَعُدَّ بِهِ عَلَى أَخِيكَ، وَلَا تَزِدْهُ هَلَاكًا إِلَى هَلَاكِهِ، فَإِنَّ الْمُسْلِمَ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَحْزُنُهُ ^(٢) وَلَا يَحْرُمُهُ ^(٣) ».

وقال سفيان، عن أبي هارون قال: رأيت عون بن عبد الله في مجلس القرظي، فكان عون يحدثنا ولحيته تُرَشُّ مِنَ الْبُكَاءِ ويقول: صحبت الأغنياء فكنت من أكثرهم همًّا، حين رأيتهم أحسن ثياباً، وأطيب ريحاً، وأحسن مركباً [منى] ^(٤). وجالست الفقراء فاسترحت بهم، وقال: ﴿وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾. إذا أتاه السائل وليس عنده شيء فليدعُ له: رواه ابن أبي حاتم. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء من أموركم ^(٥) وأحوالكم، وسيجزي كل عامل بعمله.

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجَلًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمَنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩) .

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها، وحفظ حدودها وأدائها في أوقاتها، كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: « الصلاة على وقتها ». قلت: ثم أي؟ قال: « الجهاد في سبيل الله ». قلت: ثم أي؟ قال: « بر الوالدين ». قال: حدثني بهن رسول الله ﷺ، ولو استزدته لزادني ^(٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا ليث، عن عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم، عن القاسم بن غنام، عن جدته أم أبيه الدنيا، عن جدته أم فروة - وكانت ممن بايع رسول الله ﷺ، أنها سمعت رسول الله ﷺ، وذكر الأعمال، فقال: « إن أحب الأعمال ^(٧) إلى الله تعجيل الصلاة لأول وقتها ».

وهكذا رواه أبو داود، والترمذي ^(٨)، وقال: لا نعرفه إلا من طريق العمري، وليس بالقوي عند أهل الحديث:

وخص تعالى من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطى. وقد اختلف السلف والخلف فيها: أي

(١) في أ، و: «عبد الله».

(٢) في أ: « لا يخزيه ».

(٣) وقد جاء من وجه آخر، رواه أحمد في المسند (١١٦/١) وأبو داود في السنن برقم (٣٣٨٢) من طريق أبي عامر المزني عن شيخ من بني تميم عن علي موقوفاً عليه بنحوه.

(٤) زيادة من ج، أ، و.

(٥) في ج: « من أعمالكم ».

(٦) صحيح البخاري برقم (٥٢٧، ٥٩٧٠) وصحيح مسلم برقم (٨٥).

(٧) في ج: « العمل ».

(٨) المسند (٢٧٤/٦) وسنن أبي داود برقم (٤٢٦) وسنن الترمذي برقم (١٧٠).

صلاة هي؟ فقيل: إنها الصبح. حكاه مالك في الموطأ بلاغاً عن علي، وابن عباس [قال: مالك: وذلك رأيي] ^(١). وقال هشيم، وابن عُلَيَّة، وغُنْدَر، وابن أبي عدى، وعبد الوهاب، وشريك وغيرهم، عن عوف الأعرابي، عن أبي رجاء العطاردي قال: صليت خلف ابن عباس الفجر، ففقت فيها، ورفع يديه، ثم قال: هذه الصلاة الوسطى التي أمرنا أن نقوم فيها قانتين. رواه ابن جرير ^(٢). ورواه أيضاً من حديث عوف، عن خِلاَس بن عمرو، عن ابن عباس، مثله سواء ^(٣).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا عوف، عن أبي المنهال، عن أبي العالية، عن ابن عباس: أنه صلى الغداة في مسجد ^(٤) البصرة، ففقت قبل الركوع وقال: هذه الصلاة الوسطى التي ذكرها الله في كتابه فقال: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾. وقال أيضاً: حدثنا محمد بن عيسى الدامغاني، أخبرنا ابن المبارك، أخبرنا الربيع بن أنس، عن أبي العالية قال: صليت خلف عبد الله بن قيس بالبصرة ^(٥) صلاة الغداة، فقلت لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ، إلى جاني: ما الصلاة الوسطى؟ قال: هذه الصلاة ^(٦).

وروى من طريق أخرى عن الربيع، عن أبي العالية: أنه صلى مع أصحاب رسول الله ﷺ، صلاة الغداة، فلما أن فرغوا قال، قلت لهم: أيتها الصلاة الوسطى؟ قالوا: التي قد صليتها قبل. وقال أيضاً: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن عَمَّة، عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن جابر بن عبد الله قال: الصلاة الوسطى: صلاة الصبح.

وحكاه ابن أبي حاتم، عن ابن عمر، وأبي أمامة، وأنس، وأبي العالية، وعُبَيْد بن عمير، وعطاء، ومجاهد، وجابر بن زيد، وعكرمة، والربيع بن أنس. ورواه ابن جرير، عن عبد الله بن شداد بن الهاد أيضاً وهو الذي نص عليه الشافعي، رحمه الله، محتجاً بقوله: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾. والقنوت عنده في صلاة الصبح. [ونقله الدمياطي عن عمر، ومعاذ، وابن عباس، وابن عمر، وعائشة على خلاف منهم، وأبي موسى، وجابر، وأنس، وأبي الشعثاء، وطاوس، وعطاء، وعكرمة، ومجاهد] ^(٧).

ومنهم من قال: هي الوسطى باعتبار أنها لا تقصر، وهي بين صلاتين رباعيتين مقصورتين. وترد المغرب. وقيل: لأنها بين صلاتي ليل ^(٨) جهريتين، وصلاتي نهار ^(٩) سريتين.

وقيل: إنها صلاة الظهر. قال أبو داود الطيالسي في مسنده: حدثنا ابن أبي ذئب، عن الزبرقان -

(١) زيادة من جـ.

(٢) تفسير الطبري (٥/٢١٥، ٢١٦).

(٣) تفسير الطبري (٥/٢١٨).

(٤) في جـ: «في جامع».

(٥) في أ، و: «بالبصرة وفرغت».

(٦) في أ: «هذه الصلاة الوسطى».

(٧) زيادة من جـ، أ.

(٨) في أ، و: «بين صلاتين ليلتين».

(٩) في أ، و: «وصلاتين نهاريين».

يعنى ابن عمرو - عن^(١) زهرة - يعنى ابن معبد - قال: كنا جلوساً عند زيد بن ثابت، فأرسلوا إلى أسامة، فسألوه عن الصلاة الوسطى، فقال: هي الظهر، كان النبي ﷺ، يصليها بالهجير^(٣).

وقال [الإمام]^(٤) أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، حدثني عمرو بن أبي حكيم، سمعت الزبرقان يحدث عن عروة بن الزبير، عن زيد بن ثابت قال: كان رسول الله ﷺ يصلي الظهر بالهاجرة، ولم يكن يُصلي صلاة أشد على أصحاب النبي ﷺ، منها، فنزلت: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ وقال: «إن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين»، ورواه أبو داود في سننه، من حديث شعبة، به^(٥).

وقال أحمد أيضاً: حدثنا يزيد، حدثنا ابن أبي ذئب^(٦)، عن الزبرقان^(٧): أن رهطاً من قريش مر بهم زيد بن ثابت، وهم مجتمعون، فأرسلوا إليه غلامين لهم؛ يسألانه عن الصلاة الوسطى، فقال: هي العصر. فقام إليه رجلان منهم فسألاه، فقال: هي الظهر. ثم انصرفا إلى أسامة بن زيد فسألاه، فقال: هي الظهر؛ إن النبي ﷺ كان يصلي الظهر بالهجير، فلا يكون وراءه إلا الصف والصفان، والناس في قائلتهم وفي تجارتهم، فأنزل الله: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ قال: فقال رسول الله ﷺ: «لَيَنْتَهَيْنَ رجال أو لأحرقن بيوتهم»^(٨).

الزبرقان هو ابن عمرو بن أمية الضمري، لم يدرك أحداً من الصحابة. والصحيح ما تقدم من روايته، عن زهرة بن معبد، وعروة بن الزبير.

وقال شعبة وهمام، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن ابن عمر، عن زيد بن ثابت قال: الصلاة الوسطى: صلاة الظهر.

وقال أبو داود الطيالسي وغيره، عن شعبة، أخبرني عمر بن سليمان، من ولد عمر بن الخطاب قال: سمعت عبد الرحمن بن أبان بن عثمان، يحدث عن أبيه، عن زيد بن ثابت قال: الصلاة الوسطى هي الظهر.

ورواه ابن جرير، عن زكريا بن يحيى بن أبي زائدة، عن عبد الصمد، عن شعبة، عن عمر بن سليمان، به، عن زيد بن ثابت، في حديث رفعه قال: الصلاة الوسطى صلاة الظهر.

ومن روى عنه أنها الظهر: ابن عمر، وأبو سعيد، وعائشة على اختلاف عنهم. وهو قول عروة ابن الزبير، وعبد الله بن شداد بن الهاد. ورواية عن أبي حنيفة، رحمهم الله.

وقيل: إنها صلاة العصر. قال الترمذي والبخاري، رحمهما الله: وهو قول أكثر علماء الصحابة وغيرهم، وقال القاضي الماوردي: وهو قول جمهور التابعين. وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر: هو قول أكثر أهل الأثر. وقال أبو محمد بن عطية في تفسيره: هو قول جمهور الناس. وقال الحافظ

(١) في ج: «وعن».

(٢) في ج: «رسول الله».

(٣) زيادة من ج.

(٤) مسند الطيالسي برقم (٦٢٨).

(٥) المسند (١٨٣/٥) وسنن أبي داود برقم (٤١١).

(٦) في أ: «ابن الزبرقان».

(٧) في أ: «حدثنا ابن أبي وهب»، وفي و: «أبنا ابن أبي وهب».

(٨) المسند (٢٠٦/٥).

أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطى فى كتابه المسمى: «كشف المغطى، فى تبين الصلاة الوسطى»: وقد نصر فيه أنها العصر، وحكاها عن عمر، وعلى، وابن مسعود، وأبى أيوب، وعبد الله ابن عمرو، وسمره بن جندب، وأبى هريرة، وأبى سعيد، وحفصة، وأم حبيبة، وأم سلمة. وعن ابن عمر، وابن عباس، وعائشة على^(١) الصحيح عنهم. وبه قال عبيدة، وإبراهيم النخعى، وزر بن حبيش، وسعيد بن جبير، وابن سيرين، والحسن، وقتادة، والضحاك، والكلبى، ومقاتل، وعبيد بن أبى مريم، وغيرهم وهو مذهب أحمد بن حنبل. قال القاضى الماوردى: والشافعى. قال ابن المنذر: وهو الصحيح عن أبى حنيفة، وأبى يوسف، ومحمد، واختاره ابن حبيب المالكى، رحمهم الله.

ذكر الدليل على ذلك

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن مسلم، عن شتير بن شكل^(٢)، عن على قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً». ثم صلاها بين العشاءين: المغرب والعشاء^(٣).

وكذا رواه مسلم، من حديث أبى معاوية محمد بن حازم الضرير، والنسائى من طريق عيسى بن يونس، كلاهما عن الأعمش عن مسلم بن صبيح أبى الضحى، عن شتير بن شكل^(٤) بن حميد، عن على بن أبى طالب، عن النبى ﷺ مثله^(٥).

وقد رواه مسلم أيضاً، من طريق شعبة، عن الحكم بن عتيبة^(٦)، عن يحيى بن الجزار، عن على، به^(٧).

وأخرجه الشيخان، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، وغير واحد من أصحاب المساند^(٨)، والسنن، والصحاح من طرق يطول ذكرها، عن عبيدة السلمانى، عن على، به^(٩). ورواه الترمذى، والنسائى من طريق الحسن البصرى، عن على، به^(١٠). قال الترمذى: ولا يعرف سماعه منه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، عن سفيان، عن عاصم، عن زر: قال قلت لعبيدة: سل علياً عن صلاة الوسطى، فسأله، فقال: كنا نراها الفجر - أو الصبح - حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله قبورهم وأجوافهم - أو بيوتهم - ناراً» ورواه ابن جرير، عن بNDAR، عن ابن مهدى،

(١) فى ج: «فى». (٢) فى ج: «بشير بن نكل».

(٣) المسند (٨١/١).

(٤) فى ج: «بشير بن نكل».

(٥) صحيح مسلم برقم (٦٢٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٠٤٥).

(٦) فى أ: «بن عيينة».

(٧) صحيح مسلم برقم (٦٢٧). (٨) فى أ: «المسانيد».

(٩) صحيح البخارى برقم (٢٩٣١)، (٤١١١) وصحيح مسلم برقم (٦٢٧) وسنن أبى داود برقم (٤٠٩) وسنن الترمذى برقم (٢٩٨٤).

وسنن النسائى (٢٣٦/١).

(١٠) لم أقع على هذا الطريق ولم يذكره المزى فى تحفة الأشراف.

به^(١).

وحديث يوم الأحزاب، وشغل المشركين رسول الله ﷺ، وأصحابه عن أداء صلاة العصر يومئذ، مروى عن جماعة من الصحابة يطول ذكرهم، وإنما المقصود رواية من نص منهم في روايته أن الصلاة الوسطى: هي صلاة العصر. وقد رواه مسلم أيضاً، من حديث ابن مسعود، والبراء بن عازب - رضى الله عنهما^(٢).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة: أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة الوسطى: صلاة العصر»^(٣).

وحدثنا بهز، وعفان قالا: حدثنا أبان، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن سمرة: أن رسول الله ﷺ قال: «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى» وسماها لنا أنها هي: صلاة العصر^(٤).

وحدثنا محمد بن جعفر، وروح، قالا: حدثنا سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة بن جندب: أن رسول الله ﷺ قال: «هي العصر». قال ابن جعفر: سئل عن صلاة الوسطى^(٥).

ورواه الترمذى، من حديث سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة. ^(٦) وقال: حسن صحيح: وقد سُمِعَ منه.

[حديث آخر]^(٧): وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، عن التيمي، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الصلاة الوسطى صلاة العصر»^(٨).

طريق أخرى، بل حديث آخر: وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا سليمان بن أحمد الجرشى الواسطى، حدثنا الوليد بن مسلم. قال: أخبرني صدقة بن خالد، حدثني خالد بن دهقان، عن خالد ابن سبلان، عن كهيل بن حرملة. قال: سئل أبو هريرة عن الصلاة الوسطى، فقال: اختلفنا فيها كما اختلفتم فيها، ونحن بفناء بيت رسول الله ﷺ، وفيها الرجل الصالح: أبو هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، فقال: أنا أعلم لكم ذلك: فقام فاستأذن على رسول الله ﷺ، فدخل عليه، ثم خرج إلينا فقال: أخبرنا أنها صلاة العصر^(٩) غريب من هذا الوجه جداً.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا عبد السلام، عن سالم مولى أبى بصير^(١٠)، حدثني إبراهيم بن يزيد الدمشقى قال: كنت جالساً عند عبد العزيز بن

(١) تفسير الطبرى (١٨٤/٥).

(٢) صحيح مسلم برقم (٦٢٨) من حديث ابن مسعود رضى الله عنه وبرقم (٦٣٠) من حديث البراء رضى الله عنه.

(٣) المسند (٢٢/٥).

(٤) المسند (٨/٥).

(٥) المسند (٥/٧، ١٢، ١٣).

(٦) سنن الترمذى برقم (١٨٢، ٢٩٨٣). (٧) زيادة من ج، أ.

(٨) تفسير الطبرى (١٨٩/٥).

(٩) تفسير الطبرى (١٩١/٥).

(١٠) فى أ: «أبى نصير».

مروان فقال: يا فلان، اذهب إلى فلان فقل له: أى شىء سمعت من رسول الله، ﷺ. فى الصلاة الوسطى؟ فقال رجل جالس: أرسلنى أبو بكر وعمر - وأنا غلام صغير - أسأله عن الصلاة الوسطى، فأخذ إصبعى الصغيرة فقال: هذه الفجر، وقبض التى تيتها، فقال: هذه الظهر. ثم قبض الإبهام، فقال: هذه المغرب. ثم قبض التى تليها، فقال: هذه العشاء. ثم قال: أى أصابعك بقيت؟ فقلت: الوسطى. فقال: أى الصلاة بقيت؟ فقلت: العصر. فقال: هى العصر^(١). غريب أيضاً.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنى محمد بن عوف الطائى، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش^(٢)، حدثنى أبى، حدثنى ضمضم بن زرعة، عن شريح بن عبيد، عن أبى مالك الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «الصلاة الوسطى صلاة العصر»^(٣). إسناده لا بأس به.

حديث آخر: قال أبو حاتم بن حبان فى صحيحه: حدثنا أحمد بن يحيى بن زهير، حدثنا الجراح ابن مخلد، حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا همام عن قتادة عن مَوْرُق^(٤) العجلي، عن أبى الأحوص، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الوسطى صلاة العصر»^(٥).

وقد روى الترمذى، من حديث محمد بن طلحة بن مُصَرَّف، عن زبيد الياشى، عن مُرَّة الهمداني، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الوسطى صلاة العصر»^(٦)، ثم قال: حسن صحيح.

وأخرجه مسلم فى صحيحه، من طريق^(٧) محمد بن طلحة، به^(٨) ولفظه: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر» الحديث.

فهذه نصوص فى المسألة لا تحتل شيئاً، ويؤكد ذلك الأمر بالمحافظة عليها، وقوله ﷺ فى الحديث الصحيح، من رواية الزهرى، عن سالم، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قال: «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله»^(٩) «^(١٠)». وفى الصحيح أيضاً، من حديث الأوزاعى، عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى قلابة، عن أبى المهاجر^(١١) عن بُريدة بن الحُصَيْب، عن النبى ﷺ قال: «بكروا بالصلاة فى يوم الغيم، فإنه من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله»^(١٢) «^(١٣)».

(١) تفسير الطبرى (١٩٦/٥).

(٢) فى أ: «بن عباس».

(٣) تفسير الطبرى (١٩٨/٥) وقول الحافظ: إسناده لا بأس به، متعقب؛ فإن فى إسناده ضعف وانقطاع، وهذه نسخة مشهورة خرجها الطبرانى فى المعجم الكبير.

(٤) وقع فى هـ: «همام بن مورك» والتصحيح من الإحسان.

(٥) صحيح ابن حبان (١٢١/٣) «الإحسان».

(٦) سنن الترمذى برقم (١٨١).

(٨) صحيح مسلم برقم (٦٢٨).

(٩) فى جـ: «ماله وأهله».

(١٠) صحيح مسلم برقم (٦٢٦).

(١١) فى جـ: «عن أبى المهاجر عن أبى المليح».

(١٢) الذى فى الصحيح إنما هو عن هشام عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى قلابة، عن أبى المليح، عن بريدة رضى الله عنه، وهو فى صحيح البخارى برقم (٥٥٣)، وهذا الثانى إنما هو فى سنن ابن ماجة برقم (٦٩٤)، والأول هو المحفوظ، وقد وقع فى نسخة «جـ» إثباته على الصواب، كما بينته، لكن وقع تخطيط فى ذلك؛ لانه أثبت كلمة: «وفى الصحيح» ثم تدارك ذلك.

(١٣) جاء فى جـ: «كذا رواه ابن ماجة من حديث الأوزاعى، ورواه البخارى والنسائى من حديث هشام الدستوائى، عن يحيى بن =

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، أخبرنا ابن لهيعة، عن عبد الله بن هبيرة، عن أبي تميم، عن أبي بصرة^(١) الغفاري قال: صلى بنا رسول الله ﷺ في واد من أوديتهم، يقال له: المَخْمَصُ صلاة العصر، فقال: «إن هذه الصلاة صلاة العصر عُرِضَتْ على الذين من قبلكم فضيعوها، ألا ومن صلاها ضَعُفَ له أجره مرتين، ألا ولا صلاة بعدها حتى تروا^(٢) الشاهد». ثم قال: رواه عن يحيى بن إسحاق، عن الليث، عن خير^(٣) بن نعيم، عن عبد الله بن هبيرة، به^(٤).

وهكذا رواه مسلم والنسائي جميعاً، عن قتيبة، عن الليث^(٥). ورواه مسلم أيضاً من حديث محمد بن إسحاق، حدثني يزيد بن أبي حبيب كلاهما عن خير^(٦) بن نعيم الحضرمي، عن عبد الله ابن هبيرة السبائي^(٧)، به^(٨).

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد أيضاً: حدثنا إسحاق، أخبرني مالك، عن زيد بن أسلم، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي يونس مولى عائشة قال: أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفاً، قالت: إذا بلغت هذه الآية: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ فأذني. فلما بلغت آذنتها، فأملت على: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين» قالت: سمعتها من رسول الله ﷺ وهكذا رواه مسلم، عن يحيى بن يحيى، عن مالك، به^(٩).

وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا الحجاج، حدثنا حماد، عن هشام بن عروة عن أبيه قال: كان في مصحف عائشة: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وهي صلاة العصر». ^(١٠) وهكذا رواه من طريق الحسن البصري: أن رسول الله ﷺ قرأها كذلك. وقد روى الإمام مالك أيضاً، عن زيد بن أسلم عن عمرو بن رافع قال: كنت أكتب مصحفاً لحفصة زوج النبي ﷺ، فقالت: إذا بلغت هذه الآية فأذني: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ فلما بلغت آذنتها. فأملت على: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين» ^(١١).

وهكذا رواه محمد بن إسحاق بن يسار^(١٢) فقال: حدثني أبو جعفر محمد بن علي، ونافع مولى بن عمر: أن عمر بن رافع قال... فذكر مثله، وزاد: كما حفظتها من النبي ﷺ.

= أبي كثير، عن أبي قلابة، عن أبي المليح بن أسامة، عن بريدة، عن النبي ﷺ: «من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله».

(١) ج: «عن أبي نضرة». (٢) في أ: «حتى يزول».

(٣) في ج: «عن حسن».

(٤) المسند (٣٩٧/٦).

(٥) صحيح مسلم برقم (٨٣٠) وسنن النسائي (٢٥٩/١).

(٦) في ج: «جبير».

(٧) في أ: «الشياني».

(٨) صحيح مسلم برقم (٨٣٠).

(٩) المسند (٧٣/٦) وصحيح مسلم برقم (٦٢٩).

(١٠) تفسير الطبري (١٧٥/٥).

(١١) الموطأ (١٣٩/١).

(١٢) في ج: «بن بشار».

طريق أخرى عن حفصة: قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن عبد الله بن يزيد الأزدي، عن سالم بن عبد الله: أن حفصة أمرت إنساناً أن يكتب لها مصحفاً، فقالت: إذا بلغت هذه الآية: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ فاذني. فلما بلغ أذنفا فقالت: اكتب: «حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وصلاة العصر»^(١).

طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثني ابن المثنى عبد الوهاب، حدثنا عبيد الله، عن نافع، أن حفصة أمرت مولى لها أن يكتب لها مصحفاً فقالت: إذا بلغت هذه الآية: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ فلا تكتبها حتى أمليها عليك كما سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها. فلما بلغها أمرته فكتبتها: «حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين». قال نافع: فقرأت ذلك المصحف فرأيت فيه «الواو»^(٢).

وكذا روى ابن جرير، عن ابن عباس وعبيد بن عمير أنهما قرآ كذلك. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عبدة، حدثنا محمد بن عمرو، حدثني أبو سلمة، عن عمرو بن رافع مولى عمر قال: كان في مصحف حفصة: «حافظوا على الصلوات والصلوة الواسطة وصلاة العصر وقوموا لله قانتين»^(٣). وتقرير المعارضة أنه عطف صلاة العصر على الصلاة الوسطى بواو العطف التي تقتضى المغايرة، فدل ذلك على أنها غيرها وأجيب عن ذلك بوجوه: أحدها أن هذا إن روى على أنه خبر، فحديث على أصح وأصح منه، وهذا يحتمل أن تكون الواو زائدة، كما في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمَجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]، أو تكون لعطف الصفات لالعطف الذوات، كقوله: ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وكقوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى . الَّذِي خَلَقَ فَسْوَئ . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى . وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ [الأعلى: ٤] وأشبه ذلك كثيرة، وقال الشاعر:

وليث الكتيبة فى المزدحم

إلى الملك القرم وابن الهمام

وقال أبو دؤاد الإيادى:

فلهم فى صدى المقابر هام^(٤)

سلط الموت والمنون عليهم

والموت هو المنون؛ قال عدى بن زيد العبادى:

فألفى قولها كذبا ومينا^(٥)

فقدمت الأديم لراشيه

والكذب: هو المين، وقد نص سيبويه شيخ النحاة على جواز قول القائل: مررت بأخيك

وصاحبك، ويكون صاحب هو الأخ نفسه، والله أعلم.

(١) تفسير الطبرى (٢٠٨/٥، ٢٠٩).

(٢) تفسير الطبرى (٢٠٩/٥).

(٣) تفسير الطبرى (٢١١/٥).

(٤) البيت فى لسان العرب لابن منظور، مادة «مين».

(٥) البيت فى لسان العرب لابن منظور، مادة «مين».

وأما إن روى على أنه قرآن فإنه لم يتواتر، فلا يثبت بمثل خبر الواحد قرآن؛ ولهذا لم يشبهه أمير المؤمنين عثمان بن عفان في المصحف الإمام، ولا قرأ بذلك أحد من القراء الذين تثبت الحجة بقراءتهم، لا من السبعة ولا غيرهم. ثم قد روى ما يدل على نسخ هذه التلاوة المذكورة في هذا الحديث. قال مسلم: أخبرنا إسحاق بن راهويه، أخبرنا يحيى بن آدم، عن فضيل بن مرزوق، عن شقيق بن عقبة، عن البراء بن عازب، قال: نزلت: «حافظوا على الصلوات وصلاة العصر»^(١) فقرأناها على رسول الله ﷺ ما شاء الله، ثم نسخها الله، عز وجل، فأنزل: «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى»، فقال له زاهر - رجل كان مع شقيق - : أفهى العصر؟ قال: قد حدثتك كيف نزلت، وكيف نسخها الله، عز وجل.

قال مسلم: ورواه الأشجعي، عن الثوري، عن الأسود، عن شقيق^(٢). قلت: وشقيق هذا لم يرو له مسلم سوى هذا الحديث الواحد، والله أعلم. فعلى هذا تكون هذه التلاوة، وهى تلاوة الجادة، ناسخة للفظ رواية عائشة وحفصة، ولمعناها، إن كانت الواو دالة على المغايرة، وإلا فللفظها فقط، والله أعلم.

وقيل: إن الصلاة الوسطى هى صلاة المغرب. رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس. وفى إسناده نظر؛ فإنه رواه عن أبيه، عن أبي الجماهر^(٣)، عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أبي الخليل، عن عمه، عن ابن عباس قال: صلاة الوسطى: المغرب. وحكى هذا القول ابن جرير عن قبيصة بن ذؤيب وحكى أيضاً عن قتادة على اختلاف عنه. ووجه هذا القول بعضهم بأنها: وسطى فى العدد بين الرباعية والثنائية، وبأنها وتر المفروضات، وبما جاء فيها من الفضيلة، والله أعلم.

وقيل: أنها العشاء الآخرة، اختاره على بن أحمد الواحدى فى تفسيره المشهور: وقيل: هى واحدة من الخمس، لا بعينها، وأبهمت فيهن، كما أبهمت ليلة القدر فى الحول أو الشهر أو العشر. ويحكى هذا القول عن سعيد بن المسيب، وشريح القاضي، ونافع مولى ابن عمر، والربيع بن خيثم، ونقل أيضاً عن زيد بن ثابت، واختاره إمام الحرمين الجوينى فى نهايته.

وقيل: بل الصلاة الوسطى مجموع الصلوات الخمس، رواه ابن أبي حاتم عن ابن عمر، وفى صحته أيضاً نظر والعجب أن هذا القول اختاره الشيخ أبو عمر بن عبد البر النمرى، إمام ما وراء البحر، وإنها لإحدى الكبر، إذ اختار - مع اطلاعه وحفظه - ما لم يقم عليه دليل من كتاب ولا سنة ولا أثر. وقيل: إنها صلاة العشاء وصلاة الفجر، وقيل: بل هى صلاة الجماعة. وقيل: صلاة الجمعة. وقيل: صلاة الخوف. وقيل: بل صلاة عيد الفطر. وقيل: بل صلاة عيد الأضحى. وقيل: الوتر. وقيل: الضحى. وتوقف فيها آخرون لما تعارضت عندهم الأدلة، ولم يظهر لهم وجه الترجيح. ولم يقع الإجماع على قول واحد، بل لم يزل التنازع^(٤) فيها موجوداً من زمن الصحابة وإلى الآن.

(١) فى ج، أ: «والصلاة الوسطى صلاة العصر».

(٢) صحيح مسلم برقم (٦٣).

(٣) فى أ: «عن أبي الجماهير».

(٤) فى أ، و: «التنازع».

قال ابن جرير: حدثني محمد بن بشار وابن مثنى، قالا: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة قال: سمعت قتادة يحدث عن سعيد بن المسيب قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ مختلفين في الصلاة الوسطى هكذا، وشبك بين أصابعه^(١).

[وقد حكى فخر الدين الرازي في تفسيره قولاً عن جمع من العلماء منهم زيد بن ثابت، وربيعة ابن خيثم: أنها لم يرد بيانها، وإنما أريد إيهامها، كما أبهمت ليلة القدر في شهر رمضان، وساعة الإجابة في يوم الجمعة، والاسم الأعظم في أسماء الله تعالى، ووقت الموت على المكلف؛ ليكون في كل وقت مستعداً، وكذا أبهمت الليلة التي ينزل فيها من السماء وباء ليحذرها الناس، ويعطوا الأهبة دائماً، وكذا وقت الساعة استأثر الله بعلمه؛ فلا تأتي إلا بغته^(٢).

وكل هذه الأقوال فيها ضعف بالنسبة إلى التي قبلها، وإنما المدار ومعتك النزاع في الصبح والعصر. وقد ثبتت السنة بأنها العصر، فتعين المصير إليها.

وقد روى الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي في كتاب «فضائل الشافعي» رحمه الله: حدثنا أبي، سمعت حرمة بن يحيى التجيبي يقول: قال الشافعي: كل ما قلت فكان عن النبي ﷺ خلاف قولي مما يصح، فحديث النبي ﷺ أولى، ولا تقلدوني. وكذا روى الربيع والزعفراني وأحمد بن حنبل، عن الشافعي. وقال موسى أبو الوليد بن أبي الجارود، عن الشافعي: إذا صح الحديث وقلت قولاً فأنا راجع عن قولي وقائل بذلك. فهذا من سيادته وأمانته، وهذا نفس إخوانه من الأئمة، رحمهم الله ورضى عنهم أجمعين آمين. ومن هاهنا قطع القاضي الماوردي بأن مذهب الشافعي، رحمه الله، أن صلاة الوسطى هي صلاة العصر، وإن كان قد نص في الجديد وغيره أنها الصبح، لصحة الأحاديث أنها العصر، وقد وافقه على هذه الطريقة جماعة من محدثي المذهب، والله الحمد والمنة. ومن الفقهاء في المذهب من ينكر أن تكون هي العصر مذهباً للشافعي، وصمموا على أنها الصبح قولاً واحداً. قال الماوردي: ومنهم من حكى في المسألة قولين، ولتقرير المعارضات والجوابات موضع آخر غير هذا، وقد أفردناه على حدة، والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ أي: خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه، وهذا الأمر مستلزم^(٣) ترك الكلام في الصلاة، لمنافاته إياها؛ ولهذا لما امتنع النبي ﷺ من الرد على ابن مسعود حين سلم عليه، وهو في الصلاة، اعتذر إليه بذلك، وقال: «إن في الصلاة لشغلاً»، وفي صحيح مسلم أنه عليه السلام قال لمعاوية بن الحكم [السلمي]^(٤) حين تكلم في الصلاة: «إن هذه الصلاة لا يصلح^(٥) فيها شيء من كلام الناس، إنما هي التسبيح والتكبير وذكر الله»^(٦).

(١) تفسير الطبري (٢٢١/٥).

(٢) زيادة من جـ.

(٣) في جـ: «يستلزم».

(٤) زيادة من جـ، أ، و.

(٥) في أ: «لا يصلح».

(٦) صحيح مسلم برقم (٥٣٧).

وقال الإمام أحمد، حدثنا يحيى بن سعيد، عن إسماعيل، حدثني الحارث بن شبيل، عن أبي عمرو الشيباني، عن زيد بن أرقم قال: كان الرجل يكلم صاحبه في عهد النبي ﷺ، في الحاجة في الصلاة، حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت. رواه الجماعة - سوى ابن ماجة، به، من طرق عن إسماعيل، به^(١).

وقد أشكل هذا الحديث على جماعة من العلماء، حيث ثبت عندهم أن تحريم الكلام في الصلاة كان بمكة، قبل الهجرة إلى المدينة وبعد الهجرة إلى أرض الحبشة، كما دل على ذلك حديث ابن مسعود الذي في الصحيح، قال: كنا نسلم على النبي ﷺ قبل أن نهجر إلى الحبشة وهو في الصلاة، فيرد علينا، قال: فلما قدمنا سلمت عليه، فلم يرد على، فأخذني ما قرب وما بعد، فلما سلم قال: «إني لم أرد عليك إلا أني كنت في الصلاة، وإن الله يحدث من أمره ما يشاء، وإن مما أحدث ألا تكلموا في الصلاة»^(٢).

وقد كان ابن مسعود ممن أسلم قديماً، وهاجر إلى الحبشة، ثم قدم منها إلى مكة مع من قدم، فهاجر إلى المدينة، وهذه الآية: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ مدنية^(٣) بلا خلاف، فقال قائلون: إنما أراد زيد ابن أرقم بقوله: «كان الرجل يكلم أخاه في حاجته في الصلاة» الإخبار عن جنس الناس، واستدل على تحريم ذلك بهذه الآية بحسب ما فهمه منها، والله أعلم.

وقال آخرون: إنما أراد أن ذلك قد وقع بالمدينة بعد الهجرة إليها، ويكون ذلك قد أبيح مرتين، وحرم مرتين، كما اختار ذلك قوم من أصحابنا وغيرهم، والأول أظهر. والله أعلم.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا بشر بن الوليد، حدثنا إسحاق بن يحيى، عن المسيب، عن ابن مسعود قال: كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة، فمررت برسول الله ﷺ فسلمت عليه، فلم يرد على، فوقع في نفسي أنه نزل في شيء، فلما قضى النبي ﷺ صلاته قال: «وعليك السلام، أيها المسلم، ورحمة الله، إن الله، عز وجل، يحدث من أمره ما يشاء فإذا كنتم في الصلاة فاقتنوا ولا تكلموا»^(٤).

وقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أُمِمْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾: لما أمر تعالى عباده بالمحافظة على الصلوات، والقيام بحدودها، وشدد الأمر بتأكيدهما، ذكر الحال التي يشتغل الشخص فيها عن أداؤها على الوجه الأكمل، وهي حال القتال والتحام الحرب، فقال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ أي: فصلوا على أي حال كان، رجلاً أو ركباناً، يعنى مستقبل القبله

(١) المسند (٣٦٨/٤) وصحيح البخارى برقم (١٢٠٠، ٤٥٣٤) وصحيح مسلم برقم (٥٣٩) وسنن أبى داود برقم (٩٤٩) وسنن الترمذى برقم (٢٩٨٦) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٠٤٧).

(٢) صحيح البخارى برقم (١١٩٩، ٣٨٧٥) وصحيح مسلم برقم (٥٣٨).

(٣) فى و: «نزلت بالمدينة».

(٤) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٣٧/١٠) من طريق عاصم عن المسيب عن ابن مسعود به نحوه.

(٥) فى ج: «وإن» وهو خطأ.

وغير مستقبلها كما قال مالك، عن نافع: أن ^(١) ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها. ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالاً على أقدامهم، أو ركباناً، مستقبل القبلة أو غير مستقبلها. قال نافع: لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي ﷺ. ورواه البخاري - وهذا لفظه ^(٢) - ومسلم ورواه البخاري أيضاً من وجه آخر، عن ابن جريج، عن موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ: نحوه أو قريباً منه ^(٣). ولمسلم أيضاً، عن ابن عمر قال: فإن كان خوف أشد من ذلك فصل ركباً، أو قائماً تومئ إيماء ^(٤).

وفى حديث عبد الله بن أنيس الجهني لما بعثه النبي ﷺ، إلى خالد بن سفيان الهذلي ليقتله، وكان نحو عرفة - أو عرفات - فلما واجهه حانت صلاة العصر، قال: فخشيت أن تفوتني، فجعلت أصلي وأنا أومئ إيماء. الحديث بطوله رواه أحمد، وأبو داود بإسناد جيد ^(٥). وهذا من رخصة الله التي رخص لعباده، ووضع الأصار والأغلال عنهم.

وقد روى ابن أبي حاتم، من طريق شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس قال في هذه الآية: يصلي الراكب على دابته، والراجل على رجليه. قال: وروى عن الحسن، ومجاهد، ومكحول، والسدي، والحكم، ومالك، والأوزاعي، والثوري، والحسن بن صالح، نحو ذلك، وزادوا: يومئ برأسه أينما توجه ^(٦).

ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا أبو غسان، حدثنا أبو داود - يعني ابن علي - عن مطرف، عن عطية، عن جابر بن عبد الله قال: إذا كانت المسابقة فليومئ برأسه [إيماء] ^(٧) حيث كان وجهه، فذلك قوله: ﴿فَرَجُلًا أَوْ رُكْبَانًا﴾.

وروى عن الحسن، ومجاهد. وسعيد بن جبير، وعطاء، وعطية، والحكم، وحماد، وقتادة، نحو ذلك. وقد ذهب الإمام أحمد، فيما نص عليه، إلى أن صلاة الخوف تفعل في بعض الأحيان ركعة واحدة إذا تلاحم الجيشان، وعلى ذلك ينزل الحديث الذي رواه مسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، من حديث أبي عوانة الوضاح بن عبد الله الشكري - زاد مسلم والنسائي: وأيوب ابن عائذ - كلاهما، عن بكير بن الأحنس الكوفي، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ، في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة ^(٨) وبه قال الحسن البصري، وقتادة، والضحاك، وغيرهم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن مهدي، عن شعبة قال: سألت الحكم، وحماداً، وقتادة، عن صلاة المسابقة، فقالوا: ركعة. وهكذا روى الثوري، عنهم سواء.

(١) في ج: «عن».

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٥٣٥).

(٣) صحيح البخاري برقم (٩٤٣).

(٤) صحيح مسلم برقم (٨٣٩).

(٥) المسند (٤٩٦/٣) وسنن أبي داود برقم (١٢٤٩).

(٦) في أ: «إيماء بوجه». (٧) زيادة من و.

(٨) صحيح مسلم برقم (٦٨٧) وسنن أبي داود برقم (١٢٤٧) وسنن النسائي (٢٢٦/١، ١١٨/٣، ١١٩، ١٦٩) وسنن ابن ماجه برقم

(١٠٦٨) وتفسير الطبري (٢٤٧/٥).

وقال ابن جرير أيضاً: حدثني سعيد بن عمرو السكوني، حدثنا بقية بن الوليد، حدثنا المسعودي، حدثنا يزيد الفقير، عن جابر بن عبد الله قال: صلاة الخوف. ركعة واختار هذا القول ابن جرير.

وقال البخاري: «باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو» وقال الأوزاعي: إن كان تهيأ الفتح، ولم يقدروا على الصلاة، صلوا إيماء، كل امرئ لنفسه، فإن لم يقدروا على الإيماء أخرجوا الصلاة حتى ينكشف القتال أو يأمنوا، فيصلوا ركعتين، فإن لم يقدروا صلوا ركعة وسجدة، فإن لم يقدروا لا يجزئهم التكبير ويؤخرونها حتى يأمنوا. وبه قال مكحول - وقال أنس بن مالك: حضرت مناهضة حصن تستر عند إضاءة الفجر، واشتد اشتعال القتال، فلم يقدروا على الصلاة، فلم نصل إلا بعد ارتفاع النهار، فصليناها، ونحن مع أبي موسى، ففتح لنا. قال أنس: وما يسرنى بتلك الصلاة الدنيا وما فيها.

هذا لفظ البخاري^(١) ثم استشهد على ذلك بحديث تأخير، عليه السلام، صلاة العصر يوم الخندق بعذر المحاربة إلى^(٢) غيبوبة الشمس، وبقوله، عليه السلام، بعد ذلك لأصحابه، لما جهزهم إلى بني قريظة: «لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة»، فمنهم من أدركته الصلاة في الطريق فصلوا، وقالوا: لم يرد منا رسول الله ﷺ، إلا تعجيل السير، ومنهم من أدركته فلم يصل إلى أن غربت الشمس في بني قريظة، فلم يعنف واحداً^(٣) من الفريقين. وهذا يدل على اختيار البخاري لهذا القول، والجمهور على خلافه، ويعولون على أن صلاة الخوف على الصفة التي ورد به القرآن في سورة النساء، ووردت^(٤) بها الأحاديث، لم تكن مشروعة في غزوة الخندق، وإنما شرعت بعد ذلك. وقد جاء مصرحاً بهذا في حديث أبي سعيد، وغيره، وأما مكحول، والأوزاعي، والبخاري فيجيبون بأن مشروعية صلاة الخوف بعد ذلك لا تنافي جواز ذلك؛ لأن هذا حال نادر خاص، فيجوز فيه مثل ما قلنا، بدليل صنيع الصحابة زمن عمر في فتح تستر، وقد اشتهر ولم ينكر، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ أي: أقيموا صلاتكم كما أمرتم، فأتموا^(٥) ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشوعها وهجودها ﴿كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ أي: مثل ما أنعم عليكم وهذاكم للإيمان وعلمكم ما ينفعكم في الدنيا والآخرة، فقابلوه بالشكر والذكر، كقوله بعد ذكر صلاة الخوف: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣] وستأتي الأحاديث الواردة في صلاة الخوف وصفاتها في سورة النساء، عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ الآية [النساء: ١٠٢].

﴿وَالَّذِينَ يَتُوقُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٤٠)

(١) صحيح البخاري (٤٣٤/٢) «فتح».

(٢) في ج، و: «إلى بعد».

(٣) في ج: «أحداً».

(٤) في ج: «وورد».

(٥) في ج: «وأتموا».

وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢) ﴿

قال الأكثرون: هذه الآية منسوخة بالتي قبلها، وهى قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾.

قال البخارى: حدثنا أمية، حدثنا يزيد بن زريع، عن جيب، عن ابن أبى مليكة، قال ابن الزبير: قلت لعثمان بن عفان: ﴿وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها - أو تدعها؟ قال: يا ابن أخى، لا أغير شيئاً منه من مكانه^(١).

ومعنى هذا الإشكال الذى قاله ابن الزبير لعثمان: إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة الأشهر، فما الحكمة فى إبقاء رسمها مع زوال حكمها، وبقاء رسمها بعد التى نسختها يوهم بقاء حكمها؟ فأجابه أمير المؤمنين بأن هذا أمر توقفى، وأنا وجدتها مثبتة فى المصحف كذلك بعدها، فثبتها حيث وجدتها.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج بن محمد، عن ابن جريج، وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس، فى قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ مَّتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ﴾ فكان للمتوفى عنها زوجها نفقتها وسكنائها فى الدار سنة، فنسختها آية الموارث، فجعل لهن الربع أو الثمن مما ترك الزوج. ثم قال: وروى عن أبى موسى الأشعرى، وابن الزبير، ومجاهد، وإبراهيم، وعطاء، والحسن، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وزيد بن أسلم، والسدى، ومقاتل بن حيان، وعطاء الخراسانى، والربيع بن أنس: أنها منسوخة.

وروى من طريق على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قال: كان الرجل إذا مات وترك امرأته اعتدت سنة فى بيته، ينفق عليها من ماله، ثم أنزل الله بعد: ﴿وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤].

فهذه عدة المتوفى عنها زوجها، إلا أن تكون حاملاً، فعدتها أن تضع ما فى بطنها، وقال: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾^(٢) [النساء: ١٢] فبين ميراث المرأة، وترك الوصية والنفقة.

قال: وروى عن مجاهد، والحسن، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، والربيع، ومقاتل بن حيان، قالوا: نسختها ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾.

قال: وروى عن سعيد بن المسيب قال: نسختها التى فى الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾^(٣) [الأحزاب: ٤٩]. قلت: وروى عن [مقاتل و]^(٤) قتادة: أنها منسوخة بآية الميراث.

(١) صحيح البخارى برقم (٤٥٣٠).

(٢) زيادة من و.

(٣) زيادة من جـ.

(٤) زيادة من أ، و.

وقال البخارى: حدثنا إسحاق بن راهويه، حدثنا روح، حدثنا شبل، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ قال: كانت هذه العدة، تعتد عند أهل زوجها واجب، فأنزل الله: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ﴾ قال: جعل الله لها تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية، إن شاءت سكنت في وصيتها، وإن شاءت خرجت، وهو قول الله: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، فالعدة كما هي واجب عليها، زعم ذلك عن مجاهد: رحمه الله. وقال عطاء: وقال ابن عباس: نسخت هذه الآية عدتها عند أهلها، فتعتد حيث شاءت، وهو قول الله تعالى: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ قال عطاء: إن شاءت اعتدت عند أهلها وسكنت في وصيتها، وإن شاءت خرجت لقول الله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾^(١) قال عطاء: ثم جاء الميراث فنسخ السكنى، فتعتد حيث شاءت، ولا سكنى لها، ثم أسند البخارى عن ابن عباس مثل ما تقدم عنه^(٢).

فهذا القول الذى عول عليه مجاهد وعطاء، من أن هذه الآية لم تدل على وجوب الاعتداد سنة كما زعمه الجمهور، حتى يكون ذلك منسوخاً بالأربعة الأشهر^(٣) وعشر، وإنما دلت على أن ذلك كان من باب الوصاية بالزوجات أن يمكن من السكنى فى بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولا كاملا، إن اخترن ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ﴾ أى: يوصيكم الله بهن وصية، كقوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ الآية [النساء: ١١]، وقال: ﴿وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٢]، وقيل: إنما انتصب على معنى: فلتوصوا بهن وصية. وقرأ آخرون بالرفع «وصية» على معنى: كتب عليكم وصية واختارها ابن جرير ولا يمتنع من ذلك، لقوله: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ فأما إذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر، أو بوضع الحمل، واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل، فإنهن لا يمتنعن من ذلك، لقوله: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ﴾ وهذا القول له اتجاه، وفى اللفظ مساعدة له، وقد اختاره جماعة، منهم: الإمام أبو العباس بن تيمية^(٤)، ورده آخرون، منهم: الشيخ أبو عمر ابن عبد البر.

وقول عطاء ومن تابعه على أن ذلك منسوخ بآية الميراث، إن أرادوا ما زاد على الأربعة أشهر والعشر فمسلّم، وإن أرادوا أن سكنى الأربعة أشهر وعشر^(٥) لا تجب فى تركة الميت، فهذا محل خلاف بين الأئمة، وهما قولان للشافعى، رحمه الله، وقد استدلوا على وجوب السكنى فى منزل الزوج بما رواه مالك فى موطنه عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة، عن عمته زينب بنت كعب ابن عجرة: أن الفريضة بنت مالك بن سنان، وهى أخت أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنهما أخبرتها: أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله أن ترجع إلى أهلها فى بنى خُدرة، فإن زوجها خرج فى طلب أعبد له أبقوا، حتى إذا كانوا بطرف القدوم لحقهم، فقتلوه. قالت: فسألت رسول الله ﷺ

(١) زيادة من أ.

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٥٣١).

(٣) فى ج: «أشهر».

(٤) فى ج: «بن تيمية رحمه الله».

(٥) فى أ: «والعشر».

أن أرجع إلى أهلى فى بنى خُدرة، فإن زوجى لم يتركنى فى مسكن يملكه ولا نفقة قالت: فقال رسول الله ﷺ: «نعم» قالت: فأنصرفت، حتى إذا كنت فى الحجرة نادانى رسول الله ﷺ - أو أمر بى فنوديت له - فقال: «كيف قلت؟» فرددت عليه القصة التى ذكرت^(١) له من شأن زوجى. فقال: «امكثى فى بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله» قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرًا. قالت: فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلى، فسألنى عن ذلك، فأخبرته، فاتبعه، وقضى به^(٢).

وكذا رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، من حديث مالك، به^(٣): ورواه النسائى أيضاً وابن ماجه من طرق، عن سعد بن إسحاق به^(٤) وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقوله: ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما نزل قوله: ﴿مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦] قال رجل: إن شئت أحسنت ففعلت، وإن شئت لم أفعل. فأنزل الله هذه الآية ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لكل مطلقة، سواء كانت مفوضة، أو مفروضاً لها أو مطلقاً^(٥)، قبل الميسر أو مدخولاً بها، وهو قول عن الشافعى، رحمه الله. وإليه ذهب سعيد بن جبير. وغيره من السلف، واختاره ابن جرير. ومن لم يوجبها مطلقاً يخصص من هذا العموم بمفهوم قوله: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ما لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرَهُ مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ وأجاب الأولون: بأن هذا من باب ذكر بعض أفراد العموم، فلا تخصيص على المشهور المنصور، والله أعلم.

وقوله: ﴿كَذلكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أى: فى إحلاله وتحريمه، وفروضه، وحدوده، فيما أمركم به ونهاكم عنه، بيّنه^(٦) ووضحه وفسره، ولم يتركه مجملاً فى وقت احتياجكم إليه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أى: تفهمون، وتتدبرون.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥).

روى عن ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف، وعنه: كانوا ثمانية آلاف. وقال أبو صالح: تسعة آلاف، وعن ابن عباس: أربعون ألفاً. وقال وهب بن منبه، وأبو مالك: كانوا بضعة وثلاثين ألفاً

(١) فى جـ: «ما ذكرت».

(٢) الموطأ (٢/٥٩١).

(٣) سنن أبى داود برقم (٢٣٠٠) وسنن الترمذى برقم (١٢٠٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٠٤٤).

(٤) سنن النسائى (٦/١٩٩، ٢٠٠) وسنن ابن ماجه برقم (٢٠٣).

(٥) فى أ، و: «أو مطلقة».

(٦) فى جـ: «وبينه».

وروى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كانوا أهل قرية يقال لها: داوردان. وكذا قال السدي وأبو صالح، وزاد: من قبل واسط. وقال سعيد بن عبد العزيز: كانوا من أهل أذرعات، وقال ابن جريج، عن عطاء قال: هذا مثل. وقال علي بن عاصم: كانوا: من أهل داوردان: قرية على فرسخ من واسط.

وقال وكيع بن الجراح في تفسيره: حدثنا سفيان، عن ميسرة بن حبيب النهدي، عن المنهال بن عمرو الأسدي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ قال: كانوا أربعة آلاف، خرجوا فراراً من الطاعون، قالوا: نأتى أرضاً ليس بها^(١) موت، حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال الله لهم^(٢): ﴿مُوتُوا﴾ فماتوا، فمر عليهم نبي من الأنبياء، فدعا ربه أن يحييهم، فأحياهم، فذلك قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ الآية.

وذكر غير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كانوا أهل بلدة في زمان بنى إسرائيل، استوخموا^(٣) أرضهم وأصابهم بها وباء شديد، فخرجوا فراراً من الموت إلى البرية، فنزّلوا وادياً أفيح، فملأوا ما بين عدوتيّه، فأرسل الله إليهم ملكين، أحدهما من أسفل الوادي، والآخر من أعلاه، فصاحا بهم صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم مائة رجل واحد، فحيزوا إلى حظائر، وبنى عليهم جدران وقبور، [وفنوا]^(٤) وتمزقوا وتفرقوا، فلما كان بعد دهر مرّ بهم نبي من أنبياء بنى إسرائيل، يقال له: حزقيل، فسأل الله أن يحييهم على يديه، فأجابه إلى ذلك، وأمره أن يقول: أيتها العظام البالية، إن الله يأمرك أن تجتمعى فاجتمع عظام كل جسد بعضها إلى بعض، ثم أمره فنأدى: أيتها العظام، إن الله يأمرك أن تكتسى لحماً وعصباً وجلداً. فكان ذلك، وهو يشاهده. ثم أمره فنأدى: أيتها الأرواح، إن الله يأمرك أن ترجع كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمه. فقاموا أحياء ينظرون، قد أحياهم الله بعد رقدتهم الطويلة، وهم يقولون: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك^(٥)، لا إله إلا أنت.

وكان في إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أى: فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج والدلالات الدامغة، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أى: لا يقومون بشكر ما أنعم الله به عليهم في دينهم ودنياهم.

وفى هذه القصة عبرة ودليل على أنه لن يغنى حذر من قدر، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فإن هؤلاء فروا^(٦) من الوباء طلباً^(٧) لطول الحياة، فعوملوا بنقيض قصدهم، وجاءهم الموت سريعاً فى آن واحد.

ومن هذا القبيل الحديث الصحيح الذى رواه الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، أخبرنا مالك، وعبد الرزاق، أخبرنا معمر، كلاهما عن الزهري، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد [ابن أسلم]^(٨) بن الخطاب، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل، عن عبد الله بن عباس: أن عمر بن

(١) فى جـ: «ليس فيها».

(٢) فى جـ: «قال لهم الله».

(٣) زيادة من أ.

(٤) زيادة من أ، و.

(٥) زيادة من أ، و.

(٦) زيادة من جـ.

(٧) فى أ، و: «وطلباً».

(٨) «خرجوا فراراً».

الخطاب خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسرغ، لقيه أمراء الأجناد: أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام، فذكر الحديث فجاءه عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيماً لبعض حاجته فقال: إن عندي من هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان بأرض وأنتم فيها^(١) فلا تخرجوا فراراً منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه» فحمد الله عمر ثم انصرف. وأخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري به^(٢).

طريق أخرى لبعضه: قال أحمد: حدثنا حجاج ويزيد العمي، قالوا: أخبرنا ابن أبي ذئب، عن الزهري، عن سالم، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة: أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر، وهو في الشام، عن النبي ﷺ: «إن هذا السقم عذب به الأمم قبلكم، فإذا سمعتم به في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها^(٣) فلا تخرجوا فراراً منه». قال: فرجع عمر من الشام وأخرجاه في الصحيحين، من حديث مالك، عن الزهري، بنحوه^(٤).

وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: كما أن الحذر لا يغني عن القدر، كذلك الفرار من الجهاد وتجنبه لا يقرب أجلاً، ولا يباعده، بل الأجل المحتوم والرزق المقسوم مقدر مقنن، لا يزداد فيه ولا ينقص منه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا . أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٧، ٧٨]. وروينا عن أمير الجيوش، ومقدم العساكر، وحامى حوزة الإسلام، وسيف الله المسلول على أعدائه، أبي سليمان خالد بن الوليد، رضى الله عنه، أنه قال: - وهو في سياق الموت: لقد شهدت كذا كذا موقفاً، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه رمية أو طعنة أو ضربة، وما أنا ذا أموت على فراشي كما يموت العير!! فلا نامت أعين الجبناء^(٥) يعنى: أنه يتألم لكونه ما مات قتيلاً في الحرب، ويتأسف على ذلك، ويتألم أن يموت على فراشه.

وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾: يحث تعالى عباده على الإنفاق في سبيله، وقد كرر تعالى هذه الآية في كتابه العزيز في غير موضع. وفي حديث النزول [أنه يقول تعالى]^(٦): «من يقرض غير عديم ولا ظلوم» وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا خلف بن خليفة، عن حميد الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعود قال:

(١) في أ، و: «وأنتم بها».

(٢) المسند (١٩٤/١) وصحيح البخارى برقم (٥٧٢٩) وصحيح مسلم برقم (٢٢١٩).

(٣) في ج، و: «وأنتم بها».

(٤) المسند (١٩٣/١) وصحيح البخارى برقم (٥٧٣٠) وصحيح مسلم برقم (٢٢١٩).

(٥) انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٦/٨).

(٦) زيادة من و.

لما نزلت: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ قال أبو الدحداح الأنصارى: يا رسول الله، وإن الله ليريد منا القرض؟ قال: «نعم يا أبا الدحداح». قال: أرني يدك يا رسول الله. قال: فناوله يده. قال: فإننى قد أقرضت ربى حائطى. قال: وحائط له فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها. قال: فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح. قالت: لبيك. قال: اخرجى فقد أقرضته ربى، عز وجل. وقد رواه ابن مردويه، من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر مرفوعاً بنحوه^(١).

وقوله: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾: روى عن عمر وغيره من السف: هو النفقة فى سبيل الله. وقيل: هو النفقة على العيال.

وقيل: هو التسبيح، والتقديس. وقوله: ﴿فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، كما قال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ الآية [البقرة: ٢٦١]. وسيأتى الكلام عليها.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد^(٢)، أخبرنا مبارك بن فضالة، عن على بن زيد، عن أبى عثمان النهدي، قال: أتيت أبا هريرة فقلت له: إنه بلغنى أنك تقول: إن الحسنه تضاعف ألف ألف حسنة. فقال: وما أعجبك من ذلك؟ لقد سمعته من النبى ﷺ يقول: «إن الله يضاعف الحسنه ألفى ألف حسنة»^(٣). هذا حديث غريب، وعلى بن زيد بن جدعان عنده مناكير، لكن رواه ابن أبى حاتم من وجه آخر فقال:

حدثنا أبو خلاد سليمان بن خلاد المؤدب، حدثنا يونس بن محمد المؤدب، حدثنا محمد بن عقبة الرباعى^(٤)، عن زياد الجصاص، عن أبى عثمان النهدي، قال: لم يكن أحد أكثر مجالسة لأبى هريرة منى، فقدم قبلى حاجا قال: وقدمت بعده، فإذا أهل البصرة يأترون عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله يضاعف الحسنه ألف ألف حسنة فقلت: ويحكم، والله ما كان أحد أكثر مجالسة لأبى هريرة منى، فما سمعت هذا الحديث. قال: فتحملت أريد أن أحقه، فوجدته قد انطلق حاجاً، فانطلقت إلى الحج أن ألقاه فى هذا الحديث، فلقيته لهذا، فقلت: يا أبا هريرة، ما حديث سمعت أهل البصرة يأترون عنك؟ قال: ما هو؟ قلت: زعموا أنك تقول: إن الله يضاعف الحسنه ألف ألف

(١) جزء الحسن بن عرفة برقم (٨٧) ورواه سعيد بن منصور فى السنن برقم (٤١٧) تحقيق الدكتور الحميد، ومن طريقه رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣٠١/٢٢) عن خلف بن خليفة به نحوه، وحيد الأعرج ضعيف، لكن للحديث شواهد من حديث أنس وعمر رضى الله عنهما.

(٢) فى ج: «يزيد بن هارون».

(٣) المسند (٢٩٦/٢).

(٤) كذا فى أ، و، هـ. وفى الجرح لابن أبى حاتم (٣٦١/٤): «محمد بن عقبة، روى عن زياد الجصاص، وروى عنه يونس بن محمد المؤدب. حدثنا عبد الرحمن قال: سألت أبى عنه فقال: شيخ. قلت: فإن يونس بن محمد يقول: الرفاعى. قال: ليس هو الرفاعى، هو من قبيلة أخرى»، مستفادا من هامش ط. الشعب.

حسنة. قال: يا أبا عثمان، وما تعجب (١) من ذا، والله يقول: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ ويقول: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨] والذي نفسى بيده، لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة» (٢).

وفى معنى هذا الحديث ما رواه الترمذى وغيره، من طريق عمرو بن دينار، عن سالم، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: «من دخل سوقاً من الأسواق، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة» الحديث (٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن بسام، حدثنا أبو إسماعيل المؤدب، عن عيسى بن المسيب، عن نافع، عن ابن عمر قال: لما نزلت ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ [البقرة: ٢٦١] إلى آخرها، فقال رسول الله ﷺ: «رب زد أمتي» فنزلت: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ قال: رب زد أمتي. فنزل: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] (٤).

وروى ابن أبي حاتم أيضاً عن كعب الأحبار: أنه جاءه رجل فقال: إني سمعت رجلاً يقول: من قرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] مرة واحدة، بنى الله له عشرة (٥) آلاف ألف غرة من در وياقوت فى الجنة، أفأصدق بذلك؟ قال: نعم، أو عجبت من ذلك؟ قال: نعم وعشرين ألف ألف، وثلاثين ألف ألف، وما لا يحصى ذلك إلا الله، ثم قرأ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ فالكثير من الله لا يحصى.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَسْطُ﴾ أى: أنفقوا ولا تبالوا، فالله هو الرزاق، يضيق على من يشاء فى الرزق، ويوسعه على آخرين، له الحكمة البالغة فى ذلك ﴿وَالِيهِ تَرْجِعُونَ﴾ أى: يوم القيامة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّ لَّهُمْ أِبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٢٤٦).

قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: هذا النبى هو يوشع بن نون. قال ابن جرير: يعنى ابن أفرائيم (٦) ابن يوسف بن يعقوب. وهذا القول بعيد؛ لأن هذا كان بعد موسى بدهر طويل، وكان

(١) فى جـ: «وما يعجبك».

(٢) ورواه أحمد فى المسند (٥٢١/٥) من طريق علي بن زيد، عن أبى عثمان به.

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٤٢٩) وقال: «عمرو بن دينار هذا هو شيخ بصرى، وقد تكلم فيه بعض أصحاب الحديث من غير هذا الوجه».

(٤) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (١٦٤٨) «موارد» من طريق حفص المقرئ، عن أبى إسماعيل المؤدب به.

(٥) فى جـ: «عشر». (٦) فى جـ: «إفرائيم»، وفى أ: «إبراهيم».

ذلك في زمان داود، عليه السلام، كما هو مصرح به في القصة، وقد كان بين داود وموسى ما ينيف عن ألف سنة، والله أعلم.

وقال السدى: هو شمعون^(١). وقال مجاهد: هو شمويل، عليه السلام. وكذا قال محمد بن إسحاق، عن وهب بن منبه، وهو: شمويل بن بالي بن علقمة بن يرخام^(٢) بن إليهو بن تهو بن صوف^(٣) بن علقمة بن ماحث^(٤) بن عموصا بن عزريا بن صفنيه^(٥) بن علقمة بن أبى ياسف بن قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام.

وقال وهب بن منبه وغيره: كان بنو إسرائيل بعد موسى، عليه السلام، على طريق^(٦) الاستقامة مدة الزمان، ثم أحدثوا الأحداث وعبد بعضهم الأصنام، ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويقيمهم على منهج التوراة، إلى أن فعلوا ما فعلوا، فسلط الله عليهم أعداءهم، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا خلقاً كثيراً، وأخذوا منهم بلاداً كثيرة، ولم يكن أحد يقاتلهم إلا غلبوه، وذلك أنهم كان عندهم التوراة والتابوت الذى كان في قديم^(٧) الزمان، وكان ذلك موروثاً لخلفهم عن سلفهم إلى موسى الكليم عليه الصلاة والسلام^(٨)، فلم يزل بهم تماديهم^(٩) على الضلال حتى استلبه^(١٠) منهم بعض الملوك في بعض الحروب، وأخذ التوراة من أيديهم، ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل، وانقطعت النبوة من أسباطهم، ولم يبق من سبط^(١١) لاوى الذى يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعليها. وقد قتل، فأخذوها فحبسوها في بيت، واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلاماً يكون نبياً لهم، ولم تزل [تلك]^(١٢) المرأة تدعو الله عز وجل أن يرزقها غلاماً، فسمع الله لها ووهبها غلاماً، فسمته شمويل: أى: سمع الله. ومنهم من يقول: شمعون. وهو بمعناه، فشب ذلك الغلام ونشأ فيهم، وأنبت^(١٣) الله نباتاً حسناً، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه، وأمره بالدعوة إليه وتوحيده، فدعا بنى إسرائيل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً يقاتلون معه أعداءهم، وكان الملك أيضاً قد باد فيهم^(١٤)، فقال لهم النبى: فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكاً ألا تفوا بما التزمت من القتال معه ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءَنَا﴾ أى: وقد أخذت منا البلاد، وسبيت الأولاد؟ قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أى: ما وفوا بما وعدوا، بل نكل عن الجهاد أكثرهم، والله عليم بهم.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي

(٢) فى ج: «حام» وفى و: «نرخام».

(٤) فى أ: «بن ماحب».

(٦) فى ج: «على طريقة».

(٨) فى ج، أ، و: «عليه أفضل الصلاة والسلام».

(١٠) فى ج: «حتى أسلبه».

(١٢) زيادة من ج، أ.

(١٤) فى ج: «منهم».

(١) فى و: «شمويل».

(٣) فى ج: «قهوص»، وفى أ: «قهرص»، وفى و: «بهرص».

(٥) فى ج، و: «بن صفيه».

(٧) فى و: «فى قيد».

(٩) فى ج: «يردهم»، وفى و: «عادتهم».

(١١) فى ج: «من وسط».

(١٣) فى ج، «فأنبت».

الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ .

أى: لما طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكاً منهم، فعين لهم طالوت، وكان رجلاً من أجنادهم، ولم يكن من بيت الملك فيهم؛ لأن الملك فيهم كان فى سبط يهوذا، ولم يكن هذا من ذلك السبط، فلماذا قالوا: ﴿أَنْتَى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ أى: كيف يكون ملكاً علينا ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ أى: ثم هو مع هذا فقير، لا مال له يقوم بالملك، وقد ذكر بعضهم أنه كان سقاء، وقيل: دباغاً. وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت، وكان الأولى بهم طاعة وقول معروف ثم قد أجابهم النبی قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ أى: اختاره لكم من بينكم، والله أعلم به منكم. يقول: لست أنا الذى عينته من تلقاء نفسى، بل الله أمرنى به لما طلبتم منى ذلك ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ أى: وهو مع هذا أعلم منكم، وأنبل وأشكل منكم، وأشد قوة وصبراً^(١) فى الحرب ومعرفة بها، أى: أتم علماً وقامة منكم. ومن هاهنا ينبغى أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن وقوة شديدة فى بدنه ونفسه، ثم قال: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَن يَشَاءُ﴾ أى: هو الحاكم الذى ما شاء فعل، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، لعلمه [وحكمته]^(٢) ورأفته بخلقه؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أى: هو واسع الفضل يختص برحمته من يشاء، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٢٤٨) .

يقول نبيهم لهم: إن علامة بركة ملك طالوت عليكم أن يرد الله عليكم التابوت الذى كان أخذ منكم.

﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قيل: معناه فيه وقار، وجلالة.

قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾ أى: وقار. وقال الربيع: رحمة^(٣).

وكذا روى عن العوفى، عن ابن عباس، وقال ابن جريج: سألت عطاء عن قوله: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾^(٤) قال: ما يعرفون من آيات الله فيسكنون^(٥) إليه.

وقيل: السكينة طست من ذهب، كانت تغسل فيه قلوب الأنبياء، أعطاه الله موسى عليه السلام، فوضع فيها الألواح. ورواه السدى، عن أبى مالك، عن ابن عباس.

وقال سفيان الثورى، عن سلمة بن كهيل، عن أبى الأحوص؛ عن على قال: السكينة لها وجه كوجه الإنسان، ثم هى ريح هفافة.

وقال ابن جرير: حدثنى [ابن]^(٦) المثنى، حدثنا أبو داود، حدثنا شعبة، وحماد بن سلمة، وأبو الأحوص، كلهم عن سماك، عن^(٧) خالد بن عرعة، عن على قال: السكينة ريح خجوج ولها

(١) فى أ: «وخبراً». (٢) زيادة من ج، و، وفى أ: «وحلمه». (٣) فى ج: «رحمة الله».

(٤) زيادة من ج، و. (٥) فى أ: «تسكنون».

(٦) زيادة من تفسير الطبرى (٣٢٧/٥).

(٧) فى ج: «عن سماك بن».

رأسان.

وقال مجاهد: لها جناحان وذنب. وقال محمد بن إسحاق، عن وهب بن منبه: السكينة رأس هرة ميتة، إذا صرخت في التابوت بصراخ هر، أيقنوا بالنصر وجاءهم الفتح.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا بكار بن عبد الله أنه سمع وهب بن منبه ^(١) يقول: السكينة روح من الله تتكلم، إذا اختلفوا في شيء تكلم، فأخبرهم ببيان ما يريدون.

وقوله: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾: قال ابن جرير: أخبرنا ابن المثنى، حدثنا أبو الوليد، حدثنا حماد، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ قال: عصاه ورضاض الألواح. وكذا قال قتادة، والسدي، والربيع بن أنس، وعكرمة وزاد: والتوراة.

وقال أبو صالح ﴿وَبَقِيَّةٌ﴾ يعني: عصا موسى، وعصا هارون، ولوحين ^(٢) من التوراة، والمن. وقال عطية بن سعد: عصا موسى، وعصا هارون، وثياب موسى، وثياب هارون، ورضاض الألواح.

وقال عبد الرزاق: سألت الثوري عن قوله: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ فقال: منهم من يقول قفيز من من، ورضاض الألواح. ومنهم من يقول: العصا، والنعلان.

وقوله: ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾: قال ابن جريج: قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت ^(٣) بين السماء والأرض، حتى وضعت بين يدي طالوت، والناس ينظرون.

وقال السدي: أصبح التابوت في دار طالوت، فأمنوا بنبوة شمعون، وأطاعوا طالوت.

وقال عبد الرزاق، عن الثوري، عن بعض أشياخه: جاءت به الملائكة تسوقه على عجلة على بقرة، وقيل: على بقرتين.

وذكر غيره أن التابوت كان بأريحا ^(٤)، وكان المشركون لما أخذوه وضعوه في بيت آلهتهم، تحت صنمهم الكبير، فأصبح التابوت على رأس الصنم، فأنزلوه فوضعوه تحته، فأصبح كذلك، فسمروه تحته فأصبح الصنم مكسر القوائم، ملقى بعيدا، فعلموا أن هذا أمر من الله لا قبل لهم به، فأخرجوا التابوت من بلدهم، فوضعوه في بعض القرى ^(٥)، فأصاب أهلها داء في رقابهم ^(٦)، فأمرتهم جارية من سبى بنى إسرائيل أن يردوه إلى بنى إسرائيل، حتى يخلصوا من هذا الداء، فحملوه على بقرتين، فسارتا به لا يقربه أحد إلا مات، حتى اقتربنا من بلد بنى إسرائيل، فكسرتا النيرين ^(٧) ورجعتا. وجاء بنو إسرائيل فأخذوه، فقيل: إنه تسلمه داود، عليه السلام، وإنه لما قام إليهما ^(٨) حجل من فرحه بذلك. وقيل: شابان منهم، فالله أعلم. وقيل: كان التابوت بقرية من قرى فلسطين، يقال لها: أزدرد.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم﴾ أي: على صدقي فيما جئتكم به من النبوة، وفيما أمرتكم به من

(١) في أ: «بن منصور».

(٢) في ج: «ولوحان».

(٣) في ج: «كان تاريخا».

(٤) في و: «بعض القرايا».

(٥) في ج: «في قلوبهم».

(٦) في ج: «قام إليه» وفي و: «قام إليها».

(٧) في ج: «النيرير».

طاعة طالوت: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى: بالله واليوم الآخر.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٢٤٩).

يقول تعالى مخبراً عن طالوت ملك بنى إسرائيل حين خرج فى جنوده ومن أطاعه من ملا بنى إسرائيل، وكان جيشه يومئذ فيما ذكره السدى ثمانين ألفاً، فالله أعلم، أنه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ [بِنَهَرٍ]﴾^(١) قال ابن عباس وغيره: وهو نهر بين الأردن وفلسطين، يعنى: نهر الشريعة المشهور ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أى: فلا يصحبني اليوم فى هذا الوجه، ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ أى: فلا بأس عليه، قال الله تعالى ﴿فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ قال ابن جريج: قال ابن عباس: من اغترف منه بيده روى، ومن شرب منه لم يرو. وكذا رواه السدى، عن أبى مالك، عن ابن عباس. وكذا قال قتادة، وابن شاذب.

وقال السدى: كان الجيش ثمانين ألفاً، فشرب ستة وسبعون ألفاً، وتبقى معه أربعة آلاف، كذا قال. وقد روى ابن جرير، من طريق إسرائيل، وسفيان الثورى، ومسعر^(٢) بن كُدام، عن أبى إسحاق السبيعى، عن البراء بن عازب قال: كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر، على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر، وما جازه معه إلا مؤمن. ورواه البخارى، عن عبد الله بن رجاء، عن إسرائيل بن يونس، عن أبى إسحاق، عن البراء^(٣) قال: «كنا - أصحاب محمد ﷺ - نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت، الذين جازوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا مؤمن بضعه عشر وثلاثمائة»^(٤).

ثم رواه من حديث سفيان الثورى وزهير، عن أبى إسحاق، عن البراء، بنحوه^(٥). ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أى: استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم، فشجعهم علماؤهم [وهم]^(٦) العالمون بأن وعد الله حق، فإن النصر من عند الله، ليس عن^(٧) كثرة عدد ولا عدد. ولهذا قالوا: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى

(١) زيادة من أ، و. (٢) فى ج: «ومسعود».

(٣) فى هـ، أ، و: «عن أبى إسحاق عن جده عن البراء» والمثبت من البخارى.

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٩٥٨).

(٥) صحيح البخارى برقم (٣٩٥٧) من حديث زهير وبرقم (٣٩٥٩) من حديث سفيان.

(٦) فى أ: «لا من».

(٧) زيادة من ج.

الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

أى: لما واجه حزب الإيمان - وهم قليل - من أصحاب طالوت، لعدوهم أصحاب جالوت - وهم عدد كثير - ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أى: أنزل علينا صبراً من عندك ﴿وَبَيَّتْ أَقْدَامَنَا﴾ أى: فى لقاء الأعداء، وجنبا الفرار والعجز ﴿وَانصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى: غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ ذكروا فى الإسرائيليات: أنه قتله بمقلاع كان فى يده، رماه به فأصابه فقتله، وكان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ويشاطره نعمته، ويشركه ^(١) فى أمره، فوفى له، ثم آل ^(٢) الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ الذى كان بيد طالوت ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أى: النبوة بعد شمويل ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ أى: مما يشاء الله من العلم الذى اختصه به ﷺ، ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ أى: لولاه يدفع عن قوم بآخرين، كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود، لهكوا، كما قال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهْدِمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ الآية [الحج: ٤٠].

وقال ابن جرير، رحمه الله: حدثنى أبو حميد الحمصى أحمد بن المغيرة، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا حفص بن سليمان، عن محمد بن سوقيه، عن وبرة بن عبد الرحمن، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء». ثم قرأ ابن عمر: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ ^(٣) وهذا إسناد ضعيف، فإن يحيى بن سعيد [هذا] ^(٤) هو أبو زكريا العطار الحمصى، وهو ضعيف جداً.

ثم قال ابن جرير: حدثنى أبو حميد الحمصى، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليصلح بصلاح الرجل المسلم ولده وولد ولده، وأهل دويرته ودويرات حوله، ولا يزالون فى حفظ الله، عز وجل، مادام فيهم» ^(٥).

وهذا أيضاً غريب ضعيف لما تقدم أيضاً. وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، أخبرنا على بن إسماعيل بن حماد، أخبرنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد، أخبرنا زيد ابن الحباب، حدثنى حماد بن زيد، عن أيوب، عن أبى قلابة عن أبى أسماء ^(٦)، عن ثوبان - رفع

(١) فى جد: «ويشاركه».

(٢) فى جد: «بما آل».

(٣) تفسير الطبرى (٣٧٤/٥).

(٤) زيادة من أ، و.

(٥) تفسير الطبرى (٣٧٥/٥).

(٦) فى جد: «بن أبى أسامة».

الحديث - قال: «لا يزال فيكم سبعة، بهم تنصرون، وبهم تمطرون، وبهم ترزقون حتى يأتي أمر الله»^(١).

وقال ابن مردويه أيضاً: وحدثنا محمد بن أحمد^(٢)، حدثنا محمد بن جرير بن يزيد، حدثنا أبو معاذ نهار بن عثمان الليثي، أخبرنا زيد بن الحباب، أخبرني عمر البزار، عن عنبسة الخواص، عن قتادة، عن أبي قلابة، عن أبي الأشعث الصنعاني، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «الأبدال في أمتي ثلاثون، بهم تقوم الأرض، وبهم تمطرون، وبهم تنصرون» قال قتادة: إني لأرجو أن يكون الحسن منهم^(٣).

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أى: مَنْ عَلَيْهِمْ وَرَحْمَةٌ بِهِمْ، يدفع عنهم ببعضهم بعضاً، وله الحكم والحكمة، والحجة على خلقه في جميع أفعاله، وأقواله. ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أى: هذه آيات الله التي قصصناها عليك من^(٤) أمر الذين ذكرناهم بالحق، أى: بالواقع الذي كان عليه الأمر، المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق، الذي يعلمه علماء بني إسرائيل ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وهذا تأكيد وتوطئة للقسم.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣)﴾.

يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض كما قال: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥]، وقال هاهنا: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ يعنى: موسى ومحمداً صلى الله عليهما وسلم، وكذلك آدم، كما ورد به الحديث المروى في صحيح ابن حبان، عن أبي ذر رضى الله عنه، ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ كما ثبت في حديث الإسراء، حين رأى النبي ﷺ الأنبياء في السماوات^(٥) بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل.

فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الثابت في الصحيحين، عن أبي هريرة قال: استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال اليهودي في قسم يقسمه: لا والذي اصطفى موسى

(١) ورواه عبد الرزاق في المصنف برقم (٢٠٤٥٧) عن معمر، عن أيوب عن أبي قلابة مرسلاً.

(٢) في جد: «وحدثنا أحمد بن محمد».

(٣) ورواه الطبراني في المعجم الكبير من طريق محمد بن الفرج عن زيد بن الحباب به، وقال الهيثمي في المجمع (٦٣/١٠): «رواه الطبراني من طريق عمرو البزار عن عنبسة الخواص وكلاهما لم أعرفه، وبقي رجاله رجال الصحيح».

فائدة: قال الإمام ابن القيم في المنار المنيف (ص ١٣٦): «أحاديث الأبدال والاقطاب، والأغوات، والنقباء، والنجباء، والأوتاد، كلها باطلة على رسول الله ﷺ، وأقرب ما فيها: «لا تسبوا أهل الشام فإن فيهم البدلاء، كلما مات رجل منهم أبدل الله مكانه رجلاً آخر» ذكره أحمد، ولا يصح أيضاً، فإنه منقطع».

(٤) في جد: «في السماء».

(٥) في جد: «في».

على العالين. فرفع المسلم يده فلطم بها وجه اليهودى فقال: أى خبيث، وعلى محمد ﷺ! فجاء اليهودى إلى رسول الله ﷺ، فاشتكى على المسلم، فقال رسول الله ﷺ: «لا تفضلونى على الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش، فلا أدرى أفاق قبلى، أم جوزى بصعقة الطور؟ فلا تفضلونى على الأنبياء»^(١). وفى رواية: «لا تفضلوا بين الأنبياء».

فالجواب من وجوه:

أحدها: أن هذا كان قبل أن يعلم بالفضل، وفى هذا نظر.

الثانى: أن هذا قاله من باب الهضم والتواضع.

الثالث: أن هذا نهى عن التفضيل فى مثل هذه الحال التى تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر.

الرابع: لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصبية.

الخامس: ليس مقام التفضيل إليكم، وإنما هو إلى الله، عز وجل، وعليكم الانقياد والتسليم له، والإيمان به.

وقوله: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَنَاتِ﴾ أى: الحجاج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء بنى إسرائيل به، من أنه عبد الله ورسوله إليهم ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ يعنى: أن الله أيد به جبريل عليه السلام، ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَنَاتُ وَلَكِنْ اِخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلُوا﴾ أى: بل كل ذلك عن قضاء الله وقدره؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٥٤).

يأمر تعالى عباده بالإنفاق مما رزقهم فى سبيله، سبيل الخير، ليدخروا ثواب ذلك عند ربهم ومليكمهم، وليبادروا إلى ذلك فى هذه الحياة الدنيا ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ﴾ يعنى: يوم القيامة ﴿لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ أى: لا يباع أحد من نفسه، ولا يفادى بمال لو بذله، ولو جاء بملء الأرض ذهباً، ولا تنفعه خلة أحد، يعنى: صداقته، بل ولا نسابته، كما قال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ أى: ولا تنفعهم شفاعت الشافعين.

وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: مبتدأ محصور فى خبره، أى: ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذ كافراً. وقد روى ابن أبى حاتم، عن عطاء بن دينار أنه^(٢) قال: الحمد لله الذى قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، ولم يقل: والظالمون هم الكافرون.

(١) صحيح البخارى برقم (٣٤٠٨) وصحيح مسلم برقم (٢٣٧٣).

(٢) فى ج: «به».

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (٢٥٥) ﴿

هذه آية الكرسي، ولها شأن عظيم، قد صح الحديث عن رسول الله ﷺ، بأنها أفضل آية في كتاب الله. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا سفيان، عن سعيد الجريري، عن أبي السليل، عن عبد الله بن رباح، عن أبي - هو ابن كعب - أن النبي ﷺ سأل: «أى آية في كتاب الله أعظم؟» قال: الله ورسوله أعلم. فرددها مراراً، ثم قال أبي: آية الكرسي. قال: «ليهنك العلم أبا المنذر، والذي نفسى بيده، إن لها لساناً وشفعتين، تقدس الملك عند ساق العرش» وقد رواه مسلم، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن عبد الأعلى بن عبد الأعلى، عن الجريري - به^(١)، وليس عنده زيادة: «والذى نفسى بيده... إلخ».

حديث آخر: عن أبي أيضاً، فى فضل آية الكرسي، قال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا أحمد ابن إبراهيم الدورقي، حدثنا مبشر عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبى كثير، عن عبدة بن أبى لبابة^(٢)، عن عبد الله بن أبى بن كعب: أن أباه أخبره: أنه كان له جرن فيه تمر، قال: فكان أبى يتعاهده، فوجده ينقص، قال: فحرسه^(٣) ذات ليلة، فإذا هو بدابة شبيه الغلام المحتلم، قال: فسلمت عليه فرد السلام. قال: فقلت: ما أنت، جنى أم إنسى؟ قال: جنى. قلت: ناولنى يدك. قال: فناولنى، فإذا يد^(٤) كلب، وشعر كلب. فقلت: هكذا خلقت الجن؟ قال: لقد علمت الجن ما فيهم أشد منى، قلت: فما حملك على ما صنعت؟ قال: بلغنى أنك رجل تحب الصدقة، فأحببنا أن نصيب من طعامك. قال: فقال له^(٥): فما الذى يجيرنا^(٦) منك؟ قال: هذه الآية: آية الكرسي. ثم غدا إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال النبي ﷺ: «صدق الخبيث».

وهكذا رواه الحاكم فى مستدركه، من حديث أبى داود الطيالسى، عن حرب بن شداد، عن يحيى بن أبى كثير، عن الحضرمي بن لاحق، عن محمد بن عمرو بن أبى بن كعب، عن جده، به^(٨). وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عثمان بن غياث^(٩)، قال: سمعت أبا السليل قال: كان رجل من أصحاب النبي ﷺ يحدث الناس حتى يكثروا عليه، فيصعد على سطح بيت فيحدث الناس، قال: قال رسول الله ﷺ: «أى آية فى القرآن أعظم؟» فقال رجل:

(١) المسند (١٤١/٥) وصحيح مسلم برقم (٨١٠).

(٢) فى جد: «بن أبى كنانة».

(٣) فى جد: «فحرسه».

(٤) فى جد، و: «فإذا يده يد».

(٥) فى أ، و: «فقال له أبى».

(٦) فى أ: «يحرصنا».

(٧) فى جد: «إلى رسول الله».

(٨) المستدرک (٥٦٢/١) وفيه انقطاع، وقد جاء من طريق آخر، فرواه ابن حبان فى صحيحه برقم (١٧٢٤) «موارد» من طريق الأوزاعي عن يحيى بن أبى كثير، عن ابن لأبى بن كعب، عن أبيه كعب أنه أخبره فذكر نحوه.

(٩) فى أ: «بن عتاب».

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. قال: فوضع يده بين كتفى، فوجدت بردها بين ثديي، أو قال: فوضع يده بين ثديي فوجدت بردها بين كتفى، وقال: «ليهنك العلم يا أبا المنذر»^(١).

حديث آخر: عن الأسقع^(٢) البكرى. قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أبو يزيد القراطيسي، حدثنا يعقوب بن أبي عباد المكي، حدثنا مسلم بن خالد، عن ابن جريج، أخبرني عمر ابن عطاء أن مولى ابن الأسقع^(٣) - رجل صدق - أخبره، عن الأسقع^(٤) البكرى: أنه سمعه يقول: إن النبي ﷺ جاءهم في صفة المهاجرين، فسأله إنسان: أى آية في القرآن أعظم؟ فقال النبي ﷺ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ حتى انقضت الآية^(٥).

حديث آخر: عن أنس. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن الحارث، حدثني سلمة بن وردان، أن أنس بن مالك حدثه، أن رسول الله ﷺ سأل رجلاً من صحابته، فقال: «أى فلان، هل تزوجت؟» قال: لا، وليس عندي ما أتزوج به. قال: «أوليس معك: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾» قال: بلى. قال: «ربع القرآن. أليس معك: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾؟» قال: بلى. قال: «ربع القرآن. أليس معك: ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾؟» قال: بلى. قال: «ربع القرآن أليس معك: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾^(٦)؟» قال: بلى. قال: «ربع القرآن. أليس معك آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾^(٧)» قال: بلى. قال: «ربع القرآن»^(٨).

حديث آخر: عن أبي ذر جندب بن جنادة، قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع بن الجراح، حدثنا المسعودي، أنبأني أبو عمر الدمشقي، عن عبيد بن الحشاخ، عن أبي ذر، رضى الله عنه، قال: أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد، فجلست. فقال: «يا أبا ذر، هل صليت؟» قلت: لا. قال: «قم فصل» قال: فقممت فصليت، ثم جلست. فقال: «يا أبا ذر، تَعَوَّذَ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ» قال: قلت: يا رسول الله، أو للإنس شياطين؟ قال: «نعم» قال: قلت: يا رسول الله، الصلاة؟ قال: «خير موضوع، من شاء أقل، ومن شاء أكثر». قال: قلت: يا رسول الله، فالصوم؟ قال: «فرض مجزئ، وعند الله مزيد» قلت: يا رسول الله، فالصدقة؟ قال: «أضعاف مضاعفة». قلت: يا رسول الله، فأيتها أفضل؟ قال: «جهد من مقل، أو سر إلى فقير» قلت: يا رسول الله أى الأنبياء كان أول؟ قال: «آدم» قلت: يا رسول الله، ونبي^(٩) كان؟ قال: «نعم، نبي مكلم» قال: قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: «ثلثمائة وبضعة عشر، جمّاً غفيراً» وقال مرة: «وخمسة عشر» قال: قلت: يا رسول الله، أيما أنزل عليك أعظم؟ قال: «آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾» ورواه النسائي^(١٠).

(١) المسند (٥٨/٥).

(٢) فى ج: أ: «عن الأسقع». (٣) فى ج: «ابن الأسقع». (٤) فى ج: «عن الأسقع».

(٥) المعجم الكبير (٣٣٤/١) وقال الهيثمى فى المجمع (٣٢١/٦): «فيه راو لم يسم وقد وثق، وبقيّة رجاله ثقات».

(٦) زيادة من و. (٧) فى أ: «هو الحى القيوم».

(٨) المسند (٢٢١/٣).

(٩) فى ج: «ونبى الله».

(١٠) المسند (١٧٨/٥) وسنن النسائي (٢٧٥/٨).

حديث آخر: عن أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري، رضى الله عنه وأرضاه، قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان^(١)، عن ابن أبي ليلى، عن أخيه عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبي أيوب: أنه كان^(٢) فى سهوة له، وكانت الغول تجيء فتأخذ، فشكاها إلى النبي ﷺ: فقال: «إذا رأيته فقل: باسم الله، أجيبى رسول الله». قال: فجاءت، فقال لها: فأخذها، فقالت: إني لا أعود. فأرسلها، فجاء، فقال له النبي ﷺ: «ما فعل أسيرك؟» قال: أخذتها، فقالت لى: إني لا أعود إني لأعود. فأرسلتها. فقال^(٣): «إنها عائدة» فأخذتها مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك تقول: لا أعود، وأجىء^(٤) إلى النبي ﷺ فيقول: «ما فعل أسيرك؟» فأقول: أخذتها. فتقول: لا أعود. فيقول: «إنها عائدة» فأخذها، فقالت: أرسلنى وأعلمك شيئاً تقوله فلا يقربك شيء: آية الكرسي. فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «صدقت، وهى كذوب».

ورواه الترمذى فى فضائل القرآن، عن بُندار، عن أبي أحمد الزبيرى، به^(٥). وقال: حسن غريب. وقد ذكر البخارى هذه القصة، عن أبي هريرة، فقال فى كتاب «فضائل القرآن» وفى كتاب «الوكالة»، وفى «صفة إبليس» من صحيحه: قال عثمان بن الهيثم أبو عمرو، حدثنا عوف، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة قال: وكلنى رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتانى آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: إني محتاج، وعلى عيال، ولى حاجة شديدة. قال: فخليت عنه. فأصبحت، فقال النبي ﷺ: «يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟» قال: قلت يا رسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالا، فرحمته وخليت سبيله. قال: «أما إنه قد كذبك وسيعود» فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ: «إنه سيعود» فرصدته فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ. قال: دعنى، فإنى محتاج، وعلى عيال، لا أعود. فرحمته وخليت سبيله، فأصبحت فقال لى رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟» قلت^(٦): يا رسول الله، شكا حاجة وعيالا فرحمته فخليت سبيله. قال: «أما إنه قد كذبك وسيعود» فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ. وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم أنك لا تعود، ثم تعود. فقال: دعنى أعلمك كلمات ينفعك الله بها. قلت: ما هن^(٧). قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله، فأصبحت فقال لى رسول الله ﷺ: «ما فعل أسيرك البارحة؟» قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمنى كلمات ينفعنى الله بها، فخليت سبيله. قال: «ما هى؟» قال: قال لى: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وقال لى: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح. وكانوا أحرص شيء على الخير، فقال النبي

(١) فى ج، أ، و: «قال الإمام أحمد: حدثنا أبو أحمد، حدثنا سفيان».

(٢) فى ج: «أنه بات».

(٣) فى ج: «فقال النبي ﷺ».

(٤) فى ج: «وتجىء».

(٥) المسند (٤٢٣/٥) وسنن الترمذى برقم (٢٨٨٠).

(٦) فى ج: «فقلت».

(٧) فى أ، و: «ما هى».

ﷺ: «أما إنه صدقك^(١) وهو كذوب، تعلم من تخاطب مذ^(٢) ثلاث ليال يا أبا هريرة؟» قلت^(٣): لا قال: «ذاك شيطان».

كذا رواه البخارى معلقاً بصيغة الجزم^(٤). وقد رواه النسائي في «اليوم والليلة» عن إبراهيم بن يعقوب، عن عثمان بن الهيثم، فذكره^(٥). وقد روى من وجه آخر، عن أبى هريرة بسياق آخر قريب من هذا، فقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره:

حدثنا محمد بن عبد الله بن عمرو بن الصغار، حدثنا أحمد بن زهير بن حرب، أخبرنا مسلم بن إبراهيم، أخبرنا إسماعيل بن مسلم العبدى، أخبرنا أبو المتوكل الناجى: أن أبا هريرة كان معه مفتاح بيت الصدقة، وكان فيه تمر، فذهب يوماً ففتح الباب، فوجد التمر قد أخذ منه ملء كف، ودخل يوماً آخر فإذا قد أخذ منه ملء كف، ثم دخل يوماً آخر ثالثاً فإذا قد أخذ منه مثل ذلك. فشكا ذلك أبو هريرة إلى النبى، فقال له النبى ﷺ: «تحب أن تأخذ صاحبك هذا؟» قال: نعم. قال: «فإذا فتحت الباب فقل: سبحان من سخر محمد^(٦) فذهب ففتح الباب، فقال^(٧): سبحان من سخر محمد^(٨). فإذا هو قائم بين يديه، قال: يا عدو الله، أنت صاحب هذا؟ قال: نعم، دعنى، فأنى لا أعود، ما كنت آخذاً إلا لأهل بيت من الجن فقراء، فخلى عنه. ثم عاد الثانية، ثم عاد الثالثة. فقلت: أليس قد عاهدتنى ألا تعود؟ لا أدعك اليوم حتى أذهب بك إلى النبى^(٩) ﷺ. قال: لا تفعل، فإنك إن تدعنى علمتك كلمات، إذا أنت قلتها لم يقربك أحد من الجن، صغير ولا، كبير، ذكر ولا أنثى، قال له: لتفعلن؟ قال: نعم. قال: ما هن؟ قال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ قرأ آية الكرسي حتى ختمها، فتركه فذهب فأبعد، فذكر ذلك أبو هريرة للنبى ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «أما علمت أن ذلك كذلك؟».

وقد رواه النسائي، عن أحمد بن محمد بن عبيد الله، عن شعيب بن حرب، عن إسماعيل بن مسلم، عن أبى المتوكل عن أبى هريرة، به^(١٠). وقد تقدم لأبى بن كعب كائنة مثل هذه أيضاً، فهذه ثلاث وقائع.

قصة أخرى: قال أبو عبيد فى كتاب «الغريب»: حدثنا أبو معاوية، عن أبى عاصم الثقفى، عن الشعبى، عن عبد الله بن مسعود قال: خرج رجل من الإنس فلقه رجل من الجن، فقال: هل لك أن تصارعنى، فإن صرعتنى علمتك آية إذا قرأتها حين تدخل بيتك لم يدخله شيطان؟ فصارعه، فصرعه^(١١)، فقال: إنى أراك ضئيلاً شحيتاً^(١٢) كأن ذراعيك ذراعاً كلب، أفهكذا أنتم أيها الجن. كلكم. أم أنت من بينهم؟ فقال: إنى بينهم^(١٣) لضليع فعاودنى فصارعه^(١٤) فصرعه الإنسى. فقال: تقرأ آية الكرسي، فإنه لا يقرؤها أحد إذا دخل بيته إلا خرج الشيطان، وله خبج^(١٥) كخبج الحمار.

(١) فى ج: «صدق».

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٢٧٥، ٢٣١١).

(٥) سنن النسائي الكبرى برقم (١٠٧٩٥).

(٦) فى ج: «لمحمد».

(٩) فى ج: «إلى رسول الله».

(١٠) سنن النسائي الكبرى برقم (١٠٧٩٤).

(١١) فى ج، أ، و: «فصرعه عمر».

(١٤) فى ج: «فصارعن».

(٢) فى و: «من»، وفى أ: «منذ».

(٣) فى ج: «قال».

(٧) فى ج: «وقال».

(٨) فى ج: «لمحمد».

(١٢) فى ج: «صحيتاً».

(١٥) فى ج: «وله خنج كخنيج الحمار».

(١٣) فى أ، و: «إنى منهم».

ف قيل لابن مسعود: أهو عمر؟ فقال: من عسى أن يكون إلا عمر.

قال أبو عبيد: الضئيل: النحيف الجسم، والخبَجُ^(١) بالخاء المعجمة، ويقال: بالخاء المهملة: الضراط^(٢).
حديث آخر عن أبي هريرة: قال الحاكم أبو عبد الله في مستدركه: حدثنا علي بن حمشاذ^(٣)،
حدثنا بشر بن موسى، حدثنا الحميدى، حدثنا سفيان، حدثني حكيم بن جبير الأسدي، عن أبي
صالح، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «سورة البقرة فيها آية سيدة آى القرآن، لا تقرأ فى
بيت فيه شيطان إلا خرج منه! آية الكرسي».

وكذا رواه من طريق أخرى عن زائدة، عن حكيم بن جبير ثم قال: صحيح الإسناد، ولم
يخرجاه^(٤). كذا قال. وقد رواه الترمذى من حديث زائدة [به]^(٥)، ولفظه: «لكل شىء سنام وسنام
القرآن سورة البقرة، وفيها آية هى سيدة آى القرآن: آية الكرسي». ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من
حديث حكيم بن جبير، وقد تكلم فيه شعبة وضعفه^(٦).

قلت: وكذا ضعفه أحمد، ويحيى بن معين وغير واحد من الأئمة، وتركه ابن مهدي، وكذبه
السعدى.

حديث آخر: قال ابن مردويه: حدثنا عبد الباقي بن نافع، أخبرنا عيسى بن محمد المروزى،
أخبرنا عمر بن محمد البخارى، أخبرنا أبى، أخبرنا عيسى بن موسى غنَجَار، عن عبد الله بن
كيسان، أخبرنا يحيى بن عقيل، عن يحيى بن يعمر^(٧)، عن ابن عمر، عن عمر بن الخطاب: أنه
خرج ذات يوم إلى الناس، وهم سماطات، فقال: أيكم يخبرنى بأعظم آية فى القرآن؟ فقال ابن
مسعود: على الخير سَقَطَتْ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أعظم آية فى القرآن: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾»^(٨).

حديث آخر فى اشتمالها على اسم الله الأعظم: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر^(٩)، أخبرنا
عبيد الله^(١٠) بن أبى زياد، حدثنا شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد بن السكن
قالت^(١١): سمعت رسول الله ﷺ يقول فى هاتين الآيتين ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ و ﴿الْمَلِكُ
اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١، ٢] «إن فيهما اسم الله الأعظم»^(١٢).

وكذا رواه أبو داود عن مُسَدَّدٍ والترمذى عن على بن خَشْرَم^(١٣) وابن ماجه عن أبى بكر بن أبى
شيبه، ثلاثهم عن عيسى بن يونس، عن عبيد الله بن أبى زياد، به^(١٤). وقال الترمذى: حسن صحيح.

(١) فى ج: «والخبَج».

(٢) غريب الحديث لأبى عبيد (٣/٣١٦).

(٣) فى أ: «حماد» وفى و: «جمشاذ».

(٤) المستدرک (٢/٢٥٩).

(٥) زيادة من ج، أ، و.

(٦) المستدرک (٢/٢٥٩).

(٧) فى أ: «ابن معمر».

(٨) ورواه الجورقانى فى الأباطيل برقم (٧١٢) من طريق عيسى بن موسى غنَجَار به.

(٩) فى أ: «ابن بكير». (١٠) فى ج، أ: «عبد الله».

(١١) فى ج: «قال».

(١٢) المسند (٦/٤٦١).

(١٣) فى أ، و: «ابن حزم».

(١٤) سنن أبى داود برقم (١٤٩٦) وسنن الترمذى برقم (٣٤٧٨) وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٥٥).

حديث آخر فى معنى هذا عن أبى أمانة رضى الله عنه: قال ابن مردويه: أخبرنا عبد الرحمن بن نمير، أخبرنا إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل، أخبرنا هشام بن عمار، أخبرنا الوليد بن مسلم، أخبرنا عبد الله بن العلاء بن زيد: أنه سمع القاسم بن عبد الرحمن، يحدث عن أبى أمانة يرفعه، قال: «اسم الله الأعظم الذى إذا دُعِيَ به أجاب فى ثلاث: سورة البقرة، وآل عمران، وطه». وقال هشام - وهو ابن عمار خطيب دمشق - : أما البقرة فـ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وفى آل عمران: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وفى طه: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١] (١).

حديث آخر عن أبى أمانة فى فضل قراءتها بعد الصلاة المكتوبة: قال أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن محرز بن مساور الأدمي، أخبرنا جعفر بن محمد بن الحسن، أخبرنا الحسين بن بشر (٢) بطرسوس، أخبرنا محمد بن حمير، أخبرنا محمد بن زياد، عن أبى أمانة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ دُبُرَ كل صلاة مكتوبة آية الكرسي لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت».

وهكذا رواه النسائي فى «اليوم والليلة» عن الحسين بن بشر، به (٣)، وأخرجه ابن حبان فى صحيحه، من حديث محمد بن حمير، وهو الحمصى من رجال البخارى أيضاً، فهو إسناد على شرط البخارى، وقد زعم أبو الفرج بن الجوزى أنه حديث موضوع (٤). قاله أعلم. وقد روى ابن مردويه من حديث على (٥)، والمغيرة بن شعبة (٦)، وجابر بن عبد الله نحو هذا الحديث. ولكن فى إسناد كل منها ضعف.

وقال ابن مردويه أيضاً: حدثنا محمد بن الحسن بن زياد المقرئ، أخبرنا يحيى بن درستويه المروزي (٧)، أخبرنا زياد بن إبراهيم، أخبرنا أبو حمزة السكري، عن المثني، عن قتادة، عن الحسن، عن أبى موسى الأشعري، عن النبى ﷺ قال: «أوحى الله إلى موسى بن عمران، عليه السلام، أن اقرأ آية الكرسي فى دبر كل صلاة مكتوبة، فإنه من يقرأها فى دبر كل صلاة مكتوبة أجعل له (٨) قلب الشاكرين، ولسان الذاكرين وثواب المنيين (٩) وأعمال الصديقين، ولا يواظب على ذلك إلا نبى أو صديق أو عبد امتحنت (١٠) قلبه للإيمان، أو أريد قتله فى سبيل الله» (١١) وهذا حديث منكر جداً. حديث آخر فى أنها تحفظ من قرأها فى أول النهار وأول الليل: قال أبو عيسى الترمذى: حدثنا يحيى بن المغيرة، أبو سلمة المخزومي المدينى، أخبرنا ابن أبى فديك، عن عبد الرحمن المليكى، عن

(١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٨٢/٨) والطحاوى فى مشكل الآثار برقم (١٧٦) من طرق عن هشام بن عمار به نحوه.

(٢) فى أ: «بشير».

(٣) سنن النسائي الكبرى برقم (٩٩٢٨).

(٤) الموضوعات (٢٤٤/١).

(٥) حديث على رواه أيضاً البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٢٣٩٥) من طريق نهشل عن أبى إسحاق الهمداني عن حبة العرنى عن على رضى الله عنه.

(٦) حديث المغيرة رواه أبو نعيم فى الحلية (٢٢١/٣) من طريق عمر بن إبراهيم، عن محمد بن كعب، عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه.

(٧) فى ج: «بن ساسويه المروبي». (٨) فى ج: «جعل الله». (٩) فى ج: «وثواب النبيين».

(١٠) فى أ: «متحجب».

(١١) وفيه محمد بن الحسن النقاش، قال البرقاني كل حديثه منكر. وقال الخطيب: حديثه مناكير. وروى نحوه من حديث جابر رضى الله عنه لكنه ضعيف.

زرارة بن مصعب، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ: ﴿حَمْدُ﴾ المؤمن، إلى: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ١ - ٣] وآية الكرسي حين يصبح، حفظ بهما حتى يمسي، ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح» ثم قال: هذا حديث غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم في عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي مُلَيْكَةَ المَلِكِي من قبل حفظه^(١).

وقد ورد في فضيلتها^(٢) أحاديث أخرى، تركناها اختصاراً لعدم صحتها وضعف أسانيدنا. كحديث على قراءتها عند الحجامة: إنها تقوم مقام حجامتين، وحديث أبي هريرة في كتابتها في اليد اليسرى بالزعفران سبع مرات، وتلحس للحفظ وعدم النسيان أوردهما ابن مردويه، وغير ذلك.

وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة.

فقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق، ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ أى: الحى فى نفسه الذى لا يموت أبداً المقيم لغيره، وكان عمر يقرأ: «الْقِيَامُ»، فجميع الموجودات مفتقرة إليه، وهو غنى عنها، ولا قوام لها بدون أمره، كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥]، وقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أى: لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شىء، لا يغيب عنه شىء، ولا يخفى عليه خافية^(٣). ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سنة ولا نوم فقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ﴾ أى لا تغلبه سنة، وهى الوسن والنعاس؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾؛ لأنه أقوى من السنة. وفى الصحيح عن أبى موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور - أو النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(٤).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، أخبرنى الحكم بن أبان، عن عكرمة مولى ابن عباس فى قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾: أن موسى، عليه السلام، سأل الملائكة هل ينام الله، عز وجل؟ فأوحى الله إلى الملائكة وأمرهم أن يورقوه ثلاثاً^(٥)، فلا يتركوه ينام، ففعلوا، ثم أعطوه قارورتين فأمسكهما، ثم تركوه وحذروه أن يكسرهما. قال: فجعل ينعس وهما فى يده^(٦)، فى كل يد واحدة. قال: فجعل ينعس وينبه^(٧)، وينعس وينبه^(٨)، حتى نعس نعسة، فضرب إحداهما بالأخرى فكسرهما. قال معمر: إنما هو مثل ضربه الله، عز وجل، يقول: فكذلك السموات والأرض فى يديه.

هكذا رواه ابن جرير، عن الحسن بن يحيى، عن عبد الرزاق، فذكره^(٩). وهو من أخبار بنى إسرائيل، وهو مما يعلم أن موسى، عليه السلام، لا يخفى عليه مثل هذا من أمر الله، عز وجل، وأنه منزّه عنه.

(١) سنن الترمذى برقم (٢٨٧٩).

(٢) فى أ: «فى فضلها».

(٣) فى أ: «عليه شىء».

(٤) صحيح مسلم برقم (١٧٩).

(٥) فى أ: «قليلاً».

(٦) فى أ: «يديه».

(٧، ٨) فى أ: «وينتبه».

(٩) تفسير الطبرى (٣٩٣/٥).

وأغرب من هذا كله الحديث الذي رواه ابن جرير:

حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل، حدثنا هشام بن يوسف، عن أمية بن شبل، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يحكى عن موسى، عليه السلام، على المنبر، قال: «وقع في نفس موسى: هل ينام الله؟ فأرسل الله إليه ملكاً فأرقه ثلاثاً، ثم أعطاه قارورتين، في كل يد قارورة، وأمره أن يحتفظ بهما». قال: «فجعل ينام تكاد يداه تلتقيان فيستيقظ، فيحبس إحداهما عن الأخرى، حتى نام نومة فاصطفقت يداه، فانكسرت القارورتان» قال: «ضرب الله له مثلاً، عز وجل: أن الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض»^(١).

وهذا حديث غريب جداً، والأظهر أنه إسرائيلي لا مرفوع، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدشتكي، حدثني أبي، عن أبيه، حدثنا أشعث بن إسحاق، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: أن بني إسرائيل قالوا: يا موسى، هل ينام ربك؟ قال: اتقوا الله. فناداه ربه، عز وجل: يا موسى، سألوكم: هل ينام ربك، فخذ زجاجتين في يدك فقم الليل ففعل موسى، فلما ذهب من الليل ثلث نعس فوقع لركبتيه، ثم انتعش فضبطهما، حتى إذا كان آخر الليل نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا. فقال: يا موسى، لو كنت أنام لسقطت السموات والأرض فهلكن كما هلكت الزجاجتان في يدك. وأنزل الله على نبيه ﷺ آية الكرسي.

وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: إخبار بأن الجميع عبيده وفي ملكه وتحت قهره وسلطانه، كقوله:

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا. لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا. وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥].

وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ كقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، وكقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨] وهذا من عظمتهم وجلاله وكبريائه، عز وجل، أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع عنده إلا بإذنه له^(٢) في الشفاعة، كما في حديث الشفاعة: «أتى تحت العرش فأخر^(٣) ساجداً، فیدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقال: ارفع رأسك، وقل تسمع، واشفع تشفع» قال: «فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة»^(٤).

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات: ماضيها وحاضرها ومستقبلها، كقوله إخباراً عن الملائكة: ﴿وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ أي: لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا

(١) تفسير الطبري (٣٩٤/٥) وقال الحافظ ابن حجر في ترجمة أمية بن شبل: «له حديث منكر رواه عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن أبي هريرة مرفوعاً قال: «وقع في نفس موسى عليه السلام: هل ينام الله؟» الحديث رواه هشام بن يوسف وخالفه معمر، عن الحكم، عن عكرمة فوقفه، وهذا أقرب، ولا يسوغ أن يكون هذا وقع في نفس موسى. عليه السلام، وإنما روى أن بني إسرائيل سألو موسى عن ذلك».

(٢) في أ، و: «إلا أن يأذن له». (٣) في أ، و: «فأخر الله».

(٤) حديث الشفاعة مخرج في الصحيحين من حديث أنس، رضى الله عنه، وسيأتي سياقه وذكر طرقه عند تفسير الآية: ٧٩ من سورة الإسراء.

بما أعلمه الله، عز وجل، وأطلعاه عليه. ويحتمل أن يكون المراد: لا يطلعون على شيء من علم ذاته وصفاته إلا بما أطلعهم الله عليه، كقوله: ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن إدريس، عن مطرف بن طريف، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ قال: علمه. وكذا رواه ابن جرير من حديث عبد الله بن إدريس وهشيم، كلاهما عن مطرف بن طريف، به.

قال ابن أبي حاتم: وروى عن سعيد بن جبير مثله. ثم قال ابن جرير: وقال آخرون: الكرسي، موضع القدمين، ثم رواه عن أبي موسى، والسدي، والضحاك، ومسلم البطين.

وقال شجاع بن مخلد في تفسيره: أخبرنا أبو عاصم، عن سفيان، عن عمار الدُّهْنِي، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: سئل النبي ﷺ عن قول الله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ قال: «كرسيه موضع قدميه، والعرش لا يقدر قدره إلا الله، عز وجل».

كذا أورد هذا الحديث الحافظ أبو بكر بن مردويه، من طريق شجاع بن مخلد الفلاس، فذكره^(١)، وهو غلط، وقد رواه وكيع في تفسيره: حدثنا سفيان، عن عمار الدُّهْنِي^(٢)، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قدره. وقد رواه الحاكم في مستدركه، عن أبي العباس محمد بن أحمد المجبوبي، عن محمد بن معاذ، عن أبي عاصم، عن سفيان - وهو الثوري - بإسناده، عن ابن عباس موقوفاً مثله، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه^(٣). وقد رواه ابن مردويه من طريق الحكم بن ظهير الفزاري الكوفي - وهو متروك - عن السدي، عن أبيه، عن أبي هريرة مرفوعاً، ولا يصح أيضاً.

وقال السدي عن أبي مالك: الكرسي تحت العرش. وقال السدي: السموات والأرض في جوف الكرسي، والكرسي بين يدي العرش. وقال الضحاك عن ابن عباس: لو أن السموات السبع والأرضين السبع بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض، ما كن في سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المفازة. ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرني ابن وهب قال: قال ابن زيد: حدثني أبي قال: قال رسول الله ﷺ: «ما السموات السبع في الكرسي، إلا كدراهم سبعة ألقيت في ثُرس». قال: وقال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض»^(٤).

وقال أبو بكر بن مردويه: أخبرنا سليمان بن أحمد، أخبرنا عبد الله بن وهيب^(٥) الغزي،

(١) ورواه الخطيب في تاريخ دمشق (٢٥١/٩) من طريق شجاع بن مخلد به.

(٢) في أ: «عن علي الذهبي».

(٣) المستدرک (٢٨٢/٢) ورواه ابن أبي شيبة في صفة العرش برقم (٦١) من طريق أبي عاصم عن سفيان به موقوفاً.

(٤) تفسير الطبري (٣٩٩/٥) وهو منقطع، وقد جاء موصولاً، فرواه ابن أبي شيبة في صفة العرش برقم (٥٨) من طريق المختار بن غسان، عن إسماعيل بن سلم، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذر الغفاري، رضى الله عنه، مرفوعاً بنحوه. وسيأتي أيضاً موصولاً من طريق آخر وهو الذي يليه من رواية ابن مردويه.

(٥) في هـ: «بن وهب» والتصويب من الإكمال.

أخبرنا محمد بن أبي السريّ العسقلاني، أخبرنا محمد بن عبد الله ^(١) التميمي، عن القاسم بن محمد الثقفي، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذر الغفاري، أنه سأل النبي ﷺ عن الكرسي. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، ما السموات السبع، والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة» ^(٢).

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا زهير، حدثنا ابن أبي بكير ^(٣)، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن خليفة، عن عمر، رضى الله عنه، قال: أتت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: ادع الله أن يدخلني الجنة. قال: فعظم الرب تبارك وتعالى وقال: «إن كرسيه وسع السموات والأرض، وإن له أطيافاً كأطياف الرّحل الجديد من ثقله» ^(٤).

وقد رواه الحافظ البزار في مسنده المشهور، وعبد بن حميد وابن جرير في تفسيريهما، والطبراني وابن أبي عاصم في كتابي السنة لهما، والحافظ الضياء في كتابه «المختار» من حديث أبي إسحاق ^(٥) السبيعي، عن عبد الله بن خليفة، وليس بذلك المشهور، وفي سماعه من عمر نظر ^(٦). ثم منهم من يرويه عنه، عن عمر موقوفاً، ومنهم من يرويه عنه مراسلاً ^(٧)، ومنهم من يزيد في متنه زيادة غريبة، ومنهم من يحذفها.

وأغرب من هذا حديث جبير بن مطعم في صفة العرش كما رواه أبو داود في كتاب السنة من سننه ^(٨)، والله أعلم.

وقد روى ابن مردويه وغيره أحاديث عن بريدة وجابر وغيرهما، في وضع الكرسي يوم القيامة لفصل القضاء، والظاهر أن ذاك غير المذكور في هذه الآية.

وقد زعم بعض المتكلمين على علم الهيئة من الإسلاميين: أن الكرسي عندهم هو الفلك الثامن، وهو فلك الثوابت الذي فوقه الفلك التاسع، وهو الفلك الأثير، ويقال له: الأطلس. وقد رد ذلك عليهم آخرون.

وروى ابن جرير من طريق جُوَيْر، عن الحسن البصري أنه كان يقول: الكرسي هو العرش. والصحيح أن الكرسي غير العرش، والعرش أكبر منه، كما دلت على ذلك الآثار والأخبار، وقد اعتمد ابن جرير على حديث عبد الله بن خليفة، عن عمر في ذلك، وعندى في صحته نظر، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا يَتُودُّهُ حِفْظُهُمَا﴾ أي: لا يثقله ولا يُكْرَهُ حفظ السموات والأرض ومن فيهما ومن

(١) في أ: «بن عبيد الله».

(٢) وفي إسناده محمد بن أبي السريّ العسقلاني، ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن معين، وقال ابن عدى: كثير الغلط.

(٣) في أ: «ابن أبي بكر».

(٤) ورواه من طريقه الضياء المقدسي في المختارة برقم (١٥١).

(٥) في أ: «عن أبي القاسم».

(٦) مسند البزار برقم (٣٩) «كشف الأستار» وتفسير الطبري (٤٠٠/٥) والسنة لابن أبي عاصم برقم (٥٧٤) والمختارة للضياء المقدسي

برقم (١٥١ - ١٥٤).

(٧) الرواية المرسلة في تفسير الطبري (٤٠٠/٥).

(٨) سنن أبي داود برقم (٤٧٢٦).

بينهما، بل ذلك سهل عليه، يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء فلا يعزب عنه شيء، ولا يغيب عنه شيء، والأشياء كلها حقيرة بين يديه، متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه محتاجة فقيرة وهو الغنى الحميد، الفعال لما يريد، الذى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. وهو القاهر لكل شيء، الحسيب على كل شيء، الرقيب العلى العظيم لا إله غيره ولا رب سواه، فقوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ كقوله: ﴿وَهُوَ [الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ]﴾ وكقوله^(١): ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

وهذه الآيات وما فى معناها من الأحاديث الصحاح الأجود فيها طريقة السلف الصالح إمرارها كما جاءت، من غير تكييف ولا تشبيه.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٥٦).

يقول تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أى: لا تكرهوا أحداً على الدخول فى دين الإسلام، فإنه بين واضح جلى دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيد الدخول فى الدين مكرهاً مقسوراً. وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية فى قوم من الأنصار، وإن كان حكمها عاماً.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن عدى، عن شعبة، عن أبى بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كانت المرأة تكون مقلاتاً فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله، عز وجل: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾.

وقد رواه أبو داود والنسائى جميعاً، عن بُندار، به^(٢). ومن وجوه أخرى، عن شعبة، به نحوه. وقد رواه ابن أبى حاتم، وابن حبان فى صحيحه، من حديث شعبة، به^(٣). وهكذا ذكر مجاهد، وسعيد بن جبير، والشعبى، والحسن البصرى، وغيرهم: أنها نزلت فى ذلك.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد الحرشى، عن^(٤) زيد بن ثابت، عن عكرمة أو عن سعيد [بن جبير]^(٥)، عن ابن عباس، قوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ قال: نزلت فى رجل من الأنصار، من بنى سالم بن عوف، يقال له: الحصين، كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلاً مسلماً، فقال للنبي ﷺ: ألا أستكرههما، فإنهما قد ألبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله فيه ذلك.

رواه ابن جرير، وروى عن السدى نحو ذلك، وزاد: وكانا قد تنصرا على يدى تجار قدموا من الشام، يحملون زيتاً، فلما عزموا على الذهاب معهم أراد أبوهما أن يستكرههما، وطلب من رسول الله ﷺ أن يبعث فى آثارهما، فنزلت هذه الآية.

(١) زيادة من أ، و.

(٢) تفسير الطبرى (٤٠٧/٥، ٤٠٨) وسنن أبى داود برقم (٢٦٨٢) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٠٤٨).

(٣) صحيح ابن حبان برقم (١٧٢٥) «موارد».

(٤) فى و: «مولى». (٥) زيادة من ج، أ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن عوف، أخبرنا شريك، عن أبي هلال، عن أُسْقٍ قال: كنت في دينهم مملوكاً نصرانياً لعمر بن الخطاب، فكان يعرض على الإسلام، فأبى فيقول: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، ويقول: يا أُسْقِ، لو أسلمت لاستعنا بك على بعض أمور المسلمين.

وقد ذهب طائفة كثيرة من العلماء أن هذه محمولة على أهل الكتاب، ومن دخل في دينهم قبل النسخ والتبديل إذا بذلوا الجزية. وقال آخرون: بل هي منسوخة بآية القتال، فإنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول في الدين الحنيف دين الإسلام، فإن أبى أحد منهم الدخول فيه ولم ينقل له وبذل الجزية، قُتِلَ حتى يقتل. وهذا معنى الإكراه قال الله تعالى: ﴿سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحریم: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣]. وفي الصحيح: «عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل»^(١)، يعنى: الأسارى الذين يقدم بهم بلاد الإسلام في الوثاق والأغلال والقيود والأكبال، ثم بعد ذلك يسلمون، وتصلح أعمالهم وسرائرهم، فيكونون من أهل الجنة.

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن حميد، عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «أسلم» قال: إني أجدني كارها. قال: «وإن كنت كارها»^(٢). فإنه ثلاثي صحيح، ولكن ليس من هذا القبيل، فإنه لم يكرهه النبي ﷺ على الإسلام، بل دعاه إليه، فأخبر أن نفسه ليست قابلة له، بل هي كارهة، فقال له: «أسلم، وإن كنت كارهاً، فإن الله سيرزقك حسن النية والإخلاص». وقوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى: من خلع الأنداد والأوثان^(٣)، وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله، ووحيد الله فعبده وحده، وشهد أنه لا إله إلا هو ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ أى: فقد ثبت في أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم.

قال أبو القاسم البغوى: حدثنا أبو روح البلدى، حدثنا أبو الأحوص سلام بن سليم، عن أبي إسحاق، عن حسان - هو ابن فائد العبسى - قال: قال عمر، رضى الله عنه: إن الجبى: السحر، والطاغوت: الشيطان، وإن الشجاعة والجن غرائز تكون في الرجال، يقاتل الشجاع عمن لا يعرف، ويفر الجبان من^(٤) أمه، وإن كرم الرجل دينه، وحسبه خلقه وإن كان فارسياً أو نبطياً. وهكذا رواه ابن جرير^(٥). وابن أبي حاتم، من حديث الثورى، عن أبي إسحاق، عن حسان بن فائد العبسى، عن عمر، فذكره.

ومعنى قوله في الطاغوت: إنه الشيطان، قوى جداً، فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية، من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها. وقوله: ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ أى: فقد استمسك من الدين بأقوى سبب،

(١) صحيح البخارى برقم (٣٠١٠) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه.

(٢) المسند (١٨١/٣).

(٣) فى أ: «والاديان». (٤) فى ج، أ، و: «عن».

(٥) تفسير الطبرى (٤١٧/٥).

وشبه ذلك بالعروة القوية التي لا تنفصم، فهي في نفسها محكمة مبرمة قوية، وربطها قوى شديد؛ ولهذا قال: ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

قال مجاهد: ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ يعني: الإيمان. وقال السدي: هو الإسلام، وقال سعيد بن جبیر، والضحاك: يعنى لا إله إلا الله. وعن أنس^(١) بن مالك: ﴿الْعُرْوَةُ الْوُثْقَىٰ﴾: القرآن. وعن سالم بن أبي الجعد قال: هو الحب في الله، والبغض في الله.

وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا تنافى بينها.

وقال معاذ بن جبل، في قوله: ﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ أي: لا انقطاع لها دون دخول الجنة.

وقال مجاهد وسعيد بن جبیر: ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن يوسف، حدثنا ابن عون، عن محمد، عن قيس بن عباد قال: كنت في المسجد، فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع، فدخل فصلى ركعتين أوجز فيهما، فقال القوم: هذا رجل من أهل الجنة. فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله، فدخلت معه، فحدثته، فلما استأنس^(٢) قلت له: إن القوم لما دخلت قبل المسجد قالوا كذا وكذا. قال: سبحان الله، ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدثك لم: إني رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ، فقصصتها عليه: رأيت كأنني في روضة خضراء - قال ابن عون: فذكر من خضرتها وسعتها - وسطها عمود حديد، أسفله في الأرض وأعلاه في السماء، في أعلاه عروة، فتيل لى: اصعد عليه. فقلت: لا أستطيع. فجاءني منصف - قال ابن عون: هو الوصيف^(٣) - فرفع ثيابه من خلفي، فقال: اصعد. فصعدت حتى أخذت بالعروة، فقال: استمسك بالعروة. فاستيقظت وإنها لفي يدي، فأتيت رسول الله ﷺ فقصصتها عليه. فقال: «أما الروضة فروضة الإسلام، وأما العمود فعمود الإسلام، وأما العروة فهي العروة الوثقى، أنت على الإسلام حتى تموت»^(٤).

قال: وهو عبد الله بن سلام. أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الله بن عون^(٥)، وأخرجه البخاري من وجه آخر، عن محمد بن سيرين، به^(٦).

طريق أخرى وسياق آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، وعفان قالا: حدثنا حماد ابن سلمة، عن عاصم بن بهدلة، عن المسيب بن رافع، عن خرشة بن الحر قال: قدمت المدينة فجلست إلى مشيخة في مسجد النبي ﷺ. فجاء شيخ يتوكأ على عصا له، فقال القوم: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا. فقام خلف سارية فصلى ركعتين فقامت إليه، فقلت له: قال بعض القوم: كذا وكذا. فقال: الجنة لله يُدخلها^(٧) من يشاء، وإني رأيت على عهد رسول الله ﷺ رؤيا، رأيت كأن رجلا أتاني فقال: انطلق. فذهبت معه، فسلك بي منهجاً عظيماً، فعرضت لى طريق عن يسارى، فأردت أن أسلكها. فقال: إنك لست من أهلها. ثم عرضت لى طريق عن

(١) فى أ: «وعن يونس».

(٢) فى ج: «فلما أنس».

(٣) فى أ: «هو الوصف».

(٤) المسند (٤٥٢/٥).

(٥) صحيح البخارى برقم (٣٨١٣) وصحيح مسلم برقم (٢٤٨٤).

(٦) صحيح البخارى برقم (٧٠١٠).

(٧) فى ج: «سيدخلها».

يمنى، فسلكتها حتى انتهت إلى جبل زلق، فأخذ بيدي فزجل^(١)، فإذا أنا على ذروته، فلم أُنقار ولم أتماسك، فإذا عمود حديد في ذروته حلقة من ذهب، فأخذ بيدي فزجل^(٢) حتى أخذت بالعروة، فقال: استمسك. فقلت: نعم. فضرب العمود برجله فاستمسكت بالعروة، فقصصتها على رسول الله ﷺ فقال: «رأيت خيراً، أما المنهج العظيم فالمحشر^(٣)، وأما الطريق التي عرضت عن يسارك فطريق أهل النار، ولست من أهلها، وأما الطريق التي عرضت عن يمينك فطريق أهل الجنة، وأما الجبل الزلق فمنزلة الشهداء، وأما العروة التي استمسكت بها فعروة الإسلام، فاستمسك بها حتى تموت». قال: فأنأ أرجو أن أكون من أهل الجنة. قال: وإذا هو عبد الله بن سلام^(٤).

وهكذا رواه النسائي، عن أحمد بن سليمان، عن عفان، وابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن الحسن بن موسى الأشيب، كلاهما عن حماد بن سلمة، به نحوه^(٥). وأخرجه مسلم في صحيحه، من حديث الأعمش، عن سليمان بن مسهر، عن خرشة بن الحر الفزاري، به^(٦).

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥٧).
يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبيل السلام، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلى المبين السهل المنير، وأن الكافرين إنما وليهم الشياطين تزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات، ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ولهذا وحد تعالى لفظ النور وجمع الظلمات؛ لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة، وكلها باطلة كما قال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وقال تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [النحل: ٤٨] إلى غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرد الحق، وانتشار الباطل وتفرقه وتشعبه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن ميسرة، حدثنا عبد العزيز بن أبي عثمان، عن موسى بن عبيدة، عن أيوب بن خالد قال: يبعث أهل الأهواء^(٧) - أو قال: يبعث أهل الفتن - فمن كان هواه الإيمان كانت فتنه بيضاء مضيئة، ومن كان هواه الكفر كانت فتنه سوداء مظلمة، ثم قرأ هذه الآية: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي

(١، ٢) في ج، أ، و: «فدحا بي».

(٣) في ج: «فالمحن».

(٤) المسند (٥/٤٥٢، ٤٥٣).

(٥) سنن النسائي الكبرى برقم (٧٦٣٣) وسنن ابن ماجه برقم (٣٩٢٠).

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٤٨٤).

(٧) في أ: «الاسواق».

يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴿٢٥٨﴾

هذا الذى حاج إبراهيم فى ربه هو ملك بابل: نمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح. ويقال: نمرود بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح والأول قول مجاهد، وغيره. قال مجاهد: وملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: سليمان بن داود، وذو القرنين. والكافران: نمرود [بن كنعان] ^(١) وبختنصر. فالله أعلم.

ومعنى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أى: بقلبك يا محمد ﴿إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ أى: [فى] ^(٢) وجود ربه. وذلك أنه أنكر أن يكون ثم إله غيره، كما قال بعده فرعون لملئه: ﴿مَا عَلَّمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة إلا تجبره، وطول مدته فى الملك؛ وذلك أنه يقال: إنه مكث أربعمئة سنة فى ملكه؛ ولهذا قال: ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ وكأنه طلب من إبراهيم دليلاً على وجود الرب الذى يدعو إليه، فقال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أى: الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها. وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة؛ لأنها لم تحدث بنفسها، فلا بد لها من موجد أوجدها وهو الرب الذى أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له. فعند ذلك قال المحاج ^(٣) - وهو النمرود -: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾.

قال قتادة، ومحمد بن إسحاق، والسدى، وغير واحد: وذلك أنى ^(٤) أوتى بالرجلين قد استحقا القتل، فأمر بقتل أحدهما فيقتل، وبالعفو عن الآخر فلا يقتل. فذلك معنى الإحياء والإماتة.

والظاهر - والله أعلم - أنه ما أراد هذا؛ لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم ولا فى معناه؛ لأنه غير مانع لوجود الصانع. وإنما أراد أن يدعى لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة، ويوهم أنه الفاعل لذلك، وأنه هو الذى يحيى ويميت، كما اقتدى به فرعون فى قوله: ﴿مَا عَلَّمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾؛ ولهذا قال له إبراهيم لما ادعى هذه المكابرة: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ أى: إذا كنت كما تدعى من أنك [أنت الذى] ^(٥) تحيى وتميت، فالذى يحيى ويميت هو الذى يتصرف فى الوجود فى خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلهاً كما ادعيت تحيى وتميت، فأنت بها من المغرب. فلما علم عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة فى هذا المقام بُهِتَ، أى: أخرس فلا يتكلم، وقامت عليه الحجة. قال الله تعالى ^(٦): ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أى: لا يلهمهم حجة ولا برهاناً، بل حجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد.

وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين: أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثانى انتقال من دليل إلى أوضح منه، ومنهم من قد يطلق عبارة ردية. وليس كما قالوه، بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثانى ويبين بطلان ما ادعاه نمرود فى الأول والثانى، والله الحمد والمنة.

(١) فى ج، أ، و: «الحاج».

(٢) زيادة من أ، و.

(٣) زيادة من ج.

(٤) فى ج، أ: «عز شأنه».

(٥) زيادة من أ، و.

(٦) فى أ: «وذلك أنه».

وقد ذكر السدى أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم ونمرود بعد خروج إبراهيم من النار، ولم يكن اجتمع بالملك إلا في ذلك اليوم، فجرت بينهما هذه المناظرة.

وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن زيد بن أسلم: أن النمرود كان عنده ^(١) طعام، وكان الناس يغدون ^(٢) إليه للميرة، فوفد إبراهيم في جملة من وفد للميرة، فكان بينهما هذه المناظرة، ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس بل خرج وليس معه شيء من الطعام، فلما قرب من أهله عمد إلى كتيب من التراب فملأ منه عدليه وقال: أشغل أهلى عنى إذا قدمت عليهم، فلما قدم وضع رحاله، وجاء فاتكأ فنام. فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملائين طعاماً طيباً، فعملت منه طعاماً. فلما استيقظ إبراهيم وجد الذى قد أصلحوه، فقال: أنى لكم هذا؟ قالت: من الذى جئت به. فعرف أنه رزق رزقهموه الله، عز وجل. قال ^(٣) زيد بن أسلم: وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكاً يأمره بالإيمان بالله، فأبى عليه، ثم دعاه الثانية فأبى، ثم الثالثة فأبى، وقال: اجمع جموعك وأجمع جموعى. فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس، وأرسل الله عليهم باباً من البعوض، بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماهم وتركتهم عظاماً بادية، ودخلت واحدة منها فى منخري الملك، فمكثت فى منخريه أربعمئة سنة، عذبه الله بها، فكان يضرب رأسه بالمرازب فى هذه المدة كلها حتى أهلكه الله بها.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾.

تقدم قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ [أَن آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ] ^(٤)﴾ وهو فى قوة قوله: هل رأيت مثل الذى حاج إبراهيم فى ربه؟ ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾. اختلفوا فى هذا المار من هو؟ فروى ابن أبى حاتم عن عصام بن رواد، عن آدم بن أبى إياس، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن ناجية بن كعب، عن على بن أبى طالب أنه قال: هو عزيز.

ورواه ابن جرير، عن ناجية، نفسه. وحكاه ابن جرير، وابن أبى حاتم، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسدى، وسليمان بن بُرَيْدَةَ، وهذا القول هو المشهور.

وقال وهب بن منبه، وعبد الله بن عبيد بن عمير: هو إرميا بن حلقيا. قال محمد بن إسحاق؛ عمن لا يتهم، عن وهب بن منبه، أنه قال: وهو اسم الخضر، عليه السلام.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى قال: سمعت ^(٥) سليمان بن محمد اليسارى الجارى - من أهل الجار، ابن عم مطرف - قال: سمعت رجلاً من أهل الشام يقول: إن الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه اسمه: حزقيل بن بورا.

وقال مجاهد بن جبر: هو رجل من بنى إسرائيل.

(١) فى أ: «كان بيده».

(٢) فى أ: «يبدون» وفى و: «يفدون».

(٣) فى ج: «وقال».

(٤) زيادة من ج، أ.

(٥) فى ج: «حدثنا».

[وذكر غير واحد أنه مات وهو ابن أربعين سنة؛ فبعثه الله وهو كذلك، وكان له ابن، فبلغ من السن مائة وعشرين سنة، وبلغ ابن ابنه تسعين وكان الجد شاباً وابنه وابن ابنه شيخان كبيران قد بلغا الهرم، وأنشدني به بعض الشعراء:

واسودّ رأس شاب من قبل ابنه	ومن قبله ابن ابنه فهو أكبر
يرى أنه شيخا يدب على عصا	ولحيته سوداء والرأس أشعر
وما لابنه جبل ولا فضل قوة	يقوم كما يمشى الصغير فيعشر
وعمر ابنه أربعون أمرها	ولابن ابنه في الناس تسعين غيراً ^(١)

وأما القرية: فالمشهور أنها بيت المقدس، مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها. ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ أي: ليس فيها أحد، من قولهم: خوت الدار تخوى خواءً وخوياً.

وقوله: ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي: ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها، فوقف متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة، وقال: ﴿أَنْتَ يَحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها وبعدها عن العود إلى ما كانت عليه، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ قال^(٢): وعمرت البلدة بعد مضي سبعين سنة من موته، وتكامل ساكنوها وتراجعت بنو إسرائيل إليها. فلما بعثه الله، عز وجل، بعد موته كان أول شيء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه كيف يحيى بدنه؟ فلما استقل سويًا قال الله له - أي بواسطة الملك - : ﴿كَمْ لَبِثْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قالوا: وذلك أنه مات أول النهار، ثم بعثه الله في آخر نهار، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم، فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ وذلك: أنه كان معه، فيما ذكر، عنب وتين وعصير، فوجده كما فقدته لم يتغير منه شيء، لا العصير استحال، ولا التين حمض، ولا أنتن، ولا العنب تعفن ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ أي: كيف يحييه الله، عز وجل، وأنت تنظر ﴿وَلَنَجْجَعَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي: دليلاً على المعاد، ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ أي: نرفعها فتركب بعضها على بعض.

وقد روى الحاكم في مستدركه، من حديث نافع بن أبي نعيم، عن إسماعيل بن أبي حكيم، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ بالزأى. ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه^(٣).

وقرى: ﴿نُنشِزُهَا﴾ أي: نحياها، قاله مجاهد، ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾.

وقال السدي وغيره: تفرقت عظام حماره حوله يمينا ويساراً^(٤)، فنظر إليها وهي تلوح من بياضها، فبعث الله ريحاً فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة، ثم ركب^(٥) كل عظم في موضعه حتى صار حماراً قائماً من عظام لا لحم عليها، ثم كساها الله لحماً وعصباً وعروقاً وجلداً، وبعث الله ملكاً فنفخ في منخري الحمار، فنفخ كله بإذن الله عز وجل، وذلك كله بمراى من العزيز، فعند ذلك لما تبين له هذا كله ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: أنا عالم بهذا، وقد رأيت عياناً، فأنا أعلم أهل زمانى بذلك وقرأ آخرون: «قال اعلم»، على أنه أمر له بالعلم.

(١) زيادة من ج، أ. (٢) في أ، و: «قالوا».

(٣) المستدرک (٢٣٤/٢) وتعقبه الذهبي بقوله: «فيه إسماعيل بن قيس من ولد زيد بن ثابت وقد ضعفه».

(٤) في أ، و: «وشمالاً». (٥) في ج، أ: «ثم ركب».

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمَ تُوْمِنَ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾.

ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام، أسباباً، منها: أنه لما قال لنمرود: ﴿رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أحب أن يترقي من علم اليقين في ذلك إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مشاهدة فقال: ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمَ تُوْمِنَ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

فأما الحديث الذي رواه البخاري عند هذه الآية: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرني يونس، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة وسعيد، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم، إذ قال: رب أرني كيف تحيي الموتى؟ قال: أولم تؤمن. قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي» وكذا رواه مسلم، عن حرملة بن يحيى، عن ابن وهب^(١)، به - فليس المراد ههنا بالشك ما قد يفهمه من لا علم عنده، بلاخلاف. وقد أجيب عن هذا الحديث بأجوبة، أحدها... (٢).

وقوله: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾: اختلف المفسرون في هذه الأربعة: ما هي؟ وإن كان لا طائل تحت تعيينها، إذ لو كان في ذلك متهم لنص عليه القرآن، فروى عن ابن عباس أنه قال: هي الغرنوق، والطاووس، والديك، والحمامة. وعنه أيضاً: أنه أخذ وزاً، ورألاً - وهو فرخ النعام - وديكا، وطاووساً. وقال مجاهد وعكرمة: كانت حمامة، وديكا، وطاووساً، وغراباً. وقوله: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أى: قطعهن. قاله ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبو

(١) صحيح البخاري برقم (٤٥٣٧) وصحيح مسلم برقم (١٥١).

(٢) وقع هنا بياض بجميع النسخ، ووقع في نسخة مساعدة من مؤسسة الملك فيصل الخيرية في هذا الموضع، وقد أجيب عن هذا الحديث بأجوبة:

أحدها: قول إسماعيل المزني: لم يشك النبي ﷺ ولا إبراهيم، عليه السلام، في أن الله سبحانه قادر على إحياء الموتى، وإنما بدأ لجاهل يجيئها إلى ما سأل. وقال الخطابي في قوله: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»: ليس اعتراف بالشك على نفسه ولا على إبراهيم، ولكن فيه نفى الشك عنهما يقول: إذا لم أشك في قدرة الله على إحياء الموتى، فأبراهيم أولى ألا يشك، قال ذلك على سبيل التواضع والهضم من النفس، وكذلك قوله: «لوليت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي» وفيه الإعلام بأن المسألة من جهة إبراهيم لم تعرض من جهة الشك، لكن من قبل زيادة العلم بالعيان، لأنه يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيد الاستدلال، وقيل: قال هذا ﷺ تواضعاً وتقديماً لإبراهيم قوله: «أولم تؤمن قال: بلى قد آمنت».

وأظن هذا من تصرف الناسخ، لأنه كتب بالجانب بياض في الأصل. قال الشيخ أحمد شاكر عند هذا الموضع من كتابه «العمدة» الذي هو مختصر تفسير ابن كثير (١٧٠/٢):

«هنا بياض في المخطوطة الأزهرية والمطبوعة، لعل الحافظ ابن كثير تركه ليكتب الأقوال في ذلك، ثم لم يفعل سهواً أو نسياناً وقد أفاض الحافظ ابن حجر في الفتح (٢٩٤/٦، ٢٩٥) في ذكر أقوال العلماء في ذلك. وأجود ذلك عندى قول ابن عطية: «إن الحديث مبنى على نفى الشك، والمراد بالشك فيه: الخواطر التي لا تثبت. وأما الشك المصطلح - وهو التوقف بين الأمرين من غير مزية لأحدهما على الآخر - فهو منفي عن الخليل قطعاً؛ لأنه يبعد وقوعه من رسوخ الإيمان في قلبه، فكيف بمن بلغ رتبة النبوة؟! وأيضاً فإن السؤال لما وقع به ﴿كَيْفَ﴾ دل على حال شيء موجود مقرر عند السائل والمسؤول، كما تقول: كيف علم فلان فـ ﴿كَيْفَ﴾ في الآية سؤال عن هيئة الإحياء لا عن نفس الإحياء فإنه ثابت مقرر. وقال غيره: معناه: إذا لم نشك نحن، فأبراهيم أولى ألا يشك، أى: لو كان الشك متطرقاً إلى الأنبياء؛ لكنك أنا أحق به منه، وقد علمتم أنى لم أشك فاعلموا أنه لم يشك وإنما قال ذلك تواضعاً منه».

مالك، وأبو الأسود الديلي، ووهب بن منبه، والحسن، والسدي، وغيرهم.
وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿فَصْرَهُنَّ إِلَيْكَ﴾: أوثقهن، فلما أوثقهن ذبحهن، ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً، فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن، ثم قطعهن ورتف ريشهن، ومزقهن^(١) وخلط بعضهن في بعض، ثم جزأهن أجزاءً، وجعل على كل جبل منهن جزءاً، قيل: أربعة أجبل^(٢). وقيل: سبعة. قال ابن عباس: وأخذ رؤوسهن بيده، ثم أمره الله، عز وجل، أن يدعوهن، فدعاهن كما أمره الله، عز وجل، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض، حتى قام كل طائر على حدة، وأتينه يشين سعيّاً ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم، عليه السلام، فإذا قدم له غير رأسه يأباه، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جثته بحول الله وقوته؛ ولهذا قال: ﴿وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عزيز لا يغلبه شيء، ولا يمتنع منه شيء، وما شاء كان بلا ممانع لأنه العظيم القاهر لكل شيء، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن أيوب في قوله: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ قال: قال ابن عباس: ما في القرآن آية أرجى عندي منها^(٣).

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن المثني، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت زيد بن علي يحدث، عن رجل، عن سعيد بن المسيب قال: اتعد عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص أن يجتمعا. قال: ونحن شبية، فقال أحدهما لصاحبه: أي آية في كتاب الله أرجى لهذه الأمة؟ فقال عبد الله بن عمرو: قول الله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ الآية [الزمر: ٥٣]. فقال ابن عباس: أما إن كنت تقول: إنها، وإن أرجى منها لهذه الأمة قول إبراهيم: ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تَحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾^(٤).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث، حدثني ابن أبي سلمة عن محمد بن المنكدر، أنه قال: التقى عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص، فقال ابن عباس لابن عمرو بن العاص: أي آية في القرآن أرجى عنده؟ فقال عبد الله بن عمرو: قول الله عز وجل: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا [مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ]﴾^(٥) الآية - فقال ابن عباس: لكن أنا أقول^(٦): قول الله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تَحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ﴾ فرضى من إبراهيم قوله: ﴿بَلَىٰ﴾ قال: فهذا لما يعترض^(٧) في النفوس^(٨) ويوسوس به الشيطان.

وهكذا رواه الحاكم في المستدرک، عن أبي عبد الله محمد بن يعقوب بن الأخرم، عن إبراهيم بن عبد الله السعدي، عن بشر بن عمر الزهراني، عن عبد العزيز بن أبي سلمة، بإسناده، مثله. ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه^(٩).

(١) في أ: «ووفرقهن».

(٢) في أ: «أربعة أجزاء».

(٣) في ج: «أرجى آية منها».

(٤) تفسير الطبري (٤٨٩/٥).

(٥) زيادة من ج، أ.

(٦) في ج، أ: «إن كنت تقول».

(٧) في ج: «لما يعرض».

(٨) في أ، و: «في الصدور».

(٩) المستدرک (٦٠/١) وتعقبه الذهبي بأن فيه انقطاعاً.

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٦١).

هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، فقال: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ قال سعيد بن جبيرة: يعنى: فى طاعة الله. وقال مكحول: يعنى به: الإنفاق فى الجهاد، من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك. وقال شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس: الجهاد والحج، يضعف الدرهم فيهما إلى سبعمائة ضعف؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ﴾.

وهذا المثل أبلغ فى النفوس، من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينمىها الله، عز وجل، لأصحابها، كما ينمى الزرع لمن بذره فى الأرض الطيبة، وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف، قال الإمام أحمد:

حدثنا زياد بن الربيع أبو خدّاش، حدثنا واصل مولى أبى عيينة، عن بشار بن أبى سيف الجرمي، عن عياض بن غطيف قال: دخلنا على أبى عبيدة [بن الجراح] ^(١) نعوذه من شكوى أصابه - وامراته تُحَيِّفُ قَاعِدَةً عند رأسه - قلنا: كيف بات أبو عبيدة؟ قالت: والله لقد بات بأجر، قال أبو عبيدة: ما بت بأجر، وكان مقبلاً بوجهه على الحائط، فأقبل على القوم بوجهه، وقال: ألا تسألونى عما قلت؟ قالوا: ما أعجبنا ما قلت فنسألك عنه! قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنفق نفقة فاضلة فى سبيل الله فبسبعمائة، ومن أنفق على نفسه وأهله، أو عاد مريضاً أو ماز أذى، فالحسنة بعشر أمثالها، والصوم جنة ما لم يخرقها، ومن ابتلاه الله، عز وجل، ببلاء فى جسده فهو له حطة». وقد روى النسائي فى الصوم بعضه من حديث واصل به، ومن وجه آخر موقوفاً ^(٢).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن سليمان، سمعت أبا عمرو الشيباني، عن أبى مسعود: أن رجلاً تصدق بناقاة مخطومة فى سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لتأتين يوم القيامة بسبعمائة ناقة مخطومة».

ورواه مسلم والنسائي، من حديث سليمان بن مهران، عن الأعمش، به ^(٣). ولفظ مسلم: جاء رجل بناقاة مخطومة، فقال: يا رسول الله، هذه فى سبيل الله. فقال: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة».

حديث آخر: قال أحمد: حدثنا عمرو بن مَجْمَع أبو المنذر الكندي، أخبرنا إبراهيم الهجري، عن أبى الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله، عز وجل، جعل حسنة ابن آدم بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلا الصوم، والصوم لى وأنا أجزى به، وللصائم فرحتان: فرحة عند إفطاره، وفرحة يوم القيامة، ولخلف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك» ^(٤).

(١) زيادة من المسند (١/١٩٥).

(٢) المسند (١/١٩٥) وسنن النسائي (٤/١٦٧، ١٦٨).

(٣) صحيح مسلم برقم (١٨٩٢) وسنن النسائي (٦/٤٩).

(٤) المسند (١/٤٤٦).

حديث آخر: قال [الإمام] (١) أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما شاء (٢) الله، يقول الله: إلا الصوم، فإنه لى وأنا أجزي به، يدع طعامه وشهوته من أجلي، وللصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخُلُوف فيه (٣) أطيب عند الله من ريح المسك. الصوم جنة، الصوم جنة». وكذا رواه مسلم، عن أبي بكر بن أبي شيبة، وأبي سعيد الأشج، كلاهما عن وكيع، به (٤).

حديث آخر: قال أحمد: حدثنا حسين بن علي، عن زائدة، عن الركين، عن يسير بن عميلة (٥)، عن خريم بن فاتك قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق نفقة في سبيل الله تضاعف سبعمائة (٦) ضعف» (٧).
حديث آخر: قال أبو داود: حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح، حدثنا ابن وهب، عن يحيى بن أيوب وسعيد بن أبي أيوب، عن زبائن بن فائد، عن سهل بن معاذ، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصلاة والصيام والذكر يضاعف على النفقة في سبيل الله سبعمائة ضعف» (٨).

حديث آخر: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هارون بن عبد الله بن مروان، حدثنا ابن أبي فديك، عن الخليل بن عبد الله، عن الحسن، عن عمران بن حصين، عن رسول الله ﷺ قال: «من أرسل بنفقة في سبيل الله، وأقام في بيته (٩)، فله بكل درهم سبعمائة درهم يوم القيامة ومن غزا (١٠) في سبيل الله، وأنفق في جهة ذلك (١١)، فله بكل درهم (١٢) سبعمائة ألف درهم». ثم تلا هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يضاعف لمن يشاء﴾ وهذا حديث غريب (١٣).

وقد تقدم حديث أبي عثمان النهدي، عن أبي هريرة في تضعيف الحسنة إلى ألفي ألف حسنة، عند قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له أضعافًا كثيرة﴾ [البقرة: ٢٤٥].

حديث آخر: قال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن عبيد الله بن العسكري البزاز، أخبرنا الحسن بن علي بن شبيب، أخبرنا محمود بن خالد الدمشقي، أخبرنا أبي، عن عيسى بن المسيب، عن نافع، عن ابن عمر قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال النبي ﷺ: «رب زد أمتي» قال: فأنزل الله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ الله قرضًا حسنًا﴾ قال: «رب زد أمتي» قال: فأنزل الله: ﴿إِنَّمَا يُوفِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وقد رواه أبو حاتم ابن حبان في صحيحه، عن حاجب بن أركين، عن أبي عمر حفص بن عمر ابن عبد العزيز المقرئ، عن أبي إسماعيل المؤدب، عن عيسى بن المسيب، عن نافع، عن ابن عمر، فذكره (١٤).

(٣) في ج: «ولخُلُوف فمه».

(١) زيادة من أ. (٢) في ج، أ، و: «إلى ما يشاء».

(٤) صحيح مسلم برقم (١١٥١).

(٥) في أ: «عن الركين بن بشير بن جميلة»، وفي و: «عن الركين، عن بشير بن عميلة».

(٦) في ج، و: «سبعمائة» وهو الصواب.

(٧) المسند (٤/٣٤٥).

(٨) سنن أبي داود برقم (٢٤٩٨).

(٩) في أ: «في بيته». (١٠) في أ، و: «من غزا بنفسه». (١١) في ج، أ، و: «في وجهه ذلك».

(١٢) في ج، أ، و: «درهم يوم القيامة».

(١٣) ورواه ابن ماجه في السنن برقم (٢٧٦١) عن هارون بن عبد الله به.

(١٤) صحيح ابن حبان برقم (١٦٤٨) «موارده».

وقوله هاهنا: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أى: بحسب إخلاصه فى عمله ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أى: فضله واسع كثير أكثر من خلقه، عليم بمن يستحق ومن لا يستحق.

﴿الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٦٢) قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴿

يمدح تعالى الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات مَنًّا على من (١) أعطوه، فلا يمتنون به على أحد، ولا يمتنون به لا بقول ولا فعل.

وقوله: ﴿وَلَا أَذًى﴾ أى: لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروها يحبطون به ما سلف من الإحسان. ثم وعدهم تعالى الجزاء الجزيل على ذلك، فقال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أى: ثوابهم على الله، لا على أحد سواه ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى: فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أى: [على] (٢) ما خلفوه من الأولاد وما فاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها (٣)، لا يأسفون عليها؛ لأنهم قد صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أى: من كلمة طيبة ودعاء لمسلم ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أى: غفر (٤) عن ظلم قولى أو فعلى ﴿خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذًى﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن نفيل قال: قرأت على معقل بن عبيد الله، عن عمرو ابن دينار قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «ما من صدقة أحب إلى الله من قول معروف، ألم تسمع قوله: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذًى﴾» ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ [أى] (٥): عن خلقه. ﴿حَلِيمٌ﴾ أى: يحلم ويغفر ويصفح ويتجاوز عنهم.

وقد وردت الأحاديث بالنهى عن المن فى الصدقة، فى صحيح مسلم، من حديث شعبة، عن الأعمش عن سليمان بن مسهر، عن خرشة بن الحر، عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: المنان بما أعطى، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب» (٦).

وقال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن عثمان بن يحيى، أخبرنا عثمان بن محمد الدورى، أخبرنا هُشَيْم (٧) بن خارجة، أخبرنا سليمان بن عقبة، عن يونس بن ميسرة، عن أبى إدريس، عن أبى الدرداء، عن النبى ﷺ قال: «لا يدخل الجنة عاق، ولا منان، ولا مدمن خمر، ولا مكذب بقدر»

(٣) فى و: «وزيتها».

(٢) زيادة من ج، أ، و.

(١) فى ج، أ: «على ما».

(٥) زيادة من ج.

(٤) فى ج، أ، و: «أى عفو».

(٦) صحيح مسلم برقم (١٠٦).

(٧) فى و: «الهشيم».

وروى أحمد وابن ماجه، من حديث يونس بن ميسرة نحوه^(١).

ثم روى^(٢) ابن مردويه، وابن حبان، والحاكم فى مستدركه، والنسائى من حديث عبد الله بن يسار الأعرج، عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، ومدمن الخمر، والمنان بما أعطى»^(٣).

وقد روى النسائى، عن مالك بن سعد، عن عمه روح بن عبادة، عن عتاب بن بشير، عن خصيف الجزرى، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: «لا يدخل الجنة مدمن خمر، ولا عاق لوالديه، ولا منان»^(٤).

وقد رواه ابن أبى حاتم، عن الحسن بن المنهال^(٥)، عن محمد بن عبد الله بن عمار الموصلى، عن عتاب، عن خصيف، عن مجاهد، عن ابن عباس^(٦).

ورواه النسائى من حديث، عبد الكريم بن مالك الجزرى، عن مجاهد، قوله. وقد روى عن مجاهد، عن أبى سعيد^(٧)، وعن مجاهد، عن أبى هريرة، نحوه^(٨). ولهذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ فأخبر أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المن والأذى، فما يفى ثواب الصدقة بخطيئة المن والأذى.

ثم قال تعالى: ﴿كَأَلَدِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ أى: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، كما تبطل صدقة من راءى بها الناس، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله وإنما قصده مدحة الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة، ليشكر بين الناس، أو يقال: إنه كريم ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

ثم ضرب تعالى مثل ذلك المرائى بإنفاقه - قال الضحاك: والذي يتبع نفقته منا أو أذى - فقال: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ وهو جمع صفوانة، ومنهم من يقول: الصفوان يستعمل مفرداً أيضاً، وهو الصفا، وهو الصخر الأملس ﴿عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ وهو المطر الشديد ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أى: فترك الوابل ذلك الصفوان صلدًا، أى^(٩): أملس يابساً، أى: لا شىء عليه من ذلك التراب، بل قد ذهب كله، أى: وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند الله^(١٠)، وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب، ؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ

(١) المسند (٤٤١/٦) وسنن ابن ماجه برقم (٣٣٧٦) وقال البوصيرى فى الزوائد (١٠٣/٣): «هذا إسناد حسن، سليمان بن عتبة مختلف فيه، وباقي رجال الإسناد ثقات».

(٢) فى ج: «وروى».

(٣) المستدرک (١٤٦/٤) وسنن النسائى (٨٠/٥).

(٤) سنن النسائى الكبرى برقم (٤٩٢١).

(٥) فى ج: «بن نهال»، وفى أ: «بن منهال».

(٦) فى ج: «ابن عباس فى قوله».

(٧) سنن النسائى الكبرى برقم (٤٩٢٠).

(٨) سنن النسائى الكبرى برقم (٤٩٢٢).

(٩) فى ج: «هكذا».

(١٠) فى ج: «عند الله تعالى».

أَصَابَهَا وَأَبِلُ فَآتَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَأَبِلُ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ . وهذا مثل المؤمنين المنفقين ﴿أَمْوَالُهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ عنهم فى ذلك ﴿وَتَثْبِيئًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أى: وهم متحققون مثبتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء، ونظير هذا فى المعنى قوله، عليه السلام^(١)، فى الحديث المتفق على صحته: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً...» أى: يؤمن أن الله شرعه، ويحتسب عند الله ثوابه.

قال الشعبى: ﴿وَتَثْبِيئًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أى: تصديقاً وبقيناً^(٢). وكذا قال قتادة، وأبو صالح، وابن زيد. واختاره ابن جرير. وقال مجاهد والحسن: أى: يتثبتون أين يضعون^(٣) صدقاتهم. وقوله: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ أى: كمثل بستان بربرة. وهو عند الجمهور: المكان المرتفع المستوى من الأرض. وزاد ابن عباس والضحاك: وتجرى فيه الأنهار.

قال ابن جرير: وفى الربوة ثلاث لغات هن ثلاث قراءات: بضم الراء، وبها قرأ عامة أهل المدينة والحجاز والعراق. وفتحها، وهى قراءة بعض أهل الشام والكوفة، ويقال: إنها لغة تميم. وكسر الراء، ويذكر أنها قراءة ابن عباس.

وقوله: ﴿أَصَابَهَا وَأَبِلُ﴾^(٤) وهو المطر الشديد، كما تقدم، فَآتَتْ ﴿أَكْلَهَا﴾ أى: ثمرتها^(٥) ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أى: بالنسبة إلى غيرها من الجنان. ﴿فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَأَبِلُ فَطُلَّ﴾ قال الضحاك: هو الرذاذ، وهو اللين من المطر. أى: هذه الجنة بهذه الربوة لا تمحل أبداً؛ لأنها إن لم يصيبها وأبل فطل، وأيا ما كان فهو كفايتها، وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبداً، بل يتقبله الله ويكثره وينميّه، كل عامل يحسبه؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أى: لا يخفى عليه من أعمال عباده شىء.

﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ .

قال البخارى عند تفسير هذه الآية: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام - هو ابن يوسف - عن ابن جريج: سمعت عبد الله^(٦) بن أبى مليكة، يحدث عن ابن عباس، وسمعت أخاه أبا بكر بن أبى مليكة يحدث عن عبيد بن عمير قال: قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبى ﷺ: فيمن ترون هذه الآية نزلت: ﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾؟ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر فقال: قولوا: نعلم أولاً نعلم^(٧). فقال ابن عباس: فى نفسى منها شىء يا أمير المؤمنين. فقال عمر: يا ابن أخى، قل ولا تحقر نفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل. قال عمر: أى عمل؟ قال ابن عباس: لعمل. قال عمر: لرجل غنى يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصى

(٢) فى و: «وتيقناً».

(١) فى ج، أ، و: «ﷺ».

(٤) فى ج، أ: «فأصابها» وهو خطأ.

(٣) فى ج: «أى يضعوا».

(٦) فى ج، أ، و: «عبيد الله».

(٧) فى ج: «فقالوا أتعلم أم لا تعلم».

حتى أغرق^(١) أعماله^(٢).

ثم رواه البخارى، عن الحسن بن محمد الزعفرانى، عن حجاج بن محمد الأعور، عن ابن جريج، فذكره^(٣). وهو من أفراد البخارى، رحمه الله.

وفى هذا الحديث كفاية فى تفسير هذه الآية، وتبين ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولاً، ثم بعد ذلك انعكس سيره، فبدل الحسنات بالسيئات، عياداً بالله من ذلك، فأبطل بعمله الثانى ما أسلفه فيما تقدم من الصالح^(٤)، واحتاج إلى شىء من الأول فى أضيق الأحوال، فلم يحصل له منه شىء، وخانه أحوج ما كان إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ﴾ وهو الريح الشديد^(٥) ﴿فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ أى: أحرقت^(٦) ثمارها وأباد أشجارها، فأى حال يكون حاله.

وقد روى ابن أبى حاتم، من طريق العوفى، عن ابن عباس قال: ضرب الله له مثلاً حسناً، وكل أمثاله حسن، قال: ﴿أَيُّوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ يقول: ضيعة فى شيبته ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ وولده وذريته ضعاف عند آخر عمره، فجاءه إعصار فيه نار فأحرق^(٧) بستانه، فلم يكن عنده قوة أن يغرس مثله، ولم يكن عند نسله خير يعودون به عليه، وكذلك الكافر يوم القيامة، إذا رد إلى الله، عز وجل، ليس له خير فيستعجب، كما ليس لهذا قوة فيغرس مثل بستانه، ولا يجده قدم لنفسه خيراً يعود عليه، كما لم يُغن عن هذا ولده، وحرم أجره عند أفقر ما كان إليه، كما حرم هذا جنة الله عند أفقر ما كان إليها عند كبره وضعف ذريته.

وهكذا^(٨) روى الحاكم فى مستدركه: أن رسول الله ﷺ كان يقول فى دعائه: «اللهم اجعل أوسع رزقك على عند كبر سنى وانقضاء عمري»^(٩)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أى: تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعانى، وتنزلونها على المراد منها، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (٢٦٧)
الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا

(١) فى ج: «حتى أحرقت».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٥٣٨).

(٣) لم أقع على هذا الطريق فى صحيح البخارى، ولم يذكره المزى فى تحفة الاشراف.

(٤) فى أ: «من المصالح». (٥) فى ج: «الشديدة». (٦) فى ج: «أى احترقت».

(٧) فى ج: «فأحترقت»، وفى أ: «فاحتترقت». (٨) فى ج: «ولهذا».

(٩) المستدرک (٥٤٢/١) من طريق سعيد بن سليمان، عن عيسى بن ميمون، عن القاسم، عن عائشة، رضى الله عنها، مرفوعاً، وقال الحاكم: «هذا حديث حسن الإسناد والمتن غريب فى الدعاء مستحب للمشايع إلا أن عيسى بن ميمون لم يحتج به الشيخان» قال الذهبى: قلت: «عيسى متهم».

أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإنفاق - والمراد به الصدقة ههنا؛ قاله ابن عباس - من طيبات ما رزقهم من الأموال التي اكتسبوها. قال مجاهد: يعنى التجارة بتيسيره إياها لهم.

وقال على والسدى: ﴿مِنْ طَيِّبَاتٍ مَا كَسَبْتُمْ﴾ يعنى: الذهب والفضة، ومن الثمار والزروع التي أنبتها لهم من الأرض.

قال ابن عباس: أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه، ونهاهم عن التصديق برذالة المال ودنيته - وهو خبيثه - فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَيْمَمُوا﴾ أى: تقصدوا ﴿الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ﴾ أى: لو أعطيتموه ما أخذتموه، إلا أن تتغاضوا فيه، فالله أغنى عنه منكم، فلا تجعلوا لله ما تكرهون.

وقيل: معناه: ﴿وَلَا تَيْمَمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ أى: لا تعدلوا عن المال الحلال، وتقصدوا إلى الحرام، فتجعلوا نفقتكم منه.

ويذكر ههنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا أبان بن إسحاق، عن الصباح بن محمد، عن مرة الهمداني، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسى بيده، لا يسلم عبدٌ حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه». قالوا: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: «غشمه وظلمه، ولا يكسب^(١) عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل^(٢) منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار: إن الله لا يحو السيئ بالسيئ، ولكن يحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يحو الخبيث»^(٣).

والصحيح القول الأول؛ قال ابن جرير: حدثني الحسين بن عمرو العنقري، حدثني أبي، عن أسباط، عن السدي، عن عدي بن ثابت، عن البراء بن عازب في قول الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيْمَمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ الآية. قال: نزلت في الأنصار، كانت الأنصار إذا كان أيام جذاذ النخل، أخرجت من حيطانها أقناء البسر، فعلقوه على جبل بين الأسطواتين في مسجد رسول الله ﷺ، فيأكل فقراء المهاجرين منه، فيعمد الرجل منهم إلى الحشف، فيدخله مع أقناء البسر، يظن أن ذلك جائز، فأنزل الله فيمن فعل ذلك: ﴿وَلَا تَيْمَمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾.

ثم رواه^(٤) ابن جرير، وابن ماجه، وابن مردويه، والحاكم في مستدركه، من طريق السدي، عن

(١) فى ج، أ: «ولا يكتسب». (٢) فى أ، و: «فيتقبل».

(٣) المسند (١/٣٨٧).

(٤) فى ج: «ورواه».

عدى بن ثابت، عن البراء، بنحوه. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه^(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبيد الله، عن إسرائيل، عن السدي، عن أبي مالك، عن البراء: ﴿وَلَا تَيْمَمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تَنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تَغْمِضُوا فِيهِ﴾ قال: نزلت فينا، كنا أصحاب نخل، وكان الرجل يأتي من نخله بقدر كثرته وقلته، فيأتي الرجل بالقنو فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصفة^(٢) ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع جاء فضربه بعصاه، فيسقط منه البسر والتمر، فيأكل، وكان أناس ممن لا يرغبون في الخير يأتي بالقنو فيه الحشف والشيص، ويأتي بالقنو قد انكسر فيعلقه، فنزلت: ﴿وَلَا تَيْمَمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تَنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تَغْمِضُوا فِيهِ﴾ قال: لو أن أحدكم أهدي له مثل ما أعطى ما أخذه إلا على إغماض وحياء، فكنا بعد ذلك يجيء الرجل منا بصالح ما عنده.

وكذا رواه الترمذي، عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، عن عبيد الله - هو ابن موسى العبسي - عن إسرائيل، عن السدي - وهو إسماعيل بن عبد الرحمن - عن أبي مالك الغفاري - واسمه غزوان - عن البراء، فذكر نحوه^(٣). ثم قال^(٤): وهذا حديث حسن غريب.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الوليد، حدثنا سليمان بن كثير، عن الزهري، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ نهى عن لونين من التمر: الجعور ولون الحبيق^(٥). وكان الناس يَتَيْمَمُونَ شرار ثمارهم^(٦) ثم يخرجونها في الصدقة، فنزلت: ﴿وَلَا تَيْمَمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تَنْفِقُونَ﴾^(٧).

ورواه أبو داود من حديث سفيان بن حسين، عن الزهري [به]^(٨). ثم قال: أسنده أبو الوليد، عن سليمان بن كثير، عن الزهري، ولفظه: نهى رسول الله ﷺ عن الجعور ولون الحبيق^(٩) أن يؤخذ في الصدقة^(١٠).

وقد روى النسائي هذا الحديث من طريق عبد الجليل بن حميد اليحصبي، عن الزهري، عن أبي أمامة. ولم يقل: عن أبيه، فذكر نحوه^(١١). وكذا رواه ابن وهب، عن عبد الجليل. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن المغيرة، حدثنا جرير، عن عطاء بن السائب، عن عبد الله بن معقل^(١٢) في هذه الآية: ﴿وَلَا تَيْمَمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تَنْفِقُونَ﴾ قال: كسب المسلم لا يكون خبيثاً، ولكن لا يصدق بالحشف، والدرهم الزيف، وما لا خير فيه.

(١) تفسير الطبري (٥/٥٥٩، ٥٦٠) وسنن ابن ماجة برقم (١٨٢٢) والمستدرک (٢/٢٨٥) وقال البوصيري في الزوائد (٢/٥٨): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وله شاهد من حديث عوف بن مالك رواه أصحاب السنن الأربعة».

(٢) في ج: أ، و: «وكان أهل الصفة».

(٣) سنن الترمذي برقم (٢٩٨٧).

(٤) في ج: «وقال». (٥) في ج: أ: «ولون الحشف».

(٦) في ج: «شر أثمارهم».

(٧) ورواه الحاكم في المستدرک (١/٤٠٢) والطبرانی في المعجم الكبير (٦/٧٦) من طريق أبي الوليد الطيالسي به، وقال الحاكم: «حديث صحيح على شرط البخاري».

(٨) زيادة من ج: أ. (٩) في ج: «ولون الحشف».

(١٠) سنن أبي داود برقم (١٦٠٧).

(١١) سنن النسائي (٥/٤٣).

(١٢) في ج: «بن مغفل».

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا حماد بن سلمة، عن حماد - هو ابن أبي سليمان - عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة قالت: أتى رسول الله ﷺ بضم فلم يأكله ولم يمه عنه. قلت: يا رسول الله، نطعمه^(١) المساكين؟ قال: «لا تطعموهم مما لا تأكلون»^(٢). ثم رواه عن عفان^(٣)، عن حماد بن سلمة، به. فقلت: يا رسول الله، ألا أطعمه المساكين؟ قال: «لا تطعموهم ما لا تأكلون».

وقال الثوري: عن السدي، عن أبي مالك، عن البراء ﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ يقول: لو كان لرجل على رجل، فأعطاه ذلك لم يأخذه؛ إلا أن يرى أنه قد نقصه من حقه رواه ابن جرير.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ يقول: لو كان لكم على أحد حق، فجاءكم بحق دون حقكم لم تأخذوه بحساب الجيد حتى تنقصوه. قال: فذلك قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾. فكيف ترضون لى ما لا ترضون لأنفسكم، وحقى عليكم من أطيب أموالكم وأنفسه!!

رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، وزاد: وهو قوله: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾. [آل عمران: ٩٢] ثم روى من طريق العوفي وغيره، عن ابن عباس نحو ذلك، وكذا ذكر غير واحد. قوله^(٤): ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أى: وإن أمركم بالصدقات وبالطيب منها فهو غنى عنها، وما ذاك إلا ليساوى الغنى الفقير، كقوله: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] وهو غنى عن جميع خلقه، وجميع خلقه فقراء إليه، وهو واسع الفضل لا ينفذ ما لديه، فمن تصدق بصدقة من كسب طيب، فليعلم أن الله غنى واسع العطاء، كريم جواد، سيجزيه بها ويضاعفها له أضعافاً كثيرة من يقرض غير عديم ولا ظلوم، وهو الحميد، أى: المحمود فى جميع أفعاله وأقواله^(٥) وشرعه وقدره، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وقوله: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا هناد بن السرى، حدثنا أبو الأحوص، عن عطاء ابن السائب، عن مرة الهمداني، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشيطان لكمة^(٦) بابين آدم، وللملك لكمة، فأما لكمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لكمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق. فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان». ثم قرأ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً﴾ الآية. وهكذا رواه الترمذى والنسائى فى كتابي^(٧) التفسير من سننهما جميعاً، عن هناد بن السرى^(٨).

(١) فى ج: «ألا نطعمه».

(٢) المسند (١٠٥/٦).

(٤) فى ج، أ، و: «وقوله».

(٣) فى ج: «عن عثمان».

(٧) فى ج: «فى كتاب».

(٦) فى ج: «لكمة».

(٥) فى ج: «فى جميع أقواله وأفعاله».

(٨) سنن الترمذى برقم (٢٩٨٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٠٥١).

وأخرجه ابن حبان في صحيحه، عن أبي يعلى الموصلي، عن هناد، به^(١). وقال الترمذي: حسن غريب، وهو حديث أبي الأحوص - يعني سلام بن سليم - لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديثه. كذا قال. وقد رواه أبو بكر بن مردويه في تفسيره، عن محمد بن أحمد، عن محمد بن عبد الله بن رسته، عن هارون الفروى، عن أبي ضمرة^(٢)، عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن مسعود، مرفوعاً نحوه. ولكن رواه مسعر، عن عطاء بن السائب، عن أبي الأحوص عوف بن مالك بن نضلة، عن ابن مسعود. فجعله من قوله، والله أعلم.

ومعنى قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ أى: يخوفكم الفقر، لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه في مرضاة الله، ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ أى: مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق، يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة الخلاق، قال [الله]^(٣) تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ أى: في مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء ﴿وَفَضْلاً﴾ أى: في مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله. وروى جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس مرفوعاً: الحكمة القرآن^(٤). يعنى: تفسيره، قال ابن عباس: فإنه [قد]^(٥) قرأه البر والفاجر. رواه ابن مردويه.

وقال ابن أبى نجیح، عن مجاهد: يعنى بالحكمة: الإصابة فى القول. وقال ليث بن أبى سليم، عن مجاهد: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾: ليست بالنبوة، ولكنه العلم والفقه والقرآن.

وقال أبو العالية: الحكمة خشية الله، فإن خشية الله رأس كل حكمة. وقد روى ابن مردويه، من طريق بقة، عن عثمان بن زفر الجهنى، عن أبى عمار الأسدى، عن ابن مسعود مرفوعاً: «رأس الحكمة مخافة الله»^(٦).

وقال أبو العالية فى رواية عنه: الحكمة: الكتاب والفهم. وقال إبراهيم النخعى: الحكمة: الفهم. وقال أبو مالك: الحكمة: السنة. وقال ابن وهب، عن مالك، قال زيد بن أسلم: الحكمة: العقل. قال مالك: وإنه ليقع فى قلبى أن الحكمة هو الفقه فى دين الله، وأمرٌ يدخله الله فى القلوب من رحمته وفضله، ومما يبين ذلك، أنك تجد الرجل عاقلاً فى أمر الدنيا ذا نظر فيها، وتجد آخر ضعيفاً فى أمر دنياه، عالماً بأمر دينه، بصيراً به، يؤتیه الله إياه ويحرمه هذا، فالحكمة: الفقه فى دين الله. وقال السدى: الحكمة: النبوة.

(١) صحيح ابن حبان برقم (٤٠) «موارد».

(٢) فى ج، أ: «عن أبى حمزة».

(٣) زيادة من ج، أ.

(٤) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٦٦/٢) لابن مردويه فى تفسيره وإسناده ضعيف جداً.

(٥) زيادة من أ، و.

(٦) ورواه البيهقى وضعفه فى شعب الإيمان برقم (٧٤٤) من طريق محمد بن وصفى عن بقة به، ورواه البيهقى أيضاً من وجه آخر موقوفاً على ابن مسعود.

والصحيح أن الحكمة - كما قاله الجمهور - لا تختص بالنبوة، بل هي أعم منها، وأعلها النبوة، والرسالة أخص، ولكن لأتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبّع، كما جاء في بعض الأحاديث: «من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوة بين كتفيه»^(١)، غير أنه لا يوحى إليه»^(٢). رواه (٣) وكيع بن الجراح في تفسيره، عن إسماعيل بن رافع^(٤)، عن رجل لم يسمه، عن عبد الله بن عمر^(٥)، قوله. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع ويزيد^(٦) قالوا: حدثنا إسماعيل - يعني بن أبي خالد - عن قيس - وهو ابن أبي حازم - عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها»^(٧). وهكذا رواه البخاري، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه - من طرق متعددة - عن إسماعيل بن أبي خالد، به^(٨).

وقوله: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي: وما ينتفع بالموعظة والتذكار إلا من له لب وعقل يعي به الخطاب ومعنى الكلام.

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٢٧٠) **إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** (٢٧١).

يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعالمين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده. وتوعد من لا يعمل بطاعته، بل خالف أمره وكذب خبره وعبد معه غيره، فقال: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أي: يوم القيامة ينقذونهم^(٩) من عذاب الله ونقمته.

وقوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ أي: إن أظهرتموها فنعم شيء هي. وقوله: ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾: فيه دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها؛ لأنه أبعد عن الرياء؛ إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة، من اقتداء الناس به، فيكون أفضل من هذه الحيثية، وقال رسول الله ﷺ: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة»^(١٠).

والأصل أن الإسرار أفضل، لهذه الآية، ولما ثبت في الصحيحين، عن أبي هريرة قال: قال

(١) في ج، أ، و: «بين جنبيه».

(٢) وفي إسناده إسماعيل بن رافع المدني ضعفه أحمد وابن معين والنسائي وقال ابن عدي: أحاديثه كلها مما فيه نظر.

(٣) في ج: «ورواه».

(٤) في أ، و: «عن إسماعيل بن رافع أبي رافع».

(٥) في أ، و: «بن عمرو».

(٦) في أ: «وزيد».

(٧) المسند (٤٣٢/١).

(٨) صحيح البخاري برقم (٧٣) وصحيح مسلم برقم (٨١٦) وسنن النسائي الكبرى برقم (٥٨٤٠) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٠٨).

(٩) في أ، و: «ينقذهم».

(١٠) رواه أحمد في المسند (١٥١/٤) وأبو داود في السنن برقم (١٣٣٣) والترمذي في السنن برقم (٢٩١٩) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».

رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع»^(١) إليه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا العوام بن حوشب، عن سليمان بن أبي سليمان، عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت، فتعجبت^(٣) الملائكة من خلق الجبال، فقالت: يا رب، فهل من^(٤) خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: نعم، الحديد. قالت: يا رب، فهل من خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال: نعم، النار. قالت: يا رب، فهل من^(٥) خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم، الماء. قالت: يا رب، فهل من^(٦) خلقك شيء أشد من الماء؟ قال: نعم، الريح. قالت: يا رب، فهل من^(٧) خلقك شيء أشد من الريح؟ قال: نعم، ابن آدم يتصدق يمينه فيخفيها من^(٨) شماله»^(٩). وقد ذكرنا في فضل آية الكرسي، عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، أي الصدقة أفضل؟ قال: «سر إلى فقير، أو جهد من مقل». رواه أحمد^(١٠).

ورواه ابن أبي حاتم من طريق علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة، عن أبي ذر فذكره. وزاد: ثم نزع بهذه الآية: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهُا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ الآية^(١١).

وفي الحديث المروى: «صدقة السر تطفئ غضب الرب، عز وجل»^(١٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسين بن زياد المحاربي مؤدب محارب، أخبرنا موسى ابن عمير، عن عامر الشعبي في قوله: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهُا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ قال: أنزلت^(١٣) في أبي بكر وعمر، رضى الله عنهما، سأما عمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبي ﷺ: فقال له النبي ﷺ: «ما خلفت وراءك لأهلك يا عمر؟». قال: خلفت لهم نصف مالي، وأما أبو بكر فجاء بماله كله يكاد^(١٤) أن يخفيه من نفسه، حتى دفعه إلى النبي ﷺ. فقال له النبي ﷺ: «ما خلفت وراءك لأهلك يا أبا بكر؟». فقال: عدة الله وعدة رسوله. فبكى عمر، رضى الله عنه، وقال: بأبي أنت يا أبا بكر، والله ما استبقنا إلى باب خير قط إلا كنت سابقاً^(١٥).

(١) في و: «حتى يعود».

(٢) صحيح البخارى برقم (١٤٢٣، ٦٦٠) وصحيح مسلم برقم (١٠٣١).

(٣) في أ: «فتعجب». (٤-٧) في ج: «فى». (٨) في ج: «عن».

(٩) المسند (١٢٤/٣).

(١٠) المسند (١٧٨/٥).

(١١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٦٩/٨) من طريق خالد بن أبى يزيد، عن على بن يزيد به.

(١٢) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٣٨٦) من حديث أنس، رضى الله عنه، وروى عن جماعة من الصحابة وهو حديث متواتر.

(١٣) فى أ: «نزلت». (١٤) فى ج: «وكاد».

(١٥) ورواه الأصبهاني فى الترغيب والترهيب برقم (١٦٤٣) من طريق محمد بن الصباح بن موسى بن عيسى عن الشعبي به.

وهذا الحديث مروي من وجه آخر، عن عمر، رضى الله عنه^(١). وإنما أوردناه هنا لقول الشعبي: إن الآية نزلت في ذلك، ثم إن الآية عامة في أن إخفاء الصدقة أفضل، سواء كانت مفروضة أو مندوبة. لكن روى ابن جرير من طريق على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية، قال: جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها، فقال: بسبعين ضعفاً. وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها، فقال: بخمسة وعشرين ضعفاً.

وقوله: ﴿وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أى: بدل الصدقات، ولا سيما إذا كانت سراً يحصل لكم الخير في رفع الدرجات ويكفر عنكم السيئات، وقد قرئ: «ويكفر عنكم» بالضم، وقرئ: «ونكفر» بالجزم، عطفاً على^(٢) جواب الشرط، وهو قوله: ﴿فَنِعْمَ هِيَ﴾ كقوله: «فاصدق وأكون» ﴿وَأَكُنْ﴾. وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أى: لا يخفى عليه من ذلك شيء، وسيجزىكم عليه [سبحانه وبحمده]^(٣).

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تظْلُمُونَ﴾ (٢٧٢) **لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ** (٢٧٣) **الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** (٢٧٤).

قال أبو عبد الرحمن النسائي: أخبرنا محمد بن عبد الله^(٤) بن عبد الرحيم، أخبرنا^(٥) الفريابي، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن جعفر بن إياس، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين، فسألوا، فرخص لهم، فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تظْلُمُونَ﴾^(٦).

وكذا رواه أبو حذيفة، وابن المبارك، وأبو أحمد الزبيري، وأبو داود الحفري، عن سفيان - وهو الثوري - به.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا^(٧) أحمد بن القاسم بن عطية، حدثني أحمد بن عبد الرحمن - يعني الدشتكي - حدثني أبي، عن أبيه، حدثنا الأشعث بن إسحاق، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد

(١) رواه أبو داود في السنن برقم (١٦٧٨) والترمذي في السنن برقم (٣٦٧٥) من طريق هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) في ج، أ، و: «على محل».

(٣) زيادة من و.

(٤) في ج، أ، و: «بن عبد السلام».

(٥) في ج: «حدثنا».

(٦) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٠٥٢).

(٧) في ج: «حدثنا».

ابن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: أنه كان يأمر بالآ يتصدق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ إلى آخرها، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألَكَ من كل دين^(١). وسيأتى عند قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ الآية [الممتحنة: ٨] حديث أسماء بنت الصديق فى ذلك [إن شاء الله تعالى]^(٢).

وقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسُكُمْ﴾ كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦، الجاثية: ١٥] ونظائرها فى القرآن كثيرة^(٣).

وقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾: قال الحسن البصرى: نفقة المؤمن لنفسه، ولا ينفق المؤمن - إذا أنفق - إلا ابتغاء وجه الله.

وقال عطاء الخراسانى: يعنى إذا أعطيت لوجه الله، فلا عليك ما كان عمله وهذا معنى حسن، وحاصله أن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله فقد وقع أجره على الله، ولا عليه^(٤) فى نفس الأمر لمن أصاب: البرّ أو فاجر أو مستحق أو غيره، هو مثاب على قصده، ومستند هذا تمام الآية: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾، والحديث المخرج فى الصحيحين، من طريق أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية، فأصبح الناس يتحدثون: تُصَدِّقُ عَلَى زَانِيَةٍ! فقال: اللهم لك الحمد على زانية، لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها فى يد غنى، فأصبحوا يتحدثون: تُصَدِّقُ عَلَى زَانِيَةٍ! فقال: اللهم لك الحمد على زانية، لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها فى يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تُصَدِّقُ اللَّيْلَةَ عَلَى سَارِقٍ! فقال: اللهم لك الحمد على زانية، وعلى غنى، وعلى سارق، فأتى فقيل له: أما صدقتك فقد قبلت؛ أما الزانية فلعلها أن تستعف بها عن زناها، ولعل الغنى يعتبر فينفق مما أعطاه الله، ولعل السارق أن يستعف بها عن سرقة»^(٥).

وقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعنى: المهاجرين الذين قد انقطعوا إلى الله وإلى رسوله، وسكنوا المدينة وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم ما يغنيهم^(٦) و ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ يعنى: سفرًا للتسبب فى طلب المعاش. والضرب فى الأرض: هو السفر؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [المزمل: ٢٠].

وقوله: ﴿يَخْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَقُّفِ﴾ أى: الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء، من تعففهم فى لباسهم وحالهم ومقالهم. وفى هذا المعنى الحديث المتفق على صحته، عن أبى هريرة قال:

(١) وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٨٦/٢) لابن مردويه والضياء المقدسى.

(٢) زيادة من ج، أ.

(٣) فى و: «كثير». (٤) فى و: «ولا يمكنه».

(٥) صحيح البخارى برقم (١٤٢١) وصحيح مسلم برقم (١٠٢٢).

(٦) فى أ: «بأنفسهم».

قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين بهذا الطواف الذى ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان، والأكلة والأكلتان، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه، ولا يَفْطَنُ له فَيُتَصَدَّقَ عليه، ولا يسأل الناس شيئاً»^(١). وقد رواه أحمد، من حديث ابن مسعود أيضاً^(٢).

وقوله: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ أى: بما يظهر لذوى الألباب من صفاتهم، كما قال [الله]^(٣) تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]. وفى الحديث الذى فى السنن: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾^(٤) [الحجر: ٧٥].

وقوله: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أى: لا يُلْحُون فى المسألة ويكلفون الناس مالا يحتاجون إليه، فإن من سأل وله ما يغنيه عن السؤال، فقد ألحف فى المسألة؛ قال البخارى:

حدثنا ابن أبى مريم، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شريك بن أبى نمر: أن عطاء بن يسار وعبد الرحمن بن أبى عمرة الأنصارى قالا: سمعنا أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذى يتعفف؛ اقرؤوا إن شئتم - يعنى قوله -: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾»^(٥).

وقد رواه مسلم، من حديث إسماعيل بن جعفر المدينى، عن شريك بن عبد الله بن أبى نمر، عن عطاء بن يسار - وحده - عن أبى هريرة، به^(٦).

وقال أبو عبد الرحمن النسائى^(٧): أخبرنا على بن حجر، حدثنا إسماعيل، أخبرنا شريك - وهو ابن أبى نمر - عن عطاء بن يسار، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان، إنما المسكين المتعفف؛ اقرؤوا إن شئتم: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾»^(٨).

وروى البخارى من حديث شعبة، عن محمد بن زياد، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، نحوه^(٩). وقال ابن أبى حاتم: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى ابن أبى ذئب، عن أبى الوليد، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بالطواف عليكم، فتطعمونه»^(١٠) لقمة لقمة، إنما المسكين المتعفف الذى لا يسأل الناس إلحافاً.

وقال ابن جرير: حدثنى معتمر، عن الحسن بن مatak^(١١)، عن صالح بن سويد، عن أبى هريرة

(١) صحيح البخارى برقم (٤٥٣٩) وصحيح مسلم برقم (١٠٣٩).

(٢) المسند (٣٨٤/١).

(٣) زيادة من جـ.

(٤) رواه الترمذى فى السنن برقم (٣١٢٧) من طريق عمرو بن قيس، عن عطية، عن أبى سعيد، رضى الله عنه، به مرفوعاً، وقال الترمذى: «هذا حديث غريب إنما نعرفه من هذا الوجه، وقد روى عن بعض أهل العلم».

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٥٣٩).

(٦) صحيح مسلم برقم (١٠٣٩).

(٧) فى و: «ورواه النسائى ولفظه».

(٨) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٠٥٣).

(٩) صحيح البخارى برقم (١٤٧٦).

(١٠) فى جـ، أ، و: «فتطعمونه».

(١١) فى جـ، أ: «الحسن بن مابل»، وفى و: «أيمن بن نابل».

قال: ليس المسكين الطواف الذي ترده الأكلة والاكتنان، ولكن المسكين المتعفف في بيته، لا يسأل الناس شيئاً تصيبه الحاجة؛ اقرؤوا إن شئتم: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو بكر الحنفى، حدثنا عبد الحميد بن جعفر، عن أبيه، عن رجل من مزينة، أنه قالت له أمه: ألا تنطلق فتسأل رسول الله ﷺ كما يسأله الناس؟ فانطلقت أسأله، فوجدته قائماً يخطب، وهو يقول: «ومن استعفف أعفه الله، ومن استغنى أغناه الله، ومن يسأل الناس وله عدل خمس أواق فقد سأل الناس إلحافاً». فقلت بينى وبين نفسى: لناقة لى خير من خمس أواق، ولغلامه ناقة أخرى فهي خير من خمس أواق فرجعت ولم أسأل^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا عبد الرحمن بن أبى الرجال، عن عمارة بن غزية، عن عبد الرحمن بن أبى سعيد، عن أبيه قال: سرحتنى أمى إلى رسول الله ﷺ، أسأله، فأتيته فقعدت، قال: فاستقبلنى فقال: «من استغنى أغناه الله، ومن استعفف أعفه الله، ومن استكف كفاه الله، ومن سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف». قال: فقلت: ناقتى الياقوتة خير من أوقية. فرجعت ولم أسأله.

وهكذا رواه أبو داود والنسائى، كلاهما عن قتيبة. زاد أبو داود: وهشام بن عمار كلاهما عن عبد الرحمن بن أبى الرجال بإسناده، نحوه^(٢).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو الجماهير، حدثنا عبد الرحمن بن أبى الرجال، عن عمارة بن غزية، عن عبد الرحمن بن أبى سعيد قال: قال أبو سعيد الخدرى: قال رسول الله ﷺ: «من سأل وله قيمة أوقية فهو ملحف» والوقية: أربعون درهماً^(٣).

وقال أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن رجل من بنى أسد قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل وله أوقية - أو عدلها - فقد سأل إلحافاً»^(٤).

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن حكيم بن جبير، عن محمد بن عبد الرحمن بن يزيد، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل وله ما يغنيه، جاءت مسأله يوم القيامة خدوشاً - أو كدوحاً - فى وجهه». قالوا: يارسول الله، وما غناه؟ قال: «خمسون درهماً، أو حسابها من الذهب».

وقد رواه أهل السنن الأربعة، من حديث حكيم بن جبير الأسدى الكوفى. ^(٥) وقد تركه شعبة ابن الحجاج، وضعفه غير واحد من الأئمة من جراء هذا الحديث.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى، حدثنا أبو حصين^(٦) عبد الله

(١) المسند (١٣٨/٤).

(٢) المسند (٩/٣) وسنن أبى داود برقم (١٦٢٨) وسنن النسائى (٩٨/٥).

(٣) ورواه ابن خزيمة فى صحيحه برقم (٢٤٤٧) وابن حبان فى صحيحه برقم (٨٤٦) من طريق عبد الله بن يوسف، عن عبد الرحمن بن أبى الرجال به.

(٤) المسند (٣٦/٤).

(٥) المسند (٣٨٨/١) وسنن أبى داود برقم (١٦٢٦) وسنن الترمذى برقم (٦٥٠) وسنن النسائى (٩٧/٥) وسنن ابن ماجه برقم (١٨٤٠).

(٦) فى هـ: «أبو حصن» وهو خطأ.

ابن أحمد بن يونس، حدثني أبي، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين قال: بلغ الحارث - رجلاً كان بالشام من قريش - أن أباذر كان به عوز، فبعث إليه ثلاثمائة دينار، فقال: ما وجد عبد الله رجلاً هو أهون عليه مني، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سأل وله أربعون فقد ألحف» ولآل أبي ذر أربعون درهماً وأربعون شاة وماهناً. قال أبو بكر بن عياش: يعنى خادمين^(١).

وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، أخبرنا إبراهيم بن محمد، أنبأنا عبد الجبار، أخبرنا سفيان، عن داود بن سابور، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «من سأل وله أربعون درهماً فهو ملحف، وهو مثل سف الملة» يعنى: الرمل.

ورواه النسائي، عن أحمد بن سليمان، عن يحيى بن آدم، عن سفيان - وهو ابن عيينة - بإسناده، نحوه^(٢).

قوله^(٣): ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أى: لا يخفى عليه شيء منه، وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه يوم القيامة، أحوج مايكونون إليه.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هذا مدح منه تعالى للمنفقين^(٤) فى سبيله، وابتغاء مرضاته فى جميع الأوقات من ليل أو نهار، والأحوال من سر وجهار، حتى إن النفقة على الأهل تدخل فى ذلك أيضاً، كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص - حين عاده مريضاً عام الفتح، وفى رواية عام حجة الوداع -: «وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة، حتى ما تجعل فى فى امرأتك»^(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر وبهر قالوا: حدثنا شعبة، عن عدى بن ثابت قال: سمعت عبد الله بن يزيد^(٦) الأنصارى، يحدث عن أبي مسعود، رضى الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: «إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحسبها كانت له صدقة» أخرجاه من حديث شعبة، به^(٧).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا^(٨) سليمان بن عبد الرحمن، حدثنا محمد بن شعيب، قال: سمعت سعيد بن يسار، عن يزيد بن عبد الله بن عريب الملىكى، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٩) فى أصحاب الخيل»^(١٠).

(١) المعجم الكبير (٢/ ١٥٠) وقال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٣١): «رجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن يونس وهو ثقة».

(٢) سنن النسائي الكبرى برقم (٢٣٧٥).

(٣) فى ج: «وقوله».

(٤) فى ج، أ: «فى حق المنفقين».

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٤٠٩، ٦٣٧٣) وصحيح مسلم برقم (١٦٢٨).

(٦) فى ج: «ابن زيد».

(٧) المسند (٤/ ١٢٢) وصحيح البخارى برقم (٥٥) وصحيح مسلم برقم (١٠٠٢).

(٨) فى أ: «عن».

(٩) زيادة من ج، أ.

(١٠) ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (١٢٨٣) من طريق سليمان بن عبد الرحمن به، وفى إسناده سعيد بن سنان متروك.

وقال حنش^(١) الصنعاني، عن ابن عباس في هذه الآية، قال: هم الذي يعلفون الخيل في سبيل الله. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وكذا روى عن أبي أمامة، وسعيد بن المسيب، ومكحول.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، أخبرنا يحيى بن يمان، عن عبد الوهاب بن مجاهد ابن جبر، عن أبيه قال: كان لعلی أربعة دراهم، فأنفق درهماً ليلاً، ودرهماً نهاراً، ودرهماً سراً، ودرهماً علانية، فتزلت: ﴿الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

وكذا رواه ابن جرير من طريق عبد الوهاب بن مجاهد، وهو ضعيف. ولكن رواه ابن مردويه من وجه آخر، عن ابن عباس أنها أنزلت في علي بن أبي طالب.

وقوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: يوم القيامة على ما فعلوا من الإنفاق في الطاعات ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ تقدم تفسيره.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧٥).

لما ذكر تعالى الأبرار المؤدين النفقات، المخرجين الزكوات، المتفضلين بالبر والصلوات لذوى الحاجات والقربات في جميع الأحوال والآفات - شرع في ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات، فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها إلى بعثهم ونشورهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ أي: لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخطيط الشيطان له؛ وذلك أنه يقوم قياماً منكراً. وقال ابن عباس: أكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يُخَنَّق. رواه ابن أبي حاتم، قال: وروى عن عوف بن مالك، وسعيد بن جبیر، والسدي، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان، نحو ذلك.

وحكى عن عبد الله بن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، والحسن، وقتادة، ومقاتل بن حيان أنهم قالوا في قوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ يعني: لا يقومون يوم القيامة. وكذا قال ابن أبي نجیح، عن مجاهد، والضحاك، وابن زيد.

وروى ابن أبي حاتم، من حديث أبي بكر بن أبي مریم، عن ضمرة بن حبيب، عن ابن عبد الله ابن مسعود، عن أبيه أنه كان يقرأ: «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس يوم القيامة».

وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا مسلم بن إبراهيم. حدثنا ربيعة بن كلثوم، حدثنا أبي، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: يقال يوم القيامة لأكل الربا: خذ سلاحك للحرب. وقرأ: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ قال: وذلك حين يقوم من قبره.

(١) في ج: «وقال حسن».

وفى حديث أبى سعيد فى الإسراء، كما هو مذكور فى سورة سبحان: أنه، عليه السلام^(١)، مر ليلتذ بقوم لهم أجواف مثل البيوت، فسأل عنهم، فقيل: هؤلاء أكلة الربا. رواه البيهقى مطولاً.

وقال ابن ماجه: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا الحسن بن موسى، عن حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن أبى الصلت، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أتيت ليلة أسرى بى على قوم بطونهم كالبيوت، فيها الحيات ترى من خارج بطونهم. فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا».

ورواه الإمام أحمد، عن حسن وعفان، كلاهما عن حماد بن سلمة، به^(٢). وفى إسناده ضعف. وقد روى البخارى، عن سمره^(٣) بن جندب فى حديث المنام الطويل: «فأتينا على نهر - حسب أنه كان يقول: أحمر مثل الدم - وإذا فى النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح، [ما يسبح]^(٤)، ثم يأتى ذلك الذى قد جمع الحجارة عنده فيفغر له فاه فيلقمه^(٥) حجراً» وذكر فى تفسيره: أنه أكل الربا^(٦).

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ أى: إنما جُوزُوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله فى شرعه، وليس هذا قياساً منهم للربا على البيع؛ لأن المشركين لا يعترفون^(٧) بمشروعية أصل البيع الذى شرعه الله فى القرآن، ولو كان هذا من باب القياس لقالوا: إنما الربا مثل البيع، وإنما قالوا: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ أى: هو نظيره، فلم حرم هذا وأبيح هذا؟ وهذا اعتراض منهم على الشرع، أى: هذا مثل هذا، وقد أحل هذا وحرم هذا!

وقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ يحتمل أن يكون من تمام الكلام^(٨)، رداً عليهم، أى: قالوا: ما قالوه من الاعتراض، مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكماً، وهو الحكيم العليم الذى لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها، وما ينفع عباده فيبيحه لهم، وما يضرهم فينهاهم عنه، وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها الطفل؛ ولهذا قال: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أى: من بلغه نهى الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه، فله ما سلف من المعاملة، لقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ [المائدة: ٩٥] وكما قال النبى ﷺ يوم فتح مكة: «وكل ربا فى الجاهلية موضوع تحت قدمى هاتين، وأول ربا أضع ربا العباس»^(٩) ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة فى حال الجاهلية، بل عفا عما سلف، كما قال

(١) فى ج: «أنه عليه الصلاة والسلام».

(٢) سنن ابن ماجه برقم (٢٢٧٣) والمسنند (٣٥٣/٢).

(٣) فى ج: أ: «عن سلمة».

(٤) زيادة من صحيح البخارى (٧٠٤٧).

(٥) فى ج: «فألقمه».

(٦) صحيح البخارى برقم (٧٠٤٧).

(٧) فى ج: «لايعرفون».

(٨) فى ج: «يحتمل أن يكون من كلام الله».

(٩) قال الشيخ أحمد شاكر، رحمه الله، فى عمدة التفسير (١٨٩/٢): «وهم الحفاظ ابن كثير، رحمه الله، فإن هذا لم يكن له يوم فتح مكة، بل كان فى حجة الوداع فى خطبته ﷺ بعرفة».

قلت: جاء هذا مصرحاً فى رواية عمرو بن الأحوص قال: سمعت النبى ﷺ فى حجة الوداع يقول: «إلا إن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع...» فذكر الحديث، رواه أبو داود فى السنن برقم (٣٣٣٤) والترمذى فى السنن برقم (٣٠٨٧).

تعالى: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾.

قال سعيد بن جبير والسدي: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ فإنه ^(١) ما كان أكل من الربا قبل التحريم.

وقال ابن أبي حاتم: قرئ على محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أخبرنا ابن وهب، أخبرني جرير بن حازم، عن أبي إسحاق الهمداني، عن أم يونس - يعني امرأته العالية بنت أيفع - أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت لها أم محبة ^(٢) أم ولد لزيد بن أرقم -: يا أم المؤمنين، أتعرفين زيد بن أرقم؟ قالت: نعم. قالت: فإني بعته عبداً إلى العطاء بثمانمائة، فاحتاج إلى ثمنه، فاشتريته قبل محل الأجل بستمائة. فقالت: بش ما شريت! وبش ما اشتريت! أبلغى زيدا أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إن لم يتب قالت: فقلت: أرأيت إن تركت المائتين وأخذت الستمائة؟ قالت: نعم، ﴿فَمَنْ﴾ ^(٣) جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف.

وهذا الأثر مشهور، وهو دليل لمن حرم مسألة العينة، مع ما جاء فيها من الأحاديث المقررة في كتاب الأحكام، والله الحمد والمنة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ أي: إلى الربا ففعله بعد بلوغ نهى الله له عنه، فقد استوجب العقوبة، وقامت عليه الحجة؛ ولهذا قال: ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وقد قال أبو داود: حدثنا يحيى بن معين، أخبرنا عبد الله بن رجاء المكي، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن أبي الزبير، عن جابر قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ قال رسول الله ﷺ: «من لم يذر المخابرة، فليؤذن بحرب من الله ورسوله» ^(٤).

ورواه الحاكم في مستدركه، من حديث ابن خثيم، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجه ^(٥) ^(٦).

وإنما حرمت المخابرة وهي: المزارعة ببعض ما يخرج من الأرض، والمزابنة وهي: اشتراء الرطب في رؤوس النخل بالتمر على وجه الأرض، والمحاكلة وهي: اشتراء الحب في سنبله في الحقل بالحب على وجه الأرض - إنما حرمت هذه الأشياء وما شاكلها، حسماً لمادة الربا؛ لأنه لا يعلم التساوي بين الشئين قبل الجفاف. ولهذا قال الفقهاء: الجهل بالمماثلة كحقيقة المفاضلة. ومن هذا حرموا أشياء بما فهموا من تضيق المسالك المفضية إلى الربا، والوسائل الموصلة إليه، وتفاوت ^(٧) نظرهم بحسب ما وهب الله لكل منهم من العلم، وقد قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

وباب الربا من أشكال الأبواب على كثير من أهل العلم، وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ عهد ^(٨) إلينا فيهن عهداً تنتهى إليه: الجدة، والكلالة، وأبواب من أبواب الربا ^(٩) يعنى بذلك بعض المسائل التي فيها شائبة الربا، والشرعية شاهدة بأن كل

(١) فى ج، و: «فله». (٢) فى أ: و: «أم محبة». (٣) فى هـ: «من» والمثبت من ج، أ هو الصواب.

(٤) سنن أبي داود برقم (٣٤٠٦).

(٥) فى ج، أ، و: «ولم يخرجاه».

(٦) المستدرک (٢٨٦/٢) وقع فيه: «ولم يخرجاه».

(٧) فى أ: «وتقارب». (٨) فى ج: «أن رسول الله ﷺ كان عهد».

(٩) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٥٨٨) ومسلم فى صحيحه برقم (٣٠٣٢).

حرام فالوسيلة إليه مثله؛ لأن ما أفضى إلى الحرام حرام، كما أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وقد ثبت في الصحيحين، عن النعمان بن بشير، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بين وإن الحرام بين، وبين ذلك أمور مشتهات، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه»^(١)»^(٢).

وفى السنن عن الحسن بن على، رضى الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»^(٣). وفى الحديث الآخر: «الإثم ما حاك في القلب وترددت فيه النفس، وكرهت أن يطلع عليه الناس». وفى رواية: «استفت قلبك، وإن أفتاك الناس وأفتوك»^(٤).

وقال الثورى: عن عاصم، عن الشعبي، عن ابن عباس قال: آخر ما نزل على رسول الله ﷺ آية الربا. رواه [البخارى]^(٥) عن قبيصة، عنه^(٦).

وقال أحمد، عن^(٧) يحيى، عن سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب أن عمر قال: من آخر ما نزل آية الربا^(٨)، وإن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يفسرها لنا، فدعوا الربا والريبة. رواه^(٩) ابن ماجه^(١٠)، وابن مردويه.

وروى ابن مردويه من طريق هياج بن بسطام، عن داود بن أبى هند، عن أبى نصره^(١١)، عن أبى سعيد الخدرى قال: خطبنا عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فقال: إني لعلى أنهاكم عن أشياء تصلح لكم وأمركم بأشياء لا تصلح لكم، وإن من آخر القرآن نزولا آية الربا، وإنه قد مات رسول الله ﷺ ولم يبينه لنا، فدعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم.

وقد قال ابن ماجه: حدثنا عمرو بن على الصيرفى، حدثنا ابن أبى عدى، عن شعبة، عن زبيد، عن إبراهيم، عن مسروق، عن عبد الله - هو ابن مسعود - عن النبى ﷺ قال: «الربا ثلاثة وسبعون بابا»^(١٢).

ورواه الحاكم فى مستدركه، من حديث عمرو بن على الفلاس، بإسناد مثله، وزاد: «أيسرها أن ينكح الرجل أمه، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم». وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه^(١٣).

(١) فى و: «يوشك أن يخالط الحمى».

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٢) وصحيح مسلم برقم (١٥٩٩).

(٣) سنن الترمذى برقم (٢٥١٨) وسنن النسائى (٣٢٧/٨) وقد أظن فى الكلام عليه الحافظ ابن رجب فى جامع العلوم والحكم (٢٧٨/١) ط. الرسالة.

(٤) رواه أحمد فى المسند (٢٢٨/٤) من طريق الزبير بن عبد السلام، عن أيوب، عن وابصة - رضى الله عنه.

(٥) زيادة من جد، أ، و.

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٥٤٤).

(٧) فى جد: «حدثنا».

(٨) فى أ: «آخر ما أنزل الله الربا».

(٩) فى جد: «ورواه».

(١٠) المسند (٣٦/١) وسنن ابن ماجه برقم (٢٢٧٦) وقال البوصيرى فى الزوائد (١٩٨/٢): «هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات».

(١١) فى جد، أ: «عن أبى بصرة».

(١٢) سنن ابن ماجه برقم (٢٢٧٥) وقال البوصيرى فى الزوائد (١٩٨/٢): «هذا إسناد صحيح».

(١٣) المستدرک (٣٧/٢).

وقال ابن ماجه: حدثنا عبد الله بن سعيد، حدثنا عبد الله بن إدريس، عن أبي معشر، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الربا سبعون حوباً، أيسرها أن ينكح الرجل أمه»^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْمٌ، عن عباد بن راشد، عن سعيد بن أبي خيرة^(٢)، حدثنا الحسن - منذ نحو من أربعين أو خمسين سنة - عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «يأتى على الناس زمان يأكلون فيه الربا» قال: قيل له: الناس كلهم؟ قال: «من لم يأكله منهم ناله من غباره» وكذا رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه من غير وجه، عن سعيد بن أبي خيرة^(٣)، عن الحسن، به^(٤).

ومن هذا القبيل، وهو تحريم الوسائل المفضية إلى المحرمات الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مسلم بن صبيح، عن مسروق، عن عائشة قالت: لما نزلت الآيات من آخر البقرة في الربا خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد، فقرأ هن، فحرم التجارة في الخمر.

وقد أخرجه الجماعة سوى الترمذي، من طرق، عن الأعمش به^(٥) وهكذا لفظ رواية البخاري، عند تفسير الآية: فحرم التجارة، وفي لفظ له، عن عائشة قالت: لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة في الربا قرأها رسول الله ﷺ على الناس، ثم حرم التجارة في الخمر. قال بعض من تكلم على هذا الحديث من الأئمة: لما حرم الربا ووسائله حرم الخمر وما يفضى إليه من تجارة ونحو ذلك، كما قال، عليه السلام^(٦)، في الحديث المتفق عليه: «لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فجملوهما فباعوها وأكلوا أثمانها»^(٧).

وقد تقدم في حديث علي وابن مسعود وغيرهما، عند لعن المحلل في تفسير قوله: ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠] قوله ﷺ: «لعن الله أكل الربا وموكله، وشاهديه وكاتبه». قالوا: وما يشهد عليه ويكتب إلا إذا أظهر في صورة عقد شرعى ويكون داخله فاسداً، فلا اعتبار بمعناه لا بصورته؛ لأن الأعمال بالنيات، وفي الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٨).

وقد صنف الإمام، العلامة أبو العباس بن تيمية كتاباً في «إبطال التحليل»^(٩) تضمن النهي عن تعاطي الوسائل المفضية إلى كل باطل، وقد كفى في ذلك وشفى، فرحمه الله ورضى عنه.

﴿يَمَحَقُ اللَّهُ الرَّبَّاءَ وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا

(١) سنن ابن ماجه برقم (٢٢٧٤) وقال البوصيري في الزوائد (١٩٧/٢): «هذا إسناد ضعيف».

(٢) في أ: «عن سعيد بن جبير».

(٣) في أ: «سعيد بن أبي جرة».

(٤) المسند (٤٩٤/٢) وسنن أبي داود برقم (١٣٣١) وسنن النسائي (٢٤٣/٧) وسنن ابن ماجه برقم (٢٢٧٨).

(٥) المسند (٤٦/٦) وصحيح البخاري برقم (٤٥٤٠، ٤٥٤١) وصحيح مسلم برقم (١٥٨٠) وسنن أبي داود برقم (٣٤٩٠) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٠٥٥) وسنن ابن ماجه برقم (٣٣٨٢).

(٦) في و: «ﷺ».

(٧) رواه البخاري في صحيحه برقم (٢٢٢٣) ومسلم في صحيحه برقم (١٥٨٢) من حديث عذر بن الخطاب، رضى الله عنه.

(٨) صحيح مسلم برقم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة، رضى الله عنه.

(٩) وهو كتاب متين طبع حديثاً طبعة محققة.

وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ .

يخبر تعالى أنه يحق الربا، أى: يذهب، إما بأن يذهب بالكلية من يد صاحبه، أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به، بل يعذبه به فى الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيامة. كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧]، وقال: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبٍّ لَيْرَبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّو عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الآية] ^(١) [الروم: ٣٩].

وقال ابن جرير: فى قوله: ﴿يَمَحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ وهذا نظير الخبر الذى روى عن عبد الله بن مسعود، عن النبى ﷺ، أنه قال: «الربا وإن كثر فإلى قل».

وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد فى مسنده، فقال: حدثنا حجاج [قال] ^(٢): حدثنا شريك عن الركين بن الربيع [بن عميلة الفزارى] ^(٣) عن أبيه، عن ابن مسعود، عن النبى ﷺ قال: «إن الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل» ^(٤) وقد رواه ابن ماجة، عن العباس بن جعفر، عن عمرو بن عون، عن يحيى بن أبى زائدة، عن إسرائيل، عن الركين بن الربيع بن عميلة الفزارى، عن أبيه، عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أحد أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قلة» ^(٥).

وهذا من باب المعاملة بنقيض المقصود، كما قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم، حدثنا الهيثم بن رافع الطاطرى، حدثنى أبو يحيى - رجل ^(٦) من أهل مكة - عن فروخ مولى عثمان: أن عمر - وهو يومئذ أمير المؤمنين - خرج إلى المسجد، فرأى طعاماً منشوراً. فقال: ما هذا الطعام؟ فقالوا: طعام جلب إلينا. قال: بارك الله فيه وفيمن جلبه. قيل: يا أمير المؤمنين، إنه قد احتكر. قال: ومن احتكره؟ قالوا: فروخ مولى عثمان، وفلان مولى عمر. فأرسل إليهما فدعاهما فقال: ما حملكما على احتكار طعام المسلمين؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، نشترى بأموالنا ونبيع!! فقال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من احتكر على المسلمين ^(٨) طعامهم ضربه الله بالإفلاس أو بجذام» ^(٩). فقال فروخ عند ذلك: أعاهد الله وأعاهدك ألا أعود فى طعام أبداً. وأما مولى عمر فقال: إنما نشترى بأموالنا ونبيع. قال أبو يحيى: فلقد رأيت مولى عمر مجذوماً.

ورواه ابن ماجة من حديث الهيثم بن رافع، به ^(١٠). ولفظه: «من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والإفلاس».

وقوله: ﴿وَيَرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾: قرئ بضم الياء والتخفيف، من «ربا الشيء يربو» و«أرباه يربيه»

(٣) زيادة من جء،

(٢) زيادة من جء، أ، و.

(١) زيادة من جء، أ، و.

(٤) المسند (١/٣٩٥).

(٥) سنن ابن ماجة برقم (٢٢٨٩) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/١٩٩): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

(٨) فى أ: «على الناس».

(٧) فى جء: «رجل خرج».

(٦) فى أ: «حدثنا ابن».

(٩) فى جء: «والجذام».

(١٠) المسند (١/٢١) وسنن ابن ماجة برقم (٢١٥٥).

أى: كثره ونماه ينميه. وقرئ: «وَيُرَبَّى» بالضم والتشديد، من التربية، كما قال البخارى: حدثنا عبد الله بن منير، سمع أبا النضر، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله ليقبلها بيمينه، ثم يربها لصاحبه كما يربى أحدكم فُلُوهُ، حتى يكون مثل الجبل».

كذا رواه فى كتاب الزكاة. وقال فى كتاب التوحيد: وقال خالد بن مخلد، عن سليمان بن بلال، عن عبد الله بن دينار، فذكر بإسناده، نحوه^(١).

وقد رواه مسلم فى الزكاة عن أحمد بن عثمان بن حكيم، عن خالد بن مخلد، فذكره^(٢). قال البخارى: ورواه مسلم بن أبى مريم، وزيد بن أسلم، وسهيل، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ.

قلت: أما رواية مسلم بن أبى مريم: فقد تفرد البخارى بذكرها، وأما طريق زيد بن أسلم: فرواها مسلم فى صحيحه، عن أبى الطاهر بن السرح، عن ابن وهب، عن هشام بن سعد، عن زيد ابن أسلم، به^(٣). وأما حديث سهيل فرواه مسلم، عن قتيبة، عن يعقوب بن عبد الرحمن، عن سهيل، به^(٤). والله أعلم.

قال البخارى: وقال ورقاء عن ابن دينار، عن سعيد بن يسار^(٥)، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ.

وقد أسند هذا الحديث من هذا الوجه الحافظ أبو بكر البيهقى، عن الحاكم وغيره، عن الأصم، عن العباس المروزي^(٦)، عن أبى النضر هاشم بن القاسم، عن ورقاء - وهو ابن عمر الشكرى - عن عبد الله بن دينار، عن سعيد بن يسار^(٨)، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يصعد إلى الله إلا الطيب، فإن الله يقبلها بيمينه، فيربها لصاحبها، كما يربى أحدكم فُلُوهُ، حتى تكون مثل أحد»^(٩).

وهكذا روى هذا الحديث مسلم، والترمذى، والنسائى جميعاً، عن قتيبة، عن الليث بن سعد، عن سعيد المقبرى. وأخرجه النسائى - من رواية مالك، عن يحيى بن سعيد الأنصارى - ومن طريق يحيى القطان، عن محمد بن عجلان، ثلاثتهم عن سعيد بن يسار أبى الحباب المدنى، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، فذكره^(١٠).

وقد روى عن أبى هريرة من وجه آخر، فقال ابن أبى حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودى،

(١) صحيح البخارى برقم (١٤١٠) وبرقم (٧٤٣٠).

(٢) صحيح مسلم برقم (١٠١٤).

(٣) صحيح مسلم برقم (١٠١٤).

(٤) صحيح مسلم برقم (١٠١٤).

(٥) فى أ: «بن بشار».

(٦) صحيح البخارى برقم (٧٤٣٠، ١٤١٠).

(٨) فى أ: «بن بشار».

(٧) فى أ، و: «الدورى».

(٩) السنن الكبرى للبيهقى (١٧٦/٤).

(١٠) صحيح مسلم برقم (١٠١٤) وسنن الترمذى برقم (٦٦١) وسنن النسائى الكبرى برقم (٧٧٣٥).

الخبیثة، فهو جحود لما علیه من النعمة، ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل.

ثم قال تعالى مادحاً للمؤمنين بربهم، المطيعين أمره، المؤدين شكره، المحسنين إلى خلقه في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، مخبراً عما أعد لهم من الكرامة، وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)﴾.

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه، ناهياً لهم عما يقربهم إلى سخطه ويبعدهم عن رضاه، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: خافوه وراقبوه فيما تفعلون ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ أى: اتركوا مالكم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال، بعد هذا الإنذار ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى: بما شرع الله لكم من تحليل البيع، وتحريم الربا وغير ذلك.

وقد ذكر زيد بن أسلم، وابن جريج، ومقاتل بن حيان، والسدى: أن هذا السياق نزل في بنى عمرو بن عمير من ثقيف، وبنى المغيرة من بنى مخزوم، كان بينهم ربا في الجاهلية، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه، طلبت ثقيف أن تأخذه منهم، فتشاوروا^(١)، وقالت بنو المغيرة: لا نؤدى الربا في الإسلام فكتب في ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة إلى رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية فكتب بها رسول الله ﷺ إليه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فقالوا: نتوب إلى الله، ونذر ما بقى من الربا، فتركوه كلهم.

وهذا تهديد شديد ووعد أكيد، لمن استمر على تعاطى الربا بعد الإنذار، قال ابن جريج: قال ابن عباس: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ﴾ أى: استيقنوا بحرب من الله ورسوله. وتقدم من رواية ربيعة بن كلثوم، عن أبيه، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: يقال يوم القيامة لأكل الربا: خذ سلاحك للحرب. ثم قرأ: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: فمن كان مقيماً على الربا لا ينزع عنه فحق^(٢) على إمام المسلمين أن يستتيبه، فإن نزع وإلا ضرب عنقه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا هشام ابن حسان، عن الحسن وابن سيرين، أنهما قالوا: والله إن هؤلاء الصيارفة لأكلة الربا، وإنهم قد أذنوا بحرب من الله ورسوله، ولو كان على الناس إمام عادل لاستتابهم، فإن تابوا وإلا وضع فيهم السلاح. وقال قتادة: أوعدهم الله بالقتل كما تسمعون، وجعلهم بهرجاً أينما أتوا^(٣)، فإياكم وما خالط هذه البيوع

(١) فى ج، أ، و: «فتشاجروا».

(٢) فى أ: «يحق».

(٣) فى ج، أ، و: «أينما نقفوا».

من الربا؛ فإن الله قد أوسع الحلال وأطابه، فلا تلجئكم إلى معصيته فاقة. رواه ابن أبي حاتم.
وقال الربيع بن أنس: أوعد الله أكل الربا بالقتل. رواه ابن جرير.

وقال السهيلي: ولهذا قالت عائشة لأم محبة، مولاة زيد بن أرقم، في مسألة العينة: أخبريه أن جهاده مع رسول الله ﷺ قد بطل، إلا أن يتوب، فخصت الجهاد؛ لأنه ضد قوله: ﴿فَاذْنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قال: وهذا المعنى ذكره كثير^(١). قال: ولكن هذا إسناده إلى عائشة ضعيف.
ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ﴾ أي: بأخذ الزيادة^(٢) ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ أي: بوضع رؤوس الأموال أيضاً، بل لكم ما بذلت من غير زيادة عليه ولا نقص^(٣) منه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن الحسين بن إشكاب، حدثنا عبيد الله بن موسى، عن شيبان، عن شبيب بن غرقدة البارقى، عن سليمان بن الأحوص عن أبيه قال: خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع فقال: «ألا إن كل ربا كان في الجاهلية موضوع عنكم كله، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، وأول ربا موضوع ربا العباس بن عبد المطلب، موضوع كله» كذا وجدته: سليمان بن الأحوص.
وقد قال ابن مردويه: حدثنا الشافعي، حدثنا معاذ بن المثنى، أخبرنا مسدد، أخبرنا أبو الأحوص، حدثنا شبيب بن غرقدة، عن سليمان بن عمرو، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع، فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون»^(٤).
وكذا رواه من حديث حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أبي حرة^(٥) الرقاشي، عن عمرو- هو ابن خارجة - فذكره.

وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاء، فقال: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ [أي: ^(٦) لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين: إما أن تقضى وإما أن تبرى].
ثم يندب^(٧) إلى الوضع عنه، ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل، فقال: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: وأن تتركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن المدين. وقد وردت الأحاديث من طرق متعددة عن النبي ﷺ، بذلك:

فالحديث الأول: عن أبي أمامة أسعد بن زرار [النقيب]^(٨)، قال الطبراني: حدثنا عبد الله بن محمد بن شعيب الرجاني^(٩)، حدثنا يحيى بن حكيم المقوم، حدثنا محمد بن بكر البرساني، حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثني عاصم بن عبيد الله، عن أبي أمامة أسعد بن زرار قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله، فلييسر على معسر أو ليضع عنه»^(١٠).

حديث آخر^(١١): عن بريدة، قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الوارث، حدثنا محمد

(١) في ج، أ، و: «ذكره ابن بطلان». (٢) في ج، أ: «بأخذ الربا». (٣) في ج، أ: «ولا نقصان».

(٤) ورواه أبو داود في السنن برقم (٣٣٣٤) عن مسدد به، ورواه ابن ماجه في السنن برقم (٣٠٥٥) من طريق أبي الأحوص به.

(٥) في ج: «عن أبي حمزة». (٦) زيادة من ج، أ، و. (٧) في ج: «ثم ندب».

(٨) زيادة من ج، أ، و. (٩) في ج، أ، و: «المرجاني».

(١٠) المعجم الكبير (٣٠٤/١) وقال الهيثمي في المجمع (١٣٤/٤): «عاصم ضعيف ولم يدرك أسعد بن زرار».

(١١) في ج، أ: «الحديث الثاني».

ابن جحادة، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة». قال: ثم سمعته يقول: «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة». قلت: سمعتك - يا رسول الله - تقول: «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة». ثم سمعتك تقول: «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة؟»! قال: «له بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين، فإذا حل الدين فأنظره، فله بكل يوم مثله صدقة»^(١).

حديث آخر^(٢): عن أبي قتادة الحارث بن ربعي الأنصاري، قال [الإمام]^(٣) أحمد: حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا أبو جعفر الخطمي، عن محمد بن كعب القرظي: أن أبا قتادة كان له دين على رجل، وكان يأتيه يتقاضاه، فيختبئ^(٤) منه، فجاء ذات يوم فخرج صبي فسأله عنه، فقال: نعم، هو في البيت يأكل خزيرة فناده: يا فلان، اخرج، فقد أخبرت أنك ههنا فخرج إليه، فقال: ما يغيبك عني؟ فقال: إني معسر، وليس عندي. قال: الله إنك معسر؟ قال: نعم. فبكى أبو قتادة، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نفس عن غريمه - أو محا عنه - كان في ظل العرش يوم القيامة». ورواه مسلم في صحيحه^(٥).

حديث آخر^(٦): عن حذيفة بن اليمان، قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا الأحنس أحمد بن عمران^(٧)، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا أبو مالك الأشجعي، عن ربعي بن حراش، عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «أتى الله بعبد من عباده يوم القيامة، قال: ماذا عملت لى فى الدنيا؟ فقال: ما عملت لك يارب مثقال ذرة فى الدنيا أرجوك بها، قالها ثلاث مرات، قال العبد عند آخرها: يارب، إنك أعطيتنى فضل مال، وكنت رجلاً أبايع الناس وكان من خلقى الجواز، فكنت أيسر على الموسر، وأنظر المعسر. قال: فيقول الله، عز وجل: أنا أحق من يسر، ادخل الجنة».

وقد أخرجه البخارى، ومسلم، وابن ماجه - من طرق - عن ربعي بن حراش، عن حذيفة. زاد مسلم: وعقبة بن عامر وأبى مسعود البدرى عن النبى ﷺ^(٨)، بنحوه. ولفظ البخارى.

حدثنا هشام بن عمار، حدثنا يحيى بن حمزة، حدثنا الزهرى، عن عبد الله بن عبد الله أنه سمع أبا هريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «كان تاجر يداين الناس، فإذا رأى معسراً قال لفتيانه: تجاوزوا عنه، لعل الله يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه».

حديث آخر^(٩): عن سهل بن حنيف، قال الحاكم فى مستدركه: حدثنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب، حدثنا يحيى بن محمد بن يحيى، حدثنا أبو الوليد هشام بن عبد الملك، حدثنا عمرو بن ثابت، حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل، عن عبد الله بن سهل بن حنيف، أن سهلاً حدثه، أن رسول الله ﷺ قال: «من أعان مجاهداً فى سبيل الله أو غارماً فى عسرته، أو مكاتباً فى

(١) المسند (٥/ ٣٦٠).

(٢) فى ج، أ: «الحديث الثالث». (٣) زيادة من ج، أ، و. (٤) فى ج، أ: «فيختنى».

(٥) المسند (٥/ ٣٠٨) ولم أقع عليه فى صحيح مسلم من حديث أبى قتادة، والله أعلم.

(٦) فى ج، أ: «الحديث الرابع».

(٧) هو أحمد بن عمران الأحنس، والأحنس نسبة انظر: الجرح والتعديل (٢/ ٦٤).

(٨) صحيح البخارى برقم (٣٤٥١، ٢٣٩١، ٢٧٠٧) وصحيح مسلم برقم (١٥٦٠).

(٩) فى ج، أ: «الحديث الخامس».

رقبته، أظله الله ^(١) يوم لا ظل إلا ظله» ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه ^(٢).

حديث آخر ^(٣): عن عبد الله بن عمر، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، عن يوسف بن صهيب، عن زيد العمى، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من أراد أن تستجاب دعوته، وأن تكشف كربته، فليفرج عن معسر»، انفرد به أحمد ^(٤).

حديث آخر ^(٥): عن أبي مسعود عقبة بن عمرو، قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا أبو مالك، عن ربعي بن حراش، عن حذيفة، أن رجلاً أتى به الله عز وجل، فقال: ماذا عملت في الدنيا؟ فقال له الرجل: ما عملت مثقال ذرة من خير أرجوك بها، فقالها له ثلاثاً، وقال في الثالثة: أي رب كنت أعطيتني فضلاً من المال في الدنيا، فكنت أبايع الناس، فكنت أتيسر على الموسر، وأنظر المعسر. فقال تبارك وتعالى ^(٦): نحن أولى بذلك منك، تجاوزوا عن عبدى. فغفر له. قال أبو مسعود: هكذا سمعت من النبي ﷺ، وهكذا رواه مسلم من حديث أبي مالك سعد بن طارق به ^(٧).

حديث آخر ^(٨): عن عمران بن حصين، قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، أخبرنا أبو بكر، عن الأعمش، عن أبي داود، عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان له على رجل حق فأخبره ^(٩)، كان له بكل يوم صدقة» ^(١٠).

غريب من هذا الوجه، وقد تقدم عن بريدة نحوه.

حديث آخر ^(١١): عن أبي اليسر كعب بن عمرو، قال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا زائدة، عن عبد الملك بن عمير، عن ربعي، قال: حدثنا أبو اليسر، أن رسول الله ﷺ قال: «من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله، عز وجل، في ظله يوم لا ظل إلا ظله» ^(١٢).

وقد أخرجه مسلم في صحيحه من وجه آخر، من حديث عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، قال: خرجت أنا وأبى نطلب العلم في هذا الحى من الأنصار قبل أن يهلكوا، فكان أول من لقينا أبا اليسر صاحب رسول الله ﷺ، ومعه غلام له معه ضمانة من صحف، وعلى أبى اليسر بردة ومعافرى، وعلى غلامه بردة ومعافرى فقال له أبى: ياعم، إني أرى في وجهك سفعة من غضب؟ قال أجل، كان لى على فلان بن فلان الحرامى ^(١٣) مال، فأتيت أهله فسلمت، فقلت: أثم هو؟ قالوا: لا، فخرج على ابن له جفر فقلت: أين أبوك؟ فقال: سمع صوتك فدخل أريكة أمى. فقلت: اخرج إلى فقد علمت أين أنت؟ فخرج، فقلت: ما حملك على أن اختبأت منى؟ قال: أنا والله أحدثك ثم لا أكذبك؛ خشيت ^(١٤) - والله - أن أحدثك فأكذبك، وأن أعدك فأخلفك، وكنت

(١) فى ج، أ، و: «أظله الله فى ظله».

(٢) المستدرك (٢/٢١٧)، وتعقبه الذهبى فى التلخيص. قلت: «بل فى عمرو بن ثابت وهو رافضى متروك».

(٣) فى ج، أ: «الحديث السادس».

(٤) المسند (٢/٢٣).

(٥) فى ج، أ: «الحديث السابع».

(٦) المسند (٤/١١٨) وصحيح مسلم برقم (١٥٦٠).

(٧) فى ج، أ: «الحديث الثامن».

(٨) المسند (٤/٤٤٢).

(٩) فى ج، أ: «الحديث التاسع».

(١٠) المسند (٣/٤٢٧).

(١١) فى أ: «الحرامى»، وفى و: «الحزامى».

(١٢) فى ج: «خفت».

صاحب رسول الله ﷺ، وكنت - الله - معسراً قال: قلت: الله؟ قال: الله. قلت: الله؟ قال: الله. قال: فأتى بصحيفته فمحاها بيده، ثم قال: فإن وجدت قضاء فاقضنى، وإلا فأنت فى حل، فأشهد بصر عيني - ووضع أصبعيه على عينيه - وسمع أذنى هاتين، ووعاه قلبى - وأشار إلى مناظر^(١) قلبه - رسول الله ﷺ وهو يقول: «من أنظر معسراً، أو وضع عنه أظله الله فى ظله». وذكر تمام الحديث^(٢).

حديث آخر^(٣): عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، قال عبد الله بن الإمام أحمد [فى مسند أبيه]^(٤) حدثنى^(٥) أبو يحيى البزاز محمد بن عبد الرحيم، حدثنا الحسن بن بشر بن سلم الكوفى، حدثنا العباس بن الفضل الأنصارى، عن هشام بن زياد القرشى، عن أبيه، عن محجن مولى عثمان، عن عثمان، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «أظل الله عينا فى ظله، يوم لا ظل إلا ظله من أنظر معسراً، أو ترك لغارم»^(٦).

حديث آخر^(٧): عن ابن عباس، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا نوح بن جعونة السلمى الخراسانى، عن مقاتل بن حيان، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد، وهو يقول بيده هكذا - وأوماً عبد الرحمن بيده إلى الأرض -: «من أنظر معسراً أو وضع له، وقاه الله من فيح جهنم، ألا إن عمل الجنة حزن بربوة - ثلاثاً - ألا إن عمل النار سهل بسهوة، والسعيد من وقى الفتن، وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد، ما كظمها عبد لله إلا ملأ الله جوفه إيماناً» تفرد به أحمد^(٨).

طريق أخرى: قال الطبرانى: حدثنا أحمد بن محمد البورانى قاضى الحديث من ديار ربيعة، حدثنا الحسين بن على الصدائى، حدثنا الحكم بن الجارود، حدثنا ابن أبى المثند - خال ابن عيينة - عن أبيه، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنظر معسراً إلى ميسرته أنظره الله بذنبه إلى توبته»^(٩).

ثم قال تعالى يعظ عباده ويذكرهم زوال الدنيا وفناء ما فيها من الأموال وغيرها، وإتيان^(١٠) الآخرة والرجوع إليه تعالى ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر، ويحذرهم عقوبته، فقال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وقد روى أن هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن العظيم، فقال ابن لهيعة: حدثنى عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير، قال: آخر ما نزل من القرآن كله^(١١): ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وعاش النبى ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال، ثم مات يوم الإثنين، ليلتين خلتا من ربيع الأول. رواه ابن أبى حاتم.

(١) فى ج، أ، و: «إلى نياط».

(٢) صحيح مسلم برقم (٣٠٦).

(٣) فى ج، أ: «الحديث العاشر».

(٤) زوائد المسند (٧٣/١).

(٥) فى ج، أ: «الحديث الحادى عشر».

(٦) المسند (٣٢٧/١).

(٧) المعجم الكبير (١١/١٥١)، وقال الهيثمى فى المجمع (٤/١٣٥): «وفيه الحكم بن جارود ضعفه الأزدي، وشيخ الحكم وشيخ شيخه لم أعرفهما».

(٨) فى ج، أ: «وإيثار».

(٩) فى أ: «من القرآن العظيم».

وقد رواه ابن مردويه من حديث المسعودي، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: آخر آية نزلت: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾.

وقد رواه النسائي، من حديث يزيد النحوي، عن عكرمة، عن عبد الله بن عباس، قال: آخر شيء^(١) نزل من القرآن: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٢).

وكذا رواه الضحاك، والعمري، عن ابن عباس، وروى الثوري، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: آخر آية أنزلت^(٣): ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾، فكان بين نزولها [وبين]^(٤) موت النبي ﷺ واحد وثلاثون يوماً.

وقال ابن جريج: قال ابن عباس: آخر آية نزلت: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ الآية. قال ابن جريج: يقولون: إن النبي ﷺ عاش بعدها تسع ليال، وبدئ^(٥) يوم السبت ومات يوم الإثنين، رواه ابن جرير.

ورواه عطية عن أبي سعيد، قال: آخر آية أنزلت: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْب الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُقْ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢٨٢).

هذه الآية الكريمة أطول آية في القرآن العظيم، وقد قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا يونس، أخبرنا^(٦) ابن وهب، أخبرني يونس، عن ابن شهاب قال، حدثني سعيد بن المسيب: أنه بلغه أن أحدث القرآن بالعرش آية الدين.

(١) في ج، أ: «آخر ما نزل».

(٢) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٠٥٧).

(٣) في ج، أ: «نزلت».

(٤) زيادة من ج، أ، و.

(٥) في ج: «أبنا».

(٦) في و: «ومرض».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس أنه قال: لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ: «إن أول من جحد آدم، عليه السلام، أن الله لما خلق آدم، مسح ظهره فأخرج منه ما هو ذارئ إلى يوم القيامة، فجعل يعرض ذريته عليه، فرأى فيهم رجلاً يزهر، فقال: أى رب، من هذا؟ قال: هو ابنك داود. قال: أى رب، كم عمره؟ قال: ستون عاماً، قال: رب زد فى عمره. قال: لا، إلا أن أزيد من عمرك. وكان عمر آدم ألف سنة، فزاده أربعين عاماً، فكتب عليه بذلك كتاباً وأشهد عليه الملائكة، فلما احتضر آدم وأتته الملائكة قال: إنه قد بقى من عمرى أربعون عاماً، فقيل له: إنك قد وهبتها لابنك داود. قال: ما فعلت. فأبرز الله عليه الكتاب، وأشهد عليه الملائكة».

وحدثنا أسود بن عامر، عن حماد بن سلمة، فذكره، وزاد فيه: «فأتمها الله لداود مائة، وأتمها لأدم ألف سنة»^(١).

وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن يونس بن حبيب، عن أبي داود الطيالسى، عن حماد بن سلمة [به]^(٢).

هذا حديث غريب جداً، وعلى بن زيد بن جُدعان فى أحاديثه نكارة. وقد رواه الحاكم فى مستدركه بنحوه، من حديث الحارث بن عبد الرحمن بن أبى ذباب^(٣)، عن سعيد المقبرى، عن أبى هريرة. ومن رواية داود بن أبى هند، عن الشعبي، عن أبى هريرة. ومن طريق محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة. ومن حديث هشام^(٤) بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، فذكره بنحوه^(٥).

فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾. هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها، ليكون ذلك أحفظ لمقارها وميقاتها، وأضبط للشاهد فيها، وقد نبه على هذا فى آخر الآية حيث قال: ﴿ذَلِكَمُ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾.

وقال سفيان الثورى، عن ابن أبى نجيح عن مجاهد، عن ابن عباس فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ قال: أنزلت فى السلم إلى أجل معلوم.

وقال قتادة، عن أبى حسان^(٦) الأعرج، عن ابن عباس، قال: أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله أحله وأذن فيه، ثم قرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. رواه البخارى.

وثبت فى الصحيحين من رواية سفيان بن عيينة، عن ابن أبى نجيح، عن عبد الله بن كثير، عن أبى المنهال، عن ابن عباس، قال: قدم النبى ﷺ المدينة وهم يسلفون فى الثمار السنتين والثلاث، فقال رسول الله ﷺ: «من أسلف فليسلف فى كيل معلوم، ووزن معلوم، إلى أجل معلوم»^(٧).

(١) المسند (١/٢٥١، ٢٥٢).

(٢) زيادة من أ، و. (٣) فى أ: «بن أبى ذباب». (٤) فى ج، أ: «تمام».

(٥) المستدرک (١/٦٤، ٢/٥٨٦).

(٦) فى ج، أ: «أبى حيان».

(٧) صحيح البخارى برقم (٢٢٤٠) وصحيح مسلم برقم (١٦٠٤).

وقوله: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾: أمر منه تعالى بالكتابة [والحالة هذه]^(١) للتوثيق والحفظ، فإن قيل: فقد ثبت في الصحيحين، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب»^(٢)، فما الجمع بينه وبين الأمر بالكتابة؟ فالجواب: أن الدين من حيث هو غير مفتقر إلى كتابة أصلاً؛ لأن كتاب الله قد سهل الله ويسر حفظه على الناس، والسنن أيضاً محفوظة عن رسول الله ﷺ، والذي أمر بكتابته إنما هو أشياء جزئية تقع بين الناس، فأمرُوا أمر إرشاد لا أمر إيجاب، كما ذهب إليه بعضهم.

قال ابن جريج: من اذآن فليكتب، ومن ابتاع فليشهد.

وقال قتادة: ذكر لنا أن أبا سليمان المرعشي، كان رجلاً صاحب كعبا، فقال ذات يوم لأصحابه: هل تعلمون مظلوماً دعا ربه فلم يستجب له؟ فقالوا: وكيف [يكون]^(٣) ذلك؟ قال: رجل باع بيعاً إلى أجل فلم يشهد ولم يكتب، فلما حل ماله جحده صاحبه، فدعا ربه فلم يستجب له؛ لأنه قد عصى ربه.

وقال أبو سعيد، والشعبي، والربيع بن أنس، والحسن، وابن جريج، وابن زيد، وغيرهم: كان ذلك واجباً ثم نسخ بقوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فليؤدِّ الَّذِي أُوتِمْنَ أمانته﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا ليث، عن جعفر بن ربيعة، عن عبد الرحمن ابن هُرْمُز، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه ذكر «أن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: اتنى بشهداء أشهدهم. قال: كفى بالله شهيداً. قال: اتنى بكفيل. قال: كفى بالله كفيلاً. قال: صدقت. فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركباً يقدم عليه للأجل الذي أجله، فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها، ثم زجج موضعها، ثم أتى بها البحر، ثم قال: اللهم إنك قد علمت أنى استسلفت فلاناً ألف دينار، فسألنى كفيلاً، فقلت: كفى بالله كفيلاً. فرضى بذلك، وسألنى شهيداً، فقلت: كفى بالله شهيداً. فرضى بذلك، وإنى قد جهدتُ أن أجد مركباً أبعث بها إليه بالذى أعطانى فلم أجد مركباً، وإنى استودعْتُكها. فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف، وهو فى ذلك يطلب مركباً إلى بلده، فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركباً نجته بماله، فإذا بالخشبة التى فيها المال، فأخذها لأهله حطباً فلما كسرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الرجل الذى كان تسلف منه، فأناه بألف دينار وقال: والله ما زلت جاهدتُ فى طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذى أتيت فيه. قال: هل كنت بعثت إلى بشىء؟ قال: ألم أخبرك أنى لم أجد مركباً قبل هذا الذى جئت فيه؟ قال: فإن الله قد أدى عنك الذى بعثت به فى الخشبة، فانصرف بألفك راشداً».

وهذا إسناد صحيح^(٤)، وقد رواه البخارى فى سبعة مواضع من طرق صحيحة^(٥) معلقاً بصيغة

(١) زيادة من ج، أ، و.

(٢) صحيح البخارى برقم (١٩١٣) وصحيح مسلم برقم (١٠٨٠).

(٣) زيادة من أ، و.

(٤) المسند (٢/٣٤٨).

(٥) فى ج، أ، و: «فى صحيحه».

الجزم، فقال: وقال الليث بن سعد، فذكره^(١). ويقال: إنه رواه في بعضها عن عبد الله بن صالح كاتب الليث، عنه.

وقوله: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ أى: بالقسط والحق، ولا يجزى في كتابته على أحد، ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان.

وقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ أى: ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس، ولا ضرورة عليه في ذلك، فكما علمه الله ما لم يكن يعلم، فليصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة وليكتب، كما جاء في الحديث: «إن من الصدقة أن تعين صانعاً أو تصنع لأخرق»^(٢). وفي الحديث الآخر: «من كتم علماً يعلمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»^(٣).

وقال مجاهد وعطاء: واجب على الكاتب أن يكتب.
وقوله: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتْلِ اللَّهَ رَبُّهُ﴾ أى: وليملل المدين على الكاتب ما في ذمته من الدين، وليتق الله في ذلك، ﴿وَلَا يَخْشَ مِنْهُ شَيْئاً﴾ أى: لا يكتم منه شيئاً، ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا﴾ محجوراً عليه بتبذير ونحوه، ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ أى: صغيراً أو مجنوناً ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلِهُهُ﴾ إما لعمى أو جهل بموضع صواب ذلك من خطئه. ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ﴾.

وقوله: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾، أمر بالإشهاد مع الكتابة لزيادة التوثيق، ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾، وهذا إنما يكون في الأموال وما يقصد به المال، وإنما أقيمت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة، كما قال مسلم في صحيحه: حدثنا قتيبة، حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن عمرو بن أبي عمرو، عن المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «يا معشر النساء، تصدقن وأكثرن الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار»، فقالت امرأة منهن جزلة: وما لنا - يا رسول الله - أكثر أهل النار؟ قال: «تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب لباً ممنكن». قالت: يا رسول الله، ما نقصان العقل والدين؟ قال: «أما نقصان عقلها فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي لا تصلى، وتفطر في رمضان، فهذا نقصان الدين»^(٥).

وقوله: ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾: فيه دلالة على اشتراط العدالة في الشهود، وهذا مقيد، حكّم به الشافعي على كل مطلق في القرآن، من الأمر بالإشهاد من غير اشتراط. وقد استدل من رد المستور بهذه الآية الدالة على أن يكون الشاهد عدلاً مرضياً.

وقوله: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ يعنى: المرأتين إذا نسيت الشهادة ﴿فَتَذْكُرَ إِحْدَاهُمَا الْآخَرَى﴾ أى: يحصل لها ذكرى بما وقع به الإشهاد، ولهذا قرأ آخرون: «فَتَذْكُر» بالتشديد من التذكار. ومن قال:

(١) صحيح البخارى برقم (١٤٩٨، ٢٢٩١، ٢٤٠٤، ٢٤٣٠، ٢٧٤٤، ٦٢٦١، ٢٠٦٣).

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٥١٨) من حديث أبى ذر رضى الله عنه.

(٣) رواه أحمد فى المسند (٣٠٤/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٤) فى ج: «يا رسول الله وما لنا أكثر أهل النار».

(٥) صحيح مسلم برقم (٨٠).

إن شهادتها معها تجعلها كشهادة ذكر^(١) فقد أبعد، والصحيح الأول، والله أعلم.
وقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾: قيل: معناه: إذا دعوا للتحمل فعليهم الإجابة، وهو قول قتادة والربيع بن أنس. وهذا كقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾، ومن هاهنا استفيد أن تحمّل الشهادة فرض كفاية.

وقيل - وهو مذهب الجمهور -: المراد بقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ للأداء، لحقيقة قوله: ﴿الشُّهَدَاءُ﴾، والشاهد حقيقة فيمن^(٢) تحمّل، فإذا دعى لأدائها^(٣) فعليه الإجابة إذا تعينت وإلا فهو فرض كفاية، والله أعلم.

وقال مجاهد وأبو مجلز، وغير واحد: إذا دعيت لتشهد فأنت بالخيار، وإذا شهدت فدعيت^(٤) فأجب.

وقد ثبت في صحيح مسلم والسنن، من طريق مالك، عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو ابن حزم، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو بن عثمان، عن عبد الرحمن بن أبي عمرة، عن زيد بن خالد: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها»^(٥).

فأما الحديث الآخر في الصحيحين: «ألا أخبركم بشر الشهداء؟ الذين يشهدون قبل أن يُستشهدوا»، وكذا قوله: «ثم يأتي قوم تسبق أيمانهم شهادتهم وتسبق شهادتهم أيمانهم». وفي رواية: «ثم يأتي قوم يشهدون ولا يستشهدون»^(٦). فهؤلاء شهود الزور. وقد روى عن ابن عباس والحسن البصري: أنها تعم الحالين: التحمّل والأداء.

وقوله: ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ﴾: هذا من تمام الإرشاد، وهو الأمر بكتابة الحق صغيراً كان أو كبيراً، فقال: ﴿وَلَا تَسْأَمُوا﴾ أي: لا تملوا أن تكتبوا الحق على أي حال كان من القلة والكثرة ﴿إِلَى أَجَلِهِ﴾.

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ أي: هذا الذي أمرناكم به من الكتابة للحق إذا كان مؤجلاً هو ﴿أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: أعدل ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ أي: أثبت للشاهد إذا وضع خطه ثم رآه تذكر به الشهادة، لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه، كما هو الواقع غالباً ﴿وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾: وأقرب إلى عدم الريبة، بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذي كتبتموه، فيفصل بينكم بلا ريبة.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ أي: إذا كان البيع بالحاضر يدا بيد، فلا بأس بعدم الكتابة لانتفاء المحذور في تركها.

فأما الإشهاد على البيع، فقد قال تعالى: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثني يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني ابن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبيرة

(١) في و: «كشهادة رجل».

(٢) في ج: «فقد».

(٣) في ج: «فإن دعى إلى الإدلاء بها».

(٤) في ج: «وإذا دعيت».

(٥) صحيح مسلم برقم (١٧١٩) وسنن أبي داود برقم (٣٥٩٦) وسنن الترمذي برقم (٢٢٩٦)، وسنن النسائي الكبرى برقم (٢٠٢٩) وسنن ابن ماجه برقم (٢٣٦٤).

(٦) صحيح البخاري برقم (٦٤٢٨) وصحيح مسلم برقم (٢٥٣٥).

فى قول الله: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ يعنى: أشهدوا على حقكم إذا كان فيه أجل أو لم يكن، فأشهدوا على حقكم على كل حال. قال: وروى عن جابر بن زيد، ومجاهد، وعطاء، والضحاك، نحو ذلك. وقال الشعبى والحسن: هذا الأمر منسوخ بقوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ﴾. وهذا الأمر محمول عند الجمهور على الإرشاد والندب، لا على الوجوب. والدليل على ذلك حديث خزيمة بن ثابت الأنصارى، وقد رواه الإمام أحمد:

حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهرى، حدثنى عمارة بن خزيمة الأنصارى، أن عمه حدثه - وهو من أصحاب النبى ﷺ - أن النبى ﷺ ابتاع فرساً من أعرابى، فاستتبعه النبى ﷺ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع النبى ﷺ وأبطأ الأعرابى، فطفق رجال يعترضون الأعرابى فيساومونه بالفرس، ولا يشعرون أن النبى ﷺ ابتاعه، حتى زاد بعضهم الأعرابى فى السوم على ثمن الفرس الذى ابتاعه النبى ﷺ، فنادى الأعرابى النبى ﷺ فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس فابتعه، وإلا بعته، فقام النبى ﷺ حين سمع نداء الأعرابى، قال: «أوليس قد ابتعته منك؟» قال الأعرابى: لا، والله ما بعته. فقال النبى ﷺ: «بل^(١) قد ابتعته منك». فطفق الناس يلوذون بالنبى ﷺ والأعرابى وهما يتراجعان، فطفق الأعرابى يقول: هلم شهيداً يشهد أنى بايعتك. فمن جاء من المسلمين قال للأعرابى: ويلك! إن النبى^(٢) لم يكن يقول إلا حقاً. حتى جاء خزيمة، فاستمع لمراجعة النبى ﷺ ومراجعة الأعرابى يقول^(٣): هلم شهيداً يشهد أنى^(٤) بايعتك. قال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته. فأقبل النبى ﷺ على خزيمة فقال: «بم تشهد؟» فقال: بتصديقك يا رسول الله. فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين.

وهكذا رواه أبو داود من حديث شعيب، والنسائى من رواية محمد بن الوليد الزبيرى^(٥)، كلاهما عن الزهرى، به^(٦) نحوه.

ولكن الاحتياط هو الإشهاد، لما رواه الإمامان الحافظ أبو بكر بن مردويه والحاكم فى مستدركه من رواية معاذ بن معاذ العنبرى، عن شعبة، عن فراس، عن الشعبى، عن أبى بردة، عن أبى موسى، عن النبى ﷺ قال: «ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم: رجل له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل دفع مال يتيم قبل أن يبلغ، ورجل أقرض رجلاً مالا فلم يشهد».

ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط الشيخين، قال: ولم يخرجاه، لتوقيف أصحاب شعبة هذا الحديث على أبى موسى، وإنما أجمعوا على سند حديث شعبة بهذا الإسناد: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين»^(٧).

وقوله: ﴿وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾: قيل: معناه: لا يضار الكاتب ولا الشاهد، فيكتب هذا خلاف ما يملى، ويشهد هذا بخلاف ما سمع أو يكتمها بالكلية، وهو قول الحسن وقتادة وغيرهما. وقيل: معناه: لا يضر بهما، كما قال ابن أبى حاتم:

(١) فى ج: «بلى».

(٢) فى و: «إن رسول الله».

(٣) فى ج، أ، و: «وظفق الأعرابى يقول».

(٤) فى و: «أنى قد».

(٥) فى ج: «الزبيرى».

(٦) المسند (٢١٣/٥) وسنن أبى داود برقم (٣٦٠٧) وسنن النسائى (٣٠١/٧).

(٧) المستدرک (٣٠٢/٢).

حدثنا أسيد بن عاصم، حدثنا الحسين - يعني ابن حفص - حدثنا سفيان، عن يزيد بن أبي زياد، عن مفسم، عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿وَلَا يَضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ قال: يأتي الرجل فيدعوهما إلى الكتاب والشهادة، فيقولان: إنا على حاجة فيقول: إنكما قد أمرتما أن تحببا. فليس له أن يضارهما.

ثم قال: وروى عن عكرمة، ومجاهد، وطاوس، وسعيد بن جبير، والضحاك، وعطية، ومقاتل ابن حيان، والربيع بن أنس، والسدي، نحو ذلك.

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٢٨٣).

وقوله: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: خافوه وراقبوه، واتبعوا أمره واتركوا زجره^(١)، ﴿وَيَعْلَمُكُمُ اللَّهُ﴾ كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، وكقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: هو عالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء، بل علمه محيط بجميع الكائنات.

﴿وَأَنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٢٨٣).

يقول تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي: مسافرين وتداينتم إلى أجل مسمى ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ يكتب لكم. قال ابن عباس: أو وجدوه ولم يجد قرطاساً أو دواة أو قلماً فرهن مقبوضة، أي: فليكن بدل الكتابة رهن مقبوضة في يد صاحب الحق.

وقد استدل بقوله: ﴿فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾، على أن الرهن لا يلزم إلا بالقبض، كما هو مذهب الشافعي والجمهور، واستدل بها آخرون على أنه لا بد أن يكون الرهن مقبوضاً في يد المرتهن، وهو رواية عن الإمام أحمد، وذهب إليه طائفة.

واستدل آخرون من السلف بهذه الآية على أنه لا يكون الرهن مشروعاً إلا في السفر، قاله مجاهد وغيره.

وقد ثبت في الصحيحين، عن أنس، أن رسول الله ﷺ تَوَفَّى وَدَرَعَهُ مَرْهُونَةً عِنْدَ يَهُودِيٍّ عَلَى ثَلَاثِينَ وَسْقًا مِنْ شَعِيرٍ، رَهْنَهَا قَوْتًا لِأَهْلِهِ^(٢). وفي رواية: من يهود المدينة^(٣). وفي رواية الشافعي: عند أبي الشحم اليهودي^(٤). وتقرير هذه المسائل في كتاب «الأحكام الكبير»، والله الحمد والمنة، وبه

(١) في و: «زواجره».

(٢) صحيح البخاري برقم (٢٥٠٨) ولم أتع عليه في صحيح مسلم من حديث أنس وهو فيه من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٣) الرواية في سنن النسائي (٢٨٨/٧).

(٤) مسند الشافعي (ص ٢٥١).

المستعان.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ﴾، روى ابنُ أبي حاتم بإسناد جيد، عن أبي سعيد الخدري أنه قال: هذه نسخت ما قبلها.

وقال الشعبي: إذا ائتمن بعضكم^(١) بعضاً فلا بأس ألا تكتبوا أو لا تشهدوا.

وقوله: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ يعني: المؤمن، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن، من رواية قتادة، عن الحسن، عن سمرة: أن رسول الله ﷺ قال: «على اليد ما أخذت حتى تؤديه»^(٢).

وقوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أى: لا تخفوها وتغلوها ولا تظهروها. قال ابن عباس وغيره: شهادة الزور من أكبر الكبائر، وكتمانها كذلك. ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾، قال السدي: يعنى: فاجر قلبه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ [المائدة: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٨٤).

يخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن، وأنه المطلع على ما فيهن، لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر، وإن دقت وخفيت، وأخبر أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم كما قال: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبَدُّوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩]، وقال: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، والآيات في ذلك^(٣) كثيرة جداً، وقد أخبر في هذه بمزيد على العلم، وهو: المحاسبة على ذلك، ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة، رضى الله عنهم، وخافوا منها، ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم، حدثني أبو^(٤) عبد الرحمن -

(١) فى ج: «بعضهم».

(٢) المسند (١٢/٥) وسنن أبي داود برقم (٣٥٦١) وسنن الترمذى برقم (١٢٦٦) وسنن النسائى الكبرى برقم (٥٧٨٣) وسنن ابن ماجه برقم (٢٤٠٠).

(٣) فى ج، أ: «فى هذا».

(٤) فى ج، أ، و: «حدثنى ابن».

يعنى العلاء - عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم جثوا على الركب، وقالوا: يا رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نُطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزل عليك هذه الآية ولا نطيعها. فقال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير». فلما أقر بها^(١) القوم وذلت بها ألسنتهم، أنزل الله في أثرها: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكِتَابُهُ وَرُسُلَهُ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَأَطَعُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾. فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، إلى آخره^(٢).

ورواه مسلم متفرداً به، من حديث يزيد بن زريع، عن روح بن القاسم، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، فذكر مثله^(٣)، ولفظه: «فلما فعلوا [ذلك]^(٤) نسخها الله، فأنزل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: نعم، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قال: نعم، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال: نعم، ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال: نعم.

حديث ابن عباس في ذلك: قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن آدم بن سليمان، سمعت سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ

يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء، قال: فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: سمعنا وأطعنا وسلّمنا». فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكِتَابُهُ وَرُسُلَهُ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾، إلى قوله: ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

وهكذا رواه مسلم، عن أبي بكر بن أبي شيبة، وأبي كريب، وإسحاق بن إبراهيم، ثلاثتهم عن وكيع، به^(٥)، وزاد: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: قد فعلت ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قال: قد فعلت، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال: قد فعلت ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا [فَانصُرْنَا]^(٦)﴾ قال: قد فعلت.

طريق أخرى عن ابن عباس: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن حميد الأعرج، عن مجاهد، قال: دخلت على ابن عباس فقلت: يا أبا عباس، كنت عند ابن عمر فقراً

(١) في أ، و: «فلما اقترأها».

(٢) المسند (٤١٢/٢).

(٣) صحيح مسلم برقم (١٢٥).

(٤) زيادة من صحيح مسلم (١٢٥).

(٥) المسند (٢٣٣/١) وصحيح مسلم برقم (١٢٦).

(٦) زيادة من ج، أ، و.

هذه الآية فبكى. قال: آية آية؟ قلت: ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ﴾. قال ابن عباس، إن هذه الآية حين أنزلت^(١) غمَّت أصحاب رسول الله ﷺ غماً شديداً، وغازتْهم غيظاً شديداً، يعنى، وقالوا: يا رسول الله، هلكنّا، إن كنّا نؤاخذ بما تكلمنا وبما نعمل، فأما قلوبنا فليست بأيدينا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «قولوا: سمعنا وأطعنا». قالوا: سمعنا وأطعنا. قال: فنسختها هذه الآية: ﴿أَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ إلى ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾، فتَجَوَز لهم عن حديث النفس وأخذوا بالأعمال^(٢).

طريق أخرى عنه: قال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، عن سعيد بن مرجانة، سمعه يحدث أنه بينما هو جالس مع عبد الله بن عمر تلا هذه الآية: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ الآية. فقال: والله لئن واخذنا الله بهذا لنهلكن، ثم بكى ابن عمر حتى سمع نسيجه. قال ابن مرجانة: فقممت حتى أتيت ابن عباس، فذكرت له ما قال ابن عمر، وما فعل حين تلاها، فقال عبد الله بن عباس: يغفر الله لأبي عبد الرحمن. لَعَمْرِي لقد وَجَدَ المسلمون منها حين أنزلت مثل ما وجد عبد الله بن عمر، فأنزل الله بعدها: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلى آخر السورة، قال ابن عباس: فكانت هذه الوسوسة بما لا طاقة للمسلمين بها، وصار الأمر إلى أن قضى الله، عز وجل، أن للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت في القول والفعل^(٣).

طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا يزيد بن هارون، عن سفيان ابن حسين، عن الزهري، عن سالم: أن أباه قرأ: ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ فدمعت عيناه، فبلغ صنيعة ابن عباس، فقال: يرحم الله أبا عبد الرحمن، لقد صنع كما صنع أصحاب رسول الله ﷺ حين أنزلت، فنسختها الآية التي بعدها: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٤).

فهذه طرق صحيحة عن ابن عباس، وقد ثبت عن ابن عمر كما ثبت عن ابن عباس.

قال البخاري: حدثنا إسحاق، حدثنا روح، حدثنا شعبة، عن خالد الحذاء، عن مَرْوَانَ الْأَصْفَرِ، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ - أحسبه ابن عمر - ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ قال: نسختها الآية التي بعدها^(٥).

وهكذا روى عن علي، وابن مسعود، وكعب الأحبار، والشعبي، والنخعي، ومحمد بن كعب القرظي، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة: أنها منسوخة بالتى بعدها.

وقد ثبت بما رواه الجماعة في كتبهم الستة من طريق قتادة، عن زرارة بن أوفى، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أَمْتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَكَلِّمْ أَوْ

(١) في ج: «نزلت».

(٢) المستد (١/٣٣٢).

(٣) تفسير الطبري (٦/١٠٦).

(٤) تفسير الطبري (٦/١٠٨).

(٥) صحيح البخاري برقم (٤٥٤٦).

تعمل^(١)»^(٢).

وفى الصحيحين، من حديث سفيان بن عيينة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشراً». لفظ مسلم^(٣)، وهو فى أفراد من طريق إسماعيل بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: إذا هم عبدى بحسنة ولم يعملها كتبت لها حسنة، فإن عملها كتبتها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، وإذا هم بسيئة فلم يعملها لم أكتبها عليه، فإن عملها كتبتها سيئة واحدة»^(٤).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة، عن محمد رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: إذا تحدث عبدى بأن يعمل حسنة، فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعمل، فإذا عملها فأنا أكتبها بعشر أمثالها، وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له، ما لم يعملها، فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها». وقال رسول الله ﷺ: «قالت الملائكة: رب، وإن عبدك يريد أن يعمل سيئة - وهو أبصر به - فقال: ارقبوه، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، وإنما تركها من جرائى». وقال رسول الله ﷺ: «إذا أحسن أحد^(٥) إسلامه، فكل^(٦) حسنة يعملها تكتب بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وكل سيئة تكتب بمثلها حتى يلقي الله عز وجل».

تفرد به مسلم عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق بهذا السياق واللفظ^(٧)، وبعضه فى صحيح البخارى.

وقال مسلم أيضاً: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن هشام، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، ومن هم بحسنة فعملها كتبت له [عشراً]^(٨) إلى سبعمائة ضعف، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب، وإن عملها كتبت». تفرد به مسلم دون غيره من أصحاب الكتب^(٩).

[وقال مسلم]^(١٠): حدثنا شيان بن فروخ، حدثنا عبد الوارث، عن الجعد أبي عثمان، حدثنا أبو رجاء العطاردي، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه تعالى قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبتها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة. وإن هم بسيئة فلم

(١) فى أ، و: «تعمل به».

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٢٦٩) وصحيح مسلم برقم (١٢٧) وسنن أبى داود برقم (٢٢٠٩) وسنن الترمذى برقم (١١٨٣) وسنن النسائى (١٥٦/٦) وسنن ابن ماجه برقم (٢٠٤٠).

(٣) صحيح مسلم برقم (١٢٨)، ولم أقع عليه من هذا الطريق فى صحيح البخارى.

(٤) صحيح مسلم برقم (١٢٨).

(٥) فى ج، أ، و: «أحدكم».

(٦) فى هـ، أ، و: «فإن له بكل» والمثبت من صحيح مسلم.

(٧) صحيح مسلم برقم (١٢٩).

(٨) زيادة من صحيح مسلم (١٣٠).

(٩) صحيح مسلم برقم (١٣٠).

(١٠) زيادة من و.

يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة»^(١).

ثم رواه مسلم، عن يحيى بن يحيى، عن جعفر بن سليمان، عن الجعد أبي عثمان في هذا الإسناد بمعنى حديث عبد الوارث^(٢)، وزاد: «ومحaha الله، ولا يهلك على الله إلا هالك».

وفى حديث سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ، فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال: «وقد وجدتموه؟» قالوا: نعم. قال: «ذاك صريح الإيمان».

لفظ مسلم^(٣)، وهو عند مسلم أيضاً من طريق الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، به. وروى مسلم [أيضاً]^(٤) من حديث مغيرة، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله، قال: سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة، قال: «تلك صريح»^(٥) الإيمان^(٦). وقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَأَن تَبْذُوبُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ فإنها لم تنسخ، ولكن الله إذا جمع الخلائق يوم القيامة يقول: إني أخبركم بما أخفيتم في أنفسكم، مما لم يطلع عليه ملائكتي، فأما المؤمنون فيخبرهم ويغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم، وهو قوله: ﴿يَخَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾، يقول: يخبركم، وأما أهل الشك والريب فيخبرهم بما أخفوا من التكذيب وهو قوله: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾، وهو قوله: ﴿وَلَكِن يَأْخُذْكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥] أى: من الشك والنفاق. وقد روى العوفي والضحاك عنه قريباً من هذا.

وروى ابن جرير، عن مجاهد والضحاك، نحوه. وعن الحسن البصري أنه قال: هي مُحْكَمَةٌ لم تنسخ. واختار ابن جرير ذلك، واحتج على أنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة، وأنه تعالى^(٧) قد يحاسب ويغفر، وقد يحاسب ويعاقب بالحديث الذي رواه عند هذه الآية، قائلًا: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن أبي عدي، عن سعيد وهشام، (ح) وحدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّةَ، حدثنا هشام، قالًا جميعاً في حديثهما: عن قتادة، عن صفوان بن محرز، قال: بينا نحن نطوف بالبيت مع عبد الله ابن عمر، وهو يطوف، إذ عرض له رجل فقال: يا ابن عمر، ما سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ فقال: سمعت نبي الله ﷺ يقول: «يدنو المؤمن من ربه، عزوجل، حتى يضع عليه كَفِّهَ، فيقرره بذنوبه فيقول: هل تعرف كذا؟ فيقول: رب أعرف - مرتين - حتى إذا بلغ به ما شاء الله أن يبلغ قال: إني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم». قال: «فيعطي صحيفة حسناته - أو كتابه - بيمينه، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الأشهاد: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾»^(٨) [هود: ١٨].

(١)، (٢) صحيح مسلم برقم (١٣١).

(٣) صحيح مسلم برقم (١٣٢).

(٤) زيادة من و.

(٥) فى أ، و: «تلك محض».

(٦) صحيح مسلم برقم (١٣٣).

(٧) فى ج: «وأنه سبحانه وتعالى».

(٨) فى ج: «سمعت رسول الله».

(٩) تفسير الطبرى (١١٩/٦، ١٢٠).

وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وغيرهما من طرق متعددة، عن قتادة، به^(١). وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أمية^(٢) قالت: سألت عائشة عن هذه الآية: ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ فقالت: ما سألتني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ عنها فقال: «هذه مبايعة الله العبد، وما يصيبه من الحمى، والنكبة، والبضاعة يضعها في يد كفه، فيفتقدها فيفرع لها، ثم يجدها في ضيقه، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر [من الكير]^(٣)». وكذا رواه الترمذي، وابن جرير من طريق حماد بن سلمة، به^(٤). وقال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من حديثه.

قلت: وشيخه علي بن زيد بن جُدعان ضعيف، يغرب في رواياته، وهو يروى هذا الحديث عن امرأة أبيه: أم محمد أمية بنت عبد الله، عن عائشة، وليس لها عنها في الكتب سواه.

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)﴾.

ذكر الأحاديث الواردة

في فضل هاتين الآيتين الكريمتين نفعنا الله بهما

الحديث الأول: قال البخاري: حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا شعبة، عن سليمان، عن إبراهيم، عن عبد الرحمن، عن أبي مسعود، عن النبي ﷺ قال: «من قرأ بالآيتين»، وحدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن منصور، عن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن أبي مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كَفَتْهُ»^(٥).

وقد أخرجه بقية الجماعة من طريق سليمان بن مهران الأعمش، بإسناده، مثله^(٦). وهو في الصحيحين من طريق الثوري، عن منصور، عن إبراهيم، عن عبد الرحمن، عنه، به^(٧). وهو في الصحيحين أيضاً عن عبد الرحمن، عن علقمة عن أبي مسعود - قال عبد الرحمن: ثم لقيت أبا

(١) صحيح البخاري برقم (٤٦٨٥) وصحيح مسلم برقم (١٧٦٨).

(٢) في ج: «عن أمية».

(٣) زيادة من تفسير الطبري (١١٧/٦).

(٤) سنن الترمذي برقم (٢٩٩١).

(٥) صحيح البخاري برقم (٥٠٠٨).

(٦) صحيح مسلم برقم (٨٠٨) وسنن أبي داود برقم (١٣٩٧) وسنن الترمذي برقم (٢٨٨١) وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٠١٩) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٦٨).

(٧) صحيح البخاري برقم (٥٠٠٩) وصحيح مسلم برقم (٨٠٧) ؛ ولكنه فيه عن زهير، عن منصور به.

مسعود، فحدثني به^(١).

وهكذا رواه أحمد بن حنبل: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا شريك، عن عاصم، عن المسيب بن رافع، عن علقمة، عن أبي مسعود، عن النبي ﷺ، قال: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلته كفتاه»^(٢).

الحديث الثاني: قال الإمام أحمد: حدثنا حسين، حدثنا شيبان، عن منصور، عن ربعي، عن خَرْشَةَ بن الحُرِّ، عن المعرور بن سويد، عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش، لم يعطهن نبي قبلي»^(٣).

وقد رواه ابن مردويه، من حديث الأشجعي، عن الثوري، عن منصور، عن ربعي، عن زيد ابن ظبيان، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش»^(٤).

الحديث الثالث: قال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو أسامة، حدثنا مالك بن مغول (ح) وحدثنا ابن نمير، وزهير بن حرب جميعاً، عن عبد الله بن نمير - وألفاظهم متقاربة - قال ابن نمير: حدثنا أبي، حدثنا مالك بن مغول، عن الزبير بن عدي^(٥)، عن طلحة، عن مرة، عن عبد الله، قال: لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدره المنتهى، وهى فى السماء السادسة إليها ينتهى ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهى ما يهبط به من فوقها فيقبض منها، قال: «إذ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى» [النجم: ١٦]، قال: فرأى من ذهب. قال: وأعطى رسول الله ﷺ ثلاثاً: أعطى الصلوات الخمس، وأعطى خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمة شيئاً المُنْحَمَاتِ^(٦).

الحديث الرابع: قال أحمد: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الرازى، حدثنا سلمة بن الفضل، حدثني محمد بن إسحاق، عن يزيد بن أبي حبيب، عن مرثد بن عبد الله اليزنى، عن عقبة بن عامر الجهنى قال: قال لى رسول الله ﷺ: «اقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فإنى أعطيتهما من تحت العرش». هذا إسناد حسن، ولم يخرجوه فى كتبهم^(٧).

الحديث الخامس: قال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن كامل، حدثنا إبراهيم بن إسحاق الحربى، أخبرنا مُسَدَّدٌ^(٨) أخبرنا أبو^(٩) عوانة، عن أبي مالك، عن ربعي، عن حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث، أوتيت هؤلاء الآيات من آخر سورة البقرة من بيت كنز تحت

(١) صحيح البخارى برقم (٤٠٠٨) وصحيح مسلم برقم (٨٠٨).

(٢) المسند (١١٨/٤).

(٣) المسند (١٥١/٥).

(٤) ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٢٤٠٤) من طريق الأشجعي به.

(٥) فى أ: «بن على».

(٦) صحيح مسلم برقم (١٧٣).

(٧) المسند (١٤٧/٤).

(٨) فى أ: «أخبرنا مسروق».

(٩) فى ج، أ: «عن أبي».

العرش، لم يعطها أحد قبلي، ولا يعطاها أحد بعدي»^(١).

ثم رواه من حديث نعيم بن أبي هند، عن ربيع، عن حذيفة، بنحوه.

الحديث السادس: قال ابن مردويه: حدثنا عبد الباقي بن قانع، أنبأنا إسماعيل بن الفضل، أخبرنا محمد بن حاتم بن بزيع، أخبرنا جعفر بن عون، عن مالك بن مغول، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي قال: لا أرى أحداً عقل الإسلام ينام حتى يقرأ خواتيم سورة البقرة، فإنها كنز أعطيه نبيكم ﷺ من تحت العرش.

ورواه وكيع عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمير بن عمرو الخارفي، عن علي قال: ما أرى أحداً يعقل، بلغه الإسلام، ينام حتى يقرأ آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة، فإنها من كنز تحت العرش^(٢).

الحديث السابع: قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا بُندَار، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا حماد بن سلمة، عن أشعث بن عبد الرحمن الجرمي^(٣)، عن أبي قلابة، عن أبي الأشعث الصنعاني، عن النعمان بن بشير، عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، أنزل منه آيتين ختما بهما^(٤) سورة البقرة، ولا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان». ثم قال: هذا حديث غريب. وهكذا رواه الحاكم في مستدركه من حديث حماد بن سلمة به، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه^{(٥) (٦)}.

الحديث الثامن: قال ابن مردويه: حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن مدين، أخبرنا الحسن بن الجهم، أخبرنا إسماعيل بن عمرو، أخبرنا ابن أبي مريم، حدثني يوسف بن أبي الحجاج، عن سعيد، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا قرأ آخر سورة البقرة وآية الكرسي ضحك، وقال: «إنهما من كنز الرحمن تحت العرش». وإذا قرأ: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سَوْأً يَجْزْ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، «وَأَنْ لِّإِنْسَانٍ إِلَّا مَّا سَعَى . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى . ثُمَّ يَجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى» [النجم: ٣٩ - ٤١]، استرجع واستكان^(٧).

الحديث التاسع: قال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن محمد بن كوفي، حدثنا أحمد بن يحيى بن حمزة، حدثنا محمد بن بكر^(٨)، حدثنا مكى بن إبراهيم، حدثنا عبد الله بن أبي حميد، عن أبي مَلِيح، عن معقل بن يسار، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش، والمفصل نافلة»^(٩).

(١) ورواه النسائي في السنن الكبرى برقم (٨٠٢٢) من طريق آدم بن أبي إياس، عن أبي عوانة به.

(٢) ورواه ابن الضريس في فضائل القرآن برقم (١٦٩) من طريق أبي إسحاق، عن عمير بن سعيد به، قال النووي: «صحيح على شرط البخاري ومسلم».

(٣) في أ: «الصنعاني». (٤) في ج: «ختم بها».

(٥) في أ: «ولم يخرجه».

(٦) سنن الترمذي برقم (٢٨٨٢) والمستدرک (١/ ٥٦٢).

(٧) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٧) وعزه لابن مردويه، وفي إسناده مجاهيل.

(٨) في أ: «بن بكير».

(٩) ورواه الحاكم في المستدرک وصححه (١/ ٥٥٩) من طريق عبيد الله بن أبي حميد به نحوه، وتعقبه الذهبي بقوله: «فيه عيب الله ابن أبي حميد تركوه».

الحديث العاشر: قد تقدم في فضائل الفاتحة، من رواية عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل؛ إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، فقال: هذا باب قد فتح من السماء ما فُتح قط. قال: فنزل منه ملك، فأتى النبي ﷺ فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما، لم يوتيهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته، رواه مسلم والنسائي، وهذا لفظه^(١).

[الحديث الحادى عشر: قال أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى فى مسنده: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثنا أيفع بن عبد الله الكلاعى^(٢) قال: قال رجل: يا رسول الله، أى آية فى كتاب الله أعظم؟ قال: «آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾» قال: فأى آية فى كتاب الله تحب أن تصيبك وأمتك؟ قال: «آخر سورة البقرة، ولم يترك خيراً فى الدنيا والآخرة إلا اشتملت عليه»^(٣)-(٤).

فقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾: إخبار عن النبي ﷺ بذلك. قال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة، قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «ويحق له أن يؤمن»^(٥).

وقد روى الحاكم فى مستدركه: حدثنا أبو النضر الفقيه، حدثنا معاذ بن نجدة القرشى، حدثنا خلاد بن يحيى، حدثنا أبو عقيل، عن يحيى بن أبى كثير، عن أنس بن مالك، قال: لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾، قال النبي ﷺ: «حق له أن يؤمن». ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه^(٦).

وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ عطف على ﴿الرَّسُولُ﴾، ثم أخبر عن الجميع فقال: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾، فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره، ولا رب سواه. ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرقون بين أحد منهم، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مهديون هادون إلى سبيل^(٧) الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله، حتى نسخ الجميع بشرع محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، الذى تقوم الساعة على شريعته، ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين.

وقوله: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أى: سمعنا قولك يا ربنا، وفهمناه، وقمنا به، وامتثلنا العمل بمقتضاه، ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ سؤال للغفر^(٨) والرحمة واللطف.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن حرب الموصلى، حدثنا ابن فضيل، عن عطاء بن السائب،

(١) صحيح مسلم برقم (٨٠٦) وسنن النسائي (٢/ ١٣٨).

(٢) فى الإصابة: «أيفع بن عبد الكلاعى».

(٣) سنن الدارمى برقم (٣٣٨٠) وقال الحافظ ابن حجر فى الإصابة (١/ ١٣٩): «هو مرسل أو معضل».

(٤) زيادة من جـ.

(٥) تفسير الطبرى (٦/ ١٢٤).

(٦) المستدرک (٢/ ٢٨٧) وتعقبه الذهبى، قلت: «منقطع»، وذلك لأن يحيى بن أبى كثير رأى أنساً ولم يسمع منه.

(٧) فى جـ، أ: «بالغفر».

(٨) فى أ: «إلى سبيل».

عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس فی قول الله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، إلى قوله: ﴿غُفْرَانِكَ رَبَّنَا﴾ قال: قد غفرت لكم، ﴿وَالَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أى: إليك المرجع والمآب يوم يقوم الحساب.

قال ابن جریر: حدثنا ابن حمید، حدثنا جریر، عن بیان، عن حکیم بن جابر قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكْتَبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانِكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ قال جبريل: إن الله قد أحسن الشاء عليك وعلى أمتك، فسل تعطه. فسأل: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلى آخر الآية^(١).

وقوله: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أى: لا يكلف أحداً فوق طاقته، وهذا من لطفه تعالى بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم، وهذه هي النسخة الرافعة لما كان أشق منه الصحابة، فى قوله: ﴿وَأَنْ تَبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ أى: هو وإن حاسب وسأل لكن لا يعذب إلا بما يملك^(٢) الشخص دفعه، فأما ما لا يمكن دفعه من وسوسة النفس وحديثها، فهذا لا يكلف به الإنسان، وكراهية الوسوسة السيئة من الإيمان.

وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أى: من خير، ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ أى: من شر، وذلك فى الأعمال التى تدخل تحت التكليف، ثم قال^(٣) تعالى مرشداً عباده إلى سؤاله، وقد تكفل لهم بالإجابة، كما أرشدهم وعلمهم أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا﴾^(٤) أى: إن تركنا فرضاً على جهة النسيان، أو فعلنا حراماً كذلك، ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أى: الصواب فى العمل، جهلاً منا بوجهه الشرعى.

وقد تقدم فى صحيح مسلم لحديث أبى هريرة: «قال الله: نعم» ولحديث^(٥) ابن عباس، قال الله: «قد فعلت».

وروى ابن ماجة فى سننه، وابن حبان فى صحيحه^(٦)، من حديث أبى عمرو الأوزاعى، عن عطاء - قال ابن ماجة فى روايته: عن ابن عباس. وقال الطبرانى وابن حبان: عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله وضع^(٧) عن أمتى الخطأ والنسيان، وما استكروها عليه». وقد روى من طرق آخر وأعله^(٨) أحمد وأبو حاتم، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا أبو بكر الهذلى، عن شهر، عن أم الدرداء، عن النبى ﷺ قال: «إن الله تجاوز لأمتى عن ثلاث: عن الخطأ، والنسيان، والاستكراه» قال أبو بكر: فذكرت ذلك للحسن، فقال: أجل، أما تقرأ بذلك قرآناً: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا

(١) فى أ، و: «إلى آخر السورة». (٢) فى أ، و: «على ما يملك».

(٣) فى ج: «وقال». (٤) زيادة من أ، و.

(٦) سنن ابن ماجة برقم (٢٠٤٥) وصحيح ابن حبان برقم (١٤٩٨) «موارد».

(٧) فى أ: «إن الله قد وضع». (٨) فى ج، أ، و: «وعلله».

(٩) العلل لابن أبى حاتم (١/ ٤٣١) والعلل للإمام أحمد (١/ ٢٢٧) وانظر فى تفصيل الكلام على الحديث وعلته: جامع العلوم والحكم للحافظ ابن رجب (٢/ ٣٦١) ط. الرسالة، وفتح البارى للحافظ ابن حجر (٥/ ١٦١).

إِنْ تُسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا»^(١).

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ أى: لا تكلفنا من الأعمال الشاقة وإن أطقناها، كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والأصار التى كانت عليهم، التى بعثت نبيك محمداً ﷺ نبي الرحمة بوضعه فى شرعه الذى أرسلته به، من الدين الحنيف السهل السمح.

وقد ثبت فى صحيح مسلم، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: نعم». وعن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: قد فعلت». وجاء الحديث من طرق، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة»^(٢).

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ أى: من التكليف والمصائب والبلاء، لا تبتلينا بما لا قبل لنا به.

وقد قال مكحول فى قوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال: الغرباء والغلظة، رواه^(٣) ابن أبى حاتم، «قال الله: نعم» وفى الحديث الآخر: «قال الله: قد فعلت».

وقوله: ﴿وَأَعْفُ عَنَّا﴾ أى: فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا، ﴿وَأَغْفِرْ لَنَا﴾ أى: فيما بيننا وبين عبادك، فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة، ﴿وَارْحَمْنَا﴾ أى: فيما يستقبل، فلا توقعنا بتوبيقك فى ذنب آخر، ولهذا قالوا: إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه فى نظيره. وقد تقدم فى الحديث أن الله قال: نعم. وفى الحديث الآخر: «قال الله: قد فعلت».

وقوله: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ أى: أنت ولينا وناصرنا، وعليك توكلنا، وأنت المستعان، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك^(٤)، ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أى: الذين جحدوا دينك، وأنكروا وحدانيتك، ورسالة نبيك، وعبدوا غيرك، وأشركوا معك من عبادك، فانصرنا عليهم، واجعل لنا العاقبة عليهم فى الدنيا والآخرة، قال الله: نعم. وفى الحديث الذى رواه مسلم، عن ابن عباس: «قال الله: قد فعلت».

وقال ابن جرير: حدثنى المثنى بن إبراهيم، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن أبى إسحاق، أن معاذاً، رضى الله عنه، كان إذا فرغ من هذه السورة^(٥) ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال: آمين^(٦). ورواه وكيع عن سفيان، عن أبى إسحاق، عن رجل، عن معاذ بن جبل: أنه كان إذا ختم البقرة قال: آمين^(٧).

(١) ورواه ابن عدى فى الكامل (٣/ ٣٢٥) من طريق أبى بكر الهذلى، عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء، عن أبى الدرداء مرفوعاً وليس عنده قول أبى بكر للحسن.

(٢) جاء من حديث أبى أمامة، وابن عباس، وعائشة، وجابر رضى الله عنهم، أصحها حديث ابن عباس رواه الإمام أحمد فى المسند (١/ ٢٣٦) وحسنه الحافظ ابن حجر فى الفتح.

(٣) فى ج: «ورواه». (٤) فى ج: «إلا بالله». (٥) فى ج: «من سورة البقرة».

(٦) تفسير الطبرى (٦/ ١٤٦).

(٧) جاء فى ج: «آخر تفسير سورة البقرة والله الحمد والمنة والفضل والثناء الحسن الجميل، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، يتلوه إن شاء الله سورة آل عمران».

تفسير سورة آل عمران

هى مدنية؛ لأن صدرها^(١) إلى ثلاث وثمانين آية منها نزلت فى وفد نجران، وكان قدومهم فى سنة تسع من الهجرة، كما سيأتى بيان ذلك، إن شاء الله تعالى عند تفسير آية المباهلة منها، وقد ذكرنا ما ورد فى فضلها مع سورة البقرة فى أول تفسير [سورة] البقرة^(٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْم ١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ .

وقد ذكرنا الحديث الوارد فى أن اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. و﴿الْم. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ عند تفسير آية الكرسي، وتقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿الْم﴾ فى أول سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته، وتقدم أيضاً الكلام على قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ فى تفسير آية الكرسي.

وقوله تعالى: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ يعنى: نزل عليك القرآن يا محمد ﴿بِالْحَقِّ﴾ أى: لا شك فيه ولا ريب، بل هو منزل من عند الله [عز وجل]^(٣)، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون، وكفى بالله^(٤) شهيداً.

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى: من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله الأنبياء، فهى تصدقه بما أخبرت به وبشرت فى قديم الزمان، وهو يصدقها؛ لأنه طابق ما أخبرت به وبشرت، من الوعد من الله بإرسال محمد ﷺ، وإنزال القرآن العظيم عليه.

وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ﴾ أى: على موسى بن عمران [عليه السلام]^(٥)، ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ أى: على عيسى ابن مريم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أى: من قبل هذا القرآن ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ أى: فى زمانهما ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ وهو الفارق بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والغنى والرشاد، بما يذكره الله تعالى من الحجج والبيانات، والدلائل الواضحات، والبراهين القاطعات، ويبينه ويوضحه ويفسره ويقرره، ويرشد إليه وينبه عليه من ذلك.

وقال قتادة والربيع بن أنس: الفرقان ههنا القرآن. واختار ابن جرير أنه مصدر ههنا؛ لتقدم ذكر

(٣) زيادة من ج، ر.

(٢) زيادة من أ.

(١) فى ج: «صدورها»، وفى أ: «صورها».

(٥) زيادة من ج، أ.

(٤) فى ج، ر: «به».

القرآن في قوله: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وهو القرآن. وأما ما رواه ابن أبي حاتم عن أبي صالح أن المراد ههنا بالفرقان: التوراة فضيف أيضاً؛ لتقدم ذكرها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أى: جحدوا بها وأنكروها، وردوها بالباطل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أى: يوم القيامة ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أى: منيع الجنب عظيم السلطان ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ أى: ممن كذب بآياته^(١)، وخالف رسله الكرام، وأنبياءه العظام.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦)﴾.

يخبر تعالى أنه يعلم غيب السموات والأرض، [و] (٢) لا يخفى عليه شيء من ذلك ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أى: يخلقكم كما يشاء في الأرحام من ذكر وأنثى، [و] (٣) حسن وقبيح، وشقى وسعيد ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أى: هو الذى خلق، وهو المستحق للإلهية وحده لا شريك له، وله العزة التى لا ترام، والحكمة والأحكام.

وهذه الآية فيها تعريض بل تصريح بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق، كما خلق الله سائر البشر؛ لأن الله [تعالى] (٤) صورته في الرحم وخلقها، كما يشاء، فكيف يكون إلهاً كما زعمته النصارى - عليهم لعائن الله - وقد تقلب في الأحشاء، وتنقل من حال إلى حال، كما قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثَ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانْتَظِرُوا﴾ [الزمر: ٦]؟

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧) رَبَّنَا لَا تَزِرْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩)﴾.

يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب، أى: بينات واضحات الدلالة، لا التباس فيها على أحد من الناس، ومنه آيات آخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم، فمن رد ما اشتبه عليه إلى الواضح منه، وحكم محكمه على متشابهه عنده، فقد اهتدى. ومن عكس انعكس؛ ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أى: أصله

(١) زيادة من ج، و.

(٢) زيادة من ج.

(٣) فى ج، ر: «آياته».

(٤) زيادة من ج.

الذى يرجع إليه عند الاشتباه ﴿وَأَخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ أى: تحتمل^(١) دلالتها موافقة المحكم، وقد تحتمل^(٢) شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب، لا من حيث المراد.

وقد اختلفوا فى المحكم والمتشابه، فروى عن السلف عبارات كثيرة، فقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس [أنه قال]^(٣): المحكمات ناسخه، وحلاله وحرامه، وحدوده وفرائضه، وما يؤمر^(٤) به ويعمل به. وكذا روى عن عكرمة، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، ومقاتل بن حيان، والربيع بن أنس، والسدى أنهم قالوا: المحكم الذى يعمل به.

وعن ابن عباس أيضاً أنه قال: المحكمات [فى]^(٥) قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ [الأنعام: ١٥١] والآيتان بعدها، وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى ثلاث آيات بعدها. رواه ابن أبى حاتم، وحكاه عن سعيد بن جبيرة [ثم]^(٦) قال: حدثنا أبى، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن إسحاق بن سويد أن يحيى بن يعمر وأبا فاختة تراجعا فى هذه الآية: ﴿هُنَّ^(٧) أُمُّ الْكِتَابِ﴾، فقال أبو فاختة: فواتح السور. وقال يحيى بن يعمر: الفرائض، والأمر والنهى، والحلال والحرام^(٨).

وقال ابن لهيعة، عن عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبيرة: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يقول: أصل الكتاب، وإنما سماهن أم الكتاب؛ لأنهن مكتوبات فى جميع الكتب. وقال مقاتل بن حيان: لأنه ليس من أهل دين إلا يرضى بهن.

وقيل فى المتشابهات: إنهن المنسوخة، والمقدم منه والمؤخر، والأمثال فيه والأقسام، وما يؤمن به ولا يعمل به. رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس.

وقيل: هى الحروف المقطعة فى أوائل السور، قاله مقاتل بن حيان.

وعن مجاهد: المتشابهات يصدق بعضهن بعضاً. وهذا إنما هو فى تفسير قوله: ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي﴾ [الزمر: ٢٣]. هناك ذكروا: أن المتشابه هو الكلام الذى يكون فى سياق واحد، والمثانى هو الكلام فى شيئين متقابلين كصفة الجنة وصفة النار، وذكر حال الأبرار ثم حال^(٩) الفجار، ونحو ذلك. فأما هاهنا فالمتشابه هو الذى يقابل المحكم.

وأحسن ما قيل فيه الذى قدمناه، وهو الذى نص عليه محمد بن إسحاق بن يسار، رحمه الله، حيث قال: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾: فهن حجة الرب، وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس لهن تصريف ولا تحريف عما وضعن^(١٠) عليه.

قال: والمتشابهات فى الصدق، لهن تصريف وتحريف وتأويل، ابتلى الله فهن العباد، كما ابتلاهم فى الحلال والحرام ألا^(١١) يصرفن إلى الباطل، ولا يحرفن عن الحق.

(٤) فى ج، ر: «يؤمن».

(٧) فى ر: «هى».

(١١) فى ج: «لا».

(٣) زيادة من ج، ر، أ، و.

(٦) زيادة من أ، و.

(١٠) فى أ: «وصفن».

(١، ٢) فى أ، ر: «يحتمل».

(٥) زيادة من ج، ر.

(٨) تفسير ابن أبى حاتم (٥٥/٢).

(٩) فى و: «وحال».

ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أى: ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ أى: إنما يأخذون منه بالمتشابه الذى يكتنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزلوه عليها، لاحتمال لفظه لما يصرفونه^(١)، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه؛ لأنه دافع لهم وحجة عليهم، ولهذا قال: ﴿ابْتَغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أى: الإضلال لأتباعهم، إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهذا حجة عليهم لا لهم، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى هو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وتركوا الاحتجاج بقوله [تعالى]^(٢): ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩]، ويقول: ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] وغير ذلك من الآيات المحكمة المصراحة بأنه خلق من مخلوقات الله، وعبد، ورسول من رسل الله.

وقوله: ﴿وَابْتَغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ أى: تحريفه على ما يريدون^(٣). وقال مقاتل والسدى: يبتغون أن يعلموا ما يكون وما عواقب الأشياء من^(٤) القرآن.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب عن عبد الله بن أبي مليكة، عن عائشة قالت: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ^(٥) إلى قوله: ﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ فقال: «فإذا رأيتم الذين يُجَادِلُونَ فيه فهم الذين عَنِ اللَّهِ فَأَحْذَرُوهُمْ»^(٦).

هكذا وقع هذا الحديث فى مسند الإمام أحمد، رحمه الله، من رواية ابن أبي مليكة، عن عائشة، ليس بينهما أحد.

وهكذا رواه ابن ماجة من طريق إسماعيل بن عُلَيَّة وعبد الوهاب الثقفى، كلاهما عن أيوب، عن عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة، عنها^(٧).

ورواه محمد بن يحيى العبدى فى مسنده عن عبد الوهاب الثقفى، عن أيوب، به. وكذا رواه عبد الرزاق، عن مَعْمَر^(٨)، عن أيوب. وكذا رواه غير واحد عن أيوب. وقد رواه ابن حبان فى صحيحه، من حديث أيوب، به.

وتابع أيوب أبو عامر الخزاز^(٩) وغيره عن ابن أبي مليكة، فرواه الترمذى عن بُنْدَار، عن أبى داود الطيالسى، عن أبى عامر الخزاز، فذكره. وهكذا رواه سعيد بن منصور فى سننه، عن حماد بن يحيى الأبح، عن عبد الله بن أبي مليكة، عن عائشة. ورواه ابن جرير، من حديث روح بن القاسم ونافع بن عمر الجمحى، كلاهما عن ابن أبي مليكة، عن عائشة، به. وقال نافع فى روايته عن ابن أبي مليكة: حدثنى عائشة، فذكره^(١٠).

(١) فى ج: «تصرفونه». (٢) زيادة من ج، ر. (٣) فى أ: «يريدونه».

(٤) فى ج، ر، أ: «فى». (٥) زيادة من ج، ر، أ، و. (٦) فى أ: «فاحذروهم».

(٧) المسند (٤٨/٦) وابن ماجة فى السنن برقم (٤٧).

(٨) فى ر: «يعمر». (٩) فى هـ، ج، ر، أ: «الخرزاز».

(١٠) عبد الرزاق فى تفسيره برقم (٣٧٦) وابن حبان فى صحيحه (٤٧/١) «الإحسان» والترمذى فى السنن برقم (٢٩٩٣) وسعيد بن منصور فى السنن برقم (٤٩٢) وابن جرير فى تفسيره (١٩١/٦).

وقد روى هذا الحديث البخارى، رحمه الله، عند تفسير هذه الآية، ومسلم فى كتاب القدر من صحيحه، وأبو داود فى السنة من سننه، ثلاثهم، عن القَعْنِيّ، عن يزيد بن إبراهيم التستريّ، عن ابن أبى مليكة، عن القاسم بن محمد، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: تلا رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ [هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ]﴾^(١) إلى قوله: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سَمَى اللهُ فَأَحْذَرُوهُمْ» لفظ البخارى^(٢).

وكذا رواه الترمذى أيضاً، عن بندار، عن أبى داود الطيالسى، عن يزيد بن إبراهيم التستريّ، به. وقال: حسن صحيح. وذكر أن يزيد بن إبراهيم التستريّ تفرد بذكر القاسم فى هذا الإسناد، وقد رواه غير واحد عن ابن أبى مليكة، عن عائشة، ولم يذكروا القاسم. كذا قال^(٣).

ورواه ابن المنذر فى تفسيره من طريقين عن النعمان بن محمد بن الفضل السدوسى - ولقبه عارم - حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب، عن ابن أبى مليكة، عن عائشة، به^(٤).

وقد رواه ابن أبى حاتم فقال: حدثنا أبى، حدثنا أبو الوليد الطيالسى، حدثنا يزيد بن إبراهيم التستريّ وحماد بن سلمة، عن ابن أبى مليكة، عن القاسم بن محمد، عن عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سَمَى اللهُ فَأَحْذَرُوهُمْ»^(٥).

وقال ابن جرير: حدثنا على بن سهل حدثنا الوليد^(٦) بن مسلم، عن حماد بن سلمة، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة قالت: نزع رسول الله ﷺ بهذه الآية: ﴿يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «قد حَذَرَكُمُ اللهُ، فإذا رأيتموهم فاعرفوهم». ورواه ابن مردويه من طريق أخرى، عن القاسم، عن عائشة، به^(٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، حدثنا حماد، عن أبى غالب قال: سمعت أبا أمامة يحدث، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ قال: «هم الخوارج»، وفى قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] قال: «هم الخوارج».

وقد رواه ابن مردويه من غير وجه، عن أبى غالب، عن أبى أمامة مرفوعاً، فذكره^(٨).

(١) زيادة من ج، ر، أ، و.

(٢) البخارى فى صحيحه برقم (٤٥٤٧) ومسلم برقم (٢٦٦٥) وأبو داود فى السنن برقم (٤٥٩٨).

(٣) سنن الترمذى برقم (٢٩٩٣)، (٢٩٩٤).

(٤) تفسير ابن المنذر كما فى الدر (١٤٨/٢) ورواه البيهقى فى دلائل النبوة (٥٤٦/٦) من طريق حماد بن زيد، به.

(٥) تفسير ابن أبى حاتم (٦٤/٢)، ومسنند الطيالسى برقم (١٤٣٣).

(٦) فى أ: «أبو الوليد».

(٧) تفسير الطبرى (١٩٢/٦)، ورواه الآجرى فى الشريعة (ص ٣٣٢).

(٨) أحمد فى المسند (٢٦٢/٥) ورواه الطبرانى فى الكبير (٣٢٥/٨) وابن أبى حاتم فى تفسيره (٦٠/٢) من طريق أبى غالب به.

وهذا الحديث أقل أقسامه أن يكون موقوفاً من كلام الصحابي ، ومعناه صحيح ؛ فإن أول بدعة وقعت في الإسلام فتنة الخوارج ، وكان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسم رسول الله ﷺ غنائم حنين ، فكانهم رأوا في عقولهم الفاسدة أنه لم يعدل في القسمة ، ففاجؤوه بهذه المقالة ، فقال قائلهم - وهو ذو الحويصرة - بقر الله خاصرته :- اعدل فإنك لم تعدل ، فقال له رسول الله ﷺ : «لقد خبتُ وخسرتُ إن لم أكن أعدل ، أيا مئنتي على أهل الأرض ولا تأمئوني» . فلما قفا الرجل استأذن عمر بن الخطاب - وفي رواية : خالد بن الوليد - [ولا بُعد في الجمع] (٢) - رسول الله في قتله ، فقال : «دعه فإنه يخرج من ضئضئ هذا - أي : من جنسه - قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقراءته مع قراءتهم ، يَمْرُقُونَ من الدين كما يَمْرُقُ السهم من الرمية ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم ، فإن في قتلهم أجراً (٣) لمن قتلهم» .

ثم كان ظهورهم أيام علي بن أبي طالب ، وقتلهم (٤) بالنهرवान ، ثم تشعبت منهم شعوب وقبائل وآراء وأهواء ومقالات ونحل كثيرة منتشرة ، ثم نبعت القدرية ، ثم المعتزلة ، ثم الجهمية ، وغير ذلك من البدع التي أخبر عنها الصادق المصدوق في قوله : «وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة» قالوا : [من] (٥) هم يا رسول الله ؟ قال : «من كان على ما أنا عليه وأصحابي» . أخرجه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة (٦) .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو موسى ، حدثنا عمرو بن عاصم ، حدثنا المعتمر ، عن أبيه ، عن قتادة ، عن الحسن عن جندب بن عبد الله أنه بلغه ، عن حذيفة - أو سمعه منه - يحدث عن رسول الله ﷺ أنه ذكر : «إن في أمتي قوماً يقرؤون القرآن ينثرونه نثر الدقل ، يتأولونه على غير تأويله» . [لم] (٧) يخرجوه (٨) .

[وقوله] (٩) : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ : اختلف القراء في الوقف ههنا ، ف قيل : على الجلالة ، كما تقدم عن ابن عباس أنه قال : التفسير على أربعة أنحاء : فتفسير لا يعذر أحد في فهمه ، وتفسير تعرفه (١٠) العرب من لغاتها ، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم ، وتفسير لا يعلمه إلا الله عز وجل . ويروى هذا القول عن عائشة ، وعروة ، وأبي الشعثاء ، وأبي نهيك ، وغيرهم .

وقد قال الحافظ أبو القاسم في المعجم الكبير : حدثنا هاشم بن مرثد (١١) ، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش ، حدثني أبي ، حدثني ضَمَضَم بن زُرْعَة ، عن شُرَيْح بن عبيد ، عن أبي مالك الأشعرى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «لا أخاف على أمتي إلا ثلاث خلال : أن يكثر لهم المال

(١) في و : «النبى» . (٢) زيادة من ج ، ر . (٣) في ر : «أجر» وهو خطأ .

(٤) في ج ، ر : «فقتلهم» . (٥) في ج ، ر : «ومن» .

(٦) المستدرک (٢٨/١) من حديث عبد الله بن عمرو ، والزيادة هي قوله : «كلها في النار إلا واحدة» ، وقد ضعفها ابن الوزير ونسبه إلى ابن حزم ، وللشيخ ناصر الألباني بحث أثبت فيه صحة هذه الزيادة فليراجع السلسلة الصحيحة برقم (٢٠٤) .

(٧) في ج : «ولم» .

(٨) وذكره الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (٣/٣٠٠) وعزاه لأبي يعلى ، لكنه ذكره من حديث عائشة .

(٩) زيادة من و . (١٠) في ر : «يعرفه» . (١١) في ه ، ج ، ر ، أ : «مزيد» .

فيتحاسدوا فيقتتلوا، وأن يفتح لهم الكتاب^(١) فيأخذ^(٢) المؤمن يتبغى تأويله، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ [كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ]^(٣) الآية، وأن يزداد علمهم فيضيعوه ولا يبالون عليه غريب جداً^(٤). وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، أخبرنا أحمد بن عمرو، أخبرنا هشام بن عمار، أخبرنا ابن أبي حاتم^(٥)، عن أبيه، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن ابن العاص، عن رسول الله ﷺ قال: «إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه فآمنوا به»^(٦).

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه قال: كان ابن عباس يقرأ: «وما يعلم تأويله إلا الله، ويقول الراسخون: آمنا به»^(٧). وكذا رواه ابن جرير، عن عمر بن عبد العزيز، ومالك بن أنس: أنهم يؤمنون به ولا يعلمون تأويله. وحكى ابن جرير أن في قراءة عبد الله بن مسعود: «إن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به». وكذا عن أبي بن كعب. واختار ابن جرير هذا القول. ومنهم من يقف على قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول، وقالوا: الخطاب بما لا يفهم بعيد.

وقد روى ابن أبي نجیح، عن مجاهد، عن ابن عباس أنه قال: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: والراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به. وكذا قال الربيع بن أنس.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ الذي أراد ما أراد ﴿إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ ثم ردوا تأويل المتشابه على ما عرفوا من تأويل المحكمات التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد، فأتسق بقولهم الكتاب، وصدق بعضه^(٨) بعضاً، فنفذت الحجة، وظهر به العذر، وزاح به الباطل، ودفع به الكفر.

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ دعا لابن عباس فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل».

ومن العلماء من فصل في هذا المقام، فقال: التأويل يطلق ويراد به في القرآن معنيان، أحدهما: التأويل بمعنى حقيقة الشيء، وما يؤول أمره إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رَبِّيَ حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠]، وقوله^(٩): ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف: ٥٣] أى: حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد

(١) في ر، أ: «الكتب» وفي و: «تفتح لهم الكتب». (٢) في ج: «ليأخذ». (٣) زيادة من أ، و. (٤) الطبراني في الكبير (٢٩٢/٣) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٨/١): «فيه محمد بن إسماعيل بن عياش عن أبيه ولم يسمع من أبيه».

(٥) في ج، ر، أ، و: «حازم».

(٦) ورواه ابن الضريس في فضائل القرآن، وابن سعد في الطبقات الكبرى (١٩٧/١/٤) وإسناده حسن.

(٧) عبد الرزاق في تفسيره برقم (٣٧٧).

(٨) في ج: «بعضهم».

(٩) في أ: «وقال».

بالتأويل هذا، فالوقوف على الجلالة؛ لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الجلية إلا الله عز وجل، ويكون قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ مبتدأ و﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ خبره. وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر^(١) وهو التفسير والتعبير والبيان عن الشيء كقوله تعالى: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف: ٣٦] أى: بتفسيره، فإن أريد به هذا المعنى، فالوقوف على: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ حالاً^(٢) منهم، وساغ هذا، وهو أن يكون من المعطوف دون المعطوف عليه، كقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾^(٣) يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ^(٤) الآية [الحشر: ٨-١٠]، وكقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رِبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] أى: وجاءت الملائكة صفوفاً صفوفاً.

وقوله إخباراً عنهم أنهم ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ أى: بالمتشابهة ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ أى: الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق، وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له؛ لأن الجميع من عند الله وليس شيء من عند الله بمختلف ولا متضاد لقوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أى: إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف الحمصي، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا فياض الرقي، حدثنا عبد الله^(٥) بن يزيد - وكان قد أدرك أصحاب النبي ﷺ: أنساً، وأبا أمامة، وأبا الدرداء، رضى الله عنهم، قال: حدثنا أبو الدرداء، أن رسول الله ﷺ سئل عن الراسخين في العلم، فقال: «من برت يمينه، وصدق لسانه، واستقام قلبه، ومن أعف^(٦) بطنه وفرجه، فذلك من الراسخين في العلم»^(٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: سمع رسول الله ﷺ قوماً يتدارؤون فقال: «إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما أنزل^(٨) كتاب الله ليصدق بعضه بعضاً، فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه»^(٩).

(١) فى أ: «الأخير». (٢) فى ر: «حال» وهو خطأ. (٣، ٤) زيادة من أ، و.

(٥) فى و: «عبيد الله». (٦) فى أ، و: «عف».

(٧) تفسير ابن أبي حاتم (٢/٧٢) ورواه الطبري (٦/٢٠٧) والطبراني فى الكبير كما فى الدر (٢/١٥١) من طريق عبد الله بن يزيد به. قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/٣٢٤): «عبد الله بن يزيد ضعيف».

(٨) فى ج، ر، أ، و: «نزل».

(٩) المسند (٢/١٨٥) ورواه ابن ماجة برقم (٨٥) والبعوى فى شرح السنة (١/٢٦٠) من طريق عمرو بن شعيب به. وقال البوصيرى فى «زوائد ابن ماجة» (١/٥٨): «إسناده صحيح ورجاله ثقات».

و[قد]^(١) تقدم رواية ابن مردويه لهذا الحديث، من طريق هشام بن عمار، عن ابن أبي حازم^(٢)، عن أبيه، عن عمرو بن شعيب، به.

وقد قال الحافظ أبو يعلى أحمد بن على بن المثنى الموصلى فى مسنده، حدثنا زهير بن حرب، حدثنا أنس بن عياض، عن أبي حازم، عن أبي سلمة قال: لا أعلمه إلا عن أبي هريرة، أن^(٣) رسول الله ﷺ قال: «نزل القرآن على سبعة أحرف، والمرأء فى القرآن كفر - ثلاثاً - ما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه».

وهذا إسناد صحيح، ولكن فيه علة بسبب قول الراوى: «لا أعلمه إلا عن أبي هريرة»^(٤).

وقال ابن المنذر فى تفسيره: أخبرنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أخبرنا ابن وهب قال: أخبرنى نافع بن يزيد قال: يقال: الراسخون فى العلم المتواضعون لله، المتذللون لله فى مرضاته، لا يتعاطون^(٥) من فوقهم، ولا يحقرون من دونهم. [ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أى: إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعانى على وجهها أولو العقول السليمة أو الفهوم المستقيمة]^(٦).

ثم قال تعالى عنهم مخبراً أنهم^(٧) دعوا ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أى: لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه ولا تجعلنا كالذين فى قلوبهم زيغ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم، ودينك القويم ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ﴾ أى: من عندك ﴿رَحْمَةً﴾ تثبت بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودى - وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب - قالوا جميعاً: حدثنا وكيع، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، عن أم سلمة، رضى الله عنها، أن النبى ﷺ كان يقول: «يا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، ثم قرأ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾. ورواه ابن مردويه من طريق محمد بن بكار، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، عن أم سلمة، وهى^(٨) أسماء بنت يزيد^(٩) ابن السكن، سمعها تحدث أن رسول الله ﷺ كان يكثر فى دعائه: «اللهم مقلب القلوب، ثبت قلبى على دينك» قالت: قلت: يا رسول الله، وإن القلب ليتقلب^(١٠)؟ قال: «نعم، ما خلق الله من بنى آدم من بشر إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله عز وجل، فإن شاء أقامه، وإن شاء أزاعه». ففسأل الله ربنا ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة، إنه هو الوهاب.

وهكذا رواه ابن جرير من حديث أسد بن موسى، عن عبد الحميد بن بهرام، به مثله. ورواه أيضاً عن المثنى، عن الحجاج بن منهال، عن عبد الحميد بن بهرام، به مثله، وزاد: «قلت»^(١١): يا رسول الله،

(١) زيادة من أ. (٢) فى ج، ر، أ: «حاتم». (٣) فى أ: «فإن».

(٤) أبو يعلى فى المسند برقم (٦٠١٦) ومن طريقه رواه ابن حبان فى صحيحه (١٤٦/١) «الإحسان» ورواه أحمد فى المسند (٣٠٠/٢) والنسائى فى الكبرى (٣٣/٥) من طريق أنس بن عياض به. وليس فى رواية النسائى الشك «لا أعلمه».

(٥) فى ج، أ: «يتعاطمون». (٦) زيادة من ج، ر، أ. (٧) فى ج، ر: «عنهم».

(٨) فى و: «عن». (٩) فى أ: «زيد». (١٠) فى و: «ليقلب».

(١١) فى أ، و: «وزاد: «قالت: قلت».

ألا تعلمنى دعوة أدعو بها لنفسى؟ قال: «بلى، قولى: اللهم رب النبی محمد، اغفر لى ذنبى، وأذهب غيظ قلبى، وأجرنى من مضلات الفتن»^(١).

ثم قال ابن مردويه: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن هارون بن بكار الدمشقى، أخبرنا العباس بن الوليد الخلال، أخبرنا يزيد بن يحيى بن عبيد الله، أخبرنا سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أبى حسان الأعرج^(٢)، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبى على دينك»، قلت: يا رسول الله، ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء. فقال: «ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن، إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاعه، أما تسمعين قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾»^(٣).

غريب من هذا الوجه، ولكن أصله ثابت فى الصحيحين، وغيرهما من طرق كثيرة بدون زيادة ذكر هذه الآية الكريمة.

وقد روى أبو داود والنسائى وابن مردويه، من حديث أبى عبد الرحمن المقرئ - زاد النسائى وابن حبان: وعبد الله بن وهب، كلاهما عن سعيد بن أبى أيوب، حدثنى عبد الله بن الوليد التُّجيبى، عن سعيد بن المسيب، عن عائشة، رضى الله عنها، أن رسول الله ﷺ كان إذا استيقظ من الليل قال: «لا إله إلا أنت سبحانك، اللهم إنى أستغفرك لذنبى، وأسألك رحمة، اللهم زدنى علماً، ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى، وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب» لفظ ابن مردويه^(٤).

وقال عبد الرزاق، عن مالك، عن أبى عبيد - مولى سليمان بن عبد الملك - عن عبادة بن نسي، أنه أخبره، أنه سمع قيس بن الحارث يقول: أخبرنى أبو عبد الله الصنابحى، أنه صلى وراء أبى بكر الصديق المغرب، فقرأ أبو بكر فى الركعتين الأوليين^(٥) بأم القرآن وسورتين من قصار المفصل، وقرأ فى الركعة الثالثة، قال: فدنوت منه حتى إن ثيابى لتكاد تمس ثيابه، فسمعتة يقرأ^(٦) بأم القرآن وهذه الآية: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾^(٧) (٨).

قال أبو عبيد: وأخبرنى عبادة بن نسي: أنه كان عند عمر بن عبد العزيز فى خلافته، فقال عمر لقيس: كيف أخبرتنى عن أبى عبد الله الصنابحى فأخبره بما سمع أبا عبد الله ثانياً. قال عمر: فما تركناها منذ سمعناها منه، وإن كنت^(٩) قبل ذلك لعلنى غير ذلك. فقال له رجل: على أى شىء كان

(١) ابن أبى حاتم فى تفسيره (٨٤/٢) والطبرى فى تفسيره (٢١٣/٦) ورواه أحمد فى المسند (٣١٥/٦) والترمذى فى السنن (٣٥٢٢) وابن أبى عاصم فى السنة برقم (٢٢٣) من طريق أبى كعب صاحب الحرير عن شهر بن حوشب به. وللحديث شواهد عن عائشة وأنس وجابر والناس بن سمعان رضى الله عنهم.

(٢) فى هـ، ج، ر، أ: «عن حسان الأعرج».

(٣) وفى إسناده سعيد بن بشير وهو ضعيف، وقد تفرد بزيادة هذه الآية، وقد رواه أحمد فى المسند (٢٥١/٦) من طريق حماد بن سلمة عن على بن زيد عن أم محمد عن عائشة به، وليس فيه زيادة هذه الآية.

(٤) أبو داود فى السنن برقم (٥٠٦١) والنسائى فى الكبرى برقم (١٠٧٠١).

(٥) فى ر: «الأولتين». (٦) فى و: «يقراً أى فى الثالثة». (٧) زيادة من ج، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٨) رواه مالك فى الموطأ (٧٩/١).

(٩) فى أ: «كعب».

أمير المؤمنين قبل ذلك؟ قال: كنت أقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

وقد روى هذا الأثر الوليد بن مسلم، عن مالك والأوزاعي، كلاهما عن أبي عبيد، به. ورواه الوليد أيضاً، عن ابن جابر، عن يحيى بن يحيى الغساني، عن محمود بن لبيد، عن الصنابحي: أنه صلى خلف أبي بكر، رضى الله عنه، المغرب فقرأ في الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة قصيرة، يجهر بالقراءة، فلما قام إلى الثالثة ابتدأ القراءة فدنوت منه حتى إن ثيابه لتمس ثيابه، فقرأ هذه الآية: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا [بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ]﴾^(١).

وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ أى: يقولون فى دعائهم: إنك - يا ربنا - ستجمع بين خلقك يوم معادهم، وتفصل بينهم وتحكم فيهم^(٢) فيما اختلفوا فيه، وتجزى كلا بعمله، وما كان عليه فى الدنيا من خير وشر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١)﴾.

يخبر تعالى عن الكفار أنهم وقود النار، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢]، وليس ما أوتوه فى الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند الله، ولا بمنجيتهم من عذابه وأليم عقابه، بل كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿لَا (٣) يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧] كما قال ههنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: بآيات الله وكذبوا رسله، وخالفوا كتابه، ولم ينتفعوا بوحىه إلى أنبيائه ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ أى: حطبها الذى تسجر به وتوقد به، كقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ [أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ]﴾^(٤) [الأنبياء: ٩٨].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى مريم، أخبرنا ابن لهيعة، أخبرنى ابن الهاد، عن هند بنت الحارث، عن أم الفضل أم عبد الله بن عباس قالت: بينما نحن بمكة قام رسول الله ﷺ من الليل، فقال^(٥): «هل بلغت، اللهم هل بلغت...» ثلاثاً، فقام عمر بن الخطاب فقال: نعم. ثم أصبح فقال النبى ﷺ: «ليظهروا الإسلام حتى يرد الكفر إلى مواطنه، ولتخوضن^(٦) البحار بالإسلام، وليأتين على الناس زمان يتعلمون القرآن ويقرؤونه، ثم يقولون: قد قرأنا وعلمنا، فمن هذا الذى هو خير منا، فهل فى أولئك من خير؟» قالوا: يا رسول الله، فمن أولئك؟ قال: «أولئك منكم»^(٧) وأولئك هم

(١) زيادة من ج، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٢) فى أ، و: «بينهم».

(٣) فى ج، ر: «ولا» وهو خطأ.

(٤) زيادة من ج، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٥) فى أ، و: «فنادى».

(٦) فى أ: «وليتخوضن».

(٧) فى ج، أ، و: «منهم».

وقود النار». وكذا رأيته بهذا اللفظ.

وقد رواه ابن مردويه من حديث يزيد بن عبد الله بن الهاد، عن هند بنت الحارث، امرأة عبد الله بن شداد، عن أم الفضل؛ أن رسول الله ﷺ قام ليلة بمكة فقال: «هل بلغت» يقولها ثلاثاً، فقام عمر بن الخطاب - وكان أواهاً - فقال: اللهم نعم، وحرصت وجهدت ونصحت فاصبر. فقال النبي ﷺ: «ليظهرن الإيمان حتى يرد الكفر إلى موطنه، وليخوضن رجال البحار بالإسلام»^(١)، وليأتين على الناس زمان يقرؤون القرآن، فيقرؤونه ويعلمونه، فيقولون: قد قرأنا، وقد علمنا، فمن هذا الذي هو خير منا؟ فما في أولئك من خير» قالوا: يا رسول الله، فمن أولئك؟ قال: «أولئك منكم، وأولئك هم وقود النار»^(٢) ثم رواه من طريق موسى بن عبيد، عن محمد بن إبراهيم، عن بنت الهاد، عن العباس بن عبد المطلب بنحوه.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس: كصنيع آل فرعون. وكذا روى عن عكرمة، ومجاهد، وأبي مالك، والضحاك، وغير واحد، ومنهم من يقول: كسنة آل فرعون، وكفعل آل فرعون وكشبهه^(٣) آل فرعون، والألفاظ متقاربة. والدأب - بالتسكين، والتحريك أيضاً كنهْر ونَهْر -: هو الصنع^(٤) والشأن والحال والأمر والعادة، كما يقال: لا يزال هذا دأبى ودأبك، وقال امرؤ القيس:

وقوفاً بها صحبى على مطيهم يقولون: لا تهلك^(٥) أسى وتجمل^(٦)

كدأبك من أم الحويرث^(٧) قبلها وجارته أم الرباب بمأسل^(٨)

والمعنى: كعادتك في أم الحويرث حين أهلكت نفسك في حبها وبكيت دارها ورسمها.

والمعنى في الآية: أن الكافرين لا تغنى^(٩) عنهم الأولاد ولا الأموال، بل يهلكون ويعذبون، كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسول^(١٠) فيما جاؤوا^(١١) به من آيات الله وحججه.

﴿كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾^(١٢) وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ

أى: شديد الأخذ أليم العذاب، لا يمتنع منه أحد، ولا يفوته شيء بل هو الفعال لما يريد، الذى [قد]^(١٣) غلب كل شيء وذل له كل شيء، لا إله غيره ولا رب سواه.

(١) فى ج: «بإسلامهم».

(٢) تفسير ابن أبى حاتم (٩٠/٢) وفيه ابن لهيعة، وقد توبع، تابعه عبد العزيز بن أبى حازم عن يزيد بن الهاد به. أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٥٠/١٢) قال الهيثمى فى مجمع الزوائد: (١٨٦/١) «رجال ثقات، إلا أن هند بنت الحارث الخثعمية التابعة لم أر من وثقها ولا من جرحها».

(٣) فى أ، و: «وكشييه». (٤) فى ج، ر، أ، و: «الصنيع». (٥) فى ج، ر، أ، و: «تأسف».

(٦) فى ج، ر، أ: «تحملى»، وفى و: «تحملى». (٧) فى أ: «الحويرة».

(٨) البيت فى تفسير الطبرى (٢٢٥/٦) وديوان امرئ القيس (١٢٥)، والبيت من معلقته المشهورة.

(٩) فى ر، أ: «يغنى». (١٠) فى ج، ر: «بالرسل». (١١) فى ج، ر، أ، و: «جاؤوهم».

(١٢) زيادة من ج، ر، أ، و. (١٣) زيادة من أ، و.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنِةِ التَّقَاتِ فِتْنَةً تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد للكافرين : ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ أى : فى الدنيا ، ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ أى : يوم القيامة ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ .

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن^(١) يسار ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ؛ أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة ، جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع وقال : «يا معشر يهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم الله ما^(٢) أصاب قريشاً» . فقالوا : يا محمد ، لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرأ من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال ، إنك والله لو^(٣) قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا؟ فأنزل الله فى ذلك من قولهم : ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ إلى قوله : ﴿لَعِبْرَةٌ^(٤) لِّأُولِي الْأَبْصَارِ^(٥)﴾ .

وقد رواه ابن إسحاق أيضاً ، عن محمد بن أبى محمد ، عن سعيد أو عكرمة ، عن ابن عباس فذكره ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أى : قد كان لكم - أيها اليهود القائلون ما قلتم - ﴿آيَةٌ﴾ أى : دلالة على أن الله معز دينه ، وناصر رسوله ، ومظهر كلمته ، ومعل أمره ﴿فِي فِتْنَةٍ﴾ أى : طائفتين ﴿التَّقَاتِ﴾ أى : للقتال ﴿فِتْنَةً تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم المسلمون ، ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ وهم مشركو قريش يوم بدر .

وقوله : ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنِ﴾ قال بعض العلماء - فيما حكاه ابن جرير : يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثلهم فى العدد رأى أعينهم ، أى : جعل الله ذلك فيما رآوه سبباً لنصرة الإسلام عليهم . وهذا لا إشكال عليه إلا من جهة واحدة ، وهى أن المشركين بعثوا عمر بن سعد يومئذ قبل القتال يحزر^(٦) لهم المسلمين ، فأخبرهم بأنهم ثلاثمائة ، يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً . وهكذا كان الأمر ، كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ، ثم لما وقع القتال أمدهم الله بألف من خواص الملائكة وساداتهم .

والقول الثانى : أن المعنى فى قوله : ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنِ﴾ أى : ترى الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثلهم ، أى : ضعفيهم فى العدد ، ومع هذا نصرهم^(٧) الله عليهم . وهذا لا إشكال فيه على ما رواه العوفى ، عن ابن عباس أن المؤمنين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، والمشركين^(٨) كانوا ستمائة وستة وعشرين رجلاً . وكأن هذا القول مأخوذ من ظاهر هذه الآية ، ولكنه خلاف المشهور عند أهل التواريخ والسير وأيام الناس ، وخلاف المعروف عند الجمهور من أن المشركين كانوا ما بين التسعمائة إلى الألف كما رواه محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان ، عن عروة بن الزبير ، أن رسول الله ﷺ لما سأل ذلك العبد

(١) فى ر : «عن» .

(٢) فى ج ، ر : «بما» .

(٣) فى ج ، ر : «إن» .

(٤) فى ر ، و : «عبرة» .

(٥) السيرة لابن إسحاق (ق ١٦٢ ظاهرية) .

(٦) فى أ ، و : «يحزر» .

(٧) فى أ : «نصر» .

(٨) فى ج ، ر ، أ : «والمشركون» .

الأسود لبنى الحجاج عن عدة قريش، فقال: كثير، قال: «كم ينحرون كل يوم؟» قال: يوماً تسعاً^(١)، ويوماً عشراً، فقال النبي ﷺ: «القوم ما بين التسعمائة إلى الألف»^(٢).

وروى^(٣) أبو إسحاق السبيعي، عن حارثة، عن علي، قال: كانوا ألفاً، وكذا قال ابن مسعود.

والمشهور أنهم كانوا ما بين التسعمائة إلى الألف، وعلى كل تقدير فقد كانوا ثلاثة أمثال المسلمين، وعلى هذا فيشكل هذا القول والله أعلم. لكن وجه ابن جرير هذا، وجعله صحيحاً كما تقول: عندى ألف وأنا محتاج إلى مثليها، وتكون^(٤) محتاجاً إلى ثلاثة آلاف، كذا قال. وعلى هذا فلا إشكال.

لكن بقى سؤال آخر وهو وارد على القولين، وهو أن يقال: ما الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى في قصة بدر: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَاتُمُ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٤]؟ والجواب: أن هذا كان في حال، والآخر كان في حال^(٥) أخرى، كما قال السدّي، عن [مرة] الطيب^(٦)، عن ابن مسعود في قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التَّاتِيَا [فِئَةٌ تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ]﴾^(٧) الآية، قال: هذا يوم بدر. قال عبد الله بن مسعود: وقد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يُضْعَفُونَ علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزدون علينا رجلاً واحداً، وذلك قوله^(٨) تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَاتُمُ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾.

وقال أبو إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، قال: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبي^(٩): تراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة. قال: فأسرنا رجلاً منهم فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفاً.

فعندما عاين كل الفريقين الآخر رأى المسلمون المشركين مثليهم، أى: أكثر منهم بالضعف، ليتوكلوا ويتوجهوا ويطلبوا الإعانة من ربهم، عز وجل. ورأى المشركون المؤمنين كذلك ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع، ثم لما حصل التصاف^(١٠) والتقى الفريقان قلل الله هؤلاء في أعين هؤلاء، وهؤلاء في أعين هؤلاء، ليقدّم كل منهما على الآخر.

﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أى: ليفرق بين الحق والباطل، فيظهر كلمة الإيمان على الكفر، ويعز المؤمنين ويذل الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقال ههنا: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أى: إن في ذلك لمعتبراً لمن له بصيرة وفهم يهتدى به إلى حكمة الله وأفعاله، وقدره الجارى بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

(١) فى ج، ر، أ: «قال: ينحرون يوماً تسعاً».

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٦١٦/١).

(٣) فى أ: «قال».

(٤) فى أ: «ويكون».

(٥) فى أ، و: «حالة».

(٦) فى هـ: «عن الطيب».

(٧) زيادة من ج، ر، أ، و.

(٨) فى ج، ر، أ، و: «قول».

(٩) فى ج، ر: «جنبي».

(١٠) فى أ، و: «المصاف».

﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ (١٤) قُلْ أُؤْتِبُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥)﴾.

يخبر تعالى عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين، فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد، كما ثبت في الصحيح أنه، عليه السلام، قال (١): «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضُرُّ عَلَى الرَّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ». فأما إذا كان القصد بهن الإغفاف وكثرة الأولاد، فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه، كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج والاستكثار منه، «وإن خير هذه الأمة كان أكثرها نساء» (٢)، وقوله، عليه السلام (٣): «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِهَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ، إِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سِرَّتَهُ، وَإِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا حَفَظَتْهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهَا» (٤)، وقوله في الحديث الآخر: «حُبُّ إِلَى النِّسَاءِ وَالطَّيِّبِ» (٥)، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» (٦). وقالت عائشة، رضى الله عنها: لم يكن شيء أحب إلى رسول الله ﷺ من النساء إلا الخيل، وفي رواية: من الخيل إلا النساء (٧).

وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة فهو داخل في هذا، وتارة يكون لتكثير النسل، وتكثير أمة محمد ﷺ ممن يعبد الله وحده لا شريك له، فهذا محمود ممدوح، كما ثبت في الحديث: «تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ، فَإِنِّي مُكَاثِرُكُمْ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٨).

وحب المال - كذلك - تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر على الضعفاء، والتجبر على الفقراء، فهذا مذموم، وتارة يكون للنفقة في القربات وصلة الأرحام والقربات ووجوه البر والطاعات، فهذا ممدوح محمود (٩) عليه شرعاً.

وقد اختلف المفسرون في مقدار القنطار على أقوال، وحاصلها: أنه المال الجزيل، كما قاله

(١) في ج، ر، أ، و: «أنه قال ﷺ»، وفي ر: «أنه قال عليه السلام».

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم (٥٠٦٩) موقوفاً على ابن عباس.

(٣) في ج: «ﷺ».

(٤) رواه مسلم في صحيحه برقم (١٤٦٧) والنسائي في السنن (٦/٦٩) وابن ماجه في السنن برقم (١٨٥٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه.

(٥) في ج، ر: «الطيب والنساء».

(٦) رواه أحمد في المسند (٣/١٢٨) والنسائي في السنن (٧/٦١) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه.

(٧) رواه النسائي في الكبرى (٤٤٠٤) من طريق سعيد عن قتادة عن أنس بن مالك، به.

وله شاهد من حديث معقل بن يسار، رواه أحمد في مسنده (٥/٢٧).

(٨) رواه أبو داود في السنن برقم (٢٠٥٠) والنسائي في السنن (٦/٦٥) وابن حبان في صحيحه برقم (١٢٢٩) «موارد» والحاكم في المستدرک (٢/١٦٢) وصححه وأقره الذهبي من حديث معقل بن يسار.

ورواه أحمد في المسند (٣/١٥٨) وابن حبان في صحيحه برقم (١٢٢٨) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/٨١، ٨٢) من حديث أنس ابن مالك.

(٩) في ر: «محسود».

الضحك وغيره، وقيل: ألف دينار. وقيل: ألف ومائتا دينار. وقيل: اثنا عشر ألفا. وقيل: أربعون ألفا. وقيل: ستون ألفا وقيل: سبعون ألفا. وقيل: ثمانون ألفا. وقيل غير ذلك.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا^(١) حماد، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الْقَنْطَارُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أَوْقِيَّةٍ، كُلُّ أَوْقِيَّةٍ خَيْرٌ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

وقد رواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن عبد الصمد بن عبد الوارث، عن حماد بن سلمة، به. وقد رواه ابن جرير عن بُنْدَار، عن ابن مهدي، عن حماد بن زيد، عن عاصم - هو ابن بهذلة - عن أبي صالح، عن أبي هريرة^(٢)، موقوفاً، وهذا أصح. وهكذا رواه ابن جرير عن معاذ بن جبل وابن عمر. وحكاها ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة وأبي الدرداء، أنهم قالوا: القنطار ألف ومائتا أوقية.

ثم قال ابن جرير: حدثني زكريا بن يحيى الضرير، حدثنا شبابة، حدثنا مَخْلَدُ بْنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ، عن علي بن زيد، عن عطاء بن أبيميمونة، عن زُرَّابْنِ حُبَيْشٍ عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «الْقَنْطَارُ أَلْفُ أَوْقِيَّةٍ وَمِائَتَا أَوْقِيَّةٍ»^(٣).

وهذا حديث منكر أيضاً، والأقرب أن يكون موقوفاً على أبي بن كعب، كغيره من الصحابة.

وقد روى ابن مردويه، من طريق موسى بن عبيدة الربذي^(٤)، عن محمد بن إبراهيم عن يحيى^(٥) أبي موسى، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ مِائَةَ آيَةٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَرَأَ مِائَةَ آيَةٍ إِلَى أَلْفٍ أَصْبَحَ لَهُ قَنْطَارٌ مِنْ أَجْرِ عِنْدَ اللَّهِ، الْقَنْطَارُ مِنْهُ مِثْلُ الْجَبَلِ الْعَظِيمِ». ورواه وكيع، عن موسى بن عبيدة، بمعناه^(٦) وقال الحاكم في مستدركه: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن عيسى بن زيد اللخمي بتيس^(٧)، حدثنا عمرو^(٨) بن أبي سلمة، حدثنا زهير بن محمد، حدثنا حميد الطويل، ورجل آخر، عن أنس بن مالك قال: سئل رسول الله ﷺ عن قول الله، عز وجل: ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمَقْنَطَرَةِ﴾ قال: «الْقَنْطَارُ أَلْفَا أَوْقِيَّةٍ».

صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، هكذا رواه الحاكم^(٩).

(١) في ج: «عن».

(٢) المسند (٣٦٣/٢) وابن ماجه في السنن برقم (٣٦٦٠) ورواه ابن حبان في صحيحه برقم (٦٦٣) «موارد».

قال البوصيري في مصباح الزجاجة: «إسناده صحيح ورجاله ثقات» والأرجح تحسينه للكلام في عاصم بن بهذلة. ورواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٤٤/٦) موقوفاً.

(٣) تفسير الطبري (٢٤٥/٦) وفي إسناده مَخْلَدُ بْنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ، ضعفه أبو حاتم، وقال ابن حبان: «منكر الحديث جداً».

(٤) في ج، ر: «الترمذي».

(٥) في ج، ر: «يحيى».

(٦) ورواه عبد بن حميد في تفسيره، ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠٧/٢) من طريق وكيع به، وهو مضطرب، فتارة يروي خمسين، وتارة يروي ألفاً، وتارة يروي مائة، وقد اختلف فيه على موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف.

(٧) في ر: «بتيس».

(٨) في المخطوطة أ، و: «محمد بن عمرو بن أبي سلمة» وهو خطأ.

(٩) المستدرک (١٧٨/٢) وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وفي إسناده عمرو بن أبي سلمة الشامي ضعيف خاصة إذا روى عن زهير. قال الإمام أحمد: «روى عن زهير أحاديث بواطيل كأنه سمعها من صدقة بن عبد الله فغلط فقلبها زهير».

وقد رواه ابن أبي حاتم بلفظ آخر فقال: حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الرقي، حدثنا عمرو بن أبي سلمة، حدثنا زهير - يعني ابن محمد - حدثنا حميد الطويل ورجل آخر قد سماه - يعني يزيد الرقاشي - عن أنس، عن رسول الله ﷺ في قوله: قنطار، يعني: «ألف دينار». وهكذا [رواه] (١) ابن مَرْدُويه، ورواه (٢) الطبراني، عن عبد الله بن محمد بن أبي مريم، عن عمرو بن أبي سلمة، فذكر بإسناده مثله سواء (٣).

وروى ابن جرير عن الحسن البصري مرسلًا عنه وموقوفًا عليه: القنطار ألف ومائتا دينار. وكذا (٤) رواه العوفي عن ابن عباس.

وقال الضحاك: من العرب من يقول: القنطار ألف دينار. ومنهم من يقول: اثنا عشر ألفًا.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عارم، عن حماد، عن سعيد الجريري (٥)، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري، رضى الله عنه، قال: [القنطار] (٦) ملء مسك الثور ذهبًا.

قال أبو محمد: ورواه محمد بن موسى الحرشي، عن حماد بن زيد، مرفوعًا. والموقوف أصح (٧).

وحب الخيل على ثلاثة أقسام، تارة يكون ربطها أصحابها معدة لسبيل الله تعالى، متى احتاجوا إليها غزوا عليها، فهؤلاء يثابون. وتارة تربط فخرًا ونواء لأهل الإسلام، فهذه على صاحبها وزر. وتارة للتعفف واقتناء نسلها. ولم ينس حق الله في رقابها، فهذه لصاحبها ستر، كما سيأتي الحديث بذلك [إن شاء الله تعالى] (٨) عند قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ [تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ]﴾ (٩) [الأنفال: ٦٠].

وأما «المُسومة» فعن ابن عباس، رضى الله عنهما: المسومة الراعية، والمطهمة الحسان، وكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وعبد الرحمن بن عبد الله (١٠) بن أبزي، والسدي، والربيع بن أنس، وأبي سنان وغيرهم.

وقال مكحول: المسومة: الغرة والتحجيل. وقيل غير ذلك.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن عبد الحميد بن جعفر، عن (١١) يزيد بن أبي حبيب، عن سويد بن قيس، عن معاوية بن حديج، عن أبي ذر، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس من فرس عربي إلا يؤذن له مع كل فجر يدعو بدعوتين، يقول: اللَّهُمَّ إِنَّكَ خَوَّلْتَنِي مِنْ

(١) زيادة من ج، ر، أ، و.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (١١١/١) وفي إسناده عمرو بن أبي سلمة وهو ضعيف كما سبق كلام الإمام أحمد عنه.

(٤) في و: «وهو».

(٦) في هـ، ج، أ، و: «الجرشي» وهو خطأ.

(٦) زيادة من ج، ر، أ، و.

(٧) تفسير ابن أبي حاتم (١١٥/٢) ورواه الطبري في تفسيره (٢٤٨/٦) من طريق سعيد الجريري عن أبي نضرة موقوفًا.

(٨) زيادة من ج، أ.

(٩) زيادة من ج، ر، أ، و، وفي هـ: «الآية».

(١٠) في ج، ر، أ، و: «عبد الله بن عبد الرحمن».

(١١) في ج، ر: «حدثني».

خَوَّلَتْنِي مِنْ^(١) بَنَى آدَمَ، فَاجْعَلْنِي مِنْ أَحَبِّ مَالِهِ وَأَهْلِهِ إِلَيْهِ، أَوْ أَحَبِّ أَهْلِهِ وَمَالِهِ إِلَيْهِ^(٢).
وقوله: ﴿وَالْأَنْعَامُ﴾ يعنى: الإبل والبقر والغنم ﴿وَالْحَرْثُ﴾ يعنى: الأرض^(٣) المتخذة للغراس والزراعة^(٤).

قال الإمام أحمد: حدثنا رَوْحُ بن عباد، حدثنا أبو نعيمة العدوى، عن مسلم بن بديل^(٥)، عن إياس بن زهير، عن سويد بن هبيرة، عن النبي ﷺ قال: «خَيْرُ مَالٍ امْرِئٍ لَهُ مُهُرَةٌ مَأْمُورَةٌ، أَوْ سِكَّةٌ مَأْمُورَةٌ»^(٦)، المأْمُورَةُ الكَثِيرَةُ النَسْلِ، والسَّكَّةُ: النخل المصطف، والمأْمُورَةُ: الملقحة.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: إنما هذا زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَآءِ﴾ أى: حسن المرجع والثواب.

وقد قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن عطاء، عن أبي بكر بن حفص بن عمر ابن سعد قال: قال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: لما أنزلت: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ قلت: الآن يا رب حين زينتها لنا! فنزلت: ﴿قُلْ أُوتِيتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَمُ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا [عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ]^(٧)﴾^(٨).

ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أُوتِيتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَمُ﴾ أى: قل يا محمد للناس: أخبركم بخير مما زين للناس فى هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها، الذى هو زائل لا محالة.

ثم أخبر عن ذلك، فقال: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أى: تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار، من أنواع الأشربة؛ من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ماكين فيها أبد الآباد^(٩)، لا ييغون^(١٠) عنها حولا.
﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أى: من الدُّنَسِ، والْحَبَثِ، والأذى، والحيض، والنفاس، وغير ذلك مما يعتري نساء الدنيا.

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أى: يحل عليهم رضوانه، فلا يَسْخَطُ عليهم بعده أبدا؛ ولهذا قال فى الآية الأخرى التى فى براءة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] أى: أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم،

(١) زيادة من ج، ر، أ، و، والمسند.

(٢) المسند (١٧٠/٥) ورواه الحاكم فى المستدرک (١٤٤/٢) من طريق يحيى بن سعيد به، وقال: صحيح الإسناد على شرطهما ووافقه الذهبى.

(٣) فى ج، ر: «الأراضى».

(٤) فى ج: «للزراعة والغراس».

(٥) فى أ: «بديل».

(٦) المسند (٤٦٨/٣) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٦٤/١٠) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠٧/٧) من طريق مسلم بن بديل به، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٥٨/٥): «رجال أحمد ثقات».

(٧) زيادة من ج، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٨) تفسير الطبرى (٢٤٤/٦).

(٩) فى ج، ر: «فيها أبدا».

(١٠) فى ج، ر: «يجدون».

ثم قال [تعالى] ^(١): ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾ أى: يعطى كلاً بحسب ما يستحقه من العطاء.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧).

يصف تعالى عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنا آمَنَّا﴾ أى: بك وبكتابك وبرسولك ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أى بإيماننا بك وبما شرعته لنا فاغفر لنا ذنوبنا وتقصرنا من ^(٢) أمرنا بفضلك ورحمتك ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

ثم قال: ﴿الصَّابِرِينَ﴾ أى: فى قيامهم بالطاعات وتركهم المحرمات ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ فيما أخبروا به من إيمانهم بما يلتزمونونه من الأعمال الشاقة ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ والقنوت: الطاعة والخضوع ^(٣) ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ أى: من أموالهم فى جميع ما أمروا به من الطاعات، وصلة الأرحام والقربات، وسد الخلات، ومواساة ذوى الحاجات ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ دل على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار.

وقد قيل: إن يعقوب، عليه السلام، لما قال لبنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨] أنه أخرهم إلى وقت السحر. وثبت فى الصحيحين وغيرهما من المساند ^(٤) والسنن، من غير وجه، عن جماعة من الصحابة، أن رسول الله ﷺ قال: «يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ ^(٥) فيقول: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيهِ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟» الحديث ^(٦). وقد أفرد الحافظ أبو الحسن الدارقطني فى ذلك جزءاً على حدة ^(٧)، فرواه من طرق متعددة.

وفى الصحيحين، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: مِنْ كُلِّ اللَّيْلِ قَدْ أَوْتَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، مِنْ أَوَّلِهِ وَأَوْسَطِهِ وَآخِرِهِ، فَأَنْتَهَى وَتَرَهُ إِلَى السَّحَرِ ^(٨).

وكان عبد الله بن عمر يصلى من الليل، ثم يقول: يا نافع، هل جاء السَّحَرُ؟ فإذا قال: نعم، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح. رواه ابن أبى حاتم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبى، عن حُرَيْثِ بْنِ أَبِي مَطَرٍ، عن إبراهيم بن حاطب، عن أبيه قال: سمعت رجلاً فى السحر فى ناحية المسجد وهو يقول: ربَّ أَمَرْتَنِي فَأَطَعْتُكَ،

(١) زيادة من ج، أ. (٢) فى و: «فى». (٣) فى أ: «الخشوع».

(٤) فى أ: «المسانيد». (٥) فى أ: «الآخر».

(٦) جاء من حديث أبى هريرة: رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٤٩٤) وبرقم (٦٣٢١) ورواه مسلم فى صحيحه برقم (٧٥٨) وأبو داود فى السنن برقم (١٣١٥) والترمذى فى السنن برقم (٤٣٩٨).

وجاء من حديث أبى سعيد الخدرى وجبير بن مطعم ورفاعة الجهنى وعلى بن أبى طالب وابن مسعود. انظر الكلام عليها فى كتاب إرواء الغليل للشيخ ناصر الألبانى (٢/ ٤٥٠).

(٧) فى أ: «حدثه».

(٨) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٩٩٦)، ورواه مسلم فى صحيحه برقم (٧٤٥).

وهذا سحر، فاعفر لى. فنظرت فإذا ابن مسعود، رضى الله عنه^(١).
وروى ابن مَرْدُويه عن أنس بن مالك قال: كنا نؤمر إذا صلينا من الليل أن نستغفر فى آخر
السحر سبعين مرة.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ﴾ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ
الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ
وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ
تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠) ﴿.

شهد^(٢) تعالى - وكفى به شهيدا، وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم، وأصدق القائلين - ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ﴾ أى: المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق، وأن الجميع عبيده وخلقه، والفقراء إليه، وهو الغنى عما
سواه كما قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ (٣)
شَهِيدًا﴾ الآية [النساء: ١٦٦].

ثم قرن شهادة ملائكته وأولى العلم بشهادته فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو
الْعِلْمِ﴾ وهذه خصوصية عظيمة للعلماء فى هذا المقام.

﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ منصوب على الحال، وهو فى جميع الأحوال كذلك.
﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد لما سبق ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ العزيز: الذى لا يرام جنباه عظمة وكبرياء،
الحكيم فى أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد، حدثنى جبير بن عمرو
القرشى، حدثنا أبو سَعِيدٍ^(٤) الأنصارى، عن أبى يحيى مولى آل الزبير بن العوام، عن الزبير بن
العوام، قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ
وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ «وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ يَا رَبِّ»^(٥).

وقد رواه ابن أبى حاتم من وجه آخر، فقال: حدثنا على بن حسين، حدثنا محمد بن المتوكل
العسقلانى، حدثنا عُمَرُ بن حفص بن ثابت أبو سعيد الأنصارى، حدثنا عبد الملك بن يحيى بن عباد
ابن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن جده، عن الزبير قال: سمعت رسول الله ﷺ حين قرأ هذه
الآية: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ قال: «وَأَنَا أَشْهَدُ أَيْ رَبِّ»^(٦).

(١) تفسير الطبرى (٢٦٦/٦) وفى إسناده سفيان بن وكيع ضعيف، وحديث ابن أبى مطر ضعفه أبو حاتم وابن معين والبخارى.

(٢) فى و: «يشهد».

(٣) فى ج، ر: «به» وهو خطأ.

(٤) فى أ، و: «أبو سعد».

(٥) المسند (١٦٦/١) وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٣٢٥/٦): «فى إسناده مجاهيل».

(٦) تفسير ابن أبى حاتم (١٤٦/٢) وفى إسناده مجاهيل.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني في المعجم الكبير: حدثنا عبدان بن أحمد وعلى بن سعيد الرازي قالوا: حدثنا عمّار بن عمر بن المختار، حدثني أبي، حدثني غالب القطان قال: أتيت الكوفة في تجارة، فنزلت قريباً من الأعمش، فلما كانت ليلة أردتُ أن أنحدرَ قام فتهجد من الليل، فمر بهذه الآية: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ ثم قال الأعمش: وأنا أشهد بما شهد الله به، وأستودع الله هذه الشهادة، وهي لى عند الله وديعة: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ قالها مراراً. قلت: لقد سمع فيها شيئاً، فغدوت إليه فودعته، ثم قلت: يا أبا محمد، إنى سمعتك تردد هذه الآية. قال: أو ما بلغك ما فيها؟ قلت: أنا عندك منذ شهر لم تحدثنى. قال: والله لا أحدثك بها إلى سنة. فأقمت سنة فكنت على بابه، فلما مضت السنة قلت: يا أبا محمد، قد مضت السنة. قال: حدثنى أبو وائل، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يُجَاءُ بِصَاحِبِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عز وجل: عَبْدِي عَهْدَ إِلَيَّ، وَأَنَا أَحَقُّ مَنْ وَفَى بِالْعَهْدِ، أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ»^(١).

وقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ إخبار من الله تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به فى كل حين، حتى ختموا بمحمد ﷺ، الذى سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ، فمن لقي الله بعد بعثته محمداً ﷺ بدين على غير شريعته، فليس بمقبل. كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ^(٢) غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ [وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ]﴾ [آل عمران: ٨٥]. وقال فى هذه الآية مخبراً بانحصار الدين المتقبل عنده فى الإسلام: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾.

وذكر ابن جرير أن ابن عباس قرأ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ بكسر «إِنَّ» وفتح «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ أى: شهد هو وملائكته وأولو العلم من البشر بأن الدين عند الله الإسلام. والجمهور قرؤوها بالكسر على الخبر، وكلا المعنيين صحيح. ولكن هذا على قول الجمهور أظهر والله أعلم.

ثم أخبر تعالى بأن^(٤) الذين أوتوا الكتاب الأول إنما اختلفوا بعد ما قامت عليهم الحجة، بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم، فقال: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أى: بغى بعضهم على بعض، فاختلَفوا فى الحق لتحاسدهم وتباغضهم وتدابروهم، فحمل بعضهم بغض البعض الآخر^(٥) على مخالفته فى جميع أقواله وأفعاله، وإن كانت حقاً، ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أى: من جحد بما أنزل^(٦) الله فى كتابه فإن الله

(١) المعجم الكبير (٢٤٥/١٠) وقال الهيثمى فى المجمع (٣٢٦/٦): «فيه عمر بن المختار وهو ضعيف». ورواه ابن عدى فى الكامل

(٣٦/٥) من طريق عمار بن عمر المختار به. قال: «لا يحدث به غير عمر المختار، ومقدار ما يرويه فيه نظر».

(٢) فى أ: «يتبع». (٣) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٤) فى أ، و: «أن».

(٥) فى جـ: «فحمل بعضهم على بغض الآخر».

(٦) فى أ، و: «أنزله».

سيجازه على ذلك، ويحاسبه على تكذيبه، ويعاقبه على مخالفته كتابه^(١).

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ أى: جادلوك فى التوحيد ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ أى: فقل أخلصت عبادتى لله وحده، لا شريك له ولا ند [له]^(٢) ولا ولد له ولا صاحبة له ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ على دينى، يقولون كمقالتي، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ]^(٣) [يوسف: ١٠٨].

ثم قال تعالى أمراً لعبده ورسوله محمد ﷺ أن يدعو إلى طريقته ودينه، والدخول فى شرعه وما بعثه الله به الكتابين^(٤) من الملتين والأمينين من المشركين فقال: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأَمِينَينَ ءَاسَلَمْتُمْ فَإِنْ ءَاسَلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ أى: والله عليه حسابهم وإليه مرجعهم ومآبهم، وهو الذى يهذى من يشاء، ويضل من يشاء، وله الحكمة فى ذلك، والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرُ الْعِبَادِ﴾ أى: هو^(٥) عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة، وهو الذى ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وما ذاك^(٦) إلا لحكمته ورحمته.

وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته، صلوات الله وسلامه^(٧) عليه، إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة فى غير^(٨) ما آية وحديث، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] وفى الصحيحين وغيرهما، مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة، أنه بعث كتبه ﷺ يدعو إلى الله ملوك الآفاق، وطوائف^(٩) بنى آدم من عربهم وعجمهم، كتابيهم وأمينهم، امتثالاً لأمر الله له بذلك. وقد روى عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبى هريرة، عن النبى^(١٠) ﷺ أنه قال: «والذى نفسى بيده، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى، ومات ولم يؤمن بالذى أرسلت به، إلا كان من أهل النار» رواه مسلم^(١١).

وقال ﷺ: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ»^(١٢)، وقال: «كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً». وقال الإمام أحمد: حدثنا مؤمل، حدثنا حماد، حدثنا ثابت عن أنس، رضى الله عنه: أن غلاماً يهودياً كان يضع للنبي ﷺ وضوءه ويناوله نعليه، فمرض، فأتاه النبى ﷺ فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه فقال له النبى ﷺ: «يَا فُلَانُ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ، فَسَكَتَ أَبُوهُ، فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ، فَقَالَ أَبُوهُ: أَطَعَ أَبَا الْقَاسِمِ، فَقَالَ الْغُلَامُ: أَشْهَدُ أَنْ

(١) فى أ، و: «بكتابه». (٢) زيادة من ج، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٤) فى ج: «أهل الكتابين». (٥) فى أ، و: «وهو». (٦) فى أ، و: «وذلك».

(٧) فى ج: «الله». (٨) فى أ: «وغير». (٩) فى و: «من طوائف».

(١٠) فى ج، ر، أ، و: «رسول الله».

(١١) صحيح مسلم برقم (١٥٣).

(١٢) فى ج، ر، أ، و: «الأسود والأحمر».

لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ^(١) ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَخْرَجَهُ بِي مِنَ النَّارِ» أخرجه البخارى فى الصحيح ^(٢). إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٢)﴾.

هذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب فيما ارتكبه من المآثم والمحارم فى تكذيبهم بآيات الله قديماً وحديثاً، التى بلغتهم إياها الرسل، استكباراً عليهم وعناداً لهم، وتعاضماً على الحق واستنكافاً عن اتباعه، ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه، بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم، إلا لكونهم دعوهم إلى الحق ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ وهذا هو غاية الكبر، كما قال النبى ^(٣) ﷺ: «الْكِبَرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ».

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو الزبير الحسن بن على بن مسلم النيسابورى، نزىل مكة، حدثنى أبو حفص عمر بن حفص - يعنى ابن ثابت بن زرارَةَ الأنصارى - حدثنا محمد بن حمزة، حدثنى أبو الحسن مولى لبنى أسد، عن مكحول، عن قبيصة بن ذؤيب الخزاعى، عن أبى عبيدة بن الجراح، رضى الله عنه قال: قلت يا رسول الله، أى الناس أشد عذاباً يوم القيامة؟ قال: «رَجُلٌ قَتَلَ نَبِيًّا أَوْ مَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [إلى قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾] ^(٤). الآية. ثم قال رسول الله ﷺ: «يَا أَبَا عُبَيْدَةَ، قَتَلْتُ بَنُو إِسْرَائِيلَ ثَلَاثَةً وَأَرْبَعِينَ نَبِيًّا، مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، فَقَامَ مِائَةٌ ^(٥) وَسَبْعُونَ رَجُلًا مِنْ بَنَى إِسْرَائِيلَ، فَأَمَرُوا مَنْ قَتَلَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَقَتَلُوا جَمِيعًا مِنْ آخِرِ النَّهَارِ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَهُمْ الَّذِينَ ذَكَرَ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ».

وهكذا رواه ابن جرير عن أبى عبيد الوصابى محمد بن حفص، عن ابن حمير، عن أبى الحسن مولى بنى أسد، عن مكحول، به ^(٦).

(١) فى ج، ر، أ، و: «رسول الله».

(٢) المسند (٣/١٧٥) والبخارى برقم (١٣٥٦).

(٣) فى ج، ر، أ، و: «رسول الله». (٤) زيادة من ج، ر، أ، و. (٥) فى ج، ر، أ، و: «مائة رجل».

(٦) ابن أبى حاتم فى تفسيره (١/١٦١) والطبرى فى تفسيره (٦/٢٨٥) وأبو عبيد الوصابى لم يدرك محمد بن حمير كما ذكره ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل، وقد توبع أبو عبيد، تابعه عبد الوهاب بن نجدة، فرواه البزار من طريق عبد الوهاب بن نجدة عن محمد ابن حمير به.

ثم قال البزار: لا نعلم له عن أبى عبيدة غير هذه الطريق، ولم نسمع أحداً سُمى أبا الحسن هذا الذى روى عنه محمد بن حمير. وقال الحافظ ابن حجر: «فيه أبو الحسن مولى بنى أسد وهو مجهول».

وعن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، قال: قتل بنو إسرائيل ثلاثمائة نبي من أول النهار، وأقاموا سوق بقلهم من آخره. رواه ابن أبي حاتم.

ولهذا لما أن تكبروا عن الحق واستكبروا على الخلق، قابلهم الله على ذلك بالذلة والصغار في الدنيا والعذاب المهين في الآخرة، فقال: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى: موجه مهين ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْنَا لَهُمْ لَيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥)﴾.

يقول تعالى منكرًا على اليهود والنصارى، المتمسكين فيما يزعمون بكتايبهم اللذين بأيديهم، وهما التوراة والإنجيل، وإذا دُعُوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما، من اتباع محمد ﷺ، تولَّوا وهم معرضون عنهما، وهذا فى غاية ما يكون من ذمهم، والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد. ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ أى: إنما حملهم وجرائهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم أنهم إنما يعذبون فى النار سبعة أيام، عن كل ألف سنة فى الدنيا يوما. وقد تقدم تفسير ذلك فى سورة البقرة. ثم قال: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [أى غرهم فى دينهم] ^(١) أى: بُتِّهت على دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أياما معدودات، وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم وافتعلوه، ولم ينزل الله به سلطانا قال الله تعالى متهددا لهم ومتوعدا: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْنَا لَهُمْ لَيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى: كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله وكذبوا رسله وقتلوا أنبياءه والعلماء من قومهم، الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، والله تعالى سائلهم عن ذلك كله، ومحاسبهم عليه، ومجازيهم به؛ ولهذا قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْنَا لَهُمْ لَيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: لا شك فى وقوعه وكونه ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنَزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعْزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)﴾.

(١) زيادة من و.

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، معظماً لربك ومتوكلاً عليه، وشاكراً له ومفوضاً إليه: ﴿اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ﴾، أى: لك الملك كله ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾، أى: أنت المعطى، وأنت المانع، وأنت الذى ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن.

وفى هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة؛ لأن الله حول النبوة من بنى إسرائيل إلى النبی العربی القرشى المكى الأُمى خاتم الأنبياء على الإطلاق، ورسول الله إلى جميع الثقيلين الإنس والجن، الذى جمع الله فيه محاسن من كان قبله، وخصه بخصائص لم يُعْطَها نبياً من الأنبياء ولا رسولا من الرسل، فى العلم بالله وشريعته وإطلاعه على الغيوب الماضية والآتية، وكشفه عن حقائق الآخرة ونشر أمته فى الآفاق، فى مشارق الأرض ومغاربها، وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان، والشرائع، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، ما تعاقب الليل والنهار. ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ﴾ [تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِإِذْنِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] ^(١).

أى: أنت المتصرف فى خلقك، الفعال لما تريد، كما رد تبارك وتعالى على من يتحكم ^(٢) عليه فى أمره، حيث قال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

قال الله تعالى رداً عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ] ^(٣) الآية [الزخرف: ٣٢] أى: نحن نتصرف فى خلقنا كما نريد، بلا ممانع ولا مدافع، ولنا الحكمة والحجة فى ذلك، وهكذا نعطي النبوة لمن نريد، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ ^(٤) [الإسراء: ٢١]. وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة «إسحاق بن أحمد» من تاريخه عن المأمون الخليفة: أنه رأى فى قصر ببلاد الروم مكتوباً بالحميرية، فعرّب له، فإذا هو: باسم الله ما اختلف الليل والنهار، ولا دارت نجوم السماء فى الفلك إلا بنقل النعيم عن ملك قد زال سلطانه إلى ملك. ومُلْكُ ذى العرش دائم أبداً ليس بفانٍ ولا بمشترك ^(٥).

وقوله: ﴿تَوَلَّجُ ^(٦) اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَتَوَلَّجُ ^(٧) النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ أى: تأخذ من طول هذا فتريده فى قصر هذا فيعتدلان، ثم تأخذ من هذا فى هذا فيتفاوتان، ثم يعتدلان. وهكذا فى فصول السنة: ربيعاً وصيفاً وخريفاً وشتاءً.

وقوله: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أى: تخرج الحبة من الزرع والزرع من الحبة، والنخلة من النواة والنواة من النخلة، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، والدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى: تعطى من شئت من المال ما لا يعدده ولا يقدر على إحصائه، وتقتدر على آخرين، لما لك

(٢) فى أ، و: «تتحكم».

(١) زيادة من ج، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٤) زيادة من ج، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٣) زيادة من ج، ر، أ، و.

(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (٧٠٦/٢ المخطوط) ومختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٦٤/٤).

(٦، ٧) فى ج، ر: «يولج».

فى ذلك من الحكمة والإرادة المشيئة والعدل. قال الطبرانى: حدثنا محمد بن زكريا الغلابى، حدثنا جعفر بن جسر بن فرقد، حدثنا أبى، عن عمرو^(١) بن مالك، عن أبى الجوزاء، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: «اسم الله الأعظم الذى إذا دُعِيَ به أجاب، فى هذه الآية من آل عمران: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُدْلِلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾»^(٢) [٢٨].

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨).

نهى الله، تبارك وتعالى، عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين، وأن يتخذوهم أولياء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين، ثم توعد على ذلك فقال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أى: من يرتكب نهى الله فى هذا فقد برئ من الله كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أْتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤]، وقال [تعالى]^(٤): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٥) [المائدة: ٥١].

[وقال تعالى]^(٦): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المتحنة: ١] وقال تعالى - بعد ذكر موالة المؤمنين للمؤمنين من المهاجرين والأنصار والأعراب -: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَصْنَةِ أَوْلِيَاءَ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ أى: إلا من خاف فى بعض البلدان أو الأوقات من شرهم، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته، كما حكاه البخارى عن أبى الدرداء أنه قال: «إِنَّا لَنَكْشُرُ فِي وَجْهِهِ أَقْوَامَ وَقُلُوبُنَا تَلْعَنُهُمْ».

وقال الثورى: قال ابن عباس، رضى الله عنهما: ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان، وكذا رواه العوفى عن ابن عباس: إنما التقية باللسان، وكذا قال أبو العالية، وأبو الشعثاء والضحاك، والربيع بن أنس. ويؤيد ما قاله قول الله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٧) [النحل: ١٠٦].

(٢) فى أ، و: «إلى آخر الآية».

(١) فى ج، ر، أ: «عمر».

(٣) المعجم الكبير (١٢/١٧٢) وفى إسناده جسر بن فرقد، ضعيف.

(٤) زيادة من ج، ر، أ، و.

(٥) زيادة من ج، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٦) زيادة من ج، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٦) زيادة من ج، ر، أ، و.

وقال البخارى: قال الحسن: التقيّة إلى يوم القيامة.

ثم قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أى: يحذركم نعمته، أى مخالفته وسطوته فى عذابه لمن والى أعداءه وعادى أوليائه.

ثم قال تعالى: ﴿وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أى: إليه المرجع والمنقلب، فيجازى كل عامل بعمله.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا مسلم بن خالد، عن ابن أبى حسين، عن عبد الرحمن بن سابط، عن عمرو بن ميمون [بن مهران]^(١) قال: قام فينا معاذ بن جبل فقال: يا بنى أود، إني رسولُ رسولِ الله إليكم، تعلمون أن المعاد [إلى الله]^(٢) إلى الجنة أو إلى النار^(٣).

﴿قُلْ إِنْ تَخْضَعُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾.

يخبر تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية، بل علمه محيط بهم فى سائر الأحوال والآفات واللحظات وجميع الأوقات، وبجميع ما فى السموات والأرض، لا يغيب عنه مثقال ذرة، ولا أصغر من ذلك فى جميع أقطار الأرض والبحار والجبال، وهو ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى: قدرته^(٤) نافذة فى جميع ذلك.

وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته، وألا يرتكبوا ما نهى عنه وما يَغْضَهُ منهم، فإنه عالم بجميع أمورهم، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة، وإن أنظر من أنظر منهم، فإنه يمهّل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾^(٥) الآية، يعنى: يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر^(٦) كما قال تعالى: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، فما رأى من أعماله حسنا سره ذلك وأفرحه، وما رأى من قبيح ساءه وغازه، وود لو أنه تبرأ منه، وأن يكون بينهما أمد بعيد، كما يقول لشیطانہ الذی کان مقترناً به فى الدنيا، وهو الذى جرّاه على فعل السوء: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨].

ثم قال تعالى مؤكدا ومهددا ومتوعدا: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أى: يخوفكم عقابه، ثم قال مرجعيا لعباده لثلا يئأسوا من رحمته ويقنطوا من لطفه: ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

(١) زيادة من ج، ر، أ، و.

(٢) زيادة من أ، و.

(٣) تفسير ابن أبى حاتم (١/١٩٤).

(٦) فى ج: «أو شر».

(٥) زيادة من ج، ر، أ، و.

(٤) فى ج، ر، أ، و: «وقدرته».

قال الحسن البصرى: من رأفته بهم حذرهم نفسه. وقال غيره: أى رحيم بخلقه، يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ودينه القيم، وأن يتبعوا رسوله الكريم.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)﴾.

هذه الآية الكريمة حاکمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب فى دعواه فى نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدى والدين النبوى فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله، كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ عَمَلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أى: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض الحكماء العلماء: ليس الشأن أن تحب، إنما الشأن أن تحب وقال الحسن البصرى وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن محمد الطنافسى، حدثنا عبيد الله بن موسى عن عبد الأعلى بن أعين، عن يحيى بن أبى كثير، عن عروة، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «وَهَلَ الدِّينُ إِلَّا الْحُبُّ وَابْتِغَاضُ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾» قال أبو زرعة: عبد الأعلى هذا منكر الحديث^(١).

ثم قال: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى: باتباعكم للرسول ﷺ يحصل لكم هذا كله ببركة سفارته. ثم قال أمراً لكل أحد من خاص وعام: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أى: خالفوا عن أمره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ فدل على أن مخالفته فى الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم فى نفسه أنه يحب الله ويتقرب إليه، حتى يتابع الرسول النبى الأمى خاتم الرسل، ورسول الله إلى جميع الثقلين الجن والإنس^(٢)، الذى لو كان الأنبياء - بل المرسلون، بل أولو العزم منهم - فى زمانه لما وسعهم إلا اتباعه، والدخول فى طاعته، واتباع شريعته، كما سيأتى تقريره عند قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ الآية [آل عمران: ٨١] [إن شاء الله تعالى]^(٣).

(١) تفسير ابن أبى حاتم (٢٠٢/١)، ورواه أبو نعيم فى الحلية (٣٦٨/٨) والحاكم فى المستدرک (٢٩١/٢) من طريق عبد الأعلى بن أعين عن يحيى بن أبى كثير به.

قال الحاكم: صحيح على شرطهما، وتعقبه الذهبى بقوله: «فيه عبد الأعلى بن أعين، قال الدارقطنى: ليس بثقة».

وقال ابن حبان: «يروى عن يحيى بن أبى كثير ما ليس من حديثه، لا يجوز الاحتجاج به بحال».

وقال العيلى: «جاء بأحاديث منكورة ليس منها شىء محفوظ».

(٢) فى ج: «الإنس والجن». (٣) زيادة من و.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤)﴾.

يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض، فاصطفى آدم، عليه السلام، خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأسكنه الجنة ثم أهبطه منها، لما له في ذلك من الحكمة.

واصطفى نوحاً، عليه السلام، وجعله أول رسول [بعثه]^(١) إلى أهل الأرض، لما عبد الناس الأوثان، وأشركوا في دين الله ما لم ينزل به سلطاناً، وانتقم له لما طالت مدته بين ظهرائي قومه، يدعوه إلى الله ليلاً ونهاراً، سرا وجهاراً، فلم يزداهم ذلك إلا فراراً، فدعا عليهم، فأغرقهم الله عن آخرهم، ولم ينج منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله به.

واصطفى آل إبراهيم، ومنهم: سيد البشر وخاتم الأنبياء على الإطلاق محمد ﷺ، وآل عمران، والمراد بعمران هذا: هو والد مريم بنت عمران، أم عيسى ابن مريم، عليهم السلام. قال محمد بن إسحاق بن يسار^(٢)، رحمه الله: هو عمران بن ياشم بن أمون بن ميثا بن حزقيا بن أحريق بن يوثم ابن عزاريا^(٣) ابن أمصيا بن ياوش بن أجريهو بن يازم بن يهفاشاط بن إنشا بن أبيان^(٤) بن رخييم بن سليمان بن داود، عليهما السلام. فعيسى، عليه السلام، من ذرية إبراهيم، كما سيأتى بيانه في سورة الأنعام، إن شاء الله وبه الثقة.

﴿إِذْ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦)﴾.

امرأة عمران هذه أم مريم [بنت عمران]^(٥) عليها السلام^(٦)، وهى حنة بنت فاقوذ، قال محمد ابن إسحاق: وكانت امرأة لا تحمل، فرأت يوماً طائراً يزقُّ فرخه، فاشتتهت الولد، فدعت الله، عز وجل، أن يهبها ولداً، فاستجاب الله دعاءها، فواقعها زوجها، فحملت منه، فلما تحققت الحمل نذرته أن يكون ﴿مُحَرَّرًا﴾ أى: خالصة مفرغة للعبادة، ولخدمة بيت المقدس، فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، أى: السميع لدعائى، العليم بنيتى، ولم تكن تعلم ما فى بطنها أذكرا أم أنثى؟ ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾. قرئ برفع التاء على أنها تاء المتكلم، وأن ذلك من تمام قولها، وقرئ بتسكين التاء على أنه من قول الله عز وجل ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ أى: فى القوة والجلد فى العبادة وخدمة المسجد الأقصى ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾. فيه دلالة على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق؛ لأنه شرع من

(٣) فى و: «عزازيا».

(٢) فى أ: «بشار».

(١) زيادة من ج، ر، أ، و.

(٦) فى و: «سم».

(٥) زيادة من ج، ر، أ، و.

(٤) فى ر، أ: «أثان»، وفى و: «أيان».

قبلنا، وقد حكى مقررًا، وبذلك ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ حيث قال: «وُلِدَ لِي اللَّيْلَةَ وَلَدٌ سَمِيَهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ». أخرجاه^(١): وكذلك ثبت فيهما أن أنس بن مالك ذهب بأخيه، حين ولدته أمه، إلى رسول الله ﷺ، فَحَنَّكَ وسماه عبد الله^(٢). وفى صحيح البخارى: أن رجلا قال: يا رسول الله، وُلِدَ لِي وَلَدٌ، فما أَسْمِيهِ؟ قال: «أَسْمِ وَلَدَكَ»^(٣) عَبْدَ الرَّحْمَنِ^(٤). وثبت فى الصحيح أيضاً: أنه لما جاءه أبو أسيد بابنه ليُحَنِّكَه، فذهَلَ عنه، فأمر به أبوه فَرَدَّهُ إلى منزلهم، فلما ذكرَ رسولُ الله ﷺ فى المجلس سَمَاهُ المنذر^(٥).

فأما حديث قتادة، عن الحسن البصرى، عن سَمُرَةَ بن جُنْدُب؛ أن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ غُلَامٍ رَهِينٌ»^(٦) بِعَقِيْقَتِهِ، يُذْبَحُ عَنْهُ يَوْمَ سَابِعِهِ، وَيُسَمَّى وَيَخْلَقُ رَأْسُهُ» فقد رواه أحمد وأهل السنن، وصححه الترمذى بهذا اللفظ، ويروى: «وَيَدَمَّى»، وهو أثبت وأحفظ^(٧)، والله أعلم. وكذا ما رواه الزبير بن بكار فى كتاب النسب: أن رسول الله ﷺ عَقَّ عن ولده إبراهيم يوم سابعه وسماه إبراهيم. فإسناده لا يثبت، وهو مخالف لما فى الصحيح^(٨)، ولو صح لَحُمِلَ^(٩) على أنه أشهر اسمه بذلك يومئذ، والله أعلم.

وقوله إخباراً عن أم مريم أنها قالت: «وَإِنِّي أُعِيْذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» أى: عَوَّذْتُهَا بالله، عز وجل، من شر الشيطان، وعوذت ذريتها، وهو ولدها عيسى، عليه السلام. فاستجاب الله لها ذلك كما قال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن الزهرى، عن ابن المسيب، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا مَسَّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهْلُ صَارِخًا مِنْ مَسِّهِ إِيَّاهُ، إِلَّا مَرِيْمَ وَابْنَهَا». ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: «وَإِنِّي أُعِيْذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ».

أخرجاه^(١٠) من حديث عبد الرزاق. ورواه ابن جرير، عن أحمد بن الفرَج، عن بَقِيَّة، [عن

(١) رواه البخارى تعليقا برقم (١٣٠٣) ورواه مسلم برقم (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك.

(٢) رواه البخارى برقم (٥٤٧٠) ورواه مسلم برقم (٢١٤٤).

(٣) فى ج، ر: «ابنك».

(٤) صحيح البخارى برقم (٦١٨٦) من حديث جابر.

(٥) رواه البخارى برقم (٦١٩١) ورواه مسلم برقم (٢١٤٩) من حديث سهل بن سعد الساعدى.

(٦) فى أ، و: «رهينته».

(٧) المسند (١٢/٥) وسنن أبى داود برقم (٢٨٣٨) وسنن الترمذى برقم (١٥٢٢) وسنن النسائى (١٦٦/٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٦٥).

وقد صرح الحسن بسماعه هذا الحديث من سمرة؛ لذا قال الترمذى: «حديث حسن صحيح».

(٨) وقال ابن القيم، رحمه الله، فى كتابه «تحفة المودود فى أحكام المولود» ص ٦٧ بعد ما ساق قول الزبير بن بكار عن أشياخه: «هكذا قال الزبير وسماه يوم سابعه، والحديث المرفوع أصح من قوله وأولى».

(٩) فى ج، ر: «يحمل».

(١٠) صحيح البخارى (٤٥٤٨) وصحيح مسلم برقم (٢٣٦٦).

الزبيدي^(١) عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، بنحوه. وروى من حديث قيس، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا وَقَدْ عَصَرَهُ الشَّيْطَانُ عَصْرَةً أَوْ عَصْرَتَيْنِ إِلَّا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَمَرْيَمَ». ثم قرأ رسول الله ﷺ: «وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»^(٢).

ومن حديث العلاء عن أبيه عن أبي هريرة. ورواه مسلم، عن أبي الطاهر، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن أبي يونس، عن أبي هريرة. ورواه وهب أيضاً، عن ابن أبي ذئب، عن عجلان مولى المشمعل، عن أبي هريرة. ورواه محمد بن إسحاق، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بأصل الحديث. وهكذا رواه الليث بن سعد، عن جعفر بن ربيعة، عن عبد الرحمن بن هرمز، الأعرج^(٣) قال: قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ يَطْعَنُ الشَّيْطَانُ فِي جَنْبِهِ حِينَ تَلِدُهُ أُمُّهُ، إِلَّا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، ذَهَبَ يَطْعَنُ فَطَعَنَ فِي الْحِجَابِ»^(٤).

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٧).

يخبر ربنا^(٥) أنه تقبلها من أمها نذيرة، وأنه «أَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا»، أي: جعلها شكلاً مليحاً ومنظراً بهيجاً، ويسر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم الخير والعلم والدين. ولهذا^(٦) قال: «وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا» وفي قراءة: «وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا» بتشديد الفاء ونصب زكريا على المفعولية، أي جعله كافلاً لها.

قال ابن إسحاق: وما ذاك إلا أنها كانت يتيمة. وذكر غيره أن بنى إسرائيل أصابتهم سنةٌ جذب، فكفل زكريا مريم لذلك. ولا منافاة بين القولين، والله أعلم.

وإنما قدر الله كون زكريا كافلاً لسعادتها، لتقتبس منه علماً جماً نافعاً وعملاً صالحاً؛ ولأنه كان زَوْجَ خالتها، على ما ذكره ابن إسحاق وابن جرير [وغيرهما]^(٧). وقيل: زوج أختها، كما ورد في الصحيح: «فَإِذَا يَبْحِى^(٨) وَعِيسَى، وَهُمَا ابْنَا الْخَالَةِ»، وقد يُطلق على ما ذكره ابن إسحاق ذلك أيضاً توسعاً، فعلى هذا كانت في حضانة خالتها. وقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قضى في عمارة بنت حمزة أن تكون في حضانة خالتها امرأة جعفر بن أبي طالب، وقال: «الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ»^(٩).

(١) زيادة من أ، و.

(٢) تفسير الطبري (٣٣٩/٦).

(٣) في أ: «عن الأعرج».

(٤) تفسير الطبري (٣٤٢/٦) ورواه أحمد في مسنده (٥٢٣/٢) من طريق أبي الزناد عن الأعرج به.

(٥) في ج، ر، أ، و: «تعالى». (٦) في ج، ر، أ، و: «فلها».

(٧) زيادة من و.

(٨) في ج، ر: «يحيى».

(٩) صحيح البخاري برقم (٢٦٩٩) وصحيح مسلم برقم (١٧٨٣).

ثم أخبر تعالى عن سيادتها وجلالتها في محل عبادتها، فقال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبو الشعثاء، وإبراهيم النخعي، والضحاك، وقتادة، والربيع بن أنس، وعطية العوفي، والسدي [والشعبي]^(١): يعني وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف. وعن مجاهد ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ أى: علما، أو قال: صحفاً فيها علم.

رواه ابن أبي حاتم، والأول أصح، وفيه دلالة على كرامات الأولياء. وفي السنة لهذا نظائر كثيرة. فإذا رأى زكريا هذا عندها ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا﴾ أى يقول: من أين لك هذا؟ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سهل بن زنجلة، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني عبد الله بن لهيعة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر؛ أن رسول الله ﷺ أقام أياماً لم يَطْعَمْ طعاماً، حتى شق ذلك عليه، فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئاً، فأتى فاطمة فقال: «يا بُنَيَّةُ، هَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ أَكُلُهُ، فَإِنِّي جَائِعٌ؟» فقالت: لا، والله بأبى أنت وأُمى. فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم، فأخذته منها فوضعت في جفنة لها، وقالت: والله لأؤثرن بهذا رسول الله ﷺ^(٢) على نفسى ومن عندى. وكانوا جميعاً محتاجين إلى شبة طعام، فبعثت حسناً أو حسينا إلى رسول الله ﷺ^(٣)، فرجع إليها فقالت له: بأبى وأُمى^(٤)، قد أتى الله بشيء فخبأته لك. قال: «هَلُمِّي يَا بُنَيَّةُ» قالت: فأتيته بالجفنة. فكشفت عن الجفنة فإذا هي مملوءة خبزاً ولحماً، فلما نظرت إليها بهتت وعرفت أنها بركة من الله، فحمدت الله وصلت على نبيّه، وقدمته إلى رسول الله ﷺ. فلما رآه حمد الله وقال: «مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا يَا بُنَيَّةُ؟» فقالت^(٥): يا أبت، ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، فحمد الله وقال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَكَ - يَا بُنَيَّةُ - شَبِيهَةً بِسَيِّدَةِ^(٦) نِسَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِنَّهَا كَانَتْ إِذَا رَزَقَهَا اللَّهُ شَيْئاً فَسُئِلَتْ عَنْهُ قَالَتْ: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فبعث رسول الله ﷺ إلى علي^(٧)، ثم أكل رسول الله ﷺ وأكل علي، وفاطمة، وحسن، وحسين، وجميع أزواج النبي ﷺ وأهل بيته جميعاً حتى شبعوا. قالت: وبقيت الجفنة كما هي، فأوسعت ببقيتها^(٨) على جميع الجيران، وجعل الله فيها بركة وخيراً كثيراً^(٩).

(٣) زيادة من أ، و.

(٢) زيادة من ج، ر، أ، و.

(١) زيادة من ج، أ.

(٦) فى ر: «سيدة».

(٥) فى أ: «فقلت».

(٤) فى ج، ر، أ، و: «بأبى أنت وأُمى».

(٨) فى أ، و: «بقيتها».

(٧) فى أ: «وحملوا».

(٩) مسند أبى يعلى كما فى المطالب العالية لابن حجر (٧٤/٤)، وفى إسناده عبد الله بن صالح متكلم فيه، وابن لهيعة ضعفه الجمهور.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨)﴾
 فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ
 وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ
 وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آتِيكَ أَلَّا تَكَلِّمَ
 النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٤١)﴾.

لما رأى زكريا، عليه السلام، أن الله تعالى يرزق مريم، عليها السلام، فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، طمع حينئذ في الولد، و [إن] (١) كان شيخا كبيرا قد [ضعف] و (٢) وهن منه (٣) العظم، واشتعل رأسه شيئا، وإن كانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقرا، لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداء خفيا، وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ أى: من عندك ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أى: ولدا صالحا ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾. قال الله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ أى: خاطبته الملائكة شفاها خطاباً أسمعته، وهو قائم يصلى فى محراب عبادته، ومحل خلوته، ومجلس مناجاته، وصلاته.

ثم أخبر عما بشرته به الملائكة: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾، أى: بولد يوجد لك من صلبك اسمه يحيى.

قال قتادة وغيره: إنما سُمِّي يحيى لأن الله تعالى أحياه بالإيمان.

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ روى العوفي وغيره عن ابن عباس. وقال الحسن وقتادة وعكرمة ومجاهد وأبو الشعثاء والسدى والربيع بن أنس، والضحاك، وغيرهم فى هذه الآية: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أى: بعيسى ابن مريم؛ قال الربيع بن أنس: هو أول من صدق بعيسى ابن مريم، وقال قتادة: وعلى سننه (٤) ومنهاجه. وقال ابن جريج: قال ابن عباس فى قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ قال: كان يحيى وعيسى ابْنَى خالة، وكانت أم يحيى تقول لمريم: إني أجد الذى فى بطنى يسجد للذى فى بطنك فذلك تصديقه بعيسى: تصديقه له فى بطن أمه، وهو أول من صدق عيسى، وكلمة الله عيسى، وهو أكبر من عيسى (٥)، عليه (٦) السلام، وهكذا قال السدى أيضا.

وقوله: ﴿وَسَيِّدًا﴾: قال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، وسعيد بن جبير، وغيرهم: الحكيم (٧)، وقال قتادة: سيِّداً فى العلم والعبادة. وقال ابن عباس، والثورى، والضحاك: السيد الحكيم (٨) المتقى (٩)، وقال سعيد بن المسيب: هو الفقيه العالم. وقال عطية: السيد فى خلقه ودينه. وقال عكرمة: هو الذى لا يغلبه الغضب. وقال ابن زيد: هو الشريف. وقال مجاهد وغيره (١٠): هو

(٣) فى ج، ر: «ضعف».

(٦) فى ر، أ، و: «عليهما».

(١٠) فى أ: «غيرهم».

(٢) زيادة من أ، و.

(٥) فى ر: «يحيى».

(٩) فى أ، و: «التقى».

(١) زيادة من أ، و.

(٤) فى ج، أ، و: «سنته».

(٨، ٧) فى ج، أ، و: «الحليم».

الكريم على الله، عز وجل .

وقوله: ﴿وَحَصُورًا﴾ رُوى عن ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبى الشعثاء، وعطية العوفى أنهم قالوا: هو الذى لا يأتى النساء .

وعن أبى العالية والربيع بن أنس: هو الذى لا يولد له . وقال الضحاك: هو الذى لا ولد له ولا ماء له .

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا يحيى بن المغيرة، أنبأنا جرير، عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس فى الحَصُور: الذى لا ينزل الماء، وقد روى ابن أبى حاتم فى هذا حديثاً غريباً جداً فقال: حدثنا أبو جعفر محمد بن غالب البغدادى، حدثنى سعيد بن سليمان، حدثنا عبادة - يعنى ابن العوام - عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن ابن العاص - لا يدري عبد الله أو عمرو - عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ قال: ثم تناول شيئاً من الأرض فقال: «كان ذكره مثل هذا»^(١).

ثم قال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا يحيى بن سعيد القطان، عن يحيى بن سعيد الأنصارى؛ أنه سمع سعيد بن المسيب، عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: ليس أحد من خلق الله لا يلقاه بذنب غير يحيى بن زكريا، ثم قرأ سعيد: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾، ثم أخذ شيئاً من الأرض فقال^(٢): الحصور ما كان ذكره مثل ذى وأشار يحيى بن سعيد القطان بطرف إصبعه السبابة .

فهذا موقوف^(٣)، وهو أقوى^(٤) إسناداً من المرفوع، بل وفى صحة المرفوع نظر، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقد قال القاضى عياض فى كتابه^(٥) الشفاء: اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه^(٦) كان ﴿حَصُورًا﴾ ليس كما قاله بعضهم: إنه كان هيوياً، أو لا ذكر له، بل قد أنكر هذا حذائق المفسرين ونقاد العلماء، وقالوا: هذه نقيصة وعيب ولا تليق^(٧) بالأنبياء، عليهم السلام، وإنما معناه: أنه معصوم من الذنوب، أى لا يأتىها كأنه حصر عنها، وقيل: مانعا نفسه من الشهوات . وقيل: ليست له شهوة فى النساء .

وقد^(٨) بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل فى كونها موجودة ثم قمعها: إما بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله عز وجل، كيحيى، عليه السلام . ثم هى حق من أقدر^(٩) عليها وقام بالواجب فيها ولم تشغله^(١٠) عن ربه درجة علياء، وهى درجة نبينا محمد ﷺ

(١) تفسير ابن أبى حاتم (٢/ ٢٤١) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١١/ ٥٦١) من طريق يحيى بن سعيد به .

(٢) فى أ، و: «قال» .

(٣) تفسير ابن أبى حاتم (٢/ ٢٤٣) .

(٤) فى أ: «كتاب» .

(٥) فى و: «أصح» .

(٦) فى ج، ر، أ: «بأنه» .

(٨) فى ج، ر، أ: «فقل» .

(٧) فى أ: «ولا يليق» .

(٩) فى أ: «يشغله» .

(١٠) فى أ: «قدر» .

الذى لم يشغله كثرتهم عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة، بتحسينهن وقيامه عليهن، واكتسابه لهن، وهدايته إياهن. بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره، فقال: «حَبَّبَ إِلَيَّ مِنَ دُنْيَاكُمْ».

هذا لفظه. والمقصود أن مدح يحيى بأنه حصور ليس أنه لا يأتي النساء، بل معناه كما قاله هو وغيره: أنه معصوم عن الفواحش والقاذورات، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلادهن، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال: ﴿هَبْ^(١) لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ كأنه قال: ولداً له ذرية ونسل وعقب، والله سبحانه وتعالى أعلم.

[وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا عيسى بن حماد زُغَبَة ومحمد بن سلمة المرادى قالوا: حدثنا حجاج، عن سلمان بن القمري، عن الليث بن سعد، عن محمد بن عجلان، عن القعقاع، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «كل ابن آدم يلقي الله بذنوب قد أذنبه يعذبه عليه، إن شاء أو يرحمه، إلا يحيى بن زكريا، فإنه كان سيِّداً وحسوراً ونبياً من الصالحين»، ثم أهوى النبي ﷺ إلى قذاة من الأرض فأخذها وقال: «كان ذكره مثل هذه القذاة»^(٢)].

قوله: ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ هذه بشارة ثانية بنبوة يحيى بعد البشارة بولادته، وهى أعلى من الأولى كقوله^(٣) تعالى لأم موسى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] فلما تحقق زكريا، عليه السلام، هذه البشارة أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ﴾ أى الملك: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أى: هكذا أمر الله عظيم، لا يعجزه شيء ولا يتعاضمه أمر ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أى: علامة أستدل بها على وجود الولد منى ﴿قَالَ آيَتُكَ الْأَنْتَ تَكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ أى: إشارة لا تستطيع النطق، مع أنك سوى صحيح، كما فى قوله: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠] ثم أمر بكثرة الذكر والشكر والتسبيح فى هذه الحال، فقال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾. وسيأتى طرف آخر فى بسط هذا المقام فى أول سورة مريم، إن شاء الله تعالى.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)﴾.

هذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم، عليها السلام، عن أمر الله لهم بذلك: أن الله قد اصطفاها، أى: اختارها لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها وطهرها من الأكدار والوسواس^(٤)، واصطفاها ثانياً مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين.

(١) زيادة من و.

(٢) فى ج، ر، أ: «فهب»، وهو خطأ والصواب ما بالأصل.

(٤) فى أ: «الوسواس».

(٣) فى ر: «لقوله».

قال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾. قال: كان أبو هريرة يحدث عن رسول الله ﷺ: «خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الْإِبِلَ نِسَاءُ قُرَيْشٍ، أَخْنَاهُ عَلَى وَكْدٍ فِي صِغَرِهِ، وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ، وَلَمْ تَرْكَبْ مَرِيْمُ بِنْتُ عِمْرَانَ بَعِيرًا قَطُّ».

لم يخرجوه من هذا الوجه، سوى مسلم فإنه رواه عن محمد بن رافع وعبد بن حميد^(١)، كلاهما عن عبد الرزاق^(٢)، به.

وقال هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن جعفر، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خَيْرُ نِسَائِهَا مَرِيْمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ». أخرجه في الصحيحين، من حديث هشام، به مثله^(٣).

وقال الترمذي: حدثنا أبو بكر بن زنجويه، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا^(٤) معمر، عن قتادة، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «حَسْبُكِ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ مَرِيْمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَأَسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ» تفرد به الترمذي وصححه^(٥).

وقال عبد الله بن أبي جعفر الرازي، عن أبيه قال: كان ثابت البناني يحدث عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ قال: «خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ أَرْبَعٌ، مَرِيْمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَأَسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»^(٦) رواه ابن مردويه^(٧).

وروى ابن مردويه من طريق شعبة، عن معاوية بن قرة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا ثَلَاثٌ: مَرِيْمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَأَسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»^(٨).

(١) في ر: «عبد الحميد».

(٢) عبد الرزاق في تفسيره (١/١٢٨) ومسلم في صحيحه برقم (٢٠٠) ورواه البخاري في صحيحه برقم (٥٠٨٢) من وجه آخر: فرواه عن ابن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة به.

(٣) صحيح البخاري برقم (٣٨١٥)، (٣٤٣٢) وصحيح مسلم برقم (٢٤٣٠).

(٤) في أ: «عن».

(٥) سنن الترمذي برقم (٣٨٧٨).

(٦) زيادة من ج، أ.

(٧) ورواه ابن عدي في الكامل (٤/٢١٧) من طريق عبد الله بن أبي جعفر عن أبيه قال: كان ثابت البناني فذكره.

وقال ابن عدي بعد ما ساق له هذا الحديث: «لا يتابع في بعض حديثه».

وقد توبع فرواه الخطيب في تاريخ بغداد (٩/٤٠٤) من طريق عبد الرحمن بن سعد حدثنا أبو جعفر الرازي عن أبي عبد

الرحمن محمد بن سعيد عن ثابت به، وأبو جعفر الرازي عيسى بن ماهان متكلم فيه، لكن روى عن أنس من وجه

آخر، فرواه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن أنس به. مصنف عبد الرزاق (١١/٤٣٠) ومن طريقه ابن حبان في

صحيحه برقم (٢٢٢٢) «موارد».

(٨) وقد ذكره الحافظ ابن كثير في كتابه البداية والنهاية (٢/٥٦).

وقال ابن جرير: حدثني المثني، حدثنا آدم العسقلاني، حدثنا شعبة، حدثنا عمرو بن مرة، سمعت مرة الهمداني بحديث عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرِيْمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ».

وقد أخرجه الجماعة إلا أبا داود من طرق عن شعبة به^(١) ولفظ البخاري: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ، وَمَرِيْمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ».

وقد استقصيت طرق هذا الحديث وألفاظه في قصة عيسى ابن مريم^(٢)، عليهما السلام، في كتابنا: «البدية والنهاية» والله الحمد والمنة^(٣).

ثم أخبر تعالى عن الملائكة: أنهم أمروها بكثرة العبادة والخشوع والخضوع والسجود والركوع والدؤوب في العمل لها، لما يريد الله [تعالى]^(٤) بها من الأمر الذي قدره وقضاه، مما فيه محنة لها ورفعة في الدارين، بما أظهر الله تعالى فيها من قدرته العظيمة، حيث خلق منها ولداً من غير أب، فقال تعالى: ﴿يَا مَرِيْمُ اقْنِطِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾. أما القنوت فهو الطاعة في خشوع^(٥)، كما قال تعالى: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾^(٦) [البقرة: ١١٦].

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث: أن دراجاً أبا السمع حدثه عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ حَرْفٍ فِي الْقُرْآنِ يُذَكِّرُ فِيهِ الْقُنُوتُ فَهُوَ الطَّاعَةُ».

ورواه ابن جرير من حديث^(٧) ابن لهيعة، عن دراج، به، وفيه نكارة^(٨).

وقال مجاهد: كانت مريم، عليها السلام، تقوم حتى تتورم كعباها، والقنوت هو: طول الركود^(٩) في الصلاة، يعني امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا مَرِيْمُ اقْنِطِي لِرَبِّكِ﴾. بل قال الحسن: يعني اعبدى لربك ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أى: كوني منهم.

(١) تفسير الطبري (٣٩٧/٦) ورواه البخاري في صحيحه برقم (٣٤١١)، ومسلم برقم (٢٤٣١) والترمذي برقم (١٨٣٤) والنسائي في الكبرى برقم (٨٣٥٦) وابن ماجه في السنن برقم (٣٢٨٠).

(٢) في ج، ر، أ، و: «عيسى ومريم».

(٣) البداية والنهاية (٥٥/٢ - ٥٧).

(٤) زيادة من و. (٥) في ج، أ: «الخشوع».

(٦) في أ، و: «وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ» [الروم: ٢٦].

(٧) في ج، أ، و: «طريق».

(٨) تفسير ابن أبي حاتم (٢٦١/٢) وتفسير الطبري (٤٠٣/٦) ورواه أحمد في مسنده (٧٥/٣) قال الهيثمي في المجمع (٣٢٠/٦):

«في إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف» وفيه أيضاً دراج قال أحمد: «أحاديثه مناكير» وضعفه النسائي وأبو حاتم وقال أبو داود: «أحاديثه مستقيمة إلا ما كان عن أبي الهيثم عن أبي سعيد».

(٩) في أ: «الذكر».

وقال الأوزاعي: ركدت في محرابها راکعة وساجدة وقائمة، حتى نزل الماء الأصفر في قدميها، رضى الله عنها.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمتها من طريق محمد بن يونس الكندي - وفيه مقال -: حدثنا علي بن بحر بن برّي، حدثنا الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير في قوله: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي﴾ قال: سجدت حتى نزل الماء الأصفر في عينيها^(١) (٢).

وذكر ابن أبي الدنيا: حدثنا الحسن بن عبد العزيز، حدثنا ضمرة، عن ابن شوذب قال: كانت مريم، عليها السلام، تغتسل في كل ليلة.

ثم قال تعالى لرسوله [عليه أفضل الصلوات والسلام]^(٣) بعدما أطلعه على جلية الأمر: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أى: نقصه عليك ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أى: ما كنت عندهم يا محمد فتخبرهم^(٤) عنهم معاينة عما جرى، بل أطلعك الله على ذلك كأنك كنت حاضرا وشاهدا لما كان من أمرهم حين اقترعوا في شأن مريم أيهم يكفلها، وذلك لرغبتهم في الأجر.

قال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثني حجاج، عن ابن^(٥) جريج، عن القاسم ابن أبي بزة، أنه أخبره عن عكرمة - وأبى بكر، عن عكرمة - قال: ثم خرجت بها - يعنى أم مريم بمريم - تحملها في خرقتها إلى بنى الكاهن بن هارون أخى موسى، عليهما السلام - قال: وهم يومئذ يلون في^(٦) بيت المقدس ما يلي الحجة من الكعبة - فقالت لهم: دُونَكُمْ هذه النذيرة فإنى حررتها وهى ابنتى، ولا تدخل^(٧) الكنيسة حائض، وأنا لا أردّها إلى بيتى؟ فقالوا^(٨): هذه ابنة إمامنا - وكان عمران يؤمهم في الصلاة - وصاحب قرباننا فقال زكريا: ادفعوها إلى: فإن خالتها تحتى. فقالوا: لا تطيب أنفسنا، هى^(٩) ابنة إمامنا فذلك حين اقترعوا بأقلامهم عليها^(١٠) التى يكتبون بها التوراة، فقرعهم زكريا، فكفلها^(١١).

وقد ذكر عكرمة أيضاً، والسدى، وقتادة، والربيع بن أنس، وغير واحد - دخل حديث بعضهم فى بعض - أنهم دخلوا^(١٢) إلى نهر الأردن واقترعوا هنالك على أن يلقوا أقلامهم [فيه]^(١٣) فأيهم ثبت فى جرية الماء فهو كافلها، فألقوا أقلامهم فاحتملها^(١٤) الماء، إلا قلم زكريا فإنه ثبت. ويقال: إنه ذهب صعداً يشق جرية الماء، وكان مع ذلك كبيرهم وسيدهم، وعالمهم وإمامهم ونبىهم صلوات الله

(١) فى ر: «عينها».

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (ص ٣٦٩) تراجم النساء ط. المجمع العلمى بدمشق، ومختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٧٨/٢٦).

(٣) زيادة من و. (٤) فى ج، أ، ر، و: «فتخبر».

(٥) فى أ: «أبى».

(٦) فى أ، و: «من».

(٧) فى أ: «يدخل».

(٨) فى أ: «فقال».

(٩) فى ر: «تلى».

(١٠) فى أ: «اقترعوا بالأقلام».

(١١) لم أجده فى تفسير الطبرى المطبوع.

(١٢) فى ج: «فاحتمل».

(١٣) زيادة من أ.

(١٤) فى أ، و: «ذهبوا».

وسلامه عليه سائر النبيين^(١) [والمرسلين]^(٢).

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٤٧).

هذه بشارة من الملائكة لمريم، عليها السلام، بأن سيوجد منها ولد عظيم، له شأن كبير. قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ أى: بولد يكون وجوده بكلمة من الله، أى: بقوله له: «كن» فيكون، وهذا تفسير قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩] كما ذكره الجمهور على ما سبق بيانه ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أى يكون مشهوراً بهذا فى الدنيا، يعرفه المؤمنون بذلك.

وسمى المسيح، قال بعض السلف: لكثرة سياحته. وقيل: لأنه كان مسيح^(٣) القديم: [أى]^(٤) لا أخمَصَ لهما. وقيل: لأنه [كان]^(٥) إذا مسح أحداً من ذوى العاهات برئ بإذن الله تعالى.

وقوله: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ نسبة له إلى أمه، حيث لا أب له ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أى: له وجهة ومكانة عند الله فى الدنيا، بما يوحىه الله إليه من الشريعة، وينزل^(٦) عليه من الكتاب، وغير ذلك مما منحه به. وفى الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه، فيقبل منه، أسوة بإخوانه^(٧) من أولى العزم، صلوات الله عليهم.

وقوله: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أى: يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فى حال صغره، معجزة وآية، و[فى]^(٨) حال كهولته^(٩) حين يوحى الله إليه بذلك ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أى: فى قوله وعمله، له علم صحيح وعمل صالح.

قال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن عبد الله بن قُسيط، عن محمد بن شرحبيل، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا تَكَلَّمَ مَوْلُودٌ فِي صِغَرِهِ إِلَّا عِيسَى وَصَاحِبَ جُرَيْجٍ»^(١٠).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو الصقر يحيى بن محمد بن قزعة، حدثنا الحسين - يعنى المروزي - حدثنا جرير - يعنى ابن حازم - عن محمد، عن أبى هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ، عِيسَى، وَصَبِيٌّ كَانَ فِي زَمَنِ جُرَيْجٍ، وَصَبِيٌّ آخَرُ»^(١١).

(٣) فى ر: «يسح».

(٢) زيادة من أ.

(١) فى ج، أ: «الأنبياء».

(٦) فى أ، و: «وينزله».

(٤، ٥) زيادة من أ.

(٧) فى ج، أ: «إخوانه»، وفى ر، و: «إخوته».

(٨) زيادة من ج، ر، أ، و.

(٩) فى ج، أ، و: «كهولته».

(١٠) ورواه ابن أبى حاتم فى تفسيره (٢/ ٢٧٢، ٢٧٣) من طريق أبيه عن أحمد بن شعيب عن محمد بن سلمة عن ابن إسحاق به.

(١١) تفسير ابن أبى حاتم (٢/ ٢٧٢) ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٤٣٦) (٢٤٨٢) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٥٥٠) من طريق

جرير بن حازم عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة به.

فلما سمعت بشارة الملائكة لها بذلك، عن الله، عز وجل، قالت فى مناجاتها: ﴿رَبِّ اُنِّىْ يَكُوْنُ لِيْ وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِيْ بَشَرْ﴾، تقول: كيف يوجد هذا الولد منى وأنا لست بذات زوج ولا من عزمى أن أتزوج، ولست بغيا؟ حاشا لله. فقال لها الملك - عن الله، عز وجل، فى جواب هذا السؤال -: ﴿كَذٰلِكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أى: هكذا أمر الله عظيم، لا يعجزه شىء. وصرح هاهنا بقوله: ﴿يَخْلُقُ﴾ ولم يقل: «يفعل» كما فى قصة زكريا، بل نص هاهنا على أنه يخلق؛ لثلا يبقى شبهة، وأكد ذلك بقوله: ﴿اِذَا قَضٰى اَمْرًا فَاِنَّمَا يَقُوْلُ لَهُ كُنْ فَيَكُوْنُ﴾ أى: فلا يتأخر^(١) شيئا، بل يوجد عقيب^(٢) الامر بلا مهلة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا اَمْرُنَا اِلَّا وَاَحَدَةٌ كَلَمَحَ بِالْبَصْرِ﴾ [القمر: ٥٠]، أى: إنما نأمر مرة واحدة لا مثوية فيها، فيكون ذلك الشىء سريعا كلمح بالبصر^(٣).

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْاِنْجِيْلَ﴾ (٤٨) وَرَسُوْلًا اِلٰى بَنِيْ اِسْرَآئِيْلَ اَنِّيْ قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّنْ رَبِّكُمْ اَنِّيْ اَخْلَقْتُ لَكُمْ مِّنَ الطِّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَاَنْفُخُ فِيْهِ فَيَكُوْنُ طَيْرًا بِاِذْنِ اللّٰهِ وَاُبْرِئُ الْاَكْمَهَ وَالْاَبْرَصَ وَاُحْيِي الْمَوْتٰى بِاِذْنِ اللّٰهِ وَاُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَاْكُلُوْنَ وَمَا تَدْخِرُوْنَ فِيْ بُيُوْتِكُمْ اِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ اِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِيْنَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِيْ حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَاَطِيعُوْنَ (٥٠) اِنَّ اللّٰهَ رَبِّيْ وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوْهُ هٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيْمٌ (٥١)﴾.

يقول تعالى - مخبرا عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى، عليه^(٤) السلام - أن الله يعلمه ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ الظاهر أن المراد بالكتاب هاهنا الكتابة. والحكمة تقدم الكلام على تفسيرها فى سورة البقرة^(٥).

﴿وَالْتَّوْرَةَ وَالْاِنْجِيْلَ﴾، فالتوراة: هو الكتاب الذى أنزله الله على موسى بن عمران. والإنجيل: الذى أنزله الله على عيسى عليهما^(٦) السلام، وقد كان [عيسى]^(٧) عليه السلام، يحفظ هذا وهذا. وقوله: ﴿وَرَسُوْلًا اِلٰى بَنِيْ اِسْرَآئِيْلَ﴾ أى: [و]^(٨) يجعله رسولا إلى بنى إسرائيل، قائلا لهم: ﴿اَنِّيْ قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّنْ رَبِّكُمْ اَنِّيْ اَخْلَقْتُ لَكُمْ مِّنَ الطِّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَاَنْفُخُ فِيْهِ فَيَكُوْنُ طَيْرًا بِاِذْنِ اللّٰهِ﴾ وكذلك كان يفعل: يصور من الطين شكل طير، ثم ينفخ فيه، فيطير عيانا بإذن الله، عز وجل، الذى جعل هذا معجزة يَدُلُّ على أن الله أرسله.

﴿وَاُبْرِئُ الْاَكْمَهَ﴾، قيل: هو الذى يبصر نهاراً ولا يبصر ليلا. وقيل بالعكس. وقيل: هو الأعشى. وقيل: الأعمش. وقيل: هو الذى يولد أعمى. وهو أشبه؛ لأنه أبلغ فى المعجزة وأقوى فى التحدى ﴿وَالْاَبْرَصَ﴾ معروف.

(٣) فى أ: «البصر».

(٢) فى ج، ر: «عقب».

(١) فى ر: «ولا تتأخر».

(٦) فى و: «عليه».

(٥) الآية رقم ١٢٩.

(٤) فى ج، أ، و: «عليهما».

(٧، ٨) زيادة من ج، أ.

﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ يَٰذَا ٱللَّهِ﴾ قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بمعجزة تناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى، عليه السلام، السحر وتعظيم السحرة. فبعثه الله بمعجزة بَهَرَتِ الأبصار وحيرت كل سَحَّار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام، وصاروا من الأبرار. وأما عيسى، عليه السلام، فُبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه، إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرع الشريعة. فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمة، والأبرص، وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد؟ وكذلك محمد ﷺ بعثه [الله] (١) في زمن الفصحاء والبلغاء ونحارير الشعراء، فأثامهم بكتاب من الله، عز وجل، لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبداً، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وما ذاك إلا لأن كلام الرب لا يشبهه كلام الخلق أبداً.

وقوله: ﴿وَأَنبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أى: أخبركم بما أكل أحدكم الآن، وما هو مدخر [له] (٢) في بيته لغده ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أى: فى ذلك كله ﴿لَآيَةً لَّكُمْ﴾ أى: على صدقى فيما جئتكم به ﴿إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِّ مِنَ ٱلتَّوْرَةِ﴾ أى: مقرر لها ومثبت ﴿وَلَأَحِلَّ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾، فيه دلالة على أن عيسى، عليه السلام، نسخ بعض شريعة التوراة، وهو الصحيح من القولين، ومن العلماء من قال: لم ينسخ منها شيئاً، وإنما أحلَّ لهم بعض ما كانوا يتنازعون (٣) فيه فأخطؤوا، فكشف (٤) لهم عن المغطى فى ذلك، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَلَأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف: ٦٣] والله أعلم.

ثم قال: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى: بحجة ودلالة على صدقى فيما أقول لكم ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ رَبَّيْ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ رَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ أى: أنا وأنتم سواء فى العبودية له والخضوع والاستكانة إليه ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَن أَنصَارِي إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ آمَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَد بَآئِنًا مُّسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٥٣) وَمَكُرُواْ وَمَكَّرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَاكِرِينَ (٥٤)﴾.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ﴾ أى: استشعر منهم التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال قال: ﴿مَن أَنصَارِي إِلَى ٱللَّهِ﴾، قال مجاهد: أى من يتبعنى إلى الله؟ وقال سفيان الثورى وغيره: من أنصارى مع الله؟ وقول (٥) مجاهد أقرب.

والظاهر أنه أراد من أنصارى فى الدعوة إلى الله؟ كما كان النبى ﷺ يقول فى مواسم الحج، قبل أن يهاجر: «مَنْ رَجُلٌ يُؤْوِينِي عَلَى [أَنْ] (٦) أَبْلَغَ كَلَامَ رَبِّي، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أَبْلَغَ كَلَامَ

(١) زيادة من ج، أ، و. (٢) زيادة من ر، أ، و. (٣) فى ج، ر، أ، و: «تنازعوا». (٤) فى أ، و: «واكتشف». (٥) فى أ: «وقال». (٦) زيادة من ر، وفى ج، أ، و: «يؤوينى حتى أبلغ».

رَبِّي»^(١) حتى وجد الأنصار فأووه ونصروه، وهاجر إليهم فأسوه^(٢)، ومنعوه من الأسود والأحمر. وهكذا^(٣) عيسى ابن مريم، انتدب له طائفة من بني إسرائيل فآمنوا به وأزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه. ولهذا قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بَأَنَّا مُسْلِمُونَ. رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾: الخواريون، قيل: كانوا قصّارين وقيل: سموا بذلك لبياض ثيابهم، وقيل: صيادين. والصحيح أن الخواري الناصر، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب، فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير [ثم ندبهم فانتدب الزبير]^(٤) فقال: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ خَوَارِيًّا وَخَوَارِييَ الزُّبَيْرُ»^(٥).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع، حدثنا إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، قال مع أمة محمد ﷺ. وهذا إسناد جيد.

ثم قال^(٦) تعالى مخبراً عن [ملا] ^(٧) بنى إسرائيل فيما همّوا به من الفتك^(٨) بعيسى، عليه السلام، وإرادته بالسوء والصلب، حين تمالؤوا^(٩) عليه ووَشَوْا به إلى ملك ذلك الزمان، وكان كافراً، فأنهوا إليه أن هانوا رجلاً يضل الناس ويصدّهم عن طاعة الملك، ويَفُتد الرعايا، ويفرق بين الأب وابنه^(١٠)، إلى غير ذلك مما تقلدوه في رقابهم ورموه به من الكذب، وأنه ولد زانية^(١١) حتى استثاروا غضب الملك، فبعث في طلبه من يأخذه ويصلبه ويُنكّل به، فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم قد ظفروا به، نجاه الله من بينهم، ورفعهم من رَوْزَنَةِ ذلك البيت إلى السماء، وألقى الله شبهه على رجل [عمن]^(١٢) كان عنده في المنزل، فلما دخل أولئك اعتقدوه في ظلمة الليل عيسى، عليه السلام، فأخذوه وأهانوه وصلبوه، ووضعوا على رأسه الشوك. وكان هذا من مكر الله بهم، فإنه نجى نبيه ورفعهم من بين أظهرهم، وتركهم في ضلالهم يعمهون، يعتقدون أنهم قد ظفروا بطلبتهم، وأسكن الله في قلوبهم قسوةً وعناداً للحق ملازماً لهم، وأورثهم ذلة لا تفارقهم إلى يوم التناد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذُّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨)﴾.

اختلف المفسرون في قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾. فقال قتادة وغيره: هذا من المقدم والمؤخر، تقديره: إني رافعك إلى ومتوفيك، يعني بعد ذلك.

(١) رواه أحمد في المسند (٣/ ٣٢٢) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) في أ: «فأسوه». (٣) في أ: «وكذا».

(٤) زيادة من أ، و. (٥) صحيح البخاري برقم (٣٧١٩) وصحيح مسلم برقم (٢٤١٥) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٦) في أ: «وقال». (٧) زيادة من أ، و. (٨) في أ: «القتل».

(٩) في أ: «مالوا». (١٠) في ج، أ، و: «الابن وأبيه». (١١) في ج، ر، أ، و: «زنية».

(١٢) زيادة من أ، و.

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: ﴿إِنِّي مُتَوَكِّلٌ﴾ أى: بميتك.
وقال محمد بن إسحاق، عمن لا يتهم، عن وهب بن منبه، قال: توفاه الله ثلاث ساعات من النهار حين رفعه الله إليه.

قال ابن إسحاق: والنصارى يزعمون أن الله توفاه سبع ساعات ثم أحياه.
وقال إسحاق بن بشر^(١)، عن إدريس، عن وهب: أماته الله ثلاثة أيام، ثم بعثه، ثم رفعه.
وقال مطر الوراق: متوفيك من^(٢) الدنيا وليس بوفاة موت^(٣)، وكذا قال ابن جريج: توفيه هو رفعه.

وقال الأكثرون: المراد بالوفاة هاهنا: النوم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾^(٤) [الأنعام: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٥) [الزمر: ٤٢]، وكان رسول الله ﷺ يقول - إذا قام من النوم -: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»، وقال الله تعالى: ﴿وَيَكْفُرْهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا. وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ إلى قوله [تعالى]^(٦): ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا. بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا. وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٦ - ١٥٩] والضمير فى قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ عائد على عيسى، عليه السلام، أى: وإن من أهل الكتاب إلا يؤمن^(٧) بعيسى قبل موت عيسى، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة، على ما سيأتى بيانه، فحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كلهم؛ لأنه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثنا عبد الله بن أبى جعفر، عن أبيه، حدثنا الربيع بن أنس، عن الحسن أنه قال فى قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَكِّلٌ﴾ يعنى وفاة المنام، رفعه الله فى منامه. قال الحسن: قال رسول الله ﷺ لليهود: «إِنَّ عِيسَى لَمْ يَمُتْ، وَإِنَّهُ رَاجِعٌ إِلَيْكُمْ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٨).

وقوله تعالى: ﴿وَمُطَهَّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: برفعى إياك إلى السماء ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وهكذا وقع؛ فإن المسيح، عليه السلام، لما رفعه الله إلى السماء تفرقت أصحابه شيعاً بعده؛ فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا: هو الله. وآخرون قالوا: هو ثالث ثلاثة. وقد حكى الله مقالاتهم فى القرآن، ورد على كل فريق، فاستمروا كذلك قريباً من ثلاثمائة سنة، ثم تبع لهم ملك

(٣) فى أ: «مرة».

(٢) فى أ: «فى».

(١) فى أ: «بشير».

(٦) زيادة من ر، أ.

(٥) زيادة من ج، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٤) زيادة من ج، ر، أ، و.

(٧) فى ج، أ، و: «ليؤمن»، وفى ر: «فيؤمن».

(٨) تفسير ابن أبى حاتم (٢٩٦/٢) ورواه الطبرى فى تفسيره (٤٥٥/٦) من طريق عبد الله بن جعفر عن أبيه عن الربيع عن الحسن به مراسلاً.

من ملوك اليونان، يقال له: قسطنطين، فدخل فى دين النصرانية، قيل: حيلة ليفسده، فإنه كان فيلسوفاً، وقيل: جهلاً منه، إلا أنه بَدَل لهم دين المسيح وحرفه، وزاد فيه ونقص منه، ووضعت له القوانين والأمانة الكبيرة - التى هى الخيانة الحقيرة - وأحل فى زمانه لحم الخنزير، وصلّوا له إلى المشرق^(١)، وصوروا له الكنائس، وزادوا فى صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه، فيما يزعمون. وصار دين المسيح^(٢) دين قسطنطين إلا أنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارات ما يزيد على اثنى عشر ألف معبد، وبنى المدينة المنسوبة إليه، واتبعه^(٣) الطائفة المُلْكِيَّة منهم. وهم فى هذا كله قاهرون لليهود، أيدهم^(٤) الله عليهم لأنهم أقرب إلى الحق منهم، وإن كان الجميع كفار، عليهم لعائن الله.

فلما بعث الله محمداً ﷺ، فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق - كانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض - إذ قد صدقوا الرسول النبى الأمى، خاتم الرسل، وسيد ولد آدم، الذى دعاهم إلى التصديق بجميع الحق، فكانوا^(٥) أولى بكل نبي من أمته، الذين يزعمون أنهم على ملته وطريقته، مع ما قد حَرَفُوا وبدلوا.

ثم لو لم يكن شيء من ذلك لكان قد نسخ الله بشريعته^(٦) شريعة جميع الرسل بما بعث به محمداً ﷺ من الدين الحق، الذى لا يغير ولا يبدل إلى قيام الساعة، ولا يزال قائماً منصوراً ظاهراً على كل دين. فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها، واحتازوا^(٧) جميع الممالك، ودانت لهم جميع الدول، وكسروا كسرى، وقصروا قيصر، وسلبوها كُتُوزَهما، وأنفقت فى سبيل الله، كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم، عز وجل، فى قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ الآية [النور: ٥٥] ولهذا^(٨) لما كانوا هم المؤمنون بالمسيح حقاً^(٩) سلبوا النصارى بلاد الشام وأجلّوهم إلى الروم، فلجؤوا إلى مدينتهم القسطنطينية، ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة. وقد أخبر الصادق المصدوق أمته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية، ويستفيؤون^(١٠) ما فيها من الأموال، ويقتلون الروم مَقْتَلَةً عظيمة جداً، لم ير الناس مثلاً ولا يرون بعدها نظيرها، وقد جمعت فى هذا جزءاً مفرداً. ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أى: يوم القيامة ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ. فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذُّهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾، وكذلك فعل تعالى^(١١) بمن كفر بالمسيح من اليهود، أو غلا فيه وأطراه من النصارى؛ عَذَّبَهُمْ فى الدنيا بالقتل والسبى وأخذ الأموال وإزالة الأيدي عن

(١) فى ر: «الشرق».

(٢) فى أ: «عيسى».

(٤) فى ر: «أيديهم».

(٥) فى ج، أ: «وكانوا».

(٦) فى ج: «شريعة». وفى ر: «شريعته».

(٧) فى ر، و: «واختازوا».

(٨) فى أ: «فلهذا».

(٩) فى و: «حقاً بالمسيح».

(١٠) فى أ: «ويستليون».

(١١) فى ر: «تعالى فعل».

الممالك، وفى الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤]. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ﴾^(١) أَجُورَهُمْ، أى: فى الدنيا والآخرة، فى الدنيا بالنصر والظفر، وفى الآخرة بالجنات العاليات ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ أى: هذا الذى قَصَصْنَاهُ عَلَيْكَ يامحمد فى أمر عيسى ومبدأ ميلاده وكيفية أمره، هو مما قاله الله تعالى، وأوحاه إليك ونزله عليك من اللوح المحفوظ، فلا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى فى سورة مريم: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ . مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٤، ٣٥] وهاهنا قال تعالى:

﴿إِنَّ مِثْلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) إِنَّ هَذَا لَهُو الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣).

يقول تعالى: ﴿إِنَّ مِثْلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فى قدرة الله تعالى حيث خلقه من غير أب ﴿كَمِثْلِ آدَمَ﴾ فإن الله تعالى خلقه من غير أب ولا أم، بل ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ والذى^(٢) خلق آدم قادر على خلق عيسى بالطريق الأولى والأخرى، وإن جاز ادعاء البنوة فى عيسى بكونه مخلوقا من غير أب، فجواز ذلك فى آدم بالطريق الأولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواها فى عيسى أشد بطلانا وأظهر فسادا. ولكن الرب، عز وجل، أراد أن يظهر قدرته لخلقه، حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى؛ وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى، ولهذا قال تعالى فى سورة مريم: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١]، وقال هاهنا: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أى: هذا القول هو الحق فى عيسى، الذى لا محيد عنه ولا صحيح^(٣) سواه، وماذا بعد الحق إلا الضلال.

ثم قال تعالى - آمرا رسوله ﷺ أن يُبَاهِلَ مَنْ عَانَدَ الْحَقَّ فى أمر عيسى بعد ظهور البيان: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ أى: نحضرهم فى حال المباهلة ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ أى: نلتعن ﴿لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾، أى: منا أو منكم.

وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا فى وفد نجران، أن النصارى حين

(٣) فى أ: «والصحيح».

(٢) فى ج، و: «فالذى».

(١) فى ر: «فوفيههم».

قدموا فجعلوا يُحَاجُّونَ في عيسى، ويزعمون فيه ما يزعمون من البنوة والإلهية، فأنزل الله صَدْرَ هذه السورة رَدًا عليهم، كما ذكره الإمام محمد بن إسحاق بن يسار وغيره.

قال ابن إسحاق في سيرته المشهورة وغيره: وَقَدْ (١) على رسول الله ﷺ وفد نصارى نَجْرَانَ، ستون راكبا، فيهم أربعة عَشَرَ رجلا من أشرافهم يؤول إليهم أمرهم، وهم: العاقب، واسمه عبد المسيح، والسيد، وهو الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل، وأويس الحارث (٢)، وزيد، وقيس، ويزيد، ونبية، وخويلد، وعَمْرُو، وخالد، وعبد الله، ويَحْنَس.

وأمر هؤلاء يؤول إلى ثلاثة منهم، وهم: العاقب وكان أمير القوم وذا رأيهم وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدر عن إلا عن رأيهم، والسيد وكان عالمهم وصاحب رَحْلهم ومُجْتَمَعهم، وأبو حارثة بن علقمة وكان أَسْقَفهم وحَبْرهم وإمامهم وصاحب مدراسهم، وكان رجلا من العرب من بنى بكر بن وائل، ولكنه تَنَصَّرَ، فعظمته الروم وملوكها وشرفوه، وبنوا له الكنائس ومَوَلَّوه وأَخْدَموه، لما يعلمونه من صلابته في دينهم. وقد كان يعرف أمر رسول الله ﷺ وشأنه وصفته بما علمه من الكتب المتقدمة جيدا، ولكن احتمله جهله على الاستمرار في النصرانية لما يرى [من] (٣) تعظيمه فيها ووجاهته عند أهلها.

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير، قال: قَدَمُوا على رسول الله ﷺ المدينة فدخلوا عليه مَسْجِدَه حين صلى العصر، عليهم ثياب الخبَرَات: جُبَّ وأرذية، في جَمَال رجال بنى الحارث بن كعب. قال: يقول بعض من رأيهم من أصحاب النبي ﷺ: ما رأينا بعدهم وفدا مثلهم. وقد حانت صلاتهم، فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ يصلون، فقال رسول الله ﷺ: دَعُوهم فصلوا إلى المشرق.

قال: فكلَّم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة، والعاقب عبد المسيح، أو السيد الأيهم، وهم من النصرانية على دين الملك، مع اختلاف أمرهم، يقولون: هو الله، ويقولون: هو ولد الله، ويقولون: هو ثالث ثلاثة. تعالى الله [عن ذلك علواً كبيراً] (٤). وكذلك قول النصرانية، فهم يحتاجون في قولهم: «هو الله» بأنه كان يحيى الموتى، ويُبْرِئُ الأسقام، ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيكون طيراً (٥). وذلك كله بأمر الله، وليجعله آية للناس.

ويحتاجون في قولهم بأنه ابن الله، يقولون: لم يكن له أب يعلم، وقد تكلم في المهد بشيء لم يصنعه أحد من بنى آدم قبله.

ويحتاجون في (٦) قولهم بأنه ثالث ثلاثة، بقول الله تعالى: فعلنا، وأمرنا، وخلقنا، وقضينا؛ فيقولون: لو كان واحداً ما قال إلا فعلتُ وقضيتُ وأمرتُ وخلقْتُ؛ ولكنه هو وعيسى ومريم وفي

(٣) زيادة من ج، ر، أ، و.

(٢) في ج، ر: «أو أوس بن الحارث».

(١) في ر: «وفد».

(٦) في ج، ر، أ، و: «على».

(٥) في ج، ر، أ، و: «طائراً».

(٤) زيادة من ج، أ.

كل ذلك من ^(١) قولهم قد نزل القرآن.

فلما كلمه الخبران قال لهما رسول الله ﷺ: «أَسْلَمَا» قالا: قد أسلمنا. قال: «إِنكُمَا لَمْ تُسْلِمَا فَأَسْلِمَا» قالا: بلى، قد أسلمنا قبلك. قال: «كَذَبْتُمَا، يَنْعَكُمَا مِنَ الْإِسْلَامِ دُعَاؤُكُمَا ^(٢) اللَّهُ وَلَدَا، وَعَبَادَتُكُمَا الصَّلِيبَ وَأَكْلُكُمَا الْخَنْزِيرَ». قالا: فمن أبوه يامحمد؟ فَصَمَتَ رسول الله ﷺ عنهما فلم يجبهما، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ، واختلاف أمرهم، صَدَرَ سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها.

ثم تَكَلَّمَ ابن إسحاق على التفسير ^(٣) إلى أن قال: فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله، والفصل من القضاء بينه وبينهم، وأمر بما أمر به من ملاعتهم إن ردّوا ذلك عليه، دعاهم إلى ذلك؛ فقالوا: يا أبا القاسم، دعنا ننظر في أمرنا، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل ^(٤) فيما دعوتنا إليه، فانصرفوا عنه، ثم خلّوا بالعاقب، وكان ذا رأيهم، فقالوا: يا عبد المسيح، ماذا ترى؟ فقال: والله يامعشر النصاري لقد عرفتم أن محمداً لنبى مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لآعن قوم نبياً قط فبقى كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال ^(٥) منكم إن فعلتم، فإن كنتم [قد] ^(٦) أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم.

فأتوا النبي ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، قد رأينا ألا نلاعنك، ونتركك على دينك، ونرجع على ديننا، ولكن ابعت معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا، يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا، فإنكم ^(٧) عندنا رضاً.

قال محمد بن جعفر: فقال رسول الله ﷺ: «أَتُؤْنِي الْعَشِيَّةَ أَبْعَثُ مَعَكُمْ الْقَوَى الْأَمِينَ»، فكان ^(٨) عمر بن الخطاب يقول: ما أحببت الإمارة قط حُبِّي إياها يومئذ، رجاء أن أكون صاحبها، فَرُحْتُ إِلَى الظَّهْرِ مُهَجِّراً، فلما صلى رسول الله ﷺ الظَّهْر سَلَّمَ، ثم نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ، فجعلت أُنطاول له ليراني، فلم يَزَلْ يَلْتَمِسُ بَيْصَرَهُ حَتَّى رَأَى أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ، فدعاه: «اُخْرُجْ مَعَهُمْ، فَأَقْضِ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ». قال عمر: فذهب بها أبو عبيدة، رضى الله عنه ^(٩).

وقد روى ابن مردويه من طريق محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن رافع بن خديج: أن وفد أهل نجران قدموا على رسول الله ﷺ فذكر نحوه، إلا أنه قال في الأشراف: كانوا اثني عشر. وذكر بقيته بأطول من هذا السياق، وزيادات أخر.

وقال البخاري: حدثنا عباس بن الحسين، حدثنا يحيى بن آدم، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن صِلَةَ بْنِ زُفَرٍ، عن حذيفة قال: جاء العاقبُ والسيدُ صاحباً نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن

(١) في ج، ر: «في». (٢) في ج، أ، و: «ادعواكما». (٣) في ج، ر، أ، و: «تفسيرها».

(٤) في ج، ر: «تريد أن تفعل». (٥) في ج، ر: «الاستئصال». (٦) زيادة من أ، و.

(٧) في ج، أ: «وإنكم». (٨) في ج: «وكان».

(٩) السيرة النبوية لابن هشام (٥٧٣/١ - ٥٧٥) ورواه الطبري في تفسيره (١٥١/٦) من طريق سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق به.

(١٠) في أ: «عن».

يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تَفْعَلْ، فوالله إن^(١) كان نبيا فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبتنا من بعدنا. قالوا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلا أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً. فقال: «لأُبْعِثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا^(٢)»، «حَقَّ أَمِينٍ»، فاستشرف لها أصحابُ رسول الله ﷺ، فقال: «قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ» فلما قام قال رسول الله ﷺ: «هَذَا أَمِينٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ».

[و] ^(٣) رواه البخاري أيضا، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه^(٤)، من طرق عن أبي إسحاق السبيعي، عن صلة، عن حذيفة، بنحوه.

وقد رواه أحمد، والنسائي، وابن ماجه، من حديث إسرائيل عن أبي إسحاق، عن صلة عن ابن مسعود، بنحوه^(٥).

وقال البخاري: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، عن خالد، عن أبي قلابة، عن أنس عن النبي ﷺ قال: «لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»^(٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن يزيد الرقي أبو يزيد، حدثنا فرات، عن عبد الكريم بن مالك الجزري عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال أبو جهل: إن رأيت رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة لأتينه حتى أطأ على عنقه. قال: فقال: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تموت الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلاً»^(٧).

وقد رواه الترمذي، والنسائي، من حديث عبد الرزاق، عن معمر، عن عبد الكريم، به. وقال الترمذي: [حديث] ^(٨) حسن صحيح^(٩).

وقد روى البيهقي في دلائل النبوة قصة وقد نجران مطولة جداً، ولنذكره فإن فيه فوائد كثيرة، وفيه غرابة وفيه مناسبة لهذا المقام، قال البيهقي:

حدثنا أبو عبد الله الحافظ وأبو سعيد محمد بن موسى بن الفضل، قالوا: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا يونس بن بكير، عن سلمة بن عبد يسوع، عن أبيه، عن جده قال يونس - وكان نصرانياً فأسلم - : إن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل نجران قبل أن ينزل عليه طس سليمان: «بِسْمِ إِلَهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى اسْقُف

(١) في أ، و: «لأن».

(٢) في أ: «أميناً خير أمين».

(٣) زيادة من أ، و.

(٤) صحيح البخاري برقم (٣٧٤٥) (٧٢٥٤) (٤٣٨٠، ٤٣٨١) وصحيح مسلم برقم (٢٤٢٠) وسنن الترمذي برقم (٣٧٩٦) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٨١٩٧) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٥).

(٥) المسند (١/٤١٤) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٨١٩٦) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٣٦).

(٦) البخاري برقم (٣٧٤٤)، (٤٣٨٢)، (٧٢٥٥)، ورواه مسلم في صحيحه برقم (٦٩٠) من حديث أنس بن مالك.

(٧) في ج: «أهلاً ولا مالا».

(٨) زيادة من ج.

(٩) المسند (١/٢٤٨) وسنن الترمذي برقم (٣٣٤٨)، والنسائي في السنن برقم (١١٦٨٥).

نَجْرَانٍ وَأَهْلِ نَجْرَانَ سَلِمَ^(١) أَنْتُمْ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكُمْ إِلَهَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ، وَأَدْعُوكُمْ إِلَى وَلَايَةِ اللَّهِ مِنْ وَلَايَةِ الْعِبَادِ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَالْجَزِيَّةُ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ^(٢) أَذَنْتُكُمْ بِحَرْبٍ وَالسَّلَامُ.

فلما أتى الأسقف الكتاب فقرأه فطع به، ودعّره دُعْرًا شديدًا، وبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له: شُرْحَبِيلُ بْنُ وَدَاعَةَ - وكان من همدان ولم يكن أحد يُدْعَى إذا نزلت مُعْضَلَةٌ قَبْلَهُ، لا الإيهم ولا السيّد ولا العاقب - فدفع الأسقفُ كتابَ رسول الله ﷺ إلى شُرْحَبِيلٍ، فقرأه، فقال الأسقف: يا أبا مريم، ما رأيك^(٣)؟ فقال شرحبيل: قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة، فما يؤمن أن يكون هذا هو ذاك الرجل، ليس لى فى النبوة رأى، ولو كان أمر من أمور الدنيا لأشرت عليك فيه برأى، وجهدتُ لك، فقال له الأسقف: تَنَحَّ فَاجْلِسْ. فَتَنَحَّى شرحبيل فجلس ناحية، فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران، يقال له: عبد الله بن شرحبيل، وهو من ذى أصبح من حمير، فأقرأه الكتاب، وسأله عن الرأى فيه، فقال له مثل قول شرحبيل، فقال له الأسقف: فاجلس، فَتَنَحَّى فجلس ناحية. وبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران، يقال له: جبار بن فيض، من بني الحارث بن كعب، أحد بني الحماس، فأقرأه الكتاب، وسأله عن الرأى فيه؟ فقال له مثل قول شُرْحَبِيلٍ وعبد الله، فأمره الأسقف فتنحى فجلس ناحية.

فلما اجتمع الرأى منهم على تلك المقالة جميعاً، أمر الأسقف بالناقوس فضرّب به، ورفعت النيران والمسوح فى الصوامع، وكذلك كانوا يفعلون إذا فَرَعُوا بالنهار، وإذا كان فزعهم ليلاً ضربوا بالناقوس، ورفعت النيران فى الصوامع، فاجتمعوا^(٤) حين ضرب بالناقوس ورفعت المسوح أهل الوادى أعلاه وأسفله - وطول الوادى مَسِيرَةَ يومٍ للراكب السريع، وفيه ثلاث وسبعون قرية، وعشرون ومائة ألف مقاتل. فقرأ عليهم كتابَ رسول الله ﷺ، وسألهم عن الرأى فيه، فاجتمع رأى أهل الرأى منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمداني، وعبد الله بن شُرْحَبِيلٍ الأصبحى، وجبار بن فيض الحارثى، فيأتونهم^(٥) بخبر رسول الله ﷺ. فانطلق الوفد حتى إذا كانوا بالمدينة وضعوا ثياب السفر عنهم، ولبسوا حُللاً لهم يجرونها من حبرة، وخواتيم الذهب، ثم انطلقوا حتى أتوا رسول الله ﷺ، فسلموا عليه، فلم يرد عليهم^(٦)، وتصدوا لكلامه نهاراً طويلاً، فلم يكلمهم وعليهم تلك الحلل وخواتيم الذهب. فانطلقوا يتبعون عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، وكانا مَعْرِفَةً لهم، فوجدوهما فى ناس من المهاجرين والأنصار فى مجلس، فقالوا: يا عثمان يا عبد الرحمن، إن نبيكم كتب إلينا بكتاب، فأقبلنا مجييين له، فأتيناه فسلمنا عليه فلم يرد سلامنا، وتصدينا لكلامه نهاراً طويلاً فأعيانا أن يكلمنا، فما الرأى منكما، أترون أن نرجع؟ فقالا لعلى بن أبى طالب - وهو فى

(١) فى ج، ر، أ، و: «أسلم». (٢) فى ج، ر، أ، و: «أبيتم فقد». (٣) فى ج: «ما رأيك يا أبا مريم».

(٤) فى ج، ر: «فاجتمع». (٥) فى أ: «فيأتونهم». (٦) فى ج: «عليه السلام» وفى أ: «عليهم السلام».

(٧) زيادة من أ.

القوم -: ما ترى يا أبا الحسن في هؤلاء القوم؟ فقال على لعثمان ولعبد الرحمن: أرى أن يضعوا حللهم هذه وخواتيمهم، ويلبسوا ثياب سفرهم ثم يعودوا إليه. ففعلوا فسلموا، فرد سلامهم، ثم قال: «وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ لَقَدْ أَتَوْنِي الْمَرَّةَ الْأُولَى، وَإِنْ إِيْلَيْسَ لَمَعَهُمْ» ثم ساءلهم وساءلوه، فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا: ما تقول في عيسى، فإننا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى، يسرنا إن كنت نبيا أن نسمع ما تقول فيه^(١)؟ قال رسول الله ﷺ: «مَا عِنْدِي فِيهِ شَيْءٌ يَوْمِي هَذَا، فَأَقِيمُوا حَتَّى أَخْبِرَكُمْ بِمَا^(٢) يَقُولُ لِي رَبِّي فِي عَيْسَى». فأصبح الغد وقد أنزل الله، عز وجل، هذه الآية: «إِنْ مِثْلَ عَيْسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ [خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ]. الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ. فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى^(٣) [الكَاذِبِينَ]»، فأبوا أن يقرؤا بذلك، فلما أصبح رسول الله ﷺ الغد بعد ما أخبرهم الخبر، أقبل مشتملا على الحسن والحسين في خبيل له وفاطمة تمشى عند ظهره للملاعة، وله يومئذ عدة نسوة، فقال شرحبيل لصاحبيه: قد علمتما أن الوادي إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يردوا ولم يصدروا إلا عن رأيي^(٤)، وإنى والله أرى أمرا ثقيلا، والله لئن كان هذا الرجل ملكا مبعوثا، فكنا أول العرب طعن في عينيه^(٥) ورد عليه أمره، لا يذهب لنا من صدره ولا من صدور أصحابه حتى يصيبونا بجائحة، وإننا لأدنى العرب منهم جوارا، ولئن كان هذا الرجل نبيا مرسلا فلاعنا لا يبقى على وجه الأرض منا شعْر ولا ظُفْر إلا هلك. فقال^(٦) له صاحبا: يا أبا مريم، فما الرأي؟ فقال: أرى^(٧) أن أحكمه، فإنى أرى رجلا لا يحكم شططا أبدا. فقالا له: أنت وذاك. قال: فلقى^(٨) شرحبيل رسول الله ﷺ، فقال له: إنى قد رأيت خيرا من ملاعتك. فقال: «وما هو؟» فقال: حكمت اليوم إلى الليل وليلتك إلى الصباح، فمهما حكمت فينا فهو جائز. فقال رسول الله ﷺ: «لَعَلَّ وَرَأَاكَ أَحَدًا يَثْرِبُ عَلَيْكَ؟» فقال شرحبيل: سل صاحبي. فسألهما فقالا: ما يرد الوادي ولا يصدر إلا عن رأي شرحبيل: فَرَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فلم يلاعنهم، حتى إذا كان الغد أتوه فكتب لهم هذا الكتاب: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا مَا كَتَبَ مُحَمَّدٌ النَّبِيُّ رَسُولُ اللَّهِ لِنَجْرَانَ - إِنْ كَانَ عَلَيْهِمْ حُكْمُهُ - فِي كُلِّ ثَمَرَةٍ وَكُلِّ صَفْرَاءٍ وَبَيْضَاءٍ وَسَوْدَاءٍ وَرَقِيقٍ فَاضِلٍ^(٩) عَلَيْهِمْ، وَتَرَكَ ذَلِكَ كُلَّهُ لَهُمْ، عَلَى أَلْفَى حُلَّةٍ، فِي كُلِّ رَجَبٍ أَلْفُ حُلَّةٍ، وَفِي كُلِّ صَفَرٍ أَلْفُ حُلَّةٍ» وذكر تمام الشروط وبقيّة السياق^(١٠).

والغرض أن وفودهم^(١١) كان في سنة تسع؛ لأن الزهري قال: كان أهل نجران أول من أدى الجزية إلى رسول الله ﷺ، وآية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح، وهى قوله تعالى: «فَاتْلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ [وَلَا يَحْرَمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ]»^(١٢) [التوبة: ٢٩].

وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا أحمد بن داود المكي، حدثنا بشر بن

(١) فى جـ: «فيه ما تقول». (٢) فى أ: «ما». (٣) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «إلى قوله».

(٤) فى ر: «رأى». (٥) فى جـ، ر: «عينه». (٦) فى أ: «فقالا».

(٧) فى ر: «رأى». (٨) فى جـ: «فتلقى»، وفى ر: «فيلقى». (٩) فى و: «فافضل».

(١٠) دلائل النبوة للبيهقى (٥/ ٣٨٥).

(١١) فى أ: «ورودهم». (١٢) زيادة من جـ، أ، ر، و، وفى هـ: «الآية».

مهران، أخبرنا محمد بن دينار، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن جابر قال: قدم على النبي ﷺ العاقب والطيب، فدعاهما إلى الملاعة فواعداه على أن يلاعناه^(١) الغداة. قال: فغدا رسول الله ﷺ، فأخذ بيد علي وفاطمة والحسن والحسين، ثم أرسل إليهما قائلاً أن يجيئنا^(٢)، وأقرأ بالخراج، قال: فقال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ لَوْ قَالَا: لَا، لَأَمْطَرَ عَلَيْهِمُ الْوَادِي^(٣) نَارًا» قال جابر: فيهم نزلت ﴿نَدْعُ وَأَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾. قال جابر: ﴿أَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾: رسول الله ﷺ وعلى بن أبي طالب ﴿وَأَبْنَاءَنَا﴾^(٤): الحسن والحسين ﴿وَنِسَاءَنَا﴾: فاطمة.

وهكذا رواه الحاكم في مستدركه، عن علي بن عيسى، عن أحمد بن محمد الأزهرى^(٥)، عن علي بن حجر، عن علي بن مسهر، عن داود بن أبي هند، به بمعناه، ثم قال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه^(٦).

هكذا قال: وقد رواه أبو داود الطيالسي، عن شعبة، عن المغيرة^(٧)، عن الشعبي مرسلًا، وهذا أصح^(٨)، وقد روى عن ابن عباس والبراء نحو ذلك.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ أى: هذا الذى قصصناه عليك يا محمد فى شأن عيسى هو الحق الذى لا معدل عنه ولا محيد ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. فَإِنْ تَوَلَّوْا^(٩) أى: عن هذا إلى غيره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أى: من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد والله عليم به، وسيجزيه على ذلك شر الجزاء، وهو القادر، الذى لا يفوته شىء [سبحانه وبحمده ونعوذ به من حلول نقمه]^(٩).

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٦٤).

هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن جرى مجراهم ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ﴾ والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال هاهنا. ثم وصفها بقوله: ﴿سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أى: عدل ونصف، نستوى نحن وأنتم فيها. ثم فسرنا بقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ

(١) فى جء، أ، و: «يعاوداه» وفى ر: «يعاديه».

(٢) فى أ: «يجيئنا».

(٣) فى جء: «الوادى عليهم».

(٤) فى ر: «وابنائنا».

(٥) فى ر: «الأزهر» وفى أ، و: «الزهرى».

(٦) المستدرک (٢/٥٩٣، ٥٩٤) ورواه أبو نعيم فى دلائل النبوة (٢/٥٩٣) من طريق داود بن أبى هند عن الشعبي عن جابر به.

(٧) فى جء، ر، أ، و: «مغيرة».

(٨) رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره (٢/٣١٠) من طريق شعبة به، ورواه ابن أبى شيبه فى المصنف (١٤/٥٤٩)، والطبرى فى تفسيره

(٦٨/٤٦٨) من طريق جرير عن مغيرة عن الشعبي به مرسلًا، ورواه سعيد بن منصور فى السنن برقم (٥٠٠) من طريق هشيم عن

مغيرة عن الشعبي به مرسلًا.

(٩) زيادة من و.

شَيْئًا ﴿لَا وَثْنَا، وَلَا صَنَمًا، وَلَا صُلْبًا وَلَا طَاغُوتًا، وَلَا نَارًا، وَلَا شَيْئًا﴾^(١). بل نُفَرِّدُ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وهذه دعوة جميع الرسل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، [وقال تعالى]^(٢): ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ثم قال: ﴿وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال ابن جرير: يعنى: يطيع بعضنا بعضا فى معصية الله. وقال عكرمة: يعنى: يسجد بعضنا لبعض.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أى: فإن تولوا عن هذا النصف وهذه الدعوة فأشهدوهم أنتم على استمراركم على الإسلام الذى شرعه الله لكم.

وقد ذكرنا فى شرح البخارى، عند روايته من طريق الزهرى، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود، عن ابن عباس، عن أبى سفيان، فى قصته حين دخل على قيصر، فسألهم عن نسب رسول الله ﷺ وعن صفته ونعته وما يدعو إليه، فأخبره بجميع ذلك على الجلية، مع أن أبى سفيان كان إذ ذاك مُشْرِكًا لم يُسْلَمْ بعد، وكان ذلك بعد صلح الحديبية وقبل الفتح، كما هو مُصَرَّح به فى الحديث، ولأنه لما قال^(٣): هل يغدر؟ قال: فقلت: لا، ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو صانع فيها. قال: ولم يكنى كلمة أزيد فيها شيئاً سوى هذه: والغرض أنه قال: ثم جىء بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فإذا فيه:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلٍ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى. أَمَّا بَعْدُ، فَاسْلِمْ تَسْلِمًا، واسْلِمْ يُوْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ^(٤) تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ، وَ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٥).

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغير واحد أن صَدْرَ سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها نزلت فى وَفْدِ نَجْرَانَ، وقال الزهرى: هم أول من بَدَّلَ الجزية. ولا خلاف أن آية الجزية نزلت بعد الفتح، فما الجمع بين كتابة هذه الآية قبل الفتح إلى هِرَقْلٍ فى جملة الكتاب، وبين ما ذكره محمد بن إسحاق والزهرى؟ والجواب من وجوه:

أحدها: يحتمل أن هذه الآية نزلت مرتين، مرة قبل الحديبية، ومرة بعد الفتح.

(١) فى ج، ر: «وثن ولا صنم ولا صليب ولا طاغوت ولا نار ولا شيء».

(٢) زيادة من و.

(٣) فى ج: «سأله» وفى أ، و: «ولأنه قال لما سأله».

(٤) فى ج، ر: «وإن».

(٥) قصة هِرَقْلٍ مع أبى سفيان رواها البخارى مطولة فى صحيحة برقم (٧).

الثاني: يحتمل أن صدر سورة آل عمران نزل في وفد نجران إلى عند هذه الآية، وتكون هذه الآية نزلت قبل ذلك، ويكون قول ابن إسحاق: «إلى بضع وثمانين آية» ليس بمحفوظ، لدلالة حديث أبي سفيان.

الثالث: يحتمل أن قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية، وأن الذي بذلوه مُصَالَحَةً عن المباهلة لا على وجه الجزية، بل يكون من باب المهادنة والمصالحة، ووافق نزول آية الجزية بعد ذلك على وفق ذلك كما جاء فرض الخمس والأربعة الأخماس وفق ما فعله عبد الله بن جحش في تلك السرية قبل بدر، ثم نزلت فريضة القسم على وفق ذلك.

الرابع: يحتمل أن رسول الله ﷺ لما أمر بكتِّب هذا [الكلام] ^(١) في كتابه إلى هرقل لم ^(٢) يكن أنزل بعد، ثم نزل القرآن موافقة له كما نزل بموافقة عمر بن الخطاب رضى الله عنه في الحجاب وفي الأسارى، وفي عدم الصلاة على المنافقين، وفي قوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، وفي قوله: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُدْلِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾ الآية [التحريم: ٥].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٥) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨) ﴿

ينكر تعالى على اليهود والنصارى في محاجتهم ^(٣) في إبراهيم الخليل، ودعوى ^(٤) كل طائفة منهم أنه كان منهم، كما قال محمد بن إسحاق بن يسار:

حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، حدثني سعيد بن جبيرة أو عكرمة، عن ابن عباس قال: اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده، فقالت الأخبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديا. وقالت النصارى ما كان إبراهيم إلا نصرانيا. فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ [وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ] ^(٥) ﴿

أى: كيف تدعون، أيها اليهود، أنه كان يهوديا، وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى، وكيف تدعون، أيها النصارى، أنه كان نصرانيا، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر. ولهذا قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

ثم قال: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ [وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ

(٣) فى أ: «تحتاجه».

(٢) فى أ، و: «إن لم».

(١) زيادة من ج، ر، أ، و.

(٥) زيادة من ج، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٤) فى أ: «فى دعوى».

لَا تَعْلَمُونَ^(١) ﴿١﴾ هذا إنكار على من يحتاج فيما لا علم له به، فإن اليهود والنصارى تَحَاجُّوا في إبراهيم بلا علم، ولو تَحَاجُّوا فيما بأيديهم منه علم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى حين بعثة محمد ﷺ لكان أولى بهم، وإنما تكلموا فيما لم يعلموا به، فأنكر الله عليهم ذلك، وأمرهم برد ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة، الذي^(٢) يعلم الأمور على حقائقها وجلياتها، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ أي: مُتَحَنِّفًا عن الشرك قَصْدًا إلى الإيمان ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وهذه الآية كالتى^(٣) تقدمت في سورة البقرة: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ [قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ]^(٤) [البقرة: ١٣٥].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول تعالى: أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه، وهذا النبي - يعني محمداً ﷺ - والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن بعدهم.

قال سعيد بن منصور: أخبرنا أبو الأحوص، عن سعيد بن مسروق، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود، رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وَلَاةً مِنَ النَّبِيِّينَ، وَإِنْ وَلِيَّ مِنْهُمْ أَبِي وَخَلِيلُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ». ثم قرأ: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٥).

وقد رواه الترمذى والبزار من حديث أبي أحمد الزبيري، عن سفيان الثوري، عن أبيه، به^(٦)، ثم قال البزار: ورواه غير^(٧) أبي أحمد، عن سفيان، عن أبيه، عن أبي الضحى، عن عبد الله، ولم يذكر^(٨) مسروقا. وكذا رواه الترمذى من طريق وكيع، عن سفيان، ثم قال: وهذا أصح^(٩). لكن رواه وكيع في تفسيره فقال: حدثنا سفيان، عن أبيه، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ... فذكره.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ولي جميع المؤمنين برسله.

(٣) في ر: «الذى».

(٢) في ر: «والذى».

(١) زيادة من ج، ر، أ، و، وفي هـ: «الآية».

(٥) زيادة من ج، ر، أ، و، وفي هـ: «الآية».

(٤) زيادة من ر، ج، أ، و، وفي هـ: «الآية».

(٦) سعيد بن منصور في السنن برقم (٥٠١) والترمذى في السنن برقم (٢٩٩٥) وقد خولف أبو أحمد الزبيري وأبو الأحوص في رواية هذا الحديث، فرواه ابن مهدي ويحيى القطان وأبو نعيم، فلم يذكروا فيه مسروق.

قال ابن أبي حاتم في العلل (٦٣/٢): سألت أبي وأبا زرعة عن حديث رواه أبو أحمد الزبيري وروح بن عبادة فذكره، فقالا جميعا: «هذا خطأ رواه المتقدمون من أصحاب الثوري عن الثوري عن أبيه عن أبي الضحى عن النبي ﷺ بلا مسروق».

(٨) في ر: «عن».

(٧) في ر: «عن».

(٩) سنن الترمذى برقم (٤٠٨١).

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٦٩)
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ
بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ
عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ
قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ
اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ (٧٤) .

يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين وبغيتهم إياهم الإضلال، وأخبر^(١) أن وبَّال ذلك إنما يعود
على أنفسهم، وهم لا يشعرون أنهم^(٢) مذكور بهم.

ثم قال^(٣) تعالى منكرًا عليهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أى:
تعلمون صدقها وتحققون حقها ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾
أى: تكتُمون ما فى كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعرفون ذلك وتحققونه.
﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ﴾^(٤) هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم اشتوروا بينهم
أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلُّوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم
ليقول الجُهلة من الناس: إنما رَدَّهم^(٥) إلى دينهم اطلَّعهم على نقيصة وعيب فى دين المسلمين، ولهذا
قالوا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

قال ابن أبي نجيج، عن مجاهد، فى قوله تعالى إخبارًا عن اليهود بهذه الآية: يعنى يهود،
صلَّت مع النبى ﷺ صلاة الفجر وكفروا آخر النهار، مكرًا منهم، ليروا الناس أن قد بدت لهم منه
الضلالة، بعد أن كانوا اتبعوه.

وقال العوفي، عن ابن عباس: قالت طائفة من أهل الكتاب: إذا لقيتم أصحاب محمد أول النهار
فآمنوا، وإذا كان آخره فصلُّوا صلاتكم، لعلهم يقولون: هؤلاء أهل الكتاب وهم أعلم منا. [وهكذا
روى عن قتادة والسدى والربيع وأبى مالك]^(٦).

وقوله: ﴿وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ﴾ أى: لا تطمئنوا وتظهروا سركم وما عندكم إلا لمن اتبع
دينكم ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين، فيؤمنوا به ويحتجوا^(٧) به عليكم؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ

(١) فى ج: «وقال».

(٢) فى ر: «فهم».

(٣) فى أ: «فأخبر».

(٤) زيادة من ج، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٥) فى ج، أ، و: «رجعهم».

(٦) زيادة من ج، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٧) فى ج، أ، و: «يحتجون».

إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ ﴿١﴾ أى هو الذى يهدى قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان، بما ينزله على عبده ورسوله محمد ﷺ من الآيات البينات، والدلائل القاطعات، والحجج الواضحات، وَإِنْ كُتِمْتُمْ ^(١) - أيها اليهود - ما بأيديكم من صفة محمد فى ^(٢) كتبكم التى نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين .

وقوله ﴿أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ يقولون: لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين، فيتعلموه منكم، ويساووكم ^(٣) فيه، ويمتازوا ^(٤) به عليكم لشدة الإيمان ^(٥) به، أو يحاجوكم ^(٦) به عند الله، أى: يتخذوه حجة عليكم بما بأيديكم، فتقوم ^(٧) به عليكم الدلالة وتتركب الحجة فى الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أى: الأمور كلها تحت تصرفه، وهو المعطى المانع، يَمُنُّ على من يشاء بالإيمان والعلم والتصور التام، ويضل من يشاء ويعمى بصره وبصيرته، ويختم على سمعه وقلبه، ويجعل على بصره غشاوة، وله الحجة والحكمة ^(٨) .

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أى: اختصكم - أيها المؤمنون - من الفضل بما لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ، بما شرف به نبيكم محمداً ﷺ على سائر الأنبياء وهداكم به لأحمد ^(٩) الشرائع .

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦)﴾ .

يخبر تعالى عن اليهود بأن فيهم الخونة، ويحذر المؤمنين من الاغترار بهم، فإن منهم ﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ﴾ أى: من المال ﴿يُودِّهِ إِلَيْكَ﴾ أى: وما دونه بطريق الأولى أن يؤديه إليك ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ أى: بالمطالبة والملازمة والإلحاح فى استخلاص حقك، وإذا كان هذا صنيعه فى الدينار فما فوقه أولى ألا يؤديه .

وقد تقدَّم الكلام على القنطار فى أول السورة، وأما الدينار فمعروف .

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا سعيد بن عمرو السَّكُونِي، حدثنا بَقِيَّةٌ، عن زياد بن الهيثم، حدثنى مالك بن دينار قال: إنما سُمي الدينار لأنه دين ونار، وقال: معناه: أنه ^(١٠) من أخذه بحقه فهو دينه، ومن أخذه بغير حقه فله النار .

ومناسب أن يكون ^(١١) ها هنا الحديث الذى علقه البخارى فى غير موضع من ^(١٢) صحيحه، ومن أحسنها سياقاً فى كتاب الكفالة حيث قال: وقال الليث: حدثنى جعفر بن ربيعة، عن عبد الرحمن بن

(١) فى ج، ر: «كتبت» . (٢) فى و: «صفة محمد التى فى» . (٣) فى ج، ر، و: «يساوونكم» .

(٤) فى ج، ر: «ويمتازون» . (٥) فى ج، أ: «بشدة الآيات» . (٦) فى ج، ر: «ويحاجوكم» .

(٧) فى أ: «فيقوم» . (٨) فى أ: «والحكم» . (٩) فى ج: «أكمل»، وفى ر، أ، و: «لاكمل» .

(١٠) فى ج، ر: «أن» . (١١) فى ج، ر: «يذكر» . (١٢) فى ج، ر: «فى» .

هُرْمُزُ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ [بَعْضُ] ^(١) بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسَلِّفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فَقَالَ: ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أَشْهَدُهُمْ. فَقَالَ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا. قَالَ: ائْتِنِي بِالْكَفِيلِ. قَالَ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا. ^(٢) قَالَ: صَدَقْتَ. فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجْلِ مُسَمًّى، فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ التَّمَسَّ مَرْكَبًا يَرْكُبُهَا يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلْأَجْلِ الَّذِي أَجَلَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا، فَأَخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ، وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ، ثُمَّ رَجَعَ مَوْضِعَهَا، ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى الْبَحْرِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي اسْتَسْلَفْتُ ^(٣) فَلَانًا أَلْفَ دِينَارٍ فَسَأَلَنِي كَفِيلًا، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا فَرَضَى بِكَ. وَسَأَلَنِي شَهِيدًا، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا. فَرَضَى بِكَ ^(٤)، وَإِنِّي جَهِدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ، وَإِنِّي اسْتَوْدَعْتُكَهَا ^(٥). فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ ^(٦) وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا يَجِيئُهُ بِمَالِهِ، فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ، فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطْبًا، فَلَمَّا كَسَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ، ثُمَّ قَدَّمَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ تَسَلَّفَ مِنْهُ، فَأَتَاهُ بِأَلْفِ دِينَارٍ، وَقَالَ: وَاللَّهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لَاتِيكَ بِمَالِكَ، فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ. قَالَ: هَلْ كُنْتَ بَنْتَ إِلَى بَشِيءٍ؟ قَالَ: أَلَمْ أُخْبِرْكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ هَذَا؟ قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الْخَشَبَةِ، فَانْصَرَفَ بِأَلْفِ دِينَارٍ رَاشِدًا.

هكذا رواه ^(٧) البخاري في موضعه معلقاً بصيغة الجزم، وأسنده في بعض المواضع من الصحيح عن عبد الله بن صالح كاتب الليث عنه. ورواه الإمام أحمد في مسنده هكذا مطولاً، عن يونس بن محمد المؤدب، عن الليث به ^(٨). ورواه البزار في مسنده، عن الحسن بن مُدْرِك، عن يحيى بن حماد، عن أبي عَوَانَةَ، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه، ثم قال: لا يروى عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد. كذا قال، وهو خطأ، لما تقدم ^(٩).

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنَ سَبِيلٌ﴾ أي: إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى جُحُودِ الْحَقِّ أَنَّهُمْ يقولون: ليس علينا في ديننا حَرَجٌ في أكل أموال الأميين، وهم العرب؛ فإن الله قد أحلها لنا. قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: وقد اختلقوا هذه المقالة، واثقفوا بهذه الضلالة، فإن الله حَرَّمَ عليهم أكل الأموال إلا بحقها، وإنما هم قوم بُهت.

قال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن أبي إسحاق الهمداني، عن [أبي] ^(١٠) صَعَصَعَةَ بن يزيد ^(١١)؛ أن رجلاً سأل ابن عباس، قال: إنا نُصِيبُ في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة؟ قال ^(١٢) ابن

(١) في ر: «رجلا». (٢) في ج، ر، أ: «فقال». (٣) في ج، أ، و: «تسلفت»، وفي ر: «استلفت».

(٤) في أ: «ذلك». (٥) في و: «استودعكها». (٦) في و: «انصرف».

(٧) في أ: «أورد».

(٨) صحيح البخاري في الكفالة برقم (٢٢٩١) وفي غيرها برقم (١٤٩٨)، (٢٤٠٤)، (٢٤٣٠)، (٢٧٤٤)، (٦٢٦١) والمسنَد (٣٤٨/٢).

(٩) وذكره المؤلف في البداية والنهاية (١٢٨/٢) ووجه الخطأ أنه قد جاء من وجه آخر وهي رواية أحمد والبخاري.

(١٠) زيادة من ج، ر. (١١) في أ: «مرثد». (١٢) في أ: «فقال».

عباس: فَتَقُولُونَ^(١) ماذا؟ قال: نقول^(٢): ليس علينا بذلك بأس. قال: هذا كما قال أهل الكتاب: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ﴾^(٣) إنهم إذا^(٤) أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم. وكذا رواه الثوري، عن أبي إسحاق^(٥) بنحوه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن يحيى، أخبرنا أبو الربيع الزهراني^(٥)، حدثنا يعقوب، حدثنا جعفر، عن سعيد بن جبيرة قال: لما قال أهل الكتاب: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ﴾ قال نبي الله ﷺ^(٦): «كَذَبَ أَعْدَاءُ اللَّهِ، مَا مِنْ شَيْءٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا وَهُوَ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ إِلَّا الْأَمَانَةَ، فَإِنَّهَا مُدَاةٌ إِلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ»^(٧).

ثم قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى﴾ أي: لكن من أوفى بعهد منكم يا أهل الكتاب الذي عاهدكم الله عليه، من الإيمان بمحمد ﷺ إذا بُعث، كما أخذ العهد والميثاق على الأنبياء وأممهم بذلك، واتقى محارم الله تعالى واتبع طاعته وشرعته التي بعث بها خاتم رسله^(٨) وسيد البشر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٧).

يقول تعالى: إن الذين يعتاضون^(٩) عما عهدهم^(١٠) الله عليه، من اتباع محمد ﷺ، وذكر صفته الناس وبيان أمره، وعن أيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة بالأثمان القليلة الزهيدة، وهى عروض هذه^(١٢) الدنيا الفانية الزائلة ﴿أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: لا نصيب لهم فيها، ولا حظ لهم منها ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: برحمة^(١٣) منه لهم، بمعنى: لا يكلمهم كلام لطف بهم، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: من الذنوب والأدناس، بل يأمر بهم إلى النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية الكريمة فلنذكر ما تيسر منها:

الحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا شعبة قال: على بن مُدْرِكٍ أخبرني قال: سمعت أبا زُرْعَةَ، عن خَرَشَةَ^(١٤) بن الحر، عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» قلت: يا رسول الله، من هم؟ خابوا وخسروا. قال: وأعادته رسول الله ﷺ^(١٥) ثلاث مرات قال: «المُسْبِلُ، والمُنْفِقُ سِلْعَتُهُ بِالْحَلْفِ

(٣) فى أ: «لو».

(٢) فى أ: «يقول».

(١) فى ر، أ: «فيقولون».

(٤) تفسير عبد الرزاق (١/ ١٣٠).

(٦) زيادة من ج، أ، و.

(٥) فى ر: «الزهرى».

(٧) تفسير ابن أبي حاتم (٣٤٩/٢) ورواه الطبري فى تفسيره (٥٢٢/٦) وهو مرسل.

(١٠) فى ر، أ، و: «عاهدتم».

(٩) فى ج: «بقاضون».

(٨) فى ج، ر، أ، و: «الرسول».

(١٣) فى أ: «برحمته».

(١٢) فى أ، و: «عروض الحياة هذه الدنيا».

(١١) فى ج: «فذكر».

(١٥) زيادة من ج، ر، أ، و.

(١٤) فى ر، أ: «حرسه».

الكاذب، والمنان»^(١).

ورواه مسلم، وأهل السنن، من حديث شعبة، به.

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا إسماعيل، عن الحريرى، عن أبى العلاء بن الشَّخِير، عن أبى الأحمس^(٢) قال: لقيتُ أبا ذر، فقلتُ له: بلغنى عنك أنك تُحدثُ حديثاً عن رسول الله ﷺ. فقال: أما إنه لا تخالنى أكذبُ على رسول الله ﷺ بعد ما سمعته منه، فما الذى بلغك عنى؟ قلتُ: بلغنى أنك تقول: ثلاثة يحبهم الله، وثلاثة يشنؤهم الله عز وجل. قال: قلتُ وسمعتُ. قلتُ: فمن هؤلاء الذين يحبهم الله؟ قال: الرجل يلقى العدوَّ فى فئة فينصب لهم نحره حتى يقتل أو يفتح لأصحابه. والقومُ يسافرون فيطول سراهم حتى يحنُّوا أن يمسا^(٣) الأرض فينزلون، فيتحنى أحدهم فيصلى حتى يوقظهم لرحيلهم. والرجل يكون له الجار يؤذيه^(٤) فيصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت^(٥) أو ظعن. قلتُ: ومن هؤلاء الذين يشنأ^(٦) الله؟ قال: التاجر الخلاف - أو^(٧): البائع الخلاف - والفقر المختال، والبخيل المنان^(٨). غريب من هذا الوجه^(٩).

الحديث الثانى: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن جرير بن حازم قال: حدثنا عدى ابن عدى، أخبرنى رجاء بن حيوة والعُرس بن عميرة^(١٠) عن أبيه عدى - هو ابن عميرة الكندى - قال: خاصم رجل من كندة يقال له: امرؤ القيس بن عابس^(١١) رجلاً من حَضْرَمَوْت إلى رسول الله ﷺ فى أرض، فقضى على الحضرمى بالبينة، فلم يكن^(١٢) له بينة، فقضى على امرئ القيس باليمين. فقال الحضرمى: إن أمكنته من اليمين يارسول الله ذهبَ ورب^(١٣) الكعبة أَرْضى. فقال النبى ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ لِيَقْتَطَعَ بِهَا مَالَ أَحَدٍ لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ» قال رجاء: وتلا رسول الله ﷺ: «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا». فقال امرؤ القيس: ماذا لمن تركها يا رسول الله؟ فقال^(١٤): «الجنة» قال: فاشهد أنى قد تركتها له كلها.

ورواه النسائى من حديث عدى بن عدى، به^(١٥).

الحديث الثالث: قال أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لِيَقْتَطَعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ

(١) المسند (١٤٨/٥) وصحيح مسلم برقم (١٠٦) وأبو داود فى السنن برقم (٤٠٨٧، ٤٠٨٨) والترمذى فى السنن برقم (١٢١١) والنسائى فى السنن (٨١/٥) وابن ماجه فى السنن برقم (٢٢٠٨).

(٢) فى ر: «الأخفش». (٣) فى ج، ر: «يحبوا أن يمسا». (٤) فى ر: «يؤذيه جوره»، وفى أ، و: «يؤذيه جواره».

(٥) فى ج، ر: «الموت». (٦) فى ج، ر، أ: «يشنأهم». (٧) فى أ، و: «أو قال».

(٨) فى ر: «المنام».

(٩) المسند (١٥١/٥).

(١٠) فى أ: «عمير».

(١١) فى ج، ر، أ، و: «بن عامر» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه من المسند للإمام أحمد (١٩١/٤).

(١٢) فى و: «تكن». (١٣) فى ر: «أو رب». (١٤) فى أ: «قال».

(١٥) المسند (١٩١/٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٥٩٩٦).

وَجَلَّ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ».

فقال ^(١) الأشعث: فيّ والله كان ذلك، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني، فقدّمته إلى رسول الله ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ: «أَلَا بَيْنَهُ؟» قلت: لا، فقال لليهودي: «أحلف» فقلت: يارسول الله، إذا يحلف فيذهب مالي. فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [إلى آخره] ^(٣) الآية: أخرجاه من حديث الأعمش ^(٤).

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا أبو بكر بن عيَّاش، عن عاصم بن أبي النجود، عن شقيق بن سلمة، حدثنا عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ اقْتَطَعَ مَالَ امرئ مسلم بغير حقٍّ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ» قال: فجاء الأشعث بن قيس فقال: ما يحدثكم أبو عبد الرحمن؟ فحدثناه، فقال: فيّ كان ^(٥) هذا الحديث، خاصمتُ ابن عمٍّ لي إلى رسول الله ﷺ في بئر لي كانت في يده، فجحدني، فقال رسول الله ﷺ: «يَبْتَئُكَ أَنَّهَا بَيْتُكَ وَلَا فِيمَيْنَهُ» قال: قلت: يارسول الله، ما لي بينة، وإن تجعلها بيمينه ^(٦) تذهب بئري ^(٧)؛ إنَّ خَصْمِي امرؤ فاجر. فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ اقْتَطَعَ مَالَ امرئ مسلم بغير حقٍّ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ» قال: وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا [أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ]﴾ ^(٨) ^(٩).

الحديث الرابع: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رشدين عن زبَّان، عن سهل ابن معاذ بن أنس، عن أبيه، عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عِبَادًا لَا يُكَلِّمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ» قيل: ومن أولئك يارسول الله؟ قال: «مُتَّبَرِّئٌ مِنْ وَالِدَيْهِ رَاغِبٌ عَنْهُمَا، وَمُتَّبَرِّئٌ مِنْ وَلَدِهِ، وَرَجُلٌ أَنْعَمَ عَلَيْهِ قَوْمٌ فَكَفَرُوا نِعْمَتَهُمْ وَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ» ^(١٠).

الحديث الخامس: قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا هشيم، أنبأنا العوام - يعني ابن حوشب - عن إبراهيم بن عبد الرحمن - يعني السكسكي - عن عبد الله بن أبي أوفى: أن رجلا أقام سلعة له في السوق، فحلف بالله لقد أعطى بها ما لم يُعطه، ليوقع فيها رجلا من المسلمين، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

ورواه البخاري، من غير وجه، عن العوام ^(١١).

الحديث السادس: قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي

(٣) زيادة من ج، ر، أ، و.

(٢) في ر: النبي.

(١) في ج، ر: «قال».

(٤) المسند (٢١١/٥) والبخاري في صحيحه برقم (٢٦٧٣).

(٥) في ج، ر: «بيمينه».

(٥) في ج: «كان في».

(٦) في ج، ر: «يذهب بئري».

(٧) في ج: «يذهب بئري»، وفي ر: «يذهب بئري».

(٨) زيادة من ج، ر، أ، و، وفي هـ: «الآية».

(٩) المسند (١٢/٥).

(١٠) المسند (٤٤٠/٣).

(١١) تفسير ابن أبي حاتم (٣٥٥/٢) وصحيح البخاري برقم (٤٥٥١).

هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: رَجُلٌ مَنَعَ ابْنَ السَّبِيلِ فَضْلَ مَاءٍ عِنْدَهُ، وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ - يَعْنِي كَاذِبًا - وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا، فَإِنْ أَعْطَاهُ وَفَى لَهُ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ لَمْ يَفِ لَهُ».

ورواه أبو داود، والترمذى، من حديث وكيع. وقال الترمذى: حسن صحيح (١).

﴿وَأَنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٨).

يخبر تعالى عن اليهود، عليهم لعائن الله، أن منهم فريقا يحرفون الكلم عن مواضعه ويبدلون كلام الله، ويزيلونه عن المراد به، ليوهبوا الجهلة أنه فى كتاب الله كذلك، وينسبونه إلى الله، وهو كذب على الله، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا فى ذلك كله؛ ولهذا قال: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

وقال مجاهد، والشعبي، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس: ﴿يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾: يحرفونه.

وهكذا روى (٢) البخارى عن ابن عباس: أنهم (٣) يحرفون ويزيدون (٤). وليس أحد من خلق الله يزيل لفظ كتاب من كتب الله، لكنهم يحرفونه: يتأولونه على غير تأويله.

وقال وهب بن منبه: إن التوراة والإنجيل كما أنزلهما الله لم يغير منهما حرف، ولكنهم يضلون بالتحريف والتأويل، وكتب كانوا يكتبونها من عند أنفسهم، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فأما كتب الله فإنها محفوظة ولا تحول.

رواه ابن أبى حاتم، فإن عنى وهب ما بأيديهم من ذلك، فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص، وأما تعريب ذلك المشاهد بالعربية ففيه خطأ كبير، وزيادات كثيرة ونقصان، ووهم فاحش. وهو من باب تفسير المعبر (٥) العرب، وفهم (٦) كثير منهم بل أكثرهم، بل جميعهم فاسد. وأما إن عنى كتب الله التى هى كتبه عنده، فتلك كما قال محفوظة لم يدخلها شىء.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (٧٩) وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٠).

قال محمد بن إسحاق: حدثنا محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن

(١) المسند (٢/ ٤٨٠) وسنن أبى داود برقم (٣٤٧٤) وسنن الترمذى برقم (١٥٩٥).

(٢) فى أ، و: «وحكى». (٣) فى ج، أ، و: «أنه قال». (٤) فى ج، ر، أ، و: «يزيلون».

(٥) فى أ، و: «المعنى». (٦) فى أ: «وفهمه».

عباس، قال: قال أبو رافع القرظى، حين اجتمعت الأحزاب من اليهود والنصارى من أهل نجران، عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصرانى يقال له الرئيس: أو ذاك تريد منا يا محمد، وإليه تدعوننا؟ أو كما قال. فقال رسول الله ﷺ: «مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَعْبُدَ غَيْرَ اللَّهِ، أَوْ أَنْ نَأْمُرَ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ، مَا بِذَلِكَ بَعَثَنِي، وَلَا بِذَلِكَ أَمَرَنِي». أو كما قال ﷺ، فأنزل الله عز وجل فى ذلك من قولهما: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الآية^(١)] إلى قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٢).

فقوله^(٣): ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أى: ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوّة أن يقول للناس: اعبدونى من دون الله. أى: مع الله، فإذا^(٤) كان هذا لا يصلح^(٥) لنبي ولا لمرسل، فلأن لا يصلح^(٦) لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأحرى؛ ولهذا قال الحسن البصرى: لا ينبغي هذا المؤمن أن يأمر الناس بعبادته. قال: وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضا - يعنى أهل الكتاب - كانوا يتعبدون لأخبارهم ورهبانهم، كما قال الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ [وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَإِلَهِ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ]﴾^(٧) [التوبة: ٣١] وفى المسند، والترمذى - كما سيأتى - أن عدى بن حاتم قال: يا رسول الله، ما عبدوهم. قال: «بلى، إنهم أحلّوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال، فاتبعوهم، فذلك^(٨) عبادتهم إياهم».

فالجهلة من الأحزاب والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون فى هذا الذم والتوبيخ، بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين، فإنما يأمرهم بما أمر الله به وبلغتهم إياه رسله الكرام. إنما يتهونهم عما نهاهم الله عنه وبلغتهم إياه رسله الكرام، فالرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، هم السفراء بين الله وبين خلقه فى أداء ما حملوه من الرسالة وإبلاغ الأمانة، فقاموا بذلك أتم قيام، ونصحوا الخلق، وبلغوهم الحق.

وقوله: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أى: ولكن يقول الرسول للناس: كونوا ربّانيين. قال ابن عباس وأبو رزين وغير واحد، أى: حكماء علماء حلماء. وقال الحسن وغير واحد: فقهاء، وكذا روى عن ابن عباس، وسعيد بن جبّير، وقتادة، وعطاء الخراسانى، وعطية العوفى، والربيع بن أنس. وعن الحسن أيضا: يعنى أهل عبادة وأهل تقوى.

وقال الضحاك فى قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾: حقّ على من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً: ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ أى: تفهمون^(٩) معناه. وقرئ ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ بالتشديد من التعليم ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾: تحفظون^(١٠) ألفاظه.

(١) زيادة من ج، ر، أ، و.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٥٥٤/١) ورواه الطبرى فى تفسيره (٥٣٩/٦) من طريق ابن إسحاق به.

(٣) فى أ: «وقوله».

(٤) فى ج، ر، أ، و: «إذا».

(٥) فى أ، و: «يصح».

(٦) زيادة من ج، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٧) فى ر: «يحفظون».

(٨) فى أ، و: «يعلمون أى يفهمون».

(٩) فى أ، و: «فذلك».

ثم قال: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ أى: ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله، لا نبي مرسل ولا ملك مقرب ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أى: لا يفعل^(١) ذلك؛ لأن من دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي^(٢) إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى^(٣): ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال [تعالى]^(٤) إخباراً عن الملائكة: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَذِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨١) ﴿فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٨٢).

يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم، عليه السلام، إلى عيسى، عليه السلام، لهما أتى الله أحدهم من كتاب وحكمة، وبلغ أى مبلغ، ثم جاءه رسول من بعده، ليؤمنن به ولينصرنّه، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته؛ ولهذا قال تعالى وتقدس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ أى: لهما أعطيتكم^(٥) من كتاب وحكمة ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾.

وقال ابن عباس، ومجاهد، والربيع، وقتادة، والسدى: يعنى عهدي.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿إِصْرِي﴾ أى: ثقل ما حملتم من عهدي، أى: ميثاقى الشديد المؤكد.

﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ. فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أى: عن هذا العهد والميثاق، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

قال على بن أبى طالب وابن عمه عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما: ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث محمداً وهو حى ليؤمنن به ولينصرنّه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته: لئن بعث محمد ﷺ^(٦) وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنّه.

(٣) زيادة من جد، ر، أ.

(٢) فى ر: «يوحى».

(١) فى ر: «تفعل».

(٦) فى جد، ر، أ، و: «يعنى».

(٥) فى أ: «أعطيتكم».

(٤) زيادة من جد، ر، أ، و.

(٧) زيادة من أ.

وقال طاووس، والحسن البصري، وقتادة: أخذ^(١) الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضا.

وهذا لا يضاد ما قاله عليّ وابن عباس ولا ينفيه، بل يستلزمه ويقتضيه. ولهذا رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه مثل قول عليّ وابن عباس.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا سفيان، عن جابر، عن الشعبي، عن عبد الله ابن ثابت قال: جاء عمر إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني^(٢) مرت بأخ لي من قريظة، فكتب لي جوامع^(٣) من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ - قال عبد الله بن ثابت: قلت^(٤) له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولا - قال: فسرى عن رسول الله ﷺ وقال: «والذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام، ثم أتبعتموه وتركتموني لضللتم»^(٥)، إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين»^(٦).

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر^(٧): حدثنا إسحاق، حدثنا حماد، عن مجالد، عن الشعبي، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا، وَإِنَّكُمْ إِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ وَإِمَّا أَنْ تُكَذِّبُوا بِحَقٍّ، وَإِنَّهُ - وَاللَّهِ - لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي»^(٨).

وفى بعض الأحاديث [له]^(٩): «لَوْ كَانَ مُوسَى وَعِيسَى حَيًّا لَمَّا وَسِعَهُمَا إِلَّا اتَّبَاعِي»^(١٠).

فالرسول محمد خاتم الأنبياء^(١١)، صلوات الله وسلامه عليه، دائما إلى يوم الدين، وهو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر وجد لكان هو^(١٢) الواجب الطاعة المقدم على الأنبياء كلهم؛ ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء^(١٣) لما اجتمعوا ببيت المقدس، وكذلك هو الشفيع في يوم الحشر^(١٤) في إتيان الرب لفصل القضاء، وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلا له، والذي يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين، حتى تنتهي النوبة إليه، فيكون هو المخصوص به.

(١) زيادة من أ.

(٢) في ر: «إني».

(٣) في أ: «جوامع الكلم».

(٤) في أ: «لظلمت».

(٥) المسند (٢٦٥/٤) قال الهيثمي في المجمع (١٧٣/١): «رجال رجال الصحيح إلا أن فيه جابر الجعفي وهو ضعيف».

(٦) في ج، ر، أ، و: «أبو يعلى».

(٧) مسند البزار برقم (١٢٤) «كشف الاستار» ورواه أحمد في مسنده (٣٨٧/٣) والدارمي في السنن (١١٥/١) قال الهيثمي في

المجمع (١٧٤/١): «رواه البزار وأحمد وأبو يعلى». وقد حسنه الشيخ ناصر الألباني، وتوسع في الكلام عليه فليراجع في

كتابه: «إرواء الغليل» (٣٤/٦).

(٨) زيادة من أ.

(٩) قال العبد الضعيف: لم أجد من ذكر عيسى في الحديث، ولعل الله ييسر لي الاطلاع على هذه الرواية والله أعلم.

(١٠) في ج، ر، أ، و: «كان».

(١١) في ج، ر، أ، و: «المحشر».

(١٢) في أ: «النبيين».

(١٣) في ج، ر، أ، و: «ليلة الإسراء إمامهم».

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾
 (٨٣) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
 وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ
 مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥) ﴿

يقول تعالى منكرًا على من أراد دينًا سوى دين الله، الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله، وهو
 عبادته وحده لا شريك له، الذي ﴿لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: استسلم له من فيهما طوعًا
 وكرهاً، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾
 [الرعد: ١٥]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا
 لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ. وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٤٩)
 يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٨ - ٥٠].

فالْمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرهاً، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان
 العظيم، الذي لا يخالف ولا يمانع. وقد ورد حديث فى تفسير هذه الآية، على معنى آخر فيه غرابة،
 فقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى:

حدثنا أحمد بن النضر العسكرى، حدثنا سعيد بن حفص النُفَيْلى، حدثنا محمد بن محصن
 العكاشى، حدثنا الأوزاعى، عن عطاء بن أبى رباح، عن النبى ﷺ: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾: «أَمَّا مَنْ فِي السَّمَوَاتِ فَالْمَلَائِكَةُ، وَأَمَّا مَنْ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ وَلَدَ عَلَى
 الْإِسْلَامِ، وَأَمَّا كَرْهًا فَمَنْ أَتَى بِهِ مِنْ سَبَايَا الْأُمَمِ فِي السَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ، يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ وَهُمْ
 كَارِهُونَ»^(١).

وقد ورد فى الصحيح: «عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ فِي السَّلَاسِلِ»^(٢). وسيأتى له
 شاهد من وجه آخر ولكن المعنى الأول للآية أقوى.

وقد قال وكيع فى تفسيره: حدثنا سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قال: هو كقوله: ﴿وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ﴾ [لقمان:
 ٢٥].

وقال أيضا: حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قال: حين أخذ الميثاق.

(١) المعجم الكبير للطبرانى (١١/١٩٤) وهنا سقط اسم ابن عباس، فالإسناد عنده: عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس عن النبى ﷺ
 به. قال الهيثمى فى المجمع (٦/٣٢٦): «فيه محمد بن محصن العكاشى وهو متروك».

(٢) صحيح البخارى (٣٠١٠).

﴿وَالِيهِ يَرْجِعُونَ﴾ أى: يوم المَعَاد، فيجازى كلا بعمله.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ يعنى: القرآن ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أى: من الصحف والوحي ﴿وَالْأَسْبَاطَ﴾ وهم بطون بنى إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل - هو يعقوب - الإثنى عشر. ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَى﴾ يعنى: بذلك التوراة والإنجيل ﴿وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وهذا يعم جميع الأنبياء جملة ﴿لَا نَفَرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ يعنى: بل نؤمن بجمعهم ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾: فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل، وبكل كتاب أنزل، لا يكفرون بشيء من ذلك بل هم مُصَدِّقُونَ^(١) بما أنزل من عند الله، وبكل نبي بعثه الله.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ أى: من سلك طريقاً سوى ما شرعه الله فلن يقبل منه ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ كما قال النبي ﷺ^(٢) فى الحديث الصحيح: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم، حدثنا عباد بن راشد، حدثنا الحسن، حدثنا أبو هريرة، إذ ذاك ونحن بالمدينة، قال: قال رسول الله ﷺ: «تَجِيءُ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتَجِيءُ الصَّلَاةُ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا الصَّلَاةُ. فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ. وَتَجِيءُ الصَّدَقَةُ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا الصَّدَقَةُ. فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ. ثُمَّ يَجِيءُ الصِّيَامُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَنَا الصِّيَامُ. فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ. ثُمَّ تَجِيءُ الْأَعْمَالُ، كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ، ثُمَّ يَجِيءُ الْإِسْلَامُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنْتَ السَّلَامُ وَأَنَا الْإِسْلَامُ. فَيَقُولُ اللَّهُ [تعالى] (٣): إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ، بَكَ الْيَوْمَ أَخَذْتُ وَبَكَ (٤) أُعْطِيَ، قَالَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾».

تفرد به أحمد. قال أبو عبد الرحمن عبد الله^(٥) بن الإمام أحمد: عباد بن راشد ثقة، ولكن الحسن لم يسمع من أبى هريرة^(٦).

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩)﴾.

قال ابن جرير: حدثني محمد بن عبد الله بن بزيع البصرى، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا داود ابن أبى هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك،

(١) فى أ: «يصدقون».

(٢) فى ج، أ، و: «رسول الله».

(٣) زيادة من و.

(٤) فى و: «وبه».

(٥) فى ر: «أبو عبد الرحمن بن عبد الله» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.

(٦) المسند (٣٦٢/٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٣٤٥/١٠): «فيه عباد بن راشد، وثقه أبو حاتم وغيره، وضعفه جماعة، وبقيه رجال أحمد رجال الصحيح».

ثم ندم، فأرسل إلى قومه: أن سَلُّوا لى^(١) رسول الله ﷺ: هل لى من توبة؟ قال: فنزلت: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾^(٢) فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

وهكذا رواه النسائى، وابن حبان، والحاكم، من طريق داود بن أبى هند، به. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه^(٣).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا جعفر بن سليمان، حدثنا حميد الأعرج، عن مجاهد قال: جاء الحارث ابن سُوَيْد فأسلم مع النبى ﷺ، ثم كفر الحارث فرجع إلى قومه فأنزل الله فيه: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ اللَّهَ﴾^(٤) غَفُورٌ رَحِيمٌ، قال: فحملها إليه رجل من قومه فقرأها عليه. فقال الحارث: إنك والله ما علمت لصدوق، وإن رسول الله ﷺ لأصدق منك، وإن الله لأصدق الثلاثة. قال: فرجع الحارث فأسلم فحسن إسلامه^(٥).

فقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أى: قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسول، ووضح لهم الأمر، ثم ارتدوا إلى ظلمة الشرك، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تلبسوا به من العماية؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. ثم قال: ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أى: يلعنهم الله ويلعنهم خلقه ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: فى اللعنة ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أى: لا يُفْتَر عنهم العذاب ولا يُخَفَّف عنهم ساعة واحدة.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهذا من لطفه وبره ورأفته ورحمته وعائدته على خلقه: أنه من تاب إليه تاب عليه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١)﴾.

يقول تعالى متوعداً ومتهدداً لمن كفر بعد إيمانه ثم ازداد كفراً، أى: استمر عليه إلى الممات، ومخبراً بأنه لا يقبل لهم توبة عند مماتهم، كما قال [تعالى]^(٦): ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ

(١) فى و: «أن أرسلوا إلى».

(٢) زيادة من ج، ر، أ، و.

(٣) تفسير الطبرى (٥٧٢/٦) وسنن النسائى (١٠٧/٧) والحاكم فى المستدرک (٣٦٦/٤) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبى».

(٤) زيادة من ج، ر، أ، و.

(٥) تفسير عبد الرزاق (١٣١/١).

(٦) زيادة من ر، أ، و.

حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ [قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا] ^(١) [النساء: ١٨].

ولهذا قال هاهنا: ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ أى: الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق الغي.

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا بن أبى هند، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أن قوما أسلموا ثم ارتدوا، ثم أسلموا ثم ارتدوا، فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾. هكذا رواه، وإسناده جيد ^(٢).

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ﴾ أى: من مات على الكفر فلن يقبل منه خير ^(٣) أبداً، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهباً فيما يراه قربة، كما سئل النبي ﷺ عن عبد الله بن جُدعان - وكان يُقرى الضيف، ويُفكُ العاني، ويُطعم الطعام -: هل ينفعه ذلك؟ فقال: ^(٤) «لا، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ» ^(٥).

وكذلك لو افتدى بملء الأرض أيضاً ذهباً ما قبل منه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، [وقال: ﴿لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾] ^(٦) [البقرة: ٢٥٤]، وقال: ﴿لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ [إبراهيم: ٣١]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦]؛ ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ﴾ ﴿وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ﴾ على الأول، فدل على أنه غيره، وما ذكرناه أحسن من أن يقال: إن الواو زائدة، والله أعلم. ويقتضى ذلك ألا ينقذه من عذاب الله شيء، ولو كان قد أنفق مثل ^(٧) الأرض ذهباً، ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهباً، بوزن جبالها وتلالها وترباتها ورمالها وسهلها ووعورها وبرها وبحرها.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثني شعبة، عن أبي عمران الجوني، عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: نعم. قال: فيقول: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ

(١) زيادة من ج، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٢) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٢/٢٥٨) وعزاه للبزار ثم قال فى آخره: «هذا خطأ من البزار».

(٣) فى أ: «خيراً» وهو خطأ.

(٤) فى ر، أ: «قال».

(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢١٤) من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٦) زيادة من ج، ر، أ.

(٧) فى أ: «ملء».

عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ أَبِيكَ آدَمَ أَلَّا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَيَّتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ». وهكذا أخرجاه^(١): البخارى، ومسلم^(٢).

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، خَيْرَ مَنْزِلٍ. فَيَقُولُ: سَلْ وَتَمَنَّ. فَيَقُولُ: مَا أَسْأَلُ وَلَا أَتَمَنَّ إِلَّا أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى الدُّنْيَا فَأُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ عَشْرَ مَرَّاتٍ - لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ. وَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ؟ فَيَقُولُ: يَا^(٣) رَبِّ، شَرَّ مَنْزِلٍ. فَيَقُولُ لَهُ: تَفْتَدِي^(٤) مِنِّي بَطْلَاعِ الْأَرْضِ ذَهَبًا؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، نَعَمْ. فَيَقُولُ: كَذَبْتَ، قَدْ سَأَلْتُكَ أَقْلَ مِنْ ذَلِكَ وَأَيْسَرَ فَلَمْ تَفْعَلْ، فِيرَدُ^(٥) إِلَى النَّارِ»^(٦).

ولهذا قال: «أَوَّلُكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ» أى: وما لهم من أحد يُنْقِذُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، ولا يجيرهم من أليم عقابه.

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٩٢).

[روى وكيع فى تفسيره عن شريك، عن أبى إسحاق، عن عمرو بن ميمون ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ﴾ قال: البر الجنة]^(٧). وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا مالك، عن إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة، سمع أنس بن مالك يقول: كان أبو طلحة أكثر أنصارى^(٨) بالمدينة مالا، وكان أحب أمواله إليه بَيْرَحَاءُ - وكانت مُسْتَقْبَلَةَ المسجد، وكان النبی ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب - قال أنس: فلما نزلت: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالى إِلَى بَيْرَحَاءَ وإنها صدقة لله أرجو برّها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله [تعالى]^(٩). فقال النبی ﷺ: «بَنَحْ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ، وَأَنَا أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ». فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله. فقسّمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه. أخرجاه^(١٠).

وفى الصحيحين أن عمر [رضى الله عنه]^(١١) قال: يا رسول الله، لم أُصِبْ مَالًا قَطُّ هُوَ أَنْفَسُ

(١) فى أ، و: «أخرجه».

(٢) المسند (١٢٧/٣) وصحيح البخارى برقم (٦٥٣٨) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٥).

(٣) فى ج، أ، و: «أى». (٤) فى أ، و: «أفتدى».

(٥) فى أ: «فرد». (٦) المسند (٢٠٨/٣).

(٧) زيادة من و. (٨) فى ج، أ: «أكثر الأنصار»، وفى ر، و: «أكبر أنصارى». (٩) زيادة من ج.

(١٠) المسند (١٤١/٣) وصحيح البخارى برقم (١٤٦١، ٢٧٥٢، ٢٣١٨، ٢٧٦٩، ٥٦١١، ٤٥٥٤) وصحيح مسلم برقم (٩٩٨).

(١١) زيادة من و.

عندى من سهمى الذى هو بخير، فما تأمرنى به؟ قال^(١): «حَسَّ الْأَصْلُ^(٢)، وَسَبَّلِ الثَّمَرَةَ^(٣)».

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أبو الخطاب زياد بن يحيى الحسانى، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبى عمرو بن حماس عن حمزة بن عبد الله بن عمر، قال: قال عبد الله: حضرتنى هذه الآية: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ فذكرت ما أعطانى الله، فلم أجد شيئاً أحبَّ إلىَّ من جارية رومية، فقلت: هى حرة لوجه الله. فلو أنى أعود فى شىء جعلته الله لنكحْتُها، يعنى تزوجْتُها^(٤).

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥)﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا عبد الحميد، حدثنا شهر قال: قال ابن عباس [رضى الله عنه]^(٥): حضرت عصابة من اليهود نبى الله ﷺ فقالوا: حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبى. قال: «سَلُونِى عَمَّا شِئْتُمْ، وَلَكِنْ اجْعَلُوا لى ذِمَّةَ اللَّهِ، وَمَا أَخَذَ يَعْقُوبُ عَلَى بَنِيهِ لَئِنْ أَنَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا فَعَرَفْتُمُوهُ لَتَتَابِعُنِي^(٦) عَلَى الْإِسْلَامِ». قالوا: فذلك لك. قال: «فَسَلُونِى عَمَّا شِئْتُمْ» قالوا: أخبرنا عن أربع خلال: أخبرنا أى الطعام حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ؟ وكيف ماء المرأة وماء الرجل؟ كيف^(٧) هذا النبى الأُمى فى النوم؟ ومن وكيه من الملائكة؟ فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعنه^(٨) وقال: «أَنشُدْكُمْ بِالَّذِى أُنْزِلَ التَّوْرَةُ عَلَى مُوسَى: هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ مَرِضٌ مَرَضًا شَدِيدًا وَطَالَ^(٩) سَقَمُهُ، فَذَرَّ اللَّهُ نَذْرًا لَئِنْ شَفَاهُ اللَّهُ مِنْ سَقَمِهِ لِيَحْرُمَنَّ أَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ وَأَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لُحْمَانِ الْإِبِلِ، وَأَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانُهَا» فقالوا: اللهم نعم. قال: «اللَّهُمَّ أَشْهَدْ عَلَيْهِمْ». وقال: «أَنشُدْكُمْ بِاللَّهِ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، الَّذِى^(١٠) أُنْزِلَ التَّوْرَةُ عَلَى مُوسَى: هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مَاءَ الرَّجُلِ أَيْضٌ غَلِيظٌ، وَمَاءَ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ رَقِيقٌ، فَأَيُّهُمَا عَلَا كَانَ لَهُ الْوَلَدُ وَالشَّبَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ، إِنْ عَلَا مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ^(١١) كَانَ ذَكَرًا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَإِنْ عَلَا مَاءُ

(١) فى أ، و: «فقال».

(٢) فى ج: «الأرض».

(٣) لم أجده فيهما، وقد رواه النسائي فى السنن (٢٣٢/٢) والدارقطنى فى السنن (١٩٣/٤) من طريق سفيان عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أن عمر قال: فذكره.

(٤) مسند البزار برقم (٢٩١٤) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (٣٢٦/٦): «ورواه البزار وفيه من لم أعرفه».

(٥) زيادة من أ.

(٦) فى ج، ر، أ، «لتتابعنى».

(٧) فى ج، و: «وماء الرجل؟ كيف يكون الذكر منه؟ وأخبرنا وكيف».

(٨) فى ج، أ: «ليتابعنه».

(٩) فى أ، و: «فطال».

(١٠) فى ج، م، و: «والذى».

(١١) فى ج، ر، أ، و: «ماء الرجل على ماء المرأة».

الْمَرَأَةُ ^(١) مَاءَ الرَّجُلِ كَانَ أَتْنَى بِإِذْنِ اللَّهِ. قالوا: نعم. قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ». وقال: «أَشْهَدُكُمْ» ^(٢) بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى: هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ تَنَامُ عَيْنَاهُ ^(٣) وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ. قالوا: اللهم نعم. قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ». قالوا: وأنت الآن فحدثنا مِنْ وَلِيِّكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؟ فعندها نجامعك أو نفارقك قال: «إِنَّ وَلِيَّيَ جِبْرِيلَ، وَلَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ نَبِيًّا قَطُّ إِلَّا وَهُوَ وَلِيُّهُ». قالوا: فعندها ^(٤) نفارقك، لو كان وليك غيره لتابعناك ^(٥)، فعند ذلك قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ الآية [البقرة: ٩٧].

ورواه أحمد أيضاً، عن حسين بن محمد، عن عبد الحميد، به ^(٦).

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا أبو أحمد الزبيري ^(٧)، حدثنا عبد الله بن الوليد العجلي، عن بكير ^(٨) بن شهاب، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: أقبلت يهود على رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، نسألك ^(٩) عن خمسة أشياء، فإن ^(١٠) أنبأنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: ﴿اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦]. قال: «هاتوا». قالوا: أخبرنا عن علامة النبي؟ قال: «تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ». قالوا: أخبرنا كيف تُؤْتِي الْمَرْأَةُ وَكَيْفَ تُذَكِّرُ؟ قال: «يَلْتَقِي الْمَاءُ، فَإِذَا ^(١١) عَلَا مَاءُ الرَّجُلِ مَاءُ الْمَرْأَةِ أَذْكَرَتْ، وَإِذَا عَلَا مَاءُ الْمَرْأَةِ ^(١٢) أَثْنَتْ. قالوا: أخبرنا ما حَرَّمَ إسرائيل على نفسه، قال: «كَانَ يَشْتَكِي عِرْقَ النِّسَاءِ، فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يُلَاقِيهِ إِلَّا أَلْبَانَ كَذًا وَكَذَا - قال أحمد: قال بعضهم: يعني الإبل - فَحَرَّمَ لِحُومَهَا». قالوا: صدقت. قالوا: أخبرنا ما هذا الرُّعْد؟ قال: «مَلَكٌ مِنَ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ بِيَدِهِ ^(١٣) - أَوْ فِي يَدِهِ - مِخْرَاقٌ مِنْ نَارٍ يَزْجُرُ بِهِ السَّحَابَ، يَسُوقُهُ حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ». قالوا: فما هذا الصوت الذي يُسْمَعُ؟ قال: «صَوْتُهُ». قالوا: صدقت، إنما بقيت واحدة، وهي التي نتابعك إن أخبرتنا بها، فإنه ليس من نبي إلا له ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: «جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ». قالوا: جبريل ذاك ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا. لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ^(١٤) [البقرة: ٩٧].

وقد رواه الترمذي، والنسائي، من حديث عبد الله بن الوليد العجلي، به نحوه، وقال الترمذي: حسن غريب ^(١٥).

(٢) في أ: «أشهدكم».

(٥) في ج، أ: «لبايعناك».

(٤) في أ: «فحدثنا».

(١) في ج، ر، أ، و: «علا ماء المرأة على ماء الرجل».

(٣) في ج، و: «عينه».

(٦) المسند (١/٢٧٨).

(٨) في ج، أ: «بكر».

(٧) في أ: «أبو أحمد عن الزبيري»، وفي ج، و: «أبو أحمد هو الزبيري».

(٩) في أ: «يا أبا القاسم، إنا نسألك».

(١٠) في ج، أ: «وإن».

(١٢) في ج، ر، أ: «وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أثنت».

(١٣) في ج، ر، أ، و: «بيديه».

(١٤) في ج، ر، أ، و: «قل من كان عدوا لجبريل إلى آخر الآية».

(١٥) المسند (١/٢٧٤) وستن الترمذي برقم (٣١١٧) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٩٠٧٢).

وقال ابن جُرَيْجٍ والعَوْفِيُّ، عن ابن عباس: كان إسرائيل - وهو يعقوب عليه السلام - يَعْتَرِيهِ عَرَقُ النَّسَاءِ بِاللَّيْلِ، وكان^(١) يَقلِّقُهُ وَيُزَعِّجُهُ عَنِ النَّوْمِ، وَيُقْلَعُ الْوَجَعُ عَنْهُ بِالنَّهَارِ، فَنَذَرَ لِلَّهِ لَثَنَ عَافَاهُ اللَّهُ لَا يَأْكُلُ عَرَقًا وَلَا يَأْكُلُ وَلَدَ مَا لَهُ عَرَقٌ.

وهكذا قال الضحاك والسدي. كذا حكاه ورواه ابن جرير في تفسيره. قال: فَاتَّبَعَهُ بَنُوهُ فِي تَحْرِيمِ ذَلِكَ اسْتِنَاءً بِهِ وَاقْتِدَاءً بِطَرِيقِهِ. قال: وقوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْزَلَ التَّوْرَةُ﴾ أى: حرم ذلك على نفسه من قبل أن تنزل التوراة.

قلت: ولهذا السياق بعد ما تقدم مناسبتان^(٢):

إحداهما: أن إسرائيل، عليه السلام، حَرَّمَ أَحَبَ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ وَتَرَكَهَا لِلَّهِ، وكان هذا سائغاً في شريعتهم^(٣)، فله مناسبة بعد قوله: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾. فهذا هو المشروع عندنا وهو الإنفاق في طاعة الله مما يحبُّه العبد ويشتهيهِ، كما قال: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقال: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [الإنسان: ٨].

المناسبة الثانية: لما تقدم السياق في الرد على النصارى، واعتقادهم الباطل في المسيح وتبين زيف ما ذهبوا إليه. وظهور^(٤) الحق واليقين في أمر عيسى وأمه، وكيف خلقه الله بقدرته ومشيئته، وبعثه إلى بنى إسرائيل يدعو إلى عبادة ربه تعالى - شَرَعَ فِي الرَّدِّ عَلَى الْيَهُودِ، قَبَّحَهُمُ اللَّهُ، وبيَّن أن النَّسْخَ الَّذِي أَنْكَرُوا وَقَوَّعَهُ وَجَوَّازَهُ قَدْ وَقَعَ، فإنَّ اللَّهَ، عَزَّ وَجَلَّ، قَدْ نَصَّ فِي كِتَابِهِمُ التَّوْرَةَ أَنَّ نُوحًا، عَلَيْهِ السَّلَامُ، لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها، ثم بعد هذا حَرَّمَ إِسْرَائِيلَ عَلَى نَفْسِهِ لُحْمَانَ الْإِبِلِ وَأَلْبَانَهَا، فَاتَّبَعَهُ بَنُوهُ فِي ذَلِكَ، وجاءت التوراة بتحريم ذلك، وأشياء أخرى زيادة على ذلك. وكان الله، عَزَّ وَجَلَّ، قَدْ أَذِنَ لِأَدَمَ فِي تَرْوِيجِ بَنَاتِهِ مِنْ بَنِيهِ، وَقَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ بَعْدَ ذَلِكَ. وكان التَّسَرَّى عَلَى الزَّوْجَةِ مَبَاحًا فِي شَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ، وَقَدْ فَعَلَهُ [الخليل]^(٥) إِبْرَاهِيمُ فِي هَاجِرٍ لما تَسَرَّى بِهَا عَلَى سَارَةٍ، وَقَدْ حُرِّمَ مِثْلُ هَذَا فِي التَّوْرَةِ عَلَيْهِمْ. وكذلك كان الجمع بين الأختين شائعاً^(٦)، وَقَدْ فَعَلَهُ يَعْقُوبُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، جَمَعَ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ، ثُمَّ حُرِّمَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ. وهذا كله منصوص عليه في التوراة عندهم، فهذا هو النَّسْخُ بَعِينُهُ، فَكَذَلِكَ^(٧) فليكن ما شرعه الله للمسيح، عليه السلام، في إحلاله بعض ما حرم في التوراة، فما بالهم لم يتبعوه؟ بل كذبوه وخالفوه؟ وكذلك ما بعث الله به محمداً ﷺ من الدين القويم، والصراط المستقيم، وملة أبيه إبراهيم فما بالهم^(٨) لا يؤمنون؟ ولهذا قال [تعالى]^(٩): ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ﴾ أى: كان حلالاً^(١٠) لهم جميع الأطعمة قبل نزول التوراة إلا ما حرَّمه إسرائيل، ثم قال: ﴿قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ فإنها ناطقة بما قلناه ﴿فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ مِنْ

(١) في ج، أ، و: «فكان».

(٢) في ر: «مناسبات».

(٣) في ج، أ، و: «شرعهم».

(٤) في ر، أ، و: «ظهر».

(٥) زيادة من أ.

(٦) في أ، و: «سائغاً».

(٧) في أ: «فلذلك».

(٨) في ج، ر، أ، و: «فما لهم».

(٩) زيادة من أ، و.

(١٠) في و: «حلالاً».

بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٦﴾ أى: فمن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَادَّعى أَنَّهُ شَرَعَ لَهُمُ السَّبْتَ وَالتَّمَسُّكَ بِالتَّوْرَةِ دَائِمًا، وَأَنَّهُ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا آخَرَ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ بِالْبِرَاهِينِ وَالْحُجَجِ بَعْدَ هَذَا الَّذِي بَيَّنَّاهُ مِنْ وَقُوعِ النِّسْخِ وَظُهُورِ مَا ذَكَرْنَاهُ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ أى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ: صَدَقَ فِيْمَا أَخْبَرَ بِهِ وَفِيْمَا شَرَعَهُ فِي الْقُرْآنِ ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أى: اتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي شَرَعَهَا اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَإِنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مَرِيَّةَ، وَهِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي لَمْ يَأْتِ نَبِيٌّ بِأَكْمَلِ مِنْهَا وَلَا أَبْيَنَ وَلَا أَوْضَحَ وَلَا أَثَمَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) ﴿.

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ^(١) أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ، أَيْ: لِعُمُومِ النَّاسِ، لِعِبَادَتِهِمْ وَنُسُكِهِمْ، يَطُوفُونَ بِهِ وَيُصَلُّونَ إِلَيْهِ وَيَعْتَكِفُونَ عِنْدَهُ ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ يَعْنِي: الْكَعْبَةَ الَّتِي بَنَاهَا إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ [عَلَيْهِ السَّلَامُ]^(٢)، الَّذِي يَزْعُمُ كُلُّ مَنْ طَائِفَتِي النَّصَارَى وَالْيَهُودِ أَنَّهُمْ عَلَى دِينِهِ وَمَنْهَجِهِ، وَلَا يَحْجُونَ إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي بَنَاهُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ لَهُ فِي ذَلِكَ وَنَادَى النَّاسَ إِلَى حُجِّهِ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مُبَارَكًا﴾ أَيْ وُضِعَ مُبَارَكًا ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾.

وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا سَفْيَانُ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيْ مَسْجِدٌ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوَّلُ؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيْ؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى». قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ سَنَةً». قُلْتُ: ثُمَّ أَيْ؟ قَالَ: ثُمَّ حَيْثُ أَدْرَكْتُ^(٣) الصَّلَاةَ فَصَلَّ، فَكُلُّهَا مَسْجِدٌ.

وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ، مِنْ حَدِيثِ الْأَعْمَشِ، بِهِ^(٤).

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ الصَّبَّاحِ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ سُلَيْمَانَ، حَدَّثَنَا شَرِيكٌ عَنْ مُجَالِدٍ، عَنْ الشَّعْبِيِّ عَنْ عَلِيٍّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ قَالَ: كَانَتِ الْبُيُوتُ قَبْلَهُ، وَلَكِنَّهُ كَانَ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضِعَ لِعِبَادَةِ اللَّهِ [تَعَالَى]^(٥).

[قَالَ]^(٦): وَحَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ الرَّبِيعِ، حَدَّثَنَا أَبُو الْأَحْوَصِ، عَنْ سِمَاكٍ، عَنْ خَالِدِ

(٣) فِي أ: «أَدْرَكْتُكَ».

(٢) زِيَادَةٌ مِنْ وَ.

(١) فِي جَد: «بَانَ».

(٤) الْمُسْنَدُ (٥/ ١٥٠) وَصَحِيحُ الْبُخَارِيِّ بِرَقْمِ (٣٣٦٦، ٣٤٢٥) وَصَحِيحُ مُسْلِمٍ بِرَقْمِ (٥٢٠).

(٦) زِيَادَةٌ مِنْ وَ.

(٥) زِيَادَةٌ مِنْ أ، وَ.

ابن عَرَعْرَةَ قال: قام رجل إلى عليّ فقال: ألا تُحدّثني عن البيت: أهو أولُ بيت وُضِعَ في الأرض؟ قال^(١): لا، ولكنه أول بيت وضع فيه البركة مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً. وذكر تمام الخبر في كيفية بناء إبراهيم البيت، وقد ذكرنا ذلك مُستَقْصَى في سورة البقرة فأغنى عن إعادته^(٢).

وزعم السُّدِّي أنه أولُ بيت وضع على وجه الأرض مطلقاً. والصحيح قولُ عليّ [رضى الله عنه]^(٣). فأما الحديث الذي رواه البيهقي في بناء الكعبة في^(٤) كتابه دلائل النبوة، من طريق ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً: «بَعَثَ اللَّهُ جِبْرِيلَ إِلَى آدَمَ وَحَوَّاءَ، فَأَمَرَهُمَا بِنَاءِ الْكَعْبَةِ، فَبَنَاهُ آدَمُ، ثُمَّ أَمَرَ بِالطَّوَّافِ بِهِ، وَقِيلَ لَهُ: أَنْتَ أَوَّلُ النَّاسِ، وَهَذَا أَوَّلُ بَيْتٍ وَضِعَ لِلنَّاسِ»^(٥) فَإِنَّهُ كَمَا تَرَى مِنْ مُفْرَدَاتِ ابْنِ لَهَيْعَةَ، وَهُوَ ضَعِيفٌ. وَالْأَشْبَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنْ يَكُونَ هَذَا مَوْقُوفًا عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو. وَيَكُونُ مِنَ الزَّامِلَتَيْنِ اللَّتَيْنِ^(٦) أَصَابَهُمَا يَوْمَ الْيَوْمُوك، مِنْ كَلَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يَبْكُونَ﴾ بَكَّةٌ: من أسماء مكة على المشهور، قيل^(٧): سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَبْكُ أَعْنَاقَ الظُّلْمَةِ وَالْجَبَابِرَةِ، بِمَعْنَى: يُبْكُونُ^(٨) بِهَا وَيَخْضَعُونَ عِنْدَهَا. وقيل: لأن الناس يَتَبَاكُونَ فِيهَا، أَيْ: يَزِدُّهُمْ حُومًا.

قال قتادة: إن الله بَكََّ به الناس جميعاً، فيصلي^(٩) النساء أمام الرجال، ولا يفعل ذلك ببلد غيرها. وكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، وعَمْرُو بْنُ شُعَيْبٍ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ. وذكر حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَكَّةُ مِنَ الْفَجِّ إِلَى التَّنْعِيمِ، وَبَكَّةُ مِنَ الْبَيْتِ إِلَى الْبَطْحَاءِ.

وقال شعبة، عن المغيرة، عن إبراهيم: بَكَّةُ: الْبَيْتُ وَالْمَسْجِدُ. وكذا قال الزهري. وقال عكرمة في رواية، وميمون بن مِهْرَانَ: الْبَيْتُ وَمَا حَوْلَهُ بَكَّةُ، وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مَكَّةُ. وقال أبو صالح، وإبراهيم النَّخَعِيُّ، وَعَطِيَّةُ [الْعَوْفِيُّ]^(١٠)، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ: بَكَّةُ مَوْضِعُ الْبَيْتِ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ مَكَّةُ.

وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة: مكة، وبكة، والبيت العتيق، والبيت الحرام، والبلد الأمين، والمأمون، وأُمُّ رُحْمٍ، وَأُمُّ الْقُرَى، وَصَلَاحٌ، وَالْعَرْشُ عَلَى وَزْنِ بَدْرٍ، وَالْقَادِسُ؛ لِأَنَّهَا تَطْهَرُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَالْمَقْدَسَةُ، وَالنَّاسَةُ: بِالنُّونِ، وَبِالْبَاءِ أَيْضًا، وَالْحَاطِمَةُ، وَالنَّسَاسَةُ^(١١)، وَالرَّأْسُ، وَكُوْتَى، وَالْبَلْدَةُ، وَالْبَنِيَّةُ، وَالْكَعْبَةُ.

(١) في ر، أ، و: «فقال».

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٤٠٣/٢).

(٣) زيادة من أ، و.

(٤) في أ، و: «من».

(٥) دلائل النبوة للبيهقي (٤٥/٢) وقال البيهقي: «تفرد به ابن لهيعة هكذا مرفوعاً».

(٦) في أ: «الذنين».

(٧) في ر: «وقيل».

(٨) في و: «يدلون».

(٩) في ج، ر: «النساسة والحطامة».

(١٠) زيادة من ج، أ، و.

(١١) في ج، ر: «فتصلي».

وقوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ أى: دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم، وأن الله تعالى عَظَّمَهُ وشرفه. ثم قال تعالى: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ يعنى: الذى لَمَّا ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران، حيث كان يقف عليه ويناوله ولده إسماعيل، وقد كان ملتصقا^(١) بجدار البيت، حتى أخره عُمَرُ بن الخطاب، رضى الله عنه، فى إمارته إلى ناحية الشرق^(٢) بحيث يتمكن الطَّوَّافُ، ولا يُشَوِّشُونَ على المصلين عنده بعد الطواف؛ لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]. وقد قدمنا الأحاديث فى ذلك، فأغنى عن إعادتها هاهنا، والله الحمد والمنة.

وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ أى: فمنهن^(٣) مقام إبراهيم والمشعر.

وقال مجاهد: أثر قدميه فى المقام آية بينة. وكذا روى عن عمر بن عبد العزيز، والحسن، وقتادة، والسدّى، ومقاتل بن حيان، وغيرهم.

وقال أبو طالب فى قصيدته:

وموطئ إبراهيم فى الصخر رطبةً
على قدميه حافياً غير ناعلٍ

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد وعمرو الأودى قالوا: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس فى قوله: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ قال: الحرم كله مقام إبراهيم. ولفظ عمرو: الحجر كله مقام إبراهيم.

وروى عن سعيد بن جبیر أنه قال: الحج مقام إبراهيم. هكذا رأيت فى النسخة، ولعله الحجر كله مقام إبراهيم، وقد صرح بذلك مجاهد.

وقوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ يعنى: حَرَمُ مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء، وكذلك كان الأمر فى حال الجاهلية، كما قال الحسن البصرى وغيره: كان الرجل يقتل فيضَع فى عُنُقِهِ صوفة ويدخل^(٤) الحرم فيلقاه ابنُ المقتول فلا يَهَيِّجُهُ حتى يخرج.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجّ، حدثنا أبو يحيى التيمي، عن عطاء، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ قال: من عاذ بالبيت أعاده البيت، ولكن لا يؤوى ولا يُطعم ولا يُسقى، فإذا خرج أخذ بذنبه.

وقال الله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ. الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣، ٤] وحتى إنه من جُملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها وتنفيره عن أوكاره، وحرمة قطع شجرها وقلع

(٢) فى ج: «المشرق».

(٤) فى ج: «فيدخل».

(١) فى أ، و: «ملتصقا».

(٣) فى أ: «فهى».

حَشِيشَهَا، كما ثبتت الأحاديث والآثار^(١) في ذلك عن جماعة من الصحابة مرفوعا وموقوفاً.

ففي الصحيحين، واللفظ لمسلم، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح فتح مكة: «لَاهِجْرَةَ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتَنْفَرْتُمْ فَاَنْفِرُوا»، وقال يوم الفتح فتح مكة: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ^(٢) حَرَمُهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا فِي سَاعَةٍ مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُنْفَرُ صَيْدُهُ، وَلَا يَلْتَقِطُ لُقْطَتُهُ إِلَّا مِنْ عَرَفْهَا، وَلَا يُخْتَلَى خِلَاها^(٣)»، فقال العباس: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِلَّا الْإِذْخَرَ، فَإِنَّهُ لَقَيْنَهُمْ وَلَبِئُوتَهُمْ، فقال: «إِلَّا الْإِذْخَرَ»^(٤).

ولهما عن أبي هريرة، مثله أو نحوه^(٥) ولهما واللفظ لمسلم أيضاً عَنْ أَبِي شَرِيحٍ الْعَدَوِيُّ أَنَّهُ قَالَ لِعَمْرٍو بْنِ سَعِيدٍ، وَهُوَ يَبْعَثُ الْبَعُوثَ إِلَى مَكَّةَ: ائْذَنْ لِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ أَنْ أُحَدِّثَكَ قَوْلًا قَامَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ يَوْمِ الْفَتْحِ سَمِعْتُهُ أَذْنًا وَوَعَاهُ قَلْبِي وَأَبْصَرْتُهُ عَيْنًا حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ، إِنَّهُ حَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ مَكَّةَ حَرَمَهَا اللَّهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلَا يَحِلُّ لِمَرِيٍّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلَا يَعْضُدَ بِهَا شَجَرَةً، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهَا فَقُولُوا لَهُ: إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ» فَقِيلَ لِأَبِي شَرِيحٍ: مَا قَالَ لَكَ عَمْرٍو؟ قَالَ: أَنَا أَعْلَمُ بِذَلِكَ مِنْكَ يَا أَبَا شَرِيحٍ، إِنْ الْحَرَمَ لَا يُعِيدُ عَاصِيًا وَلَا قَارًا بِدَمٍ وَلَا قَارًا بِخَزِيَّةٍ^(٦)»^(٧).

وعن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَحِلُّ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السَّلَاحَ»^(٨) رواه مسلم.

وعن عبد الله بن عديّ بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول، وهو واقف بالحزورة في سوق مكة: «وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ».

رواه الإمام أحمد، وهذا لفظه، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه. وقال الترمذي: حسن صحيح^(٩)، وكذا صحَّح من حديث ابن عباس نحوه^(١٠). وروى أحمد عن أبي هريرة، نحوه^(١١).

(١) في ج: «الآثار والأحاديث». (٢) في أ، و: «البيت». (٣) في ر: «خلالها».

(٤) صحيح البخاري برقم (١٨٣٤) وصحيح مسلم برقم (١٣٥٣).

(٥) صحيح البخاري برقم (٢٤٣٤)، وصحيح مسلم برقم (١٣٥٥).

(٦) في أ: «بخرمة».

(٧) صحيح البخاري برقم (١٨٣٢) وصحيح مسلم برقم (١٣٥٤).

(٨) صحيح مسلم برقم (١٣٥٦).

(٩) المسند (٣٠٥/٤) وسنن الترمذي برقم (٣٩٢٥) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٤٢٥٤) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٠٨).

(١٠) سنن الترمذي برقم (٣٩٢٦) وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه».

(١١) المسند (٣٠٥/٤).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا بشر بن آدم ابن بنت أزهر السمان^(١)، حدثنا أبو عاصم، عن زريق بن مسلم^(٢) الأعمى مولى بنى مخزوم، حدثني زياد بن أبي عياش، عن يحيى بن جعدة بن هبيرة، في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ قال: آمنا من النار.

وفي معنى هذا القول الحديث الذي رواه البيهقي: أخبرنا أبو الحسن على بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد، حدثنا محمد بن سليمان الواسطي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا ابن المؤمل، عن ابن محيصن، عن عطاء، عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَخَلَ الْبَيْتَ دَخَلَ فِي حَسَنَةٍ وَخَرَجَ مِنْ سَيِّئَةٍ، وَخَرَجَ مَغْفُورًا لَهُ». ثم قال: تفرد به عبد الله بن المؤمل، وليس بقوى^(٣).

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ هذه آية وجوب الحج عند الجمهور. وقيل: بلى هي قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] والأول أظهر.

وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقواعده، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعاً ضرورياً، وإنما يجب على المكلف في العمر مرة واحدة بالنص والإجماع.

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا الربيع بن مسلم القرشي، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ فَحُجُّوا». فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثاً. فقال رسول الله ﷺ: «لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجِبَتْ، وَلَكَمَا اسْتَطَعْتُمْ». ثم قال: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ».

ورواه مسلم، عن زهير بن حرب، عن يزيد بن هارون، به نحوه^(٤).

وقد روى سفيان بن حسين، وسليمان بن كثير، وعبد الجليل بن حميد، ومحمد بن أبي حفصة، عن الزهري، عن أبي سنان الدؤلي - واسمه يزيد بن أمية - عن ابن عباس قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ». فقام الأقرع بن حابس فقال: يا رسول الله، أفى كل عام؟ قال: «لَوْ قُلْتُهَا، لَوَجِبَتْ، وَلَوْ وَجِبَتْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهَا، وَلَمْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْمَلُوا بِهَا؛ الْحَجُّ مَرَّةً، فَمَنْ زَادَ فَهُوَ تَطَوُّعٌ».

رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم من حديث الزهري، به. ورواه شريك، عن سمالك، عن عكرمة، عن ابن عباس، بنحوه. وروى من حديث أسامة يزيد^(٥).

(٢) في أ: «أسلم».

(١) في ر: «السماك».

(٣) السنن الكبرى (٥/١٥٨) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١١/٢٠١) والبخاري في مسنده برقم (١١٦١) من طريق عبد الله بن المؤمل به.

(٤) المسند (٢/٥٠٨) وصحيح مسلم برقم (١٣٣٧).

(٥) المسند (١/٢٩٠) وسنن أبي داود برقم (١٧٢١) وسنن النسائي (٥/١١١) وسنن ابن ماجه برقم (٢٨٨٦) والمستدرک (٢/٢٩٣).

[و] ^(١) قال الإمام أحمد: حدثنا منصور بن وردان، عن علي بن عبد الأعلى، عن أبيه، عن أبي البختري، عن علي قال: لما نزلت: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قالوا: يا رسول الله، فى كل عام؟ فسكت، قالوا: يا رسول الله، فى كل عام؟ قال: «لا، وَلَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجَبَتْ». فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١].

وكذا رواه الترمذى، وابن ماجه، والحاكم، من حديث منصور بن وردان، به: ثم قال ^(٢) الترمذى: حسن غريب. وفيما قال نظر؛ لأن البخارى قال: لم يسمع أبو البختري من علي ^(٣).

وقال ابن ماجه: حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدثنا محمد بن أبي عبيدة، عن أبيه، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن أنس بن مالك قال: قالوا: يا رسول الله، الحج فى كل عام؟ قال: «لَوْ قُلْتُ: نعم، لَوَجَبَتْ، وَلَوْ وَجَبَتْ لَمْ تَقُومُوا ^(٤) بها، وَلَوْ لَمْ تَقُومُوا بِهَا لَعَذَّبْتُ» ^(٥).

وفى الصحيحين من حديث ابن جريج، عن عطاء، عن جابر، عن ^(٦) سراقه بن مالك قال: يا رسول الله، مُتَعَتْنَا هذه لعامنا هذا أم للأبد؟ قال: «لَا، بَلْ لِلْأَبَدِ». وفى رواية: «بَلْ لِلْأَبَدِ» ^(٧).

وفى مسند الإمام أحمد، وسنن أبى داود، من حديث واقد بن أبى واقد الليثى، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال لنسائه فى حجته: «هَذِهِ تُمَّ ظُهُورَ الْحُصْرِ» ^(٨) يعنى: ثم الزمَنَ ظُهُورَ الْحُصْرِ، ولا تخرجن من البيوت.

وأما الاستطاعة فأقسام: تارة يكون الشخص مستطيعا بنفسه، وتارة بغيره، كما هو مقرر فى كتب الأحكام.

قال أبو عيسى الترمذى: حدثنا عبد بن حميد، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا إبراهيم بن يزيد قال: سمعت محمد بن عباد بن جعفر يحدث عن ابن عمر قال: قام رجل إلى رسول الله ﷺ ^(٩) فقال: مَنْ الْحَاجَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «الشَّعْتُ الثَّقَلُ» ^(١٠)، فقام آخر فقال: أى الحج أفضل يا رسول الله؟ قال: «العَجُّ والشَّجُّ»، فقام آخر فقال: ما السبيل يا رسول الله ^(١١)؟ قال: «الزَّادُ وَالرَّاحِلَةُ».

(١) زيادة من ج، ر.

(٣) المسند (١١٣/١) وسنن الترمذى برقم (٣٠٥٥) وسنن ابن ماجه برقم (٢٨٨٤) والمستدرک (٢/٢٩٤).

(٤) فى ر: «يقوموا».

(٥) سنن ابن ماجه برقم (٢٨٨٥) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/٤): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

(٦) فى أ: «أن».

(٧) صحيح البخارى برقم (٢٥٠٥) وصحيح مسلم برقم (١٢١٦).

(٨) المسند (٥/٢١٨، ٢١٩) وسنن أبى داود برقم (١٧٢٢).

(٩) فى ج، ر، أ، و: «النبى».

(١٠) فى ر: «الثقل» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.

(١١) فى ج: «يا رسول الله ما السبيل».

وهكذا رواه ابن ماجة من حديث إبراهيم بن يزيد وهو الخوزى. قال الترمذى: ولا نعرفه^(١) إلا من حديثه، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه. كذا قال هاهنا. وقال فى كتاب الحج: هذا حديث حسن^(٢).

[و]^(٣) لا يشك أن هذا الإسناد رجاله كلهم ثقات سوى الخوزى هذا، وقد تكلموا فيه من أجل هذا الحديث.

لكن قد تابعه غيره، فقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله العامرى، حدثنا محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير الليثى، عن محمد بن عباد بن جعفر قال: جلست إلى عبد الله بن عمر قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال له: ما السبيل؟ قال: «الزَّادُ وَالرَّحْلَةُ». وكذا رواه ابن مردويه من رواية محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير، به.

ثم قال ابن أبى حاتم: وقد روى عن ابن عباس، وأنس، والحسن، ومجاهد، وعطاء، وسعيد ابن جبیر، والربيع بن أنس، وقتادة - نحو ذلك^(٤).

وقد روى هذا الحديث من طُرُقٍ أُخَرٍ من حديث أنس، وعبد الله بن عباس، وابن مسعود، وعائشة كُلُّها مرفوعة، ولكن فى أسانيدھا مقال^(٥)، كما هو مقرر فى كتاب الأحكام، والله أعلم.

وقد اعتنى الحافظ أبو بكر بن مردويه بجمع طرق هذا الحديث. ورواه الحاكم من حديث قتادة^(٦)، عن حماد بن سلمة، عن قتادة، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ سئل عن قول الله: ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ فقيل^(٧): ما السبيل^(٨)؟ قال: «الزَّادُ وَالرَّاحِلَةُ». ثم قال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه^(٩).

وقال ابن جرير: حدثنى يعقوب، حدثنا ابن عُلَّيَّة، عن يونس، عن الحسن قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قالوا: يا رسول الله، ما السبيل؟ قال: «الزَّادُ وَالرَّاحِلَةُ»^(١٠).

ورواه وكيع فى تفسيره، عن سفيان، عن يونس، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا الثورى، عن إسماعيل - وهو أبو إسرائيل الملائى - عن فضيل - يعنى ابن عمرو - عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعَجَّلُوا

(١) فى ر: «يرفعه».

(٢) سنن الترمذى برقم (٨١٣)، (٢٩٩٨) وسنن ابن ماجة برقم (٢٨٩٦).

(٣) زيادة من ج، ر.

(٤) تفسير ابن أبى حاتم (٤٢٢/٢).

(٥) وقد جمع هذه الطرق وتكلم عليها الشيخ ناصر الألبانى فى كتابه: «إرواء الغليل» (٤/١٦٠) بما يكفى وانتهى إلى ضعف الحديث فأفاد وأجاد جزاء الله خيرا.

(٦) فى ج: «أبى قتادة».

(٧) فى أ: «فقال»، وفى و: «قالوا». (٨) فى و: «فقيل: يا رسول الله، ما السبيل».

(٩) المستدرک (٤٤٢/١).

(١٠) تفسير الطبرى (٤٠/٧) وإسناده مرسل.

إِلَى الْحَجِّ - يعنى الفريضة - فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَا يَدْرِي مَا يَعْزُضُ لَهُ^(١).

وقال أحمد أيضاً: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الحسن بن عمرو الفُقَيْمِي، عن مِهْرَانَ بن أبى صفوان^(٢)، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ».

ورواه أبو داود، عن مُسَدَّد، عن أبى معاوية الضرير، به^(٣).

وقد روى ابن جُبَيْر، عن ابن عباس فى قوله: «مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا». قال: من ملك ثلاثمائة درهم فقد استطاع إليه سبيلا.

وعن عكرمة موله أنه قال: السبيل الصَّحَّة.

وروى وَكَيْعُ بن الجَرَّاح، عن أبى جَنَاب^(٤) - يعنى الكلبي - عن الضحاك بن مزاحم، عن ابن عباس قال: «مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» قال: الزاد والبعير.

وقوله: «وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: أى ومن جحد فريضة الحج فقد كفر، والله غنى عنه^(٥).

وقال سَعِيد بن منصور، عن سفيان، عن ابن أبى نَجِيح، عن عكرمة قال: لما نزلت: «وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ» قالت اليهود: فنحن مسلمون. قال الله، عز وجل^(٦): «فَاخْضَمُّهُمْ فَحَجَّجَهُمْ - يعنى فقال لهم النبى ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَجَّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا». فقالوا: لم يكتب علينا، وأبوا أن يحجوا. قال الله: «وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ»^(٧).

وروى ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد، نحوه.

وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، أخبرنا إسماعيل بن عبد الله بن مسعود، أخبرنا مسلم بن إبراهيم وشاذ^(٨) بن فياض قالوا: أخبرنا هلال أبو هاشم الخراساني، أخبرنا أبو إسحاق الهمداني، عن الحارث، عن على، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَلَكَ زَادًا وَرَاحِلَةً وَلَمْ يَحُجَّ بَيْتَ اللَّهِ، فَلَا يَضُرُّهُ مَاتَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ».

ورواه ابن جرير من حديث مسلم بن إبراهيم، به.

وهكذا رواه ابن أبى حاتم عن أبى زُرْعَةَ الرازى: حدثنا هلال بن فياض، حدثنا هلال أبو هاشم

(١) المسند (٣١٣/١).

(٢) فى أ: «ضرار»، وفى و: «مهران».

(٣) المسند (٢٢٥/١).

(٤) فى ج، ر: «حياب».

(٥) فى ر: «عنه غنى».

(٦) فى ر: «الله تعالى».

(٧) ورواه الطبرى فى تفسيره (٥٠/٧) من طريق عيسى عن سفيان به.

(٨) فى أ: «وساد».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١)﴾.

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أن يطيعوا طائفة من الذين أوتوا الكتاب، الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، وما مَنَحهم به من إرسال رسوله^(١)، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩] وهكذا قال هاهنا: ﴿إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ ثم قال: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ يعنى: أن الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه؛ فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلا ونهاراً، وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُم لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨] والآية بعدها. وكما جاء فى الحديث: أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «أى المؤمنين أعجب إليكم إيماناً؟» قالوا: الملائكة. قال: «وكيف لا يؤمنون وهم عند ربهم؟!» وذكروا الأنبياء^(٢)، قال: «وكيف لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟» قالوا: فنحن. قال: «وكيف لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟!». قالوا: فأى الناس أعجب إيماناً؟ قال: «قوم يجيئون من بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها»^(٣).

وقد ذكرت سند هذا الحديث والكلام عليه فى أول شرح البخارى، والله الحمد.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى: ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة فى الهداية، والعمدة فى مباحدة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد، وحصول المراد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُم آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان وشعبة، عن زبيد اليامى، عن مرة، عن عبد الله - هو ابن مسعود - «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ» قال: أن يطاع فلا يعصى،

(٢) فى ج، أ، و: «قالوا فالأنبياء».

(١) فى أ: «ورسله».

(٣) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٢/٤، ٢٣) من حديث أبى جمعة الأنصارى.

وَأَنْ يُذَكَّرَ فَلَا يُنْسَى، وَأَنْ يُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرُ^(١).

وهذا إسناد صحيح موقوف، [وقد تابع مرة عليه عمرو بن ميمون عن ابن مسعود]^(٢).

وقد رواه ابن مردويه من حديث يونس بن^(٣) عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن سفيان الثوري، عن زبيد، عن مرة، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ»: أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، وَيُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرُ، وَيُذَكَّرَ فَلَا يُنْسَى.

وكذا رواه الحاكم في مستدركه، من حديث مسعر، عن زبيد، عن مرة، عن ابن مسعود، مرفوعاً فذكره. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. كذا قال. والأظهر^(٤) أنه موقوف^(٥) والله أعلم.

ثم قال ابن أبي حاتم: ورؤى نحوه عن مرة الهمداني، والربيع بن خثيم، وعمرو بن ميمون، وإبراهيم النخعي، وطاووس، والحسن، وقتادة، وأبي سنان، والسدي، نحو ذلك.

[وروى عن أنس أنه قال: لا يتقى العبد الله حق تقاته حتى يخزن من لسانه]^(٦).

وقد ذهب سعيد بن جبير، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، ومقاتل بن حيان، وزيد بن أسلم، والسدي وغيرهم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» [التغابن: ١٦].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ» قال: لم تُنسخ، ولكن «حَقَّ تَقَاتِهِ» أن يجاهدوا في سبيله حق جهاده، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم.

وقوله: «وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» أي: حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه، فعياداً بالله من خلاف ذلك.

قال الإمام أحمد: حدثنا رَوْحٌ، حدثنا شُعْبَةُ قال: سمعتُ سليمان، عن مجاهد، أن الناس كانوا يطوفون بالبيت، وابن عباس جالس معه محجَّج، فقال: قال رسول الله ﷺ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» وَلَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قَطَرَتْ لِأَمْرَتٍ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ عِشَّتَهُمْ^(٧) فَكَيْفَ بِمَنْ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إِلَّا الزَّقُّومُ.

وهكذا رواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، من

(١) في ج: «أَنْ يُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرُ وَأَنْ يُذَكَّرَ فَلَا يُنْسَى».

(٢) زيادة من و.

(٣) في أ: «عن».

(٤) المستدرک (٢/ ٢٩٤).

(٥) في أ، و: «عشهم».

(٦) زيادة من ج، ر، و.

طرق عن شعبة، به. وقال الترمذى: حسن صحيح. وقال الحاكم: على شرط الشيخين، ولم يخرجاه^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحَّجَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَدْرِكْهُ مَنِيَّتُهُ، وَهُوَ يُؤْمِنُ^(٢) بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَيَأْتِي إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ^(٣)».

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ^(٤) إِلَّا وَهُوَ يُحَسِّنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».

ورواه مسلم من طريق الأعمش، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا [أبو]^(٥) يونس، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَإِنْ ظَنَّنِي خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّنِي شَرًّا فَلَهُ^(٦)».

وأصل هذا الحديث ثابت فى الصحيحين^(٧) من وجه آخر، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ [عز وجل]^(٨): أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي^(٩)».

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الملك القرشى، حدثنا جعفر بن سليمان، عن ثابت - وأحسبه - عن أنس قال: كان رجل من الأنصار مريضاً، فجاءه النبى ﷺ يَعودُهُ، فوافقه فى السوق فسلم عليه، فقال له: «كَيْفَ أَنْتَ يَا فَلَانُ؟» قال^(١٠): بخير يا رسول الله، أرجو الله أخاف ذنوبى. فقال رسول الله ﷺ: «لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو وَأَمَنَّهُ مِمَّا يَخَافُ».

ثم قال: لا نعلم رواه عن ثابت غير جعفر بن سليمان. وهكذا رواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجة من حديثه، ثم قال الترمذى: غريب. وقد رواه بعضهم عن ثابت مرسل^(١١).

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن

(١) المسند (٣٠١/١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٠٧٠) والمستدرک (٢/٢٩٤).

(٢) فى ر: «مؤمن».

(٣) المسند (٢/١٩٢).

(٤) فى أ، و: «أحد منكم».

(٥) زيادة من ر.

(٦) المسند (٢/٣٩١).

(٧) فى جـ: «الصحيح».

(٨) زيادة من أ.

(٩) صحيح البخارى برقم (٧٥٠٥) من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة، وصحيح مسلم برقم (٢٦٧٥) من طريق الأعمش

عن أبي صالح عن أبي هريرة.

(١٠) فى جـ: «فقال».

(١١) سنن الترمذى برقم (٩٨٣) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٦١) ورواه ابن أبى الدنيا فى «حسن الظن بالله» برقم (٣١) وحسنه المنذرى فى

الترغيب والترهيب (٤/٢٦٨).

أما المرسل: فرواه ابن أبى الدنيا فى «المرضى والكفارات» برقم (١٠٨) ومن طريقه البيهقى فى شعب الإيمان من طريق حماد عن

ثابت عن عبيد بن عمير مرسل.

يوسف بن مَاهُك، عن حكيم بن حزام قال: بايعتُ رسولَ الله ﷺ على ألا أُخِرَّ إلا قائما. ورواه النسائي في سننه عن إسماعيل بن مسعود، عن خالد بن الحارث، عن شعبة، به، وترجم عليه فقال: (باب كيف يخر للسجود)^(١) ثم ساقه مثله^(٢) فقيل: معناه: على ألا أموت إلا مسلما، وقيل: معناه: [على]^(٣) ألا أُقتل إلا مُقبلا غير مُدبر، وهو يرجع إلى الأول.

وقوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ قيل: ﴿بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ أى: بعهده الله، كما قال فى الآية بعدها: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَرَّقُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢] أى بعهده وذمة^(٤). وقيل: ﴿بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ﴾ يعنى: القرآن، كما فى حديث الحارث الأعور، عن عليّ مرفوعا فى صفة القرآن: «هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمُتَيْنِ، وَصِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ».

وقد وردَ فى ذلك حديث خاص بهذا المعنى، فقال الإمام الحافظ أبو جعفر الطبرى: حدثنا سعيد ابن يحيى الأموى، حدثنا أسباط بن^(٥) محمد، عن عبد الملك بن أبى سليمان العرزمى، عن عطية عن [أبى]^(٦) سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «كِتَابُ اللَّهِ، هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَمْدُودُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ»^(٧).

وروى ابن مردويه من طريق إبراهيم بن مسلم الهجرى، عن أبى الأحوص، عن عبد الله رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمُتَيْنِ، وَهُوَ النُّورُ الْمُبِينُ وَهُوَ الشِّفَاءُ النَّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَنَجَاةٌ لِمَنْ اتَّبَعَهُ»^(٨).

وروى من حديث حذيفة وزيد بن أرقم نحو ذلك. [وقال وكيع: حدثنا الأعمش عن أبى وائل قال: قال عبد الله: إن هذا الصراط محتضر تحضره الشياطين، يا عبد الله، بهذا الطريق هلم إلى الطريق، فاعتصموا بحبل الله فإن حبل الله القرآن]^(٩).

وقوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾: أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة^(١٠). وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهى عن التفرق والأمر بالاجتماع والاتلاف^(١١)، كما فى صحيح مسلم من حديث سهيل بن أبى صالح، عن أبيه، عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا، يَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ؛ وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ»^(١٢).

(١) المسند (٤٠٢/٣) وسنن النسائي (٢/٢٠٥).

(٢) فى ج، أ: «عليه». (٣) زيادة من أ.

(٤) فى أ: «عن». (٦) زيادة من ج.

(٧) تفسير الطبرى (٧٢/٧) وفى إسناده عطية العوفى وهو ضعيف.

(٨) ورواه الحاكم فى المستدرک (١/٥٥٥) وابن أبى شيبه فى المصنف (١٠/٤٨٢) وابن حبان فى المجروحين (١/٩٩) وابن الجوزى فى

العلل المتناهية (١/١٠١) وقال: «هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، ويشبه أن يكون من كلام ابن مسعود».

(٩) زيادة من و. (١٠) فى أ، و: «التفرقة». (١١) فى ج: «بالاتلاف والاجتماع».

(١٢) صحيح مسلم برقم (١٧١٥).

وقد ضُمَّنَتْ لَهُمُ الْعِصْمَةُ، عند اتفاقهم، من الخطأ، كما وردت بذلك الأحاديث المتعددة أيضاً، وخِيفَ عَلَيْهِمُ الْإِفْتِرَاقُ، والاختلاف، وقد وقع ذلك فى هذه الأمة فافترقوا على ثلاث وسبعين فرقة، منها فرقة^(١) ناجية إلى الجنة ومُسَلِّمة من عذاب النار، وهم الذين على ما كان عليه رسولُ الله ﷺ وأصحابه.

وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾^(٢) إلى آخر الآية، وهذا السياق فى شأن الأوس والخزرج، فإنه كانت^(٣) بينهم حُرُوبٌ كثيرة فى الجاهلية، وعداوة شديدة وضغائن، وإِحْنٌ وَذُحُولٌ^(٤) طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم، صاروا إخواناً متحابين بجلال الله، متواصلين فى ذات الله، متعاونين على البر والتقوى، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ. وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ [إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ]﴾^(٥) [الأنفال: ٦٢] وكانوا على شفا حفرة من النار بسبب كفرهم، فأبعدهم^(٦) الله منها: أَنْ هَدَاهُمْ لِلْإِيمَانِ. وقد امتن عليهم بذلك رسولُ الله ﷺ يوم قَسَمَ غَنَائِمَ حُنَيْنٍ، فَعَتَبَ مِنْ عَتَبٍ^(٧) منهم لما فَضَّلَ عليهم فى القسمة بما أراه الله، فخطبهم فقال: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بِي؟» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أَمَنَ.

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار وغيره: أن هذه الآية نزلت فى شأن الأوس والخزرج، وذلك أن رجلاً من اليهود مرَّ بمبلاً من الأوس والخزرج، فسأه ما هُم عليه من الاتفاق والألفة، فبعث رجلاً معه وأمره أن يجلس بينهم ويذكرهم^(٨) ما كان من حروبهم يوم بُعِثَ وتلك الحروب، ففعل، فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوسُ القوم وغضب بعضهم على بعض، وتناوروا، ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم، وتواعدوا إلى الحرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأَتَاهُمْ فجعل يُسَكِّنُهُمْ ويقول: «أَبْدَعُوْى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ؟» وتلا عليهم هذه الآية، فندموا على ما كان منهم، واصطلحوا وتعانقوا، وألقوا السلاح، رضى الله عنهم^(٩).

وذكر عكرمة أن ذلك نزل فيهم حين تناوروا فى قضية الإفك، والله أعلم.

﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ

(١) فى ر: «فرقة منها». (٢) زيادة فى ج، ر، أ، و. (٣) فى أ: «قد كان»، وفى و: «قد كانت».

(٤) فى ر: «دخول». وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه. (٥) زيادة من و. (٦) فى أ، و: «فأنقذهم».

(٧) فى ج، ر: «فعتت من عنت». (٨) فى ج، ر، أ، و: «ويذكر لهم».

(٩) انظر: تفسير الطبرى (٧/٧٨، ٧٩).

الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩) ﴿﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ أى: منتسبة للقيام بأمر الله، فى الدعوة إلى الخير، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ قال الضحاك: هم خاصة الصحابة وخاصة الرواة، يعنى: المجاهدين والعلماء.

وقال أبو جعفر الباقر: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ ثم قال: «الْخَيْرُ اتِّبَاعُ الْقُرْآنِ وَسُنَّتِي» رواه ابن مردويه.

والقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ». وفى رواية: «وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ» (١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان الهاشمي، أخبرنا إسماعيل بن جعفر، أخبرني عمرو بن أبى عمرو، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهلي، عن حذيفة بن اليمان، أن النبى ﷺ قال: «وَالَّذِى نَفْسِ بِيَدِهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يُسْتَجِيبُ لَكُمْ».

ورواه الترمذى، وابن ماجه، من حديث عمرو بن أبى عمرو، به وقال الترمذى: حسن (٣).

والأحاديث فى هذا الباب كثيرة مع الآيات الكريمة كما سيأتى تفسيرها فى أماكنها. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٤) ينهى هذه الأمة أن تكون كالأمم الماضين فى تفرقهم واختلافهم، وتركهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع قيام الحجة عليهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثني أزهر بن عبد الله الهوزنى (٥) عن

(١) صحيح مسلم برقم (٤٩) من حديث أبى موسى الأشعري، قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله: «وهم الحفاظ ابن كثير وهما شديداً، فحديث: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا» هو حديث أبى موسى».

(٢) فى أ: «أَنْ رَسُولَ اللَّهِ».

(٣) المسند (٣٨٨/٥) وسنن الترمذى برقم (٢١٦٩).

(٤) زيادة من ج، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٥) فى ج، ر: «الهوزى»، وفى هـ ومسنند الإمام أحمد (١٠٢/٤): «الهوزى». قال أبو المغيرة فى موضع آخر: الحرازى، والله أعلم بالصواب.

أبى عامر عبد الله بن لُحى^(١) قال: حججنا مع معاوية بن أبى سفيان، فلما قدمنا مكة قام حين صلى [صلاة]^(٢) الظهر فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثَتْنَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً - يَعْنِي الْأَهْوَاءَ - كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ، وَإِنَّهُ سَيَخْرُجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ تُجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ، كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ، لَا يَبْقَى مِنْهُ عَرَقٌ وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ. وَاللَّهِ - يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ - لَئِنْ لَمْ تَقُومُوا بِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّكُمْ ﷺ لَغَيْرُكُمْ^(٣) مِنَ النَّاسِ أُخْرَى إِلَّا يَقُومَ بِهِ».

وهكذا رواه أبو داود، عن أحمد بن حنبل ومحمد بن يحيى، كلاهما عن أبى المغيرة - واسمه عبد القدوس بن الحجاج الشامي - به، وقد روى هذا الحديث من طرق^(٤).

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ يعنى: يوم القيامة، حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة، قاله ابن عباس، رضى الله عنهما^(٥).

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾: قال الحسن البصرى: وهم المنافقون: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وهذا الوصف يعم كل كافر.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يعنى: الجنة، ماكنون فيها أبدا لا ييغون عنها حولا. وقد قال أبو عيسى الترمذى عند تفسير هذه الآية: حدثنا أبو كريب، حدثنا وكيع، عن ربيع - وهو ابن صبيح^(٦) - وحماد بن سلمة، عن أبى غالب قال: رأى أبو أمامة رؤوسا منصوبة على درج دمشق، فقال أبو أمامة: كلاب النار، شر قتلى تحت أديم السماء، خير قتلى من قتلوه، ثم قرأ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ إلى آخر الآية. قلت لأبى أمامة: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: لو لم أسمعته إلا مرة أو مرتين أو ثلاثا أو أربعا - حتى عد سبعا - ما حدثتكموه.

ثم قال: هذا حديث حسن: وقد رواه ابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة عن أبى غالب، وأخرجه أحمد فى مسنده، عن عبد الرزاق، عن معمر، عن أبى غالب، بنحوه^(٧).

وقد روى ابن مردويه عند تفسير هذه الآية، عن أبى ذر، حديثا مطولا غريبا عجيبا جدا.

ثم قال [تعالى]^(٨): ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ أى: هذه آيات الله وحججه وبياناته ﴿تَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿بِالْحَقِّ﴾ أى: نكشف^(٩) ما الأمر عليه فى الدنيا والآخرة.

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ أى: ليس بظالم لهم بل هو الحكيم العدل الذى لا يجور؛ لأنه القادر

(٣) فى ج: «فغيركم».

(٢) زيادة من أ، و.

(١) فى ر: «لجى».

(٤) المسند (٤/١٠٢) وسنن أبى داود برقم (٤٥٩٧).

(٦) فى ر: «صبح».

(٥) فى ر: «عنه».

(٧) سنن الترمذى برقم (٣٠٠٠) وسنن ابن ماجه برقم (١٧٦).

(٩) فى ج: «ينكشف».

(٨) زيادة من أ، و.

على كل شىء، العالم بكل شىء، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحدا من خلقه؛ ولهذا قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: الجميع ملك له. ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أى: هو المتصرف فى الدنيا والآخرة، الحاكم فى الدنيا والآخرة.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أذى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ (١١١) ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ذَلِكَ بَأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)﴾.

يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم فقال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

قال البخارى: حدثنا محمد بن يوسف، عن سفيان، عن ميسرة، عن أبى حازم، عن أبى هريرة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: خير الناس للناس، تأتون^(١) بهم فى السلاسل فى أعناقهم حتى يدخلوا فى الإسلام^(٢).

وهكذا قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، والربيع بن أنس، وعطية العوفى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ يعنى: خير الناس للناس.

والمعنى: أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس؛ ولهذا قال: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ^(٣) بِاللَّهِ﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا شريك، عن سماك، عن عبد الله بن عُميرة عن زوج [ذُرَّةَ]^(٤) بنت أبى لهب، [عن دُرَّة بنت أبى لهب]^(٥)، قالت: قام رجل إلى النبى ﷺ وهو على المنبر، فقال: يا رسول الله، أى الناس خير؟ فقال: «خير الناس أقرؤهم وأتقاهم لله، وأمرهم بالمعروف، ونهاهم عن المنكر، وأوصلهم للرحم»^(٦).

ورواه أحمد فى مسنده، والنسائى فى سننه، والحاكم فى مستدركه، من حديث سماك، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، قال: هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة^(٧).

(١) فى ج، ر، أ، و: «يأتون».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٥٥٧).

(٣) فى ر: «يؤمنون».

(٤) (٥، ٤) زيادة من ج، ر، أ، والمسنند.

(٦) المسند (٤٣٢/٦).

(٧) المسند (٣١٩/١) والنسائى فى السنن الكبرى (١١٠٧٢) والمستدرک (٢٩٤/٢) وقال الحاكم: «صحيح الإسناد على شرط مسلم» ووافقه الذهبى.

والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة، كل قرن بحسبه، وخير قرونهم الذين بُعثَ فيهم^(١) رسول الله ﷺ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، أى: خياراً ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ [وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا]﴾^(٢) الآية.

وفى مسند الإمام أحمد، وجامع الترمذى، وسنن ابن ماجة، ومستدرک الحاكم، من رواية حكيم ابن معاوية بن حيدة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنْتُمْ تَوْفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا، وَأَنْتُمْ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٣).

وهو حديث مشهور، وقد حسَّنه الترمذى. ويروى من حديث معاذ بن جبل، وأبى سعيد [الخدري]^(٤)، نحوه.

وإنما حازت هذه الأمة قَصَبَ السَّبْقِ إلى الخيرات بنبيها محمد ﷺ^(٥)، فإنه أشرفُ خلق الله أكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يُعطه نبياً قبله ولا رسولا من الرسل. فالعمل [على]^(٦) منهاجه وسبيله، يقوم القليلُ منه ما لا يقوم العملُ الكثيرُ من أعمال غيرهم مقامه، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرحمن، حدثنا ابن زهير، عن عبد الله - يعنى ابن محمد بن عقال - عن محمد بن على، وهو ابن الحنفية، أنه سمع على بن أبى طالب، رضى الله عنه، يقول: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيتُ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ». فقلنا: يا رسول الله، ما هو؟ قال: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَأُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ، وَسُمِّيتُ أَحْمَدَ، وَجُعِلَ التُّرَابُ لِي طَهُورًا، وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الْأُمَمِ». تفرد به أحمد من هذا الوجه، وإسناده حسن^(٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو العلاء الحسن بن سوار، حدثنا ليث، عن معاوية عن أبى حنيس يزيد بن ميسرة قال: سمعت أم الدرداء، رضى الله عنها، تقول: سمعت أبا الدرداء يقول: سمعت أبا القاسم ﷺ، وما سمعته يكتنيه قبلها ولا بعدها، يقول^(٨): «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا عِيسَى، إِنِّي بَاعْتُ بَعْدَكَ أُمَّةً، إِنْ أَصَابَهُمْ مَا يُحِبُّونَ حَمِدُوا وَشَكَرُوا، وَإِنْ أَصَابَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ احْتَسَبُوا وَصَبَرُوا، وَلَا حِلْمَ وَلَا عِلْمَ». قال: «يَا رَبِّ، كَيْفَ هَذَا لَهُمْ، وَلَا حِلْمَ وَلَا عِلْمَ؟». قال: «أُعْطِيَهُمْ مِنْ حِلْمِي وَعِلْمِي»^(٩).

(١) فى أ: «الذى بعث فيه».

(٢) زيادة من ج، ر، أ، و.

(٣) المسند (٤٤٧/٤) وسنن الترمذى برقم (٣٠٠١) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٨٧) والمستدرک (٤٨٤/٤).

(٤) زيادة من ج.

(٥) فى و: «صلوات الله وسلامه عليه».

(٦) زيادة من ج، ر.

(٧) المسند (٩٨/١) وقال الهيثمى فى المجمع (١/٢٦٠): «فيه عبد الله بن محمد بن عقال وهو سبى الحفظ. وقال الترمذى: صدوق وقد

تكلم فيه بعض العلماء من قبل حفظه، وسمعت محمد البخارى يقول: كان أحمد بن حنبل وإسحاق والحميدى يحتجون بحديث

ابن عقال. قلت: فالحديث حسن».

(٨) فى ر: «تقول».

(٩) المسند (٤٥٠/٦).

وقد وردت أحاديثٌ يناسب^(١) ذكرها هاهنا:

قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا المسعودي، حدثنا بكير^(٢) بن الأخنس، عن رجل، عن أبي بكر الصديق، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيَ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَاسْتَزَدْتُ رَبِّي، عَزَّ وَجَلَّ، فَرَادَنِي مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعِينَ أَلْفًا». قال أبو بكر، رضى الله عنه: فرأيت أن ذلك آتٍ على أهل القرى، ومصيبٌ من حافات البوادي.^(٣)

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن بكر السهمي، حدثنا هشام بن حسان، عن القاسم بن مهران، عن موسى بن عبيد، عن ميمون بن مهران، عن عبد الرحمن بن أبي بكر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ رَبِّي أَعْطَانِي سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، بِغَيْرِ حِسَابٍ». فقال عمر: يا رسول الله، فهل استزددته؟ فقال: «استزددته فَأَعْطَانِي مَعَ كُلِّ رَجُلٍ سَبْعِينَ أَلْفًا». قال عمر: فهل استزددته؟ قال: «قَدْ اسْتَزَدْتُهُ فَأَعْطَانِي هَكَذَا». وفرج عبد الله بن بكر^(٤) بين يديه، وقال عبد الله: وبسط باعيه، وحثا^(٥) عبد الله، قال هشام: وهذا من الله لا يدرى ما عدده^(٦).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن ضَمُضِ بْنِ زُرْعَةَ قَالَ: قال شريح بن عبيد: مَرَضَ ثُوْبَانٌ بِحِمَصٍ، وعليها عبد الله بن قُرْطٍ الْأَزْدِيُّ، فلم يَعُدَّهُ، فدخل على ثوبان رجل من الكَلَّاعِينَ عَائِداً، فقال له ثوبان: [أتكتب؟] قال: نعم: فقال: اكتب، فكتب للأمير عبد الله بن قُرْطٍ، «من ثوبان»^(٧) مولى رسول الله ﷺ، أما بعد: فإنه لو كان لموسى وعيسى، عليهما السلام، بحضرتك خَادِمٌ لَعُدَّتْهُ ثم طوى الكتاب وقال له: أتبلغه إياه؟ فقال: نعم. فانطلق الرجلُ بكتابه فدفعه إلى ابن قُرْطٍ، فلما رآه قام فَرَعَا، فقال الناس: ما شأنه؟ أحدث أمر؟ فأتى ثوبان حتى دخل عليه فعاده، وجلس عنده ساعة ثم قام، فأخذ ثوبان بردائه وقال: اجلس حتى أحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ سمعته يقول: «لِيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا، لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا».

تفرد به أحمد من هذا الوجه، وإسناد رجاله كلهم ثقات شاميون حَمِصِيَّونَ^(٨)، فهو حديث صحيح^(٩)، والله الحمد.

طريق أخرى: قال الطبراني: حدثنا عمرو بن إسحاق بن زُبَيْرِ بْنِ الْحَمَّصِيِّ، حدثنا محمد بن

(١) في ر: «تناسب».

(٢) في ج: «بكر».

(٣) المسند (٦/١) وقال الهيثمي في المجمع (٤١٠/١): «فيه المسعودي وقد اختلط وتابعه لم يسم، وبقي رجال أحمد رجال الصحيح».

(٤) في ج، ر، أ، أ: «عبد الله بن أبي بكر» (٥) في ج، ر: «حي».

(٦) المسند (١٩٧/١) وفي إسناده القاسم بن مهران وموسى بن عبيد وهما مجهولان، وبقي رجاله رجال الصحيح.

(٧) زيادة من ج، ر، والمسند.

(٨) في ر: «ضمضميون».

(٩) المسند (٥/٢٨٠).

إسماعيل - يعنى ابن عيَّاش - حدثنا أبى، عن ضَمَضَم بن زُرْعَة، عن شُرَيْح بن عبيد، عن أبى أسماء الرَحْبَى، عن ثوبان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ رَبِّى، عَزَّ وَجَلَّ، وَعَدَنِى مِنْ أُمَّتِى سَبْعِينَ أَلْفًا لَا يُحَاسِبُون، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا».

هذا لعله هو المحفوظ بزيادة أبى أسماء الرحبى، بين شريح وبين ثوبان^(١)، والله أعلم.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة، عن الحسن، عن عمران بن حصين، عن ابن مسعود قال: أكثرنا الحديث عند رسول الله ﷺ ذات ليلة، ثم غدونا إليه فقال: «عُرِضَتْ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ اللَّيْلَةُ بِأَمَمِهَا، فَجَعَلَ النَّبِيُّ يَمُرُّ وَمَعَهُ الثَّلَاثَةُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الْعَصَابَةُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ النَّفَرُ، وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى مَرَّ عَلَى مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَام، وَمَعَهُ كِبْكَبَةٌ مِنْ بَنَى إِسْرَائِيلَ، فَأَعْجَبُونِى، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فَقِيلَ: هَذَا أَخُوكَ مُوسَى، مَعَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ». قال: «فَقُلْتُ: فَأَيْنَ أُمَّتِى؟ فَقِيلَ: انْظُرْ عَنْ يَمِينِكَ. فَتَنَظَرْتُ فَإِذَا الظَّرَابُ^(٢) قَدْ سُدَّ بَوْجُوهُ الرِّجَالِ ثُمَّ قِيلَ لى: انْظُرْ عَنْ يَسَارِكَ. فَتَنَظَرْتُ، فَإِذَا الْأَفُقُ قَدْ سُدَّ بَوْجُوهُ الرِّجَالِ» فَقِيلَ لى: قَدْ رَضِيتَ؟ فَقُلْتُ^(٣): «رَضِيتُ يَا رَبِّ، [رَضِيتُ يَا رَبِّ]^(٤)». قال: «فَقِيلَ لى: إِنَّ مَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ». فقال النبى ﷺ: «فَدَاكُمْ أبى وأُمى، إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفًا فَافْعَلُوا فَإِنْ قَصَرْتُمْ فَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الظَّرَابِ^(٥)»، فَإِنْ قَصَرْتُمْ فَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْأَفُقِ، فَإِنِّى قَدْ رَأَيْتُ ثُمَّ أَنَا سَا يَتَهَاوِشُونَ». فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله يا رسول الله أن يجعلنى منهم. أى من السبعين، فدعا له. فقام رجل آخر فقال: ادع الله يا رسول الله أن يجعلنى منهم فقال: «قَدْ سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ». قال: ثم تحدثنا فقلنا: لِمَنْ^(٦) تُرَوْنَ هَؤُلَاءِ السَّبْعِينَ أَلْفًا؟ قوم ولدوا فى الإسلام لم يُشْرِكُوا بالله شيئا حتى ماتوا. فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَكْتَوُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»^(٧).

هكذا رواه أحمد بهذا السند وهذا السياق، ورواه أيضا عن عبد الصمد، عن هشام، عن قتادة، بإسناده مثله، وزاد بعد قوله: «رَضِيتُ يَا رَبِّ رَضِيتُ يَا رَبِّ» قال^(٨): رَضِيتَ؟ قُلْتُ: «نَعَمْ». قال: انْظُرْ عَنْ يَسَارِكَ قال: «فَتَنَظَرْتُ فَإِذَا الْأَفُقُ قَدْ سُدَّ بَوْجُوهُ الرِّجَالِ». فقال: رَضِيتَ؟ قُلْتُ: «رَضِيتُ». وهذا إسناد صحيح من هذا الوجه، تفرد به أحمد ولم يخرجوه^(٩).

حديث آخر: قال أحمد بن منيع: حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز، حدثنا حماد، عن عاصم، عن

(١) المعجم الكبير (٩٢/٢) ورواه أيضا فى مسند الشاميين رقم (١٦٨٢).

(٢) فى ج، ر: «الضراب» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه من المسند (٤٠١/١).

(٣) فى ج، ر: «قلت».

(٤) زيادة من ر، أ، والمسند.

(٥) فى ج، ر، أ، و: «من».

(٦) فى ر: «الضراب» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه من المسند (٤٠١/١).

(٧) المسند (٤٠١/١).

(٨) فى ج: «فقال».

(٩) المسند (٤٢٠/١).

زر، عن ابن مسعود قال النبى ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَى الْأُمَمِ بِالْمُؤَسِمِ فَرَأَتْ (١) عَلَى أُمَّتِي، ثُمَّ رَأَيْتُهُمْ فَأَعْجَبَنِي كَثَرَتُهُمْ وَهَيَأَتُهُمْ، قَدْ مَلَّوْا السَّهْلَ وَالْجَبَلَ»، فَقَالَ: أَرْضَيْتَ يَا مُحَمَّدٌ؟ فَقُلْتُ: «نَعَمْ». قَالَ: فَإِنَّ مَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَهُمْ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَكْتُونُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. فقام عكاشة بن محصن فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلنى منهم فقال: «أَنْتَ مِنْهُمْ». فقام رجل آخر فقال: [ادعُ الله أن يجعلنى منهم فقال] (٢): «سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ». رواه الحافظ الضياء المقدسى، قال: هذا عندى على شرط مسلم (٣).

حديث آخر: قال الطبرانى: حدثنا محمد بن محمد الجذوى القاضى، حدثنا عتبة بن مكرم. حدثنا محمد بن أبى عدى عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين، عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «يَدْخُلُ (٤) الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ». قيل: من هم؟ قال: «هُمْ الَّذِينَ لَا يَكْتُونُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». رواه مسلم من طريق هشام بن حسان، وعنده ذكر عكاشة (٥).

حديث آخر: ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِينَ مِنْ رِوَايَةِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ حَدَّثَهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمَرَةٌ وَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا، تُضَيَّءُ وَجُوهُهُمْ إِضَاءَةُ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ». فقال (٦) أبو هريرة: فقام عكاشة بن محصن الأسدى يرفع نمرَةً عليه فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلنى منهم. فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ». ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلنى منهم فقال: «سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ» (٧).

حديث آخر: قال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا يحيى بن عثمان، حدثنا سعيد بن أبى مريم، حدثنا أبو (٨) غسان، عن أبى حازم، عن سهل بن سعد؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لِيَدْخُلَنَّ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا - أَوْ سَبْعُمِائَةِ أَلْفٍ - آخِذٌ بَعْضُهُمْ بَبَعْضٍ، حَتَّى يَدْخُلَ أَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمُ الْجَنَّةَ، وَوَجُوهُهُمْ (٩) عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ».

أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ جَمِيعًا، عَنْ قُتَيْبَةَ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ سَهْلٍ، بِهِ (١٠).

(١) فى ج، ر، أ: «فرايت».

(٢) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٦٤٦) «موارد» وأبو يعلى فى مسنده (٢٣٣/٩) والبزار فى مسنده (٢٠٤/٤) كلهم من طريق حماد عن عاصم به.

(٤) فى ج: «يدخلون».

(٥) المعجم الكبير (١٨٣/١٨) وصحيح مسلم برقم (٢١٦).

(٦) فى ج، ر، أ، و: «قال».

(٧) صحيح البخارى برقم (٦٥٤٢) وصحيح مسلم برقم (٢١٦).

(٨) فى ج: «ابن».

(٩) فى أ، و: «وجوهم».

(١٠) المعجم الكبير (١٤٢/٦) وصحيح البخارى برقم (٦٥٥٤) وصحيح مسلم برقم (٢١٩).

حديث آخر: قال مسلم بن الحجاج في صحيحه: حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا هُشَيْمٌ، أخبرنا حُصَيْنٌ بن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبْرِ فقال: أيُّكم رأى الكوكب الذى انقَضَ البارحة؟ قلتُ: أنا. ثم قلتُ: أما إنى لم أكن في صلاة، ولكنى لدَغْتُ. قال: فما صنعت؟ قلتُ: استرقيْتُ. قال: فما حملك على ذلك؟ قلتُ: حديثُ حدَّثناه الشعبي. قال: وما حدثكم الشعبي؟ قلتُ: حدَّثنا عن بُريْدَةَ بن الحُصَيْب الأسلمى أنه قال: لا رُقِيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أو حُمَةٍ. فقال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابنُ عباس عن النبي ﷺ قال: «عُرِضَتْ عَلَى الْأُمَمِ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهِيْطُ^(١)، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ. فَتَظَرْتُ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ الْآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَلَا عَذَابٍ». ثم نهَضَ فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صَحَبُوا رسولَ الله ﷺ. وقال بعضهم: فلعلهم الذين وَلِدُوا في الإسلام فلم يُشْرِكُوا بالله شيئاً، وذكرُوا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ؟» فأخبروه، فقال: «هُمْ الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم قال: «أَنْتَ مِنْهُمْ». ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: «سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ».

وأخرجه البخارى عن أُسَيْدِ بن زيد، عن هُشَيْمٍ وليس عنده، «لا يرقون»^(٢).

حديث آخر: قال أحمد: حدثنا رَوْحُ بن عباد. حدثنا ابن جُرَيْج، أخبرني أبو الزُّبَيْر، أنه سمع جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ، فذكر حديثاً، وفيه: «فَتَنْجُو أَوَّلُ زُمْرَةٍ وَجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ سَبْعُونَ أَلْفًا، لَا يُحَاسِبُونَ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، كَأَصْوَابِ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ كَذَلِكَ». وذكر بقيته، رواه مسلم من حديث رَوْحٍ، غير أنه لم يذكر النبي ﷺ^(٣).

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر بن أبي عاصم في كتاب السنن له: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا إسماعيل بن عيَّاش، عن محمد بن زياد، سمعت أبا أمامة الباهلي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ. وَثَلَاثُ حَيَّاتٍ مِنْ حَيَّاتِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ».

وكذا رواه الطبراني من طريق هشام بن عمار، عن إسماعيل بن عيَّاش، به، وهذا إسناد جيد^(٤).

طريق أخرى عن أبي أمامة: قال ابن أبي عاصم: حدثنا دُحَيْمٌ، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا

(١) في ج، ر: «الرهط».

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٢٠) وصحيح البخارى برقم (٥٧٥٢، ٣٤١٠، ٥٧٠٥، ٦٥٤١، ٦٤٧٢).

(٣) المسند (٢٨٣/٣).

(٤) السنة لابن أبي عاصم برقم (٥٨٩) والمعجم الكبير (١٢٩/٨).

صفوان بن عمرو، عن سليم بن عامر، عن أبي اليمان الهوزني^(١) - واسمه عامر بن عبد الله بن لُحَيٍّ، عن أبي أمامة، عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ وَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ». قال يزيد بن الأخنس: والله ما أولئك في أمتك يا رسول الله إلا مثل الذباب^(٢) الأصهب في الذباب. قال رسول الله ﷺ: «فَإِنَّ اللَّهَ وَعَدَنِي سَبْعِينَ أَلْفًا، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، وَزَادَنِي ثَلَاثَ حَيَّاتٍ».

وهذا أيضاً إسناد حسن^(٣).

حديث آخر: قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن خليد، حدثنا أبو توبة، حدثنا معاوية^(٤) ابن سلام، عن زيد بن سلام أنه سمع أبا سلام يقول: حدثني عامر بن زيد البكالي أنه سمع عتبة بن عبد السلمي، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، ثُمَّ يَشْفَعُ كُلُّ أَلْفٍ لِسَبْعِينَ أَلْفًا، ثُمَّ يَحْثِي رَبِّي، عَزَّ وَجَلَّ، بِكَفِّهِ ثَلَاثَ حَيَّاتٍ». فكير^(٥) عمر وقال: إن السبعين الأول يشفعهم الله في آبائهم وأبنائهم وعشائهم، وأرجو أن يجعلني الله في إحدى الحيات الأواخر.

قال الحافظ الضياء المقدسي في كتابه صفة الجنة: لا أعلم لهذا الإسناد علة. والله أعلم^(٦).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا هشام - يعني الدستوائي - حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن هلال بن أبي ميمونة، حدثنا عطاء بن يسار أن رفاعة الجهنّي حدثه قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بالكديد - أو قال بقديد - فذكر حديثاً، وفيه: ثم قال: «وَعَدَنِي رَبِّي، عَزَّ وَجَلَّ، أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَلَّا يَدْخُلُوهَا حَتَّى تَبُوءُوا أَنْتُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَذُرِّيَّاتِكُمْ مَسَاكِينَ فِي الْجَنَّةِ».

قال الضياء [المقدسي]^(٧): وهذا عندي على شرط مسلم^(٨).

حديث آخر: قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن، قتادة، عن النضر بن أنس، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي أَرْبَعَمِائَةِ أَلْفٍ». قال أبو بكر: زدنا يا رسول الله. قال: والله هكذا^(٩). فقال عمر: حسبك يا أبا بكر. فقال أبو بكر: دعني، وما عليك أن يدخلنا الله الجنة كلنا^(١٠). فقال عمر: إن شاء الله أدخل خلقه الجنة بكف واحد. فقال النبي ﷺ: «صَدَقَ عُمَرُ».

(٢) في ر: «الدنان».

(١) في ج، ر: «الهودي».

(٣) السنة لابن أبي عاصم برقم (٥٨٨).

(٥) في ر: «وكبير».

(٤) في و: «أبو معاوية».

(٦) المعجم الكبير (١٧/١٢٦، ١٢٧) ورواه الطبراني أيضاً في المعجم الأوسط (١/٢٥٤) بهذا الإسناد. وقال الهيثمي في المجمع

(١٠/٤١٣): «وفيه عامر بن زيد البكالي، وقد ذكره ابن أبي حاتم ولم يجرحه ولم يوثقه، وبقيه رجاله ثقات».

(٧) زيادة من و.

(٨) المسند (٤/١٦).

(٩) في و: «قال: وهكذا. وجمع بين يديه، قال: زدنا يا رسول الله، قال: وهكذا».

(١٠) في أ: «كلنا بكف واحد».

هذا الحديث بهذا الإسناد انفراد^(١) به عبد الرزاق^(٢)، قاله الضياء. وقد رواه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني:

حدثنا محمد بن أحمد بن مخلد، حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدي، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا أبو هلال، عن قتادة، عن أنس عن النبي ﷺ قال: «وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي مِائَةَ أَلْفٍ». فقال أبو بكر: يا رسول الله، زدنا قال: «وهكذا» - وأشار سليمان بن حرب بيده كذلك - قلت^(٣): يا رسول الله، زدنا. فقال عمر: إن الله قادر أن يدخل الناس الجنة بحَفَنَةٍ واحدة. فقال رسول الله ﷺ: «صَدَقَ عُمَرُ».

هذا حديث غريب من هذا الوجه وأبو هلال اسمه: محمد بن سُلَيْم الراسبي، بصري^(٤).

طريق أخرى عن أنس: قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا عبد القاهر بن السُرِّي السلمي، حدثنا حميد، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا». قالوا: زدنا يا رسول الله. قال: لِكُلِّ رَجُلٍ سَبْعُونَ أَلْفًا قالوا: زدنا - وكان^(٥) على كتيب - فقال: هكذا، وحثا بيده. قالوا: يا رسول الله، أبعد الله من دخل النار بعد هذا، وهذا إسناد جيد، رجاله ثقات، ما عدا عبد القاهر بن السري، وقد سئل عنه ابن معين، فقال: صالح^(٦).

حديث آخر: روى الطبراني من حديث قتادة، عن أبي بكر بن أنس، عن أبي بكر بن عُمَيْر عن أبيه؛ أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ وَعَدَنِي أَنْ يَدْخُلَ مِنْ أُمَّتِي ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ الْجَنَّةَ». فقال عمير: يا رسول الله، زدنا. فقال هكذا بيده. فقال عمير يا رسول الله، زدنا. فقال عمر: حسبك، إن الله إن شاء أدخل الناس الجنة بِحَفَنَةٍ - أو بِحِثْيَةٍ - واحدة. فقال نبي الله ﷺ: «صَدَقَ عُمَرُ»^(٧).

حديث آخر: قال الطبراني: حدثنا أحمد بن خُلَيْد، حدثنا أبو تَوْبَةَ، حدثنا معاوية بن سلام، عن زيد بن سلام أنه سمع أبا سلام يقول: حدثني عبد الله بن عامر، أن قيسا الكندي حَدَّثَ أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ^(٨) الْأَنْمَارِيَّ حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ رَبِّي وَعَدَنِي أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَيَشْفَعُ كُلُّ أَلْفٍ لِسَبْعِينَ»^(٩) أَلْفًا، ثُمَّ يَحْتِى رَبِّي ثَلَاثَ حَيَّاتٍ بِكَفِّهِ. كذا قال قيس، فقلت لأبي سعيد: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، بأذني، ووعاه قلبي. قال أبو سعيد: فقال - يعني رسول الله ﷺ -: «وَذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، يَسْتَوْعِبُ مُهَاجِرِي أُمَّتِي، وَيُؤَفِّيَ اللَّهُ بِقِيَّتِهِ مِنْ أَعْرَابِنَا».

وقد روى هذا الحديث محمد بن سهل بن عسكر، عن أبي تَوْبَةَ الرِّبْعِ بن نافع بإسناده، مثله.

(١) في ج، ر: «تفرد».

(٢) المصنف لعبد الرزاق برقم (٢٠٥٥٦) ورواه من طريقه أحمد في المسند (١٦٥/٣) وابن أبي عاصم في السنة برقم (٥٩٠).

(٣) في أ: «فقال» وفي و: «قال».

(٤) الحلية لأبي نعيم (٣٤٤/٢) ورواه أحمد في مسنده (١٩٣/٣) من طريق أبي هلال عن قتادة به.

(٥) في ر: «وكانوا».

(٦) مسند أبي يعلى (٤١٧/٦).

(٧) المعجم الأوسط (٢٥٧/١) وقال الهيثمي في المجمع (٤٠٩/١٠): «رجاله ثقات».

(٨) في ج: «سعد».

(٩) في أ، و: «لكل ألف سبعين».

وزاد: قال أبو سعيد: فحسب ذلك عند رسول الله ﷺ، فبلغ أربعمائة ألف ألف وتسعين^(١) ألف ألف.

حديث آخر: قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا هاشم بن مرثد الطبراني، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثني أبي، حدثني ضَمُضَم بن زُرْعَة، عن شَرِيح بن عبيد، عن أبي مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أَمَّا الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لِيُبْعَثَنَّ مِنْكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْجَنَّةِ مِثْلَ اللَّيْلِ الْأَسْوَدِ، زُمْرَةٌ جَمِيعُهَا يَخْطُونَ الْأَرْضَ، تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: لِمَ جَاءَ مَعَ مُحَمَّدٍ أَكْثَرُ مِمَّا جَاءَ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ؟». وهذا إسناد حسن^(٢).

نوع آخر من الأحاديث الدالة على فضيلة هذه الأمة وشرفها بكرامتها^(٣) على الله، وأنها خير الأمم في الدنيا والآخرة:

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا ابن جُرَيْج، أخبرني أبو الزبير، عن جابر^(٤)، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ مَنْ يَتَّبِعُنِي مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ رُبْعَ الْجَنَّةِ». قال: فكبرنا. ثم قال: «أَرْجُو أَنْ يَكُونُوا^(٥) ثُلُثَ النَّاسِ». قال: فكبرنا. ثم قال: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا الشَّطْرَ». وهكذا رواه عن رَوْح، عن ابن جُرَيْج، به. وهو على شرط مسلم^(٦).

وثبت في الصحيحين من حديث أبي إسحاق السَّيِّعِي، عن عَمْرُو بن ميمون، عن عبد الله بن مسعود قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «أَمَّا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» فكبرنا. ثم قال: «أَمَّا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» فكبرنا. ثم قال: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ^(٧)».

طريق أخرى عن ابن مسعود: قال الطبراني: حدثنا أحمد بن القاسم بن مساور، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثني الحارث بن حَصِيرَة، حدثني القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ أَنْتُمْ وَرُبْعُ الْجَنَّةِ لَكُمْ وَلِسَائِرِ النَّاسِ ثَلَاثَةٌ أَرْبَاعُهَا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «كَيْفَ أَنْتُمْ وَثُلُثُهَا؟» قالوا: ذاك أكثر. قال: «كَيْفَ أَنْتُمْ وَالشَّطْرُ لَكُمْ؟» قالوا: ذاك أكثر. فقال رسول الله ﷺ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةٌ صَفٌّ، لَكُمْ مِنْهَا^(٨) ثَمَانُونَ صَفًّا».

قال الطبراني: تفرد به الحارث بن حَصِيرَة^(٩).

(١) في أ: «سبعمائة»، وفي و: «تسعمائة».

(٢) المعجم الكبير (٢٩٧/٣) وقال الهيثمي في المجمع (٤٠٤/١٠): «وفيه محمد بن إسماعيل بن عياش وهو ضعيف».

(٣) في أ، و: «وكرامتها». (٤) في و: «أنه سمع جابرا». (٥) في ج: «تكونوا».

(٦) قال الهيثمي في المجمع (٤٠٢/١٠): «رواه أحمد والبخاري والطبراني في الأوسط، ورجال البزار رجال الصحيح وكذا أحد أسانيد أحمد».

(٧) صحيح البخاري برقم (٦٥٢٨، ٦٦٤٢) وصحيح مسلم برقم (٢٢١).

(٨) في أ: «فيها».

(٩) المعجم الكبير (٢٠٨/١٠) ورواه أحمد في مسنده (٤٥٣/١) من طريق عفان عن عبد الواحد بن زياد به. قال الهيثمي في المجمع

(٤٠٣/١٠): «رجالهم رجال الصحيح غير الحارث بن حَصِيرَة وقد وثق».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا ضرار ابن مرة أبو سنّان الشيباني، عن محارب بن دثار، عن ابن بريدة، عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «أهل الجنة عشرون ومائة صف، هذه الأمة من ذلك ثمانون صفًا».

وكذلك^(١) رواه عن عفان، عن عبد العزيز، به. وأخرجه الترمذي من حديث أبي سنّان، به وقال: هذا حديث حسن. ورواه ابن ماجة من حديث سفيان الثوري، عن علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه، به^(٢).

حديث آخر: روى الطبراني من حديث سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، حدثنا خالد بن يزيد البجلي، حدثنا سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عن جده، عن رسول الله ﷺ قال: «أهل الجنة عشرون ومائة صف، ثمانون منها من أمتي».

تفرد به خالد بن يزيد البجلي، وقد تكلم فيه ابن عدي^(٣).

حديث آخر: قال الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا موسى بن غيلان، حدثنا هاشم^(٤) بن مخلد، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن سفيان، عن أبي عمرو، عن أبيه عن أبي هريرة قال: لما نزلت ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ. وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٣٨، ٣٩] قال رسول الله ﷺ: «أنتم ربع أهل الجنة، أنتم ثلث أهل الجنة، أنتم نصف أهل الجنة، أنتم ثلثا أهل الجنة»^(٥).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ أَوَّلُ النَّاسِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، بَيِّدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، وَأُوتِيَانَهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَهَدَانَا اللَّهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَهَذَا الْيَوْمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ، النَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، غَدًا لِلْيَهُودِ [و] لِلنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ».

رواه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن طاوس، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، عن النبي ﷺ مرفوعا بنحوه^(٦). ورواه مسلم أيضا عن طريق الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ». وذكر تمام الحديث^(٧).

حديث آخر: روى الدارقطني في الأفراد من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الزهري،

(١) في أ: «وكذا».

(٢) المسند (٥/٣٥٥، ٣٤٧) وسنن الترمذي برقم (٢٥٤٦) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٨٩).

(٣) المعجم الكبير (١٠/٣٤٨) ورواه ابن عدي في الكامل (٣/١٣) وقال: «أحاديثه كلها لا يتابع عليها لا إسنادا ولا متنا، ولم أر للمتقدمين فيه قولاً، بل غفلوا عنه وهو عندى ضعيف».

(٤) في ج: «هشام».

(٥) ورواه أبو نعيم في الحلية من طريق الطبراني به (٧/١٠١) ونقل عن الطبراني قوله: «تفرد برفعه ابن المبارك عن الثوري. وأبو عمرو اسمه محمد والد أسباط بن محمد الكوفي القرشي».

(٦) زيادة من ج، ر.

(٧) صحيح البخاري برقم (٨٩٦، ٣٤٨٦، ٣٤٨٧) ومسلم برقم (٨٥٥).

(٨) صحيح مسلم برقم (٨٥٥).

عن سعيد بن المسيّب، عن عمر بن الخطاب، عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْجَنَّةَ حُرِّمَتْ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ حَتَّى أَدْخُلَهَا، وَحُرِّمَتْ عَلَى الْأُمَمِ حَتَّى تَدْخُلَهَا»^(١) أمتي.

ثم قال: تفرد به ابن عقيل، عن الزهري، ولم يرو عنه سواه. وتفرد به زهير بن محمد، عن ابن عقيل، وتفرد به عمرو بن أبي سلمة، عن زهير.

وقد رواه أبو أحمد بن عديّ الحافظ فقال: حدثنا أحمد بن الحسين بن إسحاق، حدثنا أبو بكر الأعين محمد بن أبي عتّاب، حدثنا أبو حفص التّيسّي - يعني عمرو بن أبي سلمة - حدثنا صدقة الدمشقي. عن زهير بن محمد، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الزهري.

ورواه الثعلبي: حدثنا أبو العباس المخلدي، أخبرنا أبو نعيم عبد الملك بن محمد، أخبرنا أحمد ابن عيسى التّيسّي، حدثنا عمرو بن أبي سلمة، حدثنا صدقة بن عبد الله، عن زهير بن محمد، عن ابن عقيل، به^(٢).

فهذه الأحاديث في معنى قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا الشّاء عليهم والمدح لهم، كما قال قتادة: بَلَعْنَا أَنْ عَمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ [رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]^(٣) فِي حُجَّةٍ حُجَّهَا رَأَى مِنَ النَّاسِ سُرْعَةً^(٤)، فقرأ هذه الآية: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، ثم قال: مَنْ سَرَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ تِلْكَ الْأُمَّةِ فَلْيُؤَدِّ شَرْطَ اللَّهِ فِيهَا. رواه ابن جرير.

ومن^(٥) لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله: ﴿كَانُوا لَا يَتَّاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾^(٦) [المائدة: ٧٩]. ولهذا لما مدح [الله]^(٧) تعالى هذه الأمة على هذه الصفات شرع في ذم أهل الكتاب وتأنيبهم، فقال: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ أي: بما أنزل على محمد ﷺ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: قليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم، وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان.

ثم قال تعالى مخبراً عباده المؤمنين ومبشراً لهم أن النصر والظفر لهم على أهل الكتاب الكفرة الملحدين، فقال: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ الْأُدْبَارُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾. وهكذا وقع، فإنهم يوم خيبر أذلهم الله وأرغم أنافهم^(٨)، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة بنى قَيْنَقَاعَ وَبَنَى النَّضِيرَ وَبَنَى قُرَيْظَةَ^(٩)، كلهم أذلهم الله، وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة في غير ما موطن، وسلبوهم مُلْكَ الشَّامِ أَبَدَ الْأَبْدِينَ ودهر الداهرين، ولا تزال عِصَابَةُ الْإِسْلَامِ قَائِمَةً بِالشَّامِ حَتَّى يَنْزِلَ

(١) في ج: «يدخلها».

(٢) أطراف الغرائب والأفراد (ق ٢١) لابن القيسراني، والكمال لابن عدي (١٢٩/٤) ورواه البغوي في تفسيره (٩١/٢) من طريق الثعلبي. ونقل ابن أبي حاتم في العلل (٢٢٧/٢) عن أبي زرعة: «هذا الحديث منكر لا أدري كيف هو».

(٣) زيادة من ج، أ. (٤) في ج، ر: «توعل».

(٥) في أ: «من».

(٦) زيادة من ج، أ، و، وفي هـ: «الآية».

(٧) زيادة من ج، ر، أ.

(٨) في و: «أنوفهم».

(٩) في ر: «بنو النضير وبنو قريظة».

عيسى ابن مريم [عليه السلام] ^(١) وهم كذلك، ويحكم، عليه السلام ^(٢) بشرع محمد ^(٣)، عليه أفضل الصلاة والسلام ^(٤)، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام.

ثم قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُخَفُّوْا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ أى: ألزمهم الله الذلة ^(٥) والصغار أينما كانوا فلا يأمنون ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أى: بذمة من الله، وهو عقد الذمة لهم وضرب الجزية عليهم، وإلزامهم أحكام الملة ﴿وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ أى: أمان منهم ولهم، كما فى المهادن والمعاهد والأسير إذا أمته واحد ^(٦) من المسلمين ولو امرأة، وكذا عبد، على أحد قولى العلماء.

قال ابن عباس: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ أى: بعهد من الله وعهد من الناس، [و] ^(٧) هكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، والضحاك، والحسن، وقتادة، والسدى، والربيع بن أنس.

وقوله: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أى: ألزموا فالتزموا بغضب من الله، وهم يستحقونه ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾ أى: ألزموها ^(٨) قدراً وشرعاً. ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، أى: وإنما حملهم على ذلك الكبر والبغى والحسد، فأعقبتهم ذلك الذلة والصغار والمسكنة أبداً، متصلاً بذلة الآخرة، ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أى: إنما حملهم على الكفر بآيات الله وقتل رسل الله وقبضوا لذلك أنهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله، عز وجل، والغشيان لمعاصى الله، والاعتداء فى شرع الله، فعياً بالله من ذلك، والله المستعان.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبو داود الطيالسى، حدثنا شعبة، عن سليمان الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي معمر الأزدي، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، قال: كانت بنو إسرائيل تقتل فى اليوم ثلاثمائة نبي، ثم يقوم سوق بقلهم آخر النهار.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) ﴿

(١) زيادة من أ.

(٢) فى ج: «عيسى ابن مريم عليه السلام ويحكم بشرع محمد»، وفى ر: «عيسى ابن مريم وهو كذلك ويحكم عليه السلام بشرع محمد».

(٣) فى ج، ر، أ، و: «أحد».

(٤) فى و: «المذلة».

(٥) فى ج، أ: «الذلة».

(٦) فى و: «بذل».

(٧) فى و: «الزموها».

(٨) زيادة من و.

قال ابن أبي نجيح: زعم الحسن بن يزيد^(١) العجلي، عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾، قال^(٢): لا يستوى أهل الكتاب وأمة محمد ﷺ.

وهكذا قال السدي، ويؤيد هذا القول الحديث الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده.

حدثنا أبو النضر وحسن بن موسى قالوا: حدثنا شيبان، عن عاصم، عن زر، عن ابن مسعود قال: أخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة: فقال: «أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْأَدْيَانِ أَحَدٌ يَذْكُرُ اللَّهَ هَذِهِ السَّاعَةَ غَيْرَكُمْ». قال: وأنزلت هذه الآيات: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ [أُمَّةٌ قَائِمَةٌ]﴾^(٣) إلى قوله^(٤): ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾^(٥).

والمشهور عن^(٦) كثير من المفسرين - كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره، ورواه العوفي عن ابن عباس - أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وغيرهم، أي: لا يستوى من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب [وهؤلاء الذين أسلموا، ولهذا قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾] أي: ليسوا^(٧) كلهم على حد سواء، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم، ولهذا قال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ [أُمَّةٌ قَائِمَةٌ]﴾، أي: قائمة بأمر الله، مطيعة لشرعه^(٩)، متبعة نبي الله، [فهي]^(١٠) قائمة يعني مستقيمة ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي: يقومون الليل، ويكثرون التهجد، ويتلون القرآن في صلواتهم^(١١) ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. وهؤلاء هم المذكورون في آخر السورة: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ [لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ]﴾^(١٢) [الآية ١٩٩] وهكذا قال هاهنا: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ أي: لا يضيع عند الله بل يجزيكم به أوفر الجزاء. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ أي: لا يخفى عليه عمل عامل، ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملا.

ثم قال تعالى مخبراً عن الكفرة المشركين بأنه ﴿لَن تَغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي لا يرد عنهم بأس الله ولا عذابه إذا أراده بهم ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ثم ضرب مثلاً لما ينفقه الكفار في هذه الدار، قاله مجاهد والحسن، والسدي، فقال تعالى:

(١) في أ، و: «ابن أبي يزيد». (٢) في أ، و: «يقول». (٣) زيادة من ج، ر، أ، و.

(٤) في ج، ر، أ، و: «حتى بلغ».

(٥) المسند (٣٩٦/١).

(٦) في أ، و: «عند».

(٧) في أ: «ليس».

(٨) زيادة من ج.

(١١) في أ: «صلاتهم».

(١٠) زيادة من ج، أ، و.

(٩) في ج، ر، أ، و: «الشرع الله».

(١٢) زيادة من ج، ر، أ، و، وفي الأصل: «الآية».

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ أى: برْد شديد، قاله ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبّير وقتادة والحسن، والضّحّاك، والرّبيع بن أنس، وغيرهم. وقال عطاء: برْد وجليد. وعن ابن عباس أيضاً ومجاهد ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ أى: نار. وهو يرجع إلى الأول، فإن البرد الشديد - سيّما^(١) الجليد^(٢) - يحرق الزروع والثمار، كما يحرق الشيء بالنار ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكْتَهُ﴾ أى: أحرقتة، يعنى بذلك السّفعة إذا نزلت على حَرْث قد آن جدّاه أو حصّاده فدمرته وأعدمت ما فيه من ثمر أو زرع، فذهبت به وأفسدته، فعدمه صاحبه أحوج ما كان إليه. فكذلك الكفار يحرق الله ثواب أعمالهم فى هذه الدنيا وثمرتها كما أذهب ثمرة هذا الحرث بذنوب صاحبه. وكذلك هؤلاء بنوها على غير أصل وعلى غير أساس ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَآ أَنتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)﴾.

يقول تبارك وتعالى ناهياً عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة، أى: يُطلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم، والمنافقون بجهدهم وطاقته لا يألون المؤمنين خبّالاً، أى: يَسْعُونَ فى مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن، وبما يستطيعونه من المكر والخديعة، ويودون ما يُعنتُ المؤمنين ويخرجهم ويشقّ عليهم.

وقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ أى: من غيركم من أهل الأديان، وبطانة الرجل: هم خاصّة أهله الذين يطلعون على داخله أمره.

وقد روى البخارى، والنسائى، وغيرهما، من حديث جماعة، منهم: يونس، ويحيى بن سعيد، وموسى بن عقبة، وابن أبى عتيق - عن الزهرى، عن أبى سلمة، عن أبى سعيد؛ أن رسول الله ﷺ قال: «مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إِلَّا كَانَتْ لَهُ بَطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالسُّوءِ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ، وَالْمَعْصُومُ مَن عَصَمَ اللَّهُ»^(٣).

وقد رواه الأوزاعى ومعاوية بن سلام، عن الزهرى، عن أبى سلمة [عن أبى هريرة مرفوعاً بنحوه]^(٤). فيحتمل أنه عند الزهرى عن أبى سلمة^(٥) عنهما. وأخرجه النسائى عن الزهرى

(١) فى و: «لا سيما».

(٢) فى ج، ر، أ: «والجليد».

(٣) صحيح البخارى برقم (٦٦١١، ٧١٩٨) والنسائى فى الكبرى برقم (٨٧٥٥).

(٤) فى أ: «نحوه».

(٥) زيادة من جـ.

أيضاً^(١). وعلقه البخارى فى صحيحه فقال: وقال عبيد الله بن أبى جعفر، عن صفوان بن سليم، عن أبى سلمة، عن أبى أيوب الأنصارى، فذكره. فيحتمل أنه عند أبى سلمة عن ثلاثة من الصحابة^(٢)، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو أيوب محمد^(٣) بن الوزان، حدثنا عيسى بن يونس، عن أبى حيان التيمى عن أبى الزُّبَّاع، عن ابن أبى الدَّهَّاقَة قال: قيل لعمر بن الخطاب، رضى الله عنه: إن هاهنا غلاماً من أهل الحيرة، حافظ كاتب، فلو اتخذته كاتباً؟ قال: قد اتخذت إذا بطانة من دون المؤمنين^(٤).

ففى هذا الأثر مع هذه الآية دلالة على أن أهل الذمّة لا يجوز استعمالهم فى الكتابة، التى فيها استطالة على المسلمين وإطّلاع على دَوَآخِلِ أُمُورِهِم التى يُخْشَى أن يُفْشَوْهَا إلى الأعداء من أهل الحرب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيَنَّكُمْ خَبَالًا مَّوَدُّوًا مَا عَنِتُّمْ﴾.

وقد قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا إسحاق بن إسرائيل، حدثنا هشيم، حدثنا العوّام، عن الأزهري ابن راشد قال: كانوا يأتون أنساً، فإذا حدّثهم بحديث لا يدرون ما هو، أتوا الحسن - يعنى البصرى - فيفسره^(٥) لهم. قال: فحدّث ذات يوم عن النبى ﷺ أنه قال: «لَا تَسْتَضِيؤُوا بَنَارَ الْمُشْرِكِينَ، وَلَا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبِيًّا»^(٦). فلم يدروا ما هو، فاتوا الحسن فقالوا له: إن أنسا حدّثنا أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَسْتَضِيؤُوا بَنَارَ الشُّرْكَ»^(٨) وَلَا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبِيًّا»^(٩). فقال الحسن: أما قوله: «لَا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبِيًّا»^(١٠): محمد ﷺ. وأما قوله: «لَا تَسْتَضِيؤُوا بَنَارَ الشُّرْكَ» يقول: لا تستشيروا المشركين فى أموركم. ثم قال الحسن: تصديق ذلك فى كتاب الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ﴾.

هكذا رواه الحافظ أبو يعلى، رحمه الله، وقد^(١١) رواه النسائى عن مجاهد بن موسى، عن هشيم. ورواه الإمام أحمد، عن هشيم بإسناده مثله، من غير ذكر تفسير الحسن البصرى^(١٢).

وهذا التفسير فيه نظر، ومعناه ظاهر: «لَا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبِيًّا»^(١٣) أى: بخط عربى، لثلاث يشابه نقش خاتم النبى ﷺ، فإنه كان نقشه محمد رسول الله؛ ولهذا جاء فى الحديث الصحيح أنه

(١) النسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٧٥٦) من طريق معاوية بن سلام عن الزهرى به .

(٢) صحيح البخارى برقم (٧١٩٨) ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٧٥٧).

(٣) فى أ، و: «بن محمد»

(٤) تفسير ابن أبى حاتم (٥٥٠ / ٢) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (٦٥٨ / ٨) من طريق أبى حيان التيمى به ورواه عبد بن حميد فى تفسيره كما فى الدر (٣٠٠ / ٢).

(٥) فى ر: «غريباً».

(٦) فى جـ: «ليفسره».

(٧) فى أ، و: «إن أنسا حدّثنا بحديث ما ندرى ما هو قال: ومحدثكم أنس، قالوا: حدثنا أن رسول الله».

(٨) فى أ: «المشركين».

(٩) فى ر: «غريباً».

(١٠) فى أ: «قد».

(١١) فى أ: «قد».

(١٢) رواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٩٣٧٥) والطبرى فى تفسيره (١٤٢ / ٧) من طريق هشيم بسياق أبى يعلى به، ورواه أحمد فى مسنده (٩٩ / ٣) والنسائى فى السنن (١٧٦ / ٨) من غير ذكر تفسير الحسن البصرى.

(١٣) فى ر: «غريباً».

نهى أن يَنْقُشَ أحد على نقشه . وأما الاستضاءة بنار المشركين، فمعناه: لا تقاربوهم فى المنازل بحيث تكونون^(١) معهم فى بلادهم، بل تَبَاعِدُوا منهم وَهَاجِرُوا من بلادهم؛ ولهذا روى أبو داود [رحمه الله]^(٢): «لَا تَتَرَاءَى نَارَاهُمَا» وفى الحديث الآخر: «مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ أَوْ سَكَنَ مَعَهُ، فَهُوَ مِثْلُهُ»؛ فَحَمَلُ الحديث على ما قاله الحسن، رحمه الله، والاستشهاد عليه بالآية فيه نظر، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾، أى: قد لاح على صَفَحَاتِ وجوههم، وفلتت ألسنتهم من العداوة، مع ما هم مشتملون عليه فى صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله، ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل؛ ولهذا قال: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أى: أنتم - أيها المؤمنون - تحبون المنافقين مما يظهرون لكم من الإيمان، فتحبونهم على ذلك وهم لا يحبونكم، لا باطنا ولا ظاهرا^(٣) ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أى: ليس عندكم فى شىء منه شك ولا ريب، وهم عندهم الشك والريب والحيرة.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أى: بكتابكم وكتابهم، وبما مضى من الكتب قبل ذلك، وهم يكفرون بكتابكم، فأنتم أحق بالبغضاء لهم، منهم لكم. رواه ابن جرير. ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ والأنامل: أطراف الأصابع، قاله قتادة.

وقال الشاعر:

أودُّ^(٤) كما ما بلّ حلقى ريقتى وما حملت كفاى أنملى العِشرا^(٥)

وقال ابن مسعود، والسدّى، والربيع بن أنس: ﴿الْأَنَامِلُ﴾: الأصابع.

سر وهذا شأن المنافقين يُظهرون للمؤمنين الإيمان والموءة، وهم فى الباطن بخلاف ذلك من كل وجه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ وذلك أشد الغيظ والحق، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويغيطكم ذلك منهم، فاعلموا أن الله متمّ نعمته على عباده المؤمنين ومكمل دينه، ومعل كلمته ومظهر دينه، فموتوا أنتم بغيطكم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: هو عليم بما تنطوى عليه ضمائركم، وتكنه سرائركم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين، وهو مجازيكم عليه فى الدنيا بأن يريكم خلاف ما تؤملون، وفى الآخرة بالعذاب الشديد فى النار التى أنتم خالدون فيها، فلا خروج لكم منها.

ثم قال: ﴿إِنْ تَمَسَّسْكُمُ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمُ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾. وهذه الحال دالة^(٦) على شدة

(١) فى أ، و: «تكونوا».

(٢) زيادة من أ.

(٣) فى ج، ر، أ، و: «لا ظاهرا ولا باطنا».

(٤) فى أ: «أريد».

(٥) البيت فى تفسير الطبرى (٤/٤٣).

(٦) فى ج، ر، أ، و: «وهذا الحال دال».

العداوة منهم للمؤمنين وهو أنه^(١) إذا أصاب المؤمنين خصب، ونصر وتأيد، وكثروا وعزّ أنصارهم، ساء ذلك المنافقين، وإن أصاب المسلمين سئة^(٢) - أى: جذب - أو أدبيل عليهم الأعداء، لما لله فى ذلك من الحكمة، كما جرى يوم أُحُد، فرح المنافقون بذلك، قال الله تعالى مخاطباً عباده المؤمنين: ﴿وَأِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً [إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ]﴾^(٣)، يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكَيْدِ الْفُجَّارِ، باستعمال الصبر والتقوى، والتوكل على الله الذى هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. ولا يقع فى الوجود شيء إلا بتقديره ومشئته، ومن توكل عليه كفاه.

ثم شرع تعالى فى ذكر قصة أُحُد، وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين، وبيان صبر الصابرين، فقال تعالى:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣)﴾.

المراد بهذه الواقعة يوم أُحُد عند الجمهور، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسُّدِّى، وغير واحد. وعن الحسن البصرى: المراد بذلك يوم الأحزاب. رواه ابن جرير، وهو غريب لا يُعَوَّل^(٤) عليه.

وكانت وقعة أُحُد يوم السبت من شوال سنة ثلاث من الهجرة. قال [قتادة]^(٥): لإحدى عشرة ليلة خَلَّتْ من شَوَّال. وقال عِكْرِمَةُ: يوم السبت للنصف من شوال، فالله أعلم.

وكان سببها أن المشركين حين قُتل من قتل من أشرافهم يوم بَدْر، وسَلَمَتِ الْعِيرُ بما فيها من التجارة التى كانت مع أبى سَفْيَانَ، فلما رجع قَفْلُهُمْ^(٦) إلى مكة قال أبناء من قُتل، ورؤساء من بقى لأبى سَفْيَانَ: ارصد هذه الأموال لقتال محمد، فأنفقوها فى ذلك، وجمعوا الجموع والأحابيش وأقبلوا فى قريب من ثلاثة آلاف، حتى نزلوا قريباً من أحد تَلْقَاءِ الْمَدِينَةِ، فصلى رسولُ الله ﷺ يوم الجمعة، فلما فَرَّغَ مِنْهَا صَلَّى عَلَى رَجُلٍ مِنْ بَنَى النِّجَارِ، يُقَالُ لَهُ: مَالِكُ بْنُ عَمْرٍو، واستشار^(٧) الناس: أَيْخِرُجْ إِلَيْهِمْ أَمْ يَمْكُثُ بِالْمَدِينَةِ؟ فأشار عبد الله بن أبى بالمقام بالمدينة، فإن أقاموا أقاموا بشرٍّ مَحْبَسٍ^(٨)، وإن دخلوها قاتلهم الرجال فى وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين. وأشار آخرون من الصحابة ممن لم يشهد بدراً بالخروج إليهم، فدخل رسول الله ﷺ فلبس لَأَمَّتَهُ وَخَرَجَ عَلَيْهِمْ، وقد ندم بعضهم وقالوا: لعلنا استكرهنا رسولُ الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إن شئت أن نمكث؟ فقال رسول الله ﷺ: «مَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ إِذَا لَبَسَ لَأَمَّتَهُ أَنْ يَرْجِعَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ لَهُ».

(١) فى ج، ر، أ، و: «أنهم». (٢) فى أ، و: «المؤمنين سيئة إمام». (٣) زيادة من ج، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٤) فى ر: «نقول».

(٥) زيادة من ج.

(٦) فى أ، و: «كلهم».

(٧) فى ج، ر، أ: «مجلس».

(٨) فى ج، أ: «فاستشار».

فسار، عليه السلام^(١)، في ألف من أصحابه، فلما كان بالشَّوْط رجع عبد الله بن أبيّ في ثلث الجيش مُغْضَبًا؛ لكونه لم يرجع إلى قوله، وقال هو وأصحابه: لو نعلم اليوم قتالاً لاتبعناكم، ولكننا لا نراكم تقاتلون اليوم.

واستمر رسول الله ﷺ سائرا حتى نزل الشَّعْب من أحد في عَدْوَةِ الوادى. وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال: «لَا يُقَاتِلَنَّ أَحَدٌ حَتَّى نَأْمُرَهُ بِالْقِتَالِ».

وتهيأ رسول الله ﷺ للقتال وهو في سبعمائة من أصحابه، وأمر على الرماة عبد الله بن جُبَيْر أخا بنى عَمْرٍو بن عوف، والرماة يومئذ خمسون رجلا، فقال لهم: «انْضَحُوا الْخَيْلَ عَنَّا، وَلَا نُؤْتِيَنَّ مِنْ قِبَلِكُمْ. وَالزَّمُوا مَكَانَكُمْ إِنْ كَانَتِ النَّوْبَةُ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطِفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ».

وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين، وأعطى اللواء مُصْعَب بن عُمَيْر أخا بنى عبد الدار. وأجاز رسول الله ﷺ بعض الغلمان يومئذ وأرجأ آخرين، حتى أمضاهم يوم الخندق بعد هذا اليوم بقرب من سنتين.

وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف، ومعهم مائتا فرس قد جَبَّوْها^(٢)، فجعلوا على مِئْمَنَةِ الْخَيْل خالدا بن الوليد: وعلى الميسرة عِكْرِمَةُ بن أبي جهل، ودفعوا إلى بنى عبد الدار اللواء. ثم كان بين الفريقين ما سيأتى تفصيله فى مواضعه عند هذه الآيات، إن شاء الله تعالى.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾^(٣) أى: بين لهم منازلهم وجعلهم^(٤) مِئْمَنَةً وَمِيسِرَةً وحيث أمرتهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٥) أى: سميع لما تقولون، عليم بضمائرهم.

وقد أورد ابن جرير هاهنا سؤالا، حاصله: كيف يقولون: إن النبي ﷺ سار^(٦) إلى أحد يوم الجمعة بعد الصلاة، وقد قال الله [تعالى]^(٧): ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾؟ ثم كان جوابه عنه: أن غدوه لبيوئهم^(٨) مقاعد، إنما كان يوم السبت أول النهار.

وقوله: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا [وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ]﴾^(٩)، قال البخارى: حدثنا على بن عبد الله، حدثنا سفيان قال: قال عمرو: سمعت جابر بن عبد الله يقول: فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا [وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ]﴾^(١٠) قال: نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة، وما نحب - وقال سفيان مرة: وما يسرنى - أنها لم تنزل، لقول^(١١) الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾.

(١) فى أ: ﷺ.

(٢) فى ج، أ، و: «تنزلهم منازلهم وتجعلهم»، وفى ر: «ينزلهم منازلهم ويجعلهم».

(٣) فى أ، و: «خرج».

(٤) زيادة من ج، ر.

(٥) زيادة من ج، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٦) فى ج: «تبوئهم».

(٧) زيادة من ج، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٨) زيادة من ج، وفى ر: «والله وليهما»، وفى هـ: «الآية».

وكذا رواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة^(١)، به. وكذا قال غير واحد من السلف: إنهم بنو حارثة وبنو سلمة.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: يوم بدر، وكان في جمعة^(٢)، وافق السابع عشر من رمضان، من سنة اثنتين^(٣) من الهجرة، وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله، ودمغ فيه الشرك وخرب محله، [هذا]^(٤) مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فيهم فرسان وسبعون بعيراً، والباقيون مشاة، ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه، وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد والبيض، والعدة^(٥) الكاملة والخيول المسومة والحلى^(٦) الزائد، فأعز الله رسوله، وأظهر وحيه وتنزيله، وبيّض وجه النبي وقبيله، وأخزى الشيطان وجيله^(٧). ولهذا قال تعالى - مُمْتَنًا على عباده المؤمنين وحزبه المتقين: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أي: قليل عددكم ليعلموا^(٨) أن النصر إنما هو من عند الله، لا بكثرة العدد والعدد؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾. ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ. ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ^(٩) غَفُورٌ رَحِيمٌ [التوبة: ٢٥ - ٢٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن سَمَاق قال: سمعت عياض الأشعري قال: شهدت أَلِيرْمُوكَ وعلينا خمسة أمراء: أبو عبيدة، ويزيد بن أبي سفيان، وابن حَسَنَةَ، وخالد بن الوليد، وعياض - وليس عياض هذا^(١٠) الذي حدث سماكا - قال: وقال عمر، رضى الله عنه: إذا كان قتال فعليكم أبو عبيدة. قال: فكتبنا إليه^(١١): إنه قد جاش إلينا الموت، واستمددناه، فكتب إلينا: إنه قد جاءني كتابكم تَسْتَمِدُّونَنِي^(١٢)، وإنني أدلكم على من هو أعز نصرًا، وأحصن جندًا: الله عز وجل، فاستنصره، فإن محمداً ﷺ قد نُصِرَ يومَ بدر في أقل من عدتكم، فإذا جاءكم كتابي فقاتلوهم ولا تراجعوني. قال^(١٣): فقاتلناهم فهزمناهم أربعة^(١٤) فراسخ، قال: وأصبنا أموالاً، فتشاورنا، فأشار علينا عياض أن نُعْطِيَ عن كل ذي رأس عشرة. قال: وقال أبو عبيدة: من يراهنني؟ فقال شاب: أنا، إن لم تَغْضَبْ. قال: فسبقه، فرأيت عَقِصَتِي أَبِي عُبَيْدَةَ تَنْقُزَان وهو خلفه على فرس عُرَى^(١٥).

وهذا إسناد صحيح^(١٦). وقد أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث بُنْدَار، عن غُنْدَر،

(١) صحيح البخارى برقم (٤٠٥١، ٤٥٥٨) وصحيح مسلم برقم (٢٥٠٥).

(٢) فى أ و: «فى يوم جمعة».

(٣) فى ج: «اثنتين».

(٤) زيادة من أ، و.

(٥) فى أ: «والعدد».

(٦) فى ج، ر: «الخيلاء».

(٧) فى أ، و: «وأحزن الشيطان وخيله».

(٨) فى أ، و: «لتعلموا».

(٩) زيادة من ج، ر، أ، و، وفى الأصل: «إلى».

(١٠) فى ج: «هذا هو الذى».

(١١) فى أ: «له».

(١٢) فى ر: «تستمدونى».

(١٣) فى أ: «قالت».

(١٤) فى ج، ر: «أربع».

(١٥) فى أ، و: «عربى».

(١٦) المسند (٤٩/١) وصحيح ابن حبان (١٣١/٧) «الإحسان». وقال الهيثمى فى المجمع (٢١٣/٦): «رجاله رجال الصحيح».

بنحوه، واختاره الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه.

وبَدَرٌ مَحَلَّةٌ بين مكة والمدينة، تُعرف ببئرها، منسوبة إلى رجل حفرها يقال له: «بدر بن النارين». قال الشعبي: بدر بئر لرجل يسمى بدرًا.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ أى: تقومون بطاعته.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدَدُكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشْرًا لَّكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩)﴾.

اختلف المفسرون فى هذا الوعد: هل كان يوم بدر أو يوم أحد؟ على قولين:

أحدهما: أن قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾. وروى هذا عن الحسن البصرى، وعامر الشعبى، والربيع بن أنس، وغيرهم. واختاره ابن جرير. قال عباد بن منصور، عن الحسن فى قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ﴾، قال: هذا يوم بدر. رواه ابن أبى حاتم، ثم قال:

حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا وهيب عن داود، عن عامر - يعنى الشعبى - أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كُرِّزَ بن جابر يُمِدُّ المشركين، فشق ذلك عليهم، فأنزل الله: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾. قال: فبلغت كُرْرًا الهزيمة، فلم يمد المشركين ولم يمد الله المسلمين بالخمسة.

وقال الربيع بن أنس: أمد الله المسلمين بألف، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف.

فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية - على هذا القول - وبين قوله تعالى فى قصة بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ﴾ [وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشْرًا لَّكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ] ^(١) [إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] [الأنفال: ٩، ١٠]؟ فالجواب: أن التنصيص على الألف هاهنا لا ينافى الثلاثة الآلاف فما فوقها، لقوله: ﴿مُرَدِّينَ﴾، بمعنى يردفهم غيرهم ويتبعهم ألوفاً آخر مثلهم. وهذا السياق شبيه بهذا السياق فى سورة آل عمران. فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر، والله أعلم، قال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة: أمد الله المؤمنين يوم بدر بخمسة آلاف.

(١) زيادة من ج، ر، أ، و، وفى هـ: «إلى قوله».

القول الثانى: أن هذا الوعد متعلق^(١) بقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾، وذلك يوم أحد. وهو قول مجاهد، وعكرمة، والضحاك، والزهرى، وموسى بن عقبة وغيرهم. لكن قالوا: لم يحصل الإمداد بالخمس الآلاف؛ لأن المسلمين فروا يومئذ - زاد عكرمة: ولا بالثلاثة الآلاف؛ لقوله: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾، فلم يصبروا، بل فروا، فلم يمدوا بملك واحد.

وقوله: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾، يعنى: تصبروا على مصابرة عدوكم وتتقونى وتطيعوا أمرى.

وقوله: ﴿وَيَأْتِيَكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا﴾، قال الحسن، وقتادة، والربيع، والسدى: أى من وجههم هذا. وقال مجاهد، وعكرمة، وأبو صالح: أى من غضبهم هذا. وقال الضحاك: من غضبهم ووجههم. وقال العوفى عن ابن عباس: من سفرهم هذا. ويقال: من غضبهم هذا.

وقوله: ﴿يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ أى: معلمين بالسِّمَاءِ.

وقال أبو إسحاق السبيعى، عن حارثة بن مضرب، عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، قال: كان سيماء الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض، وكان سيماهم أيضا فى نواصى خيلهم^(٢).

رواه ابن أبى حاتم، ثم قال: حدثنا أبو زرعة، حدثنا هذبة بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة فى هذه الآية: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ قال: بالعين الأحمر.

وقال مجاهد: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ أى: مُحَدِّقَةٌ أَعْرَافَهَا، مُعَلِّمَةٌ نَوَاصِيهَا بِالصَّوْفِ الْأَبْيَضِ فى أَذْنَابِ الْخَيْلِ.

وقال العوفى، عن ابن عباس، قال: أتت الملائكة محمدا ﷺ مُسَوِّمِينَ بِالصَّوْفِ، فَسَوَّمَ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ أَنْفُسَهُمْ وَخَيْلَهُمْ عَلَى سِيمَاهُمْ بِالصَّوْفِ.

وقال عكرمة وقتادة ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ أى: بسيماء القتال، وقال مكحول: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ بالعمائم.

وروى ابن مردويه، من حديث عبد القدوس بن حبيب، عن عطاء بن أبى رباح، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ فى قوله: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ قال: «مُعَلِّمِينَ». وكان^(٣) سيماء الملائكة يوم بدر عمائم سود، ويوم حنين عمائم حمراء.

وروى من حديث حصين بن مخارق، عن سعيد، عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس قال: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر.

وقال ابن إسحاق: حَدَّثَنِى مَنْ لَا أَتُهُمْ، عَنْ مِقْسَمٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ^(٤) سِيمَاءُ الْمَلَائِكَةِ يَوْمَ بَدْرٍ عِمَائِمٌ بَيْضٌ قَدْ أُرْسِلُوها فى ظُهُورِهِمْ، وَيَوْمَ حَنْزِئٍ عِمَائِمٌ حُمْرًا. ولم تضرب الملائكة فى يوم سوى يوم بدر، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عددًا ومددًا لا يضربون.

ثم رواه عن الحسن بن عمار، عن الحكم، عن مقسم عن ابن عباس، فذكر نحوه.

(١) فى أ: «يتعلق».

(٢) فى أ، و: «خيولهم».

(٣) فى أ، و: «وكانت».

(٤) فى أ، و: «كانت».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الأحمسي^(١)، حدثنا وكيع، حدثنا هشام بن عروة، عن يحيى بن عباد: أن الزبير [بن العوام]^(٢)، رضى الله عنه، كان عليه يوم بدر عمامة صفراء مُعْتَجِرًا بها، فنزلت الملائكة عليهم عمام صُفْرَ.

رواه ابن مردويه من طريق هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير، فذكره.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ أى: وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالها إلا بشارة لكم وتطيبيا لقلوبكم وتطمينا، وإلا فإنما النصر من عند الله، الذى لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ . وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ - ٦]. ولهذا قال هاهنا: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أى: هو ذو العزة التى لا تُرام، والحكمة فى قدره والإحكام.

ثم قال^(٣) تعالى: ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: أمركم بالجهاد والجلاد، لما له فى ذلك من الحكمة فى كل تقدير، ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة فى الكفار المجاهدين. فقال: ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ أى: ليهلك أمة ﴿مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَبُهُمُ﴾ أى: يخرجهم ويردهم بغيظهم لما لم ينالوا منكم ما أرادوا؛ ولهذا قال: ﴿أَوْ يَكْتَبُهُمُ فَيَنْقَلِبُوا﴾ أى: يرجعوا ﴿خَائِبِينَ﴾ أى: لم يحصلوا على ما أملوا. ثم اعترض بجملة دلت على أن الحكم فى الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له، فقال: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أى: بل الأمر كله إلى، كما قال: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]. وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَن أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

قال محمد بن إسحاق فى قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أى: ليس لك من الحكم شىء فى عبادى إلا ما أمرتك به فيهم.

ثم ذكر تعالى بقية الأقسام فقال: ﴿أَوْ يُتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أى: بما هم فيه من الكفر ويهديهم بعد الضلالة ﴿أَوْ يُعَذِّبُهُمْ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أى: يستحقون ذلك.

وقال البخارى: حدثنا حبان بن موسى، أخبرنا عبد الله، أخبرنا معمر، عن الزهري، حدثنى سالم، عن أبيه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول، إذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الثانية من الفجر^(٤):

(٣) فى ج: «وقال».

(٢) زيادة من ج.

(١) فى ر: «الأحمسي».

(٤) فى ج، ر، أ: «من الفجر يقول».

«اللَّهُمَّ الْعَنَ فُلَانًا وَفُلَانًا» بعد ما يقول: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ» فأنزل الله تعالى: ^(١) ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ^(٢).

وهكذا رواه النسائى، من حديث عبد الله بن المبارك وعبد الرزاق، كلاهما، عن معمر ^(٣)، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا أبو عقيل - قال أحمد: وهو عبد الله بن عقيل، صالح الحديث ثقة - قال: حدثنا عمر بن حمزة، عن سالم، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم العن فلانا، اللهم العن الحارث بن هشام، اللهم العن سهيل بن عمرو، اللهم العن صفوان بن أمية». فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾، فتب عليهم كلهم ^(٤).

وقال أحمد: حدثنا أبو معاوية الغلابى، حدثنا خالد بن الحارث، حدثنا محمد بن عجلان، عن نافع، عن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ كان يدعو على أربعة قال: فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ^(٥)، قال: وهداهم الله للإسلام ^(٦).

وقال محمد بن عجلان، عن نافع، عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ يدعو على رجال من المشركين يُسميهم بأسمائهم، حتى أنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية.

وقال البخارى أيضاً: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، وأبي سلمة بن ^(٧) عبد الرحمن، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد - أو يدعو لأحد - قَتَّ بعد الركوع، وربما قال - إذا قال: «سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد -: «اللَّهُمَّ انج الوليد بن الوليد، وسلِّمَ بن هشام، وعيَّاش بن أبي ربيعة، والمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، واجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ». يجهر بذلك، وكان يقول - فى بعض صلاته فى صلاة الفجر - : «اللهم العن فلانا وفلانا» لأحياء من أحياء العرب، حتى أنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية ^(٨).

وقال البخارى: قال حميد وثابت، عن أنس بن مالك: شُجَّ النَّبِيُّ ﷺ يوم أُحُد، فقال: «كَيْفَ يَفْلَحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟». فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾. وقد أسند هذا الذى علَّقه البخارى رحمه الله ^(٩).

وقال البخارى: فى غزوة أُحُد: حدثنا يحيى بن عبد الله السلمى، حدثنا عبد الله - أخبرنا معمر،

(١) فى أ: «عز وجل» . (٢) زيادة من ج، ر، وفى هـ: «الآية» .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٠٦٩، ٤٥٥٩، ٧٣٤٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٠٧٥).

(٤) المسند (٩٣/٢).

(٥) زيادة من ج، ر، أ، و، وفى هـ: «إلى آخر الآية» .

(٦) المسند (١٠٤/٢).

(٧) فى ج، ر: «عن» .

(٨) صحيح البخارى برقم (٤٥٦٠).

(٩) صحيح البخارى (٣٦٥/٧) «فتح»، وسيأتى حديث حميد موصولا عن أحمد. أما حديث ثابت فقد وصله مسلم برقم (١٧٩١).

عن الزهري، حَدَّثَنِي سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ - إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ، فِي الرُّكْعَةِ الْآخِرَةِ مِنَ الْفَجْرِ - : «اللَّهُمَّ الْعَنِ فُلَانًا وَفُلَانًا وَفُلَانًا» بَعْدَ مَا يَقُولُ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾] ^(١).

وعن حنظلة بن أبي سفيان قال: سمعت سالم بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ] ^(٢) فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ^(٣).

هكذا ذكر هذه الزيادة البخاري معلقة مرسله مسندة متصلة في مسند أحمد متصلة أنفا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، حدثنا حميد، عن أنس، رضى الله عنه أن النبي ﷺ كُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَشَجَّ فِي جَبْهَتِهِ حَتَّى سَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ، فَقَالَ: «كَيْفَ يَفْلَحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا بَنِيَّهِمْ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ، عَزَّ وَجَلَّ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

انفرد به مسلم، فرواه ^(٤) [عن] ^(٥) القعنبي، عن حماد، عن ثابت، عن أنس، فذكره ^(٦).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا الحسين بن واقد، عن مطر، عن قتادة قال: أصيب النبي ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَكُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ، وَفُرِقَ حَاجِبُهُ، فَوَقَعَ وَعَلَيْهِ دِرْعَانُ وَالدَّمُ يَسِيلُ، فَمَرَّ بِهِ سَالِمُ بْنُ مَوْلَى أَبِي حَذِيفَةَ، فَأَجْلَسَهُ وَمَسَحَ عَنْ وَجْهِهِ، فَأَفَاقَ وَهُوَ يَقُولُ: «كَيْفَ يَقُومُ فَعَلُوا هَذَا بَنِيَّهِمْ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ؟» فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ] ^(٧).

وكذا رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، بنحوه، ولم يقل: فأفاق ^(٨).

ثم قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: الجميع ملك له، وأهلها عبيد بين يديه ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أى: هو المتصرف فلا مُعَقَّبَ لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، والله غفور رحيم ^(٩).

(٢) فى ج، ر: «إلى قوله».

(١) زيادة من ج، ر، وفى هـ: «الآية».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٠٦٩).

(٤) فى ج: «ورواه».

(٥) زيادة من ر.

(٦) المسند (٩٩/٣) وصحيح مسلم برقم (١٧٩١).

(٧) زيادة من ج، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٨) تفسير الطبرى (١٩٧/٧)، (١٩٨) وتفسير عبد الرزاق (١٣٥/٢).

(٩) فى أ: «لا يعجزه شيء».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٣٠)
 وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ (١٣٢)
 وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ
 يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)
 وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ
 إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتُ
 تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الربا وأكله أضعافاً مضاعفة، كما كانوا يقولون في الجاهلية - إذا حلَّ أجل الدين: إما أن يقضى وإما أن يُرْبَى، فإن قضاءه وإلا زاده في المدة وزاده الآخر في القدر، وهكذا كل عام، وربما^(١) تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفاً.

وأمر تعالى عباده بالتقوى لعلهم يفلحون في الأولى والأخرى^(٢)، ثم توعدهم بالنار وحذرهم منها، فقال: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾.

ثم ندبهم إلى المبادرة إلى فعل الخيرات والمصارعة إلى نيل القربات، فقال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أى: كما أعدت النار للكافرين. وقد قيل: إن معنى قوله: ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾: تنبيهها^(٣) على اتساع طولها، كما قال فى صفة فرش الجنة: ﴿بَطَانُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤] أى: فما ظنك بالظواهر؟ وقيل: بل عرضها كطولها؛ لأنها قبة تحت العرش، والشئ المُقَبَّب والمستدير عَرْضُهُ كطولهِ. وقد دل على ذلك ما ثبت فى الصحيح: «إذا سألتُم الله الجنة فاسألوه الفردوسَ، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة، وسَقَفُهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ»^(٤).

وهذه الآية كقوله تعالى فى سورة الحديد: ﴿وَسَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [رقم ٢١].

وقد روينا فى مسند الإمام أحمد: أن هرقل كتب إلى النبی ﷺ: إنك دَعَوْتَنِي إلى جنة عَرْضُهَا السموات والأرض، فأين النار؟ فقال النبی ﷺ: «سُبْحَانَ اللَّهِ! فأين^(٥) الليل إذا جاءَ النَّهَارُ؟»^(٦).

وقد رواه ابن جرير فقال: حدثنى يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرنى مسلم بن خالد، عن أبى

(٣) فى ر: «تنبيه».

(٢) فى أ: «الآخرة».

(١) فى ر: «وربما».

(٤) صحيح البخارى برقم (٢٧٩٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٦) فى و: «أين».

(٥) فى ج، ر: «رسول الله».

(٧) المسند (٤٤٢/٣) من حديث التنوخى. وقال الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (١٥/٥): «هذا حديث غريب تفرد به أحمد،

وإسناده لا بأس به».

خُثَيْم، عن سعيد بن أبي راشد، عن يعلى بن مرة^(١) قال: لَقِيتُ التَّنُوخِي رَسُولَ هِرْقُلَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِحِمَصٍ، شَيْخًا كَبِيرًا فَسَدَ، قَالَ: قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِكِتَابِ هِرْقُلَ، فَتَأَوَّلَ الصَّحِيفَةَ رَجُلًا عَنْ يَسَارِهِ. قَالَ: قُلْتُ: مَنْ صَاحِبُكُمْ الَّذِي يَقْرَأُ؟ قَالُوا: مُعَاوِيَةُ. فَإِذَا كِتَابُ صَاحِبِي: «إِنَّكَ كَتَبْتَ تَدْعُونِي إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، فَأَيْنَ النَّارُ؟ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سُبْحَانَ اللَّهِ! فَأَيْنَ اللَّيْلُ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ؟»^(٢).

وقال الأعمش، وسفيان الثوري، وشُعْبَةُ، عن قيس بن مسلم^(٣)، عن طارق بن شهاب، أن ناسًا من اليهود سألوا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ عَنْ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، فَأَيْنَ النَّارُ؟ فَقَالَ عُمَرُ [رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]^(٤): أَرَأَيْتُمْ إِذَا جَاءَ اللَّيْلُ أَيْنَ النَّهَارُ؟ وَإِذَا جَاءَ النَّهَارُ أَيْنَ اللَّيْلُ؟ فَقَالُوا: لَقَدْ نَزَعْتَ مَثَلَهَا مِنَ التَّوْرَةِ. رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْرٍ مِنَ الثَّلَاثَةِ الطَّرِيقِ^(٥) (٦)، ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ حَازِمٍ، حَدَّثَنَا أَبُو نَعِيمٍ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ بُرْقَانَ، أَنْبَأَنَا يَزِيدُ بْنُ الْأَصَمِ: أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ قَالَ: يَقُولُونَ: «جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ»، فَأَيْنَ النَّارُ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْنَ يَكُونُ اللَّيْلُ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ، وَأَيْنَ يَكُونُ النَّهَارُ إِذَا جَاءَ اللَّيْلُ؟^(٧).

وقد رُويَ هَذَا مَرْفُوعًا، فَقَالَ الْبَزَّازُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مَعْمَرٍ، حَدَّثَنَا الْمَغِيرَةُ بْنُ سَلَمَةَ أَبُو هِشَامٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ زِيَادٍ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَصَمِ، عَنْ عَمِّهِ يَزِيدَ بْنِ الْأَصَمِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى: «جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ» فَأَيْنَ النَّارُ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتَ اللَّيْلَ إِذَا جَاءَ لَبَسَ كُلُّ شَيْءٍ»، فَأَيْنَ النَّهَارُ؟ قَالَ: حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ. قَالَ: «وَكَذَلِكَ»^(٨) النَّارُ تَكُونُ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ^(٩).

وهذا يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون المعنى في ذلك: أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار ألا يكون في مكان، وإن كنا لا نعلمه، وكذلك النار تكون حيث يشاء الله عز وجل، وهذا^(١٠) أظهر كما تقدم في^(١١) حديث أبي هريرة، عن^(١٢) البزار.

الثاني: أن يكون المعنى: أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب، فإن الليل يكون من الجانب الآخر، فكذلك الجنة في أعلى عليين فوق السموات تحت العرش، وعرضها كما قال الله، عز وجل: «كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» [الحديد: ٢١]، والنار في أسفل سافلين. فلا تنافي بين كونها كعرض السموات والأرض، وبين وجود النار، والله أعلم.

(١) في ق «أبي مرة» وهو خطأ.

(٢) تفسير الطبري (٧/٢١١، ٢١٢).

(٣) في أ: «سلمة».

(٤) تفسير الطبري (٧/٢١١، ٢١٢).

(٥) في ج، ر، أ، و: «فقال ابن عباس: أَرَأَيْتَ إِذَا جَاءَ اللَّيْلُ أَيْنَ يَكُونُ النَّهَارُ، وَإِذَا جَاءَ النَّهَارُ أَيْنَ يَكُونُ اللَّيْلُ».

(٦) في أ: «فذلك»، وفي و: «فكذلك».

(٧) ورواه الحاكم في المستدرک (١/٣٦) من طريق محمد بن معمر عن المغيرة به. وقال: «على شرطهما ولم يخرجاه ولا أعلم له علة» ووافقه الذهبي.

(٨) في أ: «فهذا».

(٩) في أ: «من».

(١٠) في أ: «عند».

ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة، فقال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: في الشدة والرخاء، والمنشط والمكره، والصحة والمرض، وفي جميع الأحوال، كما قال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: ٢٧٤]. والمعنى: أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والإنفاق في مراضيه، والإحسان إلى خلقه من قرباتهم وغيرهم بأنواع البر.

وقوله: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أي: إذا ثار بهم الغيظ كظموه، بمعنى: كتموه فلم يعملوه، وعفوا^(١) مع ذلك عمن أساء إليهم^(٢). وقد ورد في بعض الآثار: «يقول الله تعالى: ابن آدم، اذكرني إذا غضبت، اذكرك إذا غضبت، فلا أهلكك»^(٣) فيمن أهلك^(٤) رواه ابن أبي حاتم^(٥).

وقد قال أبو يعلى في مسنده: حدثنا أبو موسى الزّمن، حدثنا عيسى بن شعيب الضّرير أبو الفضل، حدثنا^(٥) الربيع بن سليمان الجيزي^(٦)، عن أبي عمرو بن أنس بن مالك، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ «مَنْ كَفَّ غَضَبَهُ كَفَّ اللَّهُ عَنْهُ عَذَابَهُ، وَمَنْ خَزَنَ لِسَانَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ اعْتَذَرَ إِلَى اللَّهِ قَبْلَ عَذْرِهِ» [و^(٧) هذا حديث غريب، وفي إسناده نظر^(٨)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا مالك، عن الزهري، عن سعيد بن المسيّب، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «لَيْسَ الشَّدِيدُ^(٩) بِالصَّرْعَةِ، وَلَكِنَّ الشَّدِيدَ^(١٠) الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ».

وقد رواه الشيخان من حديث مالك^(١١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن الحارث بن سويد، عن عبد الله، هو ابن مسعود، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّكُمْ مَالٌ وَارِثُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟» قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه. قال: «اعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا مَالٌ وَارِثُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ مَالِكٌ مِنْ مَالِكٍ إِلَّا مَا قَدَّمْتُ، وَمَالُ وَارِثِكَ مَا أَخَّرْتُ». قال: وقال رسول الله ﷺ: «مَا تَعُدُّونَ فِيكُمْ الصَّرْعَةَ؟» قلنا: الذى لا تصرعه^(١٢) الرجال، قال: قال: «لا، ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب». قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا تَعُدُّونَ فِيكُمْ الرُّقُوبَ؟» قال: قلنا: الذى لا ولد له. قال: «لا، ولكن الرُّقُوبَ الَّذِي لَمْ^(١٤) يُقَدِّمِ مِنْ وَلَدِهِ شَيْئًا».

(١) فى أ: «وعفا».

(٢) فى أ، و: «إليه».

(٣) فى ر: «أهلك».

(٤) لم أجده فى تفسيره.

(٥) فى ج، ر: «حدثني».

(٦) فى أ، و: «النميري». وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه من الجرح والتعديل ٣/ ٤٦٤. (٧) زيادة من أ، و.

(٨) ورواه الخرائطى فى مساوى الأخلاق برقم (٣٢٩) وابن أبى عاصم فى الزهد برقم (٤٧) من طريق الربيع عن أبى عمرو مولى أنس عن أنس به. ووقع عند الخرائطى «الربيع بن مسلم» ولعله تصحيف. قال الهيثمى فى المجمع (٢٩٨/١٠): «وفيه الربيع بن سليمان الأزدي وهو ضعيف» وللحديث طريق آخر عن أنس يرويه الفضل بن العلاء عن سفيان عن حميد عن أنس به، وأخرجه الضياء المقدسى فى المختارة برقم (٢٠٦٦، ٢٠٦٧) وقال: «الفضل ذكره ابن أبى حاتم ولم يذكر فيه جرحاً». قلت: نقل ابن أبى حاتم عن أبيه (٦٥/٧): «شيخ يكتب حديثه»، وثقه ابن معين وابن المدينى.

(٩، ١٠) فى ج، ر، أ، و: «الشدة».

(١١) المسند (٢٣٦/٢) وصحيح البخارى برقم (٦١١٤) وصحيح مسلم برقم (٢٦٠٩).

(١٢) فى ج، ر: «لا».

(١٣) فى أ، و: «قال وقال».

(١٤) فى ج: «بصرعه».

أخرج البخارى الفصل الأول منه وأخرج مسلم أصل هذا الحديث من رواية الأعمش، به^(١).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت عروة بن عبد الله الجعفى يحدث عن أبى حصبة، أو ابن حصبة، عن رجل شهد النبى ﷺ يخطب فقال: «تَذَرُونَ مَا الرُّقُوبُ؟» قالوا^(٢): الذى لا ولد له. قال: «الرُّقُوبُ كُلُّ الرُّقُوبِ الَّذِى لَهُ وَكَدٌّ فَمَاتَ، وَكَمْ يُقَدِّمُ مِنْهُمْ شَيْئًا». قال: «تَذَرُونَ مَا الصُّعْلُوكُ؟» قالوا: الذى ليس له مال. قال النبى ﷺ: «الصُّعْلُوكُ كُلُّ الصُّعْلُوكِ الَّذِى لَهُ مَالٌ، فَمَاتَ وَكَمْ يُقَدِّمُ مِنْهُ شَيْئًا». قال: ثم قال النبى ﷺ: «مَا الصُّرْعَةُ؟» قالوا: الصريع. قال: فقال^(٣) ﷺ: «الصُّرْعَةُ كُلُّ الصُّرْعَةِ الَّتِى يَغْضَبُ فَيَشْتَدُّ غَضَبُهُ، وَيَحْمَرُّ وَجْهُهُ، وَيَقْشَعِرُّ شَعْرُهُ، فَيَصْرَعُ غَضَبُهُ»^(٤).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، حدثنا هشام - هو ابن عروة - عن أبيه، عن الأحنف بن قيس، عن عم له يقال له: جارية بن قدامة السعدى؛ أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، قل لى قولاً ينفعنى وأقلل علىّ، لعلى أعيه. فقال رسول الله ﷺ: «لَا تَغْضَبْ». فأعاد عليه حتى أعاد عليه مراراً، كل ذلك يقول: «لَا تَغْضَبْ».

وكذا رواه عن أبى معاوية، عن هشام، به. ورواه [أيضاً]^(٥) عن يحيى بن سعيد القطان، عن هشام، به؛ أن رجلاً قال: يا رسول الله، قل لى قولاً وأقلل علىّ لعلى أعقله. قال: «لَا تَغْضَبْ». الحديث انفرد به أحمد^(٦).

حديث آخر: قال أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهرى، عن حميد بن عبد الرحمن، عن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال: قال رجل: يا رسول الله، أوصنى. قال: «لَا تَغْضَبْ». قال الرجل: ففكرت حين قال^(٧) ﷺ ما قال، فإذا الغضب يجمع الشر كله. انفرد به أحمد^(٨).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا داود بن أبى هند عن ابن أبى حرب بن أبى الأسود، عن أبى الأسود، عن أبى ذرّ قال: كان يسقى على حوض له، فجاء قوم قالوا^(٩): أيكم يورد على أبى ذر ويحتسب شعرات من رأسه فقال رجل: أنا. فجاء الرجل فأورد عليه الحوض فدقه، وكان أبو ذر قائماً فجلس، ثم اضطجع، فقيل له: يا أبا ذر، لم جلست ثم اضطجعت؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال لنا: «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ^(١٠) ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلَّا فَلْيُضْطَجِعْ».

ورواه أبو داود، عن أحمد بن حنبل بإسناده، إلا أنه وقع فى روايته: عن أبى حرب، عن أبى

(١) المسند (٣٨٢/١) وصحيح البخارى برقم (٦٤٤٢).

(٢) فى ج، ر: «فقال النبى».

(٣) فى أ: «قال».

(٤) المسند (٣٦٧/٥) وقال الهيثمى فى المجمع (٦٩/٨): «فيه أبو حصبة أو ابن عتبة ولم أعرفه، وبقيّة رجاله ثقات».

(٥) زيادة من و.

(٦) المسند (٣٤/٥) وقال الهيثمى فى المجمع (٦٩/٨): «رجال رجال الصحيح».

(٧) فى ج، ر، أ، و: «قال النبى».

(٨) المسند (٣٧٣/٥) وقال الهيثمى فى المجمع (٦٩/٨): «رجال رجال الصحيح».

(٩) فى ج، ر: «فقالوا».

(١٠) فى ج، أ: «فإذا».

ذر، والصحيح: ابن أبي حرب، عن أبيه، عن أبي ذر، كما رواه عبد الله بن أحمد، عن أبيه^(١).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن خالد: حدثنا أبو وائل الصنعاني قال: كنا جلوساً عند عروة بن محمد إذ دخل عليه رجل، فكلّمه بكلام أغضبه، فلما أن غضب قام، ثم عاد إلينا وقد توضأ فقال: حدثني أبي، عن جدي عطية - هو ابن سعد السعدي، وقد كانت له صحبة - قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ^(٢)»، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالماءِ، فَإِذَا أُغْضِبَ^(٣) أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ».

وهكذا رواه أبو داود من حديث إبراهيم بن خالد الصنعاني، عن أبي وائل القاص^(٤) المرآدي الصنعاني: قال أبو داود: أراه عبد الله بن بحير^(٥) (٦).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا نوح بن جَعُونَةَ السُّلَمي، عن مقاتل بن حَيَّان، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً أَوْ وَضَعَ لَهُ وَقَاهُ اللَّهُ مِنْ قَيْحِ جَهَنَّمَ، أَلَا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزَنٌ بَرَبَوَةٌ - ثلاثاً - أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ وَالسَّعِيدُ مَنْ وَقَى الْفِتْنَ، وَمَنْ مِنْ جَرَعَةٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ [عَزَّ وَجَلَّ]^(٧) مِنْ جَرَعَةٍ غَيْظٍ يَكْظِمُهَا عَبْدٌ، مَا كَظَمَهَا عَبْدٌ لِلَّهِ^(٨) إِلَّا مَلَأَ^(٩) جَوْفَهُ إِيْمَانًا».

انفرد به أحمد، إسناده حسن ليس فيه^(١٠) مجروح، ومثنته حسن^(١١).

حديث آخر في معناه: قال أبو داود: حدثنا عقبه بن مكرم، حدثنا عبد الرحمن - يعني ابن مَهْدَى - عن بشر - يعني ابن منصور - عن محمد بن عَجَلان، عن سُوَيْد بن وَهْب، عن رجل من أبناء أصحاب النبي ﷺ، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ مَلَأَهُ اللَّهُ أَمْنًا وَإِيْمَانًا، وَمَنْ تَرَكَ لُبْسَ ثَوْبٍ جَمَالَ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ - قال بشر: أحسبه قال: «تَوَاضَعًا» - كَسَاهُ اللَّهُ حِلَّةَ الْكَرَامَةِ، وَمَنْ زَوَّجَ اللَّهُ كَسَاهُ اللَّهُ تَاجَ الْمُلْكِ^(١٢)».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا سعيد، حدثني أبو مَرْحُوم، عن سَهْل بن مُعَاذ بن أَنَس، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ، حَتَّى يُخِيرَهُ مِنْ أَى الْحُورِ شَاءَ».

ورواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من حديث سعيد بن أبي أيوب، به. وقال الترمذي: حسن غريب^(١٣).

(١) المسند (١٥٢/٥) وسنن أبي داود برقم (٤٧٨٢، ٤٧٨٣).

(٢) في و: «من نار». (٣) في ج، ر، أ، و: «غضب». (٤) في ج، أ: «العاص»، وفي ر: «العلص».

(٥) في ج: «جبير».

(٦) المسند (٢٢٦/٤) وسنن أبي داود برقم (٤٧٨٤).

(٧) زيادة من أ. (٨) في أ، و: «ما كظم عبد الله» (٩) في ر، أ، و: «ملا الله».

(١٠) في أ، و: «فيهم».

(١١) المسند (٣٢٧/١).

(١٢) سنن أبي داود برقم (٤٧٧٨).

(١٣) المسند (٤٤٠/٣) وسنن أبي داود برقم (٤٧٧٧) وسنن الترمذي برقم (٢٠٢١، ٢٤٩٣) وسنن ابن ماجه برقم (٤١٨٦).

حديث آخر: قال: عبد الرزاق: أخبرنا داود بن قيس، عن زيد بن أسلم، عن رجل من أهل الشام - يقال له: عبد الجليل - عن عم له، عن أبى هريرة فى قوله تعالى: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ﴾ أن النبى ﷺ قال: «من كظم غيظا، وهو يقدر على إنفاذه ملاء الله أمنا وإيمانا». رواه ابن جرير^(١).

حديث آخر: قال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن محمد بن زياد، أخبرنا يحيى بن أبى طالب، أخبرنا على بن عاصم، أخبرنى يونس بن عبيد عن الحسن، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تجرع عبد من جرعة أفضل أجرا من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله».

وكذا رواه ابن ماجه عن بشر بن عمر، عن حماد بن سلمة، عن يونس بن عبيد، به^(٢).

فقوله: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ﴾ أى: لا يعملون^(٣) غضبهم فى الناس، بل يكفون عنهم شرهم، ويحتسبون ذلك عند الله عز وجل.

ثم قال [تعالى]^(٤): ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، أى: مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم فى أنفسهم، فلا يبقى^(٥) فى أنفسهم^(٦) مودة على أحد، وهذا أكمل الأحوال، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. فهذا من مقامات الإحسان.

وفى الحديث: «ثلاث أقسم عليهن: ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، ومن تواضع لله رفعه الله»^(٧).

وروى الحاكم فى مستدركه من حديث موسى بن عتبة، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة القرشى، عن عبادة بن الصامت، عن أبى بن كعب؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من سره أن يشرف له البنيان، وترفع له الدرجات فليعف عمن ظلمه، ويعط من حرمه، ويصل من قطعه».

ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه^(٨). وقد أورده ابن مردويه من حديث على، وكعب بن عجرة، وأبى هريرة، وأم سلمة، بنحو ذلك. وروى عن^(٩) طريق الضحاك، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد يقول: أين العافون عن الناس؟ هلموا إلى ربكم، وخذوا أجوركم، وحق على كل امرئ مسلم إذا عفا أن يدخل الجنة».

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ أى:

(١) تفسير عبد الرزاق (١٣٦/١) وتفسير الطبرى (٢١٦/٧) ورواه البخارى فى التاريخ الكبير (١٢٣/٥) وقال: «عبد الجليل لا يتابع عليه».

(٢) سنن ابن ماجه برقم (٤١٨٩) ورواه أحمد فى مسنده (١٢٨/٢) من طريق على بن عاصم عن يونس بن عبيد، به.

(٣) فى ج: «أى يعلمون»، وفى ر: «أى لا يعلمون».

(٤) زيادة من ج. (٥) فى و: «تبقى». (٦) فى أ: «نفوسهم».

(٧) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٣٢٥) من حديث أبى كبشة الأثمارى.

(٨) المستدرک (٢٩٥/٢) وتعقبه الذهبى فقال: «فيه أبى أمية بن يعلى ضعفه الدارقطنى وإسحاق بن يحيى بن طلحة عن عبادة عن أبى، وإسحاق لم يدرك عبادة». ورواه الطبرانى فى الكبير (١٦٧/١) من طريق أبى أمية بن يعلى عن موسى بن عتبة، به.

(٩) فى ر، أ، و: «من».

إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار.

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا همام بن يحيى، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن عبد الرحمن بن أبي عمرة، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن رجلاً أذنب ذنباً، فقال: رب^(١)، إني أذنبت ذنباً فاغفره. فقال الله [عز وجل]^(٢): عبدى عمل ذنباً، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدى، ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب، إني عملت ذنباً فاغفره. فقال تبارك وتعالى: علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدى. ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب، إني عملت ذنباً فاغفره لى. فقال عز وجل: علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدى ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب، إني عملت ذنباً فاغفره^(٣). فقال عز وجل: عبدى علم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به، أشهدكم أنى قد غفرت لعبدى، فليعمل ما شاء^(٤). أخرجه^(٥) فى الصحيح من حديث إسحاق^(٦) بن أبي طلحة، بنحوه^(٧).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر وأبو عامر قالوا: حدثنا زهير، حدثنا سعد الطائى، حدثنا أبو المدة - مولى أم المؤمنين - سمع أبا هريرة، قلنا: يا رسول الله، إذا رأيناك رقت قلوبنا، وكنا من أهل الآخرة، وإذا فارقتك أعجبتنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد، فقال^(٨): «لو أنكم تكونون على كل حال، على الحال التى أنتم عليها عندي، لصافحتكم الملائكة بكفهم، ولزارتكم في بيوتكم، ولو لم تذبوا لجاء الله بقوم يذنبون كى يغفر لهم». قلنا: يا رسول الله، حدثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «لينة ذهب، ولينة فضة، وملأها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترباها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يباس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام وتفتح^(٩) لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين». ورواه الترمذى، وابن ماجه، من وجه آخر عن سعد، به^(١٠).

ويتأكد الوضوء وصلاة ركعتين عند التوبة، لما رواه الإمام أحمد بن حنبل :

حدثنا وكيع، حدثنا مسعر، وسفيان - هو الثورى - عن عثمان بن المغيرة الثقفى، عن على بن ربيعة، عن أسماء بن^(١١) الحكم الفزارى، عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، قال: كنت إذا

(١) فى ج: «يارب». (٢) زيادة من ج، ر، أ، و. (٣) فى ج: «فاغفره لى».

(٤) فى ج: «علم عبدى». (٥) فى ج، ر، أ، و: «أخرجاه». (٦) فى ج: «إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة».

(٧) المسند (٢٩٦/٢) وصحيح البخارى رقم (٥٧٠٧) ورواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٧٥٨) من طريق إسحاق بن عبد الله، به.

(٨) فى ج: «قال». (٩) فى ج، ر: «ويفتح».

(١٠) المسند (٣٠٤/٢)، (٣٠٥) وسنن الترمذى برقم (٣٥٩٨)، وسنن ابن ماجه برقم (١٧٥٢).

(١١) فى ر: «بنت».

سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً^(١) نفعى الله بما شاء منه، وإذا حدثني عنه [غيري استحلقتة، فإذا حلف لى صدقته، وإن أبا بكر رضى الله عنه حدثني]^(٢) وصدق أبو بكر - أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ - الوُضُوءَ - قَالَ مِسْعَرٌ: فَيُصَلِّي. وَقَالَ سَفِيَانٌ: ثُمَّ يُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ - فَيَسْتَغْفِرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا غُفِرَ لَهُ».

كذا^(٣) رواه على بن المدنى، والحميدى وأبو بكر بن أبى شيبة، وأهل السنن، وابن حبان فى صحيحه والبخارى والدارقطنى، من طرق، عن عثمان بن المغيرة، به. وقال الترمذى: هو حديث حسن^(٤). وقد ذكرنا طرقه والكلام عليه مستقصى فى مسند أبى بكر الصديق، [رضى الله عنه]^(٥)، وبالجملة فهو حديث حسن، وهو من رواية أمير المؤمنين على بن أبى طالب [رضى الله عنه]^(٦)، عن خليفة النبى ﷺ^(٧) أبى بكر الصديق، رضى الله عنهما^(٨). ومما يشهد لصحة هذا الحديث ما رواه مسلم فى صحيحه، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبَلِّغُ - أَوْ: فَيُسَبِّحُ - الوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»^(٩).

وفى الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه، أنه توضع لهم وضوء النبى ﷺ، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوءِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(١٠).

فقد ثبت هذا الحديث من رواية الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، عن سيد الأولين والآخرين ورسول رب العالمين، كما دل عليه الكتاب المبين من أن الاستغفار من الذنب ينفع العاصين.

وقد قال عبد الرزاق: أخبرنا جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: بلغنى أن إبليس حين نزلت: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية، بكى^(١١).

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا مَحْرَزُ بْنُ عَوْنٍ، حدثنا عثمان بن مطر، حدثنا عبد الغفور، عن أبى نُضَيْرَةَ عَنْ أبى رَجَاءٍ، عَنْ أبى بَكْرٍ، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «عَلَيْكُمْ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالِاسْتِغْفَارَ، فَكَثَرُوا مِنْهُمَا، فَإِنَّ إِبْلِسَ قَالَ: أَهْلَكْتُ النَّاسَ بِالذُّنُوبِ، وَأَهْلَكُونِي بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالِاسْتِغْفَارَ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ أَهْلَكْتُهُم بِالْأَهْوَاءِ، فَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ».

عثمان بن مطر وشيخه ضعيفان^(١٢).

(١) فى ج: «سمعت حديثاً من رسول الله ﷺ». (٢) زيادة من ج، والمسنند. (٣) فى ج، ر، أ، و: «وهكذا».

(٤) المسند (٢/١، ١٠) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٩٥) ومسند الحميدى برقم (٤) ومصنف ابن أبى شيبة (٣٨٧/٢) ومسند البزار برقم (٨) والعلل للدارقطنى برقم (٨) وقد توسع الدارقطنى فى الكلام عليه.

(٥، ٦) زيادة من و. (٧) زيادة من ج، أ، و.

(٨) فى أ، و: «عنه».

(٩) صحيح مسلم برقم (٢٣٤).

(١٠) صحيح البخارى برقم (١٥٩، ١٦٤، ١٩٣٤) وصحيح مسلم برقم (٢٢٦، ٢٣٢).

(١١) تفسير عبد الرزاق (١٣٧/١) وتفسير الطبرى (٧/٢٢٠) وليس فيها أنس بن مالك.

(١٢) مسند أبى يعلى (١٢٤/١) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/٢٠٧): «فيه عثمان بن مطر وهو ضعيف».

وروى الإمام أحمد في مسنده، من طريق عمرو بن أبي عمرو وأبى الهيثم العتوّري، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «قَالَ إِبْلِيسُ: يَا رَبِّ، وَعَزَّتْكَ لَا أَزَالُ أَغْوِي [عِبَادَكَ]»^(١) ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فَقَالَ اللَّهُ: وَعَزَّتِي وَجَلَالِي وَلَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي»^(٢).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المنثي، حدثنا عمر بن أبي خليفة، سمعت أبا بَدْر يحدث عن ثابت، عن أنس قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، ^(٣) أَذْنِبْتُ ذَنْبًا، فقال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَذْنِبْتَ فَاسْتَغْفِرْ رَبَّكَ». [قال: فإني أستغفر، ثم أعود فأذنب. قال ^(٤): «فَإِذَا»^(٥) أَذْنِبْتَ فَعُدْ فَاسْتَغْفِرْ رَبَّكَ]»^(٦). فقالها في الرابعة فقال: «اسْتَغْفِرْ رَبَّكَ حَتَّى يَكُونَ الشَّيْطَانُ هُوَ الْمَحْسُورُ»^(٧). وهذا حديث غريب من هذا الوجه^(٨).

وقوله: «وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ» أي: لا يغفرها أحد سواه، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا محمد بن مُصَنَّب، حدثنا سلام بن مسكين، والمبارك، عن الحسن، عن الأسود بن سريع؛ أن النبي ﷺ أتى بأسير فقال: اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد. فقال النبي ﷺ: «عَرَفَ الْحَقُّ لِأَهْلِهِ»^(٩).

وقوله: «وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ» أي: تابوا من ذنوبهم، ورجعوا إلى الله عن قريب، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها، ولو تكرّر منهم الذنب تابوا عنه، كما قال الحافظ أبو يعلى الموصلي، رحمه الله، في مسنده:

حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل وغيره قالوا: حدثنا أبو يحيى عبد الحميد الحماني، عن عثمان بن واقد عن أبي نصيرة، عن مولى لأبي بكر، عن أبي بكر، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَصْرَ مَنْ اسْتَغْفَرَ وَإِنْ عَادَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً».

ورواه أبو داود، والترمذي، والبزار في مسنده، من حديث عثمان بن واقد - وقد وثقه يحيى بن معين - به وشيخه أبو نصيرة^(١٠) الواسطي واسمه مسلم بن عبيد، وثقه الإمام أحمد وابن حبان وقول على بن المديني والترمذي: ليس إسناد هذا الحديث بذلك، فالظاهر إنما [هو]^(١١) لأجل جهالة مولى أبي بكر، ولكن جهالة مثله لا تضر؛ لأنه تابعي كبير، ويكفيه نسبه إلى [أبي بكر]^(١٢) الصديق، فهو حديث حسن^(١٣)، والله أعلم.

(١) عن المسند، وفي ج، ر، أ: «أغويهم».

(٢) المسند (٧٦/٣).

(٣) في ج، ر: «يا رسول الله إني».

(٤) في ج، ر: «فقال».

(٥) في أ، و: «إذا».

(٦) زيادة من ج، ر، ومسند البزار.

(٧) مسند البزار برقم (٣٢٤٩) «كشف الأستار».

(٨) ورواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٧٠٩٠) من طريق عمر بن أبي خليفة به. وقال الهيثمي في المجمع (٢٠١/١٠): «رواه

البزار وفيه بشارة بن الحكم الضبي ضعفه غير واحد. وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به وبقيه رجاله وثقوا».

(٩) المسند (٣٤٥/٣).

(١٠) في ج: «أبو بصيرة»، وفي ر: «أبو نصر».

(١١) زيادة من ج، ر، أ، و.

(١٢) زيادة من ج، أ.

(١٣) مسند أبي يعلى (١٢٤/١) وسنن أبي داود برقم (١٥١٤) وسنن الترمذي برقم (٣٥٥٩) ومسند البزار برقم (٩٣).

وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: قال مجاهد وعبد الله بن عبيد بن عمير: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن من تاب تاب الله عليه.

وهذا كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وكقوله^(١): ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] ونظائر هذا كثيرة جدا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد أخبرنا جرير، حدثنا حبان - هو ابن زيد الشَّرْعَبِيّ - عن عبد الله ابن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال - وهو على المنبر -: «ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يُغْفَرَ لَكُمْ، وَيَلْ لَأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيَلْ لِلْمُصْرِينَ الَّذِينَ يُصِرُونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ». تفرد به أحمد، رحمه الله^(٢).

ثم قال تعالى - بعد وصفهم بما وصفهم به -: ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ أَى: جزاؤهم على هذه الصفات مغفرة من الله^(٣) وجنات (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) أَى: من أنواع المشروبات ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَى: ماكثين فيها ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ يمدح تعالى الجنة.

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣) ﴿

يقول تعالى مخاطبا عباده^(٤) المؤمنين الذين أُصِيبُوا يَوْمَ أُحُدٍ، وَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أَى: قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء، ثم كانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين؛ ولهذا قال: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

ثم قال: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ يعني: القرآن فيه بيان للأُمُور على جليتها، وكيف كان الأُمُ القادِمون مع أعدائهم ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ﴾ يعني: القرآن فيه خَبَرٌ ما قبلكم و ﴿هُدًى﴾ لقلوبكم و ﴿مَوْعِظَةٌ﴾ أَى: زاجر [عن المحارم والمآثم]^(٥).

ثم قال مسلّيا للمؤمنين: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أَى: لا تَضَعُفُوا بسبب ما جرى ﴿وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ

(١) فى أ: «قوله».

(٢) المسند (٢/١٦٥).

(٣) فى و: «من ربهم».

(٤) فى أ: «العبادة».

(٥) زيادة من ج، ر.

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ أى: العاقبة والنصرة لكم أيها المؤمنون.

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾، أى: إن كنتم قد أصابكم جراحٌ وقتل منكم طائفةٌ، فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أى: نُدِيل عليكم الأعداء تارة، وإن كانت العاقبة لكم لما لنا فى ذلك من الحكم^(١)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال ابن عباس: فى مثل هذا لئرى، أى: من يصبر على مناجزة الأعداء ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ يعنى: يُقْتُلُونَ فى سبيله، وَيَبْذُلُونَ مُهْجَهُمْ فى مرضاته. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: يكفر عنهم من ذنوبهم، إن كان لهم ذنوب وإلا رفع لهم فى درجاتهم بحسب ما أصيبوا به، وقوله: ﴿وَيَمْحَقِ الْكَافِرِينَ﴾ أى: فإنهم إذا ظفروا بغوا وبطروا فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحقهم وفنائهم.

ثم قال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ أى: أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تُبْتَلُوا بالقتال والشدائد، كما قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَزُلْزِلُوا [حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصَرَ اللَّهِ قَرِيبًا]﴾^(٢) [البقرة: ٢١٤]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ. [وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ]﴾^(٣) [العنكبوت: ١-٣]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ أى: لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تُبْتَلُوا ويرى الله منكم المجاهدين فى سبيله والصابرين على مقارنة الأعداء.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ أى: قد كنتم - أيها المؤمنون - قبل هذا اليوم تتمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾ أى: قد كنتم - أيها المؤمنون - قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدو وتحرقون عليهم، وتودون مناجزتهم ومصابرتهم، فها قد حصل لكم الذى تمنيتموه وطلبتموه، فدونكم فقاتلوا وصابروا.

وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَمَنَّوْا^(٤) لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُّوْا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ»^(٥). ولهذا قال: ﴿قَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ يعنى: الموت شاهدتموه^(٦) فى لمعان السيوف وحد الأسنة واشتباك الرماح، وصفوف الرجال للقتال.

والتكلمون يعبرون عن هذا بالتخييل، وهو مشاهدة ما ليس بمحسوس كالمحسوس^(٧)، كما تتخيل الشاة صداقة الكبش وعداوة الذئب.

(١) فى أ: «الحكمة».

(٢) زيادة من ج، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٣) زيادة من ج، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٤) فى هـ: «تَمَنَّوْا»، والمثبت من ج، ر، ومسلم.

(٥) صحيح البخارى معلقا برقم (٣٠٢١) وصحيح مسلم برقم (١٧٤١).

(٦) فى و: «يعنى شاهدوه».

(٧) فى ج: «فى المحسوس»، وفى ر، أ، و: «من المحسوس».

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥)﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦)﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧)﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)﴾.

لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أُحُد، وقُتل من قتل منهم، نادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قُتل. ورجع ابن قميصة إلى المشركين فقال لهم: قتلت محمداً. وإنما كان قد ضرب رسول الله ﷺ، فشجّه في رأسه، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس واعتقدوا أن رسول الله قد قُتل، وجوزوا عليه ذلك، كما قد قصَّ الله عن كثير من الأنبياء، عليهم السلام، فحصل وهن وضعف وتأخر عن القتال ففى ذلك أنزل الله [عز وجل] ^(١) على رسوله ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أى: له أسوة بهم فى الرسالة وفى جواز القتل عليه.

قال ابن أبى نجیح، عن أبيه، أن رجلاً من المهاجرين مرَّ على رجل من الأنصار وهو يتشطح فى دمه، فقال له: يا فلان أشعرت أن محمداً ﷺ قد قتل؟ فقال الأنصارى: إن كان محمد ﷺ ^(٢) قد قُتل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم، فنزل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾. رواه [الحافظ أبو بكر] ^(٣) البيهقى فى دلائل النبوة ^(٤).

ثم قال تعالى منكراً على من حصل له ضعف: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ أى: رجعتم القهقرى ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ أى: الذين قاموا بطاعته وقاتلوا عن دينه، واتبعوا رسوله حياً وميتاً.

وكذلك ثبت فى الصحاح والمساند والسنن ^(٥)، وغيرها من كتب الإسلام من طرق متعددة تفيد القطع، وقد ذكرت ذلك فى مسندى الشيخين أبى بكر وعمر، رضى الله عنهما؛ أن الصديق - رضى الله عنه - تلا هذه الآية لما مات رسول الله ﷺ ^(٦).

وقال البخارى: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن عُقيل عن ابن شهاب، أخبرنى أبو سلمة؛ أن عائشة، رضى الله عنها، أخبرته أن أبا بكر، رضى الله عنه، أقبل على فرس من مسكنه بالسَّح ^(٧) حتى نَزَلَ فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيَّم رسول الله ﷺ.

(١) زيادة من و.

(٢) زيادة من ر.

(٣) زيادة من و.

(٤) (٢٤٨/٢) من طريق آدم بن أبى إياس عن ورقاء عن ابن أبى نجیح به.

(٥) فى ج، ر، أ، و: «السنن والمسانيد».

(٦) انظر: البداية والنهاية (٢١٣/٥) ودلائل النبوة للبيهقى (٧/٢١٥ - ٢١٧).

(٧) فى ر: «بالسَّح» وهو خطأ، والمثبت من البخارى (٤٤٥٢، ٤٤٥٣) وهو الصواب.

وهو مَغْشَى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه ﷺ^(١)، ثم أكب عليه وقبّله وبكى، ثم قال: بأبى أنت وأُمى. والله لا يجمع الله عليك موتتين؛ أما الموتة التي كُتبت عليك فقد مُتَّها.

وقال الزهري: وحدثني أبو سلمة عن ابن عباس، أن أبا بكر خرج وعمر يُحدث^(٢) الناس فقال: اجلس يا عمر فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد، مَنْ كَانَ يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ إلى قوله: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ قال: فوالله لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها الناس منه^(٣) كلهم، فما سمعها^(٤) بشر من الناس إلا تلاها^(٥).

وأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلنى رجلاي^(٦)، وحتى هويت إلى الأرض^(٧).

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا عمرو بن حماد بن طلحة القنّاد، حدثنا أسباط بن نصر، عن سماك بن حرب، عن عكرمة، عن ابن عباس أن عليا كان يقول في حياة رسول الله: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾، والله لا نقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله، والله لئن مات أو قتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت، والله إني لأخوه، ووليّه، وابن عمه، ووارثه فمن أحق به مني؟^(٨).

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾ أي: لا يموت أحد إلا بقدر الله، وحتى يستوفي المدة التي ضربها الله له؛ ولهذا قال: ﴿كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾، كقوله^(٩): ﴿وَمَا يَعْمَرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١]، وكقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ [الأنعام: ٢].

وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم في القتال، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه كما قال ابن أبي حاتم:

حدثنا العباس بن يزيد العبدى قال: سمعت أبا معاوية، عن الأعمش، عن حبيب بن صهبان، قال: قال رجل من المسلمين^(١٠) - وهو حُجْر بن عدى -: ما يمنعكم أن تعبروا إلى هؤلاء العدو، هذه^(١١) النقطة؟ - يعنى دجلة - ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾، ثم أقحم فرسه دجلة فلما أقحم أقحم الناس فلما رآهم العدو قالوا: دبوان، فهربوا^(١٢)(١٣).

(١) زيادة من جـ. (٢) فى جـ، ر، أ، و: «يكلم».

(٣) فى جـ، أ، و: «فتلاها منه الناس» فى ر: «فتلاها الناس منه».

(٥) فى جـ، ر، أ، و: «يتلوها». (٦) فى و: «رجلان».

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٤٥٢، ٤٤٥٣، ٤٤٥٤).

(٨) ورواه أبى حاتم فى تفسيره (٥٨١/٢) والحاكم فى المستدرک (١٢٦/٣) من طريق عمرو بن حماد بن طلحة به. قال الهيثمى فى

المجمع (١٣٤/٩): «رجال رجال الصحيح».

(٩) فى جـ: «وكقوله». (١٠) فى جـ: «للمسلمين».

(١١) فى أ، و: «وهذه».

(١٢) فى جـ: «وهربوا».

(١٣) تفسير ابن أبى حاتم (٥٨٤/٢).

وقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أى: من كان عمله للدنيا فقط نال منها ما قدره الله له، ولم يكن له فى الآخرة [من] (١) نصيب، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها مع ما قسم له فى الدنيا كما قال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا. وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩] وهكذا قال هاهنا: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ أى: سنعطيه من فضلنا ورحمتنا فى الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم.

ثم قال تعالى - مسلماً للمسلمين (٢) عما كان وقع فى نفوسهم يوم أحد -: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيبُونَ كَثِيرٌ﴾، قيل: معناه: كم من نبي قتل وقتل معه ريبون من أصحابه كثير. وهذا القول هو اختيار ابن جرير، فإنه قال: وأما الذين قرؤوا: ﴿قَاتَلَ مَعَهُ رِيبُونَ كَثِيرٌ﴾ فإنهم قالوا: إنما عنى بالقتل النبى وبعض من معه من الربيين دون جميعهم، وإنما نفى الوهن والضعف عن بقى من الربيين ممن لم يقتل.

قال: ومن قرأ ﴿قَاتَلَ﴾ فإنه اختار ذلك لأنه قال: لو قتلوا (٣) لم يكن لقوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ وجه معروف؛ لأنهم يستحيل أن يوصفوا بأنهم لم يهنوا ولم يضعفوا بعد ما قتلوا. ثم اختار قراءة من قرأ ﴿قَاتَلَ مَعَهُ رِيبُونَ كَثِيرٌ﴾؛ لأن الله [تعالى] (٤) عاتب بهذه الآيات والى (٥) قبلها من انهزم يوم أحد، وتركوا القتال أو سمعوا الصائح يصيح: «إن (٦) محمدا قد قتل». فعذله الله على فرارهم وتركهم القتال فقال لهم: ﴿أَفَأَن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ أيها المؤمنون ارتددتم عن دينكم وانقلبتم على أعقابكم؟

وقيل: وكم من نبي قتل بين يديه من أصحابه ريبون كثير (٧). وكلام ابن إسحاق فى السيرة يقتضى قولاً آخر، [فإنه] (٨) قال: أى وكأين من نبي أصابه القتل، ومعه ريبون، أى: جماعات فما وهنوا بعد نبههم، وما ضعفوا عن عدوهم، وما استكانوا لما أصابهم فى الجهاد عن الله وعن دينهم، وذلك الصبر، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾.

فجعل قوله: ﴿مَعَهُ رِيبُونَ كَثِيرٌ﴾ حالاً، وقد نصر هذا القول السهلى وبالغ فيه، وله اتجاه لقوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ﴾ الآية، وكذلك حكاه الأموى فى مغازيه، عن كتاب محمد بن إبراهيم، ولم يقل (٩) غيره.

وقرأ بعضهم: ﴿قَاتَلَ مَعَهُ رِيبُونَ كَثِيرٌ﴾، قال سفيان الثورى، عن عاصم، عن زرّ، عن ابن

(١) زيادة من أ. (٢) فى ج، ر، أ، و: «للمؤمنين». (٣) فى ج: «لأنه لو قتلوا»، وفى ر: «فإنه قال لو قتلوا».

(٤) زيادة من و. (٥) فى و: «الذى». (٦) فى ر: «بأن».

(٧) فى و: «وقيل: وكم من نبي قتل معه ريبون كثير». (٨) زيادة من ج.

(٩) فى ج، أ، و: «ولم يحك».

مسعود ﴿رَبِّيُونَ كَثِيرٌ﴾، أى: ألوف.

وقال ابن عباس، ومجاهد وسعيد بن جبّير، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسدي، والربيع، وعطاء الخراساني: الربيون: الجموع الكثيرة.

وقال عبد الرزاق، عن معمر عن الحسن: ﴿رَبِّيُونَ كَثِيرٌ﴾ أى: علماء كثير، وعنه أيضاً: علماء صبر أبرار أتقياء.

وحكى ابن جرير، عن بعض نحاة البصرة: أن الربيين هم الذين يعبدون الرب، عز وجل، قال: ورد بعضهم عليه قال: لو كان كذلك لقليل ربّيون، بفتح الراء.

وقال ابن زيد: «الربيون: الاتباع، والرعية، والربايون: (١) الولاة.

﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ قال قتادة والربيع بن أنس: ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ بقتل نبيهم ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾، يقول: فما ارتدوا عن نصرتهم ولا عن دينهم، أن قاتلوا على ما قاتل عليه نبي الله حتى لحقوا بالله.

وقال ابن عباس ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾: تَخَشَّعُوا. وقال السدي وابن زيد: وما ذلوا لعدوهم.

وقال محمد بن إسحاق، وقتادة والسدي: أى ما أصابهم ذلك حين قُتل نبيهم.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ . وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أى: لم يكن لهم هجيرى إلا ذلك.

﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ أى: النصر والظفر والعاقبة (٢) ﴿وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ أى: جمع لهم ذلك مع هذا، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلَوْنَّ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣)﴾.

يحذر (٣) تعالى عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين فإن طاعتهم تورث الردى في الدنيا

والآخرة (٤)؛ ولهذا قال: ﴿إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾.

(٣) فى أ: «يخبر».

(٢) فى ر: «العاقبة».

(١) فى ج، ر: «الربانيون».

(٤) فى ر: «الآخرة».

ثم أمرهم بطاعته وموالاته، والاستعانة به، والتوكل عليه، فقال: ﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾.

ثم بشرهم بأنه سيلقى في قلوب أعدائهم الخوف منهم والذلة لهم، بسبب كفرهم وشركهم، مع ما ادخره لهم في الدار الآخرة من العذاب والنكال، فقال: ﴿سَنَلْقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾.

وقد ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي عن سليمان - يعني التيمي - عن سيّار، عن أبي أمامة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «فَضَّلَنِي [رَبِّي] ^(٢) عَلَى الْأَنْبِيَاءِ - أَوْ قَالَ: عَلَى الْأُمَمِ - بِأَرْبَعٍ» قال «أُرْسِلْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ كُلُّهَا وَلَأُمْتِي مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيْنَمَا أَدْرَكْتُ ^(٣) رَجُلًا مِنْ أُمْتِي الصَّلَاةُ فَعِنْدَهُ مَسْجِدُهُ وَ ^(٤) طَهُورُهُ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ يَقْذِفُهُ فِي قُلُوبِ أَعْدَائِي وَأَحِلَّ لِيَ ^(٥) الْغَنَائِمُ».

ورواه الترمذي من حديث سليمان التيمي، عن سيّار القرشي الأموي مولاهم الدمشقي - سكن البصرة - عن أبي أمامة صدي بن عجلان، رضى الله عنه، به. وقال: حسن صحيح^(٦).

وقال سعيد بن منصور: أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث: أن أبا يونس حدثه، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ عَلَى الْعَدُوِّ». ورواه^(٧) مسلم من حديث ابن وهب^(٨).

وروى الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق عن أبي بردة، عن أبيه^(٩) أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا: بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَكَمْ تَحِلَّ لِمَنْ كَانَ قَبْلِي، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ ^(١٠) شَهْرًا، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَيْسَ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ سَأَلَ شَفَاعَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ شَفَاعَتِي، ثُمَّ جَعَلْتُهَا لِمَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا». تفرد به أحمد^(١١).

(١) صحيح البخارى برقم (٣٣٥) وصحيح مسلم برقم (٥٢١).

(٢) زيادة من ج، ر، أ، و، والمسند.

(٣) فى و: «أدركه».

(٤) فى ج: «مسجده وعنده طهوره».

(٥) فى ج، ر: «لنا».

(٦) المسند (٢٤٨/٥) وسنن الترمذى برقم (١٥٥٣).

(٧) فى ج، ر: «رواه».

(٨) صحيح مسلم برقم (٥٢٣).

(٩) فى أ: «عن أبيه عن أبي موسى».

(١٠) فى و: «بالرعب مسيرة شهر».

(١١) المسند (٤١٦/٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٢٥٨/٨): «رجاله رجال الصحيح».

وروى العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾، قال: قذف الله في قلب أبي سفيان الرعب، فرجع إلى مكة، فقال النبي ﷺ: «إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَدْ أَصَابَ مِنْكُمْ طَرَفًا، وَقَدْ رَجَعَ، وَقَذَفَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ الرُّعْبَ».

رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾. قال ابن عباس: وعدهم الله النصر.

وقد يستدل بهذه الآية على أحد القولين المتقدمين في قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾. بلى إن تصبروا وتقفوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين. أن ذلك كان يوم أحد لأن عدوهم كان ثلاثة آلاف مقاتل، فلما واجهوهم كان الظفر والنصر أول النهار للإسلام، فلما حصل ما حصل من عصيان الرماة وفشل بعض المقاتلة، تأخر الوعد الذي كان مشروطا بالثبات والطاعة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أى: أول النهار ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُمْ﴾ أى: تقتلونهم^(١) ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أى: بتسليطه إياكم عليهم ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾، وقال^(٢) ابن جريج: قال ابن عباس: الفشل الحين، ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ﴾ كما وقع للرماة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ وهو الظفر منهم^(٣)، ﴿مِنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الدُّنْيَا﴾ وهم الذين رغبوا في المغنم حين رأوا الهزيمة ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ثم أدا لهم عليكم ليختبركم ويمتحنكم ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ أى: غفر لكم ذلك الصنيع، وذلك - والله أعلم - لكثرة عدد العدو وعددهم، وقلة عدد المسلمين وعددهم.

قال ابن جريج: قوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾، قال: لم يستأصلكم. وكذا قال محمد بن إسحاق، رواهما ابن جرير ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود أخبرنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن عبيد الله^(٤) عن ابن عباس أنه قال: ما نصر الله في موطن كما نصر يوم أحد. قال: فأنكرنا ذلك، فقال ابن عباس: بيني وبين من أنكر ذلك كتاب الله، إن الله يقول في يوم أحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾، يقول ابن عباس: والحس: القتل^(٥). ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ الآية^(٦)، وإنما عنى بهذا الرماة، وذلك أن النبي ﷺ أقامهم في موضع، ثم قال: «احْمُوا ظُهُورَنَا، فَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نَقْتُلْ فَلَا تَنْصُرُونَا وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ غَنِمْنَا فَلَا تُشْرِكُونَا». فلما غنم النبي ﷺ وأباحوا عسكر المشركين أكبت الرماة جميعا [ودخلوا]^(٧) في العسكر ينهبون، ولقد التقت صفوف أصحاب رسول الله ﷺ، فهم هكذا - وشبك بين يديه - وانتشبا، فلما أخل الرماة تلك الخلّة التي كانوا فيها، دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب رسول الله ﷺ، فضرب^(٨) بعضهم بعضا والتبسوا، وقتل من المسلمين ناس

(١) في ر: «يقتلونكم». (٢) في أ، و: «قال». (٣) في و: «بهم». (٤) في هـ، ر: «أبي عبيد الله»، والصواب ما أثبتناه من المسند. (٥) في ر: «والحس الفشل». (٦) في ج، ر، أ، و: «حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ - إلى قوله - وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ». (٧) زيادة من ج، ر، أ، والمسند. (٨) في و: «يضرب».

كثير، وقد كان لرسول الله ﷺ وأصحابه أول النهار، حتى قُتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة، وجال المسلمون جَوْلَةً نحو الجبل ولم يبلغوا - حيث يقول الناس - الغار، إنما كان^(١) تحت المهراس، وصاح الشيطان: قُتل محمد، فلم يُشك فيه أنه حق، فما زلنا كذلك ما نشك أنه حق، حتى طلع رسول الله ﷺ بين السعدين، نعرفه بتلفته^(٢) إذا مشى - قال: ففرحنا حتى كأنه لم يصبنا ما أصابنا - قال: فرقمي نحونا وهو يقول: «اشتد^(٣) غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ دَمَوْا وَجَهَ رَسُولُ اللَّهِ». ويقول مرة أخرى: «اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَعْلُونَا». حتى انتهى إلينا، فمكث ساعة، فإذا أبو سفيان يصيح في أسفل الجبل: اعل هبل، مرتين - يعنى ألهته - أين ابن أبي كبشة؟ أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟ فقال عمر: يا رسول الله، ألا أجيبه؟ قال: «بلى» قال: فلما قال: اعل هبل. قال عمر: الله أعلى وأجل. فقال أبو سفيان: قد أنعمت عينها فعاد عنها^(٤)، أو: فعَالَ! فقال: أين ابن أبي كبشة؟ أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟ فقال عمر: هذا رسول الله، وهذا أبو بكر، وها أنا ذا عمر. قال: فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، الأيام دُول، وإن الحرب سجال. قال: فقال عمر: لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار. قال^(٥): إنكم ترعمون^(٦) ذلك، لقد خبنا إذا وخسرنا ثم قال أبو سفيان: إنكم ستجدون في قتلاكم مثله^(٧)، ولم يكن ذلك عن رأى سراتنا. قال: ثم أدركته حَمِيَّةُ الجاهلية فقال: أما إنه إن كان ذلك لم نكرهه.

هذا حديث غريب، وسياق عجيب، وهو من مراسلات ابن عباس، فإنه لم يشهد أحدًا ولا أبوه.

وقد أخرجه الحاكم في مستدركه عن أبي النضر الفقيه، عن عثمان بن سعيد، عن سليمان بن داود بن علي بن عبد الله بن عباس، به. وهكذا رواه ابن أبي حاتم والبيهقي في دلائل النبوة، من حديث سليمان بن داود الهاشمي، به^(٨). ولبعضه شواهد في الصحاح وغيرها، فقال^(٩) الإمام أحمد:

حدثنا عفان، حدثنا حماد، حدثنا عطاء بن السائب عن الشعبي، عن ابن مسعود قال: إن النساء كن يوم أحد، خلف المسلمين، يُجهزن^(١٠) على جرحى المشركين، فلو حلفت يومئذ رجوت أن أبر: أنه ليس أحد منا يريد الدنيا، حتى أنزل الله عز وجل: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ فلما خالف أصحاب النبي ﷺ وعصوا ما أمروا به، أفرد رسول الله ﷺ في تسعة: سبعة من الأنصار، ورجلين من قريش، وهو عاشرهم، فلما رهقوه [قال: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا رَدَّهُمْ عَنَّا»]. قال: فقام رجل من الأنصار فقاتل ساعة حتى قتل، فلما رهقوه^(١١) أيضا قال: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا رَدَّهُمْ عَنَّا». فلم يزل يقول ذا حتى قُتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبه: «مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا».

(١) في أ، و: «كانوا». (٢) في ج: «بتكفيه»، وفي ر: «بتلسمه»، وفي أ، و: «بتكفنه». (٣) في ر: «شد».

(٤) في ج: «فعاذ عنها»، وفي ر: «فعال عنها».

(٦) في ج، ر: «لترعمون». (٧) في ج، ر، أ، و: «مثلاً».

(٨) المسند (١/٢٨٧، ٢٨٨) والمستدرک (٢/٢٩٦) ودلائل النبوة للبيهقي (٣/٢٦٩، ٢٧٠).

(٩) في أ: «وقال». (١٠) في ر: «يجهزون».

(١١) زيادة من ج، ر، والمسند.

فجاء أبو سفيان فقال: اعلِ هُبْلُ. فقال رسول الله ﷺ: «قُولُوا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلٌ». فقالوا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلٌ. فقال أبو سفيان: لنا العِزَّى ولا عِزَّى لكم. فقال رسول الله ﷺ: قُولُوا: «اللهُ مَوْلَانَا، وَالْكَافِرُونَ لَا مَوْلَى لَهُمْ». ثم قال أبو سفيان: يومٌ بيومٌ بَدْر، يومٌ علينا ويومٌ لنا^(١)، ويومٌ نُسَاءُ ويومٌ نُسَرَّ. حَنْظَلَةٌ بِحَنْظَلَةٍ، وفلان بفلان، وفلان بفلان، فقال رسول الله ﷺ: «لَا سَوَاءَ. أَمَّا قَتْلَانَا فَأَحْيَاءُ يُرْزَقُونَ، وَقَتْلَاكُمْ فِي النَّارِ يُعَذِّبُونَ». قال أبو سفيان: قد كان^(٢) في القوم مُثَلَّةٌ، وإنْ كَانَتْ لَعَنَ^(٣) غير مَلَأَ مِنَّا، مَا أَمَرْتُ وَلَا نَهَيْتُ، وَلَا أَحْبَبْتُ وَلَا كَرِهْتُ، وَلَا سَاءَنِي وَلَا سَرَّنِي. قال: فنظروا فإذا حمزةٌ قد بَقِرَ بَطْنُهُ، وأخذتْ هُنْدُ كَبِدَهُ فَلَاكَتْهَا فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَأْكُلَهَا، فقال رسول الله ﷺ: «أَكَلْتُ شَيْئًا؟» قالوا: لا. قال: «مَا كَانَ اللَّهُ لِيُدْخِلَ شَيْئًا مِنْ حِمَزةٍ فِي النَّارِ».

قال: فوضع رسول الله ﷺ حمزةَ فَصَّلَى عليه، وَجىءَ برجلٍ من الأنصار فَوَضَعَ إلى جنبه فَصَّلَى عليه، فَرَفَعَ الأنصارى وَتَرِكَ حمزةَ، ثم جىءَ بآخر فوضعه إلى جنب حمزة فَصَّلَى [عليه]^(٤)، ثم رَفَعَ وَتَرِكَ حمزةَ، حتى صَلَّى عليه يومئذ سبعين صلاةً. تفرد به أحمد أيضا^(٥).

وقال البخارى: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق: عن البراء قال: لقينا المشركين يومئذ، وأجلس النبي ﷺ جيشًا من الرُّمَّةِ، وأمرَ عليهم عبد الله - يعنى ابن جُبَيْر - وقال: «لَا تَبْرَحُوا إِن^(٦) رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلَا تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلَا تُعِينُونَا». فلما لقيناهم هربوا، حتى رأينا النساءَ يَشْتَدْنَ^(٧) في الجبل، رَفَعْنَ عن سَوْقِهِنَّ، وقد بدتْ خَلَاجِلَهُنَّ، فأخذوا يقولون: الغنيمةُ الغنيمةُ. فقال عبد الله: عَهْدٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أَلَّا تَبْرَحُوا. فَأَبَوْا، فلما أَبَوْا صَرَفَ وجوههم، فَأَصَابَ سبعون قتيلًا، فأشرف أبو سفيان فقال: أفى القوم محمد؟ فقال: «لَا تُجِيبُوهُ». فقال: أفى القوم ابن أبي قحافة؟ فقال: «لَا تُجِيبُوهُ». فقال: أفى القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قد قُتِلُوا، فلو كانوا أحياءَ لَأَجَابُوا. فلم يملك عَمْرُ نفسه فقال: كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، قد أبقي الله لك ما يُحْزِنُكَ^(٨). فقال أبو سفيان: اعلِ هُبْلُ. فقال النبي ﷺ: «أَجِيبُوهُ». قالوا: ما نقول؟ قال: «قُولُوا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلٌ». فقال أبو سفيان: لنا العِزَّى ولا عِزَّى لكم. فقال النبي ﷺ: «أَجِيبُوهُ». قالوا: ما نقول؟ قال: «قُولُوا: اللهُ مَوْلَانَا، وَلَا مَوْلَى لَكُمْ». قال أبو سفيان: يومٌ بيومٌ بَدْر، والحربُ سِجَالٌ، وتجدون مُثَلَّةً لم أمر بها ولم تسؤنى.

تفرد به البخارى من هذا الوجه، ثم رواه عن عمرو بن خالد، عن زهير بن معاوية عن أبي إسحاق، عن البراء، بنحوه^(٩). وسيأتى بأبسط من هذا.

وقال البخارى أيضا: حدثنا عبيد الله بن سعيد، حدثنا أبو أسامة، عن هشام بن عروة، عن أبيه،

(١) فى ج، ر، أ، و: «يوم لنا ويوم علينا». (٢) فى ج، ر: «كانت». (٣) فى ج: «على»

(٤) زيادة من ج، ر، والمسنَد.

(٥) المسند (٤٦٢/١). (٦) فى ج، ر، أ، و: «وإن».

(٧) فى ر: «يشتدن» وهو خطأ، والصحيح ما أثبتاه من البخارى (٤٠٤٣). (٨) فى ج، ر: «ما يخزيك»

(٩) صحيح البخارى برقم (٤٠٤٣) وبرقم (٣٩٨٦).

عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أَحَدِ هُزْمِ الْمُشْرِكِينَ، فَصَرَخَ إِبْلِيسُ: أَيُّ عِبَادِ اللَّهِ، أَخْرَأَكُمْ. فَرَجَعَتْ أَوْلَادُهُمْ^(١) فَاجْتَلَدَتْ هِيَ وَأَخْرَاهُمْ، فَصَبَّرَ حُذَيْفَةَ فَإِذَا هُوَ بِأَبِيهِ الْيَمَانِ، فَقَالَ: أَيُّ عِبَادِ اللَّهِ، أَبِي أَبِي. قَالَ: قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا احْتَجَزُوا حَتَّى قَتَلُوهُ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ. قَالَ عُرْوَةُ: فَوَاللَّهِ مَا زَالَتْ فِي حُذَيْفَةَ بَقِيَّةٌ خَيْرٌ حَتَّى لَقِيَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ^(٢).

وقال محمد بن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن جده أن الزبير بن العوام قال: والله لقد رأيتني أنظر إلى خَدَمِ [هند]^(٣) وصواحباتها مُشَمَّرَاتٍ هَوَارِبٍ مَا دُونَ أَخْذِهِنَّ كَثِيرٌ وَلَا قَلِيلٌ^(٤)، ومالت الرُّمَّةُ إِلَى الْعَسْكَرِ حِينَ كَشَفْنَا الْقَوْمَ عَنْهُ، يَرِيدُونَ النَّهْبَ وَخَلُّوا ظَهْرَنَا لِلْخَيْلِ فَاتْتَنَا مِنْ أَدْبَارِنَا، وَصَرَخَ^(٥) صَارِخٌ: أَلَا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ. فَانْكَفَأْنَا وَانْكَفَأَ عَلَيْنَا الْقَوْمُ بَعْدَ أَنْ أَصَبْنَا أَصْحَابَ اللَّوَاءِ، حَتَّى مَا يَدْنُو مِنْهُ أَحَدٌ مِنَ الْقَوْمِ.

قال محمد بن إسحاق: فلم يزل لواء المشركين صريعاً، حتى أخذته عَمْرَةَ بِنْتُ عُلْقَمَةَ الْحَارِثِيَّةِ، فَدَفَعَتْهُ لِقَرِيشٍ فَلَاثُوا^(٦) بِهِ^(٧) (٨). وقال السُّدِّيُّ عَنْ عَبْدِ خَيْرٍ قَالَ: قَالَ^(٩) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ^(١٠)، قَالَ: مَا كُنْتُ أَرَى أَنْ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَرِيدُ الدُّنْيَا حَتَّى نَزَلَتْ^(١١) فِينَا مَا نَزَلَ يَوْمَ أَحَدٍ ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾.

وقد رَوَى مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَكَذَا رَوَى عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَأَبِي طَلْحَةَ، رَوَاهُ ابْنُ مَرْدُوَيْهِ فِي تَفْسِيرِهِ.

وقوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ قال ابن إسحاق: حدثني القاسم بن عبد الرحمن بن رافع، أحد بني عدي بن النجار قال: انتهى أنس بن النضر، عم أنس بن مالك، إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله، في رجال من المهاجرين والأنصار، قد ألقوا بأيديهم فقال: ما يخليكم^(١٢)؟ فقالوا: قَتَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. قَالَ: فَمَا تَصْنَعُونَ بِالْحَيَاةِ بَعْدَهُ؟ قَوْمُوا فَمُوتُوا عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ. ثُمَّ اسْتَقْبَلَ الْقَوْمَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ.

وقال البخاري: حدثنا حسان بن حسان، حدثنا محمد بن طلحة، حدثنا حميد، عن أنس بن مالك: أن عمه - يعني أنس بن النضر - غاب عن بدر فقال: غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لَئِنْ أَشْهَدَنِي اللَّهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيَرَيْنَّ اللَّهُ مَا أَجِدُ فَلَقِي يَوْمَ أَحَدٍ، فَهَزَمَ النَّاسُ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَزُّ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ - يعني المسلمين - وأبرأ إليك مما جاء به المشركون، فتقدم بسيفه فلقى سعد ابن معاذ فقال: أين يا سعد؟ إني أجد ريح الجنة دون أحد. فمضى فقتل، فما عُرف حتى عرفت أخته بيناته^(١٣) بشامة^(١٤)، وبه بضع وثمانون من طعنه وضربة ورمية بسهم.

(١) في و: «أولاهم».

(٢) صحيح البخاري (٤٠٦٥).

(٣) زيادة من ج، وسيرة ابن هشام.

(٤) في ج، ر، و: «قليل ولا كثير».

(٥) في ج: «فصرخ».

(٦) في ج، ر: «فلاذوا».

(٧) في و: «بها».

(٨) سيرة ابن إسحاق (ظاهريه ق ١٧٠).

(٩) في و: «عن».

(١٠) في ج: «عن عبد خير عنه عبد الله بن مسعود»، وفي ر: «عند جواب عبد الله بن مسعود».

(١١) في و: «نزل».

(١٢) في ج، و: «ما يجلسكم»، وفي ر: «ما نحلنكم».

(١٣) في ر: «بشابه».

(١٤) في ج، ر، و: «أو بشامة».

هذا لفظ البخارى وأخرجه مسلم من حديث ثابت عن أنس، بنحوه^(١).

وقال البخارى [أيضاً]^(٢): حدثنا عبدان، أخبرنا أبو حمزة عن عثمان بن موهب قال: جاء رجل حج البيت، فرأى قوما جلوسا، فقال: من هؤلاء القعود؟ قالوا: هؤلاء قریش. قال: من الشيخ؟ قالوا: ابن عمر. فأتاه فقال: إني سائلك عن شيء فحدثني. قال: أنشدك بحرمة هذا البيت أتعلم أن عثمان بن عفان فر يوم أحد؟ قال: نعم. قال: فتعلمه تغيب عن بدر فلم يشهدا؟ قال: نعم. قال: فتعلم أنه تخلف عن بيعة الرضوان فلم يشهدا؟ قال: نعم. قال: فكبر، فقال^(٣) ابن عمر: تعال لأخبرك ولأبين لك عما سألتني عنه. أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه، وأما تغيبه عن بدر فإنه كان تحته بنت النبي ﷺ، وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: «إِنَّ لَكَ أَجْرَ رَجُلٍ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا وَسَهْمَهُ». وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز بطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعث عثمان، فكانت^(٥) بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة. فقال النبي ﷺ بيده اليمنى: «هَذِهِ يَدُ عُمَانَ». فضرب بها على يده، فقال: «هَذِهِ يَدُ عُمَانَ أَذْهَبَ بِهَا الْآنَ مَعَكَ».

ثم رواه البخارى من وجه آخر عن أبى عوانة عن عثمان بن عبد الله بن موهب^(٦).

وقوله: «إِذْ تَصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ» أى: صرفكم عنهم «إِذْ تَصْعِدُونَ» أى: فى الجبل هاربين من أعدائكم.

وقرأ الحسن وقتادة: «إِذْ تَصْعِدُونَ» أى: فى الجبل «وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ» أى: وأنتم لا تلون على أحد من الدهش والخوف والرعب «وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ» أى: وهو قد خلفتموه وراء ظهوركم يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء، وإلى الرجعة والعودة والكرة.

قال السدّى: لما شدّ المشركون على المسلمين بأحد فهزموهم، دخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصخرة فقاموا عليها، وجعل الرسول ﷺ يدعو الناس: «إِلَى عِبَادِ اللَّهِ، إِلَى عِبَادِ اللَّهِ». فذكر^(٧) الله صعودهم على^(٨) الجبل، ثم ذكر دعاء النبي ﷺ إياهم فقال: «إِذْ تَصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ».

وكذا قال ابن عباس، وقتادة والربيع، وابن زيد.

وقد قال عبد الله بن الزبّعى يذكر هزيمة المسلمين يوم أحد فى قصيدته - وهو مشرك بعد لم يسلم - التى يقول فى أولها:

يا غرابَ البينَ أسمعْتَ فُقلْ إنما تنطقُ شيئاً قد فعلُ
إنَّ للخيرِ وللشرِ مَدَى وكلا ذلك وجهُ وقَبْلُ

(١) صحيح البخارى برقم (٤٠٤٨) وصحيح مسلم برقم (١٩٠٣).

(٢) زيادة من و. (٣) فى ج، ر، و: «قال».

(٥) فى ج: «وكانت».

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٠٦٦) وبرقم (٣٦٩٨).

(٧) فى ج: «فذكرهم». (٨) فى و: «إلى».

(٤) فى ج: «النبي».

إلى أن قال:

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِيَدِ شَهْدَا
حِينَ حَكَّتْ^(١) بِقُبَاءِ بَرَكْهَآ^(٢)
ثُمَّ خَفَّوْا^(٣) عِنْدَ ذَاكُمْ رُقَصَا
فَقَتَلْنَا الضَّعْفَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ
جَزَعَ الْخَزْرَجَ مِنْ وَقَعِ الْأَسْلِ
وَاسْتَحْرَ الْقَتْلَ فِي عَبْدِ الْأَسْلِ
رَقَصَ الْحَفَّانَ يَعْلُو^(٤) فِي الْجَبَلِ
وَعَدَلْنَا مَيْلَ^(٥) بَدْرٍ فَاعْتَدَلَ^(٦)
الحفان: صغار النعم.

وقد كان النبي ﷺ قد أفرد فى اثنى عشر رجلا من أصحابه، كما قال الإمام أحمد: حدثنا حسن ابن موسى، حدثنا زهير، حدثنا أبو إسحاق أن البراء بن عازب قال: جعل رسول الله ﷺ على الرماة يوم أحد - وكانوا خمسين رجلا - عبد الله بن جبير قال: ووضعهم موضعاً وقال: «إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخَطَّفْنَا الطَّيْرَ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسَلَ إِلَيْكُمْ وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَى الْعَدُوِّ وَأَوْطَانَاهُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسَلَ إِلَيْكُمْ» قال: فهزموهم. قال: فأنا والله رأيت النساء يشتددن^(٧) على الجبل، وقد بدت أسوقهنَّ وَخَلَاخِلُهُنَّ رَافِعَاتِ ثِيَابِهِنَّ، فقال أصحاب عبد الله: الغنيمة، أى قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون^(٨)؟ قال عبد الله بن جبير: أنسيتم^(٩) ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ فقالوا: إنا والله لنأتين الناس فلننصيبن من الغنيمة. فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين، فذلك الذى يدعوهم الرسول فى آخرهم، فلم يبق مع رسول الله ﷺ غير اثنى عشر رجلا، فأصابوا منا سبعين، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة: سبعين أسيراً وسبعين قتيلاً. قال أبو سفيان: أفى القوم محمد؟ أفى القوم محمد؟ أفى القوم محمد؟ - ثلاثاً - قال: فنهاهم رسول الله ﷺ أن يجيبوه، ثم قال: أفى القوم ابن أبى قحافة؟ أفى القوم ابن أبى قحافة؟ أفى القوم ابن الخطاب؟ أفى القوم ابن الخطاب؟ ثم أقبل على أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا، قد كفيتموه. فما ملك عمر نفسه أن قال: كذبت والله يا عدو الله، إن الذين عددت لأحياء كلهم، وقد بقى لك ما يسوؤك. فقال^(١٠): يوم بيوم بدر، الحرب سجال، إنكم ستجدون فى القوم مثلك لم آمر بها ولم تسؤنى^(١١). ثم أخذ يرتجز، يقول: اعلُ هُبْلُ، اعلُ هُبْلُ. فقال رسول الله ﷺ: «أَلَا تُجِيبُوهُ؟»^(١٢) قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: «قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلٌ». قال: لنا العزى ولا عزى لكم. فقال رسول الله ﷺ: «أَلَا تُجِيبُوهُ؟». قالوا: يا رسول الله، وما نقول؟ قال: «قُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ»^(١٣).

وقد رواه البخارى من حديث زهير بن معاوية مختصراً، ورواه من حديث إسرائيل، عن أبى

- | | | |
|---------------------------------------|-------------------------|------------------------------|
| (١) فى أ، و: «حلت». | (٢) فى ج، أ: «تركها». | (٣) فى ج، ر: «خفوا». |
| (٤) فى أ، و: «تعلموا». | (٥) فى ج: «قتل». | |
| (٦) السيرة النبوية لابن هشام (١٣٦/٣). | | |
| (٧) فى أ: «يشتدون». | (٨) فى ج، ر: «تنتظرون». | (٩) فى ج، ر، أ، و: «أنسيتم». |
| (١٠) فى أ، و: «قال». | (١١) فى ج: «لم يسوؤنى». | (١٢) فى ج، ر: «ألا تجيبونه». |
| (١٣) المسند (٢٩٣/٤). | | |

إسحاق بأبسط من هذا، كما تقدم. والله أعلم.

وروى البيهقي في دلائل النبوة من حديث عمارة^(١) بن غزيرة، عن أبي الزبير، عن جابر قال: انهزم الناس عن رسول الله ﷺ يوم أحد وبقي معه أحد عشر رجلاً من الأنصار، وطلحة بن عبيد الله هو يصعد^(٢) الجبل، فلقبهم المشركون، فقال: «ألا أحدٌ لهؤلاء؟» فقال طلحة: أنا يا رسول الله، فقال: «كَمَا أَنْتَ يَا طَلْحَةُ». فقال رجل من الأنصار: فأنا يا رسول الله، فقاتل عنه، وصعد رسول الله ﷺ ومن بقي معه، ثم قُتل الأنصاري فلحقوه فقال: «ألا رجلٌ لهؤلاء؟» فقال طلحة مثل قوله، فقال رسول الله ﷺ مثل قوله، فقال رجل من الأنصار: فأنا يا رسول الله، فقاتل عنه وأصحابه يصعدن، ثم قتل فلحقوه، فلم يزل يقول مثل قوله الأول فيقول^(٣) طلحة: فأنا^(٤) يا رسول الله، فيحبسه، فيستأذنه رجل من الأنصار للقتال فيأذن له، فيقاتل^(٥) مثل من كان قبله، حتى لم يبق معه إلا طلحة فغشوهما، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَهُوْلَاءُ؟» فقال طلحة: أنا. فقاتل مثل قتال جميع من كان قبله وأصيب أنامله، فقال: حس، فقال رسول الله: «لَوْ قُلْتُ: بِاسْمِ اللَّهِ، وَذَكَرْتُ اسْمَ اللَّهِ، لَرَفَعْتَكَ الْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ، حَتَّى تَلْجَ بِكَ فِي جَوْ السَّمَاءِ»، ثم صعد^(٦) رسول الله ﷺ إلى أصحابه وهم مجتمعون^(٧).

وقد روى البخاري، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع، عن إسماعيل، عن قيس بن أبي حازم قال: رأيت يد طلحة شلاء وقي بها النبي ﷺ - يعني يوم أحد^(٨).

وفى الصحيحين من حديث مُعْتَمِر بن سليمان، عن أبيه، عن أبي عثمان النهدي قال: لم يبق مع رسول الله ﷺ في بعض تلك الأيام، التي قاتل فيهن رسول الله ﷺ غيرَ طلحة بن عبيد الله وسعد، عن حديثهما^(٩) وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد وثابت عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رَهَقُوهُ قال: «مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ - أَوْ: وَهُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ؟» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قُتل، ثم رَهَقُوهُ أيضاً، فقال: «مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ؟» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل. فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه: ما أنصفنا أصحابنا.

رواه مسلم عن هُدَبة بن خالد، عن حماد بن مسلمة^(١٠)، به نحوه^(١١).

وقال الحسن بن عرفة: حدثنا بن مروان بن معاوية، عن هاشم بن هاشم الزهري، قال سمعت سعيد بن المسيب يقول: سمعت سعد بن أبي وقاص [رضي الله عنه]^(١٢) يقول: نثُل لى

(٣) في ج، ر، أ، و: «ويقول».

(٦) في ر، و: «أصعد».

(٢) في أ، و: «يصعد في».

(٥) في أ، و: «فقاتل».

(١) في ج: «عمارة».

(٤) في أ، و: «أنا».

(٧) دلائل النبوة (٢٣٦/٣)

(٨) صحيح البخاري برقم (٤٠٦٣).

(٩) صحيح البخاري برقم (٤٠٦٠) وصحيح مسلم برقم (٢٤١٤).

(١٠) في ج، ر: «سلمة».

(١١) صحيح مسلم برقم (١٧٨٩).

(١٢) زيادة من ر، أ، و.

رسول^(١) الله ﷺ كنانته يوم أحد قال: «ارمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي».

وأخرجه البخارى، عن عبد الله بن محمد، عن مروان بن معاوية^(٢).

وقال محمد بن إسحاق^(٣): حدثني صالح بن كيسان، عن بعض آل سعد، عن سعد بن أبي وقاص؛ أنه رمى يوم أحد دون رسول الله ﷺ، قال سعد: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يناولني النبل ويقول: «ارمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي» حتى إنه لناولني السهم ليس له نصل، فأرمى به.

وثبت في الصحيحين من حديث إبراهيم بن سعد عن أبيه، عن جده، عن سعد بن أبي وقاص^(٤)، قال: رأيت يوم أحد عن يمين النبي ﷺ وعن يساره رجلين، عليهما ثياب بيض، يقاتلان عنه أشد القتال، ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده، يعنى: جبريل وميكائيل عليهما السلام^(٥).

وقال أبو الأسود، عن عروة بن الزبير قال: كان أبي بن خلف، أخو بني جُمَح، قد حلف وهو بمكة ليقُتلَنَّ رسول الله ﷺ، فلما بلغت رسول الله ﷺ حلفته قال: «بَلْ أَنَا أَقْتَلُهُ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ». فلما كان يوم أحد أقبل أبي في الحديد مُقَنَّعًا، وهو يقول: لا نَجُوتُ إِنْ نَجَا مُحَمَّدٌ. فحمل على رسول الله ﷺ يريد قتله، فاستقبله مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، أخو بني عبد الدار، يقى رسول الله ﷺ بنفسه، فقتل مصعب بن عمير، وأبصر رسول الله ﷺ تَرْقُوةُ أَبِي بْنِ خَلْفٍ مِنْ فَرْجَةٍ بَيْنَ سَابِغَةِ الدَّرْعِ وَالْبَيْضَةِ، وطعنه فيها بحربته، فوقع إلى الأرض عن فرسه، لم يخرج من طعنته دم، فأتاه أصحابه فاحتملوه وهو يخور خوار الثور، فقالوا له: ما أجزعك إنما هو خدش؟ فذكر لهم قول رسول الله ﷺ: «أَنَا أَقْتُلُ أَبْيَا». ثم قال: والذي نفسى بيده لو كان هذا الذى بى بأهل ذى المجاز لما اتوا أجمعون. فمات إلى النار، فسحقا لأصحاب السعير.

وقد رواه موسى بن عُقْبَةَ فى مغازيه، عن الزُّهْرَى، عن سعيد بن المسيَّب بنحوه.

وذكر محمد بن إسحاق قال: لما أسند رسول الله ﷺ فى الشعب، أدركه أبى بن خلف وهو يقول: لا نَجُوتُ إِنْ نَجُوتَ فَقَالَ الْقَوْمُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَعْطِفُ عَلَيْهِ رَجُلٌ مَنَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «دَعُوهُ» فلما دنا تناول رسول الله ﷺ^(٦) الحربة من الحارث بن الصِّمَّة، فقال بعض القوم ما ذكر^(٧) لى: فلما أخذها رسول الله ﷺ منه انتفض بها انتفاضة، تطايرنا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله رسول الله ﷺ فطعنه فى عنقه طعنة تدأداً منها عن فرسه مراراً.

وذكر الواقدي، عن يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمرو بن قتادة، عن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه نحو ذلك^(٨).

قال الواقدي: كان ابن عمر يقول: مات أبى بن خلف ببطن رابغ، فإنى لأسير ببطن رابغ بعد

(١) فى ر: «نزل» قال الحسن بن عرفة: نزل: أى نفّض لى رسول الله.

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٠٥٥).

(٣) فى ر: «سعيد». (٤) فى ج، ر، أ، و: «إبراهيم بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه».

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٠٥٤) وصحيح مسلم برقم (٢٣٠٦).

(٦) زيادة من ج، ر، أ، و. (٧) فى أ، و: «كما ذكر».

(٨) سيرة ابن إسحاق (ظاهرة ق ١٧١) برواية محمد بن سلمة.

هوى من الليل إذا أنا بنار تأجج^(١)، فهبتها، فإذا رجل يخرج منها فى سلسلة يجتذبها يهيج به العطش، وإذا رجل يقول: لا تسقه، فإن هذا قتيل رسول الله ﷺ، هذا أبى بن خلف.

وثبت فى الصحيحين، من رواية عبد الرزاق، عن معمر، عن همام بن منبه، عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتد غضب الله على قوم فعلوا برسول الله - وهو حينئذ يشير إلى رباعيته - اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله ﷺ فى سبيل الله»^(٢).

ورواه البخارى أيضاً^(٣) من حديث ابن جريج، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: اشتد غضب الله على من قتله رسول الله ﷺ، بيده فى سبيل الله، اشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسول الله ﷺ. وقال محمد بن إسحاق بن يسار، رحمه الله: أصيبت رباعية رسول الله ﷺ وشج فى وجته، وكلمت شفته^(٤)، وكان الذى أصابه عتبة بن أبى وقاص.

فحدثنى صالح بن كيسان، عن حدثه، عن سعد بن أبى وقاص قال: ما حرصت على قتل أحد قط ما حرصت على قتل عتبة بن أبى وقاص وإن كان ما علمته لسيئ الخلق، مبغضاً فى قومه، ولقد كفانى فيه قول رسول الله ﷺ: «اشتد غضب الله على من دمه وجه رسول الله ﷺ»^(٥).

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن الزهرى، عن عثمان الجزرى، عن مقسم؛ أن رسول الله ﷺ دعا على عتبة بن أبى وقاص يوم أحد حين كسر رباعيته ودمى وجهه فقال: «اللهم لا تحل^(٦) عليه الحول حتى يموت كافراً». فما حال عليه الحول حتى مات كافراً إلى النار^(٧).

ذكر الواقدي عن ابن أبى سبرة، عن إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة، عن أبى الحويرث، عن نافع بن جبير قال: سمعت رجلاً من المهاجرين يقول: شهدت أحداً فنظرت إلى النبل يأتى من كل ناحية، ورسول الله ﷺ^(٨) وسطها، كل ذلك يصرف عنه، ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهرى يقول يومئذ: دلونى على محمد، لا نجوت إن نجا، ورسول الله ﷺ إلى جنبه ليس معه^(٩) أحد، ثم جاوره^(١٠)، فعاتبه فى ذلك صفوان، فقال: والله ما رأيته، أحلف بالله إنه منا ممنوع. خرجنا أربعة فتعاهدنا وتعاهدنا على قتله، فلم نخلص إلى ذلك.

قال الواقدي: الثبت عندنا أن الذى رمى فى وجتى رسول الله ﷺ ابن قميثة^(١١)، والذى دمه شفته^(١٢) وأصاب رباعيته عتبة بن أبى وقاص^(١٣).

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا ابن المبارك، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة بن عبيد الله،

(١) فى أ، و: «تأجج لى».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٠٧٣) وصحيح مسلم برقم (١٧٩٣).

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٠٧٤، ٤٠٧٦).

(٤) فى و: «شفته».

(٥) سيرة ابن إسحاق (ظاهرة ق ١٧٢).

(٦) فى ج، ر: «لا يحل».

(٧) تفسير عبد الرزاق (١/١٣٦).

(٨) فى و: «ورسول الله ﷺ فى وسطها».

(٩) فى و: «ما معه».

(١٠) فى ج، ر: «قمة».

(١١) فى و: «شفته».

(١٣) المغازى للواقدي (١/٢٤٤).

(١٠) فى ج، ر، أ، و: «جاوزه».

أخبرني عيسى بن طلحة، عن أم المؤمنين عائشة، رضى الله عنها، قالت: كان أبو بكر، رضى الله عنه، إذا ذكر يوم أحد قال^(١): ذاك^(٢) يوم كُله لطلحة، ثم أنشأ يحدث قال: كنت أول من فاء يوم أحد، فرأيت رجلا يقاتل مع رسول الله ﷺ دونه - وأراه قال: حمية فقال^(٣): فقلت: كن طلحة، حيث فاتني ما فاتني، فقلت: يكون رجلا من قومي أحب إلي، وبينى وبين المشركين رجل لا أعرفه، وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه، وهو يخطف المشي خطفا لا أحفظه^(٤)، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح، فأنتهينا إلى رسول الله ﷺ: وقد كسرت رباعيته وشج في وجهه، وقد دخل في وجنته حلقتان من حلق المغفر، قال رسول الله ﷺ: «عليكما صابحكما». يريد طلحة، وقد نزف، فلم نلتفت إلى قوله، قال: وذهبت لأن أنزع^(٥) ذلك^(٦) من وجهه، فقال أبو عبيدة: أقسمت عليك بحقي لما تركتني. فتركته، فكره أن يتناولها بيده فيؤذي النبي ﷺ، فأزم عليها^(٨) فيه فاستخرج إحدى الحلقتين، ووقعت ثنيته مع الحلقة، ذهبت لأصنع ما صنع، فقال: أقسمت عليك بحقي لما تركتني، قال: ففعل مثل ما فعل في المرة الأولى، فوقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة، فكان أبو عبيدة، رضى الله عنه، أحسن^(٩) الناس هتما، فأصلحنا من شأن رسول الله ﷺ، ثم أتينا طلحة في بعض تلك الجفار، فإذا به بضع وسبعون أو أقل أو أكثر من طعنة ورمية وضربة، وإذا قد قطعت إصبعه، فأصلحنا من شأنه.

ورواه الهيثم بن كليب، والطبراني، من حديث إسحاق بن يحيى به. وعند الهيثم: فقال أبو عبيدة: أنشدك^(١٠) يا أبا بكر إلا تركتني؟ فأخذ أبو عبيدة السهم فيه، فجعل يئنضه كراهية^(١١) أن يؤذي رسول الله ﷺ، ثم استل السهم فيه فبذرت^(١٢) ثنية أبي عبيدة.

وذكر تمامه، واختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه^(١٣). وقد ضعف على بن المديني هذا الحديث من جهة إسحاق بن يحيى هذا، فإنه تكلم فيه يحيى بن سعيد القطان، وأحمد، ويحيى بن معين، والبخاري، وأبو زرعة، وأبو حاتم، ومحمد بن سعد، والنسائي وغيرهم.

وقال ابن وهب: أخبرني عمرو بن الحارث: أن عمر بن السائب حدثه: أنه بلغه أن مالكا أبا [أبي]^(١٤) سعيد الخدري لما جرح النبي ﷺ يوم أحد مص الجرح حتى أنقاه ولاح أبيض، فقيل له: مجة. فقال: لا، والله لا أمجه أبدا. ثم أدبر يقاتل، فقال النبي ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة، فلينظر إلى هذا». فاستشهد^(١٥).

وقد ثبت في الصحيحين من طريق عبد العزيز بن أبي حازم^(١٦)، عن أبيه، عن سهل بن سعد أنه

(١) في ج، ر، أ، و: «قال: كان».

(٢) في أ: «ذلك».

(٣) في ج، ر: «قال».

(٤) في ج، ر: «لا أخطفه».

(٥) في ج، ر: «لأنزع».

(٦) في ج، ر، أ، و: «ذاك».

(٧) في و: «رسول الله».

(٨) في و: «عليه».

(٩) في أ، و: «من أحسن».

(١٠) في ج، ر، أ، و: «أنشدك بالله».

(١١) في ر: «كراهية».

(١٢) في ج: «فبذرت» وفي ر، أ، و: «فبذرت».

(١٣) مسند الطيالسي (ص ٣) والمختارة للضياء المقدسي برقم (٤٩) من طريق الهيثم بن كليب، ورواه البزار في مسنده برقم (٦٣) وابن

حبان في صحيحه برقم (٤٩٤١) «الإحسان» من طريق إسحاق بن يحيى به. قال الهيثم في المجمع (١١٢/٦): «فيه إسحاق بن

يحيى وهو متروك».

(١٤) زيادة من ج.

(١٥) ورواه البيهقي في دلائل النبوة (٢٦٦/٣) من طريق ابن وهب به.

(١٦) في ر: «حاتم».

سئل عن جُرْح رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فقال: جُرْح وجه رسول الله ﷺ، وكُسِرَتْ رِجْلَيْهِ، وَهُشِمَتِ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ، فَكَانَتْ^(١) فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَغْسِلُ الدَّم، وَكَانَ عَلَى يَسْكَبَ عَلَيْهَا^(٢) بِالْمَجْنِ^(٣)، فَلَمَّا رَأَتْ فَاطِمَةُ [رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]^(٤) أَنَّ الْمَاءَ لَا يَزِيدُ الدَّم إِلَّا كَثْرَةً، أَخَذَتْ قِطْعَةً حَصِيرٍ فَأَحْرَقَتْهُ، حَتَّى إِذَا صَارَ^(٥) رَمَادًا أَلْصَقَتْهُ بِالْجُرْحِ، فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ^(٦).

وقوله: ﴿فَأَنَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ أى: فجازاكم غمًّا على غمٍّ كما تقول العرب: نزلت ببنى فلان، ونزلت على بنى فلان.

قال ابن جرير: وكذا قوله: ﴿وَلَا صَلْبَنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أى: على جذوع النخل^(٧).

قال ابن عباس: الغم الأول: بسبب الهزيمة وحين قيل: قتل محمد ﷺ، والثاني: حين علاهم المشركون فوق الجبل، وقال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَعْلُونَا».

وعن عبد الرحمن بن عوف: الغم الأول: بسبب الهزيمة، والثاني: حين قيل: قُتِلَ مُحَمَّدٌ ﷺ، كان ذلك عندهم أعظم من الهزيمة.

رواهما ابن مردويه، وروى عن عمر بن الخطاب نحو ذلك. وذكر ابن أبى حاتم عن قتادة نحو ذلك أيضا.

وقال السُّدِّيُّ: الغم الأول: بسبب ما فاتهم من الغنيمة والفتح، والثاني: بإشراف العدو عليهم.

وقال محمد بن إسحاق ﴿فَأَنَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ أى: كَرَبًا بعد كرب، قُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْ إِخْوَانِكُمْ، وَعُلُوُّ عَدُوِّكُمْ عَلَيْكُمْ، وما وقع فى أنفسكم من قول من قال: «قُتِلَ نَبِيِّكُمْ»^(٨) فكان^(٩) ذلك متتابعاً^(١٠) عليكم غما بغم.

وقال مجاهد وقتادة: الغم الأول: سماعهم قتل محمد، والثاني: ما أصابهم من القتل والجراح. وعن قتادة والربيع بن أنس عكسه.

وعن السُّدِّيُّ: الأول: ما فاتهم من الظَّفَر والغنيمة، والثاني: إشراف العدو عليهم، وقد تقدم هذا عن السدى.

قال ابن جرير: وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: ﴿فَأَنَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ فَأَنَابَكُمْ بِغَمِّكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِحَرَمَانِ اللَّهِ إِيَّاكُمْ غَنِيمَةَ الْمُشْرِكِينَ وَالظَّفَرَ بِهِمْ وَالنَّصَرَ عَلَيْهِمْ، وما أصابكم من القتل والجراح يومئذ - بعد الذى أراكم^(١١) فى كل ذلك ما تحبون - بمعصيتكم ربكم، وخلافكم أمر النبي ﷺ^(١٢)، غَمَّ ظَنُّكُمْ أَنَّ نَبِيَّكُمْ قَدْ قُتِلَ، وميل العدو عليكم بعد قُلولكم منهم.

(١) فى جـ، ر: «وكانت». (٢) فى جـ، ر، أ، و: «عليه». (٣) فى جـ، ر، أ، و: «عليه الماء بالمجن».

(٤) زيادة من جـ، أ، و. (٥) فى أ: «صارت».

(٦) صحيح البخارى برقم (٢٩١١) وصحيح مسلم برقم (١٧٩٠).

(٧) زيادة من جـ. (٨) فى أ، و: «من قبل قتل نبيكم». (٩) فى جـ: «وكان».

(١٠) فى أ، و: «عما تتابع». (١١) فى جـ، ر، أ، و: «الذى كان قد أراكم». (١٢) فى أ، و: «نبيكم».

وقوله: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ أى: على ما فاتكم من الغنيمة بعدوكم ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ من القتل والجراح، قاله ابن عباس، وعبد الرحمن بن عوف، والحسن، وقتادة، والسدى ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّو كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤)﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)﴾.

يقول تعالى مُمتنا على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأمنّة، وهو النعاس الذى غشيهم وهم مستلثموا السلاح فى حال همّهم وغمّهم، والنعاس فى مثل تلك الحال دليل على الأمان^(١)، كما قال تعالى فى سورة الأنفال، فى قصة بدر: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِّنْهُ [وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ] (٢)﴾ [الأنفال: ١١].

وقال [الإمام]^(٣) أبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو نعيم وكيع^(٤)، عن سفيان، عن عاصم، عن أبى رزين، عن عبد الله بن مسعود قال: النعاس فى القتال من الله، وفى الصلاة من الشيطان.

قال البخارى: قال^(٥) لى خليفة: حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن أنس، عن أبى طلحة، رضى الله عنه، قال: كنت فىمن تغشاه^(٦) النعاس يوم أحد، حتى سقط سيفى من يدى مرارا، يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه.

هكذا رواه فى المغازى معلقا. ورواه فى كتاب التفسير مُسنّداً عن شيبان، عن قتادة، عن أنس، عن أبى طلحة قال: غَشِينَا النعاس ونحن فى مَصَافِنَا يوم أحد. قال: فجعل سيفى يسقط من يدى وآخذه، ويسقط وآخذه.

وقد رواه الترمذى والنسائى والحاكم، من حديث حمّاد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس، عن

(١) فى ج، ر، أ، و: «الإيمان». (٢) زيادة من ج، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٣) زيادة من ج، ر، أ، و. (٤) فى ج، ر، أ، و: «وكيع».

(٥) فى أ، و: «وقال». (٦) فى ج، ر: «يغشاه».

أبى طلحة قال: رفعت رأسى يوم أحد، وجعلت أنظر وما منهم يومئذ أحد إلا يمد^(١) تحت حَجَفَتِهِ من الناس.

لفظ الترمذى، وقال: حسن صحيح.

ورواه النسائى أيضاً، عن محمد بن المثنى، عن خالد بن الحارث، عن أبى قتيبة، عن ابن أبى عدى، كلاهما عن حميد، عن أنس قال: قال أبو طلحة: كنت فيمن ألقى عليه النعاس - الحديث^(٢). وهكذا روى عن الزبير وعبد الرحمن بن عوف، رضى الله عنه^(٣).

وقال البيهقى: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنى أبو الحسين محمد بن يعقوب، أخبرنا محمد بن إسحاق الثقفى، حدثنا محمد بن عبد الله المبارك المخزومى، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا شيبان، عن قتادة، حدثنا أنس بن مالك؛ أن أبا طلحة قال: غشنا النعاس ونحن فى مصافنا يوم أحد، فجعل سيفى يسقط من يدى وأخذه، ويسقط وأخذه، قال: والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هم إلا أنفسهم، أجين قوم وأرعنه، وأخذكه للحق ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ كَذَبَةً، أهل^(٤) شك وريب فى الله، عز وجل^(٥).

هكذا رواه بهذه الزيادة، وكأنها من كلام قتادة، رحمه الله، وهو كما قال؛ فإن الله عز جل يقول: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنًا نَعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾ يعنى: أهل الإيمان واليقين والثبات^(٦) والتوكل الصادق، وهم الجازمون بأن الله سينصر رسوله وَيُنْجِزْ لَهُ مَأْمُولَهُ، ولهذا قال: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ يعنى: لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا [وَزَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا]﴾^(٧) [الفتح: ١٢] وهكذا هؤلاء، اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة^(٨)، وأن الإسلام قد باد وأهله، هذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة.

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم ﴿يَقُولُونَ﴾ فى تلك الحال: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يَخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ﴾، ثم فسر ما أخفوه فى أنفسهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ أى: يسرون^(٩) هذه المقالة عن رسول الله ﷺ.

قال [محمد]^(١٠) بن إسحاق بن يسار: فحدثنى يحيى بن عباد^(١١) بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير قال: قال الزبير: لقد رأيتنى مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا، أرسل الله علينا النوم، فما منا من رجل إلا ذقته فى صدره، قال: فوالله إني لأسمع قول معتب بن

(١) فى ج، ر: «يمتد».

(٢) صحيح البخارى (٤٥٦٢، ٤٠٦٨) وسنن الترمذى برقم (٣٠٠٧، ٣٠٠٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٠٨٠).

(٤) فى ج، ر، أ، و: «كذبة، إنما هم أهل».

(٦) فى ر: «والبيان».

(٥) دلائل النبوة للبيهقى (٢٧٣/٣).

(٩) فى أ: «أى لا يسرون».

(٨) فى ر: «الفضيلة».

(٧) زيادة من ج، ر، أ، و، وفى هـ: «إلى آخر الآية».

(١١) فى أ: «عباد الله».

(١٠) زيادة من ج، ر، أ، و.

قُشِيرٌ، مَا أَسْمَعُهُ إِلَّا كَالْحَلَمِ، [يقول] ^(١): ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾. فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله [تعالى] ^(٢): ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ لقول مُعْتَبٍ.

رواه ابن أبي حاتم.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ أى: هذا قدر مقدر من الله عز وجل، وحكم حتم لازم لا يحاد ^(٣) عنه، ولا مناص منه.

وقوله: ﴿وَلِيَتْلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أى: يختبركم بما جرى عليكم، وليميز الخبيث من الطيب، ويظهر أمر المؤمن والمنافق للناس فى الأقوال والأفعال، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: بما يختلج ^(٤) فى الصدور من السرائر والضمائر.

ثم قال ^(٥): ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ أى: ببعض ذنوبهم السالفة، كما قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها ^(٦).

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾، أى: عما كان منهم من الفرار ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أى: يغفر الذنب ويحلم عن خلقه، ويتجاوز عنهم، وقد تقدم حديث ابن عمر فى شأن عثمان، رضى الله عنه، وتولى يوم أحد، وأن الله [قد] ^(٧) عفا عنهم، عند قوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾، ومناسب ذكره هاهنا.

قال ^(٨) الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا زائدة، عن عاصم، عن شقيق، قال: لقي عبد الرحمن بن عوف الوليد بن عقبة ^(٩)، فقال له الوليد: ما لى أراك جفوت أمير المؤمنين عثمان؟ فقال له عبد الرحمن: أبلغه أنى لم أفر يوم عَيْنَيْنِ ^(١٠) - قال عاصم: يقول يوم أحد - ولم أتخلف عن بدر، ولم أترك سنة عمر. قال: فانطلق فخبّر ذلك عثمان، قال: فقال: أما قوله: إني لم أفر يوم عَيْنَيْنِ ^(١١) فكيف يعيرنى بذنب قد ^(١٢) عفا الله عنه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ وأما قوله: إني تخلفت يوم بدر فإنى كنت أمرض رقية بنت رسول الله ﷺ حتى ماتت، وقد ضرب لى رسول الله ﷺ بسهم، ومن ضرب له رسول الله ﷺ بسهم فقد شهد. وأما قوله: «إني لم أترك سنة عمر» فإنى لا أطيقها ولا هو، فاته فحدثه بذلك ^(١٣).

(١) زيادة من ر. (٢) زيادة من ر، وفى ج، أ: «عز وجل». (٣) فى ر، أ، و: «مجيد».

(٤) فى ج، ر، أ: «يتخالج». (٥) فى أ: «وقال».

(٦) فى ج، ر، أ، و: «إن من جزاء السيئة السيئة بعدها وإن من جزاء الحسنة الحسنة بعدها». (٧) زيادة من ج، ر، أ، و.

(٨) فى ر، أ، و: «وقال». (٩) فى و: «عتبة».

(١٠) فى ج، ر، أ: «حين». (١١) فى ر، أ: «حين».

(١٢) فى ج، ر، أ، و: «بذلك وقد».

(١٣) المسند (٦٨/١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)﴾.

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار فى اعتقادهم الفاسد، الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا فى الأسفار وفى^(١) الحروب: لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم. فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أى: عن إخوانهم ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: سافروا للتجارة ونحوها^(٢) ﴿أَوْ كَانُوا غُزًى﴾ أى: فى الغزو ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا﴾ أى: فى البلد ﴿مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ أى: ما ماتوا فى السفر ولا قتلوا فى الغزو.

وقوله: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أى: خلق هذا الاعتقاد فى نفوسهم ليزدادوا حسرة على موتهم وقتلهم^(٤) ثم قال تعالى ردا عليهم: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أى: بيده الخلق وإليه يرجع الأمر، ولا يحيا أحد ولا يموت إلا بمشيئته وقدره، ولا يزداد فى عمر أحد ولا ينقص منه إلا بقضائه وقدره ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أى: وعلمه وبصره نافذ فى جميع خلقه، لا يخفى عليه من أمورهم شىء.

وقوله: ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ تضمن هذا أن القتل فى سبيل الله، والموت أيضا، وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه، وذلك خير من البقاء فى الدنيا وجمع حطامها الفانى.

ثم أخبر بأن كل من مات أو قتل فمصيره ومرجعه إلى الله، عز وجل، فيجزيه بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر فقال: ﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِنْ يَنْصَرُّكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذِلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرُّكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا غُلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَاهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ

(٣) فى ر: «ولا».

(٢) فى ج: «وغيرها».

(١) فى ج، ر، و: «أو فى».

(٤) فى ج، ر، أ، و: «موتاهم وقتلاهم».

فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ .

يقول تعالى مخاطباً رسوله ﷺ، ممتناً عليه وعلى المؤمنين فيما ألان به قلبه على أمته، المتبعين لأمره، التاركين لزجره، وأطاب لهم لفظه: ﴿فِيمَا رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لَنتَ لَهُمْ﴾ أى: أى شىء جعلك لهم ليناً لولا رحمة الله بك وبهم.

قال قتادة: ﴿فِيمَا رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لَنتَ لَهُمْ﴾ يقول: فبرحمة من الله لنت لهم. و«ما» صلة، والعرب تصلها بالمعرفة كقوله: ﴿فِيمَا نَقَضَهُمْ مِّثَاقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥، المائدة: ١٣]، وبالنكرة كقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٤٠] وهكذا^(١) هاهنا قال: ﴿فِيمَا رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لَنتَ لَهُمْ﴾ أى: برحمة من الله^(٢).

وقال الحسن البصرى: هذا خلُقُ محمد ﷺ بعثه الله به. وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حيوة، حدثنا بَقِيَّةُ، حدثنا محمد بن زياد، حدثني أبو راشد الخبراني قال: أخذ بيدى أبو أمامة الباهلى وقال: أخذ بيدى رسول الله ﷺ فقال: «يَا أَبَا أُمَامَةَ، إِنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يَلِينُ لِي قَلْبُهُ»^(٣). انفرد^(٤) به أحمد^(٥).

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ الفظ: الغليظ، [و]^(٦) المراد به هاهنا غليظ الكلام؛ لقوله بعد ذلك: ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ أى: لو كنت سَيِّئَ الكلام قاسى القلب عليهم لانفَضُّوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، وألان جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم، كما قال عبد الله بن عمرو: إنه رأى صفة رسول الله ﷺ فى الكتب المتقدمة: أنه ليس بفظ، ولا غليظ، ولا سَخَاب فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح^(٧).

وروى أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل الترمذى، أنبأنا بشر بن عبيد الدارمى، حدثنا عمّار بن عبد الرحمن، عن المسعودى، عن ابن أبى مُلَيْكَةَ، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِمَدَارَةِ النَّاسِ كَمَا أَمَرَنِي بِإِقَامَةِ الْفَرَائِضِ»^(٨) حديث غريب^(٩).

(١) فى ج، أ، و: «كذا».

(٢) فى ج، ر، أ، و: «له قلبى».

(٣) فى ج، ر، أ، و: «تفرد».

(٤) المسند (٢٦٧/٥).

(٥) زيادة من ج، ر، أ، و.

(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٨٣٨).

(٧) فى أ: «الصلاة».

(٨) ورواه ابن مردويه فى ثلاثة مجالس من الأمالى برقم (٤٢) وابن عدى فى الكامل (١٥/٢) والدليمى فى مسند الفردوس برقم (٦٥٩) من طريق بشر بن عبيد به. وبشر بن عبيد قال ابن عدى: منكر الحديث عن الأئمة. وساق له الذهبى أحاديث، منها هذا الحديث، ثم قال: «وهذه الأحاديث غير صحيحة فالحق المستعان».

ولهذا قال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، ولذلك^(١) كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الأمر إذا حَدَثَ، تطيباً لقلوبهم؛ ليكونوا فيما يفعلونه^(٢) أنشط^(٣) لهم [كما]^(٤) شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير^(٥)، فقالوا: يا رسول الله، لو استعرضت بنا عَرْضَ البحر لقطعناه معك، ولو سرت بنا إلى بَرْكِ الغَمَادِ لسرنا معك، ولا نقول لك كما قال قوم موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب، فتحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن [شمالك]^(٦) مقاتلون.

وشاورهم - أيضا - أين يكون المنزل؟ حتى أشار المنذر بن عمرو المعتق ليموت، بالتقدم إلى أمام القوم، وشاورهم في أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم، فخرج إليهم.

وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلاث ثمار المدينة عامئذ، فأبى عليه ذلك السعدان: سعد بن معاذ وسعد بن عباد، فترك ذلك.

وشاورهم يوم الحُدَيْبِيَّةِ في أن يميل على ذَرَارَى المشركين، فقال له الصديق: إنا لم نجيئ^(٧) لقتال أحد، وإنما جئنا معتمرين، فأجابه إلى ما قال.

وقال عليه السلام^(٨) في قصة^(٩) الإفك: «أَشِيرُوا عَلَيَّ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ فِي قَوْمٍ أَبْنُوا^(١٠) أَهْلِي وَرَمَوْهُمْ، وَإِنَّمَا اللَّهُ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ سُوءٍ، وَأَبْنُوهُمْ بَنَ - وَاللَّهِ - مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا». واستشار عليا وأسامة في فراق عائشة، رضى الله عنها.

فكان^(١١) [ﷺ]^(١٢) يشاورهم في الحروب ونحوها. وقد اختلف الفقهاء: هل كان ذلك واجبا عليه أو من باب النذب تطيبا لقلوبهم؟ على قولين.

وقد قال الحاكم في مستدركه: حدثنا أبو جعفر محمد بن محمد البغدادي، حدثنا يحيى بن أيوب العلاف^(١٣) بمصر، حدثنا سعيد بن [أبي]^(١٤) مريم، أنبأنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ قال: أبو بكر وعمر، رضى الله عنهما. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه^(١٥).

وهكذا رواه الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: نزلت في أبي بكر وعمر، وكانا حَوَارَى رسول الله ﷺ ووزيريه وأبوى المسلمين.

وقد روى الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا عبد الحميد، عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن

(١) في ج، ر، أ، و: «وكذلك». (٢) في و: «ليكون ما يفعلونه». (٣) في ر: «أبسط». (٤) زيادة من ج. (٥) في أ، و: «النفير». (٦) زيادة من ج، أ، و. (٧) في أ: «لم نأت». (٨) في أ: [ﷺ]. (٩) في ج، أ: «قضية». (١٠) في ج، ر: «أبنوا». (١١) في أ: «وكان». (١٢) زيادة من ج، ر. (١٣) في أ: «العلاني». (١٤) زيادة من ج، ر. (١٥) المستدرک (٧٠/٣).

ابن غنم أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر وعمر: «لَوْ اجْتَمَعْنَا^(١) فِي مَشُورَةٍ مَا خَالَفْتُمَا»^(٢).
وروى ابن مردويه، عن علي بن أبي طالب، رضى الله عنه، قال: سئل رسول الله ﷺ عن
العزم؟ قال^(٣): «مُشَاوَرَةُ أَهْلِ الرَّأْيِ ثُمَّ اتِّبَاعُهُمْ»^(٤).

وقد قال ابن ماجة: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا يحيى بن أبى بكير^(٥)، عن شيبان^(٦)،
عن عبد الملك بن عُمير، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:
«الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ».

ورواه أبو داود والترمذى، وحسنه [و]^(٧) النسائى، من حديث عبد الملك بن عُمير بأبسط منه^(٨).

ثم قال ابن ماجة: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا أسود بن عامر، عن شريك، عن
الأعمش، عن أبى عمرو الشيبانى، عن أبى^(٩) مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُسْتَشَارُ
مُؤْتَمَنٌ». تفرد به^(١٠).

[وقال أيضا]^(١١): وحدثنا أبو بكر، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبى زائدة وعلى بن هاشم، عن
ابن أبى ليلى، عن أبى الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا اسْتَشَارَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَشِرْ^(١٢)
عَلَيْهِ. تفرد به أيضا^(١٣)».

وقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أى: إذا شاورتهم فى الأمر وعزمت عليه فتوكل على الله
فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

وقوله: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وهذا كما تقدم من قوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:
١٢٦]، ثم أمرهم بالتوكل عليه فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغير واحد: ما ينبغي
لنبي أن يخون.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا المسيب بن واضح، حدثنا أبو إسحاق الفزارى، عن

(١) فى ج، ر، أ، و: «اجتمعنا».

(٢) المسند (٢٢٧/٤).

(٣) فى أ، و: «فقال».

(٤) ذكره السيوطى فى الدر (٣٦٠/٢) وعزاه إلى ابن مردويه.

(٥) فى ج، أ: «بكر». (٦) فى ج، ر، أ: «سفيان».

(٨) سنن ابن ماجة برقم (٣٧٤٥) وسنن أبى داود برقم (٥١٢٨) وسنن الترمذى برقم (٢٨٢٢، ٢٣٦٩، ٢٣٧٠).

(٩) فى ج، ر «ابن».

(١٠) سنن ابن ماجة برقم (٣٧٤٦) وقال البوصيرى فى الزوائد (١٨١/٣): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

(١١) زيادة من و. (١٢) فى أ: «فليشير».

(١٣) سنن ابن ماجة برقم (٣٧٤٧).

سفيان^(١)، [عن^(٢)] خصيف، عن عكرمة عن ابن عباس قال: فقدوا قطيفة يوم بدر فقالوا: لعل رسول الله ﷺ أخذها. فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغُلَّ﴾ أى: يخون.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا حصيف، حدثنا مقسم حدثني ابن عباس أن هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغُلَّ﴾ نزلت في قطيفة^(٣) حمراء فقدت يوم بدر، فقال بعض الناس: أخذها^(٤). قال فأكثروا في ذلك، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

وكذا رواه أبو داود، رحمه الله، والترمذي جميعا، عن قتيبة، عن عبد الواحد بن زياد، به. وقال الترمذي: حسن غريب. ورواه بعضهم عن خصيف، عن مقسم - يعنى مرسل^(٥).

وروى ابن مردويه من طريق أبي عمرو بن العلاء، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: اتهم المنافقون رسول الله ﷺ بشيء فُقد، فأنزل الله، عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغُلَّ﴾.

وقد روى من غير وجه عن ابن عباس نحو ما تقدم. وهذه تبرئة له، صلوات الله وسلامه عليه، عن جميع وجوه الخيانة في أداء الأمانة وقسم الغنيمة وغير ذلك.

وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغُلَّ﴾ أى: بأن يقسم لبعض سرايا ويترك بعضها^(٦). وكذا قال الضحاك.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغُلَّ﴾: بأن يترك بعض ما أنزل إليه فلا يبلغه أمته.

وقرأ الحسن البصرى وطاوس، ومجاهد، والضحاك: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغُلَّ﴾ بضم الياء أى: يخان.

وقال قتادة والربيع بن أنس: نزلت هذه الآية يوم بدر، وقد غلّ بعض أصحابه. رواه ابن جرير عنهما، ثم حكى عن بعضهم أنه قرأ^(٧) هذه القراءة بمعنى يتهم بالخيانة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. وهذا تهديد شديد ووعد أكيد. وقد وردت السنة بالنهي عن ذلك أيضا في أحاديث متعددة.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الملك، حدثنا زهير - يعنى ابن محمد - عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن عطاء بن يسار، عن أبي مالك الأشجعي [رضى الله عنه]^(٨)، عن النبي ﷺ^(٩): «أَعْظَمُ الْعُغْلُولِ عِنْدَ اللَّهِ ذِرَاعٌ مِنَ الْأَرْضِ: تَجْدُونَ الرَّجُلَيْنِ جَارَيْنِ فِي الْأَرْضِ - أَوْ فِي الدَّارِ - فَيَقْطَعُ أَحَدُهُمَا

(١) فى ر: «شقيق».

(٢) زيادة من ج، ر.

(٣) فى ج، ر، أ، و: «أن هذه الآية نزلت: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغُلَّ﴾ فى قطيفة».

(٤) فى ج: «سمعت رسول الله ﷺ أخذها»، وفى أ: «لعل رسول الله ﷺ أخذها».

(٥) تفسير الطبرى (٣٤٨/٧) وسنن أبي داود برقم (٣٩٧٧) وسنن الترمذى برقم (٣٠٠٩).

(٦) فى أ: «بعضها».

(٧) فى ج، ر، أ، و: «فسر».

(٨) زيادة من ج، ر، أ.

(٩) فى ج، ر: «النبي ﷺ قال».

مِنْ حَظٍّ صَاحِبِهِ ذِرَاعًا، فَإِذَا اقْتَطَعَهُ طُوقُهُ مِنْ سَبْعِ^(١) أَرْضِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(٢).

[«وفى الصحيحين عن سعيد بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «من ظلم قيد شبر من الأرض طُوقَهُ يوم القيامة من سبع أرضين»^(٣)»^(٤).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، عن ابن هبيرة والحارث بن يزيد^(٦)، عن عبد الرحمن بن جبير. قال: سمعت المستورد بن شداد يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ وَكَى لَنَا عَمَلًا وَلَيْسَ لَهُ مَنَزَلٌ فَلْيَتَّخِذْ مَنَزَلًا، أَوْ لَيْسَتْ لَهُ زَوْجَةٌ فَلْيَتَزَوَّجْ، أَوْ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَتَّخِذْ خَادِمًا، أَوْ لَيْسَتْ^(٧) لَهُ دَابَّةٌ فَلْيَتَّخِذْ دَابَّةً، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ غَالٌ»^(٨).

هكذا رواه الإمام أحمد، وقد رواه أبو داود بسند آخر وسياق آخر فقال:

حدثنا موسى بن مروان الرقي، حدثنا المعافى، حدثنا الأوزاعي، عن الحارث بن يزيد^(٩)، عن جبير بن نفير، عن المستورد بن شداد. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كَانَ لَنَا عَامِلًا فَلْيَكْتَسِبْ زَوْجَةً، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَكْتَسِبْ خَادِمًا، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَسْكَنٌ فَلْيَكْتَسِبْ مَسْكَنًا». قال: قال أبو بكر: أخبرت أن النبي ﷺ قال: «مَنْ اتَّخَذَ غَيْرَ ذَلِكَ فَهُوَ غَالٌ، أَوْ سَارِقٌ»^(١٠).

قال شيخنا الحافظ المزي [رحمه الله]^(١١): رواه جعفر بن محمد الفريابي، عن موسى بن مروان فقال: عن عبد الرحمن بن جبير بدل جبير بن نفير، وهو أشبه بالصواب.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا حفص^(١٢) بن بشر، حدثنا^(١٣) يعقوب القمي^(١٤)، حدثنا حفص بن حميد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «لَا أَعْرِفَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ شَاةً لَهَا ثَغَاءٌ، فَيُنَادِي: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ [لَكَ]^(١٥) مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ بَلَغْتُكَ. وَلَا أَعْرِفَنَّ أَحَدَكُمْ [يَأْتِي]^(١٦) يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ جَمَلًا لَهُ رُغَاءٌ، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ بَلَغْتُكَ. وَلَا أَعْرِفَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ فَرَسًا لَهُ حَمْحَمَةٌ، يُنَادِي: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ

(١) فى أ، و: «فى سبع».

(٢) المسند (٤/ ١٤٠).

(٣) زيادة من أ، و.

(٤) صحيح البخارى برقم (٢٤٥٢) وصحيح مسلم برقم (١٦١٠).

(٥) فى ج، ر، أ، و: «أبى». (٦) فى أ: «سويد».

(٨) المسند (٤/ ٢٢٩).

(٩) فى ج، أ: «شريك».

(١٠) سنن أبى داود برقم (٢٩٤٥).

(١١) زيادة من و. (١٢) فى ج: «جعفر».

(١٣) فى ج، ر: «عن». (١٤) فى ج: «العمى».

(١٥، ١٦) زيادة من ج، والطبرى.

بَلَّغْتُكَ. وَلَا أَعْرِفَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ [قَشْعًا] ^(١) مِنْ أَدَمٍ، يُنَادِي: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ بَلَّغْتُكَ.

لم يروه أحدٌ من أهل ^(٢) الكتب الستة ^(٣).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن الزهري، سمع عُرْوَةَ يقول: أخبرنا أبو حميد الساعدي قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد يقال له: ابن اللُثَيَّة على الصدقة، فجاء فقال: هذا لكم وهذا أهدي لى. فقام رسول الله ﷺ على المنبر فقال: «مَا بَالُ الْعَامِلِ نُبَعْتُهُ فَيَجِيءُ فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أَهْدَى لى. أَفَلَا جَلَسَ ^(٤) فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَيَنْظُرُ أَيُّهُدَى إِلَيْهِ أَمْ لَا؟ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَأْتِي أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْهَا بِشَيْءٍ إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خَوَارٌ، أَوْ شَاةً تَبْعَرُ» ثم رفع يديه حتى رأينا عَفْرَةَ إِبْطِيئِهِ ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ» ثلاثاً.

وزاد هشام بن عُرْوَةَ: فقال ^(٥) أبو حميد: بَصُرْتُ عَيْنِي، وَسَمِعْتُ أذُنِي، وَسَلَوْتُ ^(٦) زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ.

أخرجاه من حديث سفيان بن عيينة ^(٧). وعند البخارى: وسَلَوْتُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ. ومن غير وجه عن الزهري، ومن طريق ^(٨) عن هشام بن عروة، كلاهما عن عروة، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا إسماعيل بن عيَّاش، عن يحيى ابن سعيد، عن عروة بن الزبير، عن أبى حميد أن رسول الله ﷺ قال: «هَذَا يَا الْعُمَالِ غُلُولٌ».

وهذا الحديث من أفراد أحمد ^(٩)، وهو ضعيف الإسناد، وكأنه مختصر من الذى قبله، والله أعلم.

حديث آخر: قال أبو عيسى الترمذى فى كتاب الأحكام، حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ دَاوُدَ بْنِ يَزِيدٍ الْأَوْدِيِّ، عَنْ الْمَغِيرَةِ بْنِ شَيْبَلٍ، عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ مَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْيَمَنِ، فَلَمَّا سَرْتُ أَرْسَلْتُ فِي أَثَرِي فَرُدَّدْتُ، فَقَالَ: «أَتَذَرُنِي لَمْ بَعَثْتُ إِلَيْكَ؟ لَا تُصَيِّنَنَّ شَيْئًا بِغَيْرِ إِذْنِي فَإِنَّهُ غُلُولٌ»، «وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» لِهَذَا دَعَوْتُكَ، فَأَمَضَ لِعَمَلِكَ».

هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفى الباب عن عَدِيِّ بْنِ عَمِيرَةَ، وَبُرَيْدَةَ، وَالْمُسْتَوْدِ بْنِ شَدَادٍ، وَأَبِي حَمِيدٍ، وَابْنِ عَمْرِو ^(١٠).

(١) زيادة من جـ، ر، والطبرى وفى أ، و: «قسمان».

(٢) فى جـ، ر: «أصحاب».

(٣) تفسير الطبرى (٧/٣٥٨).

(٤) فى أ: «أجلس».

(٥) فى أ، و: «قال».

(٦) فى أ: «وسألوا».

(٧) المسند (٥/٤٢٣) وصحيح البخارى برقم (٢٥٩٧، ٧١٧٤) وصحيح مسلم برقم (١٨٣٢).

(٨) فى أ: «طرق».

(٩) المسند (٥/٤٢٤).

(١٠) سنن الترمذى برقم (١٣٣٥).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن عُلَيَّة، حدثنا أبو حيان يحيى بن سعيد التيمي، عن أبي زُرْعَةَ بن عُمَرَ بن جرير، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً، فذكر الغُلُولَ فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، ثم قال: «لَا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِئُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنَى. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لَا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِئُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهَا حَمْحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنَى. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لَا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِئُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفُقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنَى، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِئُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنَى. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، قَدْ أَبْلَغْتُكَ».

أخرجه من حديث أبي حيان، به (١).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن إسماعيل بن أبي خالد، حدثني قيس، عن عدى بن عُمَيْرَةَ الكندى قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْيُهَا النَّاسُ، مَنْ عَمِلَ لَنَا [مِنْكُمْ]» (٢) عملاً (٣)، فَكْتَمْنَا مِنْهُ (٤) مَخِيطًا فَمَا فَوْقَهُ فَهُوَ غُلٌّ يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». قال: فقال (٥) رجل من الأنصار أسود - قال مجالد: هو سعيد (٦) بن عباد - كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ، فقال: يا رسول الله، اقبل عني عملك. قال: «وَمَا (٧) ذَاكَ؟» قال: سمعتك تقول كذا وكذا. قال: «وَأَنَا أَقُولُ ذَاكَ» (٨) الْآنَ: مَنْ اسْتَعْمَلَنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجِئْ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ، فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَهُ. وَمَا نَهَى عَنْهُ انْتَهَى».

وكذا رواه مسلم، وأبو داود، من طرق عن إسماعيل بن أبي خالد، به (٩).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا أبو إسحاق الفزاري، عن ابن جُرَيْج، حدثني منبوذ، رجل من آل أبي رافع، عن الفضل بن عُبَيْدِ اللَّهِ (١٠) بن أبي رافع، عن أبي رافع قال: كان رسول الله ﷺ إذا صَلَّى الْعَصْرَ رُبَّمَا ذَهَبَ إِلَى بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ فَيَتَحَدَّثُ مَعَهُمْ حَتَّى يَنْحَدِرَ الْمَغْرِبُ (١١)، قال أبو رافع: فبينما رسول الله ﷺ مسرعاً إلى المغرب إذ مر بالبقيع فقال: «أَفْ لَكَ. أَفْ لَكَ» مرتين، فكبر (١٢) فى [ذرعى] (١٣) وتأخرت وظننت أنه يريدني، فقال: «مَالِكَ؟ امش» قال: قلت: أحدثت حدثاً يا رسول الله؟ قال: «وَمَا ذَاكَ؟» قلت: أَفْقَتَ بِي (١٤). قال: «لَا، وَلَكِنْ هَذَا قَبْرُ فَلَانٍ، بَعَثْتَهُ (١٥) سَاعِيًا عَلَى آلِ فَلَانٍ، فَعَلَّ نَمْرَةً فَدَرَعَ الْآنَ مِثْلَهُ مِنْ نَارٍ» (١٦).

حديث آخر: قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن سالم الكوفي المفلوج - وكان بمكة -

(١) المسند (٤٢٦/٢) وصحيح البخارى برقم (٣٠٧٣) وصحيح مسلم برقم (١٨٣١).

(٢) زيادة من ج، والمسند.

(٣) فى أ، و: «فى عمل».

(٤) فى ج: «من عمل منكم لنا فى عمل كتمان به».

(٥) فى ج، ر: «فقام».

(٦) فى أ، و: «سعد».

(٧) فى ج، أ: «فما».

(٨) فى أ، و: «ذلك».

(٩) المسند (١٩٢/٤) وصحيح مسلم برقم (١٨٣٣).

(١٠) فى ج، ر، أ: «عبد الله».

(١١) فى ج، ر، أ، و: «للمغرب».

(١٢) فى ج، ر، أ، و: «فليس».

(١٣) زيادة من ج، ر، أ، و: «فليس».

(١٤) فى ج، ر، أ، و: «فليس».

(١٥) فى ج، ر، أ، و: «فليس».

(١٦) فى ج، ر، أ، و: «فليس».

حدثنا عبيدة بن الأسود، عن القاسم بن الوليد، عن أبي صادق، عن ربيعة بن ناجد، عن عبادة بن الصامت، أن النبي ﷺ كان يأخذ الوبرة من جنب البعير من المغنم، ثم يقول: «مَالِي فِيهِ إِلَّا مِثْلُ مَا لَأَحَدِكُمْ، إِيَّاكُمْ وَالْغُلُولَ، فَإِنَّ الْغُلُولَ خَزَى عَلَى صَاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَدُوا الْخَيْطَ وَالْمَخِيطَ وَمَا فَوْقَ ذَلِكَ، وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْقَرِيبِ^(١) وَالْبَعِيدِ، فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ، فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، إِنَّهُ لَيَنْجِي اللَّهُ بِهِ مِنْ أَلْهَمٍ وَالْغَمِّ؛ وَأَقِيمُوا حُدُودَ اللَّهِ فِي الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَأَنَّهُمْ».

وقد روى ابنُ ماجة بعضه عن المفلوج، به^(٢).

حديث آخر: عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدّه قال: قال رسول الله ﷺ: «رُدُّوا الْخِيَاطَ^(٣) وَالْمَخِيطَ، فَإِنَّ الْغُلُولَ عَارٌ وَنَارٌ وَشَنَارٌ عَلَى أَهْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٤).

حديث آخر: قال أبو داود: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن مُطَرِّف، عن أبي الجهم، عن أبي مسعود الأنصاري قال: بعثنى رسول الله ﷺ ساعياً ثم قال: «انْطَلِقْ - أبا مسعود - لَا أَلْفِينِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَجِيءُ عَلَى ظَهْرِكَ بَعِيرٌ مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ لَهُ رُغَاءٌ قَدْ غَلَّتْهُ». قال: إذا لا أنطلق. قال: «إِذَا لَا أَكْرِهْكَ». تفرد به أبو داود^(٥).

حديث آخر: قال أبو بكر بن مردويه: أنبأنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، أنبأنا محمد بن عثمان ابن أبي شيبة، أنبأنا عبد الحميد بن صالح أنبأنا أحمد بن أبان، عن علقمة بن مرثد، عن ابن^(٦) بُرَيْدَةَ، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: إِنَّ الْحَجَرَ لَيُرْمَى بِهِ [فِي] ^(٧) جَهَنَّمَ فِيَهْوَى سَبْعِينَ خَرِيفاً مَا يَبْلُغُ قَعْرَهَا، وَيُؤْتَى بِالْغُلُولِ فَيَقْدَفُ مَعَهُ، ثُمَّ يُقَالُ لِمَنْ غَلَّ أَتَتْ بِهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: «وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٨).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم^(٩) بن القاسم، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثني سماك الحنفي أبو زُمَيْل، حدثني عبد الله بن عباس، حدثني عمر بن الخطاب قال: لما كان يومُ خَيْبَرٍ أَقْبَلَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: فلان شهيد، وفلان شهيد. حتى أتوا على رجل فقالوا: فلان شهيد؟ فقال رسول الله ﷺ: «كَلَّا، إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا - أَوْ عَبَاءَةً». ثم قال رسول الله ﷺ: «يَا ابْنَ الْخَطَّابِ اذْهَبْ فَنَادِ فِي النَّاسِ: إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ». قال: فخرجت فناديت: ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون.

(١) في و: «بالقريب».

(٢) المسند (٣٣٠/٥) وهذا الحديث من زيادات عبد الله بن أحمد على مسند أبيه، وسنن ابن ماجة برقم (٢٥٤٠).

(٣) في ر: «المخياط».

(٤) المسند (١٨٤/٢).

(٥) سنن أبي داود برقم (٢٩٤٧).

(٦) في ج، ر، أ: «أبي».

(٧) زيادة من ج، ر، والمعجم الكبير.

(٨) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٢/٢١) والبيهقي في شعب الإيمان برقم (٤٣٣٤) من طريق محمد بن أبان عن علقمة بن مرثد به، وفي إسناده محمد بن أبان الجعفي ضعيف.

(٩) في ج: «هشام».

وكذا رواه مسلم، والترمذى من حديث عكرمة بن عمار به. وقال الترمذى: حسن صحيح^(١).

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا سعيد بن يحيى الأموى، حدثنا أبى، حدثنا يحيى بن سعيد، عن نافع، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ بعث سعد بن عبادة مُصدقاً، فقال: «يَا سَعْدُ أَنْ تَجِيءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِبَعِيرٍ تَحْمِلُهُ لَهُ رُغَاءٌ» قَالَ: لَا آخِذَهُ وَلَا أَجِيءُ بِهِ. فأعفاه. ثم رواه من طريق عبيد الله^(٢)، عن نافع، به، نحوه^(٣).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا عبد العزيز بن محمد، حدثنا صالح بن محمد بن زائدة، عن سالم بن عبد الله، أنه كان مع مسَلَمَةَ بن عبد الملك فى أرض الروم، فوجد فى متاع رجل غُلُول. قال: فسأل سالم بن عبد الله فقال: حدثنى أبى عبد الله، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ وَجَدْتُمْ فى مَتَاعِهِ غُلُولاً فَأَحْرِقُوهُ»: قال: وأحسبه قال: واضربوه قال: فأخرج متاعه فى السوق، فوجد فيه مصحفاً، فسأل سالم: بعه وتصدق بثمانه.

وهكذا رواه على بن المدينى، وأبو داود، والترمذى من حديث عبد العزيز بن محمد الأتدراوردى^(٤) - زاد أبو داود: وأبو إسحاق الفزارى - كلاهما عن أبى واقد الليثى الصغير صالح بن محمد بن زائدة، به^(٥).

وقد قال على بن المدينى، رحمه الله، والبخارى وغيرهما: هذا حديث منكر من رواية أبى واقد هذا. وقال الدارقطنى: الصحيح أنه من فتوى سالم فقط، وقد ذهب إلى القول بمقتضى هذا الحديث الإمام [أحمد]^(٦) بن حنبل، رحمه الله، ومن تابعه من أصحابه، وخالفه أبو حنيفة، ومالك، والشافعى، والجمهور، فقالوا: لا يحرق متاع الغال، بل يعزر تعزير مثله. وقال البخارى: وقد امتنع رسول الله ﷺ من الصلاة على الغال، ولم يحرق متاعه، والله أعلم.

طريق أخرى عن عمر: قال ابن جرير: حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، حدثنا عبد الله ابن وهب، أخبرنى عمرو بن الحارث: أن موسى بن جُبَيْر حدثه: أن عبد الله بن عبد الرحمن بن الحباب الأنصارى حدثه: أن عبد الله بن أنيس حدثه: أنه تذاكر هو وعمر بن الخطاب يوماً الصدقة فقال: ألم تسمع رسول الله ﷺ حين ذكر غلول الصدقة: «مَنْ غَلَّ مِنْهَا بَعِيراً أَوْ شَاةً، فَإِنَّهُ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»؟ قال عبد الله بن أنيس: بلى.

ورواه ابن ماجه، عن عمرو بن سَوَّاد، عن عبد الله بن وهب، به^(٧).

ورواه الأموى عن معاوية، عن أبى إسحاق، عن يونس بن عبيد، عن الحسن قال: عقوبة الغال

(١) المسند (١/٣٠) وصحيح مسلم برقم (١١٤) وسنن الترمذى برقم (١٥٧٤).

(٢) فى ج، ر، أ: «عبد الله».

(٣) تفسير الطبرى (٧/٣٦١).

(٤) فى ج، ر: «الدراوردى».

(٥) المسند (١/٢٢) وسنن أبى داود برقم (٢٧١٣، ٢٧١٤) وسنن الترمذى برقم (١٤٦١) وقال: «حديث غريب».

(٦) زيادة من ج، ر، أ.

(٧) تفسير الطبرى (٧/٣٦٠) وسنن ابن ماجه برقم (١٨١٠) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/٥٦): «هذا إسناد فيه مقال، موسى بن جبیر قال فيه ابن حبان فى الثقات: يخطئ ويخالف، وقال الذهبي فى الكاشف: ثقة، ولم أر لغيرهما فيه كلاماً، وعبد الله بن عبد الرحمن ذكره ابن حبان فى الثقات، وباقي رجال الإسناد ثقات».

أن يخرج رحله ويحرق على ما فيه .

ثم روى عن معاوية، عن أبي إسحاق، عن عثمان بن عطاء، عن أبيه، عن علي [رضى الله عنه]^(١) قال: الغال يجمع رحله فيحرق ويجلد دون حد [المملوك، ويحرم نصيبه، وخالفه أبو حنيفة ومالك والشافعي والجمهور فقالوا: لا يحرق متاع الغال، بل يعزر تعزير مثله، وقد قال البخاري: وقد امتنع رسول الله ﷺ من الصلاة على الغال ولم يحرق متاعه، والله أعلم]^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، أنبأنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن خمير^(٣) بن مالك قال: أمر بالمصاحف أن تُغَيَّرَ قال: فقال ابن مسعود: من استطاع منكم أن يغُلَّ مصحفاً^(٤) فليغُلَّهُ، فإنه من غُلَّ شيئاً جاء به يوم القيامة، ثم قال^(٥): قرأت من فم رسول الله ﷺ سبعين سورة، أفأترك ما أخذت من في رسول الله ﷺ؟^(٦).

وروى وكيع في تفسيره عن شريك، عن إبراهيم بن مهاجر، عن إبراهيم، قال: لما أمر بتحريق^(٧) المصاحف قال عبد الله: يأبها الناس، غُلُّوا المصاحف، فإنه من غُلَّ يأت بما غُلَّ يوم القيامة، ونعم الغُلُّ المصحف. يأتي به أحدكم يوم القيامة^(٨).

وقال [أبو]^(٩) داود عن سمرة بن جندب قال: كان رسول الله ﷺ إذا غنم غنيمة أمر بلالا فينادي في الناس، فَيَجِئُونَ بغنائمهم يخمسه ويُقسمه، فجاء رجل يوما بعد النداء بزمام من شعر فقال: يا رسول الله، هذا كان مما^(١٠) أصبنا^(١١) من الغنيمة. فقال: «أَسَمِعْتَ بلالاً يُنادي ثلاثاً؟»، قال: نعم. قال: «فَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَجِيءَ بِهِ؟» فاعتذر إليه، فقال: «كَلَّا، أَنْتَ تَجِيءُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَنْ أَقْبَلَهُ مِنْكَ»^(١٢).

وقوله: «أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» أي: لا يستوى من اتبع رضوان الله فيما شرعه، فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه وأجير من وبيل عقابه، ومن استحق غضب الله وألزم به، فلا محيد له عنه، ومأواه يوم القيامة جهنم وبئس المصير.

وهذه لها نظائر في القرآن كثيرة كقوله تعالى: «أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى» [الرعد: ١٩] وكقوله: «أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ»^(١٣) ﴿[القصص: ٦١].

(٢) زيادة من و.

(١) زيادة من ر.

(٣) في هـ، جـ، ر: «جبير» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه من المسند (١/٤١٤). وانظر تعليق أحمد شاكر على الحديث رقم (٣٩٢٩).

(٤) في جـ، ر، أ، و: «مصحفه».

(٥) في جـ، ر: «قال: ثم قال».

(٦) المسند (١/٤١٤) ورواه ابن أبي داود في المصاحف (ص ٢١) من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق به.

(٧) في أ، و: «بتمزيق».

(٨) ورواه ابن أبي داود في المصاحف (ص ٢٢) من طريق وكيع به.

(٩) زيادة من جـ، ر.

(١٠) في جـ، ر، أ: «فيما».

(١١) في ر، أ: «أصبناه».

(١٢) رواه أبو داود في سننه برقم (٢٧١٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وقول الحافظ ابن كثير - رحمه الله - بأنه عن سمرة بن جندب وهم.

وقد ذكر هذا الحديث الحافظ المزني من مسند عبد الله بن عمرو في كتابه القيم «تحفة الأشراف».

(١٣) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفي هـ: «الآية».

ثم قال: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾. قال الحسن البصري ومحمد بن إسحاق: يعنى: أهل الخير وأهل الشر درجات، وقال أبو عبيدة والكسائي: منازل، يعنى: متفاوتون فى منازلهم ودرجاتهم فى الجنة ودرجاتهم فى النار، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ الآية [الأنعام: ١٣٢]؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِصِرِّهِمْ بَاطِنٌ﴾ أى: وسيؤفهم إياها، لا يظلمهم خيرا ولا يزيدهم شرا، بل يجازى كلا بعمله.

وقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أى: من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ^(١) لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١] أى: من جنسكم. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فهذا أبلغ فى الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم، بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته فى فهم الكلام عنه، ولهذا قال: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ يعنى: القرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أى: يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر لتزكو نفوسهم وتطهر من الدنس والخبث الذى كانوا متلبسين به فى حال شركهم وجاهليتهم^(٢) ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ يعنى: القرآن والسنة ﴿وَأِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أى: من قبل هذا الرسول ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى: لفى غى وجهل ظاهر جلى بين لكل أحد.

﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَانَا هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمًا أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨).

يقول تعالى: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ﴾ وهى ما أصيب منهم يوم أحد من قتل السبعين منهم ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾. يعنى: يوم بدر، فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلا وأسروا سبعين أسيرا ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا﴾ أى: من أين جرى علينا هذا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ﴾.

(١) فى ج، ر، أ: «جعل».

(٢) فى أ: «مشرکهم وجاهليتهم».

قال ابن أبي حاتم: ذكره أبي، أنبأنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا قُرَادُ أَبُو^(١) نوح، حدثنا عكرمة ابن عمار، حدثنا سَمَاكُ الحنفى أبو زُمَيْل، حدثني ابن عباس، حدثني عُمَرُ بن الخطاب قال: لما كان يومُ أحد من العام المقبل، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون وقر أصحاب رسول الله ﷺ عنه، وكُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ وَهُسِمَتْ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ أَصَابَكُمْ مِصْبِيَّةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ بأخذكم الفداء.

وهكذا رواه الإمام أحمد^(٢)، عن عبد الرحمن بن غَزْوَانَ، وهو قُرَادُ أَبُو نوح، بإسناده ولكن بأطول منه، وكذا قال الحسن البصري.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا إسماعيل بن عُلَيَّة عن ابن عون، عن محمد عن عبيدة (ح) قال سُئِدَ - وهو حسين -: وحدثني حجاج عن جرير، عن محمد، عن عبيدة، عن علي، رضى الله عنه، قال: جاء جبريل، عليه السلام، إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، إن الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الأسارى، وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين، إما أن يُقْدَمُوا فتضرب^(٣) أعناقهم، وبين أن يأخذوا الفداء، على أن يُقْتَلَ مِنْهُمْ عِدَّتُهُمْ. قال: فدعا رسول الله ﷺ الناس فذكر ذلك لهم، فقالوا: يا رسول الله، عشايرنا وإخواننا، ألا نأخذ فداءهم فنتقوى^(٤) به على قتال عدونا، ويستشهد منا عدتُهم، فليس في ذلك ما نكره؟ قال: فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلا، عدة أسارى أهل بدر.

وهكذا رواه الترمذى والنسائى من حديث أبي داود الحفْزى، عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن سفيان بن سعيد، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، به. ثم قال الترمذى: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي زائدة. وروى أبو أسامة عن هشام نحوه. وروى عن ابن سيرين عن عبيدة، عن النبي ﷺ مرسلًا^(٥).

وقال محمد بن إسحاق، وابن جريج، والربيع بن أنس، والسدى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أى: بسبب عصيانكم رسول الله ﷺ حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتكم، يعنى بذلك الرماة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى: ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه^(٦).

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ﴾ أى: فراركم بين يدي عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحتهم لآخرين، كان بقضاء الله وقدره، وله الحكمة في ذلك. [وقوله]^(٧): ﴿وَلْيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَاقَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي

(١) فى أ، و: «بن».

(٢) المسند (١/ ٣٠، ٣١).

(٣) فى ج، أ، و: «فيضرب».

(٤) فى ر: «فنتقوى».

(٥) تفسير الطبرى (٧/ ٣٧٦) وسنن الترمذى برقم (١٥٦٧) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٦٦٢).

(٦) انظر: تفسير الطبرى (٧/ ٣٧٤).

(٧) زيادة من ج، ر.

سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ ﴿١﴾ يعني [بذلك] (١) أصحاب عبد الله بن أبي ابن سلول الذين رجعوا معه في (٢) أثناء الطريق، فاتبعهم من اتبعهم من المؤمنين يحرضونهم على الإياب والقتال والمساعدة؛ ولهذا قال: ﴿أَوْ ادْفَعُوا﴾. قال ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، والضحاك، وأبو صالح، والحسن، والسدي: يعني (٣) كثروا سواد المسلمين. وقال الحسن بن صالح: ادفعوا بالدعاء. وقال غيره: رابطوا. فتعللوا قائلين: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ قال مجاهد: يعنون لو نعلم أنكم تلقون حربا لجئناكم، ولكن لا تلقون قتالا.

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، ومحمد (٤) بن يحيى بن حبان، وعاصم بن عمر بن قتادة، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، وغيرهم من علمائنا، كلهم قد حدث قال: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - يعني حين خرج إلى أحد - في ألف رجل من أصحابه، حتى إذا كان بالشَّوْط - بين أحد والمدينة - انحاز (٥) عنه عبد الله بن أبي بن سلول بثلاث الناس، وقال (٦): أطاعهم فخرج وعصاني، ووالله ما ندرى علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس، فرجع بمن (٧) اتبعه من الناس من قومه من أهل النفاق وأهل الريب، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حَرَام أَخُو بَنِي سَكْمَةَ، يقول: يا قوم، أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عندما حضر من عدوكم، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكننا لا نرى أن يكون قتال. فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم، قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغنى (٨) الله عنكم. ومضى رسول الله ﷺ (٩).

قال الله تعالى: ﴿هُمُ لِلْكَفْرِ يَوْمٌ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾: استدلوا به على أن الشخص قد تنقلب به الأحوال، فيكون في حال أقرب إلى الكفر، وفي حال أقرب [إلى] (١٠) الإيمان؛ لقوله: ﴿هُمُ لِلْكَفْرِ يَوْمٌ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾.

ثم قال: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: أنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته، ومنه قولهم هذا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ فإنهم يتحققون أن جندا من المشركين قد جاءوا من بلاد بعيدة، يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من سراتهم يوم بدر، وهم أضعاف المسلمين، أنه كائن بينهم قتال (١١) لا محالة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾. وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ أى: لو سمعوا من مشورتنا عليهم فى القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل. قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: إن كان القعود يَسْلَمُ (١٢) به الشخص من القتل والموت، فينبغي، أنكم لا تموتون، والموت لا بد آت إليكم ولو كنتم فى

(١) زيادة من ج، ر.

(٣) فى أ: «بعد».

(٢) فى أ، و: «من».

(٦) فى أ، و: «فقال».

(٥) فى ج، ر، أ، و: «انحذل».

(٤) فى ر: «وعن محمد».

(٨) فى أ: «يستغنى».

(٧) فى ر: «من».

(٩) سيرة ابن إسحاق (ظاهريه ق ١٦٦-١٦٨) ورواه الطبري فى تفسيره (٣٧٨/٧) من طريق ابن إسحاق به.

(١٢) فى ر: «القول يدفع».

(١١) فى ر: «قتالا».

(١٠) زيادة من ج، ر.

بروج مُشَيِّدَةً، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين.

قال مجاهد، عن جابر بن عبد الله: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبى سلول.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥) ﴿

يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا فى هذه الدار فإن أرواحهم حية مرزوقة فى دار القرار.

قال ابن جرير: حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا عمر بن يونس، عن عكرمة، حدثنا ابن إسحاق ابن أبى طلحة، حدثنى أنس بن مالك فى أصحاب النبى ﷺ الذين (١) أرسلهم نبى الله ﷺ إلى أهل بئر معونة قال: لا أدرى أربعين أو سبعين. وعلى ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفرى، فخرج أولئك النفر من أصحاب رسول الله ﷺ، حتى أتوا (٢) غارا مشرفا على الماء فقعدوا (٣) فيه، ثم قال بعضهم لبعض: أيكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ أهل هذا الماء؟ فقال - أراه ابن ملحان الأنصارى -: أنا أبلغ رسالة رسول الله ﷺ. فخرج حتى أتى حيا (٤) [منهم] (٥) فاحتبأ أمام البيوت، ثم قال: يا أهل بئر معونة، إني رسول رسول الله إليكم، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، فآمنوا بالله ورسوله. فخرج إليه رجل من كسر البيت برمح فضرب به فى جنبه حتى خرج من الشق الآخر. فقال: الله أكبر، فزت ورب الكعبة. فاتبعوا أثره حتى أتوا أصحابه فى الغار فقتلهم أجمعين عامر بن الطفيل. وقال إسحاق: حدثنى أنس بن مالك: أن الله [تعالى] (٦) أنزل فيهم قرآنا: بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه ثم نسخت فرفعت بعد ما قرأناه زمنا (٧) وأنزل الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (٨).

وقد قال الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري فى صحيحه: حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق قال: سألنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فقال: أما إننا قد سألنا عن ذلك فقال: «أرواحهم فى جوف طير خضر لها فتاديل معلقة بالعرش، تشرح من الجنة» (٩).

(١) فى أ: «الذى». (٢) فى ر: «حتى إذا أتوا». (٣) فى ج، ر: «قعدوا».

(٤) فى هـ، ج، ر، أ، و: «حول»، والمثبت من الطبرى. (٥) زيادة من ج، ر. (٦) زيادة من أ.

(٧) فى أ، و: «زمانا».

(٨) تفسير الطبرى (٧/ ٣٩٢، ٣٩٣) ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٨٠١) من طريق همام عن إسحاق بن أبى طلحة به.

(٩) فى أ.: «أهل الجنة».

حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطْلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اِطْلَاعَةً فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ فَقَالُوا: أَيْ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؟ فَقَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ^(١) يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسَالُوا قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نَقْتُلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تَرْكُوا^(٢).

وقد روى نحوه عن أنس وأبي سعيد.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد، حدثنا ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ، لَهَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ، يَسْرُهَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا إِلَّا الشَّهِيدَ فَإِنَّهُ يَسْرُهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ».

انفرد^(٣) به مسلم من طريق حماد^(٤) (٥).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عبد الله المديني، حدثنا سفيان، عن^(٦) محمد بن علي بن ربيعة السلمى، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر قال: قال لى رسول الله ﷺ: «أَمَا عَلِمْتَ^(٧) أَنْ اللَّهَ أَحْيَا أَبَاكَ فَقَالَ لَهُ: تَمَنَّ عَلَىَّ، فَقَالَ لَهُ: أَرَدْتُ إِلَى الدُّنْيَا، فَأُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى، فَقَالَ: إِنِّي قَضَيْتُ الْحُكْمَ أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ».

انفرد^(٨) به أحمد من هذا الوجه^(٩). وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما أن أبا جابر - وهو عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصارى رضى الله عنه - قتل يوم أحد شهيدا. قال البخارى: وقال أبو الوليد، عن شعبة عن ابن المنكدر قال: سمعت جابرا قال: لما قُتِلَ أبى جعلت أبكى وأكشف الثوب عن وجهه، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهونى^(١٠)، والنبي ﷺ لم ينه، وقال النبي ﷺ: «لَا تَبْكُهُ^(١١) - أَوْ: مَا تَبْكِيهِ^(١٢) - مَا زَالَتِ الْمَلَائِكَةُ تَظْلُهُ بِأَجْنَحَتِهَا حَتَّى رُفِعَ». وقد أسنده هو ومسلم والنسائى من طريق آخر^(١٣) عن شعبة عن محمد بن المنكدر عن جابر قال: لما قتل أبى يوم أحد، جعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكى... وذكر تمامه بنحوه^(١٤).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن ابن إسحاق، حدثنا إسماعيل ابن أمية بن عمرو بن سعيد، عن أبى الزبير المكي، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا أُصِيبَ^(١٥) إِخْوَانُكُمْ بِأَحَدٍ جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خَضِرٍ، تَرُدُّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلٍ مِنْ ذَهَبٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طَيْبَ مَشْرِبِهِمْ

(١) فى أ: «لم».

(٢) صحيح مسلم برقم (١٨٨٧).

(٣) فى و: «نفرد».

(٤) فى أ: «حماد به».

(٥) المسند (١٢٦/٣) وصحيح مسلم برقم (١٨٧٧) لكن من طريق حميد وقتادة عن أنس به.

(٦) فى ج، ر، أ، و: «حدثنا».

(٧) فى ج، ر، أ، و: «أعلمت».

(٨) فى أ، و: «نفرد».

(٩) المسند (٣٦١/٣).

(١٠) فى و: «ينهونى».

(١١) فى أ، و: «تبكيه» وهو الصحيح.

(١٢) فى أ، و: «ما يبكيه».

(١٣) فى أ، و: «من طرق أخرى».

(١٤) صحيح البخارى برقم (٤٠٨٠) وصحيح مسلم برقم (٢٤٧١) وسنن النسائى (١٣/٤).

(١٥) فى أ: «أصيب».

وَمَا كَلَّهِمْ، وَحَسُنَ مَنْقَلِبُهُمْ^(١) قَالُوا: يَا لَيْتَ إِنْخَوَانَنَا يَعْلَمُونَ مَا صَنَعَ اللَّهُ لَنَا، لَثَلَا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا يَنْكَلُوا عَنِ الْحَرْبِ فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ .. وما بعدها.

هكذا رواه [الإمام]^(٢) أحمد، وكذا رواه ابن جرير عن يونس، عن ابن وهب، عن إسماعيل بن عيَّاش^(٣) عن محمد بن إسحاق به^(٤). ورواه أبو داود والحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن إدريس عن محمد بن إسحاق، عن إسماعيل بن أمية، عن أبي الزبير، عن سعيد بن جبَّير، عن ابن عباس فذكره، وهذا أثبت^(٥).

وكذا رواه سفيان الثوري، عن سالم الألفطس، عن سعيد بن جبَّير عن ابن عباس. وروى الحاكم في مستدركه من حديث أبي إسحاق الفزاري، عن سفيان^(٦)، عن إسماعيل^(٧) بن أبي خالد، عن سعيد بن جبَّير، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في حمزة وأصحابه: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه^(٨).

وكذا قال قتادة، والربيع، والضحاك: إنها نزلت في قتلى أحد. حديث آخر: قال أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا هارون بن سليمان^(٩)، أنبأنا علي بن عبد الله المدني، أنبأنا موسى بن إبراهيم بن كثير بن بشير بن الفاكه الأنصاري، سمعت طلحة بن خراش بن عبد الرحمن بن خراش بن الصمة الأنصاري، قال: سمعت جابر بن عبد الله قال: نظر إلى رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «يا جابر، مَالِي أَرَأَكَ مُهْتَمًا؟» قال: قلت: يا رسول الله، استشهد أبي وترك^(١٠) دينا وعيالا. قال: فقال: «أَلَا أُخْبِرُكَ؟ مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَإِنَّهُ كَلَّمَ أَبَاكَ كَفَّاحًا - قال علي: الكفاح: المواجهة - فَقَالَ: سَلْنِي أُعْطِكَ. قَالَ: أَسْأَلُكَ أَنْ أَرُدَّ إِلَى الدُّنْيَا فَأَقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً فَقَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّهُ سَبَقَ مِنِّي الْقَوْلُ أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ. قَالَ: أَيْ رَبِّ: فَأَبْلَغَ مِنْ وَرَائِي. فَأَنْزَلَ اللَّهُ [عَزَّ وَجَلَّ]^(١١): ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ الآية^(١٢).

ثم رواه من طريق أخرى عن محمد بن سليمان بن سبيط الأنصاري، عن أبيه، عن جابر، به نحوه. وكذا رواه البيهقي في «دلائل النبوة» من طريق علي بن المدني، به^(١٣).

(١) في أ: «مقلبهم». (٢) زيادة من أ. (٣) في أ: «عباس».

(٤) المسند (٢٦٥/١) وتفسير الطبري (٣٨٥/٧).

(٥) سنن أبي داود برقم (٢٥٢٠) والمستدرک (٢٩٧/٢) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي.

(٦) في ر: «أبي سفيان» وهو خطأ. انظر: المستدرک (٣٨٧/٢). (٧) في و: «أبي إسماعيل» وهو خطأ.

(٨) المستدرک (٣٨٧/٢).

(٩) في و: «سليم». (١٠) في أ: «وترك عليه». (١١) زيادة من ج، أ.

(١٢) في أ، و: «حتى أنفذ الآية».

(١٣) دلائل النبوة للبيهقي (٢٩٩/٣).

وقد رواه البيهقي أيضا من حديث أبي عبادة الأنصاري، وهو عيسى بن عبد الرحمن، إن شاء الله، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة [رضي الله عنها]^(١) قالت: قال النبي ﷺ لجابر: «يَا جَابِرُ، أَلَا أُبَشِّرُكَ؟ قَالَ: بَلَى. بَشَّرَكَ اللَّهُ بِالْخَيْرِ. قَالَ^(٢): «شَعَرْتُ أَنَّ اللَّهَ أَحْيَا أَبَاكَ فَقَالَ: تَمَنَّ عَلَى عَبْدِي مَا شِئْتَ أَعْطَكَه. قَالَ: يَا رَبِّ، مَا عَبْدُكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ. أَتَمَنَّى عَلَيْكَ أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى الدُّنْيَا فَأُقَاتِلَ مَعَ نَبِيِّكَ، وَأُقَاتَلَ فِيكَ مَرَّةً أُخْرَى. قَالَ: إِنَّهُ سَلَفَ مِنِّي أَنَّهُ إِلَيْهَا [لَا]^(٤) يَرْجِعُ^(٥)».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثنا الحارث بن فضيل الأنصاري، عن محمود بن لبيد، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «الشُّهَدَاءُ عَلَى بَارِقٍ نَهْرٍ بِيَابِ الْجَنَّةِ، فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا». تفرد^(٦) به أحمد، وقد رواه ابن جرير عن أبي كريب حدثنا عبد الرحيم بن سليمان، وعبد^(٧) عن محمد بن إسحاق، به. وهو إسناده جيد^(٨).

وكان الشهداء أقسام: منهم من تسرح^(٩) أرواحهم في الجنة، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة، وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر فيجتمعون هنالك، ويغدى عليهم برزقهم هناك ويراح، والله أعلم.

وقد روينا في مسند الإمام أحمد حديثا فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضا فيها، وتأكل من ثمارها، وترى ما فيها من النضرة والسرور، وتشاهد ما أعدّه الله لها من الكرامة، وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة؛ فإن الإمام أحمد، رحمه الله، رواه عن [الإمام]^(١٠) محمد بن إدريس الشافعي، رحمه الله، عن مالك بن أنس الأصبحي، رحمه الله، عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَلْقَى^(١١) فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يُرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ^(١٢)». قوله: «يلقى»^(١٣)، أى: يأكل^(١٤).

وفى هذا الحديث: «إِنَّ رُوحَ الْمُؤْمِنِ تَكُونُ عَلَى شَكْلِ طَائِرٍ فِي الْجَنَّةِ». وأما أرواح الشهداء، فكما تقدم في حواصل طير خضر، فهي كالكواكب^(١٥) بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين فإنها تطير بأنفسها، فنسأل الله الكريم المنان أن يثبتنا^(١٦) على الإيمان.

(١) زيادة من ر. (٢) فى ج، أ: «قال: قال».

(٣) فى ج، ر، أ، و: «فاقتل».

(٤) زيادة من ج، ر، ودلائل النبوة.

(٥) دلائل النبوة للبيهقي (٢٩٨/٣).

(٦) فى أ: «انفرد». (٧) فى ج، ر: «عبيدة».

(٨) المسند (٢٦٦/١) وتفسير الطبرى (٣٨٧/٧).

(٩) فى ج: «يسرح». (١٠) زيادة من أ.

(١١) فى ج، ر: «تلقى». (١٢) المسند (٤٥٥/٣).

(١٣) فى ج، ر: «تلقى»، وفى أ: «يتلقى». (١٤) فى ج: «تأكل».

(١٥) فى ج، ر: «كالراكب». (١٦) فى و: «يثبتنا».

وقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١). أى: الشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله أحياء عند الله، وهم فرحون^(٢) بما هم فيه من النعمة والغبطة، ومستبشرون^(٣) بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم فى سبيل الله أنهم يقدمون عليهم، وأنهم لا يخافون مما أمامهم ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم.

قال محمد بن إسحاق ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ أى: ويسرون بلحوق من خلفهم^(٤) من إخوانهم على ما مضوا عليه من جهادهم؛ ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذى أعطاهم.

[و]^(٥) قال السدى: يؤتى الشهيد بكتاب فيه: «يَقْدَمُ عَلَيْكَ فَلَانٌ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، وَيَقْدَمُ عَلَيْكَ فَلَانٌ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، فَيَسِّرُ بِذَلِكَ كَمَا يَسِّرُ أَهْلُ الدُّنْيَا بِقُدُومِ غِيَابِهِمْ»^(٦).

وقال سعيد بن جبيرة: لَمَّا دخلوا الجنة وראوا ما فيها من الكرامة للشهداء قالوا: ياليت إخواننا الذين فى الدنيا يعلمون ما عرفناه من الكرامة، فإذا شهدوا للقتال^(٧) باشروها بأنفسهم، حتى ويستشهدوا فيصيبوا ما أصبنا من الخير، فأخبر رسول الله ﷺ بأمرهم وما هم فيه من الكرامة، وأخبرهم - أى ربهم - [أنى]^(٨) قد أنزلت على نبيكم وأخبرته بأمركم، وما أنتم فيه، فاستبشروا بذلك، فذلك قوله: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآية.

وقد ثبت فى الصحيحين عن أنس، رضى الله عنه، فى قصة أصحاب بئر معونة السبعين من الأنصار، الذين قتلوا فى غداة واحدة، وقنت رسول الله ﷺ على الذين قتلوهم، يدعو عليهم ويلعنهم، قال أنس: ونزل فيه قرآن قرأناه حتى رفع: «أَنْ بَلَّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا أَنَّا لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَأَرْضَانَا»^(٩).

ثم قال: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: قال محمد بن إسحاق: استبشروا وسرّوا لما عاينوا من وفاء الموعد وجزيل الثواب.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم، سواء الشهداء وغيرهم، وقلما ذكر الله فضلا ذكر^(١٠) به الأنبياء وثوابا أعطاهم إلا ذكر ما أعطى الله المؤمنين من بعدهم.

وقوله: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾: هذا كان يوم «حمراء الأسد»، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين كروا راجعين إلى بلادهم، فلما استمروا^(١١) فى سيرهم تَنَدَّمُوا لم لا تَمَّمُوا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة. فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعبهم ويرهبهم أن بهم قوة وجلدا، ولم يأذن لأحد سوى من حضر الواقعة يوم أحد، سوى جابر بن عبد الله رضى الله عنه - لما سنذكره - فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان طاعة لله [عز وجل]^(١٢) ولرسوله ﷺ.

(١) زيادة فى ج، ر، أ، و، وفى هـ: «إلى آخر الآية».

(٢) فى ج، ر، أ: «ويستبشرون». (٤) فى ج، ر، أ، و: «لحقهم».

(٥) زيادة من ج، ر، أ، و. (٦) فى ج، ر، أ، و: «غايهم».

(٧) فى أ، و: «القتال».

(٨) زيادة من ج، ر. (٩) صحيح البخارى برقم (٢٨٠١، ٤٠٩٥) وصحيح مسلم برقم (٦٧٧).

(١٠) فى ج، ر: «ذكرته». (١١) فى أ: «استقروا».

(١٢) زيادة من و.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو، عن عكرمة قال: لما رجع المشركون عن أحد قالوا: لا محمدا قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، بشما^(١) صنعتهم، ارجعوا. فسمع رسول الله ﷺ، فندب المسلمين فانتدبوا حتى بلغ حمراء الأسد - أو: بثر أبي عيينة^(٢) - الشك من سفيان - فقال المشركون: نرجع من قابل. فرجع رسول الله ﷺ، فكانت تعد^(٣) غزوة، فأنزل^(٤) الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

ورواه ابن مردويه من حديث محمد بن منصور، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس فذكره^(٥).

وقال محمد بن إسحاق: كان يوم أحد يوم السبت للنصف من شوال، فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال، أذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو، وأذن مؤذنه ألا يخرج^(٦) معنا أحد إلا أحد حضر يومنا بالأمس. فكلمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام فقال: يا رسول الله، إن أبي كان خلفني على أخوات لي سبع وقال: يا بُنَيَّ، إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن، ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسي، فتخلف على أخواتك، فتخلفت عليهن، فأذن له رسول الله ﷺ، فخرج معه. وإنما خرج رسول الله ﷺ مُرهباً للعدو، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يؤهّنهم عن عدوهم.

قال ابن إسحاق: حدثني^(٧) عبد الله بن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبي السائب مولى عائشة بنت عثمان؛ أن رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ من بني عبد الأشهل، كان شهد أحدا قال: شهدت أحدا مع رسول الله ﷺ أنا وأخي^(٨)، فرجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو، قلت لأخي - أو قال^(٩) لي -: أتفتونا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ والله ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقیل، فخرجنا مع رسول الله ﷺ، وكنت أيسر جراحا^(١٠) منه، فكان إذا غلب حملته عتبة ومشى عتبة حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون^(١١).

وقال البخاري: حدثنا محمد بن سلام، حدثنا أبو معاوية، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(١٢)، قالت^(١٣) لعروة: يا ابن أختي، كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر، رضي الله عنهما، لما أصاب نبي الله ﷺ ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا فقال: «مَنْ يَرْجِعُ فِي إِيْرِهِمْ؟» فانتدب منهم سبعون رجلا، فيهم أبو بكر والزبير، رضي الله عنهما.

(١) في ج: «وئش». (٢) في ج، أ، و: «عتبة». (٣) في و: «بعد».

(٤) في ج، ر، أ، و: «وأنزل».

(٥) ورواه النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٠٨٣) من طريق سفيان عن عمرو به.

(٦) في ج، ر، أ، و: «يخرجن». (٧) في ر، أ، و: «فحدثني».

(٨) في ج، ر، أ، و: «أخ لي».

(٩) في ر: «وقال». (١٠) في ج، ر، أ: «جرحا».

(١١) السيرة النبوية لابن هشام (١٠١/٢) وتفسير الطبري (٣٩٩/٧، ٤٠٠) كلاهما من طريق ابن إسحاق به.

(١٢) زيادة من ج، ر، أ، و، وفي هـ: «الآية». (١٣) في أ: «قال».

هكذا رواه البخارى منفردا به، بهذا السياق. وهكذا رواه الحاكم فى مستدركه عن الأصم، عن عباس الدورى، عن أبى النضر، عن أبى سعيد المؤدب، عن هشام بن عروة، به، ثم قال: صحيح ولم يخرجاه. كذا قال^(١).

ورواه أيضا من حديث إسماعيل بن أبى خالد، عن البهي، عن عروة قال: قالت لى عائشة: يا بُنى، إن أباك من الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه^(٢).

وروى ابن ماجه، عن هشام بن عمار، وهذبة بن عبد الوهاب عن سفيان بن عيينة، عن هشام ابن عروة به وهكذا رواه سعيد بن منصور وأبو بكر الحميدى فى مسنده عن سفيان، به^(٣).

وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا عبد الله بن جعفر من أصل كتابه، أنبأنا سَمويه، أنبأنا عبد الله ابن الزبير، أنبأنا سفيان، أنبأنا هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: قال لى رسول الله ﷺ: «إِنْ كَانَ أَبَوَاكَ لَمَنْ^(٤) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ: أَبُو بَكْرٍ وَالزَّبِيرُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا»^(٥).

ورفعُ هذا الحديث خطأ محض من جهة إسناده، لمخالفته رواية^(٦) الثقات من وقفة على عائشة كما قدمناه، ومن جهة معناه، فإن الزبير ليس هو من آباء عائشة، وإنما قالت عائشة لعروة بن الزبير ذلك لأنه ابن أختها أسماء بنت أبى بكر الصديق، رضى الله عنهم.

وقال ابن جرير: حدثنى محمد بن سعد، حدثنى أبى، [حدثنى]^(٧) عمى، حدثنى أبى، عن أبيه، عن ابن عباس قال: إن الله قَذَفَ فى قَلْبِ أبى سفيان الرُّعْبَ يوم أحد بعد ما^(٨) كان منه ما كان، فرجع إلى مكة، فقال النبى ﷺ: «إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَدْ أَصَابَ مِنْكُمْ طَرْفًا، وَقَدْ رَجَعَ، وَقَذَفَ اللَّهُ فى قَلْبِهِ الرُّعْبَ». وكانت وقعةُ أحد فى شوال، وكان التجار يَقْدَمُونَ المدينة فى ذى القعدة، فينزّلون ببدر الصغرى فى كل سنة مرة، وإنهم قدموا بعد وقعة أحد^(٩) وكان أصاب المؤمنين القرح، واشتكوا ذلك إلى النبى ﷺ، واشتد عليهم الذى أصابهم. وإن رسول الله ﷺ نَدَبَ الناس لينطلقوا معه، ويتبعوا ما كانوا مُتَّبِعِينَ، وقال: «إِنَّمَا يَرْتَحِلُونَ الْآنَ فَيَأْتُونَ الْحِجَّ وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى مِثْلِهَا حَتَّى عَامٍ مُقْبِلٍ». فجاء الشيطان فخوف أولياءه فقال: إن الناس قد جمعوا لكم فأبى عليه الناس أن يتبعوه، فقال: «إِنِّى ذَاهِبٌ وَإِنْ لَمْ يَتَّبِعْنِى أَحَدٌ». لأحضض الناس، فانتدب معه أبو بكر الصديق، وعمر،

(١) صحيح البخارى برقم (٤٠٧٧) والمستدرک (٢/٢٩٨) وفيه أن المخاطب بقول عائشة عبد الله بن الزبير وليس عروة، كما فى رواية البخارى.

(٢) المستدرک (٣/٣٦٣).

(٣) سنن ابن ماجه برقم (١٢٤).

(٤) فى ج، أ: «من».

(٥) هذا الحديث لا يصح مرفوعاً فهو مضطرب. وقد بين الحافظ ابن كثير وجه اضطرابه، وقد روى ابن جرير فى تفسيره (٧/٤٠٢) أن عائشة قالت ذلك لعبد الله بن الزبير بنفس هذا اللفظ، فقد يكون الوهم من أحد الرواة أو من كتابه.

(٦) فى ر: «رواته».

(٧) زيادة من ج، والطبري.

(٨) فى أ، و: «الذى».

(٩) فى أ: «أحد فى شوال».

وعثمان، وعلى، والزبير، وسعد، وطلحة، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة ابن اليمان، وأبو عبيدة بن الجراح في سبعين رجلا، فساروا في طلب أبي سفيان، فطلبوا حتى بلغوا الصفراء، فأنزل الله [عز وجل]^(١): ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٢) ﴿٣﴾.

ثم قال ابن إسحاق: فخرج رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى حمراء الأسد، وهي من المدينة على ثمانية أميال.

قال ابن هشام: واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم فأقام بها الإثنين والثلاثاء والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة. وقد مر به - كما حدثني عبد الله بن أبي بكر - معبد بن أبي معبد الخزاعي، وكانت خزاعة - مسلمهم ومشركهم - عيبة نُصح لرسول الله ﷺ بتهامة، صَفَقْتُهُمْ معه، لا يخفون عنه شيئا كان بها، ومعبد يومئذ مشرك فقال: يا محمد، أما والله لقد عَزَّ علينا ما أصابك في أصحابك، ولوددنا أن الله عافاك فيهم. ثم خرج ورسول الله ﷺ بحمراء الأسد، حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وقالوا: أصبنا حد أصحابه وقادتهم وأشرفهم، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم. . لَنُكْرَنَ على بقيتهم فَلَنَفْرُغَنَّ منهم. فلما رأى أبو سفيان معبدا قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جَمْعٍ لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقا، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحق عليكم شيء لم أر مثله قط. قال: ويلك. ما تقول؟ قال: والله ما أرى أن ترحل^(٤) حتى نرى نواصي الخيل - قال: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم. قال: فإنني أنهاك عن ذلك. ووالله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيهم أبياتا من شعر، قال: وما قلت؟ قال: قلت:

كَادَتْ تُهْدِي مِنَ الْأَصْوَاتِ رَاحَتِي	إِذْ سَأَلْتُ الْأَرْضُ بِالْجُرْدِ الْأَبَابِيلَ
تَرْدِي بِأَسَدٍ كَرَامٍ لَا تَنَابِلَةَ	عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلَ مَعَارِيلَ ^(٥)
فَظَلْتُ عَدُوًّا أَظُنُّ الْأَرْضَ مَائِلَةً	لَمَّا سَمَوَا بِرَيْسٍ غَيْرِ مَخْذُولِ
فَقُلْتُ: وَيْلَ ابْنِ حَرْبٍ مِنْ لِقَائِكُمْ	إِذَا تَغَطَّمَتِ الْبُطْحَاءُ بِالْجَلِيلِ ^(٦)
إِنِّي نَذِيرٌ لَأَهْلِ الْبَسْلِ ضَاحِيَةٌ	لِكُلِّ ذِي إِرْبَةٍ مِنْهُمْ وَمَعْقُولِ
مِنْ جَيْشٍ أَحْمَدَ لَا وَخْشٍ تَنَابِلَةَ	وَلَيْسَ يُوصَفُ مَا أُنْذِرْتُ بِالْقِيلِ

قال: فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه.

ومر به ركب من بني عبد القيس، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة. قال: ولم؟ قالوا:

(١) زيادة من أ. (٢) زيادة من ج، ر، أ، و، وفي هـ: «الآية». (٣) تفسير الطبري (٤٠٢/٧). (٤) في أ: «ترحل». (٥) في ر: «مغازيل». (٦) في و: «بالخيل».

بعكاظ إذ وافيتُمونا^(١). قالوا: نعم. قال: فإذا وافيتُموه فأخبروه أنا قد أجمعنا^(٢) المسير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، فمر الركب^(٣) برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان وأصحابه، فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل^(٤).

وذكر ابن هشام عن أبي عبيدة قال: قال رسول الله ﷺ حين بلغه رجوعهم: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سُوِّمَتْ لَهُمْ حِجَارَةٌ لَوْ صَبَّحُوا بِهَا لَكَانُوا كَأَمْسِ الذَّاهِبِ»^(٥).

وقال الحسن البصري [في قوله]^(٦): «الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ»: إن أبا سفيان وأصحابه أصابوا من المسلمين ما أصابوا ورجعوا، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَدْ رَجَعَ وَقَدْ قَذَفَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ [الرُّعْبَ]^(٧)، فَمَنْ يَتَدَبُّ فِي طَلَبِهِ؟» فقام النبي ﷺ، وأبو بكر وعمر، وعثمان، وعلى، وناس من أصحاب النبي ﷺ^(٨)، فاتبعوهم، فبلغ أبا سفيان أن النبي ﷺ يطلبه، فلقى عيرا من التجار فقال: ردُّوا محمداً ولكم من الجعل كذا وكذا، وأخبروهم أني قد جمعت لهم جموعاً، وأنني راجع إليهم. فجاء التجار فأخبروا بذلك رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» فأنزل الله هذه الآية.

وهكذا قال عكرمة، وقتادة وغير واحد: إن هذا السياق نزل في شأن [غزوة]^(٩) «حمراء الأسد»، وقيل: نزلت في بدر الموعد، والصحيح الأول.

وقوله: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»^(١٠) أي: الذين توعدهم الناس [بالجموع]^(١١) وخوفوهم بكثرة الأعداء، فما اكثرثوا لذلك، بل توكلوا على الله واستعانوا به «وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ».

قال البخاري: حدثنا أحمد بن يونس، أراه قال: حدثنا أبو بكر، عن أبي حصين، عن أبي الضحى، عن ابن عباس: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»: قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار وقالها محمد ﷺ حين قالوا: «إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ».

وقد رواه النسائي، عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم وهارون بن عبد الله، كلاهما عن يحيى ابن أبي بكير، عن أبي بكر - وهو ابن عياش - به. والعجب أن الحاكم [أبا عبد الله]^(١٢) رواه من حديث أحمد بن يونس، به، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه^(١٣).

ثم^(١٤) رواه البخاري عن أبي غسان مالك بن إسماعيل، عن إسرائيل، عن أبي حصين، عن

(٣) في و: «الراكب».

(٢) في أ، و: «جمعنا».

(١) في أ، و: «إذا وافيتُموها».

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (١٠٢/٢).

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (١٠٤/٢).

(٦) زيادة من جـ.

(٧) زيادة من جـ، أ، و.

(٨) في جـ، أ، و: «رسول الله».

(٩) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفي هـ: «الآية».

(١٠) زيادة من جـ، أ، و.

(١١) زيادة من و.

(١٢) زيادة من جـ، ر.

(١٣) صحيح البخاري برقم (٤٥٦٣، ٤٥٦٤) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٠٨١) والمستدرک (٢٩٨/٢) وأقره الذهبي مع أن البخاري قد روى هذا الحديث من هذا الوجه.

(١٤) في جـ: «و».

أَبِي الضُّحَى، عن ابن عباس قال: كان آخر قول إبراهيم، عليه السلام، حين ألقى في النار: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(١).

وقال عبد الرزاق: قال ابن عيينة: وأخبرني زكريا، عن الشَّعْبِيِّ، عن عبد الله بن عمرو قال: هي كلمة إبراهيم عليه السلام حين ألقى في البنيان. رواه ابن جرير.

وقال أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن مَعْمَر، حدثنا إبراهيم بن موسى الثوري^(٢)، أخبرنا عبد الرحيم بن محمد بن زياد السكري، أنبأنا أبو بكر بن عياش، عن حميد الطويل، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ أنه قيل له يوم أحد: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم. فأنزل الله هذه الآية^(٣).

وروى أيضا بسنده عن محمد بن عُبَيْد الله الرافعي، عن أبيه، عن جده أبي رافع أن النبي ﷺ وَجَّهَ عليا في نفرٍ معه في طلب أبي سفيان، فلقيهم أعرابي من خزاعة فقال: إن القوم قد جمعوا لكم قالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل. فنزلت فيهم هذه الآية.

ثم قال ابن مَرْدُويه: حدثنا دَعْلَجُ بن أحمد، أخبرنا الحسن بن سفيان، أنبأنا أبو خيثمة مُصَنَّبُ بن سعيد، أنبأنا موسى بن أعين، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا وَقَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ الْعَظِيمِ فَقُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»^(٤).

هذا حديث غريب من هذا الوجه.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا حيوة بن شريح وإبراهيم بن أبي العباس قالوا: حدثنا بَقِيَّةٌ، حدثنا بَحِيرٌ^(٥) بن سعد، عن خالد بن معدان، عن سيف، عن عوف بن مالك أنه حدثهم: أن النبي ﷺ قَضَى بين رجلين فقال المقضى عليه لما أدبر: حسبي الله ونعم الوكيل. فقال رسول الله ﷺ: «رُدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ». فقال: «ما قلت؟». قال: قلت: حسبي الله ونعم الوكيل. فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ».

وكذا رواه أبو داود والنسائي من حديث بَقِيَّةٍ عن بَحِيرٍ، عن خالد، عن سيف - وهو الشامي، ولم ينسب - عن عوف بن مالك، عن النبي ﷺ، بنحوه^(٨).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسباط، حدثنا مُطَرِّفٌ، عن عطية، عن ابن عباس [في قوله: ﴿فَإِذَا نَفَرْنَا فِي السَّافَرِ﴾] [المدر: ٨] قال: قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقُرْنِ قَدْ التَّقَمَ الْقُرْنُ وَحَنَى جَبْهَتَهُ، يَسْمَعُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ». فقال أصحاب محمد ﷺ: فما نقول^(٩)؟ قال: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ

(١) صحيح البخارى برقم (٤٥٦٤).

(٢) فى أ، و: «التوزى».

(٣) ورواه الخطيب فى تاريخ بغداد (٨٦/١١) من طريق إبراهيم بن موسى الجوزى وهو الثورى عن عبد الرحيم بن محمد السكري به.

(٤) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٣٩٠/٢) وفى الجامع الصغير وعزاه إلى ابن مردويه، ورمز له المناوى بالضعف، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع برقم (٨٢٩).

(٥) فى أ: «يحيى». (٦) فى أ: «النبى». (٧) فى أ: «النبى».

(٨) المسند (٢٤/٦) وسنن أبى داود برقم (٣٦٢٧) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٤٦٢).

(٩) فى و: «فما تأمرنا».

وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا.

وقد روى هذا من غير وجه، وهو حديث جيد^(١). وروينا عن أم المؤمنين عائشة وزينب ابنت جحش^(٢) رضى الله عنهما، أنهما تفاخرتا فقالت زينب: زَوَجَنِي اللَّهُ وَزَوَّجَكُنْ أَهَالِيكَ^(٣). وقالت عائشة: نزلت براءتى من السماء فى القرآن. فَسَلَّمْتُ لَهَا زَيْنَبَ، ثُمَّ قَالَتْ: كَيْفَ قُلْتَ حِينَ رَكِبْتَ رَاحِلَةَ صَفْوَانَ بْنِ الْمَعْطَلِ؟ فَقَالَتْ: قُلْتُ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَقَالَتْ زَيْنَبُ: قُلْتَ كَلِمَةَ الْمُؤْمِنِينَ^(٤).

ولهذا قال تعالى: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهِمْ سُوءٌ﴾ أى: لما توكَّلوا على الله كفاهم ما أهتمُّهم وَرَدَ عنهم بأس من أراد كيدهم، فرجعوا إلى بلدهم ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهِمْ سُوءٌ﴾ مما أضمر لهم عدوهم ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

قال البيهقى: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو بكر بن داود الزاهد، حدثنا محمد بن نعيم، حدثنا بشر بن الحكم، حدثنا مُبَشَّرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَزِينَ، حدثنا سفيان بن حسين، عن يعلى بن مسلم، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قول الله تعالى^(٥): ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ قال: النعمة أنهم سلموا، والفضل أن عيرا مرت، وكان فى أيام الموسم، فاشتراها رسول الله ﷺ فَرَبِحَ فيها مالا، فقسمه بين أصحابه.

وقال ابن أبى نجیح، عن مجاهد فى قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ قال: [هذا]^(٦) أبو سفيان، قال لمحمد ﷺ: موعدكم بدر، حيث قُتِلْتُمْ أصحابنا. فقال محمد ﷺ: «عَسَى». فانطلق رسول الله ﷺ لموعده^(٧) حتى نزل بدرًا، فوافقوا السوق فيها وابتاعوا^(٨) فذلك قول الله عز وجل: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهِمْ سُوءٌ﴾ [وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ]^(٩). قال: وهى غزوة بدر الصغرى.

رواه ابن جرير. وروى [أيضاً]^(١٠) عن القاسم، عن الحسين، عن حجاج، عن ابن جريج قال: لما عهد رسول الله ﷺ لموعد أبى سفيان، فجعلوا يلْقُونُ الْمُشْرِكِينَ وَيَسْأَلُونَهُمْ عَنْ قَرِيْشٍ، فيقولون^(١١): قد جمعوا لكم يكيدونهم بذلك، يريدون أن يَرْعَبُوهُمْ^(١٢)، فيقول المؤمنون: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ حتى قدموا بدرًا، فوجدوا أسواقها عافية لم ينزعهم فيها أحد، قال: رَجُلٌ^(١٣) من المشركين فأخبر أهل مكة بخيل محمد، وقال فى ذلك:

(١) المسند (١/٣٢٦).

(٢) فى ج، ر، أ، و: «أهلوكن».

(٣) زيادة من ج، ر، أ، و.

(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (٨٨/٨٩، ٨٩) ط «الفكر» من طريق محمد بن عبد الله بن جحش، وسيأتى إن شاء الله فى تفسير سورة النور.

(٥) فى ر: «عز وجل».

(٦) زيادة من ج، ر.

(٧) فى ج: «بموعد».

(٨) فى و: «فابتاعوا».

(٩) زيادة من ج، ر، أ، و.

(١٠) زيادة من ج، ر، أ، و.

(١١) فى ج: «فيقولون لهم».

(١٢) فى ج، ر، أ: «قال: وقدم رجل».

(١٣) فى و: «يرهبوهم».

نَفَرَتْ قُلُوصِي مِنْ خِيُولِ مُحَمَّدٍ
وَعَجْوَةٌ مَثْوَرَةٌ كَالْعُنْجُدِ
وَاتَّخَذَتْ مَاءَ قُدَيْدٍ مَوْعِدِي

ثم قال ابن جرير: هكذا أنشدنا القاسم، وهو خطأ، وإنما هو:

قَدْ نَفَرَتْ مِنْ رَفَقَتِي مُحَمَّدٍ
وَعَجْوَةٌ مِنْ يَثْرِبٍ كَالْعُنْجُدِ
تَهْوَى ^(١) عَلَى دِينَ أَبِيهَا الْإِثْلَدِ
قَدْ جَعَلَتْ مَاءَ قُدَيْدٍ مَوْعِدِي
وَمَاءَ ضَجْنَانَ لَهَا ضُحَى الْغَدِ ^(٢)

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أى: يخوفكم أوليائه، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [أى: فـ] ^(٣) إذا سول لكم وأوهمكم فتوكلوا على والجهنم والى، فأنا كافيكم وناصركم عليهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾، إلى قوله: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٦- ٣٨]، وقال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال [تعالى] ^(٤): ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ [وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ]﴾ ^(٥) [محمد: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٧٨) مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمَتُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠).

(١) فى جـ، ر، أ، و: «فهو».

(٢) تفسير الطبرى (٧/ ٤١١، ٤١٢).

(٣) زيادة من ر، أ، و.

(٤) زيادة من جـ، ر، أ، و.

(٥) زيادة من جـ، أ، و، وفى هـ: «الآية».

يقول تعالى لنبية ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾، وذلك من شدة حرصه على الناس كان يحزنه مُبَادَرَةُ الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق، فقال تعالى: لا يحزنك ذلك ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ أى: حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته ألا يجعل لهم نصيبا فى الآخرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى مخبرا عن ذلك إخبارا مقررًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أى: استبدلوا هذا بهذا ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أى: ولكن يضرّون أنفسهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، كقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]، وكقوله: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤]، وكقوله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

ثم قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أى: لأبَد أن يعقد سببا من المحنة، يظهر فيه وليه، ويفتضح فيه عدوه. يُعرف به المؤمن الصابر، والمنافق الفاجر. يعنى بذلك يوم أحد الذى امتحن به المؤمنون، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم [ووثباتهم]^(١) وطاعتهم لله ولرسوله ﷺ، وهتك به ستر المنافقين، فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله ﷺ^(٢) ولهذا قال: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾.

قال مجاهد: ميّز بينهم يوم أحد. وقال قتادة: ميّز بينهم بالجهاد والهجرة. وقال السدّي: قالوا: إن كان محمد صادقا فلْيُخْبِرْنَا عَمَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ مِنَّا وَمَنْ يَكْفُرُ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أى: حتى^(٣) يُخْرِجَ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ.

روى ذلك كلّه ابن جرير:

ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ أى: أنتم لا تعلمون غيبَ الله فى خلقه حتى يُمِيز^(٤) لكم المؤمن من المنافق، لولا ما يعقده^(٥) من الأسباب الكاشفة عن ذلك.

ثم قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، كقوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾^(٦) [الجن: ٢٦، ٢٧].

ثم قال: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أى: أطيعوا الله ورسوله واتبعوه فيما شرع^(٦) لكم ﴿وَأِنْ تَوَمَّنَا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

(١) زيادة من ر، أ، و.

(٢) زيادة من و.

(٣) زيادة من جـ.

(٤) فى ر، و: «يُمِيز».

(٥) فى ر: «يعتقده».

(٦) فى ر، أ، و: «شرعه».

وقوله: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ أى: لا يحسبن^(١) البخيل أن جمعه المال ينفعه، بل هو مضرّة عليه فى دينه - وربما كان - فى دنياه.

ثم أخبر بمآل أمر ماله^(٢) يوم القيامة فقال: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، قال البخارى:

حدثنا عبد الله بن منير، سمع أبا النضر، حدثنا عبد الرحمن - هو ابن عبد الله بن دينار - عن أبيه، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مِثْلَ لَهُ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَيْبَتَانِ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَأْخُذُ^(٣) بِلَهْزَمَتَيْهِ - يعنى بشدقيّه - يقول: أَنَا مَالِكٌ، أَنَا كَنْزُكَ» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ^(٤) الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ إلى آخر الآية.

تفرد به البخارى دون مسلم من هذا الوجه، وقد رواه ابن حبان فى صحيحه من طريق الليث بن سعد، عن محمد بن عجلان، عن القَعْقَاعِ بن حكيم، عن أبي صالح، به^(٥).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حُجَّيْنُ بن المثنى، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الَّذِي لَا يُؤَدِّي زَكَاتَ مَالِهِ يُمِثَّلُ اللَّهُ لَهُ مَالَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَيْبَتَانِ، ثُمَّ يُلْزِمُهُ يَطَوَّقُهُ، يَقُولُ: أَنَا كَنْزُكَ، أَنَا كَنْزُكَ».

وهكذا رواه النسائى عن الفضل بن سهل، عن أبي النضر هاشم بن القاسم، عن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة، به^(٦)، ثم قال النسائى: ورواية عبد العزيز، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، أثبت من رواية عبد الرحمن، عن أبيه عبد الله بن دينار، عن أبي صالح، عن أبي هريرة.

قلت: ولا منافاة بينهما^(٧)، فقد يكون عند عبد الله بن دينار من الوجهين، والله أعلم. وقد ساقه الحافظ أبو بكر بن مردويه من غير وجه، عن أبي صالح، عن أبي هريرة. ومن حديث محمد ابن أبي حميد، عن زياد الخطمى، عن أبي هريرة، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن جامع، عن أبي وائل، عن عبد الله، عن النبي ﷺ؛ قال: «مَا مِنْ عَبْدٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاتَ مَالِهِ إِلَّا جُعِلَ لَهُ شُجَاعٌ أَقْرَعُ يَتَّبِعُهُ، يَقَرَّ مِنْهُ وَهُوَ يَتَّبِعُهُ فَيَقُولُ: أَنَا كَنْزُكَ». ثم قرأ عبد الله مصداقه من كتاب الله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

وهكذا رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه، من حديث سفيان بن عيينة، عن جامع بن أبي راشد، زاد الترمذى: وعبد الملك بن أعين، كلاهما عن أبي وائل شقيق بن سلمة، عن عبد الله بن مسعود، به. ثم قال الترمذى: حسن صحيح. وقد رواه الحاكم فى مستدركه، من حديث أبي بكر بن عياش وسفيان الثورى، كلاهما عن أبي إسحاق السبيعى، عن أبي وائل، عن ابن مسعود، به^(٨). ورواه ابن جرير من غير وجه، عن ابن مسعود، موقوفا.

(١) فى ر: «تحسبن». (٢) فى أ: «أمره إليه». (٣) فى أ، و: «فياخذ».

(٤) فى ر: «لا تحسبن».

(٥) صحيح البخارى برقم (١٤٠٣، ٤٥٦٥).

(٦) المسند (٩٨/٢) وسنن النسائى (٣٨/٥).

(٧) فى و: «بين الروايتين».

(٨) المسند (٣٧٧/١) وسنن الترمذى برقم (٣٠١٢) وسنن النسائى (١١/٥) وسنن ابن ماجه برقم (١٧٨٤) والمستدرک (٢٩٨/٢).

حديث آخر: قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أمية بن بسطام، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن سالم بن أبي الجعد، عن معدان بن أبي طلحة، عن ثوبان، عن النبي ﷺ؛ قال: «مَنْ تَرَكَ بَعْدَهُ كَنْزًا مِثْلَ لَهُ شُجَاعًا أَفْرَعَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ زَبَيَّتَانِ، يَتَّبِعُهُ وَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ وَيَلْكُ. فَيَقُولُ: أَنَا كَنْزُكَ الَّذِي خَلَّفْتَ بَعْدَكَ فَلَا يَزَالُ يَتَّبِعُهُ حَتَّى يُلْقِمَهُ يَدَهُ فَيَقْضِمَهَا، ثُمَّ يَتَّبِعُهُ سَائِرُ جَسَدِهِ». إسناده جيد قوى ولم يخرجوه^(١).

وقد رواه الطبراني عن جرير بن عبد الله البجلي^(٢). ورواه ابن جرير وابن مردويه من حديث بهز ابن حكيم، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «لَا يَأْتِي الرَّجُلُ مَوْلَاهُ فَيَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِ مَالِهِ عِنْدَهُ، فَيَمْنَعُهُ إِيَّاهُ، إِلَّا دُعِيَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعٌ يَتَلَمَّظُ فَضْلَهُ الَّذِي مَنَعَ». لفظ ابن جرير^(٣).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن المنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود، عن أبي قزعة، عن رجل، عن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ ذِي رَحِمٍ يَأْتِي ذَا رَحِمِهِ، فَيَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِ جَعَلَهُ اللَّهُ عِنْدَهُ، فَيَبْخُلُ بِهِ عَلَيْهِ، إِلَّا أَخْرَجَ لَهُ مِنْ جَهَنَّمَ شُجَاعٌ يَتَلَمَّظُ، حَتَّى يَطْوِقَهُ».

ثم رواه من طريق أخرى عن أبي قزعة - واسمه حُجَيْرٌ^(٥) بن بيان - عن أبي مالك العبدى موقوفا. ورواه من وجه آخر عن أبي قزعة مرسلًا^(٦).

وقال العوفي عن ابن عباس: نزلت في أهل الكتاب الذين بَخِلُوا بما في أيديهم من الكتب المنزلة أن يبينوها.

رواه ابن جرير. والصحيح الأول، وإن دخل هذا في معناه. وقد يقال: [إن]^(٧) هذا أولى^(٨) بالدخول، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: فأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه، فإن الأمور كُلُّهَا مرجعها إلى الله عز وجل. فقدموا لكم من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أى: بنياتكم وضمائرهم.

(١) عزاه إلى أبي يعلى فى المطالب العالية الحافظ ابن حجر (٢٥٤/١) ورواه ابن خزيمة فى صحيحه برقم (٢٢٥٥) وابن حبان فى صحيحه برقم (٨٠٣) «موارد» واليزار فى مسنده (٤١٨/١) «كشف الاستار» والطبرانى فى المعجم الكبير (٩١/٢) والحاكم فى المستدرک (٣٣٨/١) وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبى، كلهم من طريق سعيد بن أبى عروبة عن قتادة به. وقال اليزار: «إسناده حسن».

(٢) المعجم الكبير (٣٢٢/٢) ولفظه: «ما من ذى رحم يأتى رحمه فيسأله فضلا أعطاه الله إياه فيبخل عليه إلا أخرج له يوم القيامة من جهنم حية يقال لها: شجاع يتلمظ فيطوف به». قال الهيثمى فى المجمع (١٥٤/٨): «رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير وإسناده جيد».

(٣) فى ر، أ، و: «مال».

(٤) تفسير الطبرى (٤٣٥/٧) ورواه أحمد فى مسنده (٣/٥) والنسائى فى السنن (٣٥٨/١).

(٥) فى أ، و: «حجر» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.

(٦) تفسير الطبرى (٤٣٤/٧).

(٨) فى أ: «روى».

(٧) زيادة من أ، و.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بَقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤) ﴿

قال سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما نزل قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] قالت اليهود: يا محمد، افتقر ربك. يسأل^(١) عباده القرض؟ فأنزل الله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ الآية. رواه ابن مردويه وابن أبي حاتم.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أنه حدثه عن ابن عباس، رضى الله عنه، قال: دخل أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، بيت المدراس، فوجد من يهود أناسا كثيراً قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له: فنحاص^(٢) وكان من علمائهم وأخبارهم، ومعه خبر يقال له: أشيع. فقال أبو بكر: ويحك يا فنحاص^(٣)، اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله - يا أبا بكر - ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير. ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإننا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويُعْطِنَاهُ^(٤)، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا فغضب أبو بكر، رضى الله عنه، فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً، وقال: والذى نفسى بيده، لولا الذى بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: أبصر^(٥) ما صنع بى صاحبك. فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر: «ما حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتُ؟» فقال: يا رسول الله، إن عدو الله قد قال قولاً عظيماً، زعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غَضِبْتُ الله مما قال، فضربت وجهه فجحد ذلك فنحاص^(٦) وقال: ما قلت ذلك فأنزل الله فيما قال فنحاص رداً عليه وتصديقاً لأبى بكر: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ الآية. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ تهديد ووعد؛ ولهذا قرنه بقوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أى: هذا قولهم فى الله، وهذه معاملتهم لرسول الله، وسيجزئهم الله على ذلك شر الجزاء؛ ولهذا قال: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿ أى: يقال^(٧) لهم ذلك تقريباً وتحقيراً وتصغيراً.

(١) فى ر: «فسأل».

(٢) فى ر: «فيحاص».

(٣) فى ر، و: «فسأل».

(٤) فى أ، و: «يعطينا».

(٥) فى ج، ر، أ، و: «فقال: يا محمد، أبصر».

(٦) فى ج، أ، و: «فقال».

(٧) فى ر: «فيحاص».

وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ يقول تعالى تكذيباً أيضاً لهؤلاء الذين زعموا^(١) أن الله عهد إليهم في كتبهم ألا يؤمنوا برسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته فقبلت منه أن تنزل نار من السماء تأكلها. قاله ابن عباس والحسن وغيرهما. قال الله تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى: بالحجج والبراهين ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ أى: وبنار تأكل القرابين المتقبلة ﴿فَلَمْ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ أى: فلم قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنكم تتبعون الحق وتتقادون للرسول.

ثم قال تعالى مسلماً لنبيه^(٢) ﷺ: ﴿إِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾^(٣) أى: لا يهيدنك تكذيب^(٤) هؤلاء لك، فلك أسوة من قبلك من الرسل الذين كذبوا مع ما جاءوا به من البينات وهى الحجج والبراهين القاطعة ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وهى الكتب المتلقاة من السماء، كالصحف المنزلة على المرسلين ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أى: البين الواضح الجلى.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (١٨٥) لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴿١٨٦﴾.

يخبر تعالى إخباراً عاماً يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت، كقوله: ﴿كُلُّ مَن عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ فهو تعالى وحده هو الحى الذى لا يموت والإنس والجن يموتون، وكذلك^(٥) الملائكة وحملة العرش، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء، فيكون آخرأ كما كان أولاً.

وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت، فإذا انقضت المدة وفرغت النطفة التى قدر الله وجودها من صلب آدم وانتهت البرية - أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها جليلها وحقيرها، كثيرها وقليلها، كبيرها وصغيرها، فلا يظلم أحداً مثقال ذرة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد العزيز الأويسى، حدثنا على بن أبى على اللّهي^(٦)، عن جعفر بن محمد بن على بن الحسين، عن أبيه، عن^(٧) على بن أبى طالب، رضى الله عنه، قال: لما توفى النبي ﷺ وجاءت التعزية، جاءهم آت يسمعون حسه ولا يرون شخصه فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. إن

(٣) فى ر: «المبين».

(٦) فى ج: «الهاشمي».

(٢) فى ج: «لرسوله».

(٥) فى أ: «وكذا».

(١) فى ج: أ: «يزعمون».

(٤) فى ج: «بتكذيب».

(٧) فى أ، و: «أن».

في^(١) الله عزاءً من كل مُصِيبَةٍ، وَخَلَقًا مِنْ كُلِّ هَالِكٍ، وَدِرْكَاءَ مِنْ كُلِّ فَائِتٍ، فَبِاللّهِ فَتَقْوُوا، وَإِيَّاهُ فَارْجُوا، فَإِنَّ الْمَصَابَ مِنْ حَرَمِ الثَّوَابِ، وَالسَّلَامَ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةَ اللّهِ وَبَرَكَاتِهِ. قَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ: فَأَخْبَرَنِي أَبِي أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَالَ: أَتَدْرُونَ^(٢) مِنْ هَذَا؟ هَذَا الْخَضِرُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٣).

وقوله: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أَيْ: مَنْ جَنَّبَ النَّارَ وَنَجَّى مِنْهَا وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ، فَقَدْ فَازَ كُلَّ الْفَوْزِ.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة [رضي الله عنه]^(٤) قال: قال رسول الله ﷺ: «مَوْضِعُ سَوَاطِئِ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، اقْرَؤُوا إِن شِئْتُمْ: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾»^(٥).

هذا حديث^(٦) ثابت في الصحيحين من غير هذا الوجه^(٧) بدون هذه الزيادة، وقد رواه بدون هذه^(٨) الزيادة أبو حاتم، وابن حبان^(٩) في صحيحه، والحاكم في مستدركه، من حديث محمد بن عمرو هذا. ورواه ابن مردويه [أيضاً]^(١٠) من وجه آخر فقال:

حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن يحيى، أنبأنا حميد بن مسعدة، أنبأنا عمرو بن علي، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لِمَوْضِعِ سَوَاطِئِ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا». قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.

وتقدّم عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ما رواه الإمام أحمد، عن وكيع^(١١)، عن الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَزُحَرَ عَنِ النَّارِ وَأَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَدْرِكْهُ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»^(١٢).

وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ تصغيراً^(١٣) لشأن الدنيا، وتحقيراً^(١٤) لأمرها، وأنها

(١) في ج، أ: «من».

(٢) في ج، ر: «تدرون».

(٣) ذكره السيوطي في الدر (٣٩٩/٢) وإسناده ضعيف ومثله منكر.

(٤) زيادة من ر.

(٥) ورواه أحمد في مسنده (٤٣٨/٢) والترمذي في السنن برقم (٣٢٩٢)، والحاكم في المستدرک (٢٩٩/٢) وقال: «على شرط مسلم» ووافقه الذهبي، كلهم من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة به. وللحديث طرق أخرى عن أبي هريرة وله شواهد من حديث سهل بن سعد في الصحيحين كما سيأتي، ومن حديث أنس بن مالك عند أحمد في المسند (١٤١/٣) انظر الكلام عليه موسعاً في: السلسلة الصحيحة للآلبناني برقم (١٩٧٨).

(٦) في ج، ر، أ، و: «الحديث».

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٤١٥)، ومسلم في صحيحه برقم (١٨٨١).

(٨) في ج، ر: «بهذه».

(٩) في ج، ر: «أبو حاتم بن حبان».

(١٠) زيادة من أ، و.

(١١) في و: «ما رواه ابن الجراح في تفسيره».

(١٢) المسند (١٩١/٢).

(١٣) في ر: «تصغير».

(١٤) في ج: «وتحقيرها»، وفي ر: «تحقير».

دنيئة فانية قليلة زائلة، كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧] [وقال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦] وقال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾^(١) [النحل: ٩٦]. وقال تعالى: ﴿وَمَا^(٢) أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الفصص: ٦٠]، وفى الحديث: «والله ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يغمس أحدكم إصبعه فى اليم، فلينظر بيم ترجع^(٣) إليه؟»^(٤).

وقال قتادة فى قوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾: هى متاع، هى متعة، متروكة، أوشكت - والله الذى لا إله إلا هو - أن تضمحل عن أهلها، فخذوا من هذا^(٥) المتاع طاعة الله إن استطعتم، ولا قوة إلا بالله.

وقوله: ﴿تَبْلُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ كقوله: ﴿وَلَبَلُّوْكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ [وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ]﴾^(٦) [البقرة: ١٥٥، ١٥٦] أى: لا بد أن يبتلى المؤمن فى شىء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله، ويبتلى المؤمن^(٧) على قدر دينه، إن^(٨) كان فى دينه صلابة زيد فى البلاء ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾، يقول تعالى للمؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر، مسلما لهم عما نالهم^(٩) من الأذى من أهل الكتاب والمشركون، وأمرأ لهم بالصبر والصفح والعفو حتى يفرج الله، فقال: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب بن أبى حمزة، عن الزهرى، أخبرنى عروة بن الزبير: أن أسامة بن زيد أخبره قال: كان النبى ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله: ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ قال: وكان رسول الله ﷺ يتأول فى العفو ما أمره الله به، حتى أذن^(١١) الله فيهم.

هكذا رواه مختصرا، وقد ذكره البخارى عند تفسير هذه الآية مطولا فقال: حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب، عن الزهرى أخبرنى عروة بن الزبير؛ أن أسامة بن زيد أخبره أن رسول الله ﷺ ركب على حمار، عليه قطيفة فدكية وأردف أسامة بن زيد وراءه، يعود سعد بن عباد فى بنى الحارث بن الخزرج، قبل وقعة بدر، قال: حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبى ابن سؤل، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبى، فإذا فى المجلس أخلاط من المسلمين والمشركون، عبدة الأوثان واليهود والمسلمين، وفى المجلس عبد الله بن رباح، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبد الله بن أبى أنفه بردائه وقال: «لا تُغَيِّرُوا عَلَيْنَا. فسلم رسول الله ﷺ^(١٢)، ثم وقف، فنزل فدعاهم إلى الله عز وجل،

(١) زيادة من ج، ر. (٢) فى ر: «فما». (٣) فى أ، و: «يرجع». (٤) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٨٥٨) والترمذى فى السنن برقم (٢٣٢٣) وابن ماجه فى السنن برقم (٤١٠٨) من حديث المستورد ابن شداد رضى الله عنه. (٥) فى ج، ر: «هذه». (٦) زيادة من ج، ر، أ، و، وفى هـ: «إلى آخر الآيتين». (٧) فى ج، ر، أ، و: «المراء». (٨) فى أ، و: «فإن». (٩) فى ج، ر: «ينالهم». (١٠) فى أ: «النبى». (١١) فى أ: «أذنه». (١٢) فى أ: «فسلم رسول الله ﷺ عليهم».

وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبي: أيها المرء، إنه لا أحسن مما تقول، إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا، ارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه. فقال عبد الله بن رواحة: بلى^(١) يا رسول الله، فأغشنا به في مجالسنا فإننا نحب ذلك. فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتشاورون^(٢)، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكتوا، ثم ركب النبي ﷺ دابته، فسار حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال له النبي ﷺ: «يا سعد، ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب^(٣) - يريد عبد الله ابن أبي - قال كذا وكذا». فقال سعد: يا رسول الله، اعف عنه واصفح^(٤)، فوالله الذي^(٥) أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله^(٦) بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصططح أهل هذه البُحيرة^(٧) على أن يتوجوه ويعصبوه^(٨) بالعصاة، فلما أبى^(٩) الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شوق بذلك، فذلك الذي فعل^(١٠) به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله تعالى: ﴿وَلْتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَنِ الَّذِينَ أُشْرِكُوا أَذَى كَثِيرًا [وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور]﴾^(١١)، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ الآية [البقرة: ١٠٩]، وكان النبي ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدرًا، فقتل الله به صناديد كفار قريش، قال عبد الله بن أبي ابن سلول ومن معه من المشركين وعبداء الأوثان: هذا أمر قد توجه، فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام^(١٢) وأسلموا^(١٣) (١٤).

فكان من قام بحق، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، فلا بد أن يؤذى، فما له دواء إلا الصبر في الله، والاستعانة بالله، والرجوع إلى الله، عز وجل.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئِسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩)﴾.

هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب، الذين أخذ عليهم العهد على السنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن ينهوا بذكره في الناس ليكونوا^(١٥) على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعه،

(١) في أ: «بل» . (٢) في و: «يتشاورون» . (٣) في أ: «حباب» . (٤) في ج، ر، أ، و: «واصفح عنه» . (٥) في ج، ر، أ، و: «فوالذي» . (٦) في و: «لقد خالفتهم» . (٧) البحيرة المقصود بها: مدينة رسول الله ﷺ . (٨) في أ: «يعصبوه»، وفي و: «فيعصبونه» . (٩) في ر، أ: «أتى» . (١٠) في أ: «ثقل» . (١١) زيادة من ج، ر، أ، و، وفي هـ: «الآية» . (١٢) في ج، ر، أ، و: «على الإسلام فبايعوا» . (١٣) في ر: «فأسلموا» . (١٤) صحيح البخاري برقم (٤٥٦٦)، ورواه مسلم في صحيحه برقم (١٧٩٨) . (١٥) في و: «فيكونوا» .

فكتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير فى الدنيا والآخرة بالدون الطفيف، والحظ الدنيوى السخيف، فبئست الصفقة صفقتهم، وبئست البيعة بيعتهم.

وفى هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، ويُسلِّكَ بهم مسلكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع، الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا^(١) منه شيئا، فقد ورد فى الحديث المروى من طرق متعددة عن النبى ﷺ أنه قال: «من سئل عن عِلْمٍ فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار».

وقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ [فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ]^(٢) الآية، يعنى بذلك المرائين المتكثرين بما لم يُعطوا، كما جاء فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ: «من ادَّعى دَعْوَى كاذِبَةٍ لِيَتَكَثَّرَ بِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللَّهُ إِلَّا قَلَّةً»^(٣). وفى الصحيح: «المتشبع»^(٤) بما لم يُعطَ كلابس ثوبى زور»^(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، عن ابن جريج، أخبرنى ابن أبى مليكة أن حميد بن عبد الرحمن بن عوف أخبره: أن مروان قال: اذهب يا رافع - لبوابه - إلى ابن عباس، رضى الله عنه، فقل^(٦): لئن كان كل امرئ منا فرح بما أتى^(٧)، وأحب أن يحمد بما لم يفعل - معذَّباً، لَنُعَذِّبَن أَجْمَعُونَ؟^(٨) فقال ابن عباس: وما لكم^(٩) وهذه؟ إنما نزلت هذه فى أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾^(١٠) وتلا ابن عباس: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ الآية. وقال ابن عباس: سألهم النبى ﷺ عن شيء، فكتموه^(١١) وأخبروه بغيره، فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا^(١٢) من كتمانهم ما سألهم عنه.

وهكذا رواه البخارى فى التفسير، ومسلم، والترمذى والنسائى فى تفسيريهما، وابن أبى حاتم وابن جرير^(١٣) وابن مردويه، والحاكم فى مستدركه، كلهم من حديث عبد الملك بن جريج، بنحوه^(١٤). ورواه البخارى أيضا من حديث ابن جريج عن ابن أبى مليكة عن علقمة بن وقاص: أن

(١) فى ر: «يكتمون». (٢) زيادة من ج، ر، أ، و.

(٣) صحيح البخارى برقم (٦١٠٥، ٦٦٥٢) وصحيح مسلم برقم (١١٠) من حديث ثابت بن الضحاك رضى الله عنه.

(٤) فى أ: «المتشبع».

(٥) رواه مسلم برقم (٢١٢٩) من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٦) فى ج، ر، أ: «فقل له». (٧) فى ج: «أوتى».

(٨) فى ج، ر، أ، و: «أجمعين».

(٩) فى ج: «ما لكم». (١٠) فى ج، ر، أ، و: «لتبيننه للناس... الآية». (١١) فى ر، أ، و: «فكتموه إياه».

(١٢) فى ج: «أوتوا». (١٣) فى و: «وابن خزيمة».

(١٤) المسند (٢٩٨/١) وصحيح البخارى برقم (٤٥٦٨) وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٨) وسنن الترمذى برقم (٣٠١٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٠٨٦).

مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس، فذكره^(١).

وقال البخارى: حدثنا سعيد بن أبى مريم، أنبأنا محمد بن جعفر، حدثني زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه؛ أن رجلا من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ، فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا^(٢) إليه وحلفوا، وأحبوا أن يحمدا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ الآية.

وكذا رواه مسلم من حديث ابن أبى مريم، بنحوه^(٣). وقد رواه ابن مردويه فى تفسيره من حديث الليث بن سعد، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم قال: كان^(٤) أبو سعيد ورافع بن خديج وزيد بن ثابت عند مروان فقال: يا أبا سعيد، رأيت^(٥) قول الله تعالى: ﴿لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾. ونحن نفرح بما أتينا ونحب أن نحمد بما لم نفعل؟ فقال أبو سعيد: إن هذا ليس من ذاك، إنما ذاك^(٦) أن ناسا من المنافقين كانوا يتخلفون إذا بعث رسول الله ﷺ بعثا، فإن كان فيهم نكبة فرحوا بتخلفهم، وإن كان لهم نصر من الله وفتح حلفوا^(٧) لهم ليرضوهم ويحمدوهم على سرورهم بالنصر والفتح. فقال مروان: أين هذا من هذا؟ فقال أبو سعيد: وهذا يعلم هذا، فقال مروان: أذلك يا زيد؟ قال: نعم، صدق أبو سعيد. ثم قال أبو سعيد: وهذا يعلم ذاك^(٨) - يعنى رافع بن خديج - ولكنه يخشى أن أخبرك أن تنزع قلائصه فى الصدقة. فلما خرجوا قال زيد لأبى سعيد الخدرى: ألا تحمدنى على شهادة لك^(٩)؟ فقال أبو سعيد: شهدت الحق. فقال زيد: أو لا تحمدنى على ما شهدت الحق؟

ثم رواه من حديث مالك، عن زيد بن أسلم، عن رافع بن خديج: أنه كان هو وزيد بن ثابت عند مروان بن الحكم، وهو أمير المدينة، فقال مروان: يا رافع، فى أى شىء نزلت^(١٠) هذه؟ فذكره^(١١) كما تقدم عن أبى سعيد، رضى الله عنهم، وكان مروان يبعث^(١٢) بعد ذلك يسأل ابن عباس كما تقدم، فقال له ما ذكرناه، ولا منافاة بين ما ذكره ابن عباس وما قاله هؤلاء؛ لأن الآية عامة فى جميع ما ذكر، والله أعلم.

وقد روى ابن مردويه أيضا من حديث محمد بن أبى عتيق وموسى بن عتبة، عن الزهري، عن محمد بن ثابت الأنصارى؛ أن ثابت بن قيس الأنصارى قال: يا رسول الله، والله لقد خشيت أن أكون

(١) صحيح البخارى برقم (٤٥٦٨).

(٢) فى ر: «أعذروا».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٥٦٧) وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٧).

(٤) فى و: «قال».

(٥) فى أ: «لا يحسن».

(٦) فى ج: «أرأيت».

(٧) فى أ: «ذلك».

(٨) فى ر: «يحلفوا».

(٩) فى أ: «من ذلك إنما ذلك».

(١٠) فى ج، ر، أ، و: «أنزلت».

(١١) فى ر: «أنى شهدت لك»، وفى أ، و: «على ما شهدت لك».

(١٢) ورواه عبد بن حميد فى تفسيره كما فى الدر (٤٠٤/٢) وذكره الحافظ ابن حجر فى الفتح (٢٣٤/٨).

(١٣) فى ر: «بعث».

هلكت. قال: «لم؟» قال: نهى الله المرء أن يُحِبَّ أن يُحَمَّدَ بما لم يفعل، وأجندنى أُحِبُّ الحمد. ونهى الله عن الخيلاء، وأجندنى ^(١) أحب الجمال، ونهى الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك، وأنا ^(٢) امرؤ جهورى الصوت. فقال رسول الله ﷺ: «ألا تَرْضَى أن تَعِيشَ حَمِيداً، وتُقْتَلَ شَهِيداً، وتدخل الجنة؟» قال: بلى يا رسول الله. فعاش ^(٣) حميداً، وقُتِلَ شهيداً يوم مُسَيِّمَةَ الكذاب ^(٤).

وقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ يقرأ بالتاء على مخاطبة المفرد، وبالياء على الإخبار عنهم، أى: لا تحسبون ^(٥) أنهم ناجون من العذاب، بل لابد لهم منه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى: هو مالك كل شىء، والقادر على كل شىء فلا يعجزه شىء، فهابوه ولا تخالفوه، واحذروا نقمته وغضبه، فإنه العظيم الذى لا أعظم منه، القدير الذى لا أقدر منه.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَأَمَّا رَبَّنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)﴾.

قال الطبرانى: حدثنا الحسن بن إسحاق التُّسْتَرِي، حدثنا يحيى الحِمَانِي، حدثنا يعقوب القُمِّي، عن جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جبَّير، عن ابن عباس قال: أتت قريش اليهود فقالوا: بهم جاءكم موسى؟ قالوا: عصاه ويده بيضاء للناظرين. وأتوا النصارى فقالوا: كيف كان عيسى؟ قالوا: كان يُبْرِئُ الأكمه والأبرص ويُحْيِي الموتى. فأتوا النبى ﷺ فقالوا: ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً. فدعا ربه، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي

(١) فى أ: «وانى». (٢) فى ر، أ، و: «وانى». (٣) فى ر، أ، و: «قال: فعاش».

(٤) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٢) من طريق الزهرى عن محمد بن ثابت به. ورواه الحاكم فى المستدرک (١/٢٣٤) من طريق إسماعيل بن محمد عن أبيه محمد بن ثابت به. ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٢٧٠) «موارد»، والطبرانى فى المعجم الكبير (٦٧/٢) كلاهما من طريق إسماعيل بن ثابت أن ثابت فذكره. ورواه عبد الرزاق فى مصنفه برقم (٢٠٤٢٥) من طريق الزهرى أن ثابت بن قيس فذكره مرسلاً. ورواه مالك ومن طريق ابن عبد البر فى الاستيعاب (٢/٧٥) من طريق الزهرى عن إسماعيل بن محمد بن ثابت عن ثابت به. والأصح: الزهرى عن محمد بن ثابت عن ثابت به، وهى رواية ابن مردويه والطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٢) وقد صرح محمد بن ثابت بالتحديث عند الطبرانى فقال: حدثنى ثابت بن قيس فذكره، والحديث حسن إن شاء الله.

(٥) فى ج، ر، أ، و: «ولا تحسبوا».

الْأَلْبَابِ، فليَتَفَكَّرُوا فِيهَا^(١).

وهذا مُشْكِل، فإن هذه الآية مدنية. وسؤالهم أن يكون الصفا ذهباً كان بمكة، والله أعلم. ومعنى الآية أنه يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: هذه فى ارتفاعها واتساعها، وهذه فى انخفاضها وكثافتها واتضاعها^(٢). وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات، وثوابت وبحار، وجبال وقفار وأشجار ونبات وزروع وثمار، وحيوان ومعادن ومنافع، مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص ﴿وَإِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أى: تعاقبهما وتَقَارُضهما الطول والقصر، فتارة يطول هذا ويقصر هذا، ثم يعتدلان، ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذى كان قصيراً، ويقصر الذى كان طويلاً، وكل ذلك تقدير العزيز الحكيم^(٣)؛ ولهذا قال: ﴿لَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ أى: العقول التامة الذكية التى تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون الذين قال الله [تعالى]^(٤) فيهم: ﴿وَكَايِنَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ. وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥، ١٠٦].

ثم وصف تعالى أولى الألباب فقال: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ كما ثبت فى صحيح البخارى عن عمران بن حصين، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «صَلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعَلَىٰ جَنْبِكَ^(٥)»^(٦) أى: لا يقطعون ذكره فى جميع أحوالهم بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته، وعلمه وحكمته، واختياره ورحمته.

وقال الشيخ أبو سليمان الداراني: إني لأُخرجُ من منزلي، فما يقع بصرى على شىء إلا رأيت لله على فيه نعمة، أو لى فيه عبرة. رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب «التفكر»^(٧) والاعتبار.

وعن الحسن البصرى أنه قال: تَفَكَّرُ ساعة خير من قيام ليلة. وقال الفضيل: قال الحسن: الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك. وقال سفيان بن عيينة: الفكرة نور يدخل قلبك. وربما تمثل بهذا البيت.

إذا المرء كانت له فكرة ففى كل شىء له عبرة

وعن عيسى، عليه السلام، أنه قال: طُوبَى لمن كان قِلهُ تَذَكُّراً، وصَمتهُ تَفَكُّراً، ونَظَرهُ عبراً.

وقال لقمان الحكيم: إن طول الوحدة أَلْهَمُ للفكرة، وطول الفكرة دليل على طَرَق باب الجنة.

وقال وهب بن منبه: ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم، وما^(٨) فهم امرؤ قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل.

(١) فى المعجم الكبير للطبرانى (١٢٣٢٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٣٣٢/٦): «وفيه يحيى الحماني وهو ضعيف».

(٢) فى أ: «وكشافتها وإيضاعها». (٣) فى ج، أ، و: «العليم».

(٥) فى ج، أ: «جنب».

(٦) صحيح البخارى برقم (١١١٥).

(٧) فى النسخ: «التوكل»، والصحيح ما أثبتناه كما ذكره الذهبى فى سير أعلام النبلاء (٤٠٢/١٣) ومعجم مصنفات ابن أبى الدنيا الموجود بالظاهرية، وسيأتى فى نهاية المقطع مضبوطاً. انظر ص ١٨٩.

(٨) فى ر: «ولا».

وقال عمر بن عبد العزيز: الكلام بذكر الله، عز وجل، حسن، والفكرة في نعم الله أفضل العبادة.

وقال مغيث الأسود: زوروا القبور كل يوم تفكركم، وشاهدوا الموقف بقلوبكم، وانظروا إلى المنصرف بالفريقين إلى الجنة أو النار، وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامها وأطباقها، وكان يبكى عند ذلك حتى يُرفع صريعا من بين أصحابه، قد ذهب عقله.

وقال عبد الله بن المبارك: مرَّ رجل برَّاهبٍ عند مَقْبَرَةٍ ومَزْبَلَةٍ، فناده فقال: يا راهب، إن عندك كنزين من كنوز الدنيا لك فيهما مُعْتَبَرٌ، كنز الرجال وكنز الأموال.

وعن ابن عمر: أنه كان إذا أراد أن يتعاهد قلبه، يأتي الحربة فيقف على بابها، فينادي بصوت حزين فيقول: أين أهْلُكَ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَ﴾ [القصص: ٨٨].

وعن ابن عباس أنه قال: ركعتان مقتصدتان في تفكُّرٍ، خير من قيام ليلة والقلب ساه^(١).

وقال الحسن: يا ابن آدم، كُلْ في ثلث بطنك، واشرب في ثلثه، ودع ثلثه الآخر تتنفس للفكرة.

وقال بعض الحكماء: من نظر إلى الدنيا بغير العبرة انطمس من بصر قلبه بقدر تلك الغفلة.

وقال بشر بن الحارث الحافي: لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه.

وقال الحسن، عن عامر بن عبد قيس قال: سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ يقولون: إن ضياء الإيمان، أو نور الإيمان، التفكير.

وعن عيسى، عليه السلام، أنه قال: يا ابن آدم الضعيف، اتق الله حيثما كنت، وكُنْ في الدنيا ضيقًا، واتخذ المساجد بيتًا، وعلم عينيك البكاء، وجسدك الصبر، وقلبك الفكر، ولا تهتم برزق غد.

وعن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه، أنه بكى يوما بين أصحابه، فسئل عن ذلك، فقال: فكَّرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها، فاعتبرت منها بها، ما تكاد شهواتها تنقضى حتى تكدرها مرارتها، ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر إن فيها مواضع لمن أدكر.

وقال ابن أبي الدنيا: أنشدني الحسين بن عبد الرحمن:

نُزْهَةُ الْمُؤْمِنِ الْفِكْرُ	لَذَّةُ الْمُؤْمِنِ الْعِبْرُ
نَحْمَدُ اللَّهَ وَحْدَهُ	نَحْنُ كُلُّ عَلَى خَطَرُ
رُبَّ لَاهٍ وَعُمُرُهُ	قَدْ تَقَضَّى وَمَا شَعَرُ
رُبَّ عَيْشٍ قَدْ كَانَ فَوْ	قِ الْمُنَى مُنَوَّقَ الزَّهَرِ
فِي خَرِيرٍ ^(٢) مِنَ الْعِيُو	نَ وَظِلِّ مِنَ الشَّجَرِ
وَسُرُورٍ مِنَ النَّبَا	تَ وَطِيبٍ مِنَ الثَّمَرِ
غَيْرَتِهِ وَأَهْلُهُ ^(٣)	سَرْعَةُ الدَّهْرِ بِالْغَيْرِ

(١) في ر: «ساهي».

(٢) في ر: «جرير».

(٣) في ر: «وغيرت أهله».

نَحْمَدُ اللَّهَ وَحْدَهُ إِنَّ فِي ذَا لَمُعْتَبِرٍ
إِنْ فِي ذَا لَعِبْرَةٍ لليبب إن اعتبر

وقد ذمَّ الله تعالى مَنْ لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته، فقال: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ. وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥، ١٠٦]، ومدح عباده المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قائلين: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ أى: ما خلقت هذا الخلق عبثًا، بل بالحق لتجزى^(١) الذين أسأوا بما عملوا، وتجزى^(٢) الذين أحسنوا بالحسنى. ثم نزهوه عن العبث وخلق الباطل فقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أى: عَنْ أَنْ تَخْلُقَ شَيْئًا بَاطِلًا ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أى: يا مَنْ خَلَقَ الْخَلْقَ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ يَا مَنْ هُوَ مُنْزَهٌ عَنِ النِّقَاصِ وَالْعَيْبِ وَالْعَبْثِ، قِنَا مِنْ^(٣) عَذَابِ النَّارِ بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ وَقِيضْنَا لِأَعْمَالِ تَرْضَىٰ بِهَا عَنَا، وَوَقِنَا لِعَمَلٍ صَالِحٍ تَهْدِينَا بِهِ إِلَىٰ جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَتَجِيرُنَا بِهِ مِنْ عَذَابِكَ الْآلِيمِ.

ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ أى: أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أى: يوم القيامة لا مُجِيرَ لَهُمْ مِنْكَ، وَلَا مُجِيدَ لَهُمْ عَمَّا أُرِدَتْ بِهِمْ ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ أى: داعيًا يدعو إلى الإيمان، وهو الرسول ﷺ ﴿أَنْ آمَنُوا بِرَبِّكُمْ فَاْمَنَّا﴾ أى يقول: ﴿آمَنُوا بِرَبِّكُمْ فَاْمَنَّا﴾ أى: فاستجبنا له واتبعناه ﴿رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أى: بإيماننا واتباعنا نبيك فاغفر لنا ذنوبنا، أى: استرها ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ أى: فيما بيننا وبينك ﴿وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ أى: ألحقنا بالصالحين ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ قيل: معناه: على الإيمان برسلك. وقيل: معناه: على السنة رسلك. وهذا أظهر.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عمرو بن محمد، عن أبي عقيل، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «عَسَقْلَانِ أَحَدُ الْعُرُوسِينَ، يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعِينَ^(٤) أَلْفًا لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ، وَيَبْعَثُ مِنْهَا خَمْسِينَ^(٥) أَلْفًا شُهَدَاءَ وَفُودًا إِلَى اللَّهِ، وَبِهَا صُفُوفُ الشُّهَدَاءِ، رُؤُوسُهُمْ مُّقَطَّعَةٌ فِي أَيْدِيهِمْ، تَنُجُّ أَوْدَاجَهُمْ دَمًا، يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ فيقول: صَدَقَ عَبْدِي، اغسلوهم بنهر البِيضَةِ. فيخرجون منه نَقَاءً بِيضًا، فيسرحون في الجنة حيث شَاءُوا».

وهذا الحديث يُعَدُّ مِنْ غَرَائِبِ الْمُسْنَدِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُهُ مَوْضُوعًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٦).

(١) فى ج، ر، أ، و: «ليجزى». (٢) فى ر، أ، و: «يجزى». (٣) فى أ: «فقنا».

(٤) فى ر: «سبعون».

(٥) فى ج، ر، أ: «خمسون».

(٦) المسند (٢٢٥/٣) وقد ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات (٥٤/٢) وقال: «هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وجميع طرقه تدور على أبى عقيل واسمه: هلال بن زيد بن يسار. قال ابن حبان: يروى عن أنس أشياء موضوعة ما حدث أنس بها قط، لا يجوز الاحتجاج به بحال»، وذكره الذهبى فى الميزان (٣١٣/٤) وقال: «باطل». وانظر كلام الحافظ ابن حجر فى: القول المسدد برقم (٨) فقد ذكر أن الحديث فى فضائل الأعمال والتحريض على الرباط فى سبيل الله وأن التسامح فى رواية مثله طريقة الإمام أحمد - رحمه الله - ثم ساق له شواهد، فراجعها إن شئت.

﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى: على رؤوس الخلائق ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ أى: لا بد من الميعاد الذى أخبرت عنه رسلك، وهو القيام يوم القيامة بين يديك.

وقد قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا الحارث بن سريج^(١)، حدثنا المعتمر، حدثنا الفضل بن عيسى، حدثنا محمد بن المنكدر؛ أن جابر بن عبد الله حدثه: أن رسول الله ﷺ قال: «العار والتخزية تبلغ^(٢) من ابن آدم فى القيامة فى المقام بين يدي الله، عز وجل، ما يتمنى العبد أن يؤمر به إلى النار» حديث غريب^(٣).

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتهجده، فقال البخارى، رحمه الله:

حدثنا سعيد بن أبى مريم، حدثنا محمد بن جعفر، أخبرنى شريك بن عبد الله بن أبى نمر، عن كريب عن ابن عباس قال: بت عند خالتي ميمونة، فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، ثم قام فتوضأ واستن. فصلى إحدى عشرة^(٤) ركعة. ثم أذن بلال^(٥) فصلى ركعتين، ثم خرج فصلى بالناس الصبح.

وكذا رواه مسلم عن أبى بكر بن إسحاق الصنعاني، عن ابن أبى مريم، به^(٥). ثم رواه البخارى من طرق عن مالك، عن مخزومة بن سليمان، عن كريب، عن ابن عباس^(٦) أنه بات عند ميمونة زوج النبي ﷺ، وهى خالته، قال: فاضطجعت فى عرض الوسادة، واضطجع^(٧) رسول الله ﷺ وأهله فى طولها، فنام رسول الله ﷺ حتى إذا انتصف الليل - أو قبله بقليل، أو بعده بقليل - استيقظ رسول الله ﷺ من منامه، فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده، ثم قرأ العشر الآيات الخواتيم من سورة آل عمران، ثم قام إلى شنّ معلقة فتوضأ منها فأحسن وضوءه^(٨) ثم قام يصلى - قال ابن عباس: فقمتم فصنعت مثل ما صنع، ثم ذهبت فقمتم إلى جنبه - فوضع رسول الله ﷺ يده اليمنى على رأسى، وأخذ بأذنى اليمنى يفتلها^(٩)، فصلى ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم أوتر، ثم اضطجع حتى جاءه المؤذن، فقام فصلى ركعتين خفيفتين، ثم خرج فصلى الصبح.

وهكذا أخرجه بقية الجماعة من طرق عن مالك، به^(١٠). ورواه مسلم أيضاً وأبو داود من وجوه أخرى، عن مخزومة بن سليمان، به^(١١).

(١) فى ج، ر: «شريح».

(٢) فى ج، ر: «يلغ».

(٣) مسند أبى يعلى (٣/٣١١) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٣٥٠): «وفيه الفضل بن عيسى الرقاشى، وهو مجمع على ضعفه».

(٤) فى ر: «عشر» والصحيح ما أثبتناه.

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٥٦٩) وصحيح مسلم برقم (٧٦٣).

(٦) فى ج، ر، أ، و: «ابن عباس أخبره».

(٧) فى ج: «فاضطجع».

(٨) فى أ: «الوضوء».

(٩) فى ج، ر، أ، و: «فتلها».

(١٠) صحيح البخارى برقم (٤٥٧٠، ٤٥٧١) وصحيح مسلم برقم (٧٦٣) وسنن أبى داود برقم (١٣٦٧) وسنن النسائى (٣/٢١٠).

وسنن ابن ماجه برقم (١٣٦٣) وأما الترمذى فرواه فى الشمائل برقم (٢٥٢).

(١١) صحيح مسلم برقم (٧٦٣) وسنن أبى داود برقم (١٣٦٤).

طريق أخرى لهذا الحديث عن ابن عباس [رضى الله عنهما]^(١):

قال أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن أحمد بن محمد بن علي، أخبرنا أبو يحيى بن أبي مسرة^(٢)، أنبأنا خلاد بن يحيى، أنبأنا يونس بن أبي إسحاق، عن المنهال بن عمرو، عن علي بن عبد الله بن عباس، عن عبد الله بن عباس^(٣) قال: أمرني العباس أن أبيت بآل رسول الله ﷺ وأحفظ صلاته. قال: فصلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة العشاء الآخرة، حتى إذا لم يبق في المسجد أحد غيره قام^(٤) فمر بي، فقال: «من هذا؟ عبد الله؟» فقلت^(٥): نعم. قال: «فمه؟» قلت: أمرني العباس أن أبيت بكم الليلة. قال: «فالحق الحق» فلما^(٦) أن دخل قال: «افرشني عبد الله؟» فأتني بوسادة من مسوح، قال فنام رسول الله ﷺ عليها حتى سمعت غطيته، ثم استوى على فراشه قاعدا، قال: فرفع رأسه إلى السماء فقال: «سبحان الملك القدوس» ثلاث مرات، ثم تلا هذه الآيات من آخر سورة آل عمران حتى ختمها.

وقد روى مسلم وأبو داود والنسائي، من حديث علي بن عبد الله بن عباس^(٧) حديثاً^(٨) في ذلك أيضاً^(٩).

طريق أخرى رواها ابن مَرْدُويه، من حديث عاصم بن بهدلة، عن بعض أصحابه، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس؛ أن النبي ﷺ خرج ذات ليلة بعد ما مضى ليل، فنظر إلى السماء، وتلا هذه الآية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ إلى آخر السورة. ثم قال: «اللهم اجعل في قلبي نورا، وفي سمعي نورا، وفي بصري نورا، وعن يميني نورا، وعن شمالي نورا، ومن بين يدي نورا، ومن خلفي نورا، ومن فوقي نورا، ومن تحتي نورا، وأعظم لي نورا يوم القيامة».

وهذا الدعاء^(١٠) ثابت في بعض طرق الصحيح، من رواية كريب، عن ابن عباس، رضي الله عنه^(١١).

ثم روى ابن مَرْدُويه وابن أبي حاتم من حديث جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: أتت قريش اليهود فقالوا: بما جاءكم موسى من الآيات؟ قالوا: عصاه ویده البيضاء^(١٢) للناظرين. وأتوا النصارى فقالوا: كيف كان عيسى فيكم؟ قالوا: كان يُبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى. فأتوا النبي ﷺ فقالوا: ادع لنا ربك^(١٣) يجعل لنا صفًا ذهبًا. فدعا ربه، عز وجل، فنزلت: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾. قال: «فليتفكروا فيها»^(١٤). لفظ ابن مَرْدُويه.

(١) زيادة من و.

(٢) في أ: «ميسرة».

(٣) في أ: «عن أبيه» وفي و: «عن ابن عباس».

(٤) في و: «قال».

(٥) في ج، ر: «قلت».

(٦) في ر، أ، و: «قال: فلما».

(٧) في ج، ر، أ، و: «عباس عن أبيه».

(٨) في ر: «حدثنا».

(٩) صحيح مسلم برقم (٧٦٣) وسنن أبي داود برقم (١٣٥٣) وسنن النسائي (٢٣٦/٣).

(١٠) في إسناده عاصم وقد تكلم فيه وشيخه مجهول. ورواه البخاري في صحيحه برقم (٤٥٦٩) ومسلم في صحيحه برقم (٧٦٣) من طريق كريب عن ابن عباس بنحوه.

(١١) في و: «عنهما».

(١٢) في ج، ر، أ، و: «بيضاء».

(١٣) في أ، ر: «ربك أن».

(١٤) ورواه ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن المنذر كما في الدر (٤٠٧/٢). قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٢٣٥/٨): «رجاله ثقات»

وقد تقدم سياق الطبراني لهذا الحديث في أول الآية، وهذا يقتضي أن تكون^(١) هذه الآيات مكية، والمشهور أنها مدنية، ودليله الحديث الآخر، قال ابن مردويه:

حدثنا إسماعيل بن علي بن إسماعيل، أخبرنا أحمد بن علي الحاراني، حدثنا شجاع بن أشرس، حدثنا حشرج بن نباتة الواسطي أبو مكرم، عن الكلبي - هو أبو جنّاب^(٢) [الكلبي]^(٣) - عن عطاء قال: انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة، رضى الله عنها، فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب، فقالت: يا عبيد، ما يمنعك من زيارتنا؟ قال: قول الشاعر:

زُرْ غَبًا تَزِدُّ حَبًّا

فقال ابن عمر: ذرينا^(٤)، أخبرنا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ. فَبَكَتْ وقالت: كُلُّ أمره كان عجباً، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي، ثم قال: ذريني أتعبد لربي [عز وجل]^(٥) قالت: فقلت: والله إنني لأحب قربك، وإنني أحب^(٦) أن تعبد لربك. فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي، فبكي حتى بل لحيته، ثم سجد فبكي حتى بل الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكي، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح قالت: فقال: يا رسول الله، ما يُبكيك؟ وقد غفر الله لك ذنبك ما تقدم وما تأخر، فقال: «ويحك يا بلال، وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل^(٧) على في هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾» ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها».

وقد رواه عبد بن حميد، عن^(٨) جعفر بن عون، عن أبي^(٩) جنّاب^(١٠) الكلبي عن^(١١) عطاء، بأطول من هذا وأتم سياقاً^(١٢).

وهكذا رواه أبو حاتم ابن حبان في صحيحه، عن عمران بن موسى، عن عثمان بن أبي شيبة، عن يحيى بن زكريا، عن إبراهيم بن سويد النخعي، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء قال: دخلت أنا [وعبد الله بن عمر]^(١٣) وعبيد بن عمير على عائشة^(١٤)، فذكر^(١٥) نحوه.

وهكذا رواه عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا في كتاب «التفكير والاعتبار» عن شجاع بن أشرس، به. ثم قال: حدثني الحسن بن عبد العزيز: سمعت سنيذاً يذكر عن سفيان - هو الثوري - رفعه قال: من قرأ آخر آل عمران فلم يتفكر فيه ويله. يعد بأصابعه عشراً. قال الحسن بن عبد العزيز: فأخبرني

= إلا الحماني فإنه متكلم فيه، وقد خالفه الحسن بن موسى، فرواه عن يعقوب عن جعفر عن سعيد مرسلًا وهو أشبه، وعلى تقدير كونه محفوظًا وصله، ففيه إشكال من جهة أن هذه السورة مدنية وقرش من أهل مكة، ويحتمل أن يكون سؤالهم لذلك بعد أن هاجر النبي ﷺ إلى المدينة ولا سيما زمن الهدنة.

- (١) في ر: «يكون». (٢) في أ: «حبان». (٣) زيادة من ر.
(٤) في ج، ر: «ذونا». (٥) زيادة من ج، ر، أ، و. (٦) في ج، ر، أ: «لأحب». (٧) في أ: «أنزل الله». (٨) في و: «طريق أخرى: قال عبد بن حميد في تفسيره: أنبأنا». (٩) في و: «حدثنا أبو». (١٠) في ج، ر: «حباب». (١١) في و: «حدثنا». (١٢) ومن طريق ابن مردويه رواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب برقم (٦٦٦) فقال: أخبرنا أحمد الذكواني، أنبأنا أحمد بن موسى ابن مردويه، فذكره. وفي إسناده أبو جناب الكلبي تفرد به وهو ضعيف. (١٣) زيادة من و. (١٤) في و: «على أم المؤمنين». (١٥) في ج: «فذكره».

عبيد بن السائب قال: قيل للأوزاعي: ما غاية التفكير فيهن؟ قال: يقرؤهن وهو يعقلهن.

قال ابن أبي الدنيا: وحدثني قاسم بن هاشم، حدثنا علي بن عيَّاش، حدثنا عبد الرحمن بن سليمان قال: سألت الأوزاعي عن أدنى ما يتعلّق به المتعلّق من الفكر فيهن وما ينجيه من هذا الويل؟ فأطرق هنيئة^(١) ثم قال: يقرؤهن وهو يعقلهن.

[حديث آخر فيه غرابة: قال أبو بكر بن مردويه: أنبأنا عبد الرحمن بن بشير بن نعيم، أنبأنا إسحاق بن إبراهيم البستي ح وقال: أنبأنا إسحاق بن إبراهيم بن زيد، حدثنا أحمد بن عمرو قال: أنبأنا هشام بن عمار، أنبأنا سليمان بن موسى الزهري، أنبأنا مظاهر بن أسلم المخزومي، أنبأنا سعيد ابن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ عشر آيات من آخر سورة آل عمران كل ليلة. مظاهر بن أسلم ضعيف]^(٢).

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥)﴾.

يقول تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: فأجابهم ربهم، كما قال الشاعر:

وداعٍ دعا: يَا مَنْ يَجِيبُ إِلَى التَّدْيِ فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبٌ^(٣)

قال سعيد بن منصور: حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن سلمة، رجل من آل أم سلمة، قال: قالت أم سلمة: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا نَسْمَعُ اللَّهَ ذَكَرَ النِّسَاءِ فِي الْهَجْرَةِ بِشَيْءٍ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ [عز وجل]^(٤): ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ﴾ إلى آخر الآية. وقالت الأنصار: هي أول ظعينة قدّمت علينا.

وقد رواه الحاكم في مستدركه من حديث سفيان بن عيينة، ثم قال: صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه^(٥).

وقد روى ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن أم سلمة قالت: آخر آية أنزلت هذه الآية: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ إلى آخرها. رواه ابن مردويه.

ومعنى الآية: أن المؤمنين ذوى الألباب لما سألوا - مما تقدم ذكره - فاستجاب لهم ربهم - عقب ذلك بفاء التعقيب، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

(١) في ج: «هنيئة».

(٢) زيادة من أ، و.

(٣) البيت في تفسير الطبري (٤٨٨/٧) وهو لكعب بن سعد الغنوي.

(٤) زيادة من أ.

(٥) سنن سعيد بن منصور برقم (٥٥٢) والمستدرک (٣٠٠/٢) ورواه عبد الرزاق في تفسيره (١٤٤/١) ومن طريقه ابن جرير في تفسيره (٤٨٨/٧) ولم يذكر قوله: «وقالت الأنصار إلى آخره» من طريق سفيان بنحوه.

(٦) في ر: «دعاني».

وقوله: ﴿أَنْتَ لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْتَى﴾ هذا تفسير للإجابة، أى قال لهم مُجيباً^(١) لهم: أنه لا يضيع عمل عامل لديه، بل يُوقَى كل عامل بقسط عمله، من ذكر أو أنثى.

وقوله: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أى: جميعكم فى ثوابى سواء ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ أى: تركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان وفارقوا الأحباب والخلان والإخوان والجيران، ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ أى: ضايقتهم المشركون بالأذى حتى أُلجؤوهم إلى الخروج من بين أظهرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَوْذُوا فِي سَبِيلِي﴾ أى: إنما كان ذنبهم إلى الناس أنهم آمنوا بالله وحده، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١]. وقال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا وَقُتِلُوا﴾ وهذا أعلى المقامات أن يقاتل فى سبيل الله، فيُعَقَّر جواده، ويعفَّر وجهه بدمه وترابه، وقد ثبت فى الصحيح أن رجلاً قال: يا رسول الله، أرأيت إن قُتِلت فى سبيل الله صابراً مُحْتَسِباً مُقْبِلاً غير مُدْبِرٍ، أَيْكَفَّرَ الله عني خطاياي؟ قال: «نعم» ثم قال: «كيف قلت؟» : فأعاد عليه^(٢) ما قال، فقال: «نعم، إلا الدين، قاله لى جبريل آنفاً».

ولهذا قال تعالى: ﴿لَا كُفْرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَّتِ تَجْرِي مِنَ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أى: تجرى فى خلالها الأنهار من أنواع المشارب، من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن وغير ذلك، مما لا عَيْن رَأَتْ، ولا أذن سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلب بشر.

وقوله: ﴿ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أضافه إليه ونسبه إليه ليدل على أنه عظيم؛ لأن العظيم الكريم لا يعطى إلا جزئياً كثيراً، كما قال الشاعر:

إِنْ يُعَذِّبُ يَكُنْ غَرَاماً وَإِنْ يُعْطِ طِ جَزِئاً فَإِنَّهُ لَا يَبَالِي

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾^(٣) أى: عنده حُسْنُ الجزاء لمن عمل صالحاً.

قال ابن أبى حاتم: ذكر عن دُحَيْمِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ: حدثنا الوليد بن مسلم، أخبرنى حَرِيزُ^(٤) بن عثمان: أن شداد بن أوس كان يقول: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَّهِمُوا اللَّهَ فى قضائه، فإنه^(٥) لا يبغي على مؤمن، فإذا نَزَلَ بأحدكم شئ مما يُحِبُّ فليحمد الله، وإذا أُنْزِلَ^(٦) به شئ مما يكره فليصبر وليحتسب، فإن الله عنده حسن الثواب.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨)﴾.

(٣) فى أ: «الْمَالِبُ» وهو خطأ.

(٢) فى أ، و: «قال: فأعاد عليه».

(١) فى ج، ر، أ، و: «مخبراً».

(٦) فى ج، ر، أ: «نزل».

(٥) فى أ: «فإن الله»، وفى و: «فأله».

(٤) فى ج، ر: «جبرير».

يقول تعالى: لا تنظروا^(١) إلى ما هؤلاء الكفار مُتَرْفُونَ فيه، من النُّعْمَةِ والغِبْطَةِ والسُرور، فعَمَّا قليل يزول هذا كله عنهم، ويصبحون مُرْتَهِنِينَ بِأَعْمَالِهِم السيئة، فَإِنَّمَا نُمَدُّ لَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ اسْتِدْرَاجًا، وَجَمِيعَ مَا هُمْ فِيهِ «مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ».

وهذه الآية كقوله تعالى: «مَا يُجَادَلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ» [غافر: ٤]، وقال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ. مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ» [يونس: ٦٩، ٧٠]، وقال تعالى: «نَمَتَّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ» [لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: «فَمَهَلٌ الْكَافِرِينَ أَمَهْلُهُمْ رُويْدًا» [الطارق: ١٧]، أى: قليلا، وقال تعالى: «أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ» [القصص: ٦١]، وهكذا لما ذكر حال الكفار في الدنيا وذكر مآلهم إلى النار قال بعده: «لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا» أى: ضيافة من عند الله «وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ».

وقال^(٢) ابن مردويه: حدثنا أحمد بن نصر^(٣)، أخبرنا أبو طاهر سهل بن عبد الله، أنبأنا^(٤) هشام ابن عمار، أنبأنا سعيد بن يحيى، أنبأنا عبيد الله بن الوليد الوصافي^(٥)، عن مُحَارِبِ بْنِ دِثَارٍ، عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «إِنَّمَا سُمُّوا الْأَبْرَارَ لِأَنَّهُمْ بَرَّوْا الْآبَاءَ وَالْأَبْنََاءَ، كَمَا أَنَّ لَوَالِدَيْكَ عَلَيْكَ حَقًّا، كَذَلِكَ لَوْلَدُكَ عَلَيْكَ حَقًّا».

كذا رواه ابن مردويه عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ مَرْفُوعًا^(٦)، وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن جَنَابٍ، حدثنا عيسى بن يونس، عن عبيد الله بن الوليد الوصافي^(٧)، عن مُحَارِبِ بْنِ دِثَارٍ عن ابن عُمَرَ قَالَ: إِنَّمَا سَمَاهُمُ اللَّهُ أَبْرَارًا لِأَنَّهُمْ بَرَّوْا الْآبَاءَ وَالْأَبْنََاءَ، كَمَا أَنَّ لَوَالِدَيْكَ^(٨) عَلَيْكَ حَقًّا، كَذَلِكَ لَوْلَدُكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وهذا أشبه والله أعلم^(٩).

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا هشام الدستوائي، عن رجل، عن الحسن قال: الأبرار الذين لا يؤذون الذرّ.

وقال ابن أبي حاتم أيضا: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن خيثمة، عن الأسود قال: قال عبد الله - يعنى ابن مسعود -: ما من نَفْسٍ بَرَّةٍ وَلَا فَاجِرَةٍ إِلَّا الْمَوْتُ خَيْرٌ لَهَا، لئن كان برا لقد قال الله: «وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ».

(٣) فى ج، أ: «نصير».

(٢) فى ج، أ، و: «قال».

(١) فى ر: «تنظر».

(٥) فى ج: «عبد الله بن الوليد الرصافي».

(٤) فى ج: «ابن».

(٦) وهو غير محفوظ، وإنما المحفوظ عن ابن عمر، وقد تفرد به أبو طاهر سهل بن عبد الله.

(٧) فى ج: «عبد الله بن الوليد الرصافي». (٨) فى أ، و: «لوالدك».

(٩) ورواه ابن عدى فى الكامل (٣٢٣/٤) من طريق محمد بن خريم عن هشام بن عمار عن سعيد بن يحيى عن عبيد الله بن الوليد الوصافي عن مُحَارِبِ بْنِ دِثَارٍ عن عبد الله بن عمر بن الخطاب مرفوعا. ورواه البخارى فى الأدب المفرد برقم (٩٤) من طريق عبيد الله بن الوليد الوصافي عن مُحَارِبِ بْنِ دِثَارٍ عن عبد الله بن عمر بن الخطاب موقوفا. قال السيوطى فى الدر (٤١٦/٢): «ووقفه أصح». وفى إسناده عبيد الله بن الوليد الوصافي متفق على ضعفه. وقال ابن عدى: «ضعيف جدا يتبين ضعفه على حديثه».

وكذا رواه عبد الرزاق، عن الأعمش، عن الثوري، به، وقرأ: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ^(١) الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ لِيَرْدَادُوا إِنَّمَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا ابن أبي جعفر، عن فرج بن فضالة، عن لقمان، عن أبي الدرداء أنه كان يقول: ما من مؤمن إلا والموت خير له، وما من كافر إلا والموت خير له، ومن لم يصدقني فإن الله يقول: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾، ويقول: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ لِيَرْدَادُوا إِنَّمَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾.

يخبرُ تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان، وبما أنزل على محمد، مع ما هم يؤمنون به من الكتب المتقدمة، وأنهم خاشعون لله، أى: مطيعون له خاضعون متذللون بين يديه، ﴿لَا يَشْتَرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أى: لا يكتمون بأيديهم من البشارات بمحمد ﷺ، وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم، سواء كانوا هوداً أو نصارى. وقد قال تعالى فى سورة القصص: ﴿الَّذِينَ آمَنَّا هُمُ الْكِتَابُ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ. أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ الآية [القصص: ٥٢ - ٥٤]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنَّا هُمُ الْكِتَابُ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ الآية [البقرة: ١٢١]، وقال: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَىٰ أُمَةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا. وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا. وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ وِزْرُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩]، وهذه الصفات توجد فى اليهود، ولكن قليلا، كما وجد فى عبد الله بن سلام وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود ولم يبلغوا عشرة أنفس، وأما النصارى فكثير منهم مهتدون وينقادون للحق، كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ [ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون]. وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكثبتنا مع الشاهدين. وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين. (٣) فاثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ الآية [المائدة: ٨٢ - ٨٥]، وهكذا قال هاهنا: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ [إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ]﴾ (٤) الآية .

(١) فى أ: «ولا تحسبن».

(٢) فى ج، أ: «تتلى».

(٣) زيادة من ج، ر، و. وفى هـ: «إلى قوله تعالى».

(٤) زيادة من ج، ر، أ.

وقد ثبت في الحديث أن جعفر بن أبي طالب، رضى الله عنه، لمّا قرأ سورة ﴿كهيعص﴾ بحضرة النجاشي ملك الحبشة، وعنده البطارقة والقساوسة^(١) بكى وبكواً معه، حتى أخضبوا^(٢) لحاهم.

وثبت في الصحيحين أن النجاشي لما مات نَعَاهُ النبي ﷺ^(٣) إلى أصحابه، وقال: «إِنْ أَخَا^(٤) لَكُمْ بِالْحَبْشَةِ قَدْ مَاتَ فَصَلُّوا عَلَيْهِ». فخرج [بهم]^(٥) إلى الصحراء، فَصَفَّهم، وصلى عليه^(٦).

وروى ابن أبي حاتم والحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: لما تُوفِيَ النجاشي قال رسولُ الله ﷺ: «استغفروا لأخيكُم». فقال بعض الناس: يأمرنا أن نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة. فنزلت: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ الآية.

ورواه عبد بن حميد وابن^(٧) أبي حاتم من طريق أخرى عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن الحسن^(٨)، عن النبي ﷺ^(٩). ثم رواه ابن مردويه [أيضاً]^(١٠) من طرق عن حميد، عن أنس بن مالك بنحو ما تقدم^(١١).

ورواه أيضاً ابن^(١٢) جرير من حديث أبي بكر الهذلي، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن جابر قال: قال [لنا]^(١٣) رسولُ الله ﷺ حين مات النجاشي: «إِنْ أَحَاكُم أَصْحَمَةٌ قَدْ مَاتَ». فخرج رسولُ الله ﷺ فصلى كما يصلى على الجنائز فكبر عليه أربعاً، فقال المنافقون: يصلى على علج مات بأرض الحبشة: فانزل الله [عز وجل]^(١٤): ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ [وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ]﴾^(١٥)،^(١٦)

وقد روى الحافظ أبو عبد الله الحاكم في مستدركه أنبأنا أبو العباس السيارى بمرو، حدثنا عبد الله ابن علي الغزال، حدثنا علي بن الحسن بن شقيق، حدثنا ابن المبارك، أنبأنا مصعب بن ثابت، عن عامر بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه قال: نزل بالنجاشي عدو من أرضهم، فجاء المهاجرون فقالوا: نحب^(١٧) أَنْ نَخْرُجَ إِلَيْهِمْ حَتَّى نَقَاتِلَ مَعَكَ، وترى جراتنا، ونجزيك بما صنعت بنا. فقال: لا، دواء

(١) في ج، ر: «القساوسة». (٢) في ج، ر: «أخضلوا». (٣) في ج، ر، أ، و: «رسول الله».

(٤) في ج: «أحاكم». (٥) زيادة من ج، أ، و.

(٦) صحيح البخارى برقم (١٣٢٠) وصحيح مسلم برقم (٩٥٢) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه.

(٧) في ر: «عن». (٨) في ج، ر: «أنس».

(٩) ورواه الطبرانى فى المعجم الاوسط برقم (٢٦٨٨) من طريق مؤمل بن إسماعيل عن حماد بن سلمة به. ثم قال: «لم يروه عن حماد إلا مؤمل».

(١٠) زيادة من أ، و.

(١١) ورواه الطبرانى فى الاوسط برقم (٣٩٢٨) «مجمع البحرين» من طريق أبى بكر بن عياش عن حميد عن أنس به. قال الهيثمى فى المجمع (٣٨/٣): «رجاله ثقات». ورواه الواحدى فى الوسيط (١/٥٣٦) من طريق معتمر بن سليمان عن حميد عن أنس به.

(١٢) فى ر: «وابن». (١٣) زيادة من ج، ر.

(١٤) زيادة من ج، ر، أ، و.

(١٥) تفسير الطبرى (٤٩٦/٧).

(١٦) فى ج، ر: «إنا نحب».

بنصرة الله عز وجل خَيْرٌ من دواء بنصرة الناس. قال: وفيه نزلت: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ الآية، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه^(١).

وقال أبو داود: حدثنا محمد بن عمرو الرازي، حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحاق، حدثني يزيد بن رومان، عن عروة، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: لما مات النجاشي كنا نُحَدِّثُ أَنَّهُ لَا يَزَالُ يَرَى عَلَى^(٢) قَبْرِهِ نُورٌ^(٣).

وقال ابن أبي نَجِيج، عن مجاهد: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعنى: مُسْلِمَةٌ أَهْلُ الْكِتَابِ. وقال عباد بن منصور: سألت الحسن البصرى عن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ [وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ]﴾^(٤) الآية. قال: هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد ﷺ، فاتبعوه وعرفوا الإسلام، فأعطاهم الله تعالى أجر اثنين^(٥) للذى^(٦) كانوا عليه من الإيمان^(٧) قبل محمد ﷺ وبالذى اتبعوا محمداً ﷺ. رواهما ابن أبى حاتم.

وقد ثبت فى الصحيحين، عن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ» فذكر منهم: «ورجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى»^(٨).

وقوله: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أى: لا يكتمون ما بأيديهم من العلم، كما فعله الطائفة المزدولة منهم^(٩)، بل يبذلون ذلك مجاناً؛ ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

قال مجاهد: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يعنى: سريع الإحصاء. رواه ابن أبى حاتم وغيره. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ قال الحسن البصرى، رحمه الله: أمروا أن يصبروا على دينهم الذى ارتضاه الله لهم، وهو الإسلام، فلا يدعوه لسراء ولا لضرء ولا لشدة ولا لرخاء، حتى يموتوا مسلمين، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون^(١٠) دينهم. وكذا قال غير واحد من علماء السلف.

وأما المراقبة فهى المداومة فى مكان العبادة والثبات. وقيل: انتظار الصلاة بعد الصلاة، قاله [مجاهد و]^(١١) ابن عباس وسهل بن حنيف، ومحمد بن كعب القرظى، وغيرهم.

وروى ابن أبى حاتم هاهنا الحديث الذى رواه مسلم والنسائى، من حديث مالك بن أنس، عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب، مولى الحرقة، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «أَلَا

(١) المستدرک (٢/ ٣٠٠) وأقره الذهبى.

(٢) فى ج، أ: «فى».

(٣) سنن أبى داود برقم (٢٥٢٣).

(٤) زيادة من ج، ر، أ، و.

(٥) فى ج، ر، أ، و: «الإسلام».

(٦) صحيح البخارى برقم (٩٧) وصحيح مسلم برقم (١٥٤).

(٧) فى أ: «بينهم».

(٨) فى ر، أ، و: «يملون».

(٩) زيادة من و.

(١٠) فى أ: «للذين».

(١١) فى ج، ر: «إحدى اثنتين».

أخبركم بما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط»^(١).

وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد، حدثنا موسى بن إسحاق حدثنا أبو جحيفة^(٢) على ابن يزيد الكوفي، أنبأنا ابن أبي كريمة، عن محمد بن يزيد^(٣)، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: أقبل على أبو هريرة يوما فقال: أتدرى يا ابن أخي فيم نزلت^(٤) هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾؟ قلت: لا. قال: أما إنه لم يكن في زمان النبي ﷺ غزو يربطون فيه، ولكنها نزلت في قوم يعمرن المساجد، يصلون الصلاة في مواقيتها، ثم يذكرون الله فيها، فعليهم أنزلت: ﴿اصْبِرُوا﴾ أي: على الصلوات الخمس ﴿وَصَابِرُوا﴾ [على]^(٥) أنفسكم وهواكم ﴿وَرَابِطُوا﴾ في مساجدكم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾^(٦).

وهكذا رواه الحاكم في مستدركه من طريق سعيد بن منصور بن المبارك عن مصعب بن ثابت، عن داود بن صالح، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة - بنحوه^(٧).

وقال ابن جرير: حدثني أبو السائب، حدثني ابن فضيل^(٨)، عن عبد الله بن سعيد المقبري، عن جده، عن شرحبيل، عن علي، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على ما يكفر الذنوب والخطايا؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط»^(٩).

وقال ابن جرير أيضا: حدثنا موسى بن سهل الرملي، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا محمد بن مهاجر، حدثني يحيى بن يزيد، عن زيد بن أبي أنيسة، عن شرحبيل، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويكفر به الذنوب؟» قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «إسباغ الوضوء في أماكنها، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط»^(١٠).

وقال ابن مردويه: حدثني محمد بن علي، أنبأنا محمد بن عبد الله بن^(١١) السلام البيروتي، أنبأنا محمد بن غالب الأنطاكي، أنبأنا عثمان بن عبد الرحمن، أنبأنا الوازع بن نافع، عن أبي سلمة

(١) رواه مالك في الموطأ في قصر الصلاة برقم (٥٥) ومن طريقه مسلم في صحيحه برقم (٢٥١) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١٣٩).

(٢) في ج: «حجبة»، وفي أ: «جحيفة». (٣) في أ: «سويد». (٤) في ج، ر، أ، و: «أنزلت».

(٥) زيادة من أ.

(٦) ذكره السيوطي في الدر (٤١٧/٢) وعزاه لابن مردويه.

(٧) المستدرک (٣٠١/٢) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وأقره الذهبي. ورواه الطبري في تفسيره (٥٠٤/٧) من طريق ابن المبارك عن مصعب بن ثابت عن داود من كلام أبي سلمة كما سيأتي.

(٨) في ر: «فضل».

(٩) تفسير الطبري (٥٠٥/٧) وفي إسناده المقبري: عبد الله بن سعيد، ضعيف ورمى بالكذب.

(١٠) تفسير الطبري (٥٠٥/٧، ٥٠٦) ورواه البزار (٢٢٣/١) «كشف الاستار» وقال: «لا نعلم يروى هذا عن جابر بغير هذا الإسناد» ورواه ابن حبان في صحيحه برقم (١٦١) «موارد» كلاهما من طريق محمد بن سلمة عن خالد بن يزيد عن محمد بن سلمة به.

(١١) في ج، ر، أ، و: «عبد الله بن عبد السلام».

ابن عبد الرحمن، عن أبى أيوب، رضى الله عنه، قال: وقف علينا رسول الله ﷺ فقال: «هل لكم»^(١) إلى ما يمحو الله به الذنوب ويعظم به الأجر؟ قلنا: نعم، يا رسول الله، وما هو؟ قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة».

قال: «وهو قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، فذلك هو الرباط فى المساجد» وهذا حديث غريب من هذا الوجه جداً^(٢).

وقال عبد الله بن المبارك، عن مُصَنَّب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير، حدثنى داود بن صالح قال: قال لى أبو سلمة بن عبد الرحمن: يا ابن أخى، هل تدرى فى أى شىء نزلت هذه الآية ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾؟ قال: قلت: لا. قال: إنه - يا ابن أخى - لم يكن فى زمان النبى ﷺ غزو يُرَابِطُ فيه، ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة. رواه ابن جرير، وقد تقدم سياق ابن مردويه، وأنه من كلام أبى هريرة، فالحق أعلم.

وقيل: المراد بالمرابطة هاهنا مرابطة الغزو فى نُحُور العدو، وحفظ ثُغُور الإسلام وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين، وقد وردت الأخبار بالترغيب فى ذلك، وذكر كثرة الثواب فيه، فروى البخارى فى صحيحه عن سهل بن سعد الساعدى، رضى الله عنه^(٣): أن رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها»^(٤).

حديث آخر: روى مسلم، عن سلمان الفارسى، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذى كان يعمل، وأجرى عليه رزقه، وأمن الفتان»^(٥).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا ابن المبارك، عن حيوة بن شريح، أخبرنى أبو هانئ الخولانى، أن عمرو بن مالك الجنبى^(٦) أخبره: أنه سمع فضالة بن عبيد يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ميت يُخْتَمُ على عمله، إلا الذى مات مُرَابِطاً فى سبيل الله، فإنه يَنَمَى^(٧) له عمله إلى يوم القيامة، ويأمن فتنة القبر».

وهكذا رواه أبو داود، والترمذى من حديث أبى هانئ الخولانى. وقال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه ابن حبان فى صحيحه أيضاً^(٨).

حديث آخر: وروى الإمام أحمد أيضاً عن يحيى بن إسحاق وحسن بن موسى وأبى سعيد^(٩) سعيد

(١) فى ج، أ: «هل أدلكم».

(٢) وفى إسناده الوازع بن نافع، قال ابن معين: ليس بثقة. وقال البخارى: منكر الحديث وتركه النسائى. وقال ابن عدى: عامة ما يرويه الوازع غير محفوظ. ميزان الاعتدال (٤/٣٢٧).

(٣) فى أ، و: «عنهما».

(٤) صحيح البخارى برقم (٢٨٩٢).

(٥) صحيح مسلم برقم (١٩١٣).

(٦) فى ج، ر: «ينموا».

(٧) فى أ: «الختنى».

(٨) المسند (٦/٢٠) وسنن أبى داود برقم (٢٥٠٠) وسنن الترمذى برقم (١٦٢١) وصحيح ابن حبان (٦٩/٧) «الإحسان».

(٩) فى ج، أ: «أبو».

[وعبد الله بن يزيد^(١)] قالوا: حدثنا^(٢) ابن لهيعة حدثنا مَشْرَح بن هاعان، سمعت عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل مَيِّت يُخْتَم على عمله، إلا المُرابط في سبيل الله، فإنه يجرى عليه^(٣) عمله حتى يُبْعَث ويأمن من الفتان»^(٤).

وروى الحارث بن محمد بن أبي أسامة في مسنده، عن المقبرى وهو عبد الله بن يزيد، به إلى قوله: «حتى يبعث» دون ذكر «الفتان»^(٥). وابن لهيعة إذا صرح بالتحديث فهو حسن، ولا سيما مع ما تقدم من الشواهد.

حديث آخر: قال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة في سننه: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا عبد الله بن وهب، أخبرني الليث، عن زهرة بن مَعْد^(٦)، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «من مات مُرابطاً في سبيل الله، أجرى^(٧) عليه عمله الصالح الذي كان يعمل وأجرى عليه رزقه، وأمن من الفتان، وبعثه الله يوم القيامة آمناً من الفزع»^(٨).

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا موسى، أنبأنا ابن لهيعة، عن موسى بن وردان، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «من مات مُرابطاً وقى فتنة القبر، وأمن^(٩) من الفزع الأكبر، وغداً عليه وريح برزقه من الجنة، وكتب له أجر المُرابط إلى يوم القيامة»^(١٠).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا إسماعيل بن عيَّاش، عن محمد ابن عمرو بن حَلْحَلَة الدؤلى، عن إسحاق بن عبد الله، عن أم الدرداء ترفع الحديث قالت^(١١): «من رباط في شيء من سواحل المسلمين ثلاثة أيام، أجزأت عنه رباط سنة»^(١٢).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا كَهْمَس، حدثنا مُصْعَب بن ثابت ابن عبد الله بن الزبير قال: قال عثمان، رضى الله عنه - وهو يخطب على منبره -: إني مُحدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لم يكن يمنعني أن أحدثكم به إلا الضن بكم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حَرَسُ ليلة في سبيل الله أفضل^(١٣) من ألف ليلة يقام ليلاً ويصام نهارها»^(١٤).

وهكذا رواه أحمد أيضاً عن رَوْح عن كهمس عن مصعب بن ثابت، عن عثمان^(١٥). وقد رواه ابن ماجة عن هشام بن عمار، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن مُصْعَب بن ثابت،

(١) زيادة من ج، ر، أ، و. (٢) فى ج، ر، أ، و: «كلهم عن عبد الله بن لهيعة». (٣) فى أ: «له».

(٤) المسند (١٥٧/٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٢٨٩/٥): «فيه ابن لهيعة وحديثه حسن».

(٥) مسند الحارث برقم (٦٢٧) «بغية الباحث» ورواية عبد الله بن يزيد عن ابن لهيعة صحيحة، فهو ممن روى عنه قبل الاختلاط.

(٦) فى ر: «وابن سعيد». (٧) فى أ، و: «أجر».

(٨) سنن ابن ماجة برقم (٢٧٦٧) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣٩١/٢): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

(٩) فى ر: «وأومن».

(١٠) المسند (٤٠٤/٢).

(١١) فى ر، أ، و: «قال».

(١٢) المسند (٣٦٢/٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٢٨٩/٥): «رواه أحمد والطبرانى من رواية إسماعيل بن عيَّاش عن طريق المدنيين وبقيّة رجاله ثقات».

(١٣) فى أ: «خير».

(١٤) المسند (٦٤/١).

(١٥) المسند (٦١/١).

عن عبد الله بن الزبير قال: خطب عثمان بن عفان الناس فقال: يا أيها الناس، إني سمعت حديثاً من رسول الله ﷺ لم يمنعني أن أحدثكم به إلا الضنّ بكم وبصحابتكم، فليخترنْ مُخْتَارَ لِنَفْسِهِ أَوْ لِيَدْعُ. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رَابطَ لَيْلَةً في سَبِيلِ الله كانت كَأَلْفِ لَيْلَةٍ صِيَامِها وَقِيَامِها»^(١).

طريق أخرى عن عثمان [رضي الله عنه]^(٢): قال الترمذی: حدثنا الحسن بن علي الخلال، حدثنا هشام بن عبد الملك، حدثنا الليث بن سعد، حدثنا أبو^(٣) عَقِيلَ زُهْرَةَ بن مَعْبُد، عن أبي صالح مولى عثمان بن عفان قال: سمعت عثمان - وهو على المنبر - يقول: إني كَتَمْتُكُمْ حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ كَرَاهِيَةً تَفَرِّقُكُمْ عَنِّي، ثم بدا لي أن أحدثكموه، ليختار امرؤ لنفسه ما بدا له، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رَباطُ يوم في سَبِيلِ الله خَيْرٌ من ألف يوم فيما سِوَاهُ من المنازل».

ثم قال الترمذی: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، قال محمد - يعني البخاري -: أبو صالح مولى عثمان اسمه بُرْكَانٌ^(٤) وذكر غير الترمذی أن اسمه الحارث، فالله أعلم^(٥) وهكذا رواه الإمام أحمد من حديث الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة وعنده زيادة في آخره فقال - يعني عثمان -: فليرابط امرؤ كيف شاء، هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال: اللهم اشهد^(٦).

حديث آخر: قال أبو عيسى الترمذی: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، حدثنا محمد بن المُنْكَدَر قال: مر سلمان الفارسي بشرحبيّل بن السَّمْط، وهو في مُرَابَطٍ له، وقد شقّ عليه وعلى أصحابه فقال: أفلاً^(٧) أحدثك - يا ابن السَّمْط - بحديث سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: بلى. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رَباطُ يوم في سَبِيلِ الله أفضل - أو قال: خير - من صيام شهر وقيامه، ومن مات فيه وَفَى فِتْنَةَ القَبْرِ، وَنَمَى له عمله إلى يوم القيامة».

تفرد به الترمذی من هذا الوجه، وقال: هذا حديث حسن^(٨). وفي بعض النسخ زيادة: وليس إسناده بمتصل، وابن المنكدر لم يدرك سلمان.

قلت: الظاهر أن محمد بن المنكدر سمعه من شرحبيّل بن السَّمْط وقد رواه مسلم والنسائي من حديث مكحول وأبي عُبَيْدَةَ بن عَقْبَةَ، كلاهما عن شرحبيّل بن السَّمْط - وله صحبة - عن سلمان الفارسي عن النبي ﷺ أنه قال: «رَباطُ يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل، وأجرى عليه رزقه، وأمن الفتان» وقد تقدم^(٩) سياق مسلم بمفرده^(١٠).

حديث آخر: قال ابن ماجه: حدثنا محمد بن إسماعيل بن سَمُرَةَ، حدثنا^(١١) محمد بن يَعْلَى

(١) سنن ابن ماجه برقم (٢٧٦٦) وقال البوصيري في الزوائد (٢/ ٣٩٠): «إسناده ضعيف».

(٢) زيادة من و.

(٣) في ج: «أبي».

(٤) في ج: «أبي».

(٥) سنن الترمذی برقم (١٦٦٧) ورواه النسائي في السنن (٦/ ٣٩).

(٦) المسند (١/ ٦٢).

(٧) في ج: «ألا».

(٨) سنن الترمذی برقم (١٦٦٥).

(٩) في ج: «قدم».

(١٠) صحيح مسلم برقم (١٩١٣) وسنن النسائي (٣٩١٦).

(١١) في ج: «قال: حدثنا».

السُّلَمَى، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ صَيْحٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ مَكْحُولٍ، عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِرَبَاطِ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مِنْ وَرَاءِ عَوْرَةِ الْمُسْلِمِينَ مُحْتَسِبًا، مِنْ غَيْرِ شَهْرِ رَمَضَانَ، أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ عِبَادَةِ مِائَةِ سَنَةٍ، صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا. وَرَبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مِنْ وَرَاءِ عَوْرَةِ الْمُسْلِمِينَ مُحْتَسِبًا، مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَعْظَمُ أَجْرًا - أَرَاهُ قَالَ -: مِنْ عِبَادَةِ أَلْفِ سَنَةٍ صِيَامِهَا، وَقِيَامِهَا فَإِنْ رَدَّ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى أَهْلِهِ سَالِمًا، لَمْ تَكْتَبْ^(١) عَلَيْهِ سِتَّةُ أَلْفِ سَنَةٍ، وَتَكْتَبَ لَهُ الْحَسَنَاتُ، وَيُجْرَى لَهُ أَجْرُ الرِّبَاطِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

هذا حديث غريب، بل منكر من هذا الوجه، وعُمَرُ بْنُ صَيْحٍ مُتَّهَمٌ^(٢).

حديث آخر: قال ابن ماجة: حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ يُونُسَ الرَّمْلِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ شُعَيْبٍ بْنُ شَابُورٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ خَالِدِ بْنِ أَبِي طَوِيلٍ، سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «حَرَسُ لَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ صِيَامِ رَجُلٍ وَقِيَامِهِ فِي أَهْلِ أَلْفِ سَنَةٍ: السَّنَةُ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُونَ^(٣) يَوْمًا، وَالْيَوْمُ^(٤) كَأَلْفِ سَنَةٍ».

وهذا حديث غريب أيضا^(٥)، وسعيد بن خالد هذا ضَعَفَهُ أَبُو زُرْعَةَ وغير واحد من الأئمة، وقال العقيلي: لا يتابع على حديثه. وقال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به. وقال الحاكم: روى عن أنس أحاديث موضوعة.

حديث آخر: قال ابن ماجة: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الصَّبَّاحِ، أَنبَأَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ صَالِحِ ابْنِ مُحَمَّدِ بْنِ زَائِدَةَ، عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، عَنْ عَقْبَةَ بْنِ عَامِرِ الْجَهْنِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ حَارِسَ الْحَرَسِ»^(٦).

فيه انقطاع بين عمر بن عبد العزيز وبين عتبة بن عامر، فإنه لم يدركه، والله أعلم.

حديث آخر: قال أبو داود: حَدَّثَنَا أَبُو تَوْبَةَ، حَدَّثَنَا معاوية - يعني ابن سلام عن زيد - يعني ابن سلام - أنه سمع أبا سلام قال: حَدَّثَنِي السُّلَوِيُّ: أَنَّهُ حَدَّثَهُ سَهْلُ بْنُ الْحَنْظَلِيَّةِ^(٧): أَنَّهُمْ سَارُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ، فَأَطْنَبُوا السَّيْرَ حَتَّى كَانَتْ عَشِيَّةً، فَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَارِسٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي انْطَلَقْتُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ حَتَّى طَلَعْتُ جَبَلَ كَذَا وَكَذَا، فَإِذَا أَنَا بِهَؤُوزٍ عَلَى بَكْرَةٍ أَبِيهِمْ بَطْنُهُمْ وَنَعَمُهُمْ وَشَأْتُهُمْ^(٨)، اجتمعوا إلى حنين، فتبسم النبي ﷺ وقال: «تِلْكَ غَنِيمَةُ الْمُسْلِمِينَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ [تَعَالَى]^(٩)». ثُمَّ قَالَ: «مَنْ يَحْرُسُنَا اللَّيْلَةَ؟» قَالَ أَنَسُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ^(١٠): «فَارْكَبْ» فَرَكِبَ فَرَسًا لَهُ، فَجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ

(١) في ج: «يكتب».

(٢) سنن ابن ماجة برقم (٢٧٦٨).

(٣) في ج، ر، أ: «وستين».

(٤) في ج، ر: «يوم اليوم».

(٥) سنن ابن ماجة برقم (٢٧٧٠).

(٦) سنن ابن ماجة برقم (٢٧٦٩) وقال البوصيري في الزوائد (٢/٣٩٤): «هذا إسناد ضعيف. صالح بن محمد ضعفه ابن معين وأبو زرعة وأبو حاتم والبخاري وأبو داود والنسائي وابن عدي وغيرهم».

(٧) زيادة من ج، أ.

(٨) في ر، أ: «وشياهم».

(٩) في ر: «الحنظلية».

(١٠) في ج، أ، و: «قال».

رسول الله ﷺ: «استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلاه ولا يغرن»^(١) من قبلك الليلة» فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاه فركع ركعتين ثم قال: «هل أحسستم فارسكم؟» قال رجل: يا رسول الله، ما أحسنناه، فثوب بالصلاة، فجعل النبي ﷺ، وهو يصلي يلتفت إلى الشعب، حتى إذا قضى صلاته قال: «أبشروا فقد جاءكم فارسكم» فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر في الشعب، فإذا هو قد جاء، حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال: إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشعب حيث رسول الله ﷺ^(٢)، فلما أصبحت طلعت الشيعين كليهما، فنظرت فلم أر أحداً، فقال له رسول الله ﷺ: «هل نزلت الليلة؟» قال: لا، إلا مصلياً أو قاضياً حاجة، فقال له: «أوجبت، فلا عليك ألا تعمل بعدها».

ورواه النسائي عن محمد بن يحيى بن محمد بن كثير الحراني، عن أبي توبة وهو الربيع بن نافع به^(٣).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب: حدثنا عبد الرحمن بن شريح، سمعت محمد بن شمير^(٤) الرُعيني يقول: سمعت أبا عامر التَّجبيي. قال الإمام أحمد: وقال غير زيد: أبا على الجنبي^(٥) يقول: سمعت أبا ريحانة يقول: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فأتينا ذات ليلة إلى شرف فبتنا عليه، فأصابنا برد شديد، حتى رأيتُ من يحفر في الأرض حفرة، يدخل فيها ويلقى عليه الجحفة - يعنى الترس - فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ من الناس نادى: «من يحرسنا في هذه الليلة فادعوا له بدعاء يكون له فيه فضل؟» فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله. فقال: «ادن» فدنا، فقال: «من أنت؟» فتسمى له الأنصاري، ففتح رسول الله ﷺ بالدعاء، فأكثر منه. فقال^(٦) أبو ريحانة: فلما سمعت ما دعا به رسول الله ﷺ قلت^(٧): أنا رجل آخر. فقال: «ادن». فدنوت. فقال: من أنت؟ قال: فقلت: أنا أبو ريحانة. فدعا بدعاء هو دون ما دعا للأنصاري، ثم قال: «حرمت النار على عين دمع - أو بكت - من خشية الله، وحرمت النار على عين سهرت في سبيل الله».

وروى النسائي منه: «حرمت النار...» إلى آخره عن عصمة بن الفضل، عن زيد بن الحباب به، وعن الحارث بن مسكين، عن ابن وهب، عن عبد الرحمن بن شريح، به، وأتم، وقال في الروایتين: عن أبي على الجنبي^(٨) ^(٩).

حديث آخر: قال الترمذي: حدثنا نصر بن على الجهضمي، حدثنا بشر بن عمر، حدثنا شعيب ابن رزيق أبو شيبة، حدثنا عطاء الخراساني، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله».

(١) في ج، أ، و: «تغرن». (٢) في ج، ر، أ: «حيث أمرني رسول الله».

(٣) سنن أبي داود برقم (٢٥٠١) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٨٨٧٠).

(٤) في ج، ر: «سمير». (٥) في ج، ر، و: «الحنفي».

(٦) في ج، ر، أ، و: «قال». (٧) في ج، ر: «فقلت».

(٨) في أ، و: «التجبيي». (٩) المسند (١٣٤/٤) وسنن النسائي (١٥/٥).

ثم قال: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث شُعَيْب بن رُزَيْق^(١)، قال: وفي الباب عن عثمان وأبي ریحانة^(٢).

قلت: وقد تقدما، والله الحمد.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رشدين، عن زبَّان^(٣) عن سهل ابن معاذ عن أبيه معاذ بن أنس، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «من حَرَسَ من وراء المسلمين في سبيل الله، متطوعا لا بأجرة سلطان، لم ير النار بعينه إلا تحلَّه القسم، فإن الله يقول: ﴿وَأِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١].

تفرد به أحمد^(٤) رحمه الله [تعالى]^(٥).

حديث آخر: روى البخارى فى صحيحه، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال النبى ﷺ: «تَعَسَّ عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة، إن أُعْطِيَ رضى، وإن لم يُعْطَ سَخَطٌ، تَعَسَّ وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش^(٦)»، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه فى سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماء، إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة، وإن كان فى الساقة كان فى الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع^(٧).

فهذا ما تيسر إirاده من الأحاديث المتعلقة بهذا المقام، والله الحمد على جزيل الإنعام، على تعاقب الأعوام والأيام.

وقال ابن جرير: حدثنى المثنى، حدثنا مُطَرِّف بن عبد الله المدنى^(٨)، حدثنا مالك، عن زيد بن أسلم قال: كتب أبو عبيدة، رضى الله عنه، إلى عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، يذكر له جموعا من الروم وما يتخوف منهم، فكتب إليه عمر: أما بعد، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزلة شدة يجعل الله بعدها فرجا، وإنه لن يغلب عسر يسرين، وإن الله تعالى يقول فى كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٩).

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة عبد الله بن المبارك^(١٠)، من طريق محمد بن إبراهيم بن أبى سكينه قال: أملى على عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس، وودعته للخروج، وأنشدها

(١) فى أ: «وزريق».

(٢) سنن الترمذى برقم (١٦٣٩).

(٣) فى ر: «رثان».

(٤) المسند (٣/٤٣٧).

(٥) زيادة من ر.

(٦) صحيح البخارى برقم (٢٨٨٦).

(٧) فى ر: «المدنى».

(٨) تفسير الطبرى (٥٠٣/٧) ورواه الحاكم فى المستدرک (٣٠٠/٢) من طريق زيد بن أسلم به وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبى.

(٩) انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٢/١٤).

معى إلى الفضيل بن عياض فى سنة سبعين ومائة ، وفى رواية: سنة سبع وسبعين ومائة:

يا عابدَ الحرمين لو أبصرتنا	لَعَلَّمْتَ أَنْكَ فى العبادَةِ تلعبُ
من كان يخضب خدَّه بدموعه	فَنُحُورُنَا بدمائنا تَتَخَضَّبُ
أو كان يُتَعَبُ خَيْلَهُ فى باطلٍ	فَخُيُولُنَا يومَ الصَّبِيحَةِ تَتَعَبُ
ريحُ العبيرِ لكم ، ونحنُ عبيرُنا	وَهَجُ السَّنايِكِ والغبارُ الأَطيبُ
ولقد أتانَا من مَقالِ نبينا	قولَ صَحيحِ صادق لا يَكْذِبُ
لا يستوى وَغَبَارُ خيلِ الله فى	أنفِ امرئٍ ودخانِ نارٍ تَلْهَبُ
هذا كتابُ الله يَنطِقُ بيننا	ليس الشَّهيدُ بِمَيِّتٍ ، لا يَكْذِبُ

قال: فلقيت الفضيل بن عياض بكتابه فى المسجد الحرام، فلما قرأه ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ وقال: صدَقَ أبو عبد الرحمن، ونصحنى، ثم قال: أنت ممن يكتب الحديث؟ قال: قلت: نعم. قال: فاكتب هذا الحديث كراءَ حملك كتاب أبى عبد الرحمن إلينا. وأملى عَلَى الفضيل بن عياض:

حدثنا منصور بن المعتمر، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، أن رجلا قال: يا رسول الله، علمنى عملا أنال به ثواب المجاهدين فى سبيل الله. فقال: «هل تستطيع أن تُصَلِّيَ فلا تُفْطِرَ، وتَصُومَ فلا تُفْطِرَ؟» فقال: يا رسول الله، أنا أَضْعَفُ من أن أستطيع ذلك، ثم قال النبى ﷺ: «قَالَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ طَوَّقْتَ ذَلِكَ مَا بَلَغْتَ الْمَجَاهِدِينَ فى سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ مَا عَلِمْتَ أَنَّ فَرَسَ الْمَجَاهِدِ لَيْسَتْ فى طَوَلِهِ، فَيَكْتُبُ لَهُ بِذَلِكَ الْحَسَنَاتِ»^(١).

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: فى جميع أموركم وأحوالكم، كما قال النبى ﷺ لمعاذ [بن جبل]^(٢) [رضى الله عنه]^(٣) حين بعثه إلى اليمن: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتَّبِعِ السَّبِيلَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالَقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ».

﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة.

وقال ابن جرير: حدثنى يونس، أنبأنا ابن وهب، أنبأنا أبو^(٤) صخر، عن محمد بن كعب القرظى: أنه كان يقول فى قول الله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾: واتقوا الله فيما بينى وبينكم، لعلكم تفلحون غدا إذا لقيتمونى.

آخر تفسير سورة آل عمران، والله الحمد والمنة، نسأله الموت على الكتاب والسنة

(١) رواه أحمد فى المسند (٢٣٦/٥).

(٢) زيادة من أ.

(٣) زيادة من و.

(٤) فى أ: «ابن».

تفسير سورة النساء

[وهي مدنية] (١). قال العوفي عن ابن عباس: نزلت سورة النساء بالمدينة. وكذا روى ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير، وزيد بن ثابت، وروى من طريق عبد الله بن لهيعة، عن أخيه عيسى، عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما نزلت سورة النساء قال رسول الله ﷺ: «لا حِس» (٢).

وقال الحاكم في مستدركه: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أبو البختري (٣) عبد الله ابن محمد بن شاكر، حدثنا محمد بن بشر العبدي، حدثنا مسعر بن كدام، عن معن بن عبد الرحمن ابن عبد الله بن مسعود عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، قال: إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرنى أن لى بها الدنيا وما فيها: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ» الآية، و«إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ» الآية، و«إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ»، و«وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ» الآية، و«وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا» ثم قال: هذا إسناد صحيح إن كان عبد الرحمن سمع من أبيه، فقد اختلف في ذلك (٤).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن رجل، عن ابن مسعود قال في خمس آيات من (٥) النساء: لهن (٦) أحب إلي من الدنيا جميعاً: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكَفَرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ»، وقوله: «وَأِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعَفْهَا»، وقوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ»، وقوله: «وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا»، وقوله: «وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ» (٧) أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيمًا. رواه ابن جرير: ثم روى من طريق صالح المري، عن قتادة، عن ابن عباس قال: ثمانى آيات نزلت في سورة النساء هي خير (٨) لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت، أولاهن: «يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»، والثانية: «وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا»، والثالثة: «يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا».

ثم ذكر قول (٩) ابن مسعود سواء، يعنى في الخمسة (١٠) الباقية.

وروى الحاكم من طريق أبي نعيم، عن سفيان بن عيينة، عن عبيد الله (١١) بن أبي يزيد، عن ابن أبي مليكة؛ سمعت ابن عباس يقول: سلونى عن سورة النساء، فإنى قرأت القرآن وأنا صغير. ثم قال: هذا حديث (١٢) صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

(١) زيادة من أ.

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٦ / ١٦٢) والطبراني في المعجم الكبير (١١ / ٣٦٥) والدارقطنى في السنن (٤ / ٦٨)، وقال: «لم يسنده غير ابن لهيعة عن أخيه وهما ضعيفان».

(٣) فى ج، أ: «البختري».

(٤) المستدرک (٢ / ٣٠٥).

(٥) فى ج، أ: «فى».

(٦) فى ج، أ: «هن».

(٧) فى هـ: «من رسله».

(٨) فى ج، أ: «لهن».

(٩) فى ج، ر، أ: «ذكر مثل قول».

(١٠) فى ر، أ: «الخمس».

(١١) فى أ: «عبد الله».

(١٢) المستدرک (٢ / ٣٠١).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝﴾ .

يقول تعالى أمراً خلقه بتقواه، وهى عبادته وحده لا شريك له، ومنبهاً لهم على قدرته التى خلقهم بها من نفس واحدة، وهى آدم، عليه السلام ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهى حواء، عليها السلام، خلقت من ضلعه الأيسر^(١) من خلفه وهو نائم، فاستيقظ فراها فأعجبته، فأنس إليها وأنست إليه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن مقاتل، حدثنا وكيع، عن أبى هلال، عن قتادة، عن ابن عباس قال: خلقت المرأة من الرجل، فجعل نهمتها فى الرجل، وخلق الرجل من الأرض، فجعل نهمته فى الأرض، فاحبسوا نساءكم.

وفى الحديث الصحيح: «إن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شئ فى الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج»^(٢).

وقوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ أى: وذراً منهما، أى: من آدم وحواء رجلاً كثيراً ونساء، ونشرهم فى أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم وألوانهم ولغاتهم، ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر.

ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ أى: واتقوا الله بطاعتكم إياه، قال إبراهيم ومجاهد والحسن: ﴿الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ أى: كما يقال: أسألك بالله وبالرحم. وقال الضحاك: واتقوا الله الذى به تعاقدون وتعاهدون، واتقوا الأرحام أن تقطعوها، ولكن بروها وصلوها، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، والضحاك، والربيع وغير واحد.

وقرأ^(٣) بعضهم: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ بالخفض على العطف على الضمير فى به، أى: تساءلون بالله وبالأرحام، كما قال مجاهد وغيره.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ أى: هو مراقب لجميع أعمالكم وأحوالكم كما قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩].

وفى الحديث الصحيح: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٤). وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب؛ ولهذا ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب [واحد]^(٥) وأم واحدة؛ ليعطف بعضهم على

(١) فى ج، ر، أ: «الأقصر».

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٤٦٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) فى أ: «وقال».

(٤) رواه بهذا اللفظ الطبرانى فى المعجم الكبير والحافظ ابن عساكر فى تاريخ دمشق كما فى التهذيب (٣/ ١٠٦) من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه، ولعل الحافظ ابن كثير يقصد بهذا الحديث حديث جبريل الطويل الذى رواه عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وأخرجه مسلم فى صحيحه برقم (٢٨)، وفيه «أخبرنى عن الإحسان. قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

(٥) زيادة من ج، ر، أ.

بعض، ويحننهم^(١) على ضعفائهم، وقد ثبت في صحيح مسلم، من حديث جرير بن عبد الله البجلي؛ أن رسول الله ﷺ حين قدم عليه أولئك النفر من مضر - وهم مجتابو النمار - أى من غريهم وفقرهم - قام فخطب الناس بعد صلاة الظهر فقال في خطبته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ حتى ختم الآية^(٢). وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ [وَاتَّقُوا اللَّهَ]﴾^(٣) [الحشر: ١٨] ثم حضهم^(٤) على الصدقة فقال: «تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من صاع بره، صاع تمره...» وذكر تمام الحديث^(٥).

وهكذا رواه^(٦) الإمام أحمد وأهل السنن عن ابن مسعود في خطبة الحاجة^(٧)، وفيها ثم يقرأ ثلاث آيات هذه منها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ [الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ]﴾^(٨) الآية.

﴿وَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدُلُوا الْخَيْثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنِي وَثَلَاثَ وَرُبَاعٍ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا (٣) وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا (٤)﴾.

يأمر تعالى بدفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا الحلم كاملة موفرة، وينهى عن أكلها وضمها إلى أموالهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَبْدُلُوا الْخَيْثَ بِالطَّيِّبِ﴾ قال سفيان الثوري، عن أبي صالح: لا تعجل بالرزق الحرام قبل أن يأتيك الرزق الحلال الذي قدر لك.

وقال سعيد بن جبيرة: لا تبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم، يقول: لا تبذروا أموالكم الحلال وتأكلوا أموالهم الحرام.

وقال سعيد بن المسيب والزهرى: لا تعط مهزولا وتأخذ سمينا.

وقال إبراهيم النخعي والضحاك: لا تعط زائفاً وتأخذ جيداً.

وقال السدي: كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم، ويجعل فيها مكانها الشاة المهزولة، ويقول^(٩): شاة بشاة، ويأخذ الدرهم الجيد ويطرح مكانه الزيف، ويقول: درهم بدرهم.

وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، ومقاتل بن حيان، والسدي، وسفيان بن حسين: أى لا تخلطوها فتأكلوها جميعاً.

(٣) زيادة من ج، أ.

(٢) فى ج، ر، أ: جاءت الآية كاملة.

(١) فى ر: «وتحننهم».

(٤) فى ج، أ: «حنهم».

(٥) صحيح مسلم برقم (١٧٠١).

(٦) فى ج، ر، أ: «روى».

(٧) المسند (٤ / ٣٥٨).

(٩) فى أ: «فيقول».

(٨) زيادة من ج، ر، أ.

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُبًّا كَبِيرًا﴾ قال ابن عباس: أى إثماً كبيراً عظيماً.

وقد رواه ابن مردويه، عن أبى هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿حُبًّا كَبِيرًا﴾ قال: «إثماً كبيراً». ولكن فى إسناده محمد بن يونس الكديمى وهو ضعيف^(١). وهكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبر، والحسن، وابن سيرين، وقتادة، والضحاك، ومقاتل بن حيان، وأبى مالك، وزيد بن أسلم، وأبى سنان مثل قول ابن عباس.

وفى الحديث المروى فى سنن أبى داود: «اغفر لنا حوبنا وخطايانا».

وروى ابن مردويه بإسناده إلى واصل، مولى أبى عيينة، عن محمد بن سيرين، عن ابن عباس: أن أبا أيوب طلق امرأته، فقال له النبى ﷺ: «يا أبا أيوب، إن طلاق أم أيوب كان حوباً» قال^(٢) ابن سيرين: الحوب الإثم^(٣).

ثم قال ابن مردويه: حدثنا عبد الباقي، حدثنا بشر بن موسى، أخبرنا هُوَذَة بن خليفة، أخبرنا عَوْف، عن أنس: أن أبا أيوب أراد طلاق أم أيوب، فاستأذن رسول الله ﷺ فقال: «إن طلاق أم أيوب لحوب فأمسكها»^(٤)، ثم رواه^(٥) ابن مردويه والحاكم فى مستدركه من حديث على بن عاصم، عن حميد الطويل، سمعت أنس بن مالك يقول: أراد أبو طلحة أن يطلق أم سليم فقال النبى ﷺ: «إن طلاق أم سليم لحوب» فكف^(٦).

والمعنى: إن أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم وخطأ كبير فاجتنبوه.

وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ﴾ أى: إذا كان^(٧) تحت حجر أحدكم يتيمة وخاف ألا يعطيها مهر مثلها، فليعدل إلى ما سواها من النساء، فإنهن كثير، ولم يضيّق الله عليه.

وقال البخارى: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام، عن ابن جريج، أخبرنى هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة؛ أن رجلاً كانت له يتيمة فنكحها، وكان لها عَدَق. وكان يمسكها عليه، ولم يكن لها من نفسه شىء فنزلت فيه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾^(٨). أحسبه قال: كانت

(١) وقال ابن عدى: قد اتهم بالوضع، وقال ابن حبان: لعله وضع أكثر من ألف حديث وقال أبو عبيد الآجرى: رأيت أبا داود يطلق فى الكديمى الكذب.

(٢) فى أ: «وقال».

(٣) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٢ / ١٩٦) من طريق يحيى الحماني عن حماد بن زيد عن واصل مولى أبى عيينة عن محمد بن سيرين عن ابن عباس أن أبا أيوب أراد أن يطلق أم أيوب فقال له رسول الله ﷺ: «إن طلاق أم أيوب لحوب» قال ابن سيرين: الحوب الإثم، قال الهيثمى فى المجمع (٩ / ٢٦٢): «فيه يحيى الحماني وهو ضعيف».

(٤) هذا مرسل، وأخرجه أبو داود فى المراسيل برقم (٢٣٣) عن وهب بن بقية عن خالد عن عوف عن أنس بن سيرين به.

وأخرجه إبراهيم الحربى فى غريب الحديث كما فى تخريج الكشاف للزيلعى (١ / ٢٧٩) من طريق جرير عن واصل عن أنس بن سيرين به.

(٥) فى أ: «ورواه».

(٦) المستدرک (٢ / ٣٠٢) ومن طريق البيهقى فى السنن الكبرى (٧ / ٣٢٣) وقال الحاكم: صحيح وتعبه الذهبى: «لا والله فيه على بن عاصم وهو واه».

(٧) فى ج، ر، أ: «كانت».

(٨) زيادة من جـ.

شريكتَه في ذلك العَدَق وفي ماله .

ثم قال البخارى: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى^(١): ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ قالت: يا ابن أختي^(٢)، هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه^(٣) في ماله ويعجبُه ماله وجمالها، ف يريد وليها أن يتزوجها بغير أن يَقْسِطَ في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن^(٤) ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا بهنَّ أعلى سُنْتِهِنَّ في الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهنَّ. قال عروة: قالت عائشة: وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية، فأنزل الله [تعالى]^(٥): ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ قالت عائشة: وقولُ الله في الآية الأخرى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧] رغبة أحدكم عن يتيمة حين تكون قليلة المال والجمال. فنهوا^(٦) أن ينكحوا من رغبوا في ماله وجمالها من يتامى^(٧) النساء إلا بالقسط، من أجل رغبتهم عنهن إذا كُنَّ قليلات المال والجمال^(٨).

وقوله: ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ أى: انكحوا ما شئتم من النساء سواهنَّ إن^(٩) شاء أحدكم ثنتين، [وإن شاء ثلاثاً]^(١٠) وإن شاء أربعاً، كما قال تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [فاطر: ١] أى: منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ولا ينفى^(١١) ما عدا ذلك في الملائكة لدلالة الدليل عليه، بخلاف قصر الرجال على أربع، فمن^(١٢) هذه الآية كما قاله ابن عباس وجمهور العلماء؛ لأن المقام مقام امتنان وإباحة، فلو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لذكره.

قال الشافعى: وقد دَلَّتْ سنة رسول الله ﷺ الميمنة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة.

وهذا الذى قاله الشافعى، رحمه الله، مجمع عليه بين العلماء، إلا ما حكى عن طائفة من الشيعة أنه يجوز الجمع بين أكثر من أربع إلى تسع. وقال بعضهم: بلا حصر. وقد يتمسك بعضهم بفعل النبى ﷺ^(١٣) فى جَمْعِهِ بين أكثر من أربع إلى تسع كما ثبت فى الصحيحين، وإما إحدى عشرة كما جاء فى بعض ألفاظ البخارى. وقد علقه^(١٤) البخارى، وقد روينا عن أنس أن رسول الله ﷺ تزوج بخمس عشرة امرأة، ودخل منهن ثلاث عشرة، واجتمع عنده إحدى عشرة ومات عن تسع. وهذا عند العلماء من خصائص رسول الله ﷺ دون غيره من الأمة، لما سنذكره من الأحاديث الدالة على الحصر فى أربع.

(٣) فى أ: «تشركه».

(٦) فى ج، ر، أ: «قالت: فنهوا».

(١١) فى أ: «ولا ينبغي».

(١٤) فى ج، ر، أ: «علله».

(٢) فى ر: «أختي».

(٥) زيادة من ر.

(١٠) زيادة من أ.

(١٣) فى ج، ر، أ: «رسول الله».

(١) فى ج، أ: «عز وجل».

(٤) فى ج، أ: «فنهوا عن أن».

(٧) فى ر: «باقى».

(٨) صحيح البخارى برقم (٤٥٧٣، ٤٥٧٤).

(٩) فى ج، أ: «إذا».

(١٢) فى ج، ر، أ: «من».

ذكر الأحاديث في ذلك:

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل ومحمد بن جعفر قالا: حدثنا معمر، عن الزهري. قال ابن جعفر في حديثه: أنبأنا ابن شهاب، عن سالم، عن أبيه: أن غيلان بن سَكَمَةَ الثقفي أسلم وتحتة عشرة نسوة، فقال له النبي ﷺ: اختر منهن أربعة. فلما كان في عهد عمر طلق نساءه، وقسم ماله بين بنيه، فبلغ ذلك عمر فقال: إني لأظن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتك ففدقه في نفسك^(١) ولعلك لا تمكث إلا قليلا. وإيم الله لتراجعن نساءك ولترجعن في مالك أو لأورثن منكم، ولأمرن بقبرك فيرجم، كما رجم قبر أبي رغال^(٢).

وهكذا رواه الشافعي والترمذي وابن ماجة والدارقطني والبيهقي وغيرهم عن إسماعيل بن عُلَيَّةَ وعُندَرٍ ويزيد بن زُرَيْعٍ وسعيد بن أبي عروبة، وسفيان الثوري، وعيسى بن يونس، وعبد الرحمن بن محمد المحاربي، والفضل بن موسى وغيرهم من الحفاظ، عن معمر - بإسناده - مثله إلى قوله: اختر^(٣) منهن أربعة. وباقى^(٤) الحديث في قصة عمر من أفراد أحمد^(٥)، وهي زيادة حسنة وهي مضعفة لما علل به البخاري هذا الحديث فيما حكاه عنه الترمذي، حيث قال بعد روايته له: سمعت البخاري يقول: هذا حديث غير محفوظ، والصحيح ما روى شُعَيْبٌ وغيره، عن الزهري، حدثت عن محمد بن سُوَيْدٍ الثقفي أن غيلان بن سلمة، ذكره. قال البخاري: وإنما حديث الزهري عن سالم عن أبيه: أن رجلا من ثقيف طلق نساءه، فقال له عمر: لتراجعن نساءك أو لأرجمن قبرك كما رجم قبر أبي رغال.

وهذا التعليل فيه نظر، والله أعلم. وقد رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري مرسلًا^(٦). وهكذا^(٧) رواه مالك، عن الزهري مرسلًا. قال أبو زرعة: وهو أصح^(٨).

قال البيهقي: ورواه عقيل، عن الزهري: بلغنا عن عثمان بن محمد بن أبي سويد.

قال أبو حاتم: وهذا وهم، إنما هو الزهري عن عثمان بن أبي سويد بلغنا أن رسول الله ﷺ،

(١) في ر: «نيتك».

(٢) قبر أبي رغال في الطائف، وقد روى ابن إسحاق أن النبي ﷺ لما خرج إلى الطائف مر بقبر أبي رغال فقال: إن هذا قبر أبي رغال وهو أبو ثقيف وكان من ثمود وكان بهذا الحرم يدفع عنه، فلما خرج منه أصابته النقرة التي أصابت قومه بهذا المكان، فدفن فيه، وقيل: إن أبا رغال كان دليل أبرهة في طريقه لهدم الكعبة.

قال الحفاظ ابن كثير: والجمع بينهما أن أبا رغال المتأخر وافق اسمه اسم جده الأعلى ورجمه الناس كما رجموا قبر الأول أيضا. وقد قال جرير:

إذا مات الفرزدق فارجموه كرجمكم بقبر أبي رغال

ثم قال: والظاهر أنه الثاني. البداية والنهاية (٢/ ١٥٩).

(٣) في ج: «واختر». (٤) في أ: «ويأتي».

(٥) المسند (٢/ ١٤) والشافعي في الأم (٥/ ٤٩) وسنن الترمذي برقم (١١٢٨) وسنن ابن ماجة برقم (١٩٥٣) وسنن الدارقطني (٣/ ٢٧١) وسنن البيهقي الكبرى (٧/ ١٨٢)، وقد توسع الحفاظ ابن حجر في التلخيص (٣/ ١٦٨) والشيخ ناصر الألباني (٦/ ٢٩٢) وحكم عليه بالصحة.

(٦) المصنف لعبد الرزاق (١٢٦٢١).

(٧) في أ: «وقد».

(٨) رواه ابن أبي حاتم في العلل (١/ ٤٠٠) حدثني أبو زرعة عن عبد العزيز الأويسي عن مالك عن الزهري به مرسلًا.

فذكره^(١).

قال البيهقي: ورواه يونس وابن عيينة، عن الزهري، عن محمد بن أبي سويد.

وهذا كما علله البخاري. وهذا الإسناد الذي قدمناه من مسند الإمام أحمد رجاله ثقات على شرط الصحيحين^(٢). ثم قد روى من غير طريق معمر، بل والزهري قال^(٣) الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو علي^(٤) الحافظ، حدثنا أبو عبد الرحمن النسائي، حدثنا أبو بريد عمرو بن يزيد الجرمي^(٥)، أخبرنا سيف بن عبيد^(٦)، حدثنا سَرَّار بن مُجَشَّر، عن أيوب، عن نافع وسالم، عن ابن عمر: أن غيلان بن سلمة كان عنده عشر نسوة فأسلم وأسلمن معه، فأمره النبي ﷺ أن يختار منهن أربعاً. هكذا أخرجه النسائي في سننه. قال أبو علي بن السكن: تفرد به سرار بن مُجَشَّر وهو ثقة، وكذا وثقه ابن معين. قال أبو علي: وكذلك رواه السَّمِيدَع بن وَاهِب^(٧)، عن سرار.

قال البيهقي: وروينا من حديث قيس بن الحارث أو الحارث بن قيس، وعروة بن مسعود الثقفي، وصفوان بن أمية - يعني حديث غيلان بن سلمة^(٨).

فوجه الدلالة أنه لو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لسوغ له رسول الله ﷺ سائرهن في بقاء العشرة^(٩) وقد أسلمن معه، فلما أمره بإمساك أربع وفراق سائرهن دل على أنه لا يجوز الجمع بين أكثر من أربع بحال، وإذا كان هذا في الدوام، ففي الاستئناف بطريق الأولى والأخرى، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

حديث آخر في ذلك: روى أبو داود وابن ماجه في سننهما^(١٠)، من طريق محمد بن عبد الرحمن ابن أبي ليلى، عن حُمَيْصَة^(١١) بن الشَّمْرَدَل - وعند ابن ماجه: بنت الشمرذل، وحكى أبو داود أن منهم من يقول: الشمرذل بالذال المعجمة - عن قيس بن الحارث. وعند أبي داود في رواية: الحارث بن قيس بن^(١٢) عميرة الأسدي قال: أسلمت وعندي ثمانى نسوة، فذكرت للنبي ﷺ فقال: «اختر منهن أربعاً».

وهذا الإسناد حسن، ومجرد هذا الاختلاف لا يضر مثله، لما للحديث من الشواهد^(١٣).

حديث آخر في ذلك: قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، رحمه الله، في

(١) العلل لابن أبي حاتم (١ / ٤٠١).

(٢) في ج، ر، أ: «على شرط الشيخين».

(٣) في ج، ر، أ: «فقال».

(٤) في أ: «أبو يعلى».

(٥) في ج، أ: «أبو يزيد عمرو بن يزيد الحري»، وفي ر: «أبو يزيد عمر بن يزيد الجرمي».

(٦) في ج: «عبد الله».

(٧) في ج، ر، أ: «وهاب».

(٨) السنن الكبرى (٧ / ١٨٣) وهذه الرواية دليل على أن معمر لم يتفرد بوصله، وهى شاهد جيد على وصل الحديث.

(٩) في ج: «العشر».

(١٠) في ر: «سننهما».

(١١) في أ: «حميص».

(١٢) في ج، ر، أ: «أن».

(١٣) سنن أبي داود برقم (٢٢٤١، ٢٢٤٢) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٥٢) ورجح المزى أن اسمه «قيس بن الحارث».

مسنده: أخبرني من سمع ابن أبي الزناد يقول: أخبرني عبد المجيد بن سهيل بن^(١) عبد الرحمن عن عوف بن الحارث، عن نوفل بن معاوية الديلي، رضى الله عنه، قال: أسلمت وعندى خمس نسوة، فقال لى رسول الله ﷺ: «اختر^(٢) أربعاً أيتها شئت، وفارق الأخرى»، فعمدت إلى أقدمهن صحبة عجوز عاقر معى منذ ستين سنة، فطلقتها^(٣).

فهذه كلها شواهد بصحة ما تقدم من حديث غيلان كما قاله الحافظ أبو بكر البيهقي، رحمه الله^(٤).

وقوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أى: فإن خشيتم^(٥) من تعداد النساء ألا تعدلوا بينهن، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩] فمن خاف من ذلك فيقتصر على واحدة، أو على الجوارى السراى، فإنه لا يجب قسم^(٦) بينهن، ولكن يستحب، فمن فعل فحسن، ومن لا فلا حرج.

وقوله: ﴿ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ قال بعضهم: [أى]^(٧) أذنى ألا تكثر عائلتكم. قاله زيد بن أسلم وسفيان بن عيينة والشافعى، رحمهم الله، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وإن خِفْتُمْ عِيْلَةً﴾ أى^(٨): فقرأ ﴿فَسَوْفَ يَغْنِيْكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أ [التوبة: ٢٨] وقال الشاعر^(٩):

فما يَدْرِى الْفَقِيرُ متى غناه وما يَدْرِى الْغَنَى متى يعيل

وتقول العرب: عال الرجل يعيل عيلة، إذا افتقر ولكن فى هذا التفسير ها هنا نظر؛ فإنه كما يخشى كثرة العائلة من تعداد الحرائر، كذلك يخشى من تعداد السراى أيضاً. والصحيح قول الجمهور: ﴿ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ أى: لا تجوروا. يقال: عال فى الحكم: إذا قسَطَ وظلم وجار، وقال أبو طالب فى قصيدته المشهورة:

بميزان قسَطٍ لا يَخِيسُ^(١٠) شعيرة له شاهد من نفسه غير عائل^(١١)

وقال هُشَيْمٌ: عن أبى إسحاق قال: كتب عثمان بن عفان إلى أهل الكوفة فى شىء عاتبوه فيه: إنى لست بميزان لا أعول. رواه ابن جرير.

وقد روى ابن أبى حاتم، وابن مردويه، وأبو حاتم ابن حبان فى صحيحه، من طريق عبد الرحمن ابن إبراهيم دُحَيْمٍ، حدثنا محمد بن شعيب، عن عمر بن محمد بن زيد، عن^(١٢) عبد الله بن عمر، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة عن النبى ﷺ: ﴿ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ قال: «لا تجوروا».

(١) فى أ: «عن».

(٢) فى ج، ر، أ: «أسلك».

(٣) مسند الشافعى برقم (١٦٠٦) ومن طريق البيهقى فى السنن الكبرى (١٨٤ / ٧).

(٤) فى أ: «رحمة الله عليه».

(٥) فى أ: «خفتم».

(٦) فى ر: «القسم».

(٧) زيادة من ج.

(٨) فى ج، ر: «أو».

(٩) هو أحيحة بن الجلاح الأوسى، والبيت فى تفسير الطبرى (٥٤٩ / ٧) وفى اللسان مادة (عيل).

(١٠) فى أ: «تخس».

(١١) البيت فى تفسير الطبرى (٥٥٠ / ٧).

(١٢) فى أ: «بن».

قال ابن أبي حاتم: قال أبي: هذا حديث خطأ، والصحيح: عن عائشة. موقوف^(١).

وقال ابن أبي حاتم: وروى عن ابن عباس، وعائشة، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وأبي مالك وأبي رزين والنخعي، والشَّعْبِي، والضحاك، وعطاء الخراساني، وقتادة، والسُّدِّي، ومقاتل بن حَيَّان: أنهم قالوا: لا تميلوا^(٢) وقد استشهد عكرمة، رحمه الله، ببيت أبي طالب الذي قدمناه، ولكن ما أنشده كما هو المروى في السيرة، وقد رواه ابن جرير، ثم أنشده جيذاً، واختار ذلك.

وقوله: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: النحلة: المهر.

وقال محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة: نحلة: فريضة. وقال مقاتل وقتادة وابن جريج: نحلة: أي فريضة. زاد ابن جريج: مسماه. وقال ابن زيد: النحلة في كلام العرب: الواجب، يقول: لا تنكحها إلا بشيء واجب لها، وليس ينبغي لأحد بعد النبي ﷺ أن ينكح امرأة إلا بصداق واجب، ولا ينبغي أن يكون^(٣) تسمية الصداق كذباً بغير حق.

ومضمون كلامهم: أن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلى المرأة حتماً، وأن يكون طيب النفس بذلك، كما يمنح المنيحة ويعطى النحلة طيباً بها، كذلك يجب أن يعطى المرأة صداقها طيباً بذلك، فإن طابت هي له به بعد تسميته أو عن شيء منه فليأكله حلالاً طيباً؛ ولهذا قال [تعالى]^(٤): ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن السدي، عن يعقوب بن المغيرة بن شعبة، عن علي قال: إذا اشتكى أحدكم شيئاً، فليَسأل امرته ثلاثة^(٥) دراهم أو نحو ذلك، فليبتع بها عسلاً، ثم ليأخذ ماء السماء فيجتمع هنيئاً مريئاً شفاء مباركاً.

وقال هُشَيْم، عن سيار، عن أبي صالح قال: كان الرجل إذا زوج ابنته أخذ صداقها دونها، فنهاهم الله عن ذلك، ونزل: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا وكيع، عن سفيان عن عمير^(٦) الخثعمي، عن عبد الملك^(٧) بن المغيرة الطائفي، عن عبد الرحمن بن البيلماني^(٨) قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾. قالوا: يا رسول الله، فما العلائق بينهم؟ قال: «ما تراضى عليه أهلوه»^(٩).

وقد روى ابن مردويه من طريق حجاج بن أرطاة، عن عبد الملك بن المغيرة، عن عبد الرحمن بن البيلماني^(١٠)، عن عمر بن الخطاب قال: خطب^(١١) رسول الله ﷺ فقال: «أنكحوا الأيامى» ثلاثاً، فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله، ما العلائق بينهم؟ قال: «ما تراضى عليه أهلوه».

(١) صحيح ابن حبان برقم (١٧٣٠) «موارد».

(٤) زيادة من ر، أ.

(٣) في ر: «تكون».

(٢) في أ: «أن لا تميلوا».

(٧) في ر: «عبد الله».

(٦) في أ: «عمر».

(٥) في أ: «ثلاثة».

(٨) في ج، ر، أ: «عبد الرحمن السلماني».

(٩) ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٧ / ٢٣٩) وابن أبي شيبة في المصنف (١٤ / ١٨٤) وأبو داود في المراسيل برقم (٢١٥).

(١١) في ج، ر، أ: «خطبنا».

(١٠) في ج، ر، أ: «السلماني».

ابن البيلماني^(١) ضعيف، ثم فيه انقطاع أيضاً^(٢).

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (٥) وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (٦).

ينهى تعالى عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال التي جعلها الله للناس قياماً، أى: تقوم^(٣) بها معاشهم من التجارات وغيرها. ومن هنا يؤخذ الحجر على السفهاء، وهم أقسام: فتارة يكون الحجر للصغر؛ فإن الصغير مسلوب العبارة. وتارة يكون الحجر للجنون، وتارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين، وتارة يكون الحجر للفلس، وهو ما إذا أحاطت الديون برجل وضاق ماله عن وفائها، فإذا سأل^(٤) الغرماء الحاكم الحجر عليه حجر عليه.

وقد قال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ قال: هم بنوك والنساء، وكذا قال ابن مسعود، والحكم بن عتيبة^(٥)، والحسن، والضحاك: هم النساء والصبيان.

وقال سعيد بن جبير: هم اليتامى. وقال مجاهد وعكرمة وقتادة: هم النساء.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا صدقة بن خالد، حدثنا عثمان بن أبي العاتكة، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «وإن النساء السفهاء إلا التي أطاعت قيمها».

ورواه ابن مردويه مطولاً^(٦).

وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن مسلم بن إبراهيم، حدثنا حرب بن سريج^(٧)، عن معاوية بن قرة^(٨)، عن أبي هريرة ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ قال: الخدم، وهم شياطين الإنس وهم الخدم.

وقوله: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس يقول [تعالى]^(٩): لا تعتمد إلى مالك وما خولك الله، وجعله معيشة، فتعطيه امرأتك أو بنيك، ثم تنظر^(١٠) إلى ما في أيديهم، ولكن أمسك مالك وأصلحه، وكن أنت الذي تنفق عليهم من

(١) في ج، ر، أ: «السلماني».

(٢) ورواه أبو بكر بن أبي شيبة في المصنف (٤/ ١٨٦) وسعيد بن منصور في السنن برقم (٦١٩) «الاعظمي» والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٢٣٩) كلهم من طريق حجاج بن أرطاة عن عبد الملك بن المغيرة عن عبد الرحمن البيلماني مولى عمر بن الخطاب قال: فذكره مرسلًا، وأظن أن «مولى» تصحفت في النسخ إلى «عن» وأكاد أجزم بذلك لقول الحافظ ابن كثير «فيه انقطاع»، فإن الانقطاع بإرساله، ولو كان عن عمر لكان موصولاً.

(٣) في أ: «يقوم».

(٤) في ر: «سألوا».

(٥) في ج، ر، أ: «عينة».

(٦) ذكره السيوطي في الدر (٢/ ٤٣٣) وفي إسناده عثمان بن أبي العاتكة وقد ضعف في روايته عن علي بن يزيد الالهاني.

(٧) في ج، ر، أ: «شريح».

(٨) في أ: «مرة».

(٩) زيادة من أ.

(١٠) في ر: «تنتظر».

كسوتهم ومؤنتهم ورزقهم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن فراس، عن الشعبي، عن أبي بردة، عن أبي موسى قال: ثلاثة يدعون الله فلا يستجيب لهم: رجل كانت له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل أعطى ماله سفيها، وقد قال: «وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ»، ورجل كان له على رجل دين فلم يشهد عليه.

وقال مجاهد: «وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا»: يعنى فى البر والصلة.

وهذه الآية الكريمة انتظمت الإحسان إلى العائلة، ومن تحت الحجر بالفعل، من الإنفاق فى الكسوى والإنفاق^(١) والكلام الطيب، وتحسين الأخلاق.

وقوله تعالى: «وَابْتَالُوا يَتَامَى». قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، والسدى، ومقاتل بن حيان: أى اختبروهم «حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ»، قال مجاهد: يعنى: الحُلُم. قال الجمهور من العلماء: البلوغ فى الغلام تارة يكون بالحُلُم، وهو أن يرى فى منامه ما ينزل به الماء الدافق الذى يكون منه الولد. وقد روى أبو داود فى سننه^(٢) عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب، رضى الله عنه، قال: حفظت من رسول الله ﷺ: «لَا يَتَمَّ بَعْدَ احْتِلَامٍ، وَلَا صُمَاتٍ يَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ»^(٣).

وفى الحديث الآخر عن عائشة وغيرها من الصحابة، رضى الله عنهم، عن النبي ﷺ قال: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنْ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ، وَعَنْ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنْ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ» أو يستكمل^(٤) خمس عشرة سنة، وأخذوا ذلك من الحديث الثابت فى الصحيحين عن عبد الله بن عمر قال: عُرِضَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ أَحَدٍ وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةَ، فَلَمْ يَجْزِنِي، وَعُرِضَتْ عَلَيْهِ يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَأَنَا ابْنُ خَمْسِ عَشْرَةَ فَأَجَازَنِي، فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ - لَمَّا بَلَغَهُ هَذَا الْحَدِيثُ - إِنَّ هَذَا الْفَرْقَ بَيْنَ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ^(٥).

واختلفوا فى إنبات^(٦) الشعر الخشن حول الفرج، وهو الشعرة، هل تدل على بلوغ أم لا؟ على ثلاثة أقوال، يفرق فى الثالث بين صبيان المسلمين، فلا يدل^(٧) على ذلك لاحتمال المعالجة، وبين صبيان أهل الذمة فيكون بلوغا فى حقهم؛ لأنه لا يتعجل بها إلا ضرب الجزية عليه، فلا يعالجها. والصحيح أنها بلوغ فى حق الجميع لأن هذا أمر جبلي يستوى فيه الناس، واحتمال المعالجة بعيد، ثم قد دلت السنة على ذلك فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد، عن عطية القرظي، رضى الله عنه قال: عُرِضْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ قُرَيْظَةَ فَكَانَ مَنْ أُتِبَتْ قَتْلٌ؛ وَمَنْ لَمْ يُتَبْتَ خَلَى سَبِيلَهُ، فَكَنتَ فِيمَنْ لَمْ يُتَبْتَ، فَخَلَى سَبِيلِي.

(١) فى ج، ر، أ: «الأزاق».

(٢) سنن أبى داود برقم (٢٨٧٣).

(٣) فى ج، أ: «ويستكمل».

(٤) صحيح البخارى برقم (٢٦٦٤) وصحيح مسلم برقم (١٨٦٨).

(٥) فى ج، أ: «فلا يدل بلوغ».

(٦) فى ر: «إنبات».

وقد أخرجه أهل السنن الأربعة بنحوه^(١)، وقال الترمذى: حسن صحيح. وإنما كان كذلك؛ لأن سعد بن معاذ، رضى الله عنه، كان قد حكم فيهم بقتل المقاتلة وسبى الذرية.

وقال الإمام أبو عبيد^(٢) القاسم بن سلام فى كتاب «الغريب»: حدثنا ابن علية، عن إسماعيل بن أمية، عن محمد بن يحيى بن حيّان، عن عمر: أن غلاما ابتهر جارية فى شعره، فقال عمر، رضى الله عنه: انظروا إليه. فلم يوجد أنبت، فدرأ عنه الحد. قال أبو عبيد: ابتهرها: أى قذفها، والابتهار^(٣) أن يقول: فعلت بها وهو كاذب^(٤). فإن كان صادقا فهو الابتيار، قال الكميت فى شعره:

قبيح بمثل نعت الفتاة
إما ابتهاراً وإما ابتياراً^(٥)

وقوله: ﴿فَإِنْ أَنْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾. قال سعيد بن جبیر: يعنى: صلاحاً فى دينهم وحفظاً لأموالهم. وكذا روى عن ابن عباس، والحسن البصرى، وغير واحد من الأئمة. وهكذا قال الفقهاء متى بلغ الغلام مصلحاً لدينه وماله، انفك الحجر عنه، فيسلم إليه ماله الذى تحت يد وليه بطريقه.

وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾. ينهى تعالى عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية إسرافاً ومبادرة قبل بلوغهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ [أى]^(٦): من كان فى غنى عن مال اليتيم فليستعفف عنه، ولا يأكل منه شيئاً. قال الشعبى: هو عليه كالميتة والدم.

﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾: قال ابن أبى حاتم: حدثنا الأشج، حدثنا عبد الله بن سليمان، حدثنا هشام، عن أبيه، عن عائشة: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ نزلت فى مال^(٧) اليتيم.

وحدثنا الأشج وهارون بن إسحاق قالوا: حدثنا عبدة بن سليمان، عن هشام، عن أبيه، عن ، قالت: نزلت فى والى اليتيم الذى يقوم عليه ويصلحه إذا كان محتاجاً أن يأكل منه.

وحدثنا أبى، حدثنا محمد بن سعيد الأصبهانى، حدثنا على^(٨) بن مسهر، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: أنزلت هذه الآية فى والى اليتيم ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بقدر قيامه عليه.

ورواه البخارى عن إسحاق عن عبد الله بن نمير، عن هشام، به.

قال الفقهاء: له أن يأكل أقل الأمرين: أجره مثله أو قدر حاجته. واختلفوا: هل يرد إذا أيسر، على قولين: أحدهما: لا؛ لأنه أكل بأجرة عمله وكان فقيراً. وهذا هو الصحيح عند أصحاب الشافعى؛ لأن الآية أباحت الأكل من غير بدل. وقد قال الإمام أحمد:

(١) المسند (٤ / ٣١٠) وسنن أبى داود برقم (٤٤٠٤) (٤٤٠٥) وسنن الترمذى برقم (١٥٨٤) وسنن النسائى (٦ / ١٥٥) وسنن ابن ماجه برقم (٢٥٤١، ٢٥٤٢).

(٢) فى ج، أ: «أبو عبد الله». (٣) فى ج، ر: «قال: والابتهار». (٤) فى ر: «كذب».

(٥) غريب الحديث لأبى عبيد (٣ / ٢٨٩) والبيت فى اللسان أيضاً مادة (بهر).

(٦) زيادة من ج، أ. (٧) فى ج، ر، أ: «والى». (٨) فى ج، أ: «الأصبهانى وعلى».

حدثنا عبد الوهاب، حدثنا حسين، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: ليس لى مال ولى يتيم؟ فقال: «كُلُّ من مال يتيمك غير مُسْرِف ولا مُبْذِر ولا متأثِّل مالا، ومن غير أن تقى مالك - أو قال: تفدى مالك - بماله» شك حسين^(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، حدثنا حسين المكتب، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن عندي يتيماً عنده مال - وليس عنده شيء ما - أكل من ماله؟ قال: «بالمعروف غير مُسْرِف».

ورواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه من حديث حسين المعلم^(٢)، به.

وروى أبو حاتم ابن حبان في صحيحه، وابن مردويه في تفسيره من حديث يعلى بن مهدي، عن جعفر بن سليمان، عن أبي عامر الخزاز، عن عمرو بن دينار، عن جابر: أن رجلاً قال: يا رسول الله، فيم أضرب يتيماً؟ قال: ما كنت ضارباً منه ولدك، غير واق مالك بماله، ولا متأثِّل منه مالا^(٣).

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن^(٤) بن يحيى، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا الثوري، عن يحيى بن سعيد، عن القاسم بن محمد قال: جاء أعرابي إلى ابن عباس فقال: إن في حجرى أيتاماً، وإن لهم إبلاً ولى إبل، وأنا أُمْنَح^(٥) فى إبلى وأفقر فماذا يحل لى من ألبانها؟ فقال: إن كنت تبغى ضالتها وتهنأ جرباها، وتلوط حوضها، وتسقى^(٦) عليها، فاشرب غير مُضَر بنسل، ولا ناهك فى الحلب.

ورواه مالك فى موطئه، عن يحيى بن سعيد^(٧)، به.

وبهذا القول - وهو عدم أداء البدل^(٨) - يقول عطاء بن أبى رباح، وعكرمة، وإبراهيم النخعى، وعطية العوفى، والحسن البصرى.

والثانى: نعم؛ لأن مال اليتيم على الحظر، وإنما أبيع للحاجة، فيرد بدله كأكل مال الغير للمضطر عند الحاجة. وقد قال أبو بكر ابن أبى الدنيا: حدثنا ابن خيثمة، حدثنا وكيع، عن سفيان وإسرائيل، عن أبى إسحاق، عن حارثة بن مُضَرَب قال: قال عمر [ابن الخطاب]^(٩)، رضى الله عنه: إني أنزلت نفسى من هذا المال بمنزلة والى اليتيم، إن استغنيت استعفت، وإن احتجت استقرضت،

(١) المسند (٣/ ١٨٦).

(٢) سنن أبى داود برقم (٢٨٧٢)، وسنن النسائي (٦/ ٢٥٦) وسنن ابن ماجه برقم (٢٧١٨).

(٣) رواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٤٢٤٤) «الإحسان» ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٦/ ٤) والطبرانى فى المعجم الصغير (٨٩/ ١) كلاهما من طريق أبى عامر الخزاز عن عمرو بن دينار به.

(٤) فى ج، أ: «الحسين».

(٥) فى أ: «أشيع».

(٦) فى أ: «وتسعى».

(٧) تفسير الطبرى (٧/ ٥٨٨) وموطأ مالك (٢/ ٩٣٤) ومن طريق مالك رواه النحاس فى الناسخ والمنسوخ (ص ٢٩٨) ثم قال: «هذا

إسناد صحيح».

(٨) فى ج: «وهو رد عدم البدل».

(٩) زيادة من ج.

فإذا أيسرتُ قضيتُ^(١).

طريق أخرى: قال سعيد بن منصور: حدثنا أبو الأحوص، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: قال لى عمر، رضى الله عنه: إني أنزلتُ نفسى من مال الله بمنزلة والى اليتيم، إن احتجتُ أخذت منه، فإذا أيسرتُ ردّدتُه، وإن استغنيتُ استعفتُ.

إسناد صحيح^(٢)، وروى البيهقى عن ابن عباس نحو ذلك. وهكذا رواه ابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يعنى: القرض. قال: وروى عن عبدة، وأبى العالية، وأبى وائل، وسعيد بن جبّير - فى إحدى الروايات - ومجاهد، والضحاك، والسدى نحو ذلك. وروى من طريق السدى، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال: يأكل بثلاث أصابع.

ثم قال: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا ابن مَهْدَى، حدثنا سفيان، عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس: ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾، قال: يأكل من ماله، يقوت على يتيمة^(٣)، حتى لا يحتاج إلى مال اليتيم. قال: وروى عن مجاهد وميمون بن مهران فى إحدى الروايات والحكم نحو ذلك.

وقال عامر الشَّعْبِيّ: لا يأكل منه إلا أن يضطر إليه، كما يضطر إلى [أكل]^(٤) الميتة، فإن أكل منه قضاه. رواه ابن أبى حاتم.

وقال ابن وهب: حدثني نافع بن أبى نُعَيْم القَارِئ قال: سألت يحيى بن سعيد الأنصارى وربيعه عن قول الله: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾. فقالا^(٥): ذلك فى اليتيم، إن كان فقيرا أنفق^(٦) عليه بقدر فقره، ولم يكن للولى منه شيء.

وهذا بعيد من السياق؛ لأنه قال: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ يعنى: من الأولياء ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى: منهم ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى: بالتى هى أحسن، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الإسراء: ٣٤] أى: لا تقربوه إلا مصلحين له، وإن احتجتم إليه أكلتم منه بالمعروف.

وقوله: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ يعنى: بعد بلوغهم الحلم وإيناس الرشد [منهم]^(٧)، فحيثئذ سلموهم أموالهم، فإذا دفعتم إليهم أموالهم ﴿فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾، وهذا أمر الله تعالى للأولياء^(٨) أن يشهدوا على الأيتام إذا بلغوا الحلم وسلموا^(٩) إليهم أموالهم؛ لئلا يقع من بعضهم جُحُود وإنكار لما قبضه وتسلمه.

(١) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٥ / ٦) والطبرى فى تفسيره (٥٨٢ / ٧) من طريق سفيان وإسرائيل به.

(٢) ورواه النحاس فى الناسخ والمنسوخ (ص ٢٩٦) من طريق أبى الأحوص عن أبى إسحاق به.

(٣) فى ج، أ: «على نفسه». (٤) زيادة من ج.

(٥) فى ج: «قال»، وفى أ: «قالا». (٦) فى ج: «انتفق» وفى أ: «انتفق».

(٧) زيادة من ج، أ. (٨) فى ج: «هذا أمر الله للأولياء».

(٩) فى ج، ر: «تسلموا»، وفى أ: «وسلموا».

ثم قال: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أى: وكفى بالله محاسباً وشهيداً ورقيباً على الأولياء فى حال نظرهم لليتامى، وحال تسليمهم^(١) للأموال: هل هى كاملة موفرة، أو منقوصة مبخوسة مدخلة مروج حسابها مدلس أمورها؟ الله عالم بذلك كله. ولهذا ثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر، إني أراك ضعيفاً، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى، لا تأمرن على اثنين، ولا تأكلن مال يتيم»^(٢).

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ (٧) وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٨) وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠) ﴿

قال سعيد بن جبیر وقتادة: كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار، ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئاً، فأنزل الله: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾^(٣) أى: الجميع فيه سواء فى حكم الله تعالى، يستوون فى أصل الوراثة وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله [تعالى]^(٤) لكل منهم، بما يدلى به إلى الميت من قرابة، أو زوجية، أو ولاء. فإنه لُحمة كلحمة النسب. وقد روى ابن مردويه من طريق ابن هراسة^(٥)، عن سفيان الثوري، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر قال: جاءت أم كُجَّة^(٦) إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن لى ابنتين، وقد مات أبوهما، وليس لهما شيء، فأنزل الله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ الآية، وسيأتى هذا الحديث عند آتى الميراث بسياق آخر، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾^(٧). قيل: المراد: وإذا حضر قسمة الميراث ذوو القربى ممن ليس بوارث واليتامى والمساكين فليُرْزَقْ لهم من التركة نصيب، وأن ذلك كان واجبا فى ابتداء الإسلام. وقيل: يستحب^(٨). واختلفوا: هل هو منسوخ أم لا؟ على قولين، فقال البخارى: حدثنا أحمد بن حميد أخبرنا عبيد الله^(٩) الأشجعي، عن سفيان، عن الشيباني، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةُ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ﴾ قال: هى مُحْكَمَةٌ، وليست بمنسوخة. تابعه سعيد عن ابن عباس. وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا عباد بن العوام، عن الحجاج، عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس قال: هى قائمة يعمل بها.

(١) فى و: «تسلمهم الأموال».

(٢) صحيح مسلم برقم (١٨٢٦).

(٣) زيادة من ج، ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٤) زيادة من ج، ر، أ، وفى الأصل: «الآية».

(٥) فى ج: «من طريق ابن راهويه» وفى أ: «من طريق هواصة».

(٦) فى ر: «لجه».

(٧) زيادة من ج، ر، أ، وفى الأصل: «الآية».

(٨) فى أ: «مستحب».

(٩) فى أ: «عبد الله».

وقال الثوري، عن ابن أبي نَجِيج، عن مجاهد في هذه الآية، قال: هي واجبة على أهل الميراث، ما طابت به أنفسهم. وهكذا روى عن ابن مسعود، وأبي موسى، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وأبي العالية، والشعبي، والحسن، وابن سيرين، وسعيد بن جبيرة، ومكحول، وإبراهيم النخعي، وعطاء بن أبي رباح، والزهرى، ويحيى بن يعمر: أنها واجبة.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الأشج، عن إسماعيل بن عُلَيْة، عن يونس بن عبيد، عن محمد بن سيرين قال: ولي عبيدة وصية، فأمر بشاة فذبحت، فأطعم أصحاب هذه الآية، وقال: لولا هذه الآية لكان هذا من مالى.

وقال مالك، فيما يروى عنه من التفسير في جزء مجموع، عن الزهرى: أن عروة أعطى من مال مصعب حين قسم ماله. وقال الزهرى: وهي محكمة.

وقال مالك، عن عبد الكريم، عن مجاهد قال: هو حق واجب ما طابت به الأنفس.

ذكر من ذهب إلى أن ذلك أمر بالوصية لهم:

قال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جُرَيْج^(١)، أخبرني ابن أبي مُلَيْكة: أن أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، والقاسم بن محمد أخبراه: أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر قسم ميراث أبيه عبد الرحمن وعائشة حية قالوا: فلم يدع في الدار مسكينا ولا ذا قرابة إلا أعطاه من ميراث أبيه. قالوا: وتلا: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ﴾. قال القاسم: فذكرت ذلك لابن عباس فقال: ما أصاب، ليس ذلك له، إنما ذلك إلى الوصية، وإنما هذه الآية في الوصية يريد الميت [أن]^(٢) يوصى لهم. رواه ابن أبي حاتم^(٣).

ذكر من قال: إن هذه الآية منسوخة بالكلية:

قال سفيان الثوري، عن محمد بن السائب الكلبى، عن أبي صالح، عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ قال: منسوخة.

وقال إسماعيل بن مسلم المكي، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال في هذه الآية: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ﴾: نسختها الآية التي بعدها: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾.

وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ﴾: كان ذلك قبل أن تنزل^(٤) الفرائض، فأنزل الله بعد ذلك الفرائض، فأعطى كل ذى حق حقه، فجعلت الصدقة فيما سُمى المتوفى. رواه ابن مردويه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن^(٥) بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج، عن ابن جُرَيْج وعثمان بن عطاء عن عطاء، عن ابن عباس قوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ﴾

(٢) زيادة من أ.

(١) فى أ: «ابن جرير».

(٣) ورواه الطبري فى تفسيره (٨ / ١٠، ١١) من طريق ابن جرير عن ابن أبي مليكة به.

(٥) فى ج، أ: «الحسين».

(٤) فى ج، أ: «ينزل».

وَالْمَسَاكِينَ: نسختها آية الميراث، فجعل لكل إنسان نصيبه مما ترك الوالدان والأقربون - مما قل منه أو كثر - [نصيباً مفروضاً]^(١).

وحدثنا أسيد بن عاصم، حدثنا سعيد بن عامر، عن همام، حدثنا^(٢) قتادة، عن سعيد بن المسيب أنه قال: إنها منسوخة، كانت قبل الفرائض، كان ما ترك الرجل من مال أعطى منه اليتيم والفقر والمساكين وذوى القربى إذا حضرُوا القسمة، ثم نسخ بعد ذلك، نسختها الموارث، فألحق الله بكل ذى حق حقه، وصارت الوصية من ماله، يوصى بها لذوى قرابته حيث يشاء.

وقال مالك، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب: هي منسوخة، نسختها الموارث والوصية.

وهكذا روى عن عكرمة، وأبى الشعثاء، والقاسم بن محمد، وأبى صالح، وأبى مالك، وزيد ابن أسلم، والضحاك، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حيان، وربيع بن أبى عبد الرحمن: أنهم قالوا: إنها^(٣) منسوخة. وهذا مذهب جمهور الفقهاء والأئمة الأربعة وأصحابهم.

وقد اختار ابن جرير ما هنا قولاً غريباً جداً، وحاصله: أن معنى الآية عنده ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ أى: وإذا حضر قسمة مال الوصية أو قرابة الميت ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ﴾ لليتامى والمساكين إذا حضروا ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾. هذا مضمون ما حاوله بعد طول العبارة والتكرار، وفيه نظر، والله أعلم.

وقد قال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾: وهي قسمة الميراث. وهكذا قال غير واحد، والمعنى على هذا لا على ما سلكه أبو جعفر بن جرير، رحمه الله، بل المعنى: أنه إذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يرثون، واليتامى والمساكين قسمة مال جزيل، فإن أنفسهم تتوق^(٤) إلى شيء منه، إذا رأوا هذا يأخذ وهذا يأخذ وهذا يأخذ، وهم يائسون لا شيء يعطون، فأمر الله تعالى - وهو الرؤوف الرحيم - أن يرضخ لهم شيء من الوسط يكون برا بهم^(٥) وصدقة عليهم، وإحساناً إليهم، وجبرا لكسرهم. كما قال الله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١] وذم الذين ينقلون المال^(٦) خفية؛ خشية أن يطلع عليهم المحاويج وذوو الفاقة، كما أخبر عن أصحاب الجنة ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: ١٧]، أى: بلبيل. وقال: ﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ. أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾ [القلم: ٢٣، ٢٤] ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠] فمن جحد حق الله عليه عاقبه^(٧) فى أعز ما يملكه؛ ولهذا جاء فى الحديث: «ما خالطت الصدقة مالا إلا أفسدته»^(٨) أى: منعها يكون سبب محاق ذلك المال بالكلية.

(١) زيادة من ج، أ. (٢) فى ج، أ: «عن». (٣) فى أ: «هى».

(٤) فى ج، ر، أ: «تشوق». (٥) فى أ: «لهم». (٦) فى ج: «يستغلون بالمال»، وفى ر، أ: «يستغلون المال».

(٧) فى أ: «عاقبه الله».

(٨) رواه البزار فى مسنده برقم (٨٨١) «كشف الأستار» من حديث عائشة، وقال الهيثمى فى المجمع (٦٤/٣): «فيه عثمان الجمحى قال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به».

وقوله: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾^(١). قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هذا في الرجل يحضره الموت، فيسمعه الرجل يوصي بوصية تضر بورثته، فأمر الله تعالى الذي يسمعه أن يتقى الله، ويوفقه ويسدده للصواب، ولينظر لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته إذا خشي عليهم الضيعة.

وهكذا قال مجاهد وغير واحد، وثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعودته قال: يا رسول الله، إني ذو مال ولا يرثني إلا ابنة، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: «لا». قال: فالشطر؟ قال: «لا». قال: فالثلث؟ قال: «الثلث، والثلث كثير». ثم قال رسول الله ﷺ: «إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عائلة يتكففون الناس»^(٢).

وفي الصحيح أن ابن عباس قال: لو أن الناس غَضُوا من الثلث إلى الربع فإن رسول الله ﷺ قال: «الثلث، والثلث كثير»^(٣).

قال الفقهاء: إن كان ورثة الميت أغنياء استحب للميت أن يستوفي الثلث في وصيته^(٤)، وإن كانوا فقراء استحب أن ينقص الثلث.

وقيل: المراد بقوله: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ [أى]^(٥): في مباشرة أموال اليتامى ﴿وَلَا يَأْكُلُوا﴾^(٦) إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا.

حكاه ابن جرير من طريق العوفي، عن ابن عباس: وهو قول حسن، يتأيد بما بعده من التهديد في أكل مال اليتامى ظلماً، أى: كما تحب أن تعامل ذريتك من بعدك، فعامل الناس في ذرياتهم^(٧) إذا وليتهم. ثم أعلمهم أن من أكل مال يتيم ظلماً فإنما يأكل في بطنه ناراً؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾ أى: إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب، فإنما يأكلون ناراً تَأْجَجُ^(٨) في بطونهم يوم القيامة. وثبت في الصحيحين من حديث سليمان ابن بلال، عن ثور بن زيد^(٩)، عن سالم أبي الغيث، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمَوْبَقَاتِ» قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسُّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبيدة^(١٠)، أخبرنا أبو عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد العمي، حدثنا أبو هارون^(١١) العبدى عن أبي سعيد الخدري قال: قلنا: يا رسول الله، ما رأيت

(١) زيادة من ج، ر، أ، وفي هـ: «الآية».

(٢) صحيح البخارى برقم (٢٧٤٢) وصحيح مسلم برقم (١٦٢٨).

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٧٤٣) وصحيح مسلم برقم (١٦٢٩).

(٤) فى أ: «أن يستوفى فى وصيته ثلث ماله».

(٥) زيادة من ج، ر.

(٦) فى أ: «ولا تأكلوها».

(٧) فى أ: «ذرياتهم».

(٨) فى ج، أ: «يزيد».

(٩) فى أ: «عبد الله».

(١٠) فى ج، أ: «تأجج».

(١١) فى ج، ر، أ: «هارون».

ليلة أسرى بك؟ قال: «انطلق بي إلى خلق من خلق الله كثير، رجال، كل رجل له مشفران كمشفرى البعير، وهو موكل بهم رجال يفكون^(١) لحاء^(٢) أحدهم، ثم يجاء بصخرة من نار فتقذف في في أحدهم حتى يخرج من أسفله ولهم^(٣) خوار وصراخ. قلت^(٤): يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً^(٥)».

وقال السدي: يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة ولهب النار يخرج^(٦) من فيه ومن مسامعه وأنفه وعينه، يعرفه من رآه بأكل مال اليتيم.

وقال أبو بكر ابن مردويه: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن زيد، حدثنا أحمد بن عمرو، حدثنا عقبة بن مكرم، حدثنا يونس بن بكير، حدثنا زياد بن المنذر، عن نافع بن الحارث عن أبي برزة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يبعث يوم القيامة القوم^(٧) من قبورهم تأجج أفواههم نارا» قيل: يا رسول الله، من هم؟ قال: «ألم تر أن الله قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ [إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا]»^(٨) الآية.

رواه^(٩) ابن أبي حاتم، عن أبي زرعة، عن عقبة بن مكرم وأخرجه أبو حاتم بن حبان في صحيحه، عن أحمد بن علي بن المثنى، عن عقبة بن مكرم^(١٠).

وقال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، أحمد بن عصام^(١١)، حدثنا أبو عامر العبدى، حدثنا عبد الله^(١٢) بن جعفر الزهرى، عن عثمان بن محمد، عن المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أُحْرِجُ مَالُ الضَّعِيفِينَ: المرأة واليتيم^(١٣)». أى^(١٤): أوصيكم باجتنا مالهما.

وتقدم في سورة البقرة من طريق عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما أنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ [إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا]^(١٥)، انطلق من كان عنده يتيم، فعزل طعامه من طعامه، وشرا به من شرا به، فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله أو يفسد^(١٦)، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى

(١) فى أ: «يكفون». (٢) فى ر: «الحى». (٣) فى ر، أ: «وله».

(٤) فى أ: «فقلت».

(٥) ورواه الطبري فى تفسيره (٢٧ / ٨) من طريق معمر عن أبى هارون العبدى به.

قال الشيخ أحمد شاكرو - رحمه الله: «أبو هارون العبدى هو عمارة بن جوين روى عن أبى سعيد وابن عمر وهو ضعيف، وقالوا: كذاب» قال الدارقطنى: «يتلون، خارجى وشيعى» وقال ابن حبان: «كان يروى عن أبى سعيد ما ليس من حديثه لا يحل كتب حديثه إلا على جهة التعجب».

(٦) فى ر: «تخرج». (٧) فى ج: «ناس».

(٨) فى ج، أ: «أخرجه».

(٩) صحيح ابن حبان برقم (٢٥٨٠) «موارد» من طريق أبى يعلى وهو فى مسنده (١٣ / ٤٣٤) وفى إسناده زياد بن المنذر وشيخه نفع بن الحارث متروكان عند الأئمة.

(١٠) فى أ: «عاصم». (١١) فى ر: «عبيد الله».

(١٢) وفى إسناده أحمد بن عصام الموصلى ضعفه الدارقطنى.

(١٣) فى أ: «إنى». (١٤) زيادة من ج، ر، أ، وفى هـ: «الآية». (١٥) فى ر: «أو يفسده».

قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ [وَأِنْ تَخَاطَبُوهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ] ^(١) ﴿البقرة: ٢٢٠﴾.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١١).

هذه الآية الكريمة والتي ^(٢) بعدها والآية التي هى خاتمة هذه السورة هن آيات علم الفرائض، وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث، ومن الأحاديث الواردة فى ذلك مما هى كالتفسير لذلك ولندكر منها ما هو متعلق بتفسير ذلك، وأما تقرير المسائل ونصب الخلاف والأدلة، والحجاج بين الأئمة، فموضعه كتاب «الأحكام» فالله المستعان ^(٣).

وقد ورد الترغيب فى تعلم الفرائض، وهذه الفرائض الخاصة ^(٤) من أهم ذلك. وقد روى أبو داود وابن ماجه، من حديث عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقى، عن عبد الرحمن بن رافع التنوخى، عن عبد الله بن عمرو، رضى الله عنه ^(٥)، أن رسول الله ﷺ قال: «العِلْمُ ثلاثة، وما سوى ذلك فهو فضل: آية مُحْكَمَةٌ، أو سُنَّةٌ قَائِمَةٌ، أو فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ» ^(٦).

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة، تَعَلَّمُوا الفرائضَ وعَلِّمُوهُ فَإِنَّهُ نِصْفُ الْعِلْمِ، وهو يُنْسَى، وهو أولُ شَيْءٍ ^(٧) يُتَنَزَّعُ من أمتى».

رواه ابن ماجه، وفى إسناده ضعف ^(٨).

وقد روى من حديث عبد الله بن مسعود وأبى سعيد ^(٩)، وفى كل منهما نظر. قال [سفيان] ^(١٠) ابن عيينة: إنما سَمَّى الفرائض نصفَ العلم؛ لأنه يبتلى ^(١١) به الناس كلهم.

وقال البخارى عند تفسير هذه الآية: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام: أن ابن جريج

(١) زيادة من ج، ر، أ. (٢) فى ر: «والذى». (٣) فى ج، ر، أ: «وبالله المستعان».

(٤) فى ج، أ: «الخاصة وهى من أهم ذلك». (٥) فى ج، ر، أ: «عنهما».

(٦) سنن أبى داود برقم (٢٨٨٥) وسنن ابن ماجه برقم (٥٤) ورواه الحاكم فى المستدرک (٤ / ٣٣٢) والبيهقى فى السنن الكبرى (٦ / ٢٠٨) والدارقطنى فى السنن (٤ / ٦٧) من طريق عبد الرحمن بن زياد الإفريقى به. قال الذهبى فى هذا الحديث الذى بعده: الحديثان ضعيفان.

(٧) فى ج، أ: «علم».

(٨) سنن ابن ماجه برقم (٢٧١٩) ورواه الدارقطنى فى السنن (٤ / ٦٧) والحاكم فى المستدرک (٤ / ٣٣٢) والبيهقى فى السنن الكبرى (٦ / ٢٠٨) من طريق حفص بن عمر بن أبى العطاء به. قال الذهبى: «فيه حفص بن عمر بن أبى العطاء وهو واه بكرة».

(٩) حديث ابن مسعود «تعلموا الفرائض وعلموها فإنى امرؤ مقبوض...» الحديث، رواه الحاكم فى المستدرک (٤ / ٣٣٣).

(١٠) زيادة من: ر، أ. (١١) فى أ: «يتبلى».

أخبرهم قال: أخبرنى ابن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: عادنى رسول الله ﷺ وأبو بكر فى بنى سلمة ماشيين، فوجدنى النبى ﷺ لا أعقل شيئاً، فدعا بماء فتوضأ منه، ثم رَشَ عَلَىَّ، فأفقت، فقلت: ما تأمرنى أن أصنع فى مالى يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾.

وكذا رواه مسلم والنسائى، من حديث حجاج بن محمد الأعور، عن ابن جريج ^(١) به، ورواه الجماعة كلهم من حديث سفيان بن عيينة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر ^(٢).

حديث آخر عن جابر فى سبب نزول الآية: قال الإمام أحمد: حدثنا زكريا بن عدى، حدثنا عبيد الله - هو ابن عمرو ^(٣) الرقى - عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قُتِلَ أبوهما معك فى أحد شهيدا، وإن عمهما أخذ مالهما، فلم يدع لهما مالا، ولا يُنكحان إلا ولهما مال. قال: فقال: «يُقْضَى اللَّهُ فِى ذَلِكَ». قال: فنزلت آية الميراث، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال: «أَعْطِ ابْنَتَى سَعْدِ الثَّلَثِينَ، وَأُمَّهُمَا الثُّمْنَ، وَمَا بَقِيَ فَهُوَ لَكَ».

وقد رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه، من طرق، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، به. قال الترمذى: ولا يعرف إلا من حديثه ^(٤).

والظاهر أن ^(٥) حديث جابر الأول إنما نزل بسببه الآية الأخيرة من هذه السورة كما سيأتى، فإنه إنما كان له إذ ذاك أخوات، ولم يكن له بنات، وإنما كان يورث كلاله، ولكن ذكرنا الحديث هاهنا تبعا للبخارى، رحمه الله، فإنه ذكره هاهنا. والحديث الثانى عن جابر أشبه بنزول هذه الآية، والله أعلم.

فقوله ^(٦) تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ أى: يأمركم بالعدل فيهم، فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكور دون الإناث، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم فى أصل الميراث، وفاوت بين الصنفين، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين؛ وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة والكلفة ومعاناة التجارة والتكسب وتحشُّم المشقة، فناسب أن يُعْطَى ضعفُ ما تأخذه ^(٧) الأنثى.

وقد استنبط بعض الأذكىاء من قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ أنه تعالى أرحم بخلقه من الوالد بولده، حيث أوصى الوالدين بأولادهم، فعلم ^(٨) أنه أرحم بهم منهم، كما جاء فى الحديث الصحيح.

(١) صحيح البخارى برقم (٤٥٧٧) وصحيح مسلم برقم (١٦١٦) وسنن النسائى الكبرى برقم (٦٣٢٣).

(٢) طريق سفيان رواها البخارى فى صحيحه برقم (٥٦٥١) ومسلم فى صحيحه برقم (١٦١٦) وأبو داود فى السنن برقم (٢٨٨٦) والترمذى فى السنن برقم (٢٠٩٧) والنسائى فى السنن (٨٧/ ١) وابن ماجه فى السنن برقم (٢٧٢٨).

(٣) فى أ: «عمر».

(٤) المسند (٣/ ٣٥٢) وسنن أبى داود برقم (٢٨٩١، ٢٨٩٢) وسنن الترمذى برقم (٢٠٩٢) وسنن ابن ماجه برقم (٢٧٢٠).

(٥) فى أ: «أنه».

(٦) فى أ: «وقوله».

(٧) فى ر: «ما تأخذ».

(٨) فى أ: «منكم».

وقد رأى امرأة من السبي تدور على ولدها، فلما وجدته أخذته فألصقته بصدورها وأرضعته. فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أَتَرُونَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا^(١) فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ؟» قالوا: لا يارسول الله: قال: «فَوَاللَّهِ لَئِنْ أَرَحِمُ بَعَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدَهَا».

وقال البخارى هاهنا: حدثنا محمد بن يوسف، عن ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عن عطاء، عن ابن عباس قال: كان المال للولد، وكانت الوصية للوالدين، فسَخَّ الله من ذلك ما أَحَبَّ، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث، وجعل للزوجة الثمن والرابع، وللزوج الشطر والرابع^(٢).

وقال العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ وذلك أنه لما نزلت الفرائض التي فَرَضَ الله فيها ما فرض، للولد الذكر والأنثى والأبوين، كرهها الناس أو بعضهم وقالوا: تُعْطَى المرأة الربع أو الثمن^(٣) وتعطى البنت^(٤) النصف. ويعطى الغلام الصغير. وليس أحد من هؤلاء يقاتل القوم، ولا يحوز الغنيمة... اسكتوا عن هذا الحديث لعل رسول الله ﷺ ينساه، أو نقول له فيغير، فقال بعضهم: يارسول الله، نعطي الجارية نصف ما ترك أبوها، وليست تركب الفرس، ولا تقاتل القوم ونُعْطَى^(٥) الصبي الميراث وليس يُغْنَى^(٦) شيئاً. وكانوا يفعلون ذلك في الجاهلية، لا يعطون الميراث إلا لمن قاتل القوم، ويعطونه الأكبر فالأكبر. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير أيضا.

وقوله: ﴿إِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثًا مِمَّا تَرَكَ﴾. قال بعض الناس: قوله: ﴿فَوْقَ﴾ زائدة وتقديره: فإن كنَّ نساء اثنتين، كما في قوله [تعالى]^(٧): ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ [الأنفال: ١٢]. وهذا غير مُسَلَّم لا هنا ولا هناك؛ فإنه ليس في القرآن شيء زائد لا فائدة فيه وهذا ممتنع، ثم قوله: ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثًا مِمَّا تَرَكَ﴾ لو كان المراد ما قالوه لقال: فلهما ثلثا ما ترك. وإنما استفيد كون الثلثين للبتين^(٨) من حكم الأخنتين في الآية الأخيرة، فإنه تعالى حكم فيها للأختين بالثلثين. وإذا ورث الأختان الثلثين فلأن يرث البنتان الثلثين بطريق الأولى^(٩). وقد تقدم في حديث جابر أن رسول الله ﷺ حكم لابنتي سعد بن الربيع بالثلثين، فدل الكتاب والسنة على ذلك، وأيضا فإنه قال: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾. فلو كان للبتين النصف [أيضا]^(١٠) لنص عليه، فلما حكم به للواحدة على انفرادها دل على أن البنتين في حكم الثلاث والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ

(١) في ج: «بولدها».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٥٧٨).

(٣) في أ: «والثمن». (٤) في ر: «ويعطى الابنة»، وفي ج: «وتعطى الابنة». (٥) في ر، أ: «ويعطى».

(٦) في ر: «يعنى». (٧) زيادة من ج.

(٨) في ج، ر، أ: «الأخرى». (٩) زيادة من ج، ر، أ.

الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ^(١)﴾ إلى آخره، الأبوان لهما فى الميراث أحوال:

أحدها: أن يجتمعا مع الأولاد، فيفرض لكل واحد منهما السدس، فإن لم يكن للميت إلا بنت واحدة، فرض لها النصف، وللابوين لكل واحد منهما السدس، وأخذ الأب السدس الآخر بالتعصيب، فيجمع^(٢) له - والحالة هذه - بين هذه الفرض والتعصيب.

الحال الثانى: أن ينفرد الأبوان بالميراث، فيفرض للأُم - والحالة هذه - الثلث ويأخذ الأب الباقي بالتعصيب المحض، ويكون قد أخذ ضعفى ما فرض^(٣) للأُم، وهو الثلثان، فلو كان معهما - والحالة هذه - زوج أو زوجة أخذ الزوج النصف والزوجة^(٤) الربع. ثم اختلف العلماء: ما تأخذ^(٥) الأم بعد فرض الزوج والزوجة على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها تأخذ ثلث الباقي فى المسألتين؛ لأن الباقي كأنه^(٦) جميع الميراث بالنسبة إليهما. وقد جعل الله لها نصف ما جعل للأب فتأخذ ثلث الباقي ويأخذ ثلثيه^(٧). وهو قول عمر وعثمان، وأصح الروايتين عن على. وبه يقول ابن مسعود وزيد بن ثابت، وهو قول الفقهاء السبعة، والأئمة الأربعة، وجمهور العلماء - رحمهم الله.

والقول الثانى: أنها تأخذ ثلث جميع المال لعموم قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾، فإن الآية أعم من أن يكون معها زوج أو زوجة أو لا. وهو قول ابن عباس. وروى عن على، ومعاذ بن جبل، نحوه. وبه يقول شريح وداود بن على الظاهري واختاره الإمام أبو الحسين محمد بن عبد الله بن اللبان البصرى^(٨)، فى كتابه «الإيجاز فى علم الفرائض».

وهذا فيه نظر، بل هو ضعيف؛ لأن ظاهر الآية إنما هو [ما]^(٩) إذا استبد بجميع التركة، فأما فى هذه المسألة فيأخذ الزوج أو الزوجة الفرض، ويبقى الباقي كأنه جميع التركة، فتأخذ ثلثه، كما تقدم.

والقول الثالث: أنها تأخذ ثلث جميع المال فى مسألة الزوجة، فإنها تأخذ الربع وهو ثلاثة^(١٠) من اثنى عشر، وتأخذ الأم الثلث وهو أربعة، فيبقى^(١١) خمسة للأب. وأما فى مسألة الزوج فتأخذ ثلث الباقي؛ لثلاثا تأخذ أكثر من الأب لو أخذت ثلث المال، فتكون المسألة من ستة: للزوج النصف ثلاثة^(١٢) وللأم ثلث ما بقى^(١٣) وهو سهم، وللأب الباقي بعد ذلك وهو سهمان. ويحكى هذا عن محمد بن سيرين، رحمه الله، وهو قول مركب من القولين الأولين، موافق كلاً منهما فى صورة وهو ضعيف أيضاً. والصحيح الأول، والله أعلم.

والحال الثالث من أحوال الأبوين: وهو اجتماعهما مع الإخوة، وسواء كانوا من الأبوين، أو من

(١) زيادة من ج، ر، أ.
(٢) فى ج، ر: «أو الزوجة».
(٣) فى أ: «فيجتمع».
(٤) فى ج، ر: «أو الزوجة».
(٥) فى أ: «ماذا تأخذ».
(٦) فى أ: «كان».
(٧) فى ر: «الباقي».
(٨) فى أ: «المصرى».
(٩) زيادة من أ.
(١٠) فى ج، ر: «ثلثه».
(١١) فى أ: «فيبقى».
(١٢) فى ج، ر: «ثلثه».
(١٣) فى ج: «الباقي».

الأب، أو من الأم، فإنهم لا يرثون مع الأب شيئاً، ولكنهم مع ذلك يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس، فيفرض لها مع وجودهم السدس، فإن لم يكن وارث سواها وسوى الأب أخذ الأب الباقي.

وحكم الأخوين فيما ذكرناه كحكم الإخوة عند الجمهور. وقد روى البيهقي من طريق شعبة مولى ابن عباس، عن ابن عباس أنه دخل على عثمان فقال: إن الأخوين لا يرثان الأم عن الثلث، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾. فالأخوان ليسا بلسان قومك إخوة. فقال عثمان: لا أستطيع تغيير ما كان قبلي، ومضى في الأمصار، وتوارث به الناس.

وفي صحة هذا الأثر نظر، فإن شعبة هذا تكلم فيه مالك بن أنس، ولو كان هذا صحيحاً عن ابن عباس لذهب إليه أصحابه الأخصاء به، والمنقول عنهم خلافه.

وقد روى عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن خارجة بن زيد، عن أبيه أنه قال: الأخوان تسمى إخوة^(١). وقد أفردت لهذه المسألة جزءاً على حدة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد العزيز بن المغيرة، حدثنا يزيد بن زريع عن سعيد، عن قتادة قوله: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾: أضروا بالأم ولا يرثون، ولا يحجبها الأخ الواحد من الثلث ويحجبها ما فوق ذلك، وكان أهل العلم يرون أنهم إنما حجّبوا أمهم من الثلث أن أباهم يلي إنكاحهم ونفقته^(٢) عليهم دون أمهم.

وهذا كلام^(٣) حسن. لكن روى عن ابن عباس بإسناد صحيح أنه كان يرى أن السدس الذي حجّبوه عن أمهم يكون لهم، وهذا قول شاذ، رواه ابن جرير في تفسيره فقال:

حدثنا الحسن بن يحيى، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن ابن طاوس، عن أبيه عن ابن عباس، قال: السدس الذي حجّبه الإخوة لأم لهم، إنما حجّبوا أمهم عنه ليكون لهم دون أبيهم.

ثم قال ابن جرير: وهذا قول مخالف لجميع الأمة، وقد حدثني يونس، أخبرنا سفیان، أخبرنا عمرو، عن الحسن بن محمد، عن ابن عباس أنه قال: الكلاله من لا ولد له ولا والد.

وقوله: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾: أجمع العلماء سلفاً وخلفاً: أن الدين مقدم على الوصية، وذلك عند إمعان النظر يفهم من فحوى الآية الكريمة. وقد روى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجة وأصحاب التفاسير، من حديث أبي إسحاق، عن الحارث بن عبد الله الأعور، عن علي بن أبي طالب [رضي الله عنه]^(٤) قال: إنكم تقرؤون ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ وإن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية، وإن أعيان بنى الأم يتوارثون دون بنى العلات، يرث الرجل أخاه لأبيه وأمه دون أخيه لأبيه. ثم قال الترمذي: لا نعرفه إلا من حديث الحارث الأعور، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم^(٥).

(٢) في ج: «والنفقة».

(٤) زيادة من أ.

(١) في ج، ر، أ: «وتسمى الأخوان إخوة».

(٣) في ج: «الكلام».

(٥) سنن الترمذي برقم (٢٠٩٤).

قلت: لكن كان حافظاً للفرائض معتنياً بها وبالحساب^(١)، فالله^(٢) أعلم.

وقوله: ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ أى: إنما فرضنا للأباء وللأبناء، وساوينا بين الكل فى أصل الميراث على خلاف ما كان عليه الأمر فى الجاهلية، وعلى خلاف ما كان عليه الأمر فى ابتداء الإسلام من كون المال للولد وللوالدين^(٣) الوصية، كما تقدم عن ابن عباس، إنما نسخ الله ذلك إلى هذا، ففرض لهؤلاء ولهؤلاء بحسبهم؛ لأن الإنسان قد يأتيه النفع الدنيوى - أو الآخروى أو هما - من أبيه ما لا يأتيه من ابنه، وقد يكون بالعكس؛ فلهذا قال: ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ أى: كأن^(٤) النفع متوقع ومرجو من هذا، كما هو متوقع ومرجو من الآخر؛ فلهذا فرضنا لهذا ولهذا، وساوينا بين القسمين فى أصل الميراث، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أى: [من]^(٥) هذا الذى ذكرناه من تفصيل الميراث، وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض - هو فرض من الله حكم به وقضاه، والله^(٦) عليم حكيم الذى يضع الأشياء فى محالها، ويعطى كلا ما يستحقه بحسبه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ١٢﴾.

يقول تعالى: ولكم - أيها الرجال - نصف ما ترك أزواجكم إذا متن عن غير ولد، فإن كان لهن ولد فلكن الربع مما تركن من بعد [وصية]^(٧) يوصين بها أو دين. وقد تقدم أن الدين مقدم على الوصية، وبعده الوصية ثم الميراث، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، وحكم أولاد البنين وإن سفلوا حكم أولاد الصلب.

ثم قال: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾ [إن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ]^(٨) إلخ، وسواء فى الربع أو الثمن الزوجة والزوجتان الاثنتان والثلاث والأربع يشتركن^(٩) فيه.

(١) قال أبو بكر بن أبى داود: «الحارث كان أفقه وأفرض الناس وأحسب الناس، تعلم الفرائض من على»، وقيل للشعبى: كنت تختلف إلى الحارث؟ قال: نعم، كنت أختلف إليه أتعلم الحساب، كان أحسب الناس.

لكن ضعف فى روايته للحديث، ضعفه جماعة منهم الشعبى وجريز وابن مهدي وابن المدينى ويحيى بن معين وأبو زرعة وأبو حاتم. انظر: تهذيب الكمال (٥ / ٢٤٤).

(٢) فى ر: «والله». (٣) فى ر، أ: «وللأبوين».

(٤) فى ج، ر، أ: «كما أن». (٥) زيادة من ر.

(٦) فى ج، ر، أ: «وهو». (٧) زيادة من ج، ر، أ.

(٨) زيادة من ج، ر، أ. (٩) فى أ: «يشتركون».

وقوله: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ﴾ إلخ، الكلام عليه كما تقدم.

وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً﴾ الكلاله: مشتقة من الإكليل، وهو الذى يحيط بالرأس من جوانبه، والمراد هنا ^(١): من يرثه من حواشيه لا أصوله ولا فروعه، كما روى الشعبى عن أبى بكر الصديق: أنه سئل عن الكلاله، فقال: أقول فيها برأى، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان، والله ورسوله بريثان منه: الكلاله من لا ولد له ولا والد. فلما ولى عمر بن الخطاب قال: إني لأستحي ^(٢) أن أخالف أبا بكر فى رأى رآه. رواه ابن جرير وغيره ^(٣).

وقال ابن أبى حاتم، رحمه الله، فى تفسيره: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد، حدثنا سفيان، عن سليمان الأحول، عن طاوس قال: سمعت عبد الله بن عباس يقول: كنت آخر الناس عهداً بعمر بن الخطاب، فسمعتة يقول: القول ما قلت، وما قلت ^(٤)، قال: الكلاله من لا ولد له ولا والد ^(٥).

وهكذا قال على بن أبى طالب وابن مسعود، وصح عن ^(٦) غير وجه عن عبد الله بن عباس، وزيد بن ثابت، وبه يقول الشعبى والنخعى، والحسن البصرى، وقتادة، وجابر بن زيد، والحكم. وبه يقول أهل المدينة والكوفة والبصرة. وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور السلف والخلف ^(٧)، بل جميعهم. وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد، وورد فيه حديث مرفوع. قال أبو الحسين بن اللبان: وقد روى عن ابن عباس ما يخالف ذلك، وهو أنه لا ولد له. والصحيح عنه الأول، ولعل الراوى ما فهم عنه ^(٨) ما أراد.

وقوله: ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ أى: من أم، كما هو فى قراءة بعض السلف، منهم سعد بن أبى وقاص، وكذا فسرها أبو بكر الصديق فيما رواه ^(٩) قتادة عنه، ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلْثِ﴾.

وإخوة الأم يخالفون بقية الورثة من وجوه، أحدها: أنهم يرثون مع من أدلوا به وهى الأم. الثانى: أن ذكرهم وأنثاهم سواء. الثالث: أنهم لا يرثون إلا إذا كان ميتهم يورث كلاله، فلا يرثون مع أب، ولا جد، ولا ولد، ولا ^(١٠) ولد ابن. الرابع: أنهم لا يزدادون ^(١١) على الثلث، وإن كثر ^(١٢) ذكورهم وإنثاهم.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس، حدثنا ابن وهب، أخبرنا يونس، عن الزهرى قال: قضى عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أن ميراث الإخوة من الأم بينهم، للذكر مثل الأنثى ^(١٣). قال محمد بن شهاب الزهرى: ولا أرى عمر قضى بذلك حتى علم بذلك ^(١٤) من رسول الله ﷺ، ولهذه الآية التى قال الله

(١) فى أ: «هاهنا». (٢) فى ر: «إنى لأستحي»، وفى ج، أ: «إنى أستحي».

(٣) تفسير الطبرى (٨ / ٥٤) ورواه سعيد بن منصور فى السنن برقم (٥٩١) ومن طريقه رواه البيهقى فى السنن الكبرى (٦ / ٢٤٤) من طريق سفيان عن عاصم الأحول بنحوه.

(٤) فى ر: «القول».

(٥) تفسير ابن أبى حاتم (٢ / ١١٥ ل) ورواه سعيد بن منصور فى السنن برقم (٥٨٩) من طريق سفيان بن عيينة به.

(٦) فى ج، ر، أ: «من». (٧) فى ج، ر: «الخلف والسلف». (٨) فى ج: «ولعل الراوى عنه ما فهم ما أراد».

(٩) فى أ: «فيما روى». (١٠) فى ج: «وكذا». (١١) فى أ: «يزدادون».

(١٢) فى ج: «كنا». (١٣) فى ر: «مثل حظ الأنثيين». (١٤) فى ج: «ذلك».

تعالى: ﴿فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾.

واختلف العلماء فى المسألة المشتركة، وهى: زوج، وأم أو جدة، واثنان^(١) من ولد الأم وواحد^(٢) أو أكثر من ولد الأبوين. فعلى قول الجمهور: للزوج النصف، وللأم أو الجدة السدس، ولولد الأم الثلث، ويشاركهم فيه ولد الأب والأم بما بينهم من القدر المشترك وهو إخوة الأم.

وقد وقعت هذه المسألة فى زمن^(٣) أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فأعطى الزوج النصف، والأم السدس، وجعل الثلث لأولاد الأم، فقال له أولاد الأبوين: يا أمير المؤمنين، هب أن أبانا كان حماراً، ألسنا من أم واحدة؟ فشرك بينهم.

وصح التشريك عنه وعن أمير المؤمنين عثمان، وهو إحدى الروايتين عن ابن مسعود، وزيد بن ثابت، وابن عباس، رضى الله عنهم. وبه يقول سعيد بن المسيب، وشريح القاضى، ومسروق، وطاوس، ومحمد بن سيرين وإبراهيم النخعى، وعمر بن عبد العزيز، والثورى، وشريك وهو مذهب مالك والشافعى، وإسحاق بن راهويه.

وكان على بن أبى طالب لا يشرك بينهم، بل يجعل الثلث لأولاد الأم، ولا شىء لأولاد الأبوين، والحالة هذه، لأنهم عصبه. وقال وكيع بن الجراح: لم يختلف عنه فى ذلك، وهذا قول أبى بن كعب وأبى موسى الأشعرى، وهو المشهور عن ابن عباس، وهو مذهب الشعبى وابن أبى ليلى، وأبى يوسف، ومحمد بن الحسن، والحسن بن زياد، وزفر بن الهذيل، والإمام أحمد بن حنبل، ويحيى بن آدم ونعيم بن حماد، وأبى ثور، وداود بن على الظاهرى، واختاره أبو الحسين بن اللبان الفرضى، رحمه الله، فى كتابه «الإيجاز».

وقوله: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ أى: لتكون^(٤) وصيته على العدل، لا على الإضرار والجور والحيث بأن يحرم بعض الورثة، أو ينقصه، أو يزيده على ما قدر الله له من الفريضة فمتى سعى فى ذلك كان كمن ضاد الله فى حكمته^(٥) وقسمته؛ ولهذا قال ابن أبى حاتم:

حدثنا أبى، حدثنا أبو النضر الدمشقى الفراديسى، حدثنا عمر بن المغيرة، عن داود بن أبى هند، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: «الإضرار فى الوصية من الكبائر».

وكذا رواه ابن جرير من طريق عمر بن المغيرة هذا^(٦) وهو أبو حفص بصرى سكن المصيصة، قال أبو القاسم ابن عساكر: ويعرف بمفتى المساكين. وروى عنه غير واحد من الأئمة. وقال فيه أبو حاتم الرازى: هو شيخ. وقال على بن المدينى: هو مجهول لا أعرفه. لكن رواه النسائى فى سننه عن على ابن حجر، عن على بن مسهر، عن داود بن أبى هند، عن عكرمة، عن ابن عباس، موقوفاً:

(١) فى ج، أ: «واثنان».

(٢) فى ر: «واحد».

(٣) فى ج، أ: «وابنان».

(٤) فى ج، ر، أ: «لتكن»، وفى أ: «ليكن».

(٥) فى ج: «حكمه».

(٦) تفسير الطبرى (٨ / ٦٦) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٦ / ٢٧١) من طريق عمر بن المغيرة به.

«الإضرار فى الوصية من الكبائر». وكذا رواه ابن أبى حاتم عن أبى سعيد الأشج، عن عائذ بن حبيب، عن داود بن أبى هند. ورواه ابن جرير من حديث جماعة من الحفاظ، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس موقوفاً^(١). وفى بعضها: ويقرأ ابن عباس: ﴿غَيْرُ مُضَارٍ﴾.

قال ابن جريج^(٢): والصحيح الموقوف.

ولهذا اختلف الأئمة فى الإقرار للوارث: هل هو صحيح أم لا؟ على قولين: أحدهما: لا يصح لأنه مظنة التهمة أن يكون قد أوصى له بصيغة الإقرار وقد ثبت فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث». وهذا مذهب أبى حنيفة ومالك، وأحمد بن حنبل، والقول القديم للشافعى، رحمهم الله، وذهب فى الجديد إلى أنه يصح الإقرار. وهو مذهب طاوس، وعطاء، والحسن، وعمر بن عبد العزيز.

وهو اختيار أبى عبد الله^(٣) البخارى فى صحيحه. واحتج بأن رافع بن خديج أوصى ألا تكشف^(٤) الفزارية عما أغلق عليه بابها قال: وقال بعض الناس: لا يجوز إقراره لسوء الظن به للورثة، وقد قال النبى ﷺ: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث». وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] فلم يخص وارثاً ولا غيره. انتهى ما ذكره.

فمتى كان الإقرار صحيحاً مطابقاً لما فى نفس الأمر جرى فيه هذا الخلاف، ومتى كان حيلة ووسيلة إلى زيادة بعض الورثة ونقصان بعضهم، فهو حرام بالإجماع وينص هذه الآية الكريمة ﴿غَيْرِ مُضَارٍ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [ثم قال الله]^(٥):

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٤) ﴾.

أى: هذه الفرائض والمقادير التى جعلها الله للورثة بحسب قربهم من الميت واحتياجهم إليه وفقدهم له عند عدمه، هى حدود الله فلا تعتدوها ولا تتجاوزوها؛ ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى: فيها، فلم يزد بعض الورثة ولم^(٦) ينقص بعضاً بحيلة ووسيلة، بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين^(٧). أى: لكونه غير ما حكم الله به وضاد الله فى حكمه. وهذا إنما يصدر عن^(٧) عدم الرضا بما قسم الله وحكم به، ولهذا يجازيه بالإهانة فى العذاب الأليم المقيم.

(١) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٠٩٢) وتفسير الطبرى (٨ / ٦٥).

(٢) فى ابن جرير.

(٣) فى أ: «واختاره أبو عبد الله».

(٤) فى أ: «ابن جرير».

(٥) زيادة من أ.

(٦) فى ج، ر، أ: «ولا».

(٧) فى ج، ر: «من».

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن أيوب، عن أشعث بن عبد الله، عن شهر ابن حوشب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْخَيْرِ سَبْعِينَ سَنَةً، فَإِذَا أَوْصَى حَافٍ فِي وَصِيَّتِهِ، فَيُخْتَمُ^(١) بِشَرِّ عَمَلِهِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ؛ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الشَّرِّ سَبْعِينَ سَنَةً، فَيُعْدَلُ فِي وَصِيَّتِهِ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِخَيْرِ عَمَلِهِ فَيَدْخُلُ^(٢) الْجَنَّةَ». قال: ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾^(٣).

[و]^(٤) قال أبو داود في باب الإضرار في الوصية من^(٥) سننه: حدثنا عبدة^(٦) بن عبد الله أخبرنا عبد الصمد، حدثنا [نصر]^(٧) بن علي الحداني، حدثنا الأشعث بن عبد الله بن جابر الحداني، حدثني شهر بن حوشب: أن أبا هريرة حدثه: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ أَوْ الْمَرْأَةُ بِطَاعَةِ اللَّهِ سِتِينَ سَنَةً، ثُمَّ يَحْضُرُهَا الْمَوْتُ فَيُضَارَانِ فِي الْوَصِيَّةِ، فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ» وقال: قرأ على أبو هريرة من هاهنا: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دِينَ غَيْرِ مُضَارٍ﴾ حتى بلغ: ﴿وَأُولَئِكَ أَفْوَزُ الْعَظِيمِ﴾. وهكذا^(٩) رواه الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عبد الله بن جابر الحداني به، وقال الترمذي: حسن غريب، وسياق الإمام أحمد أتم وأكمل^(١٠).

﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ۝١٦﴾.

كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا زنت فثبت زناها بالبينه العادلة، حبست في بيت فلا تمكن من الخروج منه إلى أن تموت؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ﴾ يعني: الزنا ﴿مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ فَاَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا فالسبيل الذي جعله الله هو الناسخ لذلك.

قال ابن عباس: كان الحكم كذلك، حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد، أو الرجم. وكذا روى عن عكرمة، وسعيد بن جببر، والحسن، وعطاء الخراساني، وأبي صالح، وقتادة، وزيد بن أسلم، والضحاك: أنها منسوخة. وهو أمر متفق عليه.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن حطان بن عبد الله الرقاشي، عن عباد بن الصامت قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي أثر عليه

(١) في ج، ر، أ: «فيختم له». (٢) في ر: «فيدخله».

(٣) المسند (٢/ ٢٧٨).

(٤) زيادة من ج، ر، أ.

(٥) في ج، أ: «في».

(٦) في ر: «عبدة».

(٧) زيادة من ج.

(٨) في أ: «وكذا».

(٩) زيادة من ج، ر، أ.

(١٠) سنن أبي داود برقم (٢٨٦٧) وسنن الترمذي برقم (٢١١٧) وسنن ابن ماجه برقم (٢٧٠٤).

وكره لذلك وتربّد وجهه، فأنزل الله عز وجل عليه ذات يوم، فلما سرّى عنه قال: «خُذُوا عَنِّي، قد جعل الله لَهُنَّ سبيلاً: الثَّيْبُ بالثَّيْبِ، والبِكْرُ بالبكرِ، الثَّيْبُ جلدُ مائة، ورجمُ بالحجارة، والبكر جلد مائة ثم نفى سنة».

وقد رواه مسلم وأصحاب السنن من طرق عن قتادة عن الحسن عن حطّان^(١)، عن عبادة عن النبي ﷺ ولفظه: «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لَهُنَّ سبيلاً؛ البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم». وقال الترمذی: هذا حديث حسن صحيح^(٢).

وهكذا^(٣) رواه أبو داود الطيالسي، عن مبارك بن فضالة، عن الحسن، عن حطّان بن عبد الله الرقاشي، عن عبادة: أن رسول الله ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي عُرف ذلك في وجهه، فلما أنزلت: «أَوْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا» [و]^(٤) ارتفع الوحي قال رسول الله ﷺ: «خُذُوا خذُوا، قد جعل الله لَهُنَّ سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة، والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة».

وقد روى الإمام أحمد أيضاً هذا الحديث عن وكيع بن الجراح، حدثنا الفضل بن دهم، عن الحسن، عن قبيصة بن حريث، عن سلمة بن المحبق قال: قال رسول الله ﷺ: «خُذُوا عَنِّي، خذوا عني، قد جعل الله لَهُنَّ سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم». وكذا رواه أبو داود مطولاً من حديث الفضل بن دهم، ثم قال: وليس هو بالحافظ، كان قصاباً بواسط^(٥).

حديث آخر: قال أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا عباس بن حمدان، حدثنا أحمد بن داود، حدثنا عمرو بن عبد الغفار، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، عن مسروق، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «البكر أن يجلدان ويُنفيان، والثيبان يجلدان ويُرجمان، والشَّيْخَانِ يُرجمان». هذا حديث غريب من هذا الوجه^(٦).

وروى الطبراني من طريق ابن لهيعة، عن أخيه عيسى بن لهيعة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت سورة النساء قال رسول الله ﷺ: «لا حبس بعد سورة النساء»^(٧).

وقد ذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى القول بمقتضى هذا الحديث، وهو الجمع بين الجلد والرجم في حق الثيب الزاني، وذهب الجمهور إلى أن الثيب الزاني إنما يُرجم فقط من غير جلد، قالوا: لأن النبي ﷺ رَجَمَ ماعزاً والغامدية واليهوديين، ولم يجلداهم قبل ذلك، فدل على أن الجلد^(٨) ليس

(١) في ر: «خطاب».

(٢) المسند (٣١٨/٥) وصحيح مسلم برقم (١٦٩٠) وسنن أبي داود برقم (٤٤١٥) وسنن الترمذی برقم (١٤٣٤) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٠٩٣) وسنن ابن ماجه برقم (٢٥٥٠).

(٣) في ج، ر: «وكذا».

(٤) في جميع النسخ: «فلما» بدل الواو.

(٥) المسند (٤٧٦/٣) وسنن أبي داود برقم (٤٤١٧).

(٦) وفي إسناده عمرو بن عبد الغفار الفقيمي. قال أبو حاتم: متروك الحديث، وقال ابن عدي: اتهم بوضع الحديث، وقال العقيلي: منكر الحديث. ميزان الاعتدال برقم (٦٤٠٣).

(٧) المعجم الكبير (٣٦٥/١١) وابن لهيعة وأخوه ضعيفان.

(٨) في ر، أ: «الرجم».

بحتم، بل هو منسوخ على قولهم، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا﴾ أى: واللذان يأتيان^(١) الفاحشة فأذوهما. قال ابن عباس، وسعيد بن جبير وغيرهما: أى بالشتيم والتعيير، والضرب بالنعال، وكان الحكم كذلك حتى نسخ الله بالجلد أو الرجم.

وقال عكرمة، وعطاء، والحسن، وعبد الله بن كثير: نزلت فى الرجل والمرأة إذا زنيا.

وقال السدى: نزلت فى الفتیان قبل أن يتزوجوا.

وقال مجاهد: نزلت فى الرجلين إذا فعلا، لا يكنى، وكأنه يريد اللواط، والله أعلم.

وقد روى أهل السنن، من حديث عمرو بن أبى عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَأَيْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلٌ لَوْ طُفِقُوا فَاغْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولُ بِهِ»^(٢).

وقوله: ﴿فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا﴾ أى: أقبلما ونزعاً عما كانا عليه، وصلحت أعمالهما وحسنت ﴿فَاعْرَضُوا عَنْهُمَا﴾ أى: لا تعتفوهما بكلام قبيح بعد ذلك؛ لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾. وقد ثبت فى الصحيحين «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يثرب عليها» أى: ثم لا يغيرها بما صنعت بعد الحد، الذى هو كفارة لما صنعت.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (١٨).

يقول تعالى: إنما يتقبل الله التوبة ممن عمل السوء بجهالة، ثم يتوب ولو قبل معاينة الملك [القبض]^(٣) روحه قبل الغرغرة.

قال مجاهد وغير واحد: كل من عصى الله خطأ أو عمداً فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب. وقال قتادة عن أبى العالية: أنه كان يحدث: أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون: كل ذنب أصابه عبد فهو بجهالة. رواه ابن جرير.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة قال: اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أن كل شيء عصى به فهو جهالة، عمداً كان أو غيره^(٤).

وقال ابن جريج: أخبرنى عبد الله بن كثير، عن مجاهد قال: كل عامل بمعصية الله^(٥) فهو جاهل حين عملها. قال ابن جريج: وقال لى عطاء بن أبى رباح نحوه.

(١) فى ج، ر، أ: «يفعلان».

(٢) رواه أبو داود فى السنن برقم (٤٤٦٢) والترمذى فى السنن برقم (١٤٥٥) وابن ماجه فى السنن برقم (٢٥٦١).

(٣) زيادة من ج، ر، أ.

(٤) تفسير عبد الرزاق (١/١٥٢).

(٥) فى أ: «بمعصيته».

وقال أبو صالح عن ابن عباس: مِنْ جَهَالَتِهِ عَمِلَ السُّوءَ.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ قال: ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت، وقال الضحاك: ما كان دون الموت فهو قريب. وقال قتادة والسدي: ما دام في صحته. وهو مروي عن ابن عباس. وقال الحسن البصري: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾: ما لم يُغْرِغْ. وقال عكرمة: الدنيا كلها قريب.

ذكر الأحاديث في ذلك:

قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عيَّاش^(١)، وعصام بن خالد، قالوا: حدثنا ابن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن جبير بن نفير^(٢)، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرِغْ».

[و]^(٣) رواه الترمذي وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، به^(٤). وقال الترمذي: حسن غريب. ووقع في سنن ابن ماجه: عن عبد الله بن عمرو. وهو وهم، إنما هو عبد الله ابن عمر بن الخطاب.

حديث آخر^(٥): عن ابن عمر: قال أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن معمر^(٦)، حدثنا عبد الله ابن الحسن الخراساني، حدثنا يحيى بن عبد الله البابلتي^(٧)، حدثنا أيوب بن نهيك الحلبي قال: سمعت عطاء بن أبي رباح قال: سمعت عبد الله بن عمر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ يَتُوبُ قَبْلَ الْمَوْتِ بِشَهْرٍ إِلَّا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ، وَأَدْنَى مِنْ ذَلِكَ، وَقَبْلَ مَوْتِهِ بِيَوْمٍ وَسَاعَةٍ، يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْهُ التَّوْبَةَ وَالْإِخْلَاصَ إِلَيْهِ إِلَّا قَبْلَ مِنْهُ»^(٨).

حديث آخر: قال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، أخبرنا إبراهيم بن ميمون، أخبرني رجل من مَلْحَانَ^(٩) - يقال له: أيوب - قال: سمعت عبد الله بن عمر يقول: من تاب قبل موته بعام تيب عليه، ومن تاب قبل موته بشهر تيب عليه، ومن تاب قبل موته بجمعة تيب عليه، ومن تاب قبل موته بيوم تيب عليه، ومن تاب قبل موته بساعة تيب عليه. فقلت له: إنما قال الله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ فقال: إنما أحدثك ما سمعت من رسول الله ﷺ^(١٠).

(٣) زيادة من ر، أ.

(٢) في ر: «نصير».

(١) في أ: «عباس».

(٤) المسند (١٣٢/٢) وسنن الترمذي برقم (٣٥٣٧) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٥٣).

(٥) في ر، أ: «طريق أخرى».

(٧) في ج، أ: «الباهلي».

(٦) في أ: «يعمر».

(٨) ورواه أبو نعيم في الحلية (٣/٣٢٠) من طريق يحيى بن عبد الله عن أيوب بن نهيك، ثم قال: هذا حديث غريب من حديث عطاء، تفرد به أيوب بن نهيك.

(٩) في ج، ر، أ: «بلحارث».

(١٠) مسند الطيالسي (ص ٣٠١) وهو عنده من مسند عبد الله بن عمرو بن العاص، ورواه أحمد في مسنده (٢/٢٠٦) من طريق عفان عن شعبة بنحوه، من مسند عبد الله بن عمرو بن العاص، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/١٩٧): «فيه راوٍ لم يسم ببقية رجاله ثقات».

وهكذا رواه أبو داود ^(١) الطيالسي، وأبو عمر الحَوْضِي، وأبو عامر العَقْدِي، عن شعبة.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا محمد بن مطرّف، عن زيد بن أسلم، عن عبد الرحمن بن البيّلماني ^(٢) قال: اجتمع أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال أحدهم: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يقبلُ توبةَ العبدِ قبل أن يموتَ يومٍ». فقال الآخر: أنتَ سمعتَ هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يقبلُ توبةَ العبدِ قبل أن يموتَ بنصفِ يومٍ» فقال الثالث: أنتَ سمعتَ هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يقبلُ توبةَ العبدِ قبل أن يموتَ بضحوٍ». قال ^(٣) الرابع: أنتَ سمعتَ هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال وأنا سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله [تعالى] ^(٤) يقبلُ توبةَ العبدِ ما لم يُغرغر بنفسه». وقد رواه سعيد بن منصور عن الدراوردي، عن زيد بن أسلم، عن عبد الرحمن بن البيّلماني ^(٦)، فذكر قريباً منه ^(٧).

حديث آخر: قال أبو بكر بن مردويه: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن زيد، حدثنا عمران بن عبد الرحيم، حدثنا عثمان بن الهيثم، حدثنا عَوْف، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقبلُ توبةَ عبده ما لم يُغرغر» ^(٨).

أحاديث في ذلك مرسلّة:

قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن أبي عدي، عن عَوْف، عن الحسن قال: بلغني أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ الله يقبلُ توبةَ العبدِ ما لم يُغرغر» هذا مرسل حسن ^(٩)، عن الحسن البصري، رحمه الله.

آخر: قال ابن جرير أيضاً، رحمه الله: حدثنا ابن بشار، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي، عن قتادة، عن العلاء بن زياد، عن أبي أيوب بُشير بن كعب؛ أن نبي الله ﷺ قال: «إن الله يقبلُ توبةَ العبدِ ما لم يُغرغر» ^(١٠).

وحدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الأعلى، عن سعيد، عن قتادة، عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال، فذكر مثله ^(١١).

أثر آخر: قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا أبو داود، حدثنا عمران، عن قتادة قال: كنا عند

(٣) في أ: «وقال».

(٦) في ر: «السلماني».

(٢) في ج، ر، أ: «السلماني».

(٥) في أ: «قبل أن».

(١) في هـ: «أبو الوليد» وهو خطأ.

(٤) زيادة من جـ.

(٧) المسند (٤٢٥/٣) وسنن سعيد بن منصور برقم (٥٩٧).

(٨) وفي إسناده عمران بن عبد الرحيم بن أبي الورد؛ قال السليمان: فيه نظر وهو الذي وضع حديث أبي حنيفة عن مالك رحمهما الله تعالى، وقال أبو الشيخ: كان يرمى بالرفض. لسان الميزان (٣٤٧/٤).

(٩) تفسير الطبري (٩٦/٨) ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (٤٦٣/١٣).

(١٠) تفسير الطبري (٩٦/٨).

(١١) تفسير الطبري (٩٦/٨) وفتادة لم يسمع من عبادة بن الصامت.

أنس بن مالك وثم أبو قلابة، فحدث أبو قلابة فقال: إن الله تعالى لما لعن إبليس سأله النظرة فقال: وعزتك وجلالك لا أخرج من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح. فقال الله: وعزتي^(١) لا أمنعه التوبة ما دام فيه الروح.

وقد ورد هذا في حديث مرفوع، رواه الإمام أحمد في مسنده من طريق عمرو بن أبى عمرو وأبى الهيثم العنبري كلاهما عن أبى سعيد، عن النبي ﷺ قال: «قال إبليس: وعزتك لا أزال أغويهم مادامت أرواحهم في أجسادهم. فقال الله عز وجل: وعزتي وجلالي، لا أزال^(٢) أغفر لهم ما استغفروني»^(٣).

فقد دلت هذه الأحاديث على أن من تاب إلى الله عز وجل وهو يرجو الحياة، فإن توبته مقبولة [منه]^(٤)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. فاما متى وقع الإياس من الحياة، وعاین الملك، وحسرت الروح في الحلق، وضاق بها الصدر، وبلغت الحلقوم، وغرغرت النفس صاعدة في الغلاصم - فلا توبة متقبلة حينئذ، ولات حين مناص؛ ولهذا قال [تعالى]^(٥): ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ وهذا كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ [وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا]﴾^(٦) الآيتين [غافر: ٨٤، ٨٥]، وكما حكم تعالى بعدم توبة أهل الأرض إذا عاينوا الشمس طالعة من مغربها كما قال [تعالى]^(٧): ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ الآية [الأنعام: ١٥٨].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [الآية]^(٨) يعنى: أن الكافر إذا مات على كفره وشركه لا ينفعه ندمه ولا توبته، ولا يقبل منه فدية ولو بملء الأرض [ذهبا]^(٩).

قال ابن عباس، وأبو العالية، والربيع بن أنس: ﴿وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ قالوا: نزلت في أهل الشرك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، قال: حدثني أبى، عن مكحول: أن عمر بن نعيم حدثه عن أسامة بن سلمان: أن أبا ذر حدثهم: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة عبده - أو يغفر لعبده - ما لم يقع الحجاب». قيل: وما وقوع الحجاب؟ قال: «أن تخرج النفس وهى مشركة»^(١٠)؛ ولهذا قال [تعالى]^(١١): ﴿أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أى: موجعا شديدا مقيما.

(١) فى أ: «عز وجل». (٢) فى ج، ر، أ: «ولا أزال».

(٣) المسند (٧٦/٣).

(٤) زيادة من أ. (٥) زيادة من ج، ر، أ. (٦) زيادة من ج، ر، أ.

(٧) زيادة من ر، وفى أ: «فى قوله». (٨) زيادة من أ. (٩) زيادة من ج، ر، أ.

(١٠) المسند (١٧٤/٥).

(١١) زيادة من أ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۝ (١٩) وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنَاطَرًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ۝ (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۝ (٢١) وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ۝ (٢٢)﴾.

قال البخارى: حدثنا محمد بن مقاتل، حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الشيبانى عن عكرمة، عن ابن عباس - قال الشيبانى: وذكره أبو الحسن السوائى، ولا أظنه ذكره إلا عن ابن عباس -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامراته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاؤوا زوّجوها، وإن شاؤوا لم يزوّجوها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية فى ذلك.

هكذا رواه البخارى وأبو داود، والنسائى، وابن مردويه، وابن أبى حاتم، من حديث أبى إسحاق الشيبانى - واسمه سليمان بن أبى سليمان - عن عكرمة، وعن أبى الحسن السوائى واسمه عطاء، كوفى أعمى - كلاهما عن ابن عباس بما تقدم (١).

وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن محمد بن ثابت المروزى، حدثنى على بن حسين، عن أبيه، عن يزيد النحوى، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾: وذلك أن الرجل كان (٢) يرث امرأة ذى قرابته، فيعضلها حتى تموت أو ترد إليه صداقها، فأحكم الله تعالى عن ذلك، أى نهى عن ذلك.

تفرد به أبو داود (٣)، وقد رواه غير واحد عن ابن عباس بنحو (٤) ذلك، فقال وكيع عن سفيان، عن على بن بزيمة، عن مقسم، عن ابن عباس: كانت المرأة فى الجاهلية إذا توفى عنها زوجها فجاء رجل فالقى عليها ثوباً، كان أحق بها، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ (٥).

وروى على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ قال: كان الرجل إذا مات وترك جارية، ألقى (٦) عليها حميمه (٧) ثوبه، فمنعها من الناس. فإن كانت جميلة تزوجها، وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها.

(١) صحيح البخارى برقم (٤٥٧٩) وسنن أبى داود برقم (٦٠٨٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٠٩٤).

(٢) فى ر: «كما».

(٣) سنن أبى داود برقم (٢٠٩٠).

(٤) فى ر: «نحو».

(٥) ورواه الطبرى فى التفسير (١٠٨/٨) من طريق ابن وكيع عن وكيع به إلا أنه أوقفه على مقسم.

(٦) فى ر: «والقى».

(٧) فى أ: «خيمه».

وروى ^(١) العوفى عنه: كان الرجل من أهل المدينة إذا مات حميمٌ أحدهم ألقى ثوبه على امرأته، فَوَرِثَ نِكَاحَهَا وَلَمْ يَنْكِحْهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ، وَحَبَسَهَا عِنْدَهُ حَتَّى تَفْتَدِيَ مِنْهُ بِفِدْيَةٍ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾.

وقال زيد بن أسلم فى الآية ^(٢): ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ ^(٣): كان أهل يَثْرِبَ إذا مات الرجل منهم فى الجاهلية وَرِثَ امرأته من يرث ماله، وكان يعضِّلُها حتى يرثها، أو يزوجهَا من أراد، وكان أهل تُهامة يُسَيِّءُ الرجل صحبة ^(٤) المرأة حتى يطلقها، ويشترط عليها ألا تنكح إلا من أراد حتى تفتدى منه ببعض ما أعطها، فنهى الله المؤمنين عن ذلك. رواه ابن أبى حاتم.

وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا موسى بن إسحاق، حدثنا على بن المنذر، حدثنا محمد بن فضيل، عن يحيى ^(٥) بن سعيد، عن محمد بن أبى أمامة بن سهل بن حنيف، عن أبيه قال: لما توفى أبو قيس بن الأسلت أراد ابنه أن يتزوج امرأته، وكان لهم ذلك فى الجاهلية، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾.

ورواه ابن جرير من حديث محمد بن فضيل، به. ثم روى من طريق ابن جريج قال: أخبرنى عطاء أن أهل الجاهلية كانوا إذا هَلَكَ الرجلُ وترك امرأة، حبسها أهلُه على الصبي يكون فيهم، فنزلت: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ الآية.

قال ابن جريج: وقال مجاهد: كان الرجل إذا تُوُفِيَ كان ابنه أحق بامرأته، ينكحها إن شاء، إذا لم يكن ابنها، أو ينكحها من شاء أخاه أو ابن أخيه.

قال ابن جريج: وقال عكرمة: نزلت فى كُبَيْشَةَ بنت مَعْن بن عاصم من الأوس، توفى عنها أبو قيس ابن الأسلت، فجَنَحَ عليها ابنه، فجاءت رسولَ اللَّهِ ﷺ، فقالت: يا رسول الله، لا أنا وَرِثْتُ زوجى، ولا أنا تُرِكَتُ فَأَنْكِحْ، فنزلت هذه الآية.

وقال السدى عن أبى مالك: كانت المرأة فى الجاهلية إذا مات زوجها، جاء وليه فألقى عليها ثوباً، فإن كان له ابن صغير أو أخ حبسها حتى يَشُبَ ^(٦) أو تموت فيرثها، فإن هى انفلتت فأنت أهلها، ولم يلق عليها ثوباً نَجَتْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: [تعالى] ^(٧): ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾.

وقال مجاهد فى الآية: كان الرجل يكون فى حجره اليتيمة هو يلى أمرها، فيحبسها رجاء أن تموت امرأته، فيتزوجها أو يزوجهَا ابنه. رواه ابن أبى حاتم. ثم قال: وَرَوَى عن الشعبي، وعطاء بن أبى رباح، وأبى مجلز، والضحاك، والزهرى، وعطاء الخراسانى، ومقاتل بن حَيَّان - نحو ذلك.

(٣) زيادة من ج، ر، أ.

(٢) فى ج، ر، أ: «فى قوله».

(١) فى ر: «وقال».

(٦) فى أ: «يشيب».

(٥) فى أ: «محمد».

(٤) فى ج، أ: «صحبه».

(٧) زيادة من ر.

قلت: فالآية تعم ما كان يفعله أهل الجاهلية، وما ذكره مجاهد ومن وافقه، وكل ما كان فيه نوع من ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ أى: لا تضاروهن فى العشرة لتترك لك ما أصدقتها أو بعضه أو حقاً من حقوقها عليك، أو شيئاً من ذلك على وجه القهر لها والاضطهاد.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ يقول: ولا تقهروهن ﴿لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ يعنى: الرجل تكون له امرأة ^(١) وهو كاره لصحبته، ولها عليه مهرٌ فيضرها ^(٢) لتفتدى.

وكذا قال الضحاك، وقتادة [وغير واحد] ^(٣)، واختاره ابن جرير.

وقال ابن المبارك وعبد الرزاق: أخبرنا معمرٌ قال: أخبرنى سِمَاك بن الفضل، عن ابن البيلماني ^(٤) قال: نزلت هاتان الآيتان إحداهما فى أمر الجاهلية، والأخرى فى أمر الإسلام. قال عبد الله بن المبارك: يعنى قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ فى الجاهلية ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ فى الإسلام.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ قال ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، والشَّعْبِيُّ، والحسن البصرى، ومحمد بن سيرين، وسعيد بن جبَّير، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء الخراساني، والضَّحَّاك، وأبو قلابَة، وأبو صالح، والسُّدِّي، وزيد بن أسلم، وسعيد بن أبى هلال: يعنى بذلك الزنا، يعنى: إذا زنت فلك أن تسترجع منها الصداق الذى أعطيتها وتضاجرها حتى تتركه لك وتخالعها، كما قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ [فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ]﴾ ^(٥) الآية [البقرة: ٢٢٩].

وقال ابن عباس، وعكرمة، والضحاك: الفاحشة المبينة: النشوز والعصيان.

واختار ابن جرير أنه يعم ذلك كله: الزنا، والعصيان، والنشوز، وبذاء اللسان، وغير ذلك.

يعنى: أن هذا كله يُبيح مضاجرتها حتى تُبرئه من حقها أو بعضه ويفارقها، وهذا جيد، والله أعلم، وقد تقدم فيما رواه أبو داود منفرداً به من طريق يزيد النحوى عن عكرمة عن ابن عباس [رضى الله عنهما] ^(٦) فى قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ قال: وذلك أن الرجل كان يرث امرأة ذى قرابته، فيعضلها حتى تموت أو ترد إليه صداقها، فأحكم الله عن ذلك، أى نهى عن ذلك.

(٣) زيادة من ج، أ.

(٢) فى أ: فيضرها.

(١) فى ج، ر، أ: «يكون له المرأة».

(٦) زيادة من أ.

(٥) زيادة من ر، أ.

(٤) فى ر، أ: «السلماني».

قال^(١) عكرمة والحسن البصري: وهذا يقتضى أن يكون السياق كله كان فى أمر الجاهلية، ولكن نهى المسلمون عن فعله فى الإسلام.

قال عبد الرحمن بن زيد: كان العَصْلُ فى قريش بمكة، ينكح الرجلُ المرأةَ الشريفة فلعلها لا توافقه، فيفارقها على أن^(٢) لا تُزَوِّج^(٣) إلا بإذنه، فيأتى بالشهود فيكتب ذلك عليها ويشهد، فإذا خطبها الخاطب فإن أعطته وأرضته أذن^(٤) لها، وإلا عَصَلها. قال: فهذا قوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ الآية.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾: هو كالعضل فى سورة البقرة.

وقوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى: طَيَّبُوا أقوالكم لهن، وحَسَّنُوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم، كما تحب ذلك منها، فافعل أنت بها مثله، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وقال رسول الله ﷺ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي»^(٥). وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة دائم البشر، يُدَاعِبُ أَهْلَهُ، وَيَتَلَطَّفُ بِهِمْ، وَيُوسِّعُهُمْ نَفَقَتَهُ، وَيُضَاحِكُ نِسَاءَهُ، حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين يتودَّدُ إليها بذلك. قالت: سَأَبَقَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَبَقْتُهُ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ أَحْمِلَ اللَّحْمَ، ثم سَابَقْتُهُ بَعْدَ مَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ فَسَبَقَنِي، فقال: «هَذِهِ بَيْتُكَ»^(٦) ويجتمع نساؤه كل ليلة فى بيت التى يبيت عندها رسول الله ﷺ، فيأكل معهن العشاء فى بعض الأحيان، ثم تنصرف كُلُّ واحدةٍ إلى منزلها. وكان ينام مع المرأة من نسائه فى شعار واحد، يَضَعُ عَنْ كَتْفَيْهِ الرِّدَاءَ وَيَنَامُ بِالْإِزَارِ، وكان إذا صَلَّى العشاءَ يدخل^(٧) منزله يَسْمُرُ مع أهله قليلا قبل أن ينام، يُؤَانِسُهُمْ بِذَلِكَ ﷺ وقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وأحكام عِشْرَةِ النساء وما يتعلَّق بتفصيل ذلك موضعه كتاب «الأحكام»، والله الحمد.

(١) فى ج، ر، أ: ك «وهكذا قال».

(٢) فى ج، أ: «أنه».

(٣) فى أ: «تزوج».

(٤) فى ر: «فأذن».

(٥) جاء من حديث ابن عباس: رواه ابن ماجة فى السنن برقم (١٩٧٧) وابن حبان فى صحيحه برقم (١٣١٥) «موارد» من طريق جعفر بن يحيى بن ثوبان عن عمه عمارة بن ثوبان عن عطاء عن ابن عباس.

وقال البوصيرى فى الزوائد (١١٧/٢): «هذا إسناد ضعيف، عمارة بن ثوبان ذكره ابن حبان فى الثقات، وقال عبد الحق: ليس بالقوى، فرد ذلك عليه ابن القطان، وجعفر بن يحيى. قال ابن المدينى: شيخ مجهول، وقال ابن القطان الفاسى: مجهول الحال، وذكره ابن حبان فى الثقات».

وجاء من حديث عائشة: رواه الترمذى فى السنن برقم (٣٨٩٢) وابن حبان فى صحيحه برقم (١٣١٢) من طريق سفيان عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة.

قال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، من حديث الثورى، ما أقل من رواه عن الثورى.

(٦) رواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٩٤٢) وابن ماجة فى السنن برقم (١٩٧٩) من طريق سفيان عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة به.

(٧) فى ر، أ: «فدخل».

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^(١). أى: فَعَسَى أن يكون صبركم مع^(٢) إمساكمكم لهن وكرهتهن فيه، خير كثير لكم فى الدنيا والآخرة. كما قال ابن عباس فى هذه الآية: هو أن يعطف عليها، فيرزق منها ولدًا، ويكون فى ذلك الولد خير كثير^(٣)، وفى الحديث الصحيح: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن سخط منها خلُقًا رضى منها آخر»^(٤).

وقوله: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ أى: إذا أراد أحدكم أن يفارق امرأة ويستبدل مكانها غيرها، فلا يأخذن مما كان أصدق الأولى شيئًا، ولو كان قنطارًا من مال.

وقد قدمنا فى سورة آل عمران الكلام على القنطار بما فيه كفاية عن إعادته هاهنا.

وفى هذه الآية دلالة على جواز الإصداق بالمال الجزيل، وقد كان عمر بن الخطاب نهى عن كثرة الإصداق، ثم رجع عن ذلك كما قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا سلمة^(٥) بن علقمة، عن محمد بن سيرين، قال: نُبِّئْتُ عن أبى العَجَفَاءِ السُّلَمِيِّ قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: ألا لا تُغْلُوا فى صدق^(٦) النساء، فإنها لو كانت مكرمة فى الدنيا أو تقوى عند الله كان أولاكم بها النبى ﷺ، ما أصدق رسول الله ﷺ امرأة من نسائه، ولا أصدق امرأة من بناته أكثر من اثنتى عشرة أوقية، وإن كان الرجل ليبتلى بصدق امرأته حتى يكون لها عداوة فى نفسه، وحتى يقول: كلفْتُ إِيْلِكَ علق القرية، ثم رواه أحمد وأهل السنن من طرق، عن محمد بن سيرين، عن أبى العَجَفَاءِ - واسمه هرم ابن مُسَيْب البصرى - وقال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح^(٧).

طريق أخرى عن عمر: قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خيثمة، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبى، عن ابن إسحاق، حدثنى محمد بن عبد الرحمن، عن المجالد^(٨) بن سعيد، عن الشعبي، عن مسروق، قال: ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ﷺ ثم قال: أيها الناس، ما إكثاركم فى صدق النساء وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه وإنما الصدقات فيما بينهم أربعمئة درهم فما دون ذلك. ولو كان الإكثار فى ذلك تقوى عند الله أو كرامة^(٩) لم تسبقوهم إليها. فلا أعرفن ما زاد رجل فى صدق امرأة على أربعمئة درهم. قال: ثم نزل، فاعترضته امرأة من قريش فقالت^(١٠): يا أمير المؤمنين، نهيت الناس أن يزيدوا النساء صدقاتهم^(١١) على أربعمئة درهم؟ قال: نعم.

فقالت: أما سمعت ما أنزل الله^(١٢) فى القرآن؟ قال: وأى ذلك؟ فقالت: أما سمعت الله يقول: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾^(١٣) [النساء: ٢٠]. قال: فقال:

(١) زيادة من ج، ر، أ. (٢) فى أ: «على». (٣) فى ر: «كبير».

(٤) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٤٦٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٥) فى أ: «مسهر». (٦) فى ج، ر، أ: «صدق».

(٧) المسند (٤٠/١) ورواه أبو داود فى السنن برقم (٢١٠٦) والترمذى فى السنن برقم (١١١٤) والنسائى فى السنن (١١٧/٦) وابن ماجه فى السنن برقم (١٨٨٧).

(٨) فى ج: «مجالد». (٩) فى ج، ر، أ: «أو مكرمة». (١٠) فى ج، أ: «فقالت له».

(١١) فى ح، ر، أ: «فى صدقاتهن». (١٢) فى ج، أ: «ما قال الله». (١٣) زيادة من ج، ر، وفى هـ: «الآية».

اللهم غَفْرًا، كُلُّ النَّاسِ أَفْقُهُ مِنْ عَمْرِ. ثُمَّ^(١) رَجَعَ فَرَكِبَ الْمَنْبِرَ فَقَالَ: إِنِّي^(٢) كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ أَنْ تَزِيدُوا النِّسَاءَ فِي صَدَقَاتِهِنَّ^(٣) عَلَى أَرْبَعِمِائَةِ دِرْهَمٍ، فَمَنْ شَاءَ أَنْ يُعْطَى مِنْ مَالِهِ مَا أَحَبَّ. قَالَ أَبُو يَعْلَى: وَأُظْهِرُهُ قَالَ: فَمَنْ طَابَتْ نَفْسُهُ فَلْيَفْعَلْ. إِسْنَادُهُ^(٤) جَيِّدٌ قَوِيٌّ^(٥).

طَرِيقٌ أُخْرَى: قَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَبْدِ الرَّزَاقِ، عَنْ قَيْسِ بْنِ رَبِيعٍ، عَنْ أَبِي حَصِينٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّلْمِيِّ قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: لَا تَغَالُوا فِي مَهْوَرِ^(٦) النِّسَاءِ. فَقَالَتْ امْرَأَةٌ: لَيْسَ ذَلِكَ لَكَ يَا عُمَرُ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: «وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا مِنْ ذَهَبٍ». قَالَ: وَكَذَلِكَ هِيَ فِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: «فَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا» فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّ امْرَأَةً خَاصَمَتْ عُمَرَ فَخَصَمَتْهُ^(٧).

طَرِيقٌ أُخْرَى: عَنْ عُمَرَ فِيهَا انْقِطَاعٌ: قَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَارٍ حَدَّثَنِي عَمِّي مُصْعَبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ جَدِّي قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لَا تَزِيدُوا فِي مَهْوَرِ^(٨) النِّسَاءِ وَإِنْ كَانَتْ بِنْتُ ذِي الْغُصَّةِ - يَعْنِي يَزِيدُ ابْنُ الْحَصِينِ الْحَارِثِيُّ - فَمَنْ زَادَ أَلْقَيْتَ الزِّيَادَةَ فِي بَيْتِ الْمَالِ. فَقَالَتْ امْرَأَةٌ - مِنْ صُفَّةِ النِّسَاءِ طَوِيلَةً، فِي أَنْفِهَا قَطْسٌ -: مَا ذَاكَ لَكَ. قَالَ: وَلَمْ؟ قَالَتْ: لِأَنَّ اللَّهَ [تَعَالَى]^(٩) قَالَ: «وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا»^(١٠) الْآيَةَ. فَقَالَ عُمَرُ: امْرَأَةٌ أَصَابَتْ^(١١) وَرَجُلٌ أَخْطَأَ^(١٢).

وَلِهَذَا قَالَ [اللَّهُ]^(١٣) مَنكَرًا: «وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ» أَيْ: وَكَيْفَ تَأْخُذُونَ الصَّدَاقَ مِنَ الْمَرْأَةِ وَقَدْ أَفْضَيْتَ إِلَيْهَا وَأَفْضَتْ إِلَيْكَ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَالسَّدِّيُّ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ: يَعْنِي بِذَلِكَ الْجَمَاعَ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِلْمُتَلَاعِنِينَ بَعْدَ فِرَاقِهِمَا مِنْ تَلَاعُنِهِمَا: «اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ. فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ» ثَلَاثًا. فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَالِي - يَعْنِي: مَا أَصْدَقْتُهَا^(١٤) - قَالَ: «لَا مَالَ لَكَ. إِنْ كُنْتَ صَدَقْتَ عَلَيْهَا فَهُوَ بِمَا اسْتَحَلَلْتَ مِنْ فَرْجِهَا، وَإِنْ كُنْتَ كَذَبْتَ عَلَيْهَا فَهُوَ أَبْعَدُ لَكَ مِنْهَا»^(١٥).

(١) فِي أ: «قَالَ: ثُمَّ».

(٢) فِي ج: أ: «فِي صَدَقَاتِهِنَّ» وَفِي ر: «صَدَقَاتِهِنَّ».

(٣) فِي ج: أ: «فِي صَدَقَاتِهِنَّ» وَفِي ر: «صَدَقَاتِهِنَّ».

(٤) فِي ج: أ: «فِي صَدَقَاتِهِنَّ» وَفِي ر: «صَدَقَاتِهِنَّ».

(٥) وَرَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ فِي السَّنَنِ بِرَقْمٍ (٥٩٨) «الْأَعْظَمَى» وَمِنْ طَرِيقِهِ الْبَيْهَقِيُّ فِي السَّنَنِ الْكُبْرَى (٢٣٣/٧) فَقَالَ: أَخْبَرَنَا هَيْثَمُ

أَخْبَرَنَا مُجَالِدٌ عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: خُطِبَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النَّاسَ فَذَكَرَ بَنُوهُ.

انْظُرْ: إِرْوَاءُ الْغَلِيلِ (٣٤٨/٦) لِلشَّيْخِ نَاصِرِ الْأَلْبَانِيِّ فَقَدْ بَيَّنَّ ضَعْفَ هَذِهِ الرَّوَايَةِ وَمَخَالَفَتَهَا لِمَا فِي السَّنَنِ.

(٦) فِي أ: «مَهْر».

(٧) رَوَاهُ عَبْدِ الرَّزَاقِ فِي الْمَصْنُفِ بِرَقْمٍ (١٠٤٢٠) مِنْ طَرِيقِ قَيْسِ بْنِ رَبِيعٍ بِهِ. قَالَ الشَّيْخُ نَاصِرُ الْأَلْبَانِيِّ فِي إِرْوَاءِ الْغَلِيلِ (٣٤٨/١):

«إِسْنَادٌ ضَعِيفٌ فِيهِ عِلَتَانُ:

الْأُولَى: الْانْقِطَاعُ، فَإِنَّ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّلْمِيَّ، وَاسْمَهُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَبِيبٍ بْنِ رَبِيعَةَ، لَمْ يَسْمَعْ مِنْ عُمَرَ كَمَا قَالَ ابْنُ مَعِينٍ.

الْأُخْرَى: سَوْءُ حِفْظِ قَيْسِ بْنِ رَبِيعٍ».

(٨) فِي أ: «لَا يَزِيدُ فِي مَهْر».

(٩) زِيَادَةُ مِنْ ج: أ.

(١٠) فِي ر: «صَابَتْ».

(١١) ذَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ فِي الدَّرِّ (٤٦٦/٢) وَنَسَبَهُ لِلزُّبَيْرِ فِي الْمَوْفِقِيَّاتِ. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي مُسْنَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (٥٧٣/٢): «فِيهِ

انْقِطَاعٌ».

(١٢) زِيَادَةُ مِنْ أ.

(١٣) فِي أ: «مَا أَصْدَقْتُهَا».

(١٤) صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ بِرَقْمٍ (٥٣١٢) وَصَحِيحُ مُسْلِمٍ بِرَقْمٍ (١٤٩٣) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفى سنن أبى داود وغيره عن بصرة بن أكتم^(١): أنه تزوج امرأة بكرة فى خدرها، فإذا هى حامل^(٢) من الزنا، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له. ف قضى لها بالصدّاق وفرّق بينهما، وأمر بجلدها، وقال: «الولد عبد لك»^(٣).

فالصدّاق فى مقابلة البضع، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾. وقوله: ﴿وَأَخَذْنَكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾: روى عن ابن عباس ومجاهد، وسعيد بن جبّير: أن المراد بذلك العقد.

وقال سفيان الثورى، عن حبيب بن أبى ثابت، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَأَخَذْنَكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾^(٤) قال: قوله: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن عكرمة، ومجاهد، وأبى العالية، والحسن، وقتادة، ويحيى بن أبى كثير، والضحاك والسدى - نحو ذلك.

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس فى الآية^(٥): هو قوله: أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فإن «كلمة الله» هى التشهد فى الخطبة. قال: وكان فيما أعطى النبى ﷺ ليلة أسرى به قال له: جعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدى ورسولى. رواه ابن أبى حاتم.

وفى صحيح مسلم، عن جابر فى خطبة حجة الوداع: أن رسول الله ﷺ قال فيها: «واستوصوا بالنساء خيراً، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»^(٦).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾^(٧) يحرم تعالى زوجات الآباء تكرمة لهم، وإعظاماً واحتراماً أن توطأ من بعده، حتى إنها لتحرم على الابن بمجرد العقد عليها، وهذا أمر مجمع عليه.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا قيس بن الربيع عن أشعث بن سوار، عن عدى بن ثابت، عن رجل من الأنصار قال: لما توفى أبو قيس - يعنى ابن الأسلت - كان من صالحى الأنصار، فخطب ابنه قيس امرأته، فقالت: إنما أعدك ولداً وأنت من صالحى قومك، ولكن أتى^(٨) رسول الله ﷺ فأستأمره. فأتى رسول الله ﷺ فقالت: إن أبا قيس توفى. فقال: «خيراً». ثم قالت: إن ابنه قيساً خطبنى وهو من صالحى قومه. وإنما كنت أعده ولداً، فما ترى؟ فقال^(٩) لها: «ارجعى إلى بيتك». قال: فتزلت هذه الآية ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ

(٢) فى ج، أ: «جلى».

(١) فى ج، ر، أ: «بصرة بن أبى بصرة».

(٣) سنن أبى داود برقم (٢١٣١).

(٤) زيادة من ج، ر، أ.

(٦) صحيح مسلم برقم (١٢١٨).

(٧) زيادة من ج، ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٨) فى أ: «أنيت».

(٩) فى ج، ر، أ، «قال».

سَلَفَ^(١) ﴿الآية﴾.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا حسين، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، عن عكرمة في قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الآية]^(٢). قال: نزلت في أبي قيس ابن الأسلت، خُلِفَ على أم عبيد^(٣) الله بنت صخر^(٤)، وكانت تحت الأسلت أبيه، وفي الأسود بن خُلَفَ، وكان خُلِفَ على ابنة أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار، وكانت عند أبيه خُلَفَ، وفي فاختة ابنة الأسود بن المطلب بن أسد، كانت عند أمية بن خُلَفَ، فخُلِفَ عليها صفوان ابن أمية^(٥).

وقد زعم السهيلي أن نكاح نساء الآباء كان معمولاً به في الجاهلية؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾. كما قال: ﴿أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾. قال: وقد فعل ذلك كنانة بن خزيمة، تزوج بامرأة أبيه، فأولدها ابنه النضر بن كنانة قال: وقد قال ﷺ: «وُلِدْتُ مِنْ نِكَاحٍ لَا مِنْ سِفَاحٍ». قال: فدل على أنه كان سائغاً لهم ذلك، فإن أراد أن ذلك كان عندهم يعدونه نكاحاً فيما بينهم، فقد قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله المخرمي^(٦)، حدثنا قُراد، حدثنا ابن عيينة عن عمر، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يُحَرِّمون ما حَرَّمَ الله، إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ وهكذا قال عطاء وقتادة. ولكن فيما نقله السهيلي من قصة كنانة نظر، والله أعلم. على كل تقدير فهو حرام في هذه الأمة، مُبَشَّعُ غَايَةِ التَّبَشُّعِ^(٧)، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾، ولهذا قال^(٨) [تعالى]^(٩): ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]. فزاد هاهنا: ﴿وَمَقْتًا﴾ أى: بُغْضًا، أى هو أمر كبير في نفسه، ويؤدى إلى مقت الابن أباه بعد أن يتزوج بامرأته، فإن الغالب أن من تزوج بامرأة يبغض من كان زوجها قبله؛ ولهذا حرمت أمهات المؤمنين على الأمة؛ لأنهن أمهات، لكونهن زوجات النبي ﷺ، وهو كالأب [للأمة]^(١٠)، بل حقه أعظم من حق الآباء بالإجماع، بل حبه مقدم على حب النفوس صلوات الله وسلامه عليه.

وقال عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿وَمَقْتًا﴾ أى: بمقت الله عليه ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أى: وبئس طريقاً لمن سلكه من الناس، فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه، فيقتل، ويصير ماله فيئاً لبيت المال. كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن، من طُرُق، عن البراء بن عازب، عن خاله أبى^(١١) بردة - وفي رواية: ابن عمر - وفي رواية: عن عمه: أنه بعثه رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده أن يقتله ويأخذ ماله.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْمٌ، حدثنا أشعث، عن عَدِيٍّ بن ثابت، عن البراء بن عازب قال:

(٣) فى أ: «عبد».

(٢) زيادة من أ.

(١) زيادة من ج، ر، أ.

(٤) فى ج، ر، أ: «ضمرة».

(٥) تفسير الطبرى (٨ / ١٣٣).

(٦) فى أ: «المخرمى».

(٩) زيادة من ر.

(٨) فى ج، ر، أ: «وقد قال».

(٧) فى ر: «التبشيع».

(١١) فى ر: «أبو» وهو خطأ.

(١٠) زيادة من أ.

مرَّبَّى عمى الحارث بن عمرو، ومعه لواء قد عقده له النبي ﷺ^(١) فقلت له: أى عم، أين بعثك النبي ﷺ^(٢)؟ قال: بعثنى إلى رجل تزوج امرأة أبىه فأمرنى أن أضرب عنقه^(٣).

مسألة:

وقد أجمع^(٤) العلماء على تحريم من وطأها الأب بتزويج أو ملك أو بشبهة أيضاً، واختلفوا فيمن باشرها بشهوة دون الجماع، أو نظر إلى ما لا يحل له النظر إليه منها لو كانت أجنبية. فعن الإمام أحمد رحمه الله أنها تحرم أيضاً بذلك. قد روى [الحافظ]^(٥) ابن^(٦) عساكر فى ترجمة خُدَيْج الحِصْنِيِّ^(٧) مولى معاوية قال: اشترى لمعاوية جارية بيضاء جميلة، فأدخلها عليه مجردة وبیده قضيب. فجعل يهوى به إلى متاعها ويقول: هذا المتاع لو كان له متاع! اذهب بها إلى يزيد بن معاوية. ثم قال: لا، ادع لى ربيعة بن عمرو الجُرَشِيِّ - وكان فقيهاً - فلما دخل عليه قال: إن هذه أتيت بها مجردة، فرأيت منها ذاك وذاك، وإنى أردت أن أبعث بها إلى يزيد. فقال: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإنها لا تصلح له. ثم قال: نعم ما رأيت. ثم قال: ادع لى عبد الله بن مسعدة الفزارى، فدعوته، وكان آدم شديد الأدمة، فقال: دونك هذه، بيض بها ولدك. قال: و[قد]^(٨) كان عبد الله بن مسعدة هذا وهبه رسول الله ﷺ لابنته فاطمة فربته ثم أعتقته ثم كان بعد ذلك مع معاوية من الناس على على [بن أبى طالب]^(٩)، رضى الله عنه.

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٣) وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤) ﴾.

هذه الآية الكريمة هى آية تحريم المحارم من النسب، وما يتبعه من الرضاع والمحامر بالصهر، كما قال ابن أبى حاتم:

(٢) زيادة من ج، ر، أ.

(١) فى ر: «رسول الله».

(٣) المسند (٤ / ٣٩٢).

(٤) فى أ: «اجتمع».

(٥) زيادة من أ.

(٦) فى أ: «أبو».

(٧) فى ج، أ: «الحمصى»، ولم أجد ترجمته فيما بين يدى من تاريخ دمشق لابن عساكر ولا فى المختصر لابن منظور.

(٩) زيادة من ج، ر، أ.

(٨) زيادة من ج، ر، أ.

حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، عن سفيان بن حبيب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ سَبْعُ نَسَبًا، وَسَبْعُ صِهْرًا، وَقُرَأَ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ الآية.

وحدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد، حدثنا أبو أحمد، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إسماعيل بن رجاء^(١)، عن عُمَيْرِ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، عن ابن عباس قال: يحرم من النسب سبع ومن الصهر سبع، ثم قرأ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ فهن^(٢) النسب.

وقد استدلل جمهور العلماء على تحريم المخلوقة من ماء الزانى عليه بعموم قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾؛ فإنها بنت فتدخل فى العموم، كما هو مذهب أبى حنيفة، ومالك، وأحمد بن حنبل. وقد حكى عن الشافعى شىء فى إباحتها؛ لأنها ليست بنتاً شرعية، فكما لم تدخل فى قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ فإنها لا تراث بالإجماع، فكذلك لا تدخل فى هذه الآية، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ﴾ أى كما تحرم^(٣) عليك أمك التى ولدتك، كذلك يحرم عليك أمك التى أرضعتك؛ ولهذا روى البخارى ومسلم فى الصحيحين من حديث مالك بن أنس، عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن عَمْرَةَ بنت عبد الرحمن، عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة»، وفى لفظ لمسلم: «يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب»^(٤).

وقد قال بعض الفقهاء: كما يحرم بالنسب يحرم بالرضاع إلا فى أربع صور. وقال بعضهم: ست صور، هى^(٥) مذكورة فى كتب الفروع. والتحقيق أنه لا يستثنى شىء من ذلك؛ لأنه يوجد مثل بعضها فى النسب، وبعضها إنما يحرم من جهة الصهر، فلا يرد^(٦) على الحديث شىء أصلاً البتة، والله الحمد.

ثم اختلف الأئمة فى عدد الرضعات المحرمة، فذهب ذاهبون إلى أنه يحرم مجرد الرضاع لعموم هذه الآية. وهذا قول مالك، ويحكى عن ابن عمر، وإليه ذهب سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، والزهرى.

وقال آخرون: لا يحرم أقل من ثلاث رضعات لما ثبت فى صحيح مسلم، من طريق هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُحَرِّمُ الْمَصَّةُ وَالْمَصْتَانُ»^(٧).

وقال قتادة، عن أبى الخليل، عن عبد الله بن الحارث، عن أم الفضل قالت: قال رسول الله ﷺ:

(١) فى ج، أ: «بن جابر». (٢) فى ج، ر، أ: «فهذا».

(٣) فى ر: «يحرم».

(٤) صحيح البخارى رقم (٣١٠٥) وصحيح مسلم برقم (١٤٤٤) وموطأ مالك (فى الرضاع).

(٥) فى ر: «وهى».

(٦) فى أ: «لا يزد».

(٧) صحيح مسلم برقم (١٤٥٠) لكنه من طريق ابن أبى مليكة عن عبد الله بن الزبير عن عائشة.

وقد رواه النسائى فى السنن الكبرى من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة وابن الزبير برقم (٥٤٥٨).

«لا تُحرم الرُّضْعَةُ ولا الرُّضْعَتان، المصَّةُ^(١) ولا المصتان»، وفي لفظ آخر: «لا تحرم الإملاجة ولا الإملاجتان» رواه مسلم^(٢).

ومن ذهب إلى هذا القول الإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبو عبيد، وأبو ثور. ويحكي^(٣) عن علي، وعائشة، وأم الفضل، وابن الزبير، وسليمان بن يسار، وسعيد بن جبير، رحمهم الله.

وقال آخرون: لا يحرم أقل من خمس رضعات، لما ثبت في صحيح مسلم من طريق مالك، عن عبد الله بن أبي بكر، عن عمرة^(٤)، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: كان فيما أنزل [الله]^(٥) من القرآن: عشر رضعات معلومات يحرم من. ثم نسخن بخمس معلومات، فتوفى رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن.

وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة نحو ذلك^(٦).

وفي حديث سهلة بنت سهيل: أن رسول الله ﷺ أمرها أن ترضع مولى أبي حذيفة خمس رضعات^(٧)، وكانت عائشة تأمر من يريد أن يدخل عليها أن يرضع خمس رضعات. وبهذا قال الشافعي، رحمه الله [تعالى]^(٨)، وأصحابه. ثم ليعلم أنه لا بد أن تكون الرضاعة في سن الصغر دون الحولين على قول الجمهور. وكما^(٩) قدمنا الكلام على هذه المسألة في سورة البقرة، عند قوله: ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرُّضَاعَةَ﴾ [الآية: ٢٣٣].

واختلفوا: هل يحرم لبن الفحل، كما هو قول جمهور الأئمة الأربعة وغيرهم؟ وإنما يختص الرضاع بالأم فقط، ولا ينتشر إلى ناحية الأب كما هو لبعض السلف؟ على قولين، [و]^(١٠) تحرير هذا كله في كتاب «الأحكام الكبير».

وقوله: ﴿وَأُمّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾. أما^(١١) أم المرأة فإنها تحرم بمجرد العقد على ابنتها، سواء دخل بها أو لم يدخل. وأما الربيبة وهي بنت المرأة فلا تحرم بمجرد العقد على أمها حتى يدخل بها، فإن طلق الأم قبل الدخول بها جاز له أن يتزوج بنتها، ولهذا قال: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ [أى]^(١٢): في تزويجهن، فهذا خاص بالربائب وحدهن.

وقد فهم بعضهم عود الضمير إلى الأمهات [و]^(١٣) الربائب فقال: لا تحرم واحدة من الأم ولا

(١) في ج، أ: «ولا المصة».

(٢) صحيح مسلم برقم (١٤٥١).

(٣) في ج، أ: «هو محكى».

(٤) صحيح مسلم برقم (١٤٥٢).

(٥) وانظر قصتها في المسند (٦ / ٢٠١).

(٦) زيادة من ر.

(٧) في ج، ر، أ: «وقد».

(٨) زيادة من ج، ر، أ.

(٩) زيادة من ج، أ.

(١٠) زيادة من ر.

(١١) في ر: «أن».

البتت بمجرد العقد على الأخرى حتى يدخل بها؛ لقوله: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾.

وقال^(١) ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن أبي عدي وعبد الأعلى، عن سعيد، عن قتادة، عن خلاص بن عمرو، عن علي، رضى الله عنه، فى رجل تزوج امرأة فطلقها قبل أن يدخل بها، أيتزوج أمها؟ قال: هى بمنزلة الربيبة.

وحدثنا ابن بشار: حدثنا يحيى بن^(٢) سعيد، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن زيد بن ثابت قال: إذا طلق الرجل امرأته قبل أن يدخل بها فلا بأس أن يتزوج أمها.

وفى رواية عن قتادة، عن سعيد، عن زيد بن ثابت؛ أنه كان يقول: إذا ماتت عنده وأخذ ميراثها كره أن يخلف على أمها، فإذا طلقها قبل أن يدخل بها فإن شاء فعل.

وقال ابن المنذر: حدثنا إسحاق، عن عبد الرزاق، عن ابن جريج قال: أخبرنى أبو بكر بن حفص، عن مسلم بن^(٣) عويمر الأجدع أن^(٤) بكر بن كنانة أخبره أن أباه أنكحه امرأة بالطائف قال: فلم أجامعها حتى توفى عمى عن أمها، وأمها ذات مال كثير، فقال أبى: هل لك فى أمها؟ قال: فسألت ابن عباس وأخبرته الخبر^(٥)؟ فقال: انكح أمها. قال: فسألت ابن عمر فقال: لا تنكحها. فأخبرت أبى ما قال ابن عباس وما قال ابن عمر، فكتب إلى معاوية وأخبره فى كتابه بما قال ابن عمر وابن عباس فكتب معاوية: إنى لا أحل ما حرم الله، ولا أحرم ما أحل [الله]^(٦). وأنت وذاك والنساء سواها كثير. فلم ينه^(٧) ولم يأذن لى، فانصرف أبى عن أمها فلم ينكحها^(٨).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن سمك بن الفضل، عن رجل، عن عبد الله بن الزبير قال: الربيبة والأم سواء، لا بأس بها إذا لم يدخل بالمرأة. وفى^(٩) إسناده رجل مبهم^(١٠) لم يسم.

وقال ابن جريج^(١١): أخبرنى عكرمة بن خالد أن مجاهدًا قال له: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ أراد^(١٢) بهما الدخول جميعًا^(١٣)، فهذا القول مروى كما ترى عن على، وزيد ابن ثابت، وعبد الله بن الزبير، ومجاهد، وابن جبير^(١٤)، وابن عباس، وقد توقف فيه معاوية، وذهب إليه من الشافعية أبو الحسن أحمد بن محمد بن الصابونى، فيما نقله الرافعى عن العبادى. [وقد خالفه جمهور العلماء من السلف والخلف، فرأوا أن الربيبة لا تحرم بمجرد العقد على الأم، وإنها لا تحرم إلا بالدخول بالأم، بخلاف الأم فإنها تحرم بمجرد العقد على الربيبة]^(١٥).

قال ابن أبى حاتم: حدثنا جعفر بن محمد بن هارون بن عزة^(١٦) حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس: أنه كان يقول إذا طلق الرجل امرأة قبل أن يدخل بها أو ماتت لم تحل^(١٧) له أمها، أنه قال: إنها مبهمة، فكرهاها.

(٣) فى أ: «عن».

(٢) فى ج، ر: «عن».

(١) فى ج، ر، أ: «فقال».

(٦) زيادة من ج، أ.

(٥) فى أ: «بالخير».

(٤) فى ج، ر: «من» وفى أ: «عن».

(٩) فى ج، ر: «فى».

(٨) فى أ: «ينكحنيها».

(٧) فى ج، ر، أ: «ينهى».

(١٢) فى ج، ر، أ: «أريد».

(١١) فى أ: «ابن جرير».

(١٠) فى أ: «متهم».

(١٤) فى ج، ر: «ومجاهد بن جبير» وفى أ: «مجاهد بن جبر».

(١٣) فى أ: «جمعا».

(١٧) فى أ: «لا يمل».

(١٦) فى ج، أ: «عروة».

(١٥) زيادة من ج، ر، أ.

ثم قال: ورؤى عن ابن مسعود، وعمران بن حصين، ومسروق، وطاوس، وعكرمة، وعطاء، والحسن، ومكحول، وابن سيرين، وقتادة، والزهرى نحو ذلك. وهذا مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة، وجمهور الفقهاء قديماً وحديثاً، والله الحمد والمنة.

قال^(١) ابن جرير: والصواب، أعنى قول من قال: «الأم من المبهات»؛ لأن الله لم يشرط^(٢) معهن الدخول كما شرط ذلك مع أمهات الرائب، مع أن ذلك أيضاً إجماع من الحجة التي لا يجوز خلافها فيما جاءت به متفقة عليه. وقد روى بذلك أيضاً عن النبي ﷺ خبر، غير أن في إسناده نظراً، وهو ما حدثني به المثني، حدثنا حبان بن موسى، حدثنا ابن المبارك، أخبرنا المثني بن الصباح، عن عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده عن النبي ﷺ قال: إذا نكح الرجل المرأة فلا يحل له أن يتزوج أمها، دخل بالبنت أو لم يدخل، وإذا تزوج الأم^(٣) فلم يدخل بها ثم طلقها، فإن شاء تزوج الابنة^(٤).

ثم قال: وهذا الخبر، وإن كان في إسناده ما فيه، فإن في إجماع الحجة على صحة القول به مُستغنى عن الاستشهاد على صحته بغيره.

وأما قوله: «وَرَبَائِكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ»: فجمهور^(٥) الأئمة على أن الريبة حرام سواء كانت في حجر الرجل أو لم تكن في حجره، قالوا: وهذا الخطاب خرج مخرج الغالب، فلا مفهوم له كقوله تعالى: «وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا» [النور: ٣٣].

وفى الصحيحين أن أم حبيبة قالت: يا رسول الله، انكح أختي بنت أبي سفيان - وفى لفظ لمسلم: عزة بنت أبي سفيان - قال: «أو تحبين ذلك؟» قالت: نعم، لستُ لك بمُخلية، وأحب من شاركنى فى خير أختي. قال: «فإن ذلك لا يحل^(٦) لى». قالت: فإننا نُحدثُ أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة. قال^(٧): «بنت أم سلمة؟» قالت^(٨): نعم. قال: إنها لو لم تكن ربيتي فى حجرى ما حلت لى، إنها لبنت^(٩) أختى من الرضاعة، أرضعتنى وأبا سلمة ثويبة فلا تعرضن على بناتكن ولا أخواتكن». وفى رواية للبخارى: «إنى لو لم أتزوج أم سلمة ما حلت لى»^(١٠).

فجعل المناط فى التحريم مجرد تزويجه أم سلمة وحكم بالتحريم لذلك، وهذا هو مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة وجمهور الخلف والسلف. وقد قيل بأنه لا تحرم الريبة إلا إذا كانت فى حجر الرجل، فإذا لم تكن كذلك فلا تحرم.

(١) فى أ: «وقال».
(٢) فى أ: «يشترط».
(٣) فى أ: «بالأم».
(٤) تفسير الطبرى (٨ / ١٤٦) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٧ / ١٦٠) من طريق به، ثم قال البيهقى: «مثنى بن الصباح غير قوى».
(٥) فى ر: «جمهور».
(٦) فى أ: «لا تحل».
(٧) فى ر: «قالت».
(٨) فى ج، ر: «قلت».
(٩) فى ج، ر: «لابنة».
(١٠) صحيح البخارى برقم (٥١٠١) وصحيح مسلم برقم (١٤٤٩).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا إبراهيم بن موسى، أنبأنا هشام - يعنى ابن يوسف - عن ابن جريج، حدثني إبراهيم بن عبيد بن رفاعه، أخبرني مالك بن أوس بن الحدثان قال: كانت عندى امرأة فتوفيت، وقد ولدت لى، فوجدت عليها، فلقيني على بن أبى طالب فقال: مالك؟ فقلت: توفيت المرأة. فقال على: لها ابنة؟ قلت: نعم، وهى بالطائف. قال: كانت فى حجرى؟ قلت: لا، هى بالطائف قال: فأنكحها. قلت: فأين قول الله [عز وجل] ^(١): ﴿وَرَبَّائِكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ قال: إنها لم تكن فى حجرى، إنما ذلك إذا كانت فى حجرى.

هذا إسناد قوى ثابت إلى على بن أبى طالب، على شرط مسلم، وهو قول غريب جداً، وإلى هذا ذهب داود بن على الظاهرى وأصحابه. وحكاه أبو القاسم الرافعى عن مالك، رحمه الله، واختاره ابن حزم، وحكى لى شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبى أنه عرّض هذا الشيخ الإمام تقي الدين ابن تيمية، رحمه الله، فاستشكله، وتوقف فى ذلك، والله أعلم ^(٢).

وقال ابن المنذر: حدثنا على بن عبد العزيز، حدثنا الأثرم، عن أبى عبيدة قوله: ﴿اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ قال: فى بيوتكم.

وأما الربيعة فى ملك اليمين فقد قال الإمام مالك بن أنس، عن ابن شهاب: أن عمر بن الخطاب سئل عن المرأة وبناتها ^(٣) من ملك اليمين توطأ إحداها بعد الأخرى؟ فقال عمر: ما أحب أن أخبرهما جميعاً. يريد أن أطأهما جميعاً بملك يمينى. وهذا منقطع.

وقال سنيد بن داود فى تفسيره: حدثنا أبو الأحوص، عن طارق بن عبد الرحمن عن قيس قال: قلت لابن عباس: أيقع الرجل على امرأة وابنتها مملوكين ^(٤) له؟ فقال: أحلتها آية وحرمتها آية، ولم ^(٥) أكن لأفعله.

قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر، رحمه الله: لا خلاف بين العلماء أنه لا يحل لأحد أن يطأ امرأة وابنتها ^(٦) من ملك اليمين، لأن الله حرم ذلك فى النكاح، قال: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمْ﴾ وملك اليمين هم ^(٧) تبع للنكاح، إلا ما روى عن عمر وابن عباس، وليس على ذلك أحد من أئمة الفتوى ولا من تبعهم. وروى ^(٨) هشام عن قتادة: بنت الربيعة وبنت ابنتها لا تصلح وإن كانت أسفل ببطون كثيرة. وكذا قال قتادة عن أبى العالية.

ومعنى قوله تعالى: ﴿اللَّائِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ أى: نكحتموهن. قاله ابن عباس وغير واحد.

وقال ابن جريج عن عطاء: هو أن تهذى إليه فيكشف ويفتش ويجلس بين رجلها. قلت: أرأيت إن فعل ذلك فى بيت أهلها. قال: هو سواء، وحسبه قد حرّم ذلك عليه ابنتها.

(١) بدائع الفوائد (١/ ٥٣).

(١) زيادة من أ.

(٥) فى ج، أ: «فلم».

(٤) فى ج، ر، أ: «مملوكين».

(٣) فى أ: «وربيبتها».

(٨) فى ر، أ: «قال».

(٧) فى ج، ر، أ: «عندهم».

(٦) فى أ: «وبنتها».

وقال ابن جرير: وفي إجماع الجميع على أن خلوة الرجل بامراته لا يُحرم^(١) ابنتها عليه إذا طلقها قبل مسيسها ومباشرتها أو قبل^(٢) النظر إلى فرجها بشهوة، ما يدل على أن معنى ذلك هو الوصول إليها بالجماع.

وقوله: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ أى: وحُرمت عليكم زوجات أبنائكم الذين ولدتموهم من أصلابكم، يحترز بذلك عن الأدعياء الذين كانوا يتبنونهم في الجاهلية، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ [إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا]﴾ الآية [الأحزاب: ٣٧].

وقال ابن جرير: سألت عطاء عن قوله: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ قال: كنا نُحَدِّثُ، والله أعلم، أن رسول الله^(٤) ﷺ لما نكح امرأة زيدا، قال^(٥) المشركون بمكة في ذلك، فأنزل الله [عز وجل]^(٦): ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ ونزلت: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَائَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]. ونزلت: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا الجرح^(٧) بن الحارث، عن الأشعث، عن الحسن بن محمد^(٨) أن هؤلاء الآيات مبهمات: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾ ﴿أُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ ثم قال: وروى عن طاوس وإبراهيم والزهرى ومكحول نحو ذلك.

قلت: معنى^(٩) مبهمات: أى عامة فى المدخول بها وغير المدخول، فتحرم^(١٠) بمجرد العقد عليها، وهذا متفق عليه. فإن قيل: فمن أين تحرم امرأة ابنه من الرضاعة، كما هو قول الجمهور، ومن الناس من يحكيه إجماعا وليس من صلبه؟ فالجواب من قوله ﷺ: «يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعِ»^(١١) ما يحرم من النسب.

وقوله: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ [إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا]﴾^(١٢) أى: وحرم عليكم الجمع بين الأختين معاً في التزويج، وكذا فى ملك اليمين إلا ما كان منكم فى جاهليتكم فقد عفونا عن ذلك وغفرناه. فدل على أنه لا مثنوية فيما يستقبل ولا استثناء فيما^(١٣) سلف، كما قال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦]، فدل على أنهم لا يذوقون فيها الموت^(١٤) أبداً. وقد أجمع العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة قديماً وحديثاً على أنه يحرم الجمع بين الأختين فى النكاح، ومن أسلم وتحتة أختان خير، فيمسك أحدهما^(١٥) ويطلق الأخرى لا محالة.

قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا موسى بن داود حدثنا ابن لهيعة عن أبي وهب الجشاني عن الضحاك بن فيروز، عن أبيه قال: أسلمت وعندي امرأتان أختان، فأمرنى النبي ﷺ أن أطلق

(١) فى ج، ر، أ: «لا تحرم». (٢) فى ج، ر، أ: «وقيل». (٣) زيادة من ج، ر، أ. (٤) فى ج: «النبي». (٥) فى ج، ر، أ: «فقال». (٦) زيادة من ج، ر، أ. (٧) فى ج، ر، أ: «خالد». (٨) فى أ: «الحسن ومحمد». (٩) فى أ: «فيحرم». (١٠) فى أ: «فيحرم». (١١) فى أ: «الرضاعة». (١٢) زيادة من ج، ر، أ، وفى الأصل: «الآية». (١٣) فى ر، أ: «بما». (١٤) فى ج: «الموت فيهما». (١٥) فى أ: «أحديهما».

إحدهما^(١).

ثم رواه الإمام أحمد، والترمذى، وابن ماجه، من حديث ابن لهيعة. وأخرجه أبو داود والترمذى أيضاً من حديث يزيد بن أبى حبيب، كلاهما عن أبى وهب الجيشانى. قال الترمذى: واسمه ديلم بن الهوشع، عن الضحاك بن فيروز الديلمى، عن أبيه، به وفى لفظ للترمذى: فقال النبى ﷺ: «اختر أيتهما»^(٢) شئت. ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن^(٣).

وقد رواه ابن ماجه أيضاً بإسناد آخر فقال: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة، عن أبى وهب الجيشانى عن أبى خراش الرعيني^(٤) قال: قدمت على رسول الله ﷺ وعندى أختان تزوجتهما فى الجاهلية، فقال: «إذا رجعت فطلق إحدهما»^(٥)،^(٦).

قلت: فيحتمل أن أبا خراش هذا هو الضحاك بن فيروز، ويحتمل أن يكون غيره، فيكون أبو وهب قد رواه عن اثنين، عن فيروز الديلمى، والله أعلم.

وقال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن يحيى بن محمد بن يحيى، حدثنا أحمد بن يحيى الخولانى^(٨)، حدثنا هيثم بن خارجة، حدثنا يحيى بن إسحاق، عن إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة عن رزيق^(٩) بن حكيم، عن كثير بن مرة، عن الديلمى قال: قلت: يا رسول الله، إن تحتى أختين؟ قال: «طلق أيهما شئت»^(١٠).

فالديلمى المذكور أولاً هو الضحاك بن فيروز الديلمى [رضى الله عنه]^(١١)، قال أبو زرعة الدمشقي: كان يصحب عبد الملك بن مروان، والثانى هو أبو فيروز الديلمى، رضى الله عنه، وكان من جملة الأمراء باليمن الذين ولوا قتل الأسود العنسى^(١٢) المتنبئ لعنه الله.

وأما الجمع بين الأختين فى ملك اليمين فحرام أيضاً لعموم الآية، وقال ابن أبى حاتم:

حدثنا أبو زرعة، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد بن سلمة، عن قتادة، عن عبد الله بن أبى عتبة - أو عتبة عن ابن مسعود: أنه سئل عن الرجل يجمع بين^(١٣) الأختين، فكرهه، فقال له - يعنى السائل -: يقول الله عز وجل: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾. فقال له ابن مسعود: وبغيرك مما ملكت يمينك.

(١) فى أ: «أحديهما».

(٢) فى ج: «أيهما».

(٣) المسند (٤ / ٢٣٢) وسنن أبى داود برقم (٢٢٤٣) وسنن الترمذى برقم (١٢٢٩) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٥١).

(٤) فى ج، أ: «عن أبى خراش الرعيني عن الديلمى». (٥) فى أ: «أحديهما».

(٦) سنن ابن ماجه برقم (١٩٥٠) وقد سقط اسم الديلمى هنا (١٨ / ٣٢٨) من طريق إسحاق بن أبى فروة عن أبى وهب الجيشانى عن أبى خراش الرعيني عن الديلمى به، وقد خولف إسحاق بن أبى فروة: خالفه يزيد بن حبيب فرواه عن أبى وهب عن الديلمى به، ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٧ / ١٨٤) ثم قال: «زاد إسحاق بن أبى فروة فى إسناده أبا خراش وإسحاق لا يحتج به، ورواية يزيد بن أبى حبيب أصح».

(٨) فى ج، ر، أ: «الخولانى».

(٩) فى ج، أ: «ابن».

(١٠) فى إسناده إسحاق بن أبى فروة وهو ضعيف وقد اختلف عليه فيه.

(١١) فى ج، ر: «رزيق».

(١٢) فى أ: «العيسى».

(١٣) فى أ: «بين الأمتين الأختين».

(١٤) زيادة من ج، أ.

وهذا هو المشهور عن الجمهور والأئمة الأربعة وغيرهم، وإن كان بعض السلف قد توقف في ذلك. قال الإمام مالك، عن ابن شهاب، عن قبيصة بن ذؤيب: أن رجلاً سأل عثمان بن عفان عن الأختين في ملك اليمين، هل يجمع بينهما؟ قال عثمان: أحلتهم آية وحرمتهما آية، وما كنت لأصنع ذلك، فخرج من عنده فلقى رجلاً من أصحاب النبي ﷺ، فسأله عن ذلك فقال: لو كان لى من الأمر شيء ثم وجدت أحداً فعل ذلك لجعلته نكالا. قال مالك: قال ابن شهاب: أراه على بن أبى طالب: قال: وبلغنى عن الزبير بن العوام مثل ذلك.

قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر النمرى، رحمه الله، فى كتابه «الاستذكار»: إنما كنى قبيصة بن ذؤيب عن على بن أبى طالب، لصحبته عبد الملك بن مروان، وكانوا يستثقلون ذكر على بن أبى طالب، رضى الله عنه.

ثم قال أبو عمر، رحمه الله: حدثنى خلف بن أحمد، رحمه الله، قراءة عليه: أن خلف بن مطرف حدثهم: حدثنا أيوب بن سليمان وسعيد^(١) بن سليمان ومحمد بن عمر بن لبابة قالوا: حدثنا أبو زيد عبد الرحمن بن إبراهيم، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ^(٢)، عن موسى بن أيوب الغافقي، حدثنى عمى إياس بن عامر قال: سألت على بن أبى طالب [رضى الله عنه]^(٣) فقلت: إن لى أختين مما ملكت يمينى، اتخذت إحداهما سرية فولدت لى أولاداً، ثم رغبت فى الأخرى، فما أصنع؟ فقال على، رضى الله عنه: تعتق التى كنت تطأ ثم تطأ الأخرى. قلت: فإن ناساً يقولون: بل تزوّجها ثم تطأ الأخرى. فقال على: أرايت إن طلقها زوجها أو مات عنها أليس ترجع إليك؟ لأن تعتقها أسلم لك. ثم أخذ على بيدي فقال لى: إنه يحرم عليك ما ملكت يمينك ما يحرم عليك فى كتاب الله عز وجل من الحرائر إلا العدد - أو قال: إلا الأربع - ويحرم عليك من الرضاع ما يحرم عليك فى كتاب الله من النسب.

ثم قال أبو عمر: هذا الحديث رحلة^(٤)، لو لم يصب الرجل من أقصى المشرق أو المغرب^(٥) إلى مكة غيره لما خابت رحلته^(٦).

قلت: وقد روى عن على نحو ما تقدم^(٧) عن عثمان، وقال أبو بكر بن مردويه:

حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن العباس، حدثنى محمد بن عبد الله بن المبارك المخزومى^(٨)، حدثنا عبد الرحمن بن غزوان، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال لى على بن أبى طالب: حرمتهما آية وأحلتهم آية - يعنى الأختين - قال ابن عباس: يحرمهن على قرابتي منهن، ولا يحرمهن على قرابة بعضهن من بعض - يعنى الإماء - وكانت الجاهلية يحرمون ما تُحرّمون إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين، فلما جاء الإسلام أنزل الله [عز

(١) فى ر، أ: «معيد». (٢) فى أ: «المقبرى». (٣) زيادة من ج، أ.

(٤) فى ر: «رحلة رجل». (٥) فى ج، ر: «أقصى المغرب أو المشرق».

(٦) الاستذكار لابن عبد البر (١٦ / ٢٥٢).

(٧) فى أ: «ما روى». (٨) فى أ: «المخزومى».

وجل^(١): ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ يعنى: فى النكاح.

ثم قال أبو عمر: روى الإمام أحمد^(٢) بن حنبل: حدثنا محمد بن سلمة، عن هشام، عن ابن سيرين، عن ابن مسعود قال: يحرم من الإماء ما يحرم من الحرائر إلا العدد. وعن ابن سيرين والشعبى مثل ذلك.

قال أبو عمر، رحمه الله: وقد روى مثل قول عثمان عن طائفة من السلف، منهم: ابن عباس، ولكنهم اختلف عليهم، ولم يلتفت إلى ذلك أحد من فقهاء الأمصار والحجاز ولا بالعراق ولا ما وراءهما من المشرق ولا بالشام ولا المغرب، إلا من شذ عن جماعتهم باتباع الظاهر ونفى القياس، وقد ترك من يعمل ذلك^(٣) ما اجتمعنا عليه، وجماعة الفقهاء متفقون على أنه لا يحل الجمع بين الأختين بملك اليمين فى الوطء، كما لا يحل ذلك فى النكاح. وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله [تعالى]^(٤): ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ﴾^(٥) إلى آخر الآية: أن النكاح وملك^(٦) اليمين فى هؤلاء كلهن سواء، فكذلك يجب أن يكون نظراً وقياساً الجمع بين الأختين وأمهات النساء والربائب. وكذلك هو عند جمهورهم، وهم الحجة المحجوج بها من خالفها وشذ عنها، والله المحمود^(٧).

وقوله [تعالى]^(٨): ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أى: وحرم عليكم الأجنبية المحصنات وهن الزوجات ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يعنى: إلا ما^(٩) ملكتموهن بالسبى، فإنه يحل لكم وطؤهن إذا استبرأتموهن، فإن الآية نزلت فى ذلك.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان - هو الثورى - عن عثمان البتى، عن أبى الخليل، عن أبى سعيد الخدرى قال: أصبنا نساء^(١٠) من سبى أوطاس، ولهن أزواج، فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج، فسألنا النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾. [قال]^(١١): فاستحللنا بها فزوجهن.

وهكذا رواه الترمذى عن أحمد بن منيع، عن هشيم، ورواه النسائى من حديث سفيان الثورى وشعبة بن الحجاج، ثلاثتهم عن عثمان البتى، ورواه ابن جرير من حديث أشعث بن سوارى عن عثمان البتى، ورواه مسلم فى صحيحه من حديث شعبة عن قتادة، كلاهما عن أبى الخليل صالح بن أبى مريم، عن أبى سعيد الخدرى، فذكره، وهكذا رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة عن أبى الخليل، عن أبى سعيد، به^(١٢).

(١) زيادة من ر. (٢) فى ج، أ: «وروى عن أحمد» وفى ر: «وروى أحمد».

(٣) فى ج، أ: «ذلك ظاهراً». (٤) زيادة من ج، ر، أ. (٥) زيادة من ج، ر، أ.

(٦) فى ج، ر، أ: «يملك». (٧) الاستذكار لابن عبد البر (١٦ / ٢٥٠ - ٢٥١). (٨) زيادة من أ.

(٩) فى أ: «يعنى الإمام». (١٠) فى أ: «سبياً». (١١) زيادة من ج، أ.

(١٢) تفسير عبد الرزاق (١ / ١٥٣) وسنن الترمذى برقم (٣٠١٧) وسنن النسائى الكبيرى برقم (١١٠٩٧) وصحيح مسلم برقم (١٤٥٦) وتفسير الطبرى (٨ / ١٥٣).

وقد روى من وجه آخر عن أبي الخليل، عن أبي علقمة الهاشمي، عن أبي سعيد قال الإمام أحمد:

حدثنا ابن أبي عدي، عن سعيد، عن قتادة، عن أبي الخليل، عن أبي علقمة، عن أبي سعيد الخدري؛ أن أصحاب رسول الله ﷺ أصابوا سبايا يوم أوطاس، لهن أزواج من أهل الشرك، فكان أناساً^(١) من أصحاب رسول الله ﷺ كفوا وتأنموا^(٢) من غشيانهن قال: فنزلت هذه الآية في ذلك: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي من حديث سعيد بن أبي عروبة - زاد مسلم: وشعبة - ورواه الترمذي من حديث همام بن يحيى، ثلاثتهم عن قتادة، بإسناده نحوه. وقال الترمذي: هذا حديث حسن، ولا أعلم أن أحداً ذكر أبا علقمة في هذا الحديث إلا ما ذكر همام عن قتادة. كذا قال. وقد تابعه سعيد وشعبة، والله أعلم^(٣).

وقد روى الطبراني من طريق الضحاك عن ابن عباس: أنها نزلت في سبايا خيبر، وذكر مثل حديث أبي سعيد، وقد ذهب جماعة من السلف إلى أن بيع الأمة يكون طلاقاً لها من زوجها، أخذاً بعموم هذه الآية. قال ابن جرير: حدثنا ابن مثنى، حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن مغيرة، عن إبراهيم: أنه سُئل عن الأمة تباع ولها زوج؟ قال: كان عبد الله يقول: يبيعها طلاقها، ويتلو هذه الآية^(٤) ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

وكذا رواه سفيان^(٥) عن منصور، ومغيرة والأعمش، عن إبراهيم، عن ابن مسعود قال: يبيعها طلاقها. وهو منقطع.

وقال سفيان الثوري، عن خالد، عن أبي قلابة، عن ابن مسعود قال: إذا بيعت الأمة ولها زوج فسيدها أحق ببضعها.

ورواه سعيد، عن قتادة قال: إن أبي بن كعب، وجابر بن عبد الله، وابن عباس قالوا: يبيعها طلاقها.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، [حدثنا]^(٦) ابن علي، عن خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: طلاق الأمة ست^(٧): يبيعها طلاقها، وعتقها طلاقها، وهبتها طلاقها، وبرأها طلاقها، وطلاق زوجها طلاقها.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، عن ابن المسيب قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ قال: هن^(٨) ذوات الأزواج، حرم الله نكاحهن إلا ما ملكت يمينك^(٩)، فبيعها طلاقها. قال معمر: وقال الحسن مثل ذلك.

(١) في أ: «وكان ناس». (٢) في ج، ر: «أوتأثموا». (٣) المسند (٣ / ٨٤) وصحيح مسلم برقم (١٤٥٦) وسنن أبي داود برقم (٢١٥٥) وسنن النسائي (٦ / ١١٠) وسنن الترمذي برقم (٣٠١٦). (٤) في أ: «الآيات». (٥) في أ: «شقيق». (٦) زيادة من ج، ر، أ. (٧) المذكور في رواية كل النسخ خمس لا ست. (٨) في ج، ر، أ: «هذه». (٩) في ر: «يمينك فيها».

وهكذا رواه سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن الحسن فى قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ قال: إذا كان لها زوج فبيعها طلاقها.
وقال عوف، عن الحسن: بيع الأمة طلاقها، وبيعه طلاقها.

فهذا قول هؤلاء من السلف [رحمهم الله] ^(١)، وقد خالفهم الجمهور قديماً وحديثاً، فرأوا أن بيع الأمة ليس طلاقها ^(٢)؛ لأن المشتري نائب عن البائع، والبائع كان قد أخرج عن ملكه هذه المنفعة وباعها مسلوقة عنها، واعتمدوا فى ذلك على حديث بريرة المخرج فى الصحيحين وغيرهما؛ فإن عائشة أم المؤمنين اشترتها ونَجَزَتْ عَتَقَهَا، ولم يفسخ نكاحها من زوجها مغيث، بل خيرها النبي ﷺ بين الفسخ والبقاء، فاخترت الفسخ، وقصتها مشهورة، فلو كان بيع الأمة طلاقها - كما قال ^(٣) هؤلاء لما خيرها النبي ﷺ، فلما خيرها دل على بقاء النكاح، وأن المراد من الآية المسييات فقط، والله أعلم.
وقد قيل: المراد بقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ يعنى: العفائف حرام عليكم حتى تملكوا عصمتهن بنكاح وشهود ومهور وولى واحدة أو اثنتين ^(٤) أو ثلاثاً أو أربعاً. حكاه ابن جرير عن أبى العالية وطاوس وغيرهما. وقال عُمَرُ وعبيدة: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾: ما عدا الأربع حرام عليكم إلا ما ملكت أيمانكم.

وقوله: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أى: هذا التحريم كتاب كتبه الله عليكم، فالزموا كتابه، ولا تخرجوا عن حدوده، والزموا شرعه وما فرضه.

وقد قال عبيدة وعطاء والسدى فى قوله: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: يعنى الأربع.

وقال إبراهيم: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يعنى: ما حرم عليكم.

وقوله: ﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أى: ما عدا من ذكرن من المحارم هن لكم حلال، قاله عطاء وغيره. وقال عبيدة والسدى: ﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ ما دون الأربع، وهذا بعيد، والصحيح قول عطاء كما تقدم. وقال قتادة: ﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ يعنى: ما ملكت أيمانكم.

وهذه الآية هى ^(٥) التى احتج بها من احتج على تحليل الجمع بين الأختين، وقول من قال: أحلتها آية وحرمتها آية ^(٦).

وقوله: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ أى: تحصيلوا بأموالكم من الزوجات إلى أربع أو السراى ما شئتم بالطريق الشرعى؛ ولهذا قال: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾.

وقوله: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أى: كما تستمتعون بهن فآتوهن مهورهن فى مقابلة ذلك، كقوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ ^(٧) إِلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢١]، وكقوله: ﴿وَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤]، وكقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً﴾ [البقرة: ٢٢٩].

(٣) فى ج، ر، أ: «قاله».

(٦) فى أ: «أحلتها آية وحرمتها آية».

(٢) فى ر، أ: «طلاقاً لهما».

(٥) فى ج، ر، أ: «هى الآية».

(١) زيادة من ج، أ.

(٤) فى أ: «واحد أو اثنتين».

(٧) فى أ: «بعضهم».

وقد استدلل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة، ولا شك أنه كان مشروعاً في ابتداء الإسلام، ثم نسخ بعد ذلك. وقد ذهب الشافعي وطائفة من العلماء إلى أنه أبيح ثم نسخ، ثم أبيح ثم نسخ، مرتين. وقال آخرون أكثر من ذلك، وقال آخرون: إنما أبيح مرة، ثم نسخ مرة، ثم نسخ ولم يبيح بعد ذلك.

وقد روى عن ابن عباس وطائفة من الصحابة القول بإباحتها للضرورة، وهو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل، رحمهم الله تعالى. وكان ابن عباس، وأبى بن كعب، وسعيد بن جبيرة، والسدي يقرؤون: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن فريضة». وقال مجاهد: نزلت في نكاح المتعة، ولكن الجمهور على خلاف ذلك، والعمدة ما ثبت في الصحيحين، عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب [رضى الله عنه]^(١) قال: نهى النبي ﷺ عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر^(٢). ولهذا الحديث ألفاظ مقررّة هي في كتاب «الأحكام».

وفي صحيح مسلم عن الربيع بن سبرة بن معبد الجهني، عن أبيه: أنه غزا مع رسول الله ﷺ فتح مكة، فقال: «يا أيها الناس، إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن^(٣) شيء فليخلّ سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتوهن شيئاً» وفي رواية لمسلم في حجة الوداع^(٤)، وله ألفاظ موضعها كتاب «الأحكام».

وقوله: «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ»: مَنْ حَمَلَ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى نِكَاحِ الْمُتَعَةِ إِلَى أَجَلٍ مَسْمُومٍ قَالَ: فَلَا^(٥) جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا انْقَضَى الْأَجَلُ أَنْ تَرَاضُوا^(٦) عَلَى زِيَادَةِ بِهِ وَزِيَادَةِ لِلْجَعْلِ^(٧).

قال السدي: إن شاء أرضاها من بعد الفريضة الأولى - يعني الأجر الذي أعطاها على تمتعه بها - قبل انقضاء الأجل بينهما، فقال: أتمتع منك أيضاً بكذا وبكذا، فإزداد^(٨) قبل أن تستبرئ^(٩) رحمها يوم تنقضي المدة، وهو قوله: «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ».

قال السدي: فإذا انقضت المدة فليس له عليها سبيل، وهي منه بريئة، وعليها أن تستبرئ ما في رحمها، وليس بينهما ميراث، فلا^(١٠) يرث واحد منهما صاحبه.

ومن قال بالقول الأول جعل معناه كقوله: «وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً [فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا]^(١١)» [النساء: ٤] أي: إذا فرضت^(١٢) لها صداقاً فأبرأتك منه، أو عن شيء منه فلا جناح عليك ولا عليها في ذلك.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه قال: زعم

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٢١٦) وصحيح مسلم برقم (١٤٠٧).

(١) زيادة من جـ.

(٤) صحيح مسلم برقم (١٤٠٦). (٥) في جـ: «لا جناح». (٦) في جـ: «تراضوا».

(٣) في أ: «منه».

(٨) في جـ، ر: «فإن زاد». (٩) في جـ: «تستبرئ».

(٧) في جـ: «الجعل».

(١١) زيادة من جـ، ر، أ، وفي هـ: «الآية». (١٢) في ر: «فرضتم».

(١٠) في جـ، أ: «ليس».

الحضرمى أن رجالا كانوا يقرضون^(١) المهر، ثم عسى أن يدرك أحدهم العسرة، فقال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ يعنى: إن وضعت لك منه شيئاً فهو لك سائغ، واختار هذا القول ابن جرير، وقال [على]^(٢) بن أبى طلحة عن ابن عباس: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ والتراضى أن يؤفها صداقها ثم يخيها، ويعنى^(٣) فى المقام أو الفراق.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ مناسب ذكر هذين الوصفين بعد شرع هذه المحرمات [العظيمة]^(٤).

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيَّاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٥).

يقول [تعالى]^(٥): ومن لم يجد ﴿طَوْلاً﴾ أى: سعة وقدرة ﴿أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أى الحرائر.

وقال ابن وهب: أخبرنى عبد الجبار، عن ربيعة: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ قال ربيعة: الطول الهوى، ينكح الأمة يعنى إذا كان هواه فيها. رواه ابن جرير وابن أبى حاتم.

ثم شرع يشنع على هذا القول ويرده: ﴿فَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيَّاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أى: فتزوجوا من الإماء المؤمنات اللاتى يملكنهن المؤمنون؛ ولهذا قال: ﴿مِنْ فَيَّاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ قال ابن عباس وغيره: فليتكح من إماء المؤمنين، وكذا قال السدى ومقاتل بن حيان. ثم اعترض^(٦) بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أى: هو العالم بحقائق الأمور وسرائرها، وإنما لكم أيها الناس الظاهر من الأمور.

ثم قال: ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ فدلّ على أن السيد هو ولى أمته لا تزوج إلا بإذنه، وكذلك هو ولى عبده، ليس لعبده أن يتزوج إلا^(٧) بإذنه، كما جاء فى الحديث: «أَيُّمَا عَبْدٍ تَزَوَّجَ بِغَيْرِ إِذْنِ مَوْلَاهُ فَهُوَ عَاهِرٌ»^(٨) أى زان.

(١) فى أ: «يقرضون». (٢) زيادة من ر، أ. (٣) فى أ: «بعد». (٤) زيادة من ج، أ. (٥) زيادة من أ. (٦) فى ج، ر، أ: «أعرض». (٧) فى ج: «بغير». (٨) رواه أبو داود فى السنن برقم (٢٠٧٨) والترمذى فى السنن برقم (١١١١) من طريق عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه. قال الترمذى: حديث جابر حديث حسن.

فإن كان مالك الأمة امرأة زوّجها من يزوج المرأة بإذنها؛ لما جاء فى الحديث: «لا تزوّج المرأة المرأة، ولا المرأة نفسها»^(١)، فإن الزانية هى التى تزوج نفسها»^(٢).

وقوله: «وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ» أى: وادفعوا^(٣) مهورهن بالمعروف، أى: عن طيب نفس منكم، ولا تبخسوا^(٤) منه شيئاً استهانة بهن؛ لكونهن إماء مملوكات.

وقوله: «مُحْصَنَاتٍ» أى: عفاف عن الزنا لا^(٥) يتعاطينه؛ ولهذا قال: «غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ»، وهن الزوانى اللاتى لا يمتنعن من أحد أرادهن بالفاحشة.

وقوله: «وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ» قال ابن عباس: المسافحات، هن الزوانى المعالونات^(٦)، يعنى الزوانى اللاتى لا يمتنعن أحداً أرادهن بالفاحشة. (ومتخذات أخدان) يعنى: أخلاء.

وكذا روى عن أبى هريرة، ومجاهد، والشعبي، والضحاك، وعطاء الخراسانى، ويحيى بن أبى كثير، ومقاتل بن حيان، والسدى، قالوا: أخلاء. وقال الحسن البصرى: يعنى: الصديق. وقال الضحاك أيضاً: «وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ»: ذات الخليل الواحد [المسيح]^(٧)، المقررة به، نهى الله عن ذلك، يعنى [عن]^(٨) تزويجها^(٩) ما دامت كذلك.

وقوله: «فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ»: يختلف^(١٠) القراء فى «أَحْصَيْنَ»: فقرأه^(١١) بعضهم بضم الهمزة وكسر الصاد، مبنى لما لم يسم فاعله. وقرئ بفتح الهمزة والصاد فعل لازم ثم قيل: معنى القراءتين^(١٢) واحد. واختلفوا فيه على قولين:

أحدهما: أن المراد بالإحصان هاهنا الإسلام. روى ذلك عن عبد الله بن مسعود، وابن عمر، وأنس، والأسود بن يزيد، وور بن حبيش، وسعيد بن جبير، وعطاء، وإبراهيم النخعى، والشعبي، والسدى. وروى نحوه الزهري عن عمر بن الخطاب، وهو منقطع. وهذا هو القول^(١٣) الذى نص عليه الشافعى [رحمه الله تعالى]^(١٤) فى رواية الربيع، قال: وإنما قلنا [ذلك]^(١٥) استدلالاً بالسنة وإجماع أكثر أهل العلم.

وقد روى ابن أبى حاتم فى ذلك حديثاً مرفوعاً، قال: حدثنا على بن الحسين بن الجنيد، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله [الدمشقى]^(١٦)، حدثنا أبى، عن أبيه، عن أبى حمزة، عن جابر، عن رجل، عن أبى عبد الرحمن، عن على قال: قال رسول الله ﷺ: «فَإِذَا أَحْصَيْنَ» قال: «إحصانها إسلامها وعفافها». وقال^(١٧): المراد به هاهنا التزويج، قال: وقال على: اجلدوهن.

(١) زيادة من ج، أ، وابن ماجه.

(٢) رواه ابن ماجه فى سننه برقم (١٨٨٢) من طريق محمد بن مروان عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) فى أ: «فادفعوا». (٤) فى أ: «ولا يبخسوهن». (٥) فى ر: «ولا».

(٦) فى ج، ر، أ: «المعلونات». (٧) زيادة من ج، أ.

(٨) زيادة من ج، ر، أ. (٩) فى أ: «تزوجها». (١٠) فى ر: «واختلفت».

(١١) فى أ: «فقرأه». (١٢) فى ج: «القولين». (١٣) فى ج، ر: «وهذا القول هو».

(١٤) زيادة من ج، ر، وفى أ: «رحمه الله». (١٥) زيادة من ج، ر، أ.

(١٦) زيادة من ج، أ. (١٧) فى ر: «وقيل».

[ثم] ^(١) قال ابن أبي حاتم: وهو حديث منكر.

قلت: وفي ^(٢) إسناده ضعف، ومنهم من لم يسم، و[مثله] ^(٣) لا ^(٤) تقوم به حجة ^(٥).

وقال القاسم وسالم: إحصانها: إسلامها وعفافها.

وقيل: المراد به هاهنا: التزويج. وهو قول ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وطاوس، وسعيد بن جبيرة، والحسن، وقتادة وغيرهم. ونقله أبو علي الطبري في كتابه «الإيضاح» عن الشافعي، فيما رواه أبو الحكم بن عبد الحكم عنه وقد رواه ليث بن أبي سليم، عن مجاهد أنه قال: إحصان الأمة أن ينكحها الحر، وإحصان العبد أن ينكح الحرة. وكذا روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس، رواهما ابن جرير في تفسيره، وذكره ابن أبي حاتم عن الشعبي والنخعي.

وقيل ^(٦): معنى القراءتين متباين ^(٧). فمن قرأ ﴿أُحْصِنَ﴾ بضم الهمزة، فمراده التزويج، ومن قرأ ﴿أُحْصِنَ﴾ بفتحها، فمراده الإسلام. اختاره الإمام أبو جعفر بن جرير في تفسيره، وقرره ونصره.

والأظهر - والله أعلم - أن المراد بالإحصان هاهنا التزويج؛ لأن سياق الآية يدل عليه، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمْ﴾ والله أعلم. والآية الكريمة سياقها كلها ^(٨) في الفتيات المؤمنات، فتعين أن المراد بقوله: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَ﴾ أي: تزوجن، كما فسره ابن عباس ومن تبعه.

وعلى كل من القولين إشكال على مذهب الجمهور؛ وذلك أنهم يقولون: إن الأمة إذا زنت فعليها خمسون جلدة، سواء كانت مسلمة أو كافرة، مزوجة أو بكرًا، مع أن مفهوم الآية يقتضي أنه لا حد على غير المحصنة ممن زنا من الإماء، وقد اختلفت أجوبتهم عن ذلك، فأما الجمهور فقالوا: لا شك أن المنطوق مقدم على المفهوم. وقد وردت أحاديث عامة في إقامة الحد على الإماء، فقدمنها على مفهوم الآية، فمن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه، عن علي، رضى الله عنه، أنه خطب فقال: يأيتها الناس، أقيموا على أرقائكم الحد من أحصن منهم ومن لم يحصن، فإن أمة لرسول الله ﷺ زنت فأمرني أن أجلدتها، فإذا هي حديث عهد بنفاس، فخشيت إن جلدتها أن أقتلها، فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فقال: «أحسنْتَ، اتركها حتى تماثل» ^(٩) «(١٠)».

وعند عبد الله بن أحمد، عن غير أبيه: «فإذا تعالت من نفسها» ^(١١) حدّها ^(١٢) خمسين.

وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا زنت أمة أحدكم فتيّن زناها، فليجلدها الحد ولا يثرب عليها، ثم إن زنت الثانية فليجلدها الحد ولا يثرب عليها، ثم إن زنت الثالثة فتيّن

(١) زيادة من ج، أ. (٢) في أ: «في». (٣) زيادة من ج، أ. (٤) في ج، ر، أ: «يقوم».

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢ / ٤٩٠).

(٦) في ج، ر: «بل». (٧) في ر: «شيتان». (٨) في أ: «فالسباق كله». (٩) في ر: «تتماثل».

(١٠) صحيح مسلم برقم (١٧٠٥).

(١١) في أ: «نفاسها». (١٢) في ج: «فاجلدتها».

زناها، فليبيعها ولو بِحَبْلٍ مِنْ شَعَرٍ». ولمسلم^(١) : «إِذَا زَنَتْ ثَلَاثًا فَلْيَبِيعْهَا فِي الرَّابِعَةِ»^(٢).

وقال مالك، عن يحيى بن سعيد، عن سليمان بن يسار، عن عبد الله بن عيَّاش^(٣) بن أبي ربيعة^(٤) المخزومي قال: أَمَرَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي فِتْيَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَجَلَدْنَا وَلَائِدًا مِنْ وَلَائِدِ الْأَمَارَةِ خَمْسِينَ خَمْسِينَ فِي الزَّانَا.

الجواب الثاني: جواب من ذهب إلى أن الأمة إذا زنت ولم تحصن فلا حد عليها، وإنما تضرب تأديبا، وهو المحكى عن عبد الله بن عباس، رضى الله عنه، وإليه ذهب طاوس، وسعيد بن جبيرة، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وداود بن علي الظاهري في رواية عنه. وعمدتهم مفهوم الآية وهو من مفاهيم الشرط، وهو حجة عند أكثرهم فهو مقدم على العموم عندهم. وحديث أبي هريرة وزيد بن خالد، رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن؟ قال: «إن زنت فحدوها»^(٥)، ثم إن زنت فاجلدوها، ثم يبيعوها ولو بصفير»^(٦)، قال ابن شهاب: لا أدرى أبعد^(٧) الثالثة أو الرابعة.

أخرجاه في الصحيحين^(٨)، وعند مسلم: قال ابن شهاب: الضفير^(٩): الحبل.

قالوا: فلم يُؤَقَّتْ في هذا الحديث^(١٠) عدد كما وقت في المحصنة بنصف ما على المحصنات من العذاب، فوجب الجمع بين الآية والحديث بذلك، والله أعلم.

وأصرح من ذلك ما رواه سعيد بن منصور، عن سفيان، عن مسعر، عن عمرو بن مرة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس على أمة حد حتى تحصن - أو»^(١١) حتى تزوج - فإذا أحصنت بزواج فعليها نصف ما على المحصنات».

وقد رواه ابن خزيمة، عن عبد الله بن عمران العابدی^(١٢)، عن سفيان، به مرفوعا. وقال: رفعه خطأ، إنما هو من قول ابن عباس. وكذا رواه البيهقي من حديث عبد الله بن عمران، وقال مثل ما قاله ابن خزيمة^(١٣).

قالوا: وحديث علي وعمر [رضى الله عنهما]^(١٤) قضيا أعيان، وحديث أبي هريرة عنه أجوبة:

أحدها: أن ذلك محمول على الأمة المزوجة جمعا بينه وبين هذا الحديث.

(١) في ج، أ: «أخرجاه، ولمسلم».

(٢) صحيح البخارى برقم (٣١٦٧) وصحيح مسلم برقم (١٧٦٥)

(٣) في ر: «عباس».

(٤) في ر: «رستم».

(٥) في ر: «بظفير».

(٦) في أ: «بعد».

(٧) صحيح البخارى برقم (٢١٥٣، ٤٥٥) وصحيح مسلم برقم (١٧٠٤) من حديث زيد بن خالد رضى الله عنه.

(٨) في ج، أ: «والضفير»، وفي ر: «والظفير».

(٩) في ج، أ: «يعنى» وفي ر: «أو يعنى».

(١٠) في ج، ر، أ: «الغامدى».

(١١) السنن الكبرى للبيهقى (٨ / ٤٢٤) ط - الكتب العلمية، وقال: «رفعه خطأ والموقوف أصح».

وقد رواه سعيد بن منصور في السنن موقوفا على ابن عباس من هذا الطريق برقم (٦١٦).

(١٢) زيادة من ج، أ.

الثاني: أن لفظ الحد في قوله: فليجلدها^(١) الحد، لفظ مقحم^(٢) من بعض الرواة، بدليل الجواب الثالث، وهو:

أن هذا من حديث صحابين وذلك من رواية أبي هريرة فقط، وما كان عن اثنين فهو أولى بالتقدم^(٣) من رواية واحد، وأيضا فقد رواه النسائي بإسناد على شرط مسلم، من حديث عباد بن تميم، عن عمه - وكان قد شهد بدرًا - أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا زَنَتِ الْأُمَةُ فَاجْلِدُوهَا، ثُمَّ إِذَا زَنَتِ فَاجْلِدُوهَا، ثُمَّ إِذَا زَنَتِ فَاجْلِدُوهَا، ثُمَّ إِذَا زَنَتِ فَبِيعُوهَا وَلَوْ بِضَفِيرٍ».

الرابع: أنه لا يبعد أن بعض الرواة أطلق لفظ الحد في الحديث على الجلد؛ لأنه لما كان الجلد اعتقد^(٤) أنه حد، أو أنه أطلق لفظة الحد على التأديب، كما أطلق الحد على ضرب من زنى من المرضى بُعْثَكَال نخل فيه مائة شمراخ، وعلى جلد من زنى بأمة امرأته إذا أذنت له فيها مائة، وإنما ذلك تعزير وتأديب عند من يراه كالإمام أحمد وغيره من السلف، وإنما الحد الحقيقي هو جلد البكر مائة، ورجم الثيب أو اللائط، والله أعلم.

وقد روى ابن جرير في تفسيره: حدثنا ابن المنثى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عمرو بن مرة؛ أنه سمع سعيد بن جبير يقول: لا تُضرب الأمة إذا زنت ما لم تتزوج^(٥).

وهذا إسناد صحيح عنه، ومذهب غريب إن أراد أنها لا تضرب أصلا لا حداً، وكأنه أخذ بمفهوم الآية ولم يبلغه الحديث، وإن كان أراد أنها لا تضرب حداً، ولا ينفي ضربها تأديباً، فهو^(٦) كقول ابن عباس ومن تبعه في ذلك، والله أعلم.

الجواب الثالث: أن الآية دلت على أن الأمة المحصنة تحدد نصف حد الحرة، فأما قبل الإحصان فعمومات^(٧) الكتاب والسنة شاملة لها في جلدتها مائة، كقوله تعالى^(٨): «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ» [النور: ٢] وكحديث عباد بن الصامت: «خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهْنًا سَبِيلًا، الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدٌ مِّائَةٌ وَتَغْرِيْبٌ عَامٌ، وَالثَّيْبُ جَلْدٌ مِّائَةٌ وَرَجْمُهَا بِالْحِجَارَةِ». والحديث في صحيح مسلم وغير ذلك من الأحاديث.

وهذا القول هو المشهور عن داود بن علي الظاهري، وهو في غاية الضعف؛ لأن الله تعالى^(٩) إذا كان أمر بجلد المحصنة من الإماء بنصف ما على الحرة^(١٠) من العذاب وهو خمسون جلدة، فكيف يكون حكمها قبل الإحصان أشد منه بعد الإحصان. وقاعدة الشريعة في ذلك عكس ما قال، وهذا الشارع، عليه السلام، يسأله أصحابه عن الأمة إذا زنت ولم تحصن، فقال: «اجلدوها» ولم يقل: مائة. فلو كان حكمها كما قال^(١١) داود، لوجب بيان ذلك لهم؛ لأنهم إنما سألوا عن ذلك لعدم^(١٢) بيان حكم جلد المائة بعد الإحصان في الإماء، وإلا فما الفائدة في قولهم: «ولم تحصن» لعدم الفرق

(١) في ج، أ: «فليقم عليها» وفي ر «عليها الحد».
(٢) في ر: «معجمة» وفي أ: «مقحمة». (٣) في أ: «بالتقديم».
(٤) في ج، أ: «لما كان الجلد في الحديث اعتقد». (٥) في أ: «ما لم تزوج». (٦) في ج، ر: «فيكون».
(٧) في ر: «بعمومات». (٨) في أ: «لقول الله تعالى». (٩) في أ: «سبحانه».
(١٠) في أ: «غيره». (١١) في أ: «كما زعم». (١٢) في ج، أ: «بعد نزول».

بينهما لو لم تكن الآية نزلت، لكن لما علموا حكم أحد الحكمين سألوا عن حكم الحال الآخر، فينبه لهم. كما [ثبت] ^(١) في الصحيحين أنهم لما سألوه عن الصلاة عليه، فذكرها لهم ثم قال: «والسلام ما قد ^(٢) علمتم»، وفي لفظ: لما أنزل الله قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] قالوا: هذا السلام عليك قد عرفناه، فكيف الصلاة عليك؟ وذكر الحديث، وهكذا هذا السؤال ^(٣).

الجواب الرابع - عن مفهوم الآية - : جواب أبي ثور، فإن من مذهبه ما هو أغرب من قول داود من وجوه، ذلك أنه يقول ^(٤): فإذا أحصن فإن عليهن ^(٥) نصف ما على المحصنات ^(٦) المزوجات وهو الرجم، وهو لا يتناصف ^(٧)، فيجب أن ترجم الأمة المحصنة إذا زنت، وأما قبل الإحصان فيجب جلدتها خمسين. فأخطأ في فهم الآية وخالف الجمهور في الحكم، بل قد قال أبو عبد الله الشافعي، رحمه الله: ولم يختلف المسلمون في أن لا رجم على مملوك في الزنا؛ وذلك لأن الآية دلت على أن عليهن نصف ما على المحصنات من العذاب، والألف واللام في المحصنات للعهد، وهن المحصنات المذكورات في أول الآية: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ والمراد بهن الحرائر فقط، من غير تعرض لتزويج غيره، وقوله: ﴿نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ يدل على أن المراد من العذاب الذي يمكن تنصيفه ^(٨)، وهو الجلد لا الرجم، والله أعلم.

ثم قد روى الإمام أحمد [حديثاً] ^(٩) نصاً في ردّ مذهب أبي ثور من رواية الحسن بن سعد عن أبيه أن صفية ^(١٠) كانت قد زنت برجل من الخمس، فولدت غلاماً، فادعاه الزاني. فاختصما إلى عثمان [بن عفان] ^(١١) فرفعهما ^(١٢) إلى علي بن أبي طالب، فقال علي: أقضى فيهما ^(١٣) بقضاء رسول الله ﷺ: «الولد للفراش، وللعاهر الحجر» وجلدهما خمسين خمسين ^(١٤).

وقيل: بل المراد من المفهوم التنبيه بالأعلى على الأدنى، أي: أن الإماماء على النصف من ^(١٥) الحرائر في الحد وإن كن محصنات، وليس عليهن رجم أصلاً، لا قبل النكاح ولا بعده، وإنما عليهن الجلد في الحالتين بالسنة. قال ^(١٦) ذلك صاحب الإفصاح عن الشافعي، فيما رواه ابن عبد الحكم، عنه. وقد ذكره ^(١٧) البيهقي في كتاب السنن والآثار، وهو بعيد من لفظ الآية؛ لأننا إنما استفدنا تنصيف ^(١٨) الحد من الآية لا من سواها، فكيف يفهم منها التنصيف فيما عداها. وقال: بل أريد بأنها في حال الإحصان لا يقيم الحد عليها إلا الإمام، ولا يجوز لسيدها إقامة الحد عليها والحالة هذه - وهو قول في مذهب الإمام أحمد رحمه الله - فأما قبل الإحصان فله ذلك، والحد في كلا الموضعين نصف حد الحرة. وهذا أيضاً بعيد؛ لأنه ^(١٩) ليس في لفظ الآية ما يدل عليه.

(٢) في ج، أ: «كما قد علمتم» وفي ر: «كما علمتم».

(١) زيادة من أ.

(٥) في: «فعليلهن».

(٤) في ر: «وذلك أن نقول».

(٣) في أ: «سواء».

(٨) في ج، ر: «تنصفه» وفي أ: «بنصفه».

(٧) في ج، ر، أ: «يتنصف».

(٦) في ج، أ: «المحصنات من العذاب أي».

(١١) زيادة من ج، أ.

(١٠) في ج، ر، أ: «صبيّة».

(٩) زيادة من أ.

(١٣) في ج، ر: «فيها».

(١٢) في ر: «فرفعها».

(١٤) المسند (١ / ١٠٤).

(١٦) في أ: «في الحالين بالنسبة نقل».

(١٥) في ج، أ: «من جلد».

(١٩) في ر: «لأن».

(١٨) في ج، ر: «بنصف».

ولولا هذه لم نذر ما حكم الإمام^(١) في التنصيف، ولوجب دخولهن في عموم الآية في تكميل الحد^(٢) مائة أو رجمهن، كما^(٣) أثبت في الدليل عليه، وقد تقدم عن علي أنه قال: أيها الناس، أقيموا على أرفائكم الحد من^(٤) أحصن منهم ومن لم يحصن، وعموم الأحاديث المتقدمة ليس فيها تفصيل بين المزوجة^(٥) وغيرها، لحديث أبي هريرة الذي احتج به الجمهور: «إِذَا زَنَتْ أُمَةٌ أَحَدَكُمْ فَتَيْنَ زَنَاهَا فَلْيَجْلِدْهَا^(٦) الحد ولا يثرب عليهما».

ملخص الآية: أنها^(٧) إذا زنت أقوال: أحدها: أنها^(٨) بجلد خمسين قبل الإحصان وبعده، وهل تُنفي؟ فيه ثلاثة أقوال:

[أحدها]^(٩): أنها^(١٠) تنفي عنه^(١١). والثاني: لا تنفي عنه^(١٢) مطلقاً. [وهو قول علي وفقهاء المدينة]^(١٣). والثالث: أنها تنفي نصف سنة وهو نفى نصف^(١٤) الحرة. وهذا الخلاف في مذهب الشافعي، وأما أبو^(١٥) حنيفة فعنده أن النفي تعزير ليس من تمام الحد، وإنما هو^(١٦) رأى الإمام، إن شاء فعله وإن شاء تركه في حق الرجال والنساء، وعند مالك أن النفي إنما هو على الرجال، وأما^(١٧) النساء فلا^(١٨)؛ لأن^(١٩) ذلك مضاد لصيانتهم، [وما ورد شيء من النفي في الرجال ولا في النساء نعم حديث عبادة وحديث أبي هريرة]^(٢٠): أن رسول الله ﷺ قضى فيمن زنى ولم يحصن بنفى عام وبإقامة^(٢١) الحد عليه. رواه البخاري، و[كل]^(٢٢) ذلك مخصوص بالمعنى، وهو أن المقصود من النفي الصون وذلك مفقود في نفى النساء، والله أعلم.

والثاني: أن الأمة إذا زنت تجلد خمسين بعد الإحصان، وتضرب [قبله]^(٢٣) تأديبا غير محدود بعدد محصور، وقد تقدم ما رواه ابن جرير عن سعيد بن جبيرة: أنها لا تضرب قبل الإحصان، وإن^(٢٤) أراد نفيه فيكون مذهباً بالتأويل^(٢٥)، وإلا فهو كالقول الثاني.

القول الآخر: أنها تجلد قبل الإحصان مائة وبعده خمسين، كما هو المشهور عن داود، و[هو]^(٢٦) أضعف الأقوال: أنها تجلد قبل الإحصان خمسين وترجم بعده، وهو قول أبي ثور، وهو ضعيف أيضاً. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

وقوله: «ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ» أي: إنما يباح نكاح الإماء بالشروط المتقدمة لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنا، وشق عليه الصبر عن الجماع، وعنت بسبب ذلك [كله، فحينئذ يتزوج الأمة، وإن ترك تزوج الأمة]^(٢٧)، وجاهد نفسه في الكف عن الزنا، فهو خير له؛ لأنه إذا تزوجها

(١) في ج، ر، أ: «الإماء».
(٢) في ر: «فمن».
(٣) في أ: «فتلخص في الأمة».
(٤) في ر: «أنه».
(٥) في ج، أ: «لا نفى عليها» وفي ر: «لا تنفي عليها».
(٦) في ج: «نصف نفى».
(٧) في ج، أ: «فأما».
(٨) في ج: «وما ورد من ألفاظ عامة في نفى الرجال والنساء كحديث أبي هريرة وحديث عبادة».
(٩) في ج، ر: «بإقامة».
(١٠) في ج، ر، أ: «فإن».
(١١) في ج: «فله حينئذ أن يتزوج بالأمة وإن ترك تزويجها».
(١٢) في ج، أ: «فإن».
(١٣) في ج، أ: «فإن».
(١٤) في ج، أ: «فإن».
(١٥) في ج، أ: «فإن».
(١٦) في ج، أ: «فإن».
(١٧) في ج، أ: «فإن».
(١٨) في ج، أ: «فإن».
(١٩) في ج، أ: «فإن».
(٢٠) في ج، أ: «فإن».
(٢١) في ج، أ: «فإن».
(٢٢) في ج، أ: «فإن».
(٢٣) في ج، أ: «فإن».
(٢٤) في ج، أ: «فإن».
(٢٥) في ج، أ: «فإن».
(٢٦) في ج، أ: «فإن».
(٢٧) في ج، أ: «فإن».

جاء أولاده أرقاءً لسيدها إلا أن يكون الزوج عربياً فلا تكون أولاده منها أرقاءً في قول قديم للشافعي، ولهذا قال: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ومن هذه الآية الكريمة استدل جمهور العلماء في جواز نكاح الإماء، على أنه لا بد من عدم الطول لنكاح الحرائر ومن خوف العنت؛ لما في نكاحهن من مفسدة رق الأولاد، ولما فيهن من الدناءة^(١) في العدول عن الحرائر إليهن. وخالف الجمهور أبو حنيفة وأصحابه في اشتراط الأمرين، فقالوا: متى لم يكن الرجل مزوجاً بحرة جاز له نكاح الأمة المؤمنة والكتابية أيضاً، سواء كان واجداً الطول لحرة أم^(٢) لا، وسواء خاف العنت أم^(٣) لا، وعمدتهم^(٤) فيما ذهبوا إليه [عموم]^(٥) قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥] أى: العفاف، وهو يعم الحرائر والإماء، وهذه الآية عامة، وهذه^(٦) أيضاً ظاهرة في الدلالة على ما قاله الجمهور، والله أعلم.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا (٢٨).

يخبر تعالى أنه يريد أن يبين لكم - أيها المؤمنون - ما^(٧) أحل لكم وحرم عليكم، مما تقدم ذكره في هذه السورة وغيرها، ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يعني: طرائقهم الحميدة واتباع^(٨) شرائعهم التي يحبها ويرضاها ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أى من الإثم^(٩) والمحارم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى في شرعه وقدره وأفعاله وأقواله وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾^(١٠) ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً^(١١) أى: يريد أتباع الشياطين من اليهود والنصارى والزناة ﴿أَنْ تَمِيلُوا﴾ يعني: عن الحق إلى الباطل ﴿مِيلًا عَظِيمًا﴾ يريد الله أن يخفف عنكم^(١٢) أى: في شرائعهم وأوامره ونواهيه وما يقدره لكم، ولهذا أباح [نكاح]^(١٣) الإماء بشروطه، كما قال مجاهد وغيره: ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ فناسبه^(١٤) التخفيف؛ لضعفه في نفسه وضعف عزمه وهيمته.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل [الأحمسي]^(١٥)، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن ابن طاوس، عن أبيه: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ قال: في أمر النساء. وقال وكيع: يذهب عقله عندهن.

وقال موسى الكليم عليه الصلاة والسلام^(١٦) لنبينا، صلوات الله وسلامه^(١٧) عليه، ليلة الإسراء، حين مر عليه راجعاً من عند سدرة المنتهى، فقال له: ماذا فرض عليكم^(١٨)؟ فقال: «أمرني بخمسين

(١) فى أ: «من الزنا».
(٢) (٣، ٢) فى ر: «أو».
(٣) (٥) زيادة من ج، أ.
(٤) (٦) فى ج، أ: «خاصة وهى».
(٥) (٨) فى ر: «فى اتباع».
(٦) (٩) فى ر، أ: «المائم».
(٧) (١١) فى ر، أ: «من».
(٨) (١٢) زيادة من أ.
(٩) (١٤) زيادة من ج، أ.
(١٠) (١٦) فى أ: «لنبينا محمد ﷺ».
(١١) (١٧) فى ج، أ: «عليك ربك».

صلاة فى كل يوم وليلة»^(١). فقال له: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف؛ فإن أمتك لا تطيق ذلك، فإننى قد بلوت الناس^(٢) قبلك على ما هو أقل من ذلك فعجزوا، وإن أمتك أضعف أسماعاً وأبصاراً وقلوباً. فرجع فوضع عشراً، ثم رجع إلى موسى فلم يزل كذلك حتى بقيت خمساً [قال الله عز وجل: «هن خمس وهن خمسون، الحسنه بعشر أمثالها»]^(٣) الحديث.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدُوًّا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) إِنْ تَجَتَّبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (٣١)﴾.

نهى^(٤) تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضاً بالباطل، أى: بأنواع المكاسب التى هى غير شرعية، كأنواع الربا والقمار، وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الحيل، وإن ظهرت فى غالب الحكم الشرعى مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الحيلة على الربا، حتى قال ابن جرير:

حدثنى ابن المثنى، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا داود، عن عكرمة، عن ابن عباس - فى الرجل يشتري من الرجل الثوب فيقول: إن رضىته أخذته ولا رددته ورددت معه درهما - قال: هو الذى قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن حرب الموصلى، حدثنا ابن فضيل، عن داود الأودى عن عامر، عن علقمة، عن عبد الله [﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾]^(٥) قال: إنها [كلمة]^(٦) محكمة، ما نسخت، ولا تنسخ إلى يوم القيامة.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: لما أنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام هو أفضل الأموال، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد، فكيف^(٧) للناس^(٨) فأنزل الله بعد ذلك: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١] الآية، [وكذا قال قتادة بن دعامة]^(٩).

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾^(١٠) قرئ: تجارة بالرفع وبالنصب، وهو استثناء منقطع، كأنه يقول: لا تتعاطوا الأسباب المحرمة فى اكتساب الأموال، لكن المتاجر^(١١) المشروعة التى تكون عن تراضٍ من البائع والمشتري فافعلوها وتسببوا بها فى تحصيل الأموال. كما قال [الله]^(١٢) تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وكقوله ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦].

(١) فى ر: «أمرنى بخمسين اليوم واللييلة» وفى ج، أ: «أمرنى بخمسين صلاة فى اليوم واللييلة».

(٢) فى أ: «الناس من». (٣) زيادة من ج، أ. (٤) فى أ: «ينهى».

(٥) زيادة من ج، ر، أ. (٦) زيادة من أ. (٧) فى أ: «فكف».

(٨) فى أ: «فكيف للناس عن ذلك». (٩) زيادة من أ. (١٠) فى أ: «بينكم».

(١١) فى أ: «المتجار».

(١٢) زيادة من أ.

ومن هذه الآية الكريمة احتج الشافعي [رحمه الله]^(١) على أنه لا يصح البيع إلا بالقبول؛ لأنه يدل على التراضي نَصًا، بخلاف المعاطاة فإنها قد لا تدل على الرضا ولا بد، وخالف^(٢) الجمهور في ذلك مالك وأبو حنيفة وأحمد وأصحابهم، فرأوا أن الأقوال كما تدل على التراضي، وكذلك الأفعال تدل في بعض المحال قطعاً، فصَحَّحُوا بيع المعاطاة مطلقاً، ومنهم من قال: يصح في المحقَّرات، وفيما يعده الناس بيعاً، وهو احتياط نظر من محققي المذهب، والله أعلم.

قال مجاهد: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ بيعاً^(٣) أو عطاء يعطيه أحد أحداً. ورواه ابن جرير [ثم]^(٤) قال:

وحدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، عن القاسم، عن^(٥) سليمان الجعفي، عن أبيه، عن ميمون بن مهران قال: قال رسول الله ﷺ: «الْبَيْعُ عَنْ تَرَاضٍ، وَالْخِيَارُ بَعْدَ الصَّفَقَةِ، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَغْشَى^(٦) مُسْلِمًا». هذا حديث مرسل^(٧).

ومن تمام التراضي إثبات خيار المجلس، كما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا». وفي لفظ البخاري: «إِذَا تَبَايَعَ الرَّجُلَانِ فَكُلٌ وَاحِدٌ مِنْهُمَا بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا»^(٨).

وذهب إلى القول بمقتضى هذا الحديث الشافعي، وأحمد [بن حنبل]^(٩)، وأصحابهما، وجمهور السلف والخلف. ومن ذلك مشروعية خيار الشرط بعد العقد إلى ثلاثة أيام، [كما هو متفق عليه بين العلماء إلى ما هو أزيد من ثلاثة أيام]^(١٠)، بحسب ما يتبين فيه مال البيع، ولو إلى سنة في القرية ونحوها، كما هو المشهور عن مالك، رحمه الله. وصَحَّحُوا^(١١) بيع المعاطاة مطلقاً، وهو قول في مذهب الشافعي، ومنهم من قال: يصح بيع المعاطاة في المحقَّرات فيما يعده الناس بيعاً، وهو اختيار طائفة من الأصحاب.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: بارتكاب محارم الله وتعاطي معاصيه وأكل أموالكم بينكم بالباطل ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي: فيما أمركم به، ونهاكم عنه.

قال الإمام أحمد: حدثنا حسن^(١٢) بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا يزيد بن أبي حبيب، عن عمران بن أبي أنس، عن عبد الرحمن بن جبير، عن عمرو بن العاص، رضى الله عنه، أنه قال لما بعثه النبي ﷺ عام ذات السلاسل قال: احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتممت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح، قال: فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له، فقال: «يا عمرو، صَلَّيْتُ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ!» قال: قلت: يا رسول الله ﷺ^(١٣)، إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت^(١٤) أن أهلك، فذكرت^(١٥) قول الله [عز

(١) زيادة من ج، أ. (٢) في ر، أ: «وخالقوا». (٣) في أ: «بيع».

(٤) زيادة من ج، أ. (٥) في أ: «بن». (٦) في ر: «يضر».

(٧) تفسير الطبري (٨ / ٢٢١).

(٨) صحيح البخاري برقم (٢١٠٩) وصحيح مسلم برقم (١٥٣١).

(٩) زيادة من أ. (١٠) زيادة من ج، د، أ. (١١) في ر: «فصحوا».

(١٢) في ج، أ: «حسن». (١٣) في أ: «نعم يا رسول الله». (١٤) في أ: «أن اغتسل».

(١٥) في ر: «ذكرت»، وفي ج، أ: «وذكرت».

وجل] (١): ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، فتمت ثم صليت. فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئا.

وهكذا رواه أبو داود من حديث يحيى بن أيوب، عن يزيد بن أبى حبيب، به. ورواه أيضا عن محمد بن أبى سلمة، عن ابن وهب، عن ابن لهيعة وعمر بن الحارث، كلاهما عن يزيد بن أبى حبيب، عن عمران بن أبى أنس، عن عبد الرحمن ابن جبير المصرى، عن أبى قيس مولى عمرو بن العاص، عنه، فذكره نحوه. وهذا، والله أعلم، أشبه بالصواب (٢).

وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن حامد البلخى، حدثنا محمد بن صالح بن سهل البلخى، حدثنا عبيد (٣) الله بن عمر القواريرى، حدثنا يوسف بن خالد، حدثنا زياد ابن سعد، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن عمرو بن العاص صلى بالناس وهو جنب، فلما قدموا على رسول الله ﷺ ذكروا ذلك له، فدعاه فسأله عن ذلك، فقال: يا رسول الله، خفت أن يقتلنى البرد، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا] (٤) قال: فسكت عنه رسول الله ﷺ (٥).

ثم أورد ابن مردويه عند هذه الآية الكريمة من حديث الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ، يَجَأُ بِهَا بَطْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِسَمٍّ، فَسَمُهُ فِي يَدِهِ، يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ مُتَرَدٍّ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا».

وهذا الحديث (٧) ثابت فى الصحيحين (٨)، وكذلك رواه أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة عن النبي ﷺ بنحوه، وعن أبى قلابه، عن ثابت بن الضحاك، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُدْبَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وقد أخرجه الجماعة فى كتبهم من طريق أبى قلابه (٩). وفى الصحيحين من حديث الحسن، عن (١٠) جندب بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: «كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ (١١) كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ بِهِ جُرْحٌ، فَأَخَذَ سَكِينًا نَحَرَ بِهَا يَدَهُ، فَمَا رَقَا الدَّمَ حَتَّى مَاتَ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: عَبْدِي بَادَرَنِي بِنَفْسِهِ، حَرَمْتُ (١٢) عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» (١٣).

ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾ أى: ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه متعديا

(١) زيادة من ج، ر، أ.

(٢) المسند (٤ / ٢٠٣) وسنن أبى داود برقم (٣٣٤).

(٣) فى ر: «عبد».

(٤) زيادة من ج، ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٥) ورواه الطبرانى (١١ / ٢٣٤) من طريق عبيد الله القواريرى به، وقال الهيثمى فى المجمع (١ / ٢٦٤): «فيه يوسف بن خالد السمى وهو كذاب».

(٦) فى ر: «متردد».

(٧) فى ر: «حديث».

(٨) صحيح البخارى برقم (٥٧٧٨) وصحيح مسلم برقم (١٠٩).

(٩) صحيح البخارى برقم (٦٠٤٧، ٦١٠٥) وصحيح مسلم برقم (١١٠) وسنن أبى داود برقم (٣٢٥٧) وسنن الترمذى برقم (١٥٤٣) وسنن النسائى (٧ / ٥، ٦) وسنن ابن ماجه برقم (٢٠٩٨) وليس عند الترمذى قوله: «ومن قتل نفسه بشيء» وهو الشاهد هنا.

(١٠) فى ر: «ابن».

(١١) فى أ: «فيمن».

(١٢) فى أ: «فحرمت».

(١٣) صحيح البخارى برقم (١٣٦٤، ٣٤٦٣) وصحيح مسلم برقم (١١٣).

فيه ظالما في تعاطيه، أى: عالما بتحريمه متجاسرا على انتهاكه ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾^(١) وهذا تهديد شديد ووعد أكيد، فليحذر منه كل عاقل لبيب ممن ألقى السمع وهو شهيد. وقوله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾^(٢) أى: إذا اجتنبتكم كبائر الآثام التى نهيتكم عنها كفرنا عنكم صغائر الذنوب، وأدخلناكم الجنة؛ ولهذا قال: ﴿وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا مؤمل بن هشام، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا خالد^(٣) ابن أيوب، عن معاوية بن قرة، عن أنس^(٤) [يرفعه]^(٥): «الذى بلغنا عن ربنا، عز وجل، ثم لم نخرج له عن كل أهل ومال أن تجاوز لنا عما دون الكبائر، يقول الله [تعالى]^(٦): ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾^(٧)»^(٨).

وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة، فلنذكر منها ما تيسر:

قال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْمٌ، عن مُغِيرَةَ، عن أَبِي مَعْشَرٍ، عن إِبْرَاهِيمَ، عن قُرَيْعِ الضَّبِيِّ، عن سلمان الفارسي قال: قال لى النبي ﷺ: «أندري ما يوم الجمعة؟» قلت: هو اليوم الذى جمع الله فيه أباكم. قال: «لكن أدري ما يوم الجمعة، لا يتطهر الرجل فيحسن طهوره، ثم يأتي الجمعة فينصت حتى يقضى الإمام صلاته، إلا كان^(٩) كفارة له ما بينه وبين الجمعة المقبلة، ما اجتنبت المقتلة^(١٠)» وقد روى البخارى من وجه آخر، عن سلمان نحوه^(١١).

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني المثنى [بن إبراهيم]^(١٢)، حدثنا أبو صالح، حدثني الليث، حدثني خالد، عن سعيد بن أبي هلال، عن نعيم المجمر، أخبرني صهيب مولى العتواري، أنه سمع من أبي هريرة وأبي سعيد يقولان: خطبنا رسول الله ﷺ يوما فقال: «والذى نفسى بيده» - ثلاث مرات - ثم أكب، فأكب كل رجل منا ييكي، لا ندري على ماذا حلف عليه ثم رفع رأسه وفي وجهه البشر^(١٣)، فكان أحب إلينا من حمر النعم، فقال: [ﷺ]^(١٤): «ما من عبد يصلي الصلوات الخمس، ويصوم رمضان، ويخرج الزكاة، ويجتنب الكبائر السبع، إلا فتحت له أبواب الجنة، ثم قيل له: ادخل بسلام».

وهكذا رواه النسائي، والحاكم فى مستدركه، من حديث الليث بن سعد، رواه الحاكم أيضا وابن حبان فى صحيحه، من حديث عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، به. ثم قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه^(١٥).

(١) زيادة من ج، ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٣) فى ر: «الجلد»، وفى أ: «الحالد».

(٤) عند البزار، عن أنس قال: «لم نر مثل الذى بلغنا عن ربنا» انظر: المجمع (٧ / ٣).

(٥) زيادة من ج، ر، أ. (٦) زيادة من ج، ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٨) مسند البزار برقم (٢٢٠٠) «كشف الأستار»، وقال الهيثمى: «فيه الجلد بن أيوب وهو ضعيف».

(٩) فى ر: «كانت». (١٠) فى ج: «المقتل».

(١١) المسند (٥ / ٤٣٩) ورواه البخارى برقم (٩١٠) من طريق سعيد المقبرى عن أبيه عن ابن وداعة عن سلمان الفارسي بنحوه.

(١٢) زيادة من ر، أ. (١٣) فى أ: «البشرى».

(١٤) زيادة من ج. (١٥) تفسير الطبرى (٨ / ٢٣٨) وسنن النسائي (٥ / ٨) والمستدرک (١ / ٢٠٠).

تفسير هذه السبع:

وذلك بما ثبت فى الصحيحين من حديث سليمان بن بلال، عن ثور بن زيد، عن سالم أبى الغيث، عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُفْبَقَاتِ» قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَالسَّحَرُ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ»^(١).

طريق أخرى عنه: قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا فهد بن عوف، حدثنا أبو عوانة، عن عمرو بن أبى سلمة، عن أبىه، عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «الكِبَائِرُ سَبْعٌ، أولها الإشراكُ بالله، ثم قَتْلُ النَّفْسِ بغير حقها، وأَكْلُ الرِّبَا، وأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ إلى أن يكبر، والفِرَارُ من^(٢) الزَّحْفِ، ورمى المحصنات، والانقلاب إلى الأعراب بعد الهجرة»^(٣).

فالنص على هذه السبع بأنهن كبائر لا ينفى ما عداهن، إلا عند من يقول بمفهوم اللقب، وهو ضعيف عند عدم القرينة، ولا سيما عند^(٤) قيام الدليل بالمنطوق على عدم المفهوم، كما سنورده من الأحاديث المتضمنة من الكبائر غير هذه السبع، فمن ذلك ما رواه الحاكم فى مستدركه حيث قال:

حدثنا أحمد بن كامل القاضى، إملاء، حدثنا أبو قلابة عبد الملك بن محمد، حدثنا معاذ بن هانى، حدثنا حرب بن شداد، حدثنا يحيى بن أبى كثير، عن عبد الحميد بن سنان، عن عبيد بن عمير، عن أبىه - يعنى: عمير بن قتادة - رضى الله عنه، أنه حدثه - وكانت له صحبة - أن رسول الله ﷺ قال فى حجة الوداع: «إلا إن أولياء الله المصلّون من يُقيم^(٥) الصلوات الخمس التى كُتبت^(٦) عليه، ويصوم رمضان ويحْتَسِبُ صَوْمَهُ، يرى أنه عليه حق، ويُعطى زكاة ماله يَحْتَسِبُهَا، ويجتنب الكبائر التى نهى الله عنها». ثم إن رجلاً سأله فقال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ فقال: «تسع: الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ نَفْسٍ مَوْمَنٍ بغير حق^(٧)، وفِرَارُ يَوْمِ الزَّحْفِ، وأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وأَكْلُ الرِّبَا، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَةِ^(٨)، وعقوق الوالدين المسلمين، واستحلال البيت الحرام قبلتكم أحياء وأمواتاً، ثم قال: لا يموت رجل لا يعمل^(٩) هؤلاء الكبائر، ويُقيم الصلاة، ويؤتى الزكاة، إلا كان مع النبى ﷺ فى دار أبوابها مصاريع^(١٠) من ذهب».

وهكذا رواه الحاكم مطولاً، وقد أخرجه أبو داود والترمذى^(١١) مختصراً من حديث معاذ بن هانى، به. وكذا رواه ابن أبى حاتم من حديثه مبسوطاً ثم قال الحاكم: رجاله كلهم يحتج بهم فى الصحيحين إلا عبد الحميد بن سنان^(١٢).

(١) صحيح البخارى برقم (٢٧٦٦) وصحيح مسلم برقم (٨٩).

(٢) فى أ: «يوم».

(٣) مسند البزار برقم (١٠٩) «كشف الأستار»، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١/ ١٠٣): «فيه عمر بن أبى سلمة، ضعفه شعبة وغيره، ووثقه أبو حاتم وابن حبان وغيرهما».

(٤) فى ر: «عن».

(٥) فى ر، أ: «يقيم».

(٦) فى أ: «التي كتب».

(٨) فى أ: «المحصنات».

(٩) فى ج: «لم يعمل».

(١٠) فى ج، ر، أ: «مصانعها».

(١١) فى ج: «والترمذى والنسائى».

(١٢) المستدرک (٥٩/١) وسنن أبى داود برقم (٢٨٧٥) ولم أجده عند الترمذى، ورواه البيهقى فى السنن الكبرى من طريق الحاكم (٤٠٨/٣) وقال: «سقط من كتابى أو من كتاب شيخى - يعنى الحاكم - السحر».

وعبد الحميد بن سنان. قال الذهبى: «عداده فى التابعين لا يعرف، وقد وثقه بعضهم. قال البخارى: روى عن عبيد بن عمير فى حديثه نظر. قلت: حديثه عن عبيد عن أبىه: الكبائر تسع... الحديث...».

قلت: وهو حجازي لا يعرف إلا بهذا الحديث، وقد ذكره ابن حبان في كتاب الثقات، وقال البخاري: في حديثه نظر.

وقد رواه ابن جرير، عن سليمان بن ثابت الجحدري، عن سلم^(١) بن سلام، عن أيوب بن عتبة، عن يحيى بن أبي كثير، عن عبيد بن عمير، عن أبيه، فذكره. ولم يذكر في الإسناد: عبد الحميد بن سنان، فالله أعلم^(٢) (٣).

حديث آخر في معنى ما تقدم: قال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا عبد العزيز بن مسلم بن الوليد، عن المطلب بن عبد الله بن حنطب عن عبد الله بن عمرو قال: صعد النبي ﷺ المنبر فقال: «لا أقسم، لا أقسم». ثم نزل فقال: «أبشروا، أبشروا، من صلى الصلوات الخمس، واجتنب الكبائر السبع، نودي من أبواب الجنة: ادخل». قال عبد العزيز: لا أعلمه إلا قال: «بسلام». قال المطلب: سمعت من سأل عبد الله بن عمرو: أسمعت رسول الله ﷺ يذكرهن؟ قال: نعم: «عقوق الوالدين، وإشراك بالله، وقتل النفس، وقذف المحصنات، وأكل مال اليتيم، والفرار من الزحف، وأكل الربا»^(٤).

حديث آخر في معناه: قال أبو جعفر ابن جرير في التفسير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن علية، أخبرنا زياد بن مخرق عن طيسلة بن مياس قال: كنت مع النجيدات، فأصبت ذنوبا لا أراها إلا من الكبائر، فلقيت ابن عمر فقلت له: إني أصبت ذنوبا لا أراها إلا من الكبائر. قال: ما هي؟ قلت: أصبت كذا وكذا. قال: ليس من الكبائر. قلت: وأصبت كذا وكذا. قال: ليس من الكبائر قال - بشيء لم يسمه طيسلة - قال: هي تسع وسأعدهن عليك: الإشراك بالله، وقتل النفس بغير حقها^(٥)، والفرار من الزحف، وقذف المحصنة، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم ظلما، وإلحاد في المسجد الحرام، والذي يستسحر^(٦)، وبكاء الوالدين من العقوق. قال زياد: وقال طيسلة لما رأى ابن عمر: فرقى. قال: أتخاف النار أن تدخلها؟ قلت: نعم. قال: وتحب أن تدخل الجنة؟ قلت: نعم. قال: أحى والداك؟ قلت: عندى أمى. قال: فوالله لئن أنت ألت لها الكلام، وأطعمتها الطعام، لتدخلن الجنة ما اجتنبت الموجبات^(٧).

طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثنا سليمان بن ثابت الجحدري الواسطي، حدثنا سلم^(٨) بن سلام، حدثنا أيوب بن عتبة، عن طيسلة بن علي النهدي قال: أتيت ابن عمر وهو في ظل أراك يوم

(١) في ج، أ: «سلمة».

(٢) تفسير الطبري (٨ / ٢٤١).

(٤) ورواه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٣) «القطعة المفقودة» من طريق عبد العزيز بن محمد عن مسلم بن الوليد عن المطلب به وفي إسناده مسلم بن الوليد ذكره البخاري في التاريخ الكبير (٨ / ١٥٣) وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٨ / ١٩٧) ولم يذكر فيه جرحا أو تعديلا.

(٥) في د: «النسمة بغير حلها» روى ج: «نسمة بغير حلها»، في ر: «النفس بغير حلها».

(٦) في ج: «يسحر».

(٧) تفسير الطبري (٨ / ٢٣٩) ورواه البخاري في الأدب المفرد برقم (٨) من طريق زياد بن مخرق به.

(٨) في ج، ر، أ: «مسلم».

عَرَفَةً، وهو يصب الماء على رأسه ووجهه، قلت^(١): أخبرني عن الكبائر؟ قال: هي تسع. قلت: ما هي؟ قال: الإشراف بالله، وقذف المحصنة - قال: قلت: قبل القتل^(٢)؟ قال: نعم ورغماً - وقتل النفس المؤمنة، والفرار من الزحف، والسحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وعقوق الوالدين المسلمين، وإلحاد بالبيت الحرام، قبلتكم أحياء وأمواتاً^(٣).

هكذا رواه من هذين الطريقين موقوفاً، وقد رواه علي بن الجعد، عن أيوب بن عتبة، عن طيسلة ابن علي [النهدى]^(٤) قال: أتيت ابن عمر عَشِيَّةَ عَرَفَةَ، وهو تحت ظلِّ أراكَة، وهو يَصُبُّ الماء على رأسه، فسألته عن الكبائر، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هُنَّ سبع». قال: قلت: وما هُنَّ؟ قال: «الإشراف بالله، وقذف المحصنة^(٥) - قال: قلت: قبل^(٦) الدم؟ قال: نعم ورغماً - وقتل النفس المؤمنة، والفرار من الزحف، والسحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وعقوق الوالدين، وإلحاد^(٧) بالبيت الحرام قبلتكم أحياء وأمواتاً».

وكذا رواه الحسن بن موسى الأشيب، عن أيوب بن عتبة اليماني - وفيه ضعف^(٨) - والله أعلم. حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا زكريا بن عدي، حدثنا بَقِيَّةٌ، عن بَحِيرِ بْنِ سَعْدٍ^(٩)، عن خالد بن معدان: أن أبا رُهم السمعى حدثهم، عن أبي أيوب قال: قال رسول الله ﷺ: «من عبد الله لا يُشْرِكُ به شيئاً، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وصام رمضان، واجتنب الكبائر، فله الجنة - أو دخل الجنة -» فسأله رجل: ما الكبائر؟ فقال^(١٠): «الشرك بالله، وقتل نفس مسلمة، والفرار يوم الزحف». ورواه أحمد أيضاً، والنسائي، من غير وجه، عن بَقِيَّةٍ^(١١).

حديث آخر: روى الحافظ أبو بكر ابن مردويه في تفسيره، من طريق سليمان بن داود اليماني - وهو ضعيف - عن الزهري، عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه، عن جده قال: كتب رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن كتاباً فيه الفرائض والسنن والديات، وبعث به مع عمرو بن حزم، قال: وكان في الكتاب: «إن أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة: إشراف بالله، وقتل النفس المؤمنة بغير حق، والفرار في سبيل الله يوم الزحف، وعقوق الوالدين، ورَمَى المحصنة، وتعلّم السحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم»^(١٢).

(١) في أ: «قال: قلت».

(٢) في ر، أ: «قتل النفس».

(٣) تفسير الطبري (٨ / ٢٤٠).

(٤) زيادة من أ.

(٥) في د: «المحصنات».

(٦) في ج: «قتل».

(٧) في ج، ر: «والإلحاد».

(٨) رواه البغوي في الجعديات، وروى الخرائطي في مساوئ الأخلاق برقم (٢٤٧) من طريق حسين بن محمد المروزي عن أيوب بن عتبة بنحوه، وأيوب بن عتبة ضعيف. ورواه عكرمة بن عمار عن طيسلة بن علي: أن ابن عمر كان ينزل الأراك يوم عرفة.

أخرجه أبو داود في المسائل (١١٨).

(٩) في ج، ر، أ: «يحيى بن سعيد».

(١٠) في ر: «قال».

(١١) المسند (٥ / ٤١٣) وسنن النسائي (٧ / ٨٨).

(١٢) ورواه الحاكم في المستدرک (١ / ٣٩٥) من طريق يحيى بن حمزة عن سليمان بن داود به، وقال الحاكم: «هذا حديث كبير مفسر في هذا الباب، وسليمان بن داود الخولاني معروف بالزهري وإن كان يحيى بن معين غمزّه فقد عدله غيره ثم ذكر قول أبي حاتم وأبي زرعة: «سليمان بن داود الخولاني عندنا ممن لا بأس به».

حديث آخر: فيه ذكر شهادة الزور؛ قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، حدثني عبيد الله^(١) بن أبي بكر قال: سمعت أنس بن مالك قال: ذكر رسول الله ﷺ الكبائر - أو سئل عن الكبائر - فقال: «الشُّرْكُ بالله، وقَتْلُ النفس، وعُقُوقُ الوالدين». وقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قال: «قول الزور - أو شهادة الزور». قال شعبة: أكبر ظني أنه قال: «شهادة الزور»^(٢).

أخرجه من حديث شعبة^(٣)، به. وقد رواه ابن مردويه من طريقين آخرين غريبين عن أنس، بنحوه^(٤).

حديث آخر: أخرجه^(٥) الشيخان أيضا من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر، عن أبيه قال: قال النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟»، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين» وكان متكئا فجلس فقال: «ألا وشهادة الزور، ألا وقول الزور». فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت^(٦).

حديث آخر: فيه ذكر قتل الولد، وهو ثابت في الصحيحين، عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أى الذنب أعظم؟ - وفي رواية: أكبر - قال: «أن تجعل لله ندا وهو خلقك». قلت: ثم أى؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك». قلت: ثم أى؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ [وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا]﴾^(٧) إلى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ [الفرقان: ٦٨]^(٨).

حديث [آخر]^(٩): فيه ذكر شرب الخمر. قال ابن أبي حاتم: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، حدثني أبو صخر: أن رجلا حدثه عن عمارة بن حزم أنه سمع عبد الله بن عمرو ابن العاص وهو بالحجر^(١٠) بمكة، وسئل عن الخمر، فقال: والله إن عظيماً عند الله الشيخ مثلى يكذب في هذا المقام على رسول الله ﷺ، فذهب فسأله، ثم رجع فقال: سألته عن الخمر فقال: «هى أكبر الكبائر، وأم الفواحش، من^(١٢) شرب الخمر ترك الصلاة ووقع على أمه وخالته وعمته»^(١٣). غريب من هذا الوجه.

طريق أخرى: رواها الحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث^(١٤) عبد العزيز بن محمد الدراوردي، عن داود بن صالح، عن سالم بن عبد الله، عن أبيه: أن أبا بكر الصديق، رضى الله عنه، وعمر بن

(١) فى ج، ر، أ: «عبد الله»، وفى ر: «محمد» وهو خطأ والصحيح عبيد الله وانظر: من مسند الإمام أحمد ٣ / ١٣١.

(٢) المسند (١٣١ / ٣).

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٩٧٧) وصحيح مسلم برقم (٨٨).

(٤) فى ر: «نحوه». (٥) فى أ: «أخرجه».

(٦) زيادة من ج، ر، أ.

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٩٧٦) وصحيح مسلم برقم (٨٧).

(٨) صحيح البخارى برقم (٤٤٧٧) وصحيح مسلم برقم (٦٨).

(٩) زيادة من أ.

(١٠) فى ج، ر، أ: «وهو فى الحجر».

(١١) فى أ: «على نبي الله».

(١٢) فى ر: «ثم».

(١٣) ورواه الطبرانى من طريق آخر كما فى المجمع (٦٨ / ٥) وقال الهيثمى: «عتاب لم أعرفه وابن لهيعة حديثه حسن وفيه ضعف».

(١٤) فى أ: «طريق».

الخطاب وأناساً من أصحاب رسول الله ﷺ، رضى الله عنهم أجمعين، جلسوا^(١) بعد وفاة رسول الله ﷺ، فذكروا أعظم الكبائر، فلم يكن عندهم ما ينتهون إليه، فأرسلوني إلى عبد الله بن عمرو بن العاص أسأله عن ذلك، فأخبرني أن أعظم الكبائر شرب الخمر، فاتيتهم فأخبرتهم، فأنكروا ذلك، فوثبوا إليه حتى أتوه في داره، فأخبرهم أنهم تحدثوا عند رسول الله ﷺ أن ملكاً من بنى إسرائيل أخذ رجلاً فخير بين أن يشرب خمرأً أو يقتل نفساً، أو يزاني^(٢)، أو يأكل لحم خنزير، أو يقتله^(٣). فاختر شرب الخمر^(٤)، وإنه لما شربها لم يمتنع من شيء أراده^(٥) منه، وإن رسول الله ﷺ قال لنا مجيباً: «ما من أحد يشرب خمرأً إلا لم تقبل له صلاة أربعين ليلة، ولا يموت أحد وفي مثانته منها شيء إلا حرم الله عليه الجنة، فإن مات في أربعين ليلة مات ميتة جاهلية».

هذا حديث غريب من هذا الوجه جداً، وداود بن صالح هو التمار^(٦) المدني مولى الأنصار، قال الإمام أحمد: لا أرى به بأساً. وذكره ابن حبان في الثقات، ولم أر أحداً جرحه^(٧).

حديث آخر: عن عبد الله بن عمرو وفيه ذكر اليمين الغموس. قال الإمام أحمد: حدثنا محمد ابن جعفر، حدثنا شعبة، عن فراس، عن الشعبي، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال: «أكبر الكبائر الإشرأء بالله، وعقوق الوالدين، أو قتل النفس - شعبة الشاك - واليمين الغموس» رواه البخاري والترمذي والنسائي من حديث شعبة: زاد البخاري وشيخان، كلاهما عن فراس، به^(٨).

حديث آخر: في اليمين الغموس: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح كاتب الليث، حدثني الليث بن سعد، حدثنا هشام بن سعد، عن محمد بن زيد بن مهاجر بن قنفذ التيمي، عن أبي أمامة الأنصاري، عن عبد الله بن أنيس الجهني، عن رسول الله ﷺ قال: أكبر^(٩) الكبائر الشرك بالله، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس، وما حلف حالف بالله يمين صبر فأدخل فيها مثل جناح البعوضة، إلا كانت وكفة في قلبه إلى يوم القيامة. وهكذا رواه [الإمام]^(١٠) أحمد في مسنده، وعبد بن حميد في تفسيره، كلاهما، عن يونس بن محمد المؤدب، عن الليث بن سعد، به. وأخرجه الترمذي [في تفسيره]^(١١) عن عبد بن حميد [به]^(١٢). ثم قال: وهذا حديث حسن غريب، وأبو أمامة الأنصاري هذا هو ابن ثعلبة، ولا يعرف^(١٣) اسمه. وقد روى عن النبي ﷺ أحاديث^(١٤).

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزني: وقد رواه عبد الرحمن بن إسحاق المدني، عن محمد بن زيد، عن عبد الله بن أبي أمامة، عن أبيه، عن عبد الله بن أنيس. فزاد عبد الله بن أبي أمامة.

قلت: هكذا وقع في تفسير ابن مردويه وصحيح ابن حبان، من طريق عبد الرحمن بن

(١) في ر: «كانوا جلوساً». (٢) في أ: «أو يزني». (٣) في أ: «أو يقتلوه».

(٤) في ج، د، ر: «فاختر أن يشرب الخمر». (٥) في أ: «أرادوه». (٦) في د: «اليماني».

(٧) ورواه الحاكم في المستدرك (١٤٧/٤) والطبراني في المعجم الأوسط برقم (١٣٨) «مجمع البحرين» كلاهما من طريق سعيد بن أبي مريم عن الدراوردي به.

وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» وسكت عنه الذهبي.

وقال الهيثمي في المجمع (٦٨/٥): «رجاله رجال الصحيح خلا صالح بن داود التمار وهو ثقة».

(٨) المسند (٢٠١/٢) وصحيح البخاري برقم (٦٦٧٥) وسنن الترمذي برقم (٣٠٢١) وسنن النسائي (٦٣/٨).

(٩) في ر، أ: «من أكبر». (١٠) زيادة من أ. (١١) زيادة من أ.

(١٢) في أ: «ولا نعرف».

(١٤) سنن الترمذي (٣٠٢).

إسحاق^(١)، كما ذكره^(٢) شيخنا، فسح الله في أجله^(٣).

حديث آخر: عن عبد الله بن عمرو، فى التسبب إلى شتم الوالدين. قال ابن أبى حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودى، حدثنا وكيع، عن مسعر وسفيان، عن سعد بن إبراهيم، عن حميد بن عبد الرحمن، عن عبد الله بن عمرو - رفعه سفيان إلى النبى ﷺ، ووقفه مسعر على عبد الله بن عمرو - قال: «من الكبائر أن يشتم الرجل والديه»: قالوا: وكيف يشتم الرجل والديه؟ قال: «يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه»^(٤).

وقد أخرج هذا الحديث البخارى عن أحمد بن يونس، عن إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، عن أبيه، عن عمه حميد بن عبد الرحمن بن عوف، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه». قالوا: وكيف يلعن الرجل والديه؟! قال: «يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه».

وهكذا رواه مسلم من حديث سفيان وشعبة ويزيد بن الهاد، ثلاثهم عن سعد بن إبراهيم، به، مرفوعاً بنحوه. وقال الترمذى: صحيح^(٥).

وثبت فى الصحيح^(٦) عن رسول الله ﷺ أنه قال: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»^(٧).

حديث آخر فى ذلك: قال ابن أبى حاتم: حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم دحيم، حدثنا عمرو بن أبى سلمة، حدثنا زهير بن محمد، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «من أكبر الكبائر عرض الرجل المسلم، والسبتان والسبة»^(٨)^(٩).

هكذا روى هذا الحديث، وقد أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب فى سنته، عن جعفر بن مسافر، عن عمرو بن أبى سلمة، عن زهير بن محمد، عن العلاء، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «من أكبر^(١٠) الكبائر استطالة المرء^(١١) فى عرض رجل مسلم بغير حق، ومن الكبائر السبتان^(١٢) بالسبة».

وكذا رواه ابن مردويه من طريق عبد الله بن العلاء بن زير^(١٣)، عن العلاء، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، فذكر مثله^(١٤).

حديث آخر: فيه ذكر الجمع بين الصلاتين من غير عذر؛ قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا

(١) فى ر: «إسماعيل».

(٢) تحفة الأشراف (٢٧٥/٤) برقم (٥١٤٧) وصحيح ابن حبان برقم (١١٩١) «موارد».

(٤) ورواه أحمد فى مسنده (١٦٤/٢) من طريق وكيع به.

(٥) صحيح البخارى برقم (٥٩٧٣) وصحيح مسلم برقم (٩٠) وسنن الترمذى برقم (١٩٠٢).

(٦) فى أ: «الصحيحين».

(٧) رواه البخارى برقم (٤٨) ومسلم برقم (٦٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

(٨) فى د: «والمستبان بالسبة».

(٩) ذكره السيوطى فى الدر المنثور.

(١١) فى ر: «المسب».

(١٠) فى أ: «إن من أكبر».

(١٢) فى د: «المستبان».

(١٤) سنن أبى داود برقم (٤٨٧٧).

نُعَيْمُ بْنُ حَمَادٍ، حَدَّثَنَا مُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ حَنْشٍ^(١)، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ جَمَعَ بَيْنَ الصَّلَاتَيْنِ مِنْ غَيْرِ عُدْرٍ، فَقَدْ أَتَى أَبَا مِنْ أَبْوَابِ الْكِبَائِرِ». وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو عِيْسَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ يَحْيَى بْنِ خَلْفٍ، عَنْ الْمُعْتَمِرِ بْنِ سُلَيْمَانَ، بِهِ. ثُمَّ قَالَ: حَنْشٌ^(٢) هُوَ أَبُو^(٣) عَلَى الرَّحْبِيِّ، وَهُوَ^(٤) حُسَيْنُ بْنُ قَيْسٍ، وَهُوَ ضَعِيفٌ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ، ضَعَفَهُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ^(٥).

وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ الصَّبَّاحِ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَلِيٍّ، عَنْ خَالِدِ الْحِذَاءِ، عَنْ حَمِيدٍ^(٦) بْنِ هَلَالٍ، عَنْ أَبِي قَتَادَةَ - يَعْنِي الْعَدَوِيَّ - قَالَ: قُرِئَ عَلَيْنَا كِتَابُ عَمْرِ: مِنَ الْكِبَائِرِ جَمْعُ بَيْنِ الصَّلَاتَيْنِ - يَعْنِي بَغِيرٌ^(٧) عَذْر - وَالْفِرَارُ مِنَ الرَّحْفِ، وَالنُّهْبَةِ.

وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ: وَالْغُرُضُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ الْوَعِيدُ فِيْمَنْ جَمَعَ بَيْنَ الصَّلَاتَيْنِ كَالظُّهْرِ وَالْعَصْرِ، تَقْدِيمًا أَوْ تَأْخِيرًا، وَكَذَا الْمَغْرِبُ وَالْعِشَاءُ هُمَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَجْمَعَ بِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ الشَّرْعِيَّةِ، فَإِذَا تَعَاطَاهُ أَحَدٌ بِغَيْرِ شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْأَسْبَابِ يَكُونُ مَرْتَكِبًا كَبِيرَةً، فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يَتْرُكُ الصَّلَاةَ بِالْكُلِّيَّةِ؟ وَلِهَذَا رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الشَّرْكِ تَرْكُ الصَّلَاةِ»^(٨) وَفِي السَّنَنِ عَنْهُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُ قَالَ: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ^(٩) الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»^(١٠). وَقَالَ: «مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ فَقَدْ حَبَطَ عَمَلُهُ»^(١١). وَقَالَ: «مَنْ فَاتَتْهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ فَكَأَنَّمَا وَتَرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ»^(١٢).

حَدِيثٌ آخَرٌ: فِيهِ الْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ. قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ أَبِي عَاصِمٍ النَّبِيلِ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا شَيْبِيبُ بْنُ بِشْرٍ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ مَتَكْنُفًا فَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ: مَا الْكِبَائِرُ؟ فَقَالَ: «الشَّرْكُ بِاللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ، وَهَذَا أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ».

وَقَدْ رَوَاهُ الْبَزَارُ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِسْحَاقَ الْعِطَارِ، عَنْ أَبِي عَاصِمٍ النَّبِيلِ، عَنْ شَيْبِيبِ بْنِ بِشْرٍ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْكِبَائِرُ؟ قَالَ: «الْإِشْرَاكُ^(١٣) بِاللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».

(١)، (٢) فِي جَدِّ: حَبِيشٌ، وَفِي أ: «حَنِيسٌ». (٣) فِي أ: «هَذَا أَبُو». (٤) فِي ر: «هُوَ».

(٥) سَنَنُ التِّرْمِذِيِّ بِرَقْمِ (١٨٨).

(٦) فِي أ: «حَسَنٌ». (٧) فِي أ: «مِنْ غَيْرِ».

(٨) صَحِيحُ مُسْلِمٍ بِرَقْمِ (٨٢) مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٩) فِي ر: «وَبَيْنَهُمْ تَرْكُ الصَّلَاةِ».

(١٠) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي السَّنَنِ بِرَقْمِ (٢٦٢١) وَالنَّسَائِيُّ فِي السَّنَنِ (٢٣١/١) وَابْنُ مَاجَةَ فِي السَّنَنِ بِرَقْمِ (١٠٧٩) مِنْ حَدِيثِ بَرِيدَةَ بْنِ الْحَصِيبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ بِرَقْمِ (٥٥٣) وَالنَّسَائِيُّ فِي السَّنَنِ (٢٣٦/١) مِنْ حَدِيثِ بَرِيدَةَ بْنِ الْحَصِيبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١٢) رَوَاهُ النَّسَائِيُّ (٢٣٨/١) مِنْ حَدِيثِ نُوْفَلِ بْنِ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١٣) فِي د: «الشَّرْكُ».

وفى إسناده نظراً، والأشبه أن يكون موقوفاً، فقد روى عن ابن مسعود نحوه ذلك^(١)، قال ابن جرير:

حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيْمٌ، أخبرنا مطرف، عن وبرة بن عبد الرحمن، عن أبي الطفيل قال: قال ابن مسعود: أكبر الكبائر الإشراك بالله، والإياس^(٢) من رَوْحِ الله، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله.

وكذا رواه من حديث الأعمش وأبي إسحاق، عن وبرة، عن أبي الطفيل، عن ابن مسعود، به. ثم رواه من طريق عدة، عن أبي الطفيل، عن ابن مسعود. وهو صحيح إليه بلا شك^(٣).

حديث آخر: فيه سوء الظن بالله؛ قال ابن مردويه: حدثنا محمد بن إبراهيم بن بُندار، حدثنا أبو حاتم بكر بن عبدان، حدثنا محمد بن مهاجر^(٤)، حدثنا أبو حذيفة^(٥) البخاري، عن محمد بن عجلان، عن نافع، عن ابن عمر أنه قال: [قال رسول الله ﷺ]: «أكبر الكبائر سوء الظن بالله عز وجل». حديث غريب جداً.

حديث آخر: فيه التعرب^(٦) بعد الهجرة، قد تقدم في رواية عمرو^(٨) بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة مرفوعاً، قال^(٩) أبو بكر ابن مردويه: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا أحمد بن رشدين، حدثنا عمرو بن خالد الحراني، حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب، عن محمد بن سهل بن أبي حثمة^(١٠)، عن أبيه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «الكبائر سبع، ألا تسألوني عنهن؟ الشرك بالله، وقتل النفس، والفرار يوم الزحف، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، وقذف المحصنة، والتعرب^(١١) بعد الهجرة».

وفى إسناده نظراً، ورفع غلط فاحش^(١٢)، والصواب ما رواه ابن جرير:

حدثنا تميم بن المنتصر، أخبرنا يزيد، أخبرنا محمد بن إسحاق، عن محمد بن سهل بن أبي حثمة^(١٣)، عن أبيه قال: إني لفي هذا المسجد - مسجد الكوفة - وعلى، رضى الله عنه، يخطب الناس على المنبر، فقال: يا أيها الناس، الكبائر^(١٤) سبع. فأصاخ^(١٥) الناس، فأعادها ثلاث مرات، ثم

(١) مسند البزار برقم (١٠٦) «كشف الأستار»، وقال الهيثمي في المجمع (١٠٤/١): «رجاله موثقون».

(٢) في ج، ر، د، أ: «اليأس».

(٣) تفسير الطبري (٢٤٣/٨، ٢٤٤) ورواه عبد الرزاق في المصنف برقم (١٩٧٠١) ومن طريقه الطبراني في المعجم الكبير (١٧١/٩) - من طريق أبي إسحاق عن وبرة به.

ورواه ابن أبي الدنيا في التوبة برقم (٣١) من طريق الأعمش عن وبرة به.

(٤) في أ: «محمد بن عمر بن مهاجر». (٥) في أ: «أبو حذيفة إسحاق». (٦) زيادة من أ.

(٧) في ر: «التعرب». (٨) في أ: «عمر». (٩) في أ: «وقال».

(١٠) في ج، أ: «ابن أبي خيثمة». (١١) في ر: «التعرب».

(١٢) وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه مرفوعاً، ذكر فيها هذه السبع. رواه الطبراني في المعجم الأوسط (١٢٦) «مجمع البحرين» قال الهيثمي في المجمع (١٠٤/١): «فيه أبو بلال الأشعري وهو ضعيف».

(١٣) في ر، أ: «خيصة». (١٤) في أ: «إن الكبائر». (١٥) في ر: «أصاخ»، وفي أ: «فأصاخ».

قال: لم لا^(١) تسألونى عنها؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، ما هى؟ قال: الإشراف بالله، وقتل النفس التى حرم الله^(٢)، وقذف المحصنة، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والفرار يوم الزحف، والتعرب بعد الهجرة. فقلت لأبى: يا أبت، التعرب^(٣) بعد الهجرة، كيف لحق هاهنا؟ قال: يا بنى، وما أعظم من أن يهاجر الرجل، حتى إذا وقع سهمه فى الفء، ووجب عليه الجهاد خلع ذلك من عنقه فرجع أعرابياً كما كان^(٤).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا أبو معاوية - يعنى شيبان - عن منصور، عن هلال بن يساف، عن سلمة بن قيس الأشجعي قال: قال رسول الله ﷺ فى حجة الوداع: «ألا إنما هن أربع: ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا». قال: فما أنا^(٥) بأشج^(٦) عليهن منى، إذ سمعتن من رسول الله ﷺ.

ثم رواه أحمد أيضاً والنسائي وابن مردويه، من حديث منصور، بإسناده مثله^(٧).

حديث آخر: تقدم من رواية عمر بن المغيرة، عن داود بن أبى هند، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال: «الإضرار فى الوصية من الكبائر». والصحيح ما رواه غيره، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس [قوله] قال ابن أبى حاتم: وهو الصحيح عن ابن عباس من قوله.

حديث آخر فى ذلك: قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثنا عباد بن عباد، عن جعفر بن الزبير، عن القاسم، عن أبى أمامة؛ أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ^(٨) ذكروا الكبائر وهو متكئ، فقالوا: الشرك بالله، وأكل مال اليتيم، وفرار من الزحف، وقذف المحصنة، وعقوق الوالدين، وقول الزور، والغلول، والسحر، وأكل الربا، فقال رسول الله ﷺ: «فأين تجعلون ﴿الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧]؟! إلى آخر الآية. فى إسناده ضعف، وهو حسن^(٩).

ذكر أقوال السلف فى ذلك:

قد تقدم ما روى عن أمير المؤمنين عمر وعلى، رضى الله عنهما، فى ضمن الأحاديث المذكورة. وقال ابن جرير:

حدثنى يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، عن ابن عون، عن الحسن: أن ناساً سألوا^(١٠) عبد الله بن عمرو بمصر فقالوا: نرى أشياء من كتاب الله، أمر أن يعمل بها، لا يعمل بها، فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين فى ذلك؟ فقدم وقدموا معه، فلقى^(١١) عمر، رضى الله عنه، فقال: متى قدمت؟

(١) فى أ: «قال ألا». (٢) فى أ: «حرم الله قتلها». (٣) فى ر: «التعرب».

(٤) تفسير الطبرى (٢٣٥/٨).

(٥) فى أ: «فما لنا». (٦) فى ر: «بأشج».

(٧) المسند (٣٣٩/٤) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٣٧٣).

(٨) فى ج، د، ر: «رسول الله».

(٩) تفسير الطبرى (٢٥١/٨).

(١٠) فى ج، د، أ: «لقوا». (١١) فى ج، د، ر، أ: «فلقى».

فقال: منذ كذا وكذا قال: أياذن قدمت؟ قال: فلا أدري كيف رد عليه. فقال: يا أمير المؤمنين، إن ناسا لقونى بمصر فقالوا: إنا نرى أشياء من كتاب الله، أمر أن يعمل بها فلا^(١) يعمل بها^(٢)، فأحبوا أن يلقوك فى ذلك فقال: اجمعهم لى. قال: فجمعتهم له - قال ابن عون: أظنه قال: فى بهو - فأخذ أدناهم رجلا فقال: نشدتك^(٣) بالله وبحق الإسلام عليك، أقرأت القرآن كله؟ قال: نعم. قال: فهل أحصيته فى نفسك؟ قال: اللهم لا. قال: ولو قال: نعم لخصمه. قال: فهل أحصيته فى بصرك؟ فهل^(٤) أحصيته فى لفظك؟ هل أحصيته فى أملك^(٥)؟ ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم. قال: فثكلت عمر أمه. أتكلّفونه أن يقيم الناس على كتاب الله؟! قد علم ربنا أنه ستكون^(٦) لنا سيئات. قال: وتلا: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾^(٧) ثم قال: هل علم أهل المدينة - أو قال: هل علم أحد - بما^(٨) قدمتم؟ قالوا: لا. قال: لو علموا لوعظت بكم.

إسناد حسن^(٩) ومتن حسن، وإن كان من رواية الحسن عن عمر، وفيها انقطاع، إلا أن مثل هذا اشتهر^(١٠) فتكفى^(١١) شهرته^(١٢).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو أحمد - يعنى الزبيرى - حدثنا على بن صالح، عن عثمان بن المغيرة، عن مالك بن جوين، عن على، رضى الله عنه، قال: الكبائر الإشرار بالله، وقتل النفس، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، والفرار من الزحف، والتعرب بعد الهجرة، والسحر، وعقوق الوالدين، وأكل الربا، وفراق الجماعة، ونكث الصفقة.

وتقدم عن ابن مسعود أنه قال: أكبر الكبائر الإشرار بالله، واليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله، عز وجل.

وروى ابن^(١٣) جرير، من حديث الأعمش، عن أبى الضحى، عن مسروق، والأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، كلاهما عن ابن مسعود قال: الكبائر من أول سورة النساء إلى ثلاثين آية منها. ومن حديث سفيان الثورى وشعبة، عن عاصم بن أبى النجود، عن زر بن حبیش، عن ابن مسعود قال: الكبائر من أول سورة النساء إلى ثلاثين آية منها ثم تلا: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ [نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا]﴾^(١٤).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا صالح بن حيان، عن ابن بريدة، عن أبيه قال: أكبر الكبائر: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، ومنع فضول الماء بعد الرى، ومنع طروق^(١٥) الفحل إلا بجعل.

(١) فى أ: «لا». (٢) فى ج، د: «لا يعمل» وفى ر: «نعمل بها فلا نعمل». (٣) فى د: «أنشدك». (٤) فى ج: «هل». (٥) فى أ: «فى أترك». (٦) فى ج، د، ر: «سيكون». (٧) زيادة من ج، ر، أ، وفى هـ: «الآية». (٨) فى ج، أ: «فيما». (٩) فى ج، أ: «جيد». (١٠) فى ج، د، أ، ر: «يشتهر». (١١) فى ج، أ: «فيكفى». (١٢) تفسير الطبرى (٢٥٥/٨). (١٣) فى د: «عن». (١٤) زيادة من ج، ر، أ، وفى هـ: «الآية». (١٥) فى د: «عروق».

وفى الصحيحين، عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا يُمْنَعُ فَضْلُ الْمَاءِ لِيَمْنَعَ بِهِ الْكَلَاءُ»^(١). وفيهما عنه ﷺ أنه قال: «ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ: رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِالْفَلَاءِ يَمْنَعُهُ ابْنُ السَّيْلِ»، وذكر الحديث بتمامه^(٢).

وفى مسند الإمام أحمد، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده مرفوعاً: «مَنْ مَنَعَ فَضْلَ الْمَاءِ وَفَضْلَ الْكَلَاءِ، مَنَعَهُ اللَّهُ فَضْلَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسين بن محمد بن شنبه^(٤) الواسطي، حدثنا أبو أحمد حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، عن عائشة، قالت: ما أخذَ عليّ النساء من الكبائر. قال ابن أبي حاتم: يعنى^(٥) قوله: ﴿عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَنَّ وَلَا يَزْنِيَنَّ وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهَتَّانٍ يَفْتَرِيَنَّ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعَصِيَنَّكَ﴾^(٦) الآية [الممتحنة: ١٢].

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علي، حدثنا زياد بن مخرق، عن معاوية بن قرة قال: أتينا أنس بن مالك، فكان فيما حدثنا قال: لم أر مثل الذي بلغنا عن ربنا تعالى^(٧)، ثم^(٨) لم نخرج له عن كل أهل ومال. ثم سكت هنية^(٩) ثم قال: والله لما كلفنا^(١٠) ربنا أهون من ذلك، لقد تجاوز لنا عما دون الكبائر، فما لنا ولها، ثم تلا: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾^(١١).

أقوال ابن عباس في ذلك:

روى ابن جرير، من حديث المعتمر^(١٢) بن سليمان، عن أبيه، عن طاوس قال: ذكروا عند ابن عباس الكبائر فقالوا: هي سبع، فقال: هي أكثر من سبع وسبع. قال سليمان: فما أدرى كم قالها من مرة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا قبيصة، حدثنا سفيان، عن ليث، عن طاوس قال: قلت لابن عباس: ما السبع الكبائر؟ قال: هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع.

ورواه ابن جرير، عن ابن حميد، عن جرير، عن ليث، عن طاوس قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: رأيت الكبائر السبع التي ذكرهن^(١٣) الله؟ ما هن؟ قال: هن إلى السبعين أدنى منهن إلى سبع^(١٤).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن طاوس، عن أبيه قال: قيل لابن عباس: الكبائر سبع؟ قال: هن إلى السبعين أقرب، وكذلك قال أبو العالية الرياحي، رحمه الله.

(١) صحيح البخاري برقم (٢٣٥٣) وصحيح مسلم برقم (١٥٦٦) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه.

(٢) صحيح البخاري برقم (٢٣٥٨) وصحيح مسلم برقم (١٠٨) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه.

(٣) المسند (١٧٩/٢).

(٤) فى ج، د، ر، أ: «شبية». (٥) فى أ: «تعنى».

(٦) فى ج: «عز وجل». (٧) فى أ: «فقال: ثم».

(٨) فى ر: «ما خلقنا». (٩) زيادة من ج، ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(١٠) فى ج، د، ر: «معتمر». (١١) فى د: «ذكرها».

(١٢) فى أ: «السبع».

وقال ابن جرير: حدثنا المثني، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل، عن قيس بن سعد، عن سعيد بن جبيرة؛ أن رجلا قال لابن عباس: كم الكبائر؟ سبع؟ قال: هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار. وكذا رواه ابن أبي حاتم، من حديث شبل، به.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ تَجْتَبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قال: الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب. ورواه ابن جرير.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن حرب الموصلي، حدثنا ابن فضيل، حدثنا شبيب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: الكبائر: كل ما وعد الله عليه النار كبيرة. وكذا قال سعيد بن جبيرة، والحسن البصري.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عليه، أخبرنا أيوب، عن محمد بن سيرين قال: نبئت أن ابن عباس كان يقول: كل ما نهى الله عنه كبيرة. وقد ذكرت الطرفة [فيه]^(١)، قال: هي النظرة.

وقال أيضا: حدثنا أحمد بن حازم، أخبرنا أبو نعيم، حدثنا عبد الله بن معدان، عن أبي الوليد قال: سألت ابن عباس عن الكبائر فقال^(٢): هي كل شيء عصي الله فيه فهو كبيرة.

أقوال التابعين:

قال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، عن ابن عون، عن محمد قال: سألت عبيدة عن الكبائر، فقال: الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرم الله بغير حقها، وفرار يوم الزحف، وأكل مال اليتيم بغير حقه، وأكل الربا، والبهتان. قال: ويقولون: أعرابية بعد هجرة. قال ابن عون: فقلت لمحمد: فالسحر؟ قال: إن البهتان يجمع شرا كبيرا^(٣).

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن عبيد المحاربي^(٤)، حدثنا أبو الاحوص سلام بن سليم، عن أبي إسحاق، عن عبيد بن عمير قال: الكبائر سبع، ليس منهن كبيرة إلا وفيها آية من كتاب الله: الإشراك بالله منهن: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتُخَطَفُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ﴾ [الحج: ٣١]، و﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠]، و﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، و﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النور: ٢٣]، والفرار من الزحف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾^(٥) [الأنفال: ١٥]، والتعرب^(٦) بعد الهجرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ [محمد: ٢٥]، وقتل المؤمن: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ الآية [النساء: ٩٣].

وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث أبي إسحاق، عن عبيد، بنحوه.

(٤) في ر: «المغاري».

(٣) في أ: «كثيرا».

(٢) في ج: «قال».

(٦) في ر: «التعرب».

(٥) زيادة من ج، ر، أ، وفي هـ: «الآية».

وقال ابن جرير: حدثنا المثنى، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل، عن ابن أبي نَجِيج، عن عطاء - يعنى ابن أبي رباح - قال: الكبائر سبع: قتل النفس، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، ورمى المحصنة، وشهادة الزور، وعقوق الوالدين، والفِرَار من الزحف.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن مغيرة قال: كان يقال شتمُ أبي بكر وعمر، رضى الله عنهما، من الكبائر.

قلت: وقد ذهب طائفة من العلماء إلى تكفير من سبَّ الصحابة، وهو رواية عن مالك بن أنس، رحمه الله: وقال محمد بن سيرين: ما أظن أحد ينتقص^(١) أبا بكر، وعمر، وهو يحب رسول الله ﷺ. رواه الترمذى.

وقال ابن أبي حاتم أيضا: حدثنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عبد الله بن عيَّاش، قال^(٢) زيد بن أسلم فى قول الله عز وجل: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾: من الكبائر: الشرك، والكفر بآيات الله ورسله، والسحر، وقتل الأولاد، ومن دعا لله ولدا أو صاحبة، ومثل ذلك من الأعمال، والقول الذى لا يصلح^(٣) معه عمل، وأما كل ذنب يصلح معه دين، ويقبل معه عمل فإن الله يغفر السيئات بالחסنات.

وقال ابن جرير: حدثنا بشر بن معاذ، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآية: إنما وعد الله المغفرة لمن اجتنب الكبائر. وذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: «اجْتَنِبُوا الْكَبَائِرَ، وَسَدِّدُوا، وَأَبْشِرُوا».

وقد روى ابن مردويه من طُرق عن أنس، وعن جابر مرفوعا: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي»^(٤). ولكن فى إسناده من جميع طرقه ضعف، إلا ما رواه عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي». فإنه إسناده صحيح على شرط الشيخين^(٥)، وقد رواه أبو عيسى الترمذى منفردا به من هذا الوجه، عن عباس العنبرى، عن عبد الرزاق ثم قال: هذا حديث حسن صحيح^(٦). وفى الصحيح شاهد لمعناه، وهو قوله ﷺ بعد ذكر الشفاعة: «أَتَرُونَهَا لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ؟ لا، ولكنها للخاطئين المُتَلَوِّثِينَ».

وقد اختلف علماء الأصول والفروع فى حد الكبيرة، فمن قائل: هى ما عليه حدٌ فى الشرع.

(١) فى ج، د، ر: «يُبْغِضُ». (٢) فى ج، ر، أ: «قال: قال». (٣) فى أ: «لا يصح».

(٤) أما حديث أنس فله طرق منها: ما يرويه أبو بكر بن عيَّاش عن حميد عن أنس. أخرجه ابن أبي عاصم فى السنة برقم (٨٣١). وما يرويه عن ابن المبارك عن عاصم الأحول عن أنس رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٥٨/١) وابن أبي حاتم فى العلل (٢/٢٢٢)، وقال: سمعت أبى وأبا زرعة يقولان: هذا حديث منكر.

وما يرويه جعفر بن سليم الضبعى عن مالك بن دينار عن أنس. رواه ابن أبي حاتم فى العلل (٢/٧٩)، وقال: سمعت أبى يقول: هذا حديث منكر.

وما يرويه بستان بن حريث الصدفى عن أشعث عن أنس، رواه القضاعى فى مسند الشهاب برقم (٢٣٧).

وما يرويه أبو جناب سمع زياد النميرى سمع أنس، رواه القضاعى فى مسند الشهاب (٢٣٧). وأما حديث جابر فقد رواه ابن ماجة فى سننه برقم (٤٣١٠) من طريق جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر.

(٥) فى د: «شرطيها»، وفى ر: «شرط الشيخين».

(٦) سنن الترمذى برقم (٢٤٣٥).

ومنهم من قال: هى ما عليه وعيد لخصومه من الكتاب والسنة. وقيل غير ذلك.

قال أبو القاسم عبد الكريم بن محمد الرافعى، فى كتابه الشرح الكبير الشهير، فى كتاب الشهادات منه: ثم اختلف الصحابة، رضى الله [تعالى] ^(١) عنهم، فمن بعدهم فى الكبائر، وفى الفرق بينها وبين الصغائر، ول بعض الأصحاب ^(٢) فى تفسير الكبيرة وجوه:

أحدها: أنها المعصية الموجبة للحد.

والثانى: أنها المعصية التى يلحق صاحبها الوعيد الشديد بنص كتاب أو سنة. وهذا أكثر ما يوجد لهم، وهو ^(٣) إلى الأول أميل، لكن الثانى أوفق لما ذكره عند تفسير ^(٤) الكبائر.

والثالث: قال إمام الحرمين فى «الإرشاد» وغيره: كل جريمة تنبئ بقلّة اكتراث مرتكبها بالدين ورقة الديانة، فهى مبطلّة للعدالة.

والرابع: ذكر القاضى أبو سعيد ^(٥) الهروى أن الكبيرة: كل فعل نصّ الكتاب على تحريمه، وكل معصية توجب فى جنسها حداً من قتل أو غيره، وترك كل فريضة مأمور بها على الفور، والكذب فى الشهادة، والرواية، واليمين.

هذا ما ذكره على سبيل الضبط.

ثم قال: وفصل القاضى الرويانى فقال: الكبائر سبع: قتل النفس بغير الحق، والزنا، واللواط، وشرب الخمر، والسرقة، وأخذ المال غصباً، والقذف. وزاد فى «الشامل» على السبع المذكورة: شهادة الزور. وأضاف إليها صاحب العدة: أكل الربا، والإفطار فى رمضان بلا عذر، واليمين الفاجرة، وقطع الرحم، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف، وأكل مال اليتيم، والخيانة فى الكيل والوزن، وتقديم الصلاة على وقتها، وتأخيرها عن وقتها بلا عذر، وضرب المسلم بلا ^(٦) حق، والكذب على النبى ﷺ عمداً، وسب أصحابه، وكتمان الشهادة بلا عذر، وأخذ الرشوة، والقيادة بين الرجال والنساء، والسعاية عند السلطان، ومنع الزكاة، وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع القدرة، ونسيان القرآن بعد تعلمه، وإحراق الحيوان بالنار، وامتناع المرأة من زوجها بلا سبب، واليأس من رحمة الله، والأمن من مكر الله ^(٧)، ويقال: الوقعة فى أهل العلم وحملة القرآن. ومما يعد من الكبائر: الظهار، وأكل لحم الخنزير والميتة إلا عن ضرورة.

ثم قال الرافعى: وللتوقف مجال فى بعض هذه الخصال.

قلت: وقد صنف الناس فى الكبائر مصنفات، منها ما جمعه شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي ^(٨)، الذى بلغ نحو من سبعين كبيرة، وإذا قيل: إن الكبيرة [هى] ^(٩) ما توعّد الشارع عليها

(٢) فى أ: «وللأصحاب».

(١) زيادة من جـ.

(٤) فى جـ، ر، أ: «تفصيل».

(٣) فى جـ، أ: «وهم».

(٥) فى جـ، ر: «أبو سعد».

(٧) فى أ: «من مكروه».

(٦) فى أ: «بغير».

(٨) وقد طبع فى بيروت بتحقيق الأستاذ/ محيى الدين مستور.

(٩) زيادة من جـ، أ.

بالنار بخصوصها، كما قال ابن عباس، وغيره، وتتبع ذلك، اجتمع منه شيء كثير، وإذا قيل: كل ما نهى الله [تعالى] ^(١) عنه فكثير جداً، والله [تعالى] ^(٢) أعلم.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٣٢)﴾ .

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله، يغزو الرجال ولا نغزو، ولنا نصف الميراث. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ .

ورواه الترمذي عن ابن أبي عمر، عن سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن أم سلمة أنها قالت: قلت: يا رسول الله... فذكره، وقال: غريب ^(٣). ورواه بعضهم عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، أن أم سلمة قالت... .

ورواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن مردويه، والحاكم في مستدركه، من حديث الثوري، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله، لا نقاتل فنستشهد، ولا نقطع الميراث! فنزلت: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ ثم نزلت: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَى﴾ ^(٤) [آل عمران: ١٩٥].

ثم قال ابن أبي حاتم: وكذا روى سفيان بن عيينة، يعنى عن ابن أبي نجيح بهذا اللفظ. وروى يحيى القطان ووكيع بن الجراح، عن الثوري، وعن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن أم سلمة قالت: قلت: يا رسول الله... وروى عن مقاتل بن حيان وخُصِيف نحو ذلك.

وروى ابن جرير من حديث ابن جريج، عن عكرمة ومجاهد أنهما قالوا: نزلت في أم سلمة. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن شيخ من أهل مكة قال: نزلت هذه الآية في قول النساء: ليتنا الرجال فنجاهد كما يجاهدون، ونغزو في سبيل الله عز وجل.

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية، حدثني أحمد بن عبد الرحمن، حدثني أبي، حدثنا الأشعث بن إسحاق، عن جعفر - يعنى ابن أبي المغيرة - عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس في [قوله] ^(٥): ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ قال: أتت امرأة النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله، للذكر مثل حظ الأنثيين، وشهادة امرأتين برجل، فنحن ^(٦) في العمل هكذا، إن عملت امرأة حسنة كتبت لها نصف حسنة. فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا﴾، فإنه عدل مني، وأنا صنعته.

(١) زيادة من أ.

(٢) زيادة من جـ.

(٣) المسند (٣٢٢/٦) وسنن الترمذي برقم (٣٠٢٢).

(٤) تفسير الطبري (٢٦٢/٨) والمستدرک (٣٠٥/٢).

(٥) زيادة من و.

(٦) في أ: «أفنحن».

وقال السدى: قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ فإن الرجال قالوا: نريد أن يكون لنا من الأجر الضعف على أجر النساء، كما لنا فى السهام سهمان. وقالت النساء: نريد أن يكون لنا أجر مثل أجر الرجال الشهداء، فإننا لا نستطيع أن نقاتل، ولو كتب علينا القتال لقاتلنا فأبى الله ذلك، ولكن قال لهم: سلونى من فضلى قال: ليس بعرض الدنيا.

وقد روى عن قتادة نحو ذلك. وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ قال^(١): ولا يتمنى الرجل فيقول: «ليت لو أن لى مال فلان وأهله!» فنهى الله عن ذلك، ولكن ليسأل الله من فضله.

وكذا قال محمد بن سيرين والحسن والضحاك وعطاء نحو ذلك^(٢)، وهو الظاهر من الآية، ولا يرد على هذا ما ثبت فى الصحيح: «لا حَسَدَ إِلَّا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلَّطَه على هلكته فى الحق، فيقول رجل: لو أن لى مثل ما لفلان لَعَمَلْتُ مثله. فهما فى الأجر سواء»^(٣) فإن هذا شيء غير ما نهى الآية عنه، وذلك أن الحديث حَصَّ عَلَى تَمَنَّى مثل نعمة هذا، والآية نهت عن تَمَنَّى عَيْنِ نعمة هذا، فقال: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أى: فى الأمور الدنيوية، وكذا الدينية أيضا لحديث أم سلمة، وابن عباس. وهكذا قال عطاء بن أبى رباح: نزلت فى النهى عن تَمَنَّى ما لفلان، وفى تمنى النساء أن يكن رجالا فيغزون. رواه ابن جرير.

ثم قال: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ أى: كل له جزاء على عمله بحسبه، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. وهو^(٤) قول ابن جرير.

وقيل: المراد بذلك فى الميراث، أى: كل يرث بحسبه. رواه الترمذى^(٥) عن ابن عباس:

ثم أرشداهم إلى ما يصلحهم فقال: ﴿وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [أى]^(٦): لا تتمنوا ما فضل^(٧) به بعضكم على بعض، فإن هذا أمر محتوم، والتمنى لا يجدى شيئا، ولكن سلونى من فضلى أعطكم؛ فإننى كريم وهاب.

وقد روى الترمذى، وابن مردويه من حديث حماد بن واقد: سمعت إسرائيل عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «سَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ؛ فَإِنْ^(٨) الله يحب أن يسأل، وإن أفضل العبادة انتظار الفرج».

ثم قال الترمذى: كذا رواه حماد بن واقد، وليس بالحافظ، ورواه أبو نعيم، عن إسرائيل، عن حكيم بن جبير، عن رجل، عن النبى ﷺ، وحديث أبى نعيم أشبه أن يكون أصح^(٩).

وكذا رواه ابن مردويه من حديث وكيع، عن إسرائيل. ثم رواه من حديث قيس بن الربيع، عن

(١) فى ر، أ: «يقول».

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٠٢٦).

(٤) فى أ: «هذا».

(٥) فى أ: «الوالى».

(٦) زيادة من أ.

(٨) فى أ: «فإنه».

(٧) فى د، ر: «ما فضلنا».

(٩) سنن الترمذى برقم (٣٥٧١).

حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله: «سَلُّوا الله من فضله، فإن الله^(١) يحب أن يُسأل، وإن أحبَّ عباده إليه الذي يُحبُّ الفرج»^(٢).

ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أى: هو عليم بمن يستحق الدنيا فيعطيه منها، وبمن يستحق الفقر فيفقره، وعلیم بمن يستحق الآخرة فيقيضه^(٣) لأعمالها، وبمن يستحق الخذلان فيخذله عن تعاطى الخير وأسبابه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ فَأَتَوْهُمْ نَصِيهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣)﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وأبو صالح، وقتادة، وزيد بن أسلم، والسدى، والضحاك، ومقاتل بن حيان، وغيرهم فى قوله: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي﴾ أى: ورثة. وعن ابن عباس فى رواية: أى عَصَبَة. قال ابن جرير: والعرب تسمى ابن العم مولى، كما قال الفضل بن عباس:

مَهْلًا بَنَى عَمَّنَا مَهْلًا مَوَالِينَا لَا تُظْهَرْنَ لَنَا مَا كَانَ مَدْفُونًا^(٤)

قال: ويعنى بقوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ من تركة والديه وأقربيه من الميراث، فتأويل الكلام: ولكلکم - أيها الناس - جعلنا عَصَبَة يرثونه مما ترك والداه وأقربوه من ميراثهم له.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ فَأَتَوْهُمْ نَصِيهِمْ﴾ أى: والذين تحالفتم بالآيمان المؤكدة - أنتم وهم - فاتوهم نصيهم من الميراث، كما وعدتموهم فى الآيمان المغلظة، إن الله شاهد بينكم فى تلك العهود والمعاقبات. وقد كان هذا فى ابتداء الإسلام، ثم نسخ بعد ذلك، وأمرُوا أن يوفوا لمن عاهدوا، ولا يُنشئوا بعد نزول هذه الآية معاقدة.

قال البخارى: حدثنا الصلت بن محمد، حدثنا أبو أسامة، عن إدريس، عن طلحة بن مُصرف، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي﴾ قال: ورثة، ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ﴾: كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجرو الأنصارى، دون ذوى رحمهم؛ للأخوة التى آخى النبى ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي﴾ نُسخت، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ فَأَتَوْهُمْ نَصِيهِمْ﴾ من النصر والرفادة والنصيحة، وقد^(٥) ذهب الميراث ويوصى له.

ثم قال البخارى: سمع أبو أسامة إدريس، وسمع إدريس عن طلحة^(٦).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، حدثنا إدريس الأودى، أخبرني طلحة بن مُصرف، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ فَأَتَوْهُمْ

(١) فى أ: «فإنه».

(٢) وفى إسناده حكيم بن جبير ضعيف، واتهمه الجوزجاني بالكذب، وإنما ذلك لتشيعه.

(٣) فى أ: «فيقيض».

(٤) البيت فى تفسير الطبرى (٢٧٠ / ٨) وفى لسان العرب مادة (ولى).

(٥) قرأ الكوفيون «عقدت» بتخفيف القاف من غير ألف، وشدد القاف حمزة، والباقون «عاقدت» ألف. مستفاد من هامش ط. الشعب.

(٦) فى أ: «فقد».

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٥٨٠).

نَصِيهِمْ^(١) الآية، قال: كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث المهاجرى الأنصارى، دون ذوى رحمه؛ بالأخوة التى آخى رسول الله ﷺ بينهم، فلما نزلت هذه الآية: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ نسخت. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيهِمْ﴾.

وحدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج، عن ابن جريج - وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيهِمْ﴾ فكان الرجل قبل الإسلام يعاقد الرجل، يقول: ترثنى وأرثك وكان الأحياء يتحالفون، فقال رسول الله ﷺ: «كُلُّ حَلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوْ عَقْدٌ أَدْرَكَهُ الْإِسْلَامُ، فَلَا يَزِيدُهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً، وَلَا عَقْدٌ وَلَا حَلْفٌ فِي الْإِسْلَامِ». فنسختها هذه الآية: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥].

ثم قال: وروى عن سعيد بن المسيب، ومجاهد، وعطاء، والحسن، وسعيد بن جبيرة، وأبى صالح، والشَّعْبِي، وسليمان بن يسار، وعكرمة، والسُّدِّي، والضَّحَّاك، وقتادة، ومقاتل بن حيان أنهم قالوا: هم الحلفاء.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا شريك، عن سَمَّك، عن عكرمة، عن ابن عباس - ورفع - قال: «ما كان من حَلْفٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا حِدَةً وَشِدَّةً»^(٢).

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا، وكيع، عن شريك، عن سَمَّك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ - وحدثنا أبو كريب، حدثنا مصعب بن المقدام، عن إسرائيل بن يونس، عن محمد بن عبد الرحمن مولى آل طلحة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا حَلْفَ فِي الْإِسْلَامِ، وَكُلُّ حَلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَلَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً، وَمَا يَسُرُّنِي أَنْ لِي حُمْرَ النَّعَمِ وَأَنْتَى تَقْضُتُ الْحَلْفَ الَّذِي كَانَ فِي دَارِ النَّدْوَةِ» هذا لفظ ابن جرير^(٣).

وقال ابن جرير أيضا: وحدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن عبد الرحمن بن إسحاق عن الزهري، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال: «شَهِدْتُ حَلْفَ الْمُطَيِّبِينَ، وَأَنَا غُلَامٌ مَعَ عُمُومَتِي، فَمَا أَحَبُّ أَنْ لِي حُمْرَ النَّعَمِ وَأَنْتَى أَنْكُهُ». قال الزهري: قال رسول الله ﷺ: «لَمْ يُصِبِ الْإِسْلَامُ حَلْفًا إِلَّا زَادَهُ شِدَّةً». قال: «وَلَا حَلْفَ فِي الْإِسْلَامِ». وقد أُلِفَ^(٤) النِّبِيُّ ﷺ بين قريش والأنصار.

وهكذا رواه الإمام أحمد عن بشر بن الفضل عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن الزهري، بتمامه^(٥).

وحدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا مغيرة، عن أبيه، عن شعبة بن التوام، عن قيس بن عاصم: أنه سأل النِّبِيَّ ﷺ عن الحلف، قال: فقال: «ما كان من حَلْفٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَتَمَسَّكُوا بِهِ، وَلَا حَلْفَ فِي الْإِسْلَامِ».

(١) زيادة من أ.

(٢) المسند (٣٢٩/١).

(٣) تفسير الطبري (٢٨٢/٨).

(٤) في د: «خالف».

(٥) تفسير الطبري (٢٨٦/٨) والمسند (١٩٠/١).

وكذا رواه أحمد عن هُشَيْمٍ^(١).

وحدثنا أبو كريب، حدثنا وكيع، عن داود بن أبي عبد الله، عن ابن جُدعان، عن جدته، عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا حِلْفَ في الإسلام، وما كان من حلف في الجاهلية لم يَزِدْهُ الإسلام إلا شِدَّةً»^(٢).

وحدثنا أبو كريب، حدثنا يونس بن بكير حدثنا محمد بن إسحاق، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: لما كان النبي ﷺ بمكة عام الفتح قام خطيباً في الناس فقال: «يأيها الناس، ما كان من حِلْفٍ في الجاهلية، لم يَزِدْهُ الإسلام إلا شِدَّةً، ولا حِلْفَ في الإسلام».

ثم رواه من حديث حسين المعلم، وعبد الرحمن بن الحارث، عن عمرو بن شعيب، به^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا ابن نمير وأبو أسامة، عن زكريا، عن سعد ابن إبراهيم، عن أبيه، عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حِلْفَ في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يَزِدْهُ الإسلام إلا شِدَّةً».

وهكذا رواه مسلم، عن عبد الله بن محمد، وهو أبو بكر بن أبي شيبة، بإسناده، مثله. ورواه أبو داود عن عثمان عن محمد بن أبي شيبة، عن محمد بن بشر وابن نمير وأبي أسامة، ثلاثتهم عن زكريا - وهو ابن أبي زائدة^(٤) - بإسناده، مثله.

ورواه ابن جرير من حديث محمد بن بشر، به. ورواه النسائي من حديث إسحاق بن يوسف الأزرق، عن زكريا، عن سعد بن إبراهيم، عن نافع بن جبير بن مطعم، عن أبيه، به^(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، قال: مغيرة أخبرني، عن أبيه، عن شعبة بن التوام، عن قيس ابن عاصم: أنه سأل النبي ﷺ عن الحلف، فقال: «ما كَانَ مِنْ حِلْفٍ في الجاهلية فَتَمَسَّكُوا به، ولا حِلْفَ في الإسلام».

وكذا رواه شعبة، عن مغيرة - وهو ابن مِقْسَمٍ - عن أبيه، به.

وقال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين قال: كنت أقرأ على أم سعد بنت سعد بن الربيع، مع ابن ابنها موسى بن سعد - وكانت يتيمة في حجر أبي بكر - فقرأت عليها: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ فقالت: لا، ولكن: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾. قالت: إنما نزلت في أبي بكر وابنه عبد الرحمن، حين أبي أن يسلم، فحلف أبو بكر ألا يورثه، فلما أسلم حين حمل على الإسلام بالسيف أمر الله أن يؤتیه نصيبه.

رواه ابن أبي حاتم، وهذا قول غريب، والصحيح الأول، وأن هذا كان في ابتداء الإسلام يتوارثون بالحلف، ثم نسخ وبقي تأثير الحلف بعد ذلك، وإن كانوا قد أمروا أن يوفوا بالعقود

(١) تفسير الطبري (٢٨٣/٨) والمسنود (٦١/٥).

(٢) تفسير الطبري (٢٨٣/٨).

(٣) تفسير الطبري (٢٨٤/٨).

(٤) في أ: «زياد».

(٥) المسند (٨٣/٤) وصحيح مسلم برقم (٢٥٣٠) وسنن أبي داود برقم (٢٩٢٥)، وتفسير الطبري (٢٨٥/٨) وسنن النسائي الكبرى

برقم (٦٤١٨).

والعهود، والحلف الذى كانوا قد تعاقدوه قبل ذلك تقدم فى حديث جبير بن مطعم وغيره من الصحابة: لا حلف فى الإسلام، وأما حلف كان فى الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة.

وهذا نص فى الرد على من ذهب إلى التوارث بالحلف اليوم^(١)، كما هو مذهب أبى حنيفة وأصحابه، ورواية عن أحمد بن حنبل، رحمه^(٢) الله.

والصحيح قول الجمهور ومالك والشافعى وأحمد فى المشهور عنه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ أى: ورثته من أقربائه من أبويه وأقربيه، هم يرثونه دون سائر الناس، كما ثبت فى الصحيحين، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أَلْحَقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا بَقِيَ فَهُوَ لِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرَ»^(٣) أى: اقسمو الميراث على أصحاب الفروض الذين ذكرهم الله فى آتى الفرائض، فما بقى بعد ذلك فأعطوه العصبية، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أى: قبل نزول هذه الآية فأتوهم نصيبهم، أى: من الميراث، فأما حلف عقد بعد ذلك فلا تأثير له.

وقد قيل: إن هذه الآية نسخت الحلف فى المستقبل، وحكم الماضى أيضا، فلا توارث به، كما قال ابن أبى حاتم.

حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، حدثنا إدريس الأودى، أخبرنى طلحة بن مصرف، عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس: ﴿فَأَتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ قال: من النصر والنصيحة والرفادة، ويوصى له، وقد ذهب الميراث.

ورواه ابن جرير، عن أبى كريب، عن أبى أسامة. وكذا روى عن مجاهد، وأبى مالك، نحو ذلك. وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ قال: كان الرجل يعاقد الرجل، أيهما مات ورثه الآخر، فأنزل الله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٦]. يقول: إلا أن يوصوا لأوليائهم الذين عاقدوا وصية فهو لهم جائز من ثلث مال الميت، وذلك هو المعروف.

وهذا نص غير واحد من السلف: أنها منسوخة بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾.

وقال سعيد بن جبيرة: ﴿فَأَتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أى: من الميراث. قال: وعاقد أبو بكر مولى فورته. رواه ابن جرير.

وقال الزهرى عن سعيد بن المسيب: أنزلت هذه الآية فى الذين كانوا يتبنون رجلا غير أبنائهم، ويورثونهم، فأنزل الله فيهم، فجعل لهم نصيبا فى الوصية، ورد الميراث إلى الموالى فى ذى الرحم والعصبية وأبى الله للمدعين ميراثا ممن ادعاهم وتبناهم، ولكن جعل لهم نصيبا من الوصية. رواه ابن جرير.

(١) فى ر: «باليوم».

(٢) فى ر: «رحمهم».

(٣) صحيح البخارى برقم (٦٧٣٥) وصحيح مسلم برقم (١٦١٥).

وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿فَاتَوْهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾ أى: من النصرة والنصيحة والمعونة، لا أن المراد: فاتوهم نصيبهم من الميراث - حتى تكون الآية منسوخة، ولا أن ذلك كان حكماً ثم نسخ، بل إنما دلت الآية على الوفاء بالخلف المعقود على النصرة والنصيحة فقط، فهي محكمة لا منسوخة.

وهذا الذى قاله فيه نظر، فإن من الخلف ما كان على المناصرة^(١) والمعاونة، ومنه ما كان على الإرث، كما حكاه غير واحد من السلف، وكما قال ابن عباس: كان المهاجرى يرث الأنصارى دون قراباته وذوى رحمه، حتى نسخ ذلك، فكيف يقول: إن هذه الآية محكمة غير منسوخة^(٢)؟! والله أعلم.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيْلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيْمًا كَبِيْرًا (٣٤)﴾.

يقول تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أى: الرجل قيّم على المرأة، وهو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومؤدبها إذا عوجت ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أى: لأن الرجال أفضل من النساء، والرجل خير من المرأة؛ ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال، وكذلك الملّك الأعظم؛ لقوله ﷺ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ» رواه البخارى من حديث عبد الرحمن بن أبى بكرة، عن أبيه^(٣). وكذا منصب القضاء وغير ذلك.

﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أى: من المهور والنفقات والكلف التى أوجبها الله عليهم لهنّ فى كتابه وسنة نبيه ﷺ، فالرجل أفضل من المرأة فى نفسه، وله الفضل عليها والإفضال، فناسب أن يكون قيّمًا عليها، كما قال [الله] ^(٤) تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ الآية [البقرة: ٢٢٨].

(١) فى أ: «المناجزة».

(٢) قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله فى تعليقه على تفسير الطبرى (٢٨٨/٨): «أشكل على ابن كثير هذا الموضع من كلام الطبرى، فرواه عنه ثم قال: وفيه نظر فإن من الخلف ما كان على المناصرة والمعاونة، ومنه ما كان على الإرث كما حكاه غير واحد من السلف، وكما قال ابن عباس: كان المهاجرى يرث الأنصارى دون قراباته وذوى رحمه، حتى نسخ ذلك فكيف يقول: إن هذه الآية محكمة غير منسوخة، والله أعلم..»

وهذا الذى تعجب منه ابن كثير، قد بينه الطبرى، وأقام عليه كل مذهبه، فى كل ناسخ ومنسوخ، وقد كرره مرات كثيرة فى تفسيره، وقد أعاده هنا عند ذكر الناسخ والمنسوخ فقال: إن الآية إذ اختلفت فى حكمها منسوخ هو أم غير منسوخ، واختلف المختلفون فى حكمها، وكان لنفى النسخ عنها وإثبات أنها محكمة وجه صحيح، لم يجز لأحد أن يقضى بأن حكمها منسوخ، إلا بحجة يجب التسليم لها، وقد بين أبو جعفر مراراً أن الحجة التى يجب التسليم لها هي: ظاهر القرآن، والخبر الصحيح عن رسول الله ﷺ، أما تأويل ابن عباس أو غيره من الأئمة، فليس حجة فى إثبات النسخ فى آية، لتأويلها على أنها محكمة وجه صحيح. فالعجب لابن كثير، حين عجب من أبى جعفر فى تأويله وبيانه، ولو أنصف لتنقض حجة الطبرى فى مقاله فى النسخ والمنسوخ، لا أن يحتج عليه ويتعجب منه، لحجة هي منقوضة عند الطبرى، قد أفاض فى نقضها مراراً فى كتابه هذا، وفى غيرها من كتبه كما قال، رحم الله أبا جعفر، وغفر الله لابن كثير.

(٣) رواه البخارى برقم (٤٤٢٥)، (٧٠٩٩) من طريق الحسن البصرى عن أبى بكرة.

(٤) زيادة من أ.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ يعني: أمراء، عليها^(١) أن تطيعه فيما أمرها به من طاعته، وطاعته: أن تكون محسنة إلى أهله حافظة لماله. وكذا قال مقاتل، والسدي، والضحاك.

وقال الحسن البصري: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ تستعديه^(٢) على زوجها أنه لطمها، فقال رسول الله ﷺ: «الْقِصَاصُ»، فأنزل الله عز وجل: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النَّاسِ﴾ الآية، فرجعت بغير قصاص.

رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من طرق، عنه. وكذلك أرسل هذا الخبر قتادة، وابن جريج والسدي، أورد ذلك كله ابن جرير. وقد أسنده ابن مردويه من وجه آخر فقال:

حدثنا أحمد بن علي النسائي، حدثنا محمد بن عبد الله^(٣) الهاشمي، حدثنا محمد بن محمد الأشعث، حدثنا موسى بن إسماعيل بن موسى بن جعفر بن محمد، حدثني أبي، عن جدي، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي قال: أتى النبي رجل من الأنصار بامرأة له، فقالت: يا رسول الله، إن زوجها فلان بن فلان الأنصاري، وإنه ضربها فأثر في وجهها، فقال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ ذَلِكَ لَهُ». فأنزل الله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(٤) أي: قوامون على النساء في الأدب. فقال رسول الله ﷺ: «أَرَدْتُ أَمْرًا وَأَرَادَ اللَّهُ غَيْرَهُ»^(٥).

وقال الشعبي في هذه الآية: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ قال: الصداق الذي أعطاها، ألا ترى أنه لو قذفها لاعتنفا، ولو قذفته جلدت.

وقوله: ﴿فَالصَّالِحَاتُ﴾ أي: من النساء ﴿فَانِتَاتُ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: يعني مطيعات لأزواجهن ﴿حَافِظَاتُ لِّغَيْبِ﴾.

وقال السدي وغيره: أي تحفظ زوجها في غيبته في نفسها وماله.

وقوله: ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ أي: المحفوظ من حفظه.

قال ابن جرير: حدثني المشي، حدثنا أبو صالح، حدثنا أبو معشر، حدثنا سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ النِّسَاءِ امْرَأَةٌ إِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهَا سَرَّتْكَ، وَإِذَا أَمَرْتَهَا أَطَاعَتْكَ، وَإِذَا غَبَّتَ عَنْهَا حَفَظْتَكَ فِي نَفْسِهَا وَمَالِكٍ». قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ إلى آخرها.

ورواه ابن أبي حاتم، عن يونس بن حبيب، عن أبي داود الطيالسي، عن محمد بن عبد الرحمن

(١) في د، ر، أ: «عليهن». (٢) في أ: «تستعديه». (٣) في ر، أ: «هبة الله».

(٤) زيادة من ر، أ.

(٥) في إسناده محمد بن محمد بن الأشعث، قال ابن عدي: «كتبت عنه بمصر، حملة شدة تشيعه أن أخرج إلينا نسخة قريبا من ألف حديث عن موسى بن إسماعيل بن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن آبائه بخط طري، وعامتها متاكير كلها أو عامتها، فذكرنا روايته هذه الأحاديث عن موسى هذا لأبي عبد الله الحسين بن علي بن الحسن بن علي من آل البيت بمصر، وهو أخو الناصر، فقال لنا: كان موسى هذا جارياً بالمدينة أربعين سنة ما ذكر قط أن عنده شيئا من الرواية لا عن أبيه ولا عن غيره».

ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، به مثله سواء^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن عبيد الله^(٢) بن أبي جعفر: أن ابن قارظ^(٣) أخبره: أن عبد الرحمن بن عوف قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وصامت شهرها، وحفظت فرجها؛ وأطاعت زوجها قيل لها: ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت».

تفرد به أحمد من طريق عبد الله بن قارظ^(٤)، عن عبد الرحمن بن عوف^(٥).

وقوله: «وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ» أي: والنساء اللاتي تتخوفون^(٦) أن ينشزن على أزواجهن. والنشوز: هو الارتفاع، فالمرأة الناشز هي المرتفعة على زوجها، التاركة لأمره، المعرضة عنه، المبتغضة له. فمتى ظهر له منها أمارات النشوز فليعظها وليخوفها عقاب الله في عصيانه^(٧) فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته، وحرم عليها معصيته لما له عليها من الفضل والإفضال. وقد قال رسول الله ﷺ: «لَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا، مِنْ عِصْيَانِهَا»^(٨) وروى البخاري، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ عَلَيْهِ، لَعَنَتَهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ»^(٩). ورواه مسلم، ولفظه: «إِذَا بَاتَتِ الْمَرْأَةُ هَاجِرَةً»^(١٠) فِرَاشَ زَوْجِهَا، لَعَنَتَهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ»^(١١)؛ ولهذا قال تعالى: «وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ».

وقوله: «وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ» قال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الهجران^(١٢): ألا يجامعها، ويضاجعها على فراشها ويوليها ظهره. وكذا قال غير واحد، وزاد آخرون - منهم: السدى، والضحاك، وعكرمة، وابن عباس في رواية -: ولا يكلمها مع ذلك ولا يحدثها.

وقال على بن أبي طلحة أيضا، عن ابن عباس: يعظها، فإن هي قبلت وإلا هجرها في المضجع، ولا يكلمها من غير أن يذر نكاحها، وذلك عليها شديد.

وقال مجاهد، والشعبي، وإبراهيم، ومحمد بن كعب، ومقسم، وقتادة: الهجر: هو ألا يضاجعها.

وقد قال أبو داود: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن على بن زيد، عن أبي حرة الرقاشي، عن عمه أن النبي ﷺ قال: «إِنْ خِفْتُمْ نُشُوزَهُنَّ فَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ». قال حماد:

(١) تفسير الطبري (٢٩٥/٨).

(٢) في د، ر: «عبد الله».

(٣)، (٤) في أ: «فارس».

(٥) المسند (١٩١/١).

(٦) في أ: «تخافون».

(٧) في ر: «عصيائها».

(٨) رواه الترمذي برقم (١١٥٩) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه، ورواه أحمد في المسند (٧٦/٦) من حديث عائشة.

(٩) صحيح البخاري برقم (٣٢٣٧).

(١٠) في ر: «مهاجرة».

(١١) صحيح مسلم برقم (١٤٣٦).

(١٢) في د، ر: «الهجر».

يعنى النكاح^(١).

وفى السنن والمسند عن معاوية بن حيدة القشيري أنه قال: يا رسول الله، ما حق امرأة أحدنا؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه ولا تقبح، ولا تهجر إلا فى البيت»^(٢).

وقوله: ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾^(٣) أى: إذا لم يرتدعن^(٤) بالموعظة ولا بالهجران، فلكم أن تضربوهن ضربا غير مبرح، كما ثبت فى صحيح مسلم عن جابر عن النبى ﷺ: أنه قال فى حجة الوداع: «وَاتَّقُوا اللَّهَ فى النِّسَاءِ، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَلَّا يُوْطِنَ فُرْشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ»^(٥).

وكذا قال ابن عباس وغير واحد: ضربا غير مبرح. قال الحسن البصرى: يعنى غير مؤثر. وقال الفقهاء: هو ألا يكسر فيها عضوا ولا يؤثر فيها شيئا.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يهجرها فى المضجع، فإن أقبلت وإلا فقد أذن الله لك أن تضرب ضربا غير مبرح، ولا تكسر لها عظما، فإن أقبلت وإلا فقد حل لك منها الفدية.

وقال سفيان بن عيينة، عن الزهرى، عن عبد الله بن عبد الله بن عمر، عن إياس بن عبد الله بن أبى ذباب^(٦) قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللَّهِ». فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: ذُتْ النساء على أزواجهن. فرخص فى ضربهن، فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشكون^(٧) أزواجهن، فقال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ أَطَافَ بَالُ مُحَمَّدٍ نِسَاءً كَثِيرًا يَشْكُونُ»^(٨) أزواجهن، ليس أولئك بخياركم» رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه^(٩).

وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود - يعنى أبا داود الطيالسى - حدثنا أبو عوانة، عن داود الأودى، عن عبد الرحمن المسلى^(١٠) عن الأشعث بن قيس، قال: ضُفْتُ عمر، فتناول امرأته فضربها، وقال: يا أشعث، احفظ عني ثلاثا حفظتهن عن رسول الله ﷺ: لَا تَسَالِ الرَّجُلَ فِيمَ ضَرَبَ امْرَأَتَهُ، وَلَا تَنَمِ إِلَّا عَلَى وَتَرٍ... ونسى الثالثة.

وكذا رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه، من حديث عبد الرحمن بن مهدى، عن أبى عوانة، عن داود الأودى، به^(١١).

وقوله: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾^(١٢) أى: فإذا أطاعت المرأة زوجها فى جميع ما يريد منها، مما أباحه الله له منها، فلا سبيل له عليها بعد ذلك، وليس له ضربها ولا هجرانها.

(١) سنن أبى داود برقم (٢١٤٥).

(٢) سنن أبى داود برقم (٢١٤٣) والمسند (٤/٤٤٧).

(٣) فى ر: «فاضربوهن».

(٤) فى أ: «إذا لم يرتدعن عما ينهاها عنه».

(٥) صحيح مسلم برقم (١٢١٨).

(٦) فى أ: «ذئاب».

(٧) فى أ: «يشكين».

(٨) فى أ: «يشكين».

(٩) سنن أبى داود برقم (٢١٤٦) وسنن النسائى الكبرى برقم (٩١٦٧) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٧٥).

(١٠) فى د: «السلى».

(١١) سنن أبى داود برقم (٢١٤٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (٩١٦٨) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٨٦).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب، فإن الله العليّ الكبير وليهن، وهو ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن.

﴿وَأِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُّوفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (٣٥).

ذكر [تعالى] (١) الحال الأول، وهو إذا كان النفور والنشوز من الزوجة، ثم ذكر الحال الثاني وهو: إذا كان النفور من الزوجين فقال تعالى: ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾.

قال الفقهاء: إذا وقع الشقاق بين الزوجين، أسكنهما الحاكم إلى جنب ثقة، ينظر في أمرهما، ويمنع الظالم منهما من الظلم، فإن تفاقم أمرهما وطالت خصومتها، بعث الحاكم ثقة من أهل المرأة، وثقة من قوم الرجل، ليجمعها وينظرا في أمرهما، ويفعلا ما فيه المصلحة مما يريانه من التفريق أو التوفيق (٢). وتُشوف الشارع إلى التوفيق؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُّوفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أمر الله، عز وجل، أن يبعثوا رجلا صالحا من أهل الرجل، ورجلا مثله من أهل المرأة، فينظران أيهما المسيء، فإن كان الرجل هو المسيء، حجبوا عنه امرأته وقصروه على النفقة، وإن كانت المرأة هي المسيئة، قصروها على زوجها ومنعوها النفقة. فإن اجتمع رأيهما على أن يفرقا أو يجمعها، فأمرهما جائز. فإن رأيا أن يجمعها، فرضى أحد الزوجين وكره ذلك الآخر، ثم مات أحدهما، فإن الذي رضى يرث الذي كره، ولا يرث الكاره الراضى. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن عكرمة بن خالد، عن ابن عباس قال: بعثت أنا ومعاوية حكيمين، قال معمر: بلغني أن عثمان بعثتهما، وقال لهما: إن رأيتما أن تجمعهما جمعتهما، وإن رأيتما أن تفرقا ففرقتهما (٣).

وقال: أنبأنا ابن جريج، حدثني ابن أبي مليكة، أن عقيل بن أبي طالب تزوج فاطمة بنت عتبة ابن ربيعة فقالت: تصير إلى (٤) وأنفق عليك. فكان إذا دخل عليها قالت: أين عتبة بن ربيعة وشيبة ابن ربيعة؟ قال: على يسارك في النار إذا دخلت. فشدت عليها ثيابها فجاءت عثمان، فذكرت له ذلك (٥)، فضحك وأرسل ابن عباس ومعاوية، فقال ابن عباس: لأفرقن بينهما. فقال معاوية: ما كنت لأفرق بين شيخين من بنى عبد مناف، فأتياهما فوجداهما قد أغلقا عليهما أبوابهما، فرجعا.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن أيوب، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة قال: شهدت عليا وجاءته امرأة وزوجها، مع كل واحد منهما فتام من الناس، فأخرج هؤلاء حكما هؤلاء حكما، فقال على للحكّمين: أتدريان ما عليكما؟ إن عليكما إن رأيتما أن تجمعهما، جمعتهما. فقالت المرأة: رضيت

(٣) في أ: «ففرقا».

(٢) في د، ر: من التوفيق أو التفريق.

(١) زيادة من أ.

(٥) في د، ر: «فذكرت ذلك له».

(٤) في د، ر: «لى».

بكتاب الله لى وعلى. وقال الزوج: أما الفرقة فلا. فقال على: كذبت، والله لا تبرح حتى ترضى بكتاب الله، عز وجل، لك وعليك.

رواه ابن أبي حاتم، ورواه ابن جرير، عن يعقوب، عن ابن عليّة، عن أيوب، عن ابن سيرين، عن عبيدة، عن على، مثله. ورواه من وجه آخر، عن ابن سيرين، عن عبيدة، عن على، به^(١).

وهذا مذهب جمهور العلماء: أن الحكمين إليهما الجمع والتفرقة، حتى قال إبراهيم النخعي: إن شاء الحكمان أن يفرقا بينهما بطلقة أو طلقتين أو ثلاث فعلا. وهو رواية عن مالك.

وقال الحسن البصري: الحكمان يحكمان فى الجمع ولا يحكمان فى التفرقة، وكذا قال قتادة، وزيد بن أسلم. وبه قال أحمد بن حنبل، وأبو ثور، وداود، ومأخذهم قوله تعالى: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ ولم يذكر التفرقة.

وأما إذا كانا وكيلين من جهة الزوجين، فإنه يُنْفَذُ حكمهما^(٢) فى الجمع والتفرقة بلا خلاف.

وقد اختلف الأئمة فى الحكمين: هل هما منصوبان من عند الحاكم، فيحكمان وإن لم يرض الزوجان، أو هما وكيلان من جهة الزوجين؟ على قولين: فالجمهور على الأول؛ لقوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ فسامهما حكمين، ومن شأن الحكم أن يحكم بغير رضا المحكوم عليه، وهذا^(٣) ظاهر الآية، والجديد من مذهب الشافعى، وهو قول أبى حنيفة وأصحابه.

الثانى منهما، بقول على، رضى الله عنه، للزوج - حين قال: أما الفرقة فلا - قال: كذبت، حتى تقر بما أقرت به، قالوا: فلو كانا حاكمين لما افتقر إلى إقرار الزوج، والله أعلم.

قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر: وأجمع العلماء على أن الحكمين - إذا اختلف قولهما - فلا عبرة بقول الآخر، وأجمعوا على أن قولهما نافذ فى الجمع وإن لم يוכלهما الزوجان، واختلفوا: هل ينفذ قولهما فى التفرقة؟ ثم حكى عن الجمهور أنه ينفذ قولهما فيها^(٤) أيضا^(٥).

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا﴾ (٣٦).

يأمر تعالى بعبادته وحده لا شريك له؛ فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه فى جميع الآنات والحالات، فهو المستحق منهم أن يوحدوه، ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته، كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ: «أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟»^(٦) قال: الله ورسوله أعلم. قال: «أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا

(١) تفسير عبد الرزاق (١٥٦/١) وتفسير الطبرى (٣٢٠/٨)، (٣٢١).

(٢) فى أ: «حكمهما». (٣) فى أ: «وهو». (٤) فى ر: «فيه»، وفى أ: «قولهما فيها منه من غير توكيل».

(٥) الاستذكار لابن عبد البر (١٨/١١١).

(٦) فى أ: «عباده».

يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»، ثم قال: «أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟ أَلَا يُعَذِّبُهُمْ»^(١). ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين، فإن الله، سبحانه، جعلهما سبباً لخروجك من العدم إلى الوجود، وكثيراً ما يقرن الله، سبحانه،^(٢) بين عبادته والإحسان إلى الوالدين، كقوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، وكقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

ثم عطف على الإحسان إلى الوالدين الإحسان^(٣) إلى القربات من الرجال والنساء، كما جاء في الحديث: «الْصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ صَدَقَةٌ وَصَلَةٌ»^(٤).

ثم قال: ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ وذلك لأنهم قد فقدوا من يقوم بمصالحهم، ومن ينفق عليهم، فأمر الله بالإحسان إليهم والحنو عليهم.

ثم قال: ﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ وهم المحاويج من ذوى الحاجات الذين لا يجدون ما يقوم بكفائتهم، فأمر الله بمساعدتهم بما تتم به كفائتهم وتزول به ضرورتهم. وسيأتى الكلام على الفقير والمسكين فى سورة براءة.

وقوله: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾. قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ يعنى الذى بينك وبينه قرابة، ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ الذى ليس بينك وبينه قرابة. وكذا روى عن عكرمة، ومجاهد، وميمون بن مهران، والضحاك، وزيد بن أسلم، ومقاتل بن حيان، وقتادة.

وقال أبو إسحاق عن نَوْفَ الْبِكَالِي فى قوله: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾: يعنى المسلم ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ يعنى اليهودى والنصرانى. رواه ابن جرير، وابن أبى حاتم.

وقال جَابِرُ الْجُعْفَى، عن الشعبي، عن على وابن مسعود: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ يعنى المرأة. وقال مُجَاهِدٌ أيضاً فى قوله: ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ يعنى الرفيق فى السفر.

وقد وردت الأحاديث بالوصايا بالجار، فنذكر منها ما تيسر، وبالله المستعان:

الحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عمر بن محمد بن زيد: أنه سمع أباه محمداً يحدث، عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».

أخرجاه فى الصحيح من حديث عمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر، به^(٥).

الحديث الثانى: قال الإمام أحمد: حدثنا سُفْيَانُ، عن داود بن شَابُور، عن مجاهد، عن عبد الله ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»^(٦).

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٣ ٧٣) ومسلم فى صحيحه برقم (٣٠).

(٢) فى أ: «تعالى». (٣) فى ر: «والإحسان».

(٤) رواه أحمد فى مسنده (١٧/٤) من حديث سلمان بن عامر، رضى الله عنه.

(٥) المسند (٨٥/٢) وصحيح البخارى برقم (٦٠١٥) وصحيح مسلم برقم (٢٦٢٥).

(٦) المسند (١٦٠/٢).

وروى أبو داود والترمذي نحوه، من حديث سفيان بن عيينة، عن بشير أبي^(١) إسماعيل - زاد الترمذي: وداود بن شأبور - كلاهما عن مجاهد، به. ثم قال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه^(٢)، وقد روى عن مجاهد عن^(٣) عائشة وأبي هريرة عن النبي ﷺ.

الحديث الثالث عنه: قال أحمد أيضا: حدثنا عبد الله بن يزيد، أخبرنا حيوة، أخبرنا شريحيل ابن شريك أنه^(٤) سمع أبا عبد الرحمن الحبلي يحدث عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره».

ورواه الترمذي عن أحمد بن محمد، عن عبد الله بن المبارك، عن حيوة بن شريح - به، وقال: [حديث]^(٥) حسن غريب^(٦).

الحديث الرابع: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان، عن أبيه، عن عباية بن رفاعة عن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يشبع الرجل دون جاره». تفرد به أحمد^(٧).

الحديث الخامس: قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان، حدثنا محمد بن سعد الأنصاري، سمعت أبا ظبية الكلاعي، سمعت المقداد بن الأسود يقول: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «ما تقولون في الزنا؟» قالوا: حرمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة. فقال رسول الله ﷺ^(٨): «لأن يزني الرجل بعشر نسوة، أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره». قال: ما تقولون في السرقة؟ قالوا: حرمها الله ورسوله فهي حرام. قال: «لأن يسرق الرجل من عشرة آيات، أيسر عليه من أن يسرق من جاره».

تفرد به أحمد^(٩)، وله شاهد في الصحيحين من حديث ابن مسعود: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»^(١٠).

الحديث السادس: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا هشام، عن حفصة، عن أبي العالية، عن رجل من الأنصار قال: خرجت من أهلي أريد النبي ﷺ، فإذا به قائم ورجل معه مقبل^(١١) عليه، فظننت أن لهما حاجة - قال الأنصاري: لقد قام رسول الله ﷺ حتى جعلت أرثي لرسول الله ﷺ من طول القيام، فلما انصرف قلت: يا رسول الله، لقد قام بك هذا الرجل حتى جعلت أرثي لك من طول القيام. قال: «ولقد رأيته؟» قلت: نعم. قال: «أتدري من هو؟» قلت: لا. قال: «ذاك جبريل».

(١) في ر: «ابن».

(٢) سنن أبي داود برقم (٥١٥٢) وسنن الترمذي برقم (١٩٤٣).

(٣) في أ: «و». (٤) في ر: «أو».

(٥) زيادة من أ.

(٦) المسند (١٦٧/٢) وسنن الترمذي برقم (١٩٤٤).

(٧) المسند (٥٤/١) وقال الهيثمي في المجمع (١٦٧/٨): «رجاله رجال الصحيح إلا أن عباية بن رفاعة لم يسمع من عمر».

(٨) زيادة من أ، والمسند.

(٩) المسند (٨/٦).

(١٠) صحيح البخاري برقم (٤٧٦١) وصحيح مسلم برقم (٦٨).

(١١) في أ: «يقبل».

ما زال يُوصيني بالجارِ حتى ظننتُ أنه سيُورثه. ثم قال: أما إنك لو سلّمتَ عليه، رد عليك السلام»^(١).

الحديث السابع: قال عبد بن حميد في مسنده: حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا أبو بكر - يعني المديني - عن جابر بن عبد الله قال: جاء رجل من العوالي ورسول الله ﷺ وجبريل عليه السلام يُصليان حيث يُصلي على الجنائز، فلما انصرف قال الرجل: يا رسول الله، من هذا الرجل الذي رأيت معك؟ قال: «وقد رأيته؟» قال: نعم. قال: «لقد رأيت خيراً كثيراً، هذا جبريل ما زال يُوصيني بالجار حتى رأيت أنه سيُورثه».

تفرد به من هذا الوجه^(٢)، وهو شاهد للذي قبله.

الحديث الثامن: قال أبو بكر البزار: حدثنا عبيد الله^(٣) بن محمد أبو الربيع الحارثي، حدثنا محمد بن إسماعيل بن أبي فديك، أخبرني عبد الرحمن بن الفضل^(٤)، عن عطاء الخراساني، عن الحسن، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «الجيران ثلاثة: جار له حق واحد، وهو أدنى الجيران حقاً، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق، وهو أفضل الجيران حقاً. فأما الذي له حق واحد فجار مشرك له، له حق الجوار. وأما الذي له حقان فجار مسلم، له حق الإسلام وحق الجوار، وأما الذي له ثلاثة حقوق، فجار مسلم ذو رحم، له حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم». قال البزار: لا نعلم أحداً روى عن عبد الرحمن بن الفضل^(٥) إلا ابن أبي فديك^(٦).

الحديث التاسع: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي عمران، عن طلحة بن عبد الله، عن عائشة؛ أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت: «إن لي جارين، فإلى أيهما أُهدي؟ قال: «إلى أقربيهما منك باباً». ورواه البخاري من حديث شعبة، به^(٧).

وقوله: «وَالصَّاحِبُ بِالْجَنبِ» قال الثوري، عن جابر الجعفي، عن الشعبي، عن علي وابن مسعود قالوا: هي المرأة.

وقال ابن أبي حاتم: وروى عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وإبراهيم النخعي، والحسن، وسعيد ابن جبير - في إحدى الروايات - نحو ذلك.

وقال ابن عباس ومجاهد، وعكرمة، وقتادة: هو الرفيق في السفر. وقال سعيد بن جبير: هو الرفيق الصالح. وقال زيد بن أسلم: هو جلسك في الخضر، ورفيقك في السفر.

وأما «ابن السبيل» فعن ابن عباس وجماعة هو: الضيف.

(١) المسند (٣٢/٥) وقال الهيثمي في المجمع (١٦٤/٨): «رجاله رجال الصحيح».

(٢) ورواه البزار في مسنده (١٨٩٧) «كشف الأستار» من طريق الفضل بن مبشر أبو بكر المديني به.

قال الهيثمي في المجمع (١٦٥/٨): «فيه الفضل بن مبشر وثقه ابن حبان وضعفه غيره، وبقية رجاله ثقات».

(٣) في أ: «عبد الله». (٤) في د، ر: «الفضل». (٥) في أ: «الفضل».

(٦) مسند البزار برقم (١٨٩٦) «كشف الأستار» وقال الهيثمي في المجمع (١٦٤/٨): «رواه البزار عن شيخه عبد الله بن محمد الحارثي وهو وضاع».

(٧) المسند (١٧٥/٦) وصحيح البخاري برقم (٦٠٢٠).

وقال مجاهد، وأبو جَعْفَرٍ الباقِرُّ، والحسنُ، والضحاكُ، ومقاتلُ: هو الذى يمر عليك مجتازاً فى السفر.

وهذا أظهر، وإن كان مراد القاتل بالضيف: المار فى الطريق، فهما سواء. وسيأتى الكلام على أبناء السبيل فى سورة براءة، وبالله الثقة وعليه التكلان.

وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ وصية بالأرقاء؛ لأن الرقيق ضعيف الحيلة أسير فى أيدي الناس، ولهذا ثبت أن رسول الله ﷺ جعل يُوصِي أُمَّتَهُ فى مرض الموت يقول: «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم». فجعل يردّها حتى ما يفيضُ بها لسانه^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن أبى العباس، حدثنا بَقِيَّةٌ، حدثنا بِحِيرُ بْنُ سَعْدٍ، عن خالد ابن معدان، عن المُقْدَامِ بن مَعْدٍ يَكْرَبُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أطعمتَ نَفْسَكَ فهو لك صدقةٌ، وما أطعمتَ وَلَكَ صدقةٌ، وما أطعمتَ زَوْجَتَكَ فهو لك صدقةٌ، وما أطعمتَ خَادِمَكَ فهو لك صدقةٌ».

ورواه النسائي من حديث بَقِيَّةٍ، وإسناده صحيح^(٢)، والله الحمد.

وعن عبد الله بن عمرو أنه قال لَقَهْرَمَانَ له: هل أعطيت الرقيق قُوتَهُمْ؟ قال: لا. قال: فانطلق فأعطهم؛ فإن رسول الله ﷺ قال: «كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوتهم». رواه مسلم^(٣).

وعن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «للمملوك طعامه وكِسْوَتُهُ، ولا يكلف من العمل إلا ما يُطيق». رواه مسلم أيضاً^(٤).

وعنه، عن النبى ﷺ قال: «إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه، فإن لم يجلسه معه، فليناوله لقمةً أو لقمتين أو أكلةً أو أكلتين، فإنه وكى حرّةً وعلاجهُ».

أخرجاه ولفظه للبخارى، ولمسلم^(٥): «فليقعده معه فليأكل، فإن كان الطعام مشفوهاً قليلاً فليضع فى يده أكلةً أو أكلتين».

وعن أبى ذر، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «هم إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم». أخرجاه^(٦).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ أى: مختالاً فى نفسه، معجباً متكبراً، فخوراً على الناس، يرى أنه خير منهم، فهو فى نفسه كبير، وهو عند الله حقير، وعند الناس بغيض.

(١) رواه أبو داود فى السنن برقم (٥١٥٤) من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه.

(٢) المسند (١٣١/٤) وسنن النسائي الكبرى برقم (٩١٨٥).

(٣) صحيح مسلم برقم (٩٩٦).

(٤) صحيح مسلم برقم (١٦٦٢).

(٥) صحيح البخارى برقم (٥٤٦٠) وصحيح مسلم برقم (١٦٦٣).

(٦) صحيح البخارى برقم (٣١) وصحيح مسلم برقم (١٦٦١).

قال مجاهد فى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا﴾ يعنى: متكبرا ﴿فَخُورًا﴾ يعنى: يعد ما أعطى، وهو لا يشكر الله، عز وجل. يعنى: يفخر على الناس بما أعطاه الله من نعمه، وهو قليل الشكر لله على ذلك.

وقال ابن جرير: حدثنى القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا محمد بن كثير، عن عبد الله بن واقد أبى رجاء الهروى قال: لا تجد سبى الملكة إلا وجدته مختالا فخورا - وتلا: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا] ^(١) ولا عاقا إلا وجدته جبارا شقيا - وتلا: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢].

وروى ابن أبى حاتم، عن العوام بن حوشب، مثله فى المختال الفخور. وقال: حدثنا أبى، حدثنا أبو نعيم، حدثنا الأسود بن شيبان، حدثنا يزيد بن عبد الله بن الشخير قال: قال مطرف: كان يبلغنى عن أبى ذر حديث كنت أستهى لقاءه، فلقيته فقلت: يا أبا ذر، بلغنى أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدثكم: «إن الله يحب ثلاثة ويُبغض ثلاثة؟» قال: أجل، فلا إخالنى ^(٢) أكذب على خليلى، ثلاثاً. قلت: من الثلاثة الذين يُبغض الله؟ قال: المختال الفخور، أوليس تجدونه عندكم فى كتاب الله المنزل؟ ثم قرأ الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ ^(٣) [النساء: ٣٦].

وحدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا وهيب بن خالد، عن أبى تميم عن رجل من بلهجين قال: قلت: يا رسول الله، أوصنى. قال: «إياك وإسبال الإزار، فإن إسبال الإزار من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة» ^(٤).

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (٣٧) وَالَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩).

يقول تعالى ذاماً الذين يبخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به - من بر الوالدين، والإحسان إلى الأقارب واليتامى والمساكين، والجار ذى القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل، وما ملكت أيمانكم من الأرقاء - ولا يدفعون حق الله فيها، ويأمرون الناس بالبخل أيضاً. وقد قال رسول الله ﷺ: «وأى داء أدوأ من البخل؟». وقال: «إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالطبيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا» ^(٥).

(١) زيادة من: ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٢) فى ر: «إخالك».

(٣) ورواه أحمد فى مسنده (١٧٦/٥) من طريق يزيد عن الأسود بن شيبان بأطول منه وأتم.

(٤) ورواه أحمد فى مسنده (٦٤/٥) من طريق وهيب بن خالد به.

(٥) رواه أبو داود فى السنن برقم (٦٦٩٨) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه.

وقوله: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فالبخيل جحود لنعمة الله عليه لا تظهر عليه ولا تبين، لا فى أكله^(١) ولا فى ملبسه، ولا فى إعطائه وبذله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ. وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات: ٦، ٧] أى: بحاله وشمائله، ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨] وقال هاهنا: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾. والكفر هو الستر والتغطية، فالبخيل يستر نعمة الله عليه ويكتمها ويجحدّها، فهو كافر لنعم الله عليه.

وفى الحديث: «إن الله إذا أنعم نعمة على عبد أحب أن يظهر أثرها عليه»^(٢). وفى الدعاء النبوى: «واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها عليك قابليها - ويروى: قائلها - وأتممها علينا»^(٣).

وقد حمل بعض السلف هذه الآية على بخل اليهود بإظهار العلم الذى عندهم، من صفة النبى ﷺ وكتمانهم ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾. رواه ابن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس. وقاله مجاهد وغير واحد.

ولا شك أن الآية محتملة لذلك، والظاهر أن السياق فى البخل بالمال، وإن كان البخل بالعلم داخلا فى ذلك بطريق الأولى؛ فإن سياق الكلام فى الإنفاق على الأقارب والضعفاء، وكذا الآية التى بعدها، وهى قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ فذكر المسكين المذمومين وهم البخلاء، ثم ذكر الباذلين المرائين الذين يقصدون بإعطائهم السمعة وأن يمدحوا بالكرم، ولا يريدون بذلك وجه الله، وفى الحديث الذى فيه الثلاثة الذين هم أول من تُسَجَّرَ بهم النار، وهم: العالم والغازى والمنفق، المراءون بأعمالهم، يقول صاحب المال: ما تركت من شئ تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت فى سبيلك. فيقول الله: كذبت؛ إنما أردت أن يقال: جواد فقد قيل. أى: فقد أخذت جزاءك فى الدنيا وهو الذى أردت بفعلك.

وفى الحديث: أن رسول الله ﷺ قال لِعَدِيّ: «إن أباك رام أمراً فبلغه».

وفى حديث آخر: أن رسول الله ﷺ سئل عن عبد الله بن جُدعان: هل ينفعه إنفاقه، وإعتاقه؟ فقال: «لا، إنه لم يقل يوماً من الدهر: رب اغفر لى خطيئتي يوم الدين».

ولهذا قال: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ [وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا]﴾^(٤) أى: إنما حملهم على صنيعهم هذا القبيح وعدولهم عن فعل الطاعة على وجهها الشيطان؛ فإنه سَوَّلَ لهم وأملى لهم، وقارنهم فحسن لهم القبائح ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾. ولهذا قال الشاعر^(٥):

(١) فى أ: «ماكله».

(٢) رواه الترمذى فى سننه برقم (٢٨١٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه، ولفظه: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده».

(٣) رواه أبو داود فى سننه برقم (٩٦٩) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

(٤) زيادة من أ، وفى هـ: «الآية».

(٥) الشاعر هو عدى بن زيد، والبيت فى تفسير الطبرى (٣٥٨/٨).

عَنْ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلُ وَسَلُّ عَنْ قَرِينِهِ فِكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارَنِ يَقْتَدِي^(١)

ثم قال تعالى: ﴿مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ [وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا] ^(٢)﴾ أى: وأى شئ يكرههم لو سلكوا الطريق الحميدة، وعدّلوا عن الرياء إلى الإخلاص والإيمان بالله، ورجاء موعوده فى الدار الآخرة لمن أحسن عملا، وأنفقوا مما رزقهم الله فى الوجوه التى يحبها الله ويرضاها.

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ أى: وهو عليم بنياتهم الصالحة والفسادة، وعليم بمن يستحق التوفيق منهم فيوفقه ويلهمه رشده ويقيضه لعمل صالح يرضى به عنه، وبمن يستحق الخذلان والطرده عن الجناب الأعظم الإلهي، الذى مَنْ طُرِدَ عَنْ بَابِهِ، فقد خاب وخسر فى الدنيا والآخرة، عياذا بالله من ذلك [بلطفه الجزيل]^(٣).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ^(٤)﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ^(٥) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ^(٦)﴾.

يخبر تعالى أنه لا يظلم عبدا من عباده يوم القيامة مثقال حبة خردل ولا مثقال ذرة، بل يوفىها به ويضاعفها له إن كانت حسنة، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ [لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ] ^(٧)﴾ [الأنبياء: ٤٧] وقال تعالى مخبرا عن لقمان أنه قال: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ [إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ] ^(٨)﴾. [لقمان: ١٦]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُصْدَرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ. فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

وفى الصحيحين، من حديث زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ فى حديث الشفاعة الطويل، وفيه: فيقول الله عز وجل: «ارجعوا، فمن وجدتم فى قلبه مثقال حبة ^(٩) خردل من إيمان، فأخرجوه من النار». وفى لفظ: «أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار، فيخرجون خلقا كثيرا» ثم يقول أبو سعيد: اقرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ [وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا] ^(٧)﴾ ^(٨).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عيسى بن يونس، عن هارون بن عنترة ^(٩) عن عبد الله بن السائب، عن زاذان قال: قال عبد الله بن مسعود: يؤتى بالعبد والأمة يوم القيامة، فينادى مناد على رؤوس الأولين والآخرين: هذا فلان بن فلان، من كان له حق فليأت إلى حقه.

(٣) زيادة من ر، أ.

(٢) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(١) فى أ: «مقتدى».

(٦) فى ر، أ: «ذرة».

(٥) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٤) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٧) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٨) صحيح البخارى برقم (٧٤٣٩) وصحيح مسلم برقم (١٨٣).

(٩) فى أ: «عنترة».

فتفرحُ المرأةُ أن يكونَ لها الحق على أبيها أو أخيها أو زوجها. ثم قرأ: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، فيغفر الله من حقه ما يشاء، ولا يغفر من حقوق الناس شيئا، فينصب للناس فينادى: هذا فلانُ بن فلان، من كان له حق فليأت إلى حقه. فيقول: رب، فنيّت الدنيا، من أين أوتيتهم حقوقهم؟ قال: خذوا من أعماله الصالحة، فأعطوا كل ذي حق حقه بقدر طلبته فإن كان ولياً لله، ففضل له مثقال ذرة، ضاعفها الله له حتى يدخله بها الجنة، ثم قرأ علينا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ قال: ادخل الجنة؛ وإن كان عبداً شقياً قال الملك: رب فنيّت حسناته، وبقي طالبون كثير؟ فيقول: خذوا من سيئاتهم فأضيفوها إلى سيئاته، ثم صكوا له صكاً إلى النار.

ورواه ابن جرير من وجه آخر، عن زاذان - به نحوه. ولبعض هذا الأثر شاهد في الحديث الصحيح.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا فضيل - يعني ابن مرزوق - عن عطية العوفي، حدثني عبد الله ابن عمر قال: نزلت هذه الآية في الأعراب: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]. قال رجل: فما للمهاجرين يا أبا عبد الرحمن؟ قال: ما هو أفضل من ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وحدثنا أبو زرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني عبد الله بن لهيعة، حدثني عطاء ابن دينار، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ فأما المشرك فيخفف عنه العذاب يوم القيامة، ولا يخرج من النار أبداً. وقد استدلل به بالحديث الصحيح أن العباس قال: يا رسول الله، إن أبا طالب^(١) كان يحوطك وينصرك فهل نفعته بشيء؟ قال: «نعم، هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»^(٢).

وقد يكون هذا خاصاً بأبي طالب من دون الكفار، بدليل ما رواه أبو داود الطيالسي في سننه^(٣): حدثنا عمران، حدثنا قتادة، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً، يثاب عليها الرزق في الدنيا ويُجْزَى بها»^(٤) في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بها في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة لم يكن له حسنة»^(٥).

وقال أبو هريرة، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، والحسن، وقتادة والضحاك، في قوله: ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني: الجنة.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا سليمان - يعني ابن المغيرة - عن علي بن زيد، عن أبي عثمان قال: بلغني عن أبي هريرة أنه قال: بلغني أن الله تعالى يعطي عبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألف ألف حسنة. قال: فقضى أني انطلقت حاجاً أو معتمراً، فلقيته فقلت: بلغني عنك

(١) في أ: «إن عمك أبا طالب».

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم (٣٨٨٣، ٦٢٠٨) ومسلم في صحيحه برقم (٢٠٩).

(٣) في د، ر، أ: «مسند».

(٤) في ر: «فيها».

(٥) مسند الطيالسي برقم (٤٧) «منحة العبود» ورواه مسلم برقم (٢٨٠٨) من طريق يزيد بن هارون عن همام بن يحيى عن قتادة بنحوه.

حديث أنك تقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يعطى عبده المؤمن بالحسنة ألف ألف حسنة» قال أبو هريرة: لا، بل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل يعطيه ألفى ألف حسنة». ثم تلا: ﴿يُضَاعَفُهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. فمن يقدره قدره^(١) (٢).

ورواه الإمام أحمد فقال: حدثنا يزيد، حدثنا مبارك بن فضالة، عن علي بن زيد، عن أبي عثمان قال: أتيت أبا هريرة فقلت له: بلغني^(٣) أنك تقول: إن الحسنة تضاعف ألف ألف حسنة؟ قال: وما أعجبك من ذلك؟ فوالله لقد سمعت - يعنى النبي ﷺ - كذا قال أبي - يقول: «إن الله ليضاعف الحسنة ألفى ألف حسنة»^(٤).

على بن زيد فى أحاديثه نكارة، فالله أعلم.

وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾. يقول تعالى - مخبراً عن هول يوم القيامة وشدة أمره وشأنه: فكيف يكون الأمر والحال يوم القيامة وحين^(٥) يجيء من كل أمة بشهيد - يعنى الأنبياء عليهم السلام؟ كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٦) [الزمر: ٦٩]. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾^(٧) [النحل: ٨٩].

قال البخارى: حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال لى النبي ﷺ: «اقرأ على» قلت: يا رسول الله، اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «نعم، إني أحب أن أسمع من غيري» فقرأت سورة النساء، حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قال: «حسبك الآن» فإذا عيناه تذرفان.

ورواه هو ومسلم أيضاً من حديث الأعمش، به^(٨). وقد روى من طرق متعددة عن ابن مسعود، فهو مقطوع به عنه. ورواه أحمد من طريق أبي حيان، وأبي رزين، عنه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو بكر بن أبي الدنيا، حدثنا الصلت بن مسعود الجحدري، حدثنا فضيل بن سليمان، حدثنا يونس بن محمد بن فضالة الأنصاري، عن أبيه قال - وكان أبي ممن صحب النبي ﷺ: إن رسول الله ﷺ أتاهم فى بنى ظفر، فجلس على الصخرة التى فى بنى ظفر اليوم، ومعه ابن مسعود ومعاذ بن جبل وناس من أصحابه، فأمر النبي ﷺ قارئاً فقرأ، فأتى على هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾. فبكى رسول الله ﷺ حتى

(١) فى د، ر، أ: «يقدر قدره».

(٢) المسند (٥٢١/٥).

(٣) فى ر: «إنه بلغني».

(٤) المسند (٢٩٦/٢).

(٥) فى ر: «حين».

(٦) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٧) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٨) صحيح البخارى برقم (٥٠٥٠) وصحيح مسلم برقم (٨٠٠).

(٩) فى ر: «أبي» وهو خطأ.

اضطرب^(١) لحياه وجنباه، فقال: «يا رب، هذا شهدتُ على من أنا بين ظهريه، فكيف بمن لم أراه؟»^(٢).

وقال ابن جرير: حدثنى عبد الله بن محمد الزهرى، حدثنا سفيان، عن المسعودى، عن جعفر ابن عمرو بن حريث عن أبيه عن عبد الله - هو ابن مسعود - ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «شَهِيدٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتُ فِيهِمْ، فَإِذَا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ».

وأما ما ذكره أبو عبد الله القرطبى فى «التذكرة»^(٣) حيث قال: باب^(٤) ما جاء فى شهادة النبى ﷺ على أمته: قال: أخبرنا ابن المبارك، أخبرنا رجل من الأنصار، عن المنهال بن عمرو، حدثه أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: ليس من يوم إلا تعرض على النبى ﷺ أمته غُدوة وعَشِيَّة، فيعرفهم بأسمائهم^(٥) وأعمالهم، فلذلك يشهد عليهم، يقول الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ فإنه أثر، وفيه انقطاع، فإن فيه رجلا مبهما لم يسم، وهو من كلام سعيد بن المسيب لم يرفعه. وقد قبله القرطبى فقال بعد إيراده: [قد تقدم]^(٦) أن الأعمال تعرض على الله كل يوم اثنين وخميس، وعلى الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة. قال: ولا تعارض، فإنه يحتمل أن يخص نبينا بما يعرض عليه كل يوم، ويوم الجمعة مع الأنبياء، عليهم السلام.

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوْمُ الدِّينِ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ أى: لو انشقت وبلعتهم، مما يرون من أهوال الموقف، وما يحل بهم من الخزي والفضيحة والتوبيخ، كقوله: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾^(٧) [النبأ: ٤٠].

وقوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ أخبر^(٨) عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه، ولا يكتُمون منه شيئا.

قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا حكام، حدثنا عمرو، عن مطرف، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبیر قال: أتى رجل ابن عباس فقال: سمعتُ الله، عز وجل، يقول - يعنى إخبارا عن المشركين يوم القيامة أنهم قالوا -: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقال فى الآية الأخرى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾. فقال ابن عباس: أما قوله: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا: تعالوا فلنَجِدْ، فقالوا: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. فختم الله على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن رجل، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبیر قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: أشياء تختلف على فى القرآن. قال: ما هو؟ أشك فى القرآن؟ قال: ليس

(١) فى ر: «ضرب».

(٢) ورواه البغوى فى معجمه ومن طريقه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٤٣/١٩) من طريق الصلت بن مسعود الجحدرى به.

قال الهيثمى فى المجمع (٤/٧): «رجاله ثقات».

(٣) التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة (ص ٢٩٤).

(٦) زيادة من ر، أ، والتذكرة.

(٥) فى أ: «بسماهم».

(٤) فى أ: «يا رب».

(٨) فى ر، أ: «إخبار».

(٧) زيادة من ر، وفى هـ: «الآية».

هو بالشك. لكن^(١) اختلاف. قال: فهات ما اختلف عليك من ذلك. قال: أسمع الله يقول: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وقال: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾؛ فقد كتموا! فقال ابن عباس: أما قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم لما رأوا يوم القيامة أن الله لا يغفر إلا لأهل الإسلام^(٢)، ويغفر الذنوب ولا يغفر شركا، ولا يتعاضمه ذنب أن يغفره، جحد المشركون، فقالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾؛ رجاء أن يغفر لهم. فحتم الله علي أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، فعند ذلك: ﴿يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾.

وقال جويبر عن الضحّاك: إن نافع بن الأزرق أتى ابن عباس فقال: يا ابن عباس، قول الله: ﴿يَوْمَئِذٍ يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ وقوله: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾؟ فقال له ابن عباس: إني أحسبك قمت من عند أصحابك فقلت: ألقى على ابن عباس متشابه القرآن. فإذا رجعت إليهم فأخبرهم أن الله جامع الناس يوم القيامة في بقيع واحد. فيقول المشركون: إن الله لا يقبل من أحد شيئا إلا من وحده، فيقولون: تعالوا نقل فیسألهم فيقولون: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. قال: فيحتم على أفواههم، وتستنطق^(٣) جوارحهم، فتشهد عليهم جوارحهم أنهم كانوا مشركين. فعند ذلك تمنوا لو أن الأرض سويت بهم ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾. رواه ابن جرير.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا غَفُورًا﴾ (٤٣).

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن فعل الصلاة في حال السكر، الذي لا يدري معه المصلى ما يقول، وعن قربان محلها - وهى المساجد - للجنب، إلا أن يكون مجتازا من باب إلى باب من غير مكث وقد كان هذا قبل تحريم الخمر، كما دل الحديث الذى ذكرناه فى سورة البقرة، عند قوله [تعالى]^(٤): ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾^(٥) الآية [البقرة: ٢١٩]؛ فإن رسول الله ﷺ تلاها على عمر، فقال: اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا. فلما نزلت هذه الآية، تلاها عليه، فقال: اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا. فكانوا لا يشربون الخمر فى أوقات الصلوات^(٦) فلما نزل^(٧) قوله [تعالى]^(٨): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١] فقال عمر: انتهينا، انتهينا.

(٣) فى د: «ويستنطق».

(٦) فى د: «الصلوة».

(٢) فى أ: «إن الله يغفر لأهل الإسلام».

(٥) زيادة من ر، أ.

(٨) زيادة من ر.

(١) فى ر، أ: «ولكنه».

(٤) زيادة من ر.

(٧) فى د، ر: «نزلت».

وفى رواية إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عمرو - وهو ابن شُرْحَيْل - عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فى قصة تحريم الخمر، فذكر الحديث وفيه: فنزلت الآية التى فى [سورة] (١) النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾. فكان منادى رسول الله ﷺ إذا قامت (٢) الصلاة ينادى: أَلَا يَقْرَبَنَّ الصَّلَاةَ سُكَارَى. لفظ أبى داود.

وذكروا فى سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن أبى حاتم (٣):

حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا شُعْبَةُ، أخبرنى سِمَاكُ بْنُ حَرْبٍ قال: سمعت مُصْعَبَ بْنَ سَعْدٍ يحدث عن سعد قال: نزلت فى أربع آيات: صنع رجل من الأنصار طعاما، فدعا أناسا من المهاجرين وأناسا من الأنصار، فأكلنا وشربنا حتى سكرنا، ثم افتخرنا فرفع رجل لَحْيَ بَعِيرٍ فَفَزَّرَ (٤) به أنف سعد، فكان سعد مَفْزُور (٥) الأنف، وذلك قبل أن تحرم الخمر، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾. . الآية.

والحديث بطوله عند مسلم من رواية شُعْبَةَ. ورواه أهلُ السُّنَنِ إلا ابنُ ماجه، من طُرُقٍ عن سِمَاكٍ به (٦).

سبب آخر: قال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عمار، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله الدشتكى، حدثنا أبو جعفر، عن عطاء بن السائب، عن أبى عبد الرحمن السلمى، عن على بن أبى طالب قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما، فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة فقدموا فلاناً - قال: فقرا: قل يا أيها الكافرون، ما أعبد ما تعبدون، ونحن نعبد ما تعبدون. [قال] (٧): فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾.

هكذا رواه ابن أبى حاتم، وكذا رواه الترمذى عن عبد (٨) بن حُمَيْدٍ، عن عبد الرحمن الدشتكى، به، وقال: حسن صحيح (٩).

وقد رواه ابن جرير، عن محمد بن بشار، عن عبد الرحمن بن مَهْدَى، عن سفيان الثورى، عن عطاء بن السائب، عن أبى عبد الرحمن، عن على؛ أنه كان هو وعبد الرحمن ورجل آخر شربوا الخمر، فصلى بهم عبد الرحمن فقرا: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فخلط فيها، فنزلت: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾.

وهكذا رواه أبو داود والنسائى، من حديث الثورى، به (١١).

(١) زيادة من د. (٢) فى د، ر: «أقيمت». (٣) فى أ: «ابن جرير». (٤) فى د: «فضرب». (٥) فى د: «معرو». (٦) صحيح مسلم برقم (١٧٤٨) وسنن أبى داود برقم (٢٧٤٠) وسنن الترمذى برقم (٣٠٧٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١١٩٦) مختصرا ليس فيه ذكر الشاهد هاهنا. (٧) زيادة من ر، أ. (٨) فى أ: «عبد الله». (٩) سنن الترمذى برقم (٣٠٢٦). (١٠) زيادة من ر، أ. (١١) تفسير الطبرى (٣٧٦/٨) وسنن أبى داود برقم (٣٦٧١) وسنن النسائى الكبرى كما فى تحفة الأشراف للمزى برقم (١٠١٧٥).

ورواه ابن جرير أيضاً، عن ابن حميد، عن جرير، عن عطاء، عن أبى عبد الرحمن السلمى قال: كان علىّ فى نفر من أصحاب النبى ﷺ فى بيت عبد الرحمن بن عوف، فطعموا فاتاهم بخمر فشربوها منها، وذلك قبل أن يحرم^(١) الخمر، فحضرت الصلاة فقدموا عليها فقرا بهم: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، فلم يقرأها كما ينبغى، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾^(٢).

ثم قال: حدثنى المثنى، حدثنا الحجاج بن المنهال، حدثنا حماد، عن عطاء بن السائب، عن عبد الله بن حبيب - وهو أبو عبد الرحمن السلمى؛ أن عبد الرحمن بن عوف صنع طعاماً وشراباً، فدعا نفرا من أصحاب النبى ﷺ فصلى بهم المغرب، فقرا: قل يا أيها الكافرون. أعبد ما تعبدون. وأنتم عابدون ما أعبد. وأنا عابد ما عبدتم. لكم دينكم ولى دين. فأنزل الله، عز وجل، هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾^(٣).

وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾^(٤) وذلك أن رجلاً كانوا يأتون الصلاة وهم سُكَارَى، قبل أن تحرم الخمر، فقال الله: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ الآية. رواه ابن جرير. وكذا قال أبو رزين ومجاهد. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: كانوا يجتنبون السكر عند حضور الصلوات ثم نسخ فى تحريم الخمر. وقال الضحّاك فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾: لم يعن بها سكر الخمر، إنما عنى بها سكر النوم. رواه ابن جرير وابن أبى حاتم.

ثم قال ابن جرير: والصواب أن المراد سكر الشراب. قال: ولم يتوجه النهى إلى السكران الذى لا يفهم الخطاب؛ لأن ذاك فى حكم المجنون، وإنما خوطب بالنهى الثمل الذى يفهم التكليف^(٥).

هذا حاصل ما قاله. وقد ذكره غير واحد من الأصوليين، وهو أن الخطاب توجه إلى من يفهم الكلام، دون السكران الذى لا يدرك ما يقال له؛ فإن الفهم شرط التكليف. وقد يحتمل أن يكون المراد التعريض بالنهى عن السكر بالكلية؛ لكونهم مأمورين بالصلاة فى الخمسة الأوقات من الليل والنهار، فلا يتمكن شارب الخمر من أداء الصلاة فى أوقاتها دائماً، والله أعلم. وعلى هذا فيكون كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وهو الأمر لهم بالتأهب للموت على الإسلام والمداومة على الطاعة لأجل ذلك.

وقوله: '﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾' هذا أحسن ما يقال فى حد السكران: أنه الذى لا يدرك ما

(١) فى ر: «تحرم».

(٢) لم أجده فى تفسير الطبرى المطبوع.

(٣) تفسير الطبرى (٣٧٦/٨).

(٤) زيادة من ر، أ.

(٥) بعدها فى أ: «وقد يحتمل أن يكون المراد».

يقول^(١)، فإن المخمور^(٢) فيه تخليط فى القراءة وعدم تدبره^(٣) وخشوعه فيها، وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبى، حدثنا أيوب، عن أبى قلابة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ إذا نعى أحدكم وهو يصلى، فلينصرف فليتم حتى يعلم ما يقول. انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم، ورواه هو والنسائى من حديث أيوب، به^(٤). وفى بعض ألفاظ الحديث^(٥): فلعله يذهب يستغفر فيسب نفسه.

وقوله: ﴿وَلَا جُنْبًا إِلَّا غَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾. قال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عمار، حدثنا عبد الرحمن الدشتكى، أخبرنا أبو جعفر الرازى، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَلَا جُنْبًا إِلَّا غَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ قال: لا تدخلوا المسجد وأنتم جنب إلا غابري سبيل، قال: تمر^(٦) به مرأ ولا تجلس. ثم قال: ورؤى عن عبد الله بن مسعود، وأنس، وأبى عبيدة، وسعيد بن المسيب، وأبى الضحى، وعطاء، ومجاهد، ومسروق، وإبراهيم النخعى، وزيد بن أسلم، وأبى مالك، وعمرو بن دينار، والحكم بن عتيبة^(٧)، وعكرمة، والحسن البصرى، ويحيى بن سعيد الأنصارى، وابن شهاب، وقتادة، نحو ذلك.

وقال ابن جرير: حدثنى المثنى، حدثنا أبو صالح، حدثنى الليث، حدثنى يزيد بن أبى حبيب عن قول الله عز وجل^(٨): ﴿وَلَا جُنْبًا إِلَّا غَابِرِي سَبِيلٍ﴾، أن رجلا من الأنصار كانت أبوابهم فى المسجد، فكانت تصيبهم جنابة ولا ماء عندهم، فيريدون الماء ولا يجدون مراً إلا فى المسجد، فأنزل الله: ﴿وَلَا جُنْبًا إِلَّا غَابِرِي سَبِيلٍ﴾.

ويشهد لصحة ما قاله يزيد بن أبى حبيب، رحمه الله، ما ثبت فى صحيح البخارى: أن رسول الله ﷺ قال: «سُدُّوا كل خَوْخة فى المسجد إِلَّا خَوْخةَ أبى بكر»^(٩).

وهذا قاله فى آخر حياته ﷺ، علما منه أن أبا بكر، رضى الله عنه، سبلى الأمر بعده، ويحتاج إلى الدخول فى المسجد كثيرا للأمر المهمة فيما يصلح للمسلمين، فأمر بسد الأبواب الشارعة إلى المسجد إلا بابه، رضى الله عنه. ومن روى: «إلا باب على» كما وقع فى بعض السنن، فهو خطأ، والصحيح ما ثبت فى الصحيح. ومن هذه الآية احتج كثير من الأئمة على أنه يحرم على الجنب اللبث فى المسجد، ويجوز له المرور، وكذا الحائض والنفساء أيضاً فى معناه؛ إلا أن بعضهم قال: يمنع مرورهما لاحتمال التلويت. ومنهم من قال: إن أمنت كل واحدة منهما التلويت فى حال المرور جاز لهما المرور وإلا فلا.

وقد ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: قال لى رسول الله ﷺ: «ناولينى

(١) فى أ: «يقولون». (٢) فى د، ر: «المخدور».

(٤) المسند (٣/ ١٥٠) وصحيح البخارى برقم (٢١٣) وسنن النسائى (١/ ٢١٥).

(٥) فى د: «ألفاظه». (٦) فى د: «مر».

(٧) فى أ: «عينة».

(٨) فى أ: «فى قوله تعالى».

(٩) صحيح البخارى برقم (٢٩٨).

الخُمْرَة من المسجد» فقلت: إني حائض. فقال: «إن حيضتك ليست في يدك». وله عن أبي هريرة مثله^(١). ففيه دلالة على جواز مرور الحائض في المسجد، والنفساء في معناها، والله أعلم.

وروى أبو داود من حديث أفلت بن خليفة^(٢) العامري، عن جَسْرَة بنت دجاجة، عن عائشة [رضي الله عنها]^(٣) قالت: قال رسول الله ﷺ: «إني لا أحلّ المسجد لحائض ولا جنب»^(٤). قال أبو مسلم الخطّابي: ضَعَفَ هذا الحديث جماعة وقالوا: أفلت مجهول. لكن رواه ابن ماجه من حديث أبي الخطاب الهَجَرِي، عن مَحْدُوج^(٥) الذهلي، عن جَسْرَة، عن أم سلمة عن النبي ﷺ، به. قال أبو زُرْعَة الرازي: يقولون: جَسْرَة، عن أم سلمة. والصحيح جَسْرَة عن عائشة.

فأما ما رواه أبو عيسى الترمذی، من حديث سالم بن أبي حفصة، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: يا علي، لا يحل لأحد أن يُجنب في هذا المسجد غيري وغيرك. إنه حديث ضعيف لا يثبت؛ فإن سالما هذا متروك، وشيخه عطية ضعيف^(٦)، والله أعلم.

قول آخر في معنى الآية: قال ابن أبي حاتم: حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا عبيد الله بن موسى، أخبرني ابن أبي ليلى، عن المنهال، عن زرّ بن حبّيش، عن علي: «وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ». قال: لا يقرب الصلاة، إلا أن يكون مسافرا تصيبه الجنابة، فلا يجد الماء فيصلي حتى يجد الماء.

ثم رواه من وجه آخر، عن المنهال بن عمرو، عن زرّ، عن علي بن أبي طالب، فذكره. قال: ورؤى عن ابن عباس في إحدى الروايات، وسعيد بن جبیر، والضّحّاك، نحو ذلك.

وقد روى ابن جرير من حديث وكيع، عن ابن أبي ليلى، عن المنهال، عن عبّاد بن عبد الله أو عن زر بن حبّيش - عن علي، فذكره. ورواه من طريق العوفي وأبي مجلز، عن ابن عباس، فذكره. ورواه عن سعيد بن جبیر، وعن مجاهد، والحسن بن مسلم، والحكم بن عتيبة وزيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن، مثل ذلك، وروى من طريق ابن جريج، عن عبد الله بن كثير قال: كنّا نسمع أنه في السفر.

ويُسْتَشْهَد لهذا القول بالحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن، من حديث أبي قلابة، عن عمرو بن بُجْدَان عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «الصعيد الطيب طهورُ المسلم، وإن لم تجد الماء عشر حجج، فإذا وجدت الماء فأمسسه بشرتك فإن ذلك خير»^(٨).

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٨) ومن حديث أبي هريرة برقم (٢٩٩).

(٢) في ر: «خليفة».

(٣) زيادة من أ.

(٤) سنن أبي داود برقم (٢٣٢) وسنن ابن ماجه برقم (٦٤٥) من حديث أم سلمة. قال البوصيري في الزوائد (١/ ٢٣٠): «هذا إسناد ضعيف، محدوج لم يوثق، وأبو الخطاب مجهول».

(٥) في أ: «مجدوح».

(٦) سنن الترمذی برقم (٣٧٢٧).

(٧) في د، ر: «يجد».

(٨) المسند (٥/ ١٨٠) وسنن أبي داود برقم (٣٣٢) وسنن الترمذی برقم (١٢٤) وسنن النسائي (١/ ١٧١).

وقوله: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ الغائط: هو المكان المظلم من الأرض، كنى بذلك عن التغوط، وهو الحدث الأصغر.

وأما قوله: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ فقرأ: «لَمَسْتُمْ» و«لامستم» واختلف المفسرون والأئمة في معنى ذلك، على قولين:

أحدهما: أن ذلك كناية عن الجماع؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصَفْ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّنَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ قال: الجماع. وروى عن علي، وأبي ابن كعب، ومجاهد، وطاوس، والحسن، وعبيد بن عمير، وسعيد بن جبير، والشَّعْبِي، وقتادة، ومقاتل ابن حيان - نحو ذلك.

وقال ابن جرير: حدثني حميد بن مسعدة، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير قال: ذكروا اللبس، فقال ناس من الموالى: ليس بالجماع. وقال ناس من العرب: اللبس الجماع. قال: فأتيت ابن عباس فقلت له: إن ناسا من الموالى والعرب اختلفوا في اللبس، فقالت الموالى: ليس بالجماع. وقالت العرب: الجماع. قال: من أى الفريقين كنت؟ قلت: كنت من الموالى. قال: غلب فريق الموالى. إن اللبس واللبس والمباشرة: الجماع، ولكن الله يكنى ما شاء بما شاء.

ثم رواه عن ابن بشَّار، عن غُندَر، عن شعبة - به نحوه. ثم رواه من غير وجه عن سعيد بن جبير، نحوه.

ومثله قال: حدثني يعقوب، حدثنا هشيم قال: حدثنا أبو بشر، أخبرنا ^(١) سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: اللبس واللبس والمباشرة: الجماع، ولكن الله يكنى بما يشاء.

حدثنا عبد الحميد بن بيان، أنبأنا إسحاق الأزرق، عن سفيان، عن عاصم الأحول، عن بكر بن عبد الله، عن ابن عباس قال: الملامسة: الجماع، ولكن الله كريم يكنى بما يشاء.

وقد صح ^(٢) من غير وجه، عن عبد الله بن عباس أنه قال ذلك. ثم رواه ابن جرير عن بعض من حكاه ابن أبي حاتم عنهم.

ثم قال ابن جرير: وقال آخرون: عنى الله بذلك كلَّ لمس، بيد كان أو بغيرها من أعضاء الإنسان، وأوجبوا الوضوء على كل من مس بشيء من جسده شيئا من جسدها مفضيا إليه.

ثم قال: حدثنا ابن بشَّار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان عن مُخَارِق، عن طارق ^(٣)، عن

(١) فى ر: «أخبرنى عن».

(٢) فى أ: «صح هذا».

(٣) فى أ: «طاوس».

عبد الله بن مسعود قال: اللمس ما دون الجماع.

وقد رواه من طرق متعددة عن ابن مسعود بمثله. وروى من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: القبلة من المس، وفيها الوضوء.

وقال: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عبيد الله^(١) بن عمر، عن نافع: أن ابن عمر كان يتوضأ من قبلة المرأة، ويرى^(٢) فيها الوضوء، ويقول: هي من اللباس.

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير أيضا من طريق شعبة، عن مخارق، عن طارق، عن عبد الله قال: اللمس ما دون الجماع.

ثم قال ابن أبي حاتم: وروى عن ابن عمر، وعبيدة، وأبي عثمان النهدي وأبي عبيدة - يعنى ابن عبد الله بن مسعود - وعامر الشعبي، وثابت بن الحجاج، وإبراهيم النخعي، وزيد بن أسلم نحو ذلك.

قلت: وروى مالك، عن الزهري، عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه أنه كان يقول: قبلة الرجل امرأته وجسده بيده من الملامسة، فمن قبل امرأته أو جسده بيده، فعليه الوضوء.

وروى الحافظ أبو الحسن الدارقطني [في سننه]^(٣) عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نحو ذلك. ولكن رويّا عنه من وجه آخر: أنه كان يقبل امرأته، ثم يصلى ولا يتوضأ. فالرواية عنه مختلفة، فيحمل^(٤) ما قاله في الوضوء إن صح عنه على الاستحباب، والله أعلم.

والقول بوجوب الوضوء من المس هو قول الشافعي وأصحابه ومالك والمشهور عن أحمد بن حنبل، رحمهم الله، قال ناصر هذه المقالة: قد قرئ في هذه الآية ﴿لَا مَسَّكُمْ﴾ و﴿لَا مَسَّكُمْ﴾، واللمس يطلق في الشرع على الجس باليد قال [الله]^(٥) تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [لأنعام: ٧]، أى جسوه^(٦) وقال [رسول الله]^(٧) ﷺ لما عَزَّ - حين أقر بالزنا يُعرض له بالرجوع عن الإقرار -: «لعلك قبلت أو لمست»^(٨). وفي الحديث الصحيح: «واليد زناها اللمس»^(٩). وقالت عائشة، رضى الله عنها: قلّ يوم إلا ورسول الله ﷺ يطوف علينا، فيقبل ويلمس. ومنه ما ثبت في الصحيحين: أنه ﷺ نهى عن بيع الملامسة^(١٠). وهو يرجع إلى الجس باليد على كلا التفسيرين قالوا: ويطلق في اللغة على الجس باليد، كما يطلق على الجماع، قال الشاعر:

وَأَلَمْتُ كَفَى كَفَّهُ أَطْلَبُ الْغَنَى

(١) في د، ر: «عبد الله» والصحيح ما أثبتناه.

(٢) في أ: «وهو يرى».

(٣) زيادة من ر، أ.

(٤) في أ: «فيحمل».

(٥) زيادة من ر، أ.

(٦) زيادة من أ.

(٨) رواه البخاري في صحيحه برقم (٦٨٢٤) وأبو داود في سننه برقم (٤٤٢٧) وأحمد في مسنده (٢٣٨/١) من حديث عبد الله بن عباس.

(٩) رواه أحمد في مسنده (٣٤٩/٢) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه.

(١٠) صحيح البخاري برقم (٢١٤٦) وصحيح مسلم برقم (١٥١١).

واستأنسوا أيضا بالحديث الذى رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الله^(١) بن مهدى وأبو سعيد قالا: حدثنا زائدة، عن عبد الملك بن عمير - وقال أبو سعيد: حدثنا عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن ابن أبى ليلى، عن معاذ قال: أتى رسول الله ﷺ رجلٌ فقال: يا رسول الله، ما تقول فى رجل لقى امرأة لا يعرفها، فليس^(٢) يأتى الرجل من امرأته شيئا إلا قد أتاه منها، غير أنه لم يجامعها؟ قال: فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَى النَّهَارِ وَزَلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤] قال: فقال رسول الله ﷺ: «توضأ ثم صل». قال معاذ: فقلت: يا رسول الله، أله خاصة أم للمؤمنين عامة؟ قال: «بل للمؤمنين عامة».

ورواه الترمذى من حديث زائدة^(٣)، به، وقال: ليس بمتصل. وأخرجه النسائى من حديث شعبة، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى مرسلًا^(٤).

قالوا: فأمره بالوضوء؛ لأنه لمس المرأة ولم يجامعها. وأجيب بأنه منقطع بين أبى ليلى ومعاذ، فإنه لم يلقه، ثم يحتمل أنه إنما أمره بالوضوء والصلاة للتوبة، كما تقدم فى حديث الصديق [رضى الله عنه]^(٥): «ما من عبد يذنب ذنبا فيتوضأ ويصلى ركعتين إلا غفر الله له» الحديث، وهو مذكور فى سورة آل عمران عند قوله: ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ [وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ]﴾^(٦) الآية [آل عمران: ١٣٥].

ثم قال ابن جرير: وأولى القولين فى ذلك بالصواب قول من قال: عنى الله بقوله: ﴿أَوْ لَا مَسْئَمُ النِّسَاءِ﴾ الجماع دون غيره من معانى اللمس؛ لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قَبَّلَ بعض نسائه ثم صلى ولم يتوضأ، ثم قال: حدثنى بذلك إسماعيل بن موسى السدى قال: أخبرنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن حبيب بن أبى ثابت، عن عروة، عن عائشة قالت: كان النبى ﷺ يتوضأ ثم يقبل، ثم يصلى ولا يتوضأ^(٧).

ثم قال: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن حبيب، عن عروة، عن عائشة؛ أن النبى ﷺ قَبَّلَ بعض نسائه، ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ، قلت: من هى إلا أنت؟ فضحكت.

وهكذا رواه أبو داود والترمذى، وابن ماجه، عن جماعة من مشايخهم، عن وكيع، به^(٨).

ثم قال أبو داود: روى عن الثورى أنه قال: ما حدثنا حبيب إلا عن عروة المزنى، وقال يحيى القطان لرجل: احك عنى أن هذا الحديث شبه لا شيء.

(١) فى ر، أ: «عبد الرحمن». (٢) فى أ: «وليس».

(٣) المسند (٢٤٤/٥) وسنن الترمذى برقم (٣١١٣).

(٤) رواه النسائى فى الكبرى برقم (٧٣٢٨) لكنه موصول، وذكره المزى فى تحفة الأشراف برقم (١١٣٤٣) وعزاه للنسائى مرسلًا، والله أعلم.

(٥) زيادة من أ. (٦) زيادة من د، أ.

(٧) تفسير الطبرى (٣٩٦/٨).

(٨) تفسير الطبرى (٣٩٦/٨) وسنن أبى داود برقم (١٨٠) وسنن الترمذى برقم (٨٦) وسنن ابن ماجه برقم (٥٠٢).

وقال الترمذى: سمعت البخارى يضعف هذا الحديث وقال: حبيب بن أبى ثابت لم يسمع من عروة.

وقد وقع فى رواية ابن ماجه: عن أبى بكر بن أبى شيبة وعلى بن محمد الطنافسى، عن وكيع، عن الأعمش، عن حبيب بن أبى ثابت، عن عروة بن الزبير، عن عائشة.

وأبلغ من ذلك ما رواه الإمام أحمد فى مسنده، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة^(١)، وهذا نص فى كونه عروة بن الزبير، ويشهد له قوله: من هى إلا أنت، فضحكت^(٢).

لكن روى أبو داود، عن إبراهيم بن مخلد الطالقانى، عن عبد الرحمن بن مغراء، عن الأعمش قال: حدثنا أصحاب لنا عن عروة المزنى، عن عائشة^(٣)، فذكره، والله أعلم.

وقال ابن جرير أيضا: حدثنا أبو زيد عمر بن شبة، عن^(٤) شهاب بن عباد، حدثنا منذ بن على، عن ليث، عن عطاء، عن عائشة - وعن أبى روق، عن إبراهيم التيمى، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ ينال منى القبلة بعد الوضوء، ثم لا يعيد الوضوء^(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن أبى روق الهمداني، عن إبراهيم التيمى، عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ قبل ثم صلى ولم يتوضأ.

[و]^(٦) رواه أبو داود والنسائى من حديث يحيى القطان - زاد أبو داود: وابن مهدي - كلاهما عن سفيان الثوري، به.^(٧) ثم قال أبو داود، والنسائى: لم يسمع إبراهيم التيمى من عائشة.

وقال ابن جرير أيضا: حدثنا سعيد^(٨) بن يحيى الأموى، حدثنا أبى، حدثنا يزيد بن سنان، عن عبد الرحمن الأوزاعى، عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلمة، عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ كان يقبلها وهو صائم، ثم لا يفطر، ولا يحدث وضوء^(٩).

وقال أيضا: حدثنا أبو كريب، حدثنا حفص بن غياث، عن حجاج، عن عمرو بن شعيب، عن زينب السهمية عن النبى ﷺ: أنه كان يقبل ثم يصلى ولا يتوضأ.

وقد رواه الإمام أحمد، عن محمد بن فضيل، عن حجاج بن أرطاة، عن عمرو بن شعيب، عن زينب السهمية، عن عائشة، عن النبى ﷺ، به^(١٠).

(١) فى أ: «عائشة به».

(٢) المسند (٢١٠/٦) لكنه من طريق حبيب بن أبى ثابت عن عروة به.

(٣) فى ر: «عروة».

(٤) فى أ: «حدثنا».

(٥) تفسير الطبرى (٣٩٧/٨).

(٦) زيادة من أ.

(٧) المسند (٢١٠/٦) وسنن أبى داود برقم (١٧٨) وسنن النسائى (٣٩/١).

(٨) فى أ: «سعد».

(٩) تفسير الطبرى (٣٩٩/٨) ورواه الطبرانى فى الأوسط برقم (٤٣٦) «مجمع البحرين» من طريق سعيد بن يحيى الأموى به.

قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٤٧/١): «فيه يزيد بن سنان الرهاوى ضعفه أحمد ويحيى وابن المدينى، ووثقه البخارى وأبو حاتم، وثبته مروان بن معاوية، وبقيّة رجاله موثقون».

(١٠) تفسير الطبرى (٣٩٧/٨) والمسند (٦٢/٦).

وقوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ استنبط كثير من الفقهاء من هذه الآية: أنه لا يجوز التيمم لعدم الماء إلا بعد تطلبه، فمتى طلبه فلم يجده جاز له حينئذ التيمم. وقد ذكروا كيفية الطلب فى كتب الفروع، كما هو مقرر فى موضعه، كما هو^(٢) فى الصحيحين، من حديث عمران ابن حصين: أن رسول الله ﷺ رأى رجلا معتزلا لم يصل فى^(٣) القوم، فقال: «يا فلان، ما منعك أن تصلى مع القوم؟ ألسنت برجل مسلم؟» قال: بلى يا رسول الله، ولكن أصابتني جنابة ولا ماء. قال: «عليك بالصعيد، فإنه يكفيك»^(٤).

ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾. فالتيمم فى اللغة هو: القصد. تقول العرب: تيممك^(٦) الله بحفظه، أى: قصدك. ومنه قول امرئ القيس^(٧):

ولما رأت^(٨) أن المنية وردّها وأن الحصى من تحت أقدامها دَامَ
تيممت العين التى عند ضارج يفىء عليها الفىء عَرَمَضا طام

والصعيد قيل: هو كل ما صعد على وجه الأرض، فيدخل فيه التراب، والرمل، والشجر، والحجر، والنبات، وهو قول مالك. وقيل: ما كان من جنس التراب فيختص التراب والرمل والزرنيخ، والنورة، وهذا مذهب أبى حنيفة. وقيل: هو التراب فقط، وهو مذهب الشافعى وأحمد ابن حنبل وأصحابهما، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿فَتَصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف: ٤٠]، أى: ترابا أملس طيبا، وبما ثبت فى صحيح مسلم، عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهورا إذا لم نجد الماء»^(٩) وفى لفظ: «وجعل ترابها لنا طهورا إذا لم نجد الماء». قالوا: فخصص الطهورية بالتراب فى مقام الامتنان، فلو كان غيره يقوم مقامه لذكره معه.

والطيب هاهنا قيل: الحلال. وقيل: الذى ليس بنجس. كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا ابن ماجه، من حديث أبى قلابة عن عمرو بن بُجْدان^(١٠)، عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «الصعيد الطيب طهور المسلم، وإن لم يجد الماء عشر حجج، فإذا وجده،^(١١) فليمسه بشرته، فإن ذلك خير».

وقال الترمذى: حسن صحيح: وصححه ابن حبان أيضا^(١٢)، ورواه الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده عن أبى هريرة^(١٣) وصححه الحافظ أبو الحسن القطان. وقال ابن عباس: أطيب الصعيد تراب

(١) فى ر، أ: «فلم». (٢) فى أ: «ورد». (٣) فى أ: «مع».

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٤٨) وصحيح مسلم برقم (٦٨٢).

(٥) فى أ: «فلم». (٦) فى ر، أ: «نواك». (٧) البيت فى لسان العرب لابن منظور، مادة (ضرج).

(٨) فى ر: «رأيت».

(٩) صحيح مسلم برقم (٥٢٢).

(١٠) فى أ: «نجدان». (١١) فى ر، أ: «فإذا وجد الماء».

(١٢) سبق تخريجه، ورواه ابن حبان فى صحيحه (٣٠٣/٢) «الإحسان».

(١٣) مسند البزار برقم (٣١٠)، «كشف الأستار»، وقال الهيثمى فى المجمع (٢٦١/١): «رواه البزار وقال: لا نعلمه يروى عن أبى هريرة إلا من هذا الوجه قلت: ورجاله رجال الصحيح».

الحديث. رواه ابن أبي حاتم، ورفع ابن مَرْدُويه في تفسيره^(١).

وقوله: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾: التيمم بدل عن الوضوء في التطهر^(٢) به، لا أنه بدل منه في جميع أعضائه، بل يكفي مسح الوجه واليدين فقط بالإجماع، ولكن^(٣) اختلف الأئمة في كيفية التيمم على أقوال.

أحدها - وهو مذهب الشافعي في الجديد -: أنه يجب أن يمسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين؛ لأن لفظ اليدين يصدق إطلاقهما على ما يبلغ المنكبين، وعلى ما يبلغ المرفقين، كما في آية الوضوء، ويطلق ويراد بهما ما يبلغ الكفين، كما في آية السرة: ﴿فَاقْطِعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]. قالوا: وحمل ما أطلق هاهنا على ما قيد في آية الوضوء أولى لجامع^(٤) الطهورية. وذكر بعضهم ما رواه الدارقطني، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «التيمم ضربتان: ضربة للوجه، وضربة لليدين إلى المرفقين». ولكن لا يصح؛ لأن في أسانيده ضعف لا يثبت الحديث بهم^(٥). وروى أبو داود عن ابن عمر - في حديث - أن رسول الله ﷺ ضرب بيديه على الحائط ومسح بهما وجهه، ثم ضرب ضربة أخرى فمسح ذراعيه.

ولكن في إسناده محمد بن ثابت العبدي، وقد ضعفه بعض الحفاظ، ورواه غيره من الثقات فوقفه على فعل ابن عمر، قال البخاري وأبو زرعة وابن عدي: وهو الصواب. وقال البيهقي: رَفَعَ هذا الحديث منكر^(٦) ^(٧).

واحتج الشافعي بما رواه عن إبراهيم بن محمد عن أبي الخويرث عبد الرحمن بن معاوية، عن الأعرج، عن ابن الصمة: أن رسول الله ﷺ تيمم فمسح وجهه وذراعيه^(٨).

وقال ابن جرير: حدثني موسى بن سهل الرملي، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا خارجة بن مُصْعَب، عن عبد الله بن عطاء، عن موسى بن عُبَّبة، عن الأعرج، عن أبي جُهيم^(٩) قال: رأيت رسول الله ﷺ يبول، فسلمت عليه، فلم يرد علي حتى فرغ، ثم قام إلى الحائط^(١٠) فضرب بيديه عليه، فمسح بهما وجهه، ثم ضرب بيديه على الحائط فمسح بهما يديه إلى المرفقين، ثم رد على السلام^(١١).

(١) ورواه الشيرازي في الألقاب كما في الدر المنثور للسيوطي (٥٥١/٢).

(٢) في أ: «بجماع».

(٣) في أ: «واختلف».

(٥) سنن الدارقطني (١٨٠/١) من طريق عبد الله بن الحسين عن عبد الرحيم بن مطرف عن علي بن زبيان عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر، به.

ثم قال: «كذا رواه علي بن زبيان مرفوعاً، ووقفه يحيى بن القطان وهشيم وغيرهما، وهو الصواب».

ورواه الحاكم في المستدرک (١١٩/١) من طريق علي بن زبيان به، وعلي بن زبيان ضعفه الأئمة، وخالف برفعه لهذا الحديث

الثقات كالثوري ويحيى القطان وغيرهما.

(٦) في ر، أ: «غير منكر».

(٧) سنن أبي داود برقم (٣٣١).

(٨) الأم للشافعي (٤٢/١).

(٩) في أ: «جهيمة».

(١١) تفسير الطبري (٤١٦/٨).

والقول الثاني: أنه يجب مسح الوجه واليدين إلى الكفين بضربتين، وهو القول القديم للشافعي.

والثالث: أنه يكفي مسح الوجه والكفين بضربة واحدة؛ قال الإمام أحمد:

حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن الحكم، عن ذرّ، عن ابن عبد الرحمن بن أبزي، عن أبيه؛ أن رجلا أتى عمر فقال: إني أجنب فلم أجد ماء؟ فقال عمر: لا تصل. فقال عمار: أما تذكر يا أمير المؤمنين إذ أنا وأنت في سرية فأجنبنا فلم نجد ماء، فأما أنت فلم تصل، وأما أنا فتممعت في التراب فصليت، فلما أتينا النبي ﷺ ذكرت ذلك له، فقال: «إنما كان يكفيك». وضرب النبي ﷺ بيده الأرض، ثم نفخ فيها ومسح بها^(١) وجهه وكفيه^(٢).

وقال أحمد أيضا: حدثنا عفان، حدثنا أبان، حدثنا قتادة، عن عَزْرَةَ^(٣)، عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزي، عن أبيه، عن عمار؛ أن رسول الله ﷺ قال في التيمم: «ضربة للوجه والكفين»^(٤).

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد، حدثنا سليمان الأعمش، حدثنا شقيق قال: كنت قاعدا مع عبد الله وأبي موسى فقال أبو موسى لعبد الله: لو أن رجلا لم يجد الماء لم يصل؟ فقال عبد الله: لا. فقال أبو موسى: أما تذكر إذ قال عمار لعمر: ألا تذكر إذ بعثنى رسول الله ﷺ وإياك في إبل، فأصابتنى جنابة، فتمرغت في التراب؟ فلما رجعتُ إلى رسول الله ﷺ أخبرته، فضحك وقال: «إنما كان يكفيك أن تقول هكذا»، وضرب بكفيه إلى الأرض، ثم مسح كفيه جميعا، ومسح وجهه مسحة واحدة بضربة واحدة؟ فقال عبد الله: لا جرم، ما رأيت عمر قنع بذلك قال: فقال له أبو موسى: فكيف بهذه الآية في سورة النساء: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾؟ قال: فما درى عبد الله ما يقول، وقال: لو رخصنا لهم في التيمم لأوشك أحدهم إذا برد الماء على جلده أن يتيمم^(٥).

وقال تعالى في آية المائدة: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٦]، استدل بذلك الشافعي، رحمه الله تعالى، على أنه لا بد في التيمم أن يكون بتراب طاهر له غبار يعلق بالوجه واليدين منه شيء، كما رواه الشافعي بإسناده المتقدم عن ابن الصمة: أنه مرّ بالنبي ﷺ وهو يبول، فسلم عليه فلم يرد عليه، حتى قام إلى جدار فحته بعضا كانت معه، فضرب بيده عليه ثم مسح وجهه وذراعيه.

وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾، أي: في الدين الذي شرّعه لكم ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ فهذا أباح لكم إذا لم تجدوا الماء أن تعدلوا إلى التيمم بالصعيد ﴿وَلَيْتُمْ نِعْمَةً عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ولهذا كانت هذه الأمة مختصة بشرعية التيمم دون سائر الأمم، كما ثبت في الصحيحين، عن جابر بن عبد الله، رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيَ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي:

(١) في أ: «بهما».

(٢) المسند (٤/٢٦٥).

(٣) في أ: «عروة».

(٤) المسند (٤/٢٦٣).

(٥) المسند (٤/٢٦٥).

نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فأَيُّ رجلٍ من أمتي أدركته الصلاة فليصل - وفي لفظ: فعنده طهوره ومسجده - وأَحَلَّتْ لِي الْغَنَائِمَ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتِ الشَّفَاعَةَ، وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة^(١).

وتقدم في حديث حذيفة عند مسلم: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض مسجداً، وتربتها^(٢) طهوراً إذا لم نجد الماء».

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ أي: ومن عفوهم عنكم وغفر لكم أن شرع^(٣) التيمم، وأباح لكم فعل الصلاة به إذا فقدتم^(٤) الماء، توسعة عليكم ورخصة لكم، وذلك أن هذه الآية الكريمة فيها تنزيه الصلاة أن تفعل على هيئة ناقصة من سكر حتى يصحو المكلف ويعقل ما يقول، أو جنابة حتى يغتسل، أو حدث حتى يتوضأ، إلا أن يكون مريضاً أو عادماً للماء، فإن الله، عز وجل، قد أرخص في التيمم والحالة هذه، رحمة بعباده ورأفة بهم، وتوسعة عليهم، والله الحمد والمنة.

ذكر سبب نزول مشروعية التيمم:

وإنما ذكرنا ذلك هاهنا؛ لأن هذه الآية التي في النساء متقدمة النزول على آية المائدة، وبيانه أن هذه نزلت قبل تحتم تحريم الخمر، والخمر إنما حرم بعد أحد، يقال: في محاصرة النبي ﷺ لبنى النضير بعد أحد ببسير، وأما المائدة فإنها من أواخر ما نزل، ولا سيما صدرها، فناسب أن يذكر السبب هاهنا، وبالله الثقة.

قال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، حدثنا هشام، عن أبيه، عن عائشة: أنها استعارت من أسماء قلادة، فهلكت، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً في طلبها فوجدوها، فأدركتهم الصلاة وليس معهم ماء، فصلوا بغير وضوء، فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ، فأنزل الله آية التيمم، فقال أسيد بن الحضير لعائشة: جزاك الله خيراً، فوالله ما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله لك وللمسلمين فيه خيراً^(٥).

طريق أخرى: قال البخاري: حدثنا عبد الله بن يوسف، أنبأنا مالك، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كنا في البداء^(٦) - أو بذات الجيش - انقطع عقد لي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه، وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فأتى الناس إلى أبي بكر فقالوا: ألا ترى إلى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ وبالناس، وليسوا على ماء وليس معهم ماء! فجاء أبو بكر، ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حبست رسول الله ﷺ والناس، وليسوا على ماء وليس معهم ماء! قالت عائشة: فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعن بيده في خاصرتي، ولا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي، فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير

(١) صحيح البخاري برقم (٣٣٥) وصحيح مسلم برقم (٥٢١).

(٤) في أ: «فقد».

(٣) في أ: «يشرع».

(٢) في أ: «وترابها».

(٥) المسند (٥٧/٦).

(٦) في أ: «البداء».

ماء، فأنزل الله آية التيمم فتيمموا، فقال أسيد بن الحضير: ما هى بأول بركتكم يا آل أبى بكر. قالت: فبعثنا البعير الذى كنت عليه، فوجدنا العقد تحته.

وقد رواه البخارى أيضاً عن قتيبة وإسماعيل. ورواه مسلم عن يحيى بن يحيى، عن مالك^(١).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن صالح قال: قال ابن شهاب: حدثنى عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس، عن عمار بن ياسر؛ أن رسول الله ﷺ عرس بأولات الجيش ومعه عائشة زوجته، فانقطع عقد لها من جَزَع ظَفَّار، فحبس الناس ابتغاء عقدها، وذلك حتى أضاء الفجر، وليس مع الناس ماء، فأنزل الله، عز وجل، على رسول الله ﷺ رخصة التطهر بالصعيد الطيب، فقام المسلمون مع رسول الله ﷺ، فضربوا بأيديهم الأرض، ثم رفعوا أيديهم ولم يقبضوا من التراب شيئاً، فمسحوا بها وجوههم وأيديهم إلى المناكب، ومن بطون أيديهم إلى الآباط^(٢).

وقد رواه ابن جرير: حدثنا أبو كُريب، حدثنا صفى، عن ابن أبى ذئب، [عن الزُّهْرَى]^(٣)، عن عبيد الله بن عبد الله، عن أبى اليقظان قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فهلك عقد لعائشة، فأقام رسول الله ﷺ حتى أضاء الفجر^(٤)، فتغيظ أبو بكر على عائشة [رضى الله عنها]^(٥)، فنزلت عليه الرخصة: المسح بالصعيد الطيب. فدخل أبو بكر فقال لها: إنك لمباركة! نزلت فيك رخصة! فضربنا بأيدينا ضربة لوجوهنا، وضربة لأيدينا إلى المناكب والآباط^(٦).

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا الحسن ابن أحمد بن الليث حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا العلاء^(٧) بن أبى سوية، حدثنى الهيثم بن زُرَيْق^(٨) المالكى - من بنى مالك بن كعب بن سعد، وعاش مائة وسبع عشرة سنة - عن أبيه، عن الأسلع بن شريك قال: كنت أُرَحِّلُ ناقة رسول الله ﷺ، فأصابتنى جنابة فى ليلة باردة، وأراد رسول الله ﷺ الرحلة، فكرهت أن أرحل ناقته وأنا جنب، وخشيت أن أغتسل بالماء البارد فأموت أو أمرض، فأمرت رجلاً من الأنصار فرحّلها، ثم رَضَفْتُ أحجاراً فأسخت بها ماء، فاغتسلت. ثم لحقت رسول الله ﷺ وأصحابه فقال: «يا أسلع، مالى أرى رحلتك تغيرت؟» قلت: يا رسول الله، لم أرحلها، رحلها رجل من الأنصار، قال: «ولم؟» قلت: إني أصابتنى جنابة، فخشيت القُرَّ على نفسى، فأمرته أن يرحلها، ورضفت أحجاراً فأسخت بها ماء فاغتسلت به، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ [وَلَا جُنْبًا إِلَّا غَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا] وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا

(١) صحيح البخارى برقم (٤٦٠٧).

(٢) المسند (٢٦٤/٤).

(٣) زيادة من أ.

(٤) فى أ: «الصبح».

(٥) زيادة من أ، والطبرى.

(٦) تفسير الطبرى (٤١٨/٨).

(٨) فى أ: «زريق».

(٧) فى النسخ: «العباس» وهو تحريف، والتصويب من كتب الرجال.

بُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ»^(١) [إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا] .

وقد روى من وجه آخر، عنه^(٢) .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥) مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٤٦) .

يخبر تبارك تعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله المتتابعة^(٣) - إلى يوم القيامة^(٤) - أنهم يشترون الضلالة بالهدى، ويُعرضون عما أنزل الله على رسوله، ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين [عليهم السلام]^(٥)، في صفة محمد ﷺ، ليشتروا به ثمنًا قليلًا من حطام الدنيا، ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ أى: يودون لو تكفروا بما أنزل عليكم أيها المؤمنون وتتركون^(٦) ما أنتم عليه من الهدى والعلم النافع، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ أى: هو يعلم بهم ويحذركم منهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ أى: كفى به وليا لمن لجأ^(٧) إليه ونصيرًا لمن استنصره.

ثم قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ «من» هذه لبيان الجنس كقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠] .

وقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أى: يتأولون الكلام على غير تأويله، ويفسرونه بغير مراد الله، عز وجل، قصدا منهم وافتراء ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أى يقولون^(٨): سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه. هكذا فسرهم مجاهد وابن زيد، وهو المراد، وهذا أبلغ فى عنادهم وكفرهم، أنهم يتولون^(٩) عن كتاب الله بعد ما عقلوه، وهم يعلمون ما عليهم فى ذلك من الإثم والعقوبة.

وقوله^(١٠): ﴿وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾ أى: اسمع ما نقول، لا سمعت. رواه الضحاك عن ابن عباس. وقال مجاهد والحسن: واسمع غير مقبول منك.

قال ابن جرير: والأول أصح. وهو كما قال. وهذا استهزاء منهم واستهتار، عليهم لعنة الله

(١) زيادة من أ، وفى هـ: «إلى قوله» .

(٢) ورواه الطبراني فى المعجم الكبير (٢٩٩/١) من طريق محمد بن مرزوق عن العلاء بن الفضل بن أبى سوية المنقرى به .

قال الهيثمى فى المجمع (٢٦٢/١): «فيه الهيم بن رزيق قال بعضهم: لا يتابع على حديثه» .

قوله روى من وجه آخر: رواه الطبراني فى المعجم الكبير (٢٩٨/١) من طريق عمرو بن خالد الحراني عن الربيع بن بدر عن

أبيه عن جده عن الأسلع بن شريك بنحوه، قال الهيثمى فى المجمع (٢٦٢/١): «فيه الربيع بن بدر وقد أجمعوا على ضعفه» .

(٥) زيادة من أ.

(٤) فى أ: «الدين» .

(٣) فى أ: «التابعة» .

(٨) فى ر: «تقولون» .

(٧) فى د: «التجا» .

(٦) فى أ: «وتتركوا» .

(١٠) فى أ: «وقولهم» .

(٩) فى أ: «يقولون» .

[والملائكة والناس أجمعين]^(١).

﴿وَرَاعِنَا لِيَا بَالْسِتِّهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ﴾ أى: يوهمون أنهم يقولون: راعنا سمعك بقولهم: «راعنا»، وإنما يريدون الرعونة. وقد تقدم الكلام فى هذا عند قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤].

ولهذا قال تعالى عن هؤلاء اليهود الذين يريدون بكلامهم خلاف ما يظهرونه: ﴿لِيَا بَالْسِتِّهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ﴾ يعنى: بسبهم النبى ﷺ.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى: قلوبهم مطرودة عن الخير مبعدة منه، فلا يدخلها من الإيمان شىء نافع لهم وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨] والمقصود: أنهم لا يؤمنون إيماناً نافعاً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتُوا الْكِتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (٤٧) **عَظِيمًا** (٤٨) ﴿.

يقول تعالى - آمرا أهل الكتاب بالإيمان بما نزل على عبده ورسوله محمد ﷺ من الكتاب العظيم^(٢)، الذى فيه تصديق الأخبار التى بأيديهم من البشارات، ومتهددا لهم أن^(٣) يفعلوا، بقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾. قال بعضهم: معناه: من قبل أن نطمس وجوها. طمسها^(٤): هو ردها إلى الأدبار، وجعل أبصارهم من ورائهم. ويحتمل أن يكون المراد: من قبل أن نطمس وجوها فلا يبقى لها سمع ولا بصر ولا أثر، ونردها مع ذلك إلى ناحية الأدبار.

قال العوفى عن ابن عباس: ﴿مِّن قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾، وطمسها: أن تعمى ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾، يقول: نجعل وجوههم من قبل أفتيتهم، فيمشون القهقرى، ونجعل لأحدهم عينين^(٥) من قفاه.

وكذا قال قتادة، وعطية العوفى. وهذا أبلغ فى العقوبة والنكال، وهو مثل ضربه الله لهم فى صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سبل الضلالة يُهْرَعُونَ ويمشون القهقرى على أدبارهم، وهذا كما قال بعضهم فى قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ. وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا [وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ]^(٦)﴾ [يس: ٨، ٩]، إن هذا مثل [سوء]^(٧) ضربه الله لهم فى ضلالهم ومنعهم عن الهدى.

(١) زيادة من أ. (٢) فى أ: «العزیز». (٣) فى أ: «إن لم يفعلوا». (٤) فى ر: «وطمسها». (٥) فى د، ر، أ: «عينان». (٦) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية». (٧) زيادة من أ.

قال مجاهد: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ تَطْمِسَ وَجُوهًا﴾ يقول: عن صراط الحق، فتردها^(١) على أدبارهم، أى: فى الضلالة.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن ابن عباس، والحسن نحو هذا.

قال السدى: ﴿فَتَرُدُّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾: فمنعها عن الحق، قال: نرجعها كفارا ونردهم قردة.

وقال ابن زيد^(٢): نردهم إلى بلاد الشام من أرض الحجاز.

وقد ذكر أن كعب الأحبار أسلم حين سمع هذه الآية، قال ابن جرير:

حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا جابر بن نوح، عن عيسى بن المغيرة قال: تذاكرنا عند إبراهيم إسلام كعب، فقال: أسلم كعب زمان عمر، أقبل وهو يريد بيت المقدس، فمر على المدينة، فخرج إليه عمر فقال: يا كعب، أسلم، قال: أستم تقرأون فى كتابكم^(٤): ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حَمَلُوا التَّوْرَةَ﴾ [ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ]^(٥) أسفاراً وأنا قد حملت التوراة. قال: فتركه عمر. ثم خرج حتى انتهى إلى حمص، فسمع رجلا من أهلها حزينا، وهو يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وَجُوهًا فَنَرُدُّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ الآية. قال^(٦) كعب: يا رب آمنت، يا رب، أسلمت، مخافة أن تصيبه هذه الآية، ثم رجع فأتى أهله فى اليمن، ثم جاء بهم مسلمين^(٧).

وقد رواه ابن أبى حاتم من وجه آخر بلفظ آخر، فقال: حدثنا أبى، حدثنا ابن نُفَيْلٍ، حدثنا عمرو بن واقد، عن يونس بن حَلْبَسٍ^(٨)، عن أبى إدريس عائذ الله الخولانى قال: كان أبو مسلم الجليلي معلم كعب، وكان يلومه فى إبطائه عن رسول الله ﷺ قال: فبعثه إليه لينظر أهو هو؟ قال كعب: فركبت حتى أتيت المدينة، فإذا تال يقرأ القرآن، يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وَجُوهًا فَنَرُدُّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ فبادرت الماء فاغتسلت وإنى لأمسح وجهى مخافة أن أطمس، ثم أسلمت^(٩).

وقوله: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ يعنى: الذين اعتدوا فى سبتهم بالحيلة على الاصطياد، وقد مسخوا قردة وخنازير، وسيأتى بسط قصتهم فى سورة الأعراف.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أى: إذا أمر بأمر، فإنه لا يخالف ولا يمانع.

ثم أخبر تعالى: أنه ﴿لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ أى: لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ أى: من الذنوب ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أى: من عباده.

وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة، فلنذكر منها ما تيسر:

(٣) فى أ: «ريد بن دهم».

(٢) فى ر، أ: «أبو».

(١) فى أ: «ورد».

(٦) فى أ: «فقال».

(٥) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «إلى».

(٤) فى أ: «كتاب».

(٧) تفسير الطبرى (٤٤٦/٨).

(٨) فى ر: «حلبس»، وفى أ: «حلبس».

(٩) وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٥٥٥/٢) وعزاه لابن أبى حاتم.

الحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا صدقة بن موسى، حدثنا أبو عمران الجوني، عن يزيد بن بابتوس^(١)، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدواوين عند الله ثلاثة؛ ديوان لا يعبأ الله به شيئاً، وديوان لا يترك الله منه شيئاً، وديوان لا يغفره الله. فأما الديوان الذي لا يغفره الله، فالشرك بالله، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ^(٢) بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢]. وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً، فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه، من صوم يوم تركه، أو صلاة تركها؛ فإن الله يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء. وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً، فظلم العباد بعضهم بعضاً؛ القصاص لا محالة». تفرد به أحمد^(٣).

الحديث الثاني: قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا أحمد بن مالك، حدثنا زائدة بن أبي الرقاد، عن زياد النميري، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «الظلم ثلاثة، فظلم لا يغفره الله، وظلم يغفره الله، وظلم لا يتركه الله: فأما الظلم الذي لا يغفره الله فالشرك، وقال^(٤): ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وأما الظلم الذي يغفره الله، فظلم العباد لأنفسهم فيما بينهم وبين ربهم، وأما الظلم الذي لا يتركه^(٥)، فظلم العباد بعضهم بعضاً، حتى يدين لبعضهم من بعض^(٦).

الحديث الثالث: قال الإمام أحمد: حدثنا صفوان بن عيسى، حدثنا ثور بن يزيد، عن أبي عون، عن أبي إدريس قال: سمعت معاوية يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ذنب عسى الله أن يغفره، إلا الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً». رواه النسائي، عن محمد بن مثنى، عن صفوان بن عيسى، به^(٨).

الحديث الرابع: قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا عبد الحميد، حدثنا شهر، حدثنا ابن غنم^(٩) أن أبا ذر حدثه عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقول: يا عبدى، ما عبدتنى ورجوتنى فإنى غافر لك على ما كان فيك، يا^(١٠) عبدى، إن لقيتنى بقراب الأرض خطيئة ما لم تشرك بى، لقيتك بقرابها مغفرة». تفرد به أحمد من هذا الوجه^(١١).

(١) فى ر: «أبتوس»، وفى أ: «لبنوس».

(٣) المسند (٦/ ٢٤٠).

(٤) فى د، أ: «وقال الله».

(٥) فى ر: «لا يتركه الله».

(٦) مسند البزار برقم (٣٤٣٩) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٤٨): «رواه البزار عن شيخه أحمد بن مالك القشيري ولم أعرفه، وبقيّة رجاله قد وثقوا».

ورواه الطيالسى فى مسنده (٢/ ٦٠) «منحة المعبود» ومن طريقه أبو نعيم فى الحلية (٦/ ٣٠٩) حدثنا الربيع عن يزيد عن أنس به. ويزيد هو الرقاشى ضعيف عند الأئمة.

(٧) فى د: «ابن».

(٨) المسند (٦/ ٩٩) وسنن النسائي (٧/ ٨١).

(٩) فى ر: «تقيم».

(١٠) فى أ: «ويا».

(١١) المسند (٥/ ١٥٤).

فى جانب الحرة؟ ما سمعت أحدا يرجع إليك شيئا. قال: «ذاك جبريل، عرض لى من^(١) جانب الحرة فقال: بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة. قلت: يا جبريل، وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم. قلت: وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم. قلت: وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم، وإن شرب الخمر»^(٢).

الحديث السادس: قال عبد بن حميد فى مسنده: أخبرنا عبيد الله بن موسى، عن ابن أبى ليلى، عن أبى الزبير، عن جابر قال: جاء رجل إلى رسول الله^(٣) ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الموجبتان^(٤)؟ قال: «من مات لا يشرك بالله شيئا وجبت له الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئا وجبت له النار». وذكر تمام الحديث. تفرد به من هذا الوجه^(٥).

طريق أخرى: قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا الحسن بن عمرو بن خلاد الحرانى، حدثنا منصور بن إسماعيل القرشى، حدثنا موسى بن عبيدة، الربذى، أخبر^(٦) عبد الله بن عبيدة، عن جابر ابن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نفس تموت، لا تشرك بالله شيئا، إلا حلت لها المغفرة، إن شاء الله عذبها، وإن شاء غفر لها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾»^(٧).

ورواه الحافظ أبو يعلى فى مسنده، من حديث موسى بن عبيدة، عن أخيه عبد الله بن عبيدة، عن جابر؛ أن النبى^(٨) ﷺ قال: «لا تزال المغفرة على العبد ما لم يقع الحجاب». قيل: يا نبى الله، وما الحجاب؟ قال: «الإشراك بالله». قال: «ما من نفس تلقى الله لا تشرك به شيئا إلا حلت لها المغفرة من الله تعالى، إن يشأ أن يعذبها، وإن يشأ أن يغفر لها غفر لها». ثم قرأ نبى الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾»^(٩).

الحديث السابع: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو نعيم، حدثنا زكريا، عن عطية، عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة». تفرد به من هذا الوجه^(١٠).

الحديث الثامن: قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو قبيل، عن عبد الله بن ناشر^(١١) من بنى سريع قال: سمعت أبا رهم قاصن أهل الشام يقول: سمعت أبا أيوب الأنصارى يقول: إن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم إليهم، فقال لهم: «إن ربكم، عز وجل، خيرنى

(١) فى أ: «فى».

(٢) صحيح البخارى برقم (٦٤٤٣) وصحيح مسلم برقم (٩٤).

(٣) فى ر، أ: «النبى».

(٤) فى د، ر: «ما الموجبات».

(٥) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١٠٥٨) وفى إسناده ابن أبى ليلى سئى الحفظ.

لكن روى من وجه آخر صحيح عن جابر: فرواه مسلم برقم (٩٣) من طريق الأعمش عن أبى سفيان عن جابر به.

(٦) فى أ: «أخبرنى».

(٧) وفى إسناده موسى بن عبيدة ضعفه الأئمة، وروايته عن أخيه عبد الله بن عبيدة عن جابر مرسله أيضا.

(٨) فى أ: «نبى الله».

(٩) ورواه ابن أبى الدنيا فى حسن الظن بالله برقم (٥٦) وابن عدى فى الكامل (٣٣٤/٦) من طريق معتمر بن سليمان عن على بن صالح عن موسى بن عبيدة به.

(١٠) المسند (٧٩/٣).

(١١) فى أ: «ياسر».

بين سبعين ألفاً يدخلون الجنة عفواً^(١) بغير حساب، وبين الخبيثة عنده لأمتي». فقال له بعض أصحابه: يا رسول الله، أيعبأ ذلك ربك؟ فدخل رسول الله ﷺ ثم خرج وهو يكبر، فقال: «إن ربي زادني مع كل ألف سبعين ألفاً والخبيثة عنده» قال أبو رهم: يا أبا أيوب، وما تظن خبيثة رسول الله ﷺ؟ فأكله الناس بأفواههم فقالوا: وما أنت وخبيثة رسول الله ﷺ؟! فقال أبو أيوب: دعوا الرجل عنكم، أخبركم عن خبيثة رسول الله ﷺ كما أظن، بل كالمستيقن. إن خبيثة رسول الله ﷺ أن يقول: من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله مصداقاً لسانه قلبه أدخله^(٢) الجنة^(٣).

الحديث التاسع: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا المؤمل بن الفضل الحراني، حدثنا عيسى ابن يونس (ح) وأخبرنا هاشم بن القاسم الحراني - فيما كتب إلى - قال: حدثنا عيسى بن يونس نفسه، عن واصل بن السائب الرقاشي، عن أبي سورة ابن أخي أبي أيوب، عن أبي أيوب الأنصاري قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن لي ابن أخ لا ينتهي عن الحرام. قال: «وما دينه؟» قال: يصلي ويوحّد الله تعالى. قال: «استوهب منه دينه، فإن أبي فابتعه منه». فطلب الرجل ذاك منه فأبى عليه، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: وجدته شحيحاً في^(٤) دينه. قال: فتزلت: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ»^(٥).

الحديث العاشر: قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا عمرو بن الضحاك، حدثنا أبي، حدثنا مستور أبو همام الهنائي، حدثنا ثابت عن أنس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما تركت حاجة ولا ذا حاجة إلا قد أتيت. قال: «أليس تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؟» ثلاث مرات. قال: نعم. قال: «فإن ذلك يأتي على ذلك كله»^(٦).

الحديث الحادي عشر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا عكرمة بن عمار، عن ضمضم ابن جَوْس اليمامي^(٧) قال: قال لي أبو هريرة: يا يمامي^(٨)، لا تقولن لرجل: والله لا يغفر الله لك. أو لا^(٩) يدخلك الجنة أبداً. قلت: يا أبا هريرة^(١٠)، إن هذه كلمة يقولها أحدنا لأخيه وصاحبه إذا غضب قال: لا تقلها، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كان في بني إسرائيل رجلان كان أحدهما مجتهداً في العبادة، وكان الآخر مسرفاً على نفسه، وكانا متآخيين^(١١)، وكان المجتهد لا يزال يرى الآخر على ذنب، فيقول: يا هذا أقصر. فيقول: خلني وربّي! أبعثت عليّ رقيباً؟ قال: إلى أن رآه يوماً على ذنب استعظمه، فقال له: ويحك! أقصر! قال: خلني وربّي! أبعثت عليّ رقيباً؟ فقال: والله

(١) في ر، أ: «غفراً». (٢) في د، أ: «فأدخله»، وفي ر: «فأدخل».

(٣) المسند (٤١٣/٥).

(٤) في ر: «على».

(٥) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٧٧/٤) من طريق عيسى بن يونس عن واصل به.

قال الهيثمي في المجمع (٥/٧): «فيه واصل بن السائب وهو ضعيف».

(٦) مسند أبي يعلى (١٥٥/٦) وقال الهيثمي في المجمع (٨٣/١٠): «رجاله ثقات».

(٧) في د، ر: «الهفائي»، وفي أ: «الهنائي». (٨) في د، ر، أ: «يا يمامي».

(٩) في د، ر، أ: «ولا».

(١٠) في ر: «يا رسول الله».

(١١) في أ: «متحابين».

لا يغفر الله لك - أو لا يدخلك الله الجنة أبداً - قال: فبعث الله إليهما ملكاً فقبض أرواحهما واجتمعا عنده، فقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي. وقال للآخر: أكنت بى عالماً؟ أكنت على ما فى يدى قادراً؟ اذهبوا به إلى النار. قال: فوالذى نفس أبى القاسم بيده لتكلم بكلمة أو بقت دنياه وآخرته».

ورواه أبو داود، من حديث عكرمة بن عمار، حدثنى ضمضم بن جوش، به^(١).

الحديث الثانى عشر: قال الطبرانى: حدثنا أبو شيخ عن محمد بن الحسن بن عجلان الأصبهاني، حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: من علم أنى ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالى، ما لم يشرك بى شيئاً»^(٢).

الحديث الثالث عشر: قال الحافظ أبو بكر البزار والحافظ أبو يعلى [الموصلى]^(٣): حدثنا هُدبة - هو ابن خالد - حدثنا سهيل بن أبى حزم، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من وعده الله على عمل ثواباً فهو منجزه له، ومن توعد»^(٤) على عمل عقاباً فهو بالخيار». تفردا به^(٥).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا بحر بن نصر الخولاني، حدثنا خالد - يعنى ابن عبد الرحمن الخراساني - حدثنا الهيثم بن جمار^(٦)، عن سلام بن أبى مطيع، عن بكر بن عبد الله المزني، عن ابن عمر قال: كنا أصحاب النبي ﷺ لا نشك فى قاتل النفس، وأكل مال اليتيم، وقاذف^(٧) المحصنات، وشاهد الزور، حتى نزلت هذه الآية: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ»، فأمسك أصحاب النبي ﷺ عن الشهادة.

ورواه ابن جرير من حديث الهيثم بن حماد^(٨)، به^(٩).

وقال ابن أبى حاتم أيضاً: حدثنا عبد الملك بن أبى عبد الرحمن المقرئ^(١٠)، حدثنا عبد الله بن عاصم، حدثنا صالح - يعنى المرئى أبو بشر - عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر قال: كنا لا نشك فيمن أوجب الله له النار فى الكتاب، حتى نزلت علينا هذه الآية: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ». قال: فلما سمعناها كففتنا عن الشهادة، وأرجينا الأمور إلى الله، عز وجل^(١١).

(١) المسند (٣٢٣/٢) وسنن أبى داود برقم (٤٩٠١).

(٢) فى إسناده إبراهيم بن الحكم بن أبان، ضعفه الأئمة وقال ابن عدى: «كان يوصل المراسيل عن أبيه وعامة ما يرويه لا يتابع عليه».

(٣) زيادة من أ. (٤) فى ر: «ومن توعد»، وفى أ: «وعده».

(٥) مسند أبى يعلى (٦٦/٦) ورواه الطبرانى فى الأوسط برقم (٤٧٣٩) وقال: «لم يروه عن ثابت إلا سهيل تفرد به هُدبة».

وقال الهيثمى فى المجمع (٢١١/١٠): «فيه سهيل بن أبى حزم، وقد وثق على ضعفه، وبقيت رجاله رجال الصحيح».

(٦) فى أ: «جمار».

(٨) فى ر: «جماز»، وفى أ: «جمار».

(٩) تفسير الطبرى (٨/ ٤٥٠) وفى إسناده الهيثم بن حماد ضعفه أحمد وابن معين، والنسائى وغيرهم.

(١٠) فى أ: «المقرئ».

(١١) فى د: «تعالى».

وقال البزار: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا شيبان بن أبى شيبة، حدثنا حرب بن سريج، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر [رضى الله عنهما] ^(١) قال: كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر، حتى سمعنا نبينا ﷺ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾. وقال: «أخرت شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى يوم القيامة».

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع، أخبرنى مجبر، عن عبد الله بن عمر أنه قال: لما نزلت: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ [إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ]﴾ ^(٢) [الزمر: ٥٣]، قام رجل فقال: والشرك بالله يا نبي الله؟ فكره ذلك رسول الله ﷺ فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾. رواه ابن جرير. وقد رواه ابن مردويه من طرق عن ابن عمر ^(٣).

وهذه الآية التى فى سورة «تنزيل» مشروطة بالتوبة، فمن تاب من أى ذنب وإن تكرر منه تاب الله عليه؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، أى: بشرط التوبة، ولو لم يكن كذلك لدخل الشرك فيه، ولا يصح ذلك، لأنه، تعالى، قد حكم هاهنا بأنه لا يغفر الشرك، وحكم بأنه يغفر ما عداه لمن يشاء، أى: وإن لم يتب صاحبه، فهذه أرجى من تلك من هذا الوجه، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ كقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وثبت فى الصحيحين، عن ابن مسعود أنه قال: قلت: يا رسول الله، أى الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك...» وذكر تمام الحديث.

وقال ابن مردويه: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن زيد، حدثنا أحمد بن عمرو، حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا معن، حدثنا سعيد ^(٤) بن بشير حدثنا قتادة، عن الحسن، عن عمران بن حصين؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أخبركم بأكبر الكبائر: الشرك بالله» ^(٥) ثم قرأ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾، «وعقوق الوالدين». ثم قرأ: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْ أَلَدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ ^(٦).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٤٩) انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً (٥٠) ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً (٥١) أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً (٥٢).

(١) زيادة من أ، وفى هـ: «إلى آخر الآية».

(٢) زيادة من أ.

(٣) تفسير الطبرى (٨/ ٤٥٠).

(٤) فى د، ر، أ: «الإشراك بالله».

(٥) فى أ: «حدثنا معن بن سعيد».

(٦) فى إسناده سعيد بن بشير تكلم فيه بعض الأئمة فضعفه أحمد وابن معين ووثقه دحيم وغيره.

قال الحسن وقتادة: نزلت هذه الآية، وهى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ فى اليهود والنصارى، حين قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾.

وقال ابن زيد: نزلت فى قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، وفى قولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١].

وقال مجاهد: كانوا يقدمون الصبيان أمامهم فى الدعاء والصلاة يؤمنونهم، ويزعمون أنهم لا ذنب لهم^(١).

وكذا قال عكرمة، وأبو مالك. روى ذلك ابن جرير.

وقال العوفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾: وذلك أن اليهود قالوا: إن أبناءنا تُوقَّوا وهم لنا قربة، وسيشفعون ويزكوننا، فأنزل الله على محمد ﷺ^(٢): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يَزَكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾^(٣) رواه ابن جرير.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن مصفى، حدثنا ابن حُمير، عن ابن لهيعة، عن بشير بن أبى عمرو^(٤)، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كانت اليهود يقدمون صبيانهم يصلون بهم، ويقربون قربانهم ويزعمون أنهم لا خطايا لهم ولا ذنوب. وكذبوا. قال^(٥) الله [تعالى]^(٦): «إِنِّى لَا أَطْهَرُ ذَا ذَنْبٍ بَأْخَرٍ لَا ذَنْبَ لَهُ»، وأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾.

ثم قال: وروى عن مجاهد، وأبى مالك، والسدى، وعكرمة، والضحاك - نحو ذلك.

وقال الضحاك: قالوا: ليس لنا ذنوب، كما ليس لأبنائنا ذنوب. فأنزل الله ذلك فيهم.

وقيل: نزلت فى ذم التماذج والتزكية.

وقد جاء فى الحديث الصحيح عند^(٧) مسلم، عن المقداد بن الأسود قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو فى وجوه المدَّاحين التراب^(٨).

وفى الحديث الآخر المخرج فى الصحيحين من طريق خالد الحذاء، عن عبد الرحمن بن أبى بكرة، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يثنى على رجل، فقال: «ويحك. قطعت عنقَ صاحبك». ثم قال: «إن كان أحدكم مادحا صاحبه لا محالة، فليقل: أحسبه كذا ولا يزكى على الله أحدا»^(٩).

وقال الإمام أحمد: حدثنا مُعْتَمِر، عن أبيه، عن نعيم بن أبى هند قال: قال عمر بن الخطاب: من قال: أنا مؤمن، فهو كافر. ومن قال: هو عالم، فهو جاهل. ومن قال: هو فى الجنة، فهو فى النار^(١٠).

(١) فى أ: «لا ذنوب لهم».

(٢) زيادة من أ.

(٣) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٤) فى أ: «عمرة».

(٥) فى أ: «فقال».

(٦) زيادة من أ.

(٧) فى أ: «عن».

(٨) صحيح مسلم برقم (٣٠٠٢).

(٩) صحيح البخارى برقم (٢٦٦٢) وصحيح مسلم برقم (٣٠٠٠).

(١٠) رواه حنبل بن إسحاق عن أحمد به كما فى مسند عمر ابن الخطاب رضى الله عنه للحافظ ابن كثير (٥٧٤/٢).

ورواه ابن مردويه، من طريق موسى بن عبيدة، عن طلحة بن عبيد الله بن كُرَيْز، عن عمر قال: إن أخوف ما أخاف عليكم إعجاب المرء برأيه، فمن قال: إنه مؤمن، فهو كافر، ومن قال: إنه عالم فهو جاهل، ومن قال: إنه في الجنة، فهو في النار^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة وحجاج، أنبأنا شعبة، عن سعد بن إبراهيم، عن معبد الجهني قال: كان معاوية قلماً يحدث عن النبي ﷺ، قال: وكان قلماً يكاد أن يدع يوم الجمعة هؤلاء الكلمات أن يحدث بهن عن النبي ﷺ، يقول: «من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإن هذا المال حلو خضر، فمن يأخذه بحقه يبارك له فيه، وإياكم والتمادح فإنه الذبح»^(٢).

وروى ابن ماجه منه: «إياكم والتمادح فإنه الذبح» عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن غندر، عن شعبة به^(٣).

ومعبد هذا هو ابن عبد الله بن عويم البصري القدرى.

وقال ابن جرير: حدثني يحيى بن إبراهيم المسعودي، حدثني أبي، عن أبيه، عن جده، عن الأعمش، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب قال: قال عبد الله بن مسعود: إن الرجل ليغدو بدينه، ثم يرجع وما معه منه شيء، يلقي الرجل ليس يملك له نفعاً ولا ضراً فيقول له: والله إنك كيت وكيت^(٤)، فلعله أن يرجع ولم^(٥) يحل من حاجته بشيء وقد أسخط الله. ثم قرأ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية.

وسياتى الكلام على ذلك مطولاً، عند قوله تعالى: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]. ولهذا قال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ أى: المرجع فى ذلك إلى الله، عز وجل^(٦)، لأنه عالم بحقائق الأمور وغوامضها.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلُمُونَ فِتْلَةً﴾ أى: ولا يترك لأحد من الأجر ما يوازن مقدار الفتيل.

قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، والحسن، وقتادة، وغير واحد من السلف: هو ما يكون فى شق النواة.

وعن ابن عباس أيضاً: هو ما فتلت بين أصابعك. وكلا القولين متقارب.

وقوله: ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ أى: فى تزكيتهم أنفسهم ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١]، وقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، واتكالهم^(٨) على أعمال آبائهم الصالحة، وقد حكم الله أن أعمال

(١) ذكره ابن كثير فى مسند عمر بن الخطاب (٢/ ٥٧٤) وطلحة لم يدرك عمر فهو منقطع.

(٢) المسند (٩٣/ ٤).

(٣) سنن ابن ماجه برقم (٣٧٤٣) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ١٨١): «هذا إسناد حسن، معبد مختلف فيه، وباقى رجال الإسناد ثقات».

(٦) فى أ: «تعالى».

(٥) فى أ: «وما».

(٤) فى ر، أ: «إنك لذيت وذيت».

(٨) فى أ: «تميزهم باتكالهم».

(٧) فى د: «معدودة».

الآباء لا تجزى عن الأبناء شيئا، فى قوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ] ^(١) ﴿البقرة: ١٤١﴾.

ثم قال: ﴿وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ أى: وكفى بصنعتهم ^(٢) هذا كذبا وافتراء ظاهرا. وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾، أما «الجبت» فقال محمد بن إسحاق، عن حسان بن فائد، عن عمر بن الخطاب أنه قال: «الجبت»: السحر، و«الطاغوت»: الشيطان.

وهكذا روى عن ابن عباس، وأبى العالية، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، والشَّعْبِي، والحسن، والضحاك، والسُّدِّي.

وعن ابن عباس، وأبى العالية، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، [وأبى مالك] ^(٣)، وسعيد بن جبیر، والشَّعْبِي، والحسن، وعطية: «الجبت»: الشيطان - زاد ابن عباس: بالحِشْيَةِ. وعن ابن عباس أيضا: «الجبت»: الشرك. وعنه: «الجبت»: الأصنام.

وعن الشَّعْبِي: «الجبت»: الكاهن. وعن ابن عباس: «الجبت»: حى بن أخطب. وعن مجاهد: «الجبت»: كعب بن الأشرف.

وقال العلامة أبو نصر إسماعيل بن حمَّاد الجوهري فى كتابه «الصحاح»: «الجبت» كلمة تقع على الصنم والكاهن ^(٤) والساحر ونحو ذلك، وفى الحديث: «الطيرة والعيافة والطَّرْق من الجبت» قال: وهذا ليس من محض العربية، لاجتماع الجيم والتاء فى كلمة واحدة ^(٥) من غير حرف ذَوَّلَقَى ^(٦).

وهذا الحديث الذى ذكره، رواه الإمام أحمد فى مسنده فقال: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا، عوف عن حيان أبى العلاء، حدثنا قُطَن بن قَبِيصَة، عن أبيه - وهو قبصة بن مخارق - أنه سمع النبى ﷺ قال: «إن العيافة والطَّرْق والطيرة من الجبت» قال عوف: «العيافة»: زجر الطير، و«الطَّرْق»: الخط، يخط فى الأرض، و«الجبت» قال الحسن: إنه الشيطان.

وهكذا رواه أبو داود فى سننه والنسائى وابن أبى حاتم فى تفسيريهما من حديث عوف الأعرابى، به ^(٧).

وقد تقدم الكلام على «الطاغوت» فى سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا إسحاق بن الضيف، حدثنا حجاج، عن ابن جُرَيْج، أخبرنى أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله أنه سئل عن «الطاوغيث» فقال: هم كهان تنزل عليهم الشياطين.

(٢) فى د: «بصنيعهم».

(٤) فى ر: «الكافر».

(١) زيادة من ر، أ.

(٣) زيادة من ر، أ.

(٥) فى أ: «فى حرف واحد».

(٦) الصحاح (٢٤٥/١).

(٧) المسند (٦٠/٥) وسنن أبى داود برقم (٣٩٠٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١١٠٨).

وقال مجاهد: «الطاغوت»: الشيطان فى صورة إنسان، يتحاكمون إليه، وهو صاحب أمرهم.

وقال الإمام مالك: «الطاغوت»: هو كل ما يعبد من دون الله، عز وجل.

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ أى: يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم، وقلة دينهم، وكفرهم بكتاب الله الذى بأيديهم.

وقد روى ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عكرمة قال: جاء حبيب بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة، فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم، فأخبرونا عنا وعن محمد، فقالوا: ما أنتم وما محمد. فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكوماء، ونسقى الماء على اللبن، ونفك العنأة، ونسقى الحجيج - ومحمد صنبور، قطع أرحامنا، واتبعه سراق الحجيج بنو^(١) غفار، فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدى سبيلاً. فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾^(٢).

وقد روى هذا من غير وجه، عن ابن عباس وجماعة من السلف.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبى عدى، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش: ألا ترى هذا الصنبور المنبر من قومه؟ يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السدانة، وأهل السقاية! قال: أنتم خير. قال: فنزلت^(٣): ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]، ونزل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ إلى ﴿نَصِيرًا﴾.

وقال ابن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبنى قريظة حبيب بن أخطب وسلام بن أبى الحقيق أبو رافع، والربيع بن الربيع بن أبى الحقيق، وأبو عمار، ووحوش^(٤) بن عامر، وهوذة بن قيس. فأما وحوش^(٥) وأبو عمار وهوذة فمن بنى وائل، وكان سائرهم من بنى النضير، فلما قدموا على قريش قالوا هؤلاء أحبار يهود وأهل العلم بالكتب الأول^(٦)، فسألوهم: أدينكم خير أم دين محمد؟ فسألوهم، فقالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه ومن اتبعه. فأنزل الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ [يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا. أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا]﴾^(٧) إلى قوله عز وجل: ﴿وَأَتَيْنَاهُم مَّلَكًا عَظِيمًا﴾.

وهذا لعن لهم، وإخبار بأنهم لا ناصر لهم فى الدنيا ولا فى الآخرة؛ لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين، وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم، وقد أجابوهم، وجاؤوا معهم يوم الأحزاب، حتى حفر النبى ﷺ وأصحابه حول المدينة الخندق، فكفى الله شرهم ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ

(٢) زيادة من ر، أ.

(٤، ٥) فى أ: «دحرج».

(٧) زيادة من أ.

(١) فى د: «من».

(٣) فى أ: «فنزلت فيهم».

(٦) فى ر، أ: «الأولى».

كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ [الأحزاب: ٢٥].

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ .

يقول تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾؟! وهذا استفهام إنكار، أى: ليس لهم نصيب من الملك^(١). ثم وصفهم بالبخل فقال: ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أى: لأنهم لو كان لهم نصيب فى الملك والتصرف لما أعطوا أحدا من الناس - ولا سيما محمد ﷺ - شيئا، ولا ما يملأ «النقير»، وهو النقطة التى فى النواة، فى قول ابن عباس والأكثرين.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ [الإسراء: ١٠٠] أى: خوف أن يذهب ما بأيديكم، مع أنه لا يتصور نفاذه، وإنما هو من بخلكم وشحكم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قُتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] أى: بخيلا.

ثم قال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعنى بذلك: حسدهم النبى ﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة، ومنعهم من تصديقهم إياه حسدهم له؛ لكونه من العرب وليس من بنى إسرائيل.

قال الطبرانى: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى، حدثنا يحيى الحماني، حدثنا قيس بن الربيع، عن السدى، عن عطاء، عن ابن عباس قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ [عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ]﴾^(٢) الآية، قال ابن عباس: نحن الناسُ دون الناس، قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ أى: فقد جعلنا فى أسباط بنى إسرائيل - الذين هم من ذرية إبراهيم - النبوة، وأنزلنا عليهم الكتب، وحكموا فيهم بالسنن^(٣) - وهى الحكمة - وجعلنا فيهم الملوك، ومع هذا ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ بِهِ﴾ أى: بهذا الإيتاء وهذا الإنعام ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ أى: كفر به وأعرض عنه، وسعى فى صد الناس عنه، وهو منهم ومن جنسهم، من بنى إسرائيل، فقد اختلفوا عليهم، فكيف بك يا محمد ولست من بنى إسرائيل؟

وقال مجاهد: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ بِهِ﴾ أى: بمحمد ﷺ ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ﴾، فالكفرة منهم أشد تكذيبا لك، وأبعد عما جئتهم به من الهدى، والحق المبين.

ولهذا قال متوعدا لهم: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ أى: وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسله .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا

(١) فى د: «ليس لهم من نصيب»، وفى ر، أ: «ليس لهم نصيب فى الملك».

(٢) فى ر: «بالسنين».

(٣) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية» .

غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾.

يخبر تعالى عما يعاقب به في نار جهنم من كفر بآياته وصدّ عن رسله، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا [سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا]﴾^(١) الآية، أى ندخلهم نارا دخولا يحيط بجميع أجزائهم، وأجزاءهم. ثم أخبر عن دوام عقوبتهم ونكالهم، فقال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾، قال [الأعمش، عن ابن عمر]^(٢): إذا أحرقت جلودهم بدلوا جلوداً بيضا أمثال القراطيس. رواه ابن أبى حاتم.

وقال يحيى بن زيد الحضرمي أنه بلغه فى قول الله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ قال: يجعل^(٣) للكافر مائة جلد، بين كل جلدتين لون من العذاب. رواه ابن أبى حاتم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن محمد الطنّافسي، حدثنا حسين الجعفي، عن زائدة، عن هشام، عن الحسن قوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ [بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا]﴾^(٤) الآية. قال: تنضجهم فى اليوم سبعين ألف مرة. قال حسين: وزاد فيه فضيل عن هشام عن الحسن: كلما أنضجتهم فأكلت لحومهم قيل لهم: عودوا فعادوا.

وقال أيضا: ذكر عن هشام بن عمار: حدثنا سعيد بن يحيى - يعنى سعدان - حدثنا نافع، مولى يوسف السلمي البصري، عن نافع، عن ابن عمر قال: قرأ رجل عند عمر هذه الآية: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ فقال عمر: أعدّها على، فأعادها، فقال معاذ بن جبل: عندى تفسيرها: تبدل فى ساعة مائة مرة. فقال عمر: هكذا سمعتُ رسول الله ﷺ.

وقد رواه ابن مردويه، عن محمد بن أحمد بن إبراهيم، عن عبدان بن محمد المروزي، عن هشام بن عمار، به. ورواه من وجه آخر بلفظ آخر فقال: حدثنا محمد بن إسحاق، عن عمران، حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحارث، حدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا نافع أبو هريرة، حدثنا نافع، عن ابن عمر قال: تلا رجل عند عمر هذه الآية: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ [بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ]﴾^(٥) الآية، قال: فقال عمر: أعدّها على - وثمّ كعب - فقال: يا أمير المؤمنين، أنا عندى تفسير هذه الآية، قرأتها قبل الإسلام، قال: فقال: هاتها يا كعب، فإن جئت بها كما سمعتُ من رسول الله ﷺ صدقتك، وإلا لم ننظر إليها. فقال: إني قرأتها قبل الإسلام: «كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها فى الساعة الواحدة عشرين ومائة مرة». فقال عمر: هكذا سمعتُ من رسول الله ﷺ.

(٣) فى د: «إنه يجعل».

(٢) زيادة من ر، أ.

(١) زيادة من ر، أ.

(٥) زيادة من ر، أ.

(٤) زيادة من ر.

وقال الربيع بن أنس: مكتوب في الكتاب الأول أن جلد أحدهم أربعون ذراعاً، وسنه تسعون ذراعاً، وبطنه لو وضع فيه جبل لوسعه، فإذا أكلت النار جلودهم بدلوا جلوداً غيرها.

وقد ورد في الحديث ما هو أبليغ من هذا، قال^(١) الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا أبو يحيى الطويل، عن أبي يحيى القتات، عن مجاهد، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «يُعْظَمُ أهل النار في النار، حتى إن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، وإن غلظ جلده سبعون ذراعاً، وإن ضرسه مثل أحد».

تفرد به أحمد من هذا الوجه^(٢).

وقيل: المراد بقوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ أي: سرايلهم. حكاه ابن جرير، وهو ضعيف؛ لأنه خلاف الظاهر.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾. هذا إخبار عن مآل السعداء في جنات عدن، التي تجري فيها^(٣) الأنهار في جميع فجاجها ومحالها وأرجائها حيث شاؤوا وأين أرادوا، وهم خالدون فيها أبداً، لا يحولون ولا يزولون ولا ييغون عنها حولا.

وقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ أي: من الحيض والنفس والأذى. والأخلاق الرذيلة، والصفات الناقصة، كما قال ابن عباس: مطهرة من الأقدار والأذى. وكذا قال عطاء، والحسن، والضحاك، والنخعي، وأبو صالح، وعطية، والسدي.

وقال مجاهد: مطهرة من البول والحيض والنخام والبزاق والمني والولد.

وقال قتادة: مطهرة من الأذى والمآثم ولا حيض ولا كلف.

وقوله: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أي: ظلاً عميقاً كثيراً غزيراً طيباً أنيقاً.

قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن - وحدثنا ابن المثنى، حدثنا^(٤) ابن^(٥) جعفر - قالوا: حدثنا شعبة قال: سمعت أبا الضحاك يحدث، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، شجرة الخلد»^(٦).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٥٨﴾.

يخبر تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، وفي حديث الحسن، عن سمرة، أن رسول الله

(١) في د، ر: «فقال».

(٢) المسند (٢٦/٢).

(٣) في د، ر: «تخرقها».

(٦) تفسير الطبري (٤٨٩/٨).

(٤) في د: «حدثنا محمد».

(٥) في ر: «أبو».

ﷺ قال: «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك». رواه الإمام أحمد وأهل السنن^(١)، وهذا يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان، من حقوق الله، عز وجل، على عباده، من الصلوات والزكوات، والكفارات والنذور والصيام، وغير ذلك، مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما يأتون به^(٢) بعضهم على بعض من غير اطلاع بينة^(٣) على ذلك. فأمر الله، عز وجل، بأدائها، فمن لم يفعل ذلك فى الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة، كما ثبت فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لتؤدّن الحقوق إلى أهلها، حتى يقتص للشارة الجماء من القرآن»^(٤).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن عبد الله بن السائب، عن زاذان، عن عبد الله بن مسعود قال: إن الشهادة تكفر كل ذنب إلا الأمانة، يؤتى بالرجل يوم القيامة - وإن كان قُتل فى سبيل الله - فيقال: أدّ أمانتك. فيقول وأنى أؤديها وقد ذهبت الدنيا؟ فتمثل له الأمانة فى قعر جهنم، فيهوى إليها فيحملها على عاتقه. قال: فتتزل عن عاتقه، فيهوى على أثرها أبد الآبدين. قال زاذان: فأتيت البراء فحدثته فقال: صدق أخى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾.

وقال سفيان الثوري، عن ابن أبى ليلى، عن رجل، عن ابن عباس قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ قال: هى^(٥) مبهمة للبر والفاجر. وقال محمد بن الحنفية: هى مُسَجَّلَةٌ للبر والفاجر. وقال أبو العالية: الأمانة ما أمروا به ونهوا عنه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد، حدثنا حفص بن غياث، عن الأعمش، عن أبى الضحى، عن مسروق قال: قال أبى بن كعب: من الأمانة أن المرأة ائتمنت على فرجها.

وقال الربيع بن أنس: هى من الأمانات فيما بينك وبين الناس.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ قال:

(١) لم أجد من رواه من حديث سمرة رضى الله عنه:

أ - وإنما رواه الإمام أحمد فى مسنده (٤١٤/٣) عن رجل عن النبى ﷺ.

ب - ورواه الترمذى فى سننه برقم (١٢٦٤) وأبو داود فى سننه برقم (٣٥٣٥) من طريق طلق بن غنام عن شريك وقيس عن أبى حصين عن أبى هريرة رضى الله عنه. قال الترمذى: «حديث حسن غريب»، وقال أبو حاتم: «حديث منكر لم يرو هذا الحديث غير طلق» العلل (٣٧٥/١).

ج - ورواه الحاكم فى المستدرک (٦٤/٢) والطبرانى فى المعجم الصغير (١٧١/١) من طريق أيوب بن سويد عن ابن شوذب عن أبى التياح، عن أنس رضى الله عنه، وأيوب بن سويد ضعيف.

د - ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٥٠/٨) من طريق يحيى بن عثمان، عم عمرو بن الربيع، عن يحيى بن أيوب عن إسحاق ابن أسيد عن أبى حفص عن مكحول عن أبى أمامة رضى الله عنه.

قال الهيثمى فى المجمع (١٢٨/٨): «فيه يحيى بن عثمان بن صالح المصرى. قال ابن أبى حاتم: تكلموا فيه».

هـ - ورواه الطبرى فى تفسيره (٤٩٣/٨) من طريق قتادة عن الحسن مرسلًا.

(٢) فى أ: «فيه».

(٤) مسلم فى صحيحه برقم «٢٥٨٢».

(٥) فى أ: «فهى».

قال: يدخل فيه وعظ السلطان النساء. يعنى يوم العيد.

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت فى شأن عثمان بن طلحة بن أبى طلحة، واسم أبى طلحة: عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى بن كلاب القرشى العبدري، حاجب الكعبة المعظمة، وهو ابن عم شيبه بن عثمان بن أبى طلحة، الذى صارت الحجابة فى نسله إلى اليوم، أسلم عثمان هذا فى الهدنة بين صلح الحديبية وفتح مكة، هو وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وأما عمه عثمان بن أبى طلحة، فكان معه لواء المشركين يوم أحد، وقتل يومئذ كافرا. وإنما نهبنا على هذا النسب؛ لأن كثيرا من المفسرين قد يشبه عليهم هذا بهذا، وسبب نزولها فيه لما أخذ منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة يوم الفتح، ثم رده عليه.

وقال محمد بن إسحاق فى غزوة الفتح: حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير، عن عبيد الله بن عبد الله بن أبى ثور، عن صفية بنت شيبه؛ أن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة واطمأن الناس، خرج حتى جاء البيت، فطاف به سبعا على راحلته، يستلم الركن بمحجن فى يده، فلما قضى طوافه، دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتحت له، فدخلها، فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها، ثم وقف على باب الكعبة وقد استكف^(١) له الناس فى المسجد.

قال ابن إسحاق فحدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يذعى، فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج». وذكر بقية الحديث فى خطبة النبى ﷺ يومئذ، إلى أن قال: ثم جلس رسول الله ﷺ فى المسجد، فقام إليه على بن أبى طالب ومفتاح الكعبة فى يده فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية، صلى الله عليك. فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان بن طلحة؟» فدعى له، فقال له: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم وفاء وبر»^(٢).

قال ابن جرير: حدثنى القاسم، حدثنا الحسين، عن حجاج، عن ابن جريج [قوله: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا»]^(٣)، قال: نزلت فى عثمان بن طلحة قبض منه النبى ﷺ مفتاح الكعبة، فدخل به البيت يوم الفتح، فخرج وهو يتلو هذه^(٤)، فدعا عثمان إليه، فدفع إليه^(٥) المفتاح، قال: وقال عمر بن الخطاب لما خرج رسول الله ﷺ من الكعبة، وهو يتلو هذه الآية: فداه أبى وأمى، ما سمعته يتلوها قبل ذلك.

حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا الزنجى بن خالد، عن الزهرى قال: دفعه إليه وقال: أعينوه^(٦).

وروى ابن مردويه، من طريق الكلبي، عن أبى صالح عن ابن عباس فى قول الله عز وجل: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا» ، قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة دعا عثمان بن طلحة

(١) فى د: «استكن»، وفى ر، أ: «استلف».

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤١٣/٣).

(٣) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «فى الآية».

(٤) فى أ: «هذه الآية».

(٥) فى ر: «فناوله».

(٦) فى ر: «أعينوه».

ابن أبى طلحة، فلما أتاه قال: «أرنى المفتاح». فأتاه به، فلما بسط يده إليه قام العباس فقال: يا رسول الله، بأبى أنت وأمى، اجمعه لى مع السقاية. فكف عثمان يده^(١). فقال رسول الله ﷺ: «أرنى المفتاح يا عثمان». فبسط يده يعطيه، فقال العباس مثل كلمته الأولى، فكف عثمان يده. ثم قال رسول الله ﷺ: «يا عثمان، إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر فهاتنى المفتاح». فقال: هاك بأمانة الله. قال: فقام رسول الله ﷺ ففتح باب الكعبة، فوجد فى الكعبة تمثال إبراهيم معه قداح يُسْتَقْسَمُ بها. فقال رسول الله ﷺ: «ما للمشركين قاتلهم الله. وما شأن إبراهيم وشأن القداح». ثم دعا بجفنة فيها ماء، فأخذ ماء فغمسه فيه، ثم غمس به تلك التماثيل، وأخرج مقام إبراهيم، وكان فى الكعبة فألزقه فى^(٢) حائط الكعبة ثم قال: «يا أيها الناس، هذه القبلة». قال: ثم خرج رسول الله ﷺ فطاف بالبيت شوطاً أو شوطين ثم نزل عليه جبريل، فيما ذكر لنا برد المفتاح، فدعا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾. حتى فرغ من الآية^(٣).

وهذا من المشهورات أن هذه الآية نزلت فى ذلك، وسواء كانت نزلت فى ذلك أو لا^(٤)، فحكمها عام؛ ولهذا قال ابن عباس ومحمد بن الحنفية: هى للبر والفاجر، أى: هى أمر لكل أحد. وقوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾، أمر منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس؛ ولهذا قال محمد بن كعب وزيد بن أسلم وشهر بن حوشب: إنما نزلت فى الأمراء، يعنى الحكام بين الناس.

وفى الحديث: «إن الله مع الحاكم ما لم يجر، فإذا جار وكله الله إلى نفسه»^(٥). وفى الأثر: عدل يوم كعبادة أربعين سنة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعْظُمُكُمْ بِهِ﴾ أى: يأمركم به من أداء الأمانات، والحكم بالعدل بين الناس، وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة الشاملة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ أى: سميعاً لأقوالكم، بصيراً بأفعالكم، كما قال ابن أبى حاتم:

حدثنا أبو زرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثنى عبد الله بن لهيعة، عن يزيد^(٦) بن أبى حبيب، عن أبى الخير، عن عقبة بن عامر قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو يُقْرِئ^(٧) هذه الآية ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، يقول: بكل شىء بصير^(٨).

وقد قال ابن أبى حاتم: أخبرنا يحيى بن عبدك القزوينى، أنبأنا المقرئ - يعنى أبا عبد الرحمن -

(١) فى أ: «اجمعه لى بين السقاية فكف عثمان يده».

(٢) فى أ: «إلى».

(٣) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٢/ ٥٧٠) وإسناده تالف.

(٤) فى ر: «أم لا».

(٥) رواه الترمذى فى سننه برقم (١٣٣٠) من حديث عبد الله بن أبى أوفى، وقال: «حديث حسن غريب».

(٦) فى أ: «زيد».

(٧) فى أ: «يقترئ».

(٨) ذكره السيوطى فى الدر (٢/ ٥٧٣).

عبد الله بن يزيد، حدثنا حرملة - يعني ابن عمران التَّجِيبِي المصري - حدثنا أبو^(١) يونس، سمعت أبا هريرة يقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، ويضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه ويقول: هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقرأها^(٢) ويضع إصبعه. قال أبو زكريا: وصفه لنا المقرئ، ووضع أبو زكريا إبهامه اليمنى على عينه اليمنى، والتي تليها على الأذن اليمنى، وأرانا فقال: هكذا وهكذا^(٣).

رواه أبو داود، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، وابن مردويه في تفسيره، من حديث أبي عبد الرحمن المقرئ بإسناده - نحوه^(٤). وأبو يونس هذا مولى أبي هريرة، واسمه سليم بن جبير.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩)﴾.

قال البخاري: حدثنا صدقة بن الفضل، حدثنا حجاج بن محمد الأعور، عن ابن جريج، عن يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي؛ إذ بعثه النبي ﷺ في سرية.

وهكذا أخرجه بقية الجماعة إلا ابن ماجة من حديث حجاج بن محمد الأعور، به. وقال الترمذي: حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث ابن جريج^(٥).

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن سعيد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن السلمى، عن علي قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، واستعمل عليهم رجلا من الأنصار، فلما خرجوا وجد عليهم في شيء. قال: فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: اجمعوا^(٦) لي خطبا، ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنها. [قال: فهم القوم أن يدخلوها]^(٧). قال: فقال لهم شاب منهم: إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها. قال: فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال لهم: «لو دخلتموها ما خرجتم منها أبدا؛ إنما الطاعة في المعروف». أخرجاه في الصحيحين من حديث الأعمش، به^(٨).

وقال أبو داود: حدثنا مسدد، حدثنا يحيى، عن عبيد الله، حدثني نافع، عن عبد الله بن عمر،

(١) في أ: «ابن». (٢) في أ: «يقرأ بها». (٣) في أ: «هكذا وهذا».

(٤) سنن أبي داود برقم (٤٧٢٨)، وصحيح ابن حبان برقم (١٧٣٢)، «موارد» والمستدرک (٢٤/١)، ورواه من طريق الحاكم البيهقي في الأسماء والصفات (ص ١٧٩).

(٥) صحيح البخاري برقم (٨٥٨٤)، وصحيح مسلم برقم (١٨٣٤)، وسنن أبي داود برقم (٢٦٢٤)، وسنن الترمذي برقم (١٦٧٢)، وسنن النسائي (١٥٤/٧).

(٦) في أ: «قال: فقال اجمعوا».

(٧) زيادة من أ، والمسند.

(٨) المسند (٨٢/١) وصحيح البخاري برقم (٤٣٤٠)، وصحيح مسلم برقم (١٨٤٠).

عن رسول الله ﷺ قال: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة».

وأخرجاه من حديث يحيى القطان^(١).

وعن عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، فى منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله. قال: «إلا أن تروا كفرا بواحا، عندكم فيه من الله برهان». أخرجاه^(٢).

وفى الحديث الآخر، عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «اسمعوا وأطيعوا، وإن أمَرَ عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة». رواه البخارى^(٣).

وعن أبى هريرة قال: أوصانى خليلى أن أسمع وأطيع، وإن كان عبدا حبشياً مُجَدَّعَ الأطراف. رواه مسلم^(٤).

وعن أم الحصين أنها سمعت رسول الله ﷺ يخطب فى حجة الوداع يقول: «ولو استعمل عليكم عبد^(٥) يقودكم بكتاب الله، اسمعوا له وأطيعوا» رواه مسلم^(٦)، وفى لفظ له: «عبدا حبشياً مجدوعا».

وقال ابن جرير: حدثنى على بن مسلم الطوسى، حدثنا ابن أبى فديك، حدثنى عبد الله بن محمد بن عروة^(٧)، عن هشام بن عروة، عن أبى صالح السمان، عن أبى هريرة؛ أن النبى ﷺ قال: «سليكم بعدى ولادة، فيليكم البر بیره، وليكم الفاجر بفجوره، فاسمعوا لهم وأطيعوا فى كل ما وافق الحق، وصلوا وراءهم، فإن أحسنوا فلكم ولهم، وإن أساءوا فلكم وعليهم»^(٨).

وعن أبى هريرة، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبى خلفه نبى، وإنه لا نبى بعدى، وسيكون خلفاء فيكثرون». قالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ قال: «أوفوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم». أخرجاه^(٩).

وعن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى من أميره شيئا فكرهه فليصبر؛ فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت إلا مات ميتة جاهلية». أخرجاه^(١٠).

(١) سنن أبى داود برقم (٢٦٢٦)، وصحيح البخارى برقم (٧١٤٤)، وصحيح مسلم برقم (١٨٣٩).

(٢) صحيح البخارى برقم (٧١٩٩)، وصحيح مسلم برقم (١٧٠٩).

(٣) صحيح البخارى برقم (٦٩٣).

(٤) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٨٣٧) من حديث أبى ذر الغفارى رضى الله عنه، وليس من حديث أبى هريرة.

(٥) فى أ: «عبد حبشى».

(٦) صحيح مسلم برقم (١٨٣٨).

(٧) فى أ: «عرفة».

(٨) تفسير الطبرى (٤٩٨/٨).

(٩) صحيح البخارى برقم (٣٤٥٥)، وصحيح مسلم برقم (١٨٤٢).

(١٠) صحيح البخارى برقم (٧١٤٣)، وصحيح مسلم برقم (١٨٤٩).

وعن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من خلع يدا من طاعة، لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية». رواه مسلم^(١).

وروى مسلم أيضاً، عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال: دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص جالس في ظل الكعبة، والناس حوله مجتمعون عليه، فأتيتهم فجلست إليه فقال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فتنزلنا منزلاً فمنا من يصلح خباءه، ومنا من يتنضل، ومنا من هو في جشره^(٢)، إذ نادى منادى رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة. فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، ويذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها^(٣) في أولها، وسيصيب^(٤) آخرها بلاء وأمور تنكرونها، وتجيء فتن يرفق بعضها بعضاً، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه فتن أمتكم هذه، فمن أحب أن يرحل عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه، ومن باع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر». قال: فدنوت منه فقلت: أنشدك الله أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه وقال: سمعته أذنأى ووعاه قلبي، فقلت له: هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، ونقتل أنفسنا، والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩] قال: فسكت ساعة ثم قال: أطعه في طاعة الله، واعصه في معصية الله^(٥).

والأحاديث في هذا كثيرة.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن الحسين، حدثنا أحمد بن المفضل^(٦)، حدثنا أسباط، عن السدي: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» قال: بعث رسول الله ﷺ سرية عليها خالد ابن الوليد، وفيها عمار بن ياسر، فساروا قبل القوم الذين يريدون، فلما بلغوا قريباً^(٧) منهم عرسوا، وأتاهم ذو العيينتين فأخبرهم، فأصبحوا قد هربوا غير رجل. فأمر^(٨) أهله فجمعوا^(٩) متاعهم، ثم أقبل يمشى في ظلمة الليل، حتى أتى عسكر خالد، فسأل عن عمار بن ياسر، فأتاه فقال: يا أبا اليقظان، إني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وإن قومي لما سمعوا بكم هربوا، وإنى بقيت، فهل إسلامي نافعى غداً، وإلا هربت؟ قال عمار: بل هو ينفعك، فأقم. فأقام، فلما أصبحوا أغار خالد فلم يجد أحداً غير الرجل، فأخذه وأخذ ماله. فبلغ عمار الخبر، فأتى خالداً فقال: خل عن الرجل، فإنه قد أسلم، وإنه في أمان مني. فقال خالد: وفيهم أنت

(١) صحيح مسلم برقم (١٨٥١).

(٤) في أ: «وبقيت».

(٣) في ر: «عاقبتها».

(٢) في أ: «شجرة».

(٥) صحيح مسلم برقم (١٨٤٤)

(٨) في أ: «أمر».

(٧) في أ: «قبلاً».

(٦) في ر، أ: «ابن الفضل».

(٩) في ر: «فخرقوا»، وفي أ: «فحزموا».

تجبر؟ فاستبا وارتفعوا إلى النبي ﷺ، فأجاز أمان عمار، ونهاه أن يجبر الثانية على أمير. فاستبا عند رسول الله ﷺ، فقال خالد: يا رسول الله، أترك هذا العبد الأجدع يسبني؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا خالد، لا تسب عماراً، فإنه من يسب عماراً يسبه الله، ومن يبغضه يبغضه الله ومن يلعن عماراً يلعنه الله»^(١). فغضب عمار فقام، فتبعه خالد حتى أخذ بثوبه فاعتذر إليه، فرضى عنه، فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.

وهكذا رواه ابن أبي حاتم، من طريق عن السدي، مرسلًا. ورواه ابن مردويه من رواية الحكم^(٢) ابن ظهير، عن السدي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، فذكره بنحوه^(٣)، والله أعلم.

وقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ يعني: أهل الفقه والدين. وكذا قال مجاهد، وعطاء، والحسن البصري، وأبو العالية: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ يعني: العلماء. والظاهر - والله أعلم - أن الآية عامة في جميع^(٤) أولي الأمر من الأمراء والعلماء، كما تقدم. وقد قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ [المائدة: ٦٣]. وقال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وفي الحديث الصحيح المتفق عليه، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصا الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى، ومن عصا أميرى فقد عصانى»^(٥).

فهذه أوامر بطاعة العلماء والأمراء، ولهذا قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ أى: اتبعوا كتابه ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أى: خذوا بسنته ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ أى: فيما أمروكم به من طاعة الله لا فى معصية الله، فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الله، كما تقدم فى الحديث الصحيح: «إنما الطاعة فى المعروف». وقال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرحمن، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن أبي مرآة، عن عمران بن حصين، عن النبي ﷺ قال: «لا طاعة فى معصية الله»^(٦).

وقوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، قال مجاهد وغير واحد من السلف: أى: إلى كتاب الله وسنة رسوله.

وهذا أمر من الله، عز وجل، بأن كل شئ تنازع الناس^(٧) فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع فى ذلك إلى الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، فما حكم به كتاب الله وسنة رسوله وشهدا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أى: ردوا الخصومات والجهالات

(١) فى أ: «من أبغض عماراً أبغضه الله، ومن لعن عماراً لعنه الله».

(٢) فى ر: «الحاكم».

(٣) تفسير الطبرى (٤٩٨/٨).

(٤) فى ر، أ: «كل».

(٥) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧١٣٧)، ومسلم فى صحيحه برقم (١٨٣٥).

(٦) المسند (٤٢٦/٤).

(٧) فى د: «المسلمون».

إلى كتاب الله وسنة رسوله، فتحاكموا إليها فيما شجر بينكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

فدل على أن من لم يتحاكم فى مجال النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما فى ذلك، فليس مؤمنا بالله ولا باليوم الآخر.

وقوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أى: التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله. والرجوع فى فصل النزاع إليهما خير ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أى: وأحسن عاقبة ومآلا، كما قاله السدى وغير واحد. وقال مجاهد: وأحسن جزاء. وهو قريب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أُنْزِلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣)﴾.

هذا إنكار من الله، عز وجل، على من يدعى الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد التحاكم فى فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله، كما ذكر فى سبب نزول هذه الآية: أنها فى رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما، فجعل اليهودى يقول: بينى وبينك محمد. وذاك يقول: بينى وبينك كعب بن الأشرف. وقيل: فى جماعة من المنافقين، ممن أظهروا الإسلام، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية. وقيل غير ذلك، والآية أعم من ذلك كله، فإنها ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هاهنا؛ ولهذا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا]. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أُنْزِلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا^(١)].

وقوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ أى: يعرضون عنك إعراضا كالمستكبرين عن ذلك، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [لقمان: ٢١]، هؤلاء وهؤلاء بخلاف المؤمنين، الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢) [النور: ٥١].

ثم قال تعالى فى ذم المنافقين: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أى: فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير، إليك فى مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم، واحتاجوا إليك فى ذلك ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ

(٢) زيادة من أ، وفى هـ: «الآية».

(١) زيادة من أ، وفى هـ: «إلى آخرها».

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٤﴾ أى: يعتذرون إليك ويحلفون: ما أردنا بذهابنا إلى غيرك، وتحاكمنا إلى عدك إلا الإحسان والتوفيق، أى: المدارة والمصانعة، لا اعتقاداً منا صحة تلك الحكومة، كما أخبرنا تعالى عنهم فى قوله: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى [أَنْ تَصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ] (١) فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢].

وقد قال الطبرانى: حدثنا أبو زيد أحمد بن يزيد الحوطى، حدثنا أبو اليمان، حدثنا صفوان بن عمر، عن عكرمة، عن ابن عباس. قال: كان أبو بَرَزَةَ الأسلمى كاهناً يقضى بين اليهود فيما يتنافرون فيه، فتنافر إليه ناس من المسلمين فأنزل الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ [يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ] (٢)﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [أى] (٣): هذا الضرب من الناس هم المنافقون، والله يعلم ما فى قلوبهم وسيجزئهم على ذلك، فإنه لا تخفى عليه خافية. فاكتم به يا محمد فيهم، فإن الله عالم بظواهرهم وبواطنهم؛ ولهذا قال له: ﴿فَاعْزِضْ عَنْهُمْ﴾ أى: لا تعنفهم على ما فى قلوبهم ﴿وَعِظْهُمْ﴾ أى: وانهم (٤) على ما فى قلوبهم من النفاق وسرائر الشر ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أى: وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع (٥) لهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (٦٤) فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً (٦٥)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ أى: فرضت طاعته على من أرسله (٦) إليهم وقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، قال مجاهد: أى لا يطيع أحد إلا بإذن. يعنى: لا يطيعهم إلا من وفقته لذلك، كقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران: ١٥٢] أى: عن أمره وقدره ومشيته، وتسليطه إياكم عليهم.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾: يرشد تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده، ويسألوه أن يستغفر لهم، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم، ولهذا قال: ﴿لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾.

وقد ذكر جماعة منهم: الشيخ أبو نصر بن الصَّبَّاح فى كتابه «الشامل» الحكاية المشهورة عن

(٣) زيادة من د، أ.

(٦) فى ر: «أرسلته».

(٢) زيادة من أ.

(٥) فى ر: «وادع».

(١) زيادة من أ، وفى هـ: «إلى قوله».

(٤) فى ر: «انهم».

العُتْبَى، قال: كنت جالسا عند قبر النبي ﷺ، فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾، وقد جئتكَ مستغفرا لذنبى، مستشفعا بك إلى ربى. ثم أنشأ يقول:

يا خيرَ من دُفِنَتْ بالبقاع^(١) أعظمه
فطاب من طيهنّ القاعُ والأكمُ
نَفْسِي الفداءُ لقبرٍ أنت ساكنُهُ
فيه العفافُ وفيه الجودُ والكرمُ

ثم انصرف الأعرابي، فغلبتنى عيني، فرأيت النبي ﷺ فى النوم فقال: يا عُتْبَى، الحقُّ الأعرابى فبشره أن الله قد غفر له^(٢).

(١) فى أ: «فى القاع».

(٢) ذكر هذه الحكاية النووى فى المجموع (٢١٧/٨) وفى الإيضاح (ص ٤٩٨)، وزاد البيهقي التالين:

أنت الشفيع الذى ترجى شفاعته
على الصراط إذا ما زلت القدم
صاحبك فلا أنساها أبداً
منى السلام عليكم ما جرى القلم

وساقها بقوله: «ومن أحسن ما يقول: ما حكاه أصحابنا عن العتبى مستحسنين له ثم ذكرها بتمامها»، وابن كثير هنا لم يروها ولم يستحسنها بل نقلها كما نقل بعض الإسرائيليات فى تفسيره، وهى حكاية باطلة، وقصة واهية، استدل بها بعض الناس بجواز التوسل بالرسول ﷺ بعد وفاته، والرد عليها بأربعة أمور ذكرها الشيخ الفاضل صالح آل الشيخ فى كتابه: «هذه مفاهيمنا» (ص ٧٦).

أولاً: مادام أنها ليست من سنة الرسول ﷺ ولا فعل خلفائه الراشدين، وصحابته المكرمين، ولا من فعل التابعين، والقرون المفضلة، وإنما هى مجرد حكاية عن مجهول نقلت بسند ضعيف، فكيف يحتج بها فى عقيدة التوحيد، الذى هو أصل الأصول، وكيف يحتج بها وهى تعارض الأحاديث الصحيحة التى نهى فيها عن الغلو فى القبور، والغلو فى الصالحين عموماً، وعن الغلو فى قبره، والغلو فيه ﷺ خصوصاً، وأما من نقلها من العلماء أو استحسناها فليس ذلك بحجة تعارض بها النصوص الصحيحة وتخالف من أجلها عقيدة السلف، فقد يخفى على بعض العلماء ما هو واضح لغيرهم، وقد يخطئون فى نقلهم ورأيهم، وتكون الحجة مع من خالفهم.

وما دمتا قد علمنا طريق الصواب، فلا شأن لنا بما قاله فلان أو حكاه فلان، فليس ديننا مبني على الحكايات والمناجات، وإنما هو مبنى على البراهين الصحيحة.

ثانياً: قد تخفى بعض المسائل والمعانى على من خلع الأنداد، وتبرأ من الشرك وأهله، كما قال بعض الصحابة: «اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط» فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، إنها السنن، قلمت والذى نفسى بيده ما قاله أصحاب موسى: ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾» حديث صحيح.

والحجة فى هذا: أن هؤلاء الصحابة، وإن كانوا حديثي عهد بكفر، فهم دخلوا فى الدين بلا إله إلا الله، وهى تخلع الأنداد، وأصناف الشرك، وتوحد المعبود، فمع ذلك ومع معرفة قائلها الحقبة بمعنى لا إله إلا الله، خفى عليهم بعض المسائل من أفرادها، وإنما الشأن أنه إذا وضع الدليل، وأبينت الحجة، فيجب الرجوع إليها والتزامها، والجاهل قد يعذر، كما عذر أولئك الصحابة فى قولهم: «اجعل لنا ذات أنواط»، وغيرهم من العلماء أولى باحتمال أن يخفى عليهم بعض المسائل ولو فى التوحيد والشرك.

ثالثاً: كيف يتجاسر أحد أن يعارض نصوص كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بقول حكاه حاكٍ مستحسناً له، والله سبحانه يقول: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾ [النور: ٦٣].

قال الإمام أحمد: عجت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، يذهبون إلى رأى سفيان، والله تعالى يقول: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة﴾ أتدري ما الفتنة؟

الفتنة: الشرك لعله إذا رد بعض قوله أن يقع فى قلبه شيء من الزيف فيهلك. رواه عن أحمد الفضل بن زياد وأبو طالب، ولعله فى كتاب «طاعة الرسول ﷺ» لأحمد رحمه الله.

فطاعة رسول الله ﷺ مقدمة على طاعة كل أحد، وإن كان خير هذه الأمة أبا بكر وعمر، كما قال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول: قال رسول الله ﷺ وتقولون: قال أبو بكر وعمر.

وقوله : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة : أنه لا يؤمن أحد حتى يُحكم الرسول ﷺ فى جميع الأمور ، فما حكم به فهو الحق الذى يجب الانقياد له باطنا وظاهرا ؛ ولهذا قال : ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أى : إذا حكموك يطيعونك فى بواطنهم فلا يجدون فى أنفسهم حرجا مما حكمت به ، وينقادون له فى الظاهر والباطن ، فيسلمون لذلك تسليما كليا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة ، كما ورد فى الحديث : «والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به» .

وقال البخارى : حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا محمد بن جعفر ، أخبرنا معمر ، عن الزهرى ، عن عروة قال : خاصم الزبير رجلا^(١) فى شريح^(٢) من الحرّة ، فقال النبى ﷺ : «اسق يا زبير ، ثم أرسل الماء إلى جارك» فقال الأنصارى : يا رسول الله ، أن كان ابن عمك^(٣) ؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ^(٤) ، ثم قال : «اسق يا زبير ، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر ، ثم أرسل الماء إلى جارك» ، واستوعى النبى ﷺ للزبير حقة فى صريح الحكم ، حين أحفظه الأنصارى ، وكان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة . قال الزبير : فما أحسب هذه الآية إلا نزلت فى ذلك : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية .

وهكذا رواه البخارى هاهنا أعنى فى كتاب : «التفسير» من صحيحه من حديث معمر . وفى كتاب : «الشرب» من حديث ابن جريج ومعمر أيضا ، وفى كتاب : «الصلح» من حديث شعيب بن أبى حمزة ، ثلاثتهم عن الزهرى ، عن عروة ، فذكره^(٥) ، وصورته صورة الإرسال ، وهو متصل فى المعنى .

وقد رواه الإمام أحمد من هذا الوجه فصرح بالإرسال فقال : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهرى ، أخبرنى عروة بن الزبير : أن الزبير كان يحدث : أنه كان يخاصم رجلا من الأنصار قد شهد بدرًا إلى النبى ﷺ فى شراج الحرّة ، كانا يسقيان بها كلاهما ، فقال النبى ﷺ للزبير : «اسق ثم أرسل إلى جارك» . فغضب الأنصارى وقال : يا رسول الله ، أن كان ابن عمك^(٦) ؟ فتلون وجه رسول

= فكيف لو رأى ابن عباس هؤلاء الناس الذين يعارضون السنة الثابتة ، والحجة الواضحة بقول أعرابى فى قصة العتبى الضعيفة المنكرة .

إن السنة فى قلوب محبيها أعظم وأعلى من تلك الحجج المتهافة ، التى يدلى بها صاحب المفاهيم البدعية ، تلك المفاهيم المبنية على المنامات والمنكرات ، فاعجب لهذا ، وجرّد المتابعة لرسول الله ﷺ ، وحذار ثم حذار من أن ترد الأحاديث الصحيحة ، وتؤمن بالأخبار الباطلة الواهية ، فيوشك بمن فعل ذلك أن يقع فى قلبه فتنة فيهلك .

رابعاً : ما من عالم إلا ويرد عليه فى مسائل اختارها إما عن رأى ، أو عن ضعف حجة ، وهم معذرون قبل إيضاح المحجة بدلائلها ، ولو تتبع الناس شذوذات المجتهدين ورخصهم ، لخرجوا عن دين الإسلام إلى دين آخر ، كما قيل : من تتبع الرخص تزندق ، ولو أراد مبتغ الفساد والعدول عن الصراط أن يتخذ له من رخصهم سلماً يرتقى به إلى شهواته لكان الواجب على الحاكم قمعه وصدّه ، وتعزيره ، كما هو مشهور فى فقه الأئمة الأربعة ، وغيرهم .

وما ذكر فقيه أن من أحال لتبرير جرمه على قول عالم ، علم خطؤه فيه أنه يقبل منه ولا يؤخذ بالعتاب .

اللهم احفظ علينا ديننا ، وتوحيّدنا .

(١) فى أ : «رجلا من الأنصار» . (٢) فى ر : «شريح» . (٣) فى أ : «عمك» .

(٤) فى د ، ر : «فتلون وجهه» .

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٥٨٥) ، (٢٣٦١) ، (٢٣٦٢) ، (٢٧٠٨) .

(٦) فى أ : «عمك» .

الله ﷺ ثم قال: «اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر». فاستوعى النبي ﷺ للزبير حقه، وكان النبي ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأى أراد فيه سعة له وللأنصارى، فلما أحفظ^(١) الأنصارى رسول الله ﷺ استوعى النبي ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم، قال عروة: فقال الزبير: والله ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

هكذا رواه الإمام أحمد^(٢)، وهو منقطع بين عروة وبين أبيه الزبير؛ فإنه لم يسمع منه، والذي يقطع به أنه سمعه من أخيه عبد الله، فإن أبا محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم رواه كذلك في تفسيره فقال:

حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، حدثنا الليث ويونس، عن ابن شهاب، أن عروة ابن الزبير حدثه، أن عبد الله بن الزبير حدثه، عن الزبير بن العوام: أنه خاصم رجلا من الأنصار قد شهد بدرا مع رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ في شراج في الحرة، كانا يسقيان به كلاهما النخل، فقال الأنصارى: سرح الماء يمر. فأبى عليه الزبير، فقال رسول الله ﷺ: «اسق يا زبير، ثم أرسل إلى جارك» فغضب الأنصارى وقال: يا رسول الله، أن كان ابن عمك^(٣)؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: «اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر». واستوعى رسول الله ﷺ للزبير حقه، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأى أراد فيه السعة له وللأنصارى، فلما أحفظ^(٤) الأنصارى رسول الله ﷺ استوعى للزبير حقه في صريح الحكم، فقال الزبير: ما أحسب هذه الآية إلا في ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

وهكذا رواه النسائي من حديث ابن وهب، به^(٥). ورواه أحمد والجماعة كلهم من حديث الليث، به^(٦). وجعله أصحاب الأطراف في مسند عبد الله بن الزبير، وكذا ساقه الإمام أحمد في مسند عبد الله بن الزبير، والله أعلم. والعجب كل العجب من الحاكم أبي عبد الله النيسابوري، فإنه روى هذا الحديث من طريق ابن أخي ابن شهاب، عن عمه، عن عروة، عن عبد الله بن الزبير، عن الزبير فذكره، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. فإني لا أعلم أحدا قام بهذا الإسناد عن الزهري يذكر عبد الله بن الزبير، غير ابن أخيه، وهو عنه ضعيف^(٧).

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن علي أبو دحيم، حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا الفضل بن دكين، حدثنا ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن سلمة - رجل من آل أبي سلمة - قال:

(١) في ر: «أحفظ».

(٢) المسند (١/١٦٥).

(٣) في أ: «عمك». (٤) في ر: «أحفظ».

(٥) سنن النسائي (٨/٢٣٨).

(٦) المسند (٤/٤)، وصحيح البخاري برقم (٢٣٥٩)، وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٧)، وسنن أبي داود برقم (٣٦٣٧)، وسنن الترمذي

برقم (١٣٦٣)، وسنن النسائي (٨/٢٤٥)، وسنن ابن ماجه برقم (١٥).

(٧) المستدرک (٣/٣٦٤).

خاصم الزبير رجلاً إلى النبي ﷺ، ففضى للزبير، فقال الرجل: إنما قضى له لأنه ابن عمته. فنزلت: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾ الآية (١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا أبو حيوة، حدثنا سعيد بن عبد العزيز، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب في قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾ (٢). [الآية] (٣) قال: نزلت في الزبير بن العوام، وحاطب بن أبي بلتعة. اختصما في ماء، ففضى النبي ﷺ أن يسقى الأعلى ثم الأسفل. هذا مرسل ولكن فيه فائدة تسمية الأنصارى (٤).

ذكر سبب آخر غريب جداً:

قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عبد الله بن لهيعة، عن أبي الأسود قال: اختصم رجلان إلى رسول الله ﷺ، ففضى بينهما، فقال الذي قضى عليه: ردنا إلى عمر بن الخطاب. فقال رسول الله ﷺ: «انطلقا» (٥) إليه. فلما أتيا إليه قال الرجل: يا ابن الخطاب، قضى لى رسول الله ﷺ على هذا، فقال: ردنا إلى عمر. فردنا إليك. فقال: أكذاك؟ فقال: نعم. فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما فأفضى بينكما. فخرج إليهما مشتملا على سيفه، فضرب الذي قال ردنا إلى عمر فقتله، وأدبر الآخر فاراً إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، قتل عمر والله صاحبي، ولولا أنى أعجزته لقتلني. فقال رسول الله ﷺ: «ما كنت أظن أن يجترئ عمر على قتل مؤمن». فأنزل الله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾ (٦) الآية فهدر دم ذلك الرجل، وبرئ عمر من قتله، فكره الله أن يسن ذلك بعد، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيْثًا﴾ [النساء: ٦٦].

وكذا رواه ابن مردويه، من طريق ابن لهيعة، عن أبي الأسود، به.

وهو أثر غريب، وهو مرسل، وابن لهيعة ضعيف (٧) والله أعلم.

طريق أخرى: قال الحافظ أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن دحيم في تفسيره: حدثنا شعيب بن شعيب، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا عتبة بن ضمرة، حدثني أبي: أن رجلين اختصما إلى النبي ﷺ، ففضى للمحق على المبطل، فقال المقضى عليه: لا أرضى. فقال صاحبه: فما تريد؟ قال: أن نذهب إلى أبي بكر الصديق. فذهبا إليه، فقال الذي قضى له: قد اختصمنا إلى النبي ﷺ، ففضى لى (٨). فقال أبو بكر: فأنتما على ما قضى به النبي ﷺ. فأبى صاحبه أن يرضى، قال: نأتى

(١) ورواه الحميدى فى مسنده برقم (٣٠٠)، وسعيد بن منصور فى سننه برقم (٦٦٠) من طريق سفيان بن عيينة به مرسلًا.

(٢) زيادة من أ.

(٣) زيادة من ر، أ.

(٤) ذكره السيوطى فى الدر (٥٨٤/٢).

(٥) فى ر، أ: «نعم انطلقا».

(٦) فى ر، أ جاءت الآية تامة.

(٧) ذكره السيوطى فى الدر (٥٨٥/٢).

(٨) فى أ: «عليه».

عمر بن الخطاب، فأتيه، فقال المقضى له: قد اختصمنا إلى النبي ﷺ، فقضى لى عليه، فأبى أن يرضى، [ثم أتينا أبا بكر، فقال: أنتما على ما قضى به رسول الله ﷺ، فأبى أن يرضى]^(١). فسأله عمر، فقال: كذلك، فدخل عمر منزله وخرج والسيوف في يده قد سلّه، فضرب به رأس الذى أبى أن يرضى، فقتله، فأنزل الله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَحْكُمُونَكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [إلى آخره]^(٢) الآية^(٣).

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾ (٦٦) وَإِذَا لَا تَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٦٨) وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠) ﴿

يخبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أمروا بما هم مرتكبونه من المناهى لما فعلوه؛ لأن طباعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر، وهذا من علمه - تبارك وتعالى - بما لم يكن أو كان فكيف كان يكون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾.

قال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثني إسحاق، حدثنا أبو زهير^(٤)، عن إسماعيل، عن أبي إسحاق السبعي قال: لما نزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾^(٥) الآية، قال رجل: لو أمرنا لفعلنا، والحمد لله الذى عافانا. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «إن من أمتى لرجالاً، الإيمان أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى»^(٦).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا جعفر بن منير، حدثنا روح، حدثنا هشام، عن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية. قال أناس من أصحاب النبي ﷺ: لو فعل ربنا لفعلنا، فبلغ النبي ﷺ فقال: «لِلْإِيمَانِ^(٧) أثبت فى قلوب أهله من الجبال الرواسى».

وقال السدى: افتخر ثابت بن قيس بن شماس ورجل من اليهود، فقال اليهودى: والله لقد كتب الله علينا القتل فقتلنا أنفسنا. فقال ثابت: والله لو كتب علينا: ﴿أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ لقتلنا. فأنزل الله هذه الآية. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا بشر بن السرى، حدثنا مصعب

(١) زيادة من أ، ر.

(٢) وذكره المؤلف ابن كثير فى مسند عمر بن الخطاب.

(٣) فى ر: «أبو الأزر».

(٤) زيادة من أ.

(٥) تفسير الطبرى (٥٢٦/٨).

(٦) فى أ: «الإيمان».

ابن ثابت، عن عمه عامر بن عبد الله بن الزبير قال: لما نزلت [﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾] قال أبو بكر: يا رسول الله، والله لو أمرتني أن أقتل نفسي لفعلت، قال: «صدقت يا أبا بكر».

حدثنا أبي، حدثنا محمد بن أبي عمر العدني قال: سئل سفيان عن قوله^(١): [﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾]، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو نزلت لكان ابن أم عبد منهم».

وحدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن صفوان بن عمرو، عن شريح بن عبيد قال: لما تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: [﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾]^(٢)، أشار رسول الله ﷺ بيده إلى عبد الله بن رواحة، فقال: «لو أن الله كتب ذلك لكان هذا من أولئك القليل» - يعني: ابن رواحة.

ولهذا قال تعالى: [﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾] أى: ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به، وتركوا ما ينهون عنه [﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾] أى: من مخالفة الأمر وارتكاب النهي [﴿وَأَشَدُّ تَنبِيْئًا﴾]، قال السدي: أى: وأشد تصديقا. [﴿وَإِذَا لَا تَنَاهَاهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا﴾] أى: من عندنا [﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾]، يعنى: الجنة [﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾] أى: فى الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: [﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾] أى: من عمل بما أمره الله ورسوله، وترك ما نهاه الله عنه ورسوله، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته، ويجعله مرافقا للأنبياء ثم لمن بعدهم فى الرتبة، وهم الصديقون، ثم الشهداء، ثم عموم المؤمنين وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم. ثم أثنى عليهم تعالى فقال: [﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾].

وقال البخارى: حدثنا محمد بن عبد الله بن حوشب، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن عروة، عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة» وكان فى شكواه الذى قبض فيه، فأخذته بحة شديدة، فسمعتة يقول: [﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾] فعلمت أنه خير.

وكذا رواه مسلم من حديث شعبة، عن سعد^(٣) بن إبراهيم، به^(٤).

وهذا معنى قوله ﷺ فى الحديث الآخر: «اللهم فى الرفيق الأعلى» ثلاثا ثم قضى، عليه أفضل الصلاة والتسليم^(٥).

ذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة:

قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب القمى، عن جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ وهو محزون، فقال له النبي ﷺ: «يا فلان، مالى

(٣) فى أ: «سعيد».

(١، ٢) زيادة من أ.

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٤٣٥) وصحيح مسلم برقم (٢٤٤٤).

(٥) رواه البخارى برقم (٤٤٣٦) من حديث عائشة رضى الله عنها.

أراك محزوناً؟ قال: يا نبي الله^(١)، شيء فكرت فيه؟ قال: «ما هو؟» قال: نحن نغدو عليك ونروح، ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغدا ترفع مع النبيين فلا نصل إليك. فلم يرد النبي ﷺ عليه شيئاً، فأناه جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾^(٢). فبعث النبي ﷺ فبشره.

قد روى هذا الأثر مرسلًا عن مسروق، وعكرمة، وعامر الشعبي، وقتادة، وعن الربيع بن أنس، وهو من أحسنها^(٣) سنداً^(٤).

قال ابن جرير: حدثنا المثني، حدثنا ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع، قوله: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ﴾^(٥) الآية، قال: إن أصحاب النبي ﷺ قالوا: قد علمنا أن النبي ﷺ له فضل على من آمن به في درجات الجنة ممن اتبعه وصدقه، وكيف لهم إذا اجتمعوا في الجنة أن يرى بعضهم بعضاً؟ فأنزل الله في ذلك - يعني هذه الآية - فقال: يعني رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْأَعْلَىٰ يَنْحَدِرُونَ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فيجتمعون في رياضها، فيذكرون ما أنعم الله عليهم ويثنون عليه، وينزل لهم أهل الدرجات فيسعون عليهم بما يشتهون وما يدعون به، فهم في روضة يحبرون ويتنعمون^(٦) فيه»^(٧).

وقد روى مرفوعاً من وجه آخر، فقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم، حدثنا إسماعيل بن أحمد بن أسيد، حدثنا عبد الله بن عمران، حدثنا فضيل بن عياض، عن منصور، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنك لأحب إلى من نفسي، وأحب إلى من أهلي، وأحب إلى من ولدي، وإنني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلت الجنة خشيت ألا أراك. فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزلت عليه: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾.

وهكذا رواه الحافظ أبو عبد الله المقدسي في كتابه: «صفة الجنة»، من طريق الطبراني، عن أحمد ابن عمرو بن مسلم الخلال، عن عبد الله بن عمران العابدی، به. ثم قال: لا أرى بإسناده بأساً^(٨). والله أعلم.

(٢) زيادة من ر، أ، وفي هـ: «الآية».

(١) في ر: «يا رسول الله».

(٣) في ر: «شيئاً»، وفي أ: «سياق».

(٤) تفسير الطبري (٨/٥٣٤، ٥٣٥).

(٦) في د: «يتمتعون».

(٥) زيادة من أ.

(٧) تفسير الطبري (٨/٥٣٥) وهذا مرسل، وانظر المقدمة في النسخ التفسيرية، ففيها الكلام على نسخة أبي جعفر الرازي.

(٨) ورواه الطبراني في الأوسط برقم (٣٣٠٨) «مجمع البحرين» ومن طريق أبو نعيم في الحلية (٨/١٢٥) من طريق أحمد بن عمرو الخلال عن عبد الله بن عمران عن فضيل عن منصور به.

وقال الطبراني: «غريب من حديث فضيل ومنصور تفرد به العابدی».

قال الهيثمي في المجمع (٧/٧): «رجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن عمران وهو ثقة».

وقال ابن مردويه أيضاً: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا العباس بن الفضل الأسفاطى، حدثنا أبو بكر بن ثابت بن عباس المصرى^(١)، حدثنا خالد بن عبد الله، عن عطاء بن السائب، عن عامر الشعبي، عن ابن عباس؛ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني لأحبك حتى إني لأذكرك في المنزل فيشوق ذلك على^(٢)، وأحب أن أكون معك في الدرجة. فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً، فأنزل الله عز وجل [وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا] (٣) (٤).

وقد رواه ابن جرير، عن ابن حميد، عن جرير، عن عطاء، عن الشعبي، مرسلًا. وثبت في صحيح مسلم من حديث هقل بن زياد، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن ربيعة بن كعب الأسلمى أنه قال: كنت أبيت عند النبي ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لى: «سَلْ». فقلت: يا رسول الله، أسألك مرافقتك فى الجنة. فقال: «أو غير ذلك؟» قلت: هو ذاك. قال: «فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكثرة السجود»^(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، أخبرنا ابن لهيعة، عن عبيد الله بن أبى جعفر، عن عيسى بن طلحة، عن عمرو بن مرة الجهنى قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله شهدت أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله، وصليت الخمس، وأديت زكاة مالى، وصمت شهر رمضان. فقال رسول الله ﷺ: «من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا - ونصب إصبعيه - ما لم يعقّ والديه» تفرد به أحمد^(٦).

قال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو سعيد مولى أبى هاشم، حدثنا ابن لهيعة، عن زبّان^(٧) بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ ألف آية فى سبيل الله كتب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، إن شاء الله»^(٨).

وروى الترمذى من طريق سفيان الثورى، عن أبى حمزة، عن الحسن البصرى، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء».

ثم قال: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأبو حمزة اسمه عبد الله بن جابر شيخ بصرى^(٩).

وأعظم من هذا كله بشارة ما ثبت فى الصحاح والمسانيد وغيرهما، من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة: أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم؟ فقال: «المرء مع من

(١) فى د، ر: «ابن عياش البصرى». (٢) فى د: «على ذلك». (٣) زيادة من: ر، وفى هـ: «هذه الآية». (٤) سليمان بن أحمد هو الطبرانى، ورواه فى المعجم الكبير (٨٦/١٢). قال الهيثمى فى المجمع (٧/٧): «فيه عطاء بن السائب وقد اختلط». (٥) صحيح مسلم برقم (٤٨٩). (٦) ليس فى المسند. (٧) فى و: «زياد». (٨) المسند (٤٣٧/٤) وفيه: «حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة فذكره». وقال الهيثمى (٢٦٩/٢): «فيه ابن لهيعة عن زبّان وفيه كلام». (٩) سنن الترمذى برقم (١٢٠٩).

أحب» قال أنس: فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث^(١).

وفى رواية^(٢) عن أنس أنه قال: إني أحب^(٣) رسول الله ﷺ، وأحب أبا بكر وعمر، رضى الله عنهما^(٤)، وأرجو أن يبعثنى الله معهم وإن لم أعمل كعملهم^(٥).

وقال الإمام مالك بن أنس، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما تتراءون^(٦) الكوكب الدرى الغابر من^(٧) الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى، والذي نفسى بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين».

أخرجاه فى الصحيحين من حديث مالك^(٨) ولفظه لمسلم.

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا فزارة، أخبرنى فُلَيْح، عن هلال - يعنى ابن على - عن عطاء، عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون فى الجنة كما تراءون - أو تَرَوْنَ - الكوكب الدرى الغارب فى الأفق والطالع فى تفاضل الدرجات». قالوا: يا رسول الله، أولئك النبيون؟ قال: «بلى، والذي نفسى بيده، وأقوام آمنوا بالله وصدقوا المرسلين».

قال الحافظ الضياء المقدسى: هذا الحديث على شرط البخارى^(٩)، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى فى معجمه الكبير: حدثنا على بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن عمار الموصلى، حدثنا عُقَيْف بن سالم، عن أيوب بن عُبَيْة^(١٠)، عن عطاء، عن ابن عمر قال: أتى رجل من الحبشة إلى رسول الله ﷺ يسأله، فقال له رسول الله ﷺ: «سَلْ واسْتَفْهِمْ». فقال: يا رسول الله، فَضَلَّكُمْ علينا بالصور والألوان والنبوة، أفأريت إن آمنتُ بما آمنتَ به، وعملتُ مثل ما عملتَ به، إني لكائن معك فى الجنة؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم، والذي نفسى بيده إنه ليضىء بياض الأسود فى الجنة من مسيرة ألف عام» قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله، كان له بها عهد عند الله، ومن قال: سبحان الله وبحمده، كتب له بها مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة» فقال رجل: كيف نهلك بعدها يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليأتى يوم القيامة بالعمل لو وضع على جبل لا ثقله، فتقوم النعمة من نعم الله فتكاد أن تستنفد ذلك كله، إلا أن يتناول الله برحمته» ونزلت هذه الآيات^(١١): ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ إلى قوله: ﴿نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ١ - ٢٠]، فقال الحبشى: وإن عني لثريان ما ترى عيناك فى الجنة؟ فقال النبى ﷺ: «نعم». فاستبكى حتى فاضت نفسه، قال ابن عمر: لقد

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦١٦٧) ورواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٦٣٩).

(٢) فى د: «وفى لفظ».

(٣) فى أ: «لأحب».

(٤) فى ر: «عنهم».

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٦٣٩).

(٦) فى أ: «يتراءون».

(٧) فى أ: «فى».

(٨) صحيح البخارى برقم (٣٢٥٦) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣١).

(٩) المسند (٣٣٩/٢).

(١٠) فى النسخ: «أيوب عن عتبة» وهو تحريف.

(١١) فى ر، أ: «السورة».

رأيت رسول الله ﷺ يديه في حفرتيه بيديه.

فيه غرابة ونكارة، وسنده ضعيف^(١).

ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ أى: من عند الله برحمته، هو الذى أهلهم لذلك، لا بأعمالهم. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عِلِمًا﴾ أى: هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣) فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤)﴾.

يأمر الله عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم، وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعدد، وتكثير العدد بالنفير فى سبيله.

﴿ثُبَاتٍ﴾ أى: جماعة بعد جماعة، وفرقة بعد فرقة، وسرية بعد سرية، والثبات: جمع ثبة، وقد تجمع الثبة على ثبين.

قال علي بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿فَانفِرُوا ثُبَاتٍ﴾ أى: عُصبا يعنى: سرايا متفرقين ﴿أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ يعنى: كلكم.

وكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، والسدى، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حيان، وخُصيف الجزرى.

وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ قال مجاهد وغير واحد: نزلت فى المنافقين، وقال مقاتل بن حيان: ﴿لَيُبَطِّئَنَّ﴾ أى: ليتخلفن عن الجهاد.

ويحتمل أن يكون المراد أنه يتباطأ هو فى نفسه، ويبطئ غيره عن الجهاد، كما كان عبد الله بن أبى بن سلول - قبحه الله - يفعل، يتأخر عن الجهاد، ويُبْطئ الناس عن الخروج فيه. وهذا قول ابن جرير وابن جرير؛ ولهذا قال تعالى إخبارا عن المنافق أنه يقول إذا تأخر عن الجهاد: ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ أى: قتل وشهادة وغلب العدو لكم، لما لله فى ذلك من الحكمة ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أى: إذ لم أحضر معهم وقعة القتال، يعد ذلك من نعم الله عليه، ولم يدر ما فاته من الأجر فى الصبر أو الشهادة إن قتل.

﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أى: نصر وظفر وغنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ﴾^(٢) كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ أى:

(١) المعجم الكبير (٤٣٦/١٢)، ووجه ضعفه أن فيه أيوب بن عتبة وهو ضعيف.

(٢) فى ر: «قال».

كأنه ليس من أهل دينكم ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، أى: بأن يضرب لى بسهم معهم فأحصل عليه. وهو أكبر قصده وغاية مراده.

ثم قال تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ﴾ أى: المؤمن النافر ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أى: يبيعون دينهم بعرض قليل من الدنيا، وما ذلك^(١) إلا لكفرهم وعدم إيمانهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أى: كل من قاتل فى سبيل الله - سواء قتل أو غلب وسلب - فله عند الله مثوبة عظيمة وأجر جزيل، كما ثبت فى الصحيحين^(٢)، وتكفل الله للمجاهد فى سبيله، إن^(٣) توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (٧٦).

يحرص تعالى عباده المؤمنين على الجهاد فى سبيله، وعلى السعى فى استنقاذ المستضعفين بمكة^(٤)، من الرجال والنساء والصبيان المتبرمين بالمقام بها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ أى: مكة، كقوله: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ﴾ [محمد: ١٣].

ثم وصفها بقوله: ﴿الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ أى: سخر لنا من عندك وليا وناصرًا.

قال البخارى: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا سفيان، عن عبيد الله^(٥) قال: سمعت ابن عباس قال: كنت أنا وأمى من المستضعفين.

حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن ابن أبي^(٦) مليكة أن ابن عباس تلا: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ قال: كنت أنا وأمى ممن عذّر الله عز وجل^(٧).

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ أى: المؤمنون يقاتلون فى طاعة الله ورضوانه، والكافرون يقاتلون فى طاعة الشيطان.

(١) فى د، ر: «وذاك».

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٤٦٣، ٧٤٥٧)، ومسلم فى صحيحه برقم (١٨٧٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) فى د، ر، أ: «بأن». (٤) فى أ: «فى مكة». (٥) فى د: «عبد الله».

(٦) زيادة من د، ر، أ.

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٥٨٧، ٤٥٨٨).

ثم هَيَّجَ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِ أَعْدَائِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧)﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)﴾.

كان المؤمنون في ابتداء الإسلام - وهم بمكة - مأمورين بالصلاة والزكاة وإن لم تكن ذات النصب، لكن كانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسبة لأسباب كثيرة، منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء لائقا. فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة، لما صارت لهم دار ومنعة وأنصار، ومع هذا لما أمروا بما كانوا يودونه جزع بعضهم منه وخافوا من مواجهة الناس خوفا شديدا ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: لوما أخرت فرضه إلى مدة أخرى، فإن فيه سفك الدماء، ويؤثم الأبناء، وتأثم النساء، وهذه الآية في معنى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ [رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ . طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ]﴾ (١) [محمد: ٢٠، ٢١].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن عبد العزيز بن أبي رزمة (٢) وعلى ابن زنجة قالا: حدثنا علي بن الحسن، عن الحسين بن واقد، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة، فقالوا: يا نبي الله، كنا في عزٍّ ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة: قال: «إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم». فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال، فكفوا. فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ (٣) الآية.

(١) زيادة من ر. وفي هـ: «الآية».

(٢) في أ: «زرعة».

(٣) زيادة من ر، أ.

ورواه النسائي، والحاكم، وابن مردويه، من حديث علي بن الحسن بن شقيق، به (١).

وقال أسباط، عن السدي: لم يكن عليهم إلا الصلاة والزكاة، فسألوا الله أن يفرض عليهم القتال، فلما كتب عليهم القتال: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، وهو الموت، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾.

وعن مجاهد: إن هذه الآيات (٢) نزلت في اليهود. رواه ابن جرير.

وقوله: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ أى: آخرة المتقى خير من دنياه.

﴿وَلَا تَظْلُمُونَ فِتْيَالاً﴾ أى: من أعمالكم بل توفونها أتم الجزاء. وهذه تسلية لهم عن الدنيا، وترغيب لهم فى الآخرة، وتحريض لهم على الجهاد.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا يعقوب بن إبراهيم الدورقي، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا حماد بن زيد، عن هشام قال: قرأ الحسن: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ قال: رحم الله عبداً صحبها على حسب ذلك، ما (٣) الدنيا كلها أولها وآخرها إلا كرجل نام نومة، فرأى فى منامه بعض ما يحب، ثم انتبه.

وقال ابن مَعِين: كان أبو مُسَهَّرٍ ينشد:

مِنَ اللَّهِ فِي دَارِ الْمَقْلَمِ نَصِيبُ

ولا خير فى الدنيا لمن لم يكن له

مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَالزَّوَالُ قَرِيبُ

فإن تُعْجِبَ الدُّنْيَا رَجُلًا فَإِنَّهَا

وقوله: ﴿أَيُّمًا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ أى: أنتم صائرون إلى الموت لا محالة، ولا ينجو منه أحد منكم، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَن عَلَيْهَا فَإِنَّ . وَيَقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]. والمقصود: أن كل أحد صائر إلى الموت لا محالة، ولا ينجيه من ذلك شيء، وسواء عليه جاهد أو لم يجاهد، فإن له أجلاً محتوماً، وأمداً مقسوماً، كما قال خالد بن الوليد حين جاءه الموت على فراشه: لقد شهدت كذا وكذا موقفاً، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه جرح من طعنة أو رمية، وها أنا أموت على فراشى، فلا نامت أعين الجبناء (٥).

وقوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ أى: حصينة منيعة عالية رفيعة. وقيل: هى بروج فى السماء. قاله السدي، وهو ضعيف. والصحيح: أنها المنيعة. أى: لا يغنى حذر وتحصن من الموت، كما قال زهير بن أبى سلمى (٦):

(١) سنن النسائي الكبرى برقم (١١١١٢) والمستدرک (٣٠٧/٢).

(٢) فى ر، أ: «وما».

(٤) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٥) رواه الحافظ ابن عساكر فى تاريخ دمشق كما فى المختصر لابن منظور (٢٦/٨) من طريق أبى الزناد أن خالد لما حضرته الوفاة بكى وقال... فذكره.

(٦) فى ر، أ: «طرفة بن العبد».

وَمَنْ خَافَ أَسْبَابَ الْمُنْيَةِ يَلْقَهَا وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلْمٍ^(١)

ثم قيل: «المشيئة» هى المشيئة كما قال: «وَقَصْرٌ مُشِيدٌ» [الحج: ٤٥]. وقيل: بل بينهما فرق، وهو أن المشيئة بالتشديد، هى: المطولة، وبالتخفيف هى: المزيئة بالشيد وهو الجص.

وقد ذكر ابن جرير، وابن أبى حاتم هاهنا حكاية مطولة عن مجاهد: أنه ذكر أن امرأة فيمن كان قبلنا أخذها الطلق، فأمرت أجيرها أن يأتيها بنار، فخرج، فإذا هو برجل واقف على الباب، فقال: ما ولدت المرأة؟ فقال: جارية، فقال: أما إنها ستزنى بمائة رجل، ثم يتزوجها أجيرها، ويكون موتها بالعنكبوت. قال: فكّر راجعا، فبعج الجارية بسكين فى بطنها، فشقها، ثم ذهب هاربا، وظن أنها قد ماتت، فخاطت أمها بطنها، فبرئت وشبت وترعرعت، ونشأت أحسن امرأة ببلدتها^(٢)، فذهب ذاك [الأجير]^(٣) ما ذهب، ودخل البحور فاقتنى أموالا جزيلة، ثم رجع إلى بلده وأراد التزويج، فقال لعجوز: أريد أن أتزوج بأحسن امرأة بهذه البلدة. فقالت له: ليس هنا أحسن من فلانة. فقال: اخطبها علىّ. فذهبت إليها فأجابت، فدخل بها فأعجبته إعجابا شديدا، فسألته عن أمره ومن أين مقدمه^(٤)؟ فأخبرها خبره، وما كان من أمره فى هربه. فقالت: أنا هى. وأرته مكان السكين، فتحقق ذلك فقال: لئن كنت إياها فلقد أخبرتنى بائنتين لأبد منهما، إحداهما: أنك قد زنت بمائة رجل. فقالت: لقد كان شئ من ذلك، ولكن لا أدري ما عددهم؟ فقال: هم مائة. والثانية: أنك تموتين بالعنكبوت. فاتخذ لها قصرا منيعا شاهقا، ليحرزها من ذلك، فبينما هم يوما إذا بالعنكبوت فى السقف، فأراها إياها، فقالت: أهذه التى تحذرنا على، والله لا يقتلها إلا أنا، فأنزلوها من السقف فعمدت إليها فوطئت با بهام رجلها فقتلتها، فطار من سمها شئ^(٥)، فوقع بين ظفرها ولحمها، فاسودت رجلها وكان فى ذلك أجلها^(٦).

ونذكر هاهنا قصة صاحب الحضّر، وهو «الساطرون»، لما احتال عليه «سابور» حتى حصره فيه، وقتل من فيه بعد محاصرة سنتين، وقالت العرب فى ذلك أشعارا منها:

وأخو الحضّر إذ بناه وإذ دج	للة تُجْبَى إليه والخابور
شاده مرّما وجلسه كل	سأ لللطير فى ذرّاه وكور
لم تهبه أيدى المنون فبادر	ملك عنه فبابه مهجور

ولما دخل على عثمان جعل يقول: اللهم اجمع أمة محمد، ثم تمثل بقول الشاعر:

أرى الموت لا يبقّى عزيزا ولم يدع	لعاد ملاذاً فى البلاد ومربعا
بيت أهل الحصن والحصن مغلق	ويأتى الجبال فى شमारبخها معا ^(٧)

وقوله: «وَأِنْ تُصِبَّهُمْ حَسَنَةٌ» أى: خصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد ونحو^(٨) ذلك هذا معنى

(١) البيت من معلقة زهير بن أبى سلمى، وهو فى ديوانه (ص ٣٠).

(٢) فى ر، أ: «بلدها». (٣) زيادة من أ، والطبرى. (٤) فى أ: «وعن مقدمه».

(٥) فى ر: «وطار شئ من سمها».

(٦) تفسير الطبرى (٨/ ٥٥٢).

(٧) فى ر: «وغير».

(٨) فى ر: «العلا».

قول ابن عباس وأبى العالية والسدى، «يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ» أى: قحط وجذب ونقص فى الثمار والزروع أو موت أولاد أو نتاج أو غير ذلك. كما يقوله أبو العالية والسدى. «يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ» أى: من قبلك وبسبب اتباعنا لك واقتدائنا بدينك. كما قال تعالى عن قوم فرعون: «فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ» [الأعراف: ١٣١]. وكما قال تعالى: «وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ [فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ]»^(١) الآية [الحج: ١١]. وهكذا قال هؤلاء المنافقون الذين دخلوا فى الإسلام ظاهرا وهم كارهون له فى نفس الأمر؛ ولهذا إذا أصابهم شر إنما يسندونه إلى اتباعهم للنبي ﷺ وقال^(٢) السدى: «وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ» قال: والحسنة الخصب، تُنتج خيولهم وأنعامهم ومواشيهم، ويحسن حالهم وتلد نساؤهم الغلمان قالوا: «هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ» والسيئة: الجذب والضرر فى أموالهم، تشاءموا بمحمد ﷺ وقالوا: «هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ»، يقولون: بتركنا ديننا واتباعنا محمدا أصابنا هذا البلاء، فأنزل الله عز وجل: «قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ». فقولهم: «قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» أى الجميع بقضاء الله وقدره، وهو نافذ فى البرّ والفاجر، والمؤمن والكافر.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: «قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» أى: الحسنة والسيئة. وكذا قال الحسن البصرى.

ثم قال تعالى منكرًا على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة عن شك وريب. وقلة فهم وعلم، وكثرة جهل وظلم: «فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا».

ذكر حديث غريب يتعلق بقوله تعالى: «قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» :

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا السَّكَنُ بن سعيد، حدثنا عمر بن يونس، حدثنا إسماعيل بن حماد، عن مُقاتِل بن حَيَّان، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر وعمر فى قبيلتين من الناس، وقد ارتفعت أصواتهما، فجلس أبو بكر قريبا من رسول الله ﷺ؛ وجلس عمر قريبا من أبى بكر، فقال رسول الله ﷺ: «لم ارتفعت أصواتكما؟» فقال رجل: يا رسول الله، قال أبو بكر: الحسنات من الله والسيئات من أنفسنا. فقال رسول الله ﷺ: «فما قلت يا عمر؟» قال: قلت: الحسنات والسيئات من الله تعالى. فقال رسول الله ﷺ: «إن أول من تكلم فيه جبريل وميكائيل، فقال ميكائيل مقاتلك يا أبا بكر، وقال جبريل مقاتلك يا عمر فقال: نختلف فيختلف أهل السماء»^(٣)، وإن يختلف أهل السماء يختلف أهل الأرض. فتحاكما إلى إسرافيل، ففضى بينهم أن الحسنات والسيئات من الله». ثم أقبل على أبى بكر وعمر فقال: «احفظا قضائى بينكما، لو أراد الله ألا يُعْصَى لم يخلق إبليس».

قال شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس ابن تيمية: هذا حديث موضوع مختلق باتفاق أهل المعرفة^(٤).

(١) زيادة من: ر، أ. (٢) فى ر: «فقال»، وفى أ: «قال». (٣) فى ر: «السموات».

(٤) مسند البزار برقم (٢٤٩٦) وقال الهيثمى فى المجمع (١٩١/٧): «شيخ البزار السَّكَنُ بن سعيد لم أعرفه، وبقية رجال البزار ثقات وفى بعضهم كلام لا يضر، وقال ابن حجر رحمه الله: «هذا خبر منكر وفى الإسناد ضعف».

ثم قال تعالى - مخاطباً - للرسول ﷺ^(١)، والمراد جنس الإنسان ليحصل الجواب: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ أى: من فضل الله ومنه ولطفه ورحمته ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ أى: فمن قبلك، ومن عملك أنت كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

قال السدى، والحسن البصرى، وابن جريج، وابن زيد: ﴿فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ أى: بذنبك. وقال قتادة: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾: عقوبة يا ابن آدم بذنبك. قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «لا يصيب رجلاً خدش عود، ولا عثرة قدم، ولا اختلاج عرق، إلا بذنب، وما يعفو الله أكثر».

وهذا الذى أرسله قتادة قد روى متصلاً فى الصحيح: «والذى نفسى بيده، لا يصيب المؤمن هم ولا حزن، ولا نصب، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياها»^(٢).

وقال أبو صالح: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ أى: بذنبك، وأنا الذى قدرتها عليك. رواه ابن جرير.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عمار، حدثنا سهل - يعنى ابن بكّار - حدثنا الأسود بن شيبان، حدثنى عقبة بن واصل بن أخى مطرف، عن مطرف بن عبد الله قال: ما تريدون من القدر، أما تكفيكم الآية التى فى سورة النساء: ﴿وَإِنْ تَصِبْهُمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تَصِبْهُمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ أى: من نفسك، والله ما وكلوا إلى القدر وقد أمروا وإليه يصيرون.

وهذا كلام متين قوى، فى الرد على القدرية والجبرية أيضاً، ولبسطه موضع آخر. وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ أى: تبلغهم شرائع الله، وما يحبه ويرضاه، وما يكرهه ويأباه.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أى: على أنه أرسلك، وهو شهيد أيضاً بينك وبينهم، وعالم بما تبلغهم إياه، وبما يردون عليك من الحق كفراً أو عناداً.

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (٨١).

يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ بأنه من أطاعه فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، وما ذاك إلا لأنه ما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش، عن أبى صالح،

(١) زيادة من أ.

(٢) رواه مسلم بنحوه برقم (٢٥٧٢) من حديث عائشة، وبرقم (٢٥٧٣) من حديث أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهم.

عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعنى فقد أطاع الله، ومن عصانى فقد عصى الله ومن أطاع الأمير فقد أطاعنى، ومن عصى الأمير فقد عصانى».

وهذا الحديث ثابت فى الصحيحين، عن الأعمش، به^(١).

وقوله: ﴿وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ أى: لا عليك منه، إن عليك إلا البلاغ فمن تبعك سعد ونجا، وكان لك من الأجر نظير ما حصل له، ومن تولى عنك خاب وخسر، وليس عليك من أمره شيء، كما جاء فى الحديث: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه»^(٣).

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ يخبر تعالى عن المنافقين بأنهم يظهرون الموافقة والطاعة ﴿فَإِذَا بَرِزُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ أى: خرجوا وتواروا عنك ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ أى: استسروا ليلاً فيما بينهم بغير ما أظهروه. فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ أى: يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكتاتيب، الذين هم موكلون بالعباد. يعلمون ما يفعلون. والمعنى فى هذا التهديد، أنه تعالى أخبر بأنه عالم بما يضمرونه ويسرونه فيما بينهم، وما يتفكرون عليه ليلاً من مخالفة الرسول وعصيانه، وإن كانوا قد أظهروا له الطاعة والموافقة، وسيجزئهم على ذلك. كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين^(٤) [النور: ٤٧].

وقوله: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ﴾ أى: اصفح عنهم واحلم عليهم^(٥) ولا تؤاخذهم، ولا تكشف أمورهم للناس، ولا تخف منهم أيضاً ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أى: كفى به^(٦) ولياً وناصراً ومعيناً لمن توكل عليه وأتاب إليه.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٨٢) وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً (٨٣).

يقول تعالى أمراً عباده بتدبر القرآن، ونهايا لهم عن الإعراض عنه، وعن تفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة، ومخبراً لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ولا تضاد ولا تعارض؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد، فهو حق من حق؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا]^(٧) [محمد: ٢٤] ثم قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ أى: لو كان مفتعلاً مختلفاً، كما يقوله من يقوله من جهلة المشركين والمنافقين فى بواطنهم، ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أى: اضطراباً وتضاداً كثيراً. أى: وهذا سالم من الاختلاف، فهو من عند الله. كما قال تعالى مخبراً عن الراسخين فى العلم

(١) رواه البخارى برقم (٧١٣٧) ومسلم برقم (١٨٣٥) من طريق يونس بن يزيد عن الزهري عن أبى سلمة عن أبى هريرة به.

(٢) فى ر: «فمن».

(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٨٧) من حديث عدى بن حاتم رضى الله عنه.

(٤) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٥) فى ر: «عنهم».

(٦) فى أ: «بالله».

(٧) زيادة من ر، أ.

حيث قالوا: ﴿أَمَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] أى: محكمه ومتشابهه حق؛ فلهذا ردوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا، والذين فى قلوبهم زيغ ردّوا المحكم إلى المتشابه فغوّوا؛ ولهذا مدح تعالى الراسخين وذم الزائغين.

قال^(١) الإمام أحمد: حدثنا أنس بن عياض، حدثنا أبو حازم عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: لقد جلست أنا وأخى مجلسا ما أحب أن لى به حُمر النعم، أقبلت أنا وأخى وإذا مشيخة من صحابة^(٢) رسول الله ﷺ على باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرق بينهم، فجلسنا حجرة، إذ ذكروا آية من القرآن، فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله ﷺ مُغَضَّباً حتى احمر وجهه، يرميهم بالتراب، ويقول: «مهلا يا قوم، بهذا أهلكت الأمم من قبلكم باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضا، بل يصدق بعضه بعضا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه»^(٣).

وهكذا رواه أيضا عن أبي معاوية، عن داود بن أبي هند، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم، والناس يتكلمون فى القدر، فكأنما يُفَقَّأ فى وجهه حب الرمان من الغضب، فقال لهم: «ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم». قال: فما غبطت نفسى بمجلس فيه رسول الله ﷺ ولم أشهده ما غبطت نفسى بذلك المجلس، أنى لم أشهده.

ورواه ابن ماجه من حديث داود بن أبي هند، به نحوه^(٤).

وقال أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا حماد بن زيد، عن أبي عمران الجونى قال: كتب إلى عبد الله بن ربّاح، يحدث عن عبد الله بن عمرو قال: هَجَرْتُ إلى رسول الله ﷺ يوما، فإننا لجلوس إذ اختلف اثنان فى آية، فارتفعت أصواتهما فقال: «إنما هلكت الأمم قبلكم باختلافهم فى الكتاب». ورواه مسلم والنسائى، من حديث حماد بن زيد، به^(٥).

وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها، فيخبر بها ويفشيها وينشرها، وقد لا يكون لها صحة.

وقد قال مسلم فى «مقدمة صحيحه»: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا على بن حفص، حدثنا شعبة، عن خبيب^(٦) بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «كفى بالمرء كذبا أن يُحدِّث بكل ما سمع» وكذا رواه أبو داود فى كتاب «الأدب» من سننه، عن محمد بن الحسين بن إشكاب، عن على بن حفص، عن شعبة مسنداً^(٧). ورواه مسلم أيضا من حديث

(١) فى ر، أ: «وقال».

(٢) فى أ: «أصحاب».

(٣) المسند (١٨١/٢).

(٤) المسند (١٧٨/٢) وسنن ابن ماجه برقم (٨٥).

(٥) المسند (١٩٢/٢) وصحيح مسلم برقم (٢٦٦٦) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٩٥).

(٦) فى ر، أ: «خبیب».

(٧) صحيح مسلم برقم (٥) وسنن أبى داود برقم (٤٩٩٢).

معاذ بن هشام العنبري، وعبد الرحمن بن مهدي. وأخرجه أبو داود أيضا من حديث حفص بن عمر النمري، ثلاثهم عن شعبة، عن خبيب^(١)، عن حفص بن عاصم، به مرسل^(٢).

وفى الصحيحين عن المغيرة بن شعبة: أن رسول الله ﷺ نهى عن قيل وقال أى: الذى يكتر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبت، ولا تدبر، ولا تبين^(٣).

وفى سنن أبى داود أن رسول الله ﷺ قال: «بئس مطية الرجل زعموا عليه»^(٤).

وفى الصحيح: «من حدث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين»^(٥).

ويذكر^(٦) هاهنا حديث عمر بن الخطاب المتفق عليه، حين بلغه أن رسول الله ﷺ طلق نساءه، فجاءه من منزله حتى دخل المسجد فوجد الناس يقولون ذلك، فلم يصبر حتى استأذن على رسول الله ﷺ فاستفهمه: أطلقت نساءك؟ قال: «لا». فقلت: الله أكبر. وذكر الحديث^(٧) بطوله.

وعند مسلم: فقلت: أطلقتهن؟ فقال: «لا». فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه. ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر.

ومعنى قوله: (يستنبطونه) أى: يستخرجونه ويستعلمونه من معادنه، يقال: استنبط الرجل العين، إذا حفرها واستخرجها من قعورها^(٨).

ومعنى قوله: ﴿لَا تَبْعُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى المؤمنين.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿لَا تَبْعُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعنى: كلكم. واستشهد من نصر هذا القول. بقول الطرماخ بن حكيم، فى مدح يزيد بن المهلب:

أشَمَّ^(٩) كثير يَدَى النَوَالِ^(١٠) قليل المَثَالِبِ والقَادِحَةِ^(١١)

يعنى: لا مثالب له، ولا قاذحة فيه.

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ (٨٤) مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا (٨٥) وَإِذَا حُيِّتُمْ

(١) فى، أ: «حبيب».

(٢) صحيح مسلم برقم (٥) وسنن أبى داود برقم (٤٩٩٢).

(٣) صحيح البخارى برقم (١٤٧٧) وصحيح مسلم برقم (٥٩٣).

(٤) سنن أبى داود برقم (٤٩٧٢) من حديث أبى مسعود الأنصارى.

(٥) رواه مسلم فى مقدمة صحيحه (ص ٩) والترمذى فى السنن برقم (٢٦٦٢) من حديث المغيرة بن شعبة رضى الله عنه.

(٦) فى ر: «ونذكر».

(٧) صحيح البخارى برقم (٥١٩١) وصحيح مسلم برقم (١٤٧٩).

(٨) فى أ: «البودى».

(٩) فى أ: «أشتم».

(١٠) فى ر: «قارها».

(١١) البيت فى تفسير الطبرى (٥٧٧/٨).

بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيْبًا (٨٦) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧) ﴿٨٧﴾ .

يأمر تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ أن يباشر القتال بنفسه، ومن نكل عليه فلا عليه منه؛ ولهذا قال: ﴿لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ .

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عمرو بن نُبَيْح، حدثنا حَكَّام، حدثنا الجراح الكندي، عن أبي إسحاق قال: سألت البراء بن عازب عن الرجل يلقي مائة من العدو، فيقاتل، أَيْكون ممن يقول الله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾؟ [البقرة: ١٩٥] قال: قد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

ورواه الإمام أحمد، عن سليمان بن داود، عن أبي بكر بن عيَّاش، عن أبي إسحاق قال: قلت للبراء: الرجل يحمل على المشركين، أهو ممن ألقى بيده إلى التهلكة؟ قال: لا؛ لأن الله بعث رسوله ﷺ وقال: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ إنما ذلك في النفقة.

وكذا رواه ابن مردويه، من طريق أبي بكر بن عيَّاش، وعلى بن صالح، عن أبي إسحاق، عن البراء، به .

ثم قال ابن مردويه: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا أحمد بن النضر العسكري، حدثنا مسلم بن عبد الرحمن الجرمي، حدثنا محمد بن حمير، حدثنا سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: لما نزلت على النبي ﷺ: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا] (١) الآية، قال لأصحابه: «قد أمرني ربي بالقتال فقاتلوا» حديث غريب (٢).

وقوله: ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: على القتال ورغبتهم فيه وشجعهم عنده كما قال لهم رسول الله ﷺ يوم بدر، وهو يسوى الصفوف: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» .

وقد وردت أحاديث كثيرة في الترغيب في ذلك، فمن ذلك ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وصام رمضان، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها» قالوا: يا رسول الله، أفلا نبشر الناس بذلك؟ فقال: «إن في الجنة مائة درجة، أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة. وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة» (٣).

وروى من حديث معاذ وأبي الدرداء وعُبادَة نحو ذلك .

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا سعيد، من رضى بالله ربا، وبالإسلام

(١) زيادة من ر، أ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر (٦٠٢/٢) ووجه غرابته أنه روى موقوفاً من عدة وجوه، ولم يرو مرفوعاً إلا من هذا الوجه .

(٣) صحيح البخاري برقم (٢٧٩٠).

ديننا، وبمحمد نبياً، وجبت له الجنة». قال: فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدها على يا رسول الله. ففعل. ثم قال رسول الله ﷺ: «وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة فى الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء إلى الأرض». قال: وما هى يا رسول الله؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله». رواه مسلم^(١).

وقوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: بتحريضك إياهم على القتال تنبعث همهم على مناجزة الأعداء، ومدافعتهم عن حوزة الإسلام وأهله، ومقاومتهم ومصابرتهم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ أى: هو قادر عليهم فى الدنيا والآخرة، كما قال [تعالى]^(٢): ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ [وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ]^(٣)﴾ [محمد: ٤].

وقوله: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾ أى: من سعى فى أمر، فترتب عليه خير، كان له نصيب من ذلك ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ أى: يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذى ترتب على سعيه ونيته، كما ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «اشفعوا تؤجروا، ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء».

وقال مجاهد بن جبر: نزلت هذه الآية فى شفاعات الناس بعضهم لبعض.

وقال الحسن البصرى: قال الله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ﴾ ولم يقل: مَنْ يَشْفَعُ.

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾ قال ابن عباس، وعطاء، وعطية، وقتادة، ومطر الوراق: ﴿مُقِيتًا﴾ أى: حفيظا. وقال مجاهد: شهيدا. وفى رواية عنه: حسيبا. وقال سعيد بن جبيرة، والسدى، وابن زيد: قديرا. وقال عبد الله بن كثير: المقيت: الواصب^(٤). وقال الضحاك: المقيت: الرزاق.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد الرحيم بن مطرف، حدثنا عيسى بن يونس، عن إسماعيل، عن رجل، عن عبد الله بن رواحة، وسأله رجل عن قول الله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾ قال: يُقِيت كل إنسان على قدر عمله^(٥).

وقوله: ﴿وَإِذَا حُيْتُمْ بِتَحِيَةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾ أى: إذا سلم عليكم المسلم، فردوا عليه أفضل مما سلم، أو ردوا عليه بمثل ما سلم [به]^(٦)، فالزيادة مندوبة، والمماثلة مفروضة.

قال ابن جرير: حدثنى موسى بن سهل الرملى، حدثنا عبد الله بن السرى الأنطاكى، حدثنا هشام بن لاحق، عن عاصم الأحول، عن أبى عثمان النهدى، عن سلمان الفارسى قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله. فقال: «وعليك السلام ورحمة الله». ثم أتى آخر

(٣) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٦) زيادة من د، ر، أ.

(٢) زيادة من ر.

(٥) فى ر: «بقدر عمله».

(١) صحيح مسلم برقم (١٨٨٤).

(٤) فى ر: «المواصب».

فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله. فقال له رسول الله ﷺ: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته». ثم جاء آخر فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته فقال له: «وعليك». فقال له الرجل: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، أتاك فلان وفلان فسلما عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت عليّ. فقال: «إنك لم تدع لنا شيئا، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ فرددناها عليك».

وهكذا رواه ابن أبي حاتم معلقا فقال: ذكر عن أحمد بن الحسن الترمذي، حدثنا عبد الله بن السري - أبو محمد الأنطاكي - قال أبو الحسن: وكان رجلا صالحا - حدثنا هشام بن لاحق، فذكر بإسناده مثله.

ورواه أبو بكر بن مردويه: حدثنا عبد الباقي بن قانع، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبي، حدثنا هشام بن لاحق أبو عثمان، فذكره بمثله، ولم أره في المسند^(١)، والله^(٢) أعلم.

وفي هذا الحديث دلالة على أنه لا زيادة في السلام على هذه الصفة: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، إذ لو شرع أكثر من ذلك، لزاده رسول الله ﷺ.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن كثير - أخو سليمان بن كثير - حدثنا جعفر بن سليمان، عن عوف، عن أبي رجاء العطاردي، عن عمران بن حصين؛ أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليكم^(٣). فرد عليه ثم جلس، فقال: «عشر». ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم^(٤) ورحمة الله. فرد عليه، ثم جلس، فقال: «عشرون». ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم^(٥) ورحمة الله وبركاته. فرد عليه، ثم جلس، فقال: «ثلاثون».

وكذا رواه أبو داود، عن محمد بن كثير، وأخرجه الترمذي والنسائي والبزار من حديثه، ثم قال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه، وفي الباب عن أبي سعيد، وعلى، وسهل بن حنيف [رضي الله عنهم]^(٦).

وقال البزار: قد روى هذا عن النبي ﷺ من وجوه، هذا أحسنها إسنادا^(٧). وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن حرب الموصلي، حدثنا حميد بن عبد الرحمن الرؤاسي^(٨)، عن الحسن بن صالح، عن سمك، عن عكرمة عن ابن عباس قال: من يسلم^(٩) عليك من خلق الله، فاردد عليه وإن كان مجوسيا؛ ذلك بأن الله يقول: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾.

وقال قتادة: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ يعني: للمسلمين ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾ يعني: لأهل الذمة.

وهذا التنزيل فيه نظر، بل كما تقدم في الحديث من أن المراد أن يرد بأحسن مما حياه به، فإن بلغ

(١) في تفسير الطبري (٥٨٩/٨) وفي إسناد عبد الله بن السري. قال أبو نعيم: «يروي المناكير لاشيء». لكن تابعه الإمام أحمد في رواية ابن مردويه، فرواه عن هشام به، وهشام بن لاحق مختلف فيه، وروايته عن عاصم الأحول متكلم فيها. قال الإمام أحمد: «رفع عن عاصم أحاديث لم ترفع، أسندها هو إلى سلمان».

(٢) في ر: «فالله».

(٣) (٥ - ٣) في أ: «عليك».

(٤) (٦) زيادة من أ.

(٥) سنن أبي داود برقم (١٥٩٥) وسنن الترمذي برقم (٢٦٨٩) وسنن النسائي برقم (١٠١٦٩).

(٦) في أ: «الرقاشي».

(٧) في د، ر: «من سلم».

المسلم غاية ما شرع في السلام؛ رد عليه مثل ما قال، فأما أهل الذمة فلا يُبدون^(١) بالسلام ولا يزدون، بل يرد عليهم بما ثبت في الصحيحين، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سلم عليكم اليهود فإمّا يقول أحدهم: السام عليك فقل: وعليك»^(٢).

وفى صحيح مسلم، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتموهم في طريق فاضطربوهم إلى أضيقة»^(٣).

وقال سفيان الثوري، عن رجل، عن الحسن البصري قال: السلام تطوع، والرد فريضة.

وهذا الذي قاله هو قول العلماء قاطبة: أن الرد واجب على من سلم عليه، فيأثم إن لم يفعل؛ لأنه خالف أمر الله في قوله: ﴿فَحْيُوا بِأَحْسَنِ مِثْلِهَا أَوْ رُدُّوْهَا﴾ وقد جاء في الحديث الذي رواه^(٤).

وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إخبار بتوحيده وتفرده بالإلهية لجميع المخلوقات، وتضمن قسما، لقوله: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. وهذه اللام موطئة للقسم، فقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر وقسم أنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيجازى كل عامل بعمله.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ أى: لا أحد أصدق منه في حديثه وخبره، ووعدته ووعيدته، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَركَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلَّ اللَّهُ فَلَئِنْ تَجَدَّ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصْرَتِ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقَاتِلُوكُمْ أَوْ يِقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يِقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠) سَتَجِدُونَ آخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (٩١)﴾.

يقول تعالى منكرًا على المؤمنين في اختلافهم في المنافقين على قولين، واختلف في سبب ذلك، فقال الإمام أحمد:

(١) فى ر: «يبتدون».

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٢٥٧) ومسلم فى صحيحه برقم (٢١٦٤).

(٣) صحيح مسلم برقم (٢١٦٧).

(٤) بياض بجميع النسخ، وفى نسخة مساعدة [أبو داود بسنده إلى أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: والذى نفسى بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم].

حدثنا بهز، حدثنا شعبة، قال عدى بن ثابت: أخبرني عبد الله بن يزيد، عن زيد بن ثابت: أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول: نقتلهم. وفرقة تقول: لا^(١). فأنزل الله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إنها طيبة، وإنها تنفى الحبث كما تنفى النار خبث الفضة».

أخرجاه في الصحيحين، من حديث شعبة^(٢).

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في وقعة أحد أن عبد الله بن أبي بن سلول رجع يومئذ بثلاث الجيش، رجع بثلاثمائة وبقي النبي ﷺ في سبعمائة.

وقال العوفي، عن ابن عباس: نزلت في قوم كانوا بمكة، قد تكلموا بالإسلام، كانوا يظاهرون المشركين، فخرجوا من مكة يطلبون^(٣) حاجة لهم، فقالوا: إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس، وأن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة، قالت فئة من المؤمنين: اركبوا إلى الجبناء فاقتلوهم، فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم. وقالت فئة أخرى من المؤمنين: سبحان الله! أو كما قالوا: أقتلون قوما قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به؟ أمن أجل أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم تستحل دماؤهم وأموالهم. فكانوا كذلك ففتن، والرسول عندهم لا ينهى واحدا من الفريقين^(٤) عن شيء، فأنزل الله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ﴾.

رواه ابن أبي حاتم، وقد روى عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم قريب من هذا.

وقال زيد بن أسلم، عن ابن لسعد بن معاذ: إنها نزلت في تقاويل الأوس والخزرج في شأن عبدالله بن أبي، حين استعذر منه رسول الله ﷺ على المنبر في قضية الإفك.

وهذا غريب، وقيل غير ذلك.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ أى: ردهم وأوقعهم في الخطأ.

قال ابن عباس: ﴿أَرْكَسَهُمْ﴾ أى: أوقعهم. وقال قتادة: أهلكهم. وقال السدى: أضلهم.

وقوله: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أى: بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول واتباعهم الباطل.

﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أى: لا طريق له إلى الهدى ولا مخلص له إليه.

ثم قال: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ أى: هم يودون لكم الضلالة لتستولوا أنتم وإياهم فيها، وما ذاك إلا لشدة عداوتهم وبغضهم لكم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أى: تركوا الهجرة، قاله العوفي عن ابن عباس. وقال السدى: أظهروا كفرهم ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أى: لا توالوهم

(١) في د: «غير ذلك».

(٢) المسند (١٨٤/٥) وصحيح البخارى برقم (١٨٨٤)، (٤٠٥٠) وصحيح مسلم برقم (١٣٨٤).

(٣) في د: «يريدون». (٤) في ر: «منهم».

ولا تستنصروا بهم على الأعداء ما داموا كذلك.

ثم استثنى الله، سبحانه، من هؤلاء فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ أى: إلا الذين لجؤوا وتحيزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة أو عقد ذمة، فاجعلوا حكمهم^(١) كحكمهم. وهذا قول السدى، وابن زيد، وابن جرير.

وقد روى ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد ابن جُدعان، عن الحسن: أن سراقه بن مالك المدلجى حدثهم قال: لما ظهر - يعنى النبي ﷺ - على أهل بدر وأحد، وأسلم من حولهم قال سراقه: بلغنى أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي - بنى مُدَلَج - فأتيته^(٢) فقلت: أنشدك النعمة. فقالوا: صه^(٣). فقال النبي ﷺ: «دعوه، ما تريد؟». قال: بلغنى أنك تريد أن تبعث إلى قومي، وأنا أريد أن توادعهم، فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا فى الإسلام، وإن لم يسلموا لم تَخْشُنْ^(٤) قلوب قومك عليهم. فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد بن الوليد فقال: «اذهب معه فافعل ما يريد». فصالحهم خالد على ألا يعينوا على رسول الله ﷺ، وإن أسلمت قريش أسلموا معهم، [ومن وصل إليهم من الناس كانوا على مثل عهدهم]^(٥). فأنزل الله: ﴿وَدُّوا لَوْ تُكْفِرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.

ورواه ابن مردويه من طريق حماد بن سلمة، وقال^(٦): فأنزل الله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ فكان من وصل إليهم كانوا معهم على عهدهم^(٧). وهذا أنسب لسياق الكلام.

وفى صحيح البخارى فى قصة صلح الحديبية: فكان من أحب أن يدخل فى صلح قريش وعهدهم، ومن أحب أن يدخل فى صلح محمد وأصحابه وعهدهم.

وقد روى عن ابن عباس أنه قال: نسخها قوله: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾^(٨) [التوبة: ٥].

وقوله: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ [أَنْ يَقَاتِلُوكُمْ أَوْ يَقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ]^(٩) الآية، هؤلاء قوم آخرون من المُسْتَنِينَ عن الأمر بقتالهم، وهم الذين يجيئون إلى المصاف وهم حَصِرَةٌ صدورهم أى: ضيقة صدورهم مُبْغِضِينَ^(١٠) أن يقاتلوكم، ولا يهون عليهم أيضا أن يقاتلوا قومهم معكم، بل هم لا لكم ولا عليكم. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ﴾ أى: من لطفه بكم أن كفهم عنكم، ﴿فَإِنْ اعْتَرَلُوكُمْ فَلَمْ يَقَاتِلُوكُمْ وَالْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾ أى: المسألة ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ أى: فليس لكم أن تقتلوهم، ما دامت حالهم^(١١) كذلك، وهؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بنى هاشم مع المشركين، فحضرُوا القتال وهم كارهون، كالعباس ونحوه، ولهذا نهى النبي ﷺ يومئذ عن قتل العباس وعبر^(١٢) بأسره.

(١) فى أ: «حكمهم».

(٢) فى د: «فأتيت».

(٣) فى أ: «مه».

(٤) فى د: «لم تحزن» وفى ر: «لم يحسن».

(٥) زيادة من أ.

(٦) فى د: «وفيه».

(٧) رواه ابن أبي شيبة فى المصنف (٢٣٢/١٤) حدثنا أسود بن عامر عن حماد بن سلمة به.

(٨) زيادة من د، ر، أ.

(٩) زيادة من د.

(١٠) فى د: «منقبضين».

(١١) فى د، أ: «وأمر».

(١٢) فى أ: «حالتهم».

وقوله: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ [كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا]﴾^(١) الآية، هؤلاء فى الصورة الظاهرة كمن تقدمهم، ولكن نية هؤلاء غير نية أولئك، فإن هؤلاء منافقون يظهرون للنبي ﷺ ولأصحابه الإسلام؛ ليأمنوا بذلك عندهم على دمايتهم وأموالهم وذرائعهم، ويصانعون الكفار فى الباطن، فيعبدون معهم ما يعبدون، ليأمنوا بذلك عندهم، وهم فى الباطن مع أولئك، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ [إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ]﴾^(٢) [البقرة: ١٤]. وقال هاهنا: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا﴾ أى: انهمكوا فيها.

قال السدى: والفتنة هاهنا: الشرك. وحكى ابن جرير، عن مجاهد: أنها نزلت فى قوم من أهل مكة، كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياء، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون فى الأوثان، يتبعون بذلك أن يأمنوا هاهنا وهاهنا، فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَعْزِلُوا يَأْمَنُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أى: عن القتال ﴿فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أى: أين لقيتموهم ﴿وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أى: بينا واضحا.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٩٢) وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (٩٣).

يقول تعالى: ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه، كما ثبت فى الصحيحين، عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والشيب الزانى، والتارك لدينه المفارق للجماعة»^(٣).

ثم إذا وقع شئ من هذه الثلاث، فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله، وإنما ذلك إلى الإمام أو نائبه.

وقوله: ﴿إِلَّا خَطَأً﴾ قالوا: هو استثناء منقطع، كقول الشاعر^(٤):

من البيض، لم تظعن بعيدا ولم تطأ
على الأرض إلا ريطَ بُردٌ مرَّحَلٌ^(٥)
ولهذا شواهد كثيرة.

واختلف فى سبب نزول هذه [الآية]^(٦)، فقال مجاهد وغير واحد: نزلت فى عياش^(٧) بن

(١) زيادة من د، ر، أ. (٢) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٣) صحيح البخارى برقم (٦٨٧٨) وصحيح مسلم برقم (١٦٧٦).

(٤) هو جرير بن عطية الغطفى، والبيت فى تفسير الطبرى (٣١/٩) (٥) فى ر: «مرجل».

(٦) زيادة من أ. (٧) فى أ: «عباس».

أبى ربيعة أخى أبى جهل لأمه - وهى أسماء بنت مخزبة^(١) - وذلك أنه قتل رجلاً كان يعذبه مع أخيه على الإسلام، وهو الحارث بن يزيد العامري، فأضمر له عيَّاش السوء، فأسلم ذلك الرجل وهاجر، وعيَّاش لا يشعر، فلما كان يوم الفتح رآه، فظن أنه على دينه، فحمل عليه فقتله. فأنزل الله هذه الآية^(٢).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: نزلت فى أبى الدرداء؛ لأنه قتل رجلاً وقد قال كلمة الإسلام^(٣) حين رفع^(٤) السيف، فأهوى به إليه، فقال كلمته، فلما ذكر ذلك للنبي ﷺ قال: إنما قالها متعوذاً. فقال له: «هلا شققت عن قلبه»^(٥) [وهذه القصة فى الصحيح لغير أبى الدرداء]^(٦).

وقوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ [إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا]^(٧)﴾ هذان واجبان فى قتل الخطأ، أحدهما: الكفارة لما ارتكبه من الذنب العظيم، وإن كان خطأ، ومن شرطها أن تكون عتق رقبة مؤمنة فلا تجزئ الكافرة.

وحكى ابن جرير، عن ابن عباس، والشعبي، وإبراهيم النخعي، والحسن البصري أنهم قالوا: لا يجزئ الصغير حتى يكون قاصداً للإيمان. وروى من طريق عبد الرزاق^(٨)، عن معمر، عن قتادة قال: فى حرف، أبى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ لا يجزئ فيها صبي.

واختار ابن جرير إن كان مولوداً بين أبوين مسلمين أجزاء، وإلا فلا. والذي عليه الجمهور: أنه متى كن مسلماً صح عتقه عن الكفارة، سواء كان صغيراً أو كبيراً.

وقال الإمام أحمد: أنبأنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عبد الله بن عبد الله، عن رجل من الأنصار؛ أنه جاء بأمة سوداء، فقال: يا رسول الله، إن على رقبة مؤمنة، فإن كنت ترى هذه مؤمنة أعتقتها. فقال لها رسول الله ﷺ: «أتشهدين أن لا إله إلا الله؟» قالت: نعم. قال: «أتشهدين أنى رسول الله؟» قال نعم. قالت: «أتؤمنين بالبعث بعد الموت؟» قالت: نعم، قال: «أعتقتها». وهذا إسناد صحيح، وجهالة الصحابي لا تضر^(٩).

وفى موطأ [الإمام]^(١٠) مالك، ومسندي الشافعي وأحمد، وصحيح مسلم، وسنن^(١١) أبى داود والنسائي، من طريق هلال بن أبى ميمونة، عن عطاء بن يسار، عن معاوية بن الحكم أنه لما جاء بتلك الجارية السوداء قال لها رسول الله ﷺ: «أين الله؟» قالت: فى السماء. قال: «من أنا». قالت: أنت

(١) فى ر: «محزبة».

(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (٣٣/٩).

(٣) فى ر: «الإيمان».

(٤) فى أ: «رفع عليه».

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (٣٤/٩).

(٨) فى أ: «عبد العزيز».

(٧) زيادة من د.

(٦) زيادة من ر، أ.

(٩) المسند (٤٥١/٣).

(١١) فى ر، أ: «وسننى».

(١٠) زيادة من أ.

رسول الله ﷺ. قال: «أعتقها فإنها مؤمنة»^(١).

وقوله: ﴿وَدِيَّةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ هو الواجب الثاني فيما بين القاتل وأهل القتل، عوضاً لهم عما فاتهم من قريبهم. وهذه الدية إنما تجب أخماساً، كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن، من حديث الحجاج بن أرطاة، عن زيد بن جبير، عن خشف بن مالك، عن ابن مسعود قال: قضى رسول الله ﷺ في دية الخطأ عشرين بنت مخاض، وعشرين بنى مخاض ذكورا، وعشرين بنت لبون، وعشرين جذعة^(٢) وعشرين حقة.

لفظ النسائي، وقال الترمذي: لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وقد روى عن عبد الله موقوفاً^(٣).

وكذا روى عن [على و]^(٤) طائفة.

وقيل: تجب أرباعاً. وهذه الدية إنما تجب على عاقلة القاتل، لا في ماله، قال الشافعي، رحمه الله: لم أعلم مخالفاً أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة، وهو أكثر^(٥) من حديث الخاصة^(٦). وهذا الذي أشار إليه، رحمه الله، قد ثبت في غير ما حديث، فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: اقتلت امرأتان من هذيل، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ، فقضى أن دية جنيها غرة عبد أو أمة، وقضى بدية المرأة على عاقلتها^(٧).

وهذا يقتضى أن حكم عمد الخطأ حكم الخطأ المحض في وجوب الدية، لكن هذا تجب فيه الدية أثلاثاً كالعمد، لشبهه به.

وفى صحيح البخارى، عن عبد الله بن عمر قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا. فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا. فجعل خالد يقتلهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فرفع يديه وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد». وبعث علياً فودى قتلهم وما أتلّف من أموالهم، حتى ميلغة الكلب^(٨).

وهذا [الحديث]^(٩) يؤخذ منه أن خطأ الإمام أو نائبه يكون في بيت المال.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ أى: فتجب فيه الدية مسلمة إلى أهله إلا أن يتصدقوا^(١٠) بها فلا تجب.

(١) الموطأ (٧٧٧/٢) ومسند الشافعي برقم (١١٩٦) «بدائع المن» ومسند أحمد (٤٤٧/٥) صحيح مسلم برقم (٥٣٧) وسنن أبي داود برقم (٢٣٨٤) وسنن النسائي (١٤/٣).

(٢) في ر، أ «جزعا».

(٣) المسند (٣٨٤/١) وسنن النسائي (٤٣/٨) وسنن أبي داود برقم (٤٥٤٥) وسنن الترمذي برقم (١٣٨٦) وسنن ابن ماجه برقم (٢٦٣١).

(٤) زيادة من ر، أ. (٥) في أ: «أكبر».

(٦) الأم (١٠١/٦).

(٧) صحيح البخارى برقم (٦٩١٠) وصحيح مسلم برقم (١٦٨١).

(٨) صحيح البخارى برقم (٧١٨٩).

(٩) زيادة من ر، أ. (١٠) في ر: «يصدقوا».

وقوله: ﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٌّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أى: إذا كان القتيل مؤمناً، ولكن أولياؤه من الكفار أهل حرب، فلا دية لهم، وعلى القاتل^(١) تحرير رقبة مؤمنة لا غير.

وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ [فَدْيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ]﴾^(٢) الآية، أى: فإن كان القتيل أولياؤه أهل ذمة أو هدنة، فلهم دية قتيلهم، فإن كان مؤمناً فدية كاملة، وكذا إن كان كافراً أيضاً عند طائفة من العلماء. وقيل: يجب فى الكافر نصف دية المسلم، وقيل: ثلثها، كما هو مفصل فى [كتاب الأحكام]^(٣)، ويجب أيضاً على القاتل تحرير رقبة مؤمنة.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أى: لا إفطار بينهما، بل يسرد^(٤) صومهما إلى آخرهما، فإن أفطر من غير عذر، من مرض أو حيض أو نفاس، استأنف. واختلفوا فى السفر: هل يقطع أم لا؟ على قولين.

وقوله: ﴿تُوبَةُ مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ أى: هذه توبة القاتل خطأ إذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين.

واختلفوا فىمن لا يستطيع الصيام: هل يجب عليه إطعام ستين مسكيناً، كما فى كفارة الظهار؟ على قولين؛ أحدهما: نعم. كما هو منصوص عليه فى كفارة الظهار، وإنما لم يذكر هاهنا؛ لأن هذا مقام تهديد وتخويف وتحذير، فلا يناسب أن يذكر فيه الإطعام لما فيه من التسهيل والترخيص. القول الثانى: لا يعدل إلى الإطعام؛ لأنه لو كان واجباً لما أخر بيانه عن وقت الحاجة.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾: قد تقدم تفسيره غير مرة.

ثم لما بين تعالى حكم القتل الخطأ، شرع فى بيان حكم القتل العمد، فقال: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً [فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً]﴾^(٥)، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم، الذى هو مقرون بالشرك بالله فى غير ما آية فى كتاب الله، حيث يقول، سبحانه، فى سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ [وَلَا يَزْنُونَ]﴾^(٦) الآية [الفرقان: ٦٨]. وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ [إلى أن قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾]^(٧) [الأنعام: ١٥١].

والأحاديث فى تحريم القتل كثيرة جداً. من ذلك ما ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء»^(٨). وفى الحديث الآخر الذى رواه أبو داود، من رواية عمرو بن الوليد بن عبدة المصرى، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال المؤمن مُعْنَقاً»^(٩) صالحاً ما لم يصب دماً حراماً، فإذا أصاب دماً حراماً بَلَحَّ»^(١٠). وفى

(٣) زيادة من ر، أ.

(٢) زيادة من ر، أ.

(١) فى ر، أ: «قاتله».

(٦) زيادة من ر، أ.

(٥) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٤) فى أ: «يرد».

(٧) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٨) صحيح البخارى برقم (٦٨٦٤) وصحيح مسلم برقم (١٦٧٨).

(٩) فى ر: «مستعفاً».

(١٠) سنن أبى داود برقم (٤٢٧٠).

حديث آخر: «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم»^(١). وفي الحديث الآخر: «لو أجمع^(٢) أهل السموات والأرض على قتل رجل مسلم، لأكبهم الله في النار»^(٣) وفي الحديث الآخر: «من أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة، جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله»^(٤).

وقد كان ابن عباس، رضى الله عنهما، يرى أنه لا توبة للقاتل عمدا لمؤمن.

وقال البخارى: حدثنا آدم، حدثنا شعبة، حدثنا مغيرة بن النعمان قال: سمعت ابن جبير قال: اختلف فيها أهل الكوفة، فَرَحَلْتُ إلى ابن عباس فسألتها عنها فقال: نزلت هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا﴾^(٥)، هي آخر ما نزل^(٦)، وما نسخها شيء.

وكذا رواه هو أيضا ومسلم والنسائي من طرق، عن شعبة، به^(٧). ورواه أبو داود، عن أحمد بن حنبل، عن ابن مهدي، عن سفيان الثوري، عن مغيرة بن النعمان، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في^(٨) قوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا﴾ فقال: لم ينسخها شيء.

[وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار حدثنا ابن أبي عدي حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال: قال عبد الرحمن بن أبزة: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ فقال: لم ينسخها شيء^(٩). وقال في هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾^(١٠)] الفرقان: ٦٨. قال: نزلت في أهل الشرك^(١١).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن منصور، حدثني سعيد بن جبير - أو حدثني الحكم، عن سعيد بن جبير - قال: سألت ابن عباس عن قوله [تعالى]^(١٢): ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾، قال: إن الرجل إذا عرف الإسلام وشرائع الإسلام، ثم قتل مؤمنا متعمدا، فجزاؤه جهنم ولا توبة له. فذكرت ذلك لمجاهد فقال: إلا من ندم.

حدثنا ابن حميد، وابن وكيع قالوا: حدثنا جرير، عن يحيى الجابر، عن سالم بن أبي الجعد قال: كنا عند ابن عباس بعد ما كُف بصره، فأثاه رجل فناداه: يا عبد الله بن عباس، ما ترى في رجل قتل

(١) روى من حديث عبد الله بن عمرو، ومن حديث البراء بن عازب، أما حديث عبد الله بن عمرو، فرواه الترمذى في السنن برقم (١٣٩٥)، والنسائي في السنن (٨٢/٧) وهذا هو لفظه.

(٢) في أ: «لو اجتمعت».

(٣) رواه الطبراني في المعجم الصغير برقم (٥٦٥) من طريق جعفر بن جبير بن فرقند عن أبيه عن الحسن عن أبي بكره رضى الله عنه. قال الهيثمي في المجمع (٢٩٧/٧): «فيه جسر بن فرقند، وهو ضعيف».

(٤) رواه ابن ماجه في السنن برقم (٢٦٢٠) من طريق يزيد بن زياد عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضى الله عنه. قال الذهبي رحمه الله: «هذا حديث باطل موضوع».

(٥) زيادة من أ. (٦) في ر، أ: «ما نزلت».

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٥٩٠) وصحيح مسلم برقم (٣٠٢٣) وسنن النسائي (٦٢/٨).

(٨) في د، ر: «عن». (٩) زيادة من أ. (١٠) زيادة من ر، أ.

(١١) سنن أبي داود برقم (٤٢٧٥).

(١٢) زيادة من ر.

مؤمنًا متعمدا؟ فقال: ﴿جَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾. قال: أفرأيت إن تاب وعمل صالحا ثم اهتدى؟ قال ابن عباس: ثكلته أمه، وأنى له التوبة والهدى؟ والذى نفسى بيده! لقد سمعت نبيكم ﷺ يقول: «ثكلته أمه، قاتل مؤمن»^(١) متعمدا، جاء يوم القيامة آخذه يمينه أو شماله، تَشَخَّبَ أوداجه دَمًا فى قُبُلِ عرش الرحمن، يلزم قاتله بشماله بيده الأخرى، يقول: سل هذا فيم قتلنى؟^(٢) وأيم الذى نفس عبد الله بيده! لقد أنزلت هذه الآية، فما نسختها من آية حتى قبض نبيكم ﷺ، وما نزل بعدها من برهان.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت يحيى بن المُجَبَّر يحدث عن سالم بن أبي الجعد، عن ابن عباس؛ أن رجلا أتاه فقال: أ رأيت رجلا قتل رجلا متعمدا؟ فقال: ﴿جَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا [وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا]﴾^(٣) قال: لقد نزلت فى آخر ما نزل، ما نسختها شيء حتى قبض رسول الله ﷺ، وما نزل وحى بعد رسول الله ﷺ. قال: أ رأيت إن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى؟ قال: وأنى له بالتوبة. وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ثكلته أمه، رجل قتل رجلاً متعمدا، يجيء يوم القيامة آخذا قاتله يمينه أو بيساره - وآخذا رأسه يمينه أو بشماله - تشخب أوداجه دما فى قُبُلِ العرش يقول: يا رب، سل عبدك فيم قتلنى؟».

وقد رواه النسائي عن قتيبة^(٤)، وابن ماجه عن محمد بن الصباح، عن سفيان بن عيينة، عن عمار الدهنى، ويحيى الجابر وثابت الثمالى^(٥)، عن سالم بن أبي الجعد، عن ابن عباس، فذكره^(٦). وقد روى هذا عن ابن عباس من طرق كثيرة.

وممن ذهب إلى أنه لا توبة له من السلف: زيد بن ثابت، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وأبوسلمة بن عبد الرحمن، وعبيد بن عمر، والحسن، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، نقله ابن أبى حاتم. وفى الباب أحاديث كثيرة: من ذلك ما رواه أبو بكر بن مردويه الحافظ فى تفسيره: حدثنا دَعْلَج ابن أحمد، حدثنا محمد بن إبراهيم بن سعيد البوشنجى وحدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا إبراهيم بن فهد قالوا: حدثنا عبيد بن عبيدة، حدثنا مُعْتَمِر بن سليمان، عن أبيه، عن الأعمش، عن أبى عمرو ابن شُرَحْبِيل، عن عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ قال: «يجيء المقتول متعلقا بقاتله يوم القيامة، آخذًا رأسه بيده الأخرى فيقول: يا رب، سل هذا فيم قتلنى؟» قال: «فيقول: قتلته لتكون العزة لك. فيقول: فإنها لى». قال: «ويجىء آخر متعلقا بقاتله فيقول: رب، سل هذا فيم قتلنى؟» قال: «فيقول قتلته لتكون العزة لفلان». قال: «فإنها ليست له بؤ بائمه». قال: «فيهوى فى النار سبعين خريفا».

وقد رواه عن النسائي، عن إبراهيم بن المُسْتَمِرِّ العوفى، عن عمرو بن عاصم، عن معتمر بن

(١) فى د: «مؤمنًا».

(٢) تفسير الطبرى (٦٣، ٦٢/٩).

(٣) فى أ: «قتادة».

(٤) زيادة من ر.

(٥) فى أ: «البنائى».

(٦) المسند (٢٤٠/١) وسنن النسائي (٦٣/٨) وسنن ابن ماجه برقم (٢٦٢١).

سليمان، به^(١).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا صفوان بن عيسى، حدثنا ثور بن يزيد، عن أبى عون، عن أبى إدريس قال: سمعت معاوية، رضى الله عنه، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرا، أو الرجل يقتل مؤمنا متعمدا».

وكذا رواه النسائي، عن محمد بن المثني، عن صفوان بن عيسى، به^(٢).

وقال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا سمويه، حدثنا عبد الأعلى بن مسهر، حدثنا صدقة بن خالد، حدثنا خالد بن دهقان، حدثنا ابن أبى زكريا قال: سمعت أم الدرداء تقول: سمعت أبا الدرداء يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا من مات مشركا، أو من قتل مؤمنا متعمدا».

وهذا غريب جدا من هذا الوجه. والمحفوظ حديث معاوية المتقدم^(٣)، فالله أعلم.

ثم روى ابن مردويه من طريق بقة بن الوليد، عن نافع بن يزيد، حدثني ابن جبير الأنصارى، عن داود بن الحصين، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «من قتل مؤمنا متعمدا فقد كفر بالله عز وجل».

وهذا حديث منكر أيضا، وإسناده ضعيف فيه جدا^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا النضر، حدثنا سليمان بن المغيرة، حدثنا حميد قال: أتاني أبو العالية أنا وصاحب لى، فقال لنا: هلكما فأنتما أشب شيئا منى، وأوعى للحديث منى، فانطلق بنا إلى بشر ابن عاصم - فقال له أبو العالية: حدث هؤلاء حديثك. فقال: حدثنا عقبة بن مالك الليثي قال: بعث النبي ﷺ سرية، فأغارت على قوم، فشد من القوم رجل، فاتبعه رجل من السرية شاهرا سيفه فقال الشاد من القوم: إني مسلم. فلم ينظر فيما قال، فضربه فقتله، فنمى الحديث إلى رسول الله ﷺ فقال فيه قولاً شديداً، فبلغ القاتل. فبينما رسول الله ﷺ يخطب، إذ قال القاتل: والله ما قال الذى قال إلا تعودا من القتل. قال: فأعرض رسول الله ﷺ عنه وعمن قبله من الناس، وأخذ فى خطبته، ثم قال أيضا: يا رسول الله، ما قال الذى قال إلا تعودا من القتل، فأعرض عنه وعمن قبله من الناس، وأخذ فى خطبته، ثم لم يصبر، فقال الثالثة: والله يا رسول الله ما قال إلا تعودا من القتل.

(١) سنن النسائي (٨٤/٧) ورواه أبو نعيم فى الحلية (١٤٧/٤) والطبرانى فى المعجم الكبير (١١٩/١٠) وقال أبو نعيم: «غريب من حديث سليمان التيمي عن الأعمش لم يروه عنه إلا ابنه معتمر، ورواه عمرو بن عاصم عن معتمر مثله».

(٢) المسند (٩٩/٤) وسنن النسائي (٨١/٧).

(٣) ورواه أبو داود فى سننه برقم (٤٢٧٠) وابن حبان فى صحيحه برقم (٥١) والبيهقى فى السنن الكبرى (٢١/٨) من طريق خالد بن دهقان به.

وقول الحافظ ابن كثير، رحمه الله، هنا: «غريب جدا من هذا الوجه» لم يتبين لى سبب ذلك، على أن حديث أبى الدرداء أقوى من حديث معاوية، ففى إسناده حديث معاوية (أبو عون) لم يوثقه سوى ابن حبان، أما حديث أبى الدرداء فرجاله كلهم ثقات.

(٤) فى ر، أ: «مظلم»

(٥) ورواه ابن عدى فى الكامل (٢٠٣/٣) من طريق بقة به، ثم قال: «وهذه الأحاديث عن زيد عن داود عن نافع عن ابن عمر غير محفوظات، يرويه عن داود زيد بن جبيرة»، وزيد بن جبيرة منكر الحديث لا يتابع على حديثه.

فأقبل عليه رسول الله ﷺ تُعَرِّفُ المساءةُ في وجهه، فقال: «إن الله أبى على من قتل مؤمناً» ثلاثاً.
ورواه النسائي من حديث سليمان بن المغيرة^(١).

والذى عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها: أن القاتل له توبة فيما بينه وبين ربه عز وجل، فإن تاب وأناب وخشع وخضع، وعمل عملاً صالحاً، بدل الله سيئاته حسنات، وعوض المقتول من ظلامته وأرضاه عن طلابته.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ [وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا. يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا] ^(٢). إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ^(٣)﴾ [الفرقان: ٦٨، ٦٩]، وهذا خبر لا يجوز نسخه. وحمله على المشركين، وحمل هذه الآية على المؤمنين خلاف الظاهر، ويحتاج إلى دليل، والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ [إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ] ^(٤)﴾ [الزمر: ٥٣]. وهذا عام في جميع الذنوب، من كفر وشرك، وشك ونفاق، وقتل وفسق، وغير ذلك: كل من تاب من أى ذلك تاب الله عليه.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]. فهذه الآية عامة في جميع الذنوب ما عدا الشرك، وهى مذكورة فى هذه السورة الكريمة بعد هذه الآية وقبلها، لتقوية الرجاء، والله أعلم.

وثبت فى الصحيحين خبر الإسرائيلى الذى قتل مائة نفس، ثم سأل عالماً: هل لى من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟! ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه، فهاجر إليه، فمات فى الطريق، فقبضته ملائكة الرحمة. كما ذكرناه غير مرة، إن^(٥) كان هذا فى بنى إسرائيل فلأن يكون فى هذه الأمة التوبة مقبولة بطريق الأولى والأخرى؛ لأن الله وضع عنا الأغلال والأصبار التى كانت عليهم، وبعث نبينا بالحنيفية السمحة. فأما الآية الكريمة، وهى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا [فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا] ^(٦)﴾، فقد قال أبو هريرة وجماعة من السلف: هذا جزاؤه إن جازاه، وقد رواه ابن مردويه مرفوعاً، من طريق محمد بن جامع العطار، عن العلاء بن ميمون العنبري، عن حجاج الأسود، عن محمد بن سيرين، عن أبى هريرة مرفوعاً، ولكن لا يصح^(٧). ومعنى هذه الصيغة: أن هذا جزاؤه إن جوزى عليه، وكذا كل وعيد على ذنب، لكن قد يكون كذلك معارض من أعمال صالحة تمنع وصول ذلك الجزاء إليه، على قولى أصحاب الموازنة أو الإحباط. وهذا أحسن ما يسلك فى باب الوعيد، والله أعلم بالصواب. وبتقدير دخول

(١) المسند (٢٨٨/٥) وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٥٩٣).

(٢) زيادة من ر، أ، وفى هـ «إلى قوله». (٣) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٤) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية». (٥) فى ر: «إذا». (٦) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٧) ورواه الطبراني فى المعجم الأوسط برقم (٣٣١٠) «مجمع البحرين» من طريق محمد بن جامع العطار عن العلاء بن ميمون به، وفى إسناده العلاء بن ميمون، ومحمد بن جامع العطار وهما ضعيفان.

القاتل إلى النار، أما على قول ابن عباس ومن وافقه أنه لا توبة له، أو على قول الجمهور حيث لا عمل له صالحاً^(١) ينجو به، فليس يخلد فيها أبداً، بل الخلود هو المكث الطويل. وقد تواردت^(٢) الأحاديث عن رسول الله ﷺ: أنه يخرج من النار من كان في قلبه أدنى ذرة^(٣) من إيمان. وأما حديث معاوية: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً»: «عسى» للترجي، فإذا انتفى الترجي في هاتين الصورتين لا ينتفي وقوع ذلك في أحدهما، وهو القتل؛ لما ذكرنا من الأدلة. وأما من مات كافراً؛ فالنص أنه لا يُغفر له البتة، وأما مطالبة المقتول القاتل يوم القيامة فإنه حق من حقوق الآدميين وهي لا تسقط بالتوبة، ولا فرق بين المقتول والمسروق منه، والمغصوب منه والمقدوف وسائر حقوق الآدميين، فإن الإجماع منعقد على أنها لا تسقط بالتوبة، ولا بد من أدائها إليهم في صحة التوبة، فإن تعذر ذلك فلا بد من الطلبة يوم القيامة، لكن لا يلزم من وقوع الطلبة وقوع المجازاة، وقد^(٤) يكون للقاتل أعمال صالحة تصرف إلى المقتول أو بعضها، ثم يفضل له أجر يدخل به^(٥) الجنة، أو يعوض الله المقتول من فضله بما يشاء، من قصور الجنة ونعيمها، ورفع درجته فيها ونحو ذلك، والله أعلم.

ثم للقتل العمد أحكام في الدنيا وأحكام في الآخرة^(٦)، أما [في] الدنيا فتسلط^(٧) أولياء المقتول عليه، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾^(٨) [الإسراء: ٣٣]، ثم هم مخيرون بين أن يقتلوا، أو يعفوا، أو يأخذوا دية مغلظة أثلاثاً: ثلاثون حقة، وثلاثون جذعة، وأربعون خلفة^(٩)، كما هو مقرر^(١٠) في كتب الأحكام.

واختلف الأئمة: هل تجب عليه كفارة عتق رقبة، أو صيام شهرين متتابعين، أو إطعام؟ على أحد القولين، كما تقدم في كفارة الخطأ، على قولين: فالشافعي وأصحابه وطائفة من العلماء يقولون: نعم، يجب^(١١) عليه؛ لأنه إذا وجبت الكفارة في الخطأ فلا بد أن تجب في العمد أولى. وطردها هذا في كفارة اليمين الغموس، واعتضدوا بقضاء الصلوات المتروكة عمداً، كما أجمعوا على ذلك في الخطأ.

قال أصحاب الإمام أحمد وآخرون: قتل العمد أعظم من أن يكفر، فلا كفارة فيه، وكذا اليمين الغموس، ولا سبيل لهم إلى الفرق بين هاتين الصورتين وبين الصلاة المتروكة عمداً، فإنهم يقولون: بوجوب قضائها وإن تركت عمداً.

وقد احتج من ذهب إلى وجوب الكفارة في قتل العمد بما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا عارم بن الفضل، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن إبراهيم بن أبي عبلة، عن الغريفي بن عياش، عن واثلة بن الأسقع قال: أتى النبي ﷺ نفر من بني سليم فقالوا: إن صاحباً لنا قد أوجب. قال: «فليعتق رقبة، يفدى الله بكل عضو منها عضواً^(١٢) منه من النار»^(١٣).

(١) في ر: «صالح». (٢) في أ: «وفيه تواترات». (٣) في ر، أ: «مثقال». (٤) في ر: «إذ قد». (٥) في ر: «بها». (٦) في ر: «الأخرى». (٧) زيادة من ر، أ. (٨) في أ: «فيسلط». (٩) زيادة من ك، أ. وفي هـ: «الآية». (١٠) في ر: «حقه»، وفي أ: «بباض». (١١) في ر: «مقدر». (١٢) في ر، أ: «تجب». (١٣) في ر: «عضو». (١٤) المسند (١٠٧/٤).

وقال أحمد: حدثنا إبراهيم بن إسحاق، حدثنا ضَمْرَةُ بن ربيعة، عن إبراهيم بن أبي عبلة عن الغريفي الديلمي قال: أتينا واثلة بن الأسقع الليثي فقلنا: حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ قال: أتينا رسل الله ﷺ في صاحب لنا قد أوجب، فقال: «أعتقوا عنه، يُعتق الله بكل عضو منه عضواً^(١) منه من النار».

وكذا رواه أبو داود والنسائي، من حديث إبراهيم بن أبي عبلة، به^(٢)، ولفظ أبي داود عن الغريفي الديلمي^(٣) قال: أتينا واثلة بن الأسقع فقلنا: حدثنا حديثاً ليس فيه زيادة ولا نقصان. فغضب فقال: إن أحدكم ليقرأ ومصحفه معلق في بيته فيزيد وينقص، قلنا: إنا أردنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، قال: أتينا رسول الله ﷺ في صاحب لنا قد أوجب - يعني النار - بالقتل، فقال: «أعتقوا عنه، يعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار»^(٤). [قوله عز وجل]^(٥):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ (٩٤)﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن أبي بكير، وحسين بن محمد، وخلف بن الوليد، قالوا: حدثنا إسرائيل، عن سَمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: مر رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي ﷺ وهو يسوق غنماً له، فسلم عليهم فقالوا: ما سلم علينا إلا ليتعوذ منا. فعمدوا إليه فقتلوه، وأتوا بغنمه النبي ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾^(٦) إلى آخرها.

ورواه الترمذي في التفسير، عن عبد بن حميد، عن عبد العزيز بن أبي رزمة، عن إسرائيل، به. وقال: هذا حديث حسن، وفي الباب عن أسامة بن زيد.

ورواه الحاكم من طريق عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، به. ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

ورواه ابن جرير من حديث عبيد الله بن موسى وعبد الرحيم بن سليمان، كلاهما عن إسرائيل، به^(٧). وقال في بعض كتبه غير التفسير - وقد رواه من طريق عبد الرحمن^(٨) فقط -: وهذا خبر عندنا

(١) في ر: «عضو».

(٢) المسند (٤٩١/٣) وسنن أبي داود برقم (٣٩٦٤) وسنن النسائي الكبرى برقم (٤٨٩٢).

(٣) في ر: «ابن الديلمي».

(٤) سنن أبي داود برقم (٣٩٦٤).

(٥) زيادة من ر.

(٦) زيادة من ر، أ.

(٧) المسند (٢٢٩/١) من طريق يحيى بن بكير، و(٢٧٢/١) من طريق حسين بن محمد وخلف بن الوليد، وسنن الترمذي برقم (٣٠٣٠) والمستدرک (٢٣٥/٢) وتفسير الطبري (٧٦/٩).

(٨) في أ: «عبد الرحيم».

صحيح سنده، وقد يجب أن يكون على مذهب الآخرين سقيماً، لعل منها: أنه لا يعرف له مخرج عن سَمَاكَ إلا من هذا الوجه، ومنها: أن عكرمة في روايته عندهم نظر، ومنها: أن الذي أنزلت فيه الآية مختلف فيه، فقال بعضهم: أنزلت في مُحَلَّم^(١) بن جَثَّامَة، وقال بعضهم: أسامة بن زيد. وقيل غير ذلك.

قلت: وهذا كلام غريب، وهو مردود من وجوه أحدها: أنه ثابت عن سَمَاكَ، حدث به عنه غير واحد من الكبار. الثاني: أن عكرمة محتج به في الصحيح. الثالث: أنه مروى من غير هذا الوجه عن ابن عباس، كما قال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ قال: قال ابن عباس: كان رجل في غُنيمة له، فلحقه المسلمون، فقال: السلام عليكم. فقتلوه وأخذوا غُنيمة [فأنزل الله ذلك إلى قوله: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: تلك الغنيمة. قرأ ابن عباس (السلام) وقال سعيد بن منصور: حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن عطاء بن يسار عن ابن عباس قال: لحق المسلمون رجلاً في غُنيمة فقال: السلام عليكم، فقتلوه وأخذوا غُنيمة^(٢) فتزلت: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾.

ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من طريق سفيان بن عيينه، به^(٣).

وأما قصة محلم^(٤) بن جَثَّامَة فقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن محمد بن إسحاق، حدثني يزيد بن عبد الله بن قُسيط، عن القعقاع بن عبد الله بن أبي حذر عن أبيه عبد الله بن أبي حذر، رضى الله عنه، قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى إضَمَ، فخرجت في نفر من المسلمين، فيهم: أبو قتادة الحارث بن رَبِيع، ومحلم^(٥) بن جَثَّامَة بن قيس، فخرجنا حتى إذا كنا بطن إضَمَ مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعي، على قعود له، معه مَتِيعٌ وَوَطْبٌ من لبن، فلما مر بنا سلم علينا، فأمسكنا عنه، وحمل عليه محلم^(٦) بن جَثَّامَة فقتله، بشيء كان بينه وبينه، وأخذ بغيره مَتِيعَه، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ وأخبرناه الخبر، نزل فينا القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمِنَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ^(٧) خَبِيرًا

تفرد به أحمد^(٨).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا جرير، عن ابن إسحاق، عن نافع؛ أن ابن عمر قال: بعث رسول الله ﷺ مُحَلَّم^(٩) بن جَثَّامَة مبعثاً، فلقىهم عامر بن الأضبط، فحياهم بتحية الإسلام وكانت بينهم حسنة في الجاهلية، فرماه محلم^(١٠) بسهم فقتله، فجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ، فتكلم فيه عيينة والأقرع، فقال الأقرع: يا رسول الله، سنَّ اليوم وغيرَ غدا. فقال عيينة: لا والله، حتى تذوق نساؤه من الثكل ما ذاق نسائي. فجاء محلم^(١١) في بردين، فجلس بين يدي رسول الله

(١) في ر، أ: «محكم».

(٣) صحيح البخاري برقم (٤٥٩١) وتفسير الطبري (٧٥/٩).

(٤ - ٦) في ر: «محكم».

(٨) المسند (١١/٦).

(٩ - ١١) في ر: «محكم».

(٢) زيادة من أ.

(٧) زيادة من ر، وفي هـ: «إلى قوله تعالى».

ﷺ ليستغفر له، فقال رسول الله ﷺ: «لا غفرَ الله لك». فقام وهو يتلقى دموعه ببرديه، فما مضت له سابعة حتى مات، ودفنوه، فلفظته^(١) الأرض، فجاؤوا إلى النبي ﷺ فذكروا ذلك له، فقال: «إن الأرض تقبل من هو شر من صاحبكم، ولكن الله أراد أن يعظكم من جرمكم» ثم طرحوه بين صدفي جبل^(٢)، وألقوا عليه الحجارة، ونزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ الآية^(٣).

وقال البخارى: قال حبيب بن أبى عمرة، عن سعيد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ^(٤) للمقداد: «إذا كان رجل مؤمن يخفى إيمانه مع قوم كفار، فأظهر إيمانه فقتلته، فكذلك كنت أنت تخفى إيمانك بمكة من قبل».

هكذا ذكر البخارى هذا الحديث معلقا مختصرا^(٥)، وقد روى مطولا موصولا، فقال الحافظ أبو بكر البزار:

حدثنا حماد^(٦) بن على البغدادى، حدثنا جعفر بن سلمة، حدثنا أبو بكر بن على^(٧) بن مُقَدَّم، حدثنا حبيب بن أبى عمرة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، فيها المقداد بن الأسود، فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا، وبقي رجل له مال كثير لم يبرح فقال: أشهد أن لا إله إلا الله. وأهوى^(٨) إليه المقداد فقتله، فقال له رجل من أصحابه: أقتلت رجلا شهد أن لا إله إلا الله؟ والله لأذكرن ذلك للنبي ﷺ. فلما قدموا على رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، إن رجلا شهد أن لا إله إلا الله، فقتله المقداد. فقال: «ادعوا لى المقداد. يا مقداد، أقتلت رجلا يقول: لا إله إلا الله، فكيف لك بلا إله إلا الله غدا؟». قال: فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾ فقال رسول الله ﷺ للمقداد: «كان رجل مؤمن يخفى إيمانه مع قوم كفار، فأظهر إيمانه، فقتلته، وكذلك كنت تخفى إيمانك بمكة قبل»^(٩).

وقوله: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ أى: خير مما رغبتم فيه من عرض الحياة الدنيا الذى حملكم على قتل مثل هذا الذى ألقى إليكم السلام، وأظهر إليكم^(١٠) الإيمان، فتغافلتم عنه، واتهمتموه بالمصانعة والتقية؛ لتبتغوا عرض الحياة الدنيا، فما عند الله من المغانم الحلال خير لكم من مال هذا.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أى: قد كنتم من قبل هذه^(١١) الحال كهذا^(١٢) الذى

(١) فى أ: «ونفضته».

(٢) تفسير الطبرى (٧٢/٩).

(٤) فى د، أ: «النبي».

(٥) صحيح البخارى برقم (٦٨٦٦).

(٦) فى ر، أ: «حمدان».

(٧) فى أ: «عامر».

(٨) فى د: «فأهوى».

(٩) مسند البزار برقم (٢٢٠٢) «كشف الاستار» وقال البزار: «لا نعلمه يروى عن ابن عباس إلا من هذا الوجه ولا له عنه إلا هذا الطريق» وقال الهيثمى فى المجمع (٨/٧): «إسناده جيد».

(١٠) فى ر: «لكم».

(١١) فى أ: «هذا».

(١٢) فى ر: «لهذا».

يُسِرَّ إِيْمَانَهُ وَيَخْفِيهِ مِنْ قَوْمِهِ، كَمَا تَقْدُمُ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ آتِفًا، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ [تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصَرِهِ]﴾^(١) الآية [الأنفال: ٢٦]، وهذا هو مذهب سعيد بن جبير، كما رواه الثوري، عن حبيب بن أبي عمرة، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ تخفون إيمانكم في المشركين.

ورواه عبد الرزاق، عن ابن جريج، أخبرني عبد الله بن كثير، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ تستخفون بإيمانكم، كما استخفى^(٢) هذا الراعي بإيمانه.

وهذا اختيار ابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: وذكر عن قيس، عن سالم، عن سعيد بن جبير قوله: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ [تورعون عن مثل هذا، وقال الثوري عن منصور، عن أبي الضحى، عن مسروق: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾]^(٣) لم تكونوا مؤمنين ﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [فتبينوا] وقال السدي: ﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾^(٤) أى: تاب عليكم، فحلف أسامة لا يقتل^(٥) رجلا يقول: «لا إله إلا الله» بعد ذلك الرجل، وما لقي من رسول الله ﷺ فيه.

وقوله: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ تأكيد^(٦) لما تقدم. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قال سعيد بن جبير: هذا تهديد ووعيد.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦)﴾.

قال البخاري: حدثنا حفص بن عمر^(٧)، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: لما نزلت: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ زيدا، فكتبها، فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته، فأنزل الله [عز وجل]^(٨): ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾.

حدثنا محمد بن يوسف، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: لما نزلت: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال النبي ﷺ: «ادع فلانا» فجاءه ومعه الدواة واللوح والكتف فقال: «اكتب: لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله» وخلف النبي ﷺ ابن أم مكتوم، فقال: يا رسول الله، أنا ضريب فنزلت مكانها: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٩).

وقال البخاري أيضا: حدثنا إسماعيل بن عبد الله، حدثني إبراهيم بن سعد، عن صالح بن

(٣)، (٤) زيادة من أ.

(٧) فى أ: «عمرو».

(٢) فى أ: «يستخفى».

(٦) فى ر: «تأكيدا».

(١) زيادة من ر، أ.

(٥) فى ر: «لا يقاتل».

(٨) زيادة من ر، أ.

(٩) صحيح البخارى برقم (٤٥٩٣) ورقم (٤٥٩٤).

كَيْسَان، عن ابن شهاب، حدثني سهل بن سعد الساعدي: أنه رأى مروان بن الحكم في المسجد، قال: فأقبلت حتى جلست إلى جنبه، فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره: أن رسول الله ﷺ أُملىَ عَلَى: «لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله». فجاء ابن أم مكتوم، وهو يملئها على، قال: يا رسول الله، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت - وكان أعمى - فأنزل الله على رسول الله ﷺ، وفَخَذَهُ على فخذى، فثقلت على حتى خفت أن تُرَضَّ (١) فخذى، ثم سُرَى عنه، فأنزل الله: ﴿غَيْرِ أُولِي الضَّرَرِ﴾.

انفرد به البخاري (٢) دون مسلم، وقد روى من وجه آخر عن زيد فقال الإمام أحمد:

حدثنا سليمان بن داود، أنبأنا عبد الرحمن بن (٣) أبي الزناد، عن خارجة بن زيد قال: قال زيد ابن ثابت: إني قاعد إلى جنب رسول الله ﷺ، إذ أُوحي إليه، قال: وغشيت السكينة، قال: فوقع (٥) فخذاه على فخذى حين غشيت السكينة. قال زيد: فلا والله ما وجدت شيئاً قط أثقل من فخذ رسول الله ﷺ، ثم سُرَى عنه فقال: «اكتب يا زيد». فأخذت كتفا فقال: «اكتب: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون﴾ إلى قوله (٦): ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾». فكتبت (٧) ذلك في كتف، فقام حين سمعها ابن أم مكتوم - وكان رجلاً أعمى - فقام حين سمع فضيلة المجاهدين فقال: يا رسول الله، وكيف بمن لا يستطيع الجهاد ممن هو أعمى، وأشباه ذلك؟ قال زيد: فوالله ما مضى (٨) كلامه - أو ما هو إلا أن قضى كلامه - حتى غشيت النبي ﷺ السكينة، فوقعت فخذاه على فخذى، فوجدت من ثقلها كما وجدت في المرة الأولى، ثم سُرَى عنه فقال: «اقرأ». فقرأت عليه: «لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون» (٩) فقال النبي ﷺ: «﴿غَيْرِ أُولِي الضَّرَرِ﴾». قال زيد: فألحقتها، فوالله لكأنني أنظر إلى ملحقها عند صدع كان في الكتف.

ورواه أبو داود، عن سعيد بن منصور، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه، به نحوه (١٠).

وقال عبد الرزاق: أنبأنا (١١) معمر، عن الزهري، عن قبيصة بن (١٢) ذؤيب، عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ فقال: «اكتب: لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله» فجاء (١٣) عبد الله بن أم مكتوم فقال: يا رسول الله، إني أحب الجهاد في سبيل الله، ولكن بي من الزمانة ما قد ترى، قد ذهب بصري. قال زيد: فثقلت فخذ رسول الله ﷺ على فخذى، حتى خشيت أن ترضها (١٤)، ثم سُرَى عنه، ثم قال: «اكتب: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله﴾».

(١) في ر: يرض.

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٥٩٢).

(٣) في ر، أ: «عن».

(٤) في أ: «النبي».

(٦) في ر، أ: «الآية كلها إلى قوله».

(٧) في أ: «فكتب».

(٩) في ر: «والمجاهدين».

(١٠) المسند (١٩١/٥) وسنن أبي داود برقم (٢٥٠٧).

(١١) في أ: «أخبرنا».

(١٣) في أ: «فجاءه».

(١٢) في ر: «عن».

(١٤) في أ: «يرضها».

(٥) في أ: «فرغ».

(٨) في ر، أ: «قضى».

ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير^(١). وقال عبد الرزاق: أخبرني ابن جريج، أخبرني عبد الكريم - هو ابن مالك الجزري^(٢) - أن مقسماً مولى عبد الله بن الحارث - أخبره، أن ابن عباس أخبره: لا يستوى القاعدون من المؤمنين عن بدر، والخارجون إلى بدر.

انفرد به البخاري^(٣) دون مسلم. وقد رواه الترمذي من طريق حجاج، عن ابن جريج، عن عبد الكريم، عن مقسّم، عن ابن عباس قال: لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضر عن بدر، والخارجون إلى بدر، لما نزلت غزوة بدر قال عبد الله بن جحش وابن أم مكتوم: إنا أعميان يا رسول الله، فهل لنا رخصة؟ فنزلت: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ وفضل الله المجاهدين على القاعدين درجة، فهؤلاء القاعدون غير أولى الضرر ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ درجات منه على القاعدين من المؤمنين غير أولى الضرر. هذا لفظ الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه^(٤).

فقوله [تعالى]^(٥): ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كان مطلقاً، فلما نزل بوحي سريع: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ صار^(٦) ذلك مخرجاً لذوى الأعذار^(٧) المبيحة لترك الجهاد - من العمى والعرج والمرضى - عن مساواتهم للمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم.

ثم أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين على القاعدين، قال ابن عباس: غير أولى الضرر. وكذا ينبغي أن يكون لما ثبت في الصحيح عند البخاري من طريق زهير بن معاوية، عن حميد، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم من مسير، ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه» قالوا: وهم بالمدينة يا رسول الله؟ قال: «نعم حبسهم العذر».

وهكذا رواه الإمام أحمد عن محمد بن أبي عدي، عن حميد، عن أنس، به^(٨). وعلقه البخاري مجزوماً. ورواه أبو داود، عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن موسى بن أنس بن مالك، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتهم مسيراً، ولا أنفقتهم من نفقة، ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه». قالوا: يا رسول الله، وكيف^(٩) يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: «حبسهم العذر».

لفظ أبي داود^(١٠). وفي هذا المعنى قال الشاعر:

يا راحلين إلى البيت العتيق لَقَدْ
سَرْتُمْ جُسُومًا وَسَرْنَا نَحْنُ أَرْوَاحاً
إِنَّا أَقَمْنَا عَلَى عُدْرٍ وَعَنْ قَدَرٍ
وَمَنْ أَقَامَ عَلَى عُدْرٍ فَقَدْ رَاحَا

(١) تفسير عبد الرزاق (١/١٦٤) وتفسير الطبري (٩/٩١).

(٢) في أ: «الجهزي».

(٣) تفسير عبد الرزاق (١/١٦٥) وصحيح البخاري برقم (٤٥٩٥).

(٤) سنن الترمذي برقم (٣٠٣٢).

(٥) في أ: «الأضرار».

(٦) في أ: «كان».

(٧) زيادة من ر، أ.

(٨) صحيح البخاري برقم (٢٨٣٨) والمسنَد (٣/١٠٣).

(٩) في ر: «قالوا: وكيف يا رسول الله».

(١٠) صحيح البخاري برقم (٢٨٣٩) وسنن أبي داود برقم (٢٥٠٨).

وقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ أى: الجنة والجزاء الجزيل. وفيه دلالة على أن الجهاد ليس بفرض عين، بل هو فرض على الكفاية.

ثم قال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، ثم أخبر تعالى بما فضلهم به من الدرجات، فى غرف الجنان^(١) العاليات، ومغفرة الذنوب والزلات، وحلول الرحمة والبركات، إحساناً منه وتكريماً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةٌ وَرَحْمَةٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

وقد ثبت فى الصحيحين^(٢) عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «إن^(٣) فى الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين فى سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض».

وقال الأعمش، عن عمرو بن مروة، عن أبى عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من بلغ بسهم فله أجره درجة» فقال رجل: يا رسول الله، وما الدرجة؟ فقال: «أما إنها ليست بعتبة أمك، ما بين الدرجتين مائة عام»^(٤).

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا غَفُورًا (٩٩) وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاجِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٠)﴾.

قال البخارى: حدثنا عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا حيوة وغيره قالوا: حدثنا محمد بن عبد الرحمن أبو الأسود قال: قطع على^(٥) أهل المدينة بعث، فاكتبت فيه، فلقيت عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته، فنهانى عن ذلك أشد النهى، ثم قال: أخبرنى ابن عباس أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين، يكثر سواد المشركين على رسول الله ﷺ، يأتى السهم فيرمى^(٦) به، فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب عنقه فيقتل، فأنزل الله [عز وجل]^(٧): ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾. رواه الليث عن أبى الأسود^(٨).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادى، حدثنا أبو أحمد - يعنى الزبيرى - حدثنا

(١) فى أ: «الجنات».

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٨٨٤)، وهو عند البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه لا من حديث أبى سعيد الخدرى برقم (٢٧٩٠).

(٣) فى أ: «إنه».

(٤) رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره وابن مردويه كما فى الدر المنثور (٢/٦٤٥).

(٥) فى أ: «من». (٦) فى د، ر، أ: «يرمى».

(٧) زيادة من ر.

(٨) صحيح البخارى برقم (٤٥٩٦).

محمد بن شريك المكي، حدثنا عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم بفعل بعض^(١)، قال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين^(٢) وأكرهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ] إلى آخر^(٣) الآية، قال: فكتب إلى من بقى من المسلمين بهذه الآية: لا عذر لهم. قال: فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة، فنزلت هذه^(٤) الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ الآية^(٥) [البقرة: ٨].

وقال عكرمة: نزلت هذه الآية في شباب من قريش، كانوا تكلموا بالإسلام بمكة، منهم: على ابن أمية بن خلف، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو العاص بن منبه^(٦) بن الحجاج، والحارث بن زمة.

وقال الضحاك: نزلت في ناس^(٧) من المنافقين، تخلفوا عن رسول الله ﷺ بمكة، وخرجوا مع المشركين يوم بدر، فأصيبوا فيمن أصيب، فنزلت هذه^(٨) الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حراما بالإجماع، وينص هذه الآية حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أى: بترك الهجرة ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أى: لم مكثتم هاهنا وتركتم الهجرة؟ ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: لا نقدر على الخروج من البلد، ولا الذهاب في الأرض ﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً﴾ [فَتَهَاجَرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا]^(٩).

وقال أبو داود: حدثنا محمد بن داود بن سفيان، حدثني يحيى بن حسان، أخبرنا سليمان بن موسى أبو داود، حدثنا جعفر بن سعد بن سمرة بن جندب، حدثني خبيب^(١٠) بن سليمان، عن أبيه سليمان بن سمرة، عن سمرة بن جندب: أما بعد، قال رسول الله ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله»^(١١).

وقال السدي: لما أسر العباس وعقيل ونوفل، قال رسول الله ﷺ للعباس: «أفد نفسك وابن أخيك». قال: يا رسول الله، ألم نصل قبلك، ونشهد شهادتك؟ قال: «يا عباس، إنكم خاصمتهم فخصمتهم». ثم تلا عليه هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً﴾ [فَتَهَاجَرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا]^(١٢) رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾^(١٣)

(١) في ر، أ: «بنيل». (٢) في ر: «مسلمون». (٣) زيادة من ر، أ.

(٤) في أ: «فيهم».

(٥) ورواه الطبري في تفسيره (١٠٢/٩) حدثنا أحمد بن منصور الرمادي به.

(٦) في د: «ابن منصور».

(٧) في د، ر: «أناس».

(٨) في أ: «فهذه».

(٩) زيادة من د، ر، أ، وفي هـ: «الآية».

(١١) سنن أبي داود برقم (٢٧٨٧).

(١٢) زيادة من ر، أ، وفي هـ: «الآية». (١٣) زيادة من د، ر، أ، وفي هـ: «إلى آخر الآية».

هذا عذر من الله تعالى لهؤلاء فى ترك الهجرة، وذلك أنهم لا يقدرّون على التخلص من أيدي المشركين، ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾. قال مجاهد، وعكرمة، والسدى: يعنى طريقاً.

وقوله: ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ أى: يتجاوز عنهم بترك^(١) الهجرة، وعسى من الله موجبة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفْوَاً غَفُوراً^(٢)﴾.

قال البخارى: حدثنا أبو نعيم، حدثنا شيبان، عن يحيى، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: بينا النبي ﷺ يصلى العشاء إذ قال: «سمع الله لمن حمده». ثم قال قبل أن يسجد: «اللهم نج^(٣) عياش بن أبى ربيعة، اللهم نج^(٤) سلمة بن هشام، اللهم نج^(٥) الوليد بن الوليد، اللهم نج^(٦) المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدّد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها سنين كسنى يوسف^(٧)».

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو معمر المقرئ^(٨)، حدثنا عبد الوارث، حدثنا على بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ رفع يده بعد ما سلم، وهو مستقبل القبلة، فقال: «اللهم خلص الوليد بن الوليد، وعياش بن أبى ربيعة، وسلمة بن هشام، وضعفة المسلمين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً من أيدي الكفار^(٩)».

وقال ابن جرير: حدثنا المثنى، حدثنا حجاج، حدثنا حماد، عن على بن زيد عن عبد الله^(١٠) - أو إبراهيم بن عبد الله القرشى - عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يدعو فى دُبُرِ صلاة الظهر: «اللهم خلّص الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبى ربيعة، وضعفة المسلمين من أيدي المشركين، الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً».

ولهذا الحديث شاهد فى الصحيح، من غير هذا الوجه، كما تقدم^(١١).

وقال عبد الرزاق: أنبأنا^(١٢) ابن عيينة، عن عبيد الله بن أبى يزيد قال: سمعت ابن عباس يقول: كنت أنا وأمى من المستضعفين من النساء والولدان^(١٣).

وقال البخارى: أنبأنا أبو النعمان، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن ابن أبى مليكة، عن ابن عباس: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ قال: كانت أمى ممن عذر الله عز وجل^(١٤).

وقوله: ﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافَغاً كَثِيراً وَسَعَةً﴾: هذا تحريض على

(١) فى د، أ: «بتركهم».

(٢) فى ر: «عفواً غفوراً» وهو خطأ.

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٥٩٨).

(٨) فى ر: «المقرئ».

(٩) وفى إسناده على بن زيد بن عبد الله بن أبى مليكة ضعيف لا يحتج به، وقد اختلف عليه فيه، كما سيأتى فى رواية الطبرى.

(١٠) فى ر، أ: «عبيد الله».

(١١) تفسير الطبرى (١١٠/٩) وإسناده ضعيف.

(١٢) فى أ: «أخبرنا».

(١٣) تفسير عبد الرزاق (١٦٦/١).

(١٤) صحيح البخارى برقم (٤٥٩٧).

الهجرة، وترغيب في مفارقة المشركين، وأن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مندوحة وملجأ يتحصن فيه، و«المراغم»: مصدر، تقول العرب: راغم فلان قومه مراغماً ومراغمة، قال نابغة^(١) بنى جعدة^(٢):

كَطَوْدٍ يُلَاذُ بِأَرْكَانِهِ عَزِيزِ الْمُرَاغَمِ وَالْمَهْرَبِ

وقال ابن عباس: «المراغم»: التحول من أرض إلى أرض. وكذا روى عن الضحاك، والربيع بن أنس، الثوري، وقال مجاهد: «مُرَاغَمًا كَثِيرًا» يعني: متزحزحا عما يكره. وقال سفيان بن عيينة: «مُرَاغَمًا كَثِيرًا» يعني: بروجاً.

والظاهر - والله أعلم - أنه^(٣) التمتع الذي يُتَحَصَّنُ به، ويراغم به الأعداء.

قوله: «وَسَعَةً» يعني: الرزق. قاله غير واحد، منهم: قتادة، حيث قال في قوله: «يَجِدُ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً» إى، والله، من الضلالة إلى الهدى، ومن القلة إلى الغنى.

وقوله: «وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ». أى: ومن خرج من منزله بنية الهجرة، فمات في أثناء الطريق، فقد حصل له من^(٤) الله ثواب من هاجر، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من الصحاح والمسانيد والسنن، من طريق يحيى بن سعيد الأنصاري^(٥)، عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن علقمة بن وقاص الليثي، عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهَاجَرَتْهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهَاجَرَتْهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»^(٦).

وهذا عام في الهجرة وفي كل الأعمال. ومنه الحديث الثابت في الصحيحين^(٧)، في الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً. ثم أكمل بذلك العابد المائة، ثم سأل عالماً: هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أرشده إلى أن يتحول من بلده إلى بلد آخر يعبد الله فيه، فلما ارتحل من بلده مهاجراً إلى البلد الآخر، أدركه الموت في أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقال هؤلاء: إنه جاء تائباً. وقال هؤلاء: إنه لم يصل بعد. فأمرُوا أن يقيسوا ما بين الأرضين فألَى أَيْتَهُمَا^(٨) كان أقرب كان^(٩) منها، فأمر الله هذه أن يَقْرَبَ^(١٠) من هذه، وهذه أن تبعد^(١١)، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشبر، فقبضته ملائكة الرحمة. وفي رواية: أنه لما جاءه

(١) فى أ: «نابغة فى بنى جعدة».

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (١٠٠/١١٢) واللسان مادة (رغم).

(٣) فى أ: «أن المراغم هو». (٤) فى أ: «عند». (٥) فى أ: «القطان».

(٦) صحيح البخارى برقم (١، ٥٤) وصحيح مسلم برقم (١٩٠٧) وسنن أبى داود برقم (٢٢٠١) وسنن الترمذى برقم (١٦٤٧)، وسنن النسائى (١/٥٩) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٢٧) ومسند أحمد (١/٢٥) ومسند الحميدى (١/١٦) ومسند الطيالسى (٢/٢٧) «منحة المعبود».

(٧) صحيح البخارى برقم (٣٤٧٠) وصحيح مسلم برقم (٢٧٦٦).

(٨) فى د، ر: «أيهما»، وفى أ: «أيهما». (٩) فى د، ر: «فهو». (١٠) فى د: «تقرب»، وفى ر: «تقرب».

(١١) فى د: «تبتعد».

الموت ناء بصدده إلى الأرض^(١) التي هاجر إليها.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم، عن محمد بن عبد الله بن عتيك، عن أبيه عبد الله بن عتيك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خرج من بيته مهاجراً^(٢) في سبيل الله - ثم قال بأصابعه هؤلاء الثلاث: الوسطى والسبابة والإبهام، فجمعهن وقال: وأين المجاهدون؟ - فخر عن دابته فمات فقد وقع أجره على الله، أو لدغته دابة فمات، فقد وقع أجره على الله، أو مات حتف أنفه، فقد وقع أجره على الله - والله! إنها لكل كلمة ما سمعتها من أحد من العرب قبل رسول الله ﷺ - ومن قتل قَعَصاً^(٣) فقد استوجب المآب^(٤)».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الملك بن شيبة الخزامي^(٥)، حدثني عبد الرحمن بن المغيرة الخزامي^(٦)، عن المنذر بن عبد الله، عن هشام بن عروة، عن أبيه؛ أن الزبير بن العوام قال: هاجر خالد بن حزام^(٧) إلى أرض الحبشة، فنهشته حية في الطريق فمات، فنزلت فيه: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ قال الزبير: وكنت أتوقعه وأنتظر قدومه وأنا بأرض الحبشة، فما أحزنني شيء حزن وفاته حين بلغني؛ لأنه قلَّ أحد ممن هاجر من قريش إلا معه بعض أهله، أو ذوى رحمه، ولم يكن معي أحد من بنى أسد بن عبد العزى، ولا أرجو غيره.

وهذا الأثر غريب جداً^(٨)، فإن هذه القصة مكية، ونزول هذه الآية مدنية. فلعله أراد أنها أنزلت تعم حكمه مع غيره، وإن لم يكن ذلك سبب النزول، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا سليمان بن داود مولى عبد الله بن جعفر، حدثنا سهل بن عثمان، حدثنا عبد الرحمن^(٩) بن سليمان، عن الأشعث^(١٠) - هو ابن سوار - عن عكرمة، عن ابن عباس قال: خرج ضمرة بن جندب إلى رسول الله ﷺ، فمات في الطريق قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ، فنزلت: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [١١] (١٢).

وحدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، أنبأنا إسرائيل، عن سالم، عن سعيد بن جبيرة عن أبي ضمرة بن العيص الزرقى، الذي كان مصاب البصر، وكان بمكة فلما نزلت: ﴿إِلَّا الْمُسْتَظْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ فقلت: إنى لغنى، وإنى لذو حيلة، [قال] (١٣): فتجهز يريد النبي ﷺ، فأدركه الموت بالتتبعيم، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾

(١) في د: «البلد». (٢) في أ: «مجاهداً». (٣) في د: «نفساً»، وفي ر: «بعضاً»، وفي أ: «بعض».

(٤) المسند (٣٦/٤)، وقال الهيثمي في المجمع (٥/٢٦٠): «فيه محمد بن إسحاق وهو مدلس، وبقية رجاله ثقات».

(٥، ٦) في أ: «الخزامي». (٧) في أ: «ابن حرام».

(٨) ووجه غرابته أيضاً كما قال ابن حجر: أن الذي نزلت فيه هذه الآية جندب بن ضمرة، وسيأتي حديثه عقب هذا.

(٩) في ر: «عبد الرحيم». (١٠) في ر: «أشعث». (١١) زيادة من ر، أ، وفي هـ: «الآية».

(١٢) ورواه أبو يعلى في مسنده (٥/٨١) والطبراني في المعجم الكبير (١١/٢٧٢) من طريق أشعث بن سوار به. قال الهيثمي بعد أن عزاه لأبي يعلى وحده: «رجاله ثقات، لكن في إسناده أشعث بن سوار وهو ضعيف».

(١٣) زيادة من ر.

ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ [فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا] ﴿١٠١﴾ ﴿٢﴾.

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا إبراهيم بن زياد سبلان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا محمد بن إسحاق، عن حميد بن أبي حميد، عن عطاء بن يزيد الليثي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من خرج حاجا فمات، كتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة، ومن خرج معتمرا فمات، كتب له أجر المعتمر إلى يوم القيامة، ومن خرج غازيا في سبيل الله فمات، كتب له أجر الغازي»^(٣) إلى يوم القيامة.

وهذا حديث غريب من هذا الوجه^(٤).

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ (١٠١) ﴿٥﴾.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سافرتُم في البلاد، كما قال تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَأَخْرُوجُ يُضْرَبُونَ فِي الْأَرْضِ يُبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ [وَأَخْرُوجُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ]﴾^(٥) الآية [المزمل: ٢٠].

وقوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ أي: تخفّفوا فيها، إما من كميتها بأن تجعل^(٦) الرباعية ثنائية، كما فهمه الجمهور من هذه الآية، واستدلّوا بها على قصر الصلاة في السفر، على اختلافهم في ذلك: فمن قائل لا بد أن يكون سفر طاعة، من جهاد، أو حج، أو عمرة، أو طلب علم، أو زيارة، وغير ذلك، كما هو مروي عن ابن عمر وعطاء، ويحكي عن مالك في رواية عنه نحوه، لظاهر قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

ومن قائل^(٧): لا يشترط سفر القربة، بل لا بد أن يكون مباحا، لقوله: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ [فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ]﴾^(٨) [المائدة: ٢٣]، أباح له تناول الميتة مع اضطراره إلا بشرط ألا يكون عاصيا بسفره. وهذا قول الشافعي وأحمد وغيرهما من الأئمة.

وقد قال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، إني رجل تاجر، أختلف إلى البحرين «فأمره أن يصلي ركعتين» وهذا مرسل^(٩).

ومن قائل: يكفي مطلق السفر، سواء كان مباحا أو محظورا، حتى لو خرج لقطع الطريق وإخافة السبيل، ترخص، لوجود مطلق السفر. وهذا قول أبي حنيفة، رحمه الله، والثوري وداود،

(١) زيادة من ر، أ، وفي هـ: «الآية».

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (١٧٦ق) وقد روى هذا الأثر من طرق أخرى مرسله، فرواه سعيد بن منصور في سننه برقم (٦٨٥) قال: أخبرنا هشيم عن أبي بشر عن سعيد بن جبير به مرسلا، ورواه الطبري في تفسيره (١١٨/٩) من طريق قيس بن الربيع عن سالم عن سعيد بن جبير به مرسلا.

(٣) في ر: «الغازي».

(٤) مسند أبي يعلى (٢٣٨/١١) وفي إسناده جميل بن أبي ميمونة لم يوثقه سوى ابن حبان، وابن إسحاق مدلس وقد عنعن.

(٥) زيادة من ر، أ. (٦) في ر: «ترجع».

(٧) في ر: «ومن قال».

(٨) زيادة من ر، أ. (٩) المصنف (٤٤٨/٢).

لعموم الآية وخالفهم الجمهور. وأما قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقد يكون هذا خُرج مخرج الغالب حال نزول هذه الآية، فإن في مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة، بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو عام، أو في سرية خاصة، وسائر الأحياء حرب الإسلام وأهله، والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب أو على حادثة فلا مفهوم له، كقوله^(١): ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَانَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣]، وكقوله^(٢): ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمْ﴾ الآية [النساء: ٢٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن إدريس، حدثنا ابن جريج، عن ابن أبي عمار، عن عبد الله بن بابيه، عن يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب قلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقد آمن الله الناس^(٣)؟ فقال لى عمر: عجبت مما عجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته».

وهكذا رواه مسلم وأهل السنن، من حديث ابن جريج، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عمار، به. وقال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح. وقال على بن المدينى: هذا حديث صحيح من حديث عمر، ولا يحفظ إلا من هذا الوجه، ورجاله معروفون^(٤).

وقال أبو بكر بن أبى شيبة: حدثنا أبو نعيم، حدثنا مالك بن مغول، عن أبى حنظلة الحذاء قال: سألت ابن عمر عن صلاة السفر فقال: ركعتان. فقلت: أين قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ونحن آمنون؟ قال: سنة رسول الله ﷺ^(٥).

وقال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن محمد بن عيسى، حدثنا على بن محمد بن سعيد، حدثنا منجأب، حدثنا شريك، عن قيس بن وهب، عن أبى الوداك: سألت ابن عمر عن ركعتين فى السفر؟ فقال: هى رخصة، نزلت من السماء، فإن شئتم فردوها.

وقال أبو بكر بن أبى شيبة: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا ابن عون، عن ابن سيرين، عن ابن عباس قال: صلينا مع رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة، ونحن آمنون، لا نخاف بينهما، ركعتين ركعتين.

وكذا رواه النسائى، عن محمد بن عبد الأعلى، عن خالد الحذاء^(٦)، عن عبد الله بن عون، به^(٧). قال أبو عمر بن عبد البر: وهكذا رواه أيوب، وهشام، ويزيد بن إبراهيم التستري، عن محمد ابن سيرين، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، عن النبى ﷺ، مثله.

قلت: وهكذا رواه الترمذى والنسائى جميعا، عن قتبية، عن هشيم، عن منصور بن زاذان، عن

(١) فى ر: «لقوله». (٢) فى أ: «الباس».

(٤) المسند (٢٥/١) وصحيح مسلم برقم (٦٨٦) وسنن أبى داود برقم (١١٩٩) وسنن النسائى (١١٦/٣) وسنن ابن ماجه برقم (١٠٦٥).

(٥) المصنف (٤٤٧/٢) ورواه أحمد فى مسنده (٣١/٢) عن طريق يزيد بن إسماعيل عن أبى حنظلة عن ابن عمر رضى الله عنه.

(٦) فى أ: «ابن الحارث».

(٧) المصنف (٤٤٨/٢) وسنن النسائى (١١٧/٣).

محمد بن سيرين، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ خرج من المدينة إلى مكة، لا يخاف إلا رب العالمين، فصلّى ركعتين، ثم قال الترمذى: صحيح^(١).

وقال البخارى: حدثنا أبو مَعْمَر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا يحيى بن أبى إسحاق قال: سمعت أنسا يقول: خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة، فكان يصلى ركعتين ركعتين، حتى رجعنا إلى المدينة. قلت: أقمتم بمكة شيئاً؟ قال: أقمنا بها عشرًا.

وهكذا أخرجه بقية الجماعة من طرق عن يحيى بن أبى إسحاق الحضرمى، به^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سُفْيَان، عن أبى إسحاق، عن حارثة بن وهب الخزاعى قال: صليت مع النبى ﷺ الظهر والعصر بمنى - أكثر ما كان الناس وأمنه - ركعتين.

ورواه الجماعة سوى ابن ماجه من طرق، عن أبى إسحاق السبيعى، عنه، به^(٣). ولفظ البخارى: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، أنبأنا أبو إسحاق، سمعت حارثة بن وهب قال: صلى بنا رسول الله ﷺ آمن ما كان بمنى ركعتين.

وقال البخارى: حدثنا مُسَدَّد، حدثنا يحيى، حدثنا عُبَيْد الله، أخبرنا نافع، عن عبد الله بن عمر قال: صليت مع النبى ﷺ ركعتين، وأبى بكر وعمر، ومع عثمان صدرا من إمارته، ثم أتمها. وكذا رواه مسلم من حديث يحيى بن سعيد القطان [الأنصارى]^(٤)، به^(٥).

وقال البخارى: حدثنا قتيبة، حدثنا عبد الواحد، عن الأعمش، حدثنا إبراهيم، سمعت عبد الرحمن ابن يزيد يقول: صلى بنا عثمان بن عفان، رضى الله عنه، بمنى أربع ركعات، فقل فى ذلك لعبد الله ابن مسعود فاسترجع، ثم قال: صليت مع رسول الله ﷺ بمنى ركعتين، وصليت مع أبى بكر بمنى ركعتين، وصليت مع عمر بن الخطاب بمنى ركعتين، فليت حظى مع^(٦) أربع ركعات ركعتان متقبلتان. ورواه البخارى أيضا من حديث الثورى، عن الأعمش، به. وأخرجه مسلم من طرق، عنه. منها عن قتيبة كما تقدم^(٧).

فهذه الأحاديث دالة صريحا على أن القصر ليس من شرطه وجود الخوف؛ ولهذا قال من قال من العلماء: إن المراد من القصر هاهنا إنما هو قصر الكيفية لا الكمية. وهو قول مجاهد، والضحاك، والسدى كما سيأتى بيانه، واعتضدوا أيضا بما رواه الإمام مالك، عن صالح بن كيسان، عن عروة بن

(١) سنن الترمذى برقم (٥٤٧) وسنن النسائى (١١٧/٣).

(٢) صحيح البخارى برقم (١٠٨١) وصحيح مسلم برقم (٦٩٣) وسنن أبى داود برقم (١٢٣٣) وسنن الترمذى برقم (٥٤٨) وسنن النسائى (١١٨/٣) وسنن ابن ماجه برقم (١٠٧٧).

(٣) المسند (٣٠٦/٤) وصحيح البخارى برقم (١٠٨٣) وصحيح مسلم برقم (٦٩٦) وسنن أبى داود برقم (١٩٦٥) وسنن الترمذى برقم (٨٨٢) وسنن النسائى (١٢٠/٣).

(٤) زيادة من أ.

(٥) صحيح البخارى برقم (١٠٨٢) وصحيح مسلم برقم (٦٩٤) وسنن النسائى (١٢١/٣).

(٦) فى ر، أ: «من».

(٧) صحيح البخارى برقم (١٠٨٤) و(١٦٥٧) وصحيح مسلم برقم (٦٩٥).

الزبير، عن عائشة، رضى الله عنها، أنها قالت: فرضت الصلاة ركعتين ركعتين فى السفر والحضر، فأقرت صلاة السفر؛ وزيد فى صلاة الحضر.

وقد روى هذا الحديث البخارى عن عبد الله بن يوسف التيسى، ومسلم عن يحيى بن يحيى، وأبو داود عن القعنبي، والنسائى عن قتيبة، أربعتهم عن مالك، به^(١).

قالوا: فإذا كان أصل الصلاة فى السفر هى الثنتين، فكيف يكون المراد بالقصر هاهنا قصر الكمية؛ لأن ما هو الأصل لا يقال فيه: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾؟

وأصرح من ذلك دلالة على هذا، ما رواه الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان - وعبد الرحمن حدثنا سفيان - عن زبيد الياشى، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن عمر، رضى الله عنه، قال: صلاة السفر ركعتان، وصلاة الأضحى^(٢) ركعتان، وصلاة الفطر ركعتان، وصلاة الجمعة ركعتان، تمام غير قصر، على لسان محمد ﷺ.

وهكذا رواه النسائى وابن ماجه، وابن حبان فى صحيحه، من طرق عن زبيد الياشى^(٣)، به^(٤). وهذا إسناد على شرط مسلم. وقد حكّم مسلم فى مقدمة كتابه بسماع ابن أبى ليلى، عن عمر. وقد جاء مصرحاً به فى هذا الحديث وفى غيره، وهو الصواب إن شاء الله. وإن كان يحيى بن معين، وأبو حاتم، والنسائى قد قالوا: إنه لم يسمع منه. وعلى هذا أيضاً، فقد وقع فى بعض طرق أبى يعلى الموصلى، من طريق الثورى، عن زبيد، عن عبد الرحمن [بن أبى ليلى]^(٥)، عن الثقة، عن عمر فذكره، وعند ابن ماجه من طريق يزيد بن أبى زياد بن أبى الجعد، عن زبيد، عن عبد الرحمن، عن كعب بن عجرة، عن عمر، به. ، فالله أعلم^(٦).

وقد روى مسلم فى صحيحه، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه، من حديث أبى عوانة الوضاح ابن عبد الله الشكرى - زاد مسلم والنسائى: وأيوب بن عائد - كلاهما عن بكير بن الأخنس، عن مجاهد، عن عبد الله بن عباس قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم فى الحضر أربعاً، وفى السفر ركعتين وفى الخوف ركعة، [هكذا رواه وكيع وروح بن عباد عن أسامة بن زيد الليثى: حدثنى الحسن ابن مسلم بن يساف عن طاوس عن ابن عباس قال: فرض الله ورسوله ﷺ الصلاة فى الحضر أربعاً وفى السفر ركعتين]^(٧)، فكما يصلى فى الحضر قبلها وبعدها، فكذلك يصلى فى السفر^(٨). ورواه ابن ماجه من حديث أسامة بن زيد، عن طاوس نفسه^(٩).

(١) الموطأ فى قصر الصلاة فى السفر برقم (٨)، (١٤٦/١) وصحيح البخارى برقم (٣٥٠) وصحيح مسلم برقم (٦٨٥) وسنن أبى داود برقم (١١٩٨) وسنن النسائى (٢٢٥/١).

(٢) فى أ: «الضحى». (٣) فى ر: «الأيامى».

(٤) المسند (٣٧/١) وسنن النسائى (١١١/٣) وسنن ابن ماجه برقم (١٠٦٣) وصحيح ابن حبان (١٩٧/٤).

(٥) زيادة من أ.

(٦) انظر: صحيح مسلم المقدمة (٣٤/١) والمراسيل لابن أبى حاتم (١٢٥) وتاريخ الدروى عن يحيى بن معين (٣٥٦/٢). والصحيح أن عبد الرحمن بن أبى ليلى لم يسمع من عمر، بل قال ابن معين فى رواية ابن أبى شيبة عنه: لم يسمع من عمر ولا عثمان وسمع من على. وانظر: تهذيب الكمال للمزى (٣٧٦/١٧) وحاشية الدكتور بشار عواد عليه.

(٧) زيادة من أ.

(٨) صحيح مسلم برقم (٦٨٧) وسنن أبى داود برقم (١٢٤٧) وسنن النسائى (١٦٩/٣) وسنن ابن ماجه برقم (١٠٦٨).

(٩) سنن ابن ماجه برقم (١٠٧٢).

فهذا ثابت عن ابن عباس، رضى الله عنهما^(١)، ولا ينأى ما تقدم عن عائشة لأنها أخبرت أن أصل الصلاة ركعتان، ولكن زيد في صلاة الحضر، فلما استقر ذلك صح أن يقال: إن فرض صلاة الحضر أربع، كما قاله ابن عباس، والله أعلم. لكن اتفق حديث ابن عباس وعائشة على أن صلاة السفر ركعتان، وأنها تامة غير مقصورة، كما هو مصرح به في حديث عمر، رضى الله عنه، وإذا كان كذلك، فيكون المراد بقوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ قصر الكيفية كما في صلاة الخوف؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا [إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا]﴾^(٢).

ولهذا قال بعدها: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾^(٣) الآية^(٤)، فبين المقصود من القصر هاهنا وذكر صفته وكيفيته؛ ولهذا لما اعتضد^(٥) البخارى «كتاب^(٦) صلاة الخوف» صدره بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

وهكذا قال جوير، عن الضحاك في قوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ قال: ذاك عند القتال، يصلى الرجل الراكب تكبيرتين حيث كان وجهه.

وقال أسباط، عن السدى في قوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ﴾ الآية: إن الصلاة إذا صليت ركعتين في السفر فهي تمام، التقصير لا يحل، إلا أن تخاف من الذين كفروا أن يفتنوك عن الصلاة، فالتقصير ركعة.

وقال ابن أبى نجیح، عن مجاهد: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ يوم كان النبی ﷺ وأصحابه بعُسفان والمُشركون^(٧) بضجنان، فتوافقوا، فصلى النبي ﷺ بأصحابه صلاة الظهر أربع ركعات، ركوعهم وسجودهم وقيامهم معا جميعا، فَهَمَّ بهم المشركون أن يغيروا على أمتعتهم وأثقالهم.

روى ذلك ابن أبى حاتم. ورواه ابن جرير، عن مجاهد والسدى، وعن جابر وابن عمر، واختار ذلك أيضا، فإنه قال بعد ما حكاه من الأقوال في ذلك: وهو الصواب.

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا بن أبى فُديك، حدثنا ابن أبى ذئب، عن ابن شهاب، عن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد: أنه قال لعبد الله بن عمر: إنا نجد في كتاب الله قصر صلاة الخوف، ولا نجد قصر صلاة المسافر؟ فقال عبد الله: إنا وجدنا نبينا ﷺ يعمل عملا عملنا به.

فقد سمي صلاة الخوف مقصورة، وحمل الآية عليها، لا على قصر صلاة المسافر، وأقره ابن عمر على ذلك، واحتج على قصر الصلاة في السفر بفعل الشارع لا بنص القرآن.

وأصرح من هذا ما رواه ابن جرير أيضا: حدثني أحمد بن الوليد القرشي، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن سَمَاك الحنفي: سألت ابن عمر عن صلاة السفر، فقال: ركعتان تمام غير

(٤) في ر، أ: «إلى آخرها».

(٧) في ر: «والمسلمون».

(٢، ٣) زيادة من ر، أ.

(٦) في ر: «في كتاب».

(١) في ر: «عنه».

(٥) في أ: «عقد».

قصر، إنما القصر صلاة المخافة. فقلت: وما صلاة المخافة؟ فقال: يصلى الإمام بطائفة ركعة، ثم يجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء، ويجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء، فيصلى بهم ركعة، فيكون للإمام ركعتان، ولكل طائفة ركعة ركعة^(١).

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مِيلَةً وَاحِدَةً وَلَا جَنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾.

صلاة الخوف أنواع كثيرة، فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة، وتارة يكون في غير صوبها، والصلاة تارة تكون رباعية، وتارة ثلاثية كالمغرب، وتارة ثنائية، كالصبح وصلاة السفر، ثم تارة يصلون جماعة، وتارة يلتحم الحرب فلا يقدرון على الجماعة، بل يصلون فرادى مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، ورجالا وركبانا، ولهم أن يمشوا والحالة هذه ويضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة.

ومن العلماء من قال: يصلون والحالة هذه ركعة واحدة؛ لحديث ابن عباس المتقدم، وبه قال أحمد بن حنبل. قال المنذرى في الحواشي: وبه قال عطاء، وجابر، والحسن، ومجاهد، والحكم، وقتادة، وحماد. وإليه ذهب طاوس والضحاك.

وقد حكى أبو عاصم العبادي^(٢)، عن محمد بن نصر المروزي؛ أنه يرى ردّ الصبح إلى ركعة في الخوف وإليه ذهب ابن حزم أيضاً.

وقال إسحاق بن راهويه: أما عند المسابقة فيجزيك ركعة واحدة، تومئ بها إيماء، فإن لم تقدر فسجدة واحدة؛ لأنها ذكر الله.

وقال آخرون: تكفى تكبيرة واحدة. فلعله أراد ركعة واحدة، كما قاله أحمد بن حنبل وأصحابه، ولكن الذين حكوه إنما حكوه على ظاهره في الاجتزاء بتكبيرة واحدة، كما هو مذهب إسحاق بن راهويه، وإليه ذهب الأمير عبد الوهاب بن بُخت المكي، حتى قال: فإن لم يقدر على التكبيرة^(٣) فلا يتركها في نفسه، يعنى بالنية، رواه سعيد بن منصور في سننه عن إسماعيل بن عيَّاش، عن شعيب بن دينار، عنه، فالله أعلم.

ومن العلماء من أباح تأخير الصلاة لعذر القتال والمناجزة، كما أخر النبي ﷺ يوم الأحزاب صلاة العصر، قيل: والظهر، فصلاهما بعد الغروب، ثم صلى بعدهما المغرب ثم العشاء. وكما قال

(١) تفسير الطبري (١٣٤/٩).

(٢) في ر: «العادي».

(٣) في أ: «التكبير».

بعدها - يوم بنى قريظة، حين جهز إليهم الجيش -: «لا يصلين أحدٌ منكم العصر إلا في بنى قريظة»، فأدركتهم الصلاة في أثناء الطريق، فقال منهم قائلون: لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيلَ المسير، ولم يرد منا تأخير الصلاة عن وقتها، فصلوا الصلاة لوقتها في الطريق. وأخر آخرون منهم العصر، فصلوها في بنى قريظة بعد الغروب، ولم يُعَنَّف رسول الله ﷺ أحداً من الفريقين^(١). وقد تكلمنا على هذا في كتاب السيرة، وبيناً أن الذين صلوا العصر لوقتها أقرب إلى إصابة الحق في نفس الأمر، وإن كان الآخرون معذورين أيضاً، والحجة هاهنا في عذرهم في تأخير الصلاة لأجل الجهاد والمبادرة إلى حصار الناكثين للعهد^(٢)، من الطائفة الملعونة اليهود. وأما الجمهور فقالوا: هذا كله منسوخ بصلاة الخوف، فإنها لم تكن نزلت بعد، فلما نزلت نسخ تأخير الصلاة لذلك، وهذا بين في حديث أبي سعيد الخدري، الذي رواه الشافعي وأهل السنن، ولكن يشكل على هذا^(٣) ما حكاه البخاري رحمه الله، في صحيحه، حيث قال:

«باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو»: قال الأوزاعي: إن كان تَهَيَّأَ الفتحُ ولم يقدروا على الصلاة، صلُّوا إيماء، كل امرئ لنفسه، فإن لم يقدروا على الإيماء أخرُوا الصلاة حتى ينكشف القتالُ، أو يأمنوا فيصلوا ركعتين. فإن لم يقدروا صلُّوا ركعة وسجدتين، فإن لم يقدروا لا يجزئهم التكبير، ويؤخرونها حتى يأمنوا. وبه قال مكحول، وقال أنس بن مالك: حضرت مناهضة^(٤) حصن تُسْتَر عند إضاءة الفجر، واشتد اشتعال القتال، فلم يقدروا على الصلاة، فلم نُصَلِّ إلا بعد ارتفاع النهار، فصليناها ونحن مع أبي موسى، ففُتِحَ لنا، قال أنس: وما يسرنى بتلك الصلاة الدنيا وما فيها^(٥).

انتهى ما ذكره، ثم أتبعه بحديث تأخير الصلاة يوم الأحزاب، ثم بحديث أمره إياهم ألا يصلوا العصر إلا في بنى قريظة، وكأنه كالمختار لذلك، والله أعلم.

ولمن جنح إلى ذلك له أن يحتج^(٦) بصنيع أبي موسى وأصحابه يوم فتح تستر فإنه يشتهر^(٧) غالباً، ولكن كان ذلك في إمارة عمر بن الخطاب، ولم ينقل أنه أنكر عليهم، ولا أحد من الصحابة، والله أعلم.

[و]^(٨) قال هؤلاء: وقد كانت صلاة الخوف مشروعة في الخندق؛ لأن ذات الرقاع كانت قبل الخندق في قول جمهور علماء السير والمغازي. ومن نص على ذلك محمد بن إسحاق، وموسى بن عقبة، والواقدي، ومحمد بن سعد كاتبه، وخليفة بن خياط وغيرهم^(٩). وقال البخاري وغيره: كانت ذات الرقاع بعد الخندق، لحديث أبي موسى وما قَدِمَ إلا في خيبر، والله أعلم. والعجب - كل العجب -

(١) صحيح البخاري برقم (٩٤٦) وصحيح مسلم برقم (١٧٧٠) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

(٢) في ر: «للعهد». (٣) في د: «يشكل عليه». (٤) في د: «مناهضة».

(٥) ذكره البخاري تعليقا (٤٣٤/٢).

(٦) في أ: «أن يقول». (٧) في أ: «شهر». (٨) زيادة من د.

(٩) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢٠٣/٢) والمغازي للواقدي (٣٣٥/١) والطبقات الكبرى لابن سعد (٦١/٢).

أن المزنّى، وأبا يوسف القاضى، وإبراهيم بن إسماعيل بن عُلَيَّة ذهبوا إلى أن صلاة الخوف منسوخة بتأخيرها، عليه السلام، الصلاة يوم الخندق. وهذا غريب جداً، وقد ثبتت الأحاديث بعد الخندق بصلاة الخوف، وحمل تأخير الصلاة يومئذ على ما قاله مكحول والأوزاعى أقوى وأقرب، والله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ أى: إذا صليت بهم إماماً فى صلاة الخوف، وهذه حالة غير الأولى، فإن تلك قصرها إلى ركعة، كما دل عليه الحديث، فرادى ورجالا وركبانا، مستقبلى القبلة وغير مستقبلها، ثم ذكر حال الاجتماع والائتمام بإمام واحد. وما أحسن ما استدل به من ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة، حيث اغتفرت أفعال كثيرة لأجل الجماعة، فلولا أنها واجبة لما ساغ ذلك، وأما من استدل بهذه الآية على أن صلاة الخوف منسوخة بعد النبى ﷺ لقوله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ﴾ فبعده تفوت هذه الصفة، فإنه استدلال ضعيف، ويُرَدُّ عليه مثل قول مانعى الزكاة، الذين احتجوا بقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] قالوا: فنحن لا ندفع زكاتنا بعده ﷺ إلى أحد، بل نخرجها نحن بأيدينا^(١) على من نراه، ولا ندفعها إلى من صلاته، أى: دعاؤه، سكن لنا، ومع هذا ردّ عليهم الصحابة وأبوا عليهم هذا الاستدلال، وأجبروهم على أداء الزكاة، وقاتلوا من منعها منهم.

ولنذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة أولاً قبل ذكر صفتها:

قال ابن جرير: حدثنى المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا عبد الله بن هاشم، أنبأنا سيف^(٢)، عن أبى رَوْق، عن أبى أيوب، عن على، رضى الله عنه، قال: سأل قوم من بنى النجار رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إنا نضرب فى الأرض، فكيف نصلى؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾. ثم انقطع الوحي، فلما كان بعد ذلك بحول غزا النبى ﷺ فصلى الظهر، فقال المشركون: لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم، هلا شددتم عليهم؟ فقال قائل منهم: إن لهم أخرى مثلها فى إثرها. قال: فأنزل الله عز وجل بين الصلاتين: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا [إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا. إِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ إلى قوله: ﴿أَعِدْ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾^(٣) فنزلت صلاة الخوف.

وهذا سياق غريب جداً^(٤)، ولكن لبعضه شاهد من رواية أبى عياش الزُّرقى، واسمه زيد بن الصامت، رضى الله عنه، قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرزاق، حدثنا الثورى، عن منصور، عن مجاهد، عن أبى عياش قال: كنا مع رسول الله ﷺ بعُصْفَانَ، فاستقبلنا المشركون، عليهم خالد بن الوليد، وهم بيننا وبين القبلة، فصلى بنا النبى ﷺ الظهر، فقالوا: لقد^(٥) كانوا على حال لو أصبنا غُرَّتْهم. ثم قالوا: تأتى عليهم الآن صلاة هى أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم. قال: فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾. قال: فحضرت، فأمرهم النبى ﷺ فأخذوا السلاح، [قال]^(٦): فصفنا^(٧) خلفه

(١) فى ر: «من أيدينا».

(٢) فى أ: «سفيان».

(٣) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآيتين».

(٤) تفسير الطبرى (١٢٦/٩).

(٥) فى أ: «قد».

(٦) زيادة من أ.

(٧) فى أ: «فصفنا».

صفين، قال: ثم ركع فركعنا جميعا، ثم رفع فرفعنا جميعا، ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذي يليه والآخرين قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، ثم ركع فركعوا جميعا، ثم رفع فرفعوا جميعا، ثم سجد النبي ﷺ والصف الذي يليه، والآخرين قيام يحرسونهم، فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا، ثم سلم عليهم، ثم انصرف. قال: فصلاها رسول الله ﷺ مرتين: مرة بعسفان، ومرة بأرض بني سليم.

ثم رواه أحمد، عن عُثْرٍ، عن شعبة، عن منصور، به نحوه. وهكذا رواه أبو داود، عن سعيد ابن منصور، عن جرير بن عبد الحميد، والنسائي من حديث شعبة وعبد العزيز بن عبد الصمد، كلهم عن منصور، به^(١).

وهذا إسناد صحيح، وله شواهد كثيرة، فمن ذلك ما رواه البخاري حيث قال: حدثنا حيوة بن شريح، حدثنا محمد بن حرب، عن الزبيدي، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس قال: قام النبي ﷺ وقام الناس معه، فكبر وكبروا معه، وركع وركع ناس منهم، ثم سجد وسجدوا معه، ثم قام الثانية فقام الذين سجدوا، وحرسوا إخوانهم، وأتت الطائفة الأخرى فركعوا وسجدوا معه، والناس كلهم في الصلاة، ولكن يحرس بعضهم بعضا^(٢).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة، عن سليمان الشكري: أنه سأل جابر بن عبد الله عن إقصار الصلاة: أي يوم أنزل؟ أو: أي يوم هو؟ فقال جابر: انطلقنا نتلقى عير قريش آتية من الشام، حتى إذا كنا بنخل، جاء رجل من القوم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد. قال: «نعم»، قال: هل تخافني؟ قال: «لا». قال: فما^(٣) يمنعك مني؟ قال: «الله يمنعني منك». قال: فسل السيف ثم تهدده وأوعده، ثم نادى بالترحل وأخذ السلاح، ثم نودي بالصلاة، فصلى رسول الله ﷺ بطائفة من القوم وطائفة أخرى تحرسهم. فصلى بالذين يلونه ركعتين، ثم تأخر الذين يلونه على أعقابهم فقاموا في مصاف أصحابهم، ثم جاء الآخرون فصلى بهم ركعتين والآخرين يحرسونهم، ثم سلم. فكانت للنبي ﷺ أربع ركعات، والقوم ركعتين ركعتين، فيومئذ أنزل الله في إقصار الصلاة وأمر المؤمنين بأخذ السلاح.

وقال الإمام أحمد: حدثنا شريح^(٤)، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سليمان بن قيس الشكري، عن جابر بن عبد الله قال: قاتل رسول الله ﷺ محارب خصفة^(٥)، فجاء رجل منهم يقال له: «غورث بن الحارث» حتى قام على رسول الله ﷺ بالسيف فقال: من يمنعك مني؟ قال: «الله»، فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ فقال: «ومن يمنعك مني؟» قال: كن خير آخذ. قال: «أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله؟» قال: لا، ولكني أعاهدك ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلى سبيله، فأتى قومه فقال: جئتكم^(٦) من عند خير الناس. فلما حضرت الصلاة صلى

(١) المسند (٤/٥٩، ٦٠) وسنن أبي داود برقم (١٢٣٦) وسنن سعيد بن منصور برقم (٦٨٦) وسنن النسائي (٣/١٧٦).

(٢) صحيح البخاري برقم (٩٤٤).

(٣) في ر: «فمن».

(٤) في ر: «شريح».

(٥) في ر: «حفصة».

(٦) في أ: «جئتكم».

رسول الله ﷺ صلاة الخوف، فكان الناس طائفتين: طائفة بإزاء العدو، وطائفة صلوا مع رسول الله ﷺ. فصلى بالطائفة^(١) الذين معه ركعتين، وانصرفوا، فكانوا بمكان أولئك الذين بإزاء عدوهم. وانصرف الذين بإزاء عدوهم فصلوا مع رسول الله ﷺ ركعتين، فكان لرسول الله ﷺ أربع ركعات، وللقوم ركعتين ركعتين.

تفرد به من هذا الوجه^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو قطن عمرو بن الهيثم، حدثنا المسعودي، عن يزيد الفقير قال: سألت جابر بن عبد الله عن الركعتين في السفر: أقصرهما؟ قال: الركعتان في السفر تمام، إنما القصر واحدة عند القتال، بينما نحن مع رسول الله ﷺ في قتال إذ أقيمت الصلاة، فقام رسول الله ﷺ فصف طائفة، وطائفة وجهها قبل العدو، فصل بهم ركعة وسجد بهم سجدتين، ثم الذين خلفوا انطلقوا إلى أولئك فقاموا مقامهم ومكانهم نحو ذا، وجاء أولئك فقاموا خلف رسول الله ﷺ فصلى بهم ركعة وسجد بهم سجدتين، ثم إن رسول الله ﷺ جلس وسلم، وسلم الذين خلفه، وسلم أولئك، فكانت لرسول الله ﷺ ركعتين، وللقوم ركعة ركعة، ثم قرأ: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن الحكم، عن يزيد الفقير، عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ صلى بهم صلاة الخوف، فقام صف بين يديه، وصف خلفه، فصلى بالذي خلفه ركعة وسجدتين، ثم تقدم هؤلاء حتى قاموا في مقام أصحابهم، وجاء أولئك حتى قاموا مقام هؤلاء، فصلى بهم رسول الله ﷺ ركعة وسجدتين، ثم سلم. فكانت للنبي ﷺ ركعتين ولهم ركعة.

ورواه النسائي من حديث شعبة، ولهذا الحديث طرق عن جابر^(٤)، وهو في صحيح مسلم من وجه آخر بلفظ آخر^(٥)، وقد رواه عن جابر جماعة كثيرون في الصحيح والسنن والمسند.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا عبد الله بن المبارك، أنبأنا معمر، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه قال: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ قال: هي صلاة الخوف، صلى رسول الله ﷺ بإحدى الطائفتين ركعة، والطائفة الأخرى مقبلة على العدو، وأقبلت الطائفة الأخرى التي كانت مقبلة على العدو فصلى بهم رسول الله ﷺ ركعة أخرى، ثم سلم بهم، ثم قامت كل طائفة منهم فصلت ركعة ركعة. وقد روى هذا الحديث الجماعة في كتبهم من طريق معمر، به ولهذا الحديث طرق كثيرة عن جماعة من الصحابة، وقد أجاد الحافظ أبو بكر بن مردويه في سرد طُرُقِهِ وألفاظه، وكذا ابن جرير، ولنحرره في كتاب «الأحكام الكبير» إن شاء الله، وبه الثقة.

(١) في أ: «الطائفتين».

(٢) المسند (٣/ ٣٩٠) وعلق البخاري قطعة منه في صحيحه (٧/ ٤٧٦) وقد رواه من غير هذا الوجه برقم (٤١٣٥) فرواه من طريق

الزهري عن سنان بن أبي سنان عن جابر بنحوه، ورواه من طريق يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن جابر بنحوه.

(٣) ورواه ابن أبي شيبة مختصراً (٢/ ٤٦٣) من طريق وكيع عن المسعودي به.

(٤) المسند (٣/ ٢٩٨) وسنن النسائي (٣/ ١٧٤).

(٥) رواه مسلم برقم (٨٤٠) من طريق عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء عن جابر رضي الله عنه.

وأما الأمر بحمل السلاح في صلاة الخوف، فمحمول عند طائفة من العلماء على الوجوب لظاهر الآية، وهو أحد قولي الشافعي ويدل عليه قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ أى: بحيث تكونون على أهبة إذا احتجتم إليها لبستموها بلا كلفة: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (١٠٣) وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤)﴾.

يأمر الله تعالى بكثرة الذكر عقب صلاة الخوف، وإن كان مشروعا مرغبا فيه أيضا بعد غيرها، ولكن هاهنا أكد لما وقع فيها من التخفيف في أركانها، ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب وغير ذلك، مما ليس يوجد في غيرها، كما قال تعالى في (١) الأشهر الحرم: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، وإن كان هذا منهيًا عنه في غيرها، ولكن فيها أكد لشدة حرمتها وعظمتها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ أى في سائر أحوالكم.

ثم قال: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أى: فإذا أمنتُم وذهب الخوف، وحصلت الطمأنينة ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أى: فأتَمُّوها وأقيموها كما أمرتم بحدودها، وخشوعها، وسجودها وركوعها، وجميع شؤونها.

وقوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ قال ابن عباس: أى مفروضا. وكذا روى عن مجاهد، وسالم بن عبد الله، وعلى بن الحسين، ومحمد بن على، والحسن، ومقاتل، والسدى، وعطية العوفى.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ قال ابن مسعود: إن للصلاة وقتا (٢) كوقت الحج.

وقال زيد بن أسلم: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ قال: منجما، كلما مضى نجم، جاءتهم يعنى: كلما مضى وقت جاء وقت.

وقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ أى: لا تضعفوا في طلب عدوكم، بل جدوا فيهم وقتلوه، واقعدوا لهم كل مرصد: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ أى: كما يصيبكم الجراح والقتل، كذلك يحصل لهم، كما قال (٣): ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ثم قال: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أى: أنتم وإياهم (٤) سواء فيما يصيبكم وإياهم من

(٣) فى د: «كقوله».

(٢) فى د، ر: «للصلاة وقت».

(١) فى أ: «حين ذكر».

(٤) فى أ: «وهم».

الجراح والآلام، ولكن أنتم ترجون من الله المثوبة والنصر والتأييد، وهم لا يرجون شيئا من ذلك، فأنتم أولى بالجهاد منهم، وأشد رغبة فى إقامة كلمة الله وإعلائها.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أى: هو أعلم وأحكم فيما يقدره ويقضيه، وينفذه ويمضيه، من أحكامه الكونية والشرعية، وهو المحمود على كل حال.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩) ﴿

يقول تعالى مخاطبا لرسوله محمد ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أى: هو حق من الله، وهو يتضمن الحق فى خبره وطلبه.

وقوله: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ احتج به من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان، عليه السلام، له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية، وبما ثبت فى الصحيحين من رواية هشام بن عروة، عن أبيه، عن زينب بنت أم سلمة، عن أم سلمة؛ أن رسول الله ﷺ سمع حلبة خصم بيباب حجرتة، فخرج إليهم فقال: «ألا إنما أنا بشر، وإنما أفضى بنحو مما أسمع، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضى له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من نار فليحملها^(١) أو ليذرها»^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا أسامة بن زيد، عن عبد الله بن رافع، عن أم سلمة قالت: جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ فى مواريث بينهما قد درست، ليس عندهما^(٣) بينة، فقال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إلى، وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، وإنما أفضى بينكم على نحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه؛ فإنما أقطع له قطعة من النار، يأتى بها إسظاماً فى عنقه يوم القيامة». فبكى الرجلان وقال كل منهما: حقى لأخى. فقال رسول الله ﷺ: «أما إذ قلتما فاذهبا فاقسما، ثم توخيا الحق، ثم استهما، ثم ليحلل كل واحد منكما»^(٤) صاحبه.

وقد رواه أبو داود من حديث أسامة بن زيد، به. وزاد: «إنى إنما أفضى بينكما برأى فيما لم

(١) فى أ: «فليأخذها»..

(٢) صحيح البخارى برقم (٢٤٥٨) وصحيح مسلم برقم (١٧١٣).

(٣) فى أ: «بينهما».

(٤) فى أ: «كل منهما».

ينزل على فيه^(١).

وقد روى ابن مردويه، من طريق العوفي، عن ابن عباس قال: إن نفراً من الأنصار غزوا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته، فسروا درع لأحدهم، فأظن بها رجل من الأنصار، فأتى صاحب الدرع رسول الله ﷺ فقال: إن طُعْمَةَ بن أُبَيْرِق سرق درعي، فلما رأى السارق^(٢) ذلك عمد إليها فألقاها في بيت رجل برى، وقال لنفر من عشيرته: إني غَيَّبْتُ الدرع وألقيتها في بيت فلان، وستوجد عنده. فانطلقوا إلى نبي الله ﷺ ليلاً، فقالوا: يا نبي الله، إن صاحبنا برى. وإن صاحب الدرع فلان، وقد أحطنا بذلك علماً، فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس وجادل عنه. فإنه إلا^(٣) يعصمه الله بك يهلك، فقام رسول الله ﷺ فبرأه وعذره على رؤوس الناس، فأنزل الله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً^(٤)﴾ [يقول: احكم بما أنزل الله إليك في الكتاب]^(٥)، ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً. وَلَا تَجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ [إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً]^(٦)﴾. ثم قال للذين أتوا رسول الله ﷺ مُسْتَخْفِينَ بالكذب: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ [وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً. هَآ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا]^(٧)﴾ يعني: الذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين يجادلون عن الخائنين ثم قال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ [ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً]^(٨)﴾، يعني: الذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين بالكذب، ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾ يعني: السارق والذين جادلوا عن السارق. وهذا سياق غريب^(٩)، وكذا^(١٠) ذكر مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدي، وابن زيد وغيرهم في هذه الآية أنها أنزلت^(١١) في سارق بنى أُبَيْرِق على اختلاف سياقاتهم، وهي متقاربة.

وقد روى هذه القصة محمد بن إسحاق مطولة، فقال أبو عيسى الترمذي عند تفسير هذه الآية من جامعه، وابن جرير في تفسيره:

حدثنا الحسن بن أحمد بن أبي شبيب أبو مسلم الحراني، حدثنا محمد بن سلمة الحراني، حدثنا محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن أبيه، عن جده قتادة بن النعمان، رضى الله عنه، قال: كان أهل بيت منا يقال لهم بنو أُبَيْرِق: بشر وبشير ومُبَشِّر، وكان بُشَيْر رجلاً منافقاً، يقول^(١٢) الشعر يهجو به أصحاب النبي ﷺ، ثم ينحله بعض العرب، ثم يقول: قال فلان كذا وكذا، وقال فلان كذا وكذا، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث؟ - أو كما قال الرجل - وقالوا^(١٣): ابن الأبيرق قالها. قالوا: وكانوا أهل بيت

(١) المسند (٦/ ٣٢٠) وسنن أبي داود برقم (٣٥٨٤).

(٢) في ر: «البارق». (٣) في د: «إن لم».

(٤) في ر: «وأنزل الله الذكر في الكتاب». (٥) زيادة من أ.

(٦) زيادة من ر، أ، وفي هـ: «الآية».

(٧) زيادة من ر، أ، و، وفي هـ: «الآيتين».

(٨) زيادة من ر، أ، وفي هـ: «الآية».

(٩) ورواه الطبري في تفسيره (١٨٣/٩) وإسناده مسلسل بالضعفاء كما تقدم.

(١٠) في أ: «وهكذا».

(١١) في ر: «أن هذه الآية نزلت». (١٢) في أ: «منافقا فكان يقول».

حاجة وفاقه في الجاهلية والإسلام، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة^(١) من الشام من الدرّمك ابتاع الرجل منها فخص بها نفسه، وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير، فقدمت ضافطة^(٢) من الشام، فابتاع عمى رفاعة بن زيد حملا من الدرّمك فحطه في مشربة له، وفي المشربة سلاح: درع وسيف، فعدى عليه من تحت البيت، فنقبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح. فلما أصبح أتاني عمى رفاعة فقال: يا ابن أخي، إنه قد عدى علينا في ليلتنا هذه. فنقبت مشربتنا وذهب بطعامنا وسلاحنا. قال: فتجسسنا في الدار وسألنا، فقليل لنا: قد رأينا بنى أبيرق استوقدوا في هذه الليلة، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم.

قال: وكان بنو أبيرق قالوا - ونحن نسأل في الدار -: والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل رجلا منا له صلاح وإسلام. فلما سمع لبيد اخترط سيفه وقال: أنا أسرق؟ والله^(٣) ليخالطنكم هذا السيف، أو لتبينن هذه السرقة. قالوا: إليك عنا أيها الرجل، فما أنت بصاحبها. فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها.

فقال لى عمى: يا بن أخي، لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له. قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمى رفاعة بن زيد، فنقبوا مشربة له، وأخذوا سلاحه وطعامه. فليردوا علينا سلاحنا، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه. فقال النبي ﷺ: «سأمر في ذلك».

فلما سمع بنو أبيرق أتوا رجلا منهم يقال له: أسير بن عمرو^(٥)، فكلّموه في ذلك، فاجتمع في ذلك أناس من أهل الدار فقالوا: يا رسول الله، إن قتادة^(٦) بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح، يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبوت. قال قتادة: فأتيت النبي ﷺ فكلّمته، فقال: «عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح، ترميهم بالسرقة على غير ثبوت ولا بينة؟»^(٧)

قال: فرجعت ولوددت أنى خرجت من بعض مالى، ولم أكلم رسول الله ﷺ فى ذلك، فأتاني عمى رفاعة فقال: يا ابن أخي، ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لى رسول الله ﷺ، فقال: الله المستعان. فلم نلبث أن نزل القرآن: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ بنى أبيرق ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ مما قلت لقتادة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ [إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا]. يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ^(٨) إلى قوله: ﴿رَحِيمًا﴾ أى: لو استغفروا الله لغفر لهم ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ إلى قوله: ﴿إِثْمًا مُبِينًا﴾ قولهم للبيد: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

فلما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فردّه إلى رفاعة.

(٤) فى د: «رسول الله».

(٧) فى أ: «ثبت وبينه».

(١، ٢) فى د: «غير»، وفى ر: «ضافطة».

(٣) فى أ: «فوالله».

(٦) فى أ: «قتادة».

(٥) فى د، أ: «ابن عروة».

(٨) زيادة من ر، أ.

فقال قتادة: لما أتيت عمى بالسلاح وكان شيخاً، قد عشا أو عسا - الشك من أبى عيسى - فى الجاهلية وكنت أرى إسلامه مدخولاً فلما أتيت بالسلاح قال: يا ابن أخى، هو فى سبيل الله. فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً، فلما نزل القرآن لحق بُشَيْرٌ بالمشرِكين، فنزل على سُلَافَةَ بنت سعد بن سُمَيَّة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ فلما نزل على سُلَافَةَ رماها حسان بن ثابت بأبيات من ^(١) شعره، فأخذت رَحْلَهُ فوضعت على رأسها، ثم خرجت به فَرَمَتْ به فى الأبطح، ثم قالت: أهديت لى شِعْرَ حسان؟ ما كنت تأتيني بخير.

لفظ الترمذى، ثم قال الترمذى: هذا حديث غريب لا نعلم أحداً أسنده غير محمد بن سلمة الحرانى: وروى يونس بن بُكَيْرٍ وغير واحد، عن محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عُمَر بن قتادة مرسلًا، لم يذكروا فيه عن ^(٢) أبيه عن جده.

ورواه ابن حاتم عن هاشم بن القاسم الحرانى، عن محمد بن سلمة، به ببعضه.

ورواه ابن المنذر فى تفسيره: حدثنا محمد بن إسماعيل - يعنى الصائغ - حدثنا الحسن بن أحمد ابن أبى شعيب الحرانى، حدثنا محمد بن سلمة - فذكره بطوله.

ورواه أبو الشيخ الأصبهاني فى تفسيره عن محمد بن العباس بن أيوب والحسن بن يعقوب، كلاهما عن الحسن بن أحمد بن أبى شعيب الحرانى، عن محمد بن سلمة، به. ثم قال فى آخره: قال محمد بن سلمة: سمع منى هذا الحديث يحيى بن معين، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن إسرائيل ^(٣).

وقد روى الحاكم أبو عبد الله النيسابورى هذا الحديث فى كتابه «المستدرک» عن أبى العباس الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار العطاردى، عن يونس بن بُكَيْرٍ، عن محمد بن إسحاق - بمعناه أتم منه، وفيه الشعر، ثم قال: وهذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه ^(٤).

وقوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ ۖ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ ^(٥) الآية، هذا إنكار على المنافقين فى كونهم يستخفون بقبائحهم من الناس لئلا ينكروا عليهم، ويجاهرون الله بها لأنه ^(٦) مطلع على سرائرهم وعالم بما فى ضمائرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ تهديد لهم ووعيد.

ثم قال: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ ^(٧) أى: هَبْ أَنْ هَؤُلَاءِ انتصروا فى الدنيا بما أبدوه أو أبدى لهم عند الحكام الذين

(١) فى ر: «فى».

(٢) فى أ: «غير».

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٠٣٦) وتفسير الطبرى (١٧٧/٩) وانظر: حاشية الشيخ أحمد شاكى فى كلامه على هذا الحديث (١٨١/٩).

(٤) المستدرک (٣٨٥/٤ - ٣٨٨) ووافقه الذهبى.

(٥) زيادة من ر، أ.

(٦) فى أ: «فإنه».

(٧) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية».

يحكمون بالظاهر - وهم متعبدون^(١) بذلك - فماذا يكون صنيعهم يوم القيامة بين يدي الله، عز وجل، الذي يعلم السر وأخفى؟ ومن ذا الذي يتوكل لهم يومئذ في ترويح دعواهم؟ أى: لا أحد يكون يومئذ لهم وكيلًا، ولهذا قال: ﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (١١٠) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (١١٢) وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣)﴾.

يخبر، تعالى، عن كرمه وجوده: أن كل من تاب إليه تاب عليه من أى ذنب كان. فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، أنه قال فى هذه الآية: أخبر الله عباده بحلمه وعفوه وكرمه وسعة رحمته، ومغفرته، فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال. رواه ابن جرير.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا محمد بن مثنى، حدثنا محمد بن أبى عدى، عن شعبة، عن عاصم، عن أبى وائل قال: قال عبد الله: كان بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم ذنباً أصبح قد كتب كفارة ذلك الذنب على بابه، وإذا أصاب البول شيئاً منه قرضه بالمقراض^(٢). فقال رجل: لقد أتى الله بنى إسرائيل خيراً - فقال عبد الله: ما آتاكم الله خيراً مما آتاهم، جعل^(٣) الماء لكم طهوراً، وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥] وقال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

وقال أيضاً: حدثنى يعقوب، حدثنا هُشَيْمٌ، حدثنا ابن عَوْنٌ، عن حبيب بن أبى ثابت قال: جاءت امرأة إلى عبد الله بن مُعَقِّلٍ فسألته عن امرأة فَجَرَتْ فحبلت، فلما^(٤) ولدت قتلت ولدها؟ قال عبد الله بن مغفل: ما لها؟ لها النار! فانصرفت وهي تبكى، فدعاها^(٥) ثم قال: ما أرى أمرك إلا أحد أمرين: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. قال: فمسحت عينها، ثم مضت^(٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا شعبة، عن عثمان بن المغيرة قال: سمعت على بن ربيعة من بنى أسد، يحدث^(٧) عن أسماء - أو ابن أسماء من بنى فزارة^(٨) - قال: قال

(٣) فى ر: «جعل الله».

(٢) فى ر: «المقاريض».

(١) فى ر، أ: «معبدون».

(٥) فى ر، أ: «فدعاها قال».

(٤) فى أ: «ولما».

(٦) تفسير الطبرى (٩/١٩٥).

(٨) فى أ: «مزاراة».

(٧) فى أ: «يتحدث».

على، رضى الله عنه: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً نفعتنى الله بما شاء أن ينفعتنى منه. وحدثنى أبو بكر - وصدق أبو بكر - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يذنب^(١) ذنباً ثم يتوضأ فيصلى ركعتين، ثم يستغفر الله لذلك الذنب إلا غفر له». وقرأ هاتين الآيتين: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ [ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً]﴾^(٢) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية^(٣).

وقد تكلمنا على هذا الحديث، وعزيناها إلى من رواه من أصحاب السنن، وذكرنا ما فى سنده من مقال فى مسند أبى بكر الصديق، رضى الله عنه. وقد تقدم بعض ذلك فى سورة آل عمران أيضاً.

وقد رواه ابن مردويه فى تفسيره من وجه آخر عن على فقال: حدثنا أحمد بن محمد بن زياد، حدثنا إبراهيم بن إسحاق الحربى، حدثنا داود بن مهران الدباغ، حدثنا عمر بن يزيد، عن أبى إسحاق، عن عبد خير، عن على قال: سمعت أبا بكر - هو الصديق -^(٤) يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد أذنب فقام فتوضأ فأحسن وضوءه، ثم قام فصلى واستغفر من ذنبه، إلا كان حقاً على الله أن يغفر له؛ لأنه يقول: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ [ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً]﴾»^(٥).

ثم رواه من طريق أبان بن أبى عياش، عن أبى إسحاق السبيعى، عن الحارث، عن على، عن الصديق - بنحوه. وهذا إسناد لا يصح^(٦).

وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن على بن دحيم حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا موسى بن مروان الرقى، حدثنا مبشر بن إسماعيل الحلبي، عن تمام بن نجيع، حدثنى كعب بن ذهل الأزدي قال: سمعت أبا الدرداء يحدث قال: كان رسول الله ﷺ إذا جلسنا حوله، وكانت له حاجة فقام إليها وأراد الرجوع، ترك نعليه فى مجلسه أو بعض ما عليه، وإنه قام فترك نعليه. قال أبو الدرداء: فأخذ ركوة من ماء فاتبعته، فمضى ساعة، ثم رجع ولم يقض حاجته، فقال: «إنه أتانى آت من ربي فقال: إنه: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ [ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً]﴾ فأردت أن أبشر أصحابي». قال أبو الدرداء: وكانت قد شقت على الناس الآية التى قبلها: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يَجْزِ بِهِ﴾ فقلت: يا رسول الله، وإن زنى وإن سرق، ثم استغفر ربه، غفر^(٧) له؟ قال: «نعم» قلت الثانية، قال: «نعم»، قلت الثالثة، قال: «نعم»، وإن زنى وإن سرق، ثم استغفر الله غفر له على رغم أنف عويمر». قال: فرأيت أبا الدرداء يضرب أنف نفسه بأصبعه.

(١) فى أ: «أذنب». (٢) زيادة من د، ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٣) المسند (٨/١) وانظر تخريجه فيما مضى عند سورة آل عمران، الآية: ١٣٥.

(٤) فى ر، أ: «وهو الصدوق». (٥) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٦) ذكره الدارقطنى فى العلل (١٧٩/١) ورواه فى الأفراد كما فى الأطراف لابن القيسرانى (ق ١٣) وقال: «لم يروه عنه - أى عمر بن

يزيد - غير داود بن مهران وهو غريب من حديث أبى إسحاق عن عبد خير».

وقال فى العلل: «أحسنها إسناداً وأصحها ما رواه الثورى ومسعر ومن تابعهما من عثمان بن المغيرة». وهى رواية أهل السنن.

(٧) فى أ: «غفر الله له».

هذا حديث غريب جداً من هذا الوجه بهذا السياق، وفي إسناده ضعف^(١).

وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ [وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا]﴾^(٢) كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى [وَأَن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ]﴾^(٣) الآية: [فاطر: ١٨] يعنى أنه لا يجنى أحد على أحد، وإنما على كل نفس ما عملت، لا يحمل عنها غيرها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أى: من^(٤) علمه وحكمته، وعدله ورحمته كان ذلك.

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا [فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا]﴾^(٥)، يعنى: كما اتهم بنو أبيرق بصنيعهم القبيح ذلك الرجل الصالح، وهو لييد بن سهل، كما تقدم فى الحديث، أو زيد بن السمين اليهودى على ما قاله الآخرون، وقد كان بريئاً وهم الظلمة الخونة، كما أطلع الله على ذلك رسوله ﷺ. ثم هذا التقرير وهذا التوبيخ عام فيهم وفى غيرهم ممن اتصف مثل صفتهم^(٦)، وارتكب مثل خطيئتهم، فعليه مثل عقوبتهم.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾. قال الإمام ابن أبى حاتم: أنبأنا هاشم بن القاسم الحرانى فيما كتب إلى، حدثنا محمد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق. عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى عن أبيه، عن جده قتادة بن النعمان - وذكر قصة بنى أبيرق، فأنزل الله: ﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعنى: أسير بن^(٧) عروة وأصحابه. يعنى بذلك لما أثنوا على بنى أبيرق ولا موا قتادة بن النعمان فى كونه اتهمهم، وهم صلحاء برآء، ولم يكن الأمر كما أنهوه إلى رسول الله ﷺ؛ ولهذا أنزل الله فصل القضية^(٨) وجلاءها لرسوله ﷺ.

ثم امتن عليه بتأييده إياه فى جميع الأحوال، وعصمته له، وما أنزل عليه من الكتاب، وهو القرآن، والحكمة، وهى السنة: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ أى: [من]^(٩) قبل نزول ذلك عليك، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ [وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ]﴾^(١٠) [الشورى: ٥٢، ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

(١) ورواه الطبرانى فى معجمه كما فى المجمع (١١/٧)، وقال الهيثمى: «فيه مبشر بن إسماعيل، وثقه ابن معين وغيره، وضعفه البخارى وغيره».

ورواه أبو داود فى سننه برقم (٤٨٥٤) حدثنا إبراهيم بن موسى الرازى حدثنا مبشر بن إسماعيل فذكر أوله إلى قوله: «فترك نعليه».

(٢) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية». (٣) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية». (٤) فى أ: «عن».

(٥) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية». (٦) فى أ: «اتصف بصفتهم». (٧) فى ر: «بنى».

(٨) فى أ: «القصة». (٩) زيادة من أ.

(١٠) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «إلى آخر السورة».

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١١٤) وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (١١٥).

يقول تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ﴾ يعني: كلام الناس ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أى: إلا نجوى من قال ذلك كما جاء فى الحديث الذى رواه ابن مردويه:

حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم، حدثنا محمد بن سليمان بن الحارث، حدثنا محمد بن يزيد بن خنيس^(١) قال: دخلنا على سفيان الثوري نعوذه - وأومأ إلى دار العطارين - فدخل عليه سعيد ابن حسان المخزومي فقال له سفيان الثوري: الحديث الذى كنت حدثتني^(٢) به عن أم صالح اردده على. فقال: حدثتني أم صالح، عن صفية بنت شيبة، عن أم حبيبة قالت: قال رسول الله ﷺ: «كلام ابن آدم كله عليه لا له ما^(٣) خلا أمرا^(٤) بمعروف أو نهيا^(٥) عن منكر [أو ذكر الله عز وجل]»، قال سفيان: فناشدته^(٦) [٧]، فقال محمد بن يزيد: ما أشد هذا الحديث؟ فقال سفيان: وما شدة هذا الحديث؟ إنما جاءت به امرأة عن امرأة، هذا فى كتاب الله الذى أرسل به نبيكم ﷺ أو ما سمعت الله يقول فى كتابه: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ فهو هذا بعينه، أو ما سمعت الله يقول: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨] فهو هذا بعينه، أو ما سمعت الله يقول فى كتابه: ﴿وَالْعَصْرُ. إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ]^(٨)؟ [سورة العصر]، فهو هذا بعينه.

وقد روى هذا الحديث الترمذى وابن ماجه من حديث محمد بن يزيد بن خنيس^(٩)، عن سعيد ابن حسان، به. ولم يذكرأ أقوال^(١٠) الثورى إلى آخرها، ثم قال الترمذى: غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن خنيس^(١١) (١٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، حدثنا صالح بن كيسان، حدثنا محمد بن مسلم ابن عبيد الله بن شهاب: أن حميد بن عبد الرحمن بن عوف أخبره، أن أمه أم كلثوم بنت عقبة

(٣) فى أ: «إلا ما».

(٦) فى أ: «وناشدته».

(٢) فى أ: «حدثتني».

(٥) فى ر، أ: «أو نهى».

(١) فى ر: «حنيس».

(٤) فى ر، أ: «أمر».

(٧) زيادة من ر، أ.

(٨) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «إلى آخره».

(١١) فى ر: «حنيس».

(١٠) فى أ: «قول».

(٩) فى ر: «حنيس».

(١٢) سنن الترمذى برقم (٢٤١٢) وسنن ابن ماجه برقم (٣٩٧٤) ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت برقم (١٤) من طريق محمد بن يزيد بن خنيس بنحو سياق ابن مردويه.

أخبرته: أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي^(١) يصلح بين الناس فينمي خيراً - أو يقول خيراً» وقالت: لم أسمع به يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث: في الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها. قال: وكانت أم كلثوم بنت عقبة من المهاجرات اللاتي بايعن رسول الله ﷺ.

وقد رواه الجماعة، سوى ابن ماجه، من طرق، عن الزهري، به نحوه^(٢).

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة^(٣) عن سالم بن أبي الجعد، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة، والصيام والصدقة؟» قالوا: بلى. قال: «إصلاح ذات البين» قال: «وفساد ذات البين هي الحالقة».

ورواه أبو داود والترمذي، من حديث أبي معاوية، وقال الترمذي: حسن صحيح^(٤).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا سريج^(٥): بن يونس، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر، حدثنا أبي، عن حميد، عن أنس؛ أن النبي ﷺ قال لأبي أيوب: «ألا أدلك على تجارة؟» قال: بلى. قال: «تسعى في صلح بين الناس إذا تفاسدوا، وتُقارب بينهم إذا تباعدوا» ثم قال البزار: وعبد الرحمن بن عبد الله العمرى لَيِّن، وقد حدث بأحاديث لم يتابع عليها^(٦).

ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي: مخلصاً في ذلك محتسباً ثواب ذلك عند الله عز وجل ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً كثيراً واسعاً.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾ أي: ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ، فصار في شق والشرع في شق، وذلك عن عَمْدٍ منه بعدما ظهر له الحق وتبين له واتضح له. وقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا ملازم للصفة الأولى، ولكن قد تكون^(٧) المخالفة لنص الشارع، وقد تكون^(٨) لما أجمعت^(٩) عليه الأمة المحمدية، فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً، فإنه قد ضُمِنَ لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ، تشريفاً لهم وتعظيماً لنبينهم

(١) في ر: «بالذي».

(٢) المسند (٤٠٣/٦) وصحيح البخاري برقم (٢٦٩٢) وصحيح مسلم برقم (٢٦٠٥) وسنن أبي داود برقم (٤٩٢٠) وسنن الترمذي برقم (١٩٣٨) وسنن النسائي الكبرى برقم (٩١٢٣).

(٣) في ر، أ: «محمد».

(٤) المسند (٤٤٤/٦) وسنن أبي داود برقم (٤٩١٩) وسنن الترمذي برقم (٢٥٠٩).

(٥) في ر، أ: «سريج».

(٦) مسند البزار برقم (٢٠٦٠) «كشف الأستار» وقال الهيثمي في المجمع (٧٩/٨): «فيه عبد الرحمن بن عبد الله العمرى وهو متروك».

(٧) في ر، أ: «أجمع».

(٨، ٧) في أ: «يكون».

[عَلَيْهِ السَّلَامُ] ^(١). وقد وردت في ذلك أحاديث صحيحة كثيرة، قد ذكرنا منها طرفاً صالحاً في كتاب «أحاديث الأصول»، ومن العلماء من ادعى تواتر معناها، والذي عول عليه الشافعي، رحمه الله، في الاحتجاج على كون الإجماع حجة تَحَرُّمُ مخالفتها هذه الآية الكريمة، بعد التروى والفكر الطويل. وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها، وإن كان بعضهم قد استشكل ذلك واستبعد الدلالة منها على ذلك ^(٢).

ولهذا تواعد تعالى على ذلك بقوله: ﴿نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك، بأن نحسنها في صدره ونزينها له - استدراجاً له - كما قال تعالى: ﴿فَدَرْنِي وَمَنْ يُكْذِبُ بِهِذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. وقوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وجعل النار مصيره فى الآخرة، لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿احْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ [وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ] مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾^(٣) [الصافات: ٢٢، ٢٣]. وقال: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١١٦) **إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا** (١١٧) **لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تُخْذَنْ مِنْ عِبَادِكِ نَصِيْبًا مَفْرُوضًا** (١١٨) **وَلَا ضَلَّيْنَهُمْ وَلَا مُمِيتَهُمْ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيُبْتَكُنْ أَذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا** (١١٩) **يَعِدُهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا** (١٢٠) **أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا** (١٢١) **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا** ﴿١٢٢﴾ .

قد تقدم الكلام على هذه الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٤) الآية [النساء: ٤٨]، وذكرنا ما يتعلق بها من الأحاديث في صدر هذه السورة.

وقد روى الترمذى حديث ثوير^(٥) بن أبى فاختة سعيد بن علاقة، عن أبيه، عن على رضى الله عنه أنه قال: ما فى القرآن آية أحب إلى من هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ [وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ

(١) زيادة من أ.

(٢) انظر : كلام الإمام الشافعي رحمه الله في الرسالة (ص ٤٧١) في إثبات حجية الإجماع ومناقشة الخصوم.

(٣) زيادة من ر، أ، وفي هـ: «الآية».

(٤) زيادة من ر، أ.

(٥) في أ: «يزيد».

مَنْ يَشَاءُ^(١) ﴿الآية، ثم قال: حسن غريب^(٢) .

وقوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أى: فقد سلك غير^(٣) الطريق الحق، وضل عن الهدى وبعد عن الصواب، وأهلك نفسه وخسرها^(٤) فى الدنيا والآخرة، وفاته سعادة الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾ قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمود بن غيلان، أنبأنا الفضل بن موسى، أخبرنا الحسن^(٥) بن واقد، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن أبى بن كعب: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾ قال: مع كل صنم جنية.

وحدثنا أبى، حدثنا محمد بن سلمة الباهلى، عن عبد العزيز بن محمد، عن هشام - يعنى ابن عروة - عن أبيه، عن عائشة: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾ قالت: أوثانا.

وروى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن، و^(٦)عروة بن الزبير، ومجاهد، وأبى مالك، والسدى، ومقاتل بن حيان نحو ذلك.

وقال جُوَيْرٍ عن الضحاك فى [قوله]^(٧): ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾ قال المشركون: إن الملائكة بنات الله، وإنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، قال: اتخذوها أربابا وصوروهن صور الجوارى، فحكموا^(٨) وقلدوا، وقالوا: هؤلاء يُشَبَّهْنَ بنات الله الذى نعبد، يعنون الملائكة.

وهذا التفسير شبيه بقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى . أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى . تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى . إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ^(٩)﴾ [النجم: ١٩-٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ^(١٠)﴾ [الزخرف: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ^(١١)﴾ [الصافات: ١٥٨، ١٥٩].

وقال على بن أبى طلحة والضحاك، عن ابن عباس: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾ قال: يعنى موتى.

وقال مبارك - يعنى ابن فضالة - عن الحسن: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾، قال الحسن: الإناث كل شىء ميت ليس فيه روح، إما خشبة يابسة وإما حجر يابس. ورواه ابن أبى حاتم وابن جرير، وهو غريب.

(١) زيادة من ر، أ.

(٢) سنن الترمذى برقم (٣٠٣٧).

(٣) فى ر، أ: «عن». (٤) فى أ: «ضرها».

(٥) فى ر، أ: «أبنا الحسين». (٦) فى أ: «عن».

(٧) زيادة من ر، أ. (٨) فى أ: «فحلوا».

(٩) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآيات». (١٠) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(١١) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآيتين».

وقوله: ﴿إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ أى: هو الذى أمرهم بذلك وحسنه لهم وزينه، وهم إنما يعبدون إبليس فى نفس الأمر، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(١) [يس: ٦٠]. وقال تعالى إخباراً عن الملائكة أنهم يقولون يوم القيامة عن المشركين الذين ادعوا عبادتهم فى الدنيا: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١].

وقوله: ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أى: طرده وأبعده من رحمته، وأخرجه من جواره.
وقال: ﴿لَا تَخْذَنْ مِنْ عِبَادِكْ نَصِيًّا مَفْرُوضًا﴾ أى: مُعَيَّنًا مقدراً معلوماً. قال مقاتل بن حيان: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون^(٢) إلى النار، وواحد إلى الجنة.
﴿وَلَا ضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أى: عن الحق ﴿وَلَا مَنِيَهُمْ﴾ أى: أزين لهم ترك التوبة، وأعدهم الأمانى، وأمرهم بالتسوية والتأخير، وأغرمهم من أنفسهم.

وقوله: ﴿وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَسْتَكُنْ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ قال قتادة والسدى وغيرهما: يعنى تشقيها^(٣)، وجعلها سمة وعلامة للبحيرة والسائبة.
﴿وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: يعنى بذلك خصاء^(٤) الدواب. وكذا روى عن ابن عمر، وأنس، وسعيد بن المسيب، وعكرمة، وأبى عياض، وأبى صالح، وقتادة، والثورى. وقد ورد فى حديث النهى عن ذلك^(٥).

وقال الحسن بن أبى الحسن البصرى: يعنى بذلك الوشم. وفى صحيح مسلم النهى عن الوشم فى الوجه^(٦)، وفى لفظ: «لعن^(٧) الله من فعل ذلك». وفى الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات، والنامصات والمتنمصات، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله، عز وجل، ثم قال: ألا لعن من لعن رسول الله ﷺ وهو فى كتاب الله، عز وجل، يعنى قوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]^(٨).

وقال ابن عباس فى رواية عنه، ومجاهد، وعكرمة أيضاً وإبراهيم النخعى، والحسن، وقتادة، والحكم، والسدى، والضحاك، وعطاء الخراسانى فى قوله: ﴿وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ يعنى: دين الله، عز وجل. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] على قول من جعل ذلك أمراً، أى: لا تبدلوا فطرة الله، ودعوا الناس على فطرتهم، كما ثبت فى الصحيحين^(٩) عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على

(١) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٢) فى ر: «وتسعين».

(٣) فى ر: «يشققها»، وفى أ: «نشقها».

(٥) رواه ابن أبى شيبه فى المصنف (٢٢٥/١٢) والبيهقى فى السنن الكبرى (٢٤/١٠) من طريق نافع عن ابن عمر قال: «نهى رسول الله ﷺ عن خصاء الخيل والبهايم» وقال ابن عمر: فيه نماء الخلق.

(٦) صحيح مسلم برقم (٢١١٧) عن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ مر عليه حمار قد وسم فى وجهه فقال: «لعن الله الذى وسمه».

(٧) فى د، ر، أ: «لعة».

(٨) صحيح البخارى برقم (٥٩٤٨).

(٩) صحيح البخارى برقم (١٣٨٥)، وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٨).

الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل يحسون فيها من جدعاء؟» وفى صحيح مسلم، عن عياض بن حمّار قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: إني خلقت عبادى حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت^(١) لهم»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ أى: فقد خسر الدنيا والآخرة، وتلك خسارة لا جبر لها ولا استدراك لفائتها.

وقوله: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾. وهذا^(٣) إخبار عن الواقع؛ لأن الشيطان يعد أولياءه ويمنيهم بأنهم هم الفائزون فى الدنيا والآخرة، وقد كذب وافتى فى ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾، كما قال تعالى مخبراً عن إبليس يوم المعاد: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِي إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ﴾^(٤) إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [إبراهيم: ٢٢].

وقوله: أى: المستحسنون له فيما وعدهم ومناهم ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أى: مصيرهم ومآلهم يوم حسابهم ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أى: ليس لهم عنها مندوحة ولا مصرف، ولا خلاص ولا مناص.

ثم ذكر حال السعداء الأتقياء وما لهم فى مآلهم من الكرامة التامة، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: صدقت قلوبهم وعملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات، وتركوا ما نهوا عنه من المنكرات ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أى: يصرفونها حيث شاءوا وأين شاءوا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أى: بلا زوال ولا انتقال ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ أى: هذا وعد من الله ووعد الله معلوم حقيقة أنه واقع لا محالة، ولهذا أكده بالمصدر الدال على تحقيق الخبر، وهو قوله: ﴿حَقًّا﴾ ثم قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ أى: لا أحد أصدق منه قولاً وخبراً، لا إله إلا هو، ولا رب سواه. وكان رسول الله ﷺ يقول فى خطبته: «إن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار».

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ

(١) فى ر: «ما حللت».

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥).

(٣) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «إلى قوله».

(٤) فى أ: «هذا».

الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا (١٢٦) ﴿﴾

قال قتادة: ذُكِرَ لنا أنَّ المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، فنحن أولى بالله منكم. وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم نبينا خاتم النبيين، وكتابنا يقضى على الكتب التي كانت قبله فأنزل الله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ [وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا]﴾^(١) الآية. فأفلج الله حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان.

وكذا روى عن السدي، ومسروق، والضحاك وأبي صالح، وغيرهم وكذا روى العوفي عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: تخصم أهل الأديان فقال أهل التوراة: كتابنا خير الكتب، ونبينا خير الأنبياء. وقال أهل الإنجيل مثل ذلك. وقال أهل الإسلام: لا دين إلا الإسلام، وكتابنا نسخ كل كتاب، ونبينا خاتم النبيين، وأمرتم وأمرنا أن نؤمن بكتابكم ونعمل بكتابنا. فقضى الله بينهم فقال: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾، وخير بين الأديان فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ [وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا]﴾^(٢) إلى قوله: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾.

وقال مجاهد: قالت العرب: لن نبعث ولن نعذب. وقالت اليهود والنصارى: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١]، وقالوا: ﴿لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠].

والمعنى في هذه الآية: أنَّ الدين ليس بالتحلى ولا بالتمنى، وليس كل من ادعى شيئاً حصل له بمجرد دعواه، ولا كل من قال: «إنه هو الحق» سمع قوله بمجرد ذلك، حتى يكون له من الله برهان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ أى: ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمنى، بل العبرة بطاعة الله، واتباع ما شرعه على السنة رسله الكرام؛ ولهذا قال بعده: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ كقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وقد روى أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على كثير من الصحابة. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله ابن نُمَيْرٍ، حدثنا إسماعيل، عن أبي بكر بن أبي زهير قال: أخبرْتُ أن أبا بكر قال: يا رسول الله، كيف الصلاح بعد هذه الآية: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ فكلُّ سوء عملناه جزينا به؟ فقال النبي ﷺ: «غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أبا بكر، أَلَسْتَ تَمْرُضُ؟ أَلَسْتَ تَنْصَبُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ أَلَسْتَ تُصِيكُ اللَّأَوَاءَ؟»^(٣) قال: بلى. قال: «فهو ما تُجْزَوْنَ به».

(٣) فى أ: «أَلَسْتَ يصيبك أذى».

(٢) زيادة من ر.

(١) زيادة من ر، أ.

ورواه سعيد بن منصور، عن خلف بن خليفة، عن إسماعيل بن أبي خالد، به. ورواه ابن حبان في صحيحه، عن أبي يعلى، عن أبي خيثمة، عن يحيى بن سعيد، عن إسماعيل بن أبي خالد، به. ورواه الحاكم من طريق سفيان الثوري، عن إسماعيل به^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، عن زياد الجصاص، عن علي بن زيد، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: سمعت أبا بكر يقول: قال رسول الله ﷺ: «من يعمل سوءاً يُجزَّ به في الدنيا»^(٢).

وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا أحمد بن هُشيم بن جُهيم، حدثنا يحيى بن أبي طالب، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، حدثنا زياد الجصاص، عن علي بن زيد، عن مجاهد قال: قال عبد الله بن عمر: انظروا المكان الذي به عبد الله بن الزبير مصلوباً ولا تمرنَّ عليه. قال: فسها الغلام، فإذا ابن عمر ينظر إلى ابن الزبير فقال: يغفر الله لك ثلاثاً، أما والله ما علمت إلا صواماً قواماً وصلاً^(٣) للرحم، أما والله إنني لأرجو مع متساوى ما أصبت ألا يعذبك الله بعدها. قال: ثم التفت إلى فقال: سمعت أبا بكر الصديق يقول: قال رسول الله ﷺ: «من يعمل سوءاً في الدنيا يجز به».

ورواه أبو بكر البزار في مسنده، عن الفضل بن سهل، عن عبد الوهاب بن عطاء، به^(٤) مختصراً. وقد قال في مسند ابن الزبير: حدثنا إبراهيم بن المستمر العُروفي^(٥)، حدثنا عبد الرحمن بن سليم بن حيَّان، حدثني أبي، عن جدي حيان بن بسطام، قال: كنت مع ابن عمر، فمر بعبد الله بن الزبير وهو مصلوب، فقال: رحمك الله أبا خبيب، سمعت أباك - يعني الزبير - يقول: قال رسول الله ﷺ: «من يعمل سوءاً يُجزَّ به في الدنيا والأخرى». ثم قال: لا نعلمه يروى عن الزبير إلا من هذا الوجه^(٦).

وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا أحمد بن كامل، حدثنا محمد بن سعد العوفي، حدثنا روح بن عبادة، حدثنا موسى بن عبيدة، حدثني مولى بن سباع قال: سمعت ابن عمر يحدث، عن أبي بكر الصديق قال: كنت عند النبي ﷺ فنزلت هذه الآية: «مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا». فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، هل أقرئت آية نزلت علي؟» قال: قلت: بلى يا رسول الله. فأقرأنيها فلا أعلم إلا أني وجدت انقصاماً في ظهرى حتى تمطأت^(٧)، فقال رسول الله ﷺ: «مالك يا أبا بكر؟» قلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، وأينا لم يعمل السوء، وإنا لمجزيون بكل سوء عملناه؟! فقال رسول الله ﷺ: «أما أنت وأصحابك يا أبا بكر المؤمنون فتُجزونَ بذلك في

(١) المسند (١١/١) وسنن سعيد بن منصور برقم (٦٩٦) وصحيح ابن حبان برقم (١٧٣٤) «موارد» والمستدرک (٧٤/٣).

(٢) المسند (٦/١).

(٣) في ر، أ: «وصولا».

(٤) مسند البزار برقم (٢١)، وقال الدارقطني في العلل (٢٢٣/٤): «رواه زياد الجصاص واختلف عنه، فرواه عبد الوهاب بن عطاء عن زياد عن علي بن زيد عن مجاهد عن ابن عمر عن أبي بكر، وخالفه أبو عاصم العباداني فرواه عن زياد الجصاص عن سالم عن ابن عمر عن عمر، وليس فيه شيء يثبت».

(٥) في ر، أ: «العوفي».

(٦) مسند البزار برقم (٩٦٢)، وقال الهيثمي في المجمع (١٢/٧) «فيه عبد الرحمن بن سليم بن حيَّان ولم أعرفه، وبقيّة رجاله ثقات»، والظاهر أنه عبد الرحيم، كما في العلل للدارقطني (٢٢٣/٤) حين سئل عن طريق سليم بن حيَّان عن أبيه عن ابن عمر فقال: يقوله عبد الرحمن بن سليم بن حيَّان عن أبيه عن ابن عمر، وقال مرة: عن أبيه عن نافع عن ابن عمر، وعبد الرحيم ضعيف، وزياد ضعيف.

(٧) في ر، أ: «تمطأت لها».

الدنيا حتى تلقوا الله، وليس لكم ذنوب، وأما الآخرون فيجمع لهم ذلك حتى يجزوا به يوم القيامة». وهكذا رواه الترمذى عن يحيى بن موسى، وعبد بن حميد، عن روح بن عباد، به. ثم قال: وموسى بن عبيدة يضعف، ومولى ابن سباع مجهول^(١).

[وقال ابن جرير: حدثنا الغلام، حدثنا الحسين، حدثنا الحجاج، عن ابن جريج، أخبرني عطاء ابن أبى رباح قال: لما نزلت قال أبو بكر: يا رسول الله، جاءت قاصمة الظهر، فقال رسول الله ﷺ: «إنما هي المصائب في الدنيا»]^(٢).

طريق أخرى عن الصديق: قال ابن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إسحاق العسكري، حدثنا محمد بن عامر السعدى، حدثنا يحيى بن يحيى، حدثنا فضيل بن عياض، عن سليمان بن مهران، عن مسلم بن صبيح، عن مسروق قال: قال أبو بكر [الصديق]^(٣): يا رسول الله، ما أشد هذه الآية: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾! فقال رسول الله ﷺ: «المصائب والأمراض والأحزان في الدنيا جزاء»^(٤).

طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثني عبد الله بن أبي زياد وأحمد بن منصور قالا: حدثنا زيد ابن الحباب، حدثنا عبد الملك بن الحسن الحارثي، حدثنا محمد بن زيد بن قنفذ^(٥)، عن عائشة، عن أبي بكر قال: لما نزلت: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ قال أبو بكر: يا رسول الله، كل ما نعمل نؤاخذ به؟ فقال: «يا أبا بكر، أليس يصيبك كذا وكذا؟ فهو كفارة»^(٦).

حديث آخر: قال سعيد بن منصور: أنبأنا عبد الله بن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، أن بكر ابن سودة حدثه، أن يزيد بن أبي يزيد حدثه، عن عبيد بن عمير، عن عائشة: أن رجلا تلا هذه الآية: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ فقال: إنا لنُجْزَى بكل عمل^(٧)؟ هلكتنا إذاً. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «نعم، يجزى به المؤمن في الدنيا، في نفسه، في جسده، فيما يؤذيه»^(٨).

طريق^(٩) أخرى: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سلمة بن بشير، حدثنا هشيم، عن أبي عامر، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، إني لأعلم أشد آية في القرآن. فقال: «ما هي يا عائشة؟» قلت: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ فقال: «هو ما يصيب العبد المؤمن حتى النكبة ينكبه».

(١) سنن الترمذى برقم (٣٠٣٩).

(٢) زيادة من أ.

(٣) ورواه أبو نعيم في الحلية (١١٩/٨) من هذا الطريق به، وفيه محمد السعدى كان يكذب ويضع.

(٤) فى أ: «نمير».

(٥) تفسير الطبرى (٩/٢٤٠).

(٦) فى أ: «عمل عملنا».

(٧) سنن سعيد بن منصور برقم (٦٩٩) ورواه أحمد فى المسند (٦/٦٥) من طريق عبد الله بن وهب به.

(٨) فى أ: «حديث».

ورواه ابن جرير من حديث هشيم، به. ورواه أبو داود، من حديث أبي عامر صالح بن رستم الخزاز^(١)، به^(٢).

طريق أخرى: قال أبو داود الطيالسي: حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أمية أنها سألت عائشة عن هذه الآية: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا يُجْزَ بِهِ﴾ فقالت: ما سألتني عن هذه الآية أحد منذ سألت عنها رسول الله ﷺ، سألت رسول الله ﷺ فقال: «يا عائشة، هذه مبايعة الله للعبد، مما يصيبه من الحمى والنكبة والشوكة، حتى البضاعة يضعها في كُمِّه فيفزع لها، فيجدها في جيبه، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبرُّ الأحمر من الكير»^(٣).

طريق أخرى: قال ابن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن^(٤) إبراهيم، حدثنا أبو القاسم، حدثنا سُرَيْج^(٥) بن يونس، حدثنا أبو معاوية، عن محمد بن إسماعيل، عن محمد بن زيد بن المهاجر، عن عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا يُجْزَ بِهِ﴾ قال: «إن المؤمن يؤجر في كل شيء حتى في القيظ»^(٦) عند الموت.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين، عن زائدة، عن ليث، عن مجاهد، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا كثرت ذنوب العبد، ولم يكن له ما يكفرها، ابتلاه الله بالخزن ليكفرها عنه»^(٧).

حديث آخر: قال سعيد بن منصور، عن سفيان بن عيينة، عن عمر بن عبد الرحمن بن مُحَيِّصٍ، سمع محمد بن قيس بن مَخْرَمَةَ، يخبر أن أبا هريرة، رضى الله عنه، قال: لما نزلت: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا يُجْزَ بِهِ﴾ شق ذلك على المسلمين، فقال لهم رسول الله ﷺ: «سدّدوا وقاربوا، فإن في كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها، والنكبة ينكبها».

وهكذا رواه أحمد، عن سفيان بن عيينة، ومسلم والترمذى والنسائى، من حديث سفيان بن عيينة، به^(٨). ورواه ابن مردويه من حديث روح ومعتز كلاهما، عن إبراهيم بن يزيد^(٩)، عن عبد الله بن إبراهيم، سمعت أبا هريرة يقول: لما نزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا يُجْزَ بِهِ﴾ بكينا وحزنا وقلنا: يا رسول الله، ما أبقت هذه الآية من شيء. قال: «أما الذى نفسى بيده إنها لكما نزلت، ولكن أبشروا وقاربوا وسدّدوا؛ فإنه لا يصيب أحداً منكم

(١) فى ر، أ: «الجزار».

(٢) تفسير الطبرى (٢٤٦/٩) وسنن أبى داود برقم (٣٠٩٣).

(٣) مسند الطيالسى برقم (١٥٨٤) ورواه أحمد فى المسند (٢١٨/٦) من طريق حماد بن سلمة به.

تنبيه: وقع عند الطيالسى «معاينة» بدل: «مبايعة» وعند أحمد «متابعة».

(٤) فى ر، أ: «شريح».

(٥) فى ر: «أبو».

(٦) فى ر: «الغيض»، وفى أ: «الغيظ». الفیظ: خروج الروح.

(٧) المسند (١٥٧/٦).

(٨) سنن سعيد بن منصور برقم (٦٩٤) والمسند (٢٤٨/٢) وصحيح مسلم برقم (٢٥٧٤)، وسنن الترمذى برقم (٥٠٢٩)، وسنن

النسائى الكبرى برقم (١١١٢٢).

(٩) فى أ: «زيد».

فى الدنيا إلا كفر الله بها خطيئته، حتى الشوكة يُشَاكها أحدكم فى قدمه»^(١).

وقال عطاء بن يسار، عن أبى سعيد وأبى هريرة: أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا سقم ولا حزن، حتى الهم يهّمه، إلا كفر به من سيئاته» أخرجه^(٢).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن سعد بن إسحاق، حدثنى زينب بنت كعب ابن عجرة، عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: أرأيت هذه الأمراض التى تصيبنا؟ ما لنا بها؟ قال: «كفارات». قال أبى: وإن قلت؟ قال: «وإن شوكة فما فوقها» قال: فدعا أبى على نفسه أنه لا يفارقه الوَعك حتى يموت، فى ألا يشغله عن حج ولا عمرة، ولا جهاد فى سبيل الله، ولا صلاة مكتوبة فى جماعة، فما مسه إنسان إلا وجد حره، حتى مات، رضى الله عنه. تفرد به أحمد^(٣).

حديث آخر: روى ابن مردويه من طريق حسين بن واقد، عن الكلبي، عن أبى صالح، عن ابن عباس قال: قيل: يا رسول الله: ﴿مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا يُجْزَى بِهِ؟﴾ قال: «نعم، ومن يعمل حسنة يُجْزَى بها عسرا. فهلك من غلب واحده»^(٤) عشر^(٥).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن: ﴿مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا يُجْزَى بِهِ؟﴾، قال: الكافر، ثم قرأ: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧].

وهكذا روى عن ابن عباس، وسعيد بن جبيرة: أنهما فسرا السوء هاهنا بالشرك أيضاً. وقوله: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: إلا أن يتوب فيتوب الله عليه. رواه ابن أبى حاتم.

والصحيح أن ذلك عامٌ فى جميع الأعمال، لما تقدم من الأحاديث، وهذا اختيار ابن جرير، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾^(٦) لما ذكر الجزاء على السيئات، وأنه لا بد أن يأخذ مستحقها من العبد إما فى الدنيا - وهو الأجود له - وإما فى الآخرة - والعياذ بالله من ذلك، ونسأله العافية فى الدنيا والآخرة، والصفح والعفو والمسامحة - شرع فى بيان إحسانه وكرمه ورحمته فى قبول الأعمال الصالحة من عباده ذكرانهم وإنانهم، بشرط الإيمان، وأنه سيدخلهم الجنة ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار النقيير، وهو: النقرة التى فى ظهر نواة التمرة، وقد تقدم الكلام على الفتيل، وهو الخيط الذى فى شق النواة، وهذا النقيير وهما فى نواة التمرة، وكذا القطمير وهو اللقافة التى على نواة التمرة، الثلاثة فى القرآن.

(١) وفى إسناده إبراهيم بن يزيد الخوزمى ضعيف.

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٦٤١، ٥٦٤٢) وصحيح مسلم برقم (٢٥٧٣).

(٣) المسند (٢٣/٣)، ورواه أبو يعلى فى مسنده (٢٨١/٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٣٠١/٢): «رجال نفقات».

(٤) فى ر: «واحد» وفى أ: «واحدة».

(٥) وإسناده ضعيف جداً كما سبق فى المقدمة.

(٦) زيادة من و، أ، وفى هـ: «الآية».

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾: أخلص العمل لربه، عز وجل، فعمل إيماناً واحتساباً ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أى: اتبع فى عمله ما شرعه الله له، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق، وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما، أى: يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله. والصواب أن يكون متبعاً للشرعة فيصح ظاهره بالمتابعة، وباطنه بالإخلاص، فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد. فمن فقد الإخلاص كان منافقاً، وهم الذين يراؤون الناس، ومن فقد المتابعة كان ضالاً جاهلاً. ومتى جمعهما فهو عمل المؤمنين: ﴿الَّذِينَ تَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ] ^(١) ﴿[الاحقاف: ١٦]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، وهم محمد وأتباعه إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ^(٢) [آل عمران: ٦٨]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ^(٣) [الأنعام: ١٦١] و﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣] والحنيف: هو المائل عن الشرك قصداً، أى تاركاً له عن بصيرة، ومقبل على الحق بكليته، لا يصد عنه صاد، ولا يرده عنه راد.

وقوله: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ وهذا من باب الترغيب فى اتباعه؛ لأنه إمام يقتدى به، حيث وصل إلى غاية ما يتقرب به العباد له، فإنه انتهى إلى درجة الخلّة التى هى أرفع مقامات المحبة، وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه، كما وصفه به فى قوله: ﴿وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧] قال كثيرون ^(٤) من السلف: أى قام بجميع ما أمر به ووفى ^(٥) كل مقام من مقامات العبادة، فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير، ولا كبير عن صغير. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا] ^(٦) الآية [البقرة: ١٢٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ] ^(٧) [النحل: ١٢٠ - ١٢٢].

وقال البخارى: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا شعبة، عن حبيب بن أبى ثابت، عن سعيد بن جبير، عن عمرو بن ميمون قال: إن معاذاً لما قدم اليمن صلى الصبح بهم: فقرأ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾. فقال رجل من القوم: لقد قرأت عين أم إبراهيم.

وقد ذكر ابن جرير فى تفسيره، عن بعضهم أنه إنما سماه الله خليلاً من أجل أنه أصاب أهل ناحيته جدب، فارتحل إلى خليل له من أهل الموصل - وقال بعضهم: من أهل مصر - ليمتار طعاماً لأهله من قبله، فلم يصب عنده حاجته. فلما قرب من أهله مرّ بمفازة ذات رمل، فقال: لو ملأت غرائرى من هذا الرمل، لثلا أغمّ أهلى برجوعى إليهم بغير ميرة، وليظنوا أنى أتيتهم بما يحبون. ففعل ذلك، فتحول ما فى غرائره من الرمل دقيقاً، فلما صار إلى منزله نام وقام أهله ففتحوا الغرائر،

(٤) فى د: «كثير».

(٣) زيادة من أ.

(١، ٢) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٧) زيادة من ر.

(٦) زيادة من ر، أ.

(٥) فى أ: «به وفى».

فوجدوا دقيقاً فعبجوا وخبزوا منه فاستيقظ، فسألهم عن الدقيق الذى منه خبزوا، فقالوا: من الدقيق الذى جئت به من عند خليلك فقال: نعم، هو من خليلى الله. فسماه الله بذلك خليلاً.

وفى صحة هذا ووقوعه نظر، وغايته أن يكون خبراً إسرائيلياً لا يُصدَّق ولا يُكذَّب، وإنما سُمي خليل الله لشدة محبة ربه، عز وجل، له، لما قام له^(١) من الطاعة التى يحبها ويرضاها؛ ولهذا ثبت فى الصحيحين، من حديث^(٢) أبى سعيد الخدرى: أن رسول الله ﷺ لما خطبهم فى آخر خطبة خطبها قال: «أما بعد، أيها الناس، فلو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر بن أبى قحافة خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله»^(٣).

وجاء من طريق جندب بن عبد الله البجلي، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن مسعود، عن النبى ﷺ: «إن الله اتخذنى خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً»^(٤).

وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم، حدثنا إسماعيل بن أحمد بن أسيد، حدثنا إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني بمكة، حدثنا عبيد الله^(٥) الحنفى، حدثنا زمعة بن صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه، فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذكرون، فسمع حديثهم، وإذا بعضهم يقول: عجبا إن الله اتخذ من خلقه خليلاً، إبراهيم خليله! وقال آخر: ماذا بأعجب من أن الله كلم موسى تكليماً! وقال آخر: فعيسى روح الله وكلمته! وقال آخر: آدم اصطفاه الله! فخرج عليهم فسلم وقال: «قد سمعت كلامكم وتعجبكم»^(٦) أن إبراهيم خليل الله، وهو كذلك، وموسى كلمه، وعيسى روحه وكلمته، وآدم اصطفاه الله، وهو كذلك ألا وإنى حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع، وأول مشفع ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلق الجنة، فيفتح الله فيدخلنيها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين يوم القيامة ولا فخر».

وهذا حديث غريب من هذا الوجه، ولبعضه شواهد فى الصحيح^(٧) وغيرها.

وقال قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: أتعجبون من أن تكون الخلّة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

رواه الحاكم فى مستدركه وقال: صحيح على شرط البخارى، ولم يخرجاه. وكذا روى عن أنس ابن مالك، وغير واحد من الصحابة والتابعين، والأئمة من السلف والخلف.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يحيى بن عبدك القزوينى، حدثنا محمد - يعنى ابن سعيد بن سابق -

(١) فى أ: «لديه».

(٢) فى أ: «رواية».

(٣) صحيح البخارى برقم (٣٦٥٤) وصحيح مسلم برقم (٢٣٨٢) ولفظه: «صاحبكم خليل الله» هى من حديث عبد الله بن مسعود، رواه مسلم برقم (٢٣٨٣).

(٤) أما حديث جندب بن عبد الله فرواه مسلم فى صحيحه برقم (٥٣٢)، وأما حديث عبد الله بن عمرو فرواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٩٦١٦)، وأما حديث عبد الله بن مسعود، فرواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٣٨٣).

(٥) فى د، ر: «عبد الله».

(٦) فى أ: «عجبكم».

(٧) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٦١٦) وقال: «هذا حديث غريب».

حدثنا عمرو - يعنى ابن أبى قيس - عن عاصم، عن أبى راشد، عن عبيد بن عمير قال: كان إبراهيم عليه السلام يضيف الناس، فخرج يوماً يلتمس إنساناً يضيفه، فلم يجد أحداً يضيفه، فرجع إلى داره فوجد فيها رجلاً قائماً، فقال: يا عبد الله، ما أدخلك دارى بغير إذننى؟ قال: دخلتها بإذن ربها. قال: ومن أنت؟ قال: أنا ملك الموت، أرسلنى ربه إلى عبد من عباده أبشره أن الله قد اتخذته خليلاً. قال: من هو؟ فوالله إن أخبرتنى به ثم كان بأقصى البلاد لآتيته^(١)، ثم^(٢) لا أبرح له جاراً حتى يفرق بيننا الموت. قال: ذلك العبد أنت. قال: أنا؟ قال: نعم. قال: فيم اتخذنى الله خليلاً؟ قال: إنك تعطى الناس ولا تسألهم^(٣).

وحدثنا أبى، حدثنا محمد بن خالد السلمى، حدثنا الوليد، عن إسحاق بن يسار قال: لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً ألقى فى قلبه الوجَل، حتى إن كان خفقانُ قلبه لَيُسْمَعُ من بعيد^(٤)، كما يسمع خفقان الطير فى الهواء. وهكذا جاء فى صفة رسول الله ﷺ: أنه كان يسمع لصدره أزيز كأزيز الرجل من البكاء.

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: الجميع ملكه وعبيده وخلقه، وهو المتصرف فى جميع ذلك، لا راد لما قضى، ولا معقب لما حكم، ولا يسأل عما يفعل، لعظمته وقدرته وعدله وحكمته ولطفه ورحمته.

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً﴾ أى: علمه نافذ فى جميع ذلك، لا تخفى^(٥) عليه خافية من عباده، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ولا تخفى عليه ذرة لما^(٦) تراءى للناظر وما توارى.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضَعِّينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً (١٢٧)﴾.

قال البخارى: حدثنا عبيد بن إسماعيل، حدثنا أبو أسامة قال: حدثنا هشام بن عروة، أخبرنى أبى^(٧)، عن عائشة: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ قالت: هو الرجل تكون عنده اليتيمة، هو وليها ووارثها قد شركته فى ماله، حتى فى العَدَق، فيرغب أن ينكحها، ويكره أن يزوجه رجلاً، فيشركه فى ماله بما شركته فيعضلها، فنزلت هذه الآية.

وكذلك رواه مسلم، عن أبى كُريب، وعن أبى بكر بن أبى شيبة، كلاهما عن أبى أسامة^(٨).

وقال ابن أبى حاتم: قرأت على محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى يونس، عن ابن شهاب، أخبرنى عروة بن الزبير، قالت عائشة: ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ

(١) فى أ: «لآتيته».

(٢) فى أ: «ثم قال لا».

(٣) وإسناده مرسل.

(٤) فى ر: «بعد».

(٥) فى ر: «يخفى».

(٦) فى ر: «الذرة أما».

(٧) فى ر: «عن أبيه».

(٨) صحيح البخارى برقم (٥١٣١) وصحيح مسلم برقم (٣٠١٨).

بعد هذه الآية فيهن، فأنزل الله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ الآية، قالت: والذي ذكر الله أنه يتلى عليهم في الكتاب الآية الأولى التي قال الله [تعالى] (١): ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣].

وبهذا الإسناد، عن عائشة قالت: وقول الله عز وجل: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ رغبة أحدكم عن يتيمة التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط، من أجل رغبتهم عنهن. وأصله ثابت في الصحيحين، من طريق يونس بن يزيد الأيلي، به (٢).

والمقصود أن الرجل إذا كان في حجره يتيمة يحل له تزويجها، فتارة يرغب في أن يتزوجها، فأمره الله عز وجل أن يمهرا أسوة أمثالها من النساء، فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء، فقد وسع الله عز وجل. وهذا المعنى في الآية الأولى التي في أول السورة. وتارة لا يكون للرجل فيها رغبة لدمامتها عنده، أو في نفس الأمر، فنهاه الله عز وجل أن يعضلها عن الأزواج خشية أن يشركوه في ماله الذي بينه وبينها، كما قال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿فِي يَتَامَى النِّسَاءِ [اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن]﴾ (٣) الآية، فكان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة، فيلقى عليها ثوبه، فإذا فعل ذلك [بها] (٤) لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً، فإن كانت جميلة وهويها تزوجها وأكل مالها، وإن كانت دميعة منعها الرجال أبداً حتى تموت، فإذا ماتت ورثها. فحرم الله ذلك ونهى عنه.

وقال في قوله: ﴿وَالْمُسْتَضَعْفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾: كانوا في الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات، وذلك قوله: ﴿لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾، فنهى الله عن ذلك، وبين لكل ذى سهم سهمه، فقال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَىٰ﴾ [النساء: ١١] صغيراً أو كبيراً.

وكذا قال سعيد بن جبير وغيره، وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾: كما إذا كانت ذات جمال ومال نكحتها واستأثرت بها، كذلك إذا لم تكن ذات جمال ولا مال فانكحها واستأثرت بها.

وقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ تهيجاً (٥) على فعل الخيرات وامتنال الأمر (٦)، وأن الله عز وجل عالم بجميع ذلك، وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه.

﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ

(١) زيادة من أ.

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٠٦٤) وصحيح مسلم برقم (٣٠١٨).

(٣) زيادة من ر، أ.

(٤) زيادة من أ.

(٥) فى ر: «تهيج».

(٦) فى أ: «الوامر».

خَيْرًا (١٢٨) وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٢٩) وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠).

يقول تعالى مخبرا ومشرعا عن حال الزوجين: تارة فى حال نفور الرجل عن المرأة، وتارة فى حال اتفاقه معها، وتارة فى حال^(١) فراقه لها.

فالحالة الأولى: ما إذا خافت المرأة من زوجها أن ينفر عنها، أو يعرض عنها، فلها أن تسقط حقها أو بعضه، من نفقة أو كسوة، أو مبيت، أو غير ذلك من الحقوق عليه، وله أن يقبل ذلك منها فلا جناح^(٢) عليها فى بذلها ذلك له، ولا عليه فى قبوله منها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ ثم قال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ أى: من الفراق. وقوله: ﴿وَأَحْضَرْتُ الْأَنْفُسَ الشُّحَّ﴾ أى الصلح عند المشاحة خير من الفراق؛ ولهذا لما كبرت سودة بنت زمعة عزم^(٣) رسول الله ﷺ على فراقها، فصالحته على أن يمسكها، وتترك يومها لعائشة، فقبل ذلك منها وأبقاها على ذلك. ذكر الرواية بذلك:

قال أبو داود الطيالسى: حدثنا سليمان بن معاذ، عن سَمَاك بن حرب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: خَشِيتُ سَوْدَةَ أَنْ يَطْلُقَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فقالت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تَطْلُقْنِي وَاجْعَلْ يَوْمِي لِعَائِشَةَ. ففعل، ونزلت^(٤) هذه الآية: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ الآية، قال ابن عباس: فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز.

ورواه الترمذى، عن محمد بن المثنى، عن أبى داود الطيالسى، به. وقال: حسن غريب^(٥).

وقال الشافعى: أخبرنا مسلم، عن ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ توفي عن تسع نسوة، وكان يقسم لثمان^(٦).

وفى الصحيحين، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: لما كبرت سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة، فكان رسول الله ﷺ يقسم لها بيوم سودة^(٧).

وفى صحيح البخارى، من حديث الزهرى، عن عروة، عن عائشة، نحوه.

وقال سعيد بن منصور: أنبأنا عبد الرحمن بن أبى الزناد، عن هشام، عن أبيه عروة^(٨) قال: أنزل^(٩) الله تعالى فى سودة^(١٠) وأشباهها: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾، وذلك أن

(١) فى أ: «عند».

(٢) فى ر، أ: «فلا حرج».

(٣) فى أ: «وعزم».

(٥) سنن الترمذى برقم (٣٠٤٠).

(٦) الام (٩٨/٥).

(٧) صحيح البخارى برقم (٥٢١٢) وصحيح مسلم برقم (١٤٦٣).

(٨) فى ر، أ: «عن هشام بن عروة عن أبيه».

(٩) فى ر، أ: «لما أنزل».

(١٠) فى أ: «أنزلت فى سودة».

سودة كانت امرأة قد أسنت، ففزعت أن يفارقها رسول الله ﷺ، وضنت بمكانها منه، وعرفت من حب رسول الله ﷺ عائشة ومنزلتها منه، فوهبت يومها من رسول الله ﷺ لعائشة، فقبل ذلك النبي ﷺ^(١).

قال البيهقي: وقد رواه أحمد بن يونس: عن ابن أبي الزناد^(٢)، موصولا. وهذه الطريق رواها الحاكم في مستدركه فقال:

حدثنا أبو بكر بن إسحاق الفقيه، أخبرنا الحسن بن علي بن زياد، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن هشام بن^(٣) عروة، عن أبيه، عن عائشة: أنها قالت له: يا ابن أختي، كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في مكثه عندنا، وكان قلَّ يوم إلا وهو يطوف علينا، فيدنو من كل امرأة من غير مَسِيس، حتى يبلغ إلى من هو يومها فيبيت عندها، ولقد قالت سودة بنت زمعة - حين أسنت وفرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ - : يا رسول الله، يومي هذا لعائشة. فقبل ذلك رسول الله ﷺ. قالت عائشة: ففي ذلك أنزل الله: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾.

وكذا رواه أبو داود، عن أحمد بن يونس، به. ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه^(٤). وقد رواه [الحافظ أبو بكر]^(٥) بن مردويه من طريق أبي بلال الأشعري، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، به نحوه. ومن رواية عبد العزيز بن^(٦) محمد الدراوردي، عن هشام بن عروة، بنحوه مختصرا، والله أعلم.

وقال أبو العباس محمد بن عبد الرحمن الدغولي في أول معجمه: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا هشام الدستوائي، حدثنا القاسم بن أبي بزة قال: بعث النبي ﷺ إلى سودة بنت زمعة بطلاقها، فلما أن أتاهما جلست له على طريق عائشة، فلما رآته قالت له: أنشدك بالذي أنزل عليك كلامه^(٧) واصطفاك على خلقه لما راجعتني، فإنني قد كبرت ولا حاجة لي في الرجال، لكن أريد أن أبعث مع نسائك يوم القيامة. فراجعها فقالت: إني^(٨) جعلت يومي وليلتي لحبة رسول الله ﷺ. وهذا غريب مرسل^(٩).

وقد قال البخاري: حدثنا محمد بن مقاتل، أخبرنا عبد الله، أخبرنا هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ قالت^(١٠): الرجل تكون عنده المرأة، ليس بمستكثر منها، يريد أن يفارقها، فتقول: أجعلك من شأني في حل. فنزلت هذه الآية.

(١) سنن سعيد بن منصور برقم (٧٠٢) وسنن البيهقي الكبرى (٢٩٧/٧).

(٢) في هـ: «عن الحسن بن أبي الزناد» وهو تحريف.

(٣) في ر: «عن».

(٤) المستدرک (١٨٦/٢) ووافقه الذهبي، وسنن أبي داود برقم (٢١٣٥).

(٥) زيادة من: ر، أ.

(٦) في ر: «عن».

(٧) في ر، أ: «كتابه».

(٨) في ر: «فإن».

(٩) ورواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٥٤/٨) من طريق مسلم بن إبراهيم به.

(١٠) في ر: «قال».

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: ^(١)، وأن الله عز وجل عالم بجميع ذلك، وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه. **﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا^(١) بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾** قالت: هذا في المرأة تكون عند الرجل، فلعله ألا يكون يستكثر منها، ولا يكون لها ولد، ولها صحبة، فتقول: لا تطلقني وأنت في حل من شأني.

حدثني المثنى، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد بن سلمة، عن هشام، عن عروة، عن عائشة في قوله: **﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾**، قالت: هو الرجل يكون له المرأتان: إحداهما قد كبرت، أو هي ذميمة^(٢)، وهو لا يستكثر منها، فتقول: لا تطلقني، وأنت في حل من شأني.

وهذا الحديث ثابت في الصحيحين، من غير وجه، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة^(٣) بنحو ما تقدم، والله الحمد والمنة.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد وابن وكيع قالوا: حدثنا جرير، عن أشعث، عن ابن سيرين قال: جاء رجل إلى عمر، رضى الله عنه، فسأله عن آية، فكره ذلك وضربه بالدرّة، فسأله آخر عن هذه الآية: **﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾** فقال: عن مثل هذا فسلوا. ثم قال: هذه المرأة تكون عند الرجل، قد خلا من سنّها، فيتزوج المرأة الشابة يلتبس ولدها، فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسن الهسّنجاني، حدثنا مُسَدَّد، حدثنا أبو الأحوص، عن سَمَأك بن حرب، عن خالد بن عَرْعَرَةَ قال: جاء رجل إلى علي بن أبي طالب [رضى الله عنه]^(٤)، فسأله عن قول الله عز وجل: **﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾** قال علي: يكون الرجل عنده المرأة، فتنبو عيناه عنها من دماستها، أو كبرها، أو سوء خلقها، أو قذذها، فتكره فراقه، فإن وضعت له من مهرها شيئاً حل له، وإن جعلت له من أيامها فلا حرج.

وكذا رواه أبو داود الطيالسي، عن شعبة، عن حماد بن سلمة وأبي الأحوص. ورواه ابن جرير من طريق إسرائيل أربعتهم عن سَمَأك، به^(٥). وكذا فسرّها ابن عباس، وعبيدة السلماني، ومجاهد ابن جبر، والشَّعْبِي، وسعيد بن جبّير، وعطاء، وعطية العوفي ومكحول، والحكم بن عتبة، والحسن، وقتادة، وغير واحد من السلف والأئمة، ولا أعلم [في ذلك]^(٦) خلافاً في أن المراد بهذه الآية هذا، والله أعلم.

وقال الشافعي: أنبأنا ابن عيينة، عن الزهري، عن ابن المسيّب: أن ابنة محمد بن مسلمة كانت

(١) في ر: «يصلحا».

(٣) تفسير الطبري (٢٧١/٩) وصحيح البخاري برقم (٥٢٠٦) وصحيح مسلم برقم (٣٠٢١).

(٤) زيادة من أ.

(٥) تفسير الطبري (٢٦٩/٩).

(٦) زيادة من أ.

ما بدا لك . فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ الآية .

وقد رواه الحاكم في مستدركه، من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار بأطول من هذا السياق^(١).

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو سعيد بن أبي عمرو، حدثنا أبو محمد أحمد بن عبد الله المُنْزَنِي، أنبأنا علي بن محمد بن عيسى، حدثنا أبو اليمان، أخبرني شعيب بن أبي حمزة، عن الزهري، أخبرني سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار: أن السُّنَّةَ في هاتين الآيتين اللتين ذكر الله فيهما نشوز المرأة وإعراضه عن امرأته في قوله: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ إلى تمام الآيتين، أن المرأة^(٢) إذا نشز عن امرأته وأثر عليها، فإن من الحق أن يعرض عليها أن يطلقها أو تستقر عنده على ما كانت من أثره في القَسَم من ماله ونفسه، فإن استقرت عنده على ذلك، وكرهت أن يطلقها، فلا حرج عليه فيما أثر عليها من ذلك، فإن لم يعرض عليها الطلاق، وصالحها على أن يعطيها من ماله ما ترضاه وتقر عنده على الأثرة في القَسَم من ماله ونفسه، صلح له ذلك، وجاز صلحها عليه، كذلك ذكر سعيد بن المسيب وسليمان الصُّلَح الذي قال الله عز وجل: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

وقد ذكر لي أن رافع بن خديج الأنصاري - وكان من أصحاب النبي ﷺ - كانت عنده امرأة حتى إذا كبرت تزوج عليها فتاة شابة، وأثر عليها الشابة، فناشدته الطلاق فطلقها تطليقة، ثم أمهلها، حتى إذا كادت تحل راجعها، ثم عاد فأثر الشابة عليها فناشدته الطلاق فطلقها تطليقة أخرى، ثم أمهلها، حتى إذا كادت تحل راجعها، ثم عاد فأثر الشابة عليها، فناشدته الطلاق فقال لها: ما شئت، إنما بقيت لك تطليقة واحدة، فإن شئت استقررت على ما تريين من الأثرة، وإن شئت فارقتك، فقالت: لا، بل أستقر على الأثرة. فأمسكها على ذلك، فكان ذلك صلحهما، ولم ير رافع عليه إثما حين رضيت^(٣) أن تستقر عنده على الأثرة فيما أثر به عليها.

وهذا رواه بتمامه عبد الرحمن بن أبي حاتم، عن أبيه، عن أبي اليمان، عن شعيب، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار، فذكره بطوله، والله أعلم^(٤).

وقوله: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني التخيير، أن يخير الزوج لها بين الإقامة والفراق، خير من تمادى الزوج على أثره غيرها عليها.

والظاهر من الآية أن صلحهما على ترك بعض حقها للزوج، وقبول الزوج ذلك، خير من المفارقة بالكلية، كما أمسك النبي ﷺ سودة بنت زمعة على أن تركت يومها لعائشة، رضى الله عنها، ولم يفارقها بل تركها من جملة نسائه، وفعله ذلك لتتأسى به أمته في مشروعية ذلك وجوازه، فهو أفضل في حقه عليه الصلاة والسلام. ولما كان الوفاق أحب إلى الله [عز وجل]^(٥) من الفراق قال: ﴿وَالصُّلْحُ

(١) المستدرک (٣٠٨/٢) ورواه الواحدی فی أسباب النزول برقم (١٢٨) من طریق الربیع عن الشافعی به.

(٢) فی ر، أ: «المراد». (٣) فی أ: «عليها أنها حين رضيت».

(٤) السنن الكبرى (٢٩٦/٧).

(٥) زيادة من ر.

خَيْرٌ»، بل الطلاق بغض إليه، سبحانه وتعالى؛ ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود وابن ماجة جميعاً، عن كثير بن عبيد، عن محمد بن خالد، عن مُعَرِّف بن واصل، عن محارب بن دثار، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أبغض الحلال إلى الله (١) الطلاق».

ثم رواه أبو داود عن أحمد بن يونس، عن مُعَرِّف، عن محارب قال: قال رسول الله ﷺ... فذكر معناه مرسلًا (٢).

وقوله: ﴿وَأَنْ تَحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [أى] (٣): وإن تتجشموا مشقة الصبر على من تكرهون منهم، وتقسموا لهم أسوة أمثالهن، فإن الله عالم بذلك وسيجزىكم على ذلك أوفر الجزاء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ أى: لن تستطيعوا أيها الناس أن تساووا بين النساء من جميع الوجوه، فإنه وإن حصل القسم الصورى: ليلة وليلة، فلا بد من التفاوت فى المحبة والشهوة والجماع، كما قاله ابن عباس، وعبيدة السلماني، ومجاهد، والحسن البصرى، والضحاك بن مزاحم.

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا ابن أبى شيبة، حدثنا حسين الجعفى، عن زائدة، عن عبد العزيز بن رفيع، عن ابن أبى مليكة قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ فى عائشة. يعنى: أن النبى ﷺ كان يحبها أكثر من غيرها، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن، من حديث حماد بن سلمة، عن أيوب، عن أبى قلابة، عن عبد الله بن يزيد، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» يعنى: القلب.

لفظ أبى داود، وهذا إسناد صحيح، لكن قال الترمذى: رواه حماد بن زيد وغير واحد، عن أيوب، عن أبى قلابة مرسلًا قال: وهذا أصح (٤).

وقوله: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ﴾ أى: فإذا ملتم إلى واحدة منهم (٥)، فلا تبالغوا فى الميل بالكلية ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ أى: فتبقى الأخرى مُعَلَّقَةً.

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدى، ومقاتل بن حيان: معناه لا ذات زوج ولا مطلقة.

وقد قال أبو داود الطيالسى: أنبأنا همام، عن قتادة، عن النضر بن أنس، عن بشير بن نهيك،

(١) فى ر، أ: «الله سبحانه وتعالى».

(٢) سنن أبى داود برقم (٢١٧٨) وسنن ابن ماجة برقم (٢٠١٨) من حديث ابن عمر.

وقال أبو حاتم: «إنما هو محارب عن النبى ﷺ مرسل» العلل (٤٣١/١) والطريق المرسلة رواها أبو داود فى السنن برقم (٢١٧٧)

وقد توسع الشيخ ناصر الألبانى فى الكلام على هذا الحديث فى كتابه إرواء الغليل (٢٠٤٠) بما يكفى فليراجع.

(٣) زيادة من ر، أ.

(٤) سنن أبى داود برقم (٢١٣٤) وسنن الترمذى برقم (١١٤٠) وسنن النسائى (٦٣/٧) وسنن ابن ماجة برقم (١٩٧١).

(٥) فى ر، أ: «منهن» وهو الصحيح.

عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما، جاء يوم القيامة وأحد شقيّه ساقط».

وهكذا رواه الإمام أحمد وأهل السنن، من حديث همّام بن يحيى، عن قتادة، به. وقال الترمذى: إنما أسنده همّام، ورواه هشام الدستوائى عن قتادة - قال: «كان يقال». ولا نعرف هذا الحديث مرفوعاً إلا من حديث همّام^(١).

وقوله: ﴿وَإِنْ تَصْلَحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ أى: وإن أصلحتم فى أموركم، وقسمتم بالعدل فيما تملكون، واتقيتم الله فى جميع الأحوال، غفر الله لكم ما كان من ميل إلى بعض النساء دون بعض.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً﴾. وهذه هى الحالة الثالثة، وهى حالة الفراق، وقد أخبر تعالى أنهما إذا تفرقا فإن الله يغنيها عنها ويغنيها عنه، بأن يعوضه بها من هو خير له منها، ويعوضها عنه بمن هو خير لها منه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً﴾ أى: واسع الفضل عظيم المن، حكيماً فى جميع أفعاله وأقداره وشرعه.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيداً﴾ (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٣٢) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا (١٣٣) مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤) ﴿

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه الحاكم فيهما؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أى: وصيناكم بما وصيناهم به، من تقوى الله، عز وجل، بعبادته وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيداً﴾^(٢)، كما قال تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لقومه: ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، وقال: ﴿فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْاْ وَأَسْتَغْنِىَ اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦] أى: غنى عن عباده، ﴿حَمِيدٌ﴾ أى: محمود فى جميع ما يقدره ويشرعه.

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ أى: هو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب الشهيد على كل شىء.

(١) مسند الطيالسى برقم (١٥٩٧) والمسند (٤٧١/١) وسنن أبى داود برقم (٢١٣٣) وسنن الترمذى برقم (١١٤١) وسنن النسائى (٦٣/٧) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٦٩).

(٢) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية».

وقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ أى: هو قادر على إذهابكم وتبديلكم بغيركم إذا عصيتموه، وكما قال [تعالى] ^(١): ﴿وَأِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمُ﴾ [محمد: ٣٨]. وقال بعض السلف: ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره! وقال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠] أى: ما هو عليه بممتنع.

وقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أى: يا من ليس ^(٢) همّه إلا الدنيا، اعلم أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة، وإذا سألته من هذه وهذه أعطاك وأغناك وأقناك، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا [وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ] ^(٣)﴾ [البقرة: ٢٠٠ - ٢٠٢]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ [وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ] ^(٤)﴾ [الشورى: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا كَلَّا نُمَدِّهُ هُوَ لَا وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ^(٥)﴾ [الإسراء: ١٨ - ٢١].

وقد زعم ابن جرير أن المعنى في هذه الآية: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ أى: من المنافقين الذين أظهروا الإيمان لأجل ذلك، ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا﴾ وهو ما حصل لهم من المغنم وغيرها مع المسلمين. وقوله: ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ أى: وعند الله ^(٦) ثواب الآخرة، وهو ما ادخره لهم من العقوبة في نار جهنم. وجعلها كقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا [نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا] ^(٧)﴾ وهم فيها لَا يُخْسُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

ولا شك أن هذه الآية معناها ظاهر، وأما تفسيره الآية الأولى بهذا ففيه نظر؛ فإن قوله: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ ظاهر في حضور الخير في الدنيا والآخرة، أى: بيده هذا وهذا، فلا يقتصرن قاصر المهمة على السعى للدنيا فقط، بل لتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة، فإن مرجع ذلك كله إلى الذى بيده الضر والنفع، وهو الله الذى لا إله إلا هو، الذى قد قسم السعادة والشقاوة في الدنيا والآخرة بين الناس، وعدل بينهم فيما علمه فيهم، ممن يستحق هذا، وممن يستحق ^(٨) هذا؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ

(١) زيادة من: د. (٢) فى د، ر: «وليس له». (٣) ٥ - ٣) زيادة من ر، أ، وفي هـ: «الآية».

(٦) فى د، ر، أ: «أى وعنده». (٧) زيادة من ر، أ.

(٨) فى أ: «وعدل بينهم بمن يستحق هذا ومن يستحق هذا».

وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط، أى: بالعدل، فلا يعدلوا عنه يمينا ولا شمالا، ولا تأخذهم فى الله^(١) لومة لائم، ولا يصرفهم عنه صارف، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه.

وقوله: ﴿شُهِدَاءَ اللَّهِ﴾ كما قال: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ أى: ليكن أداؤها ابتغاء وجه الله، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقاً، خالية من التحريف والتبديل والكتمان؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ أى: اشهد الحق^(٢) ولو عاد ضررها عليك وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه، وإن كان مضره عليك، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجا ومخرجا من كل أمر يضيق عليه.

وقوله: ﴿أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ أى: وإن كانت الشهادة على والديك وقرباتك، فلا ترأعهم فيها، بل اشهد بالحق وإن عاد ضررها عليهم، فإن الحق حاكم على كل أحد، وهو مقدم على كل أحد.

وقوله: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أى: لا ترعاه^(٣) لغناه، ولا تشفق عليه لفقره، الله يتولاهما، بل هو أولى بهما منك، وأعلم بما فيه صلاحهما.

وقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ أى: فلا يحملنكم الهوى والعصية وبغضة الناس إليكم، على ترك العدل فى أموركم وشؤونكم، بل الزموا العدل على أى حال كان، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

ومن هذا القبيل قول عبد الله بن رواحة، لما بعثه النبى ﷺ يخرُص على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم، فقال: والله لقد جئتمكم من عند أحب الخلق إلى، ولأنتم أبغض إلى من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملنى حُبى إياه وبغضى لكم على ألا أعدل فيكم. فقالوا: «بهذا قامت السموات والأرض». وسيأتى الحديث مسندا فى سورة المائدة، إن شاء الله تعالى^(٤).

وقوله: ﴿وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا﴾، قال مجاهد وغير واحد من السلف: ﴿تَلَوْا﴾ أى: تحرفوا الشهادة وتغيروها، «واللّٰى» هو: التحريف وتعمد الكذب، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٥) [آل عمران: ٧٨]. و«الإعراض» هو: كتمان الشهادة وتركها، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آتَمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]. وقال النبى ﷺ: «خير الشهداء الذى يأتى بشهادته قبل أن يُسألها». ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أى: وسيجازيكم بذلك.

(١) فى ر: لا يأخذهم فى الحق لومة لائم.

(٢) فى ر: «بالحق».

(٣) فى أ: لا يرضاه. (٤) زيادة من: أ. (٥) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي
أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا
بَعِيدًا﴾ (١٣٦)

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالدخول فى جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه، وليس
هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل وتثبيت وتثبته والاستمرار عليه. كما يقول
المؤمن فى كل صلاة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] أى: بِصِرْطِنَا فِيهِ، وَزِدْنَا هُدًى، وَثَبِّتْنَا
عَلَيْهِ. فَأَمْرُهُم بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾
[الحديد: ٢٨].

وقوله: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ يعنى: القرآن ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ وهذا
جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة، وقال فى القرآن: ﴿نَزَّلَ﴾؛ لأنه نزل مفردا منجما على الوقائع،
بحسب ما يحتاج العباد إليه فى معادهم ومعاشهم، وأما الكتب المتقدمة فكانت تنزل جملة واحدة؛
ولهذا قال: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أى: فقد خرج عن طريق الهدى، وبعد عن القصد كل البعد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا
لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ (١٣٧) بَشَرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ
مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَمِيتُغُونَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ
أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ
غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠).

يخبر تعالى عن دخل فى الإيمان ثم رجع عنه، ثم عاد فيه ثم رجع، واستمر على ضلاله^(١)
وازداد حتى مات، فإنه لا توبة بعد موته، ولا يغفر الله له، ولا يجعل له مما هو فيه فرجا ولا
مخرجا، ولا طريقا إلى الهدى؛ ولهذا قال: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن عبدة، حدثنا حفص بن جُمَيْع، عن سَمَاك، عن
عكرمة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ قال: تَمَمُوا^(٢) على كفرهم حتى ماتوا. وكذا
قال مجاهد.

وروى ابن أبى حاتم من طريق جابر المعلى، عن عامر الشَّعْبِي، عن علي، رضى الله عنه، أنه
قال: يستتاب المرتد، ثلاثاً، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا
كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾.

(٢) فى ر، أ: «تموا».

(١) فى أ: «ضلالته».

ثم قال: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يعنى: أن المنافقين من هذه الصفة فإنهم آمنوا ثم كفروا، فطبع على قلوبهم، ثم وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، بمعنى أنهم معهم فى الحقيقة، يوالونهم ويسرون إليهم بالمودة، ويقولون لهم إذا خلوا بهم: إنما نحن معكم، إنما نحن مستهزون. أى بالمؤمنين في إظهارنا لهم الموافقة. قال الله تعالى منكرًا عليهم فيما سلكوه من موالة الكافرين: ﴿أَيَّتِفُونَ عَنْدهمُ الْعِزَّةَ؟﴾

ثم أخبر تعالى بأن العزة كلها لله وحده لا شريك له، ولمن جعلها له. كما قال فى الآية الأخرى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْيِدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

والمقصود من هذا التهيج على طلب العزة من جناب الله، والالتجاء إلى عبوديته، والانتظام فى جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة فى هذه الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد. ويتأسب أن يذكر^(١) هاهنا الحديث الذى رواه الإمام أحمد:

حدثنا حسين بن محمد، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن حميد الكندى، عن عبادة بن نسي، عن أبى ريحانة أن النبى ﷺ قال: «من انتسب إلى تسعة آباء كفار، يريد بهم عزاً وفخراً، فهو عاشرهم فى النار».

تفرد به أحمد^(٢). وأبو ريحانة هذا هو أزدى، ويقال: أنصارى. اسمه^(٣) شمعون بالمعجمة، فيما قاله البخارى، وقال غيره: بالمهملة، والله^(٤) أعلم.

وقوله [تعالى]^(٥): ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ﴾ أى: إذا ارتكبتم النهى بعد وصوله إليكم، ورضيتم بالجلوس معهم فى المكان الذى يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ ويتنقص بها، وأقررتموهم على ذلك، فقد شاركتموهم فى الذى هم فيه. فلهذا قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ﴾ [أى]^(٦): فى المائم، كما جاء فى الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يُدار عليها الخمر»^(٧).

والذى أحيل عليه فى هذه الآية من النهى فى^(٨) ذلك، هو قوله تعالى فى سورة الأنعام، وهى مكية: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٩) [الأنعام: ٦٨] قال مقاتل بن حيان: نسخت هذه الآية التى فى الأنعام. يعنى نسخ قوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ﴾ لقوله: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٦٩].

(١) فى ر: «ومناسب أن ذكر».

(٢) المسند (١٣٣/٤) قال الهيثمى فى المجمع (٨٥/٨): «رجال أحمد ثقات».

(٣) فى ر، أ: «واسمه».

(٤) فى ر، أ: «فالله».

(٧) رواه الترمذى فى سننه برقم (٢٨٠١) من حديث جابر، وفى إسناده ليث بن أبى سليم ضعيف، ورواه أحمد فى المسند (٢٠/١) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وفى إسناده مجهول، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١/١٩١) من حديث عبد الله ابن عباس، وفى إسناده يحيى بن أبى سليمان وهو ضعيف.

(٩) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٨) فى ر: «عن».

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ أى: كما أشركوهم^(١) فى الكفر، كذلك شارك الله بينهم^(٢) فى الخلود فى نار جهنم أبداً، وجمع بينهم فى دار العقوبة والنكال، والقيود والأغلال، وشراب^(٣) الحميم والغسلين لا الزلال.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُفْرِهِمْ إِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ (١٤١).

يخبر تعالى عن المنافقين أنهم يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء، بمعنى ينتظرون زوال دولتهم، وظهور الكفر^(٤) عليهم، وذهاب ملتهم. ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أى: نصر وتأييد وظفر وغنيمة ﴿قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ؟﴾ أى: يتوددون إلى المؤمنين بهذه المقالة ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ أى: إدالة على المؤمنين فى بعض الأحيان، كما وقع يوم أحد، فإن الرسل تبلى ثم يكون لها^(٥) العاقبة ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ؟﴾ أى: ساعدناكم فى الباطن، وما ألواناهم خبالا وتخذيلًا، حتى انتصرتهم عليهم.

وقال السدى: ﴿نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ﴾: نغلب عليكم، كقوله: ﴿اسْتَحِذْ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ [المجادلة: ١٩]، وهذا أيضاً تودد منهم إليهم، فإنهم كانوا يصانعون هؤلاء وهؤلاء؛ ليحفظوا عندهم ويأمنوا كيدهم، وما ذاك إلا لضعف إيمانهم، وقلة إيقانهم.

قال الله تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾^(٦) يَوْمَ الْقِيَامَةِ أى: بما يعلمه منكم - أيها المنافقون - من البواطن الرديئة، فلا تغتروا بجريان الأحكام الشرعية عليكم ظاهراً فى الحياة الدنيا، لما له [تعالى]^(٧) فى ذلك من الحكمة، فيوم القيامة لا تنفعكم^(٨) ظواهركم، بل هو يوم تبلى فيه السرائر ويحصل ما فى الصدور.

وقوله: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾. قال عبد الرزاق: أنبأنا الثورى، عن الأعمش، عن ذرٍّ، عن يسيع الكندى قال: جاء رجل إلى على بن أبى طالب، فقال: كيف هذه الآية: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾؟ فقال على، رضى الله عنه: ادنه أدنه، ثم قال: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

وكذا روى ابن جريج، عن عطاء الخراسانى، عن ابن عباس: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ قال: ذاك يوم القيامة. وكذا روى السدى عن أبى مالك الأشجعى: يعنى يوم القيامة. وقال السدى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أى: حجة.

(٣) فى ر، أ: «وشرب».

(٢) فى أ: «عليهم».

(١) فى ر، أ: «اشتركوا».

(٥) فى ر: «تكون لها»، وفى أ: «تكون لهم». (٦) فى ر: «بينهم».

(٤) فى د، ر، أ: «الكفرة».

(٨) فى ر: «ينفكم».

(٧) زيادة من: أ.

ويحتمل أن يكون المراد: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أى: فى الدنيا، بأن يُسَلِّطُوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية، وإن حصل لهم ظفر فى بعض الأحيان على بعض الناس، فإن العاقبة للمتقين فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾^(١) [غافر: ٥١، ٥٢]. وعلى هذا فيكون رداً على المنافقين فيما أملوه وتربصوه^(٢) وانتظروه من زوال دولة المؤمنين، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين، خوفاً على أنفسهم منهم إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم، كما قال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾^(٣) [نَادِمِينَ] [المائدة: ٥٢].

وقد استدل كثير من العلماء^(٤) بهذه الآية الكريمة على أصح قولى العلماء، وهو المنع من بيع العبد المسلم من الكافر لما فى صحة ابتياعه من التسليط له عليه والإذلال، ومن قال منهم بالصحة يأمره بإزالة ملكه عنه فى الحال؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالِي يُرَأَوْنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٤٢) مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣).

قد تقدم فى أول سورة البقرة قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٩] وقال هاهنا: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾. ولا شك أن الله تعالى لا يخادع، فإنه العالم بالسرائر والضمائر، ولكن المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم، يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً، فكذلك^(٥) يكون حكمهم يوم القيامة عند الله، وأن أمرهم يروج عنده، كما أخبر عنهم تعالى أنهم يوم القيامة يحلفون له: أنهم كانوا على الاستقامة والسداد، ويعتقدون أن ذلك نافع لهم عنده، فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾^(٦) [المجادلة: ١٨].

وقوله: ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ أى: هو الذى يستدرجهم فى طغيانهم وضلالهم، ويخذلهم عن الحق والوصول إليه فى الدنيا وكذلك فى القيامة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ [قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهَرُهُ مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ. ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغرتكم بالله الغرور. فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي

(١) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٢) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «إلى قوله».

(٣) فى ر، أ: «الفقهاء».

(٤) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٥) فى ر: «فلذلك».

مَوْلَاكُمْ] ^(١)بِئْسَ الْمَصِيرُ [الحديد: ١٣ - ١٥]. وقد ورد في الحديث: «مَنْ سَمِعَ سَمْعَ اللَّهِ بِهِ، وَمَنْ رَأَى رَأَى اللَّهِ بِهِ» ^(٢)، وفي حديث آخر: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَبْدِ إِلَى الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَيَعْدِلُ بِهِ إِلَى النَّارِ» عياداً بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ.

وقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ [يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا] ^(٣): هذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها، وهى الصلاة. إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها؛ لأنهم لا نية لهم فيها، ولا إيمان لهم بها ولا خشية، ولا يعقلون معناها كما روى ^(٤) ابن مردويه، من طريق عبيد الله بن زحر، عن خالد بن أبي عمران، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس قال: يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان، ولكن يقوم إليها طلق الوجه، عظيم الرغبة، شديد الفرح، فإنه يناجى الله [تعالى] ^(٥)، وإن الله أمامه يغفر له ويعجبه إذا دعاه، ثم يتلو ابن عباس هذه الآية: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾.

وروى من غير هذا الوجه، عن ابن عباس، نحوه.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ هذه صفة ظواهرهم، كما قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ [التوبة: ٥٤]. ثم ذكر تعالى صفة بواطنهم الفاسدة، فقال: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ أى: لا إخلاص لهم [ولا معاملة مع الله بل إنما يشهدون الصلاة تقية من الناس ومصانعة لهم] ^(٦)؛ ولهذا يتخلفون كثيراً عن الصلاة التى لا يُروْنَ غالباً فيها كصلاة العشاء وقت العتمة، وصلاة الصبح فى وقت الغلَس، كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلاً فيصلى بالناس، ثم أنطلق معى برجال، معهم حُزَمٌ من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار» ^(٧) ^(٨).

وفى رواية: «والذى نفسى بيده، لو علم أحدهم ^(٩) أنه يجد عرقاً سميناً أو مَرَمَاتين حستين، لشهد الصلاة، ولولا ما فى البيوت من النساء والذرية لحرقت عليهم بيوتهم بالنار» ^(١٠).

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمد - هو ابن أبى بكر المقدمى ^(١١) - حدثنا محمد بن دينار، عن إبراهيم الهجرى، عن أبى الأحوص، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحْسَنَ الصَّلَاةَ حَيْثُ يَرَاهُ النَّاسُ، وَأَسْأَهَا حَيْثُ يَخْلُو، فَتِلْكَ اسْتِهَانَةٌ، اسْتِهَانٌ بِهَا رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ» ^(١٢).

(١) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «إلى قوله».

(٢) صحيح البخارى برقم (٦٤٩٩) وصحيح مسلم برقم (٢٧٨٧).

(٣) زيادة من: ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٥) زيادة من أ.

(٤) فى أ: «رواه».

(٧) فى ر: «فى النار».

(٦) زيادة من ر، أ.

(٨) صحيح البخارى برقم (٦٥٧) وصحيح مسلم برقم (٦٥١).

(٩) فى أ: «لو يعلم أحدكم».

(١٠) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٤٤).

(١١) فى أ: «محمد بن أبى بكر المقدسى».

(١٢) مسند أبو يعلى (٥٤/٩) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٢/٢٩٠) من طريق زائدة عن إبراهيم الهجرى به. قال الهيثمى فى المجمع (٢٢١/١٠): «فيه إبراهيم بن مسلم الهجرى وهو ضعيف».

وقوله: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى: فى صلاتهم لا يخشعون [فيها]^(١) ولا يدرون^(٢) ما يقولون، بل هم فى صلاتهم ساهون لاهون، وعما يراد بهم من الخير معرضون.

وقد روى الإمام مالك، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق: يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان، قام فتقرّ أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً».

وكذا رواه مسلم، والترمذى، والنسائى، من حديث إسماعيل بن جعفر المدنى، عن العلاء بن عبد الرحمن، به. وقال الترمذى: حسن صحيح^(٣).

وقوله: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ يعنى: المنافقين محيرين بين الإيمان والكفر، فلا هم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً، ولا مع الكافرين ظاهراً وباطناً، بل ظواهرهم مع المؤمنين، وبواطنهم مع الكافرين. ومنهم من يعتريه الشك، فتارة يميل إلى هؤلاء، وتارة يميل إلى أولئك ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْأَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ الآية [البقرة: ٢٠].

قال مجاهد: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ يعنى: أصحاب محمد ﷺ ﴿وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ يعنى: اليهود.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبى ﷺ قال: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تَعِيرُ إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة، ولا تدرى أيتها تتبع».

تفرد به مسلم. وقد رواه عن محمد بن المثنى مرة أخرى، عن عبد الوهاب، فوقف به على ابن عمر، ولم يرفعه، قال: حدثنا به عبد الوهاب مرتين كذلك^(٤).

قلت: وقد رواه الإمام أحمد، عن إسحاق بن يوسف عن عبيد الله، به مرفوعاً. وكذا رواه إسماعيل بن عياش وعلى بن عاصم، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر مرفوعاً. وكذا رواه عثمان بن محمد بن أبى شيبة، عن عبدة، عن عبد الله، به مرفوعاً. ورواه حماد بن سلمة، عن عبيد الله - أو عبد الله بن عمر - عن نافع، عن ابن عمر مرفوعاً. ورواه أيضاً صخر بن جويرية، عن نافع عن ابن عمر، عن النبى ﷺ، بمثله^(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا الهذيل بن بلال، عن ابن عبيد، عن أبيه: أنه جلس ذات يوم بمكة وعبد الله بن عمر معه، فقال أبى: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل المنافق يوم القيامة كالشاة بين الربيضين من الغنم، إن أتت هؤلاء نطحتها، وإن أتت هؤلاء نطحتها» فقال له ابن عمر: كذبت. فأثنى القوم على أبى خيراً - أو معروفاً - فقال ابن عمر: لا أظن صاحبكم إلا كما

(١) زيادة من د.

(٢) فى د، ر، أ: «ولا يتدبرون».

(٣) الموطأ (٢٢٠/١) وصحيح مسلم برقم (٦٢٢) وسنن أبى داود برقم (٤١٢) وسنن الترمذى برقم (١٦٠) وسنن النسائى (٢٥٤/١).

(٤) تفسير الطبرى (٣٣٣/٩) وصحيح مسلم برقم (٢٧٨٤).

(٥) المسند (٤٧/٢).

تقولون، ولكنى شاهد^(١) نبي الله إذ قال: كالشاة بين الغنمين. فقال: هو سواء. فقال: هكذا سمعته^(٢).

وقال أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا المسعودي، عن أبي جعفر محمد بن علي قال: بينما عبيد بن عمير يقص، وعنده عبد الله بن عمر، فقال عبيد بن عمير: قال رسول الله ﷺ: «مثل المنافق كالشاة بين ربيضين، إذا أتت هؤلاء نطحتها، وإذا أتت هؤلاء نطحتها». فقال ابن عمر: ليس كذلك قال رسول الله ﷺ، إنما قال رسول الله ﷺ: «كشاة بين غنمين». قال: فاحتفظ الشيخ وغضب، فلما رأى ذلك ابن عمر قال: أما إنى لو لم أسمع له لم أرد ذلك عليك^(٣).

طريق أخرى: عن ابن عمر، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن عثمان بن بُوْدِيَه، عن يََعْفَرُ بن زُوْدَى قال: سمعت عبيد بن عمير وهو يقص يقول: قال رسول الله ﷺ: «مثل المنافق كمثل الشاة الرابضة بين الغنمين». فقال ابن عمر: ويلكم. لا تكذبوا على رسول الله ﷺ. إنما قال ﷺ: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين»^(٤).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: مثل المؤمن والمنافق والكافر مثل ثلاثة نفر انتهوا إلى واد، فدفع أحدهم فعبّر، ثم وقع الآخر حتى إذا أتى على نصف الوادى ناداه الذى على سفير الوادى: ويلك. أين تذهب؟ إلى الهلكة؟ ارجع عودك على بدئك، وناداه الذى عبر: هلم إلى النجاة. فجعل ينظر إلى هذا مرة وإلى هذا مرة، قال: فجاءه سيل فأغرقه، فالذى عبر المؤمن، والذى غرق المنافق: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ والذى مكث الكافر^(٥).

وقال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا شعبة^(٦) عن قتادة: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ يقول: ليسوا بمؤمنين مخلصين ولا مشركين مصرحين بالشرك. قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يضرب مثلاً للمؤمن وللمنافق وللکافر، كمثل رهط ثلاثة دفعوا إلى نهر، فوقع المؤمن فقطع، ثم وقع المنافق حتى إذا كاد يصل إلى المؤمن ناداه الكافر: أن هلم إلى، فإنى أخشى عليك. وناداه المؤمن: أن هلم إلى، فإنى عندى وعندى؛ يُحصى له ما عنده. فما زال المنافق يتردد بينهما حتى أتى أذى فغرقه. وإن المنافق لم يزل فى شك وشبهة، حتى أتى عليه الموت وهو كذلك. قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «مثل المنافق كمثل ثاغية بين غنمين، رأت غنماً على نَشَرٍ فأنتها وشامتها فلم تعرف، ثم رأت غنماً على نَشَرٍ فأنتها وشامتها فلم تعرف».

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أى: ومن صرفه عن طريق الهدى ﴿فَلَنْ

(١) فى أ: «شاهدى».

(٢) المسند (٦٨/٢).

(٣) المسند (٣٢/٢).

(٤) المسند (٨٨/٢).

(٥) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٧٢٠/٢).

(٦) فى ر: «سعيد».

تَجِدْ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ۖ فَإِنَّهُ ۖ ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا هَادِيَ لَهُ﴾ والمنافقون الذين أضلهم عن سبيل النجاة فلا هادى لهم، ولا منقذ لهم مما هم فيه، فإنه تعالى لا مُعَقِّبَ لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يُسألون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) ۖ

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يعنى مصاحبتهم ومصادقتهم ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨] أى: يحذركم عقوبته فى ارتكابكم نهيهِ. ولهذا قال هاهنا: ﴿أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أى: حجة عليكم فى عقوبته إياكم.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة عن ابن عباس قوله: ﴿سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [قال] (١): كل سلطان فى القرآن حجة.

وهذا إسناد صحيح. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، ومحمد بن كعب القرظى، والضحاك، والسدى، والنضر بن عَرَبِي.

ثم أخبر تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ أى: يوم القيامة، جزاء على كفرهم الغليظ. قال الوالى عن ابن عباس: ﴿فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ أى: فى أسفل النار. وقال غيره: النار دركات، كما أن الجنة درجات. وقال سفيان الثورى، عن عاصم، عن ذكوان أبى صالح، عن أبى هريرة: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ قال: فى توابيت ترتج عليهم. كذا رواه ابن جرير، عن ابن وكيع، عن يحيى بن يمان، عن سفيان، به. ورواه ابن أبى حاتم، عن المنذر بن شاذان، عن عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن عاصم، عن أبى صالح، عن أبى هريرة: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ قال: الدرك الأسفل بيوت لها أبواب تطبق عليهم، فتوقد من تحتهم ومن فوقهم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن سلمة بن كهيل، عن خيثمة، عن عبد الله - يعنى ابن مسعود: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ قال: فى توابيت

من نار تطبق عليهم. ورواه ابن أبى حاتم، عن أبى سعيد الأشج، عن وكيع، عن سفيان، عن سلمة، عن خيثمة، عن ابن مسعود: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ قال: فى توابيت من حديد مبهمة عليهم، ومعنى قوله: (مبهمة) أى: مغلقة مقفلة لا يهتدى لمكان فتحها.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا على بن يزيد^(١)، عن القاسم بن عبد الرحمن: أن ابن مسعود سئل عن المنافقين، فقال: يجعلون فى توابيت من نار، فتطبق عليهم فى أسفل درك من النار.

﴿وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ أى: ينقذهم مما هم فيه، ويخرجهم من أليم العذاب.

ثم أخبر تعالى أن من تاب [منهم]^(٢) فى الدنيا تاب عليه^(٣)، وقَبِلَ ندمه إذا أخلص فى توبته وأصلح عمله، واعتصم بربه فى جميع أمره، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أى: بدّلوا الرياء بالإخلاص، فينفعهم العمل الصالح وإن قل.

قال ابن أبى حاتم: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أنبأنا ابن وهب، أخبرنى يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن زحر، عن خالد بن أبى عمران، عن عمرو بن مرة، عن معاذ بن جبل: أن رسول الله ﷺ قال: «أخلص دينك، يكفك القليل من العمل»^(٤).

﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: فى زمرة يوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

ثم قال مخبراً عن غناه عما سواه، وأنه إنما يعذب العباد بذنوبهم، فقال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ أى: أصلحتم العمل وآمنتم بالله ورسوله، ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ أى: من شكر شكر له ومن آمن قلبه به علمه، وجازاه على ذلك أوفر الجزاء.

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (١٤٨) **إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعْفَوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا قَدِيرًا** (١٤٩).

قال [على]^(٥) بن أبى طلحة عن ابن عباس: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ يقول: لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد، إلا أن يكون مظلوماً، فإنه قد أرحص له أن يدعو على من ظلمه، وذلك قوله: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾، وإن صبر فهو خير له.

وقال^(٦) أبو داود: حدثنا عبيد الله بن معاذ، حدثنا أبى، حدثنا سفيان، عن حبيب، عن عطاء، عن عائشة قالت: سُرِقَ لها شيء، فجعلت تدعو عليه، فقال النبى ﷺ: «لَا تُسَبِّخِي عَنْهُ»^(٧).

(٣) فى أ: «عليهم»

(١) فى ر، أ: «زيد».

(٢) زيادة من أ.

(٤) ورواه الحاكم فى المستدرک (١/ ٥٧٠) وأبو نعيم فى الحلية (١/ ٢٤٤) وابن أبى الدنيا فى الإخلاص برقم (٧٩) من طريق عمرو بن مرة به، وفى إسناده انقطاع بين عمرو بن مرة ومعاذ فإنه لم يسمع منه.

(٧) فى أ: «فقال رسول الله».

(٦) فى ر: «وقد قال».

(٥) زيادة من أ.

(٨) سنن أبى داود برقم (٤٩٠٩).

وقال الحسن البصرى: لا يدع عليه، وليقل: اللهم أعنى عليه، واستخرج حقى منه. وفى رواية عنه قال: قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه من غير أن يعتدى عليه.

وقال عبد الكريم بن مالك الجزرى فى هذه الآية: هو الرجل يشتمك فتشتمه، ولكن إن افترى عليك فلا تفتّر عليه؛ لقوله: ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مَن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١].

وقال^(١) أبو داود: حدثنا القَعْنَبِيُّ، حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «الْمُسْتَبَانُ مَا قَالَا، فعلى البادئ منهما، ما لم يعتد المظلوم»^(٢).

وقال عبد الرزاق: أنبأنا المثنى بن الصباح، عن مجاهد فى قوله: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ قال: ضاف رجل رجلا، فلم يؤدّ إليه حقّ ضيافته، فلما خرج أخبر الناس، فقال: «ضفت فلانا فلم يؤدّ إلىّ حقّ ضيافتى». فذلك الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم، حين لم يؤدّ الآخر إليه حقّ ضيافته.

وقال محمد بن إسحاق، عن ابن أبى نجیح، عن جاهد: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ قال: قال: هو الرجل ينزل بالرجل فلا يحسن ضيافته، فيخرج فيقول: «أساء ضيافتى، ولم يحسن». وفى رواية: هو الضيف المحول رحله، فإنه يجهر لصاحبه بالسوء من القول.

وكذا روى عن غير واحد، عن مجاهد، نحو هذا. وقد روى الجماعة سوى النسائى والترمذى، من طريق الليث بن سعد - والترمذى من حديث ابن لهيعة - كلاهما عن يزيد بن أبى حبيب، عن أبى الخير مرثد بن عبد الله، عن عقبة بن عامر قال: قلنا: يا رسول الله، إنك تبعثنا^(٣) فننزل بقوم فلا يقرّونا، فما ترى فى ذلك؟ قال: «إذا نزلتم بقوم فأمرؤا لكم بما ينبغى للضيف، فاقبلوا منهم، وإن لم يفعلوا فخذوا منهم حقّ الضيف الذى ينبغى لهم»^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت أبا الجودى يحدث، عن سعيد ابن المهاجر، عن المقدم أبى كريمة، عن النبى ﷺ أنه قال: «أيا مسلم ضاف قوماً، فأصبح الضيف محروماً، فإن حقاً على كل مسلم نصره حتى يأخذ بقرى ليلته من زرعه وماله».

تفرد به أحمد من هذا الوجه^(٥)، وقال أحمد أيضاً: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا شعبة، حدثنى منصور، عن الشَّعْبِيِّ عن المقدم أبى كريمة، سمع رسول الله ﷺ يقول: «ليلة الضيف واجبة على كل مسلم، فإن أصبح بفنائهم محروماً كان ديناً له عليه، إن شاء اقتضاه وإن شاء تركه».

ثم رواه أيضاً عن غُنْدَرٍ عن شعبة. وعن زيادة^(٦) بن عبد الله البكائى. وعن وكيع، وأبى نُعَيْمٍ،

(١) فى أ: «وقد قال».

(٢) سنن أبى داود برقم (٤٨٩٤).

(٣) فى ر: «بعثنا».

(٤) صحيح البخارى برقم (٢٤٦١، ٦١٣٧) وصحيح مسلم برقم (١٧٢٧) وسنن أبى داود برقم (٣٧٥٢) وسنن الترمذى برقم (١٥٨٩) وسنن ابن ماجه برقم (٣٦٧٦).

(٥) المسند (١٣٣/٤) ولم يتفرد به من هذا الوجه، فقد رواه أبو داود فى سننه برقم (٣٧٥١) من طريق يحيى عن شعبة به.

(٦) فى ر: «زيادة».

عن سفيان الثوري - ثلاثتهم عن منصور، به. وكذا رواه أبو داود من حديث أبي عوانة، عن منصور، به^(١).

ومن هذه الأحاديث وأمثالها ذهب أحمد وغيره إلى وجوب الضيافة، ومن هذا القبيل الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار.

حدثنا عمرو بن علي، حدثنا صفوان بن عيسى، حدثنا محمد بن عجلان، عن أبيه، عن أبي هريرة؛ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إن لي جاراً يؤذيني، فقال له: «أخرج متاعك فضعه على الطريق». فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق، فجعل كل من مر به قال: مالك؟ قال: جاري يؤذيني. فيقول: اللهم عنه، اللهم أخزه! قال: فقال الرجل: ارجع إلى منزلك، وقال^(٢): لا أؤذيك أبداً.

وقد رواه أبو داود في كتاب الأدب، عن أبي توبة الربيع بن نافع، عن سليمان بن حيان أبي خالد الأحمر، عن محمد بن عجلان به^(٣).

ثم قال البزار: لا نعلمه يروى عن أبي هريرة إلا بهذا الإسناد، ورواه أبو جحيفة وهب بن عبدالله، عن النبي ﷺ، ويوسف بن عبد الله بن سلام، عن النبي ﷺ^(٤).

وقوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي: إن تظهروا - أيها الناس - خيراً، أو أخفيتموه، أو عفوتهم عن أساء إليكم، فإن ذلك مما يقربكم عند الله ويجزل ثوابكم لديه، فإن من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم. ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾؛ ولهذا ورد في الأثر: أن حملة العرش يسبحون الله، فيقول بعضهم: سبحانك على حلمك بعد علمك. ويقول بعضهم: سبحانك على عفوك بعد قدرتك. وفي الحديث الصحيح: «ما نقص مال من صدقة، ولا^(٥) زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه الله»^(٦).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٥٢)﴾.

(١) المسند (٤/ ١٣٠-١٣٣) وسنن أبي داود برقم (٣٧٥٠).

(٢) في د: «والله».

(٣) سنن أبي داود برقم (٥١٥٣) ورواه الحاكم في المستدرک (٤/ ١٦٥) من طريق صفوان بن عيسى به، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وهو على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٤) أما حديث أبي جحيفة فرواه البزار في مسنده برقم (١٩٠٣) «كشف الاستار». قال الهيثمي في المجمع (٨/ ١٧٠): «فيه أبو عمر المنهني تفرد عنه شريك وبقية رجاله ثقات».

(٥) في د: «وما».

(٦) رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه..

يتوعد [تبارك و] ^(١) تعالى الكافرين به وبرسله من اليهود والنصارى، حيث فرّقوا بين الله ورسله في الإيمان، فأمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض، بمجرد التشهى والعادة، وما ألفوا عليه آباءهم، لا عن دليل قادمهم إلى ذلك، فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك بل بمجرد الهوى والعصية. فاليهود - عليهم لعائن الله - آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، والنصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمد ﷺ، والسامرة لا يؤمنون بنبي بعد يوشع خليفة موسى بن عمران، والمجوس يقال: إنهم كانوا يؤمنون بنبي لهم يقال له ^(٢): زرادشت، ثم كفروا بشرعه، فرفع من بين أظهرهم، والله ^(٣) أعلم.

والمقصود أن من كفر بنبي من الأنبياء، فقد كفر بسائر الأنبياء، فإن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض، فمن رد نبوته للحسد أو العصية أو التشهى تبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيماناً شرعياً، إنما هو عن غرض وهوى وعصية؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، فوسمهم بأنهم كفار بالله ورسله ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أى: فى الإيمان ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أى: طريقاً ومسلكاً. ثم أخبر تعالى عنهم، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ أى: كفرهم محقق لا محالة بمن ادعوا الإيمان به؛ لأنه ليس شرعياً، إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله لآمنوا بنظيره، وبمن هو أوضح دليلاً وأقوى برهاناً منه، أو نظروا حق النظر فى نبوته.

وقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أى: كما استهانوا بمن كفروا به إما لعدم نظرهم فيما جاءهم به من الله، وإعراضهم عنه وإقبالهم على جمع حطام الدنيا مما لا ضرورة بهم إليه، وإما بكفرهم به بعد علمهم بنبوته، كما كان يفعل كثير من أحبار اليهود فى زمان رسول الله ﷺ، حيث حسدوه على ما آتاه الله من النبوة العظيمة، وخالفوه وكذبوه وعادوه وقاتلوه، فسلط الله عليهم الذل الدنيوى الموصول بالذل الآخروى: ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١] فى الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ يعنى بذلك: أمة محمد ﷺ، فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله وبكل نبي بعثه الله، كما قال تعالى: ﴿أَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ ^(٤) [البقرة: ٢٨٥].

ثم أخبر تعالى بأنه قد أعد لهم الجزاء الجزيل والثواب الجليل والعطاء الجميل، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ﴾ على ما آمنوا بالله ورسله ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أى: لذنوبهم، أى: إن كان لبعضهم ذنوب.

(٣) فى ر: «فالله».

(٢) فى ر، أ: «اسمه».

(١) زيادة من ر، أ.

(٤) زيادة من: ر، أ، وفى هـ: «الآية».

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤)﴾

قال محمد بن كعب القرظي، والسدي، وقتادة: سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء. كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة.

قال ابن جريج: سألوه أن ينزل عليهم صحفاً من الله مكتوبة إلى فلان وفلان وفلان، بتصديقه فيما جاءهم به. وهذا إنما قالوه على سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد، كما سأل كفار قريش قبلهم نظير ذلك، كما هو مذكور في سورة «سبحان»: ﴿وَقَالُوا لَنُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣] الآيات. ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ أي: بطغيانهم وبغيهم، وعتوهم وعنادهم. وهذا مفسر في سورة «البقرة» حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ. ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥ ، ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: من بعد ما رأوا من الآيات الباهرة والأدلة القاهرة على يد موسى، عليه السلام، في بلاد مصر وما كان من إهلاك عدو الله فرعون^(١) وجميع جنوده في اليم، فما جاوزوه إلا يسيراً حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، فقالوا لموسى^(٢): ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [قال إنكم قوم تجهلون. إن هؤلاء متبراً ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون] ^(٣) ﴿[الأعراف: ١٣٨ ، ١٣٩]. ثم ذكر تعالى قصة اتخاذهم العجل مبسوطة^(٤) في سورة «الأعراف»، وفي سورة «طه» بعد ذهاب موسى إلى مناجاة الله، عز وجل، ثم لما رجع وكان ما كان، جعل الله توبتهم من الذي صنعوه وابتدعوه: أن يقتل من لم يعبد العجل منهم من عبده، فجعل يقتل بعضهم بعضاً ثم أحياهم الله، عز وجل، فقال الله عز وجل^(٥): ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾، وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة، وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسى، عليه السلام، ورفع الله على رؤوسهم جبلاً، ثم ألزموا فالتزموا وسجدوا، وجعلوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم خشية أن يسقط عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَقَّضْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ [وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ]﴾ ^(٦) ﴿[الأعراف: ١٧١].

(٣) زيادة من ر، أ، وفي هـ: «الآيتين».

(٢) في د، ر، أ: «يا موسى».

(١) في أ: «فرعون هو».

(٦) زيادة من ر، أ، وفي هـ: «الآية».

(٥) في أ: «قال الله تعالى».

(٤) في ر: «مبسوط».

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أى: فخالفوا ما أمروا به من القول والفعل، فإنهم أمروا أن يدخلوا باب بيت القدس سجداً، وهم يقولون: حطة. أى: اللهم حط^(١) عنا ذنوبنا فى تركنا الجهاد ونكولنا عنه، حتى تهنا فى التيه أربعين سنة. فدخلوا يزحفون على أستاههم، وهم يقولون: حنطة فى شعرة.

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ أى: وصيناهم بحفظ السبت والتزام ما حرم الله عليهم، ما دام مشروعاً لهم ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أى: شديداً، فخالفوا وعَصَوْا وتحيلوا على ارتكاب مناهى الله، عز وجل، كما هو مبسوط فى سورة الأعراف عند قوله: ﴿وَاسْتَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ [إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ]﴾^(٢) [الأعراف: ١٦٣ - ١٦٦] الآيات، وسيأتى حديث صفوان بن عسال، فى سورة «سبحان» عند قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]، وفيه: «وعليكم - خاصة يهود - ألا تعدوا فى السبت».

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩)﴾.

وهذه من الذنوب التى ارتكبوها، مما أوجب لعنتهم وطردهم وإبعادهم عن الهدى، وهو نقضهم المواثيق والعهود التى أخذت عليهم، وكفرهم بآيات الله، أى: حججه وبراهينه، والمعجزات التى شاهدوها على أيدي الأنبياء، عليهم السلام.

قوله^(٣): ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، وذلك لكثرة إجرامهم واجترائهم على أنبياء الله، فإنهم قتلوا جماعاً غفيراً من الأنبياء [بغير حق]^(٤) عليهم السلام.

وقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جببر، وعكرمة، والسدى، وقتادة، وغير واحد: أى فى غطاء. وهذا كقول المشركين: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْتَةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ [وَفِي آدَانَا وَفَرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاَعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ]﴾^(٥) [فصلت: ٥]. وقيل: معناه أنهم ادعوا أن قلوبهم غُلْفٌ للعلم، أى: أوعية للعلم قد حوته وحصلته. رواه الكلبي، عن أبى صالح، عن ابن عباس. وقد تقدم نظيره^(٦) فى سورة البقرة.

(٣) فى أ: «وقوله»

(٢) زيادة من ر، أ.

(١) فى د: «احطط».

(٦) فى أ: «تفسيره».

(٥) زيادة من د، أ، وفى هـ: «الآية».

(٤) زيادة من أ.

قال الله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ ، فعلى القول الأول كأنهم يعتذرون إليه بأن قلوبهم لا تعى ما يقول؛ لأنها فى غلف وفى أكنة، قال الله [تعالى] ^(١): بل هو مطبوع عليها بكفرهم. وعلى القول الثانى عكس عليهم ما ادَّعَوْهُ من كل وجه، وقد تقدم الكلام على مثل هذا فى سورة البقرة.

﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى: مَرَدَّتْ قلوبهم على الكفر والطغيان وقلة الإيمان. ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ ، قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: «يعنى أنهم رموها بالزنا». وكذا قال السدى، وجُوْبِرَ، ومحمد بن إسحاق وغير واحد. وهو ظاهر من الآية: أنهم رموها وابنها بالعظام، فجعلوها زانية، وقد حملت بولدها من ذلك - زاد بعضهم: وهى حائض - فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

وقولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أى ^(٢): هذا الذى يدعى لنفسه هذا ^(٣) المنصب قتلناه. وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء، كقول المشركين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

وكان من خبر اليهود - عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه - أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى، حسدوه على ما آتاه الله من النبوة والمعجزات الباهرات، التى كان يبرى بها الأكمه والأبرص ويحى الموتى بإذن الله، ويصور من الطين طائراً ثم ينفخ فيه فيكون طائراً يشاهد طيرانه بإذن الله، عز وجل، إلى غير ذلك من المعجزات التى أكرمه الله بها وأجراها على يديه، ومع هذا كذبوه وخالفوه، وسَعَوْا فى أذاه بكل ما أمكنهم، حتى جعل نبي الله عيسى، عليه السلام، لا يسكنهم فى بلدة، بل يكثر السياحة هو وأمه، عليهما السلام، ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق فى ذلك الزمان - وكان رجلاً مشركاً من عبدة الكواكب، وكان يقال لأهل ملته: اليونان - وأنها إليه: أن بيت المقدس رجلاً يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه. فغضب ^(٤) الملك من هذا، وكتب إلى نائبه بالمقدس أن يحتاط على هذا المذكور، وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه، ويكف أذاه على الناس. فلما وصل الكتاب امثل متولّى بيت المقدس ^(٥) ذلك، وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذى فيه عيسى، عليه السلام، وهو فى جماعة من أصحابه، اثنا عشر أو ثلاثة عشر - وقيل: سبعة عشر نفرأ - وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت، فحصره هنالك. فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه، أو خروجه عليهم قال لأصحابه: أيكم يُلقَى عليه شبيهى، وهو رفيقى فى الجنة؟ فانتدب لذلك شابٌ منهم، فكأنه استصغره عن ذلك، فأعادها ثانية وثالثة وكل ذلك لا يَنْتَدِبُ إلا ذلك الشاب - فقال: أنت هو - وألقى الله عليه شبه عيسى، حتى كأنه هو،

(١) زيادة من أ.

(٢) بعدها فى أ: «وبدعواهم البهتان والكذب والإفك والعدوان فى قولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾».

(٣) فى ر: «ذلك». (٤) فى أ: «فغضب ذلك». (٥) فى ر، أ: «متولى البلد».

وَفُتِحَتْ رَوَازِيءُ مَنْ سَقَفَ الْبَيْتَ، وَأَخَذَتْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سِنَّةً مِنَ النَّوْمِ، فَرَفَعَ إِلَى السَّمَاءِ وَهُوَ كَذَلِكَ، كَمَا قَالَ [اللَّهُ] ^(١) تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا مَتَّعْتُكَ بِرَأْفَتِي وَإِنِّي مُنَادٍ بِكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ^(٢) الآية [آل عمران: ٥٥] .

فلما رفع خرج أولئك النفر فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى، فأخذوه فى الليل وصلبوه، ووضعوا الشوك على رأسه، فأظهر اليهود أنهم سعوا فى صلبه وتبجحوا بذلك، وسلم لهم طوائف من النصارى ذلك لجهلهم وقلة عقلهم، ما عدا من كان فى البيت مع المسيح، فإنهم شاهدوا رفعه، وأما الباقون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود أن المصلوب هو المسيح ^(٣) ابن مريم، حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت، ويقال: إنه خاطبها، والله ^(٤) أعلم.

وهذا كله من امتحان الله عباده؛ لما له فى ذلك من الحكمة البالغة، وقد أوضح ^(٥) الله الأمر وجلاله وبينه وأظهره فى القرآن العظيم، الذى أنزله على رسوله الكريم، المؤيد بالمعجزات والبيّنات والدلائل الواضحات، فقال تعالى - وهو أصدق القائلين، ورب العالمين، المطلع على السرائر والضمائر، الذى يعلم السر فى السموات والأرض، العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف ^(٦) يكون -: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أى: رأوا شبهه فظنوه إياه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ [وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا] بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ ^(٧) .
يعنى بذلك: من ادعى قتله من اليهود، ومن سلّمه من جهال النصارى، كلهم فى شك من ذلك وحيرة وضلال وسُعر. ولهذا قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أى: وما قتلوه متيقنين أنه هو، بل شاكين متوهمين ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أى منيع الجنب لا يرام جنبه، ولا يضام من لاذ ببابه ﴿حَكِيمًا﴾ أى: فى جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التى يخلقها وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، والسلطان العظيم، والأمر القديم.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء، خرج على أصحابه - وفى البيت اثنا عشر رجلاً من الحواريين - يعنى: فخرج عليهم من عين فى البيت، ورأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من يكفر بى اثنتى عشرة ^(٨) مرة، بعد أن آمن بى. ثم قال: أياكم يلقى عليه شبهى، فيقتل مكانى ويكون معى فى درجتى؟ فقام شاب من أحدثهم سناً، فقال له: اجلس. ثم أعاد عليهم فقام ذلك الشاب، فقال: اجلس. ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا. فقال: أنت هو ذاك. فألقى عليه شبه عيسى. ورفع عيسى من رَوَازِيءِ فى البيت إلى السماء. قال: وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه، ثم صلبوه وكفر به بعضهم اثنتى عشرة ^(٩) مرة، بعد أن آمن به،

(١) زيادة من أ. (٢) زيادة من ر، أ. (٣) فى أ: «هو عيسى».
(٤) فى د، ر، أ: «فأله». (٥) فى ر: «وضح». (٦) فى ر، أ: «كيف كان يكون».
(٧) زيادة من أ. (٨) فى د: «اثنتى عشر»، وفى ر: «اثنا عشر».

وافترقوا ثلاث فرق، فقالت طائفة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء. وهؤلاء اليعقوبية، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء، ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء، ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة، فقتلوهما، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ.

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، ورواه النسائي عن أبي كريب، عن أبي معاوية، بنحوه^(١). وكذا ذكر غير واحد من السلف أنه قال لهم: أيكم يُلقَى عليه شبهة فيقتل مكانى، وهو رفيقى فى الجنة؟

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب القمى، عن هارون بن عنترة، عن وهب بن منبه قال: أتى عيسى وعنده سبعة عشر من الخواريين فى بيت وأحاطوا بهم. فلما دخلوا عليه صورهم الله، عز وجل، كلهم على صورة عيسى، فقالوا لهم: سحرقونا. ليرزن لنا عيسى أو لنقتلنكم جميعاً. فقال عيسى لأصحابه: من يشرى نفسه منكم اليوم بالجنة؟ فقال رجل منهم: أنا. فخرج إليهم وقال: أنا عيسى - وقد صورته الله على صورة عيسى - فأخذه وقتله وصلبوه. فمن ثم شبه لهم، فظنوا أنهم قد قتلوا عيسى، وظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى، ورفع الله عيسى من يومه ذلك. وهذا سياق غريب جداً^(٢).

قال ابن جرير: وقد روى عن وهب نحو هذا القول، وهو ما حدثنى به المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم، حدثنى عبد الصمد بن معقل: أنه سمع وهباً يقول: إن عيسى ابن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا، جزع من الموت وشقَّ عليه، فدعا الخواريين فصنع لهم طعاماً، فقال: احضرونى الليلة، فإن لى إليكم حاجة. فلما اجتمعوا إليه من الليل عَشَّاهم وقام يخدمهم. فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده، ويمسح أيديهم بثيابه، فتعاضموا ذلك وتكارهوه، فقال: ألا من رد على شئنا الليلة مما أصنع، فليس منى ولا أنا منه. فأقروه، حتى إذا فرغ من ذلك قال: أمأ ما صنعت بكم الليلة، مما خدمتكم على الطعام، وغسلت أيديكم بيدي، فليكن لكم بى أسوة، فإنكم ترون أنى خيركم، فلا يتعظم بعضكم على بعض، وليبذل بعضكم نفسه لبعض، كما بذلت نفسى لكم. وأما حاجتى الليلة التى أستعينكم عليها فتدعون لى الله، وتجتهدون فى الدعاء أن يؤخر أجلى. فلما نصبوا أنفسهم للدعاء، وأرادوا أن يجتهدوا، أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاء، فجعل يوقظهم ويقول: سبحان الله! أما تصبرون لى ليلة واحدة تعينوننى فيها؟ قالوا: والله ما ندرى ما لنا. لقد كنا نَسْمُرُ فنكثر السمر، وما نطيق الليلة سَمَراً، وما نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه. فقال: يُذْهَبَ بالراعى^(٣) وتفرق الغنم. وجعل يأتى بكلام نحو هذا ينمى به نفسه. ثم قال: الحق، ليكفرن بى أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات، وليبيعننى أحدكم بدراهم يسيرة، وليأكلن

(١) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٥٩١).

(٢) تفسير الطبرى (٣٦٨/٩)، وقد صوب قول وهب بن منبه مع أن الحافظ هنا استغربه. انظر: تفسير الطبرى (٣٧٤/٩).

(٣) فى ر: «الراعى».

ثمنى، فخرجوا وتفرقوا، وكانت اليهود تطلبه، وأخذوا شمعون أحد الحواريين، وقالوا: هذا من أصحابه. فجحد وقال: ما أنا بصاحبه فتركوه، ثم أخذه آخرون، فجحد كذلك. ثم سَمِعَ صَوْتَ ديك فبكى وأحزنه، فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال: ما تجعلون لى إن دَلَّكُمُ على المسيح؟ فجعلوا له ثلاثين درهما، فأخذها ودلَّهم عليه، وكان شُبَّه عليهم قبل ذلك، فأخذوه فاستوثقوا منه، وربطوه بالحبل، وجعلوا يقودونه ويقولون له: أنت كنت تحبى الموتى، وتنهر الشيطان، وتبرئ المجنون، أفلا تنجى نفسك من هذا الحبل؟ ويصقون عليه، ويلقون عليه الشوك، حتى أتوا به الخشبة التى أرادوا أن يصلبوه عليها، فرفعه الله إليه، وصلبوا ما شُبَّه لهم فمكث سبعا.

ثم إن أمه والمرأة التى كان يداويها عيسى عليه السلام، فأبرأها الله من الجنون، جاءتا تبكيان حيث المصلوب، فجاءهما عيسى فقال: علام تبكيان؟ فقلتا: عليك. فقال: إنى قد رفعتى الله إليه، ولم يصبنى إلا خير، وإن هذا شُبَّه لهم فأمرأ الحواريين يلقونى إلى مكان كذا وكذا. فلقوه إلى ذلك المكان أحد عشر. وفقدوا الذى كان باعه ودل عليه اليهود، فسأل عنه أصحابه فقال: إنه ندم على ما صنع فاختنق، وقتل نفسه فقال: لو تاب لتاب الله عليه. ثم سألهم عن غلام كاد يتبعهم، يقال له: يحيى، قال: هو معكم، فانطلقوا، فإنه سيصبح كل إنسان يحدث بلغه قومه، فلينذرهم وليدعهم. سياق غريب جداً^(١).

ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق قال: كان اسم ملك بنى إسرائيل الذى بعث إلى عيسى ليقتله رجلا منهم، يقال له: داود، فلما أجمعوا لذلك منه، لم يقطع عبد من عباد الله بالموت - فيما ذكر لى - فَظَعَهُ ولم يجزع منه جزعه، ولم يدع الله فى صرفه عنه دعاءه، حتى إنه ليقول - فيما يزعمون - «اللهم إن كنت صارفا هذه الكأس عن أحد من خلقك فاصرفها عني» وحتى إن جلده من كرب ذلك ليتفصدا. فدخل المدخل الذى أجمعوا أن يدخلوا عليه فيه ليقتلوه هو وأصحابه، وهم ثلاثة عشر بعيسى، عليه السلام، فلما أيقن أنهم داخلون عليه قال لأصحابه من الحواريين - وكانوا اثنى عشر رجلا: فطرس^(٢) ويعقوب بن زبدي^(٣) ويحنس أخو يعقوب، وأندرايس، وفيلبس، وأبرثلما ومنى وتوماس، ويعقوب بن حلفيا، وتداوسيس، وقثانيا، ويودس زكريا يوطا.

قال ابن حميد: قال سلمة، قال ابن إسحاق: وكان [فيهم فيما]^(٤) ذكر لى رجل اسمه سرجس، فكانوا ثلاثة عشر رجلا سوى عيسى، عليه السلام، جحدته النصارى، وذلك أنه هو الذى شُبَّه لليهود مكان عيسى [عليه السلام]^(٥). قال: فلا أدري ما هو؟ من هؤلاء الاثنى عشر، أو كان ثالث عشر، فجحدوه حين أقروا لليهود بصلب عيسى، وكفروا بما جاء به محمد ﷺ من الخبر عنه. فإن كانوا ثلاثة عشر فإنهم دخلوا المدخل حين دخلوا وهم بعيسى أربعة عشر، وإن كانوا اثنى عشر، فإنهم دخلوا المدخل [حين دخلوا]^(٦) وهم ثلاثة عشر.

(١) تفسير الطبرى (٣٦٨/٩).

(٢) فى ر: «فطوس»، وفى أ: «قطوس».

(٣) فى أ: «يعقونس وندا».

(٤-٦) زيادة من أ.

قال ابن إسحاق: وحدثني رجل كان نصرانياً فأسلم: أن عيسى حين جاءه ^(١) من الله: ﴿إِنِّي رَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ قال: يا معشر الحواريين، أيكم يحب أن يكون رفيقي في الجنة على أن ^(٢) يشبه للقوم في صورتى، فيقتلوه في مكاني؟ فقال سرجس: أنا، يا روح الله. قال: فاجلس في مجلسي. فجلس فيه، ورفع عيسى، عليه السلام، فدخلوا عليه فأخذه فصلبوه، فكان هو الذى صلبوه وشبه لهم به، وكانت عدتهم حين دخلوا مع عيسى معلومة، قد رأوهم وأحصوا عدتهم. فلما دخلوا عليه ليأخذه وجدوا عيسى فيما يُرون وأصحابه، وفقدوا رجلاً من العدة، فهو الذى اختلفوا فيه وكانوا لا يعرفون عيسى، حتى جعلوا ليودس زكريا يوطا ثلاثين درهماً على أن يدلهم عليه ويعرفهم إياه، فقال لهم: إذا دخلتم عليه فإننى سأقبله، وهو الذى أقبل، فخذوه. فلما دخلوا وقد رفع عيسى، ورأى سرجس فى صورة عيسى، فلم يشك ^(٣) أنه عيسى، فأكب عليه فقبله ^(٤)، فأخذه فصلبوه.

ثم إن يودس زكريا يوطا ندم على ما صنع، فاختنق بحبل حتى قتل نفسه، وهو ملعون فى النصرى، وقد كان أحد المعدودين من أصحابه، وبعض النصرى يزعم أن يودس زكريا يوطا هو الذى شبه لهم، فصلبوه وهو يقول: «إنى لست بصاحبكم. أنا الذى دللتكم عليه». والله ^(٥) أعلم أى ذلك كان ^(٦).

وقال ابن جرير، عن مجاهد: صلبوا رجلاً شبهوه بعيسى، ورفع الله، عز وجل، عيسى إلى السماء حياً.

واختار ابن جرير أن شبه عيسى ألقى على جميع أصحابه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

قال ابن جرير: اختلف أهل التأويل فى معنى ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ يعنى بعيسى ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ يعنى: قبل موت عيسى - يؤجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال، فتصير الملل كلها واحدة، وهى ملة الإسلام الحنيفية، دين إبراهيم، عليه السلام.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن أبى حُصَيْن، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: قبل موت عيسى ابن مريم. وقال العوفى عن ابن عباس مثل ذلك ^(٧).

وقال أبو مالك فى قوله: ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: ذلك عند نزول عيسى ابن مريم، عليه السلام، لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا آمن به.

(٣) فى أ: «يشكك».

(٢) فى ر: «حتى».

(١) فى ر، أ: «جاءه الوحي».

(٥) فى ر: «فألقه».

(٤) فى أ: «فقتله».

(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (٣٧١/٩) من طريق سلمة عن ابن إسحاق به.

(٧) تفسير الطبرى (٣٨٠/٩).

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ يعنى: اليهود خاصة. وقال الحسن البصرى: يعنى النجاشى وأصحابه. ورواهما ابن أبى حاتم.

وقال ابن جرير: وحدثنى يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا أبو رجاء، عن الحسن: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: قبل موت عيسى. والله إنه الآن حى عند الله، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن عثمان اللاحقى، حدثنا جويرية بن بشر قال: سمعت رجلاً قال للحسن: يا أبا سعيد، قول الله، [عز وجل]^(١): ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: «قبل موت عيسى. إن الله رفع عيسى [إليه]^(٢)، وهو باعته قبل يوم القيامة مقاماً يؤمن به البر والفاجر».

وكذا قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد. وهذا القول هو الحق، كما سنبينه بعد بالدليل القاطع، إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان.

قال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ قبل موت الكتابى. ذكر من كان يوجه ذلك إلى أنه إذا عاين علم الحق من الباطل؛ لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين^(٣) له الحق من الباطل فى دينه.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: لا يموت يهودى حتى يؤمن بعيسى.

حدثنى المننى، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد فى قوله: ﴿إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾: كل صاحب كتاب يؤمن بعيسى قبل موته - قبل موت صاحب الكتاب - وقال ابن عباس: لو ضربت عنقه لم تخرج نفسه حتى يؤمن بعيسى.

حدثنا ابن حميد، حدثنا أبو نُمَيْلَةَ يحيى بن واضح، حدثنا حسين بن واقد، عن يزيد النحوى، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لا يموت اليهودى حتى يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله، ولو عجل عليه بالسلاح.

حدثنى إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد، حدثنا عتاب بن بشير^(٤)، عن خُصَيْف، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: هى فى قراءة أبى: «قبل موتهم» ليس يهودى يموت أبداً حتى يؤمن بعيسى. قيل لابن عباس: أرايت إن خر من فوق بيت؟ قال: يتكلم به فى الهوى. فقيل: أرايت إن ضربت عنق أحد منهم؟ قال: يُلْجَلَج بها لسانه.

وكذا روى سفيان الثورى عن خصيف، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: لا يموت يهودى حتى يؤمن بعيسى، عليه السلام، وإن ضرب بالسيف تكلم

(٣) فى د: «يعلم».

(١)، (٢) زيادة من أ.

(٤) فى د: «غياث بن بشير»، وفى ر: «عتاب بن يشكر».

به، قال: وإن هَوَى تكلم [به]^(١) وهو يَهْوَى.

وكذا روى أبو داود الطيالسى، عن شعبة، عن أبي هارون الغنوى^(٢)، عن عكرمة، عن ابن عباس. فهذه كلها أسانيد صحيحة إلى ابن عباس، وكذا صحَّ عن مجاهد، وعكرمة، ومحمد بن سيرين. وبه يقول الضحاك وجُوَيْر، والسدى، وحكاه عن ابن عباس، ونقل قراءة أبي بن كعب: «قبل موتهم».

وقال عبد الرزاق، عن إسرائيل، عن فرات القزاز، عن الحسن فى قوله: «إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ» قال: لا يموت أحد منهم حتى يؤمن بعيسى قبل أن يموت.

وهذا يحتمل أن يكون مراد الحسن ما تقدم عنه، ويحتمل أن يكون مراده ما أراده هؤلاء^(٣).

قال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد ﷺ قبل موت الكتابى.

ذكر من قال ذلك:

حدثنى ابن المنى، حدثنا الحجاج بن منهال، حدثنا حماد، عن حميد قال: قال عكرمة: لا يموت النصرانى ولا اليهودى حتى يؤمن بمحمد ﷺ يعنى فى قوله: «وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ».

ثم قال ابن جرير: وأولى هذه الأقوال بالصحة القول الأول، وهو أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى، عليه السلام، إلا آمن به قبل موته، أى قبل موت عيسى، عليه السلام، ولا شك أن هذا الذى قاله ابن جرير، رحمه [الله]^(٤) هو الصحيح؛ لأنه المقصود من سياق الآى فى تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وتسليم من سلم لهم من النصرارى الجهلة ذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شبه لهم فقتلوا الشبيه وهم لا يتبينون ذلك، ثم إنه رفعه إليه، وإنه باق حى، وإنه سينزل قبل يوم القيامة، كما دلت عليه الأحاديث المتواترة - التى سنورها إن شاء الله قريباً - فيقتل مسيح^(٥) الضلالة، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية - يعنى: لا يقبلها من أحد من أهل الأديان، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف - فأخبرت هذه الآية الكريمة أن^(٦) يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ، ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم؛ ولهذا قال: «وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ» أى: قبل موت عيسى، الذى زعم اليهود ومن وافقهم من النصرارى أنه قتل وصلب.

«وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا» أى: بأعمالهم التى شاهدتها منهم قبل رفعه إلى السماء وبعد نزوله إلى الأرض. فأما من فسر هذه الآية بأن المعنى: أن كل كتابى لا يموت حتى يؤمن بعيسى أو بمحمد، عليهما [الصلاة و]^(٧) السلام^(٨)، فهذا هو الواقع، وذلك أن كل أحد عند احتضاره يتجلى له

(١) زيادة من ر. (٢) فى د: «العوفى».

(٣) تفسير عبد الرزاق (١/ ١٧٠).

(٤) زيادة من ر، أ.

(٥) فى أ: «مسيح».

(٦) فى د، ر، أ: «أنه».

(٨) فى د: «ﷺ».

(٧) زيادة من أ.

ما كان جاهلاً به، فيؤمن به، ولكن لا يكون ذلك إيماناً نافعاً له، إذا كان قد شاهد الملك، كما قال تعالى في [أول] (١) هذه السورة: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ (٢) الآية [النساء: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكُفِّرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكْ يَنْفَعَهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ (٣) الآية (٤) [غافر: ٨٤، ٨٥] وهذا يدل على ضعف ما احتج به ابن جرير في رد (٥) هذا القول، حيث قال: ولو كان المراد بهذه الآية هذا، لكان كل من آمن بمحمد أو بالمسيح، ممن كفر بهما - يكون على دينهما، وحيث لا يرثه أقرباؤه من أهل دينه؛ لأنه قد أخبر الصادق أنه يؤمن به قبل موته. فهذا ليس بجيد؛ إذ لا يلزم من إيمانه في حالة لا ينفعه إيمانه أنه يصير بذلك مسلماً، ألا ترى إلى قول ابن عباس: «ولو تردى من شاهق أو ضرب بسيف وافتترسه سبع، فإنه لا بد أن يؤمن بعيسى» فالإيمان في مثل هذه الحالات ليس بنافع، ولا ينقل صاحبه عن كفره لما قدمناه، والله أعلم.

ومن تأهل هذا جيداً وأمعن النظر، اتضح له أن هذا، وإن كان هو الواقع، لكن لا يلزم منه أن يكون المراد بهذه الآية هذا، بل المراد بها ما ذكرناه من تقرير وجود عيسى، عليه السلام، وبقاء حياته في السماء، وأنه سينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة؛ ليكذب هؤلاء وهؤلاء من اليهود والنصارى الذين تباينت أقوالهم فيه وتضادت وتعاكست وتناقضت، وخلت عن الحق، ففرط هؤلاء اليهود وأفرط هؤلاء النصارى: تنقصه اليهود بما رموه به وأمه من العظائم، وأطراه النصارى بحيث ادعوا فيه بما ليس فيه، فرفعوه في مقابلة أولئك عن مقام النبوة إلى مقام الربوبية، تعالى الله عن قول هؤلاء وهؤلاء علواً كبيراً، وتنزه وتقدس لا إله إلا هو.

ذكر الأحاديث الواردة في نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض من السماء، في آخر الزمان قبل يوم القيامة، وأنه يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له:

قال البخاري، رحمه الله، في كتاب ذكر الأنبياء، من صحيحه المتلقى بالقبول: (نزول عيسى ابن مريم - عليه السلام): حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبي، عن صالح، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليُوشَكَنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة خيراً (٦) من الدنيا وما فيها». ثم يقول أبو هريرة: واقروا إن شئتم: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

وكذا رواه مسلم عن الحسن (٧) الحلواني وعبد بن حميد كلاهما، عن يعقوب، به (٨). وأخرجه البخاري ومسلم، أيضاً، من حديث سفيان بن عيينة، عن الزهري، به (٩). وأخرجاه من طريق الليث عن الزهري به (١٠). ورواه ابن مردويه من طريق محمد بن أبي حفصة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يكون فيكم ابن مريم حكماً عدلاً،

(١ - ٣) زيادة من أ.

(٤) في أ: «الآية».

(٥) في د: «رده».

(٦) في ر: «حسن».

(٦) في أ: «خير».

(٨) صحيح البخاري برقم (٣٤٤٨) وصحيح مسلم برقم (١٥٥).

(٩) صحيح البخاري برقم (٢٤٧٦) وصحيح مسلم برقم (١٥٥).

(١٠) صحيح البخاري برقم (٢٢٢٢) وصحيح مسلم برقم (١٥٥).

يقتل الدجال، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، ويفيض المال، وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين». قال أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ثُمَّ يَعْبُدُهَا أَبُو هَرِيرَةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ^(١)».

طريق أخرى عن أبي هريرة: قال الإمام أحمد: حدثنا رَوْحٌ، حدثنا محمد بن أبى حفصة، عن الزُّهْرَى، عن حنظلة^(٢) بن على الأسلمى، عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لِيُهْلَنَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بِفَجِّ الرُّوحَاءِ بِالْحَجِّ أَوْ الْعِمْرَةِ أَوْ لِيُثْنِيَهُمَا جَمِيعاً».

وكذا رواه مسلم منفرداً به من حديث سفيان بن عيينة، والليث بن سعد، ويونس بن يزيد، ثلاثتهم عن الزهرى به^(٣).

وقال أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا سفيان - هو ابن حسين - عن الزهرى، عن حنظلة، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَيَقْتُلُ الْخَنَزِيرَ، وَيَمْحُو الصَّلِيبَ، وَتَجْمَعُ لَهُ الصَّلَاةُ، وَيُعْطَى الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَ، وَيُضْعَ الْخَرَجُ، وَيَنْزِلُ الرُّوحَاءُ فَيَحْجُجُ مِنْهَا أَوْ يَعْتَمِرُ أَوْ يَجْمَعُهُمَا». قال: وتلا أبو هريرة: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ [وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً] ^(٤)﴾. فزعم حنظلة^(٥) أن أبا هريرة قال: يؤمن به قبل موت عيسى، فلا أدري هذا كله حديث النبى ﷺ أو شىء قاله أبو هريرة.

وكذا رواه ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن أبى موسى محمد بن المثنى، عن يزيد بن هارون، عن سفيان بن حسين عن الزهرى، به^(٦).

طريق أخرى: قال البخارى: حدثنا ابن بكير، حدثنا الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، عن نافع مولى أبى قتادة الأنصارى؛ أن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ فِيكُمْ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ؟» تابعه عقيل والأوزاعى.

وهكذا رواه الإمام أحمد، عن عبد الرزاق، عن معمر، وعن عثمان بن عمر، عن ابن أبى ذئب، كلاهما عن الزهرى، به. وأخرجه مسلم من رواية يونس والأوزاعى وابن أبى ذئب، به^(٧).

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، أنبأنا قتادة، عن عبد الرحمن، عن أبى هريرة؛ أن النبى ﷺ قال: «الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ أَمْهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ، وَإِنِّى أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؛ لَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِىٌّ، وَإِنَّهُ نَازِلٌ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ: رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، عَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُمَصَّرَانِ، كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ وَإِنْ لَمْ يَصْبِهِ بَلْكَ، فِيدَقُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخَنَزِيرَ، وَيُضْعَ الْجَزِيَّةَ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَيَهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ الْمَلَلُ كُلُّهَا إِلَّا الْإِسْلَامَ،

(١) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٢/٧٣٥).

(٢) فى أ: «أبى حنظلة».

(٣) المسند (٢/٥١٣) وصحيح مسلم برقم (١٢٥٢).

(٤) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٥) فى أ: «أبو حنظلة».

(٦) المسند (٢/٢٩٠).

(٧) صحيح البخارى برقم (٣٤٤٩) والمسند (٢/٢٧٢) من رواية عبد الرزاق و(٢/٣٣٦) من رواية عثمان بن عمر، وصحيح مسلم برقم (١٥٥).

ويهلك الله فى زمانه المسيح^(١) الدجال، ثم تقع الأمانة على الأرض، حتى ترتع الأسود مع الإبل، والتمار مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم، فيمكث أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون».

وكذا رواه أبو داود، عن هُدْبَةَ بن خالد، عن همام بن يحيى. رواه ابن جرير - ولم يورد^(٢) عند هذه الآية سواء - عن بِشْرِ^(٣) بن معاذ، عن يزيد بن هارون، عن سعيد بن أبى عروبة - كلاهما عن قتادة، عن عبد الرحمن بن آدم - وهو مولى أم بُرْتَن - صاحب السقاية، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، فذكر نحوه، وقال: فيقاتل الناس على الإسلام^(٤).

وقد روى البخارى، عن أبى اليمان، عن شعيب، عن الزهرى، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم، والأنبياء أولاد علات، ليس بينى وبينه نبى»^(٥).

ثم روى عن محمد بن سنان: عن فُلَيْح بن سليمان، عن هلال بن على، عن عبد الرحمن بن أبى عمرة، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد» وقال إبراهيم بن طهمان، عن موسى ابن عقبة، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ^(٦).

حديث آخر: قال مسلم فى صحيحه: حدثنى زهير بن حرب، حدثنا مَعْلَى بن منصور، حدثنا سليمان بن بلال، حدثنا سهيل، عن أبيه، عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق - أو بدابق - فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا قال الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم. فيقول المسلمون: لا، والله لا نخلى بينكم وبين إخواننا. فيقاتلونهم، فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً، ويُقتل ثلثه أفضل الشهداء عند الله [عز وجل]^(٧)، ويفتتح الثلث لا يفتنون أبداً فيفتتحون قسطنطينية، فبينما هم يقسمون الغنائم قد علّقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم فى أهليكم. فيخرجون، وذلك باطل. فإذا جاؤوا الشام خرج، فبينما هم يعدّون للقتال: يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى ابن مريم فأمّهم^(٨) فإذا رآه عدوّ الله ذاب كما يذوب الملح فى الماء، فلو تركه لانداب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه فى حربته»^(٩).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْم، عن العوّام بن حوشب، عن جبلة بن^(١٠) سُهَيْم، عن مؤثر بن عَفَاة، عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى

(٣) فى أ: «بشير».

(٢) فى أ: «يروه».

(١) فى أ: «المسيح».

(٤) المسند (٤٠٦/٢) وسنن أبى داود برقم (٤٣٢٤) وتفسير الطبرى (٣٨٨/٩).

(٥) (٦) صحيح البخارى برقم (٣٤٤٣).

(٨) فى ر: «إمامهم».

(٧) زيادة من ر، أ.

(٩) صحيح مسلم برقم (٢٨٩٧).

(١٠) فى ر: «عن».

وعيسى، عليه^(١) السلام، فتذاكروا أمر الساعة، فردوا أمرهم إلى إبراهيم، فقال: لا علم لى بها. فردوا أمرهم إلى موسى، فقال: لا علم لى بها. فردوا أمرهم إلى عيسى، فقال: أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله، وفيما عهد إلى ربي - عز وجل - أن الدجال خارج قال: ومعى قضيبان، فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص^(٢)، قال: فيهلكه الله إذا رآنى حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم، إن تحتى كافراً فتعال فاقته: قال: فيهلكهم الله، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم، فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيطؤون بلادهم، فلا^(٣) يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يملكون على ماء إلا شربوه، قال: ثم يرجع الناس إلى يشكونهم، فأدعو الله عليهم، فيهلكهم ويميتهم، حتى تجوى الأرض من نثر ريحهم، وينزل الله المطر، فيجترف أجسادهم حتى نقذفهم فى البحر، ففيما عهد إلى ربي - عز وجل - أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتيم، لا يدرى أهلها متى تفجؤهم بولادها^(٤) ليلاً أو نهاراً.

ورواه ابن ماجه، عن محمد بن بشار، عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب، به نحوه^(٥).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن أبي نضرة قال: أتينا عثمان بن أبي العاص فى يوم الجمعة؛ لنعرض عليه مصحفاً لنا على مصحفه، فلما حضرت الجمعة أمرنا فاغتسلنا، ثم أتينا^(٦) بطيب فتطينا، ثم جئنا المسجد فجلسنا إلى رجل، فحدثنا عن الدجال. ثم جاء عثمان بن أبي العاص فقمنا إليه، فجلسنا فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون للمسلمين ثلاثة أمصار: مصر بملتقى البحرين، ومصر بالحيرة، ومصر بالشام. فيفزع^(٧) الناس ثلاث فزعات، فيخرج الدجال فى أعراض الناس، فيهزم من قبل المشرق، فأول مصر يرده المصر الذى بملتقى البحرين، فيصير أهلهم ثلاث فرق: فرقة تقيم تقول: نُشَامه ننظر ما هو؟ وفرقة تلحق بالأعراب، وفرقة تلحق بالمصر الذى يليهم. ومع الدجال سبعون ألفاً عليهم السيجان وأكثر من معه اليهود والنساء، ثم يأتى المصر الذى يليه، فيصير أهله ثلاث فرق: فرقة تقول: نشامه وننظر ما هو؟ وفرقة تلحق بالأعراب، وفرقة تلحق بالمصر الذى يليهم بغرب الشام وينحاز المسلمون إلى عقبه أفيق فيبعثون سرحاً لهم، فيصاب سرحهم، فيشتد ذلك عليهم، وتصيبهم^(٨) مجاعة شديدة وجهد شديد، حتى إن أحدهم ليحرق وتر قوسه^(٩) فيأكله، فبينما هم كذلك إذ نادى مناد من السحر: «يا أيها الناس، أتاكم الغوث ثلاثاً» فيقول بعضهم لبعض: إن هذا لصوت^(١٠) رجل شبعان، وينزل عيسى ابن مريم، عليه السلام، عند صلاة الفجر، فيقول له أميرهم: رُوح الله، تقدّم صلّ. فيقول: هذه الأمة أمراء، بعضهم على بعض. فيتقدم أميرهم فيصلى، فإذا قضى صلاته أخذ عيسى حربته، فيذهب نحو الدجال، فإذا رآه الدجال ذاب كما يذوب الرصاص، فيضع حربته بين

(١) فى د، ر، أ: «عليهم». (٢) فى ر: «الرضاب». (٣) فى د: «ولا». (٤) فى أ: «بولادتها». (٥) المسند (١/٣٧٥) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٨١) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/٢٦٠): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات». (٦) فى ر: «أتانا». (٧) فى د: «فزع». (٨) فى د: «ويصيبهم». (٩) فى ر: «ليحرق وتر قوته». (١٠) فى ر: «الصوت».

تُثَدِّوْتَهُ^(١)، فيقتله وينهزم^(٢) أصحابه، فليس يومئذ شيء يوارى أحداً، حتى إن الشجرة لتقول: يامؤمن، هذا كافر. ويقول الحجر: يا مؤمن، هذا كافر». تفرد به أحمد من هذا الوجه^(٣).

حديث آخر: قال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة في سننه المشهورة: حدثنا علي بن محمد، حدثنا عبد الرحمن المحاربي، عن إسماعيل بن رافع أبي رافع، عن أبي زُرْعَةَ الشيباني يحيى ابن أبي عمرو، عن أبي أُمَامَةَ الباهلي قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فكان أكثر خطبته حديثاً حدثناه عن الدجال، وحذرناه، فكان من قوله أن قال:

«لم تكن فتنة في الأرض، منذ ذرأ الله ذرية آدم، عليه السلام، أعظم من فتنة الدجال، وإن الله لم يبعث نبياً إلا حذّر أُمَّتَهُ الدجال. وأنا آخر الأنبياء، وأنتم آخر الأمم، وهو خارج فيكم لا محالة، فإن يخرج وأنا بين ظَهْرَانِيْكُمْ، فأنا حجيج لكل مسلم، وإن يخرج من بعدى فكل [أمرئ]^(٤) حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، وإنه يخرج من خَلَّةٍ بين الشام والعراق، فيعيث يمينا ويعيث شمالا».

«[ألا]^(٥) يا عباد الله، أيها الناس، فاثبتوا. وإنى سأصفه لكم صفة لم يصفها إياه نبي قبلي: إنه يبدأ فيقول^(٦): «أنا نبي» فلا نبي بعدى. ثم يثنى فيقول: «أنا ربكم»، ولا ترون ربكم حتى تموتوا. وإنه أعور وإن ربكم، عز وجل، ليس بأعور، وإنه مكتوب بين عينيه: كافر، يقرؤه كل مؤمن، كاتب وغير^(٧) كاتب. وإن من فتنته أن معه جنة ونارا، فناره جنة وجنته نار. فمن ابتلى بناره فليستغث بالله وليقرأ فواتح الكهف، فتكون عليه برداً وسلاماً، كما كانت النار^(٨) على إبراهيم [عليه السلام]^(٩) وإن من فتنته أن يقول لأعرابي: أرايت إن بعثت لك أباك وأمك أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم. فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه، فيقولان: يا بني، اتبعه، فإنه ربك. وإن من فتنته أن يُسَلِّطَ على نفس واحدة فيقتلها وينشرها بالمنشار، حتى يُلْقَى شقين ثم يقول: انظروا إلى عبدى هذا، فإنى أبعثه الآن، ثم يزعم أن له رباً غيرى. فيبعثه الله، فيقول له الخبيث: من ربك، فيقول: ربي الله. وأنت عدو الله، أنت الدجال، والله ما كنت بعدُ أشد بصيرة بك مني اليوم». قال أبو الحسن الطنّافسي: فحدثنا المحاربي، حدثنا عبيد الله^(١٠) بن الوليد الوصّافي، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ذلك الرجل^(١١) أرفع أمتي درجة في الجنة».

قال: قال أبو سعيد: والله ما كنا نرى ذلك الرجل إلا عمر بن الخطاب، حتى مضى لسبيله^(١٣).

قال^(١٤) المحاربي: ثم رجعنا إلى حديث أبي رافع قال: وإن من فتنته أن يأمر السماء أن تمطر، فتمطر، ويأمر الأرض أن تنبت، فتنبت، [وإن من فتنته أن يَمُرَّ بالحي فيكذبونه، فلا تبقى لهم سائمة

(١) في أ: «تثدويته». (٢) في ر: «ويهزم». (٣) المسند (٢١٦/٤) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٥١/٩) من طريق حماد بن سلمة به. وقال الهيثمي في المجمع (٣٤٢/٧): «فيه على بن زيد، وفيه ضعف وقد وثق وبقية رجالهما رجال الصحيح». (٤) زيادة من أ. (٥) زيادة من د. (٦) في د: «يقول». (٧) في د: «أو غير». (٨) في أ: «النار برداً». (٩) زيادة من أ. (١٠) في ر: «عبدالله». (١١) في أ: «وذلك الرجال». (١٢) في ر: «أبي». (١٣) في د: «سبيله». (١٤) في ر: «ثم قال».

إلا هلكت^(١)، وإن من فتنته أن يمر بالحي فيصدقونه، فيأمر السماء أن تمطر، فتمطر، ويأمر الأرض أن تنبت، فتنبت. حتى تروح مواشيهم من يومهم ذلك أسمن ما كانت وأعظمه، وأمدّه خواصر، وأدره ضرّوعا، وإنه لا يبقى شيء من الأرض إلا وطئه وظهر عليه، إلا مكة والمدينة، فإنه يأتيهما من نَقَب من نقابهما إلا لقيته الملائكة بالسيوف صلّته، حتى ينزل عند الظّريب^(٢) الأحمر، عند مُنْقَطع السَّبْحَة، فترجف المدينة بأهلها ثلاث رَجَفَات، فلا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه، فتنفى الحَبْث منها كما ينفي الكبرُ خَبْثَ الحديد، ويدعى ذلك اليوم يوم الخلاص.

فقال أم شريك بنت أبي العكر^(٣): يا رسول الله، فأين العرب يومئذ؟ قال: «هم قليل، وجلهم بيت المقدس، وإمامهم رجل صالح، فبينما إمامهم قد تقدم يُصلى بهم الصبح إذ نزل [عليهم]^(٤) عيسى [ابن مريم]^(٥)، عليه السلام، الصبح، فرجع ذلك الإمام ينكص، يمشی القهقري؛ ليقدم^(٦) عيسى يصلى بالناس، فيضع عيسى، عليه السلام، يده بين كتفيه ثم يقول: تقدم فصل، فإنها لك أقيمت. فيصلى بهم إمامهم، فإذا انصرف قال عيسى، عليه السلام: افتحوا الباب. فيفتح، ووراء الدجال، معه سبعون ألف يهودي، كلهم ذو سيف محلى وساج، فإذا نظر إليه^(٧) الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء، وينطلق هارباً، ويقول عيسى [عليه السلام]^(٨): إن لى فيك ضربة لن تستبقني بها. فيدركه عند باب لدّ الشرقى، فيقتله، ويهزم الله اليهود، فلا يبقى شيء مما خلق الله تعالى^(٩) يتوارى به اليهودى^(١٠) إلا أنطق الله ذلك الشيء، لا حجر، ولا شجر، ولا حائط، ولا دابة - إلا الغرقة فإنها من شجرهم لا تنطق - إلا قال: يا عبد الله المسلم، هذا يهودى، فتعال^(١١) اقتله.

قال رسول الله ﷺ: «وإن أيامه أربعون سنة، السنة كنصف السنة، والسنة كالشهر، والشهر كالجمعة، وآخر أيامه كالشررة، يصبح أحدكم على باب المدينة فلا يبلغ بابها الآخر حتى يمسي». فقليل له: يا نبي الله^(١٢) كيف نصلى، فى تلك الأيام القصار؟ قال: «تقدرون فيها الصلاة كما تقدرون فى هذه الأيام الطوال. ثم صلّوا».

قال رسول الله ﷺ: «فيكون عيسى ابن مريم فى أمتى حكماً عدلاً، وإماماً مُقسطاً، يدقّ الصليب، ويقتل^(١٣) الخنزير، ويضع الجزية، ويترك الصدقة، فلا يُسعى على شاة ولا بعير، وترتفع الشحناء والتباغض، وتُنزَع حُمة كل ذات حمة، حتى يدخل الوليد يده فى^(١٤) الحية فلا تضره، وتُفرّ الوليدة الأسد فلا يضرها، ويكون الذئب فى الغنم كأنه كلبها، وتَمَلأ الأرض من السّلم^(١٥) كما يُمَلأ الإناء من الماء، وتكون الكلمة واحدة، فلا يعبد إلا الله، وتضع الحرب أوزارها، وتسلب قريش ملكها، وتكون الأرض كفاثور الفضة تنبت نباتها كعهد آدم، حتى يجتمع النفر على القطف من العنب فيشبعهم، ويجتمع النفر على الرمانة فتشبعهم، ويكون الثور بكذا وكذا، من المال، ويكون^(١٦) الفرس بالدرهيمات».

(٣) فى ر: «العكم».

(٢) فى د: «الضرب»، وفى ر: «الضريب».

(١) زيادة من أ، وابن ماجه

(٧) فى أ: «إليه».

(٦) فى ر: «ليتقدم».

(٤، ٥) زيادة من أ، وابن ماجه.

(١٠) فى د: «يهودى».

(٩) فى أ: «عزوجل».

(٨) زيادة من أ.

(١٣) فى د، أ: «ويذبح».

(١٢) فى أ: «يا رسول الله».

(١١) فى د: «فيقال».

(١٦) فى د: «وتكون».

(١٥) فى ر: «المسلم».

(١٤) فى ر، أ: «فى فى».

قيل: يا رسول الله، وما يرخص الفرس؟ قال: «لا تركب»^(١) لحرب أبداً قيل له: فما يُغلى الثور؟ قال: «تُحرث الأرض كلها».

وإن قَبْلَ خروج^(٢) [الدجال] ثلاث سنوات شداد، يصيب الناس فيها جوع شديد، يأمر الله السماء في السنة الأولى أن تحبس ثلث مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلث نباتها، ثم يأمر السماء في الثانية فتحبس ثلث مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلث نباتها، ثم يأمر الله السماء في السنة^(٤) الثالثة فتحبس مطرها كله، فلا تَقْطُر قطرة، ويأمر الأرض أن تحبس نباتها كله، فلا تُنبِتُ خضراء، فلا تبقى ذات ظلف إلا هلكت، إلا ما شاء الله.

ف قيل: فما يعيش الناس في ذلك الزمان؟ قال: «التهليل والتكبير والتسبيح والتحميد، ويجرى ذلك عليهم مجرى الطعام».

قال ابن ماجه: سمعت أبا الحسن الطنّافسي يقول: سمعت عبد الرحمن المحاربي يقول: ينبغي أن يدفع هذا الحديث إلى المؤدب، حتى يعلمه الصبيان في الكتاب.

هذا حديث غريب جداً من هذا الوجه^(٥)، ولبعضه شواهد من أحاديث أخرى؛ ولنذكر حديث النواس بن سمعان هاهنا لشبهه بسياقه هذا الحديث، قال مسلم بن الحجاج في صحيحه:

حدثنا أبو خيثمة زهير بن حرب، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، حدثني يحيى بن جابر الطائي قاضي حمص، حدثني عبد الرحمن بن جبير، عن أبيه جبير بن نفيّر الحضرمي أنه سمع النواس بن سمعان الكلابي (ح) وحدثنا محمد بن مهران الرازي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن يحيى بن جابر الطائي، عن عبد الرحمن ابن جبير، عن أبيه جبير بن نفيّر، عن النّوّاس بن سمعان قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فحفّض فيه ورقّع، حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحلنا إليه عرف ذلك فينا، فقال: «ما شأنكم؟» قلنا: يا رسول الله، ذكرت الدجال غداة فحفّضت فيه ورقّعت حتى ظنناه في طائفة النخل فقال: «غير الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم: إنه شاب قُطَطُ عينه طافية، كأنى أشبهه بعبد العزى بن قطن، من أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج خلة بين الشام والعراق، فعاث يميناً وعاث شمالاً. يا عباد الله، فاثبتوا: قلنا: يا رسول الله، وما^(٦) لَبِثْتُهُ^(٧) في الأرض؟ قال: «أربعين يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم».

(١) في د: «يركب». (٢) في د: «خروجه». (٣) زيادة من أ، وابن ماجه.

(٤) زيادة من د، ر، وابن ماجه.

(٥) سنن ابن ماجه برقم (٤٠٧٧)، وفي إسناده عبد الرحمن بن محمد المحاربي. قال ابن معين: «يرى المناكير عن المجهولين»، وقال أبو حاتم: صدوق إذا حدث عن الثقات، ويروى عن المجهولين أحاديث منكراً فيفسر حديثه بروايته عن المجهولين.

وهو هنا يروى عن إسماعيل بن رافع المدني، وهو ضعيف ضعفه ابن معين والنسائي. وقال أبو حاتم: منكر الحديث، وقال ابن عدى: «أحاديثه كلها مما فيه نظر، إلا أنه يكتب حديثه في جملة الضعفاء».

(٦) في ر: «فما». (٧) في أ: «لبيته».

قلنا: يا رسول الله، فذلك^(١) اليوم الذى كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «لا، اقدروا له قدره». قلنا: يا رسول الله، وما إسرعه فى الأرض؟ قال^(٢): «كالغيث استدبرته الريح، فيأتى على قوم فيدعوهم، فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى، وأسبغه ضرُوعاً، وأمه خواصر، ثم يأتى القوم فيدعوهم، فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون مُمحلين لى بأيديهم شيء من أموالهم. ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجى كنوزك. فتبعه كنوزها كيغاسيب النحل. ثم يدعو رجلاً ممتلاً شاباً، فيضربه بالسيف، فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعو فيقبل ويتهلل^(٣) وجهه ويضحك^(٤). فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم، عليه السلام، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودين، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، ولا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ونفسه ينتهى^(٥) حيث ينتهى طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لُد، فيقتله.

ثم يأتى عيسى، عليه السلام، قوماً قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة، فبينما^(٦) هو كذلك إذ أوحى الله، عز وجل، إلى عيسى أنى قد أخرجت عباداً لى لا يدان لأحد بقتالهم، فحرز عبادى إلى الطور.

ويبعث الله ياجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أولهم على بحيرة طبرية^(٧)، فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم^(٨) فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء. ويحضر نبي الله عيسى وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً^(٩) من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النغف فى رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة.

ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون فى الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم وتنتهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيراً كأعناق البخت، فتحملهم فطرحهم حيث شاء الله.

ثم يرسل الله مطراً لا يكن^(١٠) منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة، ثم يقال للأرض: أخرجى ثمرك وردى بركتك. فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك الله فى الرسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى الفئام من الناس واللقحة من الفم لتكفى الفخذ من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة^(١١).

ورواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، به. وسنذكره أيضاً

(٣) فى د: «متهلل».

(٦) فى د: «فبينما هم وهو».

(٩) فى أ: «خير».

(٢) فى ر: «فقال».

(٥) فى ر: «تنتهى».

(٨) فى ر: «أحدهم».

(١) فى د: «وذلك»

(٤) فى و: «وجهه يضحك».

(٧) فى ر: «الطبرية».

(١٠) فى ر: «يكن».

(١١) صحيح مسلم برقم (٢١٣٧) والمسند (١٨٢/٤) وسنن أبى داود برقم (٤٣٢١) وسنن الترمذى برقم (٢٢٤٠) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٧٨٣) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٣٧٥).

من طريق أحمد، عند قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾^(١) [الأنبياء : ٩٦] .

حديث آخر: قال مسلم في صحيحه أيضاً: حدثنا عبيد الله^(٢) بن معاذ بن معاذ العنبري، حدثنا أبي، حدثنا شعبة، عن النعمان بن سالم قال: سمعت يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي يقول: سمعت عبد الله بن عمرو - وجاءه رجل فقال -: ما هذا الحديث الذي تُحدث به تقول: إن الساعة تقوم إلى^(٣) كذا وكذا؟ فقال: سبحان الله؟! - أو: لا إله إلا الله، أو كلمة نحوها - لقد هممتُ ألا أحدث أحدا شيئا أبداً، إنما قلت: إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً: يُحرق البيت، ويكون ويكون. ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في أمتي، فيمكث أربعين، لا أدرى أربعين يوماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين عاماً، فيبعث الله عيسى ابن مريم، كأنه عروة بن مسعود، فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير^(٤) - أو إيمان - إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كبَد جبل لدَخَلَتْهُ عليه حتى تَقْبُضَهُ» قال: سمعتها من رسول الله ﷺ قال: «فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً، فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستحيون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دار رزقهم، حسن عيشهم. ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً، قال: وأول من يسمعه رجل يُلَوِّط حوض إبله، قال: فَيَصْعَقُ وَيَصْعَقُ الناس. ثم يرسل الله - أو قال: ينزل الله - مطراً كأنه الطَّل - أو قال: الظل - نُعْمَانُ الشَّاكُ^(٥) - فتنبت منه أجساد الناس، ثم يَنْفُخُ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون. ثم يقال: يا أيها الناس، هلموا إلى ربكم، ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصفات : ٢٤]. قال: «ثم يقال: أخرجوا بَعَثَ النار. فيقال: من كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين». قال^(٦): ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل : ١٧]، وذلك ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم : ٤٢].

ثم رواه مسلم والنسائي في تفسيره جميعاً عن محمد بن بشار، عن غنْدَر، عن شعبة، عن النعمان بن سالم، به^(٧).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عبد الله بن عبيد الله^(٨) بن ثعلبة الأنصاري، عن عبد الله بن يزيد^(٩) الأنصاري، عن مُجَمِّع بن جارية^(١٠) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقتل ابن مريم المسيح الدجال بباب لُد - أو : إلى جانب لُد»^(١١).

ورواه أحمد أيضاً، عن سفيان بن عيينة ومن حديث الليث والأوزاعي، ثلاثتهم عن الزهري،

(١) زيادة من ر، أ، وفي هـ: «الآية». (٢) في ر: «عبد الله».

(٣) في د: «حبة خردل». (٤) في أ: «بعمان السيل».

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٩٤٠) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٢٩).

(٦) في د: «عبيد الله بن عبد الله». (٧) في هـ: «زيد».

(٨) في أ: «حارثة». (٩) في أ: «عبد الله».

(١٠) في أ: «حارثة».

(١١) المسند (٣/ ٤٢٠).

عن عبد الله بن عبيد الله بن ثعلبة، عن عبد الرحمن بن يزيد عن عمه مُجَمِّع بن جارية^(١)، عن رسول الله ﷺ قال: «يقتل ابن مريم الدجال بباب لُد».

وكذا رواه الترمذى، عن قتيبة، عن الليث، به. وقال: هذا حديث صحيح. قال: وفي الباب عن عمران بن حصين، ونافع بن عتبة، وأبى بَرَزَةَ، وحذيفة بن أسيد، وأبى هريرة. وكَيْسَان، وعثمان بن أبى العاص، وجابر، وأبى أمامة، وابن مسعود، وعبد الله بن عمرو، وسَمُرَةُ بن جُنْدَب، والنَّوَّاس بن سَمْعَانَ، وعمرو بن عوف، وحذيفة بن اليمان، رضى الله عنهم^(٢).^(٣)

ومراده برواية هؤلاء ما فيه ذكر الدجال. وقتل عيسى ابن مريم، عليه السلام، له. فأما أحاديث ذكر الدجال فقط فكثيرة جداً، وهى أكثر من أن تحصر؛ لانتشارها وكثرة روايتها فى الصحاح والحسان والمسانيد، وغير ذلك^(٤).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن فُرَات، عن أبى الطُّفَيْل، عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى ترون عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدُّخَان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، ونزول^(٥) عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خُسوف: خُسْفٌ بالشرق، وخُسْفٌ بالمغرب، وخُسْفٌ بجزيرة العرب. ونار تخرج من قعر عَدَن، تسوق - أو تحشر - الناس، تبيت معهم حيث باتوا، وتقبل معهم حيث قالوا».

وهكذا رواه مسلم وأهل السنن من حديث فُرَات القزاري^(٦) به. ورواه مسلم أيضاً من رواية عبد العزيز بن رُفَيْع عن أبى الطفيل عن أبى سَرِيحَةَ حذيفة بن أُسَيْد الغفارى، موقوفاً^(٧). والله أعلم.

فهذه أحاديث متواترة عن رسول الله ﷺ من رواية أبى هريرة، وابن مسعود، وعثمان بن أبى العاص، وأبى أمامة، والنَّوَّاس بن سَمْعَانَ، وعبد الله بن عمرو بن العاص، ومُجَمِّع بن جارية^(٨)، وأبى سَرِيحَةَ حذيفة بن أُسَيْد، رضى الله عنهم.

وفيه دلالة على صفة نزوله ومكانه، من أنه بالشام، بل بدمشق، عند المنارة^(٩) الشرقية، وأن ذلك يكون عند إقامة الصلاة للصبح^(١٠). وقد بنيت فى هذه الأعصار، فى سنة إحدى وأربعين وسبعمائة منارة للجامع الأموى ببيضاء، من حجارة منحوتة، عوضاً عن المنارة التى هدمت بسبب الحريق المنسوب إلى صنيع النصارى - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة - وكان أكثر عمارتها

(١) فى أ: «حارثة».

(٢) فى أ: «رضى الله تعالى عنهم أجمعين».

(٣) المسند (٤٢٠/٣) وسنن الترمذى برقم (٢٢٤٤).

(٤) وقد ذكر هذه الأحاديث و بسط الكلام عليها المؤلف الحافظ ابن كثير فى كتابه: النهاية فى الفتن والملاحم.

(٥) فى د، أ: «وخروج».

(٦) المسند (٦/٤) بسياق مختلف، وهذا هو سياق رواية ابن مهدي عن سفيان، وهى فى المسند (٧/٤) ورواه مسلم فى صحيحه برقم

(٢٩٠١) وأبو داود فى السنن برقم (٤٣١١) والترمذى فى السنن برقم (٢١٨٣) وابن ماجه فى السنن برقم (٤٠٥٥).

(٧) صحيح مسلم برقم (٢٩٠١).

(٨) فى د: «منارته».

(٩) فى د: «عند إقامة صلاة الصبح».

من أموالهم، وقويت الظنون أنها هي التي ينزل عليها [المسيح]^(١) عيسى ابن مريم، عليه السلام، فيقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، فلا يقبل إلا الإسلام كما تقدم في الصحيحين، وهذا إخبار من النبي ﷺ بذلك، وتقرير وتشريع وتسويغ له على ذلك في ذلك الزمان، حيث تنزاح عللهم، وترتفع شبههم من أنفسهم؛ ولهذا كلهم يدخلون في دين الإسلام مُتَابِعَةً لعيسى، عليه السلام، وعلى يديه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾^(٢).

وهذه الآية كقوله [تعالى]^(٣): ﴿وَأَنَّهُ لَعَلَّمُ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١] وقرئ: «عَلَّمَ» بالتحريك، أى إشارة^(٤) ودليل على اقتراب الساعة، وذلك لأنه ينزل بعد خروج المسيح الدجال، فيقتله الله على يديه، كما ثبت في الصحيح: «إن الله لم يخلق داء إلا أنزل له شفاء»^(٥). ويبعث الله في أيامه يأجوج ومأجوج، فيهلكهم الله [به]^(٦) ببركة دعائه، وقد قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ. وَأَقْرَبَ الْوَعْدِ الْحَقُّ﴾ الآية [الأنبياء: ٩٦، ٩٧].

صفة عيسى عليه السلام:

قد تقدم في حديث عبد الرحمن بن آدم، عن أبي هريرة [رضى الله عنه]^(٧): «إذا رأيتموه فاعرفوه: رجل مربع إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان ممصران، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل». وفي حديث النواس بن سمعان: «فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهزودتين واضعا كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه مثل جمان اللؤلؤ، ولا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه».

وروى البخارى ومسلم، من طريق الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليلة أسرى بى لقيت موسى»، قال: فَنَعَتَهُ «إذا رجل - حسبته قال: - مضطرب»^(٨)، رجل الرأس، كأنه من رجال شنوءة». قال: «ولقيت عيسى» فنعتة النبي ﷺ فقال: «رَبْعَةٌ أَحْمَرُ، كأنما خرج من ديماس - يعنى الحمام - ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به»^(٩). الحديث.

وروى البخارى، من حديث مجاهد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت موسى وعيسى وإبراهيم، فأما^(١٠) عيسى فأحمر جعد عريض الصدر، وأما موسى فآدم جسيم سبط، كأنه من رجال الزط»^(١١).

(٣) زيادة من: د، ر، أ.

(٢) زيادة من أ.

(١) زيادة من د، أ.

(٤) فى د، أ: «أمارة».

(٥) صحيح البخارى برقم (٥٦٧٨) من حديث أبى هريرة ولفظه: «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء».

(٦) زيادة من د.

(٧) زيادة من أ.

(٨) فى د: «قال حسبته مضطرب».

(٩) صحيح البخارى برقم (٣٤٣٧) وصحيح مسلم برقم (١٦٨).

(١٠) فى د: «أما».

(١١) صحيح البخارى برقم (٣٤٣٨) وقد رجح الحافظ ابن حجر فى فتح البارى (٤٨٤/٦) أن الصواب عن ابن عباس لا عن ابن عمر فليراجع هناك.

وله ولمسلم من طريق موسى بن عقبة، عن نافع قال: قال عبد الله بن عمر: ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ يوماً بين ظَهْرَانِي النَّاسِ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعُورَ، أَلَا إِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ أَعُورَ الْعَيْنِ الْيَمْنَى، كَأَن عَيْنَهُ عَنَبَةٌ طَافِيَةٌ وَأَرَانِي اللَّهَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ فِي الْمَنَامِ، فَإِذَا رَجُلٌ آدَمٌ، كَأَحْسَنَ مَا تَرَى مِنْ آدَمِ الرِّجَالِ، تَضْرِبُ لَمْتَهُ بَيْنَ مَنْكِبَيْهِ، رَجُلٌ الشَّعْرُ، يَقْطُرُ رَأْسُهُ مَاءً، وَاضْعَا يَدَيْهِ عَلَى مَنْكَبَيْ رَجُلَيْنِ، وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ^(١)، ثُمَّ رَأَيْتُ رَجُلًا وَرَاءَهُ جَعْدًا قَطَطًا، أَعُورَ عَيْنِ الْيَمْنَى، كَأَشْبَهَ مَا رَأَيْتُ بَابِنَ قَطَنَ، وَاضْعَا يَدَيْهِ عَلَى مَنْكَبَيْ رَجُلٍ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: الْمَسِيحُ الدَّجَالَ». تَابِعَهُ عُبَيْدُ اللَّهِ عَنْ نَافِعٍ^(٢).

ثم رواه^(٣) البخاري عن أحمد بن محمد المكي، عن إبراهيم بن سعد، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه قال: لا، والله ما قال النبي ﷺ لعيسى [عليه السلام]^(٤): أحمر، ولكن قال: «بينما أنا نائم أطوف بالكعبة، فإذا رجل آدم سبط الشعر، يتهدى بين رجلين ينطف رأسه ماء - أو يهراق رأسه ماء - فقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: ابْنُ مَرْيَمَ. فَذَهَبَتْ أَلْتَفْتُ، فَإِذَا رَجُلٌ أَحْمَرُ جَسِيمٌ، جَعْدُ الرَّأْسِ، أَعُورَ عَيْنِ الْيَمْنَى، كَأَن عَيْنَهُ عَنَبَةٌ طَافِيَةٌ. قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: الدَّجَالُ. وَأَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبْهًا ابْنُ قَطَنَ». قال الزهري: رجل من خزاعة هلك في الجاهلية^(٥).

هذه كلها ألفاظ البخاري، رحمه الله، وقد تقدم في حديث عبد الرحمن بن آدم، عن أبي هريرة: أن عيسى، عليه السلام، يمكث في الأرض بعد نزوله أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون.

وفي حديث عبد الله بن عمرو عند مسلم: أنه يمكث سبع سنين، فيحتمل - والله أعلم - أن يكون المراد بلبثه في الأرض أربعين سنة، مجموع إقامته فيها قبل رفعه وبعد نزوله، فإنه رفع وله ثلاث وثلاثون سنة في الصحيح، وقد ورد ذلك في حديث في صفة أهل الجنة: أنهم على صورة آدم وميلاد عيسى ثلاث وثلاثين سنة. وأما ما حكاه ابن عساكر عن بعضهم أنه رُفِعَ وله مائة وخمسون سنة، فشاذ غريب بعيد. وذكر الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في ترجمة عيسى ابن مريم من تاريخه، عن بعض السلف: أنه يدفن مع النبي ﷺ في حجرته، فالله أعلم^(٦).

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾، قال قتادة: يشهد عليهم أنه قد بلغهم الرسالة من الله، وأقر بالعبودية لله^(٧)، عز وجل، وهذا كقوله تعالى في آخر سورة المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتُ لِلنَّاسِ [اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. مَا قُلْتُ

(١) في د: «قالوا هو المسيح».

(٢) صحيح البخاري برقم (٣٤٣٩)، (٣٤٤٠)، وصحيح مسلم برقم (١٦٩).

(٣) في د: «روى».

(٤) زيادة من أ.

(٥) صحيح البخاري برقم (٣٤٤١).

(٦) تاريخ دمشق (١٤/١٠٦ المخطوط) ومختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٠/١٥٤) بإسناده إلى عبد الله بن سلام رضى الله عنه،

قال البخاري: هذا لا يصح عندي ولا يتابع عليه.

(٧) في د: «بعبودية الله».

لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ ^(١) الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿[المائدة: ١١٦ - ١١٨].

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدَهِمٍ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّ وَقَدْ نَهَوْا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٦١) لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿(١٦٢)﴾.

يخبر، تعالى، أنه بسبب ظلم اليهود بما ارتكبه من الذنوب العظيمة، حرّم عليهم طيبات كان أحلها لهم، كما قال ابن أبي حاتم:

حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو، وقال: قرأ ابن عباس: «طيبات كانت أحلت لهم».

وهذا التحريم قد يكون قدرياً، بمعنى: أنه تعالى قيضهم لأن تأولوا في كتابهم، وحرفوا وبدلوا أشياء كانت حلالاً لهم، فحرموها على أنفسهم، تشديداً منهم على أنفسهم وتضييقاً وتنظعاً. ويحتمل أن يكون شرعياً بمعنى: أنه تعالى حرّم عليهم في التوراة أشياء كانت حلالاً لهم قبل ذلك، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَآئِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ﴾. [آل عمران: ٩٣]. وقد قدمنا الكلام على هذه الآية وأن المراد: أن الجميع من الأطعمة كانت حلالاً لهم، من قبل أن تنزل التوراة ما عدا ما كان حرم إسرائيل على نفسه من لحوم الإبل والبأنها. ثم إنه تعالى حرم أشياء كثيرة في التوراة، كما قال في سورة الأنعام: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦] أي: إنما حرّمنا عليهم ذلك؛ لأنهم يستحقون ذلك بسبب بغْيهم وطغيانهم ومخالفتهم رسولهم واختلافهم عليه. ولهذا قال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدَهِمٍ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي: صدوا الناس وصدوا أنفسهم عن اتباع الحق. وهذه سَجِيَّة لهم متصفون بها من قديم الدهر وحديثه؛ ولهذا كانوا أعداء الرسل، وقتلوا خلقاً من الأنبياء، وكذبوا عيسى ومحمداً، صلوات الله وسلامه عليهما.

وقوله: ﴿وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّ وَقَدْ نَهَوْا عَنْهُ﴾ أي: أن الله قد نهاهم عن الربا فتناولوه وأخذوه، واحتالوا عليه بأنواع من الخيل وصنوف من الشبه، وأكلوا أموال الناس بالباطل. قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

(١) زيادة من أ، وفي هـ: «إلى قوله».

ثم قال تعالى: ﴿لَكِنَّ الرَّاٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ أى: الثابتون فى الدين لهم قدم راسخة فى العلم النافع. وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة آل عمران. ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ عطف على الراسخين، وخبره ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾.

قال ابن عباس: أنزلت فى عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعية. وأسد وزيد بن سعية وأسد بن عبيد، الذين دخلوا فى الإسلام، وصدقوا بما أرسل الله به محمداً ﷺ.

وقوله: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ هكذا هو فى جميع المصاحف الأئمة، وكذا هو فى مصحف أبى ابن كعب. وذكر ابن جرير أنها فى مصحف ابن مسعود: «والمقيمون الصلاة»، قال: والصحيح قراءة الجميع. ثم ردّ على من زعم أن ذلك من غلط الكتاب^(١)، ثم ذكر اختلاف الناس فقال بعضهم: هو منصوب على المدح، كما جاء فى قوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بَعْدَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [البقرة: ١٧٧]، قالوا: وهذا سائغ فى كلام العرب، كما قال الشاعر^(٢):

لَا يَبْعَدَنَّ قَوْمِي الَّذِينَ هُمُ سَمَّ^(٣) الْعِدَاءُ وَآفَةُ الْجَزْرِ
النَّازِلِينَ بِكُلِّ مُعْتَرِكٍ وَالطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الْأَزْرِ

وقال آخرون: هو مخفوض عطفاً على قوله: ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعنى: وبالمقيمين الصلاة.

وكأنه يقول: وبإقامة الصلاة، أى: يعترفون بوجوبها وكتابتها عليهم، أو أن المراد بالمقيمين الصلاة الملائكة، وهذا اختيار ابن جرير، يعنى: يؤمنون بما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك، وبالملائكة. وفى هذا نظر والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ يحتمل أن يكون المراد زكاة الأموال، ويحتمل زكاة النفوس، ويحتمل الأمرين، والله أعلم.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أى: يصدقون بأنه لا إله إلا الله، ويؤمنون بالبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال خيراً وشرها.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ هو الخبر عما تقدم ﴿سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعنى: الجنة.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ

(١) فى د، ر، أ: «الكتاب».

(٢) وهى الخرق بنت بدر بن هفان، والبيت فى ديوانها: (٢٩) أ. هـ. مستفاد من مطبوعة الشعب.

(٣) فى ر: «أزد»، وفى أ: «أسد».

تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رَسُولًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ .

قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال سكين وعدى بن زيد: يا محمد، ما نعلم أن الله أنزل^(١) على بشر من شيء بعد موسى. فأنزل الله فى ذلك من قولهما: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ إلى آخر الآيات.

وقال ابن جرير: حدثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا أبو معشر، عن محمد بن كعب القرظي قال: أنزل الله: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بِهَتَانَا عَظِيمًا﴾ فما تلاها عليهم - يعنى على اليهود - وأخبرهم بأعمالهم الخبيثة، جحدوا كل ما أنزل الله، وقالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء، ولا موسى ولا عيسى، ولا على نبي من شيء. قال: فحلَّ حَبْوتَه، وقال: ولا على أحد.. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

وفى هذا الذى قاله محمد بن كعب القرظي نظر؛ فإن هذه الآية مكية فى سورة الأنعام، وهذه الآية التى فى سورة النساء مدنية، وهى رد عليهم لما سألوا النبي ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ [النساء: ١٥٣]، ثم ذكر فضائهم ومعائبهم وما كانوا عليه، وما هم عليه الآن من الكذب والافتراء. ثم ذكر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله محمد ﷺ كما أوحى إلى غيره من الأنبياء المتقدمين، فقال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ .

والزبور: اسم الكتاب الذى أوحاه الله إلى داود، عليه السلام، وسنذكر ترجمة كل واحد من هؤلاء الأنبياء، عليهم من الله [أفضل]^(٢) الصلاة والسلام، عند قصصهم فى السور الآتية، إن شاء الله، وبه الثقة، وعليه التكلان.

وقوله: ﴿وَرَسُولًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرَسُولًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ أى: من قبل هذه الآية، يعنى: فى السور المكية وغيرها.

وهذه تسمية الأنبياء الذين نص^(٤) على أسمائهم فى القرآن، وهم: آدم، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وشعيب، وموسى، وهارون، ويونس، وداود، وسليمان، وإلياس، وإليسع، وزكريا، ويحيى، وعيسى [عليهم الصلاة والسلام]^(٥)، وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين، وسيدهم محمد ﷺ.

وقوله: ﴿وَرَسُولًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ أى: خلقا آخرين لم يذكروا فى القرآن، وقد اختلف فى

(١) فى ر: «ما نعلم أنزل الله». (٢) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «إلى قوله». (٣) زيادة من أ. (٤) فى د: «نص الله». (٥) زيادة من أ. (٦) فى د: «ولذا».

عدة الأنبياء والمرسلين والمشهور في ذلك حديث أبي ذر الطويل، وذلك فيما رواه ابن مَرْدُويه، رحمه الله، في تفسيره، حيث قال: حدثنا إبراهيم بن محمد، حدثنا جعفر بن محمد بن الحسن، والحسين ابن عبد الله بن يزيد قالوا: حدثنا إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني^(١)، حدثني أبي عن جدي، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً». قلت: يا رسول الله، كم الرسل منهم؟ قال: «ثلاثمائة وثلاثة عشر جَمَّ غَفِير». قلت: يا رسول الله، من كان أولهم؟ قال: «آدم». قلت: يا رسول الله، نبي مرسل؟ قال: «نعم، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، ثم سَوَّاهُ قَبْلًا». ثم قال: «يا أبا ذر، أربعة سريانيون: آدم، وشيث، ونوح، وخنوخ - وهو إدريس، وهو أول من خط بقلم - وأربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أبا ذر، وأول نبي من أنبياء بني إسرائيل موسى، وآخرهم عيسى. وأول النبيين آدم، وآخرهم نبيك».

وقد روى هذا الحديث بطوله الحافظ أبو حاتم بن حبان البستي في كتابه: «الأنواع والتقاسيم» وقد وَسَمَهُ بالصحة، وخالفه أبو الفرج بن الجوزي، فذكر هذا الحديث في كتابه «الموضوعات»، واتهم به إبراهيم بن هشام هذا، ولا شك أنه قد تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل من أجل هذا الحديث^(٢)، فالله أعلم.

وقد روى الحديث^(٣) من وجه آخر، عن صحابي آخر، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا مُعَانُ بْنُ رِفَاعَةَ، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أُمَامَةَ قال: قلت: يا نبي الله، كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جما غَفِيرًا».

مُعَانُ بْنُ رِفَاعَةَ السَّلَامِيُّ ضعيف، وعلي بن يزيد ضعيف، والقاسم أبو عبد الرحمن ضعيف أيضاً^(٤).

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا أحمد بن إسحاق أبو عبد الله الجوهري البصري، حدثنا مكى بن إبراهيم، حدثنا موسى بن عبيدة الربذي، عن يزيد الرقاشي، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «بعث الله ثمانية آلاف نبي، أربعة آلاف إلى بني إسرائيل، وأربعة آلاف إلى سائر الناس». وهذا أيضاً إسناد ضعيف، فيه الربذي ضعيف، وشيخه الرقاشي أضعف منه أيضاً^(٥)، والله أعلم.

وقال أبو يعلى: حدثنا أبو الربيع، حدثنا محمد بن ثابت العبدي، حدثنا محمد بن خالد

(١) في أ: «يحيى بن يحيى الغساني».

(٢) صحيح ابن حبان برقم (٩٤) «موارد» ورواه أبو نعيم في الحلية (١٦٦/١) من طريق إبراهيم بن هشام بن يحيى به. وإبراهيم بن هشام الغساني كذبه أبو حاتم وأبو زرعة، وقال الذهبي: «وهو صاحب حديث أبي ذر الطويل انفرد به عن أبيه عن جده».

(٣) في ر: «هذا».

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧٤٦/٢).

(٥) مسند أبي يعلى (١٦٠/٧) ورواه أبو نعيم في الحلية (٥٣/٣) من طريق مكى بن إبراهيم به.

قال الهيثمي في المجمع (٢١٠/٨): «فيه موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف جداً».

الأنصاري، عن يزيد الرقاشي، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «كان فيمن خلا من إخواني من الأنبياء ثمانية آلاف نبي، ثم كان عيسى ابن مريم، ثم كنت أنا»^(١).

وقد روينا عن أنس من وجه آخر، فأخبرني الحافظ أبو عبد الله الذهبي، أخبرنا أبو الفضل ابن عساكر، أنبأنا الإمام أبو بكر القاسم بن أبي سعيد الصفار، أخبرتنا عمة أبي، عائشة بنت أحمد بن منصور بن الصفار، أخبرنا الشريف أبو السناكب هبة الله بن أبي الصهباء محمد بن حيدر القرشي، حدثنا الإمام الأستاذ أبو إسحاق الأسفراييني قال: أخبرنا الإمام أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي، حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا أحمد بن طارق، حدثنا مسلم بن خالد، حدثنا زياد بن سعد، عن محمد بن المنكدر، عن صفوان بن سليم، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت على إثر من ثلاثة آلاف نبي من بني إسرائيل». وهذا غريب من هذا الوجه وإسناده لا بأس به، رجاله كلهم معروفون إلا أحمد بن طارق هذا، فإنني لا أعرفه بعدالة ولا جرح^(٢)، والله أعلم.

حديث أبي ذر الغفاري الطويل في عدد الأنبياء عليهم السلام:

قال محمد بن الحسين الآجري: حدثنا أبو بكر جعفر بن محمد بن الفريابي إملاء في شهر رجب سنة سبع وتسعين ومائتين، حدثنا إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، حدثنا أبي، عن جده عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذر قال: دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس وحده، فجلست إليه فقلت: يا رسول الله، إنك أمرتني بالصلاة. قال: «الصلاة خير موضوع فاستكثر أو استقل». قال: قلت: يا رسول الله، فأى الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله، وجهاد في سبيله». قلت: يا رسول الله، فأى المؤمنين أفضل؟ قال: «أحسنهم خلقا». قلت: يا رسول الله، فأى المسلمين أسلم؟ قال: «من سلم الناس من لسانه ويده». قلت: يا رسول الله، فأى الهجرة أفضل؟ قال: «من هجر السيئات». قلت: يا رسول الله، أى الصلاة أفضل؟ قال: «طول القنوت». قلت: يا رسول الله، فأى الصيام أفضل؟ قال: «فَرَضٌ مجزئ وعند الله أضعاف كثيرة». قلت: يا رسول الله، فأى الجهاد أفضل؟ قال: «من عقر جواده وأهريق دمه». قلت: يا رسول الله، فأى الرقاب أفضل؟ قال: «أغلاها ثمنًا وأنفسها عند أهلها». قلت: يا رسول الله، فأى الصدقة أفضل؟ قال: «جهْد من مقلٍّ، وسر إلى فقير». قلت: يا رسول الله، فأى آية ما أنزل عليك أعظم [منها]^(٣)؟ قال: «آية الكرسي». ثم قال: «يا أبا ذر، وما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة». قال: قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا» قال: قلت: يا رسول الله، كم الرسل من ذلك؟ قال: «ثلاثمائة، وثلاثة عشر جم غفير كثير طيب». قلت: فمن كان أولهم؟ قال: «آدم». قلت: أنبي مرسل؟ قال: «نعم، خلقه الله بيده، ونفخ^(٤) فيه من روحه، وسوَّاه قَبِيلًا^(٥)». ثم قال: «يا أبا ذر، أربعة سريانيون: آدم، وشيث، وخنوخ - وهو إدريس، وهو أول من خط بقلم - ونوح. وأربعة من العرب: هود، وشعيب،

(١) مسند أبي يعلى (١٣١/٧) وقال الهيثمي في المجمع (٢١١/٨): «فيه محمد بن ثابت العبدى وهو ضعيف».

(٢) ورواه أبو نعيم في الحلية (١٦٢/٣) من طريق مسلم بن خالد الزنجي به. وقال: «غريب».

(٣) زيادة من أ. (٤) فى د: «ثم نفخ». (٥) فى أ: «قبلا».

وصالح، ونبيك يا أبا ذر. وأول أنبياء بنى إسرائيل موسى، وآخرهم عيسى. وأول الرسل^(١) آدم، وآخرهم محمد». قال: قلت: يا رسول الله، كم كتاباً أنزله الله؟ قال: «مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل الله على شيث خمسين صحيفة، وعلى خنوخ ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وأنزل على موسى من قبل التوراة عشر صحائف والإنجيل والزبور والفرقان». قال: قلت: يا رسول الله، ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: «كانت كلها: يا أيها الملك المسلط المبتلى المغرور، إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكنى بعثتك لترد عني دعوة المظلوم، فإنى لا أردّها ولو كانت من كافر. وكان فيها مثال: وعلى العاقل أن يكون له ساعات: ساعة يناجى فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفكر فى صنع الله، وساعة يخلو فيها لحاجته من الطعام والمشرب. وعلى العاقل ألا يكون ضاغناً إلا لثلاث: تزود لمعاد، أو مَرَمَةً لمعاش، أو لذة فى غير محرم. وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه، ومن حَسِبَ كلامه من عمله قلَّ كلامه إلا فيما يعنيه». قال: قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف موسى؟ قال: «كانت عبراً كلها: عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو يتنصب، وعجبت لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم يطمئن إليها، وعجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم هو لا يعمل». قال: قلت: يا رسول الله، فهل فى أيدينا شيء مما فى أيدي إبراهيم وموسى، وما أنزل الله عليك؟ قال: «نعم، اقرأ يا أبا ذر: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى. وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى. بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى. إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى. صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى: ١٤ - ١٩]».

قال: قلت: يا رسول الله، فأوصنى. قال: «أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس أمرك».

قال: قلت: يا رسول الله، زدنى. قال: «عليك بتلاوة القرآن، وذكر الله، فإنه ذكرٌ لك فى السماء، ونورٌ لك فى الأرض».

قال: قلت: يا رسول الله، زدنى. قال: «إياك وكثرة الضحك. فإنه يميئ القلب، ويذهبُ بنور الوجه». قلت: زدنى. قال: «عليك بالجهاد، فإنه رهبانية أمتى». قلت: زدنى. قال: «عليك بالصمت، إلا من خير، فإنه مطردةٌ للشيطان^(٢)، وعون لك على أمر دينك».

قلت: زدنى. قال: «انظر إلى من هو تحتك، ولا تنظر إلى من هو فوقك، فإنه أجدرُ لك ألا تزدرى نعمة الله عليك».

قلت: زدنى. قال: «أحبب المساكين وجالسهم، فإنه أجدرُ ألا تزدرى نعمة الله عليك». قلت: زدنى. قال: «صل قرباتك وإن قطعوك». قلت: زدنى. قال: «قل الحق وإن كان مرا».

قلت: زدنى. قال: «لا تخف فى الله لومة لائم».

قلت: زدنى. قال: «يردُّك عن الناس ما تعرف عن نفسك، ولا تجدُ عليهم فيما تحب، وكفى بك عيباً أن تعرف من الناس ما تجهل من نفسك. أو تجد عليهم فيما تحب».

(٢) فى ١: «للشياطين».

(١) فى د: «النبين».

ثم ضرب بيده صدرى، فقال: «يا أبا ذر، لا عَقْل كالتدبير، ولا وَرَع كالكف، ولا حسب كحُسْن الخلق»^(١).

وروى الإمام أحمد، عن أبي المغيرة، عن مُعَان بن رفاعه، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة: أن أبا ذر سأل النبي ﷺ، فذكر أمر الصلاة، والصيام، والصدقة، وَفَضَلَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأفضل الشهداء، وأفضل الرقاب، ونبوة آدم، وأنه مُكَلَّم، وعدد الأنبياء والمرسلين، كنعو ما تقدم^(٢).

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: وجدت في كتاب أبي بخطه: حدثني عبد المتعالي بن عبد الوهاب، حدثنا يحيى بن سعيد الأموى، حدثنا مُجَالِد عن أبي الودَّاع قال: قال أبو سعيد: هل تقول الخوارج بالدجال؟ قال: قلت: لا. فقال: قال رسول الله ﷺ: «إني خاتمُ ألفِ نبيٍّ أو أكثر، وما بُعِثَ نبيٌّ يُتَّبَعُ إلا وقد حذر أمته منه، وإني قد بينَّ لى ما لم يبين [لأحد]^(٣)، وإنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وعينه اليمنى عوراء جاحظة لا تخفى، كأنها نخامة فى حائط مُجَصَّص، وعينه اليسرى كأنها كوكب درى، معه من كل لسان، ومعه صورة الجنة خضراء يجرى فيها الماء، وصورة النار سوداء تدخن»^(٤).

وقد رويناه فى الجزء الذى فيه رواية أبى يعلى الموصلى، عن يحيى بن معين، حدثنا مروان بن معاوية، حدثنا مُجَالِد، عن أبى الودَّاع، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أختم ألفَ ألفِ نبيٍّ أو أكثر، ما بعث الله من نبيٍّ إلى قومه إلا حذرهم الدجال...» وذكر تمام الحديث، هذا لفظه بزيادة «ألف» وقد تكون مُقَحَّمَة^(٥)، والله أعلم. وسياق رواية الإمام أحمد أثبت وأولى بالصحة، ورجال إسناده هذا الحديث لا بأس بهم، وروى هذا الحديث من طريق جابر بن عبد الله، رضى الله عنه، قال الحافظ أبو بكر البزار:

حدثنا عمرو بن على، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا مُجَالِد، عن الشَّعْبِي، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لخاتمُ ألفِ نبيٍّ أو أكثر، وإنه ليس منهم نبيٌّ إلا وقد أُنذِر قومه الدَّجَالَ، وإنه قد بينَّ^(٦) لى ما لم يبين لأحد منهم، وإنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور»^(٧).

وقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾، وهذا تشريف لموسى، عليه السلام، بهذه الصفة؛ ولهذا يقال

(١) الشريعة للأجرى (ص ٤٠٤) وفى إسناده إبراهيم بن هشام الغساني، كذبه أبو حاتم وأبو زرعة، وقد انفرد به عن أبيه عن جده.

(٢) المسند (٢٦٥/٥).

(٣) زيادة من أ، والمسند.

(٤) المسند (٧٩/٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٣٤٦/٧): «فيه مجالد بن سعيد وثقه النسائي فى رواية، وقال فى أخرى: ليس بالقوى. وضعفه جماعة».

(٥) ورواه الحاكم فى المستدرک (٥٩٧/٢) من طريق يحيى بن معين به، وقال الذهبى: مجالد وهو ضعيف، وليس فيه زيادة «ألف» وهى مقحمة كما ذكر المؤلف.

(٦) فى أ: «بين».

(٧) مسند البزار برقم (٣٣٨٠) «كشف الاستار».

له: الكلبي. وقد قال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا أحمد بن محمد بن سليمان المالكي، حدثنا مَسِيحُ بن حاتم، حدثنا عبد الجبار^(١) بن عبد الله قال: جاء رجل إلى أبي بكر بن عيَّاش فقال: سمعت رجلاً يقرأ: «وكلم الله موسى تكليماً» فقال أبو بكر: ما قرأ هذا إلا كافر، قرأتُ على الأعمش، وقرأ الأعمش على [يحيى]^(٢) بن وثَّاب، وقرأ يحيى بن وثَّاب على أبي عبد الرحمن السَّلمى، وقرأ أبو عبد الرحمن، على علي بن أبي طالب، وقرأ علي بن أبي طالب على رسول الله ﷺ: «وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا»^(٣).

وإنما اشتد غضب أبي بكر بن عيَّاش، رحمه الله، على مَنْ قرأ كذلك؛ لأنه حَرَفَ لفظ القرآن ومعناه، وكان هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن [يكون]^(٤) الله كَلَّمَ موسى، عليه السلام، أو يكلم أحداً من خلقه، كما روينا^(٥) عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ: «وكلم الله موسى تكليماً» فقال له: يا ابن اللُّخَّاء، فكيف تصنع بقوله تعالى: «وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ» [الأعراف: ١٤٣]، يعني: أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل.

وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا أحمد بن الحسين بن بهرام، حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا هاني بن يحيى، عن الحسن بن أبي جعفر، عن قتادة، عن يحيى بن وثَّاب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى كَانَ يُبْصِرُ دَيْبَ النَّمْلِ عَلَى الصِّفَا فِي اللَّيْلَةِ الظُّلُمَاءِ». وهذا حديث غريب، وإسناده لا يصح، وإذا صح موقوفاً كان جيداً^(٦).

وقد روى الحاكم في مستدركه وابن مردويه، من حديث حميد بن قيس الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «كَانَ عَلَى مُوسَى يَوْمَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ جَبَّةٌ صُوفٌ، وَكِسَاءٌ صُوفٌ، وَسِرَاطِيلٌ صُوفٌ، وَنَعْلَانِ مِنْ جِلْدِ حِمَارٍ غَيْرِ ذَكَى»^(٧).

وقال ابن مردويه بإسناده عن جُوَيْرٍ، عن الضَّحَّاك عن ابن عباس قال: إن الله ناجى موسى بمائة ألف كلمة وأربعين ألف كلمة، في ثلاثة أيام، وصايا كلها، فلما سمع موسى كلام الآدميين مَقْتَهُمْ مما وقع في مسامعه من كلام الرب، عز وجل.

وهذا أيضاً إسناده ضعيف، فإن جُوَيْرٍاً ضعيف، والضَّحَّاك لم يدرك ابن عباس، رضى الله عنه. فأما الأثر الذي رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه وغيرهما من طريق الفضل بن عيسى الرِّقَاشى، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله قال: لما كلم الله موسى يوم الطور، كَلَّمَهُ بغير الكلام الذى

(١) فى د: «عبد الجليل».

(٢) زيادة من أ.

(٣) ورواه الطبرانى فى الأوسط برقم (٣٣٢٥) «مجمع البحرين» من طريق مسيح بن حاتم به. وقال الطبرانى: «لم يروه عن الأعمش إلا أبو بكر، تفرد به عبد الجبار بن عبد الله لم أعرفه، وبقيه رجاله ثقات».

(٤) زيادة من أ.

(٥) فى أ: «تروا».

(٦) ورواه الطبرانى فى المعجم الصغير برقم (٧٧)، من طريق أحمد بن الحسين بن بهرام به، وقال الهيثمى فى المجمع (٢٠٣/٨): «فيه الحسين بن أبى جعفر الجفرى: وهو متروك».

(٧) المستدرک (٣٧٩/٢) ورواه الترمذى فى السنن برقم (١٧٣٤) من طريق حميد الأعرج به.

قال الحاكم: «على شرط البخارى»، وتعقبه الذهبى بقوله: «بل ليس على شرطه، وإنما غره أن فى إسناده حميد بن قيس كذا، وهو خطأ، إنما هو حميد الأعرج الكوفى ابن على أو ابن عمار أحد المتروكين فظن أنه المكي الصادق».

كَلَّمَهُ يَوْمَ نَادَاهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: يَا رَبِّ، هَذَا كَلَامُكَ الَّذِى كَلَّمْتَنِى بِهِ؟ قَالَ: لَا يَا مُوسَى، أَنَا كَلَّمْتُكَ بِقُوَّةِ عَشْرَةِ آلَافِ لِسَانٍ، وَلِى قُوَّةُ الْإِلْسِنَةِ كُلِّهَا، وَأَنَا أَقْوَى مِنْ ذَلِكَ. فَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى بَنَى إِسْرَائِيلَ قَالُوا: يَا مُوسَى، صِفْ لَنَا كَلَامَ الرَّحْمَنِ. قَالَ: لَا أَسْتَطِيعُهُ. قَالُوا: فَشَبِّهْ لَنَا. قَالَ: أَلَمْ تَسْمَعُوا^(١) إِلَى صَوْتِ الصَّوَاعِقِ فَإِنَّهَا قَرِيبٌ مِنْهُ، وَلَيْسَ بِهِ. وَهَذَا إِسْنَادٌ ضَعِيفٌ، فَإِنَّ الْفَضْلَ هَذَا الرَّقَاشَى ضَعِيفٌ بِمَرَّةٍ.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرَى، عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ، عَنْ جَزْءِ بْنِ جَابِرِ الْخَثْعَمَى، عَنْ كَعْبٍ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَمَّا كَلَّمَ مُوسَى كَلَّمَهُ بِالْإِلْسِنَةِ كُلِّهَا سِوَى كَلَامِهِ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى يَا رَبِّ، هَذَا كَلَامُكَ؟ قَالَ: لَا، وَلَوْ كَلَّمْتُكَ بِكَلَامِى لَمْ تَسْتَقِمْ لَهُ. قَالَ: يَا رَبِّ، فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ يَشْبَهُ كَلَامُكَ؟ قَالَ: لَا، وَأَشَدُّ خَلْقِى شَبْهًا بِكَلَامِى أَشَدُّ مَا تَسْمَعُونَ مِنَ الصَّوَاعِقِ.

فَهَذَا مَوْقُوفٌ عَلَى كَعْبِ الْأَحْبَارِ، وَهُوَ يَحْكَى عَنِ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى أَخْبَارِ بَنَى إِسْرَائِيلَ، وَفِيهَا الْغَثُّ وَالسَّمِينُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أَي: يَبْشِرُونَ مِنْ أَطَاعِ اللَّهَ وَاتَّبَعَ رِضْوَانَهُ بِالْخَيْرَاتِ، وَيَنْذِرُونَ مِنْ خَالَفَ أَمْرَهُ وَكَذَبَ رِسْلَهُ بِالْعُقَابِ وَالْعَذَابِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَعَلَّآ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أَي: إِنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَ كِتَابَهُ وَأَرْسَلَ رُسْلَهُ بِالْبَشَارَةِ وَالنَّذَارَةِ، وَبَيْنَ مَا يَحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ مِمَّا يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ؛ لَعَلَّآ يَبْقَى لِمُعْتَذِرٍ عَذْرٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَا أَهْلُكُنَّاهُمْ بِعَذَابٍ مِّنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَبِّئَ عَائِتِكَ مِّنْ قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزِي﴾ [طه: ١٣٤]، وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا أَن تَصِيَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) [القصص: ٤٧].

وَقَدْ ثَبِتَ فِي الصَّحِيحِينَ^(٣)، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، [رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]^(٤)، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ» وَفِي لَفْظٍ: «مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ رُسْلَهُ، وَأَنْزَلَ كِتَابَهُ».

﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (١٦٦) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠).

(٢) زيادة من د، أ، وفى هـ: «الآية».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٣٤) وصحيح مسلم برقم (٢٧٦٠).

(٤) زيادة من أ.

لما تضمن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ إلى آخر السياق، إثبات نبوته ﷺ^(١)، والرد على من أنكر نبوته من المشركين وأهل الكتاب، قال الله تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ أى: وإن كفر به من كفر به ممن كذبك وخالفك، فالله يشهد لك بأنك رسوله الذى أنزل عليه الكتاب، وهو: القرآن العظيم الذى ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]؛ ولهذا قال: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أى: فيه علمه الذى أراد أن يطلع العباد عليه، من البينات والهدى والفرقان وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضى والمستقبل، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة، التى لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب، إلا أن يعلمه الله به، كما قال [تعالى]^(٢): ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا الحسن بن سهل الجعفرى وخزرج بن المبارك قالا: حدثنا عمران بن عيينة، حدثنا عطاء بن السائب قال: أقرأنى أبو عبد الرحمن السلمى القرآن، وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال: قد أخذت علم الله، فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل، ثم يقرأ: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾. وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ أى: بصدق ما جاءك وأوحى إليك وأنزل عليك، مع شهادة الله تعالى لك بذلك ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

وقد قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: دخل على رسول الله ﷺ جماعة من اليهود، فقال لهم: «إنى لأعلم - والله - إنكم لتعلمون أنى رسول الله». فقالوا: ما نعلم ذلك. فأنزل الله عز وجل: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾^(٣).

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أى: كفروا فى أنفسهم^(٤)، فلم يتبعوا الحق، وسعوا فى صد الناس عن اتباعه والافتداء به، قد خرجوا عن الحق وضلوا عنه، وبعُدوا منه بعداً عظيماً شاسعاً.

ثم أخبر تعالى عن حكمه فى الكافرين بآياته وكتابه ورسوله، الظالمين لأنفسهم بذلك، وبالصد عن سبيله وارتكاب مآثمه وانتهاك محارمه، بأنه لا يغفر لهم ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ أى: سبيلاً إلى الخير ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ وهذا استثناء منقطع ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾^(٥).

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ أى: قد جاءكم محمد - صلوات الله وسلامه عليه - بالهدى ودين الحق، والبيان الشافى من الله، عز وجل، فأمنوا بما جاءكم به واتبعوه^(٦) يكن خيراً لكم.

ثم قال: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: فهو غنى عنكم وعن إيمانكم، ولا يتضرر بكفرانكم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]. وقال هاهنا: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أى: بمن يستحق منكم الهداية فيهديه، وبمن يستحق الغواية فيغويه ﴿حَكِيمًا﴾ أى: فى أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

(١) فى أ: «نبوته صلوات الله وسلامه عليه». (٢) زيادة من د، أ. (٣) زيادة من أ، وفى هـ: «الآية».

(٤) فى د: «بأنفسهم».

(٥) زيادة من أ.

(٦) فى د: «فاتبعوه».

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١)﴾.

ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير فى النصارى، فإنهم تجاوزوا حد التصديق بعيسى، حتى رفعوه فوق المنزلة التى أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلها من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل قد غلوا فى أتباعه وأشياعه، ممن زعم أنه على دينه، فادَّعُوا فيهم العصمة واتبعوهم فى كل ما قالوه، سواء كان حقاً أو باطلاً، أو ضلالاً أو رشاداً، أو صحيحاً أو كذباً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١) [التوبة: ٣١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم قال: زعم الزُّهْرِيُّ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس، عن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُطْرُونِي كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد الله ورسوله».

ثم رواه هو وعلى بن المدينى، عن سفيان بن عيينة، عن الزُّهْرِيِّ كذلك. وقال على بن المدينى: هذا حديث صحيح سنده^(٢). وهكذا رواه البخارى، عن الحميدى، عن سفيان بن عيينة، عن الزُّهْرِيِّ، به. ولفظه: «فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت البنانى، عن أنس ابن مالك: أن رجلاً قال: محمد يا سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا. فقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، عليكم بقولكم، ولا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله عز وجل». تفرد به من هذا الوجه^(٤).

وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أى: لا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبة وولدا - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وتنزهه وتقدس وتوجد فى سيّده وكبريائه وعظمته - فلا إله إلا هو، ولا رب سواه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أى: إنما هو عبد من عباد الله وخلق من خلقه، قال له: كن، فكان، ورسول من رسله، وكلمته ألقاها إلى مريم، أى: خلقه بالكلمة التى أرسل بها جبريل، عليه السلام، إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه، عز وجل، فكان عيسى بإذن الله، عز وجل، وصارت تلك النفخة التى نفخها فى جيب درعها،

(٢) فى أ: «مسند».

(١) زيادة من ر، أ.

(٣) المسند (١/٢٣، ٢٤) وصحيح البخارى برقم (٣٤٤٥).

(٤) المسند (٣/١٥٣) وهو على شرط مسلم.

فنزلت حتى ولّجت فرجها بمنزلة لقاح الأب الأم^(١)، والجميع مخلوق لله، عز وجل؛ ولهذا قيل لعيسى: إنه كلمة الله وروح منه؛ لأنه لم يكن له أب تولد^(٢) منه، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها: كن، فكان. و الروح التي أرسل بها جبريل، قال الله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]. وقال تعالى: ﴿إِنْ مَثَلٌ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]. وقال تعالى: ﴿وَأَلَّتِي أَحْصَيْتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا^(٣) مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١] وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْتَ فَرْجَهَا [فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ وَكَانَتْ مِنَ الْفَانِينَ]﴾^(٤) [التحریم: ١٢]. وقال تعالى إخباراً عن المسيح: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(٥) [الزخرف: ٥٩].

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾، هو كقوله: ﴿كُنْ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فكان وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي قال: سمعت شاذَّ بن يحيى يقول: في قول الله: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ قال: ليس الكلمة صارت عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى.

وهذا أحسن مما ادعاه ابن جرير^(٦) في قوله: ﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أي: أعلمها بها، كما زعمه في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥] أي: يعلمك بكلمة منه، ويجعل ذلك كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجَوْنَ أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦] بل الصحيح أنها الكلمة التي جاء بها جبريل إلى مريم، فنفخ فيها بإذن الله، فكان عيسى، عليه السلام.

وقال البخاري: حدثنا صدقة بن الفضل، حدثنا^(٧) الوليد، حدثنا الأوزاعي، حدثني عُمير بن هانئ، حدثني جُنَادَةُ بن أبي أمية، عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل». قال الوليد: فحدثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن عُمير بن هانئ، عن جُنَادَةَ زاد: «من أبواب الجنة الثمانية من أيها شاء».

وكذا رواه مسلم، عن داود بن رُشيد، عن الوليد، عن ابن جابر، به^(٨). ومن وجه آخر، عن الأوزاعي، به^(٩).

فقوله في الآية والحديث: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾، كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

(١) في د: «والأم». (٢) في أ: «مولد». (٣) في أ: «فيه»، وهو خطأ.

(٤) زيادة من ر، أ، وفي هـ: «الآية».

(٥) زيادة من ر، أ، وفي هـ: «الآية».

(٦) تفسير الطبري (٤١٨/٩).

(٧) في ر: «ابن».

(٨) صحيح البخاري برقم (٣٤٣٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨).

(٩) صحيح مسلم برقم (٢٨).

جَمِيعاً مِنْهُ» [الجاثية: ١٣] أى: مِنْ خَلْقِهِ وَمِنْ عِنْدِهِ، وليست «مِنْ» للتبويض، كما تقوله النصارى - عليهم لعائن الله المتتابعة - بل هى لا ابتداء الغاية، كما فى الآية الأخرى.

وقد قال مجاهد فى قوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أى: ورسول منه. وقال غيره: ومحبة منه. والأظهر الأول أنه مخلوق من روح مخلوقة، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف، كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله، فى قوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ [هود: ٦٤]. وفى قوله: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦]، وكما ورد فى الحديث الصحيح: «فأدخل على ربى فى داره» أضافها إليه إضافة تشريف لها، وهذا كله من قبيل واحد ونمط واحد.

وقوله: ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^(١) أى: فصدقوا بأن الله واحد أحد، لا صاحبة له ولا ولد، واعلموا وتيقنوا بأن عيسى عبد الله ورسوله؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً﴾ أى: لا تجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وهذه الآية والتي تأتى فى سورة المائدة حيث يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣]. وكما قال فى آخر السورة المذكورة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾^(٢) الآية [المائدة: ١١٦]، وقال فى أولها: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ الآية [المائدة: ٧٢]، فالنصارى - عليهم لعنة الله - من جهلهم ليس لهم ضابط، ولا لكفرهم حد، بل أقوالهم وضلالهم منتشر، فمنهم من يعتقد إلهاً، ومنهم من يعتقد شريكاً، ومنهم من يعتقد ولداً. وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة، وأقوال غير مؤتلفة، ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا على أحد عشر قولاً. ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير، وهو سعيد بن بطريق - بترك الأسكندرية - فى حدود سنة أربعمائة من الهجرة النبوية، أنهم اجتمعوا المجمع الكبير الذى عقدوا فيه الأمانة الكبيرة التى لهم، وإنما هى الخيانة الحقيرة الصغيرة، وذلك فى أيام قسطنطين باني المدينة المشهورة، وأنهم اختلفوا عليه اختلافاً لا ينضب ولا ينحصر، فكانوا أزيد من ألفين أسقفاً، فكانوا أحزاباً كثيرة، كل خمسين منهم على مقالة، وعشرون على مقالة، ومائة على مقالة، وسبعون على مقالة، وأزيد من ذلك وأنقص. فلما رأى عصابة منهم قد زادوا على الثلاثمائة بثمانية عشر نفرأ، وقد توافقوا على مقالة، فأخذها الملك ونصرها وأيدها - وكان فيلسوفاً ذا هيئة^(٣) - ومحق ما عداها من الأقوال، وانتظم دَسْتُ^(٤) أولئك الثلاثمائة والثمانية عشر، وبنيت لهم الكنائس، ووضعوا لهم كتباً وقوانين، وأحدثوا الأمانة التى يلقونها الولدان من الصغار^(٥) - ليعتقدوها - ويُعَمِّدُونَهُمْ عليها، وأتباع هؤلاء هم الملكية، ثم إنهم اجتمعوا مجعاً ثانياً فحدث فيهم اليعقوبية، ثم مجعاً ثالثاً فحدث فيهم النسطورية. وكل هذه الفرق تثبت الأقانيم الثلاثة فى المسيح، ويختلفون فى كيفية ذلك وفى اللاهوت والناسوت على زعمهم! هل اتحد، أو ما اتحد، بل امتزجا أو حل فيه؟ على ثلاث مقالات، وكل منهم يكفر بالفرقة الأخرى، ونحن نكفر الثلاثة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ أى: يكن خيراً لكم ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أى: تعالى وتقدس عن ذلك علواً كبيراً ﴿لَهُ مَا فِي

(٣) فى د، ر، أ: «داهية».

(٢) زيادة من ر، أ.

(١) فى د: «ورسله».

(٥) فى ر: «الصغر».

(٤) فى أ: «دست الملك».

السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١﴾ أى: الجميع ملكه وخلقه، وجميع ما فيها عبده، وهم تحت تديره وتصريفه، وهو وكيل على كل شيء، فكيف يكون له منهم صاحبة أو ولد؟ كما قال فى الآية الأخرى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أُنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [١] ﴿[الأنعام: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [٢] ﴿[مريم: ٨٨ - ٩٥].

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ (١٧٢) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٧٣) .

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس قوله: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾، لن يستكبر.

وقال قتادة: لن يحتشم ﴿الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ وقد استدل بعض من ذهب إلى تفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية حيث قال: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾. وليس له فى ذلك دلالة؛ لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح؛ لأن الاستنكاف هو الامتناع، والملائكة أقدر على ذلك من المسيح؛ فلهذا قال: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ولا يلزم من كونهم أقوى وأقدر على الامتناع أن يكونوا أفضل.

وقيل: إنما ذكروا؛ لأنهم اتخذوا آلهة مع الله، كما اتخذ المسيح، فأخبر تعالى أنهم عبده من عبده وخلق من خلقه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ . وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [٣] ﴿[الأنبياء: ٢٦-٢٩].

ثم (٤) قال: ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ أى: فيجمعهم إليه يوم القيامة، ويفضل بينهم بحكمه العدل، الذى لا يجوز فيه ولا يحيف؛ ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعنى: فيعطيه من الثواب على قدر أعمالهم الصالحة ويزيدهم على ذلك من فضله وإحسانه وسعة رحمته وامتنانه.

وقد روى ابن مردويه من طريق بَقِيَّة، عن إسماعيل بن عبد الله الكندى، عن الأعمش، عن سفیان^(٥)، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال:

(١) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية» . (٢) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «إلى قوله: ﴿فردا﴾» .

(٣) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآيات» . (٤) فى أ: «ولهذا» . (٥) فى أ: «شقيق» .

«أَجُورُهُمْ: أدخلهم الجنة». ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾ قال: «الشفاعة فيمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف في دنياهم»^(١).

وهذا إسناد لا يثبت، وإذا روى عن ابن مسعود موقوفاً فهو جيد^(٢).

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنَكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ أى: امتنعوا من طاعة الله وعبادته واستكبروا عن ذلك ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أى: صاغرين حقيرين ذليلين، كما كانوا ممتنعين مستكبرين.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (١٧٤) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾ (١٧٥).

يقول تعالى مخاطباً جميع الناس، ومخبراً^(٣) بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم، وهو الدليل القاطع للعذر، والحجة المزية للشبهة؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ أى: ضياء واضحاً على الحق، قال ابن جرير^(٤) وغيره: وهو القرآن.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ أى: جمعوا بين مقامى العبادة والتوكل على الله فى جميع أمورهم. وقال ابن جرير: آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن. رواه ابن جرير.

﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ أى: يرحمهم فيدخلهم الجنة ويزيدهم ثواباً ومضاعفة ورفعاً فى درجاتهم، من فضله عليهم وإحسانه إليهم ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾ أى: طريقاً واضحاً قَصْداً قَوَّاماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف. وهذه صفة المؤمنين فى الدنيا والآخرة، فهم فى الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة فى جميع الاعتقادات والعمليات، وفى الآخرة على صراط الله المستقيم المفضى إلى روضات الجنات. وفى حديث الحارث الأعور، عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال: «القرآن صراطُ الله المستقيم، وحبلُ الله المتين». وقد تقدم الحديث بتمامه فى أول التفسير، والله الحمد والمنة.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً

(١) فى أ: «فى الدنيا».

(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٤٨/١٠) من طريق بقية عن إسماعيل الكندى به.

وقال الهيثمى فى المجمع (١٣/٧): «فيه إسماعيل بن عبد الله الكندى ضعفه الذهبي من عند نفسه، فقال: أتى بخبر منكر وبقية رجاله وثقوا».

ورواه أبو نعيم فى الحلية (١٠٨/٤) من طريق ابن حمير عن الثورى عن شقيق عن عبد الله بن مسعود بنحوه، وقال: «غريب من حديث الأعمش، عزيز عجيب من حديث الثورى، تفرد به إسماعيل بن عبيد الله الكندى عن الأعمش، وعن إسماعيل بقية بن الوليد، وحديث الثورى لم نكتبه إلا عن هذا الشيخ».

(٤) فى أ: «جرير».

(٣) فى ر، أ: «ومخبراً لهم»

رَجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾ .

قال البخارى: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا شعبة، عن أبى إسحاق قال: سمعت البراء قال: آخر سورة نزلت: «براءة»، وآخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن محمد بن المنكدر قال: سمعت جابر بن عبد الله قال: دخل على رسول الله ﷺ، وأنا مريض لا أعقل، قال: فتوضأ، ثم صب علىّ - أو قال صبوا عليه - فَعَقَلْتُ فَقُلْتُ: إنه لا يرثنى إلا كلاله، فكيف الميراث؟ قال: فنزلت آية الفرائض. أخرجاه فى الصحيحين من حديث شعبة^(٢)، ورواه الجماعة من طريق سفيان بن عيينة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر، به^(٣). وفى بعض الألفاظ: فنزلت آية الميراث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ الآية.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد، حدثنا سفيان وقال أبو الزبير قال - يعنى جابرا - : نزلت فى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾.

وكان معنى الكلام - والله أعلم - ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾: عن الكلاله قل: الله يفتيكم فيها، فدل المذكور على المتروك.

وقد تقدم الكلام على الكلاله واشتقاقها، وأنها مأخوذة من الإكليل الذى يحيط بالرأس من جوانبه؛ ولهذا فسرّها أكثر العلماء: بمن يموت وليس له ولد ولا والد، ومن الناس من يقول: الكلاله من لا ولد له، كما دلت عليه هذه الآية: ﴿إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ [أى مات] ^(٤) لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾.

وقد أشكل حكم الكلاله على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، كما ثبت عنه فى الصحيحين أنه قال: ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهدا ننتهى إليه: الجد، والكلالة، وأبواب من أبواب الربا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، عن سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن سالم بن أبى الجعد، عن معدان بن أبى طلحة قال: قال عمر بن الخطاب: ما سألت رسول الله ﷺ عن شيء أكثر مما سألت عن الكلاله، حتى طعن بأصبعه فى صدرى وقال: «يكفيك آية الصيف التى فى آخر سورة النساء».

هكذا رواه مختصراً وقد أخرجه مسلم مطولاً أكثر من هذا^(٥).

(١) صحيح البخارى برقم (٢٦٠٥).

(٢) المسند (٢٩٨/٣) وصحيح البخارى برقم (٦٧٤٣) وصحيح مسلم برقم (١٦١٦).

(٣) صحيح البخارى برقم (٦٧٢٣) وصحيح مسلم برقم (١٦١٦) وسنن أبى داود برقم (٢٨٨٦) وسنن الترمذى برقم (٢٠٩٧) وسنن

النسائى الكبرى برقم (١١١٣٤) وسنن ابن ماجه برقم (١٤٣٦).

(٤) زيادة من أ.

(٥) المسند (٢٦/١) وصحيح مسلم برقم (١٦١٧).

طريق أخرى: قال [الإمام] ^(١) أحمد: حدثنا أبو نعيم، حدثنا مالك - يعنى ابن مغل - سمعت الفضل بن عمرو، عن إبراهيم، عن عمر قال: سألت رسول الله ﷺ عن الكلالة، فقال: «يكفيك آية الصيف». فقال: لأن أكون سألت النبي ﷺ عنها أحب إلي من أن يكون لي حُمُر النعم. وهذا إسناد جيد إلا أن فيه انقطاعاً بين إبراهيم وبين عمر، فإنه لم يدركه ^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا أبو بكر، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عن الكلالة، فقال: «يكفيك آية الصيف». وهذا إسناد جيد، رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي بكر بن عيَّاش، به ^(٣). وكأن المراد بآية الصيف: أنها نزلت في فصل الصيف، والله أعلم.

ولما أرشده النبي ﷺ إلى تفهمها - فإن فيها كفاية - نسي أن يسأل النبي ﷺ عن معناها؛ ولهذا قال: فلأن أكون سألت رسول الله ﷺ عنها أحب إلي من أن يكون لي حُمُر النعم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا جرير عن ^(٤) الشيباني، عن عمرو بن مرة، عن سعيد ابن المسيب قال: سأل عمر بن الخطاب النبي ﷺ عن الكلالة، فقال: «أليس قد بين الله ذلك؟» فنزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ ^(٥) الآية. وقال قتادة: ذكر ^(٦) لنا أن أبا بكر الصديق [رضي الله عنه] ^(٧) قال في خطبته: ألا إن الآية التي أنزلت ^(٨) في أول «سورة النساء» في شأن الفرائض، أنزلها الله في الولد والوالد. والآية الثانية أنزلها في الزوج والزوجة والإخوة من الأم. والآية التي ختم بها «سورة النساء» أنزلها في الإخوة والأخوات من الأب والأم، والآية التي ختم بها «سورة الأنفال» أنزلها في أولى الأرحام، بعضهم أولى ببعض في كتاب الله، مما جرّت الرحم من العصبية. رواه ابن جرير ^(٩).

ذكر الكلام على معناها وبالله المستعان، وعليه التكلان:

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَمْرُؤْ هَلَكْ﴾ أى: مات، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصاص: ٨٨] كل شيء يفنى ولا يبقى إلا ^(١٠) الله، عز وجل، كما قال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ تمسك به من ذهب إلى أنه ليس من شرط الكلالة انتفاء الوالد ^(١١)، بل يكفي في وجود الكلالة انتفاء الولد، وهو رواية عن عمر بن الخطاب، رواها ابن جرير عنه بإسناد صحيح إليه. ولكن الذي رجع ^(١٢) إليه هو قول الجمهور وقضاء الصديق: أنه من لا ولد له ولا

(١) زيادة من أ.

(٢) المسند (٣٨/١).

(٣) المسند (٢٩٣/٤) وسنن أبي داود برقم (٢٨٨٩) وسنن الترمذي برقم (٣٠٤٢).

(٤) في د: «وذكر».

(٥) زيادة من أ.

(٨) في د: «نزلت».

(٧) زيادة من أ.

(٩) تفسير الطبري (٤٣١/٩).

(١٢) في د: «يرجع».

(١١) في أ: «الولد».

(١٠) في ر: «إلا وجه الله».

والد، ويدل على ذلك قوله: ﴿وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ ولو كان معها أب لم ترث شيئاً؛ لأنه يحجبها بالإجماع، فدل على أنه من لا ولد له بنص القرآن، ولا والد بالنص عند التأمل أيضاً؛ لأن الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد، بل ليس لها ميراث بالكلية.

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا أبو بكر بن عبد الله، عن مكحول وعطية وحمزة وراشد، عن زيد بن ثابت: أنه سئل عن زوج وأخت لأب وأم، فأعطى الزوج النصف والأخت النصف. فكلّم في ذلك، فقال: حضرت رسول الله ﷺ قضى بذلك.

تفرد به أحمد من هذا الوجه^(١)، وقد نقل ابن جرير^(٢) وغيره عن ابن عباس وابن الزبير أنهما كانا يقولان في الميت ترك بنتاً وأختاً: إنه لا شيء للأخت لقوله: ﴿إِنْ أَمْرُ هَٰذَا لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ قال: فإذا ترك بنتاً فقد ترك ولداً^(٣)، فلا شيء للأخت، وخالفهما الجمهور، فقالوا في هذه المسألة: للبنت النصف بالفرض، وللأخت النصف الآخر بالتعصيب، بدليل غير هذه الآية وهذه نص^(٤) أن يفرض لها في هذه الصورة، وأما وراثتها بالتعصيب؛ فلما رواه البخارى من طريق سليمان، عن إبراهيم، عن الأسود، قال: قضى فينا معاذ بن جبل على عهد رسول الله ﷺ: النصف للابنة، والنصف للأخت. ثم قال سليمان: قضى فينا ولم يذكر: على عهد رسول الله ﷺ^(٥). وفى صحيح البخارى أيضاً عن هزيل بن شرحبيل قال: سئل أبو موسى الأشعرى عن ابنة وابنة ابن وأخت، فقال: للابنة^(٦) النصف، وللأخت النصف، وأت ابن مسعود فسيتابعنى. فسئل ابن مسعود - وأخبر بقول أبى موسى - فقال: لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين، أقضى فيها بما قضى النبى ﷺ للابنة النصف، ولابنة الابن السدس، تكملة الثلثين، وما بقى فللأخت، فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود، فقال: لا تسألونى ما دام هذا الخبر فيكم^(٨).

وقوله: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ أى: والأخ يرث جميع مالها إذا ماتت كلاله، وليس لها ولد، أى: ولا والد؛ لأنه لو كان لها والد لم يرث الأخ شيئاً، فإن فرض أن معه من له فرض، صرف إليه فرضه؛ كزوج، أو أخ من أم، وصرف الباقي إلى الأخ؛ لما ثبت في الصحيحين، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أَلْحَقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا أَبْقَتْ لِلْفَرَائِضِ فَلْأَوَّلَى رَجُلٍ ذَكَرَ»^(٩).

وقوله: ﴿إِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ أى: فإن كان لمن يموت كلاله، أختان، فرض لهما الثلثان، وكذا ما زاد على الأختين فى حكمهما، ومن هاهنا أخذ الجماعة حكم البنتين كما استفيد حكم الأخوات من البنات، فى قوله: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثُ مَا تَرَكَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾. هذا حكم العصابات من البنين وبنى البنين والإخوة إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم، أعطى الذكر منهم مثل حظ الأنثيين.

(١) المسند (١٨٨/٥).

(٢) تفسير الطبرى (٤٤٣/٩).

(٣) فى ر: «ولد».

(٤) صحيح البخارى برقم (٦٧٣٤).

(٥) فى ر، أ: «للبنات».

(٦) صحيح البخارى برقم (٦٧٣٦).

(٧) صحيح البخارى برقم (٦٧٣٥) وصحيح مسلم برقم (١٦١٥).

(٨) فى ر: «النبى».

(٩) فى أ: «تعصيب».

وقوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ﴾ أى: يفرض لكم فرائضه، ويحد لكم حدوده، ويوضح لكم شرائعه.
وقوله: ﴿أَنْ تَضِلُّوا﴾ أى: لئلا تضلوا عن الحق بعد البيان. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أى: هو عالم بعواقب الأمور ومصالحها وما فيها من الخير لعباده، وما يستحقه كل واحد من القربات بحسب قربه من المتوفى.

وقد قال أبو جعفر بن جرير: حدثني يعقوب، حدثني ابن عُلَيَّة، أنبأنا ابن عَوْن، عن محمد بن سيرين قال: كانوا فى مسير، ورأس راحلة حذيفة عند رَدْف راحلة رسول الله ﷺ، ورأس راحلة عمر عند رَدْف راحلة حذيفة. قال: ونزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ فلَقَّاهَا رسولُ الله ﷺ حذيفة، فلَقَّاهَا حذيفة عُمَرُ، فلما كان بعد ذلك سأل عُمَرُ عنها حذيفة فقال: والله إنك لأحمق إن كنت ظننت أنه لقانيها رسول الله ﷺ فلقيتها كما لقانيها^(١)، والله لا أزيدك عليها شيئاً أبداً قال: فكان عمر [رضى الله عنه]^(٢) يقول: اللهم إن^(٣) كنت بيتها له فإنها لم تبين لى.

كذا^(٤) رواه ابن جرير. ورواه أيضاً عن الحسن بن يحيى^(٥)، عن عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن أيوب، عن ابن سيرين كذلك بنحوه. وهو منقطع بين ابن سيرين وحذيفة^(٦)، وقد قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو البزار فى مسنده: حدثنا يوسف بن حماد المَعْنَى، ومحمد بن مرزوق قالوا: أخبرنا عبد الأعلى بن عبد الأعلى، حدثنا هشام بن حَسَّان، عن محمد بن سيرين، عن أبى عبيدة بن حذيفة، عن أبيه: «نزلت الكلاله على النبى ﷺ وهو فى مسير له، فوقف النبى ﷺ وإذا هو بحذيفة، وإذا رأس ناقة حذيفة عند مؤتزر النبى ﷺ، فلَقَّاهَا إياه، فنظر حذيفة فإذا عمر، رضى الله عنه، فلَقَّاهَا إياه، فلما كان فى خلافة عمر نظر عمر فى الكلاله، فدعا حذيفة فسأله عنها، فقال حذيفة: لقد لقانيها رسول الله ﷺ فلَقَّيْتُكَ كما لقانى، والله^(٧) إنى لصادق، والله لا أزيد على ذلك شيئاً أبداً.

ثم قال البزار: وهذا الحديث لا نعلم أحد رواه إلا حذيفة، ولا نعلم له طريقاً عن حذيفة إلا هذا الطريق، ولا رواه عن هشام إلا عبد الأعلى. وكذا رواه ابن مردويه من حديث عبد الأعلى^(٨).

وقال عثمان بن أبى شيبه: حدثنا جرير، عن الشَّيبَانِي، عن عمرو بن مُرَّة، عن سعيد - [هو]^(٩) ابن المسيب - أن عمر سأل رسول الله ﷺ كيف يُورَث الكلاله؟ قال: فأنزل الله ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾^(١٠) الآية^(١١)، قال: فكان عمر لم يفهم. فقال لحفصة: إذا رأيت من رسول الله ﷺ طيب نفس فسله عنها، فرأت منه طيب نفس فسأله عنها^(١٢)، فقال: «أبوك ذكر لك هذا؟ ما

(١) فى أ: «لقانى» وفى د: «لقانيها رسول الله ﷺ».

(٢) زيادة من أ.

(٣) فى ر: «من».

(٤) فى أ: «محمد».

(٥) فى ر: «ووالله».

(٦) تفسير الطبرى (٤٣٥/٩).

(٧) فى ر: «ووالله».

(٨) مسند البزار برقم (٢٢٠٦) «كشف الاستار» وقال الهيثمى فى المجمع (١٣/٧): «رجال رجال الصحيح غير أبى عبيدة بن حذيفة، ووثقه ابن حبان».

(٩) زيادة من ر، أ.

(١٠) فى ر، أ: «إلى آخرها».

(١١) زيادة من: ر، أ.

(١٢) فى ر: «عنه».

أرى أباك يعلمها». قال: وكان^(١) عمر يقول: ما أراني أعلمها، وقد قال رسول الله ﷺ ما قال.

رواه ابن مَرْدُويه^(٢)، ثم رواه من طريق ابن عيينة، عن عمرو، عن طاوس: أن عمر أمر حَفْصَةَ أن تسأل النبي ﷺ عن الكلالة، فأملأها عليها في كَتَفٍ، فقال: «من أمرك بهذا؟ أعمرك؟ ما أراه يقيمها، أو ما تكفيه^(٣) آية الصيف؟» قال سفيان: وآية الصيف التي في النساء: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُرِثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً﴾، فلما سألوا رسول الله ﷺ نزلت الآية التي هي خاتمة النساء، فالقى عمر الكتف. كذا قال في هذا الحديث، وهو مرسل^(٤).

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا عثَّام، عن الأعمش، عن قيس بن مُسلم، عن طارق ابن شهاب قال: «أخذ عمر كَتَفًا وجمع أصحاب النبي ﷺ، ثم قال: لأقضيَن في الكلالة قضاء تُحدِّث به النساء في خدورهن. فخرجت حينئذ حية من البيت، فتفرقوا، فقال: لو أراد الله، عز وجل، أن يتم هذا الأمر لأتمه. وهذا إسناد صحيح^(٥).

وقال الحاكم أبو عبد الله النَّسَابُورِي: حدثنا علي بن محمد بن عقبة الشَّيبَانِي بالكوفة، حدثنا الهيثم بن خالد، حدثنا أبو نُعَيْمٍ، حدثنا ابنُ عيينة، عن عمرو بن دينار، سمعت محمد بن طلحة بن يزيد بن رُكَّانَةَ يحدث عن عمر بن الخطاب قال: لأن أكون سألت رسول الله ﷺ عن ثلاث أحبُّ إليَّ من حُمْرِ النَّعَمِ: مَنْ الخليفة بعده؟ وعن قوم قالوا: نُقِرُّ في الزكاة من أموالنا ولا نُؤديها إليك، أيحل قتالهم؟ وعن الكلالة. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه^(٦). ثم روى بهذا الإسناد إلى سفيان بن عيينة، عن عمرو بن مرة، عن مرة، عن عمر قال: ثلاث لأن يكون النبي ﷺ بَيْنَهُنَّ لنا أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها: الخلافة، والكلالة، والربا. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه^(٧).

وبهذا الإسناد إلى سفيان بن عيينة قال: سمعتُ سليمان الأحول يحدث، عن طاوس قال: سمعت ابن عباس قال: كنتُ آخر الناس عهداً بعمر، فسمعتة يقول: القول ما قلتُ: وما قلتُ؟ قال قلتُ: الكلالة، من لا ولد له. ثم قال: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه.

وهكذا رواه ابن مَرْدُويه من طريق زَمْعَةَ بن صالح، عن عمرو بن دينار وسليمان الأحول، عن طاوس، عن ابن عباس قال: كنتُ آخر الناس عهداً بعمر بن الخطاب، قال: اختلفت أنا وأبو بكر في الكلالة، والقول ما قلتُ. قال: وذكر أن عمر شرك بين الأخوة للأب وللأم^(٨)، وبين الأخوة للأم في الثلث إذا اجتمعوا، وخالفه أبو بكر، رضى الله عنهما^(٩).

(١) في ر: «فكان».

(٢) ورواه إسحاق بن راهويه في مسنده كما في الدر المنثور (٧٥٣/٢).

(٣) في ر: «وما تكفيه».

(٤) ورواه سعيد بن منصور في السنن برقم (٥٨٧) وعبد الرزاق في المصنف برقم (١٩١٩٤) من طريق سفيان بن عيينة به.

(٥) تفسير الطبري (٤٣٩/٩).

(٦) المستدرک (٣٠٣/٢) وتعقبه الذهبي بقوله: «بل ما خرجا لمحمد شيئا ولا أدرك عمر»، فالسند فيه انقطاع.

(٧) المستدرک (٣٠٤/٢) ووافقه الذهبي.

(٨) في ر: «للأب والأم».

(٩) المستدرک (٣٠٣/٢) ورواه سعيد بن منصور في السنن برقم (٥٨٩) من حديث سفيان عن سليمان الأحول به.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا محمد بن حميد المَعْمَرِي^(١)، عن مَعْمَرٍ عن الزُّهْرِيِّ، عن سعيد بن المسيَّب: أن عمر كتب في الجَدِّ والكلالة كتاباً، فمكث يستخير الله فيه يقول: اللهم إن علمت فيه خيراً فأَمْضِهِ، حتى إذا طَعِنَ دعا بكتاب فَمَحَى، ولم يدر أحداً ما كتب فيه. فقال: إني كنت كتبت في الجَدِّ والكلالة كتاباً، وكنت استخرت الله فيه، فرأيت أن أترككم على ما كنتم عليه^(٢).

قال ابن جرير: وقد رَوَى عن عمر، رضى الله عنه، أنه قال: إني لأستحي أن أخالف فيه أبا بكر. وكان أبو بكر، رضى الله عنه، يقول: هو ما عدا الولد والوالد^(٣).

وهذا الذى قاله الصديق عليه جمهور الصحابة والتابعين والأئمة، فى قديم الزمان وحديثه، وهو مذهب الأئمة الأربعة، والفقهاء السبعة. وقول علماء الأمصار قاطبة، وهو الذى يدل عليه القرآن، كما أرشد الله أنه قد بين ذلك ووضحه^(٤) فى قوله^(٥): ﴿يُيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

(١) فى ر: «العمرى».

(٢) تفسير الطبرى (٩/٤٣٨).

(٣) رواه سعيد بن منصور فى السنن برقم (٥٩١) ومن طريقه البيهقى فى السنن الكبرى (٦/٢٢٤) من طريق سفيان عن عاصم عن الشعبى قال: قال عمر فذكره... وهو منقطع.

(٤) فى ر: «وصححه».

(٥) فى ر: «وفى قول».

تفسير سورة المائدة

[وهي مدنية]^(١).

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا أبو معاوية شيبان، عن ليث، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد قالت: إني لأخذه^(٢) بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ^(٣)، إذ نزلت^(٤) عليه المائدة كلها، وكادت من ثقلها تدق عَضْدُ الناقة^(٥).

وروى ابن مردويه من حديث صالح^(٦) بن سهيل، عن عاصم الأحول قال: حدثني أم عمرو، عن عمها؛ أنه كان في مسير مع رسول الله ﷺ، فنزلت عليه سورة المائدة، فاندق عُنُقُ الراحلة من ثقلها^(٧).

وقال أحمد أيضاً: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثني حيي بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحبلي^(٨)، عن عبد الله بن عمرو قال: أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته، فلم تستطع أن تحمله، فنزل عنها.

تفرد به أحمد^(٩). وقد روى الترمذي عن قتيبة، عن عبد الله بن وهب، عن حيي، عن أبي عبد الرحمن، عن عبد الله بن عمرو قال: آخر سورة أنزلت: سورة المائدة والفتح، ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب حسن. وقد روى عن ابن عباس أنه قال: آخر سورة أنزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [سورة النصر: ١].

وقد روى الحاكم في مستدركه، من طريق عبد الله بن وهب بإسناده^(١٠)، نحو رواية الترمذي، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه^(١١).

وقال الحاكم أيضاً: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا بحر^(١٢) بن نصر قال: قرئ على عبد الله بن وهب، أخبرني معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن جبير بن نفير قال: حججت فدخلت على عائشة، فقالت لي: يا جبير، تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم. فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت^(١٣)، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه. ثم قال:

(١) زيادة من ر، أ. (٢) في د: «لأخذه يوماً». (٣) في ر: «النبى».

(٤) في د: «إذ أنزلت».

(٥) المسند (٦/٤٥٥) وقال الهيثمي في المجمع (١٣/٧): «فيه شهر بن حوشب وهو ضعيف وقد وثق».

(٦) في ر: «صباح».

(٧) ورواه ابن أبي شبة في مسنده، والبغوي في معجمه، والبيهقي في دلائل النبوة كما في الدر المنثور (٣/٣).

(٨) في ر: «الختلى»، وفي أ: «الجبلى».

(٩) المسند (٢/١٧٦) وقال الهيثمي في المجمع (١٣/٧): «فيه ابن لهيعة، والاکثر على ضعفه وقد يحسن حديثه».

(١٠) في ر: «بإسناده نحوه».

(١١) سنن الترمذي برقم (٣٠٦٣) والمستدرک (٢/٣١١).

(١٢) في أ: «محمد».

(١٣) في ر: «نزلت على رسول الله ﷺ».

صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

ورواه الإمام أحمد، عن عبد الرحمن بن مهدي، عن معاوية بن صالح، وزاد: وسألتها^(١) عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: القرآن. ورواه النسائي من حديث ابن مهدي^(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَتَفَعُونَ فُضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢)﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا مسعر، حدثني معن وعوف - أو: أحدهما - أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود [رضى الله عنه]^(٣) فقال: أعهد إلي. فقال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فارعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه.

وقال: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم - دحيم - حدثنا الوليد، حدثنا الأوزاعي، عن الزهري قال: إذا قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ افعلوا، فالنبي ﷺ منهم.

وحدثنا أحمد بن سنان، حدثنا محمد بن عبيد^(٤)، حدثنا الأعمش، عن خيثمة قال: كل شيء في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهو في التوراة: «يأيها المساكين».

فأما^(٥) ما رواه عن زيد بن إسماعيل الصائغ البغدادي، حدثنا معاوية - يعني: ابن هشام - عن عيسى بن راشد، عن علي بن بُذَيْمَةَ، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ما في القرآن آية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا أن علياً سيدها وشريفها وأميرها، وما من أصحاب النبي ﷺ أحد إلا قد عوتب في القرآن إلا علي بن أبي طالب، فإنه لم يعاتب في شيء منه. فهو أثر غريب، ولفظه فيه نكارة، وفي إسناده نظر.

قال البخاري: عيسى بن راشد هذا مجهول، وخبره منكر. قلت: وعلى بن بزيمة - وإن كان ثقة - إلا أنه شيعي غال، وخبره في مثل هذا فيه تهمة فلا يقبل. وقوله: «ولم يبق أحد من الصحابة إلا

(١) في ر، أ: «سألتها».

(٢) المستدرک (٣١١/٢) والمسند (١٨٨/٦) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١١٣٨).

(٣) زيادة من أ.

(٤) في أ: «محمد بن سنان».

(٥) في ر: «فإنه».

عوتب في القرآن إلا علياً» إنما يشير به إلى الآية الآمرة بالصدقة بين يدي النجوي، فإنه قد ذكر غير واحد أنه لم يعمل بها أحد إلا عليٌّ، ونزل قوله: ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾^(١) فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ ﴿الآية [المجادلة: ١٣]، وفي كون هذا عتاباً نظراً؛ فإنه قد قيل: إن الأمر كان ندباً لا إيجاباً، ثم قد نسخ ذلك عنهم قبل الفعل، فلم ير^(٢) من أحد منهم خلافه. وقوله عن علي: «إنه لم يعاتب في شيء من القرآن» فيه نظر أيضاً؛ فإن الآية التي في الأنفال التي فيها المعاتبه على أخذ الفداء عَمَّتْ جميع من أشار بأخذه، ولم يسلم منها إلا عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فعلم بهذا، وبما تقدم ضَعُفَ هذا الأثر، والله أعلم.

وقال^(٣) ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا الليث، حدثني يونس قال: قال محمد بن مسلم: قرأت كتاب رسول الله ﷺ الذي كُتِبَ لعمر بن حزم حين بعثه إلى نَجْرَانَ، وكان الكتاب عند أبي بكر بن حزم، فيه: هذا بيان من الله ورسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ فكتب الآيات منها حتى بلغ: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٤).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد، حدثنا يونس بن بكير، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه قال: هذا كتاب رسول الله ﷺ عندنا، الذي كتبه لعمر بن حزم، حين بعثه إلى اليمن يُفَقِّه أهلها ويعلمهم السنة، ويأخذ صدقاتهم. فكتب^(٥) له كتاباً وعهداً، وأمره فيه بأمره، فكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من الله ورسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ عَهْدٌ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لعمر بن حزم، حين بعثه إلى اليمن، أمره بتقوى الله في أمره كله، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون»^(٦).

قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾: قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعنى بالعقود: العهود. وحكى ابن جرير الإجماع على ذلك^(٧)، قال: والعهود: ما كانوا يتعاهدون^(٨) عليه من الحلف وغيره. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ يعنى بالعهود: يعنى ما أحل الله وما حرم، وما فرض وما حد في القرآن كله، فلا^(٩) تغدروا ولا تنكثوا، ثم شدد في ذلك فقال: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ إلى قوله: ﴿سَاءَ الدَّارُ﴾ [الرعد: ٢٥].

وقال الضحاك: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قال: ما أحل وما حرم^(١٠)، وما أخذ الله من الميثاق على من أقر بالإيمان بالنبى ﷺ^(١١) والكتاب أن يوفوا بما أخذ الله عليهم من الفرائض من الحلال والحرام.

(١) في ر، أ: «صدقة».

(٢) في أ: «فلم يصدر».

(٣) بداية تفسير الآيات من المخطوطة د.

(٤) تفسير الطبرى (٤٥٤/٩).

(٥) في د: «كتب».

(٦) ورواه البيهقي في دلائل النبوة (٤١٣/٥) من طريق أحمد بن عبد الجبار، عن يونس بن بكير به.

(٧) في د: «عليه».

(٨) في د، أ: «والعقود ما كانوا يتعاقدون».

(٩) في د، ر، أ: «ولا».

(١٠) زيادة من أ.

(١١) في د: «ما أحل الله وحرم»، وفي ر: «ما أحل وحرم».

وقال زيد بن أسلم: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قال: هي ستة^(١): عهد الله، وعقد الحلف، وعقد الشركة، وعقد البيع، وعقد النكاح، وعقد اليمين.

وقال محمد بن كعب: هي خمسة، منها: حلف الجاهلية، وشركة المفاوضة. وقد استدل بعض من ذهب إلى أنه لا خيار في مجلس البيع بهذه الآية: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قال: فهذا يدل على لزوم العقد وثبوته، فيقتضى نفى خيار المجلس، وهذا مذهب أبي حنيفة، ومالك. وخالفهما الشافعي وأحمد بن حنبل والجمهور، والحجة في ذلك ما ثبت في الصحيحين، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا»^(٢). وفي لفظ للبخاري: «إذا تباع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا»^(٣). وهذا صريح في إثبات خيار المجلس المتعقب لعقد البيع، وليس هذا منافياً للزوم العقد، بل هو من مقتضياته شرعاً، فالتزامه من تمام الوفاء بالعقد.

وقوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ هي: الإبل، والبقر، والغنم. قاله الحسن وقتادة وغير واحد. قال ابن جرير: وكذلك هو عند العرب. وقد استدل ابن عمر، وابن عباس، وغير واحد بهذه الآية على إباحة الجنين إذا وجد ميتاً في بطن أمه إذا ذبحت، وقد ورد في ذلك حديث في السنن، رواه أبو داود و الترمذى وابن ماجه، من طريق مجالد، عن أبي الوداك جبر بن نوف، عن أبي سعيد، قال: قلنا: يا رسول الله، ننحر الناقة، ونذبح البقرة أو الشاة في بطنها الجنين، أنلقه أم نأكله؟ فقال: «كلوه إن شئتم؛ فإن ذكاته ذكاة أمه». وقال الترمذى: حديث حسن^(٤).

[و]^(٥) قال أبو داود: حدثنا محمد بن يحيى بن فارس، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا عتاب ابن بشير، حدثنا عبيد الله بن أبي زياد القداح المكي، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله، عن رسول الله ﷺ قال: «ذكاة الجنين ذكاة أمه». تفرد به أبو داود^(٦).

وقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني بذلك: الميتة، والدم، ولحم الخنزير.

وقال قتادة: يعني بذلك الميتة، وما لم يذكر اسم الله عليه.

والظاهر - والله أعلم - أن المراد بذلك قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾؛ فإن هذه وإن كانت من الأنعام إلا أنها تحرم بهذه العوارض؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَا ذُكِّيتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصَبِ﴾ يعني: منها. فإنه حرام لا يمكن استدراكه، وتلاحقه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أي: إلا ما سيتلى^(٧) عليكم من تحريم بعضها في بعض الأحوال.

(١) في ر، أ: «سنة».

(٢) صحيح البخارى برقم (٢١٠٩) وصحيح مسلم برقم (١٥٣١).

(٣) اللفظ في صحيح البخارى برقم (٢١١٢) وصحيح مسلم برقم (١٥٣١).

(٤) سنن أبي داود برقم (٢٨٢٧) وسنن الترمذى برقم (١٤٧٦) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٩٩).

(٥) زيادة من ر.

(٦) سنن أبي داود برقم (٢٨٢٨).

(٧) في د: «يتلى».

وقوله: ﴿غَيْرَ^(١) مُحَلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ قال بعضهم: هذا منصوب على الحال. والمراد من الأنعام^(٢): ما يعم الإنسى من الإبل والبقر والغنم، وما يعم الوحشى كالظباء والبقر والحمر، فاستثنى من الإنسى ما تقدم، واستثنى من الوحشى الصيد فى حال الإحرام.

وقيل: المراد [أحللنا لكم الأنعام إلا ما استثنى لمن التزم تحريم الصيد وهو حرام، كقوله: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أى: أبحننا تناول الميتة للمضطر بشرط أن يكون غير باغ ولا عاد، أى: كما]^(٣) أحللنا^(٤) الأنعام لكم فى جميع الأحوال، فحرموا الصيد فى حال الإحرام، فإن الله قد حكم بهذا وهو الحكيم فى جميع ما يأمر به وينهى عنه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

ثم قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: يعنى بذلك مناسك الحج. وقال مجاهد: الصفا والمروة والهدى والبُدن من شعائر الله.

وقيل: شعائر الله محارمه [التي حرمها]^(٥)، أى: لا تحلوا محارم الله التي حرمها تعالى؛ ولهذا قال [تعالى]^(٦): ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ يعنى بذلك تحريمه والاعتراف بتعظيمه، وترك ما نهى الله عن تعاطيه فيه^(٧)، من الابتداء بالقتال وتأكيد اجتناب المحارم، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾^(٨) الآية [التوبة: ٣٦].

وفى صحيح البخارى: عن أبى بكره أن رسول الله ﷺ قال فى حجة الوداع: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حُرْمٌ، ثلاث متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان».

وهذا يدل على استمرار تحريمها إلى آخر وقت، كما هو مذهب طائفة من السلف.

وقال على بن أبى طلحة^(٩)، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ يعنى^(١٠): لا تستحلوا قتالا فيه. وكذا قال مقاتل بن حيان، وعبد الكريم بن مالك الجزرى، واختاره ابن جرير أيضاً، وقد ذهب الجمهور إلى أن ذلك منسوخ، وأنه يجوز ابتداء القتال فى الأشهر الحرم^(١١)، واحتجوا بقوله: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، قالوا: والمراد أشهر التسيير الأربعة، ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾^(١٢)، قالوا: فلم يستثن شهرا حراما من غيره.

وقد حكى الإمام أبو جعفر^(١٣) [رحمه الله]^(١٤) الإجماع على أن الله قد أحل قتال أهل الشرك فى الأشهر الحرم، وغيرها من شهور السنة، قال: وكذلك^(١٥) أجمعوا على أن المشرك لو قلد عنقه أو

(١) فى ر: «وغير» والصواب ما أثبتناه. (٢) فى د، ر، أ: «بالأنعام». (٣) زيادة من د. (٤) فى د: «حللنا». (٥) ٦، ٥، زيادة من د. (٦) فى د: «ما نهى الله عنه فيه». (٧) فى د: «أى». (٨) زيادة من د، أ. (٩) فى د: «وقال ابن أبى طلحة». (١٠) فى د: «أى». (١١) فى د: «الشهر الحرام». (١٢) زيادة من ر. (١٣) فى د: «وحكى ابن جرير». (١٤) زيادة من أ. (١٥) فى أ: «ولذلك».

ذراعيه^(١) بلحاء^(٢) جميع أشجار الحرم، لم يكن ذلك له أماناً من القتل، إذا لم يكن تقدم له عقد ذمة من المسلمين أو أمان^(٣). ولهذا المسألة بحث آخر، له موضع أبسط من هذا.

[و]أ^(٤)قوله: ﴿وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ يعنى: لا تتركوا الإهداء إلى البيت؛ فإن فيه تعظيماً لشعائر الله، ولا تتركوا تقليدها في أعناقها لتمييز به عما عداها من الأنعام، وليعلم أنها هدى إلى الكعبة فيجتنبها من يريد بها بسوء، وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها، فإن من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً؛ ولهذا لما حج رسول الله ﷺ بات بذي الحليفة، وهو وادى العقيق، فلما أصبح طاف على نسائه، وكن تسعا، ثم اغتسل وتطيب وصلى ركعتين، ثم أشعر هديه وقلده، وأهل بالحج والعمرة وكان هديه إبلا كثيرة تيف على الستين، من أحسن الأشكال والألوان، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

قال بعض السلف: إعظامها: استحسانها واستسمانها.

وقال على بن أبى طالب: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن. رواه أهل السنن^(٥).

وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَلَا الْقَلَائِدَ﴾: فلا تستحلوا^(٦). وكان أهل الجاهلية إذا خرجوا من أوطانهم في غير الأشهر الحرم^(٧)، قلّدوا أنفسهم بالشعر والوبر، وتقلد مشركو الحرم من لحاء شجر الحرم، فيأمنون به.

رواه ابن أبى حاتم، ثم قال: حدثنا محمد بن عمار، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد بن العوام، عن سفيان بن حسين، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: نسخ من هذه السورة آيتان: آية القلائد، وقوله: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ٤٢].

وحدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا زكريا بن عدي، حدثنا محمد بن أبى عدي، عن ابن عون قال: قلت للحسن: نسخ من المائدة شيء؟ قال: لا.

وقال عطاء: كانوا يتقلدون من شجر الحرم، فيأمنون، فنهى الله عن قطع شجره. وكذا قال مطرف بن عبد الله.

وقوله: ﴿وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَّغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ أى: ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام، الذى من دخله كان آمناً، وكذا من قصده طالبا فضل الله وراغباً فى رضوانه، فلا تصدوه ولا تمنعوه ولا تهيجوه.

قال مجاهد، وعطاء، وأبو العالية، ومطرف بن عبد الله، وعبد الله^(٨) بن عبيد بن عمير، والربيع

(٢) فى د، ر: «الحاء».

(١) فى د: «ذراعيه أو عنقه».

(٣) تفسير الطبرى (٤٧٩/٩).

(٤) زيادة من د.

(٥) سنن أبى داود برقم (٢٨٠٤) وسنن الترمذى برقم (١٤٩٨) وسنن النسائى (٢١٦/٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٤٢).

(٦) فى د، ر، أ: «فلا تستحلوه».

(٧) فى ر: «أشهر الحرم».

(٨) فى أ: «وعبيد الله».

ابن أنس، وقتادة، ومقاتل بن حيان في قوله: ﴿يَتَّبِعُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يعني بذلك: التجارة.

وهذا كما تقدم في قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وقوله: ﴿وَرِضْوَانًا﴾: قال ابن عباس: يترضون الله بحجهم.

وقد ذكر عكرمة، والسدي، وابن جريج: أن هذه الآية نزلت في الحطيم^(١) بن هند البكري، كان قد أغار على سرح المدينة، فلما كان من العام المقبل اعتمر إلى البيت، فأراد بعض الصحابة أن يعترضوا^(٢) في طريقه إلى البيت، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا آمِنَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَتَّبِعُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾.

وقد حكى ابن جرير الإجماع على أن المشرك يجوز قتله، إذا لم يكن له أمان، وإن أم البيت الحرام أو بيت المقدس؛ فإن هذا الحكم منسوخ في حقهم، والله أعلم. فأما من قصده بالإلحاد فيه والشرك عنده والكفر به، فهذا يمنع كما قال [تعالى]^(٣): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]؛ ولهذا بعث رسول الله ﷺ عام تسع - لما أمر الصديق علي الحجاج - علياً، وأمره أن ينادى على سبيل النيابة عن رسول الله ﷺ ببراءة، وألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان^(٤).

وقال [علي]^(٥) بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَلَا آمِنَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾: يعني من توجه قبل البيت الحرام، فكان المؤمنون والمشركون يحجون البيت الحرام، فنهى الله المؤمنين أن يمنعوا أحدا يحج البيت أو يعرضوا له من مؤمن أو كافر، ثم أنزل الله بعدها: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ^(٦) لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٧]، وقال [تعالى]^(٧): ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨] فنفي المشركين من المسجد الحرام.

وقال عبد الرزاق: حدثنا معمر، عن قتادة في قوله: ﴿وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِنَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ قال: منسوخ، كان الرجل في الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج تقلد من الشجر، فلم يعرض له أحد، وإذا رجع تقلد قلادة من شعر فلم يعرض له أحد. وكان المشرك يومئذ لا يصد عن البيت، فأمروا ألا يقاتلوا في الشهر الحرام ولا عند البيت، فنسخها قوله: ﴿فَاقْتُلُوا^(٨) الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ يعني: إن تقلد قلادة من الحرم فأمنوه، قال: ولم تزل العرب تعير من أخضر ذلك، قال الشاعر^(٩):

(٣) زيادة من ر، أ.

(٢) في أ: «يعترضوا عليه».

(١) في د: «الحطيم».

(٤) رواه البخاري في صحيحه برقم (٣١٧٧) من حديث أبي بكر، رضى الله عنه.

(٥) زيادة من ر، أ.

(٦) في ر: «وما كان» وهو خطأ.

(٧) زيادة من ر.

(٨) في د، ر: «اقتلوا»، وهو خطأ.

(٩) وهو حذيفة بن أنس الهذلي، والبيت في تفسير الطبري (٩/ ٤٧٠).

أَلَمْ تَقْتُلُوا الْحَرَجِينَ إِذْ أَعْوَرَا لَكُمْ
يَمْرَأَانِ الْأَيْدَى اللَّحَاءَ الْمُصَفَّرَا^(١)

وقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أى: إذا فرغتم من إحرامكم وأحللتم منه، فقد أبحنا لكم ما كان محرماً عليكم فى حال الإحرام من الصيد. وهذا أمر بعد الحظر، والصحيح الذى يثبت على السبَر: أنه يرد الحكم إلى ما كان عليه قبل النهى، فإن كان واجباً رده واجباً، وإن كان مستحباً فمستحب، أو مباحاً فمباح. ومن قال: إنه على الوجوب، ينتقض عليه بآيات كثيرة، ومن قال: إنه للإباحة، يرد عليه آيات أخر، والذى ينتظم الأدلة كلها هذا الذى ذكرناه، كما اختاره بعض علماء الأصول، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ إِنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾: ومن القراء من قرأ: «أن صدوكم» بفتح الألف من «أن»، ومعناها ظاهر، أى: لا يحملنكم بغض قوم قد كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام، وذلك عام الحديبية، على أن تعتدوا [فى]^(٢) حكم الله فيكم^(٣) فتقتصوا منهم ظلماً وعدواناً، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل فى كل أحد. وهذه الآية كما سيأتى من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] أى: لا يحملنكم بغض أقوام على ترك العدل، فإن العدل واجب على كل أحد، فى كل أحد، فى كل حال.

وقال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، والعدل به قامت السموات والأرض.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سهل بن عثمان^(٤)، حدثنا عبد الله بن جعفر، عن زيد ابن أسلم قال: كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه حين صدّهم المشركون عن البيت، وقد اشتد ذلك عليهم، فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق، يريدون العمرة، فقال أصحاب النبى ﷺ: نصد^(٥) هؤلاء كما صدنا أصحابهم. فأنزل الله هذه الآية^(٦).

والشَنَاَنُ هو: البغض. قاله ابن عباس وغيره، وهو مصدر من شَنَّاهُ شَنَاَنًا، بالتحريك، مثل قولهم: جَمَزَان، وَدَرَجَان وَرَفْلَان، من جمز، ودرج، ورفل. قال ابن جرير: من العرب من يسقط التحريك فى شَنَاَن، فيقول: شَنَاَن. قال: ولم أعلم أحداً قرأ بها، ومنه قول الشاعر^(٧):

وَمَا الْعَيْشُ إِلَّا مَا تُحِبُّ وَتَشْتَهَى^(٨) وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ ذُو الشَّنَانِ وَفَنَدَاً

وقوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾: يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعونة على فعل الخيرات، وهو البر، وترك المنكرات وهو التقوى، وينهاهم عن التناصر على الباطل

(١) فى ر: «للحاء المضفرا». (٢) زيادة من د. (٣) فى د، أ: «فيهم».

(٤) فى أ: «سهل بن عفان». (٥) فى ر، أ: «فصد».

(٦) وذكره الواحدى فى أسباب النزول ولم يسنده.

(٧) هو الأحوص بن محمد الأنصارى، والبيت فى تفسير الطبرى (٩/٤٨٧).

(٨) فى د: «إلا ما يحب ويشتهى».

والتعاون على المآثم والمحارم.

قال ابن جرير: الإثم: ترك ما أمر الله بفعله، والعدوان: مجاوزة ما حد الله في دينكم، ومجاوزة ما فرض عليكم في أنفسكم وفي غيركم^(١).

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْمٌ، حدثنا عبيد الله بن أبي بكر بن أنس، عن جده أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنْصِرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا». قيل: يا رسول الله، هذا نصرتُه مَظْلُومًا، فكيف أنصره إذا كان ظالماً؟ قال: «تَحْجِزْهُ تَمْنَعُهُ»^(٢)، فإن ذلك نصره.

انفرد به البخاري من حديث هُشَيْمٍ به نحوه^(٣)، وأخرجه^(٤) من طريق ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنْصِرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا». قيل: يا رسول الله، هذا نصرتُه مَظْلُومًا، فكيف أنصره ظالماً؟ قال: «تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَذَاكَ نَصْرُكَ إِيَّاهُ».

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا سفيان بن سعيد، عن يحيى بن وثاب، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ^(٥) قال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أعظم أجراً من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»^(٦).

وقد رواه أحمد أيضاً في مسند عبد الله بن عمر: حدثنا حجاج، حدثنا شعبة عن الأعمش، عن يحيى بن وثاب، عن شيخ من أصحاب النبي ﷺ، [قال الأعمش: هو ابن عمر، عن النبي ﷺ]^(٧) أنه قال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خير من الذي لا يخالطهم»^(٨) ولا يصبر على أذاهم.

وهكذا رواه الترمذي من حديث شعبة، وابن ماجه من طريق إسحاق بن يوسف، كلاهما عن الأعمش، به^(٩).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن محمد، أبو شيبه الكوفي، حدثنا بكر ابن عبد الرحمن، حدثنا عيسى بن المختار، عن ابن أبي ليلى، عن فضيل بن عمرو، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «الدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كِفَاعُهُ». ثم قال: لا نعلمه يروى إلا بهذا الإسناد^(١٠).

(١) تفسير الطبري (٩/٤٩٠).

(٢) في أ: «تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ».

(٣) المسند (٩٩/٣) وصحيح البخاري برقم (٢٤٤٣).

(٤) لم أمتد إليه من هذا الطريق في الصحيحين، ولعله خطأ، فقد راجعت تحفة الأشراف للزمري فلم أجده، وقد أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٢٤٤٤) من طريق حميد، عن أنس به.

(٥) في د: «النبي ﷺ مرفوعاً».

(٦) المسند (٥/٣٦٥).

(٧) زيادة من ر، أ. (٨) في أ: «لا يخالط الناس».

(٩) المسند (٣٢/٢) وسنن الترمذي برقم (٢٥٠٧) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٣٢).

(١٠) مسند البزار برقم (١٥٤) «كشف الاستار» وقال الهيثمي في المجمع (١/١٦٦): «فيه عيسى بن المختار، تفرد عنه بكر بن عبد الرحمن».

قلت: وله شاهد^(١) فى الصحيح: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»^(٢).

وقال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا عمرو بن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء بن زريق الحمصى، حدثنا أبى، حدثنا عمرو بن الحارث، عن عبد الله بن سالم، عن الزبيدى، قال عباس بن يونس: إن أبا الحسن نمران بن مخمر حدثه^(٣) أن رسول الله ﷺ قال: «من مشى مع ظالم ليعينه، وهو يعلم أنه ظالم، فقد خرج من الإسلام»^(٤).

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فِسْقُ الْيَوْمِ الْيَوْمِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾﴾

يخبر تعالى عباده خبراً متضمناً النهى عن تعاطى هذه المحرمات من الميتة، وهى: ما مات من الحيوان حتف أنفه، من غير ذكاة ولا اصطياد، وما ذاك إلا لما فيها من المضرة، لما فيها من الدم المحتقن، فهى ضارة للدين والبدن فلهذا حرمها الله، عز وجل، ويستثنى من الميتة السمك، فإنه حلال سواء مات بتذكية أو غيرها، لما رواه مالك فى موطنه، والشافعى وأحمد فى مسنديهما، وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة فى سننهم، وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما، عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ سئل عن ماء البحر، فقال: «هو الطَّهُّورُ ماؤه الحَلُّ مَيْتَةً»^(٥).

وهكذا الجراد، لما سيأتى من الحديث، وقوله: ﴿وَالْدَّمُ﴾ يعنى [به]^(٦): المسفوح؛ لقوله: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]. قاله ابن عباس وسعيد بن جبیر.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا كثير بن شهاب المذحجى، حدثنا محمد بن سعيد بن سابق، حدثنا (١) فى أ: «شواهد».

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٦٧٤) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

(٣) فى ر، أ: «حدثه أن أوس بن شرحبيل أحدثنى المجمع حدثه».

(٤) المعجم الكبير (١٩٧/١) وفى إسناده إسحاق بن إبراهيم ضعيف.

(٥) الموطأ (٢٢/١) ومسند الشافعى برقم (٢٥) «بدائع المن» ومسند أحمد (٢٣٧/٢، ٣٦١) وسنن أبى داود برقم (٨٣) وسنن الترمذى

برقم (٦٩) وسنن النسائى (٥٠/١) وسنن ابن ماجة برقم (٣٨٦) وصحيح ابن خزيمة برقم (١١١) وصحيح ابن حبان برقم (١١٩)

«موارد» كلهم من طريق صفوان بن سليم، عن سعيد بن سلمة - من آل بنى الأزرق - أن المغيرة بن أبى بردة أخبره أنه سمع أبا

هريرة فذكره. وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة والحاكم والبيهقى، وقال الترمذى: «حديث حسن صحيح».

(٦) زيادة من د، أ.

عمرو - يعنى ابن قيس - عن سَمَاك، عن عِكْرَمَة، عن ابن عباس: أنه سئل عن الطحال فقال: كلوه، فقالوا: إنه دم. فقال: إنما حُرِّمَ عليكم الدم المسفوح.

وكذا رواه حماد بن سلمة، عن يحيى بن سعيد، عن القاسم، عن عائشة، قالت: إنما نهى عن الدم السافح.

وقد قال أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى: حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ^(١): «أَحْلَلْنَا لَنَا مِيتَتَانِ وَدَمَانِ، فَأَمَّا الْمِيتَتَانِ فَالْحَوْتُ^(٢) وَالْجِرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ».

وكذا رواه أحمد بن حنبل، وابن ماجه، والدارقطنى، والبيهقى، من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم^(٣)، وهو ضعيف. قال الحافظ البيهقى: ورواه إسماعيل بن أبى إدريس^(٤)، عن أسامة، وعبد الله، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن ابن عمر مرفوعا.

قلت: وثلاثتهم ضعفاء، ولكن بعضهم أصلح من بعض. وقد رواه سليمان بن بلال أحد الأثبات، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر، فوقفه بعضهم عليه. قال الحافظ أبو زرعة الرازى: وهو أصح.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسن، حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب، حدثنا بشير بن سريج، عن أبى غالب، عن أبى أمانة - وهو صدق بن عجلان - قال: بعثنى رسول الله ﷺ إلى قومي أَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَعْرِضْ عَلَيْهِمْ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ، فَأَتَيْتُهُمْ، فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ جَاؤُوا بِقَصْعَةٍ مِنْ دَمٍ، فَاجْتَمَعُوا^(٥) عَلَيْهَا يَأْكُلُونَهَا، قَالُوا: هَلَمْ يَأْصُدَى، فَكُلْ. قال: قلت: ويحكم! إنما أتيتكم من عند مُحَرَّمٍ^(٦) هذا عليكم، وأنزل الله عليه، قالوا: وما ذاك؟ قال: فتلوت عليهم هذه الآية: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكَ الْمَيِّتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾^(٧) الآية.

ورواه الحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث ابن أبى الشوارب بإسناده مثله، وزاد بعد هذا السياق: قال: فجعلت أَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَيَأْبُونَ عَلَى، فَقُلْتُ لَهُمْ: وَيَحْكُم، اسْقُونِي شَرِبَةً مِنْ مَاءٍ، فَإِنِّى شَدِيدُ الْعَطَشِ - قال: وعلى عباءتى - فقالوا: لا، ولكن ندعك حتى تموت عطشا. قال: فاغتممت وضربت^(٨) برأسى فى العباء، ونمت على الرمضاء فى حر شديد، قال: فأتاني آت فى منامى بقَدَحٍ مِنْ زَجَاجٍ لَمْ يَرِ النَّاسُ أَحْسَنَ مِنْهُ، وَفِيهِ شَرَابٌ لَمْ يَرِ النَّاسَ [شَرَاباً]^(٩) أَلْذَّ مِنْهُ، فَأَمَكَّنْتَنِي مِنْهَا فَشَرِبْتُهَا، فَحَيْثُ فَرَّغْتُ مِنْ شَرَابِي اسْتَيْقِظْتُ، فَلَا وَاللَّهِ مَا عَطَشْتُ وَلَا عَرِيتْ بَعْدَ تَيْكِ الشَّرِبَةِ^(١٠).

(١) فى د: «عن ابن عمر مرفوعا».

(٢) فى د: «فالسّمك».

(٣) مسند الشافعى برقم (١٧٣٤) «بدائع المن» ومسند أحمد (٩٧/٢) وسنن ابن ماجه برقم (٣٣١٤) وسنن الدارقطنى (٢٧١/٤) والسنن الكبرى للبيهقى (٢٥٤/١).

(٤) فى د: «إسماعيل بن أبى أويس».

(٥) فى د، ر، أ: «من يحرم».

(٦) فى ر: «واجتمعوا».

(٧) زيادة من ر، أ.

(٨) فى د: «وجثت».

(٩) زيادة من ر، أ.

(١٠) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣٣٥/٨) من طريق محمد بن أبى الشوارب به. قال الهيثمى فى المجمع (٣٨٧/٩): «فيه بشير بن سريج وهو ضعيف».

ورواه الحاكم فى مستدركه، عن على بن حُشاذ^(١)، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنى عبد الله بن سلمة بن عياش العامرى، حدثنا صدقة بن هرمز، عن أبى غالب، عن أبى أمانة، قد ذكر نحوه^(٢)، وزاد بعد قوله: «بعد تيك الشربة»: فسمعتهم يقولون: أتاكم رجل من سراة قومكم، فلم تَمَجِّعُوهُ بمذقة، فأتونى بمذقة فقلت: لا حاجة لى فيها، إن الله^(٣) أطعمنى وسقانى، وأريتهم بطنى فأسلموا عن آخرهم.

وما أحسن ما أشد الأعشى فى قصيدته التى ذكرها ابن إسحاق^(٤):

وإياك والميتات لا تقربنَّها ولا تأخذن عظمًا حديدًا فتفصدا

أى: لا تفعل كما يفعل^(٥) الجاهلية، وذلك أن أحدهم كان إذا جاع أخذ شيئاً محدداً من عظم ونحوه، فيفصِّد به بغيره أو حيواناً من أى صنف كان، فيجمع ما يخرج منه من الدم فيشربه؛ ولهذا حرم الله الدم على هذه الأمة، ثم قال الأعشى:

وذا النَّصْبُ المنصوب لا تَأْتِيَنَّهُ ولا تعبد الأصنام والله فاعبدا

وقوله: ﴿وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ﴾ يعنى: إنسيه ووحشيه، واللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم، ولا يحتاج إلى تحذلق الظاهرية فى جمودهم ههنا وتعسفهم فى الاحتجاج بقوله: ﴿فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فَسَقٌ﴾ يعنون قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، أعادوا الضمير فيما فهموه على الخنزير، حتى يعم جميع أجزائه، وهذا بعيد من حيث اللغة، فإنه لا يعود الضمير إلا إلى المضاف دون المضاف إليه، والأظهر أن اللحم يعم جميع الأجزاء كما هو المفهوم من لغة العرب، ومن العرف المطرد، وفى صحيح مسلم، عن بُريدة بن الحصيب الأسلمى، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من لعب بالنردشير فكأنما صبَّغَ يده فى لحم الخنزير ودمه»^(٦) فإذا كان هذا التفسير لمجرد اللمس^(٧)، فكيف يكون التهديد والوعيد الأكيد على أكله والتغذى به، وفيه دلالة على شمول اللحم لجميع الأجزاء من الشحم وغيره.

وفى الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله حرم بيع الخمر والميتة و الخنزير والأصنام». فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة، فإنها تطلى بها السفن، وتدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس؟ فقال: «لا، هو حرام»^(٨).

وفى صحيح البخارى من حديث أبى سفيان: أنه قال لهرقل ملك الروم: «نهانا عن الميتة والدم»^(٩).

(١) فى ر، أ: «على بن حماد».

(٢) فى ر: «فذكر نحوه»، وهو فى المستدرک (٦٤٢/٣) وفيه صدقة بن هرمز ضعفه ابن معين وغيره.

(٣) فى ر: «إن ربى».

(٤) انظر القصيدة فى: السيرة النبوية لابن هشام (٣٨٦/١).

(٥) فى د: «كما فعل».

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٢٦٠).

(٧) فى ر: «تفيرا بمجرد ملاسته بالمس».

(٨) صحيح البخارى برقم (٢٢٣٦) وصحيح مسلم برقم (١٥٨١) من حديث جابر، رضى الله عنه.

(٩) لم أجد هذا اللفظ فى صحيح البخارى فى مواضع روايته لحديث هرقل.

وقوله: ﴿وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أى: ما ذبح فذكر عليه اسم غير الله، فهو حرام؛ لأن الله أوجب أن تذبح^(١) مخلوقاته على اسمه العظيم، فمتى عُدل بها عن ذلك وذكر عليها اسم غيره من صنم أو طاغوت أو وثن أو غير ذلك، من سائر المخلوقات، فإنها حرام بالإجماع. وإنما اختلف العلماء فى المتروك التسمية عليه، إما عمداً أو نسياناً، كما سيأتى تقريره فى سورة الأنعام.

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسن الهسجاني، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا ابن فضيل، عن الوليد بن جميع، عن أبى الطُّفَيْل قال: نزل آدم بتحريم أربع: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، وإن هذه الأربعة الأشياء^(٢) لم تحل قط، ولم تزل حراماً منذ خلق الله السموات والأرض، فلما كانت بنو إسرائيل حرم الله عليهم طيبات أحلت لهم بذنوبهم، فلما بعث الله عيسى ابن مريم، عليه السلام، نزل بالأمر الأول الذى جاء به آدم [عليه السلام]^(٣)، وأحل لهم ما سوى ذلك فكذبوه وعصوه. وهذا أثر غريب.

وقال ابن أبى حاتم أيضاً: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا ربيع بن عبد الله قال: سمعت الجارود بن أبى سبرة - قال: هو جدى - قال: كان رجل من بنى رِيَّاح^(٤) يقال له: ابن وثيل، وكان شاعراً، نافر - غالباً - أبا الفرزدق بماء بظهر الكوفة، على أن يعقر هذا مائة من إبله، وهذا مائة من إبله، إذا وردت الماء، فلما وردت الماء قاما إليها بالسيف، فجعلا يكسِفان عَرَاقِيهَا. قال: فخرج الناس على الحمرات والبغال يريدون اللحم - قال: وعَلَى الكوفة - قال: فخرج على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء وهو ينادى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَأْكُلُوا مِنْ لَحْمِهَا فَإِنَّمَا^(٥) أَهْلُهَا لغير الله.

هذا أثر غريب، ويشهد له بالصحة ما رواه أبو داود: حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا^(٦) حماد ابن مسعدة، عن عوف، عن أبى رِيَّحانة، عن ابن عباس قال: نهى النبي ﷺ عن مُعَاقِرَةِ الْأَعْرَابِ. ثم قال أبو داود: محمد بن جعفر - هو غُنْدَر - أوقفه على ابن عباس. تفرد به أبو داود^(٧).

وقال أبو داود أيضاً: حدثنا هارون بن زيد بن أبى الزرقاء، حدثنا أبى، حدثنا جرير بن حازم، عن الزبير ابن خريت قال: سمعت عِكْرِمَةَ يَقُولُ^(٨): إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ طَعَامِ الْمُتَبَارِزِينَ^(٩) أَنْ يُوَكَّلَ.

ثم قال أبو داود: أكثر من رواه عن جرير لا يذكر فيه ابن عباس. تفرد به أيضاً^(١٠).

وقوله: ﴿وَالْمُنْخَنَقَةُ﴾ وهى التى تموت بالخنق إما قصداً أو اتفاقاً، بأن تتخبل فى وثاقها^(١١) فتموت به، فهى حرام.

(١) فى ر: « يذبح ».

(٢) فى ر: « أشياء ».

(٣) زيادة من أ.

(٤) فى ر: « رِيَّاح ».

(٥) فى د، ر: « فإنها ».

(٦) فى ر: « بن ».

(٧) سنن أبى داود برقم (٢٨٢٠).

(٨) فى د: « المتبارزين ».

(٩) فى أ: « يقول: كان ابن عباس يقول ».

(١٠) سنن أبى داود برقم (٣٧٥٤).

(١١) فى ر: « وثاقها ».

وأما ﴿الْمَوْقُودَةُ﴾ فهي التي تضرب بشيء ثقيل غير محدد حتى تموت، كما قال ابن عباس وغير واحد: هي التي تضرب بالخشب حتى تُوقَدَ بها^(١) فتموت.

وقال قتادة: كان أهل الجاهلية يضربونها بالعصى حتى إذا ماتت أكلوها.

وفي الصحيح: أن عدى بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إنى أرمى بالمعراض الصيد فأصيب. قال: «إذا رميت بالمعراض فخرق فكله، وإن أصابه بعرضه فإنما هو وقيد فلا تأكله»^(٢). ففرق بين ما أصابه بالسهم، أو بالمزراق ونحوه بحده فأحله، وما أصابه بعرضه فجعله وقيدا فلم يحله، وقد أجمع الفقهاء على هذا الحكم ههنا، واختلفوا فيما إذا صدم الجارحة الصيد فقتله بثقله ولم يجرحه، على قولين، هما قولان للشافعي، رحمه الله:

أحدهما: [أنه]^(٣) لا يحل، كما في السهم، والجامع أن كلا منهما ميت بغير جرح فهو وقيد.

والثاني: أنه يحل؛ لأنه حكم بإباحة ما صاده الكلب، ولم يستفصل، فدل على إباحة ما ذكرناه؛ لأنه قد دخل في العموم. وقد قررت لهذه المسألة فصلا فليكتب ههنا.

فصل:

اختلف العلماء، رحمهم الله تعالى، فيما إذا أرسل كلبا على صيد فقتله بثقله ولم يجرحه، أو صدمه، هل يحل أم لا؟ على قولين:

أحدهما: أن ذلك حلال؛ لعموم قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٤]. وكذا عمومات حديث عدى^(٤) بن حاتم. وهذا قول حكاه الأصحاب عن الشافعي، رحمه الله، وصححه بعض المتأخرين [منهم]^(٥) كالنووي والرافعي.

قلت: وليس ذلك بظاهر من كلام الشافعي في الأم والمختصر، فإنه قال في كلا الموضعين: «يحتمل معنيين». ثم وجه كلا منهما، فحمل ذلك الأصحاب منه فأطلقوا في المسألة قولين عنه، اللهم إلا أنه في بحثه حكايته للقول بالحل رشحه قليلا، ولم يصرح بواحد منهما ولا جزم به. والقول بذلك، أعنى الحل، نقله ابن الصباغ عن أبي حنيفة، من رواية الحسن بن زياد، عنه، ولم يذكر غير ذلك. وأما أبو جعفر بن جرير فحكاه في تفسيره عن سلمان الفارسي، وأبي هريرة، وسعد بن أبي وقاص، وابن عمر. وهذا غريب جداً، وليس يوجد ذلك مصرحا به عنهم، إلا أنه من تصرفه، رحمه الله ورضي عنه.

والقول الثاني: أن ذلك لا يحل، وهو أحد القولين عن الشافعي، رحمه الله، واختاره المزنّي ويظهر من كلام ابن الصباغ ترجيحه أيضا، والله أعلم. ورواه أبو يوسف ومحمد عن^(٦) أبي حنيفة،

(١) في ر: «توقدها».

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم (٥٤٧٥) ومسلم في صحيحه برقم (١٩٢٩).

(٣) زيادة من أ.

(٤) سيأتي حديث عدى بن حاتم بتمامه.

(٦) في ر: «بن».

(٥) زيادة من أ.

وهو المشهور عن الإمام أحمد بن حنبل، رضى الله عنه^(١). وهذا القول أشبه بالصواب، والله أعلم، لأنه أجرى عن^(٢) القواعد الأصولية، وأمس بالأصول^(٣) الشرعية. واحتج ابن الصباغ له بحديث رافع بن خديج، قلت: يا رسول الله، إنا لاقو العدو غدأ وليس معنا مدى، أفنذبح بالقصَب؟ قال^(٤): «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه». الحديث بتمامه وهو فى الصحيحين.

وهذا وإن كان وارداً على سبب خاص، فالعبرة بعموم اللفظ عند جمهور من العلماء فى الأصول والفروع، كما سئل عليه السلام^(٥) عن البتة - وهو نبيذ العسل - فقال: «كل شراب أسكر فهو حرام»^(٦)، أفيقول فقيه: إن هذا اللفظ مخصوص بشراب العسل؟ وهكذا هذا سألوه عن شيء من الزكاة فقال لهم كلاماً عاماً يشمل ذاك المسؤول عنه وغيره؛ لأنه عليه السلام^(٧) قد أوتى جوامع الكلم.

إذا تقرر هذا، فما صدمه الكلب أو غَمَّ بثقله، ليس مما أنهر دمه، فلا يحل لمفهوم هذا الحديث. فإن قيل: هذا الحديث ليس من هذا القبيل بشيء؛ لأنهم إنما سألوا عن الآلة التى يُذكى بها، ولم يسألوا عن الشيء الذى يُذكى؛ ولهذا استثنى من ذلك السن والظفر، حيث قال: «ليس السن والظفر، وسأحدثكم عن ذلك: أما السن فعظم، وأما الظفر فمدى الحبشة». والمستثنى يدل على جنس المستثنى منه، وإلا لم يك متصلاً، فدل على أن المسؤول عنه هو الآلة، فلا يبقى فيه دلالة لما ذكرتم.

فالجواب عن هذا: بأن فى الكلام ما يشكل عليكم أيضاً، حيث يقول: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه». ولم يقل: «فاذبحوا به»، فهذا يؤخذ منه الحكمان معاً، يؤخذ حكم الآلة التى يذكى بها، وحكم المذكى، وأنه لا بد من إنهار دمه بالآلة ليست سناً ولا ظفراً. هذا مسلك.

والمسلك الثانى: طريقة المُرْنَى، وهى أن السهم جاء التصريح فيه بأنه إن قتل بعرضه فلا تأكل، وإن خَزَقَ فكل. والكلب جاء مطلقاً، فيحمل على ما قيد هناك من الخَزَق؛ لأنهما اشتراكاً فى الموجب، وهو الصيد، فيجب الحمل هنا وإن اختلف السبب، كما وجب حمل مطلق الإعتاق فى الظهار على تقييده بالإيمان فى القتل، بل هذا أولى. وهذا يتوجه له على من يسلم له أصل هذه القاعدة من حيث هى، وليس فيها خلاف بين الأصحاب قاطبة، فلا بد لهم من جواب عن هذا. وله أن يقول: هذا قتله الكلب بثقله، فلم يحل قياساً على ما قتله السهم بعرضه^(٨)، والجامع أن كلا منهما آلة للصيد، وقد مات بثقله فيهما. ولا يعارض ذلك بعموم الآية؛ لأن القياس مقدم على العموم، كما هو مذهب الأئمة الأربعة والجمهور، وهذا مسلك حسن أيضاً.

مسلك آخر، وهو أن قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٤] عام فيما قتلن بجرح أو

(١) فى أ: «رحمه الله». (٢) فى ر، أ: «على». (٣) فى ر، أ: «وأمسى عن الأصول».

(٤) فى ر: «فقال». (٥) فى أ: «ﷺ».

(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٤٢٢) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٠٠١) من حديث عائشة، رضى الله عنها.

(٧) فى أ: «ﷺ». (٨) فى ر، أ: «بثقله».

غيره، لكن هذا المقتول على هذه الصورة المتنازع فيها لا يخلو^(١): إما أن يكون نطيحا أو فى حكمه، أو منخنقا أو فى حكمه، وأيا ما كان فيجب تقديم [حكم]^(٢) هذه الآية على تلك لوجوه:

أحدها: أن الشارع قد اعتبر حكم هذه الآية حالة الصيد، حيث يقول لعدي بن حاتم: « وإن أصابه بعرضه^(٣) فإنما هو وقيد فلا تأكله ». ولم نعلم أحداً من العلماء فصل بين حكم وحكم من هذه الآية، فقال: إن الوقيد معتبر حالة الصيد، والنطيح ليس معتبرا، فيكون القول بحل المتنازع فيه خرقا للإجماع لا قائل به، وهو محذور عند كثير من العلماء.

الثانى: أن تلك الآية: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٤] ليست على عمومها بالإجماع، بل مخصوصة بما صدن من الحيوان المأكول، وخرج من عموم لفظها الحيوان غير المأكول بالاتفاق، والعموم المحفوظ مقدم على غير المحفوظ.

المسلك الآخر: أن هذا الصيد والحالة هذه فى حكم الميتة سواء؛ لأنه قد احتقن فيه الدماء وما يتبعها من الرطوبات، فلا تحل قياسا على الميتة.

المسلك الآخر: أن آية التحريم، أعنى قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ﴾ إلى آخرها، محكمة لم يدخلها نسخ ولا تخصيص، وكذا ينبغى أن تكون آية التحليل محكمة، أعنى قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ [وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ]^(٤)﴾ [المائدة: ٤]، فينبغى ألا يكون بينهما تعارض أصلا، وتكون السنة جاءت لبيان ذلك، وشاهد ذلك قصة السهم، فإنه ذكر حكم ما دخل فى هذه الآية، وهو ما إذا خزف المعراض فيكون حلالا؛ لأنه من الطيبات، وما دخل فى حكم تلك الآية، آية التحريم، وهو ما إذا أصابه بعرض فلا يؤكل؛ لأنه وقيد، فيكون أحد أفراد آية التحريم، وهكذا يجب أن يكون حكم هذا سواء، إن كان قد جرحه الكلب فهو داخل فى حكم آية التحليل. وإن لم يجرحه بل صدمه أو قتله بثقله فهو نطيح أو فى حكمه فلا يكون حلالا.

فإن قيل: فلم لا فصل فى حكم الكلب، فقال ما ذكرتم: إن جرحه فهو حلال، وإن لم يجرحه فهو حرام؟

فالجواب: أن ذلك نادر؛ لأن من شأن الكلب أن يقتل بظفره أو نابيه أو بهما معا، وأما اصطدامه هو والصيد فنادر، وكذا قتله إياه بثقله، فلم يحتج إلى الاحتراز من ذلك لندوره، أو لظهور حكمه عند من علم تحريم الميتة والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة. وأما السهم والمعارض فتارة يخطئ لسوء رمى راميهِ أو للهواء أو نحو ذلك، بل خطؤه أكثر من إصابته؛ فلهذا ذكر كلا من حكميه مفصلا، والله أعلم؛ ولهذا لما كان الكلب من شأنه أنه قد يأكل من الصيد، ذكر حكم ما إذا أكل من الصيد، فقال: « إن أكل فلا تأكل، فإنى أخاف أن يكون أمسك على نفسه »، وهذا صحيح ثابت فى الصحيحين وهو أيضا مخصوص من عموم آية التحليل عند كثيرين^(٥)، فقالوا: لا يحل ما أكل منه الكلب، حكى ذلك عن أبى هريرة، وابن عباس. وبه قال الحسن، والشعبي، والنخعي. وإليه ذهب

(٣) فى ر، أ: « بعرض ».

(٢) زيادة من ر، أ.

(١) فى ر: « لا تخلو ».

(٥) فى ر: « عند كثير من العلماء ».

(٤) زيادة من أ.

أبو حنيفة وصاحبه، وأحمد بن حنبل، والشافعي في المشهور عنه. وروى ابن جرير في تفسيره عن علي، وسعد، وسلمان، وأبي هريرة، وابن عمر، وابن عباس: أن الصيد يؤكل وإن أكل منه الكلب، حتى قال سعد، وسلمان، وأبو هريرة وابن عمر، وغيرهم: يؤكل ولو لم يبق منه إلا بضعة. وإلى ذلك ذهب مالك والشافعي في قوله القديم، وأوماً في الجديد إلى قولين، قال ذلك الإمام أبو نصر ابن الصباغ وغيره من الأصحاب عنه.

وقد روى أبو داود بإسناد جيد قوى، عن أبي ثعلبة الخشني، عن رسول الله ﷺ أنه قال في صيد الكلب: «إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل وإن أكل منه، وكل ما ردت عليك يدك»^(١).

ورواه أيضاً النسائي من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده؛ أن أعرابياً يقال له: أبو ثعلبة قال: يا رسول الله، فذكر نحوه.

وقال محمد بن جرير في تفسيره: حدثنا عمران بن بكّار الكلاعي، حدثنا عبد العزيز بن موسى - هو اللاحوني - حدثنا محمد بن دينار - هو الطاحي - عن أبي إياس - وهو معاوية بن قرة - عن سعيد ابن المسيب، عن سلمان الفارسي، عن رسول الله ﷺ قال: «إذا أرسل الرجل كلبه على الصيد فأدركه وقد أكل منه، فليأكل ما بقي».

ثم إن ابن جرير علله بأنه قد رواه قتادة وغيره عن سعيد بن المسيب، عن سلمان موقوفاً^(٢). وأما الجمهور فقدّموا حديث «عدى» على ذلك، وراموا تضعيف حديث أبي ثعلبة وغيره. وقد حمله بعض العلماء على أنه إن أكل بعد ما انتظر صاحبه وطال عليه الفصل ولم يجئ، فأكل منه لجوعه ونحوه، فإنه لا بأس بذلك؛ لأنه - والحالة هذه؛ لا يخشى أنه أمسك على نفسه، بخلاف ما إذا أكل منه أول وهلة، فإنه يظهر منه أنه أمسك على نفسه، والله أعلم.

فأما الجوارح من الطير^(٣) فنص الشافعي على أنها كالكلاب، فيحرم ما أكلت منه عند الجمهور، ولا يحرم عند الآخرين. واختار المزني من أصحابنا أنه لا يحرم أكل ما أكلت منه الطيور والجوارح، وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد، قالوا: لأنه لا يمكن تعليمها كما يعلم الكلب بالضرب ونحوه، وأيضاً فإنها لا تعلم إلا بأكلها من الصيد، فيعفى عن ذلك، وأيضاً فالنص إنما ورد في الكلب لا في الطير. وقال الشيخ أبو علي في «الإفصاح»: إذا قلنا: يحرم ما أكل منه الكلب، ففي تحريم ما أكل منه الطير وجهان، وأنكر القاضي أبو الطيب هذا التفريع والترتيب، لنص الشافعي، رحمه الله، على التسوية بينهما، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وأما «الْمُتَرَدِّيةُ» فهي التي تقع من شاهق أو موضع عال فتموت بذلك، فلا تحل.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «الْمُتَرَدِّيةُ»: التي تسقط من جبل. وقال قتادة: هي التي تتردى في بئر.

(١) سنن أبي داود برقم (٢٨٥٢).

(٢) تفسير الطبري (٥٦٥/٩) وفي إسناده مرفوعاً محمد بن دينار الأزدي ضعيف.

(٣) في ر، أ: «من الطيور».

وقال السدى: هي التي تقع من جبل أو تتردى فى بئر.

وأما «النَّطِيحَةُ» فهي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها، فهي حرام، وإن جرحها القرن وخرج منها الدم ولو من مذبحتها.

والنطيحة فعيلة بمعنى مفعولة، أى: منطوحة. وأكثر ما ترد هذه البنية فى كلام العرب بدون تاء التانيث، فيقولون: كَفَّ خَضِيْبٌ، وعَيْنٌ كَحِيلٌ، ولا يقولون: كف خضيب، ولا: عين كحيلة؛ وأما هذه فقال بعض النحاة: إنما استعمل فيها تاء التانيث؛ لأنها أجريت مجرى الأسماء، كما فى قولهم: طريقة طويلة. وقال بعضهم: إنما أتى بناء التانيث فيها لتدل على التانيث من أول وهلة، بخلاف: عين كحيل، وكف خضيب؛ لأن التانيث مستفاد من أول الكلام.

وقوله: «وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ» أى: ما عدا عليها أسد، أو فهد، أو نمر، أو ذئب، أو كلب، فأكل بعضها فماتت بذلك، فهي حرام وإن كان قد سال منها الدماء ولو من مذبحتها، فلا تحل بالإجماع. وقد كان أهل الجاهلية يأكلون ما أفضل السبع من الشاة أو البعير أو البقرة ونحو ذلك فحرم الله ذلك على المؤمنين.

وقوله: «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ» عائد على ما يمكن عوده عليه، مما انعقد سبب موته فأمكن تداركه بذكاة، وفيه حياة مستقرة، وذلك إنما يعود على قوله: «وَالْمُنْحِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ».

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ» يقول: إلا ما ذبحتم من هؤلاء وفيه روح، فكلوه، فهو ذكى. وكذا روى عن سعيد بن جبیر، والحسن البصرى، والسدى.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث^(١)، حدثنا جعفر بن محمد، عن أبيه، عن على قال: «وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ» قال: إن مَصَعَتْ بذنبها، أو رَكَضَتْ برجلها، أو طَرَفَتْ بعينها فكل.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا هشيم وعباد قالا: حدثنا حجاج، عن حصين، عن الشعبي، عن الحارث، عن على قال: إذا أدركت ذكاة الموقوذة والمتردية والنطيحة، وهى تحرك يداً أو رجلاً، فكلها.

وهكذا روى عن طاوس، والحسن، وقتادة، وعبيد بن عمير، والضحاك وغير واحد: أن المذكاة متى تحركت بحركة تدل على بقاء الحياة فيها بعد الذبح، فهي حلال. وهذا مذهب جمهور الفقهاء، وبه قال^(٢) أبو حنيفة، والشافعى، وأحمد بن حنبل.

وقال ابن وهب: سئل مالك عن الشاة التى يخرق جوفها السَّبْعُ حتى تخرج أمعاؤها؟ فقال مالك: لا أرى أن تذكى أى شئ يُذَكَّى منها.

وقال أشهب: سئل مالك عن الضبع يعدو على الكبش، فيدق ظهره، أترى أن يذكى قبل أن

(٢) فى أ: «يقول».

(١) فى د: «حفص بن عياش».

يموت، فيؤكل؟ قال^(١): إن كان قد بلغ السُّحرة، فلا أرى أن يؤكل وإن كان أصاب أطرافه، فلا أرى بذلك بأساً. قيل له: وثب عليه فدق ظهره؟ فقال^(٢): لا يعجبني، هذا لا يعيش منه. قيل له: فالذئب يعدو على الشاة فيشق بطنها ولا يشق الأمعاء؟ فقال: إذا شق بطنها فلا أرى أن تؤكل.

هذا مذهب مالك، رحمه الله، وظاهر الآية عام فيما استثناه مالك، رحمه الله، من الصور التي بلغ الحيوان فيها إلى حالة لا يعيش بعدها، فيحتاج إلى دليل مخصص^(٣) للآية، والله أعلم.

وفى الصحيحين: عن رافع بن خديج أنه قال: قلت: يا رسول الله، إنا لاقو العدو غدأ، وليس معنا مدي، أفنذبح بالقصب؟ فقال: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه، ليس السن والظفر، وسأحدثكم عن ذلك، أما السن فعظم، وأما الظفر فمدي الحبشة»^(٤).

وفى الحديث الذي رواه الدارقطني [عن أبي هريرة]^(٥) مرفوعاً، وفيه نظر، وروى عن عمر موقوفاً، وهو أصح^(٦): «ألا إن الذكاة في الحلق واللبة، ولا تعجلوا الأنفس أن تزهد»^(٧).

وفى^(٨) الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن، من رواية حماد بن سلمة، عن أبي العشراء الدارمي، عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، أما تكون الذكاة إلا من اللبة والحلق؟ فقال: «لو طعنت في فخذها لأجزأ عنك».

وهو حديث صحيح^(٩)، ولكنه محمول على ما [لم]^(١٠) يقدر على ذبحه في الحلق واللبة.

وقوله: «وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصْبِ»: قال مجاهد وابن جريج^(١١): كانت النصب حجارة حول الكعبة، قال^(١٢) ابن جريج: وهي ثلاثمائة وستون نصبا، كان العرب في جاهليتها يذبحون عندها، وينضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح، ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب.

وكذا ذكره غير واحد، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب حتى ولو كان يذكر^(١٣) عليها اسم الله في الذبح عند النصب من الشرك^(١٤) الذي حرمه الله ورسوله. وينبغي أن يحمل هذا على هذا؛ لأنه قد تقدم تحريم ما أهل به لغير الله.

(١) فى ر: «فقال».

(٢) فى ر: «قال».

(٣) فى أ: «مخصوص».

(٤) صحيح البخارى برقم (٢٥٠٧) وصحيح مسلم برقم (١٩٦٨).

(٥) فى ر، أ: «وقال».

(٦) زيادة من د، ر.

(٧) سنن الدارقطني (٢٨٣/٤) من طريق سعيد بن سلام، عن عبد الله بن بديل، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، رضى الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ بديل بن ورقاء على أورك يصيح فى فجاج منى: «ألا إن الذكاة فى الحلق واللبة، ألا ولا تعجلوا الأنفس أن تزهد». وسعيد بن سلام ضعيف قال البخارى: يذكر بوضع الحديث، وروى موقوفاً على عمر بن الخطاب. رواه البيهقى فى السنن الكبرى (٢٧٨/٩) من طريق يحيى بن أبى كثير، عن فرافصة الحنفى، عن عمر به.

(٨) فى ر: «فأما»، وفى أ: «وأما».

(٩) المسند (٣٣٤/٤) وسنن أبى داود برقم (٢٨٢٥) وسنن الترمذى برقم (١٤٨١) وسنن النسائى (٢٢٨/٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٨٤).

(١٠) فى ر: «وقال».

(١١) فى أ: «وابن جريج».

(١٢) زيادة من ر.

(١٣) فى أ: «من التبرك».

(١٤) فى أ: «ولو كان قد ذكر».

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ أى: حرم عليكم أيها المؤمنون الاستقسام بالأزلام: واحدها: زَلَمٌ، وقد تفتح الزاى، فيقال: زَلَمَ، وقد كانت العرب فى جاهليتها يتعاطون ذلك، وهى عبارة عن قدام ثلاثة، على أحدها مكتوب: «افعل» وعلى الآخر: «لا تفعل»، والثالث «غُفْل» ليس عليه شىء. ومن الناس من قال: مكتوب على الواحد: «أمرنى ربى»، وعلى الآخر: «نهانى ربى». والثالث غُفْل^(١) ليس عليه شىء، فإذا أجالها فطلع السهم الأمر فعله، أو الناهى تركه، وإن طلع الفارغ أعاد [الاستقسام]^(٢).

والاستقسام: مأخوذ من طلب القسم من هذه الأزلام. هكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير. وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا الحجاج بن محمد، أخبرنا ابن جريج وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ قال: والأزلام: قدام كانوا يستقسمون بها فى الأمور.

وكذا روى عن مجاهد، وإبراهيم النخعى، والحسن البصرى، ومقاتل بن حيان. وقال ابن عباس: هى القدام، كانوا يستقسمون بها فى الأمور. وذكر محمد بن إسحاق وغيره: أن أعظم أصنام قريش صنم كان يقال له: هُبَلٌ، وكان داخل الكعبة، منصوب على بئر فيها، توضع الهدايا وأموال الكعبة فيه، وكان عنده سبعة أزلام مكتوب فيها ما يتحاكمون فيه، مما أشكل عليهم، فما خرج لهم منها رجعوا إليه ولم يعدلوا عنه.

وثبت فى الصحيح: أن النبى ﷺ لما دخل الكعبة، وجد إبراهيم وإسماعيل مصورين فيها، وفى أيديهما الأزلام، فقال: «قاتلهم الله، لقد علموا أنهما لم يستقسما بها أبدا»^(٣).

وفى الصحيح: أن سُرَاقَةَ بن مالك بن جُعْشُم لما خرج فى طلب النبى ﷺ وأبى بكر، وهما ذاهبان إلى المدينة مهاجرين، قال: فاستقسمت بالأزلام هل أضرمهم أم لا؟ فخرج الذى أكره: لا تضرهم^(٤)، قال: فعصيت الأزلام واتبعتهم، ثم إنه استقسم بها ثانية وثالثة، كل ذلك يخرج الذى يكره: لا تضرهم^(٥)، وكان كذلك، وكان سُرَاقَةُ لم يسلم إذ ذاك، ثم أسلم بعد ذلك^(٦).

وروى ابن مردويه من طريق إبراهيم بن يزيد، عن رَقَبَةَ، عن عبد الملك بن عُمَيْر، عن رجاء بن حيوة، عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «لَنْ يَلِجَ الدَّرَجَاتِ مَنْ تَكَهَّنَ أَوْ اسْتَقْسَمَ أَوْ رَجَعَ مِنْ سَفَرٍ طَائِرًا»^(٧).

وقال مجاهد فى قوله: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ قال: هى سهام العرب، وكعاب فارس والروم، كانوا يتقمارون بها.

(٢) زيادة من ر، أ.

(١) فى د، ر: «عطل».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٢٨٨).

(٥) فى أ: «لا تكبر».

(٤) فى أ: «لا يضرهم».

(٦) صحيح البخارى برقم (٣٩٠٦).

(٧) ورواه الطبرانى فى مسند الشاميين برقم (٢١٠٤) وتام الرازى فى الفوائد برقم (١٤٤٤) من طريق يحيى بن داود، عن إبراهيم بن يزيد به. قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٢١٣/١٠): «رجالہ ثقات إلا أننى أظن أن فيه انقطاعاً».

وهذا الذى ذكر عن مجاهد فى الأزلَام أنها موضوعة للقمار، فيه نظر، اللهم إلا أن يقال: إنهم كانوا يستعملونها فى الاستخارة تارة، وفى القمار أخرى، والله أعلم. فإن الله سبحانه [وتعالى] (١) قد فرّق بين هذه وبين القمار وهو الميسر، فقال فى آخر السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ [فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ] مُنْتَهُونَ ﴿ (٢) مُنْتَهُونَ ﴾ [الآيتان: ٩٠، ٩١]. وهكذا قال ههنا: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فِسْقٌ﴾ أى: تعاطيه فسق و غى وضلال وجهالة وشرك، وقد أمر الله المؤمنين إذا ترددوا فى أمورهم أن يستخيروه بأن يعبدوه، ثم يسألوه الخيرة فى الأمر الذى يريدونه، كما رواه الإمام أحمد والبخارى وأهل السنن، من طرق عن عبد الرحمن بن أبى الموالى، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا (٣) الاستخارة (٤) كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ؛ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ (٥) هَذَا الْأَمْرَ - وَيَسْمِيهِ بِاسْمِهِ - خَيْرًا لِّىَ فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةُ أَمْرِي، فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي (٦) وَبَارِكْ لِي فِيهِ، اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُهُ شَرًّا لِّىَ (٧) فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةُ أَمْرِي، فَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاصْرِفْهُ عَنِّي، وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ». لفظ أحمد (٨).

وقال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث ابن أبى الموالى.

قوله: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى: يشؤوا أن يراجعوا دينهم.

وكذا روى عن عطاء بن أبى رباح، والسدى ومقاتل بن حيان. وعلى هذا المعنى يرد (٩) الحديث الثابت فى الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَسُّ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ بِالْتَّحْرِيشِ (١٠) بَيْنَهُمْ».

ويحتمل أن يكون المراد: أنهم يشؤوا من مشابهة المسلمين، بما تميز به المسلمون من هذه الصفات المخالفة للشرك وأهله؛ ولهذا قال تعالى آمرا عباده المؤمنين أن يصبروا ويثبتوا فى مخالفة الكفار، ولا يخافوا أحدا إلا الله، فقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَا﴾ أى: لا تخافوا منهم فى مخالفتكم إياهم واخلشونى، أنصركم عليهم وأبيدهم وأظفركم بهم، وأشف صدوركم منهم، وأجعلكم فوقهم فى الدنيا والآخرة.

(٣) فى د: «يعلمنا دعاء».

(٢) زيادة من ر، وفى هـ: «إلى قوله».

(١) زيادة من أ.

(٦) فى أ: «ثم».

(٤) فى د: «الاستخارة فى الأمور».

(٥) فى د: «تعلم أن».

(٧) فى د: «تعلم أنه شر».

(٨) المسند (٣/٣٤٤) وصحيح البخارى برقم (١١٦٢) وسنن أبى داود برقم (١٥٣٨) وسنن الترمذى برقم (٤٨٠) وسنن النسائى

(٨٠/٦) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٨٣).

(١٠) فى د: «التحريض».

(٩) فى ر: «يورد».

وقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾: هذه أكبر نعم الله، عز وجل، على هذه الأمة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم، صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خُلف، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ^(١) رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أى: صدقا فى الأخبار، وعدلا فى الأوامر والنواهي، فلما أكمل^(٢) الدين لهم تمت النعمة عليهم^(٣)؛ ولهذا قال [تعالى]^(٤): ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أى: فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذى رضىه الله وأحبه^(٥)، وبعث به أفضل رسله الكرام، وأنزل به أشرف كتبه.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وهو الإسلام، أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبدا، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبدا، وقد رضىه الله فلا يسخطه أبدا.

وقال أسباط عن السدى: نزلت هذه الآية يوم عرفة، فلم ينزل بعدها حلال ولا حرام، ورجع رسول الله ﷺ فمات. قالت أسماء بنت عميس: حَجَّجْتُ مع رسول الله ﷺ تلك الحجة، فبينما نحن نسير إذ تجلَّى له جبريل، فمال رسول الله ﷺ على الراحلة، فلم تطق الراحلة من ثقل ما عليها من القرآن، فبركت فأتيته فسجَّيتُ عليه بُردًا^(٦) كان على.

قال ابن جرير^(٧) وغير واحد: مات رسول الله ﷺ بعد يوم عرفة بأحد وثمانين يوما.

رواهما^(٨) ابن جرير، ثم قال: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا ابن فضيل، عن هارون بن عنترة، عن أبيه قال: لما نزلت ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، وذلك يوم الحج الأكبر، بكى عمر، فقال له النبى ﷺ: «ما يبكيك؟» قال: أبكاني أنا كنا فى زيادة من ديننا، فأما إذ أكمل^(٩) فإنه لم يكمل شيء إلا نقص. فقال: «صدقت»^(١٠).

ويشهد لهذا المعنى الحديث الثابت: «إن الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً، فَطُوبَى للغُرَبَاءِ»^(١١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا جعفر بن عون، حدثنا أبو العُميس، عن قيس بن مسلم، عن طارق ابن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب [رضى الله عنه]^(١٢)، فقال: يا أمير المؤمنين، إنكم تقرؤون آية فى كتابكم، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: وأى آية؟ قال قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، فقال^(١٣) عمر: والله إنى

(١) فى د: «كلمة» وهى قراءة.

(٢) فى د: «فلما كمل».

(٣) فى د: «تمت عليهم النعمة».

(٤) زيادة من د.

(٦) فى أ: «برداء».

(٥) فى د: «الذى أحبه الله ورضيه».

(٩) فى ر: «إذ كمل».

(٨) فى د: «رواه».

(٧) فى ر: «ابن جرير».

(١٠) تفسير الطبرى (٥١٩/٩).

(١١) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٤٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه، وبرقم (١٤٦) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

(١٣) فى أ: «قال».

(١٢) زيادة من أ.

لأعلم اليوم الذى نزلت على رسول الله ﷺ، والساعة التى نزلت فيها على رسول الله ﷺ، نزلت عَشِيَّةَ عَرَفَةَ فى يوم الجمعة.

ورواه البخارى عن الحسن بن الصباح، عن جعفر بن عون، به. ورواه أيضا مسلم والترمذى والنسائى، من طرق عن قيس بن مسلم، به^(١). ولفظ البخارى عند تفسير هذه الآية من طريق سفیان الثورى، عن قيس، عن طارق قال: قالت اليهود لعمر: إنكم تقرؤون آية، لو نزلت فينا لاتخذناها^(٢) عيدا. فقال عمر: إني لأعلم حين أنزلت، وأين أنزلت^(٣)، وأين رسول الله ﷺ حيث أنزلت: يوم عرفة، وإنا والله بعرفة - قال سفیان: وأشك كان يوم الجمعة أم لا: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية^(٤).

وشك سفیان، رحمه الله، إن كان فى الرواية فهو تَوَرُّعٌ، حيث شك هل أخبره شيخه بذلك أم لا؟ وإن كان شكاً فى كون الوقوف فى حجة الوداع كان يوم الجمعة، فهذا ما إخاله يصدر عن الثورى، رحمه الله، فإن هذا أمر معلوم مقطوع به، لم يختلف فيه أحد من أصحاب المغازى والسير ولا من الفقهاء، وقد وردت فى ذلك أحاديث متواترة لا يشك فى صحتها، والله أعلم، وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن عمر.

وقال ابن جرير: حدثنى يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّةَ، أخبرنا رَجَاءُ بن أبى سلمة، أخبرنا عبادة بن نُسَيْبٍ، أخبرنا أميرنا إسحاق - قال أبو جعفر بن جرير: هو إسحاق بن خُرْشَة - عن قَبِيصَةَ - يعنى ابن ذُؤَيْبٍ - قال: قال كعب: لو أن غير هذه الأمة نزلت عليهم هذه الآية، لنظروا اليوم الذى أنزلت فيه عليهم، فاتخذوه عيدا يجتمعون فيه. فقال عمر: أى آية يا كعب؟ فقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. فقال عمر: قد علمت اليوم الذى أنزلت فيه، والمكان الذى أنزلت^(٥) فيه، نزلت فى يوم الجمعة، ويوم عرفة، وكلاهما بحمد الله لنا عيد.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا قَبِيصَةُ، حدثنا حماد بن سلمة، عن عمار - هو مولى بني هاشم - أن ابن عباس قرأ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. فقال يهودى: لو نزلت هذه الآية علينا لاتخذنا يومها عيداً. فقال ابن عباس: فإنها نزلت فى يوم عيدين اثنين: يوم عيد ويوم الجمعة^(٦).

وقال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن كامل، حدثنا موسى بن هارون، حدثنا يحيى بن الحُمَّانِ، حدثنا قيس بن الربيع، عن إسماعيل بن سَلْمَانَ، عن أبى عمر البَزَّازِ، عن ابن الحنفية، عن علي [رضى الله عنه]^(٧) قال: نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ، وهو قائم عَشِيَّةَ عَرَفَةَ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

(١) المسند (٢٨/١) وصحيح البخارى برقم (٤٥) وصحيح مسلم برقم (٣٠١٧) وسنن الترمذى برقم (٣٠٤٣) وسنن النسائى (٢٥١/٥).

(٢) فى ر: «نزلت».

(٣) فى أ: «لاتخذنا بها».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٦٠٦).

(٥) فى ر: «نزلت».

(٦) تفسير الطبرى (٥٢٥/٩).

(٧) زيادة من أ.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو عامر إسماعيل بن عمرو السَّكُونِي، حدثنا هشام^(١) بن عمار، حدثنا ابن عياش، حدثنا عمرو بن قيس السكوني: أنه سمع معاوية بن أبي سفيان على المنبر ينتزع بهذه الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ حتى ختمها، فقال: نزلت في يوم عرفة، في يوم الجمعة.

وروى ابن مردويه، من طريق محمد بن إسحاق، عن عمر بن موسى بن وجيه، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة قال: نزلت هذه الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ يوم عرفة ورسول الله ﷺ واقف على الموقف^(٢).

فأما ما رواه ابن جرير، وابن مردويه، والطبراني من طريق ابن لهيعة، عن خالد بن أبي عمران، عن حنّس بن عبد الله الصنعاني، عن ابن عباس قال: ولد نبيكم ﷺ يوم الإثنين، [ونبئ يوم الإثنين]^(٣)، وخرج من مكة يوم الإثنين، ودخل المدينة يوم الإثنين، وأنزلت سورة المائدة يوم الإثنين: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ورفع الذكر يوم الإثنين، فإنه أثر غريب^(٤)، وإسناده ضعيف.

وقد رواه الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، عن خالد بن أبي عمران، عن حنّس الصنعاني، عن ابن عباس قال: ولد النبي ﷺ يوم الإثنين، واستنبي يوم الإثنين، وخرج مهاجرا من مكة إلى المدينة يوم الإثنين، وقدم المدينة يوم الإثنين، وتوفي يوم الإثنين، ووضع^(٥) الحجر الأسود يوم الإثنين.

هذا لفظ أحمد، ولم يذكر نزول المائدة يوم الإثنين^(٦)، فالله أعلم. ولعل ابن عباس أراد أنها نزلت يوم عيدين اثنين كما تقدم، فاشتبه على الراوي، والله أعلم.

[و]^(٧) قال ابن جرير: وقد قيل: ليس ذلك بيوم معلوم عند الناس، ثم روى من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ يقول: ليس ذلك بيوم معلوم عند الناس قال: وقد قيل: إنها نزلت على رسول الله ﷺ في مسيره إلى حجة الوداع. ثم رواه من طريق أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس.

قلت: وقد روى ابن مردويه من طريق أبي هارون العدي، عن أبي سعيد الخدري؛ أنها أنزلت على رسول الله ﷺ يوم غدِير خُم^(٨)، حين قال لعل: «من كنت مولاه فعلي مولاه». ثم رواه عن أبي هريرة^(٩)، وفيه: أنه اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، يعنى مرجعه عليه السلام^(١٠) من حجة الوداع.

(٣) زيادة من أ.

(٢) في أ: «يوم».

(١) في ر: «هشام».

(٤) تفسير الطبري (٩/ ٥٣٠).

(٥) في أ: «ورفع».

(٦) المسند (١/ ٢٧٧) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٩٦): «فيه ابن لهيعة وهو ضعيف وبقيّة رجاله ثقات من أهل الصحيح».

(٨) في ر: «غديرهم».

(٧) زيادة من أ.

(٩) وفي إسناده أبو هارون العدي شيعي متروك، لكن تابعه عطية العوفي رواه الطبراني في الأوسط برقم (٣٧٣٧) «مجمع البحرين»، وحديث أبي هريرة رواه الطبراني في الأوسط برقم (٣٧٣٨) «مجمع البحرين». وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة النبوية: «ليس في الصحاح لكن هو مما رواه العلماء، وتنازع الناس في صحته فنقل عنه البخاري وإبراهيم الحربي وطائفة من أهل العلم بالحديث أنهم طعنوا فيه وضعفوه، ونقل عن أحمد بن حنبل أنه حسنه كما حسنه الترمذي». وقد جمع طرق هذا الحديث الشيخ ناصر الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٥٠).

(١٠) في أ: «ﷺ».

ولا يصح هذا ولا هذا، بل الصواب الذى لا شك فيه ولا مرية: أنها أنزلت يوم عرفة، وكان يوم الجمعة، كما روى ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وعلى بن أبى طالب، وأول ملوك الإسلام معاوية بن أبى سفيان، وترجمان القرآن عبد الله بن عباس، وسمرّة بن جندب، رضى الله عنهم، وأرسله [عامر]^(١) الشعبى، وقتادة بن دعامة، وشهر بن حوشب، وغير واحد من الأئمة والعلماء، واختاره ابن جرير الطبرى، رحمه الله^(٢).

وقوله: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى: فمن احتاج إلى تناول شئ من هذه المحرمات التى ذكرها تعالى^(٣)، لضرورة أُلجأته إلى ذلك، فله تناول ذلك، والله غفور رحيم له؛ لأنه تعالى يعلم حاجة عبده المضطر، وافتقاره إلى ذلك، فيتجاوز عنه ويغفر له. وفى المسند وصحيح ابن حبان، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن تؤتى رخصته»^(٤)، كما يكره أن تؤتى معصيته»^(٥)، لفظ ابن حبان. وفى لفظ لأحمد^(٦): «من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة»^(٧).

ولهذا قال الفقهاء: قد يكون تناول الميتة واجباً فى بعض الأحيان، وهو ما إذا خاف على مهجته^(٨) التلف ولم يجد غيرها، وقد يكون مندوباً، و [قد]^(٩) يكون مباحاً بحسب الأحوال. واختلفوا: هل يتناول منها قدر ما يسد به الرمق، أو له أن يشبع، أو يشبع ويتزود؟ على أقوال، كما هو مقرر فى كتاب الأحكام. وفيما إذا وجد ميتة وطعام الغير، أو صيداً^(١٠) وهو محرم: هل يتناول الميتة، أو ذلك الصيد ويلزمه الجزاء، أو ذلك الطعام ويضمن بدله؟ على قولين، هما قولان للشافعى، رحمه الله. وليس من شرط جواز تناول الميتة أن يمضى عليه ثلاثة أيام لا يجد طعاماً، كما قد يتوهمه كثير من العوام^(١١) وغيرهم، بل متى اضطر إلى ذلك جاز له، وقد قال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعى، حدثنا حسان بن عطية، عن أبى واقد الليثى أنهم قالوا: يا رسول الله، إنا بأرض تصيبنا^(١٢) بها المخرمة، فمتى تحل^(١٣) لنا بها الميتة؟ فقال: «إذ لم تصطبّحوا، ولم تغتبقوا، ولم تجتفتوا»^(١٤) بقلأ فشأنكم بها.

تفرد به أحمد من هذا الوجه، وهو إسناد صحيح على شرط الصحيحين. وكذا رواه ابن جرير، عن عبد الأعلى بن واصل، عن محمد بن القاسم الأسدى، عن الأوزاعى، به^(١٥). لكن رواه بعضهم

(١) زيادة من أ.

(٢) فى أ: «رحمهم».

(٣) فى أ: «الله».

(٤) فى د: «رخصه».

(٥) المسند (١٠٨/٢) وصحيح ابن حبان برقم (٥٤٥) «موارد» وقال الهيثمى فى المجمع (١٦٢/٣): «رجاله رجال الصحيح».

(٦) فى د: «لفظ أحمد».

(٧) المسند (٧١/٢).

(٨) فى د: «نفسه»، وفى أ: «مهجة».

(٩) زيادة من ر.

(١٠) فى ر: «وصيداً».

(١١) فى ر: «العوام».

(١٢) فى أ: «يصيبنا».

(١٣) فى د: «فما يحل»، وفى أ: «فمتى يحل».

(١٤) المسند (٢١٨/٥) وتفسير الطبرى (٥٣٨/٩) ورواه الحاكم فى المستدرک (١٢٥/٤) من طريق الأوزاعى به، وقال: «على شرطهما ولم يخرجاه». وتعقبه الذهبى فقال: «فيه انقطاع».

عن الأوزاعي، عن حسان بن عطية، عن مسلم بن يزيد، عن أبي واقد، به^(١). ومنهم من رواه، عن الأوزاعي، عن حسان، عن مرثد - أو أبي مرثد - عن أبي واقد، به^(٢). ورواه ابن جرير عن هناد ابن السرى، عن عيسى بن يونس، عن حسان، عن رجل قد سمى له، فذكره. ورواه أيضا عن هناد، عن ابن المبارك، عن الأوزاعي، عن حسان، مرسلًا^(٣).

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن عَوْن قال: وجدت عند الحسن كتاب سَمُرَة، فقرأته عليه، فكان فيه: «ويُجزى من الاضطرار غُبُوق أو صبوح».

حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا هُشَيْم، عن الحَصْبِ بن زيد التميمي^(٤)، حدثنا الحسن، أن رجلا سأل النبي ﷺ فقال: [إلى]^(٥) متى يحل [لى]^(٦) الحرام؟ قال: فقال: «إلى متى يَرُوى أهلك من اللبن، أو تحبب ميرتهم».

حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، حدثنا عمر بن عبد الله بن عروة، عن جده عروة بن الزبير، عن جدته^(٧)؛ أن رجلا من الأعراب أتى النبي ﷺ يستفتيه فى الذى حرم الله عليه، والذى أحل له، فقال النبي ﷺ: «تَحَلُّ لك الطيبات، وتَحَرُّم عليك الخبائث^(٨)، إلا أن تَفْتَقِرَ إلى طعام لا يحل لك، فتأكل منه حتى تَسْتَعْنِيَ عنه». فقال الرجل: وما فَقَرى الذى يحل لى؟ وما غناى الذى يغنينى عن ذلك؟ فقال النبي ﷺ: «إذا كنت ترجو نتاجًا، فتبلغ بلُحُوم ما شيتك إلى نتاجك، أو كنت ترجو غنى، تطلبه، فتبلغ من ذلك شيئا، فأطعم أهلك ما بدا لك حتى تستغنى عنه». فقال الأعرابى: ما غناى الذى أدعه إذا وجدته؟ فقال [النبي]^(٩) ﷺ: «إذا أرويت أهلك غُبُوقًا من الليل، فاجتنب ما حرم الله عليك من طعام، وأما مالك فإنه ميسور كله، ليس فيه حرام»^(١٠).

ومعنى قوله: «ما لم تصطبحو»: يعنى به: الغداء، «وما لم^(١١) تغتبقوا»: يعنى به: العشاء، «أو تختفتوا^(١٢) بقلًا^(١٣) فشأنكم بها» [أى]^(١٤): فكلوا منها. وقال ابن جرير: يروى هذا الحرف - يعنى قوله: «أو تختفتوا»^(١٥) [بقلًا]^(١٦) على أربعة أوجه: «تختفتوا» بالهمزة، «وتختفوا» بتخفيف الياء والحاء، «وتختفوا» بتشديد [الفاء]^(١٧)، «وتختفوا» بالحاء وبالتخفيف، ويحتمل الهمز، كذا ذكره فى التفسير.

حديث آخر: قال أبو داود: حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا الفضل بن دُكَيْن، حدثنا عُبَّة بن وهب بن عقبة العامرى^(١٨)، سمعت أبا يحدث عن الفجيع العامرى؛ أنه أتى رسول الله ﷺ فقال:

(١) (٢) رواهما الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٨٤/٣) من طريق الأوزاعى به.

(٣) تفسير الطبرى (٥٤٢/٩).

(٤) فى أ: «يزيد التيمى».

(٥) زيادة من ر، أ.

(٦) زيادة من أ.

(٧) فى ر، أ: «يحل لك الطيبات ويحرم عليك الخبائث». (٨) زيادة من ر، أ.

(٩) تفسير الطبرى (٥٤٠/٩)

(١٠) فى أ: «ولم».

(١١) فى أ: «تختفوا».

(١٢) فى د: «ليلا».

(١٣) فى أ: «تختفوا».

(١٤) زيادة من ر.

(١٥) فى أ: «تختفوا».

(١٦) زيادة من أ.

(١٧) زيادة من ر، أ.

ما يحل لنا من الميتة؟ قال: «ما طعامكم؟» قلنا: نغتبِق ونصطبِح. قال أبو نعيم: فَسَّرَهُ لى عقبه: قدح غدوة، وقدح عَشِيَّة^(١). قال: «ذَٰكَ وَأَبَى الْجُوعُ». وأحل لهم الميتة على هذه^(٢) الحال. تفرد به أبو داود^(٣): وكأنهم كانوا يصطحبون ويغتبِقون شيئاً لا يكفيهم، فأحل لهم الميتة لتمام كفايتهم، وقد يحتج به من يرى جواز الأكل منها حتى يبلغ حد الشبع، ولا يتقيد ذلك بسد الرَّمَق، والله أعلم.

حديث آخر: قال أبو داود: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، حدثنا سماك، عن جابر ابن سَمْرَةَ؛ أن رجلاً نزل الحرّة، ومعه أهله وولده، فقال له رجل: إن ناقة لى ضَلَّت، فإن وجدتها فأمسكها، فوجدوها ولم يجد صاحبها، فمرضت فقالت امرأته: انحرها، فأبى، فنَفَقَتْ، فقالت له امرأته: اسلخها حتى نُقَدِّد شَحْمَهَا ولحمها فنأكله. فقال: حتى أسأل رسول الله ﷺ، فأتاه فسأله، فقال: «هل عندك غَنَى يُغْنِيكَ؟» قال: لا. قال: «فكلوها». قال: فجاء صاحبها فأخبره^(٤) الخبر، فقال: هلا كنت نحررتها؟ قال: استحييت منك.

تفرد به^(٥). وقد يحتج به من يُجوز الأكل والشبع، والتزود منها مدة يغلب على ظنه الاحتياج إليها، والله أعلم.

وقوله: ﴿غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ أى: [غير]^(٦) مُتَعَاظٍ لمعصية الله، فإن الله قد أباح ذلك له وسكت عن الآخر، كما قال فى سورة البقرة: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الآية: ١٧٣].

فعلوا شئ عليه

وقد استدل بهذه الآية من يقول بأن العاصى بسفره لا يترخص بشئ من رخص السفر؛ لأن الرخص لا تنال^(٧) بالمعاصى، والله أعلم.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٤).

لما ذكر تعالى ما حرمه فى الآية المتقدمة من الخبائث الضارة لمتناولها، إما فى بدنه، أو فى دينه، أو فيهما، واستثنى ما استثناه فى حالة^(٨) الضرورة، كما قال: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرُّتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]، قال بعدها: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾، كما [قال]^(٩) فى سورة الأعراف فى صفة محمد ﷺ: أنه ﴿يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الآية: ١٥٧].

(٢) فى د، ر، أ: «هذا».

(١) فى أ: «عشوة».

(٣) سنن أبى داود برقم (٢٨١٧).

(٤) فى د: «فأخبر».

(٥) سنن أبى داود برقم (٢٨١٧).

(٧) فى أ: «لأن الترخص لا ينال»

(٦) زيادة من ر.

(٩) زيادة من أ.

(٨) فى ر، أ: «فى حال».

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني عبد الله بن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير، عن عدي بن حاتم، وزيد بن المهلهل الطائين^(١) سألوا رسول الله ﷺ، فقالا: يا رسول الله، قد حرم الله الميتة، فماذا يحل لنا منها؟ فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ﴾. قال سعيد [بن جبير]^(٢): يعني: الذبائح الحلال الطيبة لهم. وقال مقاتل [بن حيان]^(٣): [في قوله: ﴿قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ﴾]^(٤) فالطيئات ما أحل لهم من كل شيء أن يصيبوه^(٥)، وهو الحلال من الرزق. وقد سئل الزهري عن شرب البول للتداوى فقال: ليس هو من الطيبات.

رواه ابن أبي حاتم^(٦). وقال ابن وهب: سئل مالك عن بيع الطين الذي يأكله الناس. فقال: ليس هو من الطيبات.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ﴾ أي: أحل لكم الذبائح التي ذكر اسم الله عليها والطيئات من الرزق، وأحل لكم ما اصطدتموه^(٧) بالجوارح، وهي من الكلاب والفهود والصقور وأشباه ذلك، كما هو مذهب الجمهور من الصحابة والتابعين والأئمة، وممن قال ذلك: علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ﴾: وهن^(٨) الكلاب المعلمة^(٩)، والبازي، وكل طير يعلم للصيد^(١٠)، والجوارح: يعني الكلاب الضواري والفهود والصقور وأشباهها.

رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وروى عن خيثمة، وطاوس، ومجاهد، ومكحول، ويحيى بن أبي كثير، نحو ذلك. وروى عن الحسن أنه قال: الباز والصقر من الجوارح. وروى عن علي بن الحسين مثله. ثم روى عن مجاهد أنه كره صيد الطير كله، وقرأ قول الله [عز وجل]^(١١): ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ﴾. قال: وروى عن سعيد بن جبير نحو ذلك.

ونقله ابن جرير عن الضحاك والسدي، ثم قال: حدثنا هناد، حدثنا ابن أبي زائدة، أخبرنا ابن جريج، عن نافع، عن ابن عمر قال: أما ما صاد من الطير البزة وغيرها من الطير، فما أدركت فهو لك، وإلا فلا تطعمه.

قلت: والمحكى عن الجمهور أن صيد الطيور كصيد الكلاب^(١٢)؛ لأنها تكلب الصيد بمخالبها^(١٣)، كما تكلمه الكلاب، فلا فرق. وهذا^(١٤) مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم، واختاره ابن جرير، واحتج في ذلك بما رواه عن هناد، حدثنا عيسى بن يونس، عن مجالد، عن الشعبي، عن عدي بن حاتم قال: سألت رسول الله ﷺ عن صيد البازي، فقال: «ما أمسك عليك فكل»^(١٥).

(١) في أ: «الطائي».

(٢) زيادة من أ.

(٣) زيادة من د، أ.

(٤) زيادة من أ.

(٥) في أ: «أن تصيبوه».

(٦) سنن أبي داود برقم (٢٨١٧).

(٧) في د: «ما صدتموه».

(٨) في أ: «المعلمين».

(٩) في د: «وهي».

(١٠) في د، أ: «يعلم الصيد».

(١٢) في د: «كالصيد بالكلاب».

(١١) زيادة من ر.

(١٣) في ر: «بمخالبها».

(١٤) في د: «وهو».

(١٥) تفسير الطبري (٩/ ٥٥٠).

واستثنى الإمام أحمد صيد الكلب الأسود؛ لأنه عنده مما يجب قتله ولا يحل اقتناؤه؛ لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يَقْطَعُ الصَّلَاةَ الْحِمَارُ وَالْمَرْأَةُ وَالْكَلْبُ الْأَسْوَدُ». فقلت: ما بال الكلب الأسود من الأحمر^(١)؟ فقال: «الكلب الأسود شيطان»^(٢). وفي الحديث الآخر: أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب، ثم قال: «ما بالهم وبال الكلاب، اقتلوا»^(٣) منها كل أسود بهيم»^(٤).

وسميت هذه الحيوانات التي يصطاد بهن: جوارح، من الجرح، وهو: الكسب. كما تقول^(٥) العرب: فلان جرح أهله خيرا، أى: كسبهم خيرا. ويقولون: فلان لا جرح له، أى: لا كاسب له، وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] أى: ما كسبتم من خير وشر.

وقد ذكر في سبب نزول هذه الآية الكريمة الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم: حدثنا حجاج بن حمزة، حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثني موسى بن عبيدة، حدثني أبان بن صالح، عن القعقاع بن حكيم، عن سلمى أم رافع، عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب، فقتلت، فجاء الناس فقالوا: يا رسول الله، ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت^(٦) بقتلها؟ قال: فسكت، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ الآية. فقال رسول الله ﷺ: «إذا أرسل الرجل كلبه وسَمَّى، فأمسك عليه، فليأكل ما لم يأكل».

وهكذا رواه ابن جرير، عن أبي كُرَيْب، عن زيد بن الحباب بإسناده، عن أبي رافع قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ ليستأذن^(٧) عليه، فأذن له فقال: قد أذن لك يا رسول الله. قال: أجل، ولكننا لا ندخل بيتا فيه كلب، قال أبو رافع: فأمرني أن أقتل كل كلب بالمدينة، فقتلت، حتى انتهيت إلى امرأة عندها كلب ينبج عليها، فتركته رحمة لها، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فأمرني، فرجعت إلى الكلب فقتلته، فجاؤوا فقالوا: يا رسول الله، ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾.

ورواه الحاكم في مستدركه من طريق محمد بن إسحاق، عن أبان بن صالح، به. وقال: صحيح ولم يخرجاه^(٨).

(١) فى ١: «الاصفر».

(٢) صحيح مسلم برقم (٥١٠).

(٣) فى ١: «وقالوا».

(٤) صحيح مسلم برقم (١٥٧٣) وسنن أبي داود برقم (٧٤) وسنن النسائي (١٧٧/١) وسنن ابن ماجه برقم (٣٦٥).

(٥) فى ١: «يقول».

(٦) فى ١: «أمر».

(٧) فى ١: «يستأذن عليه».

(٨) ورواه الطبري فى تفسيره (٥٤٥/٩) من طريق زيد بن الحباب به، ورواه الطبراني فى المعجم الكبير (٣٢٦/١) من طريق موسى بن عبيدة به. قال الهيثمى فى المجمع (٤٢/٤): «فيه موسى بن عبيدة الربذى وهو ضعيف». قلت: وقد توبع: تابعه محمد بن إسحاق. رواه البيهقى فى السنن الكبرى (٢٣٥/٩)، والحاكم فى المستدرک (٣١١/٢) من طريق معلى بن منصور، عن ابن أبي زائدة، عن محمد بن إسحاق به مختصرا.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، عن عكرمة؛ أن رسول الله ﷺ بعث أبا^(١) رافع في قتل الكلاب، حتى بلغ العوالي فدخل^(٢) عاصم بن عدي، وسعد ابن خيثمة، وعويم بن ساعدة، فقالوا: ماذا أحل لنا يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ [الآية]^(٣).

ورواه الحاكم من طريق سَمَأك، عن عكرمة^(٤)، وهكذا قال محمد بن كعب القرظي في سبب نزول هذه الآية: إنه في قتل الكلاب.

وقوله تعالى: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ يحتمل أن يكون حالا من الضمير في ﴿عَلَّمْتُمْ﴾ فيكون حالا من الفاعل، ويحتمل أن يكون حالا من المفعول وهو ﴿الْجَوَارِحِ﴾ أى: وما علمتم من الجوارح في حال كونهن مكَلَّبات للصيد، وذلك أن تقتنصه^(٥) [الجوارح]^(٦)، بمخالبتها أو أظفارها^(٧). فيستدل بذلك - والحالة هذه - على أن الجارحة إذا قتل الصيد بصدمته أو بمخلابه وظفره أنه لا يحل، كما هو أحد قولي الشافعي وطائفة من العلماء؛ ولهذا قال: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ وهو أنه إذا أرسله استرسل، وإذا أشلاه استشلى^(٨)، وإذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجيء إليه ولا يمسه لنفسه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فمتى كان^(٩) الجارحة معلما وأمسك على صاحبه، وكان قد ذكر اسم الله عند إرساله حل الصيد، وإن قتله بالإجماع.

وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة، كما ثبت في الصحيحين عن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إني أرسل الكلاب المعلمة وأذكر اسم الله. فقال: «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله، فكل ما أمسك^(١٠) عليك». قلت: وإن قتلن؟ قال: «وإن قتلن ما لم يشركها كلب^(١١) ليس منها، فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره». قلت له: فإني أرمي بالمعرّاض الصيد فأصيب؟ فقال: «إذا رميت بالمعرّاض فخرق^(١٢) فكله، وإن أصابه بعرض فإنه وقيد، فلا تأكله». وفي لفظ لهما: «إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله، فإن أمسك عليك فأدرسته حيا فاذبحه، وإن أدرسته قد قتل ولم يأكل منه فكله، فإن أخذ الكلب ذكاته». وفي رواية لهما: «فإن أكل فلا تأكل، فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه»^(١٣).

فهذا دليل للجمهور^(١٤)، وهو الصحيح من مذهب الشافعي، وهو أنه إذا أكل الكلب من الصيد يحرم مطلقا، ولم يستفصلوا كما ورد بذلك الحديث. وحكى عن طائفة من السلف أنهم قالوا: لا يحرم مطلقا.

(١) في أ: «بعث أبي» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.

(٣) زيادة من د.

(٤) تفسير الطبري (٥٤٦/٩) والمستدرک (٣١١/٢).

(٥) في د: «تصيد».

(٦) زيادة من ر.

(٨) أشلاه استشلى: أى دعاه إليه.

(٩) في أ: «كانت».

(١٠) في أ: «أمسكن».

(١١) في ر: «كلب ما».

(١٢) في أ: «فخرق».

(١٣) صحيح البخارى برقم (٥٤٨٣) وصحيح مسلم برقم (١٩٢٩).

(١٤) في ر، أ: «الجمهور».

(٢) في د: «فجاء».

(٧) في أ: «وأظفارها».

ذكر الآثار بذلك:

قال ابن جرير: حدثنا هناد، حدثنا وكيع، عن شُعْبَةَ، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب قال: قال سلمان الفارسي: كل وإن أكل ثلثيه^(١) - يعنى الصيد - إذا أكل منه الكلب. وكذا رواه سعيد بن أبي عروبة، وعمر^(٢) بن عامر، عن قتادة. وكذا رواه محمد بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن سلمان. ورواه ابن جرير أيضا عن مجاهد بن^(٣) موسى، عن يزيد، عن بكر بن عبد الله المزني^(٤) والقاسم؛ أن^(٥) سلمان قال: إذا أكل الكلب فكل، وإن أكل ثلثيه.

وقال ابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني مخرمة بن بكير^(٦)، عن أبيه، عن حميد بن مالك بن خثيم^(٧) الدؤلي؛ أنه سأل سعد بن أبي وقاص عن الصيد يأكل منه الكلب، فقال: كل، وإن لم يبق منه إلا حذية^(٨) - يعنى: [إلا]^(٩) بضعة.

ورواه شعبة، عن عبد ربه بن سعيد، عن بكير بن الأشج، عن سعيد بن المسيب، عن سعد بن أبي وقاص قال: كل وإن أكل ثلثيه.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود، عن عامر، عن أبي هريرة قال: لو أرسلت كلبك فأكل منه، فإن أكل ثلثيه وبقي ثلثه فكل.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر قال: سمعت عبيد الله^(١٠) - وحدثنا هناد، حدثنا^(١١) عبدة، عن عبيد الله^(١٢) بن عمر - عن نافع، عن عبد الله بن عمر قال: إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله^(١٣)، فكل ما أمسك عليك، أكل أو لم يأكل. وكذا رواه عبيد الله^(١٤) بن عمر وابن أبي ذئب وغير واحد، عن نافع.

فهذه الآثار ثابتة عن سلمان، وسعد بن أبي وقاص، وأبي هريرة، وابن عمر. وهو محكى عن على، وابن عباس. واختلف فيه عن عطاء، والحسن البصري. وهو قول الزهري، وربيعة، ومالك. وإليه ذهب الشافعى فى القديم، وأوماً إليه فى الجديد.

وقد روى من طريق سلمان الفارسي مرفوعا، فقال ابن جرير: حدثنا عمران بن بكار الكلاعى، حدثنا عبد العزيز بن موسى اللاحونى، حدثنا محمد بن دينار - هو الطاحي - عن أبي إياس معاوية ابن قرة، عن سعيد بن المسيب، عن سلمان الفارسي، عن رسول الله ﷺ قال: «إذا أرسل الرجل كلبه على الصيد فأدركه، وقد أكل منه، فليأكل ما بقى».

ثم قال ابن جرير: وفى إسناد هذا الحديث نظر، وسعيد غير معلوم له سماع من سلمان،

(١) فى ر: «ثلثه».	(٢) فى أ: «وعمر».	(٣) فى ر: «عن».
(٤) فى أ: «عن حميد عن ابن عبد الله المزني».	(٥) فى أ: «بن».	(٦) فى أ: «بكر».
(٧) فى أ: «هشيم».	(٨) فى ر: «جذية».	(٩) زيادة من ر.
(١٠) فى أ: «عبد الله».	(١١) فى د: «بن».	(١٢) فى أ: «عبد الله».
(١٣) فى أ: «اسم الله عليه».	(١٤) فى أ: «عبد الله».	

والثقات يروونه من كلام سلمان غير مرفوع^(١).

وهذا الذى قاله ابن جرير صحيح، لكن قد روى هذا المعنى مرفوعا من وجوه آخر، فقال أبو داود: حدثنا محمد بن منهل الضرير، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا حبيب المعلم، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده؛ أن أعرابيا - يقال له: أبو ثعلبة - قال: يا رسول الله، إن لى كلابا مَكَلَّبة، فأقتنى فى صيدها. فقال النبي ﷺ: «إن كان لك كلاب مكلبة، فكل مما أمسكن عليك». فقال: ذكيا وغير ذكى؟ قال: «نعم». قال: وإن أكل منه؟ قال: «نعم»، وإن أكل منه. قال: يا رسول الله، أقتنى فى قوسى. فقال: «كُلْ ما ردت عليك قوسك». قال: ذكيا وغير ذكى؟ قال: «وإن تغيب عنك مالم يصل، أو تجد فيه أثر غير سهمك». قال: أقتنى فى آنية المجوس إذا اضطررنا إليها. قال: «اغسلها وكل فيها^(٢)».

هكذا رواه أبو داود^(٣)، وقد أخرجه النسائي. وكذا رواه أبو داود، من طريق بُسر بن عبيد الله^(٤)، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ثعلبة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل، وإن أكل منه، وكل ما ردت عليك يدك^(٥)».

وهذان إسنادان جيدان، وقد روى الثوري، عن سماك بن حرب، عن عديّ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما كان من كلب ضار أمسك عليك، فكل». قلت: وإن أكل؟ قال: «نعم».

وروى عبد الملك بن حبيب: حدثنا أسد بن موسى، عن ابن أبي زائدة، عن الشعبي، عن عديّ، مثله^(٦).

فهذه آثار دالة على أنه يغتفر إن أكل منه الكلب. وقد احتج بها من لم يحرم الصيد بأكل الكلب وما أشبهه، كما تقدم عن حكيماهم، وقد توسط آخرون فقالوا: إن أكل عقب ما أمسكه فإنه يحرم لحديث عدي بن حاتم. وللعلة التى أشار إليها النبي ﷺ: «فإن أكل فلا تأكل، فإنى أخاف أن يكون أمسك على نفسه». وأما إن أمسكه ثم انتظر صاحبه فطال عليه وجاع^(٧)، فأكل من الصيد لجوعه، فإنه لا يؤثر فى التحريم. وحملوا على ذلك حديث أبي ثعلبة الخشني، وهذا تفريق حسن، وجمع بين الحديثين صحيح. وقد تمنى الأستاذ أبو المعالى الجويني فى كتابه «النهاية» أن لو فصل مفصل هذا التفصيل، وقد حقق الله أمنيته، وقال بهذا القول والتفريق طائفة من الأصحاب منهم، وقال آخرون قولا رابعا فى المسألة، وهو التفرقة بين أكل الكلب فيحرم لحديث عديّ، وبين أكل الصقور ونحوها فلا يحرم؛ لأنه لا يقبل التعليم إلا بالأكل.

(١) تفسير الطبرى (٩/٥٦٥، ٥٦٦).

(٢) فى أ: «منها».

(٣) سنن أبى داود برقم (٢٨٥٧).

(٤) فى ر: «يوسف بن سيف»، وفى أ: «يونس بن سيف».

(٥) سنن أبى داود برقم (٢٨٥٢) ولم أجده فى سنن النسائي.

(٦) ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٤٧٥) ومسلم فى صحيحه برقم (١٩٢٩) من طريق زكريا بن أبى زائدة، به.

(٧) فى أ: «فجاء».

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا أبو إسحاق الشيباني، عن حماد، عن^(١) إبراهيم، عن ابن عباس؛ أنه قال في الطير: إذا أرسلته فقتل فكل، فإن الكلب إذا ضربته لم يعد، وإن تعلّم الطير أن يرجع إلى صاحبه وليس يضرب، فإذا أكل من الصيد ونتف الريش فكل^(٢).

وكذا قال إبراهيم النخعي، والشعبي، وحماد بن أبي سليمان.

وقد يحتج لهؤلاء بما رواه ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد، حدثنا المحاربي، حدثنا مجالد، عن الشعبي، عن عدى بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة، فما يحل لنا منها؟ قال: «يحل لكم ما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله، فكلوا مما أمسكن عليكم، واذكروا اسم الله عليه» ثم قال: «ما أرسلت من كلب وذكر اسم الله عليه، فكل ما أمسك عليك». قلت: وإن قتل؟ قال: «وإن قتل، مالم يأكل». قلت: يا رسول الله، وإن خالطت كلابنا كلاب غيرها؟ قال: «فلا تأكل حتى تعلم أن كلبك هو الذي أمسك». قال: قلت: إنا قوم نرمي، فما يحل لنا؟ قال: «ما ذكرت اسم الله عليه وخزقت فكل».

فوجه الدلالة لهم أنه اشترط في الكلب ألا يأكل، ولم يشترط ذلك في البزاة، فدل على التفرقة بينهما في الحكم، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي: عند الإرسال، كما قال النبي ﷺ لعدى بن حاتم: «إذا أرسلت كلبك المعلم^(٣)، وذكرت اسم الله، فكل ما أمسك عليك». وفي حديث أبي ثعلبة المخرج في الصحيحين أيضا: «إذا أرسلت كلبك، فاذكر اسم الله، وإذا رميت بسهمك فاذكر اسم الله»؛ ولهذا اشترط من اشترط من الأئمة كأحمد [بن حنبل]^(٤) - في المشهور عنه^(٥) - التسمية - عند إرسال الكلب والرمي بالسهم لهذه الآية وهذا الحديث، وهذا القول هو المشهور عن^(٦) الجمهور، أن^(٧) المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الإرسال، كما قال^(٨) السُّدِّي وغير واحد.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يقول: إذا أرسلت جارحك فقل: باسم الله، وإن نسيت فلا حرج.

وقال بعض الناس: المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الأكل كما ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ علّم ربيّه عمر بن أبي سلمة فقال: «سَمَّ الله، وكلّ بيمينك، وكلّ مما يليك»^(٩). وفي صحيح البخاري: عن عائشة أنهم قالوا: يا رسول الله، إن قوما يأتوننا - حديث عهدهم بكفر - بلحمان لا ندري أذكر اسم الله عليها^(١٠) أم لا؟ فقال: «سَمُّوا أنتم وكلوا»^(١١).

(١) في ر، أ: «بن».

(٢) تفسير الطبري (٥٥٧/٩).

(٣) في أ: «المكلب».

(٤) زيادة من ر، أ.

(٥) في أ: «قاله».

(٦) في أ: «وأن».

(٧) صحيح البخاري برقم (٥٣٧٦) وصحيح مسلم برقم (٢٠٢٢).

(٨) في ر، أ: «عليه».

(٩) صحيح البخاري برقم (٥٥٠٧).

(٥، ٦) في أ: «عند».

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا هشام، عن بُدَيْل، عن عبد الله بن عبيد بن عمير، عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ كان يأكل الطعام في ستة نفر من أصحابه، فجاء أعرابي فأكله بلقمتين، فقال النبي ﷺ: «أما إنه لو^(١) كان ذكر اسم الله لكفاكم، فإذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله، فإن نسي أن يذكر اسم الله أوله فليقل: باسم الله^(٢) أوله وآخره».

وهكذا رواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يزيد بن هارون، به^(٣). وهذا منقطع بين عبد الله^(٤) بن عبيد بن عمير وعائشة، فإنه لم يسمع منها هذا الحديث، بدليل ما رواه الإمام أحمد:

حدثنا عبد الوهاب، أخبرنا هشام - يعني ابن أبي عبد الله الدستوائي - عن بديل، عن عبد الله ابن عبيد بن عمير؛ أن امرأة منهم - يقال لها: أم كلثوم - حدثته، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان يأكل طعاما في ستة من أصحابه، فجاء أعرابي جائع فأكله بلقمتين، فقال: «أما إنه لو ذكر اسم الله لكفاكم، فإذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله، فإن نسي اسم الله في أوله فليقل: باسم الله أوله وآخره».

[و]أ^(٥)رواه أحمد أيضا، وأبو داود، والترمذي، والنسائي من غير وجه، عن هشام الدستوائي، به^(٦). وقال الترمذي: حسن صحيح.

حديث آخر: وقال أحمد: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا جابر بن صبح^(٧)، حدثني الثني بن عبد الرحمن الخزاعي، وصحبته إلى واسط، فكان يسمى في أول طعامه^(٨) وفي آخر لقمة يقول: بسم الله أوله وآخره.

فقلت له: إنك تسمى في أول ما تأكل، رأيت^(٩) قولك في آخر ما تأكل: باسم الله أوله وآخره؟ فقال: أخبرك عن ذلك إن جدى أمية بن مخشى^(١٠) - وكان من أصحاب النبي ﷺ - سمعته يقول: إن رجلا كان يأكل، والنبي ينظر، فلم يسم، حتى كان في آخر طعامه لقمة، فقال: باسم الله أوله وآخره. فقال النبي ﷺ: «والله ما زال الشيطان يأكل معه حتى سمى، فلم يبق شيء في بطنه حتى قاءه».

وهكذا رواه أبو داود والنسائي، من حديث جابر بن صبح^(١١) الراسبي أبي بشر البصري^(١٢)، ووثقه ابن معين والنسائي، وقال أبو الفتح الأزدي: لا تقوم به الحجة^(١٣).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن خيثمة، عن أبي حذيفة

(١) في ر: «أما لو أنه».

(٣) المسند (١٤٣/٦) وسنن ابن ماجه برقم (٣٢٦٤).

(٤) في أ: «عبيد الله».

(٥) زيادة من ر.

(٦) المسند (٢٦٥/٦)، (٢٤٦/٦) وسنن أبي داود برقم (٣٧٦٧) وسنن الترمذي برقم (١٨٥٨) وسنن النسائي الكبرى برقم (١٠١١٢).

(٧) في أ: «صبح».

(٨) في أ: «الطعام».

(٩) في أ: «أفرايت».

(١٠) في أ: «صبح».

(١٢) المسند (٣٣٦/٤) وسنن أبي داود برقم (٣٧٦٨) وسنن النسائي الكبرى برقم (١٠١١٣).

(١٣) في أ: «لا يقوم به حجة».

قال أبو عبد الرحمن عبد الله بن الإمام أحمد: واسمه سلمة بن الهيثم بن صهيب - من أصحاب ابن مسعود - عن حذيفة قال: كنا إذا حضرنا مع النبي ﷺ^(١) على طعام، لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله ﷺ^(٢) فيضع يده، وإنا حضرنا معه طعاما فجاءت جارية، كأنما تُدفع، فذهبت تضع يدها في الطعام، فأخذ رسول الله ﷺ^(٣) بيدها، وجاء أعرابي كأنما يُدفع، فذهب يضع يده في الطعام، فأخذ رسول الله ﷺ^(٤) بيده، فقال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يستحلُّ الطعام إذا لم يذكر اسم الله عليه، وإنه جاء بهذه الجارية ليستحل^(٥) بها، فأخذت بيدها، وجاء بهذا الأعرابي ليستحل به، فأخذت بيده، والذي نفسى بيده، إن يده في يدي مع يدهما^(٦)» يعني الشيطان. وكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي، من حديث الأعمش به^(٦).

حديث آخر: روى مسلم وأهل السنن إلا الترمذى^(٧)، من طريق ابن جُرَيْج، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل بيته، فذكر الله^(٨) عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم^(٩) يذكر اسم الله عند دخوله قال الشيطان: أدركتم^(١٠) المبيت، فإذا لم يذكر اسم الله عند طعامه قال: أدركتم^(١١) المبيت والعشاء». لفظ أبي داود.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا الوليد بن مسلم، عن وَحْشِيِّ بْنِ حَرْبٍ بن وَحْشِيِّ بن حَرْبٍ، عن أبيه، عن جده؛ أن رجلا قال للنبي ﷺ: إنا نأكل وما نشبع؟ قال: «فلعلكم^(١٢) تأكلون متفرقين، اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله، يبارك لكم فيه». ورواه أبو داود، وابن ماجه، من طريق الوليد بن مسلم^(١٣).

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾﴾.

لما ذكر تعالى ما حرمه على عباده المؤمنين من الخبائث، وما أحله لهم من الطيبات، قال بعده: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾.

(١)، (٢) زيادة من أ.

(٣) زيادة من و، أ.

(٤) في أ: «فيستحل».

(٥) في أ: «بيديهما».

(٦) المسند (٣٨٢/٥) وصحيح مسلم برقم (٢٠١٧) وسنن أبي داود برقم (٣٧٦٦) وسنن النسائي الكبرى برقم (٦٧٥٤).

(٧) صحيح مسلم برقم (٢٠١٨) وسنن أبي داود برقم (٣٧٦٥) وسنن النسائي الكبرى برقم (٦٧٥٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٨٧).

(٨) في أ: «فذكر اسم الله».

(٩) في أ: «ولم».

(١٠)، (١١) في أ: «أدركتم».

(١٢) في أ: «فلعلكم».

(١٣) المسند (٥٠١/٣) وسنن أبي داود برقم (٣٧٦٤) وسنن ابن ماجه برقم (٣٢٨٦).

ثم ذكر حكم ذبائح أهل الكتابين من اليهود والنصارى، فقال: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ﴾. قال ابن عباس، وأبو أمامة، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، وعطاء، والحسن، ومكحول، وإبراهيم النخعي، والسدي، ومقاتل بن حيان: يعنى ذبائحهم.

وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء: أن ذبائحهم حلال للمسلمين؛ لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله، ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله، وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزّه عن قولهم، تعالى وتقدس. وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مغفل قال: دُلِّيَ بجرباب من شحم يوم خيبر. [قال] (١): فاحتضنته (٢) وقلت: لا أعطى اليوم من هذا أحداً، والتفت فإذا النبي ﷺ يتبسم (٣).

فاستدل به الفقهاء على أنه يجوز تناول ما يحتاج إليه من الأطعمة ونحوها من الغنيمة قبل القسمة، وهذا ظاهر. واستدل به الفقهاء الحنفية والشافعية والحنابلة على أصحاب مالك في منعهم أكل (٤) ما يعتقد اليهود تحريمه (٥) من ذبائحهم، كالشحوم ونحوها مما حرم عليهم. فالملكية لا يجوزون للمسلمين أكله؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ﴾، قالوا: وهذا ليس من طعامهم. واستدل عليهم (٦) الجمهور بهذا الحديث، وفي ذلك نظر؛ لأنه قضية عين، ويحتمل أنه كان شحماً يعتقدون حله، كشحم الظهر والخوايا ونحوهما، والله أعلم.

وأجود منه في الدلالة ما ثبت في الصحيح: أن أهل خير أهدوا لرسول الله ﷺ شاة مصلية، وقد سمّوا ذراعها، وكان يعجبه الذراع، فتناوله فنَهَشَ منه نَهْشَةً، فأخبره الذراع أنه مسموم، فلَفَظَهُ وأثر ذلك السم في ثنانيا رسول الله ﷺ وفي أنبهره، وأكل معه منها بشر بن البراء بن معرور؛ فمات، فقتل اليهودية التي سمتها، وكان اسمها زينب، فقتلت ببشر بن البراء (٧).

ووجه الدلالة منه أنه عزم على أكلها ومن معه، ولم يسألهم هل نزعوا منها ما يعتقدون تحريمه من شحمها أم لا.

وفي الحديث الآخر: أن رسول الله ﷺ أضافه يهودى على خبز شعير وإهالة سنخة، يعنى: ودكا زنخا (٨).

وقال ابن أبي حاتم: قرئ على العباس بن الوليد بن مزيد، أخبرنا محمد بن شعيب، أخبرني النعمان بن المنذر، عن مكحول قال: أنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١] ثم نسخها الرب، عز وجل، ورحم المسلمين، فقال: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ﴾، فنسخها بذلك، وأحل طعام أهل الكتاب.

وفي هذا الذى قاله مكحول، رحمه الله، نظر، فإنه لا يلزم من إباحته طعام أهل الكتاب إباحة أكل ما لم يذكر اسم الله عليه؛ لأنهم يذكرون اسم الله على ذبائحهم وقرايبهم، وهم متعبدون

(١) زيادة من أ.

(٢) صحيح البخارى برقم (٣١٥٣) وصحيح مسلم برقم (١٧٧٢).

(٣) فى أ: «كل».

(٤) فى أ: «وتحريمه».

(٥) فى ر: «عليه».

(٦) ورواه أبو داود فى سننه برقم (٤٥١٢) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

(٧) رواه أحمد فى مسنده (٢١١/٣) من حديث أنس، رضى الله عنه.

بذلك؛ ولهذا لم يبح ذبائح من عداهم من أهل الشرك ومن شابههم، لأنهم لم يذكروا اسم الله على ذبائحهم، بل ولا يتوقفون فيما يأكلونه من اللحم على ذكاة، بل يأكلون الميتة، بخلاف أهل الكتابين ومن شاكلهم من السامرة والصابئة، ومن تَمَسَّكَ بدين إبراهيم وشيت وغيرهما من الأنبياء، على أحد قولى العلماء، ونصارى العرب كبنى تغلب وتَنُوخ وبَهْرَاء وجُدَام وَلَحْم وعاملة ومن أشبههم، لا تؤكل ذبائحهم عند الجمهور.

[و] ^(١) قال أبو جعفر بن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُليَّة، عن أيوب، عن ^(٢) محمد، عن عبيدة قال: قال على: لا تأكلوا ذبائح بنى تغلب؛ لأنهم ^(٣) إنما يتمسكون من النصرانية بشرب الخمر.

وكذا قال غير واحد من الخلف والسلف.

وقال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، والحسن؛ أنهما كانا لا يريان بأسا بذبيحة نصارى بنى تغلب.

وأما المجوس، فإنهم وإن أخذت منهم الجزية تبعا وإلحاقا لأهل الكتاب، فإنهم ^(٤) لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم، خلافا لأبى ثور إبراهيم بن خالد الكلبى، أحد الفقهاء من أصحاب الشافعى، وأحمد بن حنبل، ولما قال ذلك واشتهر عنه أنكر عليه الفقهاء ذلك، حتى قال عنه الإمام أحمد: أبو ثور كاسمه! يعنى فى هذه المسألة، وكأنه تمسك بعموم حديث روى مرسلًا عن النبى ﷺ أنه قال: «سُنُوا بِهِمْ سَنَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ» ^(٥)، ولكن لم يثبت بهذا اللفظ، وإنما الذى فى صحيح البخارى: عن عبد الرحمن بن عوف؛ أن رسول الله ﷺ أخذ الجزية من مجوس هَجَرَ ^(٦). ولو سلم صحة هذا الحديث، فعمومه مخصوص بمفهوم هذه الآية: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ﴾، فدل بمفهومه - مفهوم المخالفة - على أن طعام من عداهم من أهل الأديان ^(٧) لا يحل ^(٨).

وقوله: ﴿وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَكُمْ﴾ أى: ويحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم، وليس هذا إخبارًا عن الحكم عندهم، اللهم إلا أن يكون خبرًا عما أمروا به من الأكل من كل طعام ذكر اسم الله عليه، سواء كان من أهل ملتهم أو غيرها. والأول أظهر فى المعنى، أى: ولكم أن تطعموهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم. وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة، كما ألبس النبى ﷺ ثوبه لعبد الله بن أبى بن سلول حين مات ودفنه فيه، قالوا: لأنه كان قد كسا العباس حين قدم المدينة ثوبه، فجازاه النبى ﷺ ذلك بذلك، فأما ^(٩) الحديث الذى فيه: «لا تَصْحَبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقى» ^(١٠) فمحمول على الندب والاستحباب، والله أعلم.

(١) زيادة من أ. (٢) فى ر، أ: «بن». (٣) فى ر، أ: «فإنهم».

(٤) فى أ: «فإنه».

(٥) رواه مالك فى الموطأ (٢٧٨/١) ومن طريقه الشافعى فى السنن (١١٨٣) والبيهقى فى السنن الكبرى (١٨٩/٩) عن جعفر بن محمد، عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس، فقال: ما أدرى كيف أصنع فى أمرهم؟ فقال عبد الرحمن بن عوف: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «سُنُوا بِهِمْ سَنَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ». ومحمد بن على لم يسمع من عمر، فهو متقطع.

(٦) صحيح البخارى برقم (٣١٥٦).

(٧) فى أ: «الأوثان». (٨) فى د: «طعام غير أهل الكتاب لا يحل». (٩) فى أ: «وأما».

(١٠) رواه أبو داود فى السنن برقم (٤٨٣٢) وابن ماجه فى السنن برقم (٢٣٩٥) من حديث أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه.

وقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: وأحل لكم نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات، وذكر هذا توطئة لما بعده، وهو قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، فقليل^(١): أراد بالمحصنات: الحرائر دون الإماء، حكاه ابن جرير عن مجاهد. وإنما قال مجاهد: المحصنات: الحرائر، فيحتمل^(٢) أن يكون أراد ما حكاه عنه، ويحتمل أن يكون أراد بالحرّة العفيفة، كما قاله مجاهد في الرواية الأخرى عنه. وهو^(٣) قول الجمهور ههنا، وهو الأشبه؛ لثلا يجتمع فيها أن تكون ذمية وهي مع ذلك غير عفيفة، فيفسد حالها بالكلية، ويتحصل زوجها على ما قيل^(٤) في المثل: «حَشَفًا»^(٥) وسوء كيلة^(٦)». ^(٧) والظاهر من الآية أن المراد بالمحصنات: العفيفات عن الزنا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥].

ثم اختلف المفسرون والعلماء في قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾: هل يعم كل كتابية عفيفة، سواء كانت حرة أو أمة؟ حكاه ابن جرير عن طائفة من السلف، ممن فسر المحصنة بالعفيفة. وقيل: المراد بأهل الكتاب ههنا الإسرائيليات، وهو مذهب الشافعي. وقيل: المراد بذلك: الذميات دون الحرييات؛ لقوله: ﴿فَاتْلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ [وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ]﴾^(٨) [التوبة: ٢٩].

وقد كان عبد الله بن عمر لا يرى التزويج بالنصرانية، ويقول: لا أعلم شركا أعظم من أن تقول: إن ربها عيسى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَكْبَرُوا الْمُشْرَكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ الآية [البقرة: ٢٢١].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن حاتم بن سليمان المؤدب، حدثنا القاسم بن مالك - يعني المزني - حدثنا إسماعيل بن سميع، عن أبي مالك الغفاري، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَتَكْبَرُوا الْمُشْرَكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾، قال: فحجز الناس عنهن حتى نزلت التي بعدها: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، فنكح الناس [من]^(٩) نساء أهل الكتاب.

وقد تزوج جماعة من الصحابة من نساء النصارى ولم يروا بذلك بأسا، أخذوا بهذه الآية الكريمة: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، فجعلوا^(١٠) هذه مخصصة للآية التي في البقرة: ﴿وَلَا تَتَكْبَرُوا الْمُشْرَكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ [الآية: ٢٢١] إن قيل بدخول الكتابيات في عمومها، وإلا فلا معارضة بينها وبينها^(١١)؛ لأن أهل الكتاب قد يُفصل في ذكرهم عن المشركين في غير موضع، كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١]، وكقوله^(١٢): ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ

(١) في د: «قيل»، وفي أ: «قلت».

(٢) في أ: «يحتمل».

(٣) في أ: «وهي».

(٤) في د: «كما قيل».

(٥) في ر، د: «حشف».

(٦) في أ: «كلية»، وهو خطأ.

(٧) الحشف: أردأ التمر، وانظر: مجمع الأمثال للميداني (٢٠٧/١).

(٨) زيادة من ر، أ. وفي هـ: «الآية».

(٩) زيادة من أ.

(١٠) في أ: «وجعلوا».

(١١) في ر، أ: «وبيننا».

(١٢) في ر: «ولقوله».

اهْتَدُوا» الآية [آل عمران: ٢٠] ، وقوله: ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أى^(١): مهورهن، أى: كما هن محصنات عفائف، فابذلوا لهن المهور^(٢) عن طيب نفس. وقد أفتى جابر بن عبد الله، وإبراهيم النخعي، وعامر الشعبي، والحسن البصري بأن الرجل إذا نكح امرأة فزنت قبل دخوله بها: أنه يفرق بينه وبينها، وتردّ عليه ما بذل لها من المهر. رواه ابن جرير عنهم.

وقوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾: فكما شرط الإحصان فى النساء - وهى العفة عن الزنا - كذلك شرطها فى الرجال وهو أن يكون الرجل أيضا محصنا عفيفا؛ ولهذا قال: ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ وهم: الزناة الذين لا يترددون عن معصية، ولا يردون أنفسهم عن مجيءهم، ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ أى: ذوى العشيقات الذين^(٣) لا يفعلون إلا معهن، كما تقدم فى سورة النساء سواء؛ ولهذا ذهب الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله، إلى أنه لا يصح نكاح المرأة البغى حتى تتوب، وما دامت كذلك لا يصح تزويجها من رجل عفيف، وكذلك لا يصح عنده عقد الرجل الفاجر على عفيفة حتى يتوب ويقبل عما هو فيه من الزنا؛ لهذه الآية وللحديث الآخر: «لا ينكح الزانى المجلود إلا مثله»^(٤).

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا أبو هلال، عن قتادة، عن الحسن قال: قال عمر بن الخطاب [رضى الله عنه]^(٥): لقد هممت ألا أدع أحدا أصاب فاحشة فى الإسلام أن يتزوج محصنة. فقال له أبى بن كعب: يا أمير المؤمنين، الشرك أعظم من ذلك، وقد يقبل منه إذا تاب^(٦).

وسياتى الكلام على هذه المسألة مستقصي [إن شاء الله تعالى]^(٧) عند قوله: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣]؛ ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٦).

قال كثيرون من السلف: قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾: معناه وأنتم محدثون.

(١) فى أ: «يعنى».

(٢) فى أ: «مهورهن».

(٣) فى ر، أ: «اللاتى».

(٤) رواه أبو داود فى سننه برقم (٢٠٥٢) من طريق عمرو بن شعيب، عن سعيد المقبرى، عن أبى هريرة به.

(٥) زيادة من أ.

(٦) تفسير الطبرى (٥٨٤/٩).

(٧) زيادة من أ.

وقال آخرون: إذا قمتم من النوم إلى الصلاة، وكلاهما قريب.

وقال آخرون: بل المعنى أعم من ذلك، فالآية أمرة بالوضوء عند القيام إلى الصلاة، ولكن هو في حق المحدث على سبيل الإيجاب، وفي حق المتطهر على سبيل الندب والاستحباب. وقد قيل: إن الأمر بالوضوء لكل صلاة كان واجبا في ابتداء الإسلام، ثم نسخ.

قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بريدة^(١)، عن أبيه قال: كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه، وصلى الصلوات بوضوء واحد. فقال له عمر: يا رسول الله، إنك فعلت شيئا لم تكن تفعله؟ قال: «إني عمدأ فعلته يا عمر».

وهكذا رواه مسلم وأهل السنن من حديث سفيان الثوري، عن علقمة بن مرثد^(٢). ووقع في سنن ابن ماجه، عن سفيان عن محارب بن دثار - بدل علقمة بن مرثد - كلاهما عن سليمان بن بريدة^(٣)، به وقال الترمذی: حسن صحيح.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عباد بن موسى، أخبرنا زياد بن عبد الله بن الطفيل البكائي، حدثنا الفضل بن المُبَشَّر قال: رأيت جابر بن عبد الله يصلي الصلوات بوضوء واحد، فإذا بال أو أحدث، توضأ ومسح بفضل طهوره الخفين. فقلت: أبا عبد الله، شيء^(٤). تصنعه برأيك؟ قال: بل رأيت النبي ﷺ يصنعه، فأنا أصنعه، كما رأيت رسول الله ﷺ يصنع^(٥).

وكذا رواه ابن ماجه، عن إسماعيل بن توبة، عن زياد البكائي، به^(٦). وقال أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن^(٧) إسحاق، حدثني محمد بن يحيى بن حبان الأنصاري، عن عبيد الله ابن عبد الله بن عمر قال: قلت له: رأيت وضوء عبد الله بن عمر لكل صلاة طاهراً كان أو غير طاهر، عمن هو؟ قال: حدثته أسماء بنت زيد بن الخطاب؛ أن عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر بن الغسيل حدثها، أن رسول الله ﷺ كان أمر بالوضوء لكل صلاة طاهراً كان أو غير طاهر، فلما شق ذلك على رسول الله ﷺ أمر بالسواك عند كل صلاة ووضع عنه الوضوء، إلا من حدث. فكان عبد الله يرى أن به قوة على ذلك، كان يفعله حتى مات^(٨).

وكذا رواه أبو داود، عن محمد بن عوف^(٩) الحمصي، عن أحمد بن خالد الذهبي، عن محمد

(١) في أ: «يزيد».

(٢) المسند (٣٥٨/٥) وصحيح مسلم برقم (٢٧٧) وسنن أبي داود برقم (١٧٢) وسنن الترمذی برقم (٦١) وسنن النسائي (٨٦/١) وسنن ابن ماجه برقم (٥١٠).

(٣) في أ: «يزيد».

(٤) في أ: «أشياء».

(٥) في أ: «يصنعه».

(٦) زيادة من أ.

(٧) في أ: «رسول الله».

(٨) تفسير الطبري (١١/١٠) وسنن ابن ماجه برقم (٥١١) وقال البوصيري في الزوائد (٢٠٢/١): «هذا إسناد ضعيف، الفضل بن مبشر ضعفه الجمهور، وهو في البخاري وأبي داود والترمذی والنسائي وابن ماجه من حديث أنس بن مالك».

(٩) في ر: «أبي».

(١٠) المسند (٢٢٥/٥).

(١١) في أ: «عون».

ابن إسحاق، عن محمد بن يحيى بن حَبَّان، عن عبد الله بن عبد الله ^(١) بن عمر ^(٢)، ثم قال أبو داود: ورواه إبراهيم بن سعد، عن محمد بن إسحاق فقال: عبيد الله بن عبد الله بن عمر، يعنى كما تقدم فى رواية الإمام أحمد.

وأيا ما كان فهو ^(٣) إسناده صحيح، وقد صرح ابن إسحاق فيه بالتحديث والسماع من محمد بن يحيى بن حَبَّان، فزال محذور التدليس. لكن قال الحافظ ابن عساكر: رواه سلمة بن الفضل وعلى بن مجاهد، عن ابن إسحاق، عن محمد بن طلحة بن يزيد بن رُكَّانة، عن محمد بن يحيى بن حَبَّان، به، والله ^(٤) أعلم. وفى فعل ابن عمر هذا، ومداومته على إسباغ الوضوء لكل صلاة، دلالة على استحباب ذلك، كما هو مذهب الجمهور.

وقال ابن جرير: حدثنا زكريا بن يحيى بن أبى زائدة، حدثنا أزهر، عن ابن عَوْن، عن ابن سيرين: أن الخلفاء كانوا يتوضؤون لكل صلاة.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى ^(٥)، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شُعْبَة، سمعت مسعود ابن على الشيباني، سمعت عكرمة يقول: كان على، رضى الله عنه، يتوضأ عند كل صلاة، ويقرأ هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ الآية.

وحدثنا ابن المثنى، حدثنى وهب بن جرير، أخبرنا شعبة، عن عبد الملك بن ميسرة، عن النزال ابن سبرة قال: رأيت علياً صلى الظهر، ثم قعد للناس فى الرَّحْبَة، ثم أتى بماء فغسل وجهه ويديه، ثم مسح برأسه ورجليه، وقال ^(٦): هذا وضوء من لم يحدث.

وحدثنى يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيْم ^(٧)، عن مغيرة، عن إبراهيم؛ أن علياً اكماز ^(٨) من حُبِّ، فتوضأ وضوءاً فيه تجوُّز ^(٩) فقال: هذا وضوء من لم يحدث. وهذه طرق جيدة عن على [رضى الله عنه] ^(١٠) يقوى بعضها بعضاً.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا ابن بَشَّار، حدثنا ابن عَدِيٍّ، عن حُمَيْد، عن أنس قال: توضأ عمر بن الخطاب وضوءاً فيه تجوُّز، خفيفاً، فقال ^(١١): هذا وضوء من لم يحدث. وهذا إسناده صحيح ^(١٢).

(١) فى ر، أ: «عبيد الله».

(٢) سنن أبى داود برقم (٤٨).

(٣) فى أ. «فهو ثقة فهو».

(٤) فى أ: «ثم قال».

(٥) فى ر، أ: «تجاوز».

(٦) تفسير الطبرى (١٠/١٣).

(٤) فى ر، أ: «فالله».

(٧) فى أ: «هشام».

(١٠) زيادة من أ.

(٥) فى ر: «مثنى».

(٨) فى هـ: «أدار»، والمثبت من ر، أ.

(١١) فى أ: «وقال».

وقال محمد بن سيرين: كان الخلفاء يتوضؤون لكل صلاة.

وأما ما رواه أبو داود الطيالسي، عن أبي هلال، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب أنه قال: الوضوء من غير حدث اعتداء. فهو غريب عن سعيد بن المسيب، ثم هو محمول على أن من اعتقد وجوبه فهو معتد، وأما مشروعيته استحباباً فقد دلت السنة على ذلك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان، عن عمرو بن عامر الأنصاري، سمعت أنس بن مالك يقول: كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، قال: قلت ^(١): فأنتم كيف كنتم تصنعون؟ قال: كنا نصلّي الصلوات بوضوء واحد ما لم نحدث.

وقد رواه البخاري وأهل السنن من غير وجه عن عمرو بن عامر، به ^(٢).

وقال ابن جرير: حدثني أبو سعيد البغدادي، حدثنا إسحاق بن منصور، عن هريم، عن عبد الرحمن بن زياد - هو الإفريقي - عن أبي غطف، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ على طهر كتب ^(٣) له عشر حسنات».

ورواه أيضاً من حديث عيسى بن يونس، عن الإفريقي، عن أبي غطف، عن ابن عمر، فذكره، وفيه قصة ^(٤).

وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه من حديث الإفريقي، به نحوه ^(٥). وقال الترمذي: وهو إسناد ضعيف.

قال ابن جرير: وقد قال قوم: إن هذه الآية نزلت إعلاما من الله أن الوضوء لا يجب إلا عند القيام إلى الصلاة، دون غيرها من الأعمال؛ وذلك لأنه عليه السلام ^(٦) كان إذا أحدث امتنع من الأعمال كلها حتى يتوضأ.

حدثنا أبو كريب، حدثنا معاوية بن هشام، عن سفيان ^(٧)، عن جابر، عن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، عن عبد الله بن علقمة بن الفغواء، عن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أراق البول نكلمه فلا يكلمنا، ونسلم عليه فلا يرد علينا، حتى نزلت آية الرخصة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ الآية.

ورواه ابن أبي حاتم عن محمد بن مسلم، عن أبي كريب، به ^(٨) نحوه. وهو حديث غريب

(١) في أ: «فقلت».

(٢) المسند (١٣٢/٣) وصحيح البخاري برقم (٢١٤) وسنن أبي داود برقم (١٧١) وسنن الترمذي برقم (٦٠) وسنن النسائي (٨٥/١) وسنن ابن ماجه برقم (٥٠٩).

(٣) في أ: «كتبت».

(٤) تفسير الطبري (٢١/١٠، ٢٢).

(٥) سنن أبي داود برقم (٦٢) وسنن الترمذي برقم (٥٩) وسنن ابن ماجه برقم (٥١٢).

(٦) في أ: «ﷺ».

(٧) في أ: «شيان».

(٨) تفسير الطبري (٢٣/١٠) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٦/١٨) من طريق أبي كريب به. وقال الهيثمي في المجمع (٢٧٦/١): «فيه جابر الجعفي وهو ضعيف».

جداً، وجابر هذا هو ابن يزيد^(١) الجعفي، ضعفه.

وقال أبو داود: حدثنا مُسَدَّدٌ، حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب، عن عبد الله بن أبي مليكة، عن عبد الله بن عباس؛ أن رسول الله ﷺ خرج من الخلاء، فقدم إليه طعام، فقالوا: ألا تأتيك بوضوء فقال: «إنما أمرت بالوضوء إذا قُمتُ إلى الصلاة».

وكذا رواه الترمذي عن أحمد بن منيع والنسائي عن زياد بن أيوب، عن إسماعيل - وهو ابن علي - به^(٢). وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

وروى مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن سعيد بن الحويرث، عن ابن عباس قال: كنا عند النبي ﷺ فأتى الخلاء، ثم إنه رجع فأتى بطعام، فقيل: يا رسول الله، ألا تتوضأ؟ فقال: «لم؟ أأصلي^(٣) فأتوضأ؟»^(٤).

وقوله: «فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ» قد استدل طائفة من العلماء بقوله: «إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ» على وجوب النية في الوضوء؛ لأن تقدير الكلام: «إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم لها»، كما تقول العرب: «إذا رأيت الأمير فقم» أي: له. وقد ثبت في الصحيحين حديث: «الأعمال^(٥) بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»^(٦).

ويستحب قبل غسل الوجه أن يذكر اسم الله تعالى على وضوئه؛ لما ورد في الحديث من طرق^(٧) جيدة، عن جماعة من الصحابة، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه»^(٨).

ويستحب أن يغسل كفيه قبل إدخالهما في الإناء^(٩)، ويتأكد ذلك عند القيام من النوم؛ لما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا استيقظ أحدكم من نومه، فلا يَدخل يده في الإناء قبل أن يغسلها ثلاثاً، فإن أحدكم لا يَدْرِ أين باتت يده»^(١٠).

وحدَّ الوجه عند الفقهاء: ما بين منابت شعر الرأس - ولا اعتبار بالصَّلَع ولا بالغَمَم - إلى منتهى اللحيين والذقن طولا، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً، وفي التَّزَعُّتَيْنِ^(١١) والتحذيف خلاف، هل هما

(١) في ر، أ: «ابن زيد».

(٢) سنن أبي داود برقم (٣٧٦٠) وسنن الترمذي برقم (١٨٤٧) وسنن النسائي (٨٥/١).

(٣) في أ: «لم أصل».

(٤) صحيح مسلم برقم (٣٧٤).

(٥) في أ: «إنما الأعمال».

(٦) صحيح البخاري برقم (١) وصحيح مسلم برقم (١٩٠٧).

(٧) في أ: «طريق».

(٨) روى من حديث أبي هريرة: رواه أبو داود في السنن برقم (١٠١)، وروى من حديث أبي سعيد الخدري: رواه ابن ماجه في السنن

برقم (٣٩٧)، وروى من حديث سهل بن سعد: رواه ابن ماجه في السنن برقم (٤٠٠).

(٩) في أ: «إدخالهما الماء».

(١٠) صحيح البخاري برقم (١٦٢) وصحيح مسلم برقم (٢٧٨).

(١١) في ر، أ: «التزعنتان» وهو خطأ.

من الرأس أو الوجه، وفي المسترسل من اللحية عن محل الفرض قولان، أحدهما: أنه يجب إفاضة الماء عليه لأنه تقع به المواجهة. وروى في حديث: أن النبي ﷺ رأى رجلاً مغطياً لحيته، فقال: «اكشفها، فإن اللحية من الوجه»^(١). وقال مجاهد: هي من الوجه، ألا تسمع إلى قول العرب في الغلام إذا نبتت لحيته: طلع وجهه.

ويستحب للمتوضئ أن يخلل لحيته إذا كانت كثة، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا إسرائيل، عن عامر بن شقيق بن جمره، عن أبي وائل^(٢) قال: رأيت عثمان توضأ - فذكر الحديث - قال: وخلل اللحية ثلاثاً حين غسل وجهه، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ فعل الذي رأيتموني فعلت. رواه الترمذی، وابن ماجه من حديث عبد الرزاق^(٣) وقال الترمذی: حسن صحيح، وحسنه البخاری.

وقال أبو داود: حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع، حدثنا أبو المليلح، حدثنا الوليد بن زوران^(٤)، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا توضأ أخذ كفاً من ماء فأدخله تحت عنقه، يخلل^(٥) به لحيته، وقال: «هكذا أمرني به ربي، عز وجل».

تفرد به أبو داود^(٦). وقد روى هذا^(٧) من غير وجه عن أنس. قال البيهقي: وروينا في تحليل اللحية عن عمار، وعائشة، وأم سلمة عن النبي ﷺ، ثم عن علي وغيره، وروينا في الرخصة في تركه عن ابن عمر، والحسن بن علي، ثم عن النخعي، وجماعة من التابعين^(٨).

وقد ثبت عن النبي ﷺ من غير وجه في الصحاح وغيرها: أنه كان إذا توضأ تمضمض^(٩) واستنشق، فاختلف الأئمة في ذلك: هل هما واجبان في الوضوء والغسل، كما هو مذهب أحمد بن حنبل، رحمه الله؟ أو مستحبان فيهما، كما هو مذهب الشافعي ومالك؟ لما ثبت في الحديث الذي رواه أهل السنن وصححه ابن خزيمة، عن رفاع بن رافع الزرقى؛ أن النبي ﷺ قال للمسيء في صلاته: «توضأ كما أمرك الله»^(١٠) أو يجبان في الغسل دون الوضوء، كما هو مذهب أبي حنيفة؟ أو يجب

(١) المسند (١٤٩/١) وسنن الترمذی برقم (٣١) وسنن ابن ماجه (٤٣٠) وقال الإمام أحمد: «أحسن شيء في تحليل اللحية حديث شقيق عن عثمان».

(٢) في ر، أ: «عن شقيق بن سلمة».

(٣) سنن أبي داود برقم (١٤٥).

(٤) في ر: «زوران»، وفي أ: «وردان».

(٥) في أ: «فخلل».

(٦) ١- روى عن طريق عمر بن ذؤيب عن ثابت عن أنس: رواه العقيلى في الضعفاء (١٥٧/٣).

٢- روى من طريق الحسن البصري عن أنس: رواه الدارقطنى في السنن (١٠٦/١).

٣- روى من طريق الزهرى عن أنس.

٤- وروى من طريق موسى بن أبي عائشة عن أنس: رواهما الحاكم في المستدرک (١٤٩/١).

(٧) في أ: «هذا الوجه».

(٨) السنن الكبرى للبيهقى (٥٤/١) أما حديث عمار: فيرويه سفيان بن عيينة، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن حسان بن

بلال عنه، أخرجه الترمذی في السنن برقم (٣٠).

وأما حديث عائشة: فيرويه موسى بن ثروان عن طلحة بن عبيد عنها، أخرجه أحمد في المسند (٢٣٥/٦)، وقال الهيثمى في

المجمع (٢٣٥/١): «رجاله موثقون». وأما حديث أم سلمة: فيرويه خالد بن إلياس، عن عبد الله بن رافع عنها، أخرجه الطبري

في تفسيره (٣٩/١٠).

(٩) في أ: «مضمض».

(١٠) سنن أبي داود برقم (٨٦١) وسنن الترمذی برقم (٣٠٢) وسنن النسائي (٢٠/٢) وسنن ابن ماجه برقم (٤٦٠) وصحيح ابن خزيمة

برقم (٥٤٥).

الاستنشاق دون المضمضة كما هو رواية عن الإمام أحمد لما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «من توضأ فليستثر»^(١) وفي رواية: «إذا توضأ أحدكم فليجعل في منخريه من الماء ثم ليستثر»^(٢) والانتثار: هو المبالغة في الاستنشاق.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سلمة الخزاعي، حدثنا سليمان بن بلال، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن ابن عباس؛ أنه توضأ فغسل وجهه، ثم أخذ غرفة من ماء فتمضمض بها واستنثر، ثم أخذ غرفة فجعل بها هكذا، يعني أضافها إلى يده الأخرى، فغسل بهما وجهه. ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليمنى، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليسرى، ثم مسح رأسه، ثم أخذ غرفة من ماء، ثم رش على رجله اليمنى حتى غسلها، ثم أخذ غرفة أخرى فغسل بها رجله اليسرى، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ، يعني يتوضأ.

ورواه البخاري، عن محمد بن عبد الرحيم، عن أبي سلمة منصور بن سلمة الخزاعي، به^(٣). وقوله: ﴿وَأَيَّدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ أي: مع المرافق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حَبًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

وقد روى الحافظ الدارقطني وأبو بكر البيهقي، من طريق القاسم بن محمد، عن^(٤) عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جده، عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ إذا توضأ أدار الماء على مرفقيه. ولكن القاسم هذا متروك الحديث، وجده ضعيف^(٥)، والله أعلم.

ويستحب للمتوضئ أن يشرع في العضد ليغسله مع ذراعيه؛ لما روى البخاري ومسلم، من حديث نعيم الجمر، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ أُمْتِيَ يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ»^(٦).

وفي صحيح مسلم: عن قُتَيْبَةَ، عن خَلْفِ بْنِ خَلِيفَةَ، عن أَبِي مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ، عن أَبِي حَازِمٍ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ خَلِيلِي^(٧) ﷺ يَقُولُ: «تَبْلُغُ الْحَلِيَّةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ»^(٨).

وقوله: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾: اختلفوا في هذه «الباء» هل هي للإصاق، وهو الأظهر، أو للتبعض؟ وفيه نظر، على قولين. ومن الأصوليين من قال: هذا مجمل فليرجع^(٩) في بيانه إلى السنة، وقد ثبت في الصحيحين من طريق مالك، عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه؛ أن رجلاً قال لعبد الله بن زيد بن عاصم - وهو جد عمرو بن يحيى، وكان من أصحاب النبي ﷺ -: هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فقال عبد الله بن زيد: نعم، فدعا بوضوء، فأفرغ على يديه، فغسل يديه مرتين مرتين، ثم مضمض^(١٠) واستنشق ثلاثاً، وغسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يديه

(١) صحيح البخاري برقم (١٦١) وصحيح مسلم برقم (٢٣٧).

(٢) في أ: «ثم ليستثر».

(٣) المسند (٢٦٨/١) وصحيح البخاري برقم (١٤٠).

(٤) في أ: «بن».

(٥) سنن الدارقطني (٨٣/١) وسنن البيهقي الكبرى (٥٦/١). قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٢٩٣/١): «ضعيف».

(٦) صحيح البخاري برقم (١٣٦) وصحيح مسلم برقم (٢٤٦).

(٧) في أ: «خليلي رسول الله».

(٨) صحيح مسلم برقم (٢٤٦).

(٩) في أ: «فمضمض».

(١٠) في أ: «فمضمض».

مرتين مرتين إلى المرفقين، ثم مسح بيديه، فأقبل بهما وأدبر، بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجليه^(١).

وفى حديث عبد خير، عن علي في صفة وضوء رسول الله ﷺ^(٢) نحو هذا، وروى أبو داود، عن معاوية والمقدام بن معد يكرب، في صفة وضوء رسول الله ﷺ مثله^(٣).

ففى هذه الأحاديث دلالة لمن ذهب إلى وجوب تكميل مسح جميع الرأس، كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل، لا سيما على قول من زعم أنها خرجت مخرج البيان لما أجمل فى القرآن.

وقد ذهب الحنفية إلى وجوب مسح ربع الرأس، وهو مقدار الناصية. وذهب أصحابنا إلى أنه إنما يجب ما يطلق عليه اسم مسح، لا يتقدر ذلك بحد، بل لو مسح بعض شعره من رأسه أجزأه.

واحتج الفريقان بحديث المغيرة بن شعبة، قال: تخلف النبي ﷺ فتخلفت معه، فلما قضى حاجته قال: «هل معك ماء؟» فأتيته بمطهرة فغسل كفيه ووجهه، ثم ذهب يحسر عن ذراعيه فضاقت كمن الجبة، فأخرج يديه من تحت الجبة وألقى الجبة على منكبيه^(٤)، فغسل ذراعيه ومسح بनावيته، وعلى العمامة وعلى خفيه... وذكر باقى الحديث، وهو فى صحيح مسلم، وغيره^(٥).

فقال لهم أصحاب الإمام أحمد: إنما اقتصر على مسح الناصية لأنه كمل مسح بقية الرأس على العمامة، ونحن نقول بذلك، وأنه يقع عن الموقع كما وردت بذلك أحاديث كثيرة، وأنه كان يمسح على العمامة وعلى الخفين، فهذا^(٦) أولى، وليس لكم فيه دلالة على جواز الاختصار على مسح الناصية أو بعض الرأس من غير تكميل على العمامة، والله أعلم.

ثم اختلفوا فى أنه: هل يستحب تكرار مسح الرأس ثلاثاً، كما هو المشهور من مذهب الشافعى، أو إنما^(٧) يستحب مسحة واحدة، كما هو مذهب أحمد بن حنبل ومن تابعه، على قولين. فقال عبد الرزاق: عن معمر، عن الزهرى، عن عطاء بن يزيد الليثى، عن حمران بن أبان قال: رأيت عثمان ابن عفان توضأ فأفرغ على يديه ثلاثاً فغسلهما، ثم مضمض^(٨) واستنشق، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاثاً، ثم غسل اليسرى مثل ذلك، ثم مسح برأسه، ثم غسل قدمه اليمنى ثلاثاً، ثم اليسرى ثلاثاً مثل ذلك^(٩)، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئى هذا، ثم قال: «من توضأ نحو وضوئى هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه، غفر له ما تقدم من ذنبه».

(١) صحيح البخارى برقم (١٨٥، ١٨٦) وصحيح مسلم برقم (٢٣٥).

(٢) فى أ: «وضوء النبى».

(٣) حديث على رواه أبو داود فى سننه برقم (١١١) وكذا حديث المقدام برقم (١٢١) وحديث معاوية برقم (١٢٤).

(٤) فى ر: «منكبه».

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٧٤).

(٦) فى أ: «وهذا».

(٧) فى أ: «وإنما».

(٨) فى أ: «ثم مسح برأسه، ثم غسل رجليه ثلاث مرار إلى الكعبين».

(٩) فى أ: «فمضمض».

أخرجه البخارى ومسلم فى الصحيحين من طريق الزهرى به نحو هذا^(١)، وفى سنن أبى داود من رواية عبد الله بن عبيد الله بن أبى مليكة، عن عثمان فى صفة الوضوء: ومسح برأسه مرة واحدة^(٢). وكذا من رواية عبد خير، عن على مثله.

واحتج من استحباب تكرار مسح الرأس بعموم الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه، عن عثمان، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ: توضأ ثلاثاً ثلاثاً.

وقال أبو داود: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا الضحاك بن مخلد، حدثنا عبد الرحمن بن وردان، حدثنى أبو سلمة بن عبد الرحمن، حدثنى حمران قال: رأيت عثمان بن عفان توضأ^(٣)... فذكر نحوه، ولم يذكر المضمضة والاستنشاق، قال فيه: ثم مسح رأسه ثلاثاً، ثم غسل رجليه ثلاثاً، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ هكذا وقال: «من توضأ دون هذا كفاه».

تفرد به أبو داود^(٤)، ثم قال: وأحاديث عثمان الصحاح تدل على أنه مسح الرأس مرة واحدة. وقوله: ﴿وَأَرْجُلُكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ قُرئ: ﴿وَأَرْجُلُكُمْ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا أبو سلمة، حدثنا وهيب، عن خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أنه قرأها: ﴿وَأَرْجُلُكُمْ﴾ يقول: رجعت إلى الغسل.

وروى عن عبد الله بن مسعود، وعروة، وعطاء، وعكرمة، والحسن، ومجاهد، وإبراهيم، والضحاك، والسدى، ومقاتل بن حيان، والزهرى، وإبراهيم التيمى، نحو ذلك.

وهذه قراءة ظاهرة فى وجوب الغسل، كما قاله السلف، ومن ههنا ذهب من ذهب إلى وجوب الترتيب^(٥)، كما هو مذهب الجمهور، خلافاً لأبى حنيفة حيث لم يشترط الترتيب، بل لو غسل قدميه ثم مسح رأسه وغسل يديه ثم وجهه أجزاء ذلك؛ لأن الآية أمرت بغسل هذه الأعضاء، و«الواو» لا تدل على الترتيب. وقد سلك الجمهور فى الجواب عن هذا البحث طرقتين، فمنهم من قال: الآية دلت على وجوب غسل الوجه ابتداء عند القيام إلى الصلاة؛ لأنه مأمور به بفاء التعقيب، وهى مقتضية للترتيب، ولم يقل أحد من الناس بوجوب غسل الوجه أولاً ثم لا يجب الترتيب بعده، بل القائل اثنان، أحدهما: يوجب الترتيب، كما هو واقع فى الآية. والآخر يقول: لا يجب الترتيب مطلقاً، والآية دلت على وجوب غسل الوجه ابتداء، فوجب^(٦) الترتيب فيما بعده بالإجماع، حيث لا فارق. ومنهم من قال: لا نسلم أن «الواو» لا تدل على الترتيب، بل هى دالة - كما هو مذهب طائفة من النحاة وأهل اللغة وبعض الفقهاء - ثم نقول^(٧) - بتقدير تسليم كونها لا تدل على الترتيب اللغوى -: هى

(١) صحيح البخارى برقم (١٥٩) وصحيح مسلم برقم (٢٢٦).

(٢) سنن أبى داود برقم (١٠٨).

(٣) فى أ: «يتوضأ».

(٤) سنن أبى داود برقم (١٠٧).

(٥) فى أ: «الترتيب فى الوضوء».

(٦) فى أ: «فيجب».

(٧) فى أ: «يقول».

دالة على الترتيب شرعا فيما من شأنه أن يرتب، والدليل على ذلك أنه ^(١) ﷺ لما طاف بالبيت، خرج من باب الصفا وهو يتلو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] ثم قال: «ابدأ بما بدأ الله به» لفظ مسلم، ولفظ النسائي: «ابدؤوا بما بدأ الله به». وهذا لفظ أمر، وإسناده صحيح، فدل على وجوب البداءة بما بدأ الله به، وهو معنى كونها تدل على الترتيب شرعا، والله أعلم.

ومنهم من قال: لما ذكر تعالى هذه الصفة في هذه الآية على هذا الترتيب، فقطع النظر عن النظر، وأدخل الممسوح بين المغسولين، دل ذلك على إرادة الترتيب.

ومنهم من قال: لا شك أنه قد روى أبو داود وغيره من طريق عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده؛ أن رسول الله ﷺ توضأ مرة مرة، ثم قال: «هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به» ^(٢). قالوا: فلا يخلو ^(٣) إما أن يكون توضأ مرتبا فيجب الترتيب، أو يكون توضأ غير مرتب فيجب عدم الترتيب، ولا قائل به، فوجب ما ذكره ^(٤).

وأما القراءة الأخرى، وهى قراءة من قرأ: ﴿وَأَرْجُلُكُمْ﴾ بالخفض. فقد احتج بها الشيعة فى قولهم بوجوب مسح الرجلين؛ لأنها عندهم معطوفة على مسح الرأس. وقد روى عن طائفة من السلف ما يوهم القول بالمسح، فقال ابن جرير:

حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيْيَّةَ، حدثنا حُمَيْدٌ قال: قال موسى بن أنس لأنس ونحن عنده: يا أبا حمزة، إن الحجاج خطبنا بالأهواز ونحن معه، فذكر الطهور فقال: اغسلوا وجوهكم وأيديكم، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم، وإنه ليس شيء من ابن آدم أقرب من خبثه من قدميه، فاغسلوا بطونهما وظهورهما عراقيهما ^(٥). فقال أنس: صدق الله وكذب الحجاج، قال الله [تعالى] ^(٦): ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ﴾ قال: وكان أنس إذا مسح قدميه بلهما ^(٧). إسناده صحيح إليه.

وقال ابن جرير: حدثنا على بن سَهْلٍ، حدثنا مُؤَمَّلٌ، حدثنا حماد، حدثنا عاصم الأحول، عن أنس ^(٨) قال: نزل القرآن بالمسح، والسنة الغسل ^(٩) وهذا أيضا إسناده صحيح. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا محمد بن قَيْسٍ الخراساني، عن ابن جُرَيْجٍ، عن عمرو ابن دينار، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس قال: الوضوء غَسْلَتَانِ ومسحتان ^(١٠). وكذا روى سعيد بن أبى عَرُوبَةَ، عن قتادة.

(١) فى أ: «أن رسول الله».

(٢) رواه أبو داود فى سننه برقم (١٣٥) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، لكن سياقه مغاير لهذا السياق. وهذا السياق رواه ابن ماجة فى السنن برقم (٤١٩) من حديث عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما.

(٣) فى أ: «ولا يخلو».

(٤) فى أ: «ما ذكرناه».

(٥) فى أ: «عراقيهما».

(٦) زيادة من أ.

(٧) فى أ: «بلها».

(٨) فى ر: «عن الحسن».

(٩) فى أ: «بالغسل».

(١٠) تفسير الطبرى (٥٨/١٠) ورواه عبد الرزاق فى المصنف برقم (٥٥) من طريق ابن جريج به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثني أبي، حدثنا أبو معمر المنقري، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ قال: هو المسح. ثم قال: وروى عن ابن عمر^(١)، وعلقمة، وأبي جعفر، [و]^(٢) محمد بن علي، والحسن - في إحدى الروايات - وجابر بن زيد، ومجاهد - في إحدى الروايات - نحوه.

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن علي، حدثنا أيوب، قال: رأيت عكرمة يمسخ على رجله، قال: وكان يقوله.

وقال ابن جرير: حدثني أبو السائب، حدثنا ابن إدريس، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي قال: نزل جبريل بالمسح. ثم قال الشعبي: ألا ترى أن «التييم» أن يمسخ ما كان غسلا، ويلغى^(٣) ما كان مسحاً؟

وحدثنا ابن أبي زياد، حدثنا يزيد، أخبرنا إسماعيل، قلت لعامر: إن ناسا يقولون: إن جبريل نزل بغسل الرجلين؟ فقال: نزل جبريل بالمسح.

فهذه آثار غريبة جداً، وهي محمولة على أن المراد بالمسح هو الغسل الخفيف، لما سنذكره من السنة الثابتة^(٤) في وجوب غسل الرجلين. وإنما جاءت هذه القراءة بالخفض إما على المجاورة وتناسب الكلام، كما في قول العرب: «جُحِرُ ضَبَّ خَرَبٍ»، وكقوله تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضِرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [الإنسان: ٢١] وهذا سائغ ذائع، في لغة العرب شائع. ومنهم من قال: هي محمولة على مسح القدمين إذا كان عليهما الخفان، قاله أبو عبد الله الشافعي، رحمه الله. ومنهم من قال: هي دالة على مسح الرجلين، ولكن المراد بذلك الغسل الخفيف، كما وردت^(٥) به السنة. وعلى كل تقدير فالواجب غسل الرجلين فرضاً، لا بد منه للآية والأحاديث^(٦) التي سنوردها.

ومن أحسن ما يستدل به على أن المسح يطلق على الغسل الخفيف ما رواه الحافظ البيهقي، حيث قال: أخبرنا أبو علي الروذباري، حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن محمود العسكري، حدثنا جعفر ابن محمد القلانسي، حدثنا آدم، حدثنا شعبة، حدثنا عبد الملك بن ميسرة، سمعت النزال بن سبرة يحدث عن علي بن أبي طالب؛ أنه صلى الظهر، ثم قعد في حوائج الناس في رَحْبَةِ الكوفة حتى حضرت صلاة العصر، ثم أتى بكوز من ماء، فأخذ منه حفنة واحدة، فمسح بها وجهه ويديه ورأسه ورجليه، ثم قام فشرب^(٧) فضله وهو قائم، ثم قال: إنا ناسا يكرهون الشرب قائماً، وإن رسول الله ﷺ^(٨) صنع ما صنعتُ. وقال: «هذا وضوء من لم يحدث».

رواه البخاري في الصحيح، عن آدم، ببعض معناه^(٩).

ومن أوجب^(١٠) من الشيعة مسحهما كما يمسخ الخف، فقد ضل وأضل. وكذا من جوز مسحهما

(١) في أ: «معمر». (٢) زيادة من ر. (٣) في أ: «ويكفي». (٤) في أ: «الثانية». (٥) في أ: «ورد». (٦) في ر: «وللأحاديث». (٧) في ر: «فشرب منه». (٨) زيادة من ر، أ. (٩) السنن الكبرى (١/٧٥) وصحيح البخاري برقم (٥٦١٦). (١٠) في ر: «أحب».

وجوز غسلهما فقد أخطأ أيضاً، ومن نقل عن أبي جعفر بن جرير أنه أوجب غسلهما للأحاديث، وأوجب مسحهما للآية، فلم يحقق مذهبه في ذلك، فإن كلامه في تفسيره إنما يدل على أنه أراد أنه يجب ذلك الرجلين من دون سائر أعضاء الوضوء؛ لأنهما يليان الأرض والطين وغير ذلك، فأوجب^(١) ذلكهما ليذهب ما عليهما، ولكنه عبّر عن ذلك بالمسح، فاعتقد من لم يتأمل كلامه أنه أراد وجوب الجمع بين^(٢) غسل الرجلين ومسحهما، فحكاه من حكاه كذلك؛ ولهذا يستشكله كثير من الفقهاء وهو معذور^(٣)، فإنه لا معنى للجمع بين المسح والغسل، سواء تقدمه أو تأخر عليه؛ لاندراجيه فيه، وإنما أراد الرجل ما ذكرته، والله أعلم. ثم تأملت كلامه أيضاً فإذا هو يحاول الجمع بين القراءتين، في قوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ خفضا على المسح وهو الدلك^(٤)، ونصبا على الغسل، فأوجبهما أخذا بالجمع بين هذه وهذه.

ذكر الأحاديث الواردة في غسل الرجلين وأنه لا بد منه:

قد تقدم في حديث أمير المؤمنين عثمان وعلي، وابن عباس ومعاوية، وعبد الله بن زيد بن عاصم، والمقداد بن معد يكره؛ أن رسول الله ﷺ غسل الرجلين^(٥) في وضوئه، إما مرة، وإما مرتين، أو ثلاثا، على اختلاف رواياتهم.

وفي حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ توضأ فغسل قدميه، ثم قال: «هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به».

وفي الصحيحين، من رواية أبي عوانة، عن أبي بشر، عن يوسف بن ماهك، عن عبد الله بن عمرو قال: تَخَلَّفَ عنا رسول ﷺ في سفرة سافرناها، فأدركنا وقد أَرَهَقَتْنَا الصلاة، صلاة العصر ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنادى بأعلى صوته: «أَسْبِغُوا الوضوءَ وَيْلٌ للأعقاب من النار»^(٦).

وكذلك هو في الصحيحين عن أبي هريرة^(٧). وفي صحيح مسلم عن عائشة، عن النبي ﷺ أنه قال: «أَسْبِغُوا الوضوءَ وَيْلٌ للأعقاب من النار»^(٨).

وروى الليث بن سعد، عن حيوة بن شريح، عن عتبة بن مسلم، عن عبد الله بن الحارث بن جزء^(٩)؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «وَيْلٌ للأعقاب وبُطُون الأقدام من النار». رواه البيهقي والحاكم^(١٠)، وهذا إسناد صحيح.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق: أنه سمع سعيد بن

(٣) في أ: «مقدور».

(٢) في أ: «من» . .

(١) في أ: «فالواجب».

(٥) في ر: «الوجه».

(٤) في أ: «كذلك».

(٦) صحيح البخاري برقم (٦٠) وصحيح مسلم برقم (٢٤١).

(٧) صحيح البخاري رقم (١٦٥) وصحيح مسلم برقم (٢٤٢).

(٨) صحيح مسلم برقم (٢٤٠).

(٩) في أ: «صرد».

(١٠) السنن الكبرى (٧٠/١) والمستدرک (١٦٢/١) ورواه ابن خزيمة في صحيحه برقم (١٦٣) من طريق الليث به.

أبى كرب - أو شعيب بن أبى كرب^(١) - قال: سمعت جابر بن عبد الله - وهو على جمل^(٢) - يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ويل للعراقيب من النار»^(٣).

وحدثنا أسود بن عامر، أخبرنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن سعيد بن أبى كرب^(٤)، عن جابر ابن عبد الله قال: رأى النبي ﷺ فى رجل رجل منا مثل الدرهم لم يغسله، فقال: «ويل للعقب من النار».

ورواه ابن ماجه، عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن الأخص^(٥)، عن أبى إسحاق، عن سعيد، به نحوه^(٦). وكذا رواه ابن جرير من حديث سفيان الثورى وشعبة بن الحجاج وغير واحد، عن أبى إسحاق السبيعي، عن سعيد بن أبى كرب^(٧)، عن جابر، عن النبي ﷺ، مثله. ثم قال:

حدثنا^(٨) على^(٩) بن مسلم، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثنا حفص، عن الأعمش، عن أبى سفيان، عن جابر؛ أن رسول الله ﷺ رأى قوما يتوضؤون، لم يصب أعقابهم الماء، فقال: «ويل للعراقيب من النار»^(١٠).

وقال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا أيوب بن عتبة، عن يحيى^(١١) بن أبى كثير، عن أبى سلمة، عن معيقب قال: قال رسول الله ﷺ: «ويل للأعقاب من النار». تفرد به أحمد^(١٢).

وقال ابن جرير: حدثنى على بن عبد الأعلى، حدثنا المحاربى، عن مطر بن يزيد، عن عبيد الله بن زحر، عن على بن يزيد، عن القاسم، عن أبى أمامة قال: قال^(١٣) رسول الله ﷺ: «ويل للأعقاب من النار، ويل للأعقاب من النار». قال: فما بقى فى المسجد شريف ولا وضيع، إلا نظرت إليه يقلب عرقويه ينظر إليهما»^(١٤).

وحدثنا أبو كريب، حدثنا حسين، عن زائدة، عن ليث، حدثنى عبد الرحمن بن سابط، عن أبى أمامة - أو عن أخى أبى أمامة - أن رسول الله ﷺ أبصر قوماً يتوضؤون^(١٥) وفى عقب أحدهم - أو: كعب أحدهم - مثل موضع الدرهم - أو: موضع الظفر - لم يمسه الماء، فقال: «ويل للأعقاب من

(١) فى أ: «سمع ابن أبى كريب».

(٣) المسند (٣/٣٦٩).

(٤) فى أ: «كريب».

(٦) المسند (٣/٣٩٠) وسنن ابن ماجه برقم (٤٥٤) وقال البوصيرى فى الزوائد (١/١٨٢): «هذا إسناد رجاله ثقات».

(٧) فى أ: «كريب».

(١٠) تفسير الطبرى (١٠/٧١).

(١١) فى ر: «محمد»، وفى أ: «عون».

(١٢) المسند (٣/٤٢٦) وقال الهيثمى فى المجمع (١/٢٤٠): «فيه أيوب بن عتبة والأكثر على تضعيفه».

(١٣) فى أ: «أن».

(١٤) تفسير الطبرى (١٠/٧٣) وفى إسناده مطر بن يزيد ضعيف.

(١٥) فى ر: «يصلون».

النار». قال: فجعل الرجل إذا رأى في عقبه شيئاً لم يصبه^(١) الماء أعاد وضوءه^(٢).

ووجه الدلالة من هذه الأحاديث ظاهرة، وذلك أنه لو كان فَرَضَ الرجلين مَسْحَهُمَا، أو أنه يجوز ذلك فيهما لما تَوَعَّدَ على تركه؛ لأن المسح لا يستوعب جميع الرجل، بل يجري^(٣) فيه ما يجري^(٤) في مسح الخف، وهكذا وجه^(٥) الدلالة على الشيعة الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله.

وقد روى مسلم في صحيحه، من طريق أبي الزبير، عن جابر، عن عمر بن الخطاب؛ أن رجلاً توضأ فترك موضع ظفر على قدمه^(٦)، فأبصره النبي ﷺ فقال: «ارجع فأحسن وضوءك»^(٧).

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا محمد بن إسحاق الصاغانى^(٨)، حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ابن وهب، حدثنا جرير بن حازم: أنه سمع قتادة بن دعامة قال: حدثنا أنس بن مالك؛ أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ قد توضأ، وترك على قدمه مثل موضع الظفر، فقال له رسول الله ﷺ: «ارجع فأحسن وضوءك».

وهكذا رواه أبو داود عن هارون بن معروف، وابن ماجه، عن حرملة بن يحيى، كلاهما عن ابن وهب، به^(٩)، وهذا إسناد جيد، رجاله كلهم ثقات، لكن قال أبو داود: [و] ليس هذا الحديث بمعروف، لم يروه إلا ابن وهب.

وحدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد^(١١)، أخبرنا يونس وحמיד، عن الحسن؛ أن رسول الله ﷺ... بمعنى حديث قتادة.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن أبي العباس، حدثنا بَقِيَّةُ، حدثني بَحِيرُ^(١٢) بن سعد، عن خالد بن معدان، عن بعض أزواج النبي ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يصلي وفي ظهر قدمه لُمْعَةٌ قدر الدرهم لم يصبها الماء، فأمره رسول الله ﷺ أن يعيد الوضوء.

ورواه أبو داود من حديث بَقِيَّةِ^(١٣)، وزاد: «والصلاة». وهذا إسناد جيد قوى صحيح، والله أعلم.

وفي حديث حُمُرَانَ، عن عثمان، في صفة وضوء النبي ﷺ^(١٤): أنه خلل بين أصابعه. وروى

(١) في أ: «يمسه».

(٢) تفسير الطبري (٧٤/١٠) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٣٤٧/٨) من طريق ليث بن أبي سليم به. وقال الهيثمي في المجمع (٢٤٠/١): «مدار طرقة كلها على ليث بن أبي سليم وقد اختلط».

(٣، ٤) في ر: «يجزئ». (٥) في أ: «وهكذا هذه وجه». (٦) في أ: «قدميه».

(٧) صحيح مسلم برقم (٢٤٣).

(٨) في أ: «الصنعاني».

(٩) السنن الكبرى (٧٠/١) وسنن أبي داود برقم (١٧٣) وسنن ابن ماجه برقم (٦٦٥).

(١٠) زيادة من أ.

(١١) في أ: «موسى بن المعلی نبأنا». (١٢) في أ: «مخير».

(١٣) المسند (٤٢٤/٣) وسنن أبي داود برقم (١٧٥).

تنبيه: وقع في المسند وسنن أبي داود: «عن بعض أصحاب النبي ﷺ».

(١٤) في أ: «رسول الله».

أهل السنن من حديث إسماعيل بن كثير، عن عاصم بن لقيط بن صبرة، عن أبيه قال، قلت: يا رسول الله، أخبرني عن الوضوء: فقال: «أسبغ الوضوء، واخلل بين الأصابع، وبالغ في الاستنشاق إلا أن تكون صائماً»^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن يزيد، أبو عبد الرحمن المقرئ^(٢)، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا شداد بن عبد الله الدمشقي قال^(٣): قال أبو أمامة: حدثنا عمرو بن عبسة^(٤) قال: قلت: يا نبي الله، أخبرني عن الوضوء. قال: «ما منكم من أحد يقرب وضوءه، ثم يتمضمض ويستنشق وينثر»^(٥)، إلا خرت خطايا من فمه وخياشيمه مع الماء حين ينتثر، ثم يغسل وجهه كما أمره^(٦) الله إلا خرت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خرت خطايا يديه من أطراف أنامله، ثم يمسح رأسه إلا خرت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين كما أمره الله إلا خرت خطايا قدميه من أطراف أصابعه مع الماء، ثم يقوم فيحمد الله ويثنى عليه بالذي هو له أهل، ثم يركع ركعتين إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه. قال أبو أمامة: يا عمرو، انظر ما تقول، سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ أيعطى هذا الرجل كله في مقامه؟ فقال عمرو بن عبسة^(٧): يا أبا أمامة، لقد كبرت سنِّي، ورَقَّ عظمي، واقترب أجلي، وما بي حاجة أن أكذب على الله، وعلى رسول الله ﷺ، [و]^(٩) لو لم أسمع من رسول الله ﷺ إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً، لقد سمعته [منه]^(١٠) سبع مرات أو أكثر من ذلك^(١١).

وهذا إسناد صحيح، وهو في صحيح مسلم من وجه آخر، وفيه: «ثم يغسل قدميه كما أمره الله». فدل على أن القرآن يأمر بالغسل.

وهكذا روى أبو إسحاق السبيعي، عن الحارث، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنه قال: اغسلوا القدمين إلى الكعبين كما أمرتم.

ومن ههنا يتضح لك المراد من حديث عبد خير، عن علي؛ أن رسول الله ﷺ رَشَ على قدميه الماء وهما في النعلين فدلّكهما. إنما أراد غسلاً خفيفاً وهما في النعلين ولا مانع من إيجاد الغسل والرجل في نعلها، ولكن في هذا رد على المتعمقين والمتنطعين من الموسوسين.

وهكذا الحديث الذي أورده ابن جرير على نفسه، وهو من روايته، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن حذيفة قال: أتى رسول الله ﷺ سُبَّاطَةَ قوم فبال قائماً، ثم دعا بماء فتوضأ، ومسح على نعليه^(١٢). وهو حديث صحيح. وقد أجاب ابن جرير عنه بأن الثقات الحفاظ رَوَوْه عن الأعمش، عن أبي وائل، عن حذيفة قال: فبال قائماً، ثم توضأ ومسح على خفيه.

قلت: ويحتمل الجمع بينهما بأن يكون في رجله خفان، وعليهما نعلان.

(١) سنن أبي داود برقم (١٤٢) وسنن الترمذي برقم (٧٨٨) وسنن النسائي (٦٦/١) وسنن ابن ماجه برقم (٤٤٨).

(٢) في أ: «المقبري». (٣) في أ: «حدثنا شداد بن عبد الله الدمشقي قالاً». (٤) في أ: «عبسة».

(٥) في أ: «ويستنثر». (٦) في ر: «أمر». (٧) في أ: «عبسة».

(٨) في أ: «رسوله». (٩، ١٠) زيادة من أ.

(١١) المسند (١١٢/٤).

(١٢) تفسير الطبري (٧٥/١٠).

وهكذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا يحيى عن شُعْبَةَ، حدثنى يَعْلَى، عن أبيه، عن أوس بن أبى أوس قال: رأيت رسول الله ﷺ توضعاً ومسح على نعليه، ثم قام إلى الصلاة. وقد رواه أبو داود عن مُسَدَّد وعبد بن موسى كلاهما، عن هُشَيْم، عن يعلى بن عطاء، عن أبيه، عن أوس بن أبى أوس قال: رأيت رسول الله ﷺ أتى سُبَّاطَةَ قوم فبال، وتوضاً^(١) ومسح على نعليه وقدميه.

وقد رواه ابن جرير من طريق شعبة ومن طريق هشيم^(٢)، ثم قال: وهذا محمول على أنه توضاً كذلك وهو غير محدث؛ إذ كان غير جائز أن تكون فرائض الله وسنن رسوله متنافية متعارضة، وقد صح عنه ﷺ الأمر بعموم غسل القدمين فى الوضوء بالماء بالنقل^(٣) المستفيض القاطع عُدْر من انتهى إليه وبلغه.

ولما كان القرآن أمراً بغسل الرجلين - كما فى قراءة النصب، وكما هو الواجب فى حمل قراءة الخفض عليها - توهم بعض السلف أن هذه الآية ناسخة لرخصة المسح على الخفين، وقد روى ذلك عن على بن أبى طالب، ولكن لم يصح إسناده، ثم الثابت عنه خلافه، وليس كما زعموه، فإنه قد ثبت أن النبى ﷺ مسح على الخفين بعد نزول هذه الآية الكريمة.

قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا زياد بن عبد الله بن عُلَاثة، عن عبد الكريم ابن مالك الجَزَرى، عن مجاهد، عن جرير بن عبد الله البَجَلَى قال: أنا أسلمت بعد نزول^(٤) المائدة، وأنا رأيت رسول الله ﷺ يمسح بعد ما أسلمت. تفرد به أحمد^(٥).

وفى الصحيحين، من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن هَمَّام قال: بال جرير، ثم توضاً ومسح على خفيه، فقل: تفعل هذا؟ فقال: نعم، رأيت رسول الله ﷺ بال، ثم توضاً ومسح على خفيه. قال الأعمش: قال إبراهيم: فكان يعجبهم هذا الحديث؛ لأن إسلام جرير كان بعد نزول المائدة. لفظ مسلم^(٦).

وقد ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ مشروعية المسح على الخفين قولاً منه وفعلاً، كما هو مقرر فى كتاب «الأحكام الكبير»، وما^(٧) يحتاج إلى ذكره هناك، من تأقيت المسح أو عدمه أو التفصيل فيه، كما هو مبسوط فى موضعه. وقد خالفت الروافض ذلك كله بلا مستند، بل بجهل وضلال، مع أنه ثابت فى صحيح مسلم، من رواية أمير المؤمنين على بن أبى طالب، رضى الله عنه. كما ثبت فى الصحيحين عنه، عن النبى ﷺ النهى عن نكاح المتعة وهم يستيحيونها. وكذلك هذه الآية الكريمة دالة على وجوب غسل الرجلين، مع ما ثبت بالتواتر من فعل رسول الله ﷺ على وفق ما دلت عليه الآية

(١) فى أ: «فتوضاً».

(٢) المسند (٨/٤) وسنن أبى داود برقم (١٦٠) وتفسير الطبرى (٧٦/١٠).

(٣) فى ر: «بالفعل».

(٤) فى أ: «بعدما أنزلت».

(٥) المسند (٣٦٣/٤).

(٦) صحيح البخارى برقم (٣٨٧) وصحيح مسلم برقم (٢٧٢).

(٧) فى أ: «مع ما».

الكريمة، وهم مخالفون لذلك كله، وليس لهم دليل صحيح في نفس الأمر، والله الحمد.

وهكذا خالفوا الأئمة والسلف في الكعبيين اللذين في القدمين، فعندهم أنهما في ظهر القدم، فعندهم في كل رجل كعب، وعند الجمهور أن الكعبيين هما العظمان الناتئان عند مفصل الساق والقدم. قال^(١) الربيع: قال الشافعي: لم أعلم مخالفاً في أن الكعبيين اللذين ذكرهما الله في كتابه في الوضوء هما الناتئان، وهما مجمع مفصل الساق والقدم. هذا لفظه. فعند الأئمة، رحمهم الله، [أن]^(٢) في كل قدم كعبين كما هو المعروف عند الناس، وكما دلت عليه السنة، ففي الصحيحين من طريق حمّان عن عثمان؛ أنه توضأ فغسل رجله اليمنى إلى الكعبيين، واليسرى مثل ذلك.

وروى البخاري تعليقاً مجزوماً به، وأبو داود وابن خزيمة في صحيحه، من رواية أبي القاسم الحسين بن الحارث الجدلي، عن النعمان بن بشير قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال: «أقيموا صفوفكم - ثلاثاً - والله لتقيمن صفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم». قال: فرأيت الرجل يلزق كعبه بكعب صاحبه، وركبته بركبة صاحبه، ومنكبه بمنكبه. لفظ ابن خزيمة^(٤).

فليس يمكن أن يلزق كعبه بكعب صاحبه إلا والمراد به العظم الناتئ في الساق، حتى يحاذي كعب الآخر، فدل ذلك على ما ذكرناه، من أنهما العظمان الناتئان عند مفصل الساق والقدم كما هو مذهب أهل السنة.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إسماعيل بن موسى، أخبرنا شريك، عن يحيى بن عبد الله بن الحارث التيمي - يعني الجابر - قال: نظرت في قتلى أصحاب زيد، فوجدت الكعب فوق ظهر القدم، وهذه عقوبة عوقب بها الشيعة بعد قتلهم، تنكيلاً بهم في مخالفتهم الحق وإصرارهم عليه.

وقوله: «وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ» كل ذلك قد تقدّم الكلام عليه في تفسير آية النساء، فلا حاجة بنا إلى إعادته؛ لثلا يطول الكلام. وذكرنا سبب نزول آية التيمم هناك، لكن البخاري روى ههنا حديثاً خاصاً بهذه الآية الكريمة، فقال:

حدثنا يحيى بن سليمان، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، أن عبد الرحمن بن القاسم حدثه، عن أبيه، عن عائشة: سقطت قلادة لى بالبيداء، ونحن داخلون المدينة، فأناخ رسول الله ﷺ ونزل، فثنى رأسه في حَجْرِي راقداً، أقبل أبو بكر فلكزني لكزة شديدة، وقال: حبست الناس في قلادة، فبى الموت لمكان رسول الله ﷺ، وقد أوجعني، ثم إن النبي ﷺ استيقظ وحضرت الصبح، فالتمس الماء فلم يوجد، فنزلت: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوْهَكُمْ» هذه الآية، فقال أسيد بن الحضير لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر، ما أنتم إلا بركة لهم^(٥).

(٣) في أ: «حديث».

(٢) زيادة من أ.

(١) في أ: «وقال».

(٤) سنن أبي داود برقم (٦٦٢) وصحيح ابن خزيمة برقم (١٦٠).

(٥) صحيح البخاري برقم (٤٦٠٨).

وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ أى: فلهذا سهل عليكم ويسر ولم يعسر، بل أباح التيمم عند المرض، وعند فقد الماء، توسعة عليكم ورحمة بكم، وجعله فى حق من شرع الله يقوم مقام الماء إلا من بعض الوجوه، كما تقدم بيانه، وكما هو مقرر فى كتاب «الأحكام الكبير».

وقوله: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى: لعلكم تشكرون نعمه عليكم فيما شرعه لكم من التوسعة والرأفة والرحمة والتسهيل والسماحة، وقد وردت السنة بالحث على الدعاء عقب الوضوء، بأن يجعل فاعله من المتطهرين الداخلين فى امتثال هذه الآية الكريمة، كما رواه الإمام أحمد ومسلم وأهل السنن، عن عقبه بن عامر قال: كانت علينا رعاية الإبل، فجاءت نوبتى فروحتها بعشى، فأدرت رسول الله ﷺ قائما يحدث الناس، فأدرت من قوله: «ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه، ثم يقوم فيصلى ركعتين مقبلاً عليهما بقلبه ووجهه، إلا وجبت له الجنة». قال: قلت: ما أجود هذه! فإذا قائل بين يدي يقول: التى قبلها أجود منها. فنظرت فإذا عمر، رضى الله عنه، فقال: إني قد رأيتك جئت أنفاً، قال: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو: فيسبغ - الوضوء، يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء». لفظ مسلم^(١).

وقال مالك: عن سهيل^(٢) بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم - أو: المؤمن - فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء - أو: مع آخر قطر الماء - فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يده مع الماء - أو: مع آخر قطر الماء - فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجليه مع الماء - أو: مع آخر قطر الماء - حتى يخرج نقياً من الذنوب».

رواه مسلم عن أبى الطاهر، عن ابن وهب، عن مالك، به^(٣).

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا معاوية بن هشام، عن سفيان، عن منصور، عن سالم ابن أبى الجعد، عن كعب بن مرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يتوضأ فيغسل يديه - أو: ذراعيه - إلا خرجت خطاياه منهما، فإذا غسل وجهه خرجت خطاياه من وجهه، فإذا مسح رأسه خرجت خطاياه من رأسه، فإذا غسل رجليه خرجت خطاياه من رجليه»^(٤).

هذا لفظه. وقد رواه الإمام أحمد، عن محمد بن جعفر، عن شعبة، عن منصور، عن سالم، عن مرة بن كعب، أو كعب بن مرة السلمى، عن النبى ﷺ قال: «وإذا توضأ العبد فغسل يديه، خرجت^(٥) خطاياه من بين يديه، وإذا غسل وجهه خرجت^(٦) خطاياه من وجهه، وإذا غسل ذراعيه خرجت^(٧) خطاياه من ذراعيه، وإذا غسل رجليه خرجت^(٨) خطاياه من رجليه». قال شعبة: ولم يذكر مسح الرأس. وهذا إسناد صحيح^(٩).

(١) المسند (١٥٣/٤) وصحيح مسلم برقم (٢٣٤) وسنن أبى داود برقم (١٦٩) وسنن النسائى (٩٥/١).

(٢) فى أ: «سهل».

(٣) الموطأ (٣٢/١) وصحيح مسلم برقم (٢٤٤).

(٤) تفسير الطبرى (٨٧/١٠).

(٥ - ٨) فى أ: «خرت».

(٩) المسند (٣٣٤/٤) قال الهيثمى فى المجمع (٢٢٤/١): «رجاله رجال الصحيح».

وروى ابن جرير من طريق شمر بن عطية، عن شهر بن حوشب، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ فأحسن الوضوء، ثم قام إلى الصلاة، خرجت ذنوبه من سمعه وبصره ويديه ورجليه»^(١).

وروى مسلم في صحيحه، من حديث يحيى بن أبي كثير، عن زيد بن سلام، عن جده مطور، عن أبي مالك الأشعري؛ أن رسول الله ﷺ قال: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله»^(٢) تملآن ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها»^(٣).

وفى صحيح مسلم، من رواية سماك بن حرب، عن مضعب بن سعد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقبل الله صدقة من غُلُول، ولا صلاة بغير طهور»^(٤).

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن قتادة، سمعت أبا المليح الهذلي يحدث عن أبيه قال: كنت مع رسول الله ﷺ في بيت، فسمعتة يقول: «إن الله لا يقبل صلاة من غير طهور، ولا صدقة من غُلُول».

وكذا رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، من حديث شعبة^(٥).

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أُنِيسُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)﴾.

يقول تعالى مذكراً عباده المؤمنين نعمته عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في مبايعته على متابعتة ومناصرته ومؤازرته، والقيام بدينه وإبلاغه عنه وقبوله منه، فقال [تعالى]^(٦): ﴿وَاذْكُرُوا (٧) نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي

(١) تفسير الطبري (٨٦/١٠) ورواه أحمد في مسنده (٢٥٢/٥) من طريق شمر بن عطية به.

(٢) في أ: «وسبحان الله والله أكبر».

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٢٣).

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٢٤).

(٥) مسند الطيالسي برقم (١٥٣) وسنن أبي داود برقم (٥٩) وسنن النسائي (٨٧/١) وسنن ابن ماجه برقم (٢٧١).

(٦) زيادة من أ. (٧) في ر: «فاذكروا» وهو خطأ.

وَأَتَقُّكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا»، وهذه هي البيعة التي كانوا يبايعون رسول الله ﷺ عليها عند إسلامهم، كما قالوا: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله»، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨]، وقيل: هذا تذكير لليهود بما أخذ عليهم من المواثيق والعهود في متابعة محمد ﷺ والانقياد لشرعه، رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وقيل: هو تذكير بما أخذ تعالى من العهد على ذرية آدم حين استخرجهم من صلبه وأشهدهم على أنفسهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢]، قاله مجاهد، ومقاتل بن حيان. والقول الأول أظهر، وهو المحكى عن ابن عباس، والسدي. واختاره^(١) ابن جرير.

ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تأكيد وتحريض على مواظبة التقوى في كل حال.

ثم أعلمهم أنه يعلم ما يتخالج في الضمائر والسرائر من الأسرار والخواطر، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ أي: كونوا قائمين بالحق لله، عز وجل، لا لأجل الناس والسمعة، وكونوا ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل لا بال جور. وقد ثبت في الصحيحين، عن النعمان بن بشير أنه قال: نحلني أبي نحلاً، فقالت أمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ. فجاءه ليشهده على صدقتي فقال: «أكل ولدك نحلته مثله؟» قال: لا. قال: «اتقوا الله، واعدلوا في^(٢) أولادكم». وقال: «إني لا أشهد على جور». قال: فرجع أبي فرد تلك الصدقة^(٣).

وقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ أي: لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقاً كان أو عدواً؛ ولهذا قال: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه. ودل الفعل على المصدر الذي عاد الضمير عليه، كما في نظائره من القرآن وغيره، كما في قوله: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨].

وقوله: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، من باب استعمال أفعل التفضيل في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيء، كما في قوله [تعالى]^(٤): ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، وكقول^(٥) بعض الصحابييات لعمر: أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ^(٦).

ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: وسيجزيك على ما علم من أفعالكم التي عملتموها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أي: لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وهو: الجنة التي هي من رحمته على عباده، لا ينالونها بأعمالهم، بل برحمة منه وفضل، وإن كان سبب وصول الرحمة إليهم أعمالهم، وهو تعالى

(١) في ر، أ: «واختيار».

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٥٨٦) وصحيح مسلم برقم (١٦٢٣).

(٤) زيادة من أ.

(٦) صحيح البخارى برقم (٣٢٩٤) وصحيح مسلم برقم (١٣٩٦).

(٢) في أ: «بينكم».

(٥) في ر: «ولقول».

الذى جعلها أسباباً إلى نيل رحمته وفضله وعفوه ورضوانه، فالكل منه وله، فله الحمد والمنة.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، وهذا من عدله تعالى، وحكمته وحكمه الذى لا يجور فيه، بل هو الحكم العدل الحكيم^(١) القدير.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، ذكره عن أبى سلمة، عن جابر؛ أن النبى ﷺ نزل منزلاً، وتفرق الناس فى العضاء يستظلون تحتها، وعلق النبى ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابى إلى سيف رسول الله ﷺ فأخذه فسله، ثم أقبل على النبى ﷺ فقال: من يمنعك منى؟ قال: «الله»! قال الأعرابى مرتين أو ثلاثاً: من يمنعك منى؟ والنبى ﷺ يقول: «الله»! قال: فشام الأعرابى السيف، فدعا النبى ﷺ أصحابه فأخبرهم خبر الأعرابى، وهو جالس إلى جنبه ولم يعاقبه - قال معمر: وكان^(٢) قتادة يذكر نحو هذا، وذكر أن قوماً من العرب أرادوا أن يفتكوا برسول الله ﷺ، فأرسلوا هذا الأعرابى، وتأول: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ الآية.

وقصة هذا الأعرابى - وهو غورث بن الحارث - ثابتة فى الصحيح^(٥).

وقال العوفى، عن ابن عباس فى هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾: وذلك أن قوماً من اليهود صنعوا لرسول الله ﷺ ولأصحابه طعاماً، ليقتلوهم^(٦)، فأوحى الله تعالى إليه بشأنهم، فلم يأت الطعام، وأمر أصحابه فلم يأتوه^(٧). رواه ابن أبى حاتم.

وقال أبو مالك: نزلت فى كعب بن الأشرف وأصحابه، حين أرادوا أن يغدروا بمحمد ﷺ^(٨) وأصحابه فى دار كعب بن الأشرف. رواه ابن أبى حاتم.

وذكر محمد بن إسحاق بن يسار، ومجاهد وعكرمة، وغير واحد: أنها نزلت فى شأن بنى النضير، حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ^(٩) الرحى، لما جاءهم يستعينهم فى^(١٠) دية العامرين، ووكلوا عمرو بن جحاش بن كعب بذلك، وأمره إن جلس النبى ﷺ تحت الجدار واجتمعوا عنده أن يلقى تلك الرحى من فوقه، فأطلع الله رسوله على ما تمالؤوا^(١١) عليه، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه، فأنزل الله [تعالى]^(١٢) فى ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ثم أمر رسول

(١) فى ر: «الخليل».

(٢) فى أ: «أن رسول الله».

(٣) فى ر، أ: «النبى».

(٤) فى أ: «فكان».

(٥) تفسير عبد الرزاق (١/ ١٨٢) ورواه البخارى فى صحيحه برقم (١٣٩) من طريق عبد الرزاق به.

(٦) فى ر: «يقتلوه».

(٧) فى ر: «فأتوه».

(٨) فى أ: «رأس النبى».

(٩) فى ر: «على».

(١٠) فى ر: «تمالؤوا».

(١١) زيادة من ر، أ.

الله ﷻ أن يغدو إليهم فحاصرهم، حتى أنزلهم فأجلاهم.
 وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني: من توكل على الله كفاه الله ما أهمه، وحفظه من شر الناس وعصمه.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤)﴾.

لما أمر [الله] (١) تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه، الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ، وأمرهم بالقيام بالحق والشهادة بالعدل، وذكرهم نعمه عليهم الظاهرة والباطنة، فيما هداهم له من الحق والهدى، شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين: اليهود والنصارى، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعنا منه لهم، وطرده عن بابه وجنابه، وحجابا لقلوبهم (٢) عن الوصول إلى الهدى ودين الحق، وهو العلم النافع والعمل الصالح، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ يعني: عرفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع، والطاعة لله، ولرسوله ولكتابه.

وقد ذكر ابن عباس ومحمد بن إسحاق وغير واحد أن هذا كان لما توجه موسى، عليه السلام، لقتال الجبابرة، فأمر بأن يقيم النقباء، من كل سبط نقيب - قال محمد بن إسحاق: فكان من سبط روبيل: «شامون بن زكور» (٣)، ومن سبط شمعون: «شافاط بن حرى»، ومن سبط يهوذا: «كالب بن يوفنا»، ومن سبط أبين: «فيخايل بن يوسف»، ومن سبط يوسف، وهو سبط أفرايم: «يوشع بن نون»، ومن سبط بنيامين: «فلطمي بن رفون»، ومن سبط زبلون (٤): «جدى بن سودى»، ومن سبط يوسف وهو منشا بن يوسف: «جدى بن سوسى»، ومن سبط دان: «حملائيل بن جمل»، ومن سبط أسير: «ساطور بن ملكيل»، ومن سبط نفتالى (٥): «نحى بن وفسى»، ومن سبط جاد: «جولاييل بن

(١) زيادة من أ.

(٢) فى ر: «لعيوبهم».

(٣) فى ر: «زكون».

(٥) فى ر: «نقال».

(٤) فى ر: «زايكون»، وفى أ: «زيالون».

ميكى^(١).

وقد رأيت فى السفر الرابع من التوراة تعداد النقباء على أسباط بنى إسرائيل وأسماء مخالفة لما ذكره ابن إسحاق، والله أعلم، قال فيها: فعلى بنى روبيل: «الصونى بن سادون»، وعلى بنى شمعون: «شمواى بن صورشكى»، وعلى بنى يهوذا: «يحشون بن عمبياذاب^(٢)»، وعلى بنى يساخر: «شال بن صاعون»، وعلى بنى زبلون: «الياب بن حالوب^(٣)»، وعلى بنى يوسف إفرام: «منشا^(٤)» ابن عمنهود، وعلى بنى منشا: «حمليائيل بن يرصون»، وعلى بنى بنيامين: «أبيدن بن جدعون»، وعلى بنى دان: «جعيزر بن عميشذى»، وعلى بنى أسير: «نحاييل بن عجران»، وعلى بنى حاز: «السيف بن دعويايل»، وعلى بنى نفتالى: «أجزع بن عمينان».

وهكذا لما بايع رسول الله ﷺ الأنصار ليلة العقبة، كان فيهم اثنا عشر نقيباً، ثلاثة من الأوس وهم: أسيد بن الحضير، وسعد بن خيثمة، ورفاعة بن عبد المنذر - ويقال بدله: أبو الهيثم بن التيهان - رضى الله عنهم، وتسعة من الخزرج، وهم: أبو أمامة أسعد بن زُرارة، وسعد بن الربيع، وعبد الله ابن رواحة، ورافع بن مالك بن العجلان^(٥)، والبراء بن معرور، وعبادة بن الصامت، وسعد ابن عبادة، وعبد الله بن عمرو بن حرام، والمنذر بن عمرو بن خنيس، رضى الله عنهم. وقد ذكرهم كعب بن مالك فى شعر له، كما أورده ابن إسحاق، رحمه الله^(٦).

والمقصود أن هؤلاء كانوا عرفاء على قومهم ليلتذ عن أمر النبى ﷺ لهم بذلك، وهم الذين ولوا المبايعة والمعاقدة عن قومهم للنبى ﷺ على السمع والطاعة.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن زيد، عن مجالد، عن الشعبي، عن مسروق قال: كنا جلوساً عند عبد الله بن مسعود وهو يقرئنا القرآن، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، هل سألت رسول الله ﷺ: كم يملك هذه الأمة من خليفة؟ فقال عبد الله: ما سألتى عنها أحد منذ قدمت العراق قبلك، ثم قال: نعم، ولقد سألت رسول الله ﷺ فقال: «اثنا عشر، كعدة نقباء بنى إسرائيل».

هذا حديث غريب من هذا الوجه^(٧)، وأصل هذا الحديث ثابت فى الصحيحين من^(٨) حديث جابر بن سمرة قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً». ثم تكلم النبى ﷺ بكلمة خفيت علىّ، فسألت أبى: ماذا قال النبى ﷺ؟ قال: «كلهم من قریش». وهذا لفظ مسلم^(٩)، ومعنى هذا الحديث البشارة بوجود اثنى عشر خليفة صالحاً^(١٠)، يقيم الحق ويعدل فيهم، ولا يلزم من هذا تواليهم^(١١) وتتابع أيامهم، بل قد وجد منهم أربعة على نسق، وهم الخلفاء الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، رضى الله عنهم، ومنهم عمر بن عبد العزيز بلا شك عند الأئمة، وبعض بنى العباس. ولا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لا محالة، والظاهر أن

(١) فى ر: «مليدن»

(٢) فى ر: «عمينا ذاب».

(٣) فى ر: «عجلان».

(٤) فى ر: «ومنشا».

(٥) فى ر: «عجلان».

(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٤٤٣).

(٧) المسند (١/٣٩٨) وقال الهيثمى فى المجمع (٥/١٩٠): «فيه مجالد بن سعيد وثقه النسائى وضعفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات».

(٨) فى ر: «عن».

(٩) صحيح مسلم برقم (١٨٢٢).

(١٠) فى ر: «تاليهم».

(١١) فى ر: «صالح».

منهم المهدي المبشر به في الأحاديث الواردة بذكره: أنه يُواطئُ اسمه اسم النبي ﷺ، واسم أبيه اسم أبيه، فيملاً الأرض عدلاً وقسطاً، كما ملئت جوراً وظلماً، وليس هذا بالمنتظر الذي يتوهم الرافضة وجوده ثم ظهوره من سرداب «سأمراء». فإن ذلك ليس له حقيقة ولا وجود بالكلية، بل هو من هوس العقول السخيفة، وتوهم الخيالات الضعيفة، وليس المراد بهؤلاء الخلفاء الاثنى عشر الأئمة [الاثنى عشر]^(١) الذين يعتقد فيهم الاثنا عشرية من الروافض، لجهلهم وقلة عقلهم. وفي التوراة البشارة بإسماعيل، عليه السلام، وأن الله يقيم من صلبه اثني عشر عظيماً، وهم هؤلاء الخلفاء الاثنا عشر المذكورون في حديث ابن مسعود، وجابر بن سمرة، وبعض الجهالة ممن أسلم^(٢) من اليهود إذا اقترن بهم بعض الشيعة يوهمونهم أنهم الأئمة الاثنا عشر، فيتشيع كثير منهم جهلاً وسفهاً، لقلة علمهم وعلم من لقنهم ذلك بالسنن الثابتة عن النبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أي: بحفظي وكلاءتي ونصري ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ أي: صدقتموهم فيما يجيئونكم به من الوحي ﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾ أي: نصرتموهم وآزرتموهم على الحق ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو: الإنفاق في سبيله وابتغاء مرضاته ﴿لَا تُكْفِرُوا عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي: ذنوبكم أمحوها وأسترها، ولا أواخذكم بها ﴿وَلَا دُخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: أدفع عنكم المحذور، وأحصل لكم المقصود.

وقوله: ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: فمن خالف هذا الميثاق بعد عقده وتوكيده وشده، وجحده وعامله معاملة من لم يعرفه، فقد أخطأ الطريق الحق، وعدل عن الهدى إلى الضلال.

ثم أخبر تعالى عما أحل بهم من العقوبة عند مخالفتهم ميثاقه ونقضهم عهده، فقال: ﴿فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعْنَاهُمْ﴾ أي: فبسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم لعناهم، أي: أبعدناهم عن الحق وطردهناهم عن الهدى، ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ أي: فلا يتعظون^(٣) بموعظة لغلظتها وقساوتها، ﴿يَحْرِقُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أي: فسدت^(٤) فهمهم، وساء تصرفهم في آيات الله، وتأولوا كتابه على غير ما أنزل، وحملوه على غير مراده، وقالوا عليه ما لم يقل، عياداً بالله من ذلك، ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: وتركوا العمل به رغبة عنه.

قال الحسن: تركوا عرى دينهم ووظائف الله التي لا يقبل العمل إلا بها. وقال غيره: تركوا العمل فصاروا إلى حالة رديئة، فلا قلوب سليمة، ولا فطر مستقيمة، ولا أعمال قويمية.

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ يعني: مكرهم وغدرهم لك ولأصحابك.

قال مجاهد وغيره: يعني بذلك تمالؤهم على الفتك بالنبي ﷺ.

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ وهذا هو عين النصر والظفر، كما قال بعض السلف: ما عاملت من

(١) زيادة من ر، أ.

(٢) في ر: «يسلم».

(٣) في أ: «فلا تتنفع».

(٤) في ر: «وفسدت».

عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه. وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق، ولعل الله أن يهديهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعنى به: الصفح عن أساء إليك.

وقال قتادة: هذه الآية ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾: منسوخة بقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ [وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ]﴾^(١) [التوبة: ٢٩].

وقوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ أى: ومن الذين ادعوا لأنفسهم أنهم نصارى يتابعون المسيح ابن مريم، عليه السلام، وليسوا كذلك، أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول ومناصرتة ومؤازرتة واقتفاء آثاره، والإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض، أى: ففعلوا كما فعل اليهود، خالفوا المواثيق ونقضوا العهود؛ ولهذا قال: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أى: فألقينا بينهم العداوة والتباغض لبعضهم بعضاً، ولا يزالون كذلك إلى ^(٢) قيام الساعة. وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين، يكفر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً؛ فكل فرقة تُحرّم الأخرى ولا تدعها تلجُ معبدها، فالملكية تكفر اليعقوبية، وكذلك الآخرون، وكذلك النسطورية والآريوسية، كل طائفة تكفر^(٣) الأخرى فى هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

ثم قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُنْهِيهِمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾. وهذا تهديد ووعد أكيد للنصارى على ما ارتكبوه من الكذب على الله وعلى رسوله، وما نسبوه إلى الرب، عز وجل، وتعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً، من جعلهم له صاحبة وولداً، تعالى الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦) ﴿.

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة: أنه قد أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض، عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيهم، وأنه بعثه بالبينات والفرق بين الحق والباطل، فقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أى: يبين ما بدلوه وحرفوه وأولوه، وافترخوا على الله فيه، ويسكت^(٤) عن كثير مما غيروه ولا فائدة فى بيانه.

وقد روى الحاكم فى مستدركه، من حديث الحسين بن واقد، عن يزيد النحوى، عن عكرمة،

(٢) فى أ: «إلى يوم القيامة وهو».

(٤) فى أ: «وسكت».

(١) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٣) فى أ: «تلعن».

عن ابن عباس قال: من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب، قوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ فكان الرجم مما أخفوه^(١).

ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه^(٢).

ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذى أنزله على نبيه الكريم فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ أى: طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾^(٣) وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿أى: ينجيهم من المهالك، ويوضح لهم أبين المسالك، فيصرف^(٤) عنهم المحذور، ويحصل لهم أنجب الأمور، وينفى عنهم، ويرشدهم إلى أقوم حالة.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٧) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (١٨).

يقول تعالى مخبراً وحاكماً بكفر النصارى فى ادعائهم فى المسيح ابن مريم - وهو عبدٌ من عباد الله، وخلق من خلقه - أنه هو الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

ثم قال مخبراً عن قدرته على الأشياء وكونها تحت قهره وسلطانه: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أى: لو أراد ذلك، فمن ذا الذى كان يمنعه^(٥)؟ أو من^(٦) ذا الذى يقدر على صرفه عن ذلك؟

ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أى: جميع الموجودات ملكه وخلقها، وهو القادر على ما يشاء، لا يسأل عما يفعل، لقدرة وسلطانه، وعدله وعظمته، وهذا رد على النصارى عليهم لعائن الله المتتابعة^(٧) إلى يوم القيامة.

ثم قال تعالى راداً على اليهود والنصارى فى كذبهم وافتراءهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ أى: نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه وله بهم عناية، وهو يحبنا. ونقلوا عن كتابهم أن

(١) فى أ: «ما أخفوا».

(٢) المستدرک (٣٥٩/٤).

(٣) فى أ: «بإذن ربهم» وهو خطأ.

(٤) فى أ: «ومن».

(٥) فى ر، أ: «فصرف».

(٦) فى ر، أ: «التابعة».

(٥) فى أ: «ينمنه منه».

الله [تعالى] ^(١) قال لعبده إسرائيل: «أنت ابني بكرى». فحملوا هذا على غير تأويله، وحرّفوه. وقد رد عليهم غير واحد ممن أسلم من عقلائهم، وقالوا: هذا يطلق عندهم على التشريف والإكرام، كما نقل النصارى عن كتابهم أن عيسى قال لهم: إني ذاهب إلى أبى وأبيكم، يعنى: ربى وربكم. ومعلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من النبوة ما ادعوها فى عيسى، عليه السلام، وإنما أرادوا بذلك ^(٢) معزتهم لديه وحظوتهم عنده، ولهذا قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه.

قال الله تعالى ^(٣) رادا عليهم: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ أى: لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباؤه، فلم أعد ^(٤) لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافترائكم؟. وقد قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء: أين تجد فى القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فلم يرد عليه، فتلا الصوفى هذه الآية: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾.

وهذا الذى قاله حسن، وله شاهد فى المسند للإمام أحمد حيث قال: حدثنا ابن أبى عدى، عن حميد، عن أنس قال: مر النبى ﷺ فى نفر من أصحابه، وصبى فى الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابني ابني! وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت هذه لتلقى ابنها فى النار. قال: فحفضهم النبى ﷺ فقال: «لا، والله ما يلقي حبيبه فى النار». تفرد به ^(٥).

[وقوله] ^(٦): ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أى: لكم أسوة أمثالكم من بنى آدم، وهو تعالى هو الحاكم فى جميع عبادته ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أى: هو فعال لما يريد، لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أى: الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه، ﴿وَالِيهِ الْمَصِيرُ﴾ أى: المرجع والمآب إليه، فيحكم فى عباده بما يشاء، وهو العادل الذى لا يجور.

[و] ^(٧) قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: وأتى رسول الله ﷺ نعمان بن أضاء ^(٨)، وبحرى بن عمرو، وشاس بن عدى، فكلّموه وكلّمهم ^(٩) رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الله وحذرهم نعمته، فقالوا: ما تخوفنا يا محمد! نحن والله أبناء الله وأحباؤه، كقول النصارى، فأنزل [الله] ^(١٠) فيهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ إلى آخر الآية. رواه ابن أبى حاتم، وابن جرير.

وروي أيضا من طريق أسباط عن السدى فى قول الله [تعالى] ^(١١): ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾: أما قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ فإنهم قالوا: إن الله أوحى إلى إسرائيل أن

(١) زيادة من أ.

(٢) فى ر، أ: «من ذلك».

(٣) فى أ: «عز وجل».

(٤) فى أ: «عز وجل».

(٥) المسند (٣/١٠٤).

(٦، ٧) زيادة من أ.

(١٠، ١١) زيادة من أ.

(٨) فى أ: «فكلّمهم».

(٩) فى أ: «عثمان بن صا».

ولذلك^(١) - برك من الولد - فدخلهم النار^(٢)، فيكونون فيها أربعين ليلة حتى تطهرهم وتاكل خطاياهم، ثم يناد مناد^(٣): أن أخرجوا كل مختون من ولد إسرائيل. فأخرجوهم^(٤)، فذلك قولهم: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٩).

يقول تعالى مخاطباً أهل الكتاب من اليهود والنصارى: إنه قد أرسل إليهم رسوله محمداً^(٥) خاتم النبيين، الذي لا نبي بعده ولا رسول، بل هو المعقب لجميعهم؛ ولهذا قال: ﴿عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي: بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى ابن مريم.

وقد اختلفوا في مقدار هذه الفترة، كم هي؟ فقال أبو عثمان النهدي وقتادة - في رواية عنه -: كانت ستمائة سنة. ورواه البخاري عن سلمان الفارسي. وعن قتادة: خمسمائة وستون سنة. وقال معمر، عن بعض أصحابه: خمسمائة وأربعون سنة. وقال الضحاك: أربعمائة^(٦) وبضع وثلاثون سنة. وذكر ابن عساكر في ترجمة عيسى، عليه السلام^(٧)، عن الشعبي أنه قال: ومن رفع المسيح إلى هجرة النبي ﷺ تسعمائة وثلاث^(٨) و ثلاثون سنة.

والمشهور هو الأول، وهو أنه ستمائة سنة. ومنهم من يقول: ستمائة وعشرون سنة. ولا منافاة بينهما، فإن القائل الأول أراد ستمائة سنة شمسية، والآخر أراد قمرية، وبين كل مائة سنة شمسية وبين القمرية نحو من ثلاث^(٩) سنين؛ ولهذا قال تعالى في قصة أصحاب الكهف: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥] أي: قمرية، لتكميل الثلاثمائة الشمسية التي كانت معلومة لأهل^(١٠) الكتاب. وكانت الفترة بين عيسى ابن مريم، آخر أنبياء بني إسرائيل، وبين محمد ﷺ^(١١) خاتم النبيين من بني آدم على الإطلاق، كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن^(١٢) أولى الناس بابن مريم؛ لأنه لا نبي بيني وبينه^(١٣)»^(١٤)، هذا فيه رد على من زعم أنه بعث بعد عيسى [عليه السلام]^(١٥) نبي، يقال له: خالد بن سنان، كما حكاه القضاعي وغيره.

والمقصود أن الله [تعالى]^(١٦) بعث محمداً ﷺ على فترة من الرسل، وطُمُوس من السبل،

(١) في أ: «ولدى».

(٢) كذا في جميع النسخ، ونص الطبري: «أن ولدا من ولدك أدخلهم النار» (١٠٦/٦).

(٣) في أ: «منادى».

(٤) في ر: «فأخرجهم».

(٥) في ر: «محمد».

(٦) في أ: «أربعمائة سنة».

(٧) تاريخ دمشق لابن عساكر ٣٠ / ١٤ القسم المخطوط ومختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٨٦/٢٠).

(٨، ٩) في أ: «ثلاثة».

(١٠) في ر، أ: «عند أهل».

(١١) زيادة من أ.

(١٢) في ر، أ: «أنا».

(١٣) في ر: «لم يكن بيني وبينه نبي».

(١٤) صحيح البخاري برقم (٣٤٤٢).

(١٥) زيادة من أ.

وَتَغَيَّرَ الأديان، وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصلبان، فكانت النعمة به أتم النعم، والحاجة إليه أمر عَمَم، فإن الفساد كان قد عَمَّ^(١) جميع البلاد، والطغيان والجهل قد ظهر فى سائر العباد، إلا قليلا من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين، من بعض أحبار اليهود وعباد النصرى والصابئين، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا هشام، حدثنا قتادة، عن مطرف، عن عياض بن حمار المجاشعي، رضى الله عنه، أن النبي ﷺ خطب ذات يوم فقال فى خطبته: «وإن ربي أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى فى يومى هذا: كل مال نَحَلْتَهُ عبادى حلال، وإنى خلقت عبادى حُنَفَاءَ كُلِّهِمْ، وإنهم أتتهم الشياطين فأضَلَّتْهُمْ^(٢) عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا، ثم إن الله، عز وجل، نظر إلى أهل الأرض فَمَقَّتْهُمْ عِجْمَهُمْ وعَرَبَهُمْ، إلا بقايا من أهل الكتاب^(٣)، وقال: إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك، وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء، تقرؤه نائما ويقظان، ثم إن الله أمرنى أن أحرق قريشا، فقلت: يارب، إذن يثْلُغُوا رأسى فيدعوه خُبْزَة، فقال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نُغْرَكَ، وأنفق عليهم فَسَنُفِقَ عليك، وابعث جندا نبعث خمسة أمثاله^(٤)، وقاتل بمن أطاعك من عصاك، وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مُقْسَطٌ مُتَّصِدٌ موفق^(٥)، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذى قربى ومسلم، ورجل عَفِيفٌ فقير^(٦) متصدق، وأهل النار خمسة: الضعيف الذى لا زَبَرَ^(٧) له، الذين هم فيكم تَبَعًا أو تُبْعَاء - شك يحيى - لا يبتغون أهلا ولا مالا، والخائن الذى لا يَخْفَى له طَمَعٌ وإن دَقَّ إلا خانته، ورجل لا يُصْبِح ولا يُمَسِي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك»، وذكر البخيل^(٨) أو الكذب، «والسُنْظِير: الفاحش»^(٩).

ثم رواه الإمام أحمد، ومسلم، والنسائي من غير وجه، عن قتادة، عن مطرف بن عبد الله بن الشخير. وفى رواية سعيد^(١٠) عن قتادة التصريح بسماع قتادة هذا الحديث من مطرف. وقد ذكر الإمام أحمد فى مسنده: أن قتادة لم يسمعه من مطرف، وإنما سمعه من أربعة، عنه. ثم رواه هو، عن روح، عن عوف، عن حكيم الأثرم، عن الحسن قال: حدثنى مطرف، عن عياض بن حمار، فذكره. و [كذا]^(١١) رواه النسائي من حديث غُنْدَر، عن عوف الأعرابي، به^(١٢).

والمقصود من إيراد هذا الحديث قوله: «وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم إلا بقايا من بنى إسرائيل». وفى لفظ مسلم: «من أهل الكتاب». وكان^(١٣) الدين قد التبس على أهل

(٢) فى أ: «فاحتالتهم».

(٤) فى أ: «أمثالهم».

(٧) فى أ: «رض».

(٦) فى أ: «فقير ذو عيال».

(١) فى ر: «عمم».

(٣) فى ر، أ: «إلا بقايا من بنى إسرائيل أهل الكتاب».

(٥) فى أ: «موقن».

(٨) فى ر، أ: «البخل».

(٩) المسند (٤/١٦٢).

(١١) زيادة من ر، أ.

(١٠) فى ر، أ: «شعبة».

(١٢) المسند (٤/١٦٢) وصحيح مسلم برقم (٢٨٦٥) وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٠٧١).

(١٣) فى ر، أ: «فكان».

الأرض كلهم، حتى بعث الله محمداً ﷺ، فهدى الخلائق، وأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور، وتركهم على المحجة البيضاء، والشرية الغراء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ أى: لثلاثا تحتجوا وتقولوا^(١): - يا أيها الذين بدلوا دينهم وغيروه - ما جاءنا من رسول يبشر بالخير وينذر من الشر، فقد جاءكم بشير ونذير، يعنى محمداً ﷺ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قال ابن جرير: معناه: إني قادر على عقاب من عصاني، وثواب من أطاعني.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام، فيما ذكر به قومه نعم الله عليهم وآلاءه لديهم، في جمعه لهم خير الدنيا والآخرة لو استقاموا على طريقتهم المستقيمة، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ أى: كلما هلك نبي قام فيكم نبي، من لدن أبيكم إبراهيم وإلى ما بعده. وكذلك^(٢) كانوا، لا يزال فيهم الأنبياء يدعون إلى الله ويحذرون نقمته، حتى ختموا بعيسى، عليه السلام، ثم أوحى الله [تعالى]^(٣) إلى خاتم الرسل والأنبياء على الإطلاق محمد بن عبد الله، المنسوب إلى إسماعيل بن إبراهيم، عليه^(٤) السلام، وهو أشرف من كل من تقدمه منهم ﷺ.

وقوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾: قال عبد الرزاق، عن الثوري، عن منصور، عن الحكم أو غيره، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ قال: الخادم والمرأة والبيت.

وروى الحاكم في مستدركه، من حديث الثوري أيضاً، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس

(٢) في أ: «ولذلك».

(٤) في أ: «عليهما».

(١) في ر، أ: «يحتجوا ويقولوا».

(٣) زيادة من ر.

قال: المرأة والخادم ﴿وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال: الذين هم بين ظَهْرَانِهِمْ يومئذ، ثم قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين^(١)، ولم يخرجاه^(٢).

وقال ميمون بن مهران، عن ابن عباس قال: كان الرجل من بنى إسرائيل إذا كان له الزوجة^(٣) والخادم والدار^(٤)، سمي ملكًا.

وقال ابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، أنبأنا أبو هانئ؛ أنه سمع أبا عبد الرحمن الحبلي يقول: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص، وسأله رجل فقال: ألسنا^(٥) من فقراء المهاجرين؟ فقال عبد الله: ألك امرأة تأوى إليها؟ قال: نعم. قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم. قال: فأنت من الأغنياء. فقال: إن لى خادما. قال^(٦): فأنت من الملوك^(٧).

وقال الحسن البصري: هل الملك إلا مركب وخادم ودار؟

رواه ابن جرير. ثم روى عن منصور والحكم، ومجاهد، وسفيان الثوري نحوه من هذا. وحكاه ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران.

وقال ابن شَوَدَّب: كان الرجل من بنى إسرائيل إذا كان له منزل وخادم، واستؤذن عليه، فهو ملك.

وقال قتادة: كانوا أول من ملك الخدم.

وقال السدي في قوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ قال: يملك الرجل منكم نفسه وأهله وماله. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن ابن لهيعة، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ قال: «كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة، كُتِبَ ملكا»^(٨). وهذا حديث غريب من هذا الوجه.

وقال ابن جرير: حدثنا الزبير بن بكار، حدثنا أبو ضمرة أنس بن عياض، [قال]^(٩): سمعت زيد ابن أسلم يقول: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ فلا أعلم إلا أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان له بيت وخادم فهو ملك».

وهذا مرسل غريب^(١٠).

وقال مالك: بيت وخادم وزوجة.

(١) في د: «على شرطهما».

(٢) الحاكم في المستدرک (٣١١/٢، ٣١٢).

(٣) في د: «المرأة».

(٤) في ر، أ: «المرأة».

(٥) في أ: «فقال».

(٦) في ر: «ألست»، وفي د: «أنا من الفقراء».

(٧) تفسير الطبري (١٠/١٦٣).

(٨) وفي إسناده ابن لهيعة ودراج ضعيفان ورواية دراج عن أبي الهيثم ضعيفة.

(٩) زيادة من أ.

(١٠) تفسير الطبري (١٠/١٦١).

وقد ورد^(١) في الحديث: «من أصبح منكم معافى^(٢) في جسده، آمنأ في سربه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذاقها»^(٣).

وقوله: ﴿وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ يعني عالمى زمانكم، فكأنهم^(٤) كانوا أشرف^(٥) الناس فى زمانهم، من اليونان والقبط وسائر أصناف بنى آدم، كما قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦]، وقال تعالى إخباراً عن موسى لما قالوا: ﴿اجْعَلْ لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَرِّمًا مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ . قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٨ - ١٤٠].

والمقصود: أنهم كانوا أفضل أهل زمانهم، وإلا فهذه الأمة أشرف منهم، وأفضل عند الله، وأكمل شريعة، وأقوم منهاجا، وأكرم نبيا، وأعظم ملكا، وأغزر أرزاقا، وأكثر أموالا وأولادا، وأوسع مملكة، وأدوم عزا، قال الله [عز وجل]^(٦): ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقد ذكرنا الأحاديث المتواترة فى فضل هذه الأمة وشرفها وكرمها، عند الله، عند قوله عز وجل: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ من^(٧) سورة آل عمران.

وروى ابن جرير عن ابن عباس، وأبى مالك وسعيد بن جبیر أنهم قالوا فى قوله: ﴿وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ يعنى: أمة محمد ﷺ، وكأنهم أرادوا أن هذا الخطاب فى قوله: ﴿وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ مع هذه الأمة. والجمهور على أنه خطاب من موسى لقومه، وهو محمول على عالمى زمانهم كما قدمنا.

وقيل: المراد: ﴿وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ يعنى بذلك: ما كان تعالى نزله^(٨) عليهم من المن والسلوى، وتظللهم^(٩) من الغمام وغير ذلك، مما كان تعالى يخصهم به من خوارق العادات، فالله^(١٠) أعلم.

ثم قال تعالى مخبراً عن تحريض، موسى، عليه السلام، لبني^(١١) إسرائيل على الجهاد والدخول إلى بيت المقدس، الذى كان بأيديهم فى زمان أبيهم يعقوب، لما ارتحل هو وبنوه وأهله إلى بلاد مصر أيام يوسف، عليه السلام، ثم لم يزالوا بها حتى خرجوا مع موسى [عليه السلام]^(١٢) فوجدوا فيها قوما من العمالقة الجبارين، قد استحوزوا عليها وتملكوها، فأمرهم رسول الله موسى، عليه السلام، بالدخول

(١) فى أ: «روى».

(٢) فى ر: «معافا».

(٣) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٣٤٦) ورواه ابن ماجة فى السنن برقم (٤١٤١) من حديث عبد الله بن محصن الأنصارى.

(٤) فى أ: «فإنهم».

(٥) فى ر: «أشرف».

(٦) زيادة من ر، وفى أ: «تعالى».

(٧) فى أ: «فى».

(٨) فى أ: «ينزله».

(٩) فى أ: «ويظللهم».

(١٠) فى أ: «والله».

(١١) فى ر: «بنى».

(١٢) زيادة من أ.

إليها، وبقتال أعدائهم، وبشّرهم بالنصرة والظفر عليهم، فَكَلُّوا وَعَصُوا وخالفوا أمره، فعوقبوا بالذهاب في التيه والتمادى في سيرهم حائرين، لا يدرون كيف يتوجهون فيه إلى مقصد، مُدَّة أربعين سنة، عقوبة لهم على تفريطهم في أمر الله [تعالى]^(١)، فقال تعالى مخبراً عن موسى أنه قال: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ أى: المطهرة.

قال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ قال: هي الطور وما حوله. وكذا قال مجاهد وغير واحد.

وقال سفيان الثوري، عن أبي سعيد البقال، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: هي أريحا. وكذا ذكر غير واحد من المفسرين.

وفى هذا نظر؛ لأن أريحا ليست هي المقصود^(٢) بالفتح، ولا كانت في طريقهم إلى بيت المقدس، وقد قدموا من بلاد مصر، حين أهلك الله عدوهم فرعون، [اللهم]^(٣) إلا أن يكون المراد بأريحا أرض بيت المقدس، كما قاله السدي - فيما رواه ابن جرير عنه - لا أن المراد بها هذه البلدة المعروفة في طرف الغور شرقي بيت المقدس.

وقوله تعالى: ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أى: التي وعدكموها الله على لسان أبيكم إسرائيل: أنه وراثته^(٤) من آمن منكم. ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ﴾ أى: ولا تنكسوا عن الجهاد ﴿فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾. قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا^(٥) فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ أى: اعتذروا بأن في هذه البلدة - التي أمرتنا بدخولها وقتال أهلها - قوما جبارين، أى: ذوى خلق هائلة، وقوى شديدة، وإنا لا نقدر على مقاومتهم ولا مُصَاوَلَتِهِمْ، ولا يمكننا الدخول إليها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها دخلناها^(٦)، وإلا فلا طاقة لنا بهم.

وقد قال ابن جرير: حدثني عبد الكريم بن الهيثم، حدثنا إبراهيم بن بشار، حدثنا سفيان قال: قال أبو سعيد^(٧)، قال عكرمة، عن ابن عباس قال: أمر موسى أن يدخل مدينة الجبارين. قال: فسار موسى بمن معه حتى نزل قريباً من المدينة - وهي أريحا - فبعث إليهم اثني عشر عيئاً، من كل سبط منهم عين، ليأتوه بخبر القوم. قال: فدخلوا المدينة فرأوا أمراً عظيماً من هيئتهم وجثثهم^(٨) وعظمتهم، فدخلوا حائطاً لبعضهم، فجاء صاحب الحائط ليجتنى الثمار من حائطه، فجعل يجتنى الثمار وينظر^(٩) إلى آثارهم، فتبعهم^(١٠)، فكلما^(١١) أصاب واحداً منهم أخذه فجعله في كفه مع الفاكهة، حتى التقت الاثنى عشر كلهم، فجعلهم في كفه مع الفاكهة، وذهب^(١٢) إلى ملكهم فنثرهم بين يديه. فقال لهم الملك: قد رأيتم شأننا وأمرنا، فاذهبوا فأخبروا صاحبكم. قال: فرجعوا إلى موسى، فأخبروه بما عاينوا من أمرهم.

(١) زيادة من أ.

(٢) فى أ: «المقصودة».

(٣) زيادة من ر، أ.

(٤) فى أ: «ورثته».

(٥) فى ر: «وإنا لن ندخلها ما داموا فيها» وهو خطأ.

(٦) فى أ: «منها فإنا داخلون».

(٧) فى ر: «أبو سعد».

(٨) فى د، ر، أ: «وجسمهم».

(٩) فى ر، أ: «فنظر».

(١٠) فى أ: «فتبعهم».

(١١) فى ر: «فلما».

(١٢) فى ر: «فذهب»، وفى أ: «ثم ذهب».

وفي هذا الإسناد نظر^(١).

وقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: لما نزل موسى وقومه، بعث منهم اثني عشر رجلاً^(٢) - وهم النقباء الذين ذكر^(٣) الله، فبعثهم ليأتوه بخبرهم، فساروا، فلقاهم رجل من الجبارين، فجعلهم في كسائه، فحملهم حتى أتى بهم المدينة، ونادى في قومه فاجتمعوا إليه، فقالوا: من أنتم؟ قالوا: نحن قوم موسى، بعثنا نأتيه^(٤) بخبركم. فأعطوهم حبة من عنب تكفي الرجل، فقالوا لهم: اذهبوا إلى موسى وقومه فقولوا لهم: اقدروا قدر فاكهتهم^(٥). فلما أتوهم قالوا: يا موسى، ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾.

رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا يحيى بن أيوب، عن يزيد ابن الهاد، حدثني يحيى بن عبد الرحمن قال: رأيت أنس بن مالك أخذ عصا، فذرع^(٦) فيها بشيء، لا أدرى كم ذرع، ثم قاس بها في الأرض خمسين أو خمسا^(٧) وخمسين، ثم قال: هكذا طول العماليق.

وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا أخباراً من وضع بنى إسرائيل، في عظمة خلق هؤلاء الجبارين، وأنه كان فيهم عوج بن عنق، بنت آدم، عليه السلام، وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعاً، وتحرير الحساب! وهذا شيء يستحي من ذكره. ثم هو مخالف لما ثبت في الصحيح^(٨): أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله [تعالى]^(٩) خلق آدم وطوله ستون ذراعاً، ثم لم يزل الخلق ينقص^(١٠) حتى الآن»^(١١).

ثم قد ذكروا أن هذا الرجل كان كافراً، موأنه كان ولد زنية، وأنه امتنع من ركوب السفينة، وأن الطوفان لم يصل إلى ركبته^(١٢). وهذا كذب وافتراء، فإن الله ذكر أن نوحاً دعا على أهل الأرض من الكافرين، فقال^(١٣): ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾^(١٤). ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ [الشعراء: ١١٩، ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿قَالَ﴾^(١٥) لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ [هود: ٤٣]، وإذا كان ابن نوح الكافر غرق، فكيف يبقى عوج بن عنق، وهو كافر وولد زنية؟! هذا لا يسوغ في عقل ولا شرع. ثم في وجود رجل يقال له: «عوج بن عنق» نظر، والله أعلم.

وقوله: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ أي: فلما نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله ومتابعة رسول الله موسى، عليه السلام، حرّضهم رجلان لله عليهما نعمة عظيمة، وهما ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه.

(١) تفسير الطبري (١٠/١٧٣).

(٢) في أ: «نقباء». (٣) في أ: «ذكرهم». (٤) في ر: «نأتيهم».

(٥) في ر: «اقدروا قدر فاكهتكم». (٦) في أ: «وذرع». (٧) في أ: «خمس».

(٨) في د، أ: «الصحيحين». (٩) زيادة من أ. (١٠) في ر: «تنقص».

(١١) رواه البخاري في صحيحه برقم (٣٣٢٦) ورواه مسلم في صحيحه برقم (٢٨٤١) من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

(١٢) في ر، أ: «ركبته». (١٣) في أ: «وقال».

(١٤) في ر: «فأنجيناه ومن معه أجمعين» وهو خطأ. (١٥) زيادة من ر.

وقرأ بعضهم: «قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ» أى: ممن لهم^(١) مهابة وموضع من الناس. ويقال: إنهما «يوشع بن نون» و «كالب بن يوفنا»، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطية، والسدّى، والربيع بن أنس، وغير واحد من السلف، والخلف، رحمهم الله، فقالوا: «ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» أى: متى توكلتم على الله واتبعتم أمره، ووافقتهم رسوله، نصركم الله على أعدائكم وأيدكم وظهركم بهم، ودخلتم البلدة التى كتبها الله لكم. فلم ينفع ذاك منهم شيئاً. «قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ». وهذا نكول منهم عن الجهاد، ومخالفة لرسولهم^(٢)، وتخلف عن مقاتلة^(٣) الأعداء.

ويقال: إنهم لما نكلوا على الجهاد وعزموا على الانصراف والرجوع إلى بلادهم، سجد موسى وهارون، عليهما السلام، قدام ملا من بنى إسرائيل، إعظاماً لما هموا به، وشق «يوشع بن نون» و «كالب بن يوفنا» ثيابهما ولاما قومهما على ذلك، فيقال: إنهم رجموهما. وجرى أمر عظيم وخطر جليل.

وما أحسن ما أجاب به الصحابة، رضى الله عنهم^(٤)، يوم بدر رسول الله ﷺ، حين استشارهم فى قتال النضير، الذين جاؤوا لمنع العير الذى كان مع أبى سفيان، فلما فات اقتناص العير، واقترب منهم النضير، وهم فى جمع ما بين التسعمائة إلى الألف، فى العدة^(٥) والبيض واليكن، فتكلم أبو بكر، رضى الله عنه، فأحسن، ثم تكلم من تكلم من الصحابة من المهاجرين، ورسول الله ﷺ يقول: «أشيروا على أيها المسلمون». وما يقول ذلك إلا ليستعلم ما عند الأنصار؛ لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ. فقال سعد بن معاذ [رضى الله عنه]^(٦): كأنك تعرض بنا يا رسول الله، فوالذى^(٧) بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، وما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبر فى الحرب، صدق فى اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله فسر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه^(٩) ذلك^(١٠).

وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا على بن الحسين، حدثنا أبو حاتم الرازى، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى، حدثنا حميد عن أنس، أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر استشار المسلمين، فأشار إليه عمر، ثم استشارهم فقالت الأنصار: يا معشر الأنصار إياكم يريد رسول الله ﷺ. قالوا: إذا لا نقول له كما قالت^(١١) بنو إسرائيل لموسى: «فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ» والذى بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك.

ورواه الإمام أحمد، عن عبيدة^(١٢) بن حميد، عن حميد الطويل، عن أنس، به. ورواه النسائى، عن محمد بن المثنى، عن خالد بن الحارث، عن حميد به، ورواه ابن حبان عن أبى يعلى،

(٣) فى أ: «مقابلة».

(٦) زيادة من أ.

(٩) فى ر، أ: «وبسطه».

(٢) فى ر: «لرسوله».

(٥) فى أ: «العدد».

(٨) فى أ: «ما يقر».

(١٢) فى أ: «عبدة».

(١) فى ر: «لهما».

(٤) فى أ: «رضوان الله عليهم أجمعين».

(٧) فى ر: «والذى».

(١٠) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٦١٥).

(١١) فى أ: «كما قال».

عن عبد الأعلى بن حماد، عن مَعْمَر^(١) بن سليمان، عن حميد، به^(٢).

وقال ابن مردويه: أخبرنا عبد الله بن جعفر، أخبرنا إسماعيل بن عبد الله، حدثنا عبد الرحمن ابن إبراهيم، حدثنا محمد بن شعيب، عن الحسن^(٣) بن أيوب، عن عبد الله بن ناسح، عن عتبة بن عبد السلمي قال: قال النبي ﷺ لأصحابه: «ألا تقاتلون؟» قالوا: نعم، ولا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما^(٤) مقاتلون^(٥).

وكان ممن أجاب^(٦) يومئذ المقداد بن عمرو الكندي، رضى الله عنه، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن مخارق بن عبد الله الأحمسي، عن طارق - هو ابن شهاب - : أن المقداد قال لرسول الله ﷺ يوم بدر: يا رسول الله، إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما^(٧) مقاتلون.

هكذا رواه أحمد من هذا الوجه، وقد رواه من طريق أخرى فقال:

حدثنا أسود بن عامر، حدثنا إسرائيل، عن مخارق، عن طارق بن شهاب قال: قال عبد الله - هو ابن مسعود - رضى الله عنه: لقد شهدت من المقداد شهيداً لأن أكون أنا صاحبه أحب إلى مما عدل به: أتى رسول الله ﷺ^(٨) وهو يدعو على المشركين، فقال: والله يا رسول الله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، ولكننا نقاتل عن يمينك وعن يسارك، ومن بين يديك ومن خلفك. فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك، وسره^(٩) بذلك^(١٠).

وهكذا رواه البخاري «في المغازي» وفي «التفسير» من طرق عن مخارق، به. ولفظه في «كتاب التفسير» عن عبد الله قال: قال المقداد يوم بدر: يا رسول الله، إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، ولكن^(١١) [نقول]^(١٢): امض ونحن معك فكأنه سرى عن رسول الله ﷺ.

ثم قال البخاري: ورواه وكيع، عن سفيان، عن مخارق، عن طارق؛ أن المقداد قال للنبي ﷺ^(١٣).

وقال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم الحديبية، حين صدَّ المشركون الهدى وحيل بينهم وبين مناسكهم: «إني ذاهب

(١) في أ: «معمتر».

(٢) المسند (١٠٥/٣) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١١٤١) ومسنند أبي يعلى الموصلي (٤٠٧/٦).

(٣) في أ: «الحكم»، والمثبت من الجرح.

(٤) في أ: «معكم».

(٥) ورواه أحمد في مسنده (١٨٣/٤) من طريق الحسن بن أيوب به.

(٦) في ر: «أجاد».

(٧) في ر، أ: «معكم».

(٨) زيادة من أ.

(٩) في ر، أ: «وسر».

(١٠) المسند (٣٨٩/١).

(١١) في أ: «ولكننا».

(١٢) زيادة من أ.

(١٣) صحيح البخاري برقم (٣٩٥٢، ٤٦٠٩).

بِالْهَدْيِ فَنَاحِرُهُ عِنْدَ الْبَيْتِ». فَقَالَ لَهُ الْمَقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ: أَمَا^(١) وَاللَّهِ لَا نَكُونُ كَالْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ وَلَكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمْ مُقَاتِلُونَ. فَلَمَّا سَمِعَهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَتَابَعُوا^(٢) عَلَى ذَلِكَ^(٣).

وهذا. إن كان محفوظاً يوم الحديبية، فيحتمل أنه كرر هذه المقالة يومئذ كما قاله يوم بدر. وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ يعني: لما نكل بنو إسرائيل عن القتال غضب عليهم موسى عليه السلام، وقال داعياً عليهم: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ أى: ليس أحد يطيعني منهم فيمثل أمر الله، ويجب إلى ما دعوت إليه إلا أنا وأخى هارون، ﴿فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ قال العوفي، عن ابن عباس: يعنى اقض بينى وبينهم. وكذا قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس.

وكذا قال الضحاك: اقض بيننا وبينهم، وافتح بيننا وبينهم، وقال غيره: افرق: افصل بيننا وبينهم، كما قال الشاعر^(٤):

يَا رَبِّ فَافْرِقْ بَيْنَهُ وَبَيْنِي أَشَدَّ مَا فَرَقْتَ بَيْنَ اثْنَيْنِ

وقوله تعالى: [قَالَ]^(٥) فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ [فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ]^(٦)، لما دعا عليهم موسى، عليه السلام، حين نكلوا عن الجهاد حكم الله عليهم بتحريم دخولها قدراً مدة أربعين سنة، فوقعوا في التيه يسرون دائماً لا يهتدون للخروج منه، وفيه كانت أمور عجيبة، وخوارق كثيرة، من تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم، ومن إخراج الماء الجارى من صخرة صماء تحمل^(٧) معهم على دابة، فإذا ضربها موسى بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشرة^(٨) عينا تجرى لكل شعب عين، وغير ذلك من المعجزات التى أيد الله بها موسى بن عمران. وهناك أنزلت التوراة، وشرعت لهم الأحكام، وعملت قبة العهد، ويقال لها: قبة الزمان.

قال يزيد بن هارون، عن أصبغ بن زيد^(٩)، عن القاسم بن أبى أيوب، عن سعيد بن جبيرة: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية. قال: فتأهوا فى الأرض أربعين سنة، يصبحون كل يوم يسرون ليس لهم قرار، ثم ظلل عليهم الغمام فى التيه، وأنزل عليهم المن والسلوى وهذا قطعة من حديث «الفتون»، ثم كانت وفاة هارون، عليه السلام، ثم بعده بمدة ثلاث سنين مات موسى الكليم، عليه السلام، وأقام الله فيهم «يوشع بن نون» عليه السلام، نبيا خليفة عن موسى بن عمران، ومات أكثر بنى إسرائيل هناك فى تلك المدة، ويقال: إنه لم يبق منهم أحد سوى «يوشع» و«كالب»، ومن هاهنا قال بعض المفسرين فى قوله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾: هذا وقف تام، وقوله: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ منصوب بقوله: ﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾. فلما انقضت

(٢) فى ر، أ: «تتابعوا».

(١) فى ر، أ: «إنّا».

(٣) تفسير الطبرى (١٨٦/١٠).

(٤) يقول الأستاذ محمود شاكر حفظه الله: «لعله جينة بن طريف العكلى». انظر: حاشية تفسير الطبرى (١٨٨/١٠).

(٥) زيادة من أ.

(٦) زيادة من ر، وفى هـ: «الآية».

(٧) فى ر: «تحمّل».

(٨) فى ر، هـ: «إنها»، والصواب ما أثبتناه.

(٩) فى ر، أ: «يزيد».

المدة خرج بهم «يوشع بن نون» عليه السلام، أو بمن بقى منهم وبسائر بنى إسرائيل من الجيل الثانى، فقصد^(١) بهم بيت المقدس فحاصرها، فكان فتحها يوم الجمعة بعد العصر، فلما تَضَيَّقَتِ الشمس للغروب، وخَشَى دخول السبت عليهم قال^(٢): «إِنَّكَ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيَّ»، فحبسها الله تعالى حتى فتحها، وأمر الله «يوشع بن نون» أن يأمر بنى إسرائيل، حين يدخلون بيت المقدس، أن يدخلوا بابها سُجَّداً، وهم يقولون: حطّة، أى: حط عنا ذنوبنا، فبدلوا ما أمروا به، فدخلوا^(٣) يزحفون على استاهمهم، وهم يقولون: حَبّةٌ فى شَعْرَةٍ، وقد تقدم هذا كله فى سورة البقرة.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن أبى عمر العدنّى، حدثنا سفيان، عن أبى سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس قوله: «فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ» قال: فتأهوا أربعين سنة، فهلك موسى وهارون فى التيه وكل من جاوز الأربعين سنة، فلما مضت الأربعون سنة ناهضهم «يوشع بن نون»، وهو الذى قام بالأمر بعد موسى، وهو الذى افتتحها، وهو الذى قيل له: «اليوم يوم الجمعة» فهَمُّوا بافتتاحها، ودنت^(٤) الشمس للغروب، فخشى إن دخلت ليلة السبت أن يسبتوا، فنادى الشمس: «إِنِّى مَأْمُورٌ وَإِنَّكَ مَأْمُورَةٌ» فوقفت حتى افتتحها، فوجد فيها من الأموال ما لم ير مثله قط، فقبوه إلى النار فلم تأت فقال: فيكم الغلول، فدعا رؤوس الأسباط، وهم اثنا عشر رجلاً فبايعهم، والتصقت يد رجل منهم بيده، فقال: الغلول عندك، فأخرجه فأخرج رأس بقرة من ذهب، لها عينان من ياقوت، وأسنان من لؤلؤ، فوضعه مع القربان، فأنت النار فأكلتها.

وهذا السياق له شاهد فى الصحيح. وقد اختار ابن جرير أن قوله: «فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ» هو العامل فى «أربعين سنة»، وأنهم مكثوا لا يدخلونها أربعين سنة، وهم تائهون فى البرية لا يهتدون لمقصد. قال: ثم خرجوا مع موسى، عليه السلام، ففتح بهم بيت المقدس. ثم احتج على ذلك قال: بإجماع علماء أخبار الأولين أن^(٥) «عوج بن عنق» قتله موسى، عليه السلام، قال: فلو كان قتله إياه قبل التيه لما رهبت بنو إسرائيل من العماليق، فدل على أنه كان بعد التيه. قال: وأجمعوا على أن «بلعام بن باعورا» أعان الجبارين بالدعاء على موسى، قال: وما ذاك إلا بعد التيه؛ لأنهم كانوا قبل التيه لا يخافون من موسى وقومه هذا استدلاله، ثم قال:

حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا ابن عطية، حدثنا قيس، عن أبى إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كانت عصا موسى عشرة أذرع، ووثبته عشرة أذرع، وطوله عشرة أذرع، فوثب فأصاب كعب «عوج» فقتله، فكان جسراً لأهل النيل سنة^(٦).

وروى أيضاً عن محمد بن بشار، حدثنا مؤمل، حدثنا سفيان، عن أبى إسحاق، عن نَوْفٍ الْبِكَالَى قال: كان سرير «عوج» ثمانمائة^(٧) ذراع، وكان طول موسى عشرة أذرع، وعصاه عشرة أذرع،

(٣) فى أ: «ودخلوا».

(٢) فى أ: «فقال».

(١) فى أ: «يقصد».

(٦) فى أ: «سنتين».

(٥) فى ر: «وأن».

(٤) فى أ: «وقربت».

(٧) فى ر، أ: «ثلثمائة».

ووثب في السماء عشرة أذرع، فضرب «عوجا» فأصاب كعبه، فسقط ميتا، وكان جسراً للناس يمشون عليه^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ تسلياً لموسى، عليه السلام، عنهم، أى: لا تتأسف ولا تحزن عليهم فمهما^(٢) حكمت عليهم، به فإنهم يستحقون ذلك.

وهذه القصة تضمنت تقريع اليهود وبيان فضائحهم، ومخالفتهم لله ولرسوله ونكولهم عن طاعتهم، فيما^(٣) أمرهم^(٤) به من الجهاد، فضعفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم، ومقاتلتهم، مع أن بين أظهرهم رسول الله ﷺ وكليمه وصفيه من خلقه في ذلك الزمان، وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم، هذا وقد شاهدوا ما أحل الله بعدوهم فرعون من العذاب والنكال والغرق له ولجنوده في اليم، وهم ينظرون لتقرّ به أعينهم وما بالعهد من قدم، ثم ينكلون عن مقاتلة^(٥) أهل بلد هى بالنسبة إلى ديار مصر لا توازي عشر المعشار في عدّة أهلها وعددهم، فظهرت^(٦) قبائح صنيعهم للخاص والعام، وافتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل، ولا يسترها الذيل، هذا وهم في^(٧) جهلهم يعمهون، وفي غيهم يترددون، وهم البغضاء إلى الله وأعداؤه، ويقولون مع ذلك: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، فقبح الله وجوههم التي مسخ منها الخنازير والقروء، وألزمهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات الوقود، ويقضى لهم فيها بتأييد الخلود، وقد فعل وله الحمد من^(٨) جميع الوجود.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)﴾.

يقول تعالى مبينا وخيم عاقبة البغى والحسد والظلم في خبر ابني^(٩) آدم لصلبه - في قول الجمهور - وهما هابيل وقابيل كيف عدا أحدهما على الآخر، فقتله بغيا عليه وحسدا له، فيما وهبه الله من النعمة وتقبّل القربان الذي أخلص فيه لله عز وجل، ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى

(١) حديث عوج بن عتق حديث طويل باطل، ولا يصح ما ذكر عن أوصافه، وقد تكلم عليه الإمام ابن القيم - رحمه الله - في المنار المنيف (ص ٧٦) بما يكفى.

(٤) فى أ: «أمرهما».

(٣) فى ر: «فى الذى».

(٢) فى أ: «فىما» .

(٧) فى أ: «من».

(٦) فى ر: «وظهرت».

(٥) فى أ: «معاملة».

(٩) فى ر: «بنى».

(٨) فى أ: «فى».

الجنة، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ أى: واقصص على هؤلاء البغاة الحسدة، إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم - خبر ابنى^(١) آدم، وهما هابيل وقايل فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف.

وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أى: على الجلية والأمر الذى لا لبس فيه ولا كذب، ولا وهم ولا تبديل، ولا زيادة ولا نقصان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ بِالْحَقِّ﴾ [آل عمران: ٦٢] وقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾^(٢) [مريم: ٣٤].

وكان من خبرهما فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف، أن الله تعالى كان قد شرع لآدم، عليه السلام، أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال، ولكن قالوا: كان يؤلّد له فى كل بطن ذكر وأنثى، فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر، وكانت أخت هابيل دميمة، وأخت قايل وضيفة، فأراد أن يستأثر بها على أخيه، فأبى آدم ذلك إلا أن يقربا قرباناً، فمن تقبل منه فهى له، فقربا فتقبل من هابيل ولم يتقبل من قايل، فكان من أمرهما ما قص الله فى كتابه.

ذكر أقوال المفسرين ههنا:

قال السدّى - فيما ذكر - عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود - وعن ناس من أصحاب النبى ﷺ؛ أنه كان لا يولد لآدم مولود إلا ولد معه جارية، فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر، ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر، حتى ولد له ابنان يقال لهما: قايل وهابيل^(٣)، وكان قايل صاحب زرع، وكان هابيل صاحب ضرع، وكان قايل أكبرهما، وكان له أخت أحسن من أخت هابيل، وأن هابيل طلب أن ينكح أخت قايل، فأبى عليه وقال: هى أختى، ولدت معى، وهى أحسن من أختك، وأنا أحق أن أتزوج بها. فأمره أبوه أن يزوجه هابيل، فأبى، وأنهما قربا قرباناً إلى الله عز وجل أيهما أحق بالجارية، وكان آدم، عليه السلام، قد غاب عنهما، أتى^(٤) مكة ينظر إليها، قال الله عز وجل: هل تعلم أن لى بيتاً فى الأرض؟ قال: اللهم لا، قال: إن لى بيتاً فى مكة^(٥) فأتته. فقال آدم للسماء: احفظى ولدى بالأمانة، فأبى. وقال للأرض، فأبى. وقال للجبال، فأبى. فقال^(٦) لقايل، فقال: نعم، تذهب وترجع وتجد أهلك كما يسرك فلما انطلق آدم قربا قرباناً، وكان قايل يفخر عليه، فقال: أنا أحق بها منك، هى أختى، وأنا أكبر منك، وأنا وصى والدى. فلما قربا، قرب هابيل جذعة سمنة، وقرب قايل حزمة سنبل، فوجد فيها سنبله عظيمة، ففركها فأكلها. فنزلت النار فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان قايل، فغضب وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختى. فقال هابيل: إنما يتقبل الله من المتقين. رواه ابن جرير^(٧).

(٣) فى ر: «هابيل وقايل».

(٢) زيادة من ر، أ.

(١) فى ر: «بنى».

(٦) فى أ: «وقال».

(٥) فى ر، أ: «بمكة».

(٤) فى أ: «إلى».

(٧) تفسير الطبرى (٢٠٦/١٠) وسيأتى كلام الحافظ ابن كثير فى رد هذا الاثر.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، أخبرني ابن خثيم قال: أقبلت مع سعيد بن جبير فحدثني عن ابن عباس قال: نهى أن تنكح المرأة أخاها تَوَامِها، وأمر أن ينكحها غيره من إخوتها، وكان يولد له في كل بطن رجل^(١) وامرأة، فبينما هم كذلك ولد له امرأة وضيئة، وولد له أخرى قبيحة دميمة، فقال أخو الدميمة: أنكحني أختك وأنكحك أختي. قال: لا، أنا أحق بأختي فقربا قربانا، فتقبل من صاحب الكباش، ولم يتقبل من صاحب الزرع، فقتله . إسناده جيد.

وحدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد بن سلمة، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قوله: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ فقربا قربانهما، فجاء صاحب الغنم بكباش أعين أقرن أبيض، وصاحب الحرث بصبرة من طعام، فقبل^(٢) الله الكباش فخرنه في الجنة أربعين خريفا، وهو الكباش الذي ذبحه إبراهيم عليه السلام^(٣). إسناده جيد.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن أبي المغيرة، عن عبد الله بن عمرو^(٤) قال: إن ابني آدم اللذين قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، كان أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم، وإنهما^(٥) أمرا أن يقربا قربانا، وإن صاحب الغنم قرب أكرم غنمه وأسمنها وأحسنها، طيبة بها نفسه، وإن صاحب الحرث قرب أشد حرثه الكودن والزوان غير طيبة بها نفسه، وإن الله، عز وجل، تقبل قربان صاحب الغنم، ولم يتقبل قربان صاحب الحرث، وكان من قصتهما ما قص الله في كتابه، قال: وإيم الله، إن كان المقتول لأشد الرجلين، ولكن منعه التخرج أن ييسط [يده]^(٦) إلى أخيه.

وقال إسماعيل بن رافع المدني القاص: بلغني أن ابني آدم لما أمرا بالقربان، كان أحدهما صاحب غنم، وكان أنتج له حمل في غنمه، فأحبه حتى كان يؤثره بالليل، وكان يحمله على ظهره من حبه، حتى لم يكن له مال أحب إليه منه. فلما أمر بالقربان قربه لله، عز وجل، فقبله^(٧) الله منه، فما زال يرتع في الجنة حتى فدى به ابن إبراهيم، عليه السلام . رواه ابن جرير.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الأنصاري، حدثنا القاسم بن عبد الرحمن، حدثنا محمد ابن علي بن الحسين قال: قال آدم، عليه السلام، لهابيل وقابيل: إن ربي عهد إلى أنه كائن من ذريتي من يُقَرَّبُ القربان، فقربا قربانا حتى تَقَرَّ عيني إذا تَقَبَّلَ قربانكما، فقربا. وكان هابيل صاحب غنم فقرب أكولة غنمه، خير ماله، وكان قابيل صاحب زرع، فقرب مشاقة^(٨) من زرعه، فانطلق آدم معهما، ومعهما قربانهما، فصعدا الجبل فوضعا قربانهما، ثم جلسوا ثلاثتهم: آدم وهما، ينظران إلى القربان، فبعث الله نارا حتى إذا كانت فوقهما دنا منها عنق، فاحتمل قربان هابيل وترك قربان قابيل، فانصرفوا. وعلم آدم أن قابيل مسخوط عليه، فقال: ويلك يا قابيل رد عليك قربانك. فقال قابيل: أحبيته فصليت على قربانه، ودعوت له، فتقبل قربانه، ورد على قرباني. وقال قابيل لهابيل: لاقتلنك

(٣) في أ: « عليه السلام ».

(٦) زيادة من د.

(٢) في أ: « فتقبل ».

(٥) في ر: « وإنما ».

(٨) في أ: « مشاقة ».

(١) في ر: « طريق ذكر وامرأة ».

(٤) في أ: « عمر ».

(٧) في أ: « فتقبله ».

فأستريح منك، دعا لك أبوك فصلى على قربانك، فتقبل منك. وكان^(١) يتواعده بالقتل، إلى أن احتبس هابيل ذات عشية في غنمه، فقال آدم: يا قابيل، أين أخوك؟ [قال]^(٢): قال: وبَعَثْتَنِي لَهُ رَاعِيًا؟ لا أدري. فقال [له]^(٣) آدم: ويلك يا قابيل. انطلق فاطلب أخاك. فقال قابيل في نفسه: الليلة أقتله. وأخذ معه حديدة فاستقبله وهو منقلب، فقال: يا هابيل، تقبل قربانك ورد على قرباني، لأقتلك. فقال هابيل: قربتُ أطيب مالى، وقربتَ أنتَ أخبثَ مالك، وإن الله لا يقبل^(٤) إلا الطيب، إنما يتقبل الله من المتقين، فلما قالها غضب قابيل فرفع الحديدة وضربه^(٥) بها، فقال: ويلك يا قابيل أين أنت من الله؟ كيف يجزيك بعملك؟ فقتله فطرحه في جُوبَةٍ^(٦) من الأرض، وحشى عليه شيئاً من التراب^(٧).

وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: إن آدم أمر ابنه قيناً^(٨) أن ينكح أخته تَوَامَةَ هابيل، وأمر هابيل أن ينكح أخته تَوَامَةَ قين، فسلم لذلك هابيل ورضى، وأبى ذلك قين وكره، تكريماً عن أخت هابيل، ورغباً بأخته عن هابيل، وقال: نحن ولادة الجنة، وهما من ولادة^(٩) الأرض، وأنا أحق بأختي - ويقول بعض أهل العلم بالكتاب الأول: كانت أخت قين من أحسن الناس، فَضَّنَ بها عن أخيه وأرادها لنفسه، فالله^(١٠) أعلم أى ذلك كان - فقال له أبوه: يا بنى، إنها لا تحل لك، فأبى قابيل^(١١) أن يقبل ذلك من قول أبيه. فقال له أبوه: يا بنى، قرب^(١٢) قربانا، ويقرب أخوك هابيل قربانا، فأيكما تُقْبَلُ^(١٣) قربانه فهو أحق بها، وكان قين على بذر الأرض، وكان هابيل على رعاية الماشية، فقرب قين قمحا، وقرب هابيل أبكاراً من أبكار غنمه - وبعضهم يقول: قرب بقرة - فأرسل الله نارا بيضاء، فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان قين، وبذلك كان يُقْبَلُ^(١٤) القربان إذا^(١٥) قبله. رواه ابن جرير.

وقال العَوْفِيُّ، عن ابن عباس قال: كان من شأنهما أنه لم يكن مسكين يُتَصَدَّقُ عليه، وإنما كان القربان يقربه الرجل. فبينما^(١٦) ابنا آدم قاعدان إذ قالوا: لو قربنا قربانا وكان الرجل إذا قرب قربانا فرضيه^(١٧) الله، أرسل إليه نارا فتأكله^(١٨)، وإن لم يكن رضىه الله خَبَّتْ النار، فقربا قربانا، وكان أحدهما راعياً، وكان الآخر حرّاً، وإن صاحب الغنم قرب خير غنمه وأسمنها، وقرب الآخر بعض زرع، فجاءت النار فنزلت بينهما، فأكلت الشاة وتركت الزرع، وإن ابن آدم قال لأخيه: أتمشى فى الناس وقد علموا أنك قَرَبْتَ قربانا فَتُقْبَلُ منك وَرَدَّ على؟ فلا والله لا ينظر الناس إليك وإلى وأنت

(٣) زيادة من أ.

(٢) زيادة من ر.

(١) فى أ: «فكان».

(٦) فى أ: «حفرة».

(٥) فى أ: «فضربه».

(٤) فى أ: «لا يتقبل».

(٧) قال الشيخ أحمد شاكر فى «عمدة التفسير» (٤/١٢٤): «هذا من قصص أهل الكتاب، ليس له أصل صحيح، ثم قد ساق الحافظ المؤلف هنا آثاراً كثيرة فى هذا المعنى، مما امتلأت به كتب المفسرين، وقد أعرضنا عن ذلك، وأبقينا شيئاً منها هو أجودها إسناداً، على سبيل المثال لا على سبيل الرواية الصحيحة المنقولة» ثم ذكر الرواية عن ابن عباس كما ستأتى.

(١٠) فى ر، أ: «والله».

(٩) فى ر: «ولاد».

(٨) فى أ: «قابيل».

(١٣) فى أ: «فأيكما قبل الله».

(١٢) فى أ: «فقرب».

(١١) فى ر، أ: «قين».

(١٦) فى ر: «فبينما».

(١٥) فى ر: «وإذا».

(١٤) فى أ: «تقبل».

(١٨) فى أ: «فأكلته».

(١٧) فى أ: «ورضيه».

خير مني. فقال: لأقتلنك. فقال له أخوه: ما ذنبي؟ إنما يتقبل الله من المتقين. رواه ابن جرير.

فهذا الأثر يقتضى أن تقرب القربان كان لا عن سبب ولا عن تدارئ في امرأة، كما تقدم عن جماعة من تقدم ذكرهم، وهو ظاهر القرآن: ﴿إِذْ قَرَّبًا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾. فالسياق يقتضى أنه إنما غضب عليه وحسده لقبول قربانه دونه.

ثم المشهور عند الجمهور أن الذى قرب الشاة هو هابيل، وأن الذى قرب الطعام هو قابيل، وأنه تُقْبِل من هابيل شاته، حتى قال ابن عباس وغيره: إنه الكبش الذى فدى به الذبيح، وهو مناسب، والله أعلم، ولم يتقبل من قابيل. كذلك نص عليه غير واحد من السلف والخلف، وهو المشهور عن مجاهد أيضاً، ولكن روى ابن جرير، عنه أنه قال: الذى قرب الزرع قابيل، وهو المتقبل منه، وهذا خلاف المشهور، ولعله لم يحفظ عنه جيداً، والله أعلم.

ومعنى^(١) قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أى: ممن اتقى الله فى فعله ذلك.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا إبراهيم بن العلاء بن زبريق، حدثنا إسماعيل بن عيَّاش، حدثنى صفوان بن^(٢) عمرو، عن تميم، يعنى ابن مالك المقرئ، قال: سمعت أبا الدرداء يقول: لأن أستيقن أن الله قد تقبل منى صلاة واحدة أحب إلى من الدنيا وما فيها، إن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

وحدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن عمران، حدثنا إسحاق بن سليمان - يعنى الرازى - عن المغيرة ابن مسلم، عن ميمون بن أبى حمزة قال: كنت جالساً عند أبى وائل، فدخل علينا رجل - يقال له: أبو عفيف، من أصحاب معاذ - فقال له شقيق بن سلمة: يا أبا عفيف، ألا تحدثنا عن معاذ بن جبل؟ قال: بلى، سمعته يقول: يحبس الناس فى بقيع واحد، فينادى مناد: أين المتقون؟ فيقومون فى كنف من الرحمن، لا يحتجب الله منهم^(٣) ولا يستتر. قلت: من المتقون؟ قال: قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان، وأخلصوا العبادة، فيمرون إلى الجنة.

وقوله: ﴿لَنْ يَسْطِيَ إِلَيَّ يَدُكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾: يقول له أخوه الرجل الصالح، الذى تقبل الله قربانه لتقواه حين تواعده أخوه بالقتل على غير ما ذنب منه إليه: ﴿لَنْ يَسْطِيَ إِلَيَّ يَدُكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ أى^(٤): لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله، فأكون أنا وأنت سواء فى الخطيئة، ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: من أن أصنع كما تريد أن تصنع، بل أصبر وأحتسب.

قال عبد الله بن عمرو: وإيم الله، إن كان لأشد الرجلين ولكن منعه التحرج، يعنى الورع.

(٢) فى أ: «أبو».

(٤) فى أ: «إني».

(١) فى ر: «ومنه».

(٣) فى أ: «عنهم».

ولهذا ثبت في الصحيحين، عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار». قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصا على قتل صاحبه»^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا قُتَيْبَةُ بن سعيد، حدثنا لَيْثُ بن سعد، عن عِيَّاشٍ^(٢) بن عباس، عن بكير بن عبد الله، عن بُسْرِ بن سعيد^(٣)؛ أن سعد بن أبي وقاص قال عند فتنة عثمان: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «إنها ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي». قال: أفرأيت إن دخل على بيتي فبسط يده إلى ليقتلني قال: «كن كابن آدم».

وكذا رواه الترمذي عن قُتَيْبَةَ بن سعيد^(٤) وقال: هذا حديث حسن، وفي الباب عن أبي هريرة، وخبَّاب بن الأرت، وأبي بكر^(٥)، وابن مسعود، وأبي واقد، وأبي موسى، وخرشة. ورواه بعضهم عن الليث بن سعد، وزاد في الإسناد رجلا.

قال الحافظ ابن عساكر: الرجل هو حسين الأشجعي.

قلت: وقد رواه أبو داود من طريقه فقال: حدثنا يزيد بن خالد الرملي، حدثنا المفضل، عن عيَّاش بن عباس^(٦)، عن بكير، عن بُسْرِ بن سعيد^(٧)، عن حسين^(٨) بن عبد الرحمن الأشجعي؛ أنه سمع سعد ابن أبي وقاص، عن النبي ﷺ في هذا الحديث قال: فقلت: يا رسول الله، أ رأيت إن دخل على بيتي وبسط يده ليقتلني؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «كن كابن آدم». وتلا يزيد: ﴿لَنْ بَسَطَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾^(٩).

قال أيوب السَّخْتِيَّانِي: إن أول من أخذ بهذه الآية من هذه الأمة: ﴿لَنْ بَسَطَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ لعثمان بن عفان، رضى الله عنه. رواه ابن أبي حاتم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا مَرْحُوم، حدثني أبو عمران الجَوْنِي، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر قال: ركب النبي ﷺ حمارا وأردفني خلفه، وقال: «يا أبا ذر، أ رأيت إن أصاب الناس جوعٌ شديد لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك، كيف تصنع؟». قال: قال الله ورسوله أعلم. قال: «تعفف». قال: «يا أبا ذر، أ رأيت إن أصاب الناس موتٌ شديد، ويكون البيت فيه بالعبد، يعنى القبر، كيف تصنع؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «اصبر». قال: «يا أبا ذر، أ رأيت إن قتل الناس بعضهم بعضا، يعنى حتى تغرق حجارة الزيت من الدماء، كيف تصنع؟». قال: الله ورسوله أعلم. قال: «اقعد في بيتك، وأغلق عليك بابك». قال: فإن لم أترك؟ قال: «فأت من أنت منهم، فكن

(١) صحيح البخارى برقم (٣١) وصحيح مسلم برقم (٢٨٨٨) من حديث أبي بكر، رضى الله عنه.

(٢) فى أ: «عباس».

(٣) فى ر: «بشر بن سعد»، وفى أ: «بشر بن سعيد».

(٤) فى أ: «وأبي بكر».

(٥) المسند (١٨٥/١) وسنن الترمذى برقم (٣١٩٤).

(٦) فى أ: «المفضل بن عباس عن ابن عباس».

(٧) فى ر: «بشر بن سعيد».

(٨) فى ر: «سعيد».

(٩) سنن أبي داود برقم (٤٢٥٧).

فيهم^(١)». قال: فأخذ سلاحه؟ قال: «إذاً تشاركهم فيما هم فيه، ولكن إن خشيت أن يروعك^(٢) شعاع السيف، فألق طرف رداك على وجهك حتى^(٣) يئوه بإثمهم وإثمك^(٤)».

رواه مسلم وأهل السنن سوى النسائي، من طرق عن أبي عمران الجوني، عن عبد الله بن الصامت، به^(٥). ورواه أبو داود وابن ماجه، من طريق حماد بن زيد، عن أبي عمران، عن المشعث^(٦) ابن طريف، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر^(٧)، بنحوه^(٨).

قال أبو داود: ولم يذكر المشعث^(٩) في هذا الحديث غير حماد بن زيد.

وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن علي بن دحيم، حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا قبيصة بن عقيب، حدثنا سفيان، عن منصور، عن ربعي قال: كنا في جنازة حذيفة، فسمعت رجلاً يقول: سمعت هذا يقول في ناس: مما سمعت من رسول الله ﷺ: «لئن اقتتلتم لأنظرون إلى أقصى بيت في داري، فلا الجنة، فلئن دخل^(١٠) على فلان لأقولن: ها^(١١)، بوء بإثمي وإثمك، فأكون كخير ابني آدم^(١٢)».

وقوله: «إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين»: قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي، في قوله: «إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك»: أي: بإثم قتلى وإثمك الذي عليك قبل ذلك.

قال ابن جرير: وقال آخرون: يعني ذلك أني أريد أن تبوء بخطيئتي، فتتحمل وزرها، وإثمك في قتلك إياي. وهذا قول وجدته عن مجاهد، وأخشى أن يكون غلطاً؛ لأن الصحيح من الرواية عنه خلافه. يعني: ما رواه سفيان الثوري، عن منصور، عن مجاهد: «إني أريد أن تبوء بإثمي»: قال: بقتلك إياي، «وإثمك»: قال: بما كان منك قبل ذلك.

وكذا روى^(١٢) عيسى عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، مثله. وروى شبل عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: «إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك» يقول: إني أريد أن يكون عليك خطيئتي ودمي، فتبوء بهما جميعاً.

قلت: وقد يتوهم^(١٣) كثير من الناس هذا القول، ويذكرون في ذلك حديثاً لا أصل له: ما ترك القاتل على المقتول من ذنب.

وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً يشبه هذا، ولكن ليس به، فقال: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا عامر بن إبراهيم الأصبهاني، حدثنا يعقوب بن عبد الله، حدثنا عتبة^(١٤) بن سعيد، عن هشام

(١) في ر: «منهم».

(٢) في ر، أ: «يردعك».

(٣) في ر، أ: «كى».

(٤) المسند (١٤٩/٥).

(٥) صحيح مسلم برقم (٦٤٨) وسنن أبي داود برقم (٤٣١) وسنن الترمذي برقم (١٧٦) وسنن ابن ماجه برقم (١٢٥٦).

(٦) في ر: «الشعث»، وفي أ: «المشعب».

(٧) في أ: «عن أبي إسحاق».

(٨) سنن أبي داود برقم (٤٢٦١) وسنن ابن ماجه برقم (٣٩٥٨).

(٩) في ر: «الشعث»، وفي أ: «المشعب».

(١٠) في ر: «فإن على».

(١١) في أ: «لاقرأها».

(١٢) في أ: «توهم».

(١٣) في أ: «عنبسة».

ابن عُرْوَةَ، عن أبيه، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «قتل الصَّبر لا يمر بذنب إلا محاه». وهذا بهذا لا يصح^(١)، ولو صح فمعناه أن الله يكفر عن المقتول بألم القتل ذنوبه، فأما أن تحصل على القاتل فلا. ولكن قد يتفق هذا في بعض الأشخاص، وهو الغالب، فإن المقتول يطالب القاتل في العَرَصات فيؤخذ له من حسناته بقدر مظلمته، فإن نفدت^(٢) ولم يستوف حقه أخذ من سيئات المقتول فطُرِحَتْ^(٣) على القاتل، فربما لا يبقى على المقتول خطيئة إلا وضعت على القاتل. وقد صح الحديث بذلك عن رسول الله ﷺ في المظالم كلها، والقتل من أعظمها وأشدّها، والله أعلم.

وأما ابن جرير فقال^(٤): والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن تأويله: إني أريد أن تنصرف بخطيئتك في قتلك إياي - وذلك هو معنى قوله: «إني أريد أن تبوء بإثمي» وأما معنى «وإثمك» فهو إثمه بغير^(٥) قتله، وذلك معصيته الله، عز وجل، في أعمال سواه.

وإنما قلنا هو الصواب، لإجماع أهل التأويل عليه، وأن الله، عز وجل، أخبرنا أن كل عامل فجزاء عمله له أو عليه^(٦)، وإذا كان هذا^(٧) حكمه في خلقه، فغير جائز أن تكون^(٨) آثام المقتول مأخوذاً بهذا القاتل، وإنما يؤخذ القاتل بإثمه بالقتل المحرم وسائر آثام معاصيه التي ارتكبها بنفسه دون ما ركبته قتيله.

هذا لفظه ثم أورد سؤالاً، حاصله: كيف أراد هابيل أن يكون على أخيه قابيل إثم قتله، وإثم نفسه، مع أن قتله له محرم؟ وأجاب بما حاصله^(٩) أن هابيل أخبر عن نفسه بأنه لا يقاتل أخاه إن قاتله، بل يكف يده عنه، طالباً - إن وقع قتل - أن يكون من أخيه لا منه.

قلت: وهذا الكلام متضمن موعظة له لو اتعظ، وزجرًا له لو انزجر؛ ولهذا قال: «إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك» أي: تتحمل إثمى وإثمك «فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين».

وقال ابن عباس: خوفه النار فلم ينته ولم ينزجر.

وقوله تعالى: «فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ» أي: فحسنت^(١٠) وسوّلت له نفسه، وشجعته على قتل أخيه فقتله، أي: بعد هذه الموعظة وهذا الزجر.

وقد تقدم في الرواية عن أبي جعفر الباقر، وهو محمد بن علي بن الحسين: أنه قتله بحديدة في يده.

وقال السُّدِّي، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن عبد الله، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: «فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ» فطلبه ليقتله، فراغ الغلام منه في رؤوس الجبال، فأتاه يوماً من الأيام وهو يرعى غنماً له، وهو نائم فرفع صخرة، فشدخ بها رأسه فمات،

(١) مسند البزار برقم (١٥٤٥) «كشف الأستار» وقال البزار: «لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه، ولا نعلم أسنده إلا يعقوب».

(٤) في ر: «قال»، وفي أ: «فإنه قال».

(٣) في أ: «فيطرح».

(٢) في د: «فنت».

(٧) في ر: «ذلك».

(٦) في أ: «وعليه».

(٥) في ر، أ: «يعنى».

(١٠) في أ: «فحسنت له».

(٩) في أ: «بما هو حاصله».

(٨) في أ: «يكون».

فتركه بالعرءاء. رواه ابن جرير.

وعن بعض أهل الكتاب: أنه قتله خنقاً وعَضاً، كما تَقْتُلُ^(١) السباع، وقال ابن جرير^(٢): لما أراد أن يقتله جعل^(٣) يلقى عنقه، فأخذ إبليس دابة ووضع^(٤) رأسها على حجر، ثم أخذ حجراً آخر فضرب به رأسها حتى قتلها، وابن آدم ينظر، ففعل بأخيه مثل ذلك. رواه ابن أبي حاتم.

وقال عبد الله بن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: أخذ برأسه ليقتله، فاضطجع له، وجعل يغمز رأسه وعظامه ولا يدرى كيف يقتله، فجاءه^(٥) إبليس فقال: أتريد أن تقتله؟ قال: نعم. قال: فخذ هذه الصخرة فاطرحها على رأسه. قال: فأخذها، فألقاها عليه، فشدخ رأسه. ثم جاء إبليس إلى حواء مسرعاً، فقال: يا حواء، إن قابيل قتل هابيل. فقالت له: ويحك. أى^(٦) شئ يكون القتل؟ قال: لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك. قالت: ذلك الموت. قال: فهو الموت. فجعلت تصيح حتى دخل عليها آدم وهى تصيح، فقال: مالك؟ فلم تكلمه، فرجع^(٧) إليها مرتين، فلم تكلمه. فقال: عليك الصيحة وعلى بناتك، أنا وبنى منها برءاء. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة، وأى خسارة أعظم من هذه؟. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية^(٨) ووكيع قالوا: حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقْتَلْ نفس ظلماً، إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها، لأنه كان أول من سن القتل».

وقد أخرجه الجماعة سوى أبى داود من طرق، عن الأعمش، به^(٩).

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثني حجاج قال: قال ابن جريج: قال مجاهد: علقت إحدى رجلى القاتل بساقها إلى فخذه من يومئذ إلى يوم القيامة، ووجهه فى الشمس حيثما دارت دار، عليه فى الصيف حظيرة من نار، وعليه فى الشتاء حظيرة من ثلج - قال: وقال عبد الله بن عمرو: إنا لنجد ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار قسمة صحيحة العذاب، عليه شطر عذابهم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن حكيم بن حكيم، أنه حدث عن عبد الله بن عمرو أنه كان يقول: إن أشقى أهل النار^(١٠) رجلاً ابن آدم الذى قتل أخاه، ما سَفَكَ دم فى الأرض منذ قتل أخاه إلى يوم القيامة، إلا لحق به منه شر، وذلك أنه أول من سنَّ القتل^(١١).

وقال إبراهيم النخعي: ما من مقتول يقتل ظلماً، إلا كان على ابن آدم الأول والشيطان كُفْلٌ منه.

(١) فى أ: «يقتل». (٢) فى هـ: «ابن جريج».

(٣) فى أ: «فجعل». (٤) فى ر، أ: «فوضع».

(٥) فى أ: «فجاء». (٦) فى ر، أ: «وأى».

(٧) فى أ: «ثم رجع». (٨) فى أ: «يعقوب».

(٩) صحيح البخارى برقم (٣٣٣٥) وصحيح مسلم برقم (١٦٧٧) وسنن الترمذى برقم (٢٦٧٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (٣٤٤٧).

وسنن ابن ماجه برقم (٢٦١٦).

(١٠) فى أ: «إن أشقى الناس».

(١١) تفسير الطبرى (٢١٩/١٠).

رواه ابن جرير أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾: قال السدي بإسناده المتقدم إلى الصحابة: لما مات الغلام تركه بالعرَاء، ولا يعلم كيف يدفن، فبعث الله غرابين أخوين، فاقتتلا، فقتل أحدهما صاحبه، فحفر له ثم حثى عليه. فلما رآه قال: ﴿يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: جاء غراب إلى غراب ميت، فَبَحَثَ عليه من التراب حتى واره، فقال الذي قتل أخاه: ﴿يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: مكث يحمل أخاه في جراب على عاتقه سنة، حتى بعث الله الغرابين، فراهما يبيحثان، فقال: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾ فدفن أخاه.

وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: وكان يحمله على عاتقه مائة سنة ميتاً، لا يدري ما يصنع به يحمله، ويضعه إلى الأرض حتى رأى الغراب يدفن الغراب، فقال: ﴿يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وقال عطية العوفي: لما قتله ندم، فضمه إليه حتى أروح، وعكفت عليه الطيور والسباع تنتظر متى يرمى به فتأكله. رواه ابن جرير.

وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: لما قتله سَقَطَ في يديه، ولم يدر كيف يواريه. وذلك أنه كان، فيما يزعمون، أول قتيل في (١) بني آدم وأول ميت ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ قال: وزعم (٢) أهل التوراة أن قيناً لما قتل أخاه هابيل، قال له الله، عز وجل: يا قين، أين أخوك هابيل؟ قال: قال: ما أدري، ما كنت عليه رقيباً. فقال الله: إن صوت دم أخيك لينادينني من الأرض، والآن أنت ملعون من الأرض التي فتحت فاهها فبلعت (٣) دم أخيك من يدك، فإن أنت عملت في الأرض، فإنها لا تعود تعطيك حرثها حتى تكون فزعاً تائهاً في الأرض.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ قال الحسن البصري: علاه الله بندامة بعد خسران.

فهذه أقوال المفسرين في هذه القصة، وكلهم متفقون على أن هذين ابنا آدم لصلبه، كما هو ظاهر القرآن، وكما نطق به الحديث في قوله: «إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل». وهذا ظاهر جلي، ولكن قال ابن جرير:

حدثنا ابن وكيع، حدثنا سهل بن يوسف، عن عمرو، عن الحسن - هو البصري - قال: كان

(٣) في ر: «فتلفت».

(٢) في ر، أ: «ويزعم».

(١) في أ: «من».

الرجلان اللذان فى القرآن، اللذان قال الله: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ من بنى إسرائيل، ولم يكونا ابنى آدم لصلبه، وإنما كان القُربان فى بنى إسرائيل، وكان آدم أول من مات.

وهذا غريب جداً، وفى إسناده نظر.

وقد قال عبد الرزاق، عن معمر، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ابنى آدم، عليه السلام، ضرباً لهذه الأمة مثلاً، فخذوا بالخير منهما»^(١)»^(٢).

ورواه ابن المبارك، عن عاصم الأحول، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ضرب لكم ابنى آدم مثلاً، فخذوا من خيرهم ودعوا الشر».

وكذا أرسل هذا الحديث بكر بن عبد الله المزنى، روى ذلك كله ابن جرير^(٣).

وقال سالم بن أبى الجعد: لما قتل ابن آدم أخاه، مكث آدم مائة سنة حزينا لا يضحك، ثم أتى فقيل له: حياك الله وبياك. أى: أضحكك.

رواه ابن جرير، ثم قال: حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة، عن غياث^(٤) بن إبراهيم، عن أبى إسحاق الهمداني قال: قال على بن أبى طالب: لما قتل ابن آدم أخاه، بكاه آدم فقال:

تَغَيَّرَ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا فَلَوْنُ الْأَرْضِ مُغْبِرٌ قَيْحٌ
تَغَيَّرَ كُلُّ ذَى لَوْنٍ وَطَعْمٍ وَقَلَّ بَشَاشَةُ الْوَجْهِ الْمَلِيحِ

فأجيب آدم عليه السلام:

أَبَا هَابِيلَ قَدْ قُتِلَا جَمِيعاً وَصَارَ الْحَى كَالْمَيْتِ^(٥) الذَّبِيحِ
وَجَاءَ بَشْرَةٌ قَدْ كَانَ مِنْهَا^(٦) عَلَى خَوْفٍ فَجَاءَ بِهَا يَصِيحُ^(٧)

(١) فى أ: «منها».

(٢) تفسير عبد الرزاق (١٨٣/١) وتفسير الطبرى (٣٢٠/١٠).

(٣) تفسير الطبرى (٣٢٠/١٠).

(٤) فى أ: «عتاب». (٥) فى ر: «بالميت».

(٦) فى أ: «منه».

(٧) تفسير الطبرى (٢٠٩/١٠ ، ٢١٠).

وقال الشيخ محمد أبو شهبه فى كتابه القيم: «الإسرائيليات وأثرها فى كتب التفسير» (ص ١٨٣): «وقد طعن فى نسبة هذه الأشعار إلى نبي الله آدم الإمام الذهبى فى كتابه: «ميزان الاعتدال» وقال: إن الآفة فيه من المخرمى أو شيخه. وما الشعر الذى ذكره إلا منحول مختلق، والأنبياء لا يقولون الشعر، وصدق الزمخشري حيث قال: «روى أن آدم مكث بعد قتل ابنه مائة سنة لا يضحك، وأنه رثاء بشعر، وهو كذب بحت، وما الشعر إلا منحول ملحون، وقد صح أن الأنبياء معصومون من الشعر».

وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذَكَرٌ وَقُرْآنٌ مِّبِينٌ﴾.

وقد قال الإمام الألوسى فى تفسيره: وروى عن ميمون بن مهران عن الخبر ابن عباس، رضى الله عنهما، أنه قال: «من قال: آدم - عليه السلام - قد قال شعراً فقد كذب، إن محمداً ﷺ والأنبياء كلهم فى النهى عن الشعر سواء، ولكن لما قتل قابيل وهابيل بكاه آدم بالسريانية، فلم يزل ينقل، حتى وصل إلى يعرب بن قحطان، وكان يتكلم بالعربية، والسريانية، فقدم فيه وأخر، وجعله شعراً عربياً». وذكر بعض علماء العربية: أن فى ذلك لحناً، وإقواءً، وارتكاب ضرورة، والأولى عدم نسبته إلى يعرب؛ لما فيه من الركاقة الظاهرة.

والحق: أنه شعر فى غاية الركاقة، والأشبه أن يكون هذا الشعر من اختلاق إسرائيلي، ليس له من العربية إلا حظ قليل، أو قصاص يريد أن يستولى على قلوب الناس بمثل هذا الهراء.

والظاهر أن قابيل عُوجل بالعقوبة، كما ذكره مجاهد^(١) بن جبر أنه علقت ساقه بفخذه يوم قتله، وجعل الله وجهه إلى الشمس حيث دارت عقوبة له وتنكيلاً به. وقد ورد في الحديث عن^(٢) النبي ﷺ [أنه]^(٣) قال: «ما من ذنب أجدر أن يُعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم»^(٤). وقد اجتمع في فعل قابيل هذا وهذا، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ (٣٢) إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٤) .

يقول تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ﴾ قتل ابن آدم أخاه ظلماً وعدواناً: ﴿ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴾ أى: شرعنا لهم وأعلمناهم ﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾، أى: ومن قتل نفساً بغير سبب من قصاص، أو فساد في الأرض، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية، فكأنما قتل الناس جميعاً؛ لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس، ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ أى: حرم قتلها واعتقد ذلك، فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار؛ ولهذا قال: ﴿ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾.

وقال الأعمش وغيره، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: دخلت على عثمان يوم الدار فقلت: جئت لأنصرك وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين. فقال: يا أبا هريرة، أيسرك أن تقتل^(٥) الناس جميعاً وإياي معهم؟ قلت: لا. قال: فإنك إن قتلت رجلاً واحداً فكأنما قتلت الناس جميعاً، فأنصرف مأذوناً لك، مأجوراً غير مأزور. قال: فأنصرفت ولم أقاتل.

وقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو كما قال الله تعالى: ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾، وإحيائها: ألا يقتل نفساً حرّمها الله، فذلك الذى أحيا الناس جميعاً، يعنى: أنه من حرّم قتلها إلا بحق، حيى الناس منه

(٢) فى هـ: «أن»، والمثبت من أ.

(١) فى ر: «ابن مجاهد».

(٣) زيادة من ر.

(٤) رواه أبو داود فى سننه برقم (٤٩٠٢) وابن ماجه فى سننه برقم (٤٢١١) من حديث أبى بكره، رضى الله عنه.

(٥) فى أ: «يقتل».

[جميعاً]^(١).

وهكذا قال مجاهد: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أى: كف عن قتلها.

وقال العوفي عن ابن عباس، فى قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ يقول: من قتل نفساً واحدة حرّمها الله، فهو مثل من قتل الناس جميعاً.

وقال سعيد بن جبیر: من استحل دمَ مُسلم فكأنما استحل دماء الناس جميعاً، ومن حرم دم مسلم فكأنما حرم دماء الناس جميعاً.

هذا قول، وهو الأظهر، وقال عكرمة والوعفى، عن ابن عباس [فى قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ يقول]^(٢): من قتل نبياً أو إماماً عدلاً، فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن شدّ على عضد نبي أو إمام عدل، فكأنما أحيا الناس جميعاً. رواه ابن جرير.

وقال مجاهد فى رواية أخرى عنه: من قتل نفساً بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً؛ وذلك لأنه من قتل النفس فله النار، فهو كما لو قتل الناس كلهم.

وقال ابن جريج^(٣)، عن الأعرج، عن مجاهد فى قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾: من قتل النفس المؤمنة متعمداً، جعل الله جزاءه جهنم، وغضب الله عليه ولعنه، وأعد له عذاباً عظيماً، يقول: لو قتل الناس جميعاً لم يزد على مثل ذلك العذاب.

قال ابن جريج: قال مجاهد ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ قال: من لم يقتل أحداً فقد حياى الناس منه.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: من قتل نفساً فكأنما قتل الناس [جميعاً]^(٤)، يعنى: فقد وجب عليه القصاص، فلا^(٥). فرق بين الواحد والجماعة ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أى: عفا عن قاتل وليه، فكأنما أحيا الناس جميعاً. وحكى ذلك عن أبيه. رواه ابن جرير.

وقال مجاهد - فى رواية - : ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أى: أنجاها من غرق أو حرق أو هلكة.

وقال الحسن وقتادة فى قوله: ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾: هذا تعظيم لتعاطى القتل - قال قتادة: عظمُ والله وزرها، وعظمُ والله أجراها.

وقال ابن المبارك، عن سلام بن مسكين، عن سليمان بن على الربيعى قال: قلت للحسن: هذه الآية لنا يا أبا سعيد، كما كانت لبنى إسرائيل؟ فقال: إى والذى لا إله غيره، كما كانت لبنى إسرائيل. وما جعل دماء بنى إسرائيل أكرم على الله من دمائنا.

وقال الحسن البصرى: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ قال: وزراً. ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ قال: أجراً.

(٣) فى أ: «وقال ابن جرير».

(٢) زيادة من أ.

(٥) فى ر: «ولا».

(١) زيادة من أ.

(٤) زيادة من أ.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا حيي^(١) بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو قال: جاء حمزة بن عبد المطلب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، اجعلني على شيء أعيش به. فقال رسول الله ﷺ: «يا حمزة، نفس تحيها أحب إليك أم نفس تميتها؟» قال: بل نفس أحيها: قال: «عليك بنفسك»^(٢) (٣).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى: بالحجج والبراهين والدلائل الواضحة ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ وهذا تقرير لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها، كما كانت بنو قريظة والنضير وغيرهم من بنى قينقاع ممن حول المدينة من اليهود، الذين كانوا يقاتلون مع الأوس والخزرج إذا وقعت بينهم الحروب فى الجاهلية، ثم إذا وضعت الحروب أوزارها فعدوا من أسروهم، وودوا من قتلوه، وقد أنكر الله عليهم ذلك فى سورة البقرة، حيث يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ . ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسَارَى تَفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ﴾^(٤) إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون ﴿[البقرة: ٨٤، ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ الآية. المحاربة: هى المضادة والمخالفة، وهى صادقة^(٥) على الكفر، وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل، وكذا الإفساد فى الأرض يطلق على أنواع من الشر، حتى قال كثير من السلف، منهم سعيد بن المسيب: إن قرض الدراهم والدنانير من الإفساد فى الأرض، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]

ثم قال بعضهم: نزلت هذه الآية الكريمة فى المشركين، كما قال ابن جرير:

حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا الحسين بن واقد، عن يزيد، عن عكرمة والحسن البصرى قال^(٦): [قال تعالى]^(٧): ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ إلى: ﴿أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ نزلت هذه الآية فى المشركين، فمن تاب منهم من قبل أن تقدروا عليه، لم يكن عليه سبيل، وليست تحرز هذه الآية الرجل المسلم من الحد، إن قتل أو أفسد فى الأرض أو حارب الله ورسوله، ثم لحق^(٨) بالكفار قبل أن يقدر عليه، لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذى أصاب.

ورواه أبو داود والنسائى، من طريق عكرمة، عن ابن عباس: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾: نزلت فى المشركين، فمن^(٩) تاب منهم قبل أن يقدر عليه لم يمنعه

(٢) فى ر: «عليك نفسك».

(١) فى ر: «يحيى».

(٣) المسند (١٧٥/٢).

(٤) فى أ: «تردون».

(٧) زيادة من ر.

(٥) فى ر: «صابرة».

(٦) فى أ: «قال».

(٨) فى ر: «الحق».

(٩) فى ر: «فيمن».

ذلك أن يقام فيه الحد الذي أصابه.

وقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ قال: كان قوم من أهل الكتاب، بينهم وبين النبي ﷺ عهد وميثاق، فنقضوا العهد وأفسدوا في الأرض، فخير الله رسوله: إن شاء أن يقتل، وإن شاء أن تقطع^(١) أيديهم وأرجلهم من خلاف. رواه ابن جرير.

وروى شعبة، عن منصور، عن هلال بن يساف، عن مُصْعَب بن سعد، عن أبيه قال: نزلت في الحرورية: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾. رواه ابن مردويه.

والصحيح أن هذه الآية عامة في المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات، كما رواه البخاري ومسلم^(٢) من حديث أبي قلابة - واسمه عبد الله بن زيد الجرهمي البصري - عن أنس بن مالك: أن نفرًا من عُكْل ثمانية، قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام، فاستوخموا الأرض^(٣)، وسَقَمَت أجسامهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال: «ألا تخرجون مع راعينا في إبله فتصييوا من أبوالها وألبانها؟» فقالوا: بلى. فخرجوا، فشربوا من أبوالها وألبانها، فَصَحُّوا^(٤)، فقتلوا الراعي وطرودوا الإبل. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فبعث في آثارهم، فَأَدْرَكُوا، فجاء بهم، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسُمرت^(٥) أعينهم، ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا.

لفظ مسلم. وفي لفظ لهما: «من عكل أو عُرِيَتْ»، وفي لفظ: «وَأَلْقُوا فِي الْحَرَّةِ فَجَعَلُوا يَسْتَسْقُونَ»^(٦) فلا يُسْقُونَ. وفي لفظ لمسلم: «وَلَمْ يَحْسَمَهُمْ». وعند البخاري: قال أبو قلابة: فهؤلاء سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم، وحاربوا الله ورسوله. ورواه مسلم من طريق هُشَيْم، عن عبد العزيز ابن صُهَيْب وحميد، عن أنس، فذكر نحوه، وعنده: «وَارْتَدَوْا». وقد أخرجه من رواية قتادة عن أنس، بنحوه. وقال سعيد عن قتادة: «من عكل وعُرِيَتْ». ورواه مسلم من طريق سليمان التيمي، عن أنس قال: إنما سَمَلَ النبي ﷺ أعين أولئك؛ لأنهم سملوا أعين الرعاء. ورواه مسلم، من حديث معاوية بن قرة عن أنس قال: أتى رسول الله ﷺ نفرٌ من عُرِيَّة، فأسلموا وبايعوه، وقد وقع بالمدينة الموم - وهو البرسام - ثم ذكر نحو حديثهم، وزاد: وعنده شباب من الأنصار، قريب من عشرين فارسًا فأرسلهم، وبعث معهم قائمًا يَقْتَصُّ^(٧) أثرهم. وهذه كلها ألفاظ مسلم، رحمه الله^(٨).

وقال حماد بن سلمة: حدثنا قتادة وثابت البناني وحميد الطويل، عن أنس بن مالك: أن ناسًا من عُرِيَّة قدموا المدينة، فاجتووها، فبعثهم رسول الله ﷺ في إبل الصدقة، وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها ففعلوا، فَصَحُّوا فارتدوا^(٩) عن الإسلام، وقتلوا الراعي، وساقوا الإبل، فأرسل رسول الله

(١) في ر: «يقطع».

(٢) صحيح البخاري (٢٣٣) وانظر أطرافه هناك، وصحيح مسلم برقم (١٦٧١).

(٣) في أ: «المدينة».

(٤) في ر: «فنصحوا».

(٥) في ر: «وسملت».

(٦) في ر: «يقص».

(٧) في أ: «فيسقون».

(٨) صحيح مسلم برقم (١٦٧١).

(٩) في أ: «وارتدوا».

ﷺ في آثارهم، فجاء بهم، فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وسَمَر^(١) أعينهم وألقاهم في الحرة. قال أنس: فلقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه عطشاً حتى ماتوا، ونزلت: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية.

وقد رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن مردويه - وهذا لفظه - وقال الترمذي: «حسن صحيح»^(٢).

وقد رواه ابن مردويه من طرق كثيرة، عن أنس بن مالك، منها ما رواه من طريقين، عن سلام بن أبي الصهباء، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: ما ندمت على حديث ما ندمت على حديث سألني عنه الحجاج قال^(٣): أخبرني عن أشد عقوبة عاقب بها رسول الله ﷺ؟ قال: قلت: قَدِمَ على رسول الله ﷺ قوم من عُرَيْنَة، من البحرين، فشكوا إلى رسول الله ﷺ ما لقوا من^(٤) بطونهم، وقد اصفرت ألوانهم، وضخمت بطونهم، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يأتوا إبل الصدقة، فيشربوا من أبوالها وألبانها، حتى إذا رجعت إليهم ألوانهم وانخضت بطونهم عدوا^(٥) على الراعي فقتلوه، واستاقوا الإبل، فأرسل رسول الله ﷺ في آثارهم، فقطع أيديهم وأرجلهم وسَمَر^(٦) أعينهم، ثم ألقاهم في الرمضاء حتى ماتوا. فكان الحجاج إذا صعد المنبر يقول: إن رسول الله ﷺ قد قطع أيدي قوم وأرجلهم ثم ألقاهم في الرمضاء حتى ماتوا لحال^(٧) ذَوْدٍ [من الإبل]^(٨)، وكان يحتج بهذا الحديث على الناس.

وقال ابن جرير: حدثنا علي بن سهل، حدثنا الوليد - يعني ابن مسلم - حدثني سعيد، عن قتادة، عن أنس قال: كانوا أربعة نفر من عرينة، وثلاثة نفر من عُكْل، فلما أُتِيَ بهم قطع أيديهم وأرجلهم، وسَمَلَ أعينهم، ولم يحسمهم، وتركهم يتلقمون الحجارة بالخرة، فأنزل الله في ذلك: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن حرب الموصلي، حدثنا أبو مسعود - يعني عبد الرحمن بن الحسن الزجاج - حدثنا أبو سعد - يعني البقال - عن أنس بن مالك قال: كان رهط من عُرَيْنَة أتوا رسول الله ﷺ وبهم جَهْدٌ، مُصْفَرَّة ألوانهم، عظيمة بطونهم، فأمرهم أن يلحقوا بالإبل فيشربوا من أبوالها وألبانها، ففعلوا، فصفت ألوانهم وخضمت بطونهم، وسمنوا، فقتلوا الراعي واستاقوا الإبل، فبعث النبي ﷺ في طلبهم، فأتى بهم، فقتل بعضهم، وسَمَرَ أعين بعضهم، وقطع أيدي بعضهم وأرجلهم، ونزلت: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ إلى آخر الآية.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا علي بن سهل، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس يسأله عن هذه الآية، فكتب إليه أنس يخبره أن هذه الآية نزلت في أولئك نفر العُرَيْنِينَ، وهم من بَجِيلَة^(٩). قال أنس: فارتدوا عن الإسلام، وقتلوا الراعي، واستاقوا الإبل، وأخافوا السبيل، وأصابوا الفرج الحرام.

(١) في ر: «وسمل».

(٢) سنن أبي داود برقم (٤٣٦٧) وسنن الترمذي برقم (٧٢) وسنن النسائي (٩٧/٧).

(٣) في أ: «فقال».

(٤) في ر: «في».

(٥) زيادة من أ.

(٦) في أ: «بحال».

(٧) في ر: «وسمل».

(٨) في أ: «بجيلة».

وقال: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن أبي الزناد، عن عبد الله بن عبيد الله، عن عبد الله بن عمر^(١) - أو: عمرو، شك يونس - عن رسول الله ﷺ بذلك - يعنى بقصة العرنيين - ونزلت فيهم آية المحاربة. ورواه أبو داود النسائي من طريق أبي الزناد، وفيه: «عن ابن عمر» من غير شك^(٢).

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن خَلَف، حدثنا الحسن بن حماد، عن عمرو^(٣) بن هاشم، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن إبراهيم، عن جرير قال: قدم على رسول الله ﷺ قومٌ من عُرَيْنَةَ حُقَاةٍ مَضْرُورِينَ، فأمر بهم رسول الله ﷺ، فلما صحوا واشتدوا قتلوا رعاء اللقاح، ثم خرجوا باللقاح عامدين بها إلى أرض قومهم. قال جرير: فبعثني رسول الله ﷺ في نفر من المسلمين حتى أدركناهم بعد ما أشرفوا على بلاد قومهم، فقدمنا بهم على رسول الله ﷺ، فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وسَمَلَ أعينهم، فجعلوا يقولون: الماء. ورسول الله ﷺ يقول: «النار»! حتى هلكوا. قال: وكره الله، عز وجل، سَمَلَ الأعين، فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ إلى آخر الآية.

هذا حديث غريب^(٤)، وفي إسناده الرَبَذَى وهو ضعيف، وفيه فائدة، وهو ذكر أمير هذه السرية، وهو^(٥) جرير بن عبد الله البجلي^(٦). وتقدم في صحيح مسلم أن السرية كانوا عشرين فارساً من الأنصار. وأما قوله: «فكره الله سمل الأعين»، فأنزل الله هذه الآية فإنه منكر، وقد تقدم في صحيح مسلم أنهم سَمَلُوا أعين الرعاء، فكان ما فعل بهم قصاصاً، والله أعلم.

وقال عبد الرزاق، عن إبراهيم بن محمد الأسلمي، عن صالح مولى التوأمة، عن أبي هريرة قال: قدم على رسول الله ﷺ رجال من بني فَزَارَةَ قد ماتوا هزلاً، فأمرهم النبي ﷺ إلى لقاحه، فشرّبوا منها حتى صحوا، ثم عمدوا إلى لقاحه فسرّقوها، فطُلبوا، فأُتِيَ بهم النبي ﷺ، فقطع أيديهم وأرجلهم، وسَمَرَ أعينهم. قال أبو هريرة: ففيهم نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ

(١) في أ: «عن أبي عبد الله بن عمر».

(٢) تفسير الطبري (٢٤٩/١٠) وسنن أبي داود برقم (٤٣٦٩) وسنن النسائي (١٠٠/٧).

(٣) في أ: «عمرو».

(٤) تفسير الطبري (٢٥٠/١٠).

(٥) في ر، أ: «وإنه».

(٦) قال الشيخ أحمد شاكر في حاشيته على تفسير الطبري (٢٤٨/١٠):

«وهذا الخبر ضعيف جداً، وهو أيضاً لا يصح؛ لأن جرير بن عبد الله البجلي صاحب رسول الله ﷺ وفد على النبي ﷺ في العام الذي توفي فيه، وخبر العرنيين كان في شوال سنة ست، في رواية الواقدي (ابن سعد ٦٧/٢)، وكان أمير السرية كرز بن جابر الفهري. وذلك قبل وفاة رسول الله ﷺ في شهر ربيع الأول سنة ١١ من الهجرة، بأعوام.

وهذا الخبر، ذكره الحافظ ابن حجر، في ترجمة «جرير بن عبد الله البجلي»، وضعفه جداً. أما ابن كثير، فذكره في تفسيره (١٣٩/٣) وقال: «هذا حديث غريب، وفي إسناده الرَبَذَى، وهو ضعيف. وفي إسناده فائدة: وهو ذكر أمير هذه السرية. وهو جرير بن عبد الله البجلي. وتقدم في صحيح مسلم أن هذه السرية كانوا عشرين فارساً من الأنصار. وأما قوله: «فكره الله سمل الأعين» فإنه منكر. وقد تقدم في صحيح مسلم أنهم سَمَلُوا أعين الرعاء، فكان ما فعل بهم قصاصاً، والله أعلم.

والعجب لأبن كثير، يظن فائدة فيما لا فائدة له، فإن أمير هذه السرية، كان ولا شك، كرز بن جابر الفهري، ولم يرو أحد أن أميرها كان جرير بن عبد الله البجلي، إلا في هذا الخبر المنكر.

وَرَسُولُهُ ﴿ فترك النبي ﷺ سَمَرَ الأعين بعدُ.

وروى من وجه آخر عن أبي هريرة.

وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدثنا أبو القاسم محمد بن الوليد، عن^(١) عمرو بن محمد المديني، حدثنا محمد بن طلحة، عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن سلمة بن الأكوع قال: كان للنبي ﷺ غلام يقال له: «يسار»، فنظر إليه يُحسن الصلاة فأعتقه، وبعثه^(٢) في لقاح له بالحرّة، فكان بها، قال: فأظهر قوم الإسلام من عُرينة، وجاؤوا وهم مرضى موعوكون قد عظمت بطونهم، قال: فبعث بهم النبي ﷺ إلى «يسار» فكانوا يشربون من ألبان الإبل حتى انطوت بطونهم، ثم عدوا على «يسار» فذبحوه، وجعلوا الشوك في عينيه، ثم أطرّدوا الإبل، فبعث النبي ﷺ في آثارهم خيلا من المسلمين، أميرهم كُرْزُ بن جابر الفهري، فلحقهم فجاء بهم إليه، فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم. غريب جداً^(٣).

وقد روى قصة العرنيين من حديث جماعة من الصحابة، منهم جابر وعائشة وغير واحد. وقد اعتنى الحافظ الجليل أبو بكر بن مردويه بتطريق^(٤) هذا الحديث من وجوه كثيرة جداً، فرحمه الله وأثابه.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق، سمعت أبي يقول: سمعت أبا حمزة، عن عبد الكريم - وسئل عن أحوال الإبل - فقال: حدثني سعيد بن جبيرة عن المحاريق فقال: كان أناس^(٥) أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: نبايعك على الإسلام. فبايعوه، وهم كذبة، وليس الإسلام يريدون. ثم قالوا: إنا نجتوى المدينة. فقال النبي ﷺ: «هذه اللقاح تغدو عليكم وتروح، فاشربوا من أحوالها وألبانها». قال: فبينما هم كذلك، إذ جاءهم الصريح، فصرخ إلى رسول الله ﷺ، فقال: قتلوا الراعى، واستاقوا^(٦) النعم. فأمر النبي ﷺ فتودى في الناس: أن «يا خيل الله اركبي». قال: فركبوا لا ينتظر فارس فارساً، قال: وركب رسول الله ﷺ على أثرهم، فلم يزالوا يطلبونهم حتى أدخلوهم مأمّنهم، فرجع صحابة رسول الله ﷺ وقد أسروا منهم، فأتوا بهم النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية. قال: فكان نفهم: أن نفوهم حتى أدخلوهم مأمّنهم وأرضهم، ونفوهم من أرض المسلمين. وقتل نبي الله ﷺ منهم، وصلب، وقطع، وسَمَرَ الأعين. قال: فما مثل رسول الله ﷺ قبل ولا بعد. قال: ونهى عن المثلة، قال: «ولا تمثلوا^(٧) بشيء» قال: وكان أنس يقول ذلك، غير أنه قال: أحرقهم بالنار بعد ما قتلهم.

(١) في ر، أ: «بن».

(٢) في أ: «فبعثه».

(٣) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٦/٧) من طريق الحسين التستري به. قال الهيثمي في المجمع (٦/٢٤٩): «فيه موسى بن إبراهيم التيمي وهو ضعيف».

(٤) في أ: «يطرق».

(٥) في ر: «ناس».

(٦) في أ: «وساقوا».

(٧) في ر: «وقال لا تمثلوا بشيء».

قال: وبعضهم يقول: هم ناس من بنى سليم، ومنهم من عُرِيت ناس من بَجِيلَة^(١).

وقد اختلف الأئمة في حكم هؤلاء العُرَيين: هل هو منسوخ أو محكم؟ فقال بعضهم: هو منسوخ بهذه الآية، وزعموا أن فيها عتاباً للنبي ﷺ كما في قوله [تعالى]^(٢): ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، ومنهم من قال: هو منسوخ بنهى النبي ﷺ عن المثلة. وهذا القول فيه نظر، ثم صاحبه مطالب^(٣) ببيان تأخر الناسخ الذى ادعاه عن المنسوخ. وقال بعضهم: كان هذا قبل أن تنزل الحدود، قاله محمد بن سيرين، وفي هذا نظر، فإن قصتهم متأخرة، وفي^(٤) رواية جرير بن عبد الله لقصتهم ما يدل على تأخيرها^(٥)، فإنه أسلم بعد نزول المائدة. ومنهم من قال: لم يسمل النبي ﷺ أعينهم، وإنما عزم على ذلك، حتى نزل القرآن فبيّن حكم المحاربين. وهذا القول أيضاً فيه نظر؛ فإنه قد تقدم في الحديث المتفق عليه أنه^(٦) سَمَلَ - وفي رواية: سمر - أعينهم.

وقال ابن جرير: حدثنا علي بن سهل، حدثنا الوليد بن مسلم قال: ذكرت الليث بن سعد ما كان من سَمَلَ النبي ﷺ أعينهم، وتركه^(٧) حَسَمَهُمْ حتى ماتوا، قال: سمعت محمد بن عجلان يقول: أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ معاتبة في ذلك، وعَلَّمَهُ^(٨) عقوبة مثلهم: من القتل والقطع والنفي، ولم يسمل بعدهم غيرهم. قال: وكان هذا القول ذكر لأبى عمرو - يعنى الأوزاعى - فأنكر أن يكون^(٩) نزلت معاتبة، وقال: بل كانت عقوبة أولئك النفر بأعينهم، ثم نزلت هذه الآية في عقوبة غيرهم ممن حارب بعدهم، ورفع عنهم السمل.

ثم قد احتج بعموم هذه الآية جمهور العلماء في ذهابهم إلى أن المحاربة^(١٠) في الأمصار وفي السبلان على السواء لقوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾. وهذا مذهب مالك، والأوزاعى، والليث ابن سعد، والشافعى، أحمد بن حنبل، حتى قال مالك - فى الذى يغتال الرجل فيخدعه حتى يدخله بيتاً فيقتله، ويأخذ مامعه -: إن هذا محاربة، ودمه إلى السلطان لا [إلى]^(١١) ولى المقتول، ولا اعتبار بعفوه عنه فى إنفاذ القتل.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا تكون المحاربة إلا فى الطرقات، فأما فى الأمصار فلا؛ لأنه يلحقه الغوث إذا استغاث، بخلاف الطريق لبعده ممن يغيثه ويعينه. [والله أعلم]^(١٢).

وأما قوله: ﴿أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ الآية: قال^(١٣) [على]^(١٤) بن أبى طلحة عن ابن عباس فى [قوله]: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ

(١) تفسير الطبرى (١٠/٢٤٧).

(٢) زيادة من ر، أ.

(٣) فى أ: «تأخيرها».

(٤) فى أ: «وعلمهم».

(٥) زيادة من ر.

(٦) زيادة من ر، أ.

(٣) فى أ: «ثم قائله يطالب».

(٦) فى أ: «إنما».

(٩) فى أ: «تكون».

(١٢) زيادة من أ.

(٤) فى ر: «فى».

(٧) فى أ: «وترك».

(١٠) فى أ: «أن حكم المحاربة».

(١٣) فى ر، أ: «فقال».

وَرَسُولُهُ] ^(١) الآية [قال] ^(٢) من شهر السلاح في قبة الإسلام، وأخاف السبيل، ثم ظفر به وقدر عليه، فإمام المسلمين فيه بالخيار: إن شاء قتله، وإن شاء صلبه، وإن شاء قطع يده ورجله.

وكذا قال سعيد بن المسيب، ومجاهد، وعطاء، والحسن البصري، وإبراهيم النخعي، والضحاك. وروى ذلك كله أبو جعفر بن جرير، وحكى مثله عن مالك بن أنس، رحمه الله. ومستند هذا القول أن ظاهر «أو» للتخيير، كما في نظائر ذلك من القرآن، كقوله في جزاء الصيد: ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥]. وقوله في كفارة الترفه: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وكقوله في كفارة اليمين: ﴿إِطْعَامُ^(٣) عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِّن أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩]. [و] ^(٤) هذه كلها على التخيير، فكذلك فلتكن هذه الآية. وقال الجمهور: هذه الآية منزلة على أحوال كما قال أبو عبد الله الشافعي [رحمه الله] ^(٥): أنبأنا إبراهيم - هو ابن أبي يحيى - عن صالح مولى التوأمة، عن ابن عباس في قطاع الطريق: إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قُطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالا نفوا من الأرض.

وقد رواه ابن أبي شَيْبَةَ، عن عبد الرحيم بن سليمان، عن حجاج، عن عطية، عن ابن عباس، بنحوه. وعن أبي مجلز، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النَّخَعِي، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي، وعطاء الخُرَّاساني، نحو ذلك. وهكذا قال غير واحد من السلف والأئمة.

واختلفوا: هل يُصَلَّب حيا ويترك حتى يموت بمنعه من الطعام والشراب، أو يقتله برمح ونحوه، أو يقتل أولا ثم يصلب تنكيلا وتشديدا لغيره من المفسدين؟ وهل يصلب ثلاثة أيام ثم ينزل، أو يترك حتى يسيل صديده؟ في ذلك كله خلاف محرر في موضعه، وبالله الثقة وعليه التكلان.

ويشهد لهذا التفصيل الحديث الذي رواه ابن جرير في تفسيره - إن صح سندُه - فقال:

حدثنا علي بن سهل، حدثنا الوليد بن مسلم، عن ابن لَهَيْعَةَ، عن يزيد بن أبي حبيب؛ أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس [بن مالك]^(٦) يسأله عن هذه الآية، فكتب إليه يخبره: أن هذه الآية نزلت في أولئك النفر العُرَيْنَيْنِ - وهم من بَجِيلَةَ - قال أنس: فارتدوا عن الإسلام، وقتلوا الراعي، واستاقوا الإبل، وأخافوا السبيل، وأصابوا الفرج الحرام. قال أنس: فسأل رسول الله ﷺ جبريل، عليه السلام، عن القضاء فيمن حارب، فقال: من سرق وأخاف السبيل فاقطع يده بسرقة، ورجله بإخافته، ومن قتل فاقطعه، ومن قتل وأخاف السبيل واستحل الفرج الحرام، فاصلبه^(٧).

وأما قوله تعالى ^(٨): ﴿أَوْ يَنْفُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾: قال بعضهم: هو أن يطلب حتى يقدر عليه، فيقام

(١، ٢) زيادة من ر، أ.

(٣) في ر، أ: « فإطعام » وهو خطأ . (٤) زيادة من أ .

(٦) زيادة من أ .

(٥) زيادة من أ.

(۷) تفسیر الطبری (۱۰ / ۲۵۰).

(۸) فی أ: «عز وجل».

عليه الحد أو يهرب من دار الإسلام.

رواه ابن جرير عن ابن عباس، وأنس بن مالك، وسعيد بن جبير، والضحاك، والربيع بن أنس، والزهرى، والليث بن سعد، ومالك بن أنس.

وقال آخرون: هو أن ينفى من بلده^(٢) إلى بلد آخر، أو يخرج السلطان أو نائبه من معاملته بالكلية، وقال الشعبي: ينفيه - كما قال ابن هبيرة - من عمله كله. وقال عطاء الخراساني: ينفى من جُند إلى جند سنين، ولا يخرج من أرض الإسلام.

وكذا قال سعيد بن جبير، وأبو الشعثاء، والحسن، والزهرى، والضحاك، ومقاتل بن حيان: إنه ينفى ولا يخرج من أرض الإسلام.

وقال آخرون: المراد بالنفى ههنا السجن، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، واختار ابن جرير: أن المراد بالنفى ههنا: أن يخرج من بلده إلى بلد آخر فيسجن فيه.

وقوله: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أى: هذا الذى ذكرته من قتلهم، ومن صلبهم، وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ونفيهم - خِزْيٌ لَهُم بَيْنَ النَّاسِ فى هذه الحياة الدنيا، مع ما ادخر الله لهم من العذاب العظيم يوم القيامة، وهذا قد يتأيد به من ذهب إلى أن هذه الآية نزلت فى المشركين، فأما أهل الإسلام فقد ثبت فى الصحيح عند مسلم، عن عبادة بن الصامت قال: أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء: ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا ولا يَعْصَهُ^(٣) بعضنا بعضاً، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له، ومن ستره الله فأمره إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له^(٤).

وعن على [رضى الله عنه]^(٥) قال: قال رسول الله ﷺ: «من أذنب ذنباً فى الدنيا، فعوقب به، فالله أعدل من أن يثنى عقوبته على عبده، ومن أذنب ذنباً فى الدنيا فستره الله عليه وعفا عنه، فالله أكرم من أن يعود فى شئ قد عفا عنه».

رواه الإمام أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وقال الترمذى: «حسن غريب». وقد سئل الحافظ الدارقطنى عن هذا الحديث، فقال: روى مرفوعاً وموقوفاً، قال: ورفع صحیح^(٦).

وقال ابن جرير فى قوله: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ يعنى: شَرٌّ وَعَارٌ وَنَكَالٌ وذلة وعقوبة فى عاجل الدنيا قبل الآخرة، ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أى: إذا لم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا - فى الآخرة مع الجزاء الذى جازيتهم^(٧) به فى الدنيا، والعقوبة التى عاقبتهم^(٨) بها فيها^(٩) - ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، يعنى: عذاب جهنم.

(٣) فى ر: «يغتب»، وفى أ: «تغتب».

(٢) فى ر: «بلد».

(١) فى ر: «عن».

(٥) زيادة من أ.

(٤) صحيح مسلم برقم (١٧٠٩).

(٦) المسند (٩٩/١) وسنن الترمذى برقم (٢٦٢٦) وسنن ابن ماجه برقم (٢٦٠٤) والعلل للدارقطنى (١٢٩/٣).

(٩) فى ر، أ: «فى الدنيا».

(٨) فى أ: «عاقبتهم».

(٧) فى أ: «جازاهم».

وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أما على قول من قال: هي في أهل الشرك فظاهر، وأما المحاربون المسلمون فإذا تابوا قبل القدرة عليهم، فإنه يسقط عنهم احتتام القتل والصلب وقطع الرجل، وهل يسقط قطع اليد أم لا؟ فيه قولان للعلماء.

وظاهر الآية يقتضى سقوط الجميع، وعليه عمل الصحابة، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن مجاهد^(١)، عن الشعبي قال: كان حارثة^(٢) بن بدر التميمي من أهل البصرة، وكان قد أفسد في الأرض وحارب، فكلم رجلاً من قريش منهم: الحسن بن علي، وابن عباس، وعبد الله بن جعفر، فكلّموا علياً، فلم يؤمنه. فأتى سعيد بن قيس الهمداني فخلفه في داره، ثم أتى علياً فقال: يا أمير المؤمنين، أرأيت من حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً، فقرأ حتى بلغ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ قال: فكتب له أماناً. قال سعيد بن قيس: فإنه حارثة^(٣) بن بدر.

وكذا رواه ابن جرير من غير وجه، عن مجاهد^(٤)، عن الشعبي، به. وزاد: فقال حارثة^(٥) بن بدر:

ألا أبلغن^(٦) همدان إماً لقيتها
على النأى لا يسلم عدو يعيها
لعمري أيها إن همدان تتقى الـ
إله ويقضى بالكتاب خطيها^(٧)

وروى ابن جرير من طريق سفيان الثوري، عن السدي - ومن طريق أشعث، كلاهما عن عامر الشعبي قال: جاء رجل من مراد إلى أبي موسى، وهو على الكوفة في إمارة عثمان، رضى الله عنه، بعد ما صلى المكتوبة فقال: يا أبا موسى، هذا مقام العائذ بك، أنا فلان بن فلان المرادي، وإنى كنت حاربت الله ورسوله وسعيت في الأرض فساداً، وإنى تبت من قبل أن يقدر عليّ. فقام أبو موسى فقال: إن هذا فلان بن فلان، وإنه كان حارب الله ورسوله، وسعى في الأرض فساداً، وإنه تاب من قبل أن يقدر عليه، فمن لقيه فلا يعرض له إلا بخير، فإن يك صادقاً فسيل من صدق، وإن يك كاذباً تدركه ذنوبه، فأقام الرجل ما شاء الله، ثم إنه خرج فأدركه الله تعالى بذنوبه فقتله.

ثم قال ابن جرير: حدثني علي، حدثنا الوليد بن مسلم قال: قال الليث، وكذلك حدثني موسى ابن إسحاق المدني، وهو الأمير عندنا: أن علياً الأسدي حارب وأخاف^(٨) السيل وأصاب الدم والمال، فطلبه الأئمة والعامة، فامتنع ولم يقدر عليه، حتى جاء تائباً، وذلك أنه سمع رجلاً يقرأ هذه الآية: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فوقف عليه فقال: يا عبد الله، أعد قراءتها. فأعادها عليه، فغمد سيفه، ثم جاء تائباً. حتى قدم المدينة من السحر، فاغتسل، ثم أتى مسجد رسول الله ﷺ فصلى الصبح، ثم قعد إلى أبي هريرة في غمار أصحابه، فلما أسفروا عرفه الناس، فقاموا^(٩) إليه، فقال:

(١) في ر، أ: «مجالد».

(٢) في ر: «جارية».

(٤) في ر، أ: «مجالد».

(٦) في أ: «بلغا».

(٥) في ر، أ: «جارية».

(٧) تفسير الطبري (١٠ / ٢٨٠).

(٩) في أ: «وقاموا».

(٨) في ر: «وخاف».

لا سبيل لكم على جثت تائباً من قبل أن تقدروا على. فقال أبو هريرة: صدق. وأخذ بيده أبو هريرة حتى أتى مروان بن الحكم - وهو أمير على المدينة^(١)، في زمن معاوية - فقال: هذا على^(٢) جاء تائباً، ولا سبيل لكم عليه ولا قتل. قال: فترك من ذلك كله، قال: وخرج على^(٣) تائباً مجاهداً في سبيل الله في البحر، فلقوا الروم، ففربوا سفينته إلى سفينة من سفنهم^(٤)، فاقتحم على الروم في سفينتهم، فهربوا منه إلى شقها الآخر، فمالت به وبهم، ففرقوا جميعاً^(٥).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٧).

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بتقواه، وهي إذا قرنت بالطاعة كان المراد بها الانكفاف عن المحارم وترك المنهيات، وقد قال بعدها: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ قال سفيان الثوري، حدثنا أبي، عن طلحة، عن عطاء، عن ابن عباس: أى القربة. وكذا قال مجاهد [وعطاء]^(٦)، وأبو وائل، والحسن، وقتادة، وعبد الله بن كثير، والسدي، وابن زيد.

وقال قتادة: أى تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه. وقرأ ابن زيد: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧] وهذا الذى قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه^(٧)، وأنشد ابن جرير عليه قول الشاعر^(٨):

إِذَا غَفَلَ الْوَاشُونَ عُدْنَا لَوْصَلْنَا وَعَادَ التَّصَافَى بَيْنَنَا وَالْوَسَائِلُ

والوسيلة: هى التى يتوصل^(٩) بها إلى تحصيل المقصود، والوسيلة أيضاً: علم على أعلى منزلة فى الجنة، وهى منزلة رسول الله ﷺ وداره فى الجنة، وهى أقرب أمكنة الجنة إلى العرش، وقد ثبت فى صحيح البخارى، من طريق محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعته مقاماً محموداً الذى وعده، إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة».

حديث آخر فى صحيح مسلم: من حديث كعب بن علقمة، عن عبد الرحمن بن جبير، عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبى ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا على، فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لى الوسيلة، فإنها منزلة

(١) فى ر: «فى إمرته على المدينة». (٢، ٣) فى ر: «عليه». (٤) فى أ: «سفينتهم».

(٥) تفسير الطبرى (١٠/ ٢٨٤).

(٦) زيادة من ر.

(٧) فى ر: «لا خلاف فيه بين المفسرين».

(٨) البيت فى تفسير الطبرى (١٠/ ٢٩٠).

(٩) فى د: «لوصلها».

فى الجنة، لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لى الوسيلة حَلَّتْ عليه الشفاعة»^(١).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن ليث، عن كعب، عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صليتم علىّ فسَلُّوا لى الوسيلة». قيل: يا رسول الله، وما الوسيلة؟ قال: «أعلى درجة فى الجنة، لا ينالها إلا رجلٌ واحد»^(٢)، وأرجو أن أكون أنا هو.

ورواه الترمذى، عن بُنْدَار، عن أبى عاصم، عن سفيان - هو الثورى - عن ليث بن أبى سليم، عن كعب قال: حدثنى أبو هريرة، به. ثم قال: غريب، وكعب ليس بمعروف، لا نعرف أحداً روى عنه غير ليث بن أبى سليم^(٣).

طريق أخرى: عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا عبد الباقي بن قانع، حدثنا محمد بن نصر الترمذى، حدثنا عبد الحميد بن صالح، حدثنا أبو شهاب، عن ليث، عن المعلّى، عن محمد بن كعب، عن أبى هريرة رفعه قال: «صلوا علىّ صلاتكم، وسَلُّوا الله لى الوسيلة». فسألوه وأخبرهم: «أن الوسيلة درجة فى الجنة، ليس ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكونه»^(٤)^(٥).

حديث آخر: قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: أخبرنا أحمد بن على الأبار، حدثنا الوليد بن عبد الملك الحرانى، حدثنا موسى بن أعين، عن ابن أبى ذئب^(٦)، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله لى الوسيلة، فإنه لم يسألها لى عبد فى الدنيا إلا كنت له شهيدا - أو: شفيعاً - يوم القيامة».

ثم قال الطبرانى: «لم يروه عن ابن أبى ذئب إلا موسى بن أعين». كذا قال، وقد رواه ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن على بن دحيم، حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا عبيد الله بن موسى، حدثنا موسى بن عبيدة، عن محمد بن عمرو بن عطاء، فذكر بإسناده نحوه^(٧).

حديث آخر: روى ابن مردويه بإسناده عن عمارة بن غَزِيَّة، عن موسى بن وَرْدَان: أنه سمع أبا سعيد الخدرى يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الوسيلة درجة عند الله، ليس فوقها درجة، فسَلُّوا

(١) صحيح مسلم برقم (١٣٨٤).

(٢) فى ر: «واحد فى الجنة».

(٣) المسند (٢/٢٦٥) وسنن الترمذى برقم (٣٦١٢).

(٤) فى ر: «أكون»، وفى أ: «أن أكون هو».

(٥) وفى إسناده ليث بن أبى سليم وهو ضعيف.

ورواه البزار فى مسنده برقم (٢٥٢) «كشف الأستار» من طريق آخر، فرواه من طريق داود بن على، عن ليث، عن مجاهد، عن أبى هريرة بنحوه، وقال الهيثمى: «داود بن على ضعيف».

(٦) فى هـ: «ابن أبى حبيب» وهو خطأ.

(٧) المعجم الأوسط للطبرانى برقم (٦٣٩) «معجم البحرين» وقال الهيثمى فى المجمع (١/٣٣٣): «فيه الوليد بن عبد الملك الحرانى قد ذكره ابن حبان فى الثقات، وقال: مستقيم الحديث إذا روى عن الثقات. قلت: وهذا من روايته عن موسى بن أعين وهو ثقة».

الله أن يؤتيني الوسيلة على خلقه»^(١).

حديث آخر: روى ابن مردويه أيضاً من طريقين، عن عبد الحميد بن بحر: حدثنا شريك، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي، عن النبي ﷺ قال: «في الجنة درجة تدعى الوسيلة، فإذا سألتهم الله فسلوا لى الوسيلة». قالوا: يا رسول الله، من يسكن معك؟ قال: «علي وفاطمة والحسن والحسين».

هذا حديث غريب منكر من هذا الوجه^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا الحسن الدشتكي، حدثنا أبو زهير، حدثنا سعد^(٣) بن طريف، عن علي بن الحسين الأزدي - مولى سالم بن ثوبان - قال: سمعت علي بن أبي طالب ينادى على منبر الكوفة: يا أيها الناس، إن في الجنة لؤلؤتين: إحداهما بيضاء، والأخرى صفراء، أما الصفراء فإنها إلى بطنان العرش، والمقام المحمود من اللؤلؤة البيضاء سبعون ألف غرفة، كل بيت منها ثلاثة أميال، وغرفها وأبوابها وأسررتها وكأنها^(٤) من عرق واحد، واسمها الوسيلة، هي لمحمد ﷺ وأهل بيته، والصفراء فيها مثل ذلك، هي لإبراهيم، عليه السلام، وأهل بيته. وهذا أثر غريب أيضاً^(٥):

وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: لما أمرهم بترك المحارم وفعل الطاعات، أمرهم بقتال الأعداء من الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم، التاركين للدين القويم، ورغبتهم في ذلك بالذي أعدّه للمجاهدين في سبيله يوم القيامة، من الفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة التي لا تبيد ولا تحوّل ولا تزول في الغرف العالية الرفيعة الآمنة، الحسنة مناظرها، الطيبة مساكنها، التي من سكنها يتنعم لا يئس، ويحيا لا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه.

ثم أخبر تعالى بما أعد لأعدائه الكفار من العذاب والنكال يوم القيامة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. أى: لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهباً، وبمثله ليفتدي بذلك من عذاب الله الذي قد أحاط به^(٦)، وتيقن وصوله إليه^(٧)، ما تُقْبَلُ ذلك منه^(٨)، بل لا مندوحة عنه ولا محيص له ولا مناص^(٩)؛ ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. أى: موجه ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ الآية

(١) ورواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٦٤٠، ٦٤١) «مجمع البحرين» من طريق عمارة بن غزية به.

(٢) ووجه غرابته أنه من رواية عبد الحميد بن بحر البصري، قال ابن حبان: كان يسرق الحديث، والحارث هو الأعور كذبه الشعبي وضعفه جماعة.

(٣) فى ر: «سعيد».

(٤) فى أ: «وأبوابها».

(٥) وفى إسناده سعد بن طريف الإسكافي، قال ابن معين: لا يحل لأحد أن يروى عنه، وقال أحمد وأبو حاتم: ضعيف، وقال النسائي والدارقطني: متروك الحديث، وقال ابن حبان: كان يضع الحديث على الفور. ميزان الاعتدال (١٢٢/٢).

(٦) فى ر: «بهم».

(٧) فى ر: «إليهم».

(٨) فى ر: «ولا مخلص لهم ولا مناص».

(٩) فى ر: «ما يقبل ذلك منهم».

[الحج: ٢٢]، فلا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من شدته وأليم مسه، ولا سبيل لهم إلى ذلك، كلما رفعهم الله فصاروا في أعالي^(١) جهنم، ضربتهم الزبانية بالمقامع الحديد، فيردونهم^(٢) إلى أسفلها، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أى: دائم مستمر لا خروج لهم منها، ولا محيد لهم عنها.

وقد قال حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بالرجل من أهل النار، فيقول: يا ابن آدم، كيف وجدت مضجعك؟ فيقول: شرٌّ مضجع، فيقول: هل تفتدى بقراب الأرض ذهباً؟» قال: «فيقول: نعم، يا رب! فيقول: كذبت! قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل: فيؤمر به إلى النار».

رواه مسلم والنسائي^(٣) من طريق حماد بن سلمة^(٤)، بنحوه. وكذا رواه البخارى ومسلم^(٥)، من طريق معاذ بن هشام الدستوائى، عن أبيه، عن قتادة، عن أنس، به. وكذا أخرجه^(٦) من طريق أبى عمران الجونى، واسمه عبد الملك بن حبيب، عن أنس بن مالك، به. ورواه مطر الوراق، عن أنس ابن مالك، ورواه ابن مردويه من طريقه، عنه.

ثم رواه^(٧) ابن مردويه، من طريق المسعودى، عن يزيد بن صهيب الفقير، عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ [قال]^(٨): «يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ قَوْمٌ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ». قال: فقلت لجابر بن عبد الله: يقول الله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ قال: اتل أول الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ﴾ الآية، ألا إنهم الذين كفروا.

وقد روى الإمام أحمد ومسلم هذا الحديث من وجه آخر، عن يزيد الفقير، عن جابر^(٩)، وهذا أبسط سياقاً.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسين بن محمد بن شنبه^(١٠) الواسطى، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا مبارك بن فضالة، حدثنى يزيد الفقير قال: جلست إلى جابر بن عبد الله، وهو يحدث، فحدث أن أناساً^(١١) يخرجون من النار - قال: وأنا يومئذ أنكر ذلك، فغضبت وقلت: ما أعجب من الناس، ولكن أعجب منكم يا أصحاب محمد! تزعمون أن الله يخرج ناساً من النار، والله يقول: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ]^(١٢). فانتهرنى أصحابه، وكان أحلمهم فقال: دعوا الرجل، إنما ذلك للكفار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ حتى بلغ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى قد جمعته قال: أليس الله يقول: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾؟

(١) فى أ: «إلى أعلى».

(٢) فى هـ: «فيردوهم» وهو خطأ؛ لعدم وجود عامل النصب أو الجزم فى الفعل، والمثبت من أ. (٣) فى د: «البخارى».

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٨٠٧) وسنن النسائي (٣٦/٦).

(٥) صحيح البخارى برقم (٦٥٣٨) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٥).

(٦) صحيح البخارى برقم (٦٥٥٧) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٥).

(٧) فى أ: «ثم روى». (٨) زيادة من أ، ر.

(٩) المسند (٣٥٥/٣) وصحيح مسلم برقم (١٩١).

(١٠) فى ر: «ابن أبى شيبة»، وفى أ: «الحسن بن محمد بن شيبة الواسطى».

(١١) فى ر: «ناساً». (١٢) زيادة من أ، وفى هـ: «الآية».

[الإسراء: ٧٩]، فهو ذلك المقام، فإن الله [تعالى] ^(١) يحتبس أقواماً بخطاياهم فى النار ما شاء، لا يكلمهم، فإذا أراد أن يخرجهم أخرجهم. قال: فلم أعد بعد ذلك إلى أن أكذب به.

ثم قال ابن مردويه: حدثنا دَعْلَج بن أحمد، حدثنا عمر بن حفص السدوسي، حدثنا عاصم بن على، حدثنا العباس بن الفضل، حدثنا سعيد بن المهلب، حدثني طلق بن حبيب قال: كنت من أشد الناس تكذيباً بالشفاعة، حتى لقيت جابر بن عبد الله، فقرأت ^(٢) عليه كل آية أقدر عليها يذكر الله [تعالى] ^(٣) فيها خلود أهل النار، فقال: يا طلق، أترأى أقرأ لكتاب الله وأعلم بسنة رسول الله ﷺ ^(٤) منى؟ إن الذين قرأت هم أهلها، هم المشركون، ولكن هؤلاء قوم أصابوا ذنباً فعذبوا، ثم أخرجوا منها، ثم أهوى بيديه ^(٥) إلى أذنيه، فقال ^(٦): صُمْتًا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرجون من النار بعد ما دخلوا». ونحن نقرأ كما قرأت.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٣٨)
فَمَن تَابَ مِّنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠).

يقول تعالى حاكماً وأمرأً بقطع يد السارق والسارقة، وروى الثورى عن جابر بن يزيد الجعفى، عن عامر بن شراحيل الشعبى؛ أن ابن مسعود كان يقرؤها: «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما». وهذه قراءة شاذة، وإن كان الحكم عند جميع العلماء موافقاً لها، لا بها، بل هو مستفاد من دليل آخر. وقد كان القطع معمولاً به فى الجاهلية، فقرّر فى الإسلام وزيدت شروط آخر، كما سنذكره إن شاء الله تعالى، كما كانت القسامة والدية والقراض وغير ذلك من الأشياء التى ورد الشرع بتقريرها على ما كانت عليه، وزيادات هى من تمام المصالح. ويقال: إن أول من قطع الأيدي فى الجاهلية قریش، قطعوا رجلاً يقال له: «دويك»، مولى لبنى مُلَيْح بن عمرو من خزاعة، كان قد سرق كنز الكعبة، ويقال: سرقه قوم فوضعه عنده.

وقد ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئاً قطعت يده به، سواء كان قليلاً أو كثيراً؛ لعموم هذه الآية: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾. فلم يعتبروا نصاباً ولا حرزاً، بل أخذوا بمجرد السرقة.

وقد روى ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق عبد المؤمن، عن نَجْدَةَ الحَفْصِ قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾: أخاص أم عام؟

(٣) زيادة من ر.

(٦) فى ر: «ثم قال».

(٢) فى د: «وقرات».

(٥) فى أ: «بيده».

(١) زيادة من د.

(٤) زيادة من د، أ.

فقال: بل عام.

وهذا يحتمل أن يكون موافقة من ابن عباس لما ذهب إليه هؤلاء، ويحتمل غير ذلك، فالله أعلم.

وتمسكوا بما ثبت في الصحيحين، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ، يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده»^(١). وأما الجمهور فاعتبروا النصاب في السرقة، وإن كان قد وقع بينهم الخلاف في قدره، فذهب كل من الأئمة الأربعة إلى قول على حدة، فعند الإمام مالك بن أنس، رحمه الله: النصاب ثلاثة دراهم مضروبة خالصة، فمتى سرقها أو ما يبلغ ثمنها فما فوقها وجب القطع، واحتج في ذلك بما رواه عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قطع في مجن ثمنه ثلاثة دراهم. أخرجاه في الصحيحين^(٢).

قال مالك، رحمه الله: وقطع عثمان، رضى الله عنه، في أترجة قومت بثلاثة دراهم، وهو أحب ما سمعت في ذلك. وهذا الأثر عن عثمان، رضى الله عنه، قد رواه مالك عن عبد الله بن أبي بكر، عن أبيه، عن عمرة بنت عبد الرحمن: أن سارقاً سرق في زمان عثمان أترجة، فأمر بها عثمان أن تقوم، فقومت بثلاثة دراهم من صرف اثني عشر درهماً بدينار، فقطع عثمان يده^(٣).

قال أصحاب مالك: ومثل هذا الصنيع^(٤) يشتهر، ولم^(٥) ينكر، فمن مثله يحكى الإجماع السكوتي، وفيه دلالة على القطع في الثمار خلافاً للحنفية. وعلى اعتبار ثلاثة دراهم خلافاً لهم في أنه لابد من عشرة دراهم، وللشافعية في اعتبار ربع دينار، والله أعلم.

وذهب الشافعي، رحمه الله، إلى أن الاعتبار في قطع يد السارق بربع دينار أو ما يساويه من الأثمان أو العروض فصاعداً. والحجة^(٦) في ذلك ما أخرجه الشيخان: البخاري ومسلم، من طريق الزهري، عن عمرة، عن عائشة، رضى الله عنها؛ أن رسول الله ﷺ قال: «تقطع يد السارق»^(٧) في ربع دينار فصاعداً^(٨).

ومسلم من طريق أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن عمرة، عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً»^(٩).

قال أصحابنا: فهذا الحديث فاصل في المسألة ونص في اعتبار ربع الدينار لا ما ساواه. قالوا: وحديث ثمن المجن، وأنه كان ثلاثة^(١٠) دراهم، لا ينافي هذا؛ لأنه إذ ذاك كان الدينار باثني عشر

(١) صحيح البخاري برقم (٦٧٩٩) وصحيح مسلم برقم (١٦٨٧).

(٢) صحيح البخاري برقم (٦٧٩٧) وصحيح مسلم برقم (١٦٨٦).

(٣) الموطأ (٢/٨٣٢).

(٤) في ر: «الصنع».

(٥) في أ: «فلم».

(٦) في ر: «أو الحجة».

(٧) في ر: «يقطع السارق».

(٨) صحيح البخاري برقم (٦٧٨٩) وصحيح مسلم برقم (١٦٨٤).

(٩) صحيح مسلم (١٦٨٤).

(١٠) في أ: «بثلاثة».

درهماً، فهي ثمن ربع دينار، فأمكن الجمع بهذه الطريق.

ويروى هذا المذهب عن عُمَرُ بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبي طالب، رضى الله عنهم. وبه يقول عمر بن عبد العزيز، والليث بن سعد، والأوزاعي، والشافعي، وأصحابه، وإسحاق ابن راهويه - فى رواية عنه - وأبو ثور، وداود بن على الظاهري، رحمهم الله.

وذهب الإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه - فى رواية عنه - إلى أن كل واحد من ربع الدينار والثلاثة دراهم مَرْدٌ شرعى، فمن سرق واحداً منهما، أو ما يساويه، قطع عملاً بحديث ابن عمر، وبحديث عائشة، رضى الله عنهما، ووقع فى لفظ عند الإمام أحمد، عن عائشة [رضى الله عنها] ^(١) أن رسول الله ﷺ قال: «اقطعوا فى ربع دينار، ولا تقطعوا فيما هو أدنى من ذلك» ^(٢). وكان ربع الدينار يومئذ ثلاثة دراهم، والدينار اثنى عشر درهماً. وفى لفظ للنسائي: لا تقطع يد السارق فيما دون ثمن المجن. قيل ^(٣) لعائشة: ما ثمن المجن؟ قالت: ربع دينار ^(٤).

فهذه كلها نصوص دالة على عدم اشتراط عشرة دراهم، والله أعلم.

وأما الإمام أبو حنيفة وأصحابه: أبو يوسف، ومحمد، وزُفَرٌ، وكذا سفيان الثوري، رحمهم الله، فإنهم ذهبوا إلى أن النصاب عشرة دراهم مضروبة غير مغشوشة. واحتجوا بأن ثمن المجن الذى قطع فيه السارق على عهد رسول الله ﷺ، كان ثمنه عشرة دراهم. وقد روى أبو بكر بن أبى شيبة: حدثنا ابن نُمَيْرٍ وعبد الأعلى ^(٥)، عن ^(٦) محمد بن إسحاق، عن أيوب بن موسى، عن عطاء، عن ابن عباس قال: كان ثمن المجن على عهد النبي ﷺ عشرة دراهم ^(٧).

ثم قال: حدثنا عبد الأعلى، عن محمد بن إسحاق، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: لا تقطع يد السارق فى دون ثمن المجن. وكان ثمن المجن عشرة دراهم ^(٨).

قالوا: فهذا ابن عباس وعبد الله بن عمرو قد خالفا ابن عمر فى ثمن المجن، فالاحتياط الأخذ بالأكثر؛ لأن الحدود تدرأ بالشبهات.

وذهب بعض السلف إلى أنه تُقَطَّعُ يدُ السارق فى عشرة دراهم، أو دينار، أو ما يبلغ قيمته واحداً منهما، يحكى هذا عن على، وابن مسعود، وإبراهيم النَّخَعِي، وأبى جعفر الباقر، رحمهم الله تعالى.

(١) زيادة من أ.

(٢) المسند (٦/ ٨٠).

(٣) فى أ: «فقل».

(٤) سنن النسائي (٨/ ٨٠).

(٥) فى أ: «بن عبد الأعلى» وهو خطأ.

(٦) فى أ: «حدثنا».

(٧) المصنف (٩/ ٤٧٤) ورواه الدارقطني فى السنن (٣/ ١٩١) من طريق محمد بن إسحاق به.

(٨) المصنف (٩/ ٤٧٤) ورواه الدارقطني فى السنن (٣/ ١٩٠) من طريق محمد بن إسحاق به، والحديث مضطرب، اختلف فيه على

محمد بن إسحاق - كما ترى - وروى من أوجه أخرى كثيرة.

وقال بعض السلف: لا تقطع الخمس إلا في خمس، أى: في خمسة دنانير، أو خمسين درهماً. وينقل هذا عن سعيد بن جبير، رحمه الله.

وقد أجاب الجمهور عما تمسك به الظاهرية من حديث أبى هريرة: «يَسْرِقُ البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده» بأجوبة:

أحدها: أنه منسوخ بحديث عائشة. وفي هذا نظر؛ لأنه لا بد من بيان التاريخ.

والثاني: أنه مؤول ببيضة الحديد وحبل السفن، قاله الأعمش فيما حكاه البخارى وغيره عنه.

والثالث: أن هذا وسيلة إلى التدرج في السرقة من القليل إلى الكثير الذى تقطع فيه يده، ويحتمل أن يكون هذا خرج مخرج الإخبار عما كان الأمر عليه في الجاهلية، حيث كانوا يقطعون في القليل والكثير، فلعن السارق الذى يبذل يده الثمينة في الأشياء المهيئة.

وقد ذكروا أن أبا العلاء المعرّى، لما قدم بغداد، اشتهر عنه أنه أورد إشكالاً على الفقهاء فى جعلهم نصاب السرقة ربع دينار، ونظم فى ذلك شعراً دل على جهله، وقلة عقله فقال:

يَدٌ بِخَمْسٍ مَثْنٍ عَسَجْدٍ وَدَيْتُ^(١) ما بالها قُطِعَتْ فى رُبْعٍ دِينَارٍ
تَنَاقَضَ ما لَنَا إِلا السَّكُوتُ لَهُ وَأَنْ نَعُوذَ بِمَوْلَانَا مِنَ النَّارِ^(٢)

ولما قال ذلك واشتهر عنه تَطَلَّبه^(٣) الفقهاء فهرب منهم. وقد أجابه الناس فى ذلك، فكان جواب القاضى عبد الوهاب المالكى، رحمه الله، أنه قال: لما كانت أمانة كانت ثمينة، فلما خانت هانت. ومنهم من قال: هذا من تمام الحكمة والمصلحة وأسرار الشريعة العظيمة، فإنه فى باب الجنائيات ناسب أن تعظم قيمة اليد بخمسمائة دينار لثلاث يُجْنَى عليها، وفى باب السرقة ناسب أن يكون القدر الذى تقطع فيه ربع دينار لثلاث يتسارع الناس فى سرقة الأموال، فهذا هو عين الحكمة عند ذوى الألباب؛ ولهذا قال [تعالى]^(٤): ﴿جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أى: مجازاة علي صنيعهما السيئ فى أخذهما أموال الناس بأيديهم، فناسب أن يقطع ما استعانا به فى ذلك ﴿نَكَالاً مِنَ اللَّهِ﴾ أى: تنكيلاً من الله بهما على ارتكاب ذلك ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أى: فى انتقامه ﴿حَكِيمٌ﴾ أى: فى أمره ونهيه وشرعه وقدره.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى: من تاب بعد سرقة وأتاب إلى الله، فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه، فأما^(٥) أموال الناس فلا بد من ردها إليهم أو بدلها عند الجمهور.

وقال أبو حنيفة: متى قطع وقد تلفت فى يده، فإنه لا يرد بدلها. وقد روى الحافظ أبو الحسن الدارقطنى من حديث محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان، عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ أتى بسارق قد سرق شملة فقال: «ما إخاله سارق!» فقال السارق: بلى يا رسول الله. قال: «اذهبوا به

(١) فى ر، أ: «فديت».

(٢) رواها الذهبى فى سير أعلام النبلاء (٣٠ / ١٨).

(٣) فى أ: «فطلبه».

(٤) زيادة من ر، أ.

(٥) فى د: «وأما».

فاقطعوه، ثم احسموه، ثم ائتوني به». فقطع فأتى به، فقال: «تب إلى الله». فقال: تببت إلى الله. فقال: «تاب الله عليك»^(١).

وقد روى من وجه آخر مرسلًا ورجح إرساله على بن المديني وابن خزيمة^(٢)، رحمهما الله، روى^(٣) ابن ماجه من حديث ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن عبد الرحمن بن ثعلبة الأنصاري، عن أبيه؛ أن عمرو بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله إني سرقت جملًا لبنى فلان فطهرني! فأرسل إليهم النبي ﷺ، فقالوا: إنا افتقدنا جملًا لنا. فأمر به فقطعت يده. قال ثعلبة: أنا أنظر إليه حين وقعت يده وهو يقول: الحمد لله الذي طهرني منك، أردت أن تدخلني جسد النار^(٤).

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، عن حيي بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو قال: سرقت امرأة حليًا، فجاء الذين سرقتهم فقالوا: يا رسول الله، سرقنا هذه المرأة، فقال رسول الله ﷺ: «اقطعوا يدها اليمنى». فقالت المرأة: هل من توبة؟ فقال رسول الله ﷺ: «أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك!» قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٥).

وقد رواه الإمام أحمد بأبسط من هذا، فقال: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثني حيي بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو؛ أن امرأة سرقت على عهد رسول الله ﷺ، فجاء بها الذين سرقتهم فقالوا: يا رسول الله، إن هذه المرأة سرقنا! قال قومها: فنحن نفديها، فقال رسول الله ﷺ: «اقطعوا يدها»، فقالوا: نحن نفديها بخمسمائة دينار. قال: «اقطعوا يدها». قال: فقطعت يدها اليمنى. فقالت المرأة: هل لي من توبة يا رسول الله؟ قال: «نعم، أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك». فأنزل الله في سورة المائدة: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٦).

وهذه المرأة هي المخزومية التي سرقت، وحديثها ثابت في الصحيحين، من رواية الزهري، عن عروة، عن عائشة؛ أن قريشًا أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي ﷺ، في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ؟ فأتى بها رسول الله ﷺ، فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال: «أتشفع في حد من حدود الله، عز وجل؟» فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله. فلما كان

(١) سنن الدارقطني (١٠٢/٣) ورواه الحاكم في المستدرك (٣٨١/٤) من طريق محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان به موصولاً وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه». وسكت عنه الذهبي.

(٢) رواه الدارقطني في السنن (١٠٣/٣) وأبو داود في المراسيل برقم (٢٤٤) وعبد الرزاق في المصنف برقم (١٣٥٨٣) من طريق سفيان عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان مرسلًا.

(٣) في أ «وقد روى».

(٤) سنن ابن ماجه برقم (٢٥٨٨) وقال البوصيري في الزوائد (٣١٧/٢): «هذا إسناد ضعيف لضعف عبد الله بن لهيعة».

(٥) تفسير الطبري (٢٩٩/١٠).

(٦) المسند (١٧٧/٢).

العشى قام رسول الله ﷺ فاختلف، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإنى والذى نفسى بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها». ثم أمر بتلك المرأة التى سرقت فقطعت يدها. قالت عائشة [رضى الله عنها]^(١): فحسنت توبتها بعد، وتزوجت، وكانت تأتى بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ.

وهذا لفظ مسلم^(٢) وفى لفظ له عن عائشة قالت: كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع وتجده، فأمر النبي ﷺ بقطع يدها^(٣).

وعن ابن عمر قال: كانت امرأة مخزومية تستعير متاعاً على السنة جاراتها^(٤) وتجده، فأمر رسول الله ﷺ بقطع يدها.

رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي^(٥) - وهذا لفظه - وفى لفظ له: أن امرأة كانت تستعير الحلى للناس ثم تمسكه، فقال رسول الله ﷺ: «لتب هذه المرأة إلى الله ورسوله وترد ما تأخذ على القوم»، ثم قال رسول الله ﷺ: «قم يا بلال فخذ بيدها^(٦) فاقطعها»^(٧).

وقد ورد فى أحكام السرقة أحاديث كثيرة مذكورة فى كتاب «الأحكام»، والله الحمد والمنة.

ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: هو المالك لجميع ذلك، الحاكم فيه، الذى لا معقب لحكمه، وهو الفعال لما يريد ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٨) وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٤١) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ

(١) زيادة من أ.

(٢) صحيح البخارى برقم (٢٦٤٨) وصحيح مسلم برقم (١٦٨٨).

(٣) صحيح مسلم برقم (١٦٨٨).

(٤) فى ر: «جارتها».

(٥) المسند (١٥١/٢) وسنن أبى داود برقم (٤٣٩٥) وسنن النسائي (٧٠/٨).

(٦) فى أ: «فخذ يدها».

(٧) سنن النسائي (٧١/٨).

(٨) فى ر: «يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء» وهو خطأ.

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنَ اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤).

نزلت هذه الآيات الكريمات فى المسارعين فى الكفر، الخارجين عن طاعة الله ورسوله، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله، عز وجل ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ أى: أظهروا الإيمان بالسنتهم، وقلوبهم خراب خاوية منه، وهؤلاء هم المنافقون. ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أعداء الإسلام وأهله. وهؤلاء كلهم ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أى: يستجيون^(١) له، منفعلون عنه ﴿سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتَوْكَ﴾ أى: يستجيون لأقوام آخرين لا يأتون^(٢) مجلسك يا محمد. وقيل: المراد أنهم يتسمعون الكلام، وينهونه إلى أقوام آخرين ممن لا يحضر عندك، من أعدائك ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ أى: يتأولونه على غير تأويله، ويبدلونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾.

قيل: نزلت فى أقوام من اليهود، قتلوا قتيلًا، وقالوا: تعالوا حتى نتحاكم إلى محمد، فإن أفتانا بالدية فخذوا ما قال، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه.

والصحيح أنها نزلت فى اليهوديين^(٤) اللذين زنيا، وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذى بأيديهم، من الأمر برجم من أحصن منهم، فحرفوا واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة، والتحميم والإركاب على حمار مقلوبين. فلما وقعت تلك الكائنة بعد هجرة النبى ﷺ، قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه فى ذلك.

وقد وردت الأحاديث بذلك، فقال مالك، عن نافع، عن عبد الله بن عمر أنه قال: إن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم؟» فقالوا: نفضحهم ويُجلدون. قال عبد الله بن سلام: كذبتهم، إن فيها الرجم. فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ^(٥) ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك. فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فقالوا^(٦): صدق^(٧) يا محمد، فيها

(١) فى د، أ: «مستجيون».

(٢) فى أ: «لم يأتون» وهو خطأ؛ لأن الفعل مجزوم.

(٥) فى ر: «فقال».

(٤) فى أ: «فى اليهود».

(٣) فى أ: «من بعض» وهو خطأ.

(٧) فى أ: «صدقت».

(٦) فى ر، أ: «قالوا».

آية الرجم ! فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما^(١)، فرأيت الرجل يَحْنِي على المرأة يقيها الحجارة. وأخرجاه^(٢)، وهذا لفظ البخارى. وفى لفظ له: «فقال لليهود: ما تصنعون بهما؟» قالوا: نُسَخِّم وجوههما ونُخْزِيهما. قال: ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]. فجاؤوا، فقالوا لرجل منهم ممن يرضون أعور: اقرأ، فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها فوضع يده عليه، قال: ارفع يدك. فرفع، فإذا آية الرجم تلوح، قال: يا محمد، إن فيها آية الرجم، ولكننا نتكأته بيننا. فأمر بهما فرجما^(٣).

وعند مسلم: أن رسول الله ﷺ أتى يهودى ويهودية قد زنيا، فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود، فقال: «ما تجدون فى التوراة على من زنى؟» قالوا: نُسَوِّد وجوههما ونُحَمِّلهما، ونخالف بين وجوههما ويُطَاف بهما، قال: ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال: فجاؤوا بها، فقرؤوها، حتى إذا مر بآية الرجم وضع الفتى الذى يقرأ يده على آية الرجم، وقرأ ما بين يديها وما وراءها. فقال له عبد الله بن سلام - وهو مع رسول الله ﷺ -: مره فليرفع يده. فرفع يده، فإذا تحتها آية الرجم. فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما. قال عبد الله بن عمر: كنت فيمن رجمهما، فلقد رأيته يقيها من الحجارة بنفسه^(٤).

وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن سعيد الهمداني، حدثنا ابن وهب، حدثنا هشام بن سعد؛ أن زيد بن أسلم حدثه، عن ابن عمر قال: أتى نفر من اليهود، فدعوا رسول الله ﷺ إلى القُفِّ فأتاهم فى بيت المدراس، فقالوا: يا أبا القاسم، إن رجلاً منا زنى بامرأة، فاحكم. قال: ووضعوا لرسول الله ﷺ وسادة، فجلس عليها، ثم قال: «اثنوني بالتوراة». فأتى بها، فنزع الوسادة من تحته، ووضع التوراة عليها، وقال: «أمنت بك وبمن أنزلك». ثم قال: «اثنوني بأعلمكم». فأتى بفتى شاب، ثم ذكر قصة الرجم نحو حديث مالك عن نافع^(٥).

وقال الزهري: سمعت رجلاً من مزيَّنة، ممن يتبع العلم ويعيه، ونحن عند ابن المسيب، عن أبى هريرة قال: زنى رجل من اليهود بامرأة، فقال بعضهم لبعض: اذهبوا إلى هذا النبى، فإنه بعث بالتخفيف، فإن أفتانا بفتياً دون الرجم قبلناها، واحتججنا بها عند الله، قلنا: فتيا نبى من أنبيائك، قال: فأتوا النبى ﷺ وهو جالس فى المسجد فى أصحابه، فقالوا: يا أبا القاسم، ما تقول فى رجل وامرأة منهم زنيا؟ فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت مدراسهم، فقام على الباب فقال: «أُنشِدْكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى، ما تجدون فى التوراة على من زنى إذا أحصن؟» قالوا: يُحَمَّم، ويُجَبَّه ويجلد. والتجبية: أن يحمل الزانيان على حمار، وتقابل أقفيتهما، ويطاف بهما. قال: وسكت شاب

(١) فى ر: «فرجمهما».

(٢) الموطأ (٨١٩/٢) وصحيح البخارى برقم (٣٦٣٥، ٦٨٤١) وصحيح مسلم برقم (١٦٩٩).

(٣) صحيح البخارى برقم (٧٥٤٣).

(٤) صحيح مسلم برقم (١٦٩٩).

(٥) سنن أبى داود برقم (٤٤٤٩).

منهم، فلما رآه رسول الله ﷺ سكت، أَلْظَّ به رسول الله ﷺ النَّشْدَةَ، فقال: اللهم إزدنا، فإنا نجد في التوراة الرجم. فقال النبي ﷺ: «فما أول ما ارتخصتم أمر الله؟» قال: زنى ذو قرابة من ملك من ملوكنا، فأخّر عنه الرجم، ثم زنى رجل في أثره من الناس، فأراد رجمه، فحال قومه دونه وقالوا: لا يرمم صاحبنا حتى تحيى بصاحبك فترجمه! فاصطلحوا هذه العقوبة بينهم، فقال النبي ﷺ: «فإني أحكم بما في التوراة» فأمر بهما فرجما. قال الزهري: فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ فكان النبي ﷺ منهم. رواه أحمد، وأبو داود - وهذا لفظه - وابن جرير (٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن البراء بن عازب قال: مر على رسول الله ﷺ يهودى محمّم مجلود، فدعاهم فقال: «أهكذا تجدون حد الزانى في كتابكم؟» فقالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم فقال: «أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزانى في كتابكم؟» فقال: لا، والله، ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك، نجد حد الزانى في كتابنا الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالوا حتى نجعل شيئاً نقيمه على الشريف والوضيع، فاجتمعنا على التحميم والجلد. فقال النبي ﷺ: «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه». قال: فأمر به فرجم، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿يَقُولُونَ إِن أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ يقولون: اتوا محمداً، فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، إلى قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: فى اليهود إلى قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قال: فى اليهود (٣)، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ قال: فى الكفار كلها.

انفرد بإخراجه مسلم دون البخارى، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه، من غير وجه، عن الأعمش، به (٤).

وقال الإمام أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدى فى مسنده: حدثنا سفيان بن عيينة، عن مجالد ابن سعيد الهمداني، عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله قال: زنى رجل من أهل فدك، فكتب أهل فدك إلى ناس من اليهود بالمدينة أن سلوا محمداً عن ذلك، فإن أمركم بالجلد فخذوه عنه، وإن أمركم

(١) فى أ: «النبي».

(٢) المسند برقم (٧٧٤٧) ط (شاكرو) وسنن أبى داود برقم (٤٤٥٠) وتفسير الطبرى (٣٠٥/١٠) وانظر: حاشية العلامة أحمد شاكرو على المسند.

(٣) فى أ: «النصارى».

(٤) صحيح مسلم برقم (١٧٠٠) وسنن أبى داود برقم (٤٤٤٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (٧٢١٨) وسنن ابن ماجه برقم (٢٥٥٨).

(٥) فى ر: «عن».

بالرجم فلا تأخذوه عنه، تسألوه عن ذلك، قال: «أرسلوا إلى أعلم رجلين فيكم». فجاؤا برجل أعور - يقال له: ابن صوريا - وآخر، فقال لهما النبي ﷺ: «أنتما أعلم من قبلكما؟». فقالا: قد دعانا قومنا لذلك، فقال النبي ﷺ لهما: «أليس عندكما التوراة فيها حكم الله؟» قالا: بلى، فقال النبي ﷺ: «فأنشدكم بالذي فلق البحر لبنى إسرائيل، وظلل عليكم الغمام، وأنجاكم من آل فرعون، وأنزل المن والسلوى على بنى إسرائيل: ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم؟» فقال أحدهما للآخر: ما نُشِدْتُ بمثله قط. قالا: نجد ترداد النظر زنية والاعتناق زنية، والقبل زنية، فإذا شهد أربعة أنهم رأوه يبدئ ويعيد، كما يدخل الميل فى المكحلة، فقد وجب الرجم. فقال النبي ﷺ: «هو ذاك». فأمر به فرجم، فنزلت: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(١).

ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث مُجَالِد، به^(٢) نحوه. ولفظ أبى داود عن جابر قال: جاءت اليهود برجل وامرأة منهم زنيا، فقال: «اتنوني بأعلم رجلين منكم». فأتوه بابنى صوريا، فنشدهما: «كيف تجدان أمر هذين فى التوراة؟» قالا: نجد فى التوراة إذا شهد أربعة أنهم رأوا ذكره فى فرجها مثل الميل فى المكحلة رجما، قال: «فما يمنعكم أن ترجموهما؟» قالا: ذهب سلطاننا، فكرهنا القتل. فدعا رسول الله ﷺ بالشهود، فجاؤا أربعة، فشهدوا أنهم رأوا ذكره فى فرجها مثل الميل فى المكحلة، فأمر رسول الله ﷺ برجمهما.

ثم رواه أبو داود، عن الشعبى وإبراهيم النَّخَعِى، مرسلًا^(٣)، ولم يذكر فيه: «فدعا بالشهود»^(٤) فشهدوا».

فهذه أحاديث^(٥) دالة على أن رسول الله ﷺ حكم بموافقة حكم التوراة، وليس هذا من باب الإلزام لهم بما يعتقدون صحته؛ لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمدى لا محالة، ولكن هذا بوحي خاص من الله، عز وجل^(٦)، إليه بذلك، وسؤاله إياهم عن ذلك ليقررهم على ما بأيديهم، مما تراضوا^(٧) على كتمانهم وجحد، وعدم العمل^(٨) به تلك الدهور الطويلة فلما اعترفوا به مع علمهم^(٩) على خلافه، بأن زيغهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذى بأيديهم، وعدولهم إلى تحكيم الرسول ﷺ إنما كان عن هوى منهم وشهوة لموافقة آرائهم، لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به لهذا قالوا^(١٠): ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا﴾ والتحميم ﴿فَخُذُوهُ﴾ أى: اقبلوه ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ أى: من قبوله واتباعه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ

(١) مسند الحميدى (٥٤١/٢).

(٢) سنن أبى داود برقم (٤٤٥٢) وسنن ابن ماجه برقم (٢٣٢٨).

(٣) سنن أبى داود برقم (٤٤٥٣).

(٤) فى ر: «الشهود».

(٥) فى أ: «الاحاديث».

(٦) فى أ: «الله تعالى».

(٧) فى ر: «تواصوا».

(٨) فى ر: «العلم».

(٩) فى ر: «علمهم».

(١٠) فى ر: «قال».

(١١) فى ر: «وإن».

لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ ﴿٤١﴾ أى: الباطل ﴿أَكَاُلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ أى: الحرام، وهو الرشوة كما قاله ابن مسعود وغير واحد^(١)، أى: ومن كانت هذه صفته كيف يطهر الله قلبه؟ وأنى يستجيب له.

ثم قال لنبية: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ﴾ أى: يتحاكمون إليك ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَصُرُّوكَ شَيْئًا﴾ أى: فلا عليك ألا تحكم بينهم؛ لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق، بل ما وافق^(٢) هواهم.

قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسدي، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني: هي منسوخة بقوله: ﴿وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩]، ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ أى: بالحق والعدل وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق^(٣) العدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

ثم قال تعالى - منكرأ عليهم في آرائهم الفاسدة ومقاصدهم^(٤) الزائغة، في تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذى بأيديهم، الذى يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبداً، ثم خرجوا عن حكمه وعدلوا إلى غيره، مما يعتقدون فى نفس الأمر بطلانه وعدم لزومه لهم - فقال: ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم مدح التوراة التى أنزلها على عبده ورسوله موسى بن عمران، فقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ أى: لا يخرجون عن حكمها ولا يبدلونها ولا يحرفونها ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ أى: وكذلك الربانيون منهم وهم العباد العلماء، والأحبار وهم العلماء^(٥) ﴿بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ أى: بما استودعوا من كتاب الله الذى أمروا أن يظهروه ويعملوا به ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوُا اللَّهَ﴾ أى: لا تخافوا منهم وخافونى^(٦) ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ فيه قولان سيأتى بيانهما.

سبب آخر لنزول هذه الآيات الكريمة^(٧):

قال^(٨) الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن العباس، حدثنا عبد الرحمن بن أبى الزناد، عن أبيه، عن عبيد الله^(٩) بن عبد الله، عن ابن عباس قال: إن الله أنزل: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ و ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥] ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] قال: قال ابن عباس: أنزلها الله فى الطائفتين من اليهود، كانت إحداهما قد قهرت الأخرى فى الجاهلية، حتى ارتضوا أو اصطلحوا^(١٢) على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون

(١) فى ر: «ذلك».

(٢) فى أ: «ما يوافق».

(٣) فى ر: «الطريق».

(٤) فى ر، أ: «وقصودهم».

(٥) فى أ: «أى: وكذلك الربانيون والأحبار، وهم العلماء والعباد».

(٦) فى ر: «وقال».

(٧) فى أ: «الكريمات».

(٨) فى ر: «عبد الله».

(٩) فى ر: «وقال».

(١٠) فى ر، أ، هـ: «وأولئك والصواب ما أثبتناه».

(١١) فى ر: «ارتضوا واصطلحوا».

(١٢) فى ر: «ارتضوا واصطلحوا».

وَسَقَا، وكل قتيل قتله الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق، فكانوا على ذلك حتى قدم النبي ﷺ المدينة، فذلت الطائفتان كلتاهما، لمقدم رسول الله ﷺ، ويومئذ لم يظهر، ولم يوطئهما عليه، وهو^(١) في الصلح، فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلاً، فأرسلت العزيزة إلى الذليلة: أن ابعثوا لنا بمائة وسق، فقالت الذليلة: وهل كان هذا في حين قط دينهما واحد، ونسبهما واحد، وبلدهما واحد: دية بعضهم نصف دية بعض. إنما أعطيناكم هذا ضيماً منكم لنا، وفرقاً منكم، فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم ذلك، فكادت الحرب تهيج بينهما، ثم ارتضوا على أن يجعلوا^(٢) رسول الله ﷺ بينهم، ثم ذكرت العزيزة فقالت: والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم^(٣)، ولقد صدقوا، ما أعطونا هذا إلا ضيماً منا وقهراً لهم، فدرسوا إلى محمد: من يخبر لكم رأيه، إن أعطاكم ما تريدون حكمتموه وإن لم يعطكم حذرتهم فلم تحكموه. فدرسوا إلى رسول الله ﷺ ناساً من المنافقين ليخبروا لهم رأى رسول الله ﷺ، فلما جاؤوا^(٤) رسول الله ﷺ أخبر الله رسوله ﷺ بأمرهم كله، وما أرادوا، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿الْفَاسِقُونَ﴾، ففيهم - والله - أنزل، وإياهم عنى الله، عز وجل^(٥).

ورواه أبو داود من حديث ابن أبي الزناد، عن أبيه، بنحوه.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا هناد بن السرى وأبو كريب^(٦) قالوا: حدثنا يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، حدثني داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أن الآيات في «المائدة»، قوله: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ إلى: ﴿الْمَقْسُطِينَ﴾، إنما أنزلت^(٧) في الدية في بنى النضير وبني قريظة، وذلك أن قتلى^(٨) بنى النضير، كان لهم شرف، تودى الدية كاملة، وأن قريظة كانوا يودون نصف الدية فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله ذلك فيهم، فحملهم رسول الله ﷺ على الحق في ذلك، فجعل الدية في ذلك سواء - والله أعلم أى ذلك كان.

ورواه أحمد، وأبو داود، والنسائي من حديث ابن إسحاق^(٩) (١٠).

ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عبيد الله^(١١) بن موسى، عن علي بن صالح، عن سمالك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كانت قريظة والنضير^(١٢)، وكانت النضير أشرف من قريظة، فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلاً من النضير قتل به، وإذا قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة، ودى مائة وسق تمر. فلما بعث رسول الله ﷺ، قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة، فقالوا: ادفعوه إلينا^(١٣) فقالوا: بيننا وبينكم رسول الله ﷺ. فنزلت: ﴿وَأِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾.

ورواه أبو داود والنسائي، وابن حبان، والحاكم في المستدرک، من حديث عبيد الله بن موسى،

(١) في أ: «وهم». (٢) في ر: «جعلوا». (٣) في أ: «والله يا محمد نعطيكم منهم ضعفا ما يعطيكم منكم».

(٤) في ر، أ: «جاء».

(٥) المسند (٢٤٦/١).

(٦) في أ: «وابن كريب».

(٧) في ر: «نزلت». (٨) في ر: «قتل». (٩) في أ: «إسحاق به».

(١٠) تفسير الطبري (٣٢٦/١٠) والمسند (٣٦٣/١) وسنن أبي داود برقم (٣٥٩١) وسنن النسائي (١٩/٨).

(١١) في ر: «عبد الله». (١٢) في ر: «وللنضير». (١٣) في ر: «إليه».

بنحوه^(١).

وهكذا قال قتادة، ومقاتل بن حيان، وابن زيد وغير واحد.

وقد روى العوفي، وعلى بن أبي طلحة الوالبي، عن ابن عباس: أن هذه الآيات نزلت في اليهوديين اللذين زنيا، كما تقدمت الأحاديث بذلك. وقد يكون اجتماع هذان السببان في وقت واحد، فنزلت هذه الآيات في ذلك كله، والله أعلم.

ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾^(٢) إلى آخرها، وهذا يقوى أن^(٣) سبب النزول قضية القصاص، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾: قال البراء بن عازب، وحذيفة بن اليمان، وابن عباس، وأبو مجلز، وأبو رجاء العطاردي، وعكرمة، وعبيد الله بن عبد الله، والحسن البصري، وغيرهم: نزلت في أهل الكتاب - زاد الحسن البصري: وهي علينا واجبة.

وقال عبد الرزاق^(٤)، عن سفيان الثوري، عن منصور، عن إبراهيم قال: نزلت هذه الآيات في بنى إسرائيل، ورضى الله لهذه الأمة بها. رواه^(٥) ابن جرير.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا يعقوب، حدثنا هشيم، أخبرنا عبد الملك بن أبي سليمان، عن سلمة بن كهيل، عن علقمة ومسروق^(٦): أنهما سألا ابن مسعود عن الرشوة، فقال: من السُّحْتِ: قال: فقالا: وفي الحكم؟ قال: ذاك الكفر! ثم تلا: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

وقال السدي: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ يقول: ومن لم يحكم بما أنزلت^(٧)، فتركه عمداً، أو جار وهو يعلم، فهو من الكافرين [به]^(٨).

وقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس، قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: من جحد ما أنزل الله فقد كفر. ومن أقر به ولم يحكم فهو ظالم فاسق. رواه ابن جرير.

ثم اختار أن الآية المراد بها أهل الكتاب، أو من جحد حكم الله المنزل في الكتاب.

وقال عبد الرزاق، عن الثوري، عن زكريا، عن الشعبي: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ قال: للمسلمين.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن المنني، حدثنا عبد الصمد، حدثنا شعبة، عن ابن أبي السفر، عن الشعبي: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: هذا في المسلمين، ﴿وَمَنْ لَّمْ

(١) تفسير الطبري (٣٢٧/١٠) وسنن أبي داود برقم (٤٤٩٤) وسنن النسائي (١٨/٨) والمستدرک (٣٦٦/٤).

(٢) في أ: «بالعين والأنف». (٣) في ر، أ: «في». (٤) في ر: «عبد الوارث».

(٥) في ر: «ورواه». (٦) في ر: «عن مسروق». (٧) في أ: «أنزل الله».

(٨) زيادة من أ.

يَحْكُمُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ قال: هذا فى اليهود، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ قال: هذا فى النصارى.

وكذا رواه هُشَيْمٌ والثورى، عن زكريا بن أبى زائدة، عن الشعبي.

وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن ابن طاوس^(١)، عن أبيه قال: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٢) قال: هى به كفر - قال ابن طاوس: وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله.

وقال الثورى، عن ابن جُرَيْجٍ^(٣)، عن عطاء أنه قال: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق. رواه ابن جرير.

وقال وكيع عن سفيان، عن سعيد المكي، عن طاوس: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: ليس بكفر ينقل عن الملة^(٤).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان بن عيينة، عن هشام ابن حُجَيْرٍ، عن طاوس، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: ليس بالكفر الذى يذهبون إليه.

ورواه الحاكم فى مستدركه، من حديث سفيان بن عيينة، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه^(٥).

﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وهذا أيضاً مما وُتِّخَتْ به اليهود وقرعوا عليه، فإن عندهم فى نص التوراة: أن النفس بالنفس. وهم يخالفون حكم ذلك عمداً وعناداً، ويُقيدون النضرى من القرطى، ولا يُقيدون القرطى من النضرى، بل يعدلون إلى الدية، كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم فى رجم الزانى المحصن، وعدلوا إلى ما اصطَلَحُوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار؛ ولهذا قال هناك: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لأنهم جحدوا حكم الله قصداً منهم وعناداً وعمداً، وقال ههنا: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم فى الأمر الذى أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه، فخالفوا وظلموا، وتعدى بعضهم على بعض^(٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا ابن المبارك، عن يونس بن يزيد، عن أبى على

(٣) فى ر: «جرير».

(٢) زيادة من أ، وفى هـ: «الآية».

(١) فى أ: «عباس».

(٤) تفسير الطبرى (١٠/٣٥٥).

(٥) المستدرک (٢/٣١٣).

(٦) فى أ: «وتعدوا على بعض بعضاً».

ابن يزيد - أخى يونس بن يزيد - عن الزهري، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ قرأها: ﴿وَكُتِبَ عَلَيْهِمُ فِيهَا أَنْ النَّفْسُ بِالْنَفْسِ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ﴾ نصب النفس ورفع العين.

وكذا رواه أبو داود، والترمذى والحاكم فى مستدركه، من حديث عبد الله بن المبارك^(١)، وقال الترمذى: حسن غريب.

وقال البخارى: تفرد ابن المبارك بهذا الحديث^(٢).

وقد استدل كثير ممن ذهب من الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا، إذا حكى مقررأ ولم ينسخ، كما هو المشهور عن الجمهور، وكما حكاه الشيخ أبو إسحاق الاسفرايينى عن نص الشافعى وأكثر الأصحاب بهذه الآية، حيث كان الحكم عندنا على وفقها فى الجنايات عند جميع الأئمة.

وقال الحسن البصرى: هى عليهم وعلى الناس عامة. رواه ابن أبى حاتم.

وقد حكى الشيخ أبو زكريا النووى فى هذه المسألة ثلاثة أوجه، ثالثها: أن شرع إبراهيم حجة دون غيره، وصحح منها عدم الحجية، ونقلها الشيخ أبو إسحاق الاسفرايينى أقوالاً عن الشافعى ورجح أنه حجة عند الجمهور من أصحابنا، فالله أعلم.

وقد حكى الإمام أبو نصر بن الصباغ، رحمه الله، فى كتابه «الشامل» إجماع العلماء على الاحتجاج بهذه الآية على ما دلت عليه، وقد احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة بعموم هذه الآية الكريمة، وكذا ورد فى الحديث الذى رواه النسائى وغيره: أن رسول الله ﷺ كتب فى كتاب عمرو بن حزم: «أن الرجل يقتل بالمرأة» وفى الحديث الآخر: «المسلمون تتكافأ دماؤهم»^(٣)، وهذ قول جمهور العلماء.

وعن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها، إلا أن يدفع وليها إلى أوليائه نصف الدية؛ لأن ديتها على النصف من دية الرجل، وإليه ذهب أحمد فى روايته [عنه]^(٤)، وحكى^(٥) [هذا]^(٦) عن الحسن [البصرى]^(٧)، وعطاء، وعثمان البتى، ورواية عن أحمد^(٨) [به]^(٩) أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها، بل تجب^(١٠) ديتها.

وهكذا احتج أبو حنيفة، رحمه الله تعالى، بعموم هذه الآية على أنه يقتل المسلم بالكافر الذمى، وعلى قتل الحر بالعبد، وقد خالفه الجمهور فيهما، ففى الصحيحين عن أمير المؤمنين على، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقتل مسلم بكافر»^(١١)، وأما العبد فعن السلف فى^(١٢) آثار

(١) المسند (٢١٥/٣) وسنن أبى داود برقم (٣٩٧٧) وسنن الترمذى برقم (٢٩٢٩). (٢) فى أ: «تفرد به ابن المبارك».

(٣) روى من حديث عبد الله بن عباس: أخرجه ابن ماجة فى السنن برقم (٢٦٨٣) من طريق سليمان عن أبيه، عن حنش، عن عكرمة، عن ابن عباس. وقال البوصيرى فى الزوائد (٣٥٣/٢): «هذا إسناد ضعيف لضعف حنش واسمه حسين بن قيس». وروى من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: أخرجه أبو داود فى السنن برقم (٤٥٣١) من طريق يحيى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٦، ٧) زيادة من ر، أ.

(٥) فى ر: «ويحكى».

(٤) زيادة من ر، أ.

(١٠) فى ر: «وتجب»، وفى أ: «يجب».

(٩) زيادة من أ.

(٨) فى ر، أ: «وعن أحمد رواية».

(١٢) فى د: «فيه».

(١١) صحيح البخارى برقم (٦٩٠٣).

متعددة: أنهم لم يكونوا يُقيدون العبد من الحر، ولا يقتلون حرًا بعبد، وجاء فى ذلك أحاديث لا تصح، وحكى الشافعى الإجماع على خلاف قول الحنفية فى ذلك، ولكن لا يلزم من ذلك بطلان قولهم إلا بدليل مخصص للآية الكريمة.

ويؤيد ما قاله^(١) ابن الصباغ من الاحتجاج بهذه الآية الكريمة الحديث الثابت فى ذلك، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا محمد بن أبى عدى، حدثنا حميد، عن أنس بن مالك: أن الربيع عمّة أنس كسرت ثنية جارية، فطلبوا إلى القوم العفو، فأبوا، فأتوا رسول الله ﷺ فقال: «القصاص». فقال أخوها أنس بن النضر: يا رسول الله، تكسر ثنية فلانة؟! فقال رسول الله ﷺ: «يا أنس، كتاب الله القصاص». قال: فقال: لا، والذي بعثك بالحق، لا تكسر ثنية فلانة. قال: فرضى القوم، فعفوا وتركوا القصاص، فقال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره».

أخرجاه فى الصحيحين^(٢). وقد رواه محمد بن عبد الله بن المثنى الأنصارى، فى الجزء المشهور من حديثه، عن حميد، عن أنس بن مالك؛ أن الربيع بنت النضر عمّة لطمت جارية فكسرت ثنيتهما فعرضوا عليهم الأرش، فأبوا. فطلبوا الأرش والعفو فأبوا، فأتوا رسول الله ﷺ، فأمرهم بالقصاص، فجاء أخوها أنس بن النضر فقال: يا رسول الله، أتكسر ثنية الربيع؟ والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتهما. فقال النبى ﷺ: «يا أنس، كتاب الله القصاص». فعفا القوم، فقال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره». رواه البخارى عن الأنصارى. فأما الحديث الذى رواه أبووداد:

حدثنا أحمد بن حنبل، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبى، عن قتادة، عن أبى نضرة، عن عمران ابن حصين، أن غلاماً لأناس فقراء قطع أذن غلام لأناس أغنياء، فأتى أهله النبى ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إنا أناس فقراء، فلم يجعل عليه شيئاً. وكذا رواه النسائى عن إسحاق بن راهويه، عن معاذ بن هشام الدستوائى، عن أبيه عن قتادة، به^(٣). وهذا إسناد قوى رجاله كلهم ثقات - فإنه حديث مشكل، اللهم إلا أن يقال: إن الجانى كان قبل البلوغ، فلا قصاص عليه، ولعله تحمل أرش ما نقص من غلام الأغنياء عن الفقراء، أو استعفاهم عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قال: تقتل النفس بالنفس، وتفقأ العين بالعين، ويقطع الأنف بالأنف، وتنزع السن بالسن، وتقتص الجراح بالجراح.

فهذا يستوى فيه أحرار المسلمين [به]^(٤) فيما بينهم، رجالهم ونساؤهم، إذا كان عمداً فى النفس وما دون النفس، ويستوى فيه العبيد رجالهم ونساؤهم فيما بينهم إذا كان عمداً، فى النفس وما دون النفس، رواه ابن جرير^(٥) وابن أبى حاتم.

(١) فى ر: «ما قال».

(٢) المسند (١٢٨/٣) وصحيح البخارى برقم (٦٨٩٤) وصحيح مسلم برقم (١٦٧٥).

(٣) سنن أبى داود برقم (٤٥٩٠) وسنن النسائى الكبرى برقم (٦٩٥٣).

(٤) فى د: «جريح».

(٥) زيادة من أ.

قاعدة مهمة :

الجراح تارة تكون فى مفصل، فيجب فيه القصاص بالإجماع، كقطع اليد والرجل والكف والقدم ونحو ذلك. وأما إذا لم تكن الجراح^(١) فى مفصل بل فى عظم، فقال مالك، رحمه الله: فيه القصاص إلا فى الفخذ وشبهها؛ لأنه مخوف خطر. وقال أبو حنيفة وصاحباؤه: لا يجب القصاص فى شئ من العظام^(٢) إلا فى السن. وقال الشافعى: لا يجب القصاص فى شئ من العظام مطلقاً، وهو مروي عن عمر بن الخطاب، وابن عباس. وبه يقول عطاء، والشعبي، والحسن البصري، والزهرى، وإبراهيم النخعي، وعمر بن عبد العزيز. وإليه ذهب سفيان الثوري، والليث بن سعد. وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد.

وقد احتج أبو حنيفة، رحمه الله، بحديث الربيع بنت النضر على مذهبه أنه لا قصاص فى عظم إلا فى السن. وحديث الربيع لا حجة فيه؛ لأنه ورد بلفظ: «كسرتُ ثنيةً جارية» وجائز أن تكون^(٣) سقطت من غير كسر، فيجب القصاص - والحالة هذه - بالإجماع. وتمموا الدلالة. بما رواه ابن ماجه، من طريق أبي بكر بن عيَّاش، عن دَهْم^(٤) بن قُرَّان، عن نمران بن جارية، عن أبيه جارية بن ظفر الحنفى؛ أن رجلاً ضرب رجلاً على ساعده بالسيف من غير المفصل، فقطعها، فاستعدى النبى ﷺ، فأمر له بالدية، فقال: يا رسول الله، أريد القصاص. فقال: «خذ الدية، بارك الله لك فيها». ولم يقض له بالقصاص^(٥).

قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر: ليس لهذا الحديث غير هذا الإسناد، ودَهْم^(٦) بن قُرَّان العُكلى ضعيف أعرابى، ليس حديثه مما يحتج به، ونمران بن جارية ضعيف أعرابى أيضاً، وأبوه جارية بن ظفر مذكور فى الصحابة^(٧).

ثم قالوا: لا يجوز أن يقتص من الجراحة حتى تَنَدَمِلَ جراحة المجنى عليه، فإن اقتص منه قبل الاندمال ثم زاد جرحه، فلا شئ له، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن محمد بن إسحاق، فذكر حديثاً، قال ابن إسحاق: وذكر عمرو^(٨) بن شعيب، عن أبيه، عن جده؛ أن رجلاً طعن رجلاً بقرن فى ركبته، فجاء إلى النبى ﷺ فقال: أفدنى. فقال ﷺ: «لا تعجل حتى يبرأ جرحك». قال: فأبى الرجل إلا أن يستقيد، فأقاده رسول الله ﷺ منه، قال: فخرج المستقيد وبرأ المستقاد منه، فأتى المستقيد إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله، عرجت وبرأ صاحبى. فقال: «قد نهيتك فعصيتنى، فأبعدك الله وبطل عرجك». ثم نهى رسول الله ﷺ أن يقتص من جرح حتى يبرأ صاحبه. تفرد به أحمد^(٩).

مسألة :

فلو اقتص المجنى عليه من الجانى، فمات من القصاص، فلا شئ عليه عند مالك، والشافعى،

(١) فى ر: «يكن الجراحة».

(٢) فى أ: «العظام مطلقاً».

(٣) فى ر: «يكون».

(٤) فى أ: «دهيم».

(٥) سنن ابن ماجه برقم (٢٦٣٦).

(٦) فى أ: «دهيم».

(٧) الاستذكار (٢٨٧/٢٥).

(٨) فى ر: «وذكر عن عمرو».

(٩) المسند (٢١٧/٢).

وأحمد بن حنبل، وهو قول الجمهور من الصحابة والتابعين وغيرهم. وقال أبو حنيفة: تجب الدية في مال المقتص. وقال عامر الشعبي، وعطاء، وطاوس، وعمرو بن دينار، والحارث العكلي، وابن أبي ليلى، وحماد بن أبي سليمان، والزهرى، والثورى: تجب الدية على عاقلة المقتص له. وقال ابن مسعود، وإبراهيم النخعي، والحكم بن عتيبة^(١)، وعثمان البتي: يسقط عن المقتص له قدر تلك الجراحة، ويجب الباقي في ماله.

وقوله: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ قال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ يقول: فمن عفا عنه، وتصدق عليه فهو كفارة للمطلوب، وأجر للطالب.

وقال سفيان الثوري، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ قال: كفارة للجراح، وأجر المجروح^(٢) على الله، عز وجل. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وروى عن خيثمة بن عبد الرحمن، ومجاهد، وإبراهيم - في أحد قوليه - وعامر الشعبي، وجابر بن زيد - نحو ذلك الوجه الثاني، ثم قال ابن أبي حاتم:

حدثنا حماد بن زاذان، حدثنا حرمي - يعني ابن عمار - حدثنا شعبة، عن عمار - يعني ابن أبي حفصة - عن رجل، عن جابر بن عبد الله، في قول الله، عز وجل^(٣): ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ قال: للمجروح. وروى عن الحسن البصري، وإبراهيم النخعي - في أحد قوليه - وأبي إسحاق الهمداني، نحو ذلك.

وروى ابن جرير، عن عامر الشعبي وقتادة، مثله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا شعبة، عن قيس - يعني بن مسلم - قال: سمعت طارق بن شهاب يحدث، عن الهيثم أبي^(٤) العريان النخعي قال: رأيت عبد الله بن عمرو عند معاوية أحمر شبيهاً بالموالي، فسألته عن قول الله [عز وجل]^(٥): ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ قال: يهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدق به.

وهكذا رواه سفيان الثوري عن قيس بن مسلم. وكذا رواه ابن جرير من طريق سفيان وشعبة.

وقال ابن مردويه: حدثني محمد بن علي، حدثنا عبد الرحيم بن محمد المجاشعي، حدثنا محمد ابن أحمد بن الحجاج المهري، حدثنا يحيى بن سليمان الجعفي، حدثنا معلّى - يعني بن هلال^(٦) - أنه سمع أبان بن تغلب، عن أبي العريان الهيثم بن الأسود، عن عبد الله بن عمرو - وعن أبان بن تغلب، عن الشعبي، عن رجل من الأنصار عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ قال: هو الذي تكسر سنه، أو تقطع يده، أو يقطع الشيء^(٧) منه، أو يجرح في بدنه فيعفو عن ذلك، وقال فيحطّ عنه قدر خطاياها، فإن كان ربع الدية فربع خطاياها، وإن كان الثلث فثلث خطاياها، وإن

(١) في أ: «عينة».

(٢) في ر: «للمجروح».

(٣) في أ: «تعالى».

(٤) زيادة من أ.

(٥) في هـ، ر: «ابن». والمثبت من الطبري.

(٦) في أ: «اليمنى».

كانت الدية حطت عنه خطايا كذا^(١).

ثم قال^(٢) ابن جرير: حدثنا زكريا بن يحيى بن أبي زائدة، حدثنا ابن فضيل، عن يونس بن أبي إسحاق، عن أبي السَّفر قال: دفع رجل من قريش رجلاً من الأنصار، فاندقت ثنيته، فرفعه الأنصاري إلى معاوية، فلما ألح عليه الرجل قال: شأنك وصاحبك. قال: وأبو الدرداء عند معاوية، فقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يصاب بشيء في جسده، فيهبه، إلا رفعه الله به درجة، وحط عنه به خطيئة». فقال الأنصاري: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ فقال: سمعته أذنائي ووعاه قلبي، فخلني سبيل القرشي، فقال معاوية: مروا له بمال.

هكذا رواه ابن جرير^(٣)، ورواه الإمام أحمد فقال: حدثنا وكيع، حدثنا يونس بن أبي إسحاق، عن أبي السَّفر قال: كسر رجل من قريش سنَّ رجل من الأنصار، فاستعدى عليه معاوية، فقال القرشي: إن هذا دق سني؟ قال معاوية: إنا سنرضيه. فآلح الأنصاري، فقال معاوية: شأنك بصاحبك، وأبو الدرداء جالس، فقال أبو الدرداء سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يصاب بشيء في^(٤) جسده، فيتصدق به، إلا رفعه الله به درجة وحط عنه بها خطيئة». فقال الأنصاري: فإني، يعني: قد عفوت.

وهكذا رواه الترمذي من حديث ابن المبارك، وابن ماجه من حديث وكيع، كلاهما عن يونس بن أبي إسحاق، به^(٥). ثم قال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ولا أعرف لأبي السَّفر سماعاً من أبي الدرداء.

وقال [أبو بكر]^(٦) بن مردويه: حدثنا دَعْلَج بن أحمد، حدثنا محمد بن علي بن زيد، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا سفيان، عن عمران بن ظبيان، عن عدي بن ثابت؛ أن رجلاً هَتَمَ فمه رجل، على عهد معاوية، رضى الله عنه، فأعطى دية، فأبى إلا أن يقتص، فأعطى ديتين، فأبى، فأعطى ثلاثاً، فأبى، فحدث رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن^(٧) رسول الله ﷺ قال: «من تصدق بدم فما دونه، فهو كفارة له من يوم ولد إلى يوم يموت»^(٨).

وقال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيْج بن النعمان، حدثنا هُشَيْم، عن المغيرة، عن الشعبي؛ أن عبادة ابن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل يجرح من^(٩) جسده جراحة، فيتصدق

(١) ورواه الديلمي في مسند الفردوس (١٥٣/٣) من طريق يحيى بن سلام، عن أبيه، عن المعلى، عن أبان بن تغلب، عن الشعبي، وعن العريان بن الهيثم عن أبيه، عن ابن عمر مرفوعاً.

(٢) في أ: «وقال».

(٣) تفسير الطبري (٣٦٤/١٠).

(٤) في ر: «من».

(٥) المسند (٤٤٨/٦) وسنن الترمذي برقم (١٣٩٣) وسنن ابن ماجه برقم (٢٦٩٣).

(٦) زيادة من ر. (٧) في ر: «عن».

(٨) رواه سعيد بن منصور في السنن برقم (٧٦٢) ورواه أبو يعلى في مسنده (٢٨٤/١٢) والطبري في تفسيره (٣٦٨/١٠) من طريق عمران بن ظبيان به. قال الهيثمي في المجمع (٣٠٢/٦): «رجال رجال الصحيح غير عمران بن ظبيان وقد وثقه ابن حبان، وفيه ضعف».

(٩) في ر: «في».

بها، إلا كفر الله عنه مثل ما تصدق به.

ورواه النسائي، عن علي بن حجر، عن جرير بن عبد الحميد، ورواه ابن جرير، عن محمود بن خدّاش، عن هشيم، كلاهما عن المغيرة، به^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد القطان، عن مجالد، عن عامر، عن المحرر بن أبي هريرة، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: «من أصيب بشيء من جسده، فتركه لله، كان كفارة له»^(٢).

وقوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، قد تقدم عن طاوس وعطاء أنهما قالا: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أى: أتبعنا ﴿عَلَىٰ آثَارِهِم﴾ يعنى: أنبياء بنى إسرائيل [عليه السلام]^(٣) ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أى: مؤمناً بها حاكماً بما فيها ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ أى: هدى إلى الحق، ونور يستضاء به فى إزالة الشبهات وحل المشكلات. ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أى: متبعاً لها، غير مخالف لما فيها، إلا فى القليل مما بين لبنى إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه، كما قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبنى إسرائيل: ﴿وَلَا حِلَّ لَكُمْ بِعِصِّ الدَّيِّ حُرْمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]؛ ولهذا كان المشهور من قولى العلماء أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة.

وقوله: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أى: وجعلنا الإنجيل ﴿هُدًى﴾ يهتدى به، ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ أى: وزاجراً^(٤) عن ارتكاب المحارم والمآثم ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أى: لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه.

وقوله: ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾، قرئ: ﴿وَلِيَحْكُمَ﴾ بالنصب على أن اللام لام كى، أى: وآتيناه^(٥) الإنجيل [فيه هدى ونور]^(٦) ليحكم أهل ملته به فى زمانهم. وقرئ: ﴿وَلِيَحْكُمَ﴾ بالجزم اللام^(٧) لام الأمر، أى: ليؤمنوا بجميع ما فيه، وليقيموا ما أمروا به فيه، ومما فيه البشارة ببعثة محمد ﷺ^(٨) والأمر باتباعه وتصديقه إذا وجد، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٦٨] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ

(١) المسند (٣١٦/٥) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١١٤٦) وتفسير الطبرى (٣٦٤/١٠).

(٢) المسند (٤١٢/٥)، وقال الهيثمى فى المجمع (٣٠٢/٦): «فيه مجالد وقد اختلط».

(٣) زيادة من أ. (٤) فى د: «أى: زاجراً».

(٥) فى د: «أى: آتيناه».

(٦) زيادة من ر، أ. (٧) فى أ: «وأن اللام».

(٨) زيادة من د، أ.

الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ [وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ (١) الْمُفْلِحُونَ] ﴿١٥٧﴾؛ ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أى: الخارجون عن طاعة ربهم، المائلون إلى الباطل، التاركون للحق. وقد تقدم أن هذه الآية نزلت فى النصرارى، وهو ظاهر السياق.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)﴾.

لما ذكر تعالى التوراة التى أنزلها الله على موسى كليمه [عليه السلام] (٢)، ومدحها وأثنى عليها، وأمر (٣) باتباعها حيث كانت سائغة الاتباع، وذكر الإنجيل ومدحه، وأمر أهله بإقامته واتباع ما فيه، كما تقدم بيانه، شرع تعالى فى ذكر القرآن العظيم، الذى أنزله على عبده ورسوله الكريم، فقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أى: بالصدق الذى لا ريب فيه أنه من عند الله، ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أى: من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فكان نزوله كما أخبرت به، مما زادها صدقاً عند حاملها من ذوى البصائر، الذين انقادوا لأمر الله واتبعوا شرائع الله، وصدقوا رسل الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] أى: إن كان ما وعدنا الله على ألسنة الرسل المتقدمين، من مجيء محمد، عليه السلام، ﴿لَمَفْعُولًا﴾ أى: لكائناً لا محالة ولا بد .

وقوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ قال سفيان الثوري وغيره، عن أبى إسحاق، عن التميمي، عن ابن عباس، أى: مؤتمناً عليه.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: المهيمن: الأمين، قال: القرآن أمين على كل كتاب قبله.

(٣) فى أ: « وأمرنا ».

(٢) زيادة من أ.

(١) زيادة من ر، وفى هـ: « إلى قوله ».

وروى عن عكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، ومحمد بن كعب، وعطية، والحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني، والسدي، وابن زيد، نحو ذلك.

وقال ابن جريج: القرآن أمين على الكتب المتقدمة، فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه منها فهو باطل.

وعن الوالي، عن ابن عباس: ﴿وَمُهَيِّمًا﴾ أى: شهيداً. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والسدي.

وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَمُهَيِّمًا﴾ أى: حاكماً على ما قبله من الكتب.

وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن اسم «المهيمن» يتضمن هذا كله، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم، الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها، أشملها وأعظمها وأحكمها^(١)، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس فى غيره؛ فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها. وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة، فقال [تعالى]^(٢): ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

فأما ما حكاه ابن أبى حاتم، عن عكرمة، وسعيد بن جبير، وعطاء الخراساني، وابن أبى نجيع عن مجاهد؛ أنهم قالوا فى قوله: ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ يعنى: محمداً ﷺ أمين على القرآن، فإنه صحيح فى المعنى، ولكن فى تفسير هذا بهذا نظراً، وفى تنزيله عليه من حيث العربية أيضاً نظراً. وبالجمله فالصحيح الأول، قال أبو جعفر بن جرير، بعد حكايته له عن مجاهد: وهذا التأويل بعيد من المفهوم فى^(٣) كلام العرب، بل هو خطأ، وذلك أن «المهيمن» عطف على «المصدق»، فلا يكون إلا من صفة ما كان «المصدق» صفة له. قال: ولو كان كما قال مجاهد لقال: «وأنزلنا إليك الكتاب مُصدقاً لما بين يديه من الكتاب مهيمناً عليه». يعنى من غير عطف.

وقوله: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أى: فاحكم يا محمد بين الناس: عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيهم ﴿بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ إليك فى^(٤) هذا الكتاب العظيم، وبما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخه فى شرعك. هكذا وجهه ابن جرير بمعناه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عمار، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد بن العوام، عن سفيان بن حسين، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كان النبى ﷺ مخيراً، إن شاء حكم بينهم، وإن شاء أعرض عنهم. فردهم إلى أحكامهم، فنزلت: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ فأمر رسول الله ﷺ أن يحكم بينهم بما فى كتابنا.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أى: آراءهم التى اصطلحوا عليها، وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسوله؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أى: لا تنصرف عن الحق الذى أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء.

(١) فى ر، د: «وأكملها».

(٢) زيادة من أ.

(٣) فى ر: «من».

(٤) فى ر، أ: «من».

وقوله: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن يوسف بن أبي إسحاق، عن أبيه، عن التميمي، عن ابن عباس: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً﴾ قال: سيلاً.

وحدثنا أبو سعيد، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن التميمي، عن ابن عباس: ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ قال: وسنة.

وكذا روى العوفي، عن ابن عباس: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾: سيلاً وسنة.

وكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، والحسن البصري، وقتادة، والضحاك، والسدي، وأبي إسحاق السبيعي؛ أنهم قالوا في قوله: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أى: سيلاً وسنة.

وعن ابن عباس ومجاهد أيضاً وعطاء الخراساني عكسه: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أى: سنة وسيلاً، والأول أنسب، فإن الشريعة وهى الشريعة أيضاً، هى ما يبدأ فيه إلى الشئ ومنه يقال: «شرع فى كذا» أى: ابتداء فيه. وكذا الشريعة وهى ما يشرع منها إلى الماء. أما «المنهاج»: فهو الطريق الواضح السهل، والسنن: الطرائق، فتفسير قوله: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ بالسيل والسنة أظهر فى المناسبة من العكس، والله أعلم.

ثم هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان، باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة فى الأحكام، المتفقة فى التوحيد، كما ثبت فى صحيح البخارى، عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات، ديننا واحد»^(١). يعنى بذلك التوحيد، الذى بعث الله به كل رسول أرسله، وضمنه كل كتاب أنزله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ الآية [النحل: ٣٦]، وأما الشرائع فمختلفة فى الأوامر والنواهي، فقد يكون الشئ فى هذه الشريعة حراماً ثم يحل فى الشريعة الأخرى، وبالعكس، وخفيفاً فيزداد فى الشدة فى هذه دون هذه. وذلك لما له تعالى فى ذلك من الحكمة البالغة، والحجة الدامغة.

قال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة: قوله: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ يقول: سيلاً وسنة، والسنن مختلفة: هى فى التوراة شريعة، وفى الإنجيل شريعة، وفى الفرقان شريعة، يحل الله فيها ما يشاء، ويحرم ما يشاء، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، والدين الذى لا يقبل الله غيره: التوحيد والإخلاص لله، الذى جاءت به الرسل.

وقيل: المخاطب بهذا هذه الأمة، ومعناه: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا الْقُرْآنَ مِنْكُمْ﴾ أيتها الأمة ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أى: هو لكم كلكم، تقتدون به. وحذف الضمير المنصوب فى قوله: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ أى: جعلناه، يعنى القرآن، ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أى: سيلاً إلى المقاصد الصحيحة، وسنة أى: طريقاً ومسلماً واضحاً بيناً.

(١) صحيح البخارى برقم (٣٤٤٣).

هذا مضمون ما حكاه ابن جرير عن مجاهد، رحمه الله، والصحيح القول الأول، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فلو كان هذا خطاباً لهذه الأمة لما صح أن يقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وهم أمة واحدة، ولكن هذا خطاب لجميع الأمم، وإخبار عن قدرته تعالى العظيمة التي لو شاء الله لجمع^(١) الناس كلهم على دين واحد وشرعة واحدة، لا ينسخ شيء منها. ولكنه تعالى شرع لكل رسول شرعة على حدة، ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده^(٢)، حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمداً ﷺ، الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة، وجعله خاتم الأنبياء كلهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ أى: أنه تعالى شرع الشرائع مختلفة، ليختبر عباده فيما شرع لهم، ويثيبهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله.

وقال عبد الله بن كثير: ﴿فِي مَا آتَاكُمْ﴾ يعنى: من الكتاب.

ثم إنه تعالى ندبهم إلى المسارعة إلى الخيرات والمبادرة إليها، فقال: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ وهى طاعة الله واتباع شرعه، الذى جعله ناسخاً لما قبله، والتصديق بكتابه القرآن الذى هو آخر كتاب أنزله. ثم قال تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾ أى: معادكم أيها الناس ومصيركم إليه يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أى: فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحق، فيجزى الصادقين بصدقهم، ويعذب الكافرين الجاحدين المكذبين بالحق، العادلين عنه إلى غيره بلا دليل ولا برهان، بل هم معاندون للبراهين القاطعة، والحجج البالغة، والأدلة الدامغة.

وقال الضحاك: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ يعنى: أمة محمد ﷺ. والأظهر الأول.

وقوله: ﴿وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك، والنهى عن خلافه.

ثم قال [تعالى]^(٣): ﴿وَاحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أى: احذر أعداءك اليهود أن يدلّسوا عليك الحق فيما يُنْهَوْنَهُ إِلَيْكَ من الأمور، فلا تغتر بهم، فإنهم كَذِبَةٌ كَفَرَةٌ خَوْنَةٌ. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أى: عما تحكم به بينهم من الحق، وخالفوا شرع الله ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ أى: فاعلم أن ذلك كائن عن قَدَرِ اللَّهِ وحكمته فيهم أن يصرفهم عن الهدى لما عليهم من الذنوب السالفة التى اقتضت إضلالهم ونكالهم. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ أى: أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم، مخالفون للحق ناؤون عنه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]. وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَطِعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس قال: قال كعب بن أسد، وابن صلوبا، وعبد الله بن صوريا، وشاس

(١) فى أ: «لجعل».

(٢) فى أ: «لجعل».

(٣) (٤) زيادة من أ.

ابن قيس، بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد، لعلنا نفتنه عن دينه ! فأتوه، فقالوا: يا محمد، إنك قد عرفت إنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم، وإنا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة^(١)، فنحاكمهم إليك، فتقضى لنا عليهم، ونؤمن لك^(٢) ونصدقك ! فأبى ذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله، عز وجل، فيهم: ﴿وَأَن أَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنِ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿لَقَوْمٍ يُفْقِنُونَ﴾ رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾: ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهى عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات، التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها^(٣) بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكزخان، الذى وضع لهم اليساق^(٤)، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت فى بنيه شرعاً متبعاً، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ﷺ^(٥)، فلا يحكم سواه^(٦) فى قليل ولا كثير، قال الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أى: يبتغون ويريدون، وعن حكم الله يعدلون. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أى: ومن أعدل من الله فى حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به وأيقن وعلم أنه تعالى أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه^(٧) من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شىء، القادر على كل شىء، العادل فى كل شىء.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا هلال بن فياض، حدثنا أبو عبيدة الناجى^(٨)، قال: سمعت الحسن يقول: من حكم بغير حكم الله، فحكم الجاهلية [هو]^(٩).

وأخبرنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، حدثنا سفيان بن عيينة، عن ابن أبى نجيح قال: كان طاوس إذا سأله رجل: أفضل بين ولدى فى النحل؟ قرأ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون]^(١٠).

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أحمد بن عبد الوهاب بن نجدة الخوطى، حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع، أخبرنا شعيب بن أبى حمزة، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حسين، عن نافع بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أبغض الناس إلى الله، عز وجل ومبتغ فى الإسلام سنة الجاهلية، وطالب دم امرئ بغير حق ليريق دمه». وروى البخارى، عن أبى اليمان بإسناده^(١١)، نحوه^(١٢).

(٣) فى أ: «بما صنعوا».

(٦) فى أ: «سواه».

(٩) زيادة من ر، أ.

(٢) فى أ: «بك».

(٥) زيادة من ر.

(٨) فى د، أ: «الباجى».

(١١) فى ر، أ: «بزيادة».

(١) فى ر: «حكومة».

(٤) فى ر، أ: «اليساق».

(٧) فى د: «بعباده».

(١٠) زيادة من ر، د، أ.

(١٢) المعجم الكبير (٣٧٤/١٠) وصحيح البخارى برقم (٦٨٨٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) ﴿

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى، الذين هم أعداء الإسلام وأهله، قاتلهم الله، ثم أخبر^(١) أن بعضهم أولياء بعض، ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ]^(٢) ﴿

قال^(٣) ابن أبى حاتم: حدثنا كثير بن شهاب، حدثنا محمد - يعنى ابن سعيد بن سابق - حدثنا عمرو بن أبى قيس، عن سَمَأك بن حَرْب، عن عِيَّاض: أن عمر أمر أبا موسى الأشعري أن يرفع إليه ما أخذ وما أعطى فى أديم واحد، وكان له كاتب نصراني، فرفع إليه ذلك، فعجب عمر [رضى الله عنه]^(٤) وقال: إن هذا لحفيظ، هل أنت قارئ لنا كتاباً فى المسجد جاء من الشام؟ فقال: إنه لا يستطيع [أن يدخل المسجد]^(٥)، فقال عمر: أجُنب هو؟ قال: لا، بل نصراني. قال: فانتهرني وضرب فخذى، ثم قال: أخرجوه، ثم قرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ [بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ]^(٦) ﴿

ثم قال الحسن بن محمد بن الصباح: حدثنا عثمان بن عمر، أنبأنا ابن عَوْن، عن محمد بن سيرين قال: قال عبد الله بن عتبة: ليتق أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً، وهو لا يشعر. قال: فظنناه يريد هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ [بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ]^(٧) ﴿ الآية.

وحدثنا^(٨) أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن فضيل، عن عاصم، عن عكرمة، عن ابن عباس: أنه سئل عن ذبائح نصارى العرب، فقال: كُلْ، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾.

وروى عن أبى الزناد، نحو ذلك.

وقوله: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أى: شك، وريب، ونفاق ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ أى: يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم فى الباطن والظاهر، ﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ أى: يتأولون فى مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكفار بالمسلمين، فتكون لهم أياذ عند اليهود والنصارى، فينفعهم ذلك، عند ذلك قال الله تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ قال السدّي: يعنى فتح مكة. وقال غيره: يعنى القضاء والفصل ﴿أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ قال السدّي: يعنى ضرب الجزية على

(١) فى ر: «ثم قال».

(٢) زيادة من أ.

(٣) فى أ: «خبر».

(٤) فى أ: «ثم قال: وحدثنا».

(٥) زيادة من ر، أ.

(٦-٤) زيادة من أ.

اليهود والنصارى ﴿فَيُصْبِحُوا﴾ يعنى: الذين والوا اليهود والنصارى من المنافقين ﴿عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ من الموالاة ﴿نَادِمِينَ﴾ أى: على ما كان منهم، مما لم يُجَدَّ عنهم^(١) شيئاً، ولا دفع عنهم محذوراً، بل كان عين المفسدة، فإنهم فضحوا، وأظهر الله أمرهم فى الدنيا لعباده المؤمنين، بعد أن كانوا مستورين لا يدرى كيف حالهم. فلما انعقدت الأسباب الفاضحة لهم، تبين أمرهم لعباد الله المؤمنين، فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين، ويحلفون على ذلك ويتأولون، فبان كذبهم وافتراؤهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾.

وقد اختلف القراء فى هذا الحرف، فقرأه الجمهور بإثبات الواو فى قوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ﴾ ثم منهم من رفع ﴿وَيَقُولُ﴾ على الابتداء، ومنهم من نصب عطفاً على قوله: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِي بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ تقديره «أن يأتى» «وأن يقول»، وقرأ أهل المدينة: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بغير واو، وكذلك هو فى مصاحفهم على ما ذكره ابن جرير، قال ابن جريج: عن مجاهد: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِي بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ حينئذ ﴿يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾.

واختلف المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات الكريمات، فذكر السدّى أنها نزلت فى رجلين، قال أحدهما لصاحبه بعد وقعة أحد: أما أنا فإننى ذاهب إلى ذلك اليهودى، فأرى إليه وأتهود معه، لعله ينفعنى إذا وقع أمر أو حدث حادث! وقال الآخر: وأما أنا فأذهب إلى فلان النصرانى بالشام، فأوى إليه وأت نصر معه، فأنزل الله [عز وجل]^(٢): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ الآيات.

وقال عكرمة: نزلت فى أبى لُبَابَةَ بن عبد المنذر، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بنى قُرَيْظَةَ، فسأله: ماذا هو صانع بنا؟ فأشار بيده إلى حلقه، أى: إنه الذبح. رواه ابن جرير.

وقيل: نزلت فى عبد الله بن أبى بن سَلُول، كما قال ابن جرير:

حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا ابن إدريس قال: سمعت أبى، عن عطية بن سعد قال: جاء عبادة بن الصامت، من بنى الخزرج، إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لى موالى من يهود كثير عددهم، وإنى أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود، وأتولى الله ورسوله. فقال عبد الله بن أبى: إنى رجل أخاف الدوائر، لا أبرأ من ولاية موالى. فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن أبى: «يا أبا الحُبَاب، ما بَخَلْتُ به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه». قال: قد قبلت! فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ [بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ]﴾^(٣) إلى قوله: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾^(٤).

(٢) زيادة من أ.

(١) فى أ: «عندهم».

(٣) زيادة من ر، أ.

(٤) تفسير الطبرى (١٠/٣٩٥).

ثم قال ابن جرير: حدثنا هناد، حدثنا يونس بن بكير، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن، عن الزهري قال: لما انهزم أهل بدر قال المسلمون لأوليائهم من يهود: آمنوا قبل أن يصيبكم الله بيوم مثل يوم بدر! فقال مالك بن الصيف: أغركم أن أصبتم رهطاً من قريش لا علم لهم بالقتال!! أما لو أمرنا^(١) العزيمة أن نستجمع عليكم، لم يكن لكم يد^(٢) بقتالنا^(٣). فقال عبادة: يا رسول الله، إن أوليائي من اليهود كانت شديدة أنفسهم، كثيراً سلاحهم، شديدة شوكتهم، وإنى أبرأ إلى الله [تعالى]^(٤) وإلى رسوله من ولاية يهود، ولا مولى لى إلا الله ورسوله. فقال عبد الله بن أبي: لكنى لا أبرأ من ولاء يهود^(٥)، أنا رجل لا بد لى منهم. فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا الحباب أرايت الذى نفست به من ولاء^(٦) يهود على عبادة بن الصامت، فهو لك دونه؟» فقال: إذا أقبل! قال: فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ [بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ]﴾^(٧) إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]^(٨).

وقال محمد بن إسحاق: فكانت أول قبيلة من اليهود نقضت ما بينها وبين رسول الله ﷺ بنو قينقاع. فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال: فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه، فقام إليه عبد الله بن أبي بن سلول، حين أمكنه الله منهم، فقال: يا محمد، أحسن فى موالى. وكانوا حلفاء الخزرج، قال: فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، أحسن فى موالى. قال: فأعرض عنه. فادخل يده فى جيب درع رسول الله ﷺ. فقال له رسول الله ﷺ: «أرسلنى». وغضب رسول الله ﷺ حتى رثى لوجهه ظللاً، ثم قال: «ويحك أرسلنى». قال: لا، والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى، أربعمئة حاسر، وثلاثمئة دارع، قد منعونى من الأحمر والأسود، تحصدهم^(٩) فى غداة واحدة؟! إنى امرؤ أخشى الدوائر، قال: فقال رسول الله ﷺ: «هُمُ لَكَ»^(١٠).

قال محمد بن إسحاق: فحدثنى أبى إسحاق بن يسار، عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ، تشبث بأمرهم عبد الله بن أبى، وقام دونهم، ومشى^(١١) عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ، وكان أحد بنى عوف بن الخزرج، له من حلفهم مثل الذى لعبد الله بن أبى، فخلعهم إلى رسول الله ﷺ، وتبرأ إلى الله ورسوله ﷺ من حلفهم، وقال: يا رسول الله، أتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وأتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم. ففيه وفي عبد الله بن أبى نزلت الآيات فى المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ إلى قوله^(١٢): ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]^(١٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبى زائدة، عن محمد بن

- (١) فى ر: «أصررنا» وفى أ: «أمرونا». (٢) فى ر: «يدان». (٣) فى أ: «أن تقاتلونا». (٤) زيادة من أ. (٥) فى أ: «ولاية يهودى». (٦) فى د، أ: «ولاية يهودى». (٧) زيادة من ر، أ. (٨) تفسير الطبرى (١٠/٣٩٦). (٩) فى ر: «تحصدنى»، وفى أ: «ويحصرنى». (١٠) سيرة ابن إسحاق برقم (٤٩٨) ط، المغرب. (١١) فى ر: «مشى». (١٢) فى أ: «الآيات». (١٣) سيرة ابن إسحاق برقم (٤٩٩) ط، المغرب. وانظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/٤٩) وتفسير الطبرى (١٠/٣٩٦، ٣٩٧).

إسحاق، عن الزهري، عن عروة، عن أسامة بن زيد قال: دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله ابن أبي نعوذه، فقال له النبي ﷺ: «قد كنت أنهارك عن حب يهود». فقال عبد الله: فقد أبغضهم أسعد بن زرارة، فمات.

وكذا رواه أبو داود، من حديث محمد بن إسحاق^(١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته، فإن الله يستبدل به من هو خير لها منه^(٢)، وأشد منعة وأقوم سبيلاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠] أى: بممتنع ولا صعب. وقال تعالى هنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ أى: يرجع عن الحق إلى الباطل.

قال محمد بن كعب: نزلت في الولاة من قريش. وقال الحسن البصري: نزلت في أهل الردة أيام أبي بكر.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، قال الحسن: هو والله أبو بكر وأصحابه [رضى الله عنهم]^(٣). رواه ابن أبي حاتم.

وقال أبو بكر بن أبي شيبة: سمعت أبا بكر بن عياش يقول في قوله^(٤): ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾: هم أهل القادسية. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: هم قوم من سبأ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبد الله بن الأجلح، عن محمد بن عمرو، عن سالم، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ قال: ناس من أهل اليمن، ثم من كندة، ثم من السكون.

وحدثنا أبي، حدثنا محمد بن المصفى، حدثنا معاوية - يعنى ابن حفص - عن أبي زياد الحلفاني، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ قال: «هؤلاء قوم من أهل اليمن، ثم من كندة، ثم من السكون، ثم من

(١) المسند (٢٠١/٥) وسنن أبي داود برقم (٣٠٩٤).

(٢) فى أ: «وقال ابن عباس».

(٣) زيادة من أ.

(٤) فى ر: «منهم».

تجيب»^(١).

وهذا حديث غريب جداً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن شبة، حدثنا عبد الصمد - يعني ابن عبد الوارث - حدثنا شعبة، عن سماك، سمعت عياضاً يحدث عن الأشعري قال: لما نزلت: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ قال رسول الله ﷺ: «هم قوم هذا». ورواه ابن جرير من حديث شعبة بنحوه^(٢).

وقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ هذه صفات المؤمنين الكُمَّل أن يكون أحدهم متواضعاً^(٣) لأخيه ووليه، متعزلاً على خصمه وعدوه، كما قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. وفي صفة النبي ﷺ أنه: «الضحك القتال»، فهو ضحك لا وليائه قتال لأعدائه.

وقوله [تعالى]^(٤): ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ أى: لا يرددهم عما هم فيه من طاعة الله، وقتال أعدائه، وإقامة الحدود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يرددهم عن ذلك راد، ولا يصدهم عنه صاد، ولا يحيك فيهم لوم^(٥) لائم، ولا عدل عاذل.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا سلام أبو المنذر، عن محمد بن واسع، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر قال: أمرني^(٦) خليلي ﷺ بسبع، أمرني بحب المساكين والذين منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقى، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت، وأمرني ألا أسأل أحداً شيئاً، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرأى، وأمرني ألا أخاف فى الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهن من كنز تحت العرش^(٧).

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان عن أبي^(٨) المنثى؛ أن أبا ذر قال: بايعنى رسول الله ﷺ خمسا واثقنى سبعا، وأشهد الله على تسعا، أنى لا أخاف فى الله لومة لائم. قال أبو ذر: فدعاني رسول الله ﷺ فقال: «هل لك إلى بيعة ولك الجنة؟» قلت: نعم، قال: وبسطت يدي، فقال النبي ﷺ وهو يشترط: على ألا تسأل الناس شيئاً؟ قلت: نعم، قال: «ولا سوطك وإن

(١) ورواه الطبراني فى المعجم الأوسط برقم (٣٣١٢) «مجمع البحرين» من طريق معاوية بن حفص، عن أبي زياد إسماعيل بن زكريا، عن محمد بن قيس الأسدى، عن محمد بن المنكدر به، وقال: «لم يروه عن محمد بن قيس الأسدى إلا أبو زياد، ولا عنه إلا معاوية. تفرد به أبو حميد، فزاد هنا محمد بن قيس الأسدى».

وذكره ابن أبي حاتم فى العلل (٩٥/٢) ولم يذكر محمد بن قيس فى سنده كما هو هنا فى تفسيره، وقال: سمعت أبى يقول: «هذا حديث باطل».

تنبيه: وقع هنا أبى زياد الحلفانى وفى العلل: الحلقانى، وهو الصواب «الحلقانى» كما فى «الاستغناء فى المشهورين من حملة العلم بالكنى» لابن عبد البر (١١٩٩/٢).

(٢) تفسير الطبرى (٤١٤/١٠) ورواه ابن أبى شيبه فى المصنف (١٢٣/١٢) وابن سعد فى الطبقات (١٠٧/٤) والطبراني فى المعجم الكبير (٣٧١/١٧) وأبو نعيم فى تاريخ أصبهان (٥٩/١) من طريق شعبة به. وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٦/٧): «رجاله رجال الصحيح».

(٤) زيادة من أ.

(٣) فى ر: «لتواضعا».

(٦) فى د: «أخبرنى».

(٥) فى أ: «لومة».

(٧) المسند (١٥٩/٥).

(٨) فى د: «ابن».

سقط منك يعنى^(١) تنزل إليه فتأخذه^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن الحسن، حدثنا جعفر، عن المعلى القُرْدُوسى، عن الحسن، عن أبى سعيد الخدرى^(٣) قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهد، فإنه لا يقرب من أجل، ولا يُباعد من رزق^(٤) أن يقول بحق أو يذكر^(٥) بعظيم». تفرد به أحمد^(٦).

وقال أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن زبيد عن عمرو بن مرة، عن أبى البختري، عن أبى سعيد الخدرى^(٧) قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمراً لله فيه مقال، فلا يقول فيه، فيقال له يوم القيامة: ما منعك أن تكون قلت فى كذا وكذا؟ فيقول: مخافة الناس. فيقول: إياى أحق أن تخاف». ورواه ابن ماجه من حديث الأعمش، عن عمرو بن مرة، به^(٨).

وروى أحمد وابن ماجه، من حديث عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى طوالة^(٩)، عن نهار بن عبد الله العبدى المدنى، عن أبى سعيد الخدرى^(١٠)، عن النبى ﷺ قال: «إن الله ليسأل العبد يوم القيامة، حتى إنه ليسأله يقول له: أى عبدى، رأيت منكراً فلم تنكره؟ فإذا لقن الله عبداً حجته، قال: أى رب، وثقت بك وخفت الناس^(١١)».

وثبت فى الصحيح: «ما ينبغي لمؤمن أن يذل نفسه»، قالوا: وكيف يذل نفسه يا رسول الله؟ قال: «يتحمل من البلاء ما لا يطيق^(١٢)».

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أى: من اتصف بهذه الصفات، فإنما هو من فضل الله عليه، وتوفيقه له، ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أى: واسع الفضل، عليم بمن يستحق ذلك ممن يحرمه إياه.

وقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: ليس اليهود بأوليائكم، بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين.

(١) فى أ: «حتى».

(٢) المسند (١٧٢/٥).

(٣) فى د: عن أبى سعيد مرفوعاً. (٤) فى ر: لا يباعد من أجل ولا يقرب من رزق. (٥) فى أ: وأن يذكره.

(٦) المسند (٥٠/٣).

(٧) فى ر: عن أبى سعيد مرفوعاً.

(٨) المسند (٧٣/٣) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٠٨)، وقال البوصيرى فى الزوائد (٢٤٢/٣): «هذا إسناد صحيح».

(٩) فى أ: «عبد الرحمن بن أبى طوالة». (١٠) فى ر: عن أبى سعيد مرفوعاً.

(١١) المسند (٧٧/٣) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠١٧) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢٤٤/٣): «هذا إسناد صحيح».

(١٢) لم أجده أثناء البحث فى الصحيحين ولعلنى أُنْداركه فيما بعد. وقد رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٢٥٤) وابن ماجه فى السنن برقم (٤٠١٦) من طريق على بن زيد بن جدعان، عن الحسن عن، جندب، عن حذيفة بن اليمان، رضى الله عنه به، وقال الترمذى: «حديث حسن غريب». وفى إسناده على بن زيد بن جدعان ضعيف.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^(١) أى: المؤمنون المتصفون بهذه الصفات، من إقام الصلاة التى هى أكبر أركان الإسلام، وهى له وحده^(٢) لا شريك له، وإيتاء الزكاة التى هى حق المخلوقين ومساعدة للمحتاجين من الضعفاء والمساكين.

وأما قوله: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾: فقد توهم بعضهم أن هذه الجملة فى موضع الحال من قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أى: فى حال ركوعهم، ولو كان هذا كذلك، لكان دفع الزكاة فى حال الركوع أفضل من غيره؛ لأنه ممدوح، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى، وحتى إن بعضهم ذكر فى هذا أثراً عن على بن أبى طالب: أن هذه الآية نزلت فيه: [ذلك]^(٣) أنه مر به سائل فى حال ركوعه، فأعطاه خاتمه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الربيع بن سليمان المرادى، حدثنا أيوب بن سويد، عن عتبة بن أبى حكيم فى قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال: هم المؤمنون وعلى بن أبى طالب^(٤).

وحدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا الفضل بن دكين أبو نعيم الأحول، حدثنا موسى بن قيس الحضرمي، عن سلمة بن كهيل قال: تصدق على بخاتمه وهو راکع، فنزلت: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.

وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا غالب بن عبيد الله، سمعت مجاهداً يقول فى قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ الآية: نزلت فى على بن أبى طالب، تصدق وهو راکع^(٥).

وقال عبد الرزاق: حدثنا عبد الوهاب بن مجاهد، عن أبيه، عن ابن عباس فى قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ الآية: نزلت فى على بن أبى طالب.

عبد الوهاب بن مجاهد لا يحتج به.

وروى ابن مردويه، من طريق سفيان الثوري، عن أبى سنان، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: كان على بن أبى طالب قائماً يصلى، فمر سائل وهو راکع، فأعطاه خاتمه، فنزلت: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ الآية.

الضحاك لم يلق ابن عباس.

وروى ابن مردويه أيضاً من طريق محمد بن السائب الكلبي - وهو متروك - عن أبى صالح، عن ابن عباس قال: خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد، والناس يصلون، بين راکع وساجد وقائم وقاعد، وإذا مسكين يسأل، فدخل رسول الله ﷺ فقال: «أعطاك أحد شيئاً؟» قال: نعم. قال: «من؟» قال: ذلك^(٦) الرجل القائم. قال: «على أى حال أعطاك؟» قال: وهو راکع، قال: «وذلك على بن أبى طالب». قال: فكبر رسول الله ﷺ عند ذلك، وهو يقول: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ

(٣) زيادة من أ.

(٢) فى ر، أ: «وهى عبادة الله وحده».

(١) زيادة من د.

(٤) ورواه الطبري فى تفسيره (٤٢٦/١٠) من طريق إسماعيل الرملی، عن أيوب بن سويد به.

(٥) تفسير الطبري (٤٢٦/١٠).

(٦) فى ر: «ذاك».

حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٧﴾ .

وهذا إسناد لا يفرح به .

ثم رواه ابن مردويه، من حديث علي بن أبي طالب، رضى الله عنه، نفسه، وعمار بن ياسر، وأبى رافع . وليس يصح شيء منها بالكلية، لضعف أسانيدھا وجهالة رجالھا . ثم روى بسنده، عن ميمون بن مهران، عن ابن عباس فى قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾: نزلت فى المؤمنين، وعلى ابن أبى طالب أولھم .

وقال ابن جرير: حدثنا هناد، حدثنا عبدة، عن عبد الملك، عن أبى جعفر قال: سألته عن هذه [الآية] ^(١): ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ قلنا: من الذين آمنوا؟ قال: الذين آمنوا! قلنا: بلغنا أنها نزلت فى على بن أبى طالب! قال: على من الذين آمنوا .

وقال أسباط، عن السدّى: نزلت هذه الآية فى جميع المؤمنين، ولكن على بن أبى طالب مر به سائل وهو راكع فى المسجد، فأعطاه خاتمه .

وقال على بن أبى طلحة الوالى، عن ابن عباس: من أسلم فقد تولى الله ورسوله والذين آمنوا . رواه ابن جرير .

وقد تقدم فى الأحاديث التى أوردنا ^(٢) أن هذه الآيات كلها نزلت فى عبادة بن الصامت، رضى الله عنه، حين تبرأ من حلف يهود، ورضى بولاية الله ورسوله والمؤمنين؛ ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ . لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢١، ٢٢] .

فكل من رضى بولاية ^(٣) الله ورسوله والمؤمنين فهو مفلح فى الدنيا والآخرة [ومنصور فى الدنيا والآخرة] ^(٤)؛ ولهذا قال [الله] ^(٥) تعالى فى هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (٥٨)﴾ .

(٢) فى ر، أ: «أوردناها» .

(٤، ٥) زيادة من أ .

(١) زيادة من أ .

(٣) فى أ: «بمولات» .

وهذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله، من الكتابيين والمشركون، الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون، وهي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير دنيوى وأخروى، يتخذونها ﴿هَزُواً وَلَعِباً﴾ يستهزئون^(١) بها، ﴿وَلَعِباً﴾ يعتقدون أنها نوع من اللعب فى نظرهم الفاسد، وفكرهم البارد، كما قال القائل^(٢):

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا وَافَتْهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

وقوله: ﴿مَنْ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارُ﴾ «من» ههنا لبيان الجنس، كقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]، وقرأ بعضهم ﴿وَالْكَفَّارُ﴾ بالخفض عطفاً، وقرأ آخرون بالنصب على أنه معمول ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ تقديره: ولا الكفار أولياء، أى: لا تتخذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياء.

والمراد بالكفار ههنا المشركون، وكذلك وقع فى قراءة ابن مسعود، فيما رواه ابن جرير: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى: اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بشرع الله الذى اتخذه هؤلاء هُزُواً وَلَعِباً، كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقوله [تعالى]^(٣): ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً﴾ أى: وكذلك إذا أذنتم داعين إلى الصلاة التى هي أفضل الأعمال لمن يعقل ويعلم من ذوى الألباب ﴿اتَّخَذُوهَا﴾ أيضاً ﴿هُزُواً وَلَعِباً﴾ ذلك بأنهم قومٌ لا يعقلون ﴿مَعَانِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَشَرَائِعِهِ، وهذه صفات أتباع الشيطان الذى «إذا سمع الأذان أدبر وله حُصَّاصٌ، أى: ضراط، حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضى التأذين أقبل، فإذا ثُوبٌ بالصلاة أدبر، فإذا قضى الثوب أقبل حتى يخطر بين المرء وقلبه، فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا، لما لم يكن يذكر، حتى يظل الرجل إن يدرى^(٤) كم صلى، فإذا وجد أحدكم ذلك، فليسجد سجدة قبل السلام». متفق عليه.

وقال الزهرى: قد ذكر الله [تعالى]^(٥) التأذين فى كتابه فقال: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾. رواه ابن أبى حاتم.

وقال أسباط، عن السدى، فى قوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً﴾ قال: كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المنادى ينادى: «أشهد أن محمداً رسول الله» قال: حرق الكاذب! فدخلت خادمة^(٦) ليلة من الليالى بنار وهو نائم وأهله نيام، فسقطت شرارة فأحرق البيت، فاحترق هو وأهله. رواه ابن جرير وابن أبى حاتم.

وذكر محمد بن إسحاق بن يسار فى السيرة: أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة عام الفتح، ومعه

(٢) هو «أبو الطيب المتنبي» كما فى حاشية طبعة الشعب.

(٤) فى أ: «لم يدر».

(٦) فى أ: «فدخل خادمه».

(١) فى أ: «مستهزئون».

(٣) زيادة من أ.

(٥) زيادة من أ.

بلال، فأمره أن يؤذن، وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فقال عتاب بن أسيد: لقد أكرم الله أسيداً ألا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه. وقال الحارث ابن هشام: أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته. فقال أبو سفيان: لا أقول شيئاً، لو تكلمت لأخبرت عنى هذا الحصى. فخرج عليهم النبي ﷺ فقال: «قد علمت الذى قلت»، ثم ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، [والله]^(١) ما اطلع على هذا أحد كان معنا، فنقول أخبرك^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا رَوْح بن عباد، حدثنا ابن جُرَيْج، أخبرنا عبد العزيز بن عبد الملك بن أبي محذورة؛ أن عبد الله بن مُحَيْرِيز أخبره - وكان يتيماً فى حجر أبي محذورة - قال: قلت لأبى محذورة: يا عم، إني خارج إلى الشام، وأخشى أن أسأل عن تأذيتك. فأخبرني أن أبا محذورة قال له: نعم خرجت فى نفر، وكنا^(٣) ببعض طريق حنين، مقفل^(٤) رسول الله ﷺ من حنين، فلقينا رسول الله ﷺ ببعض الطريق، فأذن مؤذن رسول الله ﷺ بالصلاة عند رسول الله ﷺ، فسمعنا صوت المؤذن ونحن متنكبون^(٥)، فصرخنا نحكيه ونستهزئ به، فسمع رسول الله ﷺ الصوت، فأرسل إلينا إلى أن وقفنا بين يديه، فقال رسول الله ﷺ: «أيكم الذى سمعتُ صوته قد ارتفع؟» فأشار القوم كلهم إلىّ، وصدقوا، فأرسل كلّهم وحسنى. وقال^(٦): «قم فأذن بالصلاة». فقمت ولا شيء أكره إلى من رسول الله ﷺ، ولا مما يأمرنى به، فقمت بين يدى رسول الله ﷺ، فألقى على رسول الله ﷺ التأذين هو بنفسه، قال: «قل: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله»، ثم قال لى: «ارجع فامد من صوتك». ثم قال: «أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حى على الصلاة، حى على الصلاة، حى على الفلاح، حى على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله». ثم دعانى حين قضيت التأذين، فأعطانى صرة فيها شيء من فضة، ثم وضع يده على ناصية أبى محذورة، ثم أمرها على وجهه، ثم بين ثدييه^(٧)، ثم على كبده حتى بلغت يد رسول الله ﷺ سرّة أبى محذورة، ثم قال رسول الله ﷺ: «بارك الله فيك وبارك عليك». فقلت: يا رسول الله، مُرْنى بالتأذين بمكة. فقال: «قد أمرتك به». وذهب كل شيء كان لرسول الله ﷺ من كراهة، وعاد ذلك كله محبة لرسول الله ﷺ. فقدمت على عتاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ بمكة فأذنت معه بالصلاة عن أمر رسول الله ﷺ، وأخبرنى ذلك من أدركت من أهلى ممن أدرك أبا محذورة، على نحو ما أخبرنى عبد الله بن محيريز.

هكذا رواه الإمام أحمد، وقد أخرجه مسلم فى صحيحه، وأهل السنن الأربعة من طريق^(٨)، عن عبد بن الله مُحَيْرِيز، عن أبى محذورة^(٩) - واسمه: سَمْرَةُ بن مَعِيَر بن لُوْذَانَ - أحد مؤذنى رسول الله

(١) زيادة من أ. (٢) السيرة النبوية لابن هشام (٤١٣/٢).

(٣) فى ر: «فكنا». (٤) فى أ: «فقفل».

(٦) فى أ: «فقال». (٧) فى أ: «يديه».

(٩) المسند (٤٠٨/٣) وصحيح مسلم برقم (٣٧٩) وسنن أبى داود (٥٠٢) وسنن الترمذى برقم (١٩١) وسنن النسائى (٤/٢) وسنن ابن ماجه برقم (٧٠٨).

الرابعة، وهو مؤذن أهل مكة، وامتدت أيامه، رضى الله عنه وأرضاه.

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُونَ مَنْ آتَاكُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٥٩) قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠) وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣) ﴿

يقول تعالى: قل يا محمد، لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم^(١) هزواً ولعباً من أهل الكتاب: ﴿هَلْ تَتَّقُونَ مَنْ آتَاكُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾ أى: هل لكم علينا مطعن أو عيب إلا هذا؟ وهذا ليس بعيب ولا مذمة، فيكون الاستثناء منقطعاً^(٢)، كما فى قوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]، وكقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٧٤]. وفى الحديث المتفق عليه: «ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيراً فأغناه الله»^(٣).

وقوله: ﴿وَأَنْ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ معطوف على ﴿أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾ أى: وآمنا بأن أكثركم فاسقون، أى: خارجون عن الطريق المستقيم.

ثم قال: ﴿قُلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ أى: هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونونه بنا؟ وهم أنتم الذين هم متصفون بهذه الصفات القصيرة، فقوله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أى: أبعدته من رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾، أى: غضباً لا يرضى بعده أبداً، ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾، كما تقدم بيانه فى سورة البقرة. وكما سيأتى إيضاحه فى سورة الأعراف [إن شاء الله تعالى]^(٤).

وقد قال سفيان الثوري: عن علقمة بن مرثد، عن المغيرة بن عبد الله، عن المعمر بن سويد، عن ابن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير، أهى مما مسخ الله [تعالى]^(٥)؟ فقال^(٦): «إن الله لم يهلك قوماً - أو قال: لم يمسح قوماً - فيجعل لهم نسلًا ولا عقباً^(٧)، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك».

(١) فى ر: «دينهم».

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٤٦٨) ورواه مسلم فى صحيحه برقم (٩٨٣) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

(٣) زيادة من أ.

(٤) زيادة من أ.

(٥) فى ر: «قال».

وقد رواه مسلم من حديث سفيان الثوري ومِسْعَر كلاهما، عن مُغِيرَةَ بن عبد الله الشكري، به^(١).

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا داود بن أبي الفرات، عن محمد بن زيد، عن أبي الأعين العبدى، عن أبي الأحوص، عن ابن مسعود قال: سألنا رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير، أهى من نسل اليهود؟ فقال: «لا، إن الله لم يلعن قوماً^(٢) فيمسخهم^(٣) فكان لهم نسل، ولكن هذا خلق كان، فلما غضب الله على اليهود فمسخهم، جعلهم^(٤) مثلهم».

ورواه أحمد من حديث داود بن أبي الفرات، به^(٥).

وقال ابن مردويه: حدثنا عبد الباقي، حدثنا أحمد بن صالح^(٦)، حدثنا الحسن بن محبوب، حدثنا عبد العزيز بن المختار، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الحيات مسخ الجن، كما مسخت القردة والخنازير». هذا حديث غريب جداً^(٧).

وقوله: «وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ»، وقرئ: «وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ» على أنه فعل ماضٍ، «والطاغوت» منصوب به، أى: وجعل منهم من عبد الطاغوت. وقرئ: «وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ» بالإضافة على أن المعنى: وجعل منهم خدام الطاغوت، أى: خدامه وعبده. وقرئ: «وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ» على أنه جمع الجمع: عبد وعبيد وعبُد، مثل ثمار وثمر. حكاه ابن جرير عن الأعمش. وحكى عن بُرَيْدَةَ الأسلمى أنه كان يقرؤها: «وعابد الطاغوت»، وعن أبي، وابن مسعود: «وعبدوا»، وحكى ابن جرير عن أبي جعفر القارئ أنه كان يقرؤها: «وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ» على أنه مفعول ما لم يسم فاعله، ثم استبعد معناها. والظاهر^(٨) أنه لا بعد في ذلك؛ لأن هذا من باب التعريض بهم، أى: وقد عبدت الطاغوت فيكم، وكنتم أنتم الذين تعاطوا ذلك.

وكل هذه القراءات يرجع معناها إلى أنكم يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا، والذى^(٩) هو توحيد الله وإفراده بالعبادة دون [ما]^(١٠) سواء، كيف يصدر منكم هذا وأنتم قد وجد منكم^(١١) جميع ما ذكر؟ ولهذا قال: «أَوَّلَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا» أى: مما تظنون بنا «وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ».

(١) صحيح مسلم برقم (٢٦٦٣).

(٢) فى ر، أ: «فمسخهم». (٣) فى ر، أ: «فمسخهم». (٤) فى أ: «فجعلهم».

(٥) فى ر، أ: «قوماً قط».

(٦) مسند الطيالسي برقم (٣٠٧) ومسند أحمد (٣٩٥/١) وفى إسناده محمد بن زيد الكندى وهو مجهول، وأبو الأعين العبدى ضعيف.

(٧) فى أ: «حدثنا أحمد بن إسحاق بن صالح».

(٨) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (١٠٨٠) «موارد» والطبرانى فى المعجم الكبير (٣٤١/١١) والبزار فى مسنده برقم (١٢٣٢) «كشف الاستار» وابن أبى حاتم فى العلل (٢٩٠/٢) من طرق عن عبد العزيز بن المختار به.

وقال ابن أبى حاتم: سمعت أبا زرعة يقول: «هذا الحديث هو موقف لا يرفعه إلا عبد العزيز بن المختار ولا بأس فى حديثه». ولم يبين لى وجه غرابته عند الحافظ ابن كثير إلا أن يكون قصد أن عبد العزيز بن المختار قد خالفه فيه معمر، فرواه عن أيوب عن عكرمة به موقوفاً.

رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣٤١/١١). فهذا بعيد وهو محتمل، وقد صحح هذا الحديث الحافظ المقدسى فى المختارة، كما فى السلسلة الصحيحة للشيخ ناصر الألبانى (٤٣٩/٤).

(٩) فى ر: «الذى». (١٠) زيادة من ر، أ.

(١١) فى أ: «فيكم».

وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل فيما ليس فى الطرف الآخر مشاركة، كقوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ وهذه صفة المنافقين منهم، إنهم يصانعون المؤمنين فى الظاهر وقلوبهم منطوية على الكفر؛ ولهذا قال: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾^(١) أى^(٢): عندك يا محمد ﴿بِالْكَفْرِ﴾ أى: مستصحبين الكفر فى قلوبهم، ثم خرجوا وهو كامن فيها، لم ينتفعوا بما قد سمعوا منك من العلم، ولا نجعت فيهم المواعظ ولا الزواجر؛ ولهذا قال: ﴿وَهُمْ قَدْ﴾^(٣) خَرَجُوا بِهِ﴾ فخصهم به دون غيرهم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ أى: والله عالم بسرائرهم وما تنطوى عليهم ضمائرهم^(٤)، وإن أظهروا لخلقه خلاف ذلك، وتزينا بما ليس فيهم، فإن الله عالم الغيب والشهادة أعلم بهم منهم، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء.

وقوله: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ أى: يبادرون إلى ذلك من تعاطى المأثم والمحارم والاعتداء على الناس، وأكل أموالهم بالباطل ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: لبس^(٥) العمل كان عملهم وبشس الاعتداء اعتداؤهم^(٦).

وقوله: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ يعنى: هلا كان ينهاهم الربانيون والأخبار عن تعاطى ذلك. والربانيون وهم: العلماء العمال أرباب الولايات عليهم، والأخبار: وهم العلماء فقط.

﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾: وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى الربانيين، أنهم: بشس ما كانوا يصنعون. يعنى: فى تركهم ذلك.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال لهؤلاء حين لم ينهوا، ولهؤلاء حين عملوا. قال: وذلك الأركان. قال: «ويعملون» و«يصنعون» واحد. رواه ابن أبى حاتم.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن عطية، حدثنا قيس، عن العلاء بن المسيب، عن خالد بن دينار عن ابن عباس قال: ما فى القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ قال: كذا قرأ.

وكذا قال الضحاك: ما فى القرآن آية أخوف عندى منها: أنا لا نهى. رواه ابن جرير.

وقال ابن أبى حاتم: ذكره^(٧) يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا محمد بن مسلم بن أبى الوضاح، حدثنا ثابت بن سعيد الهمداني، قال: رأيت^(٨) بالرّى فحدث عن يحيى بن يعمر قال: خطب على بن أبى طالب فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنما هلك من كان^(٩) قبلكم

(٣) زيادة من ر، أ، وهو الصواب.

(٦) فى ر، أ: «وبشس الاعتماد اعتمادهم».

(٩) فى ر: «إنما هلك من هلك».

(٢) فى ر، أ: «إلى».

(٥) فى ر: «أى بشس».

(٨) فى ر، أ: «لقيته».

(١) زيادة من أ.

(٤) فى ر: «ضمائرهم».

(٧) فى أ: «يذكر».

بركوبهم المعاصي، ولم ينههم الربانيون والأخبار، فلما تبادوا في المعاصي ولم ينههم الربانيون والأخبار أخذتهم العقوبات. فَمَرُّوا بِالْمَعْرُوفِ وَاِنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقاً ولا يقرب أجلاً.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا شريك، عن أبي إسحاق، عن المنذر بن جرير، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصي هم أعز منه وأمنع، لم يغيروا، إلا أصابهم الله منه بعذاب». تفرد به أحمد من هذا الوجه^(١).

ورواه أبو داود، عن مسدد، عن أبي الأحوص، عن أبي إسحاق، عن المنذر بن جرير، عن جرير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي، يقدر أن يغيروا عليه، فلا يغيروا إلا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا»^(٢).

وقد رواه ابن ماجه عن علي بن محمد، عن وكيع، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبيد الله^(٣) بن جرير، عن أبيه، به^(٤).

قال الحافظ المزي: وهكذا رواه شعبة، عن أبي إسحاق، به^(٥).

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سِيَئَاتِهِمْ وَلَادْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

يخبر تعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله المتابعة^(٦) - إلى يوم القيامة - بأنهم وصفوا الله، عز وجل وتعالى عن قولهم علواً كبيراً، بأنه بخيل. كما وصفوه بأنه فقير وهم أغنياء، وعبروا عن البخل

(١) المسند (٣٦٣/٤) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٣٣١/٢) من طريق يزيد بن هارون به.

(٢) سنن أبي داود برقم (٤٣٣٩) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٣٣٢/٢) من طريق مسدد، عن أبي الأحوص به.

(٣) في أ: «عبد الله».

(٤) سنن ابن ماجه برقم (٤٠٠٩).

(٥) تحفة الأشراف (٤٢٦/٢) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٣٣١/٢) فقال: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا محمد

ابن جعفر، حدثنا شعبة، فذكره.

(٦) في أ: «التابعة».

بقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الطهراني، حدثنا حفص بن عمر العدني، حدثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة قال: قال ابن عباس: ﴿مَغْلُولَةٌ﴾ أى: بخيلة.

وقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ قال: لا يعنون بذلك أن يد الله موثقة^(١)، ولكن يقولون: بخيل أمسك ما عنده، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وكذا روى عن عكرمة، وقتادة، والسدي، ومجاهد، والضحاك وقرأ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩] يعنى: أنه ينهى^(٢) عن البخل وعن التبذير، وهو الزيادة فى الإنفاق فى غير محله، وعبر عن البخل بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾.

وهذا هو الذى أراد هؤلاء اليهود عليهم لعائن الله. وقد قال عكرمة: إنها نزلت فى فنخاص اليهودى، عليه لعنة الله. وقد تقدم أنه الذى قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] فضربه أبو بكر الصديق، رضى الله عنه.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رجل من اليهود، يقال له: شاس^(٣) بن قيس: إن ربك بخيل لا ينفق، فأنزل الله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾.

وقد رد الله، عز وجل، عليهم ما قالوه، وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه واثفكوه، فقال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾. وهكذا^(٤) وقع لهم، فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة^(٥) أمر عظيم، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا . أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ [فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا . فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا]﴾ [النساء: ٥٣ - ٥٥]، وقال تعالى: ﴿ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ [أَيَّنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِجَلٍّ مِّنَ اللَّهِ وَحِيلَ مِّنَ النَّاسِ]﴾^(٦) الآية [آل عمران: ١١٢].

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أى: بل هو الواسع الفضل، الجزيل العطاء، الذى ما من شىء إلا عنده خزائنه، وهو الذى ما بخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له، الذى خلق لنا كل شىء مما نحتاج إليه، فى ليلنا ونهارنا، وحضرنا وسفرنا، وفى جميع أحوالنا، كما قال [تعالى]^(٨): ﴿وَأَتَاكُمْ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ الآية [إبراهيم: ٣٤]. والآيات فى هذا كثيرة، وقد قال الإمام أحمد بن حنبل:

(٣) فى أ: «النباس».

(٦) زيادة من ر، أ.

(٢) فى أ: «نهى».

(٥) فى أ: «الذلة».

(٨) زيادة من ر.

(١) فى ر: «منفقة».

(٤) فى أ: «هكذا».

(٧) زيادة من ر، أ.

حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام ابن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن يمين الله ملاءى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغيض ما فى يمينه» قال: «وعرشه على الماء، وفى يده الأخرى القبض، يرفع ويخفض» قال: قال الله تعالى: «أنفق أنفق عليك» أخرجاه فى الصحيحين، البخارى فى «التوحيد» عن على بن المدينى، ومسلم فيه، عن محمد بن رافع، وكلاهما ^(١) عن عبد الرزاق، به ^(٢).

وقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أى: يكون ما آتاك الله يا محمد من النعمة نقمة فى حق أعدائك من اليهود وأشباههم، فكما يزداد به المؤمنون تصديقاً وعملاً صالحاً وعلماً نافعاً، يزداد به الكفرة الحاسدون لك ولأمتك ﴿طُغْيَانًا﴾ وهو: المبالغة والمجازة للحد فى الأشياء ﴿وَكُفْرًا﴾ أى: تكديبا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خُسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعنى: أنه لا تجتمع قلوبهم، بل العداوة واقعة بين فرقتهم بعضهم فى بعض دائماً؛ لأنهم لا يجتمعون على حق، وقد خالفوك وكذبوك.

وقال إبراهيم النخعى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ قال: الخصومات والجدال فى الدين. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ أى: كلما عقدوا أسباباً يكيدونك بها، وكلما أبرموا أموراً يحاربونك بها يبطلها الله ويرد كيدهم عليهم، ويحقيق مكرهم السيئ بهم.

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ أى: من سجيتهم أنهم دائماً يسعون فى الإفساد فى الأرض، والله لا يحب من هذه صفته.

ثم قال جل وعلا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أى: لو أنهم آمنوا بالله ورسوله، واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المحارم والمآثم ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ أى: لأزلنا عنهم المحذور ولحصلناهم ^(٣) المقصود.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ قال ابن عباس، وغيره: يعنى القرآن. ﴿لَا كُلُّوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أى: لو أنهم عملوا بما فى الكتب التى بأيديهم عن الأنبياء، على ما هى عليه، من غير تحريف ولا تغيير ولا تبديل، لفادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى

(١) فى ر، أ: «كلاهما».

(٢) المسند (٣١٣/٢) وصحيح البخارى برقم (٧٤١٩) وصحيح مسلم برقم (٩٩٣).

(٣) فى ر، أ: «ولحصلنا لهم».

ما بعث الله به محمداً ﷺ؛ فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتماً لا محالة.

وقوله: ﴿لَا تَكُلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يعني ذلك^(١): كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والناصب لهم من الأرض.

وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿لَا تَكُلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ يعني: لأرسل [السماء]^(٢) عليهم مدراراً، ﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يعني: يخرج من الأرض بركاتهما.

وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبیر، وقتادة، والسدي، كما قال [تعالى]^(٣): ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٤) [الأعراف: ٩٦]، وقال: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٥) [الروم: ٤١].

وقال بعضهم: معناه ﴿لَا تَكُلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يعني: من غير كد ولا تعب ولا شقاء ولا عناء.

وقال ابن جرير: قال بعضهم: معناه: لكانوا في^(٦) الخير، كما يقول القائل: «هو في الخير من قرنه^(٧) إلى قدمه». ثم رد هذا القول لمخالفته أقوال السلف^(٨).

وقد ذكر ابن أبي حاتم، عند قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ حديث^(٩) علقمة، عن صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جبیر بن نفير، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يرفع العلم». فقال زياد بن ليبيد: يا رسول الله، وكيف يرفع العلم وقد قرأنا القرآن وعلمناه أبناءنا؟! قال^(١٠): «ثكلتك أمك يا ابن ليبيد! إن كنت لأراك^(١١) من أفقه أهل المدينة، أو ليست^(١٢) التوراة والإنجيل بأيدي اليهود والنصارى، فما أغنى عنهم حين تركوا أمر الله» ثم قرأ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾.

هكذا أورده^(١٣) ابن أبي حاتم حديثاً^(١٤) معلقاً^(١٥) من أول إسناده، مرسلًا في آخره. وقد رواه الإمام أحمد بن حنبل متصلاً موصولاً، فقال:

(١) في ر، أ: «يعني بذلك».

(٢) زيادة من أ.

(٣) زيادة من ر، أ.

(٤، ٥) زيادة من ر، أ، وفي هـ: «الآية».

(٦) في أ: «إلى».

(٧) في أ: «فوقه».

(٨) «قائل هذه المقالة الفراء في كتاب معاني القرآن (٣١٥/١)». هـ مستفاداً من حاشية تفسير الطبري وقد ذكرها الطبري في تفسيره (٤٦٤/١٠).

(٩) في ر، أ: «حدثنا».

(١٠) في أ: «فقال».

(١١) في أ: «لأرى».

(١٢) في أ: «وليست».

(١٣) في ر: «رواه»، وفي أ: «أورد».

(١٤) في أ: «هذا الحديث».

(١٥) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٤٣/١٨) والبخاري في مسنده برقم (٢٣٢) «كشف الاستار» من وجه آخر: من طريق إبراهيم بن أبي عبلة، عن الوليد بن عبد الرحمن، عن جبیر بن نفير، عن عوف بن مالك بنحوه.

حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد، عن زياد بن لبيد قال: ذكر النبي ﷺ شيئاً فقال: «وذاك عند^(١) ذهاب العلم». قال: قلنا: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونُقرئه أبناءنا، ويُقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟ قال: «ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا يتفهمون مما فيهما بشيء».

وكذا رواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع بإسناده نحوه^(٢). وهذا إسناد صحيح.

قوله: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وكقوله عن أتباع عيسى: ﴿فَأَتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾^(٣) [الحديد: ٢٧]. فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد، وهو^(٤) أوسط مقامات هذه الأمة، وفوق ذلك رتبة السابقين^(٥)، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ. جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا﴾ الآية [فاطر: ٣٢، ٣٣]. والصحيح أن الأقسام الثلاثة من هذه الأمة يدخلون الجنة.

وقد قال أبو بكر بن مردويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا أحمد بن يونس الضبي، حدثنا عاصم بن علي، حدثنا أبو معشر، عن يعقوب بن زيد بن طلحة، عن يزيد بن أسلم، عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «تفرقت أمة موسى على إحدى^(٦) وسبعين ملة، سبعون منها في النار وواحدة في الجنة، وتفرقت أمة عيسى على ثنتين وسبعين ملة، واحدة منها في الجنة وإحدى وسبعون منها في النار، وتعلو أمتي على الفريقين جميعاً. واحدة في الجنة، وثلثان وسبعون في النار». قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «الجماعات الجماعات».

قال يعقوب بن يزيد^(٧): كان علي بن أبي طالب إذا حدث هذا الحديث عن رسول الله ﷺ، تلا فيه قرآناً: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾، وتلا أيضاً: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١] يعني: أمة محمد ﷺ^(٨).

وهذا حديث غريب جداً من هذا الوجه وبهذا السياق. وحديث افتراق الأمم إلى بضع وسبعين

(١) في أ: «عن».

(٢) المسند (٤/ ١٦٠) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٤٨) وقال البوصيري في الزوائد (٣/ ٢٥٣): «رجال إسناده ثقات إلا أنه منقطع، قال البخاري في التاريخ الصغير: «لم يسمع سالم بن أبي الجعد من زياد بن لبيد».

(٣) زيادة من ر، أ. (٤) في ر: «وهي».

(٥) في ر: «السابقة».

(٦) في د: «على اثنتين»، وفي أ: «على أحد». (٧) في أ: «زيد».

(٨) ورواه أبو يعلى في مسنده (٦/ ٣٤٠) من طريق أبي معشر، عن يعقوب بن زيد به من حديث طويل. وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٥٧): «فيه أبو معشر نحيج وهو ضعيف».

مَرُوى من طرق عديدة، وقد ذكرناه فى موضع آخر. والله الحمد والمنة.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٦٧).

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ باسم الرسالة، وأمرأ له بالإبلاغ بجميع ما أرسله الله به، وقد امتثل صلوات الله وسلامه عليه ذلك، وقام به أتم القيام.

قال البخارى عند تفسير هذه الآية: حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن إسماعيل، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة قالت: من حَدَّثَكَ أن محمداً ﷺ [١] كتم شيئاً مما أنزل عليه (٢) فقد كذب، الله (٣) يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية.

هكذا رواه ههنا مختصراً، وقد أخرج فى مواضع من صحيحه مطولاً. وكذا رواه مسلم فى «كتاب الإيمان»، والترمذى والنسائى فى «كتابى التفسير» من سنتهما من طرق، عن عامر الشعبي، عن مسروق بن الأجدع، عنها رضى الله عنها (٤).

وفى الصحيحين عنها أيضاً (٥) أنها قالت: لو كان محمد ﷺ كاتماً من القرآن شيئاً لكتم هذه الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] (٦).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادى، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد، عن (٧) هارون بن عنترة، عن أبيه قال: كنت عند ابن عباس، فجاء (٨) رجل فقال له: إن ناساً يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئاً لم يیده رسولُ الله ﷺ للناس. فقال: ألم تعلم أن الله تعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، والله ما ورثنا رسول الله ﷺ سوداء فى بيضاء.

وهذا إسناد جيد، وهكذا فى صحيح البخارى من رواية أبى جُحَيْفَةَ وَهْب بن عبد الله السَّوَّائى قال: قلت لعلى بن أبى طالب، رضى الله عنه: هل عندكم شىء من الوحي مما ليس فى القرآن؟ فقال: لا، والذي (٩) فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهِمًا يعطيه الله رجلاً فى القرآن، وما فى هذه الصحيفة. قلت: وما فى هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكّاك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر (١٠).

(١) زيادة من أ. (٢) فى د: «ما أنزله الله عليه». (٣) فى هـ، ر: «الله وهو» والمثبت من البخارى. (٤) صحيح البخارى برقم (٤٦١٢) وبرقم (٤٨٥٥، ٧٣٨٠) وصحيح مسلم برقم (١٧٧) وسنن الترمذى برقم (٣٠٦٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١١٤٧). (٥) فى ر، أ: «أيضاً عنها». (٦) صحيح البخارى برقم (٧٤٢٠) لكنه رواه من حديث أنس، وقد تبع المؤلف هنا شيخه المزى حيث ذكره فى تحفة الأشراف (٣٨٥/١١) من حديث أنس عن عائشة، ولعله اعتمد على رواية الداودى كما ذكر الحافظ ابن حجر فى الفتح، ورواه مسلم فى صحيحه برقم (١٧٧). (٧) فى أ: «بن». (٨) فى ر، أ: «فجاء». (٩) فى أ: «فقال: لا، والذي نفسى بيده - أو قال - والذي». (١٠) صحيح البخارى برقم (١١١).

وقال البخارى: قال الزهري: من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلىنا التسليم^(١).

وقد شهدت له أمته ببلاغ الرسالة وأداء الأمانة، واستنطقهم بذلك فى أعظم المحافل، فى خطبته يوم حجة الوداع، وقد كان هناك من الصحابة^(٢) نحو من أربعين ألفاً^(٣)، كما ثبت فى صحيح مسلم، عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته يومئذ: «أيها الناس، إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فجعل يرفع إصبعه إلى السماء ويقلبها^(٤) إليهم ويقول: «اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت»^(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، حدثنا فضيل - يعنى ابن غزوان - عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ فى حجة الوداع: «يا أيها الناس، أى يوم هذا؟» قالوا: يوم حرام. قال: «أى بلد هذا؟» قالوا: بلد حرام. قال: «فأى شهر هذا؟» قالوا: شهر حرام. قال: «فإن أموالكم ودماءكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، فى بلدكم هذا، فى شهركم هذا». ثم أعادها مراراً. ثم رفع إصبعه^(٦) إلى السماء فقال: «اللهم هل بلغت!» مراراً - قال: يقول ابن عباس: والله لو وصية إلى ربه عز وجل - ثم قال: «ألا فليبلغ الشاهد الغائب، لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض».

وقد روى البخارى عن على بن المدينى، عن يحيى بن سعيد، عن فضيل بن غزوان، به نحوه^(٧).

وقوله: ﴿وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ يعنى: وإن لم تؤد إلى الناس ما أرسلتك به ﴿فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ أى: وقد علم ما يترتب على ذلك لو وقع.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ يعنى: إن كتبت آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالته.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى: حدثنا قبيصة بن عتبة^(٨)، حدثنا سفيان، عن رجل، عن مجاهد قال: لما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ قال: «يا رب، كيف أصنع وأنا وحدي؟ يجتمعون على». فنزلت: ﴿وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾.

ورواه ابن جرير، من طريق سفيان - وهو الثوري - به.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أى: بلغ أنت رسالتى، وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على

(١) صحيح البخارى (٥٠٣/١٣) «فتح» وقال الحافظ ابن حجر: «هذا وقع فى قصة أخرجه الحميدى ومن طريقه الخطيب، قال الحميدى: حدثنا سفيان قال رجل للزهري: يا أبا بكر قول النبى ﷺ: «ليس منا من شق الجيوب» ما معناه؟ فقال الزهري: من الله العلم وعلى رسوله البلاغ وعلىنا التسليم. وهذا الرجل هو الأوزاعي أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب الأدب، وذكر ابن أبى الدنيا عن دحيم، عن الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي قال: قلت للزهري فذكره».

(٢) فى أ: «أصحابه».

(٣) فى د: «أكثر من سبعين ألفاً».

(٤) فى أ: «رأسه».

(٥) صحيح مسلم برقم (١٢١٨).

(٦) فى د، أ: «وينكبها».

(٧) فى ر: «عتبة».

(٨) المسند (٢٣٠/١) وصحيح البخارى برقم (١٧٣٩).

أعدائك ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيكَ.

وقد كان النبي ﷺ قبل نزول هذه الآية يُحْرَسُ^(١)، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا يزيد، حدثنا يحيى، سمعت عبد الله بن عامر بن ربيعة يحدث: أن عائشة كانت تحدث: أن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة، وهى إلى جنبه، قالت: فقلت: ما شأنك يا رسول الله؟ قال: «ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسنى الليلة؟» قالت: فبينما أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح، فقال: «من هذا؟» فقال: أنا سعد بن مالك. فقال: «ما جاء بك؟» قال: جئت لأحرسك يا رسول الله. قالت: فسمعت غطيط رسول الله ﷺ فى نومه. أخرجاه فى الصحيحين من طريق يحيى ابن سعيد الأنصارى، به^(٢).

وفى لفظ: سهر رسول الله ﷺ ذات ليلة مقدّمة المدينة. يعنى: على أثر هجرته [إليها]^(٣) بعد دخوله بعائشة، رضى الله عنها، وكان ذلك فى سنة ثنتين منها.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا إبراهيم بن مرزوق البصرى نزيل مصر، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا الحارث بن عبيد - يعنى أبا قدامة - عن الجريرى، عن عبد الله بن شقيق، عن عائشة [رضى الله عنها]^(٤) قالت: كان النبي ﷺ يُحْرَسُ حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾. قالت: فأخرج النبي ﷺ رأسه من القبة، وقال: «يأيها الناس، انصرفوا فقد عصمنى الله عز وجل».

وهكذا رواه الترمذى، عن عبد بن حميد وعن نصر بن على الجهضمي، كلاهما عن مسلم بن إبراهيم، به. ثم قال: وهذا حديث غريب.

وهكذا رواه ابن جرير والحاكم فى مستدركه، من طريق مسلم بن إبراهيم، به. ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وكذا رواه سعيد بن منصور، عن الحارث بن عبيد أبى قدامة [الإيدى]^(٥)، عن الجريرى، عن عبد الله بن شقيق، عن عائشة، به^(٦).

ثم قال الترمذى: وقد روى بعضهم هذا عن الجريرى، عن ابن شقيق قال: كان النبي ﷺ يحرس. ولم يذكر عائشة.

قلت: هكذا رواه ابن جرير من طريق إسماعيل بن علية، وابن مردويه من طريق وهيب^(٧)، كلاهما عن الجريرى، عن عبد الله بن شقيق مرسل^(٨)، وقد روى هذا مرسل^(٨) عن سعيد بن جبيرة

(١) فى د: «يحترس».

(٢) المسند (٦/١٤٠) وصحيح البخارى برقم (٢٨٨٥) وصحيح مسلم برقم (٢٤١٠).

(٣) ٥ - زيادة من أ.

(٦) سنن الترمذى برقم (٥٠٣٧) وتفسير الطبرى (١٠/٤٦٩) والمستدرک (٢/٣١٣) وسنن سعيد بن منصور برقم (٧٦٨).

(٧) فى أ: «وهب».

(٨) تفسير الطبرى (١٠/٤٦٩) وقال الشيخ سعد الحميد - حفظه الله - فى تعليقه على سنن سعيد بن منصور (٤/١٥٠٥): «رواية ابن عليه وحدها أرجح من رواية الحارث؛ لأنه أوثق منه وسمع من سعيد قبل اختلاطه، فكيف وقد وافقه وهيب؟» ا. هـ.

ومحمد بن كعب القرظي، رواهما ابن جرير^(١). والربيع بن أنس رواه ابن مردويه، ثم قال:

حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا أحمد بن رشد بن المصري، حدثنا خالد بن عبد السلام الصدفي، حدثنا الفضل بن المختار، عن عبد الله^(٢) بن موهب، عن عصمة بن مالك الخطمي^(٣) قال: كنا نحرس رسول الله ﷺ بالليل حتى نزلت: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فترك الحرس^(٤).

حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا حمد^(٥) بن محمد بن حمد أبو نصر الكاتب البغدادي، حدثنا كُردُوس بن محمد الواسطي، حدثنا معلى بن عبد الرحمن^(٦)، عن فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري قال: كان العباس عم رسول الله ﷺ فيمن يحرسه، فلما نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ترك رسول الله ﷺ الحرس^(٨) ^(٩).

حدثنا علي بن أبي حامد المدني، حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد، حدثنا محمد بن مفضل بن إبراهيم الأشعري، حدثنا أبي، حدثنا محمد بن معاوية بن عمار، حدثنا أبي قال: سمعت أبا الزبير المكي يحدث، عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ إذا خرج بعث معه أبو طالب من يكلؤه، حتى نزلت: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فذهب ليعث معه، فقال: «يا عم، إن الله قد عصمني، لا حاجة لي إلى من تبعث».

وهذا حديث غريب وفيه نكارة^(١٠)، فإن هذه الآية مدنية، وهذا الحديث يقتضي أنها مكية.

ثم قال: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الحميد الحماني، عن النضر، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يحرس، فكان يرسل معه أبو طالب كل يوم رجالاً^(١١) من بني هاشم يحرسونه، حتى نزلت عليه هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ قال: فأراد عمه أن يرسل معه من يحرسه، فقال: «إن الله قد عصمني من الجن والإنس».

ورواه الطبراني عن يعقوب بن غيلان العماني، عن أبي كريب، به^(١٢).

(١) تفسير الطبري (١٠/٤٦٨، ٤٦٩).

(٢) في ر: «عبيد الله».

(٣) في ر: «الخطمي».

(٤) وفي إسناده أحمد بن رشد بن المصري، والفضل بن المختار ضعيف روى أخباراً منكراً.

وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة في ترجمة عصمة بن مالك الخطمي: «له أحاديث أخرجه الدارقطني والطبراني وغيرهما مدارها على الفضل بن المختار، وهو ضعيف جداً».

(٥) في أ: «حميد».

(٦) في ر، أ: «يعلى»، والتصويب من المعجم الأوسط وكتب الرجال.

(٧، ٨) في ر، أ: «النبى».

(٩) هو عند الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٣٣١٤) «مجمع البحرين»، وقال الهيثمي في المجمع (١٧/٧): «فيه عطية العوفي وهو ضعيف».

(١٠) في إسناده من لم أعرفه، ومعاوية بن عمار انتقد خاصة في روايته عن أبي الزبير عن جابر.

(١١) في ر: «رجال».

(١٢) المعجم الكبير (١١/٢٥٧) وقال الهيثمي في المجمع (١٧/٧): «فيه النضر بن عبد الرحمن وهو ضعيف».

وهذا أيضاً غريب. والصحيح أن هذه الآية مدنية، بل هي من أواخر ما نزل بها، والله أعلم.

ومن عصمة الله [عز وجل]^(١) لرسوله حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومُعَانِدِيهَا ومترفيها، مع شدة العداوة والبغضة ونصب المحاربة له ليلاً ونهاراً، بما يخلقه الله تعالى من الأسباب العظيمة بقدره وحكمته^(٢) العظيمة. فصانه في ابتداء الرسالة بعمة أبي طالب، إذ كان رئيساً مطاعاً كبيراً في قريش، وخلق الله في قلبه محبة طبيعية لرسول الله ﷺ لا شرعية، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها، ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر هابوه واحترموه، فلما مات أبوطالب نال منه المشركون أذى يسيراً، ثم قبض الله [عز وجل]^(٣) له الأنصار فبايعوه على الإسلام، وعلى أن يتحول إلى دارهم - وهى المدينة، فلما صار إليها حموه من الأحمر والأسود، فكلما هم أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله ورد كيده عليه، لما كاده اليهود بالسحر حماه الله منهم، وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواء لذلك الداء، ولما سم اليهود ذراع تلك الشاة بخبير، أعلمه^(٤) الله به، وحماه [الله]^(٥) منه؛ ولهذا أشباه كثيرة جداً يطول ذكرها، فمن ذلك ما ذكره المفسرون عند هذه الآية الكريمة:

فقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا أبو معشر، عن محمد بن كعب القرظي وغيره قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل منزلاً، اختار له أصحابه شجرة ظليلة فيقبل تحتها. فأتاه أعرابي فاخترط سيفه ثم قال: من يمنعك مني؟ فقال: «الله عز وجل»، فرعدت يد الأعرابي وسقط السيف منه، قال: وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(٦).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثنا موسى بن عبيدة، حدثني زيد بن أسلم، عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: لما غزا رسول الله ﷺ بنى أثمار، نزل ذات الرقاع^(٧) بأعلى نخل، فبينما هو جالس على رأس بئر قد دلى رجله، فقال غورث بن الحارث^(٨) من بنى النجار: لأقتلن محمداً. فقال له أصحابه: كيف تقتله؟ قال: أقول له: أعطني سيفك. فإذا أعطانيه قتلت به، قال: فأتاه فقال: يا محمد، أعطني سيفك أشيمه. فأعطاه إياه، فرعدت يده حتى سقط السيف من يده، فقال رسول الله ﷺ: «حال الله بينك وبين ما تريد» فأنزل الله، عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

وهذا حديث غريب من هذا الوجه وقصة «غورث بن الحارث» مشهورة في الصحيح^(٩).

(٣) زيادة من أ.

(٢) في ر: «بقدره حكمته».

(١) زيادة من ر، أ.

(٥) زيادة من أ.

(٤) في أ: «أعلم».

(٦) تفسير الطبري (١٠ / ٤٧٠).

(٨) في ر، أ: «الوارث».

(٧) في ر، أ: «الرقيع».

(٩) في إسناده ابن أبي حاتم موسى بن عبيدة الريدى، وهو ضعيف، والقصة أصلها في صحيح البخارى برقم (٤١٣٦).

وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا أبو عمرو أحمد بن محمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن عبد الوهاب، حدثنا آدم، حدثنا حماد بن سلمة، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: كنا إذا صحبتنا^(١) رسول الله ﷺ في سفر تركنا له أعظم شجرة وأظلمها، فينزل تحتها، فنزل ذات يوم تحت شجرة وعلق سيفه فيها، فجاء رجل فأخذه فقال: يا محمد، من يمنعك مني؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله يمنعني منك، ضع السيف». فوضعه، فأنزل الله، عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

وكذا رواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه، عن عبد الله بن محمد، عن إسحاق بن إبراهيم، عن المؤمل بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، به^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت أبا إسرائيل - يعنى الجشمي - سمعت جعدة - هو ابن خالد بن الصمة الجشمي - رضى الله عنه، قال: سمعت النبي ﷺ ورأى رجلاً سميناً، فجعل النبي ﷺ يومئ إلى بطنه بيده ويقول: «لو كان هذا في غير هذا لكان خيراً لك». قال: وأتى النبي ﷺ برجل فقال: هذا أراد أن يقتلك. فقال له النبي ﷺ: «لم تُرْع، لم تُرْع، ولو أردت ذلك لم يسلطك^(٣) الله علي^(٤)».

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أى: بلغ أنت، والله هو الذى يهدى من يشاء، ويضل من يشاء، كما قال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٦٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩).

يقول تعالى: قل يا محمد: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أى: من الدين، ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ أى: حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء، وتعملوا بما فيها ومما فيها الأمر^(٥) باتباع محمد ﷺ والإيمان ببعثه، والافتداء بشريعته؛ ولهذا قال ليث ابن أبي سليم، عن مجاهد، فى قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعنى: القرآن العظيم.

وقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ تقدم تفسيره ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ

(١) فى ر، أ: «أصحبنا».

(٢) صحيح ابن حبان برقم (١٧٣٩) «موارد».

(٣) فى ر: «يسلط».

(٤) المسند (٤٧١/٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٢٢٦/٨): «رجاله رجال الصحيح غير أبى إسرائيل الجشمي وهو ثقة».

(٥) فى أ: «بما فيها من الأمر».

الْكَافِرِينَ ﴿١﴾ أَى: فلا تحزن عليهم ولا يَهْدِنَكَ ذلك منهم.

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهم: المسلمون ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم: حملة التوراة ﴿وَالصَّابِتُونَ﴾ - لما طال الفصل حسن العطف بالرفع. والصابثون: طائفة بين^(١) النصارى والمجوس، ليس لهم دين. قاله مجاهد، وعنه: بين^(٢) اليهود والمجوس. وقال سعيد بن جبیر: بين^(٣) اليهود والنصارى، وعن الحسن [والحكم]^(٤): إنهم كالمجوس. وقال قتادة: هم قوم يعبدون الملائكة، ويصلون إلى غير القبلة، ويقرؤون الزبور. وقال وهب بن منبه: هم قوم يعرفون الله وحده، وليست لهم شريعة يعملون بها، ولم يحدثوا كفراً.

وقال ابن وهب: أخبرني ابن أبي الزناد، عن أبيه قال: الصابثون: قوم مما يلي العراق، وهم بכוثر، وهم يؤمنون بالنبيين كلهم، ويصومون كل سنة ثلاثين يوماً، ويصلون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات. وقيل غير ذلك.

وأما النصارى فمعروفون، وهم حملة الإنجيل.

والمقصود: أن كل فرقة آمنت بالله وباليوم^(٥) الآخر، وهو المعاد والجزاء يوم الدين، وعملت عملاً صالحاً، ولا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقاً للشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين فمن اتصف بذلك ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه^(٦)، ولا على ما تركوا وراء ظهورهم، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وقد تقدم الكلام على نظيرتها في سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته^(٧).

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠) وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١)﴾.

يذكر تعالى أنه أخذ العهود والمواثيق على بنى إسرائيل، على السمع والطاعة لله ولرسوله، فنقضوا تلك العهود والمواثيق، واتبعوا آراءهم وأهواءهم وقدموها على الشرائع، فما وافقهم منها قبلوه، وما خالفهم ردوه؛ ولهذا قال: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ. وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ أَى: وحسبوا ألا يترتب لهم شر على ما صنعوا، فترتب، وهو أنهم عموا عن الحق وصموا، فلا يسمعون حقاً^(٨) ولا يهتدون إليه، ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أَى: مما كانوا فيه ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا﴾ أَى: بعد ذلك ﴿[وَصَمُّوا]^(٩) كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أَى: مطلع عليهم وعليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية.

(٥) فى أ: «واليوم».

(٤) زيادة من أ.

(٣-١) فى ر، أ: «من».

(٨) فى د: «فلا يستمعون خيراً».

(٧) فى أ: «إعادتها هاهنا».

(٦) فى أ: «يستقبلون».

(٩) زيادة من ر.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نَبِّينُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤفَكُونَ (٧٥) ﴿

يقول تعالى حاكماً بتكفير فرق النصارى، من الملكية واليعقوبية والنسطورية، ممن قال منهم بأن المسيح هو الله، تعالى الله عن قولهم وتنزه وتقدس علواً كبيراً.

هذا وقد تقدم إليهم المسيح بأنه عبد الله ورسوله، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، ولم يقل: أنا الله، ولا: ابن الله. بل قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ إلى أن قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٠ - ٣٦].

وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته، أمراً لهم بعبادة الله ربه وربهم وحده لا شريك له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ أى: فيعبد معه غيره ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ أى: فقد أوجب له النار، وحرّم عليه الجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

وفى الصحيح: أن رسول الله ﷺ بعث منادياً ينادى فى الناس: «إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة»، وفى لفظ: «مؤمنة»^(١).

وتقدم فى أول سورة النساء عند قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] حديث يزيد^(٢) بن بَابُوس عن عائشة: الدواوين ثلاثة، فذكر منهم ديواناً لا يغفره^(٣) الله، وهو الشرك بالله، قال الله تعالى: ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾^(٤). الحديث فى مسند أحمد^(٥).

ولهذا قال [الله]^(٦) تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبنى إسرائيل: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ

(١) صحيح مسلم برقم (١١١).

(٢) فى أ: «زيد».

(٥) المسند (٦/٢٤٠).

(٦) زيادة من أ.

(٣) فى أ: «لا يغفر».

(٤) زيادة من أ.

عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ أى: وما له عند الله ناصر ولا معين ولا منقذ مما هو فيه.
وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾، قال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسن الهستجاني، حدثنا سعيد بن الحكم بن أبى مريم، حدثنا الفضل، حدثني أبو صخر فى قول الله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ قال: هو قول اليهود: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾، وقول النصارى: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] فجعلوا الله ثالث ثلاثة.

وهذا قول غريب فى تفسير الآية: أن المراد بذلك طائفتا^(١) اليهود والنصارى والصحيح: أنها أنزلت فى النصارى^(٢) خاصة، قاله مجاهد وغير واحد.

ثم اختلفوا^(٣) فى ذلك ف قيل: المراد بذلك كفارهم فى قولهم بالأقانيم الثلاثة، وهو أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم الكلمة المنبثقة^(٤) من الأب إلى الابن، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، قال^(٥) ابن جرير وغيره: والطوائف الثلاث من الملكية واليعقوبية والنسطورية تقول بهذه الأقانيم. وهم مختلفون فيها اختلافاً متبايناً ليس هذا موضع بسطه، وكل فرقة منهم تكفر الأخرى، والحق أن الثلاث كافرة.

وقال السدّي وغيره: نزلت فى جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله، فجعلوا الله^(٦) ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار، قال السدى: وهى كقوله تعالى فى آخر السورة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ الآية [المائدة: ١١٦].

وهذا القول هو الأظهر، والله أعلم. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أى: ليس متعدداً، بل هو وحده لا شريك له، إله جميع الكائنات وسائر الموجودات.

ثم قال تعالى متوعداً لهم ومتهدداً: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أى: من هذا الافتراء والكذب ﴿لَيَمَسَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: فى الآخرة من الأغلال والنكال.

ثم قال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وهذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه، مع هذا الذنب العظيم وهذا الافتراء والكذب والإفك، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة، فكل من تاب إليه تاب عليه، ثم قال: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾^(٧) أى: له سوية أمثاله من سائر المرسلين المتقدمين عليه، وأنه عبد من عباد الله ورسول من رسله الكرام، كما قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩].

وقوله: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ أى: مؤمنة به مصدقة له. وهذا أعلى مقاماتها^(٨)، فدل على أنها ليست بنبية، كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة سارة أم إسحاق، ونبوة أم موسى، ونبوة أم عيسى استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم، وبقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾

(١) فى ر: «طائفتى» والصحيح ما أثبتناه.
(٢) فى أ: «المنبثقة».
(٣) فى أ: «واختلفوا».
(٤) فى ر: «قاله».
(٥) فى د: «فجعلوه».
(٦) فى أ: «مقاماتنا».
(٧) فى ر، أ: «الرسول وأمه صديقة».
(٨) فى أ: «مقاماتها».

[القصص: ٧]، [قالوا] ^(١): وهذا معنى النبوة، والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي ^(٢) إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعري، رحمه الله، الإجماع على ذلك.

وقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ أى: يحتاجان إلى التغذية به، وإلى خروجه منهما، فهما عبدان كسائر الناس وليسا بالهين كما زعمت ^(٣) فرق النصارى الجهلة، عليهم لعائن الله المتتابعة ^(٤) إلى يوم القيامة.

ثم قال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نَبِّينُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ أى: نوضحها ونظهرها، ﴿ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أى: ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلاء أين يذهبون؟ وبأى قول يتمسكون؟ وإلى أى مذهب من الضلال يذهبون ^(٥)؟

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ^(٧٦)﴾
قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا
كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ^(٧٧)﴾.

يقول تعالى منكرًا على من عبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان، ومبينًا له أنها لا تستحق شيئًا من الإلهية: ﴿قُلْ﴾ أى: يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بنى آدم، ودخل فى ذلك النصارى وغيرهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أى: لا يقدر على إيصال ضرر ^(٦) إليكم، ولا إيجاد نفع ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ^(٧)﴾ أى: فلم ^(٨) عدلتكم عن أفراد السميع لأقوال عباده، العليم بكل شيء إلى عبادة جماد لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئًا، ولا يملك ضررًا ولا نفعًا لغيره ولا لنفسه.

ثم قال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أى: لا تجاوزوا الحد فى اتباع الحق، ولا تطّروا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه، حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية، كما صنعتم فى المسيح، هو نبي من الأنبياء، فجعلتموه إلهًا من دون الله، وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخ الضلال، الذين هم سلفكم ممن ضل قديمًا، ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أى: وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال، إلى طريق الغواية والضلال.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثنا عبد الله بن أبى جعفر، عن أبيه، عن الربيع بن أنس قال: وقد كان قائم عليهم، فأخذ بالكتاب والسنة زمانًا، فأتاه الشيطان فقال: إنما تركب أثرًا أو أمرًا قد عمل قبلك، فلا تجمّد ^(٩) عليه، ولكن ابتدع أمرًا من قبل نفسك وادع إليه وأجبر الناس عليه، ففعل، ثم أدكر ^(١٠) بعد فعله زمانًا فأراد أن يتوب فخلع ملّكه،

(٣) فى ر، أ: «كما زعمه».

(٢) فى ر: «يوحى».

(١) زيادة من أ.

(٦) فى ر، أ: «ضر».

(٥) فى ر: «يزهون».

(٤) فى ر، أ: «التابعة».

(٩) فى ر، د: «تحمّد».

(٨) فى أ: «فلو».

(٧) فى أ: «والله واسع عليم» وهو خطأ.

(١٠) فى د: «أدكر من».

مُلْكُهُ، وَسُلْطَانُهُ وَأَرَادَ أَنْ يَتَعَبَّدَ فَلَبِثَ فِي عِبَادَتِهِ أَيَّامًا، فَآتَى فَقِيلَ لَهُ: لَوْ أَنَّكَ تَبْتَ مِنْ خَطِيئَةٍ عَمَلْتَهَا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ رَبِّكَ عَسَى أَنْ يَتَابَ عَلَيْكَ، وَلَكِنْ ضَلَّ فُلَانٌ وَفُلَانٌ فِي سَبِيلِكَ حَتَّى فَارَقُوا الدُّنْيَا وَهُمْ عَلَى الضَّلَالَةِ، فَكَيْفَ لَكَ بِهِدَاهِمَ، فَلَا تَوْبَةَ لَكَ أَبَدًا. فَفِيهِ سَمْعُنَا وَفِي أَشْبَاهِهِ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.

﴿لَعْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١)﴾.

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَعَنَ الْكَافِرِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ دَهْرٍ طَوِيلٍ، فِيمَا أُنْزِلَ^(١) عَلَى دَاوُدَ نَبِيهِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعَلَى لِسَانِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، بِسَبَبِ عَصْيَانِهِمُ اللَّهَ وَاعْتِدَائِهِمْ عَلَى خَلْقِهِ.

قَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَعَنُوا فِي التَّوْرَةِ وَ[فِي] ^(٢)الْإِنْجِيلِ وَفِي الزَّبُورِ، وَفِي الْفُرْقَانِ^(٣). ثُمَّ بَيَّنَ حَالَهُمْ فِيمَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ فِي زَمَانِهِمْ، فَقَالَ: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أَيُّ: كَانَ لَا يَنْهَى أَحَدٌ مِنْهُمْ أَحَدًا عَنْ ارْتِكَابِ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ، ثُمَّ ذَمَّهُمْ عَلَى ذَلِكَ لِيَحْذَرُوا أَنْ يُرْكَبَ مِثْلَ الَّذِي^(٤) ارْتَكَبُوا، فَقَالَ: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ^(٥)، حَدَّثَنَا شَرِيكَ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ بَدِيْعَةٍ^(٦)، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْمَعَاصِي، نَهَتْهُمْ عِلْمَاؤُهُمْ فَلَمْ يَنْتَهُوْا، فَجَالَسُوهُمْ فِي مَجَالَسِهِمْ - قَالَ يَزِيدُ: وَأَحْسَبُهُ قَالَ: وَأَسْوَاقَهُمْ - وَوَاكَلُوهُمْ وَشَارِبُوهُمْ. فَضْرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ»، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَكِنًا فَجَلَسَ فَقَالَ: «لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى تَأْطُرُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا»^(٧)^(٨).

وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ النَّفِيلِيُّ، حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ رَاشِدٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ بَدِيْعَةٍ، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النِّقْصَ عَلَى بَنِي

(٣) فِي أ: «الْقُرْآن».

(٢) زِيَادَةٌ مِنْ ر، أ.

(١) فِي د، أ: «أُنْزِلَهُ».

(٦) فِي د: «بَدِيْعَةٍ»، وَفِي ر: «بَدِيْعَةٍ».

(٥) فِي أ: «يَزِيدُ بْنُ عَبَّاسٍ».

(٤) فِي أ: «أَيُّ مِنْ ارْتَكَبَ مِثْلَ مَا».

(٧) فِي ر: «إِطْرَاءً».

(٨) الْمُسْنَدُ (١/٣٩١).

إسرائيل كان الرجل يلقي الرجل فيقول: يا هذا، اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك. ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله: ﴿فَاسْقُونَهُمْ﴾، ثم قال: «كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد^(١) الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً^(٢)» - أو تقصرنه على الحق قصراً.

وكذا رواه الترمذی وابن ماجه، من طريق علي بن بديمة، به^(٣). وقال الترمذی: «حسن غريب». ثم رواه هو وابن ماجه، عن بُنْدَار، عن ابن مَهْدِيٍّ، عن سفيان، عن علي بن بديمة، عن أبي عبيدة مرسلًا^(٤).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج وهارون بن إسحاق الهمداني قالا: حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي، عن العلاء بن المسيب، عن عبد الله بن عمرو بن مرة، عن سالم الأفطس، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل من بني إسرائيل كان إذا رأى أخاه على الذنب نهاه عنه تعذيراً، فإذا كان من الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وخليطه وشريكه - وفي حديث هارون: وشريبه، ثم اتفقا في المتن - فلما رأى الله ذلك منهم، ضرب قلوب بعضهم على بعض، ولعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون». ثم قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسى بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد المسيء، ولتأطرنه على الحق أطراً^(٥)، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض، أو ليلعنكم كما لعنهم»، والسياق لأبي سعيد. كذا قال في رواية^(٦) هذا الحديث.

وقد رواه أبو داود أيضاً، عن خلف بن هشام، عن أبي شهاب الخياط، عن العلاء بن المسيب، عن عمرو بن مرة، عن سالم - وهو ابن عجلان الأفطس - عن أبي عبيدة^(٧) بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، عن النبي ﷺ، بنحوه. ثم قال أبو داود: وكذا رواه خالد، عن العلاء، عن عمرو بن مرة، به. ورواه المحاربي، عن العلاء بن المسيب، عن عبد الله بن عمرو بن مرة، عن سالم الأفطس، عن أبي عبيدة، عن عبد الله^(٨).

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج^(٩) المزني: وقد رواه خالد بن عبد الله الواسطي، عن العلاء، عن عمرو بن مرة، عن أبي موسى^(١٠).

والأحاديث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جداً، ولنذكر منها ما يناسب هذا المقام.

(١) في ر: «يدى». (٢) في ر: «إطراء».

(٣) سنن أبي داود برقم (٤٣٣٦) وسنن الترمذی برقم (٣٠٤٧) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٠٦).

(٤) سنن الترمذی برقم (٣٠٤٨) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٠٦).

(٥) في أ: «إطراء».

(٦) في أ: «روايته».

(٧) في أ: «عن أبي عبيدة بن عتبة».

(٨) سنن أبي داود برقم (٤٣٣٧).

(٩) في أ: «أبو الحجاج يوسف».

(١٠) تحفة الأشراف (١٦١/٧).

[و] ^(١) قد تقدم حديث جرير عند قوله [تعالى] ^(٢): ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٦٣]، وسيأتي عند قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، حديث أبي بكر الصديق وأبي ثعلبة الخشني [رضى الله عنهما] ^(٣) - فقال الإمام أحمد:

حدثنا سليمان الهاشمي، أنبأنا إسماعيل بن جعفر، أخبرني عمرو بن أبي عمرو، عن عبد الله ابن عبد الرحمن الأشهلي، عن حذيفة بن اليمان؛ أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم».

ورواه الترمذي عن علي بن حجر، عن إسماعيل بن جعفر، به. وقال: هذا حديث حسن ^(٤).

وقال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا معاوية بن هشام، عن هشام بن سعد، عن عمرو بن عثمان، عن عاصم بن عمر بن عثمان، عن عروة، عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مروا بالمعروف، وأنهوا عن المنكر، قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم».

تفرد به، وعاصم هذا مجهول ^(٥).

وفى الصحيح من طريق الأعمش، عن إسماعيل بن رجاء، عن أبيه، عن سعيد - وعن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، عن أبي سعيد الخدري - قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكماً منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» ^(٦). رواه مسلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، حدثنا سيف - هو ابن أبي سليمان سمعت عدي بن عدي الكندي يحدث عن مجاهد قال: حدثني مولى لنا أنه سمع جدي - يعني: عدي بن عميرة، رضي الله عنه - يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ^(٧) لا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ، حَتَّى يَرَوْا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِهِمْ، وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يَنْكُرُوهُ. فَلَا يَنْكُرُونَهُ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَذَّبَ اللَّهُ الْعَامَّةَ وَالْخَاصَّةَ».

ثم رواه أحمد، عن أحمد بن الحجاج، عن عبد الله بن المبارك، عن سيف بن أبي سليمان، عن عدي ^(٨) بن عدي الكندي، حدثني مولى لنا أنه سمع جدي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول، فذكره. هكذا رواه الإمام أحمد من هذين الوجهين ^(٩).

وقال أبو داود: حدثنا محمد بن ^(١٠) العلاء، حدثنا أبو بكر، حدثنا مغيرة بن زياد الموصلي، عن

(١) زيادة من أ.

(٤) المسند (٣٨٨/٥) وسنن الترمذي برقم (٢١٦٩).

(٥) سنن ابن ماجه برقم (٤٠٠٤) ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٩٣/١٠) من طريق أبي همام الدلال، عن هشام بن سعد به.

(٦) صحيح مسلم برقم (٤٩).

(٧) في أ: «الله عز وجل».

(٨) في ر، أ: «عيسى».

(٩) المسند (١٩٢/٤) وقال الهيثمي في المجمع (٢٦٧/٧): «رواه أحمد من طريقين إحداها عن عدي بن عدي، حدثني مولى لنا وهو

الصواب» ١. هـ. بتصرف.

(١٠) في ر: «أبو».

عَدَى بن عدى، عن العُرْس - يعنى ابن عميرة - عن النبي ﷺ قال: «إذا عملت الخطيئة فى الأرض كأن من شهدها فكرهها - وقال مرة: فأنكرها - كان كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرَضِيها كان كمن شهدها».

تفرد به أبو داود، ثم رواه عن أحمد بن يونس، عن أبى شهاب، عن مغيرة بن زياد، عن عدى ابن عدى، مرسلًا^(١).

[و]^(٢) قال أبو داود: حدثنا سليمان بن حرب وحفص بن عمر قالا: حدثنا شعبة - وهذا لفظه - عن عمرو بن مرة، عن أبى البَخْتَرى قال: أخبرنى من سمع النبي ﷺ - وقال سليمان: حدثنى رجل من أصحاب النبي ﷺ؛ أن النبي ﷺ - قال: «لن يهلك الناس حتى يعذروا - أو: يُعذِّروا - من أنفسهم»^(٣).

وقال ابن ماجه: حدثنا عمران بن موسى، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا على بن زيد بن جدعان، عن أبى نَصْرَة، عن أبى سعيد الخدرى؛ أن رسول الله ﷺ قام خطيباً، فكان فيما قال: «ألا لا يمنعن^(٤) رجلاً هيبته الناس أن يقول الحق إذا علمه». قال: فبكى أبو سعيد وقال: قد - والله - رأينا أشياء، فهِبْنَا^(٥).

وفى حديث إسرائيل: عن محمد بن حجارة، عن عطية، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق^(٦) عند سلطان جائر».

رواه أبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن غريب من هذا الوجه^(٧).

وقال ابن ماجه: حدثنا راشد بن سعيد الرملى، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا حماد بن سلمة، عن أبى غالب، عن أبى أمامة^(٨) قال: عَرَضَ لرسول الله ﷺ رجلٌ عند الجُمرة الأولى فقال: يا رسول الله، أى الجهاد أفضل؟ فسكت عنه. فلما رمى الجُمرة الثانية سأله، فسكت عنه. فلما رمى جُمرة العَقبة، ووضع رجله فى الغَرَز ليركب، قال: «أين السائل؟» قال: أنا يا رسول الله، قال: «كلمة حق تقال عند ذى سلطان جائر». تفرد به^(٩).

وقال ابن ماجه: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عبد الله بن نُمَيْر وأبو معاوية، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبى البَخْتَرى، عن أبى سعيد^(١٠) قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَحْقِرَ أحدكم

(١) سنن أبى داود برقم (٤٣٤٥) ومرسلًا برقم (٤٣٤٦).

(٢) زيادة من أ.

(٣) سنن أبى داود برقم (٤٣٤٧).

(٤) فى ر: «تَمْنَعْن».

(٥) سنن ابن ماجه برقم (٤٠٠٧) وفى إسناده على بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف.

(٦) فى أ: «عدل».

(٧) سنن أبى داود برقم (٤٣٤٤) وسنن الترمذى برقم (٢١٧٤) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠١١).

(٨) فى أ: «أبى أسامة».

(٩) سنن ابن ماجه برقم (٤٠١٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢٤٣/٣): «هذا إسناد فيه مقال، أبو غالب مختلف فيه ضعفه ابن سعد وأبو حاتم والنسائى، ووثقه الدارقطنى وقال ابن عدى: لا بأس به، وراشد بن سعيد قال فيه أبو حاتم: صدوق وباقى رجال الإسناد ثقات».

(١٠) فى أ: «أبى سعيد الخدرى».

نفسه». قالوا: يا رسول الله، كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: «يرى أمراً لله فيه مَقَال، ثم لا يقول فيه. فيقول الله له يوم القيامة: ما منعك أن تقول في كذا وكذا وكذا؟ فيقول: خَشْيَةُ النَّاسِ، فيقول: فإياي كنت أحق أن تَخْشَى». تفرد به^(١).

وقال أيضاً: حدثنا علي بن محمد، حدثنا محمد بن فضَّيل، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن أبو طُوَّالة، حدثنا نَهَارُ الْعَبْدِيِّ؛ أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ليسأل العبد يوم القيامة، حتى يقول: ما منعك إذ^(٢) رأيت المنكر أن تنكره؟ فإذا لَقْنُ^(٣) الله عبداً حجته، قال: يا رب، رَجَوْتُكَ وَفَرَّقْتُ مِنَ النَّاسِ». تفرد به أيضاً ابن ماجه^(٤)، وإسناده لا بأس به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عمرو بن عاصم، عن حماد^(٥) بن سلمة، عن علي بن زيد، عن الحسن، عن جُنْدَب، عن حذيفة عن النبي ﷺ قال: «لا ينبغي لمسلم أن يذل نفسه». قيل: وكيف يذل نفسه؟ قال: «يتعرض من البلاء لما لا يطيق».

وكذا رواه الترمذی وابن ماجه جميعاً، عن محمد بن بَشَّار، عن عمرو بن عاصم، به. وقال الترمذی: هذا حديث حسن صحيح غريب^(٦).

وقال ابن ماجه: حدثنا العباس بن^(٧) الوليد الدمشقي، حدثنا زيد بن يحيى بن عبَّيد الخُزَاعِي، حدثنا الهيثم بن حميد، حدثنا أبو مَعْبَد حفص بن غِيْلَان^(٨) الرُّعَيْنِي، عن مكحول، عن أنس بن مالك قال: قيل: يا رسول الله، متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: «إذا ظَهَرَ فيكم ما ظَهَرَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ». قلنا: يا رسول الله، وما ظهر في الأمم قبلنا؟ قال: «الْمُلْكُ فِي صِغَارِكُمْ، وَالْفَاحِشَةُ فِي كِبَارِكُمْ، وَالْعِلْمُ فِي رُدَّالِكُمْ». قال زيد: تفسير معنى قول النبي ﷺ: «وَالْعِلْمُ فِي رُدَّالِكُمْ»: إذا كان العلم في الفُسَاق.

تفرد به ابن ماجه^(٩). وسيأتى في حديث أبي ثعلبة، عند قوله: «لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ» [المائدة: ١٠٥] شاهد لهذا، إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

وقوله: «تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا»: قال مجاهد: يعنى بذلك المنافقين. وقوله: «لَيْسَ مَا قَدَّمْتَ لَهُمْ أَنْفُسَهُمْ» يعنى بذلك موالاتهم للكافرين، وتركهم موالات المؤمنين، التي أعقبتهم نفاقاً في قلوبهم، وأسخطت الله عليهم سخطاً مستمراً إلى يوم معادهم؛ ولهذا قال: «أَنْ سَخَطَ اللَّهُ

(١) سنن ابن ماجه برقم (٤٠٠٨) وقال البوصيري في الزوائد (٢٤٢/٣): «هذا إسناد صحيح».

(٢) في ر: «إذا».

(٣) في ر: «ألقى».

(٤) سنن ابن ماجه برقم (٤٠١٧) وقال البوصيري في الزوائد (٢٤٤/٣): «هذا إسناد صحيح».

(٥) في ر: «خالد».

(٦) المسند (٤٠٥/٥) وسنن الترمذی برقم (٢٢٥٤) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠١٦).

(٧) في أ: «حدثنا».

(٨) في أ: «عبدان».

(٩) سنن ابن ماجه برقم (٤٠١٥) وقال البوصيري في الزوائد (٢٤٤/٣): «هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات».

عَلَيْهِمْ ﴿ فسر بذلك ما ذمهم به . ثم أخيراً أنهم ﴿وَفِي الْعَذَابِ لَهُمْ خَالِدُونَ﴾ يعنى يوم القيامة .

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا مسلمة^(١) بن على، عن الأعمش بإسناده ذكره قال: « يا معشر المسلمين، إياكم والزنا، فإن فيه ست خصال، ثلاث فى الدنيا وثلاث فى الآخرة، فأما التى فى الدنيا: فإنه يُذهب البهاء، ويورث الفقر، وينقص العمر . وأما التى فى الآخرة: فإنه يوجب سَخَطَ الرب، وسوء الحساب، والخلود فى النار . ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ لَهُمْ خَالِدُونَ﴾ .

هكذا ذكره ابن أبى حاتم، وقد رواه ابن مردويه من طريق هشام بن عمار، عن مسلمة^(٢)، عن الأعمش، عن شقيق، عن حذيفة، عن النبى ﷺ - فذكره . وساقه أيضاً من طريق سعيد بن غفير، عن مسلمة، عن أبى عبد الرحمن الكوفى، عن الأعمش، عن شقيق، عن حذيفة، عن النبى ﷺ، فذكر مثله .

وهذا حديث ضعيف على كل حال^(٣)، والله أعلم . ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ أى: لو آمنوا حق الإيمان بالله والرسول والفرقان^(٤) لما ارتكبوا ما ارتكبوه من موالاته الكافرين فى الباطن، ومعاداة المؤمنين بالله والنبى وما أنزل إليه ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أى: خارجون عن طاعة الله ورسوله، مخالفون لآيات وحيه وتنزيله .

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرَهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢)﴾
وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأْتَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦)﴾ .

(١) فى ر، أ: « مسلم » .

(٢) فى ر، أ: « مسلم » .

(٣) ورواه ابن عدى فى الكامل (٣١٧/٦) من هذين الطريقين فقال:

١- حدثنا عبدان، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا مسلمة، عن الأعمش، عن شقيق، عن حذيفة بن اليمان به .

٢- وحدثنا جعفر بن أحمد بن على بن بيان، حدثنا سعيد بن غفير، حدثنا مسلمة بن على، عن أبى على الكوفى، عن الأعمش،

عن شقيق عن حذيفة نحوه .

ثم قال: « وهذا عن الأعمش غير محفوظ وهو منكر واختلف ابن عفير وهشام فى إسناده، فقال هشام: عن مسلمة، عن الأعمش، وقال ابن عفير: عن مسلمة عن أبى على الكوفى، عن الأعمش، وأبو على لا يدرى من هو؟ ويروى هذا الحديث عن عبد الله بن عصمة النصيبى، عن محمد بن سلمة البنانى، عن الأعمش، عن أبى سفيان، عن جابر، عن النبى ﷺ وهذه الأحاديث غير محفوظة » .

(٤) فى أ: « والقرآن » .

قال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: نزلت هذه الآيات فى النجاشى وأصحابه، الذين حين تلا عليهم جعفر بن أبى طالب بالحبشة القرآن بكوا حتى أخضلوا لحاهم. وهذا القول فيه نظر؛ لأن هذه الآية مدنية، وقصة جعفر مع النجاشى قبل الهجرة.

وقال سعيد بن جبّير والسدّى وغيرهما: نزلت فى وفد بعثهم النجاشى إلى النبى ﷺ ليسمعوا كلامه، ويروا صفاته، فلما قرأ عليهم النبى ﷺ القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا، ثم رجعوا إلى النجاشى فأخبروه.

قال السدى: فهاجر النجاشى فمات فى الطريق.

وهذا من أفراد السدى؛ فإن النجاشى مات وهو ملك الحبشة، وصلى عليه النبى ﷺ يوم مات، وأخبر به أصحابه، وأخبر أنه مات بأرض الحبشة.

ثم اختلف فى عدة هذا الوفد، فقليل: اثنا عشر، سبعة قساوسة^(١) وخمسة رهايين. وقيل بالعكس. وقيل: خمسون. وقيل: بضع وستون. وقيل: سبعون رجلاً. فالله أعلم^(٢).

وقال عطاء بن أبى رباح: هم قوم من أهل الحبشة، أسلموا حين قدم عليهم مهاجرة الحبشة من المسلمين، وقال قتادة: هم قوم كانوا على دين عيسى ابن مريم، فلما رأوا المسلمين وسمعوا القرآن أسلموا ولم يتلّعثموا. واختار ابن جرير أن هذه [الآية]^(٣) نزلت فى صفة أقوام بهذه المثابة، سواء أكانوا من الحبشة أو غيرها.

فقوله [تعالى]^(٤): ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ ما ذاك إلا لأن كفر اليهود عناد وجحود ومباهة للحق، وغمط للناس وتنقص بحملة العلم. ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هموا بقتل الرسول ﷺ غير مرة وسحروه، وألبوا عليه أشباههم من المشركين - عليهم لعائن الله المتتابعة^(٥) إلى يوم القيامة.

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه عند تفسير هذه الآية: حدثنا أحمد بن محمد بن السرى: حدثنا محمد بن على بن حبيب الرقى، حدثنا سعيد بن العلاف، حدثنا أبو النضر، عن الأشجعى، عن سفیان، عن يحيى بن عبد الله عن أبيه، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما خلا يهودى قط بمسلم^(٦) إلا هم^(٧) بقتله».

ثم رواه عن محمد بن أحمد بن إسحاق الشكرى^(٨)، حدثنا أحمد بن سهل بن أيوب الأهوازي، حدثنا فرج بن عبيد، حدثنا عباد بن العوام، عن يحيى بن عبيد الله، عن أبيه، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما خلا يهودى بمسلم إلا حدث^(٩) نفسه بقتله». وهذا حديث غريب جداً^(١٠).

(٣، ٤) زيادة من أ.

(٢) فى أ: «والله أعلم».

(١) فى أ: «قساوسة».

(٧) فى ر: «وهم».

(٦) فى أ: «بمسلم قط».

(٥) فى ر، أ: «التابعة».

(٩) فى ر، أ: «إلا حدث».

(٨) فى أ: «العسكرى».

(١٠) ورواه ابن حبان فى المجروحين (١٢٢/٣) من طريق يحيى بن عبيد الله عن أبيه، عن أبى هريرة به وقال: «يحيى بن عبيد الله =

وقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ أى: الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله، فيهم مودة للإسلام وأهله فى الجملة، وما ذاك إلا لما فى قلوبهم، إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧]، وفى كتابهم: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر. وليس^(١) القتال مشروعاً فى ملتهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى: يوجد فيهم القسيسون - وهم خطباؤهم وعلمائهم، واحدهم: قسيس وقس أيضاً، وقد يجمع على قسوس - والرهبان: جمع راهب، وهو: العابد. مشتق من الرهبة، وهى^(٢) الخوف، كراكب وركبان، وفارس وفرسان.

وقال ابن جرير: وقد يكون الرهبان واحداً وجمعه رهابين، مثل قربان وقرايين، وجردان وجردادين^(٣)، وقد يجمع^(٤) على رهابنة. ومن الدليل على أنه يكون عند العرب واحداً قول الشاعر:

لَوْ عَايَنْتَ^(٥) رُهْبَانًا دَيْرٍ فِي الْقُلَلِ لَانْحَدَرَ الرُّهْبَانُ يَمْشَى وَنَزَلَ^(٦)

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا بشر بن آدم، حدثنا نصير بن أبى الأشعث، حدثنى الصلت الدهان، عن حامية بن رثاب قال: سألت سلمان عن قول الله [عز وجل]^(٧): ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ فقال: دع «القسيسين» فى البيع والخرب، أقرأنى رسول الله ﷺ: «ذلك بأن منهم صديقين ورهبانا»^(٨).

وكذا رواه ابن مردويه من طريق يحيى بن عبد الحميد الحماني، عن نصير بن زياد الطائي، عن صلت الدهان، عن حامية بن رثاب، عن سلمان، به.

وقال ابن أبى حاتم: ذكره أبى، حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحماني، حدثنا نصير بن زياد الطائي، حدثنا صلت الدهان، عن حامية بن رثاب قال: سمعت سلمان وسئل عن قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا﴾. قال: هم الرهبان الذين هم فى الصوامع والخرب، فدعوه فى فيها، قال سلمان: وقرأت^(٩) على النبى ﷺ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ [وَرُهْبَانًا]^(١٠)﴾، فأقرأنى: «ذلك بأن منهم صديقين ورهبانا»^(١١).

= ابن موهب القرشى يروى عن أبيه ما لا أصل له، فلما كثر ذلك عنه، سقط عن الاحتجاج به.

ورواه الخطيب البغدادي فى تاريخ بغداد (٣١٦/٨) من وجه آخر: من طريق جرير بن حازم، عن محمد بن سيرين، عن أبى هريرة، رضى الله عنه به، وقال: «هذا حديث غريب جداً من حديث محمد بن سيرين عن أبى هريرة، ومن حديث جرير بن حازم عن ابن سيرين لم أكتبه إلا من حديث خالد بن يزيد، عن وهب بن جرير».

(٣) فى ر: «وجودان وجواذين».

(٢) فى ر، أ: «وهو».

(٥) فى ر: «عائنت».

(٤) فى أ: «وقد جمع».

(٦) تفسير الطبرى (٥٠٣/١٠).

(٧) زيادة من أ.

(٨) ورواه البخارى فى التاريخ الكبير (١١٦/٨) من طريق معاوية بن هشام، عن نصير بن زياد به.

(٩) فى أ: «قرأت».

(١١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٦٦/٦) من طريق يحيى الحماني به. وقال الهيثمى فى المجمع (١٧/٧): «فيه يحيى الحماني ونصير بن زياد وكلاهما ضعيف».

فقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع، ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف، فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أى: مما عندهم من البشارة ببعثة محمد ﷺ ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أى: مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به.

وقد روى النسائي عن عمرو بن على الفلاس، عن عمر^(١) بن على بن مقدم، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير [رضى الله عنهما]^(٢) قال: نزلت هذه الآية في النجاشي وفي أصحابه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾^(٣).

وقال الطبراني: حدثنا أبو شبيل عبيد الله بن عبد الرحمن بن واقد، حدثنا أبي، حدثنا العباس ابن الفضل، عن عبد الجبار بن نافع الضبي، عن قتادة وجعفر بن إياس، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، فى قول الله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ قال: إنهم كانوا كرايين - يعنى: فلاحين - قدموا مع جعفر بن أبى طالب من الحبشة، فلما قرأ رسول الله ﷺ عليهم القرآن آمنوا وفاضت أعينهم، فقال رسول الله ﷺ: «ولعلكم إذا رجعتم إلى أرضكم انتقلتم»^(٤) إلى دينكم». فقالوا: لن نتقل عن ديننا. فأنزل الله ذلك من قولهم^(٥).

وروى ابن أبى حاتم: وابن مردويه، والحاكم فى مستدركه، من طريق سماك عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أى: مع محمد ﷺ، وأمتهم^(٦) الشاهدون، يشهدون لنبيهم أنه قد بلغ، وللرسل أنهم قد بلغوا. ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه^(٧).

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾: وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون فى قوله [عز وجل]^(٨): ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٩) الآية [آل عمران: ١٩٩]، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ مِنْ قَبْلِهِ بِهِ يَوْمَنُونَ. وَإِذَا تُلِيَ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ. [أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾^(١٠) إلى قوله: ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٥]؛

(٢) زيادة من أ.

(١) فى ر، أ: «عمرو».

(٣) سنن النسائي الكبرى برقم (١١١٤٨).

(٤) فى أ: «انقلبتهم».

(٥) المعجم الكبير (٥٥/١٢) وقال الهيثمى فى المجمع (١٨/٧): «فيه العباس بن الفضل الأنصارى وهو ضعيف».

(٦) فى د، ر، أ: «وهم».

(٧) المستدرک (٣١٣/٢).

(٨) زيادة من أ. (٩) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية». (١٠) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «إلى قوله».

ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فَأَتَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ^(١)﴾ أى: فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ساكنين^(٢) فيها أبداً، لا يحولون ولا يزولون، ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: فى اتباعهم الحق وانقيادهم له حيث كان، وأين كان، ومع من كان.

ثم أخبر عن حال الأشقياء فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أى: جحدوا بها وخالفوها ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أى: هم أهلها والداخلون إليها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ^(٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ^(٨٨)﴾.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: نزلت هذه الآية فى رهط من أصحاب النبى ﷺ، قالوا: نقطع مذاكيرنا، ونترك شهوات الدنيا، ونسيح فى الأرض كما يفعل الرهبان. فبلغ ذلك النبى ﷺ، فأرسل إليهم، فذكر لهم ذلك: فقالوا: نعم. فقال النبى ﷺ: «لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأنام، وأنكح النساء، فمن أخذ بسنتى فهو منى، ومن لم يؤخذ بسنتى فليس منى». رواه ابن أبى حاتم.

وروى ابن مردويه من طريق العوفى، عن ابن عباس نحو ذلك.

وفى الصحيحين، عن عائشة، رضى الله عنها؛ أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ^(٣) سألوا أزواج النبى ﷺ عن عمله فى السر، فقال بعضهم: لا أكل اللحم. وقال بعضهم: لا أتزوج النساء. وقال بعضهم: لا أنام على فراش. فبلغ ذلك النبى ﷺ، فقال: «ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا، لكنى أصوم وأفطر، وأنام وأقوم، وأكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى»^(٤).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن عاصم الأنصارى، حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد، عن عثمان - يعنى ابن سعد - أخبرنى عكرمة، عن ابن عباس؛ أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، إني إذا أكلت اللحم^(٥) انتشرت للنساء، وإنى حرمت على اللحم، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

وكذا رواه الترمذى وابن جرير جميعاً، عن عمرو بن على الفلاس، عن أبى عاصم النبيل، به.

(١) فى ر: «الأنهار خالدين فيها». (٢) فى ر، أ: «ماكنين». (٣) فى أ: «النبى».

(٤) هذا لفظ حديث أنس بن مالك: رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٠٦٣) ومسلم فى صحيحه برقم (١٤٠١). أما حديث عائشة فلفظه: صنع النبى ﷺ شيئاً ترخص فيه وتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبى ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «ما بال أقوام يتزهون عن الشيء أصنعوه؟ فوالله إني أعلمهم بالله وأشدهم له خشية». رواه البخارى برقم (٧٣٠١) ومسلم برقم (٢٣٥٦).

(٥) فى أ: «أكلت من هذا اللحم».

وقال: حسن غريب^(١). وقد روى من وجه آخر مرسلًا وروى موقوفًا على ابن عباس، فالله أعلم.

وقال سفيان الثوري ووكيع، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن عبد الله ابن مسعود قال: كنا نغزو مع رسول الله ﷺ، وليس معنا نساء، فقلنا: ألا نستخصي؟ فنهانا رسول الله ﷺ عن ذلك، ورخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل، ثم قرأ عبد الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ [وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ]﴾^(٢).

أخرجاه من حديث إسماعيل^(٣). وهذا كان قبل تحريم نكاح المتعة، والله أعلم.

وقال الأعمش، عن إبراهيم، عن همام بن الحارث، عن عمرو بن شريحيل قال: جاء معقل بن مقرن إلى عبد الله بن مسعود فقال: إني حرمت فراشي. فتلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ [وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ]﴾^(٤).

وقال الثوري، عن منصور، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: كنا عند عبد الله بن مسعود، فجاء بضرع، فتنحى رجل، فقال [له]^(٥) عبد الله: أدن. فقال: إني حرمت أن أكله. فقال عبد الله: ادن فاطعم، وكفر عن يمينك وتلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية.

رواهن ابن أبي حاتم. وروى الحاكم هذا الأثر الأخير في مستدركه، من طريق إسحاق بن راهويه، عن جرير، عن منصور، به. ثم قال: على شرط الشيخين ولم يخرجاه^(٦).

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني هشام بن سعد، أن زيد بن أسلم حدثه: أن عبد الله بن رواحة ضافه^(٧) ضيف من أهله، وهو عند النبي ﷺ، ثم رجع إلى أهله فوجدهم لم يطعموا ضيفهم انتظاراً له، فقال لامرأته: حبست ضيفي من أجلى، هو على حرام. فقالت امرأته: هو على حرام. وقال الضيف: هو على حرام. فلما رأى ذلك وضع يده وقال: كلوا باسم الله. ثم ذهب إلى النبي ﷺ فذكر الذي كان منهم، ثم أنزل^(٨) الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾. وهذا أثر منقطع^(٩).

وفى صحيح البخارى فى قصة الصديق [رضى الله عنه]^(١٠) مع أضيافه شبيه^(١١) بهذا^(١٢). وفيه،

(١) سنن الترمذى برقم (٣٠٥٤).

(٢) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦١٥) وصحيح مسلم برقم (١٤٠٤).

(٤) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٥) المستدرک (٣١٣/٢).

(٦) فى ر: «أضافه».

(٧) فى ر: «أضافه».

(٨) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (١٤٣/٣).

(٩) زيادة من أ.

(١٠) صحيح البخارى برقم (٦١٤٠).

(١١) فى أ: «شبه هذا».

وفى هذه القصة دلالة لمن ذهب من العلماء كالشافعى وغيره إلى أن من حرم مأكلاً أو ملبساً أو شيئاً ما عدا النساء أنه لا يحرم عليه، ولا كفارة عليه أيضاً؛ ولقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ؛ ولأن الذى حَرَّمَ اللحم على نفسه - كما فى الحديث المتقدم - لم يأمره النبى ﷺ بكفارة. وذهب آخرون منهم الإمام أحمد بن حنبل^(١) إلى أن من حرم مأكلاً أو مشرباً أو شيئاً من الأشياء فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين، كما إذا التزم تركه باليمين فكذلك يؤخذ بمجرد تحريمه على نفسه إلزاماً له بما التزمه، كما أفتى بذلك ابن عباس، وكما فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحریم: ١] ثم قال: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ الآية [التحریم: ٢]. وكذلك^(٢) ههنا لما ذكر هذا الحكم عقبه بالآية المبينة لتكفير اليمين، فدل على أن هذا منزل منزلة اليمين فى اقتضاء التكفير، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، عن مجاهد قال: أراد رجال، منهم عثمان بن مظعون وعبد الله بن عمرو، أن يَتَّبِعُوا وَيَخْصُوا أَنْفُسَهُمْ وَيَلْبَسُوا الْمُسُوحَ، فنزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾. قال ابن جريج، عن عكرمة: إن عثمان بن مظعون، وعلى بن أبى طالب، وابن مسعود، والمقداد بن الأسود، وسالمًا مولى أبى حذيفة فى أصحاب^(٣)، تبتلوا، فجلسوا فى البيوت، واعتزلوا النساء، ولبسوا المسوح، وحرموا طيبات الطعام واللباس إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بنى إسرائيل، وهموا بالإخفاء وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ يقول: لا تسيروا بغير سنة المسلمين^(٤)، يريد: ما حرّموا من النساء والطعام واللباس، وما أجمعوا عليه من قيام الليل وصيام النهار، وما هموا به من الإخفاء، فلما نزلت فيهم بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال: «إِنْ لَأَنْفُسَكُمْ حَقًّا، وَإِنْ لَأَعَيْنُكُمْ حَقًّا، صُومُوا وَأَفْطَرُوا، وَصَلُّوا وَنَامُوا، فَلَيْسَ مِنَّا مَنْ تَرَكَ سِتْنَانَا». فقالوا: اللهم سلمنا واتبعنا ما أنزلت^(٥).

وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين مرسله، ولها شاهد فى الصحيحين من رواية عائشة أم المؤمنين، كما تقدم ذلك، والله الحمد والمنة.

وقال أسباط، عن السدى فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ : وذلك أن رسول الله ﷺ جلس يوماً فذكر الناس، ثم قام ولم يزد هم^(٦) على التخويف، فقال ناس من أصحاب النبى ﷺ، كانوا عشرة منهم على بن أبى طالب، وعثمان بن مظعون: ما خفنا إن لم نحدث عملاً، فإن النصارى قد حرّموا على أنفسهم، فنحن نحرم. فحرم

(١) فى ١: «وذهب الإمام أحمد بن حنبل وآخرون».

(٢) فى ١: «أصحابه».

(٣) فى ١: «المسلمين».

(٤) فى ١: «المسلمين».

(٥) تفسير الطبرى (١٠/٥١٩).

(٦) فى ر: «يزدهم».

بعضهم أن يأكل اللحم والودك، وأن يأكل بنهار، وحرّم بعضهم النوم، وحرّم بعضهم النساء، فكان عثمان بن مظعون ممن حرّم النساء وكان^(١) لا يدنو من أهله ولا تدنو منه. فأتت امرأته عائشة، رضى الله عنها، وكان يقال لها: الحولاء، فقالت لها عائشة ومن عندها من أزواج النبي ﷺ: ما بالك يا حولاء متغيرة اللون، لا تمتشطين، لا تتطيبين؟ قالت: وكيف أمتشط وأنطيب وما وقع على زوجي وما رفع عني ثوباً، منذ كذا وكذا. قال: فجعلن يضحكن من كلامها، فدخل رسول الله ﷺ وهن يضحكن، فقال: «ما يضحكن؟» قالت: يا رسول الله، إن الحولاء سألتها عن أمرها، فقالت: ما رفع عني زوجي ثوباً منذ كذا وكذا. فأرسل إليه فدعاه، فقال: «مالك يا عثمان؟» قال: إني تركته لله، لكي أتخلي للعبادة، وقص عليه أمره، وكان عثمان قد أراد أن يجب نفسه، فقال رسول الله ﷺ: «أقسمت عليك إلا رجعت فواقعت أهلك». فقال: يا رسول الله، إني صائم. فقال: «أفطر». فافطر، وأتى أهله، فرجعت الحولاء إلى عائشة [زوج رسول الله ﷺ]^(٢) وقد امتشطت واكتحلت وتطيبت، فضحكت عائشة وقالت: مالك يا حولاء؟ فقالت: إنه أتاها أمس، وقال رسول الله ﷺ: «ما بال أقوام حرّموا النساء والطعام والنوم؟ ألا إني أنام وأقوم، وأفطر وأصوم، وأنكح النساء، فمن رغب عني فليس مني». فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ يقول لعثمان: «لا تجب نفسك، فإن هذا هو الاعتداء». وأمرهم أن يكفروا بإيمانهم، فقال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾. رواه^(٣) ابن جرير.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ يحتمل أن يكون المراد منه: ولا تبالغوا في التضيق على أنفسكم في تحريم^(٤) المباحات عليكم، كما قاله من قاله^(٥) من السلف. ويحتمل أن يكون المراد: كما لا تحرموا^(٦) الحلال فلا تعتدوا في تناول الحلال، بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم، ولا تجاوزوا الحد فيه، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [إنه لا يحب المُسْرِفين]^(٨) ﴿آل عمران: ٣١﴾ وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، فشرع الله عدل بين الغالى فيه والجافى عنه، لا إفراط ولا تفريط؛ ولهذا قال: ﴿لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

ثم قال: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا﴾ أى: فى حال كونه حلالاً طيباً، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: فى جميع أموركم، واتبعوا طاعته ورضوانه، واتركوا مخالفته^(٩) وعصيانه، ﴿الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾. ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ

(١) فى ر: «فكان».

(٢) زيادة من أ.

(٣) فى ر: «فكان».

(٤) فى د: «بتحريم».

(٥) فى أ: «قال».

(٦) فى د: «كقول».

(٧) فى د: «كقول».

(٨) زيادة من ر، أ، وفى هـ: «الآية».

(٩) فى ر: «محارمه».

عَشْرَةَ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

قد تقدم فى سورة البقرة الكلام على لغو اليمين، وأنه قول الرجل فى الكلام من غير قصد: لا والله، وبلى والله، وهذا مذهب الشافعى^(١)، وقيل: هو فى الهزل. وقيل: فى المعصية. وقيل: على غلبة الظن وهو قول أبى حنيفة وأحمد. وقيل: اليمين فى الغضب. وقيل: فى النسيان. وقيل: هو الحلف على ترك المأكَل والمشرب والملبس ونحو ذلك، واستدلوا بقوله: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

والصحيح أنه اليمين من غير قصد؛ بدليل قوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ أى: بما صمتم عليه من الأيمان وقصدتموها، فكفارته إطعام عشرة مساكين يعنى: محاويج من الفقراء، ومن لا يجد ما يكفيه.

وقوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعكرمة: أى من أعدل ما تطعمون أهليكم.

وقال عطاء الخراسانى: من أمثل ما تطعمون أهليكم. قال^(٢) ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن حجاج، عن أبى إسحاق السبيعى، عن الحارث، عن على قال: خبز ولبن، خبز^(٣) وسمن.

وقال ابن أبى حاتم: أنبأنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، حدثنا سفيان بن عيينة، عن سليمان - يعنى ابن أبى المغيرة - عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان الرجل يقوت بعض أهله قوت دون وبعضهم قوتاً فيه سعة، فقال الله تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أى: من الخبز والزيت. وحدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع عن إسرائيل، عن جابر، عن عامر، عن ابن عباس: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قال: من عسرهم ويسرهم.

وحدثنا عبد الرحمن بن خلف الحمصى، حدثنا محمد بن شعيب - يعنى ابن شاذان - حدثنا شيبان بن عبد الرحمن التميمى، عن ليث بن أبى سليم، عن عاصم الأحول، عن رجل يقال له: عبد الرحمن، عن ابن عمر أنه قال: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قال: الخبز واللحم، والخبز والسمن، والخبز واللبن، والخبز والزيت، والخبز والخل.

وحدثنا على بن حرب الموصلى، حدثنا أبو معاوية، عن عاصم، عن ابن سيرين، عن ابن عمر

(٣) فى ر: «وخبز».

(٢) فى أ: «وقال».

(١) فى ر: «وهذا مذهب يأتى».

فى قوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قال: الخبز والسمن، والخبز والزيت، والخبز والتمر، ومن أفضل ما تطعمون أهليكم: الخبز واللحم.

ورواه ابن جرير عن هناد وابن وكيع كلاهما عن أبى معاوية. ثم روى^(١) ابن جرير عن عُبَيْدة والأسود، وشريح القاضى، ومحمد بن سيرين، والحسن، والضحاك، وأبى رزين: أنهم قالوا نحو ذلك، وحكاه ابن أبى حاتم عن مكحول أيضاً.

واختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أى: فى القلة والكثرة.

ثم اختلف العلماء فى مقدار ما يطعمهم، فقال ابن أبى حاتم:

حدثنا أبو سعيد، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن حجاج، عن حُصَيْنِ الحارثى، عن الشعبي، عن الحارث، عن على [رضى الله عنه]^(٢) فى قوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قال: يغذيهم ويعشيهم.

وقال الحسن ومحمد بن سيرين: يكفيه أن يطعم عشرة مساكين أكلة واحدة خبزاً ولحماً، زاد الحسن: فإن لم يجد^(٣) فخبزاً وسمناً ولبناً، فإن لم يجد فخبزاً وزيتاً وخلاً حتى يشبعوا.

وقال آخرون: يطعم كل واحد من العشرة نصف صاع من بُرٍّ أو تمر، ونحوهما. هذا قول عمر، وعلى، وعائشة، ومجاهد، والشعبى، وسعيد بن جبیر، وإبراهيم النخعى، وميمون بن مهران، وأبى مالك، والضحاك، والحاكم^(٤)، ومكحول، وأبى قلابه، ومقاتل بن حيان.

وقال أبو حنيفة: نصف صاع [من]^(٥) بر، وصاع مما عداه.

وقد قال أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن الثقفى، حدثنا عبيد بن الحسن بن يوسف، حدثنا محمد بن معاوية، حدثنا زياد بن عبد الله بن الطُّفَيْل بن سَخْبَرَةَ ابن أخى عائشة لأمه، حدثنا عمرو بن يعلى، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: كَفَّرَ رسولُ الله ﷺ بصاع من تمر، وأمر الناس به، ومن لم يجد فنصف صاع من بُرٍّ.

ورواه ابن ماجه، عن العباس بن يزيد، عن زياد بن عبد الله البكائى، عن عُمر^(٦) بن عبد الله ابن يعلى الثقفى، عن المنهال بن عمرو، به^(٧).

لا يصح هذا الحديث لحال عُمر بن عبد الله هذا فإنه مجمع على ضعفه، وذكروا أنه كان يشرب الخمر. وقال الدارقطنى: متروك.

(٣) فى ر: «فإن لم تجد».

(٦) فى ر: «عمرو».

(٢) زيادة من أ.

(٥) زيادة من أ.

(١) فى أ: «وروى».

(٤) فى ر: «والحكم».

(٧) سنن ابن ماجه برقم (٢١١٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن إدريس، عن^(١) داود - يعنى ابن أبى هند - عن عكرمة، عن ابن عباس: مَدُّ^(٢) من بر - يعنى لكل مسكين - ومعه إدامه.

ثم قال: ورؤى عن ابن عمر، وزيد بن ثابت، وسعيد بن المسيب، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، وأبى الشعثاء، والقاسم^(٣)، وسالم، وأبى سلمة بن عبد الرحمن، وسليمان بن يسار، والحسن، ومحمد بن سيرين، والزهرى، نحو ذلك.

وقال الشافعى: الواجب فى كفارة اليمين مَدُّ بُدُّ النبى ﷺ لكل مسكين. ولم يتعرض للأدم - واحتج بأمر النبى ﷺ للذى جامع فى رمضان بأن يطعم ستين مسكيناً من مكيل يسع خمسة عشر صاعاً لكل واحد منهم مَدُّ.

وقد ورد حديث آخر صريح فى ذلك، فقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا أحمد بن على بن الحسن المقرئ، حدثنا محمد بن إسحاق السراج، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا النضر بن زُرارة الكوفى، عن عبد الله بن عُمَرَ^(٤) العُمَرى، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ كان يقيم كفارة اليمين مَدّاً من حنطة بالمد الأول.

إسناده ضعيف، لحال النضر بن زرارة بن عبد الأكرم الذهلى الكوفى نزيل بَلَخ، قال فيه أبو حاتم الرازى: هو مجهول مع أنه قد روى عنه غير واحد. وذكره ابن حبان فى الثقات وقال: روى عنه قتيبة بن سعيد أشياء مستقيمة، فالله أعلم. ثم إن شيخه العُمَرى ضعيف أيضاً. وقال أحمد بن حنبل: الواجب مَدٌّ من بر، أو مدان من غيره. والله أعلم.

وقوله: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾: قال الشافعى، رحمه الله: لو دفع إلى كل واحد من العشرة ما يصدق عليه اسم الكسوة من قميص أو سراويل أو إزار أو عمامة أو مقنعة أجزاء ذلك. واختلف أصحابه فى القلنسوة: هل تجزئ أم لا؟ على وجهين، فمنهم من ذهب إلى الجواز، احتجاجاً بما رواه ابن أبى حاتم:

حدثنا أبو سعيد الأشج، وعمار بن خالد الواسطى قالا: حدثنا القاسم بن مالك، عن محمد بن الزبير، عن أبيه قال: سألت عمران بن حصين عن قوله: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ قال: لو أن وفداً قدموا على أميركم وكساهم^(٥) قلنسوة قلنسوة، قلتهم: قد كُسُوا.

ولكن هذا إسناده ضعيف؛ لحال محمد بن الزبير هذا، والله أعلم. وهكذا حكى الشيخ أبو حامد الاسفراينى^(٦) فى الخف وجهين أيضاً، والصحيح عدم الإجزاء.

وقال مالك وأحمد بن حنبل: لا بد أن يدفع إلى كل واحد منهم من الكسوة ما يصح أن يصلى فيه، إن كان رجلاً أو امرأة، كل بحسبه. والله أعلم.

وقال العوفى عن ابن عباس: عباءة لكل مسكين، أو ثَمْلَةٌ.

(٣) فى ر: «وأبى القاسم».

(٢) فى ر: «مَدَّ».

(١) فى ر: «هو».

(٦) فى ر: «الاسفراينى».

(٥) فى أ: «فكساهم».

(٤) فى ر: «عمرو».

وقال مجاهد: أدناه ثوب، وأعلاه ما شئت.

وقال ليث، عن مجاهد: يجزئ في كفارة اليمين كل شيء إلا التبان.

وقال الحسن، وأبو جعفر الباقر، وعطاء، وطاوس، وإبراهيم النخعي، وحماد بن أبي سليمان، وأبو مالك: ثوب ثوب.

وعن إبراهيم النخعي أيضاً: ثوب جامع كالملحفة والرداء، ولا يرى الدرع والقميص والخمار ونحوه جامعاً.

وقال الأنصاري، عن أشعث، عن ابن سيرين، والحسن: ثوبان^(١).

وقال الثوري، عن داود بن أبي هند، عن سعيد بن المسيب: عمامة يلف بها رأسه، وعباءة يلتحف بها.

وقال ابن جرير: حدثنا هناد، حدثنا ابن المبارك، عن عاصم الأحول، عن ابن سيرين، عن أبي موسى؛ أنه حلف على يمين، فكسا ثوبين من معقدة البحرين.

وقال ابن مردويه: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا أحمد بن المعلى، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن مقاتل بن سليمان، عن أبي عثمان، عن أبي عياض، عن عائشة، عن رسول الله ﷺ في قوله: «أَوْ كِسْوَتُهُمْ»، قال: «عباءة لكل مسكين»^(٢). حديث غريب.

وقوله: «أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ»: أخذ أبو حنيفة بإطلاقها، فقال: تجزئ الكافرة كما تجزئ المؤمنة. وقال الشافعي وآخرون: لا بد أن تكون مؤمنة. وأخذ تقييدها بالإيمان من كفارة القتل؛ لاتحاد الموجب وإن اختلف السبب ولحديث معاوية بن الحكم السلمي، الذي هو في موطأ مالك ومسنند الشافعي وصحيح مسلم: أنه ذكر أن عليه عتق رقبة، وجاء معه بجارية سوداء، فقال لها رسول الله ﷺ: «أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله. قال: «اعتقها فإنها مؤمنة». الحديث بطوله^(٣).

فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين، أيها فعَلَ الحانثُ أجراً عنه بالإجماع. وقد بدأ بالأسهل فالأسهل، فالإطعام أيسر من الكسوة، كما أن الكسوة أيسر من العتق، فَرُقِيَ فيها من الأدنى إلى الأعلى. فإن لم يقدر المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاث كفر بصيام ثلاثة أيام، كما قال تعالى: «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ».

وروى ابن جرير، عن سعيد بن جبيرة والحسن البصري أنهما قالوا: من وجد ثلاثة دراهم لزمه الإطعام وإلا صام.

وقال ابن جرير، حاكياً عن بعض متأخري متفقهة زمانه أنه قال: جائز لمن لم يكن له فضل عن

(١) في ر، أ: «ثوبان ثوبان».

(٢) وفي إسناده مقاتل بن سليمان البلخي، كذبه وكيع والنسائي. وقال البخاري: سكتوا عنه. وإسماعيل بن عياش روايته عن غير أهل الشام ضعيفة.

(٣) الموطأ (٧٧٧/٢) ومسنند الشافعي برقم (١١٩٦) «بدائع المن» وصحيح مسلم برقم (٥٣٧).

رأس مال يتصرف به لمعاشه ما يكفر به بالإطعام، أن يصوم إلا أن يكون له كفاية، ومن المال ما يتصرف به لمعاشه، ومن الفضل عن ذلك ما يكفر به عن يمينه.

ثم اختار ابن جرير: أنه الذي لا يفضل عن قوته^(١) وقوت عياله في يومه ذلك ما يخرج به كفارة اليمين^(٢).

واختلف العلماء: هل يجب فيها التتابع، أو يستحب ولا يجب ويجزئ التفريق؟ على قولين: أحدهما أنه لا يجب التتابع، هذا منصوص الشافعي في كتاب «الإيمان»، وهو قول مالك، لإطلاق قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ وهو صادق على المجموعة والمفرقة، كما في قضاء رمضان؛ لقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

ونص الشافعي في موضع آخر في «الأم» على وجوب التتابع، كما هو قول الحنفية والحنابلة؛ لأنه قد روى عن أبي بن كعب وغيرهم أنهم كانوا يقرؤونها: «فصيام ثلاثة أيام متتابعات».

قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب أنه كان يقرؤها: «فصيام ثلاثة أيام متتابعات».

وحكاها مجاهد، والشعبي، وأبو إسحاق عن عبد الله بن مسعود.

وقال إبراهيم: في قراءة عبد الله بن مسعود: «فصيام ثلاثة أيام متتابعات».

وقال الأعمش: كان أصحاب ابن مسعود يقرؤونها كذلك.

وهذه^(٣) إذا لم يثبت كونها قرآناً متواتراً، فلا أقل من أن يكون خبر واحد، أو تفسيراً من الصحابي، وهو في حكم المرفوع.

وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن علي، حدثنا محمد بن جعفر^(٤) الأشعري، حدثنا الهيثم بن خالد القرشي، حدثنا يزيد بن قيس، عن إسماعيل بن يحيى، عن ابن عباس قال: لما نزلت آية الكفارات قال حذيفة: يا رسول الله، نحن بالخيار؟ قال: «أنت بالخيار، إن شئت أعتقت، وإن شئت كسوت، وإن شئت أطعمت، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام متتابعات».

وهذا حديث غريب جداً^(٥).

وقوله: ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ قال ابن جرير: معناه لا تتركوها بغير تكفير. ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: يوضحها وينشرها^(٦) ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

(١) في أ: «مؤنته».

(٢) تفسير الطبري (٥٥٩/١٠).

(٣) في أ: «وهذا».

(٤) في أ: «أحمد».

(٥) وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٥٥/٣) ولم يعزه لغير ابن مردويه. ويزيد بن قيس أظن أنه «يزيد بن قيس» وأنه تصحف هنا، وإسماعيل بن يحيى هو ابن عبيد الله كان يضع الحديث قال ابن عدى: عامة ما يرويه بواطيل، ثم الإسناد معضل، فإن بينه وبين ابن عباس قرن من الزمان تقريباً.

(٦) في ر، أ: «ويفسرها».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣)﴾.

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر والميسر، وهو القمار.

وقد ورد عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب أنه قال: الشُّطْرَنْجُ من الميسر. رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن عبيس بن مرحوم، عن حاتم، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن على، به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي^(١)، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن ليث، عن عطاء ومجاهد وطاوس - قال سفيان: أو اثنين منهم - قالوا: كل شيء من القمار فهو من الميسر، حتى لعب الصبيان بالجوز.

وروى عن راشد بن سعد وحمزة بن حبيب^(٢)، وقالوا: حتى الكعاب، والجوز، والبيض التي^(٣) تلعب بها الصبيان، وقال موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر قال: الميسر هو القمار.

وقال الضحاك، عن ابن عباس قال: الميسر هو القمار، كانوا يتقمارون في الجاهلية إلى مجيء الإسلام، فنهاهم الله عن هذه الأخلاق القبيحة.

وقال مالك، عن داود بن الحصين: أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: كان ميسر أهل الجاهلية بيع اللحم بالشاة والشاتين.

وقال الزهري، عن الأعرج قال: الميسر والضرب بالقدرح على الأموال والثمار.

وقال القاسم بن محمد: كل ما ألهى عن ذكر الله وعن الصلاة، فهو من الميسر.

رواهن ابن أبي حاتم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا صدقة، حدثنا عثمان بن أبي العاتكة، عن على بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة، عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا هذه الكعاب الموسومة التي يزجر بها زجراً فإنها من الميسر». حديث غريب^(٤).

(١) في أ: «الاعمشى».

(٢) في أ: «حبيب مثله».

(٣) في أ: «الذى».

(٤) وذكره ابن أبي حاتم في العلل (٢/٢٩٧)، وقال: «قال أبي: هذا حديث باطل وهو من على بن يزيد، وعثمان لا بأس به».

وكان المراد بهذا هو الرد، الذي ورد في الحديث به في صحيح مسلم، عن بُريدة بن الحُصيب الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه»^(١). وفي موطأ مالك ومسنند أحمد، وسنن أبي داود وابن ماجه، عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «من لعب بالنرد فقد عصي الله ورسوله»^(٢). وروى موقوفاً عن أبي موسى من قوله، فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا مكى بن إبراهيم^(٣)، حدثنا الجعيد، عن موسى بن عبد الرحمن الخطمي؛ أنه سمع محمد بن كعب وهو يسأل عبد الرحمن يقول: أخبرني، ما سمعت أباك يقول عن رسول الله ﷺ^(٤)؟ فقال عبد الرحمن: سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مثل الذي يلعب بالنرد، ثم يقوم فيصلي، مثل الذي يتوضأ بالقيح ودم الخنزير ثم يقوم فيصلي»^(٥).

وأما الشطرنج فقد قال عبد الله بن عمر: إنه شر من الرد. وتقدم عن علي أنه قال: هو من الميسر، ونص على تحريمه مالك، وأبو حنيفة، وأحمد، وكرهه الشافعي، رحمهم الله تعالى.

وأما الأنصاب، فقال ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، والحسن، وغير واحد: هي حجارة كانوا يذبحون قرايينهم عندها.

وأما الأزلام فقالوا أيضاً: هي قدام كانوا يستقسمون بها.

وقوله: ﴿رَجَسُ مَنْ عَمِلَ الشَّيْطَانُ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي سَخَط من عمل الشيطان. وقال سعيد بن جبير: إثم. وقال زيد بن أسلم: أي شر من عمل الشيطان.

﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾: الضمير عائد على الرجس، أي: أتركوه ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ وهذا ترغيب.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ وهذا تهديد وترهيب.

ذكر الأحاديث الواردة في [بيان]^(٦) تحريم الخمر:

قال الإمام أحمد: حدثنا سريج^(٧)، حدثنا أبو معشر، عن أبي وهب مولى أبي هريرة، عن أبي هريرة قال: حرمت الخمر ثلاث مرات، قدم رسول الله ﷺ المدينة، وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ إلى آخر الآية [البقرة: ٢١٩]. فقال الناس: ما حرم علينا، إنما قال: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾. وكانوا يشربون الخمر، حتى كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين، أم أصحابه^(٨) في

(١) صحيح مسلم برقم (٢٢٦٠).

(٢) الموطأ (٩٥٨/٢) والمسنند (٣٩٤/٤) وسنن أبي داود برقم (٤٩٣٨) وسنن ابن ماجه برقم (٣٧٦٢).

(٣) في أ: «علي بن إبراهيم» وهو خطأ.

(٤) في أ: «عن النبي».

(٥) المسند (٣٧٠/٥) وقال الهيثمي في المجمع (١١٣/٨): «فيه موسى بن عبد الرحمن الخطمي ولم أعرفه، وبقي رجال أحمد رجال الصحيح».

(٦) زيادة من أ.

(٧) في د، ر: «سريج».

(٨) في ر: «الصحابه».

المغرب، خلط في قراءته، فأُنزل الله [عز وجل] ^(١) آية أغلظ منها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]. وكان الناس يشربون، حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مفق. ثم أنزلت آية أغلظ من ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قالوا: انتهينا ربنا. وقال الناس: يا رسول الله، ناس قتلوا في سبيل الله، [وناس] ^(٢) ماتوا على سرفهم ^(٣)، كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر، وقد جعله الله رجساً من عمل الشيطان؟ فأُنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا﴾ إلى آخر الآية، وقال النبي ﷺ: «لو حرم عليهم لتركوه كما تركتم». انفرد به أحمد ^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي ميسرة، عن عمر بن الخطاب [رضى الله عنه] ^(٥) أنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت هذه الآية التي في البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، فدعى عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ فكان ^(٦) منادى رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى: ألا يقربن الصلاة سكران. فدعى عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في المائدة، فدعى عمر فقرئت عليه فلما بلغ: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ قال عمر: انتهينا ^(٧).

وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي من طرق، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق عمرو بن عبد الله السبيعي وعن أبي ميسرة - واسمه عمرو بن شريحيل الهمداني - عن عمر، به. وليس له عنه سواه، قال أبو زرعة: ولم يسمع منه. وصحح هذا الحديث على بن المديني والترمذي ^(٨).

وقد ثبت في الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قال في خطبته على منبر رسول الله ﷺ: أيها الناس، إنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة: من العنب، والتمر، والعسل، والحنطة، والشعير، والخمر ما خامر العقل ^(٩).

وقال البخاري: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا محمد بن بشر، حدثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، حدثني نافع، عن ابن عمر قال: نزل تحريم الخمر وإن بالمدينة يومئذ خمسة أشربة ما فيها شراب العنب ^(١٠).

حديث آخر: قال أبو داود الطيالسي: حدثنا محمد بن أبي حميد، عن المصري - يعني أبا طعمة

(١) (٢) زيادة من أ. (٣) في ر: «شربهم»، وفي أ: «فرشهم».

(٤) المسند (٣٥١/٢).

(٥) زيادة من أ. (٦) في أ: «حتى كان». (٧) في أ: «انتهينا انتهينا».

(٨) المسند (٥٣/١) وسنن أبي داود برقم (٣٦٧٠) وسنن الترمذي برقم (٣٠٤٩) وسنن النسائي (٢٨٦/٨).

(٩) صحيح البخاري برقم (٤٦١٩) وصحيح مسلم برقم (٣٠٣٢).

(١٠) صحيح البخاري برقم (٤٦١٦).

قارئ مصر - قال: سمعت ابن عمر يقول: نزلت في الخمر ثلاث آيات، فأول شيء نزل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ الآية [البقرة: ٢١٩] فقيل: حرمت الخمر. فقالوا: يا رسول الله، ننتفع بها كما قال الله تعالى. قال: فسكت عنهم ثم نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء: ٤٣]. فقيل: حرمت الخمر، فقالوا: يا رسول الله، إنا لا نشربها قرب الصلاة، فسكت عنهم ثم نزلت^(١): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «حرمت الخمر»^(٢).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يعلى، حدثنا محمد بن إسحاق، عن القعقاع بن حكيم؛ أن عبد الرحمن بن وعلّة قال: سألت ابن عباس عن بيع الخمر، فقال: كان لرسول الله ﷺ صديق من ثقيف - أو: من دوس - فلقية يوم الفتح براوية خمر يهديها إليه، فقال رسول الله ﷺ: «يا فلان، أما علمت أن الله حرمها؟» فأقبل الرجل على غلامه فقال: اذهب فبعها. فقال رسول الله ﷺ: «يا فلان، بماذا أمرته؟» فقال: أمرته أن يبيعهها. قال: «إن الذي حرم شربها حرم بيعها». فأمر بها فأفرغت في البطحاء.

رواه مسلم من طريق ابن وهب، عن مالك، عن زيد بن أسلم. ومن طريق ابن وهب أيضاً، عن سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد كلاهما - عن عبد الرحمن بن وعلّة، عن ابن عباس، به. ورواه النسائي، عن قتيبة، عن مالك، به^(٣).

حديث آخر: قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا أبو بكر الحنفى، حدثنا عبد الحميد بن جعفر، عن شهر بن حوشب، عن تميم الدارى أنه كان يهدى لرسول الله ﷺ راوية^(٤) من خمر، فلما أنزل الله تحريم الخمر جاء بها، فلما رآها رسول الله ﷺ ضحك وقال: «إنها قد حرمت بعدك». قال: يا رسول الله، فأبيعها أنتفع بثمنها؟ فقال رسل الله ﷺ: «لعن الله اليهود، حرم عليهم شحوم البقر والغنم، فأذابوه، وباعوه، والله حرم الخمر وثمنها»^(٥).

وقد رواه أيضاً الإمام أحمد فقال: حدثنا رَوْح، حدثنا عبد الحميد بن بهرام قال: سمعت شهر ابن حوشب قال: حدثني عبد الرحمن بن غنم: أن الدارى كان يهدى لرسول الله ﷺ كل عام راوية من خمر، فلما كان عام حرمت جاء براوية، فلما نظر إليه ضحك فقال^(٦): «أشعرت أنها قد حرمت بعدك؟» فقال: يا رسول الله، ألا^(٧) أبيعها وأنتفع بثمنها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لعن الله اليهود، انطلقوا إلى ما حرم عليهم من شحم البقر والغنم فأذابوه، فباعوا به ما يأكلون، وإن الخمر حرام

(١) فى أ: «فنزلت».

(٢) مسند الطيالسى برقم (١٩٥٧).

(٣) المسند (١/ ٢٣٠) والموطأ (٢/ ٨٤٦) وصحيح مسلم برقم (١٥٧٩) وسنن النسائي (٧/ ٣٠٧).

(٤) فى أ: «ﷺ كل عام راوية».

(٥) وفى إسناده انقطاع.

ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٥٧/ ٢) من طريق زيد بن أخزم، عن أبي بكر الحنفى، عن عبد الحميد بن جعفر، عن شهر بن

حوشب، عن عبد الرحمن بن غنم، عن تميم الدارى به.

(٧) فى أ: «أفلا».

(٦) فى أ: «وقال».

وثنمها حرام، وإن الخمر حرام وثنمها حرام، وإن الخمر حرام وثنمها حرام»^(١).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا قُتَيْبَةُ بن سعيد، حدثنا ابن لَهَيْعَةَ، عن سليمان بن عبد الرحمن، عن نافع بن كَيْسَانَ أن أباه أخبره^(٢): أنه كان يتجر في الخمر في زمن رسول الله ﷺ، وأنه أقبل من الشام ومعه خمر في الزقاق، يريد بها التجارة، فأتى بها رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني جئت بك بشراب طيب^(٣)، فقال رسول الله ﷺ: «يا كيسان، إنها قد حرمت بعدك». قال: فأبيعه يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنها قد حرمت وحرمت ثمنها». فانطلق كيسان إلى الزقاق، فأخذ بأرجلها ثم هراقها^(٤).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن حميد، عن^(٥) أنس قال: كنت أسقى أبا عبيدة بن الجراح، وأبى بن كَعْب، وسُهَيْل بن بيضاء، ونفراً من أصحابه عند أبي طلحة وأنا أسقيهم، حتى كاد الشراب يأخذ منهم، فأتى آت من المسلمين فقال: أما شعرت أن الخمر قد حرمت؟ فما قالوا: حتى ننظر ونسأل، فقالوا: يا أنس أكف ما بقى في إنائك، فوالله^(٦) ما عادوا فيها، وما هي إلا التمر والبسر، وهي خمرهم يومئذ^(٧).

أخرجاه في الصحيحين - من غير وجه - عن أنس^(٨). وفي رواية حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس قال: كنت ساقى القوم يوم حرمت الخمر في بيت أبي طلحة، وما شربهم إلا الفَضِيخ البسر والتمر، فإذا مناد ينادى، قال: اخرج فانظر. فإذا مناد ينادى: ألا إن الخمر قد حرمت، فجرت في سكك المدينة، قال: فقال لى أبو طلحة: اخرج فأهرقها. فهرقتها، فقالوا - أو: قال بعضهم: قُتِلَ فلان وفلان وهي في بطونهم. قال: فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا﴾ الآية^(٩).

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بَشَّار، حدثني عبد الكبير بن عبد المجيد^(١٠)، حدثنا عباد بن راشد، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: بينما أنا أدير الكأس على أبي طلحة، وأبى عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسهيل بن بيضاء، وأبى دُجَّانَةَ، حتى مالت رؤوسهم من خليط بَسْر وتمر. فسمعت منادياً ينادى: ألا إن الخمر قد حرمت! قال: فما دخل علينا داخل ولا خرج منا خارج، حتى أهرقنا الشراب، وكسرنا القلال، وتوضأ بعضنا واغتسل بعضنا، وأصبنا من طيب أم سليم، ثم خرجنا إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ

(١) المسند (٢٢٦/٤) وقال الهيثمي في المجمع (٨٨/٤)، «فيه شهر وحديثه حسن وفيه كلام».

(٢) في أ: «أن أباه قد أخبره».

(٣) في أ: «جيد».

(٤) المسند (٣٣٧/٤) وقال الهيثمي في المجمع (٨٨/٤): «فيه نافع بن كيسان وهو مستور».

(٥) في ر: «بن».

(٦) في أ: «فرايته».

(٧) المسند (١٨١/٣).

(٨) صحيح البخارى برقم (٤٦٢٠) وصحيح مسلم برقم (١٩٨٠).

(٩) هذا لفظ مسلم في صحيحه برقم (١٩٨٠).

(١٠) في د، ر: «عبد الحميد».

رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾. فقال رجل: يا رسول الله، فما منزلة من مات وهو يشربها؟ فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا [إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ]»^(١) الآية، فقال رجل لقتادة: سمعته من أنس بن مالك؟ قال: نعم. وقال رجل لأنس بن مالك: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم - أو: حدثني من لم يكذب، ما كنا نكذب، ولا ندرى ما الكذب^(٢).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، أخبرني يحيى بن أيوب، عن عبيد الله ابن زحر، عن بكر بن سواده، عن قيس بن سعد بن عبادة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن ربي تبارك وتعالى حرم على الخمر، والكوبة، والقنين. وإياكم والغبراء فإنها ثلث خمر العالم»^(٣).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا فرج بن فضالة، عن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن رافع^(٤)، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله حرم على أمتي الخمر والميسر، والمزر، والكوبة والقنين. وزادني صلاة الوتر». قال يزيد: القنين: البرابط. تفرد به أحمد^(٥).

وقال أحمد أيضاً: حدثنا أبو عاصم - وهو النبيل - أخبرنا عبد الحميد بن جعفر، حدثنا يزيد بن أبي حبيب، عن عمرو بن الوليد، عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال على ما لم أقل فليتبوأ مقعده من جهنم». قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله حرم الخمر والميسر والكوبة والغبراء، وكل مسكر حرام». تفرد به أحمد أيضاً^(٦).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، عن أبي طعمة - مولا هم - وعن عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي أنهما سمعا ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «لعنت الخمر على عشرة وجوه: لعنت الخمر بعينها وشاربها، وساقها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وأكل ثمنها». ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث وكيع، به^(٧).

وقال أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو طعمة، سمعت ابن عمر يقول: خرج رسول الله ﷺ إلى المريد، فخرجت معه فكننت عن يمينه، وأقبل أبو بكر فتأخرت عنه، فكان عن يمينه وكننت عن يساره. ثم أقبل عمر فتنحيت له، فكان عن يساره. فأتى رسول الله ﷺ المريد، فإذا بزقاق على المريد فيها خمر - قال ابن عمر -: فدعاني رسول الله ﷺ بالمدية - قال ابن عمر: وما عرفت المدية إلا يومئذ - فأمر بالزقاق فشقت، ثم قال: «لعنت الخمر وشاربها، وساقها، وبائعها، ومبتاعها،

(١) زيادة من ر.

(٢) تفسير الطبري (٥٧٨/١٠) ورواه البزار في مسنده برقم (٢٩٢٢) «كشف الأستار» من طريق عباد بن راشد، عن قتادة، عن أنس بنحوه.

(٣) المسند (٤٢٢/٤) وقال الهيثمي في المجمع (٥٤/٥): «فيه عبيد الله بن زحر وثقه أبو زرعة والنسائي وضعفه الجمهور».

(٤) في ر: «نافع».

(٥) المسند (١٦٣/٢) وقال الهيثمي في المجمع (٢٤٠/٢): «فيه إبراهيم بن عبد الرحمن بن رافع وهو مجهول».

(٦) المسند (١٧١/٢).

(٧) المسند (٢٥/٢) وسنن أبي داود برقم (٣٦٧٤) وسنن ابن ماجه برقم (٣٣٨٠).

وحاملها، والمحمولة إليه، وعاصرها، ومعتصرها، وأكل ثمنها^(١).

وقال أحمد: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا أبو بكر بن أبي مريم، عن ضمرة بن حبيب قال: قال عبد الله بن عمر: أمرني رسول الله ﷺ أن آتية بمدية وهى الشفرة، فأتيتها بها فأرسل بها فأرهفت ثم أعطانيها وقال: «اغد على بها». ففعلت فخرج بأصحابه إلى أسواق المدينة، وفيها زقاق الخمر قد جلبت من الشام، فأخذ المدية منى فشق ما كان من تلك الزقاق بحضرته، ثم أعطانيها وأمر أصحابه الذين كانوا معه أن يمضوا معي وأن يعاونوني، وأمرني أن آتى الأسواق كلها فلا أجد فيها زق خمر إلا شققته، ففعلت، فلم أترك فى أسواقها زقاً إلا شققته^(٢).

حديث آخر: قال عبد الله بن وهب: أخبرني عبد الرحمن بن شريح، وابن لهيعة، والليث بن سعد، عن خالد بن يزيد، عن ثابت بن يزيد الخولاني أخبره: أنه كان له عم يبيع الخمر، وكان يتصدق، فنهيته عنها فلم ينته، فقدمت المدينة فتلقيت^(٣) ابن عباس، فسألته عن الخمر وثمرتها، فقال: هى حرام وثمرتها حرام. ثم قال ابن عباس، رضى الله عنه: يا معشر أمة محمد، إنه لو كان كتاب بعد كتابكم، ونبي بعد نبيكم، لأنزل فيكم كما أنزل فيمن قبلكم، ولكن آخر ذلك من أمركم إلى يوم القيامة، ولعمري لهو أشد عليكم، قال ثابت: فلقيت عبد الله بن عمر فسألته عن ثمن الخمر، فقال: سأخبرك عن الخمر، إنى كنت عند رسول الله ﷺ فى المسجد، فبينما هو محتب حلّ حبوته ثم قال: «من كان عنده من هذه الخمر شئ فليأتنا بها». فجعلوا يأتونه، فيقول أحدهم: عندي راوية. ويقول الآخر: عندي زق أو: ما شاء الله أن يكون عنده، فقال رسول الله ﷺ: «اجمعوا ببيع كذا وكذا ثم آذنوني». ففعلوا، ثم آذنوه فقام وقمت معه، فمشيت عن يمينه وهو متكئ على، فألقنا أبو بكر، رضى الله عنه، فأخبرني رسول الله ﷺ، فجعلنى عن شماله، وجعل أبا^(٤) بكر مكانى. ثم لحقنا عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فأخبرني، وجعله عن يساره، فمشى بينهما. حتى إذا وقف على الخمر قال للناس: «أتعرفون هذه^(٥)» قالوا: نعم، يا رسول الله، هذه الخمر. قال: «صدقتم». قال: «فإن الله لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها، وشاربها وساقيتها، وحاملها والمحمولة إليه، وبائعها ومشتريها وأكل ثمنها». ثم دعا بسكين فقال: «اشحذوها». ففعلوا، ثم أخذها رسول الله ﷺ يخرق بها الزقاق، قال: فقال الناس: فى هذه الزقاق منفعة، قال: «أجل، ولكنى إنما أفعل ذلك غضباً لله، عز وجل، لما فيها من سخطه». فقال عمر: أنا أكفيك يا رسول الله؟ قال: «لا».

قال ابن وهب: وبعضهم يزيد على بعض فى قصة الحديث. رواه البيهقي^(٦).

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو الحسين بن بشران، أنبأنا إسماعيل بن محمد

(١) المسند (٧١/٢).

(٢) المسند (١٣٢/٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٥٤/٥): «رواه أحمد بإسنادين فى أحدهما أبو بكر بن أبي مريم وقد اختلط، وفى الآخر أبو طعمة، وقد وثقه محمد بن عمار الموصلى، وضعفه مكحول وبقية رجاله ثقات».

(٣) فى أ: «فلقيت». (٤) فى ر: «أبو» وهو خطأ. (٥) فى ر: «هذا».

(٦) السنن الكبرى (٢٨٦/٨).

الصفار، حدثنا محمد بن عبيد الله المنادى، حدثنا وهب بن جرير، حدثنا شعبة، عن سماك، عن مصعب بن سعد، عن سعد، قال: أنزلت في الخمر أربع آيات، فذكر الحديث. قال: وصنع رجل من الأنصار طعاماً، فدعانا فشربنا الخمر قبل أن تحرم حتى انتشينا، فتفاخرنا، فقالت الأنصار: نحن أفضل. وقالت قريش: نحن أفضل. فأخذ رجل من الأنصار لحي جزور، فضرب به أنف سعد ففزره، وكان أنف سعد مفزوراً^(١). فنزلت آية الخمر: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ﴾^(٢) إلى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾، أخرجه مسلم من حديث شعبة^(٣).

حديث آخر: قال البيهقي: وأخبرنا أبو نصر بن قتادة، أنبأنا أبو علي الرفاء، حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا ربيعة بن كلثوم، حدثني أبي، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: إنما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار، شربوا فلما أن ثمل القوم عبث بعضهم ببعض، فلما أن صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه ورأسه ولحيته، فيقول: صنع بي هذا أخى فلان - وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن^(٤): والله لو كان بي رؤوفاً رحيماً ما صنع هذا بي، حتى وقعت^(٥) الضغائن في قلوبهم فأنزل الله هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ [فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ] . إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾^(٦) فهل أنتم منتهون؟ فقال ناس من المتكلفين: هي رجس، وهي في بطن فلان، وقد قتل يوم أحد، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا [إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسِنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ]﴾^(٧).

ورواه النسائي في التفسير عن محمد بن عبد الرحيم صاعقة، عن حجاج بن منهال^(٨).

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثني محمد بن خلف، حدثنا سعيد بن محمد الجرمي، عن أبي ثُمَيْلَةَ، عن سلام مولى حفص أبي القاسم، عن ابن بريدة، عن أبيه قال: بينا نحن قعود على شراب لنا، ونحن رَمَلَةٌ، ونحن ثلاثة أو أربعة، وعندنا باطية لنا، ونحن نشرب الخمر حلاً، إذ قمت حتى أتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه، إذ نزل تحريم الخمر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ إلى آخر الآيتين^(٩): ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾؟ فجئت إلى أصحابي فقرأتها إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾؟ قال: وبعض القوم شربته في يده، قد شرب بعضها وبقي بعض في الإناء، فقال بالإناء تحت شفته العليا، كما يفعل الحجام، ثم صبوا ما في باطيتهم^(١٠) فقالوا: انتهينا ربنا^(١١).

حديث آخر: قال البخاري: حدثنا صدقة بن الفضل، أخبرنا ابن عيينة، عن عمرو، عن جابر

(١) في د، ر: «مفزورة».

(٢) السنن الكبرى (٢٨٥/٨) ولفظه عنده. «أنزلت في أربع آيات». وصحيح مسلم برقم (١٧٤٨).

(٣) في د، أ: «ضغائن فيقول».

(٤) في د، أ: «حتى إذا وقعت».

(٥) زيادة من ر، أ، وفي هـ: «إلى آخر الآية».

(٦) زيادة من ر، أ، وفي هـ: «إلى قوله تعالى».

(٧) السنن الكبرى (٢٨٥/٨) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١١٥١).

(٨) في أ: «الآية».

(٩) في أ: «باطنهم».

(١٠) تفسير الطبري (٥٧٢/١٠).

قال: صَبَّحَ ناسٌ غداةَ أحدِ الخمر، فَقَتَّلُوا من يومهم جميعاً شهداء، وذلك قبل تحريمها.

هكذا رواه البخارى فى تفسيره من صحيحه^(١)، وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده: حدثنا أحمد بن عبدة، حدثنا سفيان، عن^(٢) عمرو بن دينار سمع جابر بن عبد الله يقول: اصطبغ ناس الخمر من أصحاب النبي ﷺ، ثم قتلوا شهداء يوم أحد، فقالت اليهود: فقد مات بعض الذين قتلوا وهى فى بطونهم. فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ ثم قال: وهذا إسناد صحيح. وهو كما قال، ولكن فى سياقه غرابة.

حديث آخر: قال أبو داود الطيالسى: حدثنا شعبة، عن أبى إسحاق، عن البراء بن عازب قال: لما نزل تحريم الخمر قالوا: كيف بمن كان يشربها قبل أن تحرم؟ فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ الآية.

ورواه الترمذى، عن بُنْدَار، غُنْدَر^(٣)، عن شعبة، به نحو. وقال: حسن صحيح^(٤).

حديث آخر: قال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا جعفر بن حميد الكوفى، حدثنا يعقوب القمى، عن عيسى بن جارية، عن جابر بن عبد الله قال: كان رجل يحمل الخمر من خير إلى المدينة فيبيعها من المسلمين، فحمل منها بمال فقدم بها المدينة، فلقيه رجل من المسلمين فقال: يا فلان، إن الخمر قد حرمت فوضعها حيث انتهى على تلّ، وسجى عليها بأكسية، ثم أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، بلغنى أن الخمر قد حرمت؟ قال: «أجل». قال: لى أن أردّها على من ابتعتها منه؟ قال: «لا يصلح»^(٥) ردها. قال: لى أن أهديها إلى من يكافئني منها؟ قال: «لا». قال: فإن فيها مالا ليتامى فى حجرى؟ قال: «إذا أتانا مال البحرين فأتنا نعوّض أيتامك من مالهم». ثم نادى بالمدينة، فقال رجل: يا رسول الله، الأوعية ننتفع بها؟ قال: «فحلّوها أوكيتها». فانصبت حتى استقرت فى بطن الوادى، هذا حديث غريب^(٦).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن السُدِّى، عن أبى هُبيرة - وهو يحيى بن عبّاد الأنصارى - عن أنس بن مالك؛ أن أبا طلحة سأل النبي ﷺ عن أيتام فى حجره ورثوا خمرًا، فقال: «أهرقها». قال: أفلا نجعلها خلا؟ قال: «لا».

ورواه مسلم، وأبو داود، والترمذى، من حديث الثورى، به نحوه^(٧).

حديث آخر: قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا عبد العزيز بن

(١) صحيح البخارى برقم (٤٦١٨).

(٢) فى ر: «بن».

(٣) فى ر، أ: «بندار عن غندر».

(٤) مسند الطيالسى برقم (٧١٥) وسنن الترمذى برقم (٣٠٥١).

(٥) فى أ: «لا يصح».

(٦) مسند أبى يعلى (٤٠٤/٣) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (١٩٨٠) «مجمع البحرين» من طريق جعفر بن حميد به.

قال الهيثمى فى المجمع (٨٨/٤): «فى إسنادهما يعقوب القمى، وعيسى بن جارية وفيهما كلام وقد وثقا».

(٧) المسند (١١٩/٣) وصحيح مسلم برقم (١٩٨٣) وسنن أبى داود برقم (٣٦٧٥) وسنن الترمذى برقم (١٢٩٤).

أبى سلمة، حدثنا هلال بن أبى هلال، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو قال: إن هذه الآية التي في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ قال: هي في التوراة: «إن الله أنزل الحق ليذهب به الباطل، ويبطل به اللعب، والمزامير، والزَّفَن، والكِبَارَات - يعني البرابط - والزمارات - يعنى به الدف - والطناير - والشعر، والخمر مرة لمن طعمها. أقسم الله بيمينه وعزة حبله من شربها بعد ما حرمتها لأعطشته»^(١) يوم القيامة، ومن تركها بعدما حرمتها لأسقينه إياها في حظيرة القدس.

وهذا إسناد صحيح.

حديث آخر: قال عبد الله بن وهب: أخبرني عمرو بن الحارث؛ أن عمرو بن شعيب حدثهم، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن رسول الله ﷺ قال: «من ترك الصلاة سكرًا مرة واحدة، فكأنما كانت له الدنيا وما عليها فسلها، ومن ترك الصلاة سكرًا أربع مرات، كان حقًا على الله أن يسقيه من طينة الخبال». قيل: وما طينة الخبال؟ قال: «عصارة أهل جهنم».

ورواه أحمد، من طريق عمرو بن شعيب^(٢).

حديث آخر: قال أبو داود: حدثنا محمد بن رافع، حدثنا إبراهيم بن عمر الصنعاني، قال: سمعت النعمان - هو ابن أبى شيبه الجندى - يقول عن طاوس، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «كل مخمر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب مسكرًا بخست صلاته أربعين صباحًا، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد الرابعة كان حقًا على الله أن يسقيه من طينة الخبال». قيل: وما طينة الخبال يا رسول الله قال: «صدید أهل النار، ومن سقاه صغيرًا لا يعرف حلاله من حرامه، كان حقًا على الله أن يسقيه من طينة الخبال».

تفرد به أبو داود^(٣).

حديث آخر: قال الشافعي، رحمه الله: أنبأنا مالك، عن نافع، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «من شرب الخمر في الدنيا، ثم لم يتب منها حُرْمها في الآخرة».

أخرجه البخارى ومسلم، من حديث مالك، به^(٤).

وروى مسلم عن أبى الربيع، عن حماد بن زيد، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر فمات وهو يذمها ولم يتب منها لم يشربها في الآخرة»^(٥).

حديث آخر: قال ابن وهب: أخبرني عمر بن محمد، عن عبد الله بن يسار؛ أنه سمع سالم بن

(١) في أ: «إلا عطشته».

(٢) المسند (١٧٨/٢) ورواه الحاكم في المستدرک (١٤٦/٤) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٨٧/٨) من طريق محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، عن عبد الله بن وهب به.

(٣) سنن أبى داود (٣٦٨٠).

(٤) مسند الشافعي برقم (١٧٦٣) «بدائع المن» وصحيح البخارى برقم (٥٥٧٥) وصحيح مسلم برقم (٢٠٠٣).

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٠٠٣).

عبد الله يقول: قال عبد الله بن عمر: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمُذْمَنُ الخمر، والمُنَّان بما أعطى».

ورواه النسائي، عن عمرو بن علي، عن يزيد بن زريع، عن عمر بن محمد العمرى، به^(١).

وروى أحمد، عن غندر، عن شعبة، عن يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة منان ولا عاق، ولا مُذْمَنُ خمر»^(٢).

ورواه أحمد أيضاً، عن عبد الصمد، عن عبد العزيز بن مسلم^(٣)، عن يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد، به. وعن مروان بن شجاع، عن خَصِيف، عن مجاهد، به^(٤). ورواه النسائي عن القاسم بن زكريا، عن الحسين الجعفي، عن زائدة، عن ابن أبي زياد، عن سالم بن أبي الجعد ومجاهد، كلاهما عن أبي سعيد، به^(٥).

حديث آخر: قال أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا سفيان، عن منصور، عن سالم بن أبي الجعد، عن جابان، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة عاق، ولا مُذْمَنُ خمر، ولا منان، ولا ولد زنية»^(٦).

وكذا رواه عن يزيد، عن همام، عن منصور، عن سالم، عن جابان، عن عبد الله بن عمرو، به^(٧). وقد رواه أيضاً عن غندر وغيره، عن شعبة، عن منصور، عن سالم، عن نُبَيْط بن شريط، عن جابان، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة منان، ولا عاق والديه، ولا مدمن خمر».

ورواه النسائي، من حديث شعبة كذلك، ثم قال: ولا نعلم^(٨) أحداً تابع شعبة عن نبيط بن شريط^(٩).

وقال البخاري: لا يعرف لجابان سماع من عبد الله، ولا لسالم من جابان ولا نبيط.

وقد روى هذا الحديث من طريق مجاهد، عن ابن عباس - ومن طريقه أيضاً، عن أبي هريرة، فالله أعلم.

وقال الزهري: حدثني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، أن أباه قال: سمعت عثمان بن عفان يقول: اجتنبوا الخمر، فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس، فَعَلَّقَتْهُ امرأة غَوِيَّة، فأرسلت إليه جاريتها فقالت: إنا ندعوك لشهادة. فدخل معها، فطفقت

(١) سنن النسائي الكبرى برقم (٢٣٤٣) ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٢٨٨/٨) من طريق محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، عن عبد الله بن وهب به.

(٢) المسند (٤٤/٣).

(٣) في ر: «أسلم».

(٤) المسند (٢٨/٣).

(٥) سنن النسائي الكبرى برقم (٤٩٢٠).

(٦) المسند (٢٠٣/٢).

(٧) المسند (١٦٤/٢).

(٨) في ر: «يعلم».

(٩) المسند (٢٠١/٢) وسنن النسائي الكبرى برقم (٤٩١٤).

كلما دخل باباً أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضئته عندها غلام وباطية خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك لشهادة ولكنى دعوتك لتقع علىّ أو تقتل هذا الغلام، أو تشرب هذا الخمر. فسقته كأساً، فقال: زيدونى، فلم يرم حتى وقع عليها، وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر فإنها لا تجتمع هى والإيمان أبداً إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه.

رواه البيهقي^(١)، وهذا إسناد صحيح. وقد رواه أبو بكر بن أبى الدنيا فى كتابه «ذم المسكر» عن محمد بن عبد الله بن بزيع، عن الفضيل بن سليمان النميرى، عن عمر بن سعيد، عن الزهرى، به مرفوعاً^(٢). والموقوف أصح، والله أعلم.

وله شاهد فى الصحيحين، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق سرقه حين يسرقها وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»^(٣).

وقال أحمد بن حنبل: حدثنا أسود بن عامر، أخبرنا إسرائيل، عن سمالك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما حرمت الخمر قال أناس: يا رسول الله، أصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها؟ فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ الآية. قال: ولما حوت القبله قال أناس: يا رسول الله، أصحابنا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾^(٤) [البقرة: ١٤٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا داود بن مهراً الدباغ، حدثنا داود - يعنى العطار - عن ابن خثيم، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد، أنها سمعت النبى ﷺ يقول: «من شرب الخمر لم يرض الله عنه أربعين ليلة، إن مات مات كافراً، وإن تاب تاب الله عليه. وإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال». قالت: قلت: يا رسول الله، وما طينة الخبال؟ قال: «صديد أهل النار»^(٥).

وقال الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود أن النبى ﷺ قال لما نزلت: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا﴾ فقال النبى ﷺ: «قيل لى: أنت منهم».

وهكذا رواه مسلم، والترمذى، والنسائى، من طريقه^(٦).

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: قرأت على أبى، حدثنا على بن عاصم، حدثنا إبراهيم الهجرى، عن أبى الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم وهاتان الكعبتان الموصمتان اللتان تزجران»^(٧) زجراً، فإنهما ميسر العجم»^(٨).

(١) السنن الكبرى (٢٨٧/٨) من طريق عبد الله بن وهب، عن يونس بن يزيد، عن الزهرى به. وقد خولف يونس بن يزيد خالفه عمر بن سعيد بن السرحه، فرواه عن الزهرى مرفوعاً، كما سأتى فى رواية ابن أبى الدنيا.

(٢) ذم المسكر برقم (١) ورواية يونس بن يزيد أرجح من رواية عمر بن سعيد بن السرحه، فقد لينه بعض الأئمة. قالوا: «وأحاديثه عن الزهرى ليست بمستقيمة».

(٣) صحيح البخارى برقم (٦٨١٠) وصحيح مسلم برقم (٥٧).

(٤) المسند (٢٩٥/١).

(٥) المسند (٤٦٠/٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٦٩/٥): «فيه شهر بن حوشب وهو ضعيف وقد حسن حديثه، وبقيه رجاله ثقات».

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٤٥٩) وسنن الترمذى برقم (٣٠٥٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١١٥٣).

(٧) فى ر: «الموصمتان اللتان يزجران» وهذا على لغة من يلزم المثنى الألف.

(٨) المسند (٤٤٦/١) وفى إسناده إبراهيم بن مسلم الهجرى ضعيف.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَن عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ (٩٥).

قال الوالى، عن ابن عباس قوله: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ قال: هو الضعيف من الصيد وصغيره، يتلى الله به عباده فى إحرامهم، حتى لو شأوا يتناولونه بأيديهم. فنهاهم الله أن يقربوه.

وقال مجاهد: ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ﴾ يعنى: صغار الصيد وفراخه ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾ يعنى: كباره.

وقال مقاتل بن حيان: أنزلت هذه الآية فى عُمرة الحُدَيْبِيَّةِ، فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم^(١) فى رحالهم، لم يروا مثله قط فيما خلا، فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون.

﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ يعنى: أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم فى رحالهم، يتمكنون من أخذه بالأيدى والرماح سراً وجهراً^(٢)، ليظهر طاعة من يطيع منهم فى سره وجهره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

وقوله ههنا: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ قال السدى وغيره: يعنى بعد هذا الإعلام والإنذار والتقدم ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: لمخالفته أمر الله وشرعه.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرْمٌ﴾ وهذا تحريم منه تعالى لقتل الصيد فى حال الإحرام، ونهى عن تعاطيه فيه. وهذا إنما يتناول من حيث المعنى المأكول وما يتولد منه ومن غيره، فأما غير المأكول من حيوانات البر، فعند الشافعى يجوز للمحرم قتلها. والجمهور على تحريم قتلها أيضاً، ولا يستثنى من ذلك إلا ما ثبت فى الصحيحين من طريق الزهرى، عن عُرْوَةَ، عن عائشة أم المؤمنين؛ أن رسول الله ﷺ قال: «خمس فواسق يُقْتَلْنَ فى الحِلِّ والحَرَمِ^(٣): الغُرَابُ والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور»^(٤).

وقال مالك، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «خمس من الدواب ليس على المحرم فى قتلهن جناح: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور». أخرجاه^(٥).

ورواه أيوب، عن نافع، عن ابن عمر، مثله. قال أيوب، قلت لنافع: فالحية؟ قال: الحية لا شك

(١) فى ر: «يغشاهم». (٢) فى ر: «جهراً وسراً». (٣) فى ر: «الحرام».

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٣١٤) وصحيح مسلم برقم (١١٩٨).

(٥) صحيح البخارى برقم (١٨٢٦) وصحيح مسلم برقم (١١٩٩).

فيها، ولا يختلف في قتلها^(١).

ومن العلماء - كمالك وأحمد - من ألحق بالكلب العقور الذئب، والسبع، والثمر، والفهد؛ لأنها أشد ضرراً منه فالله أعلم. وقال سفيان بن عيينة وزيد بن أسلم: الكلب العقور يشمل هذه السباع العادية كلها. واستأنس من قال بهذا بما روى أن رسول الله ﷺ لما دعا على عتبة^(٢) بن أبي لهب قال: «اللهم سَلِّطْ عليه^(٣) كلبك بالشام»^(٤). فأكله السبع بالزرقاء، قالوا: فإن قتل ما عداها فداها كالضبع والثعلب وهر البر ونحو ذلك.

قال مالك: وكذا يستثنى من ذلك صغار هذه الخمس المنصوص عليها، وصغار الملحق بها من السباع العوادي.

وقال الشافعي [رحمه الله]^(٥): يجوز للمحرم قتل كل ما لا يؤكل لحمه، ولا فرق بين صغاره وكباره. وجعل العلة الجامعة كونها لا تؤكل.

وقال أبو حنيفة: يقتل المحرم الكلب العقور والذئب؛ لأنه كلب برى، فإن قتل غيرهما فداها، إلا أن يصول عليه سبع غيرهما فيقتله فلا فداء عليه. وهذا قول الأوزاعي، والحسن بن صالح بن حيي. وقال زُفَر بن الهذيل: يفدى ما سوى ذلك وإن صال عليه.

وقال بعض الناس: المراد بالغراب ههنا الأبقع^(٦)، وهو الذي في بطنه وظهره بياض، دون الأدرع وهو الأسود، والأعصم وهو الأبيض؛ لما رواه النسائي عن عمرو بن علي الفلاس، عن يحيى القطان، عن شعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «خمس يقتلن المحرم: الحية، والفأرة، والحدأة، والغراب الأبقع، والكلب العقور».

والجمهور على أن المراد به أعم من ذلك؛ لما ثبت في الصحيحين من إطلاق لفظه.

وقال مالك، رحمه الله: لا يقتل المحرم الغراب إلا إذا صال عليه وآذاه.

وقال مجاهد بن جبر وطائفة: لا يقتله بل يرميه. ويروى مثله عن علي.

وقد روى هُشَيْم: حدثنا يزيد بن أبي زياد، عن عبد الرحمن بن أبي نُعْم، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ؛ أنه سئل عما يقتل المحرم، فقال: «الحية، والعقرب، والفؤيسقة، ويرمى الغراب ولا يقتله، والكلب العقور، والحدأة، والسبع العادي».

(١) صحيح مسلم برقم (١١٩٩).

(٢) في ر: «عتبة».

(٣) في ر: «عليهم».

(٤) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٣٣٩/٢) من طريق زهير بن العلاء، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة به مراسلاً وذكر قصة. ورواه أبو نعيم في دلائل النبوة (ص ١٦٣) من طريق محمد بن إسحاق، عن عثمان بن عروة بن الزبير، عن أبيه وذكر قصة. ورواه البيهقي في دلائل النبوة (٣٣٨/٢) من طريق عباس بن الفضل، عن الأسود بن شيبان، عن أبي نوفل بن أبي عقرب عن أبيه به وذكر قصة.

(٥) في ر: «المراد بالأبقع هاهنا الغراب».

(٦) زيادة من ر.

رواه أبو داود عن أحمد بن حنبل، والترمذى عن أحمد بن منيع، كلاهما عن هشيم. وابن ماجه، عن أبي كريم^(١)، عن محمد بن فضيل، كلاهما عن يزيد بن أبي زياد، وهو ضعيف، به. وقال الترمذى: هذا حديث حسن^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن علية، عن أيوب قال: نبئت عن طاوس قال: لا يحكم^(٣) على من أصاب صيداً خطأ، إنما يحكم^(٤) على من أصابه متعمداً.

وهذا مذهب غريب عن طاوس، وهو متمسك بظاهر الآية.

وقال مجاهد بن جبر: المراد بالمتعمد هنا^(٥): القاصد إلى قتل الصيد، الناسى لإحرامه. فأما المتعمد لقتل الصيد مع ذكره لإحرامه، فذاك أمره أعظم من أن يكفر، وقد بطل إحرامه.

رواه ابن جرير عنه من طريق ابن أبي نجيح وليث بن أبي سليم وغيرهما، عنه. وهو قول غريب أيضاً. والذي عليه الجمهور أن العامد والناسى سواء فى وجوب الجزاء عليه. قال الزهرى: دل^(٦) الكتاب على العامد، وجرت السنة على الناسى، ومعنى هذا أن القرآن دل على وجوب الجزاء على المتعمد وعلى تأنيبه بقوله: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ﴾، وجاءت السنة من أحكام النبى ﷺ وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء فى الخطأ، كما دل الكتاب عليه فى العمد، وأيضاً فإن قتل الصيد إتلاف، والإتلاف مضمون فى العمد وفى النسيان، لكن المتعمد مأثوم والمخطئ غير ملوم.

وقوله: ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾: وحكى ابن جرير أن ابن مسعود قرأها: «فجزاؤه مثل ما قتل من النعم».

وفى قوله: ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ على كل من القراءتين دليل لما ذهب إليه مالك، والشافعى، وأحمد، والجمهور من وجوب الجزاء من مثل ما قتله المحرم، إذا كان له مثل من الحيوان الإنسانى، خلافاً لأبى حنيفة، رحمه الله، حيث أوجب القيمة سواء كان الصيد المقتول مثلياً أو غير مثلى، قال: وهو مخير إن شاء تصدق بثمنه، وإن شاء اشترى به هدياً. والذي حكم به الصحابة فى المثل أولى بالاتباع، فإنهم حكموا فى النعامة ببذنة، وفى بقرة الوحش ببقرة، وفى الغزال بعنز، وذكر قضايا الصحابة وأسانيدنا مقرر فى كتاب «الأحكام»، وأما إذا لم يكن الصيد مثلياً فقد حكم ابن عباس فيه بثمنه، يحمل إلى مكة. رواه البيهقى.

وقوله: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ يعنى أنه يحكم بالجزاء فى المثل، أو القيمة فى غير المثل، عدلان من المسلمين، واختلف العلماء فى القاتل: هل يجوز أن يكون أحد الحكمين؟ على قولين:

(١) فى ر: «كريب».

(٢) سنن أبي داود برقم (١٨٤٨) وسنن الترمذى برقم (٨٣٨) وسنن ابن ماجه برقم (٣٠٨٩).

(٣) فى ر: «نهنا».

(٤) فى ر: «نحكم».

(٦) فى ر: «تدل».

أحدهما: لا؛ لأنه قد يُتَّهم في حكمه على نفسه، وهذا مذهب مالك.

والثاني: نعم؛ لعموم الآية. وهو مذهب الشافعي، وأحمد.

واحتج الأولون بأن الحاكم لا يكون محكوماً عليه في صورة واحدة.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين، حدثنا جعفر - هو ابن بُرقان - عن ميمون بن مهران؛ أن أعرابياً أتى أبا بكر قال: قتلت صيداً وأنا محرم، فما ترى على من الجزاء؟ فقال أبو بكر، رضى الله عنه، لأبي بن كعب وهو جالس عنده: ما ترى فيما^(١) قال؟ فقال الأعرابي: أتيتك وأنت خليفة رسول الله ﷺ أسألك، فإذا أنت تسأل غيرك؟ فقال أبو بكر: وما تنكر؟ يقول الله تعالى: ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فشاورت صاحبي حتى إذا اتفقنا على أمر أمرناك به.

وهذا إسناد جيد، لكنه منقطع بين ميمون وبين الصديق، ومثله يحتمل ههنا. فبين له الصديق الحكم برفق وتؤدة، لما رآه أعرابياً جاهلاً، وإنما دواء الجهل التعليم، فأما إذا كان المعارض منسوباً إلى العلم، فقد قال ابن جرير:

حدثنا هناد وأبو هشام الرفاعي قالا: حدثنا وكيع بن الجراح، عن المسعودي، عن عبد الملك بن عمير، عن قبيصة بن جابر قال: خرجنا حجاجاً، فكنّا إذا صلينا الغداة اقتدنا رواحلنا نتماشى نتحدث، قال: فبينما نحن ذات غداة إذ سنج لنا ظبي - أو: برح - فرماه رجل كان معنا بحجر فما أخطأ خُشَّاءه فركب ردَّعه ميتاً، قال: فعَظَّمْنَا عليه، فلما قدمنا مكة خرجت معه حتى أتينا عمر، رضى الله عنه، قال: فقصص عليه القصة قال: وإلى جنبه رجل كأن وجهه قُلب فضة - يعنى عبد الرحمن بن عوف - فالتفت عمر إلى صاحبه فكلمه قال: ثم أقبل على الرجل فقال: أعمداً قتلته أم خطأ؟ قال الرجل: لقد تعمدت رميه، وما أردت قتله. فقال عمر: ما أراك إلا قد أشركت بين العمد والخطأ، اعمد إلى شاة فاذهبها فتصدق بلحمها واستبق إهابها. قال: فقمنا من عنده، فقلت لصاحبي: أيها الرجل، عَظَّم شعائر الله، فما درى أمير المؤمنين ما يفتيك حتى سأل صاحبه: اعمد إلى ناقتك فانحرها، ففعل^(٢) ذاك. قال قبيصة: ولا أذكر الآية من سورة المائدة: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ قال: فبلغ عمر مقالتي، فلم يفجأنا منه إلا ومعه الدرة. قال: فعلا صاحبي ضرباً بالدرة، وجعل يقول: أقتلت في الحرم وسفَّهت الحكم؟ قال: ثم أقبل على فقلت: يا أمير المؤمنين، لا أحل لك اليوم شيئاً يحرّم عليك منى، قال: يا قبيصة بن جابر، إنى أراك شاب السن، فسيح الصدر، بين اللسان، وإن الشاب يكون فيه تسعة أخلاق حسنة وخلق سيئ، فيفسد الخلق السيئ الأخلاق الحسنة، فإياك وعثرات الشباب.

وقد روى هُشَيْم هذه القصة، عن عبد الملك بن عمير، عن قبيصة، بنحوه. ورواها أيضاً عن حُصَيْن، عن الشعبي، عن قبيصة، بنحوه. وذكرها رسالة عن عُمَر: بكر بن عبد الله المزني، ومحمد ابن سيرين.

(٢) في ر: «فلعل».

(١) في ر: «فيها».

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا شعبة، عن منصور، عن أبي وائل، أخبرني أبو جرير البجلي قال: أصبت ظبياً وأنا محرم، فذكرت ذلك لعمر، فقال: اتت رجلين من إخوانك فليحكما عليك. فأتيت عبد الرحمن وسعداً، فحكما على بتيس أعفر.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا ابن عيينة، عن مخارق، عن طارق قال: أوطأ أريد ظبياً فقتلته^(١) وهو محرم فأتى عمر؛ ليحكم عليه، فقال له عمر: احكم معي، فحكما فيه جدياً، قد جمع الماء والشجر. ثم قال عمر: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾.

وفى هذا دلالة على جواز كون القاتل أحد الحكمين، كما قاله الشافعي وأحمد، رحمهما الله.

واختلفوا: هل تستأنف^(٢) الحكومة في كل ما يصيبه المحرم، فيجب أن يحكم فيه ذوا عدل، وإن كان قد حكم من قبله الصحابة، أو يكتفى بأحكام الصحابة المتقدمة؟ على قولين، فقال الشافعي وأحمد: يتبع في ذلك ما حكمت به الصحابة^(٣)، وجعله شريعاً مقررلاً لا يعدل عنه، وما لم يحكم فيه^(٤) الصحابة يرجع فيه إلى عدلين. وقال مالك وأبو حنيفة: بل يجب الحكم في كل فرد فرد، سواء وجد للصحابة في مثله حكم أم لا؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا بِالْغَلَبَةِ﴾ أي: وإصلاً إلى الكعبة، والمراد وصوله إلى الحرم، بأن يذبح هناك، ويفرق لحمه على مساكين الحرم. وهذا أمر متفق عليه في هذه الصورة.

وقوله: ﴿أَوْ كَفَّارَةً طَعَامَ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً﴾ أي: إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم، أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال، أو قلنا بالتخيير في هذا المقام من الجزاء والإطعام والصيام، كما هو قول مالك، وأبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد بن الحسن، وأحد قولي الشافعي، والمشهور عن أحمد رحمهم الله، لظاهر الآية «أو» فإنها للتخيير. والقول الآخر: أنها على الترتيب.

فصورة ذلك أن يعدل إلى القيمة، فيقوم الصيد المقتول عند مالك، وأبي حنيفة وأصحابه، وحما، وإبراهيم. وقال الشافعي: يقوم مثله من النعم لو كان موجوداً، ثم يشتري به طعام ويتصدق به، فيصرف لكل مسكين مد منه عند الشافعي، ومالك، وفقهاء الحجاز، واختاره ابن جرير.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: يُطعم كل مسكين مدّين، وهو قول مجاهد.

وقال أحمد: مدّ من حنطة، أو مدان من غيره. فإن لم يجد، أو قلنا بالتخيير^(٥)، صام عن^(٦) إطعام كل مسكين يوماً.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: يصوم مكان كل صاع يوماً. كما في جزاء المترفة بالخلق ونحوه، فإن الشارع أمر كعب بن عجرة أن يطعم فرقاً بين ستة، أو يصوم ثلاثة أيام، والفرق ثلاثة أصع.

واختلفوا في مكان هذا الإطعام، فقال الشافعي: محله الحرم، وهو قول عطاء. وقال مالك: يطعم في المكان الذي أصاب فيه الصيد، أو أقرب الأماكن إليه. وقال أبو حنيفة: إن شاء أطعم في الحرم، وإن شاء أطعم في غيره.

(١) في د، ر: «فقتله».

(٢) في ر: «يستأنف».

(٣) في ر: «صاحبه».

(٤) في ر: «به».

(٥) في ر: «أو قلنا بالتخيير».

(٦) في ر: «من».

ذكر أقوال السلف في هذا المقام:

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن المغيرة، حدثنا جرير، عن منصور، عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ قال: إذا أصاب المحرم الصيد حكم عليه جزاؤه من النعم، فإن وجد جزاءه، ذبحه فتصدق به. وإن لم يجد نظر كم ثمنه، ثم قوّم ثمنه طعاماً، فصام مكان كل نصف صاع يوماً، قال: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ قال: إنما أريد بالطعام الصيام، إنه إذ وجد الطعام وجد جزاؤه.

ورواه ابن جرير، من طريق جرير.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾: إذا^(١) قتل المحرم شيئاً من الصيد، حكم عليه فيه. فإن قتل ظيئاً أو نحوه، فعليه شاة تذبح بمكة. فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام. فإن قتل إبلأً أو نحوه، فعليه بقرة. فإن لم يجدها أطعم عشرين مسكيناً. فإن لم يجد صام عشرين يوماً. وإن قتل نعامة أو حماراً وحشاً أو نحوه، فعليه بدنة من الإبل. فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكيناً. فإن لم يجد صام ثلاثين يوماً.

رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وزاد: والطعام مِدٌّ مِدٌّ تشبّعهم^(٢).

وقال جابر الجعفي، عن عامر الشعبي وعطاء ومجاهد: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ قالوا: إنما الطعام لمن لا يبلغ الهدى. رواه ابن جرير.

وكذا روى ابن جريج عن مجاهد، وأسباط عن السدي أنها على الترتيب.

وقال عطاء، وعكرمة، ومجاهد - في رواية الضحاك - وإبراهيم النخعي: هي على الخيار. وهو رواية الليث، عن مجاهد، عن ابن عباس. واختار ذلك ابن جرير، رحمه الله تعالى.

وقوله: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِه﴾ أي: أوجبنا عليه الكفارة ليدوق عقوبة فعله الذي ارتكب فيه المخالفة ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أي: في زمان الجاهلية، لمن أحسن في الإسلام واتبع شرع الله، ولم يرتكب المعصية.

ثم قال: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ أي: ومن فعل ذلك بعد تحريمه في الإسلام وبلوغ الحكم الشرعي إليه فينتقم الله منه ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾.

قال ابن جريج، قلت لعطاء: ما ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ قال: عما كان في الجاهلية. قال: قلت: وما ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾؟ قال: ومن عاد في الإسلام، فينتقم الله منه، وعليه مع ذلك الكفارة قال: قلت: فهل في العود حدٌ تعلمه؟ قال: لا. قال: قلت: فترى حقاً على الإمام أن يعاقبه؟ قال:

(٢) في ر: «شبعهم».

(١) في ر: «فلذا».

لا، هو ذنب أذنبه فيما بينه وبين الله، عز وجل، ولكن يفتدى. رواه ابن جرير^(١).

وقيل معناه: فينتقم الله منه بالكفارة. قاله سعيد بن جبير، وعطاء.

ثم الجمهور من السلف والخلف، على أنه متى قتل المحرم الصيد وجب الجزاء، ولا فرق بين الأولى والثانية^(٢)، وإن تكرر ما تكرر، سواء الخطأ في ذلك والعمد.

وقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: من قتل شيئاً من الصيد خطأ، وهو محرم، يحكم عليه فيه كلما قتله، وإن قتله عمداً يحكم عليه فيه مرة واحدة، فإن عاد يقال له: ينتقم الله منك، كما قال الله، عز وجل.

وقال ابن جرير: حدثنا عمرو بن على، حدثنا يحيى بن سعيد وابن أبي عدى جميعاً، عن هشام - هو ابن حسان - عن عكرمة، عن ابن عباس فيمن أصاب صيداً فحكم^(٣) عليه ثم عاد، قال: لا يحكم عليه، ينتقم الله منه.

وهكذا قال شريح، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن البصري، وإبراهيم النخعي. رواه ابن جرير، ثم اختار القول الأول.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا العباس بن يزيد العبدى، حدثنا المعتز بن سليمان، عن زيد أبي المعلى، عن الحسن البصري؛ أن رجلاً أصاب صيداً، فتجوز عنه، ثم عاد فأصاب صيداً آخر، فنزلت نار من السماء فأحرقتة فهو قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾.

وقال ابن جرير في قوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ يقول عز ذكره: والله منيع في سلطانه لا يقهره قاهر، ولا يمنعه من الانتقام من انتقم منه، ولا من عقوبة من أراد عقوبته مانع؛ لأن الخلق خلقه، والأمر أمره، له العزة والمنعة.

وقوله: ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ يعنى: أنه ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه.

﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْسيَّارَةِ وَحَرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦)﴾ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم (٩٧) اعلّموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم (٩٨) ما على الرسول إلاّ البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون (٩٩) ﴿.

(١) تفسير الطبرى (٤٨/١١).

(٣) فى د، ر: "يحكم".

(٢) فى ر: "والثانية والثالثة".

قال ابن أبي طلحة، عن^(١) ابن عباس - فى رواية عنه - وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وغيرهم فى قوله: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ يعنى: ما يصطاد منه طرياً ﴿وَطَعَامُهُ﴾: ما يتزود منه مليحاً يابساً.

وقال ابن عباس فى الرواية المشهورة عنه: صيده ما أخذ منه حياً ﴿وَطَعَامُهُ﴾: ما لفظه ميتاً. وهكذا روى عن أبى بكر الصديق وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمر، وأبى أيوب الأنصارى، رضى الله عنهم. وعكرمة، وأبى سلمة بن عبد الرحمن، وإبراهيم النخعى، والحسن البصرى. قال سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عكرمة، عن أبى بكر الصديق أنه قال: ﴿وَطَعَامُهُ﴾: كل ما فيه. رواه ابن جرير وابن أبى حاتم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن مغيرة، عن سمك قال: حدثت عن ابن عباس قال: خطب أبو بكر الناس فقال: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ﴾: وطعامه ما قذف.

قال: وحدثنا يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن سليمان التيمى، عن أبى مجلز، عن ابن عباس فى قوله: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ قال: ﴿وَطَعَامُهُ﴾: ما قذف.

وقال عكرمة، عن ابن عباس قال: ﴿وَطَعَامُهُ﴾: ما لفظ من ميتة. ورواه ابن جرير أيضاً.

وقال سعيد بن المسيب: طعامه ما لفظه حياً، أو حسر عنه فمات. رواه ابن أبى حاتم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا أيوب، عن نافع؛ أن عبد الرحمن ابن أبى هريرة سأل ابن عمر فقال: إن البحر قد قذف حيتاناً كثيراً ميتاً أفناكله؟ فقال: لا تأكلوه. فلما رجع عبدالله إلى أهله أخذ المصحف فقرأ سورة المائدة، فاتى هذه الآية: ﴿وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلْغِيَارَةِ﴾ فقال: اذهب فقل له فليأكله، فإنه طعامه.

وهكذا اختار ابن جرير أن المراد بطعامه ما مات فيه، قال: وقد روى فى ذلك خبر، وإن بعضهم يرويه موقوفاً^(٢).

حدثنا هناد بن السرى قال: حدثنا عبدة بن سليمان، عن محمد بن عمرو، حدثنا أبو سلمة، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ﴾ قال: «طعامه: ما لفظه ميتاً».

ثم قال: وقد وقف بعضهم هذا الحديث على أبى هريرة^(٣):

(١) فى د: «قال».

(٢) تفسير الطبرى (٦٩/١١).

(٣) تفسير الطبرى (٧٠/١١).

حدثنا هناد، حدثنا ابن أبي زائدة، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة في قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ قال: طعامه: ما لفظه ميتاً.

وقوله: ﴿مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلْغِيَّارَةِ﴾ أى: منفعة وقوتاً لكم أيها المخاطبون ﴿وَلِلْغِيَّارَةِ﴾ وهو جمع سَيَّار. قال عكرمة: لمن كان بحضرة البحر وللسيارة: السَّفَر^(١).

وقال غيره: الطرى منه لمن يصطاده من حاضرة البحر، و﴿طَعَامُهُ﴾: ما مات فيه أو اصطيد منه ومُلِحَّ وَقُدِّدَ زاداً للمسافرين والناثين عن البحر.

وقد روى نحوه عن ابن عباس، ومجاهد، والسُّدِّي وغيرهم. وقد استدلل جمهور العلماء على حل ميتة البحر بهذه الآية الكريمة، وبما رواه الإمام مالك بن أنس، عن وهب بن كيسان، عن جابر ابن عبد الله قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً قبل الساحل، فأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح، وهم ثلاثمائة، قال: وأنا فيهم. قال: فخرجنا، حتى إذا كنا ببعض الطريق فنى الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش، فجمع ذلك كله، فكان مزودى تمر، قال: فكان يُقَوِّتُنَا كل يوم قليلاً قليلاً حتى فنى، فلم يكن يصيبنا إلا ثمرة تمر. فقلت: وما تغنى ثمرة؟ فقال: فقد وجدنا فقدها حين فنى، قال: ثم انتهينا إلى البحر، فإذا حوت مثل الظرب، فأكل منه ذلك الجيش ثمانى عشرة ليلة. ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فنصبا، ثم أمر براحلة فرحلت، ومرت تحتها فلم تصبهما^(٢).

وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين^(٣)، وله طرق عن جابر.

وفى صحيح مسلم من رواية أبي الزبير، عن جابر: فإذا على ساحل البحر مثل الكتيب الضخم، فأتيناه فإذا بدابة يقال لها: العنبر قال: قال أبو عبيدة: ميتة، ثم قال: لا، نحن رسل رسول الله ﷺ وفى سبيل الله، وقد اضطررتم فكلوا قال: فأقمنا عليه شهراً ونحن ثلاثمائة حتى سمننا. ولقد رأيتنا نعترف من وقب عينه بالقلال الدهن، ونقتطع منه الفدر كالثور، أو: كقدر الثور، قال: ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً، فأقعدهم فى وقب عينه، وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقامها، ثم رحل أعظم بعير معنا فمر من تحتها، وتزودنا من لحمه وشائق. فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ، فذكرنا ذلك له، فقال: «هو رزق أخرجه الله لكم، هل معكم من لحمه شيء فتطعمونا؟» قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله. وفى بعض روايات مسلم: أنهم كانوا مع النبى ﷺ حين وجدوا هذه السمكة. فقال بعضهم: هى واقعة أخرى، وقال بعضهم: بل هى قضية واحدة، ولكن كانوا أولاً مع النبى ﷺ، ثم بعثهم سرية مع أبى عبيدة، فوجدوا هذه فى سريتهم تلك مع أبى عبيدة، والله أعلم^(٤).

(١) فى د: «للسفر».

(٢) الموطأ (٢/٩٣٠).

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٤٨٣) وصحيح مسلم برقم (١٩٣٥).

(٤) صحيح مسلم برقم (١٩٣٥).

وقال مالك، عن صفوان بن سليم، عن سعيد بن سلمة - من آل ابن الأزرق: إن المغيرة ابن أبي بردة - وهو من بنى عبد الدار - أخبره، أنه سمع أبا هريرة يقول: سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته».

وقد روى هذا الحديث الإمامان الشافعي، وأحمد بن حنبل، وأهل السنن الأربعة، وصححه البخاري، والترمذي، وابن خزيمة، وابن حبان، وغيرهم. وقد روى عن جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ^(١)، بنحوه.

وقد روى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من طرق، عن حماد بن سلمة: حدثنا أبو المهزم - هو يزيد بن سفيان - سمعت أبا هريرة يقول: كنا مع رسول الله ﷺ في حج - أو: عمرة - فاستقبلنا رجل جرّاد، فجعلنا نضربهن بعصينا وسيطانا فنقتلهن، فأسقط في أيدينا، فقلنا: ما نصنع ونحن محرمون؟ فسألنا رسول الله ﷺ، فقال: «لا بأس بصيد البحر»^(٢).

أبو المهزم ضعيف، والله أعلم.

وقال ابن ماجه: حدثنا هارون بن عبد الله الحمّال، حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا زياد بن عبد الله بن علاثة، عن موسى بن محمد بن إبراهيم، عن أبيه، عن جابر وأنس بن مالك، أن النبي ﷺ كان إذا دعا على الجرّاد قال: «اللهم أهلك كبارَه، واقتل صغارَه، وأفسد بيضه، واقطع دابره، وخذ بأفواهه عن معايشنا وأرزاقنا، إنك سميع الدعاء». فقال خالد: يا رسول الله، كيف تدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره؟ فقال: «إن الجرّاد نثره الحوت في البحر». قال هاشم: قال زياد: فحدثني من رأى الحوت يثّره. تفرد به ابن ماجه^(٣).

وقد روى الشافعي، عن سعيد، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس: أنه أنكر على من يصيد الجرّاد في الحرم.

وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من الفقهاء إلى أنه تؤكل دواب البحر، ولم يستثن من ذلك شيئاً. وقد تقدم عن الصديق أنه قال: «طعامه»: كل ما فيه.

وقد استثنى بعضهم الضفادع وأباح ما سواها؛ لما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي من رواية ابن أبي ذئب، عن سعيد بن خالد، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الرحمن بن عثمان التيمي؛ أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل الضفدع^(٤).

(١) مسند الشافعي برقم (٢٥) «بدائع المن» والمسند للإمام أحمد (٢٣٧/٢) وسنن أبي داود برقم (٨٣) وسنن الترمذي برقم (٦٩) وسنن النسائي (٥٠/١) وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٦) وصحيح ابن خزيمة برقم (١١١) وصحيح ابن حبان برقم (١١٩).

(٢) المسند (٣٠٦/٢) وسنن أبي داود برقم (١٨٥٤) وسنن الترمذي برقم (٨٥٠) وسنن ابن ماجه برقم (٣٢٢٢).

(٣) سنن ابن ماجه برقم (٣٢٢١) وقال البوصيري في الزوائد (٦٤/٣، ٦٥): «هذا إسناد ضعيف لضعف موسى بن محمد بن إبراهيم، أورده ابن الجوزي في الموضوعات من طريق هارون بن عبد الله، وقال: لا يصح عن رسول الله ﷺ وضعفه موسى بن محمد».

(٤) المسند (٤٥٣/٣) وسنن أبي داود برقم (٥٢٦٩) وسنن النسائي (٢١٠/٧).

وللنسائي عن عبد الله بن عمرو قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع، وقال: نَقِيْقُهَا تَسِيْحٌ^(١).

وقال آخرون: يؤكل من صيد البحر السمك، ولا يؤكل الضفدع. واختلفوا فيما سواهما، فقيل: يؤكل سائر ذلك، وقيل: لا يؤكل. وقيل: ما أكل شبهه من البر أكل مثله في البحر، وما لا يؤكل شبهه لا يؤكل. وهذه كلها وجوه في مذهب الشافعي، رحمه الله.

وقال أبو حنيفة، رحمه الله: لا يؤكل ما مات في البحر، كما لا يؤكل ما مات في البر؛ لعموم قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣].

وقد ورد حديث بنحو ذلك، فقال ابن مردويه:

حدثنا عبد الباقي - هو ابن قانع - حدثنا الحسين بن إسحاق التُّسْتَرِيُّ وعبد الله بن موسى بن أبي عثمان قالوا: حدثنا الحسين بن زيد الطحان، حدثنا حفص بن غياث، عن ابن أبي ذئب، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما صَدْتُموه وهو حي فمات فكلوه، وما ألقى البحر ميتاً طافياً فلا تأكلوه».

ثم رواه من طريق إسماعيل بن أمية، ويحيى بن أبي أنيسة، عن أبي الزبير عن جابر به. وهو منكر^(٢).

وقد احتج الجمهور من أصحاب مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، بحديث «العنبر» المتقدم ذكره، وبحديث: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»، وقد تقدم أيضاً.

وروى الإمام أبو عبد الله الشافعي، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أَحَلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ، فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ فَالْحَوْتُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانُ فَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ».

ورواه أحمد وابن ماجه، والدارقطني والبيهقي. وله شواهد، وروى^(٣) موقوفاً، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَحَرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمَّتْ حُرْمًا﴾ أي: في حال إحرامكم يحرم^(٤) عليكم الاصطياد. ففيه دلالة على تحريم ذلك^(٥)، فإذا اصطاد المحرم الصيد متعمداً أثمَ وغرم، أو مخطئاً غرم وحرّم عليه أكله؛ لأنه في حقه كالميتة، وكذا في حق غيره من المحرمين والمحلين عند مالك والشافعي - في أحد قوليهِ - وبه يقول عطاء، والقاسم، وسالم، وأبو يوسف، ومحمد بن الحسن، وغيرهم. فإن

(١) لم أجده عند البحث في سنن النسائي ولعلي أتدركه فيما بعد. ورواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (١٨٥٢) من طريق الحجاج بن محمد عن شعبة عن قتادة عن زرارة بن أوفى عن عبد الله بن عمرو به.

(٢) ونكاته؛ لمخالفته الآية والأحاديث الصحيحة مثل حديث: «هو الطهور ماؤه»، وحديث العنبر.

(٣) مسند الشافعي برقم (١٧٣٤) ومسند أحمد (٩٧/٢) ومضى تخريجه عند الآية: ٣ من هذه السورة.

(٤) في د: «فحرام».

(٥) في د: «التحريم».

أكله أو شيئاً منه، فهل يلزمه جزاء؟ فيه قولان للعلماء:

أحدهما: نعم، قال عبد الرزاق، عن ابن جُرَيْج، عن عطاء، قال: إن ذبحه ثم أكله فكفارتان، وإليه ذهب طائفة.

والثاني: لا جزاء عليه بأكله. نص عليه مالك بن أنس.

قال أبو عمر بن عبد البر: وعلى هذا مذاهب فقهاء الأمصار، وجمهور العلماء. ثم وجهه أبو عمر بما لو وطئ ثم وطئ ثم وطئ قبل أن يحد، فإنما عليه حد واحد^(١).

وقال أبو حنيفة: عليه قيمة ما أكل.

وقال أبو ثور: إذا قتل المحرم الصيد فعليه جزاؤه، وحلال أكل ذلك الصيد، إلا أنني أكرهه للذي قتله، للخبر عن رسول الله ﷺ: «صَيْدُ الْبَرِّ لَكُمْ حَلَالٌ، مَا لَمْ تُصِيدُوهُ أَوْ يُصَدَّ لَكُمْ».

وهذا الحديث سيأتي بيانه. وقوله بإباحته للقاتل غريب، وأما لغيره ففيه خلاف، قد ذكرنا المنع عمن تقدم. وقال آخرون. بإباحته لغير القاتل، سواء المحرمون والمحلون؛ لهذا الحديث. والله أعلم.

وأما إذا صاد^(٢) حلال صيداً فأهداه إلى محرم، فقد ذهب^(٣) ذاهبون إلى إباحته مطلقاً، ولم يستفصلوا بين أن يكون قد صاده لأجله أم لا. حكى هذا القول أبو عمر بن عبد البر، عن عمر ابن الخطاب، وأبي هريرة، والزبير بن العوام، وكعب الأحبار، ومجاهد، وعطاء - في رواية - وسعيد ابن جبير. قال: وبه قال الكوفيون.

قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن بَزِيع، حدثنا بِشْرُ بْنُ الْمُفَضَّلِ، حدثنا سعيد، عن قتادة، أن سعيد بن المسيب حدثه، عن أبي هريرة؛ أنه سئل عن لحم صيد صاده حلال، أياكله المحرم؟ قال: فأفتاهم بأكله. ثم لقي عمر بن الخطاب فأخبره بما كان من أمره، فقال: لو أفتيتهم بغير هذا لأوجعتُ لك رأسك.

وقال آخرون: لا يجوز أكل الصيد للمحرم بالكلية، ومنعوا من ذلك مطلقاً؛ لعموم هذه الآية الكريمة.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن ابن طاوس وعبد الكريم بن أبي أمية، عن طاوس، عن ابن عباس؛ أنه كره أكل لحم الصيد للمحرم، وقال: هي مبهمة. يعنى قوله: «وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرَمًا».

قال: وأخبرني معمر، عن الزهري، عن ابن عمر؛ أنه كان يكره للمحرم أن يأكل من لحم الصيد على كل حال.

(١) الاستذكار لابن عبد البر (١١/٣١٢).

(٢) في د: «صاده».

(٣) في د: «صاده».

قال معمر: وأخبرني أيوب، عن نافع، عن ابن عمر، مثله.

قال ابن عبد البر: وبه قال طاوس، وجابر بن زيد، وإليه ذهب الثوري، وإسحاق بن راهويه - في رواية - وقد روى نحوه عن علي بن أبي طالب، رواه ابن جرير من طريق سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب: أن علياً كره لحم الصيد للمحرم على كل حال.

وقال مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه - في رواية - والجمهور: إن كان الحلال قد قصد المحرم بذلك الصيد، لم يجز للمحرم أكله؛ لحديث الصعب بن جثامة: أنه أهدى للنبي ﷺ حماراً وحشياً، وهو بالأبواء - أو: بؤدان - فرده عليه، فلما رأى ما في وجهه قال: «إنا لم نردّه عليك إلا أنا حُرْمٌ».

وهذا الحديث مخرج في الصحيحين، وله ألفاظ كثيرة^(١). قالوا: فوجهه أن النبي ﷺ ظن أن هذا إنما صاده من أجله، فرده لذلك. فأما إذا لم يقصده بالاصطياد فإنه يجوز له الأكل منه؛ لحديث أبي قتادة حين صاد حماراً وحشاً، كان حلالاً لم يحرم، وكان أصحابه محرمين، فتوقفوا في أكله. ثم سألوا رسول الله ﷺ فقال: «هل كان منكم أحد أشار إليها، أو أعان في قتلها؟» قالوا: لا. قال: «فكلوا». وأكل منها رسول الله ﷺ.

وهذه القصة ثابتة أيضاً في الصحيحين بألفاظ كثيرة^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا سعيد بن منصور وقتيبة بن سعيد قالوا: حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن عمرو بن أبي عمرو، عن المطلب بن عبد الله بن حنطب، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ - وقال قتيبة في حديثه: سمعت رسول الله ﷺ - يقول: «صيد البر لكم حلال - قال سعيد: وأنتم حرم - ما لم تُصيده أو يُصدّ لكم».

وكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي جميعاً، عن قتيبة. وقال الترمذي: لا نعرف للمطلب سماعاً من جابر^(٣).

ورواه الإمام محمد بن إدريس الشافعي، من طريق عمرو بن أبي عمرو، عن مولاة المطلب، عن جابر ثم قال: وهذا أحسن حديث روى في هذا الباب وأقيس.

وقال مالك، عن عبد الله بن أبي بكر، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: رأيت عثمان بن عفان بالعرج، وهو محرم في يوم صائف، قد غطى وجهه بقטיפه أرجوان، ثم أتى بلحم صيد فقال

(١) صحيح البخاري برقم (١٨٢٥، ٢٥٧٣) وصحيح مسلم برقم (١١٩٣).

(٢) صحيح البخاري برقم (٢٩١٤، ٥٤٩٠) وصحيح مسلم برقم (١١٩٦).

(٣) سنن أبي داود برقم (١٨٥١) وسنن الترمذي برقم (٨٤٦) وسنن النسائي (١٨٧/٥).

لأصحابه: كلوا، فقالوا: أولاً تاكل أنت؟ فقال: إني لست كهيتكم، إنما صيد من أجلى (١) (٢).

﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١٠٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلُ الْقُرْآنُ تَبَدَّدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢) .

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ أى: يا أيها الإنسان ﴿كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ يعنى: أن القليل الحلال النافع خير من الكثير الحرام الضار، كما جاء فى الحديث: « ما قُلَّ وَكَفَى، خَيْرٌ مَّا كَثُرَ وَالْهَى ».

وقال أبو القاسم البغوي فى معجمه: حدثنا أحمد بن زهير، حدثنا الحوطي، حدثنا محمد بن شعيب، حدثنا معان (٣) بن رفاعه، عن أبى عبد الملك على بن يزيد، عن القاسم، عن أبى أمامة أنه أخبره عن ثعلبة بن حاطب الأنصارى أنه قال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقنى مالا. فقال النبى ﷺ: « قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه » (٤).

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أى: يا ذوى العقول الصحيحة المستقيمة، وتجنبوا الحرام ودعوه، واقنعوا بالحلال واكتفوا به ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾: هذا تأديب من الله [تعالى] (٥) لعباده المؤمنين، ونهى لهم عن أن يسألوا ﴿عَنْ أَشْيَاءَ﴾ مما لا فائدة لهم فى السؤال والتنقيب عنها؛ لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءت لهم وشق عليهم سماعها، كما جاء فى الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يُبْلَغُنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْئاً، إِنْ أَحَبَّ أَنْ أُخْرَجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ» (٦).

وقال البخارى: حدثنا مئذر بن الوليد بن عبد الرحمن الجارودى، حدثنا أبى، حدثنا شعبة، عن

(١) الموطأ (١/٣٥٤).

(٢) لم يتعرض الحافظ ابن كثير - رحمه الله - لتفسير بقية الآيات، كما فى جميع النسخ المخطوطة، ولعل ذلك - والله أعلم - لانه قد تطرق إلى تفسير معانيها فى متشابهتها فى سورة البقرة.

(٣) فى د: «على».

(٤) ورواه ابن عبد البر فى الاستيعاب (١/٢٠١) وابن الأثير فى أسد الغابة (١/٢٨٤) من طريق معان بن رفاعه، عن على بن يزيد، عن القاسم بن عبد الرحمن به، وفى إسناده على بن يزيد الألهانى وهو متروك. وللفاضل عذاب الحمش رسالة فى الذب عن ثعلبة بن حاطب بين فيها نكارة هذه القصة وتوسع فى ذلك.

(٥) زيادة من د.

(٦) رواه أبو داود فى السنن برقم (٤٨٦٠) والترمذى فى السنن برقم (٣٨٩٦) من حديث عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، وسيأتى سياقه.

موسى بن أنس، عن أنس بن مالك قال: خطب النبي ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، قال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً». قال: فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم حنين. فقال رجل: من أبى؟ قال: «فلان»، فنزلت هذه الآية: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾.

رواه النَّصْرُ وروح بن عباد، عن شعبة^(١)، وقد رواه البخارى فى غير هذا الموضع، ومسلم، وأحمد، والترمذى، والنسائى من طرق عن شعبة بن الحجاج، به^(٢).

وقال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ الآية، قال: فحدثنا أن أنس بن مالك حدث: أن رسول الله ﷺ سألوه حتى أحفوه بالمسألة، فخرج عليهم ذات يوم فصعد المنبر، فقال: «لا تسألوا اليوم عن شيء إلا بينته لكم». فأشفق أصحاب رسول الله ﷺ أن يكون بين يدي أمر قد حضر، فجعلت لا ألتفت يمينا ولا شمالاً إلا وجدت كلاً لا فافاً رأسه فى ثوبه يبكى، فأنشأ رجل كان يلاحى فيدعى إلى غير أبيه، فقال: يا نبي الله، من أبى؟ قال: «أبوك حذافة». قال: ثم قام عمر - أو قال: فأنشأ عمر - فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، عائذاً بالله - أو قال: أعوذ بالله - من شر الفتن قال: وقال رسول الله ﷺ: «لم أر فى الخير والشر كالיום قط، صورت لى الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط». أخرجه من طريق سعيد^(٣).

ورواه معمر، عن الزهرى، عن أنس بنحو ذلك - أو قريباً منه - قال الزهرى: فقالت أم عبد الله ابن حذافة: ما رأيت ولداً أعق منك قط، أكنت تأمن أن تكون أمك قد قارفت ما قارف أهل الجاهلية فتفضحها على رؤوس الناس، فقال: والله لو ألحقنى بعبد أسود للحقته^(٤).

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا قيس، عن أبى حصين، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ وهو غضبان محمراً وجهه حتى جلس على المنبر، فقام إليه رجل فقال: أين أبى^(٥)؟ فقال: «فى النار» فقام آخر فقال: من أبى؟ فقال: «أبوك حذافة»، فقام عمر بن الخطاب فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، وبالقرآن إماماً، إنا يا رسول الله حديثو عهد بجاهلية وشرك، والله أعلم من آبؤنا. قال: فسكن غضبه، ونزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾^(٦) إسناده جيد^(٧).

وقد ذكر هذه القصة^(٨) مرسله غير واحد من السلف، منهم أسباط عن السددي أنه قال فى قوله:

(١) صحيح البخارى برقم (٤٦٢١).

(٢) صحيح البخارى برقم (٦٤٨٦، ٧٢٩٥) وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٩) والمسند (٢١٠/٣) وسنن الترمذى برقم (٣٠٥٦).

(٣) تفسير الطبرى (١٠٠/١١) وصحيح البخارى برقم (٧٠٩١) وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٩).

(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (١٠٢/١١) من طريق معمر به.

(٥) فى د: «أين أنا».

(٦) تفسير الطبرى (١٠٣/١١).

(٨) فى د: «ذكرها».

(٧) فى د: «إسناده جيد».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾ قال: غضب رسول الله ﷺ يوماً من الأيام، فقام خطيباً فقال: «سلوني، فإنكم لا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به». فقام إليه رجل من قریش، من بنى سهم، يقال له: عبد الله بن حذافة، وكان يُطعن فيه، فقال: يا رسول الله، من أبى؟ فقال: «أبوك فلان»، فدعاه لأبيه، فقام إليه عمر بن الخطاب فقبل رجله، وقال: يا رسول الله، رضينا بالله رباً، وبك نبياً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً، فاعف عنا عفا الله عنك، فلم يزل به حتى رضى، فيومئذ قال: «الولد للفراش وللعاهر الحجر».

ثم قال البخارى: حدثنا الفضل بن سهل، حدثنا أبو النضر، حدثنا أبو خيثمة، حدثنا أبو الجويرية، عن ابن عباس قال: كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاء، فيقول الرجل: من أبى؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾ حتى فرغ من الآية كلها. تفرد^(١) به البخارى^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا منصور بن وردان الأسدى، حدثنا على بن عبد الأعلى، عن أبيه، عن أبي البختري - وهو سعيد بن فيروز - عن^(٣) على قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] قالوا: يا رسول الله، فى^(٤) كل عام؟ فسكت. فقالوا: أفى كل عام؟ فسكت، قال: ثم قالوا: أفى كل عام؟ فقال: «لا، ولو قلت: نعم لوجبت»، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾ إلى آخر الآية.

وكذا رواه الترمذى وابن ماجه، من طريق منصور بن وردان، به^(٥). وقال الترمذى: غريب من هذا الوجه، وسمعت البخارى يقول: أبو البختري لم يدرك علياً.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الرحيم بن سليمان، عن إبراهيم بن مسلم الهجرى، عن أبى عياض، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب عليكم الحج»، فقال رجل: أفى كل عام يا رسول الله؟ فأعرض عنه، حتى عاد مرتين أو ثلاثاً، فقال: «من السائل؟» فقال: فلان. فقال: «والذى نفسى بيده، لو قلت: نعم لوجبت، ولو وجبت عليكم ما أطقتموه، ولو تركتموه لكفرتم»، فأنزل الله، عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾ حتى ختم الآية.

ثم رواه ابن جرير من طريق الحسين بن واقد، عن محمد بن زياد، عن أبى هريرة - وقال: فقام محصن الأسدى - وفى رواية من هذه الطريق: عكاشة بن محصن - وهو أشبه^(٦).

(١) فى د: «رواه».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٦٢٢).

(٣) فى د: «وعن».

(٤) فى د: «أفى».

(٥) المسند (١١٣/١) وسنن الترمذى برقم (٣٠٥٥) وسنن ابن ماجه برقم (٢٨٨٤).

(٦) تفسير الطبرى (١٠٥/١١).

وإبراهيم بن مسلم الهجرى ضعيف .

وقال ابن جرير أيضاً: حدثني زكريا بن يحيى بن أبان المصرى قال: حدثنا أبو زيد عبد الرحمن ابن أبى الغمر، حدثنا أبو مطيع معاوية بن يحيى، عن صفوان بن عمرو، حدثني سليم بن عامر قال: سمعت أبا أمامة الباهلى يقول: قام رسول الله ﷺ فى الناس فقال: «كتب عليكم الحج». فقام رجل من الأعراب فقال: أفى كل عام؟ قال: فغلق كلام رسول الله ﷺ، وأسكت واستغضب، ومكث طويلاً، ثم تكلم فقال: «من السائل؟» فقال الأعرابى: أنا ذا، فقال: «ويحك، ماذا يؤمنك أن أقول: نعم، والله لو قلت: نعم لوجبت، ولو وجبت لكفرتم، ألا إنه إنما أهلك الذين من قبلكم أئمة الحرج، والله لو أنى أحللت لكم جميع ما فى الأرض، وحرمت عليكم منها موضع خُفٍّ، لوقعتم فيه»، قال: فأنزل الله عند ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تِسْوَعٌ﴾ إلى آخر الآية^(١). فى إسناده ضعف.

وظاهر^(٢) الآية النهى عن السؤال عن الأشياء التى إذا أعلم بها الشخص ساءته، فالأولى الإعراض عنها وتركها. وما أحسن الحديث الذى رواه الإمام أحمد حيث قال:

حدثنا حجاج قال: سمعت إسرائيل بن يونس، عن الوليد بن أبى هشام مولى الهمداني، عن زيد بن زائد، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لا يبلغنى أحد عن أحد شيئاً؛ فإننى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر» الحديث.

وقد رواه أبو داود والترمذى، من حديث إسرائيل^(٣) - قال أبو داود: عن الوليد - وقال الترمذى: عن إسرائيل - عن السدى، عن الوليد بن أبى هاشم، به. ثم قال الترمذى: غريب من هذا الوجه.

وقوله: ﴿وإن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدِّلْ لَكُمْ﴾ أى: وإن تسألوا عن هذه الأشياء التى نهيتهم عن السؤال عنها حين ينزل الوحي على الرسول تبين لكم، وذلك [على الله]^(٤) يسير. ثم قال^(٥) ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ أى: عما كان منكم قبل ذلك، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

وقيل: المراد بقوله: ﴿وإن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدِّلْ لَكُمْ﴾ أى: لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها، فلعلّه قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضييق^(٦). وقد ورد فى الحديث: «أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يُحرّم فحرّم من أجل مسأله»^(٧). ولكن إذا نزل القرآن بها مجملة فسألتم عن بيانها حينئذ، تبينت لكم لاحتياجكم إليها^(٨).

(١) تفسير الطبرى (١١/١٠٧).

(٢) فى د: «فظاهر».

(٣) المسند (١/٣٩٥) وسنن أبى داود برقم (٤٨٦٠) وسنن الترمذى برقم (٣٨٩٦).

(٤) زيادة من د.

(٥) فى د: «وقوله».

(٦) فى د: «أو تعسير».

(٧) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٢٨٩) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٣٥٨) من حديث سعد بن أبى وقاص.

(٨) فى د: «إليه».

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ أى: ما لم يذكره^(١) فى كتابه فهو مما عفا عنه، فاسكتوا أنتم عنها كما سكت عنها. وفى الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ذرونى ما تركتُم؛ فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم»^(٢).

وفى الحديث الصحيح أيضاً: «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرمّ أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها»^(٣).

ثم قال: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ أى: قد سأل هذه المسائل المنهى عنها قومٌ من قبلكم، فأجيبوا عنها ثم لم يؤمنوا بها، فأصبحوا بها كافرين، أى: بسببها، أى: بينت لهم ولم^(٤) يتفعوا بها لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد، وإنما سألوا على وجه التعتن والعناد.

قال العوفى، عن ابن عباس قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِن تُبَدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ أذن فى الناس فقال: «يا قوم، كتب عليكم الحج»^(٥). فقام رجل من بنى أسد فقال: يا رسول الله، أفى كل عام؟ فأغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً فقال: «والذى نفسى بيده لو قلت: نعم لوجبت، ولو وجبت ما^(٦) استطعتم، وإذا لكفرتم، فاتركونى ما تركتكم، وإذا أمرتكم بشيء فافعلوا، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهاوا عنه». فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِن تُبَدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾، نهاهم أن يسألوا عن مثل الذى سألت النصارى من المائدة، فأصبحوا بها كافرين. فنهى الله عن ذلك وقال: لا تسألوا عن أشياء إن نزل القرآن فيها بتغليظ^(٧) ساءكم ذلك، ولكن انتظروا، فإذا نزل القرآن فإنكم لا تسألون عن شيء إلا وجدتم تبيانه^(٨). رواه ابن جرير.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِن تُبَدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَ لَكُمْ﴾ قال: لما نزلت آية الحج، نادى النبى ﷺ فى الناس فقال: «يا أيها الناس، إن الله قد كتب عليكم الحج فحجوا». فقالوا: يا رسول الله، أعاماً واحداً أم كل عام؟ فقال: «لا، بل عاماً واحداً، ولو قلت: كل عام لوجبت، ولو وجبت لكفرتم». ثم قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾^(٩). رواه ابن جرير.

وقال خصيف، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ﴾ قال: هى البحيرة والوصيلة والسائبة والحام، ألا ترى أنه يقول بعد ذلك^(١٠): «ما جعل الله من بحيرة ولا كذا ولا كذا»، قال: وأما عكرمة فقال: إنهم كانوا يسألونه عن الآيات، فنهوا عن ذلك. ثم قال: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾. رواه ابن جرير.

(١) فى د: «لم يذكرها».

(٢) صحيح مسلم برقم (١٣٣٧).

(٣) رواه البيهقى فى السنن الكبرى (١٣/١٠) من طريق داود بن أبى هند، عن مكحول، عن أبى ثعلبة الخشنى به مرفوعاً.

(٤) فى د: «فلم».

(٥) فى د: «فقال».

(٦) فى د: «لما».

(٧) فى د: «بتغليظ».

(٨) فى د: «إلى قوم بها كافرين» وهو خطأ.

(٩) فى د: «تبيانه».

(١٠) فى د: «قال بعدها».

يعنى عكرمة رحمه الله: أن المراد بهذا النهى عن سؤال وقوع الآيات، كما سألت قريش أن يجرى لهم أنهاراً، وأن يجعل لهم الصفاً ذهباً وغير ذلك، وكما سألت اليهود أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً﴾ [الإسراء: ٥٩] وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ. وَنَقَلَبُ أَمْعُنَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ. وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩ - ١١١].

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٠٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾.

قال البخارى: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب قال: «البحيرة»: التى يُمنَعُ دَرَّهَا للطواغيت، فلا يَحْلِبُهَا^(١) أحد من الناس. و«السائبة»: كانوا يسيبونها لآلهتهم، لا يحمل عليها شيء - قال: وقال^(٢) أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ عَمْرَوَ بْنَ عامر الخزاعى يَجُرُّ قُصْبَهُ فى النار، كان أول من سيب السوائب» - و«الوصيلة»: الناقة البكر، تُبَكَّرُ فى أول نتاج الإبل، ثم تُثَنَّى بعد بثنى، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم، إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر. و«الحام»: فحل الإبل يَضْرِبُ الضَّرْبَ المَعْدُود، فإذا قضى ضرابه ودَعُوهُ للطواغيت، وأعفوه عن الحمل، فلم يُحْمَلْ عليه شيء، وسَمَوَهُ^(٣) الحامى. وكذا رواه مسلم والنسائى، من حديث إبراهيم بن سعد، به^(٤).

ثم قال البخارى: وقال لنا أبو اليمان: أخبرنا شعيب، عن الزهري قال: سمعت سعيداً يخبر بهذا. وقال أبو هريرة عن النبى ﷺ، نحوه. ورواه ابن الهاد، عن ابن شهاب، عن سعيد، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ^(٥).

قال الحاكم: أراد البخارى أن يزيد بن عبد الله بن الهاد رواه عن عبد الوهاب بن بُخْت، عن الزهري. كذا حكاه شيخنا أبو الحجاج المزي فى «الأطراف» وسكت ولم ينبه عليه. وفيما قاله الحاكم نظر، فإن الإمام أحمد وأبا جعفر بن جرير روياه من حديث الليث بن سعد، عن ابن الهاد، عن

(٣) فى د: «ويسموه».

(٢) فى د: «فقال».

(١) فى د: «عليها».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٦٢٣) وصحيح مسلم برقم (٢٨٥٦).

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٦٢٣).

الزهرى نفسه^(١)، والله أعلم.

ثم قال البخارى: حدثنا محمد بن أبى يعقوب أبو عبد الله الكرمانى، حدثنا حسان بن إبراهيم، حدثنا يونس، عن الزهرى، عن عروة؛ أن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطَمُ بعضها بعضاً، ورأيتَ عمراً يجر قُصْبَهُ، وهو أول من سيب السوائب». تفرد به البخارى^(٢).

وقال ابن جرير: حدثنا هناد، حدثنا يونس بن بكير، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنى محمد ابن إبراهيم بن الحارث، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجؤن: «يا أكثم، رأيتَ عمرو بن لُحَى بن قَمْعَةَ بن خندف يجر قُصْبَهُ فى النار، فما رأيتَ رجلاً أشبهه برجل منك به، ولا به منك». فقال أكثم: تخشى أن يضرنى شبهه يا رسول الله؟ فقال^(٣) رسول الله ﷺ: «لا، إنك مؤمن وهو كافر، إنه أول من غيّر دين إبراهيم، وبحر البحيرة، وسيب السائبة، وحمى الحامى». ثم رواه عن هناد، عن عبدة، عن محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، بنحوه أو مثله^(٤).

ليس هذان الطريقتان فى الكتب.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عمرو بن مُجَمِّع، حدثنا إبراهيم الهجرى، عن أبى الأحوص، عن عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ قال: «إن أول من سيب السوائب، وعبد الأصنام، أبو خزاعة عمرو ابن عامر، وإنى رأيته يجر أعماءه فى النار». تفرد به أحمد من هذا الوجه^(٥).

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى لأعرف أول من سيب السوائب، وأول من غير دين إبراهيم عليه السلام». قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «عمرو بن لُحَى أخو بنى كعب، لقد رأيته يجر قُصْبَهُ فى النار، يؤذى ريحه أهل النار. وإنى لأعرف أول من بحر البحائر». قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «رجل من بنى مُدْلَج، كانت له ناقتان، فجذع أذانهما، وحرّم ألبانهما، ثم شرب ألبانهما بعد ذلك، فلقد رأيته فى النار وهما يعضّانه بأفواههما ويخبطانه^(٦) بأخفافهما»^(٧).

فعمرّو هذا هو ابن لُحَى بن قَمْعَةَ، أحد رؤساء خزاعة، الذين ولّوا البيت بعد جرهم. وكان أول من غير دين إبراهيم الخليل، فأدخل الأصنام إلى الحجاز، ودعا الرعاع من الناس إلى عبادتها والتقرب

(١) المسند (٣٦٦/٢) وتفسير الطبرى (١١٦/١١).

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٦٢٤).

(٣) فى د: «قال».

(٤) تفسير الطبرى (١١٧/١١) ورواه ابن هشام فى السيرة النبوية (٧٨/١) من طريق محمد بن إسحاق به.

(٥) المسند (٤٤٦/١) وفى إسناده إبراهيم بن مسلم الهجرى وهو ضعيف، لكن للحديث شواهد من حديث عائشة وأبى هريرة المتقدمين، وانظر كلام الشيخ ناصر الألبانى فى السلسلة الصحيحة برقم (١٦٧٧).

(٦) فى د: «ويطّانه».

(٧) تفسير عبد الرزاق (١٩١/١) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٢٠/١١) من طريق عبد الرزاق به.

بها، وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها، كما ذكره الله تعالى في سورة الأنعام، عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦] إلى آخر الآيات في ذلك.

فأما البحيرة، فقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن نظروا إلى الخامس، فإن كان ذكراً ذبحوه، فأكله الرجال دون النساء. وإن كان^(١) أنثى جدعوا آذانها، فقالوا: هذه بحيرة.

وذكر السدّي وغيره قريباً من هذا.

وأما السائبة، فقال مجاهد: هي من الغنم نحو ما فسر من البحيرة، إلا أنها ما ولدت من ولد بينها وبين ستة أولاد كان على هيئتها، فإذا ولدت السابع ذكراً أو ذكرين، ذبحوه، فأكله رجالهم دون نسائهم.

وقال محمد بن إسحاق: السائبة: هي الناقة إذا ولدت عشر إناث من الولد ليس بينهما ذكر، سيّبت فلم تتركب، ولم يُجزَّ وبرها، ولم يحلب لبنها إلا الضيف.

وقال أبو روق: السائبة: كان الرجل إذا خرج فقُضيت حاجته، سيّب من ماله ناقة أو غيرها، فجعلها للطواغيت. فما ولدت من شيء كان لها.

وقال السدّي: كان الرجل منهم إذا قُضيت حاجته أو عوفى من مرض أو كثر ماله سيّب شيئاً من ماله للأوثان، فمن عرض له من الناس عوقب بعقوبة^(٢) في الدنيا.

وأما الوصيلة، فقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هي الشاة إذا نتجت سبعة أبطن نظروا السابع، فإن كان ذكراً أو أنثى وهو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء، وإن كان أنثى استحيوها، وإن كان ذكراً وأنثى في بطن استحيوهما وقالوا: وصلته أخته فحرمته علينا. رواه ابن أبي حاتم.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب: ﴿وَلَا وَصِيلَةَ﴾ قال: فالوصيلة من الإبل، كانت الناقة تبتكر بأنثى، ثم تشى بأنثى، فيسمونها الوصيلة، ويقولون: وصلت أنثيين ليس بينهما ذكر، فكانوا يجدهونها لطواغيتهم.

وكذا روى عن الإمام مالك بن أنس، رحمه الله.

وقال محمد بن إسحاق: الوصيلة من الغنم: إذا ولدت عشر إناث في خمسة أبطن، توأمين توأمين في كل بطن، سميت الوصيلة وتركت، فما ولدت بعد ذلك من ذكر أو أنثى، جعلت للذكور دون الإناث. وإن كانت ميتة اشتركوا فيها.

وأما الحام، فقال العوفى، عن ابن عباس قال: كان الرجل إذا لقح فحله عشراً، قيل: حام، فاتركوه.

(٢) في د: «يغربه».

(١) في د: «كانت».

وكذا قال أبو روق، وقتادة. وقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: وأما الحام فالفحل من الإبل، إذا وُلد لولده قالوا: حمى هذا ظهره، فلا يحملون عليه شيئاً، ولا يجزون له وبراً، ولا يمنعون من حمى رعى، ومن حوض يشرب منه، وإن كان الحوض لغير صاحبه.

وقال ابن وهب: سمعت مالكا يقول: أما الحام فمن الإبل كان يضرب في الإبل، فإذا انقضى ضرابه جعلوا عليه ريش الطواويس وسيّوه.

وقد قيل غير ذلك في تفسير هذه الآية. وقد ورد في ذلك حديث رواه ابن أبي حاتم، من طريق أبي إسحاق السبيعي، عن أبي الأحوص الجشمي، عن أبيه مالك بن نضلة قال: أتيت النبي ﷺ في خَلْقَانِ مِنَ الثِّيَابِ، فقال لى: «هل لك من مال؟» قلت^(١): نعم. قال: «من أى المال؟» قال: فقلت: من كل المال، من الإبل والغنم والخيول والرقيق. قال: «إذا آتاك الله مالا فليّر عليك». ثم قال: «تنتج إبلك وافية آذانها؟» قال: قلت: نعم. قال: «وهل تنتج الإبل إلا كذلك؟» قال: «فعلك تأخذ موسى فقطع آذان طائفة منها وتقول: هذه بحير، وتشق آذان طائفة منها، وتقول: هذه حرم؟» قلت: نعم. قال: «فلا تفعل، إن كل ما آتاك الله لك حل»، ثم قال: «مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ»، أما البحيرة: فهي التي يجدهون آذانها، فلا تنتفع امرأته ولا بناته ولا أحد من أهل بيته بصوفها ولا أوبارها ولا أشعارها ولا ألبانها، فإذا ماتت اشتركوا فيها. وأما السائبة: فهي التي يسيبون لألتهم، ويذهبون إلى آلتهم فيسيبونها، وأما الوصيلة: فالشاة تلد ستة أبطن، فإذا ولدت السابع^(٢)، جدعت وقطع قرننها، فيقولون: قد وصلت، فلا يذبحونها ولا تضرب ولا تمنع مهما وردت على حوض. هكذا يذكر تفسير ذلك مدرجاً في الحديث. وقد روى من وجه آخر عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص عوف بن مالك، من قوله، وهو أشبه^(٣).

وقد روى هذا الحديث^(٤) الإمام أحمد، عن سفيان بن عيينة، عن أبي الزعراء عمرو بن عمرو، عن عمه أبي الأحوص عوف بن مالك بن نضلة، عن أبيه، به. وليس فيه تفسير هذه^(٥)، والله أعلم. - وقوله: «وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» أى: ما شرع الله هذه الأشياء ولا هى عنده قربة، ولكن المشركون افترؤا ذلك^(٦)، وجعلوه شرعاً لهم وقربة يتقربون بها إليه. وليس ذلك بحاصل لهم، بل هو وبال عليهم.

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا» أى: إذا دعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه وترك ما حرمه، قالوا: يكفيننا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك، قال الله تعالى: «أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا» أى: لا يفهمون حقاً، ولا

(١) فى د: «فقلت».

(٢) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٢٢/١١) من طريق شعبة، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص عن أبيه به.

(٣) فى د: «وروى الحديث».

(٤) المسند (١٣٦/٤).

(٥) فى د: «ولكن افترؤه المشركون».

يعرفونه، ولا يهتدون إليه، فكيف يتبعونهم والحالة هذه؟ لا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم، وأضل سبيلاً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٠٥).

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقاتهم، ومخبراً لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس، سواء كان قريباً منه أو بعيداً.

قال العوفي عن ابن عباس عند تفسير هذه الآية: يقول تعالى: إذا ما العبد أطاعني فيما أمرته به من الحلال والحرام^(١)، فلا يضره من ضل بعده، إذا عمل بما أمرته به.

وكذا^(٢) روى الوالبي عنه. وهكذا قال مقاتل بن حيان. فقله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ نصب على الإغراء ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: فيجازي^(٣) كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وليس في الآية مستدل^(٤) على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإذا كان فعل ذلك ممكناً، وقد قال الإمام أحمد^(٥)، رحمه الله:

حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا زهير - يعني ابن معاوية - حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، حدثنا قيس قال: قام أبو بكر، رضى الله عنه، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أيها^(٦) الناس، إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ إلى آخر الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإنى سمعت رسول الله ﷺ قال: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه أوشك الله، عز وجل، أن يعُمَّهُمُ بِعِقَابِهِ». قال: وسمعت أبا بكر يقول: يا أيها الناس، إياكم والكذب، فإن الكذب مجانب^(٧) الإيمان.

وقد روى هذا الحديث أصحاب السنن الأربعة، وابن حبان في صحيحه، وغيرهم^(٨)، من طرق كثيرة عن جماعة كثيرة، عن إسماعيل بن أبي خالد، به متصلاً مرفوعاً، ومنهم من رواه عنه به موقوفاً على الصديق^(٩). وقد رجح رفعه الدارقطني وغيره^(١٠)، وذكرنا طرقه والكلام عليه مطولاً في

(١) فى د: «ونهيته عنه». (٢) ف د: «وهكذا». (٣) فى د: «ليجازى».

(٤) فى د: «وليس فيها دليل». (٥) فى د: «قال أحمد». (٦) فى د: «يا أيها».

(٧) فى د: «يجانب».

(٨) المسند (٥/١) وسنن أبي داود برقم (٤٣٣٨) وسنن الترمذى برقم (٢١٦٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١١٥٧) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٠٥).

(٩) رواه أبو يعلى فى المسند (١١٨/١) من طريق شعبة، عن الحكم، عن قيس بن أبى حازم به موقوفاً.

(١٠) العلل للدارقطنى (٢٥٣/١).

مسند الصديق، رضى الله عنه.

وقال أبو عيسى الترمذى: حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقانى، وحدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا عتبة بن أبى حكيم، حدثنا عمرو بن جارية^(١) اللخمي، عن أبى أمية الشعباني^(٢) قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع فى هذه الآية؟ فقال: آية آية؟ قلت: قوله [تعالى]^(٣): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ فقال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألتُ عنها رسول الله ﷺ فقال: «بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع العوام، فإن من ورائكم أياماً الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم» - قال عبد الله بن المبارك: وزاد غير عتبة: قيل: يا رسول الله، أجر خمسين رجلاً منهم أو منا؟ قال: «بل أجر خمسين منكم».

ثم قال^(٤) الترمذى: هذا حديث حسن غريب صحيح. وكذا رواه أبو داود من طريق ابن المبارك، ورواه ابن ماجه، وابن جرير، وابن أبى حاتم، عن عتبة بن أبى حكيم^(٥).

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن الحسن أن ابن مسعود سأل رجل عن قوله^(٦): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ فقال: إن هذا ليس بزمانها، إنها اليوم^(٧) مقبولة. ولكنه قد أوشك أن يأتى زمانها، تأمرون فيصنع بكم كذا وكذا - أو قال: فلا يقبل منكم - فحينئذ ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ﴾.

ورواه أبو جعفر الرازى، عن الربيع، عن أبى العالية، عن ابن مسعود فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ الآية، قال: كانوا عند عبد الله بن مسعود جلوساً، فكان بين رجلين بعض ما يكون بين الناس، حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه، فقال رجل من جلساء عبد الله: ألا أقوم فأمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر؟ فقال آخر إلى جنبه: عليك بنفسك، فإن الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٨) عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ الآية. قال: فسمعها^(٩) ابن مسعود فقال: مه، لم يجرئ تأويل هذه بعد^(١٠). إن القرآن أنزل حيث أنزل^(١١)، ومنه آى قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن، ومنه آى قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله ﷺ، ومنه آى قد وقع تأويلهن بعد النبى ﷺ بيسير، ومنه آى يقع تأويلهن بعد اليوم، ومنه آى يقع تأويلهن عند الساعة على ما ذكر من الساعة، ومنه آى

(١) فى د: «ابن الحارث».

(٢) فى د: «الشعثنى».

(٣) فى د: «فقال».

(٤) سنن الترمذى برقم (٣٠٥٨) وسنن أبى داود برقم (٤٣٤١) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠١٤) وتفسير الطبرى (١١/١٤٥).

(٥) فى د: «سئل عن قوله».

(٦) فى د: «سئل عن قوله».

(٧) فى د: «فردھا».

(٨) فى د: «تأويلها».

(٩) فى د: «نزل».

يقع تأويلهن يوم الحساب على ما ذكر من الحساب والجنة والنار. فما دامت قلوبكم واحدة، وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيعاً، ولم يذق بعضكم بأس بعض فأمروا وانهاوا. فإذا اختلفت القلوب والأهواء، وألبستم شيعاً، وذاق بعضكم بأس بعض فامروا ونفسه، عند ذلك جاءنا تأويل هذه الآية. رواه ابن جرير^(١).

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا شبابة بن سوار، حدثنا الربيع بن صبيح، عن سفيان بن عقال قال: قيل لابن عمر: لو جلست في هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه، فإن الله قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾؟ فقال ابن عمر: إنها ليست لى ولا لأصحابى إن^(٢) رسول الله ﷺ قال: «ألا فليبلغ الشاهد الغائب». فكننا نحن الشهود وأنتم الغيب، ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا، إن قالوا لم يقبل منهم^(٣).

وقال أيضاً: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر وأبو عاصم قالوا: حدثنا عوف، عن سوار بن شبيب قال: كنت عند ابن عمر، إذ أتاه^(٤) رجل جليد في العين، شديد اللسان، فقال: يا أبا عبد الرحمن، نفر ستة كلهم قد قرأ القرآن فأسرع فيه، وكلهم مجتهد لا يالو^(٥)، وكلهم بغيض إليه أن يأتي دناءة، وهم في ذلك يشهد بعضهم على بعض بالشرك. فقال رجل من القوم: وأى دناءة تريد أكثر من أن يشهد بعضهم على بعض بالشرك؟

فقال الرجل: إني لست إياك أسأل، إنما أسأل الشيخ. فأعاد على عبد الله الحديث، فقال عبد الله: لعلك ترى، لا أبالك، أنى سأمرك أن تذهب فتقتلهم! عظمهم وانهمهم، فإن عصوك فعليك نفسك^(٦)، فإن الله، عز وجل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ الآية.

وقال أيضاً: حدثني أحمد بن المقدام، حدثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبا، حدثنا قتادة، عن أبي مازن قال: انطلقت على عهد عثمان إلى المدينة، فإذا قوم من المسلمين جلوس، فقرأ أحدهم هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ﴾ فقال أكبرهم^(٧): لم يجئ تأويل هذه الآية اليوم.

وقال: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا ابن فضالة، عن معاوية بن صالح، عن جبير بن نفير قال: كنت في حلقة فيها أصحاب رسول الله ﷺ، وإنى لأصغر القوم، فتذكروا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقلت أنا: أليس الله يقول في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾؟ فأقبلوا على بلسان واحد وقالوا: تنزع آية من القرآن ولا تعرفها، ولا تدري ما تأويلها!! حتى تمت^(٨) أنى لم أكن تكلمت، وأقبلوا يتحدثون، فلما حضر قيامهم قالوا: إنك غلام

(١) تفسير الطبري (١١/١٤٣).

(٢) في د: «لأن».

(٣) تفسير الطبري (١١/١٣٩).

(٤) في د: «فأناه».

(٦) في د: «بنفسك».

(٥) في د: «ولا يالو».

(٨) في د: «فتمنيت».

(٧) في د: «أكبرهم».

حَدَّثُ^(١) السن، وإنك نزعْتَ بآية ولا تدري ما هي؟ وعسى أن تدرك ذلك الزمان، إذا رأيت شُحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، وإعجاب كل ذي رأى برأيه، فعليك بنفسك، لا يضرك من ضل إذا اهتديت^(٢).

وقال ابن جرير: حدثنا علي بن سهل، حدثنا ضَمْرَةُ بن ربيعة قال: تلا الحسن هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ فقال الحسن: الحمد لله بها، والحمد لله عليها، ما كان مؤمن فيما مضى، ولا مؤمن فيما بقى، إلا وإلى جانبه منافق يكره عمله.

وقال سعيد بن المسيب: إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، فلا يضرك من ضل إذا اهتديت. رواه ابن جرير، وكذا روى من طريق سفيان الثوري، عن أبي العُميس، عن أبي البختري، عن حذيفة مثله، وكذا قال غير واحد من السلف.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن خالد الدمشقي، حدثنا الوليد، حدثنا ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن كعب في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قال: إذا هدمت كنيسة دمشق، فجعلت مسجداً، وظهر لبس العصب، فحينئذ تأويل هذه الآية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمُ مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ (١٠٦) فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَأَخْرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلِيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨)﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة على حكم عزيز، قيل: إنه منسوخ رواه العوفي عن ابن عباس. وقال^(٣) حماد بن أبي سليمان، عن إبراهيم: إنها منسوخة. وقال آخرون - وهم الأكثرون، فيما قاله ابن جرير -: بل هو محكم؛ ومن ادعى النسخ فعليه البيان.

فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ﴾ هذا هو الخبر؛ لقوله: ﴿شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ﴾ فقل تقديره: «شهادة اثنين»، حذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه. وقيل: دل الكلام على تقدير أن يشهد اثنان.

(١) في د: «حديث».

(٢) تفسير الطبري (١١/١٤٢).

(٣) في د: «وقاله».

وقوله: ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ وصف الاثنين، بأن يكونا عدلين.

وقوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ أى: من المسلمين. قاله الجمهور. قال^(١) على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ قال: من المسلمين. رواه ابن أبى حاتم، ثم قال: روى عن عبيدة، وسعيد بن المسيب، والحسن، ومجاهد، ويحيى بن يعمر، والسدى، وقتادة، ومقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، نحو ذلك.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: عنى: ذلك ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أى: من حى^(٢) الموصى. وذلك قول روى عن عكرمة وعبيدة وعدة غيرهما.

وقوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سعيد بن عون، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا حبيب بن أبى عمرة، عن سعيد بن جبيرة قال: قال ابن عباس فى قوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ قال: من غير المسلمين، يعنى: أهل الكتاب.

ثم قال: وروى عن عبيدة، وشريح، وسعيد بن المسيب، ومحمد بن سيرين، ويحيى بن يعمر، وعكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، والشعبى، وإبراهيم النخعى، وقتادة، وأبى مجلز، والسدى، ومقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، نحو ذلك.

وعلى ما حكاه ابن جرير عن عكرمة وعبيدة فى قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ أى: المراد من قبيلة الموصى، يكون المراد ههنا: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أى: من غير قبيلة الموصى. وقد روى عن ابن أبى حاتم مثله عن الحسن البصرى، والزهرى، رحمهما الله.

وقوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: سافرتن، ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾: وهذان شرطان لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين، أن يكون ذلك فى سفر، وأن يكون فى وصية، كما صرح بذلك شريح القاضى.

قال ابن جرير: حدثنا عمرو بن على، حدثنا أبو معاوية ووکیع قالوا: حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن شريح قال: لا تجوز شهادة اليهودى والنصرانى^(٣) إلا فى سفر، ولا تجوز فى سفر إلا فى وصية.

ثم رواه عن أبى كريب، عن أبى بكر بن عياش، عن أبى إسحاق السبيعى قال: قال شريح، فذكر مثله.

وقد روى مثله عن الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله تعالى. وهذه المسألة من أفرادها، وخالفه الثلاثة فقالوا: لا تجوز شهادة أهل الذمة على المسلمين. وأجازها أبو حنيفة فيما بين بعضهم بعضاً.

وقال ابن جرير: حدثنا عمرو بن على، حدثنا أبو داود، حدثنا صالح بن أبى الأخضر، عن الزهرى قال: مضت السنة أنه لا تجوز شهادة كافر فى حضر ولا سفر، إنما هى فى المسلمين^(٤).

(٢) فى د: «من أهل».

(١) فى د: «قاله».

(٣) فى د: «اليهود والنصارى».

(٤) تفسير الطبرى (١١/١٦٦).

وقال ابن زيد: نزلت هذه الآية في رجل توفى وليس عنده أحد من أهل الإسلام، وذلك في أول الإسلام، والأرض حرب، والناس كفار، وكان الناس يتوارثون بالوصية، ثم نُسخَت الوصية وفرضت الفرائض، وعمل الناس بها.

رواه ابن جرير، وفي هذا نظر، والله أعلم.

وقال ابن جرير: اختلف في قوله: ﴿شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾: هل المراد أن يوصى إليهما، أو يشهدهما؟ على قولين:

أحدهما: أن يوصى إليهما، كما قال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن عبد الله بن قُسيط قال: سئل ابن مسعود، رضى الله عنه، عن هذه الآية قال^(١): هذا رجل سافر ومعه مال، فأدركه قدره، فإن وجد رجلين من المسلمين دفع إليهما تركته، وأشهد عليهما عدلين من المسلمين.

رواه ابن أبي حاتم وفيه انقطاع.

والقول الثاني: أنهما يكونان شاهدين. وهو ظاهر سياق الآية الكريمة، فإن لم يكن وصى ثالث معهما اجتمع فيهما الوصفان: الوصاية والشهادة، كما في قصة تميم الدارى، وعدى بن بداء، كما سيأتى ذكرها آنفاً، إن شاء الله وبه التوفيق.

وقد استشكل ابن جرير كونهما شاهدين، قال: لأننا لا نعلم حكماً يحلف فيه الشاهد. وهذا لا يمنع الحكم الذى تضمنته هذه الآية الكريمة، وهو حكم مستقل بنفسه، لا يلزم أن يكون جارياً على قياس جميع الأحكام، على أن هذا حكم خاص بشهادة خاصة فى محل خاص، وقد اغتفر فيه من الأمور ما لم يغتفر فى غيره، فإذا قامت قرائن الرية حلف هذا الشاهد بمقتضى ما دلت عليه هذه الآية الكريمة.

وقوله تعالى: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ قال [العوفى، عن^(٢) ابن عباس: يعنى صلاة العصر. وكذا قال سعيد بن جبير، وإبراهيم النخعى، وقتادة، وعكرمة، ومحمد بن سيرين. وقال الزهرى: يعنى صلاة المسلمين، وقال السدى، عن ابن عباس: يعنى صلاة أهل دينهما.

والمقصود: أن يقام هذان الشاهدان^(٣) بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهم، ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ أى: فيحلفان^(٤) بالله ﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾ أى: إن ظهرت لكم منهما رية، أنهما قد خانا أو غلا، فيحلفان حينئذ بالله ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ﴾ أى: بأيماننا. قاله مقاتل بن حيان ﴿ثَمَنًا﴾ أى: لا نعتاض عنه بعوض قليل من الدنيا الفانية الزائلة، ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أى: ولو كان المشهود عليه قريباً إلينا لا نحاييه، ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾: أضافها إلى الله تشريقاً لها، وتعظيماً لأمرها.

وقرأ بعضهم: «ولا نكتم شهادة الله» مجروراً على القسم. رواها ابن جرير، عن عامر الشعبي.

(١) فى د: «قال ابن مسعود فى هذه الآية».

(٢) زيادة من د.

(٤) فى د: «يحلفان».

(٣) فى د: «أن قيامها».

وحكى عن بعضهم أنه قرأ: «ولا نكتم شهادة الله»، والقراءة الأولى هي المشهورة.

﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ أى: إنا فعلنا شيئاً من ذلك، من تحريف الشهادة، أو تبديلها، أو تغييرها^(١)، أو كتمانها بالكلية.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ أى: فإن اشتهر وظهر وتحقق من الشاهدين الوصيين، أنهما خانا أو غلا شيئاً من المال الموصى به إليهما، وظهر عليهما بذلك ﴿فَآخِرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَيَانِ﴾: هذه قراءة الجمهور: «استحقَّ عليهم الأوليان». وروى عن على، وأبى، والحسن البصرى أنهم قرؤوها: ﴿اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَيَانِ﴾.

وقد روى الحاكم فى المستدرک من طريق إسحاق بن محمد الفروى، عن سليمان بن بلال، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن عبيد الله بن أبى رافع، عن على بن أبى طالب؛ أن النبى ﷺ قرأ: ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَيَانِ﴾. ثم قال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه^(٢).

وقرأ بعضهم، ومنهم ابن عباس: «من الذين استحق عليهم الأولين». وقرأ الحسن: «من الذين استحق عليهم الأولان»، حكاه ابن جرير.

فعلى قراءة الجمهور يكون المعنى بذلك: أى متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح على خيانتهم، فليقم اثنان من الورثة المستحقين للتركة وليكونا من أولى من يرث ذلك المال ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ أى: لقولنا: إنهما خانا أحق وأصح وأثبت من شهادتهما المتقدمة ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ أى: فيما قلنا من الخيانة ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أى: إن كنا قد كذبنا عليهما.

وهذا التحليف للورثة، والرجوع إلى قولهما والحالة هذه، كما يحلف أولياء المقتول إذا ظهر لو^(٣) فى جانب القاتل، فيقسم المستحقون على القاتل فيدفع برمته إليهم، كما هو مقرر فى باب «القسامة» من الأحكام.

وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة، فقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا الحسين بن زياد، حدثنا محمد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن أبى النضر، عن باذان - يعنى: أبا صالح مولى أم هانئ بنت أبى طالب - عن ابن عباس، عن تميم الدارى فى هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ﴾ قال: برئ الناس منها غيرى وغير عدى بن بداء. وكانا^(٤) نصرانيين، يختلفان إلى الشام قبل الإسلام، فأتيا الشام لتجارتهما وقدم عليهما مولى لبنى سهم، يقال له: بُذَيْل بن أبى مريم، بتجارة ومعه جام من فضة يريد به الملك، وهو عظيم^(٥) تجارته. فمرض فأوصى إليهما، وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله - قال تميم: فلما مات أخذنا ذلك الجام، فبعناه

(١) فى د: «وتغييرها».

(٢) المستدرک (٢/٢٣٧) ووافقه الذهبى.

(٣) فى د: «اللوث».

(٤) فى د: «فكانا».

(٥) فى د: «أعظم».

بألف درهم، ثم اقتسمناه أنا وعدى بن بداء. فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا، وفقدوا الجاه فسألونا عنه، فقلنا: ما ترك غير هذا، وما دفع إلينا غيره - قال تميم: فلما أسلمت بعد قدوم النبي ﷺ المدينة تأثمت من ذلك، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر، ودفعت^(١) إليهم خمسمائة درهم، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها، فوثبوا إليه^(٢) أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه، فحلف فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾. فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم فحلفا، فنزعت الخمسمائة من عدى بن بداء.

وهكذا رواه أبو عيسى الترمذى وابن جرير كلاهما عن الحسن بن أحمد بن أبي شعيب الحراني، عن محمد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق، به فذكره^(٣) - وعنده: فأتوا به رسول الله ﷺ فسألهم البيعة فلم يجدوا، فأمرهم أن يستحلفوه بما يُعظم به على أهل دينه، فحلف فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تَرُدَّ أَيْمَانُ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، فقام عمرو بن العاص ورجل آخر، فحلفا. فنزعت الخمسمائة من عدى بن بداء.

ثم قال: هذا حديث غريب، وليس إسناده بصحيح، وأبو النضر الذي روى عنه محمد بن إسحاق هذا الحديث هو عندى محمد بن السائب الكلبي، يكنى أبا النضر، وقد تركه أهل العلم بالحديث، وهو صاحب التفسير، سمعت محمد بن إسماعيل يقول: محمد بن السائب الكلبي، يكنى أبا النضر، ثم قال: ولا نعرف لسالم أبي النضر رواية عن أبي صالح مولى أم هانئ، وقد روى عن ابن عباس شيء من هذا على الاختصار من غير هذا الوجه.

حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا يحيى بن آدم، عن ابن أبي زائدة، عن محمد بن أبي القاسم، عن عبد الملك بن سعيد بن جبير، عن أبيه، عن ابن عباس قال: خرج رجل من بنى سهم مع تميم الداري وعدى بن بداء، فمات السهمى بأرض ليس فيها مسلم، فلما قدما بتركته فقدوا جأماً من فضة مخصوصاً بالذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ، ووجدوا الجاه بمكة، فقيل: اشتريناه من تميم وعدى. فقام رجلان من أولياء السهمى فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما، وإن الجاه لصاحبهم. وفيهم نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾.

وكذا رواه أبو داود، عن الحسن بن علي، عن يحيى بن آدم، به. ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب، وهو حديث ابن أبي زائدة^(٤).

ومحمد بن أبي القاسم، كوفى، قيل: إنه صالح الحديث، وقد ذكر هذه القصة مرسله غير واحد من التابعين منهم: عكرمة، ومحمد بن سيرين، وقتادة. وذكروا أن التحليف كان بعد صلاة العصر،

(١) فى د: «وأديت».

(٢) فى د: «عليه».

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٠٥٩) وتفسير الطبرى (١١/١٨٦).

(٤) سنن الترمذى برقم (٣٦٠٦) وسنن أبي داود برقم (٣٠٦٠) وأصله فى صحيح البخارى برقم (٢٧٨٠) لكن البخارى لم يذكره تحديداً وإنما حكاية قول.

رواه ابن جرير. وكذا ذكرها مرسله: مجاهد، والحسن، والضحاك. وهذا يدل على اشتهاها في السلف وصحتها.

ومن الشواهد لصحة هذه القصة أيضا^(١) ما رواه أبو جعفر بن جرير:

حدثني يعقوب، حدثنا هُشَيْمٌ، أخبرنا زكريا، عن الشعبي؛ أن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقا، قال: فحضرته الوفاة ولم يجد أحداً من المسلمين يشهده على وصيته، فأشهد رجلين من أهل الكتاب. قال: فقدما الكوفة، فأتيا الأشعري - يعنى: أبا موسى الأشعري، رضى الله عنه - فأخبراه^(٢)، وقدما بتركته ووصيته، فقال الأشعري: هذا أمر لم يكن بعد الذى كان فى عهد النبى ﷺ. قال: فأحلفهما بعد العصر: بالله ما خانا ولا كذبا ولا بدلاً ولا كتما ولا غيرا، وإنها لوصية الرجل وتركته. قال: فأمضى شهادتهما.

ثم رواه عن عمرو بن على الفلاس، عن أبى داود الطيالسى، عن شعبة، عن مغيرة الأزرق، عن الشعبي؛ أن أبا موسى قضى بدقوقا^(٣) (٤).

وهذان إسنادان صحيحان إلى الشعبي، عن أبى موسى الأشعري.

فقوله: «هذا أمر لم يكن بعد الذى كان فى عهد^(٥) رسول الله ﷺ» الظاهر - والله أعلم - أنه إنما أراد بذلك قصة تميم وعدى بن بداء، وقد ذكروا أن إسلام تميم بن أوس الدارى، رضى الله عنه، كان فى سنة تسع من الهجرة فعلى هذا يكون هذا الحكم متأخراً، يحتاج مدعى نسخه إلى دليل فاصل فى هذا المقام، والله أعلم.

وقال أسباط، عن السدى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ» قال: هذا فى الوصية عند الموت، يوصى ويشهد رجلين من المسلمين على ما له وما عليه، قال: هذا فى الحضر، «أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ» فى السفر، «إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ»، هذا الرجل يدركه الموت فى سفره، وليس بحضرته أحد من المسلمين، فيدعو رجلين من اليهود والنصارى والمجوس، فيوصى إليهما، ويدفع إليهما ميراثه فيقبلان به، فإن رضى أهل الميت الوصية وعرفوا [مال صاحبهم]^(٦) تركوا الرجلين^(٧). وإن ارتابوا رفعوهما إلى السلطان. فذلك قوله تعالى: «تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ». قال عبد الله بن عباس: كأنى أنظر إلى العلجين حين انتهى بهما إلى أبى موسى الأشعري فى داره، ففتح الصحيفة، فأنكر أهل الميت وخونوهما^(٨). فأراد أبو موسى أن يستحلفهما بعد العصر، فقلت له: إنهما لا يباليان صلاة العصر، ولكن استحلفهما بعد صلاتهما فى دينهما، فيوقف الرجلان بعد صلاتهما فى

(١) فى د: «من الشواهد لها أيضا».

(٢) فى د: «فأخبره».

(٣) فى د: «به».

(٤) تفسير الطبرى (١١/١٦٥).

(٥) فى د: «الذى كان على عهده».

(٦) زيادة من د.

(٧) فى د: «تركوهما».

(٨) فى د: «وضربوهما».

دينهما، فيحلفان: بالله لا نشترى به ثمنًا قليلًا ولو كان ذا قربى، ولا نكتم شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين: أن صاحبهم لهذا أوصى، وأن هذه لتركته. فيقول لهما الإمام قبل أن يحلفا: إنكما إن كنتمما أو ختنتما فضحتكما في قومكما، ولم تجز لكما شهادة، وعاقبتكما. فإذا قال لهما ذلك، فإن ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها. رواه ابن جرير^(١).

وقال ابن جرير: حدثنا الحسين، حدثنا هُشَيْمٌ، أخبرنا مغيرة، عن إبراهيم وسعيد بن جبير، أنهما قالا في هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ﴾ الآية، قالا: إذا حضر الرجل الوفاة في سفر، فليشهد رجلين من المسلمين، فإن لم يجد رجلين من المسلمين فرجلين من أهل الكتاب فإذا قدما بتركته، فإن صدقهما الورثة قبل قولهما، وإن اتهموهما أحلفا بعد صلاة العصر: بالله ما كتمنا ولا كذبنا ولا خنا ولا غيّرنا.

وقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية: فإن ارتيب في شهادتهما استحلفا بعد الصلاة بالله: ما اشترينا بشهادتنا ثمنًا قليلًا. فإن اطلع الأولياء على أن الكافرين كذبا في شهادتهما، قام رجلان من الأولياء فحلفا بالله: إن شهادة الكافرين باطلة، وإنا لم نعتد، فذلك قوله: ﴿فَإِنْ عَشَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّ إِثْمًا﴾ يقول: إن اطلع على أن الكافرين كذبا ﴿فَأَخْرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ يقول: من الأولياء، فحلفا بالله: إن شهادة الكافرين باطلة، وإنا لم نعتد، فنرد شهادة الكافرين، وتجاوز شهادة الأولياء.

وهكذا روى العوفي، عن ابن عباس. رواهما ابن جرير.

وهكذا قرّر^(٢) هذا الحكم على مقتضى هذه الآية غير واحد من أئمة التابعين والسلف، رضى الله عنهم، وهو مذهب الإمام أحمد، رحمه الله.

وقوله: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا﴾ أى: شرعية هذا الحكم على هذا الوجه المرضي من تحليف الشاهدين الذميين وقد استريب بهما، أقرب إلى إقامتهما الشهادة على الوجه المرضي.

وقوله: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَن تَرَدَّ أَيْمَانُ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أى: يكون الحامل لهم على الإتيان بالشهادة^(٣) على وجهها، وهو تعظيم الحلف بالله ومراعاة جانبه وإجلاله، والخوف من الفضيحة بين الناس إذا ردت اليمين على الورثة، فيحلفون ويستحقون^(٤) ما يدعون، ولهذا قال: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَن تَرَدَّ أَيْمَانُ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾.

(١) تفسير الطبرى (١١/١٧٥).

(٢) فى د: «بها».

(٣) فى د: «أورد».

(٤) فى د: «يستحقون».

ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: فى جميع أموركم ﴿وَاسْمَعُوا﴾ أى: وأطيعوا ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدَى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ يعنى: الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته.
﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (١٠٩).

وهذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة، عما أجيبوا به من أمهم الذين أرسلهم إليهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

وقول الرسل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ قال مجاهد، والحسن البصرى، والسدى: إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم.

قال عبد الرزاق، عن الثورى، عن الأعمش، عن مجاهد: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ فيفزعون فيقولون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾. رواه ابن جرير وابن أبى حاتم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا حكام، حدثنا عنبسة قال: سمعت شيخا يقول: سمعت الحسن يقول فى قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ الآية، قال: من هول ذلك اليوم.

وقال أسباط، عن السدى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ ذلك: أنهم نزلوا منزلاً ذهلت فيه العقول، فلما سئلوا قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾، ثم نزلوا منزلاً آخر، فشهدوا على قومهم. رواه ابن جرير.

ثم قال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا حجاج، عن ابن جريج قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾: ماذا عملوا بعدكم؟ وماذا أحدثوا بعدكم؟ قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، يقولون للرب، عز وجل: لا علم لنا، إلا علم أنت أعلم به منا.

رواه ابن جرير. ثم اختاره على هذه الأقوال الثلاثة^(١). ولا شك أنه قول حسن، وهو من باب التأدب مع الرب، عز وجل، أى: لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء، فنحن وإن كنا قد أجبنّا وعرفنا من أجابنا، ولكن منهم من كنا إنما نطلع على ظاهره، لا علم لنا بباطنه، وأنت العليم بكل شيء، المطلع على كل شيء. فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلاً علم، فإنك ﴿أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ

(١) تفسير الطبرى (١١/٢١١).

الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴿١١١﴾ .

يذكر تعالى ما امتن به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم بما أجراه على يديه من المعجزات وخوارق العادات، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ أى: فى خلقى إياك من أم بلا ذكر، وجعلنى إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتى على الأشياء ﴿وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ حيث جعلتك لها برهاناً على براءتها مما نسبته الظالمون الجاهلون إليها من الفاحشة، ﴿إِذْ أَيْدُتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل، عليه السلام، وجعلتك نبياً داعياً إلى الله فى صغرك وكبرك، فأنطقتك فى المهد صغيراً، فشهدت ببراءة أمك من كل عيب، واعترفت لى بالعبودية، وأخبرت عن رسالتى إياك ودعوتك^(١) إلى عبادتى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أى: تدعو إلى الله الناس فى صغرك وكبرك. وضمن «تكلم» تدعو؛ لأن كلامه الناس فى كهولته ليس بأمر عجيب.

وقوله: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أى: الخط والفهم ﴿وَالْتَّوْرَةَ﴾ وهى المنزلة على موسى بن عمران الكليم، وقد يرد لفظ التوراة فى الحديث ويراد به ما هو أعم من ذلك.

وقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ أى: تصوره وتشكله على هيئة الطائر بإذن لك فى ذلك فىكون طائراً بإذنى، أى: فتنفخ فى تلك الصورة التى شكلتها بإذنى لك فى ذلك، فتكون طيراً ذا روح بإذن الله وخلقه.

وقوله: ﴿وَتَبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ قد تقدم الكلام على ذلك^(٢) فى سورة آل عمران بما أغنى عن إعادته.

وقوله: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ أى: تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته، وإرادته ومشيئته.

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا محمد بن طلحة - يعنى ابن مُصَرِّف - عن أبى بشر، عن أبى الهذيل قال: كان عيسى ابن مريم، عليه السلام، إذا أراد أن يحيى الموتى صلى ركعتين، يقرأ فى الأولى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [سورة الملك]، والثانية: ﴿الْأَمَّ

(٢) فى د: «عليه».

(١) فى د: «ودعوت».

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴿سورة السجدة﴾. فإذا فرغ منهما مدح الله وأثنى عليه، ثم دعا بسبعة أسماء: يا قديم، يا خفي، يا دائم، يا فرد، يا وتر، يا أحد، يا صمد - وكان إذا أصابته شديدة دعا بسبعة آخر: يا حي، يا قيوم، يا الله، يا رحمن، يا ذا الجلال والإكرام، يا نور السموات والأرض، وما بينهما ورب العرش العظيم، يا رب.

وهذا أثر عجيب جداً^(١).

وقوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أى: واذكر نعمتى عليك فى كفى إياهم عنك حين جئتهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوتك ورسالتك من الله إليهم، فكذبوك واتهموك بأنك ساحر، وسعوا فى قتلك وصلبك، فنجيتك منهم، ورفعتك^(٢) إلى، وطهرتك من دنسهم، وكفيتك شرهم. وهذا يدل على أن هذا الامتنان كان من الله إليه بعد رفعه إلى السماء الدنيا، أو يكون هذا الامتنان واقعاً يوم القيامة، وعبر عنه بصيغة الماضى دلالة على وقوعه لا محالة. وهذا من أسرار الغيوب التى أطلع الله عليها رسوله محمداً ﷺ.

وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾، وهذا أيضاً من الامتنان عليه، عليه السلام، بأن جعل له أصحاباً وأنصاراً. ثم قيل: المراد بهذا الوحي وحى إلهام، كما قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الآية [القصص: ٧]، وهذا^(٣) وحى إلهام بلا خوف، وكما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ. ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ الآية [النحل: ٦٨، ٦٩]. وهكذا قال بعض السلف فى هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا﴾ [أى: بالله وبرسول الله]^(٤) ﴿وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أى: ألهموا ذلك فامتثلوا ما ألهموا.

قال الحسن البصرى: ألهمهم الله. عز وجل ذلك، وقال السدى: قذف فى قلوبهم ذلك.

ويحتمل أن يكون المراد: وإذ أوحيت إليهم بواسطتك، فدعوتهم إلى الإيمان بالله وبرسوله، واستجابوا لك وانقادوا^(٥) وتابَعوك، فقالوا: ﴿آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ

(١) وهو من أخبار بنى إسرائيل التى لم يرد ما يؤيدها والأقرب بطلانها.

(٢) فى د: «وهر».

(٣) فى د: «فرفعتك».

(٥) فى د: «فانقادوا».

(٤) زيادة من د.

السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴿١١٥﴾

هذه قصة المائدة، وإليها تنسب السورة فيقال: «سورة المائدة». وهى مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى، عليه السلام، لما أجاب دعاءه بنزولها، فأنزلها الله آية ودلالة معجزة باهرة وحجة قاطعة.

وقد ذكر بعض الأئمة أن قصة المائدة^(١) ليست مذكورة فى الإنجيل، ولا يعرفها النصارى إلا من المسلمين، فالله أعلم.

فقله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ وهم أتباع عيسى^(٢)، عليه السلام: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ هذه قراءة كثيرين، وقرأ آخرون: «هل تَسْتَطِيعُ رَبُّكَ» أى: هل تستطيع أن تسأل ربك ﴿أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾.

والمائدة هى: الخوان عليه طعام. وذكر بعضهم أنهم إنما سألوا ذلك لحاجتهم وفقيرهم^(٣)، فسألوا أن ينزل عليهم مائدة كل يوم يقتاتون منها، ويتقوون بها على العبادة.

قال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى: فأجابهم المسيح، عليه السلام، قائلاً لهم: اتقوا الله، ولا تسألوا هذا، ففساه أن يكون فتنة لكم، وتوكلوا على الله فى طلب الرزق إن كنتم مؤمنين.

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ أى: نحن محتاجون إلى الأكل منها ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُنَا﴾ إذا شاهدنا نزولها رزقاً لنا من السماء ﴿وَنَعْلَمَ أَنَّ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أى: ونزداد إيماناً بك وعلماً برسالتك، ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أى: ونشهد أنها آية من عند الله، ودلالة وحجة على نبوتك وصدق ما جئت به.

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾: قال السُّدِّى: أى نتخذ ذلك اليوم الذى نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا، وقال سفيان الثورى: يعنى يوماً نصلى فيه، وقال قتادة: أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم، وعن سلمان الفارسى: عظة لنا ولن بعدنا. وقيل: كافية لأولنا وآخرنا.

﴿وَآيَةً مِّنْكَ﴾ أى: دليلاً تنصبه على قدرتك على الأشياء، وعلى إجابتك دعوتى، فيصدقونى فيما أبلغه عنك ﴿وَارْزُقْنَا﴾ أى: من عندك رزقاً هنيئاً بلا كلفة ولا تعب ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾. قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ ﴿١١٤﴾ أى: فمن كذب بها من أمتك يا عيسى وعاندها ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ أى: من عالمى زمانكم، كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾^(٤) أَدْخُلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ [غافر: ٤٦]، وكقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

(١) فى د: قصتها.

(٢) فى د: المسيح.

(٤) فى د، هـ: «يوم القيامة» وهو خطأ.

(٣) فى د: لفقرهم.

وقد روى ابن جرير، من طريق عَوْف الأعرابي، عن أبي المغيرة القوَّاس، عن عبد الله بن عمرو قال: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة: المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون^(١).

ذكر أخبار رُوِيَتْ عن السلف في نزول المائدة على الحواريين:

قال أبو جعفر بن جرير^(٢): حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثني حجاج، عن ليث، عن عقيل، عن ابن عباس: أنه كان يحدث عن عيسى ابن مريم أنه قال لبنى إسرائيل: هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوماً، ثم تسألوه فيعطيك ما سألتهم؟ فإن أجر العامل على من عمل له. ففعلوا، ثم قالوا: يا معلم الخير، قلت لنا: إن أجر العامل على من عمل له وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوماً، ففعلنا، ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوماً إلا أطعمنا حين نَفْرُغ طعاماً، فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ قال عيسى: «اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ». قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ. قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ. قَالَ اللَّهُ إِنَّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾. قال: فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء، عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة، حتى وضعتها بين أيديهم، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم.

كذا رواه ابن جرير^(٣). ورواه ابن أبي حاتم، عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن الليث، عن عُقَيْل، عن ابن شهاب، قال: كان ابن عباس يحدث، فذكر نحوه.

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا سعد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا أبو زُرْعَةَ وهب الله بن راشد، حدثنا عُقَيْل بن خالد، أن ابن شهاب أخبره عن ابن عباس؛ أن عيسى ابن مريم قالوا له: ادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء، قال: فنزلت الملائكة بمائدة يحملونها، عليها سبعة أحوات، وسبعة أرغفة، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن قَزَعَةَ الباهلي، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن خِلاَس، عن عمار بن ياسر، عن النبي ﷺ قال: «نزلت المائدة من السماء، عليها خبز ولحم، وأمروا ألا يخونوا ولا يرفعوا لغد، فخانوا وادخروا ورفعوا، فمسخوا قردة وخنازير».

وكذا رواه ابن جرير، عن الحسن بن قَزَعَةَ^(٤) ثم رواه ابن جرير، عن ابن بشار، عن أبي

(١) تفسير الطبري (١١/٢٣٣).

(٢) في د: «حدثنا ابن جرير».

(٣) تفسير الطبري (١١/٢٢٢).

(٤) تفسير الطبري (١١/٢٢٨) ورواه الترمذي في السنن برقم (٣٠٦١) وقال الترمذي: «هذا حديث قد رواه أبو عاصم وغير واحد عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن خِلاَس، عن عمار بن ياسر موقوفاً. ولا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحسن بن قَزَعَةَ، حدثنا حميد بن مسعدة، حدثنا سفيان بن حبيب، عن سعيد بن أبي عروبة نحوه ولم يرفعه، وهذا أصح من حديث الحسن بن قَزَعَةَ، ولا نعلم للحديث المرفوع أصلاً».

عَدِيّ، عن سعيد، عن قتادة، عن خلاص، عن عمار، قال: نزلت المائدة وعليها ثمر من ثمار الجنة، فأمرُوا ألا يخونُوا ولا يخبئُوا ولا يدخروا. قال: فخان القوم وخبئُوا وادخروا، فمسخهم الله قردة وخنازير^(١).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود، عن سَمَك بن حرب، عن رجل من بنى عجل، قال: صليت إلى جنب عمار بن ياسر، فلما فرغ قال: هل تدري كيف كان شأن مائدة بنى إسرائيل؟ قال: قلت: لا. قال: إنهم سألوا^(٢) عيسى ابن مريم مائدة يكون عليها طعام يأكلون منه لا ينفد، قال: فقليل لهم: فإنها مقيمة لكم ما لم تخبئُوا، أو تخونُوا، أو ترفعوا، فإن فعلتم فإنى معذبكم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، قال: فما مضى يومهم حتى خبئُوا ورفعوا وخانوا، فعذبوا عذاباً لم يعذبه أحد من العالمين. وإنكم - معشر العرب - كنتم تتبعون أذناب الإبل والشاء، فبعث الله فيكم رسولاً من أنفسكم، تعرفون حسبه ونسبه، وأخبركم أنكم ستظهرون على العجم، ونهاكم أن تكتنزوا الذهب والفضة. وإيم الله، لا يذهب الليل والنهار حتى تكتنزوهما^(٣)، ويعذبكم الله عذاباً أليماً^(٤).

وقال: حدثنا القاسم، حدثنا حسين، حدثني حجاج، عن أبي معشر، عن إسحاق بن عبد الله؛ أن المائدة نزلت على عيسى ابن مريم، عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات، يأكلون منها ما شاؤوا. قال: فسرق بعضهم منها وقال: «لعلها لا تنزل غداً». فرفعت.

وقال العوفي، عن ابن عباس: نزلت على عيسى ابن مريم والحواريين، خوان عليه خبز وسمك، يأكلون منه أينما نزلوا إذا شاؤوا. وقال خَصِيف، عن عكرمة ومِقْسَم، عن ابن عباس: كانت المائدة سمكة وأرغفة. وقال مجاهد: هو طعام كان ينزل عليهم حيث نزلوا. وقال أبو عبد الرحمن السلمي: نزلت المائدة خبزاً وسمكاً. وقال عطية العوفي: المائدة: سمك فيه طعم كل شيء.

وقال وهب بن منبه: أنزلها من السماء على بنى إسرائيل، فكان ينزل عليهم في كل يوم في تلك المائدة من ثمار الجنة، فأكلوا ما شاؤوا من ضروب شتى، فكان يقعدُ عليها أربعة آلاف، فإذا أكلوا أبدل الله مكان ذلك لثلهم. فلبثوا بذلك ما شاء الله، عز وجل.

وقال وهب بن منبه: نزل عليهم قرصة من شعير وأحوات، وحشا الله بين أضعافهن البركة، فكان قوم يأكلون ثم يخرجون، ثم يجيء آخرون فيأكلون ثم يخرجون، حتى أكل جميعهم وأفضلوا.

وقال الأعمش، عن مسلم، عن سعيد بن جبير: أنزل عليها كل شيء إلا اللحم.

وقال سفيان الثوري، عن عطاء بن السائب، عن زاذان وميسرة، وجرير، عن عطاء، عن ميسرة

(١) تفسير الطبري (١١/٢٢٩).

(٢) في د: «إنهم قالوا».

(٣) في د: «تكتنزوهما».

(٤) تفسير الطبري (١١/٢٢٨).

قال: كانت المائدة إذا وضعت لبنى إسرائيل اختلفت عليهم الأيدي بكل طعام إلا اللحم.

وعن عكرمة: كان خبز المائدة من الأرز. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا جعفر بن على فيما كتب إلى، حدثنا إسماعيل بن أبي أويس، حدثني أبو عبد الله عبد القدوس بن إبراهيم بن عبيد الله بن مرداس العبدري - مولى بنى عبد الدار - عن إبراهيم بن عمر، عن وهب بن منبه، عن أبي عثمان النهدي، عن سلمان الخير؛ أنه قال: لما سأل الحواريون عيسى ابن مريم المائدة، كره ذلك جداً وقال: اقنعوا بما رزقكم الله فى الأرض، ولا تسألوا المائدة من السماء، فإنها إن نزلت عليكم كانت آية من ربكم، وإنما هلكت ثمود حين سألوا نبهم آية، فابتلوا بها حتى كان بؤارهم فيها. فأبوا إلا أن يأتهم بها، فلذلك قالوا: ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ الآية.

فلما رأى عيسى أن قد أبوا إلا أن يدعو لهم بها، قام فألقى عنه الصوف، ولبس الشعر الأسود، وجبة من شعر، وعباءة من شعر، وتوضأ واغتسل، ودخل مصلاه فصلى ما شاء الله، فلما قضى صلاته قام قائماً مستقبلاً القبلة وصف قدميه حتى استويا، فألصق الكعب بالكعب وحاذى الأصابع، ووضع يده اليمنى على اليسرى فوق صدره، وغض بصره، وطأطأ رأسه خشوعاً، ثم أرسل عينيه بالبكاء، فما زالت دموعه تسيل على خديه وتقطر من أطراف لحيته حتى ابتلت الأرض حيال^(١) وجهه من خشوعه، فلما رأى ذلك دعا الله فقال: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ فأنزل الله عليهم سَفْرَةَ حمراء بين غمامتين: غمامة فوقها وغمامة تحتها، وهم ينظرون إليها فى الهواء منقضة من فلك السماء تهوى إليهم، وعيسى يبكى خوفاً للشروط التى اتخذها الله عليهم - فيها: أنه يعذب^(٢) من يكفر بها منهم بعد نزولها عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين - وهو يدعو الله من مكانه ويقول: اللهم اجعلها رحمة، إلهى لا تجعلها عذاباً، إلهى كم من عجيبة سألتك فأعطيتنى، إلهى اجعلنا لك شكَّارين، إلهى أعوذ بك أن تكون^(٣) أنزلتها غضباً وجزاء، إلهى اجعلها سلامة وعافية، ولا تجعلها فتنة ومثلة.

فما زال يدعو حتى استقرت السفرة بين يدى عيسى، والحواريين وأصحابه حوله، يجدون رائحة طيبة لم يجدوا فيما مضى رائحة مثلها قط، وخرَّ عيسى والحواريون لله سجداً شكراً بما رزقهم من حيث لم يحتسبوا^(٤)، وأراهم فيه آية عظيمة ذات عجب وعبرة، وأقبلت اليهود ينظرون فرأوا أمراً عجباً أورثهم كمداً وغماً، ثم انصرفوا بغيط شديد وأقبل عيسى. والحواريون وأصحابه حتى جلسوا حول السفرة، فإذا عليها منديل مغطى. قال عيسى: من أجرؤنا على كشف المنديل عن هذه السفرة، وأوثقنا بنفسه، وأحسننا بلاء عند ربه؟ فليكشف عن هذه الآية حتى نراها، ونحمد ربنا، ونذكر باسمه، ونأكل من رزقه الذى رزقنا. فقال الحواريون: يا روح الله وكلمته، أنت أولانا بذلك، وأحقنا

(١) فى د: «أن يعذب».

(٢) فى د: «لا يحتسبون».

(٣) فى د: «والهم».

(٤) فى د: «اللهم إني أعوذ بك».

بالكشف عنها. فقام عيسى، عليه السلام، واستأنف وضوءاً جديداً، ثم دخل مصلاه فصلى كذلك ركعات، ثم بكى بكاء طويلاً، ودعا الله أن يأذن له في الكشف عنها، ويجعل له ولقومه فيها بركة ورزقاً. ثم انصرف فجلس^(١) إلى السفرة وتناول المنديل، وقال: «باسم الله خير الرازقين»، وكشف عن السفرة، فإذا هو عليها سمكة^(٢) ضخمة مشوية، ليس عليها بواسير، وليس في جوفها شوك، يسيل السمن منها سيلاً قد نضد حولها بقول من كل صنف غير الكراث، وعند رأسها خل، وعند ذنبها ملح، وحول البقول خمسة أرغفة، على واحد منها زيتون، وعلى الآخر ثمرات، وعلى الآخر خمس رمانات.

فقال شمعون رأس الحواريين لعيسى: يا روح الله وكلمته، أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الجنة؟ فقال: أما آن لكم أن تعتبروا بما ترون من الآيات، وتنتهوا عن تنقيير المسائل؟ ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا في سبب هذه الآية! فقال شمعون: وإله إسرائيل ما أردت بها سؤالاً يا ابن الصديقة. فقال عيسى، عليه السلام: ليس شيء مما ترون من طعام الجنة ولا من طعام الدنيا، إنما هو شيء ابتدعه الله في الهواء بالقدرة العالية^(٣) القاهرة، فقال له: كن. فكان أسرع من طرفة عين، فكلوا مما سألتكم باسم الله^(٤)، واحمدوا عليه ربكم يمدكم منه ويزدكم، فإنه بديع قادر شاکر.

فقالوا: يا روح الله وكلمته، إنا نحب أن تُرينا آية في هذه الآية. فقال عيسى: سبحان^(٥) الله! أما اكتفيتم بما رأيتم في^(٦) هذه الآية حتى تسألوا فيها آية أخرى؟ ثم أقبل عيسى، عليه السلام، على السمكة، فقال: يا سمكة، عودي بإذن الله حية كما كنت. فأحياها الله بقدرته، فاضطربت وعادت بإذن الله حية طرية، تَلَمَّظَ كما يتلمظ الأسد، تدور عيناها لها بصيص، وعادت عليها بواسيرها. ففرغ القوم منها وانحازوا. فلما رأى عيسى ذلك منهم قال: ما لكم تسألون الآية، فإذا أراكموها ربكم كرهتموها؟ ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا بما تصنعون! يا سمكة، عودي بإذن الله كما كنت. فعادت بإذن الله مشوية كما كانت في خلقها الأول.

فقالوا لعيسى: كن أنت يا روح الله الذي تبدأ الأكل منها، ثم نحن بعد. فقال عيسى: معاذ الله من ذلك! يبدأ بالأكل من طلبها. فلما رأى الحواريون وأصحابهم امتناع نبيهم^(٧) منها، خافوا أن يكون نزولها سَخْطَةً وفي أكلها مثلة، فتحاموها. فلما رأى ذلك عيسى دعا لها الفقراء والزمنى، وقال: كلوا من رزق ربكم، ودعوة نبيكم، واحمدوا الله الذي أنزلها لكم، فيكون^(٨) مَهْنُؤُها لكم، وعقوبتها على غيركم، وافتتحوا أكلكم باسم الله، واختموه بحمد الله، ففعلوا، فأكل منها ألف وثلاثمائة إنسان بين رجل وامرأة، يصدرون عنها كل واحد منهم شبعان يتجشأ، ونظر عيسى والحواريون فإذا ما عليها كهيئته إذ أنزلت من السماء، لم ينتقص منها شيء، ثم إنها رفعت إلى السماء وهم ينظرون،

(١) في د: «وجلس».

(٢) في د: «إذا هو بسمكة».

(٣) في د: «الغالية».

(٤) في د: «من».

(٥) في د: «قال سبحان».

(٦) في د: «باسم الله الرحمن الرحيم».

(٧) في د: «ويكون».

(٨) في د: «عيسى».

فاستغنى كل فقير أكل منها، وبرئ كل زَمِنٍ أكل منها، فلم يزالوا أغنياء صِحَاحاً حتى خرجوا من الدنيا.

وندم الحواريون وأصحابهم الذين أبوا أن يأكلوا منها ندامة، سالت منها أشفارهم، وبقيت حسرتها في قلوبهم إلى يوم الممات، قال: فكانت المائدة إذا نزلت بعد ذلك أقبلت بنو إسرائيل إليها من كل مكان يسعون يزاحم بعضهم بعضاً: الأغنياء والفقراء، والصغار^(١) والكبار، والأصحاء والمرضى، يركب بعضهم بعضاً. فلما رأى ذلك جعلها نواب، تنزل يوماً ولا تنزل يوماً. فلبثوا في ذلك^(٢) أربعين يوماً، تنزل عليهم غباً عند ارتفاع الضُحَى^(٣)، فلا تزال موضوعة يؤكل منها، حتى إذا قاموا ارتفعت عنهم^(٤) بإذن الله إلى جو السماء، وهم ينظرون إلى ظلها في الأرض حتى توارى عنهم.

قال: فأوحى الله إلى نبيه عيسى، عليه السلام، أن اجعل رزقي المائدة^(٥)، لليتامى والفقراء والزَمَنَى دون الأغنياء من الناس، فلما فعل ذلك ارتاب بها الأغنياء من الناس، وغمطوا ذلك، حتى شكوا فيها في أنفسهم وشككوا فيها الناس، وأذاعوا في أمرها القبيح والمنكر، وأدرك الشيطان منهم حاجته، وقذف وسواسه في قلوب المرتابين^(٦)، حتى قالوا لعيسى: أخبرنا عن المائدة، ونزولها من السماء أحق، فإنه قد ارتاب بها بشر منا كثير؟ فقال عيسى، عليه السلام: هلكتم وإله المسيح! طلبتم المائدة إلى نبيكم أن يطلبها لكم إلى ربكم، فلما أن فعل وأنزلها عليكم رحمة ورزقاً، وأراكم فيها^(٧) الآيات والعبر كذبتم بها، وشككتم فيها، فأبشروا بالعذاب، فإنه نازل بكم إلا أن يرحمكم الله. وأوحى الله إلى عيسى: إني آخذ المكذبين بشرطى، فإني معذب منهم من كفر بالمائدة بعد نزولها عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، قال: فلما أمسى المرتابون بها وأخذوا مضاجعهم في أحسن صورة مع نسائهم آمنين، فلما كان في آخر الليل مسخهم الله خنازير، فأصبحوا يتبعون الأقدار في الكناسات.

هذا أثر غريب جداً^(٨)، قَطَّعه ابن أبي حاتم في مواضع من هذه القصة، وقد جمعته أنا له ليكون سياقه أتم وأكمل، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وكل هذه الآثار دالة على أن المائدة نزلت على بنى إسرائيل، أيام عيسى ابن مريم، إجابة من الله لدعوته، وكما دل على ذلك ظاهر هذا السياق من القرآن العظيم: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ الآية.

(١) في د: «والضعفاء».

(٢) في د: «على ذلك».

(٣) في د: «النهار».

(٤) في د: «بينهم».

(٥) في د: «في المائدة».

(٦) في د: «منها».

(٧) في د: «منها».

(٨) ورواه الحكيم الترمذى في نوادر الأصول كما في تفسير القرطبي (٣٦٩/٦) من طريق زكريا بن حكيم، عن علي بن زيد بن جدعان، عن أبي عثمان النهدي، عن سلمان بنحوه، وقال القرطبي: «وفى هذا الحديث مقال ولا يصح من جهة إسناده».

وقد قال قائلون: إنها لم تنزل. فروى ليث بن أبي سليم، عن مجاهد في قوله: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ قال: هو مثل ضرب، ولم ينزل شيء.

رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير. ثم قال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا القاسم - هو ابن سلام - حدثنا حجاج، عن ابن جريج، عن مجاهد قال: مائدة عليها طعام، أبوها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا، فأبوا أن تنزل عليهم.

وقال أيضاً: حدثنا ابن المنني، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن منصور بن زاذان، عن الحسن؛ أنه قال في المائدة: لم تنزل.

وحدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: كان الحسن يقول: لما قيل لهم: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قالوا: لا حاجة لنا فيها، فلم تنزل.

وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن، وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا تعرفه النصارى وليس هو في كتابهم، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما يتوفر الدواعي على نقله، وكان يكون موجوداً في كتابهم متواتراً، ولا أقل من الأحاد، والله أعلم. ولكن الذي عليه الجمهور أنها نزلت، وهو الذي اختاره ابن جرير، قال: لأنه تعالى أخبر بنزولها بقوله^(١) تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال: ووعد الله ووعيده حق وصدق.

وهذا القول هو - والله أعلم - الصواب، كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم. وقد ذكر أهل التاريخ أن موسى بن نصير نائب بنى أمية في فتوح بلاد المغرب، وجد المائدة هنالك مرصعة باللآلئ وأنواع الجواهر، فبعث بها إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، باني جامع دمشق، فمات وهي في الطريق، فحملت إلى أخيه سليمان بن عبد الملك الخليفة بعده، فرآها الناس وتعجبوا منها كثيراً لما فيها من اليواقيت النفيسة والجواهر اليتيمة. ويقال: إن هذه المائدة كانت لسليمان بن داود، عليهما السلام، فآله أعلم.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن سلمة بن كهيل، عن عمران بن الحكم، عن ابن عباس قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك، قال: «وتفعلون؟» قالوا: نعم. قال: فدعا، فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة؟ قال: «بل باب التوبة والرحمة».

(١) في د: «في قوله».

ثم رواه أحمد، وابن مردويه، والحاكم في مستدركه، من حديث سفيان الثوري، به^(١).

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتَ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تُغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾.

هذا أيضاً مما يخاطب الله تعالى به عبده ورسوله عيسى ابن مريم، عليه السلام، قائلاً له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟﴾ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقرّيع على رؤوس الأشهاد. هكذا قاله قتادة وغيره، واستدل قتادة على ذلك بقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾.

وقال السدّي: هذا الخطاب والجواب في الدنيا.

قال ابن جرير: وهذا هو الصواب، وكان حين رفعه الله إلى سماء الدنيا. واحتج ابن جرير على ذلك بمعنيين:

أحدهما: أن لفظ الكلام لفظ المضى.

والثاني: قوله: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ﴾ و ﴿وَإِنْ تُغْفِرَ لَهُمْ﴾.

وهذان الدليلان فيهما نظر؛ لأن كثيراً من أمور يوم القيامة ذكر بلفظ المضى، ليدل على الوقوع والثبوت. ومعنى قوله: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ﴾ الآية: التبرى منهم ورد المشيئة فيهم إلى الله، وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضى وقوعه، كما في نظائر ذلك من الآيات.

والذى^(٢) قاله قتادة وغيره هو الأظهر، والله أعلم: أن ذلك كائن يوم القيامة، ليدل على تهديد النصارى وتقرّيعهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة. وقد روى بذلك حديث مرفوع، رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عبد الله، مولى عمر بن عبد العزيز، وكان ثقة، قال: سمعت أبا بردة يحدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دُعِيَ بِالْأَنْبِيَاءِ وَأَمَمَهُمْ، ثُمَّ يُدْعَى بِعِيسَى فَيُذَكَّرُ اللَّهُ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ، فَيَقْرَأُ بِهَا، فَيَقُولُ: «يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ الآية [المائدة: ١١٠] ثم يقول: «أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟» فينكر أن يكون قال ذلك، فيؤتى بالنصارى فيسألون، فيقولون: نعم، هو

(١) المسند (١/٢٤٢) والمستدرک (١/٥٣) ورواه الطبرانی فی المعجم الكبير (١٢/١٥٢) من طريق سفيان به، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/١٩٦): «رجاله رجال الصحيح».

(٢) في د: «فالذى».

أمرنا بذلك، قال: فيطول شعر عيسى، عليه السلام، فيأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده، فيجاثيهم بين يدي الله، عز وجل، مقدار ألف عام، حتى ترفع عليهم الحجة، ويرفع لهم الصليب، وينطلق بهم إلى الناز، وهذا حديث غريب عزيز^(١).

وقوله: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾ هذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن طاوس، عن أبي هريرة قال: يلقي عيسى حجته، ولقاه الله في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟﴾ قال أبو هريرة، عن النبي ﷺ: فلقيه الله: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾ أى آخر الآية.

وقد رواه الثوري، عن معمر، عن ابن طاوس، عن طاوس، بنحوه.

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ أى: إن كان صدر مني هذا فقد علمته يا رب، فإنه لا يخفى عليك شيء مما قلته ولا أردته في نفسي ولا أضمرته؛ ولهذا قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾. ما قلت لهم إلا ما أمرتني به ﴿بِإِبْلَاغِهِ﴾ ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أى: ما دعوتهم إلا إلى الذي أرسلتني به وأمرتني بإبلاغه: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أى: هذا هو الذي قلت لهم، ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أى: كنت أشهد على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم، ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

قال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة قال: انطلقت أنا وسفيان الثوري إلى المغيرة بن النعمان فأملأه على سفيان وأنا معه، فلما قام انتسخت من سفيان، فحدثنا قال: سمعت سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة، فقال: «يا أيها الناس، إنكم محشورون إلى الله، عز وجل، حفاة عراة غرلاً، كما بدأنا أول خلق نعيده، وإن أول الخلائق يكسى إبراهيم، ألا وإنه يجاء برجال من أمي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم»، فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم».

ورواه البخاري عند هذه الآية عن الوليد، عن أبي شعبة - وعن محمد بن كثير، عن سفيان الثوري، كلاهما عن المغيرة بن النعمان، به^(٢).

وقوله: ﴿إِنْ تَعَذَّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله، عز وجل، فإنه الفعال لما يشاء، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. ويتضمن

(١) تاريخ دمشق (١٢٨/١٩) القسم المخطوط والمختصر لابن منظور (٥٤/٢٩).

(٢) مسند الطيالسي برقم (٢٦٣٨) وصحيح البخاري برقم (٤٦٢٥) ورواه مسلم في صحيحه برقم (٣٠٢٣).

التبرى من النصارى الذين كذبوا على الله، وعلى رسوله، وجعلوا لله نداً وصاحبة وولداً، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. وهذه الآية لها شأن^(١) عظيم ونبأ عجيب، وقد ورد في الحديث: أن رسول الله ﷺ قام بها ليلة إلى الصباح يرددها.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن فضيل، حدثني فليته العامري، عن جسر العامرية، عن أبي ذر، رضى الله عنه، قال: صلى رسول الله ﷺ ليلة فقرأ بآية حتى أصبح، يركع بها ويسجد بها: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فلما أصبح قلت: يا رسول الله، ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها؟ قال: «إني سألت ربي، عز وجل، الشفاعة لأمتي، فأعطانيها، وهى نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً»^(٢).

طريق أخرى وسياق آخر: قال أحمد: حدثنا يحيى، حدثنا قدامة بن عبد الله، حدثني جسر بنت دجاجة: أنها انطلقت معتمرة، فانتهدت إلى الريزة، فسمعت أبا ذر يقول: قام رسول الله ﷺ ليلة من الليالى فى صلاة العشاء، فصلى بالقوم، ثم تخلف أصحاب له يصلون، فلما رأى قيامهم وتخلفهم انصرف إلى رحله، فلما رأى القوم قد أدخلوا المكان رجع إلى مكانه فصلى، فجئت فقمته خلفه، فأومأ إلى يمينه، فقمته عن يمينه. ثم جاء ابن مسعود فقام خلفى وخلفه، فأومأ إليه بشماله، فقام عن شماله، فقمنا ثلاثنا يصلى كل واحد منا بنفسه، ويتلو من القرآن ما شاء الله أن يتلو. وقام بآية من القرآن يرددها حتى صلى الغداة. فلما أصبحنا أومأت إلى عبد الله بن مسعود: أن سله ما أراد إلى ما صنع البارحة؟ فقال ابن مسعود بيده: لا أسأله عن شيء حتى يحدث إلى، فقلت: بأبى أنت وأمى، قمت بآية من القرآن ومعك القرآن، لو فعل هذا بعضنا لوجدنا عليه، قال: «دعوت لأمتي». قلت: فماذا أجبت؟ - أو ماذا رد عليك؟ - قال: «أجبت بالذى لو اطلع عليه كثير منهم طلعة تركوا الصلاة». قلت: أفلا أبشر الناس؟ قال: «بلى». فانطلقت مئناً قريباً من قذفة بحجر. فقال عمر: يا رسول الله، إنك إن تبعث إلى الناس بهذا نكلوا عن العبادة. فناده أن ارجع فرجع، وتلك الآية: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٤).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، أن بكر بن سودة حدثه، عن عبد الرحمن بن جبير، عن عبد الله بن عمرو بن العاص؛ أن النبى ﷺ تلا قول عيسى: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فرفع يديه فقال: «اللهم أمتي». وبكى، فقال الله: يا جبريل، اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فاسأله: ما يبكيه؟ فأتاه جبريل، فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، فقال الله: يا جبريل، اذهب إلى محمد فقل:

(٢) فى د: «أن النبى».

(١) فى د: «نبأ».

(٣، ٤) المسند (١٤٩/٥).

إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا ابن هبيرة^(٢): أنه سمع أبا تميم الجشاني يقول: حدثني سعيد بن المسيب، سمعت حذيفة بن اليمان يقول: غاب عنا رسول الله ﷺ يوماً فلم يخرج، حتى ظننا أن لن يخرج، فلما خرج سجد سجدة ظننا أن نفسه قد قبضت فيها، فلما رفع رأسه قال: «إن ربى، عز وجل، استشارنى فى أمتى: ماذا أفعل بهم؟ فقلت: ما شئت أى رب هم خلقك وعبادك. فاستشارنى الثانية، فقلت له كذلك، فقال: لا أخزيك فى أمتك يا محمد، وبشرنى أن أول من يدخل الجنة من أمتى معى سبعون ألفاً، مع كل ألف سبعون ألفاً، ليس عليهم حساب، ثم أرسل إلى فقال: ادع تُجب، وسل تُعط». فقلت لرسوله: أومعطى ربى سؤلى؟ قال: ما أرسلنى إليك إلا ليعطيك، ولقد أعطانى ربى ولا فخر، وغفر لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر، وأنا أمشى حياً صحيحاً، وأعطانى ألا تجوع أمتى ولا تغلب، وأعطانى الكوثر، وهو نهر فى الجنة يسيل فى حوضى، وأعطانى العز والنصر والرعب يسعى بين يدى أمتى شهراً، وأعطانى أنى أول الأنبياء يدخل الجنة، وطيب لى ولأمتى الغنيمة، وأحل لنا كثيراً مما شدد على من قبلنا، ولم يجعل علينا فى الدين من حرج^(٣).

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠)﴾.

يقول تعالى مجيباً لعبده ورسوله عيسى ابن مريم^(٤)، فيما أنباه إليه من التبرى من النصارى الملحدين، الكاذبين على الله وعلى رسوله، ومن رد المشيئة فيهم إلى ربه، عز وجل، فعند ذلك يقول تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾.

قال الضحاك، عن ابن عباس يقول: يوم ينفع الموحدين توحيدهم. ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أى: ما كثر فيها لا يحولون ولا يزولون، رضى الله عنهم ورضوا عنه، كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]. وسيأتى ما يتعلق بتلك الآية من الحديث.

وقد روى ابن أبى حاتم ههنا حديثاً فقال: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا المحاربى، عن ليث، عن عثمان - يعنى ابن عمير أبو اليقظان - عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ثم يتجلى لهم الرب

(١) ورواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٠٢) من طريق يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب بنحوه.

(٢) فى د: «ابن ميسرة».

(٣) المسند (٣٩٣/٥) وقال الهيثمى فى المجمع (٢٨٧/٢): «فيه ابن لهيعة وفيه كلام».

(٤) فى د: «لعيسى».

تعالى فيقول: سلوني سلوني أعطكم». قال: «فيسألونه^(١) الرضا، فيقول: رضاي أحلكم داري، وأنا لكم كرامتي، فسلوني أعطكم. فيسألونه الرضا»، قال: «فيشهدهم أنه قد رضى عنهم»^(٢).

وقوله: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أى: هذا هو الفوز الكبير الذى لا أعظم منه، كما قال تعالى: ﴿لَمِثْلٍ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصفات: ٦١]، وكما قال: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وقوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى: هو الخالق للأشياء، المالك لها، المتصرف فيها القادر عليها، فالجميع ملكه وتحت قهره وقدرته وفى مشيئته، فلا نظير له ولا وزير، ولا عدل، ولا والد ولا ولد ولا صاحبة، فلا إله غيره ولا رب سواه.

قال ابن وهب: سمعت حبيب بن عبد الله يحدث، عن أبي عبد الرحمن الحبلى، عن عبد الله بن عمرو قال: آخر سورة أنزلت سورة المائدة^(٣).

(١) فى د: «فيسألون».

(٢) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٥٠ / ٢): حدثنا عبد الرحمن المحاربى، فذكره من حديث طويل، وعثمان بن عمير أبو اليقظان الكوفى قال الذهبى: ضعفه - أى الأئمة - فقال ابن معين: ليس بشيء، وقال أبو أحمد الزبيدى: كان يؤمن بالرجعة، وقال النسائى: ليس بالقوى، وقال أحمد والدارقطنى: ضعيف، وقال ابن عدى: «ردى المذهب، يؤمن بالرجعة، على أن الثقات قد رووا عنه مع ضعفه». ميزان الاعتدال (٥٠ / ٣).

(٣) رواه الترمذى فى السنن برقم (٣٠٦٣) عن قتيبة، عن عبد الله بن وهب به، وقال: «هذا حديث حسن غريب».

[بسم الله الرحمن الرحيم وبه الثقة وما توفيقى إلا بالله]^(١)

تفسير سورة الأنعام

[وهى مكة]^(٢).

قال العوفي وعكرمة وعطاء، عن ابن عباس: أنزلت سورة الأنعام بمكة.

وقال الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا^(٣) حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، قال: نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة، حولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح^(٤).

وقال سفيان الثوري، عن ليث، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد قالت: نزلت سورة الأنعام على النبي ﷺ جملة [واحدة]^(٥)، وأنا آخذة بزمام ناقة النبي ﷺ، إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة^(٦).

وقال شريك، عن ليث، عن شهر، عن أسماء قالت: نزلت سورة الأنعام على رسول الله ﷺ وهو في مسير في زجل من الملائكة وقد نظموا^(٧) ما بين السماء والأرض^(٨).

(٣) في م: «عن».

(٢) زيادة من د، أ.

(١) زيادة من أ.

(٤) المعجم الكبير (٢١٥/١٢) ورواه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص ١٢٩) وابن الضريس في فضائل القرآن (ص ١٥٧) من طريق حماد ابن سلمة عن علي بن زيد به، وفي إسناده علي بن زيد وهو ضعيف.

(٥) زيادة من أ.

(٦) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٧٨/٢٤) من طريق قبيصة عن سفيان به. وقال الهيثمي في المجمع (٧/٢٠): «فيه شهر بن حوشب وهو ضعيف وقد وثق».

(٧) في أ: «طبقوا».

(٨) قال الفاضل محمد بن رزق طرهوني في كتابه «موسوعة فضائل القرآن» (١/٢٥٨): «الحديث في إسناده ثلاثة ضعفاء في الحفاظ وهم المذكورون قبل أسماء، وبالإضافة إلى هذا، ففيه علل أخرى:

الأولى: لفظة: «في مسير» دخلت على أحدهم من حديث نزول المائدة المروي عند أحمد وغيره من حديث ليث عن شهر عن أسماء حيث قالت: «إني لآخذة بزمام العضباء، ناقة رسول الله ﷺ، إذ أنزلت عليه المائدة كلها وكادت من ثقلها تدق بعضد الناقة». أخرجه أحمد (٦/٤٥٥): حدثنا أبو النضر، حدثنا أبو معاوية يعني شيبان عن ليث به.

الثانية: أن ذكر نزول الأنعام هنا وهم في الأصل من ليث أو شهر، ولا دخل لشريك فيه، فقد رواه أحمد بن منيع. (انظر: «تحاف المهرة» ٧٤/ب/٤) والطبراني (١٧٨/٢٤)، وابن مردويه (انظر: «الدر» ٣/٢) وعلقه ابن كثير - والله أعلم - نقلاً من تفسيره ٣/٢٣٣ من طريق الليث عن شهر عن أسماء قالت: «نزلت سورة الأنعام على النبي ﷺ، جملة وأنا آخذة بزمام ناقة النبي ﷺ، إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة». ورواه عن ليث سفيان الثوري وإسحاق بن يوسف. والذي من هذا الطريق هو ذكر نزول المائدة كما تقدم، وإنما دخل الوهم في ذلك على ليث أو شهر، وحديث أسماء فيما بعد الهجرة بالتأكيد والأنعام مكة بلا خلاف، ولولا أن ثقل المائدة ليس فضلاً خاصاً بها بل هو للقرآن جملة؛ لكنت ذكرت شواهد حديث أسماء في ذلك عند سورة المائدة.

الثالثة: وهم شريك في جعل الحديث عن أسماء، وإنما هو من مراسيل شهر أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (٤/٢٦٥) أخبرنا جرير، عن ليث بن أبي سليم، عن شهر بن حوشب: «نزلت سورة الأنعام ومعها رجل من الملائكة قد نظموا السماء الدنيا إلى الأرض»، وفيه ليث وشهر وكلاهما ضعيف من قبل حفظه، وأخرجه الفريابي وعبد بن حميد (انظر: «الدر» ٣/٣).

وقال السُّدِّيُّ^(١)، عن مُرَّة، عن عبد الله قال: نزلت سورة الأنعام يشيعها سبعون ألفاً من الملائكة.

وروى نحوه من وجه آخر، عن ابن مسعود.

وقال الحاكم في مستدركه: حدثنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب الحافظ، وأبو الفضل الحسن بن يعقوب العدل قالوا: حدثنا محمد بن عبد الوهاب العبدى، أخبرنا جعفر بن عون، حدثنا إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدِّيُّ، حدثنا محمد بن المنكدر، عن جابر قال: لما نزلت سورة الأنعام سَبَّحَ رسول الله ﷺ، ثم قال: «لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سدَّ الأفق». ثم قال: صحيح على شرط مسلم^(٢).

وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا إبراهيم بن دُرستويه الفارسي، حدثنا أبو بكر بن أحمد بن محمد بن سالم، حدثنا ابن أبي فُديك، حدثني عمر بن طلحة الرقاشي، عن نافع بن مالك أبي سهيل، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة، سد ما بين الخافقين، لهم زجل بالتسبيح والأرض بهم ترتج»، ورسول الله ﷺ يقول: «سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم»^(٣).

ثم روى ابن مردويه عن الطبراني، عن إبراهيم بن نائلة، عن إسماعيل بن عمرو، عن يوسف ابن عطية، عن ابن عون، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله: «نزلت على سورة الأنعام جملة واحدة، وشيعها سبعون ألفاً من الملائكة، لهم زجل بالتسبيح والتحميد»^(٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣)﴾.

يقول تعالى مادحاً نفسه الكريمة، وحامداً لها على خلقه السموات والأرض قراراً لعباده،

(١) في أ: «سفيان الثوري».

(٢) المستدرک (٣١٤/٢) ورواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٢٤٣١) من طريق الحاكم به، وقد تعقب الذهبي الحاكم بقوله: «لا والله لم يدرك جعفر السدي، وأظن هذا موضوعاً». قلت: «وهو على شرط مسلم في المعاصرة، فإن وفاة السدي كانت سنة ١٢٧هـ، وولادة جعفر بن عون سنة ١٠٩هـ، فاللقاء بينهما محتمل». وقول الذهبي: «أظنه موضوعاً». لا وجه له؛ فرجال إسناد الحديث رجال مسلم، فالحمل فيه على من؟!

(٣) زيادة من م، أ.

(٤) ورواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٢٤٣٤) والطبراني في المعجم الأوسط برقم (٣٣١٧) «مجمع البحرين» من طرق عن أبي بكر أحمد بن محمد بن سالم، وفي إسناده أبو بكر أحمد بن محمد بن سالم لم أعرفه.

(٥) رواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٣٣١٦) «مجمع البحرين» ورواه أبو نعيم في الحلية (٤٤/٣) من طريق إبراهيم بن نائلة به. قال الهيثمي في المجمع (٢٠/٧): «فيه يوسف بن عطية الصفار وهو ضعيف».

وجعل^(١) الظلمات والنور منفعة لعباده في ليلهم ونهارهم، فجمع لفظ «الظلمات» ووحد لفظ^(٢) «النور»؛ لكونه أشرف، كما قال: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [النحل: ٤٨]، وكما قال^(٣) في آخر هذه السورة: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَكُمُ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقوله: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أى: ومع هذا كله كفر به بعض عباده، وجعلوا معه شريكاً وعدلاً، واتخذوا له صاحبةً وولداً، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ يعنى: أباهم آدم الذى هو أصلهم ومنه خرجوا، فانتشروا فى المشارق والمغارب.

وقوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ قال سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ يعنى: الموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يعنى: الآخرة.

وهكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، والحسن، وقتادة، والضحاك، وزيد بن أسلم، وعطية، والسدى، ومقاتل بن حیان، وغيرهم.

وقول^(٤) الحسن - فى رواية عنه: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ قال: ما بين أن يُخْلَقَ إلى أن يموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾: ما بين أن يموت إلى أن يبعث - هو يرجع إلى ما تقدم، وهو تقدير الأجل الخاص، وهو عمر كل إنسان، وتقدير الأجل العام، وهو عمر الدنيا بكمالها ثم انتهائها وانقضائها وزوالها، [وانتقالها]^(٥)، والمصير إلى الدار الآخرة.

وعن ابن عباس ومجاهد: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ يعنى: مدة الدنيا ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يعنى: عمر الإنسان إلى حين موته، وكأنه مأخوذ من قوله تعالى بعد هذا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾^(٦) [الأنعام: ٦٠].

وقال عطية، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ يعنى: النوم، يقبض فيه الروح، ثم يرجع^(٧) إلى صاحبه عند اليقظة ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يعنى: أجل موت الإنسان، وهذا قول غريب.

ومعنى قوله: ﴿عِنْدَهُ﴾ أى: لا يعلمه إلا هو، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَفَيْهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وكقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا. فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا. إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ [النازعات: ٤٢ - ٤٤].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ قال السدى وغيره: يعنى تشكون فى أمر الساعة.

وقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾. اختلف

(٣) فى د: «ثم قال».

(٦) زيادة من أ.

(٢) فى م: «له».

(٥) زيادة من م، أ.

(١) فى د: «وفي جعله».

(٤) فى أ: «وقال».

(٧) فى د: «ترجع».

مفسرو هذه الآية على أقوال، بعد الاتفاق على تخطئة قول الجَهْمِيَّة^(١) الأول القائلين بأنه - تعالى عن قولهم علواً كبيراً - فى كل مكان؛ حيث حملوا الآية على ذلك، فأصح الأقوال أنه^(٢): المدعو الله فى السموات وفى الأرض، أى: يعبد ويوحده ويقر له بالإلهية من فى السموات ومن فى الأرض، ويسمونه الله، ويدعونه رَغَبًا وَرَهَبًا، إلا من كفر من الجن والإنس، وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] أى: هو إله مَنْ فى السماء وإله مَنْ فى الأرض، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ خبراً أو حالاً.

والقول الثانى: أن المراد أن الله الذى يعلم ما فى السموات وما فى الأرض، من سر وجهر. فيكون قوله: ﴿يَعْلَمُ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾، تقديره: وهو الله يعلم سركم وجهركم فى السموات وفى الأرض ويعلم ما تكسبون.

والقول الثالث: أن قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ﴾ وقف تام، ثم استأنف الخبر فقال: ﴿فِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾، وهذا^(٣) اختيار ابن جرير. وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أى: جميع أعمالهم خيرها وشرها.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٥) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين المكذبين المعاندين: إنهم مهما أتتهم ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ أى: دلالة ومعجزة وحجة، من الدلالات على وحدانية الرب، عز وجل، وصدق رسله الكرام، فإنهم يعرضون عنها، فلا ينظرون فيها ولا يبالون بها، قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. وهذا تهديد لهم ووعد شديد على تكذيبهم بالحق، بأنه لا بد أن يأتهم خبر ما هم فيه من التكذيب، وليجدنَّ غبه، وليذوقنَّ وبالَه.

ثم قال تعالى واعظاً ومحذراً لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوى ما حل بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوه، وأكثر جمعاً، وأكثر أموالاً وأولاداً واستغلالاً للأرض وعمارة لها، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ أى: من الأموال والأولاد والأعمار، والجاه العريض، والسعة والجنود، ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ

(٣) فى م: «وهو».

(٢) فى أ: «أن».

(١) فى د: «اتفاقهم على إنكار قول الجهمية».

مَدْرَارًا ﴿١﴾ أى: شيئًا بعد شيء، ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ أى: أكثرنا^(١) عليهم أمطار السماء وينايع الأرض، أى: استدراجًا وإملاء لهم ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أى: بخطاياهم وسيئاتهم التي اجترموها، ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أى: فذهب الأولون كأمس الذاهب وجعلناهم أحاديث، ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أى: جيلًا آخر لنختبرهم، فعملوا مثل أعمالهم^(٢)، فهلكوا كهلاكهم. فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم [مثل]^(٣) ما أصابهم، فما أنتم بأعز على الله منهم، والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلة العقوبة منهم، لولا لطفه وإحسانه.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧) وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ (٩) وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١٠) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (١١) ﴿

يقول تعالى مخبراً عن كفر المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق ومباهتتهم ومنازعتهم فيه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أى: عاينوه، ورأوا نزوله، وباشروا ذلك ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، وهذا كما قال تعالى مخبراً عن مكابرتهم للمحسوسات: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤].

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [أى: فيكون معه نذير]^(٤)، قال الله: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ أى: لو نزلت الملائكة على ما هم عليه لجاءهم من الله العذاب، كما قال تعالى: ﴿مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨]، [و]^(٥) قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ [وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا]^(٦)﴾ [الفرقان: ٢٢].

وقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ أى: ولو أنزلنا مع الرسول البشري ملكًا، أى: لو بعثنا إلى البشر رسولاً ملكياً^(٧)، لكان على هيئة رجل لفهم^(٨) مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما يلبسون^(٩) على أنفسهم في قبول رسالة البشري، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]، فمن رحمة الله^(١٠) تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق

(٣ - ٥) زيادة من أ.

(٢) فى د، م: «عملهم».

(١) فى د، م، أ: «كثرنا».

(٧) فى م: «ملكاً».

(٦) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية».

(١٠) فى أ، م: «فمن رحمته».

(٩) فى د، م: «كما هم يلبسون».

(٨) فى د، م: «ليمكنهم».

رسلاً منهم، ليدعو بعضهم بعضاً، وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٤].

قال الضحاك، عن ابن عباس في [قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾] ^(١) الآية. يقول: لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صورة رجل؛ لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور ﴿وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ أى: وخلقنا عليهم ما يخلطون.

وقال الوالى عنه: ولشبهنا عليهم.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، هذا تسلية لرسوله محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، ووعد له وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة.

ثم قال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ أى: فكروا في أنفسكم، وانظروا ما أحل الله بالقرون الماضية الذين كذبوا رسله ^(٢) وعاندوهم، من العذاب والنكال، والعقوبة في الدنيا، مع ما ادّخر لهم من العذاب الأليم في الآخرة، وكيف نَجَّى رسله وعباده المؤمنين.

﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٢) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣) قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦)﴾.

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ومن فيهن، وأنه قد كتب على نفسه المقدسة الرحمة، كما ثبت في الصحيحين، من طريق الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الْخَلْقَ كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، إِنْ رَحِمْتِي تَغْلِبُ غَضَبِي» ^(٤).

وقوله: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، هذه اللام هي الموطئة للقسم، فأقسم بنفسه الكريمة ليجمعن عباده لميقات يوم معلوم [وهو يوم القيامة] ^(٥)، الذى لا ريب فيه ولا شك عند عباده

(٣) فى أ: «قال رسول الله».

(٢) فى م: «رسلهم».

(١) زيادة من أ.

(٤) صحيح البخارى برقم (٧٤٠٤) ورواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٧٥١) من طريق أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة بنحوه.

(٥) زيادة من أ.

المؤمنين، فأما الجاحدون المكذبون فهم^(١) في ربهم^(٢) يترددون.

وقال ابن مردويه عند تفسير هذه الآية: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا عبيد الله بن أحمد بن عقبة، حدثنا عباس بن محمد، حدثنا حسين بن محمد، حدثنا محصن بن عقبة اليماني، عن الزبير بن شبيب، عن عثمان بن حاضر، عن ابن عباس قال: سئل رسول الله ﷺ عن الوقوف بين يدي رب العالمين، هل فيه ماء؟ قال: «والذي نفسى بيده، إن فيه ماء، إن أولياء الله ليردون حياض الأنبياء، ويبعث الله تعالى سبعين ألف ملك في أيديهم عصي من نار، يذودون الكفار عن حياض الأنبياء».

هذا حديث غريب^(٣). وفي الترمذي: «إن لكل نبي حوضاً، وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة، وأرجو أن أكون أكثرهم واردة^(٤)»^(٥).

ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [أي يوم القيامة]^(٦) ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: لا يصدقون بالمعاد، ولا يخافون شر ذلك اليوم.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أى: كل دابة في السموات والأرض، الجميع عباده وخلقه، وتحت قهره وتديره، ولا^(٧) إله إلا هو، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أى: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم.

ثم قال لعبده ورسوله محمد ﷺ، الذى بعثه بالتوحيد العظيم والشرع القويم، وأمره أن يدعو الناس إلى صراطه^(٨) المستقيم: ﴿قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كما قال: ﴿قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]، والمعنى: لا أتخذ ولياً إلا الله وحده لا شريك له، فإنه فاطر السموات والأرض، أى: خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق.

﴿وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أى: وهو الرزاق لخلقه من غير احتياج إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. [مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا]. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ^(٩) [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

وقرأ بعضهم ههنا: ﴿وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ الآية^(١٠) أى: لا يأكل.

وفي حديث سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة [رضى الله عنه]^(١١) قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ، قال: فانطلقنا معه، فلما طعم النبي ﷺ وغسل يديه قال:

(١) فى أ: «فيهم».

(٢) فى م: «دينهم».

(٣) فى إسناده من لم أجد ترجمته.

(٤) فى م، أ: «وارداً».

(٥) سنن الترمذى برقم (٢٤٤٣) من طريق سعيد بن بشير، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة بن جندب، رضى الله عنه، مرفوعاً. وقال الترمذى: «هذا حديث غريب». قلت: فى إسناده سعيد بن بشير وهو ضعيف.

(٦) فى م، أ: «صراط الله».

(٧) فى أ: «لا».

(٨) زيادة من م، أ.

(٩) زيادة من أ.

(١٠) فى د: «الآيتين».

(١١) زيادة من أ.

«الحمد لله الذى يُطعم ولا يَظعم، ومنَّ علينا فهدانا، وأطعمنا وسقانا وكلَّ بلاء حسن أبلانا، الحمد لله غير مُودَع^(١) ولا مكافأ ولا مكفور ولا مُستغنى عنه، الحمد لله الذى أطعمنا من الطعام، وسقانا من الشراب، وكسانا من العرى، وهدانا من الضلال، وبصّرنا من العمى، وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً، الحمد لله رب العالمين»^(٢).

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أى: من هذه الأمة ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. قُلْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. يعنى: يوم القيامة. ﴿مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ﴾ يعنى: العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ يعنى: فقد رحمه الله ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾^(٣)، كما قال: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، والفوز: هو حصول الربح ونفى الخسارة.

﴿وَأَنْ يَمْسَسَكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَخِيرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٧) وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير (١٨) قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْتُكُمْ لِتَشْهَدُوا أَنْ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةٌ أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١)﴾.

يقول تعالى مخبراً أنه مالك الضر والنفع، وأنه المتصرف فى خلقه بما يشاء، لا مُعَقَّبَ لحكمه، ولا رَادَّ لقضائه: ﴿وَأَنْ يَمْسَسَكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَخِيرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ الآية [فاطر: ٢]، وفى الصحيح^(٤): أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»^(٥)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أى: هو الذى خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل شىء ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمته جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته الأشياء، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت حكمه وقهره^(٦).

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ أى: فى جميع ما يفعله ﴿الْخَبِيرُ﴾ بمواضع الأشياء ومحالها، فلا يعطى إلا لمن يستحق ولا يمنح إلا من يستحق.

(١) فى م، أ: «غير مودع ربي».

(٢) رواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠١٣٢) وابن حبان فى صحيحه برقم (١٣٥٢) من طريق سهيل بن أبى صالح به.

(٣) فى م، أ، هـ: «وذلك هو الفوز المبين»، وهو خطأ.

(٤) فى أ: «الصحيحين».

(٥) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٨٤٤) ومسلم فى صحيحه برقم (٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة، رضى الله عنه.

(٦) فى أ: «حكم قهره».

ثم قال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ أى: من أعظم الأشياء [شهادة] ^(١) ﴿قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أى: هو العالم بما جئتمكم به، وما أنتم قائلون لى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أى: وهو نذير لكل من بلغه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧].

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع وأبو أسامة وأبو خالد، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب فى قوله: ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ [قال] ^(٢): من بلغه القرآن فكأنما رأى النبى ﷺ - زاد أبو خالد: وكلمه.

ورواه ابن جرير من طريق أبى معشر، عن محمد بن كعب قال: من بلغه القرآن فقد أبلغه محمد ﷺ.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة فى قوله: ﴿لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ إن رسول الله ﷺ قال: «بَلِّغُوا عَنِ اللَّهِ، فَمَنْ بَلَّغْتُهُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ بَلَّغْتُهُ أَمْرَ اللَّهِ».

وقال الربيع بن أنس: حق على من اتبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالذى دعا رسول الله ﷺ، وأن ينذر كالذى أنذر.

وقوله: ﴿أَتُنْكُمُ لَتَشْهَدُونَ﴾ [أى] ^(٣): أيها المشركون ﴿أَنْ مَعَ اللَّهِ آلِهَةٌ أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٠]، ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

ثم قال مخبراً عن أهل الكتاب: إنهم يعرفون هذا الذى جئتهم ^(٤) به كما يعرفون أبناءهم، بما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين والأنبياء، فإن الرسل كلهم بشرُوا بوجود محمد ^(٥) ﷺ وبعثته ^(٦) وصفته، وبلده ومهاجره، وصفة أمته؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أى: خسروا كل الخسارة، ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا الأمر الجلى الظاهر الذى بشرت به الأنبياء، ونوهت به فى قديم الزمان وحديثه.

ثم قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أى: لا أظلم ممن تقول ^(٧) على الله، فادعى أن الله أرسله ولم يكن أرسله، ثم لا أظلم ممن كذب بآيات الله وحججه وبراهينه ودلالاته، ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ﴾ أى: لا يفلح لا هذا ولا هذا، لا المفترى ولا المكذب.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾

(٣) زيادة من م.

(٦) فى أ: «وبعته».

(٢) زيادة من م، أ.

(٥) فى م: «النبى».

(١) زيادة من أ.

(٤) فى أ: «جئتمكم».

(٧) فى م: «يقول».

(٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَّهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة فيسألهم عن الأصنام والأنداد التي كانوا يعبدونها من دونه قائلاً [لهم] (١): ﴿أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ كما قال تعالى في سورة القصص: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الآية: ٦٢].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَّهُمْ﴾ أى: حجتهم. وقال عطاء الخراسانى، عن ابن عباس: أى: معذرتهم. وكذا قال قتادة. وقال ابن جريج، عن ابن عباس: أى قيلهم. وكذا قال الضحاك.

وقال عطاء الخراسانى: ثم لم تكن بليتهم حين ابتلوا ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

وقال ابن جرير: والصواب: ثم لم يكن (٢) قيلهم عند فتنتنا (٣) إياهم (٤)، اعتذاراً مما سلف منهم من الشرك بالله ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (٥).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو يحيى الرازى، عن عمرو بن أبى قيس، عن مطرف، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أتاه رجل فقال: يا أبا (٦) عباس. سمعت الله يقول: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال: أما قوله: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة، فقالوا: تعالوا فلنجد، فيجحدون، فيختم الله على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتمون الله حديثاً، فهل فى قلبك الآن شىء؟ إنه ليس من القرآن شىء إلا قد نزل (٧) فيه شىء، ولكن لا تعلمون (٨) وجهه.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: هذه فى المنافقين.

وفى هذا نظر، فإن هذه الآية مكية، والمنافقون إنما كانوا بالمدينة، والتي نزلت فى المنافقين آية المجادلة: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ [كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ] (٩)﴾ [المجادلة: ١٨]. وهكذا قال فى حق هؤلاء: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ كما قال: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ. مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا [بَلْ لَمْ

(٣) فى م: «فتنتهما».

(٢) فى أ: «تكن».

(١) زيادة من أ.

(٤) فى أ: «لهم».

(٥) تفسير الطبرى (١١/ ٣٠٠).

(٨) فى أ: «لا يعلمون».

(٧) فى أ: «ترك».

(٦) فى م، أ: «يا ابن».

(٩) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية».

نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ^(١) ﴿٧٤﴾ [غافر: ٧٣، ٧٤].

وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أى: يجيئونك^(٢) ليسمعوا قراءتك، ولا تجزى عنهم شيئاً؛ لأن الله جعل ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أى: أغطية لئلا يفهموا القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أى: صمماً عن السماع النافع، فهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً [صَمَّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ]^(٣)﴾ [البقرة: ١٧١].

وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أى: مهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج البينات، لا يؤمنوا بها. فلا فهم عندهم ولا إنصاف، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ [وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ]^(٤)﴾ [الأنفال: ٢٣].

وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ أى: يحاجونك ويناضونك فى الحق بالباطل ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أى: ما هذا الذى جئت به إلا مأخوذ من كتب الأوائل ومنقول عنهم.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾ ، وفى معنى ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قولان:

أحدهما: أن المراد أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق، وتصديق الرسول، والانقياد للقرآن، وينسأون عنه أى: ويتعدون هم عنه، فيجمعون بين الفعلين القبيحين لا ينتفعون^(٥) ولا يتركون أحداً ينتفع [ويتباعدون]^(٦).

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قال: ينهون الناس عن محمد ﷺ أن يؤمنوا به.

وقال محمد بن الحنفية: كان كفار قريش لا يأتون النبى ﷺ، وينهون عنه.

وكذا قال مجاهد وقتادة، والضحاك، وغير واحد. وهذا القول أظهر، والله أعلم، وهو اختيار ابن جرير.

والقول الثانى: رواه سفيان الثورى، عن حبيب بن أبى ثابت، عمن سمع ابن عباس يقول فى قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قال: نزلت فى أبى طالب كان ينهى [الناس]^(٧) عن النبى ﷺ أن يؤذى^(٨).

(١) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية».

(٢) فى أ: «يجيئون».

(٣) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية».

(٤) زيادة من م.

(٥) زيادة من م، أ.

(٦) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية».

(٧) زيادة من أ.

(٨) رواه الطبرى فى تفسيره (٣١٣/١١) والحاكم فى المستدرک (٣١٥/٢) من طريق سفيان به.

وكذا قال القاسم بن مُخَيَّمِرَة، وحبيب بن أبي ثابت، وعطاء بن دينار: إنها نزلت في أبي طالب.
وقال سعيد بن أبي هلال: نزلت في عمومة النبي ﷺ، وكانوا عشرة، فكانوا أشد الناس معه في العلانية وأشد الناس عليه في السر. رواه ابن أبي حاتم.

وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: ينهون الناس عن قتله.
[و] (١) قوله: ﴿يَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: يتباعدون منه (٢). ﴿وَأِنْ يُّهْلِكُوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وما يهلكون بهذا الصنيع، ولا يعود وباله إلا عليهم، وما يشعرون.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بَيِّنَاتٍ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧) بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠) ﴿

يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، فعند ذلك قالوا: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بَيِّنَاتٍ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا، ليعملوا عملاً صالحاً، ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين. قال تعالى: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة، وإن أنكروها، في الدنيا أو في الآخرة، كما قال قبل هذا بيسير: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ. انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾.

ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءت (٣) به الرسل في الدنيا، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه، كما قال تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ الآية [الإسراء: ١٠٢]. قال تعالى مخبراً عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين الذين كانوا يظهرون للناس الإيمان ويبتغون الكفر، ويكون هذا إخباراً عما يكون يوم القيامة من كلام طائفة من الكفار، ولا يتنافى هذا كون هذه [السورة] (٤) مكية، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فقد ذكر الله وقوع النفاق في سورة مكية وهي العنكبوت، فقال: ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١]؛ وعلى هذا فيكون إخباراً عن حال المنافقين في الدار الآخرة، حين يعاينون العذاب يظهر (٥) لهم حينئذ

(٣) في أ: «ما جاءهم».

(٢) في م: «عنه».

(١) زيادة من أ.

(٥) في أ: «فظهر».

(٤) زيادة من م، أ.

غِبَّ مَا كَانُوا يَبْتَغُونَ مِنَ الْكُفْرِ وَالشَّقَاقِ وَالنِّفَاقِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وأما معنى الإضراب في قوله: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ فَهُمْ مَا طَلَبُوا الْعُودَ إِلَى الدُّنْيَا رَغْبَةً [ومحبة]^(١) فِي الْإِيمَانِ، بَلْ خَوْفًا مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي عَايَنُوهُ جَزَاءً عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ، فَسَأَلُوا الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا لِيَتَخَلَّصُوا مِمَّا شَاهَدُوا^(٢) مِنَ النَّارِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نَهَوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أَى: فِي تَمْنِيهِمُ الرَّجْعَةَ رَغْبَةً وَمَحَبَةً فِي الْإِيمَانِ.

ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْهُمْ: إِنَّهُمْ لَوْ رَدُّوا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا، لَعَادُوا لِمَا نَهَوْا عَنْهُ [مِنَ الْكُفْرِ وَالْمُخَالَفَةِ]^(٣) ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أَى: فِي قَوْلِهِمْ: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بَيِّنَاتٍ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَقَالُوا إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أَى: لَعَادُوا لِمَا نَهَوْا عَنْهُ، إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ وَلَقَالُوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾ أَى: مَا هِيَ إِلَّا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، ثُمَّ لَا مَعَادَ بَعْدَهَا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ أَى: أَوْقَفُوا بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أَى: أَلَيْسَ هَذَا الْمَعَادُ بِحَقٍّ وَلَيْسَ بِبَاطِلٍ كَمَا كُنْتُمْ تَظُنُّونَ؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أَى: بِمَا^(٤) كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ بِهِ، فَذُوقُوا الْيَوْمَ مَسَّهُ^(٥) ﴿أَفَسِحَرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥].

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢)﴾.

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ خَسَارَةٍ مِنْ كَذِبِ بَلْقَاءِ اللَّهِ وَعَنْ خَبِيرَتِهِ إِذَا جَاءَتْهُ السَّاعَةُ بَغْتَةً، وَعَنْ نَدَامَتِهِ عَلَى مَا فَرَطَ مِنَ الْعَمَلِ، وَمَا أَسْلَفَ مِنْ قَبِيحِ الْفِعَالِ^(٦)؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾.

وَهَذَا الضَّمِيرُ يَحْتَمِلُ عَوْدَهُ عَلَى الْحَيَاةِ [الدُّنْيَا]^(٧) وَعَلَى الْأَعْمَالِ، وَعَلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ، أَى: فِي أَمْرِهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أَى: يَحْمِلُونَ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: يَعْمَلُونَ.

[و]^(٨) قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشْجَعِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو خَالِدٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ قَيْسٍ، عَنْ أَبِي مَرْزُوقٍ قَالَ: وَيُسْتَقْبَلُ الْكَافِرُ - أَوْ: الْفَاجِرُ^(٩) - عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنْ قَبْرِهِ كَأَقْبَحِ صُورَةٍ رَأَاهَا وَأَنْتَنَ^(١٠) رِيحًا، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَوْ مَا تَعْرِفْنِي؟ فَيَقُولُ: لَا، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ [قَدْ]^(١١) قَبَّحَ

(١) زيادة من أ.

(٢) في أ: «شاهدوه».

(٣) زيادة من م، أ.

(٤) في أ: «منه».

(٥) في أ: «الفعال».

(٦) زيادة من أ.

(٧) في أ: «والفاجر».

(٨) زيادة من م، أ.

(٩) في أ: «رأيتها وأنتنه».

وجهك وتنت ربحك. فيقول: أنا عملك الخبيث، هكذا كنت في الدنيا خبيث العمل منتنه، طالما^(١) ركبتني في الدنيا، هلم أركبك، فهو قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ [أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ]﴾^(٢) (٣).

وقال أسباط: عن السدّي أنه قال: ليس من رجل ظالم يموت فيدخل قبره إلا جاءه رجل قبيح الوجه، أسود اللون، منتن الرائحة^(٤)، عليه ثياب دَنَسَة، حتى يدخل معه قبره، فإذا رآه قال: ما أقبح وجهك! قال: كذلك كان عملك قبيحاً^(٥)! قال: ما أنتن^(٦) ربحك! قال: كذلك كان عملك منتناً^(٧)! قال: ما أدنس ثيابك، قال: فيقول: إن عملك كان دنساً. قال له: من أنت؟ قال: أنا عملك! قال: فيكون معه في قبره، فإذا بعث يوم القيامة قال له: إني كنت أحملك في الدنيا بالذات والشهوات، وأنت اليوم تحملني. قال: فيركب على ظهره فيسوقه حتى يدخله النار، فذلك قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: إنما غالبها كذلك ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنَاهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَإِنْ كَانَ كِبَرُ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَأْيَةٌ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦).

يقول تعالى مسلماً لنبيه ﷺ، في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ أي: قد أحطنا علماً بتكذيب قومك لك، وحزنك وتأسفك عليهم، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨]، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَعَلَّكَ بَاقِعٌ نَفْسُكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] ﴿فَلَعَلَّكَ بَاقِعٌ نَفْسُكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٧].

وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: لا يتهمونك بالكذب في

(١) في أ: «فطال ما».

(٢) زيادة من م، أ.

(٣) وهذا مرسل، وأبو مرزوق التجيبي، قال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج بما انفرد به. وقد روى هذا الأثر موقوفاً على عمرو بن قيس الملائي دون ذكر أبي مرزوق. ورواه الطبري في تفسيره (٣٢٧/١١) عن ابن حميد، عن الحكم بن بشير، عن عمرو به.

(٤) في أ: «الريح».

(٥) في أ: «قبيح» وهو خطأ.

(٦) في أ: «ما أنت».

(٧) في أ: «منتن».

نفس الأمر ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أى: ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم، كما قال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن ناجية بن كعب، عن علي [رضى الله عنه] ^(١) قال: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ^(٢)

ورواه الحاكم، من طريق إسرائيل، عن أبي إسحاق، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه ^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن الوزير الواسطي بمكة، حدثنا بشر بن المبرور الواسطي، عن سلام بن مسكين، عن أبي زيد المدني؛ أن النبي ﷺ لقي أبا جهل فصافحه، فقال له رجل: ألا أراك تصافح هذا الصابي؟! فقال: والله إني أعلم ^(٤) إنه لنبي، ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعاً؟! وتلا أبو يزيد: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

قال أبو صالح وقتادة: يعلمون أنك رسول الله ويجحدون.

وذكر محمد بن إسحاق، عن الزهري، في قصة أبي جهل حين جاء يستمع قراءة النبي ﷺ من الليل، هو وأبو سفيان صخر بن حرب، والأخنس بن شريق، ولا يشعر واحدٌ منهم بالآخر. فاستمعوها إلى الصباح، فلما هَجَمَ الصبح تفرقوا، فجمعتهم الطريق، فقال كل منهم للآخر: ما جاء بك؟ فذكر له ما جاء له ^(٥)، ثم تعاهدوا ألا يعودوا، لما يخافون من علم شباب قريش بهم، لئلا يفتتنوا ^(٦) بمجيئهم، فلما كانت الليلة الثانية جاء كل منهم ظناً منه أن صاحبيه لا يجيئان، لما تقدم من العهود، فلما أجمعوا ^(٧) جمعتهم الطريق، فتلاوموا، ثم تعاهدوا ألا يعودوا. فلما كانت الليلة الثالثة جاؤوا أيضاً، فلما أصبحوا تعاهدوا ألا يعودوا لمثلها [ثم تفرقوا] ^(٨).

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني ^(٩) يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعتُ أشياء أعرفها وأعرف ما يُراد بها، وسمعتُ أشياء ما عرفتُ معناها ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به.

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه في بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا ^(١٠) نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا،

(١) زيادة من أ.

(٢) رواه الترمذي في السنن برقم (٤٠٦٤) من طريق معاوية بن هشام، عن سفيان به، وقال الترمذي: «وهذا أصح» والطبري في تفسيره (٣٣٤/١١) من طريق عبد الرحمن بن مهدي - وتابعه يحيى بن آدم - عن سفيان به مرسلًا.

(٣) المستدرك (٣١٥/٢) وتعقبه الذهبي بقول: ناجية بن كعب لم يخرج له شيئاً.

(٤) في م، أ: «لأعلم».

(٥) في د، أ: «به».

(٦) في د، م: «يفتنوا».

(٧) في م: «أصبحوا».

(٨) زيادة من أ.

(٩) في م، أ: «قال: تنازعنا».

وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تَجَاثَيْنَا عَلَى الرُّكْبِ، وكنا كَفَرَسَى رِهَانٍ، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء! فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه، قال: فقام عنه الأخنس وتركه^(١).

وروى ابن جرير، من طريق أسباط، عن السُّدِّي، في قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾: لما كان يوم بدر قال الأخنس بن شريق لبنى زهرة: يا بنى زهرة، إن محمداً ابن أختكم، فأنتم أحق من كف^(٢) عنه. فإنه إن كان نبياً لم تقتلوه اليوم، وإن كان كاذباً كنتم أحق من كف عن ابن أخته قفوا ههنا حتى ألقى أبا الحكم، فإن غلب محمد رجعتهم سالمين، وإن غلب محمد فإن قومكم لم يصنعوا بكم شيئاً. فيومئذ سُمِّي الأخنس: وكان اسمه «أبى» فالتقى الأخنس وأبو جهل، فخلا الأخنس بأبى جهل فقال: يا أبا الحكم، أخبرنى عن محمد: أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا من قريش غيرى وغيرك يسمع كلامنا. فقال أبو جهل: ويحك! والله إن محمداً لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهبت بنو قُصَيَّ باللواء والسقاية والحجاب والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فذلك قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ فآيات الله: محمد ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا [وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ]^(٣)﴾: هذه تسلية للنبي ﷺ وتغزية له فيمن كذبه من قومه، وأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ووعد له بالنصر كما نصرُوا، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة، بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ، ثم جاءهم النصر فى الدنيا، كما لهم النصر فى الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أى: التى كتبها بالنصر فى الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين، كما قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَاِ الْمُرْسَلِينَ﴾ أى: من خبرهم كيف نصروا وأيدوا على من كذبهم من قومهم، فلك فيهم أسوة وبهم قدوة.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كِبُرُ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أى: إن كان شق عليك إعراضهم عنك ﴿فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: النفق: السرب، فذهب فيه ﴿فَتَأْتِيهِمْ﴾^(٥) بآية ﴿أَوْ تَجْعَلْ لَكَ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتُصْعِدُ فِيهِ فَتَأْتِيهِمْ﴾^(٦) بآية أفضل مما آتيتهم به، فافعل.

وكذا قال قتادة، والسُّدِّي، وغيرهما.

(١) سيرة ابن إسحاق برقم (٢٣٢) ط - المغرب.

(٢) فى د: «ذب».

(٣) زيادة من م .

(٥) فى أ: «فيذهب فيه فيأتيتهم».

(٦) فى أ «فيصعد فيه فيأتيتهم».

(٤) فى أ: «لمحمد».

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ] ^(١) [يونس: ٩٩] قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾، قال: إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه ^(٢) على الهدى، فأخبر الله أنه لا يؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة فى الذكر الأول.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أى: إنما يستجيب لدعائك يا محمد من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه، كقوله: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠]، وقوله: ﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ يعنى: بذلك الكفار؛ لأنهم موتى القلوب، فشبههم الله بأموات ^(٣) الأجساد، فقال: ﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾، وهذا من باب التهكم بهم، والإزرار عليهم.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٧) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩)﴾.

يقول تعالى مخبرا عن المشركين أنهم كانوا يقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أى: خارق على مقتضى ما كانوا يريدون، وما يتعتون كما قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الأنعام: ٩٠].

﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: هو تعالى قادر على ذلك، ولكن حكمته تعالى تقتضى تأخير ذلك؛ لأنه لو أنزلها ^(٤) وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا، لعاجلهم بالعقوبة، كما فعل بالأمم السالفة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمُ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

وقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾، قال مجاهد: أى أصناف مُصَنَّفَةٌ تُعَرَّفُ بأسمائها. وقال قتادة: الطير أمة، والإنس أمة، والجن أمة. وقال السدس: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أى: خلق أمثالكم.

وقوله: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أى: الجميع علمهم عند الله، ولا ينسى واحداً من جميعها من رزقه وتدبيره، سواء كان برياً أو بحرياً، كما قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ

(٢) فى م: «ويابعوه».

(٤) فى أ: «أنزل».

(١) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية».

(٣) فى أ: «فشبههم بالأموات».

مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿[هود: ٦] أَيْ: مُفْصَّحٌ بِأَسْمَائِهَا وَأَعْدَادِهَا وَمِظَانِهَا، وَحَاصِرُ لِحَرَكَاتِهَا وَسَكَنَاتِهَا، وَقَالَ [الله:]^(١) تَعَالَى: ﴿وَكَايِنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

وقد قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبيد بن واقد القيسي أبو عباد، حدثني محمد بن عيسى بن كيسان، حدثنا محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: قُلَّ الجراد في سنة من سنَى عمر، رضى الله عنه، التى ولى فيها، فسأل عنه فلم يخبر بشيء، فاغتم لذلك. فأرسل راكباً إلى كذا، وآخر إلى الشام، وآخر إلى العراق يسأل: هل روى من الجراد شيء أم لا؟ فأتاه^(٢) الراكب الذى من قبل اليمن بقبضة جراد^(٣)، فألقاها بين يديه، فلما رآها كبر ثلاثاً، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خَلَقَ اللَّهُ، عز وجل، ألف أمة، منها ستمائة فى البحر، وأربعمائة فى البر. وأول شيء يهلك من هذه الأمم الجراد، فإذا هلكت تتابعت مثل النظام إذا قطع سلكه»^(٤).

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾: قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ قال: حَشَرُهَا الموتُ.

وكذا رواه ابن جرير من طريق إسرائيل عن سعيد، عن^(٥) مسروق، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: موتُ البهائم حَشَرُهَا. وكذا رواه العوفي، عنه.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن مجاهد والضحاك، مثله.

والقول الثانى: إن حشرها هو بعثها يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن سليمان، عن مَنذِرِ الثورى، عن أشياخ لهم، عن أبى ذرٍّ؛ أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تتطحان، فقال: «يا أبا ذر، هل تدر فيم تتطحان؟» قال: لا. قال: «لكن الله يدرى، وسيقضى بينهما»^(٦).

ورواه عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن الأعمش، عن ذكره عن أبى ذر قال: بينا أنا^(٧) عند رسول الله ﷺ إذ انتطحت عَتران، فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون فيم انتطحتا؟» قالوا: لا ندرى. قال: «لكن الله يدرى، وسيقضى بينهما». رواه ابن جرير، ثم رواه من طريق منذر الثورى، عن أبى ذر، فذكره

(١) زيادة من م. (٢) فى م، أ: «قال: فأتاه».

(٤) مسند أبى يعلى الكبير كما فى مجمع الزوائد (٣٢٢/٧) ورواه ابن عدى فى الكامل (٣٥٢/٥) والخطيب فى تاريخ بغداد (٢١٨/١١) من طريق عبيد بن واقد، عن محمد بن عيسى به، وفى إسناده عبيد بن واقد ومحمد بن عيسى وهما ضعيفان.

(٥) فى أ: «بن».

(٦) المسند (١٦٢/٥) وقال الهيثمى فى المجمع (٣٥٢/١٠): «رجاله رجال الصحيح، وفيه راوٍ لم يسم».

(٧) فى أ: «نحن».

وزاد: قال أبو ذر: ولقد تركنا رسول الله ﷺ وما يُقَلَّب طائر بجناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علماً^(١).

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد في مسند أبيه: حدثني عباس بن محمد وأبو يحيى البزار قالا: حدثنا حجاج بن نصير، حدثنا شُعْبَةُ، عن العَوَّام بن مَرَجَم^(٢) - من بنى قيس بن ثعلبة - عن أبي عثمان النهدي، عن عثمان، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الجماء لتقتص من القرآن يوم القيامة»^(٣).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن جعفر بن بُرقان، عن يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة في قوله: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ قال: يحشر الخلق كلهم يوم القيامة، البهائم والدواب والطيور وكل شيء، فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجماء من القرآن. قال: ثم يقول: كوني تراباً. قال: فلذلك يقول الكافر: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً﴾ [النبا: ٤٠] وقد روى هذا مرفوعاً في حديث الصور^(٤).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أى: مثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم - وهو الذى لا يسمع - أبكم - وهو الذى لا يتكلم - وهو مع هذا في ظلام لا يبصر، فكيف يهتدى مثل هذا إلى الطريق، أو يخرج مما هو فيه؟ كما قال تعالى^(٥): ﴿مِثْلَهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ. صُمُّ بُكْمٌ عَمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٧، ١٨]، وكما قال [تعالى]^(٦): ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أى: هو المتصرف في خلقه بما يشاء.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٠)
بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) ﴿

(١) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٠٠) وتفسير الطبرى (١١/ ٣٤٨).

(٢) فى م، أ: «مزاحم».

(٣) المسند (١/ ٧٢) وفى إسناده حجاج بن نصير وهو ضعيف، وله شاهد من حديث أبي هريرة، رضى الله عنه، هو الحديث الآتى بعده.

(٤) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٠٠) ومن طريقه الطبرى فى تفسيره (١١/ ٣٤٧).

(٥) فى د، م: «كقوله».

(٦) زيادة من م، أ.

يخبر تعالى أنه الفعال لما يريد، المتصرف في خلقه بما يشاء، وأنه لا مُعَقَّبَ لحكمه، ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه، بل هو وحده لا شريك له، الذي إذا سئل يجيب لمن يشاء؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ أى: أتاكم هذا أو هذا ^(١) ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: لا تدعون غيره لعلمكم أنه لا يقدر أحد على دفع ذلك سواء؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: فى اتخاذكم آلهة معه ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ أى: فى وقت الضرورة لا تدعون أحداً سواه وتذهب عنكم أصنامكم وأندادكم كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ الآية [الإسراء: ٦٧].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ﴾ يعنى: الفقر والضيقة فى العيش ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ وهى الأمراض والأسقام والآلام ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أى: يدعون الله ويتضرعون إليه ويخشعون، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ أى: فهلا إذا ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا وتمسكوا إلينا ^(٢) ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أى: ما رقت ولا خشعت ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: من الشرك والمعاصى.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أى: أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم ﴿فَتَحْنًا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أى: فتحننا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون، وهذا ^(٣) استدراج منه تعالى وإملاء لهم، عياداً بالله من مكروه؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ أى: من الأموال والأولاد والأرزاق ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ أى: على غفلة ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ أى: آيسون من كل خير.

قال الوالى، عن ابن عباس: المبلس: الآيس.

وقال الحسن البصرى: من وسَّعَ الله عليه فلم ير أنه يكره به، فلا رأى له. ومن قَرَّرَ عليه فلم ير أنه ينظر له، فلا رأى له، ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنًا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ قال الحسن: مكر بالقوم ورب الكعبة؛ أعطوا حاجتهم ثم أخذوا. رواه ابن أبى حاتم.

وقال قتادة: بَغَتِ القومَ أمرُ الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرثهم ونعيمهم ^(٤)، فلا تغتروا بالله، إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون. رواه ابن أبى حاتم أيضاً.

وقال مالك، عن الزهرى: ﴿فَتَحْنًا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قال: إرخاء ^(٥) الدنيا وسترها.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رِشْدِين - يعنى ابن سعد أبا الحجاج المهرى - عن حَرْمَلَةَ بن عمران التَّجِيبِي، عن عُبَّة بن مسلم، عن عقبه بن عامر، عن النبى ﷺ قال: «إذا رأيت الله يُعطى العبدَ من الدنيا على معاصيه ما يُحبُّ، فإنما هو استدراج». ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنًا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾.

(٣) فى أ: «وهو».

(٢) فى أ: «لدينا».

(١) فى أ: «وهذا».

(٥) فى أ: «أرجاء».

(٤) فى أ: «ونعيمهم».

مُبْلِسُونَ ﴿٤٦﴾.

ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث حَرَمَلَةَ وابن لَهِيْعَةَ، عن عقبة بن مسلم، عن عقبة ابن عامر، به (١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا عَرَاك بن خالد بن يزيد، حدثني أبي، عن إبراهيم بن أبي عَبْلَةَ، عن عبادة بن الصامت [رضى الله عنه] (٢) أن رسول الله ﷺ كان يقول: «إن الله [تبارك وتعالى] (٣) إذا أراد بقوم بقاء - أو: نماء - رزقهم القصد والعفاف، وإذا أراد الله بقوم اقتطاعاً فتح لهم - أو: فتح عليهم - باب خيانة» (٤).

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ كما قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذَفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

يقول تعالى لرسوله [محمد] (٥) ﷺ: قل لهؤلاء المكذبين المعاندين: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ أى: سلبكم إياها كما أعطاكموها فإنه ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٦) [الملك: ٣٣].

ويحتمل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع بهما النفع الشرعى؛ ولهذا قال: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ كما قال: ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ [يونس: ٣١]، وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقوله: ﴿مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ﴾ أى: هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم؟ لا يقدر على ذلك أحد سواه؛ ولهذا قال [عز شأنه] (٧): ﴿انْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ﴾ أى: نبينها ونوضحها ونفسرها دالة على أنه لا إله إلا الله، وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْذَفُونَ﴾ أى: ثم هم مع هذا البيان يعرضون عن الحق، ويصدّون الناس عن اتباعه.

قال العوفي، عن ابن عباس ﴿يَصْذَفُونَ﴾: يعدلون. وقال مجاهد، وقتادة: يعرضون: وقال

(١) المسند (٤/ ١٥٤) وتفسير الطبرى (١١/ ٣٦١) ورواه الدولابى (١/ ١١١) من طريق حجاج بن سليمان، عن حرملة بن عمران به،

ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر برقم (٣٢) من طريق بشر بن عمر، عن عبد الله بن لهيعة، عن عقبة بن مسلم به.

(٢، ٣) زيادة من أ.

(٤) ورواه ابن مردويه وأبو الشيخ كما فى الدرر (٣/ ٢٧٠).

(٧) زيادة من أ.

(٦) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية».

(٥) زيادة من أ.

السدى: يصدون.

وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً﴾ أى: وأنتم لا تشعرون به حتى بغتكم وفجأكم.
﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ أى: ظاهراً عياناً ﴿هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ أى: إنما: كان يحيط بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله [عز وجل]^(١)، وينجو الذين كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ [أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ]﴾^(٢) [الأنعام: ٨٢].

وقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أى: مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات: ومنذرين من كفر بالله النقمات والعقوبات. ولهذا قال [سبحانه وتعالى]^(٣): ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ﴾ أى: فمن آمن قلبه بما جاؤوا به وأصلح^(٤) عمله باتباعه إياهم، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى: بالنسبة إلى ما يستقبلونه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أى: بالنسبة إلى ما فاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعتها، الله وليهم فيما خلفوه، وحافظهم فيما تركوه.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أى: ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرسل، وخرجوا عن أوامر الله وطاعاته، وارتكبوا محارمه^(٥) ومناهيه^(٦) وانتهاك حرماته.
﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾^(٥٠) وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه وليٌ ولا شفيعٌ لعلهم يتقون^(٥١) ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين^(٥٢) وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين^(٥٣) وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلامٌ عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالةٍ ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفورٌ رحيمٌ^(٥٤) ﴿.

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أى: لست أملكها ولا أتصرف^(٧) فيها، ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أى: ولا أقول: إني أعلم الغيب إنما ذاك من علم الله، عز وجل، لا أطلع منه إلا على ما أطلعني عليه، ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أى: ولا أدعى أنى ملك، إنما أنا بشر من

(١) زيادة من أ.

(٢) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية».

(٣) زيادة من أ.

(٤) فى م، أ: «وصلح».

(٥) فى م، أ: «من محارمه».

(٦) فى م: «و نواهي».

(٧) فى م: «ولا أنا المتصرف».

البشر، يُوحىَ إلىَّ من الله، عز وجل، شرفنى بذلك، وأنعم علىَّ به؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أى: لست أخرج عنه قيد شبر ولا أدنى منه.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ أى: هل يستوى من اتبع الحق وهُدِيَ إليه، ومن ضل عنه ولم ينقذ له؟ ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، وهذه (١) كقوله (٢) تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩].

وقوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أى: وأنذر بهذا القرآن يا محمد ﴿الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧] والذين ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أى: يوم القيامة. ﴿لَيْسَ لَهُمْ﴾ أى: يومئذ ﴿مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أى: لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه إن أَرَادَهُ بِهِمْ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى: أنذر هذا اليوم الذى لاحكم فيه إلا الله، عز وجل ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فيعملون فى هذه الدار عملاً ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه.

وقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أى: لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفة عنك، بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك، كما قال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَطْعِ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطَا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أى: يعبدونه ويسألونه ﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ قال سعيد بن المسيب، ومجاهد، والحسن، وقتادة: المراد بذلك الصلوات المكتوبات.

وهذا كقوله [تعالى] (٣): ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] أى: أتقبل منكم.

وقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أى: يبتغون بذلك العمل وجه الله الكريم، فهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات.

وقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ كما قال نوح، عليه السلام، فى جواب الذين قالوا: ﴿أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبِعْكَ الْأَرْدَلُونَ﴾ [قال] (٤): ﴿وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢، ١١٣]، أى: إنما حسابهم على الله، عز وجل، وليس على من حسابهم من شىء، كما أنه ليس عليهم من حسابى من شىء.

وقوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أى: إن فعلت هذا والحالة هذه.

قال الإمام أحمد: حدثنا أسباط - هو ابن محمد - حدثنا أشعث، عن كُرْدُوس، عن ابن مسعود

(٣) زيادة من أ.

(٢) فى أ: «لقله».

(١) فى م: «وهو».

(٤) زيادة من م، أ.

قال: مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ، وعنده: خَبَّابٌ، وصُهَيْبٌ، وبلال، وعمار. فقالوا: يا محمد، أَرْضِيتَ بهؤلاء؟ فنزل فيهم^(١) القرآن: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾^(٢) ﴿٣﴾.

رواه ابن جرير، من طريق أشعث، عن كردوس، عن ابن مسعود قال: مر الملأ من قريش برسول الله ﷺ، وعنده: صهيب، وبلال، وعمار، وخباب، وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، أَرْضِيتَ بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين منَّ الله عليهم من بيننا؟ ونحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ إلى آخر الآية^(٤).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا عمرو بن محمد العنقري، حدثنا أسباط بن نصر، عن السدي، عن أبي سعيد الأزدي - وكان قارئ الأزدي - عن أبي الكنود، عن خباب في قول الله، عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري، فوجدوا رسول الله ﷺ مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين^(٥)، فلما رأوهم حول النبي ﷺ حقروهم، فأتوه فخلوا به، وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتئك فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأعباء، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت. قال: «نعم». قالوا: فاكتب لنا عليك كتاباً، قال: فدعا بالصحيفة ودعا علياً ليكتب، ونحن قعود في ناحية، فنزل جبريل فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٦)، فرمى رسول الله ﷺ بالصحيفة، ثم دعانا فأتيناه.

ورواه ابن جرير، من حديث أسباط، به^(٧).

وهذا حديث غريب، فإن هذه الآية مكية، والأقرع بن حابس وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر.

وقال سفيان الثوري عن المقدم بن شريح، عن أبيه قال: قال سعد: نزلت هذه الآية في ستة من أصحاب النبي ﷺ، منهم ابن مسعود، قال: كنا نسبق إلى النبي ﷺ^(٨)، وندنو منه ونسمع منه، فقالت قريش: يدنى هؤلاء دوننا، فنزلت: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾.

(١) في د: «عليهم».

(٢) في أ: «والله أعلم بالظالمين» وهو خطأ.

(٣) المسند (١/ ٤٢٠) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢١): رجال أحمد رجال الصحيح غير كردوس وهو ثقة.

(٤) تفسير الطبري (١١/ ٣٧٤).

(٥) في أ: «المسلمين».

(٦) زيادة من م، أ، وفي هـ: «الآية».

(٧) ورواه ابن ماجة في السنن برقم (٤١٢٧) من طريق أحمد بن محمد بن يحيى القطان به، وقال البوصيري في الزوائد (٣/ ٢٧٦):

«هذا إسناد صحيح».

(٨) في م، أ: «إلى رسول الله».

رواه الحاكم فى مستدركه من طريق سفيان، وقال: على شرط الشيخين. وأخرجه ابن حبان فى صحيحه من طريق المقدم بن شريح، به^(١).

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أى: ابتلينا واختبرنا وامتحنا بعضهم ببعض ﴿لِيَقُولُوا أَهْؤُلَاءِ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنَا﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ كان غالباً من اتبعه فى أول البعثة، ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل، كما قال قوم نوح لنوح: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادْيِ الرَّأْيِ﴾ الآية [هود: ٢٧]، وكما قال^(٢) هرقل ملك الروم لأبى سفيان حين سأله [عن تلك]^(٣) المسائل، فقال له: فهل^(٤) اتبعه ضعفاء الناس أو أشرافهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال: هم أتباع الرسل^(٥).

والغرض: أن مشركى قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم، ويعذبون من يقدرعون عليه منهم، وكانوا يقولون: ﴿أَهْؤُلَاءِ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنَا﴾؟ أى: ما كان الله ليهدى هؤلاء إلى الخير - لو كان ما صاروا إليه خيراً - ويدعنا، كما قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَلَّيْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

قال الله تعالى فى جواب ذلك: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئِيًّا﴾ [مريم: ٧٤]، وقال فى جوابهم حين قالوا: ﴿أَهْؤُلَاءِ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ أى: أليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم، فيوفقههم ويهديهم سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وفى الحديث الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولا إلى ألوانكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٦).

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم: حدثنا الحسين، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، عن عكرمة فى قوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ الآية، قال: جاء عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، ومطعم بن عدي، والحارث بن نوفل، وقرظة بن عبد عمرو بن نوفل، فى أشراف من بنى عبد مناف من أهل الكفر إلى أبى طالب فقالوا: يا أبا طالب، لو أن ابن أخيك محمداً يطرد عنه موالينا وحلفاءنا، فإنما هم عبيدنا وعسفاؤنا، كان أعظم^(٧) فى صدورنا، وأطوع له عندنا، وأدنى لاتباعنا إياه، وتصديقنا له. قال: فأتى أبو طالب النبى ﷺ فحدثه بالذى كلموه^(٨)، فقال عمر ابن الخطاب، رضى الله عنه: لو فعلت ذلك، حتى تنظر ما الذى يريدون، وإلى ما يصيرون من قولهم؟ فأنزل الله،

(١) المستدرک (٣/ ٣١٩).

(٢) فى م، أ: «سأل».

(٣) زيادة من أ.

(٤) فى أ: «هل».

(٥) القصة فى صحيح البخارى برقم (٧) من حديث عبد الله بن عباس، رضى الله عنه.

(٦) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٥٦٤).

(٧) فى أ: «أعظم له».

(٨) فى أ: «كلموه به».

عز وجل، هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ [لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ] وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾^(١) إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾. قال: وكانوا: بلالاً، وعمار بن ياسر، وسالماً مولى أبى حذيفة، وصبيحاً مولى أسيد، ومن الخلفاء: ابن مسعود، والمقداد بن عمرو، ومسعود بن القارى، وواقد بن عبد الله الحنظلى، وعمرو بن عبد عمرو، وذو الشمالين، ومرثد بن أبى مرثد - وأبو مرثد من غنى حليف حمزة بن عبد المطلب - وأشباههم من الخلفاء. ونزلت في أئمة الكفر من قريش والموالى والخلفاء: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ الآية. فلما نزلت، أقبل عمر، رضى الله عنه، فاعتذر من مقالته، فأنزل الله، عز وجل: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا [فَقُلْ سَلَامٌ]﴾^(٢) الآية^(٣).

وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أى: فأكرمهم ببرد السلام عليهم، وبشرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم؛ ولهذا قال: ﴿كُتِبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ أى: أوجبها على نفسه الكريمة، تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً ﴿أَنَّهُ مِنْ عَمَلٍ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾، قال بعض السلف: كل من عصى الله، فهو جاهل.

وقال معتمر بن سليمان، عن الحكم بن^(٤) أبان، عن عكرمة فى قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾، قال: الدنيا كلها جهالة. رواه ابن أبى حاتم.

﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ أى: رجع عما كان عليه من المعاصى، وأقلع وعزم على ألا يعود، وأصلح العمل فى المستقبل، ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق، كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتى غلبت^(٥) غضبى».

أخرجاه فى الصحيحين^(٦) وهكذا رواه الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة^(٧). ورواه موسى بن عتبة عن الأعرج، عن أبى هريرة. وكذا رواه الليث وغيره، عن محمد بن عجلان، عن أبيه، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ^(٨) بذلك^(٩).

وقد روى ابن مردويه، من طريق الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق، أخرج كتاباً من تحت العرش: إن رحمتى سبقت غضبى، وأنا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة أو قبضتين، فيخرج من النار خلقاً لم يعملوا خيراً،

(١، ٢) زيادة من م، أ.

(٣) تفسير الطبرى (٣٧٩/١١).

(٤) فى أ: «سبقت».

(٤) فى أ: «عن».

(٦) المسند (٣١٣/٢) ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٣١٩٤) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٧٥١) من وجوه أخرى عن أبى هريرة.

(٧) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٤٠٤).

(٨) زيادة من م، أ.

(٩) رواه أحمد فى مسنده (٤٣٣/٢).

مكتوب بين أعينهم. عتقاء الله.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن عاصم بن سليمان، عن أبي عثمان النهدي، عن سلمان في قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ قال: إنا نجد في التوراة عطفين: أن الله خلق السموات والأرض، وخلق مائة رحمة - أو: جعل مائة رحمة - قبل أن يخلق الخلق، ثم خلق الخلق، فوضع بينهم رحمة واحدة، وأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة. قال: فيها يتراحمون، وبها يتعاطفون، وبها يتبذلون، وبها يتزاوون، وبها تحن الناقة، وبها تضح البقرة، وبها تنمو الشاة، وبها تتابع الطير، وبها تتابع الحيتان في البحر. فإذا كان يوم القيامة، جمع الله تلك الرحمة إلى ما عنده، ورحمته أفضل وأوسع.

وقد روى هذا مرفوعاً من وجه آخر^(١). وسيأتى كثير من الأحاديث الموافقة لهذه عند قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

ومما يناسب هذه الآية [الكريمة]^(٢) من الأحاديث أيضاً قوله ﷺ لمعاذ بن جبل: «أتدري ما حق الله على العباد؟ أن يعبدوه لا^(٣) يشركوا به شيئاً»، ثم قال: «أتدري ما حق العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك؟ ألا يعذبهم»^(٤) وقد رواه الإمام أحمد، من طريق كميل بن زياد، عن أبي هريرة [رضى الله عنه]^(٥) (٦).

﴿وَكَذَلِكَ نَفَصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (٥٥) قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْصُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨) وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ يَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩)﴾.

يقول تعالى: وكما بينا ما تقدم بيانه من الحجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد، ودم المجادلة والعناد، ﴿وَكَذَلِكَ نَفَصِلُ الْآيَاتِ﴾ أى: التى يحتاج المخاطبون إلى بيانها ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: ولتظهر^(٧) طريق المجرمين المخالفين للرسول، وقرئ: «وليتبين^(٨) سبيل المجرمين»

(١) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٧٥٣) من طريق سليمان التيمى عن أبى عثمان النهدي عن سلمان، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله مائة رحمة، فمنها رحمة بها يتراحم الخلق، وتسعة وتسعون ليوم القيامة».

(٢) زيادة من أ.

(٣) فى أ: «ولا».

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٣٧٣) ومسلم فى صحيحه برقم (٣٠).

(٥) زيادة من أ.

(٦) المسند (٣٠٩/٢).

(٧) فى م، أ: «وليطهر».

(٨) فى أ: «وليتبين».

أى: وليستين يا محمد - أو يا مخاطب - سبيل المجرمين.

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أى: على بصيرة من شريعة الله التى أوحاها إلى ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ أى: بالحق الذى جاءنى من [عند] ^(١) الله ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أى: من العذاب، ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أى: إنما يرجع أمر ذلك إلى الله إن شاء عَجَلَ لكم ما سألتموه من ذلك، وإن شاء أَنْظَرَكم وأَجَلَكم؛ لما له فى ذلك من الحكمة العظيمة. ولهذا قال: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْصُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ أى: وهو خير من فصل القضايا، وخير الفاتحين الحاكمين بين عباده.

وقوله: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّنِي عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أى: لو كان مرجع ما تستعجلون به إلى، لأوقعت بكم ما تستحقونه من ذلك ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾.

فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية، وبين ما ثبت فى الصحيحين من طريق ابن وهب، عن يونس، عن الزهرى، عن عُرْوَةَ، عن عائشة؛ أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: «لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسى على ابن عبد يا ليل بن عبد كُلاَك، فلم يجبنى إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسى، فإذا أنا بسحابة قد أظللتنى، فنظرت فإذا فيها جبريل، عليه السلام، فنادانى، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم». قال: «فنادانى ملك الجبال وسلم على، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وقد بعثنى ربك ^(٢) إليك، لتأمرنى بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين»، فقال رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله، لا ^(٣) يشرك به شيئاً»، وهذا لفظ مسلم ^(٤).

فقد عَرَضَ عليه عذابهم واستئصالهم، فاستأنى بهم، وسأل لهم التأخير، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئاً. فما الجمع بين هذا، وبين قوله تعالى فى هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّنِي عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾؟

فالجواب - والله أعلم -: أن هذه الآية دلَّت على أنه لو كان إليه وقوعُ العذاب الذى يطلبونه حالَ طَلَبهم له، لأوقعه بهم. وأما الحديث، فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم، بل عرض عليه ملكُ الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين - وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوباً ^(٥) وشمالاً - فلهذا استأنى بهم وسأل الفرق لهم ^(٦).

وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ قال البخارى: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا

(٣) فى أ: «ولا».

(٢) فى أ: «ربى».

(١) زيادة من أ.

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٢٣١) وصحيح مسلم برقم (١٧٩٥).

(٦) فى أ: «الفرق بهم».

(٥) فى د: «يميناً».

تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ [لقمان: ٣٤]»^(١).

وفى حديث عمر [رضى الله عنه]^(٢): أن جبريل حين تبدَّى له فى صورة أعرابى فسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان، قال له رسول الله ﷺ فيما قال له: «خمس لا يعلمهن إلا الله»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية [لقمان: ٣٤].

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أى: يحيط علمه الكريم^(٣) بجميع الموجودات، بريها وبحريها^(٤)، لا يخفى عليه من ذلك شىء، ولا مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء. وما أحسن ما قال الصرصرى:

فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ الذَّرِّ إِمَّا تَرَأَى لِلنَّوَظِرِ أَوْ تَوَارَى

وقوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أى: ويعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات، ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأخوص، عن سعيد بن مسروق، عن حسان النمرى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ قال: ما من شجرة فى بر ولا بحر إلا وملك موكل بها، يكتب ما يسقط^(٥) منها.

وقوله: ﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾: قال محمد بن إسحاق، عن يحيى بن النضر، عن أبيه، سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: إن تحت الأرض الثالثة وفوق الرابعة من الجن ما لو أنهم ظهروا - يعنى لكم - لم تروا معهم نوراً، على كل زاوية من زوايا الأرض^(٦) خاتم من خواتيم الله، عز وجل، على كل خاتم ملك من الملائكة يبعث الله، عز وجل، إليه فى كل يوم ملكاً من عنده: أن احتفظ بما عندك.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن المسور الزهرى: حدثنا مالك بن سَعِير، حدثنا الأعمش، عن يزيد بن أبى زياد، عن عبد الله بن الحارث قال: ما فى الأرض من شجرة ولا مغرر إبرة إلا عليها^(٧) ملك موكل يأتى الله بعلمها: رطوبتها إذا رطبت، ويَبَسُّها إذا يبست.

وكذا رواه ابن جرير عن أبى الخطاب زياد بن عبد الله الحسانى، عن مالك بن سَعِير، به^(٨).

ثم قال ابن أبى حاتم: ذكر عن أبى حذيفة، حدثنا سفيان، عن عمرو بن قيس، عن رجل، عن

(١) صحيح البخارى برقم (٤٦٢٧).

(٢) زيادة من أ.

(٣) فى م، أ: «العظيم».

(٤) فى د: «بحرها وبرها».

(٥) فى أ: «ما سقط».

(٦) فى م، أ: «من زواياها».

(٧) تفسير الطبرى (٤٠٤/١١).

سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: خلق الله النون - وهى الدواة - وخلق الألواح، فكتب فيها أمر الدنيا حتى ينقضى ما كان من خلق مخلوق، أو رزق حلال أو حرام، أو عمل بر أو فجور^(١)، وقرأ هذه الآية: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ إلى آخر الآية.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢)﴾.

يخبر تعالى أنه يتوفى عباده فى منامهم بالليل، وهذا هو التوفى الأصغر^(٢)، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ارْفَعْكَ وَإِنِّي مَتَوَفِّكَ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ [وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا] (٣)﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]، فذكر فى هذه الآية الوفايتين: الكبرى والصغرى، وهكذا ذكر فى هذا المقام حكم الوفايتين الصغرى ثم الكبرى، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ أى: ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار. وهذه جملة معترضة دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقه فى ليلهم ونهارهم، فى حال سكونهم وفى حال حركتهم، كما قال: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]، وكما قال تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أى: فى الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣]، أى: فى النهار، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا . وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا: ١٠، ١١]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ أى: ما كسبتم بالنهار ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أى: فى النهار. قاله مجاهد، وقتادة، والسدّى.

وقال ابن جريج^(٤)، عن عبد الله بن كثير: أى فى المنام.

والأول أظهر. وقد روى ابن مردويه بسنده^(٥)، عن الضحاك، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: «مع كل إنسان ملك إذا نام أخذ نفسه، ويردّ إليه. فإن أذن الله فى قبض روحه قبضه، وإلا ردّ إليه»، فذلك قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾.

وقوله: ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ يعنى به: أجل كل واحد من الناس، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ﴾^(٦) أى: فيخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: ويجزيكم على ذلك إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

(٢) فى أ: «الصغير».

(١) فى م: «بحر».

(٣) زيادة من أ.

(٥) ورواه أبو الشيخ كما فى الدر المنثور (٣/ ٢٨٠) وفى إسناده انقطاع بين الضحاك وابن عباس.

(٦) فى أ: «فينبئكم» وهو خطأ.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أى: هو الذى قهر كل شىء، وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شىء.

﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ أى: من الملائكة يحفظون بدن الإنسان، كما قال [تعالى]^(١): ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، وحفظة يحفظون عمله ويحفظونه [عليه]^(٢)، كما قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كَرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾^(٣) [الانفطار: ١٠ - ١٢] وقال: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أى: [إذا]^(٤) احتضر وحن أجله ﴿تَوَفَّاهُ رُسُلُنَا﴾ أى: ملائكة موكلون بذلك.

قال ابن عباس وغير واحد: لملك الموت أعوان من الملائكة، يخرجون الروح من الجسد، فيقبضها ملك الموت إذا أنتهت إلى الحلقوم وسيأتى عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾^(٥) [إبراهيم: ٢٧] الأحاديث المتعلقة بذلك، الشاهدة لهذا المروى عن ابن عباس وغيره بالصحة.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ أى: فى حفظ روح المتوفى، بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله، عز وجل، إن كان من الأبرار ففى عليين، وإن كان من الفجار ففى سجين، عيادا بالله من ذلك.

وقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ قال ابن جرير: ﴿ثُمَّ رُدُّوا﴾ يعنى: الملائكة ﴿إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾.

ونذكر هاهنا الحديث الذى رواه الإمام أحمد [عن أبى هريرة فى ذكر صعود الملائكة بالروح من سماء إلى سماء حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل]^(٦)، حيث قال: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا ابن أبى ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يسار، عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال: «إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب، اخرجى حميدة، وأبشرى بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَجُ بها إلى السماء فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: مرحبا بالنفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب، ادخلى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان. فلا يزال يقظال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل. وإذا كان الرجل السوء، قالوا: اخرجى أيتها النفس الخبيثة، كانت فى الجسد الخبيث، اخرجى ذميمة وأبشرى بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحبا بالنفس

(٣) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية».

(٢) زيادة من م، أ.

(١) زيادة من أ.

(٦) زيادة من م.

(٥، ٤) زيادة من أ.

الخبثية كانت فى الجسد الخبيث، ارجعى ذميمة، فإنه لا يفتح لك أبواب السماء. فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر، فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل له فى الحديث الأول، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل فى الحديث الأول^(١).

هذا حديث غريب^(٢).

ويحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ يعنى: الخلائق كلهم إلى الله يوم القيامة، فيحكم فيهم بعدله، كما قال [تعالى]^(٣): ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، وقال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧-٤٩]؛ ولهذا قال: ﴿مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ لَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾.

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥)﴾.

يقول تعالى ممتنا على عباده فى إنجائهم المضطرين منهم ﴿مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أى: الحائرين الواقعين فى المهامه البرية، وفى اللجج البحرية إذا هاجت الريح^(٤) العاصفة، فحينئذ يقرءون الدعاء له وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ [فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا]﴾^(٥) [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يَسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكُمْ وَجَرِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ طَیِّبَةً وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رَيْحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾^(٦) [يونس: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣].

وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أى: جهرًا وسرًا ﴿لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ﴾ أى: من هذه الضائقة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أى: بعدها، قال الله [تعالى]^(٧): ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ﴾ أى: بعد ذلك ﴿تُشْرِكُونَ﴾ أى: تدعون معه فى حال الرفاهية آلهة أخرى.

(١) فى أ: «الثنى».

(٢) المسند (٢/٣٦٤، ٣٦٥).

(٣) زيادة من أ.

(٤) فى د: «الرياح».

(٥) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية».

(٦) فى م، أ: «مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم ييغون فى الأرض بغير الحق».

(٧) زيادة من م، أ.

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ لما قال: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ عقبه بقوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا [مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ]﴾^(١) أى: بعد إنجائه إياكم، كما قال فى سورة سبحان: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا . وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا . أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا . أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ [الإسراء: ٦٦-٦٩].

قال ابن أبى حاتم: ذكر عن مسلم بن إبراهيم، حدثنا هارون الأعور، عن جعفر بن سليمان، عن الحسن فى قوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: هذه للمشركين.

وقال ابن أبى نجیح، عن مجاهد [فى قوله]^(٢): ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾: لأمة محمد ﷺ، فعفا عنهم.

ونذكر هنا الأحاديث الواردة فى ذلك والآثار، وبالله المستعان، وعليه التكلان، وبه الثقة.

قال البخارى، رحمه الله، فى قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾: يلبسكم: يخلطكم، من الالتباس، يلبسوا: يخلطوا. شيعة: فرقا.

حدثنا أبو النعمان، حدثنا حماد بن زيد، عن عمرو بن دينار، عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾، قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك». ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قال: «أعوذ بوجهك». ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾، قال رسول الله ﷺ: «هذا أهون - أو قال: هذا أيسر».

وهكذا رواه أيضا فى «كتاب التوحيد» عن قتيبة، عن حماد، به^(٣).

ورواه النسائى [أيضا]^(٤) فى «التفسير»، عن قتيبة، ومحمد بن النضر بن مساور، ويحيى بن حبيب بن عربى^(٥)، أربعتهم، عن حماد بن زيد، به.

وقد رواه الحميدى فى مسنده، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، سمع جابراً عن النبى ﷺ، به.

ورواه ابن حبان فى صحيحه، عن أبى يعلى الموصلى، عن أبى خيثمة، عن سفيان بن عيينة، به.

(١) زيادة من أ.

(٢) صحيح البخارى برقمى (٤٦٢٨)، (٧٤٠٦).

(٣) (٥) فى أ: «عدى».

(٤) زيادة من أ.

ورواه ابن جرير فى تفسيره عن أحمد بن الوليد القرشى وسعيد بن الربيع، وسفيان بن وكيع، كلهم، عن سفيان بن عيينة، به.

ورواه أبو بكر بن مردويه، من حديث آدم بن أبى إياس، ويحيى بن عبد الحميد، وعاصم بن على، عن سفيان بن عيينة، به.

ورواه سعيد بن منصور، عن حماد بن زيد، وسفيان بن عيينة، كلاهما عن عمرو بن دينار، به^(١).

طريق أخرى: قال الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا مقدم ابن داود، حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا بن لهيعة، عن خالد بن يزيد، عن أبى الزبير، عن جابر قال: لما نزلت: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾، قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بالله من ذلك» ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بالله من ذلك» ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا﴾، قال: «هذا أيسر»، ولو استعاذه لأعاده^(٢).

ويتعلق بهذه الآية [الكريمة]^(٣) أحاديث كثيرة:

أحدها: قال الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده: حدثنا أبو اليمان، حدثنا أبو بكر - هو ابن أبى مريم - عن راشد - هو ابن سعد المقرئ - عن سعد بن أبى وقاص [رضى الله عنه]^(٤) قال: سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ فقال: «أما إنها كائنة، ولم يأت تأويلها بعد».

وأخرجه الترمذى، عن الحسن بن عرفة، عن إسماعيل بن عياش، عن أبى بكر بن أبى مريم، به^(٥). ثم قال: هذا حديث غريب [جدا]^(٦).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يعلى - هو ابن عبيد - حدثنا عثمان بن حكيم، عن عامر ابن سعد بن أبى وقاص، عن أبيه قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ، حتى مرنا على مسجد بنى معاوية، فدخل فصلى ركعتين، فصلينا معه، فناجى ربه، عز وجل، طويلاً، قال^(٧): سألت ربي ثلاثاً: «سألته ألا يهلك أمتى بالغرق، فأعطانيها. وسألته ألا يهلك أمتى بالسنة، فأعطانيها. وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم، فمنعنيها».

انفرد بإخراجه مسلم، فرواه^(٨) فى «كتاب الفتن» عن أبى بكر بن أبى شيبة، ومحمد بن عبد الله ابن نمير، كلاهما عن عبد الله بن غير - وعن محمد بن يحيى بن أبى عمر، عن مروان بن معاوية،

(١) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١١٦٤) ومسند الحميدى (٥٣٠/٢) ومسند أبى يعلى (٣٦٢/٣) وتفسير الطبرى (٤٢٢/١١).

(٢) وفى إسناده عبد الله بن لهيعة وقد اختلط.

(٣) زيادة من أ.

(٤) زيادة من أ.

(٥) المسند (١٧٠/١) وسنن الترمذى برقم (٣٠٦٦).

(٦) زيادة من أ.

(٧) فى أ: «ورواه».

(٨) فى أ: «ثم قال».

كلاهما عن عثمان بن حكيم، به^(١).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: قرأت على عبد الرحمن بن مَهْدِيٍّ، عن مالك، عن عبد الله بن عبد الله بن جابر بن عتيك، عن جابر بن عتيك؛ أنه قال: جاءنا عبد الله بن عمر في بني معاوية - قرية من قرى الأنصار - فقال لي: هل تدري^(٢) أين صلى رسول الله ﷺ في مسجدكم هذا؟ فقلت: نعم. فأشرت إلى ناحية منه، فقال: هل تدري ما الثلاث التي دعا بهن فيه؟ فقلت: نعم. فقال: وأخبرني^(٣) بهن، فقلت^(٤): دعا ألا يُظْهَر عليهم عدواً من غيرهم، ولا يهلكهم بالسنين، فَأُعْطِيَهُمَا، ودعا بأن لا يجعل بأسهم بينهم، فَمُنِعَهُمَا. قال: صدقت، فلا يزال الهرج إلى يوم القيامة^(٥).

ليس هو في شيء من الكتب الستة، وإسناده جيد قوى، والله الحمد والمنة.

حديث آخر: قال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن حكيم بن عباد بن حُيَيف^(٦)، عن علي بن عبد الرحمن، أخبرني حذيفة بن اليمان قال: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى حرة بني معاوية، قال: فصلّي ثمانى ركعات، فأطال فيهن، ثم التفت إليّ فقال: حبستك؟ قلت^(٧): الله ورسوله أعلم. قال: إني سألت الله ثلاثاً، فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة. سألته ألا يسلط على أمتي عدوا من غيرهم، فأعطاني^(٨). وسألته ألا يهلكهم بغرق، فأعطاني. وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم، فمُنِعَنِي. رواه ابن مردويه من حديث ابن إسحاق^(٩).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبيدة بن حميد، حدثني سليمان الأعمش، عن رجاء الأنصاري، عن عبد الله بن شداد، عن معاذ بن جبل، رضى الله عنه، قال: أتيت رسول الله ﷺ أطلبه فقبل لي: خرج قبل. قال: فجعلت لا أمر بأحد إلا قال: مر قبل. حتى مررت فوجدته قائماً يصلى. قال: فجئت حتى قمت خلفه، قال: فأطال الصلاة، فلما قضى صلاته^(١٠)، قلت: يا رسول الله، لقد صليت صلاة طويلة؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني صليت صلاة رغبة ورهبة، سألت الله، عز وجل، ثلاثاً فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة. سألته ألا يهلك أمتي غرقاً، فأعطاني^(١١). وسألته ألا يُظْهَر عليهم عدواً ليس منهم، فأعطانيها. وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم، فردها عليّ».

ورواه ابن ماجه في «الفتن» عن محمد بن عبد الله بن نثير، وعلى بن محمد، كلاهما عن أبي معاوية، عن الأعمش، به^(١٢).

(١) المسند (١/١٧٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٩٠).

(٢) في أ: «تري». (٣) في م، أ: «قال: فأخبرني». (٤) في م: «فقال».

(٥) المسند (٥/٤٤٥) وقال الهيثمي في المجمع (٧/٢٢١): «رجال ثقات».

(٦) في أ: «عن خصيف». (٧) في أ: «حبسك يا حذيفة فقلت». (٨) في أ: «فأعطانيها».

(٩) ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠/٣١٨) من طريق عبد الله بن نثير عن محمد بن إسحاق به.

(١٠) في ج: «الصلاة». (١١) في أ: «فأعطانيها».

(١٢) المسند (٥/٢٤٠) وسنن ابن ماجه برقم (٣٩٥١).

ورواه ابن مردويه من حديث أبي عوانة، عن عبد الله^(١) بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ، بمثله أو نحوه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا عبد الله بن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن بكير^(٢) بن الأشج، أن الضحاك بن عبد الله القرشي حدثه، عن أنس بن مالك أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في سفر صلى سُبْحَةَ الضحى ثمانى ركعات. فلما انصرف قال: «إني صليت صلاة رغبة ورهبة، سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة: سألته ألا يبتلى أمتي بالسنين، ففعل. وسألته ألا يظهر عليهم عدوهم، ففعل. وسألته ألا يلبسهم شيعاً، فأبى على».

رواه النسائي في الصلاة، عن محمد بن سلمة، عن ابن وهب، به^(٣).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب بن أبي حمزة، قال: قال الزهري: حدثني عبد الله بن عبد الله بن الحارث بن نوفل، عن عبد الله بن خباب، عن أبيه خباب ابن الأرت - مولى بنى زهرة، وكان قد شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ - أنه قال: راقبت^(٤) رسول الله ﷺ في ليلة صلاها كلها، حتى كان مع الفجر فسلم رسول الله ﷺ من صلاته، قلت^(٥): يا رسول الله، لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليت مثلها. فقال رسول الله ﷺ: «أجل، إنها صلاة رَغَب ورَهَبَ. سألت ربي، عز وجل، فيها ثلاث خصال، فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة: سألت ربي، عز وجل، ألا يهلكنا بما أهلك به الأمم قبلنا، فأعطانيها. وسألت ربي، عز وجل، ألا يظهر علينا عدوا من غيرنا، فأعطانيها. وسألت ربي، عز وجل، ألا يلبسنا شيعاً، فمنعنيها».

ورواه النسائي من حديث شعيب بن أبي حمزة، به^(٦)، ومن وجه آخر. وابن حبان في صحيحه، بإسناديهما عن صالح بن كيسان - والترمذي في «الفتن» من حديث النعمان بن راشد - كلاهما عن الزهري، به^(٧). وقال: حسن صحيح.

حديث آخر: قال أبو جعفر بن جرير في تفسيره: حدثني زياد بن عبيد الله^(٨) المزني، حدثنا مروان بن معاوية الفزاري، حدثنا أبو مالك، حدثني نافع بن خالد الخزامي، عن أبيه؛ أن النبي ﷺ صلى صلاة خفيفة تامة الركوع والسجود، فقال: «قد كانت صلاة رَغْبَةً ورَهْبَةً، سألت الله، عز وجل، فيها ثلاثاً، أعطاني اثنتين ومنعني واحدة. سألت الله ألا يصيبكم بعداب أصاب به من قبلكم، فأعطانيها. وسألت الله ألا يسلط عليكم عدواً يستبيح بيضتكم، فأعطانيها. وسألته ألا يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض فمنعنيها». قال أبو مالك: فقلت له: أبوك سمع هذا من في رسول الله ﷺ؟

(١) في م: «عبد الملك».

(٢) في أ: «بكر».

(٣) المسند (١٤٦/٢).

(٤) في م: «وافيت».

(٥) في أ: «فقلت».

(٦) المسند (١٠٨/٥) وسنن النسائي (٢١٦/٣).

(٧) النسائي في السنن الكبرى كما في تحفة الأشراف (١١٥/٣) وصحيح ابن حبان (١٨٠/٩) «الإحسان»، وسنن الترمذي برفق (٢١٧٥).

(٨) في أ: «عبد الله».

فقال: نعم، سمعته يحدث بها القوم أنه سمعها من في رسول الله ﷺ^(١).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق قال: قال مَعْمَرُ، أخبرني أيوب، عن أبي قلابَةَ، عن أبي الأشعث الصنعاني، عن أبي أسماء الرَّحَبِيِّ، عن شَدَاد بن أَوْس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زَوَى لى الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاريها، وإن مُلْك أمتى سيبلغ ما زَوَى لى منها، وإنى أعطيت الكنزين الأبيض والأحمر، وإنى سألت ربى، عز وجل، ألا يهلك أمتى بسنة بعامه وألا يسلط عليهم عدواً فيهلكهم بعامه، وألا يلبسهم شيعاً، وألا يذيق بعضهم بأس بعض. فقال: يا محمد، إنى إذا قضيت قضاء فإنه لا يردّ. وإنى قد أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم^(٢) بسنة بعامه، وألا أسلط عليهم عدواً من سواهم فيهلكهم بعامه، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، وبعضهم يقتل بعضاً، وبعضهم يسبى بعضاً». قال: وقال النبی ﷺ: «وإنى لا أخاف على أمتى إلا الأئمة المضلين، فإذا وضع السيف فى أمتى، لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة»^(٣).

ليس فى شىء من الكتب الستة، وإسناده^(٤) جيد قوى، وقد رواه ابن مردويه من حديث حماد ابن زيد، وعباد بن منصور، وقتادة، ثلاثهم عن أيوب، عن أبي قلابَةَ، عن أبي أسماء، عن ثوبان، عن رسول الله ﷺ بنحوه^(٥)، فالله أعلم^(٦).

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا عبد الله بن إسماعيل بن إبراهيم الهاشمي، وميمون بن إسحاق بن الحسن الحنفى قالا: حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا محمد بن فضيل، عن أبي مالك الأشجعي، عن نافع بن خالد الخزامي، عن أبيه قال - وكان أبوه من أصحاب رسول الله ﷺ^(٧)، وكان من أصحاب الشجرة -: كان رسول الله ﷺ إذا صلى والناس حوله، صلى صلاة خفيفة تامة الركوع والسجود. قال: فجلس يوماً فأطال الجلوس حتى أوماً بعضنا إلى بعض: أن اسكتوا، إنه ينزل عليه. فلما فرغ قال له بعض القوم: يا رسول الله، لقد أطلت الجلوس حتى أوماً بعضنا إلى بعض: إنه ينزل عليك. قال: «لا، ولكنها كانت صلاة رغبة ورهبة، سألت الله فيها ثلاثاً فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة. سألت الله ألا يعذبكم بعذاب عذب به من كان قبلكم، فأعطانيها. ألا يسلط^(٨) على أمتى^(٩) عدواً يستبيحها، فأعطانيها. وسألته ألا يلبسكم شيعاً وألا يذيق بعضهم بأس بعض، فمنعنيها»، قال: قلت له: أبوك سمعها من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، سمعته يقول: إنه سمعها من رسول الله ﷺ عدد أصابع هذه، عشر أصابع^(١٠).

(١) تفسير الطبرى (٤٣٣/١١) ورواه الطبراني فى المعجم الكبير (١٩٢/٤) والبخارى فى مسنده برقم (٣٢٨٩) «كشف الأستار» من طريق مروان بن معاوية به.

(٢) فى م، أ: «يهلكهم».

(٣) المسند (١٢٣/٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٢٢١/٧): رجال أحمد رجال الصحيح.

(٤) فى أ: «وإسناده».

(٥) ورواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٨٨٩) من طريق حماد بن زيد به ورواه من طريق معاذ بن هشام عن أبيه عن قتادة عن أبي قلابَةَ به ولم يذكر أيوب.

(٦) فى أ: «والله أعلم».

(٧) فى م، أ: «النبى».

(٨) فى م، أ: «فأعطانيها، وسألته ألا يسلط».

(٩) فى م: «عامتهم».

(١٠) ورواه البخارى فى مسنده برقم (٣٢٨٩) «كشف الأستار» والطبراني فى المعجم الكبير (١٩٢/٤) من طريق أبي مالك الأشجعي عن نافع عن أبيه به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس - هو ابن محمد المؤدب - حدثنا ليث - هو ابن سعد - عن أبي وهب الخولاني، عن رجل قد سماه، عن أبي بصرة الغفاري صاحب رسول الله ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «سألت ربي، عز وجل، أربعاً فأعطاني ثلاثاً، ومنعني واحدة. سألت الله ألا يجمع أمتي على ضلالة، فأعطانيها. وسألت الله ألا يظهر عليهم عدواً من غيرهم، فأعطانيها. وسألت الله ألا يهلكهم بالسنين كما أهلك الأمم قبلهم، فأعطانيها. وسألت الله، عز وجل، ألا يلبسهم شيعاً وألا يذيق بعضهم بأس بعض، فمنعنيها»^(١).

لم يخرج له أحد من أصحاب الكتب الستة.

حديث آخر: قال الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا منجأ بن الحارث، حدثنا أبو حذيفة الثعلبي، عن زياد بن علاقة، عن جابر بن سمرة السوائي، عن علي [رضي الله عنه]^(٢)؛ أن رسول الله ﷺ قال: «سألت ربي ثلاث خصال، فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة، فقلت: يا رب، لا تهلك أمتي جوعاً فقال: هذه لك. قلت: يا رب، لا تسلط عليهم عدوا من غيرهم - يعني أهل الشرك - فيجتاحهم. قال: ذلك لك»^(٣). قلت: يا رب، لا تجعل بأسهم بينهم». قال: «فمنعني هذه»^(٤).

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، عن أحمد بن محمد بن عاصم، حدثنا أبو الدرداء المروزي، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن كيسان، حدثني أبي، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «دعوت ربي، عز وجل، أن يرفع عن أمتي أربعاً، فرفع الله عنهم ثنتين، وأبى علي أن يرفع عنهم ثنتين. دعوت ربي أن يرفع الرجم»^(٥) من السماء، والغرق من الأرض، وألا يلبسهم شيعاً، وألا يذيق بعضهم بأس بعض، فرفع الله عنهم الرجم من السماء، والغرق من الأرض، وأبى الله أن يرفع اثنتين: القتل، والهَرَجَ.

طريق أخرى عن ابن عباس أيضاً: قال ابن مردويه: حدثني عبد الله بن محمد بن زيد^(٦)، حدثني الوليد بن أبان، حدثنا جعفر بن منير، حدثنا أبو بدر شجاع بن الوليد، حدثنا عمرو بن قيس، عن رجل، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: فقام النبي ﷺ فتوضأ، ثم قال: «اللهم لا ترسل على أمتي عذاباً من فوقهم، ولا من تحت أرجلهم، ولا تلبسهم شيعاً، ولا تذق^(٧) بعضهم بأس بعض» قال: فأتاه جبريل فقال: يا محمد، إن الله قد أجاز أمتك أن يرسل

(١) المسند (٣٩٦/٦) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٢/ ٢٨٠) من طريق الليث به.

تنبيه: وقع في المسند كما هو هنا: «أبو وهب الخولاني» وفي المعجم الكبير للطبراني: «أبو هاني الخولاني» وهو الصحيح، كما ذكره المزني في تهذيب الكمال (٤٠١/٧) وابن عبد البر في الاستغناء (٢/ ٩٧٦).

(٢) زيادة من أ. (٣) في م: «لك ذلك».

(٤) المعجم الكبير للطبراني (١٠٧/١) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٢٢): «فيه أبو حذيفة الثعلبي ولم أعرفه، وبقي رجاله ثقات».

(٥) في م، أ: «يرفع عنهم الرجم». (٦) في أ: «يزيد». (٧) في أ: «لا تذيق» وهو خطأ.

عليهم عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم^(١).

حديث آخر: قال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن محمد بن عبد الله البزار، حدثنا عبد الله بن أحمد بن موسى، حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد، حدثنا عمرو بن محمد العنقزي، حدثنا أسباط، عن السدي، عن أبي المنهال، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «سألت ربي لأمتي أربع خصال، فأعطاني ثلاثاً ومنعني واحدة. سألته ألا تكفر أمتي واحدة، فأعطانيها. وسألته ألا يعذبهم بما عذب به الأمم قبلهم، فأعطانيها. وسألته ألا يظهر عليهم عدواً من غيرهم، فأعطانيها. وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم، فمنعنيها».

ورواه ابن أبي حاتم، عن أبي سعيد بن يحيى بن سعيد القطان، عن عمرو بن محمد العنقزي، به نحوه^(٢).

طريق أخرى: وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا أبو كريب، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا كثير بن زيد الليثي المدني، حدثني الوليد بن رباح مولى آل أبي ذباب، سمع أبا هريرة يقول: قال النبي ﷺ: «سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة. سألته ألا يسلط على أمتي عدواً من غيرهم^(٣)، وسألته ألا يهلكهم بالسنين، فأعطاني. وسألته ألا يلبسهم^(٤) شيعاً وألا يذيق بعضهم بأس بعض، فمنعني».

ثم رواه ابن مردويه بإسناده عن سعد بن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، بنحوه. ورواه البزار من طريق عمر^(٥) بن سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، بنحوه^(٦).

أثر آخر: قال سفيان الثوري، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: أربعة من^(٧) هذه الأمة: قد مضت ثنتان، وبقيت ثنتان: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال: الرجم. ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: الخسف. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال سفيان: يعني: الرجم والخسف.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: فهي أربع خلال، منها ثنتان بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة، ألبسوا شيعاً، وذاق بعضهم بأس بعض، وبقيت اثنتان لا بد منهما واقعتان^(٨): الرجم والخسف.

(١) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٣٧٤/١١) من طريق أبي الدرداء المروزي به، وفي إسناده من لم أعرفهم.

(٢) ورواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٤٣٣٦) «مجمع البحرين» من طريق القطيعي عن عمرو بن محمد العنقزي به. قال الهيثمي في المجمع (٢٢٢/٧): «رجاله ثقات».

(٣) في أ: «من غيرهم فأعطاني».

(٤) في م: «يلبسها».

(٥) في أ: «عمرو».

(٦) مسند البزار برقم (٣٢٩٠) «كشف الاستار».

(٧) في أ: «في».

(٨) في أ: «وقفتان».

ورواه أحمد، عن وكيع، عن أبي جعفر. ورواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو الأشهب، عن الحسن، في قوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا﴾^(١) الآية، قال: حُبِسَتْ عقوبتها حتى عمل ذنبها، فلما عمل ذنبها أرسلت عقوبتها.

وهكذا^(٢) قال سعيد بن جبیر، وأبو مالك ومجاهد، والسدى وابن زيد في قوله: ﴿عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ يعني: الرجم. ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ يعني: الخسف. وهذا هو اختيار ابن جرير.

وروى ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: كان عبد الله بن مسعود [رضى الله عنه]^(٣) يصيح وهو في المجلس - أو على المنبر - يقول: ألا أيها الناس، إنه قد نزل بكم: إن الله يقول: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ [أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ]﴾^(٤): لو جاءكم عذاب من السماء، لم يبق منكم أحدًا ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾: لو خسف^(٥) بكم الأرض أهلككم، لم يبق منكم أحد ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾: ألا إنه نزل بكم أسوأ الثلاث.

قول ثان: قال ابن جرير وابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، سمعت خلاد بن سليمان يقول: سمعت عامر بن عبد الرحمن يقول: إن ابن عباس كان يقول في هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾: فأما العذاب من فوقكم، فائمة السوء ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، فخدم السوء.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ يعني: أمراءكم. ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ يعني: عبيدكم وسفلةكم.

وحكى ابن أبي حاتم، عن أبي سنان وعمير بن هانئ، نحو ذلك.

وقال ابن جرير: وهذا القول وإن كان له وجه صحيح، لكن الأول أظهر وأقوى.

وهو كما قال^(٦) ابن جرير، رحمه الله، ويشهد له بالصحة قوله تعالى: ﴿أَأْمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ . أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ . وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾^(٧) [الملك: ١٦ - ١٨]، وفي الحديث: «ليكونن في هذه الامة قذفٌ وخسفٌ ومسحٌ»^(٨) وذلك مذكور مع نظائره في أمارات الساعة وأشراتها وظهور الآيات

(٣)، (٤) زيادة من أ.

(٢) في أ: «وكذا».

(١) زيادة من م، أ.

(٧) زيادة من م، أ.

(٦) في أ: «قاله».

(٥) في م، أ: «يخسف».

(٨) رواه أحمد في مسنده (١٦٣/٢) من حديث عبد الله بن عمرو، رضى الله عنه.

قبل يوم القيامة، وستأتى فى موضعها إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا﴾ أى: يجعلكم ملتبيين شيعاً فرقاً متخالفين. قال الوالى، عن ابن عباس: يعنى: الأهواء. وكذا قال مجاهد وغير واحد.

وقد ورد فى الحديث المروى من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: « وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها فى النار إلا واحدة. »

وقوله: ﴿وَيُذِيقُ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: يعنى يسلط بعضهم على بعض بالعذاب والقتل.

وقوله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ أى: نبينها ونوضحها ونُفَرِّمَهَا^(١) ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أى: يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه.

قال زيد بن أسلم: لما نزلت: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ [أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ]﴾^(٢) الآية، قال رسول الله ﷺ: « لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيوف^(٣) ». قالوا: ونحن نشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله؟ قال: «نعم». فقال بعض الناس: لا يكون هذا أبداً، أن يقتل بعضنا بعضاً ونحن مسلمون، فنزلت: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ. وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ. لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. رواه ابن أبى حاتم وابن جرير^(٤).

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (٦٦) لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧) وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩).

يقول تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ﴾ أى: بالقرآن الذى جئتكم به، والهدى والبيان. ﴿قَوْمُكَ﴾ يعنى: قريشاً ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ أى: الذى ليس وراءه حق ﴿قُلْ لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أى: لست عليكم بحفيظ، ولست بموكل بكم، كقوله: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ [الكهف: ٢٩] أى: إنما على البلاغ، وعليكم السمع والطاعة، فمن اتبعنى، سعد فى الدنيا والآخرة، ومن خالفنى، فقد شقى فى الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾.

قال ابن عباس وغير واحد: أى لكل نبأ حقيقة، أى: لكل خبر وقوع، ولو بعد حين، كما قال:

(٣) فى أ: « بالسيف ».

(٢) زيادة من أ.

(١) فى أ: « ونفسرها ».

(٤) تفسير الطبرى (١١/ ٤٣٠).

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨]، وقال: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٧].

وهذا تهديد ووعد أكيد؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أى: بالتكذيب والاستهزاء ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أى: حتى يأخذوا فى كلام آخر غير ما كانوا فيه^(١) من التكذيب، ﴿وَأَمَّا

يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾، والمراد بهذا كل فرد، فرد من آحاد الأمة، ألا يجلسوا مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير مواضعها، فإن جلس أحد منهم ناسياً ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ﴾ بعد التذكر ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

ولهذا ورد فى الحديث: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»^(٢).

وقال السُّدِّي، عن أبى مالك وسعيد بن جبير فى قوله: ﴿وَأَمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ قال: إن نسيت فذكرت، فلا تجلس معهم. وكذا قال مقاتل بن حيان.

وهذه الآية هى المشار إليها فى قوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ﴾ الآية [النساء: ١٤٠] أى: إنكم إذا جلستم معهم وأقررتموهم على ذلك، فقد ساويتموهم فى الذى هم فيه.

وقوله: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أى: إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم فى ذلك، فقد برئوا من عهدهم، وتخلصوا من إثمهم.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن السُّدِّي، عن أبى مالك وسعيد بن جبير، قوله: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ قال: ما عليك أن يخوضوا فى آيات الله إذا فعلت ذلك، أى: إذا تجنبتهم وأعرضت عنهم.

وقال آخرون: بل معناه: وإن جلسوا معهم، فليس عليهم من حسابهم من شىء. وزعموا أن هذا منسوخ بآية النساء المدنية، وهى قوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]. قاله مجاهد، والسُّدِّي، وابن جريج، وغيرهم. وعلى قولهم، يكون قوله: ﴿وَلَكِنْ ذَكَرْنِي لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى: ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم حينئذ تذكيراً لهم عما هم فيه؛ لعلهم يتقون ذلك، ولا يعودون إليه.

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَلَ كُلُّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ

(١) فى أ: «قبله».

(٢) رواه ابن ماجة فى السنن برقم (٢٠٤٣) من حديث أيوب بن سويد عن أبى بكر الهذلى عن شهر عن أبى ذر الغفارى، رضى الله عنه. وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ١٣٠): «إسناده ضعيف».

(٣) فى أ: «أمرناهم».

أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أى: دعهم وأعرض عنهم وأمهلهم قليلاً، فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم؛ ولهذا قال: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾ أى: وذكر الناس بهذا القرآن، وحذرهم نقمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة.

وقوله: ﴿أَن تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أى: لتلا تبسل. قال الضحاك عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، والسدي: تبسل: تسلم.

وقال الوالبي، عن ابن عباس: تفضح. وقال قتادة: تحبس. وقال مرة وابن زيد: تؤاخذ. وقال الكلبي: تجازى^(١).

وكل هذه العبارات متقاربة فى المعنى، وحاصلها الإسلام للهلكة، والحبس عن الخير، والارتهان عن درك المطلوب، كما قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ. إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المذثر: ٣٨، ٣٩].

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أى: لا قريب ولا أحد يشفع فيها، كما قال: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقوله: ﴿وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ عَدَلًا لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ أى: ولو بذلت كل مبدول ما قبل منها كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ [ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين] ^(٢) ﴿آل عمران: ٩١﴾، وهكذا قال هاهنا: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

﴿قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِّرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

قال السدي: قال المشركون للمؤمنين: اتبعوا سبيلنا، واتركوا دين محمد، فأنزل الله، عز وجل: ﴿قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ أى: فى الكفر ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ فيكون مثلنا مثل الذى ﴿اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ [حيران] ^(٣) يقول: مثلكم، إن كفرتم بعد الإيمان، كمثّل رجل كان مع قوم على الطريق، فضل الطريق، فحيرته الشياطين، واستهوته فى الأرض، وأصحابه على الطريق، فجعلوا يدعونه إليهم يقولون: «ائتنا فإننا على الطريق»، فأبى أن

(٣) زيادة من أ.

(٢) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية».

(١) فى م، أ: «تجزى».

يأتيهم. فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد ﷺ ومحمد هو الذى يدعو إلى الطريق، والطريق هو الإسلام. رواه ابن جرير.

وقال قتادة: ﴿اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾: أضلته فى الأرض، يعنى: استهوته^(١)، مثل قوله: ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ الآية. هذا مثل ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها، والدعاة الذين يدعون إلى الله، عز وجل، كمثل رجل ضل عن الطريق تائها ضالاً، إذ ناداه مناد: «يا فلان بن فلان، هلم إلى الطريق»، وله أصحاب يدعونه: «يا فلان، هلم إلى الطريق»، فإن اتبع الداعى الأول، انطلق به حتى يلقيه إلى الهلكة^(٢). وإن أجاب من يدعو إلى الهدى، اهتدى إلى الطريق. وهذه الداعية التى تدعو فى البرية من الغيلان، يقول: مثل من يعبد هذه الآلهة من دون الله، فإنه يرى أنه فى شىء حتى يأتيه الموت، فيستقبل الهلكة والندامة. وقوله: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾، هم «الغيلان»، يدعونه باسمه واسم أبيه وجده، فيتبعها وهو يرى أنه فى شىء، فيصبح وقد ألقته فى هلكة، وربما أكلته - أو تلقيه فى مضلة من الأرض، يهلك فيها عطشاً، فهذا مثل من أجاب الآلهة التى تُعبد من دون الله، عز وجل. رواه ابن جرير.

وقال ابن أبى نجیح، عن مجاهد: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ﴾ قال: رجل حيران يدعو أصحابه إلى الطريق، وذلك مثل من يضل بعد أن هدى.

وقال العوفى، عن ابن عباس، قوله: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ﴾ هو الذى لا يستجيب لهدى الله، وهو رجل أطاع الشيطان، وعمل فى الأرض بالمعصية، وجار^(٣) عن الحق وضل عنه، وله أصحاب يدعونه إلى الهدى، ويزعمون أن الذى يأمرونه هدى، يقول الله ذلك لأوليائهم من الإنس، يقول [الله]^(٤): ﴿إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾، والضلال ما يدعو إليه الجن.

رواه ابن جرير، ثم قال: وهذا يقتضى أن أصحابه يدعونه إلى ضلال، ويزعمون أنه هدى. قالت: وهذا خلاف ظاهر الآية؛ فإن الله أخبر أن أصحابه يدعونه إلى الهدى، فغير جائز أن يكون ضلالاً، وقد أخبر الله أنه هدى.

وهو كما قال ابن جرير، وكان^(٥) سياق الآية يقتضى أن هذا الذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران، وهو منصوب على الحال، أى: فى حال حيرته وضلاله وجهله وجه المحجة، وله أصحاب على المحجة سائرون، فجعلوا يدعونه إليهم وإلى الذهاب معهم على الطريقة المثلى. وتقدير الكلام: فيأبى عليهم ولا يلتفت إليهم، ولو شاء الله لهداه، ولرد به إلى الطريق؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾.

(٣) فى أ: «وحاد».

(٢) فى م، أ: «فى هلكة».

(٥) فى م، أ: «فإن».

(١) فى م: «استهوته سيرته».

(٤) زيادة من أ.

اللَّهُ هُوَ الْهُدَى ﴿١﴾، كما قال: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾^(١) [الزمر: ٣٧]، وقال: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧]، وقوله: ﴿وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: نخلص له العباد^(٢) وحده لا شريك له.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ﴾ أى: وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقواه فى جميع الأحوال، ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أى: يوم القيامة.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أى: بالعدل، فهو خالقهما ومالكهما، والمدبر لهما ولمن فيهما.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يعنى: يوم القيامة، الذى يقول الله: ﴿كُنْ﴾ فيكون عن أمره كلمح البصر، أو هو أقرب.

﴿وَيَوْمَ﴾ منصوب إما على العطف على قوله: ﴿وَأَتَوْهُ﴾، وتقديره: واتقوا يوم يقول كن فيكون، وإما على قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أى: وخلق يوم يقول كن فيكون. فذكر بدء الخلق وإعادته، وهذا مناسب. وإما على إضمار فعل تقديره: واذكر يوم يقول كن فيكون.

وقوله: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ جملتان محللتهما الجر، على أنهما صفتان لرب العالمين.

وقوله: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ يحتمل أن يكون بدلاً من قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ ويحتمل أن يكون ظرفاً لقوله: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ كقوله: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وكقوله: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]، وما أشبه ذلك.

واختلف المفسرون فى قوله: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾، فقال بعضهم: المراد بالصور هاهنا جمع «صورة» أى: يوم ينفخ فيها فتحيا.

قال ابن جرير: كما يقال^(٣): سور - لسور البلد^(٤) - هو جمع سورة. والصحيح أن المراد بالصور: «القرن» الذى ينفخ فيه إسرافيل، عليه السلام، قال ابن جرير: والصواب عندنا ما^(٥) تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته، ينتظر متى يؤمر فينفخ»^(٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا سليمان التيمى، عن أسلم العجلى، عن بشر بن شغاف، عن عبد الله بن عمرو قال: قال أعرابى: يا رسول الله، ما الصور؟ قال: «قرن ينفخ

(٣) فى أ: «كما تقول».

(٢) فى م، أ: «العبادة».

(١) فى أ: «من يهده الله فلا مضل له».

(٥) فى م، أ: «والصواب من القول فى ذلك ما».

(٤) فى أ: «المدينة».

(٦) تفسير الطبرى (١١/٤٦٣).

فيه»^(١).

وقد روينا حديث الصور بطوله، من طريق الحافظ أبي القاسم الطبراني، فى كتابه «الطوالات» قال: حدثنا أحمد بن الحسن المصرى الأيلى، حدثنا أبو عاصم النبيل، حدثنا إسماعيل بن رافع، عن محمد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظى، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو فى طائفة من أصحابه، فقال: «إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض، خلق الصور فأعطاه إسرافيل، فهو واضعه على فيه، شاخصاً بصره إلى العرش، ينتظر متى يؤمر». قلت: يا رسول الله، وما الصور؟ قال: «القرن». قلت: كيف هو؟ قال: «عظيم، والذى بعثنى بالحق، إن عظم دارة فيه كعرض السموات والأرض. ينفخ فيه ثلاث نفخات: النفخة الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين. يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى، فيقول: انفخ، فينفخ نفخة الفزع، فيفزع أهل السموات [وأهل]^(٢) الأرض إلا من شاء الله. ويأمره فيديها ويطيها ولا يفتر، وهى كقول الله: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ [ص: ١٥] فيسر الله الجبال^(٣)، فتمر مر السحاب، فتكون سرايا».

ثم ترتج الأرض بأهلها رجة فتكون كالسفينة المرمية^(٤) فى البحر، تضربها الأمواج، تكفأ بأهلها كالقنديل المعلق بالعرش، ترججه^(٥) الرياح، وهى التى يقول^(٦): ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ. تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ. قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات: ٦ - ٨]، فيميد الناس على ظهرها، وتذهل المراضع، وتضع الحوامل، وتشيب الولدان، وتطير الشياطين هاربة من الفزع، حتى تأتى الأقطار، فتأتيتها الملائكة فتضرب وجوهها، وترجع، ويولى^(٧) الناس مدبرين ما لهم من أمر الله من عاصم، ينادى بعضهم بعضاً، وهو الذى يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ [غافر: ٣٢].

فبينما هم على ذلك، إذا انصدعت^(٨) الأرض من قطر إلى قطر، فراوا أمراً عظيماً لم يروا مثله، وأخذهم لذلك من الكرب والهول ما الله به عليم، ثم نظروا^(٩) إلى السماء، فإذا هى كالمهل، ثم انشقت^(١٠) فانثرت نجومها، وانخسفت^(١١) شمسها وقمرها. قال رسول الله ﷺ: «الأموات لا يعلمون بشيء من ذلك» قال أبو هريرة: يا رسول الله، من استثنى الله، عز وجل، حين يقول: ﴿فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧] قال: «أولئك الشهداء، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء، وهم أحياء عند الله^(١٢) يرزقون، وقاهم الله فزع ذلك اليوم، وآمنهم منه، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه»، قال: وهو الذى يقول الله، عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا

(١) المسند (١٩٢/٢).

(٢) زيادة من أ.

(٣) فى م: «فتسير الجبال».

(٤) فى أ: «فتكون الموثقة».

(٥) فى م: «ترحزه».

(٦) فى أ: «وهى التى يقول الله».

(٧) فى أ: «ثم تولى».

(٨) فى أ: «هم كذلك إذ تصدعت».

(٩) فى أ: «تطوى».

(١٠) فى أ: «انشقت السماء».

(١١) فى أ: «وخسف».

(١٢) فى أ: «عند ربهم».

النَّاسِ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ [الحج: ١، ٢]، فيكونون في ذلك العذاب ما شاء الله، إلا أنه يطول.

ثم يأمر الله إسرافيل بنفخة الصعق، فينفخ نفخة الصعق، فيصعق أهل السموات [وأهل]^(١) الأرض إلا من شاء الله، فإذا هم قد خمدوا، وجاء ملك الموت إلى الجبار، عز وجل، فيقول: يا رب، قد مات أهل السموات والأرض إلا من شئت. فيقول الله - وهو أعلم بمن بقى - : فمن بقى؟ فيقول: يا رب، بقيت أنت الحى الذى لا تموت، وبقيت حملة العرش، وبقي جبريل وميكائيل، وبقيت أنا. فيقول الله، عز وجل: ليمت جبريل وميكائيل. فينطقُ الله العرش فيقول: يا رب، يموت جبريل وميكائيل!! فيقول: اسكت، فإنى كتبت الموت على كل من كان تحت عرشى، فيموتان. ثم يأتى ملك الموت إلى الجبار [عز وجل]^(٢) فيقول: يا رب، قد مات جبريل وميكائيل. فيقول الله [عز وجل]^(٣) - وهو أعلم بمن بقى - : فمن تبقى؟ فيقول: بقيت أنت الحى الذى لا تموت، وبقيت حملة عرشك، وبقيت أنا. فيقول الله، [عز وجل]^(٤): ليمت حملة عرشى. فيموتوا، ويأمر الله العرش. فيقبض الصور من إسرافيل، ثم يأتى ملك الموت، فيقول: يا رب، قد مات حملة عرشك. فيقول الله - وهو أعلم بمن بقى - : فمن بقى؟ فيقول: يا رب، بقيت أنت الحى الذى لا تموت، وبقيت أنا. فيقول الله [عز وجل]^(٥): أنت خلقت من خلقى، خلقتك لما رأيت، فميت. فيموت. فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار الأحد [الصمد]^(٦)، الذى لم يلد ولم يولد، كان آخراً كما كان أولاً، طوى السموات والأرض طى السجل للكتب^(٧)، ثم دحاهما ثم يلقفهما^(٨) ثلاث مرات، ثم يقول: أنا الجبار، أنا الجبار، أنا الجبار ثلاثاً. ثم هتف بصوته: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾، ثلاث مرات، فلا يجيبه أحد، ثم يقول لنفسه: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، يقول الله: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ^(٩) الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، فيسطهما ويسطحهما، ثم يمدهما مد الأديم العكاظي ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧].

ثم يزجر الله الخلق زجرة، فإذا هم فى هذه الأرض المبذلة مثل ما كانوا فيها من الأولى، من كان فى بطنها كان فى بطنها، ومن كان على ظهرها كان على ظهرها، ثم ينزل الله [عز وجل]^(١٠) عليهم ماء من تحت العرش، ثم يأمر الله السماء أن تمطر، فتمطر أربعين يوماً، حتى يكون الماء فوقهم اثنى عشر ذراعاً، ثم يأمر الله الأجساد أن تنبت فتنبت كنبات الطرائث - أو: كنبات البقل - حتى إذا تكاملت أجسادهم فكانت كما كانت، قال الله، عز وجل: لِيَحْيَا حِمْلُ عَرْشِي، فيحيون. ويأمر الله إسرافيل فيأخذ الصور، فيضعه على فيه، ثم يقول: ليحيا جبريل وميكائيل، فيحييان. ثم يدعو الله الأرواح^(١١)،

(٦) زيادة من م، أ.

(٩) فى أ: «يدل».

(٢) (٥ - زيادة من أ.

(٨) فى م: «تكفها».

(١١) فى أ: «بالأرواح».

(١) زيادة من م، أ.

(٧) فى أ: «الكتاب».

(١٠) زيادة من أ.

فيؤتى بها تتوهج أرواح المسلمين نوراً، وأرواح الكافرين ظلمة، فيقبضها جميعاً ثم يلقها في الصور.

ثم يأمر الله إسرائيل أن ينفخ نفخة البعث، فينفخ نفخة البعث، فتخرج الأرواح كأنها النحل^(١) قد ملأت ما بين السماء والأرض، فيقول [الله]^(٢): وعزتي وجلالي، ليرجعن كل روح إلى جسده، فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجساد، فتدخل في الخياشيم، ثم تمشى في الأجساد كما يمشى السم في اللدغ، ثم تنشق الأرض عنكم^(٣)، وأنا أول من تنشق الأرض عنه، فتخرجون سراعاً إلى ربكم تنسلون^(٤)، ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨] حَفَاةَ عُرَاةٍ [غُلْفًا]^(٥) غُرُلَا، فتقفون^(٦) موقفاً واحداً مقداره سبعون^(٧) عاماً، لا يُنظر إليكم ولا يقضى بينكم، فتبكون حتى تنقطع الدموع، ثم تدمعون^(٨) دماً وتعرقون حتى يلجمكم العرق، أو يبلغ الأذقان، وتقولون^(٩): من يشفع لنا إلى ربنا فيقضى بيننا؟ فتقولون^(١٠): من أحق بذلك من أيكم آدم، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وكلمه قبلاً؟ فيأتون آدم، فيطلبون ذلك إليه فيأبى، ويقول: ما أنا بصاحب ذلك. فيستقرئون الأنبياء نبياً نبياً، كلما جاؤوا نبياً، أبى عليهم. قال رسول الله ﷺ: «حتى يأتوني، فأنطلق إلى^(١١) الفحص فأخر ساجداً» قال أبو هريرة: يا رسول الله، وما الفحص؟ قال: «قدام العرش حتى يبعث الله إلى ملكا فيأخذ بعضدى، فيرفعني، فيقول لى: يا محمد^(١٢)، فأقول: نعم، يا رب. فيقول الله، عز وجل: ما شأنك؟ وهو أعلم، فأقول: يا رب، وعدتني الشفاعة فشفعني في خلقك، فاقض بينهم. قال [الله]^(١٣): قد شفعتك، أنا آتيكم أقضى بينكم».

قال رسول الله ﷺ: «أرجع فأقف مع الناس، فبينما نحن وقوف، إذ سمعنا حساً من السماء شديداً، فها لنا فنزل^(١٤) أهل السماء الدنيا بمثلى من فى الأرض من الجن والإنس، حتى إذا دنوا من الأرض، أشرقت الأرض بنورهم، وأخذوا مصافهم، وقلنا لهم: أفيكم ربنا؟ قالوا: لا، وهو آت.

ثم ينزل [من]^(١٥) أهل السماء الثانية بمثلى من نزل من الملائكة، وبمثلى من فيها من الجن والإنس، حتى إذا دنوا من الأرض، أشرقت الأرض بنورهم، وأخذوا مصافهم، وقلنا لهم: أفيكم ربنا؟ فيقولون: لا، وهو آت.

ثم ينزلون على قدر ذلك من التضعيف، حتى ينزل الجبار، عز وجل، فى ظلل من الغمام والملائكة، ويحمل عرشه^(١٦) يومئذ ثمانية - وهو اليوم أربعة - أقدامهم فى^(١٧) تخوم الأرض السفلى،

- | | | |
|--|-----------------------|----------------------|
| (١) فى أ: «كالنحل». | (٢) زيادة من أ. | (٣) فى أ: «عنهم». |
| (٤) فى أ: «فيخرجون منها سراعاً إلى ربهم ينسلون». | (٥) زيادة من أ. | (٦) فى م: «يقفون». |
| (٧) فى أ: «مقدار سبعين». | (٨) فى أ: «تدمون». | (٩) فى أ: «ويقولون». |
| (١٠) فى أ: «فيقولون». | (١١) فى أ: «حتى آتى». | (١٢) فى م: «محمد». |
| (١٣) زيادة من أ. | (١٤) فى أ: «فيتزل». | (١٥) زيادة من م. |
| (١٦) فى أ: «عرش ربك». | (١٧) فى م: «على». | |

والأرض والسموات إلى حُجَزَتَهُمْ^(١)، والعرش على منابهم، لهم رجل فى تسبيحهم، يقولون: سبحان ذى العرش والجبروت، سبحان ذى الملك والملكوت، سبحان الحى الذى لا يموت، سبحان الذى يميت الخلائق ولا يموت، سُبُّوح قدوس قدوس قدوس، سبحان ربنا الأعلى، رب الملائكة والروح، سبحان ربنا الأعلى، الذى يميت الخلائق ولا يموت، فيضع الله كرسيه حيث يشاء من أرضه، ثم يهتف بصوته^(٢): يا معشر الجن والإنس، إني قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا، أسمع قولكم وأبصر أعمالكم، فأنصتوا إلى، فإنما هى أعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

ثم يأمر الله جهنم، فيخرج منها عُنُقَ [مظلم]^(٣) ساطع، ثم يقول: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ . وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ . هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ - أو: بها^(٤) تكذبون - شك أبو عاصم - ﴿وَأَمَّا زَوْا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٦٠ - ٦٤] فيميز الله الناس وتجوو الأمم. يقول الله تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨] فيقضى الله، عز وجل، بين خلقه، إلا الثقلين الجن والإنس، فيقضى بين الوحش^(٥) والبهايم، حتى إنه ليقضى للجماء من ذات القرن، فإذا فرع من ذلك، فلم تبق تبعة عند واحدة لأخرى قال الله [لها]^(٦): كوني تراباً. فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا: ٤٠].

ثم يقضى الله [عز وجل]^(٧) بين العباد، فكان أول ما يقضى فيه الدماء، ويأتى كل قتيل فى سبيل الله، عز وجل، ويأمر الله [عز وجل]^(٨) كل قتيل فيحمل رأسه تشخب أو داجه يقول: يا رب، فيم قتلنى هذا؟ فيقول - وهو أعلم -: فيم قتلتهم؟ فيقول: قتلتهم لتكون العزة لك. فيقول الله له: صدقت. فيجعل الله وجهه مثل نور الشمس، ثم تمر به الملائكة إلى الجنة.

ويأتى كل من قُتل على غير ذلك يحمل رأسه تشخب أو داجه، فيقول: يا رب، [فيم]^(٩) قتلنى هذا؟ فيقول - وهو أعلم -: لم قتلتهم؟ فيقول: يا رب، قتلتهم لتكون العزة لك ولى. فيقول: تعست. ثم لا تبقى نفس قتلها إلا قتل بها، ولا مظلمة ظلمها إلا أخذ بها، وكان فى مشيئة الله إن شاء عذبه، وإن شاء رحمه.

ثم يقضى الله تعالى بين من بقى^(١٠) من خلقه حتى لا تبقى مظلمة لأحد عند أحد إلا أخذها [الله]^(١١) للمظلوم من الظالم، حتى إنه ليكلف شائب اللبن بالماء ثم يبيعه إلى أن يخلص اللبن من الماء.

(١) فى أ: «حجزهم».
(٢) فى أ: «بصوته فيقول».
(٣) زيادة من أ.
(٤) فى م: «وبها».
(٥) فى أ: «الوحش».
(٦) زيادة من أ.
(٧) زيادة من أ.
(٨) زيادة من أ.
(٩) زيادة من أ.
(١٠) فى م: «من شاء».

فإذا فرغ الله من ذلك، ناد مناد يسمع الخلائق كلهم: ألا ليلحق كل قوم بآلهتهم وما كانوا يعبدون من دون الله. فلا يبقى أحد عبد من دون الله إلا مثلت له آلهته بين يديه، ويجعل يومئذ ملك من الملائكة على صورة عزير، ويجعل ملك من الملائكة على صورة عيسى ابن مريم. ثم يتبع هذا اليهود وهذا النصراني، ثم قادتهم آلهتهم إلى النار، وهو الذى يقول [تعالى]^(١): ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُّوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٩].

فإذا لم يبق إلا المؤمنون فيهم المنافقون، جاءهم الله فيما شاء من هيئته، فقال: يأيتها الناس، ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون. فيقولون: والله ما لنا إله إلا الله، وما كنا نعبد غيره، فينصرف عنهم، وهو الله الذى يأتيهم فيمكث ما شاء الله أن يمكث، ثم يأتيهم فيقول: يأيتها الناس، ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون. فيقولون: والله ما لنا إله إلا الله وما كنا نعبد غيره، فيكشف لهم عن ساقه، ويتجلى لهم من عظمتهم ما يعرفون أنه ربهم، فيخرون سجداً على وجوههم، ويخر كل منافق على قفاه، ويجعل الله أصلابهم كصياصي البقر. ثم يأذن الله لهم فيرفعون، ويضرب الله الصراط بين ظهرائى جهنم كحد الشفرة - أو: كحد السيف - عليه كلاليب وخطاطيف وحسك كحسك السعدان، دون جسر دحض مزلة، فيمرون كطرف العين، أو كلمح البرق، أو كمر الريح، أو كجياذ الخيل، أو كجياذ الركاب، أو كجياذ الرجال. فناج سالم، وناج مخدوش، ومكردس على وجهه فى جهنم.

فإذا أفضى أهل الجنة إلى الجنة، قالوا: من يشفع لنا إلى ربنا فندخل الجنة؟ فيقولون: من أحق بذلك من أبيكم آدم، عليه السلام، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وكلمه قبلاً؟ فيأتون آدم فيطلبون ذلك إليه، فيذكر ذنبا ويقول: ما أنا بصاحب ذلك، ولكن عليكم بنوح، فإنه أول رسل الله. فيؤتى نوح فيُطلبُ ذلك إليه، فيذكر ذنبا ويقول: ما أنا بصاحب ذلك، ويقول عليكم بإبراهيم، فإن الله اتخذته خليلاً. فيؤتى إبراهيم، فيُطلبُ ذلك إليه، فيذكر ذنبا ويقول: ما أنا بصاحب ذلك، ويقول: عليكم بموسى فإن الله قربته نجياً، وكلمه وأنزل عليه التوراة. فيؤتى موسى، فيطلب ذلك إليه، فيذكر ذنبا ويقول: لست بصاحب ذلك، ولكن عليكم بروح الله وكلمته عيسى ابن مريم. فيؤتى عيسى بن مريم، فيطلب ذلك إليه، فيقول: ما أنا بصاحبكم، ولكن عليكم بمحمد. قال رسول الله ﷺ: «فيأتونى - ولى عند ربى ثلاث شفاعات [وعدنهن]^(٢) - فأنطلق فاتى الجنة، فأخذ بحلقة الباب، فأستفتح فيفتح لى، فأحیی ويرحب بى. فإذا دخلت الجنة فنظرت إلى ربى خرت ساجداً، فيأذن الله لى من حمده وتمجيدته بشيء ما أذن به لأحد من خلقه، ثم يقول: ارفع رأسك يا محمد، واشفع تُشَفَّعْ، وسل تُعْطَ. فإذا رفعت رأسى يقول الله - وهو أعلم -: ما شأنك؟ فأقول: يا رب، وعدتنى الشفاعة، فَشَفَّعْنِى فى أهل الجنة فيدخلون الجنة، فيقول الله: قد شفعتك وقد أذنت

لهم فى دخول الجنة».

وكان رسول الله ﷺ يقول: «والذى نفسى بيده، ما أنتم فى الدنيا بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم، فيدخل كل رجل منهم على اثنتين وسبعين زوجة، سبعين مما ينشئ الله، عز وجل، واثنتين آدميتين من ولد آدم، لهما فضل على من أنشأ الله، لعبادتهما الله فى الدنيا. فيدخل على الأولى فى غرفة من ياقوته، على سرير من ذهب مكلل باللؤلؤ، عليها سبعون زوجاً من سندس وإستبرق، ثم إنه يضع يده بين كتفيها، ثم ينظر إلى يده من صدرها، ومن وراء ثيابها وجلدها ولحمها، وإنه لينظر إلى مُحِّ ساقها كما ينظر أحدكم إلى السلك فى قصبه الياقوت، كبدها له مرآة، وكبده لها مرآة. فبينما هو عندها لا يملها ولا تمل، ما يأتيها من مرة إلا وجدها عذراء، ما يَفْتَرُ ذَكَرَهُ، وما تشتكى^(١) قبلها. فبينما هو كذلك إذ نودى: إنا قد عرفنا أنك لا تمل ولا تمل، إلا أنه لا مَنى ولا مَنِيَّةَ إلا أن لك أزواجاً غيرها. فيخرج فيأتيهن واحدة واحدة، كلما أتى^(٢) واحدة [له]^(٣) قالت: والله ما أرى فى الجنة شيئاً أحسن منك، ولا فى الجنة شيء أحب إلى منك.

وإذا وقع أهل النار فى النار، وقع فيها خلق من خلق ربك أوبقتهم أعمالهم، فمنهم من تأخذ النار قدميه لا تجاوز ذلك، ومنهم من تأخذه إلى أنصاف ساقيه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه إلى حَقْوِيهِ، ومنهم من تأخذ جسده كله، إلا وجهه حرم الله صورته عليها». قال رسول الله ﷺ: «فأقول: يا رب، من وقع فى النار من أمتى. فيقول: أخرجوا من عرفتم، فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد. ثم يأذن الله فى الشفاعة فلا يبقى نبي ولا شهيد إلا شفيع، فيقول الله: أخرجوا من وجدتم فى قلبه زنة الدينار إيماناً. فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد، ثم يشفع الله فيقول: أخرجوا من [وجدتم]^(٤) فى قلبه إيماناً ثلثي دينار. ثم يقول: ثلث دينار. ثم يقول: ربع دينار. ثم يقول: قيراطا. ثم يقول: حبة من خردل. فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد، وحتى لا يبقى فى النار من عمل لله خيراً قط، ولا يبقى أحد له شفاعاة إلا شفيع، حتى إن إبليس ليتناول مما يرى من رحمة الله رجاء أن يشفع له، ثم يقول: بقيت وأنا أرحم الراحمين. فيدخل يده فى جهنم فيخرج منها ما لا يحصى غيره، كأنهم حُمَمٌ، فيلقون على نهر يقال له: نهر الحيوان، فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل ما يلقى الشمس منها أخضر، وما يلى الظل منها أصفر، فينبتون كنبات الطرائث، حتى يكونوا أمثال الذر، مكتوب فى رقابهم: «الْجَهَنَّمِيُّونَ عَتَقَاءُ الرَّحْمَنِ»، يعرفهم أهل الجنة بذلك الكتاب، ما عملوا خيراً لله قط، فيمكثون فى الجنة ما شاء الله، وذلك الكتاب فى رقابهم، ثم يقولون: ربنا امح عنا هذا الكتاب، فيمحوه الله، عز وجل، عنهم».

هذا حديث [مشهور]^(٥)، وهو غريب جداً، ولبعضه شواهد فى الأحاديث المتفرقة^(٦)، وفى

(١) فى م: «ولا يشتكى». (٢) فى م: «جاءت».

(٣)، (٤) زيادة من م. (٥) زيادة من م، أ.

(٦) الأحاديث الطوال للطبرانى برقم (٣٦) وقد خولف فيه أحمد بن الحسن الأيلى، فرواه أبو الشيخ الأصبهاني فى العظمة برقم (٣٨٧) من طريق إسحاق بن راهويه، والبيهقى فى البعث والنشور برقم (٦٦٩) من طريق أبى قلابة الرقاشى كلاهما إسحاق - =

بعض ألفاظه نكارة. تفرد به إسماعيل بن رافع قاصّ أهل المدينة، وقد اختلف فيه، فمنهم من وثقه، ومنهم من ضعفه، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة، كأحمد بن حنبل، وأبى حاتم الرازي، وعمرو بن على الفلاس، ومنهم من قال فيه: هو متروك. وقال ابن عدى: أحاديثه كلها فيها نظر إلا أنه يكتب حديثه فى جملة الضعفاء.

قلت: وقد اختلف عليه فى إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة، قد أفردتها فى جزء على حدة. وأما سياقه، فغريب جداً، ويقال: إنه جمعه من أحاديث كثيرة، وجعله سياقاً واحداً، فأنكر عليه بسبب ذلك. وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى يقول: إنه رأى للوليد بن مسلم مصنفاً قد جمع فيه كل الشواهد لبعض مفردات هذا الحديث، فالله أعلم.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾.

قال الضحاك، عن ابن عباس: إن أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزر، إنما كان اسمه تارح. رواه ابن أبى حاتم.

وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن عمرو بن أبى عاصم النبيل، حدثنا أبى، حدثنا أبو عاصم شبيب، حدثنا عكرمة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ يعنى بآزر: الصنم، وأبو إبراهيم اسمه تارح، وأمه اسمها مثنى، وامراته اسمها سارة، وأم إسماعيل اسمها هاجر، وهى سرية إبراهيم.

وهكذا قال غير واحد من علماء النسب: إن اسمه تارح. وقال مجاهد والسدى: آزر: اسم صنم.

قلت: كأنه غلب عليه آزر لخدمته ذلك الصنم، فالله أعلم^(١).

= وأبو قلابة - من طريق أبى عاصم الضحاك، عن إسماعيل بن رافع، عن محمد بن أبى زياد، عن محمد بن كعب القرظى، عن رجل من الأنصار، عن أبى هريرة. به، وروى من طرق أخرى مدارها على إسماعيل بن رافع المدني، وقد ضعفه الأئمة وتركه الدار قطنى.

وقال ابن عدى: «أحاديثه كلها مما فيه نظر».

(١) فى أ: «والله أعلم».

وقال ابن جرير: وقال آخرون: «هو سب»^(١) وعيب بكلامهم، ومعناه: «مُعْجَج» ولم يسنده ولا حكاه عن أحد.

وقد قال ابن أبي حاتم: ذكر عن مُعْتَمِر بن سليمان، سمعت أبي يقرأ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ قال: بلغني أنها أعوج، وأنها أشد كلمة قالها إبراهيم، عليه السلام.

ثم قال ابن جرير: والصواب أن اسم أبيه آزر. ثم أورد على نفسه قول النسابين أن اسمه تارح، ثم أجاب بأنه قد يكون له اسمان، كما لكثير من الناس، أو يكون أحدهما لقباً^(٢). وهذا الذي قاله جيد قوى، والله أعلم.

واختلف القراء في أداء قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾، فحكى ابن جرير عن الحسن البصري وأبي يزيد المدني أنهما كانا يقرآن: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً»، معناه: يا آزر، أتتخذ أصناماً آلهة.

وقرأ الجمهور بالفتح، إما على أنه علم أعجمي لا ينصرف، وهو بدل من قوله: ﴿لَأَبِيهِ﴾، أو عطف بيان، وهو أشبه.

وعلى قول من جعله نعتاً لا ينصرف أيضاً كأحمر وأسود.

فأما من زعم أنه منصوب لكونه معمولاً لقوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾، تقديره: يا أبت، أتتخذ آزر أصناماً آلهة، فإنه قول بعيد في اللغة؛ لأن ما بعد حرف الاستفهام لا يعمل فيما قبله؛ لأن له صدر الكلام، كذا قرره ابن جرير وغيره. وهو مشهور في قواعد اللغة العربية.

والمقصود أن إبراهيم، عليه السلام، وعظ أباه في عبادة الأصنام، وزجره عنها، ونهاه فلم ينته، كما قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ أى: أتتأله لصنم تعبد من دون الله، ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ﴾ أى: السالكين مسلكك ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى: تائهين لا يهتدون أين يسلكون، بل في حيرة وجهل وأمرهم في الجالهة والضلال بين واضح لكل ذى عقل صحيح.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ كُرِيَ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا. يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا. يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا. يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ

(١) فى م: «سب».

(٢) وقد اعترض على قول ابن جرير الطبرى ومحاويلته الجمع، المحدث أحمد شاكر - رحمه الله - فى بحث له فى آخر كتاب «المعرب» للجوالقى قال فى خاتمة: «والحجة القاطعة فى نفى التأويلات التى زعموها فى كلمة: «آزر»، وفى إبطال ما سموه قراءات، تخرج باللفظ عن أنه علم لوالد إبراهيم: الحديث الصحيح الصريح فى البخارى: عن النبى ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قرة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليرم لا أعصيك... إلى آخر الحديث»، وفى البخارى (١٣٩/٤) من الطبعة السلطانية) وفتح البارى (٦/ ٢٧٦ من طبعة بولاق) وشرح العيني (٢٤٣/١٥)، ٢٤٤ من الطبعة المنيرية)، فهذا النص يدل على أنه اسمه العلم، وهو لا يحتمل التأويل ولا التحريف.

لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا . قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَنْ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا . قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا . وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤١ - ٤٨﴾، فكان إبراهيم، عليه السلام، يستغفر لأبيه مدة حياته، فلما مات على الشرك وتبين إبراهيم ذلك، رجع عن الاستغفار له، وتبرأ منه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وثبت في الصحيح: أن إبراهيم يلقى أباه آزر يوم القيامة فيقول له أبوه: يا بني، اليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: أي رب، ألم تعدني أنك لا^(١) تخزني يوم يبعثون^(٢)، وأي خزي أخزي من أبي الأبعد؟ فيقال: يا إبراهيم، انظر ما وراءك. فإذا هو بذبح متلطح فيؤخذ بقوائمه، فيلقى في النار^(٣).

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: تبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله، عز وجل، في ملكه وخلقهما، وإنه لا إله غيره ولا رب سواه، كقوله^(٤): ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَشْأَ نَحْسِفَ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [سبأ: ٩].

فأما ما حكاه ابن جرير وغيره، عن مجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبيرة، والسدي، وغيرهم قالوا - واللفظ لمجاهد - : فرجت له السموات، فنظر إلى ما فيهن، حتى انتهى بصره إلى العرش، وفرجت له الأرضون السبع، فنظر إلى ما فيهن - وزاد غيره - : فجعل ينظر إلى العباد على المعاصي فيدعوا عليهم، فقال الله له: إني أرحم بعبادي منك، لعلهم أن يتوبوا ويرجعوا. وقد روى ابن مردويه في ذلك حديثين مرفوعين، عن معاذ، وعلى [ابن أبي طالب]^(٥) ^(٦)، ولكن لا يصح إسنادهما، والله أعلم. وروى ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾، فإنه تعالى جلا له الأمر؛ سره وعلايته، فلم يخف عليه شيء من أعمال الخلائق، فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب قال الله: إنك لا تستطيع هذا. فرده [الله]^(٧) - كما كان قبل ذلك - فيحتمل أن يكون هذا كشف له عن بصره، حتى رأى ذلك عياناً، ويحتمل أن يكون عن بصيرته حتى شاهده بفؤاده وتحققه وعرفه، وعلم ما في ذلك من الحكم الباهرة والدلالات القاطعة، كما رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه، عن معاذ بن جبل [رضى الله عنه]^(٨).

(١) في أ: «أن لا». (٢) في م، أ: «الدين».

(٣) صحيح البخاري برقم (٣٣٥٠).

(٤) في أ: «كما قال تعالى». (٥) زيادة من م، أ.

(٦) أما حديث على بن أبي طالب، فذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/٣٠٢). وأما حديث معاذ بن جبل، فرواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٦٧٠٠) من طريق ليث بن أبي سليم عن شهر بن حوشب، عن معاذ بن جبل، رضى الله عنه.

(٧) زيادة من م. (٨) زيادة من أ.

فى حديث المنام: «أتانى ربي فى أحسن صورة فقال: يا محمد، فيم يختصم الملائة الأعلى؟ فقلت: لا أدري يا رب، فوضع كفه^(١) بين كتفى، حتى وجدت برد أنامله بين ثديي، فتجلى لى كل شىء وعرفت...» وذكر الحديث^(٢).

وقوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ قيل: «الواو» زائدة، تقديره: وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين، كقوله: ﴿[وَكَذَلِكَ]﴾^(٣) نَفَصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥].

وقيل: بل هى على بابها، أى: نريه ذلك ليكون عالماً وموقناً.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أى: تغشاه وستره ﴿رَأَى كَوْكَبًا﴾ أى: نجماً، ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أى: غاب. قال محمد بن إسحاق بن يسار: «الأفول» الذهاب. وقال ابن جرير: يقال: أفل النجم يافل ويأفل أفولاً وأفلاً: إذا غاب، ومنه قول ذى الرمة.

مصاييح ليست باللواتى تقودها^(٤) نُجُومٌ، ولا بالآفلات الدوالك^(٥)

ويقال: أين أفلت عنا؟ بمعنى: أين غبت عنا؟

قال: ﴿قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾، قال قتادة: علم أنه ربه دائم لا يزول، ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا﴾ أى: طالعا ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لِأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ أى: هذا المنير^(٦) الطالع ربي ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ أى: جرماً من النجم ومن القمر، وأكثر إضاءة. ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾: أى: غابت، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي﴾ أى: أخلصت ديني وأفردت عبادتي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق. ﴿حَنِيفًا﴾ أى: فى حال كونى حنيفاً، أى: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وقد اختلف المفسرون فى هذا المقام، هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ فروى ابن جرير من طريق على بن أبى طلحة، عن ابن عباس ما يقتضى أنه مقام نظر، واختاره ابن جرير مستدلاً بقوله: ﴿لَنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لِأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾^(٧).

وقال محمد بن إسحاق: قال ذلك حين خرج من السَّرب الذى ولدته فيه أمه، حين تخوفت عليه النمروذ بن كنعان، لما أن قد أخبر بوجود مولود يكون ذهاب ملكك على يديه، فأمر بقتل الغلمان عامئذٍ. فلما حملت أم إبراهيم به وحان وضعها، ذهبت به إلى سرب ظاهر البلد، فولدت فيه

(١) فى أ: «يده».

(٢) المسند (٢٤٣/٥) وسنن الترمذى برقم (٣٢٣٥) وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح، سألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فقال: هذا حديث حسن صحيح».

(٣) زيادة من أ.

(٤) البيت فى تفسير الطبرى (٤٨٥/١١) واللسان مادة (ذلك).

(٥) فى م: «الشيء»، وفى أ: «البن».

(٦) زيادة من أ، وفى هـ: «الآية».

إبراهيم وتركته هناك. وذكر أشياء من خوارق العادات، كما ذكرها غيره من المفسرين من السلف والخلف.

والحق أن إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مبنياً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية، التي هي على صورة الملائكة السماوية، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته، ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر، وغير ذلك مما يحتاجون إليه. وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، وهي: القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشتري، وزحل، وأشدهن إضاءة وأشرقهن عندهم الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة. فبين أولاً أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية؛ لأنها مسخرة مقدرة بسير معين، لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تملك لنفسها تصرفاً، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة، لما له في ذلك من الحكم^(١) العظيمة، وهي تطلع من المشرق، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال. ومثل هذه لا تصلح للإلهية. ثم انتقل إلى القمر، فبين فيه مثل ما تقدم في النجم. ثم انتقل إلى الشمس كذلك. فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي: أنا برىء من عبادتهن ومولاتهن، فإن كانت آلهة، فكيدوني بها جميعاً ثم لا تنظرون، ﴿إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: إنما أعبد خالق الأشياء ومخترعها ومُسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربّه ومليكه وإلهه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَيْكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وكيف يجوز أن يكون إبراهيم [الخليل]^(٢) ناظراً في هذا المقام، وهو الذي قال الله في حقه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥١، ٥٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقد ثبت في الصحيحين، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كل مولود يولد على

(٢) زيادة من أ.

(١) في أ: «الحكمة».

الفطرة»^(١)، وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار؛ أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: إني خلقت عبادي حنفاء»^(٢) وقال الله في كتابه العزيز: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّذِينَ فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ومعناه على أحد القولين، كقوله: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّذِينَ فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ كما سيأتى بيانه.

فإذا كان هذا في حق سائر الخليفة، فكيف يكون إبراهيم الخليل - الذي جعله الله ﴿أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] ناظراً في هذا المقام؟! بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة، والسجدة المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب. وما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظراً لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظراً قوله تعالى^(٣):

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (٨٣).

يقول تعالى: وجادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد، وناظروه بشبهه من القول، قال: ﴿أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ أى: تجادلوننى فى أمر الله وأنه لا إله إلا هو، وقد بصّرنى وهدانى إلى الحق وأنا على بينة منه؟ فكيف ألفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة؟!

وقوله: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أى: ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه أن هذه الآلهة التى تعبدونها لا تؤثر شيئاً، وأنا لا أخافها، ولا أباليها، فإن كان لها صنع، فكيدونى بها [جميعاً]^(٤) ولا تنظرون، بل عاجلونى بذلك.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ استثناء منقطع. أى: لا يضر ولا ينفع إلا الله، عز وجل.

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أى: أحاط علمه بجميع الأشياء، فلا تخفى^(٥) عليه خافية.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أى: فيما بينته^(٦) لكم فتعتبرون أن هذه الآلهة باطلة، فتزجروا^(٧) عن عبادتها؟ وهذه الحجة نظير ما احتج به نبي الله هود، عليه السلام، على قومه عاد، فيما قص عنهم فى كتابه،

(١) صحيح البخارى برقم (١٣٨٥) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٨).

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥).

(٣) فى أ: «عز وجل».

(٤) زيادة من م.

(٥) فى أ: «فلا يخفى».

(٦) فى أ: «فتزجروا».

(٧) فى أ: «فيما بينه».

حيث يقول: ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ . إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنْئِي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ . إِنْئِي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا [إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ] (١)﴾ [هود: ٥٣- ٥٦].

وقوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُ﴾ أى: كيف أخاف من هذه الأصنام التى تعبدون (٢) من دون الله ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾؟ قال ابن عباس وغير واحد من السلف: أى حجة وهذا كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣].

وقوله: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى: فأى الطائفتين أصوب؟ الذى عبد من بيده الضر والنفع، أو الذى عبد ما لا يضر ولا ينفع بلا دليل، أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة؟ قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ أى: هؤلاء الذى أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، ولم يشركوا به شيئاً هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون فى الدنيا والآخرة.

قال البخارى: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا ابن أبى عدى، عن شعبة، عن سليمان، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: لما نزلت ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قال أصحابه: وأينا لم يظلم نفسه؟ فنزلت: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] (٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على الناس (٤)، وقالوا: يا رسول الله، فأينا لا يظلم نفسه؟ (٥) قال: «إنه ليس الذى تعنون! ألم تسمعوا (٦) ما قال العبد الصالح: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، إنما هو الشرك» (٧).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع وابن إدريس، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: لما نزلت: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، قالوا: وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليس كما تظنون، إنما قال [لقمان] (٨) لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾» (٩).

(١) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية».

(٢) فى أ: «تعبدونها».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٢٩).

(٤) فى م: «المسلمين».

(٥) فى أ: «أينا لم يظلم نفسه».

(٦) فى أ: «تسمعوا إلى».

(٧) المسند (٣٧٨/١).

(٨) زيادة من م.

(٩) ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٩٣٧) من طريق وكيع بنحوه.

وحدثنا عمر بن شبة النمرى، حدثنا أبو أحمد، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله عن النبي ﷺ فى قوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾، قال: «بشرك».

قال: وروى عن أبى بكر الصديق، وعمر، وأبى بن كعب، وسلمان، وحذيفة، وابن عباس، وابن عمر، وعمر بن شرجيل، وأبى عبد الرحمن السلمى، ومجاهد، وعكرمة، والنخعى، والضحاك، وقتادة، والسدى نحو ذلك.

وقال ابن مردويه: حدثنا الشافعى، حدثنا محمد بن شداد المسمعى، حدثنا أبو عاصم، حدثنا سفيان الثورى، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾، قال رسول الله ﷺ: «قيل لى: أنت منهم»^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن يوسف، حدثنا أبو جناب، عن زاذان، عن جرير بن عبد الله قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، فلما برزنا من المدينة، إذا راكب يوضع نحونا، فقال رسول الله ﷺ: «كأن هذا الراكب إياكم يريد». فانتبهى إلينا الرجل، فسلم فرددنا عليه^(٢)، فقال له النبي ﷺ: «من أين أقبلت؟» قال: من أهلى وولدى وعشيرتى. قال: «فأين تريد؟» قال: أريد رسول الله. قال: «فقد أصبته». قال: يا رسول الله، علمنى ما الإيمان؟ قال: «تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت». قال: قد أقررت. قال: ثم إن بعيره دخلت يده فى شبكة جُرْدَان، فهوى بعيره وهوى الرجل، فوقع على هامته فمات، فقال النبي ﷺ^(٣): «على بالرجل». فوثب إليه عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان فأقعدها، فقالا: يا رسول الله، قبض الرجل! قال: فأعرض عنهما رسول الله ﷺ، ثم قال لهما رسول الله ﷺ: أما رأيكما إعراضى عن الرجل، فإنى رأيت ملكين يدسان فى فيه من ثمار الجنة، فعلمت أنه مات جائعاً، ثم قال رسول الله ﷺ: «هذا من الذين قال الله، عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾»^(٤) ثم قال: «دونكم أحاكم». قال: فاحتملناه إلى الماء فغسلناه وحنطناه وكفناه، وحملناه إلى القبر، فجاء رسول الله ﷺ حتى جلس على شفير القبر فقال: «الحدوا ولا تشقوا، فإن اللحد لنا والشق لغيرنا»^(٥).

ثم رواه أحمد عن أسود بن عامر، عن عبد الحميد بن جعفر الفراء، عن ثابت، عن زاذان، عن جرير بن عبد الله، فذكر نحوه، وقال فيه: «هذا من عمل قليل وأجر كثير»^(٦).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا يوسف بن موسى القطان، حدثنا مهران بن أبى عمر،

(١) وفى إسناده محمد بن شداد المسمعى، قال الدارقطنى: لا يكتب حديثه، وقال مرة: ضعيف، وضعفه البرقانى.

(٢) فى م: «عليه السلام». (٣) فى أ: «رسول الله». (٤) فى م، أ: «بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون».

(٥) المسند (٣٥٩/٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٤٢/١): «فى إسناده أبو جناب وهو مدلس وقد عتبه».

(٦) المسند (٣٥٩/٤) وقد تابع ثابت أباً جناب، لكنه اختلف عليه فيه، فرواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣١٩/٢) من طريق عبيد الله ابن موسى عن ثابت عن أبى اليقظان عن زاذان عن جرير به.

حدثنا علي بن عبد الأعلى^(١)، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كنا مع رسول الله ﷺ في مسير^(٢) ساره، إذ عرض له أعرابي فقال: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، لقد خرجت من بلادى وتلادى ومالى لأهتدى بهداك، وأخذ من قولك، وما بلغت حتى ما لى طعام إلا من خضر الأرض، فاعرض علىّ. فعرض عليه رسول الله ﷺ، فقبل فازدحما حوله، فدخل خف بكره فى بيت جردان، فتردى الأعرابى، فانكسرت عنقه، فقال رسول الله ﷺ: صدق والذي بعثنى بالحق، لقد خرج من بلاده وتلاده وماله ليهدى بهداى ويأخذ من قولى، وما بلغنى حتى ما له طعام إلا من خضر الأرض، أسمعتم بالذى عمل قليلاً وأجر كثيراً هذا منهم! أسمعتم بالذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون؟ فإن هذا منهم^(٣). [وروى ابن مردويه من حديث محمد ابن معلى - وكان نزل الرى - حدثنا زياد بن خيثمة عن أبى داود عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعطى فشكر ومنع فصبر وظلم فاستغفر وظلم فغفر» وسكت، قالوا: يا رسول الله ما له؟ قال: «أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ»^(٤)].

وقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ أى: وجهنا حجته على قومه.

قال مجاهد وغيره: يعنى بذلك قوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ [إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ]»^(٥) وقد صدقه الله، وحكم له بالأمن والهداية فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾، ثم قال بعد ذلك كله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ﴾.

قرئ بالإضافة وبلا إضافة، كما فى سورة يوسف، وكلاهما قريب فى المعنى.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أى: حكيم فى أفعاله وأقواله ﴿عَلِيمٌ﴾ أى: بمن يهديه ومن يضلّه، وإن قامت عليه الحجج والبراهين، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧)

(١) فى أ: «عبد الله».

(٢) فى م: «فى سير».

(٣) ورواه الحكيم الترمذى كما فى الدر المنثور (٣/٩٠٣).

(٥) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية».

(٤) زيادة من م، أ.

ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾
 أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا
 بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا
 ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ .

يخبر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق، بعد أن طعن في السن، وأيس هو وامراته «سارة» من
 الولد، فجاءت الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط، فبشروهما بإسحاق، فتعجبت المرأة من ذلك،
 وقالت: ﴿قَالَتَ يَا وَيْلَتَى أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾. قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ
 رَحِمَتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿هود: ٧٢، ٧٣﴾. وبشروه^(١) مع وجوده بنبوته،
 وبأن له نسلاً وعقباً، كما قال: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢]، وهذا أكمل في
 البشارة، وأعظم في النعمة، وقال: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ [هود: ٧١]، أى:
 ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما، فتقر أعينكما به كما قرت بوالده، فإن الفرح بولد الولد شديد
 لبقاء النسل والعقب، ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه، وقعت البشارة به
 وبولده باسم «يعقوب»، الذى فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاة لإبراهيم، عليه السلام،
 حين اعتزل قومه وتركهم، ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله فى الأرض، فعوضه
 الله، عز وجل، عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه، تَقَرُّ بِهِمْ عَيْنُهُ، كما قال
 [تعالى]^(٢): ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم
 ٤٩]، وقال هاهنا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾.

وقوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أى: من قبله، هديناه كما هديناه، ووهبنا له ذرية صالحة، وكل
 منهما له خصوصية عظيمة، أما نوح، عليه السلام، فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن
 به - وهم الذين صحبوه فى السفينة - جعل الله ذريته هم الباقين، فالتاس كلهم من ذرية نوح،
 وكذلك الخليل إبراهيم، عليه السلام، لم يبعث الله، عز وجل، بعده نبياً إلا من ذريته، كما قال
 تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ الآية [العنكبوت: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا
 وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
 مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
 آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

وقوله فى هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ أى: وهدينا من ذريته ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ الآية، وعود
 الضمير إلى «نوح»؛ لأنه أقرب المذكورين، ظاهر. وهو اختيار ابن جرير، ولا إشكال عليه. وعوده

(٢) زيادة من أ.

(١) فى م: «وبشروها».

إلى «إبراهيم»؛ لأنه الذى سبق الكلام من أجله حسن، لكن يشكل على ذلك «لوط»، فإنه ليس من ذرية «إبراهيم»، بل هو ابن أخيه مادان بن آزر؛ اللهم إلا أن يقال: إنه دخل فى الذرية تغليبا، كما فى قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، فإسماعيل عمه، ودخل فى آباءه تغليبا.

[وكما قال فى قوله: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [الحجر: ٣٠، ٣١] فدخل إبليس فى أمر الملائكة بالسجود، وذم على المخالفة؛ لأنه كان قد تشبه بهم، فعومل معاملتهم، ودخل معهم تغليبا، وكان من الجن وطبيعتهم النار والملائكة من نور^(١).

وفى ذكر «عيسى»، عليه السلام، فى ذرية «إبراهيم» أو «نوح»، على القول الآخر دلالة على دخول ولد البنات فى ذرية الرجال؛ لأن «عيسى»، عليه السلام، إنما ينسب إلى «إبراهيم»، عليه السلام، بأمه «مريم» عليها السلام، فإنه لا أب له.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا سهل بن يحيى العسكرى، حدثنا عبد الرحمن بن صالح، حدثنا على ابن عباس^(٢)، عن عبد الله بن عطاء المكي، عن أبى حرب بن أبى الأسود قال: أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر فقال: بلغنى أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبی ﷺ، تجده فى كتاب الله، وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده؟ قال: أليس تقرأ سورة الأنعام: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾، حتى بلغ ﴿وَيَحْيَىٰ وَعِيسَى﴾؟ قال: بلى، قال: أليس عيسى من ذرية إبراهيم، وليس له أب؟ قال: صدقت.

فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته، أو وقف على ذريته أو وهبهم، دخل أولاد البنات فيهم، فأما إذا أعطى الرجل بنه أو وقف عليهم، فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه وبنو بنيه، واحتجوا بقول الشاعر العربى:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبنا الرجال الأجانب^(٣)

وقال آخرون: ويدخل بنو البنات فيهم أيضا، لما ثبت فى صحيح البخارى، أن رسول الله ﷺ قال للحسن بن على: «إن ابنى هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فتيين عظيمتين من المسلمين»^(٤). فسماه ابنا، فدل على دخوله فى الأبناء.

وقال الآخرون: هذا تجوز.

وقوله: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾: ذكر أصولهم وفروعهم. وذوى طبقتهم، وأن الهداية والاجتماع شملهم كلهم؛ ولهذا قال: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

(٢) فى أ: «عباس».

(١) زيادة من م، أ.

(٣) ذكره ابن عقيل فى شواهد على ألفية ابن مالك برقم (٥١). وعنده «الأباعد» بدل «الأجانب».

(٤) صحيح البخارى برقم (٢٧٠٤) من حديث أبى بكر، رضى الله عنه.

ثم قال: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أى: إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إياهم، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: تشديد لأمر الشرك، وتغليظ لشأنه، وتعظيم للملاسته، كما قال [تعالى] (١): ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ الآية [الزمر: ٦٥] وهذا شرط، والشرط لا يقتضى جواز الوقوع، كقوله [تعالى] (٢): ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، وكقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَا تَخَذُنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧] وكقوله: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

وقوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ أى: أنعمنا عليهم بذلك رحمة للعباد بهم، ولطفاً منا بالخلقة، ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾ أى: بالنبوة. ويحتمل أن يكون الضمير عائداً على هذه الأشياء الثلاثة: الكتاب، والحكم، والنبوة.

وقوله: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ يعنى: أهل مكة. قاله ابن عباس، وسعيد بن المسيب، والضحاك، وقتادة، والسدّى. ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ أى: إن يكفر بهذه النعم من كفر بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، ومليين وكتائبين، فقد وكلنا بها قوماً ﴿آخِرِينَ﴾ يعنى: المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة، ﴿لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ أى: لا يجحدون شيئاً منها، ولا يردون منها حرفاً واحداً، بل يؤمنون بجميعها محكمها ومتشابهها، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه وإحسانه.

ثم قال تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ: ﴿أُوْلَئِكَ﴾ يعنى: الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان وهم الأشباه ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أى: هم أهل الهداية لا غيرهم، ﴿فَبِهْدَاهُمْ أَقْتَدِهِ﴾ أى: اقتد واتبع. وإذا كان هذا أمراً للرسول ﷺ، فأتمته تبع له فيما يشرعه [لهم] (٣)، ويأمرهم به.

قال البخارى عند هذه الآية: حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام، أن ابن جريج أخبرهم قال: أخبرني سليمان الأحول، أن مجاهداً أخبره، أنه سأل ابن عباس: أفى (ص) سجدة؟ فقال: نعم، ثم تلا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ إلى قوله: ﴿فَبِهْدَاهُمْ أَقْتَدِهِ﴾، ثم قال: هو منهم - زاد يزيد بن هارون، ومحمد بن عبيد، وسهل بن يوسف، عن العوام، عن مجاهد قال: قلت لابن عباس، فقال: نبيكم ﷺ ممن أمر أن يقتدى بهم (٤).

وقوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أى: لا أطلب منكم على إبلاغى إياكم هذا القرآن ﴿أَجْرًا﴾ أى: أجرة، ولا أريد منكم شيئاً، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أى: يتذكرون به فيرشدوا من العمى إلى الهدى، ومن الغى (٥) إلى الرشاد، ومن الكفر إلى الإيمان.

(١) - ٣) زيادة من أ.

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٦٣٢).

(٥) فى أ: «العمى».

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا وَيَخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢)﴾.

يقول تعالى: وما عظموا الله حق تعظيمه، إذ كذبوا رسله إليهم، قال ابن عباس، ومجاهد، وعبدالله بن كثير: نزلت في قريش. واختاره ابن جرير، وقيل: نزلت في طائفة من اليهود؛ وقيل: في فئحة رجل منهم، وقيل: في مالك بن الصيف.

﴿قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ والأول هو الأظهر؛ لأن الآية مكية، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء، وقريش - والعرب قاطبة - كانوا يبعدون إرسال رسول من البشر، كما قال [تعالى] (١): ﴿أَكَاٰنَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَن أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَن أَنذِرِ النَّاسَ [وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْد رَبِّهِمْ] (٢)﴾ [يونس: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا. قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَّمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤، ٩٥]، وقال ههنا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ؟﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب من عند الله، في جواب سلبهم العام بإثبات قضية جزئية موجبة: ﴿مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾ يعني: التوراة التي قد علمتم - وكل أحد - أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران نوراً وهدى للناس، أي: ليستضاء بها في كشف المشكلات، ويهتدى بها من ظلم الشبهات.

وقوله: ﴿يَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا﴾ (٣) قُرْآنٌ يبدونها ويخفون كثيراً ﴿أي: يجعلها حَمَلُهَا﴾ (٤) قُرْآنٌ، أي: قطعاً يكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديهم ويحرفون فيها ما يحرفون ويبدلون ويتأولون، ويقولون: ﴿هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩] أي: في كتابه المنزل، وما هو من عند الله؛ ولهذا قال: ﴿تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا يبدونها ويخفون كثيراً﴾.

وقوله: ﴿وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ أي: ومن أنزل القرآن الذي علمكم الله فيه من

(١، ٢) زيادة من أ.

(٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٨٤): «قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «يَجْعَلُونَهُ فِي قُرْآنٍ يبدونها» و«يخفون» بالياء فيهن، وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحزمة والكسائي بالياء فيهن». والظاهر أن الحافظ ابن كثير اعتمد على القراءة الأولى.

(٤) في أ: «تجعلها حملتها».

خبر ما سبق، ونبأ ما يأتي ما لم تكونوا تعلمون ذلك أنتم ولا آباؤكم.
قال قتادة: هؤلاء مشركو العرب. وقال مجاهد: هذه للمسلمين.
وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾: قال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أى: قل: الله أنزله. وهذا الذى
قاله ابن عباس هو المتعين فى تفسير هذه الكلمة، لا ما قاله بعض المتأخرين، من أن معنى ﴿قُلِ اللَّهُ﴾
أى: لا يكون خطابك لهم إلا هذه الكلمة، كلمة: «الله».

وهذا الذى قاله هذا القائل يكون أمراً بكلمة مفردة من غير تركيب، والإتيان بكلمة مفردة لا
يفيد^(١) فى لغة العرب فائدة يحسن السكوت عليها.

وقوله: ﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أى: ثم دعهم فى جهلهم وضلالهم يلعبون، حتى يأتيهم
من الله اليقين فسوف يعلمون^(٢): ألهم العاقبة، أم لعباد الله المتقين؟.

وقوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يعنى: القرآن ﴿أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ يعنى:
مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من أحياء العرب، ومن سائر طوائف بنى آدم من عرب وعجم، كما قال فى الآية
الأخرى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال: ﴿لَا تُنْذِرُكُمْ بِهِ وَمَنْ
بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]، وقال: ﴿تَبَارَكَ
الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
وَالْأَمِينَ أَاسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَاسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠]
وثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أُعْطِيتُ خُمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي» وذكر
منه: «وكان النبی یبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة»^(٣)؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أى: كل من آمن بالله واليوم الآخر آمن بهذا الكتاب المبارك الذى أنزلناه إليك يا محمد،
وهو القرآن، ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أى: يقومون بما افترض عليهم، من أداء الصلوات فى
أوقاتها.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ
سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ
أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ
آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ
ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ
عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٩٤).

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أى: لا أحد أظلم ممن كذب على الله، فجعل

(١) فى م: «لا تفيد».

(٢) فى أ: «يلعبون».

(٣) صحيح البخارى برقم (٣٣٥) وصحيح مسلم برقم (٥٢١).

له شريكاً أو ولداً، أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يكن أرسله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾.

قال عكرمة وقتادة: نزلت في مسيلمة الكذاب [لعنه الله] ^(١).

﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يعنى: ومن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي مما يفتره من القول، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا [إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ] ^(٢)﴾ [الأنفال: ٣١]، قال الله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ أى: فى سكراته وغمراته وكرباته، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ أى: بالضرب كما قال: ﴿لَنْ يَسُطَّ إِلَيَّ يَدُكَ لَتَقْتُلُنِي [مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ] ^(٣)﴾ الآية [المائدة: ٢٨]، وقال: ﴿وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمُ بِالسُّوءِ﴾ الآية [المتحنة: ٢].

وقال الضحاك، وأبو صالح: ﴿بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أى: بالعذاب. وكما قال [تعالى] ^(٤): ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]؛ ولهذا قال: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أى: بالضرب لهم حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم؛ ولهذا يقولون لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، وذلك أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال، والأغلال والسلاسل، والجحيم والحميم، وغضب الرحمن الرحيم، فتتفرق روحه فى جسده، وتعصى وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تَجْزُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ [وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ] ^(٥)﴾ أى: اليوم تهانون غاية الإهانة، كما كنتم تكذبون على الله، وتستكبرون عن اتباع آياته، والانقياد لرسله.

وقد وردت أحاديث [متواترة] ^(٦) فى كيفية احتضار المؤمن والكافر، وهى مقررة عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقد ذكر ابن مردويه ههنا حديثاً مطولاً جداً من طريق غريبة، عن الضحاك، عن ابن عباس مرفوعاً، فאלله أعلم ^(٧).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى: يقال لهم يوم معادهم هذا، كما قال: ﴿وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨]، أى: كما بدأناكم أعدناكم، وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه، فهذا يوم البعث.

وقوله: ﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ أى: من النعم والأموال التى اقتنيتموها فى الدار الدنيا ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾، وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «يقول ابن آدم: مالى مالى، وهل لك من مالك

(٣) زيادة من م، أ.

(٢) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية».

(١) زيادة من أ.

(٥) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية».

(٤) زيادة من م.

(٦) زيادة من م، وفى أ: «الأحاديث المتواترة».

(٧) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٣/٣١٨) وقال: إسناده ضعيف.

إلا ما أكلت فأفנית، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس».

وقال الحسن البصري: يؤتى بابن آدم يوم القيامة كأنه بذج فيقول الله، عز وجل، [له] ^(١): أين ما جمعت؟ فيقول: يا رب، جمعته وتركته أوفر ما كان، فيقول: فأين ما قدمت لنفسك؟ فلا يراه قدام شيئا، وتلا هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾: تقرير لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في [الدار] ^(٢) الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان، ظانين أن تلك تنفعهم ^(٣) في معاشهم ومعادهم إن كان ثم ^(٤) معاد، فإذا كان يوم القيامة تقطعت الأسباب، وانزاح الضلال، وضل عنهم ما كانوا يفترون، ويناديهم الرب، عز وجل، على رؤوس الخلائق: ﴿أَيْنَ شُرَكَاءُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢] وقيل ^(٥) لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُم أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٢، ٩٣]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: في العبادة، لهم فيكم قسط في استحقاق العبادة لهم.

ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾: قرئ بالرفع، أي: شملكم، وقرئ بالنصب، أي: لقد انقطع ما بينكم ^(٦) من الوصلات والأسباب والوسائل ﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ﴾ أي: وذهب عنكم ﴿مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ من رجاء الأصنام، كما قال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ. وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا فَنَتَّبِعَهُمْ مِّنْهُمْ كَمَا تَبَرَّعُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْنُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُم فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ الآية [القصص: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢ - ٢٤]، والآيات في هذا كثيرة جدا.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧).

(٤) في أ: «ثمة».

(٣) في م: «ذلك ينفعهم».

(١، ٢) زيادة من أ.

(٦) في أ: «تقطع بينكم».

(٥) في أ: «أو قيل».

يخبر تعالى أنه فائق الحب والنوى، أى: يشقه فى الثرى فتنبت الزروع على اختلاف أصنافها من الحبوب، والثمار على اختلاف أشكالها وألوانها وطعومها من النوى؛ ولهذا فسر [قوله] ^(١): ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ بقوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ أى: يخرج النبات الحى من الحب والنوى، الذى هو كالجماذ الميت، كما قال: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون. ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون. سبحانه الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض] ^(٢) وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿ [يس: ٣٣ - ٣٦].

وقوله: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ معطوف على ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾، ثم فسرته ثم عطف عليه قوله: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾.

وقد عبروا عن هذا [وهذا] ^(٣) بعبارات كلها متقاربة مؤدية للمعنى، فمن قائل: يخرج الدجاجة من البيضة، والبيضة من الدجاجة، من قائل: يخرج الولد الصالح من الكافر، والكافر من الصالح، وغير ذلك من العبارات التى تنتظمها الآية وتشملها.

ثم قال: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ﴾ أى: فاعل هذه الأشياء هو الله وحده لا شريك له ﴿فَأَنْتَى تُؤَفِّكُونَ﴾ أى: فكيف تصرفون من الحق وتعدلون عنه إلى الباطل فتعبدون مع الله غيره.

وقوله: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكْنًا﴾ أى: خالق الضياء والظلام، كما قال فى أول السورة: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، فهو سبحانه يفلق ظلام الليل عن غرة الصباح، فيضئ الوجود، ويستنير الأفق، ويضمحل الظلام، ويذهب الليل بدآئته ^(٤) وظلام رواقه، ويجئ النهار بضياءه وإشراقه، كما قال [تعالى] ^(٥): ﴿يَغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]، فبين تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة الدالة على كمال عظمتة وعظيم سلطانه، فذكر أنه فائق الإصباح وقابل ذلك بقوله: ﴿وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكْنًا﴾ أى: ساجيا مظلما تسكن فيه الأشياء، كما قال: ﴿وَالضُّحَىٰ. وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١، ٢]، وقال: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى. وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى﴾ [الليل: ١، ٢]، وقال: ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا. وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس: ٣، ٤].

وقال صُهَيْبُ الرُّومِي [رضى الله عنه] ^(٦) لامراته وقد عاتبته فى كثرة سهره: إن الله جعل الليل سكنا إلا لصهيب، إن صهيبا إذا ذكر الجنة طال شوقه، وإذا ذكر النار طار نومه، رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا﴾ أى: يجريان بحساب مُقَنَّنٍ مقدر، لا يتغير ولا يضطرب، بل كل منهما له منازل يسلكها فى الصيف والشتاء، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طويلاً وقصراً، كما قال [تعالى] ^(٧): ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرُ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ

(٣) زيادة من م، أ.

(٢) زيادة من أ، وفى هـ: «إلى قوله».

(١) زيادة من م.

(٥-٧) زيادة من أ.

(٤) فى أ: «بذاته».

وَالْحَسَابُ] ^(١) الآية [يونس: ٥]، وكما قال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وقال: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقوله: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أى: الجميع جار بتقدير العزيز الذى لا يمانع ولا يخالف، العليم بكل شىء، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، وكثيراً ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر، يختم الكلام بالعزة والعلو، كما ذكر فى هذه الآية، وكما فى قوله: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلَمُونَ. وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٧، ٣٨].

ولما ذكر خلق السموات والأرض وما فيهن فى أول سورة ﴿حَم﴾ السجدة، قال: ﴿وَزَيْنًا لِّلْسمَاءِ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢].

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، قال بعض السلف: من اعتقد فى هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله: أن الله جعلها زينة للسماء ^(٢)، ورجوماً للشياطين، ويهتدى بها فى ظلمات البر والبحر.

وقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ أى: قد بينها ووضحناها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أى: يعقلون ويعرفون الحق ويجتنبون ^(٣) الباطل.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ ^(٩٨) وهو الذى أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أغناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ^(٩٩) .

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعنى: آدم عليه السلام، كما قال: ﴿يَأْيُهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

وقوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾: اختلفوا فى معنى ذلك، فعن ابن مسعود، وابن عباس، وأبى عبد الرحمن السلمى، وقيس بن أبى حازم، ومجاهد، وعطاء، وإبراهيم النخعى، والضحاك، وقتادة، والسدى، وعطاء الخراسانى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ أى: فى الأرحام قالوا - أو: أكثرهم -: ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أى: فى الأصلاب.

وعن ابن مسعود وطائفة عكس ذلك. وعن ابن مسعود أيضاً وطائفة: فمستقر فى الدنيا،

(٣) فى أ: «ويتجنبون».

(٢) فى أ: «السماء».

(١) زيادة من أ.

ومستودع حيث يموت. وقال سعيد بن جبير: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ في الأرحام وعلى ظهر الأرض، وحيث يموت. وقال الحسن البصري: المستقر الذي [قد]^(١) مات فاستقر به عمله. وعن ابن مسعود: ومستودع في الدار الآخرة.

والقول الأول هو الأظهر، والله أعلم.

وقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ أي: يفهمون ويعون كلام الله ومعناه.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي بقدر مباركاً، رزقاً للعباد وغيثاً^(٢) للخلائق، رحمة من الله لخلقه ﴿أَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ أي: زرعاً وشجراً أخضر، ثم بعد ذلك يخلق فيه الحب والتمر؛ ولهذا قال: ﴿نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ أي: يركب بعضه بعضاً، كالسنابل ونحوها ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ أي: جمع قنو وهي عذوق الرطب ﴿دَانِيَةٌ﴾ أي: قريبة من المتناول، كما قال علي بن أبي طلحة الوالبي، عن ابن عباس: ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ يعني بالقنوان الدانية: قصار النخل اللاصقة عذوقها^(٣) بالأرض. رواه ابن جرير.

قال ابن جرير: وأهل الحجاز يقولون: قِنْوَان، وقيس يقولون: قَنْوَان، وقال امرؤ القيس:

فَأُتَتْ أَعَالِيهِ وَأَدَّتْ أَصُولُهُ
وَمَالَ بَقْنَوَانٍ مِنَ الْبُسْرِ أَحْمَرًا

قال: وتميم يقولون^(٤): قُنَيَان بالياء - قال: وهي جمع قنو، كما أن صنوان جمع صنو^(٥).

وقوله: ﴿وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ أي: ونخرج منه جنات من أعناب، وهذان النوعان هما أشرف عند أهل الحجاز، وربما كانا^(٦) خيار الثمار في الدنيا، كما امتن تعالى بهما على عباده، في قوله: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]، وكان ذلك قبل تحريم الخمر. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [يس: ٣٤].

وقوله: ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ قال قتادة وغيره: يتشابه في الورق، قريب الشكل بعضه من بعض، ويتخالف في الثمار شكلاً وطعماً وطبعاً.

وقوله: ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ أي: نضجه، قاله البراء بن عازب، وابن عباس، والضحاك، وعطاء الخراساني، والسُّدِّي، وقاتدة، وغيرهم. أي: فكروا في قُدْرَةِ خَالِقِهِ من العدم إلى الوجود، بعد أن كان حطباً صار عنباً ورطباً وغير ذلك، مما خلق تعالى من الألوان والأشكال والطعوم والروائح، كما قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٍ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ

(١) زيادة من أ.

(٢) في أ: «غيثاً».

(٣) في م: «عروقها».

(٤) في أ: «نقول».

(٥) البيت في تفسير الطبري (٥٧٥/١١) ولسان العرب، مادة (قنا).

(٦) في م: «أنهما».

صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ [إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ] ^(١) ﴿الرعد: ٤﴾ ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ﴾ أى: دلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: يصدقون به، ويتبعون رسله.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (١٠٠).

هذا ردّ على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، وأشركوا ^(٢) فى عبادة الله أن عبدوا الجن، فجعلوهم شركاء الله فى العبادة، تعالى الله عن شركهم وكفرهم.

فإن قيل: فكيف عبّدت الجن وإنما كانوا يعبدون الأصنام؟ فالجواب: أنهم إنما عبدوا الأصنام عن طاعة الجن وأمرهم إياهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا. لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تَخْذَنْ مِنْ عِبَادِكْ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا. وَلَأُصَلِّنَهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَأَمُرُنَّهُمْ فَلَيُبَيِّنَنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَأَمُرُنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا. يَعْدُهُمْ وَيَمْنِيَنَّهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٧ - ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ ^(٣) [الكهف: ٥٠]، وقال إبراهيم لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ. وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١]، وتقول ^(٤) الملائكة يوم القيامة: ﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ وَخَلَقَهُمْ﴾ أى: وقد خلقهم، فهو الخالق وحده لا شريك له، فكيف يعبد معه غيره، كما قال إبراهيم [عليه السلام] ^(٥): ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ. وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٥، ٩٦].

ومعنى الآية: أنه سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق وحده؛ فلهذا يجب أن يُفرد بالعبادة وحده لا شريك له.

وقوله تعالى: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: ينه به تعالى على ضلال من ضل فى وصفه تعالى بأن له ولداً، كما يزعم من قاله من اليهود فى العزير، ومن قال من النصارى فى المسيح وكما قال ^(٦) المشركون من العرب فى الملائكة: إنها بنات الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

ومعنى قوله [تعالى] ^(٧): ﴿وَخَرَقُوا﴾ أى: واختلقوا واثتفكوا، وتخرّصوا وكذبوا، كما قاله علماء السلف. قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: ﴿وَخَرَقُوا﴾ يعنى: أنهم تخرّصوا.

(١) زيادة من م، وفى هـ: «الآية».

(٢) فى م: «وأشركوا به».

(٣) زيادة من م، وفى هـ: «الآية».

(٤) فى أ: «ويقول».

(٥) زيادة من م، أ.

(٦) زيادة من م.

وقال العوفي عنه: ﴿وَحَرِّقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قال: جعلوا له بنين وبنات. وقال مجاهد: ﴿وَحَرِّقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾ قال: كذبوا. وكذا قال الحسن. وقال الضحاك: وضعوا، وقال السدي: قطعوا.

قال ابن جرير: فتأويل الكلام إذا: وجعلوا لله الجن شركاء^(١) في عبادتهم إياه، وهو المنفرد بخلقهم بغير شريك ولا ظهير ﴿وَحَرِّقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾ يقول: وتخرصوا لله كذباً، فافتعلوا له بنين وبنات بغير علم بحقيقة ما يقولون، ولكن جهلاً بالله وبِعظمته، وأنه لا ينبغي إن كان إلها أن يكون له بنون وبنات ولا صاحبة، ولا أن يشركه في خلقه شريك.

ولهذا قال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أى: تقدس وتنزه وتعظم عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالون من الأولاد والأنداد، والنظراء والشركاء.

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٠١).

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: مبدع السموات والأرض وخالقهما ومنشئهما و[محدثها]^(٢) على غير مثال سبق، كما قال مجاهد والسدي. ومنه سميت البدعة بدعة؛ لأنه لا نظير لها فيما سلف.

﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ أى: كيف يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة؟ أى: والولد إنما يكون متولداً عن شيئين متناسبين، والله لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه؛ لأنه خالق^(٤) كل شيء، فلا صاحبة له ولا ولد، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا. تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا. وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا. إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا. لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا.﴾^(٥) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿[مریم: ٨٨ - ٩٥].

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: فبين تعالى أنه الذى خلق كل شيء، وأنه بكل شيء عليم، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه؟ وهو الذى لا نظير له فأنى يكون له ولد؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (١٠٢) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿(١٠٣)﴾.

يقول تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أى: الذى خلق كل شيء ولا ولد له ولا صاحبة، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ فاعبدوه وحده لا شريك له، وأقروا له بالوحدانية، وإنه لا إله إلا

(١) فى م: «وجعلوا لله شركاء الجن».

(٢) زيادة من أ.

(٣) فى أ: «قاله».

(٤) زيادة من م، أ، وفى هـ: «إلى قوله».

(٥) فى أ: «خلق».

هو، وأنه لا ولد له ولا والد، ولا صاحبة له ولا نظير ولا عدیل ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أى: حفيظ ورقيب يدبر كل ما سواه، ويرزقهم ويكلؤهم بالليل والنهار.

وقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ فيه أقوال للأئمة من السلف:

أحدها: لا تدركه فى الدنيا، وإن كانت تراه فى الآخرة^(١)، كما تواترت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من غير ما طريق ثابت فى الصحاح والمسانيد والسنن، كما قال مسروق عن عائشة أنها قالت: من زعم أن محمداً أبصر ربه فقد كذب. [وفى رواية: على الله]^(٢). فإن الله يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾.

رواه ابن أبى حاتم من حديث أبى بكر بن عيَّاش، عن عاصم بن أبى النُّجود، عن أبى الضحى، عن مسروق. ورواه غير واحد عن مسروق، وثبت فى الصحيح وغيره عن عائشة من غير وجه^(٣).

وقد خالفها ابن عباس، فعنه إطلاق الرؤية، وعنه أنه رآه بفؤاده مرتين. والمسألة تذكر فى أول «سورة النجم» إن شاء الله [تعالى]^(٤).

وقال ابن أبى حاتم: ذكر محمد بن مسلم، حدثنا أحمد بن إبراهيم الدُّورقي، حدثنا يحيى بن مَعِين قال: سمعت إسماعيل بن عُلَيَّة يقول فى قول الله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ قال: هذا فى الدنيا. قال: وذكر أبى، عن هشام بن عبيد الله أنه قال نحو ذلك.

وقال آخرون: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أى: جميعها، وهذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له فى الآخرة^(٥).

وقال آخرون، من المعتزلة بمقتضى ما فهموه من هذه الآية: إنه لا يرى فى الدنيا ولا فى الآخرة. فخالفوا أهل السنة والجماعة فى ذلك، مع ما ارتكبه من الجهل بما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله. أما الكتاب، فقوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ. إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى عن الكافرين: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

قال الإمام الشافعى: فدل هذا على أن المؤمنين لا يُحْجَبُونَ عنه تبارك وتعالى.

وأما السنة، فقد تواترت الأخبار عن أبى سعيد، وأبى هريرة، وأنس، وجريز، وصُهَيْب، وبلال، وغير واحد من الصحابة عن النبى ﷺ: أن المؤمنين يرون الله فى الدار الآخرة فى العرصات، وفى روضات الجنات، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه آمين.

(١) فى م: «تراه فى الدار الآخرة».

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٦١٢) ومسلم فى صحيحه برقم (١٧٧) والترمذى فى السنن برقم (٣٠٦٨) من طريق الشعبى، عن مسروق به.

(٣) زيادة من م، أ.

(٤) فى أ: «فى الدار الآخرة».

وقيل: المراد بقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أى: العقول. رواه ابن أبى حاتم عن على بن الحسين، عن الفلاس، عن ابن مَهْدِيٍّ، عن أبى الحصين يحيى بن الحصين قارىء أهل مكة أنه قال ذلك. وهذا غريب جداً، وخلاف ظاهر الآية، وكأنه اعتقد أن الإدراك فى معنى الرؤية، والله [سبحانه وتعالى] ^(١) أعلم.

وقال آخرون: لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفى الإدراك، فإن الإدراك أخص من الرؤية، ولا يلزم من نفى الأخص انتفاء الأعم. ثم اختلف هؤلاء فى الإدراك المنفى، ما هو؟ فقيل: معرفة الحقيقة، فإن هذا لا يعلمه إلا هو وإن رآه المؤمنون، كما أن من رأى القمر فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته، فالعظيم أولى بذلك وله المثل الأعلى.

وقال آخرون: المراد بالإدراك الإحاطة. قالوا: ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ [طه: ١١٠]، وفى صحيح مسلم: «لا أحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك» ^(٢). ولا يلزم من هذا عدم الثناء، فكذلك هذا.

قال العوفى، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ قال: لا يحيط بصر أحد ^(٣) بالملك.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا عمرو بن حماد بن طلحة القناد، حدثنا أسباط عن سَمَأك، عن عِكْرِمَةَ، أنه قيل له: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾؟ قال: أَلست ترى السماء؟ قال: بلى. قال: فكلها ترى؟.

وقال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾: هو أعظم من أن تدركه الأبصار.

وقال ابن جرير: حدثنا سعد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا خالد بن عبد الرحمن، حدثنا أبو عَرَفْجَةَ، عن عطية العوفى فى قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ. إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، قال: هم ينظرون إلى الله، لا تحيط أبصارهم به من عظمتهم، وبصره محيط بهم. فذلك قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾.

وقد ورد فى تفسير هذه الآية حديث. رواه ابن أبى حاتم ههنا، فقال:

حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا مِنْجَاب بن الحارث السهمي ^(٤)، حدثنا بشر بن عمار، عن أبى روق، عن عطية العوفى، عن أبى سعيد الخدرى، عن رسول الله ﷺ فى قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾، قال: «لو أن الجن والإنس والشياطين والملائكة منذ خلقوا إلى أن فنوا صُفُوا صفواً واحداً،

(١) زيادة من أ.

(٢) صحيح مسلم برقم (٤٨٦) من حديث عائشة، رضى الله عنها.

(٣) فى م: «أحدنا». (٤) فى م: «التميمي».

ما أحاطوا بالله أبدا».

غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه، ولم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة^(١)، والله أعلم.

وقال آخرون في [قوله تعالى]^(٢): ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ بما رواه الترمذى في جامعه، وابن أبى عاصم في كتاب «السنة» له، وابن أبى حاتم في تفسيره، وابن مردويه أيضا، والحاكم في مستدركه، من حديث الحكم بن أبان قال: سمعت عكرمة يقول: سمعت ابن عباس يقول: رأى محمد ربه تبارك وتعالى. فقلت: أليس الله يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ الآية؟ فقال: لى: «لا أم لك». ذاك نوره، الذى هو نوره، إذا تجلى بنوره لا يدركه شىء». وفى رواية: «لا يقوم له شىء».

قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه^(٣).

وفى معنى هذا الأثر ما ثبت فى الصحيحين، عن أبى موسى الأشعرى، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام يخفض^(٤) القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور - أو: النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(٥).

وفى الكتب المتقدمة: إن الله تعالى قال لموسى لما سأل الرؤية: يا موسى، إنه لا يرانى حى إلا مات، ولا يابس إلا تدهده. أى: تدعثر. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ونفى هذا الأثر الإدراك الخاص لا ينفى الرؤية يوم القيامة^(٦)، يتجلى لعباده المؤمنين كما يشاء. فأما جلاله وعظمته على ما هو عليه - تعالى وتقدس وتنزه - فلا تدركه الأبصار؛ ولهذا كانت أم المؤمنين عائشة، رضى الله عنها، تثبت الرؤية فى الدار الآخرة وتنفيها فى الدنيا، وتحتج بهذه الآية: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ فالذى نفته الإدراك الذى هو بمعنى رؤية العظمة والجلال على ما هو عليه، فإن ذلك غير ممكن للبشر، ولا للملائكة ولا لشىء.

وقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ أى: يحيط بها ويعلمها على ما هي عليه؛ لأنه خلقها كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وقد يكون عبر بالأبصار عن المبصرين، كما قال السدى فى قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ

(١) ورواه ابن عدى فى الكامل (١٠/٢) من طريق سفيان بن بشر، عن بشر بن عمارة به، وإسناده واه.

(٢) زيادة من م، وفى أ: «فى قوله».

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٢٧٩) والسنة لابن أبى عاصم برقم (٤٣٧) والمستدرک (٣٠٦/٢) وقال الترمذى: «حسن غريب». وقال ابن أبى عاصم: «فيه كلام».

(٤) فى أ: «يحفظ».

(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٧٩) ولم أجده بعد البحث فى صحيح البخارى حتى الحافظ المزى لم يذكره فى تحفة الأشراف من رواية البخارى.

(٦) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (٢١٤/١) لابن أبى العز الحنفى للتوسع فى بحث الرؤية.

الْأَبْصَارَ: لا يراه شيء وهو يرى الخلائق.

وقال أبو العالية في قوله [تعالى]^(١): ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾: اللطيف باستخراجها، الخبير بمكانها. والله أعلم.

وهذا كما قال تعالى إخباراً عن لقمان فيما وعظ به ابنه: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦].

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ﴾ (١٠٤) وَكَذَلِكَ نَصْرِفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥) .

البصائر: هي البينات والحجج التي اشتمل عليها القرآن، وما جاء به الرسول ﷺ ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ مثل قوله: ﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾، لما ذكر البصائر قال: ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ أى: فإنما يعود وبال ذلك عليه، كقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ﴾ أى: بحافظ ولا رقيب، بل أنا مبلغ والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَصْرِفُ الْآيَاتِ﴾ أى: وكما فصلنا الآيات فى هذه السورة، من بيان التوحيد وأنه لا إله إلا هو، هكذا نوضح الآيات ونفسرها ونبينها فى كل موطن لجهالة الجاهلين، وليقول المشركون والكافرون المكذبون: دارست يا محمد من قبلك من أهل الكتاب وقاراتهم وتعلمت منهم.

هكذا قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، وغيرهم.

وقد قال الطبرانى: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا أبي، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عمرو بن كيسان، سمعت ابن عباس يقرأ: ﴿دَارَسْتَ﴾: تلوت، خاصمت، جادلت^(٢).

وهذا كما قال تعالى إخباراً عن كذبهم وعنادهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا. وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾^(٣) [الفرقان: ٤، ٥]، وقال تعالى إخباراً عن زعيمهم وكذبهم: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ. فَقالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ. إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ١٨-٢٥].

وقوله: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أى: ولنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه، والباطل فيجتنبونه. فلله تعالى الحكمة البالغة فى إضلال أولئك، وبيان الحق لهؤلاء. كما قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦]^(٤)، وقال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ

(١) زيادة من م، أ.

(٢) المعجم الكبير للطبرانى (١١/١٣٧). وقال الهيثمى فى المجمع (٧/٢٢): «رجاله ثقات».

(٣) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية».

(٤) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية».

فَتَنَّةٌ لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ^(١) [الحج: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عَدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدر: ٣١].

وقال [تعالى]^(٢): ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى أنزل القرآن هدى للمتقين، وأنه يضل به من يشاء ويهدي من يشاء: ولهذا قال ههنا: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْصِرُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. وقرأ بعضهم: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾.

قال التميمي، عن ابن عباس: «درست» أى: قرأت وتعلمت. وكذا قال مجاهد، والسدى والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، قال الحسن: «وليقلوا درست»، يقول: تقادمت وانمحت.

وقال عبد الرزاق أيضاً: أنبأنا ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، سمعت ابن الزبير يقول: إن صبياناً يقرءون ههنا: «درست»، وإنما هى: «درست».

وقال شعبة: حدثنا أبو إسحاق الهمداني قال فى قراءة ابن مسعود: «درست» بغير ألف، بنصب السين ووقف على التاء.

وقال ابن جرير: ومعناه انمحت وتقادمت، أى: إن هذا الذى تتلوه علينا قد مر بنا قديماً، وتطاولت مدته.

وقال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة أنه قرأها: «درست» أى: قرئت وتعلمت.

وقال معمر، عن قتادة: «درست»: قرئت. وفى حرف ابن مسعود «درس».

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا حجاج، عن هارون قال: هى فى حرف أبى بن كعب وابن مسعود: «وليقلوا درس». قال: يعنون النبى ﷺ أنه قرأ^(٣).

وهذا غريب، فقد روى عن أبى بن كعب خلاف هذا، قال أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا الحسن بن الليث، حدثنا أبو سلمة، حدثنا أحمد بن أبى بزة^(٤) المكي، حدثنا وهب بن زمعة، عن أبيه، عن حميد الأعرج، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبى بن كعب

(٢) زيادة من م، أ.

(١) فى هـ: «وان الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم».

(٣) ورواه الطبرى فى تفسيره (٣١/١٢) من طريق أبى عبيد عن حجاج به.

(٤) فى م: «ابن مرة».

قال: أقرأني رسول الله ﷺ: «وليقولوا دَرَسْتُ».

ورواه الحاكم في مستدركه، من حديث وهب بن زمعة، وقال: يعنى بجزم السين، ونصب التاء، ثم قال^(١): صحيح الإسناد ولم يخرجاه^(٢).

﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (١٠٧)﴾.

يقول تعالى أمراً لرسوله^(٣) ﷺ ولمن اتبع طريقته: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أى: اقتد به، واقتف أثره، واعمل به؛ فإن ما أوحى إليك من ربك هو الحق الذى لا مِرْيَةَ فيه؛ لأنه لا إله إلا هو. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أى: اعف عنهم واصفح، واحتمل أذاهم، حتى يفتح الله لك وينصرك ويظفرك عليهم.

واعلم أن الله حكمة فى إضلالهم، فإنه لو شاء لهدى الناس كلهم جميعاً [ولو شاء الله لجمعهم على الهدى]^(٤).

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ أى: بل له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ أى: حافظاً تحفظ أعمالهم وأقوالهم ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أى: موكل على أرزاقهم وأمورهم ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، وقال ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨)﴾.

يقول تعالى ناهياً لرسوله ﷺ والمؤمنين^(٥) عن سب آلهة المشركين، وإن كان فيه مصلحة، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهى مقابلة المشركين بسب^(٦) إله المؤمنين، وهو الله لا إله إلا هو. كما قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى هذه الآية: قالوا: يا محمد، لتنتهين عن سبك آلهتنا، أو لنهجون ربك، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم، ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة: كان المسلمون يسبون أصنام الكفار، فيسب الكفار الله

(١) فى م: «وقال».

(٢) المستدرک (٢/٢٣٨).

(٣) فى أ: «رسوله».

(٤) زيادة من م، أ.

(٦) فى أ: «سب».

(٥) فى أ: «وللمؤمنين».

عدواً بغير علم، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُسَبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم، عن السدي أنه قال في تفسير هذه الآية: لما حضر أبا طالب الموت قالت قريش: انطلقوا فلندخل على هذا الرجل، فلنأمره أن ينهى عنا ابن أخيه، فإننا نستحي أن نقتله بعد موته، فتقول العرب: كان يمنعه فلما مات قتلوه. فانطلق أبو سفيان، وأبو جهل، والنضر بن الحارث، وأمّية، وأبى ابنا خلف، وعقبة ابن أبي مِعيط، وعمرو بن العاص، والأسود بن البَخْتَرى^(١)، وبعثوا رجلاً منهم يقال له: «المطلب»، قالوا: استأذن لنا على أبى طالب، فأتى أبا طالب فقال: هؤلاء مشيخة قومك يريدون الدخول عليك، فأذن لهم عليه، فدخلوا عليه فقالوا: يا أبا طالب، أنت كبيرنا وسيدنا، وإن محمداً قد آذانا وآذى آلَهتنا، فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلَهتنا، ولدّعهِ وإلهه. فدعاه، فجاء النبي ﷺ، فقال له أبو طالب: هؤلاء قومك وبنو عمك. قال رسول الله ﷺ: «ما تريدون؟». قالوا: نريد أن تدعنا وآلَهتنا، ولدّعكَ وإلهك. قال له أبو طالب: قد أنصفك قومك، فاقبل منهم، فقال النبي ﷺ: «أرايتم إن أعطيتكم هذا، هل أنتم معطى كلمة إن تكلمتم بها ملكتم بها العرب، ودانت لكم بها العجم، وأدت لكم الخراج؟» قال أبو جهل: وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها [قال]^(٢): فما هي؟ قال: «قولوا: لا إله إلا الله». فأبوا واشمأزوا. قال أبو طالب: يا ابن أخى، قل غيرها، فإن قومك قد فرعوا منها. قال: «يا عم، ما أنا بالذى أقول غيرها، حتى يأتوا بالشمس فيضعوها فى يدى، ولو أتوا بالشمس فوضعوها فى يدى ما قلت غيرها». إرادة أن يؤسهم، فغضبوا وقالوا: لتكفن عن شتم آلَهتنا، أو لنشتمنك ونشتم من يأمرك فذلك قوله: ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بَغِيرَ عِلْمٍ﴾^(٣).

ومن هذا القبيل - وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها - ما جاء فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ملعون من سب والديه». قالوا: يا رسول الله، وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: «يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه». أو كما قال، عليه السلام^(٤) ^(٥).

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ﴾ أى: وكما زينا لهؤلاء القوم حبّ أصنامهم والمحاماة لها والانتصار، كذلك زينا لكل أمة من الأمم الخالية على الضلال عملهم الذى كانوا فيه، والله الحجة البالغة، والحكمة التامة فيما يشاؤه ويختاره. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ﴾ أى: معادهم ومصيرهم، ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: يجازيهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنِ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّیُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا

(١) فى م: «عبد يغوث».

(٢) تفسير الطبرى (٣٤/١٢).

(٣) فى أ: «ﷺ».

(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٩٠) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، رضى الله عنه.

يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ .

يقول تعالى إخباراً عن المشركين: إنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم، أى: حلفوا أيماناً مؤكدة ﴿لئن جاءتهم آية﴾ أى: معجزة وخارق، ﴿ليؤمنن بها﴾ أى: ليصدقنها، ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ أى: قل يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تعتناً وكفراً وعناداً، لا على سبيل الهدى والاسترشاد: إنما مرجع^(١) هذه الآيات إلى الله، إن شاء أجابكم، وإن شاء ترككم، كما قال، قال ابن جرير:

حدثنا هناد^(٢)، حدثنا يونس بن بكير، حدثنا أبو معشر، عن محمد بن كعب القرظي قال: كلم رسول الله ﷺ قريشاً، فقالوا: يا محمد، تخبرنا أن موسى كان معه عصاً يضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، وتخبرنا أن عيسى كان يحيى الموتى، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة، فأتنا من الآيات حتى نصدقك. فقال رسول الله ﷺ: «أى شيء تحبون أن آتيكم به؟». قالوا: تجعل لنا الصفا ذهباً. فقال لهم: «فإن فعلت تصدقوني؟». قالوا: نعم، والله لئن فعلت لتبعنك أجمعين. فقام رسول الله ﷺ يدعو، فجاءه جبريل، عليه السلام، فقال له: لك ما شئت، إن شئت أصبح الصفا ذهباً، ولئن أرسل آية فلم يصدقوا عند ذلك ليعذبنهم، وإن شئت فتركهم حتى يتوب تائبهم. فقال رسول الله ﷺ [٣]: «بل يتوب تائبهم». فأنزل الله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾^(٤) إلى قوله [تعالى]^(٥): ﴿يَجْهَلُونَ﴾ .

وهذا مرسل^(٦)، وله شواهد من وجوه أخر. وقال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً]^(٧) [الإسراء: ٥٩]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قيل: المخاطب به ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾: المشركون، وإليه ذهب مجاهد كأنه يقول لهم: وما يدريك بصدقكم فى هذه الأيمان التى تقسمون بها. وعلى هذا فالقراءة: «إنها إذا جاءت لا يؤمنون» بكسر «إنها» على استئناف الخبر عنهم بنفى الإيمان عند مجيء الآيات التى طلبوها، وقراءة^(٨) بعضهم: «إنها إذا جاءت لا تؤمنون» بالتاء المثناة من فوق.

وقيل: المخاطب بقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ المؤمنون، أى: وما يدريك أيها المؤمنون، وعلى هذا فيجوز فى^(٩): «إنها» الكسر كالأول والفتح على أنه معمول يشعركم. وعلى هذا فتكون «لا» فى قوله: ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ صلة كما فى قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] وقوله: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥]. أى: ما منعك أن تسجد إذ

(١) فى م، أ: «ترجع» . (٢) فى م: «هناد بن السرى» . (٣) زيادة من م، أ.

(٤) فى أ: «واقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها» . (٥) زيادة من م.

(٦) تفسير الطبرى (٣٨/١٢).

(٧) زيادة من أ، وفى هـ: «الآية» . (٨) فى م: «وقرأ» . (٩) فى م، أ: «فى قوله» .

أمرتك وحرام أنهم يرجعون. وتقديره في هذه الآية: وما يدريكم - أيها المؤمنون الذين تودون لهم ذلك حرصاً على إيمانهم - أنها إذا جاءتهم الآيات يؤمنون^(١).

وقال بعضهم: «أنها» بمعنى لعلها.

قال ابن جرير: وذكروا أن ذلك كذلك في قراءة أبي بن كعب. قال: وقد ذكر عن العرب سماعاً: «أذهب إلى السوق أنك تشتري لي^(٢) شيئاً» بمعنى: لعلك تشتري.

قال: وقد قيل: إن قول عدى بن زيد العبادي من هذا:

أعاذل ما يُدريك أن مَنيتي إلى ساعةٍ في اليوم أو في ضُحَى الغد^(٣)

وقد اختار هذا القول ابن جرير وذكر عليه شواهد من أشعار العرب والله [تعالى]^(٤) أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: لما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شيء وردت عن كل أمر.

وقال مجاهد: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ [كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ]^(٥): ونحول بينهم وبين الإيمان ولو جاءتهم كل آية، فلا يؤمنون، كما حللنا بينهم وبين الإيمان أول مرة. وكذا قال عكرمة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أنه قال: أخبر الله ما العباد قائلون قبل أن يقولوه وعملهم قبل أن يعملوه. قال: ﴿وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، [وقال]^(٦): ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ [وَأِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّآخِرِينَ]. أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ] ^(٧) لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٦ - ٥٨]، فأخبر سبحانه أنهم لو ردوا لم يُقدروا على الهدى، وقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قال: لو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى، كما حللنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا.

وقوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ أي: نتركهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾^(٨). قال ابن عباس والسدي: في كفرهم. وقال أبو العالية والريبع بن أنس وقتادة: في ضلالهم.

﴿يَعْمَهُونَ﴾: قال الأعمش: يلعبون. وقال ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية، والريبع، وأبو مالك، وغيره: في كفرهم يترددون.

(٢) في أ: «لنا».

(١) في م: «لا يؤمنون».

(٣) تفسير الطبري (٤١/١٢).

(٤-٦) زيادة من أ.

(٨) في م، أ: «في طغيانهم يعمهُون».

(٧) زيادة من م، أ، وفي هـ: «إلى قوله».

﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (١١١).

يقول تعالى: ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم، ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنُوا﴾ بها ﴿فَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ، أَى: تخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل، كما سألوا فقالوا: ﴿أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةَ قُبُلًا﴾ [الإسراء: ٩٢] و﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ﴾ (١) ﴿عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى﴾ أَى: فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل، ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ - قرأ بعضهم: «قُبُلًا» بكسر القاف وفتح الباء، من المقابلة، والمعاينة. وقرأ آخرون (٢): «وقبلاً» (٣) بضمهما (٤)، قيل: معناه من المقابلة والمعاينة أيضاً، كما رواه (٥) على بن أبى طلحة، والعمري، عن ابن عباس. وبه قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال مجاهد: ﴿قُبُلًا﴾: أفواجاً، قبلاً قبلاً، أَى: تعرض عليهم كل أمة بعد أمة (٦) فتخبرهم بصدق الرسل فيما جاؤوهم به ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أَى: إن الهداية إليه، لا إليهم. بل يهدى من يشاء ويضل من يشاء، وهو الفعال لما يريد، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، لعلمه وحكمته، وسلطانه وقهره وغلبته. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (١١٢) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيُقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ (١١٣).

يقول تعالى: وكما جعلنا لك - يا محمد - أعداء يخالفونك، ويعادونك (٧)، جعلنا لكل نبي من قبلك أيضاً أعداء فلا يهيدنك ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٨٤] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا [حَتَّىٰ أَنَاهُمْ نَصَرْنَا]﴾ (٨) [الأنعام: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ [وَكَفَىٰ]

(٣) زيادة من م، وفى أ: «قبلاً».

(٦) فى م، أ: «من الالم».

(٢) فى أ: «بعضهم».

(٥) فى م، أ: «قاله».

(٨) زيادة من م، أ.

(١) فى م: «نزل».

(٤) فى م، أ: «بضم القاف والباء».

(٧) فى م، أ: «يعادونك».

يَرْبِكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا^(١) ﴿[الفرقان: ٤٣].

وقال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ: [إنه]^(٢) لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي^(٣).

وقوله: ﴿شَیَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ بدل من ﴿عَدُوًّا﴾ أى: لهم أعداء من شياطين الإنس والجن، ومن هؤلاء وهؤلاء، قبحهم الله ولعنهم.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة فى قوله [تعالى]^(٤): ﴿شَیَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ قال: من الجن شياطين، ومن الإنس شياطين، يوحى بعضهم إلى بعض، قال قتادة: وبلغنى أن أبا ذر كان يوما يصلى، فقال النبى ﷺ: «تَعَوَّذْ»^(٥) يا أبا ذر من شياطين الإنس والجن. فقال: أو إن من الإنس شياطين^(٦)؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم».

وهذا منقطع بين قتادة وأبى ذر^(٨). وقد روى من وجه آخر عن أبى ذر، رضى الله عنه، قال^(٩) ابن جرير:

حدثنا المنثى، حدثنا أبو صالح، حدثنى معاوية بن صالح، عن أبى عبد الله محمد بن أيوب وغيره من المشيخة، عن ابن^(١٠) عائذ، عن أبى ذر قال: أتيت رسول الله ﷺ فى مجلس قد أطل فيه الجلوس، قال، فقال: «يا أبا ذر، هل صليت؟». قال: لا يا رسول الله. قال: «قم فاركع ركعتين». قال: ثم جئت فجلستُ إليه، فقال: «يا أبا ذر، هل تعوذت بالله من شياطين الجن والإنس؟». قال: قلت: لا يا رسول الله، وهل للإنس من شياطين؟ قال: «نعم، هم شر من شياطين الجن».

وهذا أيضا فيه انقطاع^(١١)، وروى متصلا كما قال الإمام أحمد:

حدثنا وكيع، حدثنا المسعودى، أنبأنى أبو^(١٢) عمر الدمشقى، عن عبيد بن الخشخاش، عن أبى ذر قال: أتيت النبى ﷺ وهو فى المسجد، فجلست فقال: «يا أبا ذر، هل صليت؟». قلت: لا. قال: «قم فصل». قال: فقمت فصليت، ثم جلست فقال: «يا أبا ذر، تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن». قال: قلت: يا رسول الله، وللإنس شياطين؟ قال: «نعم». وذكر تمام الحديث بطوله.

وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره، من حديث جعفر بن عون، ويعلى بن عبيد، وعبيد الله بن موسى، ثلاثهم عن المسعودى، به^(١٣).

(١) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية».

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣) ومسلم فى صحيحه برقم (١٦٠) من حديث عائشة، رضى الله عنها.

(٤) زيادة من أ. (٥) فى م: «تعوذت». (٦) فى م، أ: «لشياطين».

(٧) فى م، أ: «قال النبى».

(٨) تفسير عبد الرزاق (٢٠٩/١).

(٩) فى أ: «وقال».

(١١) تفسير الطبرى (٥٣/١٢).

(١٢) فى أ: «ابن أبى».

(١٣) المسند (١٧٨/٥) وقال الهيثمى فى المجمع (١٦٠/١): «فيه المسعودى وهو ثقة وقد اختلط».

(٢) زيادة من م، أ.

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣) ومسلم فى صحيحه برقم (١٦٠) من حديث عائشة، رضى الله عنها.

(٤) زيادة من أ. (٥) فى م: «تعوذت». (٦) فى م، أ: «لشياطين».

(٧) فى م، أ: «قال النبى».

(٨) تفسير عبد الرزاق (٢٠٩/١).

(٩) فى أ: «وقال».

(١١) تفسير الطبرى (٥٣/١٢).

(١٢) فى أ: «ابن أبى».

(١٣) المسند (١٧٨/٥) وقال الهيثمى فى المجمع (١٦٠/١): «فيه المسعودى وهو ثقة وقد اختلط».

طريق أخرى عن أبي ذر: قال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا الحجاج، حدثنا^(١) حماد، عن حميد ابن هلال، حدثني رجل من أهل دمشق، عن عوف بن مالك، عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر، هل تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن؟». قال: قلت: يا رسول الله، هل للإنس من شياطين؟ قال: «نعم»^(٢).

طريق أخرى للحديث: قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف الحمصي، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا معان^(٣) بن رفاعه، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة [رضي الله عنه]^(٤) قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر، تعوذت^(٥) من شياطين الجن والإنس؟». قال: يا رسول الله^(٦)، وهل للإنس [من]^(٧) شياطين؟ قال: «نعم، شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعضهم زخرف القول غرورا»^(٨).

فهذه طرق لهذا الحديث، ومجموعها يفيد قوته وصحته، والله أعلم.

وقد روى ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو نعيم، عن شريك، عن سعيد بن مسروق، عن عكرمة: «شياطين الإنس والجن» قال: ليس في الإنس شياطين، ولكن شياطين الجن يوحون إلى شياطين الإنس، وشياطين الإنس يوحون إلى شياطين الجن.

قال: وحدثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا إسرائيل، عن السدي، عن عكرمة في قوله: «يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا» قال: للإنس^(٩) شيطان، وللجن^(١٠) شيطان^(١١)، فيلقى شيطان الإنس شيطان الجن، فيوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا.

وقال أسباط، عن السدي، عن عكرمة في قوله: «يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ» في تفسير هذه الآية: أما شياطين الإنس، فالشياطين التي تضل الإنس^(١٢)، وشياطين الجن الذين يضلون الجن، يلتقيان، فيقول كل واحد منهما لصاحبه: إني أضللت صاحبي بكذا وكذا، فأضلّل أنت صاحبك بكذا وكذا، فيعلم بعضهم بعضا.

ففهم^(١٣) ابن جرير من هذا؛ أن المراد بشياطين الإنس عند عكرمة والسدي: الشياطين من الجن الذين يضلون الناس، لا أن المراد منه^(١٤) شياطين الإنس منهم. ولا شك أن هذا ظاهر من كلام عكرمة، وأما كلام السدي فليس مثله في هذا المعنى، وهو محتمل، وقد روى ابن أبي حاتم نحو هذا، عن ابن عباس من رواية الضحاك، عنه، قال: إن للجن شياطين يضلونهم مثل شياطين الإنس

(١) في أ: «بن».

(٢) تفسير الطبري (٥٣/١٢).

(٣) في أ: «معاذ».

(٤) في أ: «يأبى».

(٥) في م: «تعوذت بالله».

(٦) زيادة من أ.

(٧) زيادة من أ.

(٨) في م، أ: «وللجن».

(٩) في أ: «شياطين».

(١٠) في م: «من».

(١١) في م: «فهم».

(١٢) في م، أ: «للإنس».

(١٣) في أ: «الناس».

يضلونهم، قال: فإلتقى شياطين الإنس وشياطين الجن، فيقول هذا لهذا: أضلله بكذا، أضلله^(١) بكذا. فهو قوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

وعلى كل حال فالصحيح ما تقدم من^(٢) حديث أبي ذر: إن للإنس شياطين منهم، وشيطان كل شيء مارد، ولهذا جاء في صحيح مسلم، عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «الكلب الأسود شيطان»^(٣). ومعناه - والله أعلم -: شيطان في الكلاب.

وقال ابن جرير: قال مجاهد في تفسير هذه الآية: كفار الجن شياطين، يوحون إلى شياطين الإنس، كفار الإنس، زخرف القول غرورا.

وروى ابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: قدمت على المختار فأكرمني وأنزلني حتى كاد^(٤) يتعاهد مبيتى بالليل، قال: فقال لي: أخرج إلى الناس فحدث الناس. قال: فخرجت، فجاء رجل فقال: ما تقول في الوحي؟ فقلت: الوحي وحيان، قال الله تعالى: ﴿بِمَا^(٥) أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣]، وقال [الله]^(٦) تعالى: ﴿شِيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ قال: فهموا بى أن يأخذوني، فقلت: ما لكم ذاك، إني مفتيكم وضيحكم. فتركوني.

وإنما عَرَضَ عكرمة بالمختار - وهو ابن أبي عبيد - قبحه الله، وكان يزعم أنه يأتيه الوحي، وقد كانت أخته صفية تحت عبد الله بن عمر وكانت من الصالحات، ولما أخبر عبد الله بن عمر أن المختار يزعم أنه يوحى إليه قال: صدق، [قال]^(٧) الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقوله تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أى: يلقي بعضهم إلى بعض القول المزين المزخرف، وهو المزوق الذى يغتر سامعه من الجهلة بأمره.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أى: وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيئته أن يكون لكل نبيّ عدوّ من هؤلاء.

﴿فَذَرُهُمْ﴾ أى: فدعهم، ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أى: يكذبون، أى: دع أذاهم وتوكل على الله فى عداوتهم، فإن الله كافيك وناصرك عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ﴾ أى: ولتميل إليه - قاله ابن عباس - ﴿أَفْتِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أى: قلوبهم وعقولهم وأسماعهم.

وقال السدّي: قلوب الكافرين، ﴿وَلِيرْضُوهُ﴾ أى: يحبوه ويريدوه. وإنما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَانْكُم مَّا تَعْبُدُونَ. مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ. إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١-١٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ. يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ الْفِكِّ﴾ [الذاريات: ٨، ٩].

(١) فى م: «أضلله».

(٢) صحيح مسلم برقم (٥١٠).

(٣) زيادة من م، أ.

(٤) فى أ: «إنا» وهو خطأ.

(٥) فى أ: «كان».

(٦) زيادة من م.

مكتسبون.

وقال السدى، وابن زيد: وليعملوا ما هم عاملون.

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥)﴾.

يقول [الله] (١) تعالى لنبه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين بالله غيره الذين يعبدون غيره: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ أى: بنى وبينكم، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ أى: مبينا، ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أى: من اليهود والنصارى، يعلمون أنه منزل من ربك بالحق، أى: بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، كقوله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤]، وهذا شرط، والشرط لا يقتضى وقوعه؛ ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أشك ولا أسأل».

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قال قتادة: صدقا فيما قال (٢)، وعدلا فيما حكم.

يقول: صدقا فى الإخبار وعدلا فى الطلب، فكل ما أخبر به فحق (٣) لا مرية فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل الذى لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل، فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة، كما قال: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ [وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ] (٤)﴾ إلى آخر الآية [الأعراف: ١٥٧].

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أى: ليس أحد يعقّب حكمه تعالى لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحركاتهم وسكناتهم، الذى يجازى كل عامل بعمله.

﴿وَإِنْ تَطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنْ رَبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧)﴾.

يخبر تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بنى آدم أنه الضلال، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وهم فى ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم فى ظنون كاذبة وحسبان باطل، ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، فإن الخرص هو الحزر، ومنه خرص النخل، وهو حزر ما عليها من التمر وكذلك كله قدر الله ومشيئته، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فيسره لذلك ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ فيسره لذلك، وكل ميسر لما خلق له.

(٢) فى أ: «ما أخبر به فهو حق».

(٢) فى م، أ: «وعد».

(١) زيادة من م.

(٤) زيادة من م، أ.

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ .

هذا^(١) إباحة من الله [تعالى]^(٢) لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسمه، ومفهومه: أنه لا يباح ما لم يذكر اسم الله عليه، كما كان يستبيحه كفار^(٣) المشركين من أكل^(٤) الميتات، وأكل ما ذبح على النصب وغيرها. ثم ندب إلى الأكل مما ذكر اسم الله عليه، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أى: قد بين لكم ما حرم عليكم ووضحه.

وقرأ بعضهم: ﴿فَصَّلَ﴾ بالتشديد، وقرأ آخرون بالتخفيف، والكل بمعنى البيان والوضوح.

﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أى: إلا فى حال الاضطرار، فإنه يباح لكم ما وجدتم.

ثم بين تعالى جهالة المشركين فى آرائهم الفاسدة، فى استحلالهم الميتات، وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى: فقال ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ أى: هو أعلم باعتدائهم وكذبهم وافتراءهم.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ (١٢٠).

قال مجاهد: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾: معصيته فى السر والعلانية - وفى رواية عنه [قال]^(٥): هو ما ينوى مما هو عامل.

وقال قتادة: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ أى: قليله وكثيره، سره وعلانيته^(٦).

وقال السدى: ظاهره: الزنا مع البغايا ذوات الرايات، وباطنه: [الزنا]^(٧) مع الخليفة والصدائق والأخذان.

وقال عكرمة: ظاهره: نكاح ذوات المحارم.

والصحيح أن الآية عامة فى ذلك كله، وهى كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا]^(٨) الآية [الأعراف: ٣٣]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ أى: سواء كان ظاهراً أو خفياً، فإن الله سيجزيهم عليه.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن معاوية بن صالح،

(٣) فى أ: «كفار قريش».

(٦) فى م: «جهرة».

(٢) زيادة من م، وفى أ: «عز وجل».

(٥) زيادة من م، أ.

(١) فى م: «هذه».

(٤) فى م: «أجل».

(٨، ٧) زيادة من م، أ.

عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه، عن النواس بن سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن الإثم فقال: «الإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع الناس عليه»^(١).

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (١٢١).

استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أنه لا تحل الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها، ولو كان الذابح مسلماً، وقد اختلف الأئمة، رحمهم الله، في هذه المسألة على ثلاثة أقوال:

فمنهم من قال: لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة، وسواء متروك التسمية عمداً وسهواً. وهو مروى عن ابن عمر، ونافع مولاة، وعامر الشعبي، ومحمد بن سيرين. وهو رواية عن الإمام مالك، ورواية عن أحمد بن حنبل نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين، وهو اختيار أبي ثور، وداود الظاهري، واختار ذلك أبو الفتوح محمد بن محمد بن علي الطائي^(٢)، من متأخري الشافعية في كتابه «الأربعين»، واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية، ويقولون في آية الصيد: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤]. ثم قد أكد في هذه الآية بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾. والضمير قيل: عائد على الأكل، وقيل: عائد على الذبح لغير الله - وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد، كحديثي عدى بن حاتم وأبي ثعلبة: «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك». وهما في الصحيحين، وحديث رافع بن خديج: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه». وهو في الصحيحين أيضاً، وحديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال للجن: «لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه»^(٣). رواه مسلم. وحديث جندب بن سفيان البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: «من ذبح قبل أن يصلي فليذبح مكانها أخرى، ومن لم يكن ذبح حتى صلينا فليذبح باسم الله». أخرجاه^(٤). وعن عائشة، رضى الله عنها، أن ناساً قالوا: يا رسول الله، إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندري: أذكر اسم الله عليه أم لا؟ قال: «سموا عليه أنتم وكلوا». قالت: وكانوا حديثي عهد بالكفر. رواه البخاري.

ووجه الدلالة أنهم فهموا أن التسمية لا بد منها، [وأنهم]^(٥) خشوا ألا تكون وجدت من أولئك، لحداثة إسلامهم، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل، لتكون كالعوض عن المتروكة عند الذبح إن لم تكن وجدت، وأمرهم بإجراء أحكام المسلمين على السداد، والله [تعالى]^(٦) أعلم.

والمذهب الثاني في المسألة: أنه لا يشترط التسمية، بل هي مستحبة، فإن تركت عمداً أو نسياناً لم تضر^(٧). وهذا مذهب الإمام الشافعي، رحمه الله، وجميع أصحابه، ورواية عن الإمام أحمد. نقلها

(١) ورواه مسلم في صحيحه برقم (٢٥٥٣) من طريق عبد الرحمن بن مهدي به.

(٢) في أ: «الظاهري».

(٣) صحيح مسلم برقم (٤٥٠).

(٤) صحيح البخاري برقم (٩٨٥) وصحيح مسلم برقم (١٩٦٠).

(٥، ٦) زيادة من م.

(٧) في م: «لم تضره».

عنه حنبل. وهو رواية عن الإمام مالك، ونص على ذلك أشهب بن عبد العزيز من أصحابه، وحكى عن ابن عباس، وأبى هريرة، وعطاء بن أبى رباح، والله أعلم.

وحمل الشافعى الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ على ما ذبح لغير الله، كقوله تعالى: ﴿أَوْ فَسَقًا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

وقال ابن جرير، عن عطاء: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ قال: ينهى عن ذبائح كانت تذبحها قریش عن الأوثان، وينهى عن ذبائح المجوس، وهذا المسلك الذى طرقه الإمام الشافعى [رحمه الله] ^(١) قوى، وقد حاول بعض المتأخرين أن يقويه بأن جعل «الواو» فى قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ حالية، أى: لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه فى حال كونه فسقا، ولا يكون فسقا حتى يكون قد أكل به لغير الله. ثم ادعى أن هذا متعين، ولا يجوز أن تكون «الواو» عاطفة. لأنه يلزم منه عطف جملة إسمية خبرية على جملة فعلية طلبية. وهذا يتنقض عليه بقوله: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾. فإنها عاطفة لا محالة، فإن كانت «الواو» التى ^(٢) ادعى أنها حالية صحيحة على ما قال؛ امتنع عطف هذه عليها، فإن عطفت ^(٣) على الطلبية ورد عليه ما أورد على غيره، وإن لم تكن «الواو» حالية، بطل ما قال من أصله، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا يحيى بن المغيرة، أنبأنا جرير، عن عطاء، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ قال: هى الميتة.

ثم رواه، عن أبى زرعة، عن يحيى بن أبى كثير ^(٤)، عن ابن لهيعة، عن عطاء - وهو ابن السائب - به.

وقد استدلل لهذا المذهب بما رواه أبو داود فى المراسيل، من حديث ثور بن يزيد، عن الصلت السدوسى - مولى سويد بن منجوف ^(٥)، أحد التابعين الذين ذكرهم أبو حاتم بن حبان فى كتاب الثقات - قال: قال رسول الله ﷺ: «ذَبِيحَةُ الْمُسْلِمِ حَلَالٌ ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ أَوْ لَمْ يَذْكُرْ، إِنَّهُ إِنْ ذَكَرَ لَمْ يَذْكُرْ إِلَّا اسْمَ اللَّهِ» ^(٦).

وهذا مرسل يعضد بما رواه الدارقطنى عن ابن عباس أنه قال: إذا ذبح المسلم - ولم يذكر اسم الله فليأكل، فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله ^(٧).

واحتمج البيهقى أيضاً بحديث عائشة، رضى الله عنها، المتقدم أن ناس قالوا: يا رسول الله، إن قوما حديثى عهد بجاهلية يأتونا بلحم لا ندرى أذكروا اسم الله عليه أم لا؟ فقال: «سَمَوْا أَنْتُمْ وَكُلُّوا». قال: فلو كان وجود التسمية شرطاً لم يرخص لهم إلا مع تحققها، والله أعلم.

المذهب الثالث فى المسألة: [أنه] ^(٨) إن ترك البسملة على الذبيحة نسياناً لم يضر، وإن تركها عمداً لم تحل.

(٣) فى م: «عطف».

(٢) فى م: «الذى».

(١) زيادة من م، أ.

(٥) فى م، أ: «ميمون».

(٤) فى م: «يحيى بن بكر».

(٦) المراسيل برقم (٣٧٨) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٢٤٠/٩) من طريق أبى داود به. وقال ابن القطان كما فى نصب الراية

(٤/١٨٣): «فيه مع الإرسال أن الصلت السدوسى لا يعرف له حال ولا يعرف بغير هذا، ولا روى عنه غير ثور بن يزيد».

(٧) سنن الدارقطنى (٤/٢٩٥) وقد روى مرفوعاً، ورجح البيهقى وقفه وصححه ابن السكن.

(٨) زيادة من أ.

هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك، وأحمد بن حنبل، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه، وإسحاق بن راهويه: وهو محكى عن علي، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وعطاء، وطاوس، والحسن البصري، وأبي مالك، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وجعفر بن محمد، وربيع بن أبي عبد الرحمن. ونقل الإمام أبو الحسن المرغيناني في كتابه «الهداية» الإجماع - قبل الشافعي على تحريم متروك التسمية عمداً، فلماذا قال أبو يوسف والمشايع: لو حكم حاكم بجواز بيعه لم ينفذ لمخالفة الإجماع. وهذا الذي قاله غريب جداً، وقد تقدم نقل الخلاف عن قبل الشافعي، والله أعلم.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: من حرم ذبيحة الناسى، فقد خرج من قول جميع الحجة، وخالف الخبر الثابت عن رسول الله ﷺ في ذلك^(١).

يعنى ما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو عباس الأصم، حدثنا أبو أمية الطرسوسى، حدثنا محمد بن يزيد، حدثنا معقل بن عبيد الله، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «المسلم يكفيه اسمه، إن نسي أن يسمى حين يذبح، فليذكر اسم الله وليأكله»^(٢).

وهذا الحديث رفعه خطأ، أخطأ فيه معقل بن عبيد الله الجزيري^(٣)، فإنه^(٤) وإن كان من رجال مسلم إلا أن سعيد بن منصور، وعبد الله بن الزبير الحميدى روياه عن سفيان بن عيينة، عن عمرو، عن أبي الشعثاء، عن عكرمة، عن ابن عباس، من قوله. فزادا في إسناده «أبا الشعثاء»، ووقفوا^(٥)، والله [تعالى]^(٦) أعلم. وهذا أصح، نص عليه البيهقي [وغيره من الحفاظ]^(٧).

وقد نقل ابن جرير وغيره: عن الشعبي، ومحمد بن سيرين، أنهما كرها متروك التسمية نسياناً، والسلف يطلقون الكراهة على التحريم كثيراً، والله أعلم. إلا أن من قاعدة ابن جرير أنه لا يعتبر قول الواحد ولا الاثنين مخالفاً لقول الجمهور، فيعده إجماعاً، فليعلم هذا، والله الموفق.

قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو أسامة، عن جهم بن يزيد قال: سئل الحسن، سأل رجل أتيت بطير كرى^(٨)، فمنه ما قد ذبح فذكر اسم الله عليه، ومنه ما نسي أن يذكر اسم الله عليه، واختلط الطير، فقال الحسن: كله، كله. قال: وسألت محمد بن سيرين فقال: قال الله [تعالى]^(٩): ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

واحتج لهذا المذهب بالحديث المروى من طرق عند ابن ماجه، عن ابن عباس، وأبي هريرة، وأبي ذر^(١٠)، وعقبة بن عامر، وعبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكروها عليه»^(١١). وفيه نظر، والله أعلم.

وقد روى الحافظ أبو أحمد بن عدى، من حديث مروان بن سالم القرقساني، عن الأوزاعي، عن

(١) تفسير الطبرى (٥٣/١٢).

(٢) السنن الكبرى (٢٤٠/٩).

(٣) فى م: «الخوزنى»، وفى أ: «الجزرى».

(٤) فى م: «وإنه».

(٥) فى م، أ: «وقفاه».

(٦) زيادة من م.

(٧) زيادة من م، أ.

(٨) فى م، أ: «بطير كذا».

(٩) زيادة من م، أ.

(١٠) فى م: «وعن أبي ذر».

(١١) رواه ابن ماجه فى السنن برقم (٢٠٤٥) من طريق الأوزاعي عن عطاء عن ابن عباس، رضى الله عنه، ورواه ابن ماجه فى السنن برقم (٢٠٤٤) من طريق قتادة، عن زارة بن أبي أوفى، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، ورواه ابن ماجه فى السنن برقم (٢٠٤٣) =

يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، أرايت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمى؟ فقال النبى ﷺ: «اسم الله على كل مسلم»^(١).

ولكن هذا إسناده^(٢) ضعيف، فإن مروان بن سالم القرقساني أبا عبد الله الشامى، ضعيف، تكلم فيه غير واحد من الأئمة، والله أعلم.

وقد أفردت هذه المسألة على حدة، وذكرت مذاهب^(٣) الأئمة ومآخذهم وأدلتهم، ووجه الدلالات والمناقضات والمعارضات^(٤)، والله أعلم.

قال ابن جرير: وقد اختلف أهل العلم فى هذه الآية: هل نسخ من حكمها شىء أم لا؟ فقال بعضهم: لم ينسخ منها شىء وهى محكمة فيما عُنيت به. وعلى هذا قول عامة أهل العلم.

وروى عن الحسن البصرى وعكرمة. ما حدثنا به ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، عن الحسين بن واقد، عن عكرمة والحسن البصرى قالوا: قال الله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾، وقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾، فنسخ واستثنى من ذلك فقال: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ [المائدة: ٥].

وقال ابن أبى حاتم: قرئ على العباس بن الوليد بن مزيد^(٥)، حدثنا محمد بن شعيب، أخبرنى النعمان - يعنى ابن المنذر - عن مكحول قال: أنزل الله فى القرآن: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، ثم نسخها الرب ورحم المسلمين فقال: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾، فنسخها بذلك وأحل طعام أهل الكتاب.

ثم قال ابن جرير: والصواب أنه لا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب، وبين تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه.

وهذا الذى قاله صحيح، من أطلق من السلف النسخ ههنا فإنما أراد التخصيص، والله سبحانه وتعالى أعلم.

= من طريق أبى بكر الهذلى، عن شهر بن حوشب، عن أبى ذر الغفارى، رضى الله عنه. قال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ١٣٠): «إسناده ضعيف». ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٣٥٦/٧) من طريق ابن لهيعة، عن موسى بن وردان، عن عقبة بن عامر، رضى الله عنه، أما من حديث عبد الله بن عمرو فلم أجده، وقد جاء من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رواه أبو نعيم فى الحلية (٣٥٢/٦).

(١) الكامل لابن عدى (٦/ ٣٨٥).

(٢) فى أ: «إسناده».

(٣) فى أ: «مذهب».

(٤) والراجع فى هذه المسألة والله أعلم، ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله، فى وجوب التسمية مطلقاً، فلا تؤكل الذبيحة بدونها سواء تركها عمداً أو سهواً، قال: «وهذا أظهر الأقوال، فإن الكتاب والسنة قد علق الحل بذكر اسم الله فى غير موضع» انظر كلامه فى: مجموع الفتاوى (٣٥/ ٢٣٩).

(٥) فى أ: «يزيد».

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبي إسحاق قال: قال رجل لابن عمر: إن المختار يزعم أنه يوحى إليه؟ قال: صدق، وتلا هذه الآية: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾.

وحدثنا أبي، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا عكرمة بن عمار، عن أبي زُمَيْل قال: كنت قاعداً عند ابن عباس، وحبج المختار بن أبي عبيد، فجاءه^(١) رجل فقال: يا ابن عباس، وزعم أبو إسحاق أنه أوحى^(٢) إليه الليلة؟ فقال ابن عباس: صدق، فنفرت وقلت: يقول ابن عباس صدق. فقال ابن عباس: هما وحيان، وحي الله، ووحى الشيطان، فوحى الله [عز وجل]^(٣) إلى محمد ﷺ، ووحى الشيطان إلى أوليائه، ثم قرأ: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾.

وقد تقدم عن عكرمة في قوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ نحو هذا.

وقوله [تعالى]^(٥): ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عمران بن عيينة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير قال: خاصمت اليهود النبي ﷺ، فقالوا: نأكل مما قتلنا، ولا نأكل مما قتل الله؟ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾.

هكذا رواه مرسلًا، ورواه أبو داود متصلًا فقال: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا عمران بن عيينة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: جاءت اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله؟ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ [وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ]^(٦)﴾.

وكذا رواه ابن جرير، عن محمد بن عبد الأعلى وسفيان^(٧) بن وكيع، كلاهما عن عمران بن عيينة، به.

ورواه البزار، عن محمد بن موسى الحرشي، عن عمران بن عيينة، به.^(٨) وهذا فيه نظر من وجوه ثلاثة:

أحدها: أن اليهود لا يرون إباحة الميتة حتى يجادلوا.

الثاني: أن الآية من الأنعام، وهي مكية.

الثالث: أن هذا الحديث رواه الترمذي، عن محمد بن موسى الحرشي، عن زياد بن عبد الله البكائي، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس. ورواه الترمذي بلفظ^(٩): أتى

(٣) زيادة من أ.

(٢) في أ: «يوحى».

(١) في أ: «فدعاه».

(٦) زيادة من أ.

(٥) زيادة من م.

(٤) في هـ: «الشيطان».

(٧) في م: «سعيد» هو خطأ.

(٨) سنن أبي داود برقم (٢٨١٩) وتفسير الطبري (١٢/٨٢).

(٩) في م، أ: «بلفظ قال».

ناس النبي ﷺ فذكره وقال: حسن غريب، روى عن سعيد بن جبير مرسلًا^(١).

وقال الطبراني: حدثنا علي بن المبارك، حدثنا زيد بن المبارك، حدثنا موسى بن عبد العزيز، حدثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، أرسلت فارس إلى قريش: أن خاصموا محمداً وقولوا له: كما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال، وما ذبح الله، عز وجل، بشمشير من ذهب - يعنى الميتة - فهو حرام. فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ قال: الشياطين من فارس، وأولياؤهم [من]^(٢) قريش^(٣).

وقال أبو داود: حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا إسرائيل، حدثنا سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ يقولون: ما ذبح الله فلا تأكلوه. وما ذبحتم أنتم فكلوه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

ورواه ابن ماجه وابن أبي حاتم، عن عمرو بن عبد الله، عن وكيع، عن إسرائيل، به^(٤). وهذا إسناد صحيح.

ورواه ابن جرير من طرق متعددة، عن ابن عباس، وليس فيه ذكر اليهود، فهذا هو المحفوظ^(٥)، والله أعلم.

وقال ابن جرير: قال عمرو بن دينار، عن عكرمة: إن مشركي قريش كاتبوا فارس على الروم، وكاتبهم فارس، وكتبت فارس إلى مشركي قريش: إن محمداً وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله، فما ذبح الله بسكين من ذهب فلا يأكله محمد وأصحابه - للميتة وما^(٦) ذبحوا هم يأكلون. فكتب بذلك المشركون إلى أصحاب محمد ﷺ، فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء، فأنزل الله^(٧): ﴿وَإِنَّهُ لَفَسَقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ [إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ]^(٨)﴾ ونزلت: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

وقال السدي في تفسير هذه الآية: إن المشركين قالوا للمؤمنين: كيف تزعمون أنكم تتبعون مرضاة الله، وما ذبح الله فلا تأكلونه، وما ذبحتم أنتم أكلتموه؟ فقال الله: ﴿لَنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ فأكلتم الميتة ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

وهكذا قاله مجاهد، والضحاك، وغير واحد من علماء السلف، رحمهم الله.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ أي: حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره، فقد متم عليه غيره فهذا هو الشرك، كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ

(١) سنن الترمذي برقم (٣٠٦٩).

(٢) زيادة من أ.

(٣) المعجم الكبير للطبراني (٢٤١/١١).

(٤) سنن أبي داود برقم (٢٨١٨) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٧٣).

(٥) رواه الطبري في تفسيره (٧٨/١٢).

(٨) زيادة من م، أ. وفي هـ: «الآية».

(٧) في م، أ: «فنزلت».

(٦) في م: «وأما».

دُونَ اللَّهِ [وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ] ^(١) ﴿التوبة: ٣١﴾. وقد روى الترمذى فى تفسيرها، عن عدى بن حاتم أنه قال: يا رسول الله، ما عبدوهم، فقال: «بل إنهم أحلوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم» ^(٢).

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُينَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢٢).

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذى كان ميتاً، أى: فى الضلالة، هالكا حائراً، فأحياء الله، أى: أحيأ قلبه بالإيمان، وهداه له ووفقه لاتباع رسله. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ أى: يهتدى به ^(٣) كيف يسلك، وكيف يتصرف به. والنور هو: القرآن، كما رواه العوفى وابن أبى طلحة، عن ابن عباس. وقال السدى: الإسلام. والكل صحيح.

﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ ^(٤) أى: الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة، ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ أى: لا يهتدى إلى منفذ، ولا مخلص ^(٥) مما هو فيه، [وفى مسند الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله خلق خلقه فى ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل»] ^(٦). كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. و[كما] ^(٧) قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ . وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ . وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ . وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ . إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ١٩-٢٣]. والآيات فى هذا كثيرة، ووجه المناسبة فى ضرب المثلين ههنا بالنور والظلمات، ما ^(٨) تقدم فى أول السورة: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

وزعم ^(٩) بعضهم أن المراد بهذا المثل رجلان معينان، فقيل: عمر بن الخطاب هو الذى كان ميتاً فأحياء الله، وجعل له نوراً يمشى به فى الناس. وقيل: عمار بن ياسر. وأما الذى فى الظلمات ليس بخارج منها: أبو جهل عمرو بن هشام، لعنه الله. والصحيح أن الآية عامة، يدخل فيها كل مؤمن وكافر.

(١) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية».

(٢) سنن الترمذى برقم (٣٠٩٥) من طريق عبد السلام بن حرب، عن غطفان بن أعين، عن مصعب بن سعد، عن عدى بن حاتم، رضى الله عنه، قال الترمذى: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطفان بن أعين ليس بمعروف فى الحديث».

(٣) زيادة من أ.

(٤) فى م: «فى الظلمات ليس بخارج منها»

(٥) فى م: «ولا يخلص».

(٦) فى أ: «لما».

(٧، ٦) زيادة من م، أ.

(٨) فى م: «وقد زعم».

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: حسنا لهم ما هم فيه من الجهالة والضلالة، قدرا من الله وحكمة بالغة، لا إله إلا هو [ولا رب سواه]^(١).

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢٣) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ (١٢٤).

يقول تعالى: وكما جعلنا فى قريتك - يا محمد - أكبر من المجرمين، ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله، وإلى مخالفتك وعداوتك، كذلك كانت الرسل من قبلك يبتلون بذلك، ثم تكون لهم العاقبة، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ [وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا]﴾^(٢) [الفرقان: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا [فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا]﴾^(٣) [الإسراء: ١٦]، قيل: معناه: أمرناهم بالطاعات، فخالفوا، فدمرناهم. وقيل: أمرناهم أمرا قديرا، كما قال ههنا: ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾.

وقال ابن أبى طلحة عن ابن عباس: ﴿أَكْبَرُ مُجْرِمِيهَا﴾ قال: سلطنا شرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب.

وقال مجاهد وقتادة: ﴿أَكْبَرُ مُجْرِمِيهَا﴾ قال: عظمائها.

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤ ، ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

والمراد بالمكر ههنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال، كما قال تعالى إخباراً عن قوم نوح: ﴿وَمَكُرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ [نوح: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنْحُنُ صَدَقْنَاكُمْ عَنِ الْهَدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا [وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ]﴾^(٤) [سبأ: ٣١-٣٣].

(٢) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية».

(٤) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية».

(١) زيادة من م، وفى أ: «وحده لا شريك له».

(٣) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان قال: كل مكر في القرآن فهو عمل.

وقوله: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وما يعود وبال مكرهم ذلك وإضلالهم من أضلوه إلا على أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقال: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أي: إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة، قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أي: حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة، كما تأتى إلى الرسل، كقوله، جل وعلا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا﴾^(١) [الفرقان: ٢١].

وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ أي: هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ. أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ الآية [الزخرف: ٣١، ٣٢] يعنون: لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير مبجل في أعينهم من القريتين؟ أي: مكة والطائف. وذلك لأنهم - قبحهم الله - كانوا يزدرون بالرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بغيا وحسداً، وعناداً واستكباراً، كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ لَآتِيهِمْ بِخَبْرٍ أَهْوَىٰ مِنْ الْخَبْرِ الْأَوَّلِ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. هذا وهم يعترفون بفضله وشرفه ونسبه، وطهارة بيته ومرباه ومنشئه، حتى إنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه: «الأمين»، وقد اعترف بذلك رئيس الكفار «أبو سفيان» حين سأله «هرقل» ملك الروم: كيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب. قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، الحديث بطوله الذي استدل به ملك الروم بطهارة^(٢) صفاته، عليه السلام، على صدقه ونبوته وصحة ما جاء به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن مضعب، حدثنا الأوزاعي، عن شداد أبي عمار، عن وائلة ابن الأسقع، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة، واصطفى من بنى كنانة قريشا، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفاني من بنى هاشم».

انفرد بإخراجه مسلم من حديث الأوزاعي - وهو عبد الرحمن بن عمرو إمام أهل الشام، به نحوه^(٣).

(١) زيادة من م، أ، وفي هـ: «الآية».

(٢) في أ: «بظاهر».

(٣) المسند (١٠٧/٤) وصحيح مسلم برقم (٢٢٧٦).

وفى صحيح البخارى، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعِثَ من خير قُرُونِ بنى آدم قَرْنًا فقرنًا، حتى بعثت من القرن الذى كنت فيه»^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو نُعَيْمٍ، عن سفيان، عن يزيد بن أبى زياد، عن عبد الله بن الحارث ابن نوفل، عن المطلب بن أبى وداعة قال: قال العباس: بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس، فصعد المنبر فقال: «من أنا؟». قالوا: أنت رسول الله. قال: «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه، وجعلهم فرقتين^(٢)، فجعلنى فى خير فرقة، وخلق القبائل فجعلنى فى خير قبيلة. وجعلهم بيوتا فجعلنى فى خيرهم بيتًا، فأنا خيركم بيتًا وخيركم نفسًا»^(٣). صدق صلوات الله وسلامه عليه.

وفى الحديث أيضا المروى عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «قال لى جبريل: قلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلا أفضل من محمد، وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد بنى أب أفضل من بنى هاشم». رواه الحاكم والبيهقى^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو بكر، حدثنا عاصم، عن زُرِّ بن حُبَيْش، عن عبد الله بن مسعود [رضى الله عنه]^(٥) قال: إن الله نظر فى قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه فابتعته برسائله. ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسنا فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئا فهو عند الله سيئ^(٦).

وقال أحمد: حدثنا شُجاع بن الوليد قال: ذكر قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن سلمان قال: قال لى رسول الله ﷺ: «يا سلمان، لا تبغضنى فتفارق دينك». قلت: يا رسول الله، كيف أبغضك وبك هداانا الله؟ قال: «تبغض العرب فتبغضنى»^(٧).

وذكر^(٨) ابن أبى حاتم فى تفسير هذه الآية: ذَكَرَ عن محمد بن منصور الجواز، حدثنا سفيان، عن ابن أبى حسين قال: أبصر رجل ابن عباس وهو يدخل من باب المسجد فلما نظر إليه راعه،

(١) صحيح البخارى برقم (٣٥٥٧) ..

(٢) فى م، أ: «فريقين».

(٣) المسند (١/ ٢١٠).

(٤) دلائل النبوة للبيهقى (١/ ١٧٦) من طريق موسى بن عبيدة، عن عمرو بن عبد الله، عن الزهرى، عن أبى سلمة، عن عائشة به، ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٣٥١١) «مجمع البحرين» من طريق موسى بن عبيدة الربدى به. قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٢١٧): «فيه موسى بن عبيدة الربدى وهو ضعيف».

(٥) زيادة من أ.

(٦) المسند (١/ ٣٧٩).

(٧) المسند (٥/ ٤٤٠) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٩٢٧) والحاكم فى المستدرک (٤/ ٨٦) والطبرانى فى المعجم الكبير (٦/ ٢٣٨) من طريق شجاع بن الوليد عن قابوس به. قال الترمذى: «حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث أبى بدر شجاع بن الوليد، وسمعت محمد بن إسماعيل يقول: أبو ظبيان لم يدرك سلمان، مات سلمان قبل على».

(٨) فى م، أ: «وقال».

فقال: من هذا؟ قالوا: ابن عباس ابن عم رسول الله ﷺ. قال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ [بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ]﴾^(١)، هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد، لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم^(٢) فيما جاؤوا به، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله ﴿صَغَارٌ﴾ وهو الذلة الدائمة، لما^(٣) أنهم استكبروا أعقبهم ذلك ذلاً كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أى: صاغرين ذليلين حقيرين.

وقوله: ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ [بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ]﴾، لما كان المكر غالباً إنما يكون خفياً، وهو التلطف فى التحيل والخديعة، قوبلوا بالعذاب الشديد جزاء وفاقا، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩] أى: تظهر المستترات والمكنونات والضمائر. وجاء فى الصحيحين، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يُنْصَبُ لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة، فيقال: هذه غدره فلان ابن فلان»^(٤).

والحكمة فى هذا أنه لما كان الغدر خفياً لا يطلع عليه الناس، فيوم القيامة يصير علماً منشوراً على صاحبه بما فعل.

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٢٥).

يقول تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ أى: يسره له وينشطه ويسهله لذلك، فهذه علامة على الخير، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ [فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ]﴾^(٥) [الزمر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

قال ابن عباس: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ يقول: يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به وكذا قال أبو مالك، وغير واحد. وهو ظاهر.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثورى، عن عمرو بن قيس، عن عمرو بن مرة، عن أبى جعفر قال: سئل النبى ﷺ: أى المؤمنين أكيس؟ قال: «أكثرهم ذكراً للموت، وأكثرهم»^(٦) لما بعده استعداداً». قال:

(١) زيادة من م، أ. وفى هـ: «الآية». (٢) فى أ: «إليهم». (٣) فى أ: «كما». (٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧١١١) ومسلم فى صحيحه برقم (١٧٣٥) من حديث عبد الله بن عمر، رضى الله عنه. (٥) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية». (٦) فى أ: «وأحسنهم».

وسئل النبي ﷺ عن هذه الآية: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ وقالوا: كيف يشرح صدره يا رسول الله؟ قال: «نور يُقَذَّفُ فيه، فينشرح له وينفسح». قالوا: فهل لذلك من أمانة يُعرف بها؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافى عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت»^(١).

وقال ابن جرير: حدثنا هناد، حدثنا قبيصة، عن سفيان - يعنى الثوري - عن عمرو بن مرة، عن رجل يكنى أبا جعفر كان يسكن المدائن، قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾^(٢)، فذكر نحو ما تقدم^(٣).

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن إدريس، عن الحسن بن الفرات القزاز، عن عمرو بن مرة، عن أبي جعفر قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾، قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل الإيمان القلب انفسح له القلب وانشرح»^(٤). قالوا: يا رسول الله، هل لذلك من أمانة؟ قال: «نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافى عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الموت».

وقد رواه ابن جرير عن سوار بن عبد الله العنبري، حدثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبي يحدث عن عبد الله بن مرة، عن أبي جعفر فذكره^(٥).

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن عمرو بن قيس، عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن المسور قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ قالوا: يا رسول الله، ما هذا الشرح؟ قال: «نور يقذف به في القلب». قالوا: يا رسول الله، فهل لذلك من أمانة^(٦)؟ قال: «نعم». قالوا: وما هي؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافى عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الموت»^(٧).

وقال ابن جرير أيضا: حدثني هلال بن العلاء، حدثنا سعيد بن عبد الملك بن واقد، حدثنا محمد بن سلمة، عن أبي عبد الرحيم^(٨)، عن زيد بن أبي أنيسة، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة ابن عبد الله بن مسعود [رضى الله عنه]^(٩)، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح». قالوا: فهل لذلك من علامة يعرف بها؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافى عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت»^(١٠).

(١) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢١٠) ورواه الطبري في تفسيره (٩٩/ ١٢) من طريق عبد الرزاق به.

(٢) زيادة من أ.

(٣) تفسير الطبري (١٢/ ١٠٠).

(٤) في م: «وانشرح صدره».

(٥) تفسير الطبري (٩٨/ ١٢).

(٦) في أ: «من أمانة تعرف».

(٧) ورواه سعيد بن منصور وابن جرير والبيهقي في الأسماء والصفات كما في الدر المنثور (٣/ ٣٥٥).

(٨) في م، أ: «عبد الرحمن».

(٩) زيادة من أ.

(١٠) رواه البيهقي في الزهد الكبير برقم (٩٧٤) من طريق زيد بن أبي أنيسة به.

وقد رواه [ابن جرير]^(١) من وجه آخر، عن ابن مسعود متصلاً مرفوعاً فقال: حدثني بن سنان القزاز، حدثنا محبوب بن الحسن الهاشمي، عن يونس، عن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عتبة، عن عبد الله بن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ». قالوا: يا رسول الله، وكيف يُشْرَحْ صدره؟ قال: «يدخل الجنة فينفسح». قالوا: وهل لذلك^(٢) علامة يا رسول الله؟ قال: «التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل أن ينزل الموت»^(٣).

فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة، يشد بعضها بعضاً، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا [كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ]﴾^(٤) قرئ بفتح الضاد وتسكين الياء، والأكثر: ﴿ضَيِّقًا﴾ بتشديد الياء وكسرها، وهما لغتان: كَهَيْنَ وهَيْنَ. وقرأ بعضهم: ﴿حَرَجًا﴾ بفتح الحاء وكسر الراء، قيل: بمعنى آثم. وقال^(٥) السدي. وقيل: بمعنى القراءة الأخرى ﴿حَرَجًا﴾ بفتح الحاء والراء، وهو الذي لا يتسع لشيء من الهدى، ولا يخلص إليه شيء ما ينفعه من الإيمان ولا ينفذ فيه.

وقد سأل عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، رجلاً من الأعراب من أهل البادية من مدلج: ما الحرجة؟ قال^(٦): هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية، ولا وحشية، ولا شيء. فقال عمر، رضى الله عنه: كذلك قلب المنافق لا يصل^(٧) إليه^(٨) شيء من الخير^(٩).

وقال العوفي عن ابن عباس: يجعل الله عليه الإسلام ضيقاً، والإسلام واسع. وذلك حين يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، يقول: ما جعل عليكم في الإسلام من ضيق.

وقال مجاهد والسدي: ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ شاكاً. وقال عطاء الخراساني: ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾: ليس للخير فيه منفذ. وقال ابن المبارك، عن ابن جريج: ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾: بلا إله إلا الله، حتى لا تستطيع أن تدخله، كأنما يصعد في السماء من شدة ذلك عليه. وقال سعيد بن جبیر: يجعل صدره ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ قال: لا يجد فيه مسلكاً إلا صُعُداً.

وقال السدي: ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ من ضيق صدره.

وقال عطاء الخراساني: ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ يقول: مثله كمثل الذي لا يستطيع أن يصعد

(١) زيادة من م. (٢) في م: «ذلك من».

(٣) ورواه الحاكم في المستدرک (٣١١/٤) وابن أبي الدنيا في الموت ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان برقم (١٠٥٥٢) من طريق عدی ابن الفضل، عن المسعودی، عن القاسم، عن عبد الرحمن، عن أبيه، عن ابن مسعود بنحوه.

قال الذهبي في تلخيص المستدرک: «عدی ساقط».

(٤) في أ: «فقال».

(٥) في أ: «قاله».

(٦) زيادة من أ.

(٧) في د: «لا تصل».

(٨) في أ: «إلى».

(٩) رواه الطبري في تفسيره (١٠٤/١٢).

فى السماء . وقال الحكم بن أبان عن عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿ كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ يقول : فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء ، فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه ، حتى يدخله الله قلبه .

وقال الأوزاعى : ﴿ كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ ، كيف يستطيع من جعل الله صدره ضيقاً أن يكون مسلماً .

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : وهذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر فى شدة تضيقه إياه عن وصول الإيمان إليه . يقول : فمثلته فى امتناعه من قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه ، مثل امتناعه من الصعود إلى السماء وعجزه عنه ؛ لأنه ليس فى وسعه وطاقته .

وقال فى قوله : ﴿ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ يقول : كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيقاً حرجاً ، كذلك يسلط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله ، فيغويه ويصده عن سبيل الله ^(١) .

قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس : الرجس : الشيطان . وقال مجاهد : الرجس : كل ما لا خير فيه . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الرجس : العذاب .

﴿ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَكِّرُونَ ^(١٢٦) لَهُمْ دَارَ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(١٢٧) ﴾ .

لما ذكر تعالى طريقة ^(٢) الضالين عن سبيله ، الصادين عنها ، نبه على أشرف ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق ^(٣) ، فقال : ﴿ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ﴾ منصوب على الحال ، أى : هذا الدين الذى شرعناه لك يا محمد بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وهو صراط الله المستقيم ، كما تقدم فى حديث الحارث ، عن على [رضى الله عنه] ^(٤) فى نعت القرآن : «هو صراط الله المستقيم ، وحبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم» . رواه أحمد والترمذى بطوله ^(٥) .

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ ﴾ أى : [قد] ^(٦) وضحناها وبينناها وفسرناها ، ﴿ لِقَوْمٍ يَذَكِّرُونَ ﴾ أى : لمن له فهم ووعى يعقل عن الله ورسوله .

﴿ لَهُمْ دَارَ السَّلَامِ ﴾ وهى : الجنة ، ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أى : يوم القيامة . وإنما وصف الله الجنة ههنا بدار

(١) تفسير الطبرى (١٢ / ١١٠) .

(٤) زيادة من أ .

(٣) فى أ : «الهدى» .

(٢) فى أ : «طريق» .

(٥) سنن الترمذى برقم (٢٩٠٨) وقد تقدم إسناده فى فضائل القرآن . وقال الترمذى : «هذا حديث صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات ، وإسناده مجهول ، وفى حديث الحارث مقال» .

(٦) زيادة من م ، أ .

السلام لسلامتهم فيما سلوكه من الصراط المستقيم، المقتفى أثر الأنبياء وطرائقهم، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام.

﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ أى: والسلام - وهو الله - وليهم، أى: حافظهم وناصرهم ومؤيدهم، ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: جزاء [على]^(١) أعمالهم الصالحة تولاهم وأثابهم الجنة، بمنه وكرمه.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (١٢٨).

يقول تعالى: واذكر يا محمد فيما تقصه عليهم وتذكرهم به ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يعنى: الجن وأولياءهم ﴿مِنَ الْإِنْسِ﴾ الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا، ويعوذون بهم ويطيعونهم، ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا. ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ أى: ثم يقول: يا معشر الجن. وسياق الكلام يدل على المحذوف.

ومعنى قوله: ﴿قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ أى: من إضلالهم وإغوائهم، كما قال [تعالى]^(٢): ﴿أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ. وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ. وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠-٦٢].

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ يعنى: أضللتهم منهم كثيرا. وكذلك قال مجاهد، والحسن، وقتادة.

﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ يعنى: أن أولياء الجن من الإنس قالوا مجيبين لله تعالى عن ذلك بهذا.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو الأشهب هُوَذَةُ بن خليفة، حدثنا عَوْفٌ، عن الحسن فى هذه الآية قال: استكثر ربكم أهل النار يوم القيامة، فقال أولياؤهم من الإنس: ربنا استمتع بعضهم ببعض. قال الحسن: وما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت، وعملت الإنس.

وقال محمد بن كعب فى قوله: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ قال: الصحابة فى الدنيا.

وقال ابن جُرَيْج: كان الرجل فى الجاهلية ينزل الأرض، فيقول: «أعوذ بكبير هذا الوادى»: فذلك استمتاعهم، فاعتذروا يوم القيامة.

وأما استمتاع الجن بالإنس فإنه كان - فيما ذكر - ما ينال الجن من الإنس من تعظيمهم إياهم فى استعازتهم بهم، فيقولون: قد سدا الإنس والجن.

﴿وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ قال السدى، أى الموت.

قال: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ أى: مأواكم ومنزلكم أنتم وأولياؤكم. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ماكثين مكثًا مخلدًا إلا ما شاء الله.

قال بعضهم: يرجع معنى [هذا]^(١) الاستثناء إلى البرزخ. وقال بعضهم: هذا رد إلى مدة الدنيا. وقيل غير ذلك من الأقوال التى سيأتى تقريرها [إن شاء الله]^(٢) عند قوله تعالى فى سورة هود: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [الآية: ١٠٧].

وقد روى ابن جرير وابن أبى حاتم فى تفسير هذه الآية من طريق عبد الله بن صالح - كاتب الليث -: حدثنى معاوية بن صالح، عن على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قال: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ قال: إن هذه الآية آية لا ينبغى لأحد أن يحكم على الله فى خلقه، لا ينزلهم جنة ولا نارًا.

﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٢٩).

قال سعيد، عن قتادة فى تفسيرها: وإنما يؤلى الله^(٣) الناس بأعمالهم، فالمؤمن ولى المؤمن أين كان وحيث كان، والكافر ولى الكافر أينما كان وحيثما كان، ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى. واختاره^(٤) ابن جرير.

وقال معمر، عن قتادة فى تفسيرها: ﴿نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ فى النار، يتبع بعضهم بعضا.

وقال مالك بن دينار: قرأت فى الزبور: إني أنتقم من المنافقين بالمنافقين، ثم أنتقم من المنافقين جميعا، وذلك فى كتاب الله قوله تعالى^(٥): ﴿كَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿كَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ قال: ظالمى الجن وظالمى الإنس، وقرأ: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، قال: ونسلط^(٦) ظلمة الجن على ظلمة الإنس.

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة عبد الباقي بن أحمد، من طريق سعيد بن عبد الجبار الكرابيسى، عن حماد بن سلمة، عن عاصم، عن زُرِّ، عن ابن مسعود مرفوعا: «من أعان ظلما سلطه الله عليه»^(٧).

وهذا حديث غريب، وقال بعض الشعراء:

وما من يد إلا يدُ الله فوقها ولا ظالم إلا سيلى بظالم

(١) زيادة من أ.

(٢) فى م: «يولى الله بين».

(٣) فى م: «يولى الله بين».

(٤) فى م، أ: «قول الله تعالى».

(٥) ذكره ابن منظور فى مختصر تاريخ دمشق (١٥٣/١٤) ورجاله ثقات، وعاصم فيه كلام يسير.

ومعنى الآية الكريمة: كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التى أغوتهم من الجن، كذلك نفعل بالظالمين، نسلط بعضهم على بعض، ونهلك بعضهم ببعض، وننتقم من بعضهم ببعض، جزاء على ظلمهم وبغيهم.

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَٰهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَٰهَدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠)﴾.

وهذا أيضا مما يُقرع الله به سبحانه وتعالى كافرى الجن والإنس يوم القيامة، حيث يسألهم - وهو أعلم -: هل بلغتكم الرسل رسالاته؟ وهذا استفهامٌ تقرير: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ أى: من جملتكم. والرسل من الإنس فقط، وليس من الجن رسل، كما [قد]^(١) نص على ذلك مجاهد، وابن جريج، وغير واحد من الأئمة، من السلف والخلف.

وقال ابن عباس: الرسل من بنى آدم، ومن الجن نُذِر.

وحكى ابن جرير، عن الضحاك بن مزاحم: أنه زعم أن فى الجن رسلا، واحتج بهذه الآية الكريمة وفى الاستدلال بها على ذلك نظر؛ لأنها محتملة وليست بصريحة، وهى - والله أعلم - كقوله [تعالى]^(٢): ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾، إلى أن قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ١٩ - ٢٢]، ومعلوم أن اللؤلؤ والمرجان إنما يستخرج^(٣) من الملح^(٤) لا من الحلو. وهذا واضح، والله الحمد. وقد نص على هذا الجواب بعينه ابن جرير^(٥).

والدليل على أن الرسل إنما هم من الإنس قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [أَوْحَيْنَا]^(٦) إلى أن قال: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾ [بعد الرسل]^(٧) ﴿النساء: ١٦٣ - ١٦٥﴾، وقال تعالى عن إبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم فى ذريته، ولم يقل أحد من الناس: إن النبوة كانت فى الجن قبل إبراهيم الخليل [عليه السلام]^(٨)، ثم انقطعت عنهم ببعثته. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال [تعالى]^(٩): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، ومعلوم أن الجن تبع للإنس فى هذا الباب؛ ولهذا قال تعالى إخباراً عنهم: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصَتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ. قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ. يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ

(١) زيادة من د، م، أ.

(٢) فى د: «المالح».

(٣) زيادة من م، أ.

(٤) فى أ: «ابن جريج».

(٥) زيادة من أ.

(٦) زيادة من د، م، أ.

(٧) فى د: «المالح».

(٨) زيادة من د، م، أ.

وَأَمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ. وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ [الأحقاف: ٢٩-٣٢].

وقد جاء فى الحديث - الذى رواه الترمذى وغيره - أن رسول الله ﷺ تلا عليهم سورة الرحمن^(١) وفيها قوله تعالى: ﴿سَنَفَرُغْ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الآيتان: ٣١، ٣٢]. وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ أى: أقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك، وأنذرونا لقاءك، وأن هذا اليوم كائن لا محالة.

قال تعالى: ﴿وَعَرَّيْتَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أى: وقد فرطوا فى حياتهم الدنيا، وهلكوا بتكذيبهم الرسل، ومخالفتهم للمعجزات، لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها، ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أى: يوم القيامة ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ أى: فى الدنيا، بما جاءتهم به الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم [أجمعين]^(٢).

﴿ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢)﴾.

يقول تعالى: ﴿ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ أى: إنما أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب، لئلا يعاقب أحد بظلمه، وهو لم تبلغه دعوة، ولكن أعذرنا إلى الأمم، وما عذبنا أحداً إلا بعد إرسال الرسل إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿كَلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ [الملك: ٨، ٩] والآيات فى هذا كثيرة.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: ويحتمل قوله تعالى: ﴿بِظُلْمٍ﴾ وجهين:

أحدهما: ذلك من أجل أن ربك مهلك القرى بظلم أهلها بالشرك ونحوه، وهم غافلون، يقول: لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم من^(٣) ينبههم على حجج الله عليهم، وينذرهم عذاب الله يوم معادهم، ولم يكن بالذى يؤاخذهم غفلة فيقولوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩].

والوجه الثانى: أن ﴿ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ﴾ يقول: لم يكن [ربك]^(٤) ليهلكهم

(١) سنن الترمذى برقم (٣٢٩١).

(٣) فى م، أ: «رسولاً».

(٤) زيادة من أ.

(٢) زيادة من م.

دون التنبيه والتذكير بالرسول والآيات والعبر، فيظلمهم بذلك، والله غير ظلام^(١) لعبيده.

ثم شرع يرجح الوجه الأول، ولا شك أنه أقوى، والله أعلم^(٢).

وقال: وقوله: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ أى: ولكل عامل فى طاعة الله أو معصيته منازل ومراتب من عمله يبلغه الله إياها، ويشبه بها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

قلت: ويحتمل أن يعود قوله: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [أى]^(٣): من كافرى الجن والإنس، أى: ولكل درجة فى النار بحسبه، كقوله [تعالى]^(٤): ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ [وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ]﴾^(٥) [الأعراف: ٣٨]، وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ قال ابن جرير: أى وكل ذلك من عملهم، يا محمد، بعلم من ربك، يحصيها ويثبتها لهم عنده، ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ومعادهم إليه.

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ (١٣٣) إِنْ مَا تُوْعَدُونَ لَا تِ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥).

يقول [تعالى]^(٦): ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿الْغَنِيُّ﴾ أى: عن جميع خلقه من جميع الوجوه، وهم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم، ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ أى: وهو مع ذلك رحيم بهم رؤوف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أى: إذا خالفت أمره ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ أى: قوما آخرين، أى: يعملون بطاعته^(٧)، ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ أى: هو قادر على ذلك، سهل عليه، يسير لديه، كما أذهب القرون الأول وأتى بالذى بعدها^(٨)، كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بآخرين وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥- ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

وقال محمد بن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة قال: سمعت أبا ن عثمان يقول فى هذه الآية:

(١) فى أ: «ظالم».

(٢) تفسير الطبرى (١٢/ ١٢٤).

(٣) زيادة من م، أ.

(٤) زيادة من أ.

(٥) زيادة من أ.

(٦) فى م: «بطاعة الله».

(٨) فى أ: «بعده».

(٧) زيادة من م، أ.

﴿كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾: الذرية: الأصيل، والذرية: النسل.
وقوله تعالى: ﴿إِن مَّا تُوْعَدُونَ لَأَتِ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أى: أخبرهم يا محمد أن الذى يوعدون^(١) به من أمر المعاد كائن لا محالة، ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أى: لا تعجزون الله، بل هو قادر على إعادتكم، وإن صرتم تراباً رفاتاً وعظاماً هو قادر لا يعجزه شىء.

وقال ابن أبى حاتم فى تفسيرها: حدثنى أبى، حدثنا محمد بن المصفى، حدثنا محمد بن حمير، عن أبى بكر بن أبى مريم، عن عطاء بن أبى رباح، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال: «يا بنى آدم، إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى. والذى نفسى بيده إنما توعدن لآت وما أنتم بمعجزين»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، أى: استمروا على طريقكم^(٣) وناحياتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى، فأنا مستمر على طريقي ومنهجى، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ. وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [هود: ١٢١، ١٢٢].

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أى: ناحيتكم.
﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أى: أ تكون لى أو لكم. وقد أنجز مواعده له، صلوات الله عليه، فإنه تعالى مكن له فى البلاد، وحكمه فى نواصى مخالفه من العباد، وفتح له مكة، وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناواه، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب، وكذلك اليمن والبحرين، وكل ذلك فى حياته. ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته فى أيام خلفائه، رضى الله عنهم أجمعين، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢٠]، وقال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال تعالى إخباراً عن رسله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدٌ﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ الآية [النور: ٥٥]، وقد فعل الله [تعالى]^(٤) ذلك بهذه الأمة، وله الحمد والمنة أولاً وآخرأ، باطنأ وظاهرأ^(٥).

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا

(١) فى أ: «توعدون».

(٢) ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (١٠٥٦٤) وأبو نعيم فى الحلية (٩١/٦) من طريق محمد بن المصفى، عن محمد بن حمير به، قال أبو نعيم: «غريب من حديث عطاء، وأبى بكر تفرد به محمد بن حمير».

(٣) فى د، أ: «طريقكم».

(٤) زيادة من م، أ.

(٥) فى م، أ: «وظاهرأ وباطنأ».

فَمَا كَانَ لَشُرْكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرْكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ .

هذا ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعاً وكفراً وشركاً، وجعلوا لله جزءاً من خلقه، وهو خالق كل شيء سبحانه وتعالى عما يشركون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أى: مما خلق وبرأ ﴿مِنَ الْحَرْثِ﴾ أى: من الزروع والثمار ﴿وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً﴾ أى: جزءاً وقسماً، ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرْكَائِنَا﴾ .

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ لَشُرْكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرْكَائِهِمْ﴾ قال على بن أبى طلحة، والعوفى، عن ابن عباس؛ أنه قال فى ^(١) تفسير هذه الآية: إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً، أو كانت لهم ثمرة، جعلوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه. وإن سقط منه شيء فيما سُمى للصمد ردوه إلى ما جعلوه للوثن. وإن سبقهم الماء الذى جعلوه للوثن، فسقى شيئاً جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن. وإن سقط شيء من الحرث والثمرة التى جعلوا لله، فاختلط بالذى جعلوه للوثن، قالوا: هذا فقير. ولم يردوه إلى ما جعلوه لله. وإن سبقهم الماء الذى جعلوه لله، فسقى ما سُمى للوثن تركوه للوثن، وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فيجعلونه للأوثان، ويزعمون أنهم يحرمونه لله، فقال الله، عزوجل ^(٢): ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً﴾ الآية.

وهكذا قال مجاهد، وقتادة، والسدى، وغير واحد.

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم فى تفسيره: كل شيء جعلوه لله من ذبح يذبحونه، لا يأكلونه أبداً حتى يذكروا معه أسماء الآلهة. وما كان للآلهة لم يذكروا اسم الله معه، وقرأ الآية حتى بلغ: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أى: ساء ما يقسمون، فإنهم أخطؤوا أولاً فى القسمة، فإن الله تعالى هو رب كل شيء ومليكه وخالقه، وله الملك، وكل شيء له وفى تصرفه وتحت قدرته ومشيتته، لا إله غيره، ولا رب سواه. ثم لما قسموا فيما زعموا لم يحفظوا القسمة التى هى فاسدة، بل جاروا فيها، كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥]، وقال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [النجم: ٢١، ٢٢].

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ لِيُرُدُّوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿١٣٧﴾ .

يقول تعالى: وكما زينت الشياطين لهؤلاء المشركين أن جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام

(٢) فى أ: تعالى.

(١) فى م: لى.

نصيباً، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق، وواد البنات خشية العار.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم: زينوا لهم قتل أولادهم.

وقال مجاهد: ﴿شُرَكَائِهِمْ﴾: شياطينهم، يأمرونهم أن يثدوا أولادهم خشية العيلة.

وقال السدى: أمرتهم الشياطين أن يقتلوا البنات. وإما ﴿لِيرُدُّوهُمْ﴾، فيهلكوهم، وإما ﴿لِيلْبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أى: فيخلطوا عليهم دينهم.

ونحو ذلك قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ. يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ [أَيُّمُسْكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ]﴾^(١) [النحل: ٥٨، ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩]. وقد كانوا أيضا يقتلون الأولاد من الإملاق، وهو: الفقر، أو خشية الإملاق أن يحصل لهم فى تانى المال^(٢)، وقد نهاهم [الله]^(٣) عن قتل أولادهم لذلك وإنما كان هذا^(٤) كله من شرع الشيطان تزيينه لهم ذلك.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أى: كل هذا واقع بمشيئته تعالى وإرادته واختياره لذلك كوناً، وله الحكمة التامة فى ذلك، فلا^(٥) يسأل عما يفعل وهم يسألون. ﴿فَذَرُهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أى: فدعهم واجتنبهم وما هم فيه، فسيحكم الله بينك وبينهم.

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (١٣٨).

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: «الحِجْرُ»: الحرام، مما حرّموا الوصيلة، وتحريم ما حرّموا.

وكذلك قال مجاهد، والضحاك، والسدى، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال قتادة: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرًا﴾ الآية: تحريم كان عليهم من الشياطين فى أموالهم، وتغليظ وتشديد، وكان ذلك من الشياطين، ولم يكن من الله تعالى.

وقال ابن زيد بن أسلم: ﴿حِجْرًا﴾: إنما احتجروها لآلئهم.

وقال السدى: ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَزَعْمِهِمْ﴾ يقولون: حرام أن نطعم إلا من شئنا.

وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، وكقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

(٣) زيادة من أ.

(٢) فى أ: «الخال».

(٥) فى أ: «ولا».

(١) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية».

(٤) فى أ: «كذلك وإن كان هذا».

وقال السدى: أما ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾: فهي البحيرة والسائبة والحام، وأما الأنعام التي لا يذكرون اسم الله عليها قال: إذا أولدوها، ولا إن نحروها.

وقال أبو بكر بن عيَّاش، عن عاصم بن أبي النجود قال لى أبو وائل: تدرى^(١) ما فى قوله: ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾؟ قلت: لا. قال: هي البحيرة، كانوا لا يحجون عليها.

وقال مجاهد: كان من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها [ولا]^(٢) فى شىء من شأنها، لا إن ركبوا، ولا إن حلبوا، ولا إن حملوا، ولا إن سحبوا^(٣)، ولا إن عملوا شيئاً^(٤).

﴿افْتَرَاءٌ عَلَيْهِ﴾ أى: على الله، وكذبا منهم فى إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعه؛ فإنه لم يأذن لهم فى ذلك ولا رضىه منهم ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى: عليه، ويسندون إليه.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّدُكُونِنَا وَمَحْرَمٌ عَلَيْنَا أَزْوَاجَنَا وَإِنْ يَكُنْ مِيتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (١٣٩).

قال أبو إسحاق السبيعي، عن عبد الله بن أبي الهذيل، عن ابن عباس: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّدُكُونِنَا﴾ الآية، قال: اللبن.

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّدُكُونِنَا﴾ [الآية]^(٥): فهو اللبن، كانوا يحرمونه على إناثهم، ويشربه ذكرائهم. وكانت الشاة إذ ولدت ولداً ذكراً ذبحوه، وكان للرجال دون النساء. وإن كانت أنثى تركت فلم تدبح، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء. فنهى الله عن ذلك. وكذا قال السدى.

وقال الشعبي: «البحيرة» لا يأكل من لبنها إلا الرجال، وإن مات منها شىء أكله الرجال والنساء، وكذا قال عكرمة، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّدُكُونِنَا وَمَحْرَمٌ عَلَيْنَا أَزْوَاجَنَا﴾ قال: هي السائبة والبحيرة.

وقال أبو العالية، ومجاهد، وقتادة [فى قوله]^(٦): ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ﴾ أى: قولهم الكذب فى ذلك، يعنى قوله^(٧) تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذْبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يَفْلَحُونَ﴾. متاع^(٨) الآية [النحل: ١١٦، ١١٧].

إنه ﴿حَكِيمٌ﴾ أى: فى أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمال عباده من خير وشر، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء.

(٣) فى م، أ: «حجوا».

(٦) زيادة من م، أ.

(٢) زيادة من م، أ.

(٥) زيادة من أ.

(١) فى أ: «أندرى».

(٤) فى د: «شيئاً نتجوا».

(٧) فى م، أ: «كقوله».

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٤٠).

يقول تعالى: قد خسر الذين فعلوا هذه الأفعال^(١) في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم، وضيقوا عليهم في أموالهم، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم، وأما في الآخرة فيصبرون إلى شر المنازل بكذبهم على الله وافترائهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ. مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن أيوب، حدثنا عبد الرحمن بن المبارك، حدثنا أبو عوَّانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، رضى الله عنهما^(٢)، قال: إذا سَرَك أن تعلم جهل العرب فاقراً ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام، ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

وهكذا رواه البخارى منفرداً فى كتاب «مناقب قريش» من صحيحه، عن أبى النعمان محمد بن الفضل عارم، عن أبى عوَّانة - واسمه الوضَّاح بن عبد الله اليشكرى - عن أبى بشر - واسمه جعفر بن أبى وحشية بن إياس، به^(٣).

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (١٤١) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاتٌ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٤٢).

يقول تعالى بيانا لأنه الخالق لكل شىء، من الزروع والثمار والأنعام التى تصرف فيها المشركون بآرائهم الفاسدة وقسموها وجزَّوها، فجعلوا منها حراماً وحلالاً، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾: مسموكات. وفى رواية: «المعروشات»: معروشات ما عرش الناس، ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾: ما خرج فى البر والجبال من الثمرات. وقال عطاء الخرساني، عن ابن عباس: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾: ما عرش من الكرم ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾: ما لم يعرش من الكرم. وكذا قال السدى.

(٢) فى م: «عنه».

(١) فى م: «صنعوا هذه الأفاعيل».

(٣) صحيح البخارى برقم (٣٥٢٤).

وقال ابن جريج: ﴿مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ قال: متشابهها في المنظر، وغير متشابهه في الطعم.
 وقال محمد بن كعب: ﴿كُلُّوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ قال: من رطبه وعنبه.
 وقوله^(١) تعالى: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قال ابن جرير: قال بعضهم: هي الزكاة المفروضة.
 حدثنا عمرو، حدثنا عبد الصمد، حدثنا يزيد بن درهم قال: سمعت أنس بن مالك يقول:
 ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قال: الزكاة المفروضة.
 وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ يعني: الزكاة المفروضة، يوم
 يُكَال ويعلم كيله. وكذا قال سعيد بن المسيب.
 وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾، وذلك أن الرجل كان إذا زرع فكان يوم
 حصاده، لم يخرج مما حصد شيئاً فقال الله: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾، وذلك أن يعلم ما كيله وحقه،
 من كل عشرة واحداً، ما يَلْقُظ^(٢) الناس من سنبله.
 وقد روى الإمام أحمد وأبو داود في سننه من حديث محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن يحيى
 ابن حبان، عن عمه واسع بن حبان، عن جابر بن عبد الله؛ أن النبي ﷺ أمر من كل جاد عشرة
 أوسق من التمر، بقنو يعلق في المسجد للمساكين^(٣)، وهذا إسناد جيد قوى.
 وقال طاوس، وأبو الشعثاء، وقتادة، والحسن، والضحاك، وابن جريج: هي الزكاة.
 وقال الحسن البصري: هي الصدقة من الحب والثمار، وكذا قال ابن زيد بن أسلم.
 وقال آخرون: هو حق آخر سوى الزكاة.
 وقال^(٤) أشعث، عن محمد بن سيرين، ونافع، عن ابن عمر في قوله: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾
 قال: كانوا يعطون شيئاً سوى الزكاة. رواه ابن مردويه.
 وروى عبد الله بن المبارك وغيره، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح في
 قوله: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قال: يعطى من حضره يومئذ ما تيسر، وليس بالزكاة.
 وقال مجاهد: إذا حضرك المساكين، طرحت لهم منه.
 وقال عبد الرزاق، عن ابن عيينة^(٥)، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾
 قال: عند الزرع يعطى القبض، وعند الصرام يعطى القبض، ويتركهم فيتبعون آثار الصرام.
 وقال الثوري، عن حماد، عن إبراهيم [النخعي]^(٦) قال: يعطى مثل الضغث.
 وقال ابن المبارك، عن شريك، عن سالم، عن سعيد بن جبيرة ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قال: كان
 هذا قبل الزكاة: للمساكين، القبض الضغث لعلف دابته.
 وفي حديث ابن لهيعة، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن سعيد مرفوعاً: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾

(٢) في د: «وما يلقظه».

(١) في أ: «قال».

(٣) المسند (٣/٣٥٩) وسنن أبي داود برقم (١٦٦٢).

(٦) زيادة من أ.

(٥) في أ: «قتينه».

(٤) في أ: «قال».

قال: ما سقط من السنبيل . رواه ابن مردويه^(١).

وقال آخرون: هذا كله شيء كان واجباً، ثم نسخة الله بالعشر ونصف العشر . حكاه ابن جرير عن ابن عباس، ومحمد بن الحنفية، وإبراهيم النخعي، والحسن، والسدي، وعطية العوفي . واختاره ابن جرير، رحمه^(٢) الله .

قلت: وفي تسمية هذا نسخاً نظراً؛ لأنه قد كان شيئاً واجباً في الأصل، ثم إنه فصل بيانه وبين مقدار المخرج وكميته . قالوا: وكان هذا في السنة الثانية من الهجرة، فالله أعلم .

وقد ذم الله سبحانه الذين يصومون ولا يتصدقون، كما ذكر عن أصحاب الجنة في سورة «ن»: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ . وَلَا يَسْتَنْتُونَ . فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ . فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ أي: كالليل المدلهم سوداء محترقة ﴿فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ . أَنْ أَغْدُوا عَلَىٰ حَرِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ . فَاثْقَلُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ . أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ . وَغَدُوا عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أي: قوة وجلد وهمة ﴿قَادِرِينَ . فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ . قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ . قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ . عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ . كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ١٧-٣٣].

وقوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ قيل: معناه: ولا تسرفوا في الإعطاء، فتعطوا فوق المعروف .

وقال أبو العالية: كانوا يعطون يوم الحصاد شيئاً، ثم تباروا فيه وأسرفوا، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ .

وقال ابن جريج^(٣): نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، جدّ نخلا . فقال: لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته . فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ رواه ابن جرير، عنه .

وقال ابن جريج، عن عطاء: ينهى عن السرف في كل شيء .

وقال إياس بن معاوية: ما جاوزت به أمر الله فهو سرف .

وقال السدي في قوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ قال: لا تعطوا أموالكم، فتقعوا فقراء .

وقال سعيد بن المسيب ومحمد بن كعب، في قوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ قال: لا تمنعوا الصدقة فتعصوا .

(١) ورواه النحاس في النسخ المنسوخ (ص ٤٢٧): حدثنا الحسن بن غليب، حدثنا عمران بن أبي عمران، حدثنا ابن لهيعة عن دراج عن أبي الهيثم يروي عن أبي الهيثم مناكير .

(٣) في م: «ابن جرير» .

(٢) في أ: «رحمهم» .

ثم اختار ابن جرير قول عطاء: إنه نهى عن الإسراف في كل شيء. ولا شك أنه صحيح، لكن الظاهر - والله أعلم - من سياق الآية حيث قال تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا [إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ]﴾^(١) أن يكون عائداً إلى الأكل، أى: ولا تسرفوا في الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا [إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ]﴾^(٢) [الأعراف: ٣١]، وفي صحيح البخارى تعليقا: «كلوا واشربوا، والبسوا وتصدقوا، فى غير إسراف ولا مخيلة»^(٣). وهذا من هذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشٌ﴾ أى: وأنشأ لكم من الأنعام ما هو حمولة وما هو فرش، قيل: المراد بالحمولة ما يحمل عليه من الإبل، والفرش الصغار منها. كما قال الثورى، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص، عن عبد الله فى قوله: ﴿حَمُولَةٌ﴾: ما حمل عليه من الإبل، ﴿فَرَشٌ﴾ وقال: الصغار من الإبل.

رواه الحاكم، وقال: صحيح ولم يخرجاه.

وقال ابن عباس: الحمولة: الكبار، والفرش [هى]^(٤) الصغار من الإبل. وكذا قال مجاهد.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشٌ﴾: فأما الحمولة فالإبل والخيول والبغال والحمير وكل شيء يحمل عليه، وأما الفرش فالغنم.

واختاره ابن جرير، قال: وأحسبه إنما سمي فرشاً لدنوه من الأرض.

وقال الربيع بن أنس، والحسن، والضحاك، وقتادة: الحمولة: الإبل والبقر، والفرش: الغنم.

وقال السدى: أما الحمولة فالإبل، وأما الفرش فالفُصْلان والعجّاجيل والغنم، وما حمل عليه فهو حمولة.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الحمولة ما تركبون، والفرش ما تأكلون وتحلبون، شاة لا تحمل، تأكلون لحمها وتتخذون من صوفها لحافاً وفرشاً^(٥).

وهذا الذى قاله عبد الرحمن فى تفسير هذه الآية الكريمة حسن يشهد له قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ. وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١، ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ نَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ. [وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ]﴾^(٦)، إلى أن قال: ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: ٦٩ - ٨٠]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لَتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ. وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ

(١) زيادة من م، أ.

(٢) زيادة من أ، وفى هـ: «الآية».

(٣) صحيح البخارى (٢٥٢/١٠) «فتح»، وقد وصله ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر برقم (٥١) فرواه من طريق همام، عن قتادة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عمرو، رضى الله عنه.

(٤) زيادة من أ.

(٥) فى م، أ: «وفرشاً».

(٦) زيادة من أ.

آيَاتِ اللَّهِ تُكْرَهُونَ ﴿ غافر: ٧٩ - ٨١ ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أى: من الثمار والزروع والأنعام، فكلها خلقها الله [تعالى] ^(١) وجعلها رزقاً لكم، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أى: طرائقه وأوامره، كما اتبعها المشركون الذين حرموا ما رزقهم الله، أى: من الثمار والزروع افتراء على الله، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ﴾ أى: إن الشيطان - أيها الناس - لكم ﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أى: بين ظاهر العداوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَآتِهِمَا﴾ الآية [الأعراف: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]. والآيات فى هذا كثيرة فى القرآن .

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) ﴿

وهذا بيان لجهل العرب قبل الإسلام فيما كانوا حرّموا من الأنعام، وجعلوها أجزاءً وأنواعاً: بحيرة، وسائبة، ووصيلة وحاماً، وغير ذلك من الأنواع التى ابتدعوها فى الأنعام والزروع والثمار، فبين ^(٢) أنه تعالى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات، وأنه أنشأ من الأنعام حمولة وفرشا. ثم بين أصناف الأنعام إلى غنم وهو بياض وهو الضأن، وسواد وهو المعز، ذكره وأنثاه، وإلى إبل ذكورها وإنائها، وبقر كذلك. وأنه تعالى لم يحرم شيئاً من ذلك ولا شيئاً من أولاده، بل كلها مخلوقة لبنى آدم، أكلا، وركوباً، وحمولة، وحلباً، وغير ذلك من وجوه المنافع، كما قال [تعالى] ^(٣): ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ الآية [الزمر: ٦].

وقوله: ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾ ردّ عليهم فى قولهم: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾.

وقوله: ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: أخبرونى عن يقين: كيف حرم الله عليكم ^(٤) ما زعمتم تحريمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك؟.

وقال العوفى عن ابن عباس قوله: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾: فهذه أربعة أزواج، ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ﴾ يقول: لم أحرم شيئاً من ذلك

(٣) زيادة من أ.

(٢) فى أ: «وبين».

(١) زيادة من م، أ.

(٤) فى م، أ: «عليهم».

﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيِّينَ﴾ يعني: هل يشمل الرحم إلا على ذكر أو أنثى فلم تحرمون بعضا وتحلون بعضا؟^(١) ﴿نَبُؤُنِي يَعْلَمُ إِنَّكُمْ صَادِقِينَ﴾ يقول: كله حلال.

وقوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا﴾: تهكم بهم فيما ابتدعوه وافتروه على الله، من تحريم ما حرموه من ذلك، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أى: لا أحد أظلم منه، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وأول من دخل فى هذه الآية: عمرو بن لُحَيٍّ بن قَمْعَةَ، فإنه أول من غير دين الأنبياء، وأول من سيب السوائب، ووصل الوصيلة، وحمى الحامى، كما ثبت ذلك فى الصحيح^(٢).

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤٥).

يقول تعالى أمراً عبده ورسوله محمداً، صلوات الله وسلامه عليه: قل لهؤلاء الذين حرموا ما رزقهم الله افتراء على الله: ﴿لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ أى: أكل يأكله. قيل: معناه: لا أجد شيئاً مما حرمت حراماً سوى هذه. وقيل: معناه: لا أجد من الحيوانات شيئاً^(٣) حراماً سوى هذه. فعلى هذا يكون ما ورد من التحريمات بعد هذا فى سورة «المائدة»، وفى الأحاديث الواردة، رافعاً لمفهوم هذه الآية.

ومن الناس من يسمى ذلك نسخاً، والأكثرون من المتأخرين لا يسمونه نسخاً؛ لأنه من باب رفع مباح الأصل، والله أعلم.

قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ يعني: المهرق.

قال عكرمة فى قوله: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾: لولا هذه الآية لتبع الناس ما فى العروق، كما تتبعه اليهود.

وقال حماد، عن عمران بن حدير قال: سألت أبا مجلز عن الدم، وما يتلطح من الذبح من الرأس، وعن القدر يرى فيها الحمرة، فقال: إنما نهى الله عن الدم المسفوح. وقال قتادة: حرم من الدماء ما كان مسفوحاً، فأما لحم خالطه دم فلا بأس به.

وقال ابن جرير: حدثنا المثني، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد، عن يحيى بن سعيد، عن القاسم، عن عائشة: أنها كانت لا ترى بلحوم السباع بأساً، والحمرة والدم يكونان على^(٤) القدر بأساً، وقرأت هذه الآية. صحيح غريب^(٥).

وقال الحميدى: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار قال: قلت لجابر بن عبد الله: إنهم يزعمون

(١) زيادة من أ.

(٢) سبق ذكر الحديث عند الآية: ١٠٣ من سورة المائدة وتخريجه هناك.

(٣) فى م: «شيئاً من الحيوانات». (٤) فى م، أ: «يكون فى أعلى».

(٥) تفسير الطبرى (١٢/١٩٤).

أن رسول الله ﷺ نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر، فقال: قد كان يقول ذلك «الحكم بن عمرو» عن رسول الله ﷺ، ولكن أبى ذلك البحر - يعنى ابن عباس - وقرأ: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ الآية.

وهكذا رواه البخارى عن على بن المدينى، عن سفيان، به. وأخرجه أبو داود من حديث ابن جريج، عن عمرو بن دينار. ورواه الحاكم فى مستدركه مع أنه فى صحيح البخارى، كما رأيت^(١).

وقال أبو بكر بن مردويه والحاكم فى مستدركه: حدثنا محمد بن على بن دحيم، حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين، حدثنا محمد بن شريك، عن عمرو بن دينار، عن أبى الشعثاء، عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذرا، فبعث الله نبيه وأنزل كتابه، وأحل حلاله وحرم حرامه، فما أحل فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، وتلا هذه الآية: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ [إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا]﴾^(٢) إلى آخر الآية.

وهذا لفظ ابن مردويه. ورواه أبو داود منفرداً به، عن محمد بن داود بن صبيح، عن أبى نعيم، به. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، عن سماك بن حرب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ماتت شاة لسودة بنت زمعة، فقالت: يا رسول الله، ماتت فلانة - تعنى الشاة - قال: «فلم لا^(٤) أخذتم مسكها؟». قالت: نأخذ مسك شاة قد ماتت؟! فقال لها رسول الله ﷺ: «إنما قال الله: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ﴾، وإنكم لا تطعمونه، أن تدبغوه فتنتفعوا به». فأرسلت فسلخت مسكها فدبغته، فاتخذت منه قرية، حتى تخرقت عندها^(٥).

ورواه البخارى والنسائى، من حديث الشعبى، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن سودة بنت زمعة، بذلك أو نحوه^(٦).

وقال سعيد بن منصور: حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن عيسى بن نُمَيْلَةَ الفزارى، عن أبيه قال: كنت عند ابن عمر، فسأله رجل عن أكل القنفذ، فقرأ عليه: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ [إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ]﴾^(٧) الآية، فقال شيخ عنده: سمعت

(١) مسند الحميدى (٣٧٩/٢) ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٥٢٩) لكنه من مسند جابر بن زيد رضى الله عنه، ورواه أبو داود فى السنن برقم (٣٨٠٨) من طريق عمرو بن دينار، عن رجل، عن جابر بن عبد الله، رضى الله عنه، ولا عتب على الحاكم، فإنه رواه فى مستدركه (٣١٧/٢) من طريق عمرو بن دينار، عن جابر بن عبد الله من مسنده، ثم إنه حدد مقصوده بقوله: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة».

(٢) زيادة من م.

(٣) المستدرک (١١٥/٤) وسنن أبى داود برقم (٣٨٠٠).

(٤) فى م: «فلولا».

(٥) المسند (٣٢٧/١).

(٦) صحيح البخارى برقم (٦٦٨٦) وسنن النسائى (١٧٣/٧).

(٧) زيادة من أ.

أبا هريرة يقول: ذكر عند النبي ﷺ فقال: «خبيثة من الخبائث». فقال ابن عمر: إن كان النبي ﷺ قاله فهو كما قال.

ورواه أبو داود، عن أبي ثور، عن سعيد بن منصور، به^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أى: فمن اضطر إلى أكل شيء مما حُرِّمَ فى هذه الآية الكريمة، وهو غير متلبس ببغى ولا عدوان، ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى: غفور له، رحيم به. وقد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة البقرة بما فيه كفاية.

والمقصود من سياق هذه الآية الكريمة الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه، من تحريم المحرمات على أنفسهم بأرائهم الفاسدة من البَحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك، فأمر [الله]^(٢) رسوله أن يخبرهم أنه لا يجد فيما أوحاه الله إليه أن ذلك محرم، وإنما حُرِّمَ ما ذكر فى [هذه]^(٣) الآية، من الميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به. وما عدا ذلك فلم يحرم، وإنما هو عفو مسكوت عنه، فكيف تزعمون [أنتم]^(٤) أنه حرام، ومن أين حرمتوه ولم يحرمه [الله]^(٥)؟ وعلى هذا فلا يبقى تحريم أشياء آخر فيما بعد هذا، كما جاء النهى عن لحوم الحمر ولحوم السباع، وكل ذى مخلب من الطير، على المشهور من مذاهب^(٦) العلماء.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦)﴾.

قال ابن جرير: يقول تعالى: وحرمنا على اليهود ﴿كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾، وهو من البهائم والطير ما لم يكن مشقوق الأصابع، كالإبل والنعامة^(٧) والإوز والبط. قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾: وهو البعير والنعامة. وكذا قال مجاهد، والسدى فى رواية^(٨).

وقال سعيد بن جبير: هو الذى ليس بمنفرج الأصابع، وفى رواية عنه: كل شيء متفرق الأصابع، ومنه الديك.

وقال قتادة فى قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾. وكان يقال: البعير والنعامة وأشياء من الطير والحيتان. وفى رواية: البعير والنعامة، وحرم عليهم من الطير: البط وشبهه، وكل شيء ليس بمشقوق الأصابع.

وقال ابن جريج: عن مجاهد: ﴿كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ قال: النعامة والبعير، شقا شقا. قلت للقاسم ابن أبى بزة وحديثه: ما «شقا شقا»؟ قال: كل ما لا يفرج^(٩) من قول البهائم. قال: وما انفرج أكلته

(١) سنن أبى داود برقم (٣٧٩٩).

(٢) فى أ: «مذهب».

(٣) (٥ - ٣) زيادة من م، أ.

(٤) زيادة من م.

(٥) فى م: «ما لم ينفرج».

(٦) فى م، أ: «فى رواية والسدى».

(٧) فى م: «والأنعام».

اليهود قال: انفرجت قوائم البهائم والعصافير، قال: فيهود تأكلها. قال: ولم تنفرج قائمة البعير، خفه، ولا خف النعامة ولا قائمة الوز، فلا تأكل اليهود الإبل ولا النعام ولا الوز، ولا كل شيء لم تنفرج قائمته، ولا تأكل حمار وحش.

وقوله: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شَحُومُهُمَا﴾ قال السدى: [يعنى] ^(١): الثَّرب وشحم الكليتين. وكانت اليهود تقول ^(٢): إنه حرمه إسرائيل فنحن نحرمه. وكذا قال ابن زيد.

وقال قتادة: الثَّرب وكل شحم ^(٣) كان كذلك ليس فى عظم.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾: يعنى: ما علق بالظهر من الشحوم.

وقال السدى وأبو صالح: الآية، مما ^(٤) حملت ظهورهما.

وقوله: ﴿أَوِ الْحَوَايَا﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير: ﴿الْحَوَايَا﴾: جمع، واحدها حاوية، وحاوية وحوية وهو ما تحوى ^(٥) من البطن فاجتمع واستدار، وهى بنات اللبن، وهى «المباعر»، وتسمى «المرباض»، وفيها الأمعاء.

قال: ومعنى الكلام: ومن البقر والغنم حرما عليهم شحومهما، إلا ما حملت ظهورهما، أو ما حملت الحوايا ^(٦).

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿أَوِ الْحَوَايَا﴾: وهى المبرع.

وقال مجاهد: ﴿الْحَوَايَا﴾: المبرع، والمربض. وكذا قال سعيد بن جبير، والضحاك، وقاتدة، وأبو مالك، والسدى.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿الْحَوَايَا﴾: المرباض التى تكون فيها الأمعاء، تكون وسطها، وهى بنات اللبن، وهى فى كلام العرب تدعى المرباض.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ أى: وإلا ما اختلط من الشحوم بالعظام فقد أحلله لهم.

وقال ابن جريج: شحم الآية اختلط بالعُصْعُص، فهو حلال. وكل شيء فى القوائم والجنب والرأس والعين وما اختلط بعظم، فهو حلال، ونحوه قال ^(٧) السدى.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ أى: هذا التضييق إنما فعلناه بهم وألزمناهم ^(٨) به، مجازاة لهم على بغْيهم ومخالفتهم أوامرنا، كما قال تعالى: ﴿فَظَلَمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠].

(١) زيادة من م، أ.

(٢) فى م، أ: «يقولون».

(٣) فى أ: «شيء».

(٤) فى د، م: «ما».

(٥) فى م: «ما يحوى».

(٦) تفسير الطبرى (٢٠٣/١٢).

(٧) فى أ: «والزمناء».

(٨) فى أ: «قاله».

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أى: وإنا لعادلون فيما جازيناهم به.

وقال ابن جرير: وإنا لصادقون فيما أخبرناك به يا محمد من تحريمنا ذلك عليهم، لا كما زعموا من أن إسرائيل هو الذى حرمه على نفسه، والله أعلم.

وقال عبد الله بن عباس: بلغ عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أن سمرة باع خمرًا، فقال: قاتل الله سمرة! ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها».

أخرجاه من حديث سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن طاوس، عن ابن عباس، عن عمر، به.

وقال الليث: حدثني يزيد بن أبي حبيب قال: قال عطاء بن أبي رباح: سمعت جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول عام الفتح: «إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام». فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة، فإنه يدهن بها الجلود ويُطلى بها السفن، ويستصبغ بها الناس. فقال: «لا، هو حرام». ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «قاتل الله اليهود، إن الله لما حرم عليهم شحومها جمّلوه، ثم باعوه وأكلوا ثمنه».

رواه الجماعة من طرق، عن يزيد بن أبي حبيب، به^(١).

وقال الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قاتل الله اليهود^(٢)! حرمت عليهم الشحوم، فباعوها^(٣) وأكلوا ثمنه».

ورواه البخارى ومسلم جميعًا، عن عبدان، عن ابن المبارك، عن يونس، عن الزهرى، به^(٤).

وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم، حدثنا إسماعيل بن إسحاق، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا وهيب، حدثنا خالد الحذاء، عن بركة أبي الوليد، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ كان قاعدًا خلف المقام، فرفع بصره إلى السماء فقال: «لعن الله اليهود - ثلاثًا - إن الله حرم عليهم الشحوم، فباعوها وأكلوا ثمنها، إن الله لم يحرم على قوم أكل شيء إلا حرم عليهم ثمنه»^(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا على بن عاصم، أنبأنا خالد الحذاء، عن بركة أبي الوليد، أنبأنا ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ قاعدًا فى المسجد مستقبلًا الحجر، فنظر إلى السماء فضحك، ثم

(١) صحيح البخارى برقم (٢٢٣٦) وصحيح مسلم برقم (١٥٨١). وسنن أبى داود برقم (٣٤٨٦) وسنن الترمذى برقم (١٢٩٧)

وسنن النسائى (٣٠٩/٧) وسنن ابن ماجه برقم (٢١٦٧).

(٤) فى أ: «رواه».

(٣) فى م، أ: «فباعوه».

(٢) فى م: «يهود».

(٥) صحيح البخارى برقم (٢٢٢٤) وصحيح مسلم برقم (١٥٨٣).

قال: «لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها، وإن الله إذا حرم على قوم أكل شيء حرم عليهم ثمنه».

ورواه أبو داود، من حديث خالد الحذاء^(١).

وقال الأعمش، عن جامع بن شداد، عن كلثوم، عن أسامة بن زيد قال: دخلنا على رسول الله ﷺ وهو مريض نعوذ، فوجدناه نائما قد غطى وجهه ببرد عدنى، فكشف عن وجهه وقال^(٢): «لعن الله اليهود يحرمون شحوم الغنم ويأكلون أثمانها»، وفى رواية: «حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها»^(٣).

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧) ﴾.

يقول تعالى: فَإِنْ كَذَّبُوكَ^(٤) - يا محمد - مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم، فقل: ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ وهذا ترغيب لهم فى ابتغاء رحمة الله الواسعة، واتباع رسوله، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ترهيب لهم من^(٥) مخالفتهم الرسول خاتم النبيين. وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب فى القرآن، كما قال تعالى فى آخر هذه السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الآية: ١٦٥]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وقال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]، وقال [تعالى]^(٦): ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ. إِنَّهُ هُوَ يُدْعَى وَيُعِيدُ. وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ [البروج: ١٢-١٤]، والآيات فى هذا كثيرة جداً.

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلْمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠) ﴾.

هذه مناظرة ذكرها الله تعالى وشبهة تشبث بها المشركون فى شركهم وتحريم ما حرموا؛ فإن الله

(١) ورواه ابن عبد البر فى التمهيد (٤٤/٩) من طريق هشيم، عن خالد الحذاء به.

(٢) فى أ: «فقال».

(٣) المسند (٢٤٧/١) وسنن أبى داود برقم (٣٤٨٨).

(٤) فى م، أ: «كذبوك».

(٥) فى م: «فى».

(٦) زيادة من أ.

مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه، وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان، أو يحول بيننا وبين الكفر، فلم يغيره، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾، كما فى قوله [تعالى] (١): ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ] (٢) [الزخرف: ٢٠]، وكذلك (٣) الآية التى فى «النحل» مثل هذه سواء (٤)، قال (٥) الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أى: بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء. وهى حجة داحضة باطلة؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه، ودمر عليهم، وأدال عليهم رسله الكرام، وأذاق المشركين من أليم الانتقام.

﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى: بأن الله [تعالى] (٦) راض عنكم فيما أنتم فيه ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ أى: فتظهِروه لنا وتبينوه وتبرزوه، ﴿إِنْ تَبْعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أى: الوهم والخيال. والمراد بالظن ههنا: الاعتقاد الفاسد. ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أى: تكذبون على الله فيما ادعيتموه.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس [رضى الله عنهما] (٧): ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ وقال: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، ثم قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: ١٠٧]، فإنهم قالوا: عبادتنا الآلهة تقربنا إلى الله زُلْفَى فأخبرهم الله أنها لا تقربهم، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ (٨)، يقول تعالى: لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، يقول [تعالى] (٩) لنبىه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم - يا محمد: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ أى: له الحكمة التامة، والحجة البالغة فى هداية من هدى، وإضلال من أضل، ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويُبغض الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ (١٠) [يونس: ٩٩]، وقوله (١١): ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

قال الضحاك: لا حجة لأحد عصى الله، ولكن لله الحجة البالغة على عبادة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُكُمْ﴾ أى: أحضروا شهداءكم ﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ أى: هذا الذى حرمتموه وكذبتهم وافترتكم على الله فيه، ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أى: لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذبًا وزورًا، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ

(١) زيادة من م، أ. (٢) فى أ: «وكذا».

(٣) الآية: ٣٥ وهى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

(٤) فى م: «وقال».

(٥) زيادة من م.

(٦) زيادة من م.

(٧) زيادة من م.

(٨) فى أ: «أشركنا» وهو خطأ، والصواب: «أشركوا» الآية: ١٠٧ من سورة الأنعام.

(٩) زيادة من م، أ.

(١٠) فى م: «وقال تعالى».

بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥١﴾ أى: يشركون به، ويجعلون له عديلاً.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطْنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾.

قال داود الأودى، عن الشعبي، عن علقمة، عن ابن مسعود، رضى الله عنه، قال: من أراد أن يقرأ صحيفة رسول الله ﷺ التى عليها خاتمه، فليقرأ هؤلاء^(١) الآيات: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وقال الحاكم فى مستدركه: حدثنا بكر بن محمد الصيرفى بمرو، حدثنا عبد الصمد بن الفضل، حدثنا مالك بن إسماعيل النهدي، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عبد الله بن خليفة قال: سمعت ابن عباس يقول: فى^(٢) الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب، ثم قرأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ [أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا]﴾^(٣).

ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه^(٤).

قلت: ورواه زهير وقيس بن الربيع كلاهما عن أبى إسحاق، عن عبد الله بن قيس، عن ابن عباس، به. والله^(٥) أعلم.

وروى الحاكم أيضاً فى مستدركه^(٦) من حديث يزيد بن هارون، عن سفيان بن حسين، عن الزهرى، عن أبى إدريس، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم يبايعنى على ثلاث؟» - ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، حتى فرغ من الآيات - فمن وفى فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئاً فآذركه الله به فى الدنيا كانت عقوبته^(٧)، ومن آخر إلى الآخرة فأمره إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه.

ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وإنما اتفقا على حديث الزهرى، عن أبى إدريس، عن عبادة: «بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئاً» الحديث. قد روى سفيان بن حسين كلا الحديثين، فلا ينبغى أن ينسب إلى الوهم فى أحد الحديثين إذا جمع بينهما، والله أعلم^(٨).

وأما تفسيرها فيقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: قل يا محمد - لهؤلاء المشركين الذين [أشركوا و]^(٩) عبدوا غير الله، وحرّموا ما رزقهم الله، وقتلوا أولادهم وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم، ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿تَعَالَوْا﴾ أى: هلموا وأقبلوا: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أى: أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقاً لا تخرصاً، ولا ظناً، بل وحياً منه وأمرًا من عنده:

(١) فى م: «هذه».

(٢) فى م، أ: «إن فى».

(٣) زيادة من أ.

(٤) المستدرک (٣١٧/٢).

(٥) فى م، أ: «فالله».

(٦) فى أ: «فى مسنده» وهو خطأ.

(٧) فى م: «عقوبة».

(٨) المستدرک (٣١٨/٢). أما الحديث الذى اتفق عليه الشيخان من حديث الزهرى، فرواه البخارى فى صحيحه برقم (١٨) ومسلم فى

صحيحه برقم (١٧٠٩).

(٩) زيادة من أ.

﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، وكأن في الكلام محذوفًا دل عليه السياق، وتقديره: وأوصاكم^(١) ﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾؛ ولهذا قال في آخر الآية: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وكما قال الشاعر:

حَجَّ وَأَوْصَى بِسُلَيْمَى الْأَعْبُدَا
أَنْ لَا تَرَى وَلَا تُكَلِّمَ أَحَدَا

وَلَا يَزَلْ شَرَابُهَا مُبَرَّدَا^(٢).

وتقول العرب: أمرتك ألا تقوم.

وفي الصحيحين من حديث أبي ذر، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتانى جبريل فبشرنى أنه من مات لا يشرك بالله شيئًا من أمتك، دخل الجنة. قلت: وإن زنا وإن سرق؟ قال: وإن زنا وإن سرق. قلت: وإن زنا وإن سرق؟ قال: وإن زنا وإن سرق، وإن شرب الخمر»: وفي بعض^(٣) الروايات أن القائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله ﷺ، وأنه، عليه^(٤) السلام، قال فى الثالثة: «وإن رغم أنفُ أبى ذر»^(٥). فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث: وإن رغم أنف أبى ذر.

وفي بعض المسانيد والسنن عن أبى ذر [رضى الله عنه]^(٦) قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، إنك ما دعوتنى ورجوتنى فإنى أغفر لك على ما كان منك ولا أبالى، ولو أتيتنى بقراب الأرض خطيئة أتيك بقرابها مغفرة ما لم تشرك بى شيئًا، وإن أخطأت حتى تبلغ خطاياك عنان السماء ثم استغفرتنى، غفرت لك»^(٧).

ولهذا شاهد فى القرآن، قال الله تعالى^(٨): ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود: «من مات لا يشرك بالله شيئًا، دخل الجنة»^(٩). والآيات والأحاديث فى هذا كثيرة جدًا.

وروى ابن مردويه من حديث عبادة وأبى الدرداء: «لا تشركوا بالله شيئًا، وإن قُطِّعتم أو صُلِّبتم أو حُرِّقتم»^(١٠).

(١) فى د، أ: «ووصاكم»، وفى م: «أوصاكم».

(٢) الرجز فى تفسير الطبرى (١٢/٢١٦).

(٣) فى م: «قلت: وفى بعض».

(٤) صحيح البخارى برقم (١٢٣٧) وصحيح مسلم برقم (٩٤).

(٥) زيادة من أ.

(٦) رواه أحمد فى مسنده (١٥٤/٥) والترمذى فى السنن برقم (٢٤٩٥) وابن ماجه فى السنن برقم (٤٢٥٧) وقال الترمذى: «هذا حديث حسن».

(٨) فى أ: «عز وجل».

(٩) صحيح مسلم برقم (٩٢).

(١٠) أما حديث أبى الدرداء، فرواه الطبرانى فى المعجم الكبير كما فى معجم الزوائد (٤/٢١٦) من طريق شهر بن حوشب، عن أم الدرداء عن أبى الدرداء به.

قال الهيثمى: «فيه شهر بن حوشب وحديثه حسن، وبقيه رجاله ثقات». وأما حديث عبادة فهو الآتى.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عَوْف الحمصى، حدثنا ابن أبى مريم، حدثنا نافع بن يزيد حدثنى سيار بن عبد الرحمن، عن يزيد بن قَوْذَر، عن سلمة بن شَرْيَح، عن عبادة بن الصامت قال: أوصانا رسول الله ﷺ بسبع خصال: «ألا تشركوا بالله شيئاً، وإن حرقتم وقطعتم وصلبتن»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أى: وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحساناً، أى: أن تحسنوا إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقرأ بعضهم: «ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً».

والله تعالى كثيراً ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين، كما قال: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ. وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤، ١٥]. فأمر بالإحسان إليهما، وإن كانا مشركين بحسبهما، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية [البقرة: ٨٣]. والآيات فى هذا كثيرة. وفى الصحيحين عن ابن مسعود، رضى الله عنه، قال: سألت رسول الله ﷺ: أى العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أى؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أى؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله». قال ابن مسعود: حدثنى بهن رسول الله ﷺ، ولو استزدته^(٢) لزادنى^(٣).

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه بسنده عن أبى الدرداء، وعن عبادة بن الصامت، كل منهما يقول: أوصانى خليلى ﷺ: «أطع والديك، وإن أمراك أن تخرج لهما من الدنيا، فافعل»^(٤).

ولكن فى إسنادهما ضعف، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾: لما أوصى^(٥) تعالى ببر الآباء والأجداد، عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾، وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سَوَّلَ لهم الشياطين ذلك، فكانوا يثدون البنات خشية العار، وربما قتلوا بعض الذكور خيفة الافتقار؛ ولهذا جاء فى الصحيحين، من حديث عبد الله ابن مسعود، رضى الله عنه، قلت: يا رسول الله، أى الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قلت: ثم أى؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك». قلت: ثم أى؟ قال: «أن تزانى حليلة جارك». ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ [وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا]﴾^(٦) [الفرقان: ٦٨]^(٧).

(١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير كما فى الزوائد (٢١٦/٤) وقال الهيثمى: «فيه سلمة بن شريح قال الذهبى: لا يعرف، وبقيّة رجاله رجال الصحيح».

(٢) فى أ: «استزدت».

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٩٧٠) وصحيح مسلم برقم (٨٥).

(٤) سبق تخريجهما من رواية الطبرانى فى المعجم الكبير . (٥) فى د، م: «وصى» . (٦) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية» .

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٤٧٧) وصحيح مسلم برقم (٦٨).

وقوله: ﴿مَنْ إِمْلَاقٍ﴾ قال ابن عباس، وقتادة، والسدي: هو الفقر، أى: ولا تقتلوهم من فقرهم الحاصل، وقال فى سورة «سبحان»: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] أى: خشية^(١) حصول فقر، فى الآجل؛ ولهذا قال هناك: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، فبدأ برزقهم للاهتمام بهم، أى: لا تخافوا من فقركم بسببهم، فرزقهم على الله. وأما فى هذه الآية فلما كان الفقر حاصلًا، قال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾؛ لأنه الأهم هاهنا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. وقد تقدم تفسيرها فى قوله: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

وفى الصحيحين، عن ابن مسعود، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حَرَّمَ الفواحش ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ»^(٢).

وقال عبد الملك بن عُمير، عن وَرَّاد، عن مولاة المغيرة قال: قال سعد بن عباد: لو رأيت مع امرأتى رجلاً لضربته بالسيف غير مُصَفَّح. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أتعجبون من غيرة سعد! فوالله لأنا أغير من سعد، والله أغير منى، من أجل ذلك حَرَّمَ الفواحش ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ». أخرجاه^(٣).

وقال كامل أبو العلاء، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قيل: يا رسول الله، إنا^(٤) نغار. قال: «والله إني لأغار، والله أغير منى، ومن غيرته نهى عن الفواحش»^(٥).

رواه ابن مَرْدُويه، ولم يخرججه أحد من أصحاب الكتب الستة، وهو على شرط الترمذى، فقد روى بهذا السند: «أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين»^(٦).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، وهذا مما نص تبارك وتعالى على النهى عنه تأكيداً، وإلا فهو داخل فى النهى عن الفواحش ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ، فقد جاء فى الصحيحين، عن ابن مسعود، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»^(٧).

(١) فى م: «خيفة»، وفى أ: «ضيقة».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٦٣٤) وصحيح مسلم برقم (٢٧٦٠).

(٣) صحيح البخارى برقم (٦٨٤٦) وصحيح مسلم برقم (١٤٩٩).

(٤) فى م: «أما».

(٥) ورواه أحمد فى مسنده (٣٢٦/٢) من طريق كامل به، قال الهيثمى فى المجمع (٣٢٨/٤): «فيه كامل أبو العلاء، وفيه كلام لا يضر وهو ثقة، وبقية رجاله رجال الصحيح».

(٦) سنن الترمذى برقم (٢٣٣١) وقال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب من حديث أبى صالح عن أبى هريرة، وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة».

(٧) صحيح البخارى برقم (٦٨٧٨) وصحيح مسلم برقم (١٦٧٦).

وفى لفظ لمسلم^(١): «والذى لا إله غيره لا يحل دم رجل مسلم...» وذكره، قال الأعمش: فحدثت به إبراهيم، فحدثني عن الأسود، عن عائشة [رضى الله عنها]^(٢)، بمثله^(٣).

وروى أبو داود، والنسائي، عن عائشة، رضى الله عنها؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث خصال: زان مُحْصَن يُرْجَم، ورجل قتل رجلاً مُتَعَمِّداً فيقتل، ورجل يخرج من الإسلام حارب الله ورسوله، فيقتل أو يصلب أو ينفى من الأرض». وهذا لفظ النسائي^(٤).

وعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه، أنه قال وهو محصور: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إسلامه، أو زنا بعد إحصائه، أو قتل نفساً بغير نفس». فوالله ما زنت في جاهلية ولا إسلام، ولا تمنيت أن لى بدنى بدلا منه بعد إذ هدانى الله، ولا قتلت نفساً، فبم تقتلوننى. رواه الإمام أحمد، والترمذى، والنسائي، وابن ماجه. وقال الترمذى: هذا حديث حسن^(٥).

وقد جاء النهى والزجر والوعيد فى قتل المعاهد - وهو المستأمن من أهل الحرب - كما رواه البخارى، عن عبد الله بن عمرو، رضى الله عنهما، عن النبى ﷺ قال: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد^(٦) من مسيرة أربعين عاماً»^(٧).

وعن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «من قتل معاهداً له ذمة الله وذمة رسوله، فقد أخفر بذمة الله، فلا يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً». رواه ابن ماجه، والترمذى وقال: حسن صحيح^(٨).

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أى: هذا ما^(٩) وصاكم به لعلكم تعقلون عنه أمره ونهيه.

﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١٥٢).

قال عطاء بن السائب، عن سعيد بن جببر، عن ابن عباس قال: لما أنزل الله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ و ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ الآية [النساء: ١٠]، فانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله

(١) فى م: «مسلم». (٢) زيادة من أ.

(٣) صحيح مسلم برقم (١٦٧٦).

(٤) سنن أبى داود برقم (٤٣٥٣) وسنن النسائي (١٠١/٧).

(٥) المسند (٦٣/١) وسنن الترمذى برقم (٢١٥٨) وسنن النسائي (٩٢/٧) وسنن ابن ماجه برقم (٢٥٣٣).

(٦) فى د، م، أ: «يوجد».

(٧) صحيح البخارى برقم (٣١٦٦).

(٨) سنن ابن ماجه برقم (٢٦٨٧) وسنن الترمذى برقم (١٤٠٣).

(٩) فى أ: «عما».

ويفسد. فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله [عز وجل]^(١): ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، قال: فخلطوا طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشرابهم. رواه أبو داود.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ قال الشعبي، ومالك، وغير واحد من السلف: يعنى: حتى يحتلم.

وقال السدى: حتى يبلغ ثلاثين سنة، وقيل: أربعون سنة، وقيل: ستون سنة. قال: وهذا كله بعيد ههنا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾: يأمر تعالى بإقامة العدل فى الأخذ والإعطاء، كما توعده على تركه فى قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ. الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ. أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ. لِيَوْمٍ عَظِيمٍ. يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١-٦]. وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال والميزان.

وفى كتاب الجامع لأبى عيسى الترمذى، من حديث الحسين بن قيس أبى على الرحبي، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لأصحاب الكيل والميزان: «إنكم ولستم أمراً هلك فيه الأمم السالفة قبلكم». ثم قال: لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحسين، وهو ضعيف فى الحديث، وقد روى بإسناد صحيح عن ابن عباس موقوفاً^(٢).

قلت: وقد رواه ابن مردويه فى تفسيره، من حديث شريك، عن الأعمش، عن سالم بن أبى الجعد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم معشر الموالي قد بشركم الله بخصلتين بها هلك القرون المتقدمة: المكيال والميزان»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿لَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أى: من اجتهد فى أداء الحق وأخذه، فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه.

وقد روى ابن مردويه من حديث بَقِيَّة، عن مبشر^(٥) بن عبيد، عن عمرو بن ميمون بن مهران، عن أبيه، عن سعيد بن المسيب قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فقال: «من أوفى على يده فى الكيل والميزان، والله يعلم صحة نيته بالوفاء فيهما، لم يؤاخذ». وذلك تأويل ﴿وُسْعَهَا﴾. هذا مرسل غريب^(٦).

(١) زيادة من أ.

(٢) سنن الترمذى برقم (١٢١٧) ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٥٢٨٨) وابن عدى فى الكامل (٣٥٢/٢) من طريق الحسين بن قيس أبى على الرحبي به.

(٣) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٣/٣٨٥).

(٥) فى أ: «مبشر».

(٤) فى أ: «لا يكلف الله».

(٦) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٣/٣٨٤) ولم يعزه لأحد غيره، وفى إسناده مبشر بن عبيد الحمصى. قال أحمد: كان يضع الحديث، وقال البخارى: روى عنه بقیة، منكر الحديث.

وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ [وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ]﴾^(١) [المائدة: ٨]، وكذا التي تشبهها في سورة النساء [الآية: ١٣٥]، يأمر تعالى بالعدل في الفعال والمقال، على القريب والبعيد، والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد، في كل وقت، وفي كل حال.

وقوله: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ قال ابن جرير: يقول وبوصية الله التي أوصاكم بها فأوفوا. وإيفاء ذلك: أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم، وتعملوا بكتابه وسنة رسوله، وذلك هو الوفاء بعهد الله.

﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يقول تعالى: هذا وصاكم به، وأمركم به، وأكد عليكم فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أى: تتعظون وتنتهون عما^(٢) كنتم فيه قبل هذا، وقرأ بعضهم بتشديد «الذال»، وآخرون بتخفيفها.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١٥٣).

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، وقوله: ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، ونحو هذا فى القرآن، قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة^(٣)، وأخبرهم أنه إنما^(٤) هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات فى دين الله ونحو هذا. قاله^(٥) مجاهد، وغيره واحد.

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا الأسود بن عامر: شاذان، حدثنا أبو بكر - هو ابن عياش - عن عاصم - هو ابن أبى النجود - عن أبى وائل، عن عبد الله - هو ابن مسعود، رضى الله عنه - قال: خط رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيماً». وخط على يمينه وشماله، ثم قال: «هذه السُّبُل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه». ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾.

وكذا رواه الحاكم، عن الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار، عن أبى بكر بن عياش، به. وقال: صحيح [الإسناد]^(٦)، ولم يخرجاه^(٧).

وهكذا رواه أبو جعفر الرازى، وورقاء وعمرو بن أبى قيس، عن عاصم، عن أبى وائل شقيق ابن سلمة، عن ابن مسعود به مرفوعاً نحوه.

وكذا رواه يزيد بن هارون ومُسَدَّد والنسائى، عن يحيى بن حبيب بن عربى - وابن حبان، من

(٣) فى أ: «والفرقة».

(٦) زيادة من م.

(٢) فى م: «وتنتهون بما».

(٥) فى أ: «قال».

(١) زيادة من م، أ.

(٤) فى م: «لما».

(٧) المسند (٤٦٥/١) والمستدرک (٣١٨/٢).

حديث ابن وهب - أربعتهم عن حماد بن زيد، عن عاصم، عن أبي وائل، عن ابن مسعود، به.

وكذا رواه ابن جرير، عن المثني، عن الحماني، عن حماد بن زيد، به.

ورواه الحاكم عن أبي بكر بن إسحاق، عن إسماعيل بن إسحاق القاضي، عن سليمان بن حرب، عن حماد بن زيد، به كذلك. وقال: صحيح ولم يخرجاه^(١).

وقد روى هذا الحديث النسائي والحاكم، من حديث أحمد بن عبد الله بن يونس، عن أبي بكر ابن عياش، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله بن مسعود. به مرفوعاً^(٢).

وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث يحيى الحماني، عن أبي بكر بن عياش، عن عاصم، عن زر، به.

فقد صححه الحاكم كما رأيت من الطريقتين، ولعل هذا الحديث عند عاصم بن أبي النجود، عن زر، وعن أبي وائل شقيق بن سلمة كلاهما عن ابن مسعود، به، والله أعلم.

قال الحاكم: وشاهد هذا الحديث حديث الشعبي عن جابر، من وجه غير معتمد^(٣).

يشير إلى الحديث الذي قال الإمام أحمد، وعبد بن حميد جميعاً - واللفظ لأحمد: حدثنا عبد الله ابن محمد - وهو أبو بكر بن أبي شيبة - أنبأنا أبو خالد الأحمر، عن مجالد، عن الشعبي، عن جابر قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ، فخط خطأ هكذا أمامه، فقال: «هذا سبيل الله». وخطين عن يمينه، وخطين عن شماله، وقال: «هذه سبيل^(٤) الشيطان». ثم وضع يده في الخط الأوسط، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

ورواه ابن ماجه في كتاب السنة من سننه، والبخاري عن أبي سعيد بن عبد الله بن سعيد، عن أبي خالد الأحمر، به^(٥).

قلت: ورواه الحافظ ابن مردويه من طريقين، عن أبي سعيد الكندي، حدثنا أبو خالد، عن مجالد، عن الشعبي، عن جابر قال: خط رسول الله ﷺ خطأ، وخط عن يمينه خطأ، وخط عن يساره خطأ، ووضع يده على الخط الأوسط^(٦)، وتلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾^(٧).

(١) النسائي في السنن الكبرى برقم (١١١٧٤) وتفسير الطبري (١٢/ ٢٣٠) والمستدرك (٢/ ٣١٨).

(٢) النسائي في السنن الكبرى برقم (١١١٧٥) والمستدرك (٢/ ٢٣٩).

(٣) المستدرك (٢/ ٣١٨).

(٤) في م، أ: «سبل».

(٥) المسند (٣/ ٣٩٧) وسنن ابن ماجه برقم (١١) وقال البوصيري في الزوائد (١/ ٤٥): «هذا إسناد فيه مقال من أجل مجالد بن سعيد».

(٦) في د، م: «الأسود».

(٧) وفي إسناده مجالد بن سعيد فيه كلام.

ولكن العمدة على حديث ابن مسعود، مع ما فيه من الاختلاف إن كان مؤثراً، وقد روى موقوفاً عليه.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن أبان؛ أن رجلاً قال لابن مسعود: ما الصراط المستقيم؟ قال: تركنا محمد ﷺ في أدناه، وطرفه في الجنة، وعن يمينه جواد، وعن يساره جواد، وثم رجال يدعون من مر بهم. فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة. ثم قرأ ابن مسعود: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الآية (١).

وقال ابن مردويه: حدثنا أبو عمرو، حدثنا محمد بن عبد الوهاب، حدثنا إسماعيل ابن عياش، حدثنا أبان بن عياش، عن مسلم بن أبي عمران، عن عبد الله بن عمر: سأل عبد الله عن الصراط المستقيم، فقال [له] (٢) ابن مسعود: تركنا محمد ﷺ في أدناه، وطرفه في الجنة، وذكر تمام الحديث كما تقدم، والله أعلم.

وقد روى من حديث النّوّاس بن سَمْعَانَ نحوه، قال الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن سَوار أبو العلاء، حدثنا ليث - يعني ابن سعد - عن معاوية بن صالح؛ أن عبد الرحمن بن جبير بن نفير حدثه، عن أبيه، عن النّوّاس بن سَمْعَانَ، عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعن جَنَّتِي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيها (٣) الناس، ادخلوا الصراط المستقيم جميعاً، ولا تتفرجوا (٤) وداع يدعو من جوف (٥) الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك. لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم».

ورواه الترمذي والنسائي، عن (٦) علي بن حُجْر - زاد النسائي - وعمرو بن عثمان، كلاهما عن بَقِيَّة بن الوليد، عن بَحِير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن جُبَيْر بن نفير، عن النّوّاس بن سَمْعَانَ، به (٧). وقال الترمذي: حسن غريب.

وقوله: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (٨)، إنما وحد [سبحانه] (٩) سَبِيلَهُ لأن (١٠) الحق واحد؛ ولهذا جمع لتفرقها وتشعبها، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ فِي الظُّلُمَاتِ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٢٣٠).

(٢) زيادة من م. (٣) في د، م: «أيها».

(٤) في أ: «من فوق».

(٥) في أ: «من حديث».

(٦) في أ: «من حديث».

(٧) المسند (٢/ ١٨٢) وسنن الترمذي برقم (٢٨٥٩) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٢٣٣).

(٨) زيادة من أ. (٩) زيادة من م.

(١٠) في أ: «لأنه».

هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿البقرة: ٢٥٧﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا سفيان بن حسين، عن الزهري، عن أبي إدريس الخولاني، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم يبايعني على هذه^(١) الآيات الثلاث؟». ثم تلا: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، حتى فرغ من ثلاث الآيات، ثم قال: «ومن وقى بهن أجره على الله، ومن انتقص منهن شيئا أدركه^(٢) الله في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء أخذه، وإن شاء عفا عنه^(٣)».

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥)﴾.

قال ابن جرير: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ تقديره: ثم قل - يا محمد - مخبراً عنا بأننا آتينا موسى الكتاب، بدلالة قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾.

قلت: وفي هذا نظر، وثم ههنا إنما هي لعطف الخبر بعد الخبر، لا للترتيب ههنا، كما قال الشاعر:

قُلْ لِمَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ثُمَّ قَدْ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُهُ^(٤)

وههنا لما أخبر الله تعالى عن القرآن بقوله: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾، عطف بمدح التوراة ورسولها، فقال: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾. وكثيراً ما يقرن سبحانه^(٥) بين ذكر القرآن والتوراة، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانٍ عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف: ١٢]، وقوله [في]^(٦) أول هذه السورة: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا يَتَذَكَّرُونَ وَتَخْشَوْنَ كَثِيرًا﴾ [الآية: ٩١]، وبعدها: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢]، وقال تعالى مخبراً عن المشركين: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ قال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾ [القصص: ٤٨]، وقال تعالى مخبراً عن الجن أنهم قالوا: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا﴾ أى: آتيناه الكتاب الذى أنزلناه إليه تماماً كاملاً جامعاً لجميع ما يحتاج إليه فى شريعته، كما قال: ﴿وَكُتِّبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الآية [الأعراف: ١٤٥].

(٢) فى أ: «فأدركه».

(١) فى م: «هؤلاء».

(٣) ورواه الحاكم فى المستدرک (٣١٨/٢) من طريق يزيد بن هارون به.

(٤) لم أعرف قائله.

(٦) زيادة من أ.

(٥) فى أ: «الله تعالى».

(٧) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية».

وقوله: ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أى: جزاء على إحسانه فى العمل، وقيامه بأوامرنا وطاعتنا، كقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وكقوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا [قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ]﴾^(١) [البقرة: ١٢٤]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ يقول: أحسن فيما أعطاه الله.

وقال قتادة: من أحسن فى الدنيا تم له ذلك فى الآخرة.

واختار ابن جرير أن تقدير الكلام: ﴿[ثُمَّ] آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا﴾ على إحسانه. فكأنه جعل «الذى» مصدرية، كما قيل فى قوله تعالى: ﴿وَحُضِّتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩] أى: كخوضهم وقال ابن رَوَاحَةَ:

فَثَبَّتَ اللَّهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنٍ فى المرسلين ونصراً كالذى نُصِرُوا^(٣)
وقال آخرون: الذى ههنا بمعنى «الذين».

قال ابن جرير: وقد ذكر عن عبد الله بن مسعود: أنه كان يقرأها: «تماماً على الذين أحسنوا».

وقال ابن أبى نجيع، عن مجاهد: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ قال: على المؤمنين والمحسنين، وكذا قال أبو عبيدة. قال البغوى: والمحسنون: الأنبياء والمؤمنون، يعنى: أظهرنا فضله عليهم.

قلت: كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، ولا يلزم اصطفاؤه على محمد ﷺ خاتم الأنبياء والخليل، عليهما السلام لأدلة آخر.

قال ابن جرير: وروى أبو عمرو بن العلاء عن يحيى بن يعمر أنه كان يقرأها: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾، رفعا، بتأويل: «على الذى هو أحسن»، ثم قال: وهذه قراءة لا أستجيز القراءة بها، وإن كان لها فى العربية وجه صحيح.

وقيل: معناه: تماماً على إحسان الله إليه زيادة على ما أحسن الله إليه، حكاه ابن جرير، والبغوى.

ولا منافاة بينه وبين القول الأول، وبه جمع ابن جرير كما بيناه، والله الحمد.

وقوله: ﴿وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾: فيه مدحٌ لكتابه الذى أنزله الله عليه، ﴿لَعَلَّهُمْ بَلَقَاءُ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾. وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون: فيه الدعوة إلى اتباع القرآن ووصفه بالبركة لمن اتبعه وعمل به فى الدنيا والآخرة.

﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ (١٥٦)

(١، ٢) زيادة من أ.

(٣) البيت فى السيرة النبوية لابن هشام (٣٧٤/٢).

أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيَّاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

قال ابن جرير: معناه: وهذا كتاب أنزلناه لئلا يقولوا: ﴿إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾. يعنى: لينقطع عذرهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ [وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ]﴾^(٢) [القصص: ٤٧]. وقوله: ﴿عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: هم اليهود والنصارى وكذا قال مجاهد، والسدى، وقتادة، وغير واحد.

وقوله: ﴿وَأَن كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ أى: وما كنا نفهم ما يقولون؛ لأنهم ليسوا بلساننا، ونحن مع ذلك فى شغل وغفلة عما هم فيه.

وقوله: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ أى: وقطعنا تعلُّكم أن تقولوا: لو أنَّا أنزل علينا ما أنزل عليهم لكننا أهدى منهم فيما أتوه، كقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنُجِئَنَّكُمْ نَذِيرٌ لِّكُونَ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ [فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا]﴾^(٣) [فاطر: ٤٢]، وهكذا قال هاهنا: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ يقول: فقد جاءكم من الله على لسان محمد ﷺ النبى العربى قرآن عظيم، فيه بيان للحلال والحرام، وهدى لما فى القلوب، ورحمة من الله بعبادة الذين يتبعونه ويقتفون ما فيه.

وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيَّاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أى: لم ينتفع بما جاء به الرسول، ولا اتبع ما أرسل به، ولا ترك غيره، بل صدَّف عن اتباع آيات الله، أى: صرف الناس وصدَّهم عن ذلك قاله السدى.

وعن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾: أعرض عنها.

وقول السدى ههنا فيه قوة؛ لأنه قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيَّاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾، كما تقدم فى أول السورة: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الآية: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زَادَنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]، وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾.

وقد يكون المراد فيما^(٤) قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيَّاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أى: لا آمن بها ولا عمل بها، كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾. ولكن كَذَبَ وَتَوَلَّى [القيامة: ٣١، ٣٢]، ونحو ذلك من الآيات الدالة على اشتغال الكافر على التكذيب بقلبه، وترك

(٢) زيادة من أ، وفى هـ: «الآية».

(٤) فى م: «كما».

(١) فى أ: «لقالوا».

(٣) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية».

العمل بجوارحه، ولكن المعنى الأول أقوى وأظهر، والله [تعالى] ^(١) أعلم.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ (١٥٨).

يقول تعالى متوعداً للكافرين به، والمخالفين رسله والمكذبين بآياته، والصادقين عن سبيله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾، وذلك كائن يوم القيامة. ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [يَوْمَ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ] ^(٢) الآية، وذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة وأشراتها كما قال البخاري في تفسير هذه الآية:

حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا عبد الواحد، حدثنا عمارة، حدثنا أبو زرعة، حدثنا أبو هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا رَأَاهَا النَّاسُ آمَنَ مِنْ عَلَيْهَا. فَذَلِكَ حِينَ ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾».

حدثنا إسحاق، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَأَاهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، وَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا» ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ.

هكذا روى هذا الحديث من هذين الوجهين ^(٣). ومن الوجه الأول أخرجه بقية الجماعة في كتبهم إلا الترمذى، من طرق، عن عمارة بن القَعْقَاعِ بن شُبْرُمَةَ، عن أَبِي زُرْعَةَ بن ^(٤) عمرو بن جرير، عن أَبِي هُرَيْرَةَ، به ^(٥).

وأما الطريق الثانى: فرواه عن إسحاق، غير منسوب، فقليل: هو ابن منصور الكوسج، وقيل: إسحاق بن نصر ^(٦) والله أعلم.

وقد رواه مسلم عن محمد بن رافع النيسابورى، كلاهما عن عبد الرزاق، به ^(٧).

وقد ورد هذا الحديث من طرق أخر عن أبي هريرة، كما انفرد مسلم بروايته من حديث العلاء ابن عبد الرحمن بن يعقوب مولى الحرقة، عن أبيه، عن أبي هريرة، به ^(٨).

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا ابن فضيل، عن أبيه، عن أبي جازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ».

(١) زيادة من م.

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٦٣٥)، (٤٦٣٦).

(٣) فى أ: «عن».

(٤) صحيح مسلم برقم (١٥٧) وسنن أبى داود برقم (٤٣١٢) والسنن الكبرى برقم (١١١٧٧) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٦٨).

(٥) قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى (٢٩٧/٨): «جزم خلف بأنه ابن نصر، وأبو مسعود بأنه ابن منصور، وقول خلف أقوى».

(٦) صحيح مسلم برقم (١٥٧).

(٧) صحيح مسلم برقم (١٥٧).

ورواه أحمد، عن وكيع، عن فضيل بن غزوان، عن أبي حازم سلمان، عن أبي هريرة به، وعنده: «والدخان».

ورواه مسلم، عن أبي بكر بن أبي شيبة، وزهير بن حرب، عن وكيع^(١).

ورواه هو أيضا والترمذي، من غير وجه، عن فضيل بن غزوان، به^(٢).

ورواه إسحاق بن عبد الله الفروي، عن مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة. ولكن لم يخرج به أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه، لضعف الفروي، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا شعيب بن الليث، عن أبيه، عن جعفر بن ربيعة، عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت آمن الناس كلهم، وذلك ﴿حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل﴾ الآية»^(٣).

ورواه ابن لهيعة، عن الأعرج، عن أبي هريرة، به. ورواه وكيع، عن فضيل بن غزوان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، به.

أخرج هذه الطرق كلها الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره.

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن يحيى، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن أيوب، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها، قبل منه».

لم يخرج به أحد من أصحاب الكتب الستة^(٤).

حديث آخر عن أبي ذر الغفاري: في الصحيحين وغيرهما، من طرق، عن إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر جندب بن جنادة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «تدري أين تذهب الشمس إذا غربت؟». قلت: لا أدري، قال: «إنها تنتهي دون العرش، ثم تخر ساجدة، ثم تقوم حتى يقال لها: ارجعي^(٥) فيوشك يا أبا ذر أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت، وذلك حين: ﴿لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل﴾»^(٦).

حديث آخر عن حذيفة بن أسيد أبي سريحة الغفاري، رضى الله عنه:

قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا سفيان، عن قرأت، عن أبي الطفيل، عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة، ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة

(١) تفسير الطبري (٢٦٥/١٢) والمسند (٤٤٥/٢) وصحيح مسلم برقم (١٥٨).

(٢) صحيح مسلم برقم (١٥٨) وسنن الترمذي برقم (٣٠٧٢).

(٣) تفسير الطبري (٢٥٥/١٢).

(٤) تفسير الطبري (٢٥٦/١٢) ورواه أحمد في مسنده (٢٧٥/٢) من طريق عبد الرزاق به.

(٥) في د: «ارفعي».

(٦) صحيح البخاري برقم (٤٨٠٣) وصحيح مسلم برقم (١٥٩).

حتى تَرَوْا عشر آيات: طُلُوع الشمس من مَغْرِبِهَا، والدُّخَانُ، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خُسُوف: خُسُوفٌ بالمغرب، وخُسُوفٌ بالشرق، وخُسُوفٌ بجزيرة العرب، ونار تخرج من قَعْرِ عَدَنَ تسوق - أو: تحشر - الناس، تبيت معهم حيث باتوا، وتَقِيلُ معهم حيث قالوا.

وهكذا رواه مسلم وأهل السنن الأربعة^(١)، من حديث فرات القَزَّاز، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، عن حذيفة بن أسيد، به. وقال الترمذى: حسن صحيح.

حديث آخر عن حذيفة بن اليمان، رضى الله عنه:

قال الثورى، عن منصور، عن رُبْعِي، عن حذيفة قال: سألت النبی ﷺ فقالت: يا رسول الله، ما آية طلوع الشمس من مغربها؟ فقال النبی ﷺ: «تطول تلك الليلة حتى تكون قَدْرُ ليلتين، فبينما الذين كانوا يصلون فيها، يعملون^(٢) كما كانوا يعملون قبلها والنجوم لا تسرى، قد قامت مكانها، ثم يرقدون، ثم يقومون فيصلون، ثم يرقدون، ثم يقومون فيطل عليهم جنوبهم، حتى يتناول عليهم الليل، فيفزع الناس ولا يصبحون، فبينما هم^(٣) ينتظرون طلوع الشمس من مشرقها إذ طلعت من مغربها، فإذا رآها الناس آمنوا، ولا يتفهم إيمانهم».

رواه ابن مردويه، وليس فى الكتب الستة من هذا الوجه^(٤)، والله أعلم.

حديث آخر عن أبى سعيد الخدرى - واسمه: سعد بن مالك بن سنان - رضى الله عنه وأرضاه:

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا ابن أبى ليلى، عن عطية العوفى، عن أبى سعيد الخدرى، عن النبی ﷺ: «يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا» قال: «طلوع الشمس من مغربها».

ورواه الترمذى، عن سفيان بن وكيع، عن أبيه، به. وقال: غريب، ورواه بعضهم ولم يرفعه^(٥).

وفى حديث طالوت بن عباد، عن فضال بن جبيرة، عن أبى أمامة صُدِّيَّ بن عَجَلَانَ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ أَوَّلَ الْآيَاتِ طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(٦).

وفى حديث عاصم بن أبى النُّجُود، عن زَرِّ بن حُبَيْش، عن صفوان بن عَسَّال قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ فَتَحَ بَابًا قَبْلَ الْمَغْرَبِ عَرْضُهُ سَبْعُونَ عَامًا لِلتَّوْبَةِ»، قال: «لَا»^(٧) يغلق

(١) المسند (٧/٤) وصحيح مسلم برقم (٢٩٠١) وسنن أبى داود برقم (٤٣١١) وسنن الترمذى برقم (٢١٨٣) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٤١).

(٢) فى أ: «رسول الله». (٣) فى أ: «فيعملون». (٤) فى أ: «هم كذلك».

(٥) ذكره السيوطى فى اللآلئ المصنوعة (٣١/١) قال ابن مردويه: «حدثنا محمد بن على بن سهل، حدثنا محمد بن يوسف الرازى، حدثنا إدريس بن على الرازى، حدثنا يحيى بن الضريس، عن سفيان الثورى فذكره».

(٦) المسند (٣١/٣) وسنن الترمذى برقم (٣٠٧١) وقد رواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٧٩/١٥) من طريق وكيع، عن ابن أبى ليلى به موقوفا.

(٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط كما فى مجمع الزوائد (٩/٨) وقال الهيثمى: «فيه فضال بن جبيرة وهو ضعيف، وقد أنكر هذا الحديث».

(٨) فى م: «إن».

حتى تطلع الشمس منه». رواه الترمذى وصححه النسائى، وابن ماجه فى حديث طويل^(١).

حديث آخر عن عبد الله بن أبى أوفى:

قال ابن مردويه: حدثنا محمد بن على بن دُحيم، حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا ضرار بن صرد، حدثنا ابن فضيل، عن سليمان بن زيد، عن عبد الله بن أبى أوفى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليأتين على الناس ليلة تعدل ثلاث ليال من ليااليكم هذه، فإذا كان ذلك يعرفها المتفلون، يقوم أحدهم فيقرأ حزبه، ثم ينام، ثم يقوم فيقرأ حزبه، ثم ينام. فبينما هم كذلك إذ صاح الناس بعضهم فى بعض فقالوا: ما هذا؟ فيفزعون إلى المساجد، فإذا هم بالشمس قد طلعت من مغربها، فضجَّ الناس ضجة واحدة، حتى إذا صارت فى وسط السماء رجعت وطلعت من مطلعها». قال: «حينئذ لا ينفع نفساً إيمانها».

هذا حديث غريب من هذا الوجه^(٢)، وليس هو فى شيء من الكتب الستة.

حديث آخر عن عبد الله بن عمرو^(٣):

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا أبو حيان، عن أبى زُرعة بن عمرو بن جرير قال: جلس ثلاثة نفر من المسلمين إلى مروان بالمدينة فسمعوه يقول - وهو يحدث فى الآيات -: إن أولها خروج الدجال. قال: فانصرف نفر إلى عبد الله بن عمرو، فحدثوه بالذى سمعوه من مروان فى الآيات، فقال^(٤): لم يقل مروان شيئاً قد حفظت من رسول الله ﷺ فى مثل ذلك حديثاً لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة ضحى، فأيتهما كانت قبل صاحبتهما فالأخرى على أثرها». ثم قال عبد الله - وكان يقرأ الكتب -: وأظن أولها خروجا طلوع الشمس من مغربها، وذلك أنها كلما غربت أتت تحت العرش فسجدت واستأذنت فى الرجوع فأذن لها فى الرجوع، حتى إذا بدا الله أن تطلع من مغربها فعلت كما كانت تفعل: أتت تحت العرش فسجدت واستأذنت فى الرجوع، فلم يرد عليها شيء، ثم تستأذن فى الرجوع فلا يرد عليها شيء، ثم تستأذن فلا يرد عليها شيء، حتى إذا ذهب من الليل ما شاء الله أن يذهب، وعرفت أنه إذا^(٥) أذن لها فى الرجوع لم تدرك المشرق، قالت: ربى، ما أبعد المشرق. من لى بالناس. حتى إذا صار الأفق كأنه طوق استأذنت فى الرجوع، فيقال لها: من مكانك فاطلعي. فطلعت على الناس من مغربها، ثم تلا عبد الله هذه الآية: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ [أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا]﴾^(٦) الآية.

وأخرجه مسلم فى صحيحه، وأبو داود وابن ماجه، فى سننهما، من حديث أبى حيان التيمى -

(١) سنن الترمذى برقم (٣٥٣٦) وسنن النسائى (٨٣/١) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٧٠).

(٢) ورواه عبد بن حميد كما فى الدر المنثور (٣/٣٩٢).

(٤) فى أ: «فقال عبد الله».

(٣) فى أ: «عمر».

(٦) زيادة من: م، أ.

(٥) فى م: «إن».

واسمه يحيى بن سعيد بن حيان - عن أبي زُرْعَةَ بن عمرو بن جرير، به^(١).

حديث آخر عنه:

قال الطبراني: حدثنا أحمد بن يحيى بن خالد بن حبان الرقي، حدثنا إسحاق بن إبراهيم - بن زبريق الحمصي - حدثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار، حدثنا ابن لهيعة، عن حيى بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحبلي^(٢)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال النبي ﷺ: «إذا طلعت الشمس من مغربها خر إبليس ساجداً ينادى ويجهر: إلهى، مُرنى أن أسجد لمن شئت». قال: «فيجتمع إليه زبانيته فيقولون: يا سيدهم، ما هذا التضرع؟ فيقول: إنما سألت ربي أن يُنظر إلي الوقت المعلوم، وهذا الوقت المعلوم». قال: «ثم تخرج دابة الأرض من صدع في الصفا». قال: «فأول خطوة تضعها بأنطاكيا، فتأتى إبليس فتخطمه»^(٣).

هذا حديث غريب جداً وسنده ضعيف^(٤)، ولعله من الزامتين اللتين أصابهما^(٥) عبد الله بن عمرو يوم اليرموك، فأما رفعه فمكرر، والله أعلم.

حديث آخر عن عبد الله بن عمرو، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، رضى الله عنهم أجمعين:

قال الإمام أحمد: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن ضَمَضَم بن زُرْعَةَ، عن شُرَيْح بن عبيد يردّه إلى مالك بن يُخَامِر، عن ابن السعدى؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يقاتل». فقال معاوية، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمرو بن العاص: إن النبي ﷺ قال: «إن الهجرة خصلتان: إحداهما^(٦) تهجر السيئات، والأخرى تهاجر^(٧) إلى الله ورسوله، ولا تنقطع ما تقبلت التوبة، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب^(٨)، فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه، وكفى الناس العمل». هذا الحديث حسن الإسناد^(٩)، ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة، والله أعلم.

حديث آخر عن ابن مسعود، رضى الله عنه:

قال عوف الأعرابي، عن محمد بن سيرين، حدثني أبو عبيدة، عن ابن مسعود؛ أنه كان يقول: ما ذكر من الآيات فقد مضى غير أربع: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض، وخروج يأجوج ومأجوج. قال: وكان يقول: الآية التي تختتم بها الأعمال طلوع الشمس من مغربها، ألم تر أن الله يقول: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ [لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا] ^(١٠)﴾ الآية كلها، يعنى طلوع

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٤١) وسنن أبي داود برقم (٤٣١٠) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٦٩).

(٢) فى أ: «الجبلى».

(٣) فى أ: «فتلطمه».

(٤) المعجم الكبير للطبرانى برقم (١١١) «القسم المفقود» وقال الهيثمى فى المجمع (٨/٨): «فيه إسحاق بن إبراهيم بن زبريق وهو ضعيف».

(٥) فى أ: «أصابها».

(٦) فى أ: «إحديهما».

(٧) فى م: «مغربها».

(٨) فى م: «مغربها».

(٩) المسند (١٩٢/١) وقال الهيثمى فى المجمع (٢٥١/٥): «ورجال أحمد ثقات».

(١٠) زيادة من أ.

الشمس من مغربها^(١).

حديث ابن عباس، رضى الله عنهما:

رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره من حديث عبد المنعم بن إدريس، عن أبيه، عن وهب ابن منبه، عن ابن عباس [رضى الله عنه]^(٢) مرفوعاً - فذكر حديثاً طويلاً غريباً منكرًا رفعه، وفيه: «أن الشمس والقمر يطلعان يومئذ مقرنين^(٣)، وإذا نَصَفَا السماء رجعا ثم عادا إلى ما كانا عليه». وهو حديث غريب جداً^(٤)، بل منكر، بل موضوع، [والله أعلم]^(٥)، إن ادعى أنه مرفوع، فأما وقفه على ابن عباس أو وهب بن منبه - وهو الأشبه - فغير مدفوع^(٦)، والله أعلم.

وقال سفيان، عن منصور، عن عامر، عن عائشة [رضى الله عنها]^(٧) قالت: إذا خرج أول الآيات، طُرحت الأقلام، وحُبست الحفظة، وشهدت الأجساد على الأعمال. رواه ابن جرير.

فقوله [عز وجل]^(٨): ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ أى: إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لا يقبل منه، فأما من كان مؤمناً قبل ذلك، فإن كان مصلحاً فى عمله فهو بخير عظيم، وإن كان مَخْلَطاً فأحدث توبة حينئذ^(٩) لم تقبل منه توبته، كما دلت عليه^(١٠) الأحاديث المتقدمة، وعليه يحمل قوله تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ أى: ولا يقبل منها كَسْبُ عمل صالح إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك.

وقوله: ﴿قُلْ أَنْتَظِرُوا إِنَّا مُتَنَظِرُونَ﴾: تهديد شديد للكافرين، ووعيد أكيد لمن سَوَّف بإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك. وإنما كان الحكم هذا عند طلوع الشمس من مغربها، لاقترب وقت القيامة، وظهور أشراتها كما قال: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ [محمد: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَاسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسَنَا [سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ]﴾^(١١) [غافر: ٨٤، ٨٥].

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١٥٩).

قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدّي: نزلت هذه الآية فى اليهود والنصارى.

وقال العوفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا﴾، وذلك أن اليهود

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٢/ ٢٦٠).

(٢) زيادة من أ.

(٣) فى م، أ: «مقرنين من المغرب».

(٤) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٣/ ٣٩٦، ٣٩٧) وقال: إسناده واه.

(٥) زيادة من م.

(٦) فى أ: «مرفوع».

(٧) فى أ: «يومئذ».

(٨) فى م، أ، وفى هـ: «الآية».

(٩، ٨) زيادة من أ.

(١٠) فى م: «عليه هذه».

(١١) زيادة من: م، أ، وفى هـ: «الآية».

والنصارى اختلفوا قبل أن يبعث محمد ﷺ، فتفرقوا. فلما بعث [الله] (١) محمداً ﷺ أنزل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ الآية.

وقال ابن جرير: حدثني سعد بن عمرو السكوني، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد: كتب إلى عباد بن كثير، حدثني لَيْثُ، عن طاوس، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ ﴿الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾، وليسوا منك، هم أهل البدع، وأهل الشبهات، وأهل الضلالة، من هذه الأمة» (٢).

لكن هذا الإسناد لا يصح، فإن عباد بن كثير متروك الحديث، ولم يخلق هذا الحديث، ولكنه وَهَمَ فِي رَفْعِهِ. فإنه رواه سفيان الثوري، عن لَيْث - وهو ابن أَبِي سَلِيم - عن طاوس، عن أَبِي هُرَيْرَةَ، فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً﴾ قال: نزلت في هذه الأمة.

وقال أبو غالب، عن أَبِي أَمَامَةَ، فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ (٣) وَكَانُوا شِيعاً قال: هم الخوارج. وروى عنه مرفوعاً، ولا يصح.

وقال شعبة، عن مُجَالِدٍ، عن الشَّعْبِيِّ، عن شُرَيْحٍ، عن عمر [رضى الله عنه] (٤) أن رسول الله ﷺ قال لعائشة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً﴾ قال: «هم أصحاب البدع».

وهذا رواه ابن مَرْدُويَه، وهو غريب أيضاً (٥)، ولا يصح رفعه.

والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿وَكَانُوا شِيعاً﴾ أَى: فرقاً كأهل الملل والنحل - وهى الأهواء والضلالات - فالله (٦) قد برأ رسوله مما هم فيه. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (٧) الآية [الشورى: ١٣]، وفي الحديث: «نحن معاشر الأنبياء أولاد علأت، ديننا واحد».

فهذا هو الصراط المستقيم، وهو ما جاءت به الرسل، من عبادة الله وحده لا شريك له، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء، الرسل برأء منها، كما قال: ﴿لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾.

(١) زيادة من أ.

(٢) تفسير الطبرى (١٢/ ٢٧٠) ورواه الطبراني فى المعجم الأوسط برقم (٣٣٢١) من طريق معلل، عن موسى بن أعين، عن سفيان الثوري، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضى الله عنه به، وقال: «لم يروه عن سفيان إلا موسى تفرد به معلل». ورواه الطبرى فى تفسيره (١٢/ ٢٧٠) على أبي هريرة موقوفاً كما بينه الحافظ ابن كثير.

(٣، ٤) زيادة من أ.

(٥) ورواه الطبراني فى المعجم الأوسط برقم (٣٣٢٠) وأبو نعيم فى الحلية (٤/ ١٣٨) من طريق محمد بن مصفى، عن بَقِيَّةِ بن الوليد، عن شعبة به، وقال الطبراني: «لم يروه عن شعبة إلا بَقِيَّةُ، تفرد به محمد بن مصفى، وهو حديثه».

(٦) فى م: «فإنه».

(٧) زيادة من م، أ.

وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ [إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ]﴾^(١) [الحج: ١٧]. ثم بين فضله يوم القيامة في حكمه وعدله فقال:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٦٠).

وهذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل في الآية الأخرى، وهى قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ [النمل: ٨٩]، وقد وردت الأحاديث مطابقة لهذه الآية، كما قال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: حدثنا عفان، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا الجعد أبو عثمان، عن أبي رجاء العطاردي، عن ابن عباس، رضى الله عنهما^(٢)، عن رسول الله ﷺ، فيما يروى عن ربه، عز وجل^(٣)، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم [عز وجل]^(٤) رحيم، من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرة إلى سبعمائة، إلى أضعاف كثيرة. ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له واحدة، أو يحوها الله، عز وجل، ولا يهلك على الله إلا هالك». ورواه البخارى، ومسلم، والنسائى، من حديث الجعد بن أبى عثمان، به^(٥).

وقال [الإمام]^(٦) أحمد أيضاً: حدثنا معاوية، حدثنا الأعمش، عن المعمر بن سويد، عن أبى ذر، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله، عز وجل: من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد. ومن عمل سيئة فجزاؤه مثلها أو أغفر. ومن عمل قُرَاب الأرض خطيئة ثم لقيني لا يشرك بى شيئاً جعلت له مثلها مغفرة. ومن اقترب إلى شبرا اقتربت إليه ذراعا، ومن اقترب إلى ذراعا اقتربت إليه باعاً، ومن أتانى يمشى أتيت هروكة».

ورواه مسلم عن أبى كريب، عن أبى معاوية، به. وعن أبى بكر بن أبى شيبة، عن وكيع، عن الأعمش، به^(٧). ورواه ابن ماجه، عن على بن محمد الطنافسى، عن وكيع، به^(٨). وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا شيبان، حدثنا حماد، حدثنا ثابت، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرة. ومن هم بسيئة فلم يعملها لم يكتب عليه شيء، فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة»^(٩).

واعلم أن تارك السيئة الذى لا يعملها على ثلاثة أقسام: تارة يتركها لله [عز وجل]^(١٠)، فهذا تكتب له حسنة على كفه عنها لله تعالى، وهذا عمل ونية؛ ولهذا جاء أنه يكتب له حسنة، كما جاء

(١) زيادة من أ، وفى هـ: «الآية».

(٢) فى م: «عنه».

(٣) فى م: «تبارك وتعالى».

(٤) زيادة من م، أ.

(٥) صحيح البخارى برقم (٦٤٩١) وصحيح مسلم برقم (١٣١).

(٦) زيادة من م.

(٧) المسند (١٥٣/٥) وصحيح مسلم برقم (٢٦٨٧).

(٨) سنن ابن ماجه برقم (٣٨٢١).

(٩) مسند أبى يعلى (١٧٠/٦) وقال الهيثمى فى المجمع (١٤٥/١٠): «رجاله رجال الصحيح».

(١٠) زيادة من أ.

فى بعض ألفاظ الصحيح: «فإنما تركها من جرائى»^(١)، أى: من أجلى. وتارة يتركها نسياناً وذُهلًا عنها، فهذا لا له ولا عليه؛ لأنه لم ينو خيراً ولا فعلاً^(٢) شراً. وتارة يتركها عجزاً وكسلاً بعد السعى فى أسبابها والتلبس بما يقرب منها، فهذا يتنزل منزلة فاعلها، كما جاء فى الحديث، فى الصحيحين: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقَاتِل والمَقْتُول فى النار». قالوا: يا رسول الله، هذا القَاتِل، فما بال المَقْتُول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»^(٣).

قال الإمام أبو يعلى الموصلى: حدثنا مجاهد بن موسى، حدثنا على - وحدثنا الحسن بن الصباح وأبو خيثمة - قالوا: حدثنا إسحاق بن سليمان، كلاهما عن موسى بن عبيدة، عن أبى بكر بن عبيد الله ابن أنس، عن جده أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من هم بحسنة كتب الله له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرة. ومن هم بسيئة لم تكتب عليه حتى يعملها، فإن عملها كتبت عليه سيئة، فإن تركها كتبت له حسنة. يقول الله تعالى: إنما تركها من مخافتى».

هذا لفظ حديث مجاهد - يعنى ابن موسى^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا شيبان بن عبد الرحمن، عن الركين بن الربيع، عن أبيه، عن عمه فلان بن عميلة، عن خريم بن فاتك^(٥) الأسدي؛ أن النبى ﷺ قال: «الناس أربعة، والأعمال ستة. فالناس مَوْسَعٌ له فى الدنيا والآخرة، وموسع له فى الدنيا مَقْتُول عليه فى الآخرة، ومقتول عليه فى الدنيا مَوْسَعٌ له فى الآخرة، وشَقِيٌّ فى الدنيا والآخرة. والأعمال مُوجِبَتان، ومثل بمثل، وعشرة أضعاف، وسبعمائة ضعف؛ فالموجبتان^(٦) من مات مُسْلِماً مؤمناً لا يشرك بالله شيئاً وَجَبَتْ له الجنة، ومن مات كافراً وَجِبَتْ له النار. ومن هم بحسنة فلم يعملها، فعلم الله أنه قد أشعرها قلبه وحرَّص عليها، كتبت له حسنة. ومن هم بسيئة لم تكتب عليه، ومن عملها كتبت واحدة ولم تضاعف عليه. ومن عمل حسنة كانت عليه^(٧) بعشرة أمثالها. ومن أنفق نفقة فى سبيل الله، عز وجل، كانت له بسبعمائة ضعف»^(٨).

ورواه الترمذى والنسائى، من حديث الركين بن الربيع، عن أبيه، عن بشير بن عميلة، عن خريم بن فاتك، به ببعضه^(٩). والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عبيد الله بن عمر القواريرى، حدثنا يزيد بن زريع،

(١) جزء من حديث رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٢٩) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

(٢) فى أ: «عمل».

(٣) صحيح البخارى برقم (٣١) وصحيح مسلم برقم (٢٨٨٨) من حديث أبى بكر نافع بن الحارث، رضى الله عنه.

(٤) ذكره الحافظ ابن حجر فى المطالب العالى (٢١٨/٣) ونسبه لأبى يعلى، وفى إسناده موسى بن عبيدة الربذى وهو ضعيف.

(٥) فى أ: «قامت».

(٦) فى أ: «والموجبتان».

(٧) فى م، أ: «له».

(٨) المسند (٣٤٥/٤).

(٩) سنن الترمذى برقم (١٦٢٥) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٠٢٧) وقال الترمذى: «وفى الباب عن أبى هريرة، وهذا حديث حسن إنما نعرفه من حديث الركين بن الربيع».

حدثنا حبيب المعلم، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «يحضر الجمعة ثلاثة نفر: رجل حضرها ببلغه فهو حظُّه منها، ورجل حضرها بدعاء، فهو رجل دعا الله، فإن شاء أعطاه، وإن شاء منعه، ورجل حضرها بإنصات وسكوت ولم يتخطَّ رقبةً مسلم ولم يؤذ أحدًا، فهي^(١) كفارة له إلى الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام؛ وذلك لأن الله يقول: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾»^(٢).

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا هاشم بن مرثد، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثني أبي، حدثني ضَمُصَم بن زرعة، عن شريح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «الجمعة كفارة لما بينها وبين الجمعة التي تليها»^(٣) وزيادة ثلاثة أيام؛ وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾»^(٤).

وعن أبي ذر، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر كله».

رواه الإمام أحمد - وهذا لفظه - والنسائي، وابن ماجه، والترمذي^(٥) وزاد: «فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ اليوم بعشرة أيام»، ثم قال: هذا حديث حسن. وقال ابن مسعود: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾: من جاء بـ «لا إله إلا الله»، ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسِّيئَةِ﴾ يقول: بالشرك.

وهكذا ورد عن جماعة من السلف.

وقد ورد فيه حديث مرفوع - الله أعلم بصحته، لكنى لم أره^(٦) من وجه يثبت - والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة جداً، وفيما ذكر كفاية، إن شاء الله، وبه الثقة.

﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾.

يقول [الله]^(٧) تعالى أمراً نبيه ﷺ سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم الله به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم، الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف: ﴿دِينًا قِيمًا﴾ أى: قائماً ثابتاً، ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كقوله: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ

(١) فى م: «فإنها».

(٢) ورواه أبو داود فى السنن برقم (١١١٣) وابن خزيمة فى صحيحه برقم (١٨١٣) من طريق يزيد بن زريع به.

(٣) فى أ: «قبلها».

(٤) المعجم الكبير (٢٩٨/٣) وقال الهيثمى فى المجمع (١٧٣/٢): «فيه محمد بن إسماعيل بن عياش عن أبيه، قال أبو حاتم: لم يسمع من أبيه شيئاً».

(٥) المسند (١٤٥/٥) وسنن النسائي (٢١٩/٤) وسنن ابن ماجه برقم (١٧٠٨) وسنن الترمذى برقم (٧٦٢).

(٦) فى أ: «لم أروه».

(٧) زيادة من م.

﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]، وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٣].

وليس يلزم من كونه [عليه السلام]^(١) أمر باتباع ملة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها؛ لأنه، عليه السلام^(٢)، قام بها قياماً عظيماً، وأكملت له إكمالاً تاماً لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال؛ ولهذا كان خاتم الأنبياء، وسيد ولد آدم على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود الذي يرهب^(٣) إليه الخلق حتى إبراهيم الخليل، عليه السلام.

وقد قال ابن مردويه: حدثنا محمد بن عبد الله بن حفص، حدثنا أحمد بن عصام، حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا شعبة، أنبأ سلمة بن كهيل، سمعت ذر بن عبد الله الهمداني، يحدث عن ابن أنبزي، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: «أصبحنا على ملة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة [أبينا]^(٤) إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين»^(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ: أى الأديان أحب إلى الله؟ قال: «الحنيفية السمحة»^(٦).

وقال [الإمام]^(٧) أحمد أيضاً: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: وضع رسول الله ﷺ ذقنى على منكبه، لأنظر إلى زفن الحبشة، حتى كنت التى مللت فانصرفت عنه.

قال عبد الرحمن، عن أبيه قال: قال لى عروة: إن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ يومئذ: «لتعلم^(٨) يهود أن فى ديننا فُسْحَةً، إني أرسلت بحنيفية سمحة»^(٩).

أصل الحديث مُخَرَّجٌ فى الصحيحين، والزيادة لها شواهد من طرق عدة، وقد استقصيت طرقها فى شرح البخارى، والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه، أنه مخالف لهم فى ذلك، فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢] أى: أخلص له صلاتك^(١٠) وذبيحتك، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى

(٣) فى م: «يرغب».

(٢) فى أ: «ﷺ».

(١) زيادة من م.

(٤) زيادة من أ.

(٥) ورواه أحمد فى مسنده (٤٠٦/٣) من طريق محمد بن جعفر عن شعبة به، قال الهيثمى فى المجمع (١١٦/١٠): «رجال رجال الصحيح».

(٦) المسند (٢٣٦/١) وقال الهيثمى فى المجمع (٦٠/١): «فيه ابن إسحاق وهو مدلس ولم يصرح بالسماع».

(٨) فى د، م: «ليعلم».

(٧) زيادة من أ.

(٩) المسند (١١٦/٦).

(١٠) فى م: «لصلاتك».

بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى.

قال مجاهد فى قوله: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ قال: النسك: الذبح فى الحج والعمرة.

وقال الثورى، عن السُّدِّى، عن سعيد بن جبير: ﴿وَنُسُكِي﴾ قال: ذبحى. وكذا قال السدى والضحاك.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا أحمد بن خالد الوهيبى، حدثنا محمد بن إسحاق، عن زيد بن أبى حبيب، عن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله قال: ضحى رسول الله ﷺ فى يوم عيد بكبشَيْنِ وقال حين ذبحهما^(١): «وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾»^(٢).

وقوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال قتادة: أى من هذه الأمة.

وهو كما قال، فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقد أخبر تعالى عن نوح أنه قال لقومه: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢]، وقال يوسف، عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقال موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ. فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس: ٨٤ - ٨٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ [بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ]﴾^(٣) الآية [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

فأخبر [الله]^(٤) تعالى أنه بعث رسله بالإسلام، ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التى ينسخ بعضها بعضاً، إلى أن نسخت بشريعة محمد ﷺ التى لا تنسخ أبد الأبد، ولا تزال

(١) فى د: «وجههما».

(٢) وفى إسناده انقطاع، فإن يزيد بن أبى حبيب لم يسمع من ابن عباس، قال الدارقطنى فى العلل: «لم يسمع من أحد من الصحابة».

(٤) زيادة من أ.

(٣) زيادة من م، أ.

قائمة منصورة، وأعلامها مشهورة^(١) إلى قيام الساعة؛ ولهذا قال عليه [الصلاة و]^(٢) السلام: «نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد»^(٣). فإن أولاد العلات هم الأخوة من أب واحد وأمها شتى، فالدين واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات، كما أن إخوة الأخياف^(٤) عكس هذا، بنو الأم الواحدة من آباء شتى، والأخوة الأعيان الأشقاء من أب واحد وأم واحدة، والله أعلم.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله الماجشون، حدثنا عبد الله ابن الفضل الهاشمي، عن الأعرج، عن عبيد الله بن أبي رافع، عن علي رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا كبر استفتح، ثم قال: «وَجْهَتْ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» [الأنعام: ٧٩]، «إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ»، اللهم أنت الملك، لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعاً، لا^(٥) يغفر الذنوب إلا أنت. واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت. واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت. تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك».

ثم ذكر تمام الحديث فيما يقوله في الركوع والسجود والتشهد. وقد رواه مسلم في صحيحه^(٦).
﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (١٦٤).

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه: ﴿أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْغِي رَبًّا﴾ أى: أطلب ربا سواه، وهو رب كل شيء، يربني ويحفظني ويكلؤني ويدبر أمري، أى: لا أتوكل إلا عليه، ولا أنيب إلا إليه؛ لأنه رب كل شيء ومليكه، وله الخلق والأمر.

هذه^(٧) الآية فيها الأمر بإخلاص التوكل، كما تضمنت الآية التي قبلها إخلاص العبادة له^(٨) لا شريك له. وهذا المعنى يقرون بالآخر كثيراً [في القرآن]^(٩)، كما قال^(١٠) تعالى مرشداً لعباده أن يقولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، وقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]، وأشابه ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ إخبار عن الواقع يوم القيامة في

(١) فى أ: «منشورة».

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٤٤٢، ٣٤٤٣) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

(٣) فى أ: «الاختان».

(٤) فى م: «إنه لا».

(٥) المسند (٩٤/١) وصحيح مسلم برقم (٧٧١).

(٦) فى م، أ: «فهذه».

(٧) فى أ: «وحده».

(٨) فى أ: «كقوله».

جزاء الله تعالى وحكمه وعدله، أن النفوس إنما تجازى بأعمالها^(١)، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد. وهذا من عدله تعالى، كما قال: ﴿وَأَن تَدْعُ مَثْقَلَةً إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]، وقوله: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، قال علماء التفسير^(٢): فلا يظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره، ولا يهضم بأن ينقص من حسناته. وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ. إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر: ٣٨، ٣٩]، معناه: كل نفس مرتبته بعملها السيئ إلا أصحاب اليمين، فإنه قد تعود^(٣) بركات أعمالهم الصالحة على ذراريهم، كما قال في سورة الطور: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الآية: ٢١]، أى: ألحقنا بهم ذرياتهم في المنزلة الرفيعة في الجنة، وإن لم يكونوا قد شاركوهم في الأعمال، بل في أصل الإيمان، ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ﴾ أى: أنقصنا أولئك السادة الرفعاء من أعمالهم شيئاً حتى ساويناهم وهؤلاء الذين هم أنقص منهم منزلة، بل رفعهم تعالى إلى منازل الآباء ببركة أعمالهم، بفضلهم ومنتته^(٤)، ثم قال: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] أى: من شر.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أى: اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه، فستعرضون ونعرض عليه، وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم، وما كنا نختلف فيه في الدار الدنيا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ. قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبا: ٢٥، ٢٦].

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٦٥).

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ أى: جعلكم تعمرون الأرض جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، وخلفاً بعد سلف. قاله ابن زيد وغيره، كما قال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠]، وكقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، وقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَهْلِكَ عِدُّوكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أى: فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق، والمحاسن والمساوى، والمناظر والأشكال والألوان، وله الحكمة في ذلك، كقوله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]، وقوله [تعالى]: ﴿وَنَنْظُرُ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

(٣) فى أ: «يعود».

(٢) فى د، م، أ: «العلماء بالتفسير».

(٥) زيادة من أ.

(١) فى م: «بالأعمال».

(٤) فى أ: «ومنته».

وقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ أى: ليختبركم فى الذى أنعم به عليكم وامتحانكم به، ليختبر الغنى فى غناه ويسأله عن شكره، والفقير فى فقره ويسأله عن صبره.

وقد روى مسلم فى صحيحه، من حديث أبى نضرة، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها لينظر كيف^(١) تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء»^(٢).

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: ترهيب وترغيب، أن حسابه وعقابه سريع من^(٣) عصاه وخالف رسله ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن والاه واتبع رسله فيما جاؤوا به من خير وطلب.

وقال محمد بن إسحاق: يرحم العباد على ما فيهم. رواه ابن أبى حاتم.

وكثيرا ما يقرن تعالى فى القرآن بين هاتين الصفتين، كما قال [تعالى]^(٤): وقوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، [وقوله]^(٥): ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦] وغير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها، وتارة بهذا لينجع فى كل بحسبه . جعلنا الله من^(٦) أطاعه فيما أمر، وترك ما عنه نهى وزجر، وصدقه فيما أخبر، إنه قريب مجيب سميع الدعاء، جواد كريم وهاب.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا زهير، عن العلاء، عن أبيه، عن أبى هريرة [رضى الله عنه]^(٧) عن النبى ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بالجنة أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من الجنة أحد، خلق الله مائة رحمة فوضع واحدة بين خلقه يتراحمون بها، وعند الله تسعة وتسعون».

ورواه الترمذى، عن قتيبة، عن عبد العزيز الدراوردى، عن العلاء به. وقال: حسن [صحيح]^(٨).
ورواه مسلم عن يحيى بن يحيى وقتيبة وعلى بن حجر، ثلاثتهم عن إسماعيل بن جعفر، عن العلاء^(٩).

[آخر تفسير سورة الأنعام والله الحمد والمنة]^(١٠)

(١) فى أ: «فناظر ماذا».

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٧٤٢).

(٣) فى أ: «فيمن».

(٤) (٥، ٤) زيادة من أ.

(٥) (٨، ٧) زيادة من أ.

(٦) فى أ: «فيمن».

(٩) المسند (٤٨٤/٢) وسنن الترمذى برقم (٣٥٤٢) ورواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٧٥٢) حدثنا يحيى بن أيوب وقتيبة وابن حجر،

عن إسماعيل بن جعفر به.

(١٠) زيادة من م، أ.

تفسير سورة الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْمَص ١﴾ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ .

قد تقدم الكلام في أول «سورة البقرة» على ما يتعلق بالحروف وبسطه، واختلاف الناس فيه.

وقال ابن جرير: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا أبي، عن شريك، عن عطاء بن السائب، عن أبي الضحى، عن ابن عباس: ﴿الْمَص﴾: أنا الله أفصل وكذا قال سعيد بن جبير.

[قوله] ^(١): ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ أى: هذا كتاب أنزل إليك، أى: من ربك، ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ قال مجاهد، [وعطاء] ^(٢)، وقتادة والسدّي: شك منه.

وقيل: لا تتخرج به فى إبلاغه والإنذار به [واصبر] ^(٣) كما صبر أولو العزم من الرسل؛ ولهذا قال: ﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾ أى: أنزل إليك لتنذر به الكافرين، ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم قال تعالى مخاطباً للعالم: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى: اقتفوا آثار النبی الأمی الذى جاءكم بكتاب أنزل من رب كل شيء ومليكه، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أى: لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره، فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقوله: ﴿وَأَن تَطْعَ أَكْثَرُ مِّنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

﴿وَكَمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ (٤) ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٥) ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٦) ﴿فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ (٧) .

يقول تعالى: ﴿وَكَمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أى: بمخالفة رسلنا وتكذيبهم، فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ

(٤) فى أ: «وكأين».

(٣) زيادة من ك، م، أ.

(٢) زيادة من م.

(١) زيادة من د.

عَلَىٰ عُرُوشَهَا وَيَبْرُ مُعْطَلَةً وَقَصْرٌ مَّشِيدٌ [الحج: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ يَكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

وقوله: ﴿فَجَاءَهَا بِأَسْنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ أى: فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته ﴿بَيَاتًا﴾ أى: ليلاً ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾: من القيلولة، وهى: الاستراحة وسط النهار. وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو^(١)، كما قال [تعالى]: ﴿أَفَأَمِنْ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسًا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ. أَوْ أَمِنْ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسًا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨]، وقال: ﴿أَفَأَمِنْ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ. أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ. أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥ - ٤٧].

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أى: فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم، وأنهم حقيقون بهذا. كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ. فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَاسِهَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ. لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ. قَالُوا يَا وَلَدُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ. فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٥].

وقال ابن جرير: فى هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ من قوله: «ما هلك قوم حتى يُعذروا من أنفسهم»، حدثنا بذلك ابن حميد، حدثنا جرير، عن أبى سنان، عن عبد الملك بن ميسرة الزرّاد قال: قال عبد الله بن مسعود [رضى الله عنه]^(٤): قال رسول الله ﷺ: «ما هلك قوم حتى يُعذروا من أنفسهم». قال: قلت لعبد الملك: كيف يكون ذلك؟ قال: فقرأ هذه الآية: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾^(٥).

وقوله: ﴿فَلَنَسْتَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية، كقوله [تعالى]: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩]، فالربُّ تبارك وتعالى يوم القيامة يسأل الأمم عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضا عن إبلاغ^(٧) رسالاته؛ ولهذا قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، فى تفسير هذه الآية: ﴿فَلَنَسْتَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال: يسأل الله الناس عما أجابوا المرسلين، ويسأل المرسلين عما بلغوا.

وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحسن، حدثنا أبو سعيد الكندى، حدثنا المحاربى، عن ليث، عن نافع، عن ابن عمر [رضى الله عنهما]^(٨) قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»، فالإمام يُسأل عن الرجل^(٩)،

(١) فى ك: «لهو وغفلة».

(٢) زيادة من أ.

(٣) زيادة من ك، د، أ، وفى هـ: «إلى قوله».

(٤) زيادة من أ.

(٥) تفسير الطبرى (٣٠٤/١٢).

(٦) زيادة من ك، م، أ.

(٧) فى ك، م: «بلاغ».

(٨) زيادة من أ.

(٩) فى ك: «عن رعيته».

والرجل يسأل عن أهله^(١)، والمرأة تسأل عن بيت زوجها، والعبد يسأل عن مال سيده». قال الليث: وحدثني ابن طاوس، مثله، ثم قرأ: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٢).

وهذا الحديث مُخَرَّجٌ فِي الصَّحِيحِينَ بِدُونِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ^(٣).

وقال ابن عباس: ﴿فَلَنَقْصَنَّ عَلَيْهِمْ يَعْلَمُ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾: يوضع الكتاب يوم القيامة، فيتكلم بما كانوا يعملون، ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ يعنى: أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا، من قليل وكثير، وجليل وحقيق؛ لأنه تعالى شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يغفل عن شيء، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفى الصدور، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَالْوِزْنُ يُوَمِّدُ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩).

يقول [تبارك و] ^(٤) تعالى: ﴿وَالْوِزْنُ﴾ أى: للأعمال ^(٥) يوم القيامة ﴿الْحَقُّ﴾ أى: لا يظلم تعالى أحداً، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ . وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ . فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ . نَارُ حَامِيَةٍ﴾ [القارعة: ٦ - ١١]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ . فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١ - ١٠٣].

فصل:

والذى يوضع فى الميزان يوم القيامة^(٦) قيل: الأعمال وإن كانت أعراضاً، إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً.

قال البغوى: يروى هذا عن ابن عباس^(٧)، كما جاء فى الصحيح من أن «البقرة» و «آل عمران» يأتیان^(٨) يوم القيامة كأنهما غمامتان - أو: غيأتان - أو فرقان من طير صَوَافٍ. من ذلك فى الصحيح قصة القرآن وأنه يأتى صاحبه فى صورة شاب شاحب اللون، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذى

(١) فى أ: «أهل بيته».

(٢) وفى إسناده عبد الرحمن بن محمد المحاربى، قال ابن معين: يروى المناكير عن المجهولين، ولكن روى من وجه آخر عن نافع عن ابن عمر وفى الصحيحين.

(٣) صحيح البخارى برقم (٥١٨٨) وصحيح مسلم برقم (١٨٢٩).

(٤) زيادة من أ.

(٥) فى ك: «الأعمال».

(٦) فى ك: «يوم القيامة فى الميزان».

(٧) معالم التنزيل للبغوى (٣/ ٢١٥).

(٨) فى أ: «تأتیان».

أسهرت ليلك وأظمأت نهارك^(١). وفى حديث البراء، فى قصة سؤال القبر: «فيأتى المؤمن شابٌ حسن اللون طيبٌ الريح، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عمك الصالح»^(٢). وذكر عكسه فى شأن الكافر والمنافق.

وقيل: يوزن كتاب الأعمال، كما جاء فى حديث البطاقة، فى الرجل الذى يؤتى به ويوضع له فى كِفِّه تسعة وتسعون سجلاً، كل سَجَلٍ مَدَّ البصر، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها: «لا إله إلا الله» فيقول: يارب، وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول الله تعالى: إنك لا تُظَلِّم. فتوضع تلك البطاقة فى كفة الميزان. قال رسول الله ﷺ: «فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ، وَثَقُلَتِ البطاقة».

رواه الترمذى بنحو من هذا^(٣)، وصححه.

وقيل: يوزن صاحب العمل، كما فى الحديث: «يُؤْتَى يوم القيامة بالرجل السَّمين، فلا يَزِنُ عند الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ»^(٤). ثم قرأ: ﴿فَلَا نَقِمْ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

وفى مناقب عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «أتعجبون من دِقَّةِ سَاقِيهِ، فوالذى^(٥) نفسى بيده لهما فى الميزان أثقل من أحد»^(٦).

وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً، فتارة^(٧) توزن الأعمال، وتارة توزن محالها، وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (١٠).

يقول تعالى ممتنا على عبده^(٨) فيما مكن لهم من أنه جَعَلَ الأرض قراراً، وجعل لها رواسى وأنهاراً، وجعل لهم فيها منازل وبيوتاً، وأباح منافعها، وسَخَّرَ لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم فيها معاش، أى: مكاسب وأسباباً يتجرون فيها، ويتسببون أنواع الأسباب، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقد قرأ الجميع: ﴿مَعَايِشَ﴾ بلا همز، إلا عبد الرحمن بن هُرْمُزٍ الأعرج فإنه همزها. والصواب الذى عليه الأكثرون بلا همز؛ لأن معاش جمع معيشة، من عاش يعيش عيشاً، ومعيشة أصلها «مَعِيشَةٌ» فاستثقلت الكسرة على الياء، فنقلت إلى العين فصارت مَعِيشَةً، فلما جمعت رجعت الحركة إلى الياء لزوال الاستثقال، فقليل: معاش. ووزنه مفاعل؛ لأن الياء أصلية فى الكلمة. بخلاف مدائن

(١) ورواه أحمد فى مسنده (٣٤٨/٥) وابن ماجه فى السنن برقم (٣٧٨١) من طريق بشير بن المهاجر، عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه بريدة بن الحصيب، رضى الله عنه، مرفوعاً.

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٢٨٧/٥).

(٣) سنن الترمذى برقم (٢٦٣٩) ورواه ابن ماجه فى السنن برقم (٢٦٣٩) والحاكم فى المستدرک (٥٢٩/١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد على شرطهما ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى.

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٧٢٩) بنحو من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

(٥) فى د، م: «والذى».

(٦) رواه أحمد فى مسنده (٤٢٠/١).

(٧) فى م: «عباده».

(٨) فى ك: «وتارة».

وصحائف وبصائر، جمع مدينة وصحيفة وبصيرة من: مدن وصحف وأبصر، فإن الياء فيها زائدة، ولهذا تجمع على فعائل، وتهمز لذلك، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (١١).

ينبه تعالى بنى آدم فى هذا المقام على شرف أبيهم آدم، ويبين لهم عداوة عدوهم إبليس، وما هو مُنْطَوٍ عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم، ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [فَسَجَدُوا] (١). وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ .﴾ [فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ] (٢). الآية [الحجر: ٢٨ - ٣٠]، وذلك أنه تعالى لما خلق آدم، عليه السلام، بيده من طين لازب، وصوره بشرًا [سويًا] (٣)، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له تعظيمًا لشأن الرب تعالى وجلاله، فسمعوا كلهم وأطاعوا، إلا إبليس لم يكن من الساجدين. وقد تقدم الكلام على إبليس فى أول تفسير «سورة البقرة».

وهذا الذى قرناه هو اختيار ابن جرير: أن المراد بذلك كله آدم، عليه السلام.

وقال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ قال: خُلِقُوا فى أصلاب الرجال، وصُورُوا فى أرحام النساء.

رواه الحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه (٤).

ونقله ابن جرير عن بعض السلف أيضا: أن المراد بخلقناكم ثم صورناكم: الذرية.

وقال الربيع بن أنس، والسدّي، وقتادة، والضحاك فى هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أى: خلقنا آدم ثم صورنا الذرية.

وهذا فيه نظر؛ لأنه قال بعده: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، فدل على أن المراد بذلك آدم، وإنما قيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر، كما يقول تعالى لبنى إسرائيل الذين كانوا فى زمن الرسول ﷺ: ﴿وَوَضَعْنَا عَلَىٰكُمْ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ﴾ [البقرة: ٥٧]، والمراد: آباؤهم الذين كانوا فى زمان موسى [عليه السلام] (٥)، ولكن لما كان ذلك منّة على الآباء الذين هم أصل صار كأنه واقع على الأبناء. وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْثَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ] (٦). [المؤمنون: ١٢، ١٣]، فإن المراد منه آدم المخلوق من السلالة (٧)، وذريته مخلوقون من

(٣) زيادة من ك، م، أ.

(٢) زيادة من م.

(١) زيادة من ك.

(٤) المستدرک (٣١٩/٢).

(٧) فى ك، م: «من سلالة من طين».

(٦) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية».

(٥) زيادة من أ.

نطفة، وصح هذا لأن المراد من^(١) خلقنا الإنسان الجنس، لا معيناً، والله أعلم.

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (١٢).

قال بعض النحاة في توجيه قوله تعالى: ﴿مَا مَنَّكَ﴾^(٢) إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ: لا ههنا زائدة.

وقال بعضهم: زيدت لتأكيد الجحد، كقول الشاعر:

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله

فأدخل «إن»، وهى للنفي، على «ما» النافية؛ لتأكيد النفي، قالوا: وكذلك ههنا: ﴿مَا مَنَّكَ أَنْ لَا تَسْجُدَ﴾، مع تقدم قوله: ﴿لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾.

حكاهما ابن جرير^(٣). وردهما، واختار أن «منعك» تضمن معنى فعل آخر تقديره: ما أحوجك والأزمك واضطرك أن لا تسجد إذ أمرتك، ونحو ذلك. وهذا القول قوى حسن، والله أعلم.

وقول إبليس لعنه الله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، من العذر الذى هو أكبر من الذنب، كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، يعنى لعنه الله: وأنا خير منه، فكيف تأمرنى بالسجود له؟ ثم بين أنه خير منه، بأنه خلق من نار، والنار أشرف مما خلقت منه، وهو الطين، فنظر اللعين إلى أصل العنصر، ولم ينظر إلى التشريف العظيم، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وقاس قياساً فاسداً فى مقابلة نص قوله تعالى: ﴿فَقْعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢]، فشذ من بين الملائكة بترك السجود؛ فلهذا^(٤) أبلس من الرحمة، أى: أيس من الرحمة، فأخطأ قبحه الله فى قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضاً، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح. والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة؛ ولهذا خان إبليس عنصره، ونفع آدم عنصره فى الرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة.

وفى صحيح مسلم، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَتِ الملائكة من نور، وخُلِقَ إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وُصِفَ لكم» هكذا رواه مسلم^(٥).

وقال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا إسماعيل، عن عبد الله بن مسعود، حدثنا نعيم ابن حماد، حدثنا عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله الملائكة من نور العرش، وخلق الجان من [مارج من]^(٦) نار، وخلق آدم

(٢) زيادة من أ.

(١) فى ك، م، أ: «فى».

(٣) تفسير الطبرى (١٢/٣٢٤).

(٤) فى م: «ولهذا».

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٩٩٦).

(٦) زيادة من أ.

مما وُصِفَ لَكُمْ». قلت لنعيم بن حماد: أين سمعت هذا من عبد الرزاق؟ قال: باليمن^(١). وفى بعض ألفاظ هذا الحديث فى غير الصحيح: «وخلقت الحور العين من الزعفران»^(٢).

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا محمد بن كثير، عن ابن شوذب، عن مطر الوراق، عن الحسن فى قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ قال: قاس إبليس، وهو أول من قاس. إسناده صحيح.

وقال: حدثنى عمرو بن مالك، حدثنى يحيى بن سليم الطائفى^(٣)، عن هشام، عن ابن سيرين قال: أول من قاس إبليس، وما عُبِدَت الشمس والقمر إلا بالمقاييس^(٤). إسناده صحيح أيضاً.

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (١٣) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُعْثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (١٥).

يقول تعالى مخاطباً لإبليس بأمر قدرى كونه: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ أى: بسبب عصيانك لأمرى، وخروجك عن طاعتي، فما يكون لك أن تتكبر فيها.

قال كثير من المفسرين: الضمير عائد إلى الجنة، ويحتمل أن يكون عائداً على المنزلة التى هو فيها فى الملكوت الأعلى.

﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أى: الذليلين الحقيرين، معاملة له بتقيض قصده، مكافأة لمراده بضده، فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النظرة إلى يوم الدين، قال: ﴿أَنْظِرْنِي﴾^(٥) إِلَى يَوْمٍ يُعْثُونَ. قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ، أجابه تعالى إلى ما سأل، لما له فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشئة التى لا تخالف ولا تمانع، ولا مُعَقَّبَ لحكمه، وهو سريع الحساب.

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١٦) ثُمَّ لَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧).

يخبر تعالى أنه لما أنذر إبليس ﴿إِلَى يَوْمٍ يُعْثُونَ﴾^(٦)، واستوثق إبليس بذلك، أخذ فى المعاندة والتمرد، فقال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أى: كما أغويتنى.

قال ابن عباس: كما أضللتنى. وقال غيره: كما أهلكتنى لأقعدن لعبادك - الذين تخلقهم من

(١) رواه عبد الرزاق فى المصنف برقم (٢٠٩٠٤).

(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٣٧/٨) من طريق عبيد الله بن زحر، عن على بن يزيد، عن القاسم، عن أبى أمامة، رضى الله عنه، وفى إسناده عبيد الله بن زحر، قال ابن جبان فى المجروحين: «يروى الموضوعات عن الأثبات، وإذا روى عن على بن يزيد أتى بالطامات، وإذا اجتمع فى إسناده خبر عبيد الله، وعلى بن يزيد، والقاسم أبو عبد الرحمن، لم يكن ذلك الخبر إلا مما عملته أيديهم».

(٣) فى أ: «الطائى».

(٤) تفسير الطبرى (٣٢٨/١٢).

(٥) فى ك، م: «فأنظرنى» وهو خطأ. (٦) فى م: «الدين» وهو خطأ.

ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه - على ﴿صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أى: طريق الحق وسبيل النجاة، ولاضلنهم^(١) عنها لئلا يعبدوك ولا يوحّدوك بسبب إضلالك إياي.

وقال بعض النحاة: الباء ههنا قسمية، كأنه يقول: فبإغوائك إياي لأفقدن لهم صراطك المستقيم.

قال مجاهد: ﴿صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ﴾ يعنى: الحق.

وقال محمد^(٢) بن سوقة، عن عون بن عبد الله: يعنى طريق مكة.

قال ابن جرير: والصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك [كله]^(٣).

قلت: لما روى الإمام أحمد:

حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا أبو عقيل - يعنى الثقفى عبد الله بن عقيل - حدثنا موسى بن المسيب، أخبرنى سالم بن أبى الجعد، عن سبرة بن أبى فاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه، قعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟». قال: «فعصاه وأسلم». قال: «وقعد له بطريق^(٤) الهجرة فقال: أتهاجر وتدع^(٥) أرضك وسماؤك، وإنما مثل المهاجر كالفرس فى الطول؟ فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق^(٦) الجهاد، وهو جهاد النفس والمال، فقال: تقاتل فتقتل، فتتكح المرأة ويقسم المال؟». قال: «فعصاه، فجاهد». قال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك منهم^(٧) فمات، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو قتل كان^(٨) حقاً على الله، عز وجل، أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو^(٩) وقصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة»^(١٠).

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَنِيهِمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ]^(١١) قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لَا تَنِيهِمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: أشككهم فى آخرتهم، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: أرغبهم فى دنياهم ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾: أشبه عليهم أمر دينهم ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾: أشهى لهم المعاصى.

وقال [على]^(١٢) بن طلحة - فى رواية - والعوفى، كلاهما عن ابن عباس: أما ﴿مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: فمن قبل دنياهم، وأما ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾: فأمر آخرتهم، وأما ﴿عَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾: فمن قبل حسناتهم، وأما ﴿عَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾: فمن قبل سيئاتهم.

وقال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة: أتاهم ﴿مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ فأخبرهم أنه^(١٣) لا بعث ولا

(١) فى أ: «أفلاضلنهم». (٢) فى أ: «مجاهد». (٣) زيادة من ك.

(٤) فى د: «فى طريق». (٥) فى د، ك، م، أ: «وتذر».

(٦) فى د: «فى طريق». (٧) فى د: «منهم ذلك».

(٨) فى ك: «وإن قتل كان»، وفى م: «وإن كان قتل». (٩) فى م: «وإن».

(١٠) المسند (٤٨٣/٣).

(١١) زيادة من أ، وفى هـ: «الآية». (١٢) زيادة من أ. (١٣) فى ك: «أن».

جنة ولا نار ﴿وَمَنْ خَلَفَهُمْ﴾: من أمر الدنيا فزينا لهم ودعاهم إليها و ﴿عَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ من قبل حسناتهم بطأهم^(١) عنها ﴿وَعَنْ شِمَائِلِهِمْ﴾: زين لهم السيئات والمعاصي، ودعاهم إليها، وأمرهم بها. أتاك يا ابن آدم من كل وجه، غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله.

وكذا روى عن إبراهيم النخعي، والحكم بن عتيبة^(٢)، والسدي، وابن جرير^(٣)، إلا أنهم قالوا: ﴿مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: الدنيا ﴿وَمَنْ خَلَفَهُمْ﴾: الآخرة.

وقال مجاهد: «من بين أيديهم وعن أيمانهم»: حيث يبصرون، «ومن خلفهم وعن شمائلهم»: حيث لا يبصرون.

واختار ابن جرير أن المراد جميع طرق الخير والشر، فالخير يصددهم عنه، والشر يحببه^(٤) لهم. وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ لَا تَبْنِيهِمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمَنْ خَلَفَهُمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شِمَائِلِهِمْ﴾، ولم يقل: من فوقهم؛ لأن الرحمة تنزل من فوقهم. وقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ قال: موحدون.

وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم، وقد وافق في هذا الواقع، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ [سبأ: ٢٠، ٢١].

ولهذا ورد في الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها، كما قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده:

حدثنا نصر بن علي، حدثنا عمرو بن مَجْمَع، عن يونس بن خباب، عن ابن جُبَيْر بن مُطْعِم - يعني نافع بن جبیر - عن ابن عباس - وحدثنا عمر بن الخطاب - يعني السجستاني - حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن زيد بن أبي أُنَيْسَةَ، عن يونس بن خباب - عن ابن جبیر بن مطعم - عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي، وأهلي ومالي، اللهم استر عورتِي، وآمن رَوْعَتِي»^(٥)، واحفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقی، وأعوذ بك^(٦) اللهم أن أُغْتَالَ مِن تَحْتِي». تفرد به البزار^(٧)، وحسنه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا عبادة بن مسلم الفزاري، حدثني جبیر بن أبي سليمان

(١) في أ: «بطأهم». (٢) في م، أ: «عينة». (٣) في د، ك، م: «جريج».

(٤) في د، ك، م، أ: «يحسنه». (٥) في د، ك: «اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي».

(٦) في د: «بعظمتك».

(٧) مسند البزار برقم (٣١٩٦) «كشف الأستار» وقال الهيثمي في المجمع (١٧٥/١٠): «فيه يونس بن خباب وهو ضعيف».

ابن جبير بن مطعم، سمعت عبد الله بن عمر يقول: لم يكن رسول الله يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي: «اللهم إني أسألك العافية»^(١) في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي». قال وكيع: يعني الخسف.

ورواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم من حديث عبادة بن مسلم، به^(٢). وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

﴿قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْذُومًا مَّدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٨). أكد تعالى اللعنة^(٣) والطرود والإبعاد النفي عن محل الملاء الأعلى بقوله: «أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْذُومًا مَّدْحُورًا».

قال ابن جرير: أما «المذؤوم»، فهو المعيب، والذام غير مشدد: العيب. يقال: «ذامه يذامه ذاماً فهو مذؤوم». ويتركون الهمز فيقولون: «ذمته أذيمه ذيماً وذاماً، والذام والذيم أبلغ في العيب من الذم». قال: «والمدحور»: المقصى. وهو المبعد المطرود.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما نعرف^(٤) «المذؤوم» و«المذموم» إلا واحداً. وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن التميمي، عن ابن عباس: «أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْذُومًا مَّدْحُورًا» قال: مقيتا.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: صغيرا مقيتا. وقال السدي: مقيتا مطرودا. وقال قتادة: لعينا مقيتا. وقال مجاهد: منفياً مطروداً. وقال الربيع بن أنس: مذؤوما: منفي، والمدحور: المصغر^(٥).

وقوله تعالى: «لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ». كقوله: «قَالَ أَذْهَبُ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَوْفُورًا. وَاسْتَغْفِرْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّتِهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا» [الإسراء: ٦٣ - ٦٥].

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ

(١) في ١: «أسألك العفو والعافية».

(٢) المسند (٢٥/٢) وسنن أبي داود برقم (٥٠٧٤) وسنن النسائي (٢٨٢/٨) وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٧١) وصحيح ابن حبان (١٥٥/٢) «الإحسان» والمستدرک (٥١٧/١).

(٣) في د، ك، م، أ: «أكد تعالى عليه اللعنة». (٤) في ك: «ما يعرف». (٥) في د: «الصغير».

فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ .

يذكر تعالى أنه أباح لأدم، عليه السلام، ولزوجته [حواء] ^(١) الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة. وقد تقدم الكلام على ذلك في «سورة البقرة»، فعند ذلك حسدهما الشيطان، وسعى في المكر والخديعة والوسوسة لِيُسَلِّبَا ^(٢) ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن، وقال كذبا وافتراء: مانهاكما ربكما عن أكل ^(٣) الشجرة إلا لتكونا ملكين أى: لثلا تكونا ملكين، أو خالدين ههنا، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما ^(٤)، كقوله: ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠] أى: لثلا تكونا ملكين، كقوله: ﴿يَسِينُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦]، أى: لثلا تضلوا، ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] أى: لثلا تميد بكم.

وكان ابن عباس ويحيى بن أبى كثير يقرآن: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ﴾، بكسر اللام. وقرأه الجمهور بفتحها.

﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أى: حلف لهما بالله: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾، فإنى من قبلكما ههنا، وأعلم بهذا المكان، وهذا من باب المفاعلة والمراد أحد الطرفين، كما قال خالد بن زهير، ابن عم أبى ذؤيب: وقاسمها بالله جهدا لأنتم ^(٥) ألد من السلوى إذا ما نشورها ^(٥)

أى: حلف لهما بالله [على ذلك] ^(٦) حتى خدعهما، وقد يخدع المؤمن بالله، فقال: إني خلقت قبلكما، وأنا أعلم منكما، فاتبعانى أرشدكما. وكان بعض أهل العلم يقول: «من خادعنا بالله خدعنا له».

﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) .

قال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبى بن كعب، رضى الله عنه، قال: كان آدم رجلا طويلا، كأنه نخلة سحوق، كثير شعر الرأس. فلما وقع بما وقع به من الخطيئة، بدت له

(٣) فى د، ك: «هذه».

(٢) فى د: «ليسلبها».

(١) زيادة من أ.

(٤) فى أ: «ذلك».

(٥) البيت فى تفسير الطبرى (١٢/ ٣٥٠) وعزاه المحقق لأشعار الهذليين (١٥٨/١).

(٦) زيادة من د، ك، م، أ.

عورته عند ذلك، وكان لا يراها. فانطلق هاربا في الجنة فتعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة، فقال لها: أرسليني. فقالت: إني غير مرسلتك. فناداه ربه، عز وجل: يا آدم، أمتى تفر؟ قال: رب إني استحييتك^(١).

وقد رواه ابن جرير، وابن مَرْدُويه من طُرُق، عن الحسن، عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ، والموقوف أصحّ إسنادا^(٢).

وقال عبد الرزاق: أنبأنا سفيان بن عيينة وابن المبارك، عن الحسن بن عمار، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كانت الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته، السنبلة. فلما أكلتا منها بدت لهما سواتها، وكان الذي وارى عنهما من سواتهما أظفارهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ورق التين، يلزقان بعضه إلى بعض. فانطلق آدم، عليه السلام، موليا في الجنة، فعلمت برأسه شجرة من الجنة، فناداه: يا آدم، أمتى تفر؟ قال: لا، ولكني استحييتك يارب. قال: أما كان لك فيما منحتك من الجنة وأبحتك منها مندوحة، عما حرمت عليك. قال: بلى يارب، ولكن وعزتك ما حسبت أن أحدا يحلف بك كاذبا. قال: وهو قوله، عز وجل^(٣): ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾. قال: فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض، ثم لاتنال العيش إلا كذا. قال: فأهبط من الجنة، وكانا يأكلان منها رَغَدًا، فأهبط إلى غير رغد من طعام وشراب، فعلم صنعة الحديد، وأمر بالحرث، فحرث وزرع ثم سقى، حتى إذا بلغ حصد، ثم داسه، ثم ذراه، ثم طحنه، ثم عجنه، ثم خبزه، ثم أكله، فلم يبلغه حتى بلغ منه ما شاء الله أن يبلغ^(٤).

وقال الثوري، عن ابن أبي ليلى، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قال: ورق التين. صحيح إليه.

وقال مجاهد: جعلوا يخصفان عليهما من ورق الجنة كهيئة الثوب.

وقال وهب بن منبه في قوله: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ قال: كان لباس آدم وحواء نورا على فروجهما، لا يرى هذا عورة هذه، ولا هذه عورة هذا. فلما أكلتا من الشجرة بدت لهما سواتهما. رواه ابن جرير بإسناد صحيح إليه.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة قال: قال آدم: أى رب، أرايت إن تبت واستغفرت؟ قال: إذا أدخلك الجنة. وأما إبليس فلم يسأله التوبة، وسأله النظرة، فأعطى كل واحد منهما الذى سأله.

(١) تفسير الطبرى (٣٥٤/١٢).

(٢) تفسير الطبرى (٣٥٢/١٢) ورواه الحاكم فى المستدرک (٣٤٥/١) من طريق يزيد بن الهاد، عن الحسن، عن أبى بن كعب بنحوه، وقال: «هذا لا يعلل حديث يونس بن عبيد، فإنه أعرف بحديث الحسن من أهل المدينة ومصر، والله أعلم» يقصد الحاكم ما أخرجه فى المستدرک (٣٤٤/١) من طريق يونس بن عبيد، عن الحسن، عن عتي، عن أبى بن كعب بنحوه، فإنه قد علله فى آخره بأنه قد روى عن الحسن، عن أبى دون ذكر عتي. ورواه عبد الرزاق فى المصنف (٤٠٠/٣)، عن ابن جريج حدث عن أبى بن كعب، عن النبي ﷺ فذكره بنحوه.

(٣) فى د، م: «قول الله»، وفى ك: «قوله تعالى».

(٤) ورواه الطبرى فى تفسيره (٣٥٢/١٢) من طريق عبد الرزاق به.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا عباد بن العوام، عن سفيان بن حسين، عن يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما أكل آدم من الشجرة قيل له: لم أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها. قال: حواء. أمرتني. قال: فإنني قد أعقبتها أن لا تحمل إلا كرها، ولا تضع إلا كرها. قال: فرئت عند ذلك حواء. فقيل لها: الرنة عليك وعلى ولدك^(١).

وقال الضحاك بن مزاحم في قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه [عز وجل]^(٢).

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥).

قيل: المراد بالخطاب في ﴿اهْبِطُوا﴾: آدم، وحواء، وإبليس، والحية. ومنهم من لم يذكر الحية، والله أعلم.

والعمدة في العداوة آدم وإبليس؛ ولهذا قال تعالى في سورة «طه» قال: ﴿اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [الآية: ١٢٣]، وحواء تبع لآدم. والحية - إن كان ذكرها صحيحا - فهي تبع لإبليس.

وقد ذكر المفسرون الأماكن التي هبط كل منهم، ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات، والله أعلم بصحتها. ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم، أودناهم، لذكرها الله تعالى في كتابه أو رسوله ﷺ^(٣).

وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: قرار وأعمار مضروبة إلى آجال معلومة، قد جرى بها القلم، وأحصاها القدر، وسطرت في الكتاب الأول.

وقال ابن عباس: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: القبور. وعنه: وجه الأرض وتحتها. رواهما ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾. كقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]، يخبر تعالى أنه يجعل^(٤) الأرض دار لبنى آدم مدة الحياة الدنيا، فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم، ومنها نشورهم ليوم القيامة^(٥) الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، ويجازى كلا بعمله.

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (٢٦).

يمتن تبارك وتعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والرياش فاللباس^(٦) المذكور ههنا لستر

(١) تفسير الطبري (١٢/٣٥٦).

(٢) زيادة من أ.

(٣) في ك: «ورسوله».

(٤) في ك، م: «جعل».

(٦) في ك: «واللباس».

(٥) في ك، م، أ: «المعاد».

العورات - وهى السوآت^(١) - والرياش والريش: هو ما يتجمل به ظاهراً، فالأول من الضروريات، والريش من التكملات والزيادات.

قال ابن جرير: «الرياش» فى كلام العرب: الأثاث، وما ظهر من الثياب.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس - وحكاه البخارى - عنه: الريش: المال. وكذا قال مجاهد، وعروة بن الزبير، والسدى والضحاك^(٢).

وقال العوفى، عن ابن عباس: «الرياش»: اللباس، والعيش، والنعيم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «الرياش»: الجمال.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا أصبغ، عن أبى العلاء الشامى قال: لبس أبوأمامة ثوباً جديداً، فلما بلغ ترقوته قال: الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى، وأتجمل به فى حياتى. ثم قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله ﷺ: «من استجد ثوباً فلبسه»^(٣)، فقال حين يبلغ ترقوته: الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى، وأتجمل به فى حياتى^(٤)، ثم عمد إلى الثوب الذى خلّق أو: ألقى فتصدق به، كان فى ذمة الله، وفى جوار الله، وفى كنف الله حيا وميتا، [حيا وميتا، حيا وميتا]^(٥).

ورواه الترمذى، وابن ماجه، من رواية يزيد بن هارون، عن أصبغ - هو ابن زيد الجهنى^(٦) - وقد وثقه يحيى بن معين وغيره، وشيخه «أبو العلاء الشامى» لا يعرف إلا بهذا الحديث، ولكن لم يخرج أحد، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا مختار بن نافع التمار، عن أبى مطر؛ أنه رأى علياً، رضى الله عنه، أتى غلاماً حدثاً، فاشتري منه قميصاً بثلاثة دراهم، ولبسه إلى ما بين الرسغين إلى الكعبين، يقول ولبسه: الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس، وأوارى به عورتى. فقيل: هذا شيء ترويه عن نفسك أو عن نبي الله ﷺ؟ قال: هذا شيء سمعته من رسول الله ﷺ يقول عند الكسوة: «الحمد لله الذى رزقنى»^(٧) من الرياش^(٨) ما أتجمل به فى الناس، وأوارى به عورتى»^(٩).

وقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾: قرأ بعضهم: «ولباس التقوى»، بالنصب. وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء، ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ خيره.

واختلف المفسرون فى معناه، فقال عكرمة: يقال: هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة. رواه ابن أبى حاتم.

(٣) فى م: «يلبسه»

(٢) فى ك، م، أ: «والضحاك: الرياش: المال».

(١) فى ك: «الشهوات».

(٥) زيادة من أ.

(٤) فى أ: «فى الناس».

(٦) المسند (٤٤/١) وسنن الترمذى برقم (٣٥٦٠) وسنن ابن ماجه برقم (٣٥٥٧).

(٨) فى م: «من اللباس».

(٧) فى أ: «كسانى».

(٩) المسند (١٥٧/١) قال الهيثمى فى المجمع (١١٩/٥): «فيه مختار بن نافع وهو ضعيف».

وقال زيد بن على، والسُدِّي، وقتادة، وابن جُرَيْج: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾: الإيمان.
وقال العوفي، عن ابن عباس [رضى الله عنه]: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾^(١): العمل الصالح.
وقال زياد^(٢) بن عمرو، عن ابن عباس: هو السميت الحسن في الوجه.
وعن عُرْوَةَ بن الزبير: ﴿لِبَاسُ التَّقْوَى﴾: خشية الله.
وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿لِبَاسُ التَّقْوَى﴾: يتقى الله، فيؤارى عورته، فذلك لباس التقوى.

وكل هذه متقاربة، ويؤيد ذلك الحديث الذي رواه ابن جرير حيث قال:
حدثني المثنى، حدثنا إسحاق بن الحجاج، حدثنا إسحاق بن إسماعيل، عن سليمان بن أرقم، عن الحسن قال: رأيت عثمان بن عفان، رضى الله عنه، على منبر رسول الله ﷺ عليه قميص قُوهى محلول الزر، وسمعته يأمر بقتل الكلاب، وينهى عن اللعب بالحمام. ثم قال: يأبها الناس، اتقوا الله فى هذه السرائر، فإننى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذى نفس محمد بيده، ما عمل أحد قط سرا إلا ألبسه الله رداء علانية، إن خيراً فخير وإن شراً فشر». ثم تلا هذه الآية: «وريشاً» - ولم يقرأ: وریشاً - ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ قال: «السميت الحسن».

هكذا رواه ابن جرير من رواية سليمان بن أرقم^(٣)، وفيه ضعف. وقد روى الأئمة: الشافعى، وأحمد، والبخارى فى كتاب «الأدب» من طرق صحيحة، عن الحسن البصرى؛ أنه سمع أمير المؤمنين عثمان بن عفان يأمر بقتل الكلاب وذبح الحمام، يوم الجمعة على المنبر.

وأما المرفوع منه^(٤)، فقد روى الحافظ أبو القاسم الطبرانى فى معجمه الكبير له شاهداً^(٥) من وجه آخر، حيث قال: حدثنا...^(٦).

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِّنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧)﴾.

(١) زيادة من ك، أ. (٢) فى أ: «الديال».

(٣) تفسير الطبرى (٣٦٧/١٢).

(٤) فى م: «عنه». (٥) فى ك، م: «شاهداً آخر».

(٦) [محمود بن محمد المروزى، حدثنا حامد بن آدم المروزى، حدثنا الفضل بن موسى، عن محمد بن عبيد الله العرزمى، عن سلمة ابن كهيل، عن جندب بن سفيان البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أسر عبد سريرة إلا ألبسه الله رداءها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر»].

المعجم الكبير (١٧١/٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٢٢٥/١٠): «فيه حامد بن آدم وهو كذاب والعزمى تركه الأئمة. تنبيه: فى جميع النسخ لم يذكر هذا الحديث الذى سقته ههنا، وموضعه بياض عدة أسطر، وقد تعرفت على أن هذا الحديث هو مقصود الحافظ ابن كثير، أنى رأيت ساق أثر عثمان السابق ثم ساق بعده هذا الحديث بإسناد الطبرانى، كما سيأتى فى سورة الفتح آية: ٢٩، فرأيت إثباته فى الحاشية.

يقول تعالى محذراً بنى آدم من إبليس وقبيله، ومبيناً لهم عداوته القديمة لأبى البشر آدم، عليه السلام، فى سعيه فى إخراجهم من الجنة التى هى دار النعيم، إلى دار التعب والعناء، والتسبب فى هتك عورته بعدما كانت مستورة عنه، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَسَخِدُونَهُ وَذَرَيْتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ (٣٠)﴾.

قال مجاهد: كان المشركون يطوفون بالبيت عراة، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا. فتضع المرأة على فرجها النسعة، أو الشيء وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدأ منه فلا أحله

فأنزل الله [تعالى] (١): ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ الآية (٢).

قلت: كانت العرب - ماعدا قريشاً - لا يطوفون بالبيت فى ثيابهم التى لبسوها، يتأولون فى ذلك أنهم لا يطوفون فى ثياب عصوا الله فيها، وكانت قريش - وهم الخمس - يطوفون فى ثيابهم، ومن أعاره أحمسى ثوباً طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يملكه أحد، فمن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمسى ثوباً، طاف عرياناً. وربما كانت امرأة فتطوف عريانة، فتجعل على فرجها شيئاً يستره بعض الشيء وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدأ منه فلا أحله (٣)

وأكثر ما كان النساء يظفن [عراة] (٤) بالليل، وكان هذا شيئاً قد ابتدعه من تلقاء أنفسهم، واتبعوا فيه آباءهم ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك، فقال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فقال تعالى رداً عليهم: ﴿قُلْ أَى: قل يا محمد لمن ادعى ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أى: هذا الذى تصنعونه فاحشة منكرة، والله لا يأمر بمثل ذلك ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى: أتسندون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته. وقوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أى: بالعدل والاستقامة، ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ

(١) زيادة من ك.

(٢) تفسير الطبرى (٣٧٧/١٢).

(٣) البيت منسوب لضباعة بنت عامر بن قرط، وله قصة ذكرها ابن حبيب البغدادى فى المنطق (ص ٢٧٠).

(٤) زيادة من ك، م.

وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴿١﴾ أى: أمركم بالاستقامة فى عبادته فى محالها، وهى متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله [تعالى] ^(١)، وما جاؤوا به [عنه] ^(٢) من الشرائع، وبالإخلاص له فى عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين: أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، وأن يكون خالصاً من الشرك.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ] ^(٣) - اختلف فى معنى [قوله تعالى] ^(٤): ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ فقال ابن أبى نجیح، عن مجاهد: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: يحييكم بعد موتكم.

وقال الحسن البصرى: كما بدأكم فى الدنيا، كذلك تعودون يوم القيامة أحياء.

وقال قتادة: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قال: بدأ فخلقهم ولم يكونوا شيئاً، ثم ذهبوا، ثم يعيدهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كما بدأكم أولاً، كذلك يعيدكم آخرًا.

واختار هذا القول أبو جعفر بن جرير، وأيده بما رواه من حديث سفيان الثورى وشعبة بن الحجاج، كلاهما عن المغيرة بن النعمان، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: قام فىنا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «يأيها الناس، إنكم تحشرون» ^(٥) إلى الله حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرُلًا، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وهذا الحديث مُخَرَّجٌ فى الصحيحين، من حديث شعبة، وفى صحيح البخارى - أيضا - من حديث الثورى به ^(٦).

وقال وقاء بن إياس أبو يزيد، عن مجاهد: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قال: يبعث المسلم مسلماً، والكافر كافراً.

وقال أبو العالية: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: رُدُّوا إلى علمه فيهم.

وقال سعيد بن جبیر: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: كما كتب عليكم تكونون - وفى رواية: كما كنتم تكونون عليه تكونون.

وقال محمد بن كعب القرظى فى قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: من ابتداء الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه، وإن عمل بأعمال أهل السعادة، كما أن إبليس عمل بأعمال أهل السعادة، ثم صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه. ومن ابتدئ خلقه على السعادة، صار على ما ابتدئ خلقه عليه، إن عمل بأعمال أهل الشقاء، كما أن السحرة عملت ^(٧) بأعمال أهل الشقاء، ثم صاروا إلى ما ابتدئوا عليه.

(١) زيادة من أ. (٢) زيادة من ك. أ وفى هـ: «إلى قوله».

(٤) زيادة من أ. (٥) فى أ: «محشورون».

(٦) تفسير الطبرى (٣٨٦/١٢) وصحيح البخارى برقم (٤٦٢٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٦٠).

(٧) فى أ: «عملوا».

وقال السُّدِّي: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ. فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ يقول: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: كما خلقناكم، فريق مهتدون وفريق ضلال، كذلك تعودون وتخرجون من بطون أمهاتكم. وقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ. فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ قال: إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً، كما قال [تعالى] ^(١): ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأهم ^(٢)، مؤمناً وكافراً.

قلت: ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود في صحيح البخاري: «فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع - أو: ذراع - فيسبق ^(٣) عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع - أو: ذراع - فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخل الجنة» ^(٤).

وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا علي بن الجعد، حدثنا أبو غسان، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليعمل - فيما يرى الناس - بعمل أهل الجنة، وإنه من أهل النار. وإنه ليعمل - فيما يرى الناس - بعمل أهل النار، وإنه من أهل الجنة، وإنما الأعمال بالخواتيم» ^(٥).

هذا قطعة من حديث رواه البخاري من حديث أبي غسان محمد بن مطرف المدني، في قصة «قزمان» يوم أحد ^(٦).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن النبي ﷺ أنه قال: «تُبْعَثُ كل نفسٍ على ما كانت عليه».

وهذا الحديث رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه، عن الأعمش، به. ولفظه: «يبعث كل عبد على ما مات عليه» ^(٧).

قلت: ولا بد من الجمع بين هذا القول - إن كان هو المراد من الآية - وبين قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، وما جاء في الصحيحين، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه ويُنصِّرانه ويُمجِّسانه» ^(٨). وفي صحيح مسلم، عن عياض بن حمار ^(٩) قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاءً، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم» الحديث. ووجه

(١) زيادة من أ. (٢) في ك، أ: «بدأ خلقهم». (٣) في ك: «ويسبق».

(٤) صحيح البخاري برقم (٣٢٠٨).

(٥) ورواه البغوي في تفسيره (٢٢٤/٣) من طريق عبد الرحمن بن أبي شريح، عن أبي القاسم البغوي به.

(٦) صحيح البخاري برقم (٦٦٠٧، ٦٤٩٣).

(٧) تفسير الطبري (١٢/٣٨٤) وصحيح مسلم برقم (٢٨٧٨) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٣٠).

(٨) صحيح البخاري برقم (١٣٨٥) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٨).

(٩) في أ: «حماد».

الجمع على هذا أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر، فى ثانى الحال، وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده، والعلم بأنه لا إله غيره، كما أخذ عليهم بذلك الميثاق، وجعله فى غرائزهم وفطرهم، ومع هذا قدر أن ^(١) منهم شقيًا ومنهم سعيدًا: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وفى الحديث: «كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها» ^(٢). وقدر الله نافذ فى بريته، فإنه هو ﴿الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ٣]، و﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، وفى الصحيحين: «فأما من كان منكم من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾، ثم علل ذلك فقال: ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ ^(٣).

قال ابن جرير: وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذب أحدًا على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها، فيركبها عنادًا منه لربه فيها؛ لأن ذلك لو كان كذلك، لم يكن بين فريق الضلالة الذى ضل وهو يحسب أنه هاد، وفريق الهدى، فرق. وقد فرق الله تعالى بين أسمائهما وأحكامهما فى هذه الآية [الكرامة] ^(٤).

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣١).

هذه الآية الكريمة ردٌ على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عراة، كما رواه مسلم والنسائي وابن جرير ^(٥) - واللفظ له - من حديث شعبة، عن سلمة بن كهيل، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة، الرجال والنساء: الرجال بالنهار، والنساء بالليل. وكانت المرأة تقول:

اليومَ يبدؤ بعضُهُ أو كُلُّهُ وما بدأ منه فلا أحلَّهُ

فقال الله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ^(٦).

وقال العوفي، عن ابن عباس فى قوله [تعالى] ^(٧): ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الآية، قال: كان رجال يطوفون بالبيت عراة، فأمرهم الله بالزينة - والزينة: اللباس، وهو ما يوارى السوءة، وما سوى ذلك من جيد البز والمناجى - فأمرُوا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد.

وكذا قال مجاهد، وعطاء، وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبير، وقتادة، والسدي، والضحاك،

(١) فى ك: «أن يكون».

(٢) قطعة من حديث رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٢٣) من حديث أبى مالك الأشعري.

(٣) زيادة من د، ك، م، أ. وفى هـ: «الآية».

(٤) زيادة من ك، أ.

(٥) فى أ: «ابن ماجه».

(٦) صحيح مسلم برقم (٣٠٢٨) وسنن النسائي (٢٣٣/٥) وتفسير الطبري (٣٩٠/١٢).

(٧) زيادة من أ.

ومالك عن الزهري، وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها: أنها نزلت في طواف المشركين بالبيت عراة.

وقد روى الحافظ بن مردويه، من حديث سعيد بن بشير والأوزاعي، عن قتادة، عن أنس مرفوعاً؛ أنها أنزلت^(١) في الصلاة في النعال. ولكن في صحته نظر^(٢)، والله أعلم.

ولهذه الآية، وما ورد في معناها من السنة، يستحب التجميل عند الصلاة، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطيب لأنه من الزينة، والسواك لأنه من تمام ذلك، ومن أفضل الثياب^(٣) البياض، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا علي بن عاصم، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «البسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم، وإن من خير أكحالكم الإثمد، فإنه يجلو البصر، وينبت الشعر».

هذا حديث جيد الإسناد، رجاله^(٤) على شرط مسلم. ورواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من حديث عبد الله بن عثمان بن خثيم، به^(٥). وقال الترمذي: حسن صحيح.

وللإمام أحمد أيضاً، وأهل السنن بإسناد جيد، عن سمرّة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالثياب البياض فالبسوها؛ فإنها أطهر وأطيب، وكفنوا فيها موتاكم»^(٦).

وروى الطبراني بسند^(٧) صحيح، عن قتادة، عن محمد بن سيرين: أن تيمما الداري اشترى رداءً بألف، فكان يصلي فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(٨)، قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾.

وقال البخاري: قال ابن عباس: كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: أحل الله الأكل والشرب، ما لم يكن سرقة أو مخيلة. إسناده

(١) في أ: «نزلت».

(٢) ورواه العقيلي في الضعفاء الكبير (١٤٣/٣) من طريق عباد بن جويرية، عن الأوزاعي، عن قتادة به. وعباد بن جويرية قال فيه الإمام أحمد: «كذاب أفك».

ورواه الخطيب في تاريخ بغداد (٢٨٧/١٤) من طريق يعقوب، الدعاء عن يحيى بن عبد الله الدمشقي، عن الأوزاعي به. ويعقوب وشيخه لا يعرفان.

(٣) في د، ك، م، أ: «اللباس».

(٤) في م: «رجالهم ثقات».

(٥) المسند (٢٤٧/١) وسنن أبي داود برقم (٤٠٦١) وسنن الترمذي برقم (٩٩٤) وسنن ابن ماجه برقم (١٤٧٢).

(٦) المسند (٧/٥) وسنن النسائي (٢٠٥/٨).

(٨) زيادة من ك، م، أ. وفي هـ: «الآية».

(٧) في م: «بإسناد».

صحيح.

وقال الإمام أحمد: حدثنا بهز، حدثنا همام، عن قتادة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ قال: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا، في غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى^(١) نعمته على عبده»^(٢).

ورواه النسائي وابن ماجه، من حديث قتادة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «كلوا وتصدقوا والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة»^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا سليمان بن سليم الكِنَاني، حدثنا يحيى بن جابر الطائي^(٤): سمعت المقدم بن معد يكرب الكندي^(٥) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، حسْبُ ابن آدم أكالات يُقْمَنَ صُلبه، فإن كان فاعلاً لا محالة، فثلث طعام، وثلث شراب، وثلث لنفسه».

ورواه النسائي والترمذي، من طرق، عن يحيى بن جابر، به^(٦). وقال الترمذي: حسن - وفي نسخة: حسن صحيح.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا سُوَيْدُ بن عبد العزيز^(٧)، حدثنا بَقِيَّةُ، عن يوسف ابن أبي كثير، عن نوح بن ذُكْوَان، عن الحسن، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت».

ورواه الدارقطني في الأفراد، وقال: هذا حديث غريب تفرد به بقية^(٨).

وقال السُّدِّي: كان الذين يطوفون بالبيت عراة، يحرمون عليهم الودك ما أقاموا في الموسم؛ فقال الله [تعالى]^(٩) لهم: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(١٠) يقول: لا تسرفوا في التحريم.

وقال مجاهد: أمرهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم الله.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ يقول: ولا تأكلوا حراماً، ذلك الإسراف.

وقال عطاء الخراساني، عن ابن عباس قوله: ﴿وَكُلُوا﴾^(١١) وأشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحبُّ

(١) في ك: «ترى».

(٢) المسند (١٨٢/٢).

(٣) سنن النسائي (٧٩/٥) وسنن ابن ماجه برقم (٣٦٠٥).

(٤) في أ: «الطائي قال».

(٥) في ك: «العبدى».

(٦) المسند (١٣٢/٤) النسائي في السنن الكبرى برقم (٦٧٦٨) وسنن الترمذي برقم (٢٣٨٠).

(٧) في جميع النسخ: «سويد بن عبد العزيز» وصوابه: «سويد بن سعيد» كما في مسند أبي يعلى وكتب الرجال.

(٨) مسند أبي يعلى (١٥٤/٥) وأطراف الغرائب والأفراد لابن القيسراني (ق ٧٢) ورواه ابن ماجه في السنن برقم (٣٣٥٢) من طريق سويد بن سعيد به. وقال البوصيري في الزوائد (٩٥/٣): «هذا إسناد ضعيف» وهو مسلسل بالعلل.

(٩) زيادة من م. وقال البوصيري في الزوائد (٩٥/٣): «هذا إسناد ضعيف» وهو مسلسل بالعلل.

(١٠) زيادة من ك، م، أ. وفي هـ «الآية».

(١١) في م: «كلوا».

المُسْرِفِينَ، في الطعام والشراب.

وقال ابن جرير: وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ يقول الله: إن الله [تعالى] لا يحب المتعدين^(٢) حَذَّه في حلال أو حرام، الغالين فيما أحل أو حَرَّمَ، بإحلال الحرام وبتحريم الحلال، ولكنه يحب أن يحلل ما أحل، ويحرم ما حرم، وذلك العدل الذي أمر به.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢)﴾.

يقول تعالى رداً على من حَرَّمَ شيئاً من المأكَل والمشارب، والملابس، من تلقاء نفسه، من غير شرع من الله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٣) الآية، أى: هى مخلوقة لمن آمن بالله وعبدته فى الحياة الدنيا، وإن شركهم فيها الكفار حساً^(٤) فى الدنيا، فهى لهم خاصة يوم القيامة، لا يَشْرِكُهم فيها أحد من الكفار، فإن الجنة محرمة على الكافرين.

قال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أبو حُصَيْن محمد بن الحسين القاضى، حدثنا يحيى الحماني، حدثنا يعقوب القُمي، عن جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة، يصفرون ويصفقون. فأنزل الله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ فأمروا بالثياب^(٥).

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله، فلذلك حَرَّمَ الفواحش ما ظَهَرَ مِنْهَا وما بَطَنَ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله».

أخرجاه فى الصحيحين، من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن شقيق أبى وائل، عن عبد الله بن مسعود^(٦). وتقدم الكلام فى سورة الأنعام على ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن.

وقوله: ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قال السُّدِّى: أما الإثم فالمعصية، والبغى أن تبغى على الناس بغير الحق.

(٣) زيادة من ك، م، أ.

(٢) فى ك، م: «المعتدين».

(١) زيادة من ك.

(٤) فى ك: «حبا».

(٥) المعجم الكبير (١٣/١٢)، وقال الهيثمى فى المجمع (٢٣/٧): «فيه يحيى الحماني وهو ضعيف».

(٦) المسند (٣٨١/١)، وصحيح البخارى برقم (٤٦٣٤)، وصحيح مسلم برقم (٢٧٦٠).

وقال مجاهد: الإثم المعاصي كلها، وأخبر أن الباغي بغيه كائن على نفسه.

وحاصل ما فُسِّرَ^(١) به الإثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، والبغي هو التعدى إلى الناس، فحرم الله هذا وهذا.

وقوله: ﴿وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى: تجعلوا له شريكا فى عبادته، وأن تقولوا عليه^(٢) من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولداً ونحو ذلك، مما لا علم لكم به كما قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ [وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ. حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ]﴾^(٣) الآية [الحج: ٣٠، ٣١].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(٤) يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٥).

يقول تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أى: قَرْنٌ وجيل ﴿أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ أى: ميقاتهم المقدر لهم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ عن ذلك^(٦) ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

ثم أُنذِرَ تعالى بنى آدم بأنه سيبعث إليهم رسلا، يقصون عليهم آياته، وبشر وحذر فقال: ﴿فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ﴾ أى: ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ أى: كذبت بها قلوبهم، واستكبروا عن العمل بها ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أى: ماكثون فيها مكثاً مخلداً.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾^(٧).

يقول [تعالى]^(٨): ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أى: لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله، أو كذب بآيات الله المنزلة.

﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾: اختلف المفسرون فى معناه، فقال العوفي عن ابن عباس: ينالهم ما كتب عليهم، وكتب لمن يفترى على الله أن وجهه مسود.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس يقول: نصيبهم من الأعمال، من عمل خيراً جُزِيَ به،

(١) فى أ: «فسرا». (٢) فى ك: «على الله». (٣) زيادة من ك، م، أ.

(٤) فى أ: «أى من ذلك». (٥) زيادة من أ.

ومن عمل شراً جُزى به.

وقال مجاهد: ما وعدوا فيه من خير وشر.

وكذا قال قتادة، والضحاك، وغير واحد. واختاره ابن جرير.

وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ قال: عمله ورزقه وعمره.

وكذا قال الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا القول قوى فى المعنى، والسياق يدل عليه، وهو قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ ويصير المعنى فى هذه الآية كما فى قوله [تعالى] (١): ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ. مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠]، وقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٣، ٢٤].

وقوله [تعالى] (٣): ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ [قَالُوا أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ] (٤) الآية: يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تفرغهم (٥) عند الموت وقبض أرواحهم إلى النار، يقولون لهم (٦): أين الذين كنتم تشركون بهم فى الحياة الدنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله؟ ادعوهم يخلصوكم (٧) مما أنتم فيه. قالوا: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ أى: ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم، ولا خيرهم. ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أى: أقروا واعترفوا على أنفسهم ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩)﴾.

يقول تعالى مخبراً عما يقوله لهؤلاء المشركين به، المفترين عليه المكذبين بآياته: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ أى: من أشكالكم وعلى صفاتكم، ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أى: من الأمم السالفة الكافرة، ﴿مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾، يحتمل أن يكون بدلاً من قوله: ﴿فِي أُمَمٍ﴾، أى: مع أمم.

وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾، كما قال الخليل، عليه السلام: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ [وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا] (٩)﴾ الآية [العنكبوت: ٢٥]. وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِن

(١) زيادة من أ. (٢) زيادة من د، ك، م، أ. (٣) زيادة من أ. (٤) فى أ: «نقرعهم». (٥) فى د: «قائلين لهم». (٦) فى أ: «يخلصونكم». (٧) فى د، ك، م: «ويوم». (٨) زيادة من ك، م، أ. (٩) زيادة من ك، م، أ.

الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ. وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرَّةً فَنَتَّبَرَأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يَرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿البقرة: ١٦٦، ١٦٧﴾.

وقوله [تعالى] ^(١): ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أى: اجتمعوا فيها كلهم، ﴿قَالَتْ أَخْرَاهُمْ لَأُولَاهُمْ﴾ أى: أخرجهم دخولاً - وهم الاتباع - لأولاهم - وهم المتبوعون - لأنهم أشد جرمًا من أتباعهم، فدخلوا قبلهم، فيشكوههم ^(٢) الاتباع إلى الله يوم القيامة؛ لأنهم هم الذين أضلّوهم عن سواء السبيل، فيقولون: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ أى: أضعف عليهم العقوبة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَقْلُبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ. وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ. رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ ^(٣) [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨].

وقوله: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ أى: قد فعلنا ذلك وجازينا كلا بحسبه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا [فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ]﴾ ^(٤) [النحل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ [وَلَيَسْأَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ]﴾ ^(٥) [العنكبوت: ١٣] وقال: ﴿وَمِنَ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ [أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ]﴾ ^(٦) [النحل: ٢٥].

﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأَخْرَاهُمْ﴾ أى: قال المتبوعون للاتباع: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ قال السدى: فقد ضللتم كما ضللنا.

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، وهذا الحال كما أخبر تعالى عنهم فى حال محشرهم، فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعْفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعْفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعْفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرَأُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١ - ٣٣].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ ^(٤) لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ^(٤١).

قوله: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ قيل: المراد: لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء.

(١) زيادة من م. (٢) فى أ: «فيشكوههم».

(٣) (٤، ٣) زيادة من ك، م، أ. وفى هـ: «الآية».

(٥) زيادة من أ. وفى هـ: «الآية».

(٦) زيادة من ك، م، أ. وفى هـ: «الآية».

قاله مجاهد، وسعيد بن جبير. ورواه العوفي وعلى بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وكذا رواه الثوري، عن ليث، عن عطاء، عن ابن عباس.

وقيل: المراد: لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء.

رواه الضحاك، عن ابن عباس. وقاله السدي وغير واحد، ويؤيده ما قال ابن جرير:

حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن المنهال - هو ابن عمرو - عن زاذان، عن البراء؛ أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر، وأنه يصعد بها إلى السماء، قال: «فيصعدون بها، فلا تمر على ملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان، بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء، فيستفتحون بابها له فلا يفتح له». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَفْتَحْ لَهُمُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾^(١) الآية.

هكذا رواه، وهو قطعة من حديث طويل رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه، من طرق، عن المنهال بن عمرو، به^(٢). وقد رواه الإمام أحمد بطوله فقال:

حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن منهل بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب [رضي الله عنه]^(٣) قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولمّا يُلحد. فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر». مرتين أو ثلاثاً ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال إلى الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدّ البصر. ثم يجيء ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة^(٤)، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان».

قال: «فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها^(٥) في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط. ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض. فيصعدون بها فلا يمرون - يعني - بها على ملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة، فيقول الله، عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى».

(١) زيادة من ك، م، أ.

(٢) تفسير الطبري (٤٢٤/١٢)، وسنن أبي داود برقم (٤٧٥٣)، وسنن النسائي (٧٨/٤)، وسنن ابن ماجه برقم (١٥٤٨).

(٣) زيادة من ك، م، أ. (٤) في ك، م: «المطمئنة». (٥) في ك: «يدعها».

قال: «فتعاد روحه، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت. فينادى مناد من السماء: أن صدق عبدى، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة». «فيأتيه^(١) من روحها وطيبها، ويفسح له فى قبره مدّ بصره».

قال: «ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذى يسرك، هذا يومك الذى كنت توعده. فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجرى بالخير. فيقول: أنا عمالك الصالح. فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلى ومالى».

قال: «وإن العبد الكافر، إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة^(٢)، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم^(٣) المسوح، فيجلسون منه مدّ البصر، ثم يجرى ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجى إلى سخط من الله وغضب». قال: «فُتَرَّقَ فى جسده، فيتزعزعا كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح، ويخرج منها كأنن ربيع جيفة وجدت على وجه الأرض. فيصعدون بها، فلا يميرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا، حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له، فلا يفتح^(٤). ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾، فيقول الله، عز وجل: اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى. فتطرح روحه طرْحاً». ثم قرأ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

«فتعاد روحه فى جسده. ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه! لا أدري. فيقولان^(٥): ما دينك؟ فيقول: هاه هاه! لا أدري. فيقولان^(٦): ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه! لا أدري. فينادى مناد من السماء: أن كذب، فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار. فيأتيه من حرّها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذى يسوؤك، هذا يومك الذى كنت توعده فيقول: من^(٧) أنت؟ فوجهك الوجه يجرى بالشر. فيقول: أنا عمالك الخبيث. فيقول: رب لا تقم الساعة^(٨)».

(١) فى ك، م، أ: «قال: فيأتيه». (٢) فى م: «إذا كان فى انقطاع عن الآخرة وإقبال من الدنيا».

(٣) فى م: «معهم السياط». (٤) فى م، أ: «فلا يفتح له». (٥، ٦) فى م، أ: «فيقولان له».

(٧) فى م: «ومن».

(٨) المسند (٢٨٧/٤).

وقال أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن يونس بن خباب، عن المنهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة، فذكر نحوه. وفيه: «حتى إذا خرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وفتحت له أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله، عز وجل، أن يعرج بروحه من قبلهم».

وفي آخره: «ثم يقيض له أعمى أصم أبكم، في يده مَرْزَبَةٌ لو ضرب بها جبل كان تراباً، فيضربه ضربة فيصير تراباً، ثم يعيده الله، عز وجل، كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين». قال البراء: «ثم يفتح له باب من النار، ويمهد له من فرش النار»^(١).

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد، والنسائي، وابن ماجه وابن جرير - واللفظ له - من حديث محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة [رضي الله عنه]^(٢) أن رسول الله ﷺ قال: «الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس المطمئنة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فيقولون ذلك حتى يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقولون: من هذا؟ فيقولون: فلان. فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة التي كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فيقال لها ذلك حتى ينتهي به إلى السماء التي فيها الله، عز وجل. وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج، فيقولون ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان. فيقولون: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لم تفتح^(٣) لك أبواب السماء، فترسل بين السماء والأرض، فتصير إلى القبر»^(٤).

وقد قال ابن جرير في قوله: ﴿لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ قال: لا تفتح لأعمالهم، ولا لأرواحهم.

وهذا فيه جمع بين القولين، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ هكذا قرأه^(٥) الجمهور، وفسروه بأنه البعير. قال ابن مسعود: هو الجمل ابن الناقة. وفي رواية: زوج الناقة. وقال الحسن البصري: حتى يدخل البعير في خرق الإبرة. وكذا قال أبو العالية، والضحاك. وكذا روى علي بن أبي طلحة، والوعوف عن ابن عباس.

(١) المسند (٢٩٥/٤).

(٢) في ك: «يفتح».

(٣) زيادة من أ.

(٤) المسند (٣٦٤/٢) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٤٤٢) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٦٢) وتفسير الطبري (٤٢٤/١٢).

(٥) في د، ك، م: «فسره».

وقال مجاهد، وعكرمة، عن ابن عباس: أنه كان يقرؤها: «[حتى]»^(١) يلج الجمل في سم الخيام بضم الجيم، وتشديد الميم، يعنى: الحبل الغليظ في خرم الإبرة.

وهذا اختيار سعيد بن جبير. وفي رواية أنه قرأ: «حتى يلج الجمل» يعنى: قُلُوس السفن، وهى الحبال الغلاظ.

وقوله: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾^(٢) قال محمد بن كعب القرظي: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ قال: الفرش، ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ قال: اللحف.

وكذا قال الضحاك بن مزاحم، والسدي، ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تُلْكُمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾.

لما ذكر تعالى حال الأشقياء^(٣)، عطف بذكر حال السعداء، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم، ضد أولئك الذين كفروا بآيات الله، واستكبروا عنها.

وينبه^(٤) تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل؛ لأنه تعالى قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ أى: من حسد وبغضاء، كما جاء فى الصحيح للبخارى، من حديث قتادة، عن أبى المتوكل الناجي، عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فاقصص لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا، أذن لهم فى دخول الجنة؛ فوالذى نفسى بيده، إن أحدهم بمنزلة فى الجنة أدل منه بمسكنه كان فى الدنيا»^(٥).

وقال السدي فى قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الآية: إن أهل الجنة إذا سبقوا إلى الجنة فبلغوا، وجدوا عند بابها شجرة فى أصل ساقها عينان، فشربوا^(٦) من إحداهما، فينزع ما فى صدورهم من غل، فهو «الشراب الطهور»، واغتسلوا من الأخرى، فجرت عليهم «نضرة النعيم» فلم يشعثوا ولم يشحبوا بعدها أبداً.

(٣) فى أ: «ما للأشقياء».

(٢) زيادة من م، أ.

(١) زيادة من ك، م، أ.

(٤) فى م، أ: «ونبه».

(٥) صحيح البخارى برقم (٢٤٤٠).

(٦) فى م: «فيشربون».

وقد روى أبو إسحاق، عن عاصم، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب نحواً من ذلك^(١)، كما سيأتى فى قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣]، إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان.

وقال قتادة: قال علي، رضى الله عنه: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾. رواه ابن جرير.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة، عن إسرائيل قال: سمعت الحسن يقول: قال علي: فينا والله أهل بدر نزلت: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾^(٢).

وروى النسائي وابن مردويه - واللفظ له - من حديث أبي بكر بن عياش، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني، فيكون له شكرًا. وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هداني، فيكون له حسرة»^(٣).

ولهذا لما أورثوا مقاعد أهل النار من الجنة نودوا: ﴿أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة، وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم. وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ: «واعلموا أن أحدكم»^(٤) لن يدخله عمله الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل»^(٥).

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصْدُون عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥)﴾.

يخبر تعالى بما يخاطب أهل الجنة أهل النار إذا استقروا فى منازلهم، وذلك على وجه التقريع والتوبيخ: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا [فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا]﴾^(٦)، «أن» ههنا مفسرة للقول المحذوف، و«قد» للتحقيق، أى: قالوا لهم: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ كما أخبر تعالى فى سورة «الصفافات» عن الذى كان له قرين من الكفار: ﴿فَاطْلَعْ

(١) فى ك، م، أ: «هذا».

(٢) تفسير عبد الرزاق (٢١٧/١).

(٣) سنن النسائي الكبرى كما فى تحفة الأشراف للمزى برقم (١٢٤٩٢) ورواه أحمد فى مسنده (٥١٢/٢) والحاكم فى المستدرک (٤٣٥/٢) من طريق أبي بكر بن عياش به، وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى.

(٤) فى أ: «أحدًا».

(٥) صحيح البخارى برقم (٦٤٦٣) وصحيح مسلم برقم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة، رضى الله عنه.

(٦) زيادة من ك، م.

فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ . قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينَ . وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ . أَلَمَّْا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٥ - ٥٩﴾ أى: ينكر عليه مقالته التى يقولها فى الدنيا، ويقرعه بما صار إليه من العذاب والنكال، وكذا^(١) تفرعهم الملائكة يقولون لهم: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ . أَفَسِحَرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ . اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٤ - ١٦] . وكذلك قرع رسول الله ﷺ قَتْلَى الْقَلْبِ يوم بدر، فنادى: «يا أبا جهل بن هشام، ويا عتبة بن ربيعة، ويا شيبه بن ربيعة - وسمى رؤوسهم - : هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقاً» . وقال^(٢) عمر: يا رسول الله، تخاطب قوماً قد جَيفُوا؟ فقال: «والذى نفسى بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا»^(٣) . وقوله: ﴿فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ أى: أعلم معلم ونادى مُنَادٍ: ﴿أَنْ لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أى: مستقرة عليهم .

ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أى: يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء، ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة، حتى لا يتبعها أحد. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ أى: وهم بقاء الله فى الدار الآخرة كافرين، أى: جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به . فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل؛ لأنهم لا يخافون حساباً عليه ، ولا عقاباً، فهم شر الناس أعمالاً وأقوالاً .

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) .

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار، نبه أن بين الجنة والنار حجاباً، وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة .

قال ابن جرير: وهو السور الذى قال الله تعالى: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ سُورًا لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهَرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣] . وهو الأعراف الذى قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ .

ثم روى بإسناده عن السدى أنه قال فى قوله [تعالى]^(٤): ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ وهو «السور»، وهو «الأعراف» .

(١) فى م: «وكذلك» . (٢) فى ك، م: «فقال» .

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٩٨٠) ومسلم فى صحيحه برقم (٩٣٢٢) من حديث عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما .

(٤) زيادة من ك .

وقال مجاهد: الأعراف: حجاب بين الجنة والنار، سور له باب.

قال ابن جرير: والأعراف جمع «عُرْف»، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى «عرفاً»، وإنما قيل لعرف الديك عرفاً لارتفاعه.

وحدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا ابن عيينة، عن عبيد الله بن أبي يزيد، سمع ابن عباس يقول: الأعراف: هو الشيء المشرف.

وقال الثوري، عن جابر، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: الأعراف: سور كعُرْف الديك.

وفى رواية عن ابن عباس: الأعراف، تل بين الجنة والنار، حبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار. وفى رواية عنه: هو سور بين الجنة والنار. وكذلك قال الضحاك وغير واحد من علماء التفسير.

وقال السدى: إنما سمي «الأعراف» أعرافاً؛ لأن أصحابه يعرفون الناس.

واختلفت عبارات المفسرين فى أصحاب الأعراف من هم، وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد، وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم. نص عليه حذيفة، وابن عباس، وابن مسعود، وغير واحد من السلف والخلف، رحمهم الله. وقد جاء فى حديث مرفوع رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه:

حدثنا عبد الله بن إسماعيل، حدثنا عبيد بن الحسين، حدثنا سليمان بن داود، حدثنا النعمان بن عبد السلام، حدثنا شيخ لنا يقال له: أبو عباد، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر بن عبد الله قال: سئل رسول الله ﷺ عن استوت حسناته وسيئاته، فقال: «أولئك أصحاب الأعراف، لم يدخلوها وهم يطعمون».

وهذا حديث غريب من هذا الوجه^(١)، ورواه من وجه آخر، عن سعيد بن سلمة بن أبى الحسام، عن محمد بن المنكدر عن رجل من مزينة قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف، فقال: «إنهم قوم خرجوا عصاة بغير إذن آبائهم، فقتلوا فى سبيل الله»^(٢).

وقال سعيد بن منصور: حدثنا أبو معشر، حدثنا يحيى بن شبيل، عن يحيى بن عبد الرحمن المزنى^(٣)، عن أبيه قال: سئل رسول الله ﷺ عن «أصحاب الأعراف» فقال: «هم ناس»^(٤) قتلوا فى سبيل الله بمعصية آبائهم، فمنعهم من دخول الجنة معصية آبائهم ومنعهم النار^(٥) قتلهم فى سبيل الله.

(١) ورواه أبو الشيخ وابن عساكر فى تاريخه كما فى الدر المنثور (٤٦٣/٣).

(٢) ورواه أبو الشيخ كما فى الدر المنثور (٤٦٥/٣)، وسعيد بن سلمة ضعفه النسائى وخرج له مسلم فى صحيحه.

(٣) وقع فى النسخ «يحيى بن عبد الرحمن المزنى» وفى تفسير الطبرى «محمد بن عبد الرحمن المزنى» وفى مسند الحارث ومساوى الأخلاق «عمر بن عبد الرحمن المزنى» ولم أجد من ترجم له إلا أن ابن أبى حاتم قال فى الجرح والتعديل فى ترجمة يحيى بن شبيل أنه روى عن «عمر بن عبد الرحمن المزنى».

(٥) فى أ: «من دخول النار».

(٤) فى أ: «قوم».

هكذا رواه ابن مَرْدُويَه، وابن جرير، وابن أبي حاتم من طرق، عن أبي معشر به^(١). وكذلك^(٢) رواه ابن ماجه مرفوعاً، من حديث ابن عباس وأبي سعيد الخدري^(٣) [رضى الله عنهما]^(٤)، والله أعلم بصحة هذه الأخبار المرفوعة وقصارها أن تكون موقوفة وفيه دلالة على ما ذكر.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا هُشَيْمٌ، أخبرنا حصين، عن الشعبي، عن حذيفة؛ أنه سئل عن أصحاب الأعراف، قال: فقال: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة، وخلفت بهم حسناتهم عن النار. قال: فوقفوا هناك^(٥) على السور حتى يقضى الله فيهم^(٦).

وقد رواه من وجه آخر أبسط^(٧) من هذا فقال:

حدثنا ابن حُمَيْد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا يونس بن أبي إسحاق قال: قال الشعبي: أرسل إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن - وعنده أبو الزناد عبد الله بن ذَكْوَان مولى قريش - وإذا هما قد ذكرا من أصحاب الأعراف ذكراً ليس كما ذكرا، فقلت لهما: إن شئتما أنبأتكما بما ذكر حذيفة، فقالا: هات. فقلت: إن حذيفة ذكر أصحاب الأعراف فقال: هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار، وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة، فإذا صُرُفَتْ أَبْصَارُهُمْ تَلْقَاءُ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، فبينما^(٨) هم كذلك، اطلع عليهم ربك فقال لهم: اذهبوا فادخلوا الجنة فإنني قد غفرت لكم^(٩).

وقال عبد الله بن المبارك، عن أبي بكر الهذلي قال: قال سعيد بن جبير، وهو يحدث ذلك عن ابن مسعود قال يحاسب الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار. ثم قرأ قول الله: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾^(١٠) [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣]، ثم قال: إن الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح، قال: ومن استوت حسناته وسيئاته كان من

(١) تفسير الطبري (٤٥٨/١٢)، ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده برقم (٧١١) «بغية الباحث».

والخرائطي في مساوي الأخلاق برقم (٢٥٢) كلاهما من طريق أبي معشر به.

وأبو معشر هو نجيج بن عبد الرحمن قال البخاري: منكر الحديث.

(٢) في ك، م: «وكذا».

(٣) لم أجدهما في سنن ابن ماجه، وإنما رواهما ابن مردويه في تفسيره كما في الدر المنثور (٤٦٥/٣)، وحديث أبي سعيد رواه أيضا الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٣٣٢٢) «مجمع البحرين» من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عطاء، عن أبي سعيد الخدري به. وقال الهيثمي في المجمع (٢٣/٧): «فيه محمد بن مخلد الرعيي وهو ضعيف».

قلت: وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف أيضا.

(٤) زيادة من أ.

(٥) في ك، م: «هنالك».

(٦) تفسير الطبري (٤٥٣/١٢).

(٧) في م: «بأبسط».

(٨) تفسير الطبري (٤٥٢/١٢).

(٩) زيادة من ك، م، أ. وفي هـ: «الآيتين».

أصحاب الأعراف، فوقفوا على الصراط، ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا: سلام عليكم، وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم نظروا أصحاب النار قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، فتعوذوا بالله من منازلهم. قال: فأما أصحاب الحسنات، فإنهم يعطون نوراً فيمشون به بين أيديهم وبأيامهم، ويعطى كل عبد يومئذ نوراً، وكل أمة نوراً، فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة. فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون قالوا: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحریم: ٨]. وأما أصحاب الأعراف، فإن النور كان فى أيديهم فلم ينزع، فهناك يقول الله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾، فكان الطمع دخولاً. قال: وقال^(١) ابن مسعود: على أن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشر، وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة. ثم يقول: هلك من غلبت واحدة أعشاره.

رواه ابن جرير^(٢)، وقال أيضا:

حدثني ابن وكيع وابن حميد قالا: حدثنا جرير، عن منصور، عن حبيب بن أبى ثابت، عن عبد الله بن الحارث، عن ابن عباس قال: «الأعراف»: السور الذى بين الجنة والنار، وأصحاب الأعراف بذلك المكان، حتى إذا بدا الله أن يعافهم، أنطلق بهم إلى نهر يقال له: «الحياة»، حافته قصب الذهب، مكلل باللؤلؤ، ترابه المسك، فألقوا^(٣) فيه حتى تصلح ألوانهم، وتبدو فى نحورهم بيضاء يعرفون بها، حتى إذا صلحت ألوانهم أتى بهم الرحمن تبارك وتعالى فقال: تمنوا ما شئتم فيتمنون، حتى إذا انقطعت أمنيتهم قال لهم: لكم الذى تمنيتم ومثله سبعون ضعفا. فيدخلون الجنة وفى نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها، يسمون مساكين أهل الجنة.

وكذا رواه ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن يحيى بن المغيرة، عن جرير، به. وقد رواه سفيان الثوري، عن حبيب بن أبى ثابت، عن مجاهد، عن عبد الله بن الحارث، من قوله^(٤). وهذا أصح، والله أعلم. وهكذا روى عن مجاهد والضحاك وغير واحد.

وقال سنيّد بن داود: حدثني جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن أبى زُرْعَةَ بن عمرو بن جرير قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف قال^(٥): «هم آخر من يفصل بينهم من العباد، فإذا فرغ رب العالمين من فصله^(٦) بين العباد قال: أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار، ولم تدخلوا^(٧) الجنة، فأنتم عتقائي، فارعوا من الجنة حيث شئتم». وهذا مرسل حسن^(٨).

(١) فى د: «فقال».

(٢) تفسير الطبرى (١٢/٤٥٤).

(٣) فى م: «فألقى».

(٤) تفسير الطبرى (١٢/٤٥٥).

(٥) فى م: «فقال».

(٦) فى ك، م: «فصل».

(٧) فى م: «يدخلوا».

(٨) ورواه الطبرى (١٢/٤٦١) عن القاسم، عن سنيّد بإسناده به.

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة «الوليد بن موسى»، عن منبه بن عثمان^(١)، عن عروة بن رُوَيْمٍ، عن الحسن، عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ؛ أن مؤمنى الجن لهم ثواب وعليهم عقاب، فسألناه عن ثوابهم^(٢)، فقال: «على الأعراف، وليسوا فى الجنة مع أمة محمد ﷺ». فسألناه: وما الأعراف؟ فقال: «حائط الجنة تجرى فيه الأنهار، وتنبت فيه الأشجار والثمار».

رواه البيهقى، عن ابن بشران، عن على بن محمد المصرى، عن يوسف بن يزيد، عن الوليد بن موسى، به^(٣).

وقال سفيان الثورى، عن خُصَيْفٍ، عن مجاهد قال: أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء.

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّةَ، عن سليمان التيمى، عن أبى مجلز فى قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ قال: هم رجال من الملائكة، يعرفون أهل الجنة وأهل النار، قال: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ. وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ فى النار ﴿يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ. أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ قال: فهذا حين دخل أهل الجنة الجنة: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

وهذا صحيح إلى أبى مجلز لاحق بن حميد أحد التابعين، وهو غريب من قوله وخلاف الظاهر من السياق: وقول الجمهور مقدم على قوله، بدلالة الآية على ما ذهبوا إليه. وكذا قول مجاهد: إنهم قوم صالحون علماء فقهاء^(٤)، فيه غرابة أيضا. والله أعلم.

وقد حكى القرطبى وغيره فيهم اثنى عشر قولاً منها: أنهم شهدوا أنهم صلحاء تفرعوا من فرع الآخرة، دخلوا^(٥) يطلعون على أخبار الناس. وقيل: هم أنبياء. وقيل: ملائكة.

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قال: يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه، وأهل النار بسواد الوجوه. وكذا روى الضحاك، عنه.

وقال العوفى، عن ابن عباس^(٦): أنزلهم الله بتلك المنزلة، ليعرفوا من فى الجنة والنار، وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه، ويتعوزوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين. وهم فى ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام، لم يدخلوها، وهم يطمعون أن يدخلوها، وهم داخلوها إن شاء الله.

وكذا قال مجاهد، والضحاك، والسدى، والحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

(١) فى النسخ «شيبه بن عثمان» والتصويب من تاريخ دمشق والبعث للبيهقى.

(٢) فى النسخ: «عن ثوابهم وعن مؤمنهم» والمثبت من الدر المنثور ٨٨/٣. مستفاد من هامش ط الشعب.

(٣) تاريخ دمشق (١٧/ ٩١٠) «القسم المخطوط» والبعث للبيهقى برقم (١١٧) ورجاله ثقات.

(٤) فى ك، م، أ: «فقههاء علماء». (٥) فى م: «وجعلوها»، وفى أ: «وخلق».

(٦) فى ك، م: «عن ابن عباس قال».

وقال معمر، عن الحسن: إنه تلا هذه الآية: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ قال: والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم، إلا لكرامة يريد بها.

وقال قتادة: [قد] ^(١) أنبأكم الله بمكانهم من الطمع.

وقوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، قال الضحاك، عن ابن عباس: إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم ^(٢)، قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وقال السدّي: وإذا مروا بهم - يعنى بأصحاب الأعراف - بزمرة يُذهب بها إلى النار قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وقال عكرمة: تحدد وجوههم في النار، فإذا رأوا أصحاب الجنة ذهب ذلك عنهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ فرأوا وجوههم مسودة، وأعينهم مزرقة، ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٤٨) أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون (٤٩)﴾.

يقول تعالى مخبراً ^(٣) عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم، يعرفونهم في النار بسيماهم: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أى: كثرتم، ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى: لا ينفعكم كثرتم ولا جموعكم من عذاب الله، بل صرتم إلى ما صرتم فيه ^(٥) من العذاب والنكال. ﴿أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى: أصحاب الأعراف ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن سعد، حدثني أبى، حدثني عمى، حدثني أبى، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ [وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ] ^(٦) الآية، قال: فلما قالوا لهم الذى قضى الله أن يقولوا - يعنى أصحاب الأعراف لأهل الجنة وأهل النار - قال الله [تعالى] ^(٧) لأهل التكبر والأموال: ﴿أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

وقال ^(٨) حذيفة: إن أصحاب الأعراف قوم تكافأت أعمالهم، فقصرت بهم حسناتهم عن الجنة،

(٣) فى ك، م، أ: «إخبارا».

(٢) فى ك، م، أ: «عرفوهم».

(١) زيادة من م، أ.

(٦) زيادة من د، ك، م، أ.

(٥) فى ك، م: «إلى ما أنتم فيه».

(٤) فى أ: «ينعكم».

(٨) فى ك، م: «فقال».

(٧) زيادة من أ.

وقصرت بهم سيئاتهم عن النار، فجعلوا على الأعراف، يعرفون الناس بسيماهم، فلما قضى الله بين العباد أذن لهم فى طلب الشفاعة، فأتوا آدم فقالوا: يا آدم، أنت أبونا، فاشفع لنا عند ربك. فقال: هل تعلمون أن أحداً خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وسبقت رحمته إليه غضبه، وسجدت له الملائكة غيرى؟ فيقولون: لا. [قال] ^(١): فيقول: ما علمت كنهه، ما أستطيع أن أشفع لكم، ولكن ائتوا ابنى إبراهيم. فيأتون إبراهيم عليه السلام ^(٢)، فيسألونه أن يشفع لهم عند ربهم، فيقول: [هل] ^(٣) تعلمون من أحد اتخذ الله خليلاً؟ هل تعلمون أن أحداً أحرقه قومه فى النار فى الله غيرى؟ فيقولون: لا. فيقول: ما علمت كنهه، ما أستطيع أن أشفع لكم. ولكن ائتوا ابنى موسى. فيأتون موسى، عليه السلام، [فيقولون: اشفع لنا عند ربك] ^(٤)، فيقول: هل تعلمون من أحد كلمه الله تكليماً وقربه نجياً غيرى؟ فيقولون: لا، فيقول: ما علمت كنهه، ما أستطيع أن أشفع لكم، ولكن ائتوا عيسى. فيأتونه، عليه السلام، فيقولون له: اشفع لنا عند ربك. فيقول: هل تعلمون أحداً خلقه الله من غير أب غيرى؟ فيقولون: لا. فيقول: هل تعلمون من أحد كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله غيرى؟ قال: فيقولون: لا. فيقول: أنا حجيج نفسى. ما علمت كنهه، ما أستطيع أن أشفع لكم. ولكن ائتوا محمداً عليه السلام ^(٥)، فيأتوننى ^(٦)، فأضرب بيدى على صدرى، ثم أقول: أنا لها. ثم أمشى حتى أقف بين يدى العرش، فأتى ربى، عز وجل، فيفتح لى من الثناء ما لم يسمع السامعون بمثله قط، ثم أسجد فيقال لى: يا محمد، ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسى، فأقول: ربى أمتى. فيقول: هم لك. فلا يبقى نبي مرسل، ولا ملك مقرب، إلا غبطنى بذلك المقام، وهو المقام المحمود. فأتى بهم الجنة، فأستفتح فيفتح لى ولهم، فيذهب بهم إلى نهر يقال له: نهر الحيوان، حافته قصب مكلل باللؤلؤ، ترابه المسك، وحصابؤه الياقوت. فيغتسلون منه، فتعود إليهم ألوان أهل الجنة، وريح [أهل الجنة] ^(٦)، فيصيرون كأنهم الكواكب الدرية، ويبقى فى صدورهم شامات بيض يعرفون بها، يقال لهم: مساكين أهل الجنة ^(٧).

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١)﴾.

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم، وأنهم لا يجابون إلى ذلك.

قال السددي: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾

(١) زيادة من ك، م. (٢) فى أ: «عليه الصلاة والسلام». (٣) زيادة من أ. (٤) زيادة من أ. (٥) فى ك، م: «فيأتوننى». (٦) زيادة من ك، م، أ. (٧) رواه الطبرى فى تفسيره (٤٦٩/١٢).

يعنى: الطعام وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يستطعمونهم ويستسقونهم.

وقال الثورى، عن عثمان الثقفى، عن سعيد بن جبير فى هذه الآية قال: ينادى الرجل أباه أو أخاه فيقول: قد احترقت، أفض^(١) على من الماء. فيقال لهم: أجيبوهم. فيقولون: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

وروى من وجه آخر عن سعيد، عن ابن عباس، مثله [سواء]^(٢).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يعنى: طعام الجنة وشرابها.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا نصر بن على، أخبرنا موسى بن المغيرة، حدثنا أبو موسى الصفار فى دار عمرو بن مسلم قال: سألت ابن عباس - أو: سئل - أى الصدقة أفضل؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة الماء، ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا: أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله»^(٣).

وقال أيضا: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن أبى صالح قال: لما مرض أبو طالب قالوا له: لو أرسلت إلى ابن أخيك هذا، فيرسل إليك بعنقود من الجنة^(٤)، لعله أن يشفيك به. فجاءه الرسول وأبو بكر عند النبى ﷺ، فقال أبو بكر: إن الله حرمهما على الكافرين^(٥).

ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه فى الدنيا من اتخاذهم الدين لهوا ولعبا، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للدار الآخرة.

قوله^(٦): ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ أى: نعاملهم معاملة من نسيهم؛ لأنه تعالى لا يشذ عن^(٧) علمه شىء ولا ينساه، كما قال تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة، كما قال: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقال: ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجاثية: ٣٤].

وقال العوفى، عن ابن عباس فى [قوله]^(٨): ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ قال: نسيهم الله من الخير، ولم ينسهم من الشر.

(١) فى د: «أفاض». (٢) زيادة من أ.

(٣) ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٣٣٨٠) والذهبى فى ميزان الاعتدال (٢٢٤/٤) من طريق موسى بن المغيرة به.

وقال الذهبى: «موسى بن المغيرة مجهول، وشيخه أبو موسى الصفار لا يعرف».

(٤) فى د، ك، م، أ: «جنته».

(٥) ورواه ابن أبى شيبة كما فى الدر المنثور للسيوطى (٤٦٩/٣).

(٨) زيادة من أ.

(٧) فى أ: «من».

(٦) فى م: «وقوله».

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قال: نتركهم، كما تركوا لقاء يومهم هذا.
وقال مجاهد: نتركهم فى النار. وقال السدى: نتركهم من الرحمة، كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا.

وفى الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: «ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأدرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. فيقول: أظننت أنك ملاقى؟ فيقول: لا. فيقول الله: فاليوم أنساك كما نسيتنى»^(١).

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن إعداده إلى المشركين بإرسال الرسول إليهم بالكتاب الذى جاء به الرسول، وأنه كتاب مفصل مبين، كما قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ [مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ]﴾^(٢) الآية [هود: ١].

وقوله: ﴿فَصَّلَّنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾^(٣) أى: على علم منا بما فصلناه به، كما قال تعالى: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦].

قال ابن جرير: وهذه الآية مردودة على قوله: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤) [الأعراف: ٢]. ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ [فَصَّلَّنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ]﴾^(٥) الآية.

وهذا الذى قاله فيه نظر، فإنه قد طال الفصل، ولا دليل على ذلك، وإنما لما أخبر عما صاروا إليه من الخسار فى الدار الآخرة، ذكر أنه قد أزاح عنهم فى الدار الدنيا، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]؛ ولهذا قال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أى: ما وعد من العذاب والنكال والجنة والنار. قاله مجاهد وغير واحد.

وقال مالك: ثوابه. وقال الربيع: لا يزال يجرى تأويله أمر، حتى يتم يوم الحساب، حتى يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فيتم تأويله يومئذ.

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ أى: يوم القيامة، قاله ابن عباس - ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أى: تركوا العمل به، وتناسوه فى الدار الدنيا: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ أى: فى

(١) ورواه ابن أبى شيبه كما فى الدر المنثور للسيوطى (٤٦٩/٣).

(٢) زيادة من ك، م. (٣) فى ك: «علم للعالمين» وهو خطأ.

(٤) زيادة من ك، م، وفى هـ: «الآية». (٥) زيادة من ك، م.

خلاصنا مما نحن فيه، ﴿أَوْ نُرَدِّ﴾ إلى الدار الدنيا ﴿فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام ٢٧، ٢٨]، كما قال هاهنا: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى: [قد]^(١) خسروا أنفسهم بدخلوهم النار وخلودهم فيه، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى: ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا ينصرونهم، ولا يشفعون لهم^(٢)، ولا ينقذونهم مما هم فيه.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٥٤).

يخبر تعالى بأنه خلق هذا العالم: سماواته وأرضه، وما بين ذلك فى ستة أيام، كما أخبر بذلك فى غير ما آية من القرآن، والستة الأيام هى: الأحد، والإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة - وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم، عليه السلام. واختلفوا فى هذه الأيام: هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان^(٣)؟ أو كل يوم كالف سنة، كما نص على ذلك مجاهد، والإمام أحمد بن حنبل، ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس؟ فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق؛ لأنه اليوم السابع، ومنه سمي السبت، وهو القطع.

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده حيث قال: حدثنا حجاج، حدثنا ابن جريج، أخبرنى إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع - مولى أم سلمة - عن أبى هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق، فى آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل».

فقد رواه مسلم بن الحجاج فى صحيحه والنسائى من غير وجه، عن حجاج - وهو ابن محمد الأعور - عن ابن جريج به^(٤)، وفيه استيعاب الأيام السبعة، والله تعالى قد قال فى ستة أيام؛ ولهذا تكلم البخارى وغير واحد من الحفاظ فى هذا الحديث، وجعلوه من رواية أبى هريرة، عن كعب الأحبار، ليس مرفوعا، والله أعلم.

وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾، فللناس فى هذا المقام مقالات كثيرة جدا، ليس هذا موضع بسطها، وإنما يسلك فى هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك، والأوزاعى، والثورى،

(١) زيادة من م.

(٢) فى ك، م: «فيهم».

(٣) فى م: «الفهم».

(٤) المسند (٣٢٧/١) وصحيح مسلم برقم (٢٧٨٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٠١٠).

والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه وغيرهم، من أئمة المسلمين قديما وحديثا، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكيف ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفى عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، بل الأمر كما قال الأئمة - منهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخارى -: «من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر». وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة، على الوجه الذى يليق بجلال الله تعالى، ونفى عن الله تعالى النقائص، فقد سلك سبيل الهدى.

وقوله تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ أى: يذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، أى: سريعاً لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، كما قال تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلَمُونَ. وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧ - ٤٠]. فقله: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أى: لا يفوته بوقت يتأخر عنه، بل هو فى أثره لا واسطة بينهما؛ ولهذا قال: ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ - منهم من نصب، ومنهم من رفع، وكلاهما قريب المعنى، أى: الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيتته؛ ولهذا قال منبهاً: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾؟ أى: له الملك والتصرف، ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، كما قال [تعالى] ^(١): ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ ^(٢) [الفرقان: ٦١].

وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا هشام أبو عبد الرحمن، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد، حدثنا عبد الغفار بن عبد العزيز الأنصارى، عن عبد العزيز الشامى، عن أبيه - وكانت له صحبة - قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح، وحمد نفسه، فقد كفر وحبط عمله. ومن زعم أن الله جعل للعباد من الأمر شيئاً، فقد كفر بما أنزل الله على أنبيائه؛ لقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ^(٣).

وفى الدعاء المأثور، عن أبى الدرداء - وروى مرفوعاً -: «اللهم لك الملك كله، ولك الحمد كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله» ^(٤).

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ٥٦﴾.

أرشد [سبحانه و] ^(٥) تعالى عباده إلى دعائه، الذى هو صلاحهم فى دنياهم وأخراهم، فقال تعالى:

(١) زيادة من ك. (٢) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية».

(٣) تفسير الطبرى (١٢/٤٨٤).

(٤) سبق الكلام على هذا الأثر، وذكر وجوه رفعه عند الآية: ٢ من سورة الفاتحة.

(٥) زيادة من أ.

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، [قيل]^(١): معناه: تذللًا واستكانة، و﴿خُفْيَةً﴾، كما قال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾^(٢) [الأعراف: ٢٠٥]، وفي الصحيحين، عن أبي موسى الأشعري [رضى الله عنه]^(٣) قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء، فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، اربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إن الذي تدعونه سميع قريب»^(٤) (٥). الحديث.

وقال ابن جريج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس في قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، قال: السر. وقال ابن جرير: ﴿تَضَرُّعًا﴾: تذللًا واستكانة لطاعته. ﴿وَخُفْيَةً﴾ يقول: بخشوع قلوبكم، وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه، لا جهارًا ومراءاة.

وقال عبد الله بن المبارك، عن المبارك بن فضالة، عن الحسن قال: إن كان الرجل لقد جمع القرآن، وما يشعر به الناس. وإن كان الرجل لقد فقه^(٦) الفقه الكثير، وما يشعر به الناس. وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزور وما يشعرون به. ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على الأرض من عمل يقدر أن يعملوه في السر، فيكون علانية أبدًا. ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يُسمع لهم صوت، إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً [إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ]﴾^(٧)، وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رضى فعله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣].

وقال ابن جريج: يكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء، ويؤمر بالتضرع والاستكانة، ثم روى عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾: في الدعاء ولا في غيره.

وقال أبو مجلز: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾: لا يسأل^(٨) منازل الأنبياء.

وقال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا شعبة، عن زياد ابن مخرق، سمعت أبا نعام^(٩)، عن مولى لسعد؛ أن سعداً سمع ابناً له يدعو وهو يقول: اللهم، إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحوها من هذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها. فقال: لقد سألت الله خيراً كثيراً، وتعوذت بالله من شر كثير، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء». وقرأ هذه الآية: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

(١) زيادة من ك، م، د، أ. (٢) زيادة من ك، م، أ. وفي هـ: «الآية».

(٣) زيادة من أ. (٤) في م، ك: «سمعيًا قريبًا»، وفي د: «قريبًا سميعًا».

(٥) صحيح البخاري برقم (٤٢٠٥)، وصحيح مسلم برقم (٢٧٠٤).

(٦) في أ: «لفقه».

(٧) زيادة من ك.

(٨) في م، ك، أ: «أبا عباة».

الْمُعْتَدِينَ^(١)، وإن بحسبك أن تقول: «اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل»^(٢).

ورواه أبو داود، من حديث شعبة، عن زياد بن مخراق، عن أبي نَعَامَةَ، عن ابن لسعد، عن سعد، فذكره^(٣)، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عَفَّان، حدثنا حَمَّاد بن سلمة، أخبرنا الجريري، عن أبي نَعَامَةَ: أن عبد الله بن مغفل^(٤) سمع ابنه يقول: اللهم، إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها. فقال: يا بني، سل الله الجنة، وعذبه من النار؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور».

وهكذا رواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن عفان به. وأخرجه أبو داود، عن موسى ابن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، عن سعيد بن إياس الجريري، عن أبي نَعَامَةَ^(٥) - واسمه: قيس ابن عباية الحنفى البصرى - وهو إسناده حسن لا بأس به، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾: ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض، وما أضربه بعد الإصلاح! فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد، ثم وقع الإفساد بعد ذلك، كان أضرب ما يكون على العباد. فنهى [الله]^(٦) تعالى عن ذلك، وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه، فقال: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أى: خوفا مما عنده من وبيل العقاب، وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب.

ثم قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: إن رحمته مُرْصَدَةٌ للمحسنين، الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ [وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ]^(٧)﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

وقال: ﴿قَرِيبٌ﴾، ولم يقل: «قريبة»؛ لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب، أو لأنها مضافة إلى الله، فلهذا قال: قريب من المحسنين.

وقال مطر الوراق: تَنَجَّزُوا مَوْعُودَ^(٨) الله بطاعته، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين، رواه ابن أبى حاتم.

(١) زيادة من ك، م، أ. وفي هـ: «الآية».

(٢) المسند (١/١٧٢).

(٣) سنن أبى داود برقم (١٤٨٠).

(٤) فى أ: «معقل».

(٥) المسند (٥/٥٥)، وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٦٤)، وسنن أبى داود برقم (٩٦).

(٨) فى أ: «فتنجزوا بوعده».

(٧) زيادة من ك، م، أ.

(٦) زيادة من أ.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

لما ذكر تعالى أنه خالق^(١) السموات والأرض، وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر، وأرشد إلى دعائه؛ لأنه على ما يشاء قادر - نبه تعالى على أنه الرزاق، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا﴾ أى: ناشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر، ومنهم من قرأ ﴿بُشْرًا﴾، كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦].

وقوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أى: بين يدي المطر، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَطَرُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]، وقال: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ أَثَرِ﴾^(٢) رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أى: حملت الرياح سحاباً ثقالاً، أى: من كثرة ما فيها من الماء، تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة، كما قال زيد بن عمرو بن نفيل، رحمه الله:

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ الْمَزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلَالًا
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالًا^(٣)

وقوله: ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أى: إلى أرض ميتة، مجدبة^(٤) لا نبات فيها، كما قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾^(٥) [يس: ٣٣]؛ ولهذا قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾ أى: كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها، كذلك نحیی الأجساد بعد صيرورتها رميماً يوم القيامة، ينزل الله، سبحانه وتعالى، ماء من السماء، فتمطر الأرض أربعين يوماً، فتنبت منه الأجساد فى قبورها كما ينبت الحب فى الأرض. وهذا المعنى كثير فى القرآن، يضرب الله مثلاً للقيامة بإحياء الأرض بعد موتها؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أى: والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعاً حسناً، كما قال: ﴿فَتَقْبَلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧].

﴿وَالَّذِي خَبَثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا﴾، قال مجاهد وغيره: كالسباخ ونحوها.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى هذه الآية: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر.

(١) فى أ: «خلق».

(٢) فى أ: «آثار».

(٣) البيتين فى السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٣١).

(٥) زيادة من ك، م، أ، وفى هـ: «الآية».

(٤) فى أ: «ميتة أى مجدبة».

وقال البخارى: حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا حماد بن أسامة^(١)، عن بُريد^(٢) بن عبد الله، عن أبي بردة، عن أبي موسى، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكانت منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا. وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت^(٣)»، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به». رواه مسلم والنسائى من طرق، عن أبي أسامة حماد بن أسامة، به^(٤).

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أَبْلِغْكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمْ مِّنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢)﴾.

لما ذكر تعالى قصة آدم فى أول السورة، وما يتعلق بذلك ويتصل به، وفرغ منه، شرع تعالى فى ذكر قصص الأنبياء، عليهم السلام، الأول فالأول، فابتدأ بذكر نوح، عليه السلام، فإنه أول رسول إلى أهل الأرض بعد آدم، عليه السلام، وهو: نوح بن لامك بن متوشلح بن خنوخ - وهو إدريس [النبي]^(٥) عليه السلام - فيما، يزعمون، وهو أول من خط بالقلم - ابن برد بن مهليل بن قنين بن يانش بن شيث بن آدم، عليه^(٦) السلام.

هكذا نسبه [محمد]^(٧) بن إسحاق وغير واحد من أئمة النسب، قال محمد بن إسحاق: ولم يلق نبى من قومه من الأذى مثل نوح إلا نبى قتل.

وقال يزيد الرقاشى: إنما سمى نوحاً لكثرة ما ناح على نفسه.

وقد كان بين آدم إلى زمان نوح، عليهما السلام، عشرة قرون، كلهم على الإسلام [قاله عبد الله ابن عباس]^(٨).

قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير: وكان أول ما عبدت الأصنام، أن قوماً صالحين ماتوا، فبنى قومهم عليهم مساجدَ وصوروا صورة أولئك فيها، ليتذكروا حالهم وعبادتهم، فيتشبهوا بهم. فلما طال الزمان، جعلوا تلك الصور أجساداً على تلك الصور. فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين «وداً وسواعاً ويغوثاً ويعوق ونسراً». فلما تفاقم الأمر بعث الله، سبحانه وتعالى - وله الحمد والمنة - رسوله نوحاً يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك

(١) فى أ: «ابن أبي أسامة» وهو خطأ. (٢) فى أ: «يزيد». (٣) فى ك، د، م، أ: «ولا تنبت كلا».

(٤) صحيح البخارى برقم (٧٩)، وصحيح مسلم برقم (٢٢٨٢)، وسنن النسائى الكبرى برقم (٥٨٤٣).

(٥) زيادة من أ. (٦) فى أ: «عليهم». (٧) زيادة من ك، م، أ.

(٨) زيادة من م، أ.

له، فقال: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أى: من عذاب يوم القيامة إن^(١) لقيتم الله وأنتم مشركون به ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ أى: الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أى: فى دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التى وجدنا عليها آباءنا. وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار فى ضلالة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]، إلى غير ذلك من الآيات.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: ما أنا ضال، ولكن أنا رسول^(٢) من رب كل شىء ومليكه، ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. وهذا شأن الرسول، أن يكون بليغاً فصيحاً ناصحاً بالله، لا يدرهمهم أحد من خلق الله فى هذه الصفات، كما جاء فى صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة، وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعا: «أيها الناس، إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك بلغت وأدبت ونصحت، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكتها عليهم ويقول: «اللهم اشهد، اللهم اشهد»^(٣) «(٤)».

﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤).

يقول تعالى إخباراً عن نوح [عليه السلام]^(٥): أنه قال لقومه: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٦) أى: لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجب أن يوحى الله إلى رجل منكم، رحمة بكم ولطفًا وإحسانًا إليكم، لإنذاركم ولتتقوا نعمة الله ولا تشركوا به، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أى: فتمادوا^(٧) على تكذيبه ومخالفته، وما آمن معه منهم إلا قليل، كما نص عليه تعالى فى موضع آخر، ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾، وهى السفينة، كما قال: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ١٥]، ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ كما قال: ﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ أى: عن الحق، لا يبصرونه ولا يهتدون له.

فبين تعالى فى هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه، وأنجى رسوله والمؤمنين، وأهلك أعداءهم

(٣) جاءت «اللهم اشهد» فى «أ» ثلاث مرات.

(١) فى د: «إذا». (٢) فى أ: «ولكنى رسول».

(٤) صحيح مسلم برقم (١٢١٨) من حديث جابر، رضى الله عنه.

(٥) زيادة من أ. (٦) زيادة من ك، م، أ، وفى هـ: «الآية». (٧) فى د: «تمادوا».

من الكافرين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا [وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ] ^(١) وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة، أن العقابة ^(٢) للمتقين والظفر والغلب لهم، كما أهلك قوم نوح [عليه السلام] ^(٣) بالغرق ونجى نوحا وأصحابه المؤمنين.

قال مالك، عن زيد بن أسلم: كان قوم نوح قد ضاق بهم السهل والجبل.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما عذب الله قوم نوح [عليه السلام] ^(٤) إلا والأرض ملأى بهم، وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك وحائز.

وقال ابن وهب: بلغني عن ابن عباس: أنه نجا مع نوح [عليه السلام] ^(٥) في السفينة ثمانون رجلا، أحدهم «جرهم»، وكان لسانه عربيا.

رواهن ^(٦) ابن أبي حاتم. وقد روى هذا الأثر الأخير من وجه آخر متصلا عن ابن عباس، رضى الله عنهما.

﴿وَالِىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩)﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحا، كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هودا.

قال محمد بن إسحاق: هم [من] ^(٧) ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح.

قلت: وهؤلاء هم عاد الأولى، الذين ذكرهم الله [تعالى] ^(٨)، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمد في البر، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٦ - ٨] وذلك لشدة بأسهم وقوتهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، وهى جبال الرمل.

(١) زيادة من ك، م، أ، وفى هـ: «الآية إلى قوله».

(٢) فى أ: «أن العقابة فيها».

(٣) زيادة من أ.

(٤) زيادة من أ.

(٥) زيادة من م.

(٦) فى م، د، أ: «رواه».

قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن عبد الله بن أبي سعيد الخزاعي، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، سمعت على بن أبي طالب [رضى الله عنه]^(١) يقول لرجل من حضرموت: هل رأيت كثيبا أحمر تخالطه مدرة حمراء ذا أراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت، هل رأيته؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. والله إنك لتنتعته نعت رجل قد رآه. قال: لا، ولكني قد حدثت عنه. فقال الحضرمي: وما شأنه يا أمير المؤمنين؟ قال: فيه قبر هود، عليه السلام.

رواه ابن جرير^(٢). وهذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن، وأن هودا، عليه السلام، دفن هناك، وقد كان من أشرف^(٣) قومه نسبا؛ لأن الرسل [صلوات الله عليهم]^(٤) إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، ولكن كان قومه كما شدد خلقهم شدد على قلوبهم، وكانوا من أشد الأمم تكذيبا للحق؛ ولهذا دعاهم هود، عليه السلام، إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى طاعته وتقواه.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ - والملاء هم: الجمهور والسادة القادة منهم -: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أى: فى ضلالة حيث دعوتنا إلى ترك عبادة الأصنام، والإقبال إلى عبادة الله وحده [لا شريك له]^(٥)، كما تعجب الملاء من قريش من الدعوة إلى إله واحد ﴿فَقَالُوا﴾: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾^(٦) [ص: ٥].

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: لست كما تزعمون، بل جئتكم بالحق من الله الذى خلق كل شىء، فهو رب كل شىء ومليكه ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ وهذه الصفات التى يتصف بها الرسل البلاغة والنصح والأمانة.

﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ أى: لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولا من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه، بل احمداوا الله على ذاكم، ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أى: واذكروا نعمة الله عليكم إذ جلعكم من ذرية نوح، الذى أهلك الله أهل الأرض بدعوته، لما خالفوه وكذبوه، ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ أى: زاد طولكم على الناس بسطة، أى: جعلكم أطول من أبناء جنسكم، كما قال تعالى: فى قصة طالوت: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أى: نعمه ومننه عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ [وآلاء جمع إلى وقيل: إلى]^(٧).

(١) زيادة من أ.

(٢) تفسير الطبرى (١٢/٥٠٧).

(٣) فى م، ك: «أشرف».

(٥) زيادة من ك.

(٤) زيادة من أ.

(٧) زيادة من ك، م.

(٦) زيادة من ك، م. وفى هـ: «الآية».

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٧١)﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢)﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود، عليه السلام: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ [ونَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ]﴾^(١)، كما قال الكفار من قريش: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] .

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره: أنهم كانوا يعبدون أصناما، فصنم يقال له: صُدَاء، وآخر يقال له: صُمُود، وآخر يقال له: الهباء^(٢) .

ولهذا قال هود، عليه السلام: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أى: قد وجب عليكم بمقالتكم هذه من ربكم رجس [وغيظ] ^(٣)، قيل: هو مقلوب من رجز. وعن ابن عباس: معناه السخط والغضب .

﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ أى: أتحاجونى ^(٤) فى هذه الأصنام التى سميتموها أنتم وآبائكم آلهة، وهى لا تضر ولا تنفع، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلا؛ ولهذا قال: ﴿مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ .

وهذا تهديد ووعد من الرسول لقومه؛ ولهذا عقب بقوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ .

وقد ذكر الله، سبحانه، صفة إهلاكهم فى أماكن آخر من القرآن، بأنه أرسل عليهم الريح العقيم، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالريم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ. فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ - ٨] لما تمردوا وعتوا أهلكتهم الله بريح عاتية، فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه فى الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتثلع رأسه حتى تبينه من جثته؛ ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ .

وقال محمد بن إسحاق: كانوا يسكنون باليمن من ^(٥) عمان وحضرموت، وكانوا مع ذلك قد

(١) زيادة من ك، م، وفى هـ: «الآية» .

(٢) انظر: تفسير الطبرى (٥٠٧/١٢) .

(٣) زيادة من م .

(٤) فى م، د: «أتجادلوننى» .

(٥) فى م، ك: «بين» .

فشوا في الأرض وقهروا أهلها، بفضل قوتهم التي آتاهم الله، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله، فبعث الله إليهم هوداً، عليه السلام، وهو من أوسطهم نسباً، وأفضلهم موضعاً، فأمرهم أن يوحّدوا الله ولا يجعلوا معه إلهاً غيره، وأن يكفوا عن ظلم الناس، فأبوا عليه وكذبوه، وقالوا: من أشد منا قوة؟ واتبعه منهم ناس، وهم يسير مكتمون بإيمانهم، فلما عتت عاد على الله وكذبوا نبيه، وأكثروا في الأرض الفساد وتجبروا، وبنوا بكل ربيع آية عبثاً بغير نفع، كلمهم هود فقال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ. وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٣١]. ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ أى: بجنون ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٣ - ٥٦].

قال محمد بن إسحاق: فلما أبوا إلا الكفر به، أمسك الله عنهم القطر^(١) ثلاث سنين، فيما يزعمون، حتى جهدهم ذلك، قال: وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان، فطلبوا من الله الفرج فيه، إنما يطلبونه بحرمة ومكان بيته، وكان معروفاً عند الملل^(٢)، وبه العماليق مقيمون، وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وكان سيدهم إذ ذاك رجلاً يقال له: «معاوية بن بكر»، وكانت له أم^(٣) من قوم عاد، واسمها كلهدة^(٤) ابنة الخيبرى، قال: فبعثت عاد وفداً قريباً من سبعين رجلاً إلى الحرم، ليستسقوا لهم عند الحرم، فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه، فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان - قيتتان لمعاوية - وكانوا قد وصلوا إليه في شهر، فلما طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه، واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف، عمل شعراً يعرض لهم بالانصراف، وأمر القيتين أن تغنياهم به، فقال:

ألا يا قيل ويحك قُمْ فَهَيِّئْ	لعلَّ الله يُصْبِحُنَا غَمَامَا
فَيَسْقَى أَرْضَ عَادٍ إِنْ عَادَا	قَدْ امْسُوا لَا يُبِينُونَ الْكَلَامَا
من العطش الشديد فليس نَرْجُو	به الشيخَ الكبيرَ ولا الغلامَا
وَقَدْ كَانَتْ نَسَاؤُهُمْ بِخَيْرٍ	فقد أمست ^(٥) نِسَاؤُهُمْ عِيَامِي
وإنَّ الوحشَ تأتيهم جِهَاراً	ولا تَخْشَى لِعَادِي سِهَامَا
وأنتم هَاهُنَا فيما اشْتَهَيْتُمْ	نَهَارَكُمْ وَلَيْلَكُمْ التَّمَامَا
فَقُبِّحَ وَفَدُّكُمْ مِنْ وَفْدِ قَوْمٍ	ولا لُقُوا التَّحِيَّةَ وَالسَّلَامَا

(١) فى م: «القطر عنهم».

(٢) فى ك، م: «عند أهل ذلك الزمان».

(٣) فى م: «وكانت أمه».

(٤) فى أ: «فأصبحت».

(٥) فى ك، م: «جلهدة».

قال: فعند ذلك تنبه القوم لما جاؤوا له، فنهضوا إلى الحرم، ودعوا لقومهم فدعا داعيهم، وهو: «قيل بن عنز»، فأنشأ الله سحبات ثلاثاً: بيضاء، وسوداء، وحمراء، ثم ناداه مناد من السماء: «اختر لنفسك - أو: - لقومك من هذا السحاب»، فقال: «اخترت هذه السحابة السوداء، فإنها أكثر السحاب ماء» فناداه مناد: اخترت رماداً ومُددًا، لا تبقى من عاد أحداً، لا والدأ تترك ولا ولداً، إلا جعلته همداء، إلا بنى اللوذية المهنداً^(١) قال: وبنو اللوذية: بطن من عاد مقيمون^(٢) بمكة، فلم يصبهم ما أصاب قومهم - قال: وهم من بقى من أنسالهم^(٣) وذرايرهم^(٤) عاد الآخرة - قال: وساق الله السحابة السوداء، فيما يذكرون، التي اختارها «قيل بن عنز» بما فيها من النعمة إلى عاد، حتى تخرج عليهم من واد يقال له: «المغيث»، فلما رأوها استبشروا، وقالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ يقول: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ. تَدْمرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥] أى: تهلك كل شيء مَرَّتْ^(٥) به، فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح، فيما يذكرون، امرأة من عاد يقال لها: مَهْدَد^(٦) فلما تبينت ما فيها صاحت، ثم صُعِقَتْ. فلما أفاقت قالوا: ما رأيت يا مَهْدَد^(٧)؟ قالت^(٨): ريحا فيها شُهْبُ النار، أمامها رجال يقودونها. فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، كما قال الله. و«الحسوم»: الدائمة - فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك واعتزل هود، عليه السلام، فيما ذكر لى، ومن معه من المؤمنين فى حظيرة، ما يصيبه ومن معه إلا ما تلين عليه الجلود، وتلتذ الأنفس، وإنها لتمر على عاد بالطعن ما بين السماء والأرض، وتدمغهم بالحجارة.

وذكر تمام القصة بطولها، وهو سياق غريب^(٩)، فيه فوائد كثيرة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨].

وقد ورد فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده قريب مما أورده محمد بن إسحاق بن يسار، رحمه الله.

قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثنى أبو المنذر سلام بن سليمان النحوى، حدثنا عاصم بن أبى النُّجُود، عن أبى وائل، عن الحارث البكرى قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمى إلى رسول الله ﷺ، فمررت بالربذة فإذا عجوز من بنى تميم منقطع بها، فقالت لى: يا عبد الله، إن لى إلى رسول الله ﷺ حاجة، فهل أنت مبلغى إليه؟ قال: فحملتها فأتيت المدينة، فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تحفّق، وإذا بلال متقلد بسيف^(١٠) بين يدى رسول الله ﷺ، فقلت: ما شأن الناس؟ فقالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها. قال: فجلست، فدخل منزله - أو قال: رحله - فاستأذنت عليه، فأذن لى، فدخلت فسلمت، قال: هل بينكم وبين تميم^(١١) شيء؟ قلت: نعم، وكانت لنا الدبرة عليهم، ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها، فسألتنى أن أحملها إليك،

(٣) فى أ: «أنسابهم».

(٦، ٧) فى ك، م، أ: «مهد».

(٢) فى ك، م، أ: «مقيمين».

(٥) فى ك، م، أ: «أمرت».

(١) فى م: «المهدى».

(٤) فى ك، م، أ: «ذرياتهم».

(٨) فى ك، م، أ: «فقلت».

(٩) تفسير الطبرى (٥٠٧/١٢).

(١١) فى أ: «وبين بنى تميم».

(١٠) فى أ: «السيف».

وها هي بالبواب. فأذن لها، فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت^(١) أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً، فاجعل الدهناء. فحميت العجوز واستوفزت، فقالت: يا رسول الله، فإلى أين يضطر مُضْرَك^(٢)؟ قال: قلت: إن مثلي ما قال الأول: «مَعَزَى حَمَلَتْ حَتْفَهَا»، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لى خصماً، أعوذ بالله وبرسوله^(٣) أن أكون كوافد عاد! قال: هيه، وما وافد عاد؟ - وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه - قلت: إن عاداً قُحَطُوا فبعثوا وافداً لهم يقال له: «قيل»، فمر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتغنيه جارياتان، يقال لهما: «الجرادتان»، فلما مضى^(٤) الشهر خرج إلى جبال مَهْرَة، فقال: اللهم إنك تعلم أني لم أجيء إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه. اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه، فمرت به سحابات سود، فنودي: منها «اختر». فأوماً إلى سحابة منها سوداء، فنودي منها: «خذها رماداً رَمَدَدَا، لا تبقى من عاد أحدا». قال: فما بلغني أنه بُعث عليهم من الريح إلا قدر^(٥) ما يجري في خاتمي هذا، حتى، هلكوا - قال أبو وائل: وصدق - قال: وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: «لا تكن كوافد عاد».

هكذا رواه الإمام أحمد في المسند، ورواه الترمذي، عن عبد بن حميد، عن زيد بن الحباب، به^(٦) نحوه: ورواه النسائي من حديث سلام أبي المنذر، عن عاصم - وهو ابن بهذلة - ومن طريقه رواه ابن ماجه أيضاً، عن أبي وائل، عن الحارث بن حسان البكري، به. ورواه ابن جرير عن أبي كُرَيْب عن زيد بن حباب، به. ووقع عنده: «عن الحارث بن يزيد البكري» فذكره، ورواه أيضاً عن أبي كريب، عن أبي بكر بن عياش، عن عاصم، عن الحارث بن يزيد البكري، فذكره^(٧)، ولم أر في النسخة «أبا وائل»، والله أعلم.

﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨)﴾

(٣) فى ك، م: «ورسوله».

(١) فى أ: «أرايت».

(٤) فى د: «قضى».

(٥) فى ك، م: «كقدر».

(٦) المسند (٤٨٢/٣)، وسنن الترمذى برقم (٣٢٧٤).

(٧) سنن النسائى الكبرى كما فى تحفة الأشراف وسنن ابن ماجه برقم (٣٨١٦) وتفسير الطبرى (٥١٦، ٥١٣/١٢).

قال علماء التفسير والنسب: ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح، وهو أخو جديس بن عاثر، وكذلك قبيلة طسم، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل، عليه السلام، وكانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله، وقد مر رسول الله ﷺ على قراهم ومساكنهم، وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا صخر بن جويرية، عن نافع، عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك، نزل بهم^(١) الحجر عند بيوت ثمود، فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا منها القدور. فأمرهم النبي ﷺ فأهراقوا القدور، وعلفوا العجین الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال: «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم»^(٢).

وقال [الإمام]^(٣) أحمد أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم»^(٤). وأصل هذا الحديث مُخَرَّجٌ في الصحيحين من غير وجه^(٥).

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا المسعودي، عن إسماعيل بن أوسط، عن محمد بن أبي كبشة الأثماري، عن أبيه قال: لما كان في غزوة تبوك، تسارع الناس إلى أهل الحجر، يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فنادى في الناس: «الصلاة جامعة». قال: فأتيت رسول الله ﷺ وهو ممسك بغيره^(٦) وهو يقول: «ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم». فناداه رجل منهم: نعجب منهم يا رسول الله. قال: «أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك: رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم، وبما هو كائن بعدكم، فاستقيموا وسددوا، فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئاً، وسيأتى قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً»^(٧).

لم يخرج أحد من أصحاب السنن^(٨)، وأبو كبشة اسمه: عمر^(٩) بن سعد، ويقال: عامر بن سعد، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق: حدثنا معمر، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن أبي الزبير، عن جابر قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات، فقد سألها قوم صالح فكانت - يعنى الناقة - ترد من هذا الفج، وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً، فأخذتهم صيحة، أهدم^(١٠) الله من تحت

(١) في أ: «بهم على».

(٢) المسند (١١٧/٢).

(٣) زيادة من أ.

(٤) المسند (٧٤/٢).

(٥) صحيح البخارى برقم (٣٣٨١)، وصحيح مسلم برقم (٢٩٨).

(٦) في د، م: «بعثرة».

(٧) المسند (٢٣١/٤)، وقال الهيثمي في المجمع (١٩٤/٦): «فيه عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي وقد اختلط».

(٨) في م: «الكتب»، وفي ك، أ: «الكتب الستة».

(٩) في ك، م: «عمرو».

(١٠) في د: «أحمد».

أديم السماء منهم، إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله». فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «أبو رغال. فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه»^(١).

وهذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة، وهو على شرط مسلم.

فقوله تعالى: ﴿وَالْيَ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ أي: ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، جميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال [تعالى]^(٢): ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي: قد جاءكم حجة من الله على صدق ما جئتمكم به. وكانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية، واقترحوا عليه أن يخرج لهم من صخرة صماء عتقوها بأنفسهم، وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر، يقال لها: الكاتبة، فطلبوا منه^(٣) أن يخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه؟ فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم، قام صالح، عليه السلام، إلى صلاته ودعا الله، عز وجل، فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنيها بين جنيها، كما سألوا، فعند ذلك آمن رئيس القوم وهو: «جندع بن عمرو» ومن كان معه على أمره^(٤)، وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا فصدهم «ذؤاب بن عمرو» و«الحباب» صاحب أوثانهم، ورباب بن صمعر بن جلهم، وكان له «جندع بن عمرو» ابن عم يقال له: «شهاب بن خليفة بن مخلاة بن لييد بن جواس»، وكان من أشراف ثمود وأفاضلها، فأراد أن يسلم أيضاً فنهاه أولئك الرهط، فأطاعهم، فقال في ذلك رجل من مؤمنى ثمود، يقال له مهوس^(٥) بن عنمة بن الدميل، رحمه الله:

وكانت عَصْبَةٌ مِنْ آلِ عَمْرُو	إلى دين النبي دَعَا شِهَابَا
عَزِيزَ ثَمُودَ كُلَّهُمْ جَمِيعَا	فَهَمَّ بَأَنْ يُجِيبَ فُلُو ^(٦) أَجَابَا
لَأَصْبَحَ صَالِحٌ فِينَا عَزِيزاً	وَمَا عَدَلُوا بِصَاحِبِهِمْ ذُؤَابَا
وَلَكِنْ الْغَوَاةُ مِنْ آلِ حُجْرٍ	تَوَلَّوْا بَعْدَ رُشْدِهِمْ ذَنَابَا

فأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعت بين أظهرهم مدة، تشرب ماء بثرها يوماً، وتدعه لهم يوماً، وكانوا يشربون لبنها يوماً^(٧) شربها، يحتلبونها فيملؤون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَنَبِّئَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]. وكانت تسرح في بعض تلك الأودية

(١) المسند (٢٩٦/٣) وقال الهيثمي في المجمع (١٩٤/٦): «رجال أحمد رجال الصحيح».

(٢) زيادة من م. (٣) في م: «منها». (٤) في أ: «على دينه».

(٥) في ك، م، أ: «مهوش». (٦) في م: «ولو». (٧) في أ: «بيوم».

ترد من فجّ وتصدر من غيره ليسعها؛ لأنها كانت تتضلعّ من الماء، وكانت - على ما ذكر - خلقاً هائلاً ومنظراً رائعاً، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها. فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبي، عليه السلام، عزموا على قتلها، ليستأثروا بالماء كل يوم، فيقال: إنهم اتفقوا كلهم على قتلها^(١).

قال قتادة: بلغني أن الذي قتل الناقة طاف عليهم كلهم، أنهم راضون بقتلها حتى على النساء في خدورهن، وعلى الصبيان [أيضاً]^(٢).

قلت: وهذا هو الظاهر؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١٤]، وقال: ﴿وَأَتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال: ﴿فَعَقَرُوهَا النَّاقَةَ﴾ فأسند ذلك إلى مجموع القبيلة، فدل على رضی جميعهم بذلك، والله أعلم.

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله، وغيره من علماء التفسير في سبب قتل الناقة: أن امرأة منهم يقال لها: «عنيزة ابنة غنم بن مجلز» وتكنى أم غنم^(٣)، كانت عجوزا كافرة، وكانت من أشد الناس عداوة لصالح، عليه السلام، وكانت لها بنات حسان ومال جزيل، وكان زوجها ذؤاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود، وامرأة أخرى يقال لها: «صدوف ابنة المحيا بن دهر»^(٤) بن المحيا ذات حسب ومال وجمال، وكانت تحت رجل مسلم من ثمود، ففارقته، فكانتا تجعلان لمن التزم لهما بقتل الناقة، فدعت «صدوف» رجلا يقال له: «الحباب» وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة، فأبى عليها. فدعت ابن عم لها يقال له: «مصدع بن مهرج بن المحيا»، فأجابها إلى ذلك - ودعت «عنيزة بنت غنم» قدار بن سالف بن جندع^(٥)، وكان رجلا أحمر أزرق قصيراً، يزعمون أنه كان ولد زنية، وأنه لم يكن من أبيه الذي ينسب إليه، وهو سالف، وإنما هو^(٦) من رجل يقال له: «صهباد»^(٧)، ولكن ولد على فراش «سالف»، وقالت له: أعطيك أى بناتى شئت على أن تعقر^(٨) الناقة! فعند ذلك، انطلق «قدار بن سالف» و«مصدع بن مهرج»، فاستفزا غواة من ثمود، فاتبعهما سبعة نفر، فصاروا تسعة رهط، وهم الذين قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨]، وكانوا رؤساء فى قومهم، فاستمالوا القبيلة الكافرة بكمالها، فطاوعتهم على ذلك، فانطلقوا فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء، وقد كمن لها «قدار» فى أصل صخرة على طريقها، وكمن لها «مصدع» فى أصل أخرى، فمرت على «مصدع» فرماها بسهم، فانظم به عضلة ساقها وخرجت «أم غنم عنيزة»، وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس وجها، فسفرت عن وجهها لقدار وذمرت فشدّ على الناقة بالسيف، فكسّف^(٩) عرقوبها، فخرت ساقطة إلى الأرض، ورغت رعاة واحدة تحذر سقّبها، ثم طعن فى لبّتها فنحرها، وانطلق سقّبها - وهو فصيلها - حتى أتى جبلاً منيعاً، فصعد أعلى صخرة فيه ورغا - فروى عبد الرزاق، عن معمر، عن سمع الحسن البصرى أنه قال:

(١) تفسير الطبرى (١٢/٥٢٩).

(٢) زيادة من أ.

(٣) فى ك، م: «أم عثمان».

(٤) فى أ: «زهير».

(٥) فى أ: «جدع».

(٦) فى أ: «كان».

(٧) فى م: «صبيان»، وفى ك: «ضبيان».

(٨) فى ك، م: «يعقر».

(٩) فى ك، م، د: «فكشف»، وفى أ: «فكشف عن».

يارب، أين أمي؟ ويقال: إنه رغا ثلاث مرات. وإنه دخل فى صخرة فغاب فيها، ويقال: بل اتبعوه ففقروه مع أمه، فالله أعلم^(١).

فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة، بلغ الخبر صالحا، عليه السلام، فجاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى وقال: ﴿تَمَتُّوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ [ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ]﴾^(٢) [هود: ٦٥]، وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء، فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح [عليه السلام]^(٣)، وقالوا: إن كان صادقا عجلناه قبلنا، وإن كان كاذبا ألحقناه بناقته! ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ. وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. فَنَنْظُرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ [أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ. فَلَيْتَ يَبُوءُتَهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا]﴾^(٤) الآية [النمل: ٤٩ - ٥٢].

فلما عزموا على ذلك، وتواطؤوا عليه، وجاؤوا من الليل ليفتكوا بنبي الله صالح، أرسل الله، سبحانه وتعالى، وله العزة ولرسوله، عليهم حجارة فرضختهم سلفا وتعجيلا قبل قومهم، وأصبح ثمود يوم الخميس، وهو اليوم الأول من أيام النظرة، ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح، عليه السلام، وأصبحوا فى اليوم الثانى من أيام التأجيل، وهو يوم الجمعة، ووجوههم محمرة، وأصبحوا^(٥) فى اليوم الثالث فى أيام المتاع^(٦) وهو يوم السبت، ووجوههم مسودة، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه، عياذا بالله من ذلك، لا يدرون ماذا يفعل بهم، ولا كيف يأتهم العذاب؟ و[قد]^(٧) أشرقت الشمس، جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت النفوس فى ساعة واحدة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِعِينَ﴾ أى: صرعى لا أرواح فيهم، ولم يفلت منهم أحد، لا صغير ولا كبير، لا ذكر ولا أنثى - قالوا: إلا جارية كانت مقعدة - واسمها «كلبة ابنة السلُق»، ويقال لها: «الزريقة»^(٨) - وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح، عليه السلام، فلما رأت ما رأت من العذاب، أطلقت رجلاها، فقامت تسعى كاسرع شيء، فأتت حيا من الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها، ثم استسقتهم من الماء، فلما شربت، ماتت.

قال علماء التفسير: ولم يبق من ذرية ثمود أحد، سوى صالح، عليه السلام، ومن اتبعه، رضى الله عنهم، إلا أن رجلا كان يقال له: «أبو رغال»، كان لما وقعت النقمة بقومه مقيما فى الحرم، فلم يصبه شيء، فلما خرج فى بعض الأيام إلى الحِلِّ، جاءه حجر من السماء فقتله.

وقد تقدم فى أول القصة حديث «جابر بن عبد الله» فى ذلك، وذكروا أن أبا رغال هذا هو والد

(١) تفسير الطبرى (١٢/٥٣٦).

(٢) زيادة من ك، م، وفى هـ: «الآية».

(٣) زيادة من ك، م.

(٤) زيادة من ك، م، أ.

(٥) فى م: «واجتمعوا».

(٦) فى ك: «التمتع».

(٧) زيادة من م.

(٨) فى م: «الذريقة».

«ثقيف» الذين كانوا يسكنون الطائف^(١).

قال عبد الرزاق: قال معمر: أخبرني إسماعيل بن أمية؛ أن النبي ﷺ مر بقبر أبي رغال فقال: «أتدرون من هذا؟» فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا قبر أبي رغال، رجل من ثمود، كان في حرم الله، فمنعه حرم الله عذاب الله. فلما خرج أصابه ما أصاب قومه، فدفن هاهنا، ودفن معه غصن من ذهب، فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم، فبحثوا عنه، فاستخرجوا الغصن».

وقال عبد الرزاق: قال معمر: قال الزهري: أبو رغال: أبو ثقيف^(٢).

هذا مرسل من هذا الوجه، وقد روى متصلاً من وجه آخر، كما قال محمد بن إسحاق، عن إسماعيل بن أمية، عن بُجَيْر بن أبي بجير قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول، حين خرجنا معه إلى الطائف، فمررنا بقبر فقال: «هذا قبر أبي رغال، وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم فدفع^(٣) عنه، فلما خرج [منه]^(٤)، أصابته النقرة التي أصابت قومه بهذا المكان، فدفن فيه. وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه [معه]^(٥)، فابتدره الناس^(٦) فاستخرجوا منه الغصن».

وهكذا رواه أبو داود، عن يحيى بن معين، عن وهب بن جرير بن حازم، عن أبيه، عن ابن إسحاق، به^(٧).

قال شيخنا أبو الحجاج المزي: وهو حديث حسن عزيز^(٨) (٩).

قلت: تفرد بوصله «بُجَيْر بن أبي بجير» هذا، وهو شيخ لا يعرف إلا بهذا الحديث. قال يحيى ابن معين: ولم أسمع أحداً روى عنه غير إسماعيل بن أمية.

قلت: وعلى هذا، فيخشى أن يكون وهم في رفع هذا الحديث، وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو، مما أخذه من الزاملتين.

قال شيخنا أبو الحجاج، بعد أن عرضت عليه ذلك: وهذا محتمل، والله أعلم.

وقوله تعالى:

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ

النَّاصِحِينَ (٧٩)﴾.

هذا تقرير من صالح، عليه السلام، لقومه، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه، وتوهمهم على الله،

(١) انظر: «الكلام على أبي رغال، وترجيح أنه كان دليل أبرهة في تفسير سورة النساء آية: ٤.

(٢) المصنف برقم (٢٠٩٨٩)، وتفسير عبد الرزاق (١/١١٩)، (٢٢٠).

(٣) في ك: «يدفع». (٤) زيادة من ك، م. (٥) زيادة من أ.

(٦) في أ: «القوم».

(٧) سنن أبي داود برقم (٣٠٨٨).

(٨) في أ: «غريب».

(٩) تهذيب الكمال (٤/١١).

وإبائهم عن قبول الحق، وإعراضهم عن الهدى إلى العمى - قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريرا وتوبيخا وهم يسمعون ذلك، كما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل بدر، أقام هناك ثلاثاً، ثم أمر بإحلالته فشُدَّتْ بعد ثلاث من آخر الليل فركبها^(١)، ثم سار حتى وقف على القليب، قليب بدر، فجعل يقول: «يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبه بن ربيعة، ويا فلان بن فلان: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً». فقال له عمر: يا رسول الله، ما تُكَلِّم من أقوام قد جيفوا؟ فقال: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون».

وفي السيرة أنه، عليه السلام^(٢)، قال لهم: «بئس عشيرة النبی كنتم لنبيكم، كذبتُموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقالتُموني ونصرني الناس، فبئس عشيرة النبی كنتم لنبيكم»^(٣).

وهكذا صالح، عليه السلام، قال لقومه: «لَقَدْ أَلْبَغْتُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ» أي: فلم تنتفعوا بذلك، لأنكم لا تحبون^(٤) الحق ولا تتبعون ناصحاً؛ ولهذا قال: «وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ».

وقد ذكر بعض المفسرين أن كل نبي هلكت أمته، كان يذهب فيقيم في الحرم، حرم مكة، فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا زَمْعَةُ بن صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما مر رسول الله ﷺ بوادي عُسْفَانَ حين حَجَّ قال: «يا أبا بكر، أي وادي هذا؟» قال: هذا وادي عُسْفَانَ. قال: «لقد مر به هود وصالح، عليهما السلام، على بكرات حُمُرٍ خُطُمُهَا اللَّيْفُ، أَرْزُهُمُ الْعَبَاءُ، وَأَرْدِيَتُهُمُ النَّمَارُ، يَلْبُونُ، يَحْجُونَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ».

هذا حديث غريب من هذا الوجه، لم يخرج أحد منهم^(٥).

﴿وَلَوْ طَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٠) إِنَّكُمْ لَأَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

يقول تعالى: ﴿و﴾ قد أرسلنا ﴿لَوْ طَا﴾، أو تقديره: ﴿و﴾ اذكر ﴿وَلَوْ طَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

ولوط بن هاران بن آزر، وهو ابن أخى إبراهيم الخليل، عليهما^(٦) السلام، وكان قد آمن مع إبراهيم، عليه السلام، وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه الله [تعالى]^(٧) إلى أهل «سَدُومَ» وما

(٢) في أ: «ﷺ».

(١) في ك: «ثم ركبها».

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١/٦٣٩).

(٤) في أ: «تتبعون».

(٥) المسند (١/٢٣٢) وقال الهيثمي في المجمع (٣/٢٢٠): «فيه زمعة بن صالح وفيه كلام وقد وثق».

(٧) زيادة من أ.

(٦) في ك، أ: «عليه».

حولها من القرى، يدعوهم إلى الله، عز وجل، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها، لم يسبقهم بها أحد من بنى آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور. وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه، ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل «سَدُومَ» عليهم لعائن الله.

قال عمرو بن دينار: قوله: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال: مانزلاً ذَكَرَ على ذَكَرٍ، حتى كان قوم لوط.

وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي، باني جامع دمشق: لولا أن الله، عز وجل، قص علينا خبر لوط، ما ظننت أن ذكراً يعلوا ذكراً.

ولهذا قال لهم لوط، عليه السلام: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ. إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ أى: عدلتُم^(١) عن النساء، وما خلق لكم ريبكم منهن إلى الرجال، وهذا إسراف منكم وجهل؛ لأنه وضع الشيء في غير محله؛ ولهذا قال لهم في الآية الأخرى: ﴿[قَالَ] (٢) هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١]، فأرشدهم إلى نسائهم، فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن، ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩] أى: لقد علمت أنه لا أرب لنا في النساء، ولا إرادة، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك.

وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد استغنى^(٣) بعضهم ببعض، وكذلك نساؤهم كن قد استغنى^(٤) بعضهن ببعض أيضاً.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (٨٢).

أى: ما أجابوا لوطاً إلا أن هموا بإخراجه ونفيه ومن معه [من المؤمنين]^(٥) من بين أظهرهم، فأخرجه الله تعالى سالماً، وأهلكهم في أرضهم صاغيرن مهانين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، قال قتادة، عابوهم بغير عيب.

وقال مجاهد: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ من أدبار الرجال وأدبار النساء. وروى مثله عن ابن عباس أيضاً.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤).

يقول تعالى: فَأَنجَيْنَا لوطاً وأهله، ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال تعالى:

(٣) فى ك، م: «اغتنى».

(٢) زيادة من أ.

(١) فى د، م: «أعدلتهم».

(٥) زيادة من أ.

(٤) فى ك: «استغنين».

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]، إلا امرأته فإنهم لم يؤمن به، بل كانت على دين قومها، تمالئهم عليه وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم؛ ولهذا لما أمر لوط، عليه السلام، أن يسرى بأهله أمر ألا يعلم امرأته ولا يخرجها من البلد. ومنهم من يقول: بل اتبعتهم، فلما جاء العذاب التفتت هي فأصابها ما أصابهم. والأظهر أنها لم تخرج من البلد، ولا أعلمها لوط، بل بقيت معهم؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أى: الباقيين. ومنهم من فسر ذلك ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [من] ^(١) الهالكين، وهو تفسير باللائم.

وقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ مفسر بقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ . مُسَوِّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣]، ولهذا قال: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: انظر - يا محمد - كيف كان عاقبة من تجهروا على معاصي الله وكذب رسوله ^(٢).

وقد ذهب الإمام أبو حنيفة، رحمه الله، إلى أن اللائط يلقي من شاطئ، ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط.

وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يرجم سواء كان محصناً أو غير محصن. وهو أحد قولي الشافعى، رحمه الله، والحجة ما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، من حديث الدراوردي، عن عمرو بن أبى عمرو ^(٣)، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من وجد قومه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به» ^(٤).

وقال آخرون: هو كالزانى، فإن كان محصناً رجم، وإن لم يكن محصناً جلد مائة جلدة. وهو القول الآخر للشافعى.

وأما إتيان النساء فى الأدبار، فهو اللوطية الصغرى، وهو حرام بإجماع العلماء، إلا قولاً [واحد] ^(٥) شاذاً لبعض السلف، وقد ورد فى النهى عنه أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ، وقد تقدم الكلام عليها فى سورة البقرة ^(٦).

﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٨٥).

قال محمد بن إسحاق: هم من سلالة «مدین بن مدیان بن إبراهیم». وشعیب هو ابن میکیل بن یسجر قال: واسمه بالسريانية: «يثرون».

(١) زيادة من ك، م. (٢) فى ك: «برسلة». (٣) فى أ: «عمرو بن سلمة».

(٤) المسند (١/ ٣٠٠) وسنن أبى داود برقم (٤٤٦٢) وسنن الترمذى برقم (١٤٥٥) وسنن ابن ماجه برقم (٢٥٦١).

(٥) زيادة من ك.

(٦) الآية: ٢٢٣.

قلت: وتطلق مدين على القبيلة، وعلى المدينة، وهى التى بقرب «معان» من طريق الحجاز، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، وهم أصحاب الأيكة، كما سنذكره إن شاء الله، وبه الثقة.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾: هذه دعوة الرسل كلهم، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى: قد أقام الله الحجج والبيانات على صدق ما جئتكم به. ثم وعظهم فى معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان، ولا يبخسوا الناس أشياءهم، أى: لا يخونوا الناس فى أموالهم ويأخذوها على وجه البخس، وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليساً، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [الذین إذا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ. أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ. لِيَوْمٍ عَظِيمٍ. يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ] (١) [المطففين: ١ - ٦]، وهذا تهديد شديد، ووعد أكيد، نسأل الله العافية منه.

ثم قال تعالى إخباراً عن شعيب، الذى يقال (٢) له: «خطيب الأنبياء»، لفصاحة عبارته، وجزالة موعظته.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكُثِرْكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٧).

ينهاهم شعيب، عليه السلام، عن قطع الطريق الحسى والمعنوى، بقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أى: توعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم.

قال السدى وغيره: كانوا عشارين. وعن ابن عباس [رضى الله عنه] (٣) ومجاهد وغير واحد: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أى: تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه. والأول أظهر؛ لأنه قال: ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾، وهى الطرق، وهذا الثانى هو قوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أى: وتودون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة. ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكُثِرْكُمْ﴾ أى: كنتم مستضعفين لقلتكم فصرتم أعزة لكثرة عددكم، فاذكروا نعمة الله عليكم فى ذلك، ﴿وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أى: من الأمم الخالية والقرون الماضية، ما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصى الله وتكذيب (٤) رسله.

وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ أى: [قد] (٥) اختلفتم على

(٣) زيادة من أ.

(٢) فى م: «قال».

(١) زيادة من ك، م، وفى هـ: «إلى قوله».

(٥) زيادة من د، ك، م.

(٤) فى أ: «وتكذيبهم».

﴿فَاصْبِرُوا﴾ أى: انتظروا ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ أى: يفصل، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ، فإنه سيجعل العاقبة للمتقين، والدمار على الكافرين.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)﴾ .

هذا إخبار من الله [تعالى] (١) عما واجهت به الكفار نبي الله شعيباً ومن معه من المؤمنين، فى (٢) توعدهم إياه ومن معه بالنفى من القرية، أو الإكراه على الرجوع فى ملّتهم والدخول معهم فيما هم فيه. وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملّة.

وقوله: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ يقول: أو أنتم فاعلو ذلك ولو كنا (٣) كارهين ما تدعوننا إليه؟ فإننا إن رجعنا إلى ملّتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه، فقد أعظمنا الفرية على الله فى جعل الشركاء معه أنداداً. وهذا تعبير منه عن اتباعه. ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ ، وهذا ردّ إلى المشيئة، فإنه يعلم كل شيء، وقد أحاط بكل شيء علماً، ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أى: فى أمورنا ما نأتى منها وما نذر ﴿رَبَّنَا افْتَحْ﴾ (٤) بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ أى: افصل بيننا وبين قومنا، وانصرنا عليهم، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ أى: خير الحاكمين، فإنك العادل الذى لا يجور أبداً.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢)﴾ .

يخبر تعالى عن شدة كفر قوم شعيب وتمردهم وعتوهم، وما هم فيه من الضلال، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أقسموا وقالوا (٥): ﴿لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾ ، فلهذا عقب ذلك بقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ ، أخبر تعالى هاهنا أنهم أخذتهم الرجفة كما (٦) أرجفوا شعيباً وأصحابه وتوعدوهم بالجلأ، كما أخبر عنهم فى سورة «هود» فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤]. والمناسبة فى ذلك - والله أعلم - أنهم لما تهكموا بنبي الله شعيب فى

(١) زيادة من ك، م. (٢) فى ك، م، أ: «من» . (٣) فى ك، م، أ: «وإن كنا» .

(٤) فى ك، م: «أحكم» . (٥) فى ك، م: «فقالوا» . (٦) فى ك، م، أ: «لما» .

قولهم: ﴿أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] فجاءت الصيحة أسكتتهم.

وقال تعالى إخباراً عنهم في سورة الشعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، وما ذاك إلا لأنهم^(١) قالوا له في سياق القصة: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ [إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ]﴾^(٢) [الشعراء: ١٨٧]، فأخبر أنه^(٣) أصابهم عذاب يوم الظلة، وقد اجتمع عليهم ذلك كله: أصابهم عذاب يوم الظلة، وهى سحابة أظلتهم فيها شر من نار ولهب^(٤) ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس وخمدت الأجساد، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أى: كأنهم لما أصابتهم النعمة لم يقيموا بديارهم التى أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها.

ثم قال مقابلاً لقليلهم: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (٩٣).

أى: فتولى عنهم «شعيب» عليه السلام بعد ما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنعمة والنكال، وقال مقرأ لهم وموبخاً: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أى: قد أديت إليكم ما أرسلت به، فلا أسفة عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به، ولهذا^(٥) قال: ﴿فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ؟﴾

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩٥).

يقول تعالى مخبراً عما اختبر به الأمم الماضية، الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء، يعنى ﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾: ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام. ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾: ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك، ﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ أى: يدعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله تعالى فى كشف ما نزل بهم.

وتقدير الكلام: أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا، فما فعلوا شيئاً من الذى أراد الله منهم، فقلب الحال إلى الرخاء ليختبرهم فيه؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أى: حولنا الحال من شدة

(١) فى ك: «إلا أنهم». (٢) زيادة من ك، م. وفى هـ: «الآية». (٣) فى م: «أنهم».

(٤) فى ك، م: «لهب». (٥) فى د: «فهذا».

إلى رخاء، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية، ومن فقر إلى غنى، ليشكروا على ذلك، فما فعلوا. وقوله: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ أى: كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، يقال: عفا الشيء إذا كثر، ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءَ وَالسَّرَاءَ فَأَخَذْنَاهُم بِغَتَّةٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، يقول تعالى: ابتلاهم^(١) بهذا وهذا^(٢)، ليتضرعوا ويُنَبِّئوا إلى الله، فما نَجَّعَ فيهم لا هذا ولا هذا، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا^(٣)، بل قالوا: قد مسنا من البأساء والضراء، ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا فى قديم الدهر، وإنما هو الدهر تارات وتارات، ولم يتفطنوا لأمر الله فيهم، ولا استشعروا ابتلاء الله لهم فى الحالين. وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء، ويصبرون على الضراء، كما ثبت فى الصحيحين: «عجباً للمؤمن، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له، وإن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»^(٤) فالؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من السراء والضراء^(٥)؛ ولهذا جاء فى الحديث: «لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقيّاً»^(٦) من ذنوبه، والمنافق مثله كمثل الحمار، لا يدري فيم ربطه أهله، ولا فيم أرسلوه، أو كما قال.

ولهذا عقب هذه الصفة بقوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِغَتَّةٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أى: أخذناهم بالعقوبة بغتة، أى: على بغتة منهم، وعدم شعور منهم، أى: أخذناهم فجأة^(٧) كما جاء فى الحديث: «موت الفجأة رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر»^(٨).

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩).

يقول تعالى مخبراً عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل، كقوله تعالى^(٩): ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غِظَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

(١) فى د: «ابتليناهم». (٢) فى أ: «بهذا وبهذا». (٣) فى م: «ولا هذا».

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب بن سنان، رضى الله عنه، ولم أجده فى صحيح البخارى بهذا اللفظ.

(٥) فى ك، م: «من الضراء والسراء». (٦) فى ك: «حتى يخرج من الدنيا نقيّاً». (٧) فى ك: «بغتة».

(٨) جاء من حديث عائشة وعبيد بن خالد السلمى وأنس بن مالك، رضى الله عنه.

فأما حديث عائشة: فأخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (١٢٠٧) «مجمع البحرين»، وابن الجوزى فى العلل المتناهية

(٨٩٤/٢) من طريق صالح بن موسى، عن عبد الملك بن عمير، عن موسى بن طلحة، عن عائشة بلفظ: «موت الفجأة تخفيف

على المؤمن وسخط على الكافر» وفيه صالح بن موسى وهو متروك.

وأما حديث عبيد بن خالد: فرواه أحمد فى المسند (٤٢٤/٣) وأبو داود فى السنن برقم (٣١١٠) من طريق شعبة، عن

منصور، عن تميم بن سلمة أو سعد بن عبيدة، عن عبيد بن خالد بلفظ: «موت الفجأة أخذة أسف».

وأما حديث أنس: فرواه ابن الجوزى فى العلل المتناهية (٨٩٣/٢) من طريق محمد بن مقاتل، عن جعفر بن هارون، عن سمعان

ابن المهدي، عن أنس بلفظ: «موت الفجأة رحمة للمؤمنين وعذاب للكافرين» قال ابن الجوزى: «سمعان مجهول منكر الحديث».

(٩) فى ك، م، أ: «كما قال تعالى».

وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ [يونس: ٩٨] أى: ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس، فإنهم آمنوا، وذلك بعد ما عاينوا العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ. فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصفات: ١٤٧، ١٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾^(١) [سبأ: ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أى: آمنت قلوبهم بما جاءتهم به الرسل، وصدقت به واتبعته، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات، ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: قطر السماء ونبات الأرض. قال تعالى: ﴿وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: ولكن كذبوا رسلهم، فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المأثم والمحارم.

ثم قال تعالى مخوفاً ومحذراً من مخالفة أوامره، والتجرو على زواجه: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾، أى: الكافرة ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ أى: عذابنا ونكالنا، ﴿بَيَّاتًا﴾ أى: ليلاً ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ. أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ أى: فى حال شغلهم وغفلتهم، ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ أى: بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم فى حال سهوهم وغفلتهم ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ ولهذا قال الحسن البصرى، رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مُشْفِقٌ وَجَلْ خَائِفٌ، والفاجر يعمل بالمعاصى وهو آمن.

﴿أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصْبَانَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (١٠٠).

قال ابن عباس، رضى الله عنهما، فى قوله: ﴿أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾: أو لم نُبِّين، [وكذا قال مجاهد والسدى، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أو لم نبين]^(٢) لهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم.

وقال أبو جعفر بن جرير فى تفسيرها: يقول^(٣) تعالى: أو لم نبين للذين يستخلفون فى الأرض من بعد هلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها، فساروا سيرتهم، وعملوا أعمالهم، وعتوا على ربهم: ﴿أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصْبَانَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾، يقول: أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم، ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يقول: ونختم على قلوبهم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ موعظة ولا تذكيراً.

قلت: وهكذا قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٩]، وقال: ﴿أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ. وَكُنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ [وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال]﴾^(٤) [إبراهيم: ٤٤، ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ

(١) زيادة من ك، م، أ. وفى هـ: «الآية».

(٢) زيادة من ك، م، أ.

(٣) فى م: «بقوله».

(٤) زيادة من ك، م، أ. وفى هـ: «الآية».

تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿[مریم: ٩٨] أی: هل ترى لهم شخصاً أو تسمع لهم صوتاً؟ وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مَدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦]، وقال تعالى بعد ذكره إهلاك عاد: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ. وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حولَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الاحقاف: ٢٥ - ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبا: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِثْرِ مَعْظَلَةٍ وَقَصَرٍ مَشِيدٍ. أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٥، ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نقمه بأعدائه، وحصول نعمه لأوليائه؛ ولهذا عقب ذلك بقوله، وهو أصدق القائلين ورب العالمين:

﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقِصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢)﴾.

لما قص تعالى على نبيه ﷺ خبر قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب [عليهم الصلاة والسلام]^(١)، وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين، وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بين لهم الحق بالحجج على السنة الرسل، صلوات الله عليهم أجمعين، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقِصُ عَلَيْكَ﴾ أي: يا محمد ﴿مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ أي: من أخبارها، ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج على صدقهم فيما أخبروهم به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ. وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١، ١٠٢].

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾: الباء سببية، أي: فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم. حكاه ابن عطية، رحمه الله، وهو متجه حسن، كقوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ. وَنَقَلِبُ أَفْئِدَتِهِمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ

مَرَّةً [وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ] ^(١) ﴿١١٠﴾ [الأنعام: ١١٠، ١١١]؛ ولهذا قال هنا: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ. وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ﴾ أى: لأكثر الأمم الماضية ﴿مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ أى: ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال. والعهد الذى أخذه [عليهم] ^(٢) هو ما جبلهم عليه وفطرهم عليه، وأخذ عليهم فى الأصلاب أنه ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، فأقروا بذلك، وشهدوا على أنفسهم به، فخالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة، لا من عقل ولا شرع، وفى الفطر السليمة خلاف ذلك، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهى عن ذلك، كما جاء فى صحيح مسلم يقول الله تعالى: «إِنِّى خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ». وفى الصحيحين: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه ويُنصِّرانه ويمجسانه» الحديث. وقال تعالى فى كتابه العزيز: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قيل فى تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ ما روى ^(٣) أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن أبى بن كعب فى قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ قال: كان فى علمه تعالى يوم أقروا له بالميثاق، أى: فما كانوا ليؤمنوا لعلم الله منهم ذلك، وكذا قال الربيع بن أنس، واختاره ابن جرير.

وقال السدى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ قال: ذلك يوم أخذ منهم الميثاق فآمنوا كرها.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾: هذا كقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ^(٤) [الأنعام: ٢٨].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٠٣).

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أى: الرسل المتقدم ذكرهم، كنوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين. ﴿مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ أى: بحُجُجنا ودلائلنا البينة إلى ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وهو ملك مصر فى زمان موسى، ﴿وَمَلَئِهِ﴾ أى: قومه، ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أى: جحدوا وكفروا بها ظلما منهم وعناداً، كقوله تعالى ^(٥): ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا

(٣) فى أ: «فقال».

(٢) زيادة من م.

(١) زيادة من ك، م، أ. وفى هـ: «الآية».

(٥) فى ك، م، أ: «كما قال تعالى».

(٤) زيادة من ك، م، أ. وفى هـ: «الآية».

وَعَلُّوا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٤﴾ [النمل: ١٤] أى: الذين صدوا عن سبيل الله وكذبوا رسله، أى: انظر - يا محمد - كيف فعلنا بهم، وأغرقتناهم عن آخرهم، بمراى من موسى وقومه. وهذا أبلغ فى النكال بفرعون وقومه، وأشفى لقلوب أولياء الله - موسى وقومه - من المؤمنين به^(١).

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون، وإلجائه إياه بالحجة، وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: أرسلنى الذى هو خالق كل شىء وربى ومليكه.

﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ فقال بعضهم: معناه: حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق، أى: جدير بذلك وحرى به.

وقالوا: و«الباء» و«على» يتعاقبان، فيقال^(٢): «رميت بالقوس» و«على القوس»، و«جاء على حال حسنة» و«بحال حسنة».

وقال بعض المفسرين: معناه: حريص على ألا أقول على الله إلا الحق.

وقرأ آخرون من أهل المدينة: ﴿حَقِيقٌ عَلَى﴾ بمعنى: واجب وحق على ذلك ألا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق، لما أعلم من عز جلاله وعظيم سلطانه.

﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى: بحجة قاطعة من الله، أعطانها دليلاً على صدقى فيما^(٣) جئتكم به، ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أى: أطلقهم من أسرك وقهرك، ودعهم وعبادة ربك وربهم؛ فإنهم من سلالة نبي كريم إسرائيل، وهو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن [عليهم صلوات الرحمن]^(٤).

﴿قَالَ إِن كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أى: قال فرعون: لست بمصدقك فيما قلت، ولا بمطيعك فيما طلبت، فإن كانت معك حجة فأظهرها لراها، إن كنت صادقاً فيما ادعيت.

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾: الحية الذكر. وكذا قال السدى، والضحاك.

(١) فى أ: «وقومه المؤمنين». (٢) فى م: «يقال»، وفى أ: «فيقول».

(٣) فى د: «ما». (٤) زيادة من أ.

وفى حديث «الْفُتُون»، من رواية يزيد بن هارون عن الأصْبَغ بن زيد، عن القاسم بن أبى أيوب، عن^(١) سعيد بن جبَّير، عن ابن عباس قال: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ﴾ فتحوّلت حية عظيمة فاغرة فاها، مسرعة إلى فرعون، فلما رأى فرعون أنها قاصدة إليه، اقتحم عن سريره، واستغاث بموسى أن يكفها عنه^(٢) ففعل.

وقال قتادة: تحوّلت حية عظيمة مثل المدينة.

وقال السدى فى قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾: والثعبان: الذكر من الحيات، فاتحة فاها، واضعة لحيها، الأسفل فى الأرض، والآخر على سور القصر، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه. فلما رآها ذعر منها، ووثب وأحدث، ولم يكن يُحدث قبل ذلك، وصاح: يا موسى، خذها وأنا أومن بك، وأرسل معك بنى إسرائيل. فأخذها موسى، عليه السلام، فعادت عصا.

وروى عن عكرمة عن ابن عباس نحو هذا.

وقال وهب بن منبه: لما دخل موسى على فرعون، قال له فرعون: أعرفك؟ قال: نعم، قال: ﴿أَلَمْ نَرْبِكَ فِينَا وَلِيداً﴾ [الشعراء: ١٨]؟ قال: فرد إليه موسى الذى ردّ، فقال فرعون: خذوه، فبادره موسى ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾، فحملت على الناس فانهمزوا منها، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، قتل بعضهم بعضاً، وقام فرعون منهزماً حتى دخل البيت.

رواه ابن جرير، والإمام أحمد فى كتابه «الزهد»، وابن أبى حاتم. وفيه غرابة فى سياقه^(٣)، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ أى: نزع يده: أخرجها من درعه بعد ما أدخلها فيه فخرجت بيضاء تتلألاً من غير برص ولا مرض، كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾^(٤) [النمل: ١٢].

وقل ابن عباس فى حديث الفتون: [أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء]^(٥) ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾، يعنى: من غير برص، ثم أعادها إلى كمه، فعادت إلى لونها الأول. وكذا قال مجاهد وغير واحد.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠).

أى: قال الملأ - وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون - موافقين لقول فرعون فيه، بعد ما رجع إليه رَوْعُهُ، واستقر على سرير مملكته^(٦) بعد ذلك، قال للملأ حوله -: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾، فوافقوه وقالوا كمقالته، وتشاوروا فى أمره، وماذا يصنعون فى أمره، وكيف تكون حيلتهم فى إطفاء

(٢) زيادة من ك، م، أ.

(١) فى ك، م، أ: «حدثنى».

(٣) تفسير الطبرى (١٦/١٣)، والزهد للإمام أحمد برقم (٣٤١).

(٦) فى د: «ملكه».

(٥) زيادة من أ.

(٤) بعدها فى د، ك، م، أ: «آية أخرى».

نوره وإخماد كلمته، وظهور كذبهم واقترائهم، وتخوفوا من [معرفته] ^(١) أن يستميل ^(٢) الناس بسحره فيما يعتقدون ^(٣)، فيكون ذلك سببا لظهوره عليهم، وإخراجه إياهم من أرضهم. والذي خافوا منه وقعوا فيه، كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيْ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦] فلما تشاوروا في شأنه، واثتمروا فيه، اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله تعالى:

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ .

قال ابن عباس: ﴿أَرْجِهْ﴾: أخره. وقال قتادة: احبسه. ﴿وَأَرْسِلْ﴾: أى: ابعث ﴿فِي الْمَدَائِنِ﴾: أى: فى الأقاليم ومعاملة ملكك، ﴿حَاشِرِينَ﴾: أى: من يحشر لك السحرة من سائر البلاد وينجمهم.

وقد كان السحر فى زمانهم غالبا كثيرا ظاهرا. واعتقد من اعتقد منهم، وأوهم من أوهم منهم، أن ما جاء به موسى، عليه السلام، من قبيل ما تشعبه ^(٤) سحرتهم؛ فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات، كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال: ﴿أَجْتِنَّا لِنُخْرِجَنَّهُ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكُ يَا مُوسَى . فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى . قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحًى . فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ [طه: ٥٧ - ٦٠] وقال تعالى هاهنا:

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ

الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ .

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين ^(٥) استدعاهم لمعارضة موسى، عليه السلام: إن غلبوا موسى ليشينهم وليعطينهم عطاء جزيلا. فوعدهم ومناهم أنه يعطيهم ما أرادوا، وليجعلهم ^(٦) من جلسائه والمقربين عنده، فلما توثقوا من فرعون لعنه الله:

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا

سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ .

هذه مبارزة من السحرة لموسى، عليه السلام، فى قولهم: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ أى: قبلك. كما قال ^(٧) فى الآية الأخرى: ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ [طه: ٦٥]. فقال لهم موسى، عليه السلام: ﴿أَلْقُوا﴾ أى: أنتم أولا قبلى. والحكمة فى هذا - والله أعلم - ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه، فإذا فرغ من بهرجتهم ^(٨) ومحالهم، جاءهم الحق الواضح الجلى بعد تطلب له وانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع فى النفوس. وكذا كان. ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أى: خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة فى الخارج، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيَّهُمْ تُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى . فَأَوْجَسَ فِي

(٣) فى ك: «يعتقدوه».

(٢) فى د: «يميل».

(١) زيادة من ك، م، أ.

(٦) فى أ: «وليجعلهم».

(٥) فى د: «لما».

(٤) فى ك: «يشعبه».

(٨) فى أ: «بهرجتهم».

(٧) فى أ: «قالوا».

نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى . قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى . وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٍ وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٦ - ٦٩﴾ طه: ٦٦ - ٦٩.

قال سفيان بن عيينة: حدثنا أبو سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس: ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً. قال: فأقبلت يُخِيلُ إليه من سحرهم أنها تسعى.

وقال محمد بن إسحاق: صَفَّ خمسة عشر ألف ساحر، مع كل ساحر حباله وعصيه، وخرج موسى، عليه السلام، معه أخوه يتكئ على عصاه، حتى أتى الجمع، وفرعون في مجلسه معه أشراف أهل مملكته، ثم قال السحرة: ﴿يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾. قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ ﴿طه: ٦٥، ٦٦﴾، فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون، ثم أبصار الناس بعد، ثم ألقى كل رجل منهم ما في يده من الحبال والعصى^(١)، فإذا حيات كأمثال الجبال، قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضاً.

وقال السدّي: كانوا بضعة وثلاثين ألف رجل، ليس رجل منهم إلا ومعه حبل وعصا، ﴿فَلَمَّا أَلْقُوا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ يقول: فرّقوهم أى: من الفرق.

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، عن هشام الدستوائي، حدثنا القاسم ابن أبى بزة قال: جمع فرعون سبعين ألف ساحر، فلقوا سبعين ألف حبل، وسبعين ألف عصا، حتى جعل يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى^(٢)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغَلَبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢)﴾.

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى، عليه السلام، فى ذلك الموقف العظيم، الذى فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل، يأمره بأن يلقى ما فى يمينه وهى عصاه، ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ أى: تأكل ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أى: ما يلقونه ويوهمون أنه حق، وهو باطل.

قال ابن عباس: فجعلت لا تَمُرُّ بشيء^(٣) من حبالهم ولا من خشبهم^(٤) إلا التقتهم، فعرفت السحرة أن هذا أمر من السماء، وليس هذا بسحر، فخرّوا سجدا وقالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾.

وقال محمد بن إسحاق: جعلت تبتلع^(٥) تلك الحبال والعصى واحدة واحدة، حتى ما يرى

(١) فى ك، م، أ: «العصى والحبال».

(٢) تفسير الطبرى (٢٨/١٣) وهذا من أخبار أهل الكتاب التى لا فائدة من علمها.

(٣) فى أ: «على شيء».

(٤) فى أ: «عصيتهم».

(٥) فى أ: «تبتلع».

بالوادي قليل ولا كثير مما ألقوا، ثم أخذها موسى، فإذا هي عصا في يده كما كانت، ووقع السحرة سجدا ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾، لو كان هذا ساحرا ما غلبنا.

وقال القاسم بن أبي بزة: أوحى الله إليه أن ألق عصاك، فألقى عصاه، فإذا هي ثعبان فاغر فاه، يتلعج^(١) حبالهم وعصيتهم. فألقى السحرة عند ذلك سجدا، فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار وثواب أهلها.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا نَنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦)﴾.

يخبر تعالى عما توعد به فرعون، لعنه الله، السحرة لما آمنوا بموسى، عليه السلام، وما أظهره للناس من كيد ومكره في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أى: إن غلبه لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك، كقوله في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧٠]، وهو يعلم وكل من له لب أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل؛ فإن موسى، عليه السلام، بمجرد ما جاء من «مدین» دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ومعاملته سلطنته، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر، ممن اختار هو والملا من قومه، وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل. وقد كانوا من أحرص الناس على ذلك، وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون، وموسى، عليه السلام، لا يعرف أحدا منهم ولا رآه ولا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تسترا وتدليسا على رعا دولته وجهلته، كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، فإن قوما صدقوه في قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] من أجهل خلق الله وأضلهم.

وقال السدي في تفسيره بإسناده المشهور عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ قالوا: التقى موسى، عليه السلام، وأمير السحرة، فقال له موسى: أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بى، وتشهد أن ما جئت به حق؟ قال الساحر: لا تين غدا بسحر لا يغلبه سحر، فوالله لئن غلبتنى لأؤمنن بك ولأشهدن أنك حق. وفرعون ينظر إليهما، قالوا: فلهذا قال ما قال.

وقوله: ﴿لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أى: تجتمعوا أنتم وهو، وتكون لكم^(٢) دولة وصوله، وتخرجوا

(٢) فى ك، م: «لهم».

(١) فى م: «يلعج».

منها الأكابر والرؤساء، وتكون الدولة والتصرف لكم، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أى: ما أصنع بكم. ثم فسر هذا الوعيد بقوله: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ يعنى: يقطع يد الرجل اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس. و﴿لَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. وقال فى الآية الأخرى: ﴿فِي جَذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أى: على الجذوع.

قال ابن عباس: وكان^(١) أول من صلب، وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف، فرعون. وقول السحرة: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ أى: قد تحققنا أنا إليه راجعون، وعذابه أشد من عذابك، ونكاله^(٢) ما تدعوننا إليه، وما أكرهتنا عليه من السحر، أعظم^(٣) من نكالك، فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص من عذاب الله، لما قالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أى: عمنا بالصبر على دينك، والثبات عليه، ﴿وَتَوَقَّأَ مُسْلِمِينَ﴾ أى: متابعين لنبيك موسى، عليه السلام. وقالوا لفرعون: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ. إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ مَجْرِمًا فَإِنْ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ. وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٢ - ٧٥]، فكانوا فى أول النهار سحرة، فصاروا فى آخره^(٤) شهداء برة.

قال ابن عباس، وعبيد بن عمير، وقتادة، وابن جرير: كانوا فى أول النهار سحرة، وفى آخره شهداء.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)﴾ .

يخبر تعالى عما تملا عليه فرعون وملؤه، وما أظهروه^(٥) لموسى، عليه السلام، وقومه من الأذى والبغضة: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ أى: لفرعون ﴿أَتَنْذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ﴾ أى: أئدعهم ليفسدوا فى الأرض، أى: يفسدوا أهل رعييتك ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك، يا لله للعجب! صار^(٦) هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه! ألا إن فرعون وقومه هم المفسدون، ولكن لا يشعرون؛ ولهذا قالوا: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ﴾، قال بعضهم: «الواو» هنا حالية، أى: أئذره وقومه يفسدون وقد ترك عبادتك؟

(٣) فى د: «أشد».

(٢) فى أ: «ونكاله على».

(١) فى م، أ: «فكان».

(٥) فى ك، م، أ: «أضمره»، وفى د: «أضمروا».

(٤) فى ك، م، أ: «فى آخر النهار».

(٦) فى أ: «صاروا».

وقرأ ذلك أئبى بن كعب: «وقد تركوك أن يعبدوك وآلهتك»، حكاه ابن جرير.

وقال آخرون: هى عاطفة، أى: لا تدع موسى يصنع هو وقومه من الفساد ما قد أقررتهم^(١) عليه وعلى تركه آلهتك.

وقرأ بعضهم: «إلاهتك» أى: عبادتك، وروى ذلك عن ابن عباس ومجاهد.

وعلى القراءة الأولى قال بعضهم: كان لفرعون إله يعبد. قال الحسن البصرى: كان لفرعون إله يعبد فى السر. وقال فى رواية أخرى: كان له^(٢) جُمَانَةٌ فى عنقه معلقة يسجد لها.

وقال السدى فى قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُكَ وَآلِهَتَكَ﴾: وآلهته، فيما زعم ابن عباس، كانت البقر، كانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم فرعون أن يعبدوها، فلذلك أخرج لهم عجلاً جسداً.

فأجابهم فرعون فيما سألوا بقوله: ﴿سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾، وهذا أمر ثان بهذا الصنيع، وقد كان نكل بهم به قبل ولادة موسى، عليه السلام، حذراً من وجوده، فكان خلاف ما رامه وضد ما قصده فرعون. وهكذا عومل فى صنيعة [هذا]^(٣) أيضاً، إنما أراد قهر بنى إسرائيل وإذلالهم، فجاء الأمر على خلاف ما أراد: نصرهم الله عليه وأذله، وأرغم أنفه، وأغرقه وجنوده.

ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبنى إسرائيل، ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾، ووعدهم بالعاقبة، وأن الدار ستصير لهم فى قوله: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. قَالُوا أَوْزِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا. أى: قد جرى علينا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال من قبل ما جئت يا موسى، ومن بعد ذلك. فقال منبهاً لهم على حالهم الحاضرة^(٤) وما يصيرون^(٥) إليه فى ثانى الحال: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾^(٦)، وهذا تحضيض لهم على العزم على الشكر، عند حلول النعم وزوال النقم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١).

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أى: اختبرناهم وامتحانهم وابتليناهم ﴿بِالسِّنِينَ﴾ وهى سننى الجوع بسبب قلة الزرع^(٧)، ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ قال مجاهد: وهو دون ذلك.

وقال أبو إسحاق، عن رجاء بن حيوة: كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة.

(١) فى أ: «أقررتهم».

(٢) فى ك، م، أ: «لفرعون».

(٣) زيادة من م، أ.

(٤) فى ك، د، م: «الحاضر».

(٥) فى د: «يصير».

(٦) زيادة من د، ك، م، وفى هـ: «الآية».

(٧) فى د، ك، م: «الزرع».

﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ . فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ﴾ أى: من الخصب والرزق ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أى: هذا لنا بما نستحقه: ، ﴿وَأِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أى: جذب وقحط ﴿يَطْيَرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ﴾ أى: هذا بسببهم وما جاؤوا به .

﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ : قال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يقول: مصائبهم عند الله، قال الله: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .
وقال ابن جريج، عن ابن عباس قال: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قال: إلا من قبل الله .

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِتُنْكَشِفَ عَنَّْا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَتُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِالْغَوَةِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥)﴾ .

هذا إخبار من الله، عز وجل، عن تمرد قوم فرعون وعثوهم، وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل فى قولهم: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يقولون: أى آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها، رددناها فلا نقبلها منك، ولا نؤمن بك ولا بما جئت به، قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ .

اختلفوا فى معناه، فعن ابن عباس فى رواية: كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار. وبه قال الضحاك بن مزاحم .

وقال ابن عباس فى رواية أخرى: هو كثرة الموت. وكذا قال عطاء .

وقال مجاهد: ﴿الطُّوفَانُ﴾: الماء، والطاعون على كل حال .

وقال ابن جرير: حدثنا أبو هشام الرفاعى، حدثنا يحيى بن يمان، حدثنا المنهال بن^(١) خليفة، عن الحجاج، عن الحكم بن ميناء، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الطوفان الموت» .

وكذا رواه ابن مردويه، من حديث يحيى بن يمان، به وهو حديث غريب .

وقال ابن عباس فى رواية أخرى: هو أمر من الله طاف بهم، ثم قرأ: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ . [فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ]^(٢)﴾ [القلم: ١٩، ٢٠] .

وأما الجراد فمعروف مشهور، وهو مأكول؛ لما ثبت في الصحيحين عن أبي يعفور^(١) قال: سألت عبد الله بن أبي أوفى عن الجراد، فقال: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد^(٢).

وروى الشافعي، وأحمد بن حنبل، وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «أحلت لنا ميتتان ودمان: الحوت والجراد، والكبد والطحال»^(٣).
ورواه أبو القاسم البغوي، عن داود بن رشيد، عن سويد بن عبد العزيز، عن أبي تمام الأيلي، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر مرفوعاً مثله^(٤).

وروى أبو داود، عن محمد بن الفرّج، عن محمد بن الزُّبرقان الأهوازي، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان، عن سلمان قال: سئل رسول الله ﷺ عن الجرّاد فقال: «أكثر جنود الله، لا أكله، ولا أحرمه»^(٥).

ولما تركه، عليه السلام^(٦)، لأنه كان يعافه، كما عافت نفسه الشريفة أكل الضب، وأذن فيه.
وقد روى الحافظ ابن عساكر في جزء جمعه في الجرّاد، من حديث أبي سعيد الحسن بن علي العدوي، حدثنا نصر بن يحيى بن سعيد، حدثنا يحيى بن خالد، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ لا يأكل الجرّاد، ولا الكلوتين، ولا الضب، من غير أن يحرمها. أما الجرّاد: فرجز وعذاب. وأما الكلوتان: فلقربهما من البول. وأما الضب فقال: «أتخوف أن يكون مسخاً»، ثم قال^(٧): غريب، لم أكتبه إلا من هذا الوجه^(٨).

وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، يشتهي ويحبه، فروى عبد الله بن دينار، عن ابن عمر: أن عمر سئل عن الجرّاد فقال: ليت أن عندنا منه قفّة أو قفعتين نأكله^(٩).

وروى ابن ماجه: حدثنا أحمد بن منيع، عن سفيان بن عيينة، عن أبي سعد سعيد بن المرزبان البقال، سمع أنس بن مالك يقول: كان أزواج النبي ﷺ يتهادين الجرّاد على الأطباق^(١٠).

وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا داود بن رشيد، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد، عن نُمَيْر بن يزيد

(١) في م: «يعقوب».

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٤٩٥)، وصحيح مسلم برقم (١٩٥٢).

(٣) مسند الشافعي (١٧٣٤)، ومسند أحمد (٩٧/٢)، وسنن ابن ماجه برقم (٣٢١٨).

وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف وقد رجح أبو زرعة والدارقطنى وقفه.

(٤) ورواه ابن مردويه في تفسيره كما في نصب الراية للزيعلى (٢٠٢/٤) من طريق محمد بن بشر، عن داود بن راشد، عن سويد بن

عبد العزيز، عن (أبي هشام الأيلي) سمعت زيد بن أسلم يحدث عن ابن عمر عن النبي ﷺ فذكره.

تنبيه: وقع هنا: «أبو تمام الأيلي» وفي نصب الراية: «أبو هشام الأيلي» وهذا تصحيف والصواب: «أبو هاشم الأيلي» وهو كثير بن

عبد الله الأيلي، ضعيف. انظر: تلخيص الحبير لابن حجر (٢٦/١).

(٥) سنن أبي داود (٣٩١٣). (٦) في أ: «ﷺ».

(٧) في أ: «وقال».

(٨) ورواه ابن صبرى في أماليه كما في الكنز برقم (١٨١٨٥) وفي إسناده انقطاع فإن عطاء لم يسمع من ابن عباس وابن جريج مدلس وقد عنعن.

(٩) رواه مالك في الموطأ (٩٣٣/٢).

(١٠) سنن ابن ماجه برقم (٣٢٢٠) وقال البوصيرى في الزوائد (٦٤/٣): «هذا إسناد ضعيف».

القَيْنِي^(١)، حدثني أبي، عن صُدَيْ بن عَجَلان، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مريم بنت عمران، عليها السلام، سألت ربها [عز وجل]^(٢) أن يطعمها لحماً لا دم له، فأطعمها الجراد، فقالت: اللهم أعشه بغير رضاع، وتابع بينه بغير شيع»^(٣). وقال نُمَيْر: «الشَّياع»: الصوت.

وقال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا أبو تقي هشام بن عبد الملك اليزني^(٤)، حدثنا بَقِيَّة بن الوليد، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن ضَمُضَم بن زُرْعَة، عن شُرَيْح بن عبيد، عن أبي زُهَيْر النميري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقاتلوا الجراد، فإنه جند الله الأعظم». غريب جداً^(٥).

وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ﴾ قال: كانت تأكل مسامير أبوابهم، وتدع الخشب.

وروى ابن عساكر من حديث علي بن زيد الخرائطي، عن محمد بن كثير، سمعت الأوزاعي يقول: خرجت إلى الصحراء، فإذا أنا برجل من جراد في السماء، وإذا برجل راكب على جرادة منها، وهو شاك في الحديد، وكلما قال بيده هكذا، مال الجراد مع يده، وهو يقول: الدنيا باطل باطل ما فيها، الدنيا باطل باطل ما فيها.

وروى الحافظ أبو الفرج^(٦) المعافى بن زكريا الحريري، حدثنا محمد بن الحسن بن زياد، حدثنا أحمد بن عبد الرحيم، أخبرنا وكيع، عن الأعمش، أنبأنا عامر قال: سئل شُرَيْح القاضي عن الجراد، فقال: قبح الله الجرادة. فيها خلقة سبعة جبابرة: رأسها رأس فرس، وعنقها عنق ثور، وصدرها صدر أسد، وجناحها جناح نسر، ورجلاها رجلا جمل. وذنبها ذنب حية، وبطنها بطن عقرب.

و[قد]^(٧) قدمنا عند قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلْغِيَاةِ﴾ [المائدة: ٩٦] حديث حماد بن سلمة، عن أبي المهزم، عن أبي هريرة، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في حج أو عمرة، فاستقبلنا^(٨) رجل جراد، فجعلنا نضربه بالعصي، ونحن محرمون، فسألنا رسول الله ﷺ [عن ذلك]^(٩) فقال: «لا بأس بصيد البحر»^(١٠).

وروى ابن ماجه، عن هارون الحمالي^(١١)، عن هاشم بن القاسم، عن زياد بن عبد الله بن علاثة، عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أنس وجابر [رضي الله عنهما]^(١٢)، عن رسول الله ﷺ^(١٣)؛ أنه كان إذا دعا على الجراد قال: «اللهم أهلك كبارها، واقتل صغارها، وأفسد بيضه، واقطع دابره، وخذ بأفواهه عن معاشنا وأرزاقنا، إنك سميع الدعاء». فقال له جابر: يا رسول الله، أتدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره؟ فقال: «إنما هو نثرة حوت»^(١٤) في البحر. قال

(١) في أ: «عن الوليد بن يحيى بن مرثد».

(٢) زيادة من ك، د.

(٣) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٦٦/٨) من طريق بَقِيَّة بن الوليد به قال الهيثمي في المجمع (٣٩/٤): «فيه بَقِيَّة وهو ثقة لكنه مدلس، ويزيد القيني لم أعرفه، وبَقِيَّة رجاله ثقات».

(٤) في أ: «المزني».

(٥) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٩٧/٢٢)، وأبو الشيخ الأصبهاني في العظمة برقم (١٢٩٣) من طريق إسماعيل بن عياش، عن ضَمُضَم بن زُرْعَة به.

(٦) في أ: «ابن الفرج».

(٧) زيادة من ك، أ.

(٨) في ك: «فاستقبلتنا».

(٩) زيادة من أ.

(١٠) سورة المائدة آية: ٩٦.

(١١) في أ: «الحماني».

(١٢) زيادة من أ.

(١٣) في ك، م، أ: «النبى».

(١٤) في أ: «صوت».

هاشم^(١): أخبرني زياد أنه أخبره من رآه يشتره الحوت^(٢) قال: من حقق ذلك أن السمك إذا باض في ساحل البحر فنضب الماء عنه وبدأ للشمس، أنه يفقس كله جراداً طياراً.

وقدما عند قوله: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨]، حديث عمر، رضى الله عنه: «إن الله خلق ألف أمة، ستمائة في البحر وأربعمائة في البر، وإن أولها هلاكاً الجراد»^(٣).

وقال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا يزيد بن المبارك، حدثنا عبد الرحمن بن قيس، حدثنا سالم بن سالم، حدثنا أبو المغيرة الجوزجاني محمد بن مالك، عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا وباء مع السيف، ولا نجاء مع الجراد». حديث غريب^(٤).

وأما «القمل» فعن ابن عباس: هو^(٥) السوس الذي يخرج من الحنطة. وعنه أنه الدبى^(٦) - وهو الجراد الصغار الذي لا أجنحة له. وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة.

وعن الحسن وسعيد بن جبير: «القمل»: دواب سود صغار.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «القمل»: البراغيث.

وقال ابن جرير: «القمل»: جمع واحدها «قملة»، وهى دابة تشبه القمل، تأكلها الإبل، فيما بلغنى، وهى التى عناها الأعشى بقوله:

قوم تعالج^(٧) قُملاً أبناؤهم وسلاسلأ أجداً وباباً مؤصداً^(٨)

قال: وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة يزعم أن القمل عند العرب «الحنان»، واحدها «حنانة»، وهى صغار القردان فوق القمقامة.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن حميد الرازى، حدثنا يعقوب القمى، عن جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جبير قال: لما أتى موسى، عليه السلام، فرعون قال له: أرسل معى بنى إسرائيل، فأرسل الله عليهم الطوفان - وهو المطر - فصب عليهم منه شيئاً، خافوا أن يكون عذاباً، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا المطر، فنؤمن لك، ونرسل معك بنى إسرائيل. فدعا ربه، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل. فأنبت لهم فى تلك السنة شيئاً لم ينبته قبل ذلك من الزرع والثمر^(٩) والكلأ، فقالوا: هذا ما كنا نتمنى. فأرسل الله عليهم الجراد، فسلطه على الكلأ، فلما رأوا

(١) فى ك: «هشام».

(٢) سنن ابن ماجه برقم (٣٢٢١) قال البوصيرى فى الزوائد (٦٥/٣): «هذا إسناد ضعيف لضعف موسى بن محمد بن إبراهيم. أورده ابن الجوزى فى الموضوعات من طريق هارون بن عبد الله وقال: لا يصح عن رسول الله ﷺ، وضعه موسى بن محمد المذكور».

(٣) سورة الأنعام آية: ٣٨، وقد تفرد بهذا الحديث محمد بن عيسى، قال ابن عدى فى الكامل: «قال عمرو بن على: محمد بن عيسى بصرى صاحب محمد بن المنكدر، ضعيف منكر الحديث روى عن محمد بن المنكدر، عن جابر، عن عمر، عن النبى ﷺ فى الجراد».

(٤) ورواه ابن صصرى فى أماليه كما فى الكنز برقم (٣٠٨٧١) والجامع الصغير للسيوطى (٤٣٩/٦) ورمز له بالضعف، وأقره المناوى والألبانى.

(٧) فى م: «يعالج».

(٦) فى م: «الدباب».

(٥) فى م: «أنه».

(٨) البيت فى تفسير الطبرى (٥٦/١٣)، واللسان مادة (قمل).

(٩) فى م: «من الزروع والثمار»، وفى ك، أ: «الزروع والثمر».

أثره في الكلاء، عرفوا أنه لا يبقى الزرع، فقالوا: يا موسى، ادع لنا ربك ليكشف^(١) عنا الجراد فنؤمن لك، ونرسل، معك بنى إسرائيل. فدعا ربه، فكشف عنهم الجراد، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل، فداسوا وأحرزوا في البيوت، فقالوا: قد أحرزنا. فأرسل الله عليهم القمل - وهو السوس الذي يخرج منه - فكان الرجل يخرج عشرة^(٢) أجربة إلى الرحي، فلا يرد منها ثلاثة أفقرة^(٣). فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا القمل، فنؤمن لك، ونرسل معك بنى إسرائيل. فدعا ربه، فكشف عنهم، فأبوا أن يرسلوا معه بنى إسرائيل. فبينما هو جالس عند فرعون، إذ سمع نقيق ضفدع، فقال لفرعون: ما تلقى أنت وقومك من هذا. قال^(٤): وما عسى أن يكون كيد هذا؟ فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع، ويهم أن يتكلم فتشب^(٥) الضفدع في فيه. فقالوا لموسى: ادع ربك يكشف عنا هذه الضفادع، فنؤمن لك، ونرسل معك بنى إسرائيل، فدعا ربه، فكشف^(٦) عنهم فلم يؤمنوا. وأرسل^(٧) الله عليهم الدم، فكان ما استقوا من الأنهار والآبار، وما كان في أوعيتهم، وجدوه دمًا عبيطًا، فشكوا إلى فرعون، فقالوا: إنا قد ابتلينا بالدم، وليس لنا شراب. فقال: إنه قد سحركم!! فقالوا: من أين سحرنا، ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئًا من الماء إلا وجدناه دمًا عبيطًا؟ فأتوه وقالوا: يا موسى، ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن بك^(٨)، ونرسل معك بنى إسرائيل. فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل^(٩).

وقد روى نحو هذا عن ابن عباس، والسدى، وقتادة وغير واحد من علماء السلف^(١٠).

وقال محمد بن إسحاق بن يسار، رحمه الله: فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوبا مغلولًا، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر، والتماهى في الشر، فتابع الله عليه الآيات، وأخذ بالسنين، فأرسل عليه الطوفان، ثم الجراد، ثم القمل، ثم الضفادع، ثم الدم، آيات مفصلات. فأرسل الطوفان - وهو الماء - ففاض على وجه الأرض ثم ركد، لا يقدر على أن يحرثوا ولا يعملوا شيئًا، حتى جهدوا جوعًا، فلما بلغهم ذلك ﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرَّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، فدعا موسى ربه، فكشف^(١١) عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الجراد، فأكل الشجر، فيما بلغنى، حتى إن كان لياكل مسامير الأبواب من الحديد، حتى تقع دورهم ومساكنهم، فقالوا مثل ما قالوا، فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم القمل، فذكر لى أن موسى، عليه السلام، أمر أن يمشی إلى كتيب حتى يضربه بعصاه، فمشی إلى كتيب أهيل عظيم، فضربه بها، فانتال عليهم قملًا، حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرارة، فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له، فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا. فأرسل الله عليهم الضفادع، فملأت البيوت والأطعمة والآنية، فلا يكشف أحد ثوبًا ولا طعامًا إلا وجد فيه الضفادع، قد غلبت عليه. فلما جهدهم ذلك، قالوا له

(١) في د، ك، م: «فيكشف». (٢) في ك «يخرج معه عشرة». (٣) في ك: «ثلاثة إلا أقرقة».

(٤) في ك، د، م، أ: «فقال». (٥) في م، أ: «فيثب»، وفي د: «فتبدر». (٦) في م: «فكشف الضفادع».

(٨) في ك، م، أ: «لك». (٩) تفسير الطبري (٥٧/١٣).

(١٠) بعدها في م، أ: «أنه أخذ بذلك». (١١) في م، ك: «فكشفه».

مثل ما قالوا، فسأل ربه^(١)، فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الدم، فصارت مياه آل فرعون دماً، لا يستقون من بئر ولا نهر، ولا يغترفون من إناء، إلا عاد دماً عبيطاً^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور المروزي، أنبأنا النضر، أنبأنا إسرائيل، أنبأنا جابر ابن يزيد^(٣)، عن عكرمة، قال عبد الله بن عمرو: لا تقتلوا الضفادع، فإنها لما أرسلت على قوم فرعون^(٤)، انطلق ضفدع منها فوقع في تنور فيه نار، يطلب بذلك مرضاة الله، فأبدلهن الله من هذا أبرد شيء يعلمه من الماء، وجعل نقيقهن التسبيح. وروى من طريق عكرمة، عن ابن عباس، نحوه^(٥).

وقال زيد بن أسلم: يعنى بالدم: الرعاف. رواه ابن أبي حاتم.

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)﴾.

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا، مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة، [أنه]^(٦) انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم، وهو البحر الذي فرقه لموسى، فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم، فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم، فغرقوا عن آخرهم، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها.

وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون - وهم بنو إسرائيل - ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ. كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٨]

وعن الحسن البصري وقتادة، في قوله: ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ يعنى: الشام.

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ قال مجاهد وابن جرير: وهي قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ أى: وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع، ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: ﴿يَعْرِشُونَ﴾: يبنون.

(١) في ك، م: «فدعا».

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٦٣/١٣).

(٣) في أ: «زيد».

(٤) في ك، م، أ: «بنو إسرائيل».

(٥) وفي إسناده جابر بن يزيد وهو ضعيف وقد ورد النهي عن قتل الضفدع مرفوعاً إلى النبي ﷺ فروى عبد الرحمن التيمي، رضى الله عنه: «أن طيبيا ذكر ضفدعا في دواء عند النبي ﷺ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتله». أخرجه أبو داود في السنن برقم (٥٢٦٩).

(٦) زيادة من أ.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩)﴾ .

يخبر تعالى عما قاله جهلة بنى إسرائيل لموسى، عليه السلام، حين جاوزوا البحر، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا، ﴿فَأَتَوْا﴾ أى: فمروا ﴿عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ قال بعض المفسرين: كانوا من الكنعانيين . وقيل: كانوا من لخم .

قال ابن جريج: وكانوا يعبدون أصناما على صور البقر، فلهذا أثار^(١) ذلك شبهة لهم فى عبادتهم العجل بعد ذلك، فقالوا: ﴿يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أى: تجهلون عظمة الله وجلاله، وما يجب أن ينزه^(٢) عنه من الشريك والمثيل .
﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ﴾ أى: هالك ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير [رحمه الله]^(٣) تفسير هذه الآية من حديث محمد بن إسحاق وعقيل، ومعمار كلهم، عن الزهرى، عن سنان بن أبى سنان، عن أبى واقد الليثى: أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين، قال: وكان للكفار سدره^(٤) يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم، يقال لها: «ذات أنواط»، قال: فمررنا بسدره خضراء عظيمة، قال: فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال: «قلتم والذى نفسى بيده، كما قال قوم موسى لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٥) .

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهرى، عن سنان بن أبى سنان الدلى، عن أبى واقد الليثى قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين، فمررنا بسدره، فقلت: يا نبي الله^(٦)، اجعل لنا هذه «ذات أنواط»، كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدره، ويعكفون حولها. فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ]»^(٧) ﴿إِنَّكُمْ تَرْكَبُونَ﴾^(٨) سنن من قبلكم^(٩) .

ورواه ابن أبى حاتم، من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى، عن أبيه، عن جده مرفوعا^(١٠) .

(١) فى أ: «أثر». (٢) فى د: «تنزيهه». (٣) زيادة من أ.

(٤) فى م: «سدة».

(٥) تفسير الطبرى (١٣/٨١، ٨٢).

(٦) فى أ: «رسول الله».

(٧) زيادة من د.

(٨) فى م: «لتركبون».

(٩) المسند (٥/٢١٨) ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١١٨٥) من طريق عبد الرزاق به ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢١٨٠) من طريق سفيان عن الزهرى بنحوه، قال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح».

(١٠) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٧/٢١) من طريق ابن أبى فديك، عن كثير بن عبد الله المزنى، عن أبيه، عن جده مرفوعا، قال الهيثمى فى المجمع (٧/٢٤): «فيه كثير بن عبد الله وقد ضعفه الجمهور وحسن الترمذى حديثه».

﴿قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)﴾.

يذكرهم موسى، عليه السلام، بنعمة الله عليهم، من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره، وما كانوا فيه من الهوان والذلة، وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم، والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه، وغرقه ودماره. وقد تقدم تفسيرها في [سورة] البقرة.

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢)﴾.

يقول تعالى ممتنا على بنى إسرائيل، بما حصل لهم من الهداية، بتكليمه موسى، عليه السلام، وإعطائه التوراة، وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم، فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة.

قال المفسرون: فصامها موسى، عليه السلام، فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة، فأمره الله تعالى أن يكمل بعشر^(٢) أربعين.

وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي؟ فالأكثر على أن الثلاثين هي ذو القعدة، والعشر عشر ذى الحجة. قاله مجاهد، ومسروق، وابن جريج. وروى عن ابن عباس. فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكليم لموسى، عليه السلام، وفيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فلما تم الميقات عزم^(٣) موسى على الذهاب إلى الطور، كما قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ الآية [طه: ٨٠]، فحينئذ استخلف موسى على بنى إسرائيل أخاه هارون، وأوصاه بالإصلاح وعدم الإفساد. وهذا تنبيه وتذكير، وإلا فهارون، عليه السلام، نبي شريف كريم على الله، وله وجاهة وجلالة، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى سائر الأنبياء^(٤).

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)﴾.

يخبر تعالى عن موسى، عليه السلام، أنه لما جاء لميقات الله تعالى، وحصل له التكليم من الله [تعالى]^(٥)، سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾.

(٣) في د، ك، م: «وعزم».

(٢) في أ: «العشرة».

(١) زيادة من م، أ.

(٥) زيادة من ك، أ.

(٤) في ك، أ: «أنبياء الله».

وقد أشكل حرف «لن» هاهنا على كثير من العلماء؛ لأنها موضوعة لنفى التأييد، فاستدل به المعتزلة على نفى الرؤية فى الدنيا والآخرة. وهذا أضعف الأقوال؛ لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله فى الدار الآخرة، كما سنوردها عند قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ . وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِاسِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

وقوله تعالى إخباراً عن الكفار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

وقيل: إنها لنفى التأييد فى الدنيا، جمعاً بين هذه الآية، وبين الدليل القاطع على صحة الرؤية فى الدار الآخرة.

وقيل: إن هذا الكلام فى هذا المقام كالكلام فى قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ وقد تقدم ذلك فى الأنعام [الآية: ١٠٣].

وفى الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى، عليه السلام: «يا موسى، إنه لا يرانى حتى إلا مات، ولا يابس إلا تدهده»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾.

قال أبو جعفر بن جرير الطبرى فى تفسير هذه الآية: حدثنا أحمد بن سُهَيْل الواسطى، حدثنا قُرَّة ابن عيسى، حدثنا الأعمش، عن رجل، عن أنس، عن النبى ﷺ قال: «لما تجلَّى ربه للجبل، أشار بإصبعه، فجعله دكاً» وأرانا أبو إسماعيل بإصبعه السبابة^(١).

هذا الإسناد فيه رجل مبهم لم يسم، ثم قال^(٢):

حدثنى المثنى، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد، عن ليث، عن أنس؛ أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ قال: «هكذا بإصبعه - ووضع النبى ﷺ إصبعه الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر - فساخ الجبل»^(٣).

هكذا وقع فى هذه الرواية «حماد بن سلمة، عن ليث، عن أنس». والمشهور: «حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس»، كما قال ابن جرير:

حدثنى المثنى، حدثنا هُدْبَةُ بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس قال: قرأ رسول الله ﷺ: قال ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ قال: وضع الإبهام قريباً من طرف خنصره، قال: فساخ الجبل - قال حميد لثابت: تقول هذا؟ فرفع ثابت يده فضرب صدر حميد، وقال: يقوله رسول الله ﷺ، ويقول أنس، وأنا أكتمه؟^(٤).

وهكذا رواه الإمام أحمد فى مسنده: حدثنا أبو المثنى، معاذ بن معاذ العنبرى، حدثنا حماد بن

(١) تفسير الطبرى (٩٨/١٣).

(٢) فى أ: «وقال».

(٣) (٤، ٣) تفسير الطبرى (٩٩/١٣).

سلمة، حدثنا ثابت البناني، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾^(١): قال: قال هكذا - يعنى أنه خرج طرف الخنصر - قال أحمد: أرانا معاذ، فقال له حميد الطويل: ما تريد إلى هذا يا أبا محمد؟ قال: فضرب صدره ضربة شديدة وقال: من أنت يا حميد؟! وما أنت يا حميد؟! يحدثني به أنس بن مالك عن النبي ﷺ، فتقول أنت: ما تريد إليه؟!

وهكذا رواه الترمذى فى تفسير هذه الآية عن عبد الوهاب بن الحكم الوراق، عن معاذ بن معاذ به. وعن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى، عن سليمان بن حرب، عن حماد [بن سلمة]^(٢)، به^(٣). ثم قال: هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث حماد.

وهكذا رواه الحاكم فى مستدركه من طرق، عن حماد بن سلمة، به. وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه^(٤) (٥).

ورواه أبو محمد الحسن^(٦) بن محمد الخلال، عن محمد بن على بن سويد، عن أبى القاسم البغوى، عن هذبة بن خالد، عن حماد بن سلمة، فذكره وقال: هذا إسناد صحيح لا علة فيه. وقد رواه داود بن المحبر، عن شعبة، عن ثابت، عن أنس مرفوعاً [وهذا ليس بشيء، لأن داود ابن المحبر كذاب ورواه الحافظان أبو القاسم الطبرانى وأبو بكر]^(٧)، بنحوه^(٨).

وأسنده ابن مردويه من طريقين، عن سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن أنس مرفوعاً^(٩) بنحوه، وأسنده ابن مردويه من طريق ابن البيلماني، عن أبيه، عن ابن عمر مرفوعاً، ولا يصح أيضاً. وقال السدّى، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ قال: ما تجلّى منه إلا قدر الخنصر ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ قال: تراباً ﴿وَحَرَّ مُوسَى صَعْقًا﴾ قال: مغشياً عليه. رواه ابن جرير.

وقال قتادة: ﴿وَحَرَّ مُوسَى صَعْقًا﴾ قال: ميتاً.

وقال سفيان الثورى: ساخ الجبل فى الأرض، حتى وقع فى البحر فهو يذهب معه^(١٠).

وقال سنيد، عن حجاج بن محمد الأعور، عن أبى بكر الهذلى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ انقعر فدخل تحت الأرض، فلا يظهر إلى يوم القيامة.

وجاء فى بعض الأخبار أنه ساخ فى الأرض، فهو يهوى فيها إلى يوم القيامة، رواه ابن مردويه.

(١، ٢) زيادة من أ.

(٣) المسند (١٢٥/٣) وسنن الترمذى برقم (٣٠٧٤) ورواه ابن خزيمة فى التوحيد برقم (١١٣) من طريق معاذ بن جبل به.

(٤) فى أ: «يخرجه».

(٥) المستدرک (٣٢٠/٢) ورواه ابن خزيمة فى التوحيد برقم (١١٤) وابن الأعرابى فى معجمه برقم (٤٠٥) من طريق عفان بن مسلم عن حماد بن سلمة به.

(٦) فى أك «أبو محمد بن الحسن».

(٧) زيادة من أ.

(٨) ورواه ابن منده فى الرد على الجهمية برقم (٥٩) من طريق شعبة به.

(٩) ورواه ابن عدى فى الكامل (٣٥٠/١) من طريق أيوب بن خوط عن قتادة عن أنس مرفوعاً وأيوب بن خوط متروك الحديث.

(١٠) فى أ: «بعد».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن شبة، حدثنا محمد بن يحيى أبو غسان الكنانى، حدثنا عبدالعزيز بن عمران، عن معاوية بن عبد الله، عن الجلود بن أيوب، عن معاوية بن قرة، عن أنس بن مالك؛ أن النبي ﷺ قال: «لما تجلّى الله للجبال^(١)، طارت لعظمته ستة أجبل، فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة، بالمدينة: أحد، وورقان، ورضوى. ووقع بمكة: حراء، وثبير، وثور».

وهذا حديث غريب، بل منكر^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن محمد بن عبد الله بن أبي الثلج، حدثنا الهيثم بن خارجة، حدثنا عثمان بن حصين بن علاق، عن عروة بن رويم قال: كانت الجبال قبل أن يتجلّى الله لموسى على الطور صمًا مُلَسًا، فلما تجلّى الله لموسى على الطور دك^(٣)، وتفطرت الجبال فصارت الشقوق والكهوف.

وقال الربيع بن أنس: «فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعْقًا»، وذلك أن الجبل حين كشف الغطاء ورأى النور، صار مثل دك من الدكاك. وقال بعضهم: «جَعَلَهُ دَكًّا» أى: فتنه.

وقال مجاهد فى قوله: «وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي»: فإنه أكبر منك وأشد خلقًا، «فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ» فنظر إلى الجبل لا يتمالك، وأقبل الجبل فدك على أوله، ورأى موسى ما يصنع الجبل، فخر صَعْقًا.

وقال عكرمة: «جَعَلَهُ دَكًّا» قال: نظر الله إلى الجبل، فصار صحراء ترابًا.

وقد قرأ بهذه القراءة بعض القراء، واختارها ابن جرير، وقد ورد فيها حديث مرفوع، رواه ابن مردويه.

والمعروف أن «الصَّعَقَ» هو الغشى هاهنا، كما فسره ابن عباس وغيره، لا كما فسره قتادة بالموت، وإن كان ذلك صحيحاً فى اللغة، كقوله تعالى: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ» [الزمر: ٦٨]، فإن هنا قرينة تدل على الموت كما أن هناك قرينة تدل على الغشى، وهى قوله: «فَلَمَّا أَفَاقَ»، والإفاقة إنما تكون من غشى^(٤).

«قَالَ سُبْحَانَكَ»: تنزيها وتعظيما وإجلالا أن يراه أحد فى الدنيا إلا مات.

وقوله: «تُبْتُ إِلَيْكَ» قال مجاهد: أن أسألك الرؤية.

(١) فى أ: «للجبل».

(٢) ورواه ابن الاعرابى فى معجمه (٢/١٦٦) والمحاملى فى أماليه (١/١٧٢/١) كما فى السلسلة الضعيفة للشيخ ناصر الالبانى برقم (١٦٢) والخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد (٤٤١/١٠) كلهم من طريق عبد العزيز بن عمران عن معاوية بن عبد الله به.

قال الخطيب: «هذا الحديث غريب جدا لم أكتبه إلا بهذا الإسناد» وأورده ابن الجوزى فى الموضوعات (١/١٢٠) وقال: «قال ابن حبان: موضوع، وعبد العزيز متروك يروى المناكير عن المشاهير».

(٣) فى أ: «صارت دكا». (٤) فى ك، م: «عن».

﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، قال ابن عباس ومجاهد: من بنى إسرائيل. واختاره ابن جرير. وفي رواية أخرى عن ابن عباس: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أنه لا يراك أحد. وكذا قال أبو العالية: قد كان قبله مؤمنون، ولكن يقول: أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة.

وهذا قول حسن له اتجاه. وقد ذكر محمد بن جرير في تفسيره هاهنا أثراً طويلاً فيه غرائب وعجائب، عن محمد بن إسحاق بن يسار [رحمه الله] ^(١)، وكأنه تلقاه من الإسرائيليات ^(٢)، والله [تعالى] ^(٣) أعلم.

وقوله: ﴿وَحَرَّ مُوسَى صَعْقًا﴾، فيه أبو سعيد وأبو هريرة، عن النبي ﷺ: فأما حديث أبي سعيد، فأسنده البخاري في صحيحه هاهنا، فقال:

حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن عمرو بن يحيى المازني، عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري، رضى الله عنه، قال: جاء رجل من اليهود إلى النبي ﷺ قد لطم وجهه، فقال: يا محمد، إن رجلاً من أصحابك من الأنصار لطم في وجهي. قال: «ادعوه». فدعوه، قال: «لم لطمت وجهه؟» قال: يا رسول الله، إنى مررت باليهود فسمعتهم يقول: والذي اصطفى موسى على البشر. قال: قلت: وعلى محمد؟ فأخذتني غصبة ^(٤)، فلطمته، قال: «لا تخيروني من بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور».

وقد رواه البخاري في أماكن كثيرة من صحيحه، ومسلم في أحاديث الأنبياء من صحيحه، وأبو داود في كتاب «السنة» من سننه من طرق، عن عمرو بن يحيى بن عمارة بن أبي الحسن المازني الأنصاري المدني، عن أبيه، عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري، به ^(٥).

وأما حديث أبي هريرة فقال الإمام أحمد في مسنده:

حدثنا أبو كامل، حدثنا إبراهيم بن سعد، حدثنا ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعبد الرحمن الأعرج، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: استب رجلان: رجل من المسلمين، ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمداً على العالمين. وقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فغضب المسلم على اليهودي فلطمه، فأتى اليهودي رسول الله ﷺ، فسأله فأخبره، فدعاه رسول الله ﷺ، فاعترف بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لا تخيروني على موسى؛ فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى ممسكاً بجانب العرش، فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلى، أم كان ممن استثناءه الله، عز وجل». أخرجاه في الصحيحين، من حديث

(١) زيادة من أ.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٣/٩١).

(٣) زيادة من م.

(٤) فى د: «غيفة».

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٦٣٨، ٢٤١٢، ٦٩١٧، ٣٣٩٨، ٧٤٢٧، ٦٥١٨) وصحيح مسلم برقم (٢٣٧٤) وسنن أبى داود برقم (٤٦٦٨).

الزهرى، به^(١).

وقد روى الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا، رحمه الله: أن الذي لطم اليهودى فى هذه القضية هو أبو بكر الصديق، رضى الله عنه^(٢)، ولكن تقدم فى الصحيحين أنه رجل من الأنصار، وهذا هو أصح وأصرح، والله أعلم.

والكلام فى قوله، عليه السلام: «لا تخيرونى على موسى»، كالكلام على قوله: «لا تفضلونى على الأنبياء ولا على يونس بن متى»، قيل: من باب التواضع. وقيل: قبل أن يعلم بذلك. وقيل: نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضب والتعصب. وقيل: على وجه القول بمجرد الرأى والتشهى، والله أعلم.

وقوله: «فإن الناس يصعقون يوم القيامة»، الظاهر أن هذا الصعق يكون فى عرصات القيامة، يحصل أمر يصعقون منه، والله أعلم به. وقد يكون ذلك إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، وتحلى للخلائق الملك الديان، كما صعق موسى من تجلى الرب، عز وجل، ولهذا قال، عليه السلام: «فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور»؟

وقد روى القاضى عياض فى أوائل كتابه «الشفاء» بسنده عن محمد بن محمد بن مرزوق: حدثنا قتادة، حدثنا الحسن، عن قتادة، عن يحيى بن وثاب، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «لما تجلى الله لموسى، عليه السلام، كان يبصر النملة على الصفا فى الليلة الظلماء، مسيرة عشرة فراسخ»^(٣)، ثم قال: «ولا يبعد على هذا أن يختص نبينا بما ذكرناه من هذا الباب، بعد الإسراء والحظوة بما رأى من آيات ربه الكبرى.

انتهى ما قاله، وكأنه صحح هذا الحديث، وفى صحته نظر، ولا يخلو رجال إسناده من مجاهيل لا يعرفون، ومثل هذا إنما يقبل من رواية العدل الضابط عن مثله، حتى ينتهى إلى متناه، والله أعلم.

﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥)﴾.

يذكر تعالى أنه خاطب موسى [عليه السلام]^(٤) بأنه اصطفاه على عالمى زمانه برسالاته وبكلامه^(٥) تعالى، ولا شك أن محمداً ﷺ سيد ولد آدم من الأولين والآخرين؛ ولهذا اختصه الله تعالى بأن

(١) المسند (٢/٢٦٤) وصحيح البخارى برقم (٣٤٠٨، ٢٤١١) وصحيح مسلم برقم (٢٣٧٣).

(٢) قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى (٤٤٣/٦): «وأما كون اللطم فى هذه القصة الصديق فهو مصرح به فيما أخرجه سفيان بن عيينة فى جامعه وابن أبى الدنيا فى «كتاب البعث» من طريقه عن عمرو بن دينار، عن عطاء وابن جعدان، عن سعيد بن المسيب قال: كان بين رجل من أصحاب النبى ﷺ وبين رجل من اليهود كلام فى شىء فقال عمرو بن دينار: هو أبو بكر الصديق».

(٣) الشفا (١/١٦٥).

(٤) فى ك، م: «وكلامه».

(٥) زيادة من أ.

جعله خاتم الأنبياء والمرسلين، التي^(١) تستمر شريعته إلى قيام الساعة، وأتباعه أكثر من أتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم، وبعده في الشرف والفضل إبراهيم الخليل، عليه السلام، ثم موسى [ابن عمران]^(٢) كلیم الرحمن، عليه السلام؛ ولهذا قال تعالى له: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ أى: من الكلام [والوحى]^(٣) والمناجاة ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أى: على ذلك، ولا تطلب ما لا طاقة لك به.

ثم أخبر تعالى أنه كتب له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء، قيل: كانت الألواح من جوهر، وأن الله تعالى كتب له فيها مواعظ وأحكاما مفصلة مبينة للحلال من الحرام، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التى قال الله [تعالى]^(٤) فيها: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ [القصص: ٤٣].

وقيل: الألواح أعطيها موسى قبل التوراة، فالله أعلم. وعلى كل تقدير كانت^(٥) كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومنع منه، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أى: بعزم على الطاعة ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ قال سفيان بن عيينة: حدثنا أبو سعد^(٦)، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أمر موسى - عليه السلام - أن يأخذ بأشد ما أمر قومه.

وقوله: ﴿سَأْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أى: سترون^(٧) عاقبة من خالف أمرى، وخرج عن طاعتي، كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب؟

قال ابن جرير: وإنما قال: ﴿سَأْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾، كما يقول القائل لمن يخاطبه: «سأريك غدا إلام يصير إليه حال من خالف أمرى»، على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره.

ثم نقل معنى ذلك عن مجاهد، والحسن البصرى.

وقيل: معناه ﴿سَأْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أى: من أهل الشام، وأعطيك إياها. وقيل: منازل قوم فرعون، والأول أولى، والله أعلم؛ لأن هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر، وهو خطاب لبنى إسرائيل قبل دخولهم التيه، والله أعلم.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّآةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧)﴾.

يقول تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أى: سأمنع فهم^(٨) الحجج

(١) فى أ: «الذى». (٢) زيادة من م، أ. (٣) زيادة من م. (٤) زيادة من ك، م، أ. (٥) فى م، ك، أ: «فكانت». (٦) فى أ: «أبو سعيد». (٧) فى أ: «أى: ستروا». (٨) فى أ: «منهم».

والأدلة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي، ويتكبرون علي الناس^(١) بغير حق، أى: كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وقال بعض السلف: لا ينال العلم حياً ولا مستكبر.

وقال آخر: من لم يصبر على ذل التعلم ساعة، بقى فى ذل الجهل أبداً.

وقال سفيان بن عيينة فى قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قال: أنزع عنهم فهم القرآن، وأصرفهم عن آياتي.

قال ابن جرير: وهذا يدل على أن هذا خطاب لهذه الأمة^(٢).

قلت: ليس هذا بلازم؛ لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد فى حق كل أمة، ولا فرق بين أحد وأحد فى هذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أى: وإن ظهر لهم سبيل الرشـد، أى: طريق النجاة لا يسلكوها، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلاً.

ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أى: كذبت بها قلوبهم، ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أى: لا يعملون شيئاً مما فيها.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أى: من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات، حبط عمله.

وقوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: إنما نجازيهم بحسب^(٣) أعمالهم التى أسلفوها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وكما تدين تدان.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عَجَلاً جَسَداً لَهُ خُوراً أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (١٤٨) وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩) .

يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بنى إسرائيل فى عبادتهم العجل، الذى اتخذه لهم السامرى من حلى القبط، الذى كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلاً، ثم ألقى فيه القبضة من التراب التى أخذها من أثر فرس جبريل، عليه السلام، فصار عجلاً جسداً له خوار، و«الخوار» صوت البقر.

(١) فى أ: «على الله».

(٢) تفسير الطبرى (١١٣/١٣).

(٣) فى أ: «نجازيهم إلا بحسب».

وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى [عليه السلام] ^(١) لميقات ربه تعالى، وأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور، حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥].

وقد اختلف المفسرون في هذا العجل: هل صار لحما ودما له خوار؟ أو استمر على كونه من ذهب، إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقرة؟ على قولين، والله أعلم.

ويقال: إنهم لما صَوَّتَ لهم العجل رَقَصُوا حوله وافتتنوا به، ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨]، فقال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩].

وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾، ينكر تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل، وذوولهم عن خالق السموات والأرض ورب كل شيء ومليكه، أن عبدوا ^(٢) معه عجلاً جسداً له خوار لا يكلمهم، ولا يرشدهم إلى خير. ولكن غَطَّى على أعين بصائرهم ^(٣) عمى الجهل والضلال، كما تقدم من رواية الإمام أحمد وأبي داود، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «حبك الشيء يُعمى ويُصم» ^(٤).

وقوله: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أى: ندموا على ما فعلوا، ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾، وقرأ بعضهم: «لئن لم ترحمنا» بالتاء المثناة من فوق، «ربنا» منادى، «وتغفر لنا»، «لنكونن من الخاسرين» أى: من الهالكين وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَآخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنُ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعْفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١)﴾.

يخبر تعالى أن موسى، عليه السلام، رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسف.

قال أبو الدرداء «الأسف»: أشد الغضب.

﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ يقول: بئس ما صنعتُم في عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتكم.

وقوله: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾؟ يقول: استعجلتُم مجيئي إليكم، وهو مقدر من الله تعالى.

وقوله: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَآخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ قيل: كانت الألواح من زُورْد. وقيل: من

(٣) فى م: «أبصارهم».

(٢) فى م: «يعبدوا».

(١) زيادة من أ.

(٤) المسند (١٩٤/٥) وسنن أبى داود برقم (٥١٣٠) وقد رواه الإمام أحمد فى مسنده (٤٥٠/٦) موقوفاً، قال الحافظ ابن حجر فى أجوبته عن أحاديث المصاييح: «الموقوف أشبه».

ياقوت. وقيل: من برد وفى هذا دلالة على ما جاء فى الحديث: «ليس الخبر كالمعاينة»^(١).

ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضباً على قومه، وهذا قول جمهور العلماء سلفاً وخلفاً. وروى ابن جرير عن قتادة فى هذا قولاً غريباً، لا يصح إسناده إلى حكاية قتادة، وقد رده ابن عطية وغير واحد من العلماء، وهو جدير بالرد، وكأنه تلقاه قتادة عن بعض أهل الكتاب، وفيهم كذابون ووضّاعون وأفاكون وزنادقة.

وقوله: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ خوفاً أن يكون قد قصر فى نهيهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا . أَلَا تَتَّبِعُنِ أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي . قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٢ - ٩٤]، وقال هاهنا: ﴿إِنَّ أُمَّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعِفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أى: لا تَسْقِنِ مَسَاقِمَهُمْ، ولا تخلطنى معهم. وإنما قال: ﴿إِنَّ أُمَّ﴾؛ لتكون^(٢) أراف وأنجع عنده، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه. فلما تحقق موسى، عليه السلام، براءة ساحة هارون [عليه السلام]^(٣)، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠] فعند ذلك قال موسى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، عن أبى بشر، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: قال النبى ﷺ: «يرحم^(٥) الله موسى، ليس المعاین كالمخبر؛ أخبره ربه، عز وجل، أن قومه فتنوا بعده، فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعانينهم ألقى الألواح»^(٦).

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعَجَلَ سَيُنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٥٣)﴾.

أما الغضب الذى نال بنى إسرائيل فى عبادة العجل، فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة، حتى قتل بعضهم بعضاً، كما تقدم فى سورة البقرة: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلاً وصغاراً^(٧) فى الحياة الدنيا، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ نائلة

(١) رواه أحمد فى مسنده (٢٧١/١) من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة إن الله، عز وجل، أخبر موسى بما صنع قومه فى العجل، فلم يلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت».

(٢) فى ك، م: «ليكون». (٣) زيادة من ك، أ. (٤) فى ك، أ: «رسول الله». (٥) فى م: «رحم».

(٦) ورواه الحاكم فى المستدرک (٣٨٠/٢) من طريق أبى بشر، به. وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» وفى تلخيص الذهبى: «سمعه من أبى بشر ثقتان».

(٧) فى أ: «فأعقبهم ذل وصغار».

لكل من افترى بدعة، فإن ذلَّ البدعة ومخالفة الرسالة^(١)، متصلة من قبله على كتفيه، كما قال الحسن البصري: إن ذل البدعة على أكتافهم، وإن هَمَلَجَتْ بهم البغلات، وطقطقت بهم البراذين.

وهكذا روى أيوب السَّخْتَيَانِي، عن أبي قلابَةَ الجَرْمِي، أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ قال: هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة.

وقال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل.

ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان، حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق؛ ولهذا عقب هذه القصة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَأَمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ﴾ أي: يا محمد، يا رسول الرحمة ونبي النور^(٢)، ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد تلك الفعلة ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا أبان، حدثنا قتادة، عن عَزْرَةَ^(٣)، عن الحسن العُرفِي، عن عَلْقَمَةَ، عن عبد الله بن مسعود؛ أنه سئل عن ذلك - يعني عن الرجل يزني بالمرأة، ثم يتزوجها - فتلا هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَأَمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فتلاها عبد الله عشر مرات، فلم يأمرهم^(٤) بها ولم ينههم عنها.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ (١٥٤).

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ أي: سكن ﴿عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ أي: غضبه على قومه ﴿أَخَذَ الْأَلْوَحَ﴾ أي: التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل، غيرةً لله وغضباً له ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾.

يقول كثير من المفسرين: إنها لما ألقاها تكسرت، ثم جمعها بعد ذلك؛ ولهذا قال بعض السلف: فوجد فيها هدى ورحمة. وأما التفصيل فذهب، وزعموا أن رضاها لم يزل موجوداً في خزائن الملوك لبنى إسرائيل إلى الدولة الإسلامية، والله أعلم بصحة هذا. وأما الدليل القاطع على أنها تكسرت حين ألقاها، وهي من جوهر الجنة^(٥)، فقد^(٦) أخبر [الله]^(٧) تعالى أنه لما أخذها بعد ما ألقاها وجد فيها هدى ورحمة.

﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾: ضمن الرهبة معنى الخضوع؛ ولهذا عداها باللام.

وقال قتادة: في قوله تعالى: ﴿أَخَذَ الْأَلْوَحَ﴾ قال: رب، إني أجد في الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس، يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر، فاجعلهم^(٨) أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون - أي آخرون في الخلق - السابقون^(٩) في دخول الجنة،

(٣) في م: «عروة».

(٦) في ك: «وقد».

(٩) في د، أ: «سابقون».

(٢) في ك، م، أ: «التوبة».

(٥) في أ: «من جوهر من الجنة».

(٨) في د، ك، م، أ: «اجعلهم».

(١) في م: «الرسول».

(٤) في ك، م: «يأمر».

(٧) زيادة من أ.

رب اجعلهم أمتى. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرؤونها - كتابهم - وكان من قبلهم يقرؤون كتابهم نظرا، حتى إذا رفعوها لم يحفظوا [منها]^(١) شيئا، ولم يعرفوه. قال قتادة: وإن الله أعطاكم أيتها الأمة من الحفظ شيئا لم يعطه^(٢) أحدا من الأمم. قال: رب، اجعلهم أمتى. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول، وبالكتاب الآخر، ويقاتلون فصول الضلالة، حتى يقاتلوا^(٣) الأعداء الكذاب، فاجعلهم أمتى. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم، ويؤجرون عليها - وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه، بعث الله عليها نارا فأكلتها، وإن ردت عليه تركت، فتأكلها السباع والطير، وإن الله أخذ صدقاتكم من غنيكم لفقركم^(٤) - قال: رب، اجعلهم أمتى. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة ثم لم يعملها، كتبت له حسنة، فإن عملها، كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة [ضعف]^(٥)، رب اجعلهم أمتى. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بسيئة لم تكتب عليه حتى يعملها، فإذا عملها كتبت عليه سيئة واحدة، فاجعلهم أمتى: قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة هم المستجيون والمستجاب لهم، فاجعلهم أمتى. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة هم المشفعون والمشفوع لهم، فاجعلهم أمتى. قال: تلك أمة أحمد. قال قتادة: فذكر لنا أن نبي الله موسى [عليه السلام]^(٦) نبذ الألواح، وقال: اللهم اجعلني من أمة أحمد^(٧).

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِيَّاي أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَكَتَبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾.

قال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلا، فاختار سبعين رجلا فبرز بهم ليدعوا ربهم، فكان فيما دعوا الله قالوا: اللهم اعطنا ما لم تعطه أحدا قبلنا ولا تعطه أحدا بعدنا فكره الله ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرجفة، قال موسى: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِيَّاي﴾ الآية.

وقال السدّي: إن الله أمر موسى أن يأتيه في ناس من بنى إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موعدا، فاختار موسى قومه سبعين رجلا على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا. فلما أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة، فإنك قد كلمته، فأرناهم. فأخذتهم

(١) زيادة من أ. (٢) في ك، م، أ: «يعط». (٣) في ك، م: «يقاتلون» وهو خطأ.

(٤) في ك: «غنيهم لفقرهم».

(٥) زيادة من أ.

(٦) تفسير الطبري (١٣/١٢٤).

الصاعقة فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رب، ماذا أقول لبني إسرائيل إذا لقيتهم^(١) وقد أهلك خيارهم؟ ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّايَ﴾.

وقال محمد بن إسحاق: اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً، الخيّرَ فالخيّرَ، وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم، وسلّوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهّروا، وطهّروا ثيابكم. فخرج بهم إلى طُور سيناء، لميقات وقته له ربه - وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم - فقال له السبعون - فيما ذكر لي - حين صنعوا ما أمرهم به، وخرجوا معه للقاء ربه، [فقالوا]^(٢) لموسى: اطلب لنا نسمع كلام ربنا. فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه عمودُ الغمام، حتى تَغَشَّى الجبل كله. ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلمه^(٣) الله وقع على جبهة موسى نور ساطع، لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه. فضرب دونه بالحجاب. ودنا القوم، حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سُجُوداً^(٤)، فسمعوه وهو يكلم موسى، يأمره وينهاه: افعل، ولا تفعل. فلما فرغ إليه من أمره، انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم، فقالوا لموسى: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة. فأخذتهم الرجفة - وهى الصاعقة - فافتُلَّتْ^(٥) أرواحهم، فماتوا جميعاً. فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه، ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّايَ﴾ قد سفهوا، أفنهلك من ورائي من بني إسرائيل.

وقال سفيان الثوري: حدثني أبو إسحاق، عن عمارة بن عبد السلولي، عن علي بن أبي طالب، رضى الله عنه، قال: انطلق موسى وهارون وشبر وشبير، فانطلقوا إلى سفح جبل، فنام^(٦) هارون على سرير، فتوفاه الله، عز وجل. فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا له: أين هارون؟ قال: توفاه الله، عز وجل. قالوا [له]^(٧): أنت قتلت، حَسَدْنَا عَلَى خُلُقِهِ وَلِينِهِ - أو كلمة نحوها - قال: فاختاروا من شئتم. قال: فاختاروا سبعين رجلاً. قال: فذلك قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾، فلما انتهوا إليه قالوا: يا هارون، من قتلك؟ قال: ما قتلني أحد، ولكن توفاني الله. قالوا: يا موسى، لن تعصى بعد اليوم. قال: فأخذتهم الرجفة. قال: فجعل موسى، عليه السلام، يرجع يميناً وشمالاً، وقال: يا ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ قال: فأحياهم الله وجعلهم أنبياء كلهم.

هذا أثر غريب جداً، وعمارة بن عبد^(٨) هذا لا أعرفه. وقد رواه شعبة، عن أبي إسحاق عن رجل من بني سلول عن علي، فذكره^(٩).

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جُرَيْج: إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم يزايلوا قومهم في عبادتهم العجل، ولا نهوهم، ويتوجه هذا القول بقول موسى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾.

(١) فى أ: «أتيتهم».

(٢) زيادة من أ.

(٣) فى ك: «كلم».

(٤) فى أ: «فالتقت».

(٥) فى أ: «فقام».

(٦) فى ك: «عبيد».

(٧) زيادة من ك.

(٨) تفسير الطبرى (١٤٢/١٣) وفى إسناده عمارة بن عبد السلولي. قال الذهبى فى ميزان الاعتدال: «عمارة بن عبد، عن علي، مجهول لا يحتج به. قاله أبو حاتم. وقال أحمد: مستقيم الحديث لا يروى عنه غير أبي إسحاق».

وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أى: ابتلاؤك واختبارك وامتحانك. قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وغير واحد من علماء السلف والخلف. ولا معنى له غير ذلك؛ يقول: إن الأمر إلا أمرُك، وإن الحكم إلا لك، فما شئت كان، تفضل من تشاء، وتهدى من تشاء، ولا هادى لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطى لمن منعت، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك، والحكم كله لك، لك الخلق والأمر.

وقوله: ﴿أَنْتَ وَلَيْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾: الغفر هو: الستر، وترك المؤاخذه بالذنب، والرحمة إذا قرنت مع الغفر، يراد بها ألا يوقعه فى مثله فى المستقبل، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ أى: لا يغفر الذنوب إلا أنت، ﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾، هناك الفصل الأول من الدعاء فى دفع المحذور، وهذا لتحصيل المقصود ﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أى: أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة، وقد تقدم [تفسير]^(١) ذلك فى سورة البقرة [الآية: ٢٠١].

﴿إِنَّا هَدَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أى: تبنا ورجعنا وأنبأنا إليك. قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وأبو العالية، والضحاك، وإبراهيم التيمي، والسدي، وقتادة، وغير واحد. وهو كذلك لغة.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبى، عن شريك، عن جابر، عن عبد الله بن نجى^(٢)، عن على [رضى الله عنه]^(٣) قال: إنما سميت اليهود لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا هَدَيْنَا إِلَيْكَ﴾.

جابر - هو ابن يزيد الجعفى - ضعيف.

﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٦).

قال تعالى مجيباً لموسى فى قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ تفضل بها من تشاء وتهدى من تشاء^(٤) الآية: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾^(٥) أى: أفعل ما أشاء، وأحكم ما أريد، ولى الحكمة والعدل فى كل ذلك، سبحانه لا إله إلا هو.

وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾: آية عظيمة الشمول والعموم، كقوله إخباراً عن حملة العرش ومن حوله أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ [غافر: ٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبى، حدثنا الجريرى، عن أبى عبد الله الجشمى، حدثنا جندب - هو ابن عبد الله البجلي، رضى الله عنه - قال: جاء أعرابى فأناخ راحلته ثم عقّلها ثم صلى خلف رسول الله ﷺ. فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عقالها، ثم ركبها، ثم نادى: اللهم، ارحمنى ومحمدًا، ولا تشرك فى رحمتنا أحداً. فقال رسول الله ﷺ: «أنقولون هذا أضل أم بغيره؟ ألم تسمعوا ما قال؟» قالوا: بلى. قال: «لقد حظرت^(٦) رحمة واسعة؛ إن الله، عز

(١) زيادة من ك، م، أ. (٢) فى أ: «يحى».

(٣) زيادة من أ.

(٤) زيادة من م.

(٥) فى د: «حجرت».

(٦) زيادة من ك، م، أ.

وجل، خلق مائة رحمة، فأنزل رحمة واحدة يتعاطف بها الخلق؛ جنّها وإنسها وبهائمها، وآخرَ عنده تسعاً وتسعين^(١) رحمة، أتقولون هو أضل أم بعيره؟».

ورواه أبو داود عن علي بن نصر، عن عبد الصمد بن عبد الوارث، به^(٢).

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا يحيى بن سعيد عن سليمان، عن أبي عثمان، عن النبي ﷺ قال: «إن لله، عز وجل، مائة رحمة، فمنها رحمة يتراحمُ بها الخلق، وبها تعطف الوحوش على أولادها، وآخر تسعاً وتسعين إلى يوم القيامة».

تفرد^(٣) بإخراجه مسلم، فرواه من حديث سُلَيْمان - هو ابن طَرْخان - وداود بن أبي هند كلاهما، عن أبي عثمان - واسمه عبد الرحمن بن مل^(٤) - عن سلمان، هو الفارسي، عن النبي ﷺ، به^(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن عاصم بن بهدلة، عن أبي صالح، عن أبي هريرة؛ أن النبي ﷺ قال: «لله مائة رحمة، عنده تسعة وتسعون، وجعل عندهم واحدة تتراحمون بها بين^(٦) الجن والإنس وبين الخلق، فإذا كان يوم القيامة ضمها إليه». تفرد به أحمد من هذا الوجه^(٧).

وقال أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لله مائة رحمة، فقسم منها جزءاً واحداً بين الخلق، فيه يتراحم الناس والوحش والطير».

ورواه ابن ماجه من حديث أبي معاوية، عن الأعمش، به^(٨).

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا سعد أبو غيلان الشيباني، عن حماد بن أبي سليمان، عن إبراهيم، عن صلة بن زفر، عن حذيفة بن اليمان، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، ليدخلن الجنة الفاجرُ فى دينه، الأحمق فى معيشته. والذى نفسى بيده، ليدخلن الجنة الذى قد مَحَسَتْه النار بذيّبه. والذى نفسى بيده، ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة يتناول لها إبليس رجاء أن تصيبه».

هذا حديث غريب^(٩) جداً، «وسعد» هذا لا أعرفه^(١٠).

وقوله: ﴿فَسَاكُنْهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الآية، يعنى: فسأوجب حُصُولَ رحمتى مِنِّى وإحساناً إليهم، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

(١) فى ك، م: «تسعاً وتسعون»، وفى أ: «تسع وتسعون».

(٢) المسند (٣١٢/٤) وسنن أبى داود برقم (٤٨٨٥).

(٣) فى ك، م، أ: «انفرد».

(٤) فى أ: «بن مثل».

(٥) المسند (٤٣٩/٥) وصحيح مسلم برقم (٢٧٥٣).

(٦) فى ك، أ: «عن النبي»، وفى م: «عن رسول الله».

(٧) فى أ: «من».

(٨) المسند (٥٥/٣).

(٩) المسند (٥٥/٣)، وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٩٤).

(١٠) فى أ: «هذا الأثر».

(١١) المعجم الكبير (١٦٨/٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٢١٦/١٠): «سعيد بن طالب أبو غيلان وثقه أبو زرعة وابن حبان، وفيه ضعف وبقيه رجاله ثقات».

وقوله: ﴿لِلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ أى: سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات، وهم أمة محمد ﷺ الذين يتقون، أى: الشرك والعظم من الذنوب.

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قيل: زكاة النفوس. وقيل: [زكاة] ^(١) الأموال. ويحتمل أن تكون عامة لهما؛ فإن الآية مكية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: يصدقون.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٥٧).

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾: وهذه صفة محمد ﷺ فى كتب الأنبياء بشروا أمهم ببعثه ^(٢)، وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة فى كتبهم يعرفها علماءهم وأخبارهم كما قال الإمام أحمد:

حدثنا إسماعيل، عن الجريري، عن أبى صخر العقيلي، حدثنى رجل من الأعراب، قال: جلبت جَلُوبَةً إلى المدينة فى حياة رسول الله ﷺ، فلما فرغت من بيعتى ^(٣) قلت: لألقين هذا الرجل فلاسمعن منه، قال: فتلقانى بين أبى بكر وعمر يمشون، فتبعتهما فى أقفائهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشراً التوراة يقرؤها، يعزى بها نفسه على ابن له فى الموت كأحسن الفتيان وأجمله، فقال رسول الله ﷺ: «أشذك بالذى أنزل التوراة، هل تجد ^(٤) فى كتابك ذا صفتى ومخرجى؟» فقال برأسه هكذا، أى: لا. فقال ابنه، إى: والذى أنزل التوراة إنا لنجد فى كتابنا صفتك ومخرجك، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت ^(٥) رسول الله فقال: «أقيموا اليهودى عن أخيكم». ثم ولى كفته ^(٦) والصلاة عليه ^(٧).

هذا حديث جيد قوى له شاهد فى الصحيح، عن أنس.

وقال الحاكم صاحب المستدرک: أخبرنا أبو محمد - عبد الله بن إسحاق البغوى، حدثنا إبراهيم ابن الهيثم البلدى ^(٨)، حدثنا عبد العزيز بن مسلم بن إدريس، حدثنا عبد الله بن إدريس، عن شَرْحِبِيل بن مسلم، عن أبى أمامة الباهلى، عن هشام بن العاص الأموى قال: بعثت أنا ورجل آخر إلى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام، فخرجنا حتى قدمنا الغوطة - يعنى غوطة دمشق - فنزلنا على جبلة بن الأيهم الغسانى، فدخلنا عليه، فإذا هو على سرير له، فأرسل إلينا برسول نكلمه، فقلنا: والله لا نكلم رسولا، إنما بعثنا إلى الملك، فإن أذن لنا كلمناه ^(٩)، وإلا لم نكلم

(١) فى د: «بيعى».

(٢) فى ك، م، أ: «بيعته».

(٣) زيادة من أ.

(٤) فى ك، م، أ: «ثم ولى كفته وحنطه».

(٥) فى ك: «وأشهد أنك».

(٦) فى أ: «هل تجدنى».

(٧) المسند (٥/٤١١).

(٨) فى د: «تكلمنا».

(٩) فى أ: «البكرى».

الرسول^(١). فرجع إليه الرسول فأخبره بذلك، قال: فأذن لنا فقال: تكلموا^(٢)، فكلمه هشام بن العاص، ودعاه إلى الإسلام، فإذا عليه ثياب سواد^(٣)، فقال له هشام: وما هذه التي عليك؟ فقال: لبستها وحلفت ألا أنزعها حتى أخرجكم من الشام. قلنا: ومجلسك هذا، والله^(٤) لنأخذنه منك، ولنأخذن ملك الملك الأعظم، إن شاء الله، أخبرنا بذلك نبينا^(٥) ﷺ. قال: لستم بهم، بل هم قوم يصومون بالنهار، ويقومون بالليل، فكيف صومكم؟ فأخبرناه، فملى وجهه سواداً فقال: قوموا. وبعث معنا رسولاً إلى الملك، فخرجنا، حتى إذا كنا قريباً من المدينة، قال لنا الذي معنا: إن دوابكم هذه لا تدخل مدينة الملك، فإن شتم حملناكم على براذين وبغال؟ قلنا: والله لا ندخل إلا عليها، فأرسلوا إلى الملك أنهم يأبون ذلك. فدخلنا على رواحنا متقلدين سيوفنا، حتى انتهينا إلى غرفة^(٦)، فأنخنا في أصلها وهو ينظر إلينا، فقلنا: لا إله إلا الله، والله أكبر فالله يعلم لقد تنفّضت الغرفة حتى صارت كأنها عذق تصفقه الرياح، فأرسل^(٧) إلينا: ليس لكم أن تجهروا علينا بدينكم. وأرسل إلينا: أن ادخلوا فدخلنا عليه وهو على فراش له، وعنده بطارقه من الروم، وكل شيء في مجلسه أحمر، وما حوله حمرة، وعليه ثياب من الحمرة، فدنونا منه فضحك، فقال: ما كان عليكم لو حييتموني بتحيتكم فيما بينكم؟ وإذا عنده رجل فصيح بالعربية، كثير الكلام، فقلنا: إن تحيتنا فيما بيننا لا تحل لك، وتحيتك التي تحيى بها لا تحل^(٨) لنا أن نحيك بها. قال: كيف تحيتكم فيما بينكم؟ قلنا: السلام عليك. قال: وكيف تحيون ملككم؟ قلنا: بها. قال: وكيف يرد عليكم؟ قلنا: بها. قال: فما أعظم كلامكم؟ قلنا: لا إله إلا الله، والله أكبر فلما تكلمنا بها والله يعلم - لقد تنفّضت الغرفة حتى رفع رأسه إليها، قال: فهذه الكلمة التي قلتموها حيث تنفضت الغرفة، كلما قلتموها في بيوتكم تنفضت عليكم غرفكم؟ قلنا: لا، ما رأيناها فعلت هذا قط إلا عندك. قال: لوددت أنكم كلما قلتم تنفض كل شيء عليكم. وأنى خرجت^(٩) من نصف ملكي. قلنا: لم؟ قال: لأنه كان أيسر لشأنها، وأجدر ألا تكون من أمر النبوة، وأنها^(١٠) تكون من حيل الناس. ثم سألنا عما أراد فأخبرناه. ثم قال: كيف صلاتكم وصومكم؟ فأخبرناه، فقال: قوموا فقمنا. فأمر لنا بمنزل حسن ونزل كثير، فأقمنا ثلاثاً.

فأرسل إلينا ليلاً فدخلنا عليه، فاستعاد قولنا، فأعدناه. ثم دعا بشيء كهية الربعة العظيمة مذهبة، فيها بيوت صغار عليها أبواب، ففتح بيتاً وقفلاً، فاستخرج حريرة سوداء، فنشرها، فإذا فيها صورة حمراء، وإذا فيها رجل ضخم العينين. عظيم الألتين، لم أر مثل طول عنقه، وإذا لبست له لحية، وإذا له ضفيران أحسن ما خلق الله. قال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا آدم، عليه السلام، وإذا هو أكثر الناس شعراً.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة سوداء، وإذا فيها صورة بيضاء، وإذا له شعر كشعر القطط، أحمر العينين، ضخمة الهامة، حسن اللحية، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا

(١) في ك: «الرسول». (٢) في ك: «فتكلموا». (٣) في أ: «سود». (٤) في د، ك، م: «فوالله». (٥) في أ: «نبينا محمد». (٦) في أ: «غرفة له». (٧) في د: «قال فأرسل». (٨) في د، م: «لا يحل». (٩) في د: «وأنى قد خرجت». (١٠) في ك، م: «أن».

نوح، عليه السلام.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرج^(١) حريرة سوداء، وإذا فيها رجل شديد البياض، حسن العينين، صَلَّت الجبين، طويل الخد، أبيض اللحية كأنه يتسم، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إبراهيم، عليه السلام.

ثم فتح باباً آخر^(٢)، فإذا فيه صورة بيضاء، وإذا - والله - رسول الله ﷺ، فقال^(٣): أتعرفون هذا؟ قلنا: نعم، محمد رسول الله ﷺ قال: وبكى. قال: والله يعلم أنه قام قائماً ثم جلس، وقال: والله إنه لهو؟ قلنا: نعم، إنه لهو، كأنك تنظر إليه، فأمسك ساعة ينظر إليها، ثم قال: أما إنه كان آخر البيوت، ولكنني عَجَلْتُهُ لَكُمْ لَأَنْظُرَ مَا عِنْدَكُمْ.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة سوداء، فإذا فيها صورة آدماء سحماء^(٤)، وإذا رجل جعد قطط، غائر العينين، حديد النظر، عابس متراكب الأسنان، مقلَّص^(٥) الشفة كأنه غضبان، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا موسى^(٦)، عليه السلام. وإلى جانبه صورة تشبهه، إلا أنه مُدْهَان الرأس، عريض الجبين، في عينيه قبل، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا هارون بن عمران، عليه السلام.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة رجل آدم سَبَط رَبْعَة، كأنه غضبان، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا لوط، عليه السلام.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة رجل أبيض مُشْرَب حُمرة، أقرنى، خفيف العارضين، حسن الوجه، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إسحاق، عليه السلام.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرج^(٧) حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة تشبه إسحاق، إلا أنه على شفته خال، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. [قال]^(٨): هذا يعقوب، عليه السلام.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة سوداء، فيها صورة رجل أبيض، حسن الوجه، أقرنى الأنف، حسن القامة، يعلو وجهه نور، يعرف في وجهه الخشوع، يضرب إلى الحمرة، قال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إسماعيل جد نبيكم، عليهما السلام.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرج^(٩) حريرة بيضاء، فيها صورة كأنها آدم، عليه السلام، كأن وجهه الشمس، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا يوسف، عليه السلام.

ثم فتح باباً آخر فاستخرج^(١٠) حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة رجل أحمر حَمَش الساقين، أخفش العينين، ضخَم البطن، رُبْعَة متقلد سيفاً، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا داود، عليه السلام.

(٣) في د، م: «قال».

(٢) في أ: «آخر فاستخرج منه حريرة سوداء».

(١) في د، ك، أ: «فاستخرج منه».

(٦) في م: «موسى بن عمران».

(٥) في د: «مقلَّص».

(٤) في أ: «جسماء».

(٨) زيادة من أ.

(٧) في د، ك، أ: «فاستخرج منه».

(١٠) في ك، م، أ: «فاستخرج منه».

ثم فتح باباً آخر، فاستخرج^(١) حريرة بيضاء، فيها صورة رجل ضخم الألتين، طويل الرجلين، راكب فرساً، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا سليمان بن داود، عليه^(٢) السلام.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة سوداء، فيها صورة بيضاء، وإذا شاب^(٣) شديد سواد اللحية، كثير الشعر، حسن العينين، حسن الوجه، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا عيسى ابن مريم، عليه السلام.

قلنا: من أين لك هذه الصور؟ لأننا نعلم أنها على ما صورت عليه الأنبياء، عليهم السلام، لأننا رأينا صورة نبينا عليه السلام مثله. فقال: إن آدم، عليه السلام، سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده، فأنزل عليه صورهم، فكان في خزانة آدم، عليه السلام، عند مغرب الشمس، فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس فدفعها إلى دانيال. ثم قال: أما والله إن نفسى طابت بالخروج من ملكى، وإنى كنت عبداً لأشركم ملكه، حتى أموت. ثم أجازنا فأحسن جائزتنا، وسرحنا، فلما أتينا أبا بكر الصديق، رضى الله عنه، فحدثناه بما أرانا، وبما قال لنا، وما أجازنا، قال: فبكى أبو بكر وقال: مسكين! لو أراد الله به خيراً لفعل. ثم قال: أخبرنا رسول الله ﷺ أنهم واليهود يجدون نعت محمد ﷺ عندهم.

هكذا أورده الحافظ الكبير أبو بكر البيهقي، رحمه الله، في كتاب «دلائل النبوة»، عن الحاكم إجازة، فذكره^(٤)، وإسناده لا بأس به.

وقال ابن جرير: حدثنا المثني، حدثنا عثمان بن عُمَر، حدثنا فُلَيْح، عن هلال بن على، عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. قال: أجل والله، إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن: «يأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأمينين، أنت عبدى ورسولى، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله ويفتح به قلوباً غُلُفاً، وآذاناً صمّاً، وأعيناً عمياً» قال عطاء: ثم لقيت كعباً فسألته عن ذلك، فما اختلفا حرفاً، إلا أن كعباً قال بلغته، قال: «قلوباً غُلُوفياً وآذاناً صمومياً وأعيناً عمومياً».

وقد رواه البخارى فى صحيحه، عن محمد بن سنان، عن فُلَيْح، عن هلال بن على - فذكر بإسناده نحوه^(٥)، وزاد بعد قوله: «ليس بفظ ولا غليظ»: «ولا صخاب فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح».

ويقع فى كلام كثير من السلف إطلاق «التوراة» على كتب أهل الكتاب. وقد ورد فى بعض الأحاديث ما يشبه هذا، والله أعلم.

(١) فى ك، م، أ: «فاستخرج منه». (٢) فى أ: «عليهما». (٣) فى د: «وإذا رجل شاب».

(٤) دلائل النبوة (٣٨٥/١).

(٥) تفسير الطبرى (١٦٤/١٣) وصحيح البخارى برقم (٢١٢٥).

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا موسى بن هارون، حدثنا محمد بن إدريس وراق الحميدي^(١)، حدثنا محمد بن عمر بن إبراهيم - من ولد جبير بن مطعم - قال: حدثني أم عثمان بنت سعيد - وهي جدتي - عن أبيها سعيد بن محمد بن جبير، عن أبيه محمد بن جبير، عن أبيه جبير بن مطعم، قال: خرجت تاجراً إلى الشام، فلما كنت بأدنى الشام، لقيني رجل من أهل الكتاب، فقال: هل عندكم رجل نبياً؟ قلت: نعم. قال: هل تعرف صورته إذا رأيته؟ قلت: نعم. فأدخلني بيتاً فيه صور، فلم أر صورة النبي ﷺ، فبينما أنا كذلك إذ دخل رجل منهم علينا، فقال: فيم أنتم؟ فأخبرناه، فذهب بنا إلى منزله، فساعة ما دخلت نظرت إلى صورة النبي ﷺ، وإذا رجل آخذ بعقب النبي ﷺ، قلت: من هذا الرجل القابض على عقبه؟ قال: إنه لم يكن نبى إلا كان بعده نبى إلا هذا النبى، فإنه لا نبى بعده، وهذا الخليفة بعده، وإذا صفة أبى بكر، رضى الله عنه^(٢).

وقال أبو داود: حدثنا حفص بن عمر أبو عمر الضريير^(٣)، حدثنا حماد بن سلمة أن سعيد بن إلياس الجريري أخبرهم، عن عبد الله بن شقيق العقيلي، عن الأقرع مؤذن عمر بن الخطاب قال: بعثني عمر إلى الأسقف، فدعوته، فقال له عمر: هل تجدني في الكتاب؟ قال: نعم. قال: كيف تجدني؟ قال: أجذك قرناً. قال: فرفع عمر الدرة وقال^(٤): قرن مه؟ قال: قرن حديد، أمير شديد. قال: فكيف تجد الذي بعدى؟ قال: أجد خليفة صالحاً، غير أنه يؤثر قرابته قال عمر: يرحم الله عثمان، ثلاثاً. قال: كيف تجد الذي بعده؟ قال: أجد صدأ حديد. قال: فوضع عمر يده على رأسه وقال: يا دفره، يا دفره! قال: يا أمير المؤمنين، إنه خليفة صالح، ولكنه يُستخلف حين يُستخلف والسيف مسلول، والدم مهراق^(٥).

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، هذه صفة الرسول ﷺ^(٦) في الكتب المتقدمة، وهكذا كان^(٧) حاله، عليه الصلاة والسلام، لا يأمر إلا بخير، ولا ينهى إلا عن شر، كما قال عبد الله بن مسعود: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَأْمُرُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرْعها سمعك، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه. ومن أهم ذلك وأعظمه، ما بعثه الله [تعالى]^(٨) به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة من سواه، كما أرسل به جميع الرسل قبله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر - هو العقدي عبد الملك بن عمرو - حدثنا سليمان - هو ابن بلال - عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، عن عبد الملك بن سعيد، عن أبي حميد وأبي أسيد، رضى

(١) في هـ: «محمد بن إدريس بن الحميدي»، وفي بقية النسخ: «محمد بن إدريس بن وراق بن الحميدي» والمثبت من الجرح والتعديل ٢٠٤ / ٢١٣ استفاد من هامش ط. الشعب.

(٢) المعجم الكبير (١٢٥ / ٢) ورواه أيضاً في الأوسط برقم (٣٤٩٦) «مجمع البحرين» وقال: «لا يروى عن جبير إلا بهذا الإسناد، تفرد به محمد بن إدريس». قال الهيثمي في المجمع (٢٣٣ / ٨): «فيه من لم أعرفهم».

(٣) في جميع النسخ: «عمر بن حفص أبو عمر الضريير»، والمثبت من سنن أبي داود.

(٤) في أ: «فقال».

(٥) سنن أبي داود برقم (٤٦٥٦)، «والدفر: النتن».

(٦) في م: «صلوات الله وسلامه عليه». (٧) في ك، م، أ: «كانت». (٨) زيادة من م.

الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب، فأنا أولاكم به. وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم بعيد، فأنا أبعدكم منه»^(١).

هذا [حديث]^(٢) جيد الإسناد، لم يخرج أحد من أصحاب الكتب [الستة]^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي البختري، عن علي، رضى الله عنه، قال: إذا حدثتم عن رسول الله ﷺ حديثا، فظنوا به الذى هو أهدي، والذى هو أهنأ، [والذى هو أنجى]^(٤) والذى هو أتقى^(٥) ^(٦).

ثم رواه عن يحيى بن سعيد، عن مسعر، عن عمرو بن مرة، عن أبي البختري، عن أبي عبد الرحمن، عن علي، رضى الله عنه، قال: إذا حدثتم عن رسول الله ﷺ حديثا، فظنوا به الذى هو أهداه وأهنأه وأتقاه^(٧).

وقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ أى: يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر، والسوائب، والوصائل، والحام، ونحو ذلك، مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم، ويحرم عليهم الخبائث.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: كلحم الخنزير والربا، وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التى حرمها الله تعالى.

وقال بعض العلماء: كل ما أحل الله تعالى، فهو طيب نافع فى البدن والدين، وكل ما حرمه، فهو خبيث ضار فى البدن والدين.

وقد تمسك بهذه الآية الكريمة من يرى التحسين والتقيح العقليين، وأجيب عن ذلك بما لا يتسع هذا الموضع له.

وكذا احتج بها من ذهب من العلماء إلى أن المرجع فى حل المآكل التى لم ينص على تحليلها ولا تحريمها، إلى ما استطابته العرب فى حال رفايتها، وكذا فى جانب التحريم إلى ما استخبطته. وفيه^(٨) كلام طويل أيضا.

وقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أى: إنه جاء بالتيسير والسماحة، كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة». وقال لأمرية معاذ وأبى موسى الأشعرى، لما^(٩) بعثهما إلى اليمن: «بشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، وتطاوعا ولا تختلعا». وقال صاحبه أبو برزة الأسلمى: إني صحبت رسول الله ﷺ وشهدت تيسيره.

(١) المسند من حديث أبى أسيد (٤٩٧/٣) ومن حديث أبى حميد (٤٢٥/٥).

(٢-٤) زيادة من أ.

(٥) فى أ: «أبقى».

(٦) المسند (١٢٢/١).

(٧) المسند (١٣٠/١).

(٨) فى أ: «حين».

(٩) فى م: «وفى ذلك».

وقد كانت الأمم الذين^(١) كانوا قبلنا فى شرائعهم ضيق عليهم، فوسع الله على هذه الأمة أمورها، وسهلها لهم؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسها، ما لم تقل أو تعمل»^(٢). وقال: «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»^(٣)؛ ولهذا قد أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وثبت فى صحيح مسلم أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه: قد فعلت، قد فعلت^(٤).

وقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ أى: عظموه ووقروه، ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ أى: القرآن والوحى الذى جاء به مبلغاً إلى الناس، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥٨).

يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، وهذا خطاب للأحمر والأسود، والعربى والعجمى، ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أى: جميعكم، وهذا من شرفه وعظمته أنه خاتم النبيين، وأنه مبعوث إلى الناس كافة، كما قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ [آل عمران: ٢٠]، والآيات فى هذا كثيرة، كما أن الأحاديث فى هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه، صلوات الله وسلامه عليه، رسول الله إلى الناس كلهم.

قال البخارى، رحمه الله، فى تفسير هذه الآية: حدثنا عبد الله، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن وموسى بن هارون قالوا: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عبد الله بن العلاء بن زبیر^(٥)، حدثنى بسر^(٦) ابن عبيد الله، حدثنى أبو إدريس الخولانى قال: سمعت أبا الدرداء، رضى الله عنه، يقول: كانت بين أبى بكر وعمر، رضى الله عنهما، محاورة، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عمر عنه مغضباً، فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل حتى أغلق بابه فى وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال أبو الدرداء: ونحن عنده - فقال^(٧) رسول الله ﷺ: «أما صاحبكم هذا فقد غامر» - أى:

(١) فى ك: «النبي».

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٢٦٩) ومسلم فى صحيحه برقم (١٢٧) من حديث أبى هريرة.

(٣) رواه ابن ماجة فى السنن برقم (٢٠٤٥) من حديث أبى ذر، رضى الله عنه، وقد سبق تخريجه وذكر شواهد.

(٤) صحيح مسلم برقم (١٢٦) من حديث ابن عباس، رضى الله عنه.

(٥) فى أ: «زيد».

(٦) فى أ: «بشر».

(٧) فى ك، م، أ: «قال».

غاضب وحاقد - قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ، وقص على رسول الله ﷺ الخبر - قال أبو الدرداء: وغضب رسول الله ﷺ وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لأننا كنت أظلم، فقال رسول الله ﷺ: «هل أنتم تاركو لى صاحبي؟ إني قلت: يا أيها الناس، إني رسول الله إليكم جميعاً، فقلت: كذبت. وقال أبو بكر: صدقت». انفرد به البخاري^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا يزيد بن أبي زياد، عن مقسم، عن ابن عباس [رضى الله عنه]^(٢)، أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي - ولا أقوله فخراً: بعثت إلى الناس كافة: الأحمر والأسود، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، وأعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتي، فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً»^(٣). إسناده جيد، ولم يخرجوه.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا بكر بن مضر، عن ابن الهاد، عن عمرو ابن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك، قام من الليل يصلى، فاجتمع وراءه رجال من أصحابه^(٤) يحرسونه، حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم: «لقد أعطيت الليلة خمساً ما أعطين أحد قبلي، أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة»^(٥)، وكان من قبلي إنما يرسل إلى قومه، ونصرت على العدو بالرعب، ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر للمئى منى رعباً، وأحلت لى الغنائم أكلها»^(٦)، وكان من قبلي يعظمون أكلها، كانوا يحرقونها، وجعلت لى الأرض مساجد»^(٧) وطهوراً، أينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت، وكان من قبلي يعظمون ذلك، إنما كانوا يصلون فى بيعهم وكنائسهم، والخامسة هى ما هى، قيل لى: سل؛ فإن كل نبي قد سأل. فأخرت مسألتى إلى يوم القيامة، فهي لكم ولن شهد أن لا إله إلا الله»^(٨). إسناده جيد قوى أيضاً ولم يخرجوه.

وقال أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن أبي موسى الأشعري، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ^(٩) قال: «من سمع بى من أمتى أو يهودى أو نصرانى، فلم يؤمن بى، لم يدخل الجنة»^(١٠).

وهذا الحديث فى صحيح مسلم من وجه آخر، عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، لا يسمع بى رجل»^(١١) من هذه الأمة: يهودى ولا نصرانى، ثم لا يؤمن»^(١٢) بى إلا دخل النار»^(١٤).

(١) صحيح البخارى برقم (٤٦٤٠).

(٢) زيادة من أ.

(٣) المسند (٣٠١/١) قال الهيثمى فى المجمع (٢٥٨/٨): «رجال أحمد رجال الصحيح غير يزيد بن أبي زياد وهو حسن الحديث».

(٤) فى أ: «من الأنصار». (٥) فى ك: «كافة».

(٦) فى أ: «كلها».

(٧) فى ك: «مسجداً».

(٨) المسند (٢٢٢/٢).

(٩) فى م: «عن النبي».

(١٠) المسند (٤٩٦/٤).

(١١) فى م: «أحد». (١٢) فى م: «أو».

(١٣) فى م: «ثم يموت ولا يؤمن».

(١٤) هذا لفظ حديث أبي هريرة وقد رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٥٣) وحديث أبي موسى الأشعري بهذا اللفظ رواه النسائي فى السنن الكبرى برقم (١١٢٤١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو يونس - وهو سليم بن جبير - عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ (١)، أنه قال: «والذى نفسى بيده، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة: يهودى أو نصرانى، ثم يموت ولا يؤمن بالذى أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار». تفرد به أحمد (٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي بردة، عن أبي موسى، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا: بعثت إلى الأحمر والأسود، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لى الغنائم ولم تحل (٣) لمن كان قبلى، ونصرت بالرعب شهراً (٤)، وأعطيت الشفاعة - وليس من نبى إلا وقد سأل الشفاعة، وإنى قد اختبأت شفاعتى، ثم جعلتها لمن مات من أمتى لم يشرك بالله شيئاً» (٥).

وهذا أيضاً إسناد صحيح، ولم أرهم خرجوه، والله أعلم، وهذا الحديث ثابت فى الصحيحين أيضاً، من حديث (٦) جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، فأما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لى الغنائم، ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى ﷺ» (٧) يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة» (٨).

وقوله: ﴿الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ﴾ صفة الله تعالى، فى قوله (٩): ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ أى: الذى أرسلنى هو خالق كل شىء وربى ومليكه، الذى بيده الملك والإحياء والإماتة، وله الحكم.

وقوله: ﴿فَأَمْنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الْأُمِّىِّ﴾: أخبرهم أنه رسول الله إليهم، ثم أمرهم باتباعه والإيمان به، ﴿النَّبِىِّ الْأُمِّىِّ﴾ أى: الذى وعدتم به وبشرتم به فى الكتب المتقدمة، فإنه منعوت بذلك فى كتبهم؛ ولهذا قال: ﴿النَّبِىِّ الْأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ أى: يصدق قوله عمله، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾ أى: اسلكوا طريقه واقتفوا أثره، ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أى: إلى الصراط المستقيم.

﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٥٩).

يقول تعالى مخبراً عن بنى إسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به، كما قال تعالى: ﴿مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ

(١) فى ك: «عن النبى».

(٢) المسند (٢/ ٣٥٠).

(٣) فى أ: «ولم تحل لأحد».

(٤) فى ك: «مسيرة شهر».

(٥) المسند (٤١٦/٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٢٥٨/٨): «رجاله رجال الصحيح».

(٦) فى ك، م، أ: «رواية».

(٨) صحيح البخارى برقم (٣٣٥) وصحيح مسلم برقم (٥٢١).

(٩) فى ك: «قول».

آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ .
أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا [وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ] ^(١) ﴿١٦١﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٤]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا . وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ بَيْنَهُمْ خُشوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩] .

وقد ذكر ابن جرير في تفسيرها خبراً عجيباً، فقال: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا حجاج، عن ابن جريج قوله: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُوسَىٰ أُمَّهُ يَهُدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ قال: بلغني أن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم، وكفروا - وكانوا اثني عشر سبطاً - تبرأ سبط منهم مما صنعوا، واعتذروا، وسألوا الله، عز وجل، أن يفرق بينهم وبينهم، ففتح الله لهم نفقا في الأرض، فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين، فهم هنالك حنفاء مسلمين يستقبلون قبلتنا. قال ابن جريج: قال ابن عباس: فذلك قوله: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤]، و«وعد الآخرة»: عيسى ابن مريم ^(٢) - قال ابن جريج: قال ابن عباس: ساروا في السرب سنة ونصفاً.

وقال ابن عيينة، عن صدقة أبي الهذيل، عن السدي: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُوسَىٰ أُمَّهُ يَهُدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ قال: قوم بينكم وبينهم نهر من شهد ^(٣) .

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّٰ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢)﴾ .

تقدم تفسير هذا كله في سورة «البقرة»، وهي مدنية، وهذا السياق مكي، ونبهننا على الفرق بين هذا السياق وذاك بما أغنى عن إعادته، والله الحمد والمنة ^(٤) .

﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣)﴾ .

(١) زيادة من م، وفي هـ: «الآية».

(٢) تفسير الطبري (١٧٣/١٣).

(٣) في أ: «سهل».

(٤) سورة البقرة الآية: ٦٠.

هذا السياق هو بسط لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، يقول [الله] (١) تعالى، لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ﴾ أى: واسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم فى المخالفة، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التى يجدونها فى كتبهم؛ لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم. وهذه القرية هى «أيلة»، وهى على شاطئ بحر القلزم.

قال محمد بن إسحاق: عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قال: هى قرية يقال لها «أيلة» بين مدين والطور. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وقتادة، والسدى.

وقال عبد الله بن كثير القارئ، سمعنا أنها أيلة. وقيل: هى مدين، وهو رواية عن ابن عباس وقال ابن زيد: هى قرية يقال لها. «مقنا» بين مدين وعيدونى.

وقوله: ﴿إِذْ يَعِدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ أى: يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة به إذ ذاك. ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس: أى ظاهرة على الماء.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿شُرْعًا﴾: من كل مكان.

قال ابن جرير: وقوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾ أى: نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء فى اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائه (٢) عنهم فى اليوم المحلل لهم صيده ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾: نختبرهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يقول: بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها.

وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله، بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التى معناها فى الباطن تعاطى الحرام.

وقد قال الفقيه الإمام أبو عبد الله بن بطة، رحمه الله: حدثنا أحمد بن محمد بن مسلم، حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفرانى، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تتركبوا ما ارتكبت (٣) اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل» (٤).

وهذا إسناد جيد، فإن أحمد بن محمد بن مسلم هذا (٥) ذكره الخطيب فى تاريخه (٦) ووثقه، وباقى رجاله مشهورون ثقات، ويصحح الترمذى بمثل هذا الإسناد كثيراً.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ

(١) زيادة من م.

(٢) فى ك، م، أ: «إخفائهم».

(٣) فى أ: «ارتكبت».

(٤) جزء فى الخلع وإبطال الحيل لابن بطة (٤٢).

(٥) فى م: «هكذا».

(٦) فى تاريخ بغداد (٩٨/٥، ٩٩) أحمد بن محمد بن مسلم البغدادى ولكن لم يتكلم عليه الخطيب ولم يوثق.

إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦) ﴿١﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة^(١) ارتكبت المحذور، واحتالوا على اصطیاد السمك يوم السبت، كما تقدم بيانه في سورة البقرة. وفرقة نهت عن ذلك، [وأنكرت]^(٢) واعتزلتهم. وفرقة سكنت فلم تفعل ولم تنه، ولكنها قالت للمنكرة: ﴿لَمْ تَعْظُون قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾؟ أى: لم تنهون هؤلاء، وقد علمتم أنهم هلكوا واستحقوا العقوبة من الله؟ فلا فائدة في نهيكهم إياهم. قالت لهم المنكرة: ﴿مُعَذِّرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾. قرأ بعضهم بالرفع، كأنه على تقديره: هذا معذرة وقرأ آخرون بالنصب، أى: نفعل ذلك ﴿مُعَذِّرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أى: فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يقولون: ولعل بهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه، ويرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أى: فلما أبى الفاعلون المنكر قبول النصيحة، ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى: ارتكبوا المعصية ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾، فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكتين؛ لأن الجزء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحا فيمدحوا، ولا ارتكبوا عظيما فيذموا، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم: هل كانوا من الهالكين أو من الناجين؟ على قولين:

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [قال:]^(٣) هى قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة، يقال لها: «أيلة»، فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم، وكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعاً فى ساحل البحر، فإذا مضى يوم السبت لم يقدروا عليها. فمضى على ذلك ما شاء الله، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم، فنهتهم طائفة وقالوا: تأخذونها وقد حرمها الله عليكم يوم سبتكم؟ فلم يزدادوا إلا غياً وعتوا، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم، فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النهاء: تعلمون أن هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب، ﴿لَمْ تَعْظُون قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾^(٤)، وكانوا أشد غضبا لله من الطائفة الأخرى؟ فقالوا: ﴿مُعَذِّرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، وكل قد كانوا ينهون، فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا: ﴿لَمْ تَعْظُون قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، والذين قالوا: ﴿مُعَذِّرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان، فجعلهم قردة.

وروى العوفى، عن ابن عباس قريباً من هذا.

وقال حماد بن زيد، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿لَمْ تَعْظُون قَوْمًا اللَّهُ

(١) زيادة من ك، م، أ. (٢) زيادة من ك، م، أ.

(٣) زيادة من ك، م، أ.

(٤) فى ك، م، أ: «فرقة».

مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا» قال: ما أدري أنجا الذين قالوا: «أتعظون قوما الله مهلكهم»، أم لا؟ قال: فلم أزل به حتى عرفته أنهم نجوا، فكساني حلة.

قال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج، حدثني رجل، عن عكرمة قال: جئت ابن عباس يوما وهو يبكي، وإذا^(١) المصحف في حجره، فأعظمت أن أدنو، ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست، فقلت: ما يبكيك يا أبا عباس، جعلني الله فداك؟ قال: فقال: هؤلاء الورقات. قال: وإذا هو في «سورة الأعراف»، قال: تعرف^(٢) آيلة قلت: نعم. قال: فإنه كان بها حى من يهود سيقت الحيتان إليهم يوم السبت، ثم غاصت لا يقدرון عليها حتى يغوصوا بعد كد ومؤنة شديدة، كانت تأتيهم يوم السبت شرعا بيضا سمانا كأنها الماخض، تنبطح^(٣) ظهورها لبطونها بأفنيتهن. فكانوا كذلك برهة من الدهر، ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال: إنما نهيتم عن أكلها يوم السبت، فخذوها فيه، وكلوها في غيره من الأيام. فقالت ذلك طائفة منهم، وقالت طائفة: بل نهيتم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت. فكانوا كذلك، حتى جاءت الجمعة المقبلة، فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها، واعتزلت طائفة ذات اليمين، وتنحت واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت. وقال الأيمنون: ويلكم، الله، الله، الله ننهاكم أن^(٤) تتعرضوا لعقوبة الله. وقال الأيسرون: «لَمْ تَعْظُون قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا؟» قال الأيمنون: «مَعَذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ»، إن ينتهوا فهو أحب إلينا ألا يصابوا ولا يهلكوا، وإن لم ينتهوا فمعذرة إلى ربكم. فمضوا على الخطيئة، وقال الأيمنون: فقد^(٥) فعلتم، يا أعداء الله. والله لا نبايتكم^(٦) الليلة في مدينتكم، والله ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب. فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا، فلم يجابوا، فوضعوا سلما، وأعلوا سور المدينة رجلا، فالتفت إليهم فقال: أى عباد الله، قرده والله تعاوى لها أذنب. قال: ففتحوا فدخلوا عليهم، فعرفت القروء أنسابها^(٧) من الإنس، ولا تعرف الإنس أنسابها من القرده، فجعلت القروء يأتيها نسيها^(٨) من الإنس فتشم ثيابه وتبكي، فتقول: ألم ننهكم عن كذا؟ فتقول برأسها، أى نعم. ثم قرأ^(٩) ابن عباس: «فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابٍ بَئِيسٍ» قال: فأرى الذين نهوا قد نجوا، ولا أرى الآخرين ذكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها؟ قال: قلت: جعلني الله فداك، ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه، وخالفوهم وقالوا: «لَمْ تَعْظُون قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ؟» قال: فأمر لى فكسيت ثوبين غليظين^(١٠).

وكذا روى مجاهد، عنه.

وقال ابن جرير: حدثنا يونس، أخبرنا أشهب بن عبد العزيز، عن مالك، قال: زعم ابن رومان

(٣) فى م: «حتى تنبطح»

(٦) فى م: «لناتينكم».

(٩) فى أ: «ثم فسر».

(٢) فى أ: «قال: هل تعرف».

(٥) فى أ: «قد».

(٨) فى أ: «تات نسيها».

(١) فى أ: «إن».

(٤) فى أ: «الله، الله ينهاكم عن ذلك ولا».

(٧) فى م: «أنسابهم».

(١٠) تفسير عبد الرزاق (٢٢٦/١).

أن قوله تعالى : ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ قال : كانت تأتيتهم يوم السبت ، فإذا كان المساء ذهب ، فلا يرى منها شيء إلى يوم السبت الآخر ، فاتخذ - لذلك - رجل خيطاً ووتدأ ، فربط حوتا منها فى الماء يوم السبت ، حتى إذا أمسوا ليلة الأحد ، أخذه فاشتواه ، فوجد الناس ريحه ، فأتوه فسألوه عن ذلك ، فجددهم ، فلم يزالوا به حتى قال لهم : « فإنه جلد حوت وجدناه » . فلما كان السبت ^(١) الآخر فعل مثل ذلك - ولا أدري لعله قال : ربط حوتين - فلما أمسى من ليلة الأحد أخذه فاشتواه ، فوجدوا رائحة ، فجاؤوا ^(٢) فسألوه ^(٣) ، فقال لهم : لو شئتم صنعت كما أصنع . فقالوا له : وما صنعت ؟ فأخبرهم ، ففعلوا مثل ما فعل ، حتى كثر ذلك . وكانت لهم مدينة لها ربض يغلقونها عليهم ، فأصابهم من المسخ ما أصابهم . فعدوا ^(٤) عليهم جيرانهم مما كانوا ^(٥) حولهم ، يطلبون منهم ما يطلب الناس ، فوجدوا المدينة مغلقة عليهم ، فنادوا فلم يجيبوهم ، فتسوروا عليهم ، فإذا هم قردة ، فجعل القرد يدنو يتمسح بمن كان يعرف قبل ذلك ، ويدنو منه ويتمسح به ^(٦) .

وقد قدمنا فى سورة «البقرة» ^(٧) من الآثار فى خبر هذه القرية ما فيه مقنع وكفاية ، والله الحمد والمنة .

القول الثانى : أن الساكتين كانوا من الهالكين .

قال محمد بن إسحاق ، عن داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ؛ أنه قال : ابتدعوا السبت فابتلوا فيه ، فحرمت عليهم فيه الحيتان ، فكانوا إذا كان يوم السبت ، شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها فى البحر . فإذا انقضى السبت ، ذهب فلم تر حتى السبت المقبل ، فإذا جاء السبت جاءت شرعا ، فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا كذلك ، ثم إن رجلاً منهم أخذ حوتاً فحزم أنفه ثم ، ضرب له وتدأ فى الساحل ، وربطه وتركه فى الماء . فلما كان الغد ، أخذه فشواه فأكله ، ففعل ذلك وهم ينظرون ولا ينكرون ، ولا ينهاهم أحد ، إلا عصبه منهم نهوه ، حتى ظهر ذلك فى الأسواق ، ففعل علانية . قال : فقالت طائفة للذين ينهونهم : ﴿لَمْ تَعْظُون قَوْمَ اللَّهِ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُم﴾ ، فقالوا : سخط أعمالهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ . فلما نسوا ما ذكروا به ﴿إلى قوله : ﴿قُرْدَةً خَاسِئِينَ﴾ ، قال ابن عباس : كانوا أثلاثاً : ثلث نهوا ، وثلث قالوا : ﴿لَمْ تَعْظُون قَوْمَ اللَّهِ مُهْلِكُهُمْ﴾ ، وثلث أصحاب الخطيئة ، فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم .

وهذا إسناد جيد عن ابن عباس ، ولكن رجوعه إلى قول عكرمة فى نجاة الساكتين ، أولى من القول بهذا ؛ لأنه تبين حالهم بعد ذلك ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ : فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا .

و ﴿بَئِيسٍ﴾ فيه قراءات كثيرة ، ومعناه فى قول مجاهد : «الشديد» ، وفى رواية : «أليم» . وقال قتادة : موجه . والكل متقارب ، والله أعلم .

(١) فى م : «فلما كان يوم السبت» . (٢) فى م : «فأتوه» . (٣) فى م : «فسألوه عن ذلك فجددهم»

(٤) فى م : «فعدوا» . (٥) فى ك ، م : «من كان» .

(٦) تفسير الطبرى (١٣/١٩٣) .

(٧) سورة البقرة الآية : ٦٠ .

وقوله: ﴿خَاسِئِينَ﴾ أى: ذليلين حقيرين مهانين.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٦٧).

﴿تَأَذَّنَ﴾: تَفَعَّلَ من الإذن أى: أعلم، قاله مجاهد. وقال غيره: أمر.

وفى قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا تُلْقِيَتْ باللام فى قوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أى: على اليهود ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أى: بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه واحتيالهم على المحارم.

ويقال: إن موسى، عليه السلام، ضرب عليهم الخراج سبع سنين - وقيل: ثلاث عشرة سنة، وكان أول من ضرب الخراج. ثم كانوا فى قهر الملوك من اليونانيين والكشديانيين والكلدانيين، ثم صاروا فى^(١) قهر النصارى وإذلالهم وإيأهم، أخذهم منهم الجزى والخراج، ثم جاء الإسلام، ومحمد، عليه أفضل الصلاة والسلام، فكانوا تحت صفاره وذمته يؤدون الخراج والجزى^(٢).

قال العوفى، عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية قال: هى المسكنة، وأخذ الجزية منهم.

وقال على بن أبى طلحة، عنه: هى الجزية، والذين يسومونهم سوء العذاب: محمد رسول الله ﷺ وأمته، إلى يوم القيامة.

وكذا قال سعيد بن جبير، وابن جريج، والسدى، وقتادة.

وقال عبد الرزاق: عن معمر، عن عبد الكريم الجزرى، عن سعيد بن المسيب قال: يستحب أن تبعث الأنباط فى الجزية.

قلت: ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصار الدجال، فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم، عليه السلام، وذلك آخر الزمان.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ أى: لمن عصاه وخالف [أمره و]^(٣) شرعه، ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى: لمن تاب إليه وأناب.

وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة، لئلا يحصل اليأس، فيقرن [الله]^(٤) تعالى بين الترغيب والترهيب كثيرا؛ لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٦٨) فخلّف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا

(١) فى ك، م، أ: «إلى».

(٢) فى م: «الجزية».

(٣) زيادة من أ.

(٤) زيادة من م.

يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾
وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ .

يذكر تعالى أنه فرقهم في الأرض أمما، أى: طوائف وفرقا، كما قال [تعالى] ^(١): ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤].

﴿مَنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمَنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ أى: فيهم الصالح وغير ذلك، كما قالت الجن: ﴿وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا﴾ [الجن: ١١]، ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ﴾ أى: اختبارناهم ﴿بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أى: بالرخاء والشدة، والرغبة والرغبة، والعافية والبلاء، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ .

ثم قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ الَّذِي أَخَذُوهُ﴾، يقول تعالى: فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح، خلف آخر لا خير فيهم، وقد ورثوا دراسة [هذا] ^(٢) الكتاب وهو التوراة - وقال مجاهد: هم النصارى - وقد يكون أعم من ذلك، ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ أى: يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا، ويسوفون أنفسهم ويعدونها بالتوبة، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ الَّذِي أَخَذُوهُ﴾ كما قال سعيد بن جبير: يعملون الذنب، ثم يستغفرون الله منه، فإن عَرَضَ ذلك الذنب أخذوه.

وقول مجاهد فى قوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ قال: لا يشرف لهم شىء من الدنيا إلا أخذوه، حلالا كان أو حراما، ويتمنون المغفرة، ويقولون: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ وإن وجدوا عَرَضاً مثله يأخذوه.

وقال قتادة فى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾: أى والله، خلف سوء، ورثوا الكتاب بعد أنبيائهم ورسلم، ورثهم الله وعهد إليهم، وقال الله فى آية أخرى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ [مريم: ٥٩]، قال: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾، تمنوا على الله أمانى، وغرة يغترون بها، ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ الَّذِي أَخَذُوهُ﴾ لا يشغلهم شىء عن شىء، ولا ينهائهم شىء عن ذلك، كلما هف لهم شىء من [أمر] ^(٣) الدنيا أكلوه، ولا يبالون حلالا كان أو حراما.

وقال السدّي [فى] ^(٤) قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ قال: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضيا إلا ارتشى فى الحكم، وإن خيارهم اجتمعوا، فأخذ بعضهم على بعض العهود ألا يفعلوا ولا يرتشى، فجعل الرجل منهم إذا استقضى ارتشى، فيقال له: ما شأنك ترتشى فى الحكم، فيقول: «سيغفر لى»، فيطعن عليه البقية الآخرون من بنى إسرائيل فيما صنع، فإذا مات، أو نزع، وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه، فيرتشى. يقول: وإن يأت الآخرين عرض الدنيا يأخذوه.

(١) زيادة من أ.

(٢) زيادة من م.

(٣) زيادة من م.

(٤) زيادة من أ.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ يقول تعالى منكرًا عليهم في صنيعهم هذا، مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليبين الحق للناس، ولا يكتُمونه كقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وقال ابن جرير: قال ابن عباس: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ قال: فيما يوجبون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها، ولا يتوبون منها. وقوله تعالى: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: يرغبهم تعالى في جزيل ثوابه، ويحذرهم من وبيل عقابه، أى: وثوابى وما عندى خير لمن اتقى المحارم، وترك هوى نفسه، وأقبل على طاعة ربه.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يقول: أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندى عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير؟ ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذى يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ، كما هو مكتوب فيه، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ أى: اعتصموا به واقتدوا بأوامره، وتركوا زواجه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧١).

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ يقول: رفعناه، وهو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٤].

وقال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، رفعته الملائكة فوق رؤوسهم.

وقال القاسم بن أبى أيوب، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: ثم سار بهم موسى، عليه السلام، متوجها نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالذى أمره^(١) الله تعالى [به]^(٢) - أن يبلغهم من الوظائف، فثقلت عليهم، وأبوا أن يقربوها حتى ينتق^(٣) الله الجبل فوقهم كأنه ظلة، قال: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم. رواه النسائي بطوله^(٤).

وقال سنيد بن داود فى تفسيره، عن حجاج بن محمد، عن أبى بكر بن عبد الله قال: هذا كتاب، أتقبلونه بما فيه، فإن فيه بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم، وما أمركم وما نهاكم؟ قالوا: انشر علينا ما فيها، فإن كانت فرائضها يسيرة، وحدودها خفيفة قبلناها. قال: اقبلوها بما فيها. قالوا: لا، حتى نعلم ما فيها، كيف حدودها وفرائضها؟ فراجعوا موسى مرارا، فأوحى الله إلى الجبل فانقلع فارتفع فى السماء، حتى إذا كان بين رؤوسهم وبين السماء قال لهم موسى: ألا ترون ما يقول ربى،

(١) فى م: «أمر». (٢) زيادة من أ. (٣) فى د، ك، م: «نتق».

(٤) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٣٢٦) وهو حديث الفنون وسياى إن شاء الله فى سورة طه.

عز وجل؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها، لأرمنيكم بهذا الجبل. قال: فحدثني الحسن البصري قال: لما نظروا إلى الجبل خر كل رجل ساجداً على حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل، فرقاً من أن يسقط [عليه]^(١)، فكَذَلِكَ لَيْسَ الْيَوْمَ فِي الْأَرْضِ يَهُودِي يَسْجُدُ إِلَّا عَلَى حَاجِبِهِ الْأَيْسَرِ، يَقُولُونَ: هَذِهِ السَّجْدَةُ الَّتِي رَفَعْتَ بِهَا الْعُقُوبَةَ. قال أبو بكر: فلما نشر الألواح فيها كتاب الله كتبه بيده، لم يبق على وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز، فليس اليوم يهودى على وجه الأرض صغير، ولا كبير، تقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونفض لها رأسه. [أى: حرك كما قال تعالى: ﴿فَسَيَنْفِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥١] أى يحركونها]^(٢).

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)﴾.

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكنهم، وأنه لا إله إلا هو. كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وفي الصحيحين عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة - وفى رواية: على هذه الملة - فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء» وفى صحيح مسلم، عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله [تعالى]^(٣): إني خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم^(٤) الشياطين فاجتالتهم، عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم»^(٥).

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرنى السرى بن يحيى: أن الحسن بن أبى الحسن حدثهم، عن الأسود بن سريع من بنى سعد، قال: غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات، قال: فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فاشتد عليه، ثم قال: «ما بال أقوام يتناولون الذرية؟» قال رجل: يا رسول الله، أليسوا أبناء المشركين؟ فقال: «إن خياركم أبناء المشركين! ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها، فأبواها يهودانها أو^(٦) ينصرانها». قال الحسن: والله لقد قال الله فى كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الآية^(٧)].^(٨)

(١) زيادة من ك، أ. (٢، ٣) زيادة من ك، م. (٤) فى م: «فجاءت».

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥)، وسبق تخريجه هو والذى قبله عند الآية: ٣٠.

(٦) فى م: «و». (٧) زيادة من أ.

(٨) تفسير الطبرى (١٣/٣٢١).

وقد رواه الإمام أحمد، عن إسماعيل بن علية، عن يونس بن عبيد، عن الحسن البصري^(١)، به. وأخرجه النسائي في سننه من حديث هُشَيْم، عن يونس بن عبيد، عن الحسن قال: حدثنا الأسود ابن سَرِيع، فذكره، ولم يذكر قول الحسن البصري واستحضاره الآية عند ذلك^(٢).

وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم، عليه السلام، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين و[إلى]^(٣) أصحاب الشمال، وفي بعضها^(٤) الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا حَجَّاج، حدثنا شُعْبَة، عن أبي عمران الجَوْنِي، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به؟» قال: «فيقول: نعم. فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم^(٥) ألا تشرك بى شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بى».

أخرجاه في الصحيحين، من حديث شعبة، به^(٦).

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا جرير - يعني ابن حازم - عن كلثوم بن جابر^(٧)، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس [رضى الله عنهما]^(٨)، عن النبي ﷺ قال: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم، عليه السلام، بنعمان. يعني^(٩): عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنترها بين يديه، ثم كلمهم قبلاً، قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾».

وقد روى هذا الحديث النسائي في كتاب التفسير من سننه، عن محمد بن عبد الرحيم - صاعقة - عن حسين بن محمد المروزي، به. ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث حسين بن محمد^(١٠)، به. إلا أن ابن أبي حاتم جعله موقوفاً. وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث حسين بن محمد وغيره، عن جرير بن حازم، عن كلثوم بن جبر، به. وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبيرة^(١١) (١٢). هكذا قال، وقد رواه عبد الوارث، عن كلثوم بن جبر^(١٣)، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، فوقفه^(١٤). وكذا رواه إسماعيل بن علية ووكيع، عن ربيعة بن كلثوم، عن جبيرة، عن أبيه، به^(١٥). وكذا رواه عطاء بن السائب، وحبيب بن أبي ثابت، وعلى بن بَدِيْعَة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس^(١٦)، قوله، وكذا رواه العوفي وعلى بن أبي طلحة عن ابن

(١) المسند (٣/٤٣٥).

(٢) سنن النسائي الكبرى برقم (٨٦١٦).

(٣) زيادة من ك، م، أ.

(٤) المسند (٣/١٢٧) وصحيح البخاري برقم (٣٣٣٤) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٥).

(٥) في ك، م، أ: «جبر». (٨) زيادة من أ.

(٩) في ك، م، أ: «يوم».

(١٠) المسند (١/٢٧٢) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١١٩١) وتفسير الطبري (١٣/٢٢٢) وقال النسائي: «كلثوم هذا ليس بالقوى، وحديثه ليس بالمحفوظ».

(١١) في ك، م: «جبر».

(١٢) المستدرک (١/٢٧).

(١٣) في أ: «جبيرة».

(١٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/١٧٢).

(١٥) رواه الطبري في تفسيره (١٣/٢٢٤) من طريق ابن علية ورواه (١٣/٢٢٩) من طريق وكيع.

(١٦) تفسير الطبري (١٣/٢٢٧ - ٢٢٩).

عباس^(١) فهذا أكثر وأثبت، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، عن أبي هلال، عن أبي جَمْرَةَ الضَّبَعِي، عن ابن عباس [رضى الله عنهما]^(٢)، قال: أخرج الله ذرية آدم [عليه السلام]^(٣) من ظهره كهيئة الذر، وهو في آذَى من الماء.

وقال أيضاً: حدثنا علي بن سهل، حدثنا ضَمْرَةَ بن ربيعة، حدثنا أبو مسعود عن جُوَيْر قال: مات ابن للضحاك بن مُزَاحِم، [وهو]^(٤) ابن ستة أيام. قال: فقال: يا جابر، إذا أنت وضعت ابني في لحده، فأبرز وجهه، وحلّ عنه عقده، فإن ابني مُجَلَّس، ومسؤول. ففعلت به الذي أمر، فلما فرغت قلت: يرحمك الله، عمّ يُسأل ابنك؟ من يسأله إياه؟ قال: يُسأل عن الميثاق الذي أقر به في^(٥) صلب آدم. قلت: يا أبا القاسم، وما هذا الميثاق الذي أقر به في^(٦) صلب آدم؟ قال: حدثني ابن عباس [رضى الله عنه]^(٧)؛ أن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خلقها^(٨) إلى يوم القيامة، فأخذ منهم الميثاق: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وتكفل لهم بالأرزاق، ثم أعادهم في صلبه. فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به، نفعه الميثاق الأول. ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يف^(٩) به، لم ينفعه الميثاق الأول. ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر، مات على الميثاق الأول على الفطرة^(١٠).

فهذه الطرق كلها مما تقوى وقف هذا على ابن عباس، والله أعلم.

حديث آخر: وقال ابن جرير: حدثنا عبد الرحمن بن الوليد، حدثنا أحمد بن أبي طيبة، عن سفيان بن سعيد، عن الأجلح، عن الضحاك وعن^(١١) منصور، عن مجاهد - عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» قال: «أخذوا من ظهره، كما يؤخذ بالمشط من الرأس، فقال لهم: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى»، قالت الملائكة: «شَهِدْنَا أَنْ يَقُولُوا^(١٢) يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ»^(١٣).

أحمد بن أبي طيبة هذا هو: أبو محمد الجرجاني قاضي قومس، كان أحد الزهاد، أخرج له النسائي في سنته، وقال أبو حاتم الرازي: يكتب حديثه. وقال ابن عدي: حدث بأحاديث أكثرها^(١٤) غرائب.

وقد روى هذا الحديث عبد الرحمن بن مَهْدِيّ، عن سفيان الثوري، عن منصور، عن مجاهد،

(١) تفسير الطبري (١٣/٢٣٦، ٢٣٧).

(٢، ٣) زيادة من أ.

(٥، ٦) في ك، م، أ: «من».

(٤) زيادة من م.

(٩) في ك، م: «يقر».

(٨) في ك، م، أ: «خالقها».

(٧) زيادة من أ.

(١٠) تفسير الطبري (١٣/٢٣٠).

(١٢) في أ: «تقولوا».

(١١) في م: «بن».

(١٣) تفسير الطبري (١٣/٢٣٢) قال الطبري: «ولاعلمه صحيحاً؛ لأن الثقات الذين يعتمد على حفظهم واتقانهم، حدثوا بهذا الحديث عن الثوري فوقوه على عبد الله بن عمرو، ولم يرفعوه ولم يذكروا في الحديث هذا الحرف الذي ذكره أحمد بن أبي طيبة عنه».

(١٤) في ك، م، أ: «كثيرة».

عن عبد الله بن عمرو، قوله، وكذا رواه جرير، عن منصور، به. وهذا أصح^(١)، والله أعلم.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا روح - هو ابن عبادة - حدثنا مالك، وحدثنا إسحاق، أخبرنا مالك، عن زيد بن أبي أنيسة: أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، أخبره، عن مسلم بن يسار الجهني: أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ الآية، فقال عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ، سئل عنها، فقال: «إن الله خلق آدم، عليه السلام، ثم مسح ظهره يمينه، فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون. ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون». فقال رجل: يا رسول الله، ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: «إذا خلق الله العبد للجنة، استعمله بأعمال^(٢) أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله^(٣) به الجنة. وإذا خلق العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله^(٤) به النار».

وهكذا رواه أبو داود عن القَعْنَبِيِّ - والنسائي عن قتيبة - والترمذي^(٥)، عن إسحاق بن موسى، عن مَعْنٍ. وابن أبي حاتم، عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب. وابن جرير من حديث روح ابن عبادة وسعيد بن عبد الحميد بن جعفر. وأخرجه ابن حبان في صحيحه، من رواية أبي مصعب الزبيري، كلهم عن الإمام مالك بن أنس، به^(٦).

قال الترمذي: وهذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع^(٧) عُمَرُ. وكذا قاله أبو حاتم وأبو زُرْعَةَ. زاد أبو حاتم: وبينهما نعيم بن ربيعة.

وهذا الذي قاله أبو حاتم، رواه أبو داود في سننه، عن محمد بن مصفى، عن بَقِيَّةَ، عن عمر ابن جُعْثُم^(٨) القرشي، عن زيد بن أبي أنيسة، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، عن مسلم بن يسار الجهني، عن نعيم بن ربيعة قال: كنت عند عمر بن الخطاب [رضى الله عنه]^(٩)، وقد سئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، فذكره^(١٠).

وقال الحافظ الدارقطني: وقد تابع عمر بن جُعْثُم يزيد بن سنان أبو قُرَّة الرَّهَّاءِي، وقولهما أولى بالصواب من قول مالك، والله أعلم^(١١).

قلت: الظاهر أن الإمام مالكا إنما أسقط ذكر «نعيم بن ربيعة» عمداً؛ لما جهل حاله ولم يعرفه،

(١) تفسير الطبري (٢٣٣/١٣).

(٢) في ك، م، أ: «يعمل». (٣) في ك، م، أ: «فيدخل». (٤) في أ: «فيدخل».

(٥) في ك، م، أ: «والترمذي في تفسيرهما».

(٦) المسند (٤٤/١) وسنن أبي داود برقم (٤٧٠٣) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١١٩٠) وسنن الترمذي برقم (٣٠٧٥) وتفسير الطبري (٢٣٣/١٣).

(٧) في أ: «لم يسمع من». (٨) في أ: «عمرو بن خثعم». (٩) زيادة من أ.

(١٠) سنن أبي داود برقم (٤٧٠٤) ورواه الطبري في تفسيره (٢٣٥/١٣) من طريق محمد بن مصفى، به.

(١١) العلل للدارقطني (٢٢١/٢ - ٢٢٣).

فإنه غير معروف إلا في هذا الحديث، وكذلك يسقط ذكر جماعة ممن لا يرتضيهم؛ ولهذا يرسل كثيراً من المرفوعات، ويقطع كثيراً من الموصولات، والله أعلم.

حديث آخر: قال الترمذى عند تفسيره هذه الآية: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا أبو نعيم، حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة [رضى الله عنه]^(١) قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله [عز وجل]^(٢) آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال: أى رب، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك. فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: أى رب، من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك، يقال له: داود. قال: رب، وكم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة. قال: أى رب، زده من عمرى أربعين سنة. فلما انقضى عمر آدم، جاءه ملك الموت قال: أو لم يبق من عمرى أربعون^(٣) سنة؟ قال: أو لم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسى آدم فنسيت ذريته، وخطىء آدم فخطئت ذريته».

ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح، وقد روى من غير وجه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ.

ورواه الحاكم فى مستدركه، من حديث أبي نعيم الفضل بن دكين، به. وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه^(٤).

ورواه ابن أبى حاتم فى تفسيره، من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، أنه حدثه عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، عن النبي ﷺ، فذكر نحو ما تقدم، إلى أن قال: «ثم عرضهم على آدم فقال: يا آدم، هؤلاء ذريتك. وإذا فيهم الأجدم والأبرص والأعمى، وأنواع الأسقام، فقال آدم: يا رب، لم فعلت هذا بذريتي؟ قال: كي تشكر نعمتى. وقال آدم: يا رب، من هؤلاء الذين أراهم أظهر الناس نوراً؟ قال: هؤلاء الأنبياء يا آدم من ذريتك». ثم ذكر قصة داود، كنحو ما تقدم^(٥).

حديث آخر: قال عبد الرحمن بن قتادة النصري^(٦)، عن أبيه، عن هشام بن حكيم، رضى الله عنه، أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أبدأ الأعمال، أم قد قضى القضاء؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم، ثم أشهدهم على أنفسهم، ثم أفاض بهم فى كفيه» ثم قال: «هؤلاء فى الجنة وهؤلاء فى النار، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة، وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار».

رواه ابن جرير، وابن مردويه من طرق عنه^(٧).

(١)، (٢) زيادة من أ. (٣) فى د، أ: «أربعين».

(٤) سنن الترمذى برقم (٣٠٧٦) والمستدرک (٢/٣٢٥).

(٥) ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (١٠١٥) من طريق محمد بن شعيب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، به. وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف.

(٦) فى أ: «البصرى».

(٧) تفسير الطبرى (١٣/٢٤٤) وقد توسع الشيخ محمود شاكر فى الكلام عليه فى الحاشية بما يغنى عن إعادته هنا.

حديث آخر: روى جعفر بن الزبير - وهو ضعيف - عن القاسم، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله الخلق، وقضى القضية، أخذ أهل اليمين بيمينه وأهل الشمال بشماله، فقال: يا أصحاب اليمين. فقالوا: لبيك وسعديك. قال: أأست بربكم؟ قالوا: بلى. قال: يا أصحاب الشمال. قالوا: لبيك وسعديك. قال: أأست بربكم؟ قالوا: بلى. ثم خلط بينهم، فقال قائل: يا رب، لم خلطت بينهم؟ قال: لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون، أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، ثم ردهم في صلب آدم [عليه السلام]^(١)». رواه ابن مردويه^(٢).

أثر آخر: قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب [رضى الله عنه]^(٣) في قول الله تعالى^(٤): ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، الآية والتي بعدها، قال: فجمعهم له يومئذ جميعاً، ما هو كائن منه إلى يوم القيامة، فجعلهم أرواحاً ثم صورهم ثم استنطقهم فتكلموا، وأخذ عليهم العهد والميثاق، وأشهدهم على أنفسهم أأست بربكم؟ قالوا: بلى، الآية. قال: فإني أشهد عليكم السموات السبع، والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة: لم نعلم بهذا اعلموا أنه لا إله غيري، ولا رب غيري، فلا تشركوا بي شيئاً، وإني سأرسل إليكم رسلاً يذكرونكم^(٥) عهدي وميثاقى، وأنزل عليكم كتبى. قالوا: نشهد أنك ربنا وإلهنا، لا رب لنا غيرك، ولا إله لنا غيرك. فأقروا له يومئذ بالطاعة، ورفع أباهم آدم فنظر إليهم، فرأى فيهم الغنى والفقر، وحسن الصورة ودون ذلك. فقال: يا رب، لو سويت بين عبادك؟ قال: إني أحببت أن أشكر. ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة، فهو الذى يقول تعالى^(٦): ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ [وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا]^(٧)﴾ [الأحزاب: ٧]، وهو الذى يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ^(٨)﴾ [الروم: ٣٠]، ومن ذلك قال: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى﴾ [النجم: ٥٦]، ومن ذلك قال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ [وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ]^(٩)﴾ [الأعراف: ١٠٢].

رواه عبد الله بن أحمد فى مسند أبيه، ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه فى تفاسيرهم، من رواية أبي جعفر الرازي، به. وروى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، والحسن، وقتادة، والسدى، وغير واحد من علماء السلف، سياقات توافق هذه الأحاديث، اكتفينا بإيرادها عن التطويل بتلك الآثار كلها، وبالله المستعان.

(١) زيادة من أ.

(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٨٧/٨) من طريق عثمان بن الهيثم، عن جعفر بن الزبير به. وجعفر بن الزبير ضعيف جداً، وقد توبع:

تابعه بشر بن نمير عن القاسم عن أبي أمامة بنحوه. ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (٢٢٨) والعقلى فى الضعفاء الكبير

(١/٥١)، ولكن لم يفرح بهذه المتابعة فإن بشر بن نمير متروك متهم.

(٣) زيادة من أ. (٤) فى أ: «الله عز وجل».

(٥) فى أ: «ينذرونكم».

(٦) فى أ: «عز وجل». (٧) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية».

(٩) زيادة من د، ك، م، أ، وفى هـ: «الآية».

فهذه الأحاديث دالة على أن الله، عز وجل، استخرج ذرية آدم من صلبه، وميز بين أهل الجنة وأهل النار. وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم، فما هو إلا في حديث كلثوم بن جبر^(١)، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس [رضى الله عنهما]^(٢)، وفي حديث عبد الله بن عمرو [رضى الله عنهما]^(٣)، وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان، كما تقدم. ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرتهم على التوحيد، كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المَجَاشَعِي، ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سريع. وقد فسر الحسن البصري الآية بذلك، قالوا: ولهذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾، ولم يقل: «من آدم»، ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾، ولم يقل: «من ظهره» ﴿ذُرِّيَّاتَهُمْ﴾ أى: جعل نسلهم جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال: ﴿كَمَا أَنشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

ثم قال: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ أى: أوجدتهم شاهدين بذلك، قائلين له حالاً وقالاً. والشهادة تارة تكون بالقول، كما قال [تعالى]^(٤): ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٠] الآية، وتارة تكون حالاً، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧] أى: حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك، وكذلك^(٥) قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات: ٧]، كما أن السؤال تارة يكون بالقول، وتارة يكون بالحال، كما فى قوله: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، قالوا: وما يدل على أن المراد بهذا هذا، أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم فى الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال^(٦)، لكان كل أحد يذكره، ليكون حجة عليه. فإن قيل: إخبار الرسول به كاف فى وجوده، فالجواب: أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره. وهذا جعل حجة مستقلة عليهم، فدل على أنه على الفطرة التى فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد؛ ولهذا قال: ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾^(٧) أى: لثلاث يقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾ أى: [عن]^(٨) التوحيد ﴿غَافِلِينَ أَوْ يَقُولُوا﴾^(٩) إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا الآية.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثَ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) .

قال عبد الرزاق، عن سفيان الثوري، عن الأعمش ومنصور، عن أبي الضحى، عن مسروق،

(١) فى أ: «جبيرة».

(٢) زيادة من أ.

(٣) فى م: أ: «قاله».

(٤) زيادة من م، أ.

(٥) فى ك، م، أ: «تقولوا».

(٦) فى م: «تقولوا».

عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، فى قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا [فَأْتَبَعَهُ] ^(١)﴾ الآية، قال: هو رجل من بنى إسرائيل، يقال له: بلعم بن أبر. وكذا رواه شعبة وغير واحد، عن منصور، به.

وقال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن ابن عباس [رضى الله عنهما] ^(٢): هو صيفى بن الراهب.

قال قتادة: وقال كعب: كان رجلاً من أهل البلقاء، وكان يعلم الاسم الأكبر، وكان مقيماً ببيت ^(٣) المقدس مع الجبارين.

وقال العوفي، عن ابن عباس [رضى الله عنهما] ^(٤): هو رجل من أهل اليمن، يقال له: بلعم، آتاه الله آياته فتركها.

وقال مالك بن دينار: كان من علماء بنى إسرائيل، وكان مجاب الدعوة، يقدمونه فى الشدائد، بعثه نبي الله موسى إلى ملك مدين يدعوه إلى الله، فأقطعه وأعطاه، فتبع دينه وترك دين موسى، عليه السلام.

وقال سفيان بن عيينة، عن حصين، عن عمران بن الحارث، عن ابن عباس [رضى الله عنهما] ^(٥): هو بلعم بن باعر. وكذا قال مجاهد وعكرمة.

وقال ابن جرير: حدثنى الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا إسرائيل، عن مغيرة، عن مجاهد، عن ابن عباس [رضى الله عنهما] ^(٦) قال: هو بلعام - وقالت ثقيف: هو أمية بن أبى الصلت.

وقال شعبة، عن يعلى بن عطاء، عن نافع بن عاصم، عن عبد الله بن عمرو [رضى الله عنهما] ^(٧) فى قوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ [آيَاتِنَا] ^(٨)﴾، قال: هو صاحبكم أمية بن أبى الصلت.

وقد روى من غير وجه، عنه وهو صحيح إليه، وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبى الصلت يشبهه، فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة، ولكنه لم ينتفع بعلمه، فإنه أدرك زمان رسول الله ﷺ، وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته، وظهرت لكل من له بصيرة، ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه، وصار إلى موالاة المشركين ومناصرتهم وامتداحهم، ورثى أهل بدر من المشركين بمرثاة بليغة، قبحه الله [تعالى] ^(٩) ^(١٠). وقد جاء فى بعض الأحاديث: «أنه ممن آمن لسانه، ولم يؤمن قلبه»؛ فإن له أشعاراً ربانية وحكما وفصاحة، ولكن لم يشرح الله صدره للإسلام.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن عمر، حدثنا سفيان، عن أبى سعيد الأعور، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ قال: هو رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فيها، وكانت له امرأة له منها ولد، فقالت: اجعل لى منها واحدة. قال:

(٣) فى أ: «بيت».

(٩) زيادة من أ.

(٢) زيادة من أ.

(٨) زيادة من ك، م، أ.

(١) زيادة من ك.

(٤ - ٧) زيادة من أ.

(١٠) انظر: العقيدة فى السيرة النبوية لابن هشام (٣٠ / ٢).

فلك واحدة، فما الذى تريدین؟ قالت: ادع الله أن يجعلنى أجمل امرأة فى بنى إسرائيل. فدعا الله، فجعلها أجمل امرأة فى بنى إسرائيل، فلما علمت أن^(١) ليس فيهم مثلها رغبت عنه، وأرادت شيئاً آخر، فدعا الله أن يجعلها كلبة، فصارت كلبة، فذهبت دعوتان. فجاء بنوها فقالوا: ليس بنا على هذا قرار، قد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بها، فادع الله أن يردّها إلى الحال التى كانت عليها، فدعا الله، فعادت كما كانت، فذهبت الدعوات الثلاث، وسميت البسوس.^(٢) غريب.

وأما المشهور فى سبب نزول هذه الآية الكريمة، فإنما هو رجل من المتقدمين فى زمان بنى إسرائيل، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: هو رجل من مدينة الجبارين، يقال له: «بلعام»^(٣)، وكان يعلم اسم الله الأكبر.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيره من علماء السلف: كان [رجلاً]^(٤) مجاب الدعوة، ولا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه.

وأغرب، بل أبعد، بل أخطأ من قال: كان قد^(٥) أوتى النبوة فانسلك منها. حكاه ابن جرير، عن بعضهم، ولا يصح^(٦).

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: لما نزل موسى بهم - يعنى بالجبارين - ومن معه، أتاه يعنى بلعام^(٧) - أنه بنو عمه وقومه، فقالوا: إن موسى رجل حديد، ومعه جنود كثيرة، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا، فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه. قال: إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه، ذهبت دنياى وآخرتى. فلم يزالوا به حتى دعا عليهم، فسلخه الله ما كان عليه، فذلك قوله تعالى: ﴿فَانْسَلَخْ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ [فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ]﴾^(٨).

وقال السدى: إن الله لما انقضت الأربعون سنة التى قال الله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [المائدة: ٢٦]، بعث يوشع بن نون نبياً، فدعا بنى إسرائيل، فأخبرهم أنه نبى، وأن الله [قد]^(٩) أمره أن يقاتل الجبارين، فبايعوه وصدقوه. وانطلق رجل من بنى إسرائيل يقال له: «بلعام» وكان عالماً، يعلم الاسم الأعظم المكتوم، فكفر - لعنه الله - وأتى الجبارين وقال لهم: لا ترهبوا بنى إسرائيل، فإنى إذا خرجتم تقاتلونهم أدعو عليهم دعوة فيهلكون! وكان عندهم فيما شاء من الدنيا، غير أنه كان لا يستطيع أن يأتى النساء، يعظمن^(١٠)، فكان ينكح أتاناً له، وهو الذى قال الله تعالى^(١١): ﴿فَانْسَلَخْ مِنْهَا﴾.

(١) فى أ: «أنه».

(٢) ورواه أبو الشيخ فى تفسيره كما فى الدر المنثور (٦٠٨/٣).

(٣) فى د، ك، م، أ: «بلعام». (٤) زيادة من أ..

(٦) تفسير الطبرى (٢٥٩/١٣).

(٧) فى د، ك، م، أ: «بلعام». (٨) زيادة من د، ك، م، أ. وفى هـ: «الآية».

(٩) زيادة من د، أ.

(١٠) فى أ: «لعظمن». (١١) فى أ: «الله عز وجل».

وقوله: ﴿فَاتَّبِعْ الشَّيْطَانَ﴾ أى: استحوذ عليه وغلبه على أمره، فمهما أمره امتثل وأطاعه؛ ولهذا قال: ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أى: من الهالكين الخائرين^(١) البائسين.

وقد ورد فى معنى هذه الآية حديث رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده حيث قال: حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا محمد بن بكر، عن الصلت بن بهرام، حدثنا الحسن، حدثنا جندب البجلي فى هذا المسجد؛ أن حذيفة - يعنى ابن اليمان، رضى الله عنه - حدثه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن، حتى إذا رويت بهجته عليه وكان ردء الإسلام اعتراه^(٢) إلى ما شاء الله، انسلخ منه، ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك». قال: قلت: يا نبي الله، أيهما أولى بالشرك: المرمى أو الرامى؟ قال: «بل الرامى».

هذا إسناد جيد^(٣)، والصلت بن بهرام كان من ثقات الكوفيين، ولم يرم بشيء سوى الإرجاء، وقد وثقه الإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، وغيرهما.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أى: لرفعناه من التدنس عن^(٤) قاذورات الدنيا بالآيات التى آتيناها إياها، ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أى: مال إلى زينة الدنيا وزهرتها، وأقبل على لذاتها ونعيمها، وغرته كما غرت غيره من غير أولى البصائر^(٥) والنهى.

وقال أبو الزاهرية فى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ قال: تراءى له الشيطان على غلوة من قنطرة بانياس، فسجدت الحمارة لله، وسجد بلعام للشيطان. وكذا قال عبد الرحمن بن جبير بن نفير، وغير واحد.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: وكان من قصة هذا الرجل: ما حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر، عن أبيه: أنه سئل عن هذه الآية: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾^(٦)، فحدث عن سيار أنه كان رجلاً يقال له بلعام، وكان قد أوتى النبوة وكان مجاب الدعوة، قال: وإن موسى أقبل فى بنى إسرائيل يريد الأرض التى فيها بلعام - أو قال: الشام - قال: فرعب الناس منه رعباً شديداً، قال: فأتوا بلعام، فقالوا: ادع الله على هذا الرجل وجيشه! قال: حتى أوامر ربي - أو: حتى أوامر - قال: فوامر فى الدعاء عليهم، فقل له: لا تدع عليهم، فإنهم عبادى، وفيهم نبيهم. قال: فقال لقومه: إني قد وامر ربي فى الدعاء عليهم، وإني قد نهيت. فأهدوا له هدية فقبلها، ثم راجعوه فقالوا: ادع عليهم. فقال: حتى أوامر. فوامر، فلم يحُرْ إليه شيء. فقال: قد وامر فلم يحُرْ إلى شيء! فقالوا: لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك المرة الأولى. قال: فأخذ يدعو عليهم، فإذا دعا عليهم، جرى على لسانه الدعاء على قومه، وإذا أراد أن يدعو أن يفتح

(١) فى أ: «الجائرين». (٢) فى أ: «اعتره».

(٣) ورواه البزار فى مسنده برقم (١٧٥) من طريق: حدثنا محمد بن مرزوق والحسن بن أبى كبشة، حدثنا محمد بن بكر البرساني به.

قال الهيثمى فى المجمع (١٨٨/١): «إسناده حسن».

(٤) فى أ: «من». (٥) فى أ: «الأبصار». (٦) زيادة من أ.

لقومه^(١)، دعا أن يفتح لموسى وجيشه - أو نحواً من ذا إن شاء الله. قال^(٢): ما نراك تدعو إلا علينا. قال: ما يجرى على لسانى إلا هكذا، ولو دعوت عليه أيضاً ما استجيب لى، ولكن سأدلكم على أمر عسى أن يكون فيه هلاكهم. إن الله يبغض الزنا، وإنهم إن وقعوا بالزنا هلكوا، ورجوت أن يهلكهم الله، فأخرجوا النساء يَسْتَقْبِلْنَهُمْ^(٣)؛ فإنهم قوم مسافرون، فعسى أن يزنوا فيهلكوا. قال: ففعلوا. قال: فأخرجوا النساء يَسْتَقْبِلْنَهُمْ. قال: وكان للملك ابنة، فذكر من عظمها ما الله أعلم به! قال: فقال أبوها - أو بلعام -: لا تمكّن نفسك إلا من موسى! قال: ووقعوا فى الزنا. قال: وأتاها رأس سبط من أسباط بنى إسرائيل، قال: فأرادها على نفسه، فقالت: ما أنا بممكنة نفسى إلا من موسى. قال: فقال: إن منزلتى^(٤) كذا وكذا، وإن من حالى كذا وكذا. قال: فأرسلت إلى أبيها تستأمره، قال: فقال لها: فأمكنيه قال: ويأتيهما رجل من بنى هارون ومعه الرمح فيقطعنهما. قال: وأيده الله بقوة. فانتظمهما جميعاً، ورفعهما على رمحه^(٥)، فرأهما الناس - أو كما حدث - قال: وسلط الله عليهم الطاعون، فمات منهم سبعون ألفاً.

قال أبو المعتمر: فحدثنى سيار: أن بلعاماً ركب حمارة له حتى^(٦) أتى العلولى^(٧) - أو قال: طريقاً من العلولى^(٧) - جعل يضربها ولا تُقَدِّم، وقامت عليه فقالت: علام تضربنى؟ أما ترى هذا الذى بين يديك؟ فإذا الشيطان بين يديه، قال: فنزل وسجد له، قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْكُرُونَ﴾.

قال: فحدثنى بهذا سيار، ولا أدري لعله قد دخل فيه شيء من حديث غيره.

قلت: هو بلعام - ويقال: بلعم - بن باعوراء، ابن أبر. ويقال: ابن باعور بن شهوم^(٨) بن قوشتم ابن ماب بن لوط بن هاران - ويقال: ابن حران - بن أزر. وكان يسكن قرية من قرى البلقاء.

قال ابن عساكر: وهو الذى كان يعرف اسم الله الأعظم، فانسلك من دينه، له ذكر فى القرآن. ثم أورد^(٩) من قصته نحو ما ذكرنا هاهنا، وأورده عن وهب وغيره، والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار عن سالم أبى النضر؛ أنه حدث: أن موسى، عليه السلام، لما نزل فى أرض بنى كنعان من أرض الشام، أتى قوم بلعام إليه فقالوا له: هذا موسى بن عمران فى بنى إسرائيل، قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بنى إسرائيل، وإنا قومك، وليس لنا منزل، وأنت رجل مجاب الدعوة، فاخرج فادع الله عليهم. قال: ويلكم! نبي الله معه الملائكة والمؤمنون، كيف أذهب أدعو عليهم، وأنا أعلم من الله ما أعلم؟! قالوا له: ما لنا من منزل! فلم يزالوا به يرققونه ويتضرعون إليه، حتى فتنوه فافتتن، فركب حمارة^(١٠) له متوجهاً إلى الجبل الذى يطلعه على عسكر بنى إسرائيل، وهو جبل حُسْبَان، فلما سار عليها غير كثير، ربضت به، فنزل عنها فضربها، حتى إذا

(٣) فى أ: «تستقبلهم».

(٢) زفى أ: «فقالوا له».

(١) فى م: «على قومه».

(٦) فى أ: «حتى إذا».

(٥) فى م: «على رأس رمحه».

(٤) فى أ: «إن من منزلتى».

(٩) فى أ: «ثم ذكر».

(٨) فى أ: «شهوم».

(٧) فى ك: «العلولى».

(١٠) فى م، أ: «حمارة».

أذلقها قامت فركبها. فلم تسر به كثيراً حتى ربضت به، فضربها حتى إذا أذلقها أذن الله لها فكلمته حجة عليه، فقالت: ويحك يا بلعم: أين تذهب؟ أما^(١) ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا؟ أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين لتدعو^(٢) عليهم؟ فلم ينزع عنها يضربها، فخلى الله سبيلها حين فعل بها ذلك. فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حسان، على عسكر موسى وبني إسرائيل، جعل يدعو عليهم، ولا يدعو عليهم بشر إلا صرف به لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بني إسرائيل. فقال له قومه: أتدرى يا بلعم ما تصنع؟ إنما تدعو لهم، وتدعو علينا! قال: فهذا ما لا أملك، هذا شيء قد غلب الله عليه! قال: واندلع لسانه فوق وقع على صدره، فقال لهم: قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، ولم يبق إلا المكر والحيلة، فسأمر لكم وأحتال، جمّلوا النساء وأعطوهن السلع، ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعثن فيهن، ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها، فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كفّيتموهم، ففعلوا. فلما دخل النساء العسكر، مرت امرأة من الكنعانيين اسمها «كسبي ابنة صور، رأس أمته» برجل من عظماء بني إسرائيل، وهو «زمرى بن شلوم»، رأس سبط سمعان بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، عليهم السلام، فقام إليها، فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها، ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى، عليه السلام، فقال: إني أظنك ستقول هذا حرام عليك؟ قال: أجل، هي حرام عليك، لا تقربها. قال: فوالله لا نطيعك في هذا. ثم دخل بها قبته فوق وقع عليها. وأرسل الله، عز وجل، الطاعون في بني إسرائيل، وكان فنحاص بن العيزار بن هارون، صاحب أمر موسى، وكان غائباً حين صنع زمرى بن شلوم ما صنع، فجاء والطاعون يجوس في بني إسرائيل، فأخبر الخبر، فأخذ حربته، وكانت من حديد كلها، ثم دخل القبة وهما متضاجعان، فاننظما بحربته، ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء، والحربة قد أخذها بذراعه، واعتمد بمرفقه على خاصرته، وأسند الحربة إلى للحيّة - وكان بكر العيزار - وجعل يقول: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك. ورفع الطاعون، فحسب من هلك من بني إسرائيل في الطاعون فيما بين أن أصاب زمرى المرأة إلى أن قتله فنحاص، فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفاً - والمقلل لهم يقول: عشرون ألفاً - في ساعة من النهار. فمن هنالك تعطى بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها القبة والذراع واللحي - لاعتماده بالحربة على خاصرته، وأخذها إياها بذراعه، وإسناده إياها إلى لحيه - والبكر من كل أموالهم وأنفسهم؛ لأنه كان بكر أبيه العيزار. ففي بلعام بن باعوراء أنزل الله: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا [فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ]﴾^(٣) إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٤).

وقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾: اختلف المفسرون في معناه^(٥) فأما على سياق ابن إسحاق، عن سالم بن أبي النضر: أن بلعاماً اندلع لسانه على صدره - فتشبيهه بالكلب في لهث^(٦) في كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك. وقيل: معناه: فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه، وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان وعدم الدعاء، كالكلب في لهث^(١) في حالتيه، إن

(٣) زيادة من أ.

(٢) في أ: «تدعو».

(١) في ك، م: «ألا».

(٤) رواه الطبري في تفسيره (١٣/٢٦٤).

(٦) في د، ك، م: «لهيش».

(٥) في أ: «في معنى هذا».

حملت عليه وإن تركته، هو يلهث في الحالين، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عذمه؛ كما قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، ونحو ذلك.

وقيل: معناه: أن قلب الكافر والمنافق والضال، ضعيف فارغ من الهدى، فهو كثير الوجيب^(٢)، فعبّر عن هذا بهذا، نقل نحوه عن الحسن البصري وغيره.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقْصَصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾: يقول تعالى لنبية محمد ﷺ: ﴿فَأَقْصَصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ﴾ أى: لعل بنى إسرائيل العالمين بحال بلعام، وما جرى له فى إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته، بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه - فى تعليمه الاسم الأعظم الذى إذا سئل به أعطى، وإذا دعى به أجاب - فى غير طاعة ربه، بل دعا به على حزب الرحمن، وشعب الإيمان، أتباع عبده ورسوله فى ذلك الزمان، كلیم الله موسى بن عمران، [عليه السلام]^(٣)؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أى: فيحذروا أن يكونوا مثله؛ فإن الله قد أعطاهم علماً، وميزهم على من عداهم من الأعراب، وجعل بأيديهم صفة محمد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرتة ومؤازرتة، كما أخبرتهم أنبياءهم بذلك وأمرتهم به؛ ولهذا من خالف منهم فى كتابه وكنمه فلم يعلم به العباد، أحل الله به ذلاً فى الدنيا موصولاً بذل الآخرة.

وقوله: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾: يقول تعالى: ساء مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، أى: ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التى^(٤) لا همة لها^(٥) إلا فى تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه، واتبع هواه، صار شبيهاً بالكلب، وبئس المثل مثله؛ ولهذا ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ليس لنا مثل السوء، العائد فى هبته كالكلب يعود فى قيئه»^(٦).

وقوله: ﴿وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أى: ما ظلمهم الله، ولكن هم ظلموا أنفسهم، بإعراضهم عن اتباع الهدى، وطاعة المولى، إلى الركون إلى دار البلى، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى.

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٧٨).

يقول تعالى: من هداه الله فإنه لا مضل له، ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ ولهذا جاء فى حديث ابن مسعود: «إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله».

(١) فى د، ك، م: «لهيته». (٢) فى أ: «الوجيف». (٣) زيادة من ك.

(٤) فى د، ك: «الذين». (٥) فى ك، م: «لهم».

(٦) صحيح البخارى برقم (٢٦٢٢).

الحديث بتمامه رواه الإمام أحمد، وأهل السنن، وغيرهم^(١).

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (١٧٩).

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أى: خلقنا وجعلنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ أى: هيأناهم لها، وبعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق، علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده فى كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، كما ورد فى صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»^(٢).

وفى صحيح مسلم أيضا، من حديث عائشة بنت طلحة، عن خالتها عائشة أم المؤمنين، رضى الله عنها، أنها قالت: دعى رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله طوبى له، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه. فقال [رسول الله ﷺ]: «أو غير ذلك يا عائشة؟ إن الله خلق الجنة، وخلق لها أهلا، وهم فى أصلاب آبائهم، وخلق النار، وخلق لها أهلا، وهم فى أصلاب آبائهم»^(٣).

وفى الصحيحين من حديث ابن مسعود [رضى الله عنه]^(٤): «ثم يبعث إليه الملك، فيؤمر بأربع كلمات، فيكتب: رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أم^(٥) سعيد».

وتقدم أن الله [تعالى]^(٦) لما استخرج ذرية آدم من صلبه وجعلهم فريقين: أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، قال: «هؤلاء للجنة ولا أبالى، وهؤلاء للنار ولا أبالى».

والأحاديث فى هذا كثيرة، ومسألة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ يعنى: ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التى جعلها الله [سببا للهداية]^(٧)، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ]^(٨)، وقال تعالى: ﴿صُمُّ بِكُمْ عَمِّي فَهَمٌ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]، هذا فى حق المنافقين، وقال فى حق الكافرين: ﴿صُمُّ بِكُمْ عَمِّي فَهَمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، ولم يكونوا صمًا بكمًا عميًا إلا عن الهدى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ

(١) المسند (٣٩٢/١) وسنن أبى داود برقم (١٠٩٧) وسنن النسائى (٨٩/٦) وسنن ابن ماجه برقم (١٨٩٢).

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٦٥٣).

(٣) زيادة من د. (٤) فى د، ك، م: «لنار».

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٦٦٢).

(٦) زيادة من أ. (٧) فى ك، م، أ: «أو».

(٨) زيادة من أ. (٩) زيادة من د، ك، م، أ.

(١٠) زيادة من أ. وفى هـ: «الآية».

فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ. وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ أى: هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة التي لا تنتفع^(١) بهذه الحواس منها إلا في الذي يعيشها من ظاهر الحياة الدنيا كما قال تعالى: ﴿وَمِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمِثْلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعَاءً وَنِدَاءً [صَمَّ بِكُمْ عُمِّي]﴾ [البقرة: ١٧١] أى: ومثلهم - فى حال دعائهم إلى الإيمان - كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه^(٢) ما يقول؛ ولهذا قال فى هؤلاء: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ أى: من الدواب؛ لأن الدواب قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أبس بها، وإن لم تفقه كلامه، بخلاف هؤلاء؛ ولأن الدواب تفقه^(٣) ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها، بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده، فكفر بالله وأشرك به؛ ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة فى معاده، ومن كفر به^(٤) من البشر، كانت الدواب أتم منه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أَوْلَيْكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٨٠).

عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر».

أخرجاه فى الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة، عن أبى الزناد، عن الأعرج، عنه^(٦). رواه البخارى، عن أبى اليمان، عن شعيب بن أبى حمزة، عن أبى الزناد به^(٧). وأخرجه الترمذى، عن الجوزجاني، عن صفوان بن صالح، عن الوليد بن مسلم، عن شعيب فذكر بسنده مثله، وزاد بعد قوله: «يحب الوتر»: هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارى، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكيم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلى، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوى، المتين، الولي، الحميد، المحصى، المبدئ، المعيد، المحيى، المميت، الحى، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، القادر، المقتر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر،

(٣) فى أ: «لا نفهم».

(٢) زيادة من أ.

(١) فى ك، م: «لا ينتفع».

(٥) فى أ: «بالله».

(٤) فى أ: «تفعل».

(٦) صحيح البخارى برقم (٦٤١٠) وصحيح مسلم برقم (٢٦٧٧).

(٧) صحيح البخارى برقم (٧٣٩٢).

الظاهر، الباطن، الوالى، المتعالى، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغنى، المغنى، المانع، الضار، النافع، النور، الهادى، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور^(١).

ثم قال الترمذى: هذا حديث غريب وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة [رضى الله عنه]^(٢)، ولا نعلم فى كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا فى هذا الحديث.

ورواه ابن حبان فى صحيحه، من طريق صفوان، به^(٣). وقد رواه ابن ماجه فى سنته، من طريق آخر^(٤)، عن موسى بن عقبة، عن الأعرج، عن أبى هريرة مرفوعاً^(٥)، فسر الأسماء كنحو ما تقدم بزيادة ونقصان.

والذى عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء فى هذا الحديث مدرج فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعانى، عن زهير بن محمد: أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أى: أنهم جمعوها من القرآن كما ورد^(٦) عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبى زيد اللغوى، والله أعلم.

ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة فى التسعة والتسعين^(٧)، بدليل ما رواه الإمام أحمد فى مسنده، عن يزيد بن هارون، عن فضيل بن مرزوق، عن أبى سلمة الجهنى، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال: اللهم إنى عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتى بيدك، ماض فى حكمك، عدل فى قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أعلمته^(٨) أحداً من خلقك، أو أنزلته فى كتابك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبى، ونور صدرى، وجلاء حزنى، وذهب همى، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحاً». فقيل: يا رسول الله، أفلا نتعلمها؟ فقال: «بلى، ينبغى لكل من سمعها^(٩) أن يتعلمها».

وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان البستى فى صحيحه بمثله^(١٠).

وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربى أحد أئمة المالكية فى كتابه: «الأحوذى فى شرح الترمذى»؛ أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم، فالحق أعلم.

وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَذُرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قال: إلحاد الملحدين: أن دعوا «الللات»^(١١) فى أسماء الله.

(١) بعدها فى م: «ليس كمثله شىء وهو السميع البصير».

(٢) سنن الترمذى برقم (٣٥٠٧).

(٣) فى أ: «أخرى».

(٤) سنن ابن ماجه برقم (٣٨٦١)، وقال البوصيرى: «إسناد طريق ابن ماجه ضعيف لضعف عبد الملك بن محمد الصنعانى».

(٥) فى ك، م، أ: «روى».

(٦) فى أ: «ينبغى لمن سمعها».

(٧) المسند (٣٩٢/١)، وصحيح ابن حبان برقم (٢٣٧٢) «موارد».

(٨) فى م: «علمته».

(٩) فى أ: «الللات والعزى».

وقال ابن جريج، عن مجاهد: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي أَسْمَانِهِ﴾ قال: اشتقوا «الللات» من الله، واشتقوا «العزى» من العزيز.

وقال قتادة: ﴿يَلْحَدُونَ﴾ يشركون. وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: الإلحاد: التكذيب. وأصل الإلحاد فى كلام العرب: العدل عن القصد، والميل والجور والانحراف، ومنه اللحد فى القبر، لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٨١).

يقول تعالى: وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ. ومن الأمم أمة قائمة بالحق، قولاً وعملاً، ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾، يقولونه ويدعون إليه، ﴿وبِهِ يَعْدِلُونَ﴾: يعملون ويقضون.

وقد جاء فى الآثار: أن المراد بهذه الأمة المذكورة فى الآية، هى هذه الأمة المحمدية.

قال سعيد، عن قتادة فى تفسير هذه الآية: بلغنا أن نبى الله ﷺ كان يقول إذا قرأ هذه الآية: «هذه لكم، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]»^(١).

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس فى قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أمتى قوماً على الحق، حتى ينزل عيسى ابن مريم متى ما نزل»^(٢).

وفى الصحيحين، عن معاوية بن أبى سفيان قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى تقوم الساعة - وفى رواية -: حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك - وفى رواية -: وهم بالشام»^(٣).

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٢) وَأَمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣).

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ومعناه: أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش فى الدنيا، حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا^(٤) أنهم على شىء، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ. فَقَطَّعْ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَمْلِي لَهُمْ﴾ أى: وسأملى لهم، أطول لهم ما هم فيه ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أى: قوى شديد.

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٨٦/١٣)، وهو مرسل.

(٢) رواه الثعلبى فى تفسيره كما فى تخريج أحاديث الكشاف للزبيلى (٤٧٤/١).

(٣) صحيح البخارى برقم (٣٦٤١) وصحيح مسلم برقم (١٠٣٧).

(٤) فى أ: «ويعتقدون».

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (١٨٤).

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ يعنى محمداً - صلوات الله وسلامه عليه^(١)، ﴿مِّنْ جِنَّةٍ﴾ أى: ليس به جنون، بل هو رسول الله حقاً دعا إلى حق، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: ظاهر لمن كان له قلب ولب يعقل به ويعى به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَىٰ وَفِرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦]، يقول: إنما أطلب منكم أن تقوموا لله قياماً خالصاً لله، ليس فيه تعصب ولا عناد، ﴿مَشْنَىٰ وَفِرَادَىٰ﴾ أى: مجتمعين ومتفرقين، ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ فى هذا الذى جاءكم بالرسالة من الله: أبه جنون أم لا؟ فإنكم إذا فعلتم ذلك، بان لكم وظهر أنه رسول [الله]^(٢) حقاً وصدقاً.

وقال قتادة بن دعامة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان على الصفا، فدعا قريشاً فجعل يُفَخِّذُهُمْ فَخْذًا فَخْذًا: «يا بنى فلان، يا بنى فلان»، فحذرهم بأس الله ووقائع الله، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون. بات يصوت إلى الصباح - أو: حتى أصبح، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾^(٣).

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٨٥).

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ - هؤلاء المكذبون بآياتنا - فى ملك الله وسلطانه فى السموات والأرض، وفيما خلق [الله]^(٤) من شئ فيهما، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه، ومن فعل من لا ينبغى أن تكون^(٥) العباد. والدين الخالص إلا له، فيؤمنوا به، ويصدقوا رسوله، وينيبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت، فيهلكوا على كفرهم، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾؟ يقول: فبأى تخويف وتحذير وترهيب - بعد تحذير محمد وترهيبه، الذى آتاهم به من عند الله فى آى كتابه - يصدقون، إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذى جاءهم به محمد من عند الله، عز وجل؟!!

وقد روى الإمام أحمد عن حسن بن موسى وعفان^(٦) بن مسلم وعبد الصمد بن عبد الوارث، عن حماد بن سلمة، عن على بن زيد بن جُدعان، عن أبى الصلت، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسرى بى، لما انتهينا إلى السماء السابعة، فنظرت فوقى، فإذا أنا برعد وبرق وصواعق»، قال: «وأنت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم، قلت: من

(٢) زيادة من د، ك، م، أ.

(١) فى أ: ﷺ.

(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٨٩/١٣).

(٤) زيادة من م.

(٦) فى أ: عثمان.

(٥) فى ك، أ: «يكون».

هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا. فلما نزلت إلى السماء الدنيا فنظرت إلى أسفل منى، فإذا أنا برهج ودخان وأصوات^(١)، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه الشياطين^(٢) يُحَرِّفُونَ عَلَى أَعْيُنِ بَنِي آدَمَ أَنْ لَا يَتَفَكَّرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَرَأَوْا الْعَجَائِبَ.

على بن زيد بن جدعان له منكرات^(٣).

ثم قال تعالى:

﴿مَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١٨٦).

يقول تعالى: مَنْ كُتِبَ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَإِنَّهُ لَا يَهْدِيهِ أَحَدٌ، وَلَوْ نَظَرَ لِنَفْسِهِ فِيمَا نَظَرَ، فَإِنَّهُ لَا يَجْزِي^(٤) عَنْهُ شَيْئًا، ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١]، قال تعالى: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٧).

يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٣] قيل: نزلت في قريش. وقيل: في نفر من اليهود. والأول أشبه؛ لأن الآية مكية، وكانوا يسألون عن وقت الساعة، استبعاداً لوقوعها، وتكذيباً بوجودها؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨].

وقوله: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «منتهاها» أي: متى محطها؟ وأيان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة؟

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾: أمر تعالى نبيه ﷺ إذا سئل عن وقت الساعة، أن يردَّ علمها إلى الله تعالى؛ فإنه هو الذي يجليها لوقتها، أي: يعلم جليلة أمرها، ومتى يكون على التحديد، [أي]^(٥): لا يعلم ذلك [أحد]^(٦) إلا هو تعالى؛ ولهذا قال: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة في قوله: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: ثقل علمها على أهل السموات والأرض إنهم لا يعلمون.

قال معمر: قال الحسن: إذا جاءت، ثقلت على أهل السموات والأرض، يقول: كبرت عليهم.

(٢) في أ: «هذه أصوات الشياطين».

(١) في م: «وأصوات عالية».

(٣) المسند (٢/٣٥٣).

(٤) في م، ك: «لا يجدي».

(٥) زيادة من م.

(٦) زيادة من أ.

وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، قال: ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة.

وقال ابن جريج: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: إذا جاءت انشقت السماء^(١)، وانتثرت النجوم، وكورت الشمس، وسيرت الجبال، وكان ما قال الله، عز وجل^(٢)، فذلك ثقلها.

واختار ابن جرير، رحمه الله: أن المراد: ثَقُلَ علم وقتها على أهل السموات والأرض، كما قال^(٣) قتادة.

وهو كما قاله، كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْةٌ﴾، ولا ينفي ذلك ثقل مجيئها على أهل السموات والأرض، والله أعلم.

وقال السدي [في قوله تعالى]^(٤): ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول: خفيت في السموات والأرض، فلا يعلم قيامها حين تقوم ملك مقرب، ولا نبي مرسل.

﴿لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْةٌ﴾ [قال]^(٥): يبيغتهم قيامها، تأتيمهم على غفلة.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْةٌ﴾: قضى الله أنها ﴿لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْةٌ﴾. قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال^(٦): «إن الساعة تهيج بالناس، والرجل يصلح حوضه، والرجل يسقى ماشيته، والرجل يقيم سلعته في السوق ويخفض ميزانه ويرفعه»^(٧).

وقال البخاري: حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب، حدثنا أبو الزناد عن عبد الرحمن، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرأها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما^(٨) بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه. ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه. ولتقومن الساعة وهو يُلِيط حوضه فلا يسقى فيه. ولتقومن الساعة والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»^(٩).

وقال مسلم في صحيحه: حدثني زهير بن حرب، حدثنا سفيان بن عيينة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: «تقوم الساعة والرجل يحلب اللقحة، فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم الساعة. والرجلان^(١٠) يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم. والرجل يلوط حوضه فما يصدر حتى تقوم»^(١١).

وقوله [تعالى]^(١٢): ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾: اختلف المفسرون في معناه، فقل: معناه: كما قال^(١٣) العوفي عن ابن عباس: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ يقول: كأن بينك وبينهم مودة،

(١) في أ: «السموات».

(٢) في أ: «الله تعالى».

(٣) في م، أ: «قاله».

(٤) زيادة من أ.

(٥) في م: «كان يقول».

(٦) رواه الطبري في تفسيره (٢٩٧/١٣) والثعلبي في تفسيره كما في «تخريج أحاديث الكشاف» للزليعي (٤٧٥/١) وهو مرسل.

(٧) في م: «ثوباً».

(٨) صحيح البخاري برقم (٦٥٠٦).

(٩) في ك: «والرجل».

(١٠) زيادة من ك، م، أ.

(١١) صحيح مسلم برقم (٢٩٥٤).

(١٢) في ك، م، أ: «فقل معناه: كأنك حفي بها كما قال».

كأنك صديق لهم. قال ابن عباس: لما سأل الناس محمداً ﷺ عن الساعة، سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً حفي بهم، فأوحى الله إليه: إنما علمها عنده، استأثر بعلمها، فلم يطلع الله عليها ملكاً مقرباً ولا رسولاً.

وقال قتادة: قالت قريش لمحمد ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة، فأسر إلينا متى الساعة. فقال الله، عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾.

وكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وأبى مالك، والسدّي، وهذا قول. والصحيح عن مجاهد - من رواية ابن أبى نجيح وغيره -: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾، قال: استحفيت عنها السؤال، حتى علمت وقتها.

وكذا قال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ يقول: كأنك عالم بها، لست تعلمها، ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾.

وقال معمر، عن بعضهم: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾: كأنك عالم بها.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾: كأنك عالم بها، وقد أخفى الله علمها على خلقه، وقرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية [لقمان: ٣٤].

ولهذا القول أرجح فى المعنى من الأول، والله أعلم؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ولهذا لما جاء جبريل، عليه السلام، فى صورة أعرابى، يعلم الناس أمر دينهم، فجلس من رسول الله ﷺ مجلس السائل المسترشد، وسأله عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، ثم قال: فمتى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» أى: لست أعلم بها منك ولا أحد أعلم بها من أحد، ثم قرأ النبى ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية^(١).

وفى رواية: فسأله عن أشراط الساعة، ثم قال: «فى خمس لا يعلمهن إلا الله». وقرأ هذه الآية، وفى هذا كله يقول له بعد كل جواب: «صدقت»؛ ولهذا عجب الصحابة من هذا السائل يسأله ويصدق، ثم لما انصرف قال رسول الله ﷺ: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم^(٢) دينكم^(٣)».

وفى رواية قال: «وما أتانى فى صورة إلا عرفته فيها، إلا صورته هذه».

وقد ذكرت هذا الحديث بطرقه وألفاظه من الصحاح والحسان والمسانيد، فى أول شرح صحيح البخارى، والله الحمد والمنة^(٤).

ولما سأله ذلك الأعرابى وناداه بصوت جهورى فقال: يا محمد، قال له رسول الله ﷺ: هاء^(٥) -

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٠) ومسلم فى صحيحه برقم (٩).

(٢) فى م، أ: «يعلمكم أمر».

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٠) ومسلم فى صحيحه برقم (٩).

(٤) وانظر هذا المطلب فى: شرح الحافظ ابن حجر «فتح البارى» (١/ ١١٤).

(٥) فى أ: «هاؤم».

على نحو من صوته - قال: يا محمد، متى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: «ويحك! إن الساعة آتية، فما أعددت لها؟» قال: ما أعددت لها كبير^(١) صلاة ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله. فقال له رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب». فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث^(٢).

وهذا له طرق متعددة في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «المرء مع من أحب»^(٣)، وهي متواترة عند كثير من الحفاظ المتقنين.

ففيه أنه، عليه السلام، كان إذا سئل عن هذا الذي لا يحتاجون إلى عمله، أرشدهم إلى ما هو الأهم في حقهم، وهو الاستعداد لوقوع ذلك، والتهيؤ له قبل نزوله، وإن لم يعرفوا تعيين وقته.

ولهذا قال مسلم في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب قالوا: حدثنا أبو أسامة، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ، سألوه عن الساعة: متى الساعة؟ فنظر^(٤) إلى أحدث إنسان^(٥) منهم فقال: «إن يعيش هذا لم يدركه الهرم حتى قامت ساعتيكم»^(٦). يعنى بذلك موتهم الذي يفضى بهم إلى الحصول في برزخ الدار الآخرة.

ثم قال مسلم: وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا يونس بن محمد، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس؛ أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن الساعة، وعنده غلام من الأنصار يقال له محمد، فقال رسول الله ﷺ: «إن يعيش هذا الغلام فعسى ألا يدركه الهرم حتى تقوم الساعة». انفرد به مسلم^(٧).

وحدثنا حجاج بن الشاعر، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا معبد بن هلال العنزي^(٨)، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه؛ أن رجلاً سأل النبي ﷺ قال: متى الساعة؟ فسكت رسول الله ﷺ هنيهة، ثم نظر إلى غلام بين يديه من أزد شنوءة، فقال: «إن عُمَرَ هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة» - قال أنس: ذلك الغلام من أترابي^(٩).

وقال: حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن أنس قال: مر غلام للمغيرة بن شعبة - وكان من أقراني^(١٠) - فقال للنبي ﷺ: «إن يؤخر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة»^(١١).

(١) في أ: «كثير».

(٢) رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٦٣٩) من حديث أنس بن مالك، رضى الله عنه.

(٣) جاء من حديث أنس بن مالك وصفوان بن عسال وعبد الله بن مسعود وأبي موسى الأشعري: ..

أما حديث أنس بن مالك فهو السابق ذكره.

وأما حديث صفوان بن عسال فرواه الترمذي في السنن برقم (٣٥٣٥).

وأما حديث عبد الله بن مسعود فرواه البخاري في صحيحه برقم (٦١٦٩) ومسلم في صحيحه برقم (٢٦٤٠).

وأما حديث أبي موسى الأشعري فرواه البخاري في صحيحه برقم (٦١٧٠) ومسلم في صحيحه برقم (٢٦٤١).

(٤) في ك، م: «فينظر».

(٥) في ك، م: «أ: «أستان».

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٩٥٢).

(٧) صحيح مسلم برقم (٢٩٥٣).

(٨) في ك، م: أ: «سعيد بن أبي هلال المصري».

(٩) صحيح مسلم برقم (٢٩٥٣).

(١٠) في ك، م: «أترابي».

(١١) صحيح مسلم برقم (٢٩٥٣).

ورواه البخارى فى كتاب «الأدب» من صحيحه، عن عمرو بن عاصم، عن همام بن يحيى، عن قتادة، عن أنس؛ أن رجلا من أهل البادية قال: يا رسول الله، متى الساعة؟ فذكر الحديث، وفى آخره: «فمر غلام للمغيرة بن شعبة»، وذكره^(١).

وهذا الإطلاق فى هذه الروايات محمول على التقييد بـ «ساعتكم» فى حديث عائشة، رضى الله عنها.

وقال ابن جرير: أخبرنى أبو الزبير: أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ قبل^(٢) أن يموت بشهر، قال: «تسألونى عن الساعة، وإنما علمها عند الله. وأقسم بالله ما على ظهر الأرض اليوم من نفس منفوسة، تأتى عليها مائة سنة» رواه مسلم^(٣).

وفى الصحيحين، عن ابن عمر مثله، قال ابن عمر: وإنما أراد رسول الله ﷺ انخرام ذلك القرن. وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، أنبأنا العوام، عن جبلة بن سحيم، عن مؤثر بن عفازة^(٤)، عن ابن مسعود، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى»، قال: «فتذكروا أمر الساعة»، قال: «فردوا أمرهم إلى إبراهيم، عليه السلام، فقال: لا علم لى بها. فردوا أمرهم إلى موسى، فقال: لا علم لى بها. فردوا أمرهم إلى عيسى، فقال عيسى: أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله، عز وجل، وفيما عهد إلى ربى، عز وجل، أن الدجال خارج»، قال: «ومعى قضيبان، فإذا رأتى ذاب كما يذوب الرصاص»، قال: «فيهلكه الله، عز وجل، إذا رأتى، حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم، إن تحتى كافراً تعالى فاقتله». قال: «فيهلكهم الله، عز وجل، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم»، قال: «فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حذب ينسلون، فيطؤون بلادهم، لا يأتون على شىء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه»، قال: «ثم يرجع الناس إلى فيشكونهم، فأدعو^(٥) الله، عز وجل، عليهم فيهلكهم ويميتهم، حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم - أى: تنتن - قال: «فينزل الله المطر، فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم فى^(٦) البحر».

قال أحمد: قال يزيد بن هارون: ثم تنسف الجبال، وتمد الأرض مد الأديم - ثم رجع إلى حديث هشيم قال: ففيما عهد إلى ربى، عز وجل، أن ذلك إذا كان كذلك، فإن^(٨) الساعة كالحامل المتم لا يدرى أهلها متى تفجأهم بولادها^(٩) ليلا أو نهارا^(١٠).

ورواه ابن ماجه، عن بُندار عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب بسنده، نحوه^(١١).

فهؤلاء أكابر أولى العزم من المرسلين، ليس عندهم علم بوقت الساعة على التعيين، وإنما ردوا

(١) صحيح البخارى برقم (٦١٦٧). (٢) فى ك: «يقول قبل».

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٥٣٨).

(٤) فى م: «غفارة»، وفى ك: «عفان».

(٥) فى م: «عن النبى».

(٦) فى م: «وأدعوا».

(٧) فى أ: «إلى».

(٨) فى أ: «تكون».

(٩) فى د، ك: «بولادتها».

(١٠) المسند (٣٧٥/١).

(١١) سنن ابن ماجه برقم (٤٠٨١) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢٦١/٣): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، مؤثر بن عفازة ذكره ابن حبان فى الثقات، وباقي رجال الإسناد ثقات».

الأمر إلى عيسى عليه السلام، فتكلم على أشراطها؛ لأنه ينزل في آخر هذه الأمة منفذاً لأحكام رسول الله ﷺ، ويقتل المسيح الدجال، ويجعل الله هلاك يأجوج ومأجوج بركة دعائه، فأخبر بما أعلمه الله تعالى به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن أبي بكير^(١)، حدثنا عبيد الله بن إباد بن لقيط^(٢) قال: سمعت أبي يذكر عن حذيفة قال: سئل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال: «علمها عند ربى لا يُجَلِّها لوقتها إلا هو، ولكن سأخبركم^(٣) بمشاريطها، وما يكون بين يديها: إن بين يديها فتنة وهرجاً»، قالوا: يا رسول الله، الفتنة قد عرفناها، فالهرج ما هو؟ قال بلسان الحبشة: «القتل»^(٤). قال^(٥): «ويُلْقَى بين الناس التناكرُ، فلا يكاد أحد يعرف أحداً»^(٥). لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه.

وقال وكيع: حدثنا ابن أبي خالد، عن طارق بن شهاب، قال: كان رسول الله ﷺ لا يزال يذكر من شأن^(٦) الساعة حتى نزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ الآية [النازعات: ٤٢]. ورواه النسائي من حديث عيسى بن يونس، عن إسماعيل بن أبي خالد، به^(٧). وهذا إسناد جيد قوى.

فهذا النبي الأُمى سيد الرسل وخاتمهم [محمد]^(٨)، صلوات الله عليه وسلامه^(٩)، نبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملحمة، والعاقب والمُفَقَّى، والحاشر الذي تحشر^(١٠) الناس على قدميه، مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد، رضى الله عنهما: «بعثت أنا والساعة كهاتين»^(١١)، وقرن بين إصبعيه السبابة والتي تليها. ومع هذا كله، قد أمره الله تعالى أن يَرُدَّ علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٨٨).

أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب، ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾. [إلا من

(١) في م: «ملike».

(٢) في ك، م: «أخبركم».

(٣) في م: «وقال».

(٤) في م: «أمر».

(٥) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٤٥).

(٦) زيادة من م، أ.

(٧) في م: «ﷺ».

(٨) في م: «يُحْشَرُ».

(٩) في م: «يُحْشَرُ».

(١٠) في م: «يُحْشَرُ».

(١١) في م: «يُحْشَرُ».

(١٢) في م: «يُحْشَرُ».

(١٣) في م: «يُحْشَرُ».

(١٤) في م: «يُحْشَرُ».

(١٥) في م: «يُحْشَرُ».

ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا^(١) [الجن: ٢٦، ٢٧].

وقوله: ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتَ مِنَ الْخَيْرِ﴾: قال عبد الرزاق، عن الثوري، عن منصور، عن مجاهد. ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتَ مِنَ الْخَيْرِ﴾ قال: لو كنت أعلم متى أموت، لعملت عملاً صالحاً.

وكذلك روى ابن أبي نجيح عن مجاهد: وقال مثله ابن جريج.

وفيه نظر؛ لأن عمل رسول الله ﷺ كان ديمة. وفي رواية: كان إذا عمل عملاً أثبتته^(٢).

فجميع عمله كان على منوال واحد، كأنه ينظر إلى الله، عز وجل، في جميع أحواله، اللهم إلا أن يكون المراد أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك، والله أعلم.

والأحسن في هذا ما رواه الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتَ مِنَ الْخَيْرِ﴾ أي: من المال. وفي رواية: لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما^(٣) أربح فيه، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه، وما مسني السوء، قال: ولا يصيبني الفقر.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجيدة من المخصبة، ولعرفت^(٤) الغلاء من الرخص، فاستعددت له من الرخص.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ قال: لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون، واثقيته.

ثم أخبر أنه إنما هو نذير وبشير، أي: نذير من العذاب، وبشير للمؤمنين بالجنات، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسِرُنَا بِلسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠)﴾.

ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم، عليه السلام، وأنه خلق منه زوجه^(٥) حواء، ثم انتشر الناس منهما، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا [وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً]^(٦)﴾ الآية [النساء: ١].

(١) زيادة من م، أ.

(٢) رواه مسلم في صحيحه برقم (٧٨٣) من حديث عائشة، رضى الله عنها.

(٣) في أ: «ولوقت».

(٤) في م: «لما».

(٥) زيادة من م، أ.

(٦) في د: «زوجته».

وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أى: ليألفها ويسكن بها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، فلا ألفة بين زوجين أعظم مما بين الزوجين؛ ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أى: وطئها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾، وذلك أول الحمل، لا تجد المرأة له ألماً، إنما هي النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة.

وقوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قال مجاهد: استمرت بحمله. وروى عن الحسن، وإبراهيم النخعي، والسدي، نحوه.

وقال ميمون بن مهران: عن أبيه استخفته.

وقال أيوب: سألت الحسن عن قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قال: لو كنت رجلاً عريباً لعرفت ما هي. إنما هي: فاستمرت به.

وقال قتادة: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾، واستبان حملها.

وقال ابن جرير: [معناه]^(١): استمرت بالماء، قامت به وقعدت.

وقال العوفي، عن ابن عباس: استمرت به، فشكت: أحملت^(٢) أم لا.

﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ أى: صارت ذات ثقل^(٣) بحملها.

وقال السدي: كبر الولد في بطنها.

﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا﴾ أى: بشرا سويا، كما قال الضحاك، عن ابن عباس: أشفقا أن يكون بهيمة.

وكذلك^(٤) قال أبو البختري وأبو مالك: أشفقا ألا يكون إنساناً.

وقال الحسن البصري: لئن آتينا غلاماً.

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾. فلما آتاهما صالحاً جعلاً له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون،

ذكر المفسرون هاهنا آثاراً وأحاديث ساوردها وأبين ما فيها، ثم نتبع ذلك ببيان الصحيح في ذلك، إن شاء الله وبه الثقة.

قال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عمر بن إبراهيم، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن سمرة، عن النبي ﷺ^(٥) قال: «ولما ولدت حواء طاف بها إبليس - وكان لا يعيش لها ولد - فقال: سمّيه عبد الحارث؛ فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث، فعاش وكان ذلك من وحي

(١) زيادة من أ.

(٢) في د، ك، م، أ: «أجلت».

(٣) في م: «أثقل».

(٤) في أ: «وكذا».

(٥) في د: «رسول الله».

الشیطان وأمره».

وهكذا رواه^(١) ابن جریر، عن محمد بن بشار، بُنْدَار، عن عبد الصمد بن عبد الوارث، به.

ورواه الترمذی فی تفسیره^(٢) هذه الآية عن محمد بن المثني، عن عبد الصمد، به وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم، عن قتادة، ورواه بعضهم عن عبد الصمد، ولم يرفعه.

ورواه الحاكم فی مستدرکه، من حديث عبد الصمد مرفوعاً ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

ورواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم فی تفسیره، عن أبي زُرْعَةَ الرازي، عن هلال بن فياض، عن عمر بن إبراهيم، به مرفوعاً.

وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فی تفسیره من حديث شاذ بن فياض، عن عمر بن إبراهيم، به مرفوعاً^(٣).

قلت: «وشاذ» [هذا]^(٤)، هو: هلال، وشاذ لقبه. والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصري، وقد وثقه ابن معين، ولكن قال أبو حاتم الرازي: لا يحتج به. ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر، عن أبيه، عن الحسن، عن سمرة^(٥)، مرفوعاً فالله أعلم.

الثاني: أنه قد روى من قول سمرة نفسه، ليس مرفوعاً، كما قال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر، عن أبيه. وحدثنا ابن عليه^(٦)، عن سليمان التيمي، عن أبي العلاء بن الشخير، عن سمرة بن جندب، قال: سمى آدم ابنه «عبد الحارث».

الثالث: أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً، لما عدل عنه.

قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا سهل بن يوسف، عن عمرو، عن الحسن: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾، قال: كان هذا في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم^(٧).

حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن معمر قال: قال الحسن: عنى بها ذرية آدم، ومن أشرك منهم بعده - يعنى: [قوله]^(٨): ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾^(٩).

(١) فى أ: «وروى». (٢) فى د، ك، م، أ: «تفسير».

(٣) المسند (١١/٥) وتفسير الطبرى (٣٠٩/١٣)، وسنن الترمذى برقم (٣٠٧٧)، والمستدرک (٥٤٥/٢).

(٤) زيادة من أ. (٥) فى أ: «حمزة». (٦) فى د، ك، م: «بكر بن عبد الله».

(٧) تفسير الطبرى (٣١٤/١٣).

(٨) زيادة من ك، م، أ.

(٩) تفسير الطبرى (٣١٤/١٣).

وحدثنا بشر^(١)، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً، فهوّدوا ونصّروا^(٢).

وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن، رحمه الله، أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت^(٣) عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ، لما عدل عنه هو ولا غيره، لا سيما مع تقواه لله وورعه، فهذا يدل على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب، من آمن منهم، مثل: كعب أو وهب بن منبه وغيرهما، كما سيأتي بيانه إن شاء الله [تعالى]^(٤)، إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع، والله أعلم.

فأما^(٥) الآثار فقال محمد بن إسحاق بن يسار، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم، عليه السلام، أولاداً فيُعبدّهم لله ويُسمّيه: «عبد الله» و«عبيد الله»، ونحو ذلك، فيصيبهم الموت فأتاها إبليس وآدم فقال: إنكما لو تُسميان به غير الذي تسميان به لعاش^(٦)، قال: فولدت له رجلاً^(٧) فسماه «عبد الحارث»، ففيه أنزل الله، يقول الله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ إلى آخر الآية.

وقال العوفي، عن ابن عباس قوله في آدم: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾، شكّت^(٨): أحبكت أم لا؟ ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، فأتاهما الشيطان، فقال: هل تدریان ما يولد لكما؟ أم هل تدریان ما يكون؟ أبهيمه^(٩) يكون أم لا؟ وزين لهما الباطل؛ إنه غوى مبین، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا، فقال لهما الشيطان: إنكما إن لم تسمياه بى، لم يخرج سوياً، ومات كما مات الأولان^(١٠)، فسميا ولدهما «عبد الحارث»، فذلك قول الله [تعالى]^(١١): ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ الآية.

وقال عبد الله بن المبارك، عن شريك، عن خُصيف، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ قال: قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ آدم ﴿حَمَلَتْ [حَمَلاً خَفِيفًا]﴾^(١٢)، فأتاهما إبليس - لعنه الله - فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعنني أو لأجعلنَّ قرني له^(١٣) أيل فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلنَّ ولأفعلنَّ - يخوفهما - فسمياه «عبد الحارث» فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً، ثم حملت الثانية، فأتاهما أيضاً فقال: أنا صاحبكما الذي فعلت ما فعلت، لتفعلنَّ أو لأفعلنَّ - يخوفهما - فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً، ثم حملت الثالثة فأتاهما أيضاً، فذكر لهما، فأدركهما حبُّ الولد، فسمياه «عبد الحارث»، فذلك قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ رواه ابن أبي حاتم.

(١) فى أ: «بشير».

(٢) تفسير الطبرى (٣١٥/١٣).

(٤) زيادة من م.

(٣) فى أ: «ما دلت».

(٧) فى أ: «ولداً».

(٦) فى ك: «فعاش».

(٥) فى د، م: «وأما».

(١٠) فى ك، م، أ: «الأول».

(٩) فى ك: «بهيمه».

(٨) فى م، أ: «فشكت».

(١٣) فى م، ك: «له قرن».

(١٢) زيادة من أ.

(١١) زيادة من ك.

وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه، كمجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة. ومن الطبقة الثانية: قتادة، والسدي، وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف، ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة، وكأنه - والله أعلم - أصله مأخوذ من أهل الكتاب، فإن ابن عباس رواه عن أبي بن كعب، كما رواه ابن أبي حاتم:

حدثنا أبي، حدثنا أبو الجماهر^(١)، حدثنا سعيد - يعنى ابن بشير - عن عقبة، عن قتادة، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب قال: لما حملت حواء أتاها الشيطان، فقال^(٢) لها: أتطيعينى ويسلم لك ولدك؟ سمي «عبد الحارث»، فلم تفعل، فولدت فمات، ثم حملت فقال لها مثل ذلك، فلم تفعل. ثم حملت الثالث فجاءها فقال: إن تطيعينى يسلم، وإلا فإنه يكون بهيمة، فهيهما فأطاعا.

وهذه الآثار يظهر عليها - والله أعلم - أنها من آثار أهل الكتاب، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا حدّثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم»، ثم أخبرهم على ثلاثة أقسام: فمنها: ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله. ومنها ما علمنا كذبه، بما دلّ على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً. ومنها: ما هو مسكوت عنه، فهو المأذون فى روايته، بقوله، عليه السلام: «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج» وهو الذى لا يصدق ولا يكذب، لقوله: «فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم». وهذا الأثر: [هل]^(٣) هو من القسم الثانى أو الثالث؟ فيه نظر. فأما من حدث به من صحابى أو تابعى، فإنه يراه من القسم الثالث، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصرى، رحمه الله، فى هذا [والله أعلم]^(٤)، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته؛ ولهذا قال الله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ثم قال:

﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨)﴾.

(٢) فى م، ك: «قال».

(٤) زيادة من ك.

(١) فى أ: «أبو الجماهير».

(٣) زيادة من ك، م، أ.

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، من الأنداد والأصنام والأوثان، وهى مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئاً من الأمر، ولا تضر ولا تنفع، [ولا تنصر]^(١) ولا تنتصر لعابديها، بل هى جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم؛ ولهذا قال: ﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أى: أتشركون^(٢) به من المعبودات ما لا يخلق شيئاً ولا يستطيع ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلُ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ. مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤]، أخبر تعالى أنه لو اجتمعت آلهتهم كلها، ما استطاعوا خلق ذبابة، بل لو استلبتهم^(٣) الذبابة شيئاً من حقير المطاعم^(٤) وطارت، لما استطاعوا إنقاذ ذلك منها، فمن هذه صفته وحاله، كيف يعبد ليرزق ويستنصر؟ ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أى: بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْنِتُونَ﴾ [والله خلقكم وما تعملون]^(٥) [الصفات: ٩٥، ٩٦].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصراً﴾ أى: لعابديهم ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ يعنى: ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء، كما كان الخليل، عليه الصلاة والسلام، يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الإهانة، كما أخبر تعالى عنه فى قوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾ [الصفات: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جَذَآئِلاً إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨]، وكما كان معاذ بن عمرو ابن الجموح ومعاذ بن جبل، رضى الله عنهما - وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة - فكانا يعدوان فى الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للأرامل، ليعتبر قومهما بذلك، ويرثوا لأنفسهم، فكان لعمر بن الجموح - وكان سيداً فى قومه - كان له صنم يعبد به ويطيعه، فكانا يجيئان فى الليل فينكسانه على رأسه، ويلطخان بالعدرة، فيجىء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله ويطيعه ويضع عنده سيفاً، ويقول له: «انتصر». [ثم]^(٦) يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه أيضاً، حتى أخذه مرة فقرنا معه جرو كلب ميت، ودلياه فى حبل فى بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل، وقال:

تَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ إِلَٰهًا مُسْتَدَنٌ لَّمْ تَكُ الْكَلْبُ جَمِيعًا فِي قَرْنٍ^(٧)

ثم أسلم فحُسن إسلامه، وقتل يوم أحد شهيداً، رضى الله عنه وأرضاه، وجعل جنة الفردوس مأواه. وقوله: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ [سواء عليكم أَدْعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ]^(٨). يعنى: أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن دحأها، كما قال إبراهيم: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ [مريم: ٤٢]؟

ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها، أى: مخلوقات مثلهم، بل الأناسى أكمل منها، لأنها

(٣) فى د: «سلبتهم».

(٢) فى م، أ: «أيشركون».

(١) زيادة من د، ك، م، أ.

(٦) زيادة من د، م، أ.

(٥) زيادة من د، ك، م، أ. وفى هـ: «الآية».

(٤) فى د، م: «الطعام».

(٧) انظر: الرجز فى السيرة النبوية لابن هشام (١/٣٥٤).

(٨) زيادة من أ، وفى هـ: «الآية».

تسمع وتبصر وتبطلش، وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك.

وقوله: ﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ﴾^(١) أى: استنصروا بها على، فلا تؤخروني طرفة عين، واجهدوا جهدكم! ﴿إِنَّ وَلِيَیَ اللّٰهُ الَّذِیْ نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ أى: الله حسبي وكافى، وهو نصيرى، وعليه متكلى، وإليه ألتجأ، وهو وليى فى الدنيا والآخرة، وهو ولي كل صالح بعدى. وهذا كما قال هود، عليه السلام، لما قال له قومه: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّیْ أُشْهِدُ اللّٰهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّیْ بَرِیْءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِیْ جَمِیعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ . إِنِّیْ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّٰهِ رَبِّیْ وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِیَتِهَا إِنَّ رَبِّیْ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِیْمٍ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦]، وكقول الخلیل [عليه السلام]^(٢): ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّیَ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِیْنَ . الَّذِیْ خَلَقَنِیْ فَهُوَ یَهْدِیْنِیْ وَالَّذِیْ هُوَ یُطْعِمُنِیْ وَیَسْقِیْنِ . وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ یَشفِیْنِیْ﴾^(٣) الآيات [الشعراء: ٧٥ - ٨٠]، وكقوله لأبيه وقومه: ﴿إِنِّیْ بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِیْ فَطَرَنِیْ فَإِنَّهُ سَیَهْدِیْنِیْ . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِیَةً فِیْ عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٨].

وقوله: ﴿وَالَّذِیْنَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ إلى آخر الآية، مؤكداً لما تقدم، إلا أنه بصيغة الخطاب، وذلك بصيغة الغيبة؛ ولهذا قال: ﴿لَا یَسْتَطِیْعُونَ نَصْرُكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ یَنْصُرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا یَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ یَنْظُرُونَ إِلَیْكَ وَهُمْ لَا یُصِرُّونَ﴾، كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا یَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ [وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَیَوْمَ الْقِیَامَةِ یَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا یُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِیْرٍ]﴾^(٤) [فاطر: ١٤].

وقوله: ﴿وَتَرَاهُمْ یَنْظُرُونَ إِلَیْكَ وَهُمْ لَا یُصِرُّونَ﴾، إنما قال: ﴿یَنْظُرُونَ إِلَیْكَ﴾ أى: یقابلونك بعیون مصورة كأنها ناظرة، وهى جماد؛ ولهذا عاملهم معاملة من یعقل؛ لأنها على صور مصورة كالإنسان، [فقال]^(٥): ﴿وَتَرَاهُمْ یَنْظُرُونَ إِلَیْكَ﴾ فعبّر عنها بضمیر من یعقل.

وقال السدى: المراد بهذا^(٦) المشركون وروى عن مجاهد نحوه. والأول أولى، وهو اختیار ابن جریر، وقاله قتادة.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِیْنَ (١٩٩) وَإِمَّا یَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّیْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ إِنَّهُ سَمِیعٌ عَلِیْمٌ (٢٠٠)﴾.

قال على بن أبی طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ یعنی: خذ ما عفا لك من أموالهم، وما أتوك به من شئ فخذ. وكان هذا قبل أن تنزل «براءة» بفرائض الصدقات وتفصيلها، وما انتهت إليه الصدقات. قاله السدى.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾: أنفق الفضل. وقال سعيد^(٧) بن جبیر عن ابن عباس: قال: الفضل.

(٤) زیادة من أ. وفى هـ: «الآية».

(٧) فى م: «حمید».

(٢، ٣) زیادة من أ.

(٦) فى أ: «بها».

(١) زیادة من د، ك، م، أ، وفى هـ: «الآية».

(٥) زیادة من د، أ.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾: أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين، ثم أمره بالغلظة عليهم. واختار هذا القول ابن جرير.

وقال غير واحد، عن مجاهد فى قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال: من أخلاق الناس وأعمالهم بغير تحسس^(١).

وقال هشام بن عروة، عن أبيه: أمر الله رسوله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. وفى رواية قال: خذ ما عفا لك من أخلاقهم.

وفى صحيح البخارى، عن هشام، عن أبيه عروة، عن أخيه^(٢) عبد الله بن الزبير قال: إنما أنزل^(٣): ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ من أخلاق الناس^(٤). وفى رواية لغيره: عن هشام، عن أبيه، عن ابن عمر. وفى رواية: عن هشام، عن أبيه، عن عائشة أنهما قالا مثل ذلك^(٥)، والله أعلم.

وفى رواية سعيد بن منصور، عن أبى معاوية، عن هشام، عن وهب بن كيسان، عن ابن الزبير: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال: من أخلاق الناس، والله لأأخذنه منهم ما صحبتهم. وهذا أشهر الأقوال، ويشهد له ما رواه ابن جرير وابن أبى حاتم جميعا: حدثنا يونس حدثنا سفيان - هو ابن عيينة - عن أمى قال: لما أنزل الله، عز وجل، على نبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ قال رسول الله ﷺ: «ما هذا يا جبريل؟» قال: إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطى من حرمك، وتصل من قطعك.

وقد رواه ابن أبى حاتم أيضا، عن أبى يزيد القراطيسى كتابة، عن أصبغ بن الفرج، عن سفيان، عن أمى عن الشعبي. نحوه، وهذا - على كل حال - مرسل، وقد روى له شاهد^(٦) من وجوه آخر، وقد روى مرفوعا عن جابر وقيس بن سعد بن عباد، عن النبى ﷺ، أسندهما ابن مردويه^(٨).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا معاذ بن رفاع، حدثنى على بن يزيد، عن القاسم، عن أبى أمامة الباهلى، عن عقبة بن عامر، رضى الله عنه، قال: لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته، فأخذت بيده، فقلت: يا رسول الله، أخبرنى بفواضل الأعمال. فقال: «يا عقبة، صل من قطعك، واعط من حرمك، وأعرض عمن ظلمك».

وروى الترمذى نحوه، من طريق عبيد الله بن زحر^(٩)، عن على بن يزيد، به. وقال: حسن^(١٠).

قلت: ولكن «على بن يزيد» وشيخه «القاسم أبو عبد الرحمن»، فيهما ضعف.

(١) فى د، ك، م: «تحسيس»، وفى أ: «تحسيس».

(٢) فى أ: «عن أبيه».

(٣) فى أ: «أنزل الله».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٦٤٣، ٤٦٤٤).

(٥) قال الحافظ ابن حجر فى «فتح البارى» (٣٠٥/٨): «وقال عبيد الله بن عمر، عن هشام، عن أبيه، عن ابن عمر، أخرجه البزار والطبرانى وهى شاذة، وكذا رواية حماد بن سلمة، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة عند ابن مردويه».

(٦) فى أ: «عن أبى».

(٧) فى ك، م: «شواهد».

(٨) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦٢٨/٣).

(٩) فى م: «أحمد»، وفى أ: «نحر».

(١٠) المسند (١٤٨/٤) وسنن الترمذى برقم (٢٤٠٦).

وقال البخارى قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ «العرف»: المعروف. حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، أن ابن عباس قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس - وكان من النفر الذين يدينهم عمر - وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته - كُهِولاً كانوا أو شبانا - فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخى، لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لى عليه. قال: سأستأذن لك عليه. قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر [رضى الله عنه]^(١)، فلما دخل عليه قال: هى يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، قال الله لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾. وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله، عز وجل. انفرد بإخراجه البخارى^(٢).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أخبرنا ابن وهب، أخبرني مالك بن أنس، عن عبد الله بن نافع؛ أن سالم بن عبد الله بن عمر مر على غير لأهل الشام وفيها جرس، فقال: إن هذا منهى عنه، فقالوا: نحن أعلم بهذا منك، إنما يكره الجُلُجُلُ الكبير، فأما مثل هذا فلا بأس به. فسكت سالم وقال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

وقول البخارى: «العرف»: المعروف» نص عليه عروة بن الزبير، والسُدِّي، وقتادة، وابن جرير، وغير واحد. وحكى ابن جرير أنه يقال: أوليته عرفاً، وعارفاً، وعارفة، كل ذلك بمعنى: «المعروف». قال: وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف، ويدخل فى ذلك جميع الطاعات، وبالإعراض عن الجاهلين، وذلك وإن كان أمراً لنبيه ﷺ فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم، لا بالإعراض عمن جهل الحق الواجب من حق الله، ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته، وهو للمسلمين حرب.

وقال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة فى قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ قال: هذه أخلاق أمر الله [عز وجل]^(٣) بها نبيه ﷺ، ودله عليها.

وقد أخذ بعض الحكماء هذا المعنى، فسبكه فى بيتين فيهما جناس فقال:

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِعُرْفِ كَمَا أُمِرْتَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ
وَكُنْ فِي الْكَلَامِ لِكُلِّ الْأَنَامِ فَمُسْتَحْسَنٌ مِنْ ذَوَى الْجَاهِ لِينَ

وقال بعض العلماء: الناس رجلان: فرجل محسن، فخذ ما عفا لك من إحسانه، ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يجرجه. وإما مسيء، فمره بالمعروف، فإن تمادى على ضلاله، واستعصى عليك، واستمر فى جهله، فأعرض عنه، فلعل ذلك أن يرد كيده، كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ. وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ. وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾

(١) زيادة من أ.

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٦٤٢).

(٣) زيادة من أ.

[المؤمنون: ٩٦ - ٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلْقَاهَا﴾ أى هذه الرصية ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٦]، وقال فى هذه السورة الكريمة أيضاً: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فهذه الآيات الثلاث فى «الأعراف» و«المؤمنون» و«حم السجدة»، لا رابع لهن، فإنه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصى من الإنس بالمعروف والتي هى أحسن، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾. ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان، فإنه لا يكفه^(١) عنك الإحسان، وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية، فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك. قال ابن جرير فى تفسير قوله: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾: وإما يُغْضِبَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهلين^(٢)، ويحملك على مجازاتهم ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾، يقول: فاستجِر بالله من نزغه ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، يقول: إن الله الذى تستعيز به من نزغ الشيطان سميع لجهل الجاهل عليك، والاستعاذة به من نزغه، ولغير ذلك من كلام خلقه، لا يخفى عليه منه شىء، عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان، وغير ذلك من أمور خلقه.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما نزل: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ قال رسول الله ﷺ: «يارب، كيف بالغضب؟»، فأنزل الله: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٣).

قلت: وقد تقدم فى أول الاستعاذة حديث الرجلين اللذين تسابا بحضرة النبى ﷺ، فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتمزغ غضباً، فقال رسول الله ﷺ: «إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». ف قيل له، فقال: ما بى من جنون^(٤).

وأصل «النزغ»: الفساد، إما بالغضب أو غيره، قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣]، و«العياذ»: الالتجاء والاستناد والاستجارة من الشر، وأما «الملاذ» ففى طلب الخير، كما قال أبو الطيب [الحسن بن هانى]^(٥) المتنبي:

يَا مَنْ أَلَوْذُ بِهِ فِيمَا أَوْمَلُهُ وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّا أَحَاذَرُهُ
لَا يَجْبِرُ النَّاسَ عَظْماً أَنْتَ كَاسِرُهُ وَلَا يَهَيِّضُونَ عَظْماً أَنْتَ جَابِرُهُ^(٦)

وقد قدمنا أحاديث الاستعاذة فى أول التفسير، بما أغنى عن إعادته هاهنا.

(١) فى ك، م: «لا يكفيه»، وفى أ: «لا يكفيك».

(٢) فى د، ك، م: «الجاهل».

(٣) تفسير الطبرى (١٣/٣٣٣).

(٤) انظر: الحديث وتخريجه فى الكلام على الاستعاذة.

(٥) زيادة من ك، م، أ.

(٦) ديوان المتنبي (٢/٢٧٢).

قال الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (١١/٢٧٥): «وقد بلغنى عن شيخنا العلامة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، رحمه الله، أنه كان ينكر على المتنبي هذه المبالغة فى مخلوق ويقول: إنما يصلح لجناب الله سبحانه وتعالى. وأخبرنى العلامة شمس الدين بن القيم، رحمه الله، أنه سمع الشيخ تقي الدين المذكور يقول: ربما قلت هذين البيتين فى السجود، ادعوا الله بما تضمناه من الذل والخضوع».

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (٢٠١)
وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ (٢٠٢).

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زجر، أنهم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ أى: أصابهم «طيف» وقرأ آخرون: «طائف»، وقد جاء فيه حديث، وهما قراءتان مشهورتان، فقيل: بمعنى واحد. وقيل: بينهما فرق، ومنهم من فسر ذلك بالغضب، ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصرع ونحوه، ومنهم من فسره بالهم بالذنب، ومنهم من فسره بإصابة الذنب.

وقوله: ﴿تَذَكَّرُوا﴾ أى: عقاب الله وجزيل ثوابه، ووعدته ووعدته، فتأبوا وأتابوا، واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب. ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ أى: قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه.

وقد أورد^(١) الحافظ أبو بكر بن مردويه هاهنا حديث محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ وبها طيف فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يشفيني. فقال: «إن شئت دعوت الله فشفاك، وإن شئت فاصبري ولا حساب عليك». فقالت: بل أصبر، ولا حساب على.

ورواه غير واحد من أهل السنن، وعندهم: قالت^(٣): يا رسول الله، إنى أصرع وأتكشف، فادع الله أن يشفيني. فقال^(٤): «إن شئت دعوت الله أن يشفيك، وإن شئت صبرت ولك الجنة؟» فقالت: بل أصبر، ولئى الجنة، ولكن^(٥) ادع الله ألا أتكشف، فدعا لها، فكانت لا تتكشف.

وأخرجه الحاكم فى مستدركه، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه^(٦).

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة «عمرو بن جامع» من تاريخه: أن شاباً كان يتعبد فى المسجد، فهو به امرأة، فدعته إلى نفسها، وما^(٧) زالت به حتى كاد يدخل معها المنزل، فذكر هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾، فخر مغشياً عليه، ثم أفاق فأعادها، فمات. فجاء عمر فغزى فيه أباه^(٨)، وكان قد دفن ليلاً، فذهب فصلى على قبره بمن معه، ثم ناداه عمر فقال: يا فتى^(٩)، ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وأجابه الفتى من داخل القبر: يا عمر، قد أعطانيهما ربى، عز وجل، فى الجنة مرتين^(١٠).

وقوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ أى: وإخوان الشياطين من الإنس، كقوله: ﴿إِنَّ الْمُبْذَرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧]، وهم أتباعهم والمستمعون^(١١) لهم القابلون^(١٢) لأوامرهم ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ أى: تساعدتهم الشياطين على [فعل]^(١٣) المعاصى، وتسهلها عليهم وتحسنها لهم.

(٣) فى م، أ: «فقلت».

(٢) فى أ: «رسول الله».

(١) فى ك: «روى».

(٥) فى أ: «ولكن يا رسول الله».

(٤) فى أ: «فقال رسول الله ﷺ».

(٦) المستدرک (٤/٢١٨).

(٨) فى أ: «أهله».

(٧) فى د: «فما».

(٩) فى د، ك، أ: «يا فلان».

(١٠) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/٤١١، ٤١٢) «القسم المخطوط». ومختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٩/١٩٠، ١٩١).

(١٣) زيادة من أ.

(١٢) فى أ: «القابلون».

(١١) فى ك، م، أ: «المستمعون».

وقال ابن كثير: المد: الزيادة. يعنى: يزدونهم فى الغنى، يعنى: الجهل والسفه.

﴿ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ﴾ قيل: معناه: إن الشياطين تمد، والإنس لا تقصر فى أعمالهم بذلك. كما قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ﴾ قال: لا الإنس يقصرون عما يعملون من السيئات، ولا الشياطين تمسك عنهم.

قيل: معناه كما رواه العوفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ﴾ قال: هم الجن، يوحون إلى أوليائهم من الإنس ﴿ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ﴾ يقول: لا يسأمون.

وكذا قال السدى وغيره: يعنى: أن الشياطين يمدون أولياءهم من الإنس ولا تسأم من إمدادهم فى الشر؛ لأن ذلك طبيعة لهم وسجية، لا تفتر فيه ولا تبطل عنه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣] قال ابن عباس وغيره: تزعجهم إلى المعاصى إزعاجا.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَايَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٠٣).

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: لولا تلقيتها. وقال مرة أخرى: لولا أحدثتها فأنشأتها.

وقال ابن جرير^(١)، عن عبد الله بن كثير، عن مجاهد فى قوله [تعالى]^(٢): ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَايَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ قال: لولا اقتضيتها، قالوا: تخرجها من نفسك. وكذا قال قتادة، والسدى، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير.

وقال العوفى، عن ابن عباس [رضى الله عنه]^(٣): ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: تلقيتها من الله، عز وجل^(٤).

وقال الضحاك: ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَايَةٌ﴾ أى: معجزة، وخارق، كما قال تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُنزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]، يقولون للرسول ﷺ: ألا تجهد نفسك فى طلب الآيات [من الله]^(٥) حتى نراها ونؤمن بها، قال الله تعالى له: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ أى: أنا لا أتقدم إليه تعالى فى شىء، وإنما أتبع ما أمرنى به فأمثل ما يوحىه إلى، فإن بعث آية قبلتها، وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها؛ إلا أن يأذن لى فى ذلك، فإنه حكيم عليم.

ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات، وأبين الدلالات، وأصدق الحجج والبيانات، فقال: ﴿هَذَا بَصَائرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

(٣) زيادة من أ.

(٢) زيادة من ك، أ.

(٥) زيادة من م.

(١) فى د، أ: «جريج».

(٤) فى د، ك، أ: «تعالى».

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٠٤) ﴿

لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة، أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظماً له واحتراماً، لا كما كان يعتمد كفار قريش المشركون^(١) في قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾^(٢) [فصلت: ٢٦]، ولكن يتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة كما ورد الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه، من حديث أبي موسى الأشعري، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا»^(٣)، وكذلك رواه أهل السنن من حديث أبي هريرة^(٤)، وصححه مسلم بن الحجاج أيضاً، ولم يخرج في كتابه^(٥). وقال إبراهيم بن مسلم الهجري، عن أبي عياض، عن أبي هريرة قال: كانوا يتكلمون في الصلاة، فلما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾^(٦)، والآية الأخرى، أمروا بالإنصات^(٧).

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن عاصم، عن المسيب بن رافع، قال ابن مسعود: كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة: سلام على فلان، وسلام على فلان، فجاء القرآن: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وقال أيضاً: حدثنا أبو كريب، حدثنا المحاربي، عن داود بن أبي هند، عن بشير بن جابر قال: صلى ابن مسعود، فسمع ناساً يقرؤون مع الإمام، فلما انصرف قال: أما آن لكم أن تفهموا؟ أما آن لكم أن تعقلوا؟ ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾، كما أمركم^(٨) الله^(٩).

قال: وحدثني أبو السائب، حدثنا حفص، عن أشعث، عن الزهري قال: نزلت هذه الآية في فتى من الأنصار، كان رسول الله ﷺ كلما قرأ شيئاً قرأه، فنزلت: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾.

وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن، من حديث الزهري، عن ابن أكيمة الليثي، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة، فقال: «هل قرأ أحد منكم معي أنا؟» قال رجل: نعم يا رسول الله. قال^(١٠): «إني أقول: ما لى أنازع القرآن؟» قال: فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه رسول الله ﷺ بالقراءة من الصلوات^(١١)، حين سمعوا ذلك من

(١) في أ: «المشركين».

(٢) زيادة من د.

(٣) صحيح مسلم برقم (٤٠٤).

(٤) رواه النسائي في السنن (١٤١/٢)، وابن ماجه في السنن برقم (٨٤٦).

(٥) انظر الكلام على هذه الزيادة في: سورة الفاتحة.

(٦) زيادة من م.

(٧) رواه الطبري في تفسيره (٣٤٥/١٣).

(٨) في أ: «كما أمر».

(٩) تفسير الطبري (٣٤٦/١٣).

(١٠) في د: «الصلاة».

(١١) في ك، م: «فقال».

رسول الله ﷺ (١).

وقال الترمذی: «هذا حديث حسن». وصححه أبو حاتم الرازی.

وقال عبد الله بن المبارك، عن يونس، عن الزهري قال: لا يقرأ من وراء الإمام فيما يجهر به الإمام، تكفيهم قراءة الإمام وإن لم يسمعهم صوته، ولكنهم يقرؤون فيما لا يجهر به سرّاً في أنفسهم، ولا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سرّاً ولا علانية، فإن الله تعالى قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

قلت: هذا مذهب طائفة من العلماء: أن المأموم لا يجب عليه في الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام لا الفاتحة ولا غيرها، وهو أحد قولی الشافعی، وهو القديم كمذهب مالك، ورواية عن أحمد بن حنبل، لما ذكرناه من الأدلة المتقدمة. وقال في الجديد: يقرأ الفاتحة فقط في سككات الإمام، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم. وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: لا يجب على المأموم قراءة أصلاً في السرية ولا الجهرية، لما ورد في الحديث: «من كان له إمام فقراءته له قراءة». وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن جابر مرفوعاً، وهو في موطأ مالك عن وهب بن كيسان، عن جابر موقوفاً، وهذا أصح. وهذه المسألة مبسطة في غير هذا الموضع (٢)، وقد أفرد لها الإمام أبو عبد الله البخاري مصنفاً على حدة (٣)، واختار وجوب القراءة خلف الإمام في السرية والجهرية أيضاً، والله أعلم.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ يعني: في الصلاة المفروضة. وكذا روى عن عبد الله بن المغفل.

وقال ابن جرير: حدثنا حميد بن مسعدة، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا الجريري، عن طلحة بن عبيد الله بن كريب قال: رأيت عبيد بن عمير وعطاء بن أبي رباح يتحدثان، والقاص يقص، فقلت: ألا تسمعان إلى الذكر وتستوجبان الموعود؟ قال: فنظرا إلى، ثم أقبلا على حديثهما. قال: فأعدت (٤)، فنظر إلى، وأقبلا (٥) على حديثهما. قال: فأعدت الثالثة، قال: فنظرا إلى فقالا: إنما ذلك في الصلاة: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾.

وقال سفيان الثوري، عن أبي هاشم إسماعيل بن كثير، عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ قال: في الصلاة. وكذا رواه غير واحد عن مجاهد.

وقال عبد الرزاق، عن الثوري، عن ليث، عن مجاهد قال: لا بأس إذا قرأ الرجل في غير الصلاة أن يتكلم.

(١) المسند (٣٠١/٢) وسنن أبي داود برقم (٨٢٦) وسنن الترمذی برقم (٣١٢) وسنن النسائي (١٤٠/٢) وسنن ابن ماجه برقم (٨٤٨).

(٢) انظر الكلام مبسوطاً في: مقدمة سورة الفاتحة.

(٣) سماه «جزء القراءة خلف الإمام» مطبوع في مؤسسة الرسالة ببيروت.

(٤) في أ: «فأعدت الكلام». (٥) في أ: «ثم أقبلا».

وكذا قال سعيد بن جبير، والضحاك، وإبراهيم النخعي، وقتادة، والشعبي، والسدي، وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم: أن المراد بذلك في الصلاة.

وقال شعبة، عن منصور، سمعت إبراهيم بن أبي حرة يحدث أنه سمع مجاهدا يقول في هذه الآية: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ قال: في الصلاة والخطبة يوم الجمعة.

وكذا روى ابن جريج^(١)، عن عطاء، مثله.

وقال هشيم، عن الربيع بن صبيح، عن الحسن قال: في الصلاة وعند الذكر.

وقال ابن المبارك، عن بَقِيَّة: سمعت ثابت بن عجلان يقول: سمعت سعيد بن جبير يقول في قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ قال: الإنصات يوم الأضحى، ويوم الفطر، ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام من الصلاة.

وهذا اختيار ابن جرير أن المراد بذلك [الإنصات في الصلاة وفي الخطبة؛ لما جاء في الأحاديث من الأمر بالإنصات]^(٢) خلف الإمام وحال الخطبة.

وقال عبد الرزاق، عن الثوري، عن ليث، عن مجاهد أنه كره إذا مر الإمام بآية خوف أو بآية رحمة أن يقول أحد من خلفه شيئا، قال: السكوت.

وقال مبارك بن فضالة، عن الحسن: إذا جلست إلى القرآن، فأنصت له.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم، حدثنا عباد بن ميسرة، عن الحسن، عن أبي هريرة، رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله، كتبت له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة». تفرد به أحمد^(٣)، رحمه الله.

﴿وَإِذْ أَوْفَىٰ بِرَبِّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦)﴾.

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]. وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، وهذه الآية مكية.

وقال هاهنا بالغدو - وهو أوائل النهار: ﴿وَالْآصَالِ﴾: جمع أصيل، كما أن الأيمان جمع يمين.

وأما قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أى: اذكر ربك في نفسك رهبة ورغبة، وبالقول لا جهراً؛ ولهذا

(١) في د، أ: «ابن جريج».

(٢) زيادة من م، أ.

(٣) المسند (٢/٣٤١) وفي إسناده عباد بن ميسرة وهو ضعيف.

قال: ﴿وَدُّونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾. وهكذا يستحب أن يكون الذكر لا يكون نداء و[لا] ^(١) جهراً بليغاً؛ ولهذا لما سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: أقرب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] ^(٢).

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعري قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء فى بعض الأسفار، فقال لهم النبى ﷺ: «أيها الناس، اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً؛ إن الذى تدعونه سميع قريب» ^(٣).

وقد يكون المراد من هذه الآية كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]، فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبوه، وسبوا من أنزله، و[سبوا] ^(٤) من جاء به؛ فأمره الله تعالى ألا يجهر به، لئلا ينال منه المشركون، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعونهم، وليتخذ سبيلاً بين الجهر والإسرار. وكذا قال فى هذه الآية الكريمة: ﴿وَدُّونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

وقد زعم ابن جرير وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم قبله: أن المراد بهذه الآية: أمر السامع للقرآن فى حال استماعه بالذكر على هذه الصفة. وهذا بعيد مناف للإنصات للمأمور به، ثم المراد بذلك فى الصلاة، كما تقدم، أو الصلاة والخطبة، ومعلوم أن الإنصات إذ ذاك أفضل من الذكر باللسان، سواء كان سرّاً أو جهراً، فهذا الذى قاله لم يتابعا عليه، بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال، لئلا يكونوا من الغافلين؛ ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ ^(٥). وإنما ذكرهم بهذا ليتشبه بهم فى كثرة طاعتهم وعبادتهم؛ ولهذا شرع لنا السجود هاهنا لما ذكر سجودهم لله، عز وجل، كما جاء فى الحديث: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها، يتمون الصفوف الأول، ويتراصون فى الصف» ^(٦).

وهذه أول سجدة فى القرآن، مما يشرع لتاليها ومستمعيها السجود بالإجماع. وقد ورد فى حديث رواه ابن ماجه، عن أبى الدرداء، عن النبى ﷺ أنه عدها فى سجديات القرآن ^(٧).

آخر [تفسير] ^(٨) سورة الأعراف، والله الحمد والمنة

(١) زيادة من أ.

(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (٤٨٠/٣) من طريق عبدة السجستانى، عن الصلت بن حكيم، عن أبيه، عن جده فذكره، وقد سبق الكلام عليه عند الآية: ١٨٦ من سورة البقرة.

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٢٠٥) وصحيح مسلم برقم (٢٧٠٤).

(٤) زيادة من د.

(٥) زيادة من ك، م، أ، وفى هـ: «الآية».

(٦) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٤٣٠) من حديث جابر بن سمرة، رضى الله عنه.

(٧) سنن ابن ماجه برقم (١٠٥٦).

(٨) زيادة من ك، م.

تفسير سورة الأنفال

وهي مدنية^(١)، آياتها سبعون وست آيات^(٢)، كلماتها ألف كلمة، وستمئة كلمة، وإحدى^(٣) وثلاثون كلمة، حروفها خمسة آلاف ومائتان، وأربعة وتسعون^(٤) حرفاً، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾.

قال البخارى: قال ابن عباس: الأنفال: الغنائم: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا سعيد بن سليمان، أخبرنا هُشَيْمٌ، أخبرنا أبو بشر، عن سعيد بن جبيرة، قال: قلت لابن عباس: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر.

أما ما علَّقه عن ابن عباس، فكذلك رواه على بن أبى طلحة، عن ابن عباس أنه قال: «الأنفال»: الغنائم، كانت لرسول الله ﷺ خالصة، ليس لأحد منها^(٥) شيء. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، والضحاك، وقتادة، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد أنها الغنائم^(٦).

وقال الكلبي، عن أبى صالح، عن ابن عباس أنه قال: الأنفال: الغنائم، قال فيها لبيد:
إِنْ تَقَوَّى رَبَّنَا خَيْرٌ نَقَلْ وَيَأْذَنُ اللَّهُ رَيْثَى وَعَجَلْ^(٧)

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني مالك بن أنس، عن ابن شهاب، عن القاسم بن محمد قال: سمعت رجلاً يسأل ابن عباس عن «الأنفال»، فقال ابن عباس، رضى الله عنهما: الفرس من النفل، والسلب من النفل. ثم عاد لمسأله، فقال ابن عباس ذلك أيضاً. ثم قال الرجل: الأنفال التي قال الله في كتابه، ما هي؟ قال القاسم: فلم يزل يسأله حتى كاد يُخرجه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مثل هذا، مثل صبيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب^(٨).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، عن القاسم بن محمد قال: قال ابن عباس: كان

(١) فى د: «مكية». (٢) فى د، م: «ستة وأربعون»، وفى أ: «أربعون وست آيات».

(٣) فى د: «واحد».

(٤) فى د: «سبعون».

(٥) فى د: «فيها».

(٦) فى د، ك، م: «المغانم».

(٧) البيت فى تفسير الطبرى (٣٦٦/١٣) ولسان العرب مادة (نفل).

(٨) تفسير الطبرى (٣٦٤/١٣).

عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، إذا سئل عن شيء قال: لا أمرك ولا أنهاك. ثم قال ابن عباس: والله ما بعث الله نبيه ﷺ إلا زاجرا أمرا محراما. قال القاسم: فَسَلَّطَ عَلَى ابن عباس رجل يسأله^(١) عن الأنفال، فقال ابن عباس: كان الرجل ينفل فرس الرجل وسلاحه. فأعاد عليه الرجل، فقال له مثل ذلك، ثم أعاد عليه حتى أغضبه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مثل هذا؟ مثل صَبِغٍ الذى ضربه عمر بن الخطاب، حتى سالت الدماء على عقبه - أو على: رجله - فقال الرجل: أما أنت فقد انتقم الله لعمر منك^(٢).

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس: أنه فسر النفل بما ينفله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه، بعد قسم أصل المغنم، وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل، والله أعلم. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: إنهم سألوا رسول الله ﷺ عن الخمس بعد الأربعة الأخماس، فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾^(٣).

وقال ابن مسعود ومسروق: لا نفل يوم الزحف، إنما النفل قبل التقاء الصفوف. رواه ابن أبي حاتم عنهما.

وقال ابن المبارك وغير واحد، عن عبد الملك بن أبى سليمان، عن عطاء بن أبى رباح: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾، قال: يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين فى غير قتال، من دابة أو عبد أو أمة أو متاع، فهو نفل للنبي ﷺ يصنع به ما يشاء. وهذا يقتضى أنه فسر الأنفال بالفيء، وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: هى أنفال السرايا، حدثنى الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا على ابن صالح بن حى قال: بلغنى فى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ قال: السرايا.

ويعنى^(٤) هذا: ما ينفله الإمام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش، وقد صرح بذلك الشعبي، واختار ابن جرير أنها الزيادات على القسم، ويشهد لذلك ما ورد فى سبب نزول الآية، وهو ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا أبو إسحاق الشيبانى، عن محمد ابن عبد الله^(٥) الثقفى، عن سعد بن أبى وقاص قال: لما كان يوم بدر، وقتل أخى عُمَيْرٌ، وقتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه، وكان يسمى «ذا الكتيفة»، فأنتيت به نبي الله ﷺ، فقال: «أذهب فاطرحه فى القُبْضِ». قال: فرجعت وبى ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخى وأخذ سلبى. قال: فما جاوزت إلا يسيرا حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لى رسول الله ﷺ: «أذهب فخذ سيفك»^(٦).

(١) فى د، ك، م: «فسأله» وفى أ: «سأله».

(٢) تفسير عبد الرزاق (٢٣١/١) وصبيغ هو «ابن عسل» ويقال: «ابن سهل» التميمى. انظر قصته فى: الإصابة (١٩٨/٢).

(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (٣٦٥/١٣).

(٤) فى د: «ومعنى».

(٥) فى أ: «عبيد الله».

(٦) المسند (١٨٠/١).

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا أسود بن عامر، أخبرنا أبو بكر، عن عاصم بن أبي النجود، عن مصعب بن سعد، عن سعد بن مالك قال: قال: يا رسول الله، قد شفاني الله اليوم من المشركين، فهب لي هذا السيف. فقال: «إن هذا السيف لا لك ولا لي، ضعه» قال: فوضعت، ثم رجعت، قلت: عسى أن يعطى هذا السيف اليوم من لا يبلى بلأى! قال: رجل^(١) يدعو من ورائي، قال: قلت: قد أنزل الله في شيئا؟ قال: «كنت سألتني السيف، وليس هو لي وإنه قد وهب لي، فهو لك» قال: وأنزل الله هذه الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.

ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي من طرق، عن أبي [بكر]^(٢) بن عياش، به^(٣). وقال الترمذي: حسن صحيح.

وهكذا رواه أبو داود الطيالسي: أخبرنا شعبة، أخبرنا سماك بن حرب، قال: سمعت مصعب بن سعد، يحدث عن سعد قال: نزلت في أربع آيات: أصبت سيفا يوم بدر، فأتي النبي ﷺ فقلت: نَقْلْنِيهِ. فقال: «ضعه من حيث أخذته». مرتين، ثم عاودته فقال النبي ﷺ: «ضعه من حيث أخذته». فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾^(٤).

وتمام الحديث في نزول: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾^(٥) [العنكبوت: ٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ [المائدة: ٩٠]، وآية الوصية. وقد رواه مسلم في صحيحه، من حدث شعبة، به^(٦).

وقال محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر، عن بعض بني ساعدة قال: سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة يقول: أصبت سيف ابن عائد يوم بدر، وكان السيف يدعى بالمرزبان، فلما أمر رسول الله ﷺ الناس أن يردوا ما في أيديهم من النفل، أقبلت به فألقيته في النفل، وكان رسول الله ﷺ لا يمنع شيئا يسأله، فرأه الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، فسأله رسول الله ﷺ^(٧)، فأعطاه إياه^(٨).

ورواه ابن جرير من وجه آخر:

[سبب آخر في نزول الآية]:

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن سلمة، عن ابن إسحاق، عن عبد الرحمن، عن^(٩) سليمان ابن موسى، عن مكحول، عن أبي أمامة قال: سألت عبادة عن الأنفال، فقال: فينا - أصحاب بدر -

(٢) زيادة من ك، م، أ.

(١) في أ: «إذا رجل».

(٣) المسند (١٧٨/١) وسنن أبي داود برقم (٢٧٤٠) وسنن الترمذي برقم (٣٠٧٩) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١١٩٦).

(٥) في أ: «إحسانا».

(٤) مسند الطيالسي برقم (٢٠٨).

(٦) صحيح مسلم برقم (١٧٤٨).

(٧) زيادة من ك، أ.

(٨) رواه الطبري في تفسيره (٣٧٤/١٣) من طريق ابن إسحاق به.

(٩) في د: «بن».

نزلت، حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا، وجعله إلى رسول الله ﷺ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء - يقول: عن سواء^(١).

وقال أحمد أيضا: حدثنا معاوية بن عمرو، أخبرنا أبو^(٢) إسحاق، عن عبد الرحمن بن الحارث ابن عبد الله بن عياش^(٣) بن أبي ربيعة، عن سليمان بن موسى، عن أبي سلام، عن أبي أمامة، عن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع النبي ﷺ، فشهدت معه بدرا، فالتقى الناس، فهزم الله [تعالى]^(٤) العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأكبت^(٥) طائفة على العسكر يحوونه ويجمعونه. وأحدثت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها، فليس لأحد فيها نصيب. وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق به منا، نحن منعنا^(٦) عنها^(٧) العدو وهزمناهم. وقال الذين أهدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق منا، نحن أهدقنا برسول الله ﷺ، وخفنا أن يصب العدو منه غرة، فاشتغلنا به، فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين - وكان رسول الله ﷺ إذا غار في أرض العدو نفل الربع، فإذا أقبل وكل الناس راجعا، نفل الثلث، وكان يكره الأنفال ويقول: «ليرد قوى المؤمنين على ضعيفهم».

ورواه الترمذى وابن ماجه، من حديث سفيان الثوري، عن عبد الرحمن بن الحارث به نحوه، وقال الترمذى: هذا حديث حسن. ورواه ابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه من حديث عبد الرحمن بن الحارث^(٨)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه.

وروى أبو داود والنسائي، وابن جرير، وابن مردويه - واللفظ له - وابن حبان، والحاكم من طرق، عن داود ابن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا، فتسارع^(٩) في ذلك شبان الرجال، وبقي الشيوخ تحت الرايات، فلما كانت المغانم، جاؤوا يطلبون الذي جعل لهم، فقال الشيوخ: لا تستأثروا علينا، فإننا كنا رداء لكم، لو انكشفتم لفتنتم^(١٠) إلينا. فتنازعوا فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١١).

وقال الثوري، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله

(١) المسند (٥/٣٢٢).

(٤) زيادة من د، م.

(٣) في أ: «عباس».

(٢) في م، د: «ابن».

(٧) في د: «عنه».

(٦) في د، ك، م، أ: «نفينا».

(٥) في د: «وأقبلت».

(٨) المسند (٥/٣٢٤) وسنن الترمذى برقم (١٥٦١) وسنن ابن ماجه برقم (٢٨٥٢) وصحيح ابن حبان برقم (١٦٩٣) «موارد».

والمستدرک (٢/١٣٦).

(١٠) في د: «لنتبتم».

(٩) في جميع النسخ: «فتنازع»، والمثبت من الطبري.

(١١) سنن أبي داود برقم (٢٧٣٧) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١١٩٧) وتفسير الطبري (٣٦٨/١٣) والمستدرک (٢/٣٢٦).

ﷺ: «من قتل قتيلا فله كذا وكذا، ومن أتى بأسير فله كذا وكذا». فجاء أبو اليسر بأسيرين، فقال: يا رسول الله،^(١) وعدتنا، فقام سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله، إن أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء، وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة في الأجر، ولا جبن عن العدو، وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك، نخاف أن يأتوك من ورائك، فتشاجروا، ونزل القرآن: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ قال: ونزل القرآن: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ [وَلِلرَّسُولِ]﴾^(٢) إلى آخر الآية [الأنفال: ٤١]^(٣).

وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام، رحمه الله، في كتاب «الأموال الشرعية وبيان جهاتها ومصاريقها»: أما الأنفال: فهي المغنم، وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب، فكانت الأنفال الأولى إلى النبي ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ فقسمها يوم بدر على ما أَرَادَهُ اللهُ من غير أن يخمسها على ما ذكرناه في حديث سعد، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس، فنسخت الأولى^(٤).

قلت: هكذا روى على بن أبي طلحة، عن ابن عباس، سواء. وبه قال مجاهد، وعكرمة والسدي.

وقال ابن زيد: ليست منسوخة، بل هي محكمة.

قال أبو عبيد: وفي ذلك آثار، والأنفال أصلها جمع^(٥) الغنائم، إلا أن الخمس منها مخصوص لأهله على ما نزل به الكتاب، وجرت به السنة. ومعنى الأنفال في كلام العرب: كل إحسان فعله فاعل تفضلا من غير أن يجب ذلك عليه، فذلك النفل الذي أحله الله للمؤمنين من أموال عدوهم وإنما هو شيء خصه الله به تطولا منه عليهم بعد أن كانت المغنم محرمة على الأمم قبلهم، فنفلها الله هذه الأمة فهذا أصل النفل.

قلت: شاهد هذا في الصحيحين عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي» فذكر الحديث، إلى أن قال: «وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي»، وذكر تمام الحديث^(٦).

ثم قال أبو عبيد: ولهذا سمي ما جعل الإمام للمقاتلة نفلا، وهو تفضيله بعض الجيش على بعض بشيء سوى سهامهم، يفعل ذلك بهم على قدر الغناء عن الإسلام والنكاية في العدو. وفي النفل الذي ينفله الإمام سنن أربع، لكل واحدة منهن موضع غير موضع الأخرى:

(٢) زيادة من أ.

(١) في أ: «يا رسول الله إنك».

(٣) رواه عبد الرزاق في المصنف برقم (٩٤٨٣) عن الثوري به.

(٤) الأموال (ص ٤٢٦).

(٥) في د، ك، أ: «جماع».

(٦) انظر: تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية: ٤٣ من سورة النساء.

فإحداهن: فى النفل لا خمس فيه، وذلك السلب.

والثانية: فى النفل الذى يكون من الغنيمة بعد إخراج الخمس، وهو أن يوجه الإمام السرايا فى أرض الحرب، فتأتى بالغنائم فيكون للسرية مما جاءت به الربع أو الثلث بعد الخمس.

والثالثة: فى النفل من الخمس نفسه، وهو أن تحاز الغنيمة كلها، ثم تخمس، فإذا صار الخمس فى يدى الإمام نفل منه على قدر ما يرى.

والرابعة: فى النفل فى جملة الغنيمة قبل إن يخمس منها شىء، وهو أن يعطى الأدلاء ورعاة الماشية والسواق لها، وفى كل ذلك اختلاف.

قال الربيع: قال الشافعى: الأنفال: ألا يخرج من رأس الغنيمة قبل الخمس شىء غير السلب.

قال أبو عبيد: والوجه الثانى من النفل هو شىء زيدوه غير الذى كان لهم، وذلك من خمس النبى ﷺ؛ فإن له خمس الخمس من كل غنيمة، فينبغى للإمام أن يجتهد، فإذا كثر العدو واشتدت شوكتهم، وقل من بإزائه من المسلمين، نفل منه اتباعا لسنة رسول الله ﷺ، وإذا لم يكن ذلك لم ينفل.

والوجه الثالث من النفل: إذا بعث الإمام سرية أو جيشاً، فقال لهم قبل اللقاء: من غنم شيئاً فله بعد الخمس، فذلك لهم على ما شرط الإمام؛ لأنهم على ذلك غزوا، وبه رضوا. انتهى كلامه^(١).

وفيم تقدم من كلامه وهو قوله: «إن غنائم بدر لم تخمس»، نظر. ويرد عليه حديث على بن أبى طالب فى شارفيه اللذين حصلا له من الخمس يوم بدر، وقد بينت ذلك فى كتاب السيرة بياناً شافياً^(٢)، والله الحمد [والمنة]^(٣).

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أى: اتقوا الله فى أموركم، وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا؛ فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى: فى قسمه بينكم على ما أَرَادَهُ اللهُ، فإنه قسمه^(٤) كما أمره الله من العدل والإنصاف.

وقال ابن عباس: هذا تحريج من الله على المؤمنين أن يتقوا [الله]^(٥) ويصلحوا ذات بينهم. وكذا قال مجاهد.

وقال السدى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أى: لا تستبوا. ونذكر هاهنا حديثاً أورده الحافظ أبو يعلى أحمد بن على بن المثنى الموصلى، رحمه الله، فى مسنده، فإنه قال: حدثنا مجاهد

(١) الأموال (ص ٤٣١).

(٢) السيرة لابن كثير (٤٦٦/٢).

(٣) زيادة من أ.

(٤) فى أ: « يقسمه ».

(٥) زيادة من أ.

ابن موسى، حدثنا عبد الله بن بكر^(١)، حدثنا عباد بن شيبه الحبطي^(٢)، عن سعيد بن أنس، عن أنس، رضى الله عنه، قال: بينا رسول الله ﷺ جالس، إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه، فقال عمر: ما أضحكك يا رسول الله بأبى أنت وأمى؟ فقال: «رجلان جثيا من أمتى بين يدي رب العزة، تبارك وتعالى، فقال أحدهما: يا رب، خذ لى مظلمتى من أخى. قال الله تعالى: أعط أخاك مظلمتك. قال: يا رب، لم يبق من حسناتى شىء. قال: رب، فليحمل عني من أوزارى» قال: قال: وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء، ثم قال: «إن ذلك^(٣) ليوم عظيم، يوم يحتاج الناس إلى من يتحمل عنهم من أوزارهم، فقال الله تعالى للطالب: ارفع بصرك فانظر فى الجنان، فرفع رأسه فقال: يا رب، أرى مدائن من فضة وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ، لأى نبي هذا؟ لأى صديق هذا؟ لأى شهيد هذا؟ قال: هذا لمن أعطى الثمن. قال: يا رب، ومن يملك ذلك؟ قال: أنت تملكه. قال: ماذا يا رب؟ قال: تغفو عن أخيك. قال: يا رب، فإننى قد عفوت عنه. قال الله تعالى: خذ بيد أخيك فادخله الجنة». ثم قال رسول الله ﷺ: «فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، فإن الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة»^(٤).

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٢) الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) .

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شىء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشىء من آيات الله، ولا يتوكلون، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فأدوا فرائضه. ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ يقول: تصديقاً ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يقول: لا يرجون غيره.

وقال مجاهد: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فرقت، أى: فزعت وخافت. وكذا قال السدى وغير واحد.

وهذه صفة المؤمن حق المؤمن، الذى إذا ذكر الله وجل قلبه، أى: خاف منه، ففعل أوامره، وترك زواجره. كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] ولهذا قال سفيان الثورى: سمعت السدى يقول فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ

(١) فى أ: «كثير». (٢) فى د، أ: «الحنظلي». (٣) فى د، م: «وذلك».

(٤) ورواه الحاكم فى المستدرک (٥٧٦/٤) من طريق عبد الله بن بكر السهمى به. وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبى فقال: «عباد بن شيبه الحبطي، عن سعيد، والأول ضعيف، وشيخه لا يعرف».

﴿قُلُوبُهُمْ﴾ قال: هو الرجل يريد أن يظلم - أو قال: يهم بمعصية - فيقال له: اتق الله فيجل^(١) قلبه.

وقال الثوري أيضاً: عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قالت: الوجل في القلب إحراق^(٢) السعفة، أما تجد لها قشعريرة؟ قال: بلى. قالت لى: إذا وجدت ذلك فادع الله عند ذلك، فإن الدعاء يذهب ذلك.

وقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا [وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ]﴾^(٣)، كقوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقد استدلل البخارى وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها، على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب، كما هو مذهب جمهور الأئمة، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة، كالشافعى، وأحمد بن حنبل، وأبى عبيد، كما بينا ذلك مستقصى في أول الشرح^(٤) البخارى، والله الحمد والمنة.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف فى الملك، وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب؛ ولهذا قال سعيد ابن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، ينبه بذلك على أعمالهم، بعد ما ذكر اعتقادهم، وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، وهو إقامة الصلاة، وهو حق الله تعالى.

وقال قتادة: إقامة الصلاة: المحافظة على مواقيتها^(٥)، ووضوئها، وركوعها، وسجودها.

وقال مقاتل بن حيان: إقامتها: المحافظة على مواقيتها، وإسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبى ﷺ، هذا إقامتها.

والإنفاق مما رزقهم الله يشمل خراج^(٦) الزكاة، وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب، والخلق كلهم عيال الله، فأحبهم^(٧) إلى الله أنفعهم لخلقه.

قال قتادة فى قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾: فأنفقوا مما أعطاكم الله، فإنما هذه الأموال عوارى وودائع عندك يا ابن آدم، أو شكت أن تفارقها.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أى: المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان.

(٣) زيادة من ك.

(٦) فى ك، م: «إخراج».

(٢) فى أ: «كإحراق».

(٥) فى م: «أوقاتها»

(١) فى م: «فيوجل».

(٤) فى أ: «شرح».

(٧) فى د: «أحبكم».

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثنا ابن لهيعة، عن خالد بن يزيد^(١) السَّكْسَكِي، عن سعيد بن أبي هلال، عن محمد بن أبي الجهم، عن الحارث بن مالك الأنصاري؛ أنه مر برسول الله ﷺ فقال له: «كيف أصبحت يا حارث؟» قال: أصبحت مؤمناً حقاً. قال: «انظر ماذا^(٢) تقول، فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟» فقال: عَزَّتْ نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهارى، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاوون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها، فقال: «يا حارث، عرفت فالزم» ثلاثاً^(٣).

وقال عمرو بن مُرَّة في قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾: إنما أُنْزِلَ^(٤) القرآن بلسان العرب، كقولك: فلان سيد حقاً، وفي القوم سادة، وفلان تاجر حقاً، وفي القوم تجار، وفلان شاعر حقاً، وفي القوم شعراء.

وقوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أى: منازل ومقامات ودرجات فى الجنات، كما قال تعالى: ﴿هُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣].

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أى: يغفر لهم السيئات، ويشكر لهم الحسنات.

وقال الضحاك فى قوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذى هو فوق فضله على الذى هو أسفل منه، ولا يرى الذى هو أسفل أنه فضل عليه أحد.

ولهذا جاء فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل عليين ليأمرهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر فى أفق من آفاق السماء»، قالوا^(٥): يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا ينالها غيرهم؟ فقال: «بلى، والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»^(٦).

وفى الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد [و]^(٧) أهل السنن من حديث عطية، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراوون أهل الدرجات العلى كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعمًا»^(٨).

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى

(١) فى د، م: «زيد».

(٢) فى م، أ: «ما».

(٣) المعجم الكبير (٢٦٦/٣) قال الهيثمى فى المجمع (٥٧/١): «فيه ابن لهيعة وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه».

(٤) فى د، ك، م: «نزل».

(٥) فى أ: «فقالوا».

(٦) صحيح البخارى برقم (٣٢٥٦) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣١) من حديث أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه.

(٧) زيادة من د، ك، م، أ.

(٨) المسند (٦١/٣) وسنن أبى داود برقم (٣٩٨٧) وسنن الترمذى برقم (٣٦٥٨) وسنن ابن ماجه برقم (٩٦).

الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴿١﴾

قال الإمام أبو جعفر الطبري: اختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه «الكاف» في قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾، فقال بعضهم: شبه به في الصلاح للمؤمنين، اتقاؤهم ربهم، وإصلاحهم ذات بينهم، وطاعتهم الله ورسوله.

ثم روى عن عكرمة نحو هذا.

ومعنى هذا أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم في المغانم وتشاحتم فيها فانتزعها الله منكم، وجعلها إلى قسمة وقسم رسوله ﷺ^(١)، فقسمها على العدل والتسوية، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة - وهم^(٢) النفيرون الذين خرجوا لنصر دينهم، وإحراز غيرهم - فكان عاقبة، كراهتكم للقتال - بأن قدره لكم، وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد - رشداً وهدي، ونصراً وفتحاً، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

قال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ على كره من فريق من المؤمنين، كذلك هم كارهون للقتال، فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم، ثم روى نحوه عن مجاهد أنه قال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ قال: كذلك يجادلونك في الحق.

وقال السدّي: أنزل الله في خروجه^(٣) إلى بدر ومجادلتهم إياه فقال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ لطلب المشركين ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾.

وقال بعضهم: يسألونك عن الأنفال مجادلة، كما جادلوك يوم بدر فقالوا: أخرجتنا للغير، ولم تعلمنا قتالاً فستعد له.

قلت: رسول الله ﷺ إنما خرج من المدينة طالبا لغير أبي سفيان، التي بلغه خبرها أنها صادرة من الشام، فيها أموال جزيمة لقريش، فاستنهض رسول الله ﷺ المسلمين من خف منهم، فخرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، وطلب نحو الساحل من على طريق بدر، وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ في طلبه، فبعث ضمضم بن عمرو نذيراً إلى مكة، فنهضوا في قريب من ألف مقلع، ما بين التسعمائة إلى الألف، وتيامن أبو سفيان بالغير إلى سيف البحر فنجا، وجاء النفيرون فوردا ماء بدر، وجمع الله المسلمين والكافرين على غير ميعاد، لما يريد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين

(٢) في د: «وهو».

(١) في ك، م، أ: «صلوات الله وسلامه عليه».

(٣) في د: «خروجهم».

ونصرهم على عدوهم، والفرقة^(١) بين الحق والباطل، كما سيأتى بيانه.

والغرض: أن رسول الله ﷺ لما بلغه خروج النفي، أوحى الله إليه يعدة إحدى الطائفتين: إما العير وإما النفي، ورغب كثير من المسلمين إلى العير؛ لأنه كسب بلا قتال، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونَ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾.

قال الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره: حدثنا سليمان بن أحمد الطبرانى، حدثنا بكر بن سهل، حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا ابن لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، عن أسلم أبى عمران حدثه أنه سمع أبا أيوب الأنصارى يقول: قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة: «إنى أخبرت عن عير أبى سفيان أنها مقبلة فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله يُغنمناها؟» فقلنا: نعم، فخرج وخرجنا، فلما سرنا يوماً أو يومين قال لنا: «ما ترون فى قتال القوم؟ فإنهم قد أخبروا بمخرجكم؟» فقلنا: لا، والله ما لنا طاقة بقتال العدو، ولكننا أردنا العير، ثم قال: «ما ترون فى قتال القوم؟» فقلنا مثل ذلك فقال المقداد بن عمرو: إذا لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، قال: فتمنينا - معشر الأنصار - أن لو قلنا كما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم، قال: فأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ وذكر تمام الحديث^(٢).

ورواه ابن أبى حاتم، من حديث ابن لهيعة، بنحوه .

ورواه ابن مردويه أيضاً من حديث محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثى، عن أبيه، عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بدر، حتى إذا كان بالروحاء، خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله، بلغنا أنهم بمكان كذا وكذا. قال: ثم خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال عمر مثل قول أبو بكر. ثم خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله إيانا تريد؟ فوالذى أكرمك [بالحق]^(٣) وأنزل عليك الكتاب، ماسلكتها قط ولا لى بها علم، ولئن سرت [بنا]^(٤) حتى تأتى «برك الغماد» من ذى يمن لنسيرن معك، ولانكون كالذين قالوا لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم متبعون، ولعلك أن تكون خرجت لأمر، وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذى أحدث الله إليك، فامض له، فصل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وعاد من شئت، وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، فنزل القرآن على قول سعد: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ الآيات.

وقال العوفى، عن ابن عباس: لما شاور النبى ﷺ فى لقاء العدو، وقال له سعد بن عباد ما قال

(١) فى د: «التفرقة».

(٢) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٤/ ١٧٤).

(٣) زيادة من أ.

(٤) زيادة من م.

وذلك يوم بدر، أمر الناس فعبثوا للقتال، وأمرهم بالشوكة، فكره ذلك أهل الإيمان، فأنزل الله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ . يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾.

وقال مجاهد: يجادلونك في الحق: في القتال. وقال محمد بن إسحاق: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ [بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ]﴾^(١) أى: كراهية للقاء المشركين، وإنكار لمسير قريش حين ذكروا لهم.

وقال السدّي: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ أى: بعد ما تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك الله به.

قال ابن جرير: وقال آخرون: عنى بذلك المشركين.

حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب قال: قال ابن زيد فى قوله تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ قال: هؤلاء المشركون، جادلوه فى الحق ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ حين يدعون إلى الإسلام ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ قال: وليس هذا من صفة الآخرين، هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر.

ثم قال ابن جرير: ولا معنى لما قاله؛ لأن الذى قبل قوله: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ خبر عن أهل الإيمان، والذى يتلوه خبر عنهم، والصواب قول ابن عباس وابن إسحاق أنه خبر عن المؤمنين. وهذا الذى نصره ابن جرير هو الحق، وهو الذى يدل عليه سياق الكلام، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا يحيى بن أبى بكير وعبد الرزاق قالا: حدثنا إسرائيل، عن سِمَال، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالغير ليس دونها شيء فناداه العباس بن عبد المطلب - قال عبد الرزاق: وهو أسير فى وثاقه - ثم اتفقا: إنه لا يصلح لك، قال: ولم؟ قال: لأن الله عز وجل إنما وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك ما وعدك^(٢).

إسناد جيد، ولم يخرججه^(٣).

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ أى: يحبون أن الطائفة التى لا حدَّ لها ولا منعة ولا قتال، تكون لهم وهى العير ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ أى: هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التى لها الشوكة والقتال، ليُظْفَرَكُمَ بهم ويظهركم عليهم، ويظهر دينه، ويرفع كلمة الإسلام، ويجعله غالبا على الأديان، وهو أعلم بعواقب الأمور، وهو الذى دبركم

(١) زيادة من أ.

(٢) المسند (٢٢٩/١) من رواية يحيى بن أبى بكير و(٣١٤/١) من رواية عبد الرزاق.

(٣) فى ك، م، أ: «يخرجوه».

بحسن تدبيره، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١) [البقرة: ٢١٦].

وقال محمد بن إسحاق، رحمه الله: حدثني محمد بن مسلم الزهري، وعاصم بن عمر بن قتادة، وعبد الله بن أبي بكر، ويزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا، عن عبد الله بن عباس - كل قد حدثني بعض هذا الحديث، فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر - قالوا: لما سمع رسول الله ﷺ بأبى سفيان مقبلاً من الشام ندب المسلمين إليهم، وقال: «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن يفلكموها». فانتدب الناس، فخفف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقي حرباً، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان، تخوفاً على أمر الناس، حتى أصاب خيراً من بعض الركبان: أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذر عند ذلك، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى أهل مكة، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة، وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه حتى بلغ وادياً يقال له «ذفران»، فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل، وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا غيرهم فاستشار النبي ﷺ الناس، وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر، رضى الله عنه، فقال فأحسن، ثم قام عمر، رضى الله عنه، فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أمرك الله به، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما^(٢) مقاتلون، فوالذى بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى «برك الغماد» - يعنى مدينة الحبشة - لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا على أيها الناس» - وإنما يريد الأنصار - وذلك أنهم كانوا عدد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله، إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمنا فنمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة، من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، فلما قال رسول الله ﷺ ذلك، قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «أجل». قال: فقال: فقد آمنا بك، وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت. فوالذى بعثك بالحق، إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله [أن]^(٣) يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله. فسر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه

(١) زيادة من م.

(٢) فى د، ك، م: «معكم».

(٣) زيادة من م، أ.

ذلك، ثم قال: «سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم.»^(١)

وروى العوفي عن ابن عباس نحو هذا، وكذلك قال السدي، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد من علماء السلف والخلف، اختصرنا أقوالهم اكتفاءً بسياق محمد بن إسحاق.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو نوح قُرَاد، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا سماك الحنفي أبو زميل، حدثني ابن عباس^(٢)، حدثني عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه، وهم ثلاثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة، ثم مد يديه، وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: «اللهم أين ما وعدتني، اللهم أنجز لى ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد فى الأرض أبداً»، قال: فما زال يسيثغ ربه [عز وجل]^(٤) ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا رسول الله، كفأك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله، عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾، فلما كان يومئذ والتقوا، فهزم الله المشركين، فقتل منهم سبعون رجلاً، وأسر منهم سبعون رجلاً، واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعلياً وعمر^(٥)، فقال أبو بكر: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه منهم قُوَّةً لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عَضُدًا، فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» قال: قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكنى أرى أن تُمكنننى من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان - أخيه - فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس^(٦) فى قلوبنا هوادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم، فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، وأخذ منهم الفداء، فلما كان من الغد - قال عمر - غدوت إلى النبي ﷺ وأبى بكر وهما يبيكان، فقلت: يا رسول الله، [أخبرنى]^(٧) ما^(٨) يبيك أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تبأكيت لبكائكما! قال النبي ﷺ: «للى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء، قد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة - لشجرة قريبة»، وأنزل الله [عز وجل]^(٩): ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (٣٩٩/١٣).

(٢) فى ك: «ابن عياش».

(٤) زيادة من أ.

(٦) فى ك: «ليست» وفى أ: «أنه ليست».

(٨) فى أ: «ماذا».

(٣) فى أ: «رسول الله».

(٥) فى م: «أبا بكر وعمر وعلياً».

(٧) زيادة من أ.

(٩) زيادة من د، ك، م، أ.

أَسْرَى حَتَّى يُوْثِقَ فِي الْأَرْضِ ﴿١﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨] من الفداء، ثم أحل لهم الغنائم، فلما كان يوم أحد من العام المقبل، عوقبوا عما صنعوا يوم بدر، من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون، وفر أصحابُ النبي ﷺ عن النبي ﷺ، وكسرت رباعيته، وهُشِمَتِ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله [عز وجل] ^(١): ﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، بأخذكم الفداء.

ورواه مسلم، وأبو داود، والترمذى، وابن جرير، وابن مردويه، من طرق عن عكرمة بن عمار، به. وصححه على بن المدينى والترمذى، وقالوا: لا يعرف إلا من حديث عكرمة بن عمار اليماني ^(٢). وهكذا روى على بن أبى طلحة والعوفى، عن ابن عباس: أن هذه الآية الكريمة قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [فَاسْتَجَابَ لَكُمْ] ^(٣) أنها فى دعاء النبي ﷺ وكذا قال يزيد ^(٤) بن شريح، والسدى، وابن جريج.

وقال أبو بكر بن عياش، عن أبى حصين، عن أبى صالح قال: لما كان يوم بدر، جعل النبي ﷺ ينشد ربه أشد النشدة يدعو، فاتاه عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فقال: يا رسول الله، بعض ^(٥) نَشِدَتِكَ، فوالله ليفين الله لك بما وعدك ^(٦).

وقال البخارى فى «كتاب المغازى»، باب قول الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: حدثنا أبو نعيم، حدثنا إسرائيل، عن مَخَارِقَ، عن طارق بن شهاب قال: سمعت ابن مسعود يقول: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلى مما عدل به: أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول ^(٧) كما قال قوم موسى لموسى: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره - يعنى قوله ^(٨).

وحدثنا محمد بن عبد الله بن حَوْشَب، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا خالد الحذاء، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعبد»، فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك! فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]. ورواه النسائى عن بُنْدَار، عن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى ^(٩).

(١) زيادة من أ.

(٢) المسند (١/ ٣٠) وصحيح مسلم برقم (١٧٦٣) وسنن أبى داود برقم (٢٦٩٠) وسنن الترمذى برقم (٣٠٨١) وتفسير الطبرى (٤٠٩/ ١٣).

(٣) زيادة من أ.

(٤) فى أ: «يا رسول الله، تدعو بعض».

(٥) فى د، م: «زيد».

(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (٤١١/ ١٣).

(٧) فى أ: «لا نقول لك».

(٨) صحيح البخارى برقم (٣٩٥٢).

(٩) صحيح البخارى برقم (٣٩٥٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٥٧).

وقوله تعالى: ﴿بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ﴾ أى: يُرْدَفُ بعضهم بعضاً، كما قال هارون بن عترة^(١)، عن ابن عباس: ﴿مُرْدَفِينَ﴾: متتابعين.

ويحتمل أن [يكون]^(٢) المراد ﴿مُرْدَفِينَ﴾ لكم، أى: نجدة لكم، كما قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿مُرْدَفِينَ﴾، يقول: المدد، كما تقول: ائت الرجل فزدة كذا وكذا.

وهكذا قال مجاهد، وابن كثير القارئ، وابن زيد: ﴿مُرْدَفِينَ﴾: مُمْدِينَ.

وقال أبو كُدَيْتَةَ، عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿مُدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ﴾ قال: وراء كل ملك ملك.

وفى رواية بهذا الإسناد: ﴿مُرْدَفِينَ﴾ قال: بعضهم على أثر بعض. وكذا قال أبو ظبيان، والضحاك، وقتادة.

وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا يعقوب بن محمد الزهرى، حدثني عبد العزيز بن عمران، عن الزمعي، عن أبي الحويرث، عن محمد بن جبير، عن علي، رضى الله عنه، قال: نزل جبريل فى ألف من الملائكة عن ميمنة النبى ﷺ وفيها أبو بكر، ونزل ميكائيل فى ألف من الملائكة عن ميسرة النبى ﷺ، وأنا فى الميسرة.

وهذا يقتضى - لو صح إسناده - أن الألف مردفة بمثلها؛ ولهذا قرأ بعضهم: ﴿مُرْدَفِينَ﴾ بفتح الدال، فالله أعلم.

والمشهور ما رواه على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قال: وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل فى خمسمائة من الملائكة مُجَنَّبَةً، وميكائيل فى خمسمائة مُجَنَّبَةً.

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير، ومسلم، من حديث عكرمة بن عمار، عن أبى زُمَيْل سَمَاحَ ابن وليد الحنفى، عن ابن عباس، عن عمر، الحديث المتقدم. ثم قال أبو زُمَيْل^(٣): حدثني^(٤) ابن عباس قال: بينا رجل من المسلمين يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: «أقدم حَيَّوْمَ»^(٥) إذ نظر إلى المشرك أمامه، فخر مستلقيا قال: فنظر إليه، فإذا هو قد خُطِمَ أنفه، وشُقَّ وجهه كضربة السَّوْطِ، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصارى فحدث ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «صدقت، ذلك»^(٦) من مدد السماء الثالثة. «فقتلوا يومئذ سبعين وأسرُوا سُبُعِينَ.

وقال البخارى «باب شهود الملائكة بدرا»: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا جرير، عن يحيى ابن سعيد، عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزُرْقَى، عن أبيه - وكان أبوه من أهل بدر - قال: جاء جبريل

(١) فى أ: «هيرة».
(٢) فى م: «أبو زميل سَمَاحَ بن الوليد الحنفى».
(٣) فى م: «حزوم».
(٤) فى م: «ك، م: «ذاك».
(٥) زيادة من أ.
(٦) فى م: «عن».

إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين» - أو كلمة نحوها - قال: وكذلك من شهد بدرا من الملائكة.

انفرد بإخراجه البخارى^(١)، وقد رواه الطبرانى فى المعجم الكبير من حديث رافع بن خديج، وهو خطأ^(٢)، والصواب رواية البخارى، والله [تعالى]^(٣) أعلم.

وفى الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال لعمر لما شاوره فى قتل حاطب بن أبى بلتعة: «إنه قد شهد بدرا، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ [وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ]﴾^(٦) الآية أى: وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بشرى، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾؛ وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم بدون ذلك، ولهذا قال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ. سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ. وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَافًا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤-٦]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوَلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠، ١٤١]، فهذه حكم شرع الله جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها، وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التى تعم تلك الأمة المكذبة، كما أهلك قوم نوح بالطوفان، وعاداً الأولى بالدبور، وثمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل^(٧)، وقوم شعيب بيوم الظلة، فلما بعث الله تعالى موسى [عليه السلام]^(٨) وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق فى اليم، ثم أنزل^(٩) على موسى التوراة، شرع فيها قتال الكفار، واستمر الحكم فى بقية الشرائع بعده على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾^(١٠) [القصص: ٤٣]، وقتل المؤمنين الكافرين أشد إهانة للكافرين، وأشفى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرُّكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ. [وَيُذْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ]﴾^(١١) [التوبة: ١٤]، ولهذا كان قتل صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم، أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان. فقتل أبى جهل فى معركة القتال وحومة الوغى، أشد إهانة له من أن

(١) صحيح البخارى برقم (٣٩٩٢).

(٢) المعجم الكبير (٢٧٧/٤).

(٣) فى د: «قد».

(٤) زيادة من م.

(٥) صحيح البخارى برقم (٣٩٨٣) وصحيح مسلم برقم (٢٤٩٤).

(٦) فى ك، أ: «السجين».

(٧) زيادة من د، ك، م.

(٨) زيادة من أ

(٩) زيادة من أ.

(١٠) زيادة من م.

(١١) فى ك: «أنزل الله».

يموت على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك، كما مات أبو لهب - لعنه الله - بالعدسة^(١) بحيث لم يقربه أحد من أقاربه، وإنما غسلوه بالماء قذفاً من بعيد، ورجموه حتى دفنوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أى: له العزة ولسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ]^(٢) ﴿غافر: ٥١، ٥٢﴾، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرعه من قتال الكفار، مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم، بحوله وقوته، سبحانه وتعالى.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ كُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَلِكَ بَأْنَهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤)﴾.

يذكرهم الله^(٣) بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم، أماناً من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أحد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قال أبو طلحة^(٤): كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد، ولقد سقط السيف من يدي مراراً يسقط وأخذه، ويسقط وأخذه، ولقد نظرت إليهم يميّدون وهم تحت الحَجَفِ.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زهير، حدثنا ابن مهدي، عن شعبة، عن أبي إسحاق، عن حارثة ابن مُضَرَّب، عن علي، رضى الله عنه، قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ، يصلى تحت شجرة ويبكى حتى أصبح^(٥).

وقال سفيان الثوري، عن عاصم عن أبي رزين، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، أنه قال: النعاس في القتال أمانة من الله، وفي الصلاة من الشيطان.

وقال قتادة: النعاس في الرأس، والنوم في القلب.

قلت: أما النعاس فقد أصابهم يوم أحد، وأمر ذلك مشهور جداً، وأما يوم بدر في هذه الآية الشريفة^(٦) إنما هي في سياق قصة بدر، وهى دالة على وقوع ذلك أيضاً وكان ذلك كان سجية

(١) قال ابن الأثير في النهاية (٣/ ١٩٠) في حديث أبي رافع: «أن أبا لهب رماه الله بالعدسة» وهى بثرة تشبه العدسة تخرج فى مواضع من الجسد، من جنس الطاعون، تقتل صاحبها غالباً.

(٢) زيادة من أ.

(٣) فى أ: «قال على بن أبى طلحة».

(٤) فى أ: «قال على بن أبى طلحة».

(٥) مسند أبى يعلى (١/ ٢٤٢) ورواه أحمد فى مسنده (١/ ١٢٥) من طريق عبد الرحمن بن مهدي بهذا الإسناد.

(٦) فى ك، م: «الكريمة».

للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله. وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمه عليهم، وكما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]؛ ولهذا [جاء] ^(١) في الصحيح ^(٢): أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق، رضى الله عنه، وهما يدعوان، أخذت رسول الله سنة من النوم، ثم استيقظ متبسما فقال: «أبشريا أبا بكر، هذا جبريل على ثنياه النقع» ثم خرج من باب العريش، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥].

وقوله: ﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قال: نزل النبي ﷺ - يعنى: حين سار إلى بدر - والمسلمون ^(٣) بينهم وبين الماء رملة دعصة ^(٤)، فأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان فى قلوبهم الغيظ، يوسوس بينهم: تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلون مجنين! فأمطر الله عليهم مطرا شديدا، فشرب المسلمون وتطهروا، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وانشف ^(٥) الرمل حين أصابه المطر ومشى الناس عليه والدواب، فساروا إلى القوم وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل فى خمسمائة مُجَنَّبَةٍ، وميكائيل فى خمسمائة مُجَنَّبَةٍ.

وكذا قال العوفى عن ابن عباس: إن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير وليقاتلوا ^(٦) عنها، نزلوا على الماء يوم بدر، فغلبوا المؤمنين عليه. فأصاب المؤمنين الظمأ، فجعلوا يصلون مجنين محدثين، حتى تعاضموا ذلك فى صدورهم، فأنزل الله من السماء ماء حتى سال الوادى، فشرب المؤمنون، وملؤوا الأسقية، وسقوا الركاب ^(٧)، واغتسلوا من الجنابة، فجعل الله فى ذلك طهورا، وثبت الأقدام. وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة، فبعث الله المطر عليها، فضربها حتى اشتدت، وثبت عليها الأقدام.

ونحو ذلك روى عن قتادة، والضحاك، والسدى.

وقد روى عن سعيد بن المسيب، والشعبى، والزهرى، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أنه طش ^(٨) أصابهم يوم بدر.

والمعروف أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر، نزل على أدنى ماء هناك أى: أول ماء وجده، فتقدم إليه الحباب بن المنذر فقال: يا رسول الله، هذا المنزل الذى نزلته منزل أنزلكه الله فليس لنا أن نجاوزة، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة؟ فقال: «بل منزل نزلته للحرب والمكيدة». فقال: يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل، ولكن سر بنا حتى نزل على أدنى ماء يلى القوم ونغور ما وراءه من القلب،

(٢) فى أ: «الصحيحين».

(٤) فى أ: «وعصمة».

(٦) فى ك، م: «ويقاتلوا».

(٨) فى ك، م: «طس».

(١) زيادة من م.

(٣) فى ك، م، أ: «المشركون».

(٥) فى ك: «وانكشف».

(٧) فى م: «الركائب».

ونستقى الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء. فسار رسول الله ﷺ ففعل كذلك^(١).

وفى مغازى «الأموى» أن الحباب لما قال ذلك نزل ملك من السماء وجبريل جالس عند رسول الله ﷺ، فقال ذلك الملك: يا محمد، إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن رأى ما أشار به «الحباب بن المنذر»^(٢). فالتفت رسول الله ﷺ [ﷺ]^(٣) إلى جبريل، عليه^(٤) السلام، فقال: هل تعرف هذا؟ فنظر إليه فقال: ما كل الملائكة أعرفهم، وإنه ملك وليس بشيطان.

وأحسن ما فى هذا ما رواه الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب «المغازى»، رحمه الله: حدثنى يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قال: بعث الله السماء - وكان الوادى دهسا - فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم من المسير، وأصاب قريشا ما لم يقدروا على أن يرحلوا معه^(٥).

وقال مجاهد: أنزل الله عليهم المطر قبل النعاس، فأطفأ بالمطر الغبار، وتلبدت به الأرض، وطابت نفوسهم^(٦)، وثبتت به أقدامهم.

وقال ابن جرير: حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا مصعب بن المقدم، حدثنا إسرائيل، حدثنا أبو إسحاق، عن حارثة، عن على، رضى الله عنه، قال: أصابنا من الليل طش^(٧) من المطر - يعنى الليلة التى كانت فى صبيحتها وقعة بدر - فانطلقنا تحت الشجر والحجف نستظل تحتها من المطر. وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض»! فلما أن طلع الفجر، نادى: «الصلاة، عباد الله»، فجاء الناس من تحت الشجر والحجف، فصل بنا رسول الله ﷺ، وحرص على القتال.

وقوله: ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ أى: من حدث أصغر أو أكبر، وهو تطهير^(٨) الظاهر ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ﴾ أى: من وسوسة أو^(٩) خاطر سيئ، وهو تطهير الباطن، كما قال تعالى فى حق أهل الجنة: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِصَّةٍ﴾، فهذا زينة الظاهر ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] أى: مطهراً لما كان من غل أو حسد أو تباغض، وهو زينة الباطن وطهارته.

﴿وَلَيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أى: بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء، وهو شجاعة الباطن، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾، وهو شجاعة الظاهر، والله أعلم.

(١) فى م: «ذلك».

(٢) ورواه الواقدي فى المغازى (٥٤/١) إلى هذا الموضع. فقال: «حدثنى ابن أبى حبيبة، عن رواد بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: نزل جبريل... فذكره».

(٤) فى ك: «عليهما».

(٣) زيادة من ك، م، أ.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٦٢٠).

(٦) فى ك، م: «طابت به أنفسهم».

(٩) فى م: «و».

(٨) فى م: «طهارة».

(٧) فى ك، م: «طس».

وقوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم، ليشكروه عليها، وهو^(١) أنه - تعالى وتقدس وتبارك وتمجد - أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين، يوحى إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا.

قال ابن إسحاق: وازروهم. وقال غيره: قاتلوا معهم. وقيل: كثروا سوادهم. وقيل: كان ذلك بأن الملك كان يأتى الرجل من أصحاب النبي ﷺ يقول: سمعت هؤلاء القوم - يعنى المشركين - يقولون: «والله لئن حملوا علينا لننكشفن»، فيحدث المسلمون بعضهم بعضا بذلك، فتقوى أنفسهم^(٢). حكاه ابن جرير، وهذا لفظه بحروفه.

وقوله: ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ أى: ثبثوا أنتم المسلمين^(٣) وقووا أنفسهم على أعدائهم، عن أمرى لكم بذلك، سألتى الرعب والمذلة والصغار على من خالف أمرى، وكذب رسولى^(٤). ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أى: اضربوا الهام ففلقوها، واحتزوا الرقاب فقطعوها، وقطعوا الأطراف منهم، وهى أيديهم وأرجلهم.

وقد اختلف المفسرون فى معنى: ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ ف قيل: معناه اضربوا الرؤوس. قاله عكرمة. وقيل: معناه: ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أى: على الأعناق، وهى الرقاب. قاله الضحاك، وعطية العوفى. ويشهد لهذا المعنى أن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى هذا فى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاكُ﴾ [محمد: ٤].

وقال وكيع، عن المسعودى، عن القاسم قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لم أبعث لأعذب بعذاب الله، إنما بعثت بضرب الرقاب وشد الوثاق»^(٥).

واختار ابن جرير أنها قد تدل على ضرب الرقاب وفلق الهام.

قلت: وفى مغازى «الأموى» أن رسول الله ﷺ جعل يمر بين القتلى يوم بدر فيقول:

«نُفِّلَقْ هَامَا...».

فيقول أبو بكر:

من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلموا^(٦)

(٢) فى م: «أنفسهم بذلك».

(٤) فى أ: «رسلى».

(١) فى ك: «وهى».

(٣) فى ك، م، أ: «المؤمنين».

(٥) فى م: «النبي».

(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (٤٢٩/١٣) وابن أبى شيبه فى المصنف (٣٩٠/١٢) من طريق وكيع بهذا الإسناد .

(٧) البيت للحصين بن الهمام المرى، وهو فى «الشعر والشعراء» لابن قتيبة (٦٤٨/٢).

فبيدئ رسول الله ﷺ بأول البيت، ويستطعم أبا بكر، رضى الله عنه، إنشاد آخره؛ لأنه كان لا يحسن إنشاد الشعر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩].

وقال الربيع بن أنس: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوا هم بضرب فوق الأعناق، وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به.

وقوله: ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال ابن جرير: معناه: واضربوه أيها المؤمنون من عدوكم كل طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم. و «البنان»: جمع بنانة، كما قال الشاعر^(١):

أَلَا لَيْتَنِي قَطَعْتُ مِنْ بِنَانَةٍ وَلَا قَيْتُهُ فِي الْبَيْتِ يَقْطَانُ حَاذِرًا

وقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ يعنى بالبنان: الأطراف. وكذا قال الضحاك وابن جريج.

وقال السدى: البنان: الأطراف، ويقال: كل مفصل.

وقال عكرمة، وعطية العوف والضحاك - فى رواية أخرى -: كل مفصل.

وقال الأوزاعى فى قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال: اضرب منه الوجه والعين، وارمه بشهاب من نار، فإذا أخذته حرم ذلك كله عليك.

وقال العوفى، عن ابن عباس - فذكر قصة بدر إلى أن قال -: فقال أبو جهل: لا تقتلوهم قتلا، ولكن خذوهم أخذا، حتى تعرفوهم الذى صنعوا من طعنهم فى دينكم، ورغبتهم عن اللات والعزى. فأوحى الله إلى الملائكة: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ فقتل أبو جهل لعنه الله، فى تسعة وستين رجلا، وأسر عقبة بن أبى معيط فقتل صبورا، فوفى ذلك سبعين - يعنى: قتيلا.

ولذلك قال [الله]^(٢) تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى: خالفوهما فساروا فى شق، وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه فى شق - وهو مأخوذ أيضا من شق العصا، وهو جعلها فرقتين - ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى: هو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه، لا يفوته شىء، ولا يقوم لغضبه شىء، تبارك وتعالى، لا إله غيره، ولا رب سواه.

﴿ذَلِكَ فِدْوُهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابُ النَّارِ﴾: هذا خطاب للكفار أى: ذوقوا هذا العذاب والنكال فى الدنيا، واعلموا أيضاً أن للكافرين عذاب النار فى الآخرة.

(١) هو العباس بن مرداس السلمى، والبيت فى تفسير الطبرى (١٣/ ٤٣١) ولسان العرب مادة (بنن).

(٢) زيادة من ك، م، أ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ (١٥) وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) ﴿

يقول تعالى متوعدا على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾ أى: تقاربتم منهم ودنوتهم إليهم، ﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ أى: تفروا وتتركوا أصحابكم، ﴿وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ﴾ أى: يفر بين يدي قرنه مكيدة؛ ليريه أنه [قد] (١) خاف منه فيتبعه، ثم يكر عليه فيقتله، فلا بأس عليه فى ذلك. نص عليه سعيد بن جبير، والسدى. وقال الضحاك: أن يتقدم عن أصحابه ليرى غرة من العدو فيصيبها.

﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ﴾ أى: فر من هاهنا إلى فتنة أخرى من المسلمين، يعاونهم ويعاونوه (٢)، فيجوز له ذلك، حتى [و] (٣) لو كان فى سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم، دخل فى هذه الرخصة.

قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا زهير، حدثنا يزيد بن أبى زياد، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما، قال: كنت فى سرية من سرايا رسول الله ﷺ، فخاص الناس حيصة - وكنت فيمن خاص - فقلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة فبتنا؟ ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ، فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا؟ فأتيناه قبل صلاة الغداة، فخرج فقال: «من القوم؟» فقلنا: نحن الفرارون. فقال: «لا، بل أنتم العكَّارون، أنا فتكم، وأنا فتنة المسلمين» قال: فأتيناه حتى قبلنا يده.

وهكذا رواه أبو داود، والترمذى، وابن ماجه، من طرق عن يزيد بن أبى زياد (٤)، وقال الترمذى: حسن لا نعرفه إلا من حديثه.

ورواه ابن أبى حاتم، من حديث يزيد بن أبى زياد به. وزاد فى آخره: وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ﴾.

قال أهل العلم: معنى قوله: «العكَّارون» أى: العطافون. وكذلك قال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فى أبى عبيد لما قتل على الجسر بأرض فارس، لكثرة الجيش من ناحية المجوس، فقال عمر: لو انحاز إلى كنت له فتنة. هكذا رواه محمد بن سيرين، عن عمر (٥).

وفى رواية أبى عثمان النهدي، عن عمر قال: لما قتل أبو عبيد قال عمر: يا أيها الناس، أنا فتكم.

(٢) فى ك، م: «يعاونونه».

(١) زيادة من أ.

(٣) زيادة من ك، م.

(٤) المسند (٧٠/٢) وسنن أبى داود برقم (٢٦٤٧) وسنن الترمذى برقم (١٧١٦) وسنن ابن ماجه برقم (٣٧٠٤).

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (٤٣٩/١٣).

وقال مجاهد: قال عمر: أنا فئة كل مسلم.

وقال عبد الملك بن عُمَيْر، عن عمر: أيها الناس، لا تغرنكم هذه الآية، فإنما كانت يوم بدر، وأنا^(١) فئة لكل مسلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حسان بن عبد الله المصري، حدثنا خلاد بن سليمان الحضرمي، حدثنا نافع: أنه سأل ابن عمر قلت: إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا، ولا ندرى من الفئة: إمامنا أو عسكرنا؟ فقال: إن الفئة رسول الله ﷺ. فقلت: إن الله يقول: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾^(٢)، فقال: إنما نزلت هذه الآية في يوم بدر، لا قبلها ولا بعدها.

وقال الضحاك في قوله: ﴿أَوْ مُتَحِيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ﴾: المتحيز: الفار إلى النبي وأصحابه، وكذلك من فر اليوم إلى أميره أو أصحابه.

فأما إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب، فإنه حرام وكبيرة من الكبائر، لما رواه البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات». قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(٣).

ولهذا الحديث شواهد من وجوه أخرى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ بَاءَ﴾ أى: رجع ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ﴾ أى: مصيره ومنقلبه يوم مياعده: ﴿جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا زكريا بن عدي، حدثنا عبيد الله بن عمرو الرقي، عن زيد بن أبي أنيسة، حدثنا جبلة بن سحيم، عن أبي المثني العبدى، سمعت السدوسي - يعنى ابن الخصاصية، وهو بشير بن معبد - قال: أتيت النبي ﷺ لأبأيه، فاشتراط على: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمد عبده ورسوله، وأن أقيم الصلاة، وأن أؤدى الزكاة، وأن أحج حجة الإسلام، وأن أصوم شهر رمضان، وأن أجاهد فى سبيل الله». فقلت: يا رسول الله، أما اثنان فوالله لا أطيقهما: الجهاد، فإنهم زعموا أنه من ولى الدبر فقد باء بغضب من الله، فأخاف إن حضرت ذلك خشعت نفسى وكرهت الموت. والصدقة، فوالله ما لى إلا غنيمة وعشر ذود هُنَّ رسل أهلى وحمولتهم. فقبض رسول الله ﷺ يده، ثم حرك يده، ثم قال: «فلا جهاد ولا صدقة، فيم تدخل الجنة إذا؟» فقلت: يا رسول الله، أنا أبأبعك. فبايعته عليهن كلهن.

هذا حديث^(٤) غريب^(٥) من هذا الوجه^(٦)، ولم يخرجوه فى الكتب الستة.

(١) فى م: «وإنه».

(٢) زيادة من ك، د، م، أ، وفى هـ: «الآية».

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٧٦٦) وصحيح مسلم برقم (٨٩).

(٤) فى م: «الحديث».

(٥) فى أ: «عزيز».

(٦) المسند (٢٢٤/٥).

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة، حدثنا إسحاق بن إبراهيم أبو النضر، حدثنا يزيد بن ربيعة، حدثنا أبو الأشعث، عن ثوبان، عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا ينفع معهن عمل: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف»^(١).

وهذا أيضا حديث غريب جدا.

وقال الطبراني أيضا: حدثنا العباس بن الفضل الأسفاطي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حفص بن عمر الشنّي، حدثني عمرو بن مرة قال: سمعت بلال بن يسار بن زيد - مولى رسول الله ﷺ - قال: سمعت أبي حدث عن جدي قال: قال رسول الله: «من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو وأتوب إليه، غفر له وإن كان قد فر من الزحف».

وهكذا رواه أبو داود عن موسى بن إسماعيل، به. وأخرجه الترمذي، عن البخاري، عن موسى ابن إسماعيل به. وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه^(٢).

قلت: ولا يعرف لزيد مولى النبي ﷺ، عنه سواه.

وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حراما على الصحابة؛ لأنه - يعنى الجهاد - كان فرض عين عليهم. وقيل: على الأنصار خاصة؛ لأنهم بايعوا على السمع والطاعة فى المنشط والمكره. وقيل: [إنما]^(٣) المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة، يروى هذا عن عمر، وابن عمر، وابن عباس، وأبى هريرة، وأبى سعيد، وأبى نضرة، ونافع مولى ابن عمر، وسعيد بن جبير، والحسن البصرى، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وغيرهم.

وحجتهم فى هذا: أنه لم تكن عصابة لها شوكة يفيؤون إليها سوى عصابتهم تلك، كما قال النبي ﷺ: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض»؛ ولهذا قال عبد الله بن المبارك، عن مبارك ابن فضالة، عن الحسن فى قوله: «وَمَنْ يُؤْمِدْ دُبْرَهُ» قال: ذلك يوم بدر، فأما اليوم: فإن انحاز إلى فئة أو مصر - أحسبه قال: فلا بأس عليه.

وقال ابن المبارك أيضا، عن ابن لهيعة: حدثني يزيد بن أبى حبيب قال: أوجب الله تعالى لمن فر يوم بدر النار، قال: «وَمَنْ يُؤْمِدْ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ»، فلما كان يوم أحد بعد ذلك قال: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ [إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا]^(٤)»، «وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ» [آل عمران: ١٥٥]، ثم كان يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين، قال: «ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ» [التوبة: ٢٥]، «ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ» [التوبة: ٢٧].

(١) المعجم الكبير (٩٥/٢) قال الهيثمى فى المجمع (١٠٤/١): «فيه يزيد بن ربيعة ضعيف».

(٢) المعجم الكبير (٨٩/٥) وسنن أبى داود برقم (١٥١٧) وسنن الترمذى برقم (٣٥٧٧).

(٣) زيادة من ك، م، أ، وفى هـ «إلى قوله».

وفى سنن أبى داود، والنسائى، ومستدرک الحاكم، وتفسر ابن جرير، وابن مردويه، من حديث داود بن أبى هند، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد أنه قال فى هذه الآية: ﴿وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ دَرَهُ﴾: إنما^(١) أنزلت فى أهل بدر^(٢). وهذا كله لا ينفى أن يكون الفرار من الزحف حراما على غير أهل بدر، وإن كان سبب النزول فيهم، كما دل عليه حديث أبى هريرة المتقدم، من أن الفرار من الزحف من الموبقات، كما هو مذهب الجماهير، والله [تعالى]^(٣) أعلم.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَلِكَمُ وَأَنَّ اللَّهَ مَوْهِنُ الْكَافِرِينَ (١٨)﴾.

يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد، وأنه المحمود على جميع ما صدر عنهم من خير؛ لأنه هو الذى وفقهم لذلك وأعانهم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ أى: ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعدائكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم، أى: بل هو الذى أظفركم [بهم ونصركم]^(٤) عليهم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٥) [آل عمران: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدَبِّرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]، يعلم - تبارك وتعالى - أن النصر ليس عن كثرة العدد، ولا بلبس اللأمة والعدد، وإنما النصر من عند الله تعالى^(٦)، كما قال: ﴿كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ثم قال لنبه ﷺ أيضا فى شأن القبضة من التراب، التى حصب بها وجوه المشركين^(٧) يوم بدر، حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته، فرماهم بها، وقال: «شاهت الوجوه». ثم أمر الصحابة أن يصدقوا الحملة إثرها، ففعلوا، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين، فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله؛ ولهذا قال [تعالى]^(٨): ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ أى: هو الذى بلغ ذلك إليهم، وكتبهم بها لا أنت.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: رفع رسول الله ﷺ يديه - يعنى يوم بدر - فقال: «يا رب، إن تهلك هذه العصابة، فلن تعبد فى الأرض أبدا». فقال له جبريل: «خذ قبضة من التراب، فارم بها فى وجوههم» فأخذ قبضة من التراب، فرمى بها فى وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخره وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين.

وقال السدّى: قال رسول الله ﷺ لعلى، رضى الله عنه، يوم بدر: «أعطني حصبا من الأرض».

(١) فى م: «أنها».

(٢) سنن أبى داود برقم (٢٦٤٨) وسنن النسائى الكبيرى برقم (١١٢٠٣) والمستدرک (٣٢٧/٢) وتفسير الطبرى (٤٣٧/١٣).

(٣) زيادة من ك، م.

(٤) زيادة من ك، م.

(٥) زيادة من ك، م، أ، وفى هـ: «الآية».

(٦) فى م: «عنده تعالى».

(٧) فى أ: «القوم».

فناولوه حصبا^(١) عليه تراب، فرمى به فى وجوه القوم، فلم يبق مشرك إلا دخل فى عينيه من ذلك التراب شىء، ثم ردّهم المؤمنون^(٢) يقتلونهم ويأسرونهم، وأنزل الله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾.

وقال أبو معشر المدنى، عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظى قالا: لما دنا القوم بعضهم من بعض، أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب، فرمى بها فى وجوه القوم، وقال: «شاهت الوجوه». فدخلت فى أعينهم كلهم، وأقبل أصحاب رسول الله ﷺ^(٣) يقتلونهم ويأسرونهم، وكانت هزيمتهم فى رمية رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: فى قوله [تعالى]^(٤): ﴿وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ قال: هذا يوم بدر، أخذ رسول الله ﷺ ثلاث حصيات فرمى بحصاة [فى]^(٥) ميمنة القوم، وحصاة فى ميسرة القوم، وحصاة بين أظهرهم، وقال: «شاهت الوجوه»، فانهزموا.

وقد روى فى هذه القصة^(٦) عن عروة بن الزبير، ومجاهد وعكرمة، وقتادة وغير واحد من الأئمة: أنها نزلت فى رمية النبى ﷺ يوم بدر، وإن كان قد فعل ذلك يوم حنين أيضا.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا يعقوب بن محمد، حدثنا عبد العزيز ابن عمران، حدثنا موسى بن يعقوب بن عبد الله بن زمة، عن يزيد بن عبد الله، عن أبى بكر بن سليمان بن أبى حنمة، عن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم بدر، سمعنا صوتا وقع من السماء، كأنه صوت حصاة وقعت فى طست، ورمى رسول الله ﷺ تلك الرمية، فانهزمنا^(٧).

غريب من هذا الوجه. وهاهنا قولان آخران غريبان جدا :

أحدهما: قال ابن جرير: حدثنى محمد بن عوف الطائى، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان بن عمرو، حدثنا عبد الرحمن بن جبير؛ أن رسول الله ﷺ يوم ابن أبى الحقيق بخير، دعا بقوس، فأتى بقوس طويلة، وقال: «جيؤونى غيرها». فجاءوا بقوس كبداء، فرمى النبى ﷺ الحصن، فأقبل السهم يهوى حتى قتل ابن أبى الحقيق، وهو فى فراشه، فأنزل الله، عز وجل: ﴿وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾^(٨).

وهذا غريب، وإسناده جيد إلى عبد الرحمن بن جبير بن نفيير، ولعله اشتبه عليه، أو أنه أراد أن الآية تعم هذا كله، وإلا فسياق الآية فى سورة الأنفال فى قصة بدر لا محالة، وهذا مما لا يخفى على أئمة العلم، والله أعلم.

(٢) فى م: «المسلمون».

(٤) زيادة من م.

(١) فى م: «حصباء».

(٣) زيادة من م، ك، أ.

(٥) فى ك، م، أ: «فرمى فى».

(٦) انظر: تفسير الطبرى (١٣/٤٤٣ - ٤٤٥).

(٧) تفسير الطبرى (١٣/٤٤٣).

(٨) سقط هذا الأثر والذى يليه من نص الطبرى وأثبتته المحقق فى الهامش (١٣/٤٤٦).

والثاني: روى ابن جرير أيضا، والحاكم في مستدركه، بإسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب والزهرى أنهما قالا: أنزلت^(١) في رمية رسول الله ﷺ يوم أحد أبى بن خلف بالحرية وهو فى لأمته، فخذشه فى ترقوته، فجعل يتدأدا عن فرسه مرارا، حتى كانت وفاته [بها]^(٢) بعد أيام، قاسى فيها العذاب الأليم، موصولا بعذاب البرزخ، المتصل بعذاب الآخرة^(٣).

وهذا القول عن هذين الإمامين غريب أيضا جدا، ولعلمهما أرادا أن الآية تتناوله بعمومها، لا أنها نزلت فيه خاصة كما تقدم، والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير فى قوله: ﴿وَلِيْلِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ أى: ليعرف المؤمنين من نعمته عليهم، من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم، وقلة عددهم، ليعرفوا بذلك حقه، ويشكروا بذلك نعمته.

وهكذا فسر^(٤) ذلك ابن جرير أيضا. وفى الحديث: «وكل بلاء حسن أبلانا».

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى: سميع الدعاء، عليم بمن يستحق النصر والغلب.

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر: أنه أعلمهم تعالى بأنه مُضْعَفُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ فيما يستقبل، مصغرا أمرهم، وأنهم كل ما لهم فى تبار^(٥) ودمار، والله الحمد والمنة.

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)﴾.

يقول تعالى للكفار: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾ أى: تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين، فقد جاءكم ما سألتكم، كما قال محمد بن إسحاق وغيره، عن الزهرى، عن عبد الله بن ثعلبة بن صغير؛ أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف^(٦)، فأحنه الغداة - وكان ذلك استفتاحا منه - فنزلت: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ إلى آخر الآية.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد - يعنى ابن هارون - أخبرنا محمد بن إسحاق، حدثنى الزهرى، عن عبد الله بن ثعلبة: أن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم، أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف، فأحنه الغداة، فكان المستفتح.

وأخرجه النسائى فى التفسير من حديث، صالح بن كيسان، عن الزهرى، به. وكذا رواه الحاكم

(١) فى م: «نزلت».

(٢) المستدرک (٣٢٧/٢).

(٣) فى د: «فسره».

(٤) فى م: «شغال».

(٥) فى ك، م: «بما لم يعرف».

فى مستدركه من طريق الزهري، به^(١). وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وروى [نحو]^(٢) هذا عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، ويزيد بن رومان، وغير واحد.

وقال السدي: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر، أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين، وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين. فقال الله: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾، يقول: قد نصرت ما قلتم، وهو محمد ﷺ.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو قوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٣) [الأنفال: ٣٢].

وقوله: ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا﴾ أى: عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة. [وقوله]^(٤): ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدَكُمْ﴾ كقوله^(٥): ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨] معناه: وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة، نعد لكم بمثل هذه الواقعة.

وقال السدي: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا﴾ أى: إلى الاستفتاح ﴿نَعُدُّ﴾ إلى الفتح لمحمد ﷺ، والنصر له، وتظفيره على أعدائه، والأول أقوى.

﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أى: ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا، فإن من كان الله معه فلا غالب له، فإن الله مع المؤمنين، وهم الحزب النبوى، والجناب المصطفى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣).

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أى: تركوا طاعته وامتنال أوامره وتركوا زواجه، ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أى: بعد ما علمتم ما دعاكم إليه.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ قيل: المراد: المشركون. واختاره ابن جرير.

وقال ابن إسحاق: هم المنافقون؛ فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا، وليسو كذلك.

ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بنى آدم شر^(٦) الخلق والخليقة، فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ

(١) المسند (٤٣١/٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٢٠١) والمستدرک (٣٢٨/٢).

(٢) زيادة من د، وفى ك، م، أ: «فى هذا».

(٣) زيادة من ك، م، أ، وفى هـ: «الآية».

(٤) زيادة من د.

(٥) فى ك، م: «أى كقوله».

(٦) فى ك، م، أ: «سئى».

الصُّمُّ ﴿١﴾ أى: عن سماع الحق ﴿الْبُكْمُ﴾ عن فهمه؛ ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾، فهؤلاء شر البرية؛ لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله [عز وجل] ^(١) فيما خلقها له، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا؛ ولهذا شبههم بالأنعام فى قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ [صم بكم عمي فهم لا يعقلون] ^(٢) ﴿[البقرة: ١٧١]. وقال فى الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقيل ^(٣): المراد بهؤلاء المذكورين نفرٌ من بنى عبد الدار من قريش. روى عن ابن عباس ومجاهد، واختاره ابن جرير، وقال محمد بن إسحاق: هم المنافقون.

قلت: ولا منافاة بين المشركين والمنافقين فى هذا؛ لأن كل منهم مسلوب الفهم الصحيح، والقصد إلى العمل الصالح.

ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح، ولا قصد لهم صحيح، لو فرض أن لهم فهما، فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ أى: لأفهمهم، وتقدير الكلام: ولكن لا خير فيهم فلم يفهمهم؛ لأنه يعلم أنه ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ أى: أفهمهم ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ عن ذلك قصدا وعنادا بعد فهمهم ذلك، ﴿وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ عنه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٤).

قال البخارى: ﴿اسْتَجِيبُوا﴾: أجبوا، ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾: لما يصلحكم. حدثنا إسحاق، حدثنا روح، حدثنا شعبة، عن خبيب ^(٤) بن عبد الرحمن قال: سمعت حفص بن عاصم يحدث عن أبى سعيد بن المعلى قال: كنت أصلى، فمر بى رسول الله ﷺ، فدعاني فلم آته حتى صليت، ثم أتيته فقال: «ما منعك أن تأتيني؟» ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ثم قال: «لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن قبل أن أخرج»، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج، فذكرت له - وقال معاذ: حدثنا شعبة، عن خبيب ^(٥) بن عبد الرحمن، سمع حفص بن عاصم، سمع أبا سعيد رجلا من أصحاب النبى ﷺ بهذا - وقال: «هى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، السبع المثاني» ^(٦).

هذا لفظه بحروفه، وقد تقدم الكلام على هذا الحديث بذكر طريقه فى أول تفسير الفاتحة.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال: الحق.

(١) زيادة من م. (٢) زيادة من ك، م، أ، وفى هـ: «الآية».

(٣) فى د، م: «ثم قيل».

(٤) فى أ: «حيب».

(٥) فى أ: «حيب».

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٦٤٧).

وقال قتادة: ﴿لَمَّا يُحْيِيكُمْ﴾ قال: هو هذا القرآن، فيه النجاة والتقاء^(١) والحياة.

وقال السدي: ﴿لَمَّا يُحْيِيكُمْ﴾: ففى الإسلام إحياءهم بعد موتهم بالكفر.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أى: للحرب التى أعزكم الله تعالى بها بعد الذل، وقواكم بها بعد الضعف، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ قال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان.

رواه الحاكم فى مستدركه موقوفا، وقال: صحيح ولم يخرجاه^(٢). ورواه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعا^(٣)، ولا يصح لضعف إسناده، والموقوف أصح. وكذا قال مجاهد، وسعيد، وعكرمة، والضحاك، وأبو صالح، وعطية، ومقاتل بن حيان، والسدي.

وفى رواية عن مجاهد فى قوله: ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ حتى تركه لا يعقل.

وقال السدي: يحول بين الإنسان وقلبه، فلا يستطع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه.

وقال قتادة هو كقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

وقد وردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بما يناسب هذه الآية.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبى سفيان، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: كان النبى ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبى على دينك». قال: فقلنا: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال^(٤): «نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها».

وهكذا رواه الترمذى فى «كتاب القدر» من جامعه، عن هناد بن السرى، عن أبى معاوية محمد ابن حازم الضرير، عن الأعمش - واسمه سليمان بن مهران - عن أبى سفيان - واسمه طلحة بن نافع - عن أنس^(٥)، ثم قال: حسن. وهكذا روى عن غير واحد عن الأعمش، رواه بعضهم عنه، عن أبى سفيان، عن جابر، عن النبى ﷺ، وحديث أبى سفيان عن أنس أصح^(٦).

حديث آخر: قال عبد بن حميد^(٧) فى مسنده: حدثنا عبد الملك بن عمرو، حدثنا شعبة، عن الحكم، عن ابن أبى ليلى، عن بلال، رضى الله عنه، أن النبى ﷺ كان يدعو: «يا مُقَلِّبَ القلوب

(١) فى ك، م: «البقاء».

(٢) المستدرک (٣٢٨/٢).

(٣) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٤٥/٤).

(٤) فى أ: «فقال».

(٥) المسند (١١٢/٣) وسنن الترمذى برقم (٢١٤٠).

(٦) رواه الحاكم فى المستدرک (٢٨٨/٢) من طريق الأعمش، عن أبى سفيان، عن جابر، رضى الله عنه.

(٧) فى ك، م، أ: «قال الإمام عبد بن حميد».

ثُبَّتَ قلبي على دينك». هذا حديث جيد الإسناد إلا أن فيه انقطاعا. وهو - مع ذلك - على شرط أهل السنن ولم يخرجوه^(١).

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم قال: سمعت ابن جابر يقول: حدثني بسر بن عبد الله^(٢) الحضرمي: أنه سمع أبا إدريس الخولاني يقول: سمعت النواس بن سَمْعَانَ الكلابي، رضى الله عنه، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن رب العالمين، إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاعه». وكان يقول: «يا مقلب القلوب، ثبت قلوبنا^(٣) على دينك». قال: «والميزان بيد الرحمن يخفضه ويرفعه».

وهكذا رواه النسائي وابن ماجه، من حديث عبد الرحمن بن يزيد^(٤) بن جابر^(٥)، فذكر مثله.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا حماد بن زيد، عن المعلّى بن زياد، عن الحسن؛ أن عائشة قالت: دعوات كان رسول الله ﷺ يدعو بها: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك». قالت: فقلت: يا رسول الله، إنك تكثر^(٦) تدعوا بهذا الدعاء. فقال: «إن قلب آدمي بين أصبعين^(٧) من أصابع الله، فإذا شاء أزاعه^(٨)، وإذا شاء أقامه^(٩)»^(١٠).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا عبد الحميد، حدثني شهر، سمعت أم سلمة تحدث: أن رسول الله ﷺ كان يكثر في دعائه يقول: «اللهم يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك». قالت: فقلت^(١١): يا رسول الله، أو إن القلوب لتقلب^(١٢)؟ قال: «نعم، ما^(١٣) خلق الله من بشر من بنى آدم إلا أن قلبه بين إصبعين من أصابع الله، عز وجل، فإن شاء أقامه، وإن شاء أزاعه. فنسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب». قالت: قلت: يا رسول الله، ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال: «بلى، قولى: اللهم رب النبي محمد، اغفر لى ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن ما أحيتني»^(١٤).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حيوة، أخبرني أبو هانئ، أنه سمع أبا عبد الرحمن الحبلي^(١٥) أنه سمع عبد الله بن عمرو؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن قلوب بنى آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يُصَرَّف^(١٦) كيف شاء^(١٧)». ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مُصَرِّف القلوب، صَرِّف قلوبنا إلى طاعتك».

(١) المنتخب برقم (٣٥٩). (٢) فى د، ك، م: «عبيد الله». (٣) فى د، ك، م: «قلبي».

(٤) فى أ: «زيد».

(٥) المسند (١٨٢/٤) وسنن النسائي الكبرى برقم (٧٧٣٨) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٩).

(٦) فى أ: «تكثر أن». (٧) فى د: «الأصبعين». (٨) فى أ: «أزاعه أزاعه».

(٩) فى أ: «أقامه أقامه».

(١٠) المسند (٩١/٦).

(١١) فى ك، أ: «قلت». (١٢) فى أ: «وإن القلب ليتقلب». (١٣) فى أ: «ما من».

(١٤) المسند (٣٠١/٦) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٥٢٢) من طريق شهر بن حوشب به. قال الترمذى: «هذا حديث حسن».

(١٥) فى أ: «الحبلى». (١٦) فى د: «يصرفها». (١٧) فى د، م: «يشاء».

انفرد بإخراجه مسلم عن البخارى، فرواه مع النسائى من حديث حيوة بن شريح المصرى، به^(١).

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢٥).

يحذر تعالى عباده المؤمنين ﴿فِتْنَةً﴾ أى: اختباراً ومحنة، يعم بها المسيء وغيره، لا يخص بها أهل المعاصى ولا من باشر الذنب، بل يعمهما، حيث لم تدفع وترفع. كما قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم، حدثنا شداد بن سعيد، حدثنا غيلان بن جرير، عن مطرف قال: قلنا للزبير: يا أبا عبد الله، ما جاء بكم؟ ضيعتم الخليفة الذى قتل، ثم جئتم تطلبون بدمه؟ فقال الزبير، رضى الله عنه: إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان، رضى الله عنهم: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾، لم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت^(٢).

وقد رواه البزار^(٣) من حديث مطرف، عن الزبير، وقال: لا نعرف مطرفاً روى عن الزبير غير هذا الحديث^(٤).

وقد روى النسائى من حديث جرير بن حازم، عن الحسن، عن الزبير نحو هذا^(٥).

وروى ابن جرير: حدثنى الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا مبارك بن فضالة، عن الحسن قال: قال الزبير: لقد خوفنا بها، يعنى قوله [تعالى]^(٦): ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾، ونحن مع رسول الله ﷺ، وما ظننا أنا خصصنا بها خاصة.

وكذا رواه حميد، عن الحسن، عن الزبير، رضى الله عنه^(٧).

وقال داود بن أبى هند، عن الحسن فى هذه الآية قال: نزلت فى على، وعثمان^(٨)، وطلحة والزبير، رضى الله عنهم.

وقال سفيان الثورى عن الصلت بن دينار، عن عقبة بن صهبان، سمعت الزبير يقول: لقد قرأت هذه الآية زماناً وما أرانا من أهلها فإن^(٩) نحن المعنيون بها: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

وقد روى من غير وجه، عن الزبير بن العوام.

وقال السدى: نزلت فى أهل بدر خاصة، فأصابهم يوم الجمل، فاقتتلوا.

(١) المسند (١٦٨/٢) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (٧٨٦١).

(٢) المسند (١٦٥/٤).

(٣) فى أ: «الترمذى».

(٤) مسند البزار برقم (٩٧٦).

(٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٢٠٦).

(٦) زيادة من ك.

(٧) تفسير الطبرى (٤٧٤/١٣).

(٨) فى د، ك، م: «فإذا».

(٩) فى د، ك، م: أ: «عمار».

وقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ يعنى: أصحاب النبى ﷺ خاصة.

وقال فى رواية له، عن ابن عباس، فى تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين ظهرانيهم إليهم فيعمهم الله بالعذاب.

وهذا تفسير حسن جداً؛ ولهذا قال مجاهد فى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾: هى أيضاً لكم، وكذا قال الضحاك، ويزيد بن أبى حبيب، وغير واحد.

وقال ابن مسعود: ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، فأیکم استعاذ فليستغذ بالله من مُضِلَّاتِ الفتن. رواه ابن جرير.

والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم - وإن كان الخطاب معهم - هو الصحيح، ويدل على ذلك الأحاديث الواردة فى التحذير من الفتن، ولذلك كتاب مستقل يوضح فيه إن شاء الله تعالى، كما فعله الأئمة وأفردوه بالتصنيف، ومن أخص ما يذكر هاهنا ما رواه الإمام أحمد حيث قال:

حدثنا أحمد بن الحجاج، أخبرنا عبد الله - يعنى ابن المبارك - أنبأنا سيف بن أبى سليمان، سمعت عَدَى بن عَدَى الكندى يقول: حدثنى مولى لنا أنه سمع جدى - يعنى عدى بن عميرة - يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله، عز وجل، لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عَذَّبَ الله الخاصة والعامة»^(١).
فيه رجل مبهم، ولم يخرجوه فى الكتب الستة، ولا واحد منهم، والله أعلم.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان الهاشمى، حدثنا إسماعيل - يعنى ابن جعفر - أخبرنى عمرو بن أبى عمرو، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهل، عن حُذَيْفَةَ بن اليمان؛ أن رسول الله ﷺ قال: «والذى نفسى بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم»^(٢).

ورواه عن أبى سعيد، عن إسماعيل بن جعفر، وقال: «أو ليعثن الله عليكم قوما ثم تدعونه فلا يستجيب لكم»^(٣).

وقال أحمد: حدثنا عبد الله بن نُمَيْرٍ، حدثنا رَزِين بن حبيب الجُهَنى، حدثنى أبو الرُقَاد قال: خرجت مع مولاى، فدفعت إلى حذيفة وهو يقول: إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير منافقاً، وإنى لأسمعها من أحدكم فى المقعد الواحد أربع مرات؛ لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، وَلْتَحَاضُنَّ على الخير، أو لَيَسْحَتَنَّكُمُ الله جميعاً بعذاب، أو ليؤمرن عليكم

(١) المسند (١٩٢/٤)

(٢) المسند (٣٨٨/٥).

(٣) فى المسند (٣٨٨/٥) «أبو سعيد مولى بنى هاشم عن سليمان بن بلال» ثم راجعت أطراف المسند للحافظ ابن حجر (٢٦٣/٢)

فوجدته كما هو فى المسند.

شراركم، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم^(١).

حديث آخر: قال الإمام أحمد أيضاً: حدثني يحيى بن سعيد، عن زكريا، حدثنا عامر، قال: سمعت النعمان بن بشير، رضى الله عنه، يخطب يقول - وأوماً بأصبعيه^(٢) إلى أذنيه - يقول: مثل القائم على حدود الله والواقع فيها - أو^(٣) المذهن فيها - كمثل قوم ركبوا سفينة، فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها، وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فأدوهم، فقالوا: لو خرّقنا فى نصيبنا خرّقنا، فاستقينا منه، ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً.

انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم، فرواه فى «الشركة» و «الشهادات»، والترمذى فى الفتن من غير وجه، عن سليمان بن مهران الأعمش، عن عامر بن شراحيل الشعبى، به^(٤).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حسين، حدثنا خلف بن خليفة، عن ليث، عن علقمة بن مرثد، عن المعرور بن سويد، عن أم سلمة زوج النبی ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا ظهرت المعاصى فى أمتى، عمّهم الله بعذاب من عنده». فقلت: يا رسول الله، أما فيهم أناس صالحون؟ قال: «بلى»، قالت: فكيف يصنع أولئك؟ قال: «يصيبهم ما أصاب الناس، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان»^(٥).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج بن محمد، أخبرنا شريك، عن أبى إسحاق، عن المنذر بن جرير، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يعملون بالمعاصى، وفيهم رجل أعزّ منهم وأمنع لا يغيرون، إلا عمّهم الله بعقاب»^(٦) - أو: أصابهم العقاب.

ورواه أبو داود، عن مسدد، عن أبى الأخوص، عن أبى إسحاق، به^(٧).

وقال أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت أبا إسحاق يحدث، عن عبيد الله ابن جرير، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصى، هم أعزّ وأكثر ممن يعمل، لم يغيروه، إلا عمّهم الله بعقاب»^(٨).

ثم رواه أيضاً عن وكيع، عن إسرائيل - وعن عبد الرزاق، عن معمر - وعن أسود، عن شريك ويونس - كلهم عن أبى إسحاق السبيعي، به.

وأخرجه ابن ماجه، عن على بن محمد، عن وكيع، به^(٩).

(١) المسند (٣٩٠/٥).

(٢) فى د، ك: «بأصبعه».

(٣) فى ك، م: «و».

(٤) المسند (٢٦٩/٤) وصحيح البخارى برقم (٢٤٩٣)، (٢٦٨٦) وسنن الترمذى برقم (٢١٧٣).

(٥) المسند (٣٠٤/٦).

(٦) فى د: «بعذاب».

(٧) المسند (٣٦١/٤) وسنن أبى داود برقم (٤٣٣٩).

(٨) المسند (٣٦٤/٤).

(٩) سنن ابن ماجه برقم (٤٠٠٩).

[حديث آخر^(١)]: وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا جامع بن أبي راشد، عن مُنذر، عن حسن بن محمد، عن امرأته، عن عائشة تبلغ به النبي ﷺ: «إذا ظهر السوء في الأرض، أنزل الله بأهل الأرض بأسه». قالت: وفيهم أهل طاعة الله؟ قال: «نعم، ثم يصيرون إلى رحمة الله»^(٢).

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَزَوَّدَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)﴾.

ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثرتهم، ومستضعفين خائفين فقوَّاهم ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات، واستشكرهم^(٣) فأطاعوه، وامثلوا جميع ما أمرهم. وهذا^(٤) كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستخفين مضطرين^(٥)، يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله، من مشرك ومجوسى ورومى، كلهم أعداء لهم^(٦) لقلبتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن لهم فى الهجرة إلى المدينة، فأوَّاهم إليها، وقبض لهم أهلها، آووا ونصروا يوم بدر وغيره وآسوا بأموالهم، وبذلوا مُهجهم فى طاعة الله وطاعة رسوله. قال قتادة بن دَعَامَة السَّدُوسى، رحمه الله، فى قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلاً، وأشقاء عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعره جلوداً، وأبينه ضلالاً، مكعومين على رأس حجر، بين الأسدين فارس والروم، ولا والله ما فى بلادهم يومئذ من شىء يحسدون عليه، من عاش منهم عاش شقيماً، ومن مات منهم رُدَى فى النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبيلة من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلاً منهم، حتى جاء الله بالإسلام فمكن به فى البلاد، ووسع به فى الرزق، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس. وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا لله نعمه، فإن ربكم مُنعم يحب الشكر، وأهل الشكر فى مزيد من الله [تعالى]^(٧) (٨).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)﴾.

قال عبد الله بن أبى قتادة والزهرى: أنزلت فى أبى لُبَابَة بن عبد المنذر، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بنى قُرَيْظَةَ لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فاستشاروه فى ذلك، فأشار عليهم بذلك - وأشار بيده إلى حلقه - أى: إنه الذبح، ثم فطن أبو لبابة، ورأى أنه قد خان الله ورسوله، فحلف لا يذوق ذواقاً حتى يموت أو يتوب الله عليه، وانطلق إلى مسجد المدينة، فربط نفسه فى سارية منه، فمكث

(١) زيادة من م.

(٢) المسند (٤١/٦).

(٣) فى أ: «واستكثرهم».

(٤) فى د: «وهكذا».

(٥) فى د، ك، م، أ: «مضطهدين».

(٦) زيادة من أ.

(٧) فى م: «أعدائهم».

(٨) رواه الطبرى فى تفسيره (٤٧٨/١٣) وهذا كلام عظيم من إمام جليل يبين أن لا عز إلا بالإسلام وقد جاء عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فمضى ابتغينا بغير الإسلام أذلنا الله».

كذلك تسعة أيام، حتى كان يخر مغيشا عليه من الجهد، حتى أنزل الله توبته على رسوله. فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا أن يحلوه من السارية، فحلف لا يحله منها إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) بيده، فحله، فقال: يا رسول الله، إني كنت نذرت أن أنخلع من مالى صدقة، فقال^(٢): «يجزيك الثلث أن تصدق به»^(٣).

وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا يونس بن الحارث الطائفي، حدثنا محمد بن عبيد الله أبو عون الثقفي، عن المغيرة بن شعبة قال: نزلت هذه الآية في قتل عثمان، رضى الله عنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ الآية.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا القاسم بن بشر بن معروف، حدثنا شبابة بن سوار، حدثنا محمد ابن المحرم قال: لقيت عطاء بن أبي رباح فحدثني قال: حدثني جابر بن عبد الله؛ أن أبا سفيان خرج من مكة، فأتى جبريل رسول الله ﷺ فقال: إن أبا سفيان فى كذا وكذا. فقال النبى ﷺ لأصحابه: «إن أبا سفيان فى موضع^(٥) كذا وكذا، فاخرجوا إليه واكتبوا» فكتب رجل من المنافقين إليه: إن محمداً يريدكم، فخذوا حذرکم، فأنزل الله [عز وجل]^(٦): ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ الآية^(٧).

هذا حديث غريب جداً، وفى سنده وسياقه نظر.

وفى الصحيحين قصة «حاطب بن أبى بلتعة» أنه كتب إلى قريش يعلمهم بقصد رسول الله ﷺ إياهم عام الفتح، فأطلع الله رسوله على ذلك، فبعث فى إثر الكتاب فاسترجعه، واستحضر حاطبا فأقر بما صنع، فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين؟ فقال: «دعه، فإنه قد شهد بدرا، ما^(٨) يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(٩).

قلت: والصحيح أن الآية عامة، وإن صح أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء، والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية. وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾: الأمانة الأعمال التى ائتمن الله عليها العباد - يعنى الفريضة يقول: لا تخونوا: لا تنقضوها.

وقال فى رواية: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ يقول: بترك سنته وارتكاب معصيته.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير فى هذه الآية،

(٢) فى أ: «فقال له».

(١) زيادة من د، ك، م، أ.

(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (٤٨١/١٣).

(٤) فى أ: «رسول الله».

(٥) فى أ: «بمكان».

(٦) زيادة من د، ك، م.

(٧) تفسير الطبرى (٤٨٠/١٣).

(٨) فى ك، م: «وما».

(٩) انظر: تخريجه عند تفسير الآية: ٩ من هذه السورة.

أى: لا تظهروا لله^(١) من الحق ما يرضى به منكم، ثم تخالفوه فى السر إلى غيره، فإن ذلك هلاك لأماناتكم، وخيانة لأنفسكم.

وقال السدّى: إذا خانوا الله والرسول، فقد خانوا أماناتهم.

وقال أيضا: كانوا يسمعون من النبى ﷺ الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين.

وقال عبد الرحمن بن زيد [بن أسلم]^(٢): نهاكم أن تخونوا الله والرسول، كما صنع المنافقون.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أى: اختبار وامتحان منه لكم؛ إذ أعطاكموها ليعلم أشكرونها عليها وتطيعونه^(٣) فيها، أو تشتغلون بها عنه، وتعتاضون بها منه؟ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥]، وقال: ﴿وَنَبِّئُكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ الآية [التغابن: ١٤].

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أى: ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد، فإنه قد يوجد منهم عدو، وأكثرهم لا يغنى عنك شيئا، والله، سبحانه، هو المتصرف المالك للعالمين والآخر، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة.

وفى الأثر يقول [الله]^(٤) تعالى: «ابن آدم، اطلبنى تجدنى، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فُتكت فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء».

وفى الصحيح عن رسول الله ﷺ [أنه قال]^(٥): «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله، ومن كان أن يلقي فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ^(٦) أنقذه الله منه»^(٧).

بل حب رسول الله ﷺ على الأولاد والأموال والنفوس، كما ثبت فى الصحيح أنه، عليه السلام، قال: «والذى نفسى بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله والناس أجمعين»^(٨).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٩).

قال ابن عباس، والسدّى، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، ومقاتل بن حيان: ﴿فُرْقَانًا﴾:

(٢) زيادة من أ.

(٤) زيادة من د، ك، م، أ.

(٦) فى د، ك، م، أ: «أن».

(٧) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٤٣) من حديث أنس بن مالك، رضى الله عنه.

(٨) صحيح البخارى برقم (١٤).

(١) فى د، ك، م: «لا تظهروا له».

(٣) فى د، ك، م: «أشكروها عليها وتطيعوه».

(٥) زيادة من أ.

مخرجاً. زاد مجاهد: فى الدنيا والآخرة.

وفى رواية عن ابن عباس: ﴿فُرْقَانًا﴾: نجاة. وفى رواية عنه: نصرا.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿فُرْقَانًا﴾ أى: فصلا بين الحق والباطل.

وهذا التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدم وقد يستلزم ذلك كله؛ فإن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجه، وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره^(١) ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا، وسعادته يوم القيامة، وتكفير ذنوبه - وهو محوها - وغفرها: سترها عن الناس - سبباً لنيل ثواب الله الجزيل، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ [أى]^(٢): ليقيدوك.

وقال عطاء، وابن زيد: ليحبسوك.

وقال السدّى: «الإثبات»: هو الحبس والوثاق.

وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء، وهو مجمع الأقوال^(٣)، وهو الغالب من صنيع من أراد غيره

بسوء.

وقال سُنَيْد، عن حجاج، عن ابن جُرَيْج، قال عطاء: سمعت عُبَيْد بن عُمَيْر يقول: لما ائتمروا بالنبي ﷺ ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه، قال له عمه أبو طالب: هل تدرى ما ائتمروا بك؟ قال: «يريدون أن يسحرونى»^(٤) أو يقتلونى أو يخرجونى، فقال: من أخبرك بهذا؟ قال: «ربى»، قال: نعم الرب ربك، استوص به خيراً فقال: «أنا أستوصى به؟! بل هو يستوصى بى»^(٥).

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنى محمد بن إسماعيل البصرى، المعروف بالوساوسى، أخبرنا عبد الحميد بن أبى رواد^(٦)، عن ابن جريج، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن المطلب بن أبى وداعة، أن أبا طالب قال لرسول الله ﷺ: ما يأتى بك قومك؟ قال: «يريدون أن يسحرونى»^(٨) أو يقتلونى أو يخرجونى. فقال: من أخبرك بهذا؟ قال: «ربى»، قال: نعم الرب ربك، فاستوص به خيراً. «قال: أنا أستوصى به؟! بل هو يستوصى بى». قال: فنزلت: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ الآية^(٩).

(٣) فى د: «وهذا يجمع الأقوال»، وفى ك، م: «وهو تجمع الأقوال».

(٥) فى ك، م، أ: «خبرك».

(٨) فى د: «يسجنونى»، وفى أ: «يسخرونى».

(١) فى أ: «نصرته». (٢) زيادة من أ.

(٤) فى د: «يسجنونى»، وفى أ: «يسخرونى».

(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (٤٩٣/١٣).

(٧) فى د، م: «داود».

(٩) تفسير الطبرى (٤٩٢/١٣).

وذكر أبى طالب فى هذا، غريب جدا، بل منكر؛ لأن هذه الآية مدنية، ثم إن هذه القصة واجتماع قريش على هذا الائتمار والمشاورة على الإثبات أو النفى أو القتل، إنما كان ليلة الهجرة سواء، وكان ذلك بعد موت أبى طالب بنحو من ثلاث سنين لما تمكنوا منه واجترأوا عليه بعد موت عمه أبى طالب، الذى كان يحوطه وينصره ويقوم بأعبائه. والدليل على صحة ما قلنا: ما رواه الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب «المغازى» عن عبد الله بن أبى نجيع، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: وحدثني الكلبي، عن باذان مولى أم هانئ، عن ابن عباس؛ أن نفرا من قريش من أشراف كل قبيلة، اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة، فاعترضهم^(١) إبليس فى صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال: شيخ من نجد، سمعت أنكم اجتمعتم، فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم رأى ونصحى. قالوا: أجل، ادخل فدخل معهم فقال: انظروا فى شأن هذا الرجل، والله ليوشكن أن يواثبكم فى أمركم بأمره. قال: فقال قائل منهم: احبسوه فى وثاق، ثم تربصوا به ريب المنون، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء: زهير والتابعة، إنما هو كأحدهم، قال: فصرخ عدو الله الشيخ النجدى فقال: والله ما هذا لكم برأى، والله ليخرجنه ربه من محبسه^(٢) إلى أصحابه، فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذه من أيديكم، فيمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم قال: فانظروا فى غير هذا.

قال: فقال قائل منهم: أخرجوه من بين أظهركم تستريحوا منه، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع، إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم، وكان أمره فى غيركم، فقال الشيخ النجدى: والله ما هذا لكم برأى، ألم تروا حلاوة [قوله]^(٣) وطلاوة لسانه، وأخذ القلوب ما تسمع^(٤) من حديثه؟ والله لئن فعلتم، ثم استعرض العرب، ليجتمعن عليكم^(٥)، ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم. قالوا: صدق والله، فانظروا باباً غير هذا.

قال: فقال أبو جهل، لعنه الله: والله لأشيرن عليكم برأى ما أراكم تصرمون^(٦) بعد، ما أرى غيره. قالوا: وما هو؟ قال: نأخذ من كل قبيلة غلاما شابا وسيطا نهذاً، ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل [كلها]^(٧)، فلا أظن هذا الحى من بنى هاشم يقوون على حرب قريش كلها. فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العَقْل، واسترحنا وقطعنا عنا أذاه.

قال: فقال الشيخ النجدى: هذا والله الرأى. القول ما قال الفتى لا رأى غيره، قال: ففارقوا على ذلك وهم مجمعون له^(٨).

فأتى جبريل النبى ﷺ، فأمره ألا يبيت فى مضجعه الذى كان يبيت فيه، وأخبره بمكر القوم.

(١) فى د: «واعترضهم».

(٢) فى أ: «من حبسه».

(٤) فى أ: «ما نشيع».

(٥) فى د، ك، م: «عليه».

(٧) زيادة من د، ك، م، أ.

(٨) زيادة من د، ك، م.

(٣) زيادة من أ.

(٦) فى أ: «بصرغموه».

فلم يبت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة، وأذن الله له عند ذلك بالخروج، وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة «الأنفال» يذكر نعمه^(١) عليه وبلاءه عنده: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، وأنزل [الله]^(٢) في قولهم: «تربصوا به ريب المنون، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء»، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، وكان ذلك اليوم يسمى «يوم الزحمة»^(٣)، للذي اجتمعوا عليه من الرأي^(٤).

وعن السدّي نحو هذا السياق، وأنزل الله في إرادتهم إخراجهم قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦].

وكذا روى العوفي، عن ابن عباس. وروى عن مجاهد، وعروة بن الزبير، وموسى بن عتبة، وقتادة، ومقسم، وغير واحد، نحو ذلك.

وقال يونس بن بكير، عن ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ ينتظر أمر الله، حتى إذا اجتمعت قريش فمكرت به، وأرادوا به ما أرادوا، أتاه جبريل، عليه السلام، فأمره ألا يبيت في مكانه الذي كان يبيت فيه^(٥)، فدعا رسول الله ﷺ على بن أبي طالب، فأمره أن يبيت على فراشه وأن يتسجى ببرد له أخضر، ففعل. ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابه، وخرج معه بحفنة من تراب، فجعل يذرها على رؤوسهم، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه محمد ﷺ وهو يقرأ: ﴿يَسْ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ١-٩].

قال الحافظ أبو بكر البيهقي: وروى عن عكرمة ما يؤكد هذا^(٦).

وقد روى [أبو حاتم]^(٧) ابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، من حديث عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ وهي تبكي، فقال: «ما يبكيك يا بنية؟» قالت: يا أبت، [و]^(٨) ما لي لا أبكي، وهؤلاء الملاء من قريش في الحجر يتعاقدون باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، لو قد رأوك لقاموا إليك فيقتلوك، وليس منهم إلا من قد عرف نصيبه من دمك. فقال: «يا بنية، اتنى بوضوء». فتوضأ رسول الله ﷺ، ثم خرج إلى المسجد. فلما رأوه قالوا: إنما هو ذا^(٩). فطأطأوا رؤوسهم، وسقطت أذقانهم بين أيديهم، فلم يرفعوا أبصارهم. فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب فحصبهم بها، وقال: «شاهت الوجوه». فما أصاب رجلا منهم حصاة من حصياته إلا قُتل يوم بدر كافرا.

ثم قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ولا أعرف له علة^(١٠).

(١) في ك، م: «نعمته».

(٢) في د، ك، م: أ: «الرحمة».

(٣) رواه الطبري في تفسيره (٤٩٤/١٣) من طريق ابن إسحاق به.

(٤) في د، ك، م: «به».

(٥) دلائل النبوة للبيهقي (٤٦٩/٢، ٤٧٠).

(٦) زيادة من ك، م.

(٧) في د، ك، م: «ها هو ذا».

(٨) زيادة من د.

(٩) صحيح ابن حبان برقم (١٦٩١) «موارد» والمستدرک (١٥٧/٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، أخبرني عثمان الجزري، عن مفسم مولى ابن عباس أخبره عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ . قال: تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق - يريدون النبي ﷺ - وقال بعضهم: بل اقتلوه. وقال بعضهم: بل أخرجوه. فأطلع الله نبيه على ذلك، فبات على، رضى الله عنه، على فراش رسول الله ﷺ، وخرج رسول الله ﷺ^(١) حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونهم النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوا علياً ردَّ الله تعالى مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري. فاقتصا^(٢) أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا في الجبل فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هاهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاث ليال^(٣).

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير في قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أى: فمكرت بهم بكيدى المتين، حتى خلصتك منهم.

﴿وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾.

يخبر تعالى عن كفر قريش وعتوهم وتمردهم وعنادهم، ودعواهم الباطل عند سماع آياته حين تتلى عليهم أنهم يقولون: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾. وهذا منهم قول لا فعل، وإلا فقد تحدوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلا. وإنما هذا قول منهم يغرون به أنفسهم ومن اتبعهم على باطلهم.

وقد قيل: إن القائل لذلك هو النضر بن الحارث - لعنه الله - كما قد نص على ذلك سعيد بن جبيرة، والسدي، وابن جرير وغيرهم؛ فإنه - لعنه الله - كان قد ذهب إلى بلاد فارس، وتعلم من أخبار ملوكهم رستم واسفنديار، ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله، وهو يتلو على الناس القرآن، فكان إذا قام ﷺ^(٤) من مجلس، جلس فيه النضر فيحدثهم من أخبار أولئك، ثم يقول: بالله أيهما أحسن قصصا؟ أنا أو محمد؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر ووقع في الأسارى، أمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبته صبرا بين يديه، ففعل ذلك، والله الحمد. وكان الذى أسره المقداد بن

(١) فى ك، م: «النبي».

(٢) فى د، ك، م: «فاقتصوا».

(٣) المسند (٣٤٨/١) قال الهيثمى فى المجمع (٢٧/٧): «فيه عثمان بن عمرو الجزرى وثقه ابن حبان وضعفه غيره، وبقيّة رجاله رجال الصحيح».

(٤) فى ك، د: «عليه السلام».

الأسود، رضى الله عنه، كما قال ابن جرير:

حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير قال: قتل النبي ﷺ يوم بدر صبورا عقبه بن أبي مُعَيْط وطُعَيْمة بن عَدِي، والنضر بن الحارث. وكان المقداد أسر النضر، فلما أمر بقتله، قال المقداد: يا رسول الله، أسيرى. فقال رسول الله ﷺ: «إنه كان يقول في كتاب الله، عز وجل، ما يقول». فأمر رسول الله ﷺ بقتله، فقال المقداد: يا رسول الله، أسيرى. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اغن المقداد من فضلك». فقال المقداد: هذا الذى أردت. قال: وفيه أنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا تَلَّيْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢).

وكذا رواه هُشَيْم، عن أبي بشر جعفر بن أبي وَحْشِيَّة، عن سعيد بن جبير؛ أنه قال: «المطعم بن عدى» «بدل طعيمة» (٣). وهو غلط؛ لأن المطعم بن عدى لم يكن حيا يوم بدر؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ يومئذ: «لو كان المطعم (٤) حيا، ثم سألتى (٥) فى هؤلاء التتنى (٦)، لو هبتهم له» (٧) - يعنى: الأسارى - لأنه كان قد أجاز رسول الله ﷺ ويوم رجع من الطائف.

ومعنى: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، وهو جمع أسطورة، أى: كتبهم اقتبسها، فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس. وهذا هو الكذب البحت، كما أخبر الله عنهم فى الآية الأخرى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا. قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٥، ٦] أى: لمن تاب إليه وأناب؛ فإنه يتقبل منه ويصفح عنه.

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: هذا من كثرة جهلهم وعتوهم وعنادهم وشدة تكذيبهم، وهذا مما عيَّبوا به، وكان الأولى لهم أن يقولوا: «اللهم، إن كان هذا هو الحق من عندك، فاهدنا له، ووفقنا لاتباعه». ولكن استفتحوا على أنفسهم، واستعجلوا العذاب، وتقديم العقوبة كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْ لَأَجَلَ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣]، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]، ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ. لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ. مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ [المعارج: ١-٣]، وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة، كما قال قوم شعيب له: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، وقال هؤلاء: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

(١) فى د، ك، م، أ: «النبي».

(٢) تفسير الطبرى (١٣/ ٥٠٤).

(٣) تفسير الطبرى (١٣/ ٥٠٤).

(٤) فى د، ك، م، أ: «المطعم بن عدى».

(٥) فى ك: «وسألتى».

(٦) فى أ: «السبي».

(٧) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣١٣٩) من حديث جبير بن مطعم، رضى الله عنه.

قال شعبه، عن عبد الحميد، صاحب الزيادة، عن أنس بن مالك قال: هو أبو جهل بن هشام قال: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الآية.

رواه البخارى عن أحمد ومحمد بن النضر، كلاهما عن عبيد الله بن معاذ، عن أبيه، عن شعبه، به^(١).

وأحمد هذا هو: أحمد بن النضر بن عبد الوهاب. قاله الحاكم أبو أحمد، والحاكم أبو عبد الله النيسابورى، والله أعلم.

وقال الأعمش، عن رجل، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قال: هو النضر بن الحارث بن كلدة، قال: فأنزل الله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ [المعارج: ١، ٢]، وكذا قال مجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبیر، والسدى: إنه النضر بن الحارث - زاد عطاء: فقال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] وقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقال: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ﴾ [المعارج: ١، ٢]، قال عطاء: ولقد أنزل فيه بضع عشرة آية من كتاب الله، عز وجل.

وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن إبراهيم، حدثنا الحسن بن أحمد بن الليث، حدثنا أبو غسان حدثنا أبو ثُميلة، حدثنا الحسين، عن ابن بُريدة، عن أبيه قال: رأيت عمرو بن العاص واقفا يوم أُحُد على فرس، وهو يقول: اللهم، إن كان ما يقول محمد حقا، فاخسف بى وبفرسى.

وقال قتادة فى قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ الآية، قال: قال ذلك سفهة هذه الأمة وجهلتها^(٢)، فعاد الله بعائده ورحمته على سفهة هذه الأمة وجهلتها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو حذيفة موسى بن مسعود، حدثنا عكرمة بن عمار، عن أبى زُمَيْل سِمَاك الحنفى، عن ابن عباس قال: كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك^(٣). فيقول النبى ﷺ: «قَدْ قَدْ!» ويقولون: لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك. ويقولون: غفرانك، غفرانك، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، قال ابن عباس: كان فيهم أمانان: النبى ﷺ، والاستغفار، فذهب النبى ﷺ وبقي الاستغفار^(٤).

(١) صحيح البخارى برقم (٤٦٤٨، ٤٦٤٩).

(٢) فى ك: «وجهلها».

(٣) فى أ: «لك لبيك».

(٤) ورواه الطبرى فى تفسيره (٥١١/١٣) من طريق أبى حذيفة موسى بن مسعود به.

وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا أبو معشر، عن يزيد بن رومان ومحمد بن قيس قالوا: قالت قريش بعضها لبعض: محمد أكرمه الله من بيننا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فلما أمسوا ندموا على ما قالوا، فقالوا: غفرانك اللهم! فأنزل الله، عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ يقول: ما كان الله ليُعَذِّبَ قوما وأنبياءهم بين أظهرهم حتى يخرجهم، ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يقول: وفيهم من قد سبق له من الله الدخول في الإيمان، وهو الاستغفار - يستغفرون، يعني: يصلون - يعني بهذا أهل مكة.

وروى عن مجاهد، وعكرمة، وعطية العوفي، وسعيد بن جبيرة، والسددي نحو ذلك.

وقال الضحاك وأبو مالك: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يعني: المؤمنين الذين كانوا بمكة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الغفار بن داود، حدثنا النضر بن عريبي [قال] (٢) قال ابن عباس: إن الله جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ما داموا بين أظهرهم: فأمان قبضه الله إليه، وأمان بقى فيكم، قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

قال (٣) أبو صالح عبد الغفار: حدثني بعض أصحابنا، أن النضر بن عريبي حدثه هذا الحديث، عن مجاهد، عن ابن عباس.

وروى ابن مردويه وابن جرير، عن أبي موسى الأشعري نحوه من هذا (٤)، وكذا روى عن قتادة وأبي العلاء النحوي المقرئ.

وقال الترمذي: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا ابن نمير، عن إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر، عن عباد بن يوسف، عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل الله على أمانين لأمتي: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، فإذا مضيت، تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة» (٥).

ويشهد لهذا (٦) ما رواه الإمام أحمد في مسنده، والحاكم في مستدركه، من حديث عبد الله بن وهب: أخبرني عمرو بن الحارث، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، أن رسول الله ﷺ

(٣) في ك: «وقال».

(٢) زيادة من د، ك، م، أ.

(١) زيادة من م.

(٤) تفسير الطبري (٥١٣/١٣).

(٥) سنن الترمذي برقم (٣٠٨٢) وقال الترمذي: «هذا حديث غريب، وإسماعيل بن مهاجر يضعف في الحديث».

(٦) في أ: «لصحة هذا».

قال: «إن الشيطان قال: وعزتك يا رب، لا أبرح أغوى عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال الرب: وعزتي وجلالي، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني».

ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا رشدين - هو ابن سعد - حدثني معاوية بن سعد التَّجِيبِي، عن حدثه، عن فضالة بن عبيد، عن النبي ﷺ أنه قال: «العبد آمن من عذاب الله ما استغفر الله، عز وجل»^(٢).

﴿وَمَا لَهُمْ آلًا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥)﴾.

يخبر تعالى أنهم أهل لأن يعذبهم، ولكن لم يقع ذلك بهم لبركة مقام رسول الله ﷺ بين أظهرهم؛ ولهذا لما خرج من بين أظهرهم، أوقع الله بهم بأسه يوم بدر، فقتل صناديدهم وأسرت سُرَاتِهِمْ. وأرشدهم تعالى إلى الاستغفار من الذنوب، التي هم متلبسون بها من الشرك والفساد.

قال قتادة والسُّدِّي وغيرهما: لم يكن القوم يستغفرون، ولو كانوا يستغفرون ما عذبوا.

واختاره ابن جرير، فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين، لأوقع بهم البأس الذي لا يرد، ولكن دفع عنهم بسبب أولئك، كما قال تعالى في يوم الحديبية: ﴿هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلُّهُ وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّهُمْ فَتُصَيِّبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن ابن أبيزى قال: كان النبي ﷺ بمكة، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ قال: فخرج النبي ﷺ إلى المدينة، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال: وكان أولئك البقية من المؤمنين^(٣) الذين بقوا فيها يستغفرون - يعني بمكة - فلما خرجوا، أنزل الله: ﴿وَمَا لَهُمْ آلًا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ قال: فأذن الله في فتح مكة، فهو العذاب الذي وعدهم.

وروى عن ابن عباس، وأبي مالك، والضحاك، وغير واحد نحو هذا.

وقد قيل: إن هذه الآية ناسخة لقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، على أن يكون المراد صدور الاستغفار منهم أنفسهم.

(١) المسند (٢٩/٣) والمستدرك (٢٦١/٤) وهذا سياق أحمد في المسند من طريق ابن لهيعة عن دراج به.

(٢) المسند (٢٠/٦).

(٣) في د، ك، م: «المسلمين».

قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، عن الحسين بن واقد، عن يزيد النحوى، عن عكرمة والحسن البصرى قالا: قال فى «الأنفال»: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، فنسخها الآية التى تليها: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، فقوتلوا بمكة، فأصابهم فيها الجوع والضر.

وكذا رواه ابن أبى حاتم من حديث أبى (١) تميمه يحيى بن واضح (٢).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج بن محمد، عن ابن جريج وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، ثم استثنى أهل الشرك فقال [تعالى] (٣): ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام أى الذى ببكة، يصدون المؤمنين الذين هم أهلهم عن الصلاة عنده والطواف به؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ أى: هم ليسوا أهل المسجد الحرام، وإنما أهلهم النبي ﷺ وأصحابه، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ. إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرُ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ [وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ] (٤)﴾ الآية [البقرة: ٢١٧].

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسير هذه الآية: حدثنا سليمان بن أحمد - هو الطبرانى - حدثنا جعفر بن إلياس بن صدقة المصرى، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا نوح بن أبى مريم، عن يحيى ابن سعيد الأنصارى، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: سئل رسول الله ﷺ من ألك؟ قال (٥): «كل تقى»، وتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ (٦).

وقال الحاكم فى مستدركه: حدثنا أبو بكر الشافعى، حدثنا إسحاق بن الحسن، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم (٧)، عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعه، عن أبيه، عن جده قال: جمع رسول الله ﷺ قريشا فقال: «هل فيكم من غيركم؟» قالوا: فينا ابن أختنا (٨)، وفينا حليفنا، وفينا مولانا. فقال: «حليفنا منا، وابن أختنا منا، ومولانا منا، إن أوليائى منكم المتقون».

ثم قال: هذا [حديث] (٩) صحيح، ولم يخرجاه (١٠).

(٣)، (٤) زيادة من أ.

(٢) فى ك: «وضاح».

(١) فى أ: «ابن».

(٥) فى أ: «فقال».

(٦) رواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٥٠٠٢) «مجمع البحرين» وقال: «لم يروه عن يحيى إلا نوح تفرد به نعيم». وقال الهيثمى فى المجمع (٢٦٩/١٠): «فيه نوح بن أبى مريم وهو ضعيف».

(٨) فى د، ك، م: «أختنا».

(٩) زيادة من أ.

(١٠) المستدرک (٣٢٨/٢).

وقال عُرْوَةُ، والسُّدِّيُّ، ومحمد بن إسحاق فى قوله تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ قال: هم محمد ﷺ وأصحابه، رضى الله عنهم.

وقال مجاهد: هم المجاهدون، من كانوا، وحيث كانوا.

ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام، وما كانوا يعاملونه به، فقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾: قال عبد الله^(١) بن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبو رجاء العطاردي، ومحمد بن كعب القرظي، وحُجْر بن عُبَيْس، ونُبَيْط بن شُرَيْط، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو الصفير - وزاد مجاهد: وكانوا يدخلون أصابعهم فى أفواههم.

وقال السدي: المكاء: الصفير على نحو طير أبيض يقال له: «المكاء»، ويكون بأرض الحجاز. والتصدية: التصفيق.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو خَلَادٍ سليمان بن خلاد، حدثنا يونس بن محمد المؤدب، حدثنا يعقوب - يعنى ابن عبد الله الأشعري - حدثنا جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾ قال: كانت قريش تطوف بالكعبة^(٢) عراة تصفر وتصفق. والمكاء: الصفير، وإنما شبهوا بصفير الطير وتصدية التصفيق.

وهكذا روى على بن أبى طلحة والعوفى، عن ابن عباس. وكذا روى عن ابن عمر، ومجاهد، ومحمد بن كعب، وأبى سلمة بن عبد الرحمن، والضحاك، وقتادة، وعطية العوفى، وحُجْر بن عُبَيْس، وابن أبى رزى نحو هذا.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا أبو عمر، حدثنا قُرَّة، عن عطية، عن ابن عمر فى قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾ قال: المكاء: الصفير. والتصدية: التصفيق. قال قرة: وحكى لنا عطية فعل ابن عمر، فصفر ابن عمر، وأمال خده، وصفق بيديه.

وعن ابن عمر أيضاً أنه قال: كانوا يضعون خدودهم على الأرض ويصَفَّقون ويصَفَّرون. رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره بسنده عنه.

وقال عكرمة: كانوا يطوفون بالبيت على الشمال.

قال مجاهد: وإنما كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبى ﷺ صلاته.

وقال الزهرى: يستهزئون بالمؤمنين.

وعن سعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد: ﴿وَتَصَدِيَةً﴾ قال: صدُّهم الناس عن سبيل الله، عز وجل.

(٢) فى ك: «البيت».

(١) فى أ: «عبد الرزاق».

قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قال الضحاك، وابن جرير، ومحمد بن إسحاق: هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي. واختاره ابن جرير، ولم يحك غيره.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: عذاب أهل الإقرار بالسيف، وعذاب أهل التكذيب بالصيحة والزلزلة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَفْقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧).

قال محمد بن إسحاق: حدثني الزهري، ومحمد بن يحيى بن حبان، وعاصم بن عمر بن قتادة، والحُصَيْن بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، قالوا: لما أصيبت قريش يوم بدر، ورجع فلهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بغيره، مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان ابن أمية، في رجال من قريش أصيب آبائهم، وأبنائهم وإخوانهم ببدر، فكلّموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك^(١) العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش، إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا! ففعلوا. قال: ففيهم - كما ذكر عن ابن عباس - أنزل الله، عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٢) إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾^(٣).

وهكذا روى عن مجاهد، وسعيد بن جبيرة، والحكم بن عتيبة، وقتادة، والسدي، وابن أبيزى: أنها نزلت^(٤) في أبي سفيان ونفقته الأموال في أحد لقتال رسول الله ﷺ.

وقال الضحاك: نزلت في أهل بدر.

وعلى كل تقدير، فهي عامة. وإن كان سبب نزولها خاصاً، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق، فسيفعلون ذلك، ثم تذهب أموالهم، ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أى: ندامة؛ حيث لم تجد شيئاً؛ لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق، والله متم نوره ولو كره الكافرون، وناصر دينه، ومعلن كلمته، ومظهر دينه على كل دين. فهذا الخزي لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار، فمن عاش منهم، رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوؤه، ومن قتل منهم أو مات، فإلى الخزي الأبدى والعذاب السرمدي؛ ولهذا قال: ﴿فَسَيَفْقُونَهَا ثُمَّ

(٢) زيادة من م.

(١) في م، أ: «ذلك».

(٣) ورواه الطبري في تفسيره (١٣/٥٣٢).

(٤) في م: «أنزلت».

تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٤٠﴾

وقوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾: فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء^(١)، وقال السدى: يميز المؤمن من الكافر. وهذا يحتمل أن يكون هذا التمييز فى الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَرَلَيْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَخُونَ﴾ [الروم: ١٤]، وقال فى الآية الأخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا زُوا النِّيَمِ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩].

ويحتمل أن يكون هذا التمييز فى الدنيا، بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين، وتكون «اللام» معللة لما جعل الله للكفار من مال ينفقون فى الصد عن سبيل الله، أى: إنما أقدرناهم على ذلك؛ ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أى: من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين، أو يعصيه بالنكول عن ذلك كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ النِّقْيِ الْجَمْعَانِ فَيَا ذُنَّ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ. وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٦، ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ونظيرتها فى براءة أيضا.

فمعنى الآية على هذا: إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم، وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها فى ذلك؛ ليميز^(٢) الخبيث من الطيب، فيجعل الخبيث بعضه على بعض، ﴿فَيَرُكُمُ﴾ أى: يجمعه كله، وهو جمع الشئ بعضه على بعض، كما قال تعالى فى السحاب: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ [النور: ٤٣] أى: متراكما متراكبا، ﴿فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أى: هؤلاء هم الخاسرون فى الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ (٤٠)﴾.

يقول تعالى لنبىه محمد ﷺ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أى: عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد، ويدخلوا فى الإسلام والطاعة والإنابة، يغفر لهم ما قد سلف، أى: من كفرهم، وذنوبهم وخطاياهم، كما جاء فى الصحيح، من حديث أبى وائل عن ابن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من أحسن فى الإسلام، لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية، ومن أساء فى الإسلام، أخذ بالاول

(٢) فى د، م: «ليميز الله».

(١) فى أ: «الشقاوة».

وفى الصحيح أيضاً: أن رسول الله ﷺ قال: «الإسلام يَجُبُّ ما قبله»^(٢)، والتوبة تجب ما كان قبلها».

وقوله: ﴿وَأِنْ يَعُودُوا﴾ أى: يستمروا على ما هم فيه، ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ أى: فقد مضت سنتنا فى الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم، أنا نعالجهم بالعذاب والعقوبة.

وقوله: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ أى: فى قريش يوم بدر وغيرها من الأمم. وقال السدى ومحمد بن إسحاق: أى: يوم بدر.

وقوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾: قال البخارى: حدثنا الحسن بن عبد العزيز، حدثنا عبد الله بن يحيى، حدثنا حيوة بن شريح، عن بكر بن عمرو، عن بكير، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رجلاً جاءه فقال: يا أبا عبد الرحمن، ألا تسمع ما ذكر الله فى كتابه: ﴿وَأِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ الآية [الحجرات: ٩]، فما يمنعك ألا تقاتل كما ذكر الله فى كتابه؟ فقال: يا ابن أخى، أُعِيرَ بهذه الآية ولا أقاتل، أحب إلى من أن أُعِيرَ بالآية التى يقول الله، عز وجل: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ إلى آخر^(٣) الآية [النساء: ٩٣]، قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ قال ابن عمر: قد فعلنا على عهد النبي ﷺ إذ كان الإسلام قليلاً، وكان الرجل يُفْتَن فى دينه: إما أن يقتلوه، وإما أن يوثقوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد، قال: فما قولك فى على وعثمان؟ قال ابن عمر: ما قولى فى على وعثمان؟ أما عثمان فكان الله قد عفا عنه، وكرهتم أن يعفو عنه، وأما على فابن عم رسول الله ﷺ وختنه - وأشار بيده - وهذه ابنته - أو: بنته - حيث ترون.

وحدثنا أحمد بن يونس، حدثنا زهير، حدثنا بيان أن وبرة حدثه قال: حدثنى سعيد بن جبیر قال: خرج علينا - أو: إلينا - ابن عمر، رضى الله عنهما، فقال رجل: كيف ترى فى قتال الفتنة؟ فقال: وهل تدرى ما الفتنة؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين، وكان الدخول عليهم فتنة، وليس بقتالكم على الملك.

هذا كله سياق البخارى، رحمه الله^(٤).

وقال عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر؛ أنه أتاه رجلان فى فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس قد صنعوا ما ترى، وأنت ابن عمر بن الخطاب، وأنت صاحب رسول الله ﷺ، فما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعنى أن الله حرم على دم أخى المسلم. قالوا: أو لم يقل الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾

(١) صحيح البخارى برقم (٦٩٢١) وصحيح مسلم برقم (١٢٠).

(٢) فى ك، م: «ما كان قبله».

(٣) فى ك، م: «آخرها».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٦٥٠، ٤٦٥١).

وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ؟ قال: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين كله الله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله.

وكذا رواه حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أيوب بن عبد الله اللخمي قال: كنت عند عبد الله بن عمر^(١)، رضى الله عنهما، فأتاه رجل فقال: إن الله يقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ فقال^(٢) ابن عمر: قاتلت أنا وأصحابي حتى كان الدين كله لله، وذهب الشرك ولم تكن فتنة، ولكنك وأصحابك تقاتلون حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله. رواهما ابن مردويه.

وقال أبو عوانة، عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه قال: قال ذو البطين - يعنى أسامة ابن زيد - لا أقاتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله أبداً. قال: فقال سعد بن مالك: وأنا والله لا أقاتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله أبداً. فقال رجل: ألم يقل الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ؟﴾ فقالا: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين كله لله. رواه ابن مردويه.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ يعنى: [حتى]^(٣) لا يكون شرك، وكذا قال أبو العالية، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدى، ومقاتل بن حيان، وزيد بن أسلم.

وقال محمد بن إسحاق: بلغنى عن الزهرى، عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا: ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾: حتى لا يفتن مسلم عن دينه.

وقوله: ﴿وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس فى هذه الآية، قال: يخلص التوحيد لله.

وقال الحسن وقتادة، وابن جريج: ﴿وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾: أن يقال: لا إله إلا الله.

وقال محمد بن إسحاق: ويكون التوحيد خالصاً لله، ليس فيه شرك، ويخلص ما دونه من الأنداد.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾: لا يكون مع دينكم كفر.

ويشهد له^(٤) ما ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها، عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله، عز وجل»^(٥). وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية، ويقاتل رياءً، أى: ذلك فى سبيل الله، عز وجل؟ فقال: «من قاتل لتكون

(١) فى أ: «عمرو».

(٢) فى أ: «قال».

(٣) زيادة من م.

(٤) فى أ: «لهذا».

(٥) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٥) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٢) من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب، رضى الله عنهما.

كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله، عز وجل»^(١).

وقوله: ﴿فَإِنْ انْتَهَوْا﴾ أى: بقتالكم عما هم فيه من الكفر، فكفوا عنه^(٢)، وإن لم تعلموا^(٣) بواطنهم، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ^(٤) بَصِيرٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]، وفي الآية الأخرى: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

وقال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣] وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأسامة - لما علا ذلك الرجل بالسيف، فقال: «لا إله إلا الله»، فضربه فقتله، فذكر ذلك لرسول الله - فقال لأسامة: «أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟ وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال: يا رسول الله، إنما قالها تعوذاً. قال: «هلا شَقَقْتَ عن قلبه؟»، وجعل يقول ويكرر عليه: «من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال أسامة: حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت إلا ذلك اليوم^(٥) (٦).

وقوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾ أى: وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾: سيدكم وناصركم على أعدائكم، فنعم المولى ونعم النصير.

وقال محمد بن جرير: حدثني عبد الوارث بن عبد الصمد، حدثنا أبي، حدثنا أبان العطار، حدثنا هشام بن عروة، عن عروة: أن عبد الملك بن مروان كتب إليه يسأله عن أشياء، فكتب إليه عروة: «سلام عليك، فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإنك كتبت إلى تسألني عن مخرج رسول الله ﷺ من مكة، وسأخبرك^(٧) به، ولا حول ولا قوة إلا بالله. كان من شأن مخرج رسول الله ﷺ من مكة، أن الله أعطاه النبوة، فَنِعْمَ النَّبِيُّ، ونعم السيد، ونعم العشيرة، فجزاه الله خير، وعرفنا وجهه في الجنة، وأحيانا على ملته، وأماتنا عليها، وبعثنا عليه وإنه لما دعا قومه لما بعثه الله له من الهدى والنور الذى أنزل عليه، لم يبعدوا منه أول ما دعاهم إليه، وكادوا يسمعون منه، حتى ذكر طواغيتهم، وقدم ناس من الطائف من قريش، لهم أموال، أنكر ذلك عليه الناس واشتدوا عليه وكرهوا ما قال، وأغروا به من أطاعهم، فانصفق عنه عامة الناس، فتركوه إلا من حفظه الله منهم، وهم قليل. فمكث بذلك ما قدر الله أن يمكث، ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من اتبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم، وقبائلهم، فكانت فتنة شديدة الزلزال، فافتتن من افتتن، وعصم الله من شاء منهم، فلما فعل ذلك بالمسلمين، أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة. وكان

(١) صحيح البخارى برقم (٢٨١٠) وصحيح مسلم برقم (١٩٠٤).

(٢) فى ك، م: «عنهم».

(٣) فى ك، م: «إن كنتم لا تعلمون».

(٤) فى ك، م: «تعملون».

(٥) فى ك، م: «يومئذ».

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٢٦٩) وصحيح مسلم برقم (٩٦).

(٧) فى م: «وسأحدثك».

بالحبشة ملك صالح يقال له: «النجاشي»، لا يظلم أحد بأرضه، وكان يُثنى عليه مع ذلك، وكانت أرض الحبشة متجرا لقريش، يتجرون فيها، وكانت مَسْكَنًا لتجارهم، يجدون فيها رفاغا من الرزق وأمنا ومتجرا حسنا، فأمرهم بها النبي ﷺ، فذهب إليها عامتهم لما قهروا بمكة، وخاف^(١) عليهم الفتن. ومكث هو فلم يبرح. فمكث بذلك سنوات يشتدون على من أسلم منهم. ثم إنه فشا الإسلام فيها، ودخل فيه رجال من أشrafهم ومنعتهم. فلما رأوا ذلك. استرخوا استرخاءة عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه، وكانت الفتنة الأولى هي أخرجت من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ قبل أرض الحبشة مخافتها، وفرارا مما كانوا فيه من الفتن والزلازل، فلما استرخى عنهم ودخل في الإسلام من دخل منهم، تحدث باسترخائهم عنهم، فبلغ ذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ: أنه: قد استرخى عمن كان منهم بمكة، وأنهم لا يفتنون، فرجعوا إلى مكة، وكادوا يأمنون بها، وجعلوا يزدادون ويكثرون. وأنه أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير، وفشا بالمدينة الإسلام، وطفق أهل المدينة يأتون رسول الله ﷺ بمكة، فلما رأت قريش ذلك، تأمرت على أن يفتنوهم ويشتدوا، فأخذوهم، فحرصوا على أن يفتنوهم، فأصابهم جهد شديد، فكانت^(٢) الفتنة الأخيرة، فكانت فتنتان: فتنة أخرجت من خرج منهم إلى أرض الحبشة، حين أمرهم النبي ﷺ بها، وأذن لهم في الخروج إليها - وفتنة لما رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة. ثم إنه جاء رسول الله ﷺ من المدينة سبعون نقيبا، رؤوس الذين أسلموا، فوافوه بالحج، فبايعوه بالعقبة، وأعطوه عهدهم على أنا منك وأنت منا، وعلى أن^(٣) من جاء من أصحابك أو جئتنا، فإننا^(٤) نمنعك مما نمنع منه أنفسنا، فاشتدت عليهم قريش عند ذلك، فأمر ﷺ أصحابه أن يخرجوا إلى المدينة، وهي الفتنة الآخرة التي أخرج فيها رسول الله ﷺ أصحابه، وخرج هو، وهي التي أنزل الله، عز وجل، فيها: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾^(٥).

ثم رواه عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن عروة بن الزبير: أنه كتب إلى الوليد - يعنى ابن عبد الملك بن مروان - بهذا، فذكر مثله^(٦). وهذا صحيح إلى عروة، رحمه الله.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٤١).

(١) في أ: «وخافوا».

(٢) في م، أ: «وكانت».

(٣) في ك، م: «أنه».

(٤) في أ: «فإنما».

(٥) تفسير الطبري (١٣/٥٣٩).

(٦) تفسير الطبري (١٣/٥٤٢).

يبين تعالى تفصيل ما شرعه مخصصا لهذه الأمة الشريفة، من بين سائر الأمم المتقدمة، من إحلال المغنم. و«الغنيمة»: هي المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب. و«الفى»: ما أخذ منهم بغير ذلك، كالأموال التي يصالحون عليها، أو يتوفون عنها ولا وارث لهم، والجزية والخراج ونحو ذلك. هذا مذهب الإمام الشافعى فى طائفة من علماء السلف^(١) والخلف.

ومن العلماء من يطلق الفى على ما تطلق^(٢) عليه الغنيمة، والغنيمة على الفى أيضا؛ ولهذا ذهب قتادة إلى أن هذه الآية ناسخة لآية «الحشر»: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ الآية [الحشر: ٧]، قال: فنسخت آية «الأنفال» تلك، وجعلت الغنائم: أربعة أخماسها^(٣) للمجاهدين، وخمسا منها لهؤلاء المذكورين. وهذا الذى قاله بعيد؛ لأن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، وتلك نزلت فى بنى النضير، ولا خلاف بين علماء السير والمغازى قاطبة أن بنى النضير بعد بدر. هذا أمر لا يشك فيه ولا يرتاب، فمن يفرق بين معنى الفى والغنيمة يقول: تلك نزلت فى أموال الفى وهذه فى المغنم. ومن يجعل أمر المغنم والفى راجعا^(٤) إلى رأى الإمام يقول: لا منافاة بين آية الحشر وبين التخميس إذا رآه الإمام، والله أعلم.

وقوله^(٥) تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾: توكيدا لتخميس كل قليل وكثير حتى الخيط^(٦) والمخيطة، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١].

وقوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾: اختلف المفسرون هاهنا، فقال بعضهم: لله نصيب من الخمس يجعل فى الكعبة.

قال أبو جعفر الرازى، عن الربيع، عن أبى العالية الرياحى قال: كان رسول الله ﷺ يؤتى بالغنيمة فيقسمها على خمسة، تكون أربعة أخماس لمن شهداها، ثم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه، فيأخذ منه الذى قبض كفه، فيجعله للكعبة^(٧)، وهو سهم الله. ثم يقسم ما بقى على خمسة أسهم، فيكون سهم للرسول، وسهم لذوى القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل^(٨).

وقال آخرون: ذكر الله هاهنا افتتاح كلام للتبرك، وسهم^(٩) لرسوله عليه السلام^(١٠).

(١) فى أ: «علماء من السلف».

(٣) فى د: «الأربعة الأخماس»، وفى ك: «أربعة أخماس».

(٤) فى ك: «راجع».

(٦) فى ك، م: «الخياط».

(٨) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ٥٥٠).

(٩) فى م: «وسهم».

(١٠) فى أ: «ﷺ».

قال الضحاك، عن ابن عباس، رضى الله عنهما: كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا، خَمَسَ الغنيمة، فضرب ذلك الخمس فى خمسة. ثم قرأ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾، [قال: وقوله] ^(١): ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ مفتاح كلام، لله ما فى السموات وما فى الأرض، فجعل سهم الله وسهم الرسول واحداً.

وهكذا قال إبراهيم النخعى، والحسن بن محمد بن الحنفية. والحسن البصرى، والشعبى، وعطاء ابن أبى رباح، وعبد الله بن بريدة ^(٢)، وقتادة، ومغيرة، وغير واحد: أن سهم الله ورسوله واحد.

ويؤيد هذا ما رواه الإمام الحافظ أبو بكر البيهقى بإسناد صحيح، عن عبد الله بن شقيق، عن رجل من بلقين قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو بوادى القرى، وهو يعرض فرساً، فقلت: يا رسول الله، ما تقول فى الغنيمة؟ فقال: «لله خمسها، وأربعة أخماس للجيش». قلت: فما أحد أولى به من أحد؟ قال: «لا، ولا السهم تستخرجه من جنبك، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم» ^(٣).

وقال ابن جرير: حدثنا عمران بن موسى، حدثنا عبد الوارث، حدثنا أبان، عن الحسن قال: أوصى أبو بكر بالخمس ^(٤) من ماله، وقال: ألا أرضى من مالى بما رضى الله لنفسه ^(٥).

ثم اختلف قائلو هذا القول، فروى على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قال: كانت الغنيمة تقسم ^(٦) على خمسة أخماس، فأربعة منها بين من قاتل عليها، وخمس واحد يقسم على أربعة ^(٧): فربع لله وللرسول ولذى القربى - يعنى: قرابة النبى ﷺ. فما كان لله وللرسول فهو لقرابة رسول الله ﷺ، ولم يأخذ النبى ﷺ من الخمس شيئاً، [والربع الثانى لليتامى، والربع الثالث للمساكين، والربع الرابع لابن السبيل] ^(٨).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو معمر المنقرى، حدثنا عبد الوارث بن سعيد، عن حسين المعلم، عن عبد الله بن بريدة فى قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ قال: الذى لله فلنبيه، والذى للرسول لأزواجه.

وقال عبد الملك بن أبى سليمان، عن عطاء بن أبى رباح قال: خمس الله والرسول ^(٩) واحد، يحمل منه ويصنع فيه ما شاء - يعنى: النبى ﷺ.

(١) زيادة من تفسير الطبرى.

(٢) فى ك، م، أ: «عبد الله بن أبى بريدة».

(٣) السنن الكبرى (٦/٣٢٤).

(٤) فى جميع النسخ: «أوصى الحسن بالخمس» والثبت من الطبرى.

(٥) تفسير الطبرى (١٣/٥٥٠).

(٦) فى د: «تخمس».

(٧) فى د، ك، م، أ: «أربعة أخماس».

(٨) ما بين المعقوفين عن تفسير الطبرى.

(٩) فى د: «خمس الله وخمس الرسول».

وهذا أعم وأشمل، وهو أن الرسول ^(١) ﷺ يتصرف في الخمس الذي جعله الله له بما شاء، ويرده في أمته كيف شاء - ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد حيث قال:

حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم، عن أبي سلام الأعرج، عن المقدام بن معد يكرب الكندي: أنه جلس مع عبادة بن الصامت، وأبى الدرداء، والحارث بن معاوية الكندي، رضى الله عنهم، فتذاكروا حديث رسول الله ﷺ، فقال أبو الدرداء لعبادة: يا عبادة، كلمات رسول الله ﷺ في غزوة كذا وكذا في شأن الأخماس؟ فقال عبادة: إن رسول الله ﷺ صلى بهم في غزوة إلى بغير من المغنم، فلما سلم قام ^(٣) رسول الله ﷺ فتناول وبرة بين أظفاره فقال: «إن هذه من غنائمكم، وإنه ليس لي فيها إلا نصيبى معكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخيط والمخيطة، وأكبر ^(٤) من ذلك وأصغر، ولا تغلوا، فإن الغلول نار وعار على أصحابه في الدنيا والآخرة، وجاهدوا الناس في الله ^(٥) القريب والبعيد، ولا تبالوا في الله لومة لائم، وأقيموا حدود الله في الخضر والسفر، وجاهدوا في [سبيل] ^(٦) الله، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة [عظيم] ^(٧)، ينجي به الله من الهم والغم» ^(٨).

هذا حديث حسن عظيم، ولم أره في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه. ولكن روى الإمام أحمد أيضاً، وأبو داود، والنسائي، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عمرو، عن ^(٩) رسول الله ﷺ نحوه في قصة الخمس والنهي عن الغلول ^(١٠).

وعن عمرو بن عبسة أن رسول الله ﷺ صلى بهم إلى بغير من المغنم، فلما سلم أخذ وبرة ^(١١) من ذلك البعير ثم قال: «ولا يحل لي من غنائمكم مثل هذه، إلا الخمس، والخمس مردود فيكم». رواه أبو داود والنسائي ^(١٢).

وقد كان للنبي ﷺ من المغنم ^(١٣) شيء يصطفيه لنفسه عبداً أو أمة أو فرساً أو سيفاً أو نحو ذلك، كما نص على ذلك محمد بن سيرين وعامر الشعبي، وتبعهما على ذلك أكثر العلماء.

وروى الإمام أحمد، والترمذي - وحسنه - عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ تنفل سيفه ذا ^(١٤)

(١) في د: «وهو أنه». (٢) في أ: «صلوات الله وسلامه عليه». (٣) في أ: «قال». (٤) في أ: «وأكثر». (٥) في م: «في سبيل الله». (٦، ٧) زيادة من ك، م، أ، ومسنند أحمد. (٨) المسند (٣١٦/٥). (٩) في أ: «أن». (١٠) المسند (١٨٤/٢) وسنن أبي داود برقم (٢٦٩٤). (١١) في د: «أخذ منه وبرة». (١٢) سنن أبي داود برقم (٢٧٥٥). (١٣) في د، ك، م: «الغنيمة». (١٤) في أ: «ذو».

الفَقَّار يوم بدر، وهو الذى رأى فيه الرؤيا يوم أحد^(١).

وعن عائشة، رضى الله عنها، قالت: كانت صفية من الصّفى. رواه أبو داود فى سننه^(٢).

وروى أيضاً بإسناده، والنسائى أيضاً عن يزيد بن عبد الله قال: كنا بالمرَبْد إذ دخل رجل معه قطعة أديم، فقرأناها فإذا فيها: «من محمد رسول الله إلى بنى زهير بن أقيش، إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأديتم الخمس من المغنم، وسهم النبى وسهم الصّفى، أنتم آمنون بأمان الله ورسوله». فقلنا: من كتب لك هذا؟ فقال: رسول الله ﷺ^(٣).

فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرر هذا وثبوتها؛ ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه.

وقال آخرون: إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين، كما يتصرف فى مال الفىء.

وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية، رحمه الله: وهذا قول مالك وأكثر السلف، وهو أصح الأقوال.

فإذا ثبت هذا وعلم، فقد اختلف أيضاً فى الذى كان يناله عليه السلام^(٤) من الخمس، ماذا يُصنع به من بعده؟ فقال قائلون: يكون لمن يلى الأمر من بعده. روى هذا عن أبى بكر وعلى وقتادة جماعة، وجاء فيه حديث مرفوع^(٥).

وقال آخرون: يصرف فى مصالح المسلمين.

وقال آخرون: بل هو مردود على بقية الأصناف: ذوى القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، اختاره ابن جرير.

وقال آخرون: بل سهم النبى ﷺ وسهم ذوى القربى مردودان على اليتامى والمساكين وابن السبيل.

قال ابن جرير: وذلك قول جماعة من أهل العراق.

وقيل: إن الخمس جميعه لذوى القربى كما رواه ابن جرير.

(١) المسند (٢٧١/١) وسنن الترمذى برقم (١٥٦١).

(٢، ٣) سنن أبى داود برقم (٢٩٩٤).

(٤) فى أ: «ﷺ».

(٥) رواه البيهقى فى السنن الكبرى (٣٠٣/٦) من طريق الوليد بن جميع عن أبى الطفيل: لما سألت فاطمة أبا بكر عن الخمس فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أطعم الله نبياً طعمة ثم قبضه كانت للذى يلى بعده» فلما وليت رأيت أن أردّه على المسلمين.

حدثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا عبد الغفار، حدثنا المنهال بن عمرو، وسألت عبد الله ابن محمد بن علي، وعلي بن الحسين، عن الخمس فقالا: هو لنا. فقلت لعلي: فإن الله يقول: ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾، فقالا: يتامانا ومساكيننا.

وقال سفيان الثوري، وأبو نعيم، وأبو أسامة، عن قيس بن مسلم: سألت الحسن بن محمد بن الحنفية، رحمه الله تعالى، عن قول الله^(١) تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ قال^(٢): هذا مفتاح كلام، لله^(٣) الدنيا والآخرة. ثم اختلف الناس في هذين السهمين بعد وفاة رسول الله ﷺ، فقال قائلون: سهم النبي ﷺ تسليمًا للخليفة من بعده. وقال قائلون: لقربة النبي ﷺ. وقال قائلون: سهم القربة لقربة الخليفة. فاجتمع قولهم^(٤) على أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله، فكانا على ذلك في خلافة أبي بكر وعمر، رضى الله عنهما^(٥).

قال^(٦) الأعمش، عن إبراهيم^(٧): كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبي ﷺ في الكراع والسلاح، فقلت لإبراهيم: ما كان على يقول فيه؟ قال: كان [على]^(٨) أشدهم فيه. وهذا قول طائفة كثيرة من العلماء، رحمهم الله.

وأما سهم ذوى القربى فإنه يصرف إلى بنى هاشم وبنى المطلب؛ لأن بنى المطلب وازروا بنى هاشم في الجاهلية [وفى أول الإسلام]^(٩)، ودخلوا معهم في الشعب غضبا لرسول الله ﷺ وحماية له: مسلمهم طاعة لله ولرسوله، وكافرهم حمية للعشيرة وأنفة وطاعة لأبى طالب عم رسول الله. وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل - وإن كانوا أبناء عمهم - فلم يوافقوهم على ذلك، بل حاربوهم وناذبوهم، ومالؤوا بطون قريش على حرب الرسول؛ ولهذا كان ذم أبي طالب لهم في قصيدته اللامية أشد من غيرهم، لشدة قربهم. ولهذا يقول في أثناء قصيدته^(١٠):

عُقُوبَةُ شَرٍّ عَاجِلٍ غَيْرِ آجِلٍ	جَزَى اللَّهُ عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوْفَلًا
لَهُ شَاهِدٌ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرَ عَائِلٍ	بِمِيزَانٍ قَسَطٍ لَا يَخِيْسُ شَعِيرَةً
بَنَى خَلْفَ قَيْضٍ بَنَى وَالْغِيَّاطِلِ	لَقَدْ سَفَّهَتْ أَحْلَامُ قَوْمٍ تَبَدَّلُوا
وَأَلْ قُصَى فِي الْخُطُوبِ الْأَوَائِلِ ^(١١)	وَنَحْنُ الصَّمِيمُ مِنْ ذُوَابَةِ هَاشِمٍ

(٣) فى ك: «كلام الله».

(٢) فى د: «فقال».

(١) فى د: «عن قوله».

(٦) فى م: «وقال».

(٥) فى ك: «رضى الله عنهما وأرضاها».

(٤) فى ك، م: «رأيهم».

(٩) زيادة من د، ك، م.

(٨) زيادة من الطبرى.

(٧) فى م: «إبراهيم قال».

(١٠) فى ك: «قصيدته اللامية».

(١١) الآيات فى السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٧٧).

وقال جبيرة بن مطعم بن عدى [بن نوفل]^(١): مشيت أنا وعثمان بن عفان - يعنى ابن أبى العاص ابن أمية بن عبد شمس - إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: يا رسول الله، أعطيت بنى المطلب من خمس خبير وتركنا، ونحن وهُم منك بمنزلة واحدة، فقال: «إنما بنو هاشم وبنو عبد المطلب شيء واحد».

رواه مسلم^(٢). وفى بعض روايات هذا الحديث: «إنهم لم يفارقونا فى جاهلية ولا إسلام»^(٣).

وهذا قول جمهور العلماء أنهم بنو هاشم وبنو المطلب.

قال ابن جرير: وقال آخرون: هم بنو هاشم. ثم روى عن خُصيف، عن مجاهد قال: علم الله أن فى بنى هاشم فقراء، فجعل لهم الخمس مكان الصدقة.

وفى رواية عنه قال: هم قرابة رسول الله ﷺ الذين لا تحل لهم الصدقة.

ثم روى عن على بن الحسين نحو ذلك.

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل هم قريش كلها.

حدثنى يونس بن عبد الأعلى، حدثنى عبد الله بن نافع، عن أبى معشر، عن سعيد المقبرى قال: كتب نَجْدَةَ إلى عبد الله بن عباس يسأله عن «ذى القربى»، فكتب إليه ابن عباس: كنا نقول: إنا هم فأبى ذلك علينا قومنا، وقالوا: قريش كلها ذوو قبرى^(٤) (٥).

وهذا الحديث فى صحيح مسلم، وأبى داود، والترمذى، والنسائى من حديث سعيد المقبرى عن يزيد بن هرمز أن نَجْدَةَ كتب إلى ابن عباس يسأله عن ذوى القربى فذكره إلى قوله: «فأبى ذلك علينا قومنا»^(٦) والزيادة من أفراد أبى معشر نَجِيج بن عبد الرحمن المدنى، وفيه ضعف.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا إبراهيم بن مهدى المصيصى، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن حَش، عن عِكْرَمَةَ، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رغبت لكم عن غُسَالَةِ الأيدي؛ لأن لكم من خُمس الخمس ما يغنيكم أو يكفيكم».

هذا حديث حسن الإسناد، وإبراهيم بن مهدى هذا وثَّقه أبو حاتم، وقال يحيى بن معين^(٧):

(١) زيادة من د، ك، م.

(٢) لم أجده فى صحيح مسلم ولا عزاه المزى له فى تحفة الأشراف، ولم أجزم بوهم الحافظ هنا؛ لأن الزيلى عزاه للصحيحين فى تخريج الكشاف (٢/ ٣٠)، ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٣١٤٠) من طريق سعيد بن المسيب عن جبيرة بن مطعم، رضى الله عنه، بنحوه.

(٣) الرواية فى سنن النسائى (٧/ ١٣٠).

(٤) فى أ: «قرابة».

(٥) تفسير الطبرى (١٣/ ٥٥٥).

(٦) صحيح مسلم برقم (١٨١٢) وسنن أبى داود برقم (٢٩٨٢) وسنن الترمذى برقم (١٥٥٦) وسنن النسائى (٧/ ١٢٨)، وهو عند أبى داود والنسائى من حديث الزهرى عن يزيد.

(٧) فى د: «سعيد».

يأتى بمناكير^(١)، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالْيَتَامَى﴾ أى: يتامى المسلمين. واختلف العلماء: هل يختص باليتام الفقراء، أو يعم الأغنياء والفقراء؟ على قولين.

و﴿الْمَسَاكِينَ﴾: هم المحاويج الذين لا يجدون ما يسد خلتهم ومسكتهم.

﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾: هو المسافر، أو المريد للسفر، إلى مسافة تقصر فيها الصلاة، وليس له ما ينفقه فى سفره ذلك. وسيأتى تفسير ذلك فى آية الصدقات فى سورة «براءة»، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة، وعليه التكلان.

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ أى: امثلوا ما شرعنا لكم من الخمس فى الغنائم، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وما أنزل على رسوله؛ ولهذا جاء فى الصحيحين، من حديث عبد الله بن عباس، فى حديث وفد عبد القيس: أن رسول الله ﷺ قال لهم: «وأمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: أمركم بالإيمان بالله ثم قال: هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا الخمس من المغنم...» الحديث بطوله^(٢)، فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان، وقد بوب البخارى على ذلك فى «كتاب الإيمان» من صحيحه فقال: (باب أداء الخمس من الإيمان)، ثم أورد حديث ابن عباس هذا، وقد بسطنا الكلام عليه فى «شرح البخارى» ولله الحمد والمنة^(٣).

وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَمَا أُنزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ أى: فى القسمة، وقوله: ﴿يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ينبه تعالى على نعمته^(٤) وإحسانه إلى خلقه بما فرق به بين الحق والباطل بيدر ويسمى «الفرقان»؛ لأن الله تعالى أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل، وأظهر دينه ونصر نبيه وحزبه.

قال على بن أبى طالب والعموفى، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾: يوم بدر، فرق الله فيه بين الحق والباطل. رواه الحاكم.

وكذا قال مجاهد، ومِقْسَم وعبيد الله بن عبد الله، والضحاك، وقتادة، ومقاتل بن حيان، وغير واحد: أنه يوم بدر.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهرى، عن عُرْوَةَ بن الزبير فى قوله: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾: يوم

(١) انظر: ميزان الاعتدال للذهبي (٦٨/١).

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٣) وصحيح مسلم برقم (١٧).

(٣) وانظر كلام الحافظ ابن حجر فى: فتح البارى (١٢٩/١ - ١٣٥).

(٤) فى أ: «نعمه».

فرق الله [فيه]^(١) بين الحق والباطل، وهو يوم بدر، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ. وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة، فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة - أو: سبع عشرة - مضت من رمضان، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً، والمشركون ما بين الألف والتسعمائة. فهزم الله المشركين، وقتل منهم زيادة على السبعين، وأسر منهم مثل ذلك.

وقد روى الحاكم في مستدركه، من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن ابن مسعود، قال في ليلة القدر: تحروها لإحدى عشرة ييقين^(٢) فإن صبيحتها^(٣) يوم بدر. وقال: على شرطهما^(٤).

وروى مثله عن عبد الله بن الزبير أيضاً، من حديث جعفر بن برقان، عن رجل، عنه.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا يحيى بن يعقوب أبو طالب، عن ابن عون محمد بن عبيد الله الثقفي^(٥)، عن أبي عبد الرحمن السلمى قال: قال الحسن بن علي: كانت ليلة «الفرقان يوم التقى الجمعان» لسبع عشرة من رمضان^(٦). إسناده جيد قوى.

ورواه ابن مردويه، عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب، عن علي قال: كانت ليلة الفرقان، ليلة التقى الجمعان، في صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان.

وهو الصحيح عند أهل المغازي والسير.

وقال يزيد بن أبي حبيب إمام أهل الديار المصرية في زمانه: كان يوم بدر يوم الإثنين ولم يتابع على هذا، وقول الجمهور مقدم عليه، والله أعلم.

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)﴾.

يقول تعالى [مخبراً]^(٧) عن يوم الفرقان: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ أى: إذ أنتم نزول بعدوة الوادى الدنيا القريبة إلى المدينة، ﴿وَهُمْ﴾ أى: المشركون نزول ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ أى: البعيدة التى من ناحية مكة، ﴿وَالرَّكْبُ﴾ أى: العير الذى فيه أبو سفيان بما معه من التجارة ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أى: مما يلى سيف البحر ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أى: أنتم والمشركون إلى مكان ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾.

(١) زيادة من د، ك.

(٢) فى ك: «يقين».

(٣) فى ك: «فإن في صبيحتها».

(٤) المستدرک (٣/ ٢٠). (٥) فى جميع النسخ: «عن ابن عون، عن محمد بن عبد الله الثقفي»، والمثبت من الطبرى.

(٦) تفسير الطبرى (١٣/ ٥٦٢).

(٧) زيادة من أ.

قال محمد بن إسحاق: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه في هذه الآية قال: ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم، ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم، ما لقيتموهم، «وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا» أى: ليقضى الله ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله، عن غير ملائمتكم، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه.

وفى حديث كعب بن مالك قال: إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد^(١).

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن علية، عن ابن عون، عن عمير بن إسحاق قال: أقبل أبو سفيان في الركب من الشام، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله ﷺ وأصحابه، فالتقوا ببدر، لا يشعر هؤلاء بهؤلاء، ولا هؤلاء بهؤلاء، حتى التقت السقاة، ونهذ الناس بعضهم لبعض^(٢).

وقال محمد بن إسحاق في السيرة: ومضى رسول الله ﷺ على وجهه ذلك حتى إذا كان قريباً من «الصفراء» بعث بسبس بن عمرو، وعدى بن أبي الزغباء الجهنين، يلتمسان الخبر عن أبي سفيان، فانطلقا حتى إذا وردا بدرأ فأناخا بعيريهما إلى تل من البطحاء، فاستقيا في شئ لهما من الماء، فسمعا جاريتين يختصمان، تقول إحداهما لصاحبتها: اقضيني حقي. وتقول الأخرى: إنما تأتى العير غدا أو بعد غد، فأقضيك حقي. فخلص بينهما مجدى بن عمرو، وقال: صدقت، فسمع ذلك^(٣) بسبس وعدى، فجلسا على بعيريهما، حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه الخبر. وأقبل أبو سفيان حين وليا وقد حذر، فتقدم أمام غيره وقال لمجدي بن عمرو: هل أحسست على هذا الماء من أحد تنكره؟ فقال: لا والله، إلا أنى قد رأيت راكبين أناخا إلى هذا التل، فاستقيا في شئ لهما، ثم انطلقا. ف جاء أبو سفيان إلى مناخ بعيريهما، فأخذ من أبعارهما، ففتته، فإذا فيه النوى، فقال: هذه والله علائف يثرب. ثم رجع سريعاً فضرب وجه غيره، فانطلق بها فساحل حتى إذا رأى أن قد أحرز غيره بعث إلى قريش فقال: إن الله قد نجى عيركم وأموالكم ورجالكم، فارجعوا.

فقال أبو جهل: والله^(٤) لا نرجع حتى تأتى بدرأ - وكانت بدرأ سوقاً من أسواق العرب - فنقيم بها ثلاثاً، فنطعم بها الطعام، وننحر بها الجزر^(٥)، ونسقى بها الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبسيرنا، فلا يزالون يهابوننا بعدها أبداً.

فقال الأخنس بن شريق: يا معشر بنى زهرة، إن الله قد نجى أموالكم، ونجى صاحبكم، فارجعوا. فأطاعوه، فرجعت بنو زهرة، فلم يشهدوها ولا بنو عدى^(٦).

(١) رواه البخارى في صحيحه برقم (٣٩٥١).

(٢) تفسير الطبرى (١٣/٥٦٧).

(٣) فى م: «بذلك».

(٤) فى م: «لا والله».

(٥) فى أ: «الجزور».

(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٦١٧).

قال محمد بن إسحاق : وحدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قال: وبعث رسول الله ﷺ - حين دنا من بدر - علي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، في نفر من أصحابه، يتجسسون له الخبر فأصابوا سقاة لقريش: غلاما لبني^(١) سعيد بن العاص، وغلاما لبني الحجاج، فأتوا بهما رسول الله ﷺ، فوجدوه يصلى، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يسألونهما: لمن أنتم؟^(٢) فيقولان: نحن سقاة لقريش، بعثونا نسقيهم من الماء. فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما فلما ذلقوهما قالوا: نحن لأبي سفيان. فتركوهما، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتين، ثم سلم وقال: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما. صدقا، والله إنهما لقريش، أخبراني عن قريش». قالوا: هم وراء هذا الكتيب الذي ترى بالعدوة القصوى - والكتيب: العقنقل - فقال لهما رسول الله ﷺ: «كم القوم؟» قالوا: كثير. قال: «ما عدتكم؟» قالوا: ما ندرى. قال: «كم ينحرون كل يوم؟» قالوا: يوما تسعا، ويوما عشرا، قال رسول الله ﷺ: «القوم ما بين التسعمائة إلى الألف». ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشرف قريش؟» قالوا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدى بن [نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأميرة]^(٣) بن خلف، ونبيه ومثبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود. فأقبل رسول الله ﷺ وسلم على الناس فقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»^(٤).

قال محمد بن إسحاق، رحمه الله تعالى: وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم: أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ، لما التقى الناس يوم بدر: يا رسول الله، ألا نبني لك عريشا تكون فيه، ونُنيخ إليك ركائبك، ونلقى عدونا، فإن أظهرنا الله عليهم وأعزنا فذاك ما نحب، وإن تكن الأخرى فتجلس على ركائبك، وتلحق بمن وراءنا من قومنا، فقد - والله - تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد لك حبا منهم، لو علموا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك، ويؤادونك وينصرونك. فأننى عليه رسول الله ﷺ خيرا، ودعا له به. فبني له عريش، فكان فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر، ما معهما غيرهما^(٥).

قال ابن إسحاق: وارتحلت قريش حين أصبحت، فلما أقبلت ورآها رسول الله ﷺ تُصوب من العقنقل - وهو الكتيب - الذى جاؤوا منه إلى الوادى قال: «اللهم هذه»^(٦) قريش قد أقبلت بفخرها وخيلائها تُحدِّدك وتكذب رسولك، اللهم أحنهم الغداة»^(٧).

وقوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾: قال محمد بن إسحاق: أى ليكفر من

(١) فى أ: «لأبى». (٢) فى د، ك، م: «أنتم». (٣) زيادة من د، ك، م، أ، وابن هشام.

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٦١٦).

(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٦٢٠).

(٦) فى أ: «اللهم إن هذه».

(٧) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٦٢١).

كفر بعد الحجة، لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك.

وهذا تفسير جيد، وبَسَطُ ذلك أنه^(١) تعالى يقول: إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد، لينصركم عليهم، ويرفع كلمة الحق على الباطل، ليصير الأمر ظاهراً، والحجة قاطعة، والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، فحيثُذ ﴿يَهْلِكُ مَنْ هَلَكَ﴾ أى: يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره أنه مبطل، لقيام الحجة عليه، ﴿وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ﴾ أى: يؤمن من آمن ﴿عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أى: حجة وبصيرة. والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقالت عائشة في قصة الإفك: فى هلك من هلك أى: قال فيها ما قال من الكذب والبهتان والإفك.

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ أى: لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به ﴿عَلِيمٌ﴾ أى: بكم وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَتَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقِيتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٤٤).

قال مجاهد: أراه الله إياهم فى منامه^(٢) قليلاً، فأخبر النبى ﷺ أصحابه بذلك، فكان تثبيتاً لهم.

وكذا قال ابن إسحاق وغير واحد. وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه رآهم بعينه التى ينام بها.

وقد روى ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا يوسف بن موسى المدبر، حدثنا أبو قتيبة، عن سهل السراج، عن الحسن فى قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ قال: بعينك.

وهذا القول غريب، وقد صرح بالمنام هاهنا، فلا حاجة إلى التأويل الذى لا دليل عليه^(٣).

وقوله: ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ﴾ أى: لجيتتم عنهم واختلفتم فيما بينكم، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أى: من ذلك: بأن أراكم قليلاً: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: بما تجنه الضمائر، وتنطوى عليه الأحشاء، فيعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

وقوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقِيتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾: وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياهم قليلاً فى رأى العين، فيجروهم عليهم، ويطمعهم فيهم.

(١) فى أ: «أن الله».

(٢) فى جميع النسخ: «أراه الله فى منامه» والمثبت من الطبرى.

(٣) فى أ: «له».

قال أبو إسحق السبيعي، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، قال: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلت لرجل إلى جانبي: تراهم سبعين؟ قال: لا، بل [هم] ^(١) مائة، حتى أخذنا رجلا منهم فسألناه، قال ^(٢): كنا ألفا. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير ^(٣).

وقوله: ﴿وَيَقْلِلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾: قال ابن أبي حاتم: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن الزبير بن الخريت ^(٤)، عن ^(٥) عكرمة: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقْلِلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ قال: حضض بعضهم على بعض.

إسناد صحيح.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه في قوله تعالى: ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أى: ليلقى بينهم الحرب، للنقمة من أراد الانتقام منه. والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته.

ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلا من الفريقين بالآخر، وقلله في عينه ليطمع فيه، وذلك عند المواجهة. فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، بقى حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التَّافَتَيْنِ تَفَاتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣]، وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين، فإن كلا منها ^(٦) حق وصدق، والله الحمد والمنة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٤٦).

هذا تعليم الله ^(٧) عباده المؤمنين آداب اللقاء، وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء، [فقال] ^(٨): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾.

ثبت في الصحيحين، عن عبد الله بن أبي أوفى، عن رسول الله ﷺ أنه انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا» ^(٩)، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف. ثم قام النبي ﷺ وقال: «اللهم، منزل الكتاب، ومُجْرِي السحاب، وهَازِمُ الْأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وَانصُرْنَا عَلَيْهِمْ» ^(١٠).

(١) زيادة من د، م. (٢) في د: «فقال».

(٣) تفسير الطبري (١٣/٥٧٢).

(٤) في د: «الحارث».

(٦) في د، م، أ: «منهما».

(٥) في د: «وعن».

(٩) في أ: «فاثبتوا».

(٨) زيادة من د.

(٧) في د، ك، م: «تعليم من الله».

(١٠) صحيح البخاري برقم (٢٨١٨) وصحيح مسلم برقم (١٧٤٢).

وقال عبد الرزاق، عن سفيان الثوري، عن عبد الرحمن بن زياد، عن عبد الله بن يزيد، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا واذكروا الله، فإن أجلبوا^(١) وضجوا^(٢) فعليكم بالصمت»^(٣).

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا إبراهيم بن هاشم البغوي، حدثنا أمية بن بسطام، حدثنا معتمر بن سليمان، حدثنا ثابت بن زيد، عن رجل، عن زيد بن أرقم، عن النبي ﷺ قال: «إن الله يحب الصمت عند ثلاث: عند تلاوة القرآن، وعند الزحف، وعند الجنازة»^(٤).

وفى الحديث الآخر المرفوع يقول الله تعالى: «إن عبدى كلَّ عبدى الذى يذكرنى وهو مناجز قرنه»^(٥) أى: لا يشغله ذلك الحال عن ذكرى ودعائى واستعائتى.

وقال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة فى هذه الآية، قال: افترض^(٦) الله ذكره عند أشغل ما تكونون^(٧)، عند الضراب بالسيوف.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبدة بن سليمان، حدثنا ابن المبارك، عن ابن جريج، عن عطاء قال: وجب الإنصات والذكر عند الزحف، ثم تلا هذه الآية، قلت: يجهرون بالذكر؟ قال: نعم.

وقال أيضاً: قرئ على يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، أخبرنى عبد الله بن عياش^(٨)، عن يزيد بن قوذر، عن كعب الأحبار قال: ما من شىء أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن والذكر، ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال، ألا ترون أنه أمر الناس بالذكر عند القتال، فقال: «يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».

قال الشاعر:

ذَكَرْتُكَ وَالْحَطَى يَخْطُرُ بَيْنَنَا وَقَدْ نَهَلْتُ فِينَا الْمُثَقَّةُ السُّمُرُ

وقال عنتر^(٩):

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرَّمَا حُ شَوَاجِرُ فِينَا وَبَيْضُ الْهَنْدِ تَقْطُرُ مِنْ دَمَى

(١) فى د، م، أ: «جلبوا».

(٢) فى أ: «وصيحوا».

(٣) مصنف عبد الرزاق برقم (٩٥١٨) ورواه البيهقي فى السنن الكبرى (١٥٣/٩) من طريق ابن وهب، وابن أبى شيبة فى المصنف (٤٦٣/١٢) من طريق عبد بن سليمان، كلاهما عن عبد الرحمن بن زياد به.

(٤) المعجم الكبير (٢١٣/٥) وفيه راو لم يسم.

(٥) رواه الترمذى فى السنن برقم (٣٥٨٠) من طريق عفير بن معدان عن أبى دوس اليحصبي عن ابن عائذ عن عمارة بن زعكرة مرفوعاً، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ليس إسناده بالقوى، ولا نعرف لعمارة بن زعكرة عن النبي ﷺ إلا هذا الحديث الواحد».

(٦) فى أ: «ما يكون».

(٧) فى د: «فرض».

(٨) فى م: «آخر».

(٩) فى أ: «عباس».

[فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم]^(١)

فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجنبوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه بل يستعينوا^(٢) به ويتكلوا عليه، ويسألوه النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك. فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزعجوا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا فيكون سبباً لتخاذلهم وفشلهم.

﴿وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أى: قوتكم وحدتكم وما كنتم فيه من الإقبال، ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

وقد كان للصحابة - رضى الله عنهم - فى باب الشجاعة والاثمار بأمر^(٣) الله، وامثال ما أرشدهم إليه - ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم؛ فإنهم ببركة الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، وطاعته فيما أمرهم، فتحوا القلوب^(٤) والأقاليم شرقاً وغرباً فى المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش وأصناف السودان والقبط، وطوائف بنى آدم، قهروا الجميع حتى عكست كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت^(٥) الممالك الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها، فى أقل من ثلاثين سنة، فرضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وحشرنا فى زميرتهم، إنه كريم وهاب.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (٤٧) وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٤٩).

يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص فى القتال فى سبيله وكثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين فى خروجهم من ديارهم ﴿بَطَرًا﴾ أى: دفاعاً للحق، ﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾، وهو: المفاخرة والتكبر عليهم، كما قال أبو جهل - لما قيل له: إن العير قد نجا فارجعوا - فقال: لا، والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر، وننحر الجزر، ونشرب الخمر، وتعزف^(٦) علينا القيان، وتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبداً، فانعكس ذلك عليه أجمع؛ لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحمام، ورُموا فى أطواء بدر مهانين أذلاء، صغرة أشقياء فى عذاب سرمدى أبدي؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أى: عالم بما جاؤوا به وله، ولهذا جازاهم على ذلك شر الجزاء لهم.

(٣) فى د، ك، م: «بأوامر».

(٢) فى د: «يستغيثوا».

(١) زيادة من م.

(٦) فى ك: «وتضرب».

(٥) فى د: «واشتهرت».

(٤) فى م: «الثغور».

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ قالوا: هم المشركون، الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر.

وقال محمد بن كعب: لما خرجت قريش من مكة إلى بدر، خرجوا بالقيان والدفوف، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

وقوله: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ الآية: حسن لهم - لعنه الله - ما جاؤوا له وما هموا به، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم من عدوهم بنى بكر فقال: أنا جار لكم، وذلك أنه تبدى لهم في صورة سراقه بن مالك بن جعشم، سيد بنى مدلج، كبير تلك الناحية، وكل ذلك منه، كما قال [الله] (١) تعالى عنه: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

قال ابن جريج (٢): قال ابن عباس في هذه الآية: لما كان يوم بدر سار إبليس برايته وجنوده مع المشركين، وألقى في قلوب المشركين: أن أحدا لن يغلبكم، وإنني جار لكم. فلما التقوا، ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة، ﴿نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ قال: رجع مدبرا، وقال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ الآية.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين، معه رايته، في صورة رجل من بنى مدلج، والشيطان في صورة سراقه بن مالك (٣) بن جعشم، فقال الشيطان للمشركين: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾. فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين، فولوا مدبرين وأقبل جبريل، عليه السلام، إلى إبليس، فلما رآه - وكانت يده في يد رجل من المشركين - انتزع يده ثم ولى مدبرا هو وشيعته، فقال الرجل: ياسراقه، أترعم أنك لنا جار؟ فقال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وذلك حين رأى الملائكة.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس؛ أن إبليس خرج مع قريش في صورة سراقه بن مالك بن جعشم، فلما حضر القتال ورأى الملائكة، نكص على عقبيه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾، فتشبث (٤) الحارث بن هشام فنخر في وجهه، فخر صعقا، فقيل له: وبيك يا سراقه، على هذه الحال تخذلنا وتبرا منا. فقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

وقال محمد بن عمر الواقدي: أخبرني عمر بن عتبة، عن شعبة - مولى ابن عباس - عن ابن

(٢) في ك: «جرير».

(١) زيادة من م.

(٤) في ك: «فتشبث به».

(٣) في ك: «مالك المدلجي».

عباس قال: لما تواقف الناس أغمى على رسول الله ﷺ ساعة ثم كشف عنه، فبشر الناس بجبريل في جند من الملائكة ميمنة الناس، وميكائيل في جند آخر ميسرة الناس، وإسرافيل في جند آخر ألف. وإبليس قد تصور في صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي، يدبر المشركين ويخبرهم أنه لا غالب لهم^(١) اليوم من الناس. فلما أبصر عدو الله الملائكة، نكص على عقبيه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾، فتشبت به الحارث بن هشام، وهو يرى أنه سراقه لما سمع من كلامه، فضرب في صدر الحارث، فسقط الحارث، وانطلق إبليس^(٢) لا يرى حتى سقط في البحر، ورفع ثوبه وقال: يارب، موعذك الذي وعدتني^(٣).

وفى الطبراني عن رفاعه بن رافع قريب من هذا السياق وأبسط منه^(٤)، ذكرناه في السيرة.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قال: لما أجمعت^(٥) قریش المسير^(٦)، ذكرت الذي بينها وبين بنى بكر من الحرب، فكاد ذلك أن يثنهم، فتبدى لهم إبليس في صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي - وكان من أشرف بنى كنانة - فقال: أنا جار لكم أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه، فخرجوا سراعاً.

قال محمد بن إسحاق: فذكر لي أنهم كانوا يرونه في كل منزل في صورة سراقه بن مالك^(٧) لا ينكرونه، حتى إذا كان يوم بدر والتقى الجمعان، كان الذي رآه حين نكص الحارث بن هشام - أو: عمير بن وهب - فقال: أين، أي سراق؟^(٨) ومثل عدو الله فذهب - قال: فأوردتهم ثم أسلمهم - قال: ونظر عدو الله إلى جنود الله، قد أيد الله بهم رسوله^(٩) والمؤمنين فانتكص^(١٠) على عقبيه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾، وصدق عدو الله، وقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ^(١١) وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وهكذا روى عن السدي، والضحاك، والحسن البصري، ومحمد بن كعب القرظي، وغيرهم، رحمهم الله.

وقال قتادة: وذكر لنا أنه رأى جبريل، عليه السلام، تنزل معه^(١٢) الملائكة، فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة فقال: ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾، وكذب عدو الله، والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مسلم، وتبرأ منهم عند ذلك.

قلت: يعني بعبادته لمن أطاعه قوله تعالى: ﴿كَمَثَلَ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلنَّاسِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ [الحشر: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ

(١) في م: «لكم».

(٢) في أ: «إبليس هارباً».

(٣) المغازي للواقدي (٧٠/١)

(٤) المعجم الكبير (٤٢/٥) من طريق عبد العزيز بن عمران عن رفاعه بن يحيى بن

معاذ بن رفاعه عن رفاعه بن رافع، رضى الله عنه، وقال الهيثمي في المجمع (٨٢/٦): «وفيه عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف».

(٥) في د، م، أ: «اجتمعت».

(٦) في د: «السير».

(٧) في ك: «مالك المدلجي، وكان من أشرف ركانة».

(٨) في د، أ: «إلى أين يا سراقه»، وفي ك، م: «أين أين سراقه».

(٩) في أ: «رساله».

(١٠) في د، ك، م، أ: «فنتكص».

(١١) في ك، م، أ: «إني أخاف عقاب الله» وهو خطأ.

(١٢) في د: «نزل مع».

وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [إبراهيم: ٢٢].

وقال يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، عن بعض بنى ساعدة قال: سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة بعدما أصيب بصره يقول: لو كنت معكم الآن بيدر ومعى بصرى، لأخبرتكم بالشعب الذى خرجت منه الملائكة لا أشك ولا أتمارى^(١).

فلما نزلت الملائكة ورآها إبليس، وأوحى الله إليهم: أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا، وتثبيتهم أن الملائكة كانت تأتى الرجل فى صورة الرجل يعرفه، فيقول له: أبشر فإنهم ليسوا بشيء، والله معكم، كروا عليهم. فلما رأى إبليس الملائكة نكص على عقبيه، وقال: «إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ»، وهو فى صورة سراقه، وأقبل أبو جهل يحضض أصحابه ويقول: لا يهولنكم خذلان سراقه إياكم، فإنه كان على موعد من محمد وأصحابه. ثم قال: واللوات والعزى لا نرجع حتى نقرن محمداً وأصحابه فى الحبال، فلا تقتلوهم وخذوهم أخذاً. وهذا من أبى جهل لعنه الله كقول فرعون للسريرة لما أسلموا: «إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لَتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا» [الأعراف: ١٢٣]، وكقوله: «إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ» [طه: ٧١]، وهو من باب البهت والافتراء، ولهذا كان أبو جهل فرعون هذه الأمة.

وقال مالك بن أنس، عن إبراهيم بن أبي عبلة^(٢)، عن طلحة بن عبيد الله بن كريب؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ما روى إبليس فى يوم هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدر ولا أغبط منه فى يوم عرفة وذلك مما يرى من تنزل الرحمة والعفو عن الذنوب إلا ما رأى يوم بدر». قالوا: يارسول الله، وما رأى يوم بدر؟ قال: «أما إنه رأى جبريل، عليه السلام، يزع الملائكة»^(٣).

هذا مرسل من هذا الوجه.

وقوله: «إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ»: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى هذه الآية قال: لما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين فى أعين المشركين، وقلل المشركين فى أعين المسلمين فقال المشركون: «غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ» وإنما قالوا ذلك من قلتهم فى أعينهم، فظنوا^(٤) أنهم سيهزمونهم، لا يشكون فى ذلك، فقال الله: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

وقال قتادة: رأوا عصابة من المؤمنين تشددت لأمر الله، وذكر لنا أن أبا جهل عدو الله لما أشرف على محمد ﷺ وأصحابه قال: والله لا يعبدوا الله بعد اليوم، قسوة وعتوا.

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٦٣٣). (٢) فى ك: «عليه».

(٣) الموطأ (١/٤٢٢) وانظر كلام الإمام ابن عبد البر عن هذا الحديث فى: التمهيد (١/١١٥).

(٤) فى أ: «وظنوا».

وقال ابن جُرَيْج في قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾: هم قوم كانوا من المنافقين بمكة، قالوه يوم بدر.

وقال عامر الشعبي: كان ناس من أهل مكة قد تكلموا بالإسلام، فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾.

وقال مجاهد في قوله، عز وجل: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ قال: فئة من قريش: [أبو] ^(١) قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب، وعلى بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه بن الحجاج، خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب فحبسهم ارتيابهم، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ، قالوا: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾، حتى قدموا على ما قدموا عليه، مع قلة عددهم وكثرة عدوهم. وهكذا قال محمد بن إسحاق بن يسار، سواء.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن الحسن في هذه الآية، قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر، فسموا منافقين - قال معمر: وقال بعضهم: هم قوم كانوا أقروا بالإسلام، وهم بمكة فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ ^(٢).

وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أى: يعتمد على جنبه، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أى: لا يُضَام من التجأ إليه، فإن الله عزيز منيع الجنب، عظيم السلطان، حكيم فى أفعاله، لا يضعها إلا فى مواضعها، فينصر من يستحق النصر، ويخذل من هو أهل لذلك.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٥١)﴾.

يقول تعالى: ولو عاينت يا محمد حال توفى الملائكة أرواح الكفار، لرأيت أمرا عظيما هائلا فظيما منكرا؛ إذ يضربون وجوههم وأدبارهم، ويقولون لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

قال ابن جُرَيْج، عن مجاهد: ﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾: استاهمهم، قال: يوم بدر.

قال ابن جريج، قال ابن عباس: إذا أقبل المشركون ^(٣) بوجوههم إلى المسلمين، ضربوا وجوههم بالسيوف، وإذا ولوا أدركتهم الملائكة فضربوا أدبارهم.

قال ابن أبى نجیح، عن مجاهد قوله: ﴿إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ

(١) زيادة من د، ك، أ، وابن هشام والطبرى.

(٢) تفسير الطبرى (١٤/١٣).

(٣) فى ك: «المشركين» وهو خطأ.

وَأَذْبَارَهُمْ﴿: يوم بدر.

وقال وكيع، عن سفيان الثوري، عن أبي هاشم إسماعيل بن كثير، عن مجاهد، عن شعبة، عن يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جبيرة: ﴿يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ﴾ قال: وأستاهم^(١)، ولكن الله يَكْنِي.

وكذا قال عمر مولى غُفْرَة^(٢).

وعن الحسن البصري قال: قال رجل: يا رسول الله، إنى رأيت بظهر أبى جهل مثل الشراك^(٣) قال ماذا؟ قال: «ضرب^(٤) الملائكة».

رواه ابن جرير^(٥)، وهو مرسل.

وهذا السياق - وإن كان سببه وقعة بدر - ولكنه عام فى حق كل كافر؛ ولهذا لم يخصه تعالى بأهل بدر، بل قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ﴾ وفى سورة القتال مثلها^(٦)، وتقدم فى سورة الأنعام [عند^(٧)] قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣]. أى: باسطوا أيديهم بالضرب فيهم، يأمرونهم إذا استصعبت أنفسهم، وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرج قهراً. وذلك إذ بشروهم بالعذاب والغضب من الله، كما [جاء^(٨)] فى حديث البراء: إن ملك الموت - إذا جاء الكافر عند احتضاره فى تلك الصورة المنكرة - يقول: اخرجى أيتها النفس الخبيثة إلى سَمُومٍ وحميم، وظل من يحموم، فتنفرك فى بدنه، فيستخرجونها من جسده، كما يخرج السفود من الصوف المبلول فتخرج معها العروق والعصب؛ ولهذا أخبر^(٩) تعالى أن الملائكة تقول لهم: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

وقوله تعالى: ذلك: ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾ أى: هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة فى حياتكم الدنيا، جزاكم الله بها هذا الجزاء، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي بَظْلَامَ لِلْعَبِيدِ﴾ أى: لا يظلم أحدا من خلقه، بل هو الحكم العدل، الذى لا يجور، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه الغنى الحميد؛ ولهذا جاء فى الحديث الصحيح عند مسلم، رحمه الله، من رواية أبي ذر، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا. يا عبادى، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم، فممن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»^(١٠) ولهذا قال تعالى:

(١) فى د، ك: «وأستاهم».

(٢) فى ك: «عمرة».

(٣) فى د، ك: «الشوك».

(٤) فى د، ك: «ذاك ضرب».

(٥) تفسير الطبرى (١٦/١٤).

(٨) زيادة من أ.

(٧) زيادة من م.

(٦) يشير ابن كثير - رحمه الله - إلى الآية: ٢٧ من سورة محمد .

(٩) فى أ: «قال».

(١٠) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧).

﴿كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢)﴾.

يقول تعالى: فعل هؤلاء المشركون المكذبون ^(١) بما أرسلت به يا محمد، كما فعل الأمم المكذبة قبلهم، ففعلنا بهم ما هو دأبنا، أى: عادتنا وسنتنا فى أمثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسول، الكافرين بآيات الله. ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [أى: بسبب ذنوبهم أهلكهم، فآخذهم أخذ عزيز مقتدر] ^(٢)، ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى: لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣)﴾ كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤)﴾.

يخبر تعالى عن تمام عدله، وقسطه فى حكمه، بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد ^(٣) إلا بسبب ذنب ارتكبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]، وقوله: ﴿كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أى: كصنعه ^(٤) بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته، أهلكهم بسبب ذنوبهم، وسلبهم تلك النعم التى أسداها إليهم من جنات وعيون، وزروع وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله فى ذلك، بل ^(٥) كانوا هم الظالمين.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥)﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦)﴾ فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ (٥٧)﴾.

أخبر تعالى أن شر ما دب على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين كلما عاهدوا عهداً نقضوه، وكلما أكدوه بالآيمان نكثوه، ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ أى: لا يخافون من الله فى شىء ارتكبه من الآثام.

﴿فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ أى: تغلبهم وتظفر بهم فى حرب، ﴿فَشَرِدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾ أى: نكل بهم، قاله: ابن عباس، والحسن البصرى، والضحاك، والسدى، وعطاء الخراسانى، وابن عيينة،

(٣) فى أ: «قوم».

(٢) زيادة من د، ك، م.

(١) فى م: «المشركين المكذبين».

(٥) فى أ: «ولكن».

(٤) فى د، ك: «كصنيعهم».

ومعناه: غَلَّظَ عقوبتهم وأثنهم قتلا، ليخاف من سواهم من الأعداء، من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾.

وقال السدي: يقول: لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع^(١) بهم مثل ذلك.

﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨)﴾.

يقول تعالى لنبه، صلوات الله وسلامه عليه^(٢): ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ﴾ قد عاهدتهم ﴿خِيَانَةً﴾ أى: نقضا لما بينك وبينهم من الموائيق والعهود، ﴿فَإَنْبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أى: عهدهم ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ أى: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أى: تستوى أنت وهم فى ذلك، قال الراجز.

فَاضْرِبْ وَجْهَ الْغُدْرِ [الأعداء]^(٣) حتى يجيئك إلى السواء^(٤)

وعن الوليد بن مسلم أنه قال فى قوله: ﴿فَإَنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أى: على مهل، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ أى: حتى ولو فى حق الكافرين، لا يحبها أيضا.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة^(٥)، عن أبى الفيض، عن سليم بن عامر، قال: كان معاوية يسير فى أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاها، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر [الله أكبر]^(٦)، وفاء لا غدرا، إن رسول الله ﷺ قال: «ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلَّ عقدة ولا يشدها حتى ينقضى أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء» قال: فبلغ ذلك معاوية، فرجع، وإذا الشيخ عمرو بن عبسة، رضى الله عنه.

وهذا الحديث رواه أبو داود الطيالسى، عن شعبة وأخرجه أبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن حبان فى صحيحه من طرق عن شعبة، به^(٧). وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا محمد بن عبد الله الزبيرى، حدثنا إسرائيل، عن عطاء بن السائب، عن أبى البختري عن سلمان - يعنى الفارسى - رضى الله عنه: أنه انتهى إلى حصن - أو: مدينة - فقال لأصحابه: دعونى أدعوهم كما رأيت رسول الله ﷺ يدعوهم، فقال: إنما كنت رجلا منهم^(٨)، فهدانى الله، عز وجل للإسلام، فإذا أسلمتم فلکم ما لنا وعليکم ما علينا، وإن أبيتم فأدوا

(٣) زيادة من د، م، أ، والطبرى.

(٢) فى أ: ﷺ.

(١) فى ك: «فتصنع».

(٤) الرجز فى تفسير الطبرى (٢٧/١٤).

(٥) فى ك: «سعيد».

(٦) زيادة من د، ك، م، والمسند.

(٧) مسند أحمد (١١١/٤) ومسند الطيالسى برقم (١١٥٥) وسنن أبى داود برقم (٢٧٥٩) وسنن الترمذى برقم (١٥٨٠) والنسائى فى

السنن الكبرى برقم (٨٧٣٢).

(٩) فى د، ك، م: «منكم».

(٨) فى د، ك: «النبى».

الجزية وأنتم صاغرون، فإن أيتكم نابذناكم على سواء، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾، يفعل بهم ذلك ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها بعون الله^(١).

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ (٥٩) وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾ (٦٠).

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ يا محمد ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ أى: فاتونا فلا نقدر عليهم، بل هم تحت قهر قدرتنا وفي قبضة مشيئتنا فلا يعجزوننا، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤] أى: يظنون، وقال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ [النور: ٥٧]، وقال تعالى^(٢): ﴿لَا يَغْنَثُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة، فقال: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أى: مهما أمكنكم، ﴿مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن أبي على ثُمَامَةَ بن شَفَى، أنه سمع عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: «﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»^(٣).

رواه مسلم، عن هارون بن معروف، وأبو داود عن سعيد بن منصور، وابن ماجه عن يونس بن عبد الأعلى، ثلاثتهم عن عبد الله بن وهب، به^(٤).

ولهذا الحديث طرق أخرى، عن عقبة بن عامر، منها ما رواه الترمذی، من حديث صالح بن كيسان، عن رجل، عنه^(٥).

وروى الإمام أحمد وأهل السنن، عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ارموا واركبوا، وأن ترموا خير من أن تركبوا»^(٦).

(١) المسند (٥/ ٤٤٠) ورواه الترمذی فی السنن برقم (١٥٤٨) من طریق أبي عوانة، عن عطاء بن السائب، عن أبي البختری به نحوه، وقال: «حديث سلمان حديث حسن لانعرفه إلا من حديث عطاء بن السائب، وسمعت محمداً يقول: أبو البختری لم يدرك سلمان؛ لأنه لم يدرك علياً، وسلمان مات قبل علي».

(٢) فی د: «وقوله».

(٣) فی م ذكرت جملة «ألا إن القوة الرمي» ثلاث مرات.

(٤) المسند (٤/ ١٥٦) وصحيح مسلم برقم (١٩١٧) وسنن أبي داود برقم (٢٥١٤) وسنن ابن ماجه برقم (٢٨/١٣).

(٥) سنن الترمذی برقم (٣٠٨٣) وقال: «صالح بن كيسان لم يدرك عقبة بن عامر، وقد أدرك ابن عمر».

(٦) المسند (٤/ ١٤٤).

وقال الإمام مالك، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح السمان، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «الخيول لثلاثة: لرجل أجْر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر؛ فأما الذى له أجْر فرجل ربطها فى سبيل الله، فأطال لها فى مرج - أو: روضة - فما أصابت فى طيلها ذلك من المرج - أو: الروضة - كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه، ولم يرد أن يسقى به، كان ذلك حسنات له؛ فهى لذلك الرجل أجْر. ورجل ربطها تغنياً وتعافاً، ولم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها، فهى له ستر، ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء فهى على ذلك وزر». وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر فقال: «ما أنزل الله على فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾» [الزلزلة: ٧، ٨].

رواه البخارى - وهذا لفظه - ومسلم، كلاهما من حديث مالك^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، أخبرنا شريك، عن الرُّكَيْنِ بن الربيع^(٢)، عن القاسم بن حسان؛ عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «الخيول ثلاثة: ففرس للرحمن، وفرس للشيطان، وفرس للإنسان، فأما فرس الرحمن فالذى يربط فى سبيل الله، فعلفه وروثه وبوله، وذكر ما شاء الله. وأما فرس الشيطان فالذى يقامر أو يراهن عليه، وأما فرس الإنسان فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنها، فهى ستر من فقر»^(٣).

وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن الرمى أفضل من ركوب الخيل، وذهب الإمام مالك إلى أن الركوب أفضل من الرمى، وقول الجمهور أقوى للحديث، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج وهشام^(٤) قالوا: حدثنا ليث، حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن ابن شماس: أن معاوية بن حديج^(٥) مر على أبي ذر، وهو قائم عند فرس له، فسأله ما تعالج من فرسك هذا؟ فقال: إني أظن أن هذا الفرس قد استجيب له دعوته! قال: وما دعاء بهيمة من البهائم؟ قال: والذي نفسى بيده، ما من فرس إلا وهو يدعو كل سحر فيقول: اللهم، أنت خولتني عبداً من عبادك، وجعلت رزقى بيده، فاجعلني أحب إليه من أهله وماله وولده^(٦).

قال: وحدثنا يحيى بن سعيد، عن عبد الحميد بن جعفر؛ حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن سويد بن قيس؛ عن معاوية بن حديج^(٧)؛ عن أبي ذر، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه

(١) الموطأ (٢/٤١٤) ومن طريقه، رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٣٧١) وأما مسلم فرواه من طريق حفص بن ميسرة عن زيد بن أسلم عن أبي صالح به برقم (٩٨٧).

(٢) فى ك: «الربيع بن الركين».

(٣) المسند (١/٣٩٥).

(٤) فى ك، أ: «هاشم».

(٥) فى أ: «خديج».

(٦) المسند (٥/١٦٢).

(٧) فى أ: «خديج».

ليس من فرس عربى إلا يؤذن له مع كل فجر، يدعو بدعوتين، يقول: اللهم، إنك خولتني من خولتني من بنى آدم، فاجعلني من أحب أهله وماله إليه» أو «أحب أهله وماله إليه».

رواه النسائي، عن عمرو بن على الفلاس، عن يحيى القطان، به^(١).

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا يحيى بن حمزة، حدثنا المطعم بن المقدم الصنعاني، عن الحسن بن أبي الحسن أنه قال لابن الحنظلية - يعنى: سهلا - : حَدَّثَنَا حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخيّل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها، ومن ربط فرساً فى سبيل الله كانت النفقة عليه، كالماد يده بالصدقة لا يقبضها»^(٢).

والأحاديث الواردة فى فضل ارتباط الخيل كثيرة، وفى صحيح البخارى، عن عروة بن أبى الجعد البارقي^(٣): أن رسول الله ﷺ قال: «الخيّل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والمغنم»^(٤).

وقوله: «ترهبون» أى: تخوفون ﴿بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أى: من الكفار ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ قال مجاهد: يعنى: قريظة، قال السدى: فارس، وقال سفيان الثورى: قال ابن يمان: هم الشياطين التى فى الدور. وقد ورد حديث بمثل ذلك، قال ابن أبى حاتم:

حدثنا أبو عتبة أحمد بن الفرّج الحمصى، حدثنا أبو حيوة - يعنى: شريح بن يزيد المقرئ - حدثنا سعيد بن سنان، عن ابن عريب - يعنى: يزيد بن عبد الله بن عريب - عن أبيه، عن جده أن رسول الله ﷺ كان يقول فى قوله: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ﴾، قال: «هم الجن»^(٥).

ورواه الطبراني، عن إبراهيم بن دحيم؛ عن أبيه، عن محمد بن شعيب؛ عن سعيد بن سنان^(٦)، عن يزيد بن عبد الله بن عريب، به، وزاد: قال رسول الله ﷺ: «لا يخبل بيت فيه عتيق من الخيل»^(٧).

وهذا الحديث منكر، لا يصح إسناده ولا متنه.

وقال مقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المنافقون.

(١) المسند (٥/ ١٧٠) وسنن النسائي (٦/ ٢٢٣).

(٢) المعجم الكبير (٦/ ٩٨).

(٣) فى م: «المبارك».

(٤) صحيح البخارى برقم (٢٨٥٠).

(٥) ورواه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده برقم (٦٥٠) «بغية الباحث» حدثنا داود بن رشيد عن أبى حيوة به.

(٦) فى جميع النسخ: «سنان بن سعيد بن سنان» والتصويب من المعجم الكبير.

(٧) المعجم الكبير (١٧/ ١٨٨) ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (١٠٨٩): حدثنا ابن أبى عاصم عن دحيم به نحوه.

وهذا أشبه الأقوال، ويشهد له قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَىٰ النَّفَاقِ لَا يَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١].

وقوله: ﴿وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾ أي: مهما أنفقتُم في الجهاد، فإنه يوفى إليكم على التمام^(١) والكمال، ولهذا جاء في حديث^(٢) رواه أبو داود: أن الدرهم يضاعف ثوابه في سبيل الله إلى سبعمائة ضعف^(٣)، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدشتكي، حدثنا أبي، عن أبيه، حدثنا الأشعث بن إسحاق، عن جعفر، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه كان يأمر ألا يتصدق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت: ﴿وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين.

وهذا أيضا غريب.

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣).

يقول تعالى: إذا خفت من قوم خيانة فانبد إليهم عهدهم على سواء، فإن استمروا على حربك ومناذبتك فقاتلهم، ﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ أي: مالوا ﴿لِلسَّلَامِ﴾ أي: المسالمة والمصالحة والمهادنة، ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ أي: فمل إليها، واقبل منهم ذلك؛ ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين؛ أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا فضيل بن سليمان - يعني: النميري - حدثنا محمد بن أبي يحيى، عن إياس بن عمرو الأسلمي، عن علي بن أبي طالب، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه سيكون بعدى اختلاف - أو: أمر - فإن استطعت أن يكون السلم، فافعل»^(٤).

وقال مجاهد: نزلت في بنى قريظة.

(٢) في د: «في الحديث الذي».

(١) في ك: «إليكم وأنتم لا تظلمون على التمام».

(٣) سنن أبي داود برقم (٢٤٩٨) ولفظه: «إن الصلاة والصيام والذكر تضاعف على النفقة في سبيل الله بسبعمائة ضعف» وقد تقدم نحو هذا اللفظ عند تفسير الآية: ٢٦١ من سورة البقرة من حديث عمران بن حصين.

(٤) زوائد المسند (١/ ٩٠) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٣٤): «رجالها ثقات».

وهذا فيه نظر؛ لأن السياق كله فى وقعة بدر، وذكرها مكتنف لهذا كله.

وقول ابن عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، وعكرمة، والحسن، وقتادة: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف فى «براءة»: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩] فيه نظر أيضا؛ لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إذا كان العدو كثيفا، فإنه تجوز مهادنتهم، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبى ﷺ يوم الحديبية، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أى: صالحهم وتوكل على الله، فإن الله كافيك وناصرك، ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليتقوا ويستعدوا، ﴿فَإِنْ حَسِبَكَ اللَّهُ﴾ أى: كافيك وحده.

ثم ذكر نعمته عليه بما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار؛ فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ. وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أى: جمعها على الإيمان بك، وعلى طاعتك ومناصرتك وموازرتك ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أى: لما كان بينهم من العداوة والبغضاء فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة فى الجاهلية، بين الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التسلسل فى الشر، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار فى شأن غنائم حنين قال لهم: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى، وعالة فأغناكم الله بى، وكنتم متفرقين فألفكم الله بى» كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمّن^(١).

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أى: عزيز الجناح، فلا يخيب رجاء من توكل عليه، حكيم فى أفعاله وأحكامه.

قال الحافظ أبو بكر البيهقى: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا على بن بشر الصيرفى القزوينى فى منزلنا، أنبأنا أبو عبد الله محمد بن الحسن^(٢) القنديلى الاستراباذى، حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن النعمان الصفار، حدثنا ميمون بن الحكم، حدثنا بكر بن الشroud، عن محمد بن مسلم الطائفى، عن إبراهيم بن ميسرة، عن طاوس، عن ابن عباس قال: قرابة الرحم تقطع، ومنة النعمة تكفر، ولم ير مثل تقارب القلوب؛ يقول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، وذلك موجود فى الشعر:

إذا مَتَّ ذُو الْقُرْبَى إِلَيْكَ بِرَحْمِهِ فَعَشَّكَ وَاسْتَغْنَى فُلَيْسَ بِذَى رَحِمِ
ولكن ذا القربى الذى إن دعوته أجاب ومن يرمى العدو الذى ترمى

(١) صحيح البخارى برقم (٤٣٣٠) وصحيح مسلم برقم (١٠٦١) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم، رضى الله عنه.

(٢) فى جميع النسخ «الحسين» والتصويب من الشعب والميزان.

قال: ومن ذلك قول القائل:

ولقد صحبت الناس ثم سبرتهم وبلوت ما وصلوا من الأسباب
فإذا القرابة لا تُقَرَّبُ قاطعاً وإذا المودة أقربُ الأسباب

قال البيهقي: لا أدري هذا موصول بكلام ابن عباس، أو هو من قول من دونه من الرواة؟^(١).

وقال أبو إسحاق السبيعي، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، سمعته يقول: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية، قال: هم المتحابون في الله، وفي رواية: نزلت في المتحابين في الله.

رواه النسائي والحاكم في مستدركه، وقال: صحيح^(٢).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: إن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتكفر، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شيء، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾.

رواه الحاكم أيضاً.

وقال أبو عمرو الأوزاعي: حدثني عبدة بن أبي لبابة، عن مجاهد - ولقيته فأخذ بيدي فقال: إذا تراءى المتحابان في الله، فأخذ أحدهما بيد صاحبه، وضحك إليه، تحاتت خطاياهما كما يتحات ورق الشجر. قال عبدة: فقلت له: إن هذا ليسير! فقال: لا تقل ذلك؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾! قال عبدة: فعرفت أنه أفقه مني^(٣).

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن يمان^(٤)، عن إبراهيم الخوزي^(٥)، عن الوليد بن أبي مغيث، عن مجاهد قال: إذا التقى المسلمان فتصافحا غفر لهما، قال: قلت لمجاهد: بمصافحة يغفر لهما؟ فقال مجاهد: أما سمعته يقول: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾؟ فقال الوليد لمجاهد: أنت أعلم مني.

وكذا روى طلحة بن مُصَرِّف، عن مجاهد.

وقال ابن عون، عن عمير بن إسحاق قال: كنا نحدث^(٦) أن أول ما يرفع من الناس - [أو قال: عن الناس]^(٧) - الألفة.

وقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، رحمه الله: حدثنا الحسين بن إسحاق

(١) شعب الإيمان للبيهقي برقم (٩٠٣٤).

(٢) النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٢١٠) والمستدرک (٣٢٩/٢).

(٣) رواه الطبري في تفسيره (٤٦/١٤).

(٤) في هـ: «حدثنا أبو يمان» والتصويب من د، ك، م، والطبري.

(٥) في د، ك: «الجزري».

(٦) في د، ك: «نتحدث».

(٧) زيادة من الطبري.

التستري، حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري، حدثنا سالم بن غيلان، سمعت جعدا أبا عثمان، حدثني أبو عثمان النهدي، عن سلمان الفارسي: أن رسول الله ﷺ قال: «إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم، فأخذ بيده، تحاتت عنهما ذنوبهما، كما يتحات الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف، وإلا غفر لهما ولو كانت ذنوبهما مثل زيد البحار»^(١)». ^(٢).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) ﴿

يحرص تعالى نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران، ويخبرهم أنه حسبهم، أى: كافهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم، حدثنا عبيد الله بن موسى، أنبأنا سفيان، عن شاذب^(٣)، عن الشعبي فى قوله: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» قال: حسبك الله، وحسب من شهد معك.

قال: وروى عن عطاء الخراساني، وعبد الرحمن بن زيد [بن أسلم]^(٤)، مثله.

ولهذا قال: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ» أى: حثهم وذمر^(٥) عليه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرص على القتال عند صفهم ومواجهة العدو، كما قال لأصحابه يوم بدر، حين أقبل المشركون فى عددهم وعددهم: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» فقال عمير بن الحُمام: عرضها السموات والأرض؟! فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فقال: بخ بخ، فقال: «ما يحملك على قولك بخ بخ؟» قال^(٦): رجاء أن أكون من أهلها! قال: «فإنك من أهلها» فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيتتهن من يده، وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها حياة طويلة! ثم تقدم فقاتل حتى قتل، رضى الله عنه^(٧).

(١) فى د، ك، أ: «البحر».

(٢) المعجم الكبير (٢٥٦/٦) وفيه: «مثل زيد البحر» وقال الهيثمى فى المجمع (٣٧/٨): «رجاله رجال الصحيح غير سالم بن غيلان وهو ثقة».

(٣) فى هـ، ك: «عن ابن شاذب» والمثبت من م، أ، والطبرى.

(٤) زيادة من أ.

(٥) فى أ: «وذمرهم».

(٦) فى ك: «فقال».

(٧) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٩٠١) من حديث أنس، رضى الله عنه.

وقد روى عن سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير: أن هذه الآية نزلت حين أسلم عمر بن الخطاب، وكمل به الأربعون.

وفى هذا نظر؛ لأن هذه الآية مدنية، وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة إلى أرض الحبشة وقبل الهجرة إلى المدينة، والله أعلم.

ثم قال تعالى مُبَشِّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَأَمْرًا: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، كل واحد بعشرة^(١). ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة.

قال عبد الله بن المبارك: حدثنا جرير بن حازم، حدثني الزبير بن الحرث^(٢)، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾، شق ذلك على المسلمين حين فرض الله عليهم ألا يفر واحد من عشرة، ثم جاء التخفيف، فقال: ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾، قال: خفف الله عنهم من العدة، ونقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم. وروى البخاري من حديث ابن المبارك، نحوه^(٣).

وقال سعيد بن منصور: حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس في هذه الآية قال: كتب عليهم ألا يفر عشرون من مائتين، ثم خفف الله عنهم، فقال: ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾، فلا ينبغي لمائة أن يفروا من مائتين. وروى البخاري، عن علي بن عبد الله، عن سفيان، به ونحوه^(٤).

وقال محمد بن إسحاق: حدثني ابن أبي نجيح، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية ثقلت على المسلمين، وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين، ومائة ألفاً، فخفف الله عنهم فنسخها بالآية الأخرى فقال: ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ الآية، فكانوا إذا كانوا على الشطر من عدو لهم^(٥) لم ينبغ لهم أن يفروا من عدوهم، وإذا كانوا دون ذلك، لم يجب عليهم قتالهم، وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم.

وروى علي بن أبي طلحة والعوفي، عن ابن عباس، نحو ذلك. قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، والضحاك نحو ذلك.

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه، من حديث المسيب بن شريك، عن ابن عون، عن نافع، عن ابن عمر، رضى الله عنهما: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ قال: نزلت فينا أصحاب محمد ﷺ.

(١) فى ك: «لعشرة».

(٢) فى هـ: «الزبير بن الحارث» والمثبت من د، ك، م والطبرى.

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٥٣).

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٦٥٢).

(٥) فى د، ك: «عدوهم».

وروى الحاكم في مستدركه، من حديث أبي عمرو بن العلاء، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ رفع، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه^(١).

﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَتَخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٩) ﴿

قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عاصم، عن حميد، عن أنس، رضى الله عنه، قال: استشار رسول الله ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر، فقال: «إن الله قد أمكنكم منهم» فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس، إن الله قد أمكنكم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأمس». فقام عمر فقال: يا رسول الله، اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد النبي ﷺ فقال للناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، فقال: يا رسول الله، نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء. قال: فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم، فعفا عنهم، وقبل منهم الفداء. قال: وأنزل الله، عز وجل: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ الآية^(٢).

وقد سبق في أول السورة حديث ابن عباس في صحيح مسلم بنحو ذلك.

وقال الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «ما تقولون في هؤلاء»^(٣) الأسارى؟ قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله، قومك وأهلك، استبقهم واستبتهم، لعل الله أن يتوب عليهم. قال: وقال عمر: يا رسول الله، أخرجوك، وكذبوك، فقدمهم فاضرب أعناقهم. قال: وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، أنت في واد كثير الخطب، فأضرم الوادى عليهم ناراً، ثم ألقهم فيه. [قال: فقال العباس: قطعت رحمك]^(٤) قال: فسكت رسول الله ﷺ فلم يرد عليهم شيئاً، ثم قام فدخل فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر. وقال ناس: يأخذ بقول عمر. وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة. ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم، عليه السلام، قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى، عليه السلام، قال: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَتَقْصَبُوا عَاقِبَتَكُمْ وَأَنْ لَّيْسَ لَكُم مِّنْ عِندِ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، وإن مثلك يا عمر مثل موسى

(١) المستدرک (٢/٢٣٩).

(٢) المسند (٣/٢٤٣).

(٣) فى أ: «هذه».

(٤) زيادة من د، م، والمسند والطبرى.

عليه السلام، قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، وإن مثلك يا عمر كمثّل نوح عليه السلام، قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، أنتم عالة فلا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق. قال ابن مسعود: قلت: يارسول الله، إلا سهيل بن بيضاء، فإنه يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع على حجارة من السماء مني في ذلك اليوم، حتى قال رسول الله ﷺ: «إلا سهيل بن بيضاء» فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى﴾ إلى آخر الآية.

رواه الإمام أحمد والترمذي، من حديث أبي معاوية، عن الأعمش، والحاكم في مستدركه، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه^(١) وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه، عن عبد الله بن عمر، وأبي هريرة، رضى الله عنهما، عن النبي ﷺ نحوه^(٢)، وفي الباب عن أبي أيوب الأنصاري.

وروى ابن مردويه أيضاً - واللفظ له - والحاكم في مستدركه، من حديث عبيد الله بن موسى: حدثنا إسرائيل، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: لما أسر الأسارى يوم بدر، أسر العباس فيمن أسر، أسره رجل من الأنصار، قال: وقد أوعده الأنصار أن يقتلوه. فبلغ ذلك للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أتم الليلة من أجل عمى العباس، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه» فقال له عمر: فاتهم؟ قال: «نعم» فأتى عمر الأنصار فقال لهم: أرسلوا العباس فقالوا: لا، والله لا نرسله. فقال لهم عمر: فإن كان لرسول الله ﷺ رضى؟ قالوا: فإن كان لرسول الله ﷺ رضى فخذ. فأخذ عمر فلما صار في يده قال له: يا عباس، أسلم، فوالله لأن تسلم أحب إلى من أن يسلم الخطاب، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك، قال: فاستشار رسول الله ﷺ أبا بكر، فقال أبو بكر: عشيرتك. فأرسلهم، فاستشار عمر، فقال: اقتلهم، ففاداهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ^(٣) لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية.

قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه^(٤).

وقال سفيان الثوري، عن هشام - هو ابن حسان - عن محمد بن سيرين، عن عبيدة، عن علي، رضى الله عنه، قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ يوم بدر فقال: خير أصحابك في الأسارى: إن شأوا الفداء، وإن شأوا القتل على أن يقتل منهم مقبلاً مثلهم. قالوا: الفداء ويقتل منا.

رواه الترمذي، والنسائي، وابن حبان في صحيحه من حديث الثوري، به^(٥) وهذا حديث غريب

(١) المسند (٣٨٣/١) وسنن الترمذي برقم (٣٠٨٤) والمستدرک (٢١/٣) وقال الترمذي: «هذا حديث حسن وأبو عبيدة بن عبد الله لم يسمع من أبيه».

(٢) ذكرهما السيوطي في الدر المنثور (١٠٤/٤، ١٠٧).

(٤) المستدرک (٣٢٩/٢) وقال الذهبي: «على شرط مسلم».

(٥) سنن الترمذي برقم (١٥٦٧) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٨٦٦٢) وقال الترمذي: «هذا حديث غريب من حديث الثوري لانعرفه إلا من حديث ابن أبي زائدة».

جدا.

وقال ابن عون [عن محمد بن سيرين]^(١) عن عبيدة، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ في أسارى يوم بدر: «إِنْ شِئْتُمْ قَتَلْتُمُوهُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ فَادَيْتُمُوهُمْ وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِالْفِدَاءِ، وَاسْتَشْهَدْتُمْ مِنْكُمْ بَعْدَتَهُمْ». قال: فكان آخر السبعين ثابت بن قيس، قتل يوم اليمامة، رضى الله عنه^(٢).

ومنها من روى هذا الحديث عن عبيدة مرسلًا^(٣)، فالله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق، عن ابن أبي نجيح، عن عطاء، عن ابن عباس: «مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى»، فقرأ حتى بلغ: «عَذَابٌ عَظِيمٌ» قال: غنائم بدر، قبل أن يحلها لهم، يقول: لولا أنى لا أعذب من عصاني حتى أتقدم إليه، لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم.

وكذا روى ابن أبي نجيح، عن مجاهد.

وقال الأعمش: سبق منه ألا يعذب أحدا شهد بدرا. وروى نحوه عن سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن جبيرة، وعطاء.

وقال شعبة، عن أبي هاشم^(٤)، عن مجاهد: «لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ» أى: لهم بالمغفرة ونحوه عن سفيان الثوري، رحمه الله.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: «لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ» يعني: فى أم الكتاب الأول أن المغانم والأسارى حلال لكم، «لَمَسْكُمُ فِيمَا أَخَذْتُمْ» من الأسارى «عَذَابٌ عَظِيمٌ»، قال الله تعالى: «فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ» الآية. وكذا روى العوفي، عن ابن عباس. وروى مثله عن أبي هريرة، وابن مسعود، وسعيد بن جبيرة، وعطاء، والحسن البصري، وقتادة والأعمش أيضا: أن المراد «لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ» لهذه الأمة بإحلال الغنائم وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله.

ويستشهد لهذا القول بما أخرجه فى الصحيحين، عن جابر بن عبد الله، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَعْطَيْتُ خَمْسًا، لَمْ يَعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نَصَرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأَحَلَّتْ لِي الْغَنَائِمَ وَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأَعْطَيْتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يَبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ وَيَبْعَثُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً»^(٥).

وقال الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمْ

(١) زيادة من المستدرک ودلائل النبوة.

(٢) رواه الحاكم فى المستدرک (١٤٠/٢) والبيهقى فى دلائل النبوة (١٣٩/٣) من طريق إبراهيم بن عرعة قال: أخبرنا أزهر، عن ابن عون، عن محمد بن عبيدة، عن علي به، وقال ابن عرعة: «رددت هذا على أزهر فأبى إلا أن يقول: عبيدة عن علي» وصححه الحاكم وقال: «على شرط الشيخين».

(٣) رواه الطبري فى تفسيره (٦٧/١٤) من طريق ابن علية عن ابن عون عن ابن سيرين عن عبيدة به مرسلًا.

(٤) فى د: «هشام».

(٥) صحيح البخارى برقم (٣٣٥) وصحيح مسلم برقم (٥٢١).

تحل الغنائم لسود الرؤوس غيرنا»^(١).

ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء.

وقد روى الإمام أبو داود في سننه: حدثنا عبد الرحمن بن المبارك العيشي، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا شعبة، عن أبي العنبر، عن أبي الشعثاء، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة^(٢).

وقد استقر الحكم في الأسرى^(٣) عند جمهور العلماء: أن الإمام مخير فيهم: إن شاء قتل - كما فعل بينى قريظة - وإن شاء فادى بمال - كما فعل بأسرى بدر - أو بمن أسر من المسلمين - كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع، حيث ردهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين، وإن شاء استرق من أسر. هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء، وفي المسألة خلاف آخر بين الأئمة مقرر في موضعه من كتب الفقه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٧١).

قال محمد بن إسحاق: حدثني العباس بن عبد الله بن مغفل، عن بعض أهله، عن عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: «إني قد عرفت أن أناسا من بنى هاشم وغيرهم، قد أخرجوا كرها، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي^(٤) منكم أحدا منهم - أى: من بنى هاشم - فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكرها». فقال أبو حذيفة بن عتبة: أنقتل آبائنا وأبناءنا وإخواننا وعشائرننا ونترك العباس؟! والله لئن لقيته لأجمنه بالسيف؟ فبلغت رسول الله ﷺ، فقال لعمر بن الخطاب: «يا أبا حفص» - قال عمر: والله إنه لأول يوم كنانى فيه رسول الله ﷺ - «أيضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف؟» فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لى فأضرب عنقه، فوالله لقد نافق. فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك: والله ما آمن من تلك الكلمة التى قلت، ولا أزال منها خائفا، إلا أن يكفرها الله عنى بشهادة. فقتل يوم اليمامة شهيدا، رضى الله عنه.

(١) رواه الترمذى فى السنن برقم (٣٠٨٥) من طريق معاوية بن عمرو عن زائدة، عن الأعمش به نحوه، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث الأعمش».

(٢) سنن أبى داود برقم (٢٦٩١).

(٤) فى أ: «شهد».

(٣) فى د، ك، أ: «الأسارى».

وبه، عن ابن عباس قال: لما أمسى رسول الله ﷺ يوم بدر، والأسارى محبوسون بالوثاق، بات رسول الله ﷺ ساهراً أول الليل، فقال له أصحابه: يا رسول الله، ما لك لا تنام؟ - وقد أسر العباس رجل من الأنصار - فقال رسول الله ﷺ: «سمعت أنين عمى العباس فى وثاقه» فأطلقوه، فسكت، فنام رسول الله ﷺ.

قال محمد بن إسحاق: وكان أكثر الأسارى يوم بدر فداء العباس بن عبد المطلب، وذلك أنه كان رجلاً مؤسراً فافتدى نفسه بمائة أوقية ذهباً^(١).

وفى صحيح البخارى، من حديث موسى بن عقبة، قال ابن شهاب: حدثنى أنس بن مالك أن رجلاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه. قال^(٢): «لا، والله لا تدرون منه درهما»^(٣).

وقال يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن عروة - وعن الزهرى، عن جماعة سماهم قالوا: بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ فى فداء أسراهم، ففدى^(٤) كل قوم أسيرهم بما رضوا، وقال العباس: يا رسول الله، قد كنت مسلماً! فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك، وأما ظاهرك فقد كان علينا، فافتد نفسك وابنى أخيك: نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعقيل بن أبى طالب بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن عمرو أخى بنى الحارث بن فهر» قال: ما ذاك عندى يا رسول الله! قال: «فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل؟ فقلت^(٥) لها: أن أصبت فى سفرى هذا، فهذا المال الذى دفنته لبنى: الفضل، وعبد الله، وقُثم». قال: والله يا رسول الله، إنى لأعلم أنك رسول الله، إن هذا لشيء ما علمه أحد^(٦) غيرى وغير أم الفضل، فاحسب لى يا رسول الله ما أصبتم منى: عشرين أوقية من مال كان معى؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك». ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه، وأنزل الله، عز وجل فيه: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسَارَى (٧) إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ». قال العباس: فأعطانى الله مكان العشرين الأوقية فى الإسلام عشرين عبداً، كلهم فى يده مال يضرب به، مع ما أرجو من مغفرة الله، عز وجل.

وقد روى ابن إسحاق أيضاً، عن ابن أبى نجيج، عن عطاء، عن ابن عباس فى هذه الآية بنحو مما تقدم.

(١) فى د، ك: «ذهب».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٠٢٦).

(٥) فى د: «فقال».

(٧) فى د: «الأسرى».

(٤) فى ك: «يفادى».

(٦) فى أ: «بشر».

وقال^(١) أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا ابن إدريس [عن ابن إسحاق]^(٢) عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال العباس: في نزلت: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُبْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾، فأخبرت النبي ﷺ بإسلامي، وسألته أن يحاسبني بالعشرين الأوقية التي أخذ^(٣) مني، فأبى، فأبدلني الله بها عشرين عبدا، كلهم تاجر، مالى فى يده.

وقال ابن إسحاق أيضا: حدثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله ابن رثاب قال: كان العباس بن عبد المطلب يقول: في نزلت - والله - حين ذكرت لرسول الله ﷺ إسلامي - ثم ذكر نحو الحديث كالذى قبله.

وقال ابن جريج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس: ﴿يَأْيُهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسَارَى﴾: عباس وأصحابه. قال: قالوا للنبي ﷺ: آمنا بما جئت به، ونشهد أنك رسول الله، لننصحن لك على قومنا. فأنزل الله: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾، إيماننا وتصديقا، يخلف^(٤) لكم خيرا مما أخذ منكم ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ الشرك الذى كنتم عليه. قال: فكان العباس يقول: ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا، وأن لى الدنيا، لقد قال: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾، فقد أعطاني خيرا مما أخذ منى مائة ضعف، وقال: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾، وأرجو أن يكون^(٥) غفر لى.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى هذه الآية: كان العباس أسير يوم بدر، فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب، فقال العباس حين قرئت هذه الآية: لقد أعطانا^(٦) الله، عز وجل، خصلتين، ما أحب أن لى بهما الدنيا، إنى أسرت يوم بدر فَقَدَيْتَ نفسى بأربعين أوقية. فاتانى أربعين عبدا، وأنا أرجو المغفرة التى وعدنا الله، جل ثناؤه.

وقال قتادة فى تفسير هذه الآية: ذكر لنا أن رسول^(٧) الله ﷺ لما قدم عليه مال البحرين ثمانون ألفا، وقد توضع للصلاة الظهر، فما أعطى يومئذ ساكتاً ولا حرم سائلاً، وما صلى يومئذ حتى فرقه، فأمر العباس أن يأخذ منه ويحتشى، فأخذ. قال: فكان العباس يقول: هذا خير مما أخذ منا، وأرجو المغفرة.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال قال: بعث ابن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ من البحرين ثمانين ألفا، ما أتاه مال أكثر منه لا قبل ولا بعد. قال: فنشرت على حصير ونودى بالصلاة. قال: وجاء رسول الله ﷺ، فمثل قائما على المال،

(٢) زيادة من د، ك، م، والطبرى.

(٤) فى ك: «نخلف».

(٦) فى أ: «أعطاه».

(١) فى ك: «وقال أيضا».

(٣) فى أ: «أخذت».

(٥) فى ك، أ: «يكون قد».

(٧) فى ك: «نبي».

وجاء أهل المسجد فما كان يومئذ عدد ولا وزن، ما كان إلا قبضاً، [قال] (١): وجاء العباس بن عبد المطلب يحثي في خميسة عليه، وذهب يقوم فلم يستطع، قال: فرفع رأسه إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ارفع على. قال: فتبسم رسول الله ﷺ حتى خرج ضاحكه - أو: نابه - وقال له: «أعد من المال طائفة، وقم بما تطيق». قال: ففعل، وجعل العباس يقول - وهو منطلق - : أما إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزنا، وما ندرى ما يصنع في الأخرى: ﴿يَأْيُهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسَارَى﴾ (٢) الآية، ثم قال: هذا خير مما أخذ منا، ولا أدري ما يصنع الله في الأخرى (٣)، فما زال رسول الله ﷺ مائلاً على ذلك المال، حتى ما بقي منهم درهم، وما بعث إلى أهله بدرهم، ثم أتى الصلاة فصلى (٤).

حديث آخر في ذلك: قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني أبو الطيب محمد بن محمد بن عبد الله السعيدى، حدثنا محمّش بن عصام، حدثنا حفص بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن عبد العزيز بن صهيب، عن أنس بن مالك قال: أتى رسول الله ﷺ بمال من البحرين، فقال: «انثروه في المسجد».

قال: وكان أكثر مال أتى به رسول الله ﷺ، فخرج إلى الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه. فما كان يرى أحداً إلا أعطاه، إذ جاء العباس فقال: يا رسول الله، أعطني فأنى فاديت نفسى، وفاديت عقيلاً. فقال له رسول الله ﷺ: «خذ». فحشا في ثوبه، ثم ذهب يُقله فلم يستطع، فقال: مُر بعضهم يرفعه إلى. قال: «لا». قال: فارفعه أنت على. قال: «لا». فنثر منه ثم احتمله على كاهله، ثم انطلق، فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره حتى خفى عنه، عجباً من حرصه، فما قام رسول الله ﷺ وثم منها درهم (٥).

وقد رواه البخارى في مواضع من صحيحه تعليقاً بصيغة الجزم، يقول: «وقال إبراهيم بن طهمان» ويسوقه، وفي بعض السياقات أتم من هذا (٦).

وقوله: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ أى: فيما أظهروا لك من الأقوال، ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ أى: من قبل بدر بالكفر به، ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أى: بالإسار يوم بدر، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى: عليم بما يفعله، حكيم فيه.

قال قتادة: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبى سرح الكاتب حين ارتد، ولحق بالمشركين.

(١) زيادة من أ. (٢) فى د: «الأسرى». (٣) فى ك: «الآخرة». (٤) ورواه الحاكم فى المستدرک (٣/٣٢٩) من طريق هاشم بن القاسم عن سليمان بن المغيرة به نحوه، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه». (٥) السنن الكبرى (٦/٣٥٦) ووقع فيه «محمد بن محمد بن عبد الله الشعيرى». (٦) صحيح البخارى برقم (٤٢١، ٣٠٤٩، ٣١٦٥).

وقال ابن جرير، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس: نزلت في عباس وأصحابه، حين قالوا: لننصحن لك على قومنا.

وفسرهما السدي على العموم، وهو أشمل وأظهر، والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٧٢).

ذكر تعالى أصناف المؤمنين، وقسمهم إلى مهاجرين، خرجوا من ديارهم وأموالهم، وجاؤوا لنصر الله ورسوله، وإقامة دينه، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك. وإلى أنصار، وهم: المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك، آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم، وواسوهم في أموالهم، ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم، فهؤلاء بعضهم أولى ببعض^(١)، أي: كل منهم أحق بالآخر من كل أحد؛ ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، كل اثنين أخوان، فكانوا يتوارثون بذلك إراثاً مقدماً على القرابة، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث، ثبت ذلك في صحيح البخاري، عن ابن عباس^(٢)، ورواه العوفي، وعلى بن أبي طلحة، عنه^(٣). وقال^(٤) مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، وغيرهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن شريك، عن عاصم، عن أبي وائل، عن جرير - هو ابن عبد الله البجلي - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «المهاجرون والأنصار أولياء بعضهم لبعض، والطلاق من قريش والعقاة من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة» تفرد به أحمد^(٥).

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا شيبان^(٦)، حدثنا عكرمة - يعني ابن إبراهيم الأزدي - حدثنا عاصم، عن شقيق، عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المهاجرون والأنصار، والطلاق من قريش والعقاة من ثقيف، بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة». هكذا رواه في مسند عبد الله بن مسعود^(٧).

(١) في د، ك، م، أ: «بعضهم أولياء بعض».

(٢) صحيح البخاري برقم (٦٧٤٧).

(٣) رواه الطبري في تفسيره (٧٨/١٤).

(٤) في أ: «وقاله».

(٥) المسند (٣٦٣/٤).

(٦) في د: «سفيان».

(٧) مسند أبي يعلى (٤٤٦/٨) وفيه عكرمة بن إبراهيم، ضعيف.

وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار في غير ما آية في^(١) كتابه، فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ
الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠]، وقال: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ
فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ الآية [التوبة: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ
وَأَمْوَالِهِمْ يَتَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصَرُّونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ. وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ
وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ
كَانَ بِهِمْ حَصَصَةٌ﴾ الآية [الحشر: ٨، ٩].

وأحسن ما قيل في قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ أى: لا يحسدونهم على
فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم، فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار، وهذا أمر مجمع
عليه بين العلماء، لا يختلفون في ذلك، ولهذا قال الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق
البيزار في مسنده: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي
ابن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن حذيفة قال: خيرنى رسول الله ﷺ بين الهجرة والنصرة، فاخترت
الهجرة^(٢).

ثم قال: لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلَايَتِهِمْ﴾: [قرأ حمزة: «ولايتهم» بالكسر، والباقيون
بالتفتح، وهما واحد كالدلالة والدلالة]^(٣) «مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا»، هذا هو الصنف الثالث من
المؤمنين، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا، بل أقاموا في بلادهم، فهؤلاء ليس لهم في المغنم نصيب،
ولا في خمسها إلا ما حضروا فيه القتال، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه: بريدة بن
الحصيب الأسلمي، رضى الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش،
أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، وقال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله،
قاتلوا من كفر بالله، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال - أو: خلال -
فأيتهم ما أجابوك^(٤) إليها فاقبل منهم، وكف عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم،
وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما
للمهاجرين، وأن عليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب

(١) في د، أ: «من».

(٢) مسند البيزار برقم (٢٧١٨) «كشف الاستار» وفيه على بن زيد، ضعيف.

(٣) في أ: «ما أجابوا».

(٤) زيادة من د، م، أ.

المسلمين، يجرى عليهم حكم الله الذي يجرى على المؤمنين، ولا يكون لهم فى الفء والغنمة نصيب، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله ثم قاتلهم».

انفرد به^(١) مسلم، وعنده زيادات أخر^(٢).

وقوله: ﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: يقول تعالى: وإن استنصروكم هؤلاء الأعراب، الذين لم يهاجروا فى قتال دينى، على عدو لهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم؛ لأنهم إخوانكم فى الدين، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ أى: مهادنة إلى مدة، فلا تخفروا ذمتكم، ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم. وهذا مروى عن ابن عباس، رضى الله عنه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (٧٣).

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، قطع الموالاة بينهم وبين الكفار، كما قال الحاكم فى مستدركه:

حدثنا محمد بن صالح بن هانى، حدثنا أبو سعد^(٣) يحيى بن منصور الهروى، حدثنا محمد بن أبان، حدثنا محمد بن يزيد وسفيان بن حسين، عن الزهرى، عن على بن الحسين، عن عمرو بن عثمان، عن أسامة، عن النبى ﷺ قال: «لا يتوارث أهل ملتين، ولا يرث مسلم كافراً، ولا كافر مسلماً»، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه^(٤).

قلت: الحديث فى الصحيحين من رواية أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم»^(٥)، وفى المسند والسنن، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين شتى»^(٦)، وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا محمد، [عن محمد بن ثور]^(٧)، عن معمر، عن الزهرى: أن

(١) فى أ: «انفرد بإخراجه».

(٢) المسند (٣٥٢/٥) وصحيح مسلم برقم (١٧٣١).

(٣) فى جميع النسخ: «أبو سعيد» والتصويب من كتب الرجال.

(٤) المستدرک (٢٤٠/٢).

(٥) صحيح البخارى برقم (٦٧٦٤) وصحيح مسلم برقم (١٦١٤).

(٦) المسند (١٩٥/٢) وسنن أبى داود برقم (٢٩١١) ولم أقع عليه فى سنن الترمذى، وإنما أشار إليه عند حديث أسامة بن زيد، والله أعلم.

(٧) زيادة من م، أ، والطبرى.

رسول الله ﷺ أخذ على رجل دخل في الإسلام فقال: «تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحج البيت، وتصوم رمضان، وأنت لا ترى نار مشرك إلا وأنت له حرب»^(١).

وهذا مرسل من هذا الوجه، وقد روى متصلًا من وجه آخر، عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «أنا بريء من كل مسلم بين ظهراني المشركين»، ثم قال: «لا يتراءى ناراهما»^(٢).

وقال أبو داود في آخر كتاب الجهاد: حدثنا محمد بن داود بن سفيان، أخبرني يحيى بن حسان، أنبأنا سليمان بن موسى أبو داود، حدثنا جعفر بن سعد بن سمرة بن جندب [حدثني خبيب بن سليمان، عن أبيه سليمان بن سمرة]^(٣) عن سمرة بن جندب: أما بعد، قال رسول الله ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله»^(٤).

وقد ذكر الحافظ أبو بكر بن مردويه، من حديث حاتم بن إسماعيل، عن عبد الله بن هرمز، عن محمد وسعيد ابني عبيد، عن أبي حاتم^(٥) المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوا»^(٦) تكن فتنة في الأرض وفساد عريض». قالوا: يا رسول الله، وإن كان؟ قال: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه» ثلاث مرات.

وأخرجه أبو داود والترمذي، من حديث حاتم بن إسماعيل، به بنحوه^(٧).

ثم روى من حديث عبد الحميد بن سليمان، عن ابن^(٨) عجلان، عن ابن وثيمة النصري^(٩)، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه، إلا تفعلوا»^(١٠) تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»^(١١).

ومعنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أى: إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت الفتنة في الناس، وهو التباس الأمر، واختلاط المؤمن بالكافر، فيقع بين الناس فساد منتشر طويل عريض.

(١) تفسير الطبري (٨٢/١٤).

(٢) رواه أبو داود في السنن برقم (٢٦٤٥) والترمذي في السنن برقم (١٦٠٤) والنسائي في السنن (٣٦/٨) من حديث جرير بن عبد الله، رضى الله عنه.

(٣) زيادة من د، ك، م، وأبي داود.

(٤) سنن أبي داود برقم (٢٧٨٧).

(٥) فى أ: «حازم». (٦) فى ك: «تفعلوه».

(٧) رواه أبو داود فى المراسيل برقم (٢٢٤) والترمذى فى السنن برقم (١٠٨٥).

(٨) فى أ: «أبى». (٩) فى أ: «ابن أبى وثيمة النصرى». (١٠) فى ك: «تفعلوه».

(١١) ورواه الترمذى فى السنن برقم (١٠٨٤) من طريق عبد الحميد بن سليمان به، وقال: «حديث أبى هريرة قد خولف عبد الحميد ابن سليمان فى هذا الحديث، ورواه الليث بن سعد عن ابن عجلان عن أبى هريرة عن النبى ﷺ مرسلًا ثم قال: وحديث الليث أشبه، ولم يعد حديث عبد الحميد محفوظًا».

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥).

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا، عطف بذكر ما لهم في الآخرة، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان، كما تقدم في أول السورة، وأنه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن ذنوب إن كانت، وبالرزق الكريم، وهو الحسن الكثير الطيب الشريف، دائم مستمر أبدا لا ينقطع ولا ينقضى، ولا يسأم ولا يملُّ لحسنه وتنوعه.

ثم ذكر أن الاتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة كما قال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] وفي الحديث المتفق عليه، بل المتواتر من طرق صحيحة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المرء مع من أحب»، وفي الحديث الآخر: «من أحب قوما حُشِرَ معهم»^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن شريك، عن عاصم، عن أبي وائل، عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ: «المهاجرون والأنصار أولياء بعضهم لبعض، والطلاقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة». قال شريك: فحدثنا الأعمش، عن تميم بن سلمة، عن عبد الرحمن بن هلال، عن جرير، عن النبي ﷺ مثله.

تفرد به أحمد من هذين الوجهين^(٢).

وأما قوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أى: في حكم الله، وليس المراد بقوله: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ﴾ خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة، الذين لا فرض لهم ولا هم عصبة، بل يُدَلُّون بوارث، كالأخالة، والأخوال، والعمة، وأولاد البنات، وأولاد الأخوات، ونحوهم، كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية، ويعتقد ذلك صريحا في المسألة، بل الحق أن الآية

(١) جاء من حديث أبي قرصافة وجابر، أما حديث جابر فرواه الطبراني في المعجم الكبير (١٩/٣) من طريق زياد عن عزة بنت عياض عن أبي قرصافة مرفوعاً بلفظ: «من أحب قوما حشره الله في زمرة»، وفي إسناده من لا يعرف. رواه الخطيب في تاريخه (١٩٦/٥) من طريق إسماعيل بن يحيى عن سفيان عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر مرفوعاً بلفظ: «من أحب قوماً على أعمالهم. حشر يوم القيامة في زمرة»، فحوسب بحسابهم وإن لم يعمل أعمالهم» وإسماعيل بن يحيى، ضعيف.

(٢) المسند (٣٤٣/٤).

عامّة تشمل جميع القربابات. كما نص ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة وغير واحد: على أنها ناسخة للإرث بالحلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولاً، وعلى هذا فتشمل ذوى الأرحام بالاسم الخاص. ومن لم يورثهم يحتج بأدلة من أقواها حديث: «إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه، فلا وصية لوارث»، قالوا: فلو كان ذا حق لكان له فرض فى كتاب الله مسمى، فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثاً، والله أعلم.

آخر [تفسير]^(١) سورة «الأنفال»، والله الحمد والمنة، وعليه^(٢)

[الثقة و]^(٣) التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل

[بسم الله الرحمن الرحيم، وبه أستعين وهو حسبي ونعم الوكيل]^(١)

تفسير سورة التوبة^(٢)

[مدنية]^(٣).

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۝ (٢)﴾.

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ، كما قال البخاري.

حدثنا [أبو] الوليد، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]، وآخر سورة نزلت براءة^(٥).

وإنما لا يسمل^(٦) في أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الإمام، والافتداء في ذلك بأمر المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه وأرضاه، كما قال الترمذي:

حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعد، ومحمد بن جعفر^(٧)، وابن أبي عدي، وسهل بن يوسف قالوا: حدثنا عوف بن أبي جميلة^(٨)، أخبرني يزيد الفارسي، أخبرني ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال، وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المثني، فقرنتم^(٩) بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ووضعتوها^(١٠) في السبع الطول، ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو يُنزل^(١١) عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب، فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، فإذا نزلت^(١٢) عليه الآية فيقول: «ضعوا هذه^(١٣) في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا»، وكانت الأنفال من أول ما نزل^(١٤) بالمدنية، وكانت براءة من آخر القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها^(١٥)، وحسبت أنها منها، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فوضعتها في السبع الطول^(١٦).

(٣) زيادة من ك.

(٢) في ك: «براءة».

(١) زيادة من ك.

(٤) زيادة من د، ك، م، والبخاري.

(٥) صحح البخاري برقم (٤٦٥٤).

(٦) في ك: «لا تبسمل».

(٩) في د: «وقرنتم».

(١٢) في ت: «أنزلت».

(١٥) في ت: «بعضها».

(١٦) سنن الترمذي برقم (٣٠٨٦).

(٨) في ت: «حملة».

(٧) في د، ك: «محمد بن أبي جعفر».

(١١) في ت: «تنزل».

(١٠) في د: «ووضعتوها».

(١٤) في ت، أ: «نزلت».

(١٣) في ك، أ: «هذه الآية».

وكذا رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، من طرق أخر، عن عوف الأعرابي، به^(١). وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ، لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك، وأنهم يطوفون بالبيت عراة فكره مخالطتهم، فبعث أبا بكر الصديق، رضى الله عنه، أميراً على الحج هذه السنة، ليقيم للناس مناسكهم، ويعلم المشركين ألا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن ينادى في الناس ببراءة، فلما قفل أتبعه بعلى بن أبى طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ، لكونه عصبة له، كما سيأتى بيانه.

فقوله: «بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» أى: هذه براءة، أى: تبرؤ من الله ورسوله «إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ».

اختلف المفسرون ها هنا اختلافاً كثيراً، فقال قائلون: هذه الآية لذوى العهود المطلقة غير المؤقتة، أو من له عهد دون أربعة أشهر، فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته، مهما كان؛ لقوله تعالى: «فَاتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» [التوبة: ٤]. ولما سيأتى فى الحديث: «ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهدة إلى مدته». وهذا أحسن الأقوال وأقواها، وقد اختاره ابن جرير، رحمه الله، ورؤى عن الكلبي ومحمد بن كعب القرظي، وغير واحد.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: «بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ» قال: حد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر، يسيحون فى الأرض حيثما شاؤوا، وأجل أجل من ليس له عهد، انسلخ الأشهر الحرم، [من يوم النحر إلى انسلخ المحرم، فذلك خمسون ليلة، فإذا انسلخ الأشهر الحرم]^(٢) أمره بأن يضع السيف فيمن لا عهد له.

وكذا رواه العوفي، عن ابن عباس.

وقال [الضحاك]^(٣) بعد قوله: فذلك خمسون ليلة: فأمر الله نبيه إذا انسلخ المحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد، يقتلهم حتى يدخلوا فى الإسلام. وأمر من كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر، أن يضع فيهم السيف^(٤)، حتى يدخلوا فى الإسلام.

وقال أبو معشر المدني: حدثنا محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الموسم سنة تسع، وبعث على بن أبى طالب بثلاثين آية أو أربعين آية من «براءة» فقرأها

(١) المسند (٥٧/١) وسنن أبى داود برقم (٧٨٦) والنسائي فى السنن الكبرى برقم (٨٠٠٧) والمستدرک (٣٣٠/٢).

(٢) فى ت: «السيف أيضاً».

(٣، ٢) زيادة من ت، م.

على الناس، يؤجل المشركين أربعة أشهر يسيحون في الأرض، فقرأها عليهم يوم عرفة، أجل المشركين عشرين من ذى الحجة، والمحرم، وصفر، وشهر ربيع الأول، وعشرا من ربيع الآخر، وقرأها عليهم في منازلهم، وقال: لا يحجن بعد عامنا هذا مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان.

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: «بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» إلى أهل العهد: خزاعة، ومُدْلَج، ومن كان له عهد أو غيرهم. ^(١) أقبل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ، فأراد رسول الله ﷺ الحج، ثم قال: «إنما يحضر المشركون فيطوفون عُرَاةً، فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك». فأرسل أبا بكر وعلياً، رضى الله عنهما، فطافا بالناس في ذى المجاز وبأمكناتهم التي كانوا يتبايعون بها بالمواسم كلها، فأذنوا أصحاب العهد بأن يأمنوا أربعة أشهر، فهي الأشهر المتواليات: عشرون من ذى الحجة إلى عشر يخلون من ربيع الآخر، ثم لا عهد لهم، وأذن الناس كلهم بالقتال إلا أن يؤمنوا.

وهكذا روى عن السدى، وقتادة.

وقال الزهرى: كان ابتداء التأجيل من شوال وآخره سلخ المحرم.

وهذا القول غريب، وكيف يحاسبون بمدة لم يبلغهم حكمها، وإنما ظهر لهم أمرها يوم النحر، حين نادى أصحاب رسول الله ﷺ بذلك، ولهذا قال تعالى:

﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣)﴾.

يقول تعالى: وإعلام «مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» وتقدّم وإنذار إلى الناس، «يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ»: وهو يوم النحر الذى هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكثرها جمعا ^(٢)، «أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ» أى: برىء منهم أيضا.

ثم دعاهم إلى التوبة إليه فقال: «فَإِنْ تُبْتُمْ» أى: مما أنتم فيه من الشرك والضلال «فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ» أى: استمررتم على ما أنتم عليه «فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ»، بل هو قادر، وأنتم فى قبضته، وتحت قهره ومشيتته، «وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» أى: فى الدنيا بالخزى والنكال، وفى الآخرة بالمقامع والأغلال.

قال البخارى، رحمه الله: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليث، حدثنى عقيل، عن ابن شهاب قال: أخبرنى حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: بعثنى أبو بكر، رضى الله عنه، فى

(٢) فى د: «وأكثرها جميعا».

(١) فى ت، ك: «إقبال»، وفى د: «فقدّم».

تلك الحجة في المؤذنين، بعثهم يوم^(١) النحر، يؤذنون بمنى: ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف^(٢) بالبيت عريان. قال حميد: ثم أردف النبي ﷺ بعلى بن أبى طالب، فأمره أن يؤذن ببراءة. قال أبوهريرة: فأذن معنا على في أهل منى يوم النحر ببراءة وألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان^(٣).

ورواه البخارى أيضا: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرنى حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: بعثنى أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف^(٤) بالبيت عريان، ويوم الحج الأكبر يوم النحر، وإنما قيل: «الأكبر»، من أجل قول الناس: «الحج الأصغر»، فنَبَذَ أبو بكر إلى الناس فى ذلك العام، فلم يحج عام حجة الوداع الذى حج فيه رسول الله ﷺ مشرك.

وهذا لفظ البخارى فى كتاب «الجهاد»^(٥).

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن ابن المسيب، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، فى قوله: «براءة من الله ورسوله» قال: لما كان النبي ﷺ زمن حنين، اعتمر من الجعرانة، ثم أمر أبا بكر على تلك الحجة - قال معمر: قال الزهري: وكان أبو هريرة يحدث أن أبا بكر أمر أبا هريرة أن يؤذن ببراءة فى حجة أبى بكر^(٦). قال أبو هريرة: ثم أتبعنا النبي ﷺ علياً، وأمره أن يؤذن ببراءة، وأبو بكر على الموسم كما هو، أو قال: على هيئته^(٧).

وهذا السياق فيه غرابة، من جهة أن أمير^(٨) الحج كان سنة عمرة الجعرانة إنما هو عتاب بن أسيد، فأما أبو بكر إنما كان أميراً سنة تسع.

وقال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن مغيرة، عن الشعبي، عن مُحَرَّر بن أبى هريرة، عن أبيه قال: كنت مع على بن أبى طالب، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة بـ«براءة»، فقال: ما كنتم تنادون؟ قال: كنا ننادى: ألا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله^(٩) - أو أمده - إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله برىء من المشركين ورسوله، ولا يحج هذا البيت بعد العام مشرك. قال: فكنت^(١٠) أنادى حتى صَحَل صوتى^(١١).

(٢) فى ك، أ: «يطوفن».

(١) فى ك: «بعثهم فى يوم».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٥٥).

(٤) فى أ: «ولا يطوفن».

(٥) صحيح البخارى برقم (٣١٧٧).

(٦) فى أ: «فى حجة أبى بكر بمكة».

(٧) الذى فى تفسير عبد الرزاق هو ما جاء فى الصحيح ولعله رواه فى المصنف.

(٨) فى ت: «أمر».

(٩) فى أ: «فأجله».

(١٠) فى ت: «وكننت».

(١١) المسند (٢/٢٩٩).

وقال الشعبي: حدثني مُحَرَّر بن أبي هريرة، عن أبيه قال: كنت مع ابن أبي طالب^(١)، رضى الله عنه، حين بعثه رسول الله ﷺ ينادى، فكان إذا صَحَلَ ناديتُ. قلت: بأى شيء كنتم تنادون؟ قال: بأربع: لا يطوف^(٢) بالكعبة عريان، ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهدُه إلى مدته، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يحج بعد عامنا مشرك.

رواه ابن جرير من غير ما وجه، عن الشعبي. ورواه شعبة، عن مغيرة، عن الشعبي، به إلا أنه قال: ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فعهدُه إلى أربعة أشهر. وذكر تمام الحديث^(٣) ^(٤).

قال ابن جرير: وأخشى أن يكون وهما من بعض نقلته؛ لأن الأخبار متظاهرة فى الأجل بخلافه^(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن سماك، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ بعث بـ «براءة» مع أبى بكر، فلما بلغ ذا الحليفة قال: «لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي». فبعث بها مع على بن أبى طالب، رضى الله عنه^(٦).

ورواه الترمذى فى التفسير، عن بُنْدَار، عن عفان وعبد الصمد، كلاهما عن حماد بن سلمة به^(٧)، ثم قال: حسن غريب من حديث أنس، رضى الله عنه.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: حدثنا محمد بن سليمان - لُوَيْن^(٨) - حدثنا محمد بن جابر، عن سماك، عن حنّش، عن على، رضى الله عنه، قال: لما نزلت عشر آيات من «براءة» على النبى ﷺ، دعا النبى ﷺ أبابكر، فبعثه بها ليقراها على أهل مكة، ثم دعانى فقال^(٩): «أدرك أبابكر، فحيثما لحقته فخذ الكتاب منه، فاذهب إلى أهل مكة فاقرأه عليهم». فلحقته بالجحفة، فأخذت الكتاب منه، ورجع أبو بكر إلى النبى ﷺ، فقال: يا رسول الله، نزل فى شيء؟ فقال: «لا، ولكن جبريل جاءنى فقال: لن يؤدى عنك إلا أنت أو رجل منك»^(١٠).

هذا إسناد فيه ضعف.

وليس المراد أن أبابكر، رضى الله عنه، رجع من فوره، بل بعد قضائه المناسك التى أمره عليها رسول الله ﷺ، كما جاء مبينا فى الرواية الأخرى.

وقال عبد الله أيضا: حدثني أبو بكر، حدثنا عمرو بن حماد، عن أسباط بن نصر، عن سماك،

(٣) فى ت: «تمامه».

(٢) فى أ: «لا يطف».

(١) فى ت، أ: «كنت مع على».

(٤) تفسير الطبرى (١٤/١٠٣ - ١٠٥).

(٥) تفسير الطبرى (١٤/١٠٥).

(٦) المسند (٣/٢٨٣).

(٧) سنن الترمذى برقم (٣٠٩٠).

(٨) فى ك: «ابن لوين».

(٩) فى ت: «فقلت».

(١٠) زوائد المسند (١/١٥١).

عن حنشل، عن علي، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ حين بعثه بـ «براءة» قال: يا نبي الله، إني لست باللسن ولا بالخطيب، . قال: «ما بدُّ لى أن أذهب بها أنا أو تذهب بها أنت». قال: فإن كان ولا بدَّ فسأذهب أنا. قال: «انطلق»^(١)، فإن الله يثبت لسانك ويهدي قلبك». قال: ثم وضع يده على فيه^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن زيد بن يثيع - رجل من همدان - : سألنا عليا: بأى شيء بُعثت؟ يعنى: يوم بعثه النبي ﷺ مع أبي بكر فى الحجة، قال: بعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فعهد^(٣) إلى مدته، ولا يحج المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا.

ورواه الترمذى عن قلابة، عن سفيان بن عيينة، به^(٤)، وقال: حسن صحيح.

كذا قال، ورواه شعبة، عن أبي إسحاق فقال: عن زيد بن يثيع^(٥)، وهم فيه. ورواه الثورى، عن أبي إسحاق، عن بعض أصحابه، عن علي، رضى الله عنه.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو أسامة، عن زكريا، عن أبي إسحاق، عن زيد بن يثيع، عن علي قال: بعثنى رسول الله ﷺ حين أنزلت «براءة» بأربع: ألا يطوف بالبيت عريان، ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامهم هذا، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة^(٦).

ثم رواه ابن جرير، عن محمد بن عبد الأعلى، عن أبي ثور، عن معمر، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي قال: أمرت بأربع. فذكره^(٧).

وقال إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن زيد بن يثيع قال: نزلت براءة فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر، ثم أرسل عليا، فأخذها منه، فلما رجع أبو بكر قال: نزل^(٨) فى شيء؟ قال: «لا»، ولكن أمرت أن أبلغها أنا أو رجل من أهل بيتي». فانطلق إلى أهل مكة، فقام فيهم بأربع: لا يدخل مكة مشرك بعد عامه هذا، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فعهد إلى مدته^(٩) (١٠).

(١) فى أ: «فانطلق».

(٢) زوائد المسند (١/ ١٥٠) وفى إسناده أسباط بن نصر وحنشل بن المعتمر متكلم فيهما.

(٣) فى د: «فعهده».

(٤) المسند (١/ ٧٩) وسنن الترمذى برقم (٣٠٩٢).

(٥) فى أ: «أثيل».

(٦) تفسير الطبرى (١٤/ ١٠٦).

(٧) تفسير الطبرى (١٤/ ١٠٥).

(٨) فى ت: «هل نزل».

(٩) فى ك: «إلى مدته هنا».

(١٠) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/ ١٠٧) من طريق إسرائيل به.

وقال محمد بن إسحاق، عن حكيم^(١) بن حكيم بن عباد بن حنيفة، عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي قال: لما نزلت «براءة» على رسول الله ﷺ، وقد كان^(٢) بعث أبا بكر ليقيم الحج للناس، فقليل: يا رسول الله، لو بعثت إلى أبي بكر. فقال: «لا يؤدي عنى إلا رجل من أهل بيتي». ثم دعا عليا فقال: «اخرج بهذه القصة^(٣) من صدر براءة، وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى: أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطُف^(٤) بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فعهد إلى مدته». فخرج علي^(٥)، رضى الله عنه، على ناقة رسول الله ﷺ العضاء، حتى أدرك أبا بكر في الطريق^(٦)، فلما رآه أبو بكر قال: أمير أو مأمور؟ قال^(٧): بل مأمور، ثم مضيا^(٨)، فأقام أبو بكر للناس الحج، [والعرب]^(٩) إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية حتى إذا كان يوم النحر، قام علي بن أبي طالب فأذن في الناس بالذي أمره رسول الله ﷺ، فقال: يا أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام، ولا يطُف^(١٠) بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مدته. فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان، ثم قدما على رسول الله ﷺ. فكان هذا من «براءة» فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام، وأهل المدة إلى الأجل المسمى.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أخبرنا أبو زرعة وهب الله بن راشد، أخبرنا حيوة بن شريح: أخبرنا أبو^(١١) صخر: أنه سمع أبا معاوية البجلي من أهل الكوفة يقول: سمعت أبا الصهباء البكري وهو يقول: سألت علي بن أبي طالب^(١٢) عن «يوم الحج الأكبر» فقال: إن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر بن أبي قُحافة يقيم للناس الحج، وبعثنى معه بأربعين آية من «براءة»، حتى أتى عرفة فخطب الناس يوم عرفة، فلما قضى خطبته التفت إلى فقال: قم، يا علي، فأد رسالة رسول الله ﷺ، فقامت فقرأت عليهم أربعين آية من «براءة»، ثم صَدَرْنَا فَأَتَيْنَا مِنِّي، فرميت الجمرة ونحرت البدنة، ثم حلقت رأسي، وعلمت أن أهل الجمع لم يكونوا حضروا كلهم خطبة أبي بكر يوم عرفة، فطفت أتتبع بها الفساطيط أقرؤها عليهم، فمن ثم إخال حسبت أنه يوم النحر [ألا وهو يوم النحر]^(١٣)، ألا وهو^(١٤) يوم عرفة^(١٥).

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن أبي إسحاق: سألت أبا جُحيفة عن يوم الحج الأكبر، قال:

(١) في ك: «حكيم». (٢) في ت: «وكان قد». (٣) في ت: «اخرج من هذه القصة».

(٤) في د، ك: «يطوف». (٥) في ت: «علي بن أبي طالب». (٦) في ت: «بالطريق».

(٧) في ت: «فقال». (٨) في أ: «مضيا». (٩) زيادة من الطبري.

(١٠) في ك: «يطوف». (١١) في أ: «ابن». (١٢) في د: «سألت علياً».

(١٣) زيادة من د. (١٤) في ك: «أهو».

(١٥) تفسير الطبري (١١٣/١٤).

يوم عرفة. فقلت: أَمِنْ عندك أم من أصحاب محمد ﷺ؟ قال: كل في ذلك^(١).

وقال عبد الرزاق أيضا، عن جُرَيْج، عن عطاء قال: يوم الحج الأكبر، يوم عرفة.

وقال عُمَرُ بن الوليد الشَّيْ: حدثنا شهاب بن عباد العَصْرِيّ، عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: هذا يوم عرفة، هذا يوم الحج الأكبر، فلا يصومنه أحد. قال: فحججت بعد أبي فأتيت المدينة، فسألت عن أفضل أهلها، فقالوا: سعيد بن المسيب، فأتيته فقلت: إني سألت عن أفضل أهل المدينة فقالوا: سعيد بن المسيب، فأخبرني عن صوم يوم عرفة؟ فقال: أخبرك عمن هو أفضل مني مائة ضعف عمر - أو: ابن عمر - كان ينهى عن صومه، ويقول^(٢): هو يوم الحج الأكبر. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم^(٣)، وهكذا روى عن ابن عباس، وعبد الله بن الزبير، ومجاهد، وعكرمة، وطاوس: أنهم قالوا: يوم عرفة هو يوم الحج الأكبر.

وقد ورد فيه حديث مرسل رواه ابن جُرَيْج: أخبرت عن محمد بن قيس بن مَخْرَمَةَ أن رسول الله ﷺ خطب يوم عرفة، فقال: «هذا يوم الحج الأكبر»^(٤).

وروى من وجه آخر عن ابن جريج، عن محمد بن قيس، عن المسور بن مخرمة، عن رسول الله ﷺ، أنه خطبهم بعرفات فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإن هذا يوم الحج الأكبر».

والقول الثاني: أنه يوم النحر.

قال هُشَيْم، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، عن علي، رضى الله عنه، قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر.

وقال أبو إسحاق السَّبَّيْ، عن الحارث الأعور، سألت عليا، رضى الله عنه، عن يوم الحج الأكبر، فقال: [هو]^(٥) يوم النحر.

وقال شعبة، عن الحكم: سمعت يحيى بن الجزار يحدث عن علي، رضى الله عنه، أنه خرج يوم النحر على بغلة بيضاء يريد الجبانة، فجاء رجل فأخذ بلبجام دابته، فسأله عن الحج الأكبر، فقال: هو يومك هذا، خل سبيلها.

وقال عبد الرزاق، عن سفيان وشعبة^(٦)، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الله بن أبي أوفى أنه قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر.

(١) تفسير عبد الرزاق (١/٢٤١).

(٢) في أ: «وهو يقول».

(٣) تفسير الطبري (١٤/١١٤).

(٤) تفسير الطبري (١٤/١١٦).

(٥) زيادة من ت. (٦) في د: «عن شعبة».

وروى شعبة وغيره، عن عبد الملك بن عمير، به نحوه. وهكذا ^(١) رواه هشيم وغيره، عن الشيباني عن عبد الله بن أبي أوفى.

وقال الأعمش، عن عبد الله بن سنان قال: خطبنا المغيرة بن شعبة يوم الأضحى على بغير فقال: هذا يوم الأضحى، وهذا يوم النحر، وهذا يوم الحج الأكبر.

وقال حماد بن سلمة، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: الحج الأكبر، يوم النحر.

وكذا روى عن أبي جُحَيْفَةَ، وسعيد بن جُبَيْر، وعبد الله بن شداد بن الهاد، ونافع بن جبير بن مطعم، والشعبي، وإبراهيم النَّخَعِي، ومجاهد، وعكرمة، وأبي جعفر الباقر، والزهرى، وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم أنهم قالوا: يوم الحج الأكبر هو يوم النحر. واختاره ابن جرير. وقد تقدم الحديث عن أبي هريرة فى صحيح البخارى: أن أبا بكر بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى، وقد ورد فى ذلك أحاديث أخر، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنى سهل بن محمد السجستاني، حدثنا أبو جابر الحرمي، حدثنا هشام بن الغاز الجُرَشِي - عن نافع، عن ابن عمر قال: وقف رسول الله ﷺ يوم النحر عند الجمرات فى حجة الوداع، فقال: «هذا يوم الحج الأكبر» ^(٢).

وهكذا رواه ابن أبي حاتم، وابن مردويه من حديث أبي جابر - واسمه محمد بن عبد الملك، به، ورواه ابن مردويه أيضاً من حديث الوليد بن مسلم، عن هشام بن الغاز، به. ثم رواه من حديث سعيد بن عبد العزيز، عن نافع، به.

وقال شعبة، عن عمرو بن مُرَّة عن مرة الهَمْدَانِي، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قام فىنا رسول الله ﷺ على ناقه حمراء مخضمة، فقال: «أتدرون أى يوم يومكم هذا؟» قالوا: يوم النحر. قال: «صدقتم، يوم الحج الأكبر» ^(٣).

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن المقدام، حدثنا يزيد بن زُرَيْع، حدثنا ابن عون، عن محمد بن سيرين، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه قال: لما كان ذلك اليوم، قعد رسول الله ﷺ على بغير له، وأخذ الناس بخطامه - أو: زمامه - فقال: «أى يوم هذا؟» قال: فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه، فقال: «أليس هذا يوم الحج الأكبر» ^(٤).

وهذا إسناد صحيح، وأصله مخرج فى الصحيح.

وقال أبو الأحوص، عن شَيْبِ بْنِ غَرْقَدَةَ، عن سليمان بن عمرو بن الأحوص، عن أبيه قال:

(١) فى ت، ك: «وكذا».

(٢) تفسير الطبرى (١٤/١٢٤).

(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/١٢٥).

(٤) تفسير الطبرى (١٤/١٢٣) وأصله فى صحيح البخارى برقم (٤٤٠٦) وصحيح مسلم برقم (١٦٧٩).

سمعت رسول الله ﷺ في حجة الوداع، فقال: «أى يوم هذا؟» فقالوا: اليوم الحج الأكبر^(١).

وعن سعيد بن المسيب أنه قال: يوم الحج الأكبر اليوم الثانى من يوم النحر. رواه ابن أبى حاتم.

وقال مجاهد أيضاً: يوم الحج الأكبر أيام الحج كلها.

وكذا قال أبو عبيد، قال سفيان: «يوم الحج»، و«يوم الجمل»، و«يوم صفين» أى: أيامه كلها.

وقال سهل السراج: سئل الحسن البصرى عن يوم الحج الأكبر، فقال: ما لكم وللحج الأكبر،

ذاك عام حج فيه أبو بكر، الذى استخلفه رسول الله ﷺ فحج بالناس. رواه ابن أبى حاتم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو أسامة، عن ابن عون: سألت محمداً - يعنى ابن

سيرين - عن يوم الحج الأكبر فقال: كان يوماً وافق فيه حج رسول الله ﷺ حج أهل الوبير^(٢).

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا
إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤)﴾.

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر، لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت، فأجله، أربعة أشهر، يسبح فى الأرض، يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت، فأجله إلى مدته المضروبة التى عوهد عليها، وقد تقدمت الأحاديث: «ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهدته إلى مدته» وذلك بشرط ألا ينقض المعاهد عهده، ولم يظاهر على المسلمين أحداً، أى: يمالئ عليهم من سواهم، فهذا الذى يوفى له بدمته وعهده^(٣) إلى مدته؛ ولهذا حرص^(٤) الله تعالى على الوفاء بذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أى: الموفين بعهدهم.

﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصِرُوهُمْ
وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ (٥)﴾.

اختلف المفسرون فى المراد بالأشهر الحرم هاهنا، ما هى؟ فذهب ابن جرير إلى أنها [الأربعة]^(٥) المذكورة فى قوله تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية [التوبة: ٣٦]، قاله أبو جعفر الباقر. لكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم فى حقهم المحرم وهذا الذى ذهب إليه حكاه على بن أبى طلحة عن ابن عباس، وإليه ذهب الضحاك أيضاً، وفيه نظر،

(١) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢١٥٩) عن هناد عن أبى الأحوص به بأطول منه، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) تفسير الطبرى (١٤/١٢١).

(٣) فى ت: «بعهدته وذمته».

(٤) فى ت: «فرض».

(٥) زيادة من ت، أ.

والذى يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس فى رواية العوفى عنه، وبه قال مجاهد، وعمرو ابن شبيب، ومحمد بن إسحاق، وقتادة، والسدى، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها فى قوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢]، ثم قال: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ أى: إذا انقضت الأشهر الأربعة التى حرمتنا عليكم فيها قتالهم، وأجلناهم فيها، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم؛ لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر؛ ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتى بيان حكمها فى آية أخرى بعد فى هذه السورة الكريمة.

وقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أى: من الأرض. وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال فى الحرم بقوله: ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١].

وقوله: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أى: وأسروهم، إن شئتم قتلا، وإن شئتم أسرا.

وقوله: ﴿وَاحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ أى: لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدهم بالحصار فى معاقلهم وحصونهم، والرصد فى طرقتهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع، وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ولهذا اعتمد الصديق، رضى الله عنه، فى قتال مانعى الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال، وهى الدخول فى الإسلام، والقيام بأداء واجباته. ونبه بأعلاها على أدناها، فإن أشرف الأركان بعد الشهادة الصلاة، التى هى حق الله، عز وجل، وبعدها أداء الزكاة التى هى نفع متعدد إلى الفقراء والمحاويج، وهى أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين؛ ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة، وقد جاء فى الصحيحين^(١)، عن ابن عمر، رضى الله عنهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا^(٢) أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة» الحديث.

وقال أبو إسحاق، عن أبى عبيدة، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، قال: أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ومن لم يترك فلا صلاة له.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة، وقال: يرحم الله أبا بكر، ما كان أفقهه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا على بن إسحاق، أنبأنا عبد الله بن المبارك، أنبأنا حميد الطويل، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً

(٢) فى ت: «يقولوا».

(١) فى ت، أ: «الصحيح».

رسول الله، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، واستقبلوا قبلتنا، وأكلوا ذبيحتنا، وصلوا صلاتنا، فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم».

ورواه البخارى فى صحيحه وأهل السنن إلا ابن ماجه، من حديث عبد الله بن المبارك، به (١).

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا عبد الأعلى بن واصل الأسدى، حدثنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس [عن أنس] (٢) قال: قال رسول الله ﷺ: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده، وعبادته لا يشرك به شيئاً، فارقها والله عنه راض» - قال: وقال أنس: هو دين الله الذى جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم، قبل هرج الأحاديث، واختلاف الأهواء، وتصديق ذلك فى كتاب الله فى آخر ما أنزل، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ - قال: توبتهم خلع الأوثان، وعبادة ربهم، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ثم قال فى آية أخرى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ (٣) [التوبة: ١١].

ورواه ابن مردويه.

ورواه محمد بن نصر المروزى فى كتاب «الصلاة» له: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أنبأنا حكام بن سلم (٤)، حدثنا أبو جعفر الرازى، به سواء (٥).

وهذه الآية الكريمة هى آية السيف التى قال فيها الضحاك بن مزاحم: إنها نسخت كل عهد بين النبى ﷺ وبين أحد من المشركين، وكل عهد، وكل مدة.

وقال العوفى، عن ابن عباس فى هذه الآية: لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة، منذ نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم، ومدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل (٧) أربعة أشهر، من يوم أذن ببراءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى الآية، قال: أمره الله تعالى أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا فى الإسلام، ونقض ما كان سمى لهم من العهد والميثاق، وأذهب الشرط الأول.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا إسحاق بن موسى الأنصارى قال: قال سفيان (٨): قال

(١) المسند (١٩٩/٣) وصحيح البخارى برقم (٣٩٢) وسنن أبى داود برقم (٢٦٤١) وسنن الترمذى برقم (٢٦٠٨) وسنن النسائى (١٠٩/٨).

(٢) زيادة من ت، أ، والطبرى.

(٣) تفسير الطبرى (١٣٥/١٤) ورواه ابن ماجه فى السنن برقم (٧٠) من طريق عبيد الله بن موسى بنحوه، وقال البوصيرى فى الزوائد (٥٦/١): «هذا إسناد ضعيف، الربيع بن أنس ضعيف هنا».

(٤) فى ك: «سلمة».

(٥) تعظيم قدر الصلاة برقم (١).

(٦) فى أ: «رسول الله». (٧) فى ت، ك، أ: «تنزل براءة». (٨) فى ت، ك، أ: «سفيان بن عيينة».

على بن أبى طالب: بعث النبي ﷺ بأربعة أسياف: سيف فى المشركين من العرب^(١)، قال الله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ﴾^(٢).

هكذا رواه مختصراً، وأظن أن السيف الثانى هو قتال أهل الكتاب فى قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، والسيف الثالث: قتال المنافقين فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [وَاعْلِظْ عَلَيْهِمْ]^(٣) [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩]، والرابع: قتال الباغيين فى قوله: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَاقْتُلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

ثم اختلف المفسرون فى آية السيف هذه، فقال الضحاك والسدى: هى منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد: ٤]، وقال قتادة بالعكس.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٦).

يقول تعالى لنبىه، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ أَمَرْتُ بِقَتَالِهِمْ، وَأَحَلَلْتُ لَكَ اسْتِبَاحَةَ نَفْسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ أَى: استأمنك، فأجبه إلى طلبته ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ أَى: [القرآن]^(٤) تقرأه عليه وتذكر له شيئاً من [أمر]^(٥) الدين تقيم عليه به حجة الله، ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ أَى: وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَى: إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله، وتنتشر دعوة الله فى عباده.

وقال ابن أبى نجیح، عن مجاهد، فى تفسير هذه الآية، قال: إنسان يأتىك يسمع ما تقول وما أنزل عليك، فهو آمن حتى يأتىك فيسمع كلام الله، وحتى يبلغ مأمنه، حيث جاء.

ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطى الأمان لمن جاءه، مسترشداً أو فى رسالة، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم: عروة بن مسعود، ومكرز بن حفص، وسهيل بن عمرو، وغيرهم واحداً بعد واحد، يترددون فى القضية بينه وبين المشركين، فأرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم.

(١) فى ت، د: «سيف فى المشركين وسيف فى العرب».

(٢، ٣) زيادة من أ.

(٤، ٥) زيادة من ت، د، ك، أ.

ولهذا أيضاً لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له: «أتشهد^(١) أن مسيلمة رسول الله؟» قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: «لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقك^(٢)». وقد قبض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة، وكان يقال له: ابن النواحة، ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له: إنك الآن لست في رسالة، وأمر به فضربت عنقه، لا رحمه الله ولعنه.

والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة، أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية، أو نحو ذلك من الأسباب، فطلب من الإمام أو نائبه أماناً، أعطى أماناً ما دام متردداً في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه. لكن قال العلماء: لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك فيما^(٣) زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان، عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء، رحمهم الله.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧)﴾.

يبين تعالى^(٤) حكمته في البراءة من المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ثقفوا، فقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ وأمان ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون^(٥) به وبرسوله، ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، يعني يوم الحديبية، كما قال تعالى: ﴿هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلُّهُ﴾ الآية [الفتح: ٢٥]، ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أي: مهما^(٦) تمسكوا بما عاهدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾، وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذى القعدة في سنة ست، إلى أن نقضت قريش العهد ومالؤوا حلفاءهم بنى بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، فقتلوهم معهم في الحرم أيضاً، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان، ففتح الله عليه البلد الحرام، ومكنه من نواصيهم، والله الحمد والمنة، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم، فسموا الطلقاء، وكانوا قريباً من ألفين، ومن استمر على كفره وفر من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر، يذهب حيث شاء: منهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلا الإسلام التام، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله.

(١) في ك: «أما تشهد».

(٢) رواه أحمد في المسند (٤٨٧/٣) وأبو داود في السنن برقم (٢٧٦١) من طريق سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق عن سعد بن طارق عن سلمة بن نعيم عن أبيه قال: كنت عند النبي ﷺ حين جاءه رسل مسيلمة، فذكر نحوه.

(٣) في ت: «ما».

(٤) في ت: «يبين تعالى أن».

(٥) في د: «فهم».

(٦) في ت، ك: «كافرين» وهو خطأ.

﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٨).

يقول تعالى محرضاً للمؤمنين على معاداة المشركين والتبري منهم، ومبيناً أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله وكفرهم برسول الله^(١)، ولو أنهم إذ ظهروا^(٢) على المسلمين وأدبلوا عليهم، لم يبقوا ولم يذروا، ولا راقبوا فيهم إلا ولا ذمة.

قال على بن أبي طلحة، وعكرمة، والعمري عن ابن عباس: «الإل»: القرابة، «والذمة»: العهد. وكذا قال الضحاك والسدي، كما قال تميم بن مقبل:

أفسد الناس خلوف خلفوا قطعوا الإل وأعراق الرحم^(٣)

وقال حسان بن ثابت، رضى الله عنه:

وجدناهم كاذباً إلههم وذو الإل والعهد لا يكذب^(٤)

وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: «لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا» قال: الله. وفي رواية: لا يرقبون الله ولا غيره.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن علية، عن سليمان، عن أبي مجلز في قوله تعالى: «لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً»: مثل قوله: «جبرائيل»، «ميكائيل»، «إسرافيل»، [كأنه يقول: يضيف «جبر»، و«ميك»، و«إسراف»، إلى «إيل»، يقول عبد الله: «لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا»]^(٥) كأنه يقول: لا يرقبون الله.

والقول الأول أشهر وأظهر، وعليه الأكثر.

وعن مجاهد أيضاً: «الإل»: العهد. وقال قتادة: «الإل»: الحلف.

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ

(١) في د: «برسوله ﷺ».

(٢) في ت: «ظاهروا».

(٣) البيت في تفسير الطبري (١٤٨/١٤).

(٤) قال المعلق على طبعة الشعب: هكذا نُسب ابن كثير إلى حسان بن ثابت، ولم نجد في ديوانه. والبيت في تفسير الطبري غير منسوب ١٤٨/١٥ وأما بيت حسان الذي استشهد به الطبري فهو:

لعمرك إن إلك من قریش كإل الشعب من رأل النعام

وهذا البيت في ديوان حسان ص ٣٣٦، واللسان، مادة «أل».

(٥) زيادة من الطبري (١٤٦/١٤).

فَإِخْرَأْكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفْصِلِ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ .

يقول تعالى ذما للمشركين وحثا للمؤمنين على قتالهم: ﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ يعنى: أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة، ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أى: منعوا المؤمنين من اتباع الحق، ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ تقدم تفسيره، وكذا الآية التى بعدها: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ إلى آخرها، تقدمت.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا يحيى بن أبى بكر، حدثنا أبو جعفر الرازى، حدثنا الربيع بن أنس قال: سمعت أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته، لا يشرك^(١) به، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، فارقها والله عنه راض، وهو دين الله الذى جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم، قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء». وتصديق ذلك فى كتاب الله: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ يقول: فإن خلعوا الأوثان وعبادتها ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، وقال فى آية أخرى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْرَأْكُمْ فِي الدِّينِ﴾.

ثم قال البزار: آخر الحديث عندى والله أعلم: «فارقها وهو عنه راض»، وباقيه عندى من كلام الربيع بن أنس^(٢).

﴿وَأِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ .

يقول تعالى: وإن نكث هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة أيمانهم، أى: عهودهم ومواثيقهم، ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أى: عابوه وانتقصوه. ومن هاهنا أخذ قتل من سب الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، أو من طعن فى دين الإسلام أو ذكره بتقص؛ ولهذا قال: ﴿فَقَاتِلُوا أَتِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ أى: يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال.

وقد قال قتادة وغيره: أئمة الكفر كأبى جهل، وعتبة، وشيبة، وأمىة بن خلف، وعدد رجالا.

وعن مصعب بن سعد بن أبى وقاص قال: مر سعد برجل من الخوارج، فقال الخارجى: هذا من أئمة الكفر. فقال سعد: كذبت، بل أنا قاتلت أئمة الكفر. رواه ابن مردويه.

وقال الأعمش، عن زيد بن وهب، عن حذيفة أنه قال: ما قوتل أهل هذه الآية بعد.

(١) فى ت، ك: «لا شريك».

(٢) ورواه الحاكم فى المستدرک (٣٣١/٢) من طريق أحمد بن مهران عن عبيد الله بن موسى بنحوه، ولم يفرق بين المرفوع والموقوف، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد» وتعقبه الذهبى قلت: «صدر الحديث مرفوع وسائره مدرج فيما أرى».

وروى عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، مثله.

والصحيح أن الآية عامة، وإن كان سبب نزولها مشركى قريش فهي عامة لهم ولغيرهم، والله أعلم.

وقال الوليد بن مسلم: حدثنا صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفيير: أنه كان فى عهد أبى بكر، رضى الله عنه، إلى الناس حين وجههم إلى الشام، قال: إنكم ستجدون قوما مُحَوَّقة رؤوسهم، فاضربوا معاهد الشيطان منهم بالسيوف، فوالله لأن أقتل رجلا منهم أحب إلى من أن أقتل سبعين من غيرهم، وذلك بأن الله يقول: ﴿فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ﴾ رواه ابن أبى حاتم.

﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيَذْهَبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥)﴾.

وهذا أيضا تهيج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين لأيمانهم، الذين هموا بإخراج الرسول من مكة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي] (١) الآية [المتحنة: ١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦].

وقوله: ﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: قيل: المراد بذلك يوم بدر، حين خرجوا لنصر غيرهم (٢)، فلما نجت وعلموا بذلك استمروا على وجوههم (٣) طلبا للقتال، بغيا وتكبرا، كما تقدم بسط ذلك.

وقيل: المراد نقضهم العهد وقتالهم (٤) مع حلفائهم بنى بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، حتى (٥) سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح، وكان ما كان، والله الحمد.

وقوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ (٦) فالله أحق أن تخشوه إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ: يقول تعالى: لا تخشوهم واخشون، فأنا أهل أن يخشى العباد من سطوتى وعقوبتى، فبيدى الأمر، وما شئت كان، وما لم أشأ لم يكن.

(٣) فى ت، ك: «وجههم».

(٦) فى ك: «أتخشوهم» وهو خطأ.

(٢) فى د: «خرجوا لغيرهم».

(٥) فى ت: «حين».

(١) زيادة من أ.

(٤) فى ت: «بقتالهم».

ثم قال تعالى عزيمة على المؤمنين، وبياناً لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ وهذا عام في المؤمنين كلهم.

وقال مجاهد، وعكرمة، والسدي في هذه الآية: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني: خزاعة. وأعاد^(١) الضمير في قوله: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ عليهم أيضاً.

وقد ذكر ابن عساكر في ترجمة مؤذن لعمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه، عن مسلم بن يسار، عن عائشة، رضى الله عنها، أن رسول الله ﷺ كان إذا غضبت أخذ بأنفها، وقال: «يا عويش، قولى: اللهم، رب النبي محمد^(٢)، اغفر ذنبى، وأذهب غيظ قلبى، وأجرنى من مضلات الفتن».

ساقه من طريق أبى أحمد الحاكم، عن الباغندي، عن هشام بن عمار، حدثنا عبد الرحمن بن أبى الجون، عنه^(٣).

﴿وَيُتَوَّبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أى: من عباده، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أى: بما يصلح عباده، ﴿حَكِيمٌ﴾ فى أفعاله وأقواله الكونية والشرعية، فيفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وهو العادل الحاكم الذى لا يجوز أبداً، ولا يضيع مثقال ذرة من خير وشر، بل يجازى عليه فى الدنيا والآخرة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٦).

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أيها المؤمنون أن نترككم مهملين، لا نختبركم بأمر يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب؟ ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾ أى: بطانة ودخيلة^(٤)، بل هم فى الظاهر والباطن على النصيح لله ولرسوله، فاكتفى بأحد القسمين عن الآخر، كما قال الشاعر:

وما أدرى إذا يمت أرضاً أريد الخير أيهما يلينى

وقد قال الله تعالى فى الآية الأخرى: ﴿[الْم]﴾^(٥). أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ [العنكبوت: ١-٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]،

(١) فى ت، د، ك: «وأعادوا».

(٢) فى ك: «محمد».

(٣) تاريخ دمشق (٣٣٥/١٩) «المخطوط» ورواه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة من طريق أبى العميس عن القاسم بن محمد بن أبى بكر عن عائشة ومن طريق سلمة بن على عن هشام بن عروة عن عائشة.

(٤) فى ت: «دخلة».

(٥) زيادة من ت، أ.

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

والحاصل أنه تعالى لما شرع الجهاد لعباده، بين أن له فيه حكمة، وهو اختبار ^(١) عبده: من يطيعه ممن يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؟ فيعلم الشيء قبل كونه، ومع كونه على ما هو عليه، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، ولا راد لما قدره وأمضاه.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨) .

يقول تعالى: ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمرُوا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له. ومن قرأ: «مسجد الله» فأراد به المسجد الحرام، أشرف المساجد في الأرض، الذي بنى من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له. وأسس خلیل الرحمن هذا، وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر، أى: بحالهم وقالهم، كما قال السدّي: لو سألت النصراني: ما دينك؟ لقال: نصراني، واليهودي: ما دينك؟ لقال يهودي، والصابئي، لقال: صابئي، والمشرک، لقال: مشرك.

﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أى: بشركهم، ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَٰءُ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، فشهد تعالى بالإيمان لعمار المساجد، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا سريج ^(٢)، حدثنا ابن وهب، عن عمرو بن الحارث؛ أن دراجاً أبا السمع حدثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد ^(٣)، فاشهدوا له بالإيمان؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾».

ورواه الترمذی، وابن مردويه، والحاكم فى مستدرکه من حديث عبد الله بن وهب، به ^(٤).

وقال ^(٥) عبد بن حميد فى مسنده: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا صالح المري، عن ثابت البناني، عن ميمون بن سياه، وجعفر بن زيد، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا عَمَّارُ الْمَسَاجِدِ هُمُ أَهْلُ اللَّهِ» ^(٦).

(١) فى ت، ك: «إخبار». (٢) فى ك، أ: «شرح».

(٣) فى ت، أ: «المساجد».

(٤) المسند (٦٨/٣) وسنن الترمذى برقم (٣٠٩٣) والمستدرک (٣٣٢/٢) ودراج عن أبى الهيثم ضعيف.

(٥) فى د: «وروى».

(٦) فى صالح المري وهو ضعيف، وقد اختلف عليه فيه كما سيأتى فى رواية البزار.

ورواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عبد الواحد بن غياث، عن صالح بن بشير المري، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما^(١) عمار المساجد هم أهل الله» ثم قال: لا نعلم رواه عن ثابت غير صالح^(٢).

وقد روى الدارقطني في الأفراد من طريق حكامه بنت عثمان بن دينار، عن أبيها، عن أخيه مالك بن دينار، عن أنس مرفوعاً: «إذا أراد الله بقوم عاهة، نظر إلى أهل المساجد، فصرف عنهم». ثم قال: غريب^(٣).

وروى الحافظ البهاء في المستقصى، عن أبيه بسنده إلى أبي أمية الطرسوسي: حدثنا منصور بن صقير، حدثنا صالح المري، عن ثابت، عن أنس مرفوعاً: «يقول الله: وعزتي وجلالي، إني لأهم بأهل الأرض عذاباً، فإذا نظرت إلى عمار بيوتى وإلى المتحابين فى، وإلى المستغفرين بالأسحار، صرفت ذلك عنهم». ثم قال ابن عساكر: حديث غريب^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا سعيد، عن قتادة، حدثنا العلاء بن زياد، عن معاذ بن جبل؛ أن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان ذئب الإنسان، كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية، فإياكم والشعاب، وعليكم بالجماعة والعمامة والمسجد»^(٥).

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون الأودي قال: أدركت أصحاب النبي ﷺ وهم يقولون: إن المساجد بيوت الله فى الأرض، وإنه حق على الله أن يكرم من زاره فيها^(٦).

وقال المسعودى، عن حبيب بن أبى ثابت وعدى بن ثابت، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: من سمع النداء بالصلاة ثم لم يجب ويأتى المسجد ويصلى، فلا صلاة له، وقد عصى الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية رواه ابن مردويه.

وقد روى مرفوعاً من وجه آخر، وله شواهد من وجوه آخر ليس هذا موضع بسطها.

(١) فى ت، ك، أ: «إن».

(٢) مسند البزار برقم (٤٣٣) «كشف الاستار» ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٦٦/٣) من طريق هاشم بن القاسم عن صالح المري به، وقال الهيثمى فى المجمع (٢٣/٢): «فيه صالح المري وهو ضعيف».

(٣) لم أعثر عليه فى الأطراف لابن القيسراني.

(٤) وفيه منصور بن صقير، قال أبو حاتم: ليس بالقوى. وقال العقيلي: فى حديثه بعض الوهم، ورواه ابن عدى فى الكامل (٦١/٤) من طريق سعيد بن أشعث عن صالح المري به نحوه، ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٩٠٥١) من طريق عبدان عن معاذ بن خالد بن شقيق عن صالح المري به نحوه، وصالح المري ضعيف.

(٥) المسند (٢٣٢/٥) وقال الهيثمى فى المجمع (٢٣/٢): «العلاء بن زياد لم يسمع من معاذ».

(٦) ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٩٠٥٢) من طريق أحمد بن منصور عن عبد الرزاق عن معمر عن رجل من قرش رفع الحديث، فذكر نحوه، وهو معضل.

وقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ أى: التى هى أكبر عبادات البدن، ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ أى: التى هى أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق، ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أى: ولم يخف إلا من الله تعالى، ولم يخش سواه، ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، يقول: من وحد الله، وآمن باليوم الآخر يقول: من آمن بما أنزل الله، ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ يعنى: الصلوات الخمس، ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ يقول: لم يعبد إلا الله - ثم قال: ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾^(١) ، يقول: إن أولئك هم المفلحون، كقوله لنبى ﷺ: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] يقول: إن ربك سيعثك مقاماً محموداً وهى الشفاعة، وكل «عسى» فى القرآن فهى واجبة.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار، رحمه الله: و«عسى» من الله حق.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)﴾ .

قال العوفى فى تفسيره، عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية، قال: إن المشركين قالوا: عمارة بيت الله، وقيام على السقاية، خير ممن آمن وجاهد، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماره، فذكر الله استكبارهم وإعراضهم، فقال لأهل الحرم من المشركين: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكُصُونَ. مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٦، ٦٧] يعنى: أنهم كانوا يستكبرون بالحرم قال: ﴿بِهِ سَامِرًا﴾، كانوا يسمرون به، ويهجرون القرآن والنبي ﷺ فخبر الله الإيمان والجهاد مع نبي الله ﷺ، على عمارة المشركين البيت وقيامهم على السقاية ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به أن كانوا يعمرن بيته ويخدمونه^(٢).

قال الله: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعنى: الذين زعموا أنهم أهل العمارة، فسامهم الله «ظالمين» بشركهم، فلم تغن عنهم العمارة شيئاً.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، فى تفسير هذه الآية، قال: نزلت فى العباس بن

(٢) فى أ: «ويحرمونه».

(١) زيادة من د.

عبد المطلب حين أسر يوم بدر^(١)، قال: لئن كنتم سبقتُمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونسقى [الحاج] ^(٢) ونفك العاني، قال الله عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعنى: أن ذلك كان فى الشرك، ولا أقبل ما كان فى الشرك.

وقال الضحاك بن مزاحم: أقبل المسلمون على العباس وأصحابه، الذين أسروا يوم بدر، يعيرونهم بالشرك، فقال العباس: أما والله لقد كنا نعمرُ المسجد الحرام، ونفك العاني، ونحجب البيت، ونسقى الحاج، فأنزل الله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ [وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ]﴾^(٣) الآية.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة، عن إسماعيل، عن الشعبى قال: نزلت فى على، والعباس، رضى الله عنهما، تكلمما فى ذلك.

وقال ابن جرير: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرت عن أبى صخر^(٤) قال: سمعت محمد ابن كعب القرظى يقول: افتخر طلحة بن شيبه من بنى عبد الدار، وعباس بن عبد المطلب، وعلى بن أبى طالب، فقال طلحة: أنا صاحب البيت، معى مفتاحه، ولو أشاء بت فيه. وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، ولو أشاء بت فى المسجد. فقال على، رضى الله عنه: ما أدرى ما تقولان، لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد، فأنزل الله، عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾؟ الآية كلها^(٥).

وهكذا قال السدى، إلا أنه قال: افتخر على، والعباس، وشيبه بن عثمان، وذكر نحوه.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن عمرو، عن الحسن قال: نزلت فى على، وعباس^(٦)، وعثمان، وشيبه، تكلموا فى ذلك، فقال العباس: ما أرانى إلا تارك سقائتنا. فقال رسول الله ﷺ: «أقيموا على سقائتكم، فإن لكم فيها خيراً»^(٧).

ورواه محمد بن ثور، عن معمر، عن الحسن فذكر نحوه.

وقد ورد فى تفسير هذه الآية حديث مرفوع، فلا بد من ذكره هاهنا، قال عبد الرزاق:

أخبرنا معمر، عن يحيى بن أبى كثير^(٨)، [عن رجل]^(٩) عن النعمان بن بشير، رضى الله عنه، أن رجلاً قال: ما أبالى ألا أعمل عملاً بعد الإسلام، إلا أن أسقى الحاج. وقال آخر: ما أبالى ألا أعمل بعد الإسلام، إلا أن أعمر المسجد الحرام. وقال آخر: الجهاد فى سبيل الله أفضل مما قلت.

(١) فى أ: «بعد بدر».

(٢) فى ت، ك، أ: «أخبرنا ابن وهب أخبرنى ابن لهيعة عن أبى صخر»

(٣) تفسير الطبرى (١٤/ ١٧١)

(٤) فى أ: «العباس».

(٥) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٤٣).

(٦) فى أ: «بكر».

(٧) زيادة من تفسير عبد الرزاق.

فزجرهم عمر، رضى الله عنه، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ - وذلك يوم الجمعة - ولكن إذا صلينا الجمعة دخلنا عليه. فنزلت: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(١).

طريق أخرى: قال الوليد بن مسلم: حدثني معاوية بن سلام، عن جده أبي سلام الأسود، عن النعمان بن بشير الأنصاري قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالي ألا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج. وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام. وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتهم. فزجرهم عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ - وذلك^(٢) يوم الجمعة - ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه. قال: ففعل، فأنزل الله، عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

رواه مسلم في صحيحه، وأبو داود - وابن جرير وهذا لفظه - وابن مردويه، وابن أبي حاتم في تفاسيرهم وابن حبان في صحيحه^(٣).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣)﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)﴾.

أمر تعالى بمباينة الكفار به، وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن موالاتهم إذا ﴿اسْتَحَبُّوا﴾ أى: اختاروا الكفر على الإيمان، وتوعد على ذلك كما قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية [المجادلة: ٢٢].

وروى الحافظ [أبو بكر]^(٤) البيهقي من حديث عبد الله بن شاذب قال: جعل أبو أبى عبيدة بن

(١) تفسير عبد الرزاق (١/٢٤٣).

(٢) فى ت، ك، أ: «وهو».

(٣) صحيح مسلم برقم (١٨٧٩) وتفسير الطبرى (١٤/١٦٩) ولم أجده فى سنن أبى داود، ولم يعزه المزى له فى تحفة الاشراف.

(٤) زيادة من ت، ك، أ.

الجراح ينعت له الآلهة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله، فأنزل الله فيه هذه الآية: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية [المجادلة: ٢٢] (١).

ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر (٢) أهله وقرباته وعشيرته على الله وعلى رسوله وجهاد في سبيله، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا أَوْ اِكْتَسَبْتُمُوهَا وَحَصَلْتُمُوهَا ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ أَوْ تَحِبُّونَهَا لَطِيهًا وَحَسَنًا، أَوْ: إِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾ أَوْ: فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ابن لَهَيْعَةَ، عن زُهْرَةَ بن مَعْبُدٍ، عن جده قال: كنا مع رسول الله ﷺ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال: والله لأنت يا رسول الله أحب إلى من كل شيء إلا من نفسي فقال رسول الله ﷺ (٣): «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه». فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إلى من نفسي. فقال رسول الله: «الآن يا عمر» (٤).

انفرد بإخراجه (٥) البخاري، فرواه عن يحيى بن سليمان، عن ابن وهب، عن حَيَّوَةَ بن شُرَيْحٍ، عن أبي عَقِيلٍ زهرة بن مَعْبُدٍ، أنه سمع جده عبد الله بن هشام، عن النبي ﷺ بهذا (٦).

وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» (٧).

وروى الإمام أحمد، وأبو داود - واللفظ له - من حديث أبي عبد الرحمن الخراساني، عن عطاء الخراساني، عن نافع، عن ابن عمر قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم بأذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذُلًّا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم» (٨).

وروى الإمام أحمد أيضا عن يزيد بن هارون، عن أبي جناب، عن شهر بن حوشب أنه سمع عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ بنحو ذلك (٩)، وهذا شاهد للذي قبله، والله أعلم.

(١) سنن البيهقي الكبرى (٢٧/٩) من طريق الربيع بن سليمان عن أسد بن موسى عن ضمرة بن ربيعة عن عبد الله بن شاذب، وقال البيهقي: «هذا منقطع».

(٢) في ت، د: «أحب». (٣) في ت، ك: «النبي».

(٤) المسند (٣٣٦/٤).

(٥) في د: «انفرد به».

(٦) صحيح البخاري برقم (٦٦٣٢).

(٧) صحيح البخاري برقم (١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٨) المسند (٤٢/٢) وسنن أبي داود برقم (٣٤٦٢).

(٩) المسند (٨٤/٢).

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧)﴾.

قال ابن جرير، عن مجاهد: هذه أول آية نزلت من [سورة] ^(١) «براءة».

يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله ^(٢)، وأن ذلك من عنده تعالى، وبتأييده وتقديره، لا بعددهم ولا بعددهم ونبههم على أن النصر من عنده، سواء قل الجمع أو كثر، فإن يوم حنين أعجبهم كثرتهم، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئا فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ. ثم أنزل [الله] ^(٣) نصره وتأيده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه، كما سنبيته إن شاء الله تعالى مفصلا، ليعلمهم ^(٤) أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده وإن قل الجمع، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وهب بن جرير، حدثنا أبي، سمعت يونس يحدث عن الزهري، عن عبيد الله، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن تغلب اثنا عشر ألفا من قلة».

وهكذا رواه أبو داود، والترمذي ^(٥)، ثم قال ^(٦): هذا حديث حسن غريب، لا يسنده كبير أحد غير جرير بن حازم، وإنما روى عن الزهري، عن النبي ﷺ مرسلا.

وقد رواه ابن ماجه والبيهقي وغيره، عن أكثم بن الجون، عن رسول الله ﷺ، بنحوه ^(٧). والله أعلم.

وقد كانت وقعة: «حنين» بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة، وذلك لما فرغ عليه السلام ^(٨) من فتح مكة، وتمهدت أمورها، وأسلم عامة أهلها، وأطلقهم رسول الله ﷺ، فبلغه أن

(١) زيادة من أ. (٢) في ت: «رسول الله ﷺ».

(٣) زيادة من ت، أ. (٤) في د: «ليعلم».

(٥) المسند (٢٩٤/١) وسنن أبي داود برقم (٢٦١١) وسنن الترمذي برقم (١٥٥٥).

(٦) في د: «وقال».

(٧) سنن ابن ماجه برقم (٢٨٢٧) وسنن البيهقي الكبرى (٢٦٣/٩) من طريق أبي سلمة العاملي عن الزهري عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لأكثم بن الجون، فذكر نحو حديث ابن عباس. وقال البوصيري في الزوائد (٤١٢/٢): «هذا إسناد ضعيف؛ لضعف أبي سلمة العاملي الأزدي وعبد الملك بن محمد الصنعاني».

(٨) في أ: «رسوله الله ﷺ».

هوازن جمعوا له ليقاتلوه، وأن أميرهم مالك بن عوف النَّضْرِي، ومعه ثقيف بكمالها، وبنو جُشم وبنو سعد بن بكر، وأوزاع من بني هلال، وهم قليل، وناس من بني عمرو بن عامر، وعوف بن عامر، وقد أقبلوا معهم النساء والولدان والشاء والنَّعم، وجاؤوا بِقَضِيَّهِمْ وَقَضِيَّهِمْ فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء^(١) معه للفتح، وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة، وهم الطلقاء في ألفين أيضا، فسار بهم إلى العدو، فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له «حنين»، فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح، انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد ثاوروهم^(٢)، ورشقوا بالنبال، وأصلتوا السيوف، وحملوا حملة رجل واحد، كما أمرهم ملكهم. فعند ذلك ولي المسلمون مدبرين، كما قال الله، عز وجل^(٣)، وثبت رسول الله ﷺ، وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو، والعباس عمه أخذ بركابها الأيمن، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخذ بركابها الأيسر، يثقلانها لثلاث تسرع السير، وهو ينوه باسمه، عليه الصلاة والسلام، ويدعو المسلمين إلى الرجعة [ويقول]^(٤): «أين يا عباد الله؟ إلى أنا رسول الله»، ويقول في تلك الحال:

أنا النبي لا كذب أنا بن عبد المطلب

وثبت معه من أصحابه قريب من مائة، ومنهم من قال: ثمانون، فمنهم: أبو بكر، وعمر، رضى الله عنهما، والعباس وعلى، والفضل بن عباس، وأبو سفيان بن الحارث، وأيمن بن أم أيمن، وأسامة بن زيد، وغيرهم، رضى الله عنهم ثم أمر ﷺ عمه العباس - وكان جهير الصوت - أن ينادى بأعلى صوته: يا أصحاب الشجرة - يعنى شجرة بيعة الرضوان، التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها، على ألا يفروا عنه - فجعل ينادى بهم: يا أصحاب السمرة^(٥)، ويقول تارة: يا أصحاب سورة البقرة، فجعلوا يقولون: يالبيك، يالبيك، وانعطف الناس فجعلوا يتراجعون إلى رسول الله ﷺ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بغيره على الرجوع، لبس درعه، ثم انحدر عنه، وأرسله، ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ. فلما رجعت^(٦) شرذمة منهم، أمرهم، عليه السلام^(٧)، أن يصدقوا الحملة، وأخذ قبضة من التراب بعدما دعا ربه واستنصره، وقال: «اللهم أنجز لى ما وعدتنى» ثم رمى القوم بها، فما بقى إنسان منهم إلا أصابه منها فى عينه وفمه ما شغله عن القتال، ثم انهزموا، فاتبع^(٨) المسلمون أفعاءهم يقتلون ويأسرون، وما تراجع بقية الناس إلا والأسارى مجذلة بين يدي رسول الله ﷺ.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا يعلى بن عطاء، عن عبد الله بن يسار أبي همام، عن أبي عبد الرحمن الفهرى - واسمه يزيد بن أسيد، ويقال: يزيد بن أنيس،

(١) فى ت، أ: «الذى جاؤوا»، وفى د: «الذين جاؤوا».

(٢) زيادة من ت، أ.

(٣) فى ت: «الله تعالى».

(٤) فى ت: «بادروهم».

(٥) فى أ: «السمر».

(٦) فى د: «اجتمعت».

(٧) فى ت: «الشجرة».

(٨) فى ت، د: «واتبع».

ويقال: كُرِّزَ - قال: كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة حنين، فسرنا في يوم قاتظ شديد الحر، فنزلنا تحت ظلال الشجر، فلما زالت الشمس لبست لأمتي وركبت فرسي، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ وهو في فسطاطه، فقلت: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله، حان الرواح؟ فقال: «أجل». فقال: «يا بلال» فثار من تحت سمرة^(١) كأن ظله ظل طائر، فقال: لبيك وسعديك، وأنا فداؤك^(٢)، فقال: «أسرج لى فرسى». فأخرج سرجاً دفتاه من ليف، ليس فيهما أشر ولا بطر.

قال: فأسرج، فركب وركبنا، فصاففناهم عشيتنا وليلتنا، فتشامت الخيلان، فولى المسلمون مدبرين، كما قال الله، عز وجل: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ﴾. فقال رسول الله ﷺ: «يا عباد الله، أنا عبد الله ورسوله»، ثم قال: «يا معشر المهاجرين، أنا عبد الله ورسوله». قال: ثم اقتحم رسول الله ﷺ عن فرسه^(٣)، فأخذ كفا من تراب، فأخبرني الذي كان أدنى إليه منى: أنه ضرب به وجوههم، وقال: «شاهت الوجوه». فهزمهم الله عز وجل. قال يعلى بن عطاء: فحدثني أبناؤهم، عن آبائهم، أنهم قالوا: لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه تراباً، وسمعنا صلصلة بين السماء والأرض، كإمرار الحديد على الطست^(٤) الجديد.

وهكذا رواه الحافظ البيهقي في «دلائل النبوة» من حديث أبي داود الطيالسي، عن حماد بن سلمة، به^(٥).

وقال محمد بن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن بن جابر، عن أبيه جابر بن عبد الله قال: فخرج مالك بن عوف بمن معه إلى حنين، فسبق رسول الله ﷺ إليه، فأعدوا وتهيؤوا في مضايق الوادى وأحنائه، وأقبل رسول الله ﷺ وأصحابه، حتى انحط بهم الوادى فى عماية الصبح، فلما انحط الناس ثارت فى وجوههم الخيل، فاشتدت عليهم، وانكفأ الناس منهزمين، لا يقبل أحد عن أحد، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين يقول: «أيها الناس^(٦)، هلموا إلى أنا رسول الله، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله» فلا شىء، وركبت الإبل بعضها بعضاً^(٧)، فلما رأى رسول الله ﷺ أمر الناس قال: «يا عباس، اصرخ: يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة». فأجابوه: لبيك، لبيك، فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيره، فلا يقدر على ذلك، فيقذف درعه فى عنقه، ويأخذ سيفه وقوسه، ثم يؤم الصوت، حتى اجتمع إلى رسول الله ﷺ منهم مائة، فاستعرض الناس فاقتلوا، وكانت الدعوة أول ما كانت بالأنصار، ثم جعلت آخراً بالخزرج^(٨)، وكانوا صبراً عند الحرب، وأشرف رسول الله ﷺ فى ركائبه^(٩)، فنظر إلى مُجْتَلِدِ القوم، فقال: «الآن حمى الوطيس»: قال: فوالله ما راجعه الناس إلا والأسارى عند رسول الله ﷺ ملقون، فقتل الله منهم من قتل،

(١) فى ت: «شجرة».

(٢) فى ك: «فداك».

(٣) فى ت: «قرب».

(٤) فى ت: «الطشت».

(٥) المسند (٢٨٦/٥) ودلائل النبوة (١٤١/٥).

(٦) فى ت: «يا أيها الناس».

(٧) فى ك: «بعض».

(٨) فى ت: «بالخزرج».

(٩) فى ك، أ: «ركابه».

وانهزم منهم من انهزم، وأفاء الله على رسوله أموالهم وأبناءهم.

وفى الصحيحين من حديث شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب، رضى الله عنهما، أنه قال له رجل: يا أبا عمارة، أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين، فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفرّ، إن هوازن كانوا قوماً رُماة، فلما لقيناهم وحمّلنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم، فاستقبلونا بالسهم، فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، وهو يقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب^(١)

قلت: وهذا فى غاية ما يكون من الشجاعة التامة، إنه فى مثل هذا اليوم فى حومة الوغى، وقد انكشف عنه جيشه، هو مع ذلك^(٢) على بغلة وليست سريعة الجرى، ولا تصلح لكرّ ولا لفرّ ولا لهرب، وهو مع هذا^(٣) أيضاً يركضها إلى وجوههم وينوء باسمه ليعرفه من لم يعرفه، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، وما هذا كله إلا ثقة بالله، وتوكلاً عليه، وعلماً منه بأنه سينصره، ويتم ما أرسله به، ويظهر دينه على سائر الأديان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ أى: طمأنينته وثباته على رسوله، ﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: الذين معه، ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير:

[حدثنا القاسم قال]^(٤) حدثنى الحسن بن عرفة قال: حدثنى المعتمر بن سليمان، عن عوف - هو ابن أبى جميلة الأعرابى - قال: سمعت عبد الرحمن مولى ابن بُرْثُن، حدثنى رجل كان من المشركين يوم حنين قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين^(٥)، لم يقوموا لنا حَلَب شاة - قال: فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم فى آثارهم، حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء، فإذا هو رسول الله ﷺ - قال: فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه، فقالوا لنا: شأنت الوجوه، ارجعوا. قال: فانهزمنا، وركبوا أكتافنا، فكانت إياها.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنى محمد بن أحمد بن بَالُوِيَه، حدثنا إسحاق بن الحسن الحربى^(٦)، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الحارث بن حَصِيرَة، حدثنا القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه قال: قال ابن مسعود، رضى الله عنه: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فولى عنه الناس، وبقيتُ معه فى ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار، قدمنا ولم نولهم الدبر، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة. قال: ورسول الله ﷺ على بغلته يمضى قُدُماً، فحادثت بغلته، فمال عن السرج، فقلت: ارتفع رفعك الله. قال: «ناولنى كفاً من التراب». فناولته، قال: فضرب به وجوههم، فامتألت أعينهم تراباً، قال: «أين

(١) صحيح البخارى برقم (٢٨٦٤)، وصحيح مسلم برقم (١٧٧٦).

(٢) فى ت، د، ك: «وهو مع هذا».

(٣) فى ت، د، ك: «ذلك».

(٤) زيادة من ت، أ، والطبرى.

(٥) فى ت: «يوم حنين فى آثارهم».

(٦) فى ك: «الجرمى».

المهاجرون^(١) والآنصار؟» قلت: هم هناك. قال: «اهتف بهم». فهتفت بهم، فجاؤوا وسيوفهم بأيامهم، كأنها^(٢) الشهب، وولى المشركون أدبارهم. ورواه الإمام أحمد فى مسنده عن عفان، به نحوه^(٣).

وقال الوليد بن مسلم: حدثنى عبد الله بن المبارك، عن أبى بكر الهذلى، عن عكرمة مولى ابن عباس، عن شيبه بن عثمان قال: لما رأيت رسول الله ﷺ يوم حنين قد عرى، ذكرت أبى وعمى وقتل على وحمزة إياهما، فقلت: اليوم أدرك ثأرى منه - قال: فذهبت لأجيئه عن يمينه، فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائماً، عليه درع بيضاء كأنها فضة، يكشف عنها العجاج، فقلت: عمه ولن يخذله - قال: فجثته^(٤) عن يساره، فإذا أنا بأبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، فقلت: ابن عمه ولن يخذله. فجثته من خلفه، فلم يبق إلا أن أسورة سورة بالسيف، إذ رفع لى شواظ من نار بينى وبينه، كأنه برق، فخفت أن تمحشنى، فوضعت يدى على بصرى ومشيت القهقرى، فالتفت رسول الله ﷺ وقال: «يا شيب، يا شيب^(٥)، ادن منى^(٦)، اللهم أذهب عنه الشيطان». قال: فرفعت إليه بصرى، ولهو أحب إلى من سمعى وبصرى، فقال: «يا شيب^(٧)، قاتل الكفار».

رواه البيهقى من حديث الوليد، فذكره^(٨)، ثم روى من حديث أيوب بن جابر، عن صدقة بن سعيد، عن مصعب بن شيبه عن أبيه قال: خرجت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، والله ما أخرجنى إسلام ولا معرفة به، ولكنى أبيت أن تظهر هوازن على قریش، فقلت وأنا واقف معه: يا رسول الله، إنى أرى خيلاً بلقاً، فقال: «يا شيبه، إنه لا يراها إلا كافر». فضرب بيده فى^(٩) صدرى، ثم قال: «اللهم، اهد شيبه»، ثم ضربها الثانية، ثم قال: «اللهم، اهد شيبه»، ثم ضربها الثالثة ثم قال: «اللهم اهد شيبه». قال: فوالله ما رفع يده من صدرى فى الثالثة حتى ما كان أحد من خلق الله أحب إلى منه، وذكر تمام الحديث، فى التقاء الناس وانهمزام المسلمين ونداء العباس واستنصار رسول الله ﷺ حتى هزم الله المشركين^(١٠).

قال محمد بن إسحاق: حدثنى والدى إسحاق بن يسار، عن حدثه، عن جبير بن مطعم، رضى الله عنه، قال: إنا لمع رسول الله ﷺ يوم حنين، والناس يقتتلون، إذ نظرت إلى مثل البجاد الأسود يهوى من السماء، حتى وقع بيننا وبين القوم، فإذا غل منشور قد ملأ الوادى، فلم يكن إلا هزيمة القوم، فما كنا نشك أنها الملائكة.

(١) فى ت: «المهاجرين» وهو خطأ. (٢) فى ت: «كأنهم».

(٣) دلائل النبوة (١٤٢/٥) والمسنود (٤٥٤/١).

(٤) فى أ: «ثم جثته». (٥) فى أ: «يا شيبه يا شيبه». (٦) فى د: «ادن منى يا شيبه».

(٧) فى أ: «يا شيبه».

(٨) دلائل النبوة للبيهقى (١٤٥/٥).

(٩) فى ت، د، ك، أ: «يده على».

(١٠) دلائل النبوة للبيهقى (١٤٦/٥).

وقال سعيد بن السائب بن يسار، عن أبيه قال: سمعت يزيد بن عامر السوائي - وكان شهد حنيناً مع المشركين ثم أسلم بعد - فكنا نسأله عن الرعب الذي ألقى الله في قلوب المشركين يوم حنين، فكان يأخذ الحصاة فيرمى بها في الطست^(١) فيطن، فيقول^(٢): كنا نجد في أجوافنا مثل هذا.

وقد تقدم له شاهد من حديث يزيد بن أبي أسيد^(٣)، فالله أعلم.

وفى صحيح مسلم، عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق أنبأنا معمر، عن همام قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالرعب، وأوتيت جوامع الكلم»^(٤).

ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ^(٥) اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: قد تاب الله على بقية هوازن، وأسلموا وقدموا عليه مسلمين، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوماً، فعند ذلك خيرهم بين سييهم وبين أموالهم، فاخاروا سييهم، وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة، فردده عليهم، وقسم أموالهم بين الغانمين، ونفل أناساً من الطلقاء ليتألف قلوبهم على الإسلام، فأعطاهم مائة مائة من الإبل، وكان من جملة من أعطى مائة مالك بن عوف النَّضْرِي، واستعمله على قومه كما كان، فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها:

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ	فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ بِمِثْلِ مُحَمَّدٍ
أَوْفَى وَأَعْطَى لِلْجَزِيلِ إِذَا اجْتَدَى	وَمَتَى تَشَاءُ يُخْبِرُكَ عَمَّا فِي غَدٍ
وَإِذَا الْكُتَيْبَةُ عَرَدَتْ أَنْبَاهُهَا	بِالسَّمْهَرِيِّ وَضَرَبَ كُلُّ مَهْنَدٍ
فَكَأَنَّهُ لَيْثٌ عَلَى أَشْبَالِهِ	وَسَطَ الْهَبَاءِ ^(٦) خَادِرٌ فِي مَرَصَدٍ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٨) قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٢٩).

أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً بنفى المشركين، الذين هم نجس ديناً، عن المسجد

(٣) فى ت: «أسد».

(٢) فى ت: «ثم يقول».

(١) فى ت: «الطشت».

(٤) صحيح مسلم برقم (٥٢٣).

(٥) فى ك، أ: «فأنزل» وهو خطأ. (٦) فى ت، د: «المياه»، وفى أ: «المناء».

الحرام، وألا يقربوه بعد نزول هذه الآية. وكان نزولها في سنة تسع؛ ولهذا بعث رسول الله ﷺ علياً صُحبة أبي بكر، رضى الله عنهما، عامئذ، وأمره أن ينادى في المشركين: ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف^(١) بالبيت عريان. فأتى الله ذلك، وحكم به شرعاً وقدرأ.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جُرَيْج، أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾: إلا أن يكون عبداً، أو أحداً من أهل الذمة^(٢).

وقد روى مرفوعاً من وجه آخر، فقال الإمام أحمد: حدثنا حُسَيْن^(٣)، حدثنا شريك، عن الأشعث - يعنى: ابن سَوَّار - عن الحسن، عن جابر قال: قال النبي ﷺ: «لا يدخل مسجدنا بعد عامنا هذا مشرك، إلا أهل العهد وخدمهم»^(٤)^(٥).

تفرد به أحمد مرفوعاً، والموقوف أصح إسناداً.

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي: كتب عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه: أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين، وأتبع نهيه قول الله: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾.

وقال عطاء: الحرم كله مسجد، لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾.

ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما دلت [على طهارة المؤمن، ولما]^(٦) ورد في [الحديث]^(٧) الصحيح: «المؤمن لا ينجس»^(٨). وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات؛ لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم.

وقال أشعث، عن الحسن: من صافحهم فليتوضأ. رواه ابن جرير.

وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: قال ابن إسحاق: وذلك أن الناس قالوا: لتنتقعن عنا الأسواق، ولتهلكن^(٩) التجارة وليذهبن ما كنا نصيب فيها من المرافق، فنزلت^(١٠): ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من وجه غير ذلك - «إِنْ شَاءَ» إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أى: إن هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق، فعوضهم الله بما قطع عنهم من أمر الشرك، ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب، من الجزية.

(١) في ت، أ: «يطوفن».

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/٢٤٥).

(٣) في ت، أ: «وخدمكم».

(٤) في أ: «حسن».

(٥) المسند (٣/٣٩٢) وقال الهيثمي في المجمع (٤/١٠): «فيه أشعث بن سوار وفيه ضعف وقد وثق».

(٦، ٧) زيادة من ك، أ.

(٨) صحيح البخارى برقم (٢٨٣) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه، ولفظه: «إن المسلم لا ينجس».

(٩) في ت، أ: «وليملكن».

(١٠) في ك، أ: «فنزل».

وهكذا روى عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، وقتادة والضحاك، وغيرهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ أى: بما يصلحكم، ﴿حَكِيمٌ﴾ أى: فيما يأمر به وينهى عنه؛ لأنه الكامل فى أفعاله وأقواله، العادل فى خلقه وأمره، تبارك وتعالى؛ ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التى يأخذونها من أهل الذمة، فقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، فهم فى نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ^(١) لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل، ولا بما جاؤوا به، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه، لا لأنه شرع الله ودينه؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد، صلوات الله عليه، لأن جميع الأنبياء [الأقدمين]^(٢) بشروا به، وأمروا باتباعه، فلما جاء وكفروا^(٣) به، وهو أشرف الرسل، علّم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله، بل لحظوظهم وأهوائهم، فلماذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء، وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم؛ ولهذا قال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾. وهذه الآية الكريمة [نزلت]^(٤) أول الأمر بقتال أهل الكتاب، بعد ما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس فى دين الله أفواجا، فلما استقامت^(٥) جزيرة العرب أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى، وكان ذلك فى سنة تسع؛ ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك، وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم، فأوعبوا معه، واجتمع من المقاتلة^(٦) نحو [من]^(٧) ثلاثين ألفاً، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم، وكان ذلك فى عام جدب، ووقت قيظ وحر، وخرج، عليه السلام، يريد الشام لقتال الروم، فبلغ تبوك، فنزل بها وأقام على مائها^(٨) قريباً من عشرين يوماً، ثم استخار الله فى الرجوع، فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس، كما سيأتى بيانه بعد إن شاء الله.

وقد استدلل بهذه الآية الكريمة من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب، أو من أشبههم كالمجوس، لما^(٩) صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر^(١٠). وهذا مذهب الشافعى، وأحمد - فى المشهور عنه - وقال أبو حنيفة، رحمه الله: بل تؤخذ من جميع الأعاجم، سواء كانوا^(١١) من أهل الكتاب أو من المشركين، ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب.

وقال الإمام مالك: بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابي، ومجوسى، ووثنى،

(١) فى ك: «صلوات الله وسلامه عليه». (٢) زيادة من أ. (٣) فى أ: «فلما جاؤوا كفروا».

(٤) زيادة من ت، أ. (٥) فى جمع النسخ: «واستقامت»، وصوبناه ليستقيم النص.

(٦) فى ك: «القبلة». (٧) زيادة من ت، ك، أ. (٨) فى د: «وأقام بها قريباً».

(٩) فى ت، د، ك: «كما». (١٠) فى هـ: «من هجر»، وفى أ: «من يهود هجر» والمثبت من ت، ك، أ.

(١١) فى ك: «سواء أن كانوا».

وغير ذلك، ولما أخذ هذه المذاهب وذكر أدلتها مكان غير هذا، والله أعلم.

وقوله: «حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ» أى: إن لم يسلموا، «عَنْ يَدٍ» أى: عن قهر لهم وغلبة، «وَهُمْ صَاغِرُونَ» أى: ذليلون حقيرون مهانون. فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين، بل هم أذلاء صَغَرَة أشقياء، كما جاء فى صحيح مسلم، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، أن النبى ﷺ قال: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم فى طريق فاضطروه إلى أضيقه»^(١).

ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، تلك الشروط المعروفة فى إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ، من رواية^(٢) عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال: كتبت لعمر بن الخطاب، رضى الله عنه، حين صالح نصارى من أهل الشام:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرائعنا^(٣)، وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا ألا نحدث فى مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة، ولا قلاية ولا صومعة راهب، ولا نحدد ما خرب منها، ولا نحى منها ما كان خطط^(٤) المسلمين، وألا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين فى ليل ولا نهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، وأن ينزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم، ولا نؤوى فى كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً، ولا نكتم غشاً للمسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شركاً، ولا ندعو إليه أحداً؛ ولا نمنع أحداً من ذوى قرابتنا الدخول فى الإسلام إن أرادوه، وأن نوقر المسلمين، وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم فى شيء من ملابسهم، فى قلنسوة، ولا عمامة، ولا نعلين، ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتنى بكناهم، ولا نركب السروج، ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئاً من السلاح، ولا نحمله معنا، ولا ننقش خواتيمنا بالعربية، ولا نبيع الخمر، وأن نحز مقادير رؤوسنا، وأن نلزم زيناً حيثما كنا، وأن نشد الزناير على أوساطنا، وألا نظهر الصليب على كنائسنا، وألا نظهر صلبنا ولا كتبنا^(٥) فى شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب نواقيسنا فى كنائسنا إلا ضرباً خفياً، وألا^(٦) نرفع أصواتنا بالقراءة فى كنائسنا فى شيء من حضرة المسلمين، ولا نخرج شعانين ولا باعوثاً، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم فى شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، وأن نرشد المسلمين، ولا نطلع عليهم فى منازلهم.

(١) صحيح مسلم برقم (٢١٦٧).

(٢) فى ت، ك، أ: «حديث». (٣) فى ت، أ: «وذرائعنا» (٤) فى ت، أ: «ما كان فى خطط».

(٥) فى أ: «صلياً ولا كساء». (٦) فى ت: «ولا».

قال: فلما أتيت عمر بالكتاب، زاد فيه: ولا نضرب أحداً من المسلمين، شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا، وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا فى شيء مما شرطناه لكم ووُظِّفنا على أنفسنا، فلا ذمة لنا، وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُّ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)﴾.

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال المشركين الكفار من اليهود والنصارى، لمقاتلتهم هذه المقالة الشنيعة، والفريضة على الله تعالى، فأما اليهود فقالوا فى العزير: «إنه ابن الله»، تعالى [الله] (١) عن ذلك علواً كبيراً. وذكر السدى وغيره أن الشبهة التى حصلت لهم فى ذلك، أن العمالة لما غلبت على بنى إسرائيل، فقتلوا علماءهم وسبوا كبارهم، بقى العزير يبكى على بنى إسرائيل وذهاب العلم منهم، حتى سقطت جفون عينيه، فيبنا هو ذات يوم إذ مرَّ على جبانة، وإذ (٢) امرأة تبكى عند قبر وهى تقول: وامطعماه! واكاسياه! [فقال لها ويحك] (٣) من كان يطعمك قبل هذا؟ قالت: الله. قال: فإن الله حى لا يموت! قالت: يا عزير فمن كان يعلم العلماء قبل بنى إسرائيل؟ قال: الله. قالت: فلم تبكى عليهم؟ فعرف أنه شيء قد وعظ به. ثم قيل له: اذهب إلى نهر كذا فاغتسل منه، وصلِّ هناك ركعتين، فإنك ستلقى هناك شيخاً، فما أطعمك فكله. فذهب ففعل ما أمر به، فإذا شيخ فقال له: افتح فمك. ففتح فمه. فألقى فيه شيئاً كهية الجمرة العظيمة، ثلاث مرات، فرجع عزير وهو من أعلم الناس بالتوراة، فقال: يا بنى إسرائيل، قد جئتكم بالتوراة. فقالوا: يا عزير، ما كنت كذاباً. فعمد فربط على أصبع من أصابعه قلماً، وكتب التوراة بأصبعه كلها، فلما تراجع الناس من عدوهم ورجع العلماء، وأخبروا بشأن عزير، فاستخرجوا النسخ التى كانوا أودعوها فى الجبال، وقابلوها (٤) بها، فوجدوا ما جاء به صحيحاً، فقال بعض جهلتهم: إنما صنع هذا لأنه ابن الله.

وأما ضلال النصارى فى المسيح فظاهر؛ ولهذا كذب الله سبحانه الطائفتين فقال: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أى: لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افتراءهم واختلاقهم، ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ أى: يشابهون ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أى: من قبلهم من الأمم، ضلوا كما ضل هؤلاء، ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾. قال ابن عباس: لعنهم الله، ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾؟ أى: كيف يضلون عن الحق، وهو ظاهر، ويعدلون إلى الباطل؟

(١) زيادة من ت، ك.

(٢) فى ت، د: «وإذا».

(٣) زيادة من ت، د، أ.

[وقوله^(١)]: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾: روى الإمام أحمد، والترمذى، وابن جرير من طرق، عن عدى بن حاتم، رضى الله عنه، أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرأى إلى الشام، وكان قد تنصر فى الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم من رسول الله ﷺ على أخته وأعطاهما، فرجعت إلى أخيها، ورغبت في الإسلام وفى القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عدى المدينة، وكان رئيسا فى قومه طيئ، وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم، فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ وفى عنق عدى صليب من فضة، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾. قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم. فقال: «بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا^(٢) لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم». وقال^(٣) رسول الله ﷺ: «يا عدى، ما تقول؟ أيفرك^(٤)؟ أن يقال: الله أكبر؟ فهل تعلم شيئا أكبر من الله؟ ما يفرك؟ أيفرك أن يقال^(٥): لا إله إلا الله؟ فهل تعلم من إله إلا الله؟ ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم، وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال: «إن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون»^(٦).

وهكذا قال حذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس، وغيرهما فى تفسير: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾: إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا.

وقال السدى: استنصحو الرجال، وتركوا^(٧) كتاب الله وراء ظهورهم.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أى: الذى إذا حرم الشيء فهو الحرام، وما حلله حل، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى: تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(٣٢) هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون^(٣٣).

(٣) فى ت، د، ك: «وقال له».

(٢) فى ت، د، ك: «وحللوها».

(١) زيادة من أ.

(٥) فى أ: «ما نقول أيسرك».

(٤) فى أ: «أيسرك».

(٦) سنن الترمذى برقم (٣٠٩٥) وتفسير الطبرى (٢٠٩/١٤ - ٢١١) من طريق عبد السلام بن حرب عن غطيف بن أعين عن مصعب

ابن سعد عن عدى بن حاتم رضى الله عنه، وقال الترمذى: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب وغطيف بن أعين ليس بمعروف فى الحديث».

(٧) فى د: «ونبذوا».

يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿أَنْ يُطْفِئُوا^(١) نُورَ اللَّهِ﴾ أى: ما بعث به رسوله من الهدى ودين الحق، بمجرد جدالهم وافتراءهم، فمثلهم فى ذلك كمثل من يريد أن يطفى شعاع الشمس، أو نور القمر بنفخه، وهذا لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل الله به رسوله لا بد أن يتم ويظهر؛ ولهذا قال تعالى مقابلاً لهم فيما راموه وأرادوه: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

والكافر: هو الذى يستر الشئ ويغطيه، ومنه سُمى الليل «كافراً»؛ لأنه يستر الأشياء، والزراع كافراً؛ لأنه يغطى الحبَّ فى الأرض كما قال: ﴿أَعْجَبَ^(٢) الْكَافَرُ نَبَاتَهُ﴾ [الحديد: ٢٠].

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾: فالهدى: هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة، والإيمان الصحيح، والعلم النافع - ودين الحق: هى الأعمال [الصالحة]^(٣) الصحيحة النافعة فى الدنيا والآخرة.

﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أى: على سائر الأديان، كما ثبت فى الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله زوى لى الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها»^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن محمد بن أبى يعقوب: سمعت شقيق بن حيان يحدث عن مسعود بن قبيصة - أو: قبيصة بن مسعود - يقول: صلى هذا الحى من «مُحَارِب» الصبح، فلما صلوا قال شاب منهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها، وإن عمالها فى النار، إلا من اتقى الله وأدى الأمانة»^(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثنا سليم بن عامر، عن تميم الدارى، رضى الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين، بعزٍّ عزيز، أو بذلٍّ ذليل، عزا يعز الله به الإسلام، وذلا يذل الله به الكفر»، فكان تميم الدارى يقول: قد عرفت ذلك فى أهل بيتى، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب من كان منهم كافراً الذل والصغار والجزية^(٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنى ابن جابر، سمعت سليم بن عامر قال: سمعت المقداد بن الأسود يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر، إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعزٍّ عزيز، أو بذلٍّ ذليل، إما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها، وإما يذلهم فيدينون لها»^(٧).

(١) فى ت، أ: «ليطفئوا» وهو خطأ. (٢) فى جميع النسخ: «يعجب» والصواب ما أثبتناه. (٣) زيادة من ك.

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٨٨٩) من حديث ثوبان رضى الله عنه.

(٥) المسند (٣٦٦/٥).

(٦) المسند (١٠٣/٤) وقال الهيثمى فى المجمع (١٤/٦): «رجال أحمد رجال الصحيح».

(٧) المسند (٤/٦) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (١٦٣١) «موارد» من طريق عبد الرحمن بن إبراهيم عن الوليد بن مسلم به.

وفى المسند أيضا: حدثنا محمد بن أبي عديّ، عن ابن عون، عن ابن سيرين، عن أبي حذيفة، عن عدي بن حاتم سمعه^(١) يقول: دخلت على رسول الله ﷺ فقال: «يا عدي، أسلم تسلم». فقلت: إني من أهل دين. قال: «أنا أعلم بدينك منك». فقلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: «نعم، ألت من الرُّكُوسِيَّة، وأنت تأكل مرباع قومك؟». قلت: بلى. قال: «فإن هذا لا يحل لك في دينك». قال: فلم يعد أن قالها فتواضعت لها، قال: «أما إني أعلم ما الذي يمنعك من الإسلام، تقول: إنما اتبعه ضَعْفَةُ الناس ومن لا قوة له، وقد رَمَتْهُمُ العرب، أتعرف الحيرة؟» قلت: لم أرها، وقد سمعت بها. قال: «فوالذي نفسى بيده، ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظَّعِينَة من الحيرة، حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولتفتحن^(٢) كنوز كسرى بن هرمز». قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم، كسرى بن هرمز، وليُذَكَّنَّ المال حتى لا يقبله أحد». قال عدي بن حاتم: فهذه الظَّعِينَة تخرج من الحيرة، فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسى بيده، لتكونن الثالثة؛ لأن رسول الله ﷺ قد قالها^(٣).

وقال مسلم: حدثنا أبو معن زيد بن يزيد الرقاشي، حدثنا خالد بن الحارث، حدثنا عبد الحميد ابن جعفر، عن الأسود بن العلاء، عن أبي سلمة، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تُعَبَّدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى». فقلت: يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أنزل الله، عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾، إلى قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ أن ذلك تام، قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، عز وجل، ثم يبعث الله ريحا طيبة [فيتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان]^(٤) فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم»^(٥).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)﴾.

قال السدي: الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى.

وهو كما قال، فإن الأحبار هم علماء اليهود، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْتَاهُمُ الرِّبَانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن

(١) فى ت، أ: «سمعه».

(٢) فى ت، أ: «وليفتن».

(٣) المسند (٣٧٧/٤، ٣٧٨) وكان الحافظ اختصره هنا.

(٤) زيادة من ت، ك، أ، ومسلم.

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٩٠٧).

قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ» [المائدة: ٦٣]، والرهبان: عباد النصرى، والقسيسون: علماؤهم، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

والمقصود: التحذير من علماء السوء وعُبد الضلال^(١)، كما قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبّادنا كان فيه شبه من النصرى. وفى الحديث الصحيح: «لتركن سنن من كان قبلكم حذو القُذَّة بالقُذَّة». قالوا: اليهود والنصرى؟ قال: «فمن؟». وفى رواية: فارس والروم؟ قال: «ومن^(٢) الناس إلا هؤلاء؟»^(٣).

والحاصل التحذير من التشبه بهم فى أحوالهم وأقوالهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾، وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم فى الناس، يأكلون أموالهم بذلك، كما كان لأخبار اليهود على أهل الجاهلية شرف، ولهم عندهم خُرج وهدايا وضرائب تجيء إليهم، فلما بعث الله رسوله، صلوات الله وسلامه عليه^(٤)، استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم، طمعا منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات، فأطفأها الله بنور النبوة، وسلبهم إياها، وعوضهم بالذلة والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله.

وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى: وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق، ويُلْبسون الحق بالباطل، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير، وليسوا كما يزعمون، بل هم دعاة إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس، فإن الناس عالة على العلماء، وعلى العبّاد، وعلى أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس، كما قال بعضهم^(٥):

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ وَأَخْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا؟

وأما الكنز فقال مالك، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أنه قال: هو المال الذى لا تؤدى منه الزكاة.

وروى الثورى وغيره عن عبيد الله^(٦)، عن نافع، عن ابن عمر قال: ما أُدِّى زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وما^(٧) كان ظاهرا لا تؤدى زكاته فهو كنز^(٨). وقد روى هذا عن ابن

(١) فى ت، د، ك، أ: «الضلالة». (٢) فى ت، د، أ: «فمن».

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٤٥٦) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٦٦٩) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه.

(٤) فى د: «ﷺ».

(٥) هو عبد الله بن المبارك رحمه الله.

(٦) فى أ: «عبد الله». (٧) فى ت، أ: «وإن».

(٨) رواه البيهقى فى السنن الكبرى (٨٢/٤) من طريق سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر مرفوعاً وقال: «ليس هذا بمحفوظ، وإنما المشهور عن سفيان عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر موقوفاً».

عباس، وجابر، وأبى هريرة موقوفا ومرفوعاً^(١)، وعمر بن الخطاب، نحوه، رضى الله عنهم: «أيا مال أدت زكاته فليس بكنز، وإن كان مدفوناً فى الأرض، وأيا مال لم تؤد زكاته فهو كنز يكوى به صاحبه وإن كان على وجه الأرض».

وروى البخارى من حديث الزهرى، عن خالد بن أسلم قال: خرجنا مع عبد الله بن عمر، فقال: هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما نزلت جعلها الله طُهرًا للأموال^(٢).

وكذا قال عمر بن عبد العزيز، وعِراك بن مالك: نسخها قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقال سعيد بن محمد بن زياد، عن أبى أمامة أنه قال: حلية السيوف من الكنز، ما أحدثكم إلا ما سمعت.

وقال الثورى، عن أبى حصين، عن أبى الضُّحى، عن جَعْدَةَ بن هُبَيْرَةَ، عن على، رضى الله عنه، قال: أربعة آلاف فما دونها نفقة، فما كان أكثر منه^(٣) فهو كنز.

وهذا غريب. وقد جاء فى مدح التقلل من الذهب والفضة ودم التكثر^(٤) منهما، أحاديث كثيرة؛ ولنورد منها هنا طرفاً يدل على الباقي، فقال عبد الرزاق: أخبرنا الثورى، أخبرنى أبو حصين، عن أبى الضُّحى، بن جَعْدَةَ بن هُبَيْرَةَ، عن على، رضى الله عنه، فى قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال النبى ﷺ: «تَبَا لِلذَّهَبِ، تَبَا لِلْفِضَّةِ» يقولها ثلاثاً، قال: فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: فأى مال نتخذ؟ فقال: عمر، رضى الله عنه، أنا أعلم لكم ذلك فقال: يا رسول الله، إن أصحابك قد شق عليهم [و]^(٥) قالوا: فأى مال نتخذ؟ قال: «لسانا ذاكراً، وقلبا شاكراً»^(٦)، وزوجة تعين أحدكم على دينه»^(٧).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، حدثنى سالم، حدثنى عبد الله بن أبى الهذيل، حدثنى صاحب لى أن رسول الله ﷺ قال: «تَبَا لِلذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ». قال: فحدثنى صاحبى أنه انطلق مع عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، قولك: «تَبَا لِلذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ»، ماذا ندخر؟ قال رسول الله ﷺ: «لسانا ذاكراً، وقلبا شاكراً، وزوجة تُعين على الآخرة»^(٨).

(١) أما حديث ابن عباس، فرواه الطبرى فى تفسيره (٢٢٥/١٤) من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس موقوفاً، وأما حديث جابر، فرواه ابن عدى فى الكامل (١٨٩/٧) من طريق يحيى بن أبى أنيسة عن أبى الزبير عن جابر مرفوعاً، ورواه الخطيب فى تاريخ بغداد (١٢/٨) من طريق خصيف عن أبى الزبير عن جابر مرفوعاً، وأما حديث أبى هريرة، فرواه الترمذى فى السنن برقم (٦١٨) قال العراقى: «إسناده جيد».

(٢) صحيح البخارى برقم (١٤٠٤).

(٣) فى ت، د، أ: «أكثر من ذلك».

(٤) فى ت: «التكثير».

(٦) فى أ: «ذاكراً».

(٥) زيادة من ت، ك، أ.

(٧) ذكره الزيلعى فى تخريج الكشاف (٧١/٢) وعزاه لعبد الرزاق فى تفسيره بعد أن ذكر من حديث ثوبان وعمر، ثم قال: «الحاصل أنه حديث ضعيف لما فيه من الاضطراب».

(٨) المسند (٣٦٦/٥).

حديث آخر: قال^(١) الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا عبد الله بن عمرو بن مرة، عن أبيه، عن سالم بن أبي الجعد، عن ثوبان قال: لما نزل في الفضة والذهب^(٢) ما نزل قالوا: فأى المال نتخذ؟ قال [عمر: أنا أعلم ذلك لكم فأوضح^(٣) على بعير فأدركه، وأنا في أثره، فقال: يا رسول الله، أى المال نتخذ؟ قال^(٤)]: «ليتخذ أحدكم قلبا شاكرا ولسانا ذاكرا وزوجة تعين أحدكم في^(٥) أمر الآخرة».

ورواه الترمذى، وابن ماجه، من غير وجه، عن سالم بن أبي الجعد^(٦). وقال الترمذى: حسن، وحكى عن البخارى أن سالما لم يسمعه من ثوبان.

قلت: ولهذا رواه بعضهم عنه مرسلًا، والله أعلم.

حديث آخر: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبى، حدثنا حميد بن مالك، حدثنا يحيى بن يعلى المحاربى، حدثنا أبى، حدثنا غيلان بن جامع المحاربى، عن عثمان أبى اليقظان، عن جعفر بن إياس، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: «وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ» الآية، كَبُرَ ذلك على المسلمين، وقالوا: ما يستطيع أحد منا أن يترك لولده ما لا يبقى بعده. فقال عمر: أنا أفرج عنكم. فانطلق عمر واتبه ثوبان، فأتى النبى ﷺ فقال: يا نبى الله، إنه قد كَبُرَ على أصحابك هذه الآية. فقال نبى الله ﷺ: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقى من أموالكم، وإنما فرض الموارث من أموال تبقى بعدكم». قال: فكَبُرَ عمر، ثم قال له النبى ﷺ: «ألا أخبرك بخير ما يكتز المرء؟ المرأة الصالحة التى إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته».

ورواه أبو داود، والحاكم فى مستدركه، وابن مردويه من حديث يحيى بن يعلى، به^(٧). وقال الحاكم: صحيح على شرطهما، ولم يخرجاه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا الأوزاعى، عن حسان بن عطية قال: كان شداد بن أوس، رضى الله عنه، فى سفر، فنزل منزلا، فقال لغلامه: اتنا بالشفرة نعبث بها. فأنكرت عليه، فقال: ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطمها وأزمها غير كلمتى هذه، فلا تحفظونها^(٨) على، واحفظوا ما أقول لكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكثروا هؤلاء الكلمات: اللهم، إنى أسألك الثبات فى الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وأسألك حسن عبادتك، وأسألك قلبا سليما، وأسألك لسانا صادقا، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب»^(٩).

(١) فى ت، ك: «وقال».

(٢) فى ت، ك: «فى الذهب والفضة».

(٤) زيادة من ت، د، ك، أ والمسنَد.

(٣) فى ت، ك: «أعلم لكم ذلك قال: فأوضح».

(٥) فى ت، د، ك، أ، «على».

(٦) المسند (٢٨٢/٥) وسنن الترمذى برقم (٣٠٩٤) وسنن ابن ماجه برقم (١٨٥٦).

(٧) سنن أبى داود برقم (١٦٦٤) والمستدرک (٣٣٣/٢) قال الذهبى: «وعثمان لا أعرفه والخبر عجيب».

(٨) فى ت، د، ك، أ: «تحفظوها».

(٩) المسند (١٢٣/٤).

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنُزُونَ﴾ أى: يقال لهم هذا الكلام تبيكتا وتقريعا وتهكما، كما فى قوله: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ. ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٨، ٤٩] أى: هذا بذاك، وهو^(١) الذى كنتم تكنزون لأنفسكم؛ ولهذا يقال: من أحب شيئا وقدمه على طاعة الله، عذب به. وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال أثر عندهم من رضا الله عنهم، عذبوا بها، كما كان أبو لهب، لعنه الله، جاهداً فى عداوة الرسول، صلوات الله [وسلامه]^(٢) عليه^(٣)، وامراته تعينه فى ذلك، كانت يوم القيامة عوناً على عذابه أيضا ﴿فِي جِيدِهَا﴾ أى: [فى]^(٤) عنقها ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ٥] أى: تجمع من الخطب فى النار وتلقى عليه، ليكون ذلك أبلغ فى عذابه ممن هو أشفق عليه - كان - فى الدنيا، كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأشياء على أربابها، كانت أضرب الأشياء عليهم فى الدار الآخرة، فيحمى عليها فى نار جهنم، وناهيك بحرهما، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم.

قال سفيان، عن الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود: والله الذى لا إله غيره، لا يكوى عبد بكنز، فيمس دينار ديناراً، ولا درهم درهم، ولكن يوسّع جلده، فيوضع كل دينار ودرهم على حدته^(٥) ^(٦).

وقد رواه ابن مردويه، عن أبى هريرة مرفوعاً، ولا يصح رفعه، والله أعلم.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه قال: بلغنى أن الكنز يتحول يوم القيامة شجاعاً يتبع صاحبه، وهو يفر منه ويقول: أنا كنزك! لا يدرك منه شيئاً إلا أخذه.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن سالم ابن أبى الجعد، عن معدان بن أبى طلحة، عن ثوبان أن نبى^(٧) الله ﷺ كان يقول: «من ترك بعده كنزاً مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان، يتبعه، يقول: ويلك ما أنت؟ فيقول: أنا كنزك الذى تركته^(٨) بعدك! ولا يزال يتبعه حتى يلقمه يده فيَقْصَصُهَا^(٩) ثم يتبعه سائر جسده».

ورواه ابن حبان فى صحيحه، من حديث يزيد، عن سعيد به^(١٠). وأصل هذا الحديث فى الصحيحين من رواية أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة رضى، الله عنه^(١١).

(٣) فى د، ك: «ﷺ».

(٢) زيادة من أ.

(١) فى ت، د، ك: «وهذا».

(٥) فى أ: «جلده».

(٤) زيادة من ك.

(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٣٣/١٤) من طريق سفيان به.

(٩) فى د، أ: «فيقصصها».

(٨) فى أ: «كنزته».

(٧) فى د: «رسول».

(١٠) تفسير الطبرى (٢٣٢/١٤) وصحيح ابن حبان برقم (٨٠٣) «موارد» ورواه ابن خزيمة فى صحيحه برقم (٢٢٥٥) من طريق بشر

ابن معاذ به.

(١١) صحيح البخارى برقم (٤٦٥٩) ولم أعثر عليه فى صحيح مسلم من هذا الطريق.

وفى صحيح مسلم، من حديث سهيل بن أبى صالح، عن أبيه، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل لا يؤدى زكاة ماله إلا جعل^(١) يوم القيامة صفائح من نار يَكْوَى^(٢) بها جنبه وجبهته وظهره، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين الناس، ثم يُرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» وذكر تمام الحديث^(٣).

وقال البخارى فى تفسير هذه الآية: حدثنا قتيبة، حدثنا جرير، عن حصين، عن زيد بن وهب قال: مررت على أبى ذر بالربذة، فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض، قال^(٤): كنا بالشام، فقرأت: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فقال معاوية: ما هذه فينا^(٥)، ما هذه إلا فى أهل الكتاب. قال: قلت: إنها لفينا وفيهم^(٦).

ورواه ابن جرير من حديث عثر بن القاسم، عن حصين، عن زيد بن وهب، عن أبى ذر، رضى الله عنه، فذكره وزاد: فارتفع فى ذلك بينى وبينه القول، فكتب إلى عثمان يشكونى، فكتب إلى عثمان أن أقبل إليه، قال: فأقبلت، فلما قدمت المدينة ركبنى^(٧) الناس كأنهم لم يرونى قبل يومئذ، فشكوت ذلك إلى عثمان، فقال لى: تَنَحَّ قريبا. قلت: والله لن أدع ما كنت أقول^(٨).

قلت: كان من مذهب أبى ذر، رضى الله عنه، تحريم ادخار ما زاد على نفقة العيال، وكان يفتى [الناس]^(٩) بذلك، ويحثهم عليه، ويأمرهم به، ويغلظ فى خلافه. فنهاه معاوية فلم ينته، فخشى أن يضر بالناس فى هذا، فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان، وأن يأخذه إليه، فاستقدمه عثمان إلى المدينة، وأنزله بالربذة وحده، وبها مات، رضى الله عنه، فى خلافة عثمان. وقد اختبره معاوية، رضى الله عنه^(١٠)، وهو عنده، هل يوافق عمله قوله؟ فبعث إليه بألف دينار، ففرقها من يومه، ثم بعث إليه الذى أتاه بها فقال: إن معاوية إنما بعثنى إلى غيرك فأخطأت، فهات الذهب! فقال: ويحك! إنها خرجت، ولكن إذا جاء مالى حاسبناك^(١١) به.

وهكذا روى على بن أبى طلحة، عن ابن عباس أنها عامة.

وقال السدى: هى فى أهل القبلة.

وقال الأحنف بن قيس: قدمت المدينة، فبينما أنا فى حلقة فيها مَلَأ من قریش، إذ جاء رجل أخشن الثياب، أخشن الجسد، أخشن الوجه، فقام عليهم فقال: بشر الكانزين برَضْف يحمى عليه فى

(١) فى د: «جعل له». (٢) فى ت: «فتكوى»، وفى د، أ: «فيكوى».

(٣) صحيح مسلم برقم (٩٨٧).

(٤) فى ت، د، ك، أ: «فقال». (٥) فى ت، د، ك: «ما هذا».

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٦٦٠).

(٧) فى ت: «ولقيني».

(٨) تفسير الطبرى (٢٢٧/١٤).

(٩) زيادة من أ. (١٠) زيادة من أ: «عنهما». (١١) فى ت، أ: «حاسبناه».

نار جهنم، فيوضع على حكمة تُدَى أحدهم حتى يخرج من نُغْضِ كتفه، ويوضع على نُغْضِ كتفه حتى يخرج من حكمة تُدِيه يتزلزل - قال: فوضع القوم رؤوسهم، فما رأيت أحدا منهم رَجَعَ إليه شيئا - قال: وأدبر فاتبعته حتى جلس إلى سارية، فقلت: ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم. فقال: إن هؤلاء لا يعلمون شيئا.

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأبى ذر: «ما يسرنى أن عندى مثل أحد ذهباً يمر عليه ثلاثة وعندى منه شيء، إلا دينار أرصده لدين»^(١).

فهذا - والله أعلم - هو الذى حدا أبا ذر على القول بهذا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن سعيد بن أبى الحسن، عن عبد الله بن الصامت، رضى الله عنه، أنه كان مع أبى ذرّ، فخرج عطاؤه ومعه جارية له، فجعلت تقضى حوائجه، ففضلت معها سبعة، فأمرها أن تشتري به فلوسا. قال: قلت: لو ادخرته للحاجة تُنْوبك وللضيف ينزل بك! قال: إن خليلي عهد إلىّ أن أياها ذهب أو فضة أو كى^(٢) عليه، فهو جمر على صاحبه، حتى يفرغه فى سبيل الله، عز وجل^(٣).

ورواه عن يزيد، عن همام، به وزاد: إفراغا^(٤).

وقال الحافظ ابن عساكر بسنده إلى أبى بكر الشبلى فى ترجمته، عن محمد بن مهدى: حدثنا عمرو بن أبى سلمة، عن صدقة بن عبد الله، عن طلحة بن زيد، عن أبى قُرْوة الرّهاوى، عن عطاء، عن أبى سعيد، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «القى الله فقيراً ولا تلقه غنيا». قال: يارسول الله، كيف لى بذلك؟ قال: «ماسئلتَ فلا تمنع، وما رُزقتَ فلا تحبّا»، قال: يارسول الله، كيف لى بذلك؟ قال رسول الله ﷺ: «هو ذاك وإلا فالنار»^(٥)، إسناده ضعيف.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا عتيبة، عن بريد بن أصرم^(٦) قال: سمعت علياً، رضى الله عنه، يقول: مات رجل من أهل الصُّفّة، وترك دينارين - أو: درهمين - فقال رسول الله ﷺ: «كيتان، صلوا على صاحبكم»^(٧).

(١) صحيح البخارى برقم (٦٤٤٤).

(٢) فى أ: «أياها ذهباً وفضة أولو».

(٣) المسند (١٥٦/٥).

(٤) المسند (١٧٥/٥) وقال الهيثمى فى المجمع (٢٤٠/١٠): «رجاله رجال الصحيح».

(٥) انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٦٨/٢٨) ورواه الخطيب فى تاريخ بغداد (٣٩٠/١٤) فى ترجمة الشبلى من طريق محمد بن مهدى المصرى به.

(٦) فى جميع النسخ: «عيبة عن يزيد بن الصرم» والتصويب من المسند.

(٧) المسند (١٠١/١).

وقد روى هذا من طرف آخر^(١).

وقال قتادة، عن شهر بن حوشب، عن أبي أمامة صدى بن عجلان قال: مات رجل من أهل الصفة، فوجد في مثزه دينار، فقال رسول الله ﷺ: «كية». ثم توفي رجل آخر فوجد في مثزه ديناران، فقال رسول الله ﷺ: «كيتان»^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم الفريديسي، حدثنا معاوية ابن يحيى الأضرابلسي، حدثني أوطاة، حدثني أبو عامر الهوزني، سمعت ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: ما من رجل يموت وعنده أحمر أو أبيض، إلا جعل الله بكل قيراط صفحة من نار يكوى بها من قدمه إلى ذقنه.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمود بن خدّاش، حدثنا سيف بن محمد الثوري، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يوضع الدينار على الدينار، ولا الدرهم على الدرهم، ولكن يوسع جلده فيكوى^(٣) بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكتزون»^(٤). سيف - هذا - كذاب، متروك.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦)﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، أخبرنا أيوب، أخبرنا محمد بن سيرين، عن أبي بكر، أن النبي ﷺ خطب في حجته، فقال: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة [حرم، ثلاثة]^(٥) متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان». ثم قال: «أى يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى. ثم قال: «أى شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى. ثم قال: «أى بلد هذا؟». قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه،

(١) رواه أحمد في مسنده (١٣٧/١، ١٣٨) من طريق قطن بن نسير ومحمد بن عبيد وجبان بن هلال كلهم عن جعفر بن سليمان به نحوه، وجاء من حديث عبد الله بن مسعود رواه أحمد في مسنده (٤١٢/١)، وجاء من حديث سلمة بن الأكوع رواه أحمد في مسنده (٤٧/٤) من حديث طويل، وجاء من حديث أبي هريرة رواه أحمد في مسنده (٤٢٩/٢).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢٥٣/٥) والطبري في تفسيره (٢٢٢/١٤) من طريق قتادة به.

(٣) في ت: «فتكوى».

(٤) ورواه ابن مردويه كما في الدر المنثور للسيوطي (١٧٩/٤).

(٥) زيادة من ت، ك، أ، والمسند.

قال: «أليست البلدة؟» قلنا: بلى. قال: «فإن دماءكم وأموالكم - قال: وأحسبه قال: وأعراضكم - عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا، وستلقون ربكم فىسألكم عن أعمالكم، ألا لا ترجعوا بعدي ضللاً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت؟ ألا ليلغ الشاهد الغائب منكم، فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من يسمعه»^(١)»^(٢).

ورواه البخارى فى التفسير وغيره، ومسلم من حديث أيوب، عن محمد - وهو ابن سيرين - عن عبد الرحمن ابن أبى بكرة، عن أبيه، به^(٣).

وقد قال ابن جرير: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا روح، حدثنا أشعث، عن محمد بن سيرين، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات، ورجب مضر بين جمادى وشعبان»^(٤).

ورواه البزار، عن محمد بن معمر، به^(٥). ثم قال: لا يروى عن أبى هريرة إلا من هذا الوجه، وقد رواه ابن عون وقرة، عن ابن سيرين، عن عبد الرحمن بن أبى بكرة، عن أبيه، به.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنى موسى بن عبد الرحمن المسروقي، حدثنا زيد بن حباب، حدثنا موسى بن عبيدة الربذي، حدثنى صدقة بن يسار، عن ابن عمر قال: خطب رسول الله ﷺ فى حجة الوداع بمنى فى أوسط أيام التشريق فقال: «أيها الناس، إن الزمان قد استدار، فهو اليوم كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، أولهن رجب مضر بين جمادى وشعبان، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم»^(٦).

وروى ابن مردويه من حديث موسى بن عبيدة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمرو، مثله أو نحوه.

وقال حماد بن سلمة: حدثنى على بن زيد، عن أبى حرة^(٧): حدثنى الرقاشى، عن عمه - وكانت له صحبة - قال: كنت آخذاً بزمام ناقة رسول الله ﷺ فى أوسط أيام التشريق، أذود الناس عنه، فقال رسول الله ﷺ: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم فلا

(١) فى ت، د، أ: «سمعه».

(٢) المسند (٣٧/٥).

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٦٢) وبرقم (٣١٩٧، ٤٤٠٦، ٧٤٤٧، ٥٥٥٠) وصحيح مسلم برقم (١٦٧٩).

(٤) تفسير الطبرى (٢٣٥/١٤).

(٥) فى ت، أ: «معاوية».

(٦) تفسير الطبرى (٢٣٤/١٤) وموسى بن عبيده ضعيف.

(٧) فى ك، أ: «حمزة».

تظلموا فيهن أنفسكم»^(١).

وقال سعيد بن منصور: حدثنا أبو معاوية، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: «مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ» قال: محرم، ورجب، وذو القعدة، وذو الحجة.

وقوله ﷺ في الحديث: «إن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض»، تقرير منه، صَلَّواتُ الله وسلامه عليه، وتثبيت للأمر على ما جعله الله تعالى في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقص، ولا نسيء ولا تبديل، كما قال في تحريم مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة»، وهكذا قال ها هنا: «إن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض» أى: الأمر اليوم شرعاً كما ابتداء الله ذلك في كتابه يوم خلق السموات والأرض.

وقد قال بعض المفسرين والمتكلمين على هذا الحديث: إن المراد بقوله: «قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»، أنه اتفق أن حج رسول الله ﷺ في تلك السنة في ذى الحجة، وأن العرب قد كانت نسات النسيء، يحجون في كثير من السنين، بل أكثرها، في غير ذى الحجة، وزعموا أن حجة الصديق في سنة تسع كانت في ذى القعدة، وفي هذا نظر، كما سنبينه إذا تكلمنا على النسيء.

وأغرب منه ما رواه الطبراني، عن بعض السلف، في جملة حديث: أنه اتفق حج المسلمين واليهود والنصارى في يوم واحد، وهو يوم النحر، عام حجة الوداع، والله أعلم.

[حاشية فصل]^(٢)

ذكر الشيخ علم الدين السخاوى في جزء جمعه سماه «المشهور فى أسماء الأيام والشهور»: أن المحرم سُمى بذلك لكونه شهراً محرماً، وعندى أنه سُمى بذلك تأكيداً لتحريمه؛ لأن العرب كانت تَقَلِّبُ به، فتحله عاماً وتحرمه عاماً. قال: ويجمع على محرمات، ومحارم، ومحاريم.

صفر: سُمى بذلك لخلو بيوتهم منه، حين يخرجون للقتال والأسفار، يقال: «صَفَرَ المكان»: إذا خلا، ويجمع على أصفار كجمل وأجمال.

شهر ربيع أول: سُمى بذلك لارتباعتهم فيه. والارتباع الإقامة فى عمارة الربيع، ويجمع على أربعاء كنصيب وأنصاء، وعلى أربعة، كغيف وأرغفة.

ربيع الآخر: كالأول.

جمادى: سُمى بذلك لجمود الماء فيه. قال: وكانت الشهور فى حسابهم لا تدور. وفى هذا

(١) رواه أحمد فى مسنده (٧٢/٥، ٧٣) من طريق حماد بن سلمة بأطول منه.

(٢) زيادة من ك، أ.

نظر؛ إذ كانت شهورهم منوطة بالأهلة، ولا بد من دورانها، فلعلهم سموه بذلك، أول ما سمي عند جمود الماء في البرد، كما قال الشاعر:

وَكَيْلَةٌ مِنْ جُمَادَى ذَاتِ أُنْدِيَّةٍ لَا يُبْصِرُ الْعَبْدُ فِي ظُلُمَاتِهَا الطُّنْبَا
لَا يَنْبَحُ الْكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ حَتَّى يَلْفَ عَلَى خُرُطُومِهِ الذَّنْبَا

ويُجمع على جُمَادِيَّاتٍ، كحبارى وحُبَارِيَّاتٍ، وقد يذكر ويؤنث، فيقال: جمادى الأولى والأول، وجمادى الآخر والآخرة.

رجب: من الترجيب، وهو التعظيم، ويجمع على أَرْجَابٍ، وَرَجَابٍ، وَرَجَبَاتٍ.

شعبان: من تشعب القبائل وتفرقها للغارة ويجمع على شُعَابِينَ وشُعْبَانَاتٍ^(١).

رمضان: من شدة الرمضاء، وهو الحر، يقال: «رَمَضَتِ الْفَصَالُ»: إذا عطشت، ويجمع على رَمَضَانَاتٍ وَرَمَاضِينَ وَأَرْمُضَةً قال: وقول من قال: «إنه اسم من أسماء الله»؛ خطأ لا يعرج عليه، ولا يلتفت إليه.

قلت: قد ورد فيه حديث؛ ولكنه ضعيف، وبينته في أول كتاب الصيام.

شوال: من شالت الإبل بأذنانها للطراق، قال: ويجمع على شَوَالٍ وشَوَاوِيلَ وشَوَّالَاتٍ.

القعدة: بفتح القاف - قلت: وكسرهما - لعودهم فيه عن القتال والترحال، ويجمع على ذَوَاتِ القعدة.

الحجة: بكسر الحاء - قلت: وفتحها - سمي بذلك لإيقاعهم الحج فيه، ويجمع على ذَوَاتِ الحجة.

أسماء الأيام: أولها الأحد، ويجمع على آحاد، وأُحَادٍ ووحد. ثم يوم الإثنين، ويجمع على أَثْنَيْنِ. الثلاثاء: يمد، وَيُذَكَّرُ ويؤنث، ويجمع على ثلاثاوات وأثالث. ثم الأربعاء بالمد، ويجمع على أَرْبَاعَاوَاتٍ وَأَرْبَاعٍ. والخميس: يجمع على أخمسة وأخامس، ثم الجمعة - بضم الميم، وإسكانها، وفتحها أيضا - ويجمع على جُمُعٍ وَجُمُوعَاتٍ.

السبت: مأخوذ من السَّبَّ، وهو القطع؛ لانتهاه العدد عنده. وكانت العرب تسمى الأيام أول، ثم أهون، ثم جُبَّارٌ، ثم دبار، ثم مؤنس، ثم العروبة، ثم شيار، قال الشاعر - من العرب العرباء العاربة المتقدمين -:

أَرْجَى أَنْ أَعِيشَ وَأَنْ يَوْمِي بِأَوَّلِ أَوْ بِأَهْوَنِ أَوْ جُبَّارِ
أَوْ التَّالِي دُبَّارٍ فَإِنْ أَفْتُهُ فمؤنس أو عروبة أو شيار

(١) في ك: «وشعابات».

وقوله تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾ : فهذا مما كانت العرب أيضا فى الجاهلية ^(١) تحرمه، وهو الذى كان عليه جمهورهم، إلا طائفة منهم يقال لهم: «البَّسَل»، كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر، تعمقا وتشديداً.

وأما قوله: «ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان»، [فإنما أضافه إلى مضر، ليبين صحة قولهم فى رجب أنه الشهر الذى بين جمادى وشعبان]^(٢)، لا كما كانت تظنه ربيعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذى بين شعبان وشوال، وهو رمضان اليوم، فبين، عليه [الصلاة و]^(٢) السلام، أنه رجب مضر لا رجب ربيعة. وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة، ثلاثة سرّد وواحد فرد؛ لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، فحرم قبل شهر الحج شهر، وهو ذو القعدة؛ لأنهم يقعدون فيه عن القتال، وحُرّم شهر ذى الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشغلون فيه بأداء المناسك، وحرم بعده شهر آخر، وهو المحرم؛ ليرجعوا فيه إلى نائى أقصى بلادهم آمنين، وحرم رجب فى وسط الحول، لأجل زيارة البيت والاعتماد به، لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب، فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمناً.

وقوله: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أى: هذا هو الشرع المستقيم، من امثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم، والحذو بها على ما سبق فى كتاب الله الأول.

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ أى: فى هذه الأشهر المحرمة؛ لأنه أكد وأبلغ فى الإثم من غيرها، كما أن المعاصى فى البلد الحرام تضاعف، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام؛ ولهذا تغلظ فيه الدية فى مذهب الشافعى، وطائفة كثيرة من العلماء، وكذا فى حق من قتل فى الحرم أو قتل ذا محرم.

وقال حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، فى قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ قال: فى الشهور كلها.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ الآية: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾: فى كلهن، ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حراما، وعظم حرّماتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم.

وقال قتادة فى قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾: إن الظلم فى الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزراً، من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيما، ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء. قال: إن الله اصطفى صفّايا من خلقه، اصطفى من الملائكة رسلا، ومن الناس رسلا، واصطفى من الكلام ذكره، واصطفى من الأرض المساجد، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم،

(٢، ٣) زيادة من ت، أ.

(١) فى ت، ك، أ: «جاهليتها».

واصطفى من الأيام يوم الجمعة، واصطفى من الليالي ليلة القدر، فَعَظَّمُوا ما عَظَّمَ اللهُ، فإنما تُعَظَّمُ الأمور^(١) بما عَظَّمَهَا اللهُ به عند أهل الفهم وأهل العقل.

وقال الثوى، عن قيس بن مسلم، عن الحسن بن محمد بن الحنفية: بألاً تحرموهن كحرمتهن^(٢).

وقال محمد بن إسحاق: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ﴾ أى: لا تجعلوا حرامها حلالاً ولا حلالها حراماً، كما فعل أهل الشرك، فإنما النسيء الذى كانوا يصنعون من ذلك، زيادة فى الكفر ﴿يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [التوبة: ٣٧].

وهذا القول اختيار ابن جرير.

وقوله: وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً أى: جميعكم^(٣)، ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ أى: جميعهم، ﴿وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقد اختلف العلماء فى تحريم ابتداء القتال فى الشهر الحرام: هل هو منسوخ أو محكم؟ على قولين:

أحدهما - وهو الأشهر: أنه منسوخ؛ لأنه تعالى قال هاهنا: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ﴾، وأمر بقتال المشركين وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمراً عاماً، فلو كان محرماً ما فى الشهر الحرام لأوشك أن يقيد به بانسلاخها؛ ولأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف فى شهر حرام - وهو ذو القعدة - كما ثبت فى الصحيحين: أنه خرج إلى هوازن فى شوال، فلما كسرههم واستفاء أموالهم، ورجع فلَّهم، فلجؤوا إلى الطائف - عمَد إلى الطائف فحاصرها أربعين يوماً، وانصرف ولم يفتحها^(٤) فثبت أنه حاصر فى الشهر الحرام.

والقول الآخر: أن ابتداء القتال فى الشهر الحرام حرام، وأنه لم ينسخ تحريم الحرام، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [الآية]^(٥) [المائدة: ٢]، وقال: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ الآية [البقرة: ١٩٤]، وقال: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [الآية]^(٦) [التوبة: ٥٠].

وقد تقدم أنها الأربعة المقررة فى كل سنة، لا أشهر التسيير على أحد القولين.

وأما قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ فيحتمل أنه منقطع عما قبله، وأنه حكم مستأنف، ويكون من باب التهيج والتحضيض، أى: كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم فاجتمعوا أنتم أيضاً لهم إذا حاربتموهم، وقاتلوهم بنظير ما يفعلون، ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال

(١) فى ت، أ: يعظم من الأمور.

(٢) فى ت: «لحرمتهن»

(٣) فى ت: «جميعهم».

(٤) (٥، ٦) زيادة من ت، ك، أ.

(٤) فى ت: «يفتحها».

المشركين فى الشهر الحرام إذا كانت البداية منهم، كما قال تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ الآية [البقرة: ١٩١]، وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف، واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام، فإنه من ^(١) تنمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف، فإنهم هم الذين ابتدؤوا القتال، وجمعوا الرجال، ودعوا إلى الحرب والنزال، فعندها قصدهم رسول الله ﷺ كما تقدم، فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم، فنالوا من المسلمين، وقتلوا جماعة، واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريبا من أربعين يوما. وكان ابتداءه فى شهر حلال، ودخل الشهر الحرام، فاستمر فيه أياما، ثم قفل عنهم لأنه يغتفر فى الدوام ما لا يغتفر فى الابتداء، وهذا هو أمر مقرر، وله نظائر كثيرة، والله أعلم. ولنذكر الأحاديث الواردة فى ذلك ^(٢) وقد حررنا ذلك فى السيرة، والله أعلم ^(٣).

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)﴾.

هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم فى شرع الله بآرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله، فإنهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة فى التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم وتأخيرهم إلى صفر، فيحلون الشهر الحرام، ويحرمون الشهر الحلال، ليواطئوا عدة الأشهر الأربعة ^(٤)، كما قال شاعرهم - وهو عمير بن قيس المعروف - بجذل الطعان:

لَقَدْ عَلِمْتَ مَعْدَ أَنْ قَوْمِي	كِرَامُ النَّاسِ أَنَّ لَهُمْ كِرَامًا
أَلْسَنَا النَّاسِيْنَ عَلَى مَعْدَ	شُهُورَ الْحِلِّ نَجْعَلُهَا حَرَامًا
فَأَيَّ النَّاسِ لَمْ تَدْرِكْ بَوْتَر؟	وَأَيَّ النَّاسِ لَمْ نُعْلِكْ لَجَامًا؟ ^(٥)

(١) فى ت، أ: «فى».

(٢) كذا ولم أجد شيئا من ذلك، ورفع فى هـ، ك فراغ قدر أربعة أسطر، ووصل الكلام فى باقى النسخ.

(٣) فى ك: «والحمد لله».

(٤) فى ك، أ: «ليواطئوا عدة ما حرم الله الأشهر الأربعة».

(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٤٥).

قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ قال: النسِيء أن جنادة بن عوف بن أمية الكنانى، كان يوافى الموسم فى كل عام، وكان يكنى «أبا ثُمَامَةَ»، فينادى: ألا إن أبا ثُمَامَةَ لا يُحَاب ولا يُعَاب، إلا وإن صفر العام الأول حلال. فيحله للناس، فيحرم صفرا عاما، ويحرم المحرم عاما، فذلك قول الله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [إلى قوله: ﴿الْكَافِرِينَ﴾]. وقوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾^(١)، يقول: يتركون المحرم عاما، وعاما يحرمونه.

وروى العوفى عن ابن عباس نحوه.

وقال ليث بن أبى سليم، عن مجاهد، كان رجل من بنى كنانة يأتى كل عام إلى الموسم على حمار له، فيقول: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّى لَا أَعَاب وَلَا أَحَاب، وَلَا مَرَدَّ لِمَا أَقُول، إِنَّا قَدْ حَرَّمْنَا المحرم، وأخرنا صفر. ثم يجىء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته، ويقول: إِنَّا قَدْ حَرَّمْنَا صفر، وأخرنا المحرم. فهو قوله: ﴿لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾، قال: يعنى الأربعة ﴿فِيحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾، لتأخير هذا الشهر الحرام.

وروى عن أبى وائل، والضحاك، وقتادة نحو هذا.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ الآية، قال: هذا رجل من بنى كنانة يقال له: «الْقَلَمَس»، وكان فى الجاهلية، وكانوا فى الجاهلية لا يغير بعضهم على بعض فى الشهر الحرام، يلقي الرجل قاتل أبيه ولا يمدُّ إليه يده، فلما كان هو، قال: اخرجوا بنا. قالوا له: هذا المحرم ! قال: ننسئه العام، هما العام صفرا، فإذا كان العام القابل قضينا جعلناهما مُحَرَّمَيْن. قال: ففعل ذلك، فلما كان عام قابل قال: لا تغزوا فى صفر، حرّموه مع المحرم، هما محرمان.

فهذه صفة غريبة فى النسِيء، وفيها نظر؛ لأنهم فى عام إنما يحرمون على هذا ثلاثة أشهر فقط، وفى العام الذى يليه يحرمون خمسة أشهر، فأين هذا من قوله تعالى: ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾؟.

وقد روى عن مجاهد صفة أخرى غريبة أيضا، فقال عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن ابن أبى نَجِيج، عن مجاهد فى قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ الآية، قال: فرض الله، عز وجل، الحج فى ذى الحجة. قال: وكان المشركون يسمون الأشهر ذا الحجة، والمحرم، وصفر، وربيع، وربيع، وجمادى، وجمادى، ورجب، وشعبان، ورمضان، وشوالا^(٢)، وذو القعدة. وذو الحجة يحجون فيه مرة أخرى ثم يسكتون عن المحرم ولا يذكرونه، ثم يعودون فيسمون صفر صفر، ثم يسمون رجب جمادى الآخرة، ثم يسمون شعبان رمضان، ثم يسمون شوالا رمضان، ثم يسمون ذو القعدة شوالا،

(١) زيادة من ت، ك، أ، والطبرى. (٢) فى ، أ: «وشوال».

ثم يسمون ذا الحجة ذا القعدة، ثم يسمون المحرم ذا الحجة، فيحجون فيه، واسمه عندهم ذو^(١) الحجة، ثم عادوا بمثل هذه القصة فكانوا يحجون في كل شهر عامين، حتى وافق حجة أبي بكر الآخر من العامين في القعدة^(٢)، ثم حج النبي ﷺ حجته التي حج، فوافق ذا الحجة، فذلك حين يقول النبي ﷺ في خطبته: «إن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض».

وهذا الذي قال مجاهد فيه نظر أيضاً، وكيف تصح حجة أبي بكر وقد وقعت في ذي القعدة، وأنى هذا؟ وقد قال الله تعالى: «وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ» الآية [التوبة: ٣]، وإنما نودى بذلك في حجة أبي بكر، فلو لم تكن في ذي الحجة لما قال تعالى: «يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ»، ولا يلزم من فعلهم النسيء هذا الذي ذكره، من دوران السنة عليهم، وحجهم في كل شهر عامين؛ فإن النسيء حاصل بدون هذا، فإنهم لما كانوا يحلون شهر المحرم عاما يحرمون عوضه صفر، وبعده ربيع وربيع إلى آخر [السنة والسنة بحالها على نظامها وعدتها وأسماء شهورها ثم في العام القابل يحرمون المحرم ويتركونه على تحريمه، وبعده صفر، وربيع وربيع إلى آخرها]^(٣) فيحلونه عاما ويحرمونه عاما؛ ليوطنوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله، أى: فى تحريم أربعة أشهر من السنة، إلا أنهم تارة يقدمون تحريم الشهر الثالث من الثلاثة المتوالية وهو المحرم، وتارة ينسئون إلى صفر، أى: يؤخرونه. وقد قدمنا الكلام على قوله ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر، أى: أن الأمر فى عدة^(٤) الشهور وتحريم ما هو محرم منها، على ما سبق فى كتاب الله من العدد والتوالى، لا كما يعتمد به جهلة العرب، من فصلهم تحريم بعضها بالنسيء عن بعض، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا صالح بن بشر بن سلمة الطبراني، حدثنا مكى بن إبراهيم، حدثنا موسى بن عبيدة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أنه قال: وقف رسول الله ﷺ بالعقبة، فاجتمع إليه من شاء الله من المسلمين، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل^(٥)، ثم قال: «وإنما النسيء من الشيطان، زيادة فى الكفر، يضل به الذين كفروا، يحلون عاماً ويحرمونه عاماً». فكانوا يحرمون المحرم عاماً، ويستحلون صفر^(٦)، ويستحلون المحرم، وهو النسيء^(٧).

وقد تكلم الإمام محمد بن إسحاق على هذا فى كتاب «السيرة» كلاماً جيداً ومفيداً حسناً، فقال: كان أول من نسأ الشهور على العرب، فأحل منها ما حرم الله، وحرم منها ما أحل الله، عز وجل، «الْقَلَمْس»، وهو: حذيفة بن عبد مَذْرَكَة فُقَيْم^(٨) بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن

(١) فى ك: «ذا».

(٢) فى ك، أ: «ذى القعدة».

(٣) زيادة من ت، ك، أ.

(٤) فى ت: «هذه».

(٥) فى ت، أ: «بما هو أهله».

(٦) فى ت، ك، أ: «صفر منه».

(٧) ورواه أبو الشيخ الأصبهاني كما فى الدر المنثور (١٨٨/٥).

(٨) فى ت، ك، أ: «عبد بن فقيم».

كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، ثم قام بعده على ذلك ابنه عبّاد ثم من بعد عبّاد ابنه قلع بن عباد، ثم ابنه أمية بن قلع، ثم ابنه عوف بن أمية، ثم ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف، وكان آخرهم، وعليه قام الإسلام. فكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه، فقام فيهم خطيباً، فحرم رجبا، وذا القعدة، وذا الحجة، ويحل المحرم عاما، ويجعل مكانه صفر، ويحرمه عاما ليواطئ عدة ما حرم الله، فيحل ما حرم الله، يعنى: ويحرم ما أحل الله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)﴾.

هذا شروع فى عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، حين طابت الثمار والظلال فى شدة الحر وحمارة^(١) القيط، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى: إذا دعيتم إلى الجهاد فى سبيل الله ﴿اتَّأَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أى: تكاسلتم وملتم إلى المقام فى الدعة والخفض وطيب الثمار، ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أى: ما لكم فعلتم^(٢) هكذا أرضاً منكم بالدنيا بدلا من الآخرة؟

ثم زهد تبارك وتعالى فى الدنيا، ورغب فى الآخرة، فقال: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، كما قال الإمام أحمد.

حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالا: حدثنا إسماعيل بن أبى خالد، عن قيس، عن المستورد أخى بنى فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أصبعه هذه فى اليم، فلينظر بم ترجع؟»^(٣). وأشار بالسبابة. انفرد بإخراجه مسلم^(٤).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا بشر بن مسلم بن^(٥) عبد الحميد الحمصى، حدثنا الربيع بن رَوْح، حدثنا محمد بن خالد الوهبي، حدثنا زياد - يعنى الجصاص - عن أبى عثمان قال: قلت: يا أبا هريرة، سمعت من إخوانى بالبصرة أنك تقول: سمعت نبي الله يقول: «إن الله يجزى بالحسنة ألف ألف حسنة» قال أبو هريرة: بل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يجزى بالحسنة ألفى ألف

(١) فى أ: «وحمارة». (٢) فى ت، ك، أ: «صنعتم».

(٣) فى أ: «يرجع».

(٤) المسند (٢٢٨/٤) وصحيح مسلم برقم (٢٨٥٨).

(٥) فى أ: «عن».

حسنة»، ثم تلا هذه الآية: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ^(١) الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٢).

فالدنيا ما مضى منها وما بقى منها عند الله قليل.

وقال [سفيان]^(٣) الثوري، عن الأعمش في الآية: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال: كزاد الراكب.

وقال عبد العزيز بن أبي حازم^(٤)، عن أبيه: لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة قال: ائتوني بكفني الذي أكفن فيه، أنظر إليه^(٥). فلما وضع بين يديه نظر إليه فقال: أمالي من كبير^(٦) ما أخلف من الدنيا إلا هذا؟ ثم ولى ظهره فبكى وهو يقول أف لك من دار. إن كان كثير لكليل، وإن كان قليل لك قصير، وإن كنا منك لفي غرور.

ثم تواعد تعالى على ترك الجهاد فقال: ﴿إِلَّا تَتَفَرُّوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، قال ابن عباس: استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب، فتناقلوا عنه، فأمسك الله عنهم القطر فكان عذابهم.

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أى: لنصرة نبيه وإقامة دينه، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ أى: ولا تضروا الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد، ونكولكم وتناقلكم عنه، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى: قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم.

وقد قيل: إن هذه الآية، وقوله: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، وقوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠] إنهن منسوخات بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٢]، روى هذا عن ابن عباس، وعكرمة، والحسن، وزيد بن أسلم. ورده^(٧) ابن جرير وقال: إنما هذا فيمن دعاهم رسول الله ﷺ إلى الجهاد، فتعين عليهم ذلك، فلو تركوه لعوقبوا عليه.

وهذا له اتجاه، والله [سبحانه و]^(٨) تعالى أعلم [بالصواب]^(٩).

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ

(١) فى ت، ك، أ: «ما الحياة» وهو خطأ.

(٢) ورواه عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد، وابن مردويه فى تفسيره كما فى الدر المنثور (١٩٣/٥).

(٣) زيادة من ت، ك، أ.

(٤) فى أ: «حاتم».

(٥) فى ت: «فيه».

(٦) فى ت، ك، أ: «كثير».

(٧) فى أ: «ورواه».

(٨، ٩) زيادة من ت، أ.

الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ .

يقول تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ﴾ أى: تنصروا رسوله، فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه، كما تولى نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا اثْنَيْنِ [إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ]﴾^(١) أى: عام الهجرة، لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه، فخرج منهم هارباً صحبة صديقه وصاحبه أبى بكر بن أبى قحافة، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا فى آثارهم، ثم يسيرا نحو المدينة، فجعل أبوبكر، رضى الله عنه، يجزع أن يطَّلِعَ عليهم أحد، فيخلص إلى الرسول، عليه السلام^(٢)، منهم أذى، فجعل النبى ﷺ يُسَكِّنُهُ وَيَثْبِتُهُ ويقول: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما»، كما قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، أنبأنا ثابت، عن أنس أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي ﷺ، ونحن فى الغار: لو أن أحدهم^(٣) نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. قال: فقال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما»

أخرجاه فى الصحيحين^(٤).

ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ أى: تأييده ونصره عليه، أى: على الرسول فى أشهر القولين: وقيل: على أبى بكر، وروى عن ابن عباس وغيره، قالوا: لأن الرسول لم تزل معه سكينه، وهذا لا ينافى تجدد سكينه خاصة بتلك الحال؛ ولهذا قال: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ أى: الملائكة، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾.

قال ابن عباس: يعنى ﴿كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: الشرك و﴿كَلِمَةَ اللَّهِ﴾ هى: لا إله إلا الله.

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى، رضى الله عنه، قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاقل حمية، ويقاقل رياء، أى ذلك فى سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله»^(٥).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أى: فى انتقامه وانتصاره، منيع الجنب، لا يُضَامُ من لاذ ببابه، واحتمى بالتمسك بخطابه، ﴿حَكِيمٌ﴾ فى أقواله وأفعاله.

﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤١).

قال سفيان الثوري، عن أبيه، عن أبى الضحى مسلم بن صبيح: هذه الآية: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾

(١) زيادة من ك. (٢) فى ك: «رسول الله ﷺ». (٣) فى ت: «أحدًا».

(٤) المسند (٤/١) وصحيح البخارى برقم (٣٦٥٣) وصحيح مسلم برقم (٢٣٨١).

(٥) صحيح البخارى برقم (٢٨١٠) وصحيح مسلم برقم (١٩٠٤).

أول ما نزل من سورة براءة.

وقال معتمر بن سليمان، عن أبيه قال: زعم حَضْرَمِي أنه ذكر له أن ناساً كانوا عسى أن يكون أحدهم عليلاً أو كبيراً، فيقول: إني لا آثم، فأنزل الله: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ الآية.

أمر الله تعالى بالنفير العام مع الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، عام غزوة تبوك، لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وَحْتَمَّ على المؤمنين في الخروج معه على كل حال في الْمُنْشَطِ والمَكْرَةِ والعسر واليسر، فقال: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

وقال علي بن زيد، عن أنس، عن أبي طلحة: كهولاً وشباباً^(١)، ما أسمع الله عَذَرَ أحداً، ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قُتِلَ.

وفى رواية: قرأ^(٢) أبو طلحة سورة براءة، فأتى على هذه الآية: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فقال: أرى ربنا يستنفرنا شيوخاً وشباباً^(٣)، جهزوني يا بنى. فقال بنوه: يرحمك الله، قد غزوت مع رسول الله حتى مات، ومع أبى بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك. فأبى، فركب البحر فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفنه فيها إلا بعد تسعة أيام، فلم يتغير، فدفنوه بها^(٤).

وهكذا روى عن ابن عباس، وعِكْرِمَةَ وأبى صالح، والحسن البصرى، وشَمْرُ بن عطية، ومقاتل ابن حِيَّان، والشعبي وزيد بن أسلم: أنهم قالوا في تفسير هذه الآية: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ قالوا: كهولاً وشباباً^(٥). وكذا قال عكرمة والضحاك، ومقاتل بن حيان، وغير واحد.

وقال مجاهد: شباباً^(٦) وشيوخاً، وأغنياء ومساكين. كذا قال أبو صالح، وغيره.

وقال الحكم بن عتيبة: مشاغيل وغير مشاغيل.

وقال العوفى، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يقول: انفروا نشاطاً وغير نشاط. وكذا قال قتادة.

وقال ابن أبى نَجِيج، عن مُجَاهِد: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ قالوا: فإن فينا الثقيل، وذا الحاجة، والضيعة^(٧) والشغل، والمتيسر به أمر، فأنزل الله وأبى أن يعذرهم دون أن ينفروا خفافاً وثقالاً وعلى ما كان منهم.

(٣) فى أ: «وشبانا».

(٦) فى أ: «شبابا».

(٢) فى ت، أ: «وهو فى رواية أنه قال: «.

(٥) فى ت، ك، أ: «وشبانا».

(١) فى أ: «وشبانا».

(٤) فى ت، ك: «فيها».

(٧) فى ت: «والصنعة».

وقال الحسن بن أبي الحسن البصري أيضاً: في العسر واليسر. وهذا كله من مقتضيات العموم في الآية، وهذا اختيار ابن جرير.

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي: إذا كان النفير إلى دُروب الروم نفرَ الناس إليها خفافاً وركبانا، وإذا كان النفير إلى هذه السواحل نفروا إليها خفافاً وثقالاً، ركبانا ومشاة. وهذا تفصيل في المسألة.

وقد روى عن ابن عباس، ومحمد بن كعب، وعطاء الخراساني وغيرهم أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله.

وقال السدي قوله: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يقول: غنيا وفقيرا، وقويا وضعيفا فجاءه رجل يومئذ، زعموا أنه المقداد، وكان عظيما سميئا، فشكا إليه وسأله أن يأذن له، فأبى فنزلت يومئذ^(١): ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس شأنها فنسخها الله، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١].

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا أيوب، عن محمد قال: شهد أبو أيوب مع رسول الله ﷺ بدرا ثم لم يتخلف عن غزاة للمسلمين إلا وهو في آخرين إلا عاما واحداً قال: وكان أبو أيوب يقول: قال الله: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، فلا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً^(٢).

وقال ابن جرير: حدثني سعيد بن عمرو السكوني، حدثنا بَقِيَّة، حدثنا حَرِيز، حدثني عبدالرحمن بن ميسرة، حدثني أبو راشد الحبراني قال: وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله ﷺ جالسا على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص، وقد فضل عنها من عظمه، يريد الغزو، فقلت له: لقد أعذر الله إليك فقال: أتت علينا سورة «البحوث»^(٣): ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾^(٤).

وبه قال حرير: حدثني حبان بن زيد الشرعبي قال: نَفَرْنَا مع صفوان بن عمرو، وكان والياً على حمص قَبْلَ الأفسوس، إلى الجراجمة فلقيت شيخاً كبيراً همّاً، وقد سقط حاجباه على عينيه، من أهل دمشق، على راحلته، فيمن أغار. فأقبلت إليه^(٥) فقلت: يا عم، لقد أعذر الله إليك. قال: فرفع حاجبيه^(٦) فقال: يا بن أخي، استنفرنا الله خفافاً وثقالاً، إنه من يحبه الله يبتليه، ثم يعيده الله فييقه^(٧). وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر، ولم يعبد إلا الله، عز وجل^(٨).

(١) في أ: «فنزلت هذه الآية».

(٢) تفسير الطبري (٢٦٧/١٤).

(٣) في هـ، ت، د: «البعوث» والمثبت من الطبري.

(٤) تفسير الطبري (٢٦٨/١٤).

(٥) في ت، أ: «عليه».

(٦) في ت: «حاجبه».

(٧) في أ: «فيقته».

(٨) رواه الطبري في تفسيره (٢٦٤/١٤).

ثم رغب تعالى في النفقة في سبيله، وبذل المهج في مرضاته ومرضاة رسوله، فقال: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى: هذا خير لكم في الدنيا والآخرة، ولأنكم تغرمون في النفقة قليلاً، فيغنيكم الله أموال عدوكم في الدنيا، مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة، كما قال النبي ﷺ: «وتكفل الله للمجاهد^(١) في سبيله إن^(٢) توفاه أن يدخله الجنة، أو يرده إلى منزله ناثلاً ما نال من أجر أو غنيمة»^(٣).

ولهذا قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].
ومن هذا القبيل ما رواه الإمام أحمد:

حدثنا محمد ابن أبى عدي، عن حميد، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «أسلم». قال: أجدنى كارهاً. قال: «أسلم وإن كنت كارهاً»^(٤).

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^(٥).

يقول تعالى موبخاً للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، وقعدوا عن النبي ﷺ بعد ما استأذنه في ذلك، مظهرين أنهم ذوو أعذار، ولم يكونوا كذلك، فقال: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ قال ابن عباس: غنيمة قريبة، ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أى: قريباً أيضاً، ﴿لَاتَّبَعُوكَ﴾ أى: لكانوا جاؤوا معك لذلك، ﴿وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ أى: المسافة إلى الشام، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ أى: لكم إذا رجعت إليهم ﴿لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أى: لو لم تكن لنا أعذار لخرجنا معكم، قال الله تعالى: ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾^(٦) لا يَسْتَنْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ^(٧) إِنَّمَا يَسْتَنْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ^(٨)﴾.

(١) فى ت: «للمجاهدين».

(٢) فى ت: «بأن».

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٤٦٣) ومسلم فى صحيحه برقم (١٨٧٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٤) المسند (١٠٩/٣).

(٥) فى أ: «رسول الله».

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو حصين بن [يحيى بن] ^(١) سليمان الرازي ^(٢)، حدثنا سفيان بن عيينة، عن مسعر ^(٣)، عن عون قال: هل سمعتم بمعاقبة أحسن من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاقبة فقال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾. وكذا قال مورك العجلي وغيره.

وقال قتادة: عاقبه كما تسمعون، ثم أنزل التي في سورة النور، فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢]. وكذا روى عن عطاء الخراساني.

وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذنوا رسول الله فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا.

ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الْذِينَ صدَّقُوا﴾ أي: في إبداء العذار، ﴿وَتَعْلَمَ﴾ ^(٤) الكاذبين يقول تعالى: هلا تركتهم لما استأذنوك، فلم تأذن لأحد منهم في القعود، لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو [وإن لم تأذن لهم فيه. ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو] ^(٥) أحد يؤمن بالله ورسوله، فقال: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ أي: في القعود عن الغزو ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾؛ لأن أولئك يرون الجهاد قربة، ولما ندبهم إليه بادروا وامتثلوا. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾. إنما يستأذنك أي: في القعود عن لا عذر له ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم، ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: شككت في صحة ما جئتهم به، ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي: يتحIRON، يُقَدِّمُونَ رجلا ويؤخرون أخرى، وليست لهم قدم ثابتة في شيء، فهم قوم حيارى هلكى، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٤٦) ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٤٧).

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ أي: معك إلى الغزو ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ أي: لكانوا تأهبوا له، ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ أي: أبغض أن يخرجوا معك ^(٦) قدراً، ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي: أخرجهم، ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أي: قدراً.

(١) زيادة من الجرح والتعديل ٣٦٤/٢/٤. استفاداً من هامش ط. الشعب.

(٢) في أ: «الداري». (٣) في أ: «مشرف». (٤) في ت: «ويعلم».

(٥) زيادة من ت، ك، أ. (٦) في ت، ك: «معكم».

ثم بين [الله تعالى]^(١) وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أى: لأنهم جناء مخذولون، ﴿وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أى: ولا أسرعوا السير والمشى بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة، ﴿وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ﴾ أى: مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم، يستنصحنونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدى هذا إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير.

وقال مجاهد، وزيد بن أسلم، وابن جرير: ﴿وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ﴾ أى: عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم.

وهذا لا يبقى له اختصاص لخروجهم معهم، بل هذا عام فى جميع الأحوال، والمعنى الأول أظهر فى المناسبة بالسياق، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين.

وقال محمد بن إسحاق: كان فيما بلغنى - من استأذن - من ذوى الشرف منهم: عبد الله بن أبى ابن سلول والجد بن قيس، وكانوا أشرفاً فى قومهم، فبسطهم الله، لعلمه بهم: أن يخرجوا معه^(٢)، فيفسدوا عليه جنده. وكان فى جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه، لشرفهم فيهم، فقال: ﴿وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ﴾^(٣).

ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، فأخبر بأنه [يعلم]^(٤) ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾، فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومع هذا ما خرجوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيئًا. وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا. وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٨]، والآيات فى هذا كثيرة.

﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٤٨).

يقول تعالى محرضاً لنبيه عليه السلام على المنافقين: ﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أى: لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم فى كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماله مدة طويلة،

(١) زيادة من ك.

(٢) فى ت: «معهم».

(٣) رواه الطبري فى تفسيره (٢٨١/١٤).

(٤) زيادة من ت، ك.

وذلك أول مقدم النبي ﷺ المدينة رمته العرب عن قوس واحدة، وحاربتة يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته، قال عبد الله بن أبي وأصحابه: هذا أمر قد تَوَجَّه. فدخلوا في الإسلام ظاهراً، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم^(١) ذلك وساءهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٤٩).

يقول تعالى: ومن المنافقين من يقول لك يا محمد: ﴿اِئْذَنْ لِّي﴾ في القعود ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ بالخروج معك، بسبب الجوارى من نساء الروم، قال الله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أى: قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا. كما قال محمد بن إسحاق، عن الزهري، ويزيد بن رومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم قالوا: قال رسول الله ﷺ ذات يوم، وهو فى جهازه، للجد ابن قيس أخى بنى سلمة: «هل لك يا جدُّ العام فى جلاذ بنى الأصفر؟» فقال: يا رسول الله، أو تأذن لى ولا تفتنى، فوالله لقد عرف قومى ما رجل أشدَّ عجباً بالنساء منى، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر لا أصبر عنهن. فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنت لك». ففى الجد بن قيس نزلت هذه: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ الآية، أى: إن كان إنما يخشى من نساء بنى الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه، أعظم^(٢).

وهكذا روى عن ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: أنها نزلت فى الجد بن قيس. وقد كان الجد ابن قيس هذا من أشرف بنى سلمة، وفى الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لهم: «من سيدكم يا بنى سلمة؟» قالوا: الجد بن قيس، على أنا نبخله^(٣). فقال رسول الله ﷺ: «وَأَيُّ دَاءٍ أَدَوَّ مِنَ الْبَخْلِ، وَلَكِنْ سَيِّدُكُمْ الْفَتَى الْأَبْيَضُ الْجَعْدُ بَشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ».

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أى: لا محيد لهم عنها، ولا محيص، ولا مهرب.

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ (٥٠) قُلْ لَّنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٥١).

يعلم تبارك وتعالى نبيه بعداوة هؤلاء له؛ لأنه مهما أصابه من ﴿حَسَنَةٍ﴾ أى: فتح ونصر وظفر

(١) فى ت: «أغاظهم».

(٢) رواه عنهم الطبرى فى تفسيره (٢٨٧/١٤).

(٣) فى ت: «نبجله».

على الأعداء، مما يسره ويسر أصحابه، ساءهم ذلك، ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ﴾ أى: قد احترزنا من متابعتك من قبل هذا، ﴿وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾. فأرشد الله تعالى رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، إلى جوابهم فى عداوتهم هذه التامة، فقال: ﴿قُلْ﴾ أى: لهم ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أى: نحن تحت مشيئة الله، وقدره، ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أى: سيدنا وملجؤنا ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: ونحن متوكلون عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بَنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ٥٢﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ٥٤﴾.

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بَنَا؟﴾ أى: تنتظرون بنا ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾: شهادة أو ظفر بكم. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم. ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾، أى: ننتظر بكم هذا أو هذا، إما أن يصيبكم الله بقارعة من عنده أو بأيدينا، بسبى أو بقتل، ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾.

وقوله: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أى: مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين ﴿لَّنْ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك، وهو أنهم لا يتقبل منهم، ﴿لَأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ أى: [قد كفروا]^(١)، والأعمال إنما تصح بالإيمان، ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ أى: ليس لهم قصد صحيح، ولا همة فى العمل، ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ﴾ نفقة ﴿إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

وقد أخبر الصادق المصدوق أن الله لا يمل حتى تملوا، وأنه طيب لا يقبل إلا طيباً؛ فلهذا لا يتقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملاً، لأنه إنما يتقبل من المتقين.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ٥٥﴾.

يقول تعالى لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ

(١) زيادة من أ.

وَأَبْقَى ﴿طه: ١٣١﴾، وقال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: قال الحسن البصري: بزكاتها، والنفقة منها فى سبيل الله.

وقال قتادة: هذا من المقدم والمؤخر، تقديره: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم، [فى الحياة الدنيا]^(١) إنما يريد الله ليعذبهم بها [فى الآخرة]^(٢).

واختار ابن جرير قول الحسن، وهو القول القوى الحسن.

وقوله: ﴿وَتَرَهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أى: ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر، ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم، عياداً بالله من ذلك، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧)﴾.

يخبر تعالى نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، عن جزعهم وفزعهم وفرقهم وهلعهم أنهم ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ ميمناً مؤكدة، ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ أى: فى نفس الأمر، ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ أى: فهو الذى حملهم على الحلف. ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا﴾ أى: حصناً يتحصنون به، وحرزاً يحترزون به، ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ وهى التى فى الجبال، ﴿أَوْ مُدْخَلًا﴾ وهو السرب فى الأرض والنفق. قال ذلك فى الثلاثة ابن عباس، ومجاهد، وكتادة: ﴿لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أى: يسرعون فى ذهابهم عنكم، لأنهم إنما يخالطونكم كرها لا محبة، وودوا أنهم لا يخالطونكم، ولكن للضرورة أحكام؛ ولهذا لا يزالون فى هم وحزن وغم؛ لأن الإسلام وأهله لا يزال فى عزّ ونصر ورفعة؛ فلهذا كلما سرّ المؤمنون ساءهم ذلك، فهم يودون ألا يخالطوا المؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩)﴾.

(١، ٢) زيادة من ت، ك، أ.

يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أى ومن المنافقين ﴿مَنْ يَلْمِزُكَ﴾ أى: يعيب عليك ﴿فِي﴾ قَسَمِ ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ إذا فرقتها، ويتهمك فى ذلك، وهم المتهمون^(١) المأبونون، وهم مع هذا لا ينكرون للدين، وإنما ينكرون لحظ أنفسهم؛ ولهذا إن ﴿أَعْطُوا مِنْهَا رِضًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ أى: يغضبون لأنفسهم.

قال ابن جرير: أخبرنى داود بن أبى عاصم قال: أتى النبى ﷺ بصدقة، فقسمها ها هنا وها هنا حتى ذهبت. قال: ووراءه رجل من الأنصار فقال: ما هذا بالعدل؟ فنزلت هذه الآية.

وقال قتادة فى قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ يقول: ومنهم من يطعن عليك فى الصدقات. وذكر لنا أن رجلاً من [أهل]^(٢) البادية حديث عهد بأعرابية، أتى رسول^(٣) الله ﷺ وهو يقسم ذهباً وفضة، فقال: يا محمد، والله لئن كان الله أمرك أن تعدل، ما عدلت. فقال نبى الله ﷺ: «ويلك. فمن ذا يعدل عليك بعدى». ثم قال نبى الله: «احذروا هذا وأشباهه، فإن فى أمتى أشباه هذا، يقرؤون القرآن لا يجاوز^(٤) تراقيهم، فإذا خرجوا فاقتلوهم، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم». وذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يقول: «والذى نفسى بيده، ما أعطيك شيئا ولا أمنعكموه، إنما أنا خازن».

وهذا الذى ذكره قتادة شبيه بما رواه الشيخان من حديث الزهرى، عن أبى سلمة^(٥)، عن أبى سعيد فى قصة ذى الخويصرة - واسمه حرقوص - لما اعترض على النبى ﷺ حين قسم غنائم حنين، فقال له: اعدل، فإنك لم تعدل. فقال: «لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل». ثم قال رسول الله ﷺ وقد رآه مقفياً^(٦): «إنه يخرج من ضيضيء هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء» وذكر بقية الحديث^(٧).

ثم قال تعالى مَنِبِّها لهم على ما هو خير من ذلك لهم، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾، فتضمنت هذه الآية الكريمة أدباً عظيماً وسراً شريفاً، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده، وهو قوله: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾. وكذلك الرغبة إلى الله وحده فى التوفيق لطاعة الرسول وامتنال أوامره، وترك زواجه، وتصديق أخباره، والاقتفاء بآثاره.

(١) فى ت: «المبهمون».

(٢) زيادة من ت، ك، أ.

(٣) فى أ: «نبى».

(٤) فى ت: «لا يتجاوز».

(٥) فى ت، أ: «أبى سالم».

(٦) فى ت، أ: «مقفياً».

(٧) صحيح البخارى برقم (٣٦١٠) وصحيح مسلم برقم (١٠٦٤).

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠ ﴾ .

لما ذكر [الله] ^(١) تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي ﷺ ولمزهم إياه في قَسَمِ الصدقات، بين تعالى أنه هو الذى قسمها وبين حكمها، وتولى أمرها بنفسه، ولم يكل قَسَمها إلى أحد غيره، فجزأها لهؤلاء المذكورين، كما رواه الإمام أبو داود فى سننه من حديث عبد الرحمن بن زياد بن أنعم - وفيه ضعف - عن زياد بن نعيم، عن زياد بن الحارث الصدائى، رضى الله عنه، قال: أتيت النبي ﷺ فبايعته، فأتى رجل فقال: اعطنى من الصدقة فقال له: «إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره فى الصدقات حتى حكم فيها هو، فجزأها ثمانية أصناف، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك» ^(٢).

وقد اختلف العلماء فى هذه الأصناف الثمانية: هل يجب استيعاب الدفع إليها أو إلى ما أمكن منها؟ على قولين:

أحدهما: أنه يجب ذلك، وهو قول الشافعى وجماعة.

والثانى: أنه لا يجب استيعابها، بل يجوز الدفع إلى واحد منها، ويعطى جميع الصدقة مع وجود الباقيين. وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف، منهم: عمر، وحذيفة، وابن عباس، وأبو العالية، وسعيد بن جبيرة، وميمون بن مهران.

قال ابن جرير: وهو قول عامة أهل العلم، وعلى هذا فإنما ذكرت الأصناف ها هنا لبيان المصروف لا لوجوب استيعاب الإعطاء.

ولوجوه الحجاج والمآخذ مكان غير هذا، والله أعلم.

وإنما قدم الفقراء ها هنا لأنهم أحوج من البقية على المشهور، لشدة فاقتهم وحاجتهم، وعند أبى حنيفة أن المسكين أسوأ حالا من الفقير، وهو كما قال، قال ابن جرير: حدثنى يعقوب، حدثنا ابن علية، أنبأنا ابن عَوْن، عن محمد قال: قال عمر، رضى الله عنه: الفقير ليس بالذى لا مال له، ولكن الفقير الأخلق الكسب. قال ابن علية: الأخلق: المحارفُ عندنا ^(٣).

والجمهور على خلافه. وروى عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن البصرى، وابن زيد. واختار ابن جرير وغير واحد أن الفقير: هو المتعفف الذى لا يسأل الناس شيئاً، والمسكين: هو الذى يسأل ويطوف ويتبع الناس.

وقال قتادة: الفقير: من به زمانة، والمسكين: الصحيح الجسم.

(١) زيادة من ت.

(٢) سنن أبى داود برقم (١٦٣٠).

(٣) تفسير الطبرى (٣٠٨/١٤).

وقال الثوري، عن منصور، عن إبراهيم: هم فقراء المهاجرين. قال سفيان الثوري: يعني: ولا يُعطى الأعرابُ منها شيئاً.

وكذا روى عن سعيد بن جبير، وسعيد بن عبد الرحمن بن أنزى.

وقال عكرمة: لا تقولوا لفقراء المسلمين مساكين، وإنما المساكين مساكين أهل الكتاب.

ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية.

فأما «الفقراء»، فعن ابن عمرو^(١) قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغنيٍّ ولا لذي مِرَّةٍ سوى». رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي^(٢).

ولأحمد أيضاً، والنسائي، وابن ماجه عن أبي هريرة، مثله^(٣).

وعن عبيد الله بن عدي بن الخيار: أن رجلين أخبراه: أنهما أتيا النبي ﷺ يسألانه من الصدقة، فقلب إليهما البصر، فرأهما جُلدين، فقال: «إن شئتما أعطيتكما، ولا حظَّ فيها لغني ولا لقوى مكتسب».

رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي^(٤) بإسناد جيد قوى.

وقال ابن أبي حاتم في كتاب الجرح [والتعديل]: أبو بكر العبسي قال: قرأ عمر، رضى الله عنه: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾، قال: هم أهل الكتاب^(٥). روى عنه عمر بن نافع، سمعت أبي يقول ذلك^(٦).

قلت: وهذا قول غريب جداً بتقدير صحة الإسناد، فإن أبا بكر هذا، وإن لم ينص أبو حاتم على جهالته، لكنه في حكم المجهول.

وأما المساكين: فعن أبي هريرة، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطواف الذى يطوف على الناس، فتردهُ اللقمة واللقمتان، والتمرَّة والتمرتان». قالوا: فما المسكين^(٧) يا رسول الله؟ قال: «الذى لا يجدُ غنى يغنيه، ولا يُفطنُ له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً».

رواه الشيخان: البخارى ومسلم^(٨).

(١) فى ت، ك، أ: «بن عمر».

(٢) المسند (١٦٤/٢) وسنن أبى داود برقم (١٦٣٤) وسنن الترمذى برقم (٦٥٢).

(٣) المسند (٣٧٧/٢) وسنن النسائى (٩٩/٥) وسنن ابن ماجه برقم (١٨٣٩).

(٤) المسند (٢٢٤/٤) وسنن أبى داود برقم (١٦٣٣) وسنن النسائى (٩٩/٥).

(٥) زيادة من ت، ك، أ.

(٦) الجرح والتعديل (٣٤١/٩) وقد وقع سقط هناك.

(٧) فى أ: «المساكين».

(٨) صحيح البخارى برقم (١٤٧٩) وصحيح مسلم برقم (١٠٣٩).

وأما العاملون عليها: فهم الجبابة والسعاة يستحقون منها قسطا على ذلك، ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة، لما ثبت في صحيح مسلم عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث: أنه انطلق هو والفضل بن عباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة، فقال: «إن الصدقة لا تحمل لمحمد ولا لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس»^(١).

وأما المؤلفات لقلوبهم: فأقسام: منهم من يعطى لئسلم، كما أعطى النبي ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين، وقد كان شهدا مشركا. قال: فلم يزل يعطيني حتى صار أحب الناس إلي بعد أن كان أبغض الناس إلي، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا زكريا بن عدي، أنا^(٢) ابن المبارك، عن يونس، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن صفوان بن أمية قال: أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين، وإنه لأبغض الناس إلي، فما زال يعطيني حتى صار وإنه لأحب الناس إلي.

ورواه مسلم والترمذي، من حديث يونس، عن الزهري، به^(٣).

ومنهم من يُعطى ليحسن إسلامه، ويثبت قلبه، كما أعطى يوم حنين أيضا جماعة من صناديد الطلقاء وأشرفهم: مائة من الإبل، مائة من الإبل وقال: «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه، مخافة أن يكبه الله على وجهه في نار جهنم»^(٤).

وفي الصحيحين عن أبي سعيد: أن عليا بعث إلى النبي ﷺ بذُهْيية في تربتها من اليمن فقسمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعيينة بن بدر، وعلقمة بن علاثة، وزيد الخير، وقال: «أتألفهم»^(٥).

ومنهم من يُعطى لما يرجى من إسلام نظرائه. ومنهم من يُعطى ليحيى الصدقات ممن يليه، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من^(٦) أطراف البلاد. ومحل تفصيل هذا في كتب الفروع، والله أعلم.

وهل تعطى المؤلفات على الإسلام بعد النبي ﷺ؟ فيه خلاف، فروى عن عمر، وعامر الشعبي وجماعة: أنهم لا يُعطون بعده؛ لأن الله قد أعز الإسلام وأهله، ومكَّن لهم في البلاد، وأذل لهم رقاب العباد.

وقال آخرون: بل يُعطون؛ لأنه عليه الصلاة والسلام^(٧) قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن،

(١) صحيح مسلم برقم (١٠٧٢).

(٢) في ك: «أخبرنا».

(٣) المسند (٤٦٥/٦) وصحيح مسلم برقم (٢٣١٣) وسنن الترمذي برقم (٦٦٦).

(٤) صحيح البخاري برقم (١٤٧٨) من حديث سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه.

(٥) صحيح البخاري برقم (٣٣٤٤) وصحيح مسلم برقم (١٠٦٤).

(٦) في أ: «في».

(٧) في أ: «ﷺ».

وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم.

وأما الرقاب: فروى عن الحسن البصري، ومقاتل بن حيان، وعمر بن عبد العزيز، وسعيد بن جبيرة، والنخعي، والزهرى، وابن زيد: أنهم المكاتبون، وروى عن أبي موسى الأشعري نحوه، وهو قول الشافعى والليث.

وقال ابن عباس، والحسن: لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ومالك، وإسحاق، أى: إن الرقاب أعم من أن يعطى المكاتب، أو يشتري رقبة فيعتقها استقلالاً. وقد ورد فى ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة، وأن الله يعتق بكل عضو منها عضواً من مُعتقها حتى الفرج بالفرج، وما ذاك إلا لأن^(١) الجزء من جنس العمل، «وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» [الصافات: ٣٩].

وعن أبى هريرة، رضى الله عنه، أن النبى ﷺ قال: «ثلاثة حق على الله عونهم: الغازى فى سبيل الله، والمكاتب الذى يريد الأداء، والناكح الذى يريد العفاف». رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا أبا داود^(٢).

وفى المسند عن البراء بن عازب قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، دلنى على عمل يقربنى من الجنة ويباعدنى عن النار. فقال: «أعتق النسمة وفك الرقبة». فقال: يا رسول الله، أو ليسا واحداً؟ قال: «لا، عتق النسمة أن تُفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين فى ثمنها»^(٣).

وأما الغارمون: فهم أقسام: فمنهم من تحمّل حمالة أو ضمن ديناً فلزمه فأجحف بماله، أو غرم فى أداء دينه أو فى معصية ثم تاب، فهؤلاء يدفع إليهم. والأصل فى هذا الباب حديث قبيصة بن مخارق الهلالى قال: تحملت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة، فنأمر لك بها». قال: ثم قال: «يا قبيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمّل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها، ثم يمسك. ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش: أو قال: سداداً من عيش - ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوى الحجا من قومه، فيقولون: لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة، حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال سداداً من عيش - فما سواهن من المسألة سحت، يأكلها صاحبها سحتاً». رواه مسلم^(٥).

(١) فى ت: «أن».

(٢) المسند (٢/٢٥١) وسنن الترمذى برقم (١٦٥٥) وسنن النسائى (٦١/٦) وسنن ابن ماجه برقم (٢٥١٨) وقال الترمذى: «هذا حديث حسن».

(٣) المسند (٤/٢٩٩).

(٤) فى ت: «النبى».

(٥) صحيح مسلم برقم (١٠٤٤).

وعن أبي سعيد قال: أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها، فكثر دينه، فقال النبي ﷺ: ^(١) «تصدقوا عليه». فتصدق الناس ^(٢)، فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال النبي ﷺ لغرمائه: «خذوا ما وجدتم، وليس لكم إلا ذلك». رواه مسلم ^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، أنبأنا صدقة بن موسى، عن أبي عمران الجوني، عن قيس بن زيد عن قاضي المصيرين ^(٤)، عن عبد الرحمن بن أبي بكر قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعو الله بصاحب الدين يوم القيامة حتى يوقف بين يديه، فيقول: يا ابن آدم، فيم أخذت هذا الدين؟ وفيم ضيعت حقوق الناس؟ فيقول: يا رب، إنك تعلم أني أخذته فلم أكل ولم أشرب ولم أضيع، ولكن أتى على يدي إما حرق وإما سرق وإما ضيعة. فيقول الله: صدق عبدي، أنا أحق من قضى عنك اليوم. فيدعو الله بشيء فيضعه في كفة ميزانه، فترجح حسناته على سيئاته، فيدخل الجنة بفضل الله ورحمته» ^(٥).

وأما في سبيل الله: فمنهم الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان، وعند الإمام أحمد، والحسن، وإسحاق: والحج من سبيل الله، للحديث.

وكذلك ابن السبيل: وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره، فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال. وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء، فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه. والدليل على ذلك الآية، وما رواه الإمام أبو داود وابن ماجه من حديث مَعْمَر، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد، رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغنى إلا لخمسة: العامل عليها، أو رجل اشتراها بماله، أو غارم، أو غاز في سبيل الله، أو مسكين تصدق عليه منها فأهدى لغنى» ^(٦).

وقد رواه السفينان، عن زيد بن أسلم، عن عطاء مرسلًا. ولأبي داود في عطية العوفى، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغنى إلا في سبيل الله، وابن السبيل، أو جار فقير فيهدى لك أو يدعوك» ^(٧).

وقوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾: أى حكماً مقدراً بتقدير الله وفرضه وقسمه ^(٨)، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى: عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله ويقول ويشرعه ويحكم به،

(١) فى أ: «فقال ﷺ لغرمائه». (٢) فى أ: «الناس عليه».

(٣) صحيح مسلم برقم (١٥٥٦).

(٤) فى أ: «المصيرين».

(٥) المسند (١٩٧/١، ١٩٨).

(٦) سنن أبي داود برقم (١٦٣٥) وسنن ابن ماجه برقم (١٨٤١).

(٧) سنن أبي داود برقم (١٦٣٧) وعطية العوفى ضعيف.

(٨) فى ت، أ: «وقسمته».

لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٦١).

يقول تعالى: ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه ويقولون: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أى: من قال له شيئاً صدقه، ومن حدثه فينا صدقه، فإذا جئنا وحلفنا له صدقنا. روى معناه عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أى: هو أذن خير، يعرف الصادق من الكاذب، ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: ويصدق المؤمنين، ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ أى: وهو حجة على الكافرين؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ (٦٣).

قال قتادة فى قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ﴾ الآية، قال: ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، وإن كان ما يقول محمد حقاً، لهم شر من الحمير. قال: فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد لحق، ولأنت أشر من الحمار. قال: فسعى بها الرجل إلى النبي ﷺ فأخبره، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: «ما حملك على الذى قلت؟» فجعل يلتعن، ويحلف بالله ما قال ذلك. وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب. فأنزل الله، عز وجل: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ (٢) أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾ أى: أَلَمْ يَتَحَقَّقُوا ويعلموا أنه من حاد (٣) الله، أى: شاقه وحاربه وخالفه، وكان فى حدٍّ والله ورسوله فى حدٍّ ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾، أى: مهاناً معذباً، ﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ أى: وهذا هو الذل العظيم، والشقاء الكبير.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ (٦٤).

قال مجاهد: يقولون القول بينهم، ثم يقولون: عسى الله ألا يفشى علينا سرنا هذا. وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا

(١) فى أ: «نبى الله».

(٢) فى ت: «تعلموا».

(٣) فى أ: «يحاد».

يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسِبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ [المجادلة: ٨]. وقال في هذه الآية: ﴿قُلْ اسْتَهِزُّوا إِنَّا لِلَّهِ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أى: إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به، ويبين له^(١) أمركم كما قال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾^(٢) [محمد: ٢٩، ٣٠]؛ ولهذا قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة «الفاضحة»، فاضحة المنافقين.

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾.

قال أبو معشر المدني^(٣)، عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا: قال رجل من المنافقين: ما أرى قُرْآنًا هؤلاء إلا أرغبنا بطونا، وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند اللقاء. فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، فجاء إلى رسول الله وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب. فقال: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ إلى قوله: ﴿مُجْرِمِينَ﴾، وإن رجليه لتسفان^(٤) الحجارة وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ، وهو متعلق بنسعة رسول الله ﷺ.

وقال عبد الله بن وهب: أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عبد الله بن عمر قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس^(٥): ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونا، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء. فقال رجل في المسجد: كذبت، ولكنك منافق. لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن. قال عبد الله بن عمر: وأنا رأيته متعلقاً بحَقَبِ ناقة رسول الله ﷺ تَنكِبُهُ^(٦). الحجارة^(٧)، وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب. ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ. لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

وقد رواه الليث، عن هشام بن سعد، بنحو من هذا^(٨).

وقال ابن إسحاق: وقد كان جماعة من المنافقين منهم ودِيعَةُ بن ثابت، أخو بني أمية بن زيد، من بني عمرو بن عوف، ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له: مُخَشِّن^(٩) بن حُمَيْر يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتَحْسِبُونَ جَلَادَ بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟ والله لكأنا بكم غداً مُقَرَّنِينَ في الجبال، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين، فقال مُخَشِّن^(١٠)

(١) في أ: «الكم». (٢) في أ: «إسراهم» وهو خطأ. (٣) في أ: «المعدني».

(٤) في هـ: «ليشفعان»، وفي أ: «ليشفعان» والمثبت من الطبري.

(٥) في ت، أ: «مجلس يوما». (٦) في ت، أ: «يركبه».

(٧) في ت: «بالحجارة».

(٨) رواه الطبري في تفسيره (٣٣٣/١٤، ٣٣٤).

(٩، ١٠) في أ: «مخشى».

ابن حُمَيْرٍ: والله لو ددت أنى أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة، وإما نَنَقَلْتُ أن ينزل فينا قرآن لمقاتلكم هذه. وقال رسول الله ﷺ - فيما بلغنى - لعمار بن ياسر: «أدرك القوم، فإنهم قد احترقوا، فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى، قلتهم كذا وكذا». فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم، فاتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال ودیعة بن ثابت، ورسول الله ﷺ واقف على راحلته، فجعل يقول وهو آخذ بحقبها: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، [فأنزل الله، عز وجل: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾] ^(١). فقال مُخَشَّن ^(٢) بن حُمَيْرٍ: يا رسول الله، قعد بى اسمى واسم أبى. فكان الذى عفى عنه فى هذه الآية مخشَّن ^(٣) بن حُمَيْرٍ، فسمى ^(٤) عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل ^(٥) شهيدا لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة، فلم يوجد له أثر ^(٦).

وقال قتادة: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ قال: فبينما النبى ﷺ فى غزوة تبوك، وركب من المنافقين يسيرون بين يديه، فقالوا: يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها. هيهات هيهات. فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فقال: «على بهؤلاء النفر». فدعاهم، فقال: «قلتم كذا وكذا». فحلفوا ما كنا إلا نخوض ونلعب.

وقال عكرمة فى تفسير هذه الآية: كان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول: اللهم، إنى أسمع آية أنا أعنى بها، تقشعر منها الجلود، وتحجب منها القلوب، اللهم، فاجعل وفاتى قتلا فى سبيلك، لا يقول أحد: أنا غسلت، أنا كفنت، أنا دفنت. قال: فأصيب يوم اليمامة، فما أحد من المسلمين إلا وقد وجد غيره ^(٧).

وقوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أى: بهذا المقال الذى استهزأتم به ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نَعْدِبُ طَائِفَةٍ﴾ أى: لا يُعْفَى عن جميعكم، ولا بد من عذاب بعضكم، ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أى: مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨).

يقول تعالى منكرًا على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنون ^(٨) يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، كان هؤلاء ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أى: عن الإنفاق فى سبيل الله، ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أى: نسوا ذكر الله، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أى: عاملهم

(١) زيادة من ت، أ، وسيرة ابن هشام.

(٢) فى أ: «مخشى».

(٣) فى أ: «سمى».

(٤) فى أ: «سمى».

(٥) فى أ: «سمى».

(٦) السيرة النبوية لابن هشام (٢/٥٢٤).

(٧) فى أ: «عبرة».

(٨) فى ك: «المؤمنين» وهو خطأ.

معاملة من نسيهم، كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ ^(١) نَسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجاثية: ٣٤]، ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أى: الخارجون عن طريق الحق، الداخلون فى طريق الضلالة.

وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أى: على هذا الصنيع الذى ذكر عنهم، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ماكثين فيها مخلدين، هم والكفار، ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أى: كفايتهم فى العذاب، ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾، أى: طردهم وأبعدهم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَآكَثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ^(٦٩)﴾.

يقول تعالى: أصاب هؤلاء من عذاب الله فى الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم، وقد كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾: قال الحسن البصرى: بدينهم، ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أى: فى الكذب والباطل، ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أى: بطلت مساعيهم، فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب.

قال ابن جرير عن عمر بن عطاء، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ الآية، قال ابن عباس: ما أشبه الليلة بالبارحة، ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ هؤلاء بنو إسرائيل، شهنأ بهم، لا أعلم إلا أنه قال: «والذى نفسى بيده، لتتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم جحر ضب لدخلتموه».

قال ابن جرير: وأخبرنى زياد بن سعد، عن محمد بن زيد ^(٢) بن مهاجر، عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، لتتبعن سنن الذين من قبلكم، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، وباعاً بباع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه». قالوا: ومن هم يارسول الله؟ أهل الكتاب؟ قال: «فمه» ^(٣).

وهكذا رواه أبو معشر، عن سعيد المقبرى، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، فذكره وزاد: قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم القرآن: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَآكَثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ﴾ قال أبو هريرة: الخلاق: الدين. ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ قالوا: يارسول الله، كما صنعت فارس والروم؟ قال: «فهل الناس إلا هم» ^(٤).

(٢) فى ت: «زياد».

(١) فى ت، ك، أ: «فاليوم» وهو خطأ.

(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (٣٤٢/١٤).

(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (٣٤١/١٤).

وهذا الحديث له شاهد فى الصحيح^(١).

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٧٠).

يقول تعالى واعظا لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسول: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أى: ألم تُخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسول ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾، وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض، إلا من آمن بعبده ورسوله نوح، عليه السلام، ﴿وَعَادٍ﴾ كيف أهلكوا بالريح العقيم، لما كذبوا هودا، عليه السلام، ﴿وَتَمُودَ﴾ كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحا، عليه السلام، وعقروا الناقة، ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم، وأهلك ملكهم النمرود بن كنعان بن كوش الكنعانى لعنه الله، ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ وهم قوم شعيب، عليه السلام، وكيف أصابتهم^(٢) الرجفة والصيحة وعذاب يوم^(٣) الظلة، ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ قوم لوط، وقد كانوا يسكنون فى مدائن، وقال فى الآية الأخرى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةُ أَهْوَى﴾ [النجم: ٥٣]، أى: الأمة المؤتفكة، وقيل: أم قراهم، وهى «سدوم». والغرض: أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطا، عليه السلام، وإتيانهم الفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين.

﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى: بالحجج والدلائل القاطعات، ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أى: بإهلاكه إياهم؛ لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أى: بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٧١).

لما ذكر [الله]^(٤) تعالى صفات المنافقين الذميمة، عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة، فقال: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أى: يتناصرون ويتعاضدون، كما جاء فى الصحيح: «المؤمن للمؤمن كالبنان يشد بعضه^(٥) بعضا» وشبك بين أصابعه^(٦). وفى الصحيح أيضا: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»^(٧).

(١) فى صحيح البخارى برقم (٧٣١٩) من طريق محمد بن أبى ذئب عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) فى ت، أ: «أصابهم».

(٣) فى ت، أ: «تلك».

(٤) زيادة من ك.

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨١) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٥) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه.

(٦) صحيح البخارى برقم (٦٠١١) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه.

وقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أى: يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه، ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى: فيما أمر، وترك ما عنه زجر، ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ أى: سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أى: عزيز، من أطاعه أعزه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ﴿حَكِيمٌ﴾ فى قسمته هذه الصفات لهؤلاء، وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة، فإن له الحكمة فى جميع ما يفعله، تبارك وتعالى.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٧٢).

يخبر تعالى بما أعدّه للمؤمنين به والمؤمنات من الجنات والخيرات والنعيم المقيم فى ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ماكثين فيها أبداً، ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ أى: حسنة البناء، طيبة القرار، كما جاء فى الصحيحين من حديث أبى عمران الجونى، عن أبى بكر بن أبى موسى عبد الله بن قيس الأشعرى، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آتيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن»^(١).

وبه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للمؤمن فى الجنة لحيمة من لؤلؤة واحدة مَجُوفَةٌ، طولها ستون ميلاً فى السماء، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم، لا يرى بعضهم بعضاً» أخرجاه^(٢).

وفى الصحيحين أيضاً، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة وصام رمضان، فإن^(٣) حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر فى سبيل الله، أو جلس فى أرضه التى ولد فيها». قالوا: يارسول الله، أفلا نخبر الناس؟ قال: «إن فى الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين فى سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وفوقه عرش الرحمن»^(٤).

وعند الطبرانى والترمذى وابن ماجه، من رواية زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن معاذ بن جبل، رضى الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول... فذكر مثله^(٥).

وللترمذى، عن عبادة بن الصامت، مثله^(٦).

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٧٨) وصحيح مسلم برقم (١٨٠).

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٧٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٨).

(٣) فى ت، ك، أ: «كان».

(٤) صحيح البخارى برقم (٧٤٢٣) من طريق فليح عن هلال، عن عطاء بن يسار، عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٥) المعجم الكبير (١٥٨/٢٠) وسنن الترمذى برقم (٢٥٣٠) وعند ابن ماجه القطعة الثانية منه برقم (٤٣٣١)، وقد أشار الحافظ إلى الاختلاف على عطاء بن يسار.

(٦) سنن الترمذى برقم (٢٥٣١).

وعن أبي حازم، عن سهل بن سعد ^(١) قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءون الغرف في الجنة، كما تراءون الكوكب في السماء». أخرجاه في الصحيحين ^(٢).

ثم ليعلم ^(٣) أن أعلى منزلة في الجنة مكان يقال له: «الوسيلة» لقربه من العرش، وهو مسكن رسول الله ﷺ من الجنة، كما قال الإمام أحمد [بن حنبل] ^(٤):

حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن ليث، عن كعب، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صليتم على فسلوا الله لى الوسيلة» قيل: يا رسول الله، وما الوسيلة؟ قال: «أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكون أنا هو» ^(٥).

وفى صحيح مسلم، من حديث كعب بن علقمة، عن عبد الرحمن بن جبيرة، عن عبد الله بن عمرو بن العاص؛ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا على، فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا، ثم سلوا لى الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغى إلا لعباد الله، وأرجو أنى أكون أنا هو، فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة يوم القيامة» ^(٦).

[وفى صحيح البخارى، من حديث محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعته مقاماً محموداً الذى وعدته، إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة»] ^(٧).

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن على الأبار، حدثنا الوليد بن عبد الملك الحارنى، حدثنا موسى بن أعين، عن ابن أبى ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله لى الوسيلة، فإنه لم يسألها لى عبد فى الدنيا إلا كنت له شهيدا - أو شفيعا - يوم القيامة» ^(٨).

وفى مسند الإمام أحمد، من حديث سعد ^(٩) أبى مجاهد الطائى، عن أبى المدلّه، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قلنا: يارسول الله، حدثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «لبنه ذهب، ولبنه فضة، وملاطها المسك، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم لا يبأس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه» ^(١٠).

وروى عن ابن عمر مرفوعاً، نحوه ^(١١).

(١) فى ت: «سعيد».

(٢) صحيح البخارى برقم (٦٥٥٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٠).

(٣) فى ت: «لتعلم».

(٤) زيادة من ت، أ.

(٥) المسند (٢٥٦/٢).

(٦) صحيح مسلم برقم (١٣٨٤).

(٧) زيادة من ت، ك، أ. وهو فى صحيح البخارى برقم (٦١٤).

(٨) المعجم الأوسط برقم (٦٣٩) «مجمع البحرين».

(٩) فى أ: «عن سعد».

(١٠) المسند (٣٠٤/٢).

(١١) رواه أبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٩٦) من طريق عمر بن ربيعة عن الحسن البصرى عن ابن عمر رضى الله عنه مرفوعاً نحو=

وعند الترمذى من حديث عبد الرحمن بن إسحاق، عن النعمان بن سعد، عن على، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة لغُرُفا يرى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها». فقام أعرابى فقال: يا رسول الله، لمن هى؟ فقال: «لمن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام»^(١).

ثم قال: حديث غريب.

ورواه الطبرانى، من حديث عبد الله بن عمرو وأبى مالك الأشعرى، كل منهما عن النبى ﷺ، بنحوه^(٢)، وكل من الإسنادين جيد حسن، وعنده^(٣) أن السائل هو «أبو مالك»، فالله أعلم.

وعن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا هل مُشَمَّرٌ إلى الجنة؟ فإن الجنة لا خَطَرٌ لها، هى - ورب الكعبة - نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مُطَرَّد، وثمره نَضِيجَة، وزوجة حسناء جميلة، وحُلُل كثيرة، ومقام فى^(٤) أبد، فى دار سليمة، وفاكهة وخضرة وحبرة ونعمة فى محلة عالية بهية». قالوا: نعم يا رسول الله، نحن المشمرون لها، قال: «قولوا: إن شاء الله». فقال القوم: إن شاء الله. رواه ابن ماجه^(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أى: رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم، كما قال الإمام مالك، رحمه الله، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله، عز وجل، يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ياربنا وسعديك، والخير فى يدك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يارب، وقد أعطيتنا ما لم تُعْط أحدا من خلقك. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يارب، وأى شىء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا» أخرجاه من حديث مالك^(٦).

وقال أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملى: حدثنا الفضل الرُخَامى، حدثنا الفريانى، عن سفیان، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله، عز وجل: هل تشتهون شيئا فأزيدكم؟ قالوا: يا ربنا، ما خير مما أعطيتنا؟ قال: رضوانى أكبر».

= حديث أبى هريرة.

(١) سنن الترمذى برقم (٢٥٢٧).

(٢) أما حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، فرواه أيضا الإمام أحمد فى مسنده (١٧٣/٢) من طريق حى بن عبد الله عن أبى عبد الرحمن الحبلى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما. وأما حديث أبى مالك الأشعرى فهو فى المعجم الكبير (٣/٣٠١) وسيأتى عند تفسير الآية: ٢٠ من سورة الزمر.

(٣) فى أ: «وعنه». (٤) فى ت: «ومقام به فى».

(٥) سنن ابن ماجه برقم (٤٣٣٢) من طريق الضحاك المعافى، عن سليمان بن موسى، عن كريب، عن أسامة بن زيد به.

وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/٣٢٥): «هذا إسناد فيه مقال».

(٦) صحيح البخارى برقم (٦٥٤٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٩).

ورواه البزار فى مسنده، من حديث الثورى^(١)، وقال الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه «صفة الجنة»: هذا عندى على شرط الصحيح، والله أعلم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤)﴾.

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار فى الدار الآخرة. وقد تقدم عن أمير المؤمنين علي بن أبى طالب أنه قال: بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف، سيف للمشركين: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]، وسيف للكفار أهل الكتاب: ﴿فَاتْلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، وسيف للمنافقين: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩]، وسيف للبغاة: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

وهذا يقتضى أنهم يجاهدون بالسيوف^(٢) إذا أظهروا النفاق، وهو اختيار ابن جرير.

وقال ابن مسعود فى قوله تعالى: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ قال: بيده، [فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقبله]^(٣) فإن لم يستطع فليكفه فى وجهه.

وقال ابن عباس: أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان، وأذهب الرفق عنهم.

وقال الضحاك: جاهد الكفار بالسيف، واغلظ على المنافقين بالكلام، وهو مجاهدتهم. وعن مقاتل، والربيع مثله.

وقال الحسن وقتادة: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم.

وقد يقال: إنه لا منافاة بين هذه الأقوال، لأنه تارة يؤاخذهم بهذا، وتارة بهذا بحسب الأحوال، والله أعلم.

وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾: قال قتادة: نزلت فى عبد الله بن أبى، وذلك أنه اقتل رجلاً: جهنى وأنصارى، فعلا الجهنى على الأنصارى، فقال عبد

(١) ورواه أبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٢٨٣) والحاكم فى المستدرک (٨٢/١) من طريق محمد بن يوسف الفريابى به نحوه، وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

(٢) فى أ: «بالسيف». (٣) زيادة من ت، ك، أ، والطبرى.

الله للأَنْصار: ألا تنصروا أحاكم؟ والله^(١) ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: «سَمَنَ كلبك يأكلك»، وقال: ﴿لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]. فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ، فأرسل إليه فسأله، فجعل يحلف بالله ما قاله، فأنزل الله فيه هذه الآية^(٢).

وروى إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة، عن عمه موسى بن عقبة قال: فحدثنا عبد الله بن الفضل، أنه سمع أنس بن مالك، رضى الله عنه، يقول: حزنت على من أصيب بالحرّة من قومي، فكتب إلى زيد بن أرقم، وبلغه شدة حزني، يذكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «اللهم، اغفر للأَنْصار ولأبناء الأَنْصار» - وشك ابن الفضل في أبناء أبناء الأَنْصار - قال ابن الفضل: فسأل أنساً بعض من كان عنده زيد بن أرقم، فقال: هو الذي يقول له رسول الله ﷺ: «أوفى الله له بأذنه» وذلك حين سمع رجلاً من المنافقين يقول - ورسول الله ﷺ يخطب -: «لئن كان هذا صادقاً فنحن^(٣) شر من الحمير، فقال زيد ابن أرقم: فهو والله صادق، ولأنت شر من الحمار. ثم رُفِعَ ذلك إلى رسول الله، فجحده القائل، فأنزل الله هذه الآية تصديقاً لزيد - يعنى قوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ الآية.

رواه البخارى فى صحيحه، عن إسماعيل بن أبى أويس، عن إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة. إلى قوله: «هذا الذى أوفى الله له بأذنه»^(٤). ولعل ما بعده من قول موسى بن عقبة، وقد رواه محمد بن فُلَيْح، عن موسى بن عقبة بإسناده ثم قال: قال ابن شهاب. فذكر ما بعده عن موسى، عن ابن شهاب.

والمشهور فى هذه القصة أنها كانت فى غزوة بنى المصطلق، ففعل الراوى وهم فى ذكر الآية، وأراد أن يذكر غيرها فذكرها، والله أعلم.

[حاشية^(٥)]

قال «الأموى» فى مغازيه: حدثنا محمد بن إسحاق، عن الزهرى، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن جده قال: لما قدم رسول الله ﷺ، أخذنى قومي فقالوا: إنك امرؤ شاعر، فإن شئت أن تعتذر إلى رسول الله ﷺ ببعض العلة، ثم يكون ذنباً تستغفر الله منه. وذكر الحديث بطوله، إلى أن قال: وكان ممن تخلف من المنافقين، ونزل فيه القرآن منهم، ممن كان مع النبي ﷺ: الجلّاس بن سُوَيْد بن الصامت، وكان على أم عُمَيْر بن سعد، وكان عمير فى حجره، فلما نزل القرآن وذكرهم الله بما ذكر مما أنزل فى المنافقين، قال الجلّاس: والله لئن كان هذا الرجل صادقاً فيما يقول لنحن شر من الحمير [قال]^(٦): فسمعها عُمَيْر بن سعد فقال: والله - يا جلّاس - إنك لأحب

(١) فى ت: «فوالله».

(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/٣٦٤).

(٣) فى ك: «لنحن».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٩٠٦).

(٥) زيادة من ك.

(٦) زيادة من ك.

الناس إلى، وأحسنهم عندى بلاء، وأعزهم على أن يصله ^(١) شئ يكرهه، ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحك ولئن كتبتها لتهلكنى، وإلحادهما أهون على من الأخرى. فمشى إلى رسول الله ﷺ، فذكر له ما قال الجلاس. فلما بلغ ذلك الجلاس خرج حتى يأتي النبي ﷺ، فحلف بالله ما قال ما قال عمير بن سعد، ولقد كذب على. فأنزل الله، عز وجل، فيه: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ إلى آخر الآية. فوقفه رسول الله ﷺ عليها. فزعموا أن الجلاس تاب فحسنت توبته، ونزع فأحسن النزوع ^(٢). هكذا جاء هذا «مدرجا» فى الحديث متصلا به، وكأنه والله أعلم من كلام ابن إسحاق نفسه، لا من كلام كعب بن مالك.

وقال عروة بن الزبير: نزلت هذه الآية فى الجلاس بن سويد بن الصامت، أقبل هو وابن امرأته مُصْعَب من قُباء، فقال الجلاس: إن كان ما جاء به محمد حقا فنحن أشر من حُمُرنا هذه التى نحن عليها. فقال مُصْعَب: أما والله - يا عدو الله - لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت: فأتيت النبي ﷺ، وخفت أن ينزل فى القرآن ^(٣)، أو تصيبنى قارعة، أو أن أخلط ^(٤) بخطيئته، فقلت: يا رسول الله، أقبلت أنا والجلاس من قُباء، فقال كذا وكذا، ولولا مخافة أن أخلط ^(٥) بخطيئة أو تصيبنى قارعة ما أخبرتك. قال: فدعا الجلاس فقال: «يا جلاس، أقلت الذى قاله مصعب؟» فحلف، فأنزل الله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ الآية.

وقال محمد بن إسحاق: كان الذى قال تلك المقالة - فيما بلغنى - الجلاس بن سويد بن الصامت، فرفعها عليه رجل كان فى حجره، يقال له: عمير بن سعيد، فأنكرها، فحلف بالله ما قالها. فلما نزل فيه القرآن تاب ونزع وحسنت توبته، فيما بلغنى.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنى أيوب بن إسحاق بن إبراهيم، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا إسرائيل، عن سِمَاك، عن سعيد بن جبْرِ، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالسا فى ظل شجرة فقال: «إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعينى الشيطان، فإذا جاء فلا تكلموه». فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «علام تشمنى أنت وأصحابك؟» فانطلق الرجل فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، حتى تجاوز عنهم، فأنزل ^(٦) الله، عز وجل: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ الآية ^(٧).

وذلك بين فيما رواه الحافظ أبو بكر البيهقى فى كتاب «دلائل النبوة» من حديث محمد بن إسحاق، عن الأعمش عن عمرو بن مرة، عن [أبى] ^(٨) البَخْتَرى، عن حذيفة بن اليمان، رضى الله

(١) فى ك: «يصله إليه».

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٥١٩/١).

(٣) فى ك: «قرآنا».

(٤) فى أ: «أخلط».

(٥) فى ت، أ: «أخلط».

(٦) فى ت، ك: «وأنزل».

(٧) تفسير الطبرى (٣٦٣/١٤).

(٨) زيادة من ت، أ، والدلائل.

عنه، قال: كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به، وعمار يسوق الناقة - أو أنا: أسوقه، وعمار يقوده - حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا بאתني عشر راكبا قد اعترضوه فيها، قال: فأنبهت رسول الله ﷺ [بهم]^(١) فصرخ بهم فولوا مدبرين، فقال لنا رسول الله ﷺ: «هل عرفتم القوم؟» قلنا: لا، يا رسول الله، قد كانوا مثلثمين، ولكننا قد عرفنا الركاب. قال: «هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة، وهل تدرون^(٢) ما أرادوا؟» قلنا: لا. قال: «أرادوا أن يزحموا^(٣) رسول الله في العقبة، فيلقوه منها». قلنا: يا رسول الله، ألا تبعث إلى عشائهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال: «لا، أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمدا قاتل بقوم حتى [إذا]^(٤) أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم»، ثم قال: «اللهم ارمهم بالدبيلة». قلنا: يا رسول الله، وما الدبيلة؟ قال: «شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك»^(٥).

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا يزيد، أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جميع، عن أبي الطفيل قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، أمر مناديا فنادى: إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد. فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عمار، إذ أقبل رهط مثلثمون على الرواحل فغشوا عمارا وهو يسوق برسول الله، وأقبل عمار، رضى الله عنه، يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة: «قد، قد» حتى هبط رسول الله ﷺ، [فلما هبط]^(٧) نزل ورجع عمار، فقال: «يا عمار، هل عرفت القوم؟» فقال: قد عرفت عامة الرواحل، والقوم مثلثمون. قال: «هل تدري ما أرادوا؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ فيطرحوه». قال: فسار عمار رجلا من أصحاب النبي ﷺ فقال: نشدتك^(٨) بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة؟ قال: أربعة عشر. فقال: إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر. قال: فعذر^(٩) رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا: والله ما سمعنا منادى رسول الله، وما علمنا ما أراد القوم. فقال عمار: أشهد أن الاثنى عشر الباقيين حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد^(١٠).

وهكذا روى ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة بن الزبير نحو هذا، وأن رسول الله ﷺ أمر أن يمشى الناس في بطن الوادي، وصعد هو وحذيفة وعمار العقبة، فتبعهم هؤلاء النفر الأرذلون، وهم مثلثمون، فأرادوا سلوك العقبة، فأطلع الله على مرادهم رسول الله ﷺ^(١١)، فأمر حذيفة فرجع

(١) زيادة من ت، أ، والدلائل.

(٢) في أ: «ترو». (٣) في ك: «يزاحموا».

(٤) زيادة من ت، ك، أ، والدلائل.

(٥) دلائل النبوة (٥/ ٢٦٠).

(٦) في ت، ك: «النبي».

(٧) زيادة من ت، ك، أ، والمسنند.

(٨) في أ: «أنشدك». (٩) في أ: «فعد».

(١٠) المسند (٥/ ٤٥٣) وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٩٥): «رجاله رجال الصحيح».

(١١) في ت، ك، أ: «رسوله».

إليهم، فضرب وجوه رواحلهم، ففزعوا ورجعوا مقبوحين، وأعلم رسول الله ﷺ حذيفة وعمارا بأسمائهم، وما كانوا هموا به من الفتك^(١) به، صلوات الله وسلامه عليه، وأمرهما أن يكتبما عليهما^(٢).

وكذلك روى يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، إلا أنه سمى جماعة منهم، فالله أعلم^(٣).

وكذا قد حكى^(٤) في معجم الطبراني، قاله البيهقي. ويشهد لهذه القصة بالصحة، ما رواه مسلم:

حدثنا زهير بن حرب، حدثنا أبو أحمد الكوفي، حدثنا الوليد بن جميع، حدثنا أبو الطفيل قال: كان [بين]^(٥) رجل من أهل العقبة [وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس، فقال: أنشدك بالله، كم كان أصحاب العقبة]^(٦). قال: فقال له القوم: أخبره إذ سألك. قال: كنا نخبر أنهم أربعة عشر، فإن كنت منهم فقد كان القوم^(٧) خمسة عشر، وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وعذر ثلاثة قالوا: ما سمعنا منادى رسول الله ﷺ، ولا علمنا بما أراد القوم. وقد كان في حرة فمشى، فقال: «إن الماء قليل، فلا يسبقني إليه أحد»، فوجد قوما قد سبقوه، فلعنهم^(٨) يومئذ^(٩).

وما رواه مسلم أيضا، من حديث قتادة، عن أبي نضرة، عن قيس بن عباد، عن عمار بن ياسر قال: أخبرني حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال: «في أصحابي اثنا عشر منافقا، لا يدخلون الجنة، ولا يجدون ريحها حتى يلج [الجمال]^(١٠) في سم الخياط: ثمانية تكفيهم الدبيلة: سراج من نار يظهر بين أكتافه حتى ينجم من صدورهم»^(١١).

ولهذا كان حذيفة يقال له: «صاحب السر، الذي لا يعلمه غيره» أي: من تعيين جماعة من المنافقين، وهم هؤلاء، قد أطلعهم عليهم رسول الله ﷺ دون غيره، والله أعلم.

وقد ترجم الطبراني في مسند حذيفة تسمية أصحاب العقبة، ثم روى عن علي بن عبد العزيز، عن الزبير بن بكار أنه قال: هم مُعْتَب بن قشير، ووديع بن ثابت، وجد بن عبد الله بن نَبْتَل بن الحارث من بني عمرو بن عوف، والحارث بن يزيد الطائي، وأوس بن قَيْظِي، والحارث بن سُوَيْد،

(١) في ت: «القتل».

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٢٥٦/٥).

(٣) دلائل النبوة للبيهقي (٢٥٧/٥).

(٤) في ت، أ: «وقع».

(٥، ٦) زيادة من ت، ك، أ، ومسلم.

(٧) في ك: «فقد كانوا».

(٨) في أ: «فلعنوه».

(٩) صحيح مسلم برقم (٢٧٧٩).

(١٠) زيادة من ت، ك، أ، ومسلم.

(١١) صحيح مسلم برقم (٢٧٧٩).

وسعد بن زُرارة^(١)، وقيس بن فهد، وسويد وداعس من بنى الحبل، وقيس بن عمرو بن سهل، وزيد بن اللصيت، وسلالة بن الحمام، وهما من بنى قينقاع أظهرهما الإسلام^(٢).

وقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أى: وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته وبمن سفارته، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به، كما قال، عليه السلام^(٣)، «لأنصار: ألم أجدكم ضلّالاً فهداكم الله بى؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بى؟ وعالة فأغناكم الله بى؟» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمّن.

وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]، وكما قال، عليه السلام^(٤): «ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيراً فأغناه الله».

ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أى: وإن يستمروا على طريقهم ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا﴾ أى: بالقتل والهلم والغم، ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ أى: بالعذاب والنكال والهوان والصغار، ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أى: وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم، ولا يحصل لهم خيراً، ولا يدفع عنهم شراً.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَثْنًا أَنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨)﴾.

يقول تعالى: ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه: لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله، وليكونن من الصالحين. فما وفى بما قال، ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن فى قلوبهم إلى يوم يلقون^(٥) الله، عز وجل، يوم القيامة، عياداً بالله من ذلك.

وقد ذكر كثير من المفسرين، منهم ابن عباس، والحسن البصرى: أن سبب نزول هذه الآية الكريمة فى «ثعلبة بن حاطب الأنصارى».

وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير هاهنا وابن أبى حاتم، من حديث معان^(٦) بن رفاعة، عن على بن يزيد، عن أبى عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن، مولى عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية، عن أبى أمامة الباهلى، عن ثعلبة بن حاطب الأنصارى، أنه قال لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يرزقنى

(١) فى ك: «وابرة».

(٢) المعجم الكبير (٣/١٦٥-١٦٧).

(٣) (٤، ٤) فى أ: «ﷺ».

(٥) فى ت، ك، أ، هـ: «إلى يوم يلقوا» وهو خطأ، والصواب: فى جميع النسخ: «يلقوا» والصواب ما أثبتناه «إلى يوم يلقون»؛ لأن الفعل المضارع لم يسبق بتأنيده ولا بجازمه.

(٦) فى ت: «معاذ».

مالا. فقال رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه». قال: ثم قال مرة أخرى، فقال: «أما ترضى أن تكون مثل نبي الله، فوالذى نفسى بيده، لو شئت أن تسير معى الجبال ذهباً وفضة لسارت». قال: والذى بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقنى مالا لأعطين كل ذى حق حقه. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة مالا». قال: فاتخذ غنماً، فنمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة، ففتحى عنها، فنزل وادياً من أوديتها، حتى جعل يصلى الظهر والعصر فى جماعة، ويترك ما سواهما. ثم نمت وكثرت، ففتحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة، وهى تنمو كما ينمو الدود، حتى ترك الجمعة. فطفق يتلقى الركبان ^(١) يوم الجمعة، يسألهم عن الأخبار، فقال رسول الله ﷺ: «ما فعل ثعلبة؟» فقالوا: يارسول الله، اتخذ غنماً فضاقت عليه المدينة. فأخبروه بأمره فقال: «يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة». وأنزل الله جل ثناؤه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] قال: ونزلت عليه فرائض الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة: رجلاً من جهينة، ورجلاً من سليم، وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين، وقال لهما: «مراً بثعلبة، وبفلان - رجل من بنى سليم - فخذوا صدقاتهما». فخرجا حتى أتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة، وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جزية. ما هذه إلا أخت الجزية. ما أدري ما هذا انطلقا حتى تفرغاً ثم عوداً إلى. فانطلقا وسمع بهما السلمى، فنظر إلى خيار أسنان إبله، فعزلها للصدقة، ثم استقبلهما ^(٢) بها فلما رأوها قالوا: ما يجب عليك هذا، وما نريد أن نأخذ هذا منك. قال: بلى، فخذوها، فإن نفسى بذلك طيبة، وإنما هى له. فأخذوها منه. فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتى مرّاً بثعلبة، فقال: أرونى كتابكما فنظر فيه، فقال: ما هذه إلا أخت الجزية. انطلقا حتى أرى رأى. فانطلقا حتى أتيا النبی ﷺ ^(٣)، فلما رآهما قال: «يا ويح ثعلبة» قبل أن يكلمهما، ودعا للسلمى بالبركة، فأخبراه بالذى صنع ثعلبة والذى صنع السلمى، فأنزل الله، عز وجل: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ قال: وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة، فسمع ذلك، فخرج حتى أتاه فقال: ويحك يا ثعلبة. قد أنزل الله فيك كذا وكذا. فخرج ثعلبة حتى أتى النبی ﷺ، فسأله أن يقبل منه صدقته، فقال: «إن الله ممنعى أن أقبل منك صدقتك». فجعل يحثو على رأسه التراب، فقال له رسول الله ﷺ: «[هذا] ^(٤) عملك، قد أمرتك فلم تطعنى». فلما أبى أن يقبض رسول الله ﷺ رجع إلى منزله، فقَبِضَ رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئاً. ثم أتى أبا بكر، رضى الله عنه، حين استخلف، فقال: قد علمت منزلتى من رسول الله، وموضعى من الأنصار، فأقبل صدقتى. فقال أبو بكر: لم يقبلها منك رسول الله ﷺ، وأبى أن يقبلها، فقَبِضَ أبو بكر ولم يقبلها. فلما وكى عمر، رضى الله عنه، أتاه فقال: يا أمير المؤمنين، أقبل صدقتى. فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر، وأنا ^(٥) أقبلها منك! فقَبِضَ ولم يقبلها؛ ثم ولى عثمان، رضى الله عنه، [فأتاه] ^(٦) فسأله أن يقبل صدقته، فقال: لم يقبلها

(١) فى ت، أ: «الركاب».
(٢) فى ت: «رسول الله».
(٣) فى ت، ك: «فأنا».
(٤) زيادة من ت، ك، أ، والطبرى.
(٥) زيادة من ت، ك، أ، والطبرى.
(٦) فى ت، ك، أ: «استقبلهم».

رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر، وأنا أقبلها منك! فلم يقبلها منه، وهلك ثعلبة في خلافة عثمان^(١).

وقوله تعالى: ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ أى: أعقبهم النفاق فى قلوبهم بسبب إخلالهم الوعد وكذبهم، كما جاء فى الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»^(٢). وله شواهد كثيرة، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾: يخبرهم تعالى أنه يعلم السر وأخفى، وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها، فإنه أعلم بهم من أنفسهم؛ لأنه تعالى علام الغيوب، أى: يعلم كل غيب وشهادة، وكل سر ونجوى، ويعلم ما ظهر وما بطن.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٩).

وهذه أيضا من صفات المنافقين: لا يسلم أحد من عيبتهم ولمزهم فى جميع الأحوال، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا: هذا مرء، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغنى عن صدقة هذا. كما قال البخارى:

حدثنا عبيد الله بن سعيد، حدثنا أبو النعمان البصرى، حدثنا شعبة، عن سليمان، عن أبى وائل، عن أبى مسعود قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مرأى. وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغنى عن صدقة هذا. فنزلت ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ الآية.

وقد رواه مسلم أيضا فى صحيحه، من حديث شعبة به^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا الجريرى، عن أبى السليل قال: وقف علينا رجل فى

(١) تفسير الطبرى (١٤/ ٣٧٠) وقد أنكر العلماء هذه القصة وقالوا ببطلانها، فمن قال بذلك الإمام ابن حزم، قال فى المحلى (١١/ ٢٠٧، ٢٠٨): «على أنه قد روينا أثرًا لا يصح وأنها نزلت فى ثعلبة بن حاطب، وهذا باطل؛ لأن ثعلبة بدرى معروف، ثم ساق الحديث بإسناده من طريق معان بن رفاعه عن على بن يزيد عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبى أمامة وقال: «هذا باطل لاشك؛ لأن الله أمر بقبض زكوات أموال المسلمين، وأمر عليه السلام عند موته ألا يبقى فى جزيرة العرب دينان فلا يخلو ثعلبة من أن يكون مسلماً ففرض على أبى بكر وعمر قبض زكاته ولا بد ولا فسحة فى ذلك، وإن كان كافراً ففرض ألا يبقى فى جزيرة العرب فسقط هذا الأثر بلا شك، وفى رواه معان بن رفاعه، والقاسم بن عبد الرحمن وعلى بن يزيد - هو ابن عبد الملك - وكلهم ضعفاء. وللفاضل عذاب الحمش رسالة فى نقد هذه القصة جمع فيها أقوال أهل العلم فيها سماها «ثعلبة بن حاطب الصحابى المقترب عليه».

(٢) صحيح البخارى برقم (٣٣) وصحيح مسلم برقم (٥٩) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

(٣) صحيح البخارى برقم (١٤١٥) وصحيح مسلم برقم (١٠١٨).

مجلسنا بالبقيع فقال: حدثني أبي - أو: عمي أنه رأى رسول الله ﷺ بالبقيع، وهو يقول: «من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيامة»؟ قال: فحللت من عمامتي لوثا أو لوئين، وأنا أريد أن أتصدق بهما، فأدركني ما يدرك ابن آدم، فعقدت على عمامتي. فجاء رجل لم أر بالبقيع رجلا أشد سوادا [ولاً] ^(١) أصغر منه، ولا أدمً بغير ^(٢) ساقه، لم أر بالبقيع ناقة أحسن منها، فقال: يا رسول الله، أصدقة؟ قال: «نعم» فقال: دونك هذه الناقة. قال: فلمزه رجل فقال: هذا يتصدق بهذه فوالله لهى خير منه. قال: فسمعها رسول الله ﷺ فقال: «كذبت بل هو خير منك ومنها» ثلاث مرات، ثم قال: «ويل لأصحاب المئين من الإبل» ثلاثا. قالوا: إلا من يا رسول الله؟ قال: «إلا من قال بالمال هكذا وهكذا»، وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماله، ثم قال: «قد أفلح المزهّد المجهد» ثلاثا: المزهّد فى العيش، المجهّد فى العبادة ^(٣).

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى هذه الآية، وقال: جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله ﷺ وجاءه رجل من الأنصار بصاع من طعام، فقال بعض المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء. وقالوا: إن كان الله ورسوله لغنيين عن هذا الصاع ^(٤).

وقال العوفى، عن ابن عباس: إن رسول الله ﷺ خرج إلى الناس يوما فنادى فيهم: أن اجمعوا صدقاتكم. فجمع الناس صدقاتهم، ثم جاء رجل من آخرهم بصاع من تمر، فقال: يا رسول الله، هذا صاع من تمر بت ليلتى أجر بالجرير الماء، حتى نلت صاعين من تمر، فأمسكت أحدهما، وأتيتك بالآخر. فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره فى الصدقات. فسخر منه رجال، وقالوا: إن الله ورسوله لغنيان عن هذا. وما يصنعان ^(٥) بصاعك من شىء. ثم إن عبد الرحمن بن عوف قال لرسول الله ﷺ: هل بقى أحد من أهل الصدقات؟ فقال «لا» ^(٦). فقال له عبد الرحمن بن عوف: فإن عندى مائة أوقية من ذهب فى الصدقات. فقال له عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: أمجنون أنت؟ قال: ليس بى جنون. قال: فعلت ^(٧) ما فعلت؟ قال: نعم، مالى ثمانية آلاف، أما أربعة آلاف فأقرضها ربى، وأما أربعة آلاف فلى. فقال له رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت». ولزّه المنافقون فقالوا: والله ما أعطى عبد الرحمن عطيته إلا رياء. وهم كاذبون، إنما كان به متطوعا، فأنزله الله، عز وجل، وعذره وعذر صاحبه المسكين الذى جاء بالصاع من التمر، فقال تعالى فى كتابه: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ الآية.

وكذا روى عن مجاهد، وغير واحد.

وقال ابن إسحاق: كان المطوعون من المؤمنين فى الصدقات: عبد الرحمن بن عوف، تصدق

(١) زيادة من أ، والمسند.

(٢) فى ت، ك، أ: «بغير».

(٣) المسند (٥/٣٤).

(٤) رواه الطبري فى تفسيره (١٤/٣٨٢).

(٥) فى ت، ك، أ: «يصنعون».

(٦) فى ت، ك: «لا لم يبق أحد غيرك».

(٧) فى ت، أ: «فقال أفعلت».

بأربعة آلاف درهم، وعاصم بن عدى أخا بنى العجلان، وذلك أن رسول الله ﷺ رغب في الصدقات، وحض عليها، فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف، وقام عاصم فتصدق بمائة وسق من تمر، فلمزوهما وقالوا: ما هذا إلا رياء. وكان الذى تصدق بجهده: أبو عقيل أخو بنى أنيف الإراشى حليف بنى عمرو بن عوف، أتى بصاع من تمر فأفرغه فى الصدقة، فتضحكوا به وقالوا: إن الله لغنى عن صاع أبى عقيل.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا طالوت بن عباد، حدثنا أبو عوَّانة، عن عمر^(١) بن أبى سلمة، عن أبيه، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تصدقوا فإنى أريد أن أبعث بعثاً». قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال: يا رسول الله، عندى أربعة آلاف، ألفين أقرضهما ربى، وألفين لعيالى. فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت»^(٢)، وبارك لك فيما أمسكت». وبات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر، فقال: يا رسول الله، أصبت صاعين من تمر: صاع أقرضه^(٣) لربى، وصاع لعيالى. قال: فلمزه المنافقون وقالوا: ما أعطى الذى أعطى ابن عوف إلا رياء! وقالوا: ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا؟ فأنزل الله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ [سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ]^(٤) الآية^(٥).

ثم رواه عن أبى كامل، عن أبى عوَّانة، عن عمر بن أبى سلمة، عن أبيه مرسلًا^(٦). قال: ولم يسنده أحد إلا طالوت.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا زيد بن الحُبَّاب، عن موسى بن عبيدة، حدثنى خالد بن يسار، عن ابن أبى عقيل، عن أبيه قال: بت أجرُ الجرير على ظهري، على صاعين من تمر، فانقلبت بأحدهما إلى أهلى يتبَلَّغون به، وجئت بالآخر أتقرب [به]^(٧) إلى رسول الله ﷺ فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «انثره فى الصدقة». قال: فسخر القوم وقالوا: لقد كان الله غنيا عن صدقة هذا المسكين. فأنزل الله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ الآية^(٨).

(٣) فى ت: «أقرضته».

(٢) فى ك: «أعطيته».

(١) فى أ: «عمرو».

(٤) زيادة من ت، ك، أ.

(٥) مسند البزار برقم (٢٢١٦) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (٣٢/٧): «وفيه عمرو بن أبى سلمة، وثقه العجلي، وأبو خيثمة وابن حبان وضعفه شعبة وغيره، وبقيّة رجالهما ثقات».

(٦) مسند البزار برقم (٢٢١٦) «كشف الأستار» قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٣٣٢/٨) بعد أن ساق هذه الرواية المرسلة: «وكذلك أخرجه عبد بن حميد عن يونس بن محمد عن أبى عوَّانة، وأخرجه ابن أبى حاتم والطبرى وابن مردويه من طرق أخرى عن أبى عوَّانة مرسلًا».

(٧) زيادة من ت، أ، والطبرى.

(٨) تفسير الطبرى (٣٨٨/١٤).

وكذا رواه الطبراني من حديث زيد بن الحباب^(١)، به. وقال: اسم أبي عقيل: حباب. ويقال: عبد الرحمن بن عبد الله بن ثعلبة.

وقوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾: وهذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين؛ لأن الجزء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من سخر بهم، انتصارا للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً.

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠)﴾.

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم، ولو سبعين مرة فإن الله لا يغفر لهم.

وقد قيل: إن السبعين إنما ذكرت حسماً لمادة الاستغفار لهم؛ لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها.

وقيل: بل لها مفهوم، كما روى العوفي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «أسمع ربى قد رخص لى فيهم، فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة، لعل الله أن يغفر لهم! فقال الله من شدة غضبه عليهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦].

وقال الشعبي: لما ثقل عبد الله بن أبيّ، انطلق ابنه إلى النبي ﷺ فقال: إن أبى قد احتضر، فأحب أن تشهده وتصلى عليه. فقال النبي ﷺ: «ما اسمك». قال الحباب بن عبد الله. قال: «بل أنت عبد الله بن عبد الله، إن الحباب اسم شيطان». قال: فانطلق معه حتى شهد وألبسه قميصه وهو عرق، وصلى عليه، فقيل له: أتصلى عليه [وهو منافق]^(٢)؟ قال: «إن الله قال: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾، ولأستغفرن له سبعين وسبعين وسبعين».

وكذا روى عن عروة بن الزبير ومجاهد بن جبير، وقتادة بن دعامه. رواها ابن جرير بأسانيده.

(١) المعجم الكبير (٤٥/٤) وقد وقع فيه: «عن زيد بن الحباب عن خالد بن يسار» فأسقط موسى بن عبيدة في روايته؛ ولذا قال الهيثمي في المجمع (٣٣/٧): «رجاله ثقات إلا أن خالد بن يسار لم أجد من وثقه ولا جرحه» لكن الزيلعي في تخريج الكشاف (٨٨/٢) عزاه للطبراني في معجمه من طريق موسى بن عبيدة عن خالد بن يسار، فلعله سقط من نسخ الطبراني أو توهم فيه الزيلعي.

تنبيه: كذا وقع هنا وعند الطبراني: «اسم أبي عقيل حباب»، قال الحافظ ابن حجر في الإصابة (٣٨٩/١): «كذا وقع عند الطبراني، والصواب حَبَاب».

(٢) زيادة من ت، أ.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢)﴾.

يقول تعالى ذامًا للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وفرحوا بمقعدهم^(١) بعد خروجه، ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ معه ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا﴾ أى: بعضهم لبعض: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾؛ وذلك أن الخروج في^(٢) غزوة تبوك كان في شدة الحر، عند طيب الظلال والثمار، فلماذا قالوا^(٣): ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾، قال الله تعالى لرسوله: ﴿قُلْ لَهُمْ﴾ ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التى تصيرون إليها بسبب مخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مما فرتم منه من الحر، بل أشد حرا من النار، كما قال الإمام مالك، عن أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «نار بنى آدم التى يوقدون بها جزء من سبعين جزءا [من نار جهنم] فقالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية.» قال^(٤): «إنها فضّلت عليها بتسعة وستين جزءا»^(٥) «أخرجاه فى الصحيحين من حديث مالك، به»^(٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة، عن النبى^(٧) ﷺ قال: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم، وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل [الله]^(٨) فيها منفعة لأحد»^(٩). وهذا أيضا إسناده صحيح^(١٠).

وقد روى الإمام أبو عيسى الترمذى وابن ماجه، عن عباس الدورى، عن يحيى بن أبى بكير^(١١)، عن شريك، عن عاصم، عن أبى صالح، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرّت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضّت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودّت، فهى سوداء كالليل المظلم». ثم قال الترمذى: لا أعلم أحدا رفعه غير يحيى^(١٢).

كذا قال. وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه عن إبراهيم بن محمد، عن محمد بن الحسين بن

(٢) فى ت، أ: «إلى».

(١) فى ت، أ: «بقعودهم».

(٥) زيادة من ت، ك، أ، والموطأ.

(٤) فى ت، ك، أ: «فقال».

(٣) فى ك: «قال».

(٦) الموطأ (٢/٩٩٤) وصحيح البخارى برقم (٣٢٦٥) ورواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٨٤٣) من طريق المغيرة بن عبد الرحمن عن أبى الزناد به.

(٨) زيادة من ت، ك، أ، . والمسند

(٧) فى ك: «أن رسول الله».

(٩) المسند (٢/٢٤٤).

(١١) فى أ: «بكر».

(١٠) فى ت، أ: «إسناد جيد صحيح».

(١٢) سنن الترمذى برقم (٢٥٩١) وسنن ابن ماجه برقم (٤٣٢٠) وقال الترمذى: «حديث أبى هريرة فى هذا موقوف أصح، ولا أعلم أحدا رفعه غير يحيى بن أبى بكير عن شريك».

مكرم، عن عبيد الله بن سعد^(١)، عن عمه، عن شريك - وهو ابن عبد الله النخعي - به. وروي أيضا ابن مَرْدُويه من رواية مبارك بن فضالة، عن ثابت، عن أنس قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦]، قال: «أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، وألف عام حتى احمرت، وألف عام حتى اسودت، فهي سوداء كالليل، لا يضيء لهبها»^(٢).

وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث تمام بن نجيح - وقد اختلف فيه - عن الحسن، عن أنس مرفوعا: «لو أن شرارة بالمشرق - أي من نار جهنم - لوجد حرها من بالمغرب»^(٣).

وروى الحافظ أبو يعلى عن إسحاق بن أبي إسرائيل، عن أبي عبيدة الحداد، عن هشام بن حسان^(٤)، عن محمد بن شبيب، عن جعفر بن أبي وحشية، عن سعيد بن جبير، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان هذا المسجد مائة ألف أو يزيدون، وفيهم رجل من أهل النار فتنفس فأصابهم نفسه، لاحترق المسجد ومن فيه»^(٥). غريب.

وقال الأعمش عن أبي إسحاق، عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة لمن له نعلان وشراكان من نار، يغلى منهما دماغه كما يغلى المرجل، لا يرى أحدا من أهل النار أشد عذابا منه، وإنه أهونهم عذابا». أخرجاه في الصحيحين، من حديث الأعمش^(٦).

وقال مسلم أيضا: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا يحيى بن أبي بكير^(٧)، حدثنا زهير بن محمد، عن سهيل بن أبي صالح، عن النعمان بن أبي عياش^(٨)، عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة يتعل بنعلين من نار، يغلى دماغه من حرارة نعليه»^(٩).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن ابن عجلان، سمعت أبي، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن أدنى أهل النار عذابا رجل يجعل له نعلان يغلى منهما دماغه»^(١٠).

وهذا إسناد جيد قوى، رجاله على شرط مسلم، والله أعلم.

(١) فى ت، ك، أ: «سعيد».

(٢) ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٧٩٩) من طريق سهل بن حماد عن مبارك بن فضالة به نحوه.

(٣) المعجم الأوسط برقم (٤٨٤١) «مجمع البحرين» وأشار الحافظ هنا إلى الاختلاف فى حال تمام بن نجيح، قال المنذرى فى الترغيب والترهيب (٣٦٢/٤): «فى إسناده احتمال للتحسين».

(٤) فى جميع النسخ: «حسام» والتصويب من أبى يعلى.

(٥) مسند أبى يعلى (٢٢/١٢) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٣٠٧/٤) من طريق إسحاق بن أبى إسرائيل به، وقال المنذرى فى الترغيب والترهيب (٣٦٣/٤): «إسناده حسن، وفى متنه نكارة».

(٦) صحيح البخارى برقم (٦٥٦٢) وصحيح مسلم برقم (٢١٣).

(٧) فى أ: «بكر».

(٨) فى أ: «عباس».

(٩) صحيح مسلم برقم (٢١١).

(١٠) المسند (٤٣٨/٢).

والأحاديث والآثار النبوية في هذا كثيرة، وقال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأُظَىٰ نَزَاعَةٌ لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ. يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ. وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ. كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩ - ٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة [الأخرى]^(١): ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أى: لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول في سبيل الله في الحر، ليتقوا به حرَّ جهنم، الذى هو أضعاف أضعاف هذا، ولكنهم كما قال الآخر^(٢):

كالمستجير من الرمضاء بالنار.

وقال الآخر:

عُمُرُكَ بِالْحَمِيَةِ أَفْنَيْتَهُ مَخَافَةَ الْبَارِدِ وَالْحَارِ
وَكَانَ أَوْلَىٰ بِكَ أَنْ تَتَّقَى مِنْ الْمَعَاصِي حَذَرَ النَّارِ

ثم قال [الله]^(٣)، تعالى جل جلاله، متوعداً لهؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

قال ابن أبى طلحة، عن ابن عباس: الدنيا قليل، فليضحكوا فيها ما شاؤوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله، عز وجل، استأنفوا بكاء لا ينقطع أبداً. وكذا قال أبو رزین، والحسن، وقتادة، والربيع بن خثیم، وعون العقيلي^(٤)، وزيد بن أسلم.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا عبد الله بن عبد الصمد بن أبى خدّاش، حدثنا محمد بن حميد^(٥)، عن ابن المبارك، عن عمران بن زيد، حدثنا يزيد الرقاشى، عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس، ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، فإن أهل النار يبيكون حتى تسيل دموعهم فى وجوههم كأنها جداول، حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون. فلو أن سُفْنًا أُرْجِيَتْ فِيهَا لَجَرَتْ».

ورواه ابن ماجه من حديث الأعمش، عن يزيد الرقاشى، به^(٦).

(١) زيادة من ت، ك، أ.

(٢) وصدر البيت: والمستجير بعمرو عند كربته

وذكره داود الأنطاكى فى مصارع العشاق (ص ٢١٩).

(٤) فى أ: «الفضلى».

(٣) زيادة من ت، ك، أ.

(٥) فى جميع النسخ: «محمد بن جبیر» والتصويب من أبى يعلى.

(٦) مسند أبى يعلى (٧/ ١٦١، ١٦٢) وسنن ابن ماجه برقم (٤٣٢٤) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٣٢٣): «هذا إسناد فيه يزيد بن

أبان الرقاشى وهو ضعيف».

وقال الحافظ أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن العباس، حدثنا حماد الجزري، عن زيد بن رُقَيْع، رفعه قال: «إن أهل النار إذا دخلوا النار بكوا الدموع زماناً، ثم بكوا القيح زماناً» قال: «فتقول لهم الخزنة: يا معشر الأشقياء، تركتم البكاء في الدار المرحوم فيها أهلها في الدنيا، هل تجدون اليوم من تستغيثون به؟ قال: فيرفعون^(١) أصواتهم: يا أهل الجنة، يا معشر الآباء والأمهات والأولاد، خرجنا من القبور عطاشاً، وكنا طول الموقف عطاشاً، ونحن اليوم عطاش، فأفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، فيدعون أربعين سنة لا يجيبهم، ثم يجيبهم: ﴿إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ﴾ [الزخرف: ٧٧]، فيياسون من كل خير»^(٢).

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَّنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ (٨٣) ﴿

يقول تعالى آمراً لرسوله عليه الصلاة والسلام^(٣): ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ﴾ أى: ردك الله من غزوتك هذه ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ قال قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً، ﴿فَاسْتَدْنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ أى: معك إلى غزوة أخرى، ﴿فَقُلْ لَّنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ أى: تعزيراً لهم وعقوبة. ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنَقَلَبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، فإن من جزاء السيئة السيئة بعدها كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، كما قال في عمرة الحديبية: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَّنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾: قال ابن عباس: أى الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة. وقال قتادة: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ أى: مع النساء.

قال ابن جرير: وهذا لا يستقيم؛ لأن جمع النساء لا يكون بالياء والنون، ولو أريد النساء لقال: فاقعدوا مع الخوالف، أو الخالافات، ورجح قول ابن عباس رضى الله عنهما^(٤) ^(٥).

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٨٤) ﴿

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين، وألا يصلى^(٦) على أحد منهم إذا مات، وألا

(١) فى ت: «فيرفعوا».

(٢) صفة النار (ق ١٥٢ ظاهرية) وله شواهد من حديث أبى موسى الأشعرى وأبى سعيد الخدرى، رضى الله عنهما.

(٣) فى أ: «ﷺ».

(٤) فى ت، ك، أ: «عنه».

(٥) تفسير الطبرى (١٤/٤٠٥).

(٦) فى ت، أ: «ونهاه أن يصلى».

يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله، وماتوا عليه. وهذا حكم عام في كل من عُرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، كما قال البخاري:

حدثنا عبيد بن إسماعيل، عن أبي أسامة، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله - هو ابن أبي - جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه يُكفّن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟! فقال رسول الله ﷺ: «إنما خيرني الله فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، وسأزيده على السبعين». قال: إنه منافق! قال: فصلى عليه [رسول الله ﷺ] ^(١). فأنزل الله، عز وجل، آية: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾.

وكذا رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن أبي أسامة حماد بن أسامة، به ^(٢).

ثم رواه البخاري عن إبراهيم بن المنذر، عن أنس بن عياض، عن عبيد الله - وهو ابن عمر العمرى - به وقال: فصلى عليه، وصلينا معه، وأنزل الله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ الآية.

وهكذا رواه الإمام أحمد، عن يحيى بن سعيد القطان، عن عبيد الله، به ^(٣).

وقد روى من حديث عمر بن الخطاب نفسه أيضاً بنحو من هذا، فقال الإمام أحمد:

حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: سمعت عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، يقول لما توفي عبد الله بن أبي دعى رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام إليه، فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولت حتى قمت في صدره، فقلت: يا رسول الله، أعلی عدو الله عبد الله بن أبي القائل يوم كذا: كذا وكذا - يُعدد أيامه - قال: ورسول الله ﷺ يتبسم، حتى إذا أكثرت عليه قال: «أخر عني يا عمر، إني خيرت فاخترت، قد قيل لى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، لو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت». قال: ثم صلى عليه، ومشى معه، وقام على قبره حتى فرغ منه - قال: فعجب لى وجراءتى على رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلم! قال: فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا

(١) زيادة من ت، ك، أ، والبخاري.

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٦٧٠) وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٤).

(٣) صحيح البخاري برقم (٤٦٧٢) والمسند (١٨/٢).

(٤) زيادة من ت، ك، أ، والمسند.

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ». فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق، ولا قام على قبره، حتى قبضه الله، عز وجل.

وهكذا رواه الترمذى فى «التفسير» من حديث محمد بن إسحاق، عن الزهرى، به^(١)، وقال: حسن صحيح. ورواه البخارى عن يحيى بن بكير، عن الليث، عن عُقَيْل، عن الزهرى، به، فذكر مثله وقال: «آخر عنى يا عمر». فلما أكثر عليه قال: «إنى خيّر فاخترت، ولو أعلم أنى إن زدت على السبعين يُغْفَر^(٢) له لزدت عليها». قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف، فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة: «وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ» الآية، فعجبت بعد من جرأتى على رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ أعلم^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبى عبيد، حدثنا عبد الملك، عن أبى الزبير، عن جابر قال: لما مات عبد الله بن أبى، أتى ابنه النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، إنك إن لم تأت له لم نزل نُعِيرُ بهذا. فأثاه النبى ﷺ، فوجده قد أدخل فى حفرته، فقال: أفلا قبل أن تدخلوه! فأخرج من حفرته، وتقل عليه من قرنه إلى قدمه، وألبسه قميصه.

ورواه النسائى، عن أبى داود الحرانى، عن يعلى بن عبيد، عن عبد الملك - وهو ابن أبى سليمان به^(٤).

وقال البخارى: حدثنا عبد الله بن عثمان، أخبرنا ابن عيينة، عن عمرو، سمع جابر بن عبد الله قال: أتى النبى ﷺ عبد الله بن أبى بعد ما أدخل فى قبره، فأمر به فأخرج، ووضع على ركبتيه، ونفث عليه من ريقه، وألبسه قميصه، والله أعلم^(٥).

وقد رواه أيضاً فى غير موضع مع مسلم والنسائى، من غير وجه، عن سفيان بن عيينة، به^(٦).

وقال الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار فى مسنده: حدثنا عمرو بن على، حدثنا يحيى، حدثنا مجالد، حدثنا عامر، حدثنا جابر (ح) وحدثنا يوسف بن موسى، حدثنا عبد الرحمن بن مغراء الدوسى، حدثنا مجالد، عن الشعبي، عن جابر قال: مات رأس المنافقين - قال يحيى بن سعيد: بالمدينة - فأوصى أن يُصلى عليه النبى ﷺ^(٧)، فجاء ابنه إلى رسول الله ﷺ فقال:

(١) المسند (١٦/١) وسنن الترمذى برقم (٣٠٩٧).

(٢) فى ك: «لغفر».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٧١).

(٤) المسند (٣٧١/٣) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٦٦٥).

(٥) صحيح البخارى برقم (٥٧٩٥).

(٦) صحيح البخارى برقم (١٢٧٠، ١٣٥٠، ٣٠٠٨) وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٣) وسنن النسائى (٣٧/٤، ٣٨).

(٧) فى ت: «رسول الله».

إن أبى أوصى أن يكفن فى قميصك - وهذا الكلام فى حديث عبد الرحمن بن مغراء - قال يحيى فى حديثه: فصلى عليه، وألبسه قميصه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾. وزاد عبد الرحمن: وخلع النبى ﷺ قميصه، فأعطاه إياه، ومشى فصلى عليه، وقام على قبره، فأتاه جبريل، عليه السلام، لما ولى قال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾^(١) وهذا إسناد لا بأس به، وما قبله شاهد له.

وقال الإمام أبو جعفر الطبرى: حدثنا [أحمد بن إسحاق، حدثنا]^(٢) أبو أحمد، حدثنا حماد بن سلمة، عن يزيد الرقاشى، عن أنس: أن رسول الله ﷺ أراد أن يصلى على عبد الله بن أبى، فأخذ جبريل بثوبه وقال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾. ورواه الحافظ أبو يعلى فى مسنده، من حديث يزيد الرقاشى^(٣)، وهو ضعيف.

وقال قتادة: أرسل عبد الله بن أبى إلى رسول الله ﷺ وهو مريض، فلما دخل عليه قال له النبى ﷺ: «أهلكك حبّ يهود». قال: يا رسول الله، إنما أرسلت إليك لتستغفر لى، ولم أرسل إليك لتؤنبنى! ثم سأله عبد الله أن يعطيه قميصه أن يكفن فيه أباه، فأعطاه إياه، وصلى عليه، وقام على قبره، فأنزل الله، عز وجل: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾.

وقد ذكر بعض السلف أنه إنما ألبسه قميصه؛ لأن عبد الله بن أبى لما قدم العباس طُلب له قميص، فلم يُوجد على تفصيله إلا ثوب عبد الله بن أبى؛ لأنه كان ضخماً طويلاً، ففعل ذلك به رسول الله ﷺ، مكافأة له، فالله أعلم، ولهذا كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه لا يصلى على أحد من المنافقين، ولا يقوم على قبره، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن أبيه، حدثنى عبد الله بن أبى قتادة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا دعى لجنائزهم سأل عنها، فإن أثنى عليها خيراً قام فصلى عليها، وإن أثنى عليها غير ذلك قال لأهلها: «شأنكم بها»، ولم يصل عليها^(٤).

وكان عمر بن الخطاب لا يصلى على جنازة من جهل حاله، حتى يصلى عليها حذيفة بن اليمان؛ لأنه كان يعلم أعيان منافقين قد أخبره^(٥) بهم رسول الله ﷺ؛ ولهذا كان يقال له: «صاحب السر» الذى لا يعلمه غيره أى من الصحابة.

(١) ورواه ابن ماجه فى السنن برقم (١٥٢٤) من طريق يحيى بن سعيد عن مجالد به نحوه.

(٢) زيادة من ت، أ، والطبرى.

(٣) تفسير الطبرى (٤٠٧/١٤) ومسنده أبى يعلى (١٤٥/٧).

(٤) المسند (٢٩٩/٥).

(٥) فى أ: «أعلمه».

وقال أبو عبيد في كتاب «الغريب»، في حديث عُمَرُ أنه أراد أن يصلى على جنازة رجل، فَمَرَزَه حُذَيْفَةُ، كأنه أراد أن يَصُدَّهُ عن الصلاة عليها، ثم حكى عن بعضهم أن «المرز» بلغة أهل اليمامة هو: القَرَضُ بأطراف الأصابع.

ولما نهى الله، عز وجل، عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم، كان هذا الصنيع من أكبر القُرَبَاتِ في حق المؤمنين، فشرع ذلك. وفي فعله الأجر الجزيل، لما^(١) ثبت في الصحاح وغيرها من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط، ومن شهدا حتى تدفن فله قيراطان». قيل: وما القيراطان؟ قال: «أصغرهما مثل أحد»^(٢).

وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات فقد قال أبو داود: حدثنا إبراهيم بن موسى الرازى، أخبرنا هشام، عن عبد الله بن بحير، عن هانئ - وهو أبو سعيد البربرى، مولى عثمان بن عفان - عن عثمان، رضى الله عنه، قال: كان النبی ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يسأل».

انفرد بإخراجه أبو داود، رحمه الله^(٣).

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٨٥).

قد تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة^(٤)، والله الحمد.

﴿وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧).

يقول تعالى منكرأ وذاماً للمتخلفين عن الجهاد، الناكِلين عنه مع القدرة عليه، ووجود السعة والطَّوْلِ، واستأذِنُوا الرسول في القعود، وقالوا: ﴿ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾، ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء، وهن الخوالف، بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أَمْنٌ كانوا أكثر الناس كلاماً، كما قال [الله]^(٥)، تعالى، عنهم في الآية الأخرى: ﴿فَإِذَا جَاءَ

(١) في ت، أ: «كما».

(٢) رواه البخارى في صحيحه برقم (١٣٢٥) ومسلم في صحيحه برقم (٩٤٥).

(٣) سنن أبى داود برقم (٣٢٢١).

(٤) انظر تفسير الآية: ٥٥ من هذه السورة.

(٥) زيادة من ت.

الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالْأَسِنَّةِ حَدَادًا ﴿[الأحزاب: ١٩]، أى: علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوى فى الأمن، وفى الحرب أجبن شىء، وكما قال الشاعر^(١):

أفى السلم أعياراً جفاءً وغلظةً وفى الحرب أشباه النساءِ العوارك^(٢)

وقال تعالى^(٣) فى الآية الأخرى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صدَّقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ. [فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ] ﴿٤﴾ [الآية] ﴿٥﴾ [محمد: ٢٠ - ٢٢].

وقوله: ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أى: بسبب^(٦) نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول فى سبيل الله، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أى: لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه، ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه.

﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾.

لما ذكر تعالى ذم المنافقين، بين ثناء المؤمنين، وما لهم فى آخرتهم، فقال: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا﴾ إلى آخر الآيتين من بيان حالهم ومآلهم.

وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ أى: فى الدار الآخرة، فى جنات الفردوس والدرجات العلى.

﴿وَجَاءَ الْمَعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾.

ثم بين تعالى حال ذوى الأعذار فى ترك الجهاد، الذين جاؤوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، ويبينون له ما هم فيه من الضعف، وعدم القدرة على الخروج، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة.

(١) البيت فى السيرة النبوية لابن هشام (٦٥٦/١) منسوباً إلى هند بنت عتبة، والأعيار: جميع غير وهو الحمار، والعوارك: هن الحوافض.

(٢) زيادة من أ.

(٣) فى ت: «الله».

(٤) فى أ: «الموازل».

(٥) زيادة من ت، ك، أ.

(٦) فى ك: «بسببهم».

قال الضحاك، عن ابن عباس: إنه كان يقرأ: «وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ» بالتخفيف، ويقول: هم أهل العذر.

وكذا روى ابن عيينة، عن حميد، عن مجاهد سواء.

قال ابن إسحاق: وبلغني أنهم نفر من بنى غفار منهم: خُفَّاف بن إيماء بن رَحْضة.

وهذا القول هو الأظهر في معنى الآية؛ لأنه قال بعد هذا: «وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَي: لم يأتوا فيعتذروا.

وقال ابن جريج عن مجاهد: «وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ» قال: نفر من بنى غفار، جاؤوا فاعتذروا فلم يُعَذِّرْهم الله. وكذا قال الحسن، وقتادة، ومحمد بن إسحاق، والقول الأول أظهر^(١) والله أعلم، لما قدمنا من قوله بعده: «وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَي: وقد آخرون من الأعراب عن المجيء للاعتذار، ثم أوعدهم بالعذاب الأليم، فقال: «سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَيْنَهُمْ تَفِيزُ مِنَ الدَّمَعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣)﴾.

ثم بين تعالى الأعذار التي لا حَرَجَ على من قعد فيها عن القتال، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجهاد في الجهاد، ومنه العمى والعرج ونحوهما، ولهذا بدأ به. ما هو عارض بسبب مرض عن له في بدنه، شغله عن الخروج في سبيل الله، أو بسبب فقره^(٢) لا يقدر على التجهز للحرب، فليس على هؤلاء حَرَجٌ إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم، ولم يرجفوا بالناس، ولم يُبْطِطوهم، وهم محسنون في حالهم هذا؛ ولهذا قال: «مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

وقال سفيان الثوري، عن عبد العزيز بن رفيع، عن أبي ثمامة، رضى الله عنه، قال: قال الحواريون: يا روح الله، أخبرنا عن الناصح لله؟ قال: الذي يُؤْثِرُ حق الله على حق الناس، وإذا حدث له أمران - أو: بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة - بدأ بالذي للآخرة ثم تفرغ للذي للدنيا.

(٢) في ت، أ: «فقر».

(١) في أ: «أولى».

وقال الأوزاعي: خرج الناس للاستسقاء، فقام فيهم بلال بن سعد، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معشر من حضر، أستم مقرين بالإساءة؟ قالوا: اللهم نعم. فقال: اللهم، إنا نسمعك تقول: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾، اللهم، وقد أقرنا بالإساءة فاغفر لنا وارحمنا واسقنا. ورفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا.

وقال قتادة: نزلت هذه الآية في عائذ بن عمرو المزني.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عبيد الله الرازي، حدثنا ابن جابر، عن ابن فروة، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتبُ لرسول الله ﷺ، فكنت أكتب «براءة» فإني لو اضعُ القلم على أذني إذ أمرنا بالقتال، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه، إذ جاء أعمى فقال: كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى؟ فأنزل الله^(١): ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ الآية^(٢).

وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه، فيهم عبد الله بن مُغَفَّل المزني^(٣)، فقالوا: يا رسول الله، احملنا. فقال لهم: «والله لا^(٤) أجد ما أحملكم عليه». فتولوا ولهم بكاء، وعزَّ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقة ولا محملاً. فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلْتُمْ لِتَحْمِلَهُمْ﴾: نزلت في بني مكرٍّ من مزينة.

وقال محمد بن كعب: كانوا سبعة نفر، من بني عمرو بن عوف: سالم بن عُمَيْر^(٥) - ومن بني واقف: هَرَمَى^(٦) بن عمرو - ومن بني مازن بن النجار: عبد الرحمن بن كعب، ويكنى أبا ليلى - ومن بني المُعَلَّى: [سلمان بن صخر - ومن بني حارثة: عبد الرحمن بن يزيد، أبو عبلة، وهو الذي تصدق بعرضه فقبله الله منه]^(٧) ومن بني سَلَمَةَ: عمرو بن عَنَمَةَ^(٨)، وعبد الله بن عمرو المزني.

وقال محمد بن إسحاق في سياق غزوة تبوك: ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ،

(١) في ت، أ: «فنزلت».

(٢) ورواه الدارقطني في الأفراد كما في الاطراف لابن طاهر (ق ١٣٤) وقال: «غريب من حديث أبي فروة - مسلم بن سالم عنه - أي ابن أبي ليلى - عن زيد، تفرد به محمد بن جابر عنه، وهو غريب من حديث ابن أبي ليلى لا يعلم حدث به عنه غير أبي فروة».

(٣) في ت، ك، أ: «عبد الله بن معقل بن مكرن».

(٤) في ت، ك: «ما».

(٥) في جميع النسخ: «حرمي» والتصويب من أسد الغابة والإصابة.

(٦) في ك: «عوف».

(٧) زيادة من ت، ك، والطبري، وفي هـ: «فضل الله».

(٨) في ك: «عنزة».

وهم البكاؤون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، من بنى عمرو بن عوف: سالم بن عمير^(١)، وعلبة بن زيد أخو بنى حارثة، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب، أخو بنى مازن بن النجار، وعمرو ابن الحمام بن الجموح، أخو بنى سلمة، وعبد الله بن المغفل المزني؛ وبعض الناس يقول: بل هو عبد الله بن عمرو المزني، وهرمي بن عبد الله، أخو بنى واقف، وعرباض^(٢) بن سارية الفزارى، فاستحملوا رسول الله ﷺ، وكانوا أهل حاجة، فقال: لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن الأودي، حدثنا وكيع، عن الربيع، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد خلفتم بالمدينة أقواماً، ما أنفقت من نفقة، ولا قطعتم وادياً، ولا نلت من عدو نيلاً إلا وقد شركوكم فى الأجر»، ثم قرأ: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ الآية.

وأصل هذا الحديث فى الصحيحين من حديث^(٤) أن رسول الله ﷺ قال: «إن بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً، ولا سرتهم [مسيراً]^(٥) إلا وهم معكم». قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «نعم، حبسهم العذر»^(٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن أبى سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد خلفتم بالمدينة رجالاً^(٧)، ما قطعتم وادياً، ولا سلكتم طريقاً إلا شركوكم فى الأجر، حبسهم المرض».

ورواه مسلم، وابن ماجه، من طرق، عن الأعمش، به^(٨).

ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون فى القعود وهم أغنياء، وأنبهم فى رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف فى الرحال، ﴿وَوَطِيعَ اللَّهِ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ

(١) فى أ: «عوف».

(٢) فى جميع النسخ: «عياض» والتصويب من ابن هشام. استفاد من هامش ط. الشعب.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢/٥١٨).

(٤) بعدها بياض فى جميع النسخ قدر كلمة.

(٥) زيادة من أ، ومسلم.

(٦) صحيح البخارى برقم (٢٨٣٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه وصحيح مسلم برقم (١٩١١) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه.

(٧) فى ت، أ: «أقواماً».

(٨) المسند (٣/٣٠٠) وصحيح مسلم برقم (١٩١١) وسنن ابن ماجه برقم (٢٧٦٥).

تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ .

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم، ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أى: لن نصدقكم، ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أى: قد أعلمنا الله أحوالكم، ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أى: سيظهر أعمالكم للناس فى الدنيا، ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾^(١) إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: فيخبركم بأعمالكم، خيرها وشرها، ويجزيكم عليها.

ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون معتذرين لتعرضوا عنهم فلا تؤنبوهم، ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ احتقاراً لهم، ﴿إِنَّهُمْ رَجَسٌ﴾ أى: خبثاء نجس بواطنهم واعتقاداتهم، ﴿وَمَا وَاهُمْ﴾ فى آخرتهم ﴿جَهَنَّمَ﴾، ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: من الآثام والخطايا.

وأخبر أنهم وإن رضوا عنهم بحلفهم^(٢) لهم، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أى: الخارجين عن طاعته وطاعة رسوله، فإن الفسق هو الخروج، ومنه سميت الفارة «فُوسِقَةً» لخروجها من جحرها للإفساد، ويقال: «فسقت الرطبة»: إذا خرجت من أكمامها^(٣).

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٩٧) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩) .

أخبر تعالى أن فى الأعراب كفارا ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد، وأجدر، أى: أحرى ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، كما قال الأعمش عن إبراهيم قال: جلس أعرابى إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند، فقال الأعرابى: والله إن حديثك ليعجبني، وإن يدك لتريني فقال زيد: ما يُريك من يدي؟ إنها الشمال. فقال الأعرابى: والله ما أدري، اليمين يقطعون أو الشمال؟ فقال زيد بن صوحان^(٤): صدق الله: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان، عن أبي موسى، عن وهب

(٣) فى ت: «كمامها».

(٢) فى أ: «بحلفانهم».

(١) فى أ: «ستردون» وهو خطأ.

(٤) فى ك: «صوحان».

ابن مُنْبِه، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتن».

ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي من طرق، عن سفيان الثوري، به^(١). وقال الترمذي: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث الثوري.

ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولا، وإنما كانت البعثة من أهل القرى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ فردَّ عليه أضعافها حتى رضى، قال: «لقد هممتُ ألا أقبل هدية إلا من قُرشي، أو ثَقَفِي أو أنصاري، أو دَوْسِي»^(٢)؛ لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن: مكة، والطائف، والمدينة، واليمن، فهم ألطف أخلاقاً من الأعراب: لما فى طباع الأعراب من الجفاء.

حديث [الأعرابي]^(٣) فى تقبيل الولد: قال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبه وأبو كُرَيْب قالا: حدثنا أبو أسامة وابن نُمَيْر، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: قَدِمَ ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ قالوا: نعم. قالوا: ولكننا والله ما نقبل. فقال رسول الله ﷺ: «وأملكُ أن كان الله نزع منكم الرحمة؟». وقال ابن نمير: «من قلبك الرحمة»^(٤).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى: عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق، لا يسأل عما يفعل، لعلمه وحكمته.

وأخبر تعالى أن منهم ﴿مَنْ يَتَّخِذْ مَا يُنْفِقُ﴾ أى: فى سبيل الله ﴿مَغْرَمًا﴾ أى: غرامة وخسارة، ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمْ الدَّوَائِرُ﴾ أى: ينتظر بكم^(٥) الحوادث والآفات، ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّءِ﴾ أى: هى منعكسة عليهم والسَّوِّءُ دائرٌ عليهم، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى: سميع لدعاء عباده، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان.

وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾: هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم الذين يتخذون ما ينفقون فى سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله، ويتبعون بذلك دعاء الرسول لهم، ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ أى: ألا إن ذلك حاصل لهم، ﴿سَيَدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

(١) المسند (٣٥٧/١) وسنن أبى داود برقم (٢٨٥٩) وسنن الترمذى برقم (٢٢٥٦) وسنن النسائى (١٩٥/٧).

(٢) رواه النسائى فى السنن (٢٧٩/٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) زيادة من ت، ك، أ.

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٣١٧).

(٥) فى ت، ك، أ: «لهم».

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٠٠).

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعدَّ لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم.

قال الشعبي: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية.

وقال أبو موسى الأشعري، وسعيد بن المسيب، ومحمد بن سيرين، والحسن، وقتادة: هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ.

وقال محمد بن كعب القرظي: مرَّ عمر بن الخطاب برجل يقرأ: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾، فأخذ عمر بيده فقال: من أقرأك هذا؟ فقال: أبيُّ بن كعب. فقال: لا تفارقني حتى أذهب بك إليه. فلما جاءه قال عمر: أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا؟ قال: نعم. قال: وسمعتها من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا، فقال أبيُّ: تصديق هذه الآية في أول سورة الجمعة: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يُلْحِقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجمعة: ٣]، وفي سورة الحشر: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠]، وفي الأنفال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ إلى آخر الآية [الأنفال: ٧٥]، رواه ابن جرير^(١).

قال: وذكر عن الحسن البصري أنه كان يقرأها برفع «الأنصار» عطفًا على ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾.

فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضى عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان: فيا ويل من أبغضهم أو سبَّهم أو أبغض أو سبَّ بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم، أعنى الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة، رضى الله عنه، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويُبغضونهم ويسبونهم، عيادًا بالله من ذلك. وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن، إذ يسبون من رضى الله عنهم؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضى الله عنه، ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالى الله، ويعادون من يعادى الله، وهم متبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يتبدون ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ﴾

نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سِنَعَدْبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ .

يخبر تعالى رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، أن في أحياء العرب من حول المدينة منافقون، وفي أهل المدينة أيضا منافقون ﴿مَرَدُّوا عَلَىٰ النَّفَاقِ﴾ أى: مرنوا واستمروا عليه: ومنه يقال: شيطان مريد ومارد، ويقال: تمرد فلان على الله، أى: عتا وتجبر.

وقوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ لا ينافى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَاهُمْ وَلَتَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ الآية [محمد: ٣٠]؛ لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين. وقد كان يعلم أن فى بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً، وإن كان يراه صباحاً ومساءً، وشاهد هذا بالصحة ما رواه الإمام أحمد فى مسنده حيث قال:

حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن النعمان بن سالم، عن رجل، عن جبير بن مطعم، رضى الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة، فقال: «لتأتينكم أجوركم ولو كنتم فى جحر ثعلب». وأصغى إلى رسول الله ﷺ برأسه فقال: «إن فى أصحابي منافقين»^(١).

ومعناه: أنه قد يبوح بعض المنافقين والمرجفين من الكلام بما لا صحة له، ومن مثلهم صدر هذا الكلام الذى سمعه جبير بن مطعم. وتقدم فى تفسير قوله: ﴿وَهُمُومًا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبة: ٧٤]، أنه عليه السلام^(٢) أعلم حذيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقاً، وهذا تخصيص لا يقتضى أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم، والله أعلم.

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة «أبى عمر البيروتى» من طريق هشام بن عمار: حدثنا صدقة ابن خالد، حدثنا ابن جابر، حدثنى شيخ بيروت يكنى أبا عمر، أظنه حدثنى عن أبى الدرداء؛ أن رجلاً يقال له «حرملة» أتى النبى ﷺ فقال: الإيما ن ها هنا - وأشار بيده إلى لسانه - والنفاق ها هنا - وأشار بيده إلى قلبه ولم يذكر الله إلا قليلا. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل له لسانا ذاكرا، وقلبا شاكرا، وارزقه حُبِّى، وحبَّ من يحببى، وصبر أمره إلى خير». فقال: يا رسول الله، إنه كان لى أصحاب من المنافقين وكنت رأسا فيهم، أفلا آتيتك بهم؟ قال: «من أتانا استغفرنا له، ومن أصر على دينه فالله أولى به، ولا تخرقن على أحد سترًا»^(٣).

قال: وكذا رواه أبو أحمد الحاكم، عن أبى بكر الباغندى، عن هشام بن عمار، به.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة فى هذه الآية أنه قال: ما بال أقوام يتكلفون علم

(١) المسند (٨٣/٤).

(٢) فى أ: «ﷺ».

(٣) انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٧٦/٢٩).

الناس؟ فلان فى الجنة وفلان فى النار. فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدري! لَعَمْرِي أنت بنفسك^(١) أعلم منك بأحوال الناس، ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه الأنبياء قبلك. قال نبي الله نوح: ﴿قَالَ وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢]، وقال نبي الله شعيب: ﴿بَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٦]، وقال الله لنبيه ﷺ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾^(٢).

وقال السدى، عن أبى مالك، عن ابن عباس فى هذه الآية قال: قام رسول الله ﷺ خطيباً يوم الجمعة فقال: «أخرج يا فلان، فإنك منافق، وأخرج يا فلان فإنك منافق». فأخرج من المسجد ناساً منهم، فضحكهم. فجاء عمر وهم يخرجون من المسجد فاخْتَبَأَ منهم حيَاءُ أنه لم يشهد الجمعة^(٣)، وظن أن الناس قد انصرفوا، واختبئوا هم من عمر، ظنوا أنه قد علم بأمرهم. فجاء عمر فدخل المسجد فإذا الناس لم يصلوا، فقال له رجل من المسلمين: أبشر يا عمر، قد^(٤) فضح الله المنافقين اليوم. قال ابن عباس: فهذا العذاب الأول حين أخرجهم من المسجد، والعذاب الثانى عذاب القبر^(٥).

وكذا قال الثورى، عن السدى، عن أبى مالك نحو هذا.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ يعنى: القتل والسبأ^(٦)، وقال - فى رواية - بالجوع، وعذاب القبر، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

وقال ابن جرير: عذاب الدنيا، وعذاب القبر، ثم يردون إلى عذاب النار.

وقال الحسن البصرى: عذاب فى الدنيا، وعذاب فى القبر^(٧).

وقال عبد الرحمن بن زيد: أما عذاب فى الدنيا فالأموال والأولاد، وقرأ قول الله^(٨): ﴿فَلَا

تُعْجِزُكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٨٥]، فهذه المصائب لهم عذاب، وهى للمؤمنين أجر، وعذاب فى الآخرة فى النار ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، قال: النار.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ قال: هو - فيما بلغنى - ما هم فيه من أمر الإسلام، وما يدخل عليهم من غيظ ذلك على غير حسبة، ثم عذابهم فى القبور إذا صاروا إليها، ثم العذاب العظيم الذى يُرَدُّونَ إليه، عذاب الآخرة والخلد فيه.

وقال سعيد، عن قتادة فى قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾: عذاب الدنيا، وعذاب القبر، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ

(١) فى جميع النسخ: «بنصبيك» والتصويب من الطبرى. مستفاد من هامش ط. الشعب.

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/٢٥٣).

(٣) فى أ: «المسجد».

(٤) فى ت، ك، أ: «فقد».

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/٤٤١).

(٦) فى أ: «والسبى».

(٧) فى ت، أ: «النار».

(٨) فى ت: «قوله»، وفى أ: «قول الله تعالى».

إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٢﴾. ذكر لنا أن نبي الله ﷺ أسرَّ إلى حذيفة باثنى عشر رجلاً من المنافقين، فقال: «سنة منهم تكفيكهم الدُّبيلة: سراج من نار جهنم، يأخذ في كتف أحدهم حتى يفضي إلى صدره، وستة يموتون موتاً». ، وذكر لنا أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، كان إذا مات رجل ممن يرى أنه منهم، نظر إلى حذيفة، فإن صلى عليه وإلا تركه. وذكر لنا أن عمر قال لحذيفة: أنشدك بالله، أمنهم أنا؟ قال: لا. ولا أومن منها أحداً بعدك^(١).

﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٠٢).

لما بيَّن تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبة عنها وتكديباً وشكاً، شرع في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق، فقال: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أى: أقروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم، ولهم أعمال آخر صالحة، خلطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه.

وهذه الآية - وإن كانت نزلت في أناس معينين - إلا أنها عامة في كل المذنبين الخاطئين المخلصين المتلوئين.

وقد قال مجاهد: إنها نزلت في أبى لُبابة لما قال لبنى قريظة: إنه الذبح، وأشار بيده إلى حلقه. وقال ابن عباس: ﴿وَأَخْرُونَ﴾: نزلت في أبى لُبابة وجماعة من أصحابه، تخلفوا عن غزوة تبوك، فقال بعضهم: أبو لبابة وخمسة معه، وقيل: وسبعة معه، وقيل: وتسعة معه، فلما رجع النبي ﷺ من غزوته^(٢)، ربطوا أنفسهم بسوارى المسجد، وحلفوا لا يحلهم إلا رسول الله ﷺ، فلما أنزل الله هذه الآية: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾، أطلقهم النبي ﷺ، وعفا عنهم.

وقال البخارى: حدثنا مؤمل بن هشام، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا عوف، حدثنا أبو رجاء، حدثنا سمره بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ لنا: «أتانى الليلة آتيان^(٣) فابتعثانى فانتھينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، فتلقانا رجال شطّر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطّر كأقبح ما أنت راء، قالوا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر. فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة، قالوا لى: هذه جنة عدن، وهذا منزلك. قالوا: أما القوم الذين كانوا شطّر منهم حسن وشطّر منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فتجاوز الله عنهم». هكذا رواه مختصراً، في تفسير هذه الآية^(٤).

(١) رواه الطبري في تفسيره (٤٤٣/١٤). والديلة: خراج ودمل كبير يظهر في الجوف فيقتل صاحبه غالباً.

(٢) فى أ: «من غزوه».

(٣) فى أ: «اثنان».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٦٧٤).

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) ﴾ .

أمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكيهم بها، وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير في «أموالهم» إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً؛ ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون، وإنما كان هذا خاصاً برسول الله ﷺ^(١)؛ ولهذا احتجوا بقوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾، وقد ردَّ عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد الصديق أبو بكر وسائر الصحابة، وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة، كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ، حتى قال الصديق: والله لو منعوني عقلاً - وفي رواية: عناقاً - يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه^(٢).

وقوله: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أى: ادع لهم واستغفر لهم، كما رواه مسلم فى صحيحه، عن عبد الله ابن أبى أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلى عليهم، فأنابه أبى بصدقته فقال: «اللهم صل على آل أبى أوفى»^(٣). وفى الحديث الآخر: أن امرأة قالت: يا رسول الله، صل على وعلى زوجى. فقال: «صلى الله عليك، وعلى زوجك»^(٤).

وقوله: «إِنَّ صَلَاتَكَ» : قرأ بعضهم: «صلواتك» على الجمع، وآخرون قرؤوا: «إِنَّ صَلَاتَكَ» على الأفراد.

﴿سَكَنٌ لَهُمْ﴾ : قال ابن عباس: رحمة لهم. وقال قتادة: وقار.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى: لدعائك ﴿عَلِيمٌ﴾ أى: بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا أبو العُمَيْس، عن أبى بكر بن عمرو بن عتبة، عن ابن لحذيفة، عن أبيه؛ أن النبى ﷺ كان إذا دعا لرجل أصابته، وأصابته ولده، وولد ولده^(٥).

ثم رواه عن أبى نعيم، عن مسعر، عن أبى بكر بن عمرو بن عتبة، عن ابن لحذيفة - قال مسعر:

(١) فى ك: «بالنبى».

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٢٨٤، ٧٢٨٥) بلفظ: «لو منعوني عقلاً» قال: «وقال ابن بكير وعبد الله عن الليث: «عناقاً وهو أصح».

(٣) صحيح مسلم برقم (١٠٧٨) والبخارى فى صحيحه برقم (١٤٩٧).

(٤) رواه أبو داود فى السنن برقم (١٥٣٣) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٥٦) من حديث جابر بن عبد الله، رضى الله عنه.

(٥) المسند (٣٨٥/٥).

وقد ذكره مرة عن حذيفة -: إن صلاة النبي ﷺ لتدرك الرجل وولده وولد وولده^(١).

وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾: هذا تهيج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما^(٢) يحطُّ الذنوب ويمحسها ويمحقها.

وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه فيريها لصاحبها، حتى تصير التمرة مثل أحد. كما جاء بذلك الحديث، عن رسول الله ﷺ - كما قال الثوري ووكيع، كلاهما عن عباد بن منصور، عن القاسم بن محمد أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ الصَّدَقَةَ وَيَأْخُذُهَا بيمينه فيريها لأحدكم، كما يربي أحدكم مهره، حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد»، وتصديق ذلك في كتاب الله، عز وجل: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ^(٣) هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ و[قوله]^(٤): ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]^(٥).

وقال الثوري والأعمش كلاهما، عن عبد الله بن السائب، عن عبد الله بن أبي قتادة قال: قال عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه: إن الصدقة تقع في يد الله عز وجل قبل أن تقع في يد السائل. ثم قرأ هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا^(٦) أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾.

وقد روى ابن عساكر في تاريخه، في ترجمة عبد الله بن الشاعر السكسكى الدمشقى - وأصله حمصى، وكان أحد الفقهاء، روى عن معاوية وغيره، وحكى عنه حوشب بن سيف السكسكى الحمصى - قال: غزا الناس في زمان معاوية، رضى الله عنه، وعليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فغلَّ رجل من المسلمين مائة دينار رومية. فلما قفل الجيش ندم وأتى الأمير، فأبى أن يقبلها منه، وقال: قد تفرق الناس ولن أقبلها منك، حتى تأتى الله بها يوم القيامة فجعل الرجل يستقرئ الصحابة، فيقولون له مثل ذلك، فلما قدم دمشق ذهب إلى معاوية ليقبلها منه، فأبى عليه. فخرج من عنده وهو يبكى ويسترجع، فمر بعبد الله بن الشاعر السكسكى، فقال له: ما يبكيك؟ فذكر له أمره، فقال أطيعنى أنت؟ فقال: نعم، فقال: اذهب إلى معاوية فقل له: اقبل منى خُمسك، فادفع إليه عشرين ديناراً، وانظر الثمانين الباقية فتصدق بها عن ذلك الجيش، فإن الله يقبل التوبة عن عباده، وهو أعلم بأسمائهم ومكانهم ففعل الرجل، فقال معاوية، رضى الله عنه: لأن أكون أفتيته بها أحب إلى من كل شيء أملكه، أحسن الرجل^(٧).

(١) المسند (٥/٤٠٠).

(٢) فى ت، أ: «منهما».

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/٤٦١).

تنبيه: وقع خطأ فى الآية هنا وعند الطبرى، وما أثبتناه هو الصواب.

(٦) فى ت: «تعلموا».

(٧) تاريخ دمشق (٩/٤٠١) «المخطوط».

﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٠٥).

قال مجاهد: هذا وعيد، يعنى من الله تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى، وعلى الرسول، وعلى المؤمنين. وهذا كائن لا محالة يوم القيامة، كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩]، وقال: ﴿وَحَصِّلْ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠] وقد يظهر ذلك للناس فى الدنيا، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة، لأخرج الله عمله للناس كائناً ما كان»^(٢).

وقد ورد: أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر فى البرزخ، كما قال أبو داود الطيالسى: حدثنا الصلت بن دينار، عن الحسن، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركم فى قبورهم، فإن كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم، ألهمهم أن يعملوا بطاعتك»^(٣).

وقال الإمام أحمد: أخبرنا عبد الرزاق، عن سفيان، عن سمع أنساً يقول: قال النبى ﷺ: «إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات، فإن كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم، لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا»^(٤).

وقال البخارى: قالت عائشة، رضى الله عنها: إذا أعجبك حسن عمل امرئ، فقل: ﴿اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^(٥).

وقد ورد فى الحديث شبيه بهذا، قال الإمام أحمد:

حدثنا يزيد، حدثنا حميد، عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «لا عليكم أن تعجبوا بأحد حتى تنظروا بم يختتم له؟ فإن العامل يعمل زماناً من عمره - أو: برهة من دهره - بعمل صالح لو مات عليه لدخل الجنة، ثم يتحول فيعمل عملاً سيئاً، وإن العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيئ، لو

(١) فى ت: «يعرضون لا يخفى».

(٢) المسند (٢٨/٣) ودراج عن أبى الهيثم ضعيف.

(٣) مسند الطيالسى برقم (١٧٩٤).

(٤) المسند (١٦٤/٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٢٢٨/٢): «وفيه رجل لم يُسم».

(٥) صحيح البخارى (٥٠٣/١٣) «فتح».

مات عليه دخل النار، ثم يتحول فيعمل عملاً صالحاً، وإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله قبل موته». قالوا: يا رسول الله وكيف يستعمله: قال: «يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه»^(١). تفرد به أحمد من هذا الوجه.

﴿وَأَخْرُونَ مُرْجُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠٦).

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة، والضحاك وغير واحد: هم الثلاثة الذين خلفوا، أى: عن التوبة، وهم: مرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية، قعدوا عن غزوة تبوك فى جملة من قعد، كسلا وميلا إلى الدعة والحفظ وطيب الثمار والظلال، لا شكا ونفاقا، فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسوارى، كما فعل أبو ثبابة وأصحابه، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء، وأرجى هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية، وهى قوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ الآية [التوبة: ١١٧]، ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾^(٢) الآية [التوبة: ١١٨]، كما سيأتى بيانه فى حديث كعب بن مالك.

وقوله: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أى: هم تحت عفو الله، إن شاء فعل بهم هذا، وإن شاء فعل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلب غضبه، وهو ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى: عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو، حكيم فى أفعاله وأقواله، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٠٧) لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ (١٠٨).

سبب نزول هذه الآيات^(٣) الكريمات: أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له: «أبو عامر الراهب»، وكان قد تنصّر فى الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة فى الجاهلية، وله شرف فى الخزرج كبير. فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، شَرِقَ اللعين أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة، وظاهر بها، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركى قريش فآلبهم على حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان،

(١) المسند (٣/ ١٢٠) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢١١): «ورجاله رجال الصحيح».

(٢) فى أ: «الآية».

(٣) زيادة من ك.

وامتحنهم الله، وكانت العاقبة للمتقين^(١).

وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين، فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ، وأصيب ذلك اليوم، فجرح في وجهه وكُسِرَت رِباعِيَّتُهُ اليمنى السفلى، وشُجَّ رأسه، صلوات الله وسلامه عليه.

وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار، فخطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبوه. فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدى شر. وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره، وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً، فنالت هذه الدعوة. وذلك أنه لما فرغ الناس^(٢) من أحد، ورأى أمر الرسول، صلوات الله وسلامه عليه^(٣)، في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل، ملك الروم، يستنصره على النبي ﷺ، فوعده ومناه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويؤمنهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كُتْبِهِ ويكونَ مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج النبي ﷺ إلى تبوك، وجأؤوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتى إليهم فيصلى في مسجدهم، ليحتجوا بصلاته، عليه السلام، فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: «إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله».

فلما قفل، عليه السلام^(٤)، راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه الوحي بخبر مسجد الضُّرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء، الذى أسس من أول يوم على التقوى. فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة، كما قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً [وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ]»^(٥): وهم أناس من الأنصار، ابتنوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر، ابنوا مسجداً واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فأتى بجند من الروم وأخرج محمداً وأصحابه. فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب^(٦) أن تصلى فيه وتدعونا بالبركة. فأنزل الله، عز وجل: «لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ» إلى: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

وكذا روى عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وعروة بن الزبير، وقتادة وغير واحد من العلماء.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار، عن الزهرى، ويزيد بن رومان، وعبد الله بن أبى بكر،

(٣، ٤) فى أ: «ﷺ»

(٢) فى ت، أ: «المسلمون»

(١) فى ت، ك، أ: «للتقوى».

(٦) فى ت، ك: «فتحب».

(٥) زيادة من أ.

وعاصم بن عُمر بن قتادة وغيرهم، قالوا: أقبل رسول الله ﷺ - يعنى: من تبوك - حتى نزل بذي أوان - بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار - وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة، واللييلة المطيرة، واللييلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه. فقال: «إني على جناح سفر وحال شغل - أو كما قال رسول الله ﷺ - ولو قد قدمنا إن شاء الله تعالى أتيناكم فصلينا لكم فيه». فلما نزل بذي أوان أتاه خبر المسجد، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف، ومعن بن عدى - أو: أخاه عامر بن عدى - أخا بلعجلان فقال: «انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه وحرماه». فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلى. فدخل أهله فأخذ سَعَفًا من النخل، فأشعل فيه ناراً، ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرماه وهدماه وتفرقوا عنه. ونزل فيهم من القرآن ما نزل: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾ إلى آخر القصة. وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً: خذام ابن خالد، من بنى عبيد بن زيد، أحد^(١) بنى عمرو بن عوف، ومن داره أخرج مسجد الشقاق، وثعلبة بن حاطب من بنى عبيد وهو إلى بنى أمية بن زيد، ومعتب بن قشير، من [بنى]^(٢) ضبيعة بن زيد، وأبو حبيبة بن الأذعر، من بنى ضبيعة بن زيد، وعبد بن حنيف، أخو سهل بن حنيف، من بنى عمرو بن عوف، وجارية بن عامر، وابناه: مُجَمَّع بن جارية، وزيد بن جارية ونَبْتَل [بن]^(٣) الحارث، وهم من بنى ضبيعة، وبحزج وهو من بنى ضبيعة، وبجاد بن عثمان وهو من بنى ضبيعة، [ووديعه بن ثابت، وهو إلى بنى أمية]^(٤) رهط أبى لبابة بن عبد المنذر^(٥).

وقوله: ﴿وَلْيَحْلِفْنَ﴾ أى: الذين بنوه ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾ أى: ما أردناه بينانه إلا خيراً ورفقاً بالناس، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أى: فيما قصدوا وفيما نَوَّوا، وإنما بنوه ضراراً لمسجد قباء، وكفروا بالله، وتفرقوا بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله، وهو أبو عامر الفاسق، الذى يقال له: «الراهب» لعنه الله.

وقوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾: نهى من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، والأمة تبع له فى ذلك، عن أن يقوم فيه، أى: يصلى فيه أبداً.

ثم حثه على الصلاة فى مسجد قباء الذى أسس من أول يوم بنائه على التقوى، وهى طاعة الله، وطاعة رسوله، وجمعاً لكلمة المؤمنين ومعقلاً وموثلاً للإسلام وأهله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾، والسياق إنما هو فى معرض مسجد قباء؛ ولهذا جاء

(١) - (٢) (٤ - ٢) زيادة من ت، أ، وابن هشام.

(١) فى أ: «جد».

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٥٣٠) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٤/ ٤٦٨).

وانظر الكلام على هذه الرواية وتفنيدها فى كتاب الفاضل: عذاب الحمش «ثعلبة بن حاطب المفتري عليه (ص ١٣٨).

فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة فى مسجد قُباء كعمرة»^(١). وفى الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قُباء راكباً وماشيًا^(٢). وفى الحديث: أن رسول الله ﷺ لما بناه وأسسّه أول قدومه ونزوله على بنى عمرو بن عوف، كان جبريل هو الذى عيّن له جهة القبلة^(٣)، فالله أعلم.

وقال أبو داود: حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا معاوية بن هشام، عن يونس بن الحارث، عن إبراهيم بن أبى ميمونة، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «نزلت هذه الآية فى أهل قُباء: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾» قال: كانوا يستنجون بالماء، فنزلت فيهم الآية.

ورواه الترمذى وابن ماجه، من حديث يونس بن الحارث، وهو ضعيف، وقال الترمذى: غريب من هذا الوجه.

وقال الطبرانى: حدثنا الحسن بن على المعمرى، حدثنا محمد بن حميد الرازى، حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحاق، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾، بعث رسول الله ﷺ إلى عويم بن ساعدة فقال: «ما هذا الطهور الذى أثنى الله عليكم؟». فقال: يا رسول الله، ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه - أو قال: مقعدته - فقال النبى ﷺ: «هو هذا»^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا أبو أويس، حدثنا شرحبيل، عن عويم بن ساعدة الأنصارى: أنه حدّثه أن النبى ﷺ أتاهم فى مسجد قُباء، فقال: «إن الله تعالى قد أحسن [عليكم الثناء]^(٥) فى الطهور فى قصة مسجداكم، فما هذا الطهور الذى تطهرون به؟» فقالوا: والله - يا رسول الله - ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود، فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط، فغسلنا كما غسلوا.

ورواه ابن خزيمة فى صحيحه^(٦).

وقال هشيم، عن عبد الحميد المدنى، عن إبراهيم بن إسماعيل الأنصارى: أن رسول الله ﷺ قال

(١) رواه الترمذى فى السنن برقم (٣٢٤) وابن ماجه فى السنن برقم (١٤١١) من طريق أبى أسامة - عبد الحميد بن جعفر - عن أبى الأبرد مولى بنى الخطمة - عن أسيد بن ظهير الأنصارى رضى الله عنه، به.

وقال الترمذى - كما فى تحفة الأشراف (٢٧٥/١): «حديث حسن صحيح، ولا نعرف لأسيد بن ظهير شيئاً يصح غير هذا الحديث، ولا نعرفه إلا من حديث أبى أسامة».

(٢) صحيح مسلم برقم (١٣٩٩) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

(٣) سنن أبى داود برقم (٤٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٠٠)، وسنن ابن ماجه برقم (٣٥٧).

(٤) المعجم الكبير (٦٧/١١) وفيه محمد بن حميد وهو ضعيف، وابن إسحاق مدلس وقد عنعن.

(٥) زيادة من ت، أ، والمسنَد.

(٦) المسند (٤٢٢/٣) وصحيح ابن خزيمة برقم (٨٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٢١٢/١): «وفيه شرحبيل بن سعد ضعفه مالك وابن معين وأبو زرعة ووثقه ابن حبان».

لعويم بن ساعدة. «ما هذا الذى أثنى الله عليكم: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾». قالوا: يا رسول الله، إنا نغسل الأدبار بالماء^(١).

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن عُمارة الأسدي، حدثنا محمد بن سعد، حدثنا إبراهيم بن محمد، عن شرحبيل بن سعد قال: سمعت خُزَيْمَةَ بن ثابت يقول: نزلت هذه الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾، قال: كانوا يغسلون أدبارهم من الغائط^(٢).

حديث آخر: قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا مالك - يعنى: ابن مغول - سمعت سيارا أبا الحكم، عن شهر بن حوشب، عن محمد بن عبد الله بن سلام قال: لما^(٣) قدم رسول الله ﷺ، يعنى: قباء، فقال: «إن الله، عز وجل، قد أثنى عليكم فى الطهور خيراً، أفلا تخبرونى؟». يعنى: قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾. فقالوا: يارسول الله، إنا نجد مكتوباً علينا فى التوراة: الاستنجاء بالماء^(٤).

وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف، رواه على بن أبى طلحة، عن ابن عباس. ورواه عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن الزهرى، عن عُرْوَةَ بن الزبير. وقاله عطية العوفى، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والشعبى، والحسن البصرى، ونقله البغوى عن سعيد بن جبیر، وقتادة.

وقد ورد فى الحديث الصحيح: أن مسجد رسول الله ﷺ الذى هو فى جوف المدينة، هو المسجد الذى أسس على التقوى. وهذا صحيح. ولا منافاة بين الآية وبين هذا؛ لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى؛ ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده:

حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد الله بن عامر الأسلمى، عن عمران بن أبى أنس، عن سهل بن سعد، عن أبى بن كعب: أن النبى ﷺ قال: «المسجد الذى أسس على التقوى مسجدى هذا». تفرد به أحمد^(٥).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا ربيعة بن عثمان التيمى، عن عمران بن أبى أنس، عن سهل بن سعد الساعدى قال: اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ فى المسجد الذى أسس على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجد رسول الله ﷺ^(٦). وقال الآخر: هو مسجد قباء.

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (٤٨٧/١٤).

(٢) فى أ: «لقد».

(٣) المسند (٦/٦).

(٤) المسند (١١٦/٥).

(٥) فى ت، أ: «الرسول».

فأتيا النبي ﷺ فسألاه، فقال: «هو مسجدي هذا»^(١). تفرد به أحمد أيضاً

حديث آخر: قال أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ليث، عن عمران بن أبي أنس، عن سعيد بن أبي سعيد الخدري، رضى الله عنه، قال: تمارى رجلان فى المسجد الذى أسس على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «هو مسجدي هذا»^(٢). تفرد به أحمد.

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا ليث، حدثني عمران بن أبي أنس، عن ابن أبي سعيد، عن أبيه أنه قال: تمارى رجلان فى المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم، فقال رجل: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «هو مسجدي».

وكذا رواه الترمذى والنسائى عن قتيبة، عن الليث^(٣)، وصححه الترمذى، ورواه مسلم كما سيأتى.

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا يحيى، عن أنيس بن أبي يحيى، حدثني أبي قال: سمعت أباسعيد الخدري قال: اختلف رجلان: رجل من بنى خَدْرَةَ، ورجل من بنى عمرو بن عوف فى المسجد الذى أسس على التقوى، فقال الخدري: هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال العُمري: هو مسجد قباء، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك، فقال: «هو هذا المسجد» لمسجد رسول الله ﷺ، وقال: «فى ذاك [خير كثير]^(٤)، يعنى: مسجد قباء»^(٥).

طريق أخرى: قال أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد - حدثنا حميد الخراط المدنى، سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن أبي سعيد^(٦) فقلت: كيف سمعت أباك يقول فى المسجد الذى أسس على التقوى؟ فقال أبى: أتيت رسول الله ﷺ فدخلت عليه فى بيت لبعض نسائه، فقلت: يا رسول الله، أين المسجد^(٧) الذى أسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفا من حصباء فضرب به الأرض، ثم قال: «هو مسجدكم هذا». ثم قال: [فقلتُ له: هكذا]^(٨) سمعت أباك يذكره؟.

رواه مسلم منفرداً به عن محمد بن حاتم، عن يحيى بن سعيد، به^(٩). ورواه عن أبي بكر بن

(١) المسند (٣٣١/٥) وقال الهيثمى فى المجمع (٣٤/٧): «رجاله رجال الصحيح».

(٢) المسند (٨٩/٣).

(٣) المسند (٧/٣) وسنن الترمذى برقم (٣٠٩٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٢٢٨).

(٤) زيادة من ت، ك، أ، والمسند. وفى أ: «خير كبير».

(٥) المسند (٢٣/٣).

(٦) فى ت، ك، أ: «سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن قال: مر بى عبد الرحمن بن أبي سعيد».

(٧) فى أ: «أى مسجد».

(٨) زيادة من ت، ك، أ، والطبرى.

(٩) تفسير الطبرى (٤٧٧/١٤) وصحيح مسلم برقم (١٣٩٨).

أبى شيبة وغيره، عن حاتم بن إسماعيل، عن حميد الخراط، به^(١).

وقد قال بأنه مسجد النبي ﷺ جماعة من السلف والخلف، وهو مروى عن عمر بن الخطاب، وابنه عبد الله، وزيد بن ثابت، وسعيد بن المسيب. واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾: دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع جماعة الصالحين، والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء، والتزنه عن^(٢) ملابس القاذورات.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن عبد الملك بن عمير، سمعت شيبيا أبا روح يحدث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح فقرا بهم^(٣) الروم فأوهم، فلما انصرف قال: «إنه يلبس علينا القرآن، إن أقواما منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء».

ثم رواه من طريقين آخرين، عن عبد الملك بن عمير، عن شبيب أبي روح من ذى الكلاع: أنه صلى مع النبي ﷺ، فذكره^(٤). فدل هذا على أن إكمال الطهارة يسهل القيام في العبادة، ويعين على إتمامها وإكمالها والقيام بمشروعاتها.

وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾: إن الطهور بالماء لحسن، ولكنهم المطهرون من الذنوب.

وقال الأعمش: التوبة من الذنب، والتطهير من الشرك.

وقد ورد في الحديث المروى من طرق، في السنن وغيرها، أن رسول الله ﷺ قال لأهل قباء: «قد أثنى الله عليكم في الطهور، فماذا تصنعون؟» فقالوا: نستنجى بالماء.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عبد الله بن شبيب، حدثنا أحمد بن محمد بن عبد العزيز قال: وجدته في كتاب أبي، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء. ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾. فسألهم رسول الله ﷺ فقالوا: إنا نَتَّبِعُ الحِجَارَةَ المَاءَ.

ثم قال: تفرد به محمد بن عبد العزيز، عن الزهري، ولم يرو عنه سوى ابنه^(٥).

(١) صحيح مسلم برقم (١٣٩٨).

(٢) في ت، ك، أ: «من».

(٣) في ت، أ: «من».

(٤) المسند (٤٧٢، ٤٧١/٣).

(٥) مسند البزار برقم (٢٤٧) وقال الهيثمي في المجمع (٢١٢/١): «فيه محمد بن عبد العزيز بن عمر الزهري ضعفه البخاري والنسائي وهو الذي أشار بجلد مالك».

قلت: وإنما ذكرته بهذا اللفظ لأنه مشهور بين الفقهاء^(١)، ولم يعرفه كثير من المحدثين المتأخرين، أو كلهم، والله أعلم.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)﴾.

يقول تعالى: لا يستوى من أسس بنيانه على تقوى الله ورضوان، ومن بنى مسجدا ضاررا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين، وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل، فلأنما بنى هؤلاء بنيانهم ﴿عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ﴾ أى: طرف حَفِيرَةٍ مثاله ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أى: لا يصلح عمل المفسدين.

قال جابر بن عبد الله: رأيت المسجد الذى بنى ضارارا يخرج منه الدخان على عهد النبي ﷺ^(٢). وقال ابن جريج^(٣): ذُكر لنا أن رجالا^(٤) حَفَرُوا فوجدوا الدخان يخرج منه. وكذا قال قتادة.

وقال خلف بن ياسين الكوفى: رأيت مسجد المنافقين الذى ذكره الله تعالى فى القرآن، وفيه جحر يخرج منه الدخان، وهو اليوم مَزْبِلَةٌ. رواه ابن جرير^(٥)، رحمه الله.

وقوله: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أى: شكاً ونفاقاً بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع، أورثهم نفاقاً فى قلوبهم، كما أشرب عابِدو العجل حبه.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أى: بموتهم. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة، وزيد بن أسلم، والسدى، وحبيب بن أبى ثابت، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد من علماء السلف.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أى: بأعمال خلقه، ﴿حَكِيمٌ﴾ فى مجازاتهم عنها^(٦)، من خير وشر.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ

(٣) فى ت، أ: «جرير».

(٢) فى ت، أ: «رسول الله».

(١) فى ت، ك، أ: «الفقهاء به».

(٤) فى ت: «رجلا».

(٥) تفسير الطبرى (١٤/٤٩٤).

(٦) فى ك، أ: «عليها».

فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ .

يخبر تعالى أنه عاوض عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوا في سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عباده المطيعين له؛ ولهذا قال الحسن البصري وقتادة: بايعهم والله فأغلى ثمنهم.

وقال شمر بن عطية: ما من مسلم إلا والله، عز وجل، في عُنُقِهِ بيعة، وفى بها أو مات عليها، ثم تلا هذه الآية.

ولهذا يقال: من حمل في سبيل الله بايع الله، أى: قبل هذا العقد ووفى به.

وقال محمد بن كعب القرظي وغيره: قال عبد الله بن راحة، رضى الله عنه، لرسول الله ﷺ - يعنى ليلة العقبة - : اشترط لربك ولنفسك ما شئت! فقال: «أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأشترط لنفسى أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم». قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: «الجنة». قالوا: ربح البيع، لا نُقِيل ولا نستقيل، فنزلت^(١): ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ الآية.

وقوله: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أى: سواء قتلوا أو قُتلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا، فقد وجبت لهم الجنة؛ ولهذا جاء فى الصحيحين: «وتكفل الله لمن خرج فى سبيله، لا يخرجه إلا جهاد فى سبيلى، وتصديق برسلى، بأن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه، نائلا ما نال من أجر أو غنيمة»^(٢).

وقوله: ﴿وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾: تأكيد لهذا الوعد، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة، وأنزله على رسله فى كتبه الكبار، وهى^(٣) التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [أى: ولا واحد أعظم وفاءً بما عاهد عليه من الله]^(٤)، فإنه لا يخلف الميعاد، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]؛ ولهذا قال: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أى: فليستبشروا من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد، بالفوز العظيم، والنعيم^(٥) المقيم.

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

(١) فى أ: «فتزل».

(٢) صحيح البخارى برقم (٣١٢٣) وصحيح مسلم برقم (١٨٧٦).

(٣) فى أ: «وهو».

(٤) زيادة من ت، ك، أ.

(٥) فى ت، أ: «والمغنى».

وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ .

هذا نعتُ المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة: ﴿التَّائِبُونَ﴾ من الذنوب كلها، التاركون للفواحش، ﴿الْعَابِدُونَ﴾ أى: القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها، وهى الأقوال والأفعال فمن أخصّ الأقوال الحمد^(١)؛ فلهذا قال: ﴿الْحَامِدُونَ﴾، ومن أفضل الأعمال الصيام، وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع، وهو المراد بالسياحة هاهنا؛ ولهذا قال: ﴿السَّائِحُونَ﴾، كما وصف أزواج النبی ﷺ بذلك فى قوله تعالى: ﴿سَائِحَاتٌ﴾ [التحریم: ٥]، أى: صائمات، وكذا الركوع والسجود، وهما عبارة عن الصلاة، ولهذا قال: ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾، وهم مع ذلك ينفعون خلق الله، ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مع العلم بما ينبغى فعله ويجب تركه، وهو حفظ حدود الله فى تحليله وتحريمه، علما وعملا، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق؛ ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به.

[بيان^(٣) أن المراد بالسياحة الصيام]^(٤):

قال سفيان الثوري، عن عاصم، عن زرّ، عن عبد الله بن مسعود قال: ﴿السَّائِحُونَ﴾ الصائمون. وكذا روى عن سعيد بن جبّير، والعوفى عن ابن عباس.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: كل ما ذكر الله فى القرآن السياحة، هم الصائمون. وكذا قال الضحاك، رحمه الله.

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا إبراهيم بن يزيد، عن الوليد ابن عبد الله، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: سياحةُ هذه الأمة الصيام.^(٥)

وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبّير، وعطاء، وأبو عبد الرحمن السلمى، والضحاك بن مزاحم، وسفيان بن عيينة وغيرهم: أن المراد بالسائحين: الصائمون.

وقال الحسن البصرى: ﴿السَّائِحُونَ﴾: الصائمون شهر رمضان.

وقال أبو عمرو العبدى: ﴿السَّائِحُونَ﴾: الذين يديمون الصيام من المؤمنين.

وقد ورد فى حديث مرفوع نحو هذا، وقال ابن جرير: حدثنى محمد بن عبد الله بن بزيع،

(١) فى أ: «الحمد لله».

(٢) فى ت، أ: «الرسول».

(٤) زيادة من ت، ك، أ.

(٣) فى أ: «ذكر».

(٥) تفسير الطبرى (٥٠٥/١٤).

(٦) فى ت: «ابن».

حدثنا حكيم بن حزام، حدثنا سليمان، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «السائحون هم الصائمون»^(١).

[ثم رواه عن بُنْدَارٍ، عن ابن مهدي، عن إسرائيل، عن سليمان الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة أنه قال: «السَّائِحُونَ»: الصَّائِمُونَ]^(٢).

وهذا الموقوف أصح.

وقال أيضاً: حدثني يونس، عن ابن وهب، عن عمر بن الحارث، عن عمرو بن دينار، عن عبيد ابن عمير قال: سئل النبي ﷺ عن السائحين فقال: «هم الصائمون»^(٣).

وهذا مرسل جيد.

فهذه^(٤) أصح الأقوال وأشهرها، وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد، وهو ما روى أبو داود في سننه، من حديث أبي أمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله، ائذن لي في السياحة. فقال النبي ﷺ: «سياحة»^(٥) أمتي الجهاد في سبيل الله^(٦).

وقال ابن المبارك، عن ابن لهيعة: أخبرني عُمارة بن غَزِيَّة: أن السياحة ذكرت عند رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أبدلنا الله بذلك الجهاد في سبيل الله، والتكبير على كل شرف»^(٧).

وعن عكرمة أنه قال: هم طلبة العلم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المهاجرون. رواهما ابن أبي حاتم.

وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض، والتفرد في شواحق الجبال والكهوف والبراري، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلازل في الدين، كما ثبت في صحيح البخاري، عن أبي سعيد الخدري^(٨) أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يكون خير مال الرجل»^(٩) غَنَمٌ يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ، ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن»^(١٠).

وقال العوفي وعلى بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ قال: القائمون بطاعة الله. وكذا قال الحسن البصري، وعنه رواية: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ قال: لفرائض

(١) تفسير الطبري (٥٠٣/١٤).

(٢) زيادة من ت، ك، أ.

(٣) تفسير الطبري (٥٠٢/١٤).

(٤) في ت: «وهذا»، وفي أ: «فهذا».

(٥) سنن أبي داود برقم (٢٤٨٦).

(٦) وهذا معضل، عمارة بن غزية لم يدرك أحداً من الصحابة.

(٧) في أ: «عن أبي هريرة».

(٨) في ت، ك، أ: «المسلم».

(٩) صحيح البخاري برقم (١٩).

الله، وفى رواية: القائمون على أمر الله.

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿ (١١٤) 》.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن ابن المسيب، عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة^(١)، دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال: «أى عم، قل: لا إله إلا الله. كلمة أحاج لك بها عند الله، عز وجل». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ [قال: فلم يزالا يكلمانه، حتى قال آخر شيء كلمهم به: على^(٢) ملة عبد المطلب]^(٣). فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك». فنزلت: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾، قال: ونزلت فيه: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦] أخرجاه^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، أخبرنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن أبي الخليل، عن على، رضى الله عنه، قال: سمعت رجلا يستغفر لأبويه، وهما مشركان، فقلت: أيستغفر الرجل لأبويه وهما مشركان؟ فقال: أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فنزلت: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ ﴾، قال: «لما مات»، فلا أدري قاله سفيان أو قاله إسرائيل، أو هو^(٥) فى الحديث «لما مات»^(٦).

قلت هذا ثابت عن مجاهد أنه قال: لما مات.

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا زهير، حدثنا زبيد بن الحارث اليامى^(٧)، عن محارب بن دثار، عن ابن بريدة، عن أبيه قال: كنا مع النبي ﷺ، فنزل بنا ونحن معه قريب من ألف راكب، فصلى ركعتين، ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرّفان، فقام إليه عمر بن الخطاب وقّده بالآب والأم، وقال: يا رسول الله، مالك؟ قال: «إني سألت ربي، عز وجل، فى الاستغفار لأمى، فلم يأذن لى، فدمعت عيناي رحمة لها من النار، وإنى كنت نهيتكم عن ثلاث: نهيتكم عن زيارة القبور

(١) فى أ: «الفائدة». (٢) فى ت، ك، أ: «فقال: أنا على ملة». (٣) زيادة من ت، ك، أ، والمسنّد.

(٤) المسنّد (٥٣٣/٥) وصحيح البخارى برقم (٤٦٧٥) وصحيح مسلم برقم (٢٤).

(٥) فى ت، أ: «وهو».

(٦) المسنّد (٩٩/١).

(٧) فى أ: «السامى».

فزوروها، لتذكركم زيارتها خيراً، ونهيتكم عن لحوم الأضاحى بعد ثلاث، فكلوا وأمسكوا ما شئتم، ونهيتكم عن الأشربة فى الأوعية، فاشربوا فى أى وعاء^(١) ولا تشربوا مسكراً^(٢).

وروى ابن جرير، من حديث علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ لما قدم مكة أتى رَسَمَ قبر، فجلس إليه، فجعل يخاطب، ثم قام مستعبراً. فقلنا: يا رسول الله، إنا رابنا ما صنعت. قال: «إنى استأذنت ربي فى زيارة قبر أُمى، فأذن لى، واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يأذن لى». فما روى باكيا أكثر من يومئذ^(٣).

وقال ابن أبى حاتم، فى تفسيره: حدثنا أبى، حدثنا خالد بن خدّاش، حدثنا عبد الله بن وهب، عن ابن جريج عن أيوب بن هانىء، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود قال: خرج رسول الله ﷺ يوماً إلى المقابر، فاتبعناه، فجاء حتى جلس إلى قبر منها، فناجاه طويلاً ثم بكى فبكينا لبكائه ثم قام فقام إليه عمر بن الخطاب، فدعاه ثم دعانا، فقال: «ما أبكاكم؟» فقلنا: بكينا لبكائك. قال: «إن القبر الذى جلستُ عنده قبر آمنه، وإنى استأذنتُ ربي فى زيارتها فأذن لى»^(٤)، ثم أورده من وجه آخر، ثم ذكر من حديث ابن مسعود قريباً منه، وفيه: «وإنى استأذنت ربي فى الدعاء لها فلم يأذن لى، وأنزل على: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾، فأخذنى ما يأخذ الولد للوالدة، وكنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تذكر الآخرة»^(٥).

حديث آخر فى معناه: قال الطبرانى: حدثنا محمد بن على المروزى، حدثنا أبو الدرداء عبد العزيز^(٦) بن منيب، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن كيسان، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ لما أقبل من غزوة تبوك واعتمر، فلما هبط من ثنية عُسفان أمر أصحابه: أن استندوا إلى العقبة حتى أرجع إليكم، فذهب فنزل على قبر أمه، فناجى ربه طويلاً، ثم إنه بكى فاشتد بكاءه، وبكى هؤلاء لبكائه، وقالوا: ما بكى نبي الله بهذا المكان إلا وقد أحدث فى أمته شيء لا تطيقه. فلما بكى هؤلاء قام فرجع إليهم، فقال: «ما يبكيكم؟». قالوا: يا نبي الله، بكينا لبكائك، فقلنا: لعله أحدث فى أمتك شيء لا تطيقه، قال: «لا، وقد كان بعضه، ولكن نزلت على قبر أُمى

(١) فى ت، ك، أ: «أى وعاء شئتم».

(٢) المسند (٣٥٥/٥).

(٣) تفسير الطبرى (٥١٢/١٤) ورواه البيهقى فى دلائل النبوة (١٨٩/١) من طريق سفيان عن علقمة بن مرثد به نحوه.

(٤) ورواه الحاكم فى المستدرک (٣٣٦/٢) ومن طريقه البيهقى فى دلائل النبوة (١٨٩/١) من طريق بحر بن نصر عن ابن وهب به نحوه.

(٥) وأصل الحديث رواه مسلم فى صحيحه برقم (٩٧٦) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: زار النبی ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله. فقال: «استأذنت ربي فى أن أستغفر لها فلم يؤذن لى، واستأذنته فى أن أزور قبرها فأذن لى، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت».

(٦) فى ت: «أبو الدرداء عن عبد العزيز».

فدعوت الله أن يأذن لى فى شفاعتها يوم القيامة، فأبى الله أن يأذن لى، فرحمتها وهى أمى، فبكيت، ثم جاءنى جبريل فقال: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾، فتبرأ أنت من أمك، كما تبرأ إبراهيم من أبيه، فرحمتها وهى أمى، ودعوت ربى أن يرفع عن أمتى أربعاً، فرفع عنهم اثنتين، وأبى أن يرفع عنهم اثنتين: دعوت ربى أن يرفع عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض، وأبى أن يرفع عنهم الرجم من السماء، وأبى أن يرفع عنهم القتل والهرج. وإنما عدل إلى قبر أمه لأنها كانت مدفونة تحت كداء^(١)، وكانت عُسفان لهم^(٢).

وهذا حديث غريب وسياق عجيب، وأغرب منه وأشد نكارة ما رواه الخطيب البغدادي فى كتاب «السابق واللاحق» بسند مجهول، عن عائشة فى حديث فيه قصة أن الله أحيا أمه فأمنت ثم عادت^(٣). وكذلك ما رواه السهيلي فى «الروض» بسند فيه جماعة مجهولون: أن الله أحيا له أباه وأمّه^(٤)، فأمنا به^(٥).

وقد قال الحافظ ابن دحية: [هذا الحديث موضوع يردّه القرآن والإجماع، قال الله تعالى ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨]. وقال أبو عبد الله القرطبي: إن مقتضى هذا الحديث... وردّ على ابن دحية^(٦) فى هذا الاستدلال بما حاصله: أن هذه حياة جديدة، كما رجعت الشمس بعد غيوبتها فصلّى على العصر، قال الطحاوى: وهو [حديث]^(٧) ثابت، يعنى: حديث الشمس.

قال القرطبي: فليس إحياءهما يمتنع عقلاً ولا شرعاً، قال: وقد سمعت أن الله أحيا عمه أبا طالب، فآمن به^(٨).

(١) فى ت، أ: «كذا وكذا»، وفى ك: «كدا وكدا».

(٢) المعجم الكبير (١١/٣٧٤).

(٣) ساقه القرطبي فى: التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة (ص ١٦) وقال: خرجه أبو بكر أحمد بن على الخطيب فى كتاب السابق واللاحق، وأبو حفص عمر بن شاهين فى النسخ والمنسوخ، ولا يصح الحديث. لمخالفته ما فى صحيح مسلم برقم (٩٧٦) من حديث أبى هريرة قال: زار النبى ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله. فقال: «استأذنت ربى فى أن أستغفر لها فلم يأذن لى، واستأذنته فى أن أزور قبرها فأذن لى، فزوروا القبور فإنها تذكّر الموت» ولضعف إسناده.

(٤) فى ت: «وآمنة».

(٥) الروض الأنف (١/١١٣).

(٦، ٧) زيادة من ت، ك، أ.

(٨) التذكرة (ص ١٧). وما ذكره القرطبي لا يصح؛ أما إحياءهما وإيمانها فلا يمتنع عقلاً، وأما شرعاً فقد جاء فى صحيح مسلم من حديث أنس؛ أن رجلاً قال: يا رسول الله، أين أبى؟ قال: «فى النار» فلما قفا دعاه وقال: «إن أبى وأباك فى النار» ومُنِعَ النبى ﷺ من الاستغفار لأمه، وهذا المنع متأخر بخلاف من قال بأن ما جاء فى أنهما - أى أبواه ﷺ - فى النار منسوخ بحديث عائشة الذى رواه الخطيب، فإن دعوى النسخ غير قائمة ولا تعتمد على أصل. وأما قول القرطبي بأنه سمع أن الله أحيا عمه أبا طالب... إلخ، فهذا أبعد عن الصحة؛ فإن فى الصحيح من حديث أبى سعيد؛ أن النبى ﷺ شفع له عند الله فهو فى النار يجعل ضحاح من نار تحت قدميه يغلى منها دماغه، وفى صحيح مسلم مرفوعاً: «أهون أهل النار عذاباً أبو طالب» فمن يكون فى النار كيف يقال: إنه آمن فى قبره؟!

قلت: وهذا كله متوقف على صحة الحديث، فإذا صح فلا مانع منه^(١)، والله أعلم.
وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية،
فإن رسول الله ﷺ أراد أن يستغفر لأمه، فنهاه الله عن ذلك^(٢)، فقال: «فإن إبراهيم خليل الله
استغفر لأبيه»، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ الآية.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في هذه الآية: كانوا يستغفرون لهم، حتى نزلت هذه
الآية، فلما [نزلت]^(٤) أمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم، ولم ينههم أن يستغفروا للأحياء حتى
يموتوا^(٥)، ثم أنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الآية.

وقال قتادة في هذه الآية: ذكر لنا أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا نبي الله، إن من
آبائنا من كان يحسن الجوار، ويصل الأرحام، ويفك العاني، ويوفى بالذمم؛ أفلا نستغفر لهم؟ قال:
فقال النبي ﷺ: «بلى، والله إنني لأستغفر لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه». فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ
وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ حتى بلغ: ﴿الْجَحِيمِ﴾، ثم عذر الله تعالى إبراهيم، فقال:
﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ قال: وذكر لنا
أن نبي الله قال: «أوحى إلى كلمات، فدخلن في أذني وقرن في قلبي: أمرت ألا أستغفر لمن مات
مشركاً، ومن أعطى فضل ماله فهو خير له، ومن أمسك فهو شر له، ولا يلوم الله على كفاف».

وقال الثوري، عن الشيباني، عن سعيد بن جبيرة قال: مات رجل يهودي وله ابن^(٦) مسلم، فلم
يخرج معه، فذكر ذلك لابن عباس فقال: فكان ينبغي له أن يمشی معه ويدفنه، ويدعو له بالصلاح ما
دام حياً، فإذا مات وكَّله إلى شأنه ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ
فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾، لم يدع.

[قلت]^(٧): وهذا يشهد له بالصحة ما رواه أبو داود وغيره، عن علي بن أبي طالب قال: لما مات
أبو طالب قلت: يا رسول الله، إن عمك الشيخ الضال قد مات. قال: «أذهب فواره ولا تحدثن شيئاً
حتى تأتيني». وذكر تمام الحديث^(٨).

ويروى أن رسول الله ﷺ لما مرت به جنازة عمه أبي طالب قال: «وَصَلِّتْكَ رَحِمَ يَا عَم»^(٩).

(١) وقد رأيت أن ذلك لا يصح. والله أعلم.

(٢) في ت، أ: «عنه».

(٣) في ت: «إياها».

(٤) في أ: «أنزلت».

(٥) زيادة من ت، ك، أ.

(٦) في ك: «ولد».

(٧) زيادة من أ.

(٨) سنن أبي داود برقم (٣٢١٤).

(٩) ورواه ابن عدى في الكامل (١/ ٢٦٠) من طريق الفضل بن موسى، عن إبراهيم بن عبد الرحمن - وهو ضعيف - عن ابن جريج
عن عطاء، عن ابن عباس مرفوعاً ولفظه: «وصلتك رحم وجزيت خيراً يا عم». وإبراهيم بن عبد الرحمن قال ابن عدى: «أحاديثه
عن كل من روى ليست بمستقيمة» ثم قال: «وعامة أحاديثه غير محفوظة».

وقال عطاء بن أبي رباح: ما كنت لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة، ولو كانت حبشية حبلى من الزنا؛ لأنني لم أسمع الله حجب الصلاة إلا على المشركين، يقول الله، عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾.

وروى ابن جرير، عن ابن وكيع، عن أبيه، عن عصمة بن زامل، عن أبيه قال: سمعت أبا هريرة يقول: رحم الله رجلا استغفر لأبي هريرة ولأمه. قلت: ولأبيه؟ قال: لا. قال: إن أبي مات مشركاً^(١).

وقوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾: قال ابن عباس: ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه. وفي رواية: لما مات تبين له أنه عدو لله.

وكذا قال مجاهد، والضحاك، وقتادة، وغيرهم، رحمهم الله.

وقال عبيد بن عمير، وسعيد بن جبيرة: إنه يتبرأ منه [فى]^(٢) يوم القيامة حين يلقي أباه، وعلى وجه أبيه الغبرة والقترة فيقول: يا إبراهيم، إنى كنت أعصيك وإنى اليوم لا أعصيك. فيقول: أى ربى، ألم تعدنى ألا تخزنى يوم يبعثون؟ فأى خزى أخزى من أبى الأبعد؟ فيقال: انظر إلى ما وراءك، فإذا هو بذيخ متلطح، أى: قد مسخ ضبعا، ثم يسحب بقوائمه، ويلقى فى النار.

وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾، قال سفيان الثوري وغير واحد، عن عاصم بن بهدكة، عن زب بن حبش، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: الأواه: الدَّعَاء. وكذا روى من غير وجه، عن ابن مسعود.

وقال ابن جرير: حدثني المثنى: حدثنا الحجاج بن منهل، حدثنا عبد الحميد بن بهرام، حدثنا شهر بن حوشب، عن عبد الله بن شداد بن الهاد قال: بينما رسول الله ﷺ جالس قال رجل: يا رسول الله، ما الأواه؟ قال: «المتضرع»، قال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾^(٣).

ورواه^(٤) ابن أبي حاتم من حديث ابن المبارك، عن عبد الحميد بن بهرام، به، قال: المتضرع: الدَّعَاء.

وقال الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن مسلم البطين عن أبي العبيدتين أنه سأل ابن مسعود عن الأواه، فقال: هو الرحيم.

وبه قال مجاهد، وأبو ميسرة عمرو بن شريحيل، والحسن البصري، وقتادة: أنه الرحيم، أى: بعباد الله.

(١) تفسير الطبرى (١٤/٥١٧).

(٢) زيادة من ت، ك، أ.

(٣) تفسير الطبرى (١٤/٥٣١).

(٤) فى ت، أ: «وروى».

وقال ابن المبارك، عن خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: الأواه: الموقن بلسان الحبشة^(١). وكذا قال العوفي، عن ابن عباس: أنه الموقن. وكذا قال مجاهد، والضحاك. وقال على بن أبي طلحة، ومجاهد، عن ابن عباس: الأواه: المؤمن - زاد على بن أبي طلحة عنه: المؤمن التواب. وقال العوفي عنه: هو المؤمن بلسان الحبشة. وكذا قال ابن جريج: هو المؤمن بلسان الحبشة.

وقال أحمد: حدثنا موسى، حدثنا ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن على بن رباح، عن عقبة بن عامر؛ أن رسول الله ﷺ قال لرجل يقال له «ذو البجادين»: «إنه أواه»، وذلك أنه رجل^(٢) كثير الذكر لله في القرآن ويرفع صوته في الدعاء.

ورواه ابن جرير^(٣).

وقال سعيد بن جبير، والشعبي: الأواه: المسبح. وقال ابن وهب، عن معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن جبير بن نفير، عن أبي الدرداء، رضى الله عنه، قال: لا يحافظ على سبحة الضحى إلا أواه. وقال شفي بن مانع، عن أيوب: الأواه: الذى إذا ذكر خطايا استغفر منها.

وعن مجاهد: الأواه: الحفيظ الوجل، يذنب الذنب سرا، ثم يتوب منه سرا. ذكر ذلك كله ابن أبي حاتم، رحمه الله.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا المحاربى، عن حجاج، عن الحكم، عن الحسن بن مسلم بن يناق: أن رجلا كان يكثر ذكر الله ويسبح، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «إنه أواه»^(٤).

وقال أيضا حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن يمان، حدثنا المنهال بن خليفة، عن حجاج بن أرطاة، عن عطاء، عن ابن عباس؛ أن النبي ﷺ دفن ميتا، فقال: «رحمك الله إن كنت لأواها»! - يعنى: تلاء للقرآن^(٥). وقال شعبة، عن أبي يونس الباهلى قال: سمعت رجلا بمكة - وكان أصله روميا، وكان قاصا - يحدث عن أبي ذر قال: كان رجل يطوف بالبيت الحرام ويقول فى دعائه: «أوه! أوه»، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: إنه أواه. قال: فخرجت ذات ليلة، فإذا رسول الله ﷺ يدفن ذلك الرجل ليلا ومعه المصباح.

هذا حديث غريب رواه ابن جرير ومشاه^(٦).

وروى عن كعب الأحبار أنه قال^(٧): ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ قال: كان إذا ذكر النار قال: «أوه من النار».

(١) فى ت: «الجبشية».. (٢) فى ت، أ: «رجل كان كثير الذكر».

(٣) المسند (١٥٩/٤) وتفسير الطبرى (٥٣٣/١٤) وحسنه الهيثمى فى المجمع (٣٦٩/٩) وفيه ابن لهيعة متكلم فيه.

(٤) تفسير الطبرى (٥٢٩/١٤).

(٥) تفسير الطبرى (٥٣٠/١٤).

(٦) تفسير الطبرى (٥٣٠/١٤). ورواه الحاكم فى المستدرک (٣٦٨/١) من طريق شعبة به، وقال: «إسناده معضل».

(٧) فى ه، ت، أ: «أنه قال: سمعت».

وقال ابن جُرَيْج عن ابن عباس: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾، قال: فقيه.

قال الإمام العلم أبو جعفر بن جرير: وأولى الأقوال قول من قال: إنه الدعاء، وهو المناسب للسياق، وذلك أن الله تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه عن موعدة وعدها آياه، وقد كان إبراهيم كثير الدعاء حليماً عمن ظلمه وأناله مكروها؛ ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه^(١) في قوله: ﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا. قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٦، ٤٧]، فحلم عنه مع أذاه له، ودعا له واستغفر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾^(٢).

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١١٥) **نَصِيرٌ** (١١٦) ﴿.﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة وحكمه العادل: إنه لا يضل قوماً بعد بلاغ^(٣) الرسالة إليهم، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ الآية [فصلت: ١٧].

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾، قال: بيان الله، عز وجل، للمؤمنين في الاستغفار للمشركين خاصة، وفي بيانه طاعته ومعصيته عامة، فافعلوا أو ذروا.

وقال ابن جرير: يقول الله تعالى: وما كان الله ليقضى عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه فتركوا، فأما قبل أن يبين لكم كراهيته^(٤) ذلك بالنهي عنه، ثم تعدوا نهيه إلى ما نهاكم عنه، فإنه لا يحكم عليكم بالضلال، فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهى، وأما من لم يؤمر ولم ينه فغير كائن مطيعاً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: قال ابن جرير: هذا تحريض من الله لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر، وأن^(٥) يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض، ولا يرهبوا من أعدائه فإنه لا ولى لهم من دون الله، ولا نصير لهم

(١) في ك: «أذاه له».

(٢) تفسير الطبري (١٤/٥٣٢).

(٣) في ت: «إبلاغ».

(٤) في ت: «كراهية».

(٥) في ت، ك: «وانهم».

سواه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن أبي دلامة البغدادي، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن صفوان بن مُحَرِّز، عن حكيم بن حزام قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا ما نسمع من شيء. فقال رسول الله ﷺ: «إني لأسمع أطيط السماء، وما تلام أن تتطَّ، وما فيها من موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم»^(١).

وقال كعب الأحبار: ما من موضع خرمه^(٢) إبرة من الأرض إلا وملك موكل بها، يرفع علم ذلك إلى الله، وإن ملائكة السماء لأكثر من عدد التراب، وإن حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى مخه مسيرة مائة عام.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٧).

قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مُجْدَبَةٍ وحر شديد، وعسر من الزاد والماء.

قال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك في لَهَبَانِ الحر، على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهد شديد، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين^(٣) كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهما، يمصها هذا، ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا، ثم يشرب عليها، [ثم يمصها هذا، ثم يشرب عليها]^(٤)، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم.

وقال ابن جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن عتبة بن أبي عتبة، عن نافع بن جبير بن مطعم، عن عبد الله بن عباس؛ أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة، فقال عمر بن الخطاب: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً، فأصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستقطع^(٥)، [حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع]^(٦)، حتى إن الرجل لينحر بغيره فيعصر قرئه فيشربه، ويجعل ما بقى على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله عز وجل، قد عَوَّدَكَ في الدعاء خيراً، فادع لنا. قال: «تحب ذلك؟». قال: نعم! فرفع يديه فلم

(١) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠١/٣) وأبو نعيم في الحلية (٢١٧/٢) من طريق عبد الوهاب بن عطاء به نحوه، وقال أبو نعيم: «هذا حديث غريب من حديث صفوان بن محرز عن حكيم تفرد به عن قتادة سعيد بن أبي عروبة».

(٤) زيادة من أ.

(٣) في أ: «رجلين».

(٢) في ت، أ: «خرم».

(٦) زيادة من ت، ك، أ، والطبري.

(٥) في ت: «ستقطع».

يرجعهما حتى مالت السماء فأظلمت^(١) ثم سكبت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر^(٢).

وقال ابن جرير فى قوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ أى: من النفقة والظَّهر والزاد والماء، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ تَرْيَعُ^(٣) قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ أى: عن الحق ويشك فى دين رسول الله ﷺ ويرتاب، بالذى نالهم من المشقة والشدة فى سفره وغزوه، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم، والرجوع إلى الثبات على دينه، ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن أخى الزهرى محمد بن عبد الله، عن عمه محمد بن مسلم الزهرى، أخبرنى عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، أن عبد الله بن كعب بن مالك - وكان قائد كعب من بنيهِ^(٤) - حين عمى - قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، فقال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزاة غيرها^(٥) قط إلا فى غزوة تبوك، غير أنى كنت تخلفت فى غزاة بدر، ولم يعاتب أحدٌ تخلف عنها، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد غير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين توافقنا على الإسلام، وما أحب أن لى بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها وأشهر، وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزاة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزاة، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ فى حرٍّ شديد، واستقبل سفرا بعيدا ومفازاً، واستقبل عدوا كثيراً^(٦)، فجئلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم وجهه

(١) فى ت، ك، أ: «فأهطلت».

(٢) تفسير الطبرى (٥٤١/١٤) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (١٧٠٧) «موارد» والحاكم فى المستدرک (١٥٩/١) من طريق حرملة ابن يحيى، ورواه البزار فى مسنده برقم (١٨٤١) «كشف الاستار» من طريق أصبغ بن الفرج كلاهما عن ابن وهب به نحوه، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه». قال المؤلف ابن كثير فى السيرة (١٦/٤): «إسناده جيد، ولم يخرجوه من هذا الوجه».

(٤) فى أ: «بيته».

(٣) فى أ: «يزيغ».

(٦) فى أ: «كبيراً».

(٥) فى أ: «غزاها».

الذى يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - فقال كعب: فَقَلَّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحى من الله، عز وجل، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظل، وأنا إليها أصعر. فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض من جهazy شيئا، فأقول لنفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى شمر^(١) بالناس الجدّ، فأصبح رسول الله ﷺ غاديا والمسلمون معه، ولم أقض من جهazy شيئا، وقلت: الجهاز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه^(٢). فغدوت بعدما فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئا من جهazy. ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا، فلم يزل [ذلك]^(٣) يتمادى بى حتى أسرعوا وتفاطروا الغزو، فهممت أن أرتحل فأدرّكهم - وليت أتى فعلت - ثم لم يقدر ذلك لى، فطفقت إذا خرجتُ فى الناس بعد [خروج]^(٤) رسول الله ﷺ [فَطُفْتُ فِيهِمْ]^(٥) يحزننى ألا أرى إلا رجلا مغموصا عليه فى النفاق، أو رجلا ممن عذره الله، عز وجل، ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك؟» قال رجل من بنى سلمة: حبسه يارسول الله برّده، والنظر فى عطفه. فقال له معاذ بن جبل: بشما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا! فسكت رسول الله ﷺ، قال كعب بن مالك: فلما بلغنى أن رسول الله ﷺ قد توجّه قافلا من تبوك حضرني بئى^(٦)، فطفقت أتذكر^(٧) الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدا؟ أستعين على ذلك كلّ ذى رأى من أهلى. فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظّل قادما، زاح عني الباطل وعرفت أنى لم أنج منه بشيء أبدا. فأجمعتُ صدقه، وصبح رسول الله ﷺ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس. فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له - وكانوا بضعة وثمانين رجلا - فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت، فلما سلّمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال لى: «تعال»، فجئت أمشى حتى جلست بين يديه، فقال لى: «ما خلّفتك، ألم تك قد اشتريت ظهرك؟» قال: فقلت: يارسول الله، إنى لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيتُ جدّلا، ولكنه والله لقد علمتُ لئن حدّثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله يُسخطك على، ولئن حدّثتك بصدق تجدّ علىّ فيه، إنى لأرجو أقرب عقبى ذلك [عفواً]^(٨) من الله، عز وجل^(٩)، والله ما كان لى عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر منى حين تخلفت عنك قال: فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضى الله فيك». فقامت وبادرنى رجال من بنى سلمة واتبعونى، فقالوا لى: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون^(١٠)، فقد كان كافيك [من ذنبك]^(١١) استغفار رسول الله ﷺ لك. قال: فوالله

(٣-٥) زيادة من ت، ك، أ، والمسنّد.

(٨) زيادة من ت، ك، أ، والمسنّد.

(١١) زيادة من ت، ك، أ، والمسنّد.

(٢) فى ت: «الحقهم».

(٧) فى ت، أ: «أتفكر».

(١٠) فى أ: «المخلفون».

(١) فى ت، ك: «استمر».

(٦) فى أ: «شئ».

(٩) فى ت: «تعالى».

ما زالوا يؤثّبوني حتى أردت أن أرجع فأكذّب نفسي: قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معى أحد؟ قالوا: نعم، [لقيه معك] ^(١) رجلان، قال ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك. قلت: فمن هما؟ قالوا: مُرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي. فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا لى فيهما أسوة. قال: فمضيت حين ذكروهما لى - قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا - أيها الثلاثة - من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيّروا لنا، حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض، فما هى بالأرض التى كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحبى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما ببيكان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف بالأسواق، فلا يكلمنى أحد، وآتى رسول الله ﷺ وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأسلم، وأقول فى نفسى: حرّك شفتيه برد السلام علىّ أم لا؟ ثم أصلى قريبا منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلى، فإذا التفت نحوه أعرض، حتى إذا طال على ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبى قتادة - وهو ابن عمى، وأحب الناس إلى - فسلمت عليه، فوالله ما رد على السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك الله: هل تعلم أنى أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت. قال: فعدت فنشدته [فسكت، فعدت فنشدته] ^(٢)، فقال: الله ورسوله أعلم. قال: ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار. فبينما ^(٣) أنا أمشى بسوق المدينة إذا ببطى من أنباط الشام، ممن ^(٤) قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ قال: فطفق الناس يشيرون له إلى، حتى جاء فدفع إلى كتابا من ملك غسان، وكنت كاتباً ^(٥)، فإذا فيه: أما بعد، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضیعة، فالحق بنا نؤاسك. قال: فقلت حين قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء. قال: فتميمت به التنور فسجّرت ^(٦)، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسول الله ﷺ يأتينى، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك. قال: فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها ولا تقربها. قال: وأرسل إلى صاحبى بمثل ذلك قال: فقلت لامراتى: الحقى بأهلك، فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر. قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت له: يارسول الله، إن هلالا شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقربنك» قالت: وإنه والله ما به حركة إلى شىء، والله ما يزال ييكى من لدن أن كان من أمرك ما كان إلى يومه هذا. قال: فقال لى بعض أهلى: لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. قال: فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وأما أدري ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته وأنا رجل شاب؟ قال: فلبثنا [بعد ذلك] ^(٧) عشر ليال، فكمّل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التى ذكر الله تعالى منا: قد ضاقت على نفسى،

(٤) فى ت: «فيمن».

(٣) فى ت، ك، أ: «وبينا».

(١، ٢) زيادة من ت، ك، أ، والمسنّد.

(٧) زيادة من ت، ك، أ، والمسنّد.

(٦) فى ت، أ: «فسجّرت فيها».

(٥) فى ت: «وكتب كتاباً».

وضاقت على الأرض بما رحبت، سمعت صارخا أوفى على جبل سلَّع يقول بأعلى صوته: يا كعب ابن مالك، أبشر. قال: فخررت ساجدا، وعرفت أن^(١) قد جاء فرج، فأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض إلى رجل فرساً، وسعى ساع من أسلم وأوفى على جبل، فكان الصوت أسرع من الفرس. فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرنى، فنزعت^(٢) ثوبى، فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أؤم رسول الله ﷺ، يلقاني الناس فوجا فوجا يهتفونى بالتوبة، يقولون: ليهنك توبة الله عليك. حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس فى المسجد حوله الناس، فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول، حتى صافحنى وهنأنى، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة. قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك». قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا، بل من عند الله». قال: وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، حتى يعرف ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله. قال: «أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك». قال: فقلت: فإنى أمسك سهمى الذى بخير. وقلت: يا رسول الله، إنما نجاني الله بالصدق، وإن من توبتى ألا أحدث إلا صدقا ما بقيت. قال: فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله من الصدق فى الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلانى الله تعالى، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقى. قال: وأنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ تَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ. وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ قال كعب: فوالله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام أعظم فى نفسى من صدقى رسول الله ﷺ يومئذ ألا أكون كذبتُه فأهلك كما هلك الذين كذبوه [حين كذبوه]^(٣)؛ فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل البوحى شر ما قال لأحد، قال^(٤) الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَنُتْرَضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَنُتْرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦]. قال: وكنا خلفنا - أيها الثلاثة - عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا، حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله تعالى^(٥): ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾، وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذى

(٣) زيادة من ت، ك، أ، والمسند.

(٢) فى ت، ك، أ: «فنزعت له».

(١) فى أ: «أنه».

(٥) فى ت: «عز وجل».

(٤) فى ت، ك، أ: «فقال».

ذكر مما خُلِّفْنَا بتخلُّفًا عن الغزو، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه.

هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته، رواه صاحبها الصحيح: البخارى ومسلم من حديث الزهرى، بنحوه^(١).

فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها. وكذا روى عن غير واحد من السلف فى تفسيرها، كما رواه الأعمش، عن أبى سفيان، عن جابر بن عبد الله فى قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ قال: هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومُرارة بن ربيعة وكلهم من الأنصار.

وكذا قال مجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدى وغير واحد - وكلهم قال: مُرارة بن ربيعة.

[وكذا فى مسلم: مُرارة بن ربيعة فى بعض نسخه، وفى بعضها: مُرارة بن الربيع]^(٢).

وفى رواية عن سعيد بن جبيرة: ربيع بن مُرارة.

وقال الحسن البصرى: ربيع بن مُرارة^(٣)، أو: مُرارة^(٤) بن ربيع.

وفى رواية عن الضحاك: مُرارة بن الربيع، كما وقع فى الصحيحين، وهو الصواب.

وقوله: «فسموا رجلين شهدا بدرًا»، قيل: إنه خطأ من الزهرى، فإنه لا يُعرفُ شهودُ واحد من هؤلاء الثلاثة بدرًا، والله أعلم.

ولما ذكر تعالى ما فرَّج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب، من هجر المسلمين إياهم نحوًا من خمسين ليلة بأيامها، وضاعت عليهم أنفسهم، وضاعت عليهم الأرض بما رحبت، أى: مع سعتها، فسددت عليهم المسالك والمذاهب، فلا يهتدون ما يصنعون، فصبروا لأمر الله، واستكانوا لأمر الله، وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ فى تخلفهم، وأنه كان عن غير عذر، فعوقبوا على ذلك هذه المدة، ثم تاب الله عليهم، فكان^(٥) عاقبة صدقهم خيرا لهم وتوبة عليهم؛ ولهذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، أى: اصدقوا والزموا الصدق تكونوا مع أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجا من أموركم، ومخرجا، وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن شقيق^(٦)؛ عن عبد الله، هو ابن مسعود، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب، حتى

(١) المسند (٤٥٦/٣ - ٤٥٩) وصحيح البخارى برقم (٨٨٩) وبرقم (٢٧٥٧) وصحيح مسلم برقم (٢٧٦٩).

(٢) زيادة من أ. (٣، ٤) فى جميع النسخ: «مرار» بدون هاء، والتصويب من الطبرى.

(٦) فى أ: «سفيان».

(٥) فى ت، ك، أ: «وكان».

يكتب عند الله كذابا».

أخرجاه فى الصحيحين^(١).

وقال شعبة، عن عمرو بن مرة، سمع أبا عبيدة يحدث عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، أنه قال: [إن] ^(٢) الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، اقرؤوا إن شئتم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ - هكذا قرأها - ثم قال: فهل تجدون لأحد فيه رخصة.

وعن عبد الله بن عمر: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مِنَ الصَّادِقِينَ﴾: مع محمد ﷺ وأصحابه.

وقال الضحاك: مع أبى بكر وعمر وأصحابهما^(٤).

وقال الحسن البصرى: إن أردت أن تكون مع الصادقين، فعليك بالزهد فى الدنيا، والكف عن أهل الملة.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠)﴾.

يعاتب تعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورجبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل من المشقة، فإنهم نقصوا أنفسهم من الأجر؛ لأنهم ^(٥) ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ وهو: العطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ وهو: التعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ وهى: المجاعة ^(٦) ﴿وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ أى: ينزلون منزلا ^(٧) يرهبُ عدوهم ﴿وَلَا يَنَالُونَ﴾ منه ظفراً وغلبة عليه إلا كتب الله لهم بهذه الاعمال التى ليست داخلية تحت قدرهم، وإنما هى ناشئة عن أفعالهم، أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِحَاجَتِهِمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)﴾.

يقول تعالى: ولا ينفق هؤلاء الغزاة فى سبيل الله ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أى: قليلاً ولا كثيراً

(١) المسند (١/٣٨٤) وصحيح البخارى برقم (٦٠٩٤) وصحيح مسلم برقم (٢٦٠٧).

(٢) زيادة من أ. (٣) فى ت، ك، أ: «مع». (٤) فى ت، ك، أ: «وأصحابهم».

(٥) فى ت، أ: «لأنه». (٦) فى ت: «المجاعة». (٧) فى أ: «ملا».

﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أى: فى السير إلى الأعداء ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ ولم يقل هاهنا «به» لأن هذه أفعال صادرة عنهم؛ ولهذا قال: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه، من هذه الآية الكريمة حظ وافر، ونصيب عظيم، وذلك أنه أنفق فى هذه الغزوة النفقات الجليلة، والأموال الجزيلة، كما قال عبد الله ابن الإمام أحمد:

حدثنا أبو موسى العنزى، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثنى سَكَنُ بن المغيرة، حدثنى الوليد بن أبى هشام، عن فرقد أبى طلحة، عن عبد الرحمن بن خَبَّابِ السلمى قال: خطب رسول الله ﷺ فحث على جيش العسرة، فقال عثمان بن عفان، رضى الله عنه: علىّ مائة بغير بأحلاسها وأقتابها. قال: ثم حث، فقال عثمان: علىّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: ثم نزل مرقاة من المنبر ثم حث، فقال عثمان بن عفان: علىّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: فرأيت رسول الله ﷺ يقول بيده هكذا - يحركها. وأخرج عبد الصمد يده كالمتعجب: «ما على عثمان ما عمل بعد هذا»^(١).

وقال عبد الله أيضا: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ضَمْرَةُ، حدثنا عبد الله بن شَوْذَب، عن عبد الله بن القاسم، عن كثير مولى عبد الرحمن بن سَمُرَةَ، عن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان إلى النبی ﷺ بألف دينار فى ثوبه حين^(٢) جهَّزَ النبی ﷺ جيش العسرة قال: فصبها فى حجر النبی ﷺ، فجعل النبی ﷺ يقلبها بيده ويقول: «ما ضرَّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم». يرددها مرارا^(٣).

وقال قتادة فى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمُ﴾ الآية: ما ازداد قوم من أهلهم فى سبيل الله بعدا إلا ازدادوا من الله قربا.

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (١٢٢).

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نَفِيرِ الأحياء مع الرسول فى غزوة تبوك، فإنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ

(١) زوائد المسند (٧٥/٤) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٧٠٠) من طريق السكن بن المغيرة به، وقال الترمذى: «هذا حديث غريب من هذا الوجه لانعرفه إلا من حديث السكن بن المغيرة».

(٢) فى ت، ك: «حتى».

(٣) زوائد المسند (٦٣/٥) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٧٠١) من طريق الحسن بن واقع عن ضمرة بن ربيعة به، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه».

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [التوبة: ١٢٠]، قالوا: فنسخ ذلك بهذه الآية.

وقد يقال: إن هذا بيان لمراده تعالى من نفير الأحياء كلها، وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم، ليتفقه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو، فيجتمع لهم الأمان في هذا: النفير المعين وبعده، صلوات الله وسلامه عليه، تكون الطائفة النافرة من الحى إما للتفقه وإما للجهاد؛ فإنه فرض كفاية على الأحياء.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ يقول: ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا النبي ﷺ وحده، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يعنى: عصابة، يعنى: السرايا، ولا يَتَسَرَّوْا^(١) إلا بإذنه، فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النبي ﷺ، قالوا: إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنًا، وقد تعلمناه. فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم، ويبعث سرايا أخرى، فذلك قوله: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ يقول: ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم، وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

وقال مجاهد: نزلت هذه الآية فى أناس من أصحاب محمد ﷺ، خرجوا فى البوادر، فأصابوا من الناس معروفًا، ومن الخصب^(٢) ما ينتفعون به، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا. فوجدوا فى أنفسهم من ذلك تحرجًا، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي ﷺ، فقال الله، عز وجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يتبعون^(٣) الخير، ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾^(٤) وليستمعوا ما فى الناس، وما أنزل الله بعدهم، ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمُ﴾ الناس كلهم ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

وقال قتادة فى هذه الآية: هذا إذا بعث رسول الله ﷺ الجيوش، أمرهم الله ألا يُعَرَّوْا^(٥) نبيه ﷺ، وتقيم طائفة مع رسول الله ﷺ تتفقه فى الدين، وتنطلق طائفة تدعو قومها، وتحذرهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم.

وقال الضحاك: كان رسولُ الله ﷺ إذا غزا بنفسه لم يحل لأحد من المسلمين أن يتخلف عنه، إلا أهل العذر. وكان إذا أقام فاسترت السرايا لم يحل لهم أن ينطلقوا إلا بإذنه، فكان الرجل إذا استترى فنزل بعده قرآن، تلاه رسول ﷺ على أصحابه القاعدين^(٦) معه، فإذا رجعت السرية قال لهم الذين أقاموا مع رسول الله ﷺ: إن الله أنزل بعدكم على نبيه قرآنًا. فيقرؤونهم ويفقهونهم فى الدين، وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ يقول إذا أقام رسول الله ﷺ ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يعنى بذلك: أنه لا ينبغي للمسلمين أن ينفروا جميعاً ونبي الله ﷺ قاعد، ولكن إذا قعد نبي الله ﷺ تسرت السرايا، وقعد معه عظم^(٨) الناس.

(١) فى جميع النسخ: «يسيروا» والمثبت من الطبرى ومستفاد من ط. الشعب.

(٢) فى ك: «الخطب».

(٣) فى أ: «يتبعون».

(٤) زيادة من أ.

(٥) فى ت، ك، أ: «القاعدون».

(٦) فى أ: «نبي».

(٧) فى ت: «أن لا يغزوا»، وفى أ: «أن يغزوا».

(٨) فى ت، أ: «عظيم».

وقال [على] ^(١) ابن أبي طلحة أيضا عن ابن عباس: قوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً﴾: فإنها ليست في الجهاد، ولكن لما دعا رسول الله ﷺ على مُضِر بالسنين أجذبت بلادهم، وكانت القبيلة منهم تُقبِل بأسرها حتى يحلوا بالمدينة من الجهد، ويعتلوا بالإسلام وهم كاذبون. فضيقوا على أصحاب النبي ﷺ وأجهدوهم. فأنزل الله يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين، فردهم رسول الله إلى عشائرتهم، وحذّر قومهم أن يفعلوا فعلهم، فذلك قوله: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: كان ينطلق من كل حى من العرب عصابة، فيأتون النبي ﷺ. فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم، ويتفقهون في دينهم، ويقولون لنبي الله: ما تأمرنا أن نفعله؟ وأخبرنا [ما نقول] ^(٢) لعشائرتنا إذا قدمنا انطلقنا إليهم. قال: فيأمرهم نبي الله بطاعة الله وطاعة رسوله، ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة. وكانوا إذا أتوا قومهم نادوا: إن من أسلم فهو منا، وينذرونهم، حتى إن الرجل ليفارق أباه وأمه، وكان رسول الله ﷺ يخبرهم وينذرهم قومهم، فإذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام وينذرونهم النار ويبشرونهم بالجنة.

وقال عكرمة: لما نزلت هذه الآية: [الشريفة] ^(٣): ﴿إِلَّا تَنفِرُوا نُعَذِّبْكُمْ﴾ ^(٤) عَذَابًا أَلِيمًا ﴿[التوبة: ٣٩]، و﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ ^(٥) [التوبة: ١٢٠]، قال المنافقون: هلك أصحاب البدو الذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه. وقد كان ناس من أصحاب النبي ﷺ خرجوا إلى البدو إلى قومهم يفقهونهم، فأنزل الله، عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ الآية، ونزلت: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ الآية [الشورى: ١٦].

وقال الحسن البصرى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ قال: ليتفقه الذين خرجوا، بما يردهم الله من الظهور على المشركين، والنصرة، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٣).

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولا فأولا، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام؛ ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة، والطائف، واليمن واليمامة، وهجر، وخيبر، وحضرموت، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب،

(٣) زيادة من ت.

(٢) زيادة من ت، ك، أ.

(١) زيادة من أ.

(٥) زيادة من ت، أ.

(٤) فى ت، ك: «يعذبكم».

ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجا، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لكونهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس وجذب البلاد^(١) وضيق الحال، وكان ذلك سنة تسع من هجرته، عليه السلام^(٢).

ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجته حجة الوداع. ثم عاجلته المنية، صلوات الله وسلامه عليه، بعد الحجة بأحد وثمانين يوما، فاختره الله لما عنده.

وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر، رضى الله عنه، وقد مال الدين ميلة كاد أن ينجل، فثبتته الله تعالى به فوطد القواعد، وثبت الدعائم. ورد شارد الدين وهو راغم. ورد أهل^(٣) الردة إلى الإسلام، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطعام، وبين الحق لمن جهله، وأدى عن الرسول ما حملة. ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصلبان^(٤)، وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنفس كسرى وقصر ومن أطاعهما من العباد. وأنفق كنوزهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك رسول الإله.

وكان تمام الأمر على يدى وصيه من بعده، وولى عهده الفاروق الأواب، شهيد المحراب، أبى حفص عمر بن الخطاب، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحددين، وقمع الطغاة والمنافقين، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً. وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعداً وقرباً. ففرقها على الوجه الشرعى، والسبيل المرضى.

ثم لما مات شهيداً وقد عاش حميداً، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار. على خلافة أمير المؤمنين [أبى عمرو]^(٥) عثمان بن عفان شهيد الدار. فكسا الإسلام [بجلاله]^(٦) رئاسة حلة سابعة. وأمدت^(٧) في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة، وظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وعلت كلمة الله وظهر دينه. وبلغت الأمة الحنيفية من أعداء الله غاية مآربها، فكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم، ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار، امتثالا لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾، [أى: وليجد الكفار منكم غلظة]^(٨) عليهم في قتالكم لهم، فإن المؤمن الكامل هو الذى يكون رفيقا لأخيه المؤمن، غليظاً على عدوه الكافر، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، والتحريم: ٩، وفى الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «أنا الضَّحُوكُ الْقَتْلُ»، يعنى: أنه ضحك في وجهه ولىه،

(١) فى ت، ك، أ: «الناس».

(٢) فى أ: «ﷺ».

(٣) فى ت: «آل».

(٤) زيادة من ت، ك، أ.

(٥) فى أ: «الأصنام».

(٦) زيادة من ت، أ.

(٨) فى ت، أ: «فيكن».

(٩) فى أ: «وامتدت».

(٩) زيادة من ت، ك، أ.

قَتَالَ لَهُامَةَ عَدُوهُ .

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، أى: قاتلوا الكفار، وتوكلوا على الله، واعلموا أن الله معكم إن اتقيتموه وأطعتموه.

وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة، فى غاية الاستقامة، والقيام بطاعة الله تعالى، لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، ولم تزل الفتوحات كثيرة، ولم تزل الأعداء فى سَفَالٍ وخسار. ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك، طمع الأعداء فى أطراف البلاد، وتقدموا إليها، فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام، فأخذوا من الأطراف بلدانا كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوزوا على كثير من بلاد الإسلام، والله، سبحانه، الأمر من قبل ومن بعد. فكلما^(١) قام ملك من ملوك الإسلام، وأطاع أوامر الله، وتوكل على الله، فتح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسبه، وبقدر ما فيه من ولاية الله. والله المسؤول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصى أعدائه الكافرين، وأن يعلى كلمتهم فى سائر الأقاليم، إنه جواد كريم.

﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فمن المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا؟﴾ أى: يقول بعضهم لبعض أىكم زادته هذه السورة إيمانا؟ قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد، وقد بسط الكلام على هذه المسألة فى أول «شرح البخارى» رحمه الله، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ أى: زادتهم شكا إلى شكهم، وربيا إلى ريبهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدى القلوب يكون سببا لضلالهم ودمارهم، كما أن سبئ المزاج لو غذى بما غذى به لا يزيده إلا خبالا ونقصا.

(١) فى ت: «فلما».

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (١٢٦)
وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ
بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧) ﴿

يقول تعالى: «أولا يرى هؤلاء المنافقون» (١) ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ أى: يختبرون ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أى: لا يتوبون من ذنوبهم السالفة، ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم.

قال مجاهد: يختبرون بالسنة والجوع.

وقال قتادة: بالغزو في السنة مرة أو مرتين.

وقال شريك، عن جابر - هو الجعفى - عن أبى الضحى، عن حذيفة: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ قال: كنا نسمع فى كل عام كذبة أو كذبتين، فيضل بها فئام من الناس كثير. رواه ابن جرير.

وفى الحديث عن أنس: «لا يزداد الأمر إلا شدة، ولا يزداد الناس إلا شحا، وما من عام إلا والذي بعده شر منه»، سمعته من نبيكم ﷺ (٢).

وقوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾، هذا أيضا إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ، ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أى: تَلَفَّتُوا، ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ أى: تولوا عن الحق وانصرفوا عنه، وهذا حالهم فى الدين لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يقيمونه كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ. كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَفْرَةٌ. فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [المدر: ٤٩ - ٥١]، وقال تعالى: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ. عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ [المعارج: ٣٦، ٣٧]، أى: ما لهؤلاء القوم يتقللون عنك يميناً وشمالاً، هروبا من الحق، وذهاباً إلى الباطل.

وقوله: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]،

(١) فى ك، أ: «المنافقين».

(٢) هذا الحديث مركب من حديثين عن أنس:

الأول: رواه ابن ماجه فى السنن برقم (٤٠٣٩) والحاكم فى المستدرک (٤٤١/٤) من طريق محمد بن خالد الجندى، عن أبان ابن صالح، عن الحسن، عن أنس رضى الله عنه مرفوعاً: «لا يزداد الأمر إلا شدة، ولا الدنيا إلا إدباراً، ولا الناس إلا شحاً، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس، وما المهدي إلا عيسى ابن مريم» ففيه ضعف ونكارة بينهما المؤلف - الحافظ ابن كثير فى النهاية فى الفتن والملاحم (٣٢/١).

وأما الثانى: فرواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٠٦٨) من طريق سفيان عن الزبير بن عدى قال: أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما يلقون من الحجاج، فقال: «اصبروا فإنه لا يأتى عليكم زمان إلا والذي بعده أشد منه حتى تلقوا ربكم» سمعته من نبيكم ﷺ.

(٣) فى ت: «راكم».

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أى: لا يفهمون عن الله خطابه، ولا يقصدون لفهمه ولا يريدونه، بل هم فى شدة^(١) عنه ونفور منه فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)﴾.

يقول تعالى ممثنا على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولا من أنفسهم، أى: من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم، عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أى: منكم وبلغتكم، كما قال جعفر بن أبى طالب للنجاشى، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولا منا، نعرف نسبه وصفته، ومدخله ومخرجه، وصدقه وأمانته، وذكر الحديث.

وقال سفيان بن عيينة، عن جعفر بن محمد، عن أبيه فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قال: لم يصبه شئ من ولادة الجاهلية، وقال عليه السلام: «خرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح». وقد وصل هذا من وجه آخر، كما قال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي فى كتابه «الفاصل بين الراوى والواعى»: حدثنا أبو أحمد يوسف بن هارون بن زياد، حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا محمد بن جعفر بن محمد قال: أشهد على أبى لحدثنى، عن أبيه، عن جده، عن على قال: قال رسول الله ﷺ: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى لم يمسنى^(٢) من سفاح الجاهلية شئ»^(٣).

وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أى: يعز عليه الشئ الذى يعنت أمته ويشق عليها؛ ولهذا جاء فى الحديث المروى من طرق عنه أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة»^(٤)، وفى الصحيح: «إن هذا الدين يسر»^(٥)، وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة، يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أى: على هدايتكم ووصول النفع الدنيوى والأخروى إليكم.

قال الطبرانى: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى، حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ،

(١) فى ت، ك، أ: «شغل». (٢) فى ت، أ: «لم يصبنى»، وفى ك: «لم يمسنى».

(٣) الفاصل بين الراوى والواعى (ص ١٣٦) ورواه الطبرانى فى الأوسط برقم (٣٤٨٣) «مجمع البحرين» من طريق عبد الرحمن الرازى، عن محمد بن أبى عمر به، وفيه محمد بن جعفر بن محمد بن على متكلم فيه.

(٤) رواه أحمد فى مسنده (٢٦٦/٥) عن أبى أمامة، و(٢٣٣/٦) عن عائشة رضى الله عنهما.

(٥) صحيح البخارى برقم (٣٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

حدثنا سفيان بن عيينة، عن فطر، عن أبي الطفيل، عن أبي ذر قال. تركنا رسول الله ﷺ وما طائر^(١) يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكرنا منه علما - قال: وقال ﷺ: «مابقي شيء يُقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم»^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا [أبو] ^(٣) فطن، حدثنا السعدي، عن الحسن بن سعد، عن عبدة النهدي، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يحرم حُرمة إلا وقد علم أنه سيطلعها منكم مُطَّلَع، ألا وإنني آخذ بحجزكم أن تهافتوا في النار، كتهافت الفراش، أو الذباب»^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جدعان، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ أتاه ملكان، فيما يرى النائم، فقعد أحدهما عند ^(٥) رجله والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجله للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته. فقال: إن مثله ^(٦) ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفارة ^(٧)، فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفارة ^(٨)، ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حُلَّة حَبْرَةٍ فقال: أرايتم إن وردت بكم رياضا معشبة، وحياضا رواء تتبعوني؟ فقالوا: نعم. قال: فانطلق بهم، فأوردهم رياضا معشبة، وحياضا رواء، فأكلوا وشربوا وسمنوا، فقال لهم: ألم ألكم على تلك الحال، فجعلتم لي إن وردت بكم رياضا معشبة وحياضا رواء أن تتبعوني؟ فقالوا: بلى. قال: فإن بين أيديكم رياضا هي أعشب من هذه، وحياضا هي أروى من هذه، فاتبعوني. فقالت طائفة: صدق، والله لتتبعنه وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه ^(٩).

وقال البزار: حدثنا سلمة بن شبيب وأحمد بن منصور قالا: حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان حدثنا أبي، عن عكرمة عن أبي هريرة، رضى الله عنه؛ أن أعرابيا جاء إلى رسول الله ﷺ ليستعينه في شيء - قال عكرمة: أراه قال: «في دم» - فأعطاه رسول الله ﷺ شيئا، ثم قال: «أحسن إليك؟» قال الأعرابي: لا، ولا أجملت. فغضب بعض المسلمين، وهموا أن يقوموا إليه، فأشار رسول الله ﷺ إليهم: أن كفوا. فلما قام رسول الله ﷺ وبلغ إلى منزله، دعا الأعرابي إلى البيت، فقال له: «إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك، فقلت ما قلت» فزاده رسول الله ﷺ شيئا، وقال: «أحسن إليك؟» فقال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا. قال النبي ﷺ: «إنك جئتنا تسألنا ^(١٠) فأعطيناك، فقلت ما قلت، وفي أنفك أصحابي عليك من ذلك شيء، فإذا جئت ^(١١) فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي، حتى يذهب عن صدورهم». قال: نعم. فلما جاء الأعرابي. قال ^(١٢): «إن صاحبكم كان

(١) في أ: «وما من طائر».

(٢) المعجم الكبير (٢/١٥٥) وقال الهيثمي في المجمع (٧/٢٦٥): «رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ وهو ثقة».

(٣) زيادة من ت، ك، أ، والمسند.

(٤) المسند (١/٣٩٠).

(٥) في ك: «عن».

(٦) في ت: «مثل هذا».

(٨) في ك: «المفارة».

(٧) في ك: «مفارة».

(٩) المسند (١/٢٦٧) وعلى بن زيد بن جدعان ضعيف.

(١٠) في ت، ك: «فسألنا» وفي أ: «فسألتنا».

(١١) في ت: «خرجت».

(١٢) في ك، أ: «قال رسول الله ﷺ».

جاءنا فسألنا فأعطيناه، فقال ما قال، وإنا قد دعونا فأعطيناه فزعم أنه قد رضى، [كذلك يا أعرابى؟] ^(١) قال الأعرابى: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً. فقال النبي ﷺ: «إن مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثلى رجل كانت له ناقة، فشردت عليه، فاتبعها الناس فلم يزيدها إلا نفورا. فقال لهم صاحب الناقة: خلوا بينى وبين ناقتى، فأنا أرفق بها، وأعلم بها. فتوجه إليها وأخذ لها ^(٢) من قَتَامِ الأرض، ودعاها حتى جاءت واستجابت، وشد عليها رحلها وإنه لو أظعتكم حيث قال ما قال لدخل النار». ثم قال البزار: لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه ^(٣).

قلت: وهو ضعيف بحال إبراهيم بن الحكم بن أبان، والله أعلم.
وقوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ. وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٥ - ٢١٧].
وهكذا أمره تعالى.

وهذه ^(٤) الآية الكريمة، وهى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أى: تولوا عما جثتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة، ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أى: الله كافى، لا إله إلا هو عليه توكلت، كما قال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].

﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أى: هو مالك كل شىء وخالقه، لأنه رب العرش العظيم، الذى هو سقف المخلوقات وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شىء، وقدره نافذ فى كل شىء، وهو على كل شىء وكيل.

قال [عبد الله بن] ^(٥) الإمام أحمد: حدثنى محمد بن أبى بكر، حدثنا بشر بن عمر، حدثنا شعبة، عن على بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، عن أبى بن كعب قال: آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السورة ^(٦).

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا روح بن عبد المؤمن، حدثنا عمر بن شقيق، حدثنا أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن أبى بن كعب، رضى الله عنه؛ أنهم جمعوا القرآن فى مصاحف فى خلافة أبى بكر، رضى الله عنه، فكان رجال يكتبون ويملى عليهم أبى بن كعب، فلما انتهوا إلى هذه الآية من سورة براءة: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧]، فظنوا أن هذا آخر ما أنزل ^(٧) من القرآن. فقال لهم أبى بن كعب: إن رسول الله ﷺ أقرأنى بعدها آيتين: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ

(١) زيادة من ت، ك، أ، والبزار. (٢) فى ت، أ: «فأخذها».

(٣) مسند البزار برقم (٢٤٧٦) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (١٥/٩): «وفيه إبراهيم بن الحكم بن أبان، وهو متروك».

(٤) فى ت، ك، أ: «فى هذه». (٥) ساقطة من النسخ.

(٦) زوائد المسند (١١٧/٥) وقال الهيثمى فى المجمع (٣٦/٧): «وفيه على بن زيد بن جدعان وهو ثقة سبى الحفظ، وبقية رجاله ثقات» قلت: أجمع الأئمة على تضعيف على بن زيد بن جدعان.

(٧) فى أ: «ما نزل».

رَحِيمٌ إِلَى: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ قال: «هذا» ^(١) آخر ما أنزل ^(٢) من القرآن» قال: فختم بما فُتِحَ به، بالله الذي لا إله إلا هو، وهو قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُوْحَىٰ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] غريب ^(٤) أيضا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن بحر، حدثنا محمد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد، عن أبيه عباد بن عبد الله بن الزبير، رضي الله عنه، قال: أتى الحارث بن خزيمة ^(٥) بهاتين الآيتين من آخر براءة: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ إلى عمر بن الخطاب، فقال: من معك على هذا؟ قال: لا أدري، والله إنني لأشهد ^(٦) لسمعتها من رسول الله ﷺ ووعيتها وحفظتها. فقال عمر: وأنا أشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ - ثم قال: لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة، فانظروا سورة من القرآن، فضعوها فيها. فوضعوها في آخر براءة ^(٧).

وقد تقدم أن عمر بن الخطاب هو الذي أشار على أبي بكر الصديق، رضي الله عنهما، بجمع القرآن، فأمر زيد بن ثابت فجعله. وكان عمر يحضرهم وهم يكتبون ذلك. وفي الصحيح أن زيدا قال: فوجدت آخر سورة «براءة» مع خزيمه بن ثابت - أو: أبي خزيمه ^(٨). وقدمنا أن جماعة من الصحابة تذكروا ^(٩) ذلك عن رسول الله ﷺ، كما قال خزيمه بن ثابت حين ابتدأهم بها، والله أعلم.

وقد روى أبو داود، عن يزيد بن محمد، عن عبد الرزاق بن عمر - وقال: كان من ثقات المسلمين من المتعبدين، عن مدرك بن سعد - قال يزيد: شيخ ثقة - عن يونس بن ميسرة، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء قال: من قال إذا أصبح وإذا أمسى: حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم، سبع مرات، إلا كفاه الله ما أهمه ^(١٠) ^(١١).

وقد رواه ابن عساكر في ترجمة «عبد الرزاق بن عمر» هذا، من رواية أبي زُرْعَةَ الدمشقي، عنه، عن أبي سعد مُدْرِكُ بن أبي سعد الفزاري، عن يونس بن ميسرة بن حليس، عن أم الدرداء، سمعت أبا الدرداء يقول: ما من عبد يقول: حسبي الله، لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم، سبع مرات، صادقا كان بها أو كاذبا، إلا كفاه الله ما همم ^(١٢).

وهذه زيادة غريبة. ثم رواه في ترجمة عبد الرزاق أبي محمد، عن أحمد بن عبد الله بن عبد الرزاق، عن جده عبد الرزاق بن عمر، يسنده فرفعه ^(١٣)، فذكر مثله بالزيادة. وهذا منكروا، والله أعلم.

آخر سورة براءة، والحمد لله وحده ^(١٤)

(٣) في أ: «إلا نوحى».

(٢) في أ: «ما نزل».

(١) في أ: «إن هذا».

(٤) زوائد المسند (١٣٤/٥).

(٦) في أ: «أشهد».

(٥) في ك: «خزيمة».

(٧) المسند (١٩٩/١).

(٨) صحيح البخارى برقم (٤٦٧٩).

(١٠) في ك: «ما يغمه».

(٩) في ك، أ: «يذكروا».

(١١) سنن أبي داود برقم (٥٠٨١).

(١٢) تاريخ دمشق (٢٩١/١٠) «المخطوط».

(١٣) تاريخ دمشق (٣١٢/١٠) «المخطوط».

(١٤) جاء في ك: [رابع عشر من ربيع الاول سنة ثمانين في سبع من الهجرة النبوية، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم].

تفسير سورة يونس

[وهي مكية^(١)].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ۝ (٢)﴾.

أما الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد تقدم الكلام عليها [مستوفى]^(٢) في أوائل^(٣) سورة البقرة.

وقال أبو الضحى، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿الر﴾، أى: أنا الله أرى. وكذا قال الضحاك وغيره.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ أى: هذه آيات القرآن المحكم المبين وقال مجاهد: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [قال: التوراة والإنجيل]^(٤).
[وقال الحسن: التوراة والزبور]^(٥).

وقال قتادة: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ قال: الكتب التى كانت قبل القرآن.
وهذا القول لا أعرف وجهه ولا معناه.

وقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية، يقول تعالى منكرا على من تعجب من الكفار من إرسال المرسلين من البشر، كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من^(٦) قولهم: ﴿أَبَشِّرْ يَهُدُونََنَا﴾ [التغابن: ٦]، وقال هود وصالح لقومهما: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣، ٦٩] وقال تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

وقال الضحاك، عن ابن عباس: لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولا، أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد. قال: فأنزل الله عز

(٣) فى ت، أ: «أول».

(٢) زيادة من ت، أ.

(١) زيادة من ت.

(٤) زيادة من تفسير الطبرى (١١/١٥) مستفاد من ط. الشعب.

(٦) فى ت، أ: «فى».

(٥) زيادة من ت، أ.

وجل: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾.

وقوله: ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: اختلفوا فيه، فقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ [عِنْدَ رَبِّهِمْ]﴾^(١) يقول: سبقت لهم السعادة فى الذكر الأول.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يقول: أجرا حسنا، بما قدموا. وكذا قال الضحاك، والربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا كقوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا. مَا كَثُرَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢، ٣].

وقال مجاهد: ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قال: الأعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقهم وتسبيحهم.

[وقال عمرو بن الحارث عن قتادة أو الحسن ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾]^(٢)، قال: محمد ﷺ شفيع لهم. وكذا قال زيد بن أسلم، ومقاتل بن حيان. وقال قتادة: سلفُ صدق عند ربهم.

واختار ابن جرير قول مجاهد - أنها الأعمال الصالحة التى قدموها - قال: كما يقال: «له قدم فى الإسلام»، ومنه قول [حسان]^(٣) رضى الله عنه:

لَنَا الْقَدَمُ^(٤) الْعُلْيَا إِلَيْكَ وَخَلَفْنَا
وَقَوْلِ ذِي الرُّمَّة:

لَكُمْ قَدَمٌ لَا يُنْكِرُ النَّاسُ أَنَّهَا
مَعَ الْحَسَبِ الْعَادِي طَمَّتْ عَلَى الْبَحْرِ^(٥)

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ^(٦) مُّبِينٌ﴾ أى: مع أنا بعثنا إليهم رسولا منهم، رجلا من جنسهم، بشيرا ونذيرا، ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ^(٧) مُّبِينٌ﴾ أى: ظاهر، وهم الكاذبون فى ذلك.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣).

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه، وأنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام - قيل: كهذه الأيام، وقيل: كل يوم كألف سنة مما تعدون. كما سيأتى بيانه [إن شاء الله تعالى]^(٨)، ثم استوى

(٢) زيادة من ت.

(٤) فى ت: «قدم».

(٨) زيادة من أ.

(١) زيادة من ت، أ.

(٣) زيادة من ت، أ.

(٥) تفسير الطبرى (١٥/١٦).

(٦، ٧) فى ت: «لسحر».

على العرش، والعرش أعظم المخلوقات وسقفها.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا حجاج بن حمزة، حدثنا أبو أسامة، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد قال: سمعت سعد^(١) الطائي يقول: العرش ياقوتة حمراء.

وقال وهب بن منبه: خلقه الله من نوره.

وهذا غريب.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أى: يدبر أمر الخلائق، ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]، ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلظه^(٢) المسائل، ولا يترجم بإلحاح الملحين^(٣)، ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير، فى الجبال والبحار وال عمران والقفار، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦]. ﴿وَمَا تَسْقُطُ﴾^(٤) ﴿مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال الدراوردي، عن سعد بن إسحاق بن كعب [بن عجرة]^(٥) أنه قال حين نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ لقيهم ركب عظيم^(٦) [لا يرون إلا أنهم]^(٧) من العرب، فقالوا لهم: من أنتم؟ قالوا. من الجن، خرجنا من المدينة، أخرجتنا هذه الآية. رواه ابن أبي حاتم.

[وقوله]^(٨): ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾، كقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، وقوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]. وقوله: ﴿ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(٩) أى: أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(١٠) أى: أيها المشركون فى أمركم، تعبدون مع الله غيره، وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق، كقوله تعالى: ﴿وَلَتُنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾^(١١) قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧]، وكذا الآية التى قبلها والتى بعدها.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعَدَ اللَّهُ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

(٣) فى ت: «بالا لجاح الملحين».

(٦) فى ت: «لقى - ثم بياض - ركباً عظيماً».

(٩، ١٠) فى ت: «يتذكرون».

(٢) فى ت، أ: «ولا يغلظه».

(٥) زيادة من ت، أ.

(٨) زيادة من ت، أ.

(١) فى ت: «سعداً».

(٤) فى ت: «يسقط».

(٧) زيادة من ت.

(١١) فى ت: «الله».

الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ .

أخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة، لا يترك منهم أحدا حتى يعيده كما بدأه. ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أى: بالعدل والجزاء الأوفى، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أى: بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العقاب، من ﴿سُمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٍّ مِّنْ يَحُمُومٍ﴾ [الواقعة ٤٢، ٤٣]. ﴿هَذَا فَلْيَذوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ . وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص: ٥٧، ٥٨]، ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آن﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ .

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته، وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياءً وشعاع القمر نورا، هذا فن وهذا فن آخر، ففاوت بينهما لثلا يشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيراً، ثم يتزايد نُوره وجرمه، حتى يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع فى النقص حتى يرجع إلى حاله الأول فى تمام شهر، كما قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٩، ٤٠]، وقال: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿وَقَدَرَهُ﴾ أى: القمر ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾، فبالشمس تعرف الأيام، وبسیر القمر تعرف الشهور والأعوام.

﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أى: لم يخلقه عبثاً بل له حكمة عظيمة فى ذلك، وحجة بالغة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وقوله: ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أى: نبين الحجج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ .

وقوله: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أى: تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيئاً، كما قال تعالى: ﴿يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: من الآيات الدالة على عظمته تعالى، كما قال: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ [يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ]﴾^(١) [يوسف: ١٠٥]، [وقال^(٢)]: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣) وَمَا تَغْنَى الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ [يونس: ١٠١]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا﴾^(٤) إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٩]، وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] أى: العقول، وقال ما هنا: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ أى: عقاب الله، وسخطه، وعذابه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ (٧) أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ولا يرجون فى لقاء الله شيئاً، ورضوا بهذه الحياة الدنيا^(٥) واطمأننت إليها أنفسهم.

قال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها، حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها، والشرعية فلا يأتعون بها، بأن ماوَاهم يوم معادهم النار، جزاء على ما كانوا يكسبون فى دنياهم من الآثام والخطايا والأجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (٩) دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾

وهذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وامتلأوا ما أمروا، فعملوا الصالحات، بأنه سيهديهم بإيمانهم.

يحتمل أن تكون «الباء» هاهنا سببية، فتقديره: بسبب إيمانهم فى الدنيا يهديهم الله يوم القيامة

(٣) زيادة من ت، أ.

(٢) فى أ: «وقوله».

(١) زيادة من ت، أ، وفى هـ: «الآية».

(٥) فى أ: «الدنية».

(٤) فى ت: «ينظروا».

على الصراط، حتى يجزوه ويخلصوا إلى الجنة. ويحتمل أن تكون للاستعانة، كما قال مجاهد في قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾، قال: [يكون لهم نورا يمشون به]^(١).

وقال ابن جريج في [قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ قال]^(٢): يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة إذا قام من قبره، يعارض صاحبه ويشره بكل خير، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك. فيجعل^(٣) له نورا. من بين يديه حتى يدخله^(٤) الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾. والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح متنتة فيلازم صاحبه ويلازه^(٥) حتى يقذفه في النار.

وروى نحوه عن قتادة مرسلا، فالله أعلم.

وقوله: ﴿دَعَاَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: هذا حال أهل الجنة.

قال ابن جريج: أخبرت أن قوله: ﴿دَعَاَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾، [قال: إذا مر بهم الطير يشتهونه، قالوا: سبحانك اللهم]^(٦)، وذلك دعواهم فيأتيهم الملك بما يشتهونه، فيسلم عليهم، فيردون عليه، فذلك قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾، قال: فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم، فذلك قوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقال مقاتل بن حيان: إذا أراد أهل الجنة أن يدعوا بالطعام قال أحدهم: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ قال: فيقوم على أحدهم عشرة آلاف خادم، مع كل خادم صحيفة من ذهب، فيها طعام ليس في الأخرى، قال: فيأكل منهم كلهن.

وقال سفيان الثوري: إذا أراد أحدهم أن يدعو بشيء قال: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾.

وهذه الآية فيها شبه من قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا. إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، وقوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]، وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ. سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وقوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: هذا فيه دلالة على أن الله تعالى هو المحمود أبدا، المعبود على طول المدى؛ ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفي ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله، حيث يقول تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها، وأنه

(٣) فى ت: «فنجعل».

(٢) زيادة من ت، أ، وفى هـ: «الآية».

(١) زيادة من ت، أ.

(٦) زيادة من ت، أ.

(٥) فى ت: «ويلاده».

(٤) فى ت: «يدخل».

المحمود في الأول، و[في] ^(١) الآخر، في الحياة الدنيا وفي الآخرة، في جميع الأحوال؛ ولهذا جاء في الحديث: «إن أهل الجنة يُلْهِمُونَ التسبيح والتحميد كما يُلْهِمُونَ النَّفْسَ» ^(٢). وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من تضاعف نعم الله عليهم، فتكرر ^(٣) وتعاد وتزاد، فليس لها انقضاء ولا أمد، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١١).

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده: أنه لا يستجيب لهم ^(٤) إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم ^(٥)، في حال ضجرهم وغضبهم، وأنه يعلم منهم عَدَمَ القصد إلى إرادة ذلك، فلهذا لا يستجيب ^(٦) لهم - والحالة هذه - لطفًا ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم وأولادهم بالخير والبركة والنماء؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يَعْجَلُ ^(٧) اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ أي: لو استجاب لهم كلما دعوه به في ذلك، لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك، كما جاء في الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده:

حدثنا محمد بن مَعْمَرٍ، حدثنا يعقوب بن محمد، حدثنا حاتم بن إسماعيل، حدثنا يعقوب بن مجاهد أبو حَزْرَةَ عن عبادة بن الوليد، حدثنا جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب ^(٨) لكم».

ورواه أبو داود، من حديث حاتم بن إسماعيل، به ^(٩).

وقال البزار: [و] ^(١٠) تفرد به عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت الأنصاري، لم يشاركه أحد فيه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١] وقال مجاهد في تفسير هذه الآية: ﴿وَلَوْ ^(١١) يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾: وهو قول الإنسان لولده وماله إذا غضب عليه: «اللهم لا تبارك فيه والعنه». فلو يعجل لهم الاستجابة في

(١) زيادة من ت.

(٢) رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٨٣٥) من حديث جابر رضى الله عنه.

(٣) في ت، أ: «فيكرر».

(٤) في ت: «لا يستحب منهم»، وفي أ: «لا يستجيب منهم».

(٥) في ت، أ: «وأموالهم وأولادهم».

(٦) في ت: «لا يستحب».

(٧) في ت: «تعجل».

(٨) في ت: «فيستحب».

(٩) سنن أبي داود برقم (١٥٣٢) ورواه مسلم في صحيحه برقم (٣٠٠٩) بأطول منه من طريق حاتم بن إسماعيل.

(١٠) في ت: «ولولا».

(١١) زيادة من ت.

ذلك، كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر، كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُوْ دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١] أى: كثير، وهما في معنى واحد؛ وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها وزوالها عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه، وفي جميع أحواله، فإذا فرج الله شدته وكشف كربته، أعرض ونأى بجانبه، وذهب كأنه ما كان به من ذاك شيء، ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾.

ثم ذم تعالى من هذه صفته وطريقته^(٢) فقال: ﴿كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد، فإنه مستثنى من ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١]، وكقول^(٣) رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن^(٤)، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له: إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له»، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن^(٥).

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

أخبر تعالى عما أحلّ بالقرون الماضية، في تكذيبهم الرسل فيما جاؤوهم به من البينات والحجج الواضحات، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم، وأرسل إليهم رسولا لينظر طاعتهم له، واتباعهم رسوله، وفي صحيح مسلم من حديث أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»^(٦).

وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا زيد بن عوف أبو ربيعة فهد^(٧)، حدثنا حماد، عن ثابت

(٢) في أ: «وطريقته».

(١) في ت: «ولولا».

(٣) في ت، أ: «وكما قال».

(٤) في ت، أ: «عجباً للمؤمن».

(٥) رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب الرومي رضى الله عنه.

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٧٤٢).

(٧) في هـ، ت: «مهد»، وفي أ: «شهد» والتصويب من الطبرى.

البُناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى؛ أن عوف بن مالك قال لأبي بكر: رأيت فيما يرى النائم كأن سبباً دُلِّي من السماء، فانتُشِط رسولُ الله ﷺ، ثم أعيد، فانتُشِط أبو بكر، ثم دُرِع^(١) الناس حول المنبر، ففضل عمر بثلاث أذرع إلى المنبر. فقال عمر: دعنا من رؤياك، لا أرب لنا فيها! فلما استخلف عمر قال: يا عوف، رؤياك! فقال: وهل لك في رؤياي من حاجة؟ أو لم تنتهرني^(٢)؟ فقال: ويحك! إني: كرهت أن تنعى لخليفة رسول الله ﷺ نفسه! فقصّ عليه الرؤيا، حتى إذا بلغ: «دُرِع^(٣) الناس إلى المنبر بهذه الثلاث الأذرع»، قال: أما إحداهن فإنه كائن خليفة. وأما الثانية فإنه لا يخاف في الله لومة لائم. وأما الثالثة فإنه شهيد. قال: فقال: يقول الله تعالى: «ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ»^(٤)، فقد استخلفت^(٥) يا ابن أم عمر، فانظر كيف تعمل؟ وأما قوله: «إني لا أخاف في الله لومة لائم»، فما شاء الله! وأما قوله: [إني]^(٥) شهيد فأنتي لعمر الشهادة والمسلمون مطيفون به^(٦).

﴿وَإِذَا تُلِيْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾.

يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركي قريش الجاحدين الحقّ المعرضين عنه، أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحججه الواضحة قالوا له: «إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا» أي: رد هذا وجئنا بغيره من غلط آخر، أو بدّله إلى وضع آخر، قال الله لنبيه، صلوات الله عليه وسلامه عليه، «قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي» أي: ليس هذا إليّ، إنما أنا عبد مأمور، ورسول مبلغ عن الله، «إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

ثم قال محتجاً عليهم في صحة ما جاءهم به: «قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ» أي: هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيتته وإرادته، والدليل على أني لست أتقوله من عندي ولا افتريته^(٧) أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله عز وجل، لا تنتقدون على شيئا نغمصوني به؛ ولهذا قال: «فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» أي: أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل؛ ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم

(١) في ت: «دُرِع».

(٢) في ت: «تنتهرني».

(٣) في ت، أ: «دُرِع».

(٤) في ت، أ: «استخلف».

(٥) زيادة من ت.

(٦) تفسير الطبري (٣٩/١٥).

(٧) في ت: «أفترته»، وفي أ: «أقربه».

أبا^(١) سفيان ومن معه، فيما سأله من صفة النبي ﷺ، قال: هل^(٢) كنتم تتهمونونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا - وقد كان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين، ومع هذا اعترف^(٣) بالحق:

وَالْفَضْلُ مَا شَهِدَتْ بِهِ الْأَعْدَاءُ

فقال له هرقل: فقد أعرف^(٤) أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله^(٥)!

وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة: بعث الله فينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته، وقد كانت مدة مقامه، عليه السلام، بين أظهرنا^(٦) قبل النبوة أربعين سنة. وعن سعيد بن المسيب: ثلاثا وأربعين سنة. والصحيح المشهور الأول.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (١٧).

يقول تعالى: لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراما ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، وتقول^(٧) على الله، وزعم أن الله أرسله، ولم يكن كذلك، فليس أحد أكبر جرما ولا أعظم ظلما من هذا، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء، فكيف يشبهه حال هذا بالأنبياء! فإن من قال هذه المقالة صادقا أو كاذبا، فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة على برّه أو فجوره ما^(٨) وأظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب [لعنه الله]^(٩) لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى ووقت نصف الليل في حندس الظلماء، فمن سيما كل منهما وكلامه وفعاله يستدل من له بصيرة على صدق محمد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب، وسجّاح، والأسود العنسي^(١٠).

قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنجفل الناس، فكنت فيمن انجفل، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «يا أيها الناس أفسوا السلام، وأطعموا الطعام، [وصلوا الأرحام]^(١١)، وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»^(١٢).

ولما قدّم ضمام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ في^(١٣) قومه بنى سعد بن بكر قال لرسول الله فيما قال له^(١٤): من رفع هذه السماء؟ قال: «الله». قال: ومن نصب هذه الجبال؟ قال: «الله». قال: ومن

(١) في ت: «لأبي». (٢) في ت: «فهل».

(٣) في ت: «أعترف». (٤) في ت، أ: «ربه».

(٥) في ت: «ويقول». (٦) في ت: «وما».

(٧) في أ: «العبي». (٨) زيادة من ت، أ، والمسنّد.

(٩) رواه أحمد في المسند (٤٥١/٥) والترمذی فی السنن برقم (٢٤٨٥) وقال الترمذی: «حديث صحيح».

(١٠) في أ: «من». (١١) في ت: «فيما قاله».

سطح هذه الأرض؟ قال: «الله». قال: فبالذى رفع هذه السماء، ونصب هذه الجبال، وسطح هذه الأرض: الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ قال: «اللهم نعم» ثم ^(١) سأل عن الصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، ويحلف عند كل واحدة ^(٢) هذه اليمين، ويحلف رسول الله ﷺ، فقال له: صدقت، والذى بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص ^(٣).

فاكتفى هذا الرجل بمجرد هذا، وقد أيقن بصدقه، صلوات الله وسلامه عليه، بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه، كما قال حسان بن ثابت:

لَوْ لَمْ تَكُنْ ^(٤) فِيهِ آيَاتٌ مُبَيَّنَةٌ كَانَتْ بَدِيهَتُهُ ^(٥) تَأْتِيكَ بِالْخَبَرِ

وأما مسيلمة فمن شاهده من ذوى البصائر، علم أمره لا محالة، بأقواله الركيكة التى ليست بفصيحة، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة، وقرآنه الذى يخلد به فى النار يوم الحسرة ^(٦) والفضيحة، وكم من فرق بين قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وبين علاق ^(٧) مسيلمة قبحه الله ولعنه: «يا ضفدع بنت ^(٨) الضفدعين، نقى كما تنقن لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين». وقوله - قُبِحَ ولعن -: «لقد أنعم الله على الحبلى، إذ أخرج منها نَسَمَةً تسعى، من بين صفاق وحشى». وقوله - خَدَرَهُ ^(٩) الله فى نار جهنم، وقد فعل -: «الفيل وما أدراك ما الفيل؟ له زُلُومٌ ^(١٠) طويل» وقوله - أبعد الله من رحمته: «والعاجنات عجنا، والخابزات خبزا، واللاقمات ^(١١) لقما، إهالة وسمنا، إن قريشا قوم يعتدون» إلى غير ذلك من الهذيان والخرافات التى يأنف الصبيان أن يتلفظوا بها، إلا على وجه السخرية والاستهزاء؛ ولهذا أرغم الله أنفه، وشرب يوم «حديقة الموت» حتفه. ومَزَقَ ^(١٢) شمله. ولعنه صحبه وأهله. وقدموا على الصديق تائبين، وجاؤوا فى دين الله راغبين، فسألهم الصديق خليفة الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، ورضى [الله] ^(١٣) عنه - أن يقرؤا عليه شيئا من قرآن مسيلمة لعنه الله، فسألوه أن يعفيهم من ذلك، فأبى عليهم إلا أن يقرؤوا شيئا منه ليسمعه من لم يسمعه من الناس، فيعرفوا فضل ما هم عليه ^(١٤) من الهدى والعلم. فقرؤوا عليه من هذا الذى ذكرناه وأشباهه، فلما فرغوا قال لهم الصديق، رضى الله عنه: ويحكم! أين كان يُذهبَ بعقولكم؟ والله إن هذا لم يخرج من إل.

(١) فى أ: «قال: ثم» (٢) فى ت: «واحد».

(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٢) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه بنحو هذا السياق.

(٤) فى ت: «يكن». (٥) فى أ: «بديته».

(٦) فى ت، أ: «الحشر».

(٧) فى ت: «علال». (٨) فى ت: «بين».

(٩) فى ت، أ: «خلده».

(١٠) فى ت، أ: «زلوم». (١١) فى ت، أ: «اللاقمات».

(١٢) فى ت، أ: «ومزق».

(١٣) زيادة من ت. (١٤) فى ت، أ: «فيه».

وذكروا أن وفد عمرو بن العاص على مسيلمة، وكان صديقاً له في الجاهلية، وكان عمرو لم يسلم بعد، فقال له مسيلمة: ويحك يا عمرو، ماذا أنزل على صاحبكم - يعنى: رسول الله ﷺ - في هذه المدة؟ فقال: لقد سمعت أصحابه يقرؤون سورة عظيمة قصيرة فقال: وما هي؟ فقال: ﴿وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر]، ففكر مسيلمة ساعة، ثم قال: وقد أنزل على مثله. فقال: وما هو؟ فقال: «يا وبر»^(١)، إنما أنت أذنان وصدر، وسائرك حقّر نقر، كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: «والله إنك لتعلم أنى أعلم أنك لتكذب»، فإذا كان هذا من مشرك في حال شركه، لم يشتبه عليه حال محمد ﷺ وصدقه، وحال مسيلمة - لعنه الله - وكذبه، فكيف بأولى^(٢) البصائر والنهى، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجى! ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]، وكذلك من كذب بالحق الذى جاءت به الرسل، وقامت عليه الحجج، لا أحد أظلم منه كما جاء في الحديث: «أعنى الناس على الله رجلٌ قتل نبياً، أو قتله نبى»^(٥).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُبْتُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩)﴾.

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تنفع ولا تضر ولا تملك شيئاً، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها، ولا يكون هذا أبداً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُبْتُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾.

وقال ابن جرير: معناه: أتخبرون^(٦) الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض؟ ثم نزه نفسه عن شركهم وكفرهم، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

(١) فى ت، أ: «يا وبر وبر».

(٢) فى ت: «عمر».

(٣) فى ت: «بأول».

(٤) فى ت: «فمن».

(٥) رواه الإمام أحمد فى المسند (٤٠٧/١) من حديث عبد الله بن مسعود ولفظه: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتل نبى أو قتل نبياً». وروى البخارى فى صحيحه برقم (٤٠٧٣) من حديث أبى هريرة: «أشد غضب الله على من يقتله رسول الله فى سبيل الله».

(٦) فى ت: «تخبرون».

ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس، كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد، وهو الإسلام؛ قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام، ثم وقع الاختلاف بين الناس، وعُبدت الأصنام والأوثان، فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحُجَّجه البالغة وبراهينه الدامغة، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه؛ وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود لقضى بينهم فيما فيه اختلفوا، فأسعد المؤمنين، وأعنت الكافرين.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ (٢٠).

أي: ويقول هؤلاء الكفرة [الملحدون] ^(١) المكذبون المعاندون: «لولا أنزل على محمد آية من ربه»، يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن ^(٢) يحول لهم الصفا ذهباً، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهاراً، ونحو ذلك مما الله عليه قادر ^(٣)، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا. بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١٠، ١١] وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، يقول تعالى: إن ستنى في خلقى أنى إذا آتيتهم ما سألوها، فإن آمنوا ولا عاجلتهم بالعقوبة. ولهذا لما خير رسول الله، عليه الصلاة والسلام، بين أن يعطى ما سألوها، فإن أجابوا ولا عوجلوا، وبين أن يتركهم ويُنظرهم، اختار إنظارهم، كما حلم عنهم غير مرة، صلوات الله عليه؛ ولهذا قال تعالى إرشادا لنبيه إلى الجواب عما سألوها: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: الأمر كله لله، وهو يعلم العواقب في الأمور، ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ أي: إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتهم فانتظروا حكم الله في فيكم. هذا مع أنهم قد شاهدوا من معجزاته، عليه السلام ^(٤)، أعظم مما سألوها حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره، فانشق باثنتين ^(٥): فرقة من وراء الجبل، وفرقة من دونه. وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوها ومالم يسألوا، ولو علم الله منهم أنهم سألوها ذلك استرشادا وثبنا لأجابهم، ولكن علم أنهم إنما يسألون عنادا وتعتنا، فتركهم فيما رابهم، وعلم أنهم لا يؤمن ^(٦) منهم أحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) في ت، أ: «وأن».

(٣) في ت: «ما الله قادر عليه».

(٤) في أ: «بآياته».

(٥) في ت، أ: «ولكن ممن لم يؤمن».

إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ وَكَلِمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ [الأنعام: ١١١]، ولما فيهم من المكابرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ مُسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧] فمثل هؤلاء أقل من أن يجابوا إلى ما سألوا؛ لأنه لا فائدة في جواب هؤلاء؛ لأنه دائر على تعنتهم وعنادهم، لكثرة فجورهم وفسادهم؛ ولهذا قال: ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضِرَاءٍ مَسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ (٢١) هو الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَكِنِ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغِيكُمُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)﴾.

يخبر ^(١) تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم، كالرخاء بعد الشدة، والخصب ^(٢) بعد الجذب، والمطر بعد القحط ونحو ذلك ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾.

قال مجاهد: استهزاء وتكذيب. كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾ [يونس: ١٢]، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على ^(٣) أثر سماء - مطر ^(٤) - أصابهم ^(٥) من الليل ثم قال: «هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة؟» قالوا ^(٦): الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب» ^(٧).

وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي: أشد استدراجا وإمهالا، حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة، ثم يؤخذ على غرة منه، والكاثبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله،

(٣) في ت، أ: «في».

(٦) في ت: «قلنا».

(٢) في ت: «والخصيب».

(٥) في ت: «أصابهم».

(١) في ت: «فخبر».

(٤) في ت، أ: «أي مطر».

(٧) صحيح البخاري برقم (٨٤٦) وصحيح مسلم برقم (٧١).

ويحصونه عليه، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة، فيجازه على الحقيير والجليل^(١)، والنقيير والقطمير.

ثم أخبر تعالى أنه: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أى: يحفظكم^(٢) ويكلؤكم بحراسته ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا﴾ أى: بسرعة سيرهم رافقين، فبينما^(٣) هم كذلك إذ ﴿جَاءَتْهَا﴾ أى: تلك السفن ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أى: شديدة ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أى: اغتلم البحر عليهم ﴿وَوُظُّوا أَنَّهُمْ أَحِيطَ بِهِمْ﴾ أى: هلكوا ﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أى: لا يدعون معه صنما ولا وثنا، بل يُفردونه بالدعاء والابتهال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال هاهنا: ﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أُخِجْتَنَا مِنْ هَذِهِ﴾ أى: هذه الحال ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أى: لا نشرك بك أحداً، ولنفردنك^(٤) بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء هاهنا، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمْ﴾ أى: من تلك الورطة ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أى: كأن لم يكن من ذاك شيء^(٥)، ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضَرْمِهِ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ أى: إنما يذوق وبال هذا البغى أنتم أنفسكم ولا تضرون^(٦) به أحدا غيركم، كما جاء فى الحديث: «ما من ذنب أجدر^(٧) أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا، مع ما يذخر^(٨) الله لصاحبه فى الآخرة، من البغى وقطيعة الرحم»^(٩).

وقوله: ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: إنما لكم متاع فى الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ أى: مصيركم ومآلكم^(١٠) ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ﴾ أى: فنخبركم بجميع أعمالكم، ونوفيكهم^(١١) إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَيَّنَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢٤) وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥).

(١) فى ت: «القليل والحقيير».

(٢) فى ت، أ: «يحيطكم».

(٣) فى ت: «فبينما».

(٤) فى أ: «ولنفردك».

(٥) فى ت: «كأن لم يكن شيء من ذلك».

(٦) فى ت: «يؤخر».

(٧) فى ت: «أحذر».

(٨) رواه أبو داود فى السنن برقم (٤٩٠٢) والترمذى فى السنن برقم (٢٥١١) وابن ماجه فى السنن برقم (٤٢١١) من حديث أبى بكره رضى الله عنه، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح».

(٩) فى ت: «ومآلكم».

(١٠) فى ت: «ونوفيكهم».

ضرب [تبارك و] ^(١) تعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها، بالنبات الذى أخرجه الله من الأرض بما أنزل ^(٢) من السماء من الماء، مما يأكل الناس من زرع ^(٣) وثمار، على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل ^(٤) الأنعام من آب وقضب وغير ذلك، «حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا» أى: زينتها الفانية، «وَأَزْيَنْتَ» أى: حسنت بما خرج من ^(٥) ربها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان، «وَوَظَنَ أَهْلُهَا»، الذين زرعوها وغرسوها ^(٦)، «أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا» أى: على جذاذها وحصادها فيبناهم ^(٧) كذلك إذ جاءتها صاعقة، أو ريح باردة، فأبيست أوراقها، وأتلفت ثمارها؛ ولهذا قال تعالى: «أَتَاهَا» ^(٨) «أَمَرْنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا» أى: يبساً بعد [تلك] ^(٩) الخضرة والنضارة، «كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ» أى: كأنها ما كانت حسنة قبل ذلك.

وقال قتادة: «كَأَن لَّمْ تَغْنِ»: كأن لم تنعم.

وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن؛ ولهذا جاء فى الحديث ^(١٠): «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَيُغْمَسُ فِي النَّارِ غَمْسَةً ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ [هل مر بك نعيم قط؟] ^(١١) فيقول: لا. ويؤتى بأشد الناس عذاباً فى الدنيا» ^(١٢)، فيغمس فى النعيم غمسة، ثم يقال له: هل رأيت بؤساً قط؟ فيقول: لا» ^(١٣).

وقال تعالى إخباراً عن المهلكين: «فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ. كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا» [هود: ٩٤، ٩٥].

ثم قال تعالى: «كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ» أى: نبين الحجج والأدلة، «لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ»، فيعتبرون بهذا المثل فى زوال الدنيا عن أهلها سريعاً مع اغترارهم بها، وتمكنهم ^(١٤) بمواعيدها وتفلفتها ^(١٥) منهم، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها، والطلب لمن هرب منها، وقد ضرب الله مثل الحياة الدنيا بنبات الأرض، فى غير ما آية من كتابه العزيز، فقال فى سورة الكهف: «وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَزْلَنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا» [الكهف: ٤٥]، وكذا فى سورة الزمر ^(١٦)، والحديد ^(١٧) يضرب بذلك مثل الحياة الدنيا كماء.

وقال ابن جرير: حدثنى الحارث ^(١٨)، حدثنا عبد العزيز، حدثنا ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عبد الرحمن بن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال: سمعت مروان - يعنى: ابن

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) فى ت، أ: «أنزل الله».

(٣) فى ت: «زرع».

(٤) فى ت: «يأكل».

(٥) فى ت: «فى».

(٦) فى ت: «وعرשוها».

(٧) فى ت، أ: «فبيناها».

(٨) فى ت، أ: «جاءها» وهو خطأ.

(٩) زيادة من ت، أ.

(١٠) فى ت، أ: «الصحيح».

(١١) زيادة من ت، أ، وابن ماجه.

(١٢) فى ت، أ: «ويؤتى بأبأس أهل الدنيا».

(١٣) سنن ابن ماجه برقم (٤٣٢١).

(١٤) فى ت: «وتفلفتها».

(١٥) فى ت، أ: «وتمسكهم».

(١٦) الآية: ٢١.

(١٧) الآية: ٢٠.

الحكم - يقرأ على المنبر: «وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها وما كان الله ليهلكها»^(١) إلا بذنوب أهلها»، قال: قد قرأتها وليست في المصحف فقال عباس بن عبد الله بن عباس: هكذا يقرأها ابن عباس. فأرسلوا إلى ابن عباس فقال: هكذا أقرأني أبي بن كعب^(٢).

وهذه قراءة غريبة، وكأنها زيادة للتفسير.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ الآية: لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة [عطبها و]^(٣) زوالها، رغب في الجنة ودعا إليها، وسماها دار السلام أى: من الآفات، والتناقض والنكبات، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

قال أيوب عن أبي قلابة عن النبي ﷺ قال: «قيل لى: لتَمَّ عَيْنُكَ، وليعقل قلبك، ولتسمع^(٤) أذنك فنامت عيني، وعقل قلبي، وسمعت أذنى. ثم قيل: سيد بني داراً، ثم صنع مأدبة، وأرسل داعياً، فمن أجاب الداعى دخل الدار، وأكل من المأدبة، ورضى عنه السيد، ومن لم يجب الداعى لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأدبة، ولم يرض عنه السيد فالله السيد، والدار الإسلام، والمأدبة الجنة، والداعى محمد ﷺ»^(٥).

وهذا حديث مرسل، وقد جاء متصلاً من حديث الليث، عن خالد بن يزيد^(٦)، عن سعيد بن أبي هلال، عن جابر^(٧) بن عبد الله، رضى الله عنه، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: «إني رأيت فى المنام كأن جبريل عند رأسى، وميكائيل عند رجلى، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً. فقال: اسمع سمعت أذنك، واعقل عقل قلبك، إنما مثلك ومثل أمك كمثلكم اتخذ داراً، ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مأدبة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه، فالله الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يامحمد الرسول، فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها» رواه ابن جرير^(٨).

وقال قتادة: حدثني خُلَيْدُ الْعَصْرَى، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم طلعت فيه شمسُه إلا وبجنتيها ملكان يناديان يسمعهما^(٩) خلق الله كلهم إلا الثقلين: يأبها الناس،

(١) فى ت: «ليهلكهم».

(٢) تفسير الطبرى (٥٧/١٥) وانظر تعليق الأستاذ محمود شاكر فى الحاشية، فقد ذكر أن هذا الإسناد هالك.

(٣) زيادة من ت، أ.

(٤) فى ت: «وليسمع»

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (٦٠/١٥).

(٦) فى ت، أ: «سويد».

(٧) فى ت: «جبار».

(٨) تفسير الطبرى (٦١/١٥) وعلقه البخارى فى صحيحه برقم (٧٢٨١) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٨٦٠) من طريق قتيبة عن

الليث به، وقال الترمذى: «هذا حديث مرسل، سعيد بن أبى هلال لم يدرك جابر بن عبد الله» قال: «وقد روى هذا الحديث من

غير وجه عن النبى ﷺ بإسناد أصح من هذا» قلت: رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٢٨١) من طريق يزيد عن سليم بن حيان،

عن سعيد بن أبى ميناء، عن جابر بن عبد الله بنحوه.

(٩) فى ت، أ: «يسمعه».

هلموا إلى ربكم، إن ما قُلَّ وكَفَى، خير مما كثر وألهى». قال: وأنزل ذلك في ^(١) القرآن، في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير ^(٢).

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٦).

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح أبدله ^(٣) الحسنى في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: هي ^(٤) تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وزيادة على ذلك [أيضا] ^(٥)، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحُور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه ^(٦) الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بفضلِهِ وبرحمته ^(٧) وقد روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله ^(٨) الكريم، عن أبي بكر الصديق، وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس [قال البغوي وأبو موسى وعبادة بن الصامت] ^(٩)، وسعيد بن المسيب، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وعبد الرحمن بن سابط، ومجاهد، وعكرمة، وعامر بن سعد، وعطاء، والضحاك، والحسن، وقتادة، والسدي، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم من السلف والخلف.

وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة، عن رسول الله ﷺ، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد:

حدثنا عفان، أخبرنا حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب؛ أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، وقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه. فيقولون: وما هو؟ ألم يُثَقَّلْ موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا من النار؟». قال: «فيكشف ^(١٠) لهم الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقر لأعينهم».

وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة، من حديث حماد بن سلمة، به ^(١١).

(١) في ت، أ: «في ذلك».

(٢) تفسير الطبري (٦٠ / ١٥) ورواه أحمد في مسنده (١٩٧ / ٥) من طريق همام عن قتادة بنحوه.

(٣) في ت، أ: «أن لهم». (٤) في ت، أ: «تشمل هي». (٥) زيادة من ت، أ.

(٦) في ت: «وجه». (٧) في ت: «ورحمته». (٨) في ت: «وجهه».

(٩) زيادة من ت، أ. (١٠) في ت: «فكشف».

(١١) صحيح مسلم برقم (١٨١) ورواه الترمذي في السنن برقم (٢٥٥٢) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٢٣٤) وابن ماجه في السنن برقم (١٨٧).

وقال ابن جرير: أخبرنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا شبيب، عن أبان^(١)، عن أبي تميم الهجيمي؛ أنه سمع أبا موسى الأشعري يحدث عن رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادى: يا أهل الجنة - بصوت يُسمع أولهم وآخرهم -: إن الله وعدكم الحسنى وزيادة، الحسنى الجنة. وزيادة: النظر إلى وجه الرحمن عز وجل»^(٢).

ورواه أيضاً ابن أبي حاتم، من حديث أبي بكر الهذلي^(٣)، عن أبي تميم الهجيمي، به.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا ابن حميد، حدثنا إبراهيم بن المختار^(٤)، عن ابن جريج، عن عطاء، عن كعب بن عجرة، عن النبي ﷺ فى قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: النظر إلى وجه الرحمن عز وجل^(٥).

وقال أيضاً: حدثنا ابن عبد الرحيم^(٦)، حدثنا عمرو بن أبى سلمة، سمعت زهيراً عمن سمع أبا العالية، حدثنا أبى بن كعب: أنه سأل رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «الحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله عز وجل»^(٧).

ورواه ابن أبى حاتم أيضاً من حديث زهير، به.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ أى: قاتم وسواد فى عرصات المحشر، كما يعترى وجوه الكفرة الفجرة من القترة والغبرة، ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أى: هوان وصغار، أى: لا يحصل لهم إهانة فى الباطن، ولا فى الظاهر، بل هم كما قال تعالى فى حقهم: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] أى: نضرة فى وجوههم، وسروراً فى قلوبهم، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته، آمين.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧).

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يُضاعف لهم الحسنات، ويزدادون^(٨) على ذلك، عطف بذكر حال الأشقياء، فذكر عدله تعالى فيهم، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها، لا يزيدهم على ذلك،

(١) فى ت، أ: «وأبان»

(٢) تفسير الطبرى (٦٥/١٥) وابن وهب روى عن شبيب منكير وأبان بن أبى عياش ضعيف.

(٣) فى ت: «الهذلي».

(٤) فى ت: «المختار به».

(٥) تفسير الطبرى (٦٨/١٥) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٢٠٤/٥) من طريق محمد بن حميد به، وقال: «غريب من حديث عطاء وابن جريج تفرد به إبراهيم بن المختار». وإبراهيم بن المختار ضعيف.

(٦) فى أ: «عبد الرحمن».

(٧) تفسير الطبرى (٦٩/١٥) ورواه اللالكائى فى السنة برقم (٧٨٠) من طريق الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد عمن سمع أبى العالية يحدث عن أبى بن كعب فذكره مرفوعاً.

(٨) فى ت: «ويزادون».

﴿وَتَرَهُمُ﴾ أى: تعثرهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ . مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ . وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٢ - ٤٤]، وقوله: ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ غَاصٍ﴾ أى: من مانع ولا واق يقيهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ . كَلَّا لَا وَزَرَ . إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٠ - ١٢].

وقوله: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلَمًا﴾: إخبار عن سواد وجوههم فى الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧]، وكما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ . وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْكُفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ الآية [عبس: ٣٨ - ٤٢].

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أى: أهل الأرض كلهم، من إنس وجن^(١)، وبر وفاجر، كما قال: ﴿وَحْشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ﴾ أى: الزموا أنتم وهم مكاناً معيناً، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا زَاوِيَ الْيَوْمِ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]، وقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِنُونَ﴾ [الروم: ١٤]، وفى الآية الأخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ﴾ [الروم: ٤٣] أى: يصيرون صِدْعِينَ، وهذا يكون إذا جاء الرب تعالى لفصل القضاء؛ ولهذا قيل: ذلك^(٢) يستشفع المؤمنون إلى الله تعالى أن يأتى لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا، وفى الحديث الآخر: «نحن يوم القيامة على كَوْمٍ فوق الناس»^(٣) (٤).

(١) فى ت: «من جن وإنس».

(٢) وقع هنا بياض فى هـ، ووصل فى ت، أ.

وحديث الاستشفاع رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٤٧٦) من حديث أنس رضى الله عنه.

(٣) فى أ: «النار».

(٤) رواه أحمد فى المسند (٣/٣٤٥) من حديث جابر رضى الله عنه. والكوم: الموضع المشرف العال.

وقال الله تعالى فى هذه الآية الكريمة إخباراً عما يأمر به المشركين^(١) وأوثانهم يوم القيامة: ﴿مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَلَيْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيانَا تَعْبُدُونَ﴾، أنكروا عبادتهم، وتبرؤوا منهم، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾^(٢) سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ الآية [مريم: ٢٠]. وقال: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦]، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَأْ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

وقال فى هذه الآية إخباراً عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم عند ادعائهم عبادتهم: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ أى: ما كنا نشعر بها ولا نعلم، وإنما أنتم كنتم تعبدوننا من حيث لا ندرى بكم، والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا، ولا أمرناكم بها، ولا رضينا منكم بذلك.

وفى هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ممن لا يسمع ولا يبصر، ولا يغنى عنهم شيئاً، ولم يأمرهم بذلك ولا رضى به ولا أَرَادَهُ، بل تبرأ منهم فى وقت أحوج ما يكونون إليه، وقد تركوا^(٣) عبادة الحى القيوم، السميع البصير، القادر على كل شىء، العليم بكل شىء وقد أرسل رسله وأنزل كتبه، أمراً بعبادته وحده لا شريك له، ناهياً عن عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُوحِي^(٤) إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

والمشركون أنواع وأقسام كثيرون، قد ذكرهم الله فى كتابه، وبين أحوالهم وأقوالهم، ورد عليهم فيما هم فيه أتم رد.

وقوله: ﴿هَٰؤُلَاءِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا أَسْلَفَتْ﴾ أى: فى موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما أسلفت من [عملها من]^(٥) خير وشر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩]، وقال تعالى: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا . اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

وقد قرأ بعضهم: ﴿هَٰؤُلَاءِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا أَسْلَفَتْ﴾، وفسرها بعضهم بالقراءة، وفسرها بعضهم بمعنى تتبع ما قدمته من خير وشر، وفسرها بعضهم بحديث: «تتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع من

(١) فى ت: «المشركون».

(٢) زيادة من ت، أ.

(٣) فى ت: «المشركون».

(٤) فى أ: «نوحى».

(٥) زيادة من أ.

كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت» الحديث^(١).

وقوله: ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ﴾ أى: ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكيم العدل، فصلها، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار.

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أى: ذهب عن المشركين ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى: ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣)﴾.

يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية الإله^(٢)، فقال: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: من ذا الذى ينزل من السماء ماء المطر، فيشق^(٣) الأرض شقاً بقدرته ومشيتته، فيخرج منها ﴿حَبًّا . وَعِنْبًا وَقُضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٢٧ - ٣١]، إله مع الله؟ فيقولون: الله، ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ [الملك: ٢١]؟، وكذلك قوله: ﴿أَمَّنْ (٤) يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ [يونس: ٣١]؟ أى: الذى وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ولو شاء لذهب بها وسلبكم إياها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣]، وقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦].

وقوله: ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أى: بقدرته العظيمة، ومنته العميمة، وقد تقدم ذكر الخلاف فى ذلك، وأن الآية عامة فى ذلك كله.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أى: من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه، وهو المتصرف الحاكم الذى لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، فالملك كله العلوى والسفلى، وما فيهما من ملائكة وإنس وجان، فقيرون إليه، عبيد له، خاضعون لديه، ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ أى: هم يعلمون ذلك

(١) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٨٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) فى ت، أ: «وحدانيته الإلهية». (٣) فى ت، أ: «ويشق». (٤) فى أ: «قل من» وهو خطأ.

ويعترفون به، ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أى: أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم؟.

وقوله: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أى: فهذا الذى اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذى يستحق أن يفرد بالعبادة، ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ أى: فكل معبود سواه باطل، لا إله إلا هو، واحد^(١) لا شريك له.

﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾^(٢) أى: فكيف تصرفون^(٣) عن عبادته إلى عبادة ما سواه، وأنتم تعلمون أنه الرب الذى خلق كل شىء، والمتصرف فى كل شىء؟

وقوله: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف فى الملك وحده، الذى بعث رسله بتوحيده؛ فلهذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكنى النار، كقوله: ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾^(٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾^(٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾^(٣٦).

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، وعبدوا من الأصنام والأنداد، ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أى: من بدأ خلق هذه السموات والأرض ثم ينشئ^(٤) ما فيهما من الخلائق، ويفرق أجرام السموات والأرض ويبدلها بفناء ما فيهما، ثم يعيد الخلق^(٥) خلقاً جديداً؟ ﴿قُلِ اللَّهُ﴾، هو الذى يفعل هذا ويستقل به، وحده لا شريك له، ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أى: فكيف تصرفون عن طريق الرشd إلى الباطل؟!

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ أى: أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال، وإنما يهdy الحيارى والضلال، ويقلب القلوب من الغى إلى الرشd الله، الذى لا إله إلا هو.

﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ﴾ أى: أفيتبع [العبد الذى يهdy إلى

(٢)، (٣) فى ت: «يصرفون».

(٥) فى ت: «الخلائق».

(١) فى ت، أ: «لا إله إلا هو لأن الإله واحد».

(٤) فى ت، أ: «يفنى».

الحق وَيُبْصِرُ بعد العمى، أم الذى لا يهدى إلى شىء إلا^(١) أن يهدى، لعماء وبكمه؟ كما قال تعالى إخباراً عن إبراهيم أنه قال: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ [مريم: ٤٢]، وقال لقومه: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْتُونَ . وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أى: فما بالكم^(٢) يذهب بعقولكم، كيف سويتكم بين الله وبين خلقه، وعدلتكم هذا بهذا، وعبدتم هذا وهذا؟ وهلا أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم الهادى من الضلالة بالعبادة وحده، وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة.

ثم بين تعالى أنهم لا يتبعون فى دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً، وإنما هو ظن منهم، أى: توهم وتخيل، وذلك لا يغنى عنهم شيئاً، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾: تهديد لهم، ووعيد شديد؛ لأنه تعالى أخبر^(٣) أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٧) أم يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) .

هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور، ولا بسورة من مثله، لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته، واشتماله على المعانى العزیزة^(٤) [للعزیزة]^(٥)، النافعة فى الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله الذى لا يشبهه شىء فى ذاته ولا صفاته، ولا فى أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أى: مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه هذا كلام^(٦) البشر، ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى: من الكتب المتقدمة، ومهيماً عليها، ومبيناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل.

وقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: وبيان الأحكام والحلال والحرام، بياناً

(٣) فى ت، أ: «يخبر».

(٢) فى ت: «لكم».

(١) زيادة من ت، أ.

(٦) فى ت: «لهذا».

(٥) زيادة من ت.

(٤) فى ت، أ: «العزيرة».

(٧) فى ت، أ: «بكلام».

شافياً كافياً حقاً لا مزية فيه من الله رب العالمين، كما تقدم فى حديث الحارث الأعور، عن على ابن أبى طالب: «فيه خبرٌ ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وفصل ما بينكم»، أى: خبر عما سلف وعما سيأتى، وحكم فيما بين الناس بالشرع الذى يحبه الله ويرضاه.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: إن ادعيتم وافتريتم وشككتكم فى أن هذا من عند الله، وقتلتم كذباً وميناً: «إن هذا من عند محمد»، فمحمد بشر مثلكم، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن، فأتوا أنتم بسورة^(١) مثله، أى: من جنس القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان.

وهذا هو المقام الثالث فى التحدى، فإنه تعالى تحداهم ودعاهم، إن كانوا صادقين فى دعواهم، أنه من عند محمد، فلتعارضوه^(٢) بنظير ما جاء به وحده واستعينوا بمن شئتم^(٣). وأخبر أنهم لا يقدرون على ذلك، ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨]، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه، فقال فى أول سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، ثم تنازل إلى سورة، فقال فى هذه السورة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، وكذا فى سورة البقرة - وهى مدنية - تحداهم بسورة منه، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً، فقال: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ الآية: [البقرة: ٢٤].

هذا وقد كانت الفصاحة من سجايهم، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى فى هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا قبلَ لأحد به، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته، وجزالته وطلاوته، وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به، وأفهمهم له، وأتبعهم له وأشدهم^(٦) له انقياداً، كما عرف السحرة، لعلمهم^(٧) بفنون السحر، أن هذا الذى فعله موسى، عليه السلام، لا يصدر إلا عن مؤيدٍ مُسَدِّدٍ مرسل من الله، وأن هذا لا يستطيع لبشر إلا بإذن الله. وكذلك عيسى، عليه السلام، بُعث فى زمان علماء الطب ومعالجة المرضى، فكان يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيى الموتى بإذن الله، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه، فعرف من عرف منهم أنه عبد الله^(٨) ورسوله؛ ولهذا جاء فى الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً^(٩)».

(١) فى ت، أ: «من مثله». (٢) فى ت، أ: «فليعارضوه». (٣) فى ت، أ: «وليستعينوا بمن شاؤوا».

(٤، ٥) فى ت: «ما» وهو خطأ. (٦) فى ت، أ: «وأشهرهم».

(٧) فى ت، أ: «بعلمهم». (٨) فى ت: «من عبد الله»، وفى أ: «من عند الله».

(٩) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٩٨١) ومسلم فى صحيحه برقم (١٥٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ يقول: بل كذب هؤلاء بالقرآن، ولم يفهموه ولا عرفوه، ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أى: ولم يحصلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلاً وسفهاً ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى: من الأمم السالفة ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أى: فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وعدواناً، وكفراً وعناداً وجهلاً، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم.

وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أى: ومن هؤلاء الذين بُعثت^(١) إليهم يا محمد من يؤمن^(٢) بهذا القرآن، ويتبعك وينتفع بما أرسلت به، ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾، بل يموت على ذلك ويبعث عليه، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أى: وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيضلّه، وهو العادل الذى لا يجور، بل يعطى كلا ما يستحقه، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه، لا إله إلا هو.

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِّيْ عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٤١) وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمْعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤).

يقول تعالى لنبيه ﷺ: وإن كذبك^(٣) هؤلاء المشركون، فتبرأ منهم ومن عملهم، ﴿فَقُلْ لِّيْ عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون]. وقال إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين: ﴿إِنَّا بَرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تَوْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [المتحنة: ٤].

وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمْعُونَ إِلَيْكَ﴾ أى: يسمعون^(٤) كلامك الحسن، والقرآن العظيم، والأحاديث الصحيحة الفصيحة^(٥) النافعة فى القلوب والأبدان والأديان، وفى هذا كفاية عظيمة، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم، فإنك لا تقدر على إسماع الأصم - وهو الأطرش - فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء، إلا أن يشاء الله.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ أى: ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التزودة، والسمت الحسن، والخلق العظيم، والدلالة الظاهرة، على نبوتك لأولى البصائر^(٦) والنهى، وهؤلاء ينظرون كما ينظر

(٣) فى أ: «وإن كذبوك».

(٢) فى ت، أ: «سيؤمن».

(١) ت فى ت: «الذين من بعثت».

(٦) فى ت: «الابصار».

(٥) فى ت: «الفصيحة الصحيحة».

(٤) فى ت: «يسمعون».

غيرهم، ولا يحصل لهم من الهداية شيء مما ^(١) يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار، والكافرون ينظرون إليك بعين الاحتقار، ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا. إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢].

ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحد شيئاً، وإن كان قد هدى به من هدى [من الغي] ^(٢) وبصر به من العمى، وفتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوباً غلفا، وأضل به عن الإيمان ^(٣) آخرين، فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء، الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، لعلمه وحكمته وعدله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. وفي الحديث عن أبي ذر ^(٤)، عن النبي ^(٥) ﷺ، فيما يرويه عنه ربه عز وجل: «يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا - إلى أن قال في آخره: يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إِلَّا نفسه». رواه مسلم بطوله ^(٦).

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (٤٥).

يقول تعالى مُذَكِّراً للناس قيام الساعة وحشرهم من أجداثهم إلى عَرَصات القيامة: كأنهم ^(٧) يوم يوافونها لم يلبثوا في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النارعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا. يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا. نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢ - ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُفَكَّرُونَ. وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الرؤم: ٥٥، ٥٦].

وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة كما قال: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ. قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ. قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤].

وقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يعرف الأبناء الآباء ^(٨)، والقربات بعضهم بعضاً، كما كانوا في

(٣) في ت: «وأضل عن الإيمان به».

(٢) زيادة من ت، أ.

(١) في ت: «ما».

(٥) في ت، أ: «رسول الله».

(٤) في ت، أ: «حديث أبي ذر».

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧).

(٨) في ت، أ: «الآباء الأبناء».

(٧) في ت، أ: «وكانهم».

الدنيا، ولكن كل مشغول بنفسه ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يَبْصُرُونَهُمْ يَوْمَ الْمَجْزَمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِنِيبِهِ صَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ . وَقَصَصْنَاهُ الَّتِي تَزْوِيهِ . وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ . كَلَّا﴾ [المعارج: ١٠ - ١٥].

وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥]، لأنهم خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين. فهذه هي الخسارة العظيمة، ولا خسارة أعظم من خسارة من فُرق بينه وبين أحبته^(١)، يوم الحسرة والندامة.

﴿وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧)﴾.

يقول تعالى مخاطبا لرسوله ﷺ: ﴿وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أى: ننتقم^(٢) منهم فى حياتك لتقر عينك منهم، ﴿أَوْ نَتَوَقَّعَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أى: مصيرهم ومتقلبهم، والله شهيد على أفعالهم بعدك.

وقد قال الطبرانى: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا عقبة بن مكرم، حدثنا أبو بكر الحنفى، حدثنا داود بن الجارود، عن أبى الطفيل^(٣)، عن حذيفة بن أسيد، عن النبى ﷺ قال: «عُرِضَتْ عَلَى أُمْتِ الْبَارِحَةِ لَدَى هَذِهِ الْحَجَرَةِ، أُولُهَا وَآخِرُهَا. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَرَضَ عَلَيْكَ مِنْ خَلْقٍ، فَكَيْفَ مِنْ لَمْ يَخْلُقْ؟ فَقَالَ: «صُورُوا لِي فِي الطِّينِ، حَتَّى إِنِّى لَأَعْرِفُ بِالْإِنْسَانِ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدَكُمْ بِصَاحِبِهِ»^(٤).

ورواه عن محمد بن عثمان بن أبى شيبة، عن عقبة بن مكرم، عن يونس بن بكير، عن زياد بن المنذر، عن أبى الطفيل، عن حذيفة بن أسيد، به نحوه^(٥).

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾: قال مجاهد: يعنى يوم القيامة.

﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾^(٦) وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩]، فكل أمة تُعَرَضُ عَلَى اللَّهِ بِحَضْرَةِ رَسُولِهَا، وَكِتَابُ أَعْمَالِهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ مَوْضُوعٌ شَاهِدٌ عَلَيْهِمْ، وَحَفِظَتْهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ شُهُودٌ أَيْضًا أُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ. وَهَذِهِ الْأُمَّةُ الشَّرِيفَةُ وَإِنْ كَانَتْ آخِرُ الْأُمَمِ فِي الْخَلْقِ، إِلَّا أَنَّهَا أَوَّلُ الْأُمَمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَهُمْ، وَيَقْضَى لَهُمْ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «نَحْنُ

(١) فى ت، أ: «أخيه».

(٢) فى ت: «ينتقم».

(٣) فى جميع النسخ: «أبى السليل» والتصويب من المعجم الكبير للطبرانى.

(٤) المعجم الكبير (١٨١/٣).

(٥) المعجم الكبير (١٨١/٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٦٩/١٠): «وفيه زياد بن المنذر وهو كذاب».

(٦) فى ت، أ: «بالقسط» وهو خطأ.

الآخرون السابقون يوم القيامة، المقضى لهم قبل الخلائق^(١)، فأمته إنما حازت قَصَبَ السبق لشرف رسولها، صلوات الله وسلامه عليه [دائماً]^(٢) إلى يوم الدين.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلَانَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) ﴿

يقول تعالى مخبراً عن كُفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب وسؤالهم عن وقته قبل التعيين، مما لا فائدة فيه لهم^(٣)، كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨] أى: كائنة لا محالة وواقعة، وإن لم يعلموا وقتها عينا، ولهذا أرشد رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أى: لا أقول إلا ما علمنى، ولا أقدر على شىء مما استأثر به إلا أن يُطلعنى عليه، فانا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم بمجىء الساعة وأنها كائنة، ولم يطلعنى على وقتها، [ولكن]^(٤) ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾، أى: لكل قرن مدة من العمر مقدرة^(٥)، فإذا انقضى أجلهم ﴿فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا﴾ [المنافقون: ١١]، ثم أخبرهم أن عذاب الله سيأتيهم بغتة، فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا﴾ أى: ليلاً أو نهاراً، ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾. أتمم إذا ما وقع آمَنْتُمْ بِهِ﴾ يعنى: أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أى: يوم القيامة يقال لهم هذا، تبكيئا وتقريعاً، كقوله: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا. هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ. أَفَسِحْرَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصُرُونَ. اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٣ - ١٦].

(١) هذا اللفظ فى صحيح مسلم برقم (٨٥٦) من حديث حذيفة رضى الله عنه، وروى البخارى أوله برقم (٨٧٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) فى ت، أ: «لهم فيه».

(٢) زيادة من ت، أ.

(٥) فى ت: «تقدر».

(٤) زيادة من ت، أ.

(٦) فى ت: «قل».

﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ .

يقول تعالى: ويستخبرونك ﴿أحقُّ هو؟﴾ أى: المعاد والقيامة من الأحداث بعد صيرورة الأجسام تراباً. ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أى: ليس صيورتكم تراباً بمعجز الله عن إعادتكم كما بداكم من العدم: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾ (١) إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿[يس: ٨٢]﴾ .

وهذه الآية ليس لها نظير فى القرآن إلا آيتان أخريان، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد فى سورة سبأ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمُ﴾ [سبأ: ٣]، وفى التغابن: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧] .

ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة يودّ الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهباً، ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ أى: بالحق، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٥) هُوَ يَحْيِي وَيَمِيتُ وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ ﴿٥٦﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنَّ وعده حقّ كائن لا محالة، وأنه يحيى ويميت وإليه مرجعهم، وأنه القادر على ذلك، العليم بما تفرّق من الأجسام وتمزّق فى سائر أقطار الأرض والبحار والقفار [سبحانه وتعالى تقدست أسماؤه وجل ثناؤه] (٢) .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ .

يقول تعالى ممثناً على خلقه بما أنزل إليهم من القرآن العظيم على رسوله الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أى: زاجر عن الفواحش، ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أى: من الشبه والشكوك، وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أى: محصلٌ لها الهداية والرحمة من الله تعالى. وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ

(٢) زيادة من أ.

(١) فى ت: «إنما قوله» والصواب ما أثبتناه.

آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ [فصلت : ٤٤].

وقوله تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ^(١)﴾ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أى : بهذا الذى جاءهم من الله من الهدى ودين الحق^(٢) ، فليفرحوا ، فإنه أولى ما يفرحون به ، ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أى : من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة ، كما قال ابن أبى حاتم ، فى تفسير هذه الآية : «وذكر عن بَقِيَّة^(٣) - يعنى ابن الوليد - عن صفوان بن عمرو ، سمعت أيفع بن عبد الكلاعى يقول : لما قُدم خراجُ العراق إلى عمر ، رضى الله عنه ، خرج عُمَرُ ومولى له فجعل عمر يعد الإبل ، فإذا هى^(٤) أكثر من ذلك ، فجعل عمر يقول : الحمد لله تعالى ، ويقول موله : هذا والله من فضل الله ورحمته . فقال عمر : كذبت . ليس هذا ، هو الذى يقول الله تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ، وهذا مما يجمعون .

وقد^(٥) أسنده^(٦) الحافظ أبو القاسم الطبرانى ، فرواه عن أبى زُرْعَةَ الدمشقى ، عن حيوة بن شُرَيْح ، عن بَقِيَّة ، فذكره^(٧) .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدْنَى لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٦٠)﴾ .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحرمون ويحلون من البحائر والسوائب والوصائل ، كقوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام : ١٣٦] الآيات .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن أبى إسحاق ، سمعت أبا الأحوص - وهو عوف بن [مالك بن]^(٨) نضلة - يحدث عن أبيه قال : أتيت رسول الله ﷺ وأنا قَشْفُ الهَيْئَةِ ، فقال : «هل لك مال؟» قال : قلت : نعم . قال : «من أى المال؟» قال : قلت : من كل المال ، من الإبل والرقيق والخيل والغنم . فقال^(٩) : «إذا أتاك مالا فليُرْ عليك» . وقال : «هل تنتج إبل قومك صحاحا آذانها ، فتعمد إلى موسى فتقطع آذانها ، فتقول : هذه بحر وتشقها ، أو تشق جلودها

(١) فى ت : «وبرحمة» .

(٢) فى أ : «الله» .

(٣) فى ت : «ذكر عن نفسه» .

(٤) فى أ : «أسند» .

(٥) فى ت : «وهذا» .

(٦) فى أ : «هو» .

(٧) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٤ / ٣٦٨) وعزاه لابن أبى حاتم والطبرانى .

(٨) فى ت ، أ : «والنعم قال» .

(٩) زيادة من ت ، أ ، والمسند .

وتقول: هذه صُرْمٌ، وتحرمها^(١) عليك وعلى أهلك؟ قال: نعم. قال: «فإن ما آتاك الله لك حل، وساعد الله أشد من ساعدك، وموسى الله أحد من موساك» وذكر تمام الحديث^(٢).

ثم رواه عن سفيان بن عيينة، عن أبي الزعراء عمرو بن عمرو، عن عمه أبي الأحوص^(٣): وعن بهز بن أسد، عن حماد بن سلمة، عن عبد الملك بن عمير، عن أبي الأحوص، به^(٤). وهذا حديث جيد قوى الإسناد.

وقد أنكر [الله]^(٥) تعالى على من حَرَّمَ ما أحل الله، أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء، التي^(٦) لا مستند لها ولا دليل عليها. ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة، فقال: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى: ما ظنهم أن يُصْنَعَ بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾: قال ابن جرير: فى تركه معاجلتهم^(٧) بالعقوبة فى الدنيا.

قلت: ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع فى الدنيا، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم فى دنياهم أو دينهم.

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، بل يحرمون ما أنعم الله [به]^(٨) عليهم، ويضيقون على أنفسهم، فيجعلون بعضا حلالا وبعضا حراما. وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه فى دينهم.

وقال ابن أبى حاتم فى تفسير هذه الآية: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن أبى الحوارى، حدثنا رباج، حدثنا عبد الله بن سليمان، حدثنا موسى بن الصباح فى قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ قال: إذا كان يوم القيامة، يؤتى بأهل ولاية الله عز وجل، فيقومون بين يدى الله عز وجل ثلاثة أصناف قال: فيؤتى برجل من الصنف الأول فيقول: عبدى، لماذا عملت؟ فيقول: يارب: خلقت الجنة وأشجارها وثمارها وأنهارها، وحوورها ونعيمها، وما أعددت لأهل طاعتك فيها، فأسهرت ليلى وأظلمات نهارى شوقا إليها. قال: فيقول الله تعالى: عبدى، إنما عملت للجنة، هذه الجنة فادخلها، ومن فضلى عليك أن أعتقك من النار، [ومن فضلى عليك أن أدخلك جنتى]^(٩)، قال: فيدخل هو ومن معه الجنة.

قال: ثم يؤتى برجل من الصنف الثانى، قال: فيقول: عبدى، لماذا^(١٠) عملت؟ فيقول: يا رب، خلقت نارا وخلقت أغلالها وسعيرها وسمومها ويحمومها، وما أعددت لأعدائك وأهل معصيتك فيها

(١) فى ت: «حرام ويحرمها».

(٢) المسند (٣/ ٤٧٣).

(٣) المسند (٤/ ١٣٧).

(٤) المسند (٣/ ٤٧٣).

(٦) فى أ: «الذى».

(٥) زيادة من ت، أ.

(٨، ٩) زيادة من ت، أ.

(٧) فى ت: «معاجلتهم».

فأسهرت ليلى وأظلمات نهاري خوفا منها. فيقول: عبدى، إنما عملت ذلك خوفا من نارى، ^(١) فإنى قد أعتقتك من النار، ومن فضلى عليك أن أدخلك جنتى. فيدخل هو ومن معه الجنة.

ثم يؤتى برجل من الصنف الثالث، فيقول: عبدى، لماذا عملت؟ فيقول: رب ^(٢)، حبا لك، وشوقا إليك، وعزتك لقد أسهرت ليلى وأظلمات نهاري شوقا إليك وحبا لك، فيقول تبارك وتعالى: عبدى، إنما عملت حبا لى وشوقا إلى، فينجلى له الرب جل جلاله، ويقول: ها أنا ذا، انظر إلى. ثم يقول: من فضلى عليك أن أعتقك من النار، وأبيحك جنتى، وأزيرك ملائكتى، وأسلم عليك بنفسى. فيدخل هو ومن معه الجنة.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٦١).

يخبر تعالى نبيه، صلوات الله عليه وسلامه ^(٣)، أنه ^(٤) يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق فى كل ساعة وآن ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة فى حقارتها وصغرها فى السموات ولا فى الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا فى كتاب مبين، كقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ﴾ ^(٥) الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة فى قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء، فكيف بعلمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ. الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ. وَتَقْلِبُ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٧ - ٢١٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أى: إذ تأخذون فى ذلك الشئ نحن مشاهدون لكم راؤون سامعون، ولهذا قال، عليه السلام ^(٦)، لما سأله جبريل عن الإحسان [قال] ^(٧): «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ^(٨).

(١) فى ت، أ: «النار». (٢) فى أ: «ربى». (٣) فى ت: «صلوات الله وسلامه عليه».

(٤) فى ت: «بأنه». (٥) فى ت: «مفاتيح». (٦) فى أ: «﴿تعالى﴾».

(٧) زيادة من ت، أ.

(٨) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٨) من حديث عمر بن الخطاب الطويل.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) ﴿

يخبر تعالى أن أوليائه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، كما فسرهم^(١) ربهم، فكل من كان تقيا كان لله وليا: أنه ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [أى]^(٢): فيما يستقبلون من أهوال القيامة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما وراءهم في الدنيا.

وقال عبد الله بن مسعود، وابن عباس، وغير واحد من السلف: أولياء الله الذين إذا رؤوا ذُكر الله. وقد ورد هذا في حديث مرفوع كما قال البزار:

حدثنا علي بن حرب الرازي، حدثنا محمد بن سعيد بن سابق، حدثنا يعقوب بن عبد الله الأشعري - وهو القمي - عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: قال رجل: يا رسول الله، مَنْ أولياء الله؟ قال: «الذين إذا رؤوا ذُكر الله». ثم قال البزار: وقد روى عن سعيد مرسلًا^(٣).

وقال ابن جرير: حدثنا أبو هشام الرِّفَاعِي، حدثنا ابن فضيل^(٤)، حدثنا أبي، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زُرْعَةَ بن عمرو بن جرير البَجَلِي، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ عِبَادًا يَغْبِطُهُمُ^(٥) الْأَنْبِيَاءُ وَالشَّهَدَاءُ». قيل: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ لعلنا نحبههم. قال: «هُمْ قَوْمٌ تَحَابَوْا^(٦) فِي اللَّهِ مِنْ غَيْرِ أَمْوَالٍ وَلَا أَنْسَابٍ، وَجُوهُهُمْ نُورٌ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزَنَ النَّاسُ». ثم قرأ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٧).

ثم رواه وأيضا أبو داود، من حديث جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زُرْعَةَ بن عمرو بن جرير، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، عن النبي ﷺ، بمثله^(٨).

وهذا أيضا إسناد جيد، إلا أنه منقطع بين أبي زُرْعَةَ وعمر بن الخطاب، والله أعلم.

(١) فى ت، أ: «فسر بهم».

(٢) زيادة من ت.

(٣) مسند البزار برقم (٣٦٢٦) «كشف الأستار». والمرسل رواه الطبري فى تفسيره (١٥ / ١١٩) من طريق أشعث بن إسحاق، عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبيرة مرسلًا.

(٤) فى جميع النسخ «أبو فضيل»، وكذا وقع فى مخطوطة الطبري وصوبه المعلق.

(٥) فى ت: «يعطيهم».

(٦) فى أ: «تحابون».

(٧) تفسير الطبري (١٥ / ٢٠) ورواه النسائي فى السنن الكبرى برقم (١١٢٣٦) عن واصل بن عبد الأعلى عن محمد بن فضيل عن أبيه وعمار بن القعقاع - هكذا مقروناً - كلاهما عن أبي زُرْعَةَ عن أبي هريرة به نحوه، ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٥٠٨)

من طريق عبد الرحمن بن صالح عن ابن فضيل عن عمار بن القعقاع عن أبي زُرْعَةَ به.

(٨) تفسير الطبري (١٥ / ١٢١) وسنن أبي داود برقم (٣٥٢٧).

وفى حديث الإمام أحمد، عن أبي النضر، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غنم، عن أبي مالك الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتى من أفناء الناس ونوازع القبائل قوم لم تتصل^(١) بينهم أرحام متقاربة، تحابوا فى الله، وتصافوا فى الله، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور، فيجلسهم عليها، يفرع الناس ولا يفرعون، وهم أولياء الله، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون». والحديث متطول^(٢) (٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن الأعمش، عن ذكوان أبي صالح، عن رجل، عن أبي الدرداء، رضى الله عنه، عن النبي ﷺ فى قوله: «لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ»، قال: «الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو ترى له»^(٤).

وقال ابن جرير: حدثني أبو السائب، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن عطاء بن يسار، عن رجل من أهل مصر، عن أبي الدرداء فى قوله: «لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ»، قال: سأل رجل أبا الدرداء^(٥) عن هذه الآية، فقال: لقد سألت عن شيء ما سمعت [أحدًا]^(٦) سأل عنه بعد رجل سأل عنه رسول الله، فقال: «هى الرؤيا الصالحة يراها الرجل المسلم، أو ترى له، بشره فى الحياة الدنيا، وبشره فى الآخرة [الجنة]»^(٧).

ثم رواه ابن جرير من حديث سفيان، عن ابن المنكدر، عن عطاء بن يسار، عن رجل من أهل مصر، أنه سأل أبا الدرداء عن هذه الآية، فذكر نحو ما تقدم^(٨).

وقال ابن جرير: حدثني المثنى: حدثنا الحجاج بن منهال، حدثنا حماد بن زيد، عن عاصم بن بهدكة، عن أبي صالح قال: سمعت أبا الدرداء، وسئل عن: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى، فذكر نحوه سواء^(٩).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبان، حدثنا يحيى، عن أبي سلمة، عن عبادة بن الصامت؛ أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت قول الله تعالى: «لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ»؟ فقال: «لقد سألتنى عن شيء ما سألتنى عنه أحد من أمتى - أو: أحد قبلك» قال: «تلك الرؤيا الصالحة، يراها الرجل الصالح أو ترى له».

وكذا رواه أبو داود الطيالسى، عن عمران القطان، عن يحيى بن أبى كثير، به^(١٠). ورواه

(١) فى ت: «يتصل».

(٣) المسند (٥/ ٣٤٣).

(٤) المسند (٦/ ٤٤٥).

(٥) فى أ: «سأل رجل من أهل مصر أبا الدرداء». (٦، ٧) زيادة من ت، أ، والطبرى.

(٨) تفسير الطبرى (١٥/ ١٢٨) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣١٠٦) من طريق سفيان عن محمد بن المنكدر به نحوه.

(٩) تفسير الطبرى (١٥/ ١٣٦) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣١٠٦) من طريق أحمد بن عبدة عن حماد بن زيد به.

(١٠) مسند الإمام أحمد (٥/ ٣١٥) وهو فى مسند الطيالسى برقم (٥٨٣) عن حرب بن شداد، عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلمة قال: نبئت أن عبادة بن الصامت فذكره، وهو منقطع قال ابن حجر: «رجالها ثقات إلا أنه معلول، فإن أبا سلمة لم يسمع من عبادة».

الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، فذكره. ورواه علي بن المبارك، عن يحيى، عن أبي سلمة قال: نُبِّئْنَا عَنْ عِبَادَةِ بْنِ الصَّامِتِ، سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ، فَذَكَرَهُ.

وقال ابن جرير: حدثني أبو حميد الحُمَصِيُّ، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عمر بن عمرو بن عبد الأحموسى، عن حميد بن عبد الله المزني قال: أتى رجل عبادَةَ بْنِ الصَّامِتِ فَقَالَ: آيَةُ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَسْأَلُكَ عَنْهَا، قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؟ فَقَالَ عِبَادَةُ: مَا سَأَلَنِي عَنْهَا أَحَدٌ قَبْلَكَ، سَأَلْتُ عَنْهَا نَبِيَّ اللَّهِ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ: «مَا سَأَلَنِي عَنْهَا أَحَدٌ قَبْلَكَ، الرَّؤْيَا الصَّالِحَةُ، يَرَاهَا الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ فِي الْمَنَامِ أَوْ تُرَى لَهُ»^(١).

ثم رَوَاهُ مِنْ حَدِيثِ مُوسَى بْنِ عُبَيْدَةَ، عَنْ أَيُّوبَ بْنِ خَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ، عَنْ عِبَادَةِ بْنِ الصَّامِتِ؛ أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، فَقَدْ عَرَفْنَا بُشْرَى الْآخِرَةِ الْجَنَّةَ، فَمَا بُشْرَى الدُّنْيَا؟ قَالَ: «الرَّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْعَبْدُ أَوْ تُرَى لَهُ، وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا أَوْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوَّةِ»^(٢).

وَقَالَ [الإمام] ^(٣) أَحْمَدُ أَيْضًا: حَدَّثَنَا بَهْزُ، حَدَّثَنَا حَمَادٌ، حَدَّثَنَا أَبُو عَمْرَانَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ؛ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرَّجُلُ يَعْمَلُ الْعَمَلَ فَيَحْمَدُهُ^(٤) النَّاسُ عَلَيْهِ، وَيَشْتَوْنَ عَلَيْهِ بِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٥).

وَقَالَ أَحْمَدُ أَيْضًا: حَدَّثَنَا حَسَنٌ - يَعْنِي الْأَشْيَبَ - حَدَّثَنَا ابْنُ لَهْيَعَةَ، حَدَّثَنَا دَرَّاجٌ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قَالَ: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَبْشُرُهَا الْمُؤْمِنُ، هِيَ جُزْءٌ مِنْ تِسْعَةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوَّةِ، فَمَنْ رَأَى [ذَلِكَ]^(٦) فَلْيَخْبِرْ بِهَا، وَمَنْ رَأَى سِوَى ذَلِكَ فَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنُهُ، فَلْيَنْفُثْ^(٧) عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا، وَلْيَكْبِرْ^(٨)، وَلَا يَخْبِرْ بِهَا أَحَدًا»^(٩) لَمْ يَخْرُجْهُ.

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ: حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَنبَأَنَا ابْنُ وَهْبٍ، حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ، أَنَّ دَرَّاجًا أَبَا السَّمْحِ حَدَّثَهُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَبْشُرُهَا الْمُؤْمِنُ، جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوَّةِ»^(١٠).

وَقَالَ أَيْضًا ابْنُ جُرَيْرٍ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ حَاتِمِ الْمُؤَدَّبِ، حَدَّثَنَا عِمَارُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قَالَ: «هِيَ

(١) تفسير الطبري (١٥ / ١٢٩).

(٢) تفسير الطبري (١٥ / ١٣٢).

(٣) زيادة من أ.

(٤) في ت، أ: «ويحمده».

(٥) المسند (٥ / ١٥٦) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٢).

(٦) زيادة من أ، والمسند، وفي ت: «تلك».

(٧) في ت: «فليتفت».

(٨) في ت، أ: «وليسكت».

(٩) المسند (٢ / ٢١٩) وابن لهيعة ودراج ضعيفان.

(١٠) تفسير الطبري (١٥ / ١٣٩).

فى الدنيا الرؤيا الصالحة، يراها العبد أو ترى له، وهى فى الآخرة الجنة»^(١).

ثم رواه عن أبى كُرَيْب، عن أبى بكر بن عيَّاش، عن أبى حصين، عن أبى صالح، عن أبى هريرة أنه قال: الرؤيا الحسنة بشرى من الله، وهى من المبشرات^(٢).

هكذا رواه من هذه الطريق موقوفا.

وقال أيضا: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا أبو بكر، حدثنا هشام، عن ابن سيرين، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا الحسنة هى البشرى، يراها المسلم أو ترى له»^(٣).

وقال ابن جرير: حدثنى أحمد بن حماد الدُّولابى، حدثنا سفيان، عن عبيد الله بن أبى يزيد، عن أبيه، عن سباع بن ثابت، عن أم كُرَز الكعبية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ذهبت النبوة، وبقيت المبشرات»^(٤).

وهكذا روى عن ابن مسعود، وأبى هريرة، وابن عباس، ومجاهد، وعروة بن الزبير، ويحيى بن أبى كثير، وإبراهيم النَّخعى، وعطاء بن أبى رباح: أنهم فسروا ذلك بالرؤيا الصالحة.

وقيل: المراد بذلك^(٥) بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ. نَزَلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

وفى حديث البراء: «أن المؤمن إذا حضره الموت، جاءه ملائكة بيض الوجوه، بيض الثياب، فقالوا: اخرجى أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان، ورب غير غضبان. فتخرج من فمه، كما تسيل القطرة من فم السقاء».

وأما بشرائهم فى الآخرة، فكما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٦) [الحديد: ١٢].

وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أى: هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير، بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة: ﴿ذَلِكَ﴾^(٧) هو الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.

(١) تفسير الطبرى (١٥ / ١٣١).

(٢، ٣) تفسير الطبرى (١٥ / ١٣٠).

(٤) تفسير الطبرى (١٥ / ١٣٣) ورواه ابن ماجه فى السنن برقم (٣٨٩٦) من طريق هارون الحمال عن سفيان به. وقال البوصيرى فى الزوائد (٣ / ٢١٢): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات» وأبو زيد لم يوثقه سوى ابن حبان، ولم يرو عنه سوى ابنه.

(٥) فى ت، أ: «المراد من ذلك». (٦) فى ت: «وذلك الفوز العظيم». (٧) فى ت: «وذلك» وهو خطأ.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦٥) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٦٧).

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ قول هؤلاء المشركين، واستعن بالله عليهم، وتوكل عليه؛ فإن العزة لله جميعاً، أى: جميعها له ولرسوله وللمؤمنين، ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أى: السميع لأقوال عباده العليم بأحوالهم^(١).

ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض، وأن المشركين يعبدون الأصنام، وهى لا تملك شيئاً، لا^(٢) ضرراً ولا نفعاً، ولا دليل لهم على عبادتها، بل إنما يتبعون فى ذلك ظنونهم وتخرفهم وكذبهم وإفكهم.

ثم أخبر أنه الذى جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه، أى: يستريحون فيه من نصبهم وكلالهم وحركاتهم، ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أى: مضيئاً لمعاشهم وسعيهم، وأسفارهم ومصالحهم، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أى: يسمعون هذه الحجج والأدلة، فيعتبرون^(٣) بها، ويستدلون على عظمة خالقها، ومقدرها ومسيرها.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٨) قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧٠).

يقول تعالى منكرأ على من ادعى أن له ولداً: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ أى: تقدس عن ذلك، هو الغنى عن كل ما سواه، وكل شىء فقير إليه، ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: فكيف يكون له ولد مما خلق، وكل شىء مملوك له، عبد له؟! ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ أى: ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان! ﴿أَتَقُولُونَ﴾^(٤) عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ: إنكار ووعد أكيد، وتهديد شديد، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِنْ كُلُّ مَنْ فِي

(٢) فى ت، أ: «ولا».

(٤) فى ت: «أيقولون».

(١) فى ت، أ: «عليم بهم».

(٣) فى ت: «ويعتبرون».

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنُ عَبْدًا. لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا. وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ [مريم: ٨٨- ٩٥].

ثم تواعد تعالى الكاذبين عليه المفتريين، ممن زعم أنه له ولدا، بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة، فأما في الدنيا فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم متعهم قليلا، ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ، كما قال هاهنا: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أى: مدة قريبة، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾ أى: الموضع المؤلم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أى: بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله، فيما ادعوه من الإفك والزور.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣)﴾.

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أى: أخبرهم واقتصر عليهم، أى: على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ أى: خبره مع قومه الذين كذبوه، كيف أهلكهم الله ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ﴾ أى: عظم عليكم، ﴿مَقَامِي﴾ أى: فيكم بين أظهركم، ﴿وَتَذْكِيرِي﴾ إياكم ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أى: بحججه وبراهينه، ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أى: فإنى لا أبالى ولا أكف عنكم^(١)، سواء عظم عليكم أو لا! ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ أى: فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله، من صنم ووثن، ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أى: ولا تجعلوا أَمْرَكُمْ عليكم ملتبسا، بل افصلوا حالكم معي، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون، فاقضوا إلى ولا تنظرون، أى: ولا تؤخروني ساعة واحدة، أى: مهما قدرتم فافعلوا، فإنى لا أبالیکم^(٢) ولا أخاف منكم، لأنكم لستم على شيء، كما قال هود لقومه: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦].

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أى: كذبتهم وأدبرتم عن الطاعة، ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أى: لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئا، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أى: وأنا ممثّل ما أمرت به

(٢) فى ت، أ: «أبالكم».

(١) فى ت، أ: «ولا أفكر عنكم».

من الإسلام لله عز وجل؛ والإسلام هو دين [جميع] ^(١) الأنبياء من أولهم إلى آخرهم، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]. قال ابن عباس: سبيلا وستة. فهذا نوح يقول: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١]، وقال تعالى عن إبراهيم الخليل: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣١، ١٣٢]، وقال يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقال موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وقالت ^(٢) السحرة: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، وقال [الله] ^(٣) تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١] وقال خاتم الرسل وسيد البشر: ﴿إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] أى: من هذه الأمة؛ ولهذا قال فى الحديث الثابت عنه: «نحن معاشر الأنبياء أولاد علات، ديننا واحد» ^(٤). أى: وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت شرائعنا، وذلك معنى قوله: «أولاد علات»، وهم: الإخوة من أمهات شتى والأب واحد.

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ ^(٥) أى: على دينه ﴿فِى الْفُلْكِ﴾ وهى: السفينة، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَافَ﴾ أى: فى الأرض، ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أى: يا محمد كيف أنجينا المؤمنين، وأهلكنا المكذبين.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٧٤).

يقول تعالى: ثم بعثنا من بعد نوح رسلا إلى قومهم، فجاءوهم بالبينات، أى: بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاءوهم به، ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أى: فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم، بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقوله: ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ أى: كما طبع الله على قلوب هؤلاء، فما آمنوا

(٣) زيادة من ت، أ.

(٢) فى ت، أ: «وقال».

(١) زيادة من ت، أ.

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٤٤٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٥) فى ت، أ: «والذين».

بسبب تكذيبهم المتقدم، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم، ويختم على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

والمراد: أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسول، وأنجي^(١) من آمن بهم، وذلك من بعد نوح، عليه السلام، فإن الناس كانوا من قبله من^(٢) زمان آدم عليه السلام على الإسلام، إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً، عليه السلام؛ ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة: أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض.

وقال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام.

وقال الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧]، وفي هذا إنذار عظيم لمشركي العرب الذين كذبوا بسيد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين، فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العقاب والنكال، فماذا^(٣) ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك؟

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (٧٥) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (٧٦) ﴿قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ (٧٧) ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٨).

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد تلك الرسل ﴿مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أى: قومه^(٤). ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أى: حججنا وبراهيننا، ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أى: استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ كأنهم - قبحهم الله - أقسموا على ذلك، وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان، كما قال تعالى: ﴿وَجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾ [النمل: ١٤].

﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰ﴾ منكراً عليهم: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ. قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا﴾ أى: تشيننا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أى: الدين الذى كانوا عليه، ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا﴾ أى: لك ولهارون ﴿الْكِبْرِيَاءُ﴾ أى: العظمة والرياسة ﴿فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وكثيراً ما يذكر الله تعالى قصة موسى، عليه السلام، مع فرعون فى كتابه العزيز؛ لأنها من أعجب القصص، فإن فرعون حذر من موسى كل^(٥) الحذر، فسخره القدر أن ربى هذا الذى يحذر

(٣) فى ت، أ: «فما».

(٢) فى ت، أ: «إلى».

(١) فى ت، أ: «وأنجي».

(٥) فى أ: «من».

(٤) فى ت، أ: «أى إلى قومه».

منه على فراشه ومائدته بمنزلة الولد، ثم ترعرع وعقد الله له سببا أخرجه من بين أظهرهم، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم، وبعثه إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده^(١) ويرجع إليه، هذا مع ما كان عليه فرعون من عظمة المملكة والسلطان، فجاءه برسالة الله، وليس له وزير سوى أخيه هارون عليه^(٢) السلام، فتمرد فرعون واستكبر وأخذته الحمية، والنفس الخبيثة الأبية، وقوى رأسه وتولى بركته، وادعى ما ليس له، وتجهرم على الله، وعتا وبغى وأهان حزب الإيمان من بنى إسرائيل، والله تعالى يحفظ رسوله موسى وأخاه هارون، ويحوطهما، بعنايته، ويحرسهما بعينه التي لا تنام، ولم تزل^(٣) المحاجة والمجادلة والآيات تقوم على يدي موسى شيئا^(٤) بعد شيء، ومرة^(٥) بعد مرة، مما يبهر العقول ويدهش الألباب، مما لا يقوم له شيء، ولا يأتي به إلا من هو مؤيد من الله، وما تأتيهم من آية إلا هي أكبر من أختها، وصمم فرعون ومَلَّوْهُ - قبحهم الله - على التكذيب بذلك كله، والجحد والعناد والمكابرة، حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد، وأغرقهم في صبيحة^(٦) واحدة أجمعين، ﴿فَقَطَّعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) ﴿

ذكر تعالى^(٧) قصة السحرة مع موسى، عليه السلام، في سورة الأعراف، وقد تقدم الكلام عليها هناك. وفي هذه السورة، وفي سورة طه، وفي الشعراء؛ وذلك أن فرعون - لعنه الله - أراد أن يتهرج على الناس، ويعارض ما جاء به موسى، عليه السلام، من الحق المبين، بزخارف^(٨) السحرة والمشعبدین، فانعكس عليه النظام، ولم يحصل له ذلك المرام، وظهرت^(٩) البراهين الإلهية في ذلك المحفل العام، و﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ . قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الشعراء: ٤٦ - ٤٨] فظن فرعون أن^(١٠) يستنصر بالسحار، على رسول عالم الأسرار، فخاب وخسر الجنة، واستوجب النار.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ (١١) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ؛ وإنما قال لهم ذلك لأنهم اصطفوا - وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل - ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى . قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ [طه: ٦٥، ٦٦]، فأراد موسى أن تكون البداية منهم، ليرى الناس ما صنعوا، ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم؛ ولهذا لما ﴿أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ

(٣) في ت: «ولم يزل».

(٦) في ت: «صبيحة».

(٩) في ت: «وأظهرت».

(٢) في ت، أ: «عليهما».

(٥) في ت: «وكره».

(٨) في أ: «من خوارق».

(١١) في ت: «سحار».

(١) في ت، أ: «يعبده».

(٤) في ت: «شيء».

(٧) في ت: «ذكر الله سبحانه».

(١٠) في ت: «أنه».

وَأَسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ [الأعراف: ١١٦]، ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى . قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى . وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٧ - ٦٩]. فعند ذلك قال موسى لما ألقوا: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ . وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث، حدثنا عبد الرحمن - يعني الدشتكي - أخبرنا أبو جعفر الرازي، عن ليث - وهو ابن أبي سليم - قال: بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالى، تقرأ في إناء فيه ماء، ثم يصب على رأس المسحور: الآية التي من سورة يونس: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ . وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾، والآية الأخرى: ﴿فَرَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨ - ١٢٢]، وقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩].

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٨٣).

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى، عليه السلام، مع ما جاء به من الآيات^(١) البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات، إلا قليل من قوم فرعون، من الذرية - وهم الشباب^(٢) - على وجل وخوف منه ومن ملكه، أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر؛ لأن فرعون كان جبارا عنيدا مسرفا في التمرد والعتو، وكانت^(٣) له سطوة ومهابة، تخاف رعيته منه خوفا شديدا.

قال العوفي: عن ابن عباس: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ قال: فإن الذرية التي آمنت لموسى، من أناس غير بنى إسرائيل، من قوم فرعون يسير، منهم: امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه.

وروى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ يقول: بنى إسرائيل.

وعن ابن عباس، والضحاك، وقتادة (الذرية): القليل.

وقال مجاهد في قوله: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ يقول: بنى إسرائيل. قال: هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى، من طول الزمان، ومات آباؤهم.

واختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية: أنها من بنى إسرائيل لا من قوم فرعون، لعود الضمير على أقرب المذكورين.

(١) في ت: «فكانت».

(٢) في ت: «الشباب».

(٣) في ت: «الإيمان».

وفى هذا نظر؛ لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب^(١)، وأنهم من بنى إسرائيل، فالمعروف أن بنى إسرائيل كلهم آمنوا بموسى، عليه السلام، واستبشروا به، وقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة، وأن الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون ويظهرهم عليه؛ ولهذا لما بلغ هذا فرعون حذر كل الحذر فلم يجد عنه شيئاً. ولما جاء موسى آذاهم فرعون^(٢) أشد الأذى، و﴿قَالُوا أَوْذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]. وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى، وهم بنو إسرائيل؟

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُمُ﴾ أى: وأشرف قومهم أن يفتنهم، ولم يكن فى بنى إسرائيل من يخاف منه أن يفتن عن الإيمان سوى قارون، فإنه كان من قوم موسى، فبغى عليهم؛ لكنه كان طاوياً^(٣) إلى فرعون، متصلاً به، متعلقاً بحاله^(٤). ومن قال: إن الضمير فى قوله: ﴿وَمَلَأَتْهُمُ﴾، عائد إلى فرعون، وعظم الملك^(٥) من أجل اتباعه أو بحذف «آل» فرعون، وإقامة المضاف إليه مقامه - فقد أبعد، وإن كان ابن جرير قد حكاهما عن بعض النحاة. وما يدل على أنه لم يكن فى بنى إسرائيل إلا مؤمن قوله تعالى:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لبنى إسرائيل: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ أى: فإن الله كاف من توكل عليه، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

وكثيراً ما يقرن الله بين العبادة والتوكل، كما فى قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]، وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا فى كل صلواتهم^(٦) مرات متعددة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وقد امثل بنو إسرائيل ذلك، فقالوا: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أى: لا تظفرهم بنا، وتسلبهم^(٧) علينا، فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل،

(١) فى ت: «والشباب».

(٢) فى ت: «لفرعون».

(٣) فى ت: «طاوياً».

(٤) فى ت: «صلاتهم».

(٥) فى ت: «للملك».

(٦) فى ت: «بجباله».

(٧) فى ت: «أى يظفركم ويسلبهم».

فافتنوا^(١) بذلك. هكذا روى عن أبي مجلز، وأبي الضحى.

وقال ابن أبي نجیح وغير واحد، عن مجاهد: لا تعذبنا بأيدي قوم فرعون، ولا بعذاب من عندك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على حق ما عذبوا، ولا سلطنا عليهم، فافتنوا^(٢) بنا.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن عيينة، عن ابن نجیح، عن مجاهد: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [أى]^(٣): لا تسلطهم علينا، فافتنونا.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ أى: خلصنا برحمة منك وإحسان، ﴿مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أى: الذين كفروا الحق وستره، ونحن قد آمنّا بك وتوكلنا عليك.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمَكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٧).

يذكر تعالى سبب إنجائه بنى إسرائيل من فرعون وقومه، وكيفية خلاصهم منهم^(٤)، وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون، عليهما السلام ﴿أَن تَبَوَّءَا﴾ أى: يتخذا لقومهما بمصر بيوتا.

واختلف المفسرون فى معنى قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، فقال الثورى وغيره، عن خُصِيف، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قال: أمرُوا أن يتخذوها مساجد.

وقال الثورى أيضا، عن ابن منصور، عن إبراهيم: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قال: كانوا خائفين، فأمرُوا أن يصلوا فى بيوتهم.

وكذا قال مجاهد، وأبو مالك، والربيع بن أنس، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وأبوه زيد بن أسلم: وكان هذا - والله أعلم - لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه، وضيقوا عليهم، أمرُوا بكثرة الصلاة، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣]. وفى الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى. أخرجه أبو داود^(٦). ولهذا^(٧) قال تعالى فى هذه الآية: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: بالثواب والنصر القريب.

وقال العوفى، عن ابن عباس، فى تفسير هذه الآية قال: قالت بنو إسرائيل لموسى، عليه السلام: لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة، فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا فى بيوتهم، وأمرُوا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة. وقال مجاهد: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، قال: لما خاف بنو إسرائيل من

(٣) زيادة من ت، أ.

(٥) فى ت: «وجعلوا».

(١، ٢) فى ت، أ: «افتنوا».

(٤) فى أ: «منه».

(٦) سنن أبى داود برقم (١٣١٩) من حديث حذيفة، رضى الله عنه.

(٧) فى ت، أ: «وكذا».

فرعون أن يقتلوا^(١) في الكنائس الجامعة، أمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبله الكعبة، يصلون فيها سرّاً. وكذا قال قتادة، والضحاك.

وقال سعيد بن جبير: ﴿وَجَعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أى: يقابل بعضها بعضاً.

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩)﴾.

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى، عليه السلام، على فرعون وملئه، لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين، ظلماً وعلواً وتكبراً وعتواً، قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً﴾ أى: من أثاث الدنيا ومتاعها، ﴿وَأَمْوَالًا﴾ أى: جزيلة كثيرة، ﴿فِي﴾ هذه ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ - بفتح الياء - أى: أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم استدراجاً منك لهم، كما قال تعالى: ﴿لَنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾.

وقرأ آخرون: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ بضم الياء، أى: ليفتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيت هؤلاء هذا لحبك إياهم^(٢)، واعتناك بهم.

﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد: أى: أهلكها. وقال الضحاك، وأبو العالية، والربيع بن أنس: جعلها الله حجارة منقوشة كهية ما كانت.

وقال قتادة: بلغنا أن زروعهم تحولت حجارة.

وقال محمد بن كعب القرظي: اجعل^(٣) سكرهم حجارة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث، حدثنا يحيى بن أبي بكير، عن أبي معشر، حدثني محمد بن قيس: أن محمد بن كعب قرأ سورة يونس على عمر بن عبد العزيز: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ﴾ إلى قوله: ﴿اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ إلى آخرها [فقال له: عمر يا أبا حمزة^(٤)، أى شئ الطمس؟ قال: عادت أموالهم كلها حجارة]^(٥). فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له: اثني بكيس. [فجاءه بكيس]^(٦)، فإذا فيه حمص وبيض، قد قطع حول حجارة.

وقوله: ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾: قال ابن عباس: أى اطبع عليها، ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

وهذه الدعوة كانت من موسى، عليه السلام، غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه، الذين تبين له

(٣) فى ت: «جعل».

(٢) فى ت، أ: «لهم».

(٥، ٦) زيادة من ت، أ.

(١) فى ت: «أن يصلوا».

(٤) فى ت: «يا أبا حمزة».

أنه لا خير فيهم، ولا يجيء منهم شيء كما دعا نوح، عليه السلام، فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَّارًا. إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]؛ ولهذا استجاب الله تعالى لموسى، عليه السلام، فيهم^(١) هذه الدعوة، التي آمنَ عليها أخوه هارون، فقال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾.

قال أبو العالية، وأبو صالح، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظي، والربيع بن أنس: دعا موسى وأمنَ هارون، أى: قد أجبناكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون.

وقد يحتج بهذه الآية من يقول: «إن تأمين المأموم على قراءة الفاتحة يُنزَلُ منزلة^(٢) قراءتها؛ لأن موسى دعا وهارون أمن».

وقال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا [وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ]^(٣)﴾ أى: كما أجبنا دعوتكما فاستقيما على أمرى.

قال ابن جرير، عن ابن عباس: ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾: فامضيا لأمرى، وهى الاستقامة. قال ابن جرير: يقولون: إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة.

وقال محمد بن على بن الحسين: أربعين يوما.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلَانَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢)﴾.

يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده؛ فإن بنى إسرائيل لما خرجوا من مصر صحبة موسى، عليه السلام، وهم - فيما قيل - ستمائة ألف مقاتل سوى الذرية، وقد كانوا استعاروا من القبط حلياً كثيراً، فخرجوا به معهم، فاشتد حنق فرعون عليهم، فأرسل فى المداخن حاشرين يجمعون له جنوده من أقاليمة، فركب وراءهم فى أبهة عظيمة، وجيوش هائلة لما يريد الله تعالى بهم، ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان فى سائر مملكته، فلحقوهم وقت شروق الشمس، ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر، وأدركهم فرعون، ولم يبق إلا أن يتقاتل^(٤) الجمعان، وألح أصحاب موسى، عليه السلام، عليه فى السؤال كيف المخلص مما نحن فيه؟ فيقول: إني أمرت أن أسلك هاهنا، ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

(١) فى ت: «فيما».

(٢) فى ت: «ينزل منزلة».

(٣) فى أ: «أن يتقابل».

(٤) زيادة من أ، وفى هـ: «الآية».

[الشعراء: ٦٢]، فعندما ضاق الأمر اتسع، فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فانفلق البحر، ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] أى: كالجبل العظيم، وصار اثني عشر طريقاً، لكل سبط واحد. وأمر الله الريح فنشفت أرضه، ﴿فَاضْرِبْ لَهُمُ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: ٧٧]، وتخرق الماء بين الطرق كهيئة الشبايك، ليرى كل قوم الآخرين لئلا يظنوا أنهم هلكوا. وجازت بنو إسرائيل البحر، فلما خرج آخرهم منه انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى، وهو فى مائة ألف أدهم سوى بقية الألوان، فلما رأى ذلك هاله وأحجم وهاب وهم بالرجوع، وهيهات ولات حين مناص، نفذ القدر، واستجيت الدعوة. وجاء جبريل، عليه السلام، على فرس - وديق حائل، فمر إلى جانب حصان فرعون فحممهم إليها وتقدم جبريل فاقتحم البحر ودخله، فاقتحم الحصان وراءه، ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئاً، فتجلد لأمرائه، وقال لهم: ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا، فاقتحموا كلهم عن آخرهم وميكائيل فى ساقهم، لا يترك أحدا منهم، إلا ألحقه بهم. فلما استوسقوا فيه وتكاملوا، وهم أولهم بالخروج منه، أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم، فارتطم عليهم، فلم ينج منهم أحد، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم، وتراكت الأمواج فوق فرعون، وغشيت سكرات الموت، فقال وهو كذلك: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. فآمن حيث لا ينفعه الإيمان، ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾. فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

وهكذا^(١) قال الله تعالى فى جواب فرعون حين قال ما قال: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ﴾ أى: أهذا^(٢) الوقت تقول، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه؟ ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أى: فى الأرض الذين أضلوا الناس، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١].

وهذا الذى حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا فى حاله^(٣) ذاك من أسرار الغيب التى^(٤) أعلم الله بها رسوله؛ ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله:

حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قال فرعون: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾، قال: قال لى جبريل: [يا محمد]^(٥) لو رأيتنى وقد أخذت [حالا]^(٦) من حال البحر، فدانسته فى فيه مخافة أن تناله الرحمة».

(٢) فى ت: «هذا».

(٤) فى ت، أ: «الذى».

(١) فى ت: «ولهذا».

(٣) فى ت: «حالة».

(٥، ٦) زيادة من ت، أ، والمسند.

ورواه الترمذى، وابن جرير، وابن أبى حاتم فى تفاسيرهم، من حديث حماد بن سلمة، به^(١). وقال الترمذى: حديث حسن.

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا شعبة، عن عدى بن ثابت وعطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لى جبريل: لو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر، فأدسه فى فم فرعون مخافة أن تدركه الرحمة». وقد رواه أبو عيسى الترمذى أيضا، وابن جرير أيضا، من غير وجه، عن شعبة، به^(٢). وقال الترمذى: حسن غريب صحيح.

ووقع فى رواية عند ابن جرير، عن محمد بن المثنى، عن غُندَر، عن شعبة، عن عطاء وعديّ، عن سعيد، عن ابن عباس، رفعه أحدهما - وكان^(٣) الآخر لم يرفعه، فالله^(٤) أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما أغرق^(٥) الله فرعون، أشار بأصبعه ورفع صوته: «آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ^(٦) إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ»، قال: فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه، فجعل يأخذ الحال بجناحه فيضرب به وجهه فيرمسه.

وكذا رواه ابن جرير، عن سفيان بن وكيع، عن أبى خالد، به موقوفا^(٧).

وقد روى من حديث أبى هريرة أيضا، فقال ابن جرير:

حدثنا ابن حميد، حدثنا حكام، عن عنبسة - هو ابن^(٨) سعيد - عن كثير بن زاذان، عن أبى حازم، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لى جبريل: يا محمد، لو رأيتنى وأنا أغطه وأدس من الحال^(٩) فى فيه، مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له» يعنى: فرعون^(١٠).

كثير بن زاذان هذا قال ابن معين: لا أعرفه، وقال أبو زرعة وأبو حاتم: مجهول، وباقى رجاله ثقات.

(١) المسند (٣٠٩/١) وسنن الترمذى برقم (٣١٠٧).

(٢) سنن الترمذى برقم (٣١٠٨) وتفسير الطبرى (١٥/١٩٠ - ١٩٢) ورواه الحاكم فى المستدرک (٢/٣٤٠) من طريق النضر بن شميل عن شعبة به، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» لأن أكثر أصحاب شعبة أوقفوه على ابن عباس ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٩٣٩٢) فذكرت روايات الرفع والوقف.

(٣) فى ت، أ: «فكان».

(٤) فى ت، أ: «لما غرق».

(٥) فى ت، أ: «لما غرق».

(٦) فى ت: «أن لا إله».

(٧) تفسير الطبرى (١٥/١٩٣) ورواه السرقسطى فى غريب الحديث، كما فى تخريج الكشاف (٢/١٣٨) عن موسى بن هارون، عن يحيى الحماني عن أبى خالد الأحمر به نحوه.

(٨) فى ت، أ: «أبو».

(٩) فى ت: «الجبيل».

(١٠) تفسير الطبرى (١٥/١٩١) ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٩٣٩٠) من طريق حكام الرازى به.

وقد أرسل هذا الحديث جماعة من السلف: قتادة، وإبراهيم التيمي، وميمون بن مهران. ونقل عن الضحاك بن قيس: أنه خطب بهذا للناس، فالله أعلم.

وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾: قال ابن عباس وغيره من السلف: إن بعض بنى إسرائيل شكوا في موت فرعون، فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده^(١) بلا روح، وعليه درعه المعروفة [به]^(٢)، على نجوة^(٣) من الأرض وهو المكان المرتفع، ليتحققوا موته وهلاكه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّكَ﴾ أى: نرفعك على نشز^(٤) من الأرض، ﴿بِبَدَنِكَ﴾. قال مجاهد: بجسدك. وقال الحسن: بجسم لا روح فيه. وقال عبد الله بن شداد: سويا صحيحا، أى: لم يتمزق ليتحققوه ويعرفوه. وقال أبو صخر: بدرعك^(٥).

وكل هذه الأقوال لا منافاة بينها، كما تقدم، والله أعلم.

وقوله: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ أى: لتكون لبنى إسرائيل دليلا على موتك وهلاكك، وأن الله^(٦) هو القادر الذى ناصية كل دابة بيده، وأنه لا يقوم لغضبه شيء؛ ولهذا قرأ بعض السلف: «لتكون لمن خلقك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون^(٧)»، أى: لا يتعظون^(٨) بها، ولا يعتبرون. وقد كان [إهلاك فرعون وملئه]^(٩) يوم عاشوراء، كما قال البخارى:

حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة، عن أبى بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قدم النبى ﷺ المدينة، واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. فقال النبى ﷺ لأصحابه: «أنتم أحق بموسى منهم، فصوموه»^(١٠).

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبْوَءًا صَدَقَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)﴾.

يخبر تعالى عما أنعم به على بنى إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية فـ ﴿مَبْوَءًا^(١١) صَدَقَ﴾، قيل: هو بلاد مصر والشام، مما يلى بيت المقدس ونواحيه، فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال فى الآية الأخرى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ^(١٢) . وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧ - ٥٩]، ولكن

(١) فى ت، أ: «بجسده سويا».

(٢) زيادة من ت، أ.

(٣) فى ت: «نحوه».

(٤) فى ت: «يرفعك على بشر».

(٦) فى ت: «وأنه تعالى».

(٥) فى ت: «تذرعك».

(٩) زيادة من ت، أ.

(٨) فى ت: «يتعضون».

(٧) فى ت: «الغافلون».

(١٠) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٠).

(١٢) فى ت، أ: «كم تركوا من جنات وعيون وزروع».

(١١) فى ت: «فالمبوا».

استمروا مع موسى، عليه السلام، طالبين إلى بلاد بيت المقدس [وهى بلاد الخليل عليه السلام فاستمر موسى بمن معه طالبا بيت المقدس]^(١)، وكان فيه قوم من العمالقة، [فنكل بنو إسرائيل عن قتال العمالقة]^(٢)، فشردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة، ومات فيه^(٣) هارون، ثم، موسى، عليهما السلام، وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون، ففتح الله عليهم بيت المقدس، واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم بختنصر حيناً من الدهر، ثم عادت إليهم، ثم أخذها ملوك اليونان، وكانت تحت أحكامهم^(٤) مدة طويلة، وبعث الله عيسى ابن مريم، عليه السلام، في تلك المدة، فاستعانت اليهود - قبهم^(٥) الله - على معاداة عيسى، عليه السلام، بملوك اليونان، وكانت تحت أحكامهم، ووشوا عندهم، وأوحوا إليهم أن هذا يفسد عليكم الرعايا فبعثوا^(٦) من يقبض عليه، فرفعه الله إليه، وشبه لهم بعض الحوارين بمسيئة الله وقدره^(٧)، فأخذوه فصلبوه، واعتقدوا أنه هو، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨] ثم بعد المسيح، عليه السلام بنحو [من]^(٨) ثلاثمائة سنة، دخل قسطنطين أحد ملوك اليونان - في دين النصرانية، وكان فيلسوفاً قبل ذلك. فدخل في دين النصارى قيل: تقية، وقيل: حيلة ليفسده، فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشريعة وبدعاً أحدثوها، فبنى لهم الكنائس والبيع الكبار والصغار، والصوامع والهيكل، والمعابد، والقلاليات. وانتشر دين النصرانية^(٩) في ذلك الزمان، واشتهر على ما فيه من تبديل وتغيير وتحريف، ووضع وكذب، ومخالفة لدين المسيح. ولم يبق على دين المسيح على الحقيقة منهم إلا القليل من الرهبان، فاتخذوا لهم الصوامع في البرارى والمهام والقفار، واستحوذت يد النصارى على مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم، وبنى هذا الملك المذكور مدينة قسطنطينية، والقمامة، وبيت لحم، وكنائس [بلاد]^(١٠) بيت المقدس، ومدن حوران كبصري وغيرها من البلدان بنايات هائلة محكمة، وعبدوا الصليب من حيثئذ، وصلوا إلى الشرق، وصوروا الكنائس، وأحلوا لحم الخنزير، وغير ذلك مما أحدثوه من^(١١) الفروع في دينهم والأصول، ووضعوا له الأمانة الحقيرة، التى يسمونها الكبيرة، وصنفوا له القوانين، وبسط هذا يطول.

والغرض أن يدهم لم تزل على هذه البلاد إلى أن انتزعها^(١٢) منهم الصحابة، رضى الله عنهم، وكان فتح بيت المقدس على يدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، والله الحمد والمنة. وقوله: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أى: الحلال، من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعاً وشرعاً. وقوله: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أى: ما اختلفوا فى شىء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم، أى: ولم يكن لهم أن يختلفوا، وقد بين الله لهم وأزال عنهم اللبس. وقد ورد فى

(١) زيادة من ت، أ.

(٣) فى ت، أ: «فى أثنائها».

(٤) فى أ: «حكامهم».

(٥) فى أ: «لعنهم».

(٧) فى أ: «وقدرته».

(٨) زيادة من ت، أ.

(١٠) زيادة من ت، أ.

(١١) فى أ: «فى».

(٦) فى ت: «فبعثوا».

(٩) فى أ: «النصارى».

(١٢) فى ت: «انتزعها».

الحديث: أن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وأن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، منها واحدة في الجنة، واثنتان وسبعون في النار. قيل: من هم^(١) يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي».

رواه الحاكم في مستدركه بهذا اللفظ، وهو في السنن والمسانيد^(٢). ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ أى: يفصل بينهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧)﴾.

قال قتادة بن دعام: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا أشك ولا أسأل»^(٣).

وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن جبیر، والحسن البصري، وهذا فيه تثبيت^(٤) للأمة، وإعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودة^(٥) في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]. ثم مع هذا العلم يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم، يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه، ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أى: لا يؤمنون إيماناً ينفعهم، بل حين لا ينفع نفساً إيمانها؛ ولهذا لما دعا موسى، عليه السلام، على فرعون وملئه قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]، ثم قال تعالى:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨)﴾.

(١) فى ت: «من هو».

(٢) المستدرک (١٢٩/١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وجاء من حديث معاوية وأنس وعوف بن مالك قال العراقى: «أسانيدھا جیاد».

(٣) رواه عبد الرزاق فى تفسیره (٢٠٢/١٥) عن معمر عن قتادة به مرسلًا.

(٥) فى ت، أ: «صلوات الله وسلامه عليه موجود».

(٤) فى ت: «تثبيت».

يقول تعالى: فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل، بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه، أو أكثرهم كما قال تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠]، ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ^(١) إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ^(٢)﴾ [الزخرف: ٢٣]. وفي الحديث الصحيح: «عرض على الأنبياء، فجعل النبي يمر ومعه الفئام من الناس، والنبي معه الرجل والنبي معه الرجلان، والنبي ليس معه أحد»^(٣) ثم ذكر كثرة أتباع موسى، عليه السلام، ثم ذكر كثرة أمته، صلوات الله وسلامه عليه، كثرة سدت الخافقين الشرقي^(٤) والغربي.

والغرض أنه لم توجد^(٥) قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى، إلا قوم يونس، وهم أهل نينوى، وما كان إيمانهم إلا خوفا من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم، بعد ما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به، وتضرعوا^(٦) لديه. واستكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم. فعندها رحمهم الله، وكشف عنهم العذاب وأخروا، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

واختلف المفسرون: هل كشف عنهم العذاب الأخرى مع الدينوى؟ أو إنما كشف عنهم فى الدنيا فقط؟ على قولين، أحدهما: إنما كان ذلك فى الحياة الدنيا، كما هو مقيد فى هذه الآية، والقول الثانى فىهما لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ. فَأَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٧، ١٤٨]، فأطلق عليهم الإيمان، والإيمان منقذ من العذاب الأخرى، وهذا هو الظاهر، والله أعلم.

قال قتادة فى تفسير هذه الآية: لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب، فتركت، إلا قوم يونس، لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم، قذف الله فى قلوبهم التوبة، ولبسوا المسوح، وفرّقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عَجَّوا إلى الله أربعين ليلة. فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم، والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف الله عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم - قال قتادة: وذكر أن قوم يونس كانوا بنينوى أرض الموصل.

وكذا روى عن ابن مسعود، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وغير واحد من السلف، وكان ابن مسعود يقرؤها: «فَهَلَّا كَانَتْ قَرْيَةً آمَنَتْ».

(١) فى ت: «وما أرسلنا فى قرية من نبي».

(٢) فى ت: «مهتدون» وهو خطأ.

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٧٥٢) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٢٠) من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنه.

(٤) فى ت، أ: «والشرقى».

(٥) فى ت: «يوجد».

(٦) فى ت، أ: «وضرعوا».

وقال أبو عمران، عن أبي الجلد قال: لما نزل بهم^(١) العذاب، جعل يدور على رؤوسهم كقطع الليل المظلم، فمشوا إلى رجل من علمائهم فقالوا: علمنا دعاء ندعو به، لعل الله يكشف^(٢) عنا العذاب، فقال: قولوا: يا حيّ حين لا حيّ، يا محيي الموتى^(٣)، لا إله إلا أنت. قال: فكشّف عنهم العذاب.

وتمام القصة سيأتي مفصلاً في سورة الصافات إن شاء الله.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠).

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ - يا محمد - لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جتهد به، فآمنوا كلهم، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى كما قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَبْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ﴾ أي: تلزمهم وتلجئهم ﴿حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليس ذلك عليك ولا إليك، بل [إلى]^(٤) الله ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨]، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد، الهادي من يشاء، المضل لمن يشاء، لعلمه وحكمته وعدله؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ﴾ وهو الخبال^(٦) والضلال، ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: حجج الله وأدلته، وهو العادل في كل ذلك، في هداية من هدى، وإضلال من ضل.

﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فانتظروا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣).

(١) في ت: «لما نزل بقوم يونس».

(٢) في ت: «أن يكشف».

(٣) في ت: «يا محيي الموتى يا حي».

(٤) في ت: «يؤمن».

(٦) في ت: «الجبال».

(٤) زيادة من ت.

يرشدُ تعالى عباده إلى التفكير في آلائه^(١) وما خلق في السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوى الألباب، مما في السموات^(٢) من كواكب نيرات، ثوابت وسيارات، والشمس والقمر، والليل والنهار، واختلافهما، وإيلاج أحدهما في الآخر، حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها، وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير، وصنوف النبات، وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول^(٣) وقفار وعمران وخراب. وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا [مسخر]^(٤) مذل للسالكين، يحمل سفنهم، ويعجى بها برفق بتسخير القدير له، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وقوله: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: وأى شىء تجدى الآيات السماوية والأرضية، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها، عن قوم لا يؤمنون، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

وقوله: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أى: فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النعمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم المكذبة لرسولهم، ﴿قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي^(٥) مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ. ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: ونهلك المكذبين بالرسول، ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [أى] ^(٦) حقا: أوجه تعالى على نفسه الكريمة: كقوله ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، كما جاء في الصحيحين، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله كتب كتابا فهو عنده فوق العرش: إن رحمتى سبقت غضبى»^(٧) ^(٨).

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه: قل: يا أيها الناس، إن كنتم في شك من

(١) فى أ: «إلى التفكير فى الآية لآياته». (٢) فى ت، أ: «السماء». (٣) فى أ: «وهول».

(٤) زيادة من ت، أ. (٥) فى ت: «فإنى». (٦) زيادة من ت، أ.

(٧) فى ت، أ: «تغلب».

(٨) صحيح البخارى برقم (٧٥٥٤) وصحيح مسلم برقم (٢٧٥١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

صحة ماجئكم من الدين الخفيف، الذى أوحاه الله إلى، فها أنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له، وهو الذى يتوفاكم كما أحياكم، ثم إليه مرجعكم؛ فإن كانت آلهتكم التى تدعون من دون الله ^(١) حقاً، فأنا لا أعبدها ^(٢)، فادعوها فلتضررنى، فإنها لا تضر ولا تنفع، وإنما الذى بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له، وأمرت أن أكون من المؤمنين.

وقوله: ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أى: أخلص العبادة لله وحده حنيفاً، أى: منحرفاً عن الشرك؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وهو معطوف على قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ إلى آخرها، بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه ^(٣) فى ذلك أحد، فهو الذى يستحق العبادة وحده، لاشريك له.

روى الحافظ ابن عساكر، فى ترجمة صفوان بن سليم، من طريق عبد الله بن وهب: أخبرنى يحيى بن أيوب عن عيسى بن موسى، عن صفوان بن سليم، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ قال: «اطلبوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن الله نفحات من رحمته، يصيب بها من يشاء من عباده واسألوه أن يستر عوراتكم، ويؤمن روعاتكم» ^(٤).

ثم رواه من طريق الليث، عن عيسى بن موسى، عن صفوان، عن رجل من أشجع، عن أبى هريرة مرفوعاً؛ بمثله سواء ^(٥).

وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أى: لمن تاب إليه وتوكل عليه، ولو من أى ذنب كان، حتى من الشرك به، فإنه يتوب عليه.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)﴾.

يقول تعالى أمراً لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، أن يخبر الناس أن الذى جاءهم به من عند

(١) فى أ: «من دون الله من شئ حقاً».

(٢) فى ت: «أعبد».

(٣) فى ت، «لا يشركه».

(٤) تاريخ دمشق (٣٢٨/٨) «المخطوط» ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (١١٢١) من طريق عبد الله بن وهب به، ورواه ابن عبد البر فى التمهيد (٣٣٩/٥) والبيهقى فى شعب الإيمان برقم (١١٢٢) من طريق عمرو بن الربيع بن طاق عن يحيى بن أيوب به نحوه ورمز له السيوطى بالضعف فى الجامع.

(٥) تاريخ دمشق (٣٢٨/٨) «المخطوط» ورواه ابن أبى الدنيا فى الفرج بعد الشدة برقم (٢٧) من طريق رويم بن يزيد عن الليث به مرفوعاً، ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (١١٢٣) من طريق يحيى بن بكير عن الليث به مرفوعاً. وقال البيهقى: «هذا هو المحفوظ دون الأول» والأول حديث أنس.

الله هو الحق الذى لامرية فيه ولاشك، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه، [ومن ضل عنه ^(١) فإنما يرجع وبال ذلك عليه ^(٢)] ^(٣).

﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أى: وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين به، وإنما أنا نذير لكم، والهداية على الله تعالى.

وقوله: ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ ﴾ أى: تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه ^(٤)، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس، ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ﴾ أى: يفتح بينك وبينهم، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ أى: خير الفاتحين بعدله ^(٥) وحكمته.

(٣) زيادة من ت، أ.

(٢) فى ت: «على نفسه»

(٥) فى ت، أ: «لعدله».

(١) فى ت: «عن ذلك».

(٤) فى ت، أ: «أوحاه إليك».

تفسير سورة هود

[وهى مكية] ^(١).

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا خلف بن هشام البزار، حدثنا أبو الأحوص، عن أبي إسحاق، عن عكرمة قال: قال أبو بكر: سألت رسول الله ﷺ: ما شيبك؟ قال: «شيبني هود، والواقعة، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت» ^(٢).

وقال أبو عيسى الترمذى: حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء، حدثنا معاوية بن هشام، عن شيبان، عن أبي إسحاق، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يارسول الله، قد شبت؟ قال: «شيبني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت» ^(٣) وفى رواية: «هود وأخواتها».

وقال الطبرانى: حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا حماد ^(٤) بن الحسن، حدثنا سعيد بن سلام، حدثنا عمر بن محمد، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «شيبني هود وأخواتها: الواقعة، والحاقة، وإذا الشمس كورت» وفى رواية: «هود وأخواتها» ^(٥).

وقد روى من حديث ابن مسعود، فقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى فى معجمه الكبير: حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة، حدثنا أحمد بن طارق الراشدى ^(٦)، حدثنا عمرو بن ثابت، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه؛ أن أبا بكر قال: يارسول الله، ما شيبك؟ قال: «هود، والواقعة» ^(٧).

عمرو بن ثابت متروك، وأبو إسحاق لم يدرك ابن مسعود. والله أعلم.

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) مسند أبى يعلى (١٠٢/١) وهو منقطع وقد تكلم عليه الذى بعده، الحافظ الدارقطنى فى العلل (١٩٣/٣ - ٢١١) بما يكفى.

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٢٩٧) وقال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب لانعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه».

(٤) جميع النسخ: «حجاج» والتصويب من المعجم الكبير.

(٥) المعجم الكبير (١٨٣/٦) ورواه الدارقطنى فى العلل (٢١٠/١) من طريق أحمد بن طارق به، وقال الهيثمى فى المجمع (١٩٢/٣): «عمر بن صهبان متروك» وسعيد بن سلام كذاب.

(٦) فى ت، أ، والمعجم الكبير: «الوابشى» ولم أجد ترجمته.

(٧) المعجم الكبير (١٠٠/١٢٥، ١٢٦) وهو عنده من طريق عمرو بن ثابت عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود فلعله سقط من نسخة ابن كثير والله أعلم.

وللاستزادة فى أحاديث الباب: فقد توسع الفاضل محمد طرهونى فى تتبعها انظر كتابه: موسوعة فضائل القرآن (١/٢٩٥ - ٣٠٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنْ نِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤)﴾.

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء فى أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا، وبالله التوفيق.

وأما قوله: ﴿أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أى: هى محكمة فى لفظها، مفصلة فى معناها، فهو كامل صورة ومعنى. هذا معنى ماروى عن مجاهد، وقتادة، واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أى: من عند الله الحكيم فى أقواله، وأحكامه، الخبر بعواقب الأمور.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أى: نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة (١) الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، قال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله: ﴿إِنِّي (٢) لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أى: إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشير بالثواب إن أطعتموه، كما جاء فى الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ صعد الصفا، فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب، فاجتمعوا، فقال (٣): «يامعشر قريش، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا تصبحكم (٤)، أستم مصدق؟» فقالوا: ماجربنا عليك كذبا. قال: «فإني نذير لكم بين (٥) يدى عذاب شديد» (٦).

وقوله: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أى: وأمركم (٧) بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله عز وجل فيما تستقبلونه، وأن تستمروا (٨) على ذلك، ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ أى: فى الدنيا ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أى: فى الدار الآخرة، قاله قتادة، كقوله: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ

(٣) فى ت: «فقالوا».

(٢) فى ت، أ: «إني».

(١) فى ت، أ: «عباده».

(٥) فى أ: «من».

(٤) فى ت: «تصبحكم».

(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٩٧١) من حديث ابن عباس، رضى الله عنه.

(٨) فى ت، أ: «يستقبلونه وأن يستمروا».

(٧) فى ت، أ: «ياأمركم».

فَلَنُحْيِيَنَّهٗ ^(١) حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا ^(٢) يَعْمَلُونَ ﴿ [النحل: ٩٧]، وقد جاء فى الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لسعد: «وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله، إلا أجزت بها، حتى ما تجعل فى فى ^(٣) امرأتك» ^(٤).

وقال ابن جرير: حدثت عن المسيب بن شريك، عن أبى بكر، عن سعيد بن جبير، عن ابن مسعود فى قوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ قال: من عمل سيئة كتبت عليه سيئة، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات. فإن عوقب بالسيئة التى كان عملها فى الدنيا بقيت له عشر حسنات، وإن لم يعاقب بها فى الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات. ثم يقول: هلك من غلب آحاده أعشاره ^(٥).

وقوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾: هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى، وكذب رسله، فإن العذاب يناله يوم معاده ^(٦) لا محالة، ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أى: معادكم يوم القيامة، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى: وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه، وانتقامه من أعدائه، وإعادة ^(٧) الخلائق يوم القيامة، وهذا مقام الترهيب، كما أن الأول مقام ترغيب.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَشْتُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾.

قال ابن عباس: كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم، وحال وقاعهم، فأنزل الله هذه الآية. رواه البخارى من حديث ابن جريج، عن محمد بن عباد بن جعفر؛ أن ابن عباس قرأ: «أَلَا إِنَّهُمْ تَشْتُونَ ^(٨) صُدُورَهُمْ»، فقلت: يا أبا عباس، ماتشونى ^(٩) صدورهم؟ قال: الرجل كان يجامع امرأته فيستحيى - أو: يتخلى فيستحيى فنزلت: «أَلَا إِنَّهُمْ تَشْتُونَ ^(١٠) صُدُورَهُمْ».

وفى لفظ آخر له: قال ابن عباس: أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا، فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم.

ثم قال: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو قال: قرأ ^(١١) ابن عباس: «أَلَا إِنَّهُمْ يَشْتُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ».

(١) فى ت: «فليحيينه». (٢) فى ت: «بأحسن الذى كانوا». (٣) فى ت، أ: «فى فم».

(٤) صحيح البخارى برقم (٦٣٧٣) وصحيح مسلم برقم (١٦٢٨).

(٥) تفسير الطبرى (٢٣١/١٥).

(٦) فى ت: «معاده».

(٧) فى ت، أ: «وإعادته».

(١١) فى ت: «قال».

(١٠) فى ت، أ: «يشتون».

(٩، ٨) فى ت، أ: «تشتون».

قال البخارى: وقال غيره، عن ابن عباس: ﴿يَسْتَغْشُونَ﴾: يغطون رؤوسهم^(١).

وقال ابن عباس فى رواية أخرى فى تفسير هذه الآية: يعنى به الشك فى الله، وعمل السيئات، وكذا روى عن مجاهد، والحسن، وغيرهم: أى أنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه، يظنون أنهم يستخفون من الله بذلك، فأعلمهم الله تعالى أنهم^(٢) حين يستغشون ثيابهم عند منامهم فى ظلمة الليل، ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾^(٣) من القول: ﴿وَمَا يَعْلَنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: يعلم ما تكن صدورهم من النيات والضمائر والسرائر. وما أحسن ما قال زهير بن أبى سلمى فى معلقته المشهورة:

فَلَا تَكْتُمَنَّ اللَّهُ مَا فِى نَفْسِكُمْ ليخفى، فمهما يكتم^(٤) الله يعلم
يُؤَخَّرَ فَيُوضَعُ فِى كِتَابٍ فَيُدْخَرُ ليوم حساب، أو يُعَجَّلُ فَيُنْقَمَ^(٥) (٦)

فقد اعترف هذا الشاعر الجاهلى بوجود الصانع وعلمه بالجزئيات، وبالمعاد وبالجزاء، وبكتابة الأعمال فى الصحف ليوم القيامة.

وقال عبد الله بن شداد: كان أحدهم إذا مر برسول الله ﷺ ثنى^(٧) صدره، وغطى رأسه فأنزل الله ذلك.

وعود الضمير^(٨) على الله أولى؛ لقوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

وقرأ ابن عباس: «أَلَا إِنَّهُمْ تَنْتَنُونَ»^(٩) صُدُورُهُمْ، برفع الصدور على الفاعلية، وهو قريب المعنى.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ

مُبِينٍ﴾ (٦).

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات، من سائر دواب الأرض، صغيرها وكبيرها، بحريها، وبريها، وأنه ﴿يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أى: يعلم أين منتهى سيرها فى الأرض، وأين تأوى إليه من وكرها، وهو مستودعها.

وقال على بن أبى طلحة وغيره، عن ابن عباس: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ أى: حيث تأوى، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾، حيث تموت.

وعن مجاهد: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ فى الرحم، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ فى الصلب، كالتى فى الأنعام: وكذا روى عن ابن عباس والضحاك، وجماعة. وذكر^(١٠) ابن أبى حاتم أقوال المفسرين هاهنا، كما ذكره

(١) صحيح البخارى برقم (٤٦٨١ - ٤٦٨٣).

(٤) فى ت: «تكتم».

(٣) فى ت، أ: «يسرونه».

(٢) فى ت، أ: «أنه».

(٥) فى ت: «فيتنقم».

(٦) البيت فى تفسير الطبرى (١٥/٢٣٣).

(٨) فى ت، أ: «الضمير أولا».

(٧) فى ت، أ: «ثنى عنه».

(١٠) فى أ: «وقال».

(٩) فى ت، أ: «يتنوني».

عند تلك الآية: ^(١)، فالله أعلم، وأن جميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقوله ^(٢): ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٨).

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن جامع بن شداد، عن صفوان بن محرز، عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «أقبلوا البشرى يا بنى تميم». قالوا: قد بشرتنا فأعطنا. قال: «أقبلوا البشرى يا أهل اليمن». قالوا: قد قبلنا، فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان؟ قال: «كان الله قبل كل شيء، وكان عرشه على الماء، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء». قال: فأتاني آت فقال: يا عمران، انحلت ناقتك من عقالها. قال: فخرجت في إثرها، فلا أدري ما كان بعدى ^(٣).

وهذا الحديث مخرج في صحيح البخارى ومسلم بألفاظ كثيرة ^(٤)؛ فمنها: قالوا: جئناك نسألك عن أول هذا الأمر فقال: «كان الله ولم يكن شيء قبله - وفي رواية: غيره - وفي رواية: معه - وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض».

وفي صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء» ^(٥).

وقال البخارى في تفسير هذه الآية: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: أَنْفَقُ أَنْفَقُ

(١) عند تفسير الآية: ٩٨ من سورة الأنعام.

(٢) فى ت، أ: «وقال تعالى».

(٣) المسند (٤/ ٤٣١).

(٤) صحيح البخارى برقم (٣١٩٠، ٣١٩١، ٤٣٦٥، ٤٣٨٦، ٧٤١٨) ولم أعر عليه فى صحيح مسلم.

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٦٥٣).

عليك». وقال: «يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحَاءَ الليل والنهار» وقال «أفرايتم^(١) ما أنفق منذ خلق السماء والأرض، فإنه لم يَغْضُ مافى يده، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع^(٢)».

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا حماد بن سلمة، عن يعلَى بن عطاء، عن وكيع بن عُدُس، عن عمه أبي رَزِين - واسمه لَقِيط بن عامر بن المتفق^(٣) العُقَيْلى - قال: قلت: يارسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «كان في عَمَاء، ما تحته هواء وما فوقه هواء، ثم خلق العرش بعد ذلك».

وقد رواه الترمذى فى التفسير، وابن ماجه فى السنة من حديث يزيد بن هارون به^(٤). وقال الترمذى: هذا حديث حسن.

وقال مجاهد: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» قبل أن يخلق شيئاً. وكذا قال وهب بن منبه، وضمرة بن حبيب، وقاله قتادة، وابن جرير، وغير واحد. وقال قتادة فى قوله: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»: ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض.

وقال الربيع بن أنس: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»، فلما خلق السموات والأرض، قسم ذلك الماء قسمين، فجعل نصفاً تحت العرش، وهو البحر المسجور. وقال ابن عباس: إنما سُمى العرش عرشاً لارتفاعه.

وقال إسماعيل بن أبى خالد، سمعت سعداً الطائى يقول: العرش ياقوتة حمراء. وقال محمد بن إسحاق فى قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»: فكان كما^(٥) وصف نفسه تعالى، إذ ليس إلا الماء وعليه العرش، وعلى العرش ذو الجلال والإكرام، والعزة والسلطان، والملك والقدرة، والحلم والعلم، والرحمة والنعمة، الفعال لما يريد.

وقال الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبيرة قال: سئل ابن عباس عن قول الله: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»: على أى شىء كان الماء؟ قال: على متن الريح.

وقوله تعالى: «لِيَلْبِسَكُمْ أَجْسَانًا مَّا بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَأَخَشَبُوا لَهَا أَفْجَانًا» أى: خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه وحده لا شريك له، ولم يخلق ذلك عبثاً، كما قال تعالى: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ» [ص: ٢٧]، وقال تعالى: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا

(١) فى ت، أ: «أرايت».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٤).

(٣) فى ت، أ: «المتفق».

(٤) المسند (١١/٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٠٩) وسنن ابن ماجه برقم (١٨٢).

(٥) فى ت: «عما». (٦) فى أ: «السموات».

خَلَقْنَاكُمْ عِبَادًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿المؤمنون: ١١٥، ١١٦﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقوله: ﴿لِيَلْبِسَكُمْ﴾ أى: ليختبركم ﴿أَيْكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾، ولم يقل: أكثر عملاً، بل ﴿أَحْسَنَ عَمَلًا﴾، ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله عز وجل، على شريعة رسول الله ﷺ. فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين بطل وحبط.

وقوله: ﴿وَلَنْ قُلْتُ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾: يقول تعالى: ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيعذبهم بعد مماتهم كما بدأهم، مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذى خلق السموات والأرض، [كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾^(١) وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة، الذى هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كُنْفُسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] وقولهم^(٢): ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أى: يقولون كفرا وعناداً مانصديقك^(٣) على وقوع البعث، وما يذكر ذلك^(٤) إلا من سحرته، فهو يتبعك على ما تقول.

وقوله: ﴿وَلَنْ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولَنَّ مَا يَحْسِبُ﴾. يقول تعالى: ولئن أخرنا العذاب والمؤاخظة عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأمد محصور، وأوعدناهم به إلى مدة مضروبة، ليقولن تكذيباً واستعجالاً: ﴿مَا يَحْسِبُ﴾ أى: يؤخر هذا العذاب عنا، فإن سجايهم قد ألفت التكذيب والشك، فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد.

والأمة تستعمل فى القرآن والسنة فى معان متعددة، فيراد بها: الأمد، كقوله فى هذه الآية: ﴿إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ وقوله فى [سورة] يوسف^(٥): ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]، وتستعمل فى الإمام المقتدى به، كقوله: ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، وتستعمل فى الملة والدين، كقوله إخباراً عن المشركين أنهم قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وتستعمل فى الجماعة، كقوله: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ عَبْدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قَضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧].

والمراد من الأمة هاهنا: الذين يبعث فيهم الرسول^(٦) مؤمنهم وكافرهم، كما [جاء]^(٧) فى

(٣) فى ت: «ما يصدقك».

(٢) فى ت، أ: «وقوله».

(١) زيادة من ت، أ.

(٧) زيادة من ت.

(٦) فى أ: «الرسول».

(٥) زيادة من أ.

(٤) فى ت: «وماتذكروه من ذلك».

صحيح مسلم : «والذى نفسى بيده، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة، يهودى ولا نصرانى، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار»^(١).

وأما أمة الأتباع، فهم المصدقون للرسول، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وفى الصحيح: «فأقول: أمتى أمتى».

وتستعمل الأمة فى الفرقة والطائفة، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَوْمٌ مُّوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿مَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

﴿وَلَنْ أَدْقِنَا الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَيْفُوسٌ كَفُورٌ﴾ (٩) وَلَنْ أَدْقِنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١).

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة، إلا من رحم الله من عباده المؤمنين، فإنه إذا أصابته شدة بعد نعمة، حصل له يأس^(٢) وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل، وكفر ووجود لماضى الحال، كأنه لم ير خيرا، ولم يرج^(٣) بعد تلك فرجا. وهكذا إن^(٤) أصابته نعمة بعد نقمة. ﴿لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أى: يقول: ما بقى ينالنى بعد هذا ضييم ولا سوء، ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أى: فرح بما فى يده، بطر فخور على غيره. قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أى: فى الشدائد والمكاره، ﴿وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: فى الرخاء والعاقبة، ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أى: بما يصيبهم من الضراء، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ بما أسلفوه فى زمن الرخاء، كما جاء فى الحديث: «والذى نفسى بيده، لا يصيب المؤمن هم ولا غم، ولا نصب ولا وصب، ولا حزن حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله عنه بها من خطاياها»^(٥)، وفى الصحيحين: «والذى نفسى بيده، لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته سراء فشكر كان^(٦) خيرا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له، وليس ذلك لأحد غير المؤمن»^(٨)، وهكذا قال الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا. إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا. وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا. إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ الآية [المعارج: ١٩ - ٢٢].

(١) صحيح مسلم برقم (١٥٣) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

(٢) فى ت: «يأس». (٣) فى ت، أ: «ولا يرجو».

(٤) فى ت: «إذا».

(٥) فى ت، أ: «ولا حزن إلا كفر الله بها من خطاياها حتى الشوكة يشاكها».

(٦) روى مسلم نحوه فى صحيحه من حديث أبى هريرة وأبى سعيد (٢٥٧٣) ومن حديث أبى هريرة وحده (٢٥٧٤).

(٧) فى ت: «فكان».

(٨) صحيح مسلم برقم (٢٩٩) بلفظ: «عجبا للمؤمن إن أمره كله خير» من حديث صهيب الرومى رضى الله عنه وليس فى صحيح البخارى.

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٤).

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ، عما كان يتعنت به المشركون، فيما كانوا يقولونه عن الرسول - كما أخبر تعالى عنهم -: ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ [الفرقان: ٧، ٨]. فأمر الله تعالى رسوله، صلوات الله تعالى وسلامه عليه، وأرشده إلى ألا يضيق بذلك منهم صدره، ولا يهيئته ذلك ولا يثنيته عن دعائهم إلى الله عز وجل آناء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ . وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٩]، وقال هاهنا: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا ﴾ أى: لقولهم ذلك، فإنما أنت نذير، ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك، فإنهم كذبوا وأودوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل.

ثم بين تعالى إعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله، ولا بعشر سور [من] (١) مثله، ولا بسورة من مثله؛ لأن كلام الرب لا يشبهه كلام المخلوقين، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات (٢)، وذاته لا يشبهها شيء، تعالى وتقدس وتنزه، لا إله إلا هو ولا رب سواه. ثم قال تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ أى: فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتهم (٣) إليه، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن هذا الكلام منزل من عند الله، متضمن (٤) علمه وأمره ونهيه، ﴿ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (٥).

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٦).

قال العوفي، عن ابن عباس، فى هذه الآية: إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم فى الدنيا، وذلك أنهم لا يظلمون نقيراً، يقول: من عمل صالحا التماس الدنيا، صوما أو صلاة أو تهجد بالليل، لا

(٣) فى ت، أ: «ما دعوتهم».

(٢) فى ت، أ: «المخلوقين».

(١) زيادة من ت.

(٥) فى ت: «وأنه».

(٤) فى ت: «متضمنا».

يعمله^(١) إلا التماس الدنيا، يقول الله: أوفيه الذى التمس فى الدنيا من المثابة، وحبط عمله الذى كان يعملُه التماس الدنيا، وهو فى الآخرة من الخاسرين.

وهكذا روى عن مجاهد، والضحاك، وغير واحد.

وقال أنس بن مالك، والحسن: نزلت فى اليهود والنصارى. وقال مجاهد وغيره: نزلت فى أهل الرِياء^(٢).

وقال قتادة: من كانت الدنيا همه وسدَمه^(٣) وطلَبته ونيتَه، جازاه الله بحسناته فى الدنيا، ثم يفضى إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء. وأما المؤمن فيجازى بحسناته فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة.

وقد ورد فى الحديث المرفوع نحو من هذا^(٤).

وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ^(٥) لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا. وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا. كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا. انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ١٨ - ٢١]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِّن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٧).

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التى فطر عليها عباده، من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتُ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ﴾ [الروم: ٣٠]، وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟»^(٦). وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار، عن رسول الله ﷺ

(١) فى ت: «لا يعلمه».

(٢) فى ت: «الرياء».

(٤) لعل الحافظ يقصد الحديث الذى رواه البزار والطبرانى من حديث أنس ولفظه: «من كانت الدنيا همه وسدَمه، ولها شخص وإياها ينوى، جعل الله الفقر بين عينيه وشتت عليه ضيعته، ولم يأت منها إلا ما كتب له منها، ومن كانت الآخرة همه وسدَمه، ولها شخص، وإياها ينوى، جعل الله عز وجل الغنى فى قلبه وجمع عليه ضيعته وأتته الدنيا وهى صاغرة». ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٤٦٥) عن أنس بأخصر من هذا، ورواه ابن ماجه فى السنن عن زيد بن ثابت مرفوعاً بنحوه.

(٥) فى ت: «ما يشاء».

(٦) صحيح البخارى برقم (١٣٨٥) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٨).

قال: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم»^(١). وفي المسند والسنن: «كل مولود يولد على هذه الملة، حتى يُعرب عنه لسانه»^(٢) الحديث، فالْمُؤْمِنُ باقٍ على هذه الفطرة.

[وقوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾] أى: وجاءه شاهد من الله، وهو ما أوحاه إلى الأنبياء، من الشرائع المطهرة المكملة المعظمة المختتمة بشريعة محمد، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. ولهذا قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو العالية، والضحاك، وإبراهيم النخعي، والسدي، وغير واحد في قوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ إنه جبريل عليه السلام.

وعن علي، والحسن، وقتادة: هو محمد ﷺ.

وكلاهما قريب في المعنى؛ لأن كلا من جبريل ومحمد، صلوات الله عليهما، بلغ رسالة الله تعالى، فجبريل إلى محمد، ومحمد إلى الأمة^(٤).

وقيل: هو علي. وهو ضعيف لا يثبت له قائل، والأول والثاني هو الحق؛ وذلك أن المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة، والتفاصيل تؤخذ من الشريعة، والفطرة تصدقها وتؤمن بها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَقَمْنِ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ وهو القرآن، بلغه جبريل إلى النبي [محمد] ﷺ، وبلغه النبي محمد إلى أمته.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾ أى: ومن قبل [هذا]^(٦) القرآن كتاب موسى، وهو التوراة، ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أى: أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماما لهم، وقدوة^(٧) يقتدون بها، ورحمة من الله بهم. فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.

ثم قال تعالى متوعدا لمن كذب بالقرآن أو بشيء منه: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ أى: ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركيهم: أهل^(٨) الكتاب وغيرهم، من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم، ممن بلغه القرآن، كما قال تعالى: ﴿لَا نُذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾. وفي صحيح مسلم، من حديث شعبة، عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن أبي موسى الأشعري، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسى بيده، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار»^(٩).

(١) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥).

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٣٥٣/٣) من طريق أبي جعفر عن الربيع بن أنس عن الحسن عن جابر به.

(٣) زيادة من ت، أ. (٤) فى أ: «أمته».

(٥) زيادة من ت، أ. (٦) زيادة من أ.

(٧) فى ت: «وقد». (٨) فى ت: «وأهل».

(٩) كذا، والحديث فى صحيح مسلم برقم (١٥٣) من حديث أبي هريرة، وإنما رواه بهذا السند الطبري فى تفسيره (٢٨١/١٥) وأحمد فى مسنده (٣٩٦/٤) وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨/٢٦١).

وقال أيوب السخيتاني، عن سعيد بن جبير قال: كنت لا أسمع بحديث عن رسول الله ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه - أو قال: تصديقه - في القرآن، فبلغني أن رسول الله ﷺ قال: «لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، ولا يهودى ولا نصرانى، فلا يؤمن بي إلا دخل النار». فجعلت أقول: أين مصداقه في كتاب الله؟ قال: «وقلما سمعت عن رسول الله ﷺ إلا وجدت له تصديقاً في القرآن، حتى وجدت هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾»، قال: «من الملل كلها»^(١).

قوله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أى: القرآن حق من الله، لا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى: ﴿الْأَمَّ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿الْأَمَّ . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ [هُدًى لِلْمُتَّقِينَ]﴾^(٢) [البقرة: ١، ٢].

وقوله: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَأِنْ تَطَّعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ (٢٢)﴾.

يبين تعالى حال المفترين عليه وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق؛ من الملائكة، والرسل، والأنبياء، وسائر البشر والجان، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا بهز وعفان قالا: أخبرنا همام، حدثنا قتادة، عن صفوان بن محرز قال: كنت آخذاً بيد ابن عمر، إذ عرض له رجل قال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل يدنى المؤمن، فيضع عليه كنفه، ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا»^(٣)؟ أتعرف ذنب كذا»^(٤)؟ أتعرف ذنب كذا»^(٥)؟ حتى إذا قرَّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: فإنني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم. ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول: ﴿الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٥/ ٢٨٠).

(٢) زيادة من ت، أ. (٣ - ٥) في أ: «كذا وكذا».

أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ .

أخرجه البخارى ومسلم فى الصحيحين، من حديث قتادة به^(١).

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أى: يردون الناس عن اتباع الحق وسلوك طريق^(٢) الهدى الموصلة إلى الله عز وجل ويجنبوهم^(٣) الجنة، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أى: ويريدون أن يكون طريقهم^(٤) عوجا غير معتدلة، ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أى: جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها.

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أى: بل كانوا تحت قهره وغلبته، وفى قبضته وسلطانه، وهو قادر على الانتقام منهم فى الدار الدنيا قبل الآخرة، ولكن ﴿يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وفى الصحيحين: «إن الله ليملى للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته»^(٥)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يُضَاعَفْ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ أى: يضاعف عليهم العذاب، وذلك لأن الله تعالى جعل لهم سمعا وأبصارا وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم [من شىء]^(٦)، بل كانوا صمًا عن سماع الحق، عميا عن اتباعه، كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]؛ ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه، وعلى كل نهى ارتكبهوه؛ ولهذا كان أصح الأقوال أنهم مكلفون بفروع الشرائع أمرها ونهيها بالنسبة إلى الدار الآخرة.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى: خسروا أنفسهم لأنهم دخلوا^(٧) نارا حامية، فهم معذبون فيها لا يفتر عنهم من عذابها طرفة عين، كما قال تعالى: ﴿كَلَّمَاهُمْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أى: ذهب عنهم ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من دون الله من الأنداد والأصنام، فلم تجد عنهم شيئا، بل ضرتهم كل الضرر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ^(٨) عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال الخليل لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ^(٩) الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمُ بَعْضًا وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمُ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَأَوْا الْعَذَابَ

(١) المسند (٧٤/٢) وصحيح البخارى برقم (٤٦٨٥) وصحيح مسلم برقم (١٧٦٨).

(٢) فى ت: «طرق». (٣) فى ت: «وبجبة». (٤) فى ت، أ: «طريق الحق».

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٦) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٣) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه.

(٦) زيادة من أ. (٧) فى ت: «أدخلوا». (٨) فى ت: «ويكونوا».

(٩) فى ت: «ويوم».

وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿[البقرة: ١٦٦]﴾؛ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسارهم^(١) ودمارهم؛ ولهذا قال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾. يخبر تعالى عن حالهم أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة؛ لأنهم استبدلوا بالدركات عن الدرجات، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم، وعن شرب الرحيق المختوم، بسموم وحميم، وظل من يحموم، وعن الحور العين بطعام من غسيلين، وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قرب الرحمن، ورؤيته بغضب الديان وعقوبته، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٣) ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٤).

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثبني بذكر السعداء، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فآمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولاً وفعلًا، من الإتيان بالطاعات وترك المنكرات، وبهذا ورثوا الجنات، المشتملة على الغرف العاليات، والسرر المصفوفات، والقطوف الدانيات، والفرش المرتفعات، والحسان الخيرات، والفواكه المتنوعات، والمأكّل المشتهيات^(٢)، والمشارب المستلذات، والنظر إلى خالق الأرض والسماوات، وهم في ذلك خالدون، لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون، وينامون^(٣) ولا يتغطّون، ولا يبصقون ولا يتمخضون، إن هو إلا رشح مسك يعرقون.

ثم ضرب [الله]^(٤) تعالى مثل الكافرين والمؤمنين، فقال: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أي: الذين وصفهم أولاً بالشقاء والمؤمنين السعداء، فأولئك كالأعمى والأصم، وهؤلاء كالبصير والسميع. فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا، وفي الآخرة لا يهتدى إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع الحجج، فلا^(٥) يسمع ما ينتفع به، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وأما المؤمن ففطن ذكي لبيب، بصير الحق، يميز^(٦) بينه وبين الباطل، فيتبع الخير ويترك الشر، سميع للحجة، يفرق بينها وبين الشبهة، فلا يروج^(٧) عليه باطل، فهل يستوي هذا وهذا.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تعتبرون وتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠] وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ. وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ. وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ. وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ. إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ. إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّن أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٤].

(٣) في ت، أ: «لا ينامون».

(٢) في ت: «المشهورات».

(١) في ت، أ: «خسارهم».

(٦) في ت: «يميز».

(٥) في ت، أ: «ولا».

(٤) زيادة من ت، أ.

(٧) في ت: «فلا يزوج».

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٢٥) ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٦) ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٢٧).

يخبر تعالى عن نوح، عليه السلام، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام أنه قال لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: ظاهر النذارة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله؛ ولهذا قال: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، وقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أى إن استمررتم على ما أنتم عليه عذبكم الله عذابا أليما موجعا شاقا فى الدار الآخرة.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾: والملا هم: السادة والكبراء من الكافرين منهم: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ أى: لست بملك، ولكنك بشر، فكيف أوحى إليك من دوننا؟ ثم ما نراك^(١) اتبعك إلا أراذلنا^(٢) كالباعة والحاقة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء [منا]^(٣)، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن ترو منهم ولا فكرة ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك^(٤)؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدِي الرَّأْيِ﴾ أى: فى أول بادئ الرأي، ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ يقولون: ما رأينا لكم علينا فضيلة فى خلق ولا خلق، ولا رزق ولا حال، لَمَّا دخلتم فى دينكم هذا، ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ أى: فيما تدعونهم^(٥) لكم من البر والصلاح والعبادة، والسعادة فى الدار الآخرة إذا صرتم إليها.

هذا اعتراض الكافرين على نوح، عليه السلام، وأتباعه، وذلك دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق ردالة من اتبعه، فإن الحق فى نفسه صحيح، وسواء اتبعه الأشراف أو الأراذل^(٦)، بل الحق الذى لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف، ولو كانوا فقراء، والذين يابونه هم الأراذل، ولو كانوا أغنياء. ثم الواقع غالبا أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفتهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ﴾^(٧) إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿[الزخرف: ٢٣]، ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي ﷺ، قال له فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل.

وقولهم^(٨): «بادئ الرأي» ليس بمذمة ولا عيب؛ لأن الحق إذا وضح لا يبقى للتروى^(٩) ولا للفكر مجال، بل لابد من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذى زكاء وذكاء، ولا يفكر ويتزوى هاهنا إلا عبي أو غبي^(١٠). والرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إنما جاؤوا بأمر جلى واضح. وقد

(٣) زيادة من ت، أ.

(٢) فى ت: «أراذلنا».

(١) فى ت، أ: «لا نراك».

(٦) فى ت، أ: «الأراذل».

(٥) فى ت: «تدعوهم»، وفى أ: «تدعونهم».

(٤) فى ت، أ: «واتبعوك».

(٩) فى ت: «للروى»، وفى أ: «للردى».

(٨) فى ت: «وقوله».

(٧) فى ت: «من نبى».

(١٠) فى ت، أ: «غنى».

جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كِبْوةٌ، غير أبى بكر، فإنه لم يتلّعثم»^(١) أى: ما تردد ولا تروى، لأنه رأى أمرا جليلا عظيما واضحا، فبادر إليه وسارع.

وقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ هم لا يرون ذلك؛ لأنهم عُمى عن الحق، لا يسمعون ولا يبصرون: بل هم فى ريبهم يترددون، فى ظلمات الجهل يعمهون، وهم الأفاكون الكاذبون، الأقلون الأرذلون، وفى الآخرة هم الأخسرون.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ (٢٨).

يقول تعالى مخبراً عن نوح ما ردَّ على قومه فى ذلك: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أى: على يقين وأمر جلى، ونبوة صادقة، وهى الرحمة العظيمة من الله به وبهم، ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أى: خفيت عليكم، فلم تهتدوا إليها، ولا عرفتم قدرها، بل بادرتم إلى تكذيبها وردّها، ﴿أَنُلْزِمُكُمْوهَا﴾ أى: نَغْضِبْكُمْ^(٢) بقبولها وأنتم لها كارهون.

﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣٠).

يقول لقومه: لا أسألكم على نصحى [لكم]^(٣) مالا؛ أجرة آخذها منكم، إنما أبتغى الأجر من الله عز وجل، ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه، احتشاما ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم، كما سأل أمثالهم خاتم^(٤) الرسل ﷺ أن يطرد عنهم^(٥) جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلسا خاصا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢]، ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣١).

(٢) فى ت: «نغضبكم».

(٥) فى ت: «عنه».

(١) ذكره المؤلف فى البداية والنهاية (٢٧/٣) عن ابن إسحاق وهو منقطع.

(٤) فى ت: «لخاتم».

(٣) زيادة من ت، أ.

يخبرهم أنه رسول من الله، يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، بإذن الله له في ذلك، ولا يسألهم على ذلك أجراً، بل هو يدعو من لقيه من شريف ووضيع، فمن استجاب له فقد نجا. ويخبرهم^(١) أنه لا يقدر على التصرف في خزائن الله، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، وليس هو بملك من الملائكة، بل بشر مرسل، مؤيد بالمعجزات. ولا أقول عن هؤلاء الذين تحتقرونهم وتزدرونهم^(٢): إنه^(٣) ليس لهم عند الله ثواب على إيمانهم الله أعلم بما في أنفسهم، فإن كانوا مؤمنين باطناً، كما هو الظاهر من حالهم، فلهم جزاء الحسنی، ولو قطع لهم أحد بشر بعد ما آمنوا، لكان ظالماً قاتلاً ما لا أعلم له به.

﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه وسخطه، والبلاء موكل بالمنطق: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ أى: حاججتنا فأكثر من ذلك، ونحن لا نتبعك ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ أى: من النعمة والعذاب، ادع علينا بما شئت، فليأتنا ما تدعو به^(٤)، ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أى: إنما الذى يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذى لا يعجزه شيء، ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ أى: أى شيء يجدى عليكم إبلاعى لكم وإنذارى إياكم ونصحى، إن كان الله يريد إغواءكم ودماركم، ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى: هو مالك أزمة الأمور، والمتصرف^(٥) الحاكم العادل الذى لا يجور، له الخلق وله الأمر، وهو المبدئ المعيد، مالك الدنيا والآخرة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥)﴾.

هذا كلام معترض فى وسط هذه القصة، يؤكد لها ومقرر بشأنها^(٦). يقول تعالى لمحمد^(٧) ﷺ: أم يقول^(٨) هؤلاء الكافرون الجاحدون: افترى هذا وافتعله من عنده ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ أى: فأثم ذلك على، ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أى: ليس ذلك مفتعلاً، ولا مفترى^(٩)، لأنى أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه.

﴿وَأَوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا

(١) فى ت: «وتخبرهم».

(٢) فى ت، أ: «يحتقرونهم ويزدرونهم».

(٣) فى أ: «إنهم».

(٤) فى ت: «من تدعونه»، وفى أ: «بدعوته».

(٥) فى ت: «المتصرف».

(٦) فى ت: «لشأنها».

(٨) فى ت: «أم يقولون».

(٩) فى ت، أ: «لنبية».

(٩) فى ت: «مفترياً».

يَفْعَلُونَ (٣٦) وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) ﴿٣٩﴾ .

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نعمة الله بهم وعذابه لهم، فدعا عليهم نوح دعوته التي قال الله تعالى^(١) مخبراً عنه أنه قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، فعند ذلك أوحى الله تعالى إليه: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾، فلا تحزن عليهم ولا يهَمِّكَ أمرهم.

﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ يعنى: السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أى: بمرأى منا، ﴿وَوَحِّينَا﴾ أى: وتعليمنا لك ماذا تصنعه، ﴿وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾.

فقال بعض السلف: أمره الله تعالى أن يغرز^(٢) الخشب ويقطعه ويبيسه، فكان ذلك فى مائة سنة، ونَجَرَهَا فى مائة سنة أخرى، وقيل: فى أربعين سنة، فالله^(٣) أعلم.

وذكر محمد بن إسحاق عن التوراة: أن الله أمره أن يصنعها من خشب الساج، وأن يجعل طولها ثمانين ذراعاً وعرضها خمسين ذراعاً.

وأن يطلى باطنها وظاهرها بالقار، وأن يجعل لها جُؤجؤاً أزور يشق الماء. وقال قتادة: كان طولها ثلاثمائة ذراع، فى عرض خمسين.

وعن الحسن: طولها ستمائة ذراع وعرضها ثلاثمائة ذراع.

وعنه مع ابن عباس: طولها ألف ومائتا ذراع، فى عرض ستمائة.

وقيل: طولها ألفا ذراع، وعرضها مائة ذراع، فالله أعلم.

قالوا كلهم: وكان ارتفاعها فى السماء ثلاثين ذراعاً، ثلاث طبقات، كل طبقة عشرة أذرع، فالسفلى للدواب والوحوش: والوسطى للإنس: والعليا للطيور. وكان بابها فى عرضها، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها.

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير أثراً غريباً، من حديث على بن زيد بن جُدعان، عن يوسف ابن مهران، عن عبد الله بن عباس؛ أنه قال: قال الحواريون لعيسى ابن مريم: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة فحدّثنا عنها. قال: فانطلق بهم حتى أتى^(٤) إلى كَثِيب من تراب، فأخذ كفاً من ذلك التراب بكفه، قال^(٥): أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا كعب^(٦) حام بن نوح. قال: وضرب الكَثِيب بعصاه، قال: قم ياذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه، قد شاب. قال له

(٣) فى ت: «والله».

(٢) فى أ: «يغرس».

(١) فى أ: «عز وجل».

(٦) فى أ: «قبر».

(٥) فى أ: «فقال».

(٤) فى ت، أ: «انتهى».

عيسى، عليه السلام: هكذا هلكت؟ قال: لا. ولكنى متّ وأنا شابّ، ولكننى ظننت أنها الساعة، فمن ثمّ شئت. قال: حدثنا عن سفينة نوح؟ قال: كان طولها ألف ذراع ومائتى^(١) ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات، طبقة فيها الدواب والوحش، وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطير، فلما كثر أرواث الدواب، أوحى الله عز وجل إلى نوح، عليه السلام، أن اغمر ذنّب الفيل، فغمزه، فوقع منه خنزير وخنزيرة، فأقبلا على الروث، فلما وقع الفأر بخرّ السفينة يقرضه وحبالها، أوحى إلى نوح؛ أن اضرب بين عيني الأسد، فخرج من منخره سنّور وسنورة، فأقبلا على الفأر. فقال له عيسى، عليه السلام: كيف علم نوح أن البلاد قد غرقت؟ قال: بعث الغراب يأتيه بالخبر، فوجد جيفة فوق عليهما، فدعا عليه بالخوف، فلذلك لا يألف البيوت قال: ثم بعث الحمامة، فجاءت بورق زيتون بمنقارها، وطين برجليها، فعلم أن البلاد قد غرقت. قال: فطوّقها الخضرة التى فى عنقها، ودعا لها أن تكون فى أنس وأمان، فمن ثم تألف البيوت. قال: فقلنا: يا رسول الله، ألا ننتقل به^(٢) إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا؟ قال: كيف يتبعكم من لا رزق له؟ قال: فقال له: عد بإذن الله، فعاد ترابا^(٣).

وقوله: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ أى: يَطْنُون به ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق، ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾. فسوف تعلمون، وعيد شديد، وتهديد أكيد، ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أى: يهينه فى الدنيا، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أى: دائم مستمر أبداً.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٤٠).

هذه مواعدة من الله تعالى لنوح، عليه السلام، إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة، والهتان الذى لا يُقْلَع ولا يَفْتَر، بل هو كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ . وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ مَوْسُورٍ . تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١١ - ١٤].

وأما قوله: ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾، فعن ابن عباس: التنور: وجه الأرض، أى: صارت الأرض عيونا تفور، حتى فار الماء من التناير التى هى مكان النار، صارت تفور ماء، وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف.

وعن على بن أبى طالب، رضى الله عنه: التنور: فلق الصبح، وتنوير الفجر، وهو ضياؤه وإشراقه.

(١) فى أ: «ومائتا». (٢) فى أ: «بنا».

(٣) تفسير الطبرى (٣١١/١٥).

والأول أظهر.

وقال مجاهد والشعبي: كان هذا التنور بالكوفة، وعن ابن عباس: عين بالهند. وعن قتادة: عين بالجزيرة، يقال لها: عين الوردية. وهذه أقوال غريبة.

فحينئذ أمر الله نوحاً، عليه السلام، أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين - من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، قيل: وغيرها من النباتات - اثنين. ذكراً وأنثى، فقليل: كان أول من أدخل من الطيور الدرة، وآخر من أدخل من الحيوانات الحمار، فدخل إبليس متعلقاً بذنبه، فدخل بيده^(١)، وجعل يريد أن ينهض فيثقله إبليس وهو متعلق بذنبه، فجعل يقول له نوح: مالك؟ ويحك. ادخل. فينهض ولا يقدر، فقال: ادخل وإن كان إبليس معك فدخل في السفينة.

وذكر أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود أنهم لم يستطيعوا أن يحملوا معهم الأسد، حتى ألقيت عليه الحمى.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث، حدثني الليث، حدثني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم. عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «لما حمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين، قال أصحابه: وكيف يطمئن أو: تطمئن - المواشى ومعها^(٢) الأسد؟ فسلط الله عليه الحمى، فكانت أول حمى نزلت الأرض، ثم شكوا الفأرة فقالوا: الفؤيسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا. فأوحى الله إلى الأسد، فعطس، فخرجت الهرة منه، فتخبأت الفأرة منها^(٣).

وقوله: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أى: «واحمل فيها أهلك، وهم أهل بيته وقربته» إلا من سبق عليه القول منهم، ممن لم يؤمن بالله، فكان منهم ابنه «يام» الذى انعزل وحده، وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله.

وقوله: ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ أى: من قومك، ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أى: نَزَرَ^(٤) يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فعن ابن عباس: كانوا ثمانين نفساً منهم^(٥) نساؤهم. وعن كعب الأحبار: كانوا اثنين وسبعين نفساً. وقيل: كانوا عشرة. وقيل: إنما كانوا نوح وبنوه^(٦) الثلاثة سام، وحام، ويافث، وكنائنه الأربع نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة يام. وقيل: بل امرأة نوح كانت

(١) فى ت: «بيده».

(٢) فى ت: «ومعنا».

(٣) وهذا مرسل، وقد ورد فى سفينة نوح غير ما ذكره الحافظ وأكثرها من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. قال ابن حبان: «كان ممن يقلب الأخبار حتى كثر ذلك فى روايته من رفع المراسيل وإسناد الموقوف، فاستحق الترك». وما رواه فى شأن سفينة نوح ما أورده ابن حجر فى التهذيب (١٧٩/٦) عن الساجى قال: حدثنا الربيع، حدثنا الشافعى قال: قيل لعبد الرحمن بن زيد: حدثك أبوك عن جدك أن رسول الله ﷺ قال: «إن سفينة نوح طافت بالبيت وصلت خلف المقام ركعتين!!» قال: نعم. وقد ذكر رجل لمالك حديثاً منقطعاً، فقال: اذهب إلى عبد الرحمن بن زيد يحدثك عن أبيه عن نوح!! وانظر كتاب: الإسرائيليات فى كتب التفسير لمحمد أبو شعبة (ص ٢١٨).

(٤) فى ت، أ: «نفر».

(٥) فى أ: «معهم».

(٦) فى أ: «إنما كان وبنوه».

معهم فى السفينة، وهذا فيه نظرٌ، بل الظاهر أنها هلكت؛ لأنها كانت على دين قومها، فأصابها ما أصابهم، كما أصاب امرأة لوط ما أصاب قومها، والله أعلم وأحكم.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤١) **وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ** (٤٢) **قَالَ سَاءَ أَوَى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمَغْرِقِينَ﴾ (٤٣).**

يقول تعالى إخباراً عن نوح، عليه السلام، أنه قال للذين أمر بحملهم معه فى السفينة: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ أى: باسم الله يكون جريها على وجه الماء، وباسم الله يكون منتهى سيرها، وهو رؤسوها.

وقرأ أبو رجاء العطاردي: «بِسْمِ اللَّهِ مُجْرِيهَا وَمُرْسِيهَا».

وقال الله تعالى^(١): ﴿فَإِذَا^(٢) اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَقُلْ رَبِّ أُنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨، ٢٩]؛ ولهذا تستحب التسمية فى ابتداء الأمور: عند الركوب على السفينة وعلى الدابة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ . لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤]، وجاءت السنة بالحث على ذلك، والندب إليه، كما سيأتى فى سورة «الزخرف»، إن شاء الله وبه الثقة.

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا إبراهيم بن هاشم البغوى، حدثنا محمد بن أبى بكر المقدمى - وحدثنا زكريا بن يحيى الساجى، حدثنا محمد بن موسى الحرشى - قالوا: حدثنا عبد الحميد بن الحسن الهلالى، عن نهشل بن سعيد، عن الضحاك، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: «أمان أمتى من الغرق إذا ركبوا فى السفن أن يقولوا: بسم الله الملك، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣).

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، مناسب عند^(٤) ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين ذكر أنه غفور رحيم، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، إلى غير ذلك من الآيات التى

(١) فى أ: «عز وجل».

(٢) فى ت، «وإذا» وهو خطأ.

(٣) المعجم الكبير (١٢/١٢٤) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/١٣٢): «فيه نهشل بن سعيد وهو متروك».

(٤) فى ت، أ: «عندما».

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، إلى غير ذلك من الآيات التى يقرن فيها بين انتقامه ورحمته.

وقوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ أى: السفينة سائرة بهم على وجه الماء، الذى قد طَبَّقَ^(١) جميع الأرض، حتى طفت^(٢) على رؤوس الجبال، وارتفع عليها بخمسة عشرة ذراعاً، وقيل: بثمانين ميلاً، وهذه السفينة على وجه الماء سائرة بإذن الله وتحت كَنَفِهِ وعنايته^(٣)، وحراسته وامتنانه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ. لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ. تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفْرًا. وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٣ - ١٥].

وقوله: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ هذا هو الابن الرابع، واسمه «يَام»، وكان كافراً، دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون، ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾. وقيل: إنه اتخذ له مركباً من زُجَاجٍ، وهذا من الإسرائيليات، والله أعلم بصحته. والذى نص عليه القرآن أنه قال: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾، اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال، وأنه لو تعلق فى رأس جبل لنجّاه ذلك من الغرق، فقال له أبوه نوح، عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ أى: ليس شىء يعصم اليوم من أمر الله. وقيل: إن عاصماً بمعنى معصوم، كما يقال: «طاعم وكاس»، بمعنى مطعموم ومكسوّ، ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمَغْرُقِينَ﴾.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٤).

يخبر تعالى أنه لما غرق^(٤) أهل الأرض إلا أصحاب السفينة، أمر^(٥) الأرض أن تبلع ماءها الذى نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تَقْلَعَ عن المطر، ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ أى: شرَعَ فى النقص، ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أى: فُرِغَ من أهل الأرض قاطبة، ممن كفر بالله، لم يبق منهم ديار، ﴿وَاسْتَوَتْ﴾ السفينة بمن فيها ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾. قال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة، تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتناولت، وتواضع هو لله عز وجل، فلم يغرق، وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام.

وقال قتادة: استوت عليه شهراً حتى نزلوا منها، قال قتادة: قد أبقي^(٦) الله سفينة نوح، عليه السلام، على الجودي من أرض الجزيرة عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة قد

(١) فى ت: «طبق به».

(٢) فى أ: «طفف».

(٣) فى ت: «ورعايته»، وفى أ: «ورعايته».

(٤) فى ت، أ: «اغرق».

(٥) فى ت، أ: «أنه أمر».

(٦) فى ت، أ: «أبقى».

كانت بعدها فهلكت، وصارت رماداً^(١).

وقال الضحاك: الجُودى: جبل بالموصل: وقال بعضهم: هو الطور.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عمرو بن رافع، حدثنا محمد بن عبيد، عن توبة^(٢) بن سالم قال: رأيت زراً بن حُبَيْش يصلى فى الزاوية حين يُدخل من أبواب كِنْدَةَ على يمينك، فسألته إنك لكثير^(٣) الصلاة هاهنا يوم الجمعة: قال: بلغنى أن سفينة نوح أُرْسَتْ من هاهنا.

وقال عِلباء بن أحمد، عن عِكْرَمَةَ، عن ابن عباس قال: كان مع نوح فى السفينة ثمانون رجلاً، معهم أهلوههم، وإنهم كانوا فى السفينة مائة وخمسين يوماً، وإن الله وجّه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوماً، ثم وجهها الله إلى الجُودى فاستقرت عليه، فبعث نوح الغراب ليأتيه بخبر الأرض، فذهب فوقع على الجيف فأبطأ عليه فبعث الحمامة فاتته بورق الزيتون، ولطخت رجلها بالطين، فعرف نوح، عليه السلام، أن الماء قد نضب، فهبط إلى أسفل الجُودى، فابتنى قرية وسماها ثمانين، فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة، إحداها اللسان^(٤) العربى. فكان بعضهم لا يفقه كلام بعض، وكان نوح عليه السلام يُعَبِّرُ عنهم.

وقال كعب الأحبار: إن السفينة طافت ما بين المشرق والمغرب قبل أن تستقر على الجودى.

وقال قتادة وغيره: ركبوا فى عاشر شهر رجب فساروا مائة وخمسين واستقرت بهم على الجودى شهراً، وكان خروجهم من السفينة فى يوم عاشوراء من المحرم. وقد ورد نحو هذا فى حديث مرفوع رواه ابن جرير^(٥). وأنهم صاموا يومهم ذاك^(٦)، فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو جعفر، حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدي، عن أبيه حبيب بن عبد الله، عن شَيْل، عن أبى هريرة قال: مر النبى ﷺ بأناس من اليهود، وقد صاموا يوم عاشوراء، فقال: ما هذا الصوم؟ قالوا: هذا اليوم الذى نحبى الله موسى وبني إسرائيل من الغرق، وغرق فيه فرعون، وهذا يوم استوت^(٧) فيه السفينة على الجُودى، فصامه^(٨) نوح وموسى، عليهما السلام، شكراً لله عز وجل. فقال النبى ﷺ: «أنا أحق بموسى، وأحق بصوم هذا اليوم». فصام، وقال لأصحابه: «من كان أصبح منكم صائماً فليتم صومه، ومن كان أصاب من غداء أهله، فليتم بقية يومه»^(٩).

وهذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه، ولبعضه شاهدٌ فى الصحيح^(١٠).

(١) فى ت: «مداداً».

(٢) فى ت، أ: «تربة».

(٣) فى أ: «لكثير».

(٤) فى ت: «لسان».

(٥) تفسير الطبرى (٣٣٥/١٥) وهو موضوع.

(٦) فى أ: «ذلك».

(٧) فى ت، أ: «استقرت».

(٨) فى ت، أ: «فصام».

(٩) المسند (٣٥٩/٢).

(١٠) فى صحيح البخارى برقم (٤٦٨٠) من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: قدم النبى ﷺ المدينة واليهود تصوم عاشوراء، فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، فقال النبى ﷺ لأصحابه: «أنتم أحق بموسى منهم، فصوموا».

وقوله: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أى: هلاكاً وخساراً^(١) لهم، وبعداً^(٢) من رحمة الله، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم، فلم يبق لهم بقية.

وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير والخبر أبو محمد بن أبى حاتم فى تفسيريهما^(٣)، من حديث موسى بن يعقوب^(٤) الزمعى، عن قائد - مولى عبيد الله بن أبى رافع - أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبى ربيعة أخبره: أن عائشة زوج النبى ﷺ أخبرته: أن النبى ﷺ قال: «لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبى»، قال رسول الله ﷺ: «كان نوح، عليه السلام، مكث فى قومه ألف سنة [إلا خمسين عاماً]^(٥)، يعنى وغرس مائة سنة الشجر، فعظمت وذهبت كل مذهب، ثم قطعها، ثم جعلها سفينة ويمرون عليه ويسخرون منه ويقولون: تعمل^(٦) سفينة فى البرّ، فكيف تجرى؟ قال: سوف تعلمون. فلما فرغ ونبّع الماء، وصار فى السكك خشب أم الصبى عليه، وكانت تحبه حباً شديداً، فخرجت إلى الجبل، حتى بلغت ثلثه^(٧)، فلما بلغها الماء [ارتفعت حتى بلغت ثلثيه، فلما بلغها الماء]^(٨) خرجت به حتى استوت على الجبل، فلما بلغ رقبتهما رفعته بيديها فغرقا فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبى^(٩).

وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وقد روى عن كعب الأحبار، ومجاهد بن جبر قصة هذا الصبى وأمه بنحو من هذا.

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧).

هذا سؤال استعلام وكشف من نوح، عليه السلام، عن حال ولده الذى غرق، ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أى: وقد وعدتني بنجاة أهلى، ووعدك الحق الذى لا يخلف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين؟ ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أى: الذين وعدت إنجاءهم^(١٠)؛ لاني^(١١) إنما وعدتك^(١٢) بنجاة من آمن من أهلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠]، فكان هذا الولد

(١) فى ت، أ: «هلاك وخسار». (٢) فى ت، أ: «وبعد».

(٣) فى ت، أ: «تفسيرهما». (٤) فى ت، أ: «يعقوب بن موسى». (٥) زيادة من الدر المنثور. مستفاد من ط. الشعب.

(٦) فى ت: «يعمل». (٧) فى ت، أ: «قتله». (٨) زيادة من الدر المنثور. مستفاد من ط. الشعب.

(٩) تفسير الطبرى (١٥/ ٣١٠) ورواه الحاكم فى المستدرک (٢/ ٣٤٢) من طريق سعيد بن أبى مريم عن موسى بن يعقوب به نحوه، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبى قلت: «إسناده مظلم وموسى بن يعقوب ليس بذاك».

(١٠) فى أ: «نجاتهم». (١١) فى ت: «الذين أى: ليس من أهلك وعدت بنجاتهم لانما».

(١٢) فى ت، أ: «وعدناك».

مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ بِالْغَرَقِ لِكُفْرِهِ وَمَخَالَفَتِهِ أَبَاهُ نَبِيَّ اللَّهِ نُوحًا، عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه، وإنما كان ابن زينة^(١)، ويحكي القول بأنه ليس بابنه، وإنما كان ابن امرأته عن مجاهد، والحسن، وعبيد بن عمير، وأبي جعفر الباقر، وابن جريج، واحتج بعضهم بقوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، وبقوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحریم: ١٠]، فممن قاله الحسن البصري، احتج بهاتين الآيتين. وبعضهم يقول: كان ابن امرأته. وهذا يحتمل^(٢) أن يكون أراد ما أراد الحسن، أو أراد أنه نسب إليه مجازاً، لكونه كان ربيباً عنده، فالله أعلم.

وقال ابن عباس، وغير واحد من السلف: ما زنت امرأة نبي قط، قال: وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: الذين وعدتك نجاتهم^(٣).

وقول ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه، فإن الله سبحانه^(٤) أغير من أن يمكن^(٥) امرأة نبي من الفاحشة^(٦)، ولهذا غضب الله على الذين رموا أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج النبي ﷺ^(٧)، وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١ - ١٥].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة وغيره، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنية. قال عكرمة: في بعض الحروف: «إنه عمل عملاً غير صالح»، والخيانة تكون على غير باب.

وقد ورد في الحديث أن رسول الله قرأ بذلك، فقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد قالت، سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: «إنه عمل غير صالح»، وسمعت يقول^(٨): ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ولا يبالى ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]^(٩).

وقال أحمد أيضاً: حدثنا وكيع، حدثنا هارون النحوي، عن ثابت البناني، عن شهر بن حوشب، عن أم سلمة أن رسول الله قرأها: «إنه عمل غير صالح»^(١٠). أعاده أحمد أيضاً في مسنده^(١١).

(١) في ت، أ: «ليس منك إنما هو ولد زينة».

(٢) في ت: «محتمل».

(٣) في ت: «بنجاتهم».

(٤) في ت: «تعالى».

(٦) في ت: «هذه الفاحشة».

(٥) في ت: «يمكن من».

(٧) في أ: «زوج النبي ﷺ بالفاحشة».

(٨) في ت: «يقراً».

(٩) المسند (٤٥٤/٦).

(١٠) المسند (٢٩٤/٦).

(١١) المسند (٣٢٢/٦).

أم سلمة هي^(١) أم المؤمنين، والظاهر - والله أعلم - أنها أسماء^(٢) بنت يزيد، فإنها تكنى بذلك أيضاً^(٣).

وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا الثوري وابن عيينة، عن موسى بن أبي عائشة، عن سليمان بن قتة قال: سمعت ابن عباس - سئل - وهو إلى جنب الكعبة - عن قول الله: ﴿فَخَانَتْهُمَا﴾ [التحریم: ١٠]، قال: أما وإنه لم يكن بالزنا، ولكن كانت هذه تخبر الناس أنه مجنون، وكانت هذه تدل على الأضياف. ثم قرأ: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾: قال ابن عيينة: وأخبرني عمار الدهني^(٤) أنه سأل سعيد ابن جبیر عن ذلك فقال: كان ابن نوح، إن الله لا يكذب! قال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحُ ابْنَهُ﴾، قال: وقال بعض العلماء: ما فجرت امرأة نبي قط^(٥).

وكذا روى عن مجاهد أيضاً، وعكرمة، والضحاك، وميمون بن مهران وثابت بن الحجاج، وهو اختيار أبي جعفر بن جرير، وهو الصواب [الذي]^(٦) لا شك فيه. [وقوله]^(٧):

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤٨).

يخبر تعالى عما قيل لنوح، عليه السلام، حين أرست السفينة على الجودي، من السلام عليه، وعلى من معه من المؤمنين، وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة، كما قال محمد بن كعب: دخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وكذلك في العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة.

وقال محمد بن إسحاق: ولما أراد أن يكف^(٨) الطوفان أرسل ريحا على وجه الأرض، فسكن الماء، وانسدت ينابيع الأرض الغمر الأكبر^(٩) وأبواب السماء، يقول الله تعالى^(١٠): ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي

(١) في ت، أ: «هند».

(٢) في ت: «إنما هي أسماء».

(٣) قال الطبري في تفسيره (٣٤٨/١٥): «ولا نعلم هذه القراءة قرأ بها أحد من قرأة الأمصار إلا بعض المتأخرين، واعتل في ذلك بخبر روى عن رسول الله ﷺ أنه قرأ ذلك كذلك، غير صحيح السند، وذلك حديث روى عن شهر بن حوشب، فمرة يقول: عن أم سلمة، ومرة يقول عن أسماء بنت يزيد. ولا نعلم أبت يزيد يريد؟ ولا نعلم لشهر سماعاً يصح عن أم سلمة». وانظر: حاشية الأستاذ محمود شاكر عليه فقد أفاد وأجاد.

(٤) في ت: «الذهبي».

(٥) رواه الطبري في تفسيره (٣٤٣/١٥).

(٦) زيادة من ت، أ.

(٧) زيادة من ت.

(٨) في ت: «يكف ذلك».

(٩) قال الأستاذ محمود شاكر في حاشيته على الطبري (٢٣٩/١٥): «هكذا في المخطوطة والمطبوعة: «الغمر الأكبر». وأنا أرجح أنه خطأ محض، وأن الصواب: «الغوط الأكبر» وبهذا اللفظ رواه صاحب اللسان في مادة (غوط)».

(١٠) في ت، أ: «يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ».

مَاءَكَ [وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ] ^(١) فجعل الماء ينقص ويغيض ويذبر، وكان استواء الفلك على الجودي، فيما يزعم أهل التوراة، في الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه، وفي أول يوم من الشهر العاشر، رُئِيَ رؤوس الجبال. فلما مضى بعد ذلك أربعون يوماً، فتح نوح كُوةَ الْفُلْكِ التي ركب ^(٢) فيها، ثم أرسل الغراب لينظر له ما صنع الماء، فلم يرجع إليه. فأرسل الحمامة فرجعت إليه، لم تجد لرجلها موضعاً، فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها. ثم مضى ^(٣) سبعة أيام، ثم أرسلها لتنظر له، فرجعت حين أمست، وفي فيها ورق زيتون ^(٤)، فعلم نوح أن الماء قد قَلَّ عن وجه الأرض. ثم مكث سبعة أيام، فلم ترجع، فعلم نوح أن الأرض قد بَرَزَتْ، فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة، ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنتين، برز وجه الأرض، وظهر اليبس ^(٥)، وكشف نوح غطاء الفلك ورأى وجه الأرض، وفي الشهر الثاني من سنة اثنتين، في سبع وعشرين ليلة منه ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا [وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ] ^(٦)﴾ [إلى آخره] ^(٧) الآية ^(٨).

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ^(٩) (٤٩).

يقول تعالى لنبيه [ورسوله محمد] ^(٩) ﷺ ^(١٠). هذه القصص وأشباهها ^(١١) ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ يعني: من أخبار الغيوب السالفة نوحها إليك على وجهها [وجليتها] ^(١٢)، كأنك شاهدها ^(١٣)، ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾، أي: نعلمك بها وحياً ^(١٤) منا إليك، ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أي: لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها، حتى يقول من يكذبك: إنك تعلمتها ^(١٥) منه، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك، فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك، وأذاهم لك، فإننا سننصرك ^(١٦) ونحوطك بعنايتنا، ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، كما فعلنا [بإخوانك] ^(١٧) بالمرسلين ^(١٨) حيث نصرناهم على أعدائهم، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمْ

(١) زيادة من ت، أ، وفي هـ: «الآية».

(٢) في ت، أ: «مضت».

(٣) في ت، أ: «مضت».

(٤) في ت، أ: «زيتونة».

(٥) في ت، أ: «زيتونة».

(٦) زيادة من ت، أ.

(٧) زيادة من ت، أ.

(٨) تفسير الطبري (٣٣٨/١٥).

(٩) زيادة من ت، أ.

(١٠) في أ: «صلوات الله وسلامه عليه»، (١١) في ت: «وما أشبهها».

(١٢) في ت: «مشاهد لها».

(١٣) في ت: «بوحى».

(١٤) في ت: «سنؤيدك: ونبصرك»، وفي أ: «فلما سنؤيدك».

(١٥) في ت، أ: «من المرسلين».

اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ^(١) ﴿٥١﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ . وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(٢) [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .

﴿وَالِىَ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾^(٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾^(٥٢) .

يقول تعالى: ولقد أرسلنا ، ﴿إِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أمرا لهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ناهيا لهم^(٣) عن [عبادة]^(٤) الأوثان التى افتروها واختلقوا لها أسماء الآلهة، وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجره على هذا النصح والبلاغ من الله، إنما يبغي ثوابه [على ذلك وأجره]^(٥) من الله الذى فطره ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ من يدعوكم إلى ما يصلحكم فى الدنيا والآخرة من غير أجره^(٦) .

ثم أمرهم بالاستغفار الذى فيه تكفير الذنوب السالفة، وبالتوبة عما يستقبلون [من الأعمال السابقة]^(٧)، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه، وسهل عليه أمره وحفظ [عليه]^(٨) شأنه [وقوته]^(٩)؛ ولهذا قال: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [نوح: ١١]، و[كما جاء]^(١٠) وفى الحديث: «من لزم^(١١) الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب» .

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٥٦) .

يخبر^(١٢) تعالى [إخباراً عن قوم هود]^(١٣) أَنَّهُمْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أى: بحجة [ولا دلالة]^(١٤) [ولا]^(١٥) وبرهان على ما تدعيه، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ أى: بمجرد قولك: «اتركوهم» نتركهم، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [أى]^(١٦): بمصدقين، ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ ، يقولون: ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبل فى عقلك بسبب نهيك عن

(١، ٢) زيادة من ت، أ، وفى هـ: «الآية» .

(٣) فى ت، أ: «ونهاهم» .

(٤) فى ت، أ: «من غير جعل ولا أجر» .

(٥، ٤) زيادة من ت، أ .

(٦- ١٠) زيادة من ت، أ .

(١٢) فى ت، أ: «يقول» .

(١٣- ١٦) زيادة من ت، أ .

عبادتها وعيبك لها ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُكُمْ﴾ ، [أى أنتم أيضاً] ^(١) ﴿أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ^(٢) . مِنْ دُونِهِ ، يقول: إني برىء من جميع الأنداد والأصنام ، ﴿فَكَيْدُونِي جَمِيعًا﴾ أى: أنتم وآلهتكم إن كانت حقا ، [ف ذروها تكيدنى] ^(٣) ، ﴿ثُمَّ لَا تَنْظُرُونَ﴾ أى: طرفة عين [واحدة] ^(٤) .

وقوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أى: [هى] ^(٥) تحت قهره وسلطانه، وهو الحاكم العادل الذى لا يجور فى حكمه، فإنه على صراط مستقيم.

قال الوليد بن مسلم، عن صفوان بن عمرو ^(٦) ، عن أئف بن عبد الكلاعى أنه قال فى قوله تعالى: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ، قال: فيأخذ بنواصى عباده فيلقى المؤمن ^(٧) حتى يكون له ^(٨) أشفق من الوالد لولده ^(٩) ، ويقال للكافر: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦].

وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التى لا تنفع ولا تضر، بل هى جماد لا تسمع ولا تبصر، ولا توالى ولا تُعَادى، وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له، الذى بيده الملك، وله التصرف، وما من شىء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) ﴿

يقول لهم [رسولهم] ^(١٠) هود: فإن تولوا عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له، فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغى إياكم رسالة الله التى بعثنى بها، ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يعبدونه وحده لا يشركون به [شيئاً] ^(١٢) ولا يبالى بكم: فإنكم لا تضرونه بكفركم بل ^(١٣) يعود وبأل ذلك عليكم، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ أى: شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ويجزيهم ^(١٤) عليها إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

(٢) فى ت: «تدعون» وهو خطأ.

(١) زيادة من ت، أ.

(٧) فى ت: «للمؤمن».

(٦) فى أ: «محرز».

(٣ - ٥) زيادة من ت، أ.

(١٠) زيادة من ت، أ.

(٩) فى ت: «بولده».

(٨) فى ت: «لهم».

(١٣) فى ت، أ: «وكفركم وإنما».

(١٢) زيادة من ت، أ.

(١١) فى ت، أ: «الله» وهو خطأ.

(١٤) فى ت: «وتجزئهم».

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾، وهو [ما أرسل الله عليهم من] ^(١) الريح العقيم [التي لا تمر بشيء إلا جعلته كالرميم] ^(٢)، فأهلكهم الله عن آخرهم، ونجى [من بينهم رسولهم] ^(٣) هودا وأتباعه [المؤمنين] ^(٤) من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ [أى] ^(٥): كفروا بها، وعَصَوْا رسل الله، وذلك أن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء، لأنه لا فرق بين أحد منهم في وجوب الإيمان به، فعاد كفروا بهود، فنزل كفرهم [به] ^(٦) منزلة من كفر بجميع الرسل، ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، تركوا اتباع رسولهم الرشيد، واتبعوا أمر كل جبار عنيد. فلهذا اتبعوا في هذه الدنيا لعنة من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذكروا، وينادى عليهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ^(٧)، ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ [ألا بعداً لعاد قوم هود] ^(٨).

قال السدّي: ما بُعث نبي بعد عاد إلا لعنوا على لسانه.

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ ^(٦١).

يقول تعالى: ولقد أرسلنا ﴿إِلَى ثَمُودَ﴾ وهم الذين كانوا يسكنون ^(٩) مدائن الحجر بين تبوك والمدينة، وكانوا بعد عاد، فبعث الله منهم ^(١٠) ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾، فأمرهم ^(١١) بعبادة الله وحده [لا شريك له الخالق الرازق] ^(١٢)؛ ولهذا قال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أى: ابتداء خلقكم منها، [من الأرض التي] ^(١٣) خلق منها أبائكم آدم، ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أى: جعلكم [فيها] ^(١٤) عُمَارًا تعمرونها وتستغلونها، لسالف ذنوبكم، ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ فيما تستقبلونه؛ ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية [البقرة: ١٨٦].

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّآ لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ ^(٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ ^(٦٣).

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح، عليه السلام، وبين قومه، وما كان عليه قومه من الجهل والعناد في قولهم: ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ أى: كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما

(١) زيادة من ت، أ.

(٦) زيادة من أ.

(٧) فى ت: «عليهم على رؤوس الخلائق يوم القيامة». (٨) زيادة من ت، أ، وفى هـ: «الآية».

(٩) فى ت: «يستكبرون».

(١٠) فى ت، أ: «فيهم».

(١١) فى أ: «فأمره».

(١٢) زيادة من أ.

(١٣) (١٤)، زيادة من ت، أ.

قلت! ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾، وما كان عليه أسلافنا، ﴿وَأَنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾^(١) أى: [فى] شك كثير^(٢).

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾، فيما أرسلنى به إليكم على يقين وبرهان [من الله]^(٣)، ﴿وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ فَمِنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾، وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده، فلو تركته^(٤) لما نفعتمونى ولما زدتونى ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أى: خسارة.

﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ (٦٤) فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيامٍ ذلك وعدٌ غير مكذوبٍ (٦٥) فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذٍ إن ربك هو القوي العزيز (٦٦) وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين (٦٧) كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود (٦٨).

وتقدم الكلام على هذه القصة مستوفى فى سورة «الأعراف»^(٥) بما أغنى عن إعادته هاهنا، وبالله التوفيق.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ﴾ (٦٩) فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط (٧٠) وأمرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب (٧١) قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب (٧٢) قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميدٌ مجيدٌ (٧٣).

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾، وهم الملائكة، إبراهيم بالبشرى، قيل: تبشيره^(٦) بإسحاق، وقيل: بهلاك قوم لوط. ويشهد للأول قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤]، ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ أى: عليكم.

قال علماء^(٧) البيان: هذا أحسن مما حيّوه به؛ لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام^(٨).

﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ﴾ أى: ذهب^(٩) سريعاً، فاتاهم بالضيافة، وهو عجل: فتى البقر،

(٣) زيادة من ت، أ.

(٢) فى ت، أ: «كبير».

(١) زيادة من ت، أ.

(٤) فى ت، أ: «فلو تركت ذلك».

(٥) عند تفسير الآيات: ٧٣ - ٧٨.

(٦) فى ت: «تبشيره».

(٧) فى ت: «علمنا».

(٨) فى ت، أ: «والاستقرار».

(٩) فى ت: «فذهب».

حَنِيد: [وهو] ^(١) مَشْوَى [شيئاً ناضجاً] ^(٢) على الرِّصْف، وهي الحجارة المُحَمَّاة. هذا معنى ما روى عن ابن عباس [ومجاهد] ^(٣)، وقتادة [والضحاك، والسدي] ^(٤)، وغير واحد، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾. فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٦، ٢٧].

وقد تَضَمَّنَتْ هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة. وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ تنكرهم، ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾. وذلك أن الملائكة لا همة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه؛ فلهذا رأى حالهم معرضين ^(٥) عما جاءهم به، فارغين عنه بالكلية فعند ذلك نكرهم، ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.

قال السدي: لما بعث الله الملائكة لقوم لوط ^(٦)، أقبلت تمشي في صور رجال شبان ^(٧)، حتى نزلوا على إبراهيم فتضيفوه، فلما رآهم [إبراهيم] ^(٨) أجَّلَهُمْ، ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾، فذبحه ثم شواه في الرصف ^(٩). [فهو الحنيد حين شواه] ^(١٠) وأتاهم به فقعد معهم، وقامت سارة تخدمهم ^(١١)، فذلك حين يقول: «وامراته قائمة وهو جالس» في قراءة ابن مسعود: «فلما قربه إليهم قال ألا تأكلون قالوا: يا إبراهيم إنا لا نأكل طعاماً إلا بئسنا. قال فإن لهذا ثمننا. قالوا ^(١٢): وماثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله، وتحمده على آخره فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال: حق لهذا أن يتخذه ربه خليلاً»، ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ يقول: فلما رآهم لا يأكلون فزع منهم، وأوجس منهم خيفة، فلما نظرت إليه ^(١٣) سارة أنه قد أكرمهم وقامت هي تخدمهم، ضحكت وقالت: عجباً لأضيافنا هؤلاء، [إنا] ^(١٤) نخدمهم بأنفسنا كرامة ^(١٥) لهم، وهم لا يأكلون طعامنا.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا نصر بن علي، [حدثنا] ^(١٦) نوح بن قيس، عن عثمان بن محصن في ضيف إبراهيم قال: كانوا أربعة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ورفائيل. قال نوح بن قيس: فزعم نوح بن أبي شداد أنهم لما دخلوا على إبراهيم، ف قرب إليهم العجل، مسح جبريل بجناحه، فقام يدرج حتى لحق بأمه، وأم العجل في الدار.

وقوله تعالى إخباراً عن الملائكة: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ [إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ . وَأَمْرُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكْتُ] ^(١٧) أى قالوا: لا تخف منا، إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم ^(١٨). فضحكت ^(١٩) سارة استبشاراً [منها] ^(٢٠) بهلاكهم، لكثرة فسادهم، وغِلَظ كفرهم وعنادهم، فلهذا جوزيت بالبشارة

(٦) فى ت، أ: «الملائكة لمهلك قوم لوط».

(٩) فى ت: «الرصف».

(١٢) فى ت: «قال».

(١٥) فى ت: «تكرمة».

(٥) فى ت، أ: «معرضاً».

(٨) زيادة من ت، أ.

(١١) فى ت، أ: «عليهم».

(١٤) زيادة من ت، أ.

(٤ - ١) زيادة من ت، أ.

(٧) فى ت، أ: «شباب».

(١٠) زيادة من ت، أ.

(١٣) فى ت: «إليهم».

(١٦، ١٧) زيادة من ت، أ.

(١٨) فى ت: «إلى قوم لوط لندمر عليهم ونهلكهم كما ذكر فى الآية الأخرى».

(١٩) فى ت: «وضحكت».

(٢٠) زيادة من ت، أ.

بالولد بعد الإياس .

وقال قتادة: ضحكت [امراته] ^(١) وعجبت [من] ^(٢) أن قوما يأتيهم ^(٣) العذاب وهم في غفلة [فضحكت من ذلك وعجبت فبشرناها بإسحاق] ^(٤) .

وقوله: ﴿ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ ﴾: قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ فَضَحِكْتُ ﴾ أى: حاضت .

وقول محمد بن قيس: إنها إنما ضحكت من أنها ظنت أنهم يريدون أن يعملوا كما يعمل قوم لوط، وقول الكلبي إنها إنما ضحكت لما رأت من الروح بإبراهيم - ضعيفان جدا، وإن كان ابن جرير قد رواهما بسنده إليهما، فلا يلتفت إلى ذلك، والله أعلم .
وقال وهب بن منبه: إنما ضحكت لما بشرت بإسحاق . وهذا مخالف لهذا السياق، فإن البشارة صريحة مرتبة على ضحكها .

﴿ فَبَشِّرْنَاهَا ^(٥) بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ ﴾ أى: بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل؛ فإن يعقوب ولد لإسحاق، كما قال في آية البقرة: ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لَبْنِي مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣] .

ومن هاهنا استدل من استدل بهذه الآية، على أن الذبيح إنما هو إسماعيل، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق؛ لأنه وقعت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل ^(٦) صغير، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده . ووعد الله حق لا خُلفَ فيه، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه، فتعين أن يكون هو إسماعيل وهذا من أحسن الاستدلال وأصححه وأبينه، والله الحمد .

﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا [إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ] ^(٧) ﴾: حكى قولها في هذه الآية، كما حكى فعلها في الآية الأخرى، فإنها: ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ ﴾، وفي الذاريات: ﴿ فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ [الذاريات: ٢٩]، كما جرت به عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن عند التعجب . ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾؟ أى: قالت الملائكة لها، لا تعجبي من أمر الله، فإنه إذا أراد شيئا أن ^(٨) يقول له: «كن» فيكون، فلا تعجبي من هذا، وإن كنت عجوزا [كبيرة] ^(٩) عقيما، وبعلك [وهو زوجها الخليل عليه السلام، وإن كان] ^(١٠) شيخا كبيرا، فإن الله على ما يشاء قدير .

(٣) فى ت: «أناهم» .

(١، ٢) زيادة من ت، أ .

(٥) فى ت: «فبشرت» .

(٤) زيادة من ت .

(٦) فى ت: «غلام» .

(٨) فى ت: «إنما» .

(٧) زيادة من ت، أ، وفى هـ: «الآية» .

(٩، ١٠) زيادة من ت، أ .

﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ أى: هو الحميد فى جميع أفعاله وأقواله محمود، مجدد فى صفاته وذاته؛ ولهذا ثبت فى الصحيحين أنهم قالوا: قد علمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك يا رسول الله؟ قال: قولوا: «اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم»^(١) .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) ﴾ .

يخبر تعالى عن [خليله]^(٣) إبراهيم، عليه السلام، أنه لما ذهب عنه الروع، وهو ما أوجس من الملائكة خيفة، حين لم يأكلوا، وبشروه بعد ذلك بالولد [وطابت نفسه]^(٤)، وأخبروه بهلاك قوم لوط، أخذ يقول كما قال^(٥) [عنه]^(٦) سعيد بن جبير فى الآية^(٧)، قال: لما جاءه جبريل ومن معه، قالوا له^(٨): ﴿ إِنَّا مَهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ [إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ]^(٩) ﴾ [العنكبوت: ٣١]، قال لهم [إبراهيم]^(١٠): أتأهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا. قال: أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا. قال: أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمنا؟ قالوا: لا. قال: ثلاثون؟ قالوا: لا حتى بلغ خمسة قالوا: لا قال: رأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا. فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك: ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنِ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ ﴾ الآية [العنكبوت: ٣٢]، فسكت عنهم واطمأنت نفسه.

وقال قتادة وغيره قريبا من هذا - زاد ابن إسحاق: أفرأيت إن كان فيها مؤمن واحد؟ قالوا: لا. قال: فإن كان فيها لوط يدفع به عنهم العذاب، قالوا: ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنِ فِيهَا [لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ] كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾^(١١) [العنكبوت: ٣٢].

وقوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾، مدح^(١٢) إبراهيم بهذه الصفات الجميلة، وقد تقدم تفسيرها [فى سورة براءة]^(١٣).

وقوله تعالى: ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ [وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ]^(١٤) ﴾

(١) زيادة من ت، والبخارى.

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٧) وصحيح مسلم برقم (٤٠٦) من حديث كعب بن عجرة، رضى الله عنه.

(٣، ٤) زيادة من ت، أ. (٥) فى ت: «قاله».

(٦) زيادة من ت. (٧) فى أ: «فى قول لوط».

(٨) فى أ: «فقالوا لإبراهيم».

(٩) زيادة من ت، أ. (١٠) زيادة من ت. (١١) زيادة من ت، أ. وفى هـ: «الآية».

(١٢) فى ت، أ: «مدح له».

(١٤) زيادة من ت، أ، وفى هـ: «الآية».

أى: إنه قد نفذ فيهم القضاء، وحقَّت عليهم الكلمة بالهلاك، وحلول اليأس الذى لا يُرد عن القوم المجرمين.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩)﴾.

يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة ^(١) بعد ما أعلموا ^(٢) إبراهيم بهلاكهم، وفارقوه وأخبروه بإهلاك الله قوم لوط هذه الليلة. فانطلقوا من عنده، فاتوا لوطا ^(٣)، عليه السلام، وهو - على ما ^(٤) قيل - فى أرض له [يعمرها] ^(٥)، وقيل: [بل كان] ^(٦) فى منزله، ووردوا عليه وهم فى أجمل صورة تكون، على هيئة شبان ^(٧) حسان الوجوه، ابتلاء من الله [واختبارا] ^(٨)، وله الحكمة والحجة البالغة، [فنزّلوا عليه] ^(٩) فساء شأنهم وضاعت نفسه بسببهم، وخشى إن لم يُضِفهم ^(١٠) أن يُضِفهم أحد من قومه، فينالهم بسوء، ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾.

قال ابن عباس [ومجاهد وقتادة ومحمد بن إسحاق] ^(١١)، وغير واحد [من الأئمة] ^(١٢) شديد بلاؤه وذلك أنه علم أنه سيدافع [قومه] ^(١٣) عنهم، ويشق عليه ذلك.

وذكر قتادة أنهم أتوه وهو فى أرض له [يعمل فيها] ^(١٤)، فتضيّفوه ^(١٥) فاستحيا منهم، فانطلق أمامهم وقال ^(١٦) لهم فى أثناء الطريق، كالمعرض لهم بأن ينصرفوا عنه: إنه والله ياهؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء. ثم مشى قليلا، ثم أعاد ذلك عليهم، حتى كرره أربع مرات قال قتادة: وقد كانوا أمروا ألا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك.

وقال السدى: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية ^(١٧) لوط ^(١٨)، فبلغوا ^(١٩) نهر سدون نصف النهار، ولقوا بنت ^(٢٠) لوط تستقى [من الماء لأهلها وكانت له ابنتان اسم الكبرى رثيا والصغرى زغرتا] ^(٢١)، فقالوا [لها] ^(٢٢): يا جارية، هل من منزل؟ فقالت [لهم] ^(٢٣): مكانكم حتى آتيكم، وفَرقت عليهم من قومها، فأنت أباهما فقالت: يا أبتاه، أدرك فتيانا على باب المدينة، ما رأيت

(١) فى ت، أ: «من الملائكة الذين فارقوا إبراهيم الخليل عليه السلام بعد»

(٢) فى ت، أ: «أعلموه». (٣) فى ت: «فاتوا على لوط»، وفى أ: «فاتوا لوط». (٤) فى ت، أ: «وهو فيما».

(٥، ٦) زيادة من ت، أ. (٧) فى ت، أ: «شباب».

(٨) زيادة من ت، أ. (٩) زيادة من ت، أ. (١٠) فى ت، أ: «يضيفهم». (١١ - ١٤) زيادة من ت، أ.

(١٦) فى ت، أ: «فقال». (١٧) فى ت: «قوم».

(١٨) فى ت، أ: «لوط فاتوها نصف النهار، فبلغوا».

(١٩) فى ت، أ: «فلما بلغوا». (٢٠) فى ت، أ: «ابنة».

(٢١ - ٢٣) زيادة من ت، أ.

وجوه قوم [هى] ^(١) أحسن منهم، لا يأخذهم قومك فيفضحهم، و[قد] ^(٢) كان قومه نهوه أن يضيف رجلا، فقالوا: خل عنا فلنضيف ^(٣) الرجال. فجاء بهم، فلم يعلم بهم أحد إلا أهل بيته ^(٤)، فخرجت امرأته فأخبرت قومها [فقال: إن فى بيت لوط رجلا ما رأيت مثل وجوههم قط] ^(٥)، فجاؤوا ^(٦) يهرعون إليه.

وقوله: ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أى: يسرعون ويهرولون [فى مشيتهم ويجمرون] ^(٧) من فرحهم بذلك [وروى فى هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدى وقتادة وشمر بن عطية وسفيان بن عيينة] ^(٨).

وقوله: ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أى: لم يزل هذا من سجيّتهم [إلى وقت آخر] ^(٩) حتى أخذوا وهم على ذلك الحال.

وقوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾: يرشدهم إلى نسائهم، فإن النبى للامة بمنزلة الوالد [للرجال والنساء] ^(١٠)، فأرشدهم إلى ما هو أنفع ^(١١) لهم فى الدنيا والآخرة، كما قال لهم فى الآية الأخرى: ﴿أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ. وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]، وقوله فى الآية الأخرى: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [الحجر: ٧٠] أى: ألم ^(١٢) نهك عن ضيافة الرجال ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ. لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧١، ٧٢]، وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ قال ^(١٣) مجاهد: لم يكن بناته، ولكن كن من أمته، وكل نبى أبو أمته.

وكذا روى عن قتادة، وغير واحد.

وقال ابن جرير: أمرهم أن يتزوجوا النساء، لم يعرض عليهم سفاحا.

وقال سعيد بن جبیر: يعنى نساءهم، هن بناته، وهو أب لهم ^(١٤)، ويقال فى بعض القراءات ^(١٥): «النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم».

وكذا روى عن الربيع بن أنس، وقتادة، والسدى، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ أى: اقبلوا ما أمركم به من الاقتصار على نسائكم ^(١٦)، ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ أى: [ليس منكم رجل] ^(١٧): فيه خير، يقبل ما أمره به، ويترك ما أنهاه

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت، أ: «فلنضيف». (٣) فى ت، أ: «فجاء قومه». (٤) فى ت، أ: «بيت لوط». (٥) زيادة من ت، أ. (٦) فى ت، أ: «فجاء قومه». (٧) زيادة من ت، أ. (٨) فى ت، أ: «أو لم». (٩) فى ت، أ: «وقال». (١٠) فى ت، أ: «هن بناته هو نبينهم». (١١) فى ت، أ: «أى اقبلوا ما أمركم به من إتيانكم نساءكم واقتصاركم عليهن وترككم الفواحش من إتيان الذكران من العالمين». (١٢) زيادة من ت، أ. (١٣) فى ت، أ: «أى اقبلوا ما أمركم به من إتيانكم نساءكم واقتصاركم عليهن وترككم الفواحش من إتيان الذكران من العالمين». (١٤) زيادة من ت، أ.

عنه؟

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أى: إنك تعلم ^(١) أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نشتهيهن، ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أى: ليس لنا غرض إلا فى الذكور، وأنت تعلم ذلك، فأى حاجة فى تكرار القول علينا فى ذلك؟

قال السدى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾: إنما نريد الرجال.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبَ أَهْلَكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (٨١).

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط، عليه السلام: إن لوطاً توعدهم بقوله ^(٢): ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ ^(٣) أى: لكنت نكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل [من العذاب والنقمة وإحلال البأس بكم] ^(٤) بنفسى وعشيرتى، ولهذا ورد فى الحديث، من طريق محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «رحمة الله على لوط، لقد كان يأوى إلى ركن شديد - يعنى: الله عز وجل - فما بعث الله بعده من نبي إلا فى ثروة من قومه» ^(٥).

[وروى من حديث الزهرى عن أبى سلمة وسعيد بن المسيب عن أبى هريرة مرفوعاً ومن حديث أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة به، ومن حديث ابن لهيعة عن أبى يونس سمع أبا هريرة به وأرسله الحسن وقتادة] ^(٦).

فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم ^(٧) رَسَلُ الله إليه، و[وبشروه] ^(٨) أنهم لا وصول لهم إليه [ولا خلوص] ^(٩)، ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾، وأمره أن يسرى بأهله من آخر الليل، وأن يتبع أدبارهم، أى: يكون ساقية لأهله، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أى: إذا سمعت ^(١٠) ما نزل بهم، ولا تهولنكم ^(١١) تلك الأصوات المزعجة، ولكن استمروا ذاهبين [كما أنتم] ^(١٢).

﴿إِلَّا أَمْرَاتُكَ﴾: قال الأكثرون: هو استثناء من الميثب ^(١٣)، وهو قوله: ﴿فَأَسْرَبَ بِأَهْلِكَ﴾، تقديره: ﴿إِلَّا أَمْرَاتُكَ﴾. وكذلك قرأها ابن مسعود ونصب هؤلاء امرأتك؛ لأنه من ميثب ^(١٤).

(١) فى ت، أ: «لتعلم».

(٢) زيادة من ت، أ، وفى هـ: «الآية».

(٣) زيادة من ت، أ.

(٤) (٣١١٦) من طريق الفضل بن موسى عن محمد بن عمرو به، ورواه عن طريق عبدة وعبد الرحيم عن محمد بن عمرو ونحو حديث الفضل بن موسى، وقال الترمذى: «وهذا - أى الطريق الثانى - أصح من رواية الفضل بن موسى وهذا حديث حسن».

(٥) زيادة من ت، أ.

(٦) (٩، ٨) زيادة من ت، أ.

(٧) فى ت: «بأنهم».

(٨) (١٢) زيادة من ت، أ.

(٩) فى ت: «ولا تهيلنكم».

(١٠) فى ت: «من الميثب».

(١١) فى ت: «من ميثب».

فوجب نصبه عندهم.

وقال آخرون من القراء والنحاة: هو استثناء من قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا تَكُ﴾، فَجَوَزُوا الرفع والنصب، وذكر هؤلاء [وغيرهم من الإسرائيليات] ^(١) أنها خرجت معهم، وأنها لما سمعت الوجبة التفتت وقالت ^(٢): واقوماه. فجاءها حجر من السماء فقتلها ^(٣).

ثم قَرَّبُوا له هلاك قومه تبشيراً له؛ لأنه قال لهم: «أهلكوهم الساعة»، فقالوا: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، هذا وقوم لوط وقُوف على الباب وعُكُوف قد جاؤوا يُهرعون إليه من كل جانب، ولوط واقف على ^(٤) الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه، وهم لا يقبلون منه، بل يتوعدونه، فعند ذلك خرج عليهم جبريل، عليه السلام، فضرب وجوههم بجناحه، فطمس أعينهم، فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرْ﴾. وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ. فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرْ ^(٥) [القمر: ٣٧ - ٣٩].

وقال معمر، عن قتادة، عن حذيفة بن اليمان قال: كان إبراهيم، عليه السلام، يأتي ^(٦) قوم لوط، فيقول: أنهاكم ^(٧) الله أن تعرضوا لعقوبته؟ فلم يطيعوه، حتى إذا بلغ الكتاب أجله [للمحل عذابهم وسطوات الرب بهم قال] ^(٨): انتهت الملائكة إلى لوط وهو يعمل في أرض له، فدعاهم إلى الضيافة فقالوا: إنا ضيوفك ^(٩) الليلة، وكان الله قد عهد إلى جبريل ألا يُعَذِّبَهُمْ حتى يشهد عليهم لوط ثلاث شهادات فلما توجه بهم لوط إلى الضيافة، ذكر ما يعمل قومه من الشر [والدواهي العظام] ^(١٠)، فمشى معهم ساعة، ثم التفت إليهم فقال: أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض شراً منهم. أين أذهب بكم؟ إلى قومي وهم [من] ^(١١) أشر خلق الله، فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال: احفظوها ^(١٢)، هذه واحدة. ثم مشى معهم ساعة، فلما توسط القرية وأشفق عليهم واستحيا منهم قال: أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض أشراً منهم، إن قومي أشر خلق الله. فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال: احفظوا، هاتان اثنتان، فلما انتهى إلى باب الدار بكى حياء منهم وشفقة عليهم فقال ^(١٣): إن قومي أشر من خلق الله؟ أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض أهل قرية شر ^(١٤) منهم. فقال جبريل للملائكة: احفظوا، هذه ثلاث، قد حق العذاب. فلما دخلوا ذهب عجزو سوء فصعدت فلوحت بثوبها، فأتاها الفساق يُهرعون سراعا، قالوا: ما عندك؟ قالت: ضيف لوطاً قوم ^(١٥)، ما رأيت قط أحسن وجوهاً منهم، ولا أطيب ريحاً منهم. فهُرُّعُوا يسارعون إلى الباب، فعالجهم لوط على الباب، فدافعوه طويلاً، هو داخل وهم خارج، يناشدهم الله ويقول: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ فقام

(٢) في ت: «فالتت».

(١) زيادة من ت، أ.

(٤) في ت، أ: «في».

(٣) في ت: «فقتلتها».

(٧) في ت، أ: «أنهاكم الله عن».

(٦) في ت، أ: «يأتيهم يعني».

(٥) زيادة من ت، أ، وفي هـ: «الآية».

(١٠، ١١) زيادة، ت، أ.

(٩) في ت؛ «مضيفوك».

(٨) زيادة من ت، أ، والطبري.

(١٣) في ت: «وقال».

(١٢) في ت، أ: «احفظوا».

(١٥) في ت، أ: «الليلة».

(١٤) في ت، أ: «أشهر».

الملك فَازَ^(١) بالباب - يقول: فسده^(٢) - واستأذن جبريل في عقوبتهم، فأذن الله له، فقام في الصورة التي يكون فيها في السماء، فنشر جناحه. وجبريل جناحان، وعليه وشاح من درّ منظوم، وهو براق الثنايا، أجلى الجبين، ورأسه حُبْكٌ حُبْكٌ مثل المرجان وهو اللؤلؤ، كأنه الثلج، ورجلاه إلى الخضرة. فقال يا لوط: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾، امض يا لوط عن الباب ودعني وإياهم، فتنحى لوط عن الباب، فخرج إليهم، فنشر جناحه، فضرب به وجوههم ضربة شدة أعينهم، فصاروا عُمِيًّا لا يعرفون الطريق [ولا يهتدون بيوتهم]^(٣) ثم أمر لوط فاحتمل بأهله في ليلته قال: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾^(٤).

وروى عن محمد بن كعب [القرظي]^(٥)، وقتادة، والسدي نحو هذا.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ (٨٢) مَسُومَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ (٨٣)﴾.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس، ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا﴾، وهى [قريتهم العظيمة وهى]^(٦) سَدُومَ [ومعاملتها]^(٧) ﴿سَافِلَهَا﴾ كقوله^(٨): ﴿وَالْمُتَفَكِّهَةُ أَهْوَى﴾^(٩). فَعَشَاهَا مَا غَشَى﴾ [النجم: ٥٣، ٥٤] أى: أمطرنّا^(١٠) عليها حجارة من «سجّيل»، وهى بالفارسية: حجارة من طين، قاله ابن عباس وغيره.

وقال بعضهم: أى من «سك» وهو الحجر، و«كل»^(١١) وهو الطين، وقد قال فى الآية الأخرى: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣] أى: مستحجرة قوية شديدة. وقال بعضهم: مشوية، [وقال بعضهم: مطبوخة قوية صلبة]^(١٢)، وقال البخارى. «سجّيل»: الشديد الكبير. سجّيل وسجين واحد، اللام والنون أختان، وقال تميم بن مقبل:

وَرَجَلَةٌ يَضْرِبُونَ الْبَيْضَ ضَاحِيَةً
ضَرْبًا تَوَاصَّتْ بِهِ الْأَبْطَالُ^(١٣) سِجِّينًا^(١٤)

وقوله: ﴿مَّنْضُودٍ﴾: قال بعضهم: منضودة فى السماء، أى: معدة لذلك.

وقال آخرون: ﴿مَّنْضُودٌ﴾ أى: يتبع بعضها بعضا فى نزولها عليهم.

وقوله: ﴿مَسُومَةً﴾ أى مُعْلَمَةً مختومة، عليها أسماء أصحابها، كل حجر مكتوب عليه اسم الذى ينزل عليه.

(١) فى أ: «فكن». (٢) فى ت: «فسده»، وفى أ: «نسده».

(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (٤٢٩/١٥).

(٥ - ٧) زيادة من ت، أ. (٨) فى ت: «كما قال تعالى».

(٩) زيادة من ت، أ. (١٠) فى ت، أ: «أمطر».

(١١) فى ت: «وحل»، وفى أ: «وجيل».

(١٣) فى أ: «الاباطل».

(١٤) صحيح البخارى (٣٥٢/٨) «فتح».

وقال قتادة وعكرمة: ﴿مُسَوِّمَةٌ﴾ [أى] ^(١): مُطَوَّقَةٌ، بها نَضْحٌ من حُمْرَةٍ.

وذكروا أنها نزلت على أهل البلد، وعلى المتفرقين فى القرى مما حولها، فبينما أحدهم يكون عند ^(٢) الناس يتحدث، إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس، فدمره، فتتبعهم ^(٣) الحجارة من سائر البلاد، حتى أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد.

وقال مجاهد: أخذ جبريل قوم لوط من سَرَحهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم، ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم أكفأهم ^(٤) [وقال] ^(٥) وكان حملهم على خوافى ^(٦) جناحه الأيمن. قال: ولما قلبها كان أول ما سقط منها شذانها ^(٧).

وقال قتادة: بلغنا أن جبريل أخذ بعروة ^(٨) القرية الوسطى، ثم ألوى بها إلى جو السماء، حتى سمع أهل السماء ^(٩) ضواغى كلابهم، ثم دمر بعضها على بعض، ثم اتبع شذاذ القوم سُخْرًا ^(١٠). - قال: وذكر لنا أنهم كانوا أربع قرى، فى كل قرية مائة ألف - وفى رواية: [كانوا] ^(١١) ثلاث قرى، الكبرى منها سدوم. قال: وبلغنا أن إبراهيم، عليه السلام، كان يشرف على سدوم، ويقول: سدوم، يومٌ، مآلِكٌ؟.

وفى رواية عن قتادة وغيره: بلغنا أن جبريل، عليه السلام، لما أصبح نشر جناحه، فانتسف به أرضهم بما فيها من قُصُورها ودوابها وحجارتها وشجرها، وجميع ما فيها، فضمها فى جناحه، فحواها وطواها فى جوف جناحه، ثم صعد بها إلى السماء الدنيا، حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب، وكانوا أربعة آلاف ألف، ثم قلبها، فأرسلها إلى الأرض منكوسة، ودَمَدَمَ بعضها على بعض، فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعها حجارة من سجيل.

وقال محمد بن كعب القُرَظى: كانت قرى قوم لوط خمس قريات: «سدوم»، وهى العظمى، و«صعبة» ^(١٢) و«صعوة» و«عثة» ^(١٣)، و«دوما»، احتملها جبريل بجناحه، ثم صعد بها، حتى إن أهل السماء الدنيا ليسمعون نباحة كلابها، وأصوات دجاجها، ثم كفأها على وجهها، ثم أتبعها الله بالحجارة، يقول الله تعالى: ﴿جَعَلْنَا ^(١٤)عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾، فأهلكها الله وما حولها من المؤتفكات.

وقال السدى: لما أصبح قوم لوط، نزل جبريل فاقتلع الأرض من سبع أرضين، فحملها حتى بلغ بها السماء، حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم، وأصوات ديوكهم، ثم قلبها فقتلهم، فذلك

- | | | |
|--------------------------|-------------------------|------------------------------|
| (١) زيادة من ت، أ. | (٢) فى ت، أ: «بين». | (٣) فى ت: «فتتبعهم». |
| (٤) فى ت، أ: «أكفأها». | (٥) زيادة من ت. | (٦) فى ت، أ: «خوافى». |
| (٧) فى ت: «شرفاتها». | (٨) فى ت: «بعزوة». | (٩) فى ت، أ: «سمع الملائكة». |
| (١٠) فى ت، أ: «سُخْرًا». | (١١) زيادة من ت، أ. | (١٢) فى ت، أ: «صعبة». |
| (١٣) فى ت، أ: «وعمرة». | (١٤) فى ت، أ: «فجعلنا». | |

قوله^(١): ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ [النجم: ٥٣]، ومن لم يمت حين سقط للأرض، أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة، ومن كان منهم شاذاً في الأرض يتبعهم في القرى، فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فيقتله، فذلك قوله^(٢) عز وجل: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أى: في القرى حجارة من سجيل. هكذا قال السدى.

وقوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أى: وما هذه النعمة ممن تشبّه بهم في ظلمهم، ببعيد^(٣) عنه.

وقد ورد في الحديث المروى في السنن^(٤)، عن ابن عباس مرفوعاً^(٥): «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به»^(٦).

وذهب الإمام الشافعى في قول عنه وجماعة من العلماء إلى أن اللائط يقتل، سواء كان محصناً أو غير^(٧) محصن، عملاً بهذا الحديث.

وذهب الإمام أبو حنيفة [رحمه الله إلى]^(٨) أنه يلقي من شاق، ويتبع بالحجارة، كما فعل الله بقوم لوط، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۝٨٤﴾.

يقول تعالى: ولقد أرسلنا إلى مدين - وهم قبيلة من العرب، كانوا يسكنون بين الحجاز والشام، قريباً من بلاد معان، في بلد يعرف بهم، يقال لها «مدين» فأرسل الله إليهم شعيباً، وكان من أشرفهم^(٩) نسباً. ولهذا قال: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده، وينهاهم عن التطفيف^(١٠) في المكيال والميزان ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أى: في معيشتكم ورزقكم فأخاف أن تُسَلِّبُوا ما أنتم فيه بانتهاكم محارم الله، ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۝٨٤﴾ أى: في الدار الآخرة.

(١) فى ت، أ: «فذلك حين يقول».

(٢) فى ت، أ: «قول الله».

(٣) فى ت: «ببعيد».

(٤) فى ت، أ: «فى السنن من حديث عمرو بن أبى عمرو عن عكرمة».

(٥) فى ت، أ: «عن رسول الله ﷺ أنه قال».

(٦) سنن أبى داود برقم (٤٤٦٢) وسنن الترمذى برقم (١٤٥٦) وسنن ابن ماجه برقم (٢٥٦١)، وقال الترمذى: «وإنما يعرف هذا

الحديث عن ابن عباس عن النبى ﷺ من هذا الوجه، وروى محمد بن إسحاق هذا الحديث عن عمرو بن أبى عمرو فقال: «ملعون

من عمل عمل قوم لوط» ولم يذكر فيه القتل وذكر فيه: «ملعون من أتى بهيمة».

(٧) فى ت، أ: «أو لم يكن محصناً».

(٨) زيادة من ت، أ.

(٩) فى ت، أ: «أشرفهم».

(١٠) فى أ: «التطفيف».

(١١) فى ت: «عظيم».

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٨٥) بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾

ينهاهم^(١) أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين، ونهاهم عن العيث^(٢) في الأرض بالفساد، وقد كانوا يقطعون الطريق.

وقوله: ﴿بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ﴾: قال ابن عباس: رزق الله خير لكم.

وقال الحسن: رزق الله خير [لكم]^(٣) من بخسكم الناس.

وقال الربيع بن أنس: وصية الله خير لكم.

وقال مجاهد: طاعة الله [خير لكم]^(٤).

وقال قتادة: حظكم من الله خير لكم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «الهلاك» في العذاب، و«البقية» في الرحمة.

وقال أبو جعفر بن جرير: ﴿بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أى: ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أى: من أخذ أموال الناس قال: وقد روى هذا عن ابن عباس.

قلت: ويشبه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾

[المائدة: ١٠٠].

وقوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أى: بربيق ولا حفيظ، أى: افعلوا ذلك لله عز وجل. لا

تفعلوه^(٥) ليراكم الناس، بل لله عز وجل.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ

إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (٨٧).

يقولون له على سبيل التهكم، قَبَّحَهُمُ اللَّهُ: ﴿أَصْلَاتُكَ﴾^(٦)، قال الأعمش: أى: قرآنك^(٧)، ﴿تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أى: الأوثان والأصنام، ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾، فترك التطفيف^(٨) على قولك، هى أموالنا نفعل فيها ما نريد.

[قال الحسن]^(٩) فى قوله: ﴿أَصْلَاتُكَ﴾^(١٠) تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا: إى والله، إن صلاته

(٣، ٤) زيادة من ت، أ.

(٧) فى أ: «قراءتك».

(١٠) فى ت: «أصلواتك».

(٢) فى ت: «العيب».

(٦) فى ت: «أصلواتك».

(٩) زيادة من ت، أ.

(١) فى ت، أ: «نهاهم».

(٥) فى ت: «لا تفعلوا».

(٨) فى أ: «الطفيف».

لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم.

وقال الثوري في قوله: ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾: يعنون الزكاة.

وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾: قال ابن عباس، وميمون بن مهران، وابن جريج، وابن أسلم، وابن جرير: يقولون ذلك - أعداء الله - على سبيل الاستهزاء، قبحهم الله ولعنهم عن رحمته، وَقَدْ فَعَلَ.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالَفَكُمْ إِلَّا مَا أَنهَاكُمُ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (٨٨).

يقول لهم أرايتم يا قوم ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أى: على بصيرة فيما أدعو إليه، ﴿وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، قيل: أراد النبوة. وقيل: أراد الرزق الحلال، ويحتمل الأمرين.

وقال الثوري: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالَفَكُمْ إِلَّا مَا أَنهَاكُمُ عَنْهُ﴾ أى: لا أنهاكم عن شيء^(١) وأخالف أنا فى السر فأفعله خفية^(٢) عنكم، كما قال قتادة فى قوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالَفَكُمْ إِلَّا مَا أَنهَاكُمُ عَنْهُ﴾، يقول: لم أكن لأنهاكم عن أمر وأركبه^(٣)، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أى: فيما آمركم وأنهاكم، إنما مرادى إصلاحكم جهدى وطاقتى، ﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾ أى: فى إصابة الحق فيما أريده ﴿إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فى جميع أمورى، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أى: أرجع، قاله مجاهد وغيره.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا أبو قرعة سويد بن حجير^(٤) الباهلى، عن حكيم بن معاوية، عن أبيه: أن أخاه مالكاً قال: يا معاوية، إن محمداً أخذ جيرانى، فانطلق إليهم، فإنه قد كلمك وعرفك، فانطلقت معه فقال: دع لى جيرانى، فقد كانوا أسلموا. فأعرض عنه. [فقام متمعطاً]^(٥)، فقال: أما والله لئن فعلت إن الناس يزعمون أنك تأمر بالأمر وتخالف إلى غيره. وجعلت أجره وهو يتكلم، فقال رسول الله ﷺ «ما تقول؟» فقال: إنك والله لئن فعلت ذلك، إن الناس ليزعمون أنك لتأمر بالأمر وتخالف إلى غيره. قال: فقال: «أو قد قالوها - أو: قائلهم - ولئن فعلت ذلك ما ذاك إلا على، وما عليهم من ذلك من شيء، أرسلوا له جيرانه»^(٦).

وقال أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن بهز^(٧) بن حكيم، عن أبيه، عن جده

(٣) فى أ: «وأرتكبه».

(٢) فى ت: «خيفة».

(١) فى ت، أ: «الشيء».

(٥) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٤) فى ت: «ابن حجر».

(٦) المسند (٤/٤٤٧).

(٧) فى ت، أ: «شهر».

قال: أخذ النبي ﷺ ناساً من قومي في تَهْمَةٍ فحبسهم، فجاء رجل من قومي إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب، فقال: يا محمد، علام تحبس جيرتي؟ فصمت رسول الله ﷺ [عنه] ^(١) فقال: إن ناساً ليقولون: إنك تنهى عن الشيء وتستخلى به، فقال النبي ﷺ: «ما يقول؟» قال: فجعلت أعرض بينهما الكلام مخافة أن يسمعها فيدعو على قومي دعوة لا يفلحون بعدها أبداً، فلم يزل رسول الله ﷺ به حتى فهمها، فقال: «أو قد قالوها - أو: قائلها منهم - والله لو فعلت لكان عليّ وما كان عليهم، خلوا له عن جيرانه» ^(٢).

ومن هذا القبيل الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا سليمان بن بلال، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، عن عبد الملك بن سعيد بن سويد الأنصاري قال: سمعت أبا حميد وأبا أسيد يقولان: قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب، فانا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم بعيد فانا أبعدكم منه» ^(٣).

هذا ^(٤) إسناد صحيح، وقد أخرج مسلم بهذا السند حديث: «إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: اللهم، افتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج فليقل: اللهم، إني أسألك من فضلك» ^(٥).

ومعناه - والله أعلم -: مهما بلغكم عني من خير فانا أولاكم به ومهما يكن من مكروه فانا أبعدكم منه، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمُ عَنْهُ﴾ ^(٦).

وقال قتادة، عن عَزْرَةَ ^(٧)، عن الحسن العُرنِي، عن يحيى بن الجزار، عن مسروق، أن امرأة جاءت ابن مسعود قالت ^(٨): أنتهى عن الواصلة؟ قال: نعم. فقالت [المرأة] ^(٩) فلعله في بعض نسائك؟ فقال: ما حفظت إذا وصية العبد الصالح: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمُ عَنْهُ﴾.

وقال عثمان بن أبي شيبة: حدثنا جرير، عن أبي سليمان العتبي ^(١٠) قال: كانت تحيئنا كتب عمر ابن عبد العزيز فيها الأمر والنهي، فيكتب في آخرها: وما كانت ^(١١) من ذلك إلا كما قال العبد الصالح: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

(١) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٢) المسند (٢/٥) ورواه أبو داود في السنن برقم (٣٦٣٠) عن عبد الرزاق والترمذي في السنن برقم (١٤١٧) عن ابن المبارك كلاهما من طريق معمر به مختصراً جداً، وقال الترمذي: «حديث بهز عن أبيه عن جده حديث حسن».

(٣) المسند (٤٩٧/٣).

(٤) في ت، أ: «وهذا».

(٥) صحيح مسلم برقم (٧١٣).

(٦) زيادة من ت، أ.

(٧) في ت، أ: «عروة».

(٨) في ت: «فقلت».

(١٠) في ت، أ: «الضبي».

(١١) في ت: «وما كنت»، وفي أ: «وما كتب».

(٩) زيادة من ت، أ.

﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠)﴾.

يقول لهم: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ أى: لا تحملنكم عداوتى وبغضى على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط من النعمة والعذاب.

قال قتادة: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ يقول: لا يحملنكم فراقى.

وقال السدى: عداوتى، على أن تتmadوا فى الضلال والكفر، فيصيبكم من العذاب ما أصابهم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج، حدثنا ابن أبى غنّية، حدثنى عبد الملك بن أبى سليمان، عن أبى ليلى الكندى قال: كنت مع مولاى أمسك دابته، وقد أحاط الناس بعثمان بن عفان؛ إذ أشرف علينا من داره فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾، يا قوم، لا تقتلونى، إنكم إن تقتلونى كنتم هكذا، وشبك بين أصابعه.

وقوله: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾، [قيل: المراد فى الزمان، كما قال قتادة فى قوله: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾] يعنى^(١): إنما أهلكوا^(٢) بين أيديكم بالأمس، وقيل: فى المكان، ويحتمل الأمران، ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾، أى: استغفروه من سالف الذنوب، وتوبوا فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة، ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ أى: لمن تاب وأناب.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيَّ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢)﴾.

يقولون ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ أى: مانهمم ولانقل كثيراً من قولك، وفى آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب. ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾.

قال^(٣) سعيد بن جبیر، والثورى: كان ضرير البصر. قال الثورى: وكان يقال له: خطيب الأنبياء.

(٣) فى ت: «وقال».

(٢) فى ت: «هلكوا».

(١) زيادة من ت، أ.

[وقال السدى: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قال: أنت واحد^(١)].

[وقال أبو روق: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ يعنون: ذليلاً؛ لأن عشيرتك ليسوا على دينك، فأنت ذليل ضعيف^(٢)].

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أى: قومك وعشيرتك؛ لولا معزة قومك علينا لرجمناك، قيل^(٣): بالحجارة، وقيل: لسببناك، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيزٌ﴾ أى: ليس لك عندنا معزة.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾: يقول: أتركونى لأجل قومى، ولا تتركونى إعظاماً لجناب الله أن تنالوا نبيه بمساءة. وقد اتخذتم جانب الله ﴿وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾ أى: نبذتموه خلفكم، لا تطيعونه ولا تعظمونه، ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أى: هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزىكم بها.

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ (٩٣) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ (٩٥) .

لما يش نبي الله شعيب من استجابة قومه له، قال: يا قوم، ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أى: على طريقَتكم، وهذا تهديد ووعد شديد، ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾، على طريقتي ومنهجى ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أى: فى الدار الآخرة، ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ أى: منى ومنكم، ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ أى: انتظروا ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، وهم قومه، ﴿الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ وقوله: ﴿جَاثِمِينَ﴾ أى: هامدين لاحتراك بهم. وذكر هاهنا أنهم أتتهم صيحة، وفى الأعراف رجفة، وفى الشعراء عذاب يوم الظلة، وهم أمة واحدة، اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها. وإنما ذكر فى كل سياق ما يناسبه، وفى الأعراف لما قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، ناسب أن يذكر هناك الرجفة، فرجفت بهم الأرض التى ظلموا بها، وأرادوا إخراج نبيهم منها، وهاهنا لما أساءوا الأدب فى مقاتلتهم على نبيهم ناسب ذكر الصيحة التى أسكتتهم^(٤) وأخمدتهم، وفى الشعراء لما قالوا: ﴿فَأَسْقَطَ عَلَيْنَا كَسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، قال: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، وهذا من الأسرار الغريبة الدقيقة، والله الحمد والمنة كثيراً دائماً.

(٤) فى ت، أ: «أسكتهم».

(٣) فى ت: «قتل».

(٢، ١) زيادة من ت، أ.

وقوله: ﴿كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أى: يعيشوا فى دارهم قبل ذلك، ﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدَّيْنٍ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودٌ﴾، وكانوا جيرانهم قريباً منهم فى الدار، وشبيهاً بهم فى الكفر وقَطْع الطريق، وكانوا عرباً شبيههم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن إرساله موسى، عليه السلام، بآياته وبياناته وحججه ودلائله الباهرة القاطعة إلى فرعون لعنه الله، وهو ملك ديار مصر على أمة القبط، ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أى: مسلكه ومنهجه وطريقته فى الغى والضلال، ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أى: ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال، وكفر وعناد، وكما أنهم أتبعوه فى الدنيا، وكان مقدّمهم ورئيسهم، كذلك هو يقدّمهم يوم القيامة إلى نار جهنم، فأوردتهم إياها، وشربوا من حياض^(١) رذاها، وله فى ذلك الحظ الأوفر، من العذاب الأكبر، كما قال تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً﴾ [المزمل: ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ. ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ. فَحَشَرَ فَنَادَىٰ. فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ. فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ٢١ - ٢٦]، وقال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾، وكذلك شأن المتبعين يكونون مؤفرين فى العذاب يوم المعاد، كما قال تعالى: ﴿[قَالَ] لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقال تعالى إخباراً عن الكفرة أنهم يقولون فى النار: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأُضَلُّونَا السَّبِيلَا. رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْمٌ، حدثنا أبو الجهم، عن الزهرى، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «امرؤ القيس حامل لواء شعراء الجاهلية إلى النار»^(٣).

وقوله: ﴿وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ أى: أتبعناهم زيادة على ما جازيناها من عذاب النار لعنة فى هذه الحياة الدنيا، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾.

قال مجاهد: زيدوا لعنة يوم القيامة، فتلك لعنتان.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ قال: لعنة الدنيا والآخرة، وكذا

(١) فى ت: «خاص».

(٢) زيادة من ت، أ.

(٣) المسند (٢/٢٢٨).

قال الضحاك، وقتادة، وهكذا قوله ^(١) تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ. وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤١، ٤٢]، وقال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١)﴾.

لما ذكر تعالى خبر هؤلاء الأنبياء، وما جرى لهم مع أممهم، وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين قال: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى﴾ أى: من أخبارها ﴿نَقُصُّهُ﴾ ^(٢) عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ أى: عامر، ﴿وَحَصِيدٌ﴾ أى: هالك دائر، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أى: إذ أهلكناهم، ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أى: بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم، ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ﴾ أى: أصنامهم وأوثانهم التى كانوا يعبدونها ويدعونها، ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أى: مانعوهم ولا أنقذوهم لما جاء أمر الله بإهلاكهم، ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ ^(٣).

قال مجاهد، وقتادة، وغيرهما: أى غير تخسير، وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة وعبادتهم إياها ^(٤)، فبهذا أصابهم ما أصابهم، وخسروا بهم، فى الدنيا والآخرة.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)﴾.

يقول تعالى: وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسولنا كذلك نفعل بنظائرهم وأشباههم وأمثالهم، ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملى للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ ^(٥).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥)﴾.

(١) فى ت، أ: «وهذا كقوله».

(٢) فى ت: «نقصها» وهو خطأ.

(٣) فى ت: «تتبييت».

(٤) فى ت: «إياهم».

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٦) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٣).

واعتباراً على صدق موعودنا في الدار الآخرة، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدٌ﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤].

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ ^(١) يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ أَي: أولهم وآخرهم، فلا يبقى منهم أحد، كما قال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أَي: يوم عظيم تحضره الملائكة كلهم، ويجتمع فيه الرسل جميعهم، وتحشر فيه الخلائق بأسرهم، من الإنس والجن والطيور والوحوش والدواب، ويحكم فيهم ^(٢) العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها.

وقوله: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ﴾ أَي: ما نؤخر إقامة يوم القيامة إلا لأنه ^(٣) قد سبقت كلمة الله وقضاؤه وقدره، في وجود أناس معدودين من ذرية آدم، وضرب مدة معينة إذا انقضت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم من ذرية آدم، أقام الله الساعة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ﴾ أَي: لمدة مؤقتة لا يزداد عليها ولا ينقص منها، ﴿يَوْمَ يَأْتُ﴾ ^(٤) لا تكلم نفس إلا بإذنه، يقول: يوم يأتي هذا اليوم وهو يوم القيامة، لا يتكلم أحد [يومئذ] ^(٥) إلا بإذن الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة الطويل: «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم ^(٦)» ^(٧).

وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أَي: فمن أهل الجمع شقى ومنهم سعيد، كما قال: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا موسى بن حيان، حدثنا عبد الملك بن عمرو، حدثنا سليمان بن ^(٨) سفيان، حدثنا عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، عن عمر ^(٩) رضى الله عنه، قال: لما نزلت ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، سألت النبي ﷺ، قلت ^(١٠): يا رسول الله، علام نعمل ^(١١)؟ على شيء قد فرغ منه، أم على شيء لم يفرغ منه؟ فقال: «على شيء قد فرغ منه يا عمر وجرت به الأقلام،

(١) قبلها في ت، أ: «إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة».

(٢) في أ: «فيه».

(٣) في ت، أ: «إلا أنه».

(٤) في ت: «يأتى» وفي أ: «يأتيهم».

(٥) في ت: «اللهم سلم اللهم سلم».

(٦) زيادة من ت.

(٧) صحيح البخارى برقم (٨٠٦) وصحيح مسلم برقم (١٨٢).

(٨) في ت، أ: «أبو».

(٩) في أ: «عمر بن الخطاب».

(١٠) في ت: «فقلت».

(١١) في ت: «على ما يعمل».

ولكن كل ميسر لما خلق له»^(١).

ثم بين ^(٢) تعالى حال الأشقياء وحال السعداء، فقال:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (١٠٧).

يقول تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾، قال ابن عباس: الزفير في الخلق، والشهيق في الصدر أى: تنفسهم زفير، وأخذهم النفس شهيق، لما هم فيه من العذاب، عياداً بالله من ذلك.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾: قال الإمام أبو جعفر بن جرير: من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت: «هذا دائم دوام السموات والأرض»، وكذلك يقولون: هو باق ما اختلف الليل والنهار، وما سمر ابنا سمير، وما لآلات العفر^(٣) بأذناها. يعنون بذلك كلمة: «أبداً»، فخطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم، فقال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾.

قلت: ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرض: الجنس؛ لأنه لا بد في عالم الآخرة من سموات وأرض، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]؛ ولهذا قال الحسن البصري في قوله: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، قال: تبدل سماء غير^(٤) هذه السماء، وأرض غير هذه الأرض، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض.

وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن سفيان بن حسين، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس قوله: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، قال: لكل جنة سماء وأرض.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: مادامت الأرض أرضاً، والسماء سماءً.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، كقوله تعالى: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء، على أقوال كثيرة، حكاها الشيخ أبو الفرج بن الجوزي في كتابه «زاد المسير»^(٥)، وغيره من علماء التفسير، ونقل كثيراً منها الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله، في كتابه^(٦) واختار هو ما نقله عن خالد بن معدان، والضحاك، وقتاده، وأبي سنان، ورواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن أيضاً: أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، من الملائكة والنبیین والمؤمنين، حين يشفعون

(١) ورواه الترمذی فی السنن برقم (٣١١) عن بندار، عن أبي عامر العقدي - عبد الملك بن عمرو به - وقال الترمذی: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه لانعرفه إلا من حديث عبد الملك بن عمرو».

(٢) فی أ: «وبين». (٣) فی ت: «الغفر». (٤) فی ت: «يبدل بهما غير».

(٥) زاد المسير (٤/ ١٦٠، ١٦١).

(٦) تفسير الطبري (١٥/ ٤٨٥).

التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، من الملائكة والنبين والمؤمنين، حين يشفعون فى أصحاب الكباثر، ثم تأتى رحمة أرحم الراحمين، فتخرج من النار من لم يعمل خيراً قط، وقال يوماً من الدهر: لا إله إلا الله. كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك من حديث أنس، وجابر، وأبى سعيد، وأبى هريرة، وغيرهم من الصحابة^(١)، ولا يبقى بعد ذلك فى النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ولا محيد له عنها. وهذا الذى عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً فى تفسير هذه الآية الكريمة.

وقد روى فى تفسيرها عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وابن عباس، وابن مسعود^(٢)، وأبى هريرة، وعبد الله بن عمرو، وجابر، وأبى سعيد، من الصحابة. وعن أبى مجلز، والشعبى، وغيرهما من التابعين. وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وإسحاق بن راهويه وغيرهما من الأئمة - أقوال غريبة. وورد حديث غريب فى معجم الطبرانى الكبير، عن أبى أمامة صدق بن عجلان الباهلى، ولكن سنده ضعيف، والله أعلم.

وقال قتادة: الله أعلم بنيه.

وقال السدى: هى منسوخة بقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء: ٥٧].

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُودٍ﴾ (١٠٨).

يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا﴾ وهم أتباع الرسل، ﴿فِي الْجَنَّةِ﴾ أى: فماؤاهم الجنة، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ماكثين مقيمين فيها أبداً، ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾، معنى الاستثناء هاهنا: أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم، ليس أمراً واجبا بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم [دائماً]^(٣)، ولهذا يلهمون التسييح والتحميد كما يلهمون النفس.

وقال الضحاك، والحسن البصري: هى فى حق عصاة الموحدين الذين كانوا فى النار، ثم أخرجوا منها. وعقب ذلك بقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُودٍ﴾ أى: غير مقطوع^(٤) - قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية وغير واحد، لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاعاً، أو لبساً، أو شيئاً^(٥)، بل ختم له بالدوام وعدم الانقطاع. كما بين هنا^(٦) أن عذاب أهل النار فى النار دائماً مردود إلى مشيئته، وأنه^(٧) بعدله وحكمته عذبهم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، كما قال: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وهنا طيب القلوب وثبت المقصود بقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُودٍ﴾.

(١) انظر أحاديث الشفاعة عند تفسير سورة الإسراء فى أولها.

(٢) فى ت: «وابن مسعود وابن عباس».

(٣) زيادة من ت، أ.

(٤) فى ت: «ثم انقطاع أو لبس أو شيء».

(٥) فى أ: «منقطع».

(٦) فى ت: «وأن».

(٧) فى ت، أ: «هناك».

يا أهل الجنة، خلّود فلا (١) موت، ويا أهل النار، خلّود فلا (٢) موت (٣).

وفى الصحيحين (٤) أيضاً: «فيقال (٥): يا أهل الجنة، إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهزموا أبداً، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً» (٦).

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَهُمْ نَصِيهِمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (١٠٩) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لِيُوفَيْنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١)﴾.

يقول تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ المشركون، أنه باطل وجهل وضلال، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل، أى: ليس لهم مُستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء فى الجهالات، وسيجزئهم الله على ذلك أتم الجزاء فيعذب كافرهم عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين، وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها فى الدنيا قبل الآخرة.

قال سفيان الثوري، عن جابر الجعفي، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَإِنَّا لَمُوفُونَهُمْ نَصِيهِمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾، قال: ما (٧) وعدوا فيه من خير أو شر.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لموفوهم من العذاب نصيهم غير منقوص. ثم ذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب، فاختلف الناس فيه، فمن مؤمن به، ومن كافر به، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة، فلا يغيظنك تكذيبهم لك، ولا يهيدنك ذلك.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾: قال ابن جرير: لولا ماتقدم من تأجيله العذاب (٨) إلى أجل معلوم، لقضى الله بينهم.

ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحداً إلا بعدم (٩) قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه، كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]؛ فإنه قد قال فى الآية الأخرى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى. فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٢٩، ١٣٠].

(١، ٢) فى ت، أ: «بلا».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧٣٠) وصحيح مسلم برقم (٢٨٤٩) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه.

(٤) فى أ: «وفى الصحيح».

(٥) فى ت، أ: «فقال».

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٨٣٧) من حديث أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما، ولم أعثر عليه فى البخارى.

(٧) فى ت: «وبما».

(٨) فى ت: «العباد» وفى أ: «الميعاد».

(٩) فى ت، أ: «إلا بعد».

ثم أخبر أن الكافرين فى شك - مما جاءهم به الرسول - قوى، فقال: ﴿وَأَنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

ثم أخبرنا ^(١) تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم، ويجزيهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فقال: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَیُوفَّیْهِمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا یَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أى: علیم بأعمالهم جميعها، جلیلها وحقیقها، صغیرها وكبیرها.

وفى هذه الآية قراءات كثيرة، ويرجع معناها إلى هذا الذى ذكرناه، كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [یس: ٣٢].

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣)﴾.

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد ونهى عن الطغيان، وهو البغى، فإنه مَصْرَعَةٌ حتى ولو كان على مشرك. وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد، لا يغفل عن شيء، ولا يخفى عليه شيء.

وقوله: ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: لا تدهنوا.

وقال العوفى، عن ابن عباس: هو الركون إلى الشرك.

وقال أبو العالية: لا ترضوا أعمالهم.

وقال ابن جرير، عن ابن عباس: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا وهذا القول حسن، أى: لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بباقي صنيعهم، ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أى: ليس لكم من دونه ^(٢) من ولى ينقذكم، ولا ناصر يخلصكم من عذابه.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ

لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥)﴾.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ قال: يعنى الصبح والمغرب

وكذا قال الحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال الحسن - فى رواية - وقتادة، والضحاك، وغيرهم: هى الصبح والعصر.

وقال مجاهد: هى الصبح فى أول النهار، والظهر والعصر من آخره. وكذا قال محمد بن كعب

القرظى، والضحاك فى رواية عنه.

(٢) فى أ: «من دون الله».

(١) فى ت، أ: «ثم أخبر».

وقوله: ﴿وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغيرهم: يعنى صلاة العشاء.

وقال الحسن - فى رواية ابن المبارك، عن مبارك بن فضالة، عنه: ﴿وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ يعنى: المغرب والعشاء قال رسول الله ﷺ: «هما زُلْفَتَا^(١) الليل: المغرب والعشاء»^(٢). وكذا قال مجاهد، ومحمد بن كعب، وقتادة، والضحاك: إنها صلاة المغرب والعشاء.

وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء؛ فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها. وفى أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة، ثم نسخ فى حق الأمة، وثبت وجوبه عليه، ثم نسخ عنه أيضاً، فى قول، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، يقول: إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن، عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب قال: كنت إذا سمعتُ من رسول الله ﷺ حديثاً نفعنى الله بما شاء أن ينفعنى منه، وإذا حدثنى عنه أحد استحلفته، فإذا حلف لى صدقته، وحدثنى أبو بكر - وصدق أبو بكر - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يذنب ذنباً، فيتوضأ ويصلى ركعتين، إلا غفر له»^(٣).

وفى الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان: أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ، ثم قال: هكذا رأيتُ رسول الله يتوضأ، وقال: «من توضأ نحو وضوئى هذا، ثم صلى ركعتين لا يُحدِّثَ فيهما نفسه، غُفِرَ له ماتقدم من ذنبه»^(٤).

وروى الإمام أحمد، وأبو جعفر بن جرير، من حديث أبى عَقِيل زُهْرَةَ بن مَعْبُد: أنه سمع الحارث مولى عثمان يقول: جلس عثمان يوماً وجلسنا معه، فجاءه المؤذن، فدعا عثمان بماء فى إناء أظنه سيكون فيه قدر مُدٍّ، فتوضأ، ثم قال: رأيتُ رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئى هذا، ثم قال: «من توضأ وضوئى هذا، ثم قام فصلى^(٥) صلاة الظهر، غُفِرَ له ما كان بينه وبين صلاة الصبح، ثم صلى العصر غفر له ما بينه وبين صلاة الظهر، ثم صلى المغرب غفر له ما بينه وبين صلاة العصر، ثم صلى العشاء غفر له ما بينه وبين صلاة المغرب، ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته، ثم إن قام فتوضأ وصلى الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء، وهن الحسنات يذهبن السيئات»^(٦).

وفى الصحيح^(٧) عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أرأيتم لو أن

(١) فى ت: «زلفيا».

(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (٥٠٨/١٥).

(٣) المسند (٢/١) وسنن أبى داود برقم (١٥٢١) وسنن الترمذى برقم (٤٠٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٤٧) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٩٥) وقال الترمذى: «حديث على حديث حسن، لانعرفه إلا من هذا الوجه».

(٤) صحيح البخارى برقم (١٥٩) وصحيح مسلم برقم (٢٤٥).

(٥) فى ت: «يصلى».

(٦) المسند (٧١/١) وتفسير الطبرى (٥١١/١٥).

(٧) فى ت: «وفى الصحيحين».

بباب أحدكم نهراً غمراً يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يُبقى من درنه شيئاً؟ قالوا: لا، يا رسول الله. قال: «وكذلك الصلوات الخمس، يحو الله بهن الذنوب والخطايا»^(١).

وقال مسلم في صحيحه: حدثنا أبو الطاهر^(٢) وهارون بن سعيد قالا: حدثنا ابن وهب، عن أبي صخر: أن عمر بن إسحاق مولى زائدة حدثه عن أبيه، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مُكفَّرات ما بينهن إذا»^(٣) اجتنبت الكبائر»^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحَكَم بن نافع^(٥)، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن ضَمْضَم بن زُرْعَة، عن شُرَيْح بن عبيد، أن أبا رُهم السَّمْعَى كان يحدث: أن أبا أيوب الأنصاري حدثه أن النبي ﷺ كان يقول: «إن كل صلاة تحط ما بين يديها من خطيئة»^(٦).

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا محمد بن عوف^(٧)، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبي، عن ضَمْضَم بن زُرْعَة، عن شُرَيْح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «جعلت الصلوات كفارات لما بينهن؛ فإن الله قال: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾»^(٨).

وقال البخاري: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا يزيد بن زُرَيْع، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان النهدي، عن ابن مسعود؛ أن رجلاً أصاب من امرأة قُبْلَةً، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، فقال الرجل: ألى هذا يا رسول الله؟^(٩) قال: «لجميع أمتي كلهم».

هكذا رواه في كتاب الصلاة، وأخرجه في التفسير عن مُسَدَّد، عن يزيد بن زُرَيْع، بنحوه^(١٠). ورواه مسلم، وأحمد، وأهل السنن إلا أبا داود، من طرق عن أبي عثمان النهدي، واسمه عبدالرحمن ابن مَلٍّ، به^(١١).

وروى الإمام أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن جرير - وهذا لفظه -

(١) صحيح البخاري برقم (٥٢٨) وصحيح مسلم برقم (٦٦٧).

(٢) في ت: «أبو طاهر».

(٣) في ت: «ما».

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٣٣).

(٥) في أ: «بن رافع».

(٦) المسند (٤١٣/٥).

(٧) في ت: «عون».

(٨) تفسير الطبري (٥١٣/١٥) ومحمد بن إسماعيل ضعيف ولم يسمع من أبيه.

(٩) في ت: «يا رسول ألى هذا».

(١٠) صحيح البخاري برقم (٥٢٦) وبرقم (٤٦٨٧).

(١١) وصحيح مسلم برقم (٢٧٦٣) والمسند (٣٨٥/١) وسنن الترمذي برقم (٣١١٤) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٢٤٧) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٩٨).

من طُرُق: عن سِمَاك بن حرب: أنه سمع إبراهيم بن يزيد يُحدث عن علقمة والأسود، عن ابن مسعود قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ^(١) فقال: يا رسول الله، إني وجدت امرأة في بستان، ففعلت بها كل شيء، غير أني لم أجامعها، قَبَلْتُها ولزمتها، ولم أفعل غير ذلك، فافعل بي ما شئت. فلم يقل رسول الله ﷺ شيئاً، فذهب الرجل، فقال عمر: لقد ستر الله عليه، لو ستر على نفسه. فأتبعه رسول الله ﷺ بصره ثم قال: «ردوه عليّ». فردّوه عليه، فقرأ عليه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ﴾. فقال معاذ - وفي رواية عمر -: يا رسول الله، أله وحده، أم للناس كافة؟ فقال: «بل للناس كافة»^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا أبان بن إسحاق، عن الصباح بن محمد، عن مرة الهمداني، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم»^(٣)، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي^(٤) الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين^(٥) إلا من أحب. فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسى بيده، لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه. قال: قلنا: وما بوائقه يا نبي الله ﷺ؟ قال: «غشه وظلمه، ولا يكسب عبد مالا حراما فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»^(٧).

وقال ابن جرير: حدثنا أبو السائب، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم قال: كان فلان بن معتب رجلا من الأنصار، فقال: يا رسول الله، دخلت على امرأة فَنَلْتُ منها ما ينال الرجل من أهله، إلا أني لم أجامعها فلم يدر رسول الله ﷺ ما يجيبه، حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ﴾. فدعاه رسول الله، فقرأها عليه^(٩).

وعن ابن عباس: أنه عمرو بن غَزِيَّة الأنصاري التمار. وقال مقاتل: هو أبو نفيل عامر بن قيس الأنصاري، وذكر الخطيب البغدادي أنه أبو اليسر: كعب بن عمرو.

(١) في ت، أ: «رسول الله».

(٢) المسند (٤٤٥/١) وصحيح مسلم برقم (٢٧٦٣) وسنن أبي داود برقم (٤٤٦٨) وسنن الترمذي برقم (٣١١٢) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٧٣٢٣) وتفسير الطبري (٥١٥/١٥).

(٣) في ت، أ: «أجالكم». (٤) في ت: «معطى». (٥) في ت، أ: «الأخرة».

(٦) في أ: «يا رسول الله».

(٧) المسند (٣٨٧/١).

(٨) في ت، أ: «أقم» وهو خطأ.

(٩) تفسير الطبري (٥١٩/١٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس وعفان قالا: حدثنا حماد - يعني: ابن سلمة - عن علي بن زيد - قال عفان: أنبأنا علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس؛ أن رجلاً أتى عمر قال^(١): امرأة جاءت تباعه، فأدخلتها الدولج، فأصبت منها ما دون الجماع، فقال: ويحك. لعلها مغيبة في سبيل الله؟ قال: أجل. قال: فأتى أبا بكر فأسأله^(٢). قال: فاتاه فسأله، فقال: لعلها مغيبة في سبيل الله؟ فقال مثل قول عمر، ثم أتى النبي ﷺ فقال له مثل ذلك، قال: «فلعلها مغيبة في سبيل الله». ونزل القرآن: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ إلى آخر الآية، فقال: يا رسول الله، إلى خاصة أم للناس عامة؟ فضرب - يعني: عمر - صدره^(٣) بيده وقال: لا، ولا نعمة عين، بل للناس عامة. فقال رسول الله ﷺ: «صدق عمر»^(٤).

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير من حديث قيس بن الربيع، عن عثمان بن موهب، عن موسى ابن طلحة، عن أبي اليسر كعب بن عمرو الأنصاري قال: أتتني امرأة تبتاع مني بدرهم تمرا، فقلت: إن في البيت تمرا أطيب وأجود من هذا، فدخلت، فأهويت إليها فقبلتها، فأتيت عمر فسألته، فقال: اتق الله، واستر على نفسك، ولا تخبرن أحدا. فلم أصبر حتى أتيت أبا بكر فسألته، فقال: اتق الله، واستر على نفسك، ولا تخبرن أحدا. قال: فلم أصبر حتى أتيت النبي ﷺ، فأخبرته، فقال: «أخلفت رجلاً غازيا في سبيل الله في أهله بمثل هذا؟» حتى ظننت أني من أهل النار، حتى تمنيت أني أسلمت ساعتئذ. فأتى رسول الله ﷺ ساعة، فنزل جبريل، فقال: «[أين]»^(٥) أبو اليسر؟. فجئت، فقرأ على: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ إلى ﴿ذِكْرُنِي لِلذَّاكِرِينَ﴾، فقال إنسان: يا رسول الله، أله خاصة أم للناس عامة؟ قال^(٦): «لناس عامة»^(٧).

وقال الحافظ أبو الحسن الدارقطني: حدثنا الحسين بن إسماعيل المحاملي، حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا جرير، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن معاذ بن جبل؛ أنه كان قاعدا عند النبي ﷺ فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، ما تقول في رجل أصاب من امرأة لا تحل له، فلم يدع شيئا يصيبه الرجل من امرأته إلا قد أصاب منها، غير أنه لم يجامعها؟ فقال له النبي ﷺ: «توضأ وضوءا حسنا، ثم قم فصل»^(٨). قال: فأنزل الله عز وجل هذه الآية، يعني قوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾، فقال معاذ: أهي له خاصة أم للمسلمين عامة؟ قال: «بل للمسلمين عامة».

(١) في ت: «فقال».

(٢) في ت: «فأسأله».

(٣) في ت، أ: «أقم» وهو خطأ.

(٤) في ت: «عن صدره».

(٥) المسند (٢٤٥/١) وعلى بن زيد ضعيف.

(٦) في ت: «فقال».

(٧) زيادة من ت، أ، والطبري.

(٨) تفسير الطبري (٥٢٣/١٥).

(٩) في ت: «فصلى».

ورواه ابن جرير من طرق، عن عبد الملك بن عمير، به^(١).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا محمد بن مسلم، عن عمرو بن دينار، عن يحيى بن جعدة؛ أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ ذكر امرأة وهو جالس مع رسول الله ﷺ، فاستأذنه لحاجة، فأذن له، فذهب يطلبها فلم يجدها، فأقبل الرجل يريد أن يبشر النبي ﷺ بالمطر، فوجد المرأة جالسة على غدير، فدفع في صدرها وجلس بين رجلها، فصار ذكره مثل الهذبة، فقام نادماً حتى أتى النبي ﷺ فأخبره بما صنع، فقال له: «استغفر ربك، وصل أربع ركعات». قال: وتلا عليه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفاً مِنَ اللَّيْلِ﴾ الآية^(٢).

وقال ابن جرير: حدثني عبد الله بن أحمد بن شبيب، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثني عمرو ابن الحارث حدثني عبد الله بن سالم، عن الزبيدي، عن سليم بن عامر؛ أنه سمع أبا أمامة يقول: إن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أقم في حد الله - مرة أو ثنتين - فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ثم أقيمت الصلاة، فلما فرغ النبي ﷺ من الصلاة قال: «أين هذا الرجل القائل: أقم في حد الله؟» قال: أنا ذا: قال: «أتممت الوضوء وصليت معنا آتفا؟» قال: نعم. قال: «فإنك من خطيئتك كما ولدتك أمك، ولا تعد». وأنزل الله على رسول الله ﷺ^(٣): ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ﴾^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أنبأنا علي بن زيد، عن أبي عثمان قال: كنت مع سلمان الفارسي تحت شجرة، فأخذ منها غصناً يابساً فهزّه حتى تحات ورقة^(٥)، ثم قال: يا أبا عثمان، ألا تسألني لم أفعل هذا؟ فقلت: لم تفعله^(٦)؟ قال: هكذا فعل بي رسول الله ﷺ وأنا معه تحت شجرة، فأخذ منها يابساً فهزّه حتى تحات ورقة، فقال: «يا سلمان، ألا تسألني: لم أفعل هذا؟». قلت: ولم تفعله؟ فقال: «إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم صلى الصلوات الخمس، تحات خطاياه كما يتحات^(٧) هذا الورق. وقال: ﴿وَأَقِمِ^(٨) الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ﴾^(٩).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن حبيب بن أبي ثابت، عن ميمون بن أبي

(١) سنن الدارقطني (١٣٤/١) وتفسير الطبري (٥٢٠/١٥ - ٥٢٢) ورواه الترمذي في السنن برقم (٣١١٣) من طريق عبد الملك بن عمير به، وقال الترمذي: «هذا حديث ليس إسناده بم متصل، عبد الله بن أبي ليلى لم يسمع من معاذ، وروى شعبة هذا الحديث عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن النبي ﷺ، مرسل».

(٢) تفسير عبد الرزاق (٢٧٤/١).

(٣) في ت: «على رسوله».

(٤) تفسير الطبري (٥٢١/١٥) ورواه مسلم في صحيحه برقم (٢٧٦٥) من طريق شداد بن عبد الله، عن أبي أمامة بنحوه.

(٥) في ت، أ: «ورقه». (٦) في ت: «قلت ولم يفعله». (٧) في ت: «يتحات».

(٨) في ت: «أقم» وهو خطأ.

(٩) المسند (٤٣٧/٥).

شبيب، عن معاذ، رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال له: «يا معاذ، أتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»^(١).

وقال الإمام أحمد، رضى الله عنه: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن حبيب، عن ميمون بن أبي شبيب، عن أبي ذر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»^(٢).

وقال أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شمر بن عطية، عن أشياخه، عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، أوصني. قال: «إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها». قال: قلت: يا رسول الله، أمن الحسنات: لا إله إلا الله؟ قال: «هى أفضل الحسنات»^(٣).

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا هذيل بن إبراهيم الجُماني، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الزهرى، من ولد سعد بن أبي وقاص، عن الزهرى، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قال عبْد: لا إله إلا الله، فى ساعة من ليل أو نهار، إلا طَلَسْتُ ما فى الصحيفة من السيئات، حتى تسكن إلى مثلها من الحسنات»^(٤).

عثمان بن عبد الرحمن، يقال له: الوقاصى. فيه ضعف.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا بشر بن آدم وزيد بن أكرم قالوا: حدثنا الضحاك بن مخلد، حدثنا مستور بن عباد، عن ثابت، عن أنس؛ أن رجلا قال: يا رسول الله، ما تركت من حاجة ولا داجة، فقال رسول الله ﷺ: «تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله؟». قال: بلى. قال: «فإن هذا يأتى على ذلك»^(٥).

تفرد به من هذا الوجه مستور.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧)﴾.

يقول تعالى: فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، ينهون عما كان يقع بينهم من

(١) المسند (٢٢٨/٥).

(٢) فى ت، أ: «أن النبى».

(٣) المسند (١٥٣/٥).

(٤) المسند (١٦٩/٥).

(٥) مسند أبى يعلى (٢٠٤/٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٨٢/١٠): «فيه عثمان بن عبد الرحمن الزهرى، وهو متروك».

(٦) مسند البزار برقم (٣٠٦٧) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (٨٣/١٠): «رجاله ثقات».

الشُرور والمنكرات والفساد في الأرض.

وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى: قد وُجد منهم من هذا الضرب قليل، لم يكونوا كثيرًا، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غيرِهِ، وفجأة نَقَمَهُ؛ ولهذا أمر تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وفى الحديث: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أى: استمروا على ما هم فيه من المعاصي والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك، حتى فجأهم العذاب، ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهى ظالمة [لنفسها]^(١)، ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يَكُونُوا هم الظالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۚ (١١٨) إِلَّا مِنْ رَحْمِ رَبِّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)﴾.

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلَّهم أمة واحدة، من إيمان أو كفران^(٢)، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۚ إِلَّا مِنْ رَحْمِ رَبِّكَ﴾ أى: ولا يزال الخُلُفُ بين الناس فى أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم.

قال عكرمة^(٣) عكرمة: ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾ فى الهدى^(٤). وقال الحسن البصرى: ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾ فى الرزق، يُسَخَّر بعضهم بعضا، والمشهورُ الصحيح الأول.

وقوله: ﴿إِلَّا مِنْ رَحْمِ رَبِّكَ﴾ أى: إلا المرحومين من أتباع الرسل، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين^(٥). أخبرتهم به رسل الله إليهم، ولم يزل ذلك دأبهم، حتى كان النبى ﷺ الأُمى خاتم الرسل والأنبياء، فاتبعوه وصدقوه، ونصروه ووازره، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة؛ لأنهم الفرقة الناجية، كما جاء فى الحديث المروى فى المسانيد والسنن، من طرق يشد بعضها بعضا: «إن اليهود افترقت على

(٣) فى ت، أ: «وقال».

(٢) فى ت، أ: «وكفران».

(١) زيادة من ت، أ.

(٥) فى ت: «الذى»، وفى أ: «الذين».

(٤) فى ت، أ: «الهوى».

إحدى^(١) وسبعين فرقة، وإن النصارى افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي^(٢) على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا فرقة واحدة». قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي».

رواه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة^(٣).

وقال عطاء: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ يعني: اليهود والنصارى والمجوس ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ يعني: الحنيفية.

وقال قتادة: أهل رحمة الله أهل الجماعة، وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم، وأهل معصيته أهل فرقة، وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم.

وقوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾: قال الحسن البصري - في رواية عنه -: وللاختلاف خلقهم.

وقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: خ لقمهم فريقين، كقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].

وقيل: للرحمة خلقهم. قال ابن وهب: أخبرني مسلم بن خالد، عن ابن أبي نجيح، عن طاوس؛ أن رجلين اختصما إليه فأكثر^(٤)، فقال طاوس: اختلفتما فأكثرتما^(٥)! فقال أحد الرجلين: لذلك خلقنا. فقال طاوس: كذبت. فقال: أليس الله يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، قال: لم يخلقهم ليختلفوا، ولكن خلقهم للجماعة والرحمة. كما قال الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب. وكذا قال مجاهد والضحاك وقاتدة. ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقيل: بل المراد: وللرحمة والاختلاف خلقهم، كما قال الحسن البصري في رواية عنه في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال: الناس مختلفون على أديان شتى، ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾، فمن رحم ربك غير مختلف. قيل له: فلذلك خلقهم؟ [قال]^(٦) خلق هؤلاء لجنته، وخلق هؤلاء لناره، وخلق هؤلاء لرحمته، وخلق هؤلاء لعذابه.

وكذا^(٧) قال عطاء بن أبي رباح، والأعمش.

وقال ابن وهب: سألت مالكا عن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، قال: فريق في الجنة وفريق في السعير.

(١) في أ: «اثنتين».

(٢) في أ: «هذه الأمة».

(٣) سبق تخريجه عند تفسير الآية: ٩٣ من سورة يونس.

(٤) في ت: «فأكثروا».

(٥) في ت: «وأكثرتما».

(٦) زيادة من ت.

(٧) في ت: «وكذلك».

وقد اختار هذا القول ابن جرير، وأبو عبيدة^(١)، والفراء.

وعن مالك فيما روينا عنه فى التفسير: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال: للرحمة، وقال قوم: للاختلاف.

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾: يخبر تعالى أنه قد سبق فى قضائه وقدره، لعلمه التام وحكمته النافذة، أن ممن^(٢) خلقه من يستحق الجنة، ومنهم من يستحق النار، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس، وله الحجة البالغة والحكمة التامة. وفى الصحيحين عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «اختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: مالى لا يدخلنى إلا ضَعْفَةُ الناس وسَقَطُهُم؟ وقالت النار: أوثرت بالتكبرين والمتجبرين. فقال الله عز وجل للجنة، أنت رحمتى أرحم بك من أشاء. وقال للنار: أنت عذابى، أنتقم بك ممن أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها. فأما الجنة فلا يزال فيها فضل، حتى ينشئ الله لها خلقا يسكن فضل الجنة، وأما النار فلا تزال تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع عليه رب العزة قدمه، فتقول: قَطُّ قط، وعزتك»^(٣).

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْثِي بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٠).

يقول تعالى: وكل أخبار نقصها عليك، من أنباء الرسل المتقدمين قبلك مع أهمهم، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداء الكافرين - كل هذا مما نثبت به فؤادك - يا محمد - أى: قلبك، ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة.

وقوله: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أى: [فى]^(٤) هذه السورة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وجماعة من السلف. وعن الحسن - فى رواية عنه - وقتادة: فى هذه الدنيا.

والصحيح: فى هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف نجاهم^(٥) الله والمؤمنين بهم، وأهلك الكافرين، جاءك فيها قصص حق، ونبا صدق، وموعظة يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتوقر^(٦) بها المؤمنون.

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ (١٢١) **وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ** (١٢٢).

(١) فى ت، أ: «أبو عبيد».

(٢) فى ت، أ: «من».

(٣) صحيح البخارى برقم (٧٤٤٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٤٦).

(٦) فى ت، أ: «يتذكر».

(٥) فى ت، أ: «أنجاهم».

(٤) زيادة من أ.

يقول تعالى أمرا رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد: ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أى: على طريقته ومنهجكم، ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ أى: على طريقتنا ومنهجنا، ﴿وَأَنْتَظِرُونَ﴾ أى: فستعلمون من تكون له عاقبة الدار، إنه لا يفلح الظالمون.

وقد أنجز الله لرسوله وعده، ونصره وأيده، وجعل كلمته هى العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٣).

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه إليه المرجع والمآب، وسيُوقَى كل عامل عمله يوم الحساب، فله الخلق والأمر. فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه؛ فإنه كاف من توكل عليه وأنا بـ إليه.

وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(١) أى: ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد، بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء فى الدنيا والآخرة، وسينصرك وحزبك عليهم فى الدارين.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا زيد بن الحباب، عن جعفر بن سليمان، عن أبى عمران الجونى، عن عبد الله بن رباح، عن كعب^(٢) قال: خاتمة «التوراة» خاتمة «هود» [والله أعلم]^(٣).

تم تفسير سورة هود

تفسير سورة يوسف

[وهى مكية] ^(١).

روى الثعلبى وغيره، من طريق سَلَام بن سلم - ويقال: سليم - المدائنى، وهو متروك، عن هارون بن كثير - وقد نصّ على جهالته أبو حاتم - عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن أبى أمامة، عن أبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «علموا أرقاءكم سورة يوسف، فإنه أيما مسلم تلاها، أو علمها أهله، أو ما ^(٢) ملكت يمينه، هَوَّنَ الله عليه سكرات الموت، وأعطاه من القوة ألا يحسد مسلماً» ^(٣).

وهذا من هذا الوجه لا يصح، لضعف إسناده بالكلية. وقد ساق له ^(٤) الحافظ ابن عساكر متابعاً من طريق القاسم بن الحكم، عن هارون بن كثير، به - ومن طريق شَبَّابة، عن مخلد بن عبد الواحد البصرى ^(٥)، عن على بن زيد بن جدعان - وعن عطاء بن أبى ميمونة، عن زر بن حبيش، عن أبى ابن كعب، عن النبى ﷺ - فذكر نحوه ^(٦). وهو منكر من سائر طرقه.

وروى البيهقى فى «الدلائل» أن طائفة من اليهود حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة أسلموا لموافقتها ما عندهم. وهو من رواية الكلبي، عن أبى صالح، عن ابن عباس.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ (٣)﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم فى أول سورة «البقرة».

وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أى: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن، ﴿الْمُبِينِ﴾ أى: الواضح الجلى، الذى يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسرها ويبينها ^(٧).

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعانى التى تقوم بالنفوس؛ فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة ^(٨) أشرف الملائكة، وكان ذلك فى أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله فى أشرف

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت: «وما».

(٣) تفسير الثعلبى (٧/ ل ٦١ «المحمودية») وأورده الزيلعى فى تخريج الكشاف (١٧٩/٢) من رواية الثعلبى فى تفسيره، ورواه الواحدى فى الوسيط (٥٩٩/٢) من طريق إبراهيم بن شريف عن أحمد بن يونس عن سلام بن سليم به.

(٤) فى جميع النسخ: «وقد ساقه» وهذا التعبير غير صحيح.

(٥) جميع النسخ: «محمد بن عبد الواحد النضرى»، وفى أ، ت: «مخلد بن عبد الواحد النضرى» والصواب ما أثبتناه.

(٦) نقله الزيلعى فى تخريج الكشاف (١٨٠/٢) عن المؤلف. (٧) فى ت: «وتفسيرها وتبينها». (٨) فى ت: «كسفارة».

شهور السنة وهو رمضان، فأكمل من كل الوجوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾، بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن.

وقد وردَ في سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن جرير:

حدثني نصر بن عبد الرحمن الأودي^(١)، حدثنا حكام الرازي، عن أيوب، عن عمرو - هو ابن قيس الملائي - عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا؟ فنزلت: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾^(٢).

ورواه من وجه آخر، عن عمرو بن قيس مرسلًا.

وقال أيضًا: حدثنا محمد بن سعيد^(٣) العطار^(٤)، حدثنا عمرو بن محمد، أنبأنا خلاد الصفار، عن عمرو بن قيس، عن عمرو بن مرة^(٥)، عن مصعب بن سعد عن سعد قال: أنزل على النبي ﷺ القرآن، قال: فتلا عليهم زمانا، فقالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا. فأنزل الله عز وجل: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٦). ثم تلا عليهم زمانا، فقالوا: يا رسول الله، لو حدثنا. فأنزل الله عز وجل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ الآية [الزمر: ٢٣]، وذكر الحديث.

ورواه الحاكم من حديث إسحاق بن رَاهَوِيه، عن عمرو بن محمد القرشي العنقزي، به^(٧).

وروى ابن جرير بسنده^(٨)، عن المسعودي، عن عَوْنِ بن عبد الله قال: مَلَّ أصحابُ رسول الله ﷺ مَلَّةً، فقالوا: يا رسول الله، حدثنا. [فأنزل الله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾، ثم مَلَّوا ملة أخرى فقالوا: يا رسول الله، حدثنا]^(٩) فوق الحديث ودون القرآن - يعنون القصص - فأنزل الله: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾، فأرادوا الحديث، فدلَّهم على أحسن الحديث، وأرادوا القصص فدلَّهم على أحسن القصص^(١٠).

ومما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة، المشتملة على مدح القرآن، وأنه كاف عن كل ما سواه من الكتب ما قال الإمام أحمد:

حدثنا سُرَيْجُ بن النعمان، أخبرنا هُشَيْمٌ، أنبأنا مجالد، عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله؛ أن

(١) في ت: «الأودي».

(٢) تفسير الطبري (٥٥٢/١٥).

(٣) في أ: «سعد».

(٤) في ت، أ: «القطان».

(٥) في ت، أ: «قرة».

(٦) في ت: «﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الآية».

(٧) تفسير الطبري (٥٥٣/١٥) والمستدرک (٣٤٥/٢) وقال: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وحسنه الحافظ ابن

حجر في المطالب العالية برقم (٣٦٥٢).

(٨) في ت: «بسند».

(٩) زيادة من ت، أ، والطبري.

(١٠) تفسير الطبري (٥٥٢/١٥).

عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ فغضب وقال: «أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسى بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه، أو يباطل فتصدقونه، والذي نفسى بيده، لو أن موسى كان حياً، لما ^(١)وسعه إلا أن يتبعنى» ^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن جابر، عن الشعبي، عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني مررت بأخ لى من قريظة، فكتب لى جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ. قال عبد الله بن ثابت: فقلت له: ألا ترى ما بوجه ^(٣) رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولا. قال: فسرى عن النبي ^(٤) وقال: «والذى نفس محمد بيده، لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظى من الأمم، وأنا حظكم من النبيين» ^(٥).

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا عبد الغفار بن عبد الله بن الزبير، حدثنا على بن مسهر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن خليفة بن قيس، عن خالد بن عرفطة قال: كنت جالساً عند عمر، إذ أتى برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس، فقال له عمر: أنت فلان بن فلان العبدى؟ قال: نعم. قال: وأنت النازل بالسوس، قال: نعم. فضربه بقناة معه، قال: فقال الرجل: ما لى يا أمير المؤمنين؟ فقال له عمر: اجلس. فجلس، فقرأ عليه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أَلَمْ تَلِكْ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ [أَحْسَنَ الْقَصَصِ] ^(٦)﴾ إلى قوله: ﴿لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾، فقرأها ^(٧) ثلاثاً، وضربه ثلاثاً، فقال له الرجل: ما لى يا أمير المؤمنين؟ فقال: أنت الذى نسخت كتاب دانيال! قال: مرنى بأمرك أتبعه. قال: انطلق فامحه بالحميم والصوف الأبيض، ثم لا تقرأه ^(٨) ولا تُقرئه أحداً من الناس، فلتن بلغنى عنك أنك قرأته أو أقرأته أحداً من الناس لأنه كنك عقوبة، ثم قال له: اجلس، فجلس بين يديه، فقال: انطلقت أنا فانتسخت كتاباً من أهل الكتاب، ثم جئت به فى أديم، فقال لى رسول الله ﷺ: «ما هذا فى يدك يا عمر؟». قال: قلت: يا رسول الله، كتاب نسخته ليزداد ^(٩) به علماً إلى علمنا. فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرت وجنتاه، ثم نودى بالصلاة جامعة، فقالت الأنصار: أغضب نبيكم ﷺ؟ السلاح السلاح. فجاؤوا حتى أهدقوا بمنبر رسول الله ﷺ، فقال: «يا أيها الناس، إنى قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه، واختصر لى اختصاراً، ولقد أتيتكم بها

(١) فى ت: «ما».

(٢) المسند (٣/٣٧٨).

(٣) فى ت: «ما توجه».

(٤) المسند (٣/٣٦٥).

(٥) فى ت، أ: «فقرأها عليه».

(٦) زيادة من ت.

(٨) فى ت: «لا يقرأ».

(٩) فى ت: «ليزداد».

بيضاء نقية فلا تَتَهَوَّكُوا، ولا يغرنكم المتَهَوَّكُونَ». قال عمر: ففقت فقلت: رضيت بالله ربا وبالإسلام ديناً، وبك رسولا. ثم نزل رسول الله ﷺ^(١).

وقد رواه ابن أبي حاتم في تفسيره مختصراً، من حديث عبد الرحمن بن إسحاق، به. وهذا حديث غريب من هذا الوجه. وعبد الرحمن بن إسحاق هو أبو شَيْبَةَ^(٢) الواسطي، وقد ضعفه وشيخه. قال البخاري: لا يصح حديثه.

قلت: وقد روى له شاهد من وجه آخر، فقال الحافظ أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي: أخبرني الحسن بن سفيان، حدثنا يعقوب بن سفيان، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الزبيدي، حدثني عمرو بن الحارث، حدثنا عبد الله بن سالم الأشعري، عن الزبيدي، حدثنا سليم بن عامر: أن جُبَيْرَ بن نُفَيْرٍ حَدَّثَهُمْ: أن رجلين كانا بحمص في خلافة عمر، رضى الله عنه، فأرسل إليهما فيمن أرسل من أهل حمص، وكانا قد اكتبا من اليهود صلاصة^(٣) فأخذاها معهما يستفتيان فيها أمير المؤمنين ويقولون: إن رضيها لنا أمير المؤمنين ازددنا فيها رغبة. وإن نهانا عنها رفضناها، فلما قدما عليه قالوا: إنا بأرض أهل الكتابين، وإنا نسمع منهم كلاماً تقشعر منه جلودنا، أفنأخذ منه أو نترك؟ فقال: لعلكما كتبتما منه شيئاً. قالوا^(٤): لا. قال: سأحدثكما، انطلقت في حياة رسول الله ﷺ^(٥) حتى أتيت خير، فوجدت يهودياً يقول قولاً أعجبني، فقلت: هل أنت مكتبي ما تقول؟ قال: نعم. فأتيت بأديم، فأخذ يعلو على، حتى كتبت في الأكرع. فلما رجعت قلت: يا نبي الله، وأخبرتة، قال: «أنتني به». فانطلقت أرغب عن المشي رجاء أن أكون أتيت^(٦) رسول الله ﷺ ببعض ما يحب، فلما أتيت به قال: «اجلس اقرأ على». فقرأت ساعة، ثم نظرت إلى وجهه فإذا هو يتلون، فتحيرت من الفرق، فما استطعت أجيز^(٧) منه حرفاً، فلما رأى الذي بي دفعه^(٨)، ثم جعل يتبعه رسماً رسماً فيمحوه بريقه، وهو يقول: «لا تتبعوا هؤلاء، فإنهم قد هوكوا وتَهَوَّكُوا»، حتى محا آخره حرفاً حرفاً. قال عمر، رضى الله عنه: فلو علمت أنكما كتبتما منه شيئاً جعلتكما نكالا لهذه الأمة! قالوا: والله ما نكتب منه شيئاً أبداً. فخرجنا بصلاصفتهم^(٩)، فحفرها لها^(١٠) فلم يألوا أن يعمقاً، ودفناها

(١) لم أعثر عليه في المطبوع من مسند أبي يعلى، وأورده الهيثمي في المجمع (١٨٢/١) وقال: «رواه أبو يعلى، وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي، ضعفه أحمد وجماعة». ورواه المقدسي في المختارة برقم (١١٥) من طريق أبي يعلى وقال: «عبد الرحمن بن إسحاق أخرج له مسلم وابن حبان». يقصد عبد الرحمن بن إسحاق المدني وهو أثبت من الواسطي وفترتهما متقاربة، لكن المزني ذكر على بن مسهر من الرواة عن الواسطي الضعيف، وقد رجح المؤلف هنا أنه الواسطي. وكذا في مسند عمر بن الخطاب (٥٩١/٢) وقال: «وزعم الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «المختارة» أنه الذي روى له مسلم كما (أظن صوابه كذا) قال: وأما شيخه خليفة بن قيس فقال فيه أبو حاتم الرازي: شيخ ليس بالمعروف. وقال البخاري: لم يصح حديثه».

(٢) في ت: «ابن شيبَةَ». (٣) في هـ: «ملاصق» بدون نقط، والمثبت من ت، أ. (٤) في ت، أ: «فقالا».

(٥) في ت: «النبي». (٦) في ت: «جئت».

(٨) في ت: «دفعته». (٩) في هـ، ت: «بصفيهما» والمثبت من أ.

(١٠) في ت: «فحفرها».

فكان آخر العهد منها^(١).

وكذا روى الثورى، عن جابر بن يزيد الجعفى، عن الشعبى، عن عبد الله بن ثابت الأنصارى، عن عمر بن الخطاب، بنحوه^(٢). وروى أبو داود فى المراسيل، من حديث أبى قلابة، عن عمر بن الخطاب، بنحوه^(٣). والله أعلم.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (٤).

يقول تعالى: اذكر لقومك يا محمد فى قصصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه، وأبوه هو: يعقوب، عليه السلام، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

انفرد بإخراجه البخارى، فرواه^(٤) عن عبد الله بن محمد، عن عبد الصمد به^(٥). وقال البخارى أيضاً:

حدثنا محمد، أخبرنا عبدة، عن عبيد الله، عن سعيد بن أبى سعيد، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: سئل رسول الله ﷺ: أى الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف نبى الله، ابن نبى الله، ابن خليل الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألونى؟» قالوا: نعم. قال: «فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا». ثم قال: تابعه أبو أسامة، عن عبيد الله^(٦).

وقال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وحى.

وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام: أن الأحد عشر كوكبا عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلا [سواه]^(٧)، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه. روى هذا عن ابن عباس، والضحاك،

(١) ورواه أبو نعيم فى الحلية (١٣٦/٥) عن الطبرانى، عن عمرو بن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الحمصى، عن أبيه، عن عمرو بن الحارث به.

(٢) سبق تخريجه فى المسند.

(٣) المراسيل برقم (٤٥٥).

(٤) فى أ: «ورواه».

(٥) المسند (٩٦/٢) وصحيح البخارى برقم (٤٦٨٨).

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٩).

(٧) زيادة من ت.

وقتادة، وسفيان الثوري، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة، وقيل: ثمانين سنة، وذلك حين رفع أبويه على العرش، وهو سرير، وإخوته بين يديه: ﴿وَحَرُّوا لَهُ سَجْدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠].

وقد جاء في حديث تسمية هذه الأحد عشر كوكبا - فقال الإمام أبو جعفر بن جرير.

حدثني علي بن سعيد الكندي، حدثنا الحكم بن ظهير، عن السدي، عن عبد الرحمن بن سابط، [عن جابر]^(١) قال: أتى النبي ﷺ رجل من يهود يقال له: «بستانة اليهودي»، فقال له: يا محمد، أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف أنها ساجدة له، ما أسماؤها؟ قال: فسكت النبي ﷺ ساعة فلم يجبه بشيء، ونزل [عليه]^(٢) جبريل، عليه السلام، فأخبره بأسمائها. قال: فبعث رسول الله ﷺ إليه فقال: «هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟» فقال: نعم. قال: «خرتان»^(٣)، والطارق، والذئال^(٤)، وذو الكنفات، وقابس، ووثاب، وعمودان، والفيلق، والمصبح، والضروح، وذو الفرغ، والضياء، والنور، فقال اليهودي: إى والله، إنها لأسماؤها^(٥).

ورواه البيهقي في «الدلائل»، من حديث سعيد^(٦) بن منصور، عن الحكم بن ظهير. وقد روى هذا الحديث الحافظان أبو يعلى الموصلي وأبو بكر البزار في مسنديهما، وابن أبي حاتم في تفسيره^(٧)، أما أبو يعلى فرواه عن أربعة من شيوخه عن الحكم بن ظهير، به وزاد: قال رسول الله ﷺ: «لما رآها يوسف قصصها على أبيه يعقوب، فقال له أبوه: هذا أمر متشتت يجمعه الله من بعد؛ قال: والشمس أبوه، والقمر أمه».

تفرد به الحكم بن ظهير الفزارى^(٨)، وقد ضَعَفَ الأئمة، وتركه الأكثرون، وقال الجوزجاني: ساقط، وهو صاحب حديث حسن يوسف.

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ

مُبِينٌ ﴿٥﴾﴾

(١)، (٢) زيادة من ت، أ، والطبرى.

(٣) فى هـ: «خرتان» وفى ت، أ: «جربان» والمثبت من ميزان الاعتدال ٥٧٢/١. مستفاد من ط. الشعب.

(٤) فى ت: «والدئال».

(٥) تفسير الطبرى (٥٥٥/١٥).

(٦) فى ت: «سعد».

(٧) دلائل النبوة للبيهقى (٢٧٧/٦) ومسند البزار برقم (٢٢٢٠) «كشف الأستار». وقد وقع اختلاف فى أسماء الكواكب فى هذه المصادر وليست بالمهمة، والحديث حكم عليه ابن الجوزى بالوضع.

(٨) لم يتفرد به بل توبع، فرواه الحاكم فى المستدرک (٣٩٦/٤) من طريق طلحة عن أسباط بن نصر، عن السدى، عن عبد الرحمن بن سابط، عن جابر به نحوه، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» قال الزيلعى: «وسند الحاكم وارد على البزار فى قوله: لا نعلم له طريقاً غيره، وعلى البيهقى فى قوله: تفرد به الحكم بن ظهير ولهما عذرهما» تخريج الكشاف (١٦١/٢).

يقول تعالى مخبراً عن قيل يعقوب لابنه يوسف حين قصّ عليه ما رأى من هذه الرؤيا، التي تعبّرها خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً، بحيث يخرون له ساجدين إجلالاً وإكراماً واحتراماً^(١)، فخشى يعقوب، عليه السلام، أن يحدث بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدوه^(٢) على ذلك، فيبغوا له الغوائل، حسداً منهم له؛ ولهذا قال له: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أى: يحتالوا لك حيلة يُرَدُّونَكَ فيها. ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به، وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر وليتفل عن يساره ثلاثاً، وليستعذ بالله من شرها، ولا يحدث بها أحداً، فإنها لن تضره»^(٣). وفى الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد، وبعض أهل السنن، من رواية معاوية بن حيدة القشيري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعبر، فإذا عُبِرَتْ وقعت»^(٤). ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر، كما ورد فى حديث: «استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها، فإن كل ذى نعمة محسود»^(٥).

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٦).

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لولده يوسف: إنه كما اختارك^(٦) ربك، وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك، ﴿كَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أى: يختارك ويصطفيك لنبوته، ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾: قال مجاهد وغير واحد: يعنى تعبير الرؤيا.

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أى: بإرسالك والإيحاء إليك؛ ولهذا قال: ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو الخليل، ﴿وَإِسْحَاقَ﴾ ولده، وهو الذبيح فى قول، وليس بالرجيح، ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى: [هو]^(٧) أعلم حيث يجعل رسالاته، كما قال فى الآية الأخرى.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْمُتَسَائِلِينَ﴾ (٧) إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ

(١) فى ت، أ: «واحتراماً وإكراماً».

(٢) جاء من حديث جابر، وأم سلمة، وأبى قتادة: أما حديث جابر، فرواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٢٦٢)، وأما حديث أم سلمة، فرواه النسائي فى السنن الكبرى برقم (١٠٧٤١)، وأما حديث أبى قتادة، فرواه أحمد فى المسند (٢٩٦/٥) وهذا لفظه.

(٤) لم أشر عليه من حديث معاوية، وإنما من حديث لقيط بن عامر رضى الله عنه، رواه أحمد فى المسند (١٠/٤) وأبو داود فى السنن برقم (٥٠٢٠) والترمذى فى السنن برقم (٢٢٧٨) وابن ماجه فى السنن برقم (٣٩١٤).

(٥) رواه العقيلي فى الضعفاء (١٠٩/٢) وابن عدى فى الكامل (٤٠٤/٣) وأبو نعيم فى الحلية (٩٦/٦) من طريق سعيد بن سالم العطار عن ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان عن معاذ به مرفوعاً، وأورده ابن الجوزى فى الموضوعات (١٦٥/٢) وقال أبو حاتم فى العلل (٢٥٨/٢): «حديث منكر». وأفته سعيد بن سلام العطار فهو كذاب.

(٦) فى ت: «اختار».

(٧) زيادة من ت.

أَبْيَكُمُ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴿١٠﴾

يقول تعالى: لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته آيات، أى: عبرة ومواعظ للساثلين عن ذلك، المستخبرين عنه، فإنه خبر عجيب، يستحق أن يستخبر عنه، ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَمَا مَنَا﴾ أى: حلفوا فيما يظنون: والله ليوسف وأخوه - يعنون بنيامين، وكان شقيقه لأمه - ﴿أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَمَا مَنَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أى: جماعة، فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة؟ ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، يعنون في تقديمهما علينا، ومحبة إياهما أكثر منا.

واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر. ويحتاج مدعى ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وهذا فيه احتمال؛ لأن بطون بنى إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يقال للعرب: قبائل، وللعجم: شعوب؛ يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بنى إسرائيل، فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم، والله أعلم.

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾: يقولون: هذا الذى يزاحمكم فى محبة أبيكم لكم، أعدموه من وجه أبيكم، ليخلو لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه، أو تلقوه فى أرض من الأراضى - تستريحوا منه، وتختلوا أنتم بأبيكم، وتكونوا من ^(١) بعد إعدامه قوماً صالحين. فأضمرنا التوبة قبل الذنب.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾: قال قتادة، ومحمد بن إسحاق: كان أكبرهم واسمه روبيل. وقال السدى: الذى قال ذلك يهوذا. وقال مجاهد: هو شمعون ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ أى: لا تصلوا ^(٢) فى عداوته وبغضه إلى قتله، ولم يكن لهم ^(٣) سبيل إلى قتله؛ لأن الله تعالى كان يريد منه أمراً لا بد من إتمامه وإتمامه، من الإيحاء إليه بالنبوة، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها، فصرفهم الله عنه بمقالة روبيل فيه وإشارته عليهم بأن يلقيه فى غيابة الجب، وهو أسفله.

قال قتادة: وهى بئر بيت المقدس.

﴿يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أى: المارة من المسافرين، فتستريحوا بهذا، ولا حاجة إلى قتله.

﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أى: إن كنتم عازمين على ما تقولون.

قال محمد بن إسحاق بن يسار: لقد اجتمعوا على أمر عظيم، من قطيعة الرحم، وعقوق

(١) فى ت: «له».

(٢) فى أ: «لا تغلوا».

(٣) فى أ: «وتكونوا من بعده، أى من بعده».

الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الضَّرْع الذى لا ذنب له، وبالكبير الفانى ذى الحق والحرمة والفضل، وخطره عند الله، مع حق الوالد على ولده، ليفرقوا بينه وبين ابنه ^(١) وحيبه، على كبر سنه، ورقَّة عظمه، مع مكانه من الله فيمن أحبه طفلاً صغيراً، وبين أبيه على ضعف قوته وصغر سنه، وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمراً عظيماً.

رواه ابن أبى حاتم من طريق سلمة بن الفضل، عنه.

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ (١١) أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١٢).

لما تواطؤوا على أخذه وطَرَحَه فى البئر، كما أشار عليهم أخوهم الكبير رُوبِيل، جاؤوا أباهم يعقوب، عليه السلام، فقالوا: ﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾، وهذه توطئة وسلف ودعوى، وهم يريدون خلاف ذلك؛ لما له فى قلوبهم من الحسد لحب أبيه له، ﴿أَرْسَلَهُ مَعَنَا﴾ أى: ابعته معنا، ﴿غَدًا نَرْتَعُ وَنَلْعَبُ﴾ وقرأ بعضهم بالياء ﴿يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ﴾.

قال ابن عباس: يسعى وينشط. وكذا قال قتادة، والضحاك والسُّدِّي، وغيرهم.

﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾: يقولون: ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك.

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَلْخَاسِرُونَ ﴾ (١٤).

يقول تعالى مخبراً عن نبيه ^(٢) يعقوب أنه قال لبنيه فى جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعى فى الصحراء: ﴿إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ أى: يشق على مفارقتي مدة ذهابكم به إلى أن يرجع، وذلك لفرط محبته له، لما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة والكمال فى الخلق والخلق، صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾: يقول: وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم ^(٣) فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون، فأخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه، وقالوا مجيبين عنها فى الساعة الراهنة: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَلْخَاسِرُونَ﴾، يقولون: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا، ونحن جماعة، إنا إذاً لهما لكون عاجزون.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٥).

(٣) فى ت: «ورعيكم».

(٢) فى ت، أ: «عن نبي الله».

(١) فى ت: «أبيه».

يقول تعالى: فلما ذهبت ^(١) به إخوانه من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك، ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ﴾، هذا فيه تعظيم لما فعلوه أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يُظهرونه له إكراماً له، وبسطاً وشرحاً لصدره، وإدخالاً للسرور عليه، فيقال: إن يعقوب ^(٢)، عليه السلام، لما بعثه معهم ضمه إليه، وقبَّله ودعا له.

قال ^(٣) السدي وغيره: إنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له، إلا أن غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه، ثم شرعوا يؤذونه بالقول، من شتم ونحوه، والفعل من ضَرَبَ ونحوه، ثم جاؤوا به إلى ذلك الجب الذي اتفقوا على رميه فيه فربطوه بحبل ودلوه فيه، فجعل إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة، فسقط في الماء فغمره، فصعد إلى صخرة تكون في وسطه، يقال لها: «الراغوفة» ^(٤)، فقام فوقها.

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته وعائدته ^(٥) وإنزاله اليسر في حال العسر: إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق، تطيباً لقلبه، وتثبيتاً له: إنك لا تحزن مما ^(٦) أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً، وسينصررك الله عليهم، ويعليك ويرفع درجتك، وستخبرهم ^(٧) بما فعلوا معك من هذا الصنيع.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ - قال [مجاهد و] ^(٨) قتادة: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإيحاء الله إليه.

وقال ابن عباس: ستنبئهم بصنيعهم هذا في حقك، وهم لا يعرفونك، ولا يستشعرون بك، كما قال ابن جرير:

حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا صدقة بن عبادة الأسدي، عن أبيه، سمعت ابن عباس يقول: لما دخل إخوة يوسف على يوسف فعرفهم وهم له منكرون، قال: جئء بالصَّوَّاعِ، فوضعه على يده، ثم نقره فطن، فقال: إنه ليخبرني هذا الجام: أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له «يوسف»، يدنيه دونكم، وأنكم انطلقتم به فألقيتموه في غيابة الجب - قال: ثم نقره فطن - فأتيتم أباكم فقلتم: إن الذئب أكله، وجئتم على قميصه بدم كذب - قال: فقال بعضهم لبعض: إن هذا الجام ليخبره بخبركم. قال ابن عباس، رضى الله عنهما: لا نرى ^(٩) هذه الآية نزلت إلا فيهم: ﴿لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ^(١٠).

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ

(٣) في ت: «فذكر».

(٢) في ت، أ: «يوسف».

(١) في ت، أ: «ذهب».

(٦) في ت، أ: «فيما».

(٥) في ت: «وعائد به».

(٤) في أ: «الراغوف».

(٩) في ت: «فلأبرى»، وفي أ: «فلأنرى».

(٨) زيادة من ت.

(٧) في ت، أ: «وسيجزيهم».

(١٠) تفسير الطبري (٥٧٦/١٥).

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن الذى اعتمده إخوة يوسف بعد ما ألقوه فى غيابة الجب: أنهم^(١) رجعوا إلى أبيهم فى ظلمة الليل ليكون، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ويتغممون لأبيهم، وقالوا معتردين عما وقع فيما زعموا: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أى: نترامى، ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا﴾ أى: ثيابنا وأمتعتنا، ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾، وهو الذى كان [قد]^(٢) جزع منه، وحذر عليه.

وقولهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾: تَلَطَّفُ عَظِيمٌ فى تقرير ما يحاولونه، يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا - والحالة هذه - لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا فى ذلك، لأنك خشيت أن يأكله الذئب، فأكله الذئب، فأنت معذور فى تكذيبك لنا؛ لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا فى أمرنا هذا.

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أى: مكذوب مفترى. وهذا من الأفعال التى يؤكدون بها ما تمالؤوا عليه من المكيدة، وهو أنهم عمدوا إلى سَخْلَةٍ - فيما ذكره مجاهد، والسدى، وغير واحد - فذبحوها، ولطخوا ثوب يوسف بدمها، موهمين أن هذا قميصه الذى أكله فيه الذئب، وقد أصابه من دمه، ولكنهم نسوا أن يخرقوه، فلهذا لم يَرُج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع فى نفسه من تمالئهم عليه: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أى: فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذى قد اتفقت عليه، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه، ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أى: على ما تذكرون من الكذب والمحال.

وقال الثورى، عن سِمَاك، عن سعيد بن جبَّير، عن ابن عباس: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ قال: لو أكله السبع لخرق القميص. وكذا قال الشعبى، والحسن، وقتادة، وغير واحد.

وقال مجاهد: الصبر الجميل: الذى لا جزع فيه.

وروى هُشَيْمٌ، عن عبد الرحمن بن يحيى، عن حَبَّان بن أبى جبلة قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، فقال: «صبر لا شكوى»^(٣) فيه «وهذا مرسل»^(٤).

وقال عبد الرزاق: قال الثورى عن بعض أصحابه أنه قال: ثلاث من الصبر: ألا تحدث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تزكى نفسك^(٥).

وذكر البخارى هاهنا حديث عائشة، رضى الله عنها، فى الإفك حتى ذكر قولها: والله لا أجد لى ولكم مثلاً إلا أبا يوسف^(٦)، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾^(٧).

(٣) فى ت: «لا قوى».

(٢) زيادة من أ.

(١) فى ت، أ: «ثم».

(٤) تفسير الطبرى (٥/٥٨٥).

(٥) تفسير عبد الرزاق (١/٢٧٧).

(٦) فى ت: «إلا يعقوب» وفى أ: «إلا أبا يوسف إذ قال».

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٦٩٠).

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠)﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما جرى ليوسف، عليه السلام، حين ألقاه إخوته، وتركوه في ذلك الجب فريداً وحيداً، فمكث في البئر ثلاثة أيام، فيما قاله أبو بكر بن عياش^(١).

وقال محمد بن إسحاق: لما ألقاه إخوته جلسوا حول البئر يومهم ذلك، ينظرون ما يصنع وما يصنع به، فساق الله له سيّارة، فنزلوا قريباً من تلك^(٢) البئر، وأرسلوا واردهم - وهو الذي يتطلب لهم الماء - فلما جاء تلك^(٣) البئر، وأدلى دلوه فيها، تشبث يوسف، عليه السلام، فيها، فأخرجه واستبشر به، وقال: ﴿يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ﴾ .

وقرأ بعض القراء: ﴿يَا بُشْرَى﴾، فزعم السدى أنه اسم رجل ناداه ذلك الرجل الذي أدلى دلوه، معلماً له أنه أصاب غلاماً. وهذا القول من السدى غريب؛ لأنه لم يسبق إلى تفسير هذه القراءة بهذا إلا في رواية عن ابن عباس، والله أعلم. وإنما معنى القراءة على هذا النحو يرجع إلى القراءة الأخرى، ويكون قد أضاف البشري إلى نفسه، وحذف ياء الإضافة وهو يريد بها، كما تقول العرب: «يا نفسُ اصبري»، و«يا غلامُ أقبل»، بحذف حرف الإضافة، ويجوز الكسر حينئذ والرفع، وهذا منه، وتفسرها القراءة الأخرى ﴿يَا بُشْرَى﴾، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً﴾ أي: وأسره الواردون من بقية السيارة وقالوا: اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره. قاله مجاهد، والسدى، وابن جرير. هذا قول.

وقال العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً﴾ يعني: إخوة يوسف، أسروا شأنه، وكنتموا أن يكون أخاهم وكنتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع. فذكره إخوته لوارد القوم، فنادى أصحابه: ﴿يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ﴾ يباع، فباعه إخوته.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: يعلم ما يفعله إخوة يوسف ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمة وقدر سابق، فترك ذلك ليمضى ما قدره وقضاه، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين.

وفى هذا تعريض لرسوله محمد ﷺ^(٤)، وإعلام له بأننى عالم بأذى قومك، وأنا قادر على الإنكار عليهم، ولكنى سأملئ لهم، ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته.

(١) فى ت: «ابن عباس».

(٢) فى ت: «صلوات الله عليه» وفى أ: «صلوات الله عليه وسلامه».

وقوله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾، يقول تعالى: وباعه إخوته بثمان قليل، قاله مجاهد وعكرمة.

والبخس: هو النقص، كما^(١) قال تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣] أى: اعتاض عنه إخوته بثمان دون قليل، وكانوا مع ذلك فيه من الزاهدين، أى: ليس لهم رغبة فيه، بل لو سألوهم^(٢) بلا شيء لأجابوا.

قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: إن الضمير فى قوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ عائذ على إخوة يوسف. وقال قتادة: بل هو عائذ على السيارة.

والأول أقوى؛ لأن قوله: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾، إنما أراد إخوته، لا أولئك السيارة؛ لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه، فيرجح من هذا أن الضمير فى ﴿وَشَرَوْهُ﴾ إنما هو لإخوته.

وقيل: المراد بقوله: ﴿بَخْسٍ﴾: الحرام. وقيل: الظلم. وهذا وإن كان كذلك، لكن ليس هو المراد هنا؛ لأن هذا معلوم يعرفه كل أحد أن ثمنه حرام على كل حال، وعلى كل أحد، لأنه نبي ابن نبي، ابن نبي، ابن خليل الرحمن، فهو الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم. وإنما المراد هنا بالبخر الناقص أو الزيوف أو كلاهما، أى: إنهم إخوته، وقد باعوه ومع هذا بأنقص الأثمان؛ ولهذا قال: ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾، فعن ابن مسعود باعوه بعشرين درهما، وكذا قال ابن عباس، ونوف البكالى، والسدّي، وقاتادة، وعطية العوفى وزاد: اقتسموها درهمين درهمين.

وقال مجاهد: اثنان وعشرون درهماً.

وقال محمد بن إسحاق وعكرمة: أربعون درهماً.

وقال الضحاك فى قوله: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾: وذلك أنهم لم يعلموا نبوته ومنزلته عند الله عز وجل.

وقال مجاهد: لما باعوه جعلوا يتبعونهم ويقولون لهم: استوثقوا منه لا يأبى حتى وقفوه بمصر، فقال: من يبتاعنى وليبشر؟ فاشتراه الملك، وكان مسلماً.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢)﴾.

(٢) فى أ: «لو سئلوا».

(١) فى ت: «وكما».

يخبر تعالى بالطفاه بيوسف، عليه السلام، أنه قِض له الذي اشتراه من مصر، حتى اعتنى به وأكرمه، وأوصى أهله به، وتوسم فيه الخير والفلاح، فقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾، وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها، وهو الوزير بها. [قال] ^(١) العوفى، عن ابن عباس: وكان اسمه قطفير.

وقال محمد بن إسحاق: اسمه إطفير ^(٢) بن روحيب، وهو العزيز، وكان على خزائن مصر، وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد، رجل من العماليق قال: واسم امرأته راعيل بنت رعائيل. وقال غيره: اسمها زليخا.

وقال محمد بن إسحاق أيضاً، عن محمد بن السائب، عن أبي صالح، عن ابن عباس: كان الذي باعه بمصر مالك ابن دعر بن بويب ^(٣) بن عنقا بن مديان بن إبراهيم، فאלله أعلم.

وقال أبو إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾، والمرأة التي قالت لأبيها [عن موسى] ^(٤): ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب، رضى الله عنهما ^(٥).

يقول تعالى: وكما أنقذنا يوسف من إخوته، ﴿كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: بلاد مصر، ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ قال مجاهد والسدى: هو تعبير الرؤيا، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ أى ^(٦): إذا أراد شيئاً فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف، بل هو الغالب لما سواه.

قال سعيد بن جبیر فى قوله: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ أى: فعال لما يشاء.

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: يقول: لا يدرون حكمته فى خلقه، وتلطفه لما يريد ^(٧).

وقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ أى: يوسف عليه السلام ﴿أَشُدَّهُ﴾ أى: استكمل عقله ^(٨)، وتم خلقه. ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ يعنى: النبوة، إنه حباه بها بين أولئك الأقوام، ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: إنه كان محسناً فى عمله، عاملاً بطاعة ربه تعالى.

وقد اختلف فى مقدار المدة التى بلغ فيها أشده، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ثلاث وثلاثون. وعن ابن عباس: بضع وثلاثون. وقال الضحاك: عشرون. وقال الحسن: أربعون سنة. وقال عكرمة: خمس وعشرون سنة. وقال السدى: ثلاثون سنة. وقال سعيد بن جبیر: ثمانى عشرة سنة. وقال الإمام مالك، وربيعه، وزيد بن أسلم، والشعبى: الأشد الحلم. وقيل غير ذلك،

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) فى ت: «إطفير».

(٣) فى ت: «نوب».

(٤) زيادة من أ.

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/١٩).

(٨) فى أ: «خلقته».

(٧) فى ت، أ: «يريده».

(٦) فى أ: «فهو».

والله^(١) أعلم.

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣).

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه [﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾^(٢) عَنْ نَفْسِهِ﴿ أى: حاولته على^(٣) نفسه، ودعته إليها، وذلك أنها أحبتة حباً شديداً لجمالها وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجملت له، وغلقت عليه الأبواب، ودعته إلى نفسها، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾، فامتنع من ذلك أشد الامتناع، و﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي﴾ [أَحْسَنَ مَثْوَايَ]^(٤)﴾ وكانوا يطلقون «الرب»^(٥) على السيد والكبير، أى: إن بعلك ربى أحسن^(٦) مَثْوَايَ أى: منزلى وأحسن إلى، فلا أقبله بالفاحشة فى أهله، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ قال ذلك مجاهد، والسدى، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم.

وقد اختلف القراء فى قراءة: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، فقرأه كثيرون بفتح الهاء، وإسكان الياء، وفتح التاء. وقال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: معناه: أنها تدعوه إلى نفسها. وقال على بن أبى طلحة، والوعفى، عن ابن عباس: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ تقول: هلم لك. وكذا قال زِرّ بن حبیش، وعكرمة، والحسن وقتادة.

قال عمرو بن عبّيد، عن الحسن: وهى كلمة بالسريانية، أى: عليك.

وقال السدى: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ أى: هلم لك، وهى بالقبطية.

وقال مجاهد: هى لغة عربية^(٧) تدعوه بها.

وقال البخارى: وقال عكرمة: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾: هلم لك بالخورانية.

هكذا ذكره معلقاً، وقد أسنده الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنى أحمد بن سُهَيْل الواسطى، حدثنا قُرّة بن قيس، حدثنا النضر بن عربى الجَزَرى^(٨)، عن عكرمة مولى ابن عباس فى قوله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ قال: هلم لك. قال: هى بالخورانية.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وكان الكسائى يحكى^(٩) هذه القراءة - يعنى: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ - ويقول: هى لغة، لأهل حوران، وقعت إلى أهل الحجاز، معناها: تعال. وقال أبو عبيد: سألت شيخاً عالماً من أهل حوران، فذكر أنها لغتهم يعرفها.

(١) فى ت: «فالله».

(٢) زيادة من ت، أ.

(٣) فى ت، أ: «عن».

(٥) فى ت، أ: «ذلك».

(٦) فى ت، أ: «أكرم».

(٤) زيادة من أ.

(٨) فى ت: «غربى الحورى».

(٩) فى ت، أ: «يحب».

(٧) فى ت: «غربية».

واستشهد الإمام ابن جرير على هذه القراءة بقول^(١) الشاعر لعلى بن أبى طالب، رضى الله عنه:

أبلغ أمير المؤمنين أخا العراق إذا أتينا
إن العراق وأهله عنق إليك فهيت هيتا

يقول: فتعال واقترب^(٢).

وقرأ ذلك آخرون: «هيت لك» بكسر الهاء والهمزة، وضم التاء، بمعنى: تهيأت لك، من قول القائل: هيت للأمر أهى هيئة ومن روى عنه هذه القراءة ابن عباس، وأبو عبد الرحمن السلمى، وأبو وائل، وعكرمة، وقتادة، وكلهم يفسرها بمعنى: تهيأت لك.

قال ابن جرير: وكان أبو عمرو والكسائي ينكران هذه القراءة. وقرأ عبد الله بن إسحاق^(٣): «هيت»، بفتح الهاء وكسر التاء: وهى غريبة.

وقرأ آخرون، منهم عامة أهل المدينة «هيت» بفتح الهاء، وضم التاء، وأنشد^(٤) قول الشاعر^(٥):

ليس قومي بالأبعدين إذا ما قال دأع من العشيّة: هيت

قال عبد الرزاق: أنبأنا الثوري، عن الأعمش، عن أبى وائل قال: قال ابن مسعود: قد سمعت القرأة فسمعتهم متقاربين، فاقروا كما علّمت، وإياكم والتنطع والاختلاف، فإنما هو كقول أحدكم: «هلم» و«تعال» ثم قرأ عبد الله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، فقال: يا أبا عبد الرحمن، إن ناسا يقرؤونها: «هَيْتُ لَكَ»^(٦)؟ فقال عبد الله: إنى أقرأها كما علّمت، أحب إلى^(٧).

وقال ابن جرير: حدثنى ابن وكيع، حدثنا ابن عيينة، عن منصور، عن أبى وائل قال: قال عبد الله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾. فقال له مسروق: إن ناساً يقرؤونها: «هَيْتُ لَكَ»؟ فقال: دعونى، فإنى أقرأ كما أقرئت، أحب إلى^(٨).

وقال أيضاً: حدثنى المثنى، حدثنا آدم بن أبى إياس، حدثنا شعبة، عن شقيق، عن ابن مسعود قال: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بنصب الهاء والتاء ولا بهمز.

(١) فى ت: «قول».

(٢) تفسير الطبرى (١٦/ ٢٥).

(٣) فى ت: «عبد الله بن أبى إسحاق».

(٥) هو طرفة بن العبد، والبيت فى تفسير الطبرى (١٦/ ٣٠).

(٦) زيادة من أ.

(٧) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٧٩).

(٨) تفسير الطبرى (١٦/ ٣١).

وقال^(١) آخرون : «هَيْتُ لَكَ»، بكسر الهاء، وإسكان الياء، وضم التاء.

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى : «هَيْتُ» لا تثنى ولا تجمع ولا توث، بل يخاطب الجميع بلفظ واحد، فيقال : هَيْتَ لَكَ، وهَيْتَ لَكَ، وهَيْتَ لَكُمْ، وهَيْتَ لَهْن^(٢).

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (٢٤).

اختلفت أقوال الناس وعباراتهم فى هذا المقام، وقد روى عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وطائفة من السلف فى ذلك ما ذكره ابن جرير وغيره، والله أعلم.

وقال بعضهم: المراد بهم بها همَّ خَطَرَات حديث^(٣) النفس. حكاه البغوى عن بعض أهل التحقيق، ثم أورد^(٤) البغوى هاهنا حديث عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إذا همَّ عبدى بحسنة فاكْتُبْهَا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمَلَهَا فاكْتُبْهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَإِنْ هَمَّ بِسِيئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فاكْتُبْهَا حَسَنَةً، فَإِنَّمَا تَرْكُهَا مِنْ جَرَّائِى، فَإِنْ عَمَلَهَا فاكْتُبْهَا بِمِثْلِهَا»^(٥).

وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين^(٦)، وله ألفاظ كثيرة، هذا منها.

وقيل: هم بضربها. وقيل: تمنّاها زوجة. وقيل: ﴿هَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ أى: فلم يهم بها.

وفى هذا القول نظر من حيث العربية، ذكره ابن جرير وغيره^(٧).

وأما البرهان الذى رآه فففيه أقوال أيضاً: فعن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومحمد بن سيرين، والحسن، وقتادة، وأبى صالح، والضحاك، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم: رأى صورة أبيه يعقوب، عليه السلام، عاضاً على أصبعه بفمه^(٨).

وقيل عنه فى رواية: فضرب فى صدر يوسف.

وقال العوفى، عن ابن عباس: رأى خيال^(٩) الملك، يعنى: سيده، وكذا قال محمد بن إسحاق،

(١) فى ت: «وقرأ».

(٢) فى أ: «لهم». (٣) فى ت، أ: «وحديث». (٤) فى أ: «وأورد».

(٥) معالم التنزيل (٤/ ٢٣١).

(٦) صحيح البخارى برقم (٧٥٠١) وصحيح مسلم برقم (٢٠٥).

(٧) تفسير الطبرى (٣٨/ ١٦، ٣٩) وما ذكره الحافظ هنا فى معنى الهم غير مسلم به، والراجع هو ما اختاره أبو حيان فى تفسيره ونقله عنه العلامة الشنقى فى «أضواء البيان» (٦٠/ ٣) وقال: «والجواب الثانى - وهو الذى اختاره أبو حيان - أن يوسف لم يقع منه هم أصلاً، بل هو منى عنه لوجود البرهان... وانظر بقية كلامه هناك.

(٨) فى ت، أ: «يعظه». (٩) فى ت، أ: «تمثال».

فيما حكاه عن بعضهم: إنما هو خيال إطفير سيده، حين دنا من الباب^(١).

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُريْب، حدثنا وكيع، عن أبي مودود^(٢)، سمعت من محمد بن كعب القرظي قال: رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت، فإذا كتاب في حائط البيت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وكذا رواه أبو معشر المدني، عن محمد بن كعب.

وقال عبد الله بن وهب، أخبرني نافع بن يزيد، عن أبي صخر قال: سمعت القرظي يقول في: «البرهان» الذي رأى يوسف: ثلاث آيات من كتاب الله ﴿إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ الآية [الانفطار: ١٠]، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ الآية: [يونس: ٦١]، وقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] قال نافع: سمعت أبا هلال يقول مثل قول القرظي، وزاد آية رابعة ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقال الأوزاعي: رأى آية من كتاب الله في الجدار تنهاه^(٣) عن ذلك.

قال ابن جرير: والصواب أن يقال: إنه رأى من آيات الله ما زجره عما كان هم به، وجائز أن يكون صورة يعقوب، وجائز أن يكون [صورة] الملك^(٤)، وجائز أن يكون ما رآه مكتوباً من الزجر عن ذلك. ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى.

قال: وقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ أي: كما أريناه برهانا صرفه عما كان فيه، كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره.

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: المجتبتين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار، صلوات الله وسلامه عليه.

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِيهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في الفتاوى (١٠/٢٩٧): «وما ينقل من أنه حل سراويله وجلس مجلس الرجل من المرأة وأنه رأى صورة يعقوب عاضاً على يده وأمثال ذلك، فهو مما لم يخبر الله به ولا رسوله، وما لم يكن كذلك، وإنما هو مأخوذ عن اليهود الذين هم من أعظم الناس كذباً على الأنبياء، وقدحاً فيهم، وكل من نقله من المسلمين فعنهم نقله، لم ينقل من ذلك أحد عن نبينا ﷺ حرفاً واحداً». وانظر: الإسرائيليات في كتب التفسير لمحمد أبو شهبه (ص ٢٢٠ - ٢٢٥).

(٢) في ت: «مردود». (٣) في ت، أ: «والجدار نهاء». (٤) زيادة من ت، أ.

عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَوْسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ .

يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب، يوسف هارب، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت، فلحقته في أثناء ذلك، فأمسكت بقميصه [من ورائه] ^(١) فَقَدَّتْهُ ^(٢) قَدْأً فظيعاً، يقال: إنه سقط عنه، واستمر يوسف هارباً ذاهباً، وهى فى إثره، فألفيا سيدها - وهو زوجها - عند الباب، فعند ذلك خرجت مما هى فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها متصلة وقاذفة يوسف بدائها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ أى ^(٣): فاحشة، ﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ﴾ أى: يحبس، ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: يضرب ضرباً شديداً موجعاً. فعند ذلك انتصر يوسف، عليه السلام، بالحق، وتبرأ مما رمته به من الخيانة، وقال باراً صادقاً ^(٤): ﴿هِيَ رَاوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾، وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قدت قميصه، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قَبْلِ﴾ أى: من قدامه، ﴿فَصَدَقَتْ﴾ أى: فى قولها إنه أرادها على نفسها، لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته فى صدره، فقدت قميصه، فيصح ما قالت: ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، وذلك يكون كما وقع لما هرب منها، وتطلبت أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها، فقدت قميصه من ورائه.

وقد اختلفوا فى هذا الشاهد: هل هو صغير أو كبير، على قولين لعلماء السلف، فقال عبد الرزاق:

أخبرنا إسرائيل، عن سِمَاك، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قال: ذو الحية.

وقال الثورى، عن جابر، عن ابن أبي مُلَيْكَةَ، عن ابن عباس: كان من خاصة الملك. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي، ومحمد بن إسحاق: إنه كان رجلاً.

وقال زيد بن أسلم، والسدى: كان ابن عمها.

وقال ابن عباس: كان من خاصة الملك.

وقد ذكر ابن إسحاق أن زليخا كانت بنت أخت الملك الريان بن الوليد.

وقال العوفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قال: كان صبياً فى المهد. وكذا روى عن أبى هريرة، وهلال بن يساف، والحسن، وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم: أنه كان صبياً فى الدار. واختاره ابن جرير.

وقد ورد فيه حديث مرفوع فقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا عفان، حدثنا حماد - هو ابن سلمة - أخبرنى عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبى

(٣) فى ت، أ: «تعنى».

(٢) فى ت، أ: «فقدت».

(١) زيادة من ت، أ.

(٤) فى ت: «صادقاً باراً».

ﷺ قال: «تكلم أربعة وهم صغار»، فذكر فيهم شاهد يوسف^(١).

ورواه غيره عن حماد بن سلمة، عن عطاء، عن سعيد، عن ابن عباس؛ أنه قال: تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم^(٢).

وقال ليث ابن أبي سليم، عن مجاهد: كان من أمر الله، ولم يكن إنسيا. وهذا قول غريب.

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدِّمَ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي: فلما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمت به، ﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ أي: إن هذا البهت واللّطخ الذي لطخت عرض هذا الشاب به من جملة كيدكن، ﴿إِنْ كَيْدُكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال أمرا ليوسف، عليه السلام، بكتمان ما وقع: يا ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أي: اضرب عن هذا [الأمر]^(٣) صفحا، فلا تذكره لأحد، ﴿وَأَسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾، يقول لامراته وقد كان لين العريكة سهلا، أو أنه عذرهما؛ لأنها رأت ما لا صبر لها عنه، فقال لها: ﴿أَسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ أي: الذي^(٤) وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب، ثم قذفه بما هو برىء منه، استغفري من هذا الذي وقع منك، ﴿إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمَرُهُ لَيُسْجَنَ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤)﴾.

يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع في المدينة، وهي مصر، حتى تحدث الناس به، ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ مثل نساء الأمراء [و]^(٥) الكبراء، ينكرون على امرأة العزيز، وهو الوزير، ويعين ذلك عليها: ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: تحاول غلامها عن نفسه، وتدعوه إلى

(١) تفسير الطبري (٥٥/١٦) ورواه أحمد في المسند (٣١٠/١) والحاكم في المستدرک (٤٩٦/٢) من طريق حماد بن سلمة به، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٢) رواه العلاء بن عبد الجبار عن حماد موقوفاً أخرجه الطبري في تفسيره (٥٤/١٦).

(٣) زيادة من ت. (٤) في ت، أ: «للدی». (٥) زيادة من ت، أ.

نفسها، ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أى: قد وصل حبه إلى شغاف قلبها. وهو غلافه.

قال الضحاك عن ابن عباس: الشَّغَف: الحب القاتل، والشَّغَف دون ذلك، والشغاف: حجاب القلب.

﴿إِنَّا نَرَاها فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ أى: فى صنعها هذا من حبها فتاها، ومرادتها إياه عن نفسه.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾: قال بعضهم: بقولهن. وقال محمد بن إسحاق: بل ^(١) بَلَّغْنَهُنَّ حُسْنَ يوسف، فأحببن أن يرينه، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته، فعند ذلك ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أى: دعتهن إلى منزلها لتضيفهن ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتْكًا﴾.

قال ابن عباس، وسعيد بن جبیر، ومجاهد، والحسن، والسدى، وغيرهم: هو المجلس المعد، فيه مفارش ومخاد وطعام، فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ^(٢) ونحوه. ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا﴾، وكان هذا مكيدة منها، ومقابلة لهن فى احتيالهن على رؤيته، ﴿وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَ﴾، وذلك أنها كانت قد خبأته فى مكان آخر، ﴿فَلَمَّا﴾ خرج و ﴿رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أى: أعظمن شأنه، وأجللن قدره؛ وجعلن يقطعن أيديهم دَهْشًا برؤيته، وهن يظنن أنهم يقطعن الأترج ^(٣) بالسكاكين، والمراد: أنهم حزنن أيديهن بها، قاله غير واحد.

وعن مجاهد، وقتادة: قطعن أيديهن حتى ألقينها، فالله ^(٤) أعلم.

وقد ذكر عن زيد بن أسلم أنها قالت لهن بعدما أكلن وطابت أنفسهن، ثم وضعت بين أيديهن أترجا ^(٥)، وأتت كل واحدة منهن سكيناً: هل لكن فى النظر إلى يوسف؟ قلن: نعم. فبعثت إليه تأمره أن يخرج إليهن ^(٦)، فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن، ثم أمرته أن يرجع فرجع ليرينه مقبلاً ومدبراً، وهن يحزنن فى أيديهن، فلما أحسنن بالآلم جعلن يولولن، فقالت: أنتن من نظرة واحدة فعلتن هكذا، فكيف ألام أنا؟ فقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم، ثم قلن لها: وما نرى عليك من لوم بعد الذى رأينا، لأنهن لم يرين فى البشر شبهه ولا قريباً منه، فإنه، صلوات الله عليه وسلم ^(٧)، كان قد أعطى شطر الحسن، كما ثبت ذلك فى الحديث الصحيح فى حديث الإسراء: أن رسول الله ﷺ مر بيوسف، عليه السلام، فى السماء الثالثة، قال: «إذا هو قد أعطى شطر الحسن» ^(٨).

وقال حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطى يوسف وأمه شطر

(١) فى ت، أ: «قيل».

(٢) فى ت، أ: «أترنج».

(٣) فى ت: «الأترنج».

(٤) فى أ: «والله».

(٥) فى أ: «أترنجا».

(٦) فى أ: «عليهن».

(٧) فى ت، أ: «وسلامه».

(٨) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٦٢) من حديث أنس رضى الله عنه.

الحسن»^(١). وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: أعطى يوسف وأمه ثلث الحسن.

وقال أبو إسحاق أيضاً، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: كان وجه يوسف مثل البرق، وكانت المرأة إذا أتته لحاجة غطى وجهه مخافة أن تفتتن به.

ورواه الحسن البصري مرسلًا، عن النبي ﷺ أنه قال: «أعطى يوسف وأمه ثلث حسن أهل الدنيا، وأعطى الناس الثلثين - أو قال: أعطى يوسف وأمه الثلثين والناس الثلث»^(٢).

وقال سفيان، عن منصور، عن مجاهد عن ربيعة الجرشي قال: قسم الحسن نصفين، فأعطى يوسف وأمه سارة نصف الحسن. والنصف الآخر بين سائر الخلق.

وقال الإمام أبو القاسم السهيلي: معناه: أن يوسف كان على النصف من حسن آدم، عليه السلام، فإن الله خلق آدم بيده على أكمل صورة وأحسنها، ولم يكن في ذريته من يوازيه في جماله، وكان يوسف قد أعطى شطر حسنه.

فلهذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته: ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ قال مجاهد وغير واحد: معاذ الله، ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ وقرأ بعضهم: «ما هذا بشرى» أى: بمشترى.

﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾. قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ: تقول هذا معذرة إليهن بأن هذا حقيق بأن يحب لجماله وكماله.

﴿وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أى: فامتنع. قال بعضهم: لما رأى جماله الظاهر، أخبرتهن بصفاته الحسنة التي تخفى عنهن، وهى^(٣) العفة مع هذا الجمال، ثم قالت تتوعد^(٤): ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمْرُهُ لَيَسْجُنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾، فعند ذلك استعاض يوسف، عليه السلام، من شرهن وكيدهن، وقال: ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ أى: من الفاحشة، ﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أى: إن وكلتنى إلى نفسى، فليس لى من نفسى قدرة، ولا أملك لها ضرا ولا نفعا إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان وعليك التكلان، فلا تكلنى إلى نفسى.

﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾. فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، وذلك أن يوسف، عليه السلام، عصمه الله عصمة عظيمة، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن

(١) رواه الطبري في تفسيره (٨٠ / ١٦) والحاكم في المستدرک (٥٧٠ / ٢) وابن عدی فی الكامل (٣٨٥ / ٥) من طریق عفان عن حماد بن سلمة به، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه». قال ابن عدی: «وهذا الحديث ما أعلم رفعه أحد غير عفان، وغيره أوقفه عن حماد بن سلمة، وعفان أشهر وأوثق وأصدق من أن يقال فيه شيء، مما ينسب إلى الضعف».

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٨٠ / ١٦).

(٤) فى ت، أ: «تتوعد».

(٣) فى ت: «عليهن وهو».

على ذلك، وهذا فى غاية مقامات الكمال: أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيده، وهى امرأة عزيز مصر، وهى مع هذا فى^(١) غاية الجمال والمال، والرياسة ويمتنع من ذلك، ويختار السجن على ذلك، خوفاً من الله ورجاء ثوابه.

ولهذا ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله^(٢)، ورجل قلبه معلق بالمسجد^(٣)، إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وافترقا^(٤) عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ورجل دعت امرأة ذات جمال ومنصب، فقال: إني أخاف الله^(٥)».

﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجْنُهُ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥)﴾.

يقول تعالى: ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين، أى: إلى مدة، وذلك بعدما عرفوا براءته، وظهرت الآيات - وهى الأدلة - على صدقه فى عفته ونزاهته. فكأنهم - والله أعلم - إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاماً^(٦) أن هذا راودها عن نفسها، وأنهم سجنوه على ذلك. ولهذا لما طلبه الملك الكبير فى آخر المدة، امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة، فلما تقرر ذلك خرج وهو نقيّ العرض، صلوات الله عليه وسلامه.

وذكر السدّي: أنهم إنما سجنوه لثلاث يشيع ما كان منها^(٧) فى حقه، ويبرأ عرضه فيفضحها.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦)﴾.

قال قتادة: كان أحدهما ساقى الملك، والآخر خبازه.

قال محمد بن إسحاق: كان اسم الذى على الشراب «نبوا»، والآخر «مجلث».

قال السدى: وكان سبب حبس الملك إيهاماً أنه توهم أنهما تمالآ على سمه فى طعامه وشرابه.

وكان^(٨) يوسف، عليه السلام، قد اشتهر فى السجن بالجدود^(٩) والأمانة وصدق الحديث، وحسن السمّت وكثرة العبادة، صلوات الله عليه وسلامه، ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن وعبادة

(١) فى ت: «إلى».

(٢) فى ت: «فى طاعة الله عز وجل».

(٣) فى ت، أ: «فى المسجد».

(٤) فى ت، أ: «وافترقا».

(٥) صحيح البخارى برقم (١٤٢٣) وصحيح مسلم برقم (١٠٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٦) فى ت: «انهاهما».

(٧) فى أ: «منهما».

(٨) فى ت: «فكان».

(٩) فى أ: «بالجدود».

مرضاهم والقيام بحقوقهم. ولما دخل هذان^(١) الفتيان إلى السجن، تألفا به وأحباها حباً شديداً، وقالا له: والله لقد أحبيناك حباً زائداً. قال^(٢): بارك الله فيكما، إنه ما أحبنى أحد إلا دخل على من محبته ضرر، أحببته عمتي فدخل على الضرر بسببها، وأحبني أبي فأوذيت بسببه، وأحببته امرأة العزيز فذلك، فقالا: والله ما نستطيع إلا ذلك، ثم إنهما رأيا مناما، فرأى الساقى أنه يعصر خمرا - يعني عنباً - وكذلك هي في قراءة عبد الله بن مسعود: «إني أراي أعصر عنباً». ورواه ابن أبي حاتم، عن أحمد بن سنان، عن يزيد بن هارون، عن شريك، عن الأعمش، عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود: أنه قرأها: «أعصر عنباً».

وقال الضحاك في قوله: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ يعني: عنباً. قال: وأهل عمان يسمون العنب خمراً.

وقال عكرمة: رأيت^(٣) فيما يرى النائم أني غرست حبة من عنب، فنبتت. فخرج فيه عناقيد، فعصرتهن ثم سقيتهن الملك. قال^(٤): تمكث في السجن ثلاثة أيام، ثم تخرج فتسقيه خمراً. وقال الآخر - وهو الخباز -: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْنَأُ بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه، وأنهما رأيا مناما وطلبا تعبيره.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع وابن حميد قالوا: حدثنا جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن إبراهيم، عن عبد الله قال: ما رأى صاحباً يوسف شيئاً، إنما كانا تحالماً ليجرى عليه.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بَتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨)﴾.

يخبرهما يوسف، عليه السلام، أنهما^(٥) مهما رأيا في نومهما من حلم، فإنه عارف^(٦) بتفسيره ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بَتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾.

(١) في ت، أ: «فقال».

(١) في ت: «هذا».

(٣) في ت: «وقال عكرمة: قال له رأيت».

(٥) في ت: «أنه».

(٤) في ت، أ: «فقال».

(٦) في أ: «عالم».

قال مجاهد: يقول: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامُ تَرْزُقَانِهِ﴾ [فى نومكما] ^(١)، ﴿إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بَتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾، وكذا قال السدى.

وقال ابن أبى حاتم، رحمه الله: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا محمد ابن يزيد - شيخ له - حدثنا رشدين، عن الحسن بن ثوبان، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ما أدرى لعل يوسف، عليه السلام، كان يعتاف وهو كذلك، لأننى أجد فى كتاب الله حين قال للرجلين: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامُ تَرْزُقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بَتَأْوِيلِهِ﴾ قال: إذا جاء الطعام حلوا أو مرا اعتاف عند ذلك. ثم قال ابن عباس: إنما علم فعلهم. وهذا أثر ^(٢) غريب.

ثم قال: وهذا إنما هو من تعليم الله إياي؛ لأننى اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر، فلا يرجون ثوابا ولا عقابا فى المعاد. ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يقول: هجرت طريق الكفر والشرك، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى، واتبع المرسلين، وأعرض عن طريق الظالمين ^(٣) فإنه يهدى قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلمه، ويجعله إماما يقتدى ^(٤) به فى الخير، وداعيا إلى سبيل الرشاد.

﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾: هذا التوحيد - وهو الإقرار بأنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أى: أوحاه إلينا، وأمرنا به ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾، إذ جعلنا دعاء لهم إلى ذلك ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ^(٥) أى: لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم، بل ﴿بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا حجاج، عن عطاء، عن ابن عباس؛ أنه كان يجعل الجد أبا، ويقول: والله فمن ^(٦) شاء لاعناه عند الحجر، ما ذكر الله جدا ولا جدة، قال الله تعالى - يعنى إخبارا عن يوسف: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ^(٣٩) ما تعبدون من دونه إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ^(٤٠) ﴿.

ثم إن يوسف، عليه السلام، أقبل على الفتيتين بالمخاطبة، والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له وَخَلَعَ ما سواه من الأوثان التى يعبدها قومهما، فقال: ﴿أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ

(٣) فى ت، أ: «الضالين».

(٢) فى ت: «أمر».

(١) زيادة من ت، أ.

(٦) فى ت، أ: «لمن».

(٥) فى أ: «لا يعلمون».

(٤) فى ت: «يهتدى».

الْقَهَّارُ ﴿١﴾ [أى] ^(١): الذى وَلَّى ^(٢) كُلَّ شَيْءٍ بِعِزِّ جَلَالِهِ، وعِظْمَةِ ^(٣) سُلْطَانِهِ.

ثم بين لهما أَنَّ التى يعبدونها ويسمونها آلهة، إنما هو جَهْلٌ ^(٤) منهم، وتسمية من تلقاء أنفسهم، تلقاها خَلَفَهُمْ عن سَلَفِهِمْ، وليس لذلك مستند من عند الله؛ ولهذا قال: ﴿مَّا أُنْزِلَ إِلَهُ بِهِ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أى: حجة ولا برهان.

ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشئنة والملك كله لله، وقد أمر عباده قاطبة ألا يعبدوا إلا إياه، ثم قال: ذلك الدين القيم أى: هذا الذى أدعوكم إليه من توحيد الله، وإخلاص العمل له، هو الدين المستقيم، الذى أمر الله به وأنزل به الحجة والبرهان الذى يحبه ويرضاه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: فلهذا كان أكثرهم مشركين. ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقد قال ابن جرير: إنما عدلَ بهم يوسف عن تعبير الرؤيا إلى هذا، لأنه عَرَفَ أنها ضارة لأحدهما، فأحب أن يشغلها بغير ذلك، لئلا يعاودوه فيها، فعاودوه، فأعاد عليهم الموعظة ^(٥).

وفى هذا الذى قاله نظر؛ لأنه قد وعدَهما أولا بتعبيرها ^(٦)، ولكن جعل سؤالهما له على وجه التعظيم والاحترام وُصْلَةً وسببا إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام، لما رأى فى سجيتهما من قبول الخير والإقبال عليه، والإنصات إليه، ولهذا لما فرغ من دعوتهما، شرع فى تعبير رؤياهما، من غير تكرار سؤال فقال:

﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾.

يقول لهما: ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾، وهو الذى رأى أنه يعصر خمرا، ولكنه لم يعينه لئلا يحزن ذاك، ولهذا أبهمه فى قوله: ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾، وهو فى نفس الأمر الذى رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا.

ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه، وهو واقع لا محالة؛ لأن الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعْبَرْ، فإذا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ.

وقال الثورى، عن عمارة بن القعقاع عن إبراهيم، عن عبد الله قال: لما قالوا ما قالوا، وأخبرهما، قالوا: ما رأينا شيئا. فقال: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

(٣) فى ت، أ: «وعظيم».

(٢) فى ت، أ: «دل».

(١) زيادة من ت، أ.

(٤) فى ت، أ: «جعل».

(٥) تفسير الطبرى (١٦/١٠٢).

(٦) فى أ: «بتعبيرهما».

ورواه محمد بن فضيل^(١)، عن عمارة، عن إبراهيم، عن علقمة، عن ابن مسعود به، وكذا فسرهم مجاهد، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم. وحاصله أن من تحلَّم بباطل وفَسَّره، فإنه يُلَزَم بتأويله، والله أعلم، وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد، عن معاوية بن حيدة، عن النبي ﷺ: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعبر^(٢) فإذا عبرت وقعت»^(٣).

وفي مسند أبي يعلى، من طريق يزيد الرقاشي، عن أنس مرفوعاً: «الرؤيا لأول عابر»^(٤).

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (٤٢).

لما ظن^(٥) يوسف، عليه السلام، نجاة أحدهما - وهو الساقى - قال له يوسف خفية عن الآخر والله أعلم، لثلا يشعره أنه المصلوب قال له: «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ»، يقول: اذكر قصتي عند ربك^(٦) - وهو الملك - ففسى ذلك الموصى أن يُذَكَّر مولاه بذلك، وكان من جملة مكاييد الشيطان، لثلا يطلع نبي الله من السجن.

هذا هو الصواب أن الضمير في قوله: «فَأَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ» عائد على الناجي، كما قال مجاهد، ومحمد بن إسحاق وغير واحد. ويقال: إن الضمير عائد على يوسف، عليه السلام، رواه ابن جرير، عن ابن عباس، ومجاهد أيضاً، وعكرمة، وغيرهم. وأسند ابن جرير ها هنا حديثاً فقال: حدثنا ابن وكيع، حدثنا عمرو بن محمد، عن إبراهيم بن يزيد^(٧)، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «لو لم يقل - يعني: يوسف - الكلمة التي قال: ما لبث في السجن طول ما لبث. حيث يتغنى الفرج من عند غير الله»^(٨).

وهذا الحديث ضعيف جداً؛ لأن سفيان بن وكيع ضعيف، وإبراهيم بن يزيد - هو الخواري - أضعف منه أيضاً. وقد روى عن الحسن وقتادة مرسلًا عن كل منهما، وهذه المرسلات ها هنا لا تقبل لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن، والله أعلم.

وأما «البضع»، فقال مجاهد وقتادة: هو ما بين الثلاث إلى التسع. وقال وهب بن منبه: مكث

(١) في ت: «فضل».

(٢) في ت: «يعبر».

(٣) سبق تخريجه عند تفسير الآية: «٥» من هذه السورة.

(٤) ورواه ابن ماجة في السنن برقم (٣٩١٥) من طريق عبد الله بن نعيم، عن الأعمش، عن يزيد الرقاشي، عن أنس موقوفاً، وقال البوصيري في الزوائد (٢١٦/٣): «هذا إسناد فيه يزيد وهو ضعيف».

(٥) في ت، أ: «علم».

(٦) في ت، أ: «الملك».

(٧) في ت: «عن يزيد».

(٨) تفسير الطبري (١١٢/١٦).

أيوب فى البلاء سبعاً ويوسف فى السجن سبعاً، وعذاب^(١) يختصر سبعاً.

وقال الضحاك، عن ابن عباس، رضى الله عنهما: فلبث فى السجن بضع سنين قال: ثنتا^(٢) عشرة سنة. وقال الضحاك: أربع عشرة سنة.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) ﴿

هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدّر الله تعالى أنها كانت سببا لخروج يوسف، عليه السلام، من السجن معززاً مكرماً، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا، فهالته وتعجب من أمرها، وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة والحزاة وكبراء دولته وأمراء وقصّ عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه بأن هذه ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ أى: أخلاط اقتضت رؤياك هذه^(٣)، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ أى: ولو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط، لما كان لنا معرفة بتأويلها، وهو تعبيرها. فعند ذلك تذكّر ذلك الذى نجا من ذينك الفتيين اللذين^(٤) كانا فى السجن مع يوسف، وكان الشيطان قد أنساه ما وصّاه به يوسف، من ذكر أمره للملك، فعند ذلك تذكر ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أى: مدة - وقرأ بعضهم: «بعد أمة» أى: بعد نسيان، فقال للملك والذين جمعهم لذلك: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ أى: بتأويل هذا المنام، ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ أى: فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن. ومعنى الكلام: فبعثوا^(٥). فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾، وذكر المنام الذى رآه الملك، فعند ذلك ذكر له يوسف، عليه السلام، تعبيرها من غير تعنيف لذلك الفتى فى نسيانه ما وصّاه به، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك، بل قال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أى^(٦): يأتىكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات، ففسر البقر بالسنين؛ لأنها تثير الأرض التى تُستغل منها الثمرات والزروع، وهن السنبلات

(٣) فى ت، أ: «رؤيا فى هذا».

(٦) فى ت: «إذ».

(٢) فى ت، أ: «ثنتى».

(٥) فى ت: «فبعثوه».

(١) فى ت، أ: «وعذب».

(٤) فى ت: «الذى».

الخضر، ثم أرشدتهم إلى ما يعتمدونه في تلك السنين فقال: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أى: مهما استغللتُم^(١) في هذه السبع السنين الخصب فاخزنوه في سنبله، ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه، إلا المقدار الذى تأكلونه، وليكن قليلاً قليلاً لا تسرفوا فيه، لتتفعوا في السبع الشداد، وهن السبع السنين المُحَلُّ التى تعقب هذه السبع متواليات، وهن البقرات العجاف اللاتى يأكلن السَّمان؛ لأن سنى^(٢) الجَدْب يؤكل فيها ما جَمَعُوهُ فى سنى^(٣) الخصب، وهن السنبلات اليابسات.

وأخبرهم أنهم لا ينبتن شيئاً، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء؛ ولهذا قال: ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْصِنُونَ﴾.

ثم بشرهم بعد الجَدْب العام المتوالى بأنه يعقبهم بعد ذلك ﴿عَامٌ فِيهِ يَافَاُ النَّاسُ﴾ أى: يأتيهم الغيث، وهو المطر، وتُغَلُّ البلاد، ويعصرُ الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم، من زيت ونحوه، وسكر ونحوه حتى قال بعضهم: يدخل^(٤) فيه حلب اللبن أيضاً.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾: يحلبون.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ اثْنُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِّي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُهِ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣)﴾.

يقول تعالى إخباراً عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه، التى كان رآها، بما أعجبه وأينقه، فعرف فضل يوسف، عليه السلام، وعلمه [وحسن اطلاعه على رؤياه]^(٥)، وحسن أخلاقه على من ببلده من رعاياه، فقال ﴿اثْنُونِي بِهِ﴾ أى: أخرجوه من السجن وأحضروه. فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته، ونزاهة عرضه، مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه، بل كان ظلماً وعدواناً، قال: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

وقد وردت السنة بمدحه على ذلك، والتنبية على فضله وشرفه، وعُلُوِّ قدره وصبره، صلوات الله

(٢، ٣) فى ت، أ: «سنين».

(٥) زيادة من ت، أ.

(١) فى ت، أ: «استغللتهم».

(٤) فى ت، أ: «ويدخل».

وسلامه عليه، ففي المسند والصحاحين من حديث الزهري، عن سعيد وأبي سلمة، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ قَالَ أُولَئِمُ تَوَمَّنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي» [البقرة: ٢٦٠]، ويرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي»^(١).

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: «فَاسْأَلُهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ» فقال رسول الله ﷺ: «لو كنت أنا لأسرعت الإجابة، وما ابتغيت العذر»^(٢).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له، حين سئل عن البقرات العجاف والسَّمان، ولو كنت مكانه ما أجبتهن حتى أشرط أن يخرجوني. ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له، حين أتاه الرسول، ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب، ولكنه أراد أن يكون له العذر». هذا حديث مرسل^(٣).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنْ إِذْ رَاوَدْتُنْ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾: إخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطبا لهن كلهن - وهو يريد امرأة وزيره، وهو العزيز-: ﴿مَا خَطْبُكُنْ﴾ أى: شأنكن وخبركن ﴿إِذْ رَاوَدْتُنْ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ يعنى: يوم الضيافة؟ ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ أى: قالت النسوة جوابا للملك: حاش لله أن يكون يوسف متهمًا، والله ما علمنا عليه من سوء. فعند ذلك ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: تقول الآن: تبين الحق وظهر وبرز.

﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أى: فى قوله: ﴿هِيَ رَاوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾. ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾. تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسى، ذلك ليعلم زوجى أن لم أخنه فى نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة، فامتنع؛ فلهذا اعترفت ليعلم أنى بريئة، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾. وما أبرئ نفسى، تقول المرأة: ولست أبرئ نفسى، فإن النفس تتحدث^(٤) وتتمنى؛ ولهذا راودته لأنها أماره بالسوء، ﴿إِلَّا مَا^(٥) رَحِمَ رَبِّي﴾ أى: إلا من عصمه الله تعالى، ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٦).

(١) المسند (٣٢٦/٢) وصحيح البخارى برقم (٤٦٩٤) وصحيح مسلم برقم (١٥١).

(٢) المسند (٣٤٧/٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٤٠/٧): «وفيه محمد بن عمرو، وهو حسن الحديث».

(٣) تفسير عبد الرزاق (٢٨١/١، ٢٨٢) وقد وصله إسحاق بن راهويه فى مسنده ومن طريقه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٤٩/١١) من طريق إبراهيم بن يزيد الخوزى عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس مرفوعاً بنحوه. وفيه إبراهيم بن يزيد وهو متروك.

(٤) فى ت، أ: «تحدث». (٥) فى ت، أ: «من» وهو خطأ. (٦) فى ت: «لغفور» وهو خطأ.

وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعانى الكلام. وقد حكاه الماوردى فى تفسيره، وانتدب لنصره الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية، رحمه الله، فأفرده بتصنيف على حدة^(١).

وقد قيل: إن ذلك من كلام يوسف، عليه السلام، من قوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ فى زوجته ﴿بِالْغَيْبِ﴾ الآيتين أى: إنما رددتُ الرسول ليعلم الملك براءتى وليعلم العزيز ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ فى زوجته ﴿بِالْغَيْبِ﴾، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾. وَمَا أُبْرِيْ نَفْسِيْ إِنْ النَّفْسُ لَأَمَارَةٌ بِالسُّوءِ ﴿[الآية]^(٢)، وهذا القول هو الذى لم يحك ابن جرير ولا ابن أبى حاتم سواه.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا وكيع، عن إسرائيل، عن سيمك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما جمع الملك النسوة فسألهن: هل راودتن يوسف عن نفسه؟ ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ قال يوسف: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ [وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ]^(٣)﴾، قال: فقال له جبريل، عليه السلام: ولا يوم هممت بما هممت به. فقال: ﴿وَمَا أُبْرِيْ نَفْسِيْ إِنْ النَّفْسُ لَأَمَارَةٌ بِالسُّوءِ﴾^(٤).

وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، وابن أبى الهذيل، والضحاك، والحسن، وقتادة، والسدي. والقول الأول أقوى وأظهر؛ لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف، عليه السلام، عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُونِيْ بِهِ أَتَخْلِصَهُ لِنَفْسِيْ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝٥٤﴾
قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥﴾.

يقول تعالى إخباراً عن الملك حين تحقق براءة يوسف، عليه السلام، ونزاهة عرضه مما نسب إليه، قال: ﴿أَتُونِيْ بِهِ أَتَخْلِصَهُ لِنَفْسِيْ﴾ أى: أجعل من خاصتى وأهل مشورتى ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ أى: خاطبه الملك وعرفه، ورأى فضله وبراعته، وعلم ما هو عليه من خلق وخلق وكمال قال له الملك: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أى: إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة، فقال يوسف، عليه السلام: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، مدح نفسه، ويجوز للرجل ذلك إذا جهل أمره، للحاجة. وذكر أنه ﴿حَفِيظٌ﴾ أى: خازن أمين، ﴿عَلِيمٌ﴾ ذو علم وبصر بما يتولاه^(٥).

قال شيبه بن نعام: حفيظ لما استودعتنى، عليم بسنى الجدب. رواه ابن أبى حاتم.
وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه، ولما فى ذلك من المصالح للناس^(٦)، وإنما سأل أن يجعل على

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٠/٢٩٨).

(٤) تفسير الطبرى (١٦/١٤٣).

(٦) فى ت: «مصالح الناس».

(٥) فى ت: «تولاه».

خزائن^(١) الأرض، وهى الأهرام التى^(٢) يجمع فيها الغلات، لما يستقبلونه من السنين التى أخبرهم بشأنها، ليتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه، وتكرمة له؛ ولهذا قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَا جُرْ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: أرض مصر، ﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾.

قال السدّى، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يتصرف فيها كيف يشاء.

وقال ابن جرير: يتخذ منها منزلاً حيث يشاء^(٣)، بعد الضيق والحبس والإسار. ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز؛ فلهذا أعقبه الله عز وجل السلامة والنصر والتأييد، ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. وَلَا جُرْ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾، يخبر تعالى أن ما ادخره^(٤) الله لنبيه يوسف، عليه السلام، فى الدار الآخرة أعظم وأكثر^(٥) وأجل، مما خوله من التصرف والنفوذ فى الدنيا كما قال تعالى فى حق سليمان، عليه السلام: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ. وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٣٩، ٤٠].

والغرض أن يوسف، عليه السلام، ولأه ملك مصر الريان بن الوليد الوزارة فى بلاد مصر، مكان الذى اشتراه من مصر زوج التى راودته، وأسلم الملك على يدى يوسف، عليه السلام. قاله مجاهد.

وقال محمد بن إسحاق لما قال يوسف للملك: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، قال الملك: قد فعلت. فولاه فيما ذكروا عمل إطفير^(٦)، وعزل إطفير^(٧) عما كان عليه، يقول الله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فذكر لى - والله أعلم - أن إطفير^(٨) هلك فى تلك الليالى، وأن الملك الريان بن الوليد زوج يوسف امرأة إطفير^(٩): راعيل، وأنها حين دخلت عليه قال: أليس هذا خيراً مما كنت تريد؟ قال: فيزعمون أنها قالت: أيها الصديق، لا تلمنى، فإنى كنت امرأة كما ترى حسناء جميلة، ناعمة فى ملك ودنيا، وكان صاحبى لا يأتى النساء، وكنت كما جعلك الله فى حسنك وهيتك^(١٠) على ما رأيت، فيزعمون أنه وجدها عذراء، فأصابها فولدت له رجلين أفرائيم بن يوسف، وميشا بن

(١) فى ت: «خزان».

(٢) فى ت: «الذى».

(٣) فى ت: «شاء».

(٤) فى ت: «ذخره».

(٥) فى ت: «واكبر».

(٦-٩) فى ت: «إطفير».

(١٠) فى ت: «وهيتك».

يوسف^(١). وولد لأفرائيم نون، والد يوشع بن نون، ورحمة امرأة أيوب، عليه السلام.

وقال الفضيل بن عياض: وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق، حتى مرَّ يوسف، فقالت: الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكا بطاعته، والملوك عبيدا بمعصيته.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سُرَّادُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)﴾.

ذكر السُّدِّي، ومحمد بن إسحاق، وغيرهما من المفسرين: أن السبب الذي أقدم إخوة يوسف بلاد مصر، أن يوسف، عليه السلام، لما باشر الوزارة بمصر، ومضت السبع السنين المخضبة، ثم تلتها سنينُ الجذب، وعمَّ القحط بلاد مصر بكماهاها، ووصل إلى بلاد كنعان، وهي التي فيها يعقوب، عليه السلام، وأولاده. وحيثُ احتاط يوسف، عليه السلام، للناس في غلاتهم، وجمعها أحسن^(٢) جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم، وأهراء متعددة هائلة، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يعطى الرجل أكثر من حمل بعير في السنة. وكان، عليه السلام، لا يشبع نفسه ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النهار، حتى يتكفى الناس بما في أيديهم مدة السبع سنين. وكان رحمة من الله على أهل مصر.

وما ذكره بعض المفسرين من أنه باعهم في السنة الأولى بالأموال، وفي الثانية بالمتاع، وفي الثالثة بكذا، وفي الرابعة بكذا، حتى باعهم بأنفسهم وأولادهم بعد ما تملك عليهم جميع ما يملكون، ثم اعتقهم وردَّ عليهم أموالهم كلها، الله^(٣) أعلم بصحة ذلك، وهو من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب.

والغرض أنه كان في جملة من ورد للميرة إخوة يوسف، عن أمر أبيهم لهم في ذلك، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطى الناس الطعام بثمنه، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعاما، وركبوا عشرة نفر، واحتبس يعقوب، عليه السلام، عنده بنيامين شقيق يوسف، عليهما^(٤) السلام، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف. فلما دخلوا على يوسف، وهو جالس في أبيته ورياسته وسيادته، عرفهم حين نظر إليهم، ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ أى: لا يعرفونه؛ لأنهم فارقوه وهو صغير حدث فباعوه^(٥) للسيارة، ولم يدروا أين يذهبون به، ولا كانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه، فلهذا لم يعرفوه، وأما هو فعرفهم.

(١) وهذا مما لم يرد به الكتاب ولا السنة، فمثله لا يعتمد فيه على رواية ابن إسحاق رحمه الله.

(٢) في ت: «أتم».

(٣) في ت: «والله».

(٤) في ت: «عليه».

(٥) في ت: «وباعوه».

فذكر السدى وغيره: أنه شرع يخاطبهم، فقال لهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادى؟ قالوا: أيها العزيز، إنا قدمنا للميرة. قال: فلعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله. قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبي الله. قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم، كنا اثني عشر، فذهب أصغرنا، هلك في البرية، وكان أحبنا إلى أبيه، وبقي شقيقة فاحتبسه^(١) أبوه ليتسلى به عنه. فأمر بإنزالهم وإكرامهم.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أى: وفأهم كيلهم، وحمل لهم أحمالهم قال: اثنوني بأخيكم هذا الذى ذكرتم، لأعلم صدقكم فيما ذكرتم، ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ يرغبهم فى الرجوع إليه، ثم رهبهم فقال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أى: إن لم تقدموا به معكم فى المرة الثانية، فليس لكم عندى ميرة، ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ. قَالُوا سَرَّأَوْدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ أى: سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن ولا نبقى مجهودا لتعلم صدقنا فيما قلناه.

وذكر السدى: أنه أخذ منهم رهائن حتى يقدموا به معهم. وفى هذا نظر؛ لأنه أحسن إليهم ورغبهم كثيرا، وهذا لحرصه^(٢) على رجوعهم.

﴿وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ﴾ أى: غلماناه ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾، وهى التى قدموا بها ليمتاروا عوضاً عنها ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾ أى: فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بها.

قيل: خشى يوسف، عليه السلام، ألا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها. وقيل: تدمم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضاً عن الطعام. وقيل: أراد أن يردهم إذا وجدوها فى متاعهم تخرجاً وتورعاً لأنه يعلم ذلك منهم^(٣) والله أعلم.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتُلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٦٣) قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل قاله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين (٦٤).

يخبر تعالى عنهم أنهم لما رجعوا إلى أبيهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ يعنون بعد هذه المرة، إن لم ترسل معنا آخانا بنيامين، فأرسله معنا نكتل.

وقرأ بعضهم: [يكتل]^(٤) بالياء، أى يكتل هو، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أى: لا تخف عليه فإنه سيرجع إليك. وهذا كما قالوا له فى يوسف: ﴿أَرْسَلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ﴾^(٥) وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ؛ ولهذا قال لهم: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أى: هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، تغيّبونه عني، وتحولون بيني وبينه؟ ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ وقرأ بعضهم: ﴿حَافِظًا﴾،

(١) فى ت: «فاحتبسه». (٢) فى ت: «ولهذا بحرصه» وفى أ: «ولهذا يحرضهم».

(٣) فى ت: «منهم ذلك».

(٤) زيادة من ت، أ.

(٥) فى ت، أ: «يرتع ونلعب».

﴿ وهو أرحم الراحمين ﴾ أى: هو أرحم الراحمين بى، وسيرحم كبرى وضعفى ووجدى بولدى، وأرجو من الله أن يرده على، ويجمع شملى به، إنه أرحم الراحمين.

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ (٦٦).

يقول تعالى: ولما فتح إخوة يوسف متاعهم، وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، وهى التى كان أمر يوسف فتيانها بوضعها فى رحالهم، فلما وجدوها فى متاعهم ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ﴾؟ أى: ماذا نريد؟ ﴿ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ كما قال قتادة. ما نبغى وراء هذا^(١)؟ إن بضاعتنا ردت إلينا وقد أوفى لنا الكيل.

﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ أى: إذا أرسلت أخانا معنا نأتى بالميرة إلى أهلنا، ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ وذلك أن يوسف، عليه السلام، كان يعطى كل رجل حمل بعير. وقال مجاهد: حمل حمار. وقد يسمى فى بعض اللغات بعيرا، كذا قال.

﴿ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾: هذا من تمام الكلام وتحسينه، أى: إن هذا يسير فى مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا.

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ﴾ أى: تحلفون^(٢) بالعهود والمواثيق، ﴿ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ إلا أن تغلبوا كلكم ولا تقدرّون على تخليصه. ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ أكدّه عليهم فقال: ﴿ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾.

قال ابن إسحاق: وإنما فعل ذلك؛ لأنه لم يجد بدا من بعثهم لأجل الميرة، التى لا غنى لهم عنها، فبعثه معهم.

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَمُّهُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلِمَهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٦٨).

(٢) فى ت: «تحلفوا».

(١) فى أ: «هذه».

يقول تعالى، إخباراً عن يعقوب، عليه السلام: إنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيه بنيامين إلى مصر، ألا يدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة، فإنه كما قال ابن عباس، ومحمد بن كعب، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي: إنه خشى عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوى جمال وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء، فخشى عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم؛ فإن العين حق، تستنزل الفارس عن فرسه.

وروى ابن أبي حاتم، عن إبراهيم النخعي في قوله: ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ قال: علم أنه سيلقى إخوته في بعض الأبواب.

وقوله: ﴿وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أى: هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضائه^(١)؛ فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع^(٢)، ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾. ولَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبَاؤُهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ قالوا: هى دفع إصابة العين لهم، ﴿وَأَنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلِمْنَا﴾: قال قتادة والثوري: لذو عمل بعلمه. وقال ابن جرير: لذو علم لتعليمنا إياه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٩).

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين، فأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والإلطف والإحسان، واختلى بأخيه فأطلعته على شأنه، وما جرى له، وعرفه أنه أخوه، وقال له: «لا تبتئس» أى: لا تأسف على ما صنعوا بى، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وألا يطلعهم على ما أطلعته عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقية عنده، معزّزاً مكرماً معظماً.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ (٧٢).

لما جهّزهم وحمل لهم أبعرتهم طعاماً، أمر بعض فتيانه أن يضع «السقاية»، وهى: إناء من فضة فى قول الأكثرين. وقيل: من ذهب - قاله ابن زيد - كان يشرب فيه، ويكيل للناس به من عزة الطعام إذ ذاك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد.

وقال شعبة، عن أبى بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿صَوَاعَ الْمَلِكِ﴾ قال: كان من

(٢) فى ت: «لا يمانع ولا يخالف».

(١) فى ت: «قضاء الله وقدره».

فضة يشربون فيه، وكان مثل المكوك، وكان للعباس مثله في الجاهلية، فوضعها في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد، ثم نادى مناد بينهم: ﴿أَيُّهَا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾، فالتفتوا إلى المنادى وقالوا: ﴿هَذَا تَفْقُدُونَ. قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ﴾ أى: صاعه الذى يكيل به، ﴿وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾، وهذا من باب الجعالة، ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾، وهذا من باب الضمان والكفالة.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ (٧٣) قَالُوا فَمَا جزاؤه إن كنتم كاذبين (٧٤) قَالُوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) .

لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة، قال لهم إخوة يوسف: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ أى: لقد تحققتم وعلمتم منذ (١) عرفتمونا، لأنهم (٢) شاهدوا منهم سيرة حسنة، أنا ما جئنا للفساد فى الأرض، وما كنا سارقين، أى: ليست سجايانا تقتضى هذه الصفة، فقال (٣) لهم الفتيان: ﴿فَمَا جزاؤه﴾ أى: السارق، إن كان فيكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ أى: أى شىء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه (٤) ؟ ﴿قَالُوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظَّالِمِينَ﴾.

وهكذا كانت شريعة إبراهيم: أن السارق يدفع إلى المسروق منه. وهذا هو الذى أراد يوسف، عليه السلام؛ ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، أى: فتشها قبله، تورية، ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾، فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم وإلزاما لهم بما يعتقدونه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾، وهذا من الكيد المحبوب المراد الذى يحبه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أى: لم يكن له أخذه فى حكم ملك مصر، قاله الضحاك وغيره.

ولأنما قبض الله له أن (٥) التزم له إخوته بما التزموه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم؛ ولهذا مدحه تعالى فقال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءُ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾: قال الحسن البصرى: ليس عالم إلا فوقه عالم، حتى ينتهى إلى الله عز وجل. وكذا روى عبد الرزاق، عن سفیان الثوري، عن عبد الأعلى الثعلبي، عن سعيد بن جبیر

(٣) فى أ: «فقلت».

(٢) فى ت: «لا لأنهم».

(١) فى ت: «مذ».

(٥) فى ت: «أنه».

(٤) فى أ: «فيهم من أخذها».

قال: كنا عند ابن عباس فتحدث بحديث عجيب، فتعجب رجل فقال: الحمد لله ﴿فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [فقال ابن عباس: بشئ ما قلت، الله العليم، وهو فوق كل عالم]^(١)، وكذا روى سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، قال: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، والله فوق كل عالم. وهكذا^(٢) قال عكرمة.

وقال قتادة: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، حتى ينتهي العلم إلى الله، منه بُدئ وتعلمت العلماء، وإليه يعود، وفي قراءة عبد الله «وَفَوْقَ كُلِّ عَالَمٍ عَلِيمٌ».

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (٧٧).

وقال^(٣) إخوة يوسف لما رأوا الصّواع قد أخرج من متاع بنيامين: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾، يتصلون إلى العزيز من التشبه^(٤) به، ويذكرون أن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل، يعنون به يوسف، عليه السلام.

قال سبيد بن جبير، عن قتادة^(٥): كان يوسف قد سرق صنما لجدّه، أبى أمه، فكسره.

وقال محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نجیح، عن مجاهد قال: كان أول ما دخل على يوسف من البلاء، فيما بلغني، أن عمته ابنة إسحاق، وكانت أكبر ولد إسحاق، وكانت إليها منطقة إسحاق، وكانوا يتوارثونها بالكبر، فكان من اختباها^(٦) ممن وليها كان له سَلَمًا لا ينزع فيه، يصنع فيه ما يشاء^(٧). وكان يعقوب حين وُلِدَ له يوسف قد حضنته عمته، فكان منها وإليها، فلم يُحِبْ أحدٌ شيئاً من الأشياء حبها إياه، حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات وقعت نفس يعقوب عليه فأتاها، فقال: يا أختي^(٨)، سلّمي إلى يوسف، فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة. قالت: فوالله ما أنا بتاركته. ثم قالت: فدعه عندي أياماً أنظر إليه وأسكن عنه، لعل ذلك يسليني عنه - أو كما قالت. فلما خرج من عندها يعقوب، عمدت إلى منطقة إسحاق، فعزمتها على يوسف من تحت ثيابه، ثم قالت: فقدت منطقة إسحاق، عليه السلام، فانظروا من أخذها ومن أصابها؟ فالتمست ثم قالت: اكشفوا أهل البيت. فكشفوهم فوجدوها مع يوسف. فقالت: والله إنه لى لسَلَمٌ، أصنع فيه ما شئت. فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر. فقال لها: أنت وذاك، إن كان فعل ذلك فهو سَلَمٌ لك ما أستطيع غير ذلك. فأمسكته فما قدر عليه يعقوب حتى مات. قال: فهو الذي يقول إخوة يوسف حين صنع بأخيه ما صنع حين أخذه: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾^(٩).

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) في ت، أ: «وكذا».

(٣) في ت، أ: «فقال».

(٤) في أ: «الشبه».

(٥) في ت، أ: «وقتادة».

(٦) في أ: «اختانها».

(٧) في ت، أ: «ما شاء».

(٨) في ت، أ: «يا أخته».

(٩) رواه الطبري في تفسيره (١٦/١٩٦).

وقوله: ﴿فَأَسْرَهَا﴾^(١) يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ ﴿يعنى: الكلمة التى بعدها، وهى قوله: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾^(٢) أى: تذكرون. قال هذا فى نفسه، ولم ييده لهم، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر، وهو كثير، كقول الشاعر^(٣):

جَزَى بَنُوهُ أَبَا الْغِيلَانِ عَنْ كَبِيرٍ وَحُسْنُ فَعْلٍ^(٤) كَمَا يُجْزَى سَنَمَارٌ

وله شواهد كثيرة من القرآن والحديث واللغة، فى مثورها وأخبارها وأشعارها.

قال العوفى، عن ابن عباس: ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ قال: أسر فى نفسه: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٧٨)
قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (٧٩).

لما تعين أخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم، شرعوا يترققون له ويعطفونه عليهم، ف ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ يعنون: وهو يحبه حبا شديدا ويتسلى به عن ولده الذى فقده، ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ أى: بدله، يكون عندك عوضاً عنه، ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: من العادلين المنصفين القابلين للخير. ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ أى: كما قلتم واعترفتم، ﴿إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾ [أى] ^(٦) إن أخذنا بريثا بسقيم.

﴿فَلَمَّا اسْتِأْذَنُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَى آبَيْكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢).

يخبر تعالى عن إخوة يوسف: أنهم لما يشؤا من تخلص أخيه بنيامين، الذى قد التزموا لأبيهم برده إليه، وعاهدوه على ذلك، فامتنع عليهم ذلك، ﴿خَلَصُوا﴾ أى: انفردوا عن الناس ﴿نَجِيًّا﴾ يتناجون فيما بينهم.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ وهو روبيل، وقيل: يهوذا، وهو الذى أشار عليهم بإلقائه فى البئر عندما هموا

(١) فى ت: «فأسرها».

(٢) فى ت: «يصفون».

(٣) هو سليل بن سعد، والبيت من شواهد ابن عقيل فى شرحه على الآلفية لابن مالك برقم (١٥٣).

(٤) فى ت، أ: «ظن».

(٥) فى أ: «لنراك» وهو خطأ.

(٦) زيادة من ت، أ.

بقتله، قال لهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ لتردنه إليه، فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه، ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ أى: لن أفارق هذه البلدة، ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ فى الرجوع إليه راضياً عنى، ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾، قيل: بالسيف. وقيل: بأن يمكننى من أخذ أخى، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾^(١).

ثم أمرهم أن يخبروا آباهم بصورة ما وقع، حتى يكون عذرا لهم عنده ويتصلوا إليه، ويبرؤوا مما وقع بقولهم.

وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ قال عكرمة وقتادة: ما [كنا]^(٢) نعلم أن ابنك سرق^(٣).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما علمنا فى الغيب أنه يسرق^(٤) له شيئا، إنما سألنا^(٥) ما جزاء السارق؟

﴿وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾: قيل: المراد مصر. قاله قتادة، وقيل: غيرها، ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أى: التى رافقناها، عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا، ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به، من أنه سرق وأخذوه بسرقة.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾^(٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ^(٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ^(٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ^(٨٦)﴾.

قال لهم كما قال لهم حين جاؤوا على قميص يوسف بدم كذب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

قال محمد بن إسحاق: لما جاؤوا يعقوب وأخبروه بما جرى اتهمهم، وظن أنها كفعلتهم بيوسف ﴿قَالَ^(٦) بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

وقال بعض الناس: لما كان صنيعهم^(٧) هذا مرتباً على فعلهم الأول، سَحِبَ^(٨) حكم الأول عليه، وصح قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

ثم ترجى^(٩) من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة: يوسف وأخاه بنيامين، ورويبيل الذى أقام بديار

(١) فى ت، أ: «أحكم الحاكمين» وهو خطأ.

(٢) زيادة من ت، أ.

(٣) فى ت: «يسرق».

(٤) فى ت، أ: «سرق».

(٥) فى ت، أ: «سألناه».

(٦) فى ت، أ: «فقال» وهو خطأ.

(٧) فى ت: «صيرنا».

(٨) فى ت: «اسحب»، وفى أ: «استحب».

(٩) فى ت: «يرجى».

مصر ينتظر أمر الله فيه، إما أن يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يأخذ أخاه خفية؛ ولهذا قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ أى: العليم بحالى، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى أفعاله وقضائه وقدره.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ أى: أعرض عن بنيه وقال متذكراً حُزْنَ يوسف القديم الأول: ﴿يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ﴾، جَدَّدَ لَهُ حُزْنَ الْابْنَيْنِ ^(١) الحزن الدفين.

قال عبد الرزاق، أخبرنا الثورى، عن سفيان العُصْفُورِ، عن سعيد بن جبیر أنه قال: لم يعط أحد غير هذه الأمة الاسترجاع، ألا تسمعون إلى قول يعقوب، عليه السلام: ﴿يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أى: ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق ^(٢). قاله قتادة وغيره.

وقال الضحاك: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾: كميد حزين.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا حماد بن سلمة [حدثنا أبو موسى]، عن على بن زيد ^(٣)، عن الحسن، عن الأحنف بن قيس، أن النبى ﷺ قال: «إن داود، عليه السلام، قال: يارب، إن بنى إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحاق ويعقوب، فاجعلنى لهم رابعاً. فأوحى الله تعالى إليه أن يا داود، إن إبراهيم ألقى فى النار بسببى فصبر، وتلك بلية لم تنلك، وإن إسحاق بذل مهجة ^(٤) دمه فى سببى فصبر، وتلك بلية لم تنلك، وإن يعقوب أخذت منه حبيبته حتى ابيضت عيناه من الحزن، فصبر، وتلك بلية لم تنلك».

وهذا مرسل، وفيه نكارة ^(٥)؛ فإن الصحيح أن إسماعيل هو الذبيح، ولكن على بن زيد بن جُدْعَانَ له مناكير وغرائب كثيرة، والله أعلم.

وأقرب ما فى هذا أن يكون قد حكاه الأحنف بن قيس، رحمه الله، عن بنى ^(٦) إسرائيل ككعب ووهب ونحوهما، والله أعلم، فإن الإسرائيليين ينقلون أن يعقوب كتب إلى يوسف لما احتبس أخاه بسبب السرقة يتلطف له فى رده، ويذكر له أنهم أهل بيت مصابون بالبلاء، فإبراهيم ابتلى بالنار، وإسحاق بالذبح، ويعقوب بفراق يوسف، فى حديث طويل لا يصح، والله أعلم، فعند ذلك رق له بنوه، وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يَوْسُفَ﴾ أى: لا تفارق تذكُر يوسف، ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ أى: ضعيف الجسم، ضعيف القوة، ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ يقولون: وإن استمر بك هذا الحال خشنا عليك الهلاك والتلف.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ أى: أجابهم عما قالوا بقوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي﴾

(١) فى ت: «الابنين».

(٢) تفسير عبد الرزاق (٢٨٤/١) وروى موصولاً ولا يصح.

(٣) فى ت: «يزيد».

(٤) فى ت: «مهجته».

(٥) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (٥٥٤/١١) عن عفان، عن حماد بن سلمة به.

(٦) فى ت: «عن بعض بنى».

أى: همي وما أنا فيه ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وحده ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى: أرجو منه كل خير.

وعن ابن عباس: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يعنى رؤيا يوسف أنها صدق وأن الله لا بد أن يظهرها وينجزها. وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾] ^(١)، أعلم أن رؤيا يوسف صادقة، وأنى سوف أسجد له.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا يحيى بن عبد الملك بن أبى غنّية، عن حفص ابن عمر بن أبى الزبير، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كان ليعقوب النبی، عليه السلام، أخ مؤاخ له، فقال له ذات يوم: ما الذى أذهب بصرک وقوّس ظهرک؟ قال: الذى ^(٢) أذهب بصرى البكاء ^(٣) على يوسف، وأما الذى قوس ظهرى فالخزن على بنيامين، فأتاه جبريل، عليه السلام، فقال: يا يعقوب، إن الله يُقرئك السلام ويقول لك: أما تستحي أن تشكونى إلى غيرى؟ فقال يعقوب: إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله. فقال جبريل، عليه السلام: الله أعلم بما تشكو» ^(٤).

وهذا حديث غريب، فيه نكارة.

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨)﴾.

يقول تعالى مخبرا عن يعقوب، عليه السلام، أنه ندب بنيه على ^(٥) الذهاب فى الأرض، يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين.

والتحسس ^(٦) يكون فى الخير، والتجسس يستعمل فى الشر.

ونَهَضَهُمْ وبشرهم وأمرهم ألا يياسوا من روح الله، أى: لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه ^(٧)، فإنه لا يقطع الرجاء، ويقطع الإياس من الله إلا القوم الكافرون ^(٨).

وقوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ تقدير الكلام: فذهبوا فدخلوا بلد ^(٩) مصر، ودخلوا على يوسف،

(١) زيادة من ت. (٣) فى ت، أ: «فالبكاء».

(٢) فى أ: «أما الذى».

(٣) زيادة من ت.

(٤) ورواه الحاكم فى المستدرک (٣٤٨/٢) من طريق أبى بكر بن أبى شيبه، عن يحيى بن عبد الملك بن أبى غنّية، عن حفص بن عمر ابن الزبير، عن أنس بنحوه، وقال الحاكم: «حفص بن عمر بن الزبير، وأظن الزبير وهما من الراوى فإنه حفص بن عمر بن عبد الله بن أبى طلحة الأنصارى». ورواه إسحاق بن راهويه ومن طريقه الحاكم فى المستدرک (٣٤٨/٢) من طريق يحيى بن عبد الملك، عن أنس بن مالك مرسلًا. ورواه ابن أبى الدنيا فى «الفرج بعد الشدة» برقم (٤٧) من طريق زافر بن سليمان عن يحيى بن عبد الملك عن رجل، عن أنس بن مالك رضى الله عنه مرفوعًا. ورواه الطبرانى فى الأوسط برقم (٣٣٤١) «مجمع البحرين» من طريق وهب بن بقیة عن يحيى بن عبد المطلب عن حصين بن عمر الأحمسی عن أبى الزبير عن أنس مرفوعًا. وبهذا يتبين أن الحديث مضطرب.

(٥) فى ت، أ: «ويقصدون له».

(٦) فى ت: «والتجسس».

(٧) فى أ: «إلى».

(٨) فى أ: «بلاد».

(٩) فى ت: «الكافرين».

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضُّرُّ ﴾ يعنون من الجذب والقحط وقلة الطعام، ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ﴾ أى: ومعنا ثمن الطعام الذى تمتاره، وهو ثمن قليل. قاله مجاهد، والحسن، وغير واحد.

وقال ابن عباس: الردىء ^(١) لا يَنْفَقُ، مثل خَلَقَ الْغَرَارَةَ، والحبل، والشئ، وفى رواية عنه: الدراهم الرديئة التى لا تجوز إلا بنقصان. وكذا قال قتادة، والسدى.

وقال سعيد بن جبير [وعكرمة] ^(٢): هى الدراهم الفسول.

وقال أبو صالح: هو الصنوبر وحب الخضر.

وقال الضحاك: كاسدة لاتنفق.

وقال أبو صالح: جازوا بحَبِّ البُطْمِ الأخضر والصنوبر.

وأصل الإزجاء: الدفع لضعف الشئ، كما قال حاتم الطائي:

لَيْتَكَ عَلَى مِلْحَانَ ضَيْفٍ مُدْفَعٍ وَأَرْمَلَةٌ تُزْجَى مَعَ اللَّيْلِ أَرْمَلًا ^(٣).

وقال أعشى بنى ثعلبة:

الْوَاهِبُ الْمَائَةِ الْهَجَانَ وَعَبْدَهَا عُوذًا تُزْجَى خَلْفَهَا أَطْفَالَهَا ^(٤).

وقوله إخبارا عنهم: ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ﴾ أى: أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك.

وقرأ ابن مسعود: «فأوقرُ ركبانا وتصدق علينا».

وقال ابن جريج: ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ برَدِّ أخينا إلينا.

وقال سعيد بن جبير والسدى: ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾، يقولون: تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة، وتجاوز فيها.

وسئل سفيان بن عيينة: هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبي ﷺ؟ فقال: ألم تسمع قوله: ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ رواه ابن جرير عن الحارث، عن القاسم، عنه ^(٥) ^(٦).

وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا القاسم، حدثنا مروان بن معاوية، عن عثمان بن الأسود: سمعت مجاهدا وسئل: هل يكره أن يقول الرجل فى دعائه: اللهم تصدق على؟ فقال: نعم، إنما الصدقة لمن يبتغى الثواب.

(٢) زيادة من ت، أ.

(١) فى ت، أ: «الردى الذى لا».

(٣) البيت فى تفسير الطبرى (٢٣٥/١٦).

(٤) البيت فى تفسير الطبرى (٢٣٥/١٦).

(٥) فى أ: «به».

(٦) تفسير الطبرى (٢٤٢/١٦).

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ (٨٩) قَالُوا أَأَنْتَ لَأَنْتَ يُونُسُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن يوسف، عليه السلام: أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجَدْب، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه، مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته، وبدره البكاء، فتعرف إليهم، يقال^(١): إنه رفع التاج عن جبهته، وكان فيها شامة، وقال: ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾؟ يعنى: كيف فرقوا بينه وبينه ﴿ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ أى: إنما حملكم على هذا^(٢) الجهل بمقدار هذا الذى ارتكبتموه، كما قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل، وقرأ: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٩].

والظاهر - والله أعلم - أن يوسف، عليه السلام، إنما تعرف إليهم بنفسه، بإذن الله له فى ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه فى المرتين الأوليين^(٣) بأمر الله تعالى له فى ذلك، والله أعلم، ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر، فرج الله تعالى من ذلك الضيق، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ^(٤) مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٥، ٦]، فعند ذلك قالوا: ﴿ أَأَنْتَ لَأَنْتَ يُونُسُ ﴾؟

وقرأ أبى بن كعب: «أو أنت^(٥) يُونُسُ»، وقرأ ابن مُحِصِّن: «إِنَّكَ لَأَنْتَ^(٦) يُونُسُ». والقراءة المشهورة هى الأولى؛ لأن الاستفهام يدل على الاستعظام، أى: إنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر، وهم لا يعرفونه، وهو مع هذا يعرفهم ويكتفون نفسه، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام: ﴿ أَأَنْتَ لَأَنْتَ يُونُسُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ﴾، ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أى: بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد المدة، ﴿ إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ يقولون معترفين له بالفضل والاثرة عليهم فى الخلق والخلق، والسعة والملك، والتصرف والنبوة أيضا - على قول من لم يجعلهم أنبياء - وأقروا له بأنهم أسأوا إليه وأخطؤوا فى حقه.

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ يقول: لا تأنيب عليكم ولا عتب عليكم اليوم، ولا أعيد^(٧) ذنبكم فى حقى بعد اليوم.

(٣) فى ت، أ: «الأولتين».

(٦) فى ت، أ: «وأنت».

(٢) فى أ: «ذلك».

(٥) فى أ: «أو إنك».

(١) فى ت، أ: «فيقال».

(٤) فى ت، أ: «إن» وهو خطأ.

(٧) فى ت، أ: «ولا أعيد عليكم».

ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

قال السدى: اعتذروا إلى يوسف، فقال: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ يقول: لا أذكر لكم ذنبكم.

وقال ابن إسحاق والثورى: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ [الْيَوْمَ]﴾^(١) أى: لا تأنيب عليكم اليوم عندي فيما صنعتكم ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أى: يستر الله عليكم فيما فعلتم، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٣)
وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥).

يقول: اذهبوا بهذا القميص، ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾، وكان قد عمى من كثرة البكاء، ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى: بجميع بنى يعقوب.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ أى: خرجت من مصر، ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعنى: يعقوب، عليه السلام، لمن بقى عنده من بنيه: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾: تنسبونى إلى الفند والكبر.

قال عبد الرزاق: أنبأنا إسرائيل، عن أبى سنان، عن عبد الله بن أبى الهذيل قال: سمعت ابن عباس يقول: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ قال: لما خرجت العير، هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾، قال: فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام^(٢).

وكذا رواه سفيان الثورى، وشعبة، وغيرهما عن أبى سنان، به.

وقال الحسن وابن جرير: كان بينهما ثمانون فرسخا، وكان بينه وبينه منذ افترقا ثمانون سنة.

وقوله: ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وقتادة، وسعيد بن جبير: تُسَفِّهُونَ.

وقال مجاهد أيضا، والحسن: تُهَرِّمُونَ.

وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ قال ابن عباس: لفى خطئك القديم.

وقال قتادة: أى من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه، قالوا لوالدهم كلمة غليظة، لم يكن ينبغى لهم أن يقولوها لوالدهم، ولا لنبى الله ﷺ^(٣). وكذا قال السدى، وغيره.

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/٢٨٦).

(٣) فى أ: «عليه السلام».

لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨).

قال ابن عباس والضحاك: ﴿البشير﴾: البريد.

وقال مجاهد والسدى: كان يهوذا بن يعقوب.

قال السدى: إنما جاء به لأنه هو الذى جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب، فأراد^(١) أن يغسل ذاك بهذا، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه، فرجع بصيرا.

وقال لبنيه عند ذلك: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى: أعلم أن الله سيرده إلى، وقلت لكم: ﴿إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تَفْنَدُونَ﴾؟. فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفين له: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ. قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أى: من تاب إليه تاب عليه.

قال ابن مسعود، وإبراهيم التيمي، وعمرو بن قيس، وابن جريج وغيرهم: أرجأهم إلى وقت السحر.

وقال ابن جرير: حدثني أبو السائب، حدثنا ابن إدريس، سمعت عبد الرحمن بن إسحاق يذكر عن محارب بن دثار قال: كان عمر، رضى الله عنه، يأتى المسجد فيسمع^(٢) إنسانا يقول: «اللهم دعوتنى فأجبت، وأمرتني فأطعت، وهذا السحرُ فاغفر لى». قال: فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود. فسأل عبد الله عن ذلك فقال: إن يعقوب أخر بنيه إلى السحر بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾^(٣).

وقد ورد فى فى الحديث أن ذلك كان ليلة جمعة، كما قال ابن جرير: أيضا: حدثني المثنى، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن أبو^(٤) أيوب الدمشقي، حدثنا الوليد، أنبأنا ابن جريج، عن عطاء وعكرمة، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾، يقول: حتى تأتى ليلة الجمعة، وهو قول أخى يعقوب لبنيه^(٥).

وهذا غريب من هذا الوجه، وفى رفعه نظر، والله أعلم.

(٢) فى آ: «سمع».

(١) فى ت، أ: «فأحب».

(٣) تفسير الطبرى (١٦/٢٦١).

(٤) فى ت: «بن».

(٥) تفسير الطبرى (١٦/٢٦٢) وهذا إسناد فيه ثلاث علل:

الأولى: عن ابن جريج وهو مدلس لم يصرح بالسماع.

الثانية: الوليد بن مسلم القرشى كان يهتم فى رفع الأحاديث ويدلس بتدليس التسوية.

الثالثة: سليمان بن عبد الرحمن تكلم فيه من جهة حفظه وبمثل هذا السند روى حديث دعاء نسيان القرآن، وسبق الكلام عليه فى فضائل القرآن.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِينَ ﴾ (٩٩)
 وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (١٠٠).

يخبر تعالى عن ورود يعقوب، عليه السلام، على يوسف، عليه السلام، وقدمه بلاد (١) مصر، لما كان يوسف قد تقدم إلى إخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين، فتحملوا عن آخرهم وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد (٢) مصر، فلما أخبر يوسف، عليه السلام، باقترابهم خرج لتلقيهم، وأمر [الملك] (٣) أمراءه وأكابر الناس بالخروج [مع يوسف] (٤) لتلقى نبي الله يعقوب، عليه السلام، ويقال: إن الملك خرج أيضا لتلقيه، وهو الأشبه.

وقد أشكل قوله: ﴿ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ ﴾ على كثير (٥) من المفسرين، فقال بعضهم: هذا من المقدم والمؤخر، ومعنى الكلام: ﴿ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِينَ ﴾، وآوى إليه أبويه، ورفعهما على العرش.

وقد رد ابن جرير هذا. وأجاد في ذلك. ثم اختار ما حكاه عن السدي: أن يوسف آوى إليه أبويه لما تلقاهما، ثم لما وصلوا باب البلد قال: ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِينَ ﴾.

وفى هذا نظر أيضا؛ لأن الإيواء إنما يكون في المنزل، كقوله: ﴿ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾، وفي الحديث: «من آوى محدثا» وما المانع أن يكون قال لهم بعدما دخلوا عليه وآواهم إليه: ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ ﴾، وضمته: اسكنوا مصر ﴿ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِينَ ﴾ أى: مما كنتم فيه من الجهد والقحط، ويقال - والله أعلم -: إن الله تعالى رفع عن أهل مصر بقية السنين المجدة ببركة قدوم يعقوب عليهم، كما رفع بقية السنين التي دعا بها رسول الله ﷺ على أهل مكة حين قال: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف»، ثم لما تضرعوا إليه واستشفعوا لديه، وأرسلوا أبا سفيان في ذلك، فدعا لهم، فرع عنهم بقية ذلك ببركة دعائه، عليه السلام (٦).

وقوله: ﴿ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾، قال السدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما كان أباه (٧) وخالته، وكانت أمه قد ماتت قديما.

وقال محمد بن إسحاق وابن جرير: كان أبوه وأمه يعيشان.

قال ابن جرير: ولم يقم دليل على موت أمه، وظاهر القرآن يدل على حياتها. وهذا الذي نصره

(٣) زيادة من ت، أ. (٤)

(٢) فى ت، أ: «ديار».

(١) فى أ: «على».

(٥) فى ت: «كثيرين».

(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٠٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

(٧) فى ت: «أبوه».

هو المنصور الذى يدل عليه السياق.

وقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: يعنى السرير، أى: أجلسهما معه على سريره.

﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ أى: سجد له أبواه وإخوته الباقون، وكانوا أحد عشر رجلاً، ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ أى: التى كان قصها على أبيه ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

وقد كان هذا سائغا فى شرائعهم إذا سلّموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى، عليه السلام، فحرم هذا فى هذه الملة، وجعل السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه وتعالى.

هذا مضمون قول قتادة وغيره.

وفى الحديث أن معاذاً قدم الشام، فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ، فقال: «ما هذا يا معاذ؟» فقال: «إنى رأيتهم يسجدون لأساقفتهم، وأنت أحق أن يسجد لك يارسول الله فقال: «لو كنت امرأةً أحداً أن يسجد لأحد، لأمرت الزوجة^(١) أن تسجد لزوجها من عظيم^(٢) حقه عليها»^(٣).

وفى حديث آخر: أن سلمان لقي النبی ﷺ فى بعض طُرُق المدينة، وكان سلمان حديث عهد بالإسلام، فسجد للنبي ﷺ، فقال: «لا تسجد لى يا سلمان، واسجد للحى الذى لا يموت»^(٤).

والغرض أن هذا كان جائزاً فى شريعتهم؛ ولهذا خروا له سُجَّدًا، فعندها قال يوسف: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أى: هذا ما آكل إليه الأمر، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر، كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ [الأعراف: ٥٣] أى: يوم القيامة يأتيهم ما وعدوا من خير وشر.

وقوله: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أى: صحيحة صدقاً، يذكر نعم الله عليه، ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ أى: البادية.

قال ابن جرير وغيره: كانوا أهل بادية وماشية. وقال: كانوا يسكنون بالعربات من أرض فلسطين، من غور الشام. قال: وبعض يقول: كانوا بالأولاج من ناحية شعب أسفل من حسمى، وكانوا أصحاب بادية وشاء^(٥) وإيل.

(١) فى ت، أ: «المرأة».

(٢) فى ت: «عظيم».

(٣) رواه أحمد فى المسند (٣٨١/٤) وابن ماجه فى السنن برقم (١٨٥٣) من حديث معاذ رضى الله عنه، وصححه ابن حبان.

(٤) رواه أبو نعيم فى تاريخ أصبهان (١٠٣/٢) من طريق شهر بن حوشب، عن سلمان رضى الله عنه، وسيأتى عند تفسير الآية: ٥٨ من سورة الفرقان.

(٥) فى أ: «وماشية».

﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ [ثم قال] ^(١) إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ﴿ أَى: إذا أراد أمراً قيض له أسباباً ويسره وقدره، ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بمصالح عباده ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أفعاله وأقواله، وقضائه وقدره، وما يختاره ويريده.

قال أبو عثمان النهدي، عن سلمان ^(٢): كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة.

قال عبد الله بن شداد: وإليها ^(٣) ينتهى أقصى الرؤيا. رواه ابن جرير.

وقال أيضاً: حدثنا عمرو بن على، حدثنا عبد الوهاب الثقفى، حدثنا هشام، عن الحسن قال: كان منذ ^(٤) فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا، ثمانون سنة، لم يفارق فى الحزن قلبه، ودموعه تجري على خديه، وما على وجه الأرض عبد أحب إلى الله من يعقوب ^(٥).

وقال هُشَيْمٌ، عن يونس، عن الحسن: ثلاث وثمانون سنة.

وقال مبارك بن فضالة، عن الحسن: ألقى يوسف فى الحب وهو ابن سبع عشرة سنة، فغاب عن أبيه ثمانين ^(٦) سنة، وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة، فمات وله عشرون ومائة سنة.

وقال قتادة: كان بينهما خمس وثلاثون سنة.

وقال محمد بن إسحاق: ذكر - والله أعلم - أن غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثمانى عشرة سنة - قال: وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين ^(٧) سنة أو نحوها، وأن يعقوب، عليه السلام، بقى مع يوسف بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة، ثم قبضه الله إليه.

وقال أبو إسحاق السبى، عن أبى عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: دخل بنو إسرائيل مصر، وهم ثلاثة وستون إنساناً، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً.

وقال أبو إسحاق، عن مسروق: دخلوا وهم ثلاثمائة وتسعون من بين رجل وامرأة. والله ^(٨) أعلم.

وقال موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب القرظى، عن عبد الله بن شداد: اجتمع آل يعقوب إلى يوسف بمصر. وهم ستة وثمانون إنساناً، صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف ونيف.

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (١٠١).

(٢) فى أ: «عن سلمان قال».

(٤) فى ت: «مذ».

(٥) تفسير الطبرى (١٦/٢٧٣).

(٨) فى ت، أ: «فالله».

(٧) فى أ: «أربعون».

(٦) فى أ: «ثمانون».

هذا دعاء من يوسف الصديق، دعا به ربه عز وجل، لما تمت النعمة عليه، باجتماعه بأبويه وإخوته، وما منَّ الله به عليه من النبوة والملك، سأل ربه عز وجل، كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة، وأن يتوفاه مسلماً حين يتوفاه. قاله الضحاك، وأن يلحقه بال صالحين، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين، صلوات الله وسلامه [عليه و] ^(١) عليهم أجمعين.

وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف، عليه السلام، قاله عند احتضاره، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة، رضى الله عنها؛ أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت، ويقول: «اللهم في الرفيق الأعلى، اللهم في الرفيق الأعلى، اللهم في الرفيق الأعلى» ^(٢).

ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بال صالحين إذا حان أجله، وانقضى عمره؛ لا أنه سأل ذلك منجزاً، كما يقول الداعي لغيره: «أما لك الله على الإسلام». ويقول الداعي: «اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين وألحقنا بال صالحين».

ويحتمل أنه سأل ذلك منجزاً، وكان ذلك سائفاً في ملتهم، كما قال قتادة: قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾: لما جمع الله شمله وأقر عينه، وهو يومئذ مغمور في الدنيا وملكها وغضارتها، فاشتاق ^(٣) إلى الصالحين قبله، وكان ابن عباس يقول: ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف، عليه السلام.

وكذا ذكر ابن جرير ^(٤)، والسدى عن ابن عباس: أنه أول نبي دعا بذلك. وهذا يحتمل أنه أول من سأل الوفاة على الإسلام، كما أن نوحاً أول من قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِناً﴾ [نوح: ٢٨]، ويحتمل أنه أول من سأل نجاز ذلك، وهو ظاهر سياق قتادة، ولكن هذا لا يجوز ^(٥) في شريعتنا.

قال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا عبد العزيز بن صهيب، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضرٍ نزل به، فإن كان لابد ^(٦) متمنيا الموت فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي» ^(٧).

[ورواه البخاري ومسلم، وعندهما: «لا يتمنين أحدكم الموت لضرٍ نزل به إما محسناً فيزداد، وإما مسيئاً فلعله يستعقب، ولكن ليقول: اللهم، أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٤٣٧) وصحيح مسلم برقم (٢٤٤٤).

(٣) في ت، أ: «واشتاق». (٤) في ت، أ: «جريح».

(٥) في ت، أ: «لا يجوز هذا».

(٦) في ت، أ: «كان ولا بد».

(٧) المسند (١٠١/٣).

خيراً لى»^(١) [٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا معان بن رفاعه، حدثني علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: جلسنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا ورققنا، فبكى سعد بن أبي وقاص فأكثر البكاء، فقال: يا ليتني مت! فقال النبي ﷺ: «يا سعد أعندي تتمنى الموت؟» فردد ذلك [ثلاث] (٣) مرات ثم قال: «يا سعد، إن كنت خلقت للجنة، فما طال (٤) عمرك، أو حسن من عملك، فهو خير لك»^(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو يونس - هو سليم بن جبير - عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «لا يتمنين أحدكم الموت ولا يدعون^(٦) به من قبل أن يأتيه، إلا أن يكون قد وثق بعمله، فإنه إذا مات أحدكم انقطع عنه عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عمره (٧) إلا خيراً» تفرد به أحمد^(٨).

وهذا فيما إذا كان الضر خاصاً به، أما إذا كان (٩) فتنة في الدين فيجوز سؤال الموت، كما قال الله تعالى إخباراً عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهدهم بالقتل قالوا: «رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ» [الأعراف: ١٢٦]، وقالت مريم لما أجهها المخاض، وهو الطلق، إلى جذع النخلة «يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا نَسِيًّا» [مريم: ٢٣]، لما تعلم من أن الناس يقذفونها بالفاحشة؛ لأنها لم تكن ذات زوج وقد حملت وولدت، فيقول القائل أنى لها هذا؟ ولهذا واجهوها أولاً بأن قالوا: «يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا. يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا» [مريم: ٢٧]، [٢٨] فجعل الله لها من ذلك الحال فرجاً ومخرجاً، وأنطق الصبي في المهد بأنه عبد الله ورسوله، وكان (١٠) آية عظيمة ومعجزة باهرة صلوات الله وسلامه عليه (١١). وفي حديث معاذ، الذي رواه الإمام أحمد والترمذي، في قصة المنام والدعاء الذي فيه: «وإذا أردت بقوم فتنة، فتوفني إليك غير مفتون»^(١٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سلمة، أنا عبد العزيز بن محمد، عن عمرو عن (١٣) عاصم عن (١٤) عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد؛ أن النبي ﷺ قال: «اثنان يكرههما ابن آدم الموت، والموت خير

(١) صحيح البخارى برقم (٦٣٥١) وصحيح مسلم برقم (٢٦٨٠).

(٢) زيادة من ت، أ. (٤) فى ت، أ: «فأطال».

(٣) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٥) المسند (٢٦٦/٥).

(٦) فى ت، أ: «لا يدعو».

(٧) فى ت، أ: «عمله».

(٨) المسند (٣٥٠/٢).

(٩) فى ت: «عليه وسلامه».

(١٠) فى ت: «فكان».

(١١) فى أ: «كان فيه».

(١٢) المسند (٢٤٣/٥) وسنن الترمذى برقم (٣٢٣٥). وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح، سألت محمد بن إسماعيل البخارى

عن هذا الحديث فقال: هذا حديث حسن صحيح».

(١٣) (١٤) فى ت: «ابن».

للمؤمن [من الفتنة]^(١) ويكره قلة المال، وقلة المال أقل للحساب^(٢).

فعند حلول الفتن في الدين يجوز سؤال الموت؛ ولهذا قال على بن أبى طالب، رضى الله عنه، في آخر إمارته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له، ولا يزداد الأمر إلا شدة قال: اللهم، خذنى إليك، فقد سئمتهم وسئمونى.

وقال البخارى، رحمه الله، لما وقعت له تلك المحن وجرى له ما جرى مع أمير خراسان: اللهم، توفنى إليك.

وفى الحديث: «إن الرجل ليمر بالقبر - أى فى زمان الدجال - فيقول: يا ليتنى مكانك»^(٣)، لما يرى من الفتن والزلازل والبلابل والأمور الهائلة التى هى فتنة لكل مفتون.

قال أبو جعفر بن جرير: وذكر أن بنى يعقوب الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا، استغفر لهم أبوهم، فتاب الله عليهم وعفا عنهم، وغفر لهم ذنوبهم.

[ذكر من قال ذلك]^(٤):

حدثنا القاسم، حدثنا الحسن، حدثنى حجاج، عن صالح المري، عن يزيد الرقاشى، عن أنس ابن مالك قال: إن الله تعالى لما جمع ليعقوب شمله، وأقر عينه^(٥)، خلا ولده نجيأ، فقال بعضهم لبعض: أستم قد علمتم ما صنعتم، وما لقي منكم الشيخ، وما لقي منكم يوسف؟ قالوا: بلى. قال: فيغركم عفوهما عنكم، فكيف لكم بربكم؟ فاستقام أمرهم على أن أتوا الشيخ فجلسوا بين يديه، ويوسف إلى جنب أبيه قاعداً، قالوا: يا أبانا، إنا أتيناك فى أمر، لم نأتك فى مثله قط، ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله. حتى حرّكوه، والأنبياء، عليهم السلام، أرحم البرية، فقال: ما لكم يا بنى؟ قالوا: ألسنت قد علمت ما كان منا إليك، وما كان منا إلى أخينا يوسف؟ قال: بلى. قالوا: أو لستما قد عفوتم؟ قالوا: بلى. قالوا: فإن عفوكما لا يغنى عنا شيئاً، إن كان الله لم يعف عنا. قال: فما تريدون يا بنى؟ قالوا: نريد أن تدعوا الله لنا، فإذا جاءك الوحى من الله بأنه قد عفا عما صنعنا قررت أعيننا، واطمأنت قلوبنا، وإلا فلا قرّة عين فى الدنيا أبداً لنا. قال: فقام الشيخ فاستقبل القبلة، وقام يوسف خلف أبيه، وقاموا خلفهما أذلة خاشعين. قال: فدعا وأمن يوسف، فلم يُجب فيهم عشرين سنة - قال صالح المري^(٦): يخيفهم - قال: حتى إذا كان رأس العشرين نزل جبريل، عليه السلام، على يعقوب فقال: إن الله بعثنى إليك أبشرك بأنه قد أجاب دعوتك فى ولدك، وأنه قد عفا عما

(١) زيادة من ت، أ، والمستند.

(٢) المسند (٤٢٧/٥).

(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٥٤/١٥٧) من حديث أبى هريرة بلفظ «والذى نفسى بيده لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه ويقول: يا ليتنى كنت مكان صاحب هذا القبر، وليس به الدين إلا البلاء».

(٤) زيادة من ت، أ. (٥) فى هـ، ت، أ: «شمله بعينه» والمثبت من الطبرى.

(٦) فى ت: «المزى».

صنعوا، وأنه قد اعتقد موافقهم من بعدك على النبوة^(١).

هذا الأثر موقوف عن أنس، ويزيد الرقاشي وصالح المري^(٢) ضعيفان جداً.

وذكر السدي: أن يعقوب، عليه السلام، لما حضره الموت، أوصى إلى يوسف بأن يدفن عند إبراهيم وإسحاق، فلما مات صبره وأرسله إلى الشام، فدفن عندهما، عليهم^(٣) السلام.

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤) ﴿

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه، لما قص عليه نبأ إخوة يوسف، وكيف رفعه الله عليهم، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام: هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة، ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ ونعلمك به لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك، ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ ﴾ حاضراً عندهم ولا مشاهدا لهم ﴿ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ ﴾ أى: على إلقائه فى الحب، ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ به، ولكننا أعلمناك به وحيا إليك، وإنزالا عليك، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَمْهُمْ أَيُّهُمُ يَكْفُلُ مَرِيْمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [القصص: ٤٤]. إلى أن قال: ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص: ٤٦]، وقال: ﴿ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [القصص: ٤٥]، وقال: ﴿ مَا كَانَ لِي مِن عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ . إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [ص: ٦٩، ٧٠].

يقرر تعالى أنه رسوله، وأنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم فى دينهم ودنياهم؛ ومع هذا ما آمن أكثر الناس؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾، وقال: ﴿ وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أى: وما تسألهم يا محمد على هذا النصيح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر، أى: من جُعالة ولا أجرة على ذلك، بل تفعله ابتغاء وجه الله، ونصحاً لخلقك. ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ أى: يتذكرون به ويهتدون، وينجون به فى الدنيا والآخرة.

(١) تفسير الطبرى (٢٨١/١٦).

(٢) فى ت: «المزى».

(٣) فى ت: «عليهما».

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧)﴾.

يخبر تعالى عن [غفلة]^(١) أكثر الناس عن التفكير في آيات الله ودلائل توحيده، بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت، وسيارات وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات وحدائق وجنات وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمت، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات، وحيوانات ونبات، وثمرات متشابهة ومختلفات، في الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد، خالق أنواع المخلوقات، المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية ذى الأسماء والصفات.

وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾: قال ابن عباس: من إيمانهم، إذا قيل لهم: من خلق السموات؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: «الله»، وهم مشركون به. وكذا قال مجاهد، وعطاء وعكرمة، والشعبي، وقتادة، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وهكذا في الصحيحين^(٢): أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. وفي الصحيح: أنهم كانوا إذا قالوا: «لبيك لا شريك لك» يقول رسول الله ﷺ: «قَدْ قَدْ»، أى حَسْبُ حَسْبُ، لا تزيدوا على هذا^(٣).

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وهذا هو الشرك الأعظم الذى يعبد مع الله غيره، كما في الصحيحين. عن ابن مسعود قلت: يا رسول الله، أى الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندا وهو خلقك»^(٤).

وقال الحسن البصرى في قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ قال: ذاك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس، وهو مشرك بعمله ذاك، يعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالٍ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وتمَّ شرك آخر خفى لا يشعر به غالباً فاعله، كما روى حماد بن سلمة، عن عاصم بن أبى النّجود، عن عروة قال: دخل حذيفة على مريض، فرأى فى عضده سيراً فقطعه - أو: انتزعه - ثم قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾.

(٢) فى ت، أ: «فى صحيح مسلم».

(١) زيادة من ت، أ.

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٢/١١٨٥).

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٤٧٧) وصحيح مسلم برقم (٦٨).

وفى الحديث: «من حلف بغير الله فقد أشرك». رواه الترمذى وحسنه من رواية ابن عمر^(١).

وفى الحديث الذى رواه أحمد وأبو داود وغيره، عن ابن مسعود، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرُقَى والتَّمائم والتَّوَكُّة شرك»^(٢).

وفى لفظ لهما: «[الطَّيْرَة شرك]^(٣) وما منّا إلا ولكن الله يذهب بالتوكّل»^(٤).

ورواه الإمام أحمد بأبسط من هذا فقال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن يحيى الجزار^(٥)، عن ابن أخى، زينب [عن زينب]^(٦) امرأة عبد الله بن مسعود قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحج^(٧) وبزق كراهية أن يهجم منا على أمر يكرهه، قالت: وإنه جاء ذات يوم فتنحج وعندى عجوز ترقينى من الحمرة فأدخلتها تحت السرير، قالت: فدخل فجلس إلى جانبى، فرأى فى عنقى خيطا، قال: ما هذا الخيط؟ قالت: قلت: خيط رُقَى لى فيه. قالت: فأخذه فقطعه، ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتَّمائم والتَّوَكُّة شرك». قالت، قلت له: لم تقول هذا وقد كانت عيني تقذف، فكنت أختلف إلى فلان اليهودى يرقىها، فكان إذا رقاها سكنت، قال: إنما ذاك من الشيطان. كان ينخسها بيده، فإذا رقيتها كف عنها: إنما كان يكفيك أن تقولى كما قال رسول الله ﷺ: «أذهب البأس رب الناس، اشف وأنت الشافى، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما»^(٨).

وفى حديث آخر رواه الإمام أحمد، عن وكيع، عن ابن أبى لیلی، عن عيسى بن عبد الرحمن قال: دخلنا على عبد الله بن عكيم^(٩)، وهو مريض نعوذه، فقل له: تَعَلَّقَ شيئا؟ فقال: أتعلق شيئا! وقد قال رسول الله ﷺ: «من تَعَلَّقَ شيئا وُكِّلَ إليه»^(١٠). ورواه النسائى عن أبى هريرة^(١١).

وفى مسند الإمام أحمد، من حديث عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «من علّقَ تميمة

(١) سنن الترمذى برقم (١٥٣٥).

(٢) المسند (٣٨١/١) وسنن أبى داود برقم (٣٨٨٣) ورواه ابن ماجه فى السنن برقم (٣٥٣٠).

(٣) زيادة من ت، أ، والمسند وسنن أبى داود.

(٤) المسند (٣٨٩/١) وسنن أبى داود برقم (٣٩١٠).

(٥) فى ت، أ: «يحيى بن الجزار».

(٦) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٧) فى ت: «تنجيج».

(٨) المسند (٣٨١/١).

(٩) فى ت: «حكيم».

(١٠) المسند (٣١٠/٤) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٠٧٢) من طريق عبد الرحمن بن أبى لیلی به، وقال الترمذى: «وحدث

عبد الله بن حكيم إنما نعرفه من حديث عبد الرحمن بن أبى لیلی، وعبد الله بن حكيم لم يسمع النبى ﷺ، وكان فى زمن النبى ﷺ يقول: «كتب إلينا رسول الله ﷺ».

(١١) سنن النسائى (١١٢/٧).

فقد أشرك» وفي رواية: «من تعلق تيممة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له»^(١).

وعن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، ومن عمل عملاً أشرك فيه معي غيرى تركته وشركه». رواه مسلم^(٢).

وعن أبي سعيد بن أبي فضالة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، ينادى مناد: من كان أشرك فى عمل عمله لله فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك». رواه أحمد^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا ليث، عن يزيد - يعنى: ابن الهاد - عن عمرو، عن محمود بن لبيد، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر». قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون فى الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»^(٤).

وقد رواه إسماعيل بن جعفر، عن عمرو بن أبى عمرو مولى المطلب، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، به^(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، أنبأنا ابن لهيعة، أنبأنا ابن هبيرة، عن أبى عبد الرحمن الحبلى، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «من ردته الطيرة من حاجة، فقد أشرك». قالوا: يا رسول الله، ما كفارة ذلك؟ قال: «أن يقول أحدهم: اللهم لا خير إلا خيرك»^(٦)، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك»^(٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا عبد الملك بن أبى سليمان العرزمى، عن أبى على - رجل من بنى كاهل - قال: خطبنا أبو موسى الأشعرى فقال: يا أيها الناس، اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل. فقام عبد الله بن حزن وقيس بن المضارب فقالا: والله لتخرجن^(٨) مما قلت أو لنأتين عمر مأذونا لنا أو غير مأذون، قال: بل أخرج مما قلت، خطبنا رسول

(١) المسند (١٥٦/٤) وقال المنذرى فى الترغيب (٣٠٧/٤): «رجاله ثقات».

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٩٨٥).

(٣) المسند (٢١٥/٤).

(٤) المسند (٤٢٨/٥) وحسنه الحافظ ابن حجر فى بلوغ المرام.

(٥) رواه البغوى فى شرح السنة (٣٣٣/١٤) من طريق على بن حجر، عن إسماعيل بن جعفر به.

(٦) فى ت: «لا غير إلا غيرك».

(٧) المسند (٢٢٠/٢) ورواه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة (ص ٢٩٣) من طريق ابن وهب، عن ابن لهيعة به، فصح الحديث بحمد

الله.

(٨) فى ت: «ليخرجن».

الله ﷻ [ذات يوم^(١)] فقال: «أيها الناس، اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل». فقال له من شاء الله أن يقول: فكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك [من]^(٢) أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه»^(٣).

وقد روى من وجه آخر، وفيه أن السائل في ذلك هو الصديق، كما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى، من حديث عبد العزيز بن مسلم، عن ليث بن أبي سليم، عن أبي محمد، عن معقل بن يسار قال: شهدت النبي ﷺ - أو قال: حدثني أبو بكر الصديق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل». فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من دعا مع الله إليها آخر؟ فقال رسول الله ﷺ: «الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل». ثم قال: «ألا أدلك على ما يذهب عنك صغير ذلك وكبيره؟ قل: اللهم، أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»^(٤).

وقد رواه الحافظ أبو القاسم البغوي، عن شيبان بن فروخ، عن يحيى بن كثير، عن الثوري، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن أبي بكر الصديق قال: قال رسول الله ﷺ: «الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا». قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله، فكيف النجاة والمخرج من ذلك؟ فقال: «ألا أخبرك بشيء إذا قلته برئت من قليله وكثيره وصغيره وكبيره؟». قال: بلى، يا رسول الله، قال: «قل: اللهم، إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»^(٥).

قال الدارقطني: يحيى بن كثير هذا يقال له: «أبو النضر»، متروك الحديث.

وقد روى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وصححه، والنسائي، من حديث يعلى بن عطاء، سمعت عمرو بن عاصم^(٦)، سمعت أبا هريرة قال: قال أبو بكر الصديق، رضى الله عنه: يارسول الله، علمني شيئاً أقوله إذا أصبحت، وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعي. قال: «قل: اللهم، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان وشركه»^(٧).

وزاد أحمد في رواية له من حديث ليث بن أبي سليم، [عن مجاهد]^(٨)، عن أبي بكر قال:

(١) زيادة من ت، أ، والمسنَد.

(٣) المسند (٤٠٣/٤).

(٤) مسند أبي يعلى (٦٢/١) ورواه ابن جريج عن ليث، عن أبي محمد، عن حذيفة نحوه، وأخرجه أبو يعلى في المسند (٦٠/١) وأبو محمد مجهول، وليث بن أبي سليم ضعيف.

(٥) ورواه أبو نعيم في الحلية (١١٢/٧) من طريق يحيى بن محمد البخري، عن شيبان بن فروخ به نحوه، وقال: «تفرد به عن الثوري يحيى بن كثير».

(٦) في هـ، أ: «عاصم» والمثبت من ت والمسنَد.

(٧) المسند (٩/١) وسنن أبي داود برقم (٥٠٦٧) وسنن الترمذي برقم (٣٣٩٢) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٧٦٩١).

(٨) زيادة من ت، أ.

أمرنى رسول الله ﷺ أن أقول... فذكر هذا الدعاء وزاد فى آخره: «وأن أقترف على نفسى سوءاً أو أجره إلى مسلم»^(١).

وقوله: ﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أى: أفأمن هؤلاء المشركون [بالله]^(٢) أن يأتِيَهُم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون، كما قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ . أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ٤٥-٤٧]، وقال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ . أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ . أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٧ - ٩٩].

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٠٨).

يقول [الله]^(٣) تعالى لعبده ورسوله إلى الثقلين: الإنس والجن، أمراً له أن يخبر الناس: أن هذه سبيله، أى طريقه ومسلكه وسنته، وهى الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك، ويقين وبرهان، هو وكل من اتبعه، يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان شرعى وعقلى.

وقوله: ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ أى: وأنزه الله وأجله وأعظمه وأقدسّه، عن أن يكون له شريك أو نظير، أو عدل أو نديد، أو ولد أو والد أو صاحبة، أو وزير أو مشير، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه عن ذلك كله علواً كبيراً، ﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٠٩).

يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء. وهذا قول جمهور العلماء، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة: أن الله تعالى لم يُوحِ إلى امرأة من بنات بنى آدم وحى تشريع.

وزعم بعضهم: أن سارة امرأة الخليل، وأم موسى، ومريم أم عيسى نبيات، واحتجوا بأن الملائكة

(١) المسند (١/١٤).

(٢) زيادة من أ.

(٣) زيادة من ت، أ.

بشرت سارة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، ويقول: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الآية [القصص: ٧]، وبأن الملك جاء إلى مريم فبشرها بعيسى، عليه السلام، ويقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ . يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢، ٤٣].

وهذا القدر حاصل لهن، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف، فهذا لا شك فيه، ويبقى الكلام معه في أن هذا: هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرد أم لا؟ الذي عليه [أئمة]^(١) أهل السنة والجماعة، وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعري عنهم: أنه ليس في النساء نبية، وإنما فيهن صديقات، كما قال تعالى مخبراً عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]، فوصفها في أشرف مقاماتها بالصديقية، فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام، فهي صديقة بنص القرآن.

وقال الضحاک، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي﴾^(٢) إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴿أَي: ليسوا من أهل السماء كما قلتم. وهذا القول من ابن عباس يعتضد بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ الآية [الفرقان: ٢٠] وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ . ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٨، ٩]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ﴾ الآية [الاحقاف: ٩].

وقوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾: المراد بالقرى: المدن، لا أنهم من أهل البوادي، الذين هم أجفأ الناس طباعاً وأخلاقاً. وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدن أرقّ طباعاً، وألطف من أهل سوادهم، وأهل الريف والسواد أقرب حالا من الذين يسكنون في البوادي؛ ولهذا قال تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩٧].

وقال قتادة في قوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾: لأنهم أعلم وأحلّم من أهل العمود.

وفي الحديث الآخر: أن رجلاً من الأعراب أهدى لرسول الله ﷺ ناقة، فلم يزل يعطيه ويزيده حتى رضى، فقال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَلَّا أَتَيْبَ هَبَةً إِلَّا مِنْ قُرَشِي، أَوْ أَنْصَارِي، أَوْ ثَقَفِي، أَوْ دَوْسِي»^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن يحيى بن وثاب، عن شيخ

(٢) في ت: «يوحى».

(١) زيادة من ت، أ.

(٣) رواه أحمد في المسند (٢٩٥/١) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.

من أصحاب رسول الله ﷺ - قال الأعمش: هو [ابن] (١) عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم» (٢).

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [يعنى: هؤلاء المكذبين لك يا محمد فى الأرض،] (٣) ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أى: من الأمم المكذبة للرسل، كيف دمر الله عليهم، وللكافرين أمثالها، كقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فإذا استمعوا (٤) خبر ذلك، رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجى المؤمنين، وهذه كانت سنته تعالى فى خلقه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ (٥) أى: وكما أنجينا المؤمنين فى الدنيا، كذلك كتبنا لهم النجاة فى الدار الآخرة أيضاً، وهى خير لهم من الدنيا بكثير، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥٠، ٥١].

وأضاف الدار إلى الآخرة فقال: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾، كما يقال: «صلاة الأولى» و«مسجد الجامع» و«عام الأول» و«بارحة الأولى» و«يوم الخميس». قال الشاعر:

أَتَمْدَحُ فَقَعَسًا وَتُذَمُّ (٦) عَبَسًا أَلَا اللَّهُ أَمَّكَ مِنْ هَجِينِ
وَلَوْ أَفُوتَ عَلَيْكَ دِيَارُ عَبَسٍ عَرَفْتَ الذَّلَّ عَرَفَانِ الْيَقِينِ (٧)

﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١١٠).

يخبر تعالى أن نصره ينزل على رسله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله تعالى فى أحوج الأوقات إلى ذلك، كما فى قوله تعالى: ﴿وَزَلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وفى قوله: ﴿كُذِّبُوا﴾ قراءتان، إحداهما بالتشديد: «قد كُذِّبُوا»، وكذلك كانت عائشة، رضى الله عنها، تقرؤها، قال البخارى:

حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن صالح، عن ابن شهاب قال:

(١) زيادة من ت، أ، والمسنَد.

(٢) المسند (٤٣/٢).

(٣) زيادة من ت.

(٤) فى ت، أ: «يتقون» وهو خطأ.

(٥) فى ت، أ: «استعملوا».

(٦) فى ت: «وتمدح».

(٧) البيتان فى تفسير الطبرى (٢٩٥/١٦).

أخبرني عروة بن الزبير، عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾، قال: قلت: أكَذَّبُوا أم كُذِّبُوا؟ فقالت عائشة: كُذِّبُوا. فقلت: فقد استيقنوا أن قومهم قد كَذَّبُوهم فما هو بالظن؟ قالت: أجل، لعمري لقد استيقنوا بذلك. فقلت لها: وظنوا أنهم قد كَذَّبُوا؟ قالت^(١): معاذ الله، لم تكن^(٢) الرسل تظن ذلك بربها. قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر، ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ ممن كَذَّبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كَذَّبُوهم، جاءهم نصر الله عند ذلك.

حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب، عن الزهري قال: أخبرنا عروة، فقلت: لعلها قد كَذَّبُوا مخففة؟ قالت: معاذ الله. انتهى ما ذكره^(٣).

وقال ابن جريج أخبرني ابن أبي مليكة: أن ابن عباس قرأها: ﴿وَضُنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ خفيفة - قال عبد الله هو ابن مليكة: ثم قال لى ابن عباس: كانوا بشراً^(٤)، وتلا ابن عباس: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصَرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّا نَصَرَ اللَّهُ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، قال ابن جريج: وقال لى ابن أبي مليكة: وأخبرني عروة عن عائشة: أنها خالفت ذلك وأبته، وقالت: ما وعد الله محمداً ﷺ من شيء إلا قد علم أنه سيكون حتى مات، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كَذَّبُوهم. قال ابن أبي مليكة في حديث عروة: كانت عائشة تقرؤها «وَضُنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا» مثقلة، للتكذيب.

وقال ابن أبي حاتم: أنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أنا ابن وهب، أخبرني سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد قال: جاء إنسان إلى القاسم بن محمد فقال: إن محمد بن كعب القرظي يقول^(٥) هذه الآية: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾، فقال القاسم: أخبره عنى أنى سمعت عائشة زوج النبي ﷺ تقول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾، تقول: كَذَّبْتهم أتباعهم. إسناده صحيح أيضاً.

والقراءة الثانية بالتخفيف، واختلفوا في تفسيرها، فقال ابن عباس ما تقدم، وعن ابن مسعود، فيما رواه سفيان الثوري، عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله أنه قرأ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾، مخففة، قال عبد الله: هو الذى تكره^(٦).

وهذا عن ابن مسعود وابن عباس، رضى الله عنهما، مخالف لما رواه آخرون عنهما. أما ابن عباس فروى الأعمش، عن مسلم، عن ابن عباس فى قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾، قال: لما أيسست الرسل أن يستجيب لهم قومهم، وظن قومهم أن الرسل قد كَذَّبُوهم،

(١) فى ت، أ: «فقلت».

(٢) فى ت: «يكن».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٩٥، ٤٦٩٦).

(٤) فى ت، أ: «يقرا».

(٥) فى أ: «بشروا».

(٦) فى أ: «يكروه».

جاءهم النصر على ذلك، ﴿فَنَجِّي^(١) مَنْ نَشَاءُ﴾.

وكذا روى عن سعيد بن جبیر، وعمران بن الحارث السلمی، وعبد الرحمن بن معاوية وعلى بن أبی طلحة، والعوفی عن ابن عباس بمثله.

وقال ابن جریر: حدثني المثنی، حدثنا عارم^(٢) أبو النعمان، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا شعيب^(٣)، حدثنا إبراهيم بن أبي حُرّة^(٤) الجزريّ قال: سأل فتى من قریش سعيد بن جبیر فقال له: يا أبا عبد الله، كيف هذا الحرف، فإنني إذا أتيت عليه تمنيت أني لا أقرأ هذه السورة: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾؟ قال: نعم، حتى إذا استيسر الرسل من قومهم أن يصدّقوهم، وظن المرسل إليهم أن الرسل كذّبوا. فقال الضحّاك بن مزاحم: ما رأيت كالיום قط رجلا يدعى إلى علم فيتلكأ! لو رحلت في هذه إلى اليمن كان قليلا.

ثم روى ابن جرير أيضا من وجه آخر: أن مسلم بن يسار سأل سعيد بن جبیر عن ذلك، فأجابه بهذا الجواب، فقام إلى سعيد فاعتنقه، وقال: فرّج الله عنك كما فرجت عنى.

وهكذا روى من غير وجه عن سعيد بن جبیر أنه فسرّها كذلك. وكذا فسرّها مجاهد بن جبر، وغير واحد من السلف، حتى إن مجاهدا قرأها: «وظنوا أنهم قد كذّبوا»، بفتح الذا. رواه ابن جرير، إلا أن بعض من فسرّها كذلك يعيد الضمير في قوله: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ إلى أتباع الرسل من المؤمنين، ومنهم من يعيده إلى الكافرين منهم، أى: وظن الكفار أن الرسل قد كذّبوا - مخففة - فيما وعدوا به من النصر.

وأما ابن مسعود فقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا محمد بن فضيل^(٥)، عن جَحْش^(٦) بن زياد الضبى، عن تميم بن حذَلَم قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول في هذه الآية: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ﴾ من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم^(٧)، وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذّبوا، بالتخفيف^(٨).

فهاتان الروايتان عن كل من ابن مسعود وابن عباس، وقد أنكرت ذلك عائشة على من فسرّها بذلك، وانتصر لها ابن جرير، ووجه المشهور عن الجمهور، وزيف القول الآخر بالكلية، وردّه وأباه، ولم يقبله ولا ارتضاه، والله أعلم^(٩).

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١١١).

(١) فى ت: «فتجى». (٢) فى ت: «غارم». (٣) فى أ: «شعبة». (٤) فى ت، أ: «أبى حمزة». (٥) فى أ: «فضل». (٦) فى ت، أ: «محسن». (٧) فى ت، أ: «لهم». (٨) فى ت، أ: «مخففة». (٩) انظر ما قالته عائشة فى: تفسير الطبرى (٣٠٧/١٦، ٣٠٨) ورد الطبرى لقول ابن عباس (٣٠٦/١٦).

يقول تعالى: لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم، وكيف أنجيناً^(١) المؤمنين وأهلكنا الكافرين ﴿عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، وهى العقول، ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ أى: وما كان لهذا القرآن أن يفتري من دون الله، أى: يكذب ويختلق، ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى: من الكتب المنزلة من السماء، وهو يصدق ما فيها من الصحيح، وينفى ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير، ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من تحليل وتحريم، ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور على الجلية، وعن الغيوب المستقبلية المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقات، فلهذا كان: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ تهتدى به قلوبهم من الغى إلى الرشاد، ومن الضلالة إلى السداد، ويتتغون به الرحمة من رب العباد، فى هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد. فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم فى الدنيا والآخرة، يوم يفوز بالريح المبيضة وجوههم الناضرة، ويرجع^(٢) المسودة وجوههم بالصفقة الخاسرة.

آخر تفسير سورة يوسف، والله الحمد والمنة وبه المستعان وعليه التكلان، وهو حسبنا ونعم الوكيل

(٢) فى ت: «وترجع».

(١) فى ت، أ: «نجينا».

تفسير سورة الرعد

[وهي مكية^(١)].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْمَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١).

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد تقدم^(٢) في أول سورة البقرة، وقدّمنا أن كل سورة تبتدأ بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله^(٣) من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب؛ ولهذا قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن، وقيل: التوراة والإنجيل. قاله مجاهد وقتادة، وفيه نظر^(٤)، بل هو بعيد.

ثم عطف على ذلك عطف صفات قوله: ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: يا محمد، ﴿مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ خبر تقدم مبتدؤه، وهو قوله: ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، هذا هو الصحيح المطابق لتفسير مجاهد وقتادة. واختار ابن جرير أن تكون الواو زائدة أو عاطفة صفة^(٥) على صفة كما قدمنا، واستشهد بقول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام
وليث الكتبية في المزدحم^(٦)

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، كقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] أي: مع هذا البيان والجلاء والوضوح، لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق.

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (٢).

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه: أنه الذي يأذنه وأمره رفع السموات بغير عمد، بل يأذنه وأمره^(٧)، وتسخيره رفعها عن الأرض بعداً لا تنال ولا يدرك مداها، فالسمااء الدنيا محيطة

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) في أ: «تقدم الكلام عليها».

(٣) في ت، أ: «أنه نزل».

(٤) في ت، أ: «وفيه تطويل».

(٦) البيت في تفسير الطبري (١٦/٣٢١).

(٧) في ت، أ: «بل بأمره ويأذنه».

بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها^(١) وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام. ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت، وبينها وبينها من البعد مسيرة خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، ثم السماء الثالثة محيطة^(٢) بالثانية، بما فيها، وبينها^(٣) وبينها خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، وكذا الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، كما قال [الله]^(٤) تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢] وفي الحديث: «ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، والكرسي في العرش كذلك^(٥) الحلقة في تلك الفلاة^(٦)»، وفي رواية: «والعرش لا يقدر قدره إلا الله، عز وجل، وجاء عن بعض السلف أن بُعد ما بين العرش إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة، وبعد ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة، وهو من ياقوتة حمراء.

وقوله: ﴿بَغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوْنَهَا﴾: روى عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة: أنهم قالوا: لها عمدة ولكن لا ترى.

وقال إياس بن معاوية: السماء على الأرض مثل القبة، يعني بلا عمدة. وكذا روى عن قتادة، وهذا هو اللائق بالسياق. والظاهر من قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]، فعلى هذا يكون قوله: ﴿تَرْوْنَهَا﴾ تأكيداً لنفي ذلك، أى: هي مرفوعة بغير عمدة كما ترونها. هذا هو الأكمل في القدرة. وفي شعر أمية بن أبى الصلت الذى آمن شعره وكفر قلبه، كما ورد في الحديث^(٧)، ويروى لزيد بن عمرو بن نفيل، رحمه الله ورضى عنه:

وَأَنْتَ الَّذِي مِنْ فَضْلٍ مَنْ وَرَحْمَةٍ	بَعَثْتَ إِلَى مُوسَى رَسُولًا مُنَادِيَا
فَقُلْتَ لَهُ: فَادْهَبْ وَهَارُونَ فَادْعُوا	إِلَى اللَّهِ فَرْعُونَ الَّذِي كَانَ طَاغِيَا
وَقُولَا لَهُ: هَلْ أَنْتَ سَوَّيْتَ هَذِهِ	بَلَا [وَتَدَّ حَتَّى اطْمَأْنَنْتَ ^(٨) كَمَا هِيَ
وَقُولَا لَهُ: أَنْتَ رَفَعْتَ هَذِهِ	بَلَا ^(٩) عَمَدَ أَرْفَقُ إِذَا بِكَ بَانِيَا؟
وَقُولَا لَهُ: هَلْ أَنْتَ سَوَّيْتَ وَسَطَهَا	مُنِيرًا إِذَا مَا جَنَّكَ اللَّيْلُ هَادِيَا

(١) فى ت، أ: «جهاتها ونواحيها». (٢) فى ت: «تحيط». (٣) فى أ: «بينهما».

(٤) زيادة من أ. (٥) فى أ: «كمثل».

(٦) سبق الكلام على هذا الحديث والذي بعده مفصلاً عند تفسير الآية: ٢٥٥ من سورة البقرة.

(٧) رواه ابن عبد البر فى التمهيد (٧/٤) من طريق أبى بكر الهذلى عن عكرمة قال: قلت لابن عباس: رأيت ما جاء عن النبى ﷺ فى أمية بن أبى الصلت: «آمن شعره وكفر قلبه؟» قال: هو حق فما أنكرتم من ذلك؟ ... الحديث.

(٨) فى ت أ: «استقلت»، والمثبت من سيرة ابن هشام.

(٩) زيادة من ت، أ، وسيرة ابن هشام.

وَقُولَا لَهُ: مَنْ يُرْسِلُ الشَّمْسُ غُدُوَّةً
وَقُولَا لَهُ: مَنْ يُنْبِتُ الْحَبَّ فِي الثَّرَى
وَيُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّةً فِي رُؤُوسِهِ
فَيُصْبِحُ مَامَسَّتْ مِنَ الْأَرْضِ ضَاحِيَا؟
فَيُصْبِحُ مِنْهُ الْعُشْبُ يَهْتَزُّ رَآبِيَا؟
فَفِي ذَٰكَ آيَاتٌ لِّمَنْ كَانَ وَاعِيًا^(١)

وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾: تقدم تفسير ذلك في سورة «الأعراف»^(٢)، وأنه يُمرَّر^(٣) كما جاء من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل، تعالى الله علوا كبيرا.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: قيل: المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨].

وقيل: المراد إلى مستقرهما، وهو تحت العرش مما يلي بطن الأرض من الجانب الآخر، فإنهما وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك، يكونون أبعد ما يكون^(٤) عن العرش؛ لأنه على الصحيح الذي تقوم عليه الأدلة، قبة مما يلي العالم من هذا الوجه، وليس بمحيط كسائر الأفلاك؛ لأنه^(٥) له قوائم وحملكة يحملونه. ولا يتصور هذا في الفلك المستدير، وهذا واضح لمن تدبَّر ما وردت به الآيات والأحاديث الصحيحة، والله الحمد والمنة.

وذكر الشمس والقمر؛ لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة، التي هي أشرف وأعظم من الثوابت، فإذا كان قد سخر هذه، فلأن يدخل في التسخير سائر الكواكب بطريق الأولى والأخرى، كما نبه^(٦) بقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]. مع أنه قد صرح بذلك بقوله^(٧): ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقوله: ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلِقَاءَ رَبِّكُمْ تُوفَّقُونَ﴾ أي: يوضح^(٨) الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما ابتداء خلقه.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣) وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أغناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على

(١) الآيات في السيرة النبوية لابن هشام (٢٢٨/١).

(٢) انظر: تفسير الآية: ٥٤.

(٣) في ت: «يمر».

(٤) في ت، أ: «ما يكونون».

(٥) في ت: «بينه».

(٦) في ت، أ: «لأن».

(٧) في ت، أ: «نوضح».

(٨) في ت: «في قوله».

بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ .

لما ذكر تعالى العالم العلوى، شرع فى ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلى، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ أى: جعلها متسعة ممتدة فى الطول والعرض، وأرساها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون لسقى ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح، من كل زوجين اثنين، أى: من كل شكل صنفان.

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أى: جعل كلا منهما ^(١) يطلب الآخر طلبا حثيثا، فإذا ذهب هذا غشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، فيتصرف أيضا فى الزمان كما تصرف فى المكان والسكان.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أى: فى آلاء الله وحكمته ^(٢) ودلائله.

وقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ أى: أراضٍ تجاور ^(٣) بعضها بعضا، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينتفع به الناس، وهذه سَبَّخَةٌ مالحة لا تنبت شيئا. هكذا روى عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، وغيرهم.

وكذا يدخل فى هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة ^(٤)، وهذه سهلة، وهذه مرملة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات. فهذه بصفقتها، وهذه بصفقتها الأخرى، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وقوله: ﴿وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾: يحتمل ^(٦) أن تكون عاطفة على ﴿جَنَّاتٌ﴾، فيكون ﴿وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ مرفوعين. ويحتمل أن يكون معطوفا على أعناب، فيكون مجرورا؛ ولهذا قرأ بكل منهما طائفة من الأئمة.

وقوله: ﴿صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ﴾: الصنوان: هى الأصول المجتمعة فى منبت واحد، كالرمان والتين وبعض النخيل، ونحو ذلك. وغير الصنوان: ما كان على أصل واحد، كسائر الأشجار، ومنه سمى عم الرجل صنو أبيه، كما جاء فى الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لعمر: «أما شعرت ^(٨) أن عم الرجل صنو أبيه؟» ^(٩).

وقال سفيان الثورى، وشعبة، عن أبى إسحاق، عن البراء، رضى الله عنه: الصنوان: هى النخلات فى أصل واحد، وغير الصنوان: المتفرقات. وقاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

(٣) فى ت: «يجاورها».

(٢) فى ت، أ: «وحكمه».

(١) فى ت: «منها».

(٦) فى ت: «تحتل».

(٥) فى ت: «وزروع» وهو خطأ.

(٤) فى ت: «محجر».

(٨) فى أ: «أما علمت».

(٧) فى ت: «وزروع» وهو خطأ.

(٩) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٩٨٣) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

وقوله: ﴿تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾: قال الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، عن النبي ﷺ: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ قال: «الدقل والفارسي، والحلو والحامض». رواه الترمذي وقال: حسن غريب^(١).

أى: هذا الاختلاف فى أجناس الثمرات والزرع، فى أشكالها وألوانها، وطعومها وروائحها، وأوراقها وأزهارها.

فهذا فى غاية الحلاوة وذا فى غاية الحموضة، وذا^(٢) فى غاية المرارة وذا عَفَص، وهذا عذب وهذا^(٣) جمع هذا وهذا، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى. وهذا أصفر وهذا أحمر، وهذا أبيض وهذا أسود وهذا أزرق. وكذلك الزهورات مع أن كلها يستمد^(٤) من طبيعة واحدة، وهو الماء، مع هذا الاختلاف الكثير الذى لا ينحصر ولا ينضب، ففى ذلك آيات لمن كان واعيا، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار، الذى بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها على ما يريد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَتَنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَإِنْ تَعْجَبَ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بأمر المعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلالاته فى خلقه على أنه القادر على ما يشاء، ومع ما يعترفون^(٥) به من أنه ابتداء خلق الأشياء، فكونها بعد أن لم تكن شيئا مذكورا، ثم هم بعد هذا يكذبون خبره فى أنه سيعيد العالمين خلقا جديدا، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به، فالعجب من قولهم: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَتَنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق فالإعادة سهلة عليه، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

ثم نعت المكذبين بهذا فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ أى: يُسْحَبُونَ بها فى النار، ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أى: ماكثون فيها أبدا، لا يحولون عنها ولا يزولون.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ

(١) سنن الترمذي برقم (٣١١٨). والدقل: الردى واليابس من التمر. والفارسي: نوع من التمر.

(٢) فى ت: «وهذا».

(٣) فى ت، أ: «وهذا قد جمع».

(٤) فى ت، أ: «يعرفون».

(٥) فى ت: «تستمد».

لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾^(١) أى: هؤلاء المكذبون ﴿بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أى: بالعقوبة، كما أخبر عنهم فى قوله: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ٦ - ٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٣، ٥٤]، وقال: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١]، وقال: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] أى: حسابنا وعقابنا، كما قال مخبراً عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، فكانوا^(٢) يطلبون من الرسول أن يأتيهم بعذاب الله، وذلك من شدة تكذيبهم وكفرهم وعنادهم.

قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ﴾ أى: قد أوقعنا نعمتنا بالأُمم الخالية وجعلناها مثلاً وعبرة وعظة لمن اتعظ بهم.

ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه [وغفره]^(٣) لعاجلهم بالعقوبة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾^(٤) ما تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ أى: إنه ذو عفو وصفح^(٥) وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار. ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب، ليعتدل الرجاء والخوف، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسْعَةٍ وَلَا يُرْدُ بِأَسْهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، إلى أمثال ذلك من الآيات التى تجمع الرجاء والخوف.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن على بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزة، ما هنا أحدًا العيش^(٦)، ولولا وعيده^(٧) وعقابه، لاتكل كل أحد»^(٨).

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة الحسن بن عثمان أبى حسان الزياىدى: أنه رأى رب العزة فى

(٣) زيادة من أ.

(٢) فى ت: «وكانوا».

(١) فى ت، أ: «ويستعجلك» وهو خطأ.

(٦) فى ت: «العريش».

(٥) فى ت: «ذو صفح وغفر».

(٤) فى ت: «الناس بظلمهم» وهو خطأ.

(٧) فى ت: «وعده».

(٨) ورواه الواحدى فى الوسيط (٦/٣) من طريق محمد بن أيوب، عن موسى بن إسماعيل، به مرسلًا.

النوم، ورسول الله ﷺ واقف بين يديه يشفع فى رجل من أمته، فقال له: ألم يكفك أنى أنزلت عليك فى سورة الرعد: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾؟ قال: ثم انتبهت^(١).

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧)﴾.

يقول تعالى إخباراً عن المشركين أنهم يقولون كفرا وعنادا: لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون، كما تعتنوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يزيل^(٢) عنهم الجبال، ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ أى: إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التى أمرك بها، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، أى: ولكل قوم داع.

وقال العوفى، عن ابن عباس فى تفسيرها: يقول الله تعالى: أنت يا محمد منذر، وأنا هادى كل قوم، وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، والضحاك.

وعن مجاهد: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أى: نبي. كما قال: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]. وبه قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد.

وقال أبو صالح، ويحيى بن رافع: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أى: قائد.

وقال أبو العالية: الهادى: القائد، والقائد: الإمام، والإمام: العمل.

وعن عكرمة، وأبى الضحى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قالوا: هو محمد [رسول الله] ^(٣) ﷺ.

وقال مالك: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾: من يدعوهم إلى الله، عز وجل.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنى أحمد بن يحيى الصوفى، حدثنا الحسن بن الحسين الأنصارى، حدثنا معاذ بن مسلم بياح الهروى، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: لما نزلت: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، قال: وضع رسول الله ﷺ يده على صدره، وقال: «أنا المنذر، ولكل قوم هاد». وأوماً بيده إلى منكب على، فقال: «أنت الهادى يا على، بك يهتدى المهتدون من بعدى».

وهذا الحديث فيه نكارة شديدة^(٤).

(١) تاريخ دمشق ٤٧١/٤ «المخطوط».

(٢) زيادة من أ.

(٣) فى ت، أ: «يزيح».

(٤) تفسير الطبرى (٣٥٧/١٦)، وقال الذهبي فى ميزان الاعتدال (٤٨٤/١) بعد أن ساقه فى ترجمة الحسن بن الحسين: «رواه ابن جرير فى تفسيره، عن أحمد بن يحيى، عن الحسن، عن معاذ، ومعاذ نكرة، فلعلى الآفة منه».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا المطلب بن زياد، عن السدي، عن عبد خير، عن علي: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، قال: الهادي: رجل من بني هاشم: قال الجنيد^(١): هو علي بن أبي طالب، رضى الله عنه.

قال ابن أبي حاتم: وروى عن ابن عباس، في إحدى الروايات، وعن أبي جعفر محمد بن علي، نحو ذلك.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (٨)
عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) ﴿.

يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤] أى: ما حملت من ذكر أو أنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقى أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦] أى: خلقكم طورا من بعد طور، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤]، وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ^(٢): «إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه ملك فيؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه، وعمره، وعمله، وشقى أو سعيد»^(٣).

وفى الحديث الآخر: «يقول الملك: أى رب، أذكر أم أنثى؟ أى رب، أشقى أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيقول الله، ويكتب الملك»^(٤).

وقوله: ﴿وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾: قال البخارى: حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا معن، حدثنا مالك، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها^(٥) إلا الله: لا يعلم ما فى غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيص الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله»^(٦).

(١) فى أ: «ابن الجنيد».

(٢) فى ت: «النبى».

(٣) صحيح البخارى برقم (٣٢٠٨) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٣).

(٤) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٦٤٥) من حديث حذيفة بن أسيد، رضى الله عنه.

(٥) فى ت: «لا يعلمهن».

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٦٩٧).

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ يعني: السَّقَطُ ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ يقول: ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماما. وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومنهن من تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تزيد في الحمل، ومنهن من تنقص، فذلك الغيض ^(١) والزيادة التي ذكر الله تعالى، وكل ذلك بعلمه تعالى.

وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: ما نقصت من تسعة وما زاد عليها.

وقال الضحاك: وضعتني أمي وقد حملتني في بطنها ستين، وولدتني وقد نبتت ثنيتي.

وقال ابن جريج، عن جميلة بنت سعد، عن عائشة قالت: لا يكون الحمل أكثر من ستين، قدر ما يتحرك ظل مغزّل.

وقال مجاهد: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: ما ترى من الدم في حملها، وما تزداد على تسعة أشهر. وبه قال عطية العوفي وقتادة، والحسن البصري، والضحاك.

وقال مجاهد أيضا: إذا رأت المرأة الدم دون التسعة زاد على التسعة، مثل أيام الحيض. وقاله عكرمة، وسعيد بن جبير، وابن زيد.

وقال مجاهد أيضا: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾: إراقة المرأة حتى يخسّ الولد ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ إن لم تهرق المرأة تم الولد وعظم.

وقال مكحول: الجنين في بطن أمه لا يطلب، ولا يحزن ولا يغتم، وإنما يأتيه رزقه في بطن أمه من دم حيضتها ^(٢)، فمن ثم لا تحيض الحامل. فإذا وقع إلى الأرض استهل، واستهلّله استنكار ^(٣) لمكانه، فإذا قطعت سرتة حول الله رزقه إلى ثديي أمه حتى لا يطلب ولا يحزن ولا يغتم، ثم يصير طفلا يتناول الشيء بكفه فيأكله، فإذا هو بلغ قال: هو الموت أو القتل، أنى لى بالرزق؟ فيقول مكحول: يا ويلك ^(٤)! غذاك وأنت في بطن أمك، وأنت طفل صغير، حتى إذا اشتدّت وعقلت قلت: هو الموت أو القتل، أنى لى بالرزق؟ ثم قرأ مكحول: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾.

وقال قتادة: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ أى: بأجل، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم، وجعل لذلك أجلا معلوماً.

وفى الحديث الصحيح: أن إحدى بنات النبي ﷺ بعثت إليه: أن ابناً لها فى الموت، وأنها تحب أن يحضره. فبعث إليها يقول: «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمروها

(١) فى ت: «الغيظ».

(٢) فى ت: «حيضها».

(٣) فى ت: «استنكار».

(٤) فى ت: «يا ويحك».

فلتصبر ولتحتسب» الحديث بتمامه^(١).

وقوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: يعلم كل شىء مما يشاهده العباد وما يغيب عنهم، ولا يخفى^(٢) عليه منه شىء. ﴿الْكَبِيرُ﴾ الذى هو أكبر من كل شىء، ﴿الْمُتَعَالِ﴾ أى: على كل شىء، قد أحاط بكل شىء علما، وقهر كل شىء، فخضعت له الرقاب ودان له العباد، طوعا وكرها.

﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾^(١٠) لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِمَّنْ أَمَرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِّنْ وَالٍ﴾^(١١).

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه، سواء^(٣) منهم من أسر قوله أو جهر به، فإنه يسمعه، لا يخفى عليه شىء كما قال: ﴿وَأَن تَجْهَرُوا بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، وقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥]، وقالت عائشة، رضى الله عنها: سبحان الذى وسع سمعه الأصوات، والله لقد جاءت المجادلة تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ، وأنا فى جنب البيت، وإنه ليخفى على بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

وقوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ أى: مختف فى قعر بيته فى ظلام الليل، ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أى: ظاهر ماشى فى بياض النهار وضيائه، فإن كليهما^(٤) فى علم الله على السواء، كما قال تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقوله: ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِمَّنْ أَمَرِ اللَّهُ﴾ أى: للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء^(٥) والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فائنان عن اليمين وعن الشمال^(٦) يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحدا^(٧) من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل بدلا، حافظان وكتابان، كما جاء فى الصحيح: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليهم الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم:

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٢٨٤) ومسلم فى صحيحه برقم (٩٢٣) من حديث أسامة بن زيد رضى الله عنه.

(٢) فى ت: «لا يخفى».

(٣) فى ت: «وأنه سواء».

(٤) فى ت: «كلاهما».

(٥) زيادة من ت.

(٦) فى ت: «وآخر».

(٧) فى ت: «الأنواء».

كيف تركتم عبادى؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون»^(١). وفى الحديث الآخر: «إن معكم من لا يفارحكم إلا عند الخلاء وعند الجماع، فاستحيوهم وأكرمهم»^(٢).

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾: والمعقبات من أمر الله، وهى الملائكة.

وقال عكرمة، عن ابن عباس: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلّوا عنه.

وقال مجاهد: ما من عبد إلا له^(٣) ملك موكل، يحفظه فى نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شىء يأتيه يريدُه إلا قال الملك: وراءك إلا شىء يأذن الله فيه فيصيه.

وقال الثورى عن حبيب بن أبى ثابت، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ قال: ذلك^(٤) ملك من ملوك الدنيا، له حرس من دونه حرس.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعنى: ولى الشيطان، يكون عليه الحرس. وقال عكرمة فى تفسيرها: هؤلاء الأمراء: المواكب من بين يديه ومن خلفه.

وقال الضحاك: ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ قال: هو السلطان^(٥) المحترس^(٦) من أمر الله، وهم أهل الشرك.

والظاهر، والله أعلم، أن مراد ابن عباس وعكرمة والضحاك بهذا أن حرس الملائكة للعبيد^(٧) يشبه حرس هؤلاء للوكلهم وأمرائهم.

وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير هاهنا حديثاً غريباً جداً فقال:

حدثنى الثنى، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام بن صالح القشيري، حدثنا على بن جرير، عن حماد بن سلمة، عن عبد الحميد بن جعفر، عن كنانة العدوى قال: دخل عثمان بن عفان على رسول الله ﷺ. فقال: يا رسول الله، أخبرنى عن العبد، كم معه من ملك^(٨)؟ فقال: «ملك على يمينك على حسناتك، وهو أمر^(٩) على الذى على الشمال، إذا عملت حسنة كتبت عشرا، فإذا عملت سيئة قال الذى على الشمال للذى على اليمين: أكتب؟ قال: لا، لعله يستغفر الله ويتوب. فإذا قال ثلاثا قال:

(١) صحيح البخارى برقم (٥٥٥، ٧٤٢٩) وصحيح مسلم برقم (٦٣٢).

(٢) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٨٠٠) من طريق ليث، عن نافع، عن ابن عمر، رضى الله عنه، مرفوعاً، وأوله: «ياكم والتنحروا فإن معكم». الحديث. وقال الترمذى: «هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه».

(٥) فى ت: «الشيطان».

(٤) فى ت، أ: «ذكر».

(٣) فى ت، أ: «به».

(٨) فى ت، أ: «كم ملك معه».

(٧) فى ت، أ: «للعبد».

(٦) فى أ: «المحروس».

(٩) فى ت، أ: «وهو أمين».

نعم، اكتب أراحنا الله منه، فبئس القرين. ما أقل مراقبته لله وأقل استحياءه منا». يقول الله: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وملكان من بين يديك ومن خلفك، يقول الله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾، وملك قابض على نصائتك، فإذا تواضعت لله رفعك، وإذا تجبرت على الله قصمك، وملكان على شفيتك، ليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد ﷺ، وملك قائم على فيك لا يدع الحية أن تدخل في فيك، وملكان على عينيك فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمي^(١)، ينزلون^(٢) ملائكة الليل على ملائكة النهار؛ لأن ملائكة الليل سوى ملائكة النهار، فهؤلاء عشرون ملكا على كل آدمي وإبليس بالنهار وولده بالليل^(٣).

قال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا سفيان، حدثني منصور، عن سالم ابن أبي الجعد عن أبيه، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة». قالوا: وإياك يا رسول الله، قال: «ولياي، ولكن أعانني الله عليه^(٤)، فلا يأمرني إلا بخير».

انفرد بإخراجه مسلم^(٥).

وقوله: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾: قيل: المراد حفظهم له من أمر الله. رواه علي بن أبي طلحة، وغيره، عن ابن عباس. وإليه ذهب مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وإبراهيم النخعي، وغيرهم.

وقال قتادة: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ قال: وفي بعض القراءات: «يحفظونه بأمر الله».

وقال كعب الأحبار: لو تجلّى لابن آدم كل سهل وحزن، لرأى كل شيء من ذلك شياطين^(٦) لولا أن الله وكلّ بكم ملائكة عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم، إذا لتخطفتهم.

وقال أبو أمامة^(٧): ما من آدمي إلا ومعه ملك يذود عنه، حتى يسلمه للذي قُدر له.

وقال أبو مجلز: جاء رجل من مُراد إلى علي، رضى الله عنه، وهو يصلى، فقال: احترس، فإن ناساً من مراد يريدون قتلك. فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر، فإذا جاء القدرُ خليا بينه وبينه، وإن الأجل جنة حصينة^(٨).

وقال بعضهم: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾: بأمر الله، كما جاء في الحديث أنهم قالوا: يا رسول الله، أرايت رقى نسترقى بها، هل ترد من قدر الله شيئا؟ فقال: «هى من قدر الله»^(٩).

(١) فى ت، أ: «على كل بنى آدم».

(٣) تفسير الطبرى (١٦/ ٣٧٠).

(٤) فى ت، أ: «ولكن الله أعاننى عليه».

(٥) المسند (١/ ٣٩٧) وصحيح مسلم برقم (٢٨١٤).

(٦) فى ت، أ: «من ذلك ساء نفسه».

(٧) فى أ: «أبو أسامة».

(٨) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٣٧٨).

(٩) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٠٦٥) من حديث أبى خزيمة وقال: «حديث حسن».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، عن أشعث، عن جهم، عن إبراهيم قال: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بنى إسرائيل: أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله، إلا تحول لهم مما يحبون إلى ما يكرهون، ثم قال: إن مصداق^(١) ذلك في كتاب الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

وقد ورد هذا في حديث مرفوع، فقال الحافظ محمد بن عثمان بن أبي شيبة في كتابه «صفة العرش»: حدثنا الحسن بن علي، حدثنا الهيثم بن الأشعث السلمي، حدثنا أبو حنيفة اليمامي^(٢) الأنصاري، عن عمير بن عبد الله^(٣) قال: خطبنا على بن أبي طالب على منبر الكوفة، قال: كنت إذا سكت عن رسول الله ﷺ ابتدأتني، وإذا سألته عن الخبر أنبأتني، وإنه حدثني عن ربه، عز وجل، قال: «قال الرب: وعزتي وجلالي، وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهت من معصيتي، ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي، إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي»^(٤).

وهذا غريب، وفي إسناده من لا أعرفه.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيَسْبَحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣)﴾.

يخبر تعالى أنه هو الذي يسخر البرق، وهو ما يرى^(٥) من النور اللامع ساطعا من خلل السحاب.

وروى ابن جرير أن ابن عباس كتب إلى أبي الجلد يسأله عن البرق، فقال: البرق: الماء.

وقوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾: قال قتادة: خوفا للمسافر، يخاف أذاه ومشقته، وطمعا للمقيم يرجو بركته ومنفعته، ويطمع في رزق الله.

﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ أي: ويخلقها منشأة جديدة، وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض.

قال مجاهد: والسحاب الثقال: الذي فيه الماء.

(١) في ت، أ: «تصديق». (٢) في هـ، ت، أ: «اليماني» والصواب ما أثبتناه.

(٣) في هـ، ت، أ: «عبد الملك»، والصواب ما أثبتناه.

(٤) صفة العرش برقم (١٩) والهيثم مجهول وشيخه لم أجد له ترجمة.

(٥) في ت: «ماترى».

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا إبراهيم بن سعد، أخبرني أبي قال: كنت جالساً إلى جنب حميد بن عبد الرحمن في المسجد، فمر شيخ من بني غفار، فأرسل إليه حميد، فلما أقبل قال: يا بن أخي، وسع^(١) له فيما بيني وبينك، فإنه قد صحب رسول الله ﷺ. فجاء حتى جلس فيما بيني وبينه، فقال له حميد: ما الحديث الذي حدثتني عن رسول الله ﷺ؟ فقال الشيخ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ينشئ السحاب، فينطق أحسن النطق، ويضحك أحسن الضحك»^(٢). والمراد - والله أعلم - أن نطقها الرعد، وضحكها البرق.

وقال موسى بن عبيدة، عن سعد بن إبراهيم قال: يبعث الله الغيث، فلا أحسن منه مضحكا، ولا أنس منه منطقا، فضحكه البرق، ومنطقه الرعد.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عبيد الله الرازي، عن محمد بن مسلم قال: بلغنا أن البرق ملك له أربعة وجوه: وجه إنسان، ووجه ثور، ووجه نسر، ووجه أسد، فإذا مصع^(٣) بذنبه فذاك البرق^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الحجاج، حدثني أبو مطر، عن سالم، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال: «اللهم، لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك».

ورواه الترمذي، والبخاري في كتاب الأدب، والنسائي في اليوم والليلة، والحاكم في مستدركه، من حديث الحجاج بن أرطاة، عن أبي مطر - ولم يسم به^(٥).

وقال [الإمام]^(٦) أبو جعفر بن جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا إسرائيل، عن أبيه^(٧)، عن رجل، عن أبي هريرة، رفع الحديث قال: إنه كان إذا سمع الرعد قال: «سبحان من يُسَبِّحُ الرعد بحمده»^(٨).

وروى عن علي، رضى الله عنه، أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال: سبحان من سبَّحت له.

(١) في ت: «أوسع».

(٢) المسند (٥/٤٣٥).

(٣) في ت: «قصع».

(٤) وهذا لا أصل له من كتاب ولا سنة، وهو من الخيال.

(٥) المسند (٢/١٠٠) وسنن الترمذي (٣٤٥٠) والأدب المفرد برقم (٧٢٢) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١٠٧٦٤)، وأما الحاكم فرواه في المستدرک (٢٨٦/٤) من طريق عبد الواحد بن زياد، عن أبي مطر، به. ولم يذكر الحجاج بن أرطاة، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وأقره الذهبي، وضعف النووي هذا الحديث في الأذكار (ص ١٦٤).

(٦) زيادة من ت، أ. (٧) في ت، أ: «عن ليث».

(٨) تفسير الطبري (٣٨٩/١٦) ورواه ابن مردويه في تفسيره كما في تخريج الكشاف (٢/١٨٤) من طريق محمد بن يحيى، عن أحمد ابن إسحاق عن أبي أحمد، عن عتاب بن زياد، عن رجل، عن أبي هريرة رفع الحدث... إلى آخره.

وكذا روى عن ابن عباس، والأسود بن يزيد، وطاوس: أنهم كانوا يقولون كذلك.

وقال الأوزاعي: كان ابن أبي زكريا يقول: من قال حين يسمع الرعد: سبحان الله وبحمده، لم تصبه صاعقة.

وعن عبد الله بن الزبير^(١): أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: سبحان الذى يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا لوعيد^(٢) شديد لأهل الأرض. رواه مالك فى الموطأ، والبخارى فى كتاب الأدب^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود الطيالسى، حدثنا صدقة بن موسى، حدثنا محمد بن واسع، عن شتيز^(٤) بن نهار، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال ربكم عز وجل: لو أن عبيدى أطاعونى لأسقيتهم المطر بالليل، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولما أسمعتمهم^(٥) صوت الرعد»^(٦).

وقال الطبرانى: حدثنا زكريا بن يحيى الساجى، حدثنا أبو كامل الجحدري، حدثنا يحيى بن كثير أبو النضر، حدثنا عبد الكريم، حدثنا عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله؛ فإنه لا يصيب ذاكرا»^(٧).

وقوله: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ أى: يرسلها نعمة ينتقم بها ممن يشاء، ولهذا تكثر فى آخر الزمان، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا محمد بن مصعب، حدثنا عمارة^(٨)، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه؛ أن النبى ﷺ قال: «تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة، حتى يأتى الرجل القوم فيقول: من صُعِقَ تلكم^(٩) الغداة؟ فيقولون صُعِقَ فلان وفلان وفلان»^(١٠).

وقد روى فى سبب نزولها ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى:

حدثنا إسحاق، حدثنا على بن أبى سارة الشيبانى، حدثنا ثابت، عن أنس: أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً مرة إلى رجل من فراعنة العرب فقال: «اذهب فادعه لى». قال: فذهب إليه فقال: يدعوك رسول الله ﷺ. فقال له: من رسول الله؟ وما الله؟ أم ذهب هو؟ أم من فضة هو؟ أم من نحاس هو؟ قال: فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: يا رسول الله، قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك،

(١) فى ت، أ: «بن عمرو». (٢) فى ت، أ: «الوعيد».

(٣) الموطأ (٩٩٢/٢) والادب المفرد برقم (٧٢٤).

(٤) فى ت: «عن شمس»، وفى أ: «شمير».

(٦) المسند (٣٥٩/٢).

(٧) المعجم الكبير (١١/ ١٦٤) وقال الهيثمى فى المجمع (١٣٦/١٠): «فيه يحيى بن كثير وهو ضعيف».

(٨) فى أ: «حماد». (٩) فى ت، أ: «قبلكم».

(١٠) المسند (٦٤/٣).

قال لى كذا وكذا. فقال: «ارجع إليه الثانية». أراه، فذهب فقال له مثلها. فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك. قال: «ارجع إليه فادعه». فرجع إليه الثالثة. قال: فأعاد عليه ذلك الكلام. فبينما هو يكلمه، إذ بعث الله، عز وجل، سحابة حيال رأسه، فرعدت، فوقعت منها صاعقة، فذهب بقحف رأسه فأنزل الله: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾.

ورواه ابن جرير، من حديث على بن أبى سارة، به^(١). ورواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عبدة ابن عبد الله، عن يزيد بن هارون، عن ديلم بن غزوان، عن ثابت، عن أنس، فذكر نحوه^(٢).

وقال: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا عفان، حدثنا أبان بن يزيد، حدثنا أبو عمران الجوقى، عن عبد الرحمن بن صبحار العبدي: أنه بلغه أن نبى الله بعثه^(٣) إلى جبّار يدعوه، فقال: أرايتم^(٤) ربكم، أذهب هو؟ أو فضة هو؟ ألؤلؤ هو؟ قال: فبينما هو يجادلهم، إذ بعث الله سحابة فرعدت فأرسل عليه صاعقة فذهبت بقحف رأسه، ونزلت هذه الآية.

وقال أبو بكر بن عياش، عن ليث بن أبى سليم، عن مجاهد قال: جاء يهودى فقال: يا محمد، أخبرنى عن ربك، [من أى شىء هو؟]^(٥)، من نحاس هو؟ من لؤلؤ؟ أو ياقوت؟ قال: فجاءت صاعقة فأخذته، وأنزل الله: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾.

وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلا أنكر القرآن، وكذّب النبى ﷺ، فأرسل الله صاعقة فأهلكته وأنزل: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ الآية.

وذكروا فى سبب نزولها قصة عامر بن الطفيل وأربد^(٦) بن ربيعة لما قدما على رسول الله ﷺ المدينة، فسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر فأبى عليهما رسول الله ﷺ، فقال له عامر بن الطفيل - لعنه الله: أما والله لأملأنها عليك خيلا جردا ورجالا مردأ. فقال له رسول الله ﷺ: يا أبى الله عليك ذلك وأبناء قيلة^(٧)، يعنى: الأنصار، ثم إنهما هما بالفتك^(٨) بالنبى ﷺ، وجعل أحدهما يخاطبه، والآخر يستل سيفه ليقتله من ورائه، فحماه الله منهما وعصمه، فخرجا من المدينة فانطلقا فى أحياء العرب، يجمعان الناس لحربه، عليه السلام^(٩)، فأرسل الله على أربد سحابة فيها صاعقة فأحرقتة. وأما عامر بن الطفيل فأرسل الله عليه الطاعون، فخرجت فيه غدة عظيمة، فجعل يقول: يا آل عامر، غدة كغدة البكر، وموت فى بيت سلولية^(١٠)؟ حتى ماتا^(١١)، لعنهما الله، وأنزل الله فى مثل ذلك:

(١) مسند أبى يعلى (١٨٣/٦) وتفسير الطبرى (٣٩٢/١٦) وعلى بن أبى سارة ضعيف.

(٢) مسند البزار برقم (٢٢٢١) «كشف الاستار» وقال الهيثمى فى المجمع (٤٢/٧): «رجال البزار، رجال الصحيح غير ديلم بن غزوان وهو ثقة».

(٣) فى ت، أ: «بعث».

(٤) فى أ: «أرايتم».

(٥) زيادة من ت، أ، والطبرى.

(٦) فى ت، أ: «قيلة».

(٨) فى أ: «بالقتل».

(٩) فى ت: «سلولته».

(١٠) فى أ: «مات».

(١١) فى أ: «سلولته».

﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾، وفي ذلك يقول لبيد بن ربيعة، أخو أربد يرثيه:

أَخْشَى عَلَى أُرْبَدَ الْحُتُوفَ وَلَا
أَرْهَبَ نَوَّ السَّمَاءِ وَالْأَسَدَ

فَجَعَنِي الرَّعْدُ وَالصَّوَاعِقُ بَالِ
فَارَسَ يَوْمَ الْكَرْيَةِ النَّجْدَ^(١)

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا مسعدة بن سعد^(٢) العطار، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي، حدثني عبد العزيز بن عمران، حدثني عبد الرحمن وعبد الله ابنا زيد بن أسلم، عن أبيهما، عن عطاء بن يسار، عن ابن عباس، أن أربد بن قيس بن جَزْءَ بن جليد^(٣) بن جعفر بن كلاب، وعامر بن الطفيل بن مالك، قدما المدينة على رسول الله ﷺ، فأنهيا إليه وهو جالس، فجلسا بين يديه، فقال عامر بن الطفيل: يا محمد، ما تجعل لي إن أسلمت؟ فقال رسول الله ﷺ: «لك ما للمسلمين، وعليك ما عليهم». قال عامر بن الطفيل: أتجعل لي الأمر إن أسلمت من بعدك؟ قال رسول الله ﷺ: «ليس ذلك لك ولا لقومك، ولكن لك أعنة الخيل». قال: أنا الآن في أعنة خيل نجد، اجعل لي الوبر ولك المدر. قال رسول الله: «لا». فلما قفلا من عنده قال عامر: أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا، فقال له رسول الله ﷺ: «يمنعك الله». فلما خرج أربد وعامر، قال عامر: يا أربد، أنا أشغل عنك محمدا ﷺ بالحديث، فاضربه بالسيف، فإن الناس إذا قتلوا محمدا لم يزدوا على أن يرضوا بالدية، ويكرهوا الحرب، فنعطيه^(٤) الدية. قال أربد: افعل. فأقبلا راجعين إليه، فقال عامر: يا محمد، قم معي أكلمك. فقام معه رسول الله ﷺ، فجلسا إلى الجدار، ووقف معه رسول الله ﷺ يكلمه، وسلَّ أربدُ السيف، فلما وضع يده على السيف يبست يده على قائم السيف، فلم يستطع سلَّ السيف، فأبطأ أربد على عامر بالضرب، فالتفت رسول الله ﷺ فرأى أربد، وما يصنع، فانصرف عنهما. فلما خرج عامر وأربد من عند رسول الله ﷺ حتى إذا كانا بالحرّة، حرّة واقم نزلا، فخرج إليهما سعد بن معاذ وأسيّد بن حُضَيْرَ فقالا: اشخصا يا عدوى الله، لعنكما الله. فقال عامر: من هذا يا سعد؟ قال: هذا أسيّد بن حُضَيْرَ الكاتب^(٥). فخرجا حتى إذا كانا بالرقم، أرسل الله على أربد صاعقة فقتلته، وخرج عامر حتى إذا كان بالخريم، أرسل الله قُرْحة فأخذته، فأدركه الليل في بيت امرأة من بني سلول، فجعل يمس قُرْحته في حلقه ويقول: غُدَّة كغُدَّة الجمل في بيت سَكُولِيَّة^(٦) ترغب أن يموت في بيتها! ثم ركب فرسه فأحضره حتى مات عليه راجعا، فأنزل الله فيهما: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ﴾ [الرعد: ٨ - ١١] - قال: المعقبات من أمر الله يحفظون محمدا ﷺ، ثم ذكر أربد وما قتله به، فقال: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ الآية^(٧).

(١) رواه الطبري في تفسيره (٣٧٩/١٦ - ٣٨٢) عن ابن زيد.

(٢) في هـ، ت: «سعيد» وما أثبتناه هو الصواب؛ لوقوعه في المعجم الكبير والصغير هكذا، ولم أجد له ترجمة.

(٣) في أ: «خالد».

(٤) في ت، أ: «فستعطيهم».

(٥) في ت، أ: «الكاتب».

(٦) في ت: «سلولته».

(٧) المعجم الكبير (٣٧٩/١٠ - ٣٨١) وفيه عبد العزيز بن عمران، وعبد الرحمن وعبد الله ابنا زيد بن أسلم، وكلهم ضعاف.

وقوله: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ أى: يَشْكُونَ فى عظمتة، وأنه لا إله إلا هو، ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾.

قال ابن جرير: شديدة ماحلته فى عقوبة من طغى عليه وعتا وتمادى فى كفره. وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥٠، ٥١].

وعن على، رضى الله عنه: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ أى: شديد الأخذ. وقال مجاهد: شديد القوة.

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٌ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (١٤).

قال على بن أبى طالب، رضى الله عنه: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ قال: التوحيد. رواه ابن جرير. وقال ابن عباس، وقتادة، ومالك عن محمد بن المنكدر: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [قال] (١): لا إله إلا الله.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ (٢) من دونه ﴿أى: ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله. ﴿كَبَاسِطٌ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾: قال على بن أبى طالب: كمثل الذى يتناول الماء من طرف البئر بيده، وهو لا يناله أبدا بيده، فكيف يبلغ فاه؟

وقال مجاهد: ﴿كَبَاسِطٌ كَفِّهِ﴾: يدعو الماء بلسانه، ويشير إليه [بيده] (٣)، فلا يأتيه أبدا.

وقيل: المراد كقابض يده على الماء، فإنه لا يحكم منه على شيء، كما قال الشاعر (٤):

فَإِنِّى وَإِيَّاكُمْ وَشَوْقًا إِلَيْكُمْ كَقَابِضٍ مَاءٍ لَمْ تَسْقَهُ (٥) أَنَا مَلُهُ

وقال الآخر (٦):

فَأَصْبَحْتُ مِمَّا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا مِنْ الْوَدِّ مِثْلَ الْقَابِضِ الْمَاءَ بِالْيَدِ

ومعنى الكلام: أن هذا الذى ييسط يده إلى الماء، إما قابضا وإما متناولاً له من بُعد، كما أنه لا

(١) زيادة من ت، أ، والطبرى.

(٢) فى ت: «تدعون».

(٣) زيادة من ت، أ، والطبرى.

(٤) هو ضابئ بن الحارث البرجمي، والبيت فى تفسير الطبرى (٣٩٩/١٦) وأورده البغدادى فى خزائن الأدب (٨٠/٤) من أبيات سبعة قالها فى الحبس. اهـ مستفاداً من حاشية الشعب.

(٥) فى ت: «يسقه».

(٦) هو الاحوص بن محمد الانصارى، والبيت فى تفسير الطبرى (٤٠٠/١٦).

ينتفع بالماء الذى لم يصل إلى فيه، الذى جعله محلاً للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره، لا ينتفعون بهم أبداً فى الدنيا ولا فى الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١٥)﴾.

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذى قهر كل شيء، ودان له كل شيء. ولهذا يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين، وكرهاً من المشركين، ﴿وَزِلْزَلُهُم بِالْغُدُوِّ﴾ أى: البكر^(١) والآصال، وهو جمع أصيل وهو آخر النهار، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨].

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦)﴾.

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو؛ لأنهم معترفون^(٢) أنه هو الذى خلق السموات والأرض، وهو ربه ومديرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لنفسها^(٣)، ولا لعبادها بطريق الأولى ﴿نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أى: لا تحصل منفعة، ولا تدفع مضرة. فهل يستوى من عبد هذه الآلهة مع الله، ومن عبد الله وحده لا شريك له، وهو على نور من ربه؟ ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي﴾^(٤) الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ أى: أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله فى الخلق، فخلقوا كخلقه، فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره؟ أى: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله، ولا ند له ولا عدل^(٥) له، ولا وزير له، ولا ولد ولا صاحبة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم يعترفون^(٦) أنها مخلوقة له عبيد له، كما كانوا يقولون فى تلييتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. وكما أخبر تعالى عنهم فى قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، فأنكر تعالى ذلك عليهم، حيث اعتقدوا

(٣) فى ت: «لأنفسها».

(٢) فى ت: «يعرفون».

(١) فى أ: «بالبكرات».

(٦) فى ت، أ: «يعرفون».

(٥) فى أ: «ولا عدل».

(٤) فى ت: «يستوى».

(٧) فى ت: «إنما».

ذلك، وهو تعالى لا يُشَقِّعُ عنده أحداً إلا بإذنه، ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣]، ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذِنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، وقال: ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ أَتَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥]، فإذا كان الجميع عبيداً، فلم يعبد بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان، بل بمجرد الرأى والاختراع والابتداع؟ ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك، وتنهاهم عن عبادة من سِوَى الله، فكذبوهم وخالفوهم، فحققت عليهم كلمة العذاب لا محالة، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حَلِيةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧)﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أى: مطراً، ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ أى: أخذ كل واد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيراً من الماء، وهذا صغير فوسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علماً كثيراً، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها، ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ أى: فجاء على وجه الماء الذى سال فى هذه الأودية زَبَدٌ عال عليه، هذا مثل، وقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾، هذا هو المثل الثانى، وهو ما يسبك فى النار من ذهب أو فضة ﴿ابْتِغَاءَ حَلِيةٍ﴾ أى: ليجعل حلية نحاس أو حديد، فيجعل متاعاً فإنه يعلوه زَبَدٌ منه، كما يعلو ذلك^(١) زَبَدٌ منه. ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أى: إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب ونحوه مما يسبك فى النار، بل يذهب ويضمحل؛ ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ أى: لا ينتفع به، بل يتفرق ويتمزق ويذهب فى جانبى الوادى، ويعلق بالشجر وتنسف الرياح. وكذلك خَبَثَ الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب، لا يرجع^(٢) منه شيء، ولا يبقى إلا الماء^(٣)، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به؛ ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

قال بعض السلف: كنت إذا قرأتُ مثلاً من القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسى؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ

(١) فى ت، أ: «وبقى الماء».

(٢) فى ت، أ: «منه إلى شيء».

(٣) فى ت: «ذاك».

بِقَدَرِهَا»: هذا مثل ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله. وهو قوله: «فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً»، [وهو الشك]^(١)، «وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ»، وهو اليقين، وكما يجعل الحلى فى النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه فى النار؛ فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك.

وقال العوفى عن ابن عباس قوله: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا» يقول: احتمل السيل ما فى الوادى من عود ودمنة^(٢) «وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ»، فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد، فللنحاس والحديد خبث، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبئت. فجعل ذاك^(٣) مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيئ يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا الزبد، فكذلك الهدى والحق جاءا من عند الله، فمن عمل بالحق كان له، ويبقى كما يبقى ما ينفع الناس فى الأرض. وكذلك الحديد لا يستطيع أن يعمل منه سكينة ولا سيف حتى يدخل فى النار فتأكل خبثه، ويخرج جوده فيتنتفع به. كذلك يضمحل الباطل إذا كان يوم القيامة، وأقيم الناس، وعرضت الأعمال، فيزيغ الباطل ويهلك، ويتنتفع أهل الحق بالحق.

وكذلك روى فى تفسيرها عن مجاهد، والحسن البصرى، وعطاء، وقاتدة، وغير واحد من السلف والخلف.

وقد ضرب الله، سبحانه وتعالى، فى أول سورة البقرة للمنافقين مثلين نارياً ومائياً، وهما قوله: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ» الآية [البقرة: ١٧]، ثم قال: «أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ» الآية [البقرة: ١٩]. وهكذا ضرب للكافرين فى سورة النور مثلين، أحدهما: قوله: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً» الآية [النور: ٣٩]، والسراب إنما يكون فى شدة الحر؛ ولهذا جاء فى الصحيحين: «يقال لليهود يوم القيامة: فما تريدون؟ فيقولون: أى ربنا، عطشنا فاسقنا. فيقال: ألا تردون؟ فيردون النار فإذا هى كالسراب يحطم بعضها بعضاً».

ثم قال فى المثل الآخر: «أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ» الآية [النور: ٤٠]. وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضاً، فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبئت^(٤) الكلا والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فتنفع الله بها الناس، فشربوا وروعوا وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها [أخرى]^(٥)، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من

(٣) فى ت، أ: «ذلك».

(٢) فى أ: «ورمة».

(١) زيادة من ت، أ.

(٥) زيادة من ت، أ، والصحيحين.

(٤) فى ت: «وانبئت».

فَقَهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ اللَّهُ بِمَا بَعَثَنِي^(١) وَنَفَعَ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمِثْلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أَرْسَلْتُ بِهِ»^(٢).

فهذا مثل ماثي، وقال في الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مثل من لم يرفع رأسه عن الله، فلهما أضواء ما حوله»^(٣)، جعل القَرَّاش وهذه^(٤) الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبهن فيقتحمن فيها». قال: «فذلكم مثلي ومثلكم، أنا أخذ بحجزكم عن النار، هلّم عن النار [هلّم عن النار، هلّم]^(٥)، فتغلبوني فتقتحمون فيها». وأخرجاه في الصحيحين أيضا^(٦)، فهذا مثل نارى.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨)﴾.

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أى: أطاعوا الله ورسوله، وانقادوا لأوامره، وصدقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم ﴿الحسنى﴾، وهو الجزء الحسن^(٧)، كما قال تعالى مخبراً عن ذى القرنين أنه قال: ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا. وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٧، ٨٨]، وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ أى لم: يطيعوا الله ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أى: فى الدار الآخرة، لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه لافقدوا به، ولكن لا يتقبل منهم؛ لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ أى: فى الدار الآخرة، أى: يناقشون على النقيض والقطمير، والجليل والحقير، ومن نوقش الحساب عذب؛ ولهذا قال: ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩)﴾.

(١) فى ت، أ: «بعثنى به».

(٢) صحيح البخارى برقم (٧٩) وصحيح مسلم برقم (٢٢٨٢).

(٣) فى ت: «ما حولها». (٤) فى أ: «وهذا».

(٥) زيادة من ت، أ، والمسنَد.

(٦) المسند (٣١٢/٢) وصحيح البخارى برقم (٦٤٨٢) وصحيح مسلم برقم (٢٢٨٤) وهو عنده من هذا الطريق.

(٧) فى ت: «الخير».

يقول تعالى: لا يستوى من يعلم من الناس أن الذى ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ هو ﴿الْحَقُّ﴾ أى: الذى لا شك فيه ولا مرية ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه، بل هو كله ^(١) حق يصدق بعضه بعضاً، لا يضاد شيئاً منه شيئاً آخر، فأخباره كلها حق، وأوامره ونواهيه عدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أى: صدقاً فى الإخبار، وعدلاً فى الطلب، فلا يستوى من تحقق صدق ^(٢) ما جئت به يا محمد، ومن هو أعمى لا يهتدى إلى خير ولا يفهمه، ولو فهمه ما انقاد له، ولا صدقه ولا اتبعه، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى؟﴾ أى: أفهذا كهذا؟ لا استواء ^(٣).

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أى: إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة ^(٤)، جعلنا الله منهم [بفضله وكرمه] ^(٥).

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بَعْدَ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن اتصف بهذه الصفات الحميدة، بأن لهم ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾، وهى العاقبة والنصرة فى الدنيا والآخرة.

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بَعْدَ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾، وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾، من صلة الأرحام، والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج، وبذل المعروف، ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أى: فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، يراقبون الله فى ذلك، ويخافون سوء الحساب فى الدار الآخرة. فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة فى جميع حركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أى: عن المحارم والمآثم، ففطموا ^(٦) نفوسهم عن ذلك لله عز

(١) فى ت، أ: «كلمة».

(٢) فى ت، أ: «صحة».

(٣) فى ت، أ: «لا سواء».

(٤) فى أ: «فعظموا».

(٥) زيادة من أ.

(٦) فى ت: «الصحيحة السليمة».

وجل؛ ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها^(١) وخشوعها على الوجه الشرعى المرضى، ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أى: على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقربات وأجانب، من فقراء ومحاويج ومساكين، ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أى: فى السر والجهر، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال، فى آناء الليل وأطراف النهار، ﴿وَيَذَرُونَّ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أى: يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحد قابله بالجميل صبرا واحتمالا وصفحاً وعفوا، كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥]؛ ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء المتصفين بهذه الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ والعدن: الإقامة، أى: جنات إقامة يخلدون^(٢) فيها.

وعن عبد الله بن عمرو أنه قال: إن فى الجنة قصراً يقال له: «عدن»، حوله البروج والمروج، فيه خمسة آلاف باب، على كل باب خمسة آلاف حِبرَة^(٣)، لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد. وقال الضحاك فى قوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾: مدينة الجنة، فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى، والناس حولهم بعد والجنات حولها. رواهما ابن جرير.

وقوله: ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أى: يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين؛ لتقر أعينهم بهم، حتى إنه^(٤) ترفع^(٥) درجة الأدنى إلى درجة الأعلى، من غير تنقيص لذلك الأعلى عن درجته، بل امتناناً من الله وإحساناً، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ^(٦) وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينَ﴾ [الطور: ٢١].

وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾. أى: وتدخل عليهم الملائكة من هاهنا وهاهنا للتهنئة بدخول الجنة، فعند^(٨) دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلمين مهتئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام، والإقامة فى دار السلام، فى جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام.

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثني سعيد بن أبي أيوب، حدثنا^(٩) معروف بن سويّد الجذامى عن أبي عُسَّانة المعافرى، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، رضى الله عنهما^(١٠)، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون^(١١) الذين تُسدُّ بهم الثغور،

(١) فى ت: «وسجودها وركوعها». (٢) فى ت: «تخلدون».

(٣) فى أ: «حرة». (٤) فى أ: «إنهم».

(٦) فى ت: «واتبعتهم». (٧) فى أ: «ذرياتهم».

(٩) فى ت، أ: «حدثني». (١٠) فى ت: «عنه».

(٨) فى ت، أ: «عند».

(١١) فى ت: «المهاجرين».

وَتَتَّقَىٰ بِهِمُ الْمَكَارَهُ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته: اتوهم فحيوهم. فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك، وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء فنسلم عليهم؟ قال: إنهم كانوا عباداً يعبدوننى لا^(١) يشركون بى شيئاً، وتُسَدُّ^(٢) بهم الشُّغُور، وتتقى^(٣) بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره فلا يستطيع لها قضاء. قال: «فتأتىهم الملائكة عند ذلك، فيدخلون عليهم من كل باب، ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾»^(٤).

ورواه أبو القاسم الطبراني، عن أحمد بن رشدين، عن أحمد بن صالح، عن عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن أبي عُسَّانَةَ سمع عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «أول ثلة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين، الذين تتقى بهم المكاره، وإذا أمروا سمعوا وأطاعوا، وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى سلطان لم تُقْضَ حتى يموت وهى في صدره، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتى بزخرفها وزينتها، فيقول: أين عبادى الذين قاتلوا فى سبيلى، وأوذوا فى سبيلى، وجاهدوا فى سبيلى؟ ادخلوا الجنة بغير عذاب ولا حساب، وتأتى الملائكة فيسجدون ويقولون: ربنا نحن نسبحك الليل والنهار، ونُقَدِّسُ لك، من هؤلاء الذين آثرتهم علينا؟ فيقول الرب عز وجل: هؤلاء عبادى الذين جاهدوا^(٥) فى سبيلى، وأوذوا فى سبيلى فتدخل عليهم الملائكة من كل باب: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾»^(٦).

وقال عبد الله بن المبارك، عن بَقِيَّةِ بن الوليد، حدثنا أرطاة بن المنذر، سمعت رجلاً من مشيخة الجند، يقال له «أبو الحجاج» يقول: جلست إلى أبي أمامة فقال: إن المؤمن ليكون متكثراً على أريكته إذا دخل الجنة، وعنده سباطان من خدم، وعند طرف السماطين باب مبوب، فيقبل الملك فيستأذن، فيقول [أقصى الخدم]^(٧) للذى يليه: «ملك يستأذن»، ويقول الذى يليه للذى يليه: «ملك يستأذن»، حتى يبلغ المؤمن فيقول: ائذنوا. فيقول أقربهم إلى المؤمن: ائذنوا، ويقول الذى يليه للذى يليه: ائذنوا حتى يبلغ أقصاهم الذى عندى الباب، فيفتح له، فيدخل فيسلم ثم ينصرف. رواه ابن جرير^(٨).
ورواه ابن أبى حاتم من حديث إسماعيل بن عياش، عن أرطاة بن المنذر، عن أبي الحجاج^(٩)

(١) فى ت، أ: «ولا». (٢) فى ت، أ: «ويسد». (٣) فى ت، أ: «ويتقى».

(٤) المسند (١٦٨/٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٢٥٩/١٠): «رجاله ثقات».

(٥) فى ت: «قاتلوا».

(٦) المعجم الكبير للطبراني برقم (١٥٢) «القطعة المفقودة» ورواه الحاكم فى المستدرک (٧١/٢) من طريق محمد بن عبد الله عن ابن وهب، به نحوه، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى.

(٧) زيادة من ت، أ، والطبرى.

(٨) تفسير الطبرى (٤٢٥/١٦).

(٩) كذا وقع فى تفسير الطبرى، ونقله أيضاً ابن القيم فى حادى الأرواح (٣٨/٢) «أبو الحجاج» وفى ترجمته فى الجرح والتعديل (٢٣٥/٩) والتاريخ الكبير (٣٧٦/٢/٤) والثقات لابن حبان (٥٥٢/٥): «يوسف الالهاني، أبو الضحاك الحمصى، سمع أبا أمامة وابن عمر، وروى عنه أرطاة بن المنذر».

وانظر حاشية الأستاذ محمود شاکر على تفسير الطبرى (٤٢٦/١٦).

يوسف الألهاني قال: سمعت أبا أمامة، فذكر نحوه.

وقد جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ كان يزور قبور الشهداء في رأس كل حول، فيقول لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ وكذا أبو بكر، وعمر وعثمان^(١).

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥)﴾.

هذا حال الأشقياء وصفاتهم، وذكر مآلهم في الدار الآخرة ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا، فأولئك كانوا يوفون بعهد الله ويصلون ما أمر الله به أن يوصل، وهؤلاء ﴿يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، كما ثبت في الحديث: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان» وفي رواية: «وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ وهي الإبعاد عن الرحمة، ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وهي سوء العاقبة والمآل، ومآواهم جهنم وبئس القرار^(٣).

وقال أبو العالية في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ الآية، قال: هي ست خصال في المنافقين إذا كان فيهم الظَّهْرَةُ على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اتتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض. وإذا كانت الظَّهْرَةُ عليهم أظهروا الثلاث الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اتتمنوا خانوا.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦)﴾.

يذكر تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء، ويقتره على من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة والعدل. وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا في الحياة الدنيا استدراجاً لهم وإمهالاً، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ. نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥]، [٥٦].

ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة فقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ

(١) رواه الطبري في تفسيره (٤٢٦/١٦) عن سهيل بن محمد بن إبراهيم التيمي مرسلاً، وهذا معضل.

(٢) في ت، أ: «المهاد».

الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ»، كما قال: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]، وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالا: حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس، عن المستورد أخى بنى فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا فى الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه فى اليم، فلينظر بم ترجع» وأشار بالسبابة. ورواه مسلم فى صحيحه^(١).
وفى الحديث الآخر: أن رسول الله ﷺ مر بجدي أسك^(٢) ميت - والأسك^(٣): الصغير الأذنين - فقال: «والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين القوة»^(٤).

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أُنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسَنُ مَّثَابٍ (٢٩)﴾.

يخبر تعالى عن قيل^(٥) المشركين: ﴿لَوْلَا﴾ أى: هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ كما قالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]، وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة، وإن الله قادر على إجابة ما سألوا. وفى الحديث: أن الله أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهباً، وأن يجرى لهم ينبوعاً، وأن يزيح الجبال من حول مكة فيصير مكانها مروج وبساتين: إن شئت يا محمد أعطيتهم ذلك، فإن كفروا فإنى أعذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: «بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة»^(٦)؛ ولهذا قال لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أُنَابَ﴾ أى: هو المضل والهادى، سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا، أو لم يجبههم إلى سؤالهم؛ فإن الهداية والإضلال ليس منوطاً بذلك ولا عدمه، كما قال: ﴿وَمَا تَغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أُنَابَ﴾ أى: ويهذى من أناب إلى الله، ورجع إليه، واستعان به، وتضرع لديه.

(١) المسند (٢٢٨/٤) وصحيح مسلم برقم (٢٨٥٨).

(٢) فى ت، أ: «أشك».

(٣) فى ت، أ: «والأشك».

(٤) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٩٥٧) من حديث جابر، رضى الله عنه.

(٥) فى ت: «قتل».

(٦) رواه أحمد فى المسند (٢٤٢/١) من حديث ابن عباس، رضى الله عنهما.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى: تطيب وتركن إلى جانب (١) الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً؛ ولهذا قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أى: هو حقيق بذلك.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنُ مَثَابٍ﴾، قال ابن أبى طلحة، عن ابن عباس: فرح وقرّة عين. وقال عكرمة: نعم ما لهم.

وقال الضحاك: غبطة لهم.

وقال إبراهيم النخعي: خير لهم.

وقال قتادة: هى كلمة عربية (٢)، يقول الرجل: «طوبى لك»، أى: أصبت خيراً. وقال فى رواية: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾: حسنى لهم.

﴿وَحَسَنُ مَثَابٍ﴾ أى: مرجع.

وهذه الأقوال شىء واحد لا منافاة بينها.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾، قال: هى أرض الجنة بالحبشية.

وقال سعيد بن مسروق: طوبى اسم الجنة بالهندية. وكذا روى السدى، عن عكرمة: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ أى: الجنة. وبه قال مجاهد.

وقال العوفي، عن ابن عباس: لما خلق الله الجنة وفرغ منها قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنُ مَثَابٍ﴾، وذلك حين أعجبه.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب، عن جعفر، عن شهر بن حوشب قال: ﴿طُوبَى﴾ شجرة فى الجنة، كل شجر الجنة منها، أغصانها من وراء سور الجنة.

وهكذا روى عن أبى هريرة، وابن عباس، ومغيث بن سمي، وأبى إسحاق السبيعي وغير واحد من السلف: أن طوبى شجرة فى الجنة، فى كل دار منها غصن منها.

وذكر بعضهم أن الرحمن، تبارك وتعالى، غرسها بيده من حبة لؤلؤة، وأمرها أن تمتد، فامتدت إلى حيث يشاء الله تبارك وتعالى، وخرجت من أصلها ينابيع أنهار الجنة، من غسل وخمر وماء ولبن (٣).

وقد قال عبد الله بن وهب: حدثنا عمرو بن الحارث، أن دراجاً أبا السّمح حدثه، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، [مرفوعاً: «طوبى: شجرة فى الجنة مسيرة مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»] (٤).

(٣) فى ت: «ولبن وماء».

(٢) فى ت، أ: «غريبة».

(١) فى ت، أ: «جناب».

(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (٤٤٣/١٦) قال أحمد، رحمه الله: «أحاديث دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد فيها ضعف».

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، سمعت عبد الله بن لهيعة، حدثنا درّاج أبو السمح، أن أبا الهيثم حدثه، عن أبي سعيد الخدري^(١) عن رسول الله ﷺ: أن رجلاً قال: يا رسول الله، طوبى لمن رآك وآمن بك. قال: «طوبى لمن رآني وآمن بي، ثم طوبى، ثم طوبى، ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني». قال له رجل: وما طوبى؟ قال: «شجرة في الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»^(٢).

وروى البخاري ومسلم جميعاً، عن إسحاق بن راهويه، عن مغيرة المخزومي، عن وهيب، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها» قال: فَحَدَّثْتُ به النعمان بن أبي عياش الزرقى، فقال: حدثني أبو سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجوّادَ المضمرَّ السريعَ مائة عام ما يقطعها»^(٣).

وفي صحيح البخاري، من حديث يزيد بن زريع، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله: ﴿وَوَظِلٌّ مِمْدُودٌ﴾ [الواقعة: ٣٠]، قال: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها»^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا سريج، حدثنا فليح، عن هلال بن على، عن عبد الرحمن بن أبي عمرة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة»^(٥)، اقرؤوا إن شئتم ﴿وَوَظِلٌّ مِمْدُودٌ﴾. أخرجاه في الصحيحين^(٦).

وقال [الإمام]^(٧) أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالا: حدثنا شعبة، سمعت أبا الضحاك يحدث عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين - أو: مائة - سنة هي شجرة الخلد»^(٨).

وقال محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن أسماء بنت أبي بكر، رضى الله عنها، قالت: سمعت رسول الله ﷺ، وذكر سدره المنتهى، قال: «يسير في ظل الفن منها الراكب مائة سنة - أو: قال - يستظل في الفن منها مائة راكب، فيها فراش الذهب، كأن ثمرها القلال». رواه الترمذي^(٩).

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) المسند (٧١/٣).

(٣) صحيح البخاري برقم (٦٥٥٢) وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٧).

(٤) صحيح البخاري برقم (٣٢٥١).

(٥) في أ: «عام».

(٦) المسند (٤٨٢/٢).

(٧) زيادة من أ.

(٨) المسند (٤٥٥/٢).

(٩) سنن الترمذي برقم (٢٥٤١) وقال الترمذي: «حديث حسن غريب» وفي بعض النسخ: «حسن صحيح غريب».

وقال إسماعيل بن عياش، عن سعيد بن يوسف، عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلام الأسود قال: سمعت أبا أمامة الباهلى قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يدخل الجنة إلا انطلق به إلى طوبى، ففتح له أكمامها، فiaأخذه من أى ذلك شاء، إن شاء أبيض، وإن شاء أحمر، وإن شاء أصفر، وإن شاء أسود، مثل شقائق النعمان وأرق وأحسن»^(١).

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن أشعث بن عبد الله، عن شهر بن حوشب، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: طوبى شجرة فى الجنة، يقول الله لها: «تفتقى لعبدى عما شاء؛ ففتق له عن الخيل بسروجها ولجمها، وعن الإبل بأزمتها، وعما شاء من الكسوة»^(٢).

وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه هاهنا أثراً غريباً عجيباً، قال وهب، رحمه الله: إن فى الجنة شجرة يقال لها: «طوبى»، يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها، زهرها رباط، وورقها برود، وقضبانها عنبر، وبطحاؤها ياقوت، وترابها كافور، ووحلها مسك، يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل، وهى مجلس لأهل الجنة، فيبنا هم فى مجلسهم إذ أتتهم ملائكة من ربهم يقودون نجبا مزومة بسلاسل من ذهب وجوهها كالمصابيح حسنا^(٣). ووبرها كنز المرعى^(٤) من لينه، عليها رحال ألواحها من ياقوت، ودفوفها^(٥) من ذهب، وثيابها من سندس وإستبرق، فينيخونها ويقولون: إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلموا عليه قال: فيركبونها، فهى أسرع من الطائر، وأوطأ من الفراش، نجبا من غير مهنة، يسير الرجل إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه، لا تصيب^(٦) أذن راحلة منها أذن الأخرى، ولا برك راحلة برك الأخرى، حتى إن شجرة لتتنحى عن طريقهم، لئلا تفرق بين الرجل وأخيه. قال: فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه، فإذا رأوه قالوا: اللهم، أنت السلام ومنك السلام، وحق لك الجلال والإكرام. قال: فيقول تعالى [عند ذلك]^(٧): «أنا السلام ومنى السلام، وعليكم حقت رحمتى ومحبتى، مرحبا بعبادى الذين خشونى بغيب وأطاعوا أمرى».

قال: فيقولون: ربنا لم نعبدك حق عبادتك، ولم نقدرك حق قدرك، فأذن لنا فى السجود قدامك قال: فيقول الله: «إنها ليست بدار نصب ولا عبادة، ولكنها دار ملك ونعيم، وإنى قد رفعت عنكم نصب العبادة، فسلونى ما شئتم، فإن لكل رجل منكم أمنيته» فيسألونه، حتى إن أقصرهم أمنية ليقول: رب، تنافس^(٨) أهل الدنيا فى دنياهم فتضايقوا فيها، رب فأتنى مثل كل شىء كانوا فيه من

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى صفة الجنة برقم (١٤٦) من طريق أبى عتبة، عن إسماعيل بن عياش، به.

(٢) تفسير الطبرى (٤٣٨/١٦) ورواه ابن المبارك فى الزهد برقم (٢٦٥) من طريق معمر عن الأشعث، به. وشهر بن حوشب ضعيف.

(٣) فى ت، أ: «من حسنها». (٤) فى ت: «الرعى».

(٥) فى أ: «ورفرفها». (٦) فى ت، أ: «لا يصيب».

(٧) زيادة من ت، أ، والطبرى. (٨) فى أ: «يتنافس».

يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا. فيقول الله تعالى: «لقد قَصَرْتُ بِكَ أَمْنِيكَ، ولقد سألت دون منزلتك، هذا لك منى، [وسأتحفك بمنزلتى]^(١)؛ لأنه ليس فى عطائى نكد ولا تَصْرِيد». قال: ثم يقول: «اعرضوا على عبادى ما لم يبلغ أمانيتهم، ولم يخطر لهم على بال». قال: فيعرضون عليهم حتى تَقْصُرَ بهم أمانيتهم التى فى أنفسهم، فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مُقَرَّنة، على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة، على كل سرير منها قبة من ذهب مُقَرَّغة، فى كل قبة منها فُرش من فُرش الجنة مُتَظَاهرة، فى كل قبة منها جاريثان من الحور العين، على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة، وليس فى الجنة لون إلا وهو فيهما^(٢)، ولا ريح طيبة إلا قد عبقتا به^(٣)، ينفذ ضوء وجوههما غلظ القبة، حتى يظن من يراهما أنهما دون القبة، يرى مخهما من فوق سوقهما، كالسلك الأبيض فى ياقوتة حمراء، يريان له من الفضل على صاحبه^(٤) كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل، ويرى هو لهما مثل ذلك، ويدخل إليهما فيحييانه ويقبلانه ويعتقانه^(٥) به، ويقولان له: والله ما ظننا أن الله يخلق مثلك. ثم يأمر الله تعالى الملائكة فيسيرون بهم صفا فى الجنة، حتى ينتهى بكل رجل منهم إلى منزلته التى أعدت له^(٦).

وقد روى هذا الأثر ابن أبى حاتم بسنده، عن وهب بن منبه، وزاد: فانظروا إلى موهوب ربكم الذى وهب لكم، فإذا هو بقباب فى الرفيق الأعلى، وغرف مبنية من الدر والمرجان، وأبوابها من ذهب، وسررها من ياقوت، وفرشها من سندس وإستبرق، ومنابرها من نور، يفور من أبوابها وعراصها نور مثل شعاع الشمس عنده مثل الكوكب الدرى^(٧) فى النهار المضىء، وإذا بقصور شامخة فى أعلى عليين من الياقوت يزهو نورها، فلولا أنه مُسَخَّر، إذا لالتمع الأبصار، فما كان من تلك القصور من الياقوت [الأبيض، فهو مفروش بالحريز^(٨) الأبيض، وما كان منها من الياقوت الأحمر فهو مفروش بالعبرى الأحمر، وما كان منها من الياقوت الأخضر]^(٩)، فهو مفروش بالسندس الأخضر، وما كان منها من الياقوت الأصفر، فهو مفروش بالأرجوان الأصفر منزه^(١٠) بالزمرد الأخضر، والذهب الأحمر، والفضة البيضاء، قوائمها وأركانها من الجواهر، وشرفها قباب من لؤلؤ، وبروجها غُرَف من المرجان. فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم، قُرِبَتْ لهم براذين من ياقوت أبيض، منفوخ فيها الروح، تَجَنَّبَهَا الولدان المخلدون بيد كل وليد منهم حكمة بِرْدُون من تلك البراذين، ولجمها وأعتها من فضة بيضاء، منظومة بالدر والياقوت، سُروُجها سُرُرٌ موضونة، مفروشة بالسندس والإستبرق. فانطلقت بهم تلك البراذين تَزْف بهم بيطن^(١١) رياض الجنة. فلما انتهوا إلى

(١) زيادة من ت، أ، والطبرى.

(٢) فى أ: «فيها».

(٣) فى ت، أ: «عبقا بهما».

(٤) فى أ: «صاحبه».

(٥) فى ت، أ: «ويلقانه».

(٦) تفسير الطبرى (٤٣٩/١٦).

(٧) فى ت، أ: «الذى».

(٨) فى أ: «من الحريز».

(٩) زيادة من ت، أ.

(١٠) فى أ: «وبطن».

(١١) فى أ: «مبوبة».

منازلهم، وجدوا الملائكة قُعوداً على منابر من نور، ينتظرونهم ليزورهم ويصافحهم ويهتئوهم كرامةً ربهم. فلما دخلوا قصورهم وجدوا فيها جميع ما تَطَاوَل به عليهم^(١) وما سألوا وتمنوا، وإذا على باب كل قصر من تلك القصور أربعة جنان، [جنتان]^(٢) ذواتا أفنان، وجنتان مدهامتان، وفيهما عينان نضاختان، وفيهما من كل فاكهة زوجان، وحور مقصورات فى الخيام، فلما تَبَيَّنَ^(٣) منازلهم واستقروا قرارهم قال لهم ربهم: هل وجدتم ما وعدتكم^(٤) حقاً؟ قالوا: نعم وربنا. قال: هل رضيتم ثواب ربكم؟ قالوا: ربنا، رضينا فارض عنا قال: برضاي^(٥) عنكم حللتهم دارى، ونظرتم إلى وجهى، وصافحتكم ملائكتى، فهنيئاً هنيئاً لكم، ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، ليس فيه تنغيص ولا تَصْرِيد. فعند ذلك قالوا: الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن، وأدخلنا^(٦) دار المقامة من فضله، لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب، إن ربنا لغفور شكور.

وهذا سياق غريب، وأثر عجيب ولبعضه شواهد، ففى الصحيحين: أن الله تعالى يقول لذلك الرجل الذى يكون آخر أهل الجنة دخولا الجنة: تمنّ، فيتمنى^(٧)، حتى إذا انتهت به الأمانى يقول الله تعالى: «تمن من كذا وتمن من كذا»، يذكره، ثم يقول: «ذلك لك، وعشرة أمثاله»^(٨).

وفى صحيح مسلم، عن أبى ذر عن رسول الله ﷺ عن الله، عز وجل^(٩): «يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا فى صعيد واحد، فسألونى، فأعطيت كل إنسان^(١٠) مسألته، ما نقص ذلك من ملكى شيئا، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل فى البحر»، الحديث بطوله^(١١).

وقال خالد بن معدان: إن فى الجنة شجرة يقال لها طوبى، لها ضروع، كلها ترضع صبيان أهل الجنة، وإن سَقَطَ المرأة يكون فى نهر من أنهار الجنة، يتقلب فيه حتى تقوم القيامة، فيبعث ابن أربعين سنة. رواه ابن أبى حاتم.

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَلْوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠)﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد فى هذه الأمة ﴿لِتَلْوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أى: تبلغهم

(١) فى أ: «عليهم ربهم».

(٣) فى ت، أ: «تبوؤوا».

(٥) فى ت: «فبرضاي».

(٧) فى ت: «فيمن».

(٨) صحيح البخارى برقم (٦٥٧٣) وصحيح مسلم برقم (١٨٢) من حديث أبى هريرة وأبى سعيد، رضى الله عنهما.

(٩) فى ت: «عن رسول الله ﷺ، عن جبريل، عن الله عز وجل».

(١٠) فى ت: «إنسان منهم».

(٢) زيادة من ت، أ.

(٤) فى ت: «ما وعد ربكم».

(٦) فى أ: «وأحلنا».

(١١) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧).

رسالة الله إليهم، كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كُذِّبَ الرسل من قبلك، فلك فيهم أسوة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمنا بأولئك، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، فإن تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين، قال الله تعالى: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فزَيْنَ لَهُم الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُم الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَاِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٤] أى: كيف نصرناهم، وجعلنا العاقبة لهم ولا تبعاهم في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ أى: هذه الأمة التى بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن، لا يقرّون به؛ لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم؛ ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم» وقالوا: ما ندرى ما الرحمن الرحيم. قاله قتادة، والحديث فى صحيح البخارى^(١)، وقد قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن»^(٢)،^(٣).

﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى: هذا الذى تكفرون به أنا مؤمن به، معترف مقر له بالربوبية والإلهية، هو ربى لا إله هو، ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أى: فى جميع أمورى، ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ أى: إليه أرجع وأنيب، فإنه لا يستحق ذلك أحد^(٤) سواه.

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَنبَأِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَىٰ النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصَيِّهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (٣١).

يقول تعالى مادحا للقرآن الذى أنزله على محمد ﷺ، ومفضلا له على سائر الكتب المنزلة قبله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ أى: لو كان فى الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق^(٥)، أو تكلم^(٦) به الموتى فى قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك؛ لما فيه من الإعجاز الذى لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به،

(١) صحيح البخارى برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢) عن مروان بن الحكم والمصور بن مخزوم فى قصة غزوة الحديبية.

(٢) فى أ زيادة: «وعبد الرحيم».

(٣) صحيح مسلم برقم (٢١٣٢).

(٤) فى أ: «وتشقق».

(٥) فى ت: «أحد ذلك».

(٦) فى ت: «وتشقق وتكلم».

جاحدون له، ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾^(١) أى: مرجع الأمور كلها إلى الله، عز وجل، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن يضل فلا هادى له، ومن يهد^(٢) الله فلا مضل له.

وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة؛ لأنه مشتق من الجميع، قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خُفِّتَ»^(٣) على داود القراءة، فكان يأمر بدابته أن تُسرج، فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه». انفرد بإخراجه البخارى^(٤).

والمراد بالقرآن هنا الزبور.

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا^(٥) ﴿أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾، فإنه ليس ثم^(٦) حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع فى النفوس والعقول من هذا القرآن، الذى لو أنزله الله على جبل لرأيت خاشعا متصدعا من خشية الله. وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي إلا وقد أوتى ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»^(٧). معناه: أن معجزة كل نبي انقضت بموته، وهذا القرآن حجة باقية على الأبد، لا تنقضى عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء، هو الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا منجأ بن الحارث، أنبأنا بشر بن عمار، حدثنا عمر بن حسان، عن عطية العوفى قال: قلت له: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ الآية، قالوا لمحمد ﷺ: لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرق فيها، أو قطعت لنا^(٨) الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيى الموتى لقومه فأنزل الله هذه الآية. قال: قلت: هل تروون هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبي ﷺ؟ قال: نعم، عن أبى سعيد، عن النبي ﷺ^(٩).

وكذا روى ابن عباس، والشعبي، وقتادة، والثوري، وغير واحد فى سبب نزول هذه الآية، فالله أعلم.

وقال قتادة: لو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم، فُعل بقرآنكم.

وقوله: ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾: قال ابن عباس: [أى]^(١٠) لا يصنع من ذلك إلا ما يشاء، ولم

(١) فى ت، أ: «فله» وهو خطأ. (٢) فى ت، أ: «يهده». (٣) فى ت، أ: «خفف».

(٤) المسند (٣١٤/٢) وصحيح البخارى برقم (٣٤١٧).

(٥) فى أ: «ويعلموا ويتبينوا». (٦) فى أ: «ثمت».

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٩٨١) وصحيح مسلم برقم (١٥٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٨) فى ت، أ: «بنا».

(٩) ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى تخريج الكشاف (١٩١/٢) من طريق بشر بن عمار به، وإسناده ضعيف جدا.

(١٠) زيادة من أ.

يكن ليفعل، رواه ابن إسحاق بسنده عنه، وقاله ابن جرير أيضاً.

وقال غير واحد من السلف فى قوله: ﴿أَفَلَمْ يَبْسُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: أفلم يعلم الذين آمنوا. وقرأ^(١) آخرون: «أفلم يتبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً».

وقال أبو العالية: قد يش^(٢) الذين آمنوا أن يهدوا، ولو يشاء الله لهدى الناس جميعاً.

وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرْيَةً مِّن دَارِهِمْ﴾ أى: بسبب تكذيبهم، لا تزال القوارع تصيبهم فى الدنيا، أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقَرْيِ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧]، وقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾^(٣) أَنَا نَاتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤].

قال قتادة، عن الحسن: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرْيَةً مِّن دَارِهِمْ﴾ أى: القارعة. وهذا هو الظاهر من السياق.

قال أبو داود الطيالسى: حدثنا المسعودى، عن قتادة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ﴾^(٤) بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ قال: سرية، ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرْيَةً مِّن دَارِهِمْ﴾ قال: محمد ﷺ، ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ قال: فتح مكة^(٥).

وهكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبيرة، ومجاهد، فى رواية.

قال العوفى، عن ابن عباس: ﴿تُصِيبُهُمْ﴾^(٦) بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ قال: عذاب من السماء ينزل عليهم ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾^(٧) قَرْيَةً مِّن دَارِهِمْ يعنى: نزول رسول الله ﷺ بهم وقتاله إياهم.

وكذا قال مجاهد، وقاتة، وقال عكرمة فى رواية عنه، عن ابن عباس: ﴿قَارِعَةٌ﴾ أى: نكبة.

وكلهم قال: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ يعنى: فتح مكة. وقال الحسن البصرى: يوم القيامة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ أى: لا ينقض وعده لرسوله بالنصرة لهم ولأتباعهم فى الدنيا والآخرة، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٧].

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ

عِقَاب (٣٢)﴾.

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ فى تكذيب من كذبه من قومه: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أى: فلك فيهم أسوة، ﴿فَأَمَلْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: أنظرتهم وأجلتهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ﴾ أخذت رابية، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم؟ كما قال تعالى: ﴿وَكَايْنِ مِّن قَرْيَةٍ أَمَلْتِ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا

(١) فى ت: «وقرأها».

(٢) فى ت، أ: «أيس».

(٣) فى ت: «يصيبهم».

(٤) ومن طريق الطيالسى رواه الطبرى فى تفسيره (٤٥٦/١٦).

(٥) فى ت: «أو يحل».

(٦) فى ت: «يصيبهم».

وَالْيَ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ [الحج: ٤٨]، وفي الصحيحين: «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] ^(١).

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أى: حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفوسة، يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر، ولا يخفى عليه خافية، ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]، وقال: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَّنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]، وقال: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]. وقال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤] أفمن هو هكذا كالأصنام التى يعبدونها ^(٢)، لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، ولا تملك نفعاً لأنفسها ولا لعابديها، ولا كشف ضرر عنها ولا عن عابديها؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه، وهو قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أى: عبدوها معه، من أصنام وأنداد وأوثان.

﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أى: أعلمونا بهم، واكشفوا عنهم حتى يعرفوا، فإنهم لا حقيقة لهم؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: لا وجود له؛ لأنه لو كان له ^(٣) وجود فى الأرض لعلمها؛ لأنه لا تخفى عليه خافية.

﴿أَمْ بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾: قال مجاهد: بظن من القول.

وقال الضحاك وقتادة: بباطل من القول.

أى: إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر، وسميتموها آلهة، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ٢٣].

﴿بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ﴾: قال مجاهد: قولهم، أى: ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه

(١) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٦) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٣) من حديث أبى موسى، رضى الله عنه.

(٢) فى ت، أ: «عبدوها».

(٣) فى ت، أ: «لها».

آناء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥].

«وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ»: من قرأها بفتح الصاد، معناه: أنهم لما زين لهم ما فيه وأنه حق، دَعَوْا إليه وصدّوا الناس عن اتباع طريق الرسل. ومن قرأها ﴿وَصَدُّوا^(١)﴾ أى: بما زين لهم من صحة ما هم عليه، صدّوا به عن سبيل الله؛ ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾، كما قال: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١]، وقال: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧].

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٣٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥)﴾.

ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار: فقال بعد، إخباره عن حال^(٢) المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: بأيدى المؤمنين قتلا وأسرا، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ أى: المدخر [لهم]^(٣)، مع هذا الخزي فى الدنيا، ﴿أَشَقُّ﴾ أى: من هذا بكثير، كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة»^(٤). وهو كما قال، صلوات الله وسلامه عليه، فإن عذاب الدنيا له انقضاء، وذلك دائم أبداً فى نار هى بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفاً، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا . وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدًا﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا . إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا . وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا . لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا . قُلْ أَذَلَّكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ [الفرقان: ١١ - ١٥].

ولهذا قرن هذا بهذا؛ فقال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أى: صفتها ونعتها، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أى: سارحة فى أرجائها وجوانبها، وحيث شاء أهلها، يفجرونها تفجيراً، أى: يصرفونها كيف شاؤوا وأين شاؤوا، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

(١) فى ت: «فصدوا عن السبيل».

(٢) فى ت: «أحوال».

(٣) زيادة من ت، أ.

(٤) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٤٩٣) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما.

وقوله: ﴿أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أى: فيها المطاعم^(١) والفواكه والمشارب، لانقطاع [لها]^(٢) ولا فناء. وفي الصحيحين، من حديث ابن عباس فى صلاة الكسوف، وفيه قالوا: يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئا فى مقامك هذا، ثم رأيناك تكعكت فقال: «إنى رأيت الجنة - أو: أريت الجنة - فتناولت منها عنقودا، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا»^(٣).

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خيثمة، حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا عبيد الله، حدثنا أبو عقيل، عن جابر قال: بينما نحن فى صلاة الظهر، إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا، ثم تناول شيئا ليأخذه ثم تأخر. فلما قضى الصلاة قال له أبى بن كعب: يا رسول الله، صنعت اليوم فى الصلاة شيئا ما رأيناك كنت تصنعه. فقال: «إنى عرضت على الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة، فتناولت منها قطفاً من عنب لآتيكم به، فحيل بينى وبينه، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه»^(٤).

وروى مسلم من حديث أبى الزبير، عن جابر، شاهدا لبعضه^(٥).

وعن عتبة بن عبد السلمي: أن أعرابيا سأل النبى ﷺ عن الجنة، فقال: فيها عنب؟ قال: «نعم». قال: فما عظم العنقود؟ قال: «مسيرة شهر للغراب الأبقع»^(٦) ولا يفتر. رواه أحمد^(٧).

وقال الطبرانى: حدثنا معاذ بن المثنى، حدثنا على بن المدينى، حدثنا ربحان بن سعيد، عن عباد ابن منصور، عن أيوب، عن أبى قلابة، عن أبى أسماء، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى»^(٨).

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يأكل أهل الجنة ويشربون، ولا يمتخطون ولا يتغوطون ولا يبولون، طعامهم»^(٩) جُشاء كريح المسك، ويلهمون التسبيح والتقديس^(١٠) كما يلهمون النفس. رواه مسلم^(١١).

وروى الإمام أحمد والنسائى، من حديث الأعمش، عن ثمامة^(١٢) بن عتبة^(١٣)، سمعت زيد بن أرقم قال: جاء رجل من أهل الكتاب فقال: يا أبا القاسم، تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال:

(١) فى ت، أ: «الطعام».

(٣) صحيح البخارى برقم (٧٤٨) وصحيح مسلم برقم (٩٠٧).

(٤) ورواه أحمد فى المسند (٣٥٢/٣) من طريق عبيد الله وحسين بن محمد، عن عبيد الله به نحوه.

(٥) صحيح مسلم برقم (٩٠٤).

(٦) فى أ: «لا يقع».

(٧) المسند (١٨٤/٤).

(٨) المعجم الكبير (١٠٢/٢) وعباد بن منصور متكلم فيه.

(٩) فى ت، أ: «طعامهم ذلك».

(١١) صحيح مسلم برقم (٢٨٣٥). (١٢) فى هـ، ت، أ: «تمام» والتصويب من المسند. (١٣) فى ت: «عتبة بن منبه».

«نعم، والذي نفس محمد بيده، [إن الرجل من أهل الجنة]^(١) ليعطى قوة مائة رجل فى الأكل والشرب والجماع والشهوة». قال: فإن الذى يأكل ويشرب تكون له الحاجة، وليس فى الجنة أذى؟ قال: «حاجة أحدهم رشح يفيض من جلودهم، كريح المسك، فيضمر بطنه»^(٢).

وقال الحسن بن عرفة: حدثنا خلف بن خليفة، عن حميد الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، قال: قال لى رسول الله ﷺ: «إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة، فيخر بين يديك مشويا»^(٣)»^(٤).

وجاء فى بعض الأحاديث: أنه إذا فرغ منه عاد طائراً كما كان يأذن الله تعالى.

وقد قال تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ. لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣]، وقال: ﴿وَدَانِيَةٍ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤].

وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

وقد تقدم فى الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة شجرة، يسير الراكب المجد الجواد المضمر السريع فى ظلها مائة عام لا يقطعها»، ثم قرأ: ﴿وَزَلَّ مَمْدُودٌ﴾ [الواقعة: ٣٠].

وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار، ليرغب فى الجنة ويحذر من النار؛ ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر، قال بعده: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

وقال بلال بن سعد خطيب دمشق فى بعض خطبه: عباد الله^(٥)، هل جاءكم مخبر يخبركم أن شيئاً من عبادتكم^(٦) تُقْبَلُ منكم، أو أن شيئاً من خطاياكم غفرت لكم؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، والله لو عَجَّلَ لكم الثواب فى الدنيا لاستقللتم كلكم ما افترض عليكم، أو ترغبون^(٨) فى طاعة الله لتعجيل دنياكم، ولا تنافسون فى جنة ﴿أَكُلْهَا دَائِمًا وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾. رواه ابن أبى حاتم.

(١) زيادة من ت، أ، والمسنَد.

(٢) المسنَد (٣٦٧/٤).

(٣) فى ت: «مستويا».

(٤) جزء الحسن بن عرفة برقم (٢٢) وحميد الأعرج ضعيف وأورد الذهبى هذا الحديث فى الميزان (٦١٤/١) من جملة مناكيره.

(٥) فى ت، أ: «أعمالكم».

(٦) فى أ: «الرحمن».

(٨) فى ت، أ: «أترغبون».

(٧) فى ت: «أم حسبتم» وهو خطأ.

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَثَابِ (٣٦) وَكَذَلِكَ أُنْزِلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهم قائلون بمقتضاه ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أى: من القرآن لما فى كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١]. وقال تعالى: ﴿قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] أى: إن كان ما وعدنا الله به فى كتبنا من إرسال محمد ﷺ لحقا وصدقا مفعولا لا محالة، وكائننا، فسبحانه ما أصدق وعده، فله الحمد وحده، ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ بِيَدِهِمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ أى: ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل إليك.

وقال مجاهد: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ﴾: اليهود والنصارى، من ينكر بعض ما جاءك من الحق. وكذا قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ أى: إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له، كما أرسل الأنبياء من قبلى، ﴿إِلَيْهِ أَدْعُو﴾ أى: إلى سبيله أَدْعُو الناس، ﴿وَإِلَيْهِ مَثَابِ﴾ أى: مرجعى ومصيرى.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أُنْزِلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أى: وكما أرسلنا قبلك المرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكما معربا، شرفناك به وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلى الذى ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ١١].

وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أى: أراءهم، ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أى: من الله تعالى ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ أى: من الله تعالى. وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا^(١) سبل أهل الضلالة بعد ما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية، على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام

(١) فى ت: «يتبعوا».

[والتحية والإكرام]^(١).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (٣٨) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩).

يقول تعالى: وكما أرسلناك، يا محمد، رسولاً بشرياً^(٢) كذلك [قد]^(٣) بعثنا المرسلين قبلك بشراً يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية، وقد قال [الله]^(٤) تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

وفى الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأكل الدسم»^(٥) وأنزج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أنبأنا الحجاج بن أرطاة عن مكحول قال: قال أبو أيوب: قال رسول الله ﷺ: «أربع من سنن المرسلين: التعطر، والنكاح، والسواك، والحناء»^(٧).

وقد رواه أبو عيسى الترمذى، عن سفيان بن وكيع عن حفص بن غياث، عن الحجاج، عن مكحول، عن أبي الشمال^(٨)، عن أبي أيوب... فذكره، ثم قال: وهذا أصح من الحديث الذى لم يذكر فيه أبو الشمال^(٩) (١٠).

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى: لم يكن يأتى قومه بخارق إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه، بل إلى الله، عز وجل، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أى: لكل مدة مضروبة كتاب مكتوب بها، وكل شىء عنده بمقدار، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ﴾^(١١) وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ [الحج: ٧٠].

وكان الضحاك بن مزاحم يقول فى قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أى: لكل كتاب أجل يعنى^(١٢) لكل كتاب أنزله من السماء مدة مضروبة عند الله ومقدار معين، فلهذا يَمْحُو^(١٣) ما يشاء منها ويثبت، يعنى حتى نسخت كلها بالقرآن الذى أنزله الله على رسوله، صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾: اختلف المفسرون فى ذلك، فقال الثورى، ووكيع، وهشيم

(١) زيادة من أ.

(٢) فى أ: «بشراً».

(٣) (٤، ٣) زيادة من ت، أ.

(٥) فى ت، أ: «اللحم».

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٠٦٣) وصحيح مسلم برقم (١٤٠١) وليس فيهما: «وأكل الدسم».

(٧) المسند (٤٢١/٥).

(٨) فى أ: «أبى السماك».

(٩) فى أ: «أبى السماك».

(١٠) سنن الترمذى برقم (١٠٨٠).

(١١) فى ت: «بمعى».

(١٢) فى ت، أ: «بمعنى».

(١٣) فى ت، أ: «السماك» وهو خطأ.

وهُسَيْمٌ، عن ابن أبي ليلى، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: يدبر أمر السنة، فيمحو ما يشاء، إلا الشقاء والسعادة، والحياة والموت. وفي رواية: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾، قال: كل شيء إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة فإنهما قد فرغ منهما.

وقال مجاهد: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة، فإنهما لا يتغيران.

وقال منصور: سألت مجاهداً فقلت: رأيت دعاء أحدنا يقول: اللهم، إن كان اسمي في السعداء فأثبتته فيهم، وإن كان في الأشقياء فامحه عنهم واجعله في السعداء. فقال: حسن. ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر، فسألته عن ذلك، فقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ. فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان ٣، ٤]، قال: يقضى في ليلة القدر ما يكن في السنة من رزق أو مصيبة، ثم يقدم ما^(١) يشاء ويؤخر ما^(٢) يشاء، فأما كتاب الشقاوة^(٣) والسعادة فهو ثابت لا يغير^(٤).

وقال الأعمش، عن أبي وائل شقيق بن سلمة: إنه كان يكثر أن يدعو بهذا الدعاء: اللهم، إن كنت كتبنا أشقياء فامحه، واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب. رواه ابن جرير^(٥).

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي، عن أبي حكيمة^(٦) عَصَمَةَ، عن أبي عثمان النهدي: أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال وهو يطوف بالبيت وهو يبكي: اللهم، إن كنت كتبت على شقوة أو ذنباً فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة^(٧).

وقال حماد عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة عن ابن مسعود أنه كان يدعو بهذا الدعاء أيضاً.

ورواه شريك، عن هلال بن حميد، عن عبد الله بن عكيم، عن ابن مسعود، بمثله.

وقال ابن جرير: حدثني المثني، حدثنا حجاج، حدثنا خصاف، عن أبي حمزة، عن إبراهيم؛ أن كعباً قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، لولا آية في كتاب الله لأنباتك بما هو كائن إلى يوم القيامة. قال: وما هي؟ قال: قال الله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٨).

ومعنى هذه الأقوال: أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها، ويثبت منها ما يشاء، وقد يستأنس لهذا القول^(٩) بما رواه الإمام أحمد:

(٣) في ت: «الشقاء».

(١)، (٢) في ت: «من».

(٤) رواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٤٨٠).

(٥) رواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٤٨١).

(٦) في أ: «أبي حكيم».

(٧) تفسير الطبري (١٦/ ٤٨١).

(٨) تفسير الطبري (١٦/ ٤٨٤).

(٩) في أ: «الأقوال».

حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، وهو الثوري، عن عبد الله بن عيسى، عن عبد الله بن أبي الجعد، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يُصِيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر».

ورواه النسائي وابن ماجه، من حديث سفيان الثوري، به ^(١).

وثبت في الصحيح أن صلة الرحم تزيد في العمر ^(٢)، وفي الحديث الآخر: «إن الدعاء والقضاء ليعتلجان» ^(٣) بين السماء والأرض ^(٤).

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن سهل بن عسكر، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: إن لله لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام، من درة بيضاء لها دفتان من ياقوت - والدفتان: لوحان - لله، عز وجل [كل يوم ثلاثمائة] ^(٥) وستون لحظة، يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ^(٦).

وقال الليث بن سعد، عن زيادة بن محمد، عن محمد بن كعب القرظي، عن فضالة بن عبيد، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «[إن الله] ^(٧) يفتح الذكر في ثلاث ساعات يبقين من الليل، في الساعة الأولى منها ينظر في الذكر الذي لا ينظر فيه أحد غيره، فيمحو ما يشاء ويثبت».

وذكر تمام الحديث. رواه ابن جرير ^(٨).

وقال الكلبي: «يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ» قال: يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه. ف قيل له: من حدثك بهذا؟ فقال: أبو صالح، عن جابر بن عبد الله بن رثاب، عن النبي ﷺ. ثم سئل بعد ذلك عن هذه الآية فقال: يكتب القول كله، حتى إذا كان يوم الخميس، طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب، مثل قولك: أكلت وشربت، دخلت وخرجت ونحوه من الكلام، وهو صادق، ويثبت ما كان فيه الثواب، وعليه العقاب ^(٩).

وقال عكرمة، عن ابن عباس: الكتاب كتابان: فكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب.

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: «يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» يقول: هو

(١) المسند (٢٢٧/٥) وسنن ابن ماجه برقم (٩٠).

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٥٥٧) من حديث أنس ولفظه: «من سره أن ييسط عليه رزقه، أو ينسأ في أثره، فليصل رحمه».

(٣) في ت، أ: «ليعتلجان».

(٤) لم أعثر عليه بهذا اللفظ.

(٥) زيادة من تفسير الطبري، ومكانه في ه، ت، أ: «ثلاث».

(٦) تفسير الطبري (٤٨٩/١٦).

(٧) زيادة من ت، أ، والطبري.

(٨) تفسير الطبري (٤٨٨/١٦).

(٩) رواه الطبري في تفسيره (٤٨٤/١٦).

الرجل يعمل الزمان بطاعة الله، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة، فهو الذى يحو - والذى يثبت: الرجل يعمل بمعصية الله، وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو فى طاعة الله، فهو الذى يثبت.

وروى عن سعيد بن جبيرة: أنها بمعنى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَمَحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾، يقول: يبدل ما يشاء فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله، ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يقول: وجملة ذلك عنده فى أم الكتاب، الناسخ، والمنسوخ، وما يبدل، وما يثبت كل ذلك فى كتاب.

وقال قتادة فى قوله: ﴿يَمَحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾: كقوله: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِئُهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

وقال ابن أبى نجيج، عن مجاهد فى قوله: ﴿يَمَحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ قال: قالت كفار قريش حين أنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: ما نراك يا محمد تملك من شيء، ولقد فرغ من الأمر. فأنزلت هذه الآية تخويفا، ووعيداً لهم: إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا، ونحدث فى كل رمضان، فنمحو ونثبت^(١) ما نشاء من أرزاق الناس ومصائبهم، وما نعطيهم، وما نقسم لهم.

وقال الحسن البصرى: ﴿يَمَحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ قال: من جاء أجله، فذَهَبَ، ويثبت الذى هو حىَّ يجرى إلى أجله.

وقد اختار هذا القول أبو جعفر بن جرير، رحمه الله.

وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال: الحلال والحرام.

وقال قتادة: أى جملة الكتاب وأصله.

وقال الضحاك: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال: كتاب عند رب العالمين.

وقال سنيّد بن داود، حدثنى معتمر، عن أبيه، عن سيّار، عن ابن عباس؛ أنه سأل كعباً عن «أم الكتاب»، فقال: عِلْمُ اللَّهِ، ما هو خالقي، وما خَلَقَهُ عاملون، ثم قال^(٢) لعلمه: «كن كتاباً». فكانا^(٣) كتاباً.

وقال ابن جرير، عن ابن عباس: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال: الذكر، [والله أعلم]^(٤).

(١) فى ت، أ: «فيمحو ويثبت».

(٢) فى ت، أ: «فقال».

(٤) زيادة من أ.

(٣) فى ت، أ: «فكان».

﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوْفِّئَكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (٤٠)
 أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ
 الْحِسَابِ (٤١) .

يقول تعالى لرسوله: ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمد ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أى: نعد أعداءك من
 الخزي^(١) والنكال فى الدنيا، ﴿أَوْ نَتَوْفِّئَكَ﴾ [أى]^(٢): قبل ذلك، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ أى: إنما
 أرسلناك لتبلغهم رسالة الله وقد بلغت^(٣) ما أمرت به، ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ أى: حسابهم وجزاؤهم،
 كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ. إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ. فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ
 الْأَكْبَرَ. إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢١ - ٢٦].

وقوله: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾؟ قال ابن عباس: أو لم يروا أنا نفتح
 لمحمد الأرض بعد الأرض؟

وقال فى رواية: أو لم يروا إلى القرية تخرب، حتى يكون العمران فى ناحية؟

وقال مجاهد وعكرمة: ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال: خرابها.

وقال الحسن والضحاك: هو ظهور المسلمين على المشركين.

وقال العوفي عن ابن عباس: نقصان أهلها وبركتها.

وقال مجاهد: نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض.

وقال الشعبي: لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حُشْكُ، ولكن تنقص الأنفس والثمرات.

وكذا قال عكرمة: لو كانت الأرض تنقص لم تجد مكانا تقعد فيه، ولكن هو الموت.

وقال ابن عباس فى رواية: خرابها بموت فقهاءها وعلمائها وأهل الخير منها. وكذا قال مجاهد

أيضاً: هو موت العلماء.

وفى هذا المعنى روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أحمد بن عبد العزيز أبى القاسم المصرى

الواعظ^(٤)، سكن أصبهان، حدثنا أبو محمد طلحة بن أسد المرئى بدمشق، أنشدنا أبو بكر الأجرى

بمكة قال: أنشدنا أحمد بن غزال لنفسه:

الأرض تحياً إذا ما عاش عالمها متى يموت عالم منها يموت طرفُ
 كالأرض تحياً إذا ما الغيث حل بها وإن أبى عاد فى أكنافها التلّفُ

(١) فى ت: «الجزن». (٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت، أ: «فعلت».

(٤) لم أعر على ترجمته فى المخطوط من تاريخ دمشق ولا فى المختصر لابن منظور.

والقول الأول أولى، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية، [وكَفَرًا بعد كَفَرٍ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى﴾ الآية [الأحقاف: ٢٧]، وهذا اختيار ابن جرير، رحمه الله^(١).

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقِبِيَ الدَّارِ (٤٢)﴾.

يقول: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ برسلهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، فمكر الله بهم، وجعل العاقبة للمتقين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَكُرُوا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ. فَتِلْكَ يَبُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ الآية [النمل: ٥٠ - ٥٢].

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أى: إنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر، وسيجزى كل عامل بعمله.

﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ﴾ وقرئ: ﴿الْكُفَّارُ﴾ ﴿لِمَنْ عُقِبِيَ الدَّارِ﴾ أى: لمن تكون الدائرة والعاقبة، لهم أو لاتباع الرسل؟ كلا، بل هى لاتباع الرسل فى الدنيا والآخرة، والله الحمد والمنة.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)﴾.

يقول: ويكذبك هؤلاء الكفار ويقولون: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ أى: ما أرسلك الله، ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أى: حسى الله، وهو الشاهد على وعليكم، شاهد على فيما بلغت عنه من الرسالة، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان.

وقوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾: قيل: نزلت فى عبد الله بن سلام. قاله مجاهد.

وهذا القول غريب؛ لأن هذه الآية مكية، وعبد الله بن سلام إنما أسلم فى أول مقدم رسول الله ﷺ المدينة. والأظهر فى هذا ما قاله العوفى، عن ابن عباس قال: هم من^(٢) اليهود والنصارى.

وقال قتادة: منهم ابن سلام، وسلمان، وتميم الدارى.

وقال مجاهد - فى رواية - عنه: هو الله تعالى.

(٢) فى ت: «فى».

(١) زيادة من ت، أ.

وكان سعيد بن جبير ينكر أن يكون المراد بها عبد الله بن سلام، ويقول: هي مكية، وكان يقرؤها: «ومن عنده عِلْمُ الكتاب»، ويقول: من عند الله.

وكذا قرأها مجاهد والحسن البصري.

وقد روى ابن جرير من حديث، هارون الأعور، عن الزهري، عن سالم، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قرأها: «ومن عنده عِلْمُ الكتاب»، ثم قال: لا أصل له من حديث الزهري عند الثقات^(١).

قلت: وقد رواه الحافظ أبو يعلى فى مسنده، من طريق هارون بن موسى هذا، عن سليمان بن أرقم - وهو ضعيف - عن الزهري، عن سالم، عن أبيه مرفوعاً كذلك. ولا يثبت^(٢)، والله أعلم.

والصحيح فى هذا: أن ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته فى كتبهم المتقدمة، من بشارات الأنبياء به، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الآية [الشعراء: ١٩٧]. وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بنى إسرائيل: أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة. وقد ورد فى حديث الأخبار، عن عبد الله بن سلام بأنه أسلم بمكة قبل الهجرة، قال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني فى كتاب «دلائل النبوة»، وهو كتاب جليل:

حدثنا سليمان بن أحمد الطبراني، حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا محمد بن مَصْفَى، حدثنا الوليد بن مسلم، عن محمد بن حمزة بن يوسف، بن عبد الله بن سلام، عن أبيه، أن عبد الله بن سلام قال لأخبار اليهود: إنى أردت أن أجدد^(٣) بمسجد أبينا إبراهيم وإسماعيل عهداً^(٤). فانطلق إلى رسول الله ﷺ وهو بمكة، فوافاهم وقد انصرفوا من الحج، فوجد رسول الله، بمنى، والناس حوله، فقام مع الناس، فلما نظر إليه رسول الله ﷺ قال: «أنت عبد الله بن سلام؟» قال: قلت: نعم. قال: «ادن». فدنوت منه، قال: «أنشدك بالله يا عبد الله بن سلام، أما تجدنى فى التوراة رسول الله؟» فقلت له: انعت ربنا. قال: فجاء جبريل حتى وقف بين يدي رسول الله ﷺ فقال له: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص]، فقرأها علينا رسول الله ﷺ فقال ابن سلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله. ثم انصرف ابن سلام إلى المدينة فكتبت إسلامه. فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وأنا فوق نخلة لى أجدها، فألقيت نفسى، فقالت

(١) تفسير الطبرى (١٦/٥٠٦).

(٢) مسند أبى يعلى (٩/٤٢٤) وقد وقع فيه: «عبد الرحيم بن موسى» بدلاً من «هارون بن موسى».

(٣) فى هـ، ت، أ: «أحدث» والمثبت من دلائل النبوة. (٤) فى هـ، ت، أ. «عيداً» والمثبت من دلائل النبوة.

أمى: [لله]^(١) أنت، لو كان موسى بن عمران ما كان لك أن تلقى نفسك من رأس النخلة. فقلت: والله لأنى أسر بقدوم رسول الله ﷺ من موسى بن عمران إذ بُعث^(٢).
وهذا حديث غريب جداً.

(١) زيادة من ت، أ، والدلائل.
(٢) دلائل النبوة (١/١٢٥) وهو فى المعجم الكبير برقم (٣٧٢) «القطعة المفقودة» وأعله الهشامى بالانقطاع.

تفسير سورة إبراهيم، عليه السلام

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣)﴾.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور.

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ أى: هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن العظيم، الذى هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله فى الأرض، إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم^(١).

﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أى: إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب؛ لتخرج الناس عما هم فيه من الضلال والغبى إلى الهدى والرشد، كما قال: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الحديد: ٩].

وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أى: هو الهادى لمن قدر له الهداية على يدى رسوله المبعوث عن أمره يهديهم ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ﴾ أى: العزيز الذى لا يمانع ولا يُغَالِب، بل هو القاهر لكل ما سواه، ﴿الْحَمِيدِ﴾ أى: المحمود فى جميع أفعاله وأقواله، وشرعه وأمره ونهيه، الصادق فى خبره.

وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: قرأه بعضهم مستأنفاً مرفوعاً، وقرأه آخرون على الإتياع صفة للجلالة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أى: ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك يا محمد

(١) فى ت، أ: «عربهم وعجمهم».

ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، أى: يقدمونها ويؤثرونها عليها، ويعملون للدنيا ونسوا الآخرة، وتركوها وراء ظهورهم، ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهى اتباع الرسل، ﴿وَيَغُفُّونَهَا عَوْجًا﴾ أى: ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة عائلة^(١)، وهى مستقيمة فى نفسها، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها، فهم^(٢) فى ابتغائهم ذلك فى جهل وضلال بعيد من الحق، لا يرجى لهم - والحالة هذه - صلاح.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٤).

هذا من لطفه تعالى بخلقه: أنه يرسل إليهم رسلاً^(٣) منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا وكيع، عن عمر^(٤) بن ذر قال: قال مجاهد: عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يبعث الله، عز وجل، نبياً إلا بلغه قومه»^(٥).

وقوله: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أى: بعد البيان وإقامة الحجة عليهم يضل تعالى من يشاء عن وجه الهدى، ويهذى من يشاء إلى الحق، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى أفعاله، فيضل من يستحق الإضلال، ويهذى من هو أهل لذلك.

وقد كانت هذه سنة الله فى خلقه: أنه ما بعث نبياً فى أمة إلا أن يكون بلغتهم، فاختص كل نبى بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختص محمد بن عبد الله رسول الله بعموم الرسالة إلى سائر الناس، كما ثبت فى الصحيحين عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يَبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً»^(٦).

وله شواهد من وجوه كثيرة، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

(٢) فى ت: «فهم».

(٤) فى أ: «عمرو».

(١) عائلة: أى جائرة.

(٣) فى أ: «رسولاً».

(٥) المسند (١٥٨/٥) ومجاهد لم يسمع من أبى ذر.

(٦) صحيح البخارى برقم (٣٣٥) وصحيح مسلم برقم (٥٢١).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٥).

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب، لتخرج الناس كلهم، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى في بنى إسرائيل بآياتنا.

قال مجاهد: وهى التسع الآيات.

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ أى: أمرناه قائلين له: ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أى: ادعهم إلى الخير، ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان.

﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ أى: بأياديه ونعمه عليهم، فى إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه، وإنجائه إياهم من عدوهم، وفلقه لهم البحر، وتظليله إياهم بالغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من النعم. قال ذلك مجاهد، وقتادة، وغير واحد.

وقد ورد فيه الحديث المرفوع الذى رواه عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل فى مسند أبيه حيث^(١) قال: حدثنى يحيى بن عبد الله مولى بنى هاشم، حدثنا محمد بن أبان الجعفى، عن أبى إسحاق، عن سعيد بن جبير [عن ابن عباس، عن أبى بن كعب، عن النبى ﷺ فى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾، قال: «نعم الله تبارك وتعالى»^(٢).

[ورواه ابن جرير]^(٣)، وابن أبى حاتم، من حديث محمد بن أبان، به^(٤). ورواه عبد الله ابنه^(٥) أيضا موقوفا^(٦)، وهو أشبه.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أى: إن فيما صنعنا بأوليائنا بنى إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهيّن، لعبرة لكل صَبَّار، أى: فى الضراء، شكور، أى: فى السراء، كما قال قتادة: نعم العبد، عبد إذا ابتلى صَبَّرَ، وإذا أعطى شكر. وكذا جاء فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ عَجَبٌ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قِضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(٧).

(١) فى هـ: «فى مسنده حديث قال» والمثبت من ت، أ. (٢) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٣) فى هـ: «فى مسنده حديث قال» والمثبت من ت، أ.

(٤) زوائد المسند (١٢٢/٥) وتفسير الطبرى (٥٢٢/١٦).

(٥) فى ت: «بن أحمد».

(٦) زوائد المسند (١٢٢/٥).

(٧) صحيح مسلم برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رضى الله عنه.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدَّبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (٦)
وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) .

يقول تعالى مخبراً عن موسى، حين ذكّر قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال، حين^(١) كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم، ويتركون إناثهم فأنقذ الله بنى إسرائيل من ذلك، وهذه نعمة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أى: نعمة عظيمة منه عليكم فى ذلك، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها.

وقيل: وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل ﴿بَلَاءٌ﴾ أى: اختبار عظيم. ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا، والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أى: آذنتكم وأعلمكم بوعده لكم. ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه كما قال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ [مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ]﴾ (٢) [الأعراف: ١٦٧].

وقوله (٣): ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أى: لئن شكرتم نعمتى^(٥) عليكم لأزيدنكم منها، ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ﴾ أى: كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها، ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إياهم على كفرها.

وقد جاء فى الحديث: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه»^(٦).

وفى المسند: أن رسول الله ﷺ مرَّ به سائل فأعطاه ثمرة، فَتَسَخَّطَهَا ولم يقبلها، ثم مر به آخر فأعطاه إياها، فقبلها وقال: ثمرة من رسول الله ﷺ، فأمر له بأربعين درهما، أو كما قال.

قال الإمام أحمد: حدثنا أسود، حدثنا عمارة الصَّيدلانى، عن ثابت، عن أنس قال: أتى النبى ﷺ سائل فأمر له بثمره فلم يأخذها - أو: وحشَّ بها - قال: وأتاه آخر فأمر له بثمره، فقال: سبحان الله! ثمرة من رسول الله ﷺ. فقال للجارية: «أذهبى إلى أم سلمة، فأعطيه الأربعين درهما التى

(٣) فى ت، أ: «وقال هاهنا».

(٢) زيادة من ت، أ.

(١) فى ت، أ: «حيث».

(٥) فى ت: «نعمه الله».

(٤) فى ت، أ: «وإذ تأذن ربكم لئن».

(٦) رواه أحمد فى المسند (٨٠/٥) وابن ماجه فى السنن برقم (٩٠) من حديث ثوبان رضى الله عنه، وحسنه العراقى كما فى الزوائد للبوصيرى (٦١/١).

عندها.

تفرد به الإمام أحمد^(١).

وعماره بن زاذان وثقه ابن حبان، وأحمد، ويعقوب بن سفيان^(٢). وقال ابن معين: صالح. وقال أبو زرعة: لا بأس به. وقال أبو حاتم: يكتب حديث ولا يحتج به، ليس بالمتين. وقال البخاري: ربما يضطرب في حديثه. وعن أحمد أيضا أنه قال: روى عنه أحاديث منكرة. وقال أبو داود: ليس بذلك. وضعفه الدارقطني، وقال ابن عدي: لا بأس به ممن يكتب حديثه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: هو غني عن شكر عباده، وهو الحميد المحمود، وإن كفره من كفره، كما قال: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُم وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَأَسْتَغْنِي اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

وفى صحيح مسلم، عن أبي ذر، عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه، عز وجل، أنه قال: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئا. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك في^(٣) ملكي شيئا. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئا، إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل في البحر». فسبحانه وتعالى الغني الحميد^(٤).

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (٩).

قال ابن جرير: هذا من تمام قيل^(٥) موسى لقومه^(٦).

يعنى: وتذكاره إياهم بأيام الله، بانتقامه من الأمم المكذبة للرسل.

وفيما قال^(٧) ابن جرير نظر؛ والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة، فإنه قد قيل:

(١) المسند (٣/١٥٤).

(٢) فى ت: «أحمد ويعقوب بن سفيان وابن حبان».

(٣) فى ت، أ: «من».

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧).

(٥) فى أ: «قول».

(٦) تفسير الطبرى (١٦/٥٢٩).

(٧) فى ت، أ: «قاله».

إن قصة عاد وثمود ليست فى التوراة، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه وقصه عليهم ذلك فلا شك^(١) أن تكون هاتان القصتان فى «التوراة»، والله أعلم. وبالجملة فالله تعالى قد قص علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسول، مما لا يحصى عددهم^(٢) إلا الله عز وجل أتتهم رسلهم بالبينات، أى: بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات.

وقال ابن^(٣) إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله أنه قال فى قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾: كذب النسابون.

وقال عروة بن الزبير: ما وجدنا أحدا يعرف ما بعد معد بن عدنان.

وقوله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾: اختلف المفسرون فى معناه، فقليل: معناه: أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمرونهم^(٤) بالسكوت عنهم، لما دعوهم إلى الله، عز وجل.

وقيل: بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم.

وقيل: بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل.

وقال مجاهد، ومحمد بن كعب، وقتادة: معناه: أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم.

قال ابن جرير: وتوجيهه^(٥) أن «فى» هاهنا بمعنى «الباء»، قال: وقد سمع من العرب: «أدخلك الله بالجنة» يعنون: فى الجنة، وقال الشاعر:

وَأَرْغَبُ فِيهَا عَنْ لَقِيطٍ وَرَهْطِهِ عَنْ سِنْبِسٍ لَسْتُ أَرْغَبُ

يريد: أرغب بها^(٦).

قلت: ويؤيد قول مجاهد تفسير ذلك بتمام الكلام: ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، فكأن هذا [والله أعلم]^(٧) تفسير لمعنى «رد أيديهم فى أفواههم».

وقال سفيان الثورى، وإسرائيل، عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص، عن عبد الله فى قوله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ قال: عضوا عليها غيظاً.

وقال شعبة، عن أبى إسحاق، عن هُبَيْرَةَ ابن مريم، عن عبد الله أنه قال ذلك أيضاً.

وقد اختاره عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ووجهه ابن جرير مختاراً له، بقوله تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

وقال العوفى، عن ابن عباس: لما سمعوا كتاب^(٨) الله عجبوا، ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم.

(٣) فى ت: «أبو».

(٢) فى ت، أ: «عدده».

(١) فى ت، أ: «لاوشك».

(٥) فى ت: «ويوجهه».

(٤) فى ت: «يأمرهم».

(٦) تفسير الطبرى (١٦/ ٥٣٤).

(٨) فى ت: «كلام».

(٧) زيادة من ت، أ.

وقالوا: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به؛ فإن عندنا فيه شكاً قوياً.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠)﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)﴾.

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أهمهم لما واجهوهم بالشك فيما جاؤوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ؟﴾

وهذا يحتمل شيئين، أحدهما: أفى وجوده شك، فإن الفطر شاهدة بوجوده، ومجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضرورى فى الفطر السليمة، ولكن قد يعرض ^(١) لبعضها شك واضطراب، فتحتاج إلى النظر فى الدليل الموصول إلى وجوده؛ ولهذا قالت لهم الرسل ترشدكم إلى طريق معرفته بأنه ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الذى خلقها وابتدعها على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث ^(٢) والخلق والتسخير ظاهر عليها، فلا بد لها من صانع، وهو الله لا إله إلا هو، خالق كل شئ وإلهه ومليكه.

والمعنى الثانى فى قولهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ؟﴾ أى: أفى إلهيته وتفرد به بوجوب العبادة له شك، وهو الخالق لجميع الموجودات، ولا ^(٣) يستحق العبادة إلا هو، وحده لا شريك له؛ فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد ^(٤) معه غيره من الوسائط التى يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى.

وقالت لهم الرسل: ندعوكم ^(٥) ليغفر لكم من ذنوبكم، أى: فى الدار الآخرة، ﴿وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: فى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ الآية [هود: ٣]، فقالت لهم الأمم محاجين فى مقام الرسالة، بعد تقدير تسليمهم للمقام الأول، وحاصل ما قالوه: ﴿إِن أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أى: كيف نتبعكم بمجرد قولكم، ولما نر منكم معجزة؟ ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أى: خارق نقترحه عليكم.

(١) فى ت: «تعرض».

(٢) فى ت، أ: «الحدث».

(٣) فى ت، أ: «فلا».

(٤) فى ت، أ: «يعبد».

(٥) فى هـ: «وقالت لهم رسلهم: الرسل يدعوكم»، والمثبت من ت، أ.

قالت لهم رسلهم: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أى: صحيح أنا بشر مثلكم فى البشرية ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أى: بالرسالة والنبوة ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ﴾ على وفق ما سألتم ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى: بعد سؤالنا إياه، وإذنه لنا فى ذلك، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: فى جميع أمورهم.

ثم قالت الرسل: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ أى: وما يمنعنا من التوكل عليه، وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها، ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ أى: من الكلام السيئ، والأفعال السخيفة، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧)﴾.

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم، من الإخراج من أرضهم، والنفى من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، وقال قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، وقال تعالى إخباراً عن مشركى قريش: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وكان ^(١) من صنعه تعالى: أنه أظهر رسوله ونصره، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصاراً وأعواناً وجندا، يقاتلون فى سبيل الله، ولم يزل يرقه [الله] ^(٢) تعالى من شىء إلى شىء، حتى فتح له مكة التى أخرجته، ومكَّن له فيها، وأرغم أناف أعدائه منهم، و[من] ^(٣) سائر [أهل] ^(٤) الأرض، حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان، فى مشارق الأرض ومغاربها فى أيسر زمان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ. وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.

(١) فى ت، أ: «فكان».

(٢-٤) زيادة من ت، أ.

(٥) فى ت: «لقى» وهو خطأ.

[الأنبياء: ١٠٥]، ﴿وَقَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أى: وعيدى^(١) هذا لمن خاف مقامى بين يدي يوم القيامة، وخشى من وعيدى، وهو تخويفى وعذابى، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ . وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ . وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ - ٤١]، وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقوله: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ أى: استنصرت الرسل ربها على قومها. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: استفتحت الأمم على أنفسها، كما قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

ويحتمل أن يكون هذا مراداً وهذا مراداً، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله واستنصر، وقال الله تعالى للمشركون: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ١٩]، والله أعلم.

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أى: متجبر فى نفسه معاند للحق، كما قال تعالى: ﴿أَلْقِيََا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ . مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق: ٢٤ - ٢٦]. وفى الحديث: «إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة، فتنادى الخلائق فتقول: إني وكُلت بكل جبار عنيد» الحديث^(٢).

خاب وخسر حين اجتهد الأنبياء فى الابتهاال إلى ربها العزيز المقتدر.

وقوله: ﴿مَنْ وَرَاءَهُ جَهَنَّمُ﴾: و«وراء» هاهنا بمعنى «أمام»، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، وكان ابن عباس يقرؤها «وكان أمامهم ملك».

أى: من وراء الجبار العنيد جهنم، أى: هى له بالمرصاد، يسكنها مخلدا يوم المعاد، ويعرض عليها غدواً وعشيا إلى يوم التناد.

(١) فى ت: «وعدى».

(٢) رواه أحمد فى المسند (٣/ ٤٠) من حديث أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٥٧٤) من طريق الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، وقال الترمذى: «حديث حسن غريب صحيح».

﴿وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ أى: فى النار ليس له شراب إلا من حميم أو غساق، فهذا ^(١) فى غاية الحرارة، وهذا فى غاية البرد والتن، كما قال: ﴿هَذَا فَلْيَذُقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَاقٌ. وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص: ٥٧، ٥٨].

قال مجاهد، وعكرمة: الصديد: من القيح والدم.

وقال قتادة: هو ما يسيل من لحمه وجلده. وفى رواية عنه: الصديد: ما يخرج من جوف الكافر، قد خالط القيح والدم.

وفى حديث شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: قلت: يا رسول الله، ما طينة الخبال؟ قال: «صديد أهل النار» ^(٢) وفى رواية: «عصارة أهل النار» ^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا على بن إسحاق، أنبأنا عبد الله، أنا صفوان بن عمرو، عن عبيد الله بن بَرٍّ، عن أبى أمامة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ. يَتَجَرَّعُهُ﴾، قال: «يُقَرَّبُ إليه فيتكرهه، فإذا أدنى منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره. يقول الله تعالى ^(٤): ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، ويقول: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾» ^(٥) [الكهف: ٢٩].

وهكذا رواه ابن جرير، من حديث عبد الله بن المبارك، به ^(٦). ورواه هو وابن أبى حاتم: من حديث بَقِيَّةِ ابن الوليد، عن صفوان بن عمرو، به ^(٧).

وقوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ أى: يتغصصه ويتكرهه، أى: يشربه قهرا وقسرا، لا يضعه فى فيه ^(٨) حتى يضره الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ٢١].

﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ أى: يزدرده لسوء لونه وطعمه وريحه، وحرارته أو برده الذى لا يستطيع.

﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أى: يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه.

قال ميمون بن مهران: من كل عظم، وعرق، وعصب.

وقال عكرمة: حتى من أطراف شعره.

(١) فى ت، أ: «فهذا حار».

(٢) رواه أحمد فى المسند (٤٦٠/٦).

(٣) وهى رواية أبى ذر، رضى الله عنه، رواها أحمد فى المسند (١٧١/٥).

(٤) فى أ: «عز وجل».

(٥) المسند (٢٦٥/٥).

(٦) تفسير الطبرى (٥٤٩/١٦) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٥٨٣) من طريق عبد الله بن المبارك به، وقال: «هذا حديث غريب، وهكذا قال محمد بن إسماعيل عن عبيد الله بن بَرٍّ، ولا نعرف عبيد الله بن بَرٍّ إلا فى هذا الحديث».

(٧) ورواه الطبرى فى تفسيره (٥٥١/١٦) من طريق حيوة بن شريح عن بَقِيَّةِ به.

(٨) فى ت: «لا يضعه فى فمه» وفى أ: «لا يضيغه فى فمه».

وقال إبراهيم التيمي: من موضع كل شعرة، أى: من جسده، حتى من أطراف شعره.

وقال ابن جرير: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أى: من أمامه وورائه، وعن يمينه وشماله، ومن فوقه^(١) ومن تحت أرجله^(٢)، ومن سائر أعضاء جسده.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال: أنواع العذاب الذى يعذبه الله بها يوم القيامة فى نار جهنم، وليس منها نوع إلا الموت يأتيه منه لو كان يموت، ولكن لا يموت؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ]^(٣) [فاطر: ٣٦].

ومعنى كلام ابن عباس، رضى الله عنه: أنه ما من نوع من هذه الأنواع من [هذا]^(٤) العذاب إلا إذا ورد عليه اقتضى أن يموت منه لو كان يموت، ولكنه لا يموت ليخلد فى دوام العذاب والنكال؛ ولهذا قال: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

وقوله: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أى: وله من بعد هذا الحال عذاب آخر غليظ، أى: مؤلم صعب شديد أغلظ من الذى قبله وأدهى وأمر. وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ . طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ . فَإِنَّهُمْ لَا كَلُونَ مِنْهَا فَمَا لَئُونٌ مِنْهَا الْبُطُونُ . ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ . ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصفات: ٦٤ - ٦٨]، فأخبر أنهم تارة يكونون فى أكل زقوم، وتارة فى شرب حميم، وتارة يردون إلى الجحيم^(٥)، عياداً بالله من ذلك، وهكذا قال تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمَجْرُمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آناً﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ . طَعَامُ الْأَثِيمِ . كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ . كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ . خَذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ . ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ . ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ . إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٥٠]، وقال: ﴿وَأَصْحَابُ الشَّامَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّامَالِ . فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٍّ مِنْ يَحُمُومٍ . لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٤]، وقال تعالى: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيُسَّ الْمِهَادُ . هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ . وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص: ٥٥ - ٥٨]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه وأشكاله، مما لا يحصى إلا الله، عز وجل، جزاء وفاقاً، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (١٨).

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا مع الله غيره، وكذبوا رسله، وبنوا أعمالهم

(٣) زيادة من أ.

(٢) فى ت: «أرجلهم».

(١) فى ت: «فوقهم».

(٥) فى ت: «جحيم».

(٤) زيادة من ت، أ.

على غير أساس صحيح؛ فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أى: مثل أعمال الذين كفروا يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى؛ لأنهم كانوا يحسبون أنهم على شيء، فلم يجدوا شيئاً، ولا ألفوا حاصلًا إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أى: ذى ريح عاصفة قوية، فلا [يقدرّون على شيء من أعمالهم التى كسبوها فى الدنيا إلا كما] ^(١) يقدرّون على جمع هذا الرماد فى هذا اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَقَدَّمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْ﴾ [آل عمران: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُفَقُّ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ سَفْوَانٍ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقال فى هذه الآية: ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أى: سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما هم إليه، ﴿ذَلِكَ﴾ ^(٢) هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٩)
وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠).

يقول تعالى مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة، بأنه خلق السموات والأرض التى هى أكبر من خلق الناس، أفليس الذى قدر على خلق هذه السموات، فى ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب الثابت والسيارات، والحركات المختلفة، والآيات الباهرات، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد، وبرارى وصحارى وقفار، وبحار وأشجار، ونبات وحيوان، على اختلاف أصنافها ومنافعها، وأشكالها وألوانها؛ ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ (٣) أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ. الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ. أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ. إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٧-٨٣].

وقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أى: بعظيم ولا ممتنع، بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره، أن يذهبكم ويأت بآخرين على غير صفتكم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ. إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ

(١) زيادة من ت، أ: «ولقد خلقنا الإنسان» وهو خطأ.

(٢) فى ت، أ: «هذا» وهو خطأ.

(٣) فى ت، أ: «هذا» وهو خطأ.

بِعَزِيزٍ ﴿فاطر: ١٥ - ١٧﴾، وقال: ﴿وَأِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣].

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ (٢١).

يقول: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ﴾^(١) أى: برزت الخلائق كلها، برها وفاجرها لله وحده الواحد القهار، أى: اجتمعوا له فى براز^(٢) من الأرض، وهو المكان الذى ليس فيه شئ يستتر أحدا.

﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ وهم الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم الذين استكبروا عن عبادة الله وحده لا شريك له، وعن موافقة الرسل، فقالوا لهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أى: مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟﴾ أى: فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله، كما كنتم تعدوننا وتمنوننا؟ فقالت القادة لهم: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾، ولكن حق علينا قول ربنا، وسبق فينا وفيكم قدر الله، وحققت كلمة العذاب على الكافرين.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ أى: ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالوا، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بيكائهم وتضرعهم إلى الله، عز وجل، تعالوا نبك وتضرع إلى الله، فبكوا وتضرعوا، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: تعالوا، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر، تعالوا حتى نصبر، فصبروا صبرا لم ير مثله، فلم ينفعهم ذلك، فعند ذلك قالوا^(٣): ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾.

قلت: والظاهر أن هذه المراجعة فى النار بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨]، وقال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنْ﴾^(٤) النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ. وَقَالَتْ أُولَاهُمْ

(١) زيادة من أ.

(٢) فى ت: «براز».

(٣) فى ت: «فى».

لَأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴿٣٨﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ. وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا. رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنَا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨].

وأما تخاصمهم في المحشر، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ^(١) مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعْفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعْفُوا أَنْحُنْ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعْفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا^(٢) النَّدَامَةُ لِمَا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالِ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣١﴾ [سبا: ٣١ - ٣٣].

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقَّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٢) وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾﴾.

يخبر تعالى عما خطب به إبليس [لعنه الله] ^(٣) أتباعه، بعد ما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس - لعنه الله - حيثئذ خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم ^(٤)، وغبنا إلى غبنهم، وحسرة إلى حسرتهم، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقَّ﴾ أى: على السنة رسله، ووعدكم فى اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقاً، وخبراً صدقاً، وأما أنا فوعدتكم وأخلفتكم، كما قال الله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أى: ما كان لى عليكم فيما دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق ما وعدتكم به، ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه، ﴿فَلَا تَلُمُونِي﴾ اليوم، ﴿وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، فإن الذنب لكم، لكونكم خالفتم الحجج واتبعتمونى بمجرد

(١) فى ت: «المجرمون» وهو خطأ.

(٢) فى ت: «وأسر» وهو خطأ.

(٣) زيادة من أ.

(٤) فى ت: «خزياً إلى خزيهم».

ما دعوتكم إلى الباطل، ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أى: بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه، ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي﴾ أى: بنافعى بإنقاذى مما أنا فيه من العذاب والنكال، ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ﴾.

قال قتادة: أى بسبب ما أشركتمونى من قبل.

وقال ابن جرير: يقول: إني جحدت أن أكون شريكا لله، عز وجل.

وهذا الذى قاله هو الراجح^(١)، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقال: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدَاءً﴾ [مريم: ٨٢].

وقوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أى: فى إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

والظاهر من سياق الآية: أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار، كما قدمنا. ولكن قد ورد فى حديث رواه ابن أبى حاتم - وهذا لفظه - وابن جرير من رواية عبد الرحمن بن زياد: حدثنى دحيان^(٢) الحجرى، عن عقبة بن عامر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا جمع الله الأولين والآخرين، فقضى بينهم، ففرغ من القضاء، قال المؤمنون: قد قضى بيننا ربنا، فمن يشفع لنا؟ فيقولون: انطلقوا بنا إلى آدم - وذكر نوحا، وإبراهيم، وموسى، وعيسى - فيقول عيسى: أدلكم على النبى الأمى. فيأتونى، فيأذن الله لى أن أقوم إليه فيثور^(٣) [من]^(٤) مجلسى من أطيب ريح شمها أحد قط، حتى أتى ربي فيشفعنى، ويجعل لى نورا من شعر رأسى إلى ظفر قدمى، ثم يقول الكافرون هذا: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فمن يشفع لنا؟ ما هو إلا إبليس هو الذى أضلنا، فيأتون إبليس فيقولون: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فقم أنت فاشفع لنا، فإنك أنت أضللتنا. فيقوم فيثور من مجلسه من أنتن ريح شمها أحد قط، ثم يعظم نحيبهم^(٥)، ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقَّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾^(٦).

وهذا سياق ابن أبى حاتم، ورواه ابن المبارك عن رشدين بن سعد، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، عن دُخَيْن^(٨) عن عُبَّة، به مرفوعاً^(٩).

(٣) فى ت، أ: «فيفور».

(٢) فى ت، أ: «دجين».

(١) فى أ: «الأرجح».

(٦) فى ت، أ: «ويقول» وهو خطأ.

(٥) فى ت، أ: «بجهنم».

(٤) زيادة من ت، أ، والطبرى.

(٧) تفسير الطبرى (٥٦٢/١٦) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣٢٠/١٧) من طريق ابن وهب: أخبرنى ابن نعيم (كذا فى المعجم) عن دحيان، عن عقبة مرفوعاً. وقال الهيثمى فى المجمع (٣٧٦/١٠): «فيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، وهو ضعيف» وضعف السيوطى إسناده أيضاً.

(٨) فى أ: «دجين».

(٩) ورواه الطبرى فى تفسيره (٥٦٢/١٦) من طريق سويد بن نصر، عن ابن المبارك به.

وقال محمد بن كعب القرظي، رحمه الله: لما قال أهل النار: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْصٍ﴾ قال لهم إبليس: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ الآية، فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم، فنودوا: ﴿لَمَقْتُ اللَّهُ أَكْبَرَ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠].

وقال عامر الشعبي: يقوم خطيبان يوم القيامة على رؤوس الناس، يقول الله لعيسى ابن مريم: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، إلى قوله: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٩]، قال: ويقوم إبليس - لعنه الله - فيقول: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ الآية.

ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال. وأن خطيبهم إبليس، عطف بحال السعداء وأنهم يدخلون يوم القيامة جنات تجري من تحتها الأنهار سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا^(١)، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾. ماكين أبدا لا يحولون ولا يزولون، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ. سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَيُلْقُونَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، وقال: ﴿دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦)﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: «ومثل كلمة طيبة»: شهادة أن لا إله إلا الله، «كشجرة طيبة» وهو المؤمن، «أصلها ثابت» يقول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن، «وفروعها في السماء» يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء.

وهكذا قال الضحاك، وسعيد بن جبير، وعكرمة وقتادة وغير واحد: إن ذلك عبارة عن المؤمن، وقوله الطيب، وعمله الصالح، وإن المؤمن كالشجرة من النخل، لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين ووقت، وصباح ومساء.

وهكذا رواه السدي، عن مرة، عن ابن مسعود قال: هي النخلة.

وشعبة، عن معاوية بن قرة، عن أنس: هي النخلة.

(١) في ت: «شاؤوا أين شاؤوا» وفي أ: «شاؤوا حيث شاؤوا».

وحمد بن سلمة، عن شعيب بن الحبّاب، عن أنس: أن رسول الله ﷺ أتى بقناع بُسْر فقال: ^(١) «ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة» قال: «هي النخلة» ^(٢).

وروى من هذا الوجه ومن غيره، عن أنس موقوفاً ^(٣). وكذا نص عليه مسروق، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك، وقتادة وغيرهم.

وقال البخاري: حدثنا عبيد بن إسماعيل، عن أبي أسامة، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أخبروني عن شجرة تُشبه - أو: كالرجل - المسلم، لا يتحات ورقها [ولا، ولا، ولا]» ^(٤) تؤتى أكلها كل حين». قال ابن عمر: فوقع في نفسى أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئاً، قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة». فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتا، والله لقد كان وقع في نفسى أنها النخلة. قال: ما منعك أن تكلم؟ قال: لم أركم تتكلمون، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً. قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إلى من كذا وكذا ^(٥).

وقال أحمد: حدثنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: صحبت ابن عمر إلى المدينة، فلم أسمعهم يحدث عن رسول الله ﷺ إلا حديثاً واحداً - قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأتى بجُمَارٍ. فقال: «من الشجر شجرة مثلها مثل الرجل المسلم». فأردت أن أقول: هي النخلة، فنظرت فإذا أنا أصغر القوم، [فسكت] ^(٦)، فقال رسول الله ﷺ: «هي النخلة» أخرجاه ^(٧).

وقال مالك وعبد العزيز، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يوماً لأصحابه: «إن من الشجر شجرة لا يطرح ورقها، مثل المؤمن». قال: فوقع الناس في شجر البوادي، ووقع في قلبى أنها النخلة [فاستحييت، حتى قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة»] ^(٨). أخرجاه أيضاً ^(٩).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبان - يعنى ابن يزيد العطار - حدثنا قتادة: أن رجلاً قال: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور! فقال: «أرأيت لو عمد إلى متاع

(١) فى هـ، ت، أ: «فقرأ» والمثبت من الطبرى والترمذى.

(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٥٧٠) والترمذى فى السنن برقم (٣١١٩) من طريق حماد بن سلمة به، وقال الترمذى: «وروى غير واحد مثل هذا موقوفاً، ولانعلم أحداً رفعه غير حماد بن سلمة، ورواه معمر وحماد بن زيد وغير واحد ولم يرفعه».

(٣) رواه أبو بكر بن شعيب بن الحبّاب، عن أبيه، عن أنس بن مالك نحوه موقوفاً، أخرجه الترمذى فى السنن برقم (٣١١٩) ورواه حماد بن زيد، عن شعيب بن الحبّاب، عن أنس موقوفاً، أخرجه الترمذى فى السنن برقم (٣١١٩).

(٤) زياد من ت، أ، والبخارى.

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٦٩٨).

(٦) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٧) المسند (١٢/٢) وصحيح البخارى برقم (٧٢) وصحيح مسلم برقم (٢٨١١).

(٨) زيادة من ت، أ، والصحيحين.

(٩) صحيح البخارى برقم (١٣١) وصحيح مسلم برقم (٢٨١١).

الدنيا، فركب بعضها على بعض أكان يبلغ السماء؟ أفلا أخبرك بعمل أصله في الأرض وفرعه في السماء؟». قال: ما هو يا رسول الله؟ قال: «تقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله»، عشر مرات في دبر كل صلاة، فذاك أصله في الأرض وفرعه في السماء»^(١).

وعن ابن عباس: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: هي شجرة في الجنة. وقوله: ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾: قيل: غُدوة وعَشيا. وقيل: كل شهر. وقيل: كل شهرين. وقيل: كل ستة أشهر. وقيل: كل سبعة أشهر. وقيل: كل سنة.

والظاهر من السياق: أن المؤمن مثله كمثل شجرة، لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت من صيف أو شتاء، أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آتاء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أى: كاملاً حسناً كثيراً طيباً، ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾: هذا مثل كفر الكافر، لا أصل له ولا ثبات، وشبه بشجرة الحنظل، ويقال لها: «الشريان». [رواه شعبة، عن معاوية بن قرة، عن أنس بن مالك: أنها شجرة الحنظل]^(٢).

وقال أبو بكر البزار الحافظ: حدثنا يحيى بن محمد بن السكن، حدثنا أبو زيد سعيد بن الربيع، حدثنا شعبة، عن معاوية بن قرة، عن أنس - أحسبه رفعه - قال: «مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة»، قال: هي النخلة، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾، قال: هي الشريان^(٣).

ثم رواه عن محمد بن المثني، عن غُندر، عن شعبة، عن معاوية، عن أنس موقوفاً^(٤).

وقال بن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد - هو ابن سلمة - عن شعيب بن الحباب عن أنس بن مالك؛ أن النبي ﷺ قال: «ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة» هي الحنظلة. فأخبرت بذلك أبا العالية فقال: هكذا كنا نسمع.

ورواه ابن جرير، من حديث حماد بن سلمة، به^(٥). ورواه أبو يعلى في مسنده بأبسط من هذا

فقال:

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٢٢/٥) وعزاه لابن أبي حاتم، وهو مرسل.

(٢) زيادة من ت، أ.

(٣) ورواه حماد بن سلمة عن شعيب بن الحباب عن أنس مرفوعاً مثله رواه الطبري في تفسيره (٥٧٠/١٦، ٥٨٥).

(٤) ورواه الطبري في تفسيره (٥٨٣/١٦) عن محمد بن المثني به موقوفاً، ورواه شبابة وعمر بن الهيثم، عن شعبة فأوقفوه.

انظر: تفسير الطبري (٥٨٣/١٦).

(٥) تفسير الطبري (٥٨٥/١٦).

حدثنا غسان، عن حماد، عن شعيب، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ أتى بقنّاع عليه بُسر، فقال: ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء. تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها فقال: «هي النخلة» ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾، قال: «هي الحنظل»^(١). قال شعيب: فأخبرت بذلك أبا العالية فقال: كذلك كنا نسمع^(٢).

وقوله: ﴿اجْتُثَّتْ﴾ أى: استؤصلت ﴿مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ أى: لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يُتَقَبَّلُ منه شيء.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧).

قال البخارى: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، أخبرني علقمة بن مرثد قال: سمعت سعد بن عبيدة، عن البراء بن عازب، رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾»^(٣).

ورواه مسلم أيضاً وبَقِيَّةُ الجماعة كلهم، من حديث شعبة، به^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار، فانتبهينا إلى القبر ولما يُلْحَد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله، كأن على رؤوسنا الطير، وفى يده عود يَنْكُت به فى الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر»، مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحَنُوط من حَنُوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر. ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان». قال: «فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحَنُوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض. فيصعدون بها، فلا يمرون - يعنى بها - على ملأ من الملائكة

(١) فى أ: «الحنظلة».

(٢) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣١١٩) عن عبد بن حميد، عن أبى الوليد، عن حماد بن سلمة به نحوه، وقد سبق الكلام عليه.

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٩٩).

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٨٧١) وسنن أبى داود برقم (٤٧٥٠) وسنن الترمذى برقم (٣١٢٠) وسنن النسائى (١٠١/٤) وسنن ابن

ماجة برقم (٤٢٦٩).

إلا قالوا: ما هذا الروح [الطيب]؟^(١) فيقولون: فلان ابن فلان، بأحسن أسمائه التي [كانوا]^(٢) يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة، فيقول الله: اكتبوا كتاب عبدى فى عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم، ومنهم أخرجهم تارة أخرى».

قال: «فَتُعَاد روحه [فى جسده]^(٣)، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربى الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: دينى الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذى بُعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فأمنت به وصدقت. فينادى مناد من السماء: أن صدق عبدى، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة - قال: فيأتيه من رَوْحِها وطيبها، ويفسح له فى قبره مد بصره. ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذى يسرك، هذا يومك الذى كنت تُوعَد. فيقول له من أنت؟ فوجهك الوجه يجىء بالخير. فيقول: أنا عمك الصالح. فيقول: رب، أقم الساعة. رب، أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلى ومالى».

قال: «وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسُوح، فجلسوا منه مد البصر. ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجى إلى سَخَط من الله و«غَضَب». قال: «فَتَفَرَّق فى جسده، فيتزعزعا كما ينتزع السَّفُود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها^(٤) فى يده طرفة عين، حتى يجعلوها فى تلك المسوح. ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يملكون بها على مَلَأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأقبح أسمائه التى كان يسمونه بها فى الدنيا [حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا]^(٥) فيستفتح له فلا يفتح له». ثم قرأ رسول الله ﷺ: «لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ» [الأعراف: ٤٠]، فيقول الله: «اكتبوا كتابه فى سجين، فى الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً». ثم قرأ: «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ» [الحج: ٣١].

«فَتُعَاد روحه فى جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدرى. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدرى. فيقولان له: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدرى. فينادى مناد من السماء: أن كذب فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار. فيأتيه من حرها وسمومها، ويُضَيَّقُ عليه قبره، حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل

(٥) زيادة من ت، أ، والمسند

(٤) فى أ: «لم يدعها» .

(٣ - ١) زيادة من ت، أ، والمسند.

قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح فيقول: أبشر بالذى يسوؤك، هذا يومك الذى كنت توعده. فيقول: ومن أنت فوجهك [الوجه]^(١) يجىء بالشر. فيقول: أنا عمك الخبيث، فيقول: رب، لا تقم الساعة.

ورواه أبو داود من حديث الأعمش، والنسائي وابن ماجه من حديث المنهال بن عمرو، به^(٢). وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن يونس بن خباب^(٣)، عن المنهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب، رضى الله عنه، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة، فذكر نحوه.

وفيه: «حتى إذا خرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، [وكل ملك فى السماء]^(٤)، وفتحت أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله، عز وجل، أن يعرج بروحه من قبلهم».

وفى آخره: «ثم يقيض له أعمى أصم أبكم، وفى يده مرزبة لو ضرب بها جبل لكان ترابا، فيضربه ضربة فيصير ترابا. ثم يعيده الله، عز وجل، كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شىء إلا الثقلين». قال البراء: ثم يفتح له باب إلى النار، ويمهد من فرش النار^(٥). وقال سفيان الثوري، عن أبيه، عن خيثمة، عن البراء فى قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: عذاب القبر.

وقال المسعودى، عن عبد الله بن مخارق، عن أبيه، عن عبد الله قال: إن المؤمن إذا مات أجلس فى قبره، فيقال له: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ فيثبته الله، فيقول: ربى الله، ودينى الإسلام، ونبى محمد ﷺ. وقرأ عبد الله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾^(٦).

وقال الإمام عبد بن حميد، رحمه الله، فى مسنده: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا شيبان بن عبد الرحمن، عن قتادة، حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا وضع فى قبره، وتولى عنه أصحابه، إنه لسمع قرع نعالهم». قال: «فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟» قال: «فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله». قال: «فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة». قال نبي الله ﷺ: «فيراها جميعا». قال

(١) زيادة من ت، أ، والمسنـد.

(٢) المسند (٢٨٧/٤) وسنن أبى داود برقم (٤٧٥٣) وسنن النسائي برقم (٧٨/٤) وسنن ابن ماجه برقم (١٥٤٨).

(٣) فى هـ، أ: «يونس بن حبيب» والمثبت من ت والمسنـد.

(٤) زيادة من ت، أ، والمسنـد.

(٥) المسند (٢٩٥/٤).

(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (٥٩٧/١٦).

قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعاً، ويملاً عليه خُصراً إلى يوم القيامة.

رواه مسلم عن عبد بن حميد، به^(١). وأخرجه النسائي من حديث يونس بن محمد المؤدّب، به^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن ابن جُرَيْج، أخبرني أبو الزبير، أنه سأل جابر بن عبد الله عن فتّاني القبر فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن هذه الأمة تُبْتَلَى في قبورها، فإذا أدخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه، جاء ملك شديد الانتهاز، فيقول له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول المؤمن: أقول: إنه رسول الله وعبد. فيقول له الملك: انظر إلى مقعدك الذي كان لك في النار، قد أنجأك الله منه، وأبدلك بمقعدك الذي ترى من النار مقعدك الذي ترى من الجنة، فيراهما كليهما. فيقول المؤمن: دعوني أبشر أهلي. فيقال له: اسكن. وأما المنافق فيقعّد إذا تولى عنه أهله، فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، أقول كما يقول الناس. فيقال له: لا دَرَيْتَ، هذا مقعدك الذي كان لك في الجنة، قد أبدلت مكانه مقعدك من النار».

قال جابر: فسمعت النبي ﷺ يقول: «يبعث كل عبد في القبر على ما مات، المؤمن على إيمانه، والمنافق على نفاقه».

إسناده^(٣) صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه^(٤) ^(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا عباد بن راشد، عن داود بن أبي هند، عن أبي نَضْرَةَ، عن أبي سعيد الخدري قال: شَهِدْنَا مع رسول الله ﷺ جنازة، فقال رسول الله ﷺ: «يأيها الناس، إن هذه الأمة تُبْتَلَى في قبورها، فإذا الإنسان دفن وتفرق عنه أصحابه، جاءه ملك في يده مطراق فأقعده، قال: ما تقول في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمناً قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله^(٦)، فيقول له: صدقت. ثم يفتح له باباً إلى النار، فيقول: هذا كان منزلك لو كفرت بربك، فأما إذ آمنْتَ فهذا منزلك. فيفتح له باباً إلى الجنة، فيريد أن ينهض إليه، فيقول له: اسكن. ويفسح له في قبره».

«وإن كان كافراً أو منافقاً يقول^(٧) له: ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً^(٨). فيقول: لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ ولا اهتديت. ثم يفتح له باباً إلى الجنة، فيقول له: هذا

(١) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١١٧٨) وصحيح مسلم برقم (٢٨٧٠).

(٢) سنن النسائي (٩٧/٤).

(٣) في ت: «إسناده».

(٤) في ت: «ولم يخرجوه».

(٥) الذي في المسند (٣/٣٤٦): حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي الزبير به. وكذا في أطراف المسند لابن حجر (١١٠/٢).

(٦) في أ: «وأن محمداً رسول الله».

(٧) في ت، أ: «فيقول».

(٨) في أ: «شيئاً فقلته».

منزلك لو آمنت بربك، فأما إذ كفرت به فإن الله، عز وجل، أبدلك به هذا. فيفتح^(١) له بابا إلى النار، ثم يقمعه قمعةً بالمطراق يسمعها خلقُ الله، عز وجل، كلهم غير الثقلين». فقال بعض القوم: يا رسول الله، ما أحد يقوم عليه ملك في يده مطراق^(٢) إلا هيل عند ذلك. فقال رسول الله ﷺ: «يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ»^(٣).

وهذا أيضا إسناد لا بأس به، فإن عباد بن راشد التميمي روى له البخاري مقرونا، ولكن ضعفه بعضهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، عن ابن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ^(٤): «إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس المطمئنة^(٥) كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان». قال: «فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَجُ بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان. فيقولون: مرحبا بالروح الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان» قال: فلا يزال يقال لها ذلك، حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل.

وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج. فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَجُ بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحبا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لا تفتح^(٦) لك أبواب السماء. فيرسل^(٧) من السماء، ثم يصير^(٨) إلى القبر، فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول.

ورواه النسائي وابن ماجه، من طريق ابن أبي ذئب^(٩) بنحوه^(١٠).

وفى صحيح مسلم عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: إذا خرجت روح العبد المؤمن، تلقاها ملكان يصعدان بها. قال حماد: فذكر من طيب ريحها وذكر المسك. قال: ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض، صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ وَعَلَى جَسَدِكَ كُنْتَ تَعْمُرُنِيهِ، فَيُنْطَلَقُ به إلى ربه عز وجل، فيقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل. وإن الكافر إذا خرجت روحه. قال حماد: وذكر من

(١) فى ت: «يفتح». (٢) فى ت: «مطرقه».

(٣) المسند (٣/٣).

(٤) فى ت، أ: «عن النبي ﷺ أنه قال». (٥) فى ت، أ: «الطيبة». (٦) فى ت، أ: «يفتح».

(٧) فى ت: «فرسل». (٨) فى ت: «تصير». (٩) فى ت: «ابن أبي ذهاب» وفى أ: «ابن أبي ذر».

(١٠) المسند (٢/٣٦٤) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٦٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/٣١١): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

تَنْتَهَا وَذَكَرَ مَقْتًا، وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ: رُوحٌ خَبِيثَةٌ جَاءَتْ مِنْ قَبْلِ الْأَرْضِ. قَالَ: فَيَقَالُ: انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الْأَجْلِ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَرَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رِبْطَةً كَانَتْ عَلَيْهِ عَلَى أَنْفِهِ، هَكَذَا^(١).

وَقَالَ ابْنُ حَبَانَ فِي صَحِيحِهِ: حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْهَمْدَانِيُّ، حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ أَخْزَمَ، حَدَّثَنَا مُعَاذُ ابْنِ هِشَامٍ، حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ قَسَامَةَ بْنِ زَهِيرٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنْ الْمُؤْمِنُ إِذَا قُبِضَ، أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ بِحَرِيرَةٍ بَيَاضٍ، فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي إِلَى رُوحِ اللَّهِ. فَتُخْرِجُ كَأَطِيبِ رِيحٍ مَسْكٍ، حَتَّى إِذَا لَبَسَتْهُمْ بَعْضُهَا يَشْمُونَهُ حَتَّى يَأْتُوا بِهِ بَابَ السَّمَاءِ، فَيَقُولُونَ مَا هَذَا الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ الَّتِي جَاءَتْ مِنْ قَبْلِ الْأَرْضِ؟ وَلَا يَأْتُونَ سَمَاءً إِلَّا قَالُوا مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى يَأْتُوا بِهِ أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ مِنْ أَهْلِ الْغَائِبِ بِغَائِبِهِمْ، فَيَقُولُونَ: مَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ فَيَقُولُونَ: دَعَاكَ حَتَّى يَسْتَرِيحَ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي غَمٍّ! فَيَقُولُ: قَدْ مَاتَ، أَمَا أَنْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: ذَهَبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الْهَاقِيَةِ. وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَأْتِيهِ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ بِمَسْحٍ فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي إِلَى غَضَبِ اللَّهِ، فَتُخْرِجُ كَأَنَّ رِيحَ جِيْفَةٍ، فَيَذْهَبُ بِهِ إِلَى بَابِ الْأَرْضِ»^(٢).

وَقَدْ رَوَى أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ هَمَّامِ بْنِ يَحْيَى، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَبِي الْجَوْزَاءِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِنَحْوِهِ. قَالَ: «فَيُسْأَلُ: مَا فَعَلَ فُلَانٌ، مَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ مَا فَعَلْتَ فُلَانَةٌ؟» قَالَ: «وَأَمَّا الْكَافِرُ فَإِذَا قُبِضَتْ نَفْسُهُ، وَذُهِبَ بِهَا إِلَى بَابِ الْأَرْضِ تَقُولُ خِزْنَةُ الْأَرْضِ: مَا وَجَدْنَا رِيحًا أَنْتَ مِنْ هَذِهِ. فَيُبَلِّغُ بِهَا الْأَرْضَ السُّفْلَى»^(٣).

قَالَ قَتَادَةُ: وَحَدَّثَنِي رَجُلٌ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ تَجْمَعُ بِالْجَلَابِيَةِ. وَأَرْوَاحُ الْكَافِرِ تَجْمَعُ بِبِرْهَوْتَ، سَبْخَةٍ بِحَضْرَمَوْتَ.

وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو عَيْسَى التِّرْمِذِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ خَلْفٍ، حَدَّثَنَا بَشَرُ بْنُ الْمُفَضَّلِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْقُبَيْرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ - أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ - أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَرْقَانِ»^(٤)، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ، وَالْآخَرُ: النَّكِيرُ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا. ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ. ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَمْ. فَيَقُولُ: أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي فَأَخْبِرْهُمْ؟ فَيَقُولَانِ: نَمْ نَوْمَةَ الْعُرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ. وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ فَقُلْتُ مِثْلَهُمْ، لَا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ

(١) صحيح مسلم برقم (٢٨٧٢).

(٢) صحيح ابن حبان برقم (٧٣٣) «موارد».

(٣) صحيح ابن حبان برقم (٧٣١) «موارد» ورواه الحاكم في المستدرک (٣٥١/١) من طريق همام به نحوه وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٤) في ت: «أزراق».

تقول ذلك، فيقال^(١) للأرض: التثمي عليه. فتلتثم عليه، فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك»^(٢).

ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب.

وقال حماد بن سلمة، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾. قال: «ذاك إذا قيل له فى القبر: من ربك؟ وما دينك؟ فيقول: ربي الله، ودينى الإسلام، ونبيى محمد، جاءنا بالبينات من عند الله، فأمنت به وصدقت. فيقال له: صدقت، على هذا عشت، وعليه مت، وعليه تُبعث»^(٣).

وقال ابن جرير: حدثنا مجاهد بن موسى والحسن بن محمد قالا: حدثنا يزيد، أنبأنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة^(٤). إن الميت ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه مدبرين، فإذا كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه، والزكاة عن يمينه، والصيام عن يساره، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجله، فيؤتى من عند رأسه فتقول الصلاة: ما قبلى مدخل، فيؤتى من عن يمينه فتقول الزكاة: ما قبلى مدخل. فيؤتى عن يساره فيقول الصيام: ما قبلى مدخل. فيؤتى من عند رجله فيقول^(٥) فعل الخيرات: ما قبلى مدخل. فيقال له اجلس. فيجلس، قد تَمَثَّلَتْ^(٦) له الشمس، قد دنت للغروب، فيقال له أخبرنا عما^(٧) نسألك. فيقول: دعونى^(٨) حتى أصلى. فيقال: إنك ستفعل، فأخبرنا عما نسألك. فيقول: وعمّ تسألونى؟ فيقال: أرأيت هذا الرجل الذى كان فيكم، ماذا تقول فيه، وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: أمحمد؟ فيقال له: نعم. فيقول: أشهد أنه رسول الله، وأنه جاءنا^(٩) بالبينات من عند الله، فصدقناه. فيقال له: على ذلك حييت، وعلى ذلك مت، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله. ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعا ويُنَوَّرُ له فيه، ويفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى ما أعد الله لك فيها. فيزداد غبطة [وسرورا]^(١٠)، ثم يجعل نسمة فى النسم الطيب، وهى طير خضر تعلق بشجر الجنة، ويعاد الجسد إلى ما بدئ منه من التراب، وذلك قول الله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾^(١١).

ورواه ابن حبان، من طريق المعتمر بن سليمان، عن محمد بن عمرو، وذكر جواب الكافر

(١) فى ت: «ويقال».

(٢) سنن الترمذى برقم (١٠٧١).

(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (٥٩٦/١٦).

(٤) فى ت، أ: «عن أبي هريرة قال».

(٦) فى ت، أ: «مثلت».

(٥) فى ت: «فتقول».

(٩) فى ت، أ: «جاء».

(٨) فى ت، أ: «دعنى».

(٧) فى ت: «كما».

(١٠) زيادة من ت، أ، والطبرى.

(١١) تفسير الطبرى (٥٩٦/١٦، ٥٩٧).

وقال البزار: حدثنا سعيد بن بحر القراطيسي، حدثنا الوليد بن القاسم، حدثنا يزيد بن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة - أحسبه رفعه - قال: «إن المؤمن ينزل به الموت، ويعاين ما يعاين، فيودّ^(٢) لو خرجت - يعنى نفسه - والله يحب لقاءه، وإن المؤمن يصعد بروحه إلى السماء، فتأتيه أرواح المؤمنين، فتستخبره^(٣) عن معارفهم من أهل الأرض، فإذا قال: تركت فلانا في الأرض^(٤)، أعجبهم ذلك. وإذا قال: إن فلانا قد مات، قالوا: ما جرى به إلينا. وإن المؤمن يجلس في قبره، فيسأل: من ربك؟ فيقول: ربي الله^(٥). ويسأل: من نبيك؟ فيقول: محمد نبي^(٦). فيقال: ماذا دينك؟ قال: ديني الإسلام. فيفتح له باب في قبره، فيقول - أو: يقال - انظر إلى مجلسك. ثم يرى القبر فكأنما كانت رقدة. وإذا كان عدو الله نزل به الموت وعائين ما عاين، فإنه لا يحب أن تخرج روحه أبداً، والله يبغض لقاءه، فإذا جلس في قبره - أو: أجلس - يقال له: من ربك؟ فيقول: لا أدري. فيقال: لا دريت. فيفتح له باب من جهنم، ثم يضرب^(٧) ضربة يسمعونها^(٨) كل دابة إلا الثقلين، ثم يقال له: نم كما ينাম المنهوش». قلت لأبي هريرة: ما المنهوش؟ قال: الذي تنهشه الدواب والحيات، ثم يضيق عليه قبره.

ثم قال: لا نعلم رواه إلا الوليد بن القاسم^(٩).

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا حُجَّين بن المثنى، حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون، عن محمد بن المنكدر قال: كانت أسماء - يعنى بنت الصديق - رضى الله عنها، تحدث عن النبي ﷺ قالت: قال: «إذا دخل الإنسان قبره، فإن كان مؤمناً أخفّ به عمله: الصلاة والصيام»، قال: «فيأتيه الملك من نحو الصلاة فترده، ومن نحو الصيام فيرده»، قال: «فيناديه: اجلس. فيجلس. فيقول له: ماذا تقول في هذا الرجل؟ يعنى النبي ﷺ، قال: من؟ قال: محمد. قال أشهد أنه رسول الله، قال: يقول: وما يدريك؟ أدركته؟ قال: أشهد أنه رسول الله. قال: يقول: على ذلك عشت، وعليه مت، وعله تبعث. وإن^(١٠) كان فاجراً أو كافراً، جاءه الملك ليس بينه وبينه شيء يرّده، فأجلسه يقول: اجلس، ماذا تقول في هذا الرجل؟ قال: أى رجل؟ قال: محمد؟ قال: يقول: والله ما أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته. قال له الملك: على ذلك عشت، وعليه مت، وعليه

(١) صحيح ابن حبان برقم (٧٨١) «موارد».

(٢) فى ت: «فود». (٣) فى ت: «فيستخبرونه».

(٤) فى أ: «فى الدنيا». (٥) فى ت: «الله ربي».

(٦) فى ت، أ: «نبي محمد». (٧) فى ت، أ: «يضربه».

(٨) فى ت، أ: «يسمع».

(٩) مسند البزار برقم (٨٧٤) «كشف الاستار» وقال الهيثمى فى المجمع (٥٢/٣): «فى الصحيح طرف منه رواه البزار ورجاله ثقات

خلا سعيد بن بحر القراطيسى فإنى لم أعرفه».

(١٠) فى ت: «قال: وإن».

تبعثُ. قال: وتسَلَطَ عليه دابة في قبره، معها سوط تَمَرْتِه^(١) جَمْرَةٌ مثل غَرْب^(٢) البعير، تضربه ما شاء الله، صماء لا تسمع صوتَه فترَحِمَه^(٣).

وقال العوفي، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، فى هذه الآية قال: إن المؤمن إذا حَضَرَه الموت شهدته الملائكة، فسلموا عليه وبشروه بالجنة، فإذا مات مَشَوْا مع جنازته، ثم صَلَّوْا عليه مع الناس، فإذا دفن أجلس فى قبره فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقال له: من رسولك؟ فيقول: محمد ﷺ. فيقال له: ما شهادتك؟ فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله. فيوسَّع له فى قبره مد بَصَرِه. وأما الكافر فتنزّل عليه الملائكة، فيسْطُون أيديهم - «والبسْط»: هو الضرب - يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت. فإذا أدخل قبره أقعد، فقيل له: من ربك؟ فلم يرجع إليهم شيئا، وأنساه الله ذكر ذلك. وإذا قيل: من الرسول الذى بُعثَ إليكم؟ لم يهتد له، ولم يرجع إليه شيئا، كذلك يضل الله الظالمين.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم الأودى، حدثنا شريح بن مسلمة حدثنا إبراهيم بن يوسف، عن أبيه، عن أبى إسحاق، عن عامر بن سعد البجلي، عن أبى قتادة الأنصارى فى قوله تعالى: «يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ» الآية، قال: إن المؤمن إذا مات أجلس فى قبره، فيقال^(٤) له: من ربك؟ فيقول: الله. فيقال له: من نبيك؟ فيقول: محمد بن عبد الله. فيقال له فى ذلك مرات. ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظر إلى منزلتك فى النار لو زُغِت^(٥). ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى منزلتك [من الجنة إذا ثبت. وإذا مات الكافر أجلس فى قبره، فيقال له: من ربك؟ من نبيك؟ فيقول: لا أدري، كنت أسمع الناس يقولون. فيقال له: لا دريت. ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى منزلتك]^(٦) لو ثبت، ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظر إلى منزلتك إذ زُغِت^(٧)، فذلك قوله تعالى: «يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ».

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه: «يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» قال: لا إله إلا الله، «وفى الآخرة»: المسألة فى القبر^(٨).

وقال قتادة: أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح، «وفى الآخرة» فى القبر. وكذا روى عن غير واحد من السلف.

وقال أبو عبد الله الحكيم الترمذى فى كتابه «نوادير الأصول»: حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن

(١) فى ت، أ: «تمر به». (٢) فى ت، أ: «عرف».

(٣) المسند (٣٥٢/٦).

(٤) فى ت: «يقال». (٥) فى ت: «لو رغبت».

(٦) زيادة من ت، أ.

(٧) فى ت، أ: «إذ رغبت».

(٨) تفسير عبد الرزاق (٢٩٦/١).

نافع، عن ابن أبي قُدَيْكٍ، عن عبد الرحمن بن عبد الله^(١)، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الرحمن ابن سَمُرَةَ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم، ونحن في مسجد المدينة، فقال: «إني رأيت البارحة عجباً، رأيت رجلاً من أمتي [جاءه ملك الموت ليقبض روحه، فجاءه بره بوالديه]^(٢) فرد عنه. ورأيت رجلاً من أمتي»^(٣) قد بسط عليه عذاب القبر، فجاءه وضوءه فاستنقذه من ذلك. ورأيت رجلاً من أمتي [قد]^(٤) احتوشته الشياطين، فجاءه ذكر الله فخلصه من بينهم. ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب، فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم. ورأيت رجلاً من أمتي يلهث عطشا، كلما ورد حوضاً منع منه، فجاءه صيامه فسقاه وأرواه. ورأيت رجلاً من أمتي والنبون قعود حلقاً حلقاً، وكلما دنا لحقة طردوه، فجاءه اغتساله من الجنابة، فأخذ بيده فأقعده إلى جنبى. ورأيت رجلاً من أمتي [من]^(٥) بين يديه ظلمة، ومن خلفه ظلمة، وعن يمينه ظلمة، وعن شماله ظلمة، ومن فوقه ظلمة، ومن تحته ظلمة، فهو متحير فيها، فجاءته حجته وعمرته، فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه النور، ورأيت رجلاً من أمتي يكلم المؤمنين فلا يكلمونه، فجاءته صلة الرحم، فقالت: يا معشر المؤمنين، كلموه، فكلموه. ورأيت رجلاً من أمتي يتقى وهج النار أو شرراً بيده عن وجهه، فجاءته صدقته فصارت ستراً على وجهه وظلاً على رأسه. ورأيت رجلاً من أمتي قد أخذته الزبانية من كل مكان، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فاستنقذه من أيديهم، وأدخلاه مع ملائكة الرحمة. ورأيت رجلاً من أمتي جاثياً على ركبتيه، بينه وبين الله حجاب، فجاءه حسن خلقه، فأخذ بيده فأدخله على الله، عز وجل. ورأيت رجلاً من أمتي قد هَوَتْ صحيفته من قبل شماله، فجاءه خوفه من الله فأخذ صحيفته، فجعلها في يمينه. [ورأيت رجلاً من أمتي قد خف ميزانه، فجاءته أفراطه فثقلوا ميزانه]^(٦) ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على شفير جهنم، فجاءه وجله من الله، فاستنقذه من ذلك ومضى. ورأيت رجلاً من أمتي هوى في النار، فجاءته دموعه التي بكى من خشية الله في الدنيا فاستخرجته من النار، [ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على الصراط يُرْعَدُ كما ترعد السَّعْقة، فجاءه حسن ظنه بالله، فسكَّن رَعْدَتَهُ، ومضى]^(٧). ورأيت رجلاً من أمتي على الصراط يزحف أحياناً ويحبو أحياناً، فجاءته صلاته على، فأخذت بيده فأقامته ومضى على الصراط. ورأيت رجلاً من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة، فغلقت الأبواب دونه، فجاءته شهادة: أن لا إله إلا الله، ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة»^(٨).

قال القرطبي بعد إيراده هذا الحديث من هذا الوجه: هذا حديث عظيم، ذكر فيه أعمالاً خاصة تنجي من أهوال خاصة. أورده هكذا في كتابه «التذكرة»^(٩).

(١) في التذكرة: «عبد الرحمن بن أبي عبد الله». (٢) في ت: «بوالدته». (٣ - ٧) زيادة من ت، أ، والتذكرة.

(٨) ذكره الزبيدي في الإنحاف وعزاه للحكيم في النوادر وضعفه، ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق برقم (٤٩) من طريق سعيد بن عبد الله، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الرحمن بن سمرة مرفوعاً بأخضر منه، وذكر أن ابن تيمية كان يعظم شأن هذا الحديث ويقول: «شواهد الصحة عليه».

(٩) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة (ص ٢٤٠ - ٢٤٢).

وقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلى فى هذا حديثا غريبا مطولا فقال: حدثنا أبو عبد الله^(١) أحمد بن إبراهيم النُكْرِي، حدثنا محمد بن بكر البرسائي أبو عثمان، حدثنا أبو عاصم الحبطي - وكان من خيار أهل البصرة، وكان من أصحاب حزم، وسلام بن أبى مطيع - حدثنا بكر بن خنيس، عن ضرار بن عمرو، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك، عن تميم الدارى، عن النبى ﷺ قال: «يقول الله، عز وجل، لملك الموت: انطلق إلى ولى فأتنى به، فإنى قد ضربته بالسراء والضراء، فوجدته حيث أحب. اتنى به فلأريحنه^(٢)».

فينطلق إليه ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة، معهم أكفان وحنوط من الجنة، ومعهم ضبائر الريحان، أصل الريحانة واحد وفى رأسها عشرون لونا، لكل لون منها ريح سوى ريح صاحبه، ومعهم الحرير الأبيض فيه المسك الأذفر. فيجلس^(٣) ملك الموت عند رأسه، وتحف به الملائكة. ويضع كل ملك منهم يده على عضو من أعضائه ويَسِّطُ ذلك الحرير الأبيض والمسك الأذفر تحت ذقنه، ويَفْتَحُ له باب إلى الجنة، فإن نفسه لتَعَلَّلُ عند ذلك بطرف الجنة تارة، وبأزواجها^(٤) [مرة]^(٥) ومرة بكسواتها ومرة بشمارها، كما يُعَلِّلُ الصبى أهله إذا بكى». قال: «وإن أزواجه ليبتهشن عند ذلك ابتهاشاً».

قال: «وتنزو الروح». قال البرسائي: يريد أن تخرج من العَجَلِ إلى ما تحب. قال: «ويقول ملك الموت: اخرجى يا أيتها الروح الطيبة، إلى سدر مخضود، وطلح منضود، وظل ممدود، وماء مسكوب». قال: «وللك الموت أشد به لظفا من الوالدة بولدها، يعرف أن ذلك الروح حبيب لربه، فهو يلمس بلطفه تحببا لديه رضاء للرب عنه، فتُسَلَّ روحه كما تسَلُّ الشعرة من العجين». قال: «وقال الله، عز وجل: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾» [النحل: ٣٢] وقال: «﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾. فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ» [الواقعة: ٨٨، ٨٩]. قال: «روح من جهة الموت، وريحان يتلقى به، وجنة نعيم تقابله».

قال: «فإذا قبض ملك الموت روحه، قال الروح للجسد: جزاك الله عنى خيرا، فقد كنت سريعا بى إلى طاعة الله، بطيئا بى عن معصية الله، فقد نجيت وأنجيت». قال: «ويقول الجسد للروح مثل ذلك».

قال: «وتبكى^(٦) عليه بقاع الأرض التى كان يطيع الله فيها، وكل باب من السماء يصعد منه عمله. وينزل منه رزقه أربعين ليلة».

قال: «فإذا قبض ملك الموت روحه، أقامت الخمسمائة من الملائكة عند جسده، فلا يقلبه^(٧) بنو آدم لشق إلا قلبته الملائكة قبلهم، وغسلته وكفنته بأكفان قبل أكفان بنى آدم، وحنوط قبل حنوط

(١) فى أ: «أبو عبد الرحمن».

(٢) فى ت، أ: «فلأريحه».

(٣) فى أ: «قال: . فيجلس».

(٤) فى ت: «مرة بأزواجها».

(٥) زيادة من ت، أ.

(٦) فى ت، أ: «فلا تقلبه».

(٧) فى ت: «ويبكي».

بنى آدم، ويقوم من بين باب بيته إلى باب قبره صفّان من الملائكة، يستقبلونه بالاستغفار، فيصيح عند ذلك إبليس صيحة تتصدع^(١) منها عظام^(٢) جسده». قال: «ويقول لجنوده: الويل لكم. كيف خلّص هذا العبد منكم، فيقولون إن هذا كان عبدا معصوما».

قال: «إذا صعد ملك الموت بروحه، يستقبله جبريل في سبعين ألفاً من الملائكة، كلّ يأتيه ببشارة من ربه سوى بشارة صاحبه». قال: «إذا انتهى ملك الموت بروحه إلى العرش، خرّ الروح ساجدا». قال: «يقول الله، عز وجل، لملك الموت: انطلق بروح عبدى فضعه في سدر مخضود، وطلح منضود، وظل ممدود، وماء مسكوب».

قال: «إذا وضع في قبره، جاءته الصلاة فكانت عن يمينه، وجاءه الصيام فكان عن يساره، وجاءه القرآن فكان عند رأسه، وجاءه مشيه إلى الصلاة فكان عند رجله، وجاءه الصبر فكان ناحية القبر». قال: «فيبعث الله، عز وجل، عنقاً من العذاب». قال: «فيأتيه عن يمينه» قال: «فتقول الصلاة: وراءك والله ما زال دأباً عمره كله وإنما استراح الآن حين وضع في قبره». قال: «فيأتيه عن يساره، فيقول الصيام مثل ذلك». قال: «ثم يأتيه من عند رأسه، فيقول القرآن والذكر مثل ذلك». قال: «ثم يأتيه من عند رجله، فيقول مشيه إلى الصلاة مثل ذلك. فلا يأتيه العذاب من ناحية يلتمس هل يجد مساعاً إلا وجد ولى الله قد أخذ جنته». قال: «فينقمع العذاب عند ذلك فيخرج». قال: «ويقول الصبر لسائر الأعمال: أما إنه لم يمنعني أن أباشر أنا بنفسى إلا أنى نظرت ما عندكم، فإن عجزتم كنت أنا صاحبه، فأما إذ أجزأتم عنه فأنا له ذخّر عند الصراط والميزان».

قال: «ويبعث الله ملكين أبصارهما كالبرق الخاطف، وأصواتهما كالرعد القاصف، وأنياهما كالصياصى، وأنفاسهما كاللهب، يطآن في أشعارهما، بين منكب كل واحد مسيرة كذا وكذا، وقد نزعت منهما الرأفة والرحمة، يقال لهما: منكر ونكير، فى يد كل واحد منهما مطرقة، لو اجتمع عليها ربعة ومضر لم يُقلّوها». قال: «فيقولان له: اجلس». قال: «فيجلس فيستوى جالسا». قال: «وتقع أكفانه فى حقوية». قال: «فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟».

قال: قالوا: يا رسول الله، ومن يطبق الكلام عند ذلك، وأنت تصف من الملكين ما تصف؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ».

قال: «فيقول: ربى الله وحده لا شريك له، ودينى الإسلام الذى دانت به الملائكة، ونبى محمد خاتم النبيين». قال: «فيقولان: صدقت». قال: «فيدفعان القبر، فيوسعان من بين يديه أربعين ذراعاً، وعن يمينه أربعين ذراعاً، وعن شماله^(٣) أربعين ذراعاً، ومن خلفه أربعين ذراعاً، ومن عند رأسه

(١) فى ت، أ: «يتصدع».

(٢) فى أ: «بعض عظام».

(٣) فى أ: «وعن يساره».

أربعين ذراعاً، ومن عند رجله أربعين ذراعاً». قال: «فيوسعان له مائتي ذراع».

قال البرساني: فأحسبه: وأربعين ذراعاً تحاط به^(١).

قال: «ثم يقولان له: انظر فوقك، فإذا باب مفتوح إلى الجنة». قال: «فيقولان له: ولي الله، هذا منزلك إذ أطعت الله». فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده^(٢)، إنه يصل إلى قلبه عند ذلك فرحة، ولا ترتد أبداً، ثم يقال له: انظر تحتك». قال: «فينظر تحته فإذا باب مفتوح إلى النار قال: «فيقولان: ولي الله نجوت آخر ما عليك». قال: فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك فرحة لا ترتد أبداً». قال: فقالت عائشة: يفتح له سبعة وسبعون باباً إلى الجنة، يأتيه ريحها ويردها، حتى يبعثه الله، عز وجل.

وبالإسناد المتقدم إلى النبي ﷺ قال: «ويقول الله تعالى للملك^(٣) الموت: انطلق إلى عدوى فأتني به، فإنني قد بسطت له رزقي، ويسرت له نعمتي، فأبى إلا معصيتي، فأتني به لأنتقم منه».

قال: «فينطلق إليه ملك الموت في أكره صورة ما رآها أحد من الناس قط، له اثنتا عشرة^(٤) عينا، ومعه سفود من النار كثير الشوك، ومعه خمسمائة من الملائكة، معهم نحاس وجمر من جمر جهنم، ومعهم سياط من نار، لينها لين السياط وهي نار تأجج». قال: «فيضربه ملك الموت بذلك السفود ضربة يغيب كل أصل شوكه من ذلك السفود في أصل كل شعرة وعرق وظفر». قال: «ثم يلويه ليا شديداً». قال: «فينزع روحه من أظفار قدميه». قال: «فيلقيها» في عقبه^(٥) ثم يسكر^(٦) عند ذلك عدو الله^(٧) سكرة، فيرفقه ملك الموت عنه». قال: «وتضرب^(٨) الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط». [قال: «فيشده ملك الموت شدة، فينزع روحه من عقبه، فيلقيها في ركبته، ثم يسكر عدو الله عند ذلك سكرة، فيرفقه ملك الموت عنه». قال: «فتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط»]^(٩). قال: «ثم يتره^(١٠) ملك الموت نثرة، فينزع روحه من ركبته فيلقيها في حقويه». قال: «فيسكر عدو الله عند ذلك سكرة، فيرفقه ملك الموت عنه». قال: «وتضرب الملائكة^(١١) وجهه ودبره بتلك السياط». قال: «كذلك إلى صدره، ثم كذلك إلى حلقه». قال: «ثم تبسط الملائكة ذلك النحاس وجمر جهنم تحت ذقنه». قال: «ويقول ملك الموت: اخرجي أيتها الروح اللعينة الملعونة إلى سموم وحميم، وظل من يحموم، لا بارد ولا كريم».

قال: «فإذا قبض ملك الموت روحه قال الروح للجسد: جزاك الله عنى شراً، فقد كنت سريعا بى

(١) في أ: «محاط».

(٢) في أ: «والذي نفسى بيده».

(٣) في أ: «إلى ملك».

(٤) في أ: «اثني عشر».

(٥) في هـ: «ركبته» والمثبت من ت، أ.

(٦) في أ: «قال: فيسكر».

(٧) في ت: «قال فيسكر عدو الله عند ذلك».

(٨) في ت: «ويضرب».

(٩) زيادة من ت، أ.

(١٠) في ت، أ: «فيتره».

(١١) في ت: «فيضرب»، وفي أ: «فتضرب».

إلى معصية الله، بطيئاً بى عن طاعة الله، فقد هلكت وأهلك» قال: «ويقول الجسد للروح مثل ذلك، وتلعنه بقاع الأرض التى كان يعصى الله عليها، وتنطلق جنود إبليس إليه فيبشرونه بأنهم قد أوردوا عبداً من ولد آدم النار».

قال: فإذا وضع فى قبره ضُيق عليه قبره حتى تختلف^(١) أضلاعه، حتى تدخل اليمنى فى اليسرى، واليسرى فى اليمنى» قال: «ويبعث الله إليه أفاعى دُهماً كأعناق الإبل يأخذن^(٢) بأرنبته وإبهامى قدميه فيقرضنه حتى يلتقين فى وسطه».

قال: «ويبعث الله ملكين أبصارهما^(٣) كالبرق الخاطف، وأصواتهما كالرعد القاصف، وأنياهما كالصياصى، وأنفاسهما كاللهب^(٤)، يطآن فى أشعارهما، بين منكبى كل واحد منهما مسيرة كذا وكذا، قد نزعتهما الرأفة والرحمة يقال لهما: منكر ونكير، فى يد كل واحد منهما مطرقة، لو اجتمع عليها ربعة ومضر لم يقلوها» قال: «فيقولان له: اجلس». قال: «فيستوى جالسا» قال: «وتقع أكفانه فى حقويه» قال: «فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: لا أدري. فيقولان: لا دريت ولا تليت». [قال]^(٥) «فيضربانه ضربة يتطاير شررها فى قبره، ثم يعودان». قال: «فيقولان: انظر فوقك. فينظر، فإذا باب مفتوح من الجنة، فيقولان: هذا - عدو الله^(٦) - منزلك لو أطعت الله».

قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا تترد أبداً». قال: «ويقولان له: انظر تحتك فينظر تحته، فإذا باب مفتوح إلى النار، فيقولان: عدو الله، هذا منزلك إذ عصيت الله».

قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا تترد أبداً». قال: وقالت عائشة: ويفتح له سبعة وسبعون باباً إلى النار، يأتية [من]^(٧) حرها وسمومها حتى يبعثه الله إليها^(٨).

هذا حديث غريب جداً، وسياق عجيب، ويزيد الرقاشى - راويه عن أنس - له غرائب ومنكرات، وهو ضعيف الرواية عند الأئمة، والله أعلم.

ولهذا قال أبو داود: حدثنا إبراهيم بن موسى الرازى، حدثنا هشام - هو ابن يوسف - عن عبد الله ابن بحير، عن هانئ مولى عثمان، عن عثمان، رضى الله عنه، قال: كان النبی ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم، واسألوا له بالتثبيت، فإنه الآن يسأل»، انفرد به أبو

(١) فى ت: «يختلف». (٢) فى أ: «يأخذونه».

(٣) فى أ: «أيضاً وهما». (٤) فى ت: «كاللهب».

(٥) زيادة من ت، أ.

(٦) فى ت، أ.

(٧) زيادة من أ. (٨) أورده ابن حجر فى المطالب العالية (٣٨٢/٤) وعزاه لأبى يعلى قال: «هذا حديث عجيب السياق، وهو شاهد لكثير مما ثبت فى حديث البراء الطويل المشهور، ولكن إسناده غريب وفيه ضعف».

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ الآية [الأنعام: ٩٣] حديثاً مطولاً جداً، من طريق غريب، عن الضحاك، عن ابن عباس مرفوعاً، وفيه غرائب أيضاً^(٢).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)﴾^(٣).

قال البخارى: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾: ألم تعلم؟ كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا﴾ [البقرة: ٢٤٣]، البوار: الهلاك، بار يبور بوراً، و﴿قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨، الفتح: ١٢]: هالكين.

حدثنا على بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عطاء سمع ابن عباس: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ قال: هم كفار أهل مكة^(٤).

وقال العوفى، عن ابن عباس فى هذه الآية: هو جيلة بن الأيهم، والذين اتبعوه من العرب، فلحقوا بالروم. والمشهور الصحيح عن ابن عباس هو القول الأول، وإن كان المعنى يعم جميع الكفار؛ فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين، ونعمة للناس، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردّها وكفرها دخل النار.

وقد روى عن على نحو قول ابن عباس الأول، قال ابن أبى حاتم:

حدثنا أبى، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا شعبة، عن القاسم بن أبى بزة، عن أبى الطفيل: أن ابن الكواء سأل علياً عن ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ قال: كفار قريش يوم بدر.

حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا بسام - هو الصيرفى^(٥) - عن أبى الطفيل قال: جاء رجل إلى على فقال: يا أمير المؤمنين، من الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار

(١) سنن أبى داود برقم (٣٢٢١).

(٢) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٣/٣١٨) وقال: «أخرج ابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس فذكره».

(٣) تنبيه: من هذه الآية يتبدى الاعتماد فى تخريج الأحاديث والآثار فى تفسير الطبرى على الطبعة المصورة عن الطبعة الأميرية بعد أن كان الاعتماد على الطبعة التى حققها الفضلان الشيخ أحمد شاكر والأستاذ محمود شاكر فى ستة عشر مجلداً وطبعت فى دار المعارف، والله أسأل أن يقيض لهذا الكتاب من يكمل تحقيقه فهو من أعظم كتب التفسير وأجلها، والله المستعان.

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٠٠).

(٥) فى ت: «الصيرفى».

البوار؟ قال: منافقو قريش.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نفيل قال: قرأت على مَعْقِل، عن ابن أبي حسين ^(١) قال: قام على بن أبي طالب، رضى الله عنه، فقال: ألا أحد يسألنى عن القرآن، فوالله لو أعلم اليوم أحداً أعلم منى به ^(٢) وإن كان من وراء البحار لأتيته. فقام عبد الله بن الكواء ^(٣) فقال: من الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار؟ فقال: مشركو قريش، أتتهم نعمة ^(٤) الله: الإيمان، فبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار.

وقال العدوى فى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ الآية، ذكر مسلم المستوفى ^(٥) عن على أنه قال: هما الأفجران من قريش: بنو أمية، وبنو المغيرة، فأما بنو المغيرة فأحلوا قومهم دار البوار يوم بدر، وأما بنو أمية فأحلوا قومهم دار البوار يوم أحد. وكان أبو جهل يوم بدر، وأبو سفيان يوم أحد. وأما دار البوار فهي جهنم.

وقال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا الحارث بن منصور، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن مرة قال: سمعت علياً قرأ هذه الآية: ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ﴾ قال: هما الأفجران من قريش: بنو أمية وبنو المغيرة، فأما بنو المغيرة فأهلكوا يوم بدر، وأما بنو أمية فمتّعوا إلى حين.

ورواه أبو إسحاق، عن عمرو بن مرة، عن على، نحوه، وروى من غير وجه عنه.

وقال سفيان الثوري، عن علي بن زيد، عن يوسف بن سعد، عن عمر بن الخطاب، فى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ قال: هما الأفجران من قريش: بنو المغيرة وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فكفّيتهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتّعوا إلى حين.

وكذا رواه حمزة الزيات، عن عمرو بن مرة قال: قال ابن عباس لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، هذه الآية: ﴿الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ﴾، قال: هم الأفجران من قريش: أخوالى وأعمامك فأما أخوالى فاستأصلهم الله يوم بدر، وأما أعمامك فأملى الله لهم إلى حين.

وقال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة بن زيد ^(٦): هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر وكذا رواه مالك فى تفسيره عن نافع، عن ابن عمر.

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أى: جعلوا له ^(٧) شركاء عبدوهم معه، ودعوا الناس إلى ذلك.

ثم قال تعالى مهّداً لهم ^(٨) ومتوعداً لهم على لسان نبيه ﷺ: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾

(٣) فى ت: «الكراء».

(٦) فى ت: «وقتادة وابن زيد».

(٢) فى ت، أ: «به منى».

(٥) فى أ: «المسوف».

(٨) فى ت: «له».

(١) فى ت، أ: «حين».

(٤) فى ت، أ: «نعم».

(٧) فى ت: «جعلوا لله».

أى: مهما قدرتم عليه فى الدنيا فافعلوا، فمهما يكن من شىء ﴿فَإِنْ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أى: مرجعكم وموئلكم إليها، كما قال تعالى: ﴿نُمتِعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤] ، وقال تعالى: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٧٠].

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾ (٣١).

يقول تعالى آمراً العباد ^(١) بطاعته والقيام بحقه، والإحسان إلى خلقه، بأن يقيموا الصلاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات، والنفقة على القربات والإحسان إلى الأجانب.

والمراد بإقامتها هو: المحافظة على وقتها وحدودها، وركوعها وخشوعها وسجودها.

وأمر تعالى بالإنفاق مما رزق فى السر، أى: فى الخفية، والعلانية وهي: الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ وهو يوم القيامة، وهو يوم ﴿لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾ أى: لا يقبل من أحد فدية بأن تباع ^(٢) نفسه، كما قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحديد: ١٥].

وقوله: ﴿وَلَا خِلَالَ﴾ قال ابن جرير: يقول: ليس هناك مُخَالَةٌ ^(٣) خليل، فيصفتح ^(٤) عن استوجب العقوبة، عن العقاب لمُخَالَتِهِ، بل هنالك العدل والقسط، فالخلال مصدر، من قول القائل: «خاللت فلانا، فأنا أخاله مُخَالَةً وخالال»، ومنه قول امرئ القيس:

صَرَفْتُ الْهَوَىٰ عَنْهُمْ مِّنْ خَشْيَةِ الرَّدَىٰ وَلَكَسْتُ بِمَقْلَى الْخِلَالِ وَلَا قَالَ ^(٥).

وقال قتادة: إن الله قد علم أن فى الدنيا بيوعا وخلالا يتخاللون بها فى الدنيا، فينظر رجل من يخال وعلام صاحب، فإن كان لله فليداوم، وإن كان لغير الله فسيقطع عنه.

قلت: والمراد من هذا أنه يخبر تعالى أنه لا ينفع أحدا بيع ولا فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً لو وجده، ولا ينفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذ لقى الله كافراً، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

(٣) فى ت: «مخالطة».

(٢) فى ت: «بيع».

(١) فى ت، أ: «العبادة».

(٤) فى ت: «فصفتح».

(٥) البيت فى تفسير الطبرى (١٣/١٤٩).

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾.

يعدد تعالى نعمه على خلقه، بأن خلق لهم السموات سقفاً محفوظاً^(١)، والأرض فراشاً، وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجا من نبات شتى، ما بين ثمار وزروع، مختلفه الألوان والأشكال، والطعوم والروائح والمنافع، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر، تجرى عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر يحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر، جلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هاهنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر، رزقا للعباد من شرب وسقى وغير ذلك من أنواع المنافع.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ أى: يسيران لا يقران^(٢) ليلا ولا نهاراً، ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، ﴿يُغْشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار عارضان^(٣)، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر، ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٤) [لقمان: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الزمر: ٥].

وقوله: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾: يقول: هيا لكم كل ما تحتاجون إليه فى جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم^(٥) وقالكم.

وقال بعض السلف: من كل ما سألتموه وما لم تسألوه.

وقرأ بعضهم: «وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ».

وقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾: يخبر عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلا عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب، رحمه الله: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر^(٦) من أن يحصيها^(٧) العباد، ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين.

(٣) فى ت، أ: «يتعارضان».

(٢) فى أ: «لا يفتران».

(١) فى أ: «مرفوعاً».

(٤) فى هـ ت، أ: «ألا وهو العزيز الغفار» والصواب ما أثبتناه. (٥) فى ت، أ: «خالكم».

(٧) فى ت، أ: «تحصيها».

(٦) فى أ: «أكبر».

وفى صحيح البخارى: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم، لك الحمد غير مكفٍ ولا مودع، ولا مستغنى عنه ربنا»^(١).

وقال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده: حدثنا إسماعيل بن أبى الحارث، حدثنا داود بن المحبر، حدثنا صالح المرى عن جعفر بن زيد العبدي، عن أنس، عن النبى ﷺ أنه قال: «يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة^(٢) داووين، ديوان، فيه العمل الصالح، وديوان فيه ذنوبه، وديوان فيه النعم من الله تعالى عليه، فيقول الله لأصغر^(٣) نعمه - أحسبه. قال: فى ديوان النعم: خذى ثمنك من عمله الصالح، فتستوعب عمله الصالح كله، ثم تنحى وتقول: وعزتك ما استوفيت. وتبقى الذنوب والنعم^(٤) فإذا أراد الله أن يرحم قال: يا عبدي، قد ضاعفت لك حسناتك وتجاوزت عن سيئاتك - أحسبه قال: ووهبت لك نعمى»^(٥). غريب، وسنده ضعيف.

وقد روى فى الأثر: أن داود، عليه السلام، قال: يارب، كيف أشكرك وشكرى لك نعمة منك على؟ فقال الله تعالى: الآن شكرتنى يا داود، أى: حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر النعم. وقال الشافعى، رحمه الله: الحمد لله الذى لا يؤدى شكر نعمة من نعمه، إلا بنعمة^(٦) تُوجب على مؤدى ماضى نعمه بأدائها، نعمة حادثة توجب عليه شكره بها^(٧).

وقال القائل فى ذلك:

لو كل جارحة منى لها لغةً تُثنى عليك بما أوليت من حسنٍ
لكان ما زاد شكرى إذ شكرتُ به إليك أبلغ فى الإحسان والمنن

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦)﴾.

يذكر تعالى فى هذا المقام محتجاً على مشركى العرب، بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذى كانت عامرة بسببه، أهلة تبرأ ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾. وقد استجاب الله له، فقال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ

(١) صحيح البخارى برقم (٥٤٥٨) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه.

(٢) فى أ: «ثلاث» وهو خطأ. (٣) فى ت، أ: «لأصغرهم».

(٤) فى ت، أ: «والنعم والعمل الصالح فيستوعب عمله الصالح كله».

(٥) مسند البزار برقم (٣٤٤٤) «كشف الاستار» وفيه داود بن المحبر وصالح المرى وهما ضعيفان.

(٦) فى هـ، ت، أ: «بنعمة حادثة» والمثبت من الرسالة.

(٧) الرسالة للشافعى (ص ٧، ٨).

أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي ^(١) بَيْكَةً مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴿[آل عمران: ٩٦، ٩٧]، وقال في هذه القصة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾، فعرفه كأنه دعا به بعد بنائها؛ ولهذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة، فإنه دعا أيضا فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]، كما ذكرناه هنالك في سورة البقرة مستقصى مطولا.

وقال: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾، ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته. ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلأثق من الناس وأنه برىء ممن عبدها، ورد أمرهم ^(٢) إلى الله، إن شاء عذبهم ^(٣)، وإن شاء غفر لهم ^(٤)، كما قال عيسى، عليه السلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، وليس في هذا أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى، لا تجويز ^(٥) وقوع ذلك.

قال عبد الله بن وهب: حدثنا عمرو بن الحارث، أن بكر بن سَوَّادٍ حدثه، عن عبد الرحمن بن جُبَيْرٍ ^(٦) عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقول ^(٧) عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ورفع يديه، [ثم] ^(٨) قال: «اللهم أمتي، اللهم أمتي، اللهم أمتي»، وبكى فقال الله: [يا جبريل] ^(٩) اذهب إلى محمد - وربك أعلم - وسله ما يبيحك؟ فأتاه جبريل، عليه السلام، فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ ما قال، [قال] ^(١٠) فقال الله: اذهب إلى محمد، فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك ^(١١).

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه، تأكيداً ورغبة إلى الله، عز وجل؛ ولهذا قال: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾.

وقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: قال ابن جرير: هو متعلق بقوله: ﴿الْمُحَرَّمِ﴾ أى: إنما جعلته محرماً ليمكن أهله من إقامة الصلاة عنده.

(١) فى أ: «اللى» وهو خطأ.
(٢) فى أ: «أمره».
(٣) فى أ: «عذبه».
(٤) فى أ: «له».
(٥) فى ت: «لا تحريه».
(٦) فى أ: «بن جرير».
(٧) فى ت، أ: «وقال».
(٨، ٩) زيادة من ت، أ.
(١٠) زيادة من ت.
(١١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣/١٥١).

﴿فَجَعَلَ أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر: لو قال: «أفندة الناس» لأزدحم عليه فارس والروم واليهود^(١) والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: ﴿مَنْ النَّاسِ﴾ فاختص به المسلمون.

وقوله: ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أى: ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك وكما أنه ﴿وَادَّغِرْ ذِي زَرْعٍ﴾ فاجعل لهم ثماراً يأكلونها. وقد استجاب الله ذلك، كما قال: ﴿أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧]، وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته: أنه ليس فى البلد الحرام مكة شجرة مثمرة، وهى تجبى إليها ثمرات ما حولها، استجابة لخليله إبراهيم، عليه الصلاة والسلام.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)﴾.

قال ابن جرير: يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم خليله أنه قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ أى: أنت تعلم قصدى فى دعائى وما أردت بدعائى لأهل هذا البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها، ولا يخفى عليك منها شيء فى الأرض ولا فى السماء.

ثم حمد ربه، عز وجل، على ما رزقه من الولد بعد الكبر، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾، أى: إنه ليستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لى فيما سألته^(٢) من الولد.

ثم قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ أى: محافظاً عليها مقيماً لحدودها ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أى: واجعلهم كذلك مقيمين^(٣) الصلاة ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ أى: فيما سألتك فيه كله.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾: وقرأ بعضهم: «ولوالدى»، على الأفراد وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه^(٤) لما تبين له عداوته^(٥) لله، عز وجل، ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: كلهم ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أى: يوم تحاسب عبادك فتجزئهم^(٦) بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، [والله أعلم]^(٧).

(٣) فى ت. أ: «مقيمي».

(٢) فى ت: «فيما سألت».

(١) فى ت: «واليهود والروم».

(٦) فى ت: «فيجزئهم».

(٥) فى أ: «أنه عدو».

(٤) فى ت: «ابنه».

(٧) زيادة من أ.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾
 (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنَدْتَهُمْ هَوَاءً (٤٣) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ .

يقول [تعالى شأنه] ^(١): ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ﴾ يامحمد ﴿غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ أى: لا تحسبه إذ ^(٢)أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم، لا يعاقبهم على صنعهم ^(٣)، بل هو يحصى ذلك عليهم ويعدّه عداءً، أى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أى: من شدة الأهوال يوم القيامة. ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم ومجيئهم إلى قيام المحشر فقال: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أى: مسرعين، كما قال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ] ^(٤) [القمر: ٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ إلى قوله: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١٩٨ - ١١١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَّاءَ كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].

وقوله: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد وغير واحد: رافعى رؤوسهم.

﴿يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أى: [بل] ^(٥) أبصارهم طائفة شاخصة، يديمون النظر لا يطفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة ^(٦)، لما يحل بهم، عياذاً بالله العظيم من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَفْنَدْتَهُمْ هَوَاءً﴾ أى: وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة [الفرع و] ^(٧) الوجل والخوف. ولهذا قال قتادة وجماعة: إن أمكنة أفندتهم خالية لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف. وقال بعضهم: ﴿هَوَاءً﴾: خراب لاتعى ^(٨) شيئاً.

ولشدة ما أخبر الله تعالى [به] ^(٩) عنهم، قال لرسوله: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾.

﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾ (٤٤) ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ (٤٥) ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكَرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (٤٦) .

(٣) فى ت، أ: «صنيعهم».

(٦) فى ت: «والمخافة والفكرة».

(٩) زيادة من ت.

(٢) فى ت: «إذا».

(٥) زيادة من أ.

(٨) فى أ: «لايعى».

(١) زيادة من أ.

(٤) زيادة من ت، أ، وفى هـ: «الآية».

(٧) زيادة من ت، أ.

يقول تعالى مخبراً عن قيل الذين ظلموا أنفسهم، عند معاينة العذاب: ﴿رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَأَنْفَقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقْتُ وَأَكُنْ^(١) مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ٩، ١٠]، وقال تعالى مخبراً عنهم في حال محشرهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكَذَّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧] .

وقال تعالى رادا عليهم في قولهم هذا: ﴿أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ أى: أولم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحال: أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه، وأنه لا معاد ولا جزاء، فذوقوا هذا بذاك .

قال مجاهد وغيره: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ أى: ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، كما أخبر عنهم تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨] .

﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ أى: قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأثم المكذبة قبلكم، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر، ولم يكن فيما أوقعنا بهم مزدجر لكم^(٢) ﴿حِكْمَةً بَالِغَةً فَمَا تَغْنِ النَّذِيرُ﴾ [القمر: ٥] .

وقد روى شعبة، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن [بن دايل]^(٣) أن علياً، رضى الله عنه، قال فى هذه الآية: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ قال: أخذ ذاك الذى حاج إبراهيم فى ربه نسرين صغيرين، فرباهما حتى استغلظا واستعلجا وشبا^(٤) .

قال: فأوثق رجل كل واحد منهما بوتد إلى تابوت، وجوعهما، وقعد هو ورجل آخر فى التابوت قال:- ورفع فى التابوت عصا على رأسه اللحم - قال: فطارا [قال]^(٥): وجعل يقول لصاحبه: انظر، ما^(٦) ترى؟ قال: أرى كذا وكذا، حتى قال: أرى الدنيا كلها كأنها ذباب. قال: فقال: صَوَّبَ العصا،

(١) فى أ: «واكون» .

(٢) فى ت: «لكم مزدجر» .

(٣) زيادة من ت، وفى أ: «بن دنيا» .

(٤) فى ت: «فشبا» .

(٥) زيادة من ت، أ .

(٦) فى ت: «ماذا» .

فصوبها، فهبطا. قال: فهو قول الله، عز وجل: «وَإِنْ كَادَ مَكْرُهُمْ لَنَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ». قال أبو إسحاق: وكذلك هي في قراءة عبد الله: «وَإِنْ كَادَ مَكْرُهُمْ»^(١).

قلت: وكذا روى عن أبي بن كعب، وعمر بن الخطاب، رضى الله عنهما، أنهما قرآ: «وَإِنْ كَادَ»، كما قرأ على. وكذا رواه سفيان الثوري، وإسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن أذنان^(٢)، عن علي، فذكر نحوه.

وكذا روى عن عكرمة أن سياق هذه القصة للنمرود ملك كنعان: أنه رام أسباب السماء بهذه الحيلة والمكر، كما رام ذلك بعده فرعون ملك القبط في بناء الصرح، فعجزا وضعفا. وهما أقل وأحقر، وأصغر وأدحر.

وذكر مجاهد هذه القصة عن بختنصر، وأنه لما انقطع بصره عن الأرض وأهلها، نودى أيها الطاغية: أين تريد؟ ففرق، ثم سمع الصوت فوقه فصوب الرماح، فصوبت النسر، ففزع الجبال من هدتها، وكادت الجبال أن أن تزول من حس^(٣) ذلك، فذلك قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَنَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾.

ونقل ابن جريج^(٤) عن مجاهد أنه قرأها: «لَنَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ»، بفتح اللام الأولى، وضم^(٥) الثانية.

وروى العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَنَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ يقول: ما كان مكرهم لنزول من الجبال. وكذا قال الحسن البصري، ووجهه ابن جرير بأن هذا الذي فعلوه بأنفسهم من كفرهم بالله وشركهم به، ما ضر ذلك شيئا من الجبال ولا غيرها، وإنما عاد وبال ذلك على أنفسهم.

قلت: ويشبه هذا إذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

والقول الثاني في تفسيرها: ما رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَنَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾: يقول شركهم، كقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٩، ٩١]، وهكذا قال الضحاك، وقتادة.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ

(١) تفسير الطبري (١٣/ ١٦٠)، وصوب العصا: خفضها وأنزلها أ. هـ. مستفاداً من حاشية الشعب.

(٢) في ت: «أرباب»، وفي أ: «أريان». (٣) في ت: «من حين».

(٤) في أ: «ابن جرير». (٥) في ت، أ: «ورفع».

الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ .

يقول تعالى مقررًا لوعده ومؤكداً: ﴿ فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ أى: من نصرتهم فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

ثم أخبر أنه ذو عزة لا يمتنع ^(١) عليه شئ أراد، ولا يغالب، وذو انتقام ممن ^(٢) كفر به وجحدته ﴿ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الطور: ١١]؛ ولهذا قال: ﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ أى: وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض، وهى هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة، كما جاء فى الصحيحين، من حديث أبى حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقُرْصَةِ النَّقَى، ليس فيها معلّم لأحد» ^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبى عديّ، عن داود، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾، قالت: قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط».

رواه مسلم منفرداً به دون البخارى، والترمذى، وابن ماجه، من حديث داود بن أبى هند، به ^(٤). وقال الترمذى: حسن صحيح.

ورواه أحمد أيضاً، عن عفان، عن وهيب ^(٥)، عن داود، عن الشعبي، عنها ^(٦). ولم يذكر مسروقاً ^(٧).

وقال قتادة، عن حسان بن بلال المزنى، عن عائشة، رضى الله عنها، أنها سألت رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ قال: قالت ^(٨): يا رسول الله، فأين الناس يومئذ؟ قال: «لقد سألتنى ^(٩) عن شئ ما سألتنى عنه أحد من أمتى، ذاك أن الناس على جسر جهنم ^(١٠)» ^(١١).

وروى الإمام أحمد، من حديث حبيب بن أبى عمرة، عن مجاهد، عن ابن عباس، حدثنى عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ، عن قوله تعالى: ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ

(١) فى ت: «تمتنع».

(٣) صحيح البخارى برقم (٦٥٢١) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٠).

(٤) المسند / ٦ / ٣٥ وصحيح مسلم برقم (٢٧٩١) وسنن الترمذى برقم (٣١٢١) وابن ماجه برقم (٤٢٧٩).

(٥) فى ت: «وهب».

(٧) المسند / ٦ / ١٣٤.

(٨) فى ت، أ: «قلت».

(٩) فى ت: «سألتنى».

(١٠) فى ت: «على حشرهم».

(١١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣ / ١٦٦).

مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ» [الزمر: ٦٧]، فأين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «هم على متن جهنم»^(١).

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن، حدثنا علي بن الجعد، أخبرني القاسم، سمعت الحسن قال: قالت عائشة: يا رسول الله، «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ»، فأين الناس يومئذ؟ قال: «إن هذا شيء ما سألتني عنه أحد»، قال: «على الصراط يا عائشة».

ورواه أحمد، عن عفان^(٢)، عن القاسم بن الفضل، عن الحسن، به^(٣).

وقال الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه: حدثني الحسن بن علي الحلواني، حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع، حدثنا معاوية بن سلام، عن زيد - يعني: أخاه - أنه سمع أبا سلام، حدثني أبو أسماء الرحبي؛ أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ حدثه قال: كنت قائما عند رسول الله ﷺ، فجاءه^(٤) حبر من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد. فدفعته دفعة كاد يُصرَع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول: يا رسول الله؟! فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سمَّاه به أهله! فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي». فقال اليهودي: جئت أسألك. فقال رسول الله ﷺ: «أينفعك شيء إن حدثتك؟» فقال: أسمع بأذني. فنكت رسول الله ﷺ بعود معه، فقال: «سل». فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر»^(٥). قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: فقال: «[فقراء]^(٦) المهاجرين». قال اليهودي: فما تُحَقِّقُهُمْ حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد النون» قال: فما غذاؤهم في أثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها». قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسبيلا». قال: صدقت. قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان؟ قال: «ينفعك إن حدثتك؟» قال: أسمع بأذني. قال: جئت أسألك عن الولد. قال: «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة أذكرا^(٧) بإذن الله - تعالى - وإذا علا مني المرأة مني الرجل أنثا بإذن الله». قال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنبي. ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألتني هذا عن الذي سألتني عنه، وما لي علم بشيء منه، حتى أتاني الله به»^(٨).

[و]^(٩) قال أبو جعفر بن جرير الطبري: حدثني ابن عوف، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا ابن أبي

(١) المسند (٦/ ١١٧).

(٢) في ت، أ: «عثمان».

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ١٦٦) والمسند (٦/ ١٠١).

(٤) في ت: «الخشر».

(٥) في ت: «فجاء».

(٦) في أ: «ذكرا».

(٧) زيادة من ت، أ، ومسلم.

(٨) صحيح مسلم برقم: (٣١٥).

(٩) زيادة من ت.

مريم، حدثنا سعيد بن ثوبان الكلاعي، عن أبي أيوب الأنصاري، قال: أتى النبي ﷺ خبر من اليهود فقال: أرايت إذ يقول الله في كتابه: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾، فأين الخلق عند ذلك؟ فقال: «أضياف الله، فلن يعجزهم ما لديه»^(١).

ورواه ابن أبي حاتم، من حديث أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم، به.

وقال شعبة: أخبرنا أبو إسحاق، سمعت عمرو بن ميمون - وربما قال: قال عبد الله، وربما لم يقل - فقلت له: عن عبد الله؟ فقال: سمعت عمرو بن ميمون يقول: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ قال: أرض كالفضة البيضاء نقية، لم يسفك فيها دم، ولم يعمل عليها^(٢) خطيئة، ينفذهم البصر، ويسمعهم الداعى، حفاة عراة كما خلقوا. قال: أراه قال: قياما حتى يلجمهم العرق^(٣).

وروى من وجه آخر عن شعبة وعن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن ابن مسعود، بنحوه. وكذا رواه عاصم، عن زرّ، عن ابن مسعود، به.

وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، لم يخبر به. أورد ذلك كله ابن جرير^(٤).

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبيد بن عقيل، حدثنا سهل بن حماد أبو عتّاب، حدثنا جرير بن أيوب، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله، عن النبي ﷺ في قول الله، عز وجل: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ قال: «أرض بيضاء لم يسقط عليها دم»^(٥)، ولم يعمل عليها خطيئة. ثم قال: لا نعلم رفعه إلا جرير بن أيوب، وليس بالقوى^(٦).

ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا معاوية بن هشام، عن سنان^(٧)، عن جابر الجعفي، عن أبي جبيرة^(٨)، عن زيد قال: أرسل رسول الله ﷺ إلى اليهود فقال: «هل تدرون لم أرسلت إليهم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أرسلت إليهم أسألهم عن قول الله: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾، إنها تكون يومئذ بيضاء مثل الفضة». فلما جاؤوا سألهم فقالوا: تكون بيضاء مثل النقي^(٩).

وهكذا روى عن علي، وابن عباس، وأنس بن مالك، ومجاهد بن جبير: أنها تبدل يوم القيامة بأرض من فضة.

وعن علي، رضى الله عنه، أنه قال: تصير الأرض فضة، والسموات ذهباً.

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٣ / ١٦٤).

(٢) في ت، أ: «فيها».

(٣) ٤، تفسير الطبري (١٣ / ١٦٤).

(٥) في ت: «دما».

(٦) مسند البزار برقم (٣٤٣١) «كشف الاستار» وجرير بن أيوب ضعفه الأئمة.

(٧) في ت، أ: «شيبان».

(٨) في أ: «عن ابن حبرة».

(٩) تفسير الطبري (١٣ / ١٦٤).

وقال الربيع: عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: تصير السموات جنانا.

وقال أبو معشر، عن محمد بن كعب القرظي، أو عن محمد بن قيس في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾، قال: [تبدل]^(١) خبزة يأكل منها المؤمنون^(٢) من تحت أقدامهم^(٣).

وكذا رَوَى وَكِيع، عن عمر بن بشير الهمداني، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ قال: تبدل خبزة بيضاء، يأكل المؤمن من تحت قدميه.

وقال الأعمش، عن خيثمة قال: قال عبد الله - هو ابن مسعود -: الأرض كلها يوم القيامة^(٤) نار، والجنة من ورائها ترى كواعبها وأكوابها، ويلجَمُ الناس العرق، أو يبلغ منهم العرق، ولم يبلغوا الحساب.

وقال الأعمش أيضاً، عن المنهال بن عمرو، عن قيس بن السكن^(٥) قال: قال عبد الله: الأرض كلها نار يوم القيامة، [و]^(٦) الجنة من ورائها، ترى أكوابها وكواعبها، والذي نفس عبد الله بيده، إن الرجل ليفيض عرقاً حتى ترسخ^(٧) في الأرض قدمه، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه، وما مسه الحساب. قالوا^(٨): مم ذاك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: مما يرى الناس يلقون^(٩).

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن كعب في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾، قال: تصير السموات جنانا، ويصير مكان البحر ناراً، وتبدل الأرض غيرها.

وفى الحديث الذي رواه أبو داود: «لا يركب البحر إلا غاز أو حجاج أو معتمر، فإن تحت البحر ناراً - أو: تحت النار بحراً»^(١٠).

وفى حديث الصور المشهور المروى عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «تبدل الأرض غير الأرض والسموات، فيسطها ويمدها مد الأديم العكاظي، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ثم يزجر الله الخلق زجرة، فإذا هم في هذه المبدلة»^(١١).

وقوله: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ﴾ أى: خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أى: الذى

(٣) فى أ: «قدميه».

(٦) زيادة من ت، أ.

(٢) فى ت، أ: «المؤمن».

(٥) فى ت: «ابن سكن».

(١) زيادة من أ.

(٤) فى ت: «يوم القيامة كلها».

(٧) فى ت: «يرسخ»، وفى أ: «يرشح».

(٨) فى ت: «فقالوا».

(٩) تفسير الطبرى (١٣/ ١٦٤، ١٦٥).

(١٠) سنن أبي داود برقم (٢٤٨٩) ولفظه: «فإن تحت البحر ناراً، وتحت النار بحراً» رواه من طريق بشر أبي عبد الله، عن بشير بن مسلم، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً، وقد ضعف هذا الحديث جماعة من الأئمة. انظر أقوالهم فى: السلسلة الضعيفة برقم (٤٧٨).

(١١) سبق تخريج الحديث عند تفسير سورة الأنعام.

قهر كل شيء وغلبه، ودانت له الرقاب، وخضعت له الألباب.

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١)﴾.

يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾، وتبرز الخلائق لديانها، ترى يا محمد يومئذ المجرمين، وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم، ﴿مُّقْرَّنِينَ﴾ أى: بعضهم إلى بعض، قد جمع بين النظراء أو الأشكال^(١) منهم، كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصفات: ٢٢]، وقال: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]، وقال: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقْرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣]، وقال: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ. وَآخَرِينَ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٧، ٣٨].

والأصفاد: هى القيود، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، والأعمش، وعبد الرحمن بن زيد. وهو مشهور فى اللغة، قال عمرو بن كلثوم.

فَأَبَوْا^(٢) بِالْثِيَابِ وَبِالسَّبَايَا وَأَبْنَا بِالْمُلُوكِ^(٣) مُصْقَدِينَا^(٤)

وقوله: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ﴾ أى: ثيابهم التى يلبسونها عليهم من قطران، وهو الذى تُهَنَأُ به الإبل، أى: تطفى، قاله قتادة. وهو ألصق شيء بالنار.

ويقال فيه: «قَطِرَان»، بفتح القاف وكسر الطاء، وبفتح القاف وتسكين الطاء، وبكسر القاف وتسكين الطاء، ومنه قول أبى النجم.

كَأَنَّ قَطِرَانًا إِذَا تَلَاهَا تَرْمَى^(٥) بِهِ الرِّيحُ إِلَى مَجْرَاهَا^(٦)

وكان ابن عباس يقول: القَطِرَان هو: النحاس المذاب، وربما قرأها: «سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ» أى: من نحاس حار قد انتهى حره. وكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة.

وقوله: ﴿وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾، كقوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا يحيى بن إسحاق، أنبأنا أبان بن يزيد، عن يحيى بن أبى

(١) فى ت: «النظر والأشكال».

(٢) فى ت: «فأبوا».

(٣) فى ت: «وأبنا الملوك»، وفى أ: «وأبناء الملوك».

(٤) البيت فى تفسير الطبرى (١٣ / ١٦٧).

(٥) فى ت: «يرمى».

(٦) البيت فى تفسير الطبرى (١٣ / ١٦٧).

(٧) فى ت: «ويغشى».

كثير، عن زيد، عن أبي سلام، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من أمر الجاهلية لا يتركن^(١): الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة، والنائحة^(٢)» إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب». انفراد بإخراجه مسلم^(٣).

وفى حديث القاسم، عن أبي أمامة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «النائحة إذا لم تتب، توقف في طريق^(٤) بين الجنة والنار، وسرايلها من قطران، وتغشى وجهها النار»^(٥).

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَي: يوم^(٦) القيامة، كما قال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى﴾ [النجم: ٣١].

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: يحتمل أن يكون كقوله^(٧) تعالى: ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، ويحتمل أنه في حال محاسبته^(٨) لعبده سريع النجاز؛ لأنه يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق^(٩) بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وهذا معنى قول مجاهد: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: [إحصاء]^(١٠).

ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين، والله أعلم.

﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا أُولَ الْأَلْبَابِ (٥٢)﴾.

يقول تعالى: هذا القرآن بلاغ للناس، كقوله: ﴿لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] أى: هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجان، كما قال فى أول السورة: ﴿الرَّ. كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾.

﴿وَلِيُنذِرُوا بِهِ﴾ أى: ليتعظوا^(١١) به، ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أى: يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو^(١٢)، ﴿وَلِيَذْكُرُوا أُولَ الْأَلْبَابِ﴾ أى: ذوو العقول.

(١) فى ت: «لابد لهن»، وفى أ: «لا يزكهن».

(٢) فى أ: «والنائحة».

(٣) المسند (٥/ ٣٤٢) وصحيح مسلم برقم (٩٣٤).

(٤) فى ت: «الطريق».

(٥) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨/ ٢٣٨) من طريق عبيد الله بن زحر، عن على بن يزيد، عن القاسم - وكلهم ضعفاء - عن أبي أمامة به. وقد قال ابن حبان: «إذا جاء الحديث من طريق عبيد الله بن زحر عن على بن يزيد، عن القاسم، فهو مما صنعه أيديهم».

(٦) فى ت: «قوله».

(٦) فى ت، أ: «أى يقسم يوم».

(٩) فى ت: «الخلايق».

(٨) فى ت: «محسباته».

(١١) فى ت، أ: «يتعظوا».

(١٠) زيادة من ت، أ.

(١٢) فى ت، أ: «إلا الله».

تفسير سورة الحجر

وهى مكة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١) رَبُّمَا يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِيهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣)﴾.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور.

وقوله: ﴿رَبُّمَا يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾: إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنون لو كانوا مع المسلمين فى الدار الدنيا^(١).

ونقل^(٢) السدى فى تفسيره بسنده المشهور عن ابن عباس، وابن مسعود، وغيرهما من الصحابة: أن الكفار^(٣) لما عُرِضُوا على النار، تمنوا أن لو كانوا مسلمين.

وقيل: المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمنا.

وقيل: هذا إخبار عن يوم القيامة، كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

وقال سفيان الثورى، عن سلمة بن كهيل، عن أبى الزعراء، عن عبد الله فى قوله: ﴿رَبُّمَا يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ قال: هذا فى الجهنمين إذ رأوهم يخرجون من النار.

وقال ابن جرير: حدثنا المثنى، حدثنا مسلم، حدثنا القاسم، حدثنا ابن أبى فروة العبدى؛ أن ابن عباس وأنس بن مالك كان يتأولان هذه الآية: ﴿رَبُّمَا يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾، يتأولانها: يوم يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين فى النار. قال: فيقول لهم المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون فى الدنيا. قال: فيغضب الله لهم بفضل رحمته، فيخرجهم، فذلك حين يقول: ﴿رَبُّمَا يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثورى، عن حماد، عن إبراهيم، عن خصيف، عن مجاهد قالوا: يقول أهل النار للموحدين: ما أغنى عنكم إيمانكم؟ فإذا^(٤) قالوا ذلك. قال: أخرجوا من كان فى قلبه مثقال ذرة. قال: فعند ذلك قوله: ﴿[رَبُّمَا] يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾^(٥).

وهكذا روى عن الضحاك، وقتادة، وأبى العالية، وغيرهم. وقد ورد فى ذلك أحاديث مرفوعة، فقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى:

(١) فى ت: «فى الدار الدنيا مع المسلمين». (٢) فى أ: «وقال». (٣) فى ت، أ: «أن كفار بدر».

(٤) فى ت، أ: «قال: فإذا». (٥) زيادة من ت، أ.

(٦) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٩٩).

حدثنا محمد بن العباس، هو الأخرم، حدثنا محمد بن منصور الطوسي، حدثنا صالح بن إسحاق الجهدي^(١) دلى عليه يحيى بن معين^(٢)، حدثنا معمر^(٣) بن واصل، عن يعقوب بن أبي نباتة^(٤)، عن عبد الرحمن الأغر، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ناسا من أهل لا إله إلا الله يدخلون النار بذنوبهم، فيقول لهم أهل اللات والعزى: ما أغنى عنكم قولكم: لا إله إلا الله وأنتم معنا فى النار؟ فيغضب الله لهم، فيخرجهم، فيلقاهم فى نهر الحياة، فيبرؤون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه، فيدخلون الجنة، ويسمّون فيها الجهنميين»^(٥). فقال رجل: يا أنس، أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ فقال أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كذب على متعمداً، فليتبوأ مقعده من النار». نعم، أنا سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا. ثم قال الطبرانى: تفرد به الجهدي^{(٦)(٧)}.

الحديث الثانى: وقال الطبرانى أيضاً: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبو الشعثاء^(٨) على بن الحسن الواسطى، حدثنا خالد بن نافع الأشعرى، عن سعيد بن أبى بردة، عن أبيه، عن أبى موسى، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتمع أهل النار فى النار، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى. قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام! فقد صرتم»^(٩) معنا فى النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها. فسمع^(١٠) الله ما قالوا، فأمر بمن كان فى النار من أهل القبلة فأخرجوا، فلما رأى ذلك من بقى من الكفار قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا. قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ. رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾^(١١). ورواه ابن أبى حاتم، من حديث خالد بن نافع، به، وزاد فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم)، عوض الاستعاذة.

الحديث الثالث: وقال الطبرانى^(١٢) أيضاً: حدثنا موسى بن هارون، حدثنا إسحاق بن راهويه قال: قلت لأبى أسامة: أحدثكم أبو روق^(١٣) - واسمه عطية بن الحارث -: حدثنى صالح بن أبى طريف قال: سألت أبا سعيد الخدرى فقلت له: هل سمعت رسول الله ﷺ يقول فى هذه الآية: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾؟ قال: نعم، سمعته يقول: «يُخرج الله ناسا من المؤمنين من

(١) فى ت: «الجهدي». (٢) فى هـ: «رأى عليه بن موسى» والمثبت من المعجم.

(٣) فى ت، أ: «معروف». (٤) فى ت، أ، هـ: «يعقوب بن نباتة» والصواب ما أثبتناه من المعجم والتهذيب.

(٥) فى ت، أ: «الجهنميون». (٦) فى ت: «الجهدي».

(٧) المعجم الأوسط برقم (٤٨٢١) «مجمع البحرين» وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٣٨٠): «فيه من لم أعرفهم».

(٨) فى ت: «أبو السقا». (٩) فى ت، أ: «حشرتم». (١٠) فى أ: «فسمع».

(١١) قال الهيثمى فى المجمع (٧ / ٤٥): «رواه الطبرانى، وفيه خالد بن نافع الأشعرى، قال أبو داود: متروك. وقال الذهبى: هذا تجاوز فى الحد فلا يستحق الترك، فقد حدث عنه أحمد بن حنبل وغيره، وبقية رجاله ثقات» ورواه ابن أبى عاصم فى السنة برقم (٨٤٣) والحاكم فى المستدرک (٢ / ٢٤٢) عن أبى الشعثاء به، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(١٢) فى ت: «وقال الطبرانى الحديث الثالث». (١٣) فى ت: «أبو أروق».

النار بعد ما يأخذ نقمته منهم»، وقال: «لما أدخلهم الله النار مع المشركين قال لهم المشركون: تزعمون أنكم أولياء الله في الدنيا، فما بالكم معنا في النار؟ فإذا سمع الله ذلك منهم، أذن في الشفاعة لهم فتشفع^(١) الملائكة والنبيون، ويشفع^(٢) المؤمنون، حتى يخرجوا بإذن الله، فإذا رأى المشركون ذلك، قالوا: يا ليتنا كنا مثلهم، فتدركنا الشفاعة، فنخرج معهم». قال: «فذلك قول الله: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾، فيسمون في الجنة الجهنميين^(٣)، من أجل سواد في وجوههم، فيقولون: يا رب، أذهب عنا هذا الاسم، فيأمرهم فيغتسلون في نهر الجنة، فيذهب ذلك الاسم عنهم»، فأقر به أبو أسامة، وقال: نعم^(٤).

الحديث الرابع^(٥): وقال^(٦) ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا العباس بن الوليد النرسي^(٧)، حدثنا مسكين أبو فاطمة، حدثني اليمان بن يزيد، عن محمد بن حمير^(٨)، عن محمد ابن علي، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «منهم من تأخذ النار إلى ركبته، ومنهم من تأخذ النار إلى حجزته، ومنهم من تأخذ النار إلى عنقه، على قدر ذنوبهم وأعمالهم، ومنهم من يمكث فيها شهرا ثم يخرج منها، ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج منها، وأطولهم فيها مكثا بقدر الدنيا منذ يوم خلقت إلى أن تفتنى، فإذا أراد الله أن يخرجها منها قالت اليهود والنصارى ومن في النار من أهل^(٩) الأديان والأوثان، لمن في النار من أهل التوحيد: آمنتم بالله وكتبه ورسله، فنحن وأنتم اليوم في النار سواء، فيغضب الله لهم غضبا لم يغضبه لشيء فيما مضى، فيخرجهم إلى عين في الجنة، وهو قوله: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾»^(١٠).

وقوله: ﴿ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾: تهديد لهم شديد، ووعد أكيد، كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَّصِيرُكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، وقوله: ﴿كُلُّوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦]؛ ولهذا قال: ﴿وَيُلْهِمُهُمُ الْأَمْلَ﴾ أى: عن التوبة والإنابة، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أى: عاقبة أمرهم.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۖ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥)﴾

يقول تعالى: إنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها، وإنه لا يؤخر أمة حان هلاكها^(١١) عن ميقاتها ولا يتقدمون عن مدتهم. وهذا تنبيه لأهل مكة، وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما

(١) فى ت، أ: «فيشفع». (٢) فى ت: «وشفع». (٣) فى ت، أ: «الجهنمية».

(٤) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٥٩٩) «موارد» من طريق عمر بن محمد بن أبان، عن أبى أسامة به نحوه.

(٥) فى ت: «وقال الحديث الرابع». (٦) فى ت: «وحدثنا». (٧) فى ت: «الزنى»، وفى أ: «الزنى».

(٨) فى ت، أ: «جبر»، وفى هـ: «جبر». (٩) فى ت، أ: «وأهل».

(١٠) ورواه ابن الجوزى فى العلل المتناهية (٢/ ٤٥٧) من طريق البغوى عن عباس بن الوليد النرسي به، ورواه الخطيب فى تاريخ

بغداد (٦/ ١٥٦) وابن الجوزى فى العلل المتناهية (٢/ ٤٥٦) من طريق إبراهيم بن محمد السامري، عن عباد بن الوليد الغبري،

عن أبى فاطمة، عن اليمان بن يزيد به نحوه، وقال ابن الجوزى: «هذا حديث لا يصح وفيه جماعة مجاهيل».

(١١) فى ت: «هلاكم».

هم فيه من الشرك والعناد والإلحاد، الذى يستحقون به الهلاك.

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ .

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم وعنادهم فى قولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أى: الذى يدعى ذلك ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ أى: فى دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آبائنا. ﴿لَوْ مَا﴾ أى: هلاً ﴿تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾ أى: يشهدون لك بصحة ما جئت به ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، كما قال فرعون: ﴿قُلْ لَّا أَلْقِي عَلَيْهِ أَسَاوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢١، ٢٢].

وكذا^(١) قال فى هذه الآية: ﴿مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: بالرسالة والعذاب.

ثم قرر تعالى أنه هو الذى أنزل الذكر، وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغير والتبديل. ومنهم من أعاد الضمير فى قوله تعالى: ﴿لَهُ لِحَافِظُونَ﴾ على النبى ﷺ، كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] والمعنى الأول أولى، وهو ظاهر السياق، [والله أعلم]^(٢).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ .

يقول تعالى مسلياً لرسوله فى تكذيب من كذبه من كفار قريش: إنه أرسل من قبله فى الأمم الماضية، وإنه ما أتى أمة رسول إلا كذبوه واستهزؤوا به.

ثم أخبر أنه سلك التكذيب فى قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى.

قال أنس، والحسن البصرى: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾: يعنى: الشرك.

وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أى: قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار، وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم فى الدنيا والآخرة.

(١) فى ت، أ: «وهكذا». (٢) زيادة من أ.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥)﴾.

يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق: أنه لو فتح لهم باباً من السماء، فجعلوا يصعدون فيه، لما صدقوا بذلك، بل قالوا: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾.

قال مجاهد وابن كثير، والضحاك: سدت أبصارنا.

وقال قتادة، عن ابن عباس: أخذت أبصارنا.

وقال العوفي عن ابن عباس: شُبِّه علينا، وإنما سحرنا.

وقال الكلبي: عَمِيَتْ أَبْصَارُنَا.

وقال ابن زيد: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾، السكران^(١) الذي لا يعقل.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لُّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠)﴾.

يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها وما زينها به من الكواكب الثواب، لمن تأملها، وكرر النظر^(٢) فيها، يرى فيها من العجائب والآيات الباهرات، ما يحار نظره فيه. ولهذا قال مجاهد وقاتدة: البروج هاهنا هي: الكواكب.

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]. ومنهم من قال: البروج هي: منازل الشمس والقمر. وقال عطية العوفي: البروج هاهنا: هي قصور الحرس^(٣).

وجعل الشهب حرساً لها من مَرَدَةِ الشياطين، لئلا يسمعوا^(٤) إلى الملائكة الأعلى، فمن تمرد منهم [وتقدم]^(٥) لاستراق السمع، جاءه ﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ فأتلفه، فربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذي هو دونه، فيأخذها الآخر، ويأتي بها إلى وليه، كما جاء مصرحاً به في الصحيح، كما قال البخاري في تفسير هذه الآية:

حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان^(٦)، عن عمرو، عن عكرمة، عن أبي هريرة، يبلغ به النبي ﷺ، قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان». قال علي، وقال غيره: صفوان ينقذهم ذلك، فإذا فُزَّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الذي قال: الحق، وهو العلي الكبير. فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع،

(١) في أ: «السكر». (٢) في ت: «نظره». (٣) في ت: «الحرس فيها».

(٤) في أ: «لئلا يسمعوا». (٥) زيادة من ت، أ. (٦) في ت: «حدثنا ابن سفيان».

هكذا واحد فوق آخر - ووصف سفيان بيده فَفَرَجَ بين أصابع يده اليمنى، نَصَبَهَا بعضها^(١) فوق بعض -
 فرمما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يَرْمَى بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه [حتى]^(٢) يَرْمَى بها
 إلى الذى يليه، [إلى الذى]^(٣) هو أسفل منه، حتى يلقيها إلى الأرض - وربما قال سفيان: حتى
 تنتهى إلى الأرض فتلقى^(٤) على فم الساحر - أو: الكاهن - فيكذب معها مائة كذبة^(٥)، فيقولون: ألم
 يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فوجدناه حقاً؟ للكلمة التى سمعت من السماء^(٦).

ثم ذكر، تعالى، خلقه الأرض، ومدّه إياها وتوسيعها وبسطها، وما جعل فيها من الجبال
 الرواسى، والأودية والأراضى والرمال، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المناسبة.
 وقال ابن عباس: ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٌ ﴾ أى: معلوم. وكذا قال سعيد بن جبیر، وعكرمة، وأبو
 مالك، ومجاهد، والحكم بن عتيبة^(٧)، والحسن بن محمد، وأبو صالح، وقتادة.
 ومنهم من يقول: مقدر بقدر.

وقال ابن زيد: من كل شيء يُوزَنُ^(٨) ويقدر بقدر. وقال ابن زيد: ما تزنه [أهل]^(٩) الأسواق.
 وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾: يذكر، تعالى، أنه صرفهم فى الأرض
 فى صنوف [من]^(١٠) الأسباب والمعاش، وهى جمع معيشة.
 وقوله: ﴿ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾: قال مجاهد: وهى الدواب والأنعام.
 وقال ابن جرير: هم العبيد والإماء والدواب والأنعام.
 والقصد أنه، تعالى، يمتن^(١١) عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف
 المعاش، وبما سخر لهم من الدواب التى يركبونها والأنعام التى يأكلونها، والعبيد والإماء التى
 يستخدمونها، ورزقهم على خالقهم لا عليهم فلهم هم المنفعة، والرزق على الله تعالى.
 [وقوله]^(١٢):

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاحِحَ
 فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ
 الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ
 يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥) ﴾.

يخبر، تعالى، أنه مالك كل شيء، وأن كل شيء سهل عليه، يسير لديه، وأن^(١٣) عنده خزائن

(٢، ٣) زيادة من ت، أ، والبخارى.

(٥) فى ت، أ: «كذبة فيصدق».

(١) فى أ: «بعضاً».

(٤) فى ت، أ: «فيلقى».

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧٠١).

(٧) فى أ: «عيينة».

(٨) فى أ: «موزون».

(٩) زيادة من ت، أ.

(١٠) زيادة من أ.

(١١) فى ت: «يمنت تعالى».

(١٢) زيادة من أ.

(١٣) فى ت، أ: «وأنه».

الأشياء من جميع الصنوف، ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾، كما يشاء وكما يريد، ولما لهُ في ذلك من الحكمة البالغة، والرحمة بعباده، لا على [وجهه] ^(١) الوجوب، بل هو كتب على نفسه الرحمة.

قال يزيد بن أبي زياد، عن أبي جحيفة، عن عبد الله: ما من عام بأمر من عام، ولكن الله يقسمه حيث شاء ^(٢)، عاماً هاهنا، وعاماً هاهنا. ثم قرأ: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾. رواه ابن جرير ^(٣).

وقال أيضاً: حدثنا القاسم، حدثنا الحسن ^(٤)، حدثنا هشيم، أخبرنا إسماعيل بن سالم، عن الحكم بن عتيبة ^(٥) في قوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ قال: ما ^(٦) عام بأكثر مطراً من عام ولا أقل، ولكنه يُمطر قوم ويحرم آخرون وربما ^(٧) كان في البحر. قال: وبلغنا أنه ينزل مع المطر من الملائكة أكثر من عدد ولد إبليس وولد آدم، يُحصون كل قطرة حيث تقع وما تنبت ^(٨) ^(٩).

وقال البزار: حدثنا داود - وهو ابن بكر ^(١٠) التستري - حدثنا حبان ^(١١) بن أغلب بن تميم، حدثني أبي، عن هشام، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «خزائن الله الكلام، فإذا أراد شيئاً قال له: كن، فكان» ^(١٢).

ثم قال: لا يرويه إلا أغلب، ولم يكن بالقوى، وقد حدث عنه غير واحد من المتقدمين، ولم يروه عنه إلا ابنه.

وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَافِحَ﴾ أى: تلحق السحاب فتدبر ماء، وتلقح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها.

هذه «الرياح» ذكرها بصيغة الجمع، ليكون منها الإنتاج، بخلاف الريح العقيم فإنه أفردتها، ووصفها بالعقيم، وهو عدم الإنتاج؛ لأنه لا يكون إلا من ^(١٣) شيئين فصاعداً.

وقال الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن قيس بن السكن، عن عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَافِحَ﴾ قال: ترسل الريح، فتحمل الماء من السماء، ثم تمرى السحاب، حتى تدر كما تدر اللقحة.

وكذا قال ابن عباس، وإبراهيم النخعي، وقتادة.

وقال الضحاك: يبعثها الله على السحاب، فتلقحه، فيمتلئ ^(١٤) ماء.

(٢) في أ: «يشاء».

(١) زيادة من ت، أ.

(٣) تفسير الطبرى (١٤ / ١٤).

(٦) في أ: «من».

(٥) في أ: «عينة».

(٤) في ت: «الحسين».

(٨) في ت: «ينبت».

(٧) في هـ، ت، أ: «بما» والمثبت من الطبرى.

(٩) تفسير الطبرى (١٤ / ١٤).

(١٠) وفي مخطوطة مسند البزار: «داود، وهو ابن بكر».

(١١) في هـ، وفي مخطوطة مسند البزار: «حيان»، والمثبت من ت، أ.

(١٢) ورواه أبو الشيخ في العظمة برقم (١٥٥) من طريق محمد بن عبد العزيز، عن حبان عن أبيه به.

(١٤) في ت: «فتمتلئ».

(١٣) في ت، أ: «بين».

وقال عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ اللَّيْثِيُّ: يَبْعَثُ اللَّهُ الْمُبَشِّرَةَ فَتَقْمُ الْأَرْضُ قَمًّا ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ الْمَثِيرَةَ^(١) فَتَشِيرُ السَّحَابُ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ الْمُؤَلِّفَةَ فَتَوَلِّفُ السَّحَابَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ اللَّوَاقِحَ فَتَلْقَحُ الشَّجَرُ، ثُمَّ تَلَا: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ﴾.

وقد روى ابن جرير، من حديث عُبَيْسٍ^(٢) بن ميمون، عن أَبِي الْمُهَزَّمِ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ، عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الرَّيْحُ الْجَنُوبُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَهِيَ [الرَّيْحُ اللَّوَاقِحُ، وَهِيَ الَّتِي]^(٣) ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، وَفِيهَا مَنَافِعٌ لِلنَّاسِ»^(٤). وهذا إسناد ضعيف.

وقال الإمام أبو بكر عبد الله بن الزبير الحُمَيْدِيُّ فِي مَسْنَدِهِ: حَدَّثَنَا سَفْيَانُ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ، أَخْبَرَنِي يَزِيدُ بْنُ جُعْدَبَةَ اللَّيْثِيُّ: أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَخْرَاقٍ، يَحْدُثُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ فِي الْجَنَّةِ رِيحاً بَعْدَ الرِّيحِ بِسَبْعِ سَنِينَ، وَإِنْ مِنْ دُونِهَا بَابَا مَغْلَقًا، وَإِنَّمَا يَأْتِيكُمْ الرِّيحُ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ، وَلَوْ فَتَحَ لِأَذْرَتْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، وَهِيَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَزْبَبُ، وَهِيَ فِيكُمْ الْجَنُوبُ»^(٥).

وقوله: ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ أَيْ: أَنْزَلْنَاهُ لَكُمْ عَذْبًا يُمَكِّنُكُمْ أَنْ تَشْرَبُوا مِنْهُ، وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَجَاجًا. كَمَا يَنْبَغُ لِلَّهِ^(٦) عَلَى ذَلِكَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى فِي سُورَةِ «الْوَاقِعَةِ»، وَهُوَ^(٧) قَوْلُهُ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ. أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ. لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الْوَاقِعَةُ: ٦٨-٧٠]، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النَّحْلُ: ١٠].

وقوله: ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾: قَالَ سَفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: بِمَانَعِينَ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ الْمُرَادَ: وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِحَافِظِينَ، بَلْ نَحْنُ نَنْزِلُهُ وَنَحْفَظُهُ عَلَيْكُمْ، وَنَجْعَلُهُ مَعِينًا وَنِيَابِيعَ^(٨) فِي الْأَرْضِ، وَلَوْ شَاءَ تَعَالَى لِأَغَارِهِ وَذَهَبَ بِهِ، وَلَكِنْ مِنْ رَحْمَتِهِ أَنْزَلَهُ وَجَعَلَهُ عَذْبًا، وَحَفَظَهُ فِي الْعَيُونِ وَالْأَبَارِ وَالْأَنْهَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، لِيَبْقَى لَهُمْ فِي طَوْلِ السَّنَةِ، يَشْرَبُونَ وَيَسْقُونَ أَنْعَامَهُمْ وَزُرُوعَهُمْ وَثِمَارَهُمْ.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾: إِخْبَارٌ عَنْ قُدْرَتِهِ تَعَالَى عَلَى بَدْءِ الْخَلْقِ وَإِعَادَتِهِ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَحْيَا الْخَلْقَ مِنَ الْعَدَمِ، ثُمَّ يَمِيتُهُمْ ثُمَّ يَبْعَثُهُمْ^(٩) كُلَّهُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ. وَأَخْبَرَ أَنَّهُ، تَعَالَى، يَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْهِ يَرْجِعُونَ. ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْ تَمَامِ عِلْمِهِ بِهِمْ، أَوَّلَهُمْ وَآخِرَهُمْ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا

(١) فِي ت: «الْمَثِيرَةُ».

(٢) فِي ت: «عُبَيْسٍ».

(٣) رِيَادَةُ مَنْ ت، أ، وَالطَّبْرِيُّ.

(٤) تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ (١٤ / ١٥).

(٥) مَسْنَدُ الْحَمِيدِيِّ (١ / ٧١) وَفِي إِسْنَادِهِ يَزِيدُ بْنُ جُعْدَبَةَ كَذَبَهُ مَالِكٌ وَغَيْرُهُ.

(٦) فِي ت: «تَعَالَى».

(٧) فِي ت: «وَهِيَ».

(٨) فِي ت: «وَيُنَابِيعُ».

(٩) فِي ت: «يَبْعَثُ».

الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿١﴾: قال ابن عباس، رضى الله عنهما^(١): المستقدمون: كل من هلك من لدن آدم، عليه السلام، والمستأخرون: من هو حي ومن سيأتى إلى يوم القيامة.

وروى نحوه عن عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، ومحمد بن كعب، والشعبي، وغيرهم. وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله^(٢).

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن رجل^(٣)، عن مَرْوَانَ بن الحكم أنه قال: كان أناس يستأخرون فى الصفوف من أجل النساء فأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾^(٤).

وقد ورد فى هذا حديث غريب جدا، فقال ابن جرير:

حدثنى^(٥) محمد بن موسى الحَرْشِيُّ، حدثنا نوح بن قيس، حدثنا عمرو بن مالك، عن أبى الجوزاء، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: كانت تصلى خلف رسول الله ﷺ امرأة - قال ابن عباس: لا والله ما إن رأيت مثلها قط، وكان بعض المسلمين إذا صلوا استقدموا يعنى: لثلا يراها - وبعض يستأخرون، فإذا سجدوا نظروا إليها من تحت أيديهم!! فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾.

وكذا رواه أحمد وابن أبى حاتم فى تفسيره، والترمذى والنسائى فى كتاب التفسير من سننهما^(٦)، وابن ماجة من طرق عن نوح بن قيس الحُدَانِى^(٧). وقد وثقه أحمد وأبو داود وغيرهما، وحكى عن ابن معين تضعيفه، وأخرج له مسلم وأهل السنن.

وهذا الحديث فيه نكارة شديدة، وقد رواه عبد الرزاق، عن جعفر بن سليمان، عن عمرو بن مالك وهو النكرى^(٨) أنه سمع أبا الجوزاء يقول فى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ﴾، فى الصفوف فى الصلاة ﴿وَالْمُسْتَأْخِرِينَ﴾. فالظاهر أنه من كلام أبى الجوزاء فقط، ليس فيه لابن عباس ذكر^(٩). وقد قال الترمذى: هذا أشبه من رواية نوح بن قيس^(١٠)، والله أعلم.

وهكذا روى ابن جرير عن محمد بن أبى معشر، عن أبيه: أنه سمع عون بن عبد الله يذُكر محمد بن كعب فى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾، وأنها فى صفوف

(١) فى ت: «عنه».

(٢) انظر: تفسير الطبرى (١٤ / ١٦، ١٧).

(٣) فى هـ، ت، أ: «عن أبيه أخبرنا» والمثبت من الطبرى.

(٤) تفسير الطبرى (١٤ / ١٨).

(٥) فى أ: «حدثنا».

(٦) فى أ: «سننهما».

(٧) تفسير الطبرى (١٤ / ١٨) والمسند (١ / ٣٠٥) وسنن الترمذى برقم (٣١٢٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٢٧٣) وسنن ابن ماجة برقم (١٠٤٦).

(٨) فى ت، أ: «البكرى».

(٩) تفسير عبد الرزاق (١ / ٣٠١).

(١٠) سنن الترمذى برقم (٣١٢٢) وعبارته: «وروى جعفر بن سليمان هذا الحديث، عن عمرو بن مالك، عن أبى الجوزاء نحوه، ولم يذكر فيه عن ابن عباس، وهذا أشبه أن يكون أصح من حديث نوح».

الصلاة، فقال محمد بن كعب: ليس هكذا، ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدَمِينَ مِنْكُمْ﴾: الميت والمقتول و﴿الْمُسْتَأَخِرِينَ﴾: من يُخْلَقُ بَعْدُ، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، فقال عون بن عبد الله: وفقك الله وجزاك خيراً^(١).

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السَّمُومِ (٢٧)﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: المراد بالصلصال هاهنا: التراب اليابس. والظاهر أنه كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾. وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ [الرحمن: ١٤، ١٥].

وعن مجاهد أيضاً: الصلصال: المنتن.

وتفسير الآية بالآية أولى^(٢).

وقوله: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أى: الصلصال من حمأ، وهو: الطين. والمسنون: الأملس، كما قال الشاعر^(٣):

ثُمَّ خَاصَرْتَهَا إِلَى الْقُبَّةِ الْخَضْرِ سَرَاءَ تَمْشَى فِي مَرَمَرٍ مَّسْنُونٍ
أى: أملس صقيل.

ولهذا روى عن ابن عباس: أنه قال: هو التراب الرطب. وعن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك أيضاً: أن الحمأ المسنون هو المنتن. وقيل: المراد بالمسنون هاهنا: المصبوب.

وقوله: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أى: من قبل الإنسان ﴿مِنْ نَّارِ السَّمُومِ﴾ قال ابن عباس: هى السموم التى تقتل.

وقال بعضهم: السموم بالليل والنهار. ومنهم من يقول: السموم بالليل، والحرور بالنهار.

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا شعبة، عن أبى إسحاق قال: دخلت على عمرو الأصم أعوده، فقال: ألا أحدثك حديثاً سمعته من عبد الله بن مسعود، يقول: هذه السموم جزء من سبعين جزءاً من السموم التى خلق^(٤) منها الجان، ثم قرأ: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السَّمُومِ﴾^(٥).

وعن ابن عباس: أن الجان خُلِقَ من لهب النار، وفى رواية: من أحسن النار.

وعن عمرو بن دينار: من نار الشمس، وقد ورد فى الصحيح: «خُلِقَتِ الملائكة من نور،

(١) تفسير الطبرى (١٤ / ١٦).

(٢) فى أ: «الاولى».

(٣) هو عبد الرحمن بن حسان، والبيت فى اللسان، مادة (ستن).

(٤) فى ت، أ: «خلق الله منها».

(٥) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٦ / ٢١) من طريق شعبة به نحوه.

وخلقت الجن من مارج من نار، وخلق بنو آدم مما وصف لكم^(١) ومقصود الآية: التنبيه على شرف آدم، عليه السلام، وطيب عنصره، وطهارة مخدته^(٢).

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣)﴾.

يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له، وتشريفه إياه بأمره الملائكة بالسجود له. ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة، حسداً وكفراً، وعناداً واستكباراً، وافتخاراً بالباطل، ولهذا قال: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، وقوله^(٣): ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنُ أَخْرُتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَكِنَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

وقد روى ابن جرير هاهنا أثراً غريباً عجيباً، من حديث شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما خلق الله الملائكة قال: إني خالق بشرًا من طين، فإذا سويته^(٤) فاسجدوا له. قالوا: لا نفعل. فأرسل عليهم ناراً فأحرقتهم، ثم خلق ملائكة فقال لهم مثل ذلك، [فقالوا: لا نفعل. فأرسل عليهم ناراً فأحرقتهم. ثم خلق ملائكة أخرى فقال: إني خالق بشرًا من طين، فإذا أنا خلقتهم فاسجدوا له فابوا، فأرسل عليهم ناراً فأحرقتهم. ثم خلق ملائكة فقال: إني خالق بشرًا من طين، فإذا أنا خلقتهم فاسجدوا له]^(٥). قالوا^(٦): سمعنا وأطعنا، إلا إبليس كان من الكافرين الأولين^(٧).

وفى ثبوت هذا عنه بعد، والظاهر أنه إسرائيلي، والله أعلم.

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُّعْتُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨)﴾.

يقول آمراً لإبليس أمراً كونياً لا يخالف ولا يمانع، بالخروج من المنزل التي كان فيها من الملائكة الأعلى، وإنه ﴿رَجِيمٌ﴾ أى: مرجوم. وإنه قد أتبعه لعنة لا تزال متصلة به، لاحقة له، متواترة عليه إلى يوم القيامة.

وعن سعيد بن جبير أنه قال: لما لعن الله إبليس، تغيرت صورته عن صورة الملائكة، ورن رنة،

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٩٦) من حديث عائشة، رضى الله عنها.

(٢) فى ت: «مخدته». (٣) فى ت، أ: «وقال فى الآية الأخرى». (٤) فى ت، أ: «خلقته».

(٥) زيادة من ت، أ، الطبرى.

(٦) فى ت: «فقالوا».

(٧) تفسير الطبرى (١٤ / ٢٢).

فكل رنة في الدنيا إلى يوم القيامة منها. رواه ابن أبي حاتم.

وإنه لما تحقق الغضب الذي لا مردَّ له، سأل من تمام حسده لآدم وذريته النظرة إلى يوم القيامة، وهو يوم البعث وأنه أجيب إلى ذلك استدارجاً له وإمهالاً، فلما تحقق النظرة قبحه الله:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب: ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾: قال بعضهم: أقسم بإغواء الله له.

قلت: ويحتمل أنه بسبب ما أغويتني وأضللتني ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ أى: لذرية آدم، عليه السلام ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أى: أحب إليهم المعاصي وأرغبهم فيها، وأوزهم إليها، وأزعجهم إزعاجاً، ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ أى: كما أغويتني ونذرت على ذلك، ﴿أَجْمَعِينَ﴾. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ، كما قال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنُ أَخْرُتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأُحْتَكَنَ ذُرِّيَّتُهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٢].

قال الله تعالى له متهدداً ومتوعداً^(١): ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أى: مرجعكم كلكم إلى، فأجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَالْمُرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

وقيل: طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى، وإليه تنتهى. قاله مجاهد، والحسن، وقتادة كما قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩].

وقرأ قيس بن عباد، ومحمد بن سيرين، وقتادة: «هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ»، كقوله: ﴿وَأَنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤] أى: رفيع. والمشهور القراءة الأولى. وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أى: الذين قدرت لهم^(٢) الهداية، فلا سبيل لك عليهم، ولا وصول لك إليهم، ﴿إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ استثناء منقطع.

وقد أورد ابن جرير هاهنا من حديث عبد الله بن المبارك، عن عبد الله بن موهب^(٣)، حدثنا يزيد ابن قُسيط قال: كانت الأنبياء يكون لهم مساجد خارجة من قراهم، فإذا أراد النبي أن يستنبي ربه عن شيء، خرج إلى مسجده فصلى ما كتب الله له، ثم سأل ما بدا له، فبينما نبي في مسجده إذ جاء عدو الله - يعنى: إبليس - حتى جلس بينه وبين القبلة، فقال النبي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. [فقال

(٢) فى أ: «عليهم».

(١) فى ت، أ: «متوعداً ومهدداً».

(٣) فى أ: «وهب».

عدو الله: أرايت الذى تَعَوَّذَ منه؟ فهو هو. فقال النبى: أَعُوذُ بالله من الشيطان الرجيم^(١) قال: فَرَدَّدَ^(٢) ذلك ثلاث مرات، فقال عدو الله: أخبرنى بأى شىء تنجو منى؟ فقال النبى: بل أخبرنى بأى شىء تغلب ابن آدم؟ مرتين، فَأَخَذَ كُلِّ [وَاحِدٍ]^(٣) مِنْهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ، فقال النبى: إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾. قال عدو الله: قد سمعت هذا قبل أن تولد. قال النبى: ويقول: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وإنى^(٤) والله ما أحسست بك قط إلا استعذت بالله منك. قال عدو الله: صدقت، بهذا تنجو منى. فقال النبى: «أخبرنى بأى شىء تغلب ابن آدم؟» قال: آخذه عند الغضب والهوى^(٥).

وقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى: جهنم موعد جميع من اتبع إبليس، كما قال عن القرآن: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]. ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ أى: قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه، لا محيد لهم عنه - أجارنا الله منها - وكل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر فى درك بقدر فعله.

قال إسماعيل بن عُلَيَّة وشعبة كلاهما، عن أبى هارون الغنَوَى، عن حطان بن عبد الله أنه قال: سمعت على بن أبى طالب وهو يخطب قال: إن أبواب جهنم هكذا - قال أبو هارون: أطباقا بعضها فوق بعض^(٦).

وقال إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن هُبَيْرَةَ بن يريم^(٧)، عن على، رضى الله عنه، قال: أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيمتلئ الأول، ثم الثانى، ثم الثالث، حتى تُمَلَأَ كلها^(٨). وقال عكرمة: ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾: سبعة أطباق.

وقال ابن جَرِيح: ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾: أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحُطْمَةُ، ثم سَعِير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية.

وروى^(٩) الضحاك عن ابن عباس، نحوه. وكذا [روى]^(١٠) عن الأعمش بنحوه أيضا. وقال قتادة: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾: وهى والله منازل بأعمالهم. رواه ابن جرير.

وقال جويبر، عن الضحاك: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ قال: باب لليهود،

(٢) فى أ: «فرد».

(٤) فى أ: «وأنا».

(١) زيادة من ت، أ، والطبرى.

(٣) زيادة من ت، والطبرى.

(٥) تفسير الطبرى (١٤ / ٢٤).

(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤ / ٢٤).

(٧) فى ت: «مريم».

(٨) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤ / ٢٤).

(٩) فى أ: «ورواه».

وباب للنصارى، وباب للصائبين، وباب للمجوس، وباب للذين أشركوا - وهم كفار العرب - وباب للمنافقين، وباب لأهل التوحيد، فأهل التوحيد يُرجى لهم ولا يُرجى لأولئك أبداً.

وقال الترمذى: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا عثمان بن عمر، عن مالك بن مغول، عن جُنَيْد^(١)، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «لجهنم سبعة أبواب: باب منها لمن سلَّ السيف على أمّتي - أو قال: على أمة محمد».

ثم قال: لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عباس بن الوليد الخلال، حدثنا زيد - يعنى: ابن يحيى - حدثنا سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أبي نضرة، عن سمرة بن جندب، عن النبي ﷺ فى قوله: «لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ» قال: «إن من أهل النار من تأخذه النار إلى كعبيه، وإن منهم من تأخذه النار إلى حُجْزته، ومنهم من تأخذه النار إلى تراقيه، منازل بأعمالهم، فذلك قوله: «لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ»^(٣).

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمَنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠)﴾.

لما ذكر تعالى حال أهل النار، عطف على ذكر أهل الجنة، وأنهم فى جنات وعيون.

وقوله: «ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ» أى: سالمين من الآفات، مسلماً عليكم، «آمَنِينَ» من كل خوف وفزع، ولا تخشوا من إخراج، ولا انقطاع، ولا فناء.

وقوله: «وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ»: روى القاسم، عن أبى أمانة قال: يدخل أهل الجنة الجنة على ما فى صدورهم فى الدنيا من الشحناء والضغائن، حتى إذا توافوا وتقابلوا نزع الله ما فى صدورهم فى الدنيا من غل، ثم قرأ: «وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ»^(٤).

هكذا فى هذه الرواية، والقاسم بن عبد الرحمن - فى روايته^(٥) عن أبى أمانة - ضعيف.

وقد روى سنيّد فى تفسيره: حدثنا ابن فضالة، عن لقمان، عن أبى أمانة قال: لا يدخل مؤمن الجنة حتى ينزع الله ما فى صدورهم من غل، حتى ينزع منه مثل السبع الضارى^(٦).

وهذا موافق لما فى الصحيح، من رواية قتادة، حدثنا أبو المتوكل الناجى: أن أبا سعيد الخدرى

(١) فى هـ، ت، أ: «حميد» والمثبت من الترمذى.

(٢) سنن الترمذى برقم (٣١٢٣) وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول».

(٣) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٨٢ / ٥) مطولاً، وأصل الحديث فى صحيح مسلم برقم (٢٨٤٥) دون ذكر الآية إلى قوله: «تأخذه النار إلى حُجْزته».

(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٥ / ١٤) من طريق إسرائيل، عن بشر البصرى، عن القاسم به.

(٥) فى ت: «رواية».

(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٥ / ١٤).

حدثهم: أن رسول الله ﷺ قال: «يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِهِمْ، مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُوا، أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ»^(١).

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا هشام، عن محمد - هو ابن سيرين - قال: استأذن الأشرع على عليٍّ، رضى الله عنه، وعنده ابن لطلحة، فحبسه ثم أذن له. فلما دخل قال: إني لأراك إنما احتبستني لهذا؟ قال: أجل. قال: إني لأراه لو كان عندك ابن لعثمان لحبستني؟ قال: أجل إني^(٢)، لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ [إِخْوَانًا] عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾^(٣).

وحدثنا الحسن: حدثنا أبو معاوية الضريري، حدثنا أبو مالك الأشجعي، عن أبي حبيبة - مولى لطلحة - قال: دخل عمران بن طلحة على عليٍّ، رضى الله عنه، بعد ما فرغ من أصحاب الجمل، فرحب به وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ - قال: ورجلان جالسان على ناحية البساط، فقالا: الله أعدل من ذلك، تقتلهم بالأمس، وتكونون إخوانا! فقال علي، رضى الله عنه: قوما أبعد أرض وأسحقها! فمن هو إذا إن لم أكن أنا وطلحة، وذكر أبو معاوية الحديث بطوله^(٤).

وروى وكيع، عن أبان بن عبد الله البجلي، عن نعيم بن أبي هند، عن ربيع بن خراش، عن علي، نحوه، وقال فيه: فقام رجل من همدان فقال: الله أعدل من ذاك يا أمير المؤمنين. قال: فصاح به على صيحة، فظننت أن القصر تدهده لها، ثم قال: إذا لم نكن نحن فمن هو؟^(٥).

وقال سعيد بن مسروق، عن أبي طلحة - وذكره - فيه: فقال الحارث الأعور ذلك، فقام إليه علي، رضى الله عنه، فضربه بشيء كان في يده في رأسه، وقال: فمن هم^(٦) يا أعور إذا لم نكن نحن؟

وقال سفيان الثوري: عن منصور، عن إبراهيم قال: جاء ابن جرموز قاتل الزبير يستأذن على عليٍّ، رضى الله عنه فحجبه طويلا، ثم أذن له، فقال له: أما أهل البلاء فتجفوه. فقال علي: بفيك التراب، إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير، ممن قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾.

(١) صحيح البخارى برقم (٦٥٣٥).

(٢) فى أ: «أجل، قال: إني». (٣) زيادة من ت،

(٤) تفسير الطبرى (١٤ / ٢٦).

(٥) تفسير الطبرى (١٤ / ٢٥).

(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤ / ٢٥) من طريق وكيع.

(٧) فى أ: «فمن هو».

وكذا روى الثورى، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن على، بنحوه.
وقال سفيان بن عيينة، عن إسرائيل، عن أبي موسى، سمع الحسن البصرى يقول: قال على:
فينا والله - أهل بدر - نزلت هذه الآية: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾.
وقال كثير النواء: دخلت على أبي جعفر محمد بن على فقلت: وليى وليكم، وسلمى
سلمكم، وعدوى عدوكم، وحربى حربكم. إني أسألك بالله: أتبرأ من أبى بكر وعمر؟ فقال: ﴿قَدْ
ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦]، تولهما^(١) يا كثير، فما أدركك فهو فى رقبتي هذه،
ثم تلا هذه الآية: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ قال: أبو بكر، وعمر، وعلى، رضى الله عنهم
أجمعين.

وقال الثورى، عن رجل، عن أبى صالح فى قوله: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾، قال: هم
عشرة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى
وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الله بن مسعود، رضى الله عنهم أجمعين.
وقوله: ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾: قال مجاهد: لا ينظر بعضهم فى قنا بعض.
وفيه حديث مرفوع، قال ابن أبى حاتم:

حدثنا يحيى بن عبدك القزوينى، حدثنا حسان بن حسان، حدثنا إبراهيم بن بشير^(٢)، حدثنا
يحيى بن معين، عن إبراهيم القرشى، عن سعيد بن شريحيل، عن زيد بن أبى أوفى قال: خرج
علينا رسول الله ﷺ، فتلا هذه الآية: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾، فى الله، ينظر بعضهم إلى
بعض^(٣).

وقوله: ﴿لَا يَمْسُهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ يعنى: المشقة والأذى، كما جاء فى الصحيحين: «إن الله أمرنى
أن أبشر خديجة ببيت فى الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب»^(٤).
وقوله: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾، كما جاء فى الحديث: «يقال^(٥): يا أهل الجنة، إن لكم أن
تصحوا فلا تمرضوا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن
لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبداً»، وقال الله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:
١٠٨].

وقوله: ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ أى: أخبر يا محمد
عبادى أنى ذو رحمة وذو عقاب أليم.

وقد تقدم ذكر نظير هذه الآية الكريمة، وهى دالة على مقامى الرجاء والخوف، وذكر فى سبب

(١) فى ت: «برهما» وفى أ: «برها».

(٢) فى هـ، ت، أ: «بشر» والمثبت عن الجرح والتعديل ١/١/٦٠ مستفاداً من حاشية الشعب.

(٣) ورواه البخارى فى التاريخ الكبير (٣/ ٣٨٦) فى ترجمة زيد بن أبى أوفى ومن طريق حسان بن حسان به، وقال: «لا يتابع عليه».

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٨٢٠) وصحيح مسلم برقم (٢٤٣٢) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

(٥) فى أ: «فقال».

نزولها ما رواه موسى بن عبيدة عن مصعب بن ثابت قال: مر رسول الله ﷺ على ناس من أصحابه يضحكون، فقال: «اذكروا الجنة، واذكروا النار». فنزلت: ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾، رواه ابن أبي حاتم. وهو مرسل^(١).

وقال ابن جرير، حدثني المثني، حدثنا إسحاق، أخبرنا ابن المكي، أخبرنا ابن المبارك، أخبرنا مصعب بن ثابت، حدثنا عاصم بن عبيد الله، عن ابن أبي رباح، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: طلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبه، فقال: «ألا أراكم تضحكون؟» ثم أدبر، حتى إذا كان عند الحجر رجع إلينا القهقري، فقال: «إني لما خرجت جاء جبريل، عليه السلام، فقال: يا محمد، إن الله يقول^(٢): لم تقنط^(٣) عبادي؟ ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾»^(٤).

وقال سعيد، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام، ولو يعلم قدر عقابه لبخع نفسه»^(٥).

﴿وَنَبِّهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوَجَّلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمِ بُشْرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦)﴾.

يقول^(٦) تعالى: وخبرهم يا محمد عن قصة ﴿ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ والضيف: يطلق على الواحد والجمع، كالزور والسفر - وكيف ﴿دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ أى: خائفون. وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه لهم^(٧) ضيافة، وهو العجل السمين الحنيد.

﴿قَالُوا لَا تَوَجَّلْ﴾ أى: لا تخف، ﴿وبشروه بغلام عليم﴾ [الذاريات: ٢٨] وهو إسحاق، عليه السلام، كما تقدم في سورة هود.

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٥ / ٨٦) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم، وموسى بن عبيدة الربذي ضعيف.

(٢) فى أ: «يقول الله».

(٣) فى ت: «يقنط».

(٤) تفسير الطبرى (١٤ / ٢٧).

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤ / ٢٧) وابن أبى الدنيا فى حسن الظن بالله برقم (٦٤) من طريق سعيد به مرسلأ، وروى موصولأ نحوه عن ابن عمر وأبى سعيد الخدرى، أما حديث ابن عمر، فرواه ابن أبى الدنيا فى حسن الظن بالله برقم (٦٣) من طريق موسى عن عطية، عن ابن عمر مرفوعأ: «لو تعلمون قدر رحمة الله عز وجل لا تكلمن وما علمتم من عمل، ولو علمتم قدر غضبه ما نفعكم شىء»، وحديث أبى سعيد، رواه البزار فى مسنده ولفظه: «لو تعلمون قدر رحمة الله لا تكلمن - أحسبه قال: عليها». وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٣٨٤): «إسناده حسن».

(٦) فى أ: «يخبر».

(٧) فى ت، أ: «إليهم».

ثم قال ^(١) متعجباً من كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد: ﴿أَبَشِّرْهُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمِ تَبَشِّرُونِ﴾، فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة، ﴿قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ وقرأ بعضهم: «القنطين» ^(٢) - فأجابهم بأنه ليس يقنط، ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر وأسنت امرأته، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠)﴾.

يقول تعالى إخباراً عن إبراهيم، عليه السلام، لما ذهب عنه الروح وجاءته البشيرة: إنه شرع يسألهم عما جاؤوا له، فقالوا: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾، يعنون: قوم لوط. وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من المهلكين؛ ولهذا قالوا: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أى: الباقيين للمهلكين.

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطِ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤)﴾.

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة فى صورة شباب حسان الوجه، فدخلوا عليه داره، قال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكَرُونَ. قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يعنون: بعدابهم وهلاكهم ودمارهم الذى كانوا يشكون فى وقوعه بهم، وحلوله بساحتهم، ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨].

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾: تأكيد لخبرهم ^(٣) إياه بما أخبروه به، من نجاته وإهلاك قومه، [والله أعلم] ^(٤).

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦)﴾.

يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يسرى بأهله بعد مضى جانب من الليل، وأن يكون لوط، عليه السلام، يمشى وراءهم، ليكون أحفظ لهم.

وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشى فى الغزاة بما كان يكون ^(٥) ساقية، يُزجى الضعيف، ويحمل المنقطع ^(٦).

وقوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أى: إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم، وذروهم فيما

(١) فى ت، أ: «فقال».

(٢) فى ت، أ: «المقنطين».

(٣) فى ت: «بخبيرهم».

(٤) فى ت: «فى الغزو وإنما يكون».

(٥) فى ت: «فى الغزو وإنما يكون».

(٦) رواه أبو داود فى السنن برقم (٢٦٣٩) من حديث جابر ولفظه: «كان رسول الله ﷺ يتخلف فى المسير، فيزجى الضعيف، ويردف، ويدعو لهم».

حل بهم من العذاب والنكال، ﴿وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾، كانه كان معهم من يهديهم السبيل.
﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ أى: تقدمنا إليه فى هذا ﴿أَنْ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ أى: وقت الصباح، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضِيفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢).

يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه^(١) وصباحة وجوههم، وأنهم جاؤوا مستبشرين بهم فرحين، ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضِيفِي فَلَا تَفْضَحُونِ . وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾.

وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم بأنهم رسل الله كما فى سياق^(٢) سورة هود، وأما هاهنا فتقدم ذكر أنهم رسل الله، وعطف بذكر مجيء قومه ومحاخته لهم. ولكن الواو لا تقتضى الترتيب، ولا سيما إذا دل دليل^(٣) على خلافه، فقالوا له مجيبين: ﴿أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أى: أو ما نهيناك أن تضيف أحدا؟ فأرشدهم إلى نساءهم، وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة. وقد تقدم أيضا القول فى ذلك، بما أغنى عن إعادته.

هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم، وما قد أحاط بهم من البلاء، وماذا يُصبحهم من العذاب المستقر؛ ولهذا قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، أقسم تعالى بحياة نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، وفى هذا تشريف عظيم، ومقام رفيع وجاء عريض.

قال عمرو بن مالك النُّكْرَى^(٤)، عن أبى الجوزاء، عن ابن عباس، أنه قال: ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى^(٥): ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يقول: وحياتك وعمرك وبقائك فى الدنيا إنهم لفى سكرتهم يعمهُون]^(٦)، رواه ابن جرير.

وقال قتادة: ﴿فِي سَكْرَتِهِمْ﴾ أى: فى ضلالتهم، ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أى: يلعبون.
وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿لَعَمْرُكَ﴾: لعيشك، ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال: يَتَحَيَّرُونَ^(٧).

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبَسِيلٌ مَّقِيمٌ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً

(١) فى ت: «بضيافه».

(٢) فى ت: «سياقه».

(٣) فى ت: «بضيافه».

(٤) فى ت: «البكرى».

(٥) فى أ: «عز وجل».

(٦) زيادة من ت، أ.

(٧) فى ت، أ: «يتمادون».

لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ .

يقول: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ﴾، وهى ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس، وهو طلوعها، وذلك مع رفع^(١) بلادهم إلى عَنان السماء ثم قلبها، وجعل عاليها سافلها، وإرسال حجارة السجيل عليهم. وقد تقدم الكلام على السجيل فى [سورة]^(٢) هود بما فيه كفاية.

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ أى: إن آثار هذه النقم ظاهرة^(٣) على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسَّمه بعين بصره وبصيرته، كما قال مجاهد فى قوله: ﴿ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ قال: المتفرسين.

وعن ابن عباس، والضحاك: للناظرين. وقال قتادة: للمعتبرين. وقال مالك عن بعض أهل المدينة: ﴿ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾: للمتأملين.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا محمد بن كثير العبدى، عن عمرو بن قيس، عن عطية، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله». ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾.

رواه الترمذى، وابن جرير، من حديث عمرو بن قيس الملائي^(٤)، وقال الترمذى: لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنى أحمد بن محمد الطوسى، حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا الفرات ابن السائب، حدثنا ميمون بن مهران، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن؛ فإن المؤمن ينظر^(٥) بنور الله^(٦)».

وقال ابن جرير: حدثنى أبو شريحيل الحمصى، حدثنا سليمان بن سلمة، حدثنا المؤمل بن سعيد ابن يوسف الرحبى، حدثنا أبو المعلى أسد بن وداعة الطائى، حدثنا وهب بن منبه، عن طاوس بن كيسان، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «احذروا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله وينطق بتوفيق الله^(٧)».

وقال أيضاً: حدثنا عبد الأعلى بن واصل، حدثنا سعيد بن محمد الجرمى، حدثنا عبد الواحد بن واصل، حدثنا أبو بشر المزلق، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: قال النبي ﷺ: «إن لله عبداً

(١) فى ت: «رفيع».

(٢) زيادة من أ.

(٣) فى أ: «الظاهرة».

(٤) سنن الترمذى برقم (٣١٢٧) وتفسير الطبرى (١٤ / ٣١).

(٥) فى ت، أ: «يبصر».

(٦) تفسير الطبرى (١٤ / ٣٢) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٤ / ٩٤) من طريق فرات بن السائب به، وقال: «غريب من حديث ميمون لم نكتبه إلا من هذا الوجه». والفرات متروك.

(٧) تفسير الطبرى (١٤ / ٣٢) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٤ / ٨١) من طريق سليمان بن سلمة به، وقال: «غريب من حديث وهيب، تفرد به مؤمل عن أسد». وسليمان بن سلمة وشيخه المؤمل ضعيفان.

(٨) فى أ: «رسول الله».

يعرفون الناس بالتوسم»^(١).

ورواه الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا سهل بن بحر، حدثنا سعيد بن محمد الجرمي، حدثنا أبو بشر - يقال له: ابن المزلق، قال: وكان ثقة - عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عباداً يعرفون الناس بالتوسم»^(٢).

وقوله: ﴿وَأَنهَآ لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أى: وإن قرية سدوم التى أصابها ما أصابها من القلب الصورى والمعنوى، والقذف بالحجارة، حتى صارت بحيرة^(٣) متنتة خبيثة لبطريق مهيع مسالكة^(٤)، مستمرة إلى اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنكُمْ لَتَمُرُونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

وقال مجاهد، والضحاك: ﴿وَأَنهَآ لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ قال: معلّم. وقال قتادة: بطريق واضح. وقال قتادة أيضاً: بصقع من الأرض واحد.

وقال السدى: بكتاب مبین، يعنى كقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، ولكن ليس المعنى على ما قال هاهنا، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: إن الذى صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار وإنجائنا لوطاً وأهله، للدلالة واضحة جلية^(٥) للمؤمنين بالله ورسله.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ (٧٨) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ .
أصحاب الأيكة: هم قوم شعيب.

قال الضحاك، وقاتدة، وغيرهما: الأيكة: الشجر الملتف.

وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان. فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة، وقد كانوا قريباً من قوم لوط، بعدّهم فى الزمان، ومسامتين لهم فى المكان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أى: طريق مبین.

قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: طريق ظاهر؛ ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال فى نذارته إياهم: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾
وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا

(١) تفسير الطبرى (١٤/ ٣٢) ورواه القضاعى فى مسند الشهاب برقم (١٠٠٥) والطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٥٠٠٤) «مجمع البحرين» من طريق أبى بشر المزلق به، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٦٨): «إسناده حسن». وقال الذهبى فى ترجمة أبى بشر المزلق: «روى خبراً منكراً فذكره» وهذا أقرب.

(٢) مسند البزار برقم (٣٦٣٢) «كشف الأستار» وقال: «لا نعلم رواه عن ثابت، عن أنس إلا أبو بشر».

(٣) فى ت: «بخرة»، وفى أ: «بخرة».

(٤) فى ت، أ: «سالكة».

(٥) فى أ: «جليلة».

كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ .

أصحاب الحجر هم: ثمود الذين كذبوا صالحا نبياهم، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين؛ ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين.

وذكر تعالى أنه آتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح، كالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء فكانت^(١) تسرح في بلادهم، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم. فلما عتوا وعقروها قال لهم: ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [فصلت: ١٧].

وذكر تعالى: أنهم ﴿ كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴾ أي: من غير خوف ولا احتياج إليها، بل أشرا وبطرا وعبثا، كما هو المشاهد من صنعهم في بيوتهم بوادي الحجر، الذي مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك فَتَقَعَ رَأْسَهُ وَاسْرَعَ دَابَّتْهُ، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبتكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم»^(٢).

وقوله: ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ ﴾ أي: وقت الصباح من^(٣) اليوم الرابع، ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي: ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنوا بمائها عن الناقة، حتى عقروها لثلا تضيق عليهم في المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال، ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَحِ الصَّفْحَ

الْجَمِيلِ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ .

يقول تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أي: بالعدل؛ ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [ص: ٢٧]، وقال: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

ثم أخبر نبيه بقيام الساعة، وإنها كائنة لا محالة، ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين، في أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم^(٤) به، كما قال تعالى: ﴿ فَاصْصَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾^(٥) [الزخرف: ٨٩].

وقال مجاهد وقتادة وغيرهما: كان هذا قبل القتال. وهو كما قالوا، فإن هذه مكية، والقتال إنما

(١) في ت: «وكانت».

(٢) جاء من حديث ابن عمر، رضى الله عنهما، رواه البخارى في صحيحه برقم (٣٣٨٠) ومسلم في صحيحه برقم (٢٩٨) ولفظه:

«لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا انفسهم... الحديث. ورواه البخارى في صحيحه برقم (٤٧٠٢) بلفظ: «لا تدخلوا على هؤلاء

القوم إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم».

(٣) في أ: «في».

(٤) في ت، أ: «ما جاء».

(٥) في ت: «تعلمون».

شرع بعد الهجرة.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾: تقرير للمعاد، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة، فإنه الخلاق الذي لا يعجزه خلق ما يشاء، وهو العليم بما تمزق^(١) من الأجساد، وتفرق^(٢) في سائر أقطار الأرض، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾. إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿[يس: ٨١ - ٨٣].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (٨٧) لَا تَمَدَّنْ عَيْنَكَ إِلَىٰ مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾.

يقول تعالى لنبيه: كما آتيناك القرآن العظيم، فلا تنظرن إلى الدنيا وزينتها، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لنفتنهم فيه، فلا تغبطهم بما هم فيه، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزنا عليهم في تكذيبهم لك، ومخالفتهم دينك. ﴿وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] أَيْ: أَلْن لَّهُمْ جَانِبَكَ^(٣)، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقد اختلف في السبع المثاني: ما هي؟

فقال ابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، والضحاك وغير واحد: هي السبع الطُّوَل. يعنون: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، نص عليه ابن عباس، وسعيد بن جبیر.

وقال سعيد: بين^(٤) فيهن الفرائض، والحدود، والقصص، والأحكام.

وقال ابن عباس: بين^(٥) الأمثال والخبر والعبر^(٦).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر قال: قال سفيان: ﴿الْمَثَانِي﴾: المثنى^(٧): البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال وبراءة^(٨) سورة واحدة.

قال ابن عباس: ولم يُعْطِهْن أحد إلا النبي ﷺ، وأعطى موسى منهن ثنتين. رواه هُشَيْمٌ، عن الحجاج، عن الوليد بن العيزار^(٩)، عن سعيد بن جبیر عنه.

[و]^(١٠) قال الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: أوتى النبي ﷺ سبعا من المثاني الطُّوَل، وأوتى موسى، عليه السلام، ستاً، فلما ألقى الألواح ارتفع^(١١) اثنتان وبقيت أربع.

(٣) في ت: «جناحك».

(٢) في ت، أ: «وفرق».

(١) في ت، أ: «يمزق».

(٧) في ت: «المين».

(٦) في ت: «الخير والشر».

(٤، ٥) في ت، أ: «ثنى».

(١٠) زيادة من ت، أ.

(٩) في ت: «العيزان».

(٨) في ت: «وبراءة والأنفال».

(١١) في ت، أ: «رفعت».

وقال مجاهد: هي السبع الطول. ويقال: هي القرآن العظيم.

وقال خَصِيف، عن زياد بن أبي مريم في قوله تعالى: ﴿سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ قال: أعطيتك سبعة أجزاء: أمر، وأنهى، وأبشر^(١)، وأنذر، وأضرب الأمثال، وأعدّد النعم، وأنبئك نبأ^(٢) القرآن. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

والقول الثاني: أنها الفاتحة، وهي سبع آيات. روى ذلك عن عمر وعلى، وابن مسعود، وابن عباس. قال ابن عباس: والبسملة هي^(٣) الآية السابعة، وقد خصكم الله بها. وبه قال إبراهيم النخعي، وعبد الله بن عبيد بن عمير، وابن أبي مليكة، وشهر بن حوشب، والحسن البصري، ومجاهد.

وقال قتادة: ذكر لنا أنهم فاتحة الكتاب، وأنهم يثنون^(٤) في كل قراءة. وفي رواية: في كل ركعة مكتوبة أو تطوع.

واختاره ابن جرير، واحتج بالأحاديث الواردة في ذلك، وقد قدمناها في فضائل سورة «الفاتحة» في أول التفسير، والله الحمد.

وقد أورد البخاري، رحمه الله، هاهنا حديثين:

أحدهما: قال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غُنْدَرٌ، حدثنا شعبة، عن خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد بن المعلى قال: مر بي النبي ﷺ وأنا أصلي، فدعاني فلم آتته حتى صليت، ثم أتيت فقال: «ما^(٥) منعك أن تأتيني^(٦)؟». فقلت: كنت أصلي. فقال: «ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟» فذهب النبي ﷺ ليخرج، فذكرته^(٧) فقال: «﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»^(٨).

[و]^(٩) الثاني: قال: حدثنا آدم، حدثنا ابن أبي ذئب، حدثنا المقبري، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هي: السبع المثاني والقرآن العظيم»^(١٠).

فهذا نص في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم، ولكن لا ينافي^(١١) وصف غيرها من السبع الطول بذلك، لما فيها من هذه الصفة، كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي﴾ [الزمر: ٢٣]، فهو مثاني من وجه، ومتشابه من وجه، وهو القرآن العظيم أيضاً، كما أنه، عليه السلام^(١٢)، لما سُئِلَ عن المسجد الذي أسس على التقوى، فأشار إلى مسجده، والآية نزلت في مسجد قباء، فلا تنافي، فإن^(١٣) ذكر الشيء لا ينفى^(١٤)

(١) في أ: «وبشر».

(٢) في أ: «على».

(٣) في أ: «ماذا».

(٤) صحيح البخاري برقم (٤٧٠٣).

(٥) زيادة من أ.

(٦) صحيح البخاري برقم (٤٧٠٤).

(٧) في ت: «لا تنافي».

(٨) في ت: «ينافي».

(٩) في أ: «نبأ».

(١٠) في ت: «يتبين» وفي أ: «تثنى».

(١١) في ت، أ: «تأني».

(١٢) في ت، أ: «فذكرت».

(١٣) في ت: «لان».

(١٤) في أ: «ﷺ».

ذكر ما عدها إذا اشتركا في تلك الصفة، والله أعلم.
وقوله: ﴿ لَا تَمْدَنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ أى: استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية.

ومن هاهنا ذهب ابن عيينة إلى تفسير الحديث الصحيح: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»^(١)، إلى أنه يُستغنى به عما عدها، وهو تفسير صحيح، ولكن ليس هو المقصود من الحديث، كما تقدم فى أول التفسير.

وقال ابن أبى حاتم: ذكر عن وكيع بن الجراح، حدثنا موسى بن عبيدة، عن يزيد بن عبد الله بن قُسيط، عن أبى رافع صاحب النبى ﷺ قال: أضاف النبى ﷺ ضيف^(٢)، ولم يكن عند النبى ﷺ شىء^(٣) يصلحه، فأرسل إلى رجل من اليهود: يقول لك محمد رسول الله: أسلفنى دقيقاً إلى هلال رجب. قال: لا، إلا برهن. فأتيت النبى ﷺ [فأخبرته]^(٤) فقال: «أما والله إنى لأمين من فى السماء وأمين من فى الأرض، ولئن أسلفنى أو باعنى لأؤدين إليه». فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية: ﴿ لَا تَمْدَنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ إلى آخر الآية [طه: ١٣١]. كأنه^(٥) يعزیه عن الدنيا^(٦).

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿ لَا تَمْدَنَّ عَيْنَكَ ﴾ قال: نهى الرجل أن يتمنى مال صاحبه.
وقال مجاهد: ﴿ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾: هم الأغنياء.

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾.

يأمر تعالى نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، أن^(٧) يقول للناس: إنه ﴿ النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾، البين النذارة، نذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تكذيبه كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسولها، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام.

وقوله: ﴿ الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ أى: المتحالفين، أى: تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم، كما قال تعالى إخباراً عن قوم صالح أنهم: ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَهُ وَأَهْلَهُ ﴾ [النمل: ٤٩]، أى: نقتلهم ليلاً، قال مجاهد: تقاسموا: تحالفوا.

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ﴾ [النحل: ٣٨]، ﴿ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، ﴿ أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ [الأعراف: ٤٩]، فكانهم كانوا لا يكذبون بشىء إلا أقسموا عليه، فسموا مقتسمين.

(٢) فى ت: «ضيفاً» وهو الصواب.

(٥) فى ت: «كما».

(١) وانظر فيما تقدم فى فضائل القرآن، باب: من لم يتغن بالقرآن.

(٤) زيادة من ت، أ.

(٣) فى ت، أ: «أمرأ».

(٦) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣٣١/١) من طريق عبد الله بن نعيم، عن موسى بن عبيدة به نحوه، وقال العراقى: «إسناده ضعيف» وذلك لأجل موسى بن عبيدة الربذى.

(٧) فى ت، أ: «بأن».

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: المقتسمون أصحاب صالح، الذين تقاسموا بالله لنبيته وأهله.

وفى الصحيحين، عن أبي موسى [الأشعري]^(١)، عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به، كمثّل رجل أتى قومه فقال: يا قوم، إنى رأيت الجيش بعينى، وإنى أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء! فأطاعه طائفة من قومه فأدجلوا، وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به، ومثل من عصانى وكذب ما جئت به من الحق»^(٢).

وقوله: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أى: جَزَّؤُوا كتبهم المنزلة عليهم، فأمنوا ببعض وكفروا ببعض.

قال البخارى: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هشيم، أنبأنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ قال: هم أهل الكتاب، جَزَّؤوه أجزاء، فأمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه^(٣) (٤).

حدثنا عبيد الله بن موسى، عن الأعمش، عن أبي^(٥) ظبيان، عن ابن عباس: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ قال: آمنوا ببعض، وكفروا ببعض: اليهود والنصارى^(٦).

قال ابن أبى حاتم: وروى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، والضحاك، مثل ذلك. وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ قال: السحر^(٧). وقال عكرمة: العضة: السحر بلسان قريش، تقول^(٨) للساحرة: إنها العاضة^(٩).

وقال مجاهد: عَضَّوه أعضاء، قالوا: سحر، وقالوا: كهانة، وقالوا: أساطير الأولين. وقال عطاء: قال بعضهم: ساحر، وقال بعضهم: مجنون. وقال بعضهم كاهن. فذلك العضين^(١٠). وكذا روى عن الضحاك وغيره.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس: أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا شرف^(١١) فيهم، وقد حضر الموسم فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) صحيح البخارى برقم (٦٤٨٢، ٧٢٨٣) وصحيح مسلم برقم (٢٢٨٣).

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧٠٥).

(٤) فى هـ بعد قوله «وكفروا ببعضه» ما يلى:

«حدثنا عبيد الله بن موسى، عن الأعمش، عن أبى ظبيان، عن ابن عباس: ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ قال: هم أهل الكتاب، جَزَّؤوه أجزاء، فأمنوا ببعضه وكفروا ببعضه» وليس فى صحيح البخارى ولا فى باقى النسخ، وهو خطأ.

(٥) فى ت: «ابن».

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧٠٦).

(٧) فى ت، أ: «سحر».

(٨) فى ت: «يقول».

(٩) فى ت: «الكاهنة».

(١٠) فى ت: «الحضين».

(١١) فى ت، أ: «ذا سن».

صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً. فقالوا: وأنت يا أبا عبد شمس، فقل^(١) وأقم لنا رأيا نقول به. قال: بل أنتم قولوا^(٢) لأسمع. قالوا: فنقول^(٣): «كاهن». قال: ما هو بكاهن. قالوا: فنقول: «مجنون». قال: ما هو بمجنون! قالوا^(٤): فنقول: «شاعر». قال: ما هو بشاعر! قالوا: فنقول: «ساحر». قال: ما هو بساحر! قالوا: فماذا نقول؟ قال: والله إن لقوله حلاوة، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِفَ أنه باطل، وإن أقرب القول أن تقولوا: هو ساحر. فتفرقوا عنه بذلك، وأنزل الله فيهم: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾: أصنافاً^(٥)، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، دُونِكَ^(٦) النفر الذين قالوا: ذلك لرسول الله.

وقال عطية العوفي، عن ابن عمر^(٧) في قوله: ﴿لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال: عن لا إله إلا الله.

وقال عبد الرزاق. أنبأنا الثوري، عن ليث - هو ابن أبي سليم - عن مجاهد، في قوله: ﴿لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال: عن^(٨) لا إله إلا الله^(٩).

وقد روى الترمذى، وأبو يعلى الموصلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث شريك القاضي، عن ليث بن أبي سليم، عن بشير^(١٠) بن نهيك، عن أنس، عن النبي ﷺ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [قال]^(١١): عن لا إله إلا الله^(١٢).

ورواه ابن إدريس، عن ليث، عن بشير^(١٣)، عن أنس موقوفاً^(١٤).

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد، حدثنا أبو أحمد، حدثنا شريك، عن هلال، عن عبد الله بن عكيم قال: قال عبد الله - هو ابن مسعود -: والذي لا إله غيره، ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة، كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، فيقول: ابن آدم، ماذا^(١٥) غرك منى بى؟ ابن آدم، ماذا عملت فيما علمت؟ ابن آدم، ماذا أجبتم المرسلين^(١٦)؟

وقال أبو جعفر: عن الربيع، عن أبي العالية: قال: يسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة، عما كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين.

- | | | |
|-------------------------------|------------------------|-----------------------|
| (١) فى ت: «فقيل». | (٢) فى ت، أ: «تقولوا». | (٣) فى ت: «فنقول». |
| (٤) فى أ: «قال». | (٥) فى ت: «أضيافاً». | (٦) فى ت، أ: «أولئك». |
| (٧) فى أ: «عن ابن عباس». | (٨) فى أ: «عن قول». | |
| (٩) تفسير عبد الرزاق (٣٠٣/١). | (١٠) زيادة من ت، أ. | |
| (١١) فى ت، أ: «بشر». | | |

(١٢) سنن الترمذى برقم (٣١٢٦) ومسند أبي يعلى (١١١/٧) وهو عندهما من طريق ليث بن أبي سليم، عن بشر، عن أنس، وفى تفسير الطبرى (٤٦/١٤) رواه من طريق شريك عن بشر عن أنس، وقال الترمذى: «هذا حديث غريب إنما نعرفه من حديث ليث ابن أبي سليم، وقد روى عبد الله بن إدريس، عن ليث بن أبي سليم، عن بشر، عن أنس نحوه ولم يرفعه».

(١٣) فى أ: «بشر».

(١٤) أشار إليه الترمذى كما تقدم، ورواه الطبرى فى تفسيره (٤٦/١٤) من طريق أبي كريب وأبي السائب، عن ابن إدريس به موقوفاً.

(١٥) فى ت: «ما».

(١٦) تفسير الطبرى (٤٦/١٤).

وقال ابن عيينة: عن عملك، وعن مالك.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا يونس الحذاء، عن أبي حمزة الشيباني، عن معاذ بن جبل قال: قال لى رسول الله ﷺ: «يا معاذ، إن المؤمن ليسأل^(١) يوم القيامة عن جميع سعيه، حتى كحل عينيه، وعن^(٢) فتات الطينة بأصبعيه، فلا ألفينك يوم القيامة^(٣)، وأحد أسعد بما آتى^(٤) الله منك^(٥)».

وقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ثم قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] قال: لا يسألهم: هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩).

يقول تعالى أمراً رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، بإبلاغ ما بعثه به وبإنفاذه^(٦) والصدع به، وهو مواجهة المشركين به، كما قال ابن عباس: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أى: أمضه. وفى رواية: افعل ما تؤمر.

وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن فى الصلاة.

وقال أبو عبيدة، عن^(٧) عبد الله بن مسعود: ما زال النبى ﷺ مستخفياً، حتى نزلت: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، فخرج هو وأصحابه^(٨).

وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ أى: بلغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله. ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، ولا تخفهم؛ فإن الله كافيك إياهم، وحافظك منهم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يحيى بن محمد بن السكن، حدثنا إسحاق بن إدريس، حدثنا عون بن كهّمس، عن يزيد بن درهم، قال: سمعت أنساً^(٩) يقول فى هذه الآية: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ

(١) فى أ: «يسأل».

(٢) فى أ: «وحتى».

(٣) فى أ: «فلا ألفينك تأتى يوم القيامة».

(٤) فى ت، أ: «أناك».

(٥) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٣١/١٠) من طريق إسحاق بن أبى حسان، عن أحمد بن أبى الحواري به نحوه، وسيأتى مطولاً عند

تفسير الآية: ١٤ من سورة الفجر، وقد علق الحافظ ابن كثير: «حديث غريب جداً فى إسناده نظر وفى صحته».

(٦) فى أ: «وإنفاذه».

(٧) فى ت، أ: «ابن».

(٨) رواه الطبرى فى تفسيره (٤٧/١٤).

(٩) فى ت، أ، هـ: «عن أنس قال: سمعت أنساً» وهو تحريف وقد وقع مثله فى كشف الاستار للهيثمى.

الْمُسْتَهْزِئِينَ . الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴿٩٤﴾ قال: مر رسول الله ﷺ، فغمزه بعضهم، فجاء جبريل - أحسبه قال: فغمزههم فوق في أجسادهم - كهيئة الطعنة حتى ماتوا^(١).

وقال محمد بن إسحاق: كان عظماء المستهزين - كما حدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير - خمسة نفر، كانوا ذوى أسنان وشرف في قومهم، من بنى أسد بن عبد العزى بن قُصي: الأسود بن المطلب أبو^(٢) زمعة، كان رسول الله ﷺ - فيما بلغني - قد دعا عليه، لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه [به]^(٣)، فقال: اللهم، أعم بصره، وأكله ولده. ومن بنى زهرة: الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة. ومن بنى مخزوم: الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. ومن بنى سهم بن عمرو بن هُصيص بن كعب بن لؤي: العاص بن وائل بن هشام بن سعيد ابن سعد. ومن خزاعة: الحارث بن الطلائة بن عمرو بن الحارث بن عبد عمرو بن ملكان - فلما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء، أنزل الله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

وقال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، أو غيره^(٤) من العلماء، أن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت، فقام وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه، فمر به الأسود [ابن المطلب فرمى في وجهه بورقة خضراء، فعمى، ومر به الأسود]^(٥) بن عبد يغوث، فأشار إلى بطنه، فاستسقى^(٦) بطنه، فمات منه جناً، ومر به الوليد بن المغيرة، فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله - كان أصابه قبل ذلك بستتين وهو يجر إزاره، وذلك أنه مر برجل من خزاعة يريش نبلا له، فتعلق سهم من نبلة بإزاره، فخدش رجله ذلك الخدش، وليس بشيء، فانتقص به فقتله. ومر به العاص بن وائل، فأشار إلى أخمص قدمه، فخرج على حمار له يريد الطائف، فربض^(٧) على شبرقة فدخلت في أخمص رجله منها شوكة فقتلته. ومر به الحارث بن الطلائة، فأشار إلى رأسه، فامتخط قيحا، فقتله^(٨).

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن رجل، عن ابن عباس قال: كان رأسهم الوليد بن المغيرة، وهو الذي جمعهم.

وهكذا روى عن سعيد بن جبير وعكرمة، نحو سياق محمد بن إسحاق، عن يزيد، عن عروة، بطوله، إلا أن سعيداً يقول: الحارث بن غيطة. وعكرمة يقول: الحارث بن قيس.

قال الزهري: وصدقا، هو الحارث بن قيس، وأمه غيطة.

وكذا روى عن مجاهد، ومِقْسَم، وقتادة، وغير واحد، أنهم كانوا خمسة.

(١) مسند البزار برقم (٢٢٢٢) «كشف الاستار» ونقل عنه الهيثمي قوله: «تفرد به يزيد بن درهم، عن أنس ولا أعلم له عن أنس غيره»، وقال الهيثمي في المجمع (٤٦/٧): «فيه يزيد بن درهم، ضعفه ابن معين، وثقه الفلاس».

(٢) في ت: «ابن».

(٣) زيادة من ت، أ.

(٤) في ت: «وغيره».

(٥) زيادة من ت، أ، وابن هشام والطبري.

(٦) في أ: «فاستسقى».

(٧) في ت، أ: «فربض به».

(٨) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤٠٩/١، ٤١٠) وتفسير الطبري (٤٨/١٤).

وقال الشعبي: كانوا سبعة.

والمشهور الأول.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾: تهديد شديد، ووعيد أكيد، لمن جعل مع الله معبوداً آخر.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ أى: وإنا لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم لك انقباض وضيق صدر. فلا يهيدنك ذلك، ولا يشينك عن إبلاغك رسالة الله، وتوكل على الله فإنه كافيك وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التى هى الصلاة؛ ولهذا قال: ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن كثير بن مرة، عن نعيم بن همار^(١)، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: يا ابن آدم، لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره».

رواه أبو داود^(٢)، من حديث مكحول، عن كثير بن مرة، بنحوه^(٣).

ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى.

وقوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾: قال البخارى: قال سالم: الموت^(٤).

وسالم هذا هو: سالم بن عبد الله بن عمر، كما قال ابن جرير:

حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، عن سفيان، حدثني طارق بن عبد الرحمن، عن سالم بن عبد الله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ قال: الموت^(٥).

وهكذا قال مجاهد، والحسن، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيره^(٦).

والدليل على ذلك قوله تعالى إخباراً عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ. وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمُسْكِينِ. وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ. وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ. حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٣ - ٤٧].

وفى الصحيح^(٧) من حديث الزهري، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أم العلاء - امرأة من الأنصار - أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون - وقد مات - قلت: رحمة الله عليك^(٨) أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمهم؟»

(١) فى ت، أ: «عمار».

(٢) فى ت، آ: «أبو داود والنسائي».

(٣) المسند (٢٨٦/٥) وسنن أبى داود برقم (١٢٨٩).

(٤) صحيح البخارى (٣٨٣/٨) «فتح».

(٥) تفسير الطبرى (٥١/١٤).

(٦) فى ت: «وغيرهم».

(٧) فى أ: «الصحيحين».

(٨) فى ت، أ: «رحم الله قلبك».

فقلت: بأبى وأمى يا رسول الله، فمن؟ فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين، وإنى لأرجو له الخير»^(١).
ويستدل من هذه الآية الكريمة وهى قوله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ - على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً فيصلّى بحسب حاله، كما ثبت فى صحيح البخارى، عن عمران بن حصين، رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «صَلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب»^(٢).

ويستدل بها^(٣) على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم. وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء، عليهم السلام، كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد الناس وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة. وإنما المراد باليقين هاهنا الموت، كما قدمناه. والله الحمد والمنة، والحمد لله على الهداية، وعليه الاستعانة والتوكل، وهو المسؤول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها [فإنه جواد كريم]^(٤).

[وحسبنا الله ونعم الوكيل]^(٥)

(١) صحيح البخارى برقم (١٢٤٣).

(٢) صحيح البخارى برقم (١١١٧).

(٣) فى أ: «بهذا».

(٤) زيادة من ت، أ.

(٥) زيادة من أ.

[بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقى إلا بالله]^(١)
تفسير سورة النحل

وهى مكة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١).

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقق^(٢) والوقوع لا محالة [كما قال تعالى] ^(٣): ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، وقال: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

وقوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أى: قرب ما تباعد فلا تستعجلوه.

يحتمل أن يعود الضمير على الله، ويحتمل أن يعود على العذاب، وكلاهما متلازم، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٣، ٥٤].

وقد ذهب الضحاك فى تفسير هذه الآية إلى قول عجيب، فقال فى قوله: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ أى: فرائضه وحدوده.

وقد رده ابن جرير فقال: لا نعلم أحداً استعجل الفرائض^(٤) والشرائع قبل وجودها^(٥)، بخلاف العذاب فإنهم استعجلوه قبل كونه، استبعاداً وتكذيباً.

قلت: كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨].

وقال ابن أبى حاتم: ذكر عن يحيى بن آدم، عن أبى بكر بن عياش، عن محمد بن عبد الله - مولى المغيرة بن شعبة - عن كعب بن علقمة، عن عبد الرحمن بن حجية، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ «تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب مثل الترس، فما تزال ترتفع فى السماء، ثم ينادى مناد فيها: يا أيها الناس. فيقبل الناس بعضهم على بعض: هل سمعتم؟ فمنهم من يقول: نعم. ومنهم من يشك. ثم ينادى^(٦) الثانية: يا أيها الناس. فيقول الناس بعضهم لبعض: هل سمعتم؟ فيقولون: نعم. ثم ينادى الثالثة: يا أيها الناس، أتى أمر الله فلا تستعجلوه. قال رسول الله ﷺ: «فو الذى نفسى بيده، إن الرجلين لينشران الثوب فما يطويانه أبداً، وإن الرجل ليمدن حوضه فما يسقى فيه^(٧) شيئاً أبداً، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبداً - قال - ويشغل^(٨) الناس»^(٩).

(٣) زيادة من ت، ف، أ.

(٢) فى أ: «التحقق».

(١) زيادة من ف، أ.

(٦) فى ت، أ: «ينادى مناد».

(٥) فى أ: «وجودهما».

(٤) فى ف، أ: «بالفرائض».

(٨) فى ت: «ويستعمل».

(٧) فى ف: «منه».

(٩) ورواه الحاكم فى المستدرک (٤/ ٥٣٩): حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا الحسن بن على بن عفان، حدثنا يحيى بن =

ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره، وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علواً كبيراً، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة، قال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ (٢).

يقول تعالى: ﴿يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ أى: الوحي كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وقوله: ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهم الأنبياء، كما قال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ. يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٥، ١٦].

وقوله: ﴿أَنْ أَنْذِرُوا﴾ أى: لينذروا ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾، [كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾] ^(١) ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال فى هذه [الآية] ^(٢): ﴿فَاتَّقُونِ﴾ أى: فاتقوا عقوبتى لمن خالف أمرى وعبد غيرى.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ (٤).

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوى وهو السموات، والعالم السفلى وهو الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للبعث ^(٣)، بل ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره [من الأصنام التى لا تخلق شيئاً وهم يخلقون فكيف ناسب أن يعبد معه غيره] ^(٤)، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فلهذا يستحق ^(٥) أن يعبد وحده لا شريك له.

ثم نبه على خلق جنس الإنسان ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أى: ضعيفة مهينة، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه، ويحارب رسله، وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضدّاً، كما قال تعالى:

= آدم به، وقال: «صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه».

ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٧/ ٣٢٥): حدثنا الحسين التستري، حدثنا أبو كريب، حدثنا يحيى بن آدم به، وقال المنذرى

فى الترغيب والترهيب (٤/ ٣٨٢): «رواه الطبرانى بإسناد جيد رواه ثقات مشهورون».

(١) زيادة من ت، ف، أ. (٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى أ: «لا للعب».

(٤) زيادة من ت، ف. (٥) فى أ: «استحق».

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا. وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤، ٥٥]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ - ٧٩].

وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن بُسر بن جَحَّاش قال: بصق رسول الله فى كفه، ثم قال: «يقول الله: ابن آدم، أنى تُعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: أتصدق. وأنى أوان الصدقة؟»^(١).

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧)﴾.

يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام، وهى الإبل والبقر والغنم، كما فصلها فى سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع، من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون، ويأكلون من أولادها، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾ وهو وقت رجوعها عشياً من المرعى^(٢)، فإنها تكون أمدّه^(٣) خواصر، وأعظمه ضروعاً، وأعلاه أسنمة، ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أى: غدوة حين تبعثونها إلى المرعى.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾: وهى الأحمال المثقلة^(٤) التى تعجزون عن نقلها وحملها، ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ وذلك فى الحج والعمرة والغزو والتجارة، وما جرى مجرى ذلك، تستعملونها فى أنواع الاستعمال، من ركوب وتحميل، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢١، ٢٢]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ. وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ [غافر: ٧٩ - ٨١]؛ ولهذا قال هاهنا بعد تعداد هذه النعم: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أى: ربكم الذى قيض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ. وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١، ٧٢]، وقال: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ مِنْ

(١) المسند (٤/ ٢١٠) وسنن ابن ماجه برقم (٢٧٠٧) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ٣٦٥): «إسناد صحيح رجاله ثقات، ورواه

أحمد فى مسنده من حديث بسر، وأصله فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة».

(٢) فى ت: «المرعى». (٣) فى ت، ف: «أعده». (٤) فى ت، ف، أ: «الثقيلة».

الْفُلْكَ وَالْأَنْعَامَ مَا تَرْكَبُونَ. لَتَسْتَورُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ. وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿[الزخرف: ١٢ - ١٤].

قال ابن عباس: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ أى: ثياب، والمنافع: ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة.
وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن سِمَاك، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس: ﴿دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾: نسل كل دابة.

وقال مجاهد: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ قال: لباس ينسج، ومنافع تُركَّبُ، ولحم ولبن.

وقال قتادة: ﴿دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾ يقول: لكم فيها لباس، ومنفعة، وبُلْغَةٌ.

وكذا قال غير واحد من المفسرين، بالفاظ متقاربة.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨).

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده، يمتن به عليهم، وهو: الخيل والبغال والحمير، التي جعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها، ولما فصلها من الأنعام وأفردتها بالذكر استدلت من استدلت من العلماء - ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل - بذلك على ما ذهب إليه فيها، كالإمام أبي حنيفة، رحمه الله^(١)، ومن وافقه من الفقهاء^(٢)؛ لأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير، وهى حرام، كما ثبتت به السنة النبوية، وذهب إليه أكثر العلماء.

وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، أنبأنا هشام الدستوائي، حدثنا يحيى بن أبى كثير، عن مولى نافع بن علقمة، أن ابن عباس كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير، وكان يقول: قال الله: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فهذه للأكل، ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ فهذه للركوب^(٣).

وكذا روى من طريق سعيد بن جبَّار وغيره، عن ابن عباس، بمثله. وقال مثل ذلك الحكم بن عتيبة^(٤)، رضى الله عنه^(٥)، أيضا، واستأنسوا بحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده:

حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد، حدثنا ثور بن يزيد، عن صالح بن يحيى بن المقدم بن معد يكرب، عن أبيه، عن جده، عن خالد بن الوليد، رضى الله عنه، قال: نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الخيل، والبغال، والحمير.

وأخرجه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، من حديث صالح بن يحيى بن المقدم - وفيه كلام - به^(٦).

ورواه أحمد أيضا من وجه آخر أبسط من هذا وأدل منه فقال:

(١) فى ف، أ: «رحمة الله عليه». (٢) فى ت: «العلماء».

(٣) تفسير الطبرى (١٤ / ٥٧).

(٤) فى ت، ف، أ: «عيبة». (٥) فى ت: «رحمة الله».

(٦) المسند (٤ / ٨٩) وسنن أبى داود برقم (٣٧٩٠) وسنن النسائي (٧ / ٢٠٢) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٩٨).

حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا محمد بن حرب، حدثنا سليمان بن سليم، عن صالح بن يحيى بن المقدام، عن جده المقدام بن معد يكرب قال: غزونا مع خالد بن الوليد الصائفة، فقرم^(١) أصحابنا إلى اللحم، فسألوني رمكة، فدفعتها إليهم فحبكوها وقلت^(٢): مكانكم حتى أتى خالداً فأسأله. فأتيته فسألته، فقال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة خيبر، فأسرع الناس في حظائر يهود، فأمرني أن أنادي: «الصلاة جامعة، ولا يدخل الجنة إلا مسلم» ثم قال: «أيها الناس، إنكم قد أسرعتم في حظائر يهود، ألا لا تحل^(٣) أموال المعاهدين إلا بحقها، وحرام عليكم لحوم الأتني^(٤) الأهلية وخيلها وبغالها، وكل ذى ناب من السباع، وكل ذى مخلب من الطير^(٥)». والرمكة: هى الحجرة. وقوله: حبكوها، أى: أوثقوها فى الحبل ليذبحوها. والحظائر: البساتين القريبة من العمران.

وكان هذا الصنيع وقع بعد إعطائهم العهد ومعاملتهم على الشطر، والله أعلم. فلو صحّ هذا الحديث لكان نصّاً فى تحريم لحوم الخيل، ولكن لا يقاوم ما ثبت فى الصحيحين، عن جابر بن عبد الله قال: نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية، وأذن فى لحوم الخيل^(٦). ورواه أحمد وأبو داود بإسنادين، كل منهما على شرط مسلم، عن جابر قال: ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير، فنهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير، ولم ينهنا عن الخيل^(٧). وفى صحيح مسلم، عن أسماء بنت أبى بكر، رضى الله عنهما، قالت: نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرسا فأكلناه ونحن بالمدينة^(٨). فهذه أدل وأقوى وأثبت، وإلى ذلك صار جمهور العلماء: مالك، والشافعى، وأحمد، وأصحابهم، وأكثر السلف والخلف، والله أعلم. وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن جريج، عن ابن أبى مليكة، عن ابن عباس قال: كانت الخيل وحشية، فذلها الله لإسماعيل بن إبراهيم، عليهما السلام. وذكر وهب بن منبه فى إسرائيلياته: أن الله خلق الخيل من ريح الجنوب، والله^(٩) أعلم. فقد دل النص على جواز ركوب هذه الدواب، ومنها البغال. وقد أهديت إلى رسول الله ﷺ بغلة، فكان يركبها، مع أنه قد نهى عن إنزاء الحمر على الخيل لثلا ينقطع النسل. قال الإمام أحمد: حدثنى محمد بن عبيد، حدثنا عمر من آل حذيفة، عن الشعبي، عن دحية الكلبي قال: قلت: يا رسول الله، ألا أحمل لك حمراً على فرس، فتنتج لك بغلا، فتركبها؟ قال: «إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون»^(١٠).

(١) فى ت: «فغرم». (٢) فى أ: «فقلت». (٣) فى ف: «لا يحل».

(٤) فى ت، ف: «الحمر».

(٥) المسند (٤/ ٨٩).

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٢١٩، ٥٥٢٤) وصحيح مسلم برقم (١٩٤١).

(٧) المسند (٣/ ٣٥٦) وسنن أبى داود برقم (٣٧٨٩).

(٨) صحيح مسلم برقم (١٩٤٢).

(٩) فى ت: «فالله».

(١٠) المسند (٤/ ٣١١).

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩).

لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يُسَار عليه في السبل الحسية، نبه على الطرق المعنوية الدينية، وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية، كما قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٣٦].

ولما ذكر في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها، التي يركبونها^(١) ويبلغون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة - شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه، فبين أن الحق منها ما هي موصلة إليه، فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾، كما قال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال: ﴿هَذَا^(٢) صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١].

قال مجاهد: في [قوله]^(٣): ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ قال: طريق الحق على الله. وقال السدي: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ قال: الإسلام. وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ يقول: وعلى الله البيان، أى: تبين^(٤) الهدى والضلال^(٥).

وكذا روى على بن أبى طلحة، عنه. وكذا قال قتادة، والضحاك. وقول مجاهد هاهنا أقوى من حيث السياق؛ لأنه تعالى أخبر أن ثم طرقاتاً تسلك إليه، فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق، وهى الطريق^(٦) التى شرعها ورضيها وما عداها مسدودة^(٧)، والأعمال فيها مردودة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ أى: حائد^(٨) مائل زائع عن الحق.

قال ابن عباس وغيره: هى الطرق المختلفة، والآراء والأهواء المتفرقة، كاليهودية والنصرانية والمجوسية، وقرأ ابن مسعود: «ومنكم جائر».

ثم أخبر أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته، فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، كما قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

(١١)

(١) فى ت: «تركبونها». (٢) فى ف: «وقال: قال هذا».

(٣) زيادة من ت، ف، أ. (٤) فى ت، ف: «يبين».

(٥) فى ت، ف: «الضلالة». (٦) فى ت: «الطرق».

(٧) فى أ: «مسدود». (٨) فى ت: «جائر».

لما^(١) ذكر سبحانه ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب، شرع في ذكر نعمته عليهم، في إنزال^(٢) المطر من السماء - وهو العلو - مما لهم فيه بُلْغَةٌ ومتاع لهم ولأنعامهم، فقال: ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ أى: جعله عذبا زلالا، يسوغ لكم شرابه، ولم يجعله ملحا أجاجا. ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أى: وأخرج لكم به شجرا ترعون فيه أنعامكم. كما قال ابن عباس، وعكرمة والضحاك، وقتادة وابن زيد، فى قوله: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أى: ترعون. ومنه الإبل السائمة، والسوم: الرعى.

وروى ابن ماجه: أن رسول الله ﷺ نهى عن السوم قبل طلوع الشمس^(٣). وقوله: ﴿يُنَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أى: يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد، على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أى: دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِقَوْمٍ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠] ثم قال تعالى^(٤):

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ (١٣)

يبه تعالى عباده على آياته العظام، ومننه الجسام، فى تسخير الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت والسيارات، فى أرجاء السموات نورا وضياء للمهتدين بها فى الظلمات، وكل منها يسير فى فلكه الذى جعله الله تعالى فيه، يسير بحركة مُقدرة، لا يزيد عليها ولا ينقص منها. والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسييره، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أى: لدلالات على قدرته الباهرة وسلطانه العظيم، لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه.

وقوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾: لما نبه سبحانه على معالم السموات^(٥)، نبه على

(١) فى ف: «كما». (٢) فى ت: «إنزاله».

(٣) سنن ابن ماجه برقم (٢٢٠٦) ورواه الحاكم فى المستدرک (٢٣٤ / ٤) كلاهما من طريق الربيع بن حبيب، عن نوفل بن عبد الملك، عن أبيه، عن على بن أبى طالب قال: نهى رسول الله ﷺ عن السوم... فذكر الحديث. وقال البوصيرى فى الزوائد (١٧٧ / ٢): «هذا إسناد ضعيف لضعف ابن نوفل بن عبد الملك والربيع بن حبيب».

(٤) فى أ: «وقال». (٥) فى ت، ف، أ: «السماء».

ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة، من الحيوانات والمعادن والنباتات^(١) [والجمادات]^(٢) على اختلاف ألوانها وأشكالها، وما فيها من المنافع والخواص ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ أى: آلاء الله ونعمه فيشكرونها.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذْكُرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨)﴾.

يخبر تعالى عن تسخير^(٣) البحر المتلاطم الأمواج، ويمتن على عباده بتذليله لهم، وتيسيرهم للركوب فيه، وجعله السمك والحيتان فيه، وإحلاله^(٤) لعباده لحمها حيها وميتها، فى الحل والإحرام^(٥)، وما يخلقه فيه من اللآلىء والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجها من قرارها حلية يلبسونها، وتسخير البحر لحمل^(٦) السفن التى تمخره، أى: تشقه.

وقيل: تمخر الرياح. وكلاهما صحيح بجوئتها وهو صدرها المسنم - الذى أرشد العباد إلى صنعتها، وهداهم إلى ذلك، إرثا عن أبيهم نوح، عليه السلام؛ فإنه أول من ركب السفن، وله كان تعليم صنعتها، ثم أخذها الناس عنه قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، يسرون من قطر إلى قطر، وبلد إلى بلد، وإقليم إلى إقليم، تجلب ما هنا إلى هنالك، وما هنالك إلى هنا^(٧)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى: نعمه وإحسانه.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده: وجدت فى كتابى عن محمد بن معاوية^(٨) البغدادى: حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن [عمر، عن] ^(٩)سُهَيْل بن أبى صالح، عن أبيه، عن أبى هريرة [رفعه]^(١٠) قال: كلم الله هذا البحر الغربى، وكلم البحر الشرقى، فقال للبحر الغربى: إني حامل فيك عبداً من عبادى، فكيف أنت صانع فيهم^(١١)؟ قال: أغرقهم. قال: بأسك فى نواحيك. وأحملهم على يدي. وحرّمه الحلية والصيد. وكلم هذا البحر الشرقى فقال: إني حامل فيك عبداً من عبادى، فما أنت صانع بهم؟ فقال: أحملهم على يدي، وأكون لهم^(١٢) كالوالدة لولدها. فثابه الحلية والصيد^(١٣).

(٣) فى أ: «تسخير».

(٢) زيادة من ف، أ.

(١) فى أ: «والنبات».

(٦) فى ت: «كحمل».

(٥) فى أ: «والحرّم».

(٤) فى ت: «وإجلاله».

(٧) فى ف، أ: «تجلب ما هاهنا إلى هناك وما هناك إلى هاهنا».

(٩) زيادة من ف، أ، ومسند البزار.

(٨) فى ت: «معاوية بن محمد».

(١٢) فى ف: «بهم».

(١١) فى ت، ف، أ: «بهم».

(١٠) زيادة من مسند البزار.

(١٣) مسند البزار برقم (١٦٦٩) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٢٨١): «رواه البزار وجادة، وفيه عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر العمرى وهو متروك». ورواه الخطيب البغدادى فى تاريخه (١٠/ ٢٣٣، ٢٣٤) من هذا الطريق قال: «وتابعه أبو»

ثم قال البزار: لا نعلم من رواه عن سهيل غير عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر^(١)، وهو منكر الحديث. وقد رواه سهيل عن النعمان بن أبي عياش^(٢)، عن عبد الله بن عمرو^(٣) موقوفاً^(٤).

ثم ذكر تعالى الأرض، وما جعل فيها من الرواسي الشامخات والجبال الراسيات، لتقر الأرض ولا تميد، أى: تضطرب بما عليها من الحيوان فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٣٢].

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن قتادة، سمعت الحسن يقول: لما خلقت الأرض كانت تميد، فقالوا: ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً فأصبحوا وقد خلقت الجبال، لم^(٥) تدر الملائكة مم خلقت الجبال^(٦).

وقال سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن قيس بن عباد: أن الله تعالى لما خلق الأرض، جعلت تور، فقالت الملائكة: ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً، فأصبحت صباحاً وفيها رواسيها.

وقال ابن جرير: حدثني الثني، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد، عن عطاء بن السائب، عن عبد الله بن حبيب، عن علي بن أبي طالب^(٧)، رضى الله عنه، قال: لما خلق الله الأرض قمصت وقالت: أى رب، تجعل على بنى آدم يعملون على الخطايا ويجعلون على الخبث؟ قال: فأرسل الله فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون، فكان إقرارها كاللحم يترجرج^{(٨)(٩)}.

وقوله: ﴿وَأَنْهَاراً وَسُبُلًا﴾ أى: وجعل فيها أنهاراً تجرى من مكان إلى مكان آخر، رزقاً للعباد، ينبع فى موضع وهو رزق لأهل موضع آخر، فيقطع البقاع والبرارى والقفار، ويخترق^(١٠) الجبال والآكام، فيصل إلى البلد الذى سُخِّرَ لأهله. وهى سائرة فى الأرض يمنة ويسرة، وجنوباً وشمالاً، وشرقاً وغرباً، ما بين صغار وكبار، وأودية تجرى حيناً وتنقطع^(١١) فى وقت، وما بين نبع وجمع،

= عبيد الله أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، فرواه عن عمه عبد الله بن وهب، عن عبد العزيز بن محمد الدراوردي عن سهيل عن أبيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن كعب الأحبار، وخالفهما خالد بن عبد الله الواسطي، فرواه عن سهيل عن النعمان بن أبي عياش الزرقى عن عبد الله بن عمرو موقوفاً لم يجاوزه، ورفع غير ثابت.

(١) فى ف: «عمرو». (٢) فى أ: «عباس». (٣) فى ت، أ، هـ: «عمر» وهو خطأ.

(٤) رواه الخطيب البغدادي فى تاريخه (١٠ / ٢٣٤) من طريق سعيد بن منصور، عن خالد بن عبد الله، عن سهيل بن أبي صالح به. وقال الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (١ / ٢٠): «قلت: الموقوف على عبد الله بن عمرو بن العاص أشبه، فإنه قد كان وجد يوم اليرموك زاملتين مملوءتين كتباً من علوم أهل الكتاب، فكان يحدث منهما بأشياء كثيرة من الإسرائيليات منها المعروف والمشهور والمنكور والمردود، فأما المعروف ففرد به عبد الرحمن بن عبد الله بن عمرو بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب أبو القاسم المدنى قاضيه. قال فيه الإمام أحمد: ليس بشيء وقد سمعته منه، ثم مزقت حديثه كان كذاباً وأحاديثه مناكير. وكذا ضعفه ابن معين وأبو زرعة وأبو حاتم والجوزجاني والبخارى وأبو داود والنسائي. وقال ابن عدى: عامة أحاديثه مناكير وأفظعها حديث البحر».

(٥) فى ت، ف: «فلم».

(٦) تفسير عبد الرزاق (١ / ٣٠٦).

(٧) فى أ: «طلحة». (٨) فى أ: «ترجرج».

(٩) تفسير الطبرى (١٤ / ٦٢).

(١٠) فى ت، ف: «ويخرق». (١١) فى ت: «وتقطع».

وقوى السير وبطيئه، بحسب ما أراد وقدر، وسخر ويسر فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.
وكذلك جعل فى الأرض سبلاً، أى: طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد، حتى إنه تعالى ليقطع
الجليل حتى يكون^(١) ما بينهما ممراً ومسلكاً، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سَبُلًا﴾ [الأنبياء: ٣١].

وقوله: ﴿وَعَلَامَاتٍ﴾ أى: دلائل من جبال كبار وآكام صغار، ونحو ذلك، يستدل بها المسافرون
براً وبحراً إذا ضلوا الطريق [بالنهار]^(٢).

وقوله: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أى: فى ظلام الليل، قاله ابن عباس.

وعن مالك فى قوله: ﴿وَعَلَامَاتٍ﴾: يقولون: النجوم، وهى الجبال.

ثم قال تعالى منها على عظمتها، وأنه لا تنبغى العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان، التى لا
تخلق شيئاً بل هم يخلقون؛ ولهذا قال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم، فقال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ
لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى: يتجاوز عنكم، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك، ولو أمركم
به لضعفتم وتركتهم، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم، يغفر الكثير،
ويجازى على^(٣) اليسير.

وقال ابن جرير: يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لما كان منكم من تقصير فى شكر بعض ذلك، إذا
تبتم وأنتم إلى طاعته واتباع مرضاته، ﴿رَحِيمٌ﴾ بكم أن يعذبكم، [أى]^(٤): بعد الإنابة والتوبة^(٥).

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا
وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١)﴾.

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة،
إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ثم أخبر أن الأصنام التى يدعونها^(٦) من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، كما قال
الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْتُونَ. وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٥، ٩٦].

وقوله: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أى: هى جمادات لا أرواح فيها^(٧)، فلا تسمع ولا تبصر ولا
تعقل.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أى: لا يدرون متى تكون الساعة، فكيف يرتجى عند هذه نفع أو
ثواب أو جزاء؟ إنما يرتجى^(٨) ذلك من الذى يعلم كل شىء، وهو خالق كل شىء.

(١) فى أ: «ليكون».

(٢) زيادة من ت، ف.

(٣) فى أ: «ليكون».

(٤) زيادة من ت، ف.

(٥) تفسير الطبرى (١٤ / ٦٤).

(٦) فى ت: «تدعونها».

(٧) فى ت، ف، أ: «لها».

(٨) فى ت، ف، أ: «يرجى».

﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ (٢٣).

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تُنكر^(١) قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ [ص: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

وقوله: ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أى: عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أى: حقاً ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أى: وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَطَافِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ (٢٥).

يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين: ﴿مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا﴾ معرضين عن الجواب: ﴿أَطَافِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أى: لم ينزل شيئاً، إنما هذا الذى يتلى علينا أساطير الأولين، أى: مأخوذ من كتب المتقدمين، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَطَافِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥] أى: يفترون على الرسول، ويقولون [فيه]^(٢) أقوالاً مختلفة متضادة^(٣)، كلها باطلة^(٤)، كما قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٩]، وذلك أن كل من خرج عن الحق فمهما قال أخطأ، وكانوا يقولون: ساحر، وشاعر، وكاهن، ومجنون. ثم استقر أمرهم إلى ما اختلقه لهم شيخهم الوحيد المسمى بالوليد بن المغيرة المخزومي، لما ﴿فَكَرَّ وَقَدَّرَ. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ. فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدر: ١٨ - ٢٤] أى: ينقل ويحكى، فتفرقوا عن قوله ورأيه، قبحهم الله.

قال الله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أى: إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك فيتحملوا^(٥) أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم، أى: يصير^(٦) عليهم خطيئة ضلالهم^(٧) فى أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقْتِدَاء أولئك بهم، كما جاء فى الحديث: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً».

(١) فى ت: «ينكر».

(٢) زيادة من ت، ف، أ.

(٣) فى ت، ف، أ: «لِيَحْمِلُوا».

(٤) فى ت، ف، أ: «باطل».

(٥) فى ت، ف، أ: «باطل».

(٦) فى ف: «تصير».

وقال [الله] ^(١) تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْقَلَاءَ مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسَّالْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وهكذا ^(٢) روى العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: إنها كقوله: ﴿وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْقَلَاءَ مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].
وقال مجاهد: يحملون أثقالهم: ذنوبهم وذنوب من أطاعهم، ولا يخفف عمن أطاعهم من العذاب شيئاً.

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٢٧).

قال العوفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قال: هو نمرود الذى ^(٣) بنى الصرح.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن مجاهد نحوه.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن زيد بن أسلم: أول جبار كان فى الأرض نمرود، فبعث الله عليه بعوضة، فدخلت فى منخرة، فمكث أربعمئة سنة يضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به من جمع يديه فضرب بهما رأسه، وكان جباراً أربعمئة سنة، فعذبه الله أربعمئة سنة كملكه، ثم أماته الله. وهو الذى كان بنى صرحاً إلى السماء، وهو الذى قال الله: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾.

وقال آخرون: بل هو بختنصر. وذكروا من المكر الذى حكى الله هاهنا، كما قال فى سورة إبراهيم: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

وقال آخرون: هذا من باب المثل، لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا فى عبادته غيره، كما قال نوح، عليه السلام: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا كِبَارًا﴾ [نوح: ٢٢] أى: احتالوا فى إضلال الناس بكل حيلة وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة، كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ [الآية] ^(٤) [سبا: ٣٣].

وقوله: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أى: اجتثه من أصله، وأبطل عملهم، وأصلها ^(٥) كما قال تعالى: ﴿كَلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقوله: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِ الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

وقال هاهنا: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا

(٣) فى ت، ف، أ: «حين».

(٢) فى ت، أ: «لهذا».

(١) زيادة من ت.

(٥) فى ت، ف، أ: «وأصله».

(٤) زيادة من ف.

يَشْعُرُونَ. ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ ﴿٢٨﴾ أى: يظهر فضائحهم، وما كانت تُجَنِّهُ ضمائرهم، فيجعله علانية، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩] أى: تظهر وتشتهر^(١)، كما فى الصحيحين^(٢) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته، فيقال: هذه غدره فلان فلان»^(٣).

وهكذا هؤلاء، يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر، ويخزيهم الله على رؤوس الخلائق، ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مقررًا لهم وموبخًا: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ﴾: تحاربون وتعادون فى سبيلهم، [أى]^(٤): أين هم عن نصركم وخلاصكم هاهنا؟ ﴿هَلْ يَنْصَرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٣]، ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠]. فإذا توجهت عليهم الحجة، وقامت عليهم الدلالة، وحقت عليهم الكلمة، وأسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار^(٥)، ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ - وهم السادة فى الدنيا والآخرة، والمخبرون عن الحق فى الدنيا والآخرة، فيقولون حينئذ: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أى: الفضيحة والعذاب اليوم [محيط]^(٦) بمن كفر بالله، وأشرك به ما لا يضره ولا ينفعه.

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبَلِّسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) ﴿.

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمى أنفسهم عند احتضارهم ومجىء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم: ﴿فَأَلْقَوْا السَّلَمَ﴾ أى: أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾، كما يقولون يوم المعاد: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨].

قال الله مكذبا لهم فى قيلهم ذلك: ﴿بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبَلِّسَ^(٧) مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أى: بئس المقيل والمقام والمكان من دار هوان، لمن كان متكبرا عن آيات الله واتباع رسله.

وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم، ويأتى^(٨) أجسادهم فى قبورها من حرها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت^(٩) أرواحهم فى أجسادهم، وخلدت فى نار جهنم، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يَخَفُّ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، كما قال الله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ

(١) فى ت: «يظهر ويستتر».

(٢) فى ت: «الصحيح».

(٣) صحيح البخارى برقم (٣١٨٨) وصحيح مسلم برقم (١٧٣٥).

(٤) زيادة من ت، ف، أ.

(٥) فى ت، ف، أ: «لا قرار».

(٦) زيادة من ف.

(٨) فى ت، أ: «ويقال».

(٩) فى ت: «سالت».

(٧) فى ت: «فبلس».

الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) ﴿

هذا خبر عن السعداء، بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء، فإن أولئك قيل لهم: ﴿ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ﴾، فقالوا معرضين عن الجواب: لم^(١) ينزل شيئاً، إنما هذا^(٢) أساطير الأولين. وهؤلاء ﴿ قَالُوا خَيْراً ﴾ أى: أنزل خيراً، أى: رحمة وبركة وحسناً لمن اتبعه وآمن به.

ثم أخبروا عما وعد الله [به]^(٣) عباده فيما أنزله على رسله فقالوا: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَأَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]، أى: من أحسن عمله فى الدنيا أحسن الله إليه فى الدنيا والآخرة.

ثم أخبروا بأن دار الآخرة خير، أى: من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أتم من الجزاء فى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ^(٤) وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ [القصص: ٨٠] وقال تعالى: ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٨] وقال تعالى ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الأعلى: ١٧]، وقال لرسوله ﷺ^(٥): ﴿ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ [الضحى: ٤].

ثم وصفوا الدار الآخرة فقالوا^(٦): ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾. وقوله: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾: بدل من [قوله]^(٧): ﴿ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ أى: لهم فى [الدار]^(٨) الآخرة ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ أى: إقامة^(٩) يدخلونها ﴿ تُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أى: بين أشجارها وقصورها، ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ^(١٠) الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الزخرف: ٧١]، وفى الحديث: «إن السحابة لتمر بالملأ من أهل الجنة وهم جلوس على شراهم^(١١)، فلا يشتهي أحد منهم شيئاً إلا أمطرته عليهم، حتى إن منهم لمن يقول: أمطرينا كواعب أتراباً، فيكون ذلك^(١٢)»^(١٣).

﴿ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾ أى: كذلك^(١٤) يجزى الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله. ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار، أنهم^(١٥) طيبون، أى: مخلصون من الشرك والدنس

(١) فى أ: «أى: لم». (٢) فى أ: «هو».

(٤) فى ت، ف، أ: «وقال الذين أوتوا العلم والإيمان» وهو خطأ.

(٥) فى ت، أ: «صلوات الله عليه وسلامه»، وفى ف: «صلوات الله عليه».

(٦) فى ت، ف، أ: «ثم وصف الدار الآخرة فقال».

(٨) زيادة من ف، أ.

(١١) فى أ: «سرايرهم».

(١٢) فى ف: «كذلك».

(١٣) رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره من حديث أبى أمامة رضى الله عنه، وسيأتى بإسناده عند تفسير الآية: ٣٣ من سورة النبأ.

(١٤) فى ف، أ: «هكذا».

(١٥) فى ت، ف، أ: «وهم».

وكل سوء، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم^(١) بالجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ . نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

وقد قدمنا الأحاديث الواردة في قبض روح المؤمن وروح الكافر عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٤)﴾.

يقول تعالى متهدداً للمشركين على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا: هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم بقبض أرواحهم، قاله قتادة.

﴿أَوْ يَأْتِيَ (٢) أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أى: يوم القيامة وما يعاينونه^(٣) من الأحوال.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أى: هكذا تمادى فى شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين حتى^(٤) ذاقوا بأس الله، وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾؛ لأنه تعالى أعذر إليهم، وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أى: بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاؤوا به، فلهذا أصابته^(٥) عقوبة الله على ذلك، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أى: أحاط بهم من العذاب الأليم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أى: يسخرون من الرسل إذا توعدهم بعقاب الله؛ فلهذا يقال يوم القيامة: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾ [الطور: ١٤].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (٣٦) إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٧)﴾.

(٣) فى أ: «وما يعاينون».

(١) فى أ: «ويبشرونهم». (٢) فى أ: «أو يأتيهم» وهو خطأ.

(٤) فى ت: «حين». (٥) فى ت، ف: «أصابهم».

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الشرك واعتذارهم محتجين بالقدر، في قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أى: من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك، مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء^(١) أنفسهم، ما لم ينزل الله به سلطاناً.

ومضمون كلامهم: أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا، لأنكره علينا بالعقوبة ولما مكنا^(٢) منه. قال الله راداً عليهم شبهتهم: ﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾؟ أى: ليس الأمر كما تزعمون أنه لم يعيره عليكم^(٣) ولم^(٤) ينكره، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه أكد النهي، وبعث فى كل أمة رسولا، أى: فى كل قرن من الناس وطائفة رسولا، وكلهم يدعو^(٥) إلى عبادة الله، وينهى^(٦) عن عبادة ما سواه: ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك، منذ حدث الشرك فى بنى آدم، فى قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذى طبقت دعوته الإنس والجن فى المشارق والمغارب، وكلهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، فمشيئته تعالى الشرعية منتفية^(٧)؛ لأنه نهاهم عن ذلك على السنة رسله، وأما مشيئته الكونية، وهى^(٨) تمكينهم من ذلك قدرا، فلا حجة لهم فيها^(٩)؛ لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله فى ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة.

ثم إنه تعالى قد أخبر أنه غير^(١٠) عليهم، وأنكر^(١١) عليهم بالعقوبة فى الدنيا بعد إنذار الرسل؛ فلهذا قال: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ أى: اسألوا^(١٢) عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠]، ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٌ﴾ [الملك: ١٨].

ثم أخبر تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم، إذا كان الله قد أراد إضلالهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١]، وقال نوح لقومه: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وقال فى هذه الآية

(٢) فى ت: «ولما مكنتنا»، وفى ف: «ولا مكنتنا».

(١) فى ف: «من قبل».

(٥) فى ف: «يدعون».

(٤) فى أ: «ولا».

(٣) فى ت، أ: «لم يعير».

(٨) فى ف: «فهى».

(٧) فى ف: «منتفية».

(٦) فى ف: «وينهون».

(١١) فى أ: «وانكره».

(١٠) فى أ: «غيره».

(٩) فى ت، ف، أ: «فيه».

(١٢) فى أ: «فاسألوا».

الكريمة: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ^(١) فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

فقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ أى: شأنه وأمره أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ فلهذا قال: ﴿لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ أى: من أضله فمن الذى يهديه من بعد الله؟ أى: لا أحد ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ أى: ينقذونهم^(٢) من عذابه ووثاقه، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٨) لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: أنهم حلفوا فأقسموا ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أى: اجتهدوا فى الحلف وغلظوا الأيمان على أنه ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتُ﴾ أى: استبعدوا ذلك، فكذبوا^(٣) الرسل فى إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نقيضه. فقال تعالى مكذباً لهم وراداً عليهم: ﴿بَلَىٰ﴾ أى: بلى سيكون ذلك، ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ^(٤) حَقًّا﴾ أى: لا بد منه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: فلجهلهم^(٥) يخالفون الرسل ويقعون فى الكفر.

ثم ذكر تعالى حكمته فى المعاد وقيام الأجساد يوم التناد، فقال: ﴿لِيَبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أى: للناس ﴿الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أى: من كل شىء، و﴿لِيَجْزِيَ^(٦) الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ أى: فى أيمانهم وأقسامهم: لا يبعث الله من يموت؛ ولهذا يدعون يوم القيامة إلى نار جهنم دعا، وتقول^(٧) لهم الزبانية: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ . أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ . اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٤ - ١٦].

ثم أخبر تعالى عن قدرته^(٨) على ما يشاء، وأنه لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء، وإنما أمره إذا^(٩) أراد شيئاً أن يقول له: «كن»، فيكون، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فلنما يأمر به مرة واحدة، فيكون كما يشاء، كما قال^(١٠): ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وقال: ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بِعَثْكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا^(١١) لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] أى: أن يأمر به دفعة^(١٢) واحدة فإذا هو كائن،

(١) فى ت: «ويمدهم» وهو خطأ. (٢) فى ت، ف، أ: «ينقذهم». (٣) فى ت، ف، أ: «وكذبوا».

(٤) فى أ: «عليهم» وهو خطأ. (٥) فى أ: «فبجهلهم». (٦) فى ت، ف، أ: «ويجزى» وهو خطأ.

(٧) فى ف، أ: «فيقول». (٨) فى ت: «عن قدرة». (٩) فى ف: «وأنه إذا».

(١٠) فى ف، أ: «وقال». (١١) فى ت: «أمرنا» وهو خطأ. (١٢) فى أ: «مرة».

كما قال الشاعر^(١):

إذا ما أراد الله أمراً فإنما يقول له: «كن»، قوله فيكون

أى: أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به، فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف، لأنه [هو]^(٢) الواحد القهار العظيم، الذى قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شىء، فلا إله إلا هو ولا رب سواه. وقال ابن أبى حاتم: ذكر^(٣) الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، أخبرني عطاء: أنه سمع أبا هريرة يقول: قال الله تعالى: سَبَّيْنِ ابْنَ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَسْبِيَنِي، وَكَذِبْنِي وَلَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكْذِبْنِي، فأما تكذيبه إياي فقال: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ»، قال: وقلت: «بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»، وأما سبه إياي فقال: «إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ» [المائدة: ٧٣]، وقلت: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» [سورة الإخلاص]^(٤).

هكذا^(٥) ذكره موقوفاً، وهو فى الصحيحين مرفوعاً، بلفظ آخر^(٦).

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوِّنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾.

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين فى سبيله ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان، رجاء ثواب الله وجزائه.

ويحتمل أن يكون سبب نزول هذه الآية الكريمة فى مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة، ليتمكنوا من عبادة ربهم، ومن أشرافهم: عثمان ابن عفان، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وجعفر بن أبى طالب، ابن عمر الرسول^(٧)، وأبو سلمة بن عبد الأسد^(٨) فى جماعة قريب من ثمانين، ما بين رجل وامرأة، صديق وصديقة، رضى الله عنهم وأرضاهم. وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة فى الدنيا والآخرة فقال: «لَنَبُوِّنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً» قال ابن عباس والشعبي، وقتادة: المدينة. وقيل: الرزق الطيب، قاله مجاهد.

ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوضهم الله خيراً منها^(٩) فى الدنيا، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله بما هو خير له منه^(١٠)، وكذلك وقع فإنهم مكن الله لهم فى البلاد

(١) مضى البيت عند تفسير الآية: ١١٧ من سورة البقرة.

(٢) زيادة من ت، ف، أ.

(٣) فى ت: «ذكره».

(٤) ورواه الطبري فى تفسيره (١٤ / ٧٣) من طريق حجاج به موقوفاً.

(٥) فى ت: «هذا».

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٤) ولفظه: «قال الله تعالى: كَذِبْنِي ابْنَ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمْنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فأما تكذيبه إياي، فقوله: لن يعيدنى كما بدأنى، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لى كفواً أحد».

(٧) فى ف، أ: «عبد الاسود».

(٨) فى ف، أ: «ابن عم رسول الله ﷺ».

(٩) فى ت، ف، أ: «منه».

(١٠) فى ت، ف، أ: «منه فى الدنيا».

وحكمهم على رقاب العباد، فصاروا أمراء حكاما، وكل منهم للمتقين إماما، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا، فقال: ﴿وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ أَكْبَرَ﴾ أى: مما أعطيناها في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أى: لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله؛ ولهذا قال هُشَيْمٌ، عن العوام، عمن حدثه؛ أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه^(١) يقول: خذ، بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما ادخر^(٢) لك في الآخرة أفضل، ثم قرأ^(٣) هذه الآية: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(٤).

ثم وصفهم تعالى فقال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى: صبروا على أقل^(٥) من آذاهم من قومهم، متوكلين على الله الذى أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٣)
بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤٤).

قال الضحاك، عن ابن عباس: لما بعث الله محمداً ﷺ رسولا، أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا. فأنزل الله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ [يونس: ٢]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى: أهل الكتب الماضية: أبشر كانت الرسل التى أتتكم^(٦) أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم، وإن كانوا بشرا فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولا؟ [و] قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي﴾^(٨) إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى، ليسوا من أهل السماء كما قلت.

وهكذا روى عن مجاهد، عن ابن عباس، أن المراد بأهل الذكر: أهل الكتاب. وقاله مجاهد، والأعمش.

وقول عبد الرحمن بن زيد - الذكر: القرآن واستشهد بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] - صحيح، [و] ^(٩) لكن ليس هو المراد هاهنا؛ لأن المخالف لا يرجع فى إثباته بعد إنكاره إليه.

وكذا قول أبى جعفر الباقر: «نحن أهل الذكر» - ومراده أن هذه الأمة أهل الذكر - صحيح، فإن هذه الأمة أعلم من جميع الأمم السالفة، وعلماء أهل بيت الرسول، عليهم^(١٠) السلام والرحمة، من

(١) فى أ: «عطاء».

(٢) فى ف: «وما دخره».

(٣) فى أ: «يقرأ».

(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤ / ٧٤).

(٥) فى ت، ف، أ: «أذى».

(٦) فى هـ، ت، أ: «إليهم» والمثبت من الطبرى. مستفاد من حاشية الشعب.

(٧) زيادة من ت، ف، أ.

(٨) فى ف، أ: «نوحى».

(٩) زيادة من ف، أ.

(١٠) فى ت: «عليه».

خير العلماء إذا كانوا على السنة المستقيمة، كعلي، وابن عباس، وبنى على: الحسن والحسين، ومحمد بن الحنفية، وعلى بن الحسين زين العابدين، وعلى بن عبد الله بن عباس، وأبى جعفر الباقر - وهو محمد بن على بن الحسين - وجعفر ابنه، وأمثالهم وأضرابهم وأشكالهم، ممن هو متمسك بحبل الله المتين وصراطه المستقيم، وعرف لكل ذى حق حقه، ونزل كل المنزل الذى أعطاه الله ورسوله واجتمع إليه قلوب عباده المؤمنين.

والغرض أن هذه الآية الكريمة أخبرت أن^(١) الرسل الماضين^(٢) قبل محمد ﷺ كانوا بشراً كما هو بشر، كما قال تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا. وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣، ٩٤] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنْهُمْ لِيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ. ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾^(٣) [الأنبياء: ٨، ٩]، وقال: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

ثم أرشد الله تعالى من شك فى كون الرسل كانوا بشراً، إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء^(٤) الذين سلفوا: هل كان أنبيأؤهم بشراً أو ملائكة؟

ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى: بالدلالات والحجج، ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وهى الكتب. قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم.

والزبر: جمع زبور، تقول العرب: زبرت الكتاب إذا كتبتة، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ يعنى: القرآن، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ من ربهم، أى: لعلمك^(٥) بمعنى ما أنزل عليك، وحرصك عليه، واتباعك له، لعلمنا بأنك^(٦) أفضل الخلائق وسيد ولد آدم، فنفصل^(٧) لهم ما أجمل، وتبين لهم ما أشكل: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أى: ينظرون لأنفسهم فيهدون، فيفوزون^(٨) بالنجاة فى الدارين.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٤٧) ﴿.

(١) فى ت، ف: «بأن». (٢) فى أ: «الماضية». (٣) زيادة من ف، أ.

(٤) فى ف، أ: «بشرا أن يسألوا أهل الذكر عن الأنبياء».

(٥) فى ت: «يعلمك». (٦) فى أ: «بأنه». (٧) فى أ: «نفصل».

(٨) فى ت، ف: «يفوزوا».

يخبر تعالى عن حلمه [وإمهاله]^(١) وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها، مع قدرته على ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أى: من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم، كما قال تعالى: ﴿أَأَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَمُورُ. أَمْ أَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ [الملك: ١٦، ١٧]، وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي ثَلَابِهِمْ﴾ أى: فى ثلبيهم فى المعاش واشتغالهم بها، من أسفار^(٢) ونحوها من الأشغال الملهمة. قال قتادة والسدى: ﴿ثَلَابِهِمْ﴾ أى: أسفارهم.

وقال مجاهد، والضحاك: ﴿فِي ثَلَابِهِمْ﴾ فى الليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ. أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨].

وقوله: ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أى: لا يعجزون الله على أى حال كانوا عليه. وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أى: أو يأخذهم الله فى حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد حالة الأخذ؛ فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد؛ ولهذا قال العوفى، عن ابن عباس: ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ يقول: إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك. وكذا روى عن مجاهد، والضحاك، وقتادة وغيرهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَّوْفٌ رَحِيمٌ﴾ أى: حيث لم يعاجلكم بالعقوبة، كما ثبت فى الصحيحين «[لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيه]»^(٣)، وفى الصحيحين^(٤): «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]^(٥) وقال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج: ٤٨].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠).

يخبر تعالى عن عظمتة وجلاله وكبريائه الذى خضع له كل شىء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها: جمادها وحيواناتها، ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، فأخبر^(٦) أن كل ما له ظل يتفياً

(١) زيادة من أ.

(٢) صحيح البخارى برقم (٦٠٩٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٤).

(٣) زيادة من ت، ف، أ.

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٦) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٣) من حديث أبى موسى الأشعرى، رضى الله عنه.

(٥) فى ت: «والخير».

ذات اليمين وذات الشمال، أى: بكرة وعشيا، فإنه ساجد بظله لله تعالى.
قال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله عز وجل. وكذا قال قتادة، والضحاك، وغيرهم.

وقوله: ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أى: صاغرون.

وقال مجاهد أيضاً: سجود كل شيء فيه. وذكر الجبال قال: سجودها فيها.

وقال أبو غالب الشيباني: أمواج البحر صلاته.

ونزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم.

ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا لَهُمْ بِالْغَدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى: تسجد لله أى غير مستكبرين عن عبادته، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ أى: يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أى: مثابرين على طاعته^(١) تعالى، وامثال أوامره، وترك زواجه.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)﴾.

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له؛ فإنه مالك كل شيء وخالقه وربّه.

﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة^(٢)، وميمون بن مهران، والسدى، وقاتدة، وغير واحد: أى دائماً.

وعن ابن عباس أيضاً: واجباً. وقال مجاهد: خالصاً. أى: له العبادة وحده بمن في السموات والأرض، كقوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]. هذا على قول ابن عباس وعكرمة، فيكون من باب الخبر، وأما على قول مجاهد فإنه يكون من باب الطلب، أى: ارهبوا أن تشركوا به^(٣) شيئاً، وأخلصوا له الطلب^(٤)، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

ثم أخبر أنه مالك النفع والضّر، وأن ما بالعبد من رزق، ونعمة^(٥) وعافية ونصر فمن فضله

(٣) فى آ: «بى».

(٢) فى ت، ف: «وعكرمة ومجاهد».

(١) فى ف: «طاعة الله».

(٥) فى ت، ف: «بالعباد من نعمة ورزق».

(٤) فى آ: «الطاعة».

عليه^(١)، وإحسانه إليه، ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ أى: لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجؤون إليه، وتسالونه وتلجؤون في الرغبة مستغيثين به^(٢)، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال هاهنا: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾.

قيل: «اللام» هاهنا لام العاقبة. وقيل: لام التعليل، بمعنى: قيضنا لهم ذلك^(٣) ليكفروا، أى: يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم، وأنه المسدّى إليهم النعم، الكاشف عنهم النقم. ثم توعدهم قائلاً: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أى: اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أى: عاقبة ذلك.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيًّا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السُّوءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠).

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد، وجعلوا لها نصيباً مما رزقهم الله، فقالوا: ﴿هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾ [بغير علم]^(٤) وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ ﴿[الأنعام: ١٣٦] أى: جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله وفضلوهم^(٥) أيضاً على جانبه، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه، واثبتكوه، وليقابلنهم^(٦) عليه وليجازينهم أوفر الجزاء فى نار جهنم، فقال: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾.

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، وجعلوها بنات الله، وعبدوها معه، فأخطؤوا خطأ كبيراً فى كل مقام من هذه المقامات الثلاث، فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً، ولا ولد له! ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، كما قال: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢] وقال هاهنا: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ﴾ أى: عن قولهم وإفكهم، ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات: ١٥١-١٥٤].

(٢) فى ت: «وتلجؤون فى الرغبة إليه».

(٤) زيادة من ف.

(٦) فى أ: «وليقابلهم».

(١) فى أ: «عليهم».

(٣) فى أ: «قيضناهم لذلك».

(٥) فى ف: «وفضلوا».

وقوله: ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أى: يختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون لأنفسهم من البنات التى نسبوا إلى الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، فإنه ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوِداً﴾ أى: كثيباً من الهم، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾، ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن، ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ﴾ أى: يكره أن يراه الناس ﴿مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أى: إن أبقاها أبقاها مهانة لا يورثها، ولا يعتنى بها، ويفضل أولاده الذكور عليها، ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أى: يندھا: وهو: أن يدفنها فيه حية، كما كانوا يصنعون فى الجاهلية، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله؟ ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أى: بش ما قالوا، وبش ما قسموا، وبش ما نسبوا إليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوِداً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧]، وقال هاهنا: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أى: النقص إنما ينسب إليهم، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ أى: الكمال المطلق من كل وجه، وهو منسوب إليه، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ (٦٢).

يخبر تعالى عن حلمه^(١) بخلقهم مع ظلمهم، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة، أى: لأهلك جميع دواب الأرض تبعاً لإهلاك بنى آدم، ولكن الرب، جل جلاله، يحلم ويستر، وينظر ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: لا يعاجلهم بالعقوبة؛ إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً. قال سفيان الثوري، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص أنه قال: كاد الجعل أن يعذب بذنوب بنى آدم، وقرأ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ (٢) من دابة^(٣).

وكذا روى الأعمش، عن أبى إسحاق، عن أبى عبيدة قال: قال عبد الله: كاد الجعل أن يهلك فى جحرة بخطيئة بنى آدم.

وقال ابن جرير: حدثنى محمد بن المثنى، حدثنا إسماعيل بن حكيم الخزاعى، حدثنا محمد بن جابر الحنفى^(٤)، عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلمة قال: سمع أبو هريرة رجلاً وهو يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه^(٥). قال: فالتفت إليه فقال: بلى والله، حتى إن الحبارى لتموت فى وكرها [هَذَا] (٦) بظلم الظالم^(٧).

(٢) فى ف، أ: «على ظهرها» وهو خطأ.

(١) فى ت: «علمه».

(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (٨٥/١٤).

(٦) زيادة من ت، ف، أ، والطبرى.

(٥) فى ف: «بنفسه».

(٤) فى ت: «الحنفى».

(٧) تفسير الطبرى (٨٥/١٤) وقال ابن حجر: «فى إسناده محمد بن جابر اليمامى، وهو متروك».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، أنبأنا الوليد بن عبد الملك بن عبيد الله^(١) بن مسرح، حدثنا سليمان^(٢) بن عطاء، عن مسلمة^(٣) بن عبد الله، عن عمه أبي مشجعة بن ربيع، عن أبي الدرداء، رضى الله عنه، قال: ذكرنا عند رسول الله ﷺ، فقال: «إن الله لا يؤخر شيئاً إذا جاء أجله، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة، يرزقها الله العبد فيدعون له من بعده، فيلحقه دعاؤهم في قبره، فذلك زيادة العمر»^(٤).

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أى: من البنات ومن الشركاء الذين هم [من]^(٥) عبيده، وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له فى ماله.

وقوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾: إنكار عليهم فى دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى فى الدنيا، وإن كان ثم معاد ففيه أيضاً لهم الحسنى، وإخبار عن قيل من قال منهم، كقوله: ﴿وَلَيْتَنَّا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ رَحْمَةٍ مَّا نَزَعْنَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُفُّرُ. وَلَيْتَنَّا أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾ [هود: ٩، ١٠]، وكقوله^(٦): ﴿وَلَيْتَنَّا أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مَّا مِنْ بَعْدِ ضِرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَيْتَنَّا رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ^(٧) بآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا. [أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ آتَاكَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا]^(٨)﴾ [مريم: ٧٧، ٧٨] وقال إخباراً عن أحد الرجلين: أنه ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لَنَفْسِهِ قَالَ^(٩) مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا. وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَيْتَنَّا رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦] - فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمنى الباطل، بأن يجازوا على ذلك حسناً وهذا مستحيل، كما ذكر ابن إسحاق: أنه وجد حجر فى أساس الكعبة حين نقضوها ليجددوها مكتوب عليه حَكَمَ وَمَوَاعِظُ، فمن^(١٠) ذلك: تعملون السيئات^(١١) ويجزون الحسنات؟ أجل كما يجتنى^(١٢) من الشوك العنب^(١٣).

وقال مجاهد، وقتادة: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ أى^(١٤): الغلمان.

وقال ابن جرير: ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ أى: يوم القيامة، كما قدمنا بيانه، وهو الصواب، والله الحمد.

ولهذا قال الله تعالى رادا عليهم فى تمنيهـم [ذلك]^(١٥): ﴿لَا جَرَمَ﴾ أى: حقا لا بد منه ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾.

(١) فى ت: «الوليد بن عبد الله بن عبد الله».

(٢) فى ت: «سفيان».

(٤) ورواه ابن عدى فى الكامل (٢٨٥/٣) من طريق الوليد بن عبد الملك به نحوه، وفيه سليمان بن عطاء مجمع على ضعفه.

(٥) زيادة من ت. (٦) فى أ: «وقال».

(٧) فى ت: «الذين كفروا» وهو خطأ.

(١٠) فى ت: «فى».

(٩) فى ت، ف، أ: «فقال».

(١٢) فى ف، أ: «يجنى».

(١٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١٩٦/١).

(١٥) زيادة من ت، ف، أ.

قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة وغيرهم: منسيون فيها مضيعون.
وهذا كقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَسَاهُمْ كَمَا نَسُوا^(١) لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١].
وعن قتادة أيضا: ﴿مُفْرَطُونَ﴾ أى: معجلون إلى النار، من الفَرَط وهو السابق إلى الورد ولا منافاة لأنهم يعجل بهم يوم القيامة إلى النار، وينسون فيها، أى: يخلدون.

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٦٣) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥).

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً، فكُذِّبَت الرسل، فلك يا محمد فى إخوانك من المرسلين أسوة، فلا يهيدنك تكذيب قومك لك، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل، فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه، ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أى: هم تحت العقوبة والنكال، والشيطان وليهم، ولا يملك لهم خلاصاً، ولا صريخ لهم، ولهم عذاب أليم.

ثم قال^(٢) تعالى لرسوله: إنه إنما أنزل^(٣) عليه الكتاب ليبين للناس الذى يختلفون فيه، فالقرآن فاصل بين الناس فى كل ما يتنازعون فيه، ﴿وَهُدًى﴾ أى: للقلوب، ﴿وَرَحْمَةً﴾ أى: لمن تمسك به، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وكما جعل تعالى القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها، كذلك يحيى [الله]^(٤) الأرض بعد موتها بما ينزله^(٥) عليها من السماء من ماء، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أى: يفهمون الكلام ومعناه.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لِّبَنَّا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ (٦٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧).

يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِي الْأَنْعَامِ﴾ وهى: الإبل والبقر والغنم، ﴿لَعِبْرَةً﴾ أى: لآية ودلالة على قدرة خالقها وحكمته ولطفه ورحمته، ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾، وأفرد هاهنا [الضمير]^(٦) عوداً على معنى النعم، أو الضمير^(٧) عائد على الحيوان؛ فإن الأنعام حيوانات، أى: نسقيكم مما فى بطن^(٨) هذا الحيوان.

(١) فى ت، ف، أ: «نساكم كما نسيتم» وهو خطأ.

(٢) فى أ: «وقال».

(٣) فى أ: «نزل».

(٤) زيادة من ت.

(٥) زيادة من ت، ف، أ.

(٦) فى ف، أ: «بطن».

(٧) فى ف، أ: «والضمير».

وفى الآية الأخرى: ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: ٢١]، ويجوز هذا وهذا، كما فى قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ. فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ [المدثر: ٥٤، ٥٥]، وفى قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ. فَلَمَّا جَاءَ سَلِيمَانُ﴾ [النمل: ٣٥، ٣٦] أى: المال.

وقوله: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا﴾ أى: يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم فى باطن الحيوان، فيسرى كلُّ إلى موطنه، إذا نضج الغذاء فى معدته تصرف^(١) منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع^(٢)، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه، ولا يتغير به.

وقوله: ﴿لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ أى: لا يغص به أحد^(٣).

ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شراباً للناس سائغاً^(٤)، تُنى بذكر ما يتخذُه الناس من الأشربة، من ثمرات النخيل والأعناب، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه؛ ولهذا امتن به عليهم فقال: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾، دل على إباحته شرعاً قبل تحريمه، ودل على التسوية بين السَّكَّر المتخذ من العنب، والمتخذ من النخل كما هو مذهب مالك والشافعى وأحمد وجمهور العلماء، وكذا حُكِّم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل، كما جاءت السنة بتفصيل ذلك، وليس هذا موضع بسط ذلك، كما قال^(٥) ابن عباس فى قوله: ﴿سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾، قال: السَّكَّر: ما حرم من ثمرتيهما، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما. وفى رواية: السَّكَّر حرامه، والرزق الحسن حلاله. يعنى: ما ييس منهما من تمر وزبيب، وما عمل منهما من طلاء وهو الدُّبْس^(٦) - وخل ونبيذ، حلال يشرب قبل أن يشتد، كما وردت السنة بذلك.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: ناسب ذكر العقل هاهنا، فإنه أشرف ما فى الإنسان؛ ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ. لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ. سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٤-٣٦].

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ (٦٨) ثم كُلِّي مِنَ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٦٩).

المрад بالوحي هاهنا: الإلهام والهداية والإرشاد إلى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتا تأوى إليها، ومن الشجر، وما يعرشون. ثم هى محكمة فى غاية الإتقان فى تسديسها ورسها، بحيث لا يكون بينها خلل.

(١) فى ت، ف: «يصرف». (٢) فى أ: «الضرع». (٣) فى ت، ف، أ: «أحد به».

(٤) فى ف: «وسائغاً». (٥) فى ف: «قاله».

(٦) الطلاء: الشراب المطبوخ من عصير العنب، وأما الدبس: فهو عسل التمر وعصارته.

ثم أذن لها تعالى إذنا قدريا تسخيريا أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى لها مذللة، أى: سهلة عليها حيث شاءت فى هذا الجو العظيم والبرارى الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى موضعها وبيتها، لا تحيد عنه يمنا ولا يسرة، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل، فتبنى الشمع من أجنتها، وتقوى العسل من فيها^(١)، وتبيض الفراخ من دبرها، ثم تصبح إلى مراعيها.

وقال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَاسْأَلِكِ سَبِيلَ رَبِّكَ ذُلًّا﴾، أى: مطيعة. فجعلناه حالا من السالكة. قال ابن زيد: وهو كقول الله تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢] قال: ألا ترى أنهم ينقلون النحل^(٢) من بيوته من بلد إلى بلد وهو يصحبهم. والقول الأول أظهر، وهو أنه حال من الطريق، أى: فاسلكيها مذللة لك، نص عليه مجاهد. وقال ابن جرير: كلا القولين صحيح^(٣).

وقد قال أبو يعلى الموصلى: حدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا سكين^(٤) بن عبد العزيز، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «عُمِرُ الذِّبَابُ أَرْبَعُونَ يَوْمًا، وَالذِّبَابُ كُلُّهُ فِي النَّارِ إِلَّا النَّحْلُ»^(٥). وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ أى: ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة، على اختلاف مراعيها ومأكليها منها^(٦).

وقوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ أى: فى العسل شفاء للناس من أدواء تعرض لهم. قال بعض من تكلم على الطب النبوى: لو قال فيه: «الشفاء للناس» لكان دواء لكل داء، ولكن قال ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ أى: يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار، والشىء يداوى بضده. وقال مجاهد بن جبر^(٧) فى قوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ يعنى: القرآن.

وهذا قول صحيح فى نفسه، ولكن ليس هو الظاهر هاهنا من سياق الآية؛ فإن الآية إنما ذكر فيها العسل، ولم يتابع مجاهد على قوله هاهنا، وإنما الذى قاله ذكره فى قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

والدليل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ هو العسل - الحديث الذى رواه البخارى ومسلم فى صحيحهما^(٨)، من رواية قتادة، عن أبى المتوكل على بن داود الناجى، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخى استطلق بطنه. فقال: «اسقه عسلا». فسقاه عسلا، ثم جاء فقال: يا رسول الله، سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا! قال: «أذهب فاسقه عسلا». فذهب فسقاه، ثم جاء فقال: يا رسول الله، ما زاده إلا استطلاقا! فقال رسول

(١) فى ت: «فمنها». (٢) فى ت، ف، أ: «ينقلون بالنحل».

(٣) فى ت، ف: «متجه». (٤) فى ت، ف: «سكين».

(٥) مسند أبى يعلى (٢٣١/٧) وحسنه البوصيرى كما فى حاشية المطالب العالىة (٢٩٦/٢).

(٦) فى أ: «منه». (٧) فى أ: «جبير». (٨) فى ف: «صحيحهما».

الله ﷺ: «صدق الله، وكذب بطن أخيك! اذهب فاسقه عسلا». فذهب فسقاه فبرئ^(١).

قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاه عسلا وهو حار تحللت، فأسرعت في الاندفاع، فزاد إسهاله، فاعتقد^(٢) الأعرابي أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فازداد التحليل والدفع، ثم سقاه فكَذَلِكَ، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه، وصلح مزاجه، واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام^(٣). وفي الصحيحين، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، رضى الله عنها؛ أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الحُلُوء والعسل. هذا^(٤) لفظ البخارى^(٥).

وفي صحيح البخارى: من حديث سالم الأفتس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشفاء فى ثلاثة: فى شَرْطَةِ مَحْجَمٍ، أو شربة عسل، أو كَيْةٍ بنار، وأنهى أمتى عن الكى»^(٦).

وقال البخارى: حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد الرحمن بن الغَسِيل، عن عاصم بن عمر بن قتادة، سمعت جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كان فى شىء من أدويتكم، أو يكون فى شىء من أدويتكم خير: ففى شَرْطَةِ مَحْجَمٍ، أو شربة عسل، أو لدعة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوى».

ورواه مسلم من حديث عاصم بن عمر بن قتادة، عن جابر، به^(٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا على بن إسحاق، أنبأنا عبد الله، أنبأنا سعيد بن أبى أيوب، حدثنا عبد الله بن الوليد، عن أبى الخير، عن عقبة بن عامر الجهنى قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث إن كان فى شىء شفاء: فشرْطَةُ مَحْجَمٍ، أو شربة عسل، أو كَيْةٍ تصيب الماء، وأنا أكره الكى ولا أحبه»^(٨).

ورواه الطبرانى عن هارون بن مَلُول^(٩) المصرى، عن أبى عبد الرحمن المقرئ، [عن حيوة بن شريح]^(١٠) عن عبد الله بن الوليد، به. ولفظه: «إن كان فى شىء شفاء: فشرْطَةُ مَحْجَمٍ... وذكره^(١١) وهذا إسناد صحيح، ولم يخرجوه.

وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن زيد^(١٢) بن ماجه القزوينى فى سننه: حدثنا على بن سلمة -

(١) صحيح البخارى برقم (٥٧١٦) وصحيح مسلم برقم (٢٢١٧).

(٢) فى ف: «واعتقد».

(٣) انظر: زاد المعاد لابن القيم (٣٦-٣٣/٤) وفتح البارى لابن حجر (١٠/١٦٩، ١٧٠).

(٤) فى ف: «وهذا».

(٥) صحيح البخارى برقم (٥٦٨٢) وصحيح مسلم برقم (١٤٧٤).

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٦٨٠، ٥٦٨١).

(٧) صحيح البخارى برقم (٥٦٨٣) وصحيح مسلم برقم (٢٢٠٥).

(٨) المسند (١٤٦/٤).

(٩) فى هـ، ف: «مملول» وفى أ: «سلول» والمثبت من المعجم للطبرانى. (١٠) زيادة من المعجم الكبير للطبرانى.

(١١) المعجم الكبير (١٧/١٨٨) والمعجم الأوسط برقم (٩٣٣٥) ومجمع البحرين برقم (٤١٦٥).

تنبيه: وقع فى المعجم الأوسط عن أبى عبد الرحمن المقرئ، عن سعيد بن أبى أيوب، عن عبد الله بن الوليد به، وقال: «لم يروه عن عبد الله بن الوليد إلا سعيد» وقد رأيت فى المعجم الكبير رواه عنه شريح، فلا أدري هل هو خطأ أم لا؟ والله أعلم.

(١٢) فى ت، ف: «يزيد».

هو اللبقي - حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا سفيان عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن»^(١).

وهذا إسناد جيد، تفرد بإخراجه ابن ماجه مرفوعاً، وقد رواه ابن جرير، عن سفيان بن وكيع، عن أبيه، عن سفيان - هو الثوري - به موقوفاً^(٢): وكهو^(٣) أشبه.

ورويانا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنه قال: إذا أراد أحدكم الشفاء فليكتب آية من كتاب الله في صحفة، وليغسلها بماء السماء، وليأخذ من امرأته درهما عن طيب نفس منها، فليشتر به عسلاً فليشربه بذلك، فإنه شفاء^(٤). أي: من وجوه، قال الله: ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢] وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ [ق: ٩] وقال: ﴿فَإِنْ طَبِّحَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤]، وقال في العسل: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾.

وقال ابن ماجه أيضاً: حدثنا محمود بن خدّاش، حدثنا سعيد بن زكريا القرشي، حدثنا الزبير بن سعيد الهاشمي، عن عبد الحميد بن سالم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لَعِقَ العسل ثلاثَ غَدَوَاتٍ في كل شهر، لم يصبه عظيم من البلاء»^(٥).
الزبير بن سعيد متروك.

وقال ابن ماجه أيضاً: حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف بن سرح الفريابي، حدثنا عمرو بن بكر^(٦) السكسكي، حدثنا إبراهيم بن أبي عبلة. سمعت أبا أبي بن أم حرام - وكان قد صلى القبلتين - يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عليكم بالسنيّ والسّنوت، فإن فيهما شفاء من كل داء إلا السام». قيل: يا رسول الله، وما السام؟ قال: «الموت».

قال عمرو: قال ابن أبي عبلة: «السّنوت»: الشَّبْتُ. وقال آخرون: بل هو العسل الذي [يكون]^(٧) في زقاق السمن، وهو قول الشاعر:

هَمُّ السَّمْنِ بالسّنوت لا أَلْسَ فيهم وَهُمْ يَمْنَعُونَ الجَارَ أَنْ يَقْرَدَا

كذا رواه ابن ماجه^(٨). وقوله: «لا أَلْسَ فيهم» أي: لا خلط. وقوله: «يمنعون الجار أن يقردا»، [أي: يضطهد ويظلم]^(٩).

وقوله: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: إن في إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة إلى السلوك في هذه المهامة والاجتناء من سائر الثمار، ثم جمعها للشمع والعسل، وهو من أطيب

(١) سنن ابن ماجه برقم (٣٤٥٢).

(٢) تفسير الطبري (١٤ / ٩٤) وقال الدارقطني في العلل: «الموقوف أصح».

(٣) في ت، ف: «وهو».

(٤) قال ابن حجر في الفتح (١٠ / ١٧٠): «أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير بسند حسن».

(٥) سنن ابن ماجه برقم (٣٤٥٠) وهو منقطع أيضاً، عبد الحميد بن سالم لم يسمعه من أبي هريرة.

(٦) في ف: «بكبر».

(٧) زيادة من ت، ف، أ، وسنن ابن ماجه.

(٨) سنن ابن ماجه برقم (٣٤٥٧) وقال البوصيري في الزوائد (٣ / ١٢٣): «إسناده ضعيف» ثم أعله بعمرو السكسكي.

(٩) زيادة من ت، ف، أ.

الاشياء، ﴿لَا يَآئِدُهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فى عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها، فيستدلون بذلك على أنه [الفاعل]^(١) القادر، الحكيم العليم، الكريم الرحيم.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمَرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (٧٠).

يخبر تعالى عن تصرفه فى عباده، وأنه هو الذى أنشأهم من العدم، ثم بعد ذلك يتوفاهم، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم - وهو الضعف فى الخلقة - كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

وقد روى عن على، رضى الله عنه، فى أردل العمر [قال]^(٢): خمس وسبعون سنة. وفى هذا السن يحصل له ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم؛ ولهذا قال: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ (٣) عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أى: بعد ما كان عالماً أصبح لا يدرى شيئاً من الفند والخرف؛ ولهذا روى البخارى عند تفسير هذه الآية:

حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا هارون بن موسى أبو عبد الله الأعور، عن شعيب، عن أنس ابن مالك؛ أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «أعوذ بك من البخل والكسل، والهرم وأردل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات». ورواه مسلم، من حديث هارون الأعور، به^(٤). وقال زهير بن أبى سلمى فى معلقته^(٥) المشهورة:

سَمِثْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ، وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ عَامًا - لَا أَبَالِكَ - يَسَامُ
رَأَيْتُ الْمَنَايَا خَبَطَ عَشَوَاءَ مِنْ تَصَبُّ ثَمْتَهُ وَمَنْ تُخْطِئُ يَعْمَرُ فِيهِمْ^(٦)

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٧١).

يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه^(٧) لله من الشركاء، وهم يعترفون^(٨) أنها عبيد له، كما كانوا يقولون فى تلبياتهم فى حجهم: «ليك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك». فقال تعالى منكراً عليهم: إنكم^(٩) لا ترضون أن تساوا عبيدكم فيما رزقناكم، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيده له فى الإلهية والتعظيم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ

(١) زيادة من ف، أ. (٢) زيادة من ت، ف، أ. (٣) فى ت: «من بعد» وهو خطأ.

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٠٧) وصحيح مسلم برقم (٢٧٠٦) وليس فى الصحيح: «والهرم».

(٥) فى ف: «قصيدته».

(٦) ديوان زهير بن أبى سلمى (ص ٢٩).

(٧) فى ت، ف: «يزعمون». (٨) فى ت، ف، أ: «يعرفون». (٩) فى ت، ف، أ: «أنتم».

أَنْفُسَكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا^(١) مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴿الآية [الروم: ٢٨].

قال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: يقول: لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني، فذلك قوله: ﴿أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾. وقال في الرواية الأخرى، عنه: فكيف ترضون لي ما لا ترضون^(٢) لأنفسكم. وقال مجاهد في هذه الآية: هذا مثل للآلهة الباطلة^(٣).

وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله، فهل منكم من أحد شارك^(٤) مملوكه في زوجته وفي فراشه، فتعدلون بالله خلقه وعباده؟ فإن لم ترض لأنفسك هذا، فالله^(٥) أحق أن ينزهه منك. وقوله: ﴿أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أى: إنهم جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا، فجحدوا نعمته^(٦)، وأشركوا معه غيره.

وعن الحسن البصري قال: كتب عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، هذه الرسالة إلى أبى موسى الأشعري: واقع برزقك من الدنيا، فإن الرحمن فضّل بعض عباده على بعض في الرزق، بل^(٧) يتلى به كلاً، فيبتلى من بسط له، كيف شكره لله وأداؤه الحق الذى افترض عليه فيما رزقه وخوله؟ رواه ابن أبى حاتم.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢)﴾.

يذكر تعالى نعمه^(٨) على عبيده، بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجا من جنسهم وشكلهم [وزيهم]^(٩)، ولو جعل الأزواج من نوع آخر لما حصل اتلاف ومودة ورحمة. ولكن من رحمته خلق من بنى آدم ذكورا وإناثا، وجعل الإناث أزواجا للذكور.

ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة، وهم أولاد البنين. قاله ابن عباس، وعكرمة، والحسن، والضحاك، وابن زيد.

قال شعبة، عن أبى بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾: هم الولد وولد الولد.

وقال سنيّد: حدثنا حجاج عن أبى بكر، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: بنوك حين يحفدونك ويرفدونك ويعينونك ويخدمونك، قال جميل:

حَفَدَ الْوَلَاءُ حَوْلَهُنَّ وَأَسْلَمَتْ بِأَكْفُهُنَّ أَرْمَةَ الْأَجْمَالِ^(١٠)

(٣) فى ت، ف، أ: «الباطل».

(٦) فى ف، أ: «بنعمة الله».

(٩) زيادة من ت، ف، أ.

(٢) فى ت: «ترضوه».

(٥) فى ف: «فإن الله».

(٨) فى ف، أ: «نعمته».

(١) فى ت: «فيما».

(٤) فى ف: «يشارك».

(٧) فى ت، ف، أ: «بلاء».

(١٠) البيت فى تفسير الطبرى (١٤ / ٩٨) ونسبه لحميد.

وقال مجاهد: ﴿بَيْنَ وَحَفْدَةٍ﴾: ابنه وخادمه. وقال في رواية: الحفدة: الأنصار والأعوان والخدام.

وقال طاوس: الحفدة: الخدم^(١). وكذا قال قتادة، وأبو مالك، والحسن البصري. وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة أنه قال: الحفدة: مَنْ خَدَمَكَ مِنْ ولدك وولد ولدك^(٢).

قال الضحاك: إنما كانت العرب يخدمها بنوها. وقال العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةٍ﴾ يقول: بنو امرأة الرجل، ليسوا منه. ويقال: الحفدة: الرجل يعمل بين يدي الرجل، يقال: فلان يحفد لنا قال: ويزعم^(٣) رجال أن الحفدة أختان الرجل.

وهذا [القول]^(٤) الأخير الذي ذكره ابن عباس قاله ابن مسعود، ومسروق، وأبو الضحى، وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والقرظي. ورواه عكرمة، عن ابن عباس. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هم الأصهار.

قال ابن جرير: وهذه الأقوال كلها داخلة في معنى: «الحفد» وهو الخدمة، الذي منه قوله في القنوت: «وإليك نسعى ونحفد»، ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والأصهار والخدم^(٥)، فالنعمة حاصلة بهذا كله؛ ولهذا^(٦) قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةٍ﴾.

قلت: فمن جعل ﴿وَحَفْدَةً﴾ متعلقاً بأزواجكم، فلا بد أن يكون المراد الأولاد، وأولاد الأولاد، والأصهار؛ لأنهم أزواج البنات، وأولاد الزوجة، كما قال^(٧) الشعبي والضحاك، فإنهم غالباً يكونون تحت كنف الرجل وفي حجره وفي خدمته. وقد يكون هذا هو المراد من قوله [عليه الصلاة] ^(٨) والسلام في حديث بصرة بن أكثم: «والولد عبد لك» رواه أبو داود^(٩).

وأما من جعل الحفدة هم الخدم فعنده أنه معطوف على قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: وجعل لكم الأزواج والأولاد^(١٠).

﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من المطاعم والمشارب.

ثم قال تعالى منكرًا على من أشرك في عبادة المنعم غيره: ﴿أَفَبِلَبَاطِلٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وهم^(١١): الأصنام والأنداد، ﴿وَبِئَعَمَتِ اللَّهُ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره. وفي الحديث الصحيح: «إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ممتنا عليه: ألم أزوجك؟ ألم

(١) في ت: «الخدام».

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ٣٠٩).

(٣) في ف: «وزعم».

(٤) في ف: «لهذا».

(٥) سنن أبي داود برقم (٢١٣١).

(٦) في أ: «وجعل لكم خداماً».

(٧) في ت: «وهو».

(٨) في ت، ف: «والخدام».

(٩) زيادة من أ.

(١٠) زيادة من ف، أ.

(١١) في ت، ف: «قاله».

أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذكرك ترأس وترنح^(١)؟»^(٢).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤)﴾.

يقول تعالى إخباراً عن المشركين الذين عبدوا معه غيره، مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾ أى: لا يقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع ولا شجر، ولا يملكون ذلك، أى: ليس لهم^(٣) ذلك ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ أى: لا تجعلوا^(٤) له أنداداً وأشباهاً^(٥)، وأمثالاً، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى: إنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا الله^(٦)، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾.

قال العوفي، عن ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن: وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير.

والعبد^(٧) المملوك الذى لا يقدر على شيء مثل الكافر والمرزوق الرزق الحسن، فهو ينفق منه سرا وجهراً، هو^(٨) المؤمن.

وقال ابن أبى نجيح، عن مجاهد: هو مثل مضروب للوثن والحق تعالى، فهل يستوى هذا وهذا؟

ولما كان الفرق ما بينهما بينا واضحاً ظاهراً لا يجهله إلا كل غبى، قال [الله]^(٩) تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. [ثم قال تعالى]^(١٠):

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦)﴾.

قال مجاهد: وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى، يعنى: أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق

(١) فى ت، ف: «وترنح».

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٩٦٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) فى ت، ف: «إليهم».

(٤) فى ت: «أى تجعلون».

(٥) فى ف: «أشباحاً وأنداداً».

(٦) فى ف: «إلا هو».

(٧) فى ت، ف: «فالعبد».

(٨) فى ت: «فهو».

(٩) زيادة من ت، ف، أ.

(١٠) زيادة من أ.

بخير ولا بشيء^(١)، ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مقال، ولا فعال، وهو مع هذا ﴿كَلَّ﴾ أى: عيال وكلفة على مولاه، ﴿أَيْنَمَا يُوْجِهُهُ﴾ أى: بعثه ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ ولا ينجح مسعاه، ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾ من هذه صفاته، ﴿وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أى: بالقسط، فقله حق وفعاله مستقيمة^(٢)، ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وبهذا قال السدى، وفتادة وعطاء الخراسانى. واختار هذا القول ابن جرير.

وقال العوفى، عن ابن عباس: هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً، كما تقدم.

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن الصباح البزار، حدثنا يحيى بن إسحاق، السِّلَحِينِي^(٣)، حدثنا حماد، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم^(٤)، عن إبراهيم، عن^(٥) عكرمة، عن يعلى بن أمية، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾: نزلت فى رجل من قريش وعبد. وفى قوله: ﴿[وَضَرَبَ اللَّهُ] مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ [لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ]﴾^(٦) إلى قوله: ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، قال: هو عثمان بن عفان. قال: والابكم الذى أينما يوجهه لا يأت بخير قال هو: مولى لعثمان بن عفان، كان عثمان ينفق عليه ويكفله^(٨) ويكفيه المئونة، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف، فنزلت فيهما^(٩).

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٧٧) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩).

يخبر تعالى عن كماله وقدرته على الأشياء، فى علمه غيب السموات والأرض، واختصاصه بذلك، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه [الله]^(١٠) تعالى على ما يشاء - وفى قدرته التامة^(١١) التى لا تخالف ولا تمنع، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن، فيكون، كما قال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] أى: فيكون ما يريد كطرف العين. وهكذا قال هاهنا: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، كما قال: ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بِعَنُكُمُ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

ثم ذكر تعالى منته على عباده، فى إخراجهم^(١٢) إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد

(٣) فى أ: «السِّلَحِينِي».

(٦) زيادة من ت، ف، أ.

(١٢) فى ت: «إخراجهم».

(٢) فى ت: «مستقيم».

(٥) فى ف: «ابن».

(١١) فى ف: «العامة».

(١) فى ت، أ: «ولا بشر».

(٤) فى ت: «خثيم».

(٨) فى ت، ف: «ويكفله».

(٩) تفسير الطبرى (١٤ / ١٠١).

(١٠) زيادة من ت.

هذا يرزقهم^(١) تعالى السمع الذى به يدركون الأصوات، والأبصار اللاتى بها يحسون المرئيات، والأفئدة - وهى العقول - التى مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها. وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلا قليلا، كلما كبر زيد فى سمعه وبصره وقوى عقله حتى يبلغ أشده.

وإنما جعل تعالى هذه فى الإنسان، ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه، كما جاء فى صحيح البخارى، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول تعالى: من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بمثل^(٢) أداء ما افترضت عليه. ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى^(٣) يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن دعانى لأجيبه، ولئن استعاذ بى لأعيذه، وما ترددت فى شىء أنا فاعله ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه»^(٤).

فمعنى الحديث: أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل، فلا يسمع إلا الله، ولا يبصر إلا الله، أى: ما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشى إلا فى طاعة الله عز وجل، مستعينا بالله فى ذلك كله؛ ولهذا جاء فى بعض رواية الحديث فى غير الصحيح، بعد قوله: «ورجله التى يمشى بها»: «فى يسمع، وبى يبصر، وبى يبطش، وبى يمشى»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كما قال فى الآية الأخرى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ. قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المالك: ٢٣، ٢٤].

ثم نبه تعالى عباده إلى^(٥) النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض، كيف جعله يطير بجناحيه بين السماء والأرض، فى جو السماء ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى، الذى جعل فيها قوى تفعل ذلك، وسخر الهواء يحملها ويسر الطير لذلك، كما قال تعالى فى سورة الملق: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [المالك: ١٩]. وقال هاهنا: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ

(٣) فى ت: «الذى».

(٢) فى ت، ف، أ: «بأفضل».

(١) فى ت: «يرزقهم الله».

(٤) صحيح البخارى برقم (٦٥٠٢).

(٥) فى ف: «على».

تَقِيكُمْ بِأَسْكُمُ كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣).

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبيده، بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم، يأوون إليها، ويستترون بها، ويتفعلون بها سائر^(١) وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضاً ﴿مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ أي: من الأدم، يستخفون حملها في أسفارهم، ليضربوها^(٢) لهم في إقامتهم في السفر والحضر ولهذا قال: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا﴾ أي: الغنم، ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ أي: الإبل، ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾ أي: المعز - والضمير عائد على الأنعام - ﴿أَثَاثًا﴾ أي: تتخذون منه أثاثاً، وهو المال. وقيل: المتاع. وقيل: الثياب والصحيح أعم من هذا كله، فإنه يتخذ من^(٣) الأثاث البسط والثياب وغير ذلك، ويتخذ مالا وتجارة.

وقال ابن عباس: الأثاث: المتاع. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وعطية العوفي، وعطاء الخراساني، والضحاك، وقناة.

وقوله: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى أجل مسمى ووقت^(٤) معلوم.
وقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾: قال قتادة: يعني: الشجر.
﴿وجعل لكم مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَائًا﴾ أي: حصونا ومعقل، كما ﴿جَعَلَ لَكُمْ سَرَائِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾، وهي الثياب من القطن والكتان والصوف، ﴿وَسَرَائِلَ تَقِيكُمْ بِأَسْكُمُ﴾ كالدرع من الحديد المصفح والزرد وغير ذلك، ﴿كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم، وما تحتاجون إليه، ليكون - عوناً لكم على طاعته وعبادته، ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.
هكذا فسر الجمهور، وقرؤوه بكسر اللام من ﴿تُسْلِمُونَ﴾ أي: من الإسلام.
وقال قتادة في قوله: ﴿كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ [لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ]^(٥): هذه السورة تسمى سورة النِّعَم.

وقال عبد الله بن المبارك وعبد بن العوام، عن حَنْظَلَةَ السَّدُوسِي، عن شَهْرَ بن حَوْشَب، عن ابن عباس أنه كان يقرؤها «تُسْلِمُونَ» بفتح اللام، يعني من الجراح^(٦). رواه أبو عبيد القاسم بن سلام، عن عباد، وأخرجه ابن جرير من الوجهين، وردَّ هذه القراءة^(٧).

وقال عطاء الخراساني: إنما نزل القرآن على قدر معرفة العرب، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَائًا﴾، وما جعل [لكم]^(٨) من السهل أعظم وأكثر^(٩)، ولكنهم كانوا أصحاب جبال^(١٠)؟ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ

(١) في ف: «سراير». (٢) في ت: «لتضربونها». (٣) في ت، ف: «منه».

(٤) في ت، ف، أ: «أي إلى وقت».

(٦) في ت، ف: «يعني من الجراح بفتح اللام».

(٧) تفسير الطبري (١٤ / ١٠٤).

(٨) زيادة من ف، أ. (٩) في ت، ف: «واكير». (١٠) في ف: «جبل».

حِينَ ﴿١﴾ وما جعل لكم من غير ذلك أعظم منه وأكثر^(١)، ولكنهم كانوا أصحاب وبر وشعر، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَيُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣]، لعجبهم من ذلك، وما أنزل من الثلج أعظم وأكثر^(٢)، ولكنهم كانوا لا يعرفونه؟ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾، وما بقى من البرد أعظم وأكثر^(٣)، ولكنهم كانوا أصحاب حر.

وقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أى: بعد هذا البيان وهذا الامتنان، فلا عليك منهم، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾، وقد أدبته إليهم.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ أى: يعرفون أن الله تعالى هو المسدى إليهم ذلك، وهو المتفضل به عليهم، ومع هذا ينكرون ذلك، ويعبدون معه غيره، ويسندون النصر والرزق^(٤) إلى غيره، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ - كما قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن مجاهد؛ أن أعرابياً أتى رسول الله ﷺ فسأله، فقرأ عليه رسول الله ﷺ: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾، قال الأعرابى: نعم. قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾، قال الأعرابى: نعم. ثم قرأ عليه، كل ذلك يقول الأعرابى: نعم، حتى بلغ: ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾، فولى الأعرابى، فأنزل الله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٥).

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) ﴿

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم فى الدار الآخرة، وأنه يبعث من كل أمة شهيدا، وهو نبيها، يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى، ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: فى الاعتذار؛ لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه، كما قال: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ. وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦]. ولهذا قال: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ. وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى: أشركوا ﴿الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أى: لا يفتر عنهم ساعة واحدة، ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أى: [و] لا يؤخر عنهم، بل يأخذهم سريعا من الموقف بلا حساب، فإنه إذا جىء بهنم تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف

(١) فى ت، ف، أ: «أكبر».

(٢) فى ف: «وأكثر».

(٤) فى ف: «الرزق والنصر».

(٥) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ١٥٥) وعزاه لابن أبى حاتم وهو مرسل.

(٦) زيادة من ت.

ملك، فيشرف عُنُقُ منها على الخلائق، وتزفر زفرة لا^(١) يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، فتقول: إني وكلت بكل جبار عنيد، الذي جعل مع الله إلهاً آخر، وبكذا وكذا^(٢)، وتذكر^(٣) أصنافاً من الناس، كما جاء في الحديث. ثم تنطوي^(٤) عليهم وتلقطهم من الموقف كما يلقط الطائر الحب قال الله تعالى: ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا. وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقْرِنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا. لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ١٢ - ١٤]، وقال تعالى: ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ. بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٩، ٤٠].

ثم أخبر تعالى عن تبرئ آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها، فقال: ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ ﴾ أى: الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا، ﴿ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى: قالت لهم الآلهة: كذبتم، ما نحن أمرناكم^(٥) بعبادتنا. كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَنْجِبْ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ. وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦] وقال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا. كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]. وقال الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمُ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمُ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٥] وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ شُرَكَاؤُا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ^(٧) فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴾ [الكهف: ٥٢] والآيات فى هذا كثيرة.

وقوله: ﴿ وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ ﴾ - قال قتادة، وعكرمة: ذلوا واستسلموا يومئذ، أى: استسلموا لله جميعهم، فلا أحد إلا سامع مطيع، كما قال: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَا ﴾ [مريم: ٣٨] أى: ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ! وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال: ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ [طه: ١١١] أى: خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت.

﴿ وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى: ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير.

ثم قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ أى: عذاباً على كفرهم، وعذاباً على صدهم الناس عن اتباع الحق، كما قال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ ﴾ [الأنعام: ٢٦] أى: ينهون الناس، عن اتباعه، ويبتعدون هم منه أيضاً ﴿ وَإِنْ

(١) فى ف: «فلا». (٢) فى ت، ف: «وبكذا». (٣) فى ف: «ويذكر».

(٤) فى ف: «ينطوى». (٥) فى ف: «نحن ما أمرناكم».

(٦) فى ت: «وقال الخليل ويوم»، وفى ف: «وقال الخليل عليه السلام ويوم».

(٧) فى ت، ف، أ، هـ: «وقيل ادعوا شركاءكم والصواب ما أثبتناه».

يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ [الأنعام: ٢٦]

وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم، كما قال [الله] (١): ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقد قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سريج بن يونس، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، عن عبد الله في قول الله: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ قال: زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال (٢).

وحدثنا سريج بن يونس، حدثنا إبراهيم بن سليمان، حدثنا الأعمش، عن الحسن، عن ابن عباس أنه قال: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ قال: هي خمسة أنهار فوق (٣) العرش يعذبون ببعضها بالليل وبعضها بالنهار (٤).

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٨٩).

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ (٥) فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ يعنى: أمته.

أى: اذكر ذلك اليوم وهوله وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع. وهذه الآية شبيهة بالآية التى انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة «النساء» فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. فقال له رسول الله ﷺ: «حسبك». قال ابن مسعود، رضى الله عنه: فالتفت فإذا عيناه تذرفان (٦).

وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾: قال ابن مسعود: [و] (٧) قد بين لنا فى هذا القرآن كل علم، وكل شىء.

وقال مجاهد: كل حلال وحرام.

وقول ابن مسعود: أعم وأشمل؛ فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتى، وحكم كل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون (٨) فى أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) مسند أبى يعلى (٥ / ٦٦) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٤ / ١٠٧) من طريق أبى معاوية عن الأعمش به.

(٣) فى ت، ف، أ: «تحت».

(٤) مسند أبى يعلى (٥ / ٦٦) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٣٩٠): «رجال رجال الصحيح».

(٥) فى ت: «يبعث».

(٦) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية: ٤١ من سورة النساء.

(٧) فى ف: «محتاجون إليه».

(٨) زيادة من ف.

ومعادهم.

﴿ وَهُدًى ﴾ أى: للقلوب، ﴿ وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾.

وقال الأوزاعي: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى: بالسنة.

ووجه اقتران قوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ مع قوله: ﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ﴾ أن المراد -

والله أعلم - : إن الذى فرض عليك تبليغ الكتاب الذى أنزله عليك، سائلك عن ذلك يوم القيامة،

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٦]، ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا

يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ قَالَوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ

الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [القصص: ٨٥]

أى: إن الذى أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه، ومعيدك يوم القيامة، وسائلك عن أداء ما

فرض عليك. هذا أحد الأقوال، وهو متجه حسن.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ

يَعْظُمُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ (٩٠) ﴾.

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل، وهو القسط والموازنة، ويندب إلى الإحسان، كما قال تعالى:

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقال: ﴿ وَجَزَاءُ

سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال: ﴿ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ

تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ [المائدة: ٤٥]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا، من ^(١) شرعية العدل

والندب إلى الفضل.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله.

وقال سفيان بن عيينة: العدل فى هذا الموضع: استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملاً.

والإحسان: أن تكون ^(٢) سريرته أحسن من علانيته. والفحشاء والمنكر: أن تكون ^(٣) علانيته أحسن من

سريرته.

وقوله: ﴿ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ أى: يأمر بصلة الأرحام، كما قال: ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ

وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٦].

وقوله: ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾: فالفواحش: المحرمات. والمنكرات: ما ظهر منها من

فاعلها؛ ولهذا قال فى الموضع الآخر: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وأما البغى فهو: العدوان على الناس. وقد جاء فى الحديث: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله

(١) فى ف: «فى». (٢) فى ف: «يكون».

(٣) فى ف: «فى».

عقوبته فى الدنيا، مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة، من البغى وقطيعة الرحم»^(١).
وقوله: ﴿يَعْظُمُ﴾ أى: يأمركم بما يأمركم به من الخير، وينهاكم عما^(٢) ينهاكم عنه من الشر،
﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

قال الشعبي، عن شتير بن شكل: سمعت ابن مسعود يقول: إن أجمع آية فى القرآن فى سورة النحل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية. رواه ابن جرير^(٣).

وقال سعيد عن قتادة: قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية، ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنون إلا أمر الله به، وليس من خلق سيئ كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه. وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها.

قلت: ولهذا جاء فى الحديث: «إن الله يحب معالى الأخلاق، ويكره سفاسفها»^(٤).

وقال الحافظ أبو نعيم فى كتابه «كتاب معرفة الصحابة»: حدثنا أبو بكر محمد بن الفتح الحنبلى، حدثنا يحيى^(٥) بن محمد مولى بنى هاشم، حدثنا الحسن بن داود المنكدرى، حدثنا عمر بن على المقدمى، عن على بن عبد الملك بن عمير^(٦) عن أبيه قال: بلغ أكثم بن صيفى مخرج النبى ﷺ، فأراد أن يأتيه، فأبى قومه أن يدعوه وقالوا: أنت كبيرنا، لم تكن لتخف إليه! قال: فليأته من يبلغه عنى ويبلغنى عنه. فانتدب رجلاً فأتيا النبى ﷺ^(٧) فقالا: نحن رسل أكثم بن صيفى، وهو يسألك: من أنت؟ وما أنت^(٨)؟ فقال النبى ﷺ: «أما من أنا فأنا محمد بن عبد الله، وأما ما أنا فأنا عبد الله ورسوله». قال: ثم تلا عليهم هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، قالوا: اردد علينا هذا القول فردده عليهم حتى حفظوه. فأتيا أكثم فقالا: أبى أن يرفع نسبه، فسألنا عن نسبه، فوجدناه زاكى النسب، واسطاً فى مضر، وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها، فلما سمعهن أكثم قال: إني قد أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن ملامتها، فكونوا فى هذا الأمر رؤوساً، ولا تكونوا فيه أذناناً^(٩).

(١) رواه أحمد فى المسند (٥/ ٣٦) وأبو داود فى السنن برقم (٤٩٠٢) والترمذى فى السنن برقم (٢٥١١) وابن ماجه فى السنن برقم

(٤٢١١) من حديث أبى بكره رضى الله عنه، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) فى ف: «عن الذى».

(٣) تفسير الطبرى (١٤/ ١٠٩).

(٤) رواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق برقم (٣) وأبو نعيم فى الحلية (٨/ ٢٥٥) من طريق معمر، عن أبى حازم، عن سهل بن سعد مرفوعاً، وقال أبو نعيم: «غريب من حديث أبى حازم وسهل تفرد به عن أبى حازم معمر».

(٥) فى ف: «حدثنا محمد بن يحيى».

(٦) فى هـ، ت، أ: «على بن عبد الله بن عمير» وهو خطأ، وانظر: معرفة الصحابة (٢/ ٤٢٠) والثقات لابن حبان (٧/ ٢٠٧) والإصابة (١/ ١١٨).

(٧) فى أ: «رسول الله». (٨) فى ف: «من أنت وصفاتك وما جئت به».

(٩) معرفة الصحابة (٢/ ٤٢٠) قال ابن حجر: «وهو مرسل» وأورده ابن عبد البر فى الاستيعاب (١/ ١٤٦) وأنكر كون أكثم بن صيفى من الصحابة وانظر: الإصابة (١/ ١١٩).

وقد ورد في نزول هذه الآية الكريمة حديث حسن، رواه الإمام أحمد:

حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الحميد، حدثنا شهر، حدثني عبد الله بن عباس قال: بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته جالس، إذ مر به عثمان بن مظعون، فكشر^(١) إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «ألا تجلس؟» فقال: بلى. قال: فجلس رسول الله ﷺ مستقبلاً، فبينما هو يحدثه إذ شَخَّص رسول الله ﷺ بصره إلى السماء، فنظر ساعة إلى [السماء]^(٢) فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يَمَنِّته في الأرض، فتحرَّف رسول الله ﷺ عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره فأخذ ينغض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له، وابن مظعون ينظر فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له، شخص بصر رسول الله ﷺ إلى السماء كما شخص أول مرة. فأتبعه بصره حتى توارى في السماء. فأقبل إلى عثمان بجلسته الأولى فقال: يا محمد، فيم كنت أجالسك؟ ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة! قال: «وما رأيتني فعلت؟» قال: رأيتك شخص بصرك إلى السماء ثم وضعته حيث وضعت على يمينك، فتحرَّفت إليه وتركتني، فأخذت تُنغض رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك. قال: «وفطنت لذلك؟» فقال عثمان: نعم. قال رسول الله ﷺ: «أتاني رسول الله ﷻ وأنا جالس». قال: رسول الله ﷻ؟ قال: «نعم». قال: فما قال لك؟ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قال عثمان: فذلك حين استقر الإيمان في قلبي، وأحببت محمداً ﷺ^(٣).

إسناد جيد متصل حسن، قد^(٤) بين فيه السماع المتصل. ورواه ابن أبي حاتم، من حديث عبد الحميد بن بهرام مختصراً.

حديث آخر: عن عثمان بن أبي العاص الثقفي في ذلك، قال الإمام أحمد:

حدثنا أسود بن عامر، حدثنا هُرَيْم، عن لَيْث، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت عند رسول الله ﷺ جالسا، إذ شَخَّصَ بصره فقال: «أتاني جبريل، فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾»^(٥) (٦).

وهذا إسناد لا بأس به، ولعله عند شهر بن حوشب من الوجهين، والله أعلم.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزَاهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ

(١) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.

(١) في ف: «فكر».

(٣) المسند (١/ ٣١٨).

(٤) في ف: «وقد».

(٥) زيادة من ف، أ، وفي هـ: «الآية».

(٦) المسند (٤/ ٢١٨).

أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ .

وهذا مما يأمر الله تعالى به^(١)، وهو: الوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة على الأيمان المؤكدة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾.

ولا تعارض بين هذا وبين قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا﴾ [وتصلحوا بين الناس]^(٢) [البقرة: ٢٢٤] وبين قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةٌ لَأَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] أى: لا تتركوها بلا تكفير، وبين قوله، عليه السلام^(٣)، فيما ثبت عنه فى الصحيحين^(٤): «إني والله إن شاء الله، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها، إلا أتيت الذى هو خير وتحللتها». وفى رواية: «وكفرت عن يميني» لا تعارض بين هذا كله، ولا بين الآية المذكورة هاهنا وهى قوله: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا]^(٥)؛ لأن هذه الأيمان، المراد بها الداخلة فى العهود والمواثيق، لا الأيمان التى هى واردة على حث أو منع؛ ولهذا قال مجاهد فى قوله: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ يعنى: الحلف، أى: حلف الجاهلية؛ ويؤيده ما رواه الإمام أحمد:

حدثنا عبد الله بن محمد - هو ابن أبى شيبة - حدثنا ابن نمير وأبو أسامة، عن زكريا - هو ابن أبى زائدة - عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه، عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حلف فى الإسلام، وأما حلف كان فى الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة». وكذا رواه مسلم، عن ابن أبى شيبة، به^(٦).

ومعناه: أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذى كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن فى التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه.

وأما ما ورد فى الصحيحين، عن عاصم الأحول، عن أنس، رضى الله عنه، أنه قال: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار فى دارنا^(٧) - فمعناه: أنه آخى بينهم، فكانوا يتوارثون به، حتى نسخ الله ذلك، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنى محمد بن عمارة الأسدى، حدثنا عبيد الله^(٨) بن موسى، أخبرنا ابن أبى ليلى، عن مزينة^(٩) فى قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ قال: نزلت فى بيعة النبى ﷺ، كان من أسلم بايع النبى ﷺ على الإسلام، فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾، هذه البيعة التى بايعتم

(٣) فى ف، أ: ﷺ.

(٢) زيادة من ف، أ.

(١) فى ت، ف، أ: «به تعالى».

(٥) زيادة من ت، ف، أ.

(٤) فى ت: «الصحيح».

(٦) المسند (٤/ ٨٣) وصحيح مسلم برقم (٢٥٣٠).

(٧) صحيح البخارى برقم (٢٢٩٤) وصحيح مسلم برقم (٢٥٢٩).

(٩) فى ف: «بريدة».

(٨) فى ت: «عبد الله».

على الإسلام، ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ البيعة، لا يحملنكم قلة محمد [وأصحابه] (١) وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي تبايعتم على الإسلام.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا صخر ابن جويرية، عن نافع قال: لما خلع الناس يزيد بن معاوية، جمع ابن عمر بنيه وأهله، ثم تشهد، ثم قال: أما بعد، فإننا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الغادر يُنصب له لواء يوم القيامة، فيقال (٢): هذه غدره فلان وإن من أعظم الغدر - إلا أن يكون الإشراك بالله - أن يبايع رجل رجلاً على بيع الله ورسوله، ثم ينكث بيعته، فلا يخلعن أحد منكم يزيد ولا يسرفن أحد منكم في هذا الأمر، فيكون صيلم بينى وبينه» (٣). المرفوع منه فى الصحيحين (٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا حجاج، عن عبد الرحمن بن عابس، عن أبيه، عن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شرط لأخيه شرطاً، لا يريد أن يفى له به، فهو كالمدلى جاره إلى غير منعة» (٥).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ تهديد ووعد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها. وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهُمَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾: قال عبد الله بن كثير، والسدى: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة، كلما غزلت شيئاً نقضته بعد إبرامه.

وقال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده.

وهذا القول أرجح وأظهر، وسواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا.

وقوله: ﴿أَنْكَاثًا﴾: يحتمل أن يكون اسم مصدر: نقضت غزلها أنكاثاً، أى: أنقاضاً. ويحتمل أن يكون بدلاً عن خبر كان، أى: لا تكونوا أنكاثاً، جمع نكث من ناكث؛ ولهذا قال بعده: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾ أى: خديعة ومكرراً، ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ أى: يحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتكم. فنهى الله عن ذلك، لينبه بالأدنى على الأعلى؛ إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه، فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى.

وقد قدمنا - والله الحمد - فى سورة «الأَنْفَال» (٦) قصة معاوية لما كان بينه وبين ملك الروم أمداً، فسار معاوية إليهم فى آخر الأجل، حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم، أغار عليهم وهم غارون لا يشعرون، فقال له عمرو بن عَبْسَةَ: الله أكبر يا معاوية، وفاء لا غدرأ، سمعت رسول الله ﷺ

(٢) فى ت، ف: «يقال».

(١) زيادة من ت، ف، أ.

(٣) المسند (٢/ ٤٨).

(٤) صحيح البخارى برقم (٣١٨٨) وصحيح مسلم برقم (١٧٣٥).

(٥) المسند (٥/ ٤٠٤).

(٦) عند تفسير الآية: ٥٨.

يقول: «من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عُقْدَةً حتى ينقضى أمدها». فرجع معاوية بالجيش، رضى الله عنه وأرضاه.

قال ابن عباس: ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ أى: أكثر.

وقال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء، فيجدون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز. فنهوا عن ذلك. وقال الضحاك، وقتادة، وابن زيد نحوه. وقوله: ﴿إِنَّمَا يَلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾: قال سعيد بن جبیر: يعنى بالكثرة. رواه ابن أبى حاتم. وقال ابن جرير: أى: بأمره إياكم بالوفاء والعهد.

﴿وَلَيَبْيَنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، فيجازى كل عامل بعمله، من خير وشر.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلِتَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾^(١)، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] أى: لوفى بينكم. ولما جعل اختلافا ولا تباغض ولا شحناء ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم، فيجازيكم عليها على الفتل والنقير والقطمير.

ثم حذر تعالى عباده عن^(٢) اتخاذ الأيمان دخلا، أى: خديعة ومكرًا، لئلا تزل قدم بعد ثبوتها: مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها وزل عن طريق الهدى، بسبب الأيمان الحانثة^(٣) المشتعلة على الصد عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالدين، فانصد بسببه عن الدخول فى الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أى: لا تعتاضوا عن الأيمان بالله عَرْض الحياة الدنيا وزينتها، فإنها قليلة، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له، أى: جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به^(٤) وطلبه، وحفظ عهده^(٥) رجاء موعوده؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ

(١) فى ت: «أمة واحدة أيها الناس».

(٢) فى ت، ف: «من».

(٣) فى ت: «الحادثة».

(٤) فى ف: «خير لمن آمن به ورجاه».

(٥) فى ف، أ: «عهد الله».

كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ ۖ أَى: يفرغ وينقضى، فإنه إلى أجل معدود محصور مقدّر مُتَنَاهٍ، ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٌ﴾ أَى: وثوابه لكم فى الجنة باق لا انقطاع ولا نفاد له فإنه دائم لا يحول ولا يزول، ﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: قسم من الرب عز وجل^(١) مُتَلَقًى باللام، أنه يجازى الصابرين بأحسن أعمالهم، أَى: ويتجاوز عن سيئها.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٧).

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحا - وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه^(٢)، من ذكر أو أنثى من بنى آدم، وقبله مؤمن بالله ورسوله، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله - بأن يحييه الله حياة طيبة فى الدنيا وأن يجزيه^(٣) بأحسن ما عمله فى الدار الآخرة.

والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أى جهة كانت. وقد روى عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب.

وعن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، أنه فسرها بالقناعة. وكذا قال ابن عباس، وعكرمة، ووهب بن منبه.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أنها^(٤): السعادة.

وقال الحسن، ومجاهد، وقتادة: لا يطيب لأحد الحياة إلا فى الجنة.

وقال الضحاك: هى الرزق الحلال والعبادة فى الدنيا، وقال الضحاك أيضا: هى^(٥) العمل بالطاعة والانشراح بها.

والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد:

حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا سعيد بن أبى أيوب، حدثنى شرحبيل بن شريك، عن أبى عبد الرحمن الحبلى، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافا، وقنعه الله بما آتاه».

ورواه مسلم، من حديث عبد الله بن يزيد المقرئ، به^(٦).

وروى الترمذى والنسائى، من حديث أبى هانئ، عن أبى على الجنبى^(٧) عن فضالة بن عبيد؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قد أفلح من هدى إلى الإسلام، وكان عيشه كفافا، وقنع^(٨) به». وقال

(١) فى ت: «يجزى».

(٢) فى ت: «رسوله».

(٣) فى ف: «جل شأنه».

(٤) فى ت، ف: «هى».

(٥) فى ت، ف: «هو».

(٦) المسند (١٦٨/٢) وصحيح مسلم برقم (١٠٥٤).

(٧) فى ت: «ومنع».

(٨) فى ت، ف، أ: «الخشى».

الترمذى: هذا حديث صحيح^(١).

وقال الإمام أحمد، حدثنا يزيد، حدثنا همام، عن يحيى، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها فى الدنيا [ويثاب عليها فى الآخرة] وأما الكافر فيعطيه حسناته فى الدنيا»^(٢) حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً». انفرد بإخراجه مسلم^(٣).

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) ﴿

هذا أمر من الله لعباده^(٤) على لسان نبيه ﷺ: إذا أرادوا قراءة القرآن، أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم. وهو أمر نذبي ليس بواجب، حكى الإجماع على ذلك^(٥) الإمام أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة. وقد قدمنا الأحاديث الواردة فى الاستعاذة مبسوبة فى أول التفسير، والله الحمد والمنة.

والمعنى فى الاستعاذة عند ابتداء القراءة، لثلا يلبس^(٦) على القارئ قراءته ويخلط عليه، ويمنعه من التدبر والتفكر، ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة^(٧)، وحكى عن حمزة، وأبى حاتم السجستاني: أنها تكون بعد التلاوة، واحتجوا بهذه الآية. ونقل النووى فى شرح المذهب مثل ذلك عن أبى هريرة أيضاً، ومحمد بن سيرين، وإبراهيم النخعى. والصحيح الأول، لما تقدم من الأحاديث الدالة على تقدمها على التلاوة، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾: قال الثورى: ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم فى ذنب لا يتوبون منه.

وقال آخرون: معناه لا حجة له عليهم. وقال آخرون: كقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [ص: ٨٣].

﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾: قال مجاهد: يطيعونه.

وقال آخرون: اتخذوه ولياً من دون الله.

(١) سنن الترمذى برقم (٢٣٤٩).

(٢) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.

(٣) المسند (١٢٣/٣) وصحيح مسلم برقم (٢٨١٨).

(٤) فى ت، ف: «وحكى على ذلك الإجماع».

(٥) فى ت، ف: «عبادة».

(٦) فى ف: «تلبس».

(٧) فى ف: «القراءة».

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أى: أشركوه فى عبادة الله تعالى. ويحتمل أن تكون الباء سببية، أى: صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى.

وقال آخرون: معناه: أنه شركهم فى الأموال والأولاد.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢)﴾.

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم، وأنه لا يتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا للرسول: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أى: كذاب. وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

وقال مجاهد: ﴿بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾ أى: رفعناها وأثبتنا غيرها.

وقال قتادة: هو كقوله تعالى: ﴿مَا نُنْسخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسخُهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

فقال تعالى مجيباً لهم: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ أى: جبريل، ﴿مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أى: بالصدق والعدل، ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فيصدقوا بما نزل أولاً وثانياً وتثبت له قلوبهم، ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أى: وجعله هادياً [مهدياً]^(١) وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت: إن محمداً إنما يعلمه هذا الذى يتلوه علينا من القرآن بشر، ويشيرون إلى رجل أعجمى كان بين أظهرهم، غلام لبعض بطون قريش، وكان يباعا يبيع عند الصفا، فرمى كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذلك كان أعجمى اللسان لا يعرف العربية، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه؛ فلهذا قال الله تعالى راداً عليهم فى افتراءهم ذلك: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ يعنى: القرآن، أى: فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن، فى فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة، التى هى أكمل من^(٢) معانى كل كتاب نزل على نبي أرسل، كيف يتعلم من رجل أعجمى؟! لا يقول هذا من له أدنى مسكة^(٣) من العقل.

قال محمد بن إسحاق بن يسار فى السيرة: كان رسول الله ﷺ - فيما بلغنى - كثيراً ما يجلس

(٣) فى ت: «مسلة».

(٢) فى ت: «هى من أكمل».

(١) زيادة من ت.

عند المروة إلى مبيعة غلام نصراني يقال له جبر، عبد لبعض بنى الحضرمي، [فكانوا يقولون: والله ما يُعلم محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جبر النصراني، غلام بنى الحضرمي] ^(١) فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ ^(٢).

وكذا قال عبد الله بن كثير: وعن عكرمة وقتادة: كان اسمه يعيش.

وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن محمد الطوسي، حدثنا أبو عامر، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن مسلم بن عبد الله الملائى، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعلم قيناً بمكة، وكان اسمه بلغام، وكان أعجمي اللسان، وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده، قالوا: إنما يعلمه بلغام، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ ^(٣).

وقال الضحاك بن مزاحم: هو سلمان الفارسي، وهذا القول ضعيف؛ لأن هذه الآية مكية، وسلمان إنما أسلم بالمدينة وقال عبيد الله ^(٤) بن مسلم: كان لنا غلامان روميان يقرآن كتاباً لهما بلسانهما، فكان النبي ﷺ يمر بهما ^(٥)، فيقوم فيسمع منهما فقال المشركون: يتعلم منهما، فأنزل الله هذه الآية.

وقال الزهري، عن سعيد بن المسيب: الذي قال ذلك من المشركين رجل كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فارتد بعد ذلك عن الإسلام، وافترى هذه المقالة، قبحه الله!

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٠٤) **إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ** (١٠٥).

يخبر تعالى أنه لا يهدي ^(٦) من أعرض عن ذكره وتغافل عما أنزله على رسوله، ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسوله في الدنيا، ولهم عذاب أليم موجه في الآخرة.

ثم أخبر تعالى أن رسوله ليس بمفتر ولا كذاب؛ لأنه ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ﴾ على الله وعلى رسوله شرار الخلق، ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس. والرسول محمد ﷺ، كان ^(٧) أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً وإيماناً وإيقاناً، معروفاً بالصدق في قومه، لا يشك في ذلك أحد منهم بحيث لا يدعى بينهم إلا بالأمين محمد؛ ولهذا لما

(١) زيادة من ت، ف، أ، وابن هشام.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٣٩٣).

(٣) تفسير الطبري (١٤/١١٩).

(٤) في أ: «عليهما».

(٥) في ت، ف: «عبد الله».

(٦) في ت: «كان من».

(٧) في أ: «لا يهتدى».

سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها من صفة رسول الله ﷺ، كان فيما قال له: «أو كنتم»^(١) تتهمونونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. فقال: هرقل فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله عز وجل.

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩) ﴿

أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به: أنه قد غضب عليه، لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا^(٢) على ما أقدموا عليه من الردة لأجل^(٣) الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم ويثبتهم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم فلا^(٤) يعقلون بها شيئاً ينفعهم وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئاً، فهم غافلون عما يراد بهم.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أى: لا بد ولا عجب أن هذه صفته، ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أى: الذين خسروا أنفسهم وأهاليهم^(٥) يوم القيامة.

وأما قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾: فهو استثناء ممن^(٦) كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرها لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله.

وقد روى العوفي عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر، حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مكرهاً^(٧)، وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية، وهكذا قال الشعبي، وأبو مالك، وقتادة.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن عبد الكريم الجزري، عن أبي عبيدة [بن]^(٨) محمد بن عمار^(٩) بن ياسر قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم فى بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئناً بالإيمان قال النبي ﷺ: «إن عادوا فعد»^(١٠).

ورواه البيهقي بأبسط من ذلك، وفيه أنه سب النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير، وأنه قال: يا رسول

(١) فى ف: «أفكنتم».

(٢) فى ت: «فما قدموا».

(٣) فى ت: «الردة إلا لأجل».

(٤) فى أ: «فهم لا».

(٥) فى ت: «وأهليتهم».

(٦) فى ت: «فمن».

(٧) فى ف، أ: «مستكرهاً».

(٨) زيادة من ت، ف، أ، والطبرى.

(٩) فى ت: «على».

(١٠) تفسير الطبرى (١٤/١٢٢).

الله، ما تُركتُ حتى سببتك وذكرت آلهتهم بخيراً! قال: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئناً بالإيمان. فقال: «إن عادوا فعد». وفي ذلك أنزل الله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾^(١).

ولهذا اتفق العلماء على أنه يجوز أن يُوالى المكره على الكفر، إبقاءً لمهجته، ويجوز له أن يستقتل، كما كان بلال رضى الله عنه يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر، ويأمرونه أن يشرك بالله فيأبى عليهم وهو يقول: أحد، أحد. ويقول: والله لو أعلم كلمة هي^(٢) أغبط لكم منها لقلتها، رضى الله عنه وأرضاه. وكذلك حبيب بن زيد^(٣) الأنصارى لما قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم. فيقول: أتشهد أنى رسول الله؟ فيقول: لا أسمع. فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب، عن عكرمة، أن علياً، رضى الله عنه، حرق ناساً ارتدوا عن الإسلام، فبلغ ذلك ابن عباس فقال: لم أكن لأحرقهم بالنار، إن رسول الله ﷺ قال: «لا تعذبوا بعذاب الله». وكنت قاتلهم بقول رسول الله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه» فبلغ ذلك علياً فقال: ويح أم ابن^(٥) عباس. رواه البخارى^(٦).

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن أيوب، عن حميد بن هلال العدوى، عن أبي بردة قال: قدم على أبى موسى معاذ بن جبل باليمن، فإذا رجل عنده، قال: ما هذا؟ قال^(٧): رجل كان يهودياً فأسلم، ثم تهود، ونحن نريده على الإسلام منذ - قال: أحسب - شهرين فقال: والله لا أقعد^(٨) حتى تضربوا عنقه. فضربت عنقه. فقال: قضى الله ورسوله أن من رجع عن دينه فاقتلوه - أو قال: من بدل دينه فاقتلوه^(٩).

وهذه القصة فى الصحيحين بلفظ آخر^(١٠).

والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه، ولو أفضى إلى قتله، كما قال^(١١) الحافظ ابن عساكر، فى ترجمة عبد الله بن حذافة السهمى أحد الصحابة: أنه أسرته الروم، فجاؤوا به إلى^(١٢) ملكهم، فقال له: تنصر وأنا أشركك فى ملكى وأزوجك ابنتى. فقال له: لو أعطيتنى جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب، على أن أرجع عن دين محمد طرفة عين، ما فعلت! فقال: إذا أقتلك. قال: أنت وذاك! فأمر به فصلب، وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه، وهو يعرض عليه دين

(١) سنن البيهقى الكبرى (٢٠٩/٨).

(٢) زيادة من ت، ف، أ.

(٤) انظر: الاستيعاب لابن عبد البر (٣٢٧/١) وأسد الغابة لابن الأثير (٤٤٣/١).

(٥) فى ت، ف: «ابن أم».

(٦) المسند (٢١٧/١) وصحيح البخارى برقم (٦٩٢٢).

(٧) فى ت: «فقال».

(٩) المسند (٢٣١/٥).

(١٠) صحيح البخارى برقم (٦٩٢٣) وصحيح مسلم برقم (١٧٣٣).

(١١) فى ف، أ: «كما ذكر».

(٣) فى ف: «يزيد».

(٨) فى ف: «قعدتك».

(١٢) فى ف: «عند».

النصرانية، فيأبى^(١)، ثم أمر به فأنزل، ثم أمر بِقِدْرٍ. وفي رواية: ببقرة من نحاس، فأحميت، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر، فإذا هو عظام تلوح. وعرض عليه فأبى، فأمر به أن يلقي فيها، فرفع في البكرة ليلقي فيها، فبكى فقطع فيه ودعاه فقال له: إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة، تُلقَى في هذه القدر الساعة في الله، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله. وفي بعض الروايات: أنه سجنه ومنع عنه الطعام والشراب أياماً، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير، فلم يقربه، ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟ فقال: أما إنه قد حلّ لي، ولكن لم أكن لأشمتك في. فقال له الملك: فقبّل رأسي وأنا أطلقك. فقال: وتطلق معي جميع أسارى المسلمين؟ قال: نعم. فقبل رأسه، فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده، فلما رجع قال عمر بن الخطاب: حقّ على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبداً. فقام فقبل رأسه^(٢).

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١)﴾.

هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة، مهانين في قومهم قد واتوهم على الفتنة، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة، فتركوا بلادهم وأهلهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه، وانتظموا في سلك المؤمنين، وجاهدوا معهم الكافرين، وصبروا، فأخبر الله تعالى أنه ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: تلك الفعل، وهي الإجابة إلى الفتنة لغفور لهم، رحيم بهم يوم معادهم.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ﴾ أي: تحاجّ ﴿عَنْ نَفْسِهَا﴾ ليس أحد يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة، ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: من خير وشر، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا ينقص من ثواب الخير ولا يزداد على ثواب الشر^(٣)، ولا يظلمون نقيراً.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣)﴾.

هذا مثل أريد به أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يُتَخَطَّفُ الناس من حولها، ومن دخلها آمن لا يخاف، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نَتَّخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ

(١) في ف: «فأبى».

(٢) تاريخ دمشق ١١٦/٩ «المخطوط».

(٣) في ت: «المسيء».

حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رَّزَقًا مِّن لَّدُنَّا» [القصص: ٥٧] وهكذا^(١) قال ها هنا: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ أى: هنيئها سهلاً، ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ أى: جحدت آلاء الله عليها وأعظم ذلك بعثة محمد ﷺ إليهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ. جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]. ولهذا بدلهم الله بحالهم الأولين خلافتهم، فقال: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ أى: ألبسها وأذاقها^(٢) الجوع بعد أن كان يجبى إليهم ثمرات كل شىء، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان، وذلك لما استعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافة، فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف، فأصابتهم سنة^(٣) أذهبت كل شىء لهم، فأكلوا العلهز - وهو: وبر البعير، يجعل بدمه إذا نحروه.

وقوله: ﴿وَالْخَوْفِ﴾، وذلك بأنهم^(٤) بدّلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه، حين هاجروا إلى المدينة، من سطوة سراياه وجيوشه، وجعلوا كل ما لهم فى سَفَالٍ ودمار، حتى فتحها الله عليهم^(٥)، وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول الذى بعثه الله فيهم منهم، وامتن به عليهم فى قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا. رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّخُرْجِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [التور: ١٧٠] الآية وقوله^(٦): ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ إلى قوله^(٧): ﴿وَلَا تَكْفُرُون﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢].

وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم، فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرغد، بدّل^(٨) الله المؤمنين من بعد خوفهم أمناً، ورزقهم بعد العيلة، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم، وسادتهم وقادتهم^(٩) وأئمتهم.

وهذا^(١٠) الذى قلناه من أن هذا المثل مضروب لمكة، قاله العوفى، عن ابن عباس. وإليه ذهب مجاهد، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وحكاه مالك عن الزهري، رحمهم الله.

وقال ابن جرير: حدثني ابن عبد الرحيم البرقى، حدثنا ابن أبى مریم، حدثنا نافع بن زيد، حدثنا عبد الرحمن بن شريح، أن عبد الكريم بن الحارث الحضرمى حدثه، أنه سمع مشرَح بن هاعان يقول: سمعت سليم بن عتر^(١١) يقول: صدرنا من الحج مع حفصة زوج النبی ﷺ، وعثمان، رضى

(١) فى ف: «ولكن».

(٢) فى ت: «فبئس» وهو خطأ.

(٣) فى ت: «فأذاقها».

(٤) فى ت، ف، أ: «سنة جائحة».

(٥) فى ت، ف: «أنهم».

(٦) فى ت، ف: «على رسول الله ﷺ».

(٧) زيادة من ت، ف، أ.

(٨) فى ف: «وقال».

(٩) فى ت، ف، أ: «ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون. فاذكرونى أذكركم واشكروا لى».

(١٠) فى ف: «فبدل».

(١١) فى ت، ف: «وقادتهم وسادتهم».

(١٢) فى أ: «وهكذا».

(١٣) فى ت: «عمير».

الله عنه، محصور بالمدينة، فكانت تسأل عنه: ما فعل؟ حتى رأت راكبين، فأرسلت إليهما تسألهما، فقالا: قتل. فقالت حفصة: والذي نفسى بيده، إنها القرية التى قال الله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ﴾. قال أبو شريح: وأخبرنى عبيد الله بن المغيرة، عمن حدثه: أنه كان يقول: إنها المدينة^(١).

﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلٍ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٥) وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) ﴿

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب، وبشكره على ذلك، فإنه المنعم المتفضل به ابتداء، الذى يستحق العبادة وحده لا شريك له.

ثم ذكر ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم فى دينهم ودنياهم، من الميتة والدم، ولحم الخنزير. ﴿وَمَا أُهْلٍ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أى: ذبح على غير اسم الله، ومع هذا ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ أى: احتاج فى غير بغى ولا عدوان، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية فى سورة «البقرة»^(٢) بما فيه كفاية عن إعادته، والله الحمد [والمنة]^(٣).

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين، الذين حللوا وحرّموا بمجرد ما وضعوه واصطلحوا عليه من الأسماء بأرائهم، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وغير ذلك مما كان شرعا لهم ابتدعوه فى جاهليتهم، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾. ويدخل فى هذا كل من ابتدع بدعة ليس [له]^(٤) فيها مستند شرعى، أو حلل شيئا مما حرم الله، أو حرم شيئا مما أباح الله، بمجرد رأيه وتشهيه.

و«ما» فى قوله: ﴿لَمَّا﴾ مصدرية، أى: ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم.

ثم تواعد على ذلك فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أى: فى الدنيا ولا فى الآخرة. أما فى الدنيا فمتاع^(٥) قليل، وأما فى الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ

(١) تفسير الطبرى (١٤/١٢٥).

(٢) عند تفسير الآية: ١٣٧.

(٣) زيادة من أ.

(٤) زيادة من ت، ف، أ.

(٥) فى ت، ف: «متاع».

نَضْرُطُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿لَقَمَان: ٢٤﴾ وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ. مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٩)﴾.

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة^(١) والدم ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، وأنه^(٢) أرخص فيه عند الضرورة - وفي ذلك توسعة لهذه الأمة، التي يريد الله بها اليسر ولا يريد بها العسر - ذكر سبحانه وتعالى ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الآصار والأغلال والخرج والتضييق، فقال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: في «سورة الأنعام» في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا [أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِغِيهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ] (٣)﴾ [الأنعام: ١٤٦]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أي: فيما ضيقنا عليهم، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: فاستحقوا ذلك، كما قال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠].

ثم أخبر تعالى تكراً وامتناناً في حق العصاة المؤمنين: أن من تاب منهم إليه تاب عليه، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾. قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل. ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أي: أقبلوا عما كانوا فيه من المعاصي، وأقبلوا على فعل الطاعات، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: تلك الفعلة والذلة ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لَأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣)﴾.

يمدح [تبارك و] ^(٤) تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم، إمام الحنفاء ووالد الأنبياء، ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾، فاما «الأمة»، فهو

(٢) في ف: «وإنما».

(١) في ت: «المدينة».

(٣) زيادة من ت، ف، أ، وفي هـ: «إلى قوله: وإنا لصادقون».

(٤) زيادة من ف، أ.

الإمام الذى يقتدى به. والقانت: هو الخاشع المطيع. والحنيف: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

قال سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن مسلم البطين، عن أبي العبيدين: أنه سأل عبد الله ابن مسعود عن الأمة القانت، فقال: الأمة: معلم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله.

وعن مالك قال: قال ابن عمر: الأمة الذى يعلم الناس دينهم.

وقال الأعمش، [عن الحكم]^(١) عن يحيى بن الجزار، عن أبي العبيدين؛ أنه جاء إلى عبد الله فقال: مَنْ نَسأل إذا لم نسألك؟ فكان ابن مسعود رَقاً له، فقال: أخبرنى عن الأمة^(٢)، فقال: الذى يعلم الناس الخير.

وقال الشعبي: حدثنى فروة بن نوفل الأشجعى قال: قال ابن مسعود: إن معاذاً كان أمة قانتا لله حنيفاً، فقلت فى نفسى: غلط أبو عبد الرحمن، إنما قال الله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾، فقال: أتدرى ما الأمة وما القانت؟ قلت: الله [ورسوله]^(٣) أعلم. قال: الأمة الذى يعلم [الناس]^(٤) الخير. والقانت: المطيع لله ورسوله. وكذلك كان معاذ معلم الخير، وكان مطيعاً لله ورسوله.

وقد روى من غير وجه، عن ابن مسعود؛ حرره ابن جرير^(٥).

وقال مجاهد: ﴿أُمَّةٌ﴾ أى: أمة وحده، والقانت: المطيع. وقال مجاهد أيضاً: كان إبراهيم أمة، أى: مؤمناً وحده، والناس كلهم إذ ذاك كفار.

وقال قتادة: كان إمام هدى، والقانت: المطيع لله.

وقوله: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ﴾ أى: قائماً بشكر^(٦) نعم الله عليه، كما قال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]، أى: قام بجميع ما أمره الله تعالى به.

وقوله: ﴿اجْتَبَاهُ﴾ أى: اختاره واصطفاه، كما قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

ثم قال: ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضى.

وقوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أى: جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه فى إكمال حياته الطيبة، ﴿وَأِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أى: لسان صدق.

(١) زيادة من ت، ف، أ، والطبرى. (٢) فى ف، أ: «أمة».

(٣) زيادة من أ. (٤) زيادة من ف، أ.

(٥) تفسير الطبرى (١٤/ ١٢٨، ١٢٩).

(٦) فى ت: «يشكر».

وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أى: ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه، أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء: ﴿أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، كما قال: فى «الأنعام»: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، ثم قال تعالى منكرا على اليهود.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٢٤).

لا شك أن الله شرع فى كل ملة يوما من الأسبوع، يجتمع الناس فيه للعبادة، فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة؛ لأنه اليوم السادس الذى أكمل الله فيه الخليفة، واجتمعت [الناس] (١) فيه وتمت النعمة على عباده. ويقال: إنه تعالى شرع ذلك لبنى إسرائيل على لسان موسى، فعدلوا عنه واختاروا السبت؛ لأنه اليوم الذى لم يخلق فيه الرب شيئا من المخلوقات الذى (٢) كمل خلقها يوم الجمعة، فالزمهم (٣) تعالى به فى شريعة التوراة، ووصاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه، مع أمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه. وأخذه (٤) موثيقهم وعهودهم على ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾.

قال مجاهد: اتبعوه وتركوا الجمعة.

ثم إنهم لم يزالوا متمسكين به، حتى بعث الله عيسى ابن مريم، فيقال: إنه حولهم إلى يوم الأحد. ويقال إنه: لم [يترك] (٥) شريعة التوراة إلا ما نسخ من بعض أحكامها وإنه لم [يزل] (٦) محافظا على السبت حتى رفع، وإن النصرارى بعده فى زمان قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد، مخالفة لليهود، وتحولوا إلى الصلاة شرقا عن الصخرة، والله (٧) أعلم.

وقد ثبت فى الصحيحين، من حديث عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذى فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالتاس لنا فيه تبع، اليهود غدا، والنصارى بعد غد». لفظ البخارى (٨).

وعن أبى هريرة، وحذيفة، رضى الله عنهما، قالوا: قال رسول الله ﷺ: «أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم

(٣) فى أ: «والزمهم».

(٦) زيادة من ت، ف، أ.

(٢) فى أ: «التى».

(٥) فى أ: «يزل على».

(١) زيادة من ت، ف.

(٤) فى أ: «وأخذ».

(٧) فى ت: «فالله».

(٨) صحيح البخارى برقم (٦٦٢٤) وصحيح مسلم برقم (٨٥٥).

الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة، والمقضى بينهم قبل الخلائق». رواه مسلم [والله أعلم] (١)(٢).

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١٢٥).

يقول تعالى آمراً رسوله محمداً ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله ﴿بِالْحُكْمَةِ﴾.

قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليه (٣) من الكتاب والسنة ﴿وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ﴾ أى: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ذكرهم (٤) بها، ليحذروا بأس الله تعالى.

وقوله: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أى: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، كما قال: ﴿وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] فأمره تعالى بلين الجانب، كما أمر موسى وهارون، عليهما السلام، حين بعثهما إلى فرعون فقال: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أى: قد علم الشقى منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه، فادعهم إلى الله، ولا تذهب نفسك على من ضل منهم (٥) حسرات، فإنه ليس عليك هداهم إنما أنت نذير، عليك البلاغ، وعلينا الحساب، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، و﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١٢٦) وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨).

يأمر تعالى بالعدل فى الاقتصاص والمماثلة فى استيفاء الحق، كما قال عبد الرزاق، عن الثورى، عن خالد، عن ابن سيرين: أنه قال فى قوله تعالى: ﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾: إن أخذ منك رجل شيئاً، فخذ منه مثله.

وكذا قال مجاهد، وإبراهيم، والحسن البصرى، وغيرهم. واختاره ابن جرير.

وقال ابن زيد: كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين، فأسلم رجال ذوو منعة، فقالوا: يا رسول

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) صحيح مسلم برقم (٨٥٦).

(٣) فى ف، أ: «عليك».

(٤) فى ت، ف: «يذكرهم».

(٥) فى ت: «عليهم».

(٦) فى ف: «وإنك» وهو خطأ.

الله، لو أذن الله لنا لانتصرنا من هؤلاء الكلاب! فنزلت هذه الآية، ثم نسخ ذلك بالجهاد.

وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أصحابه، عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة «النحل» كلها بمكة، وهى مكية إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أحد، حيث قتل حمزة، رضى الله عنه، ومثل به، فقال رسول الله ﷺ: «لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بثلاثين رجلا منهم» فلما سمع المسلمون ذلك قالوا: والله لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بهم مثله لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط. فأنزل الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ إلى آخر السورة^(١).

وهذا مرسل، وفيه [رجل]^(٢) مبهم لم يسم، وقد روى هذا من وجه^(٣) آخر متصل، فقال الحافظ أبو بكر البزار:

حدثنا الحسن بن يحيى، حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا صالح المري^(٤)، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان، عن أبي هريرة، رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة بن عبد المطلب، رضى الله عنه، حين استشهد، فنظر إلى منظر لم ينظر أوجع للقلب منه. أو قال: لقلبه [منه]^(٥)، فنظر^(٦) إليه وقد مثل به فقال: «رحمة الله عليك، إن كنت - لما علمت - لوصولا للرحم، فعولا للخيرات، والله لولا حزن من بعدك عليك، لسرنى أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع - أو كلمة نحوها - أما والله على ذلك، لأمثلهن بسبعين كمثلك^(٧)». فنزل جبريل، عليه السلام، على محمد ﷺ بهذه السورة^(٨)، وقرأ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ إلى آخر الآية، فكفر رسول الله ﷺ - يعنى: عن يمينه - وأمسك عن ذلك^(٩).

وهذا إسناد فيه ضعف؛ لأن صالحا - هو ابن بشير المري - ضعيف عند الأئمة، وقال البخارى: هو منكر الحديث.

وقال الشعبى وابن جرير: نزلت فى قول المسلمين يوم أحد فيمن مثل بهم: لنمثلن بهم. فأنزل الله فيهم ذلك.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد فى مسند أبيه: حدثنا هديّة^(١٠) بن عبد الوهاب المروزى، حدثنا الفضل بن موسى، حدثنا عيسى بن عبيد، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد، قتل من الأنصار ستون رجلا، ومن المهاجرين ستة، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لَنُرَبِّينَّ عليهم. فلما كان يوم الفتح قال رجل: لا

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/ ١٣٢).

(٢) زيادة من ف، أ. (٣) فى أ: «من غير وجه». (٤) فى ت: «حدثنا صالح حدثنا المري».

(٥) زيادة من ت. (٦) فى ت: «ونظر». (٧) فى ف، أ: «كمثلك».

(٨) فى ت: «الآية».

(٩) مسند البزار برقم (١٧٩٥) «كشف الاستار».

(١٠) فى ت، ف، أ: «هديّة».

تعرف^(١) قريش بعد اليوم. فنأدى مناد: إن رسول الله ﷺ آمن الأسود والأبيض إلا فلانا وفلانا - ناسا سماهم - فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾^(٢) فقال رسول الله ﷺ: «نصبر ولا نعاقب»^(٣).

وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن، فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل، كما في قوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾، ثم قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. وقال: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾، ثم قال: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾، ثم قال: ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾: تأكيد للأمر بالصبر، وإخبار بأن ذلك إنما ينال بمشيئة الله وإعانتة، وحوله وقوته.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على من خالفك، لا تحزن عليهم؛ فإن الله قدر ذلك، ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ أي: غم ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي: مما يجهدون [أنفسهم]^(٤) في عداوتك وإيصال الشر إليك، فإن الله كافيك وناصرك، ومؤيدك، ومظهرك ومظفرك بهم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ أي: معهم بتأييده ونصره ومعونته وهذه معية خاصة، كقوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢]، وقوله لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، وقول النبي ﷺ للصديق وهما في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]، وكقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٥) [يونس: ٦١].

ومعنى ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي: تركوا المحرمات، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ أي: فعلوا الطاعات، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلوهم، وينصرهم ويؤيدهم، ويظفرهم على أعدائهم ومخالفهم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا

(٢) زيادة من ت، ف، أ، وفي هـ: «الآية».

(١) في ت، ف، أ: «يعرف».

(٣) رواه المسند (٥/ ١٣٥).

(٥) زيادة من ت، ف، أ، وفي هـ: «الآية».

(٤) زيادة من ت، ف، أ.

مسعر، عن ابن عون، عن محمد بن حاطب قال: كان عثمان، رضى الله عنه، من الذين آمنوا، والذين اتقوا، والذين هم محسنون.

[آخر تفسير سورة النحل والله الحمد أجمعه والمنّة، وبه المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل]^(١)

(١) ما بين المعقوفين من «ه».

[بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم]^(١)

تفسير سورة الإسراء^(٢)

وهي مكة

قال الإمام [الحافظ المتقن أبو عبد الله محمد بن إسماعيل]^(٣) البخارى: حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: سمعت عبد الرحمن بن يزيد، سمعت ابن مسعود، رضى الله عنه، قال فى بنى إسرائيل والكهف ومريم: إنهن من العتاق الأول وهن من تلالى^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا حماد بن زيد، عن مروان، عن أبي لبابة، سمعت عائشة تقول: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة «بنى إسرائيل»، و«الزمر»^(٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١).

يمجد تعالى نفسه ، ويعظم شأنه ، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه ، فلا إله غيره ﴿الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ يعنى محمداً، صلوات الله وسلامه عليه^(٦) ﴿لَيْلًا﴾ أى فى جنح الليل ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وهو مسجد مكة ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ وهو بيت المقدس الذى هو إيلياء^(٧)، معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل؛ ولهذا جمعوا له هنالك كلهم، فأتمهم فى محلّتهم^(٨)، ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقوله : ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أى: فى الزروع والثمار ﴿لِنُرِيَهُ﴾ أى: محمداً ﴿مِّنَ آيَاتِنَا﴾ أى: العظام كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٨].

وسنذكر من ذلك ما وردت به السنة من الأحاديث عنه، صلوات الله عليه وسلامه.

وقوله : ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أى: السميع لأقوال عباده، مؤمنهم وكافرهم، مصدقهم

(١) زيادة من ت. (٢) فى ت، ف، أ: «سورة سبحان». (٣) زيادة من ت، ف، أ.

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٠٨).

(٥) المسند (١٨٩/٦) ورواه ابن خزيمة فى صحيحه برقم (١١٦٣) وقال: «إن كان أبو لبابة هذا يجوز الاحتجاج بخبره وفإنى لا اعرفه بعدالة ولا جرح». وقد وثقه ابن معين.

(٦) فى ف: «صلى الله عليه وسلم». (٧) فى ت، ف، أ: «إيلياء». (٨) فى ت: «محلهم».

ومكذبهم ، البصير بهم فيعطى كلاً ما يستحقه في الدنيا والآخرة .

ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء

رواية أنس بن مالك:

قال الإمام أبو عبد الله البخاري: حدثني عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا سليمان - هو ابن بلال - عن شريك بن عبد الله^(١) قال: سمعت أنس بن مالك يقول ليلة أسرى برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة: إنه جاءه ثلاثة نفر، قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام، فقال أولهم: أيهم هو؟ فقال أوسطهم: هو خيرهم، فقال آخرهم: خذوا خيرهم. فكانت تلك الليلة فلم يرههم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه، وتنام عيناه ولا ينام قلبه - وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم - فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم، فتولاه منهم جبريل، فشق جبريل مابين نحره إلى لبتة حتى فرغ من صدره وجوفه، فغسله من ماء زمزم، بيده حتى أنقى جوفه، ثم أتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشواً إيماناً وحكمة، فحشا به صدره ولغاديدته - يعني عروق حلقه - ثم أطبقه. ثم عرج به إلى السماء الدنيا، فضرب باباً من أبوابها، فناداه أهل السماء: من هذا؟ فقال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: معي محمد. قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. قالوا: مرحباً به وأهلاً به، يستبشر به أهل السماء لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به في الأرض حتى يعلمهم.

ووجد في السماء الدنيا آدم، فقال له جبريل: هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلم عليه، وردّ عليه آدم فقال: مرحباً وأهلاً بابني، نعم^(٢) الابن أنت، فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان فقال: «ما هذان النهران يا جبريل؟» قال: هذا النيل والفرات عنصرهما، ثم مضى به في^(٣) السماء، فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فضرب يده فإذا هو مسك أذفر فقال: «ما هذا يا جبريل؟» قال: هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك.

ثم عرج إلى السماء الثانية، فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الأولى: من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. قالوا: مرحباً^(٤) وأهلاً وسهلاً.

ثم عرج به إلى السماء الثالثة، فقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية. ثم عرج به إلى السماء الرابعة، فقالوا له مثل ذلك. ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فقالوا له مثل ذلك. ثم عرج به إلى السماء السادسة، فقالوا له مثل ذلك. ثم عرج به إلى السماء السابعة، فقالوا له مثل ذلك. كل سماء فيها أنبياء قد سماهم، قد وعيت^(٥) منهم إدريس في الثانية وهارون في الرابعة، وآخر في الخامسة لم احفظ اسمه، وإبراهيم في السادسة، وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله. فقال موسى: «رب لم أظن أن يرفع عليّ أحد»^(٦) ثم علا به فوق ذلك، بما لا يعلمه إلا الله، عز وجل، حتى جاء سِدْرَةَ المنتهى، ودنا الجبار رب العزة فتدلى، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الله إليه فيما

(١) في ف: «عبد الله يعني بن أبي نمر أنه».

(٢) في ف: «نعم».

(٣) في ت، ف: «إلى».

(٤) في ف: «مرحباً به».

(٥) في أ: «عينهم».

(٦) في ت: «أنه على أحد».

يوحى: خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة. ثم هبط به حتى بلغ موسى، فاحتبسه موسى فقال: «يا محمد، ماذا عهد إليك ربك؟» قال: «عهد إلى خمسين صلاة كل يوم وليلة» قال: إن أمتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم». فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل كأنه يستشير به في ذلك، فأشار إليه جبريل: أن نعم، إن شئت. فعلاً^(١) به إلى الجبار تعالى، فقال وهو في مكانه: «يارب، خفف عنا، فإن أمتي لا تستطيع هذا» فوضع عنه عشر صلوات، ثم رجع إلى موسى فاحتبسه، فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات. ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال: «يا محمد، واللّه لقد راودت بنى إسرائيل قومي على أدنى من هذا، فضعفوا فتركوه، فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً، فارجع فليخفف عنك ربك» كل ذلك يلتفت النبي ﷺ إلى جبريل ليشير عليه، ولا يكره ذلك جبريل، فرفعه عند الخامسة فقال: «يارب، إن أمتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم»^(٢) وأبدانهم فخفف عنا» فقال الجبار: يا محمد، قال: «ليبك وسعديك» قال: إنه لا يبدل القول لدى، كما فرضت عليك في أم الكتاب: «كل حسنة بعشر أمثالها، فهي خمسون في أم الكتاب وهي خمس عليك»، فرجع إلى موسى فقال: «كيف فعلت؟» فقال: «خفف عنا، أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها» قال موسى: «قد واللّه راودت بنى إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه، فارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضاً». قال رسول الله ﷺ: «ياموسى قد - واللّه - استحيت من ربى مما أختلف إليه»^(٣) قال: «فاهبط باسم الله»، فاستيقظ وهو في المسجد الحرام.

هكذا ساقه البخارى فى «كتاب التوحيد»^(٤)، ورواه فى «صفة النبى ﷺ»، عن إسماعيل بن أبى أؤيس عن أخيه أبى بكر عبد الحميد، عن سليمان بن بلال^(٥).

ورواه مسلم، عن هارون بن سعيد، عن ابن وهب، عن سليمان^(٦) قال: «فزاد ونقص، وقدم وأخر»^(٧).

وهو كما قاله^(٨) مسلم، رحمه الله، فإن شريك بن عبد الله بن أبى نمر اضطرب فى هذا الحديث، وساء حفظه ولم يضبطه، كما سيأتى بيانه فى الأحاديث الأخر. ومنهم من يجعل هذا مناماً توطئة لما وقع بعد ذلك، واللّه أعلم.

[وقال]^(٩) البيهقي: فى^(١٠) حديث «شريك» زيادة تفرد بها، على مذهب من زعم أنه ﷺ رأى ربه، يعنى قوله: «ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى» قال: وقول عائشة وابن مسعود وأبى هريرة فى حملهم هذه الآيات على رؤيته جبريل - أصح^(١١).

(١) فى ف: «ثم علا». (٢) فى ف، أ: «وأسماعهم وأبصارهم وأبدانهم». (٣) فى ف: «عليه».

^١ (٤) صحيح البخارى برقم (٧٥١٧).

^٢ (٥) صحيح البخارى برقم (٣٥٧٠).

(٦) فى ف، أ: «سليمان به».

^٣ (٧) صحيح مسلم برقم (١٦٢).

(٨) فى أ: «قال».

(٩) زيادة من ت.

(١٠) فى ف، أ: «وفى».

(١١) دلائل النبوة للبيهقى (٣٨٥/٢).

وهذا الذى قاله البيهقي هو الحق فى هذه المسألة، فإن أبا ذر قال: يارسول الله، هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه». وفى رواية «رأيت نورا». أخرجه مسلم، رحمه الله^(١).

وقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٨]، إنما هو جبريل، عليه السلام، كما ثبت ذلك فى الصحيحين، عن عائشة أم المؤمنين، وعن ابن مسعود، وكذلك هو فى صحيح مسلم عن أبى هريرة، رضى الله عنهم، ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة فى تفسير هذه الآية بهذا^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا ثابت البناني، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته فسار بى حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التى يربط^(٣) فيها الأنبياء، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت. فأتانى^(٤) جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن. قال جبريل: أصبت الفطرة» قال: «ثم عرج بى إلى السماء الدنيا، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. فقيل^(٥): ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ [قال: قد أرسل إليه]^(٦). ففتح لنا، فإذا أنا بآدم، فرحب ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بابنى الخالة يحيى وعيسى، فرحبا بى ودعوا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ فقال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ فقال: محمد. فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بيوסף، وإذا هو قد أعطى شطر الحسن، فرحب ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ فقال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: قد أرسل إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح الباب، فإذا أنا بإدريس، فرحب ودعا لى بخير. ثم قال: يقول الله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧].

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ فقال: جبريل. فقيل: [و]^(٧) من معك؟ فقال: محمد. فقيل: قد أرسل إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بهارون، فرحب ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ فقال: جبريل. قيل^(٨): ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بموسى فرحب ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل^(٩): ومن

(١) صحيح مسلم برقم (١٧٨).

(٢) حديث عائشة: رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٢٣٥) ومسلم فى صحيحه برقم (١٧٧) وحديث ابن مسعود: رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٨٥٦) ومسلم فى صحيحه برقم (١٧٤) وحديث أبى هريرة: رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٧٥).

(٣) فى ت، ف، أ: «تربط». (٤) فى ف، أ: «فجاءنى». (٥) فى ت، ف، أ: «قيل».

(٦) زيادة من ت، ف، أ، هـ المسند. (٧) زيادة من ت، ف، أ. (٨) فى ف، أ: «فقيل».

(٩) فى ف: «فقيل».

معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم^(١)، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه.

ثم ذهب بى إلى سدره المنتهى، فإذا ورقها كأذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال. فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت، فما أحد من خلق الله، تعالى، يستطيع أن يصفها من حسنها. قال: «فأوحى الله إليّ ما أوحى، وفرض علىّ فى كل يوم وليلة خمسين صلاة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى». قال: «ما فرض ربك على أمّتك؟»^(٢) قال: «قلت: خمسين صلاة فى كل يوم وليلة». قال: ارجع^(٣) إلى ربك فاسأله التخفيف؛ فإن أمّتك لا تطيق ذلك، وإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم». قال^(٤): «فرجعت إلى ربى، فقلت: أى رب، خفف عن أمّتى، فحطّ عني خمساً. فرجعت إلى موسى فقال: ما فعلت؟ قلت^(٥): قد حطّ عني خمساً». قال: «إن أمّتك لا تطيق ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك» قال: «فلم^(٦) أزل أراجع بين ربى وبين موسى، ويحطّ عني خمساً خمساً حتى قال: يا محمد، هى خمس صلوات فى كل يوم وليلة، بكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت [له]^(٧) حسنة، فإن عملها كتبت عشراً. ومن همّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب، فإن عملها كتبت سيئة واحدة. فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فإن أمّتك لا تطيق ذلك». فقال رسول الله ﷺ: «لقد رجعت إلى ربى حتى استحييت».

ورواه مسلم عن شيبان بن فروخ، عن حماد بن سلمة بهذا السياق^(٨)، وهو أصح من سياق شريك.

قال البيهقي: وفى هذا السياق دليل على أن المعراج كان ليلة أسرى به، عليه الصلاة والسلام، من مكة إلى بيت المقدس^(٩). وهذا الذى قاله هو الحق الذى لا شك فيه ولا مرية.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن قتادة، عن أنس، رضى الله عنه، أن النبى ﷺ أتى بالبراق ليلة أسرى به مُسْرَجاً ملجماً ليركبه، فاستصعب عليه، فقال له جبريل: ما يحملك على هذا؟ فوالله ما ركبك قط أكرم على الله منه. قال: فارفض عرقاً.

ورواه الترمذى عن إسحاق بن منصور، عن عبد الرزاق، وقال: غريب لانعرفه إلا من حديثه^(١٠).

وقال أحمد أيضاً: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثنى راشد بن سعد وعبد الرحمن بن جبير، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بى ربى، عز وجل، مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون

(١) فى ت: «إبراهيم عليه وسلم» وفى ف: «إبراهيم عليه السلام».

(٢) فى ت: «ما فرض عليك على أمّتك». (٣) فى ت: «فارجع».

(٤) فى أ: «ثم قال».

(٥) فى ف، أ: «فقلت».

(٦) فى ف: «فقال لم».

(٨) المسند (٣/١٤٨)، وصحيح مسلم برقم (١٦٢).

(٩) دلائل النبوة للبيهقى (٢/٣٨٥).

(١٠) المسند (٣/١٦٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٣١).

لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم».

وأخرجه أبو داود، من حديث صفوان بن عمرو، به^(١). ومن وجه آخر ليس فيه أنس^(٢)، فالله أعلم.

وقال أيضاً: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن سليمان التيمي، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أسرى بي على موسى، عليه السلام، قائماً يصلي في قبره»^(٣).

ورواه مسلم من حديث حماد بن سلمة، عن سليمان بن طرخان التيمي وثابت البناني، كلاهما عن أنس^(٤).

قال النسائي: وهذا أصح من رواية من قال: سليمان عن ثابت، عن أنس.

وقال [الحافظ]^(٥) أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا وهب بن بقیة، حدثنا خالد، عن التيمي، عن أنس قال: أخبرني بعض أصحاب النبي ﷺ: أن النبي ﷺ ليلة أسرى به مر على موسى وهو يصلي في قبره^(٦).

وقال أبو يعلى: حدثنا إبراهيم بن محمد بن عرعة، حدثنا معتمر، عن أبيه قال: سمعت أنساً: أن النبي ﷺ ليلة أسرى به مر بموسى^(٧) وهو يصلي في قبره - قال أنس: ذكر أنه حمل على البراق - فأوثق الدابة - أو قال: الفرس - قال أبو بكر: صفها لي. فقال رسول الله ﷺ، وذكر كلمة^(٨) فقال: أشهد أنك رسول الله، وكان أبو بكر، رضى الله عنه، قد رآها^(٩).

وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو البزار في مسنده: حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا الحارث بن عبيد، عن أبي عمران الجوني، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «بيننا أنا قاعد»^(١٠) إذ جاء جبريل، عليه السلام، فوكز بين كتفي، فقممت إلى شجرة فيها كوكرى الطير، فقعده في أحدهما وقعدت في الآخر فسمت^(١١) وارتفعت حتى سدت الخافقين وأنا أقلب طرفي، ولو شئت أن أمس السماء لمست، فالتفت إلى جبريل، عليه السلام، كأنه جلس^(١٢) لاط، فعرفت فضل علمه بالله على، وفتح لي باب من أبواب السماء فرأيت النور الأعظم، وإذا دون الحجاب رفرق الدر والياقوت، وأوحى إلى ما شاء الله أن يوحى» ثم قال: هذا الحديث لا نعلم رواه إلا أنس، ولا نعلم رواه عن أبي عمران الجوني إلا الحارث بن عبيد، وكان رجلاً مشهوراً من أهل البصرة^(١٣).

(١) المسند (٢٢٤/٣) وسنن أبي داود برقم (٤٨٧٨).

(٢) سنن أبي داود برقم (٤٨٧٨).

(٣) المسند (١٢٠/٣).

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٣٧٥).

(٥) زيادة من أ.

(٦) مسند أبي يعلى (١١٧/٧).

(٧) في ف: «مر على موسى».

(٨) مسند أبي يعلى (١٢٦/٧).

(٩) في هـ: «هى كذه وذو» والتصويب من مسند البزار و«ت».

(١٠) في هـ: «نائم» والتصويب من مسند البزار. (١١) في أ: «فسميت».

(١٢) في ت، أ: «جلس».

(١٣) مسند البزار برقم (٥٨) ورواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٥٩) عن محمد بن على الصائغ عن سعيد بن منصور به. وقال الهيثمي في المجمع (٧٥/١): «رجاله رجال الصحيح». وقال الحافظ ابن حجر في زوائد البزار (٩٥/١): «الحارث أخرجه له الشيخان، وهو مع ذلك له مناكير هذا منها».

ورواه الحافظ البيهقي في «الدلائل» عن أبي بكر القاضي، عن أبي جعفر محمد بن علي بن دُحَيْمٍ، عن محمد بن الحسين بن أبي الحُثَيْنِ، عن سعيد بن منصور، فذكر بسنده مثله، ثم قال: وقال غيره في هذا الحديث في آخره: «وُلِّطَ دوني - أو قال: دون الحجاب - رفرق الدر والياقوت». ثم قال: هكذا^(١) رواه الحارث بن عبيد. ورواه حماد^(٢) بن سلمة، عن أبي عمران الجوني، عن محمد ابن عمير بن عطار: أن النبي ﷺ كان في ملأ من أصحابه، فجاءه^(٣) جبريل، فنكت في ظهره، فذهب به إلى الشجرة وفيها مثل وكُرى الطير، فقع في أحدهما وقعد جبريل في الآخر، فنشأت بنا حتى بلغت^(٤) الأفق، فلو بسطت يدي إلى السماء لئلتهما، فدلني بسبب وهبط النور، فوقع جبريل مغشياً عليه كأنه حُلَس، فعرفت فضل خشيته على خشيتي. فأوحى إلى: نبياً ملكاً أو نبياً عبداً؟ وإلى الجنة ما أنت؟ فأومأ^(٥) إلى جبريل وهو مضطجع: أن تواضع. قال: قلت: لا. بل نبياً عبداً^(٦).

قلت: وهذا إن صح يقتضي أنها واقعة غير ليلة الإسراء، فإنه لم يذكر فيها بيت المقدس، ولا الصعود إلى السماء، فهي كائنة غير مانحن فيه، والله أعلم.

وقال البزار أيضاً: حدثنا عمرو بن عيسى، حدثنا أبو بحر، حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أنس، رضي الله عنه، أن محمداً ﷺ رأى ربه، عز وجل، هذا غريب.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا يونس، حدثنا عبد الله بن وهب، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن الزهري، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، عن أنس بن مالك قال: لما جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ بالبراق فكأنها أَمَرَتْ ذنبها، فقال لها جبريل: مه يا براق، فوالله إن ركبك^(٧) مثله. وسار رسول الله ﷺ، فإذا هو بعجوز على جانب الطريق، فقال: «ما هذه يا جبريل؟» قال: سر يا محمد. قال: فسار ما شاء الله أن يسير، فإذا شيء يدعوه متنجياً عن الطريق يقول: هلم يا محمد فقال له جبريل: سر يا محمد فسار ما شاء الله أن يسير، قال: فلقية خلق من الخلق فقالوا: السلام عليك يا أول، السلام عليك يا آخر، السلام عليك يا حاشر، فقال له جبريل: اردد السلام يا محمد. فرد السلام، ثم لقيه الثانية فقال له مثل مقالته الأولى، ثم الثالثة كذلك، حتى انتهى إلى بيت المقدس. فعرض عليه الماء والخمر واللبن، فتناول رسول الله ﷺ اللبن، فقال له جبريل: أصبت الفطرة، ولو شربت الماء لغرقت وغرقت أمتك، ولو شربت الخمر لغويت ولغوت^(٨) أمتك. ثم بعث له آدم فمن دونه من الأنبياء، عليهم السلام، فأمرهم رسول الله ﷺ تلك الليلة. ثم قال له جبريل: أما العجوز التي^(٩) رأيت على جانب الطريق، فلم يبق من الدنيا إلا ما بقي من عمر تلك العجوز، وأما الذي أراد أن تميل إليه، فذاك عدو الله إبليس أراد أن تميل إليه، وأما الذين سلموا عليك إبراهيم وموسى وعيسى، عليهم الصلاة والسلام.

وهكذا رواه الحافظ البيهقي في «دلائل النبوة» من حديث ابن وهب^(١٠)، وفي بعض ألفاظه نكارة

(١) في ت: «هذا». (٢) في ت: «ابن حماد» وهو خطأ. (٣) في ف، أ: «فجاء».

(٤) في ت: «بلغنا». (٥) في أ: «فأوحى».

(٦) دلائل النبوة للبيهقي (٣٦٩/٢).

(٧) في ت، أ: «فو الله ما ركبك». (٨) في ف: «وغويت».

(٩) في ت، أ: «الذي».

(١٠) تفسير الطبري (٥/١٥)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣٦٢/٢).

وغرابة.

طريق أخرى عن أنس بن مالك:

وفيها غرابة ونكارة جداً، وهى فى سنن النسائى المجتبى، ولم أرها فى الكبير قال: أخبرنا عمرو^(١) بن هشام، حدثنا مَخْلَد - هو ابن الحسين - عن سعيد بن عبد العزيز، حدثنا يزيد بن أبى مالك، حدثنا أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: « أتيت بدابة فوق الحمار ودون البغل، خطوها عند منتهى طرفها، فركبت ومعى جبريل، عليه السلام، فسرت فقال: انزل فصل. فصليت، فقال: أتدرى أين صليت؟ [صليت بطيبة وإليها المهاجر، ثم قال: انزل فصل. فصليت، فقال: أتدرى أين صليت؟] ^(٢) صليت بطور سيناء، حيث كلم الله موسى، ثم قال: انزل فصل. فصليت، فقال: أتدرى أين صليت. صليت بيت لحم، حيث ولد عيسى، عليه السلام، ثم دخلت بيت المقدس فجمع لى الأنبياء عليهم السلام، فقدمنى جبريل حتى أممتهم [ثم صعد بى إلى السماء الدنيا، فإذا فيها آدم، عليه السلام] ^(٣). ثم صعد بى إلى السماء الثانية، فإذا فيها ابنا الخالة: عيسى ويحيى، عليهما السلام. ثم صعد بى إلى السماء الثالثة، فإذا فيها يوسف عليه السلام. ثم صعد بى إلى السماء الرابعة، فإذا فيها هارون، عليه السلام. ثم صعد بى إلى السماء الخامسة، فإذا فيها إدريس عليه السلام. ثم صعد بى إلى السماء السادسة، فإذا فيها موسى، عليه السلام. ثم صعد بى إلى السماء السابعة، فإذا فيها إبراهيم عليه السلام، ثم صعد بى فوق سبع سموات وأتيت سدرة المنتهى، فغشيتنى ضبابة فخررت ^(٤) ساجداً فقبل لى: إني يوم خلقت السموات والأرض، فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، فقم بها أنت وأمتك [فرجعت إلى إبراهيم فلم يسألنى عن شىء. ثم أتيت موسى فقال: كم فرض الله عليك وعلى؟] ^(٥) قلت: خمسين صلاة. قال: فإنك لا تستطيع أن تقوم بها، لا أنت ولا أمتك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ^(٦). فرجعت إلى ربى فخفف عني عشراً. ثم أتيت موسى فأمرنى بالرجوع، فرجعت فخفف عني عشراً، ثم ردت إلى خمس صلوات. قال: فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإنه فرض على بنى إسرائيل صلاتين، فما قاموا بهما. فرجعت إلى ربى، عز وجل، فسألته التخفيف، فقال: إني يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، فخمس بخمسين، فقم بها أنت وأمتك. فعرفت أنها من الله عز وجل ^(٧) صرّى، فرجعت إلى موسى، عليه السلام ^(٨) فقال: ارجع، فعرفت أنها من الله صرّى - يقول: أى حتم - فلم أرجع ^(٩).

طريق أخرى:

وقال ابن أبى حاتم: حدثنى أبى، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا خالد بن يزيد بن أبى مالك، عن أبيه، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: لما كان ليلة أسرى برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس، أتاه جبريل بدابة فوق الحمار ودون البغل، حمله جبريل عليها، ينتهى خفها حيث ينتهى

(٤) فى ت: «خررت».

(٢، ٣) زيادة من ت، ف، أ، والنسائى.

(١) فى ت: «عمر».

(٧) فى ف، أ: «من الله تعالى».

(٦) فى ف: «تخفيفها».

(٥) زيادة من ت، ف، أ، والنسائى.

(٨) فى ت: «فرجعت إليه عليه السلام».

(٩) سنن النسائى (١/٢٢١).

طرفها . فلما بلغ بيت المقدس وبلغ^(١) المكان الذى يقال له: «باب محمد ﷺ» أتى إلى الحجر الذى ثمة، فغمزه جبريل بأصبعه فثقبه، ثم ربطها. ثم صعد فلما استويا فى صَرْحَةِ المسجد، قال جبريل: يا محمد، هل سألت ربك أن يريك الحور العين؟ فقال: نعم. فقال: فانطلق إلى أولئك النسوة، فسلم عليهن وهن جلوس عن يسار الصخرة، قال: فأتيتهن فسلمت عليهن، فرددن على السلام، فقلت: من أنتن؟ فقلن: نحن خيرات حسان، نساء قوم أبرار، نقوا فلم يدرنوا، وأقاموا فلم يظعنوا، وخلدوا فلم يموتوا». قال: «ثم انصرفت^(٢)»، فلم ألبث إلا يسيراً حتى اجتمع ناس كثير، ثم أذن مؤذن، وأقيمت الصلاة». قال: «فقمنا صفوفاً ننتظر من يؤمنا، فأخذ بيدى جبريل، عليه السلام، فقدمنى فصليت بهم. فلما انصرفت قال جبريل: يا محمد، أتدرى من صلى خلفك؟» قال: «قلت: لا. قال: صلى خلفك كل نبي بعثه الله عز وجل».

قال: «ثم أخذ بيدى جبريل فصعد بى إلى السماء، فلما انتهينا إلى الباب استفتح فقالوا: من أنت؟ قال: أنا جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم». قال: «ففتحوا له وقالوا: مرحباً بك وبمن معك». قال: «فلما استوى على ظهرها إذا فيها آدم، فقال لى جبريل: يا محمد، ألا تسلم على أبيك آدم؟» قال: «قلت: بلى. فأتيته فسلمت عليه، فرد على وقال: مرحباً بابنى والنبي الصالح». قال: «ثم عرج بى إلى السماء الثانية فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم». «ففتحوا^(٣) له وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، فإذا فيها عيسى وابن خالته يحيى عليهما السلام^(٤)». قال: «ثم عرج بى إلى السماء الثالثة فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم^(٥)». «ففتحوا^(٦) وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، فإذا فيها يوسف، عليه السلام، ثم عرج بى إلى السماء الرابعة فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم. ففتحوا وقالوا: مرحباً بك وبمن معك. فإذا فيها إدريس، عليه السلام. قال: «فعرج بى إلى السماء الخامسة، فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم. ففتحوا وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، فإذا فيها هارون، عليه السلام. قال: «ثم عرج بى إلى السماء السادسة فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم. ففتحوا وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، فإذا فيها موسى، عليه السلام. ثم عرج بى إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقالوا^(٧): من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. ففتحوا له وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، فإذا فيها إبراهيم، عليه السلام. فقال جبريل: يا محمد، ألا تسلم على أبيك إبراهيم؟ قال: قلت: بلى. فأتيته فسلمت عليه، فرد على السلام وقال: مرحباً بك يا بنى^(٨) والنبي الصالح.

ثم انطلق بى على ظهر السماء السابعة، حتى انتهى بى إلى نهر عليه خيام الباقوت واللؤلؤ والزبرجد، وعليه طير خضر أنعم طير رأيت. فقلت: يا جبريل، إن هذا الطير لناعم قال^(٩): يا محمد، أكله أنعم منه ثم قال: يا محمد، أتدرى أى نهر هذا؟ قال: «قلت: لا. قال: هذا الكوثر الذى أعطاك

(١) فى ت: «فبلغ». (٢) فى ف: «قال: وانصرفت».

(٣) فى ف: «قال: ففتحوا». (٤) فى ت: «عليهما الصلاة والسلام». (٥) فى ف، أ: «قال: ففتحوا».

(٦) فى ت، ف، أ: «ففتحوا له». (٧) فى ف: «قالوا». (٨) فى ف: «مرحبا بابنى».

(٩) فى ف: فقال».

اللَّهُ إياه. فإذا فيه آتية الذهب والفضة، يجرى^(١) على رَصْرَاضٍ من الياقوت والزمرد، ماؤه^(٢) أشد بياضاً من اللبن قال: «فأخذت منه آتية^(٣) من الذهب، فاغترفت من ذلك الماء فشربت، فإذا هو أحلى من العسل، وأشد^(٤) رائحة من المسك. ثم انطلق بي حتى انتهيت^(٥) إلى الشجرة، فغشيتني سحابة فيها من كل لون، فرفضني جبريل، وخررت ساجداً لله، عز وجل، فقال الله لى: يا محمد، إني يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، فقم بها أنت وأمتك». قال: «ثم انجلت عنى السحابة وأخذ بيدى جبريل، فانصرفت سريعاً فأتييت على إبراهيم فلم يقل لى شيئاً، ثم أتيت على موسى فقال: ما صنعت يا محمد؟ فقلت: فرض ربي علىّ وعلى أمتى خمسين صلاة. قال: فلن تستطيعها أنت ولا أمتك، فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنك. فرجعت سريعاً حتى انتهيت إلى الشجرة، فغشيتني السحابة، ورفضني جبريل، وخررت ساجداً، وقلت: رب، إنك فرضت علىّ وعلى أمتى خمسين صلاة، ولن أستطيعها أنا ولا أمتى، فخفف عنا. قال: قد وضعت عنكم عشراً. قال: ثم انجلت عنى السحابة، وأخذ^(٦) بيدى جبريل وانصرفت^(٧) سريعاً، حتى أتيت على إبراهيم فلم يقل لى شيئاً، ثم أتيت على موسى، فقال لى: ما صنعت يا محمد؟ فقلت: وضع ربي عنى عشراً فقال: أربعون صلاة! لن تستطيعها أنت ولا أمتك، فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنكم. فذكر الحديث كذلك إلى خمس صلوات، وخمس بخمسين ثم أمره^(٨) موسى أن يرجع فيسأل التخفيف، فقلت: «إني قد استحييت منه تعالى».

قال: ثم انحدر، فقال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما لى لم آت على^(٩) سماء إلا رحبوا بى وضحكوا لى، غير رجل واحد، فسلمت عليه فردّ علىّ السلام فرحب بى ولم يضحك لى. قال: يا محمد، ذاك مالك خازن جهنم لم يضحك منذ خلق^(١٠)، ولو ضحك لى أحد لضحك إليك». قال: ثم ركب منصرفاً، فبينما هو فى بعض طريقه مرّ بغير لقريش تحمل طعاماً، منها جمل عليه غرارتان: غرارة سوداء، وغرارة بيضاء، فلما حاذى بالغير نفرت منه واستدارت، وصرع ذلك البعير وانكسر.

ثم إنه مضى فأصبح، فأخبر عما كان، فلما سمع المشركون قوله أتوا أبا بكر فقالوا: يا أبا بكر، هل لك فى صاحبك؟ يخبر^(١١) أنه أتى فى ليلته هذه مسيرة شهر، ثم رجع فى ليلته. فقال أبو بكر، رضى الله عنه: إن كان قاله فقد صدق، وإنا لنصدق فيما هو أبعد من هذا، نصدقه على خبر السماء. فقال المشركون لرسول الله ﷺ: ما علامة ماتقول؟ قال: «مررت بغير لقريش، وهى فى مكان كذا وكذا، فنفرت البعير^(١٢) منا واستدارت، [وفىها بغير عليه]^(١٣) غرارتان: غرارة سوداء، وغرارة بيضاء، فصرع فانكسر».

فلما قدمت البعير سألوهم، فأخبروهم الخبر على مثل ما حدثهم النبى ﷺ^(١٤) ومن^(١٥) ذلك سمي أبو^(١٦) بكر الصديق.

(١) فى ف، أ: «تجرى».

(٢) فى ف، أ: «وماؤه».

(٣) فى ت: «والد».

(٤) فى ت، ف، أ: «انتهى».

(٥) فى أ: «أهل».

(٦) فى ت: «أمر».

(٧) فى ف: «الإبل».

(٨) فى ت: «يزعم».

(٩) فى ف: «رسول الله ﷺ».

(١٠) زيادة من ف، أ، وفى ت: «جمل عليه».

(١١) فى ف: «أبا».

(١٢) فى ف، أ: «وفى».

وسألوه وقالوا^(١): هل كان معك فيمن حضر موسى وعيسى؟ قال: «نعم». قالوا: فصفهم. قال: «نعم»، أما موسى فرجل آدم، كأنه من رجال أزدِ عمان، وأما عيسى فرجل ربعة، سبط، تعلوه^(٢) حمرة كأنما يتحادر من شعره الجمان^(٣).

هذا سياق فيه غرائب عجيبة.

رواية أنس، رضى الله عنه، عن مالك بن صعصعة:

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، قال: سمعت قتادة يحدث عن أنس بن مالك: أن مالك بن صعصعة حدثه: أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به، قال: «بينما أنا فى الحطيم^(٤) - وربما قال قتادة: فى الحجر - مضطجعا إذ أتانى آت» فجعل يقول لصاحبه الأوسط بين الثلاثة، قال: «فأتانى فقد - وسمعت قتادة يقول: فشق - ما بين هذه إلى هذه». وقال قتادة: فقلت للجارود وهو إلى جنبى: ما يعنى؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته، وقد سمعته يقول: من قصته إلى شعرته قال: «فاستخرج قلبى» قال: «فأتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً وحكمة فغسل قلبى ثم حشى، ثم أعيد. ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض». قال: فقال الجارود: وهو البراق يا أبا حمزة؟ قال: نعم، يقع خطوه عند أقصى طرفه. قال: «فحملت عليه، فانطلق بى جبريل، عليه السلام، حتى أتى بى إلى السماء الدنيا، فاستفتح فقبل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. فقبل: مرحباً به، ولنعم المجيء جاء». قال: «ففتح^(٥) فلما خلصت، فإذا فيها آدم، عليه السلام، فقال: هذا أبوك آدم، فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح فقبل: من هذا؟ قال^(٦): جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل^(٧): أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء»، قال: «ففتح، فلما خلصت، فإذا يحيى^(٩) وعيسى وهما ابنا الخالة. قال: هذا^(١٠) يحيى وعيسى، فسلم عليهما. قال: فسلمت فردا السلام ثم قال^(١١): مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد حتى أتى السماء الثالثة فاستفتح، فقبل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء». قال: «ففتح^(١٢) فلما خلصت، فإذا يوسف^(١٣)، عليه السلام، قال: هذا يوسف^(١٤) قال: «فسلمت عليه، فرد السلام ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد حتى أتى السماء الرابعة، فاستفتح، فقبل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟

(١) فى ت، ف: «فقالوا».

(٢) فى ت: «يعلوه».

(٣) وفى إسناده خالد بن يزيد بن أبى مالك ضعفه أحمد وابن معين والنسائى والدارقطنى ولم يوثقه إلا أبو زرعه الدمشقى.

(٤) فى ف: «بالحطيم».

(٥) فى ت، أ: «ففتح لنا».

(٦) فى ت، ف: «فقال».

(٧) فى ت: «وقد».

(٨) فى ف، أ: «يحيى».

(٩) فى ف، أ: «وهذان».

(١٠) فى ت: «فإذا إدريس»، وفى ف، أ: «إذا بيوسف».

(١١) فى ت: «فإذا إدريس»، وفى ف، أ: «إذا بيوسف».

(١٢) فى ت: «فإذا إدريس»، وفى ف، أ: «إذا بيوسف».

(١٣) فى ت: «فإذا إدريس»، وفى ف، أ: «إذا بيوسف».

(١٤) فى ت: «فإذا إدريس»، وفى ف، أ: «إذا بيوسف».

قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ولنعم المجيء جاء. قال: «ففتح فلما خلصت فإذا إدريس، قال: هذا إدريس فسلم عليه». قال: «فسلمت عليه. فرد السلام^(١)»، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح.

قال: «ثم صعد حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء». قال: «ففتح، فلما خلصت، فإذا هارون، عليه السلام، قال: هذا هارون فسلم عليه. قال: فسلمت عليه فرد السلام^(٢)»، ثم قال: مرحباً بالأخ والنبى الصالح.

قال: «ثم صعد حتى أتى السماء السادسة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء. ففتح، فلما خلصت، فإذا أنا بموسى قال: هذا موسى، عليه السلام، فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح». قال: «فلما تجاوزته بكى. قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكى لأن غلاماً بعث بعدى، يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي».

قال: «ثم صعد حتى أتى السماء السابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء». قال: «ففتح، فلما خلصت، فإذا إبراهيم، عليه السلام، فقال: هذا إبراهيم، فسلم عليه». قال: «فسلمت عليه، فرد السلام^(٣)»، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح.

قال: ثم رفعت إلى سدره المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، فقال: هذه سدره المنتهى». قال: «وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران فى الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات».

قال: ثم رفع إلى البيت المعمور.

قال قتادة: وحدثني الحسن، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه رأى البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون فيه.

ثم رجع إلى حديث أنس [قال: «ثم^(٤) أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل». قال: «فأخذت اللبن، قال: هذه الفطرة وأنت^(٥) عليها وأمتك».

قال: «ثم فرضت الصلاة خمسين صلاة كل يوم». قال: «فنزلت حتى انتهيت إلى^(٦) موسى، قال^(٧): ما فرض ربك على أمتك؟» قال: «قلت^(٨): خمسين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة، وإنى قد خبرت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى

(١ - ٣) فى ف، أ: «فرد على السلام».

(٤) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.

(٥) فى ت، ف، أ: «أنت».

(٦) فى أ: «أتيت».

(٧) فى أ: «فقال».

(٨) فى ف، أ: «فقلت».

ربك فاسأله التخفيف عن أمتك^(١)». قال: «فرجعت فوضع عنى عشراً، قال: فرجعت إلى موسى، فقال: بم أمرت؟ قلت: بأربعين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع أربعين صلاة كل يوم، وإنى قد خبرت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال: فرجعت فوضع عنى عشراً آخر. فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بثلاثين صلاة. قال: إن أمتك لا تستطيع ثلاثين صلاة كل يوم، وإنى قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال: «فرجعت فوضع عنى عشراً آخر، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ قلت: بعشرين^(٢) صلاة كل يوم. فقال: إن أمتك لا تستطيع لعشرين صلاة كل يوم، وإنى قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال: «فرجعت فوضع عنى عشراً آخر، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: بعشر صلوات فى كل يوم. فقال: إن أمتك^(٣) لا تستطيع لعشر صلوات كل يوم، وإنى قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال: «فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم. فقال: إن أمتك^(٤) لا تستطيع لخمس صلوات كل يوم، وإنى قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال: «قلت: لقد^(٥) سألت ربي [عز وجل]^(٦) حتى استحييت، ولكن أرضى وأسلم. فننادانى مناد: قد أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى».

وأخرجاه فى الصحيحين من حديث قتادة، بنحوه^(٧).

رواية أنس عن أبى ذر:

قال البخارى: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر، رضى الله عنه، يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «فرج سقف بيتى وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج [صدرى ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغه]^(٨) فى صدرى، ثم أطبقه. ثم أخذ بيدى فخرج بى إلى السماء، فلما جئت إلى السماء [الدنيا]^(٩) قال جبريل لخازن السماء: افتح. قال: من هذا؟ قال: جبريل. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معى محمد. قال: أرسل إليه؟ قال: نعم. فلما فتح علونا السماء الدنيا وإذا رجل قاعد على يمينه أسودّة وعلى يساره أسودة، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى. فقال: مرحباً بالنبى الصالح والابن الصالح. قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم. وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسَم^(١٠) بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التى عن شماله أهل النار. فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى.

«ثم عرج بى إلى السماء الثانية فقال لخازنها: افتح. فقال له خازنها مثل ما قال له الأول،

(١) فى ف، أ: «لأمتك». (٢) فى ف: «فقلت أمرت بعشرين». (٣، ٤) فى ف: «قال أمتك».

(٦) زيادة من: أ.

(٥) فى ف، أ: «قد».

(٧) المسند (٢٠٨/٤) وصحيح البخارى برقم (٣٣٩٣) ومعلقاً برقم (٧، ٣٢) وصحيح مسلم برقم (١٦٤).

(٨، ٩) زيادة من ت، ف، أ، والبخارى. (١٠) فى ت: «نطف».

ففتح». قال أنس: فذكر أنه وجد في السموات آدم، وإدريس، وموسى، وعيسى، وإبراهيم، ولم يثبت كيف منازلهم، غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السادسة. قال أنس: فلما مرّ جبريل بالنبي ﷺ بإدريس قال: «مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. فقلت: من هذا؟ فقال: هذا إدريس. ثم مررت بموسى فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا؟ قال: موسى^(٢). ثم مررت بعيسى فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا؟ قال: ابن مريم^(٣). ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم». قال الزهري: فأخبرني ابن حزم: أن ابن عباس وأبا حبة^(٤) الأنصاري كانا يقولان: قال النبي ﷺ: «ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقدام». قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «ففرض الله على أمتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى، فقال: ما فرض الله على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة. قال: فارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت [فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى، قلت: وضع شطرها. فقال: ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فرجعت فوضع شطرها. فرجعت إليه فقال: ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فراجعت^(٥)] فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يبدل القول لدى. فرجعت إلى موسى فقال: ارجع إلى ربك. قلت: قد استحيت من ربي. ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سدره المنتهى فغشيها ألوان^(٦) لا أدري ما هي، ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جنّابذ^(٧) اللؤلؤ وإذا ترابها المسك».

هذا لفظ البخاري في «كتاب الصلاة»^(٨)، ورواه في ذكر بني إسرائيل، وفي الحج، وفي أحاديث الأنبياء من طرق أخرى، عن يونس، به^(٩). ورواه مسلم في صحيحه في «كتاب الإيمان» منه، عن حرملة، عن ابن وهب، عن يونس به نحوه^(١٠).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته. قال: وما كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأى ربه؟ فقال: إني قد سألته فقال: «إني قد رأيته^(١١) نوراً أنى أراه»^(١٢).

هكذا قد وقع في رواية الإمام أحمد. وأخرجه مسلم في صحيحه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع، عن يزيد بن إبراهيم، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق، [عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: «إني نور أنى أراه».

وعن محمد بن بشار، عن معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق^(١٣) قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته. فقال^(١٤): عن أي شيء كنت تسأله؟ قال:

(٢) في ف، أ: «هذا موسى».

(٣) في ف، أ: «هذا عيسى».

(٤) زيادة من ت، ف، أ، والبخاري.

(٥) في ف: «الأنصاري».

(١) في ف: «فقلت».

(٢) في ت: «حية».

(٣) في ف: «جبال»، وفي أ: «جبال».

(٤) (٨) صحيح البخاري برقم (٣٤٩).

(٥) (٩) صحيح البخاري برقم (١٦٣٦)، (٣٣٤٢).

(٦) (١٠) صحيح مسلم برقم (١٦٣).

(٧) في ت، ف، أ: «رأيت».

(٨) (١٢) المسند (١٤٧/٥).

(٩) (١٣) زيادة من ت، ف، أ، ومسلم.

(١٠) (١٤) في ف: «قال».

كنت أسأله: هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألت فقال: «رأيت نوراً»^(١).

رواية أنس عن أبي بن كعب الأنصاري، رضى الله عنه :

قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا محمد بن إسحاق بن محمد بن المسيبي^(٢)، حدثنا أنس بن عياض، عن يونس بن يزيد قال: قال ابن شهاب: قال أنس بن مالك: كان أبي بن كعب يحدث: أن رسول الله ﷺ قال: «فرج سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدرى، ثم غسله من ماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغها»^(٣) فى صدرى ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فخرج بي إلى السماء. فلما جاء السماء [افتتح فقال: من هذا؟ قال: جبريل. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معى محمد. قال: أرسل إليه؟ قال: نعم، فافتح. فلما علونا السماء الدنيا]^(٤) إذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى قال: مرحباً بالنبى الصالح والابن الصالح». قال: «قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة»^(٥) عن يمينه وشماله نسمة بنيه، فأهل اليمين هم أهل الجنة، والأسودة التى عن شماله هم أهل النار. فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى». قال: «ثم عرج بي جبريل حتى أتى السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح. فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا ففتح له». قال أنس: فذكر أنه وجد فى السموات: آدم، وإدريس، وموسى، وعيسى، وإبراهيم، ولم يثبت لى كيف منازلهم؟ غير أنه ذكر أنه وجد آدم، عليه السلام، فى السماء الدنيا، وإبراهيم فى السماء السادسة. قال أنس: فلما مرّ جبريل عليه السلام، ورسول الله ﷺ بإدريس قال: «مرحباً بالنبى الصالح والأخ الصالح». قال: «قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا إدريس»، قال: «ثم مررت بموسى، فقال: مرحباً بالنبى الصالح والأخ الصالح. فقلت: من هذا؟ قال: هذا موسى، ثم مررت بعيسى فقال: مرحباً بالنبى الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا. قال: هذا عيسى ابن مريم» قال: «ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحباً بالنبى الصالح والابن الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم». قال ابن شهاب: وأخبرنى ابن حزم: أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان: قال رسول الله ﷺ: «ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع صريف الأقلام» قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «فرض الله على أمتى خمسين صلاة» قال: «فرجعت بذلك حتى أمر»^(٦) على موسى، فقال موسى: ماذا فرض ربك على أمتك؟ قلت: فرض عليهم خمسين صلاة. فقال لى موسى: راجع ربك؛ فإن أمتك لا تطيق ذلك» قال: «فرجعت ربى. فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك»^(٧) فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت»^(٨) فقال: هى خمس وهى خمسون، لا يبدل القول لى». قال: «فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك. فقلت»^(٩): قد استحيت من ربى» قال: «ثم انطلق بي حتى أتى سدرة المنتهى». قال: «فغشيها ألوان ما أدرى»^(١٠) ماهى؟ قال: «ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك». هكذا رواه عبد الله بن [الإمام]^(١١) أحمد فى مسند أبيه^(١٢). وليس هو فى شيء من الكتب

١٤ (١) صحيح مسلم برقم (١٧٨).

(٢) فى ف، أ: «بن محمد بن المثنى». (٣) فى ت: «ففرغهما».

(٤) زيادة من ف، أ، والمسند.

(٥) فى ت، ف: «الأسودة التى». (٦) فى ت، ف، أ: «حتى أتى».

(٧) فى ف: «راجع ربك». (٨) فى ف، أ: «فرجعت ربى».

(٩) فى ت: «قلت».

(١٠) زيادة من: ف، أ.

(١١) زوائد المسند (١٤٣/٥) وقال الهيثمى فى المجمع (٦٦/١): «رجال رجال الصحيح».

السته، وقد تقدم في الصحيحين من طريق يونس، عن الزهري^(١)، عن أبي ذر، مثل هذا السياق سواء، فالله أعلم^(٢).

رواية بريدة بن الحصيب الأسلمي :

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عبد الرحمن بن المتوكل ويعقوب بن إبراهيم - واللفظ له - قالوا: حدثنا أبو نُمَيْلَةَ، أخبرنا الزبير بن جنادة، عن عبد الله بن بُرَيْدَةَ، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: « لما كان ليلة أسرى به^(٣) قال: فأتى جبريل الصخرة التي بيت المقدس، فوضع إصبعه فيها فخرقها فشد بها البراق ».

ثم قال البزار: لا نعلم رواه عن الزبير بن جنادة إلا أبو نُمَيْلَةَ، ولا نعلم^(٤) هذا الحديث [يروى]^(٥) إلا عن بريدة. وقد رواه الترمذی فی التفسیر من جامعه، عن يعقوب بن إبراهيم الدورقي به^(٦) وقال: غريب .

رواية جابر بن عبد الله، رضى الله عنه^(٧):

قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن صالح، عن ابن شهاب قال: قال أبو سلمة: سمعت جابر بن عبد الله يحدث: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول^(٨): « لما كذبتني قريش حين أسرى بي إلى بيت المقدس، قمت في الحجر فجلى الله لى بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه ».

أخرجاه في الصحيحين من طرق، عن الزهري، به^(٩).

وقال البيهقي: أخبرنا أحمد بن الحسن^(١٠) القاضي، حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس ابن محمد الدوري، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبي، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: إن رسول الله ﷺ حين انتهى إلى بيت المقدس، لقي فيه إبراهيم وموسى وعيسى، وإنه أتى بقدرين: قدر من لبن وقدر خمر، فنظر إليهما، ثم أخذ قدر اللبن. فقال جبريل^(١١): أصبت، هديت للفطرة^(١٢)، لو اخترت الخمر لغوت أمتك. ثم رجع رسول الله ﷺ إلى مكة، فأخبر أنه أسرى به، فافتتن ناس كثير كانوا قد صلوا معه .

قال ابن شهاب: قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: فتجهز - أو كلمة نحوها - ناس من قريش إلى أبي بكر فقالوا: هل لك في صاحبك؟ يزعم أنه جاء إلى بيت المقدس ثم رجع إلى مكة في ليلة واحدة! فقال أبو بكر: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: فأشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: فتصدقه بأن يأتي الشام في ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إنني أصدقه بأبعد من ذلك^(١٣) أصدقه بخبر السماء . قال أبو سلمة: فيها سمي أبو بكر: الصديق .

(١) في ت، ف، أ: «عن الزهري عن أنس». (٢) في ت: «والله أعلم». (٣) في ف: «أسرى بي».

(٤) في ت: «يعلم». (٥) زيادة من أ.

(٦) سنن الترمذی برقم (٣١٣٢).

(٧) في ف، أ: «عنهما». (٨) في ت، ف، أ: «قال».

(٩) المسند (٣/٣٧٧)، وصحيح البخاري برقم (٤٧١٠) وصحيح مسلم برقم (١٧٠).

(١٠) في ت، ف: «الحسين». (١١) في ف، أ: «فقال له جبريل عليه السلام». (١٢) في ف: «الفطرة».

(١٣) في ت: «من هذا».

قال أبو سلمة: فسمعت جابر بن عبد الله يحدث أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « لما كذبتني قریش حين أسرى بى إلى بيت المقدس، قمت فى الحجر، فجلى الله لى بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه » (١).

رواية حذيفة بن اليمان، رضى الله عنه :

قال الإمام أحمد: ثنا أبو النضر، ثنا شيان، عن عاصم، عن زر بن حبیش قال: أتيت على حذيفة بن اليمان وهو يحدث عن ليلة أسرى بمحمد ﷺ، وهو يقول: « فانطلقنا » (٢) حتى أتينا (٣) بيت المقدس. فلم يدخله. قال: قلت: بل دخله رسول الله ﷺ ليلتذ صلى فيه. قال: ما اسمك يا أصلع؟ فإني أعرف وجهك ولا أدري ما اسمك؟ قال: قلت: أنا زر بن حبیش. قال: فما علمك بأن رسول الله ﷺ صلى فيه ليلتذ؟ قال: قلت: القرآن يخبرني بذلك. قال: من تكلم بالقرآن فلج (٤)، أقرأ. قال فقلت: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى» قال: يا أصلع، هل تجد «صلى فيه»؟ قلت: لا. قال: والله ما صلى فيه رسول الله ﷺ ليلتذ، ولو صلى فيه لكتب عليكم صلاة فيه، كما كتب عليكم صلاة فى البيت العتيق، والله ما زايلا البراق حتى فتحت لهما أبواب السماء، فرأيا الجنة والنار ووعد الآخرة أجمع، ثم عادا عودهما على بدثهما. قال: ثم ضحك حتى رأيت نواجذه. قال: وتحدثوا (٥) أنه ربطه لا يفر منه، وإنما سخره له عالم الغيب والشهادة. قلت: أبا عبد الله (٦)، أى دابة البراق؟ قال: دابة أبيض طويل هكذا، خطوه مد البصر.

ورواه أبو داود الطيالسى، عن حماد بن سلمة، عن عاصم، به. ورواه الترمذى والنسائى فى التفسير من حديث عاصم - وهو ابن أبى النجود - به (٧)، وقال الترمذى: حسن صحيح.

وهذا الذى قاله حذيفة، رضى الله عنه، نفى، وما أثبتته غيره عن رسول الله ﷺ من ربط الدابة بالحلقة ومن الصلاة بالبيت المقدس، مما سبق وما سيأتى مقدم على قوله، والله أعلم بالصواب.

رواية أبى سعيد - سعد بن مالك بن سنان الخدرى :

قال الحافظ أبو بكر البيهقى فى كتاب «دلائل النبوة»:

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أبو بكر يحيى بن أبى طالب، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، أخبرنا أبو محمد راشد الحماني، عن أبى هارون العبدى، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال له أصحابه: يا رسول الله، أخبرنا عن ليلة أسرى بك فيها، قال: قال الله عز وجل: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»،

(١) دلائل النبوة (٢/٣٥٩).

(٢) فى ت، ف، أ: «فلج».

(٣) فى ف: «أتينا».

(٤) فى ف: «فانطلقا».

(٥) فى ت: «ويحدثون» وفى ف، أ: «وتحدثون». (٦) فى ت: «يا عبد الله».

(٧) المسند (٥/٣٨٧)، ومسند الطيالسى برقم (٤١١)، وسنن الترمذى برقم (٣١٤٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٢٨٠).

قال: فأخبرهم فقال: «فينا أنا نائم عشاء في المسجد الحرام، إذ أتاني آت فأيقظني، فاستيقظت فلم أر شيئاً، وإذا أنا بكهية خيال، فأتبعت بصري حتى خرجت من المسجد^(١)، فإذا أنا بدابة أدنى في شبهه بدوابكم هذه، بغالكم هذه، مضطرب^(٢) الأذنين يقال له: البراق. وكانت الأنبياء تركبه قبلي، يقع حافره عند مدّ بصره، فركبته، فبينما أنا أسير عليه، إذ دعاني داع عن يميني: يا محمد، انظرني أسألك يا محمد، انظرني أسألك، فلم أجبه ولم أقم عليه، [فبينما أنا أسير عليه، إذ دعاني داع عن يساري: يا محمد انظرني أسألك، فلم أجبه ولم أقم عليه]^(٣)، فبينما أنا أسير، إذ أنا بامرأة حاسرة عن ذراعيها، وعليها من كل زينة خلقها الله، فقالت: يا محمد، انظرني أسألك. فلم ألتفت إليها ولم أقم عليها. حتى أتيت بيت المقدس، فأوثقت دابتي بالحلقة التي كانت الأنبياء توثقها بها. فأتاني^(٤) جبريل، عليه السلام، بإناءين: أحدهما خمر، والآخر لبن، فشربت اللبن، وتركت الخمر، فقال جبريل: أصبت الفطرة^(٥) فقلت: الله أكبر، الله أكبر. فقال جبريل: ما رأيت في وجهك هذا؟ قال: «فقلت: بينما أنا أسير، إذ دعاني داع عن يميني: يا محمد، انظرني أسألك. فلم أجبه ولم أقم عليه. قال: ذاك داعي اليهود، أما إنك لو أجبت - أو: وقفت عليه - لتهودت أمتك» قال^(٦): «فبينما أنا أسير، إذ دعاني داع عن يساري قال: يا محمد، انظرني أسألك. فلم ألتفت إليه ولم أقم عليه. قال: ذاك داعي النصارى، أما إنك لو أجبت لتنصرت أمتك». قال: «فبينما أنا أسير إذا أنا بامرأة حاسرة عن ذراعيها عليها من كل زينة خلقها الله تقول: يا محمد، انظرني أسألك. فلم أجبها ولم أقم عليها». قال: تلك الدنيا، أما إنك لو أجبتها أو أقمت عليها، لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة».

قال: «ثم دخلت أنا وجبريل بيت المقدس، فصلى كل واحد منا ركعتين.

ثم أتيت بالمعراج الذي تعرج^(٧) عليه أرواح بنى آدم^(٨)، فلم ير الخلائق أحسن من المعراج، أما رأيت الميت حين يشق بصره طامحاً إلى السماء، فإنما يشق بصره طامحاً إلى السماء عجبه بالمعراج». قال: «فصعدت أنا وجبريل، فإذا أنا بملك يقال له: إسماعيل. وهو صاحب السماء الدنيا وبين يديه سبعون ألف ملك، مع كل ملك جُنْدُه مائة ألف ملك». قال: «وقال الله [عز وجل]^(٩) ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدر: ٣١] فاستفتح^(١٠) جبريل باب السماء، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أوقد بعث إليه؟ قال: نعم. فإذا أنا بآدم كهيته يوم خلقه الله، عز وجل على صورته^(١١)، هو تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين، فيقول: روح طيبة، ونفس طيبة، اجعلوها في عليين، ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار فيقول: روح خبيثة، ونفس خبيثة، اجعلوها في سجين.

(٢) في ف، أ: «غير أنه مضطرب». (٣) زيادة من ف، أ، والدلائل.

(٥) في ف، أ: «أصبت الفطرة، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك».

(٧) في ت: «يعرج». (٨) في أ: «الأنبياء».

(١٠) في ف، أ: «قال: فاستفتح».

(١) في ت، ف، أ: «المسجد الحرام».

(٤) في ت: «أتاني»، وفي ف: «ثم أتاني».

(٦) في ف: «قلت».

(٩) زيادة من: ف، أ.

(١١) في أ: «على صورته لم يتغير منه شيء».

ثم مضيت هنية^(١)، فإذا أنا بأخونة عليها لحم مشرح ليس يقربها أحد، وإذا أنا بأخونة أخرى عليها لحم قد أروح وأنتن، عندها أناس يأكلون منها، قلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أمتك يتركون الحلال ويأتون^(٢) الحرام.

قال: «ثم مضيت هنية^(٣)، فإذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البيوت، كلما نهض أحدهم خرّ يقول: اللهم، لا تقم الساعة»، قال: «وهم على سابلة آل فرعون». قال: «فتجىء السابلة فتطوهم». قال: «فسمعتهم يضجون إلى الله عز وجل». قال: «قلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أمتك ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾» [البقرة: ٢٧٥].

قال: «ثم مضيت هنية^(٤)، فإذا أنا بأقوام مشافهم كمشافر الإبل». قال: «فتفتح على أفواههم ويلقمون من ذلك الجمر، ثم يخرج من أسافلهم. فسمعتهم يضجون إلى الله، عز وجل، فقلت^(٥): من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء من أمتك ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾» [النساء: ١٠].

قال: «ثم مضيت هنية، فإذا أنا بنساء يعلقن بثديهن^(٦) فسمعتهن يضجن إلى الله، عز وجل، قلت: يا جبريل، من هؤلاء النساء؟ قال: هؤلاء الزناة من أمتك».

قال: «ثم مضيت هنية^(٧) فإذا أنا بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم، فيلقمونه، فيقال له: كل كما كنت تأكل من لحم أخيك. قلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الهمازون من أمتك اللمازون». قال: «ثم صعدنا إلى السماء الثانية، فإذا أنا برجل أحسن ما خلق الله، عز وجل، قد فضل الناس في الحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب، قلت: يا جبريل، من هذا؟ قال: هذا أخوك يوسف ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه وسلم على».

ثم صعدت^(٨) إلى السماء الثالثة، فإذا أنا بيهي وعيسى، عليهما السلام، ومعهما نفر من قومهما، فسلمت عليهما وسلمما على.

ثم صعدت^(٩) إلى السماء الرابعة، فإذا أنا بإدريس قد رفعه الله مكاناً علياً، فسلمت عليه وسلم على.

قال: «ثم صعدت^(١٠) إلى السماء الخامسة، فإذا أنا^(١١) بهارون ونصف لحيته بيضاء ونصفها سوداء، تكاد لحيته تصيب سرتة من طولها، قلت: يا جبريل، من هذا؟ قال: هذا المحبب في قومه، هذا هارون بن عمران، ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه وسلم على».

ثم صعدت^(١٢) إلى السماء السادسة، فإذا أنا بموسى بن عمران، رجل آدم كثير الشعر، لو كان

(١) في ف، أ: «هنية».

(٢) في ف، أ: «ويأكلون».

(٣) في ف، أ: «هنية».

(٤) في ف، أ: «بأيديهن».

(٥) في ف، أ: «قلت».

(٦) في ف، أ: «بأيديهن».

(٧) في ف، أ: «هنية».

(٨) في ف، أ: «صعدنا».

(٩) في ف، أ: «صعدنا».

(١٠) في ف، أ: «صعدنا».

(١١) في ف، أ: «صعدنا».

(١٢) في ف، أ: «صعدنا».

عليه قميصان لنفذ شعره دون القميص، فإذا^(١) هو يقول: يزعم الناس أنى أكرم على الله من هذا، بل هذا أكرم على الله تعالى منى». قال: «قلت: يا جبريل، من هذا؟ قال: هذا أخوك موسى بن عمران، عليه السلام، ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه وسلم على.

ثم صعدت إلى السماء السابعة، فإذا أنا بأبينا إبراهيم^(٢) خليل الرحمن ساند ظهره إلى البيت المعمور كأحسن الرجال، قلت: يا جبريل، من هذا؟ قال: هذا أبوك^(٣) خليل الرحمن ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه وسلم على، وإذا [أنا]^(٤) بأمتي شطرين: شطر عليهم ثياب بيض كأنها القراطيس. وشطر عليهم ثياب رمّد. قال: «فدخلت البيت المعمور ودخل معي الذين عليهم الثياب البيض، وحجب الآخرون الذين عليهم ثياب رمّد، وهم على خير. فصليت أنا ومن معي في البيت المعمور، ثم خرجت أنا ومن معي». قال: «والبيت المعمور يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك، لا^(٥) يعودون فيه إلى يوم القيامة».

قال: «ثم دفعت لى سدرة المنتهى، فإذا كل ورقة منها تكاد أن تغطى هذه الأمة، وإذا فيها عين تجري يقال لها: سلسيل، فينشق منها نهران، أحدهما: الكوثر، والآخر: يقال له: نهر الرحمة. فاغتسلت فيه، فغفر لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر.

ثم إنى دفعت إلى الجنة، فاستقبلتنى جارية، فقلت: لمن أنت يا جارية؟ فقالت^(٦): لزيد بن حارثة، وإذا [أنا]^(٧) بأنهار من [ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من]^(٨) عسل مصفى، وإذا رمانها كأنه الدلاء عظماً، وإذا أنا بطيرها كأنها بخيتكم هذه». فقال عندها ﷺ: «إن الله تعالى قد أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

قال: «ثم عرضت على النار، فإذا فيها غضب الله وزجره ونقمته، لو طرح فيها الحجارة والحديد لأكلتها، ثم أغلقت^(٩) دونى.

ثم إنى دفعت^(١٠) إلى سدرة المنتهى، فتغشاني فكان بينى وبينه قاب قوسين أو أدنى». قال: «ونزل على كل ورقة ملك من الملائكة». قال: «وفرضت على خمسون^(١١) وقال: لك بكل حسنة عشر، إذا هممت بالحسنة فلم تعملها كتبت لك حسنة، فإذا عملتها كتبت لك عشرًا، وإذا هممت بالسيئة فلم تعملها لم يكتب عليك شيء، فإن^(١٢) عملتها كتبت عليك سيئة واحدة.

ثم دفعت إلى موسى فقال: بم أمرك ربك؟ قلت: بخمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، ومتى لا [تطبقه]^(١٣) تكفر^(١٤). فرجعت إلى ربي [عز وجل]^(١٥) فقلت: يارب، خفف عن أمتى، فإنها أضعف الأمم. فوضع عنى عشرًا، وجعلها

(٢) فى ت: « فإذا أنا بإبراهيم».

(١) فى ت، ف: « وإذا».

(٥) فى ت، ف، أ: « ثم لا».

(٤) زيادة من ف، أ، والدلائل.

(٣) فى ف، أ: «أبوك إبراهيم».

(٩) فى ف: « غلقت».

(٧، ٨) زيادة من ف، أ، والدلائل.

(٦) فى ف: « قالت».

(١٢) فى ف: « فإذا».

(١١) فى أ: «خمسون صلاة».

(١٠) فى ف: « رفعت».

(١٥) زيادة من ف، أ.

(١٤) فى ت: «يكفر».

(١٣) زيادة من ف، أ، والدلائل.

أربعين. فما زلت أختلف بين موسى وربي^(١) كلما أتيت عليه قال لى مثل مقالته، حتى رجعت إليه فقال لى: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بعشر صلوات. قال: ارجع إلى ربك [عز وجل]^(٢) فاسأله التخفيف لأمتك. فرجعت إلى ربي [سبحانه وتعالى]^(٣) فقلت: أى رب، خفف عن أمتى، فإنها أضعف الأمم. فوضع عني خمساً، وجعلها خمساً. فناداني ملك عندها: تمت فريضتى، وخففت عن عبادى، وأعطيتهم بكل حسنة عشر أمثالها.

ثم رجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: بخمس صلوات. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإنه لا يؤوده شيء، فاسأله التخفيف لأمتك^(٤). «فقلت^(٥): رجعت إلى ربي حتى استحييته» ثم أصبح بمكة يخبرهم بالأعاجيب: «إني أتيت البارحة بيت المقدس، وعرج بى إلى السماء، ورأيت كذا وكذا^(٦)». فقال أبو جهل - يعنى ابن هشام -: ألا تعجبون مما يقول محمد؟ يزعم أنه أتى البارحة بيت المقدس، ثم أصبح فينا. وأحدنا يضرب مطيته مصعدة شهراً، ومقفلة شهراً، فهذا مسيرة شهرين فى ليلة واحدة! قال: فأخبرهم بغير لقريش: «لما كنت^(٧) فى مصعدى رأيتها فى مكان كذا وكذا، وأنها نفرت، فلما رجعت رأيتها عند العقبة». وأخبرهم بكل رجل وبغيره كذا وكذا، ومتاعه كذا وكذا. فقال أبو جهل: يخبرنا^(٨) بأشياء. فقال رجل من المشركين: أنا أعلم الناس ببيت المقدس، وكيف بناؤه؟ وكيف هيئته؟ وكيف قربه من الجبل؟ [فإن يك محمد صادقاً فسأخبركم، وإن يك كاذباً فسأخبركم. فجاء ذلك المشرك فقال: يا محمد، أنا أعلم الناس ببيت المقدس، فأخبرنى كيف بناؤه؟ وكيف هيئته؟ وكيف قربه من الجبل]^(٩). قال: فرفع لرسول الله ﷺ بيت المقدس من مقعده، فنظر إليه كنظر أحدنا إلى بيته: بناؤه كذا وكذا، وهيئته كذا وكذا، وقربه من الجبل كذا وكذا. فقال الآخر: صدقت. فرجع إلى أصحابه فقال: صدق محمد فيما قال أو نحو هذا^(١٠) الكلام^(١١).

وكذا رواه الإمام أبو جعفر بن جرير بطوله، عن محمد بن عبد الأعلى، عن محمد بن ثور، عن معمر، عن أبي هارون العبدى، وعن الحسن بن يحيى، عن عبد الرزاق، عن معمر، عن أبي هارون العبدى، به. ورواه، أيضاً، من حديث محمد بن إسحاق: حدثنى روح بن القاسم، عن أبي هارون، به نحو سياقه المتقدم^(١٢).

ورواه ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن أحمد بن عتبة، عن أبى عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد، عن أبى هارون العبدى، عن أبى سعيد الخدرى، فذكره^(١٣) بسياق طويل حسن أنيق، أجود مما ساقه غيره، على غرابته وما فيه من النكارة.

(٣) زيادة من : ت.

(٢) زيادة من ف، أ.

(١) فى ف، أ: «بين موسى وبين ربي عز وجل».

(٥) فى ف، أ: «ورأيت كذا ورأيت كذا». (٦) فى ت، ف، أ: «كانت».

(٤) فى ف، أ: «قال: فقلت».

(٨) زيادة من ف، أ، والدلائل.

(٧) من ف، أ: «تخيرنا».

(٩) فى ت: «أو نحوه من هذا».

(١٠) دلائل النبوة (٢/ ٣٩٠).

(١١) تفسير الطبرى (١٥/ ١٠).

(١٢) فى ف، أ: «فذكر».

ثم ذكره^(١) البيهقي، أيضاً، من رواية نوح بن قيس الخُدّاني وهُشيم ومعمار، عن أبي هارون العبدى - واسمه عمارة بن جوين^(٢) وهو مضعف عند الأئمة^(٣).

ولما سقنا حديثه ههنا لما فى حديثه^(٤) من الشواهد لغيره، ولما رواه البيهقي:

أخبرنا [الإمام]^(٥) أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن^(٦)، أنبأنا أبو نعيم أحمد بن محمد بن إبراهيم البزاز، حدثنا أبو حامد^(٧) بن بلال، حدثنا أبو الأزهر، حدثنا يزيد بن أبى حكيم قال: رأيت فى النوم رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، رجل من أمتك يقال له: «سفيان الثورى» لا بأس به؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا بأس به»، حدثنا عن أبى هارون العبدى، عن أبى سعيد الخدرى، عنك^(٨) ليلة أسرى بك، قلت^(٩): «رأيت فى السماء» فحدثته بالحديث؟ فقال لى: «نعم». فقلت له: يا رسول الله، إن ناساً من أمتك يحدثون عنك فى السرى بعجائب؟ فقال لى: «ذلك»^(١٠) حديث القصاص^(١١).

رواية شداد بن أوس:

قال الإمام أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل الترمذى: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن العلاء بن الضحاك الزبيدى، حدثنا عمرو بن الحارث، عن عبد الله بن سالم^(١٢) الأشعرى، عن محمد بن الوليد بن عامر الزبيدى، حدثنا الوليد^(١٣) بن عبد الرحمن، عن جبير^(١٤) بن نفير: حدثنا^(١٥) شداد ابن أوس قال: قلنا: يا رسول الله، كيف أسرى بك؟ قال: «صليت لأصحابى صلاة العتمة بمكة معتماً». قال: «فأتانى جبريل، عليه السلام، بدابة أبيض - أو قال: بيضاء - فوق الحمار ودون البغل، فقال: اركب. فاستصعبت على، فرازها^(١٦) بأذنها، ثم حملنى عليها. فانطلقت تهوى بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها، حتى بلغنا أرضاً ذات نخل^(١٧) فأنزلى فقال: صل. فصليت، ثم ركبنا^(١٨) فقال: أتدرى أين صليت؟ قلت: الله أعلم. قال: صليت بيثرب صليت بطيبة. فانطلقت تهوى بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها. ثم بلغنا أرضاً فقال: انزل. [فنزلت]^(١٩) ثم قال: صل. فصليت، ثم ركبنا، فقال: أتدرى أين صليت؟ قلت: الله أعلم. قال: صليت بمدين، صليت عند شجرة موسى. ثم انطلقت تهوى بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها، ثم بلغنا أرضاً، بدت لنا قصور، فقال: انزل. فنزلت، فقال^(٢٠): صل فصليت ثم ركبنا فقال: أتدرى أين صليت؟ قلت: الله أعلم. قال: صليت بيت لحم حيث ولد عيسى المسيح ابن مريم. ثم انطلق بى حتى دخلنا المدينة من بابها اليمانى، فأتى قبلة المسجد، فربط فيه دابته، ودخلنا المسجد من باب فيه تميل الشمس والقمر، فصليت من المسجد حيث شاء الله، وأخذنى من العطش أشد ما أخذنى، فأتيت بإناءين^(٢١)، فى أحدهما لبن وفى الآخر

(٢) فى ت، أ: «جرين»، وفى ف: «جرير».

(١) فى ت، ف، أ: «ذكر».

(٣) دلائل النبوة (٣٩٦/٢).

(٤) فى أ: «سبابة».

(٥) زيادة من: ت، ف، أ.

(٦) فى ف، أ: «أبو عثمان على بن عبد الرحمن».

(٨) فى ف، أ: «عنك يا رسول الله». (٩) فى أ: «أنتك قلت».

(٧) فى ف: «حدثنا أحمد».

(١٠) فى ت، ف، أ: «ذاك».

(١١) دلائل النبوة (٤٠٥/٢).

(١٢) فى ت: «سلام».

(١٣) فى ت، ف «أبو الوليد».

(١٤) فى ت، ف: «أن جبير».

(١٥) فى ت: «نخيل».

(١٦) فى أ: «مزارها».

(١٧) زيادة من الدلائل.

(١٨) فى ف، أ: «ركبت».

(١٩) فى ت: «بإناءات».

قال: «هذا عاقر الناقة»، قال: فلما أتى رسول الله ﷺ المسجد الأقصى قام يصلى، [فالتفت ثم التفت] (١) فإذا النبيون أجمعون يصلون معه. فلما انصرف جرى بقدحين، أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال، فى أحدهما لبن وفى الآخر عسل، فأخذ اللبن فشرب منه، فقال الذى كان معه القدح: أصبت الفطرة. إسناده صحيح ولم يخرجوه (٢).

طريق أخرى:

قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ثابت أبو زيد، حدثنا هلال، حدثني عكرمة، عن ابن عباس قال: أسرى بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس، ثم جاء من ليلته فحدثهم بمسيره وبعلامة بيت المقدس وبغيرهم، فقال ناس: نحن لا نصدق محمداً بما يقول! فارتدوا كفاراً، فضرب الله رقابهم مع أبى جهل (٣) وقال أبو جهل (٤): يخوفنا محمد بشجرة الزقوم، هاتوا تمراً وزبدا فتزقموا، ورأى الدجال فى صورته رؤيا عين ليس برؤيا منام، وعيسى وموسى وإبراهيم. فسئل النبي ﷺ عن الدجال فقال: «رأيت فى ليل منى أقمراً هجاناً، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب درى، كأن شعر رأسه أغصان شجرة. ورأيت عيسى أبيض، جعد الرأس، حديد البصر، مبطن الخلق. ورأيت موسى أسحم آدم، كثير الشعر، شديد الخلق. ونظرت إلى إبراهيم فلم أنظر إلى إرب منه إلا نظرت إليه منى، حتى كأنه صاحبكم. قال جبريل: سلم على مالك فسلمت عليه».

ورواه النسائي من حديث أبى زيد ثابت بن يزيد (٥) عن هلال - وهو ابن خباب - به، وهو (٦) إسناده صحيح.

طريق أخرى:

وقال البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو بكر الشافعى، أنبأنا إسحاق بن الحسن، حدثنا الحسين بن محمد، حدثنا شيبان، عن قتادة، عن أبى العالية قال: حدثنا ابن عم نبيكم ﷺ ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسرى بى موسى بن عمران، رجلاً طوالاً جعداً، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس». وأرى مالكا خازن جهنم والدجال، فى آيات أراهن الله إياه، قال: ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ﴾ [السجدة: ٢٣] فكان قتادة يفسرها: أن نبي الله ﷺ (٧) قد لقي موسى [عليه السلام] (٨) ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال: جعل الله موسى هدى لبني إسرائيل (٩).

رواه مسلم فى الصحيح عن عبد بن حميد، عن يونس بن محمد، عن شيبان (١٠). وأخرجه من حديث شعبة عن قتادة مختصراً (١١).

(١) زيادة من المسند مستفاد من هامش ط. الشعب.

(٢) المسند (٢٥٧/١) وفيه قابوس بن أبى ظبيان وقد تكلم فيه خاصة روايته عن أبيه، وقال ابن عدى: «أحاديثه متقاربة، وأرجو أنه لا بأس» فمثل حديثه أقرب درجاته التحسين.

(٣) فى ف، أ: «أبى جهل قبهم الله». (٤) فى ف، أ: «أبو جهل قبهم الله». (٥) فى ت، ف: «أبى يزيد ثابت بن زيد».

(٦) المسند (٣٧٤/١) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٤٨٤).

(٧) زيادة من ت، أ.

(٨) زيادة من أ.

(٩) دلائل النبوة (٣٨٦/٢).

(١٠) صحيح مسلم برقم (١٦٥).

(١١) صحيح البخارى برقم (٣٢٣٩) وصحيح مسلم برقم (١٦٥).

طريق أخرى:

قال [البیهقی]: أخبرنا علی بن أحمد بن عبدان، أنبأنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا دُبَيْسُ المُدَدَّل، حدثنا عفان قال: حدثنا^(١) حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أسرى بى، مرت بى رائحة طيبة، فقلت: ماهذه الرائحة؟ قالوا: ماشطة بنت فرعون وأولادها، سقط مُشْطُهَا من يدها فقالت: باسم الله: فقالت ابنة فرعون: أبى؟ قالت: ربى وربك ورب أبىك. قالت: أو لك رب غير أبى؟ قالت: نعم، ربى وربك ورب أبىك الله». قال: «فدعاها فقال: ألك رب غيرى؟ قالت: نعم، ربى وربك الله، عز وجل». قال: «فأمر بنقرة^(٢) من نحاس فأحميت، ثم أمر بها لتلقى فيها، قالت: إن لى [إليك]^(٣) حاجة. قال: ماهى؟ قالت: تجمع عظامى وعظام ولدى فى موضع، قال^(٤): ذاك لك، لما لك علينا من الحق»، قال: «فأمر بهم فآلقوا واحداً واحداً، حتى بلغ رضيعاً فيهم، فقال: يا أمه، قعى ولا تقاعسى، فإنك^(٥) على الحق». قال: «وتكلم أربعة وهم صغار: هذا، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم، عليه السلام»^(٦).

إسناد لا بأس به، ولم يخرجوه.

طريق أخرى:

وقال الإمام أحمد [أيضاً]^(٧): حدثنا محمد بن جعفر وروح المعنى^(٨) قالوا: حدثنا عوف، عن زُرَّارة بن أوفى، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كان ليلة أسرى بى وأصبحت بمكة، فظعت [بأمرى]^(٩) وعرفت أن الناس مكذبى» فقعد^(١٠) معتزلاً حزناً، فمرّ به عدو الله أبو جهل^(١١) فجاء حتى جلس إليه، فقال له كالمستهزئ: هل كان من شىء؟ فقال له رسول الله ﷺ: «نعم» قال: وماهو؟ قال «إنى أسرى بى الليلة»: قال إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس» قال ثم أصبحت بين ظهرائنا؟! قال: «نعم». قال: فلم يره أنه يكذبه مخافة أن يجحده الحديث إن دعا قومه إليه، فقال: أرايت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتنى؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم». قال: هيا^(١٢) معشر بنى كعب بن لؤى، قال: فانتفضت^(١٣) إليه المجالس وجأوا حتى جلسوا إليهما. قال: حدث قومك بما حدثتنى. فقال رسول الله ﷺ: «إنى أسرى بى الليلة». فقالوا: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس» قالوا: ثم أصبحت بين ظهرائنا؟ قال: «نعم». قال: فمن بين مصفق، ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً للكذب - زعم - قالوا: وتستطيع أن تنعت [لنا]^(١٤) المسجد - وفى القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد - قال^(١٥) رسول الله ﷺ: «فذهبت أنعت، فما زلت أنعت حتى التيس على بعض النعت» قال: «فجىء بالمسجد وأنا أنظر إليه، حتى وضع دون دار عقيل - أو عقال - فنعتته

(١) زيادة من ف، أ، والدلائل.

(٢) فى ت، ف، أ: «بقرة».

(٣) زيادة من، أ، والدلائل.

(٤) فى ف: «فأنا».

(٥) فى ف: «فأنا».

(٦) دلائل النبوة (٣٨٩/٢) ورواه البزار فى مسنده برقم (٥٤) «كشف الأستار» من طريق عفان به وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط.

(٧) زيادة من ف، أ.

(٨) فى ف، أ: «وروح بن المعين».

(٩) زيادة من ت، ف، أ، والمسنند.

(١٠) فى ت ف: «فعدت»، وفى أ: «فعدت».

(١١) فى ف، أ: «أبو جهل قبحه الله».

(١٢) فى ف، أ: «فيا».

(١٣) زيادة من ت، ف، أ، والمسنند.

(١٤) فى ف: «فقال».

وأنا أنظر إليه». قال: وكان مع هذا نعت لم أحفظه - يقول عوف - قال: فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب .

وأخرجه^(١) النسائي من حديث عوف بن أبي جميلة - وهو الأعرابي، به. ورواه البيهقي من حديث النضر بن شميل وهوذة، عن عوف وهو ابن أبي جميلة الأعرابي، أحد الأئمة الثقات، به^(٢).
رواية عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه:

قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب، حدثنا السري بن خزيمة، حدثنا يوسف بن بهلول، حدثنا عبد الله بن نمير، عن مالك بن مغول، عن الزبير بن عدى، عن طلحة بن مصرف، عن مرة الهمداني، عن عبد الله بن مسعود قال: لما أسرى برسول الله ﷺ، فانتهى إلى سدره المنتهى، وهى فى السماء السادسة، وإليها ينتهى ما يصعد به حتى يقبض منها، وإليها ينتهى ما يهبط [به]^(٣) من فوقها حتى يقبض [منها]^(٤)، «إِذْ يَغْشَى السَّدْرَةَ مَا يَغْشَى» [النجم: ١٦] قال: غشيها فراش من ذهب، وأعطى رسول الله ﷺ^(٥) الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله^(٦) المقحّمات، يعنى الكبائر .

ورواه مسلم فى صحيحه، عن محمد بن عبد الله بن نمير وزهير بن حرب، كلاهما عن عبد الله ابن نمير، به^(٧). ثم قال البيهقي: « وهذا الذى ذكره عبد الله بن مسعود طرف من حديث المعراج ، وقد رواه أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة، عن النبى ﷺ، ثم عن أبى ذر، عن النبى ﷺ، ثم رواه مرة مرسلًا دون ذكرهما »^(٨)، ثم إن البيهقي ساق الأحاديث الثلاثة كما تقدّم .

قلت: وقد روى عن ابن مسعود بأبسط من هذا، وفيه غرابة، وذلك فيما رواه «الحسن بن عرفة» فى جزئه المشهور. حدثنا مروان بن معاوية، عن قنان بن عبد الله النهمي^(٩)، حدثنا أبو ظبيان الجنبى قال: كنا جلوساً عند أبى عبيدة بن عبد الله - يعنى ابن مسعود - ومحمد بن سعد بن أبى وقاص، وهما، جالسان، فقال محمد بن سعد لأبى عبيدة: حدثنا عن أبيك ليلة أسرى بمحمد ﷺ. فقال أبو عبيدة: لا، بل حدثنا أنت عن أبيك. فقال محمد: لو سألتنى قبل أن أسألك لفعلت! قال: فأنشأ أبو عبيدة يحدث يعنى عن أبيه كما سئل قال: قال رسول الله ﷺ: «أتانى جبريل بدابة فوق الحمار ودون البغل، فحملنى عليه، ثم انطلق يهوى بنا كلما صعد عقبة استوت رجلاه كذلك مع يديه، وإذا هبط استوت يداه مع رجله، حتى مررنا برجل طوال سبط آدم، كأنه من رجال أزد شنوءة، وهو يقول - فيرفع^(١٠) صوته يقول - أكرمته وفضلته». قال: « فدفعنا إليه فسلمنا عليه فرد السلام، فقال: من هذا معك يا جبريل ؟ قال: هذا أحمد^(١١)، قال: مرحباً بالنبى الأمى العربى، الذى بلغ رسالة ربه، ونصح لأئمة». قال: « ثم اندفعنا فقلت: من هذا يا جبريل ؟ قال: هذا موسى بن عمران ». قال:

(١) فى ت: « أخرجه ».

(٢) المسند (١/ ٣٠٩) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٢٨٥) ودلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٣٦٣).

(٣، ٤) زيادة من، ف، أ، والدلائل. (٥) فى ت: « ﷺ تسليمًا ». (٦) فى ت: « بالله من أمى »، وفى ف: « بالله شيئًا ».

(٧) دلائل النبوة (٢/ ٣٧٢) وصحيح مسلم برقم (١٧٣).

(٨) دلائل النبوة (٢/ ٣٧٣).

(٩) فى ت، ف، أ: « التيمى ». (١٠) فى ف: « فرفع ». (١١) فى ت: « محمد ».

«قلت: ومن يعاتب؟ قال: يعاتب ربه فيك! قلت: فيرفع صوته على ربه؟! قال: إن الله عز وجل»^(١) «قد عرف له حديثه». قال: «ثم اندفعنا حتى مررنا بشجرة كأن ثمرها السُّرُج تحتها شيخ وعياله». قال: «فقال لى جبريل: اعمد إلى أبيك إبراهيم. فدفعنا إليه فسلمنا عليه فرد السلام، فقال إبراهيم: من هذا معك يا جبريل؟ قال: هذا ابنك أحمد». قال: «فقال: مرحباً بالنبى الأمى الذى بلغ رسالة ربه ونصح لأمته، يا بنى، إنك لاق ربك الليلة، وإن أمتك آخر الأمم وأضعفها، فإن استطعت أن تكون حاجتك أو جلها فى أمتك فافعل». قال: «ثم اندفعنا حتى انتهينا إلى المسجد الأقصى، فنزلت فربطت الدابة بالحلقة التى فى باب المسجد التى كانت الأنبياء تربط بها. ثم دخلت المسجد فعرفت النبيين من بين رакع وقائم وساجد». قال: «ثم أتيت بكأسين من عسل ولبن فأخذت اللبن فشربت فضرب جبريل عليه السلام، منكبى وقال: أصبت الفطرة ورب محمد». قال: «ثم أقيمت الصلاة فأتممتهم، ثم انصرفنا فأقبلنا»^(٢).

إسناد غريب ولم يخرجوه، فيه من الغرائب^(٣): سؤال الأنبياء عنه عليه السلام ابتداء، ثم سؤاله عنهم^(٤) بعد انصرافه. والمشهور فى الصحاح كما تقدم: أن جبريل [عليه السلام]^(٥) كان يعلمهم بهم أولاً ليسلم عليهم سلام معرفة. وفيه^(٦) أنه اجتمع بالأنبياء عليهم^(٧) السلام قبل دخوله المسجد^(٨)، والصحيح أنه إنما اجتمع بهم فى السموات، ثم نزل إلى بيت المقدس ثانياً وهم معه، وصلى بهم فيه، ثم إنه ركب البراق وكر راجعاً إلى مكة، والله أعلم. طريق أخرى:

قال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْمٌ، أخبرنا العوام، عن جبلة بن سُهَيْمٍ، عن مؤثر^(٩) بن عفارة، عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال: «لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى، فتذاكروا أمر الساعة» قال: «فردوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام»^(١٠) فقال: لا علم لى بها. فردوا أمرهم إلى موسى. فقال: لا علم لى بها فردوا أمرهم إلى عيسى فقال: أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله عز وجل، وفيما عهد إلى ربى أن الدجال خارج». قال: «ومعى قضيبان، فإذا رأتى ذاب كما يذوب الرصاص». قال: «فيهلكه الله إذا رأتى، حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم، إن تحتى كافراً، فتعال فاقتله». قال: «فيهلكهم الله، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم»^(١١). قال: «فبعد»^(١٢) ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حذب ينسلون فيطؤون بلادهم، فلا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه» قال: «ثم يرجع الناس إلى فيسكونهم. فادعوا الله عليهم، فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم - أى: تنتن» قال: «فينزل الله المطر، فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم فى البحر. ففيما عهد إلى ربى: أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتئم، لا يدرى أهلها متى تفجؤهم بولادها، ليلاً أو نهاراً».

وأخرجه ابن ماجه، عن بُنْدَارٍ، عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب^(١٣).

(١) زيادة من: ف، أ.

(٢) جزء الحسن بن عرفة برقم (٦٩).

(٣) فى ت، ف: «من الغرابة».

(٤) فى ف: «وقيل».

(٥) فى ت، ف: «مرئد».

(٦) فى ت: «فبعد».

(١٣) المسند (١/٣٧٥)، وسنن ابن ماجة برقم (٤٠٨١) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/٢٦١): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، مؤثر ابن عفارة ذكره ابن حبان فى الثقات، وباقي رجال الإسناد ثقات».

(٥) زيادة من ف، أ.

(٨) فى ف، أ: «المسجد الأقصى».

(١١) فى ت: «وأقطنهم».

(٤) فى ت: «ثم سؤالهم له».

(٧) فى ت: «عليه».

(١٠) فى ت: «عليه الصلاة والسلام».

رواية عبد الرحمن بن قرط، أخى عبد الله بن قرط الثمالى:

قال سعيد بن منصور: حدثنا مسكين بن ميمون - مؤذن^(١) مسجد الرملة - حدثنى عروة بن رُوَيْم، عن عبد الرحمن بن قُرط، أن رسول الله ﷺ ليلة أُسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان بين زمزم^(٢) والمقام، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فطارا به حتى بلغ السموات العلى، فلما رجع قال: «سمعت تسبيحاً فى السموات العلى مع تسبيح كثير^(٣)، سبحت السموات العلى من ذى المهابة مشفقات من ذى العلو بما علا، سبحان العلى الأعلى، سبحانه وتعالى»^(٤).
ويذكر هذا الحديث عند قوله تعالى من هذه السورة: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ﴾ الآية [الإسراء: ٤٤].

رواية عمر بن الخطاب، رضى الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا حماد بن سلمة، عن أبى سنان، عن عبيد بن آدم وأبى مريم وأبى شعيب؛ أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، كان بالجابية، فذكر فتح بيت المقدس قال: قال أبو سلمة: فحدثنى أبو سنان، عن عبيد بن آدم قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لكعب: أين ترى أن أصلى؟ قال^(٥): إن أخذت عنى صليت خلف الصخرة، فكانت القدس كلها بين يديك، فقال عمر، رضى الله عنه: ضاهيت اليهودية، [لا]^(٦) ولكن أصلى حيث صلى رسول الله ﷺ فتقدم إلى القبلة، فصلى ثم جاء فبسط رداءه وكنس الكناسة فى رداءه، وكنس الناس^(٧).

فلم يعظم الصخرة تعظيماً يصلى وراءها وهى بين يديه، كما أشار كعب الأحبار وهو من قوم يعظمونها حتى جعلوها قبلتهم. ولكن من الله عليه بالإسلام، فهدى إلى الحق؛ ولهذا لما أشار بذلك قال له أمير المؤمنين: ضاهيت اليهودية، ولا أهانها إهانة النصارى الذين كانوا قد جعلوها مزبلة من أجل أنها قبلة اليهود، ولكن أماط الأذى، وكنس عنها الكناس بردائه. وهذا شبيه بما جاء فى صحيح مسلم عن أبى مرثد الغنوى قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها»^(٨).

رواية أبى هريرة، رضى الله عنه:

وهى مطولة جداً، وفيها غرابة. قال الإمام أبو جعفر بن جرير فى تفسير «سورة سبحان»: حدثنا على بن سهل، حدثنا حجاج، حدثنا أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية الرياحى، عن أبى هريرة أو غيره - شك أبو جعفر - فى قول الله عز وجل: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ قال: جاء جبريل [إلى النبى ﷺ] ومعه ميكائيل، فقال جبريل^(٩) لميكائيل: اثنى بطسّت من ماء زمزم، كيما أطهر قلبه وأشرح له صدره. قال: فشق عنه بطنه، فغسله ثلاث مرات. واختلف إليه

(١) فى ت، أ: «مؤدب». (٢) فى ت، ف: «من بين زمزم». (٣) فى ت: «كبير».

(٤) سيأتى من رواية الطبرانى من طريق سعيد بن منصور، وانظر تخريجه هناك عند الآية: ٤٤ من هذه السورة.

(٥) فى ف: «فقال». (٦) زيادة من ت، ف، والمسنند.

(٧) المسند (٣٨/١).

(٨) صحيح مسلم برقم (٩٧٢).

(٩) زيادة من ت، ف، أ، والطبرى.

ميكائيل بثلاث طساس من ماء زمزم، فشرح صدره ونزع ما كان فيه من غل، وملأه حلماً وعلماً، وإيماناً و يقيناً وإسلاماً، وختم بين كتفيه بخاتم النبوة.

ثم أتاه بفرس فحمل^(١) عليه، كل خطوة منه تنتهي بصره - أو: أقصى بصره - قال: فسار وسار معه جبريل عليهما^(٢) السلام قال: فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال النبي ﷺ^(٣): « يا جبريل، ما هذا ؟ » قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله، تضاعف لهم الحسنة بسبعمئة ضعف، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه، وهو خير الرازقين.

ثم أتى على قوم تُرضخ رؤوسهم بالصخر، كلما رُضخت عادت كما كانت، ولا يفتر عنهم من ذلك شيء، فقال: « ما هؤلاء يا جبريل ؟ » قال: هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة.

ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أديبارهم رقاع، يسرحون كما تسرح الإبل والنعم، ويأكلون الضريع والزقوم ورفض جهنم وحجارتها، قال^(٤): « ما هؤلاء يا جبريل ؟ » قال: هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم، وما ظلمهم الله شيئاً وما الله بظلام للعبيد.

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج في قدر^(٥) ولحم آخر نئى في قدر خبيث، فجعلوا يأكلون من النئى الخبيث ويدعون النضيج الطيب، فقال: « ما هؤلاء يا جبريل ؟ » فقال: هذا الرجل من أمتك، تكون عنده المرأة الحلال الطيبة، فيأتى امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح، [والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً، فتأتى رجلاً خبيثاً فتبيت معه حتى تصبح]^(٦).

قال: ثم أتى على خشبة على الطريق، لا يمر بها ثوب إلا شقته، ولا شيء إلا خرقتة، قال: « ما هذا يا جبريل ؟ » قال: هذا مثل أقوام من أمتك، يقعدون على الطريق يقطعونه^(٧)، ثم تلا ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ [وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ] ﴾^(٨) [الأعراف: ٨٦].

قال: ثم أتى على رجل قد جمع^(٩) حزمة [حطب]^(١٠) عظيمة لا يستطيع حملها، وهو يزيد عليها، فقال: « ما هذا يا جبريل ؟ » فقال^(١١): هذا الرجل من أمتك يكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها.

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت، لا يفتر عنهم من ذلك شيء، قال: « ما هؤلاء يا جبريل ؟ » قال: هؤلاء خطباء الفتنة.

ثم أتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم، فجعل الثور يريد أن يرجع من [حيث]^(١٢) خرج، فلا يستطيع، فقال: « ما هذا يا جبريل ؟ » فقال: هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة، ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردّها.

ثم أتى على واد فوجد ريحاً طيبة باردة، وريح مسك، وسمع صوتاً، فقال: « يا جبريل، ما هذه^(١٣) الريح الطيبة الباردة؟ وما هذا المسك؟ وما هذا الصوت؟ » قال: هذا صوت الجنة، تقول: يارب آتني ما وعدتني، فقد كثرت غرفى، وإستبرقى وحريرى وسندسى، وعبقري ولؤلؤى ومرجانى، وفضتى

(١) فى ف، أ: « فحمله ». (٢) فى ت، ف، أ: « عليه ». (٣) فى ف: « فقال رسول الله ». (٤) فى ف: « فقال ». (٥) فى ت، ف: « قدور ». (٦) زيادة من ت، ف، أ، والطبرى. (٧) فى ت، ف: « فيقطعونه ». (٨) زيادة من ف، أ. (٩) فى ت: « حمل ». (١٠) زيادة من ت، ف، أ، والطبرى. (١١) فى ف: « قال ». (١٢) فى ت، هـ: « موضع » والمثبت من الطبرى. (١٣) فى ت، ف، أ: « ما هذا ».

وذهبى وأكوابى وصحافى، وأباريقى ومراكبى، وعسلى ومائى، وخمرى ولبنى فأتنى ما^(١) وعدتنى . فقال: لك كل مسلم ومسلمة، ومؤمن ومؤمنة، ومن آمن بى وبرسلى وعمل صالحاً ولم يشرك بى، ولم يتخذ من دونى أنداداً ، ومن خشينى فهو آمن ، ومن سألتنى أعطيته، ومن أقرضنى جزيته، ومن توكل على كفيته، إنى أنا الله لا إله إلا أنا، لا أخلف الميعاد، وقد أفلح المؤمنون، وتبارك الله أحسن الخالقين، قالت: قد رضيت .

قال: « ثم أتى على واد فسمع صوتاً منكراً، ووجد ريحاً متنتة، فقال: « ما هذه^(٢) الريح يا جبريل؟ وما هذا الصوت؟ » فقال: هذا صوت جهنم تقول: يارب آتنى ما وعدتنى، فقد كثرت سلاسلى وأغلالى، وسعيرى وحميمى، وضريعى، وغساقى وعذابى، وقد بعد قعرى، واشتد حرى، فأتنى كل ما وعدتنى، فقال: لك كل مشرك ومشركة، وكافر وكافرة، وكل خبيث وخبيثة، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب . قالت: قد رضيت .

قال: ثم سار حتى أتى بيت المقدس، فنزل فربط فرسه إلى صخرة، ثم دخل فصلى مع الملائكة، فلما قضيت الصلاة قالوا: يا جبريل، من هذا معك؟ قال: محمد ﷺ . قالوا: أو قد أرسل محمد؟ قال: نعم . قالوا: حياه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء .

قال: ثم لقى أرواح الأنبياء، فأتنوا على ربهم، فقال إبراهيم: الحمد لله الذى اتخذنى خليلاً، وأعطانى ملكاً عظيماً، وجعلنى أمة قانتاً يؤتم بى، وأنقذنى من النار، وجعلها على برداً وسلاماً . ثم^(٣) إن موسى، عليه السلام^(٤)، أثنى على ربه، عز وجل، فقال: الحمد لله الذى كلمنى تكليماً، وجعل هلاك آل فرعون ونجاة بنى إسرائيل على يدى، وجعل من أمتى قوماً يهدون بالحق وبه يعدلون . ثم إن داود، عليه السلام^(٥)، أثنى على ربه [عز وجل]^(٦) فقال: الحمد لله الذى جعل لى ملكاً عظيماً، وعلمنى الزبور، وألان لى الحديد، وسخر لى الجبال يسبحن والطير، وأعطانى الحكمة وفصل الخطاب . ثم إن سليمان، عليه السلام، أثنى على ربه [عز وجل]^(٧) فقال: الحمد لله الذى سخر لى الرياح، وسخر لى الشياطين يعملون لى ماشئت من محاريب وتماثيل، وجفان كالجواب وقدور راسيات، وعلمنى منطق الطير، وآتانى من كل شىء فضلاً، وسخر لى جنود الشياطين والإنس والطير، وفضلنى على كثير من عباده المؤمنين ، وآتانى ملكاً عظيماً لا ينبغى لأحد من بعدى، وجعل ملكى ملكاً طيباً ليس فيه حساب . ثم إن عيسى، عليه السلام، أثنى على ربه، عز وجل، فقال: الحمد لله الذى جعلنى كلمته، وجعل مثلى مثل آدم، خلقه من تراب ثم قال له: «كن» فيكون ، وعلمنى الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وجعلنى أخلق من الطين كهيئة الطير، فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وجعلنى أبرئ الأكمه والأبرص وأحى الموتى بإذنه^(٨)، ورفعنى وطهرنى، وأعاذنى وأمى من الشيطان الرجيم، فلم يكن للشيطان علينا سبيل . قال: ثم إن محمد^(٩) ﷺ أثنى على ربه، عز وجل، فقال: « فكلكم أثنى على ربه، وإنى مثن على ربى [عز وجل]^(١٠) » فقال: الحمد لله الذى أرسلنى رحمة للعالمين، وكافة للناس بشيراً ونذيراً، وأنزل على الفرقان^(١١) فيه بيان لكل شىء، وجعل

(١) فى ت: «بما» .

(٢) فى أ: «ما هذا» .

(٣) فى ف، أ: «قال: ثم» .

(٤) فى ت: «عليه الصلاة والسلام» .

(٥) فى ف، أ: « بإذن الله» .

(٦) (٧) زيادة من أ .

(٧) فى ت، ف: « القرآن» .

(٨) (١٠) زيادة من ف، أ .

(٩) فى أ: «محمد رسول الله» .

أمتى خير أمة أخرجت للناس، وجعل أمتى أمة وسطاً، وجعل أمتى هم الأولين وهم الآخرين، وشرح لى صدرى، ووضع عنى وزرى، ورفع لى ذكرى، وجعلنى فاتحاً وخاتماً « فقال إبراهيم [عليه السلام] ^(١): بهذا فضلكم محمد ﷺ .

قال أبو جعفر الرازى: خاتم النبوة، فاتح بالشفاعة يوم القيامة.

ثم أتى بآية ثلاثة مغطاة أفواهها، فأتى بإناء منها فيه ماء فقيل: اشرب. فشرب منه يسيراً، ثم دفع إليه إناء آخر فيه لبن، فقيل له: اشرب، فشرب منه حتى روى. ثم دفع إليه إناء آخر فيه خمر فقيل له: اشرب فقال: «لا أريده قد رويت». فقال له جبريل [عليه السلام] ^(٢): أما إنها ستحرم على أمتك، ولو شربت منها لم يتبعك من أمتك إلا قليل.

قال: ثم صعد به إلى السماء فاستفتح، فقيل: من هذا يا جبريل؟ فقال: محمد، قالوا: أوقد أرسل؟ قال: نعم. قالوا: حياه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. فدخل فإذا هو برجل تام الخلق ^(٣) لم ينقص من خلقه شيء كما ينقص من خلق الناس، عن ^(٤) يمينه باب يخرج منه ريح طيبة، وعن شماله باب يخرج منه ريح خبيثة، إذا نظر إلى الباب الذى عن يمينه ضحك واستبشر، وإذا نظر إلى الباب الذى عن يساره بكى وحزن، فقلت: «يا جبريل، من هذا الشيخ التام الخلق الذى لم ينقص من خلقه شيء؟ وما هذان البابان؟» فقال: هذا أبوك آدم [عليه السلام] ^(٥)، وهذا الباب الذى عن يمينه باب الجنة، إذا نظر إلى من يدخل ^(٦) من ذريته ضحك واستبشر، والباب الذى عن شماله باب جهنم، إذا نظر إلى من يدخله من ذريته بكى وحزن.

ثم صعد به جبريل إلى السماء الثانية فاستفتح، فقيل: من هذا معك؟ فقال: محمد رسول الله. قالوا: أو قد أرسل محمد؟ قال: نعم. قالوا: حياه الله من أخ ومن خليفة، فلنعم الأخ ولنعم الخليفة ونعم المجيء جاء. قال: فدخل فإذا هو بشابين فقال: «يا جبريل، من هذان الشابان؟» قال: هذا عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا، ابنا الخالة عليهما السلام.

قال: فصعد به إلى السماء الثالثة فاستفتح، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أرسل؟ قال: نعم. قالوا: حياه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. قال: فدخل فإذا هو برجل قد فضل على الناس فى الحسن، كما فضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، قال: «من هذا يا جبريل الذى قد فضل على الناس فى الحسن؟» قال: هذا أخوك يوسف، عليه السلام ^(٧).

قال: ثم صعد به إلى السماء ^(٨) الرابعة فاستفتح، فقالوا ^(٩): من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أرسل؟ ^(١٠) قال: نعم. قالوا: حياه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. قال: فدخل، فإذا هو برجل، قال: «من هذا يا جبريل؟» قال: هذا إدريس، رفعه الله [تعالى] ^(١١) مكاناً علياً.

(٤) فى ف: «على».

(٣) فى ف: «تام الخلقة».

(١، ٢) زيادة من ف، أ.

(٧) فى ت: «عليه الصلاة والسلام».

(٦) فى ت، ف: «يدخله».

(٥) زيادة من أ.

(١٠) فى ف، أ: «أرسل إليه».

(٩) فى ف: «فقيل».

(٨) فى ف: «ثم صعدت إلى السماء».

(١١) زيادة من ت.

ثم صعد به إلى السماء الخامسة فاستفتح، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أرسل^(١) إليه؟ قال: نعم. قالوا: حياه^(٢) الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. ثم دخل فإذا هو برجل جالس وحوله قوم يقص عليهم، قال: «من هذا يا جبريل؟ ومن هؤلاء حوله؟» قال: هذا هارون المحبب [فى قومه]^(٣) وهؤلاء بنو إسرائيل.

ثم صعد به إلى السماء السادسة فاستفتح، قيل: ^(٤) من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد، قالوا: أو قد أرسل^(٥)؟ قال: نعم. قالوا: حياه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء^(٦). فإذا هو برجل جالس، فجأوزه فبكى الرجل، فقال: «يا جبريل، من هذا؟» قال: موسى، قال: «فما باله^(٧) يبكى؟» قال: زعم^(٨) بنو إسرائيل أنى أكرم بنى آدم على الله، عز وجل، وهذا رجل من بنى آدم قد خلفنى فى دنيا، وأنا فى أخرى، فلو أنه بنفسه لم أبال، ولكن مع كل نبى أمته.

قال: ثم صعد به إلى السماء السابعة فاستفتح، فقيل له: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قالوا: حياه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. قال: فدخل فإذا هو برجل أشمط جالس عند باب الجنة على كرسى، وعنده قوم جلوس بيض الوجوه أمثال القراطيس، وقوم فى ألوانهم شىء، فقام هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء فدخلوا نهراً فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد^(٩) خلص من ألوانهم شىء ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خلص [من]^(١٠) ألوانهم [شىء] ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خلصت ألوانهم^(١١) فصارت مثل ألوان أصحابهم، فجأؤوا فجلسوا إلى أصحابهم، فقال: «يا جبريل من هذا الأشمط؟ ثم من هؤلاء البيض الوجوه؟ ومن هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء؟ وما هذه الأنهار التى دخلوا فيها فجأؤوا وقد صفت ألوانهم؟» قال: هذا أبوك إبراهيم [عليه السلام]^(١٢) أول من شمس على الأرض. وأما هؤلاء البيض الوجوه فقوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم. وأما هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء، فقوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فتأبوا قتاب الله عليهم. وأما الأنهار فأولها رحمة الله، والثانى نعمة الله، والثالث سقايم ربهم شراباً طهوراً.

قال: ثم انتهى إلى السدرة ف قيل له: هذه السدرة ينتهى إليها كل أحد خلا من أمتك على سنتك، فإذا هى شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، وهى شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين عاماً لا يقطعها. والورقة منها مغطية للأمة كلها. قال: فغشيها نور الخلاق، عز وجل، وغشيها^(١٣) الملائكة أمثال الغربان حين يقعن^(١٤) على الشجرة قال: فكلمه الله تعالى عند ذلك^(١٥)،

(١) فى ف، أ: «أرسل إليه». (٢) فى ف، أ: «قالوا: مرحبا به حياه». (٣) زيادة من ت، ف، أ، والطبرى. (٤) فى ف: «فقيل». (٥) فى ف، أ: «أرسل إليه». (٦) فى ت، ف، أ: «المجيء جاء». (٧) فى ت: «فما له». (٨) فى ت، أ: «يزعم». (٩) فى ت: «قد». (١٠) زيادة من ف، أ، والطبرى. (١١) زيادة من ت، ف، أ، والطبرى. (١٢) زيادة من ف، أ. (١٣) فى ت: «وغشيها». (١٤) فى ت، ف، أ: «حتى تقع». (١٥) فى ت: «فكلمه يعنى عند ذلك».

قال له: سل^(١)، قال: «إنك اتخذت إبراهيم خليلاً، وأعطيته ملكاً عظيماً، وكلمت موسى تكليماً، وأعطيته داود ملكاً عظيماً، وألنت له الحديد، وسخرت له [الجبال، وأعطيته سليمان ملكاً عظيماً، وسخرت له الجن والإنس والشياطين، وسخرت له]^(٢) الرياح، وأعطيته له ملكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعده، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل، وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذنك، وأعدته وأمه من الشيطان الرجيم، فلم يكن للشيطان عليهما سبيل». فقال له ربه عز وجل: وقد اتخذتك خليلاً - وهو مكتوب في التوراة: حبيب الرحمن^(٣) - وأرسلتك إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وشرحت لك صدرك، ووضعت عنك وزرك، ورفعت لك ذكرك، فلا أذكر إلا ذكرت معي، وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس، وجعلت أمتك أمة وسطاً، وجعلت أمتك هم الأولين و الآخرين، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدى ورسولى، وجعلت من أمتك أقواماً قلوبهم أناجيلهم، وجعلتك أول النبيين خلقاً، وآخرهم بعثاً، وأولهم يقضى له، وأعطيته سبعاً من المثاني لم يعطها نبي قبلك، وأعطيته خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم أعطها نبياً قبلك، وأعطيته الكوثر، وأعطيته ثمانية أسهم: الإسلام، والهجرة، والجهاد، والصدقة، والصلاة، وصوم رمضان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلتك فاتحاً وخاتماً. فقال النبي ﷺ: «فضلنى ربى بست: أعطانى فواتح الكلام^(٤) وخواتيمه وجوامع الحديث، وأرسلنى إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وقذف فى قلوب عدوى الرعب من مسيرة شهر، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وجعلت لى الأرض كلها طهوراً ومسجداً».

قال: وفرض عليه خمسين صلاة. فلما رجع إلى موسى قال: بم أمرت يا محمد؟ قال: «بخمسين صلاة» قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، فقد لقيت من بنى إسرائيل شدة، قال: فرجع النبي ﷺ إلى ربه، عز وجل، فأسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً. ثم رجع إلى موسى فقال: بكم أمرت؟ قال: «بأربعين» قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيت من بنى إسرائيل شدة، قال: فرجع النبي ﷺ إلى ربه [عز وجل]^(٥) فأسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً، فرجع إلى موسى فقال: بكم أمرت؟ قال: «أمرت بثلاثين»، فقال له موسى: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيت من بنى إسرائيل شدة، قال: فرجع إلى ربه [عز وجل]^(٦) فأسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً، فرجع إلى موسى فقال: بكم أمرت؟ قال: «أمرت بعشرين». قال: ارجع إلى ربك [عز وجل]^(٨) فاسأله التخفيف فإن أمتك أضعف الأمم وقد لقيت من بنى إسرائيل شدة، قال: فرجع إلى ربه [عز وجل]^(٩) فأسأله التخفيف فوضع عنه عشراً. فرجع إلى موسى فقال: بكم أمرت؟ قال: «أمرت بعشر»، قال: ارجع إلى ربك [عز وجل]^(١٠) فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيت من بنى إسرائيل شدة، قال: فرجع على حياء إلى ربه [عز وجل]^(١١) فأسأله التخفيف فوضع عنه خمساً. فرجع إلى موسى، عليه السلام، فقال^(١٢): بكم أمرت؟ قال: «بخمسة»، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن

(٣) فى ت: «محمد حبيب الرحمن».

(٦) زيادة من ف، أ.

(١٢) فى ف: «قال».

(٢) زيادة من ف، أ، والطبرى.

(٥) زيادة من ف.

(٨ - ١١) زيادة من ف، أ.

(١) فى ف: «فقال».

(٤) فى ف: «الكلم».

(٧) فى ت: «قال».

أمتك أضعف الأمم وقد لقيت من بنى إسرائيل شدة ، قال: «قد رجعت إلى ربي حتى استحييت، فما أنا براجع إليه»، قيل: أما إنك كما صبرت نفسك على خمس صلوات، فإنهن يجزين عنك خمسين صلاة، فإن كل حسنة بعشر أمثالها. قال: فرضى محمد ﷺ كل الرضا ، قال: وكان موسى، عليه السلام، من أشدهم عليه حين مرّ به وخيرهم له حين رجع إليه^(١).

ثم رواه ابن جرير، عن محمد بن عبيد الله، عن أبي النضر هاشم بن القاسم، عن أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية أو غيره - شك أبو جعفر - عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ فذكره بمعناه^(٢).

وقد رواه الحافظ أبو بكر البيهقي، عن أبي سعيد الماليني، عن ابن عدى، عن محمد بن الحسن السكوني البالسي بالرملة، حدثنا علي بن سهل، فذكر مثل ما رواه ابن جرير عنه^(٣)، وذكر البيهقي أن الحاكم أبا عبد الله رواه عن إسماعيل بن محمد بن الفضل بن محمد الشعراني، عن جده، عن إبراهيم بن حمزة الزبيرى، عن حاتم بن إسماعيل، حدثني عيسى بن ماهان - يعنى أبا جعفر الرازي - عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، فذكره^(٤).

وقال ابن أبي حاتم: ذكر أبو زرعة، حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدثنا يونس بن بكير، حدثنا عيسى بن عبد الله التميمي^(٥) - يعنى: أبا جعفر الرازي - عن الربيع بن أنس البكري، عن أبي العالية أو غيره - شك عيسى - عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾»^(٦) فذكر الحديث بطوله كنحو مما سقناه.

قلت: «أبو جعفر الرازي» قال فيه الحافظ أبو زرعة: «الرازي يهتم فى الحديث كثيراً» وقد ضعفه غيره أيضاً، ووثقه بعضهم، والأظهر أنه سيئ الحفظ فقيماً تفرد به نظر . وهذا الحديث فى بعض ألفاظه غرابة ونكارة شديدة، وفيه^(٧) شيء من حديث المنام من رواية سمرة بن جندب فى المنام الطويل عند البخارى، ويشبه أن يكون مجموعاً من أحاديث شتى، أو منام أو قصة أخرى غير الإسراء، والله أعلم.

وقد روى البخارى ومسلم فى الصحيحين من حديث عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن الزهرى، أخبرنى سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ حين أسرى به: «لقيت موسى» قال: فنعتة فإذا رجل - حسبته قال: - مضطرب، رجُل الرأس، كأنه من رجال شنوءة. قال: «ولقيت عيسى» - فنعتة النبي ﷺ - ربعة^(٨) أحمر كأنما خرج من ديماس - يعنى حمام. قال: «ورأيت إبراهيم، وأنا أشبه ولده به». قال: «وأيت ببناءين فى أحدهما لبن وفى الآخر خمر، قيل لى: خذ أيهما شئت، فأخذت اللبن، فشربت، فقيل لى: هديت الفطرة - أو: أصبت الفطرة - أما إنك لو

(١) تفسير الطبرى (١٥/٦).

(٢) تفسير الطبرى (١٥/١٠).

(٣) دلائل النبوة (٢/٣٩٦، ٣٩٧).

(٤) دلائل النبوة (٢/٣٩٧).

(٥) فى ت: «اليمنى».

(٦) زيادة من ت.

(٨) فى ت، أ: «قال: ربعة».

(٧) فى ت: «فيه».

أخذت الخمر غوت أمتك». وأخرجاه من وجه آخر. عن الزهري - به نحوه^(١).

وفى صحيح مسلم، عن محمد بن رافع، عن حُجَّين بن المثنى، عن عبد العزيز بن أبي سلمة، عن عبد الله بن الفضل الهاشمي، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيته في الحجر وقريش تسألني عن مسراي^(٢)، فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كرباً ما كربت مثله قط، فرفعه الله لى أنظر إليه، ما سألوني عن شيء إلا أنبأتهم به، وقد رأيته في جماعة من الأنبياء، وإذا موسى قائم يصلى، وإذا هو رجل ضرب جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى ابن مريم قائم يصلى أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم قائم يصلى أشبه الناس به صاحبكم - يعنى نفسه - فحانت الصلاة فأمتهم، فلما فرغت قال قائل: يا محمد، هذا مالك صاحب النار، [فسلم عليه]^(٣) فالتفت إليه فبدأنى بالسلام»^(٤).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أبي الصلت، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « رأيت ليلة أسرى بى لما انتهينا إلى السماء السابعة، فنظرت فوق^(٥) فإذا رعد وبرق وصواعق». قال: «وأنت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا، فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل منى فإذا أنا برهج ودخان وأصوات، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه الشياطين يحرفون على أعين بنى آدم ألا يتفكروا فى ملكوت السموات والأرض، ولولا ذلك لرأوا العجائب».

ورواه الإمام أحمد عن حسن وعفان، كلاهما عن حماد بن سلمة، به. ورواه ابن ماجه من حديث حماد، به^(٦).

رواية جماعة من الصحابة [رضى الله عنهم]^(٧) ممن تقدم وغيرهم:

قال الحافظ البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله - يعنى الحاكم - أخبرنا عبدان بن يزيد بن يعقوب الدقاق بهمذان، حدثنا إبراهيم بن الحسين الهمداني، حدثنا أبو محمد هو إسماعيل بن موسى الفزاري، حدثنا عمر بن سعد النصرى^(٨) من بنى نصر^(٩) بن قُعين، حدثنى عبد العزيز، وليث بن أبي سليم^(١٠) وسليمان الأعمش، وعطاء بن السائب - بعضهم يزيد فى الحديث على بعض - عن علي بن أبى طالب و عبد الله^(١١) بن عباس - و محمد بن إسحاق بن يسار، عمن حدثه عن ابن عباس -

(١) صحيح البخارى برقم (٣٣٩٤) وصحيح مسلم برقم (١٦٨).

(٢) فى ت: «عن أمرى».

(٣) زيادة من ف، أ، ومسلم.

(٤) صحيح مسلم برقم (١٧٢).

(٥) فى ف، أ: «فوق رأسى».

(٦) المسند (٢/ ٣٥٣ - ٣٦٣) وسنن ابن ماجه برقم (٢٢٧٣). وسبق الحديث من رواية أحمد عند تفسير الآية: ١٨٥ من سورة

الاعراف، وعقب عليه الحافظ ابن كثير بقوله: «على بن زيد بن جدعان له منكرات».

(٧) زيادة من أ.

(٨) فى ف: «النصرى».

(٩) فى ف: «من بنى نصر».

(١٠) فى أ: «سلمة».

(١١) فى ت، ف: «وعن عبد الله».

وعن سليم بن مسلم العقيلي، عن عامر الشعبي، عن عبد الله بن مسعود - وجوير، عن الضحاك، ابن مزاحم قالوا: كان رسول الله ﷺ في بيت أم هانئ راقداً، وقد صلى العشاء الآخرة. قال أبو عبد الله الحاكم: قال لنا هذا الشيخ... وذكر الحديث، فكتب^(١) المتن من نسخة مسموعة منه، فذكر حديثاً طويلاً، يذكر فيه عدد الدرج والملائكة وغير ذلك مما لا ينكر شيء منها في قدرة الله إن صحت الرواية.

قال البيهقي: فيما ذكرنا قبل في حديث أبي هارون العبدى في إثبات الإسراء والمعراج كفاية، وبالله التوفيق^(٢).

قلت: وقد أرسل هذا الحديث غير واحد من التابعين وأئمة المفسرين، رحمة الله عليهم أجمعين. رواية عائشة أم المؤمنين، رضى الله عنها:

قال [الإمام]^(٣) البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني مكرم بن أحمد القاضي، حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدي^(٤)، حدثنا محمد بن كثير الصنعاني، حدثنا معمر بن راشد، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: لما أسرى بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى، أصبح يحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه، وسعوا بذلك إلى أبي بكر، فقالوا: هل لك في صاحبك؟ يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس! فقال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إني لأصدقه بما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روضة. فلذلك سمي أبو بكر: الصديق، رضى الله عنه^(٥).

رواية أم هانئ بنت أبي طالب، رضى الله عنها:

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح باذان، عن أم هانئ بنت أبي طالب [رضى الله عنها]^(٦) في مسرى رسول الله ﷺ أنها كانت تقول: ما أسرى برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي، نائم عندي تلك الليلة، فصلى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسول الله ﷺ فلما صلى الصبح وصلينا معه قال: «يا أم هانئ، لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين»^(٧).

الكلبي: متروك بمرة ساقط، لكن رواه أبو يعلى في مسنده عن محمد بن إسماعيل الأنصاري، عن ضمرة بن ربيعة، عن يحيى بن أبي عمرو السيباني^(٨)، عن أبي صالح، عن أم هانئ بأبسط من هذا

(١) في ت: «فثبت».

(٢) دلائل النبوة (٢/٤٠٤).

(٣) زيادة من ف، أ.

(٤) في ت: «البكري».

(٥) دلائل النبوة (٢/٣٦٠) وهو في المستدرک (٣/٦٢) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(٦) زيادة من أ.

(٧) رواه الطبري في تفسيره (٣/١٥) من طريق محمد بن إسحاق.

(٨) في ت، ف، أ: «السيباني».

السياق، فليكتب ههنا^(١).

وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث عبد الأعلى بن أبي المساور، عن عكرمة، عن أم هانئ قالت: بات رسول الله ﷺ ليلة أسرى به في بيتي، ففقدته من الليل، فامتنع مني النوم مخافة أن يكون عرض له بعض قریش، فقال رسول الله ﷺ: «إن جبريل، عليه السلام، أتاني فأخذ بيدي فأخرجني، فإذا على الباب دابة دون البغل وفوق الحمار، فحملني عليها، ثم انطلق حتى انتهت بي إلى بيت المقدس، فأراني إبراهيم يشبه خلقه خلقي، ويشبه خلقي خلقه، وأراني موسى آدم طويلاً سبط الشعر، شبهته برجال أزد شنوءة، وأراني عيسى ابن مريم ربعة أبيض يضرب إلى الحمرة، شبهته بعروة بن مسعود الثقفي، وأراني الدجال ممسوح العين اليمنى، شبهته بقطن بن عبد العزى»

(١) كذا ولم أجد في النسخ إثباته، وقد رواه أبو يعلى في معجم شيوخه برقم (١٠) قال: «حدثنا محمد بن إسماعيل الوساسي، حدثنا ضمرة بن ربيعة، حدثنا يحيى بن أبي عمرو السيباني، عن أبي صالح مولى أم هانئ، عن أم هانئ قالت: دخل على رسول الله ﷺ بئس، فجلس، وأنا على فراشي، فقال: «شعرت أني أت الليلة في المسجد الحرام، فأتاني جبريل، فذهب بي إلى باب المسجد، فإذا بداية أبيض، فوق الحمار، ودون البغل، مضطرب الأذنين، فركبت وكان يضع حافره مدبصره، إذا أخذني في هبوط طالت يده وقصرت رجلاه، وإذا أخذني في صعود طالت رجلاه وقصرت يده، وجبريل لا يفوتني، حتى انتهت إلى بيت المقدس، فأوثقت بالحلقة التي كانت الأنبياء توثق بها، فنشر لي رهط من الأنبياء، منهم إبراهيم، وموسى، وعيسى، فضليت بهم، وكلمتهم، وأتيت بإناءين أحمر وأبيض، فشربت الأبيض، فقال لي جبريل: شربت اللبن، وتركت الخمر، لو شربت الخمر لارتدت أمتك. ثم ركبته، فأتيت المسجد الحرام وصليت به الغداة» قالت: فعلقت بردائه: أنشدك الله يا ابن عمي! أن تحدث بهذا قریشاً، فيكذبك من صدقك. فضرب بيده على رداءه، فانتزع من يدي، فارتفع عن بطنه، فنظرت إلى عكته، فوق إزاره كأنها طى القراطيس، فإذا نور ساطع عند فؤاده، كاد يخطف بصري، فخررت ساجدة، فلما رفعت رأسي إذا هو قد خرج، فقلت لجاريتي تبعة: ويحك اتبعيه، فانظري ماذا يقول، وماذا يقال له؟ فلما رجعت تبعة، أخبرتني أن رسول الله ﷺ انتهى إلى نفر من قریش، في الحطيم، فيهم المطعم بن عدى، وعمرو بن هشام، والوليد بن المغيرة، فقال: «إني صليت الليلة العشاء في هذا المسجد، وصليت به الغداة، وأتيت فيما دون ذلك بيت المقدس، فنشر لي رهط من الأنبياء منهم إبراهيم، وموسى، وعيسى، وصليت بهم وكلمتهم».

فقال عمرو بن هشام كالستهزئ به: صفهم لي، فقال: «أما عيسى، ففوق الربعة، ودون الطول، عريض الصدر، ظاهر الدم، جعد، أشعر تعلوه صُهبة، كأنه عروة بن مسعود الثقفي. وأما موسى، فضخم آدم، طوال، كأنه من رجال شنوءة، متراكب الاسنان، مقلص الشفة، خارج اللثة، عابس. وأما إبراهيم فوالله إنه لأشبه الناس بي، خلقاً، وخلقاً». قال: فضجوا، وأعظموا ذلك، فقال المطعم بن عدى: كل أمرك كان قبل اليوم، كان أمماً غير قولك اليوم، أمّا أنا، فأشهد أنك كاذب، نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس، نصعد شهراً، ونحدر شهراً، تزعم أنك أتيت في ليلة، واللات والعزى لا أصدقك، وما كان الذي تقول قط. وكان للمطعم بن عدى حوض على زمزم أعطاه إياه عبد المطلب، فهدمه وأقسم باللات والعزى لا يسقى قطرة أبداً، فقال أبو بكر: يا مطعم، بش ما قلت لابن أخيك جبهته وكذبه، أنا أشهد أنه صادق، فقالوا: يا محمد، فصيف لنا بيت المقدس، قال: «دخلت ليلاً وخرجت منه ليلاً». فأتاه جبريل بصورته في جناحه، فجعل يقول: «باب منه كذا، في موضع كذا، وباب منه كذا، في موضع كذا»، وأبو بكر يقول: صدقت، قالت تبعة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول يومئذ: «يا أبا بكر، إني قد سميتك (الصدق)». قالوا: يا مطعم، دعنا نسأله عما هو أغنى لنا من بيت المقدس. يا محمد، أخبرنا عن عيرنا، فقال: «أتيت على عير بني فلان بالروحاء، قد أضلوا ناقة لهم، فانطلقوا في طلبها، فأنتهت إلى رحالهم، ليس بها منهم أحد، وإذا قدح ماء، فشربت منه، فأسألوهم عن ذلك» قالوا: هذه والإله آية. «ثم انتهت إلى عير بني فلان، فنفرت مني الإبل، وبرك منها جمل أحمر، عليه جوالق محيط بياض، لا أدرى أكرس البعير، أم لا، فأسألوهم عن ذلك» قالوا: هذه والإله آية «ثم انتهت إلى عير بني فلان في التنعيم، يقدمها جمل أورك، وما هي ذه يطلع عليكم من الثنية». فقال الوليد بن المغيرة: ساحر، فانطلقوا فنظروا، فوجدوا الأمر كما قال. فروه بالسحر، وقالوا: صدق الوليد بن المغيرة فيما قال، فانزل الله عز وجل: «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ» [الإسراء: ٦٠]. قلت لأم هانئ: ما الشجرة الملعونة في القرآن؟ قالت: الذين خوفوا فلم يزددهم التخويف إلا طغياناً وكفراً.

قال: «وأنا أريد أن أخرج إلى قريش فأخبرهم بما رأيت». فأخذت بثوبه فقلت: إني أذكرك^(١) الله، إنك تأتي قوما يكذبونك وينكرون مقالتك، فأخاف أن يسطوا بك. قالت: فضرب ثوبه من يدي، ثم خرج إليهم فأتاهم وهم جلوس، فأخبرهم ما أخبرني، فقام جبير بن مطعم فقال: يا محمد لو كنت شاباً^(٢) كما كنت، ما تكلمت بما تكلمت به وأنت بين ظهرانينا. فقال رجل من القوم: يا محمد، هل مررت بإبل لنا في مكان كذا وكذا؟ قال: «نعم، والله قد وجدتهم أضلوا بغيراً لهم فهم في طلبه». قال: فهل مررت بإبل لبنى فلان؟ قال: «نعم، وجدتهم في مكان كذا وكذا، وقد انكسرت^(٣) لهم ناقة حمراء، وعندهم قصعة من ماء، فشربت ما فيها». قالوا: فأخبرنا عدتها وما فيها من الرعاة [قال: «قد كنت عن عدتها مشغولاً». فنام فأوتى بالإبل فعدها وعلم ما فيها من الرعاة]^(٤) ثم أتى قريشاً فقال لهم: «سألتموني عن إبل بنى فلان، فهي كذا وكذا، وفيها من الرعاة فلان وفلان، وسألتموني عن إبل بنى فلان، فهي كذا وكذا، وفيها من الرعاة ابن أبي قحافة وفلان وفلان، وهي مصبحتكم من الغداة^(٥) على الثنية». قال: فقعدوا^(٦) على الثنية ينظرون أصدقهم ما قال؟ فاستقبلوا الإبل فسألوه: هل ضل لكم بغير؟ قالوا: نعم. فسألوا الآخر: هل انكسرت لكم ناقة حمراء؟ قالوا: نعم. قالوا: فهل كان عندكم قصعة؟ قال أبو بكر: أنا والله وضعتها فما شربها أحد، ولا أهرأوه في الأرض. فصدقه أبو بكر [رضى الله عنه]^(٧) وآمن به، فسمى يومئذ الصديق^(٨).

فصل

وإذا^(٩) حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها، يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، وأنه مرة واحدة، وإن اختلفت عبارات الرواة في أدائه، أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء، عليهم السلام. ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة، فأثبت إسرءات متعددة فقد أبعد وأغرب، وهرب إلى غير مهرب ولم يحصل على مطلب.

وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه، عليه السلام^(١٠)، أسرى به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط، ومرة من مكة إلى السماء فقط، ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء. وفرح بهذا المسلك، وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات. وهذا بعيد جداً، ولم ينقل هذا عن أحد من السلف، ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبي ﷺ به أمته، ولنقلته^(١١) الناس على التعدد والتكرار.

قال موسى بن عقبة، عن الزهري: كان الإسراء قبل الهجرة بسنة. وكذا قال عروة.

وقال السدي: بستة عشر شهراً.

والحق أنه، عليه السلام^(١٢)، أسرى به يقظة لا مناماً من مكة إلى بيت المقدس، راكباً البراق،

(١) في ت: «أذكرك». (٢) في ت، ف: «أن لو كنت لك شاباً». (٣) في ت: «وقد كسرت».

(٤) زيادة من الخصائص الكبرى للسيوطي (٤٣٩/١).

(٥) في ف: «بالغداة». (٦) في ت، ف: «فعدوا».

(٨) المعجم الكبير (٤٣٢/٢٤) وعبد الأعلى بن أبي المساور كذاب.

(٩) في ف: «فلذا». (١٠) في ف: «بأنه صلى الله عليه وسلم».

(١١) في ت: «ولتعلمه». (١٢) في ف: «أنه صلى الله عليه وسلم».

فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب، ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين. ثم أتى المعراج^(١) - وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها - فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السموات السبع، فتلقيه من كل سماء مقربوها، وسلم عليه الأنبياء عليهم السلام^(٢) الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مرّ بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاوز منزلتهما ﷺ وعليهما وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلى مستوى يسمع^(٣) فيه صريف الأقلام، أى: أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سدرة المنتهى، وغشيتها من أمر الله، تعالى، عظمة عظيمة، من فراش من ذهب، وألوان متعددة، وغشيتها الملائكة، ورأى هنالك جبريل على صورته، وله ستمائة جناح، ورأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق، ورأى البيت المعمور^(٤) وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسنداً ظهره إليه؛ لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة. ورأى الجنة والنار، وفرض الله [عز وجل]^(٥) عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس؛ رحمة منه ولطفاً بعباده. وفى هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها. ثم هبط إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة، ويحتمل أنها الصبح من يومئذ. ومن الناس من يزعم أنه أهمهم في السماء. والذى تظاهرت به الروايات أنه بيت المقدس، ولكن فى بعضها أنه كان أول^(٦) دخوله إليه. والظاهر أنه بعد رجوعه إليه؛ لأنه لما مرّ بهم فى منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق؛ لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناح العلوى ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله، تعالى. ثم لما فرغ من الذى أريد به، اجتمع هو وإخوانه من النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين^(٧) ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقدمه فى الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام^(٨) له فى ذلك. ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل، أو اللبن والخمر، أو اللبن والماء، أو الجميع - فقد ورد أنه فى بيت المقدس، وجاء أنه فى السماء. ويحتمل أن يكون ههنا وههنا؛ لأنه كالضيافة للمقادم، والله أعلم.

ثم اختلف الناس: هل كان الإسراء بيدنه عليه السلام^(٩) وروحه؟ أو بروحه فقط؟ على قولين، فالأكثر من العلماء على أنه أسرى بيدنه وروحه يقظة لا مناماً، ولا ينكر أن يكون رسول الله ﷺ رأى قبل ذلك مناماً، ثم رآه بعده يقظة؛ لأنه عليه السلام^(١٠) كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح؛ والدليل على هذا قوله [عز وجل]^(١١): ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾، فالتسييح إنما يكون عند الأمور العظام، ولو كان مناماً لم يكن فيه كبير شئ ولم يكن مستعظماً، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتد جماعة ممن كان قد أسلم. وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد،

(٣) فى ت: «سمع»، وفى ف، أ: «فسمع».

(٢) زيادة من ف.

(١) فى ت، ف: «بالمعراج».

(٦) فى ف، أ: «كان فى أول».

(٥) زيادة من ف.

(٤) فى ت، ف، أ: «المعمور الذى».

(٨) فى ت: «عليه الصلاة والسلام». (٩) فى ف: «صلى الله عليه وسلم».

(٧) زيادة من ف، أ.

(١١) زيادة من: ف، أ.

(١٠) فى أ: «صلى الله عليه وسلم».

وقد قال [عز شأنه] (١): ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، قال ابن عباس [رضى الله عنهما] (٢): هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ [ليلة] أسرى به، والشجرة الملعونة: شجرة الزقوم (٣). رواه البخارى. وقال تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧]، والبصر من آلات الذات لا الروح. وأيضاً فإنه حمل على البراق، وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح؛ لأنها لا تحتاج فى حركتها إلى مركب تركب (٤) عليه، والله أعلم.

وقال آخرون: بل أسرى برسول الله ﷺ بروحه لا بجسده. قال محمد بن إسحاق بن يسار فى السيرة: حدثنى يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس؛ أن معاوية بن أبى سفيان [رضى الله عنهما] (٥) كان إذا سئل عن مسرى رسول الله ﷺ قال: كانت رؤيا من الله صادقة.

وحدثنى بعض آل أبى بكر أن عائشة كانت تقول: ما فقد جسد رسول الله ﷺ، ولكن أسرى بروحه.

قال ابن إسحاق: فلم ينكر ذلك من قولها، لقول الحسن: إن هذه الآية نزلت ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾، ولقول (٦) الله فى الخبر عن إبراهيم: ﴿إِنِّى أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ [الصافات: ١٠٢]، ثم مضى على ذلك. فعرفت أن الوحي يأتى للأنبياء من الله أيقاظاً ونياماً.

فكان (٧) رسول الله ﷺ يقول: « تنام عيناى، وقلبى يقظان » فالله أعلم أى ذلك كان قد جاءه، وعاین فيه من الله ما عاین، على أى حالاته كان، نائماً أو يقظان، كل ذلك حق وصدق. انتهى كلام ابن إسحاق (٨).

وقد تعقبه أبو جعفر بن جرير فى تفسيره بالرد والإنكار والتشنيع، بأن هذا خلاف (٩) ظاهر سياق القرآن، وذكر من الأدلة على رده بعض ما تقدم (١٠)، والله أعلم.

فائدة حسنة جليلة:

روى الحافظ أبو نعيم الأصبهاني فى كتاب «دلائل النبوة» من طريق محمد بن عمر الواقدي: حدثنى مالك بن أبى الرجال، عن عمرو بن عبد الله، عن محمد بن كعب القرظى، قال: بعث رسول الله ﷺ دحية بن خليفة إلى قيصر - فذكر وروده عليه وقدمه إليه. وفى السياق دلالة عظيمة على وفور عقل هرقل - ثم استدعى من بالشام من التجار، فجىء بأبى سفيان صخر بن حرب

(٣) زيادة من ت، ف، أ.

(١، ٢) زيادة من ف، أ.

(٦) فى ف: «وكقول».

(٥) زيادة من ف، أ.

(٤) فى ف: «يركب».

(٧) فى ف: «وكان».

(٨) ذكره الطبرى فى تفسيره (١٣/١٥) بإسناده إلى ابن إسحاق.

(٩) فى ف: «اختلاف».

(١٠) تفسير الطبرى (١٣/١٥، ١٤).

وأصحابه، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التي رواها البخاري ومسلم، كما سيأتي بيانه، وجعل أبو سفيان يجهد أن يحقر أمره ويصغره عنده. قال في هذا السياق عن أبي سفيان: واللّه ما يمتنعني أن أقول عليه قولاً أسقطه من عينه إلا أني أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها عليّ، ولا يصدقني بشيء. قال: حتى ذكرت قوله ليلة أسرى به قال: فقلت: أيها الملك، ألا أخبرك خيراً تعرف أنه قد كذب؟ قال: وما هو؟ قال: قلت: إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا - أرض الحرم - في ليلة فجاء مسجداً هذا - مسجد إيلياء، ورجع^(١) إلينا تلك الليلة قبل الصباح. قال: وبطريق إيلياء عند رأس قيصر، فقال: بطريق إيلياء: قد علمت تلك الليلة، قال: فنظر^(٢) قيصر، وقال: وما علمك بهذا؟ قال: إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كان تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبنى، فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرني كلهم فعالجته فغلبنى، فلم نستطع أن نحركه، كأنما نزاول به جبلاً، فدعوت إليه النجاجة، فنظروا إليه فقالوا: إن هذا الباب سقط عليه النجاف والبنيان ولا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى. قال: فرجعت وتركت البابين مفتوحين. فلما أصبحت غدوت عليهما فإذا الحجر الذي في زاوية الباب^(٣) مثقوب، وإذا فيه أثر مربوط الدابة قال: فقلت لأصحابي: ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبي، وقد صلى الليلة في مسجدنا. وذكر تمام الحديث^(٤).

فائدة:

قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية في كتابه «التنوير في مولد السراج المنير» وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس، وتكلم عليه فأجاد وأفاد - ثم قال: وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب، وعلى [ابن أبي طالب]^(٥) وابن مسعود، وأبي ذر، ومالك بن صعصعة، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وابن عباس، وشداد بن أوس، وأبي بن كعب، وعبد الرحمن بن قُرط، وأبي حبة وأبي ليلى الأنصاريين^(٦)، وعبد الله بن عمرو، وجابر، وحذيفة، وبريدة، وأبي أيوب، وأبي أمامة، وسمرة بن جندب، وأبي الحمراء، وصهيب الرومي، وأم هانئ، وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق، رضى الله عنهم أجمعين. منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد، وإن لم تكن^(٧) رواية بعضهم على شرط الصحة، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، واعترض فيه الزنادقة الملقدون^(٨) ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مِمَّنْ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

﴿وَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾.

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبد محمد، صلوات الله وسلامه عليه^(٩)، عطف بذكر موسى عبده

(١) في ف: «فرجع». (٢) في ف، أ: «فنظر إليه». (٣) في ف، هـ: «المسجد».

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٢٤/٥) وعزاه لأبي نعيم في الدلائل، ولم أجده في المطبوع من الدلائل.

(٥) زيادة من ف. (٦) في ت، ف: «الأنصاري». (٧) في ف: «يكن».

(٨) في ف: «والملقدون». (٩) في ف: «صلى الله عليه وسلم».

وكليمه [عليه السلام]^(١) أيضاً، فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما السلام^(٢) وبين ذكر التوراة والقرآن؛ ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أى الكتاب ﴿هُدًى﴾ أى هادياً ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا﴾ أى لئلا يتخذوا ﴿مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ أى ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً دوني؛ لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله^(٣) أن يعبده وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ تقديره: يا ذرية من حملنا مع نوح. فيه تهيج وتنبيه على المنّة، أى: يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح فى السفينة، تشبهوا بأبيكم، ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ فاذكروا أنتم نعمتى عليكم بإرسالى إليكم محمداً ﷺ. وقد ورد فى الحديث وفى الأثر عن السلف: أن نوحاً، عليه السلام، كان يحمد الله [تعالى]^(٤) على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله؛ فلهذا سمى عبداً شكوراً.

قال الطبرانى: حدثنا على بن عبد العزيز، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن أبي حصين، عن عبد الله بن سنان، عن سعد بن مسعود الثقفى قال: إنما سمى نوح عبداً شكوراً؛ لأنه كان إذا أكل أو شرب حمد الله^(٥).

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو أسامة، حدثنا زكريا بن أبى زائدة، عن سعيد بن أبى بريدة، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها».

وهكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى من طريق أبى أسامة، به^(٦).

وقال مالك، عن زيد بن أسلم: كان يحمد الله على كل حال.

وقد ذكر البخارى هنا حديث أبى زرعة، عن أبى هريرة [رضى الله عنه]^(٧)، عن النبى ﷺ قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة - بطوله، وفيه -: فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح، أنت^(٨) أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك» وذكر الحديث بكماله^(٩).

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا﴾ (٤)
فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ

(١) زيادة من ف، أ. (٢) فى ت: «عليهما الصلاة والسلام». وفى ف، أ: «عليهما من الله الصلاة والسلام».

(٣) فى ت: «أرسل». (٤) زيادة من أ.

(٥) المعجم الكبير (٣٢/٦).

(٦) المسند (٣/ ١١٧)، وصحيح مسلم برقم (٢٧٣٤) وسنن الترمذى برقم (١٨١٦) وسنن النسائى الكبرى برقم (٦٨٩٩).

(٧) زيادة من ف، أ. (٨) فى ف، أ: «يا نوح، إنك أنت».

(٩) صحيح البخارى برقم (٤٧١٢).

نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنَّ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتُمْ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴿٨﴾

يقول تعالى: إنه قضى إلى بنى إسرائيل فى الكتاب، أى: تقدم إليهم وأخبرهم فى الكتاب الذى أنزله عليهم أنهم سيفسدون فى الأرض مرتين ويعلون^(١) علواً كبيراً، أى: يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس كما قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦] أى: تقدمنا إليه وأخبرناه بذلك وأعلمناه به.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أى: أولى الإفسادتين ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أى: سلطنا عليكم جنداً من خلقنا أولى بأس شديد، أى: قوة وعدة وسلطة^(٢) شديدة ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ أى: تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم، أى: بينها ووسطها، وانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحداً ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾.

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف فى هؤلاء المسطين عليهم: من هم؟ فعن ابن عباس وقتادة: أنه جالوت الجزرى وجنوده، سلط عليهم أولاً، ثم أديلوا عليه بعد ذلك. وقتل داود جالوت؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾. وعن سعيد بن جبير: أنه ملك الموصل سنجاريب وجنوده. وعنه أيضاً، وعن غيره: أنه بختنصر ملك بابل.

وقد ذكر ابن أبى حاتم له قصة عجيبة فى كيفية ترقيه من حال إلى حال، إلى أن ملك البلاد، وأنه كان فقيراً مقعداً ضعيفاً يستعطى الناس ويستطعمهم، ثم آل به الحال إلى ما آل، وأنه سار إلى بلاد بيت المقدس، فقتل بها خلقاً كثيراً من بنى إسرائيل.

وقد روى ابن جرير فى هذا المكان حديثاً أسنده عن حذيفة مرفوعاً مطولاً^(٣)، وهو حديث موضوع لا محالة، لا يستريب فى ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث! والعجب كل العجب كيف راج عليه مع إمامته وجلالة قدره! وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزي، رحمه الله، بأنه موضوع مكذوب، وكتب ذلك على حاشية الكتاب.

وقد وردت فى هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها؛ لأن منها ما هو موضوع، من وضع [بعض]^(٤) زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحاً، ونحن فى غنى عنها، ولله الحمد. وفيما قص الله تعالى علينا فى كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم. وقد أخبر الله تعالى أنهم لما بغوا وطمغوا سلط الله عليهم عدوهم، فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم، جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد؛ فإنهم كانوا قد تردوا وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء.

(١) فى ف، أ: «ولعلن».

(٢) فى ف: «وسلطنة».

(٣) تفسير الطبرى (١٥/١٧).

(٤) زيادة من ف، أ.

وقد روى ابن جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: ظهر بُخْتَنَصْرُ على الشام، فخرّب بيت المقدس وقتلهم، ثم أتى دمشق فوجد بها دماً يغلى على كِبَا، فسألهم: ما هذا الدم؟ فقالوا: أدركنا آبائنا على هذا، وكلما ظهر عليه الكبا ظهر. قال: فقتل على ذلك الدم سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم، فسكن^(١).

وهذا صحيح إلى سعيد بن المسيب، وهذا هو المشهور، وأنه قتل أشrafهم وعلماءهم، حتى إنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ معه خلقاً منهم أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها. ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه، لجاز كتابته وروايته، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أى: فعلها، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أى: المرة الآخرة^(٢)، أى: إذا أفسدتم المرة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿لِيَسُوِّرُوا وَجُوهَكُمْ﴾ أى: يهينوكم ويقهروكم ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ أى: بيت المقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى: فى التى جاسوا فيها خلال الديار ﴿وَلِيَتَبَرَّوْا﴾ أى: يدمروا ويخربوا ﴿مَا عَلَوْا﴾ أى: ما ظهروا عليه ﴿تَتَبَرَّأَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ أى: فيصرفهم عنكم ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عَدُنَا﴾ أى: متى عدتم إلى الإفساد ﴿عُدْنَا﴾ إلى الإدالة عليكم فى الدنيا مع ماندخره لكم فى الآخرة من العذاب والنكال، ولهذا قال [تعالى]^(٣): ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أى: مستقراً ومحصراً وسجناً لا محيد لهم عنه.

قال ابن عباس [رضى الله عنهما]^(٤): ﴿حَصِيرًا﴾ أى: سجنًا.

وقال مجاهد: يحصرون فيها. وكذا قال غيره.

وقال الحسن: فراش ومهاد.

وقال قتادة: قد عاد بنو إسرائيل، فسلط الله عليهم هذا الحى، محمد ﷺ وأصحابه، يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠).

يمدح تعالى كتابه العزيز الذى أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن، بأنه يهدى لأقوام الطرق، وأوضح السبل ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ به ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ على مقتضاه ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أى: يوم القيامة ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أى: ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أى: يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

(١) تفسير الطبرى (١٥/٢٤).

(٢) فى ت: «الأخرى».

(٣) زيادة من ت.

(٤) زيادة من ف، أ.

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ۝﴾

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان، ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله ﴿بِالشَّرِّ﴾ أى: بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ [يونس: ١١]، وكذا فسرهُ ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وقد تقدم في هذا الحديث: « لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم، أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها ».

ولما يحمل ابن آدم على ذلك عجلته وقلقه ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾.

وقد ذكر سلمان الفارسي وابن عباس - رضى الله عنهما - ههنا قصة آدم، عليه السلام، حين همّ بالنهوض قائماً قبل أن تصل الروح إلى رجله، وذلك أنه جاءته النفخة من قبل رأسه، فلما وصلت إلى دماغه عطس، فقال: الحمد لله. فقال الله: يرحمك ربك يا آدم. فلما وصلت إلى عينيه فتحهما، فلما سرت إلى أعضائه وجسده جعل ينظر إليه ويعجبه، فهمّ بالنهوض قبل أن تصل إلى رجله فلم يستطع^(١)، وقال: يارب عجل^(٢) قبل الليل .

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَانَهُ تَفْصِيلًا ۝﴾

يمتّن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار، ليسكنوا فى الليل ويتشربوا فى النهار للمعاش والصناعات^(٣) والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضى الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجازات وغير ذلك؛ ولهذا قال: ﴿تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى: فى معاشكم^(٤) وأسفاركم ونحو ذلك ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ﴾ فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً وأسلوباً متساوياً لما عرف شيء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِن إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِن إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُم بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ . وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١-٧٣]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمراً مُنيراً . وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ [الفرقان: ٦١، ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [المؤمنون: ٨٠]، وقال: ﴿يُكْوَرُ^(٥) اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوَرُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَالْقُلُوبُ الْإِصْبَاحَ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسباناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقال

(١) فى ت: « قبل أن يستطع ». (٢) فى ت، ف: « اعجل ».

(٣) فى ت، ف، أ: « والصنائع ».

(٤) فى ت: « معاشكم ».

(٥) فى ت: « ويكور » وهو خطأ.

تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ. وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٧، ٣٨].

ثم إنه تعالى جعل لليل آية، أى: علامة يعرف بها^(١) وهى الظلام وظهور القمر فيه، وللنهار علامة، وهى النور وظهور^(٢) الشمس النيرة فيه، وفاوت بين ضياء القمر وبرهان الشمس ليعرف هذا من هذا، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَاتِ (٣) لَقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٥، ٦]، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ الآية [البقرة: ١٨٩].

قال ابن جريج، عن عبد الله بن كثير فى قوله: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ قال: ظلمة الليل وسُدفة^(٤) النهار.

وقال ابن جريج عن مجاهد: الشمس آية النهار، والقمر آية الليل ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ قال: السواد الذى فى القمر، وكذلك^(٥) خلقه الله تعالى.

وقال ابن جريج: قال ابن عباس: كان القمر يضىء كما تضىء الشمس، والقمر آية الليل، والشمس آية النهار ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾: السواد الذى فى القمر.

وقد روى أبو جعفر بن جرير من طرق متعددة جيدة: أن ابن الكوّاء سأل [أمير المؤمنين]^(٦) على ابن أبى طالب فقال: يا أمير المؤمنين، ما هذه اللطخة التى فى القمر؟ فقال: ويحك. أما تقرأ القرآن؟ ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ فهذه محوه.

وقال قتادة فى قوله: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾: كنا نحدث أن^(٧) محو آية الليل سواد القمر الذى فيه، وجعلنا آية النهار مبصرة، أى: منيرة، خلق الشمس أنور من القمر وأعظم.

وقال ابن أبى نجیح عن ابن عباس: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ قال: ليلاً ونهاراً، كذلك خلقهما الله، عز وجل^(٨).

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنْقِهِ وَنُخْرِجُهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)﴾.

يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بنى آدم: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنْقِهِ﴾ وطائره: هو ما طار عنه من عمله، كما قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: من خير وشر، يلزم به ويجازى عليه ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ. مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧،

(٣) فى ف، أ: ﴿إن فى ذلك لآيات﴾ وهو خطأ.

(٦) زيادة من ف، أ.

(٢) فى ت، ف: «وطلوع».

(٥) فى ف: «ولذلك».

(٨) فى ف: «الله تعالى».

(١) فى ت: «يعرفونها».

(٤) فى ت، ف، أ: «وسدف».

(٧) فى ت: «ما نجد كان».

[١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كَرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ . إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الأنفطار: ١٠ - ١٤]، قال: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]، وقال: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه، قليله وكثيره، ويكتب عليه ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً. وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي الزبير، عن جابر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَطَائِرُ كُلِّ إِنْسَانٍ فِي عُنُقِهِ». قال ابن لهيعة: يعنى الطيرة^(١).

وهذا القول من ابن لهيعة في تفسير هذا الحديث، غريب جداً، والله أعلم.

وقوله [تعالى]^(٢): ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ أى: نجتمع له عمله كله في كتاب يعطاه يوم القيامة، إما بيمينه إن كان سعيداً، أو بشماله إن كان شقيماً ﴿مَنْشُورًا﴾ أى: مفتوحاً يقرؤه هو وغيره، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ . بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٣ - ١٥]، ولهذا قال تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أى: إنك تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك غير ما عملت؛ لأنك ذكرت جميع ما كان منك، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمى.

وقوله [تعالى]^(٤): ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ إنما ذكر العنق؛ لأنه عضو لا نظير له في^(٥) الجسد، ومن ألزم بشيء فيه فلا محيد له عنه، كما قال الشاعر^(٦):

أذهب بها اذهب بها طوقتها طرق الحمامة

قال قتادة، عن جابر بن عبد الله، رضى الله عنه^(٧)، عن نبي الله ﷺ أنه قال: «لا عدوى ولا طيرة وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه». كذا رواه ابن جرير^(٨).

وقد رواه الإمام عبد بن حميد، رحمه الله، في مسنده متصلاً، فقال: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي الزبير، عن جابر [رضى الله عنه]^(٩) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «طير كل عبد في عنقه»^(١٠).

وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، حدثنا عبد الله، حدثنا ابن لهيعة، حدثني يزيد: أن أبا الخير حدثه: أنه سمع عقبة بن عامر [رضى الله عنه]^(١١) يحدث عن النبي ﷺ قال: «ليس من عمل يوم إلا وهو يختم عليه، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة: ياربنا، عبدك فلان، قد حبسته؟ فيقول الرب جل جلاله: اختموا له على مثل عمله، حتى يبرأ أو يموت»^(١٢).

(١) المسند (٣/٣٦٠)، وقال الهيثمي في المجمع (٤٩/٧): «فيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف، وبقي رجاله رجال الصحيح».

(٢) زيادة من ت. (٣) في ت، ف: «أى أنت». (٤) زيادة من ت. (٥) في ت، أ: «من».

(٦) هو أبو أحمد بن جحش، والأبيات في السيرة النبوية لابن هشام (١/٥٠٠).

(٧) في ف، أ: «عنهما».

(٨) تفسير الطبري (٣٩/١٥).

(٩) زيادة من ف، أ.

(١٠) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١٠٥٣).

(١١) زيادة من ف، أ.

(١٢) المسند (١٤٦/٤).

إسناده جيد قوى ، ولم يخرجوه .

وقال معمر، عن قتادة : ﴿ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ قال : عمله . ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ قال : نخرج ذلك العمل ﴿ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾ قال معمر : وتلا الحسن البصري ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ [ق: ١٧] يا ابن آدم ، بسطت لك صحيفتك^(١) ، وוכל بك ملكان كريمان ، أحدهما عن يمينك والآخر عن يسارك ، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذى عن يسارك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل^(٢) ما شئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت فى عنقك معك فى قبرك ، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً ﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ قد عدل - والله^(٣) - عليك من جعلك حسيب نفسك .

هذا من حسن^(٤) كلام الحسن ، رحمه الله .

﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (١٥) .

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق واقتفى آثار النبوة، فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة^(٥) لنفسه ﴿ وَمَنْ ضَلَّ ﴾ أى : عن الحق، وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجنى على نفسه، وإنما يعود وبال ذلك عليه .

ثم قال : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أى : لا يحمل أحد ذنب أحد ، ولا يجنى جان إلا على نفسه ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلٍ لَا يَحْمِلْ مِنْهُ شَيْءٌ ﴾ [فاطر: ١٨] .

ولا منافاة بين هذا وبين قوله تعالى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ١٣] ، وقوله [تعالى] ^(٦) : ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل: ٢٥] ، فإن الدعاة عليهم إثم ضلالهم فى أنفسهم ، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك ، ولا يحملوا عنهم شيئاً . وهذا من عدل الله ورحمته بعباده .

وكذا قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ إخبار عن عدله تعالى ، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه ، كما قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ [الملك: ٨ ، ٩] ، وكذا قوله [تعالى] ^(٧) : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر: ٧١] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا

(١) فى ت ، ف ، أ : « صحيفة » . (٢) فى ت ، ف ، أ : « فاملك » . (٣) فى ت ، ف ، أ : « الله » .

(٤) فى ف : « أحسن » .

(٥) فى ف : « الحمد » .

(٦) (٧ ، ٦) زيادة من ت .

نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾ [فاطر: ٣٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسول إليه ، ومن ثم طعن جماعة من العلماء فى اللفظة التى جاءت مقحمة فى صحيح البخارى عند قوله تعالى: ﴿إِنْ رَحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

حدثنا عبيد الله بن سعد، حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن صالح بن كيسان، عن الأعرج بإسناده إلى (١) أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: « اختصمت الجنة والنار » فذكر الحديث إلى أن قال: « وأما الجنة فلا يظلم الله من خلقه أحداً، وأنه ينشئ للنار خلقاً فيلقون فيها، فتقول: هل من مزيد؟ (٢) » ثلاثاً ، وذكر تمام الحديث (٣).

فإن هذا إنما جاء فى الجنة لأنها دار فضل ، وأما النار فإنها دار عدل، لا يدخلها أحد إلا بعد الإعذار إليه وقيام الحجة عليه. وقد تكلم جماعة من الحفاظ فى هذه اللفظة (٤) وقالوا: لعله انقلب على الراوى بدليل ما أخرجه فى الصحيحين واللفظ للبخارى من حديث عبد الرزاق (٥)، عن معمر، عن همام، عن أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ (٦): « تحاجت الجنة والنار » فذكر الحديث إلى أن قال: « فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع فيها قدمه، فتقول: قط، قط، فهناك تمتلئ ويزوى (٧) بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله من خلقه أحداً ، وأما الجنة فينشئ الله لها خلقاً (٨).

بقى ههنا مسألة قد اختلف الأئمة (٩)، رحمهم الله تعالى، فيها (١٠) قديماً وحديثاً وهى: الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآباؤهم كفار، ماذا حكمهم؟ وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف، ومن مات فى الفترة ولم تبلغه (١١) الدعوة. وقد ورد فى شأنهم أحاديث أنا ذاكها لك بعون الله [تعالى] (١٢) وتوفيقه ثم نذكر فصلاً ملخصاً من كلام الأئمة فى ذلك، والله (١٣) المستعان .

فالحديث الأول: عن الأسود بن سريع:

قال الإمام أحمد: حدثنا على بن عبد الله، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبى، عن قتادة، عن الأحنف بن قيس، عن الأسود بن سريع [رضى الله عنه] (١٤) أن نبى الله ﷺ قال: « أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئاً ، ورجل أحمق ، ورجل هرّم ، ورجل مات فى فترة ، فأما الأصم فيقول: رب، قد (١٥) جاء الإسلام وما أسمع شيئاً ، وأما الأحمق فيقول: رب، لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفونى (١٦) بالبر ، وأما الهرّم فيقول: رب، لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً،

(١) فى ت ، ف ، أ: « عن » . (٢) فى ت ، ف ، أ: « هل من مزيد؟ ويلقون فيها فتقول: هل من مزيد » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٧٤٤٩).

(٤) فى ت: « اللفظة » وهو خطأ. (٥) فى ت: « وعبد الرزاق » . (٦) فى ف: « قال رسول الله » .

(٧) فى ف: « ويزوى » .

(٨) صحيح البخارى برقم (٤٨٥٠) وصحيح مسلم برقم (٢٨٤٦).

(٩) فى أ: « العلماء » . (١٠) فى ف: « اختلف العلماء فيها » . (١١) فى ت: « ومن لم تبلغه » .

(١٢) زيادة من ت ، ف . (١٣) فى ت ، ف ، أ: « والله » . (١٤) زيادة من ف ، أ .

(١٥) فى ف: « لقد » . (١٦) فى ت: « يحذفونى » .

وأما الذى مات فى الفترة فيقول: رب، ما أتانى لك رسول . فيأخذ موافقهم ليُطعنه^(١) فيرسل إليهم أن ادخلوا النار ، فوالذى نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً^(٢) .

وبالإسناد عن قتادة، عن الحسن، عن أبى رافع، عن أبى هريرة ، مثل هذا الحديث غير أنه قال فى آخره : « من^(٣) دخلها كانت عليه برداً وسلاماً ، ومن لم يدخلها يسحب إليها^(٤) » .

وكذا رواه إسحاق بن راهويه، عن معاذ بن هشام، ورواه البيهقي فى كتاب الاعتقاد، من حديث حنبل^(٥) بن إسحاق، عن على بن عبد الله المدنى، به^(٦) . وقال: هذا إسناد صحيح ، وكذا رواه حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن أبى رافع، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعة كلهم يدلى على الله بحجة» فذكر نحوه^(٧) .

ورواه ابن جرير، من حديث مَعْمَرٍ، عن هَمَامٍ، عن أبى هريرة، فذكره موقوفاً ، ثم قال أبو هريرة: اقروا إن شئتم: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(٨) .

وكذا رواه معمر عن عبد الله بن طاوس ، عن أبيه ، عن أبى هريرة موقوفاً .

الحديث الثانى: عن أنس بن مالك:

قال أبو داود الطيالسى: حدثنا الربيع، عن يزيد بن أبان^(٩) قال: قلنا لأنس: يا أبا حمزة، ما تقول فى أطفال المشركين ؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكن لهم سيئات فيعذبوا^(١٠) بها فيكونوا من أهل النار ، ولم يكن لهم حسنات فيجازوا بها فيكونوا من ملوك أهل الجنة هم من خدم أهل الجنة»^(١١) .

الحديث الثالث : عن أنس أيضاً:

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خَيْثَمَةَ، حدثنا جرير، عن لَيْثٍ، عن عبد الوارث، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بأربعة يوم القيامة: بالمولود، والمعنوه، ومن مات فى الفترة، والشيخ الفانى لهم، كلهم يتكلم بحجته، فيقول الرب تبارك وتعالى لعنك من النار: ابرز. ويقول لهم: إني كنت أبعث إلى عبادى رسلاً من أنفسهم، وإني رسول نفسى إليكم ادخلوا هذه. قال: فيقول من كتب عليه الشقاء: يارب، أنى ندخلها ومنها كنا نفر ؟ قال: ومن كتبت عليه السعادة يمضى فيقتحم فيها مسرعاً، قال: فيقول الله تعالى: أنتم لرسلى أشد تكذيباً ومعصية، فيدخل هؤلاء الجنة، وهؤلاء النار» .

(١) فى ت، ف: « لتطعنه » .

(٢) المسند (٢٤/٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٢١٦/٧): « رجاله رجال الصحيح » .

(٣) فى ف: « فمن » .

(٤) المسند (٢٤/٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٢١٦/٧): « رجاله رجال الصحيح » .

(٥) فى ف، أ: « أحمد » .

(٦) الاعتقاد (ص ١٦٩) .

(٧) رواه ابن أبى عاصم فى السنة برقم (٤٠٤) من طريق الحسن بن موسى، عن حماد بن سلمة به .

(٨) تفسير الطبرى (٤١/١٥) .

(٩) فى ف: « زيد هو أبان » .

(١٠) فى ت: « ليعذبوا » .

(١١) رواه أبو نعيم فى الحلية (٣٠٨/٦) من طريق سفيان الثورى، عن الربيع بن صبيح به، وضعفه الحافظ ابن حجر فى الفتح (٢٤٦/٣) وله شواهد من حديث أبى سعيد الخدرى، وسمرة بن جندب رضى الله عنهما. وكان فى متن الحديث نكارة لمخالفته ما ورد فى الصحيحين أولاً، ولأن الله وصف خدام أهل الجنة بالخلود فقال: ﴿وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانِ مُخَلَّدُونَ﴾ [الإنسان: ١٩] وسيأتى تضعيف الحافظ ابن كثير له، والله تعالى أعلم.

وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البزار، عن يوسف بن موسى، عن جرير بن عبد الحميد، بإسناده مثله^(١).

الحديث الرابع: عن البراء بن عازب، رضى الله عنه:

قال الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده أيضاً: حدثنا قاسم بن أبى شيبه، حدثنا عبد الله - يعنى ابن داود - عن عمر بن ذر، عن يزيد بن أمية، عن البراء قال: سئل رسول الله ﷺ عن أطفال المسلمين قال: «هم مع آبائهم». وسئل عن أولاد المشركين فقال: «هم مع آبائهم». فقيل: يارسول الله، ما يعملون؟ قال: «الله أعلم بهم»^(٢).

ورواه عمر بن ذر، عن يزيد بن أمية، عن رجل، عن البراء، عن عائشة، فذكره^(٣).

الحديث الخامس: عن ثوبان:

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار فى مسنده: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا ريحان بن سعيد، حدثنا عباد بن منصور، عن أيوب، عن أبى قلابه، عن أبى أسماء، عن ثوبان؛ أن النبى ﷺ عظم شأن المسألة، قال: «إذا كان يوم القيامة، جاء أهل الجاهلية يحملون أوثانهم على ظهورهم فيسألهم ربهم، فيقولون: ربنا لم ترسل إلينا رسولا، ولم يأتنا لك أمر، ولو أرسلت إلينا رسولا لكننا أطوع عبادك، فيقول لهم ربهم: أرايتم إن أمرتكم بأمر تطيعونى؟ فيقولون: نعم، فيأمرهم^(٤) أن يعمدوا إلى جهنم فيدخلوها، فينطلقون حتى إذا دنوا منها وجدوا لها تغيطاً وزفيراً، فرجعوا إلى ربهم فيقولون: ربنا أخرجنا - أو: أخرجنا - منها، فيقول لهم: ألم ترعموا أنى إن أمرتكم بأمر تطيعونى؟ فيأخذ على ذلك موافقهم. فيقول: اعمدوا إليها، فادخلوها. فينطلقون حتى إذا رأوها فرقوا ورجعوا، فقالوا: ربنا فرقنا منها، ولا نستطيع أن ندخلها. فيقول: ادخلوها داخرين». فقال نبى الله ﷺ: «لو دخلوها أول مرة كانت عليهم برداً وسلاماً». ثم قال البزار: ومتن هذا الحديث غير معروف إلا من هذا الوجه، لم يروه عن أيوب إلا عباد، ولا عن عباد إلا ريحان بن سعيد^(٥).

قلت: وقد ذكره ابن حبان فى ثقاته، وقال يحيى بن معين والنسائى: لا بأس به، ولم يرضه أبو داود. وقال أبو حاتم: شيخ لا بأس به يكتب حديثه ولا يحتج به.

الحديث السادس: عن أبى سعيد - سعد بن مالك بن سنان الخدرى:

قال الإمام محمد بن يحيى الذهلى: حدثنا سعيد بن سليمان، عن فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «الهالك فى الفترة والمعتوه والمولود: يقول الهالك

(١) مسند أبى يعلى (٢٢٥/٧) ومسند البزار برقم (٢١٧٧) «كشف الأستار» وليث بن أبى سليم ضعيف، وعبد الوارث قال عنه البخارى: «منكر الحديث».

(٢) وذكره المؤلف فى جامع المسانيد والسنن (٨٧/٣٧) من مسند أبى يعلى، ولم أقع عليه فى المطبوع من المسند.

(٣) لم أقع على هذا الطريق، ولعللى أستدركه فيما بعد - إن شاء الله. وروى الإمام أحمد فى مسنده (٨٤/٦) من طريق بهية عن عائشة نحوه.

(٤) فى ت: «فأمرهم».

(٥) مسند البزار برقم (٣٤٣٣) «كشف الأستار».

فى الفترة: لم يأتنى كتاب ، ويقول المعتوه: رب، لم تجعل لى عقلاً أعقل به خيراً ولا شراً ، ويقول المولود: رب لم أدرك العقل فترفع^(١) لهم نار فيقال لهم^(٢): ردوها ، قال: فيردها من كان فى علم الله سعيداً لو أدرك العمل ، ويمسك عنها من كان فى علم الله شقيماً لو أدرك العمل ، فيقول: إياى عصيتم، فكيف لو أن رسلى أتتكم ؟ .

وكذا رواه البزار، عن محمد بن عمر بن هياج الكوفى، عن عبيد الله^(٣) بن موسى، عن فضيل ابن مرزوق، به^(٤). ثم قال: لا يعرف من حديث أبى سعيد إلا من طريقه، عن عطية عنه ، وقال فى آخره: « فيقول الله: إياى عصيتم فكيف برسلى بالغيب؟ » .

الحديث السابع: عن معاذ بن جبل، رضى الله عنه:

قال هشام بن عمار ومحمد بن المبارك الصورى^(٥): حدثنا عمر بن واقد، عن يونس بن حلبس، عن أبى إدريس^(٦) الخولانى، عن معاذ بن جبل، عن نبي الله ﷺ قال: « يؤتى يوم القيامة بالمسوخ عقلاً، وبالهالك فى الفترة، وبالهالك صغيراً. فيقول المسوخ: يارب، لو آتيتنى عقلاً ماكان^(٧) من آتيتى عقلاً بأسعد منى - وذكر فى الهالك فى الفترة والصغير نحو ذلك - فيقول الرب عز وجل: إنى آمركم بأمر فتطيعونى ؟ فيقولون: نعم، فيقول: اذهبوا فادخلوا النار - قال: ولو دخلوها ما ضربتهم - فتخرج عليهم قوابص، فيظنون أنها قد أهلكت ما خلق الله من شىء، فيرجعون سراعاً، ثم يأمرهم الثانية فيرجعون كذلك، فيقول الرب عز وجل: قبل أن أخلقكم علمت ما أنتم عاملون، وعلى علمى خلقتكم، وإلى علمى تصيرون ، ضميمهم ، فتأخذهم النار^(٨). »

الحديث الثامن: عن أبى هريرة، رضى الله عنه:

قد تقدم روايته مندرجة مع رواية الأسود بن سريع، رضى الله عنه:

وفى الصحيحين، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: « كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه ويُنصرّانه ويُمجّسانه، كما تنتج^(٩) البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ »^(١٠).

وفى رواية قالوا: يارسول الله، أفرأيت من يموت صغيراً؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»^(١١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا عبد الرحمن بن ثابت، عن عطاء بن قرة، عن عبد الله بن ضمرة، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ - فيما أعلم، شك موسى - قال:

(١) فى ف: « فرفع ». (٢) فى ت: « فيقول لهم ».

(٣) فى ت: « عبد الله ».

(٤) مسند البزار برقم (٢١٧٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٢١٦/٧) « فيه عطية وهو ضعيف ».

(٥) فى ت: « الغورى ». (٦) فى ت: « عن أبى ذر ».

(٧) فى ت: « ما مات ».

(٨) ورواه ابن عدى فى الكامل (١١٨/٥) من طريق عبد الصمد بن عبد الله، عن هشام بن عمار، عن عمرو بن واقد به. وقال بعد أن ساق أحاديث عمرو بن واقد عن يونس: « كلها غير محفوظة إلا من رواية عمرو بن واقد عن يونس، عن أبى إدريس، عن معاذ ابن جبل وهو من الشاميين ممن يكتب حديثه ولا يحتج به ».

(٩) فى ت، ف: « تولد ».

(١٠) صحيح البخارى برقم (١٣٨٥) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٨).

(١١) الرواية فى صحيح مسلم برقم (٢٦٥٨).

«ذراى المسلمين فى الجنة ، يكفلهم إبراهيم عليه السلام»^(١)»^(٢).

وفى صحيح مسلم، عن عياض بن حمار، عن رسول الله ﷺ، عن الله، عز وجل، أنه قال: «إنى خلقت عبادى حنفاء»^(٣). وفى رواية لغيره «مسلمين».

الحديث التاسع: عن سمرة، رضى الله عنه:

رواه الحافظ أبو بكر البرقانى فى كتابه «المستخرج على البخارى» من حديث عوف الأعرابى، عن أبى رجاء العطاردى، عن سمرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة» فناده الناس: يارسول الله، وأولاد المشركين؟ قال: «وأولاد المشركين»^(٤).

وقال الطبرانى: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا عقبة بن مكرم الضبى، عن عيسى بن شعيب، عن عباد بن منصور، عن أبى رجاء، عن سمرة قال: سألنا رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين فقال: «هم خدام أهل الجنة»^(٥).

الحديث العاشر: عن عم حسناء^(٦):

قال: [الإمام]^(٧) أحمد: [حدثنا إسحاق، يعنى الأزرق]^(٨)، أخبرنا رَوْح، حدثنا عوف، عن حسناء^(٩) بنت معاوية من بنى صريم قالت: حدثنى عمى قال: قلت: يارسول الله، من فى الجنة؟ قال: «النبى فى الجنة، والشهيد فى الجنة، والمولود فى الجنة، والوثيد فى الجنة»^(١٠).

فمن العلماء من ذهب إلى التوقف^(١١) فيهم لهذا الحديث، ومنهم من جزم لهم بالجنة، لحديث سمرة بن جندب فى صحيح البخارى: أنه عليه الصلاة والسلام^(١٢) قال فى جملة ذلك المنام، حين مرّ على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان، فقال له جبريل: هذا إبراهيم، عليه السلام، وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين، قالوا: يارسول الله، وأولاد المشركين؟ قال «نعم، وأولاد المشركين»^(١٣).

ومنهم من جزم لهم بالنار، لقوله عليه السلام^(١٤): «هم مع آبائهم».

ومنهم من ذهب إلى أنهم يمتحنون يوم القيامة فى العرصات، فمن أطاع دخل الجنة وانكشف علم الله فيهم بسابق السعادة، ومن عصى دخل النار داخراً، وانكشف علم الله فيه بسابق الشقاوة.

(١) فى ت: «عليه الصلاة والسلام».

(٢) المسند (٣٢٦/٢) وقال الهيمى فى المجمع (٢١٩/٧): «فيه عبد الرحمن بن ثابت وثقه ابن المدينى وجماعة، وضعفه ابن معين وغيره، وبقيه رجاله ثقات».

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥).

(٤) أصله فى صحيح البخارى برقم (٧٠٤٧) من طريق عوف به نحوه.

(٥) المعجم الكبير (٢٤٤/٧) وقال الهيمى فى المجمع (٢١٩/٧): «وفيه عبادة بن منصور وثقة يحيى القطان وفيه ضعف».

(٦) فى ت، ف، أ: «خسساء». (٧) زيادة من ت، أ. (٨) زيادة من ف، أ، والمسند.

(٩) فى ت، ف، أ: «خسساء».

(١٠) المسند (٥٨/٥) وقال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٢٤٦/٣): «إسناده حسن».

(١١) فى ت، ف، أ: «الوقف». (١٢) فى ف، أ: «صلى الله عليه وسلم».

(١٣) صحيح البخارى برقم (٧٠٤٧).

(١٤) فى ت: «عليه الصلاة والسلام»، وفى ف، أ: «صلى الله عليه وسلم». (١٥) فى ت، ف، أ: «بتقدم».

وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها، وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض. وهذا القول هو الذى حكاه الشيخ أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعري، رحمه الله، عن أهل السنة والجماعة، وهو الذى نصره الحافظ أبو بكر البيهقي فى «كتاب الاعتقاد» وكذلك غيره من محققى العلماء والحفاظ النقاد.

وقد ذكر الشيخ أبو عمر بن عبد البر النَّمَرى بعد ماتقدم من أحاديث الامتحان، ثم قال: وأحاديث هذا الباب ليست قوية، ولا تقوم بها حجة وأهل العلم ينكرونها؛ لأن الآخرة دار جزاء وليست دار عمل ولا ابتلاء، فكيف يكلفون دخول النار وليس ذلك فى وسع المخلوقين، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها؟!

والجواب عما قال: أن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح، كما قد نص على ذلك غير واحد من أئمة العلماء، ومنها ما هو حسن، ومنها ما هو ضعيف يقوى^(١) بالصحيح والحسن. وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متعاضدة على هذا النمط، أفادت الحجة عند الناظر فيها، وأما قوله: «إن الآخرة دار جزاء»، فلا شك أنها دار جزاء، ولا ينافى التكليف فى عرصاتها قبل دخول الجنة أو النار، كما حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري عن مذهب أهل السنة والجماعة، من امتحان الأطفال، وقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكْشِفُ عَنْ سَاقٍ وَيَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ﴾ [ن: ٤٢]، وقد ثبتت السنة فى الصحاح^(٢) وغيرها: أن المؤمنين يسجدون لله يوم القيامة، وأما المنافق فلا يستطيع ذلك ويعود ظهره طبقاً واحداً كلما أراد السجود^(٣) خرَّ لقفاه^(٤).

وفى الصحيحين فى الرجل الذى يكون آخر أهل النار خروجا منها أن الله يأخذ عهوده ومواثيقه ألا يسأل غير ما هو فيه، ويتكرر ذلك مراراً، ويقول الله تعالى: يا ابن آدم، ما أغدرك! ثم يأذن له فى دخول الجنة^(٥).

وأما قوله: «وكيف يكلفهم^(٦) دخول النار، وليس ذلك فى وسعهم؟» فليس هذا بمانع من صحة الحديث، فإن الله يأمر العباد يوم القيامة بالجواز على الصراط، وهو جسر على جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة، ويمر المؤمنون عليه بحسب أعمالهم، كالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، ومنهم الساعى ومنهم الماشى، ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم المكدوش على وجهه فى النار، وليس ماورد فى أولئك بأعظم من هذا بل هذا أطم وأعظم، وأيضاً فقد ثبتت السنة بأن الدجال يكون معه جنة ونار، وقد أمر الشارع المؤمنين الذين يدركونه أن يشرب أحدهم من الذى يرى أنه نار، فإنه يكون عليه برداً وسلاماً، فهذا نظير ذلك، وأيضاً فإن الله تعالى [قد]^(٧) أمر بنى إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم، فقتل بعضهم بعضاً حتى قتلوا فيما قيل فى غداة واحدة سبعين ألفاً، يقتل الرجل أباه وأخاه وهم فى عماية غمامة أرسلها الله عليهم، وذلك عقوبة لهم على عبادتهم العجل، وهذا أيضاً شاق على النفوس جداً لا يتقاصر^(٨) عما ورد فى الحديث المذكور، والله أعلم.

(١) فى ف، أ: «يتقوى». (٢) فى ت: «والصحيح». (٣) فى ف: «سجوداً».

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٩١٩) من حديث أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه.

(٥) صحيح البخارى برقم (٨٠٦) وصحيح مسلم برقم (١٨٢) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

(٦) فى ت، ف: «كلفهم الله»، وفى أ: «يكفهم الله النار». (٧) زيادة من ت، ف، أ. (٨) فى ف: «لا يتقاصر».

فصل

فإذا تقرر هذا ، فقد اختلف الناس فى ولدان المشركين على أقوال :

أحدها : أنهم فى الجنة ، واحتجوا بحديث سَمُرَةَ أنه ، عليه السلام ^(١) ، رأى مع إبراهيم أولاد المسلمين وأولاد المشركين وبما تقدم فى ^(٢) رواية أحمد عن حسناء ^(٣) ، عن عمها أن رسول الله ﷺ قال : « والمولود فى الجنة » . وهذا استدلال صحيح ، ولكن أحاديث الامتحان أخص منه . فمن علم الله [عز وجل] ^(٤) منه أنه يطيع جعل ^(٥) روحه فى البرزخ مع إبراهيم وأولاد المسلمين الذين ماتوا على الفطرة ، ومن علم منه أنه لا يجيب ، فأمره إلى الله تعالى ، ويوم القيامة يكون فى النار كما دلت عليه أحاديث الامتحان ، ونقله الأشعرى عن أهل السنة [والجماعة] ^(٦) ، ثم من هؤلاء القائلين بأنهم فى الجنة من يجعلهم مستقلين فيها ، ومنهم من يجعلهم خدماً لهم ، كما جاء فى حديث على بن زيد ، عن أنس ، عند أبى داود الطيالسى ^(٧) . وهو ضعيف ، والله أعلم .

القول الثانى : أنهم مع آبائهم فى النار ، واستدل عليه بما رواه الإمام أحمد بن حنبل عن أبى المغيرة حدثنا عتبة بن ضمرة ^(٨) بن حبيب ، حدثنى عبد الله بن أبى قيس مولى غطفان ، أنه أتى عائشة فسألها عن ذرارى الكفار فقالت : قال رسول الله ﷺ : « هم تبع لآبائهم » . فقلت : يارسول الله ، بلا عمل ؟ فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » ^(٩) .

وأخرجه أبو داود من حديث محمد بن حرب ، عن محمد بن زياد الألهانى ، سمعت عبد الله بن أبى قيس سمعت ، عائشة تقول : سألت رسول الله ﷺ عن ذرارى المؤمنين قال ^(١٠) : « هم من آبائهم » . قلت : فذرارى المشركين ؟ قال : « هم مع آبائهم » قلت : بلا عمل ؟ قال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » ^(١١) .

ورواه [الإمام] ^(١٢) أحمد أيضاً ، عن وكيع ، عن أبى عقيل يحيى بن المتوكل - وهو متروك - عن مولاته بُهَيَّة عن عائشة ؛ أنها ذكرت لرسول الله ﷺ أطفال المشركين فقال : « إن شئت أسمعك تضاعفهم فى النار » ^(١٣) .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : حدثنا عثمان بن أبى شيبة ، عن محمد بن فضيل بن ^(١٤) غزوان ، عن محمد بن عثمان ، عن زاذان عن على ، رضى الله عنه ، قال : سألت خديجة رسول الله ﷺ عن ولدين لها ماتا فى الجاهلية فقال : « هما فى النار » . قال : فلما رأى الكراهية فى وجهها [قال] ^(١٥) : « لو رأيت مكانهما لأبغضتهما » . قالت : فولدى منك ؟ قال : [قال] « فى الجنة » . قال : ثم قال رسول الله

(١) فى ف ، أ : « صلى الله عليه وسلم » .

(٢) فى ت ، ف : « من » .

(٣) فى ت ، ف ، أ : « خنساء » .

(٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) فى ت ، ف ، أ : « جعل الله » .

(٦) زيادة من ف ، أ .

(٧) سبق الحديث والكلام عليه عند هذه الآية .

(٨) فى ف : « حمزة » .

(٩) المسند (٦/٨٤) .

(١٠) فى ف ، أ : « فقال » .

(١١) سنن أبى داود برقم (٤٧١٢) .

(١٢) زيادة من ف ، أ .

(١٣) المسند (٦/٢٠٨) .

(١٤) زيادة من ف ، أ ، والمسند .

(١٥) فى ت : « عن » .

وَاتَّبَعْتَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ بِإِيمَانٍ [أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ] ^(٢) ﴿[الطور: ٢١] ^(٣) .

وهذا حديث غريب؛ فإن محمد بن عثمان هذا مجهول الحال، وشيخه زاذان لم يدرك علياً، والله أعلم .

وروى أبو داود من حديث ابن أبي زائدة، عن أبيه، عن الشعبي قال: قال رسول الله ﷺ: «الوائدة والمؤودة في النار» . ثم قال الشعبي: حدثني به علقمة، عن أبي وائل، عن ابن مسعود ^(٤) .

وقد رواه جماعة عن داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن علقمة، عن سلمة بن قيس الأشجعي قال: أتيت أنا وأخي النبي ﷺ فقلنا: إن أمنا ماتت في الجاهلية، وكانت تقرأ الضيف وتصل الرحم، وأنها وأدت أختاً لنا في الجاهلية لم تبلغ الحنث. فقال: «الوائدة والمؤودة في النار، إلا أن تدرك الوائدة الإسلام، فتسلم» . وهذا إسناد حسن ^(٥) .

والقول الثالث: التوقف فيهم، واعتمدوا على قوله ﷺ: «الله أعلم بما كانوا عاملين» . وهو في الصحيحين من حديث جعفر بن أبي إياس، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: سئل رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين قال ^(٦) : «الله أعلم بما كانوا عاملين» ^(٧) . وكذلك هو في الصحيحين، من حديث الزهري، عن عطاء بن يزيد، وعن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: أنه سئل عن أطفال المشركين، فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين» ^(٨) .

ومنهم من جعلهم من أهل الأعراف. وهذا القول يرجع إلى قول من ذهب إلى أنهم من أهل الجنة؛ لأن الأعراف ليس دار قرار، ومآل أهلها إلى الجنة كما تقدم تقرير ذلك في «سورة الأعراف»، والله أعلم .

فصل

وليعلم أن هذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين، فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء كما حكاه القاضي أبو يعلى بن الفراء الحنبلي، عن الإمام أحمد أنه قال: لا يختلف فيهم أنهم من أهل الجنة. وهذا هو المشهور بين الناس، وهو الذي نقطع ^(٩) به إن شاء الله، عز وجل . فأما ما ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر، عن بعض العلماء: أنهم توقفوا في ذلك، وأن الولدان كلهم تحت شية ^(١٠) الله، عز وجل ^(١١) . قال أبو عمر: ذهب إلى هذا القول جماعة من أهل الفقه والحديث

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) زوائد المسند (١/١٣٤).

(٣) سنن أبي داود برقم (٤٧١٧).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٧٨/٣) من طريق ابن أبي عدي، عن داود بن أبي هند به.

(٥) في ت، ف: «فقال» .

(٦) صحيح البخاري برقم (١٣٨٣) وصحيح مسلم برقم (٢٦٦٠).

(٧) صحيح البخاري برقم (١٣٨٤) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٩).

(٨) في ف: «يقطع» . (٩) في ت، ف، أ: «مشية» . (١٠) في أ: «تعالى» .

منهم: حماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وابن المبارك، وإسحاق بن راهويه وغيرهم قالوا: وهو يشبه ما رسم مالك في موطنه في أبواب القدر، وما أورده من الأحاديث في ذلك، وعلى ذلك أكثر أصحابه. وليس عن مالك فيه شيء منصوص، إلا أن المتأخرين من أصحابه ذهبوا إلى أن أطفال المسلمين في الجنة وأطفال المشركين خاصة في المشيئة^(١). انتهى كلامه وهو غريب جداً.

وقد ذكر أبو عبد الله القرطبي في كتاب «التذكرة»^(٢) نحو ذلك أيضاً، والله أعلم.

وقد ذكروا في ذلك حديث عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين قالت: دعى النبي ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يارسول الله، طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه، فقال: «أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم». رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه^(٤).

ولما كان الكلام في هذه المسألة يحتاج إلى دلائل صحيحة جيدة، وقد يتكلم فيها من لا علم عنده عن الشارع، كره جماعة من العلماء الكلام فيها، روى ذلك عن ابن عباس، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، ومحمد بن الحنفية وغيرهم. وأخرج ابن حبان في صحيحه، عن جرير بن حازم سمعت أبا رجاء العطاردي، سمعت ابن عباس وهو على المنبر يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال أمر هذه الأمة موتياً - أو مقارباً - ما لم يتكلموا في الولدان والقدر».

قال ابن حبان: يعني أطفال المشركين.

وهكذا رواه أبو بكر البزار من طريق جرير بن حازم، به^(٥). ثم قال: وقد رواه جماعة عن أبي رجاء، عن ابن عباس موقوفاً.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا

تَدْمِيرًا (١٦)﴾.

اختلف القراء في قراءة قوله: ﴿أَمَرْنَا﴾ فالمشهور قراءة التخفيف، واختلف المفسرون في معناها، فقليل: معناها أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمراً قديراً، كقوله تعالى: ﴿أَتَاَهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤]، فإن الله لا يأمر بالفحشاء، قالوا: معناه: أنه سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب.

وقيل: معناه: أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة. رواه ابن جريج^(٦)، عن ابن عباس، وقاله سعيد بن جبير أيضاً.

(١) في ف: «وأطفال الكفار تحت المشيئة».

(٢) التذكرة: (ص ٥١١ - ٥١٧).

(٣) في ف، أ: «رسول الله».

(٤) المسند (٦/٤١) وصحيح مسلم برقم (٢٦٦٢) وسنن أبي داود برقم (٤٧١٣) وسنن النسائي (٥٧/٤) وسنن ابن ماجه برقم (٨٢).

(٥) صحيح ابن حبان برقم (١٨٢٤) «موارد»، ومسند البزار برقم (٢١٨٠) «كشف الاستار».

(٦) في أ: «ابن جريج».

وقال ابن جرير: وقد يحتمل أن يكون معناه جعلناهم أمراء.

قلت: إنما يجيء هذا^(١) على قراءة من قرأ ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ قال على بن طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ يقول: سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكتهم^(٢) بالعذاب، وهو قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وكذا قال أبو العالية ومجاهد والربيع بن أنس.

وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ يقول: أكثرنا عددهم، وكذا قال عكرمة، والحسن، والضحاك، وقتادة، وعن مالك عن الزهري: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾: أكثرنا.

وقد استشهد بعضهم بالحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا روح بن عبادة، حدثنا أبو نعيمة العدوي، عن مسلم بن بديل، عن إياس بن زهير، عن سويد بن هبيرة، عن النبي ﷺ قال: «خير مال امرئ له مهرة مأمورة أو سكة مأبورة».

قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام، رحمه الله، في كتابه «الغريب»: المأمورة: كثيرة النسل. والسكة: الطريقة المصطفة من النخل، والمأبورة: من التأبير، وقال بعضهم: إنما جاء هذا متناسباً كقوله: «مأزورات غير مأجورات»^(٣).

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (١٧).

يقول تعالى منذراً كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ بأنه قد أهلك أمماً من المكذبين للرسول من بعد نوح، ودل هذا على^(٤) أن القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام، كما قاله^(٥) ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة^(٦) قرون كلهم على الإسلام.

ومعناه: أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم، وقد كذبتكم أشرف الرسل وأكرم الخلائق، فعقوبتكم أولى وأحرى.

وقوله [تعالى]^(٧): ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أي: هو عالم بجميع أعمالهم، خيرا وشرها، لا يخفى عليه منها خافية [سبحانه وتعالى]^(٨).

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩).

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له، بل إنما يحصل لمن أراد الله

(١) في ت، ف: «هذا إنما يجيء». (٢) في أ: «أهلكناهم».

(٣) ذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/٢٦٢) وزاد: «لأنه من التأيد وهو ما يصلح النخل من سقى وغيره».

(٤) في ت: «ودل على هذا». (٥) في ت: «كما قال». (٦) في ت، ف: «عشر».

(٧) زيادة من ت. (٨) زيادة من ف، أ.

ما يشاء .

وهذه مقيدة لإطلاق ماسواها من الآيات^(١) فإنه قال: ﴿عَجَلْنَا لَهُ نِشَاءَ مَنْ نُريدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا﴾ أى: فى الآخرة ﴿يَصْلَاهَا﴾ أى: يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه ﴿مَذْمُومًا﴾ أى: فى حال كونه مذمومًا على سوء تصرفه وصنيعه^(٢)، إذ اختار الفانى على الباقى ﴿مَذْهُورًا﴾: مبعداً مقصياً حقيراً ذليلاً مهاناً .

قال الإمام أحمد: حدثنا حسين، حدثنا ذويد^(٣)، عن أبى إسحاق، عن زُرْعَةَ، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له »^(٤).

وقوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ أى: أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور ﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيًا﴾ أى: طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أى: وقلبه مؤمن، أى: مصدق بالثواب والجزاء ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ .

﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١)﴾ .

[يقول تعالى: ﴿كُلًّا﴾ أى كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة، نمدهم فيما هم فيه ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ أى: هو المتصرف الحاكم الذى لا يجور، فيعطى كلاً ما يستحقه من الشقاوة والسعادة ولا راد لحكمه ولا مانع لما أعطى، ولا مغير لما أراد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أى: ممنوعاً، أى: لا يمنع أحد ولا يرده راد.

قال قتادة: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أى: منقوصاً .

وقال الحسن وابن جريج وابن زيد: ممنوعاً.

ثم قال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ فى الدنيا، فمنهم الغنى والفقر وبين ذلك ، والحسن والقبيح وبين ذلك ، ومن يموت صغيراً ، ومن يعمر حتى يبقى شيخاً كبيراً ، وبين ذلك ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أى: ولتفاوتهم فى الدار الآخرة أكبر من الدنيا؛ فإن منهم من يكون فى الدرجات فى جهنم وسلاسلها وأغلالها ، ومنهم من يكون فى الدرجات العلى ونعيمها وسرورها ، ثم أهل الدرجات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون، فإن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض . وفى الصحيحين: « إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين، كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء »^(٥)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِلْآخِرَةِ

(١) فى ت: «الإيمان». (٢) فى ت: « وصنعه». (٣) فى ت، ف: « حسين بن ذويل».

(٤) المسند (٦/٧١) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٢٨٨): « رجاله رجال الصحيح غير ذويد وهو ثقة».

(٥) تقدم تخريجه عند تفسير الآية ٦٩ من سورة النساء من حديث أبى سعيد، رضى الله عنه، وفى لفظه اختلاف عن هذا اللفظ.

ورواه بهذا اللفظ الحميدى فى مسنده برقم (٧٧٥) من حديث أبى سعيد، رضى الله عنه.

أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا»^(١).

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ (٢٢).

يقول تعالى: والمراد المكلفون من الأمة، لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكاً ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾ على إشراكك^(٢) ﴿مَّخْذُولًا﴾ لأن الرب تعالى لا ينصرك، بل يكللك إلى الذي عبدت معه، وهو لا يملك لك^(٣) ضرراً ولا نفعاً؛ لأن مالك الضر والنفع^(٤) هو الله وحده لا شريك له. وقد قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا بشير بن سلمان، عن سيّار أبي الحكم، عن طارق بن شهاب، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغنى، إما أجل [عاجل]^(٥) وإما غنى عاجل». ورواه أبو داود، والترمذي من حديث بشير بن سلمان، به^(٦)، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ (٢٤).

يقول تعالى أمراً بعبادته وحده لا شريك له؛ فإن القضاء ههنا بمعنى الأمر.

قال مجاهد: ﴿وَقَضَىٰ﴾ يعني: وصى، وكذا قرأ أبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، والضحاك بن مزاحم: «ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه» ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: وأمر بالوالدين إحساناً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

وقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ أي: لا تسمعهما قولاً سيئاً، حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ أي: ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، كما قال عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ أي: لا تنفض^(٧) يدك على والديك. ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن فقال: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي: ليناً طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم.

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي: تواضع لهما بفعلك ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ أي: في كبرهما وعند وفاتهما ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

(٣) في ت: «له».

(٢) في ف: «شركك».

(١) زيادة من ف، أ.

(٥) زيادة من ف، أ، والمسند.

(٤) في ف: «النفع والضر».

(٦) سنن أبي داود برقم (١٦٤٥) وسنن الترمذي برقم (٢٣٢٦).

(٧) في ف: «ولا تنفض».

قال ابن عباس: ثم أنزل الله [تعالى] (١): «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ» [التوبة: ١١٣].

وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة، منها الحديث المروى من طرق عن أنس وغيره: أن رسول الله ﷺ لما صعد المنبر قال: « آمين آمين آمين » فقالوا: يا رسول الله، علام أمنت؟ قال: «أتأني جبريل فقال: يا محمد، رغم أنف امرئ ذكرت عنده فلم يصل عليك، فقل: آمين. فقلت: آمين. ثم قال: رغم أنف امرئ دخل عليه شهر رمضان ثم خرج ولم يغفر له، قل: آمين. فقلت: آمين. ثم قال: رغم أنف امرئ أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخلا الجنة، قل: آمين. فقلت: آمين» (٢).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْمٌ، حدثنا علي بن زيد، أخبرنا زُرَّارَةُ بن أَوْفَى، عن مالك بن الحارث - رجل منهم - أنه سمع النبي ﷺ يقول: « من ضمَّ يتيماً بين أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يستغنى عنه، وجبت له الجنة البتة، ومن أعتق امرأة (٣) مسلماً كان فكأكه من النار، يجزى بكل عضو منه عضواً منه ».

ثم قال: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت علي بن زيد - فذكر معناه، إلا أنه قال: عن رجل من قومه يقال له: مالك أو ابن مالك، وزاد: « ومن أدرك والديه أو أحدهما فدخل النار، فأبعده الله » (٤).

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا علي بن زيد، عن زرارة بن أوفى (٥)، عن مالك بن عمرو القشيري: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من أعتق رقبة مسلمة فهي فداؤه من النار، مكان كل عظم من عظامه مُحَرَّرَه بعظم من عظامه، ومن أدرك أحد والديه ثم لم يغفر له، فأبعده الله عز وجل، ومن ضمَّ يتيماً بين (٦) أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله، وجبت له الجنة » (٧).

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج ومحمد بن جعفر قالا: حدثنا شعبة، عن قتادة، سمعت زرارة بن أوفى (٨) يحدث عن أبي بن مالك القشيري قال: قال النبي ﷺ: « من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك، فأبعده الله وأسحقه ».

ورواه أبو داود الطيالسي عن شعبة به (٩). وفيه زيادات أخر.

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) رواه البزار في مسنده برقم (٣١٦٨) «كشف الأستار» من طريق جعفر بن عون، عن سلمة بن وردان، عن أنس، رضى الله عنه، وقال: وسلمة صالح وله أحاديث يستوحش منها ولا نعلم روى أحاديث بهذه الألفاظ غيره. وجاء من حديث أبي هريرة رضى الله عنه، أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٥٥١) وسيأتي. ومن حديث كعب بن عجرة رضى الله عنه، رواه الحاكم في المستدرک (١٥٣/٤). ومن حديث عمار بن ياسر وجابر بن سمرة وابن مسعود وعبد الله بن الحارث رواها البزار في مسنده برقم (٣١٦٤).

(٣) فى ت: « رجلا ».

(٤) المسند (٣٤٤/٤).

(٦) فى ف، أ: « من ».

(٥) فى ت: « زرارة بن أبى أوفى ».

(٧) المسند (٣٤٤/٤).

(٨) فى ت: « زرارة بن أبى أوفى ».

(٩) المسند (٣٤٤/٤).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، حدثنا سهيل^(١) بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف رجل أدرك والديه أحدهما أو كلاهما عند الكبر ولم يدخل الجنة».

صحيح من هذا الوجه، ولم يخرج سوى مسلم، من حديث أبي عوانة وجريير وسليمان بن بلال، عن سهيل، به^(٢).

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا ربعي بن إبراهيم - قال أحمد: وهو أخو إسماعيل بن عُلَيَّة، وكان يفضل على أخيه - عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على! ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان، فانسلك قبل أن يغفر له! ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه^(٣) الكبر فلم يدخله الجنة» قال ربعي: لا أعلمه^(٤) إلا قال: «أحدهما».

ورواه الترمذي، عن أحمد بن إبراهيم الدورقي، عن ربعي بن إبراهيم، ثم قال: غريب من هذا الوجه^(٥).

حديث آخر: وقال^(٦) الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا عبد الرحمن بن الغسيل، حدثنا أسيد بن علي، عن أبيه علي بن عبيد، عن أبي أسيد وهو مالك بن ربيعة الساعدي، قال: بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، هل بقي على من بر أبوى شيء بعد موتهما أبرهما به؟ قال: «نعم، خصال أربع: الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقيهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما، فهو الذي بقي عليك بعد موتهما من برهما»^(٧).

ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث عبد الرحمن بن سليمان - وهو ابن الغسيل - به^(٨).

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا ابن جريج، أخبرني محمد بن طلحة بن عبد الله^(٩) بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن معاوية بن جاهمة السلمى، أن جاهمة جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أردت الغزو، وجئتك أستشيرك؟ فقال: «فهل لك من أم؟» قال^(١٠): نعم. فقال: «الزمها. فإن الجنة تحت رجلها»^(١١) ثم الثانية، ثم الثالثة في مقاعد شتى، كمثل هذا القول. ورواه النسائي وابن ماجه، من حديث ابن جريج، به^(١٢).

(١) في ت: «إسماعيل».

(٢) المسند (٢/٣٦٤) وصحيح مسلم برقم (٢٥٥١).

(٣) في ت: «أدرك أبواه عنده».

(٤) المسند (٢/٢٥٤) وسنن الترمذي برقم (٣٥٤٥).

(٥) في ت: «قال».

(٦) في ف: «من برهما بعد موتهما».

(٧) المسند (٣/٤٩٧) وسنن أبي داود برقم (٥١٤٢) وسنن ابن ماجه برقم (٣٦٦٤).

(٨) في أ: «عبيد الله».

(٩) في ت، ف: «فقال».

(١٠) في ف: «عند رجلها».

(١١) المسند (٣/٤٢٩) وسنن النسائي (٦/١١) وسنن ابن ماجه برقم (٢٧٨١).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا ابن عياش، عن بحير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن المقدم بن معد يكر^(١) الكندي، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يُوْصِيكُمْ بِأَبَائِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ يُوْصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ يُوْصِيكُمْ بِالْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبُ» .

وقد أخرجه ابن ماجه، من حديث [عبد الله]^(٢) بن عياش، به ^(٣).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا أبو عوَّانة، عن الأشعث بن سليم، عن أبيه، عن رجل من بني يربوع قال: أتيت النبي ﷺ فسمعتة وهو يكلم الناس يقول: «يد المعطى [العليا]^(٤) أمك وأباك وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك» ^(٥).

حديث آخر: قال الخافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار فى مسنده: حدثنا إبراهيم ابن المستمر العروقى، حدثنا عمرو بن سفيان، حدثنا الحسن بن أبى جعفر، عن ليث بن أبى سليم، عن علقمة بن مرثد^(٦)، عن سليمان بن بُريدة، عن أبيه؛ أن رجلاً كان فى الطواف حاملاً أمه يطوف بها، فسأل النبي ﷺ: هل ^(٧) أدت حقها؟ قال: «لا، ولا بزفرة واحدة» أو كما قال. ثم قال البزار: لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه ^(٨).

قلت: والحسن بن أبى جعفر ضعيف، والله أعلم .

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥)﴾ .

قال سعيد بن جبیر: هو الرجل تكون ^(٩) منه البادرة إلى أبويه، وفى نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به - وفى رواية: لا يريد إلا الخير بذلك - فقال: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ .

وقوله [تعالى]^(١٠): ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ قال قتادة: للمطيعين أهل الصلاة.

وعن ابن عباس: المسبحين . وفى رواية عنه: المطيعين المحسنين .

وقال بعضهم: هم الذين يصلون بين العشاءين . وقال بعضهم: هم الذين يصلون الضحى ^(١١).

وقال شعبة، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب فى قوله: ﴿فَإِنَّهُ﴾ ^(١٢) كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا قال: الذي يصيب الذنب ثم يتوب، ويصيب الذنب ثم يتوب.

وكذا رواه عبد الرزاق، عن الثورى ومعمّر، عن يحيى بن سعيد، عن ابن المسيب نحوه، وكذا رواه الليث وابن جريج، عن يحيى بن سعيد، عن ابن ^(١٣) المسيب، به . وكذا قال عطاء بن يسار .

(١) فى ت، ف: «معدى كرب» .

(٢) المسند(٤/١٣٢) وسنن ابن ماجه برقم (٣٦٦١).

(٣) زيادة من ف، أ، والمسند .

(٤) المسند(٤/٦٤).

(٥) فى ف، أ: «يزيد» .

(٦) فى ت: «فسأل النبي ﷺ قال: هل» .

(٧) مسند البزار برقم (١٨٧٢) «كشف الأستار» ووقع فيه: «ولابركة» وفى مجمع الزوائد: «ولابركة» .

(٨) فى ت، ف: «يكون» .

(٩) فى ت، ف: «إنه» وهو خطأ .

(١٠) زيادة من ف .

(١١) زيادة من ف .

وقال مجاهد، وسعيد بن جبير: هم الراجعون إلى الخير.

وقال مجاهد عن عبيد بن عمير في قوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ قال: هو الذي إذا ذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر الله منها. ووافقه على ذلك مجاهد^(١).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا محمد بن مسلم، عن عمرو بن دينار، عن عبيد بن عمير، في قوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ قال: كنا نعد الأواب الحفيظ، أن يقول: اللهم اغفر لي ما أصبت^(٢) في مجلسي هذا^(٣).

وقال ابن جرير: والأولى في ذلك قول من قال: هو التائب من الذنب، الراجع عن المعصية إلى الطاعة، مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه^(٤).

وهذا الذي قاله هو الصواب؛ لأن الأواب مشتق من الأوب وهو الرجوع، يقال: آب فلان إذا رجع، قال الله تعالى: ﴿إِن إِلَيْنَا يَأْبَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥]، وفي الحديث الصحيح، أن رسول الله ﷺ كان إذا رجع من سفر قال^(٥): «آيئون تائبون عابدون، لربنا حامدون»^(٦).

﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا (٢٨)﴾.

لما ذكر تعالى بر الوالدين، عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام، كما تقدم في الحديث: «أمك وأباك، ثم أدناك أدناك» وفي رواية: «ثم الأقرب فالأقرب».

وفي الحديث: «من أحب أن ييسط له رزقه^(٧) وينسأ له في أجله، فليصل رحمه»^(٨).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عباد بن يعقوب، حدثنا أبو يحيى التيمي^(٩)، حدثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد قال لما نزلت، هذه الآية ﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة فأعطاهما «فدك». ثم قال: لا نعلم حدث به عن فضيل بن مرزوق إلا أبو يحيى التيمي^(١٠)، وحמיד بن حماد بن أبي الخوار^(١١) (١٢).

(١) في ف: «ووافقه مجاهد في ذلك».

(٣) تفسير عبد الرزاق (١/ ٣٢٠).

(٤) تفسير الطبري (١٥/ ٥٢).

(٥) في ف، أ: «يقول».

(٦) رواه البخاري في صحيحه برقم (١٧٩٧) من حديث ابن عمر، رضى الله عنهما.

(٧) في ت، ف، أ: «له في رزقه».

(٨) رواه البخاري في صحيحه برقم (٥٩٨٦) ومسلم في صحيحه برقم (٢٥٥٧).

(٩) في ت: أبو نجي التيمي، وفي ف: «التيمي». (١٠) في ت: «أبو نجي التيمي».

(١١) في ت، ف، أ: «الجوزاء».

(١٢) مسند البزار برقم (٢٢٢٣) «كشف الاستار» وعطية العوفي متروك.

وهذا الحديث مشكل لو صح إسناده؛ لأن الآية مكية، وفدك إنما فتحت مع خير سنة سبع من الهجرة فكيف يلتئم هذا مع هذا؟!

وقد تقدم الكلام على المساكين وابن السبيل في «سورة براءة» بما أغنى عن إعادته ههنا. قوله [تعالى] ^(١): ﴿وَلَا تُبْذِرْ تَبْذِيرًا﴾ لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه، بل يكون وسطاً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]. ثم قال منفراً عن التبذير والسرف: ﴿إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أى: أشباههم فى ذلك. وقال ابن مسعود: التبذير: الإنفاق فى غير حق. وكذا قال ابن عباس. وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله فى الحق، لم يكن مبذراً، ولو أنفق مدأ فى غير حقه كان تبذيراً.

وقال قتادة: التبذير: النفقة ^(٢) فى معصية الله تعالى، وفى غير الحق وفى الفساد. وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا ليث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبى هلال، عن أنس بن مالك أنه قال: أتى رجل من بنى تميم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني ذو مال كثير، وذو أهل وولد وحاضرة، فأخبرنى كيف أنفق وكيف أصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: «تخرج الزكاة من مالك، فإنها طهرة تطهرك، وتصل أقباءك، وتعرف حق السائل والجار والمسكين ^(٣)». فقال: يا رسول الله، أقلل ^(٤) لى؟ فقال: ﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبْذِرْ تَبْذِيرًا﴾. فقال ^(٥): حسبى يا رسول الله، إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله وإلى رسوله؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، إذا أديتها إلى رسولى فقد برئت منها، فلك أجرها، وإثمها على من بدلها» ^(٦).

وقوله [تعالى] ^(٧): ﴿إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أى: فى التبذير والسفه وترك طاعة الله وارتكاب معصيته؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ أى: جحوداً؛ لأنه أنكر نعمة الله عليه ولم يعمل بطاعته؛ بل أقبل على معصيته ومخالفته.

وقوله [تعالى] ^(٨): ﴿وَأِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيَّسُورًا﴾ أى: وإذا سألك أقاربك ومن أمرنا بإعطائهم وليس عندك شيء، وأعرضت عنهم لفقد النفقة ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيَّسُورًا﴾ أى: عدهم وعداً بسهولة، ولين إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله، هكذا فسر قوله ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيَّسُورًا﴾ بالوعد: مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقاتادة وغير واحد.

(١) زيادة من ت. (٢) فى ف، أ: «الإنفاق». (٣) فى ت: «حق المسكين السائل والجار والمسكين». (٤) فى ت: «أنلك». (٥) فى ف: «قال». (٦) المسند (٣/١٣٦). (٧، ٨) زيادة من ت.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۖ إِنَّا نَبِّئُكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝﴾ (٣٠).

يقول تعالى أمراً بالاقتصاد في العيش ذاماً للبخل ناهياً عن السرف: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي: لا تكن بخيلاً منوعاً، لا تعطى أحداً شيئاً، كما قالت اليهود عليهم لعائن الله: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] أي نسبوه إلى البخل، تعالى وتقدس الكريم الوهاب.

وقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ أي: ولا تسرف في الإنفاق فتعطى فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك، فتقعُد ملوماً محسوراً.

وهذا من باب اللف والنشر أي: فتقعُد إن بخلت ملوماً، يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك كما قال زهير بن أبي سلمى في المعلقة:

ومن كان ذا مال ويبخل بماله على قومه يستغن عنه ويذمم^(١)

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسير، وهو: الدابة التي قد عجزت عن السير، فوقفت ضعفاً وعجزاً^(٢)، فإنها تسمى الحسير، وهو مأخوذ من الكلال، كما قال تعالى: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۚ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤] أي: كليل عن أن يرى عيباً. هكذا فسر هذه الآية - بأن المراد هنا البخل والسرف - ابن عباس والحسن وقتادة وابن جريج وابن زيد وغيرهم.

وقد جاء في الصحيحين، من حديث أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مثل البخيل والمنفق، كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثدييهما^(٣) إلى تراقيهما. فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت - أو: وفرت - على جلده، حتى تخفى بنانه وتعفو^(٤) أثره. وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها فلا^(٥) تتسع». هذا لفظ البخاري في الزكاة^(٦).

وفي الصحيحين من طريق هشام بن عروة، عن زوجته فاطمة بنت المنذر، عن جدتها أسماء بنت أبي بكر قالت: قال رسول الله ﷺ: «أنفقى هكذا وهكذا وهكذا، ولا تُوعى فيُوعى الله عليك، ولا توكل فيوكل الله عليك» وفي لفظ: «ولا تُحصى فيحصى الله عليك»^(٧).

وفي صحيح مسلم من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال لى: أنفق أنفق عليك»^(٨).

وفي الصحيحين من طريق معاوية بن أبي مزرّة، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة، رضى

(١) البيت في ديوانه (ص ٣٠). (٢) في ت، ف: «عجزاً وضعفاً». (٣) في أ: «من يديهما».

(٤) في ت، ف: «يخفى بنانه ويعفو». (٥) في ف: «ولا».

(٦) صحيح البخاري برقم (١٤٤٣) وليس في صحيح مسلم من طريق أبي الزناد، وإنما هو فيه من طريق الحسن بن مسلم وعبد الله بن طاوس، عن طاوس، عن أبي هريرة برقم (١٠٢١).

(٧) صحيح البخاري برقم (١٤٣٣) وصحيح مسلم برقم (١٠٢٩).

(٨) صحيح مسلم برقم (٩٩٣).

اللَّهُ عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً »^(١).

وروى مسلم، عن قتيبة، عن إسماعيل بن جعفر، عن العلاء^(٢)، عن أبيه، عن أبي هريرة مرفوعاً: « ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً^(٣) ، ومن تواضع لله رفعه الله »^(٤).

وفى حديث أبي كثير، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: « إياكم والشُّح، فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا »^(٥).

وروى البيهقي من طريق سعدان بن نصر، عن أبي معاوية، عن الأعمش، [عن ابن بريدة]^(٦) عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما يخرج رجل صدقة، حتى يفك لَحْيَيْ سبعين شيطاناً »^(٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبيدة الحداد، حدثنا سُكَيْنُ^(٨) بن عبد العزيز، حدثنا إبراهيم الهجري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعوده قال: قال رسول الله ﷺ : « ما عال من اقتصد »^(٩).

وقوله [تعالى]^(١٠) : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ إخبار أنه تعالى هو الرزاق، القابض الباسط، المتصرف في خلقه بما يشاء، فيغني من يشاء، ويفقر من يشاء، بما له في ذلك من الحكمة؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ أى: خبير بصير بمن يستحق الغنى ومن يستحق الفقر^(١١)، كما جاء في الحديث: « إن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه ».

وقد يكون الغنى فى حق بعض الناس استدراجاً ، والفقر عقوبة عياداً بالله من هذا وهذا .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا

كَبِيرًا ۝ (٣١) ﴾

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده؛ لأنه ينهى [تعالى]^(١٢)

(١) صحيح البخارى برقم (١٤٤٢) وصحيح مسلم برقم (١٠١٠).

(٢) فى ف: «عن العلاء بن عبد الرحمن».

(٣) فى ت، ف، أ: «إلا غنى».

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٥٨٨).

(٥) رواه أحمد فى المسند (١٥٩/٢) وأبو داود فى السنن برقم (١٦٩٨) وابن حبان فى صحيحه برقم (١٥٨٠) «موارد» من طرق عن شعبة عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن الحارث، عن أبي كثير الزبيدي به.

(٦) زيادة من ف، أ، والسنن الكبرى، وصحيح ابن خزيمة.

(٧) السنن الكبرى (١٨٧/٤) ورواه ابن خزيمة فى صحيحه برقم (٢٤٥٧) من طريق محمد المخزومي، عن أبي معاوية، به، وقال: «إن صح الخبر، فإني لا أقف هل سمع الأعمش من ابن بريدة أم لا».

(٨) فى ت: «سكين»، وفى ف، أ: «سكن».

(٩) المسند (٤٤٧/١) وقال الهيثمى فى المجمع (٢٥٢/١٠): «فيه إبراهيم بن مسلم الهجرى وهو ضعيف».

(١٠) زيادة من ت. (١١) فى ف، أ: «من يستحق الفقر ومن يستحق الغنى». (١٢) زيادة من ت، ف، أ.

عن قتل الأولاد، كما أوصى بالأولاد فى الميراث، وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لثلاث تكثر عيلته، فهى الله [تعالى] ^(١) عن ذلك فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ﴾ أى: خوف أن تفتقروا فى ثانى الحال؛ ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ وفى الأنعام ^(٢): ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ أى: من فقر ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ ^(٣) [الأنعام: ١٥١].

وقوله: ﴿إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطِيئَةً كَبِيرًا﴾ أى: ذنباً عظيماً.

وقرأ بعضهم: «كان خطأ كبيراً» وهو بمعناه.

وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود: قلت: يارسول الله، أى الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قلت: ثم أى؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك». قلت: ثم أى؟ قال: «أن تزاني بحليلة ^(٤) جارك» ^(٥).

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٣٢).

يقول تعالى ناهياً عباده عن الزنا وعن مقاربتة، وهو مخالطة أسبابه ^(٦) ودواعيه ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ أى: ذنباً عظيماً ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أى: وبئس طريقاً ومسلكاً.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا جرير، حدثنا سليم بن عامر، عن أبى أمامة قال: إن فتى شاباً أتى النبى ^(٧) ﷺ فقال: يارسول الله، ائذن لى بالزنا. فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه. فقال: «ادنه». فدنا منه قريباً ^(٨)، فقال ^(٩): «اجلس». فجلس، قال: «أتحبه لأملك؟» قال: لا والله، جعلنى الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم». قال: «أفتحبه لابتك؟». قال: لا والله يارسول الله، جعلنى الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم». قال: «أتحبه لأختك؟» قال: لا والله، جعلنى الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم»، قال: «أفتحبه لعمتك؟» قال: لا والله، جعلنى الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم». قال: «أفتحبه لخالتك؟» قال: لا والله، جعلنى الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم». قال: فوضع يده عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحسن ^(١٠) فرجه». قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شىء ^(١١).

وقال ^(١٢) ابن أبى الدنيا: حدثنا عمار بن نصر، حدثنا بَقِيَّةُ، عن أبى بكر بن أبى مريم، عن الهيثم بن مالك الطائى، عن النبى ^(١٣) ﷺ قال: «ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة

(١) زيادة من ف، أ. (٢) فى ت، ف، أ: «وقال فى سورة الأنعام». (٣) فى ت: «نرزقهم وإياكم» وهو خطأ.

(٤) فى ف: «خليفة»، وفى أ: «حليلة».

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٤٧٧) وصحيح مسلم برقم (٦٨).

(٦) فى ت: «أشباهه». (٧) فى ت: «أتى إلى النبى».

(٨) فى ت: «فقال له». (٩) فى ف: «وأحسن».

(١٠) المسند (٣٥٦/٥).

(١٢) فى ف، أ: «قال».

وضعها رجل فى رحم لا يحل له»^(١).

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ (٣٣).

يقول تعالى ناهياً عن قتل النفس بغير حق شرعى، كما ثبت فى الصحيحين؛ أن رسول الله ﷺ قال: « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والزانى المحصن ، والتارك لدينه المفارق للجماعة »^(٢).

وفى السنن: « لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مسلم »^(٣).

وقوله: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا﴾ أى: سلطة على القاتل، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله قوداً، وإن شاء عفا عنه على الدية، وإن شاء عفا عنه مجاناً، كما ثبتت السنة بذلك. وقد أخذ الإمام الحبر ابن عباس من عموم هذه الآية الكريمة ولاية معاوية السلطنة، وأنه سيملك؛ لأنه كان ولى عثمان، وقد قتل عثمان مظلوماً، رضى الله عنه، وكان معاوية يطالب علياً، رضى الله عنه، أن يسلمه قتله حتى يقتص منهم؛ لأنه أموى، وكان على، رضى الله عنه، يستمهله فى الأمر^(٤) حتى يتمكن ويفعل ذلك، ويطلب على من معاوية أن يسلمه الشام فيأبى^(٥) معاوية ذلك حتى يسلمه القتلة، وأبى أن يبايع علياً هو وأهل الشام، ثم مع المطاولة تمكن معاوية وصار الأمر إليه كما تفاعل^(٦) ابن عباس واستنبط من هذه الآية الكريمة. وهذا من الأمر العجيب، وقد روى ذلك الطبرانى فى معجمه حيث قال:

حدثنا يحيى بن عبد الباقي، حدثنا أبو عمير بن النحاس، حدثنا ضمرة بن ربيعة، عن ابن شوذب، عن مطر الوراق، عن زهدهم الجرمي قال: كنا فى سمر ابن عباس فقال: إني محدثكم حديثاً ليس بسر ولا علانية؛ إنه لما كان من أمر هذا الرجل ما كان - يعنى عثمان - قلت لعلى: اعتزل، فلو كنت فى جحر طلبت حتى تستخرج، فعصاني، وإيم الله ليتأمرن عليكم معاوية، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ الآية^(٧) وليحملنكم^(٨) قريش على سنة فارس والروم وليقيمن عليكم النصارى واليهود والمجوس، فمن أخذ منكم يومئذ بما يُعرف نجا، ومن ترك وأنتم تاركون، كنتم كقرن من القرون، هلك فيمن هلك^(٩).

وقوله [تعالى]^(١٠): ﴿فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ قالوا: معناه: فلا يسرف الولي فى قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير القاتل.

(١) الورع لابن أبى الدنيا برقم (١٣٧) وفيه ثلاث علل: الأولى: تدليس بقية. الثانية: ابن أبى مريم ضعيف. الثالثة: الإرسال. ا. هـ.

مستفاداً من حاشية الأستاذ محمد الحمود، وسيأتى الحديث عند تفسير الآية: ٦٨ من سورة الفرقان.

(٢) صحيح البخارى برقم (٦٨٧٨) وصحيح مسلم برقم (١٦٧٦) من حديث ابن مسعود، رضى الله عنه.

(٣) فى أ: «المسلم». (٤) فى ت: «الأمور». (٥) فى ف: «فأبى».

(٦) فى ت، ف، أ: «قال». (٧) فى ت، ف، أ: «إنه كان منصوراً». (٨) فى ت: «يتحملنكم».

(٩) المعجم الكبير (١٠/ ٣٢٠) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢٣٥): «وفيه من لم أعرفهم».

(١٠) زيادة من ت.

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ أى أن الولي منصور على القاتل شرعاً، وغالباً قدرأ .

﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥)﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أى: لا تتصرفوا له إلا بالغبطة ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢] و ﴿لَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦] .

وقد جاء فى صحيح مسلم؛ أن رسول الله ﷺ قال لأبى ذر: «يا أبا ذر، إني أراك ضعيفاً، وإنى أحب لك ما أحب لنفسي: لا تأمّن على اثنين، ولا تولين مال يتيم» (١) «(٢)» .

وقوله [تعالى] (٣): ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ أى: الذى تعاهدون عليه الناس والعقود التى تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ أى: عنه .

وقوله [تعالى] (٤): ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ أى: من غير تطفيف، ولا تبخسوا الناس أشياءهم .

﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ﴾ قرئ بضم القاف وكسرهما، كالقرطاس وهو الميزان. وقال مجاهد: هو العدل بالرومية .

وقوله: ﴿الْمُسْتَقِيمِ﴾ أى: الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب .

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أى: لكم فى معاشكم ومعادكم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أى: مآلاً ومنقلباً فى آخرتكم .

قال سعيد، عن قتادة: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أى: خير ثواباً وعاقبة . وأما ابن عباس كان يقول: يا معشر الموالى، إنكم وليتم أمرين بهما هلك الناس قبلكم: هذا المكيال، وهذا الميزان. قال وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه، ليس به إلا مخافة الله، إلا أبدله الله فى عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك» (٥) .

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦)﴾ .

(١) فى ت: «بخيل» .

(٢) صحيح مسلم برقم (١٨٢٦) .

(٣، ٤) زيادة من ت .

(٥) وقد جاء فى مسند أحمد (٧٨/٥) عن أبى قتادة وأبى الدهماء عن رجل من أهل البادية، أن النبي ﷺ أخذ بيده وقال: «إنك لا تدع شيئاً اتقاء الله، عز وجل، إلا أعطاك الله خيراً منه» .

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يقول: لا تغل.

وقال العوفي عنه: لا ترّم أحداً بما ليس لك به علم.

وقال محمد بن الحنفية: يعنى شهادة الزور.

وقال قتادة: لا تغل: رأيت، ولم تر، وسمعت، ولم تسمع، وعلمت، ولم تعلم؛ فإن الله سائلك عن ذلك كله.

ومضمون ما ذكره: أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم، بل بالظن الذى هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وفى الحديث: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث»^(١). وفى سنن أبى داود: «بئس مطية الرجل: زعموا»^(٢)، وفى الحديث الآخر: «إن أفرى الفرى أن يرى»^(٣) عينه ما لم تريا»^(٤). وفى الصحيح: «من تحلم حلما كُلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين، وليس بعاقده»^(٥)»^(٦).

وقوله: ﴿كُلُّ أُولَئِكَ﴾ أى: هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ أى: سيسأل العبد عنها يوم القيامة، وتُسأل^(٧) عنه وعما عمل فيها. ويصح استعمال «أولئك» مكان «تلك»، كما قال الشاعر^(٨):

ذُمَّ الْمَنَازِلَ بَعْدَ مَنَزَلَةِ اللَّوَى وَالْعَيْشَ بَعْدَ أَوْلَئِكَ الْآيَامِ

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨).

يقول تعالى ناهياً عباده عن التَّجَبُّر والتَّخَبُّر فى المشية: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أى: متبخرّاً متميلاً مشى الجبارين ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ أى: لن تقطع الأرض بمشيتك^(٩)، قاله ابن جرير، واستشهد عليه بقول رؤبة بن العجاج:

وَقَاتِمِ الْأَعْمَاقَ خَاوِي الْمُخْتَرِقِ^(١٠)

وقوله [تعالى]^(١١): ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ أى: بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك، بل قد

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٠٦٦) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٥٦٣) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه .

(٢) برقم (٤٩٧٢).

(٣) فى ف، أ: «يرى الرجل».

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٠٤٣) من حديث ابن عمر، رضى الله عنهما .

(٥) فى ف: «بفاعل».

(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٠٤٢) معلقاً، ووصله النسائى فى السنن (٢١٥/٨) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه .

(٧) فى ت: «ويسأل».

(٨) هو جرير بن عطية، والبيت فى تفسير الطبرى (٦٢/١٥).

(٩) فى ت، ف: «بمشيك».

(١٠) تفسير الطبرى (٦٣/١٥).

(١١) زيادة من ت.

يجازى فاعل ذلك بنقيض^(١) قصده . كما ثبت فى الصحيح : « بينا رجل يمشى فيمن كان قبلكم ، وعليه بُردَان يتبختر فيهما ، إذ خُسِفَ به الأرض ، فهو يتجلجل^(٢) فيها إلى يوم القيامة^(٣) » .

وكذلك^(٤) أخبر الله [تعالى]^(٥) عن قارون أنه خرج على قومه فى زينته ، وأن الله تعالى خسف به وبداره الأرض ، وفى الحديث : « من تواضع لله رفعه الله ، فهو فى نفسه حقير وعند الناس كبير ، ومن استكبر وضعه الله ، فهو فى نفسه كبير وعند الناس حقير ، حتى لهو أبغض إليهم من الكلب أو الخنزير^(٦) » .

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا فى كتاب « الخمول والتواضع » : حدثنا أحمد بن إبراهيم بن كثير ، حدثنا حجاج بن محمد ، عن أبى بكر الهذلى قال : بينما نحن مع الحسن ، إذ مر عليه ابن الأَهم^(٧) - يريد المنصور - وعليه جَبَابُ خَزَزَ قد نُضِدَ^(٨) بعضها فوق بعض على ساقه ، وانفرج عنها قباؤه ، وهو يمشى ويتبختر ، إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال : أف ، أف ، شامخ بأنفه ، ثان عطفه ، مصعر خده ، ينظر فى عطفيه ، أى حُمِيقَ ينظر فى عطفه فى نَعَمَ غير مشكورة ولا مذكورة ، غير المأخوذ بأمر الله فيها ، ولا المؤدى حق الله منها ! والله إن يمشى أحدهم طبيعته يتلجلج يتلجلج المجنون ، فى كل عضو منه نعمة ، وللشيطان به لعنة ، فسمعه ابن الأَهم^(٩) فرجع يعتذر إليه ، فقال : لا تعتذر إلى ، وتب إلى ربك ، أما سمعت قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾^(١٠) .

ورأى البخترى العابد رجلاً من آل على يمشى وهو يخطر فى مشيته ، فقال له : يا هذا ، إن الذى أكرمك به لم تكن هذه مشيته ! قال : فتركها الرجل بعد .

ورأى ابن عمر رجلاً يخطر فى مشيته ، فقال : إن للشياطين إخواناً .

وقال خالد بن معدان : إياكم والخطر ، فإن الرجل يده من سائر^(١١) جسده . رواهما ابن أبى الدنيا .

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنا خلف بن هشام البزار ، حدثنا حماد بن زيد ، عن^(١٢) يحيى ، عن سعيد ، عن يُحَنَس قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مشيت أمتى المطيطاء ، وخدمتهم فارس والروم ،

(١) فى ت : « بعض » . (٢) فى ت : « يتخلل » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٧٨٩) وصحيح مسلم برقم (٢٠٨٨) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٤) فى أ : « ولذلك » . (٥) زيادة من ف .

(٦) رواه أبو نعيم فى الحلية (١٢٩/٧) والخطيب فى تاريخ بغداد (١١٠/٢) من طريق سعيد بن سلام ، عن الثورى عن الأعمش ، عن إبراهيم بن عابس ، عن ربيعة ، عن عمر بن الخطاب بنحوه وقال : « غريب من حديث الثورى ، تفرد به سعيد بن سلام ، وهو كذاب » .

(٧) فى هـ ، ت ، ف : « ابن الأَهم » ، والصواب ما أثبتناه من الخمول والتواضع لابن أبى الدنيا .

(٨) فى ت ، ف : « فضل » .

(٩) فى هـ ، ت ، ف : « ابن الأَهم » ، والصواب ما أثبتناه من الخمول والتواضع .

(١٠) الخمول والتواضع برقم (٢٣٧) .

(١١) فى ت ، ف ، أ : « من دون سائر » . (١٢) فى ف : « بن » .

عَبْدًا. لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا. وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٨٨﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا^(١) فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا^(٢)﴾ أى: صرّفنا فيه من الوعيد لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبيّنات والمواعظ، فينزعجوا^(٣) عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك، ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أى: الظالمين منهم ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ أى: عن الحق، وبعداً منه.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن الله شريكاً من خلقه، العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفى: لو كان الأمر كما تقولون، وأن معه آلهة تُعبد لتُقرَّب إليه وتشفع لديه - لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبدونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه. وقد نهى عن ذلك على السنة جميع رسله وأنبيائه.

ثم نزه نفسه الكريمة وقدّسها فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أى: هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون فى زعمهم أن معه آلهة أخرى ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أى: تعالياً كبيراً، بل هو الله الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾.

يقول تعالى: تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن، أى: من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتجلّه وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية فى ربوبيته وإلهيته:

فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ^(٤) مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا. [وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا]^(٥)﴾ [مريم: ٩٠ - ٩٢].

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا على بن عبد العزيز، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا مسكين^(٦) ابن ميمون مؤذن مسجد الرملة، حدثنا عروة بن رويم، عن عبد الرحمن بن قرط؛ أن رسول الله ﷺ

(١) فى ت، ف، أ: «صرّفنا للناس» وهو خطأ. (٢) فى ت، ف: «القرآن من كل مثل» وهو خطأ. (٣) فى ف: «فينزعجرون».

(٤) فى ت، ف: «ينفطرن» وهو خطأ. (٥) زيادة من أ. (٦) فى ت: «أن».

ليلة أسرى إلى المسجد الأقصى، كان^(١) بين المقام وزمزم، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فطار به حتى بلغ السموات السبع^(٢)، فلما رجع قال: سمعت تسييحاً في السموات العلى مع تسييح كثير: سبحت السموات العلى من ذى المهابة مشفقات لذى العلو بما علا، سبحان العلى الأعلى، سبحانه وتعالى^(٣).

وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أى: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله^(٤) ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أى: لا تفقهون تسييحهم أيها الناس؛ لأنها بخلاف لغتكم. وهذا عام فى الحيوانات^(٥) والنبات والجماد، وهذا أشهر القولين، كما ثبت فى صحيح البخارى، عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسييح الطعام وهو يؤكل^(٦).

وفى حديث أبى ذر: أن النبى ﷺ أخذ فى يده حصيات، فسمع لهن تسييح كحنين النحل، وكذا يد أبى بكر وعمر وعثمان، رضى الله عنهم [أجمعين]^(٨)، وهو حديث مشهور فى المسانيد^(٩).

وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن لهيعة، حدثنا زبّان، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه مرّ على قوم وهم وقوف على دوابّ لهم ورواحل، فقال لهم: «اركبوها سالمة، ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسى لأحاديثكم فى الطرق والأسواق، فرب مركوبة خير من راكبها، وأكثر ذكراً لله تعالى منه»^(١٠).

وفى سنن النسائى عن عبد الله بن عمرو قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع، وقال: «نقيقها تسييح»^(١١).

وقال قتادة، عن عبد الله بن بابي^(١٢)، عن عبد الله بن عمرو: أن الرجل إذا قال: «لا إله إلا الله»، فهى كلمة الإخلاص التى لا يقبل الله من أحد عملاً حتى يقولها. وإذا قال: «الحمد لله» فهى كلمة الشكر التى لم يشكر الله عبد قط حتى يقولها، وإذا قال: «الله أكبر» فهى تملأ^(١٣) ما بين السماء والأرض، وإذا قال: «سبحان الله»، فهى صلاة الخلاق التى لم يدع الله أحداً من خلقه إلا قرّره بالصلاة والتسييح. وإذا قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله»^(١٤)، قال: أسلم عبدى واستسلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وهب بن جرير، حدثنا أبى، سمعت الصّقْعَبَ بن زهير [يحدث]^(١٥) عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو قال: أتى النبى ﷺ أعرابى عليه جبة

-
- (١) فى ت، ف، أ: «الأقصى، فلما رجع كان». (٢) فى ت: «السبع السموات». (٣) المعجم الأوسط برقم (٥٨) «مجمع البحرين» وقال: «لا يروى عن النبى ﷺ إلا بهذا الإسناد، تفرد به سعيد». وذكر الذهبى هذا الحديث فى الميزان (١٠١/٤) فى ترجمة مسكين بن أبى ميمون وقال: «منكر». (٤) فى ف: «بحمده». (٥) فى ت، ف: «الحيوان». (٦) صحيح البخارى برقم (٣٥٧٩). (٧) فى ت، ف، أ: «أن رسول الله». (٨) زيادة من ف. (٩) رواه أحمد فى المسند (٤١٥/٤). (١٠) المسند (٤٣٩/٣). (١١) سنن النسائى (٧/ ٢١٠) من حديث عبد الرحمن بن عثمان، رضى الله عنه. (١٢) فى ت: «بانى»، وفى ف: «أبى». (١٣) فى ت: «الله أكبر ملأ». (١٤) فى أ: «بالله العلى العظيم». (١٥) زيادة من ف، أ، والمسند.

من طيالة مكفوفة^(١) بدياج - أو: مزورة بدياج - فقال: إن صاحبكم هذا يريد أن يرفع كل راع ابن راع، ويضع كل رأس ابن رأس. فقام إليه النبي ﷺ مغضباً، فأخذ بمجامع جبته فاجتذبه، فقال: «لا أرى عليك ثياب من لا يعقل». ثم رجع رسول الله ﷺ فجلس فقال: «إن نوحاً، عليه السلام، لما حضرته الوفاة، دعا ابنه^(٢) فقال: إني قاص عليكما الوصية: آمركما باثنتين وأنهكما عن اثنتين: أنهكما عن الشرك بالله والكبر، وأمركما بلا إله إلا الله، فإن السموات والأرض وما بينهما لو وضعت في كفة الميزان، ووضعت «لا إله إلا الله» في الكفة الأخرى، كانت أرجح، ولو أن السموات والأرض كانتا^(٣) حلقة، فوضعت «لا إله إلا الله» عليهما لفصمتهما أو لقصمتهما. وأمركما بسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق كل شيء»^(٤).

ورواه الإمام أحمد، أيضاً، عن سليمان بن حرب، عن حماد بن زيد، عن الصَّقَعِ^(٥) بن زهير، به أطول من هذا. تفرد به^(٦).

وقال ابن جرير: حدثني نصر بن عبد الرحمن الأودي، حدثنا محمد بن يعلى، عن موسى بن عبيدة، عن زيد بن أسلم، عن جابر بن عبد الله، رضى الله عنه^(٧) قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه؟ إن نوحاً، عليه السلام، قال لابنه: يا بني، أمرك أن تقول: «سبحان الله»، فإنها صلاة الخلق وتسييح الخلق، وبها يرزق الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾^(٨). إسناده فيه ضعف، فإن الربذي^(٩) ضعيف عند الأكثرين.

وقال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ قال: الأسطوانة تسبح، والشجرة تسبح^(١٠) - الأسطوانة: السارية.

وقال بعض السلف: إن صرير الباب تسيحه، وخرير الماء تسيحه، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾.

وقال سفيان الثوري، عن منصور، عن إبراهيم قال: الطعام يسبح. ويشهد لهذا القول آية السجدة أول [سورة] الحج^(١١).

وقال آخرون: إنما يسبح ما كان فيه روح. يعنون من حيوان أو نبات.

وقال قتادة في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ قال: كل شيء فيه الروح يسبح من شجر^(١٢) أو شيء فيه.

(٣) في ت: «كانت».

(٢) في ت: «بنه».

(١) في ت، ف: «ملفوفة».

(٤) المسند (٢/٢٢٥).

(٥) في ف: «الصقعب».

(٦) المسند (٢/١٦٩).

(٧) في ف: «عنهما».

(٨) تفسير الطبري (١٥/٦٥).

(١١) زيادة من ف.

(١٠) في ت، ف: «والشجر يسبح».

(٩) في ت: «الزبدى»، وفي ف: «الأودي».

(١٢) في ف: «من شجرة».

وقال الحسن، والضحاك في قوله: ﴿وَأَنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ قالوا: كل شيء فيه الروح.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن حميد، حدثنا يحيى بن واضح وزيد بن حباب قالوا: حدثنا جرير أبو الخطاب قال: كنا مع يزيد الرقاشي، ومعه الحسن في طعام، فقدموا الخوان، فقال يزيد الرقاشي: يا أبا سعيد، يسبح هذا الخوان؟ فقال: كان يسبح مرة^(١).

قلت: الخوان هو المائدة من الخشب. فكأن الحسن، رحمه الله، ذهب إلى أنه لما كان حيا فيه خضرة، كان يسبح، فلما قطع وصار خشبة يابسة انقطع تسبيحه. وقد يستأنس لهذا القول بحديث ابن عباس، رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ مر بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير»^(٢)، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشى^(٣) بالنميمة. ثم أخذ جريدة رطبة، فشققها نصفين، ثم غرز في كل قبر واحدة، ثم قال: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا». أخرجاه في الصحيحين^(٤).

قال بعض من تكلم على هذا الحديث من العلماء: إنما قال: «ما لم ييبسا» لأنهما يسبحان مادام فيهما خضرة، فإذا يبسا انقطع تسبيحهما، والله أعلم.

وقوله [تعالى]^(٥): ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أى: أنه [تعالى]^(٦) لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يؤجله وينظره، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر، كما جاء في الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ الآية [هود: ١٠٢]^(٧)، وقال [الله]^(٨) تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج: ٤٨]. ومن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان، ورجع إلى الله وتاب إليه، تاب عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وقال ههنا: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ كما قال في آخر فاطر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤١ - ٤٥].

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ (٤٥)
وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا

(١) تفسير الطبري (٦٥/١٥).

(٢) في ت: «كثير».

(٣) في ت: «وأما الآخر فيمشي»، وفي أ: «وكان الآخر يمشي».

(٤) صحيح البخاري برقم (٢١٨) وصحيح مسلم برقم (٢٩٢).

(٥) زيادة من ت.

(٦) زيادة من ت.

(٧) صحيح البخاري برقم (٤٦٨٦) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى الأشعري، رضى الله عنهما.

(٨) زيادة من ف، أ.

عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وإذا قرأت - يامحمد - على هؤلاء المشركين القرآن، جعلنا بينك وبينهم حجاباً مستوراً.

قال قتادة، وابن زيد: هو الأكنة على قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥] أى: مانع حائل^(١) أن يصل إلينا مما تقول شئ.

وقوله: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ أى: بمعنى ساتر، كميمون ومشؤوم، بمعنى: يامن وشائم؛ لأنه من يَمْنهم وشَأَمهم.

وقيل: مستوراً عن الأبصار فلا تراه، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى، ومال إلى ترجيحه ابن جرير، رحمه الله.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا أبو موسى الهروى إسحاق بن إبراهيم، حدثنا سفيان، عن الوليد بن كثير، عن يزيد بن تدرس، عن أسماء بنت أبي بكر [الصدیق] ^(٢) رضى الله عنها ^(٣)، قالت: لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يُدَا أَبَى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [سورة المسد] جاءت العوراء أم جميل ولها ولوكة، وفي يدها فِهْر وهى تقول: مُدَمَّمَا أَتَيْنَا - أو: أبينا، قال أبو موسى: الشك منى - ودينه قَلِينَا، وأمره عصينا. ورسول الله جالس، وأبو بكر إلى جنبه - أو قال: معه - قال: فقال أبو بكر: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال: «إنها لن ترانى»، وقرأ قرآنا اعتصم به منها: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾. قال: فجاءت حتى قامت على أبى بكر، فلم تر النبى ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، بلغنى أن صاحبك هجانى. فقال أبو بكر: لا ورب هذا البيت ما هجاك. قال: فانصرفت وهى تقول: لقد ^(٤) علمت قریش أنى بنت سيدها ^(٥).

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾: جمع «كنان»، الذى يغشى القلب ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أى: لئلا يفهموا القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وهو الثقل الذى يمنعه من سماع القرآن سماعاً ينفعه ويهتدون به.

وقوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ أى: إذا وحدت الله فى تلاوتك، وقلت: «لا إله إلا الله» ﴿وَلَوْ﴾ أى: أدبروا راجعين ﴿عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ ونفور: جمع نافر، كقعود جمع قاعد، ويجوز أن يكون مصدراً من غير الفعل، والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

قال قتادة فى قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ﴾ عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا: إن المسلمين لما قالوا: «لا إله إلا الله»، أنكر ذلك المشركون، وكبرت عليهم، وضاقها إبليس وجنوده، فأبى الله إلا أن يَمْضِيها وينصرها ويُفْلِجها ويظهرها على من ناوأها، إنها كلمة من خاصم بها فلج، ومن قاتل بها

(١) فى ف: «مانع وحائل».

(٢) زيادة من ت.

(٣) فى ف: «أ: » عنهما».

(٤) فى ف: «قد».

(٥) مسند أبى يعلى (٥٣/١) وحسنه الحافظ ابن حجر فى الفتح (١٦٩/٧).

نصر، إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة من المسلمين، التي يقطعها الراكب في ليال قلائل، ويسير الدهر في فثام من الناس، لا يعرفونها ولا يقرّون بها.

قول آخر في الآية:

وروى^(١) ابن جرير: حدثني الحسين بن محمد الذارع^(٢)، حدثنا روح بن المسيب أبو رجاء الكلبي، حدثنا عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾: هم الشياطين.

هذا غريب جداً في تفسيرها، وإلا فالشياطين^(٣) إذا قرئ القرآن، أو نودي بالأذان، أو ذكر الله، انصرفوا^(٤).

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ (٤٧) انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً (٤٨).

يخبر تعالى نبيه - صلوات الله [وسلامه]^(٥) عليه - بما تناجى به رؤساء كفار قريش، حين جاؤوا يستمعون قراءة رسول الله ﷺ سرّاً من قومهم، بما قالوا من أنه رجل مسحور، من السحر على المشهور، أو من «السحر»، وهو الرثة، أى: إن تتبعون - إن اتبعتم محمداً - «إلا بشراً» يأكل ويشرب^(٦)، كما قال الشاعر^(٧):

فَإِنْ تَسَالَيْنَا فِيمَ نَحْنُ فَإِنَّا عَصَافِيرُ مِنْ هَذَا الْأَنَامِ الْمُسْحَرِّ

وقال الراجز^(٨):

وَنُسْحَرُ^(٩) بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ

أى: نُغذى: وقد صوب هذا القول ابن جرير، وفيه نظر؛ لأنهم إنما أرادوا ههنا أنه مسحور له رثى يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه ومنهم من قال: «شاعر»، ومنهم من قال: «كاهن»، ومنهم من قال: «مجنون»، ومنهم من قال: «ساحر»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أى: فلا يهتدون إلى الحق، ولا يجدون إليه مخلصاً.

قال محمد بن إسحاق في السيرة: حدثني محمد بن مسلم^(١٠) بن شهاب الزهري، أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، حليف ابن^(١١) زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ، وهو يصلى بالليل في بيته، فأخذ كل واحد

(٣) فى ف: «فالشيطان».

(٦) زيادة من ف، أ.

(٢) فى ت، ف، أ: «الذراع».

(٥) زيادة من ت، ف، أ.

(١) فى ت، ف: «قال».

(٤) فى ف: «انصرف».

(٧) هو لبيد بن ربيعة، والبيت فى ديوانه (ص ٥٧).

(٨) هو امرؤ القيس، والرجز فى اللسان مادة «سحر».

(٩) فى ت: «تسحر»، وفى أ: «تسحرنا».

(١١) فى أ: «بنى».

منهم مجلساً يستمع فيه، وكلُّ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. حتى إذا جمعتهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا حتى إذا جمعتهم^(١) الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة، أخذ كل رجل^(٢) منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجَمَعَهُم^(٣) الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لنعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعتُ أشياء أعرفها وأعرف ما يُراد بها، وسمعتُ أشياء ما عرفتُ معناها، ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به. قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، مارأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجائنا على الركب، وكنا كقرسى رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به^(٤) أبداً ولا نصدقه. قال: فقام عنه الأخنس وتركه^(٥).

﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٥٢).

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستبشرين وقوع المعاد، القائلين استفهام إنكار منهم لذلك: ﴿إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا﴾ أي: تراباً. قاله مجاهد.

وقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: غباراً.

﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي: بعد ما بلىنا وصرنا عدماً لا يذكر. كما أخبر عنهم في الموضع الآخر: ﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾. أذا كُنَّا عِظَامًا نَحْرَةً. قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ [النازعات: ١٠-١٢]، قال تعالى^(٦): ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

(١) في ف، أ: «تفرقوا فجمعهم». (٢) في ت: «كل واحد». (٣) في ت، ف، أ: «حتى إذا اجتمعهم».

(٤) في ف: «بهذا».

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (١/٣١٥).

(٦) في ف: «وقال تعالى».

وهكذا أمر رسوله ههنا^(١) أن يجيبهم فقال: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ وهما^(٢) أشد امتناعاً من العظام والرفات ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾.

قال ابن إسحاق عن ابن أبي نَجِيج، عن مجاهد: سألت ابن عباس عن ذلك فقال: هو الموت. وروى عطية، عن ابن عمر أنه قال في تفسير هذه الآية: لو كنتم موتى لأحييتكم. وكذا قال سعيد بن جبير، وأبو صالح، والحسن، وقتادة، والضحاك. ومعنى ذلك: أنكم لو فرضتم أنكم لو^(٣) صرتم موتاً الذي هو ضد الحياة، لأحياكم الله إذا شاء، فإنه لا يمتنع^(٤) عليه شيء إذا أَرَادَهُ.

وقد ذكر بن جرير [هاهنا]^(٥) حديث: «يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة، أتعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. ثم يقال: يا أهل النار، أتعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة، خلود بلا موت، ويا أهل النار، خلود بلا موت»^(٦).

وقال مجاهد: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ يعني: السماء والأرض والجبال.

وفى رواية: ما شئتم فكونوا، فسيعيدكم الله بعد موتكم.

وقد وقع في التفسير المروى عن الإمام مالك، عن الزهري في قوله: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ قال: النبي ﷺ، قال مالك: ويقولون: هو الموت.

وقوله [تعالى]^(٧): ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يَعِيدُنَا﴾ أى: من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديدًا أو خلقًا آخر شديدًا ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى: الذى خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، ثم صرتم بشراً تنتشرون؛ فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أى حال ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقوله [تعالى]^(٨): ﴿فَسَيَنْغْضُونُ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ﴾: قال ابن عباس وقتادة: يحركونها استهزاء.

وهذا الذى قاله هو الذى تفهمه العرب من لغاتها؛ لأن^(٩) الإنغاض هو: التحرك من أسفل إلى أعلى، أو من أعلى إلى أسفل، ومنه قيل للظلم - وهو ولد النعمة -: نغضاً؛ لأنه إذا مشى عَجَلَ^(١٠) فى مشيته وحرك رأسه. ويقال: نَغَضَتْ^(١١) سُنَّةٌ إذا تحركت وارتفعت من منبتها؛ قال الراجز^(١٢):

وَنَغَضَتْ مِنْ هَرَمِ أَسْنَانِهَا

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ إخبار عنه بالاستبعاد منهم لوقوع^(١٣) ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ

(١) فى ف: «هنا».

(٢) فى ف: «إذا هما».

(٣) زيادة من أ.

(٤) فى ت: «إذا شاء فلا».

(٥) تفسير الطبرى (٦٩/١٥) من طريق العوفيين عن ابن عمر، رضى الله عنه، وإسناده مسلسل بالضعفاء وأصله فى صحيح مسلم برقم (٢٨٤٩) من حديث أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه.

(٦) زيادة من ت.

(٧) فى ت، ف: «فإن».

(٨) فى ت، ف: «أعجل».

(٩) فى ت: «نغض».

(١٠) الرجز فى تفسير الطبرى (٧٠/١٥).

(١١) فى ت: «وقوع».

مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿الملك: ٢٥﴾، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

وقوله: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أى: احذروا ذلك، فإنه قريب إليكم، سيأتيكم لا محالة، فكل ما هو آت آت.

وقوله [تعالى] ^(١): ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ أى: الرب تعالى ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥] أى: إذا أمركم بالخروج منها فإنه لا يُخَالَف ولا يُمَانَع، بل كما قال [تعالى] ^(٢): ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ. فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤] أى: إنما هو أمر واحد بانتهاز، فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها ^(٣)، كما قال: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أى: تقومون ^(٤) كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أى: بأمره. وكذا قال ابن جريج. وقال قتادة: بمعرفته وطاعته.

وقال بعضهم: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أى: وله الحمد فى كل حال، وقد جاء فى الحديث: «ليس على أهل «لا إله إلا الله» وحشة فى قبورهم، وكأنى ^(٥) بأهل «لا إله إلا الله» يقومون من قبورهم ينفضون التراب عن رؤوسهم، يقولون: لا إله إلا الله». وفى رواية يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: ٣٤] وسيأتى فى سورة فاطر [إن شاء الله تعالى] ^(٦).

وقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ أى: يوم تقومون من قبوركم ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ﴾ [أى] ^(٧): فى الدار الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، وكما قال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا. يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا. نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢ - ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ. قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ. قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤].

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ (٥٣).

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين، أن يقولوا فى مخاطبتهم ومحاورتهم الكلام

(١) فى ت، ف: «تقولون».

(٢) فى ت: «ظهرها».

(٣) زيادة من ت.

(٤) زيادة من ف.

(٥) زيادة من ف، أ.

(٦) فى ت، ف: «فكأنى».

الأحسن والكلمة الطيبة؛ فإنه إذ لم يفعلوا ذلك، نزع الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإن الشيطان عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم، فعداوته ظاهرة بينة؛ ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان يتزغ في يده، أى: فربما أصابه بها.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدرى أحدكم لعل الشيطان أن يتزغ في يده، فيقع في حفرة من نار^(١)». أخرجاه من حديث عبد الرزاق^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، أنبأنا على بن زيد، عن الحسن قال: حدثني رجل من بنى سُلَيْط قال: أتيت النبي ﷺ وهو في أَرْفَلَةٍ من الناس، فسمعتة يقول: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، التقوى هاهنا - [قال حماد: وقال بيده إلى صدره - ماتوا رجلاً في الله ففترق بينهما إلا بحدث يحدثه أحدهما]^(٣)، والمحدث شر، والمحدث شر، والمحدث شر»^(٤).

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝٥٤ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۝٥٥﴾.

يقول الله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أيها الناس، من يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق ﴿إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه ﴿أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ [يامحمد]^(٥) ﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أى: إنما أرسلناك نذيرًا، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار.

وقوله: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: بمراتبهم فى الطاعة والمعصية ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ﴾ كما قال: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وهذا لا ينافى ما [ثبت]^(٦) فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تفضلوا بين الأنبياء»^(٧)؛ فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهى والعصية^(٨)، لا بمقتضى الدليل، [فإنه إذا دل الدليل]^(٩) على شئ وجب اتباعه، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولى العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة المذكورون نصاً^(١٠) فى آيتين من القرآن فى سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ

(١) فى ف، أ: «النار».

(٢) المسند (٣١٧/٢) وصحيح البخارى برقم (٧٠٧٢) وصحيح مسلم برقم (٢٦١٧).

(٣) زيادة من ف، أ، والمسند.

(٤) المسند (٧١/٥).

(٥) زيادة من ف، أ.

(٦) زيادة من ف.

(٧) صحيح البخارى برقم (٣٤١٤) وصحيح مسلم برقم (٢٣٧٣) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

(٨) فى ت: «والمعصية».

(٩) زيادة من ف، وفى ت: «فإنه إذا كان».

(١٠) فى ت: «قصا».

أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴿[الأحزاب: ٧]﴾، وفي الشورى [قوله] ^(١): ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]. ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى على المشهور، وقد بسطنا هذا بدلائله في غير هذا الموضع، والله الموفق. وقوله: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا﴾ تنبيه على فضله وشرفه.

قال البخارى: حدثنا إسحاق بن نصر، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن همام، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «خُفَّ عَلَى دَاوُدَ الْقُرْآنَ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَابَّتِهِ لَتُسْرَجَ، فَكَانَ يَقْرَأُ قَبْلَ أَنْ يَفْرَغَ». يعنى القرآن ^(٢).

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (٥٦)
أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ (٥٧).

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد، فارغبوا إليهم، فإنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ﴾ أى: بالكلية، ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أى: أن يحولوه إلى غيركم.

والمعنى: أن الذى يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذى له الخلق والأمر.

قال العوفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ قال: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيراً، وهم الذين يدعون، يعنى الملائكة والمسيح وعزيراً.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾. روى البخارى، من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن إبراهيم، عن أبى معمر، عن عبد الله فى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ قال: ناس من الجن، كانوا يعبدون، فأسلموا. وفى رواية قال: كان ناس من الإنس، يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم ^(٣).

وقال قتادة، عن معبد ^(٤) بن عبد الله الزماني ^(٥)، عن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن مسعود فى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ قال: نزلت فى نفر من العرب، كانوا يعبدون نفرأ من الجن، فأسلم الجن، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم،

(١) زيادة من ف.

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧١٣).

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧١٤، ٤٧١٥).

(٤) فى ت: «سعيد».

(٥) فى ت، ف: «الرماني».

فنزلت هذه الآية .

وفى رواية عن ابن مسعود: كانوا يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم: الجن، فذكره .
وقال السدى، عن أبى صالح، عن ابن عباس فى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ
الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ قال: عيسى وأمه، وعزير .

وقال مغيرة، عن إبراهيم: كان ابن عباس يقول فى هذه الآية: هم عيسى، وعزير، والشمس،
والقمر .

وقال مجاهد: عيسى، والعزير، والملائكة .

واختار ابن جرير قول ابن مسعود؛ لقوله: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، وهذا لا يعبر به ^(١) عن
الماضى، فلا يدخل فيه عيسى والعزير . قال: والوسيلة هى القرية، كما قال قتادة؛ ولهذا قال: ﴿أَيُّهُمْ
أَقْرَبُ﴾ .

وقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾: لاتتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف ^(٢)
عن المناهى، وبالرجاء ينبعث على ^(٣) الطاعات .

وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أى: ينبغى أن يحذر منه، ويخاف من وقوعه وحصوله،
عياذاً بالله منه .

﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي
الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (٥٨) .

هذا إخبار من الله بأنه قد حتم وقضى بما قد كتبه عنده فى اللوح المحفوظ: أنه ما من قرية إلا
سيهلكها، بأن يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون
ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال عن الأمم الماضين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾
[هود: ١٠١] وقال تعالى: ﴿وَكَايِنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا
عَذَابًا نُكَرًا . فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧، ٨] .

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا
بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ (٥٩) .

قال سنيّد، عن حماد بن زيد، عن أيوب، عن سعيد بن جبّير قال: قال المشركون: يا محمد،
إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء، فمنهم من سُخِّرَتْ له الريح، ومنهم من كان يحيى الموتى، فإن سرّك
أن نؤمن بك ونصدقك، فادع ربك أن يكون لنا الصفا ذهباً . فأوحى الله إليه: «إنى قد سمعت الذى

(١) فى ت: «لا يغن به» .

(٢) فى ف، أ: «ينكشف» .

(٣) فى ف: «إلى» .

قالوا، فإن شئت أن نفعل الذى قالوا، فإن لم يؤمنوا نزل العذاب؛ فإنه ليس بعد نزول الآية مناظرة، وإن شئت أن نستأنى بقومك استأنيتُ بهم؟» قال: «يارب، استأن بهم».

وكذا قال قتادة، وابن جريج، وغيرهما.

قال^(١) الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن محمد، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن جعفر بن إياس^(٢)، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة النبى ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحى الجبال عنهم فيزرعوا، ف قيل له: إن شئت أن نستأنى بهم، وإن شئت أن نؤتيهم الذى سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكتُ من كان قبلهم من الأمم: قال: «لا، بل استأن بهم». وأنزل الله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾. رواه^(٣) النسائى من حديث جرير، به^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن سلمة بن كهيل، عن عمران أبى الحكم^(٥)، عن ابن عباس قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً، ونؤمن بك. قال: «وتفعلون؟» قالوا: نعم. قال: فدعا، فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح الصفا لهم ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة. فقال: «بل باب التوبة والرحمة»^(٦).

وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده: حدثنا محمد بن إسماعيل بن على الأنصارى، حدثنا خلف ابن تميم المصيصى، عن عبد الجبار بن عمار الأيلي، عن عبد الله بن عطاء بن إبراهيم، عن جدته أم عطاء مولاة الزبير بن العوام قالت: سمعت الزبير يقول: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صاح رسول الله ﷺ على أبى قبيس: «يا آل عبد مناف، إني نذير!» فجاءته قريش فحذرهم وأنذرهم، فقالوا: تزعم أنك نبى يوحى إليك، وأن سليمان سخر له الريح والجبال، وأن موسى سخر له البحر، وأن عيسى كان يحيى الموتى، فادع الله أن يسير عنا هذه الجبال، ويفجر^(٧) لنا الأرض أنهاراً، فتتخذها محارث فنزرع ونأكل، وإلا فادع الله أن يحيى لنا موتانا فنكلمهم ويكلمونا، وإلا فادع الله أن يصير لنا هذه الصخرة التى تحتك ذهباً، فننحت منها، وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف، فإنك تزعم أنك كهيتهم! قال: فبينما نحن حوله، إذ نزل عليه الوحي، فلما سرى عنه قال: «والذى نفسى بيده، لقد أعطاني ما سألتهم، ولو شئت لكان، ولكنه خيرنى بين أن تدخلوا باب الرحمة، فيؤمن مؤمنكم، وبين أن يكلكم إلى ما اخترتم لأنفسكم، ففضلوا عن باب الرحمة، فلا يؤمن منكم أحد، فاخترت باب الرحمة، فيؤمن مؤمنكم. وأخبرنى أنه إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم، أنه يعذبكم عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين» ونزلت: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ

(١) فى ف: «وقال».

(٢) فى ف، أ: «ابن أبى إياس».

(٣) فى أ: «قد رواه».

(٤) المسند (٢٥٨/١) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٢٩٠).

(٥) فى هـ: «عمران بن حكيم»، والتصويب من أطراف المسند وكتب الرجال.

(٦) المسند (٢٤٢/١).

(٧) فى ف: «وتفجر».

كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴿٦٠﴾ وحتى قرأ ثلاث آيات ونزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ [الرعد: ٣١] (١).

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ أي: نبعث الآيات ونأتى بها على ما سأل قومك منك، فإنه سهل علينا يسير لدينا، إلا أنه قد كذب بها الأولون بعدما سألوها، وجرت سنتنا فيهم وفي أمثالهم أنهم لا يؤخرون إذا كذبوا بها بعد نزولها، كما قال الله تعالى في المائدة: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَنَزَلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥]. وقال تعالى عن ثمود، حين سألوا آية: ناقة تخرج (٢) من صخرة عيونها، فدعا صالح ربه، فأخرج له منها ناقة على ما سألوا ﴿فَطَلَّمُوا بِهَا﴾ (٣) أي: كفروا بمن خلقها، وكذبوا رسوله وعقروا الناقة فقال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ﴾ أي: دالة على وحدانية من خلقها وصدق الرسول الذي أجيب دعاؤه فيها ﴿فَطَلَّمُوا بِهَا﴾ أي: كفروا بها ومنعوها شربها وقتلوا، فأبادهم الله عن آخرهم، وانتقم منهم، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ قال قتادة: إن الله خوف الناس بما يشاء (٤) من آياته لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون، ذكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود فقال: يا أيها الناس، إن ربكم يستعقبكم فأعقبوه.

وهكذا روى أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب مرات، فقال عمر: أحدثتم، والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن. وكذا قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله عز وجل، يرسلهما يخوف بهما» (٥) عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره. ثم قال: «يا أمة محمد، والله ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» (٦).

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ (٦٠).

يقول تعالى لرسوله ﷺ محرضاً له على إبلاغ رسالته، ومخبراً له بأنه قد عصمه من الناس، فإنه القادر عليهم، وهم في قبضته وتحت قهره وغلبيه.

قال مجاهد، وعروة بن الزبير، والحسن، وقتادة، وغيرهم في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ

(١) مسند أبي يعلى (٢/ ٤٠) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٨٥): «رواه أبو يعلى من طريق عبد الجبار بن عمر الأيلي، عن عبد الله بن عطاء بن إبراهيم، وكلاهما وثق، وقد ضعفهما الجمهور».

(٢) في ف، أ: «أن يخرج لهم ناقة». (٣) في أ: «فلما ظلموا بها» وهو خطأ.

(٤) في ف: «بأنشاء».

(٥) في ف، أ: «ولكن يخوف الله بهما».

(٦) صحيح البخاري برقم (١٠٤٤) وصحيح مسلم برقم (٩٠١).

بِالنَّاسِ ﴿ أَى: عصمك منهم.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ قال البخارى: حدثنا على بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾ شجرة الزقوم^(٢).

وكذا رواه أحمد، وعبد الرزاق، وغيرهما، عن سفيان بن عيينة به^(٣)، وكذا رواه العوفى، عن ابن عباس، وهكذا فسر ذلك بليلة الإسراء: مجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، ومسروق، وإبراهيم، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد، وغير واحد. وقد تقدمت أحاديث الإسراء فى أول السورة مستقصاة، ولله^(٤) الحمد والمنة. وتقدم أن ناساً رجعوا عن دينهم بعدما كانوا على الحق؛ لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وجعل الله ذلك ثباتاً وقيناً لآخرين؛ ولهذا^(٥) قال: ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ أَى: اختباراً وامتحاناً. وأما «الشجرة الملعونة»، فهي شجرة الزقوم، كما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزقوم، فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل لعنه الله^(٦) [بقوله]^(٧): هاتوا لنا تمرأ وزبدأ، وجعل يأكل هذا بهذا ويقول: تَزَقَّمُوا، فلا نعلم الزقوم غير هذا.

حكى ذلك ابن عباس، ومسروق، وأبو مالك، والحسن البصرى، وغير واحد، وكل من قال: إنها ليلة الإسراء، فسر ذلك^(٨) بشجرة الزقوم.

وقد قيل: المراد بالشجرة الملعونة: بنو أمية. وهو غريب ضعيف.

قال ابن جرير: حدثت عن محمد بن الحسن بن زبالة، حدثنا عبد المهيمن بن عباس بن سهل ابن سعد، حدثنى أبى عن جدى قال: رأى رسول الله ﷺ بنى فلان ينزون على منبره نَزَوِ الْقُرُودِ^(٩)، فسأه ذلك، فما استجمع ضاحكاً حتى مات. قال: وأنزل^(١٠) الله فى ذلك: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ الآية^(١١).

وهذا السند ضعيف جداً؛ فإن «محمد بن الحسن بن زبالة» متروك، وشيخه أيضاً ضعيف بالكلية. ولهذا اختار ابن جرير: أن المراد بذلك ليلة الإسراء، وأن الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم، قال: لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك، أَى: فى الرؤيا والشجرة.

وقوله: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أَى: الكفار بالوعيد والعذاب والنكال ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ أَى: تمادياً فيما هم فيه من الكفر والضلال. وذلك من خذلان الله لهم.

(١) فى ف: «النبى ﷺ».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧١٦).

(٣) المسند (١/٢٢١).

(٤) فى ت: «قلله».

(٥) فى ت: «فلهدا».

(٦) فى ف، أ: «عليه لعائن الله».

(٧) زيادة من ت.

(٨) فى ف: «فسر ذلك».

(٩) فى أ: «القردة».

(١٠) فى ف: «فأنزل».

(١١) تفسير الطبرى (٧٧/١٥).

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢)﴾.

يذكر تعالى عداوة إبليس - لعنه الله - لآدم، عليه السلام، وذريته، وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود، فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له؛ افتخاراً عليه واحتقاراً له ﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وقال أيضاً: ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾، يقول للرب جراءة وكفراً، والرب يحلم^(١) وينظر ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس يقول: لأستولين على ذريته إلا قليلاً.

وقال مجاهد: لأحتوين. وقال ابن زيد: لأضلنهم.

وكلها متقاربة، والمعنى: أنه يقول: أرايتك هذا الذي شرفته وعظمته عليّ، لئن أنظرتني لأضلن ذريته إلا قليلاً منهم!

﴿قَالَ أَذْهَبُ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَغْفِرُ مَنْ اسْتَطَعْتُ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبُ عَلَيْهِمْ بِخِيلِكَ وَرَجِّلُ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥)﴾.

لما سأل إبليس [عليه اللعنة]^(٢) النظرة قال الله له: ﴿أَذْهَبُ﴾ فقد أنظرتك. كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر ٣٧، ٣٨] ثم أوعده ومن تبعه من ذرية آدم جهنم، فقال: ﴿فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ﴾ أي: على أعمالكم ﴿جَزَاءً مَوْفُورًا﴾.

قال مجاهد: وافراً. وقال قتادة: مَوْفُورًا عليكم، لا ينقص لكم منه.

وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرُ مَنْ اسْتَطَعْتُ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ قيل: هو الغناء. قال مجاهد: باللهو والغناء، أي: استخفهم بذلك.

وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرُ مَنْ اسْتَطَعْتُ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ قال: كل داع دعا إلى معصية الله، عز وجل، وقاله قتادة، واختاره ابن جرير.

(٢) زيادة من ف، أ.

(١) في ت، أ: «يحكم».

وقوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ يقول: واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم^(١)؛ فإن «الرجل» جمع «راجل»، كما أن «الركب» جمع «راكب» و «صحب» جمع «صاحب».

ومعناه: تسلط عليهم لكل ما تقدر عليه. وهذا أمر قدرى، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣] أى: تزعجهم إلى المعاصى إزعاجاً، وتسوقهم إليها^(٢) سوقاً. وقال ابن عباس، ومجاهد فى قوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ قال: كل راكب ومشى فى معصية الله.

وقال قتادة: إن له خيلاً ورجالاً من الجن والإنس، وهم الذين يطيعونه.

وتقول العرب: «أجلب فلان على فلان»: إذا صاح عليه. ومنه: «نهى فى المسابقة عن الجلب والجنب» ومنه اشتقاق «الجلبة»، وهى ارتفاع الأصوات.

وقوله: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال فى معاصى الله.

وقال عطاء: هو الربا. وقال الحسن: [هو]^(٣) جمعها من خبيث، وإنفاقها فى حرام. وكذا قال قتادة.

وقال العوفى، عن ابن عباس، رضى الله عنهما: أما مشاركته إياهم فى أموالهم، فهو ما حرموه من أنعامهم، يعنى: من البحائر والسوائب ونحوها. وكذا قال الضحاك وقاتدة.

[ثم]^(٤) قال ابن جرير: والأولى أن يقال: إن الآية تعم ذلك كله.

وقوله: ﴿وَالْأَوْلَادِ﴾ قال العوفى عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: يعنى أولاد الزنا.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفهاً بغير علم.

وقال قتادة، عن الحسن البصرى: قد والله شاركهم فى الأموال والأولاد مَجَسُوا وهودوا ونَصَرُوا وصبغوا غير صبغة الإسلام، وَجَزَّوْا من أموالهم جزءاً للشياطين^(٥)، وكذا قال قتادة سواء.

وقال أبو صالح، عن ابن عباس: هو تسميتهم أولادهم «عبد الحارث» و«عبد شمس» و«عبد فلان».

قال ابن جرير: وأولى الأقوال بالصواب أن يقال: كل مولود ولدته أنثى، عصى الله فيه، بتسميته ما^(٦) يكرهه الله، أو بإدخاله فى غير الدين الذى ارتضاه الله، أو بالزنا بأمه، أو بقتله ووأده، وغير ذلك من الأمور التى يعصى^(٧) الله بفعله به أو فيه، فقد دخل فى مشاركة إبليس فيه من ولد ذلك الولد له أو منه؛ لأن الله لم يخصص بقوله: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ معنى الشركة فيه بمعنى دون معنى، فكل ماعصى الله فيه - أو به، وأطيع فيه الشيطان - أو به، فهو مشاركة.

(٣، ٤) زيادة من ف، أ.

(٢) فى ت: «إلينا».

(١) فى ت، ف: «ورجالتهم».

(٦) فى ف: «بما».

(٥) فى ف: «الشيطان».

(٧) فى ت: «يعفى».

وهذا الذى قاله مُتَّجِه، وكل^(١) من السلف، رحمهم الله، فسر بعض المشاركة، فقد ثبت فى صحيح مسلم، عن عياض بن حمار^(٢)، أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: إني خلقت عبادى حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم^(٣) عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم^(٤)».

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتى أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا، فإنه إن يُقَدَّرَ بينهما ولد فى ذلك، لم يضره الشيطان أبداً^(٥)».

وقوله: ﴿وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ كما أخبر تعالى عن إبليس أنه يقول إذا حصحص الحق يوم يلقى بالحق: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢].

وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾: إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين، وحفظه إياهم، وحراسته لهم من الشيطان الرجيم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ أى: حافظاً ومؤيداً وناصراً.

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة، عن موسى بن وردان، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن لينضى شياطينه^(٦)»، كما ينضى أحدكم بغيره فى السفر^(٧).

ينضى، أى: يأخذ بناصيته ويقهره.

﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (٦٦).

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه فى تسخير لعباده الفلك فى البحر، وتسهيلها^(٨) لمصالح عباده، لابتغائهم من فضله^(٩) فى التجارة من إقليم إلى إقليم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أى: إنما فعل هذا بكم، من فضله عليكم، ورحمته بكم.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (٦٧).

(١) فى ت، ف: «فكل». (٢) فى ف، أ: «عن ابن عباس عن عياض بن حمار». وفى ت: «حماد» بدل «حمار».

(٣) فى ت: «واجتالتهم».

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥).

(٥) صحيح البخارى برقم (١٤١) وصحيح مسلم برقم (١٤٣٤).

(٦) فى ت: «شيطانه».

(٧) المسند (٢/ ٣٨٠).

(٨) فى ت، ف، أ: «وتسهيله لها».

(٩) فى ف، أ: «فضله لهم».

يخبر تعالى أنه إذا مس الناس ضررٌ، دعوه منييين إليه، مخلصين له الدين؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ﴾ أى: ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله، كما اتفق لعكرمة بن أبى جهل لما ذهب فاراً من رسول الله ﷺ حين فتح مكة، فذهب هارباً، فركب فى البحر ليدخل الحبشة، فجاءتهم^(١) ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغنى عنكم إلا أن تدعوا الله وحده. فقال عكرمة فى نفسه: والله لئن كان لا ينفع فى البحر غيره، فإنه لا ينفع فى البر غيره، اللهم لك على عهد، لئن أخرجتنى منه لأذهبن فأضعن^(٢) يدي فى يديه^(٣)، فلأجدنه رؤوفاً رحيماً. فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن^(٤) إسلامه، رضى الله عنه وأرضاه.

وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أى: نسيتم ما عرفتم من توحيده فى البحر، وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له.

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً﴾ أى: سَجِيَّتُهُ هذا، ينسى النعم ويجهدها، إلا من عصم الله.

﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً﴾ (٦٨).

يقول تعالى: أفحسبتم أن نخرجكم^(٥) إلى البر أمنتم من انتقامه وعذابه!

﴿أَنْ يَخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً﴾، وهو: المطر الذى فيه حجارة. قاله مجاهد، وغير واحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ^(٦) حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤] وقد قال فى الآية الأخرى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَاباً مِنْ سَجِيلٍ^(٧)﴾ [هود: ٨٢]، وقال: ﴿أَأَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْصِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَمُورُ. أَمْ أَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ [الملك: ١٦، ١٧].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً﴾ أى: ناصراً يرد ذلك عنكم، وينقذكم منه [والله سبحانه وتعالى أعلم]^(٨).

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾ (٦٩).

يقول تعالى: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ﴾ أيها المعرضون عنا بعدما اعترفوا بتوحيدنا فى البحر، وخرجوا إلى البر^(٩) ﴿أَنْ يُعِيدَكُمْ﴾ فى البحر مرة ثانية ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ﴾ أى: يقصف الصوارى

(٣) فى أ: «يدى محمد».

(١) فى ف: «فجاءهم». (٢) فى ت: «فأضع»، وفى ف: «فأضعن».

(٤) فى ت: «ﷺ فأحسن». (٥) فى ت: «أن يخرجكم»، وفى ف: أ: «أن يخرجكم».

(٦) فى ف: «عليكم» وهو خطأ.

(٧) فى ت، ف، أ: «من طين» وهو خطأ.

(٨) زيادة من ف.

(٩) فى ت: «إلى التراب».

ويغرق المراكب.

قال ابن عباس وغيره: القاصف: ريح البحار^(١) التي تكسر المراكب وتغرقها^(٢).

وقوله: ﴿فَيَغْرِقُكُمْ^(٣) بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أى: بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ قال ابن عباس: نصيراً.

وقال مجاهد: نصيراً ثائراً، أى: يأخذ بثأركم بعدكم.

وقال قتادة: ولانخاف أحداً يتبعنا بشيء من ذلك.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠)﴾.

يخبر تعالى عن تشریفه لبني آدم، وتكريمه إياهم، فى خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها^(٤)، كما قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] أى: يمشى قائماً منتصباً على رجلية، ويأكل بيديه - وغيره من الحيوانات يمشى على أربع ويأكل بفمه - وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً، يفقه بذلك كله وينتفع به، ويفرق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها فى الأمور الدنيوية والدينية.

﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ^(٥)﴾ أى: على الدواب من الأنعام والخيول والبغال، وفى ﴿وَالْبَحْرِ﴾ أيضاً على السفن الكبار والصغار.

﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أى: من زروع وثمار، ولحوم وألبان، من سائر أنواع الطعوم^(٦) والألوان، المشتهاة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة^(٧) من سائر الأنواع، على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها، مما يصنعونه لأنفسهم، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي. ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أى: من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات.

وقد استدل بهذه الآية على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة، قال عبد الرزاق:

أخبرنا معمر، عن زيد بن أسلم قال: قالت الملائكة: يا ربنا، إنك أعطيت بنى آدم الدنيا، يأكلون منها ويتنعمون، ولم تعطنا ذلك فأعطناه فى الآخرة. فقال الله: «وعزتى وجلالى لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي، كمن قلت له: كن فكان»^(٨).

وهذا الحديث مرسل من هذا الوجه، وقد روى من وجه آخر متصلاً.

وقال^(٩) الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أحمد بن محمد بن صدقة البغدادي، حدثنا إبراهيم

(١) البحر. (٢) فى ف: «يكسر المراكب ويغرقها». (٣) فى ت: «فتغرقكم». وفى ف: «فيغرقكم».

(٤) فى أ: «وأجملها». (٥) فى ت، ف: «البر والبحر». (٦) فى ت: «الأطعمة».

(٧) فى ت، ف، أ: «المرتفعة».

(٨) تفسير عبد الرزاق (١/٣٢٥).

(٩) فى ف: «فقال».

ابن عبد الله بن خالد المصيصي، حدثنا حجاج بن محمد، حدثنا أبو غسان محمد بن مطرف، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة قالت: يا ربنا، أعطيت بنى آدم الدنيا، يأكلون فيها^(١) ويشربون ويلبسون، ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة. قال: لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي، كمن قلت له: كن، فكان»^(٢).

وقد روى ابن عساكر من طريق محمد بن أيوب الرازي، حدثنا الحسن بن علي بن خلف الصيدلاني، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن، حدثني عثمان بن حصن بن عبيدة بن علاق، سمعت عروة بن رويم اللخمي، حدثني أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الملائكة قالوا: ربنا، خلقتنا وخلقنا بنى آدم، فجعلتهم يأكلون الطعام، ويشربون الشراب، ويلبسون الثياب، ويتزوجون النساء، ويركبون الدواب، ينامون^(٣) ويستريحون، ولم تجعل لنا من ذلك شيئاً، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة. فقال الله عز وجل: لا أجعل من خلقتهم بيدي، ونفخت فيه من روحي، كمن قلت له: كن، فكان»^(٤).

وقال الطبراني: حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا عمر^(٥) بن سهل، حدثنا عبيد الله بن تمام، عن خالد الحذاء، عن بشر بن شغاف^(٦) عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ما شيء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم». قيل: يارسل الله، ولا الملائكة؟ قال: «ولا الملائكة، الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر»^(٧). وهذا حديث غريب جداً.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢)﴾.

يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة: أنه يحاسب كل أمة بإمامهم.

وقد اختلفوا في ذلك، فقال مجاهد وقتادة: أي بنبيهم. وهذا كقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧].

(١) في ت: «منها».

(٢) وفي إسناده إبراهيم بن عبد الله المصيصي وهو كذاب، ورواه في المعجم الأوسط برقم (٨٧) «مجمع البحرين» من طريق طلحة بن زيد عن صفوان بن سليم به، وقال: «لم يروه عن صفوان إلا طلحة، وأبو غسان محمد بن مطرف» وفي إسناده طلحة بن زيد وهو كذاب.

(٣) في ت: «وينامون».

(٤) وذكره الهندي في كنز العمال (١٢/١٩١) وعزاه لابن عساكر من حديث أنس، وقد جاء من وجه آخر؛ فرواه الطبراني في مسند الشاميين من طريق أحمد بن يعلى، عن هشام بن عمار، عن عثمان بن علاق قال: سمعت عروة بن رويم يحدث عن جابر فذكره، ورواه البيهقي في الأسماء والصفات من طريق جنيد بن حكيم، عن هشام بن عمار، عن عبد ربه بن صالح قال: سمعت عروة بن رويم يحدث عن جابر فذكره. ١. هـ. مستفاداً ذلك الزيلعي في كتابه تخريج الكشاف.

(٥) في ف: «معمر».

(٦) في ف: «شعاب».

(٧) قال الهيثمي في المجمع (١/٨٢): «رواه الطبراني في الكبير، وفيه عبيد الله بن تمام وهو ضعيف».

وقال بعض السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث؛ لأن إمامهم النبي ﷺ.

وقال ابن زيد: بكتابهم الذي أنزل على نبيهم، من التشريع.

واختاره ابن جرير، وروى عن ابن أبي نَجِيج، عن مجاهد أنه قال: بكتبهم. فيحتمل أن يكون أراد هذا، وأن يكون أراد ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ أى: بكتاب أعمالهم، وكذا قال أبو العالية، والحسن، والضحاك. وهذا القول هو الأرجح؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨، ٢٩].

وهذا لا ينافي^(١) أن يجاء بالنبي إذا حكم الله بين أمته، فإنه لا بد أن يكون شاهداً عليها بأعمالها، كما قال: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءُ﴾، [الزمر: ٦٩]، وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

ولكن المراد ههنا بالإمام^(٢) هو كتاب الأعمال؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ أى: من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح، يقرؤه ويحب قراءته، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيهِ. إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ. وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ﴾ [الحاقة: ١٩ - ٢٦].

وقوله: ﴿وَلَا يَظْلُمُونَ﴾^(٣) فتَيْلاً ﴿قد تقدم أن «الفتيل» هو الخيط المستطيل في شق النواة.

وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً في هذا فقال: حدثنا محمد بن يَعْمَر^(٤)، ومحمد بن عثمان ابن كرامة قالوا: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن السُّدِّيِّ، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، عن النبي ﷺ في قول الله: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ قال: «يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه، ويمد له في جسمه، ويبيض وجهه، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة تتلألأ، فينطلق إلى أصحابه فيروونه من بعيد، فيقولون: اللهم ائتنا^(٥) بهذا، وبارك لنا في هذا. فيأتيهم فيقول لهم: أبشروا، فإن لكل رجل منكم مثل هذا. وأما الكافر فيسود وجهه، ويمد له في جسمه، ويراه أصحابه فيقولون: نعوذ بالله من هذا - أو: من شر هذا - اللهم لاتأتنا به. فيأتيهم فيقولون: اللهم اخزه^(٦). فيقول: أبعدكم الله، فإن لكل رجل منكم مثل هذا».

(٣) فى ف: «تظلمون».

(٢) فى ف: «بالإمام هاهنا».

(١) فى ت، ف: «لا ينفى».

(٦) فى ت: «أجرنا».

(٥) فى هـ، ت: «اعترينا»، والمثبت من ف.

(٤) فى ت، ف، أ: «معمر».

ثم قال البزار: لا يروى إلا من هذا الوجه ^(١).

وقوله: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: ﴿وَمَنْ كَانَ فِيهِ هَذِهِ﴾ أى: فى الحياة الدنيا ﴿أَعْمَى﴾ عن حجج الله وآياته وبيناته ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ أى: كذلك يكون ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أى: وأضل منه كما كان فى الدنيا، عياداً بالله من ذلك.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذَا لَأَذْفَنَّاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥)﴾.

يخبر تعالى عن تأييد ^(٢) رسوله، صلوات الله عليه وسلامه ^(٣)، وثبتيته، وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولى أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظهره، ومظهر ^(٤) دينه على من عاداه وخالفه وناواه، فى مشارق الأرض ومغاربها، ﷺ تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧)﴾.

قيل: نزلت فى اليهود، إذ أشاروا على رسول الله ﷺ بسكنى الشام بلاد الأنبياء، وترك سكنى المدينة.

وهذا القول ضعيف؛ لأن هذه الآية مكية، وسكنى المدينة بعد ذلك.

وقيل: إنها نزلت بتبوك. وفى صحته نظر.

قال البيهقى، عن الحاكم، عن الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار العطاردى، عن يونس بن بكير، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غنم؛ أن اليهود أتوا رسول الله ﷺ يوماً فقالوا: يا أبا القاسم، إن كنت صادقاً أنك نبى، فالحق بالشام؛ فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء. فصدق ^(٥) ما قالوا، فغزا غزوة تبوك، لا يريد إلا الشام. فلما بلغ تبوك، أنزل الله عليه آيات من سورة بنى إسرائيل بعد ما ختمت السورة: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ إلى قوله: ﴿تَحْوِيلًا﴾ فأمره الله بالرجوع إلى المدينة، وقال: فيها محياك ومماتك، ومنها تبعث ^(٦).

(١) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣١٣٦) من طريق عبد الله بن عبد الرحمن، عن عبيد الله بن موسى به، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب».

(٢) فى ف: «تأييده».

(٣) فى ت: «صلوات الله وسلامه عليه».

(٤) فى ت، ف: «قال: فصدق».

(٥) فى ت، ف: «قال: فصدق».

(٦) دلائل النبوة (٥/٢٥٤).

وفى هذا الإسناد نظر. والأظهر أن هذا ليس^(١) بصحيح؛ فإن النبي ﷺ لم يغز تبوك عن قول اليهود، إنما غزاها امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقوله^(٢) تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. وغزاها ليقترض ويتنقم ممن قتل أهل مؤتة، من أصحابه، والله أعلم. ولو صح هذا لحمل عليه الحديث الذي رواه الوليد بن مسلم، عن عفير بن معدان، عن سليم بن عامر، عن أبي أمامة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل القرآن في ثلاثة أمكنة: مكة، والمدينة، والشام»^(٣). قال الوليد: يعنى بيت المقدس. وتفسير الشام بتبوك أحسن مما قال الوليد: إنه بيت المقدس والله أعلم.

وقيل: نزلت في كنفار قریش، هموا بإخراج الرسول من بين أظهرهم، فتوعدهم الله بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه^(٤) لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً. وكذلك وقع؛ فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم، بعد ما اشتد أذاهم له، إلا سنة ونصف. حتى جمعهم الله وإياه بيدى على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشرافهم^(٥)، وسبى سراتهم^(٦)؛ ولهذا قال: ﴿سَنَّةٌ مِّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا﴾ أى: هكذا عادتنا فى الذين كفروا برسولنا وأذوهم: يخرج الرسول من بين أظهرهم: ويأتيهم العذاب. ولولا أنه عليه [الصلاة] و^(٧) السلام رسول الرحمة، لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩) ﴿

يقول تعالى لرسوله ﷺ آمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات فى أوقاتها: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ قيل^(٨): لغروبها. قاله ابن مسعود، ومجاهد، وابن زيد.

وقال هُشَيْمٌ، عن مغيرة، عن الشعبي، عن ابن عباس: «دلوكها»: زوالها. ورواه نافع، عن ابن عمر. ورواه مالك فى تفسيره، عن الزهري، عن ابن عمر. وقاله أبو بَرَزَةَ الأَسْلَمِي وهو رواية أيضاً عن ابن مسعود. ومجاهد. وبه قال الحسن، والضحاك، وأبو جعفر الباقر، وقتادة. واختاره ابن جرير، ومما استشهد عليه ما رواه عن ابن حميد، عن الحكم بن بشير، حدثنا عمرو بن قيس، عن ابن أبى ليلى، [عن رجل]^(٩)، عن جابر بن عبد الله قال: دعوت رسول الله ﷺ ومن شاء من أصحابه فطعموا عندي، ثم خرجوا حين زالت الشمس، فخرج النبي ﷺ فقال: «اخرج يا أبا بكر، فهذا حين دلكت الشمس»^(١٠).

(١) فى ت: «ليس هذا».

(٢) فى ف: «ولقوله».

(٣) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٠١/٨) من طريق هشام بن عمار، عن الوليد بن مسلم به، وعفير بن معدان ضعيف.

(٤) فى ت: «خرجوه».

(٥) فى ت: «أشرافهم».

(٦) فى ف، أ: «ذرائعهم».

(٧) زيادة من ف، أ.

(٨) زيادة من ف، أ، والطبرى.

(٩) فى ت: «قبل».

(١٠) تفسير الطبرى (٩٣/١٥).

ثم رواه عن سهل بن بكار، عن أبي عوَّانة، عن الأسود بن قيس، عن نبيح العنزى، عن جابر عن رسول الله ﷺ، نحوه. فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلاة الخمسة فمن قوله: ﴿لَدُلُوكَ الشَّمْسُ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ وهو: ظلامه، وقيل: غروب الشمس، أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وقوله [تعالى] ^(١): ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ يعنى: صلاة الفجر.

وقد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله ^(٢)، بتفاصيل هذه الأوقات، على ما عليه عمل أهل الإسلام ^(٣) اليوم، مما تلقوه خلفاً عن سلف، وقرناً بعد قرن، كما هو مقرر فى مواضعه، ولله الحمد.

﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ قال الأعمش، عن إبراهيم، عن ابن مسعود - وعن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضى الله عنه ^(٤)، عن النبي ﷺ فى هذه الآية: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ قال: «تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار» ^(٥).

وقال البخارى: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهرى، عن أبى سلمة - وسعيد بن المسيب، عن أبى هريرة، عن النبي ﷺ قال: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر». ويقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ ^(٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسباط، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ وحدثنا الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، عن النبي ﷺ فى قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ قال: «تشهده ملائكة الليل، وملائكة النهار».

ورواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، ثلاثتهم عن عبيد بن أسباط بن محمد، عن أبيه، به ^(٧)، وقال الترمذى: حسن صحيح.

وفى لفظ فى الصحيحين، من طريق مالك، عن أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة الليل وملائكة النهار» ^(٨)، ويجتمعون فى صلاة الصبح وفى صلاة العصر، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم - وهو أعلم بكم - كيف تركتم عبادى؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون» ^(٩).

وقال عبد الله بن مسعود: يجتمع الحرسان ^(١٠) فى صلاة الفجر، فيصعد هؤلاء ويقوم هؤلاء.

(١) زيادة من ت. (٢) فى ت: «أقواله وأفعاله». (٣) فى ت: «السلام».

(٤) فى ت، ف، أ: «عنهما».

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (٩٤/١٥).

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧١٧).

(٧) المسند (٤٧٤/٢) وسنن الترمذى برقم (٣١٣٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٢٩٣) وسنن ابن ماجه برقم (٦٧٠) وهو عند أهل

السنن من رواية الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، رضى الله عنه.

(٨) فى ت: «بالليل وملائكة النهار».

(٩) صحيح البخارى برقم (٥٥٥) وصحيح مسلم برقم (٦٣٢).

(١٠) فى ت، ف: «الحرستان».

وكذا قال إبراهيم النخعي، ومجاهد، وقتادة، وغير واحد في تفسير هذه الآية.

وأما الحديث الذي رواه ابن جرير ههنا - من حديث الليث بن سعد، عن زيادة، عن محمد بن كعب القرظي، عن فضالة بن عبيد، عن أبي الدرداء، عن رسول الله ﷺ، فذكر حديث النزول وأنه تعالى يقول: «من يستغفرني أغفر له، من يسألني أعطه»^(١)، من يدعني فأستجيب له حتى يطلع الفجر». فلذلك يقول: «وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا» فيشهد الله، وملائكة الليل، وملائكة النهار^(٢) - فإنه تفرد به زيادة، وله بهذا حديث في سنن أبي داود^(٣).

وقوله: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ»: أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة، كما ورد في صحيح مسلم، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، أنه سئل: أى الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال: « صلاة الليل»^(٤).

ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل، فإن التهجد: ما كان بعد نوم. قاله علقمة، والأسود، وإبراهيم النخعي، وغير واحد وهو المعروف في لغة العرب. وكذلك ثبتت الأحاديث عن رسول الله ﷺ: أنه كان يتهجد بعد نومه، عن ابن عباس، وعائشة، وغير واحد من الصحابة، رضى الله عنهم، كما هو مبسوط في موضعه^(٥)، ولله الحمد والمنة.

وقال الحسن البصري: هو ما كان بعد العشاء. ويحمل^(٦) على ما بعد النوم.

واختلف في معنى قوله: «نَافِلَةً لَّكَ» فقيل: معناه أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك، فجعلوا قيام الليل واجباً في حقه دون الأمة. رواه العوفي عن ابن عباس، وهو أحد قولى العلماء، وأحد قولى الشافعى، رحمه الله، واختاره ابن جرير.

وقيل: إنما جعل قيام الليل^(٧) في حقه نافلة على الخصوص؛ لأنه قد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر، وغيره من أمته إنما يكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التى عليه، قاله مجاهد، وهو فى المسند عن أبى أمامة الباهلى، رضى الله عنه^(٨).

وقوله: «عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا» أى: افعل هذا الذى أمرتك به، لنقيمك يوم القيامة مقاماً يحسدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم، تبارك وتعالى.

قال ابن جرير: قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذى يقوم به ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم.

ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن^(٩) أبى إسحاق، عن

(١) فى ف: « أعطيه ».

(٢) تفسير الطبرى (٩٤/١٥).

(٣) سنن أبى داود برقم (٣٨٩٢) وأوله: «من اشتكى منكم شيئاً أو اشتكاه أخ له فليقل». وزيادة منكر الحديث.

(٤) صحيح مسلم برقم (١١٦٣).

(٥) فى ف: «مواضعه».

(٦) فى ت: «ويحمل».

(٧) فى ف، أ: «قيام الليل واجبا».

(٨) المسند (٢٥٦/٥).

(٩) فى ت: «ابن».

صلة بن زُفَر، عن حذيفة قال: يجمع الناس في صعيد واحد، يسمعون الداعي وينفذهم البصر، حفاة عُرَاة كما خلقوا قياماً، لا تكلم نفس إلا بإذنه، ينادى: يامحمد، فيقول: « لبيك وسعديك، والخير في يدك، والشر ليس إليك، والمهدى من هديت، وعبدك بين يديك، وبك وإليك، لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، سبحانك رب البيت». فهذا المقام المحمود الذي ذكره الله عزوجل (١) (٢).

ثم رواه عن بُنْدَار، عن غُنْدَر، عن شعبة، عن أبي إسحاق، به (٣). وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر والثوري، عن أبي إسحاق، به (٤).

وقال ابن عباس: هذا المقام المحمود مقام الشفاعة. وكذا قال ابن أبي نَجِيج، عن مجاهد. وقاله الحسن البصري.

وقال قتادة: هو أول من تنشق عنه الأرض (٥)، وأول شافع، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود الذي قال الله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾.

قلت: لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً تشريفات [يوم القيامة] (٦) لا يشركه فيها (٧) أحد، وتشريفات لا يساويه فيها أحد؛ فهو أول من تنشق عنه الأرض (٨)، ويبعث راکباً إلى المحشر، وله اللواء الذي آدم فمن دُونَه تحت لوائه، وله الخوض الذي ليس في الموقف أكثر وارداً منه، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتي لفصل القضاء بين الخلائق، وذلك بعد ما يسأل الناس آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، فكل يقول: «لست لها» حتى يأتوا إلى محمد ﷺ (٩) فيقول: «أنا لها، أنا لها» كما سنذكر ذلك مفصلاً في هذا الموضع، إن شاء الله تعالى. ومن ذلك أنه يشفع في أقوام قد أمر بهم إلى النار، فيردون عنها. وهو أول الأنبياء يقضى بين أمته، وأولهم إجازة على الصراط بأمته. وهو أول شفيع في الجنة، كما ثبت في صحيح مسلم. وفي حديث الصور: أن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته. وهو أول داخل إليها وأمه قبل الأمم كلهم. ويشفع في رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم. وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة، لا تليق إلا له. وإذا أذن الله تعالى في الشفاعة للعصاة (١٠) شفع (١١) الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيشفع هو في خلائق لا يعلم عدتهم (١٢) إلا الله، ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه في ذلك. وقد بسطت ذلك مستقصى في آخر كتاب «السيرة» في باب الخصائص، ولله الحمد والمنة.

(١) في أ، ف: «الله تعالى».

(٢) تفسير الطبري (٩٧/١٥).

(٣) تفسير الطبري (٩٧/١٥) والرواية كما هي عند الطبري: حدثنا محمد بن المثنى قال: حدثنا محمد بن جعفر «غندر» فلعله سبق نظر.

(٤) تفسير الطبري (٩٨/١٥).

(٥) في ت: «تنشق الأرض عنه».

(٦) زيادة من ف، أ.

(٧) في أ، ف: «يأتوا محمداً».

(٨) في ت، ف: «في العصاة».

(٩) في أ، ف: «تشفع».

(١٠) في ت، ف: «تشفع».

(١١) في أ، ف: «تشفع».

(١٢) في ت، ف: «تشفع».

ولنذكر الآن^(١) الأحاديث الواردة في المقام المحمود، وبالله المستعان:

قال البخارى: حدثنا إسماعيل بن أبان، حدثنا أبو الأحوص، عن آدم بن علي، سمعت ابن عمر [يقول]^(٢): «إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثًّا، كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع حتى تنتهى الشفاعة إلى النبي ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً»^(٣).

ورواه حمزة بن عبد الله، عن أبيه، عن النبي ﷺ.

قال ابن جرير: حدثني محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا^(٤) شعيب بن الليث، حدثني^(٥) الليث، عن عبيد الله بن أبي جعفر أنه قال: سمعت حمزة بن عبد الله بن عمر يقول: سمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس لتدنو حتى يبلغ^(٦) العرق نصف الأذن، فبينما هم كذلك استغاثوا^(٧) بآدم، فيقول: لست صاحب ذلك، ثم بموسى فيقول كذلك، ثم بمحمد فيشفع بين الخلق^(٨)، فيمشى حتى يأخذ بحلقة باب الجنة، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً». [يحمده أهل الجنة كلهم]^(٩).

وهكذا رواه البخارى في «الزكاة» عن يحيى بن بكير، وعبد الله بن صالح، كلاهما عن الليث بن سعد، به^(١٠). وزاد: «فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً، بحمده أهل الجمع كلهم».

قال البخارى: وحدثنا علي بن عيَّاش، حدثنا شعيب بن أبي حمزة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة». انفرد به دون مسلم^(١١).

حديث أبي:

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر الأزدي، حدثنا زهير بن محمد، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة، كنت إمام الأنبياء وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم غير فخر»^(١٢).

وأخرجه الترمذى، من حديث أبي عامر عبد الملك بن عمرو العقدي، وقال: «حسن صحيح». وابن ماجه من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل به. وقد قدمنا في حديث: «أبي بن كعب» في قراءة القرآن على سبعة أحرف، قال رسول الله ﷺ في آخره: «فقلت: اللهم، اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى فيه الخلق، حتى إبراهيم عليه السلام»^(١٣).

(٢) زيادة من ت، ف، أ، والبخارى.

(١) فى ت: «الآية».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧١٨).

(٤) فى ت: «قال: حدثنا».

(٥) فى ت: «قال: حدثني».

(٦) فى ت: «تبلغ».

(٩) زيادة من أ.

(٨) فى ت: «الخلايق».

(١٠) تفسير الطبرى (٩٨/١٥) وصحيح البخارى برقم (١٤٧٥).

(١١) صحيح البخارى برقم (٤٧١٩).

(١٢) المسند (١٣٧/٥).

(١٣) سنن الترمذى برقم (٣٦١٣) وسنن ابن ماجه برقم (٤٣١٤).

حديث أنس بن مالك:

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا سعيد بن أبي عروبة، حدثنا قتادة، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «يجتمع^(١) المؤمنون يوم القيامة، فيلهمون ذلك فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فأراحنا من مكاننا هذا. فيأتون آدم فيقولون: يا آدم، أنت أبو^(٢) البشر، خلقتك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا إلى ربك^(٣) حتى يريحنا من مكاننا هذا. فيقول لهم آدم: لست هناك، ويذكر ذنبه الذي أصاب، فيستحيى ربه، عز وجل، من ذلك، ويقول: ولكن اتوا نوحاً، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. فيأتون نوحاً فيقول: لست هناك، ويذكر خطيئة^(٤) سؤاله ربه ما ليس له به علم، فيستحيى ربه من ذلك، ولكن اتوا إبراهيم خليل الرحمن. فيأتونه فيقول: لست هناك، ولكن اتوا موسى، عبداً كلمه الله، وأعطاه التوراة. فيأتون موسى فيقول: لست هناك، ويذكر لهم النفس التي قتل بغير نفس^(٥)، فيستحيى ربه من ذلك، ولكن اتوا عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته وروحه، فيأتون عيسى فيقول: لست هناك، ولكن اتوا محمداً عبداً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيأتوني». قال الحسن هذا الحرف^(٦): «فأقوم فأمشي بين سباطين من المؤمنين». قال أنس: «حتى أستاذن على ربي، فإذا رأيت ربي وقعت له - أو: خررت - ساجداً لربي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني». قال: «ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، واشفع تشفع، وسل تعطه. فأرفع رأسي، فأحمده بتحميد يُعلمني، ثم أشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة». ثم^(٧) أعود^(٨) إليه الثانية، فإذا رأيت ربي وقعت^(٩) - أو: خررت - ساجداً لربي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني. ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يُعلمني، ثم أشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أعود في الثالثة؛ فإذا رأيت ربي وقعت - أو: خررت - ساجداً لربي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يُعلمني، ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة. ثم أعود الرابعة فأقول: يارب، ما بقى إلا من حبسه القرآن». فحدثنا أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «فيخرج من النار من قال: لا إله إلا الله» وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله» وكان في قلبه من الخير ما يزن بُرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله» وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة».

أخرجه [في الصحيح]^(١٠) من حديث سعيد، به^(١١). وهكذا رواه الإمام أحمد، عن عفان، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بطوله^(١٢).

- | | | |
|---------------------------|----------------------|----------------------|
| (١) في ف، أ: «يجمع». | (٢) في ت: «أول». | (٣) في ت: «ربنا». |
| (٤) في ت، ف، أ: «خطيئته». | (٥) في ف: «بغير حق». | (٦) في ت: «الحرف». |
| (٧) في ف، أ: «قال: ثم». | (٨) في ت: «أدعو». | (٩) في أ: «وقعت له». |
| (١٠) زيادة من أ. | | |

(١١) المسند (١١٦/٣) وصحيح البخاري برقم (٤٤٧٦) وصحيح مسلم برقم (١٩٣).

(١٢) المسند (٢٤٤/٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا حرب بن ميمون أبو الخطاب الأنصاري، عن النضر بن أنس، عن أنس قال: حدثني نبي الله ﷺ قال: «إني لقائم أنتظر أمتي تعبر الصراط، إذ جاءني عيسى، عليه السلام، فقال: هذه الأنبياء قد جاءتك يا محمد يسألون - أو قال: يجتمعون إليك - ويدعون الله أن يفرق بين جميع الأمم إلى حيث يشاء الله، لغم^(١) ما هم فيه، فالخلق ملجَمون بالعرق، فأما المؤمن فهو عليه كالزكمة، وأما الكافر فيغشاه الموت، فقال: انتظر حتى أرجع إليك. فذهب نبي الله ﷺ فقام تحت العرش، فلقي ما لم يلق ملك مصطفى ولا نبي مرسل. فأوحى الله، عز وجل، إلى جبريل: أن اذهب إلى محمد، وقل له: ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فشفعت^(٢) في أمتي: أن أخرج من كل تسعة وتسعين إنساناً واحداً. فما زلت أتردد إلى ربي، عز وجل، فلا أقوم منه مقاماً إلا شفعت، حتى أعطاني الله من ذلك، أن قال: يا محمد، أدخل [من أمتك]^(٣) من خلق الله، عز وجل، من شهد أن لا إله إلا الله يوماً واحداً مخلصاً ومات على ذلك»^(٤).

حديث بريدة، رضى الله عنه:

قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا الأسود بن عامر، أخبرنا أبو إسرائيل، عن الحارث بن حصيرة، عن ابن بريدة، عن أبيه: أنه دخل على معاوية، فإذا رجل يتكلم، فقال بريدة: يا معاوية، تأذن لي في الكلام؟ فقال: نعم - وهو يرى أنه يتكلم بمثل^(٥) ما قال الآخر - فقال بريدة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني لأرجو أن أشفع يوم القيامة عدد ما على الأرض من شجرة ومدرّة». قال: فترجوها أنت يا معاوية، ولا يرجوها عليّ، رضى الله عنه؟!^(٦).

حديث ابن مسعود:

قال الإمام أحمد: حدثنا عارم بن الفضل، حدثنا سعيد بن زيد، حدثنا علي بن الحكم البُناني، عن عثمان، عن إبراهيم، عن علقمة والأسود، عن ابن مسعود قال: جاء ابنا مُلَيْكَةَ إلى النبي ﷺ فقالا: إن أُمَّنا [كانت]^(٧) تكرم الزوج، وتعطف على الولد - قال: وذكر الضيف - غير أنها كانت وأدت في الجاهلية؟ فقال: «أمكما في النار». قال: فأدبرا والسوء يرى في وجوههما، فأمر بهما فرُدا، فرَجَعَا والسرور^(٨) يرى في وجوههما؛ رجاء أن يكون قد حدث شيء، فقال: «أُمى مع أمكما». فقال رجل من المنافقين: وما يغني هذا عن أمه شيئاً! ونحن نطأ عقيبه. فقال رجل من الأنصار - ولم أر رجلاً قط أكثر سؤالاً منه - : يا رسول الله، هل وعدك ربك فيها أو فيهما؟ قال: فظن أنه من شيء قد سمعه، فقال: «ما شاء الله ربي، وما أطمعني^(٩) فيه، وإنى لأقوم المقام المحمود يوم القيامة». فقال الأنصاري: يا رسول الله، وما ذاك المقام المحمود؟ قال: «ذاك إذا

(١) زيادة من ت، أ، والمُسند.

(٢) في ت: «فتشفعت».

(٣) في ت: «نعم».

(٤) المُسند (١٧٨/٣) وقال الهيثمي في المجمع (٣٧٤/١٠): «رجاله رجال الصحيح».

(٥) في ت: «يميل».

(٦) المُسند (٣٤٧/٥)، وأبو إسرائيل الملائي ضعيف.

(٧) في ت: «وما طمعتني».

(٨) في ت: «والسوء».

(٩) زيادة من ت، ف، أ، والمُسند.

جىء بكم حفاة عراة غرلاً، فيكون أول من يكسى إبراهيم، عليه السلام، فيقول: اكسوا خليلي. فيؤتى بربطتين بيضاوين، فيلبسهما ثم يقعدته مستقبل العرش، ثم أوتى بكسوتى فألبسها، فأقوم عن يمينه مقاماً لا يقومه أحد، فيغبطنى فيه الأولون والآخرون. ويفتح نهر^(١) من الكوثر إلى الخوض. فقال المنافقون: إنه ماجرى ماء قط إلا على حال أو رضراض. فقال رسول الله ﷺ: « حاله المسك، ورضراضه الثوم ». [قال المنافق: لم أسمع كاليوم. قلماً جرى ماء قط على حال أو رضراض، إلا كان له نبتة. فقال الأنصارى: يارسول الله، هل له نبت؟ قال: « نعم، قضبان الذهب »]^(٢). قال المنافق: لم أسمع كاليوم، فإنه قلما ينبت قضيب إلا أورق، وإلا كان له ثمر! قال الأنصارى: يارسول الله، هل له ثمرة؟ قال: « نعم، ألوان الجواهر، وماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، من شرب منه شربة^(٣) لا يظمأ بعده، ومن حرمه لم يرو بعده »^(٤).

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا يحيى بن سلمة بن كهيل، عن أبيه، عن أبي الزعراء، عن عبد الله قال: ثم يأذن الله، عز وجل، فى الشفاعة، فيقوم روح القدس جبريل، ثم يقوم إبراهيم خليل الله، ثم يقوم عيسى أو موسى - قال أبو الزعراء: لا أدري أيهما - قال: ثم يقوم نبيكم ﷺ رابعاً، فيشفع لا يشفع أحد بعده أكثر مما شفّع، وهو المقام المحمود الذى قال الله عز وجل: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾^(٥).

حديث كعب بن مالك، رضى الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا محمد بن حرب، حدثنا الزبيدي، عن الزهرى، عن عبد الرحمن بن عبد الله [بن كعب]^(٦) بن مالك، عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: « يبعث الناس يوم القيامة، فأكون أنا وأمتى على تل، ويكسونى ربي، عز وجل، حلة خضراء^(٧) ». ثم يؤذن لى فأقول ماشاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمود^(٨).

حديث أبي الدرداء، رضى الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا يزيد بن أبي حبيب، عن عبد الرحمن ابن جبير، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: « أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة، وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه، فأنظر إلى ما بين يدي، فأعرف أمتى من بين الأمم، ومن خلفي مثل ذلك، وعن يميني مثل ذلك، وعن شمالي مثل ذلك ». فقال رجل: يارسول الله، كيف تعرف أمتك من بين الأمم، فيما بين نوح إلى أمتك؟ قال: « هم غرّ مُحَجَّلُونَ، من أثر الوضوء، ليس أحد كذلك غيرهم، وأعرفهم أنهم يُؤْتَوْنَ كتبهم بأيانهم، وأعرفهم تسعى^(٩) بين أيديهم ذريتهم^(١٠) ».

(٣) فى ت، أ: « شرابا ».

(٢) زيادة من ف، أ، والمسنّد.

(١) فى ت: « لهم ».

(٤) المسنّد (١/٣٩٨).

(٥) ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٢٩٦) من طريق بندار، عن غندر، عن شعبة، عن سلمة بن كهيل بنحوه.

(٧) فى ت: « حمراء ».

(٦) زيادة من ف، أ، والمسنّد.

(٨) المسنّد (٣/٤٥٦).

(٩) فى ت، أ: « يسعى ».

(١٠) المسنّد (٥/١٩٩).

حديث أبي هريرة، رضى الله عنه:

قال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا أبو حيان، حدثنا أبو زرعة بن عمرو بن جرير، عن أبي هريرة، قال: أتى رسول الله ﷺ بلحم، فرفع إليه الذراع - وكانت تعجبه - فنهس منها نهسة^(١)، ثم قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون ممّ ذاك؟ يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد، يُسمعهم الداعى وَينفذهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم^(٢) والكرب ما لا يطيّقون ولا يحتملون. فيقول بعض الناس لبعض: [ألا ترون إلى ما أنتم فيه؟ ألا ترون إلى ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم عز وجل؟ فيقول بعض الناس لبعض]^(٣): أبوكم آدم!

فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك؛ فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيته، نفسى، نفسى، نفسى! اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحاً فيقولون: يانوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول نوح: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه كانت لى دعوة^(٥) على قومى، نفسى، نفسى، نفسى! اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى إبراهيم.

فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك^(٦) ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، فذكر كذباته، نفسى، نفسى، نفسى! اذهبوا إلى غيرى^(٧) اذهبوا إلى موسى .

فيأتون موسى فيقولون: ياموسى، أنت رسول الله، اصطفاك الله برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنى قتلت نفساً لم أوامر بقتلها، نفسى، نفسى، نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى عيسى.

فيأتون عيسى فيقولون: ياعيسى، أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه - قال: هكذا هو - وكلمت الناس فى المهد، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى محمد.

(٤) زيادة من المسند.

(٣) فى ت: «الهم».

(٦، ٧) زيادة من ف، أ، والمسند.

(٢) فى أ: «فنهس منها نهسة».

(٥) فى ت، أ: «دعوة دعوتها».

فيأتونني فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأقوم فأتى تحت العرش، فأقع ساجداً لربي، عز وجل، ثم يفتح الله عليّ، ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه عليّ أحد قبلي. فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأقول: يارب، أمتي أمتي، يارب أمتي أمتي، يارب، أمتي أمتي! فيقال: يا محمد: أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سواه من الأبواب». ثم قال: «والذي نفس محمد بيده لما بين مصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهَجَرَ، أو كما بين مكة وبُصْرَى». أخرجاه في الصحيحين^(١).

وقال مسلم، رحمه الله: حدثنا الحكم بن موسى، حدثنا هِشْلُ بْنُ زِيَادٍ، عن الأوزاعي، حدثني أبو عمار، حدثني عبد الله بن فروخ، حدثني أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مُشَفَّع»^(٢).

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا وكيع، عن داود بن يزيد الزّعافري، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً»، سئل عنها فقال: «هي الشفاعة»^(٣).

رواه الإمام أحمد عن وكيع وعن محمد^(٤) بن عبيد، عن داود، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: «عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً»، قال: «هو المقام الذي أشفع لأمتي فيه»^(٥).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن الزهري، عن علي بن الحسين قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة، مدّ الله الأرض مدّ الأديم، حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدمه»^(٦). قال النبي ﷺ: «فأكون أول من يدعى، وجبريل عن يمين الرحمن»^(٧) والله ما رآه قبلها، فأقول^(٨): رب، إن هذا أخبرني أنك أرسلته إليّ. فيقول الله تبارك وتعالى: صدق، ثم أشفع. فأقول: يارب عبادك عبدوك في أطراف الأرض»، قال: «فهو المقام المحمود»^(٩)، وهذا حديث مرسل.

(١) المسند (٤٣٥/٢) وصحيح البخاري برقم (٤٧١٢) وصحيح مسلم برقم (٨٩٤).

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٢٧٨).

(٣) تفسير الطبري (٩٨/١٥).

(٤) في هـ: «عن وكيع عن محمد بن عبيد»، والمثبت من ت.

(٥) المسند (٤٤٤، ٤٤١/٢).

(٦) في ت، ف: «قدميه».

(٧) في ت: «الرحمن عز وجل»، وفي ف، أ: «الرحمن تبارك وتعالى».

(٨) في ت، ف، أ: «فأقول: أي».

(٩) تفسير عبد الرزاق (٣٢٨/١).

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)﴾ .

قال الإمام أحمد: حدثنا جرير، عن قابوس بن (١) أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة، فأنزل الله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾ (٢).

وقال الحسن البصري في تفسير هذه الآية: إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه أو يطردهوه أو يوثقوه، وأراد الله قتال أهل مكة، فأمره أن يخرج إلى (٣) المدينة، فهو الذي قال الله عزوجل: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ .

وقال قتادة: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ يعني: المدينة ﴿وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ يعني: مكة.

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا القول هو أشهر الأقوال.

وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ يعني: الموت ﴿وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ يعني: الحياة بعد الموت. وقيل غير ذلك من الأقوال. والأول أصح، وهو اختيار ابن جرير.

وقوله: ﴿وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾ قال الحسن البصري في تفسيرها: وعده ربه لينزعن ملك فارس، وعز (٤) فارس، وليجعلنه له، وملك الروم، وعز الروم، وليجعلنه له.

وقال قتادة فيها إن نبي الله ﷺ، علم ألا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله، ولحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله؛ فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض، فأكل شديدهم ضعيفهم.

قال مجاهد: ﴿سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾: حجة بينة .

واختار ابن جرير قول الحسن وقتادة، وهو الأرجح؛ لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناواه؛ ولهذا قال [سبحانه و] (٥) تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وفي الحديث: «إن الله لينزع بالسلطان ما لا ينزع بالقرآن» أي: ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام، مالا يمتنع كثير من الناس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد، والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع.

وقوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ تهديد ووعيد لكفار قريش؛ فإنه قد

(١) في ف: «عن».

(٢) المسند (١/٢٢٣).

(٣) في ت: «على».

(٤) في ت: «وغير».

(٥) زيادة من ف، أ.

جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع. وَزَهَقَ بَاطِلُهُمْ، أي: اضمحل وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقال البخاري: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن أبي (١) معمر، عن عبد الله بن مسعود قال: دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نُصْبٍ، فجعل يطعن بها بعود في يده، ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً»، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد (٢).

وكذا رواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضع، ومسلم، والترمذي، والنسائي، كلهم من طرق عن سفيان بن عيينة به (٣). [وكذا رواه عبد الرزاق عن الثوري عن ابن أبي نجيح] (٤).

وكذا رواه الحافظ أبو يعلى: حدثنا زهير، حدثنا شبابة، حدثنا المغيرة، حدثنا أبو الزبير، عن جابر، رضى الله عنه، قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ مكة، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً (٥) يعبدون من دون الله. فأمر بها رسول الله ﷺ فأُكِبَتْ لوجهها، وقال: «جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً» (٦).

﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٢).

يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ - وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد - إنه: ﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يذهب ما في القلوب من أمراض، من شك ونفاق، وشرك وزيف وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله. وهو أيضاً رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه، فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة. وأما الكافر الظالم نفسه بذلك، فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعداً وتكذيباً وكفراً. والآفة من الكافر لا من القرآن، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. والآيات في ذلك (٧) كثيرة.

(١) في ت: «ابن».

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٧٢٠).

(٣) صحيح البخاري برقم (٢٤٧٨، ٤٢٨٧)، وصحيح مسلم برقم (١٧٨١) وسنن الترمذي برقم (٣١٣٨) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٢٩٧).

(٤) في ت: «نصباً».

(٥) زيادة من أ.

(٦) ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (٤٨٧/١٤): حدثنا شبابة بن سوار به.

(٧) في ت، ف: «هذا».

قال قتادة في قوله: ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ إنه لا ينتفع به ولا يحفظه^(١) ولا يعيه، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء، ورحمة للمؤمنين .

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا ۝٨٣ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ۝٨٤﴾ .

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو، إلا من عصم الله تعالى في حالتي سرائه وضرائه، بأنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية، وفتح ورزق ونصر، ونال ما يريد، أعرض عن طاعة الله وعبادته ونأى بجانبه .

قال مجاهد: بُعد عنا .

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضُّهُ مَرَّ كَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضَرْمِهِ﴾ [يونس: ١٢]، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضُوا﴾ [الإسراء: ٦٧] .

وبأنه إذا مسه الشر - وهو المصائب والحوادث والنوائب - ﴿كَانَ يَؤُوسًا﴾ أى: قنط أن يعود يحصل له بعد ذلك خير، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا أَذْقَنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَّسَّهُ لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ۚ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١٠]، [١١] .

وقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ قال ابن عباس: على ناحيته . وقال مجاهد: على حدته وطبيعته . وقال قتادة: على نيته . وقال ابن زيد: دينه .

وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى . وهذه الآية - والله أعلم - تهديد للمشركين ووعد لهم، كقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ۚ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [هود: ١٢١، ١٢٢]؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ أى: منا ومنكم، وسيجزى كل عامل بعمله، فإنه لا تخفى عليه خافية .

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾ .

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله - هو ابن مسعود رضى الله عنه - قال: كنت أمشى مع النبي ﷺ في حرث في المدينة، وهو متوكئ على عسيب، فمر بقوم من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح . فقال بعضهم: لا تسألوه . قال: فسألوه عن الروح، فقالوا^(٢): يا محمد، ما الروح؟ فما زال متوكئاً على العسيب، قال: فظننت أنه يوحى إليه، فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

(١) فى ف: «لا يحفظه ولا ينتفع به» .

(٢) فى ت: «فقال بعضهم» .

فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم لا تسألوه .

وهكذا رواه البخارى ومسلم من حديث الأعمش، به^(١). ولفظ البخارى عند تفسير هذه الآية، عن عبد الله بن مسعود قال: بينا أنا مع النبي ﷺ فى حرث، وهو متوكئ^(٢) على عسيب، إذ مر اليهود^(٤)، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فقال: ما رابكم^(٥) إليه. وقال بعضهم: لا يستقبلنكم بشيء تكرهونه. فقالوا: سلوه فسألوه عن الروح، فأمسك النبي ﷺ فلم يرد عليه شيئاً، فعلمت أنه يوحى إليه، فقامت مقامى، فلما نزل الوحي قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ الآية^(٧).

وهذا السياق يقتضى^(٨) فيما يظهر بادى الرأى: أن هذه الآية مدنية، وأنها إنما نزلت حين سألته اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة كلها مكية. وقد يجاب عن هذا: بأنه قد يكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك، أو أنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوا بالآية المتقدم إنزالها عليه، وهى هذه الآية: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة ما قاله الإمام أحمد:

حدثنا قتيبة، حدثنا يحيى بن زكريا، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل. فقالوا: سلوه عن الروح. فسألوه، فنزلت: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قالوا: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتى التوراة فقد أوتى خيراً كثيراً. قال: وأنزل الله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]^(٩).

وقد روى ابن جرير، عن محمد بن المثني، عن عبد الأعلى، عن داود، عن عكرمة قال: سأل أهل الكتاب رسول الله ﷺ عن الروح، فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فقالوا: يزعم^(١٠) أنا لم نؤت من العلم إلا قليلاً، وقد أوتينا التوراة، وهى الحكمة ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾؟ [البقرة: ٢٦٩] قال: فنزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]. قال: ما أوتيت من علم، فنجاكم الله به من النار، فهو كثير طيب وهو فى علم الله قليل^(١١).

وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أصحابه، عن عطاء بن يسار قال: نزلت بمكة: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، أتاه أحبار يهود. وقالوا: يا محمد، ألم

(١) المسند (٣٨٩/١) وصحيح البخارى برقم (١٢٥، ٧٤٦٢) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٤).

(٢) فى ف: «مع رسول الله». (٣) فى ت، ف: «متكى».

(٤) فى ت، ف: «ما رايكم». (٥) فى ت، ف: «يسألونك».

(٦) فى ت، ف: «يسألونك».

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٧٢١).

(٨) فى ت: «تقتضى».

(٩) المسند (٢٥٥/١).

(١٠) فى ت، ف: «تزعّم».

(١١) تفسير الطبرى (١٥/١٠٤).

يبلغنا عنك أنك تقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أفَعَيَّنَّا أم عانيت قومك؟ فقال: «كلا قد عانيت». قالوا: إنك تتلو أنا أوتينا التوراة، وفيها تبيان كل شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «هي في علم الله قليل، وقد آتاكم ما إن عملتم به استقمتم»، وأنزل الله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

وقد اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا على أقوال:

أحدها: أن المراد [بالروح]^(١): أرواح بنى آدم.

قال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ الآية، وذلك أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: أخبرنا عن^(٢) الروح؟ وكيف تعذب الروح التي في الجسد، وإنما الروح من الله؟ ولم يكن نزل عليه فيه شيء، فلم يحِرْ إليهم شيئاً. فأتاه جبريل فقال له: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فأخبرهم النبي ﷺ بذلك، فقالوا: من جاءك بهذا؟ فقال: «جاءني به جبريل من عند الله؟» فقالوا له: والله ما قاله لك إلا عدو لنا. فأنزل الله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾^(٣) الآية [البقرة: ٩٧].

وقيل: المراد بالروح ههنا: جبريل. قاله قتادة، قال: وكان ابن عباس يكتمه.

وقيل: المراد به ههنا: ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها. قال^(٤) على بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ يقول: الروح: ملك.

وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله بن عرس^(٥) المصري، حدثنا وهب بن رزق أبوهريرة^(٦)، حدثنا بشر بن بكر، حدثنا الأوزاعي، حدثنا عطاء، عن عبد الله بن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لله ملكاً، لو قيل له: التقم السموات السبع والأرضين^(٧) بلقمة واحدة، لفعل، تسبيحه: سبحانك حيث كنت»^(٨).

وهذا حديث غريب، بل منكر.

وقال أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: حدثني علي، حدثنا عبد الله، حدثني أبو نمران يزيد بن سمرّة صاحب قيسارية، عمن حدثه عن علي بن أبي طالب، رضى الله عنه، أنه قال في قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ قال: هو ملك من الملائكة، له سبعون ألف وجه، لكل وجه منها سبعون ألف لسان، لكل لسان منها [سبعون]^(٩) ألف لغة، يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها، يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة^(١٠).

(٣) زيادة من ف، أ.

(٢) في ت، ف، أ: «ما».

(١) زيادة، من ت، ف، أ.

(٥) في ت: «ابن عباس».

(٤) في ت، ف: «قاله».

(٧) في ف: «والأرض».

(٦) في هـ، ف، أ: «روق أبو هيرة»، والمثبت من الطبراني.

(٨) المعجم الكبير (١١/ ١٩٥) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٨٠): «وهب بن رزق لم أر من ذكر له ترجمة».

(٩) زيادة من ت، ف، أ، والطبري.

(١٠) تفسير الطبري (١٥/ ١٠٥).

وهذا أثر غريب عجيب، والله أعلم.

وقال السهيلي: روى عن عليّ أنه قال: هو ملك، له مائة ألف رأس، لكل رأس مائة ألف وجه، في كل وجه مائة ألف فم، في كل فم مائة ألف لسان، يسبح الله تعالى بلغات مختلفة.

قال السهيلي: وقيل المراد بذلك: طائفة من الملائكة على صور بنى آدم.

وقيل: طائفة يرون الملائكة ولا تراهم^(١)، فهم للملائكة كالملائكة لبنى آدم.

وقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أى: من شأنه، وما استأثر بعلمه دونكم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى: وما أطلعكم من علمه إلا على القليل، فإنه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى.

والمعنى: أن علمكم فى علم الله قليل، وهذا الذى تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى، ولم يطلعكم عليه، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى. وسيأتى إن شاء الله فى قصة موسى والخضر: أن الخضر نظر إلى عصفور وقع على حافة السفينة، فنقر فى البحر نقرة، أى: شرب منه بمنقاره، فقال: ياموسى، ما علمى وعلمك وعلم الخلائق فى علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر. أو كما قال صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وقال السهيلي: قال بعض الناس: لم يجبههم عما سألوا؛ لأنهم سألوا على وجه التعنت. وقيل: أجابهم، وعول السهيلي على أن المراد بقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أى: من شرعه، أى: فادخلوا فيه، وقد علمتم ذلك لأنه لا سبيل إلى معرفة هذا من طبع ولا فلسفة، وإنما ينال من جهة الشرع. وفى هذا المسلك الذى طرقه وسلكه نظر، والله أعلم.

ثم ذكر السهيلي الخلاف بين العلماء فى أن الروح هى النفس، أو غيرها، وقرر أنها ذات لطيفة كالهواء، سارية فى الجسد كسريان الماء فى عروق الشجر. وقرر أن الروح التى ينفخها الملك فى الجنين هى النفس بشرط اتصالها بالبدن، واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذم، فهى إما نفس مطمئنة أو أمارة بالسوء. قال: كما أن الماء هو حياة الشجر، ثم يكسب^(٢) بسبب اختلاطه معها اسماً خاصاً، فإذا اتصل بالعنبة وعصر منها صار إما مُصْطَافِراً أو خمرأ، ولا يقال له: «ماء» حيثئذ إلا على سبيل المجاز، وهكذا لا يقال للنفس: «روح» إلا على هذا النحو، وكذلك لا يقال للروح: نفس^(٣) إلا باعتبار ما تؤول إليه. فحاصل ما يقول أن الروح أصل النفس ومادتها، والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن، فهى هى من وجه لا من كل وجه^(٤). وهذا معنى حسن، والله أعلم.

قلت: وقد تكلم الناس فى ماهية الروح وأحكامها وصنفوا فى ذلك كتباً. ومن أحسن من تكلم على ذلك الحافظ ابن منده، فى كتاب سمعناه فى: الروح^(٥).

(١) فى أ: «ولا تراهم الملائكة». (٢) فى ت، ف: «يكتسب». (٣) فى ت، ف: «نفساً» وهو خطأ.

(٤) الروض الأنف (١/١٩٨، ١٩٩).

(٥) وللإمام ابن القيم، رحمه الله، كتاب الروح مطبوع بتحقيق بسام العموش، أكثر النقل فيه عن كتاب ابن منده هذا وذكر خلاصته فيه.

﴿وَلَنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧) قُلْ لَّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩)﴾.

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم، فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

قال ابن مسعود، رضى الله عنه: يطرق الناس ريح حمراء - يعنى فى آخر الزمان - من قبل الشام، فلا يبقى فى مصحف رجل ولا فى قلبه آية، ثم قرأ ابن مسعود: ﴿وَلَنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الآية .

ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم، فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا^(١) على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله، لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظاهروا، فإن هذا أمر لا يستطيع، وكيف يشبه كلام المخلوقين^(٢) كلام الخالق، الذى لا نظير له، ولا مثال له، ولا عديل له؟!

وقد روى محمد بن إسحاق عن محمد بن أبى محمد، عن سعيد [بن جبيرة]^(٣) أو عكرمة، عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت فى نفر من اليهود، جاؤوا رسول الله ﷺ فقالوا له: إنا نأتيك بمثل ما جئتنا به، فأنزل الله هذه الآية.

وفى هذا نظر؛ لأن هذه السورة مكية، وسياقها كله مع قريش، واليهود إنما اجتمعوا به فى المدينة. فالله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أى: بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة، ووضحنا لهم الحق وشرحناه وبسطناه، ومع هذا ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أى: جحوداً ورداً للصواب .

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِي بَالِلِهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣)﴾.

(٣) زيادة من ف، أ، والطبرى (١٥/١٠٦).

(٢) فى أ: «المخلوقين إلى».

(١) فى ت: «والقول».

قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا يونس بن بُكَيْر، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثني شيخ من أهل مصر، قدم منذ بضع وأربعين سنة، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، ورجلاً من بني عبد الدار، وأبا البَخْتَرى أخا بني أسد، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام^(١)، وعبد الله بن أبي أمية، وأمие ابن خلف، والعاص بن وائل، ونُبَيْها ومُنْبها ابني الحجاج السَّهْمِيَّين، اجتمعوا، أو: من اجتمع منهم، بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تعذروا فيه^(٢). فبعثوا إليه: أن أشرف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك. فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بداء، وكان عليهم حريصاً، يحب رُشْدَهم، ويعز عليه عَتَّتْهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لِنُعْذَرَ فيك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه^(٣) ما أدخلت على قومك! لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسفّهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، فما بقى من أمر قبيح إلا وقد جثته فيما بيننا وبينك! فإن كنت إنما جثت بهذا الحديث تطلب به مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا، سودناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رؤياً تراه قد^(٤) غلب عليك - وكانوا^(٥) يسمون التابع من الجن: الرئي - فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا في طلب الطب، حتى نبرئك منه، أو نُعْذِرَ فيك .

فقال رسول الله ﷺ: «ما بى ما تقولون، ما جئتمكم بما جئتمكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن بعثني^(٦) إليكم رسولا، وأنزل على كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتمكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه على أصبر^(٧) لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم». أو كما قال رسول الله ﷺ تسليماً.

فقالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلاداً، ولا أقل مالا، ولا أشد عيشاً منا، فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيّقت علينا، وليبسّط لنا بلادنا، وليفجر^(٨) فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يُبعث لنا قُصَى بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول^(٩)، حق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقوك، صدقناك، وعرفنا منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولا كما تقول!

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بهذا بعثت، إنما جئتمكم من عند الله بما بعثني به، فقد بلغتمكم ما أرسلت به، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه على أصبر لأمر الله، حتى يحكم

(١) فى ت: «قومك».

(٢) فى ت: «إليه».

(٣) فى ت: «هاشم» وهو خطأ.

(٤) فى ف: «وقد».

(٥) فى ت: «فكانوا».

(٦) فى ت: «أصبر».

(٧) فى ت: «وليخرج»، وفى ف: «وليجر».

(٨) فى ت: «ليسألهم عما يقول».

اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ» .

قالوا: فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ لَنَا هَذَا فَخُذْ لِنَفْسِكَ، فَاسْأَلْ رَبَّكَ أَنْ يَبْعَثَ مُلْكاً يَصْدَقُكَ بِمَا تَقُولُ^(١) ويراجعنا عنك، وتَسْأَلُهُ فَيَجْعَلَ لَكَ جَنَاناً، وَكُنُوزاً وَقُصُوراً مِنْ ذَهَبٍ وَفُضَّةٍ، وَيَغْنِيكَ بِهَا عَمَّا نَرَاكَ تَبْتَغِي، فَإِنَّكَ تَقُومُ بِالْأَسْوَاقِ، وَتَلْتَمِسُ الْمَعَاشَ كَمَا نَلْتَمِسُهُ، حَتَّى نَعْرِفَ^(٢) فَضْلَ مَنْزِلَتِكَ مِنْ رَبِّكَ، إِنْ كُنْتَ رَسُولاً كَمَا تَزْعُمُ .

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، مَا أَنَا بِالَّذِي يَسْأَلُ رَبَّهُ هَذَا، وَمَا بَعَثَ إِلَيْكُمْ بِهَذَا، وَلَكِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي بَشِيراً وَنَذِيراً، فَإِنْ تَقَبَّلُوا مَا جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حِطَّتُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ تَرَدَّوْهُ عَلَيَّ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللَّهِ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ» .

قالوا: فَاسْقُطِ السَّمَاءَ، كَمَا زَعَمْتَ أَنْ رَبَّكَ إِنْ شَاءَ فَعَلَ ذَلِكَ، فَإِنَّا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلَ .
فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ فَعَلَ بِكُمْ ذَلِكَ» .

فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، أَمَا^(٣) عَلِمَ رَبُّكَ أَنَا سَنَجْلِسُ مَعَكَ، وَنَسْأَلُكَ عَمَّا سَأَلْنَاكَ عَنْهُ، وَنَطْلُبُ مِنْكَ مَا نَطْلُبُ فَيَقْدُمُ إِلَيْكَ وَيُعَلِّمُكَ مَا تَرَاغَبْنَا بِهِ، وَيُخْبِرُكَ مَا هُوَ صَانِعٌ فِي ذَلِكَ بِنَا، إِذَا لَمْ نَقْبَلْ مِنْكَ مَا جِئْتَنَا بِهِ، فَقَدْ بَلَّغْنَا أَنَّهُ إِنَّمَا يَعْلَمُكَ هَذَا رَجُلٌ بِالْإِمَامَةِ، يُقَالُ لَهُ: الرَّحْمَنُ، وَإِنَّا وَاللَّهِ لَا نُؤْمِنُ بِالرَّحْمَنِ أَبَداً، فَقَدْ أَعْذَرْنَا إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، أَمَا وَاللَّهِ لَا نَتْرُكَ وَمَا فَعَلْتَ بِنَا حَتَّى نَهْلِكَ أَوْ تَهْلِكُنَا. وَقَالَ قَائِلُهُمْ: نَحْنُ نَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ وَهِيَ بَنَاتُ اللَّهِ. وَقَالَ قَائِلُهُمْ: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَأْتِيَ^(٤) بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً.

فَلَمَّا قَالُوا ذَلِكَ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْهُمْ، وَقَامَ مَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمِيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عَمْرِو بْنِ مَخْزُومٍ، وَهُوَ ابْنُ عَمَتِهِ، ابْنُ عَاتِكَةَ ابْنَةِ عَبْدِ الْمَطْلُبِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، عَرَضَ عَلَيْكَ قَوْمُكَ مَا عَرَضُوا، فَلَمْ يَقْبَلْهُ مِنْهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوكَ لَأَنْفُسِهِمْ أُمُوراً لِيَعْرِفُوا بِهَا مَنْزِلَتَكَ مِنَ اللَّهِ، فَلَمْ^(٥) تَفْعَلْ ذَلِكَ، ثُمَّ سَأَلُوكَ أَنْ تَعْجَلَ لَهُمْ مَا تَخَوَّفُهُمْ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ، فَوَاللَّهِ لَا أَوْمِنُ بِكَ أَبَداً حَتَّى تَتَّخِذَ إِلَى السَّمَاءِ سُلْماً، ثُمَّ تَرْقَى فِيهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ حَتَّى تَأْتِيَهَا، وَتَأْتِي مَعَكَ بِنَسْخَةٍ مَنْشُورَةٍ، مَعَكَ أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، يَشْهَدُونَ أَنَّكَ كَمَا تَقُولُ. وَإِيمَ اللَّهِ، لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ لَظَنَنْتُ أَنِّي لَا أَصْدُقُكَ. ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَانْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَهْلِهِ حَزِيناً أَسْفَافاً لِمَا فَاتَهُ، مِمَّا كَانَ طَمَعَ فِيهِ مِنْ قَوْمِهِ حِينَ دَعَا، وَلَمَّا رَأَى مِنْ مِبَاعِدَتِهِمْ إِيَّاهُ^(٦).

وهكذا رواه زياد بن عبد الله البكائي، عن ابن إسحاق، حدثني بعض أهل العلم، عن سعيد ابن جبيرة وعكرمة، عن ابن عباس، فذكر مثله سواء.

وهذا المجلس الذي اجتمع هؤلاء له، لو^(٧) علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشاداً لأجيابوا

(١) في ت: « يقول ».

(٢) في ت: « تعرف ».

(٣) في ت: « لما ».

(٤) في ف: « تأتينا ».

(٥) في ت: « ثم لم ».

(٦) السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٩٦).

(٧) في ف: « فلو ».

إليه، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفراً وعناداً، فقبل للرسول: إن شئت أعطيتهم ما سألوا فإن كفروا عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: «بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة» كما تقدم ذلك في حديثي^(١) ابن عباس والزبير بن العوام أيضاً، عند قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً﴾ [الإسراء: ٥٩] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرٌ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا . انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا . تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا . بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ٧-١١].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ ينبوع: العين الجارية، سألوه أن يجرى لهم عيناً معيناً في أرض الحجاز ههنا وههنا، وذلك^(٢) سهل يسير على الله تعالى، لو شاء لفعله ولا جابهم إلى جميع ما سألوا وطلبوا، ولكن علم أنهم لا يهتدون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقوله تعالى ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ﴾ أى: أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء وتهى، وتدلى أطرافها، فعجل ذلك في الدنيا، وأسقطها كسفاً [أى: قطعاً، كقولهم: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بَعْدَآبِ أَلِيمٍ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢]، وكذلك سأل قوم شعيب منه فقالوا: ﴿أَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾^(٣) مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [الشعراء: ١٨٧]. فعاقبهم الرب بعذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم. وأما نبي الرحمة، ونبي التوبة المبعوث رحمة للعالمين، فسأل إنظارهم وتأجيلهم، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد لا يشرك به شيئاً. وكذلك وقع، فإن من هؤلاء الذين ذكروا من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه^(٤) حتى «عبد الله ابن أبي أمية» الذي تبع النبي ﷺ وقال له ما قال، أسلم إسلاماً تاماً، وأتاب إلى الله عز وجل .

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: هو الذهب . وكذلك هو في قراءة ابن مسعود: «أو يكون لك بيت من ذهب»، ﴿أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ﴾ أى: تصعد^(٥) فى سلم ونحن ننظر إليك ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَقِيكَ حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ﴾ قال مجاهد: أى مكتوب فيه إلى كل واحد واحد صحيفة: هذا كتاب من الله لفلان ابن فلان، تصبح موضوعة عند رأسه^(٦) .

(٣) زيادة من أ.

(٢) فى ت، ف: «وهذا».

(١) فى ف: «حديث».

(٤) فى ف: «وحسن إسلامه بعد ذلك».

(٦) فى ف: «يصبح عند رأسه موضوع».

(٥) فى ت: «يصعد».

وقوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ أي: سبحانه وتعالى وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفعال لما يشاء، إن شاء أجابكم إلى ما سألتكم، وإن شاء لم يجيبكم، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم، وقد فعلت ذلك، وأمركم فيما سألتكم إلى الله عز وجل .

قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا علي بن إسحاق، حدثنا ابن المبارك، حدثنا يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم^(١)، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «عرض ربي عز وجل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت: لا يارب، ولكن أشبع يوماً، وأجوع يوماً - أو نحو ذلك - فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك» .

ورواه الترمذي في «الزهد» عن سويد بن نصر^(٢)، عن ابن المبارك، به^(٣) . وقال: هذا حديث حسن . وعلى بن يزيد يضعف في الحديث .

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ (٩٥) .

يقول تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ أي: أكثرهم ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ ويتابعوا الرسل، إلا استعجابهم من بعثته^(٤) البشر رسلاً، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [يونس: ٢] .

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦]، وقال فرعون وملؤه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وكذلك قالت^(٥) الأمم لرسولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠]، والآيات في هذا كثيرة .

ثم قال تعالى منبهاً على لطفه ورحمته بعباده: أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم، ليفقهوا عنه ويفهموا منه، لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ . فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي: كما أنتم فيها ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ أي: من جنسهم ، ولما كنتم أنتم بشراً، بعثنا فيكم رسولنا^(٦) منكم لطفاً ورحمة .

(١) في ت: «التم» . (٢) في أ: «زهير» .

(٣) المسند (٢٤٥/٥) وسنن الترمذي برقم (٢٣٤٧) وعبد الله بن زحر وعلى بن يزيد والقاسم ضعفاء .

(٤) في ت: «بعثة» . (٥) في ت: «قالوا» . (٦) في ت: «رسلاً» .

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٩٦).

يقول تعالى مرشداً نبيه إلى الحجة على قومه، في صدق ما جاءهم به: أنه شاهد علىّ وعليكم، عالم بما جئتمكم به، فلو كنت كاذباً [عليه]^(١) انتقم مني أشد الانتقام، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦].

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أي: عليم بهم بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية، من يستحق الشقاء والإضلال^(٢) والإزاعة؛ ولهذا قال:

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ (٩٧).

يقول تعالى مخبراً عن تصرفه في خلقه، ونفوذ حكمه، وأنه لا معقب له، بأنه من يهده فلا مضلّ له ﴿وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: يهدونهم، كما قال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ قال الإمام أحمد:

حدثنا ابن نمير، حدثنا إسماعيل عن نُفَيْع قال^(٣): سمعت أنس بن مالك يقول: قيل: يا رسول الله، كيف يحشر^(٤) الناس على وجوههم؟ قال: «الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم». وأخرجاه في الصحيحين^(٥).

وقال الإمام أحمد أيضاً: [حدثنا يزيد]^(٦)، حدثنا الوليد بن جُمَيْع القرشي، عن أبيه، حدثنا أبو الطفيل عامر بن واثلة، عن حذيفة بن أسيد قال: قام أبو ذر فقال: يا بني غفار، قولوا ولا تحلفوا، فإن الصادق المصدوق حدثني: أن الناس يحشرون على ثلاثة أفواج: فوج راكبين طاعمين كاسين، وفوج^(٧) يمشون ويسعون، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم إلى النار. فقال قائل منهم: هذان قد عرفناهما، فما بال الذين يمشون ويسعون^(٨)؟ قال: يلقي الله، عز وجل، الآفة على^(٩) الظاهر حتى لا يبقى ظهر، حتى إن الرجل لتكون له الحديقة المعجبة، فيعطيه بالشارف ذات القتب، فلا يقدر عليها^(١٠).

(١) زيادة من أ. (٢) في ت: «الضلال». (٣) في ت: «نفع كذا قال».

(٤) في ف: «تحشر».

(٥) المسند (٣/٤٦٧) وصحيح البخارى برقم (٤٧٦٠) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٦).

(٦) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.

(٧) في ف: «وقوم». (٨) في ت: «ويسقون». (٩) في ت: «الائمة هل»، وفي ف: «الائمة على».

(١٠) المسند (٥/١٦٤).

وقوله: ﴿عُمِيًّا﴾ أى: لا يبصرون ﴿وَبُكْمًا﴾ يعنى: لا ينطقون ﴿وَصُمًّا﴾: لا يسمعون. وهذا يكون فى حال دون حال جزاء لهم كما كانوا فى الدنيا بكماً وعمياً وصماً عن الحق فجازوا فى محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ أى: مِنقلبهم^(١) ومصيرهم ﴿جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ قال ابن عباس: سكنت^(٢). وقال مجاهد: طفئت ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ أى: لهاً ووهجاً وجمراً، كما قال: ﴿فَذَوْقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠].

﴿ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (٩٨) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُّوا﴾ (٩٩).

يقول تعالى: هذا الذى جازيناهم به، من البعث على العمى والبكم والصمم، جزاؤهم الذى يستحقونه؛ لأنهم كذبوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أى: بأدلتنا^(٣) وحججنا، واستبعدوا وقسوع البعث ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ بالية نخرة ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أى: بعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك، والتفرق والذهاب فى الأرض نعاد مرة ثانية؟. فاحتج^(٤) تعالى عليهم، ونبههم على قدرته على ذلك، بأنه خلق السموات والأرض، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك كما قال: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْصِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الاحقاف: ٣٣]، وقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾. إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [يس: ٨١، ٨٣].

وقال ههنا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أى: يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى، ويعيدهم كما بدأهم.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى: جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ومدة مقدرة لا بد من انقضائها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ﴾ [هود: ١٠٤].

وقوله: ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ﴾ أى: بعد قيام الحجة عليهم ﴿إِلَّا كُفُّوا﴾: إلا تمادياً فى باطلهم وضلالهم.

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ

قَتُورًا﴾ (١٠٠).

(٣) فى ت: «بآياتنا».

(٢) فى ت: «سكتب».

(١) فى أ: «مقبلهم».

(٤) فى ف: «واحتج».

يقول تعالى لرسوله صلوات الله عليه وسلامه^(١) قل لهم يامحمد: لو أنكم - أيها الناس - تملكون التصرف في خزائن الله، لأمسكتكم خشية الإنفاق.

قال ابن عباس، وقتادة: أي الفقر أي: خشية أن تذهبوها^(٢)، مع أنها لا تفرغ ولا تنفذ أبداً؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ قال ابن عباس، وقتادة^(٣): أي بخيلاً منوعاً. وقال الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣] أي: لو أن لهم نصيباً في ملك الله لما أعطوا أحداً شيئاً، ولا مقدار نقير، والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وهداه؛ فإن البخل والجزع والهلع صفة له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا. إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا. وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا. إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٢]. ولهذا نظائر كثيرة في القرآن العزيز، ويدل هذا على كرمه^(٤) وجوده وإحسانه، وقد جاء في الصحيحين: «يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاً الليل والنهار، أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغيض ما في يمينه»^(٥).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَتَزَلُ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤)﴾.

يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات، وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون، وهي: العصا، واليد، والسنين^(٦)، والبحر، والطوفان^(٧)، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات. قاله ابن عباس.

وقال محمد بن كعب: هي اليد، والعصا، والخمس في الأعراف، والطَّمْسَةُ والحجر.

وقال ابن عباس أيضاً، ومجاهد، وعكرمة والشعبي، وقتادة: هي يده، وعصاه، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

وهذا القول ظاهر جلي حسن قوى. وجعل الحسن البصري «السنين ونقص الثمرات» واحدة، وعنده أن التاسعة هي: تلفف العصا ما يأفكون. ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]

(٣) في ف، أ: «ومجاهد».

(٢) في أ: «تنهبوها».

(١) في ف: «ﷺ».

(٤) في ف: «كرم الله».

(٥) صحيح البخاري برقم (٧٤١٩) وصحيح مسلم برقم (٩٩٣).

(٦) في ت، ف، أ: «ولسانه».

(٧) في ف، أ: «والطوفان والبحر».

أى: ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها، كفروا بها وجحدوا بها، واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً، وما نجعت^(١) فيهم، فكذلك لو أجبنوا هؤلاء الذين سألوا منك^(٢) سألوا، وقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى آخرها، لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء الله، كما قال فرعون لموسى - وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات -: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ قيل: بمعنى ساحر. والله تعالى أعلم.

فهذه الآيات التسع التى ذكرها هؤلاء الأئمة هى المرادة ههنا، وهى المعنية فى قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدَبِّرًا لَّمْ يَعْقِبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ . إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [النمل: ١٠ - ١٢]. فذكر هاتين الآيتين: العصا واليد، وبين الآيات الباقيات فى «سورة الأعراف» وفصلها.

وقد أوتى موسى، عليه السلام، آيات أخر كثيرة، منها ضربُه الحجر بالعصا، وخروج الأنهار منه، ومنها تظليلهم الغمام، وإنزال المن والسلى، وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذكر ههنا التسع الآيات التى شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر، وكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفراً وجحوداً. فأما الحديث الذى رواه الإمام [أحمد]^(٣):

حدثنا يزيد، حدثنا شعبة، عن عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله بن سلمة^(٤) يحدث، عن صفوان بن عَسَّال المرادى، رضى الله عنه، قال: قال يهودى لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبى [ﷺ]^(٥) حتى نسأله عن هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ فقال: لا تقل له: نبى فإنه لو سمعك لصارت له أربع أعين. فسألاه، فقال النبى [ﷺ]: « لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا ببرىء إلى ذى سلطان ليقتله، ولا تقذفوا محصنة - أو قال: لا تفروا من الزحف - شعبة الشاك - وأنتم ياهود، عليكم^(٦) خاصة ألا تعدوا فى السبت». فقبلا يديه ورجليه، وقالوا: نشهد أنك نبى. [قال: «فما يمنعكما أن تتبعاني؟» قالوا: لأن داود، عليه السلام، دعا ألا يزال من ذريته نبى]^(٧)، وإننا نخشى أن أسلمنا أن تقتلنا يهود.

فهذا الحديث رواه هكذا الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وابن جرير فى تفسيره من طرق عن شعبة بن الحجاج، به^(٨). وقال الترمذى: حسن صحيح.

وهو حديث مشكل، وعبد الله بن سلمة فى حفظه شىء، وقد تكلموا فيه، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات، فإنها، وصايا فى التوراة لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون، والله أعلم.

(١) فى ت: «وما نجوت». (٢) فى ت: «مثل». (٣) زيادة من أ.

(٤) فى ف: «مسلم». (٥) زيادة من ت. (٦) فى ت: «أيكم». (٧) زيادة من ف، أ، والمسنند.

(٨) المسند (٢٣٩/٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٤٤) وسنن النسائى (١١١/٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣٧٠٥) وتفسير الطبرى (١١٥/١٥).

ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ﴾ أى: حججاً وأدلة على صدق ما جئتك به ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ أى: هالكاً. قاله مجاهد وقتادة. وقال ابن عباس ملعوناً. وقال أيضاً هو والضحاك: ﴿مَثْبُورًا﴾ أى: مغلوباً. والهالك - كما قال مجاهد - يشمل^(١) هذا كله، قال عبد الله بن الزبيري:

إِذْ أَجَارِيَ الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْغَدِّ - سِىٌّ وَمَنْ مَالٍ مِثْلُهُ مَثْبُورٌ^(٢)

[بمعنى هالك]^(٣).

وقرأ بعضهم برفع التاء من قوله: ﴿عَلِمْتَ﴾ وروى ذلك عن على بن أبى طالب. ولكن قراءة الجمهور بفتح التاء على الخطاب^(٤) لفرعون، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ. وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٣، ١٤].

فهذا كله مما يدل على^(٥) أن المراد بالتسع الآيات إنما هى مما تقدّم ذكره^(٦) من العصا، واليد، والسنين، ونقص من الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم. التى فيها حجج وبراهين على فرعون وقومه، وخوارق ودلائل على صدق موسى ووجود الفاعل المختار الذى أرسله. وليس المراد منها كما ورد فى هذا الحديث، فإن هذه الوصايا ليس فيها حجج على فرعون وقومه، وأى مناسبة بين هذا وبين إقامة البراهين على فرعون؟ وما جاء هذا الوهم إلا من قبل «عبد الله بن سلمة^(٧)» فإن له بعض ما يُنكر. والله أعلم. ولعل ذينك اليهوديين إنما سألا عن العشر الكلمات، فاشتبه على الراوى بالتسع الآيات، فحصل وهم فى ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَارَادَ أَنْ يَسْتَفْزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أى: يخليهم منها ويزيلهم^(٨) عنها ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا. وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ وفى هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن هذه السورة نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع؛ فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: ﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا. سَنَّةً مِنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦، ٧٧]؛ ولهذا أورث الله رسوله^(٩) مكة، فدخلها عنوة على أشهر القولين، وقهر أهلها، ثم أطلقهم حلماً وكرماً، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بنى إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم

(١) فى ت: «يشتمل».

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (١١٧/١٥).

(٣) زيادة من ت.

(٥) فى أ: «عليه».

(٤) فى ف: «على الخطاب فتح التاء».

(٨) فى ت: «ويرسلهم».

(٧) فى ف: «مسلم».

(٦) فى ت، ف: «ذكرها».

(٩) فى ت: «ورسوله».

وثمارهم وكنوزهم، كما قال: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] وقال ههنا: ﴿وَقَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أى: جميعكم أنتم وعدوكم.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك: ﴿لَفِيفًا﴾ أى: جميعاً.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (١٠٥) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ (١٠٦).

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، وهو القرآن المجيد، أنه بالحق نزل، أى: متضمناً للحق، كما قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦] أى: متضمناً علم الله الذى أراد أن يُطْلِعَكُم عليه، من أحكامه وأمره ونهيه.

وقوله: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أى: ووصل إليك - يا محمد - محفوظاً محروساً، لم يُشَبَّ بغيره، ولا زيدَ فيه ولا نُقص منه، بل وصل إليك بالحق، فإنه نزل به شديد القوى، [القوى] ^(١) الأيمن المكين المطاع فى الملا الأعلى.

وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ أى: يا محمد ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعك من المؤمنين ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاك من الكافرين.

وقوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ أما قراءة من قرأ بالتخفيف، فمعناه: فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مُفْرَقًا منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ فى ثلاث وعشرين سنة. قاله عكرمة عن ابن عباس.

وعن ابن عباس أيضاً أنه قال: ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ بالتشديد، أى: أنزلناه آية آية، مبيناً مفسراً؛ ولهذا قال: ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ﴾ أى: لتبلغه الناس وتتلوه عليهم ﴿عَلَى مُكْثٍ﴾ أى: مهل ﴿وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ أى: شيئاً بعد شيء.

﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ وَزِيرَهُمْ خُشُوعًا﴾ (١٠٩).

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين بما جئتهم به من هذا القرآن العظيم: ﴿آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ أى: سواء آمنتم به أم لا، هو حق فى نفسه، أنزله الله ونوه بذكره فى سالف الأزمان ^(٢) فى كتبه المنزلة على رسله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أى: من صالح أهل الكتاب الذين يُمَسَّكُونَ بكتابهم ويطبقونه، ولم يبدلوه ولا حرفوه ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ هذا

(٢) فى أ: «الزمان».

(١) زيادة من ت، ف، أ.

القرآن، ﴿يَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ جمع ذَقْن، وهو أسفل الوجه ﴿سُجَّدًا﴾ أى: لله، عز وجل، شكرًا على ما أنعم به عليهم، من جعله إياهم أهلاً، إن أدركوا هذا الرسول الذى أنزل عليه [هذا]^(١) الكتاب؛ ولهذا يقولون: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ أى: تعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد الذى وعدهم على ألسنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد ﷺ؛ ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾^(٢).

وقوله: ﴿وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ﴾ أى: خضوعاً لله عز وجل وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله، ويزيدهم الله خشوعاً، أى: إيماناً وتسليماً كما قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

وقوله: ﴿وَيَخْرُونَ﴾ عطف صفة على صفة لا عطف سجود على سجود، كما قال الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتبية فى المزدحم

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا﴾ (١١١).

يقول تعالى: قل يا محمد، لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله، عز وجل، المانعين من تسميته بالرحمن: ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أى: لا فرق بين دعائكم له باسم «الله» أو باسم «الرحمن»^(٣)، فإنه ذو الأسماء الحسنی، كما قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ إلى أن قال: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٤].

وقد روى مكحول^(٤): أن رجلاً من المشركين سمع النبی ﷺ وهو يقول فى سجوده: «يارحمن يارحيم»، فقال: إنه يزعم أنه يدعو واحداً، وهو يدعو اثنين. فأنزل الله هذه الآية. وكذا روى عن ابن عباس، رواهما ابن جرير.

وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ الآية، قال الإمام أحمد:

حدثنا هُشَيْمٌ، حدثنا أبو بشر، عن^(٥) سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: نزلت^(٦) هذه الآية وهو متوار بمكة ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا﴾ [وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا]^(٧) قال: كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن، وسبوا من أنزله، ومن جاء به. قال: فقال الله تعالى لنبیه: ﷺ ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ أى: بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن

(١) زيادة من أ.

(٢) زيادة من ت، ف.

(٣) فى ت: «واسم».

(٤) تفسير الطبرى (١٢١/١٥) وكان الحافظ اختصره هنا.

(٥) فى ت: «قرأت».

(٦) زيادة من أ.

(٧) فى ف: «حدثنا».

﴿وَلَا تُخَافُ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾.

أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي بشر جعفر بن إياس، به ^(١). وكذا روى ^(٢) الضحاك عن ابن عباس، وزاد: «فلما هاجر إلى المدينة، سقط ذلك، يفعل أى ذلك شاء» ^(٣).

وقال محمد بن إسحاق: حدثني داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا جهر بالقرآن وهو يصلى، تفرقوا عنه وأبوا أن يستمعوا منه، فكان الرجل إذا أراد أن يستمع ^(٤) من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو وهو يصلى، استرق السمع دونهم فرقاً منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ^(٥)، ذهب خشية أذاهم فلم يستمع ^(٦)، فإن خفض صوته ﷺ ^(٧) لم يستمع الذين ^(٨) يستمعون من قراءته شيئاً، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ فيتفرقوا عنك ﴿وَلَا تُخَافُ بِهَا﴾ فلا تسمع من أراد أن يسمعها ممن يسترق ذلك دونهم، لعله يرعوى إلى بعض ما يسمع، فينتفع به ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾.

وهكذا قال عكرمة، والحسن البصرى، وقتادة: نزلت هذه الآية فى القراءة فى الصلاة.

وقال شعبة عن أشعث بن أبى سليم ^(٩) عن الأسود بن هلال، عن ابن مسعود: لم يُخَافَتْ بِهَا مَنْ أَسْمَعُ أذْنِيهِ.

قال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّةَ، عن سلمة بن علقمة، عن محمد بن سيرين قال: ثبت أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ خفض صوته، وأن عمر كان يرفع صوته، فقليل لأبى بكر: لم تصنع هذا؟ قال: أناجى ربي، عز وجل، وقد علم حاجتى. فقليل: أحسنت. وقيل لعمر: لم تصنع هذا؟ قال: أطرده الشيطان، وأوقظ الوسنان. قيل: أحسنت. فلما نزلت: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ قيل لأبى بكر: أرفع شيئاً، وقيل لعمر: اخفض شيئاً ^(١٠).

وقال أشعث بن سوار، عن عكرمة، عن ابن عباس: نزلت فى الدعاء. وهكذا روى الثورى، ومالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: نزلت فى الدعاء. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبیر، وأبو عياض، ومكحول، وعروة بن الزبير.

وقال الثورى عن [ابن] ^(١١) عياش العامرى، عن عبد الله بن شداد قال: كان أعراب من بني تميم إذا سلم النبي ﷺ قالوا: اللهم ارزقنا إبلاً وولداً. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا﴾.

(١) المسند (٢٣/١) وصحيح البخارى برقم (٢٧٢٢) وصحيح مسلم برقم (٤٤٦).

(٢) فى ف: «رواه».

(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (١٥/١٢٣).

(٤) فى ت: «يسمع».

(٥) فى ت، ف: «يسمع».

(٦) فى ت: «ولم يسمع الذى».

(٧) فى ف: «وإن خفض رسول الله ﷺ صوته».

(٨) فى ه، ت: «عن أبى سليم» والمثبت من الطبرى.

(٩) تفسير الطبرى (١٥/١٢٤).

(١٠) فى ف، أ: «رسول الله».

(١١) زيادة من ف.

قول آخر: قال ابن جرير: حدثنا أبو السائب، حدثنا حفص بن غياث، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، رضى الله عنها، نزلت^(١) هذه الآية في التشهد: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾.

وبه قال حفص، عن أشعث بن سوار، عن محمد بن سيرين، مثله.

قول آخر: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾ قال: لا تصلى مراعاة الناس، ولا تدعها مخافة الناس. وقال الثورى، عن منصور، عن الحسن البصرى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾ قال: لا تحسن علانيتها وتسئ سريرتها. وكذا رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن الحسن، به. وهشيم، عن عوف، عنه به. وسعيد، عن قتادة، عنه كذلك.

قول آخر: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ قال: أهل الكتاب يخافتون، ثم يجهر أحدهم بالحرف فيصيح به، ويصيحون هم به وراءه، فنهاه أن يصيح كما يصيح هؤلاء، وأن يخافت كما يخافت القوم، ثم كان السبيل الذى بين ذلك، الذى سن له جبريل من الصلاة.

وقوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾: لما أثبت تعالى لنفسه الكرمية الأسماء الحسنى، نزه نفسه عن النقائص فقال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ بل هو الله الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ﴾ أى: ليس بذليل فيحتاج^(٢) أن يكون له ولى أو وزير أو مشير، بل هو تعالى[شأنه]^(٣) خالق الأشياء وحده لا شريك له، ومقدرها ومدبرها^(٤) بمشيئته وحده، لا شريك له.

قال مجاهد فى قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ﴾: لم يحالف أحداً ولا يبتغى^(٥) نصر أحد.

﴿وَكَبِيرَةٌ تَكْبِيرًا﴾ أى: عظمه وأجله عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً.

قال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرنى أبو صخر، عن القرظى أنه كان يقول فى هذه الآية: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ الآية، قال: إن اليهود والنصارى قالوا: اتخذ الله ولداً، وقال^(٦) العرب: [ليك]^(٧) لبيك، لا شريك لك؛ إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. وقال الصابئون والمجوس: لولا أولياء الله لذل. فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبِيرَةٌ تَكْبِيرًا﴾.

وقال أيضاً: حدثنا بشر، [حدثنا يزيد]^(٨)، حدثنا سعيد، عن قتادة: ذكر لنا أن النبى ﷺ كان

(١) فى ت: «أنزلت».

(٢) فى أ: «فلا يحتاج».

(٣) زيادة من أ.

(٤) فى ت، ف: «ومدبرها ومقدرها».

(٥) فى ف: «ولم يبتغ».

(٦) فى ت، ف، أ: «وقالت».

(٧) زيادة من ت، ف، أ.

(٨) زيادة من ف.

يعلم أهله هذه الآية ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا﴾ الصغير من أهله^(١) والكبير .

قلت: وقد جاء في حديث أن رسول الله ﷺ سماها آية العز^(٢). وفي بعض الآثار: أنها ما قرئت في بيت في ليلة فيصيبه سرق أو آفة. والله أعلم .

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا بشر بن سيحان البصري، حدثنا حرب بن ميمون، حدثنا موسى ابن عبيدة الربذي، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة قال: خرجت أنا ورسول الله ﷺ، ويدي في يده، فأتى على رجل رث الهيئة، فقال: «أى فلان^(٣)»، ما بلغ بك ما أرى؟». قال: السقم والضرّ يارسول الله. قال: «ألا أعلمك كلمات تذهب عنك السقم والضرّ؟» قال: لا، قال: مايسرنى بها^(٤) أن شهدت معك بدرًا أو أحدًا. قال: فضحك رسول الله ﷺ وقال: «وهل يدرك أهل بدر وأهل أحد ما يدرك الفقير القانع؟». قال: فقال^(٥) أبو هريرة: يا رسول الله، إياي فعلمني قال: فقل يا أبا هريرة: «توكلت على^(٦) الحى الذى لا يموت، الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك فى الملك، ولم يكن له ولي من الذل، وكبره تكبيراً». قال: فأتى على رسول الله ﷺ وقد حسنت حالى، قال: فقال لى: «مهيم». قال: قلت: يارسول الله، لم أزل^(٧) أقول الكلمات التى علمتنى^(٨).

إسناده ضعيف وفي متنه نكارة. [والله أعلم]^(٩).

(١) فى ف «منهم».

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٤٤٠ / ٣) من حديث معاذ بن أنس مرفوعاً: «آية العز: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾. الآية كلها».

(٣) فى ت: «أنى تلك». (٤) فى ت: «لا يرى بها».

(٥) فى ت: «فقال قال». (٦) فى ت: «صلى».

(٧) فى ت: «لم أنزل».

(٨) مسند أبى يعلى (٢٣ / ١٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٥٢ / ٧): «وفيه موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف».

(٩) زيادة من ف، أ.

ووقع فى ت: «آخر تفسير سورة الإسراء، والله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة، غفر الله لكاتبه ولمن قرأ فيه ولوالديه ولشايعه ولجميع المسلمين أجمعين آمين».

[بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين]^(١)

تفسير سورة الكهف

وهي مكية.

ذكر ما ورد في فضلها، والعشر الآيات من أولها وآخرها، وأنها عصمة من الدجال:

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول: قرأ رجل الكهف، وفي الدار دابة، فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابة - أو: سحابة - قد غشيت، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «اقرأ فلان، فإنها السكينة تنزلت عند القرآن، أو تنزلت للقرآن».

أخرجاه في الصحيحين، من حديث شعبة، به^(٢). وهذا الرجل الذي كان يتلو هو: أسيد بن الخضير، كما تقدم في تفسير البقرة^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا همام بن يحيى، عن قتادة، عن سالم بن أبي الجعد، عن معدان بن أبي طلحة، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف، عصم من الدجال».

رواه مسلم، وأبو داود، والنسائي، والترمذي^(٤) من حديث قتادة، به^(٥). ولفظ الترمذي: «من حفظ الثلاث الآيات من أول الكهف»، وقال: حسن صحيح.

طريق أخرى: قال [الإمام]^(٦) أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شعبة، عن قتادة، سمعت سالم بن أبي الجعد يحدث عن معدان، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال».

ورواه مسلم أيضاً والنسائي، من حديث قتادة، به^(٧). وفي لفظ النسائي: «من قرأ عشر آيات من الكهف»، فذكره.

حديث آخر: وقد رواه النسائي في «اليوم والليلة» عن محمد بن عبد الأعلى، عن خالد، عن شعبة، عن قتادة، عن سالم بن أبي الجعد، عن ثوبان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف، فإنه عصمة له من الدجال»^(٨). فيحتمل أن سالما سمعه من ثوبان ومن

(١) زيادة من ت.

(٢) المسند (٢٨١/٤) وصحيح البخاري برقم (٣٦١٤) وصحيح مسلم برقم (٧٩٥).

(٣) في أول تفسير سورة البقرة، في فضلها.

(٤) في ف: «الترمذي والنسائي».

(٥) المسند (١٩٦/٥) وصحيح مسلم برقم (٨٠٩) وسنن أبي داود برقم (٤٣٢٣) وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٠٢٥) وسنن الترمذي برقم (٢٨٨٦).

(٦) زيادة من ف.

(٧) المسند (٤٤٦/٦) وصحيح مسلم برقم (٨٠٩) وسنن النسائي الكبرى برقم (١٠٧٨٦).

(٨) سنن النسائي الكبرى برقم (١٠٧٨٤).

أبى الدرداء .

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا زبَّان بن فايد^(١)، عن سهل بن معاذ ابن أنس الجهني، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ أول سورة الكهف وآخرها، كانت له نوراً من قدمه إلى رأسه، ومن قرأها كلها كانت له نوراً ما بين الأرض إلى السماء^(٢)» انفرد به أحمد ولم يخرجوه^{(٣) (٤)}.

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه [في تفسيره]^(٥)، بإسناد له غريب، عن خالد بن سعيد بن أبي مريم، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة، سطع له نور من تحت قدمه إلى عَنان السماء، يضيء له يوم القيمة، وغُفر له ما بين الجمعتين^(٦)» . وهذا الحديث في رفعه نظر، وأحسن أحواله الوقف .

وهكذا روى^(٧) الإمام: «سعيد بن منصور» في سننه، عن هُشَيْم بن بشير^(٨)، عن أبي هاشم^(٩)، عن أبي مجلز، عن قيس بن عباد^(١٠)، عن أبي سعيد الخدري، رضى الله عنه، أنه قال: من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق . وهكذا وقع موقوفاً، وكذا^(١١) رواه الثوري، عن أبي هاشم^(١٢)، به^(١٣) . من حديث أبي سعيد الخدري .

وقد أخرجه الحاكم في مستدركه، عن أبي بكر محمد بن المؤمل، حدثنا الفضيل^(١٤) بن محمد الشعرائي، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا هُشَيْم، حدثنا أبو هاشم، عن أبي^(١٥) مجلز، عن قيس بن عباد، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين»، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه .

وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في سننه، عن الحاكم^(١٦)، ثم قال البيهقي: ورواه يحيى بن كثير، عن شعبة، عن أبي هاشم بإسناده أن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الكهف كما أنزلت كانت

(١) في ت: «زياد بن واقد»، وفي ف: «ثوبان بن فايد» .

(٢) في ف: «السماء والأرض» (٣) في ت: «يخرجه» .

(٤) المسند (٤/٤٣٩) .

(٥) زيادة من ف .

(٦) ذكره المنذرى في الترغيب (١/٥١٣) وقال: «رواه ابن مردويه بإسناد لا بأس به» .

(٧) في ت: «رواه» . (٨) في ت: «بشير» . (٩) في ت، أ: «هشام» .

(١٠) في ف: «عبادة» . (١١) في ت: «وهكذا» . (١٢) في ت: «هشام» .

(١٣) ورواه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص ١٣١) قال: حدثنا هشيم به موقوفاً . وسيأتى الاختلاف على هشيم . أما رواية الثوري: فرواها النسائي في السنن الكبرى برقم (١٠٧٩٠) من طريق عبد الرحمن عن سفيان الثوري به موقوفاً . وقد حقق الفاضل محمد طرهوني في كتابه «موسوعة فضائل القرآن» (١/٣٣٧) روايتي الرفع والوقف فاجاد وأفاد، جزاه الله خيراً، ثم رجح أنه موقوف في حكم المرفوع .

(١٤) في ت: «الفضل» . (١٥) في ت: «أبو» .

(١٦) المستدرک (٢/٣٦٨) والسنن الكبرى للبيهقي (٣/٢٤٩) .

له نوراً يوم القيامة»^(١). [والله أعلم]^(٢).

وفى «المختارة» للحافظ الضياء المقدسى من حديث عبد الله بن^(٣) مصعب بن منظور بن زيد بن خالد الجهنى، عن على بن الحسين، عن أبيه، عن على مرفوعاً: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة، فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة، وإن خرج الدجال عصم منه»^(٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

[رب وفقنى]^(٥)

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ (١) قِيمًا لِنُذِرَ بِأَسَا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ (٢) مَا كَثُرَ فِيهِ أَبَدًا ۖ (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۖ (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۖ (٥)﴾.

قد تقدم فى أول التفسير أنه تعالى يحمد نفسه المقدسة عند^(٦) فواتح الأمور وخواتيمها، فإنه المحمود على كل حال، وله الحمد فى الأولى والآخرة؛ ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد، صلوات الله وسلامه عليه؛ فإنه أعظم نعمة^(٧) أنعمها الله على أهل الأرض؛ إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور، حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ، بل يهذى إلى صراط مستقيم، بينا واضحاً جلياً^(٨)، نذيراً للكافرين وبشيراً للمؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ أى: لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا زيغاً ولا ميلاً، بل جعله معتدلاً مستقيماً؛ ولهذا قال: ﴿قِيمًا﴾ أى: مستقيماً.

﴿لِنُذِرَ بِأَسَا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ﴾ أى: لمن خالفه وكذبه ولم يؤمن به، ينذره بأساً شديداً، عقوبة عاجلة فى الدنيا وآجلة فى الآخرة ﴿مِّنْ لَّدُنْهُ﴾ أى: من عند الله الذى لا يُعَذِّبُ عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد.

﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: بهذا القرآن الذين صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أى: مثوبة عند الله جميلة ﴿مَا كَثُرَ فِيهِ﴾ فى ثوابهم عند الله، وهو الجنة، خالدين فيه ﴿أَبَدًا﴾ دائماً لا زوال له ولا انقضاء.

﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ ۖ (٩) قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ قال ابن إسحاق: وهم مشركو العرب فى قولهم: نحن

(١) رواه الطبرانى فى المعجم الاوسط برقم (٤٢٨) «مجمع البحرين» واختلف فيه على شعبة، فرواه غندر عن شعبة موقوفاً.

(٢) زيادة من أ.

(٣) فى أ: «عن».

(٤) المختارة برقم (٤٣٠) وقال: «عبد الله بن مصعب لم يذكره البخارى، ولا ابن أبى حاتم فى كتابيهما».

(٥) زيادة من ت.

(٦) فى ت: «عن».

(٧) فى ف: «نعم».

(٨) فى ت: «جليلى».

(٩) فى ت: «الذى» وهو خطأ.

نعبد الملائكة، وهم بنات الله .

﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أى: بهذا القول الذى افتروه واثبتكوه من علم ﴿ وَلَا لَبَّائِهِمْ ﴾ أى: أسلافهم.

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ : نصب على التمييز، تقديره: كبرت كلمتهم هذه كلمة .

وقيل: على التعجب، تقديره: أعظم بكلمتهم كلمة، كما تقول: أكرم يزيد رجلاً، قاله بعض البصريين. وقرأ ذلك بعض قراء مكة: ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ ، كما يقال: عَظُمَ قولك، وكبر^(١) شأنك . والمعنى على قراءة الجمهور أظهر؛ فإن هذا تبشيع لمقاتلتهم^(٢) واستعظام لإفكهم؛ ولهذا قال: ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أى: ليس لها مستند سوى قولهم، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافترائهم؛ ولهذا قال: ﴿ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ .

وقد ذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه السورة الكريمة، فقال: حدثني شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبى معيط، إلى أحبار اليهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله؛ فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجوا حتى قدما المدينة، فسألوا أحبار يهود^(٣) عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم^(٤) أمره وبعض قوله، وقالوا^(٥): إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. قال: فقالت لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن، فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول قروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنهم^(٦) قد كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه^(٧)؟ [وسلوه عن الروح، ماهو؟]^(٨) فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول، فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم . فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش، فقالوا: يامعشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور، فأخبروهم بها، فجاؤوا رسول الله ﷺ فقالوا: يامحمد، أخبرنا: فسألوه عما أمروهم به، فقال^(٩) لهم رسول الله ﷺ: «أخبركم غدا بما سألتكم عنه». ولم يستثن، فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة، لا يحدث الله إليه فى ذلك وحيًا، ولا يأتيه جبريل، عليه السلام، حتى أرجف^(١٠) أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غداً، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها، لا يُخبرنا بشيء عما سألناه عنه. وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل، عليه السلام، من عند الله، عز وجل، بسورة أصحاب الكهف، فيها معابته إياه على حزنه عليهم، وخبر ماسألوه عنه من أمر الفتية^(١١) والرجل الطواف، وقول الله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] ^(١٢) .

(٣) فى ت: «يهودى» .

(٦) فى أ: «فإنه» .

(٩) فى ت: «فقالوا» .

(٢) فى ت: «لمقاتلهم» .

(٥) فى ت: «وقال» .

(٨) زيادة من الطبرى .

(١١) فى ت: «الفتية» .

(١) فى ت: «وعظم» .

(٤) فى أ: «له» .

(٧) فى ت، أ: «بناؤه» .

(١٠) فى ت: «أوجب» .

(١٢) رواه الطبرى فى تفسيره (١٥/١٢٧) .

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (٦) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٧) ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ (٨) .

يقول تعالى مسلياً رسوله ﷺ (١) في حزنه على المشركين، لتركهم الإيمان وبعدهم عنه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال: ﴿لَعَلَّكَ﴾ (٢) ﴿بَاخِعٌ نَفْسِكَ أَلَّا﴾ (٣) ﴿يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] .

باخع: أى مهلك نفسك بحزنك عليهم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾، يعنى: القرآن. ﴿أَسَفًا﴾ يقول: لاتهلك نفسك أسفًا .

قال قتادة: قَاتِلَ نَفْسِكَ غَضَبًا وَحُزْنًا عَلَيْهِمْ. وقال مجاهد: جزعاً. والمعنى متقارب، أى: لا تأسف عليهم، بل أبلغهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات .

ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية مَزِينَةً بِزِينَةٍ زائلة. وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ .

قال قتادة، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الدنيا خضرة حلوة» (٤)، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا» (٥)، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء» (٦) .

ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها، وفراغها وانقضائها، وذهابها وخرابها، فقال: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أى: وإنا لمصيروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار، فنجعل كل شىء عليها هالكا ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾: لا يثبت ولا ينتفع به، كما قال العوفى، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ يقول: يهلك كل شىء عليها ويبيد. وقال مجاهد: ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾: بلقعا .

وقال قتادة: الصعيد: الأرض التى ليس فيها شجر ولا نبات .

وقال ابن زيد: الصعيد: الأرض التى ليس فيها شىء، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ (٧) [السجدة: ٢٧] .

وقال محمد بن إسحاق: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ يعنى الأرض، إن ما عليها لفان وبائد، وإن المرجع لىلى الله (٨)، فلا تأس ولا يحزنك ما تسمع وترى .

(١) فى أ: «صلوات الله وسلامه عليه» . (٢) فى ت: «ولعلك»، وفى أ: «لعلكم» وهو خطأ .

(٣) فى ت، أ: «على ألا» وهو خطأ . (٤) فى ف، أ: «حلوة خضرة» . (٥) فى أ: «يعملون، واتقوا الدنيا» .

(٦) ورواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٧٤٢) من طريق أبى مسلمة عن أبى نضرة به .

(٧) فى أ: «أفلا تبصرون» . (٨) فى ت: «المرجع إلى الله»، وفى ف، أ: «إلى الله المرجع» .

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) .

هذا إخبار عن قصة أصحاب^(١) الكهف [والرقيم]^(٢)، على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ يعنى: يا محمد ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ أى: ليس أمرهم عجيباً^(٣) فى قدرتنا وسلطاننا، فإن خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب، وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر^(٤)، ولا يعجزه شيء أعجب من أخبار أصحاب الكهف [والرقيم]^(٥) كما قال ابن جريج^(٦)، عن مجاهد: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ يقول: قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك!

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ يقول: الذى آتيتك من العلم والسنة والكتاب، أفضل من شأن أصحاب^(٧) الكهف والرقيم. وقال محمد بن إسحاق: ما أظهرت^(٨) من حججى على العباد، أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم .

[وأما «الكهف» فهو: الغار فى الجبل، وهو الذى لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون. وأما «الرقيم»]^(٩) فقال العوفى، عن ابن عباس: هو واد قريب من أيلة. وكذا قال عطية العوفى، وقتادة . وقال الضحاك: أما «الكهف» فهو : غار الوادى، و «الرقيم»: اسم الوادى .

وقال مجاهد: «الرقيم»: كان^(١٠) بنيانهم^(١١)، ويقول بعضهم: هو الوادى الذى فيه كهفهم . وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثورى، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله: «الرقيم» ، قال: يزعم كعب أنها القرية .

وقال ابن جريج، عن ابن عباس: «الرقيم»: الجبل الذى فيه الكهف . وقال ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبى نَجِيع، عن [مجاهد، عن]^(١٢)، ابن عباس قال: اسم ذلك الجبل بنجلوس .

وقال ابن جريج: أخبرنى وهب بن سليمان، عن شعيب الجبائى: أن اسم جبل الكهف بنجلوس، واسم الكهف حيزم، والكلب حمران .

(١) فى أ: «أهل» . (٢) زيادة من ت . (٣) فى ت، ف، أ: «عجيب» . (٤) فى ت: «قدير» . (٥) زيادة من ف، أ . (٦) فى ت: «جرير» . (٧) فى ت: «أصحاب أهل» . (٨) فى ت: «ما أظهر» . (٩) زيادة من ف . (١٠) فى أ: «كتاب» . (١١) فى ت: «كتابهم بهم» . (١٢) زيادة من ف .

وقال عبد الرزاق: أنبأنا إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: القرآن أعلمه إلا حَتَانًا، والأواه، والرقيم .

وقال ابن جريج: أخبرني عمرو بن دينار، أنه سمع عكرمة يقول: قال ابن عباس: ما أدرى ما الرقيم؟ أكتاب أم ببيان؟

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الرقيم: الكتاب. وقال سعيد بن جبيرة: [الرقيم]^(١): لوح من حجارة، كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف^(٢)، ثم وضعوه على باب الكهف .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرقيم: الكتاب. ثم قرأ: ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٩] . وهذا هو الظاهر من الآية، وهو اختيار ابن جرير قال: «الرقيم» فعيل بمعنى^(٣) مرقوم، كما يقال للمقتول: قتيل، وللمجروح: جريح. والله أعلم .

وقوله: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾: يخبر تعالى عن أولئك الفتية، الذين فروا بدينهم من قومهم لئلا يفتنوه عن دينهم، فهربوا منهم فلدجؤوا إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم، فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أى: هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترننا عن قومنا ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أى: وقدر لنا من أمرنا هذا رشداً، أى: اجعل عاقبتنا رشداً^(٤)، كما جاء فى الحديث: «وما قضيت لنا من قضاء، فاجعل عاقبته رشداً»، وفى المسند بسُر بن أبى أرطاة، عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو: «اللهم، أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة» .

وقوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ أى: ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف، فناموا سنين كثيرة ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أى: من رقدتهم تلك، وخرج أحدهم بدرهم معه^(٥) ليشتري لهم بها طعاماً يأكلونه، كما سيأتى بيانه وتفصيله؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لَنَعْلَمَ أَى الْحَزِينِ﴾ أى: المختلفين فيهم ﴿أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ قيل: عدداً، وقيل: غاية، فإن الأمد الغاية كقوله^(٦) :

سَبَقَ الْجَوَادُ إِذَا اسْتَوَلَى عَلَى الْأَمَدِ

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُو مِن دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيْنِ يَمِينٍ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ﴾

(١) زيادة من ف .

(٢) فى أ: «أهل الكتاب» .

(٣) فى ت: «من» .

(٤) فى ت: «عاقبته رشداً»، وفى ف، أ: «عاقبته رشداً» .

(٥) فى ف، أ: «معينة» .

(٦) هو النابغة الذبياني، والبيت فى تفسير الطبرى (١٥/١٣٧) .

رَبُّكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مَّرْفَقًا ﴿١٦﴾ .

من ههنا شرع فى بسط القصة وشرحها، فذكر تعالى أنهم فتية - وهم الشباب - وهم أقبل للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ، الذين قد عتوا وعَسَوْا^(١) فى دين الباطل؛ ولهذا كان أكثرهم المستجيبين لله ولرسوله ﷺ شباباً. وأما المشايخ من قريش، فعامتهم بقُوا على دينهم، ولم يسلم منهم إلا القليل. وهكذا^(٢) أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً.

قال مجاهد: بلغنى أنه كان فى آذان بعضهم القرطة يعنى: الحلق فآلهمهم الله رشدهم وآتاهم تقواهم. فآمنوا بربهم، أى: اعترفوا له بالوحدانية، وشهدوا أنه لا إله إلا هو.

﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾: استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخارى وغيره^(٣)، ممن ذهب لى زيادة الإيمان وتفاضله، وأنه يزيد وينقص؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ كما قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ^(٤) هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، وقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال: ﴿لِيَزِدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

وقد ذكر^(٥) أنهم كانوا على دين عيسى ابن مريم، عليه السلام، والله أعلم - والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية، فإنه^(٦) لو كانوا على دين النصرانية، لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم، لمباينتهم لهم. وقد تقدم عن ابن عباس: أن قريشاً بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ، فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء، وعن خبر ذى القرنين، وعن الروح، فدل هذا على أن هذا أمر محفوظ فى كتب أهل الكتاب، وأنه متقدم على دين النصرانية، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول تعالى: وصبرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة، فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وأنهم خرجوا يوماً فى بعض أعياد قومهم، وكان لهم مجتمع فى السنة يجتمعون فيه فى ظاهر البلد، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت، ويذبحون لها، وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له: «دقيانوس»، وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه. فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك، وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، عرفوا^(٧) أن هذا الذى يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها، لا ينبغى إلا لله الذى خلق السموات والأرض. فجعل كل واحد

(٣) فى ت: «ونحوه».

(٢) فى ف: «وكذا».

(١) فى أ: «وغشوا».

(٦) فى ف: «فإنهم».

(٥) فى ت: «ذكروا».

(٤) فى أ: «زدناهم» وهو خطأ.

(٧) فى ت، ف: «فعرفوا».

منهم يتخلص من قومه، وينحاز منهم^(١)، ويتبرز عنهم ناحية. فكان^(٢) أول من جلس منهم [وحده]^(٣) أحدهم، جلس تحت ظل شجرة، فجاء الآخر فجلس عنده، وجاء الآخر فجلس إليهما، وجاء الآخر فجلس إليهم، وجاء الآخر، وجاء الآخر، وجاء الآخر، ولا يعرف واحد منهم الآخر، وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان، كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري تعليقا، من حديث يحيى بن سعيد، عن عمرة، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»^(٤). وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث سهيل^(٥)، عن أبيه، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ^(٦).

والناس يقولون: الجنسية علة الضم.

والغرض أنه جعل كل^(٨) أحد منهم يكتم ما هو فيه عن أصحابه، خوفاً منهم، ولا يدرى أنهم مثله، حتى قال أحدهم: تعلمون - والله يا قوم - أنه ما^(٩) أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم، إلا^(١٠) شيء فليظهر كل واحد منكم ما بأمره. فقال آخر: أما أنا فأني [والله]^(١١) رأيت ما قومي عليه، فعرفت أنه باطل، وإنما الذي يستحق أن يعبد [وحده]^(١٢) ولا يشرك به شيء هو الله الذي خلق كل شيء: السموات والأرض وما بينهما. فقال الآخر: وأنا والله وقع لى كذلك. وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة، فصاروا يداً واحدة وإخوان صدق، فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه، فعرف بهم قومهم، فوشوا بأمرهم إلى ملكهم، فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وما هم عليه^(١٣)، فأجابوه بالحق، ودعوه إلى الله عز وجل؛ ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُو مِن دُونِهِ إِلَهًا ۖ وَلَن لَّنْفِي التَّائِيدِ، أَى: لا يقع منا هذا أبداً؛ لأننا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً؛ ولهذا قال عنهم: ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ۖ أَى: باطلاً وكذباً وبهتاناً.

﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ أَى: هَلَّا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً؟! ﴿فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يقولون: بل هم ظالمون كاذبون فى قولهم ذلك، فيقال: إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله، أبى عليهم، وتهذّدهم وتوعدهم، وأمر بنزع لباسهم عنهم الذى كان عليهم من زينة قومهم، وأجلّهم لينظروا فى أمرهم، لعلهم يراجعون دينهم الذى كانوا عليه. وكان هذا من لطف الله بهم، فإنهم فى تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه. والفرار بدينهم من الفتنة.

وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن فى الناس، أن يفر العبد منهم خوفاً على دينه، كما جاء فى

(١) فى ف، أ: «عنهم».

(٢) فى ت، ف: «وكان».

(٣) زيادة من ت، ف، أ.

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٣٣٦).

(٥) فى أ: «سهل».

(٦) فى ف، أ: «عن رسول الله».

(٧) صحيح مسلم برقم (٢٦٣٨).

(٨) فى ت: «وأنه جعل كل»، وفى ف: «أنه كل».

(٩) فى ت: «إنما».

(١٠) فى ت: «عليهم».

(١١) زيادة من ف.

(١٢) فى ت: «لا».

الحديث: « يوشك أن يكون خيرٌ مال أحدكم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن »^(١) ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس، ولا تشرع فيما عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع.

فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم، واختار الله تعالى لهم ذلك، وأخبر عنهم بذلك في قوله: ﴿وَإِذْ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: وإذا فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله، ففارقوهم أيضاً بأبدانكم ﴿فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: يبسط عليكم رحمة^(٢) يستركم بها من قومكم ﴿وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ﴾ [أي: ^(٣)]: الذي أنتم فيه، ﴿مَرْفَقًا﴾ أي: أمراً ترتفقون به. فعند ذلك خرجوا هرباً إلى الكهف، فأووا إليه، ففقدهم قومهم من بين أظهرهم، وتطلّبهم الملك فيقال: إنه لم يظفر بهم، وعمى الله عليه خبرهم. كما فعل بنبيه [محمد] ^(٤) وصاحبه الصديق، حين لجأ إلى غار ثور، وجاء المشركون من قريش في الطلب، فلم يهتدوا إليه مع^(٥) أنهم يمرون عليه، وعندها قال النبي ^(٦) حين رأى جزع الصديق في قوله: يارسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه^(٧) لأبصرنا، فقال: « يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ »، وقد قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠] فقصة هذا الغار أشرف وأجل وأعظم وأعجب من قصة أصحاب^(٨) الكهف، وقد قيل: إن قومهم ظفروا بهم، وقفوا^(٩) على باب الغار الذي دخلوه، فقالوا: ما كنا نريد منهم من العقوبة أكثر مما فعلوا بأنفسهم. فأمر الملك بردم بابه عليهم ليهلكوا مكانهم، ففعل [لهم]^(١٠) ذلك. وفي هذا نظر، والله أعلم؛ فإن الله تعالى قد أخبر أن الشمس تدخل عليهم في الكهف بكرة وعشية، كما قال تعالى:

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ (١٧).

هذا دليل على أن باب هذا الكهف من نحو الشمال؛ لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أي: يتقلص الفئء يمنة^(١١)، كما قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة: ﴿تَزَاوَرُ﴾ أي: تميل؛ وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أي: تدخل إلى غارهم من شمال بابه، وهو من ناحية المشرق، فدل على صحة ما قلناه،

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم (١٩) من حديث أبي سعيد الخدري، رضى الله عنه.

(٢) في ت، ف: «رحمته».

(٣) زيادة من ت، ف، أ.

(٤) زيادة من ف.

(٥) في ت: «ثم».

(٦) في ف، أ: «أهل».

(٧) في أ: «قدمه».

(٨) في ت: «ت».

(٩) زيادة من ف.

(١٠) في ت: «ثم».

(١١) في ت، ف: «ووقفوا».

وهذا بين لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة، وسير الشمس والقمر والكواكب، وبيانه^(١): أنه^(٢) لو كان باب الغار من ناحية الشرق^(٣) لما دخل إليه منها شيء عند الغروب، ولو كان من ناحية القبلة لما دخله منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب، ولا تزاور الفئيمين ولا شمالاً، ولو كان من جهة الغرب^(٤) لما دخلته وقت الطلوع، بل بعد الزوال ولم تزل فيه إلى الغروب. فتعين^(٥) ما ذكرناه ولله الحمد.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ﴿تَقْرِضُهُمْ﴾: تتركهم.

وقد أخبر الله تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبره، ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أى البلاد من الأرض؛ إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد^(٦) شرعى. وقد تكلف بعض المفسرين فذكروا فيه أقوالاً، فتقدم عن ابن عباس أنه قال: [هو] قريب من أيلة. وقال ابن إسحاق: هو عند نينوى. وقيل: ببلاد الروم. وقيل: ببلاد البلقاء. والله أعلم بأى بلاد الله هو. ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله ورسوله إليه^(٨)، فقد قال رسول الله ﷺ: «ماتركت شيئاً يقربكم إلى [الجنة]^(٩) ويباعدكم من النار، إلا وقد أعلمتكم به». فأعلمنا تعالى بصفته، ولم يعلمنا بمكانه، فقال: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوَرُّ عَنْ كَهْفِهِمْ﴾ قال مالك، عن زيد بن أسلم: تميل ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ أى: فى متسع منه داخلاً، بحيث لا تمسهم؛ إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم^(١٠)، قاله ابن عباس.

﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ حيث أرشدهم تعالى إلى هذا الغار الذى جعلهم فيه أحياء، والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾. ثم قال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ أى: هو الذى أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم، فإنه من هداه الله اهتدى، ومن أضله فلا هادى له.

﴿وَتَحْسِبُهُمْ أَيَقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلَبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ (١٨).

ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم، لم تنطبق^(١١) أعينهم؛ لئلا^(١٢) يسرع إليها البلى، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقي لها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَحْسِبُهُمْ أَيَقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عيناً ويفتح عيناً، ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد، كما قال الشاعر^(١٣):

(١) فى ت: «فبانه» .. (٢) فى ف: «أن» . (٣) فى ف، أ: «المشرق» .
(٤) فى أ: «المغرب» . (٥) فى ت: «فتعى» . (٦) فى ت: «ولا تضر» .
(٧) زيادة من ف . (٨) فى ت: «الله» . (٩) زيادة من ف، وفى ت: «الله» .
(١٠) فى ت: «ثيابهم وأبدانهم»، وفى ف، أ: «ثيابهم وأجسادهم» . (١١) فى ت: «تنطبق» .
(١٢) فى ت: «كيلا» .

(١٣) هو حميد بن ثور، والبيت فى ديوانه (ص ١٠٤) أ. هـ مستفاداً من حاشية ط الشعب.

يَنَامُ بِإِحْدَى مَقْلَتَيْهِ وَيَتَّقِي بِأُخْرَى الرِّزَايَا فَهُوَ يَقْظَانُ نَائِمٌ

وقوله تعالى: ﴿وَنَقْلِبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ قال بعض السلف: يقلبون في العام مرتين.

قال ابن عباس: لو لم يقلبوا^(١) لأكلتهم الأرض.

وقوله: ﴿وَكَلْبُهُمْ بِأَسِطِّ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ قال ابن عباس، وقتادة ومجاهد وسعيد بن جبير^(٢):

الوصيد: الفناء.

وقال ابن عباس: بالباب. وقيل: بالصعيد، وهو التراب. والصحيح أنه بالفناء، وهو الباب،

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّصَدَّةٌ﴾ [الهمزة: ٨] أى: مطبقة مغلقة. ويقال: «وَصِيد» و«أَصِيد».

ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب.

قال ابن جريج^(٣): يحرس عليهم الباب. وهذا من سجيته وطبيعته، حيث يربض^(٤) ببابهم كأنه

يحرسهم، وكان جلوسه خارج الباب؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب - كما ورد في الصحيح^(٥) -

ولا صورة ولا جنب ولا كافر، كما ورد به الحديث الحسن^(٦). وشملت كلبهم بركتهم، فأصابه ما

أصابهم من النوم على تلك الحال. وهذا فائدة صعبة الأخيار؛ فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر

وشأن.

وقد قيل: إنه كان كلب صيد لأحدهم، وهو الأشبه. وقيل: كان كلب طباط الملك، وكان قد

وافقه على الدين فصحه كلبه، فאלله أعلم.

وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة «همام بن الوليد الدمشقي»: حدثنا صدقة بن عمر

الغساني، حدثنا عباد المنقري، سمعت الحسن البصري، رحمه الله، يقول: كان اسم كبش إبراهيم:

جرير، واسم هدهد سليمان: عَنَقَز، واسم كلب أصحاب الكهف: قطمير، واسم عجل بنى إسرائيل

الذى عبده: بهموت. وهبط آدم، عليه السلام، بالهند، وحواء بجدة، وإبليس بدست بيسان، والحية

بأصبهان^(٧).

وقد تقدم^(٨) عن شعيب الجبائي أنه سماه: حمران.

واختلفوا في لونه^(٩) على أقوال لا حاصل لها، ولا طائل تحتها ولا دليل عليها، ولا حاجة

إليها، بل هي مما ينهى عنه، فإن مستندها رجم بالغيب.

(١) في ت: «تقلبون»، وفي أ: «يتقلبوا».

(٢) في ف: «ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة».

(٣) في أ: «جرير».

(٤) في ف: «ربض».

(٥) رواه البخاري في صحيحه برقم (٣٢٢٧) من حديث ابن عمر، رضى الله عنهما.

(٦) رواه أحمد في مسنده (٨٠/١) وأبو داود في السنن برقم (٢٢٧) والنسائي في السنن (١٤١/١) من حديث علي بن أبي طالب

مرفوعاً: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة ولا كلب ولا جنب».

(٧) انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٤٣/٢٧).

(٨) في ت: «كونه».

(٩) في ت: «وقيل».

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾ أى: أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم؛ لما ألبسوا من المهابة والذعر، لثلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم^(١) يد لأمس، حتى يبلغ الكتاب أجله، وتنقضى رقتهم التى شاء تبارك وتعالى فيهم، لما له فى ذلك من الحجة والحكمة^(٢) البالغة، والرحمة الواسعة.

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا (٢٠)﴾.

يقول تعالى: وكما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم، لم يفقدوا من أحوالهم وهياتهم شيئاً، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين؛ ولهذا تساءلوا بينهم: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ؟﴾ أى: كم رقدتم؟ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ كأنه كان دخولهم إلى الكهف فى أول نهار، واستيقاظهم^(٣) كان فى آخر نهار؛ ولهذا استدركوا فقالوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أى: الله أعلم بأمرهم، وكأنه حصل لهم نوع تردد فى كثرة نومهم، فالله أعلم، ثم عدلوا إلى الأهم فى أمرهم إذ ذاك^(٤)، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فقالوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ﴾ أى: فضتكم هذه. وذلك أنهم كانوا قد استصبحوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها، فتصدقوا منها وبقي منها؛ فلماذا قالوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ أى: مديتكم التى خرجتم منها والائف اللام للعهد.

﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ أى: أطيب طعاماً، كقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١] وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤]، ومنه الزكاة التى تُطَيَّب^(٥) المال وتطهره. وقيل: أكثر طعاماً، ومنه زكا الزرع إذا كثر، قال الشاعر^(٦):

قَبَائِلُنَا سَبْعٌ وَأَنْتُمْ ثَلَاثَةٌ
وَلَسَبْعٌ أَزْكَى مِنْ ثَلَاثٍ وَأَطْيَبُ

والصحيح الأول؛ لأن مقصودهم إنما هو الطيب الحلال، سواء كان قليلاً أو كثيراً.

وقوله: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أى: فى خروجه وذهابه، وشرائه وإيابه، يقولون: وَلْيَتَخَفْ^(٧) كل ما يقدر عليه ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾ أى: يعلمن ﴿بِكُمْ أَحَدًا﴾. إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ أى: إن علموا بمكانكم، ﴿يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ يعنون أصحاب دقيانوس، يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم، فلا يزالون يعذبونهم^(٨) بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم^(٩) فى ملتهم التى هم عليها أو

(١) فى أ: «أو يمسه».

(٢) فى ف: «الحكمة والحجة».

(٣) فى ف: «ويقاظهم».

(٤) فى ت: «يطيب».

(٥) فى ت: «إن ذلك».

(٦) البيت فى تفسير الطبرى (١٤٨/١٥) غير منسوب.

(٧) فى ف: «وليتخفف».

(٨) فى ف: «يزالون يعذبونكم».

(٩) فى ف: «يعيدوكم».

يموتوا، وإنِ واتَّوهم على العود^(١) فى الدين فلا فلاح لكم^(٢) فى الدنيا ولا فى الآخرة، ولهذا قال^(٣): ﴿وَلَنْ تَفْلَحُوا إِذَا أَبَدًا﴾ .

﴿وَكَذَلِكَ أَغَثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ۖ﴾ (٢١) .

يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَغَثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أى: أطلعنا عليهم الناس ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ .

ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك فى البعث وفى أمر القيامة . وقال عكرمة: كان منهم طائفة قد قالوا: تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد . فبعث الله أهل الكهف حجة^(٤) ودلالة وآية على ذلك .

وذكروا أنه لما أراد أحدهم الخروج ليذهب إلى المدينة، فى شراء شىء لهم ليأكلوه، تنكر وخرج يمشى فى غير الجادة، حتى انتهى إلى المدينة، وذكروا أن اسمها دقوس^(٥)، وهو يظن أنه قريب العهد بها، وكان الناس قد تبدلوا قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة، وتغيرت البلاد ومن عليها، كما قال الشاعر :

أما الديارُ فإنَّها كديارهم وأرى رجالَ الحى غيرَ رجاله

فجعل لا يرى شيئاً من معالم البلد التى يعرفها، ولا يعرف أحداً من أهلها، لا^(٦) خواصها ولا عوامها، فجعل يتحير فى نفسه ويقول: لعل بى جنوناً أو مساً، أو أنا حالم، ويقول: والله ما بى شىء^(٧) من ذلك، وإن عهدى بهذه البلدة عشية أمس على غير هذه الصفة. ثم قال: إن تعجيل الخروج من ههنا لأولى لى. ثم عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام، فدفع إليه ما معه من النفقة، وسأله أن يبيعه بها طعاماً. فلما رآها ذلك الرجل أنكرها وأنكر ضربها، فدفعها إلى جاره، وجعلوا يتداولونها بينهم ويقولون: لعل هذا قد وجد كنزاً. فسألوه عن أمره، ومن أين له هذه النفقة؟ لعله وجدها من كنز. ومن أنت؟ فجعل يقول: أنا من أهل هذه المدينة^(٨)، وعهدى بها عشية أمس وفيها دقيانوس. فنسبوه إلى الجنون، فحملوه إلى ولى أمرهم، فسأله عن شأنه وعن أمره حتى أخبرهم بأمره، وهو متحير فى حاله، وما هو فيه. فلما أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف : متوكلى البلد وأهلها، حتى انتهى بهم إلى الكهف، فقال: دعونى حتى أتقدمكم فى الدخول لأعلم أصحابى،

(١) فى ف: «وافهم على العودة» .

(٢) فى ت، ف: «لهم» .

(٣) فى ف: «وافهم على العودة» .

(٤) فى ت، ف: «ولا» .

(٥) فى ت: «دقوس» .

(٦) فى ت: «وحجة» .

(٧) فى ت: «النفقة» .

(٨) فى ت: «شتى» .

فيقال: إنهم لا يدرون كيف ذهب فيه، وأخفى الله عليهم خبره^(١)، ويقال: بل دخلوا عليهم، ورأوهم وسلم عليهم الملك واعتنقهم، وكان مسلماً فيما قيل، واسمه تيدوسيس^(٢)، ففرحوا به وآتسوه الكلام، ثم ودعوه^(٣) وسلموا عليه، وعادوا إلى مضاجعهم، وتوفاهم الله، عز وجل، فالله أعلم.

قال قتادة: غزا^(٤) ابن عباس مع حبيب بن مسلمة، فمروا بكهف في بلاد الروم، فرأوا فيه عظماً، فقال قائل: هذه عظام أهل الكهف؟ فقال ابن عباس: لقد بليت عظامهم من أكثر من ثلاثمائة سنة. رواه ابن جرير.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَثَرُنَا^(٥) عَلَيْهِمْ﴾ أى: كما أرقدناهم وأيقظناهم بهياتهم، أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ﴾ أى: فى أمر القيامة، فمن مثبت لها ومن منكر، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم ﴿فَقَالُوا ابْنُوا بُيُوتًا لِرَبِّهِمْ أَعْلَمَ بِهِمْ﴾ أى: سدوا عليهم باب كهفهم، وذروهم على حالهم ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾.

حكى ابن جرير فى القائلين^(٦) ذلك قولين: أحدهما: أنهم المسلمون منهم. والثانى: أهل الشرك منهم، فالله أعلم^(٧).

والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ. ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر؛ لأن النبى ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحهم مساجد»^(٨) يحذر ما فعلوا. وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أنه لما وجد قبر دانيال فى زمانه بالعراق، أمر أن يخفى عن الناس، وأن تدفن تلك الرقعة التى وجدوها عنده، فيها شيء من الملاحم وغيرها.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا^(٢٢)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس فى عدة أصحاب الكهف، فحكى ثلاثة أقوال، فدل على أنه لا قائل برابع، ولما ضَعَفَ القولين الأولين بقوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ أى: قول بلا علم، كمن^(٩) يرمى إلى مكان لا يعرفه، فإنه لا يكاد يصيب، وإن أصاب فلا قصد، ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله: ﴿وَتَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ دل على صحته، وأنه هو الواقع فى نفس الأمر.

(٣) فى ت، ف: «دعوه».

(٦) فى ت: «القائل».

(٢) فى ت: «تيدوسين»، وفى ف: «بيدوسيس».

(٥) فى ت: «أعثرناهم» وهو خطأ.

(١) فى ت، ف: «خبرهم».

(٤) فى ت: «وعن».

(٧) فى ت: «والله أعلم».

(٨) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٣٣٠) من حديث عائشة، رضى الله عنها.

(٩) فى أ: «لمن».

وقوله: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾ إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، لكن إذا اطلعنا على أمر قلنا به، وإلا وقفنا حيث وقفنا.

وقوله: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: من الناس. قال قتادة: قال ابن عباس: أنا من القليل الذي استثنى الله، عز وجل، كانوا سبعة. وكذا روى ابن جريج، عن^(١) عطاء الخراساني عنه، أنه كان يقول: أنا ممن استثنى الله، ويقول: عدتهم سبعة.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار^(٢)، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا إسرائيل، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال: أنا من القليل، كانوا سبعة.

فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس: أنهم كانوا سبعة، وهو موافق لما قدمناه.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار عن عبد الله بن أبي نجيع، عن مجاهد قال: لقد حدثت أنه كان علي بعضهم من حداثة سنه وَضَحَ الورق. قال ابن عباس: فكانوا كذلك ليلهم ونهارهم في عبادة الله، ييكون^(٣) ويستغيثون بالله، وكانوا ثمانية نفر: مكسلمينا^(٤)، وكان أكبرهم وهو الذي كلم الملك عنهم، ومجسيميلينا وتخليخا^(٥)، ومرطونس، وكشطونس، وبيرونس، وديموس، ويطونس قالوش.

هكذا وقع في هذه الرواية، ويحتمل^(٦) هذا من كلام ابن إسحاق، أو من بينه وبينه، فإن الصحيح عن ابن عباس أنهم كانوا سبعة، وهو ظاهر الآية. وقد تقدم عن شعيب الجبائي أن اسم كلبهم حمران^(٧). وفي تسميتهم بهذه^(٨) الأسماء واسم كلبهم نظر في صحته، والله أعلم؛ فإن غالب ذلك مُتَلَقًى من أهل الكتاب، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَمَارَ فِيهِمْ إِلَّا مُرَاءَ ظَاهِرٍ﴾ أي: سهلاً هيناً؛ فإن الأمر في معرفة^(٩) ذلك لا يترتب عليه كبير^(١٠) فائدة ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجماً بالغيب، من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذي لاشك فيه ولا مرية، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه^(١١) من الكتب والأقوال.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤)﴾.

هذا إرشاد من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل، أن يرد ذلك إلى مشيئة الله، عز وجل، علام الغيوب، الذي يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه [قال]^(١٢): «قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفن الليلة على

(١) في ت: «ابن».

(٢) في ت: «يسار».

(٣) في ت، ف، أ: «يتلون».

(٤) في ف: «شمليخا».

(٥) في هـ: «مكليممينا»، والمثبت من ت، ف، أ.

(٦) في ف، أ: «ويحتمل أن يكون».

(٧) في ت: «بهذا».

(٨) في ت: «حمران».

(٩) في ت: «معرفة».

(١٠) في ف: «على من تقدمه». (١٢) زيادة من ت، ف، أ.

(١١) في ف: «كثير».

سبعين امرأة - وفي رواية تسعين امرأة. وفي رواية: مائة امرأة - تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله، فقيل له - وفي رواية: فقال له الملك - قل: إن شاء الله. فلم يقل، فطاف بهن فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان، قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، لو قال: «إن شاء الله» لم يحنث، وكان دركاً لحاجته»، وفي رواية: «ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعون»^(١)»^(٢).

وقد تقدم في أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية في قول النبي ﷺ، لما سئل عن قصة أصحاب الكهف: «غداً أجيئكم». فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً، وقد ذكرناه بطوله في أول السورة، فأغنى عن إعادته.

وقوله: ﴿وَأَذْكُرُ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ قيل: معناه: وإذا نسيت الاستثناء، فاستثنى عند ذكرك له. قاله أبو العالية، والحسن البصري.

وقال هشيم، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس في الرجل يحلف؟ قال: له أن يستثنى ولو إلى سنة، وكان يقول: ﴿وَأَذْكُرُ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ في ذلك. قيل للأعمش: سمعته من مجاهد؟ قال^(٣): حدثني به ليث بن أبي سليم، يرى^(٤) ذهب كسائي هذا.

ورواه الطبراني من حديث أبي معاوية، عن الأعمش، به^(٥).

ومعنى قول ابن عباس: «أنه يستثنى ولو بعد سنة» أى: إذا نسي أن يقول في حلفه أو كلامه «إن شاء الله» وذكر ولو بعد سنة، فالسنة له أن يقول ذلك، ليكون آتياً بسنة الاستثناء، حتى لو كان بعد الحنث، قاله ابن جرير، رحمه الله، ونص على ذلك، لا أن يكون [ذلك]^(٦) رافعاً لحنث اليمين ومسقطاً للكفارة. وهذا الذى قاله ابن جرير، رحمه الله، هو الصحيح، وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه، والله أعلم.

وقال عكرمة: ﴿وَأَذْكُرُ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أى: إذا غضبت. وهذا تفسير باللائم.

وقد قال الطبراني: حدثنا أحمد بن يحيى الخلواني، حدثنا سعيد بن سليمان، عن عباد بن العوام، عن سفيان بن حسين، عن يعلى بن مسلم، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا. إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَأَذْكُرُ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أن تقول: إن شاء الله^(٧). [وهذا تفسير باللائم]^(٨).

وقال الطبراني: حدثنا محمد بن الحارث الجبيلي^(٩)، حدثنا صفوان بن صالح، حدثنا الوليد بن

(١) فى ت، ف: «أجمعين».

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٢٤٢) رواية المائة، وبرقم (٦٧٢٠) رواية التسعين، وصحيح مسلم برقم (١٦٥٤).

(٣) فى ف: «فقال». (٤) فى ت: «ترى».

(٥) تفسير الطبرى (١٥١/١٥) والمعجم الكبير للطبراني (٦٨/١١).

(٦) زيادة من ف. (٧) المعجم الكبير (١٧٩/١٢).

(٨) زيادة من ف. (٩) فى ت، ف: «الجبلى».

مسلم، عن عبد العزيز بن حُصَيْن، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِّشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا . إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادَّكُرَ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أن تقول: إن شاء الله .

وروى الطبراني، أيضاً، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَادَّكُرَ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ الاستثناء، فاستثنى إذا ذكرت. وقال: هي خاصة برسول^(١) الله ﷺ، وليس لأحد منا أن يستثنى إلا في صلة من يمينه. ثم قال: تفرَّد به الوليد، عن عبد العزيز بن الحِصِين^(٢) (٣).

ويحتمل في الآية وجه آخر، وهو أن يكون الله، عز وجل، قد أرشد من نسي الشيء في كلامه إلى ذكر الله تعالى؛ لأن النسيان منشؤه من الشيطان، كما قال فتى موسى: ﴿وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣]، وذكر الله تعالى يطرد الشيطان، فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان، فذكر الله تعالى سبب للذكر^(٤)؛ ولهذا قال: ﴿وَادَّكُرَ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾.

وقوله: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ أى: إذا سئلت عن شيء لا تعلمه، فاسأل الله فيه، وتوجه إليه فى أن يوفقك للصواب والرشد [فى ذلك]^(٥)، وقيل غير ذلك فى تفسيره، والله أعلم .

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦) .

هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف فى كهفهم، منذ أرقدهم الله إلى أن بعثهم وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة [سنة]^(٦) وتسع سنين بالهلالية، وهى ثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مائة [سنة]^(٧) بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين؛ فلهذا قال بعد الثلاثمائة: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾.

وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ أى: إذا سئلت عن لبثهم وليس عندك [علم]^(٨) فى ذلك وتوقيف^(٩) من الله، عز وجل^(١٠)، فلا تتقدم فيه بشيء، بل قل فى مثل هذا: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: لا يعلم ذلك إلا هو أو من أطلعه الله عليه من خلقه، وهذا الذى قلناه، عليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد، وغير واحد من السلف والخلف .

وقال قتادة فى قوله: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾: هذا قول أهل الكتاب،

(١) فى ت: «يارسول»، وفى ف: «لرسول» .

(٣) المعجم الأوسط برقم (٣٣٥٧) «مجمع البحرين» .

(٤) فى ت: «سبب الذكر» .

(٦) زيادة من أ.

(٩) فى ت: «توفيق» .

(٢) فى ف: «حصين» .

(٥) زيادة من ف، أ.

(٨، ٧) زيادة من ف .

(١٠) فى ت، ف: «تعالى» .

وقد رده الله تعالى بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ قال: وفي^(١) قراءة عبد الله: «وقالوا: ولبثوا»، يعنى أنه قاله الناس^(٢).

وهكذا قال - كما قال قتادة - مطرف بن عبد الله.

وفى هذا الذى زعمه قتادة نظر، فإن الذى بأيدى أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة من غير تسع، يعنون بالشمسية، ولو كان الله قد حكى قولهم لما قال: ﴿وَأَزْدَادُوا تِسْعًا﴾ وظاهر الآية إنما هو من إخبار الله، لا حكاية عنهم. وهذا اختيار ابن جرير، رحمه الله. ورواية قتادة قراءة ابن مسعود منقطعة، ثم هى شاذة بالنسبة إلى قراءة الجمهور فلا يحتج بها، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ أى: إنه لبصير بهم سميع لهم.

قال ابن جرير: وذلك فى معنى المبالغة فى المدح، كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه، وتأويل الكلام: ما أبصر الله لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شىء.

ثم روى عن قتادة فى قوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ فلا أحد أبصر^(٣) من الله ولا أسمع.

وقال ابن زيد: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾: يرى أعمالهم، ويسمع ذلك منهم سميعاً بصيراً.

وقوله: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ أى: إنه تعالى هو الذى له الخلق والأمر، الذى لا معقب لحكمه، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير، تعالى وتقدس.

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٧) وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٢٨).

يقول تعالى آمراً رسوله [عليه الصلاة والسلام]^(٤) بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه^(٥) إلى الناس: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أى: لا مغير^(٦) لها ولا محرف ولا مؤول.

وقوله: ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾: [عن مجاهد: ﴿مُلْتَحَدًا﴾ قال: ملجأ. وعن قتادة: ولياً ولا مولى]^(٧). قال ابن جرير: يقول^(٨): «إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحى إليك من كتب ربك، فإنه لا ملجأ لك من الله». كما قال تعالى: ﴿يَأْيُهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] أى: سائلك عما فرض عليك من إبلاغ الرسالة.

(١) فى ت: «ومن».

(٢) فى أ: «ابن عباس».

(٣) فى ت: «أنصر».

(٤) زيادة من أ.

(٥) فى ت «وابتلاغه».

(٦) فى ت، ف: «أى غير مغير».

(٧) زيادة من أ.

(٨) فى ت: «ويقول».

وقوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (١) أى: اجلس (١) مع الذين يذكرون الله ويهللونه، ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه، ويسألونه بكرة وعشياً من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء. يقال: إنها نزلت في أشرف قريش، حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده (٢)، ولا يجالسهم (٣) بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب [وخباب] (٤) وابن مسعود، وليفرد أولئك بمجلس على حدة. فنهاه الله عن ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس (٦) مع هؤلاء، فقال: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

قال مسلم في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا محمد بن عبد الله الأسدي، عن إسرائيل، عن المقدم بن شريح، عن أبيه، عن سعد - هو ابن أبي وقاص - قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا! قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان نسيت اسميهما (٧)، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾. انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري (٨).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي التياح قال: سمعت أبا الجعد يحدث عن أبي أمامة قال: خرج رسول الله ﷺ على قاص يقص، فأمسك، فقال رسول الله ﷺ: «قص، فلأن أقعد غدوة إلى أن تشرق الشمس، أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب» (٩).

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا هاشم (١٠)، حدثنا شعبة، عن عبد الملك بن ميسرة قال: سمعت كُرْدُوسَ بن قيس - وكان قاص العامة بالكوفة - يقول: أخبرني رجل من أصحاب بدر: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لأن أقعد في مثل هذا المجلس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب». قال شعبة: فقلت: أى مجلس؟ قال: كان قاصاً (١١) (١٢).

وقال أبو داود الطيالسي في مسنده: حدثنا محمد، حدثنا يزيد بن أبان، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن أجالس قوماً يذكرون الله من صلاة الغداة (١٣) إلى طلوع الشمس، أحب إلى مما طلعت عليه الشمس، ولأن أذكر الله من صلاة العصر إلى غروب الشمس أحب إلى من أن أعتق

(١) فى ت: «يجلس». (٢) فى ت، ف: «وحدهم». (٣) فى ت: «تجالسهم».

(٤) زيادة من ف. (٥) فى ت: «يطرد». (٦) فى ت: «فى المجلس».

(٧) فى ت: ، ف: «اسمهما».

(٨) صحيح مسلم برقم (٢٤١٣).

(٩) المسند (٢٦١/٥).

(١٠) فى ت: «هشام». (١١) فى ت: «وقاص».

(١٢) المسند (٤٧٤/٣) وكردوس بن قيس لم يوثقه إلا ابن حبان.

(١٣) فى ت: «الغد».

ثمانية من ولد إسماعيل دية كل واحد منهم اثنا عشر ألفاً». فحسبنا دياتهم ونحن في مجلس أنس، فبلغت ستة وتسعين^(١) ألفاً، وههنا من يقول: «أربعة من ولد إسماعيل» والله ما قال إلا ثمانية، دية كل واحد منهم اثنا^(٢) عشر ألفاً^(٣).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا عمرو بن ثابت، عن علي بن الأقرم، عن الأغر أبي^(٤) مسلم - وهو الكوفي - أن رسول الله ﷺ مرّ برجل يقرأ سورة الكهف، فلما رأى النبي ﷺ سكت، فقال رسول الله ﷺ: «هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم».

هكذا رواه أبو أحمد، عن عمرو بن ثابت، عن علي بن الأقرم، عن الأغر مرسلاً. وحدثناه يحيى بن المولى، عن^(٥) منصور، حدثنا محمد^(٦) بن الصلت، حدثنا عمرو بن ثابت، عن علي بن الأقرم، عن الأغر أبي مسلم^(٧)، عن أبي هريرة وأبي سعيد قالا: جاء رسول الله ﷺ، ورجل يقرأ سورة الحجر أو سورة الكهف، فسكت، فقال رسول الله ﷺ: «هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم»^(٨).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر^(٩)، حدثنا ميمون المرثي، حدثنا ميمون بن سيّاه، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله، لا يريدون بذلك إلا وجهه، إلا ناداهم مناد من السماء: أن قوموا مغفوراً لكم، قد بدّلت سيئاتكم حسنات»^(١٠). تفرد به أحمد، رحمه الله.

وقال الطبراني: حدثنا إسماعيل بن الحسن، حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، عن أسامة بن زيد^(١١)، عن أبي حازم، عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال: نزلت على رسول الله ﷺ، وهو في بعض أبياته: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ»، فخرج يلتمسهم، فوجد قوماً يذكرون الله، منهم ثائر الرأس، وجافى الجلد^(١٢)، وذو الثوب الواحد، فلما رآهم جلس معهم وقال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني الله أن أصبر نفسي معهم»^(١٣).

عبد الرحمن هذا، ذكره أبو بكر بن أبي داود في الصحابة^(١٤). وأما أبوه فمن سادات الصحابة،

(١) في ت: «وسبعين».

(٢) مسند الطيالسي برقم (٢١٠٤) ويزيد بن أبان ضعيف.

(٣) في ت: «أى».

(٤) في ت: «الأغر بن أبي مسلم».

(٥) مسند البزار برقم (٢٣٢٥، ٢٣٢٦) «كشف الاستار»، وقال الهيثمي في المجمع (١٦٤/٧): «وفيه عمرو بن ثابت أبو المقدم وهو متروك».

(٦) في ف، أ: «بكير».

(٧) المسند (١٤٢/٣) وميمون المرثي ضعيف.

(٨) في ت: «زيدى».

(٩) في ف: «الجلود».

(١٠) ورواه ابن منده وأبو نعيم في الصحابة كما في أسد الغابة (٣/٣٥٣) من طريق أبي حازم به.

(١١) وتعقبه ابن الأثير بقوله: «ولا يصح، وإنما الصحبة لأبيه ولاخيه أبى أمامة، وله رؤية».

رضى الله عنهم .

وقوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال ابن عباس: ولا تجاوزهم إلى غيرهم: يعنى: تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة.

﴿وَلَا تُطْعَمَنَّ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبُهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أى: شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾^(١) وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا أى: أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع، ولا تكن مطيعاً له ولا محباً لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١].

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٢٩).

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وقل يا محمد للناس: هذا الذى جئتكم به من ربكم هو الحق الذى لا مزية فيه ولا شك ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ أى: أرصدنا ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أى: سورها .

قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبى الهيثم^(٢)، عن أبى سعيد الخدرى، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لِسُرَادِقِ النَّارِ أَرْبَعَةُ جُدُرٍ، كَثَافَةٌ كُلُّ جِدَارٍ مِثْلُ مَسَافَةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً».

وأخرجه الترمذى فى «صفة النار» وابن جرير فى تفسيره، من حديث دراج أبى السَّمَح به^(٣) .

[وقال ابن جريج: قال ابن عباس: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾، قال: حائط من نار]^(٤).

قال ابن جرير: حدثنى الحسين بن نصر والعباس بن محمد قالا: حدثنا أبو عاصم، عن عبد الله ابن أمية، حدثنى محمد بن حبيب بن يعلى، عن صفوان بن يعلى، عن يعلى بن أمية قال: قال رسول الله ﷺ: «الْبَحْرُ هُوَ جَهَنَّمُ» قال: فقليل له: [كيف ذلك؟]^(٥) فتلا هذه الآية - أو: قرأ هذه الآية -: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾، ثم قال: «وَاللَّهُ لَا أَدْخِلُهَا أَبَدًا أَوْ: مَا دُمْتُ حَيًّا - وَلَا تَصِينُنِي مِنْهَا قَطْرَةً»^(٦).

وقوله: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ قال ابن عباس: «المهل»: ماء غليظ مثل^(٧) دردى الزيت.

(١) زيادة من ف. (٢) فى ت: «هشيم».

(٣) المسند (٢٩/٣) وسنن الترمذى برقم (٢٥٨٤) وتفسير الطبرى (١٥٧/١٥). ودراج عن أبى الهيثم ضعيف.

(٤، ٥) زيادة من ف.

(٦) تفسير الطبرى (١٥٧/١٥).

(٧) فى ت: «قيل».

وقال مجاهد: هو كالدّم والققيح . وقال عكرمة: هو الشيء الذى انتهى حرّه: وقال آخرون: هو كل شيء أذيب .

وقال قتادة: أذاب ابن مسعود شيئاً من الذهب فى أخدود، فلما انما وأزبد قال: هذا أشبه شيء بالمهل .

وقال الضحاك: ماء جهنم أسود، وهى سوداء وأهلها^(١) سود .

وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها، فهو أسود منتن غليظ حار؛ ولهذا قال: ﴿يَشْوَى الْوُجُوهَ﴾ أى: من حره، إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه، شواه حتى يسقط جلد وجهه فيه، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد بإسناده المتقدم فى سُرَادِقِ النار عن أبى سعيد الخدرى، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ماء كالمهل» . قال^(٢): «عكر الزيت فإذا قربته إليه سقطت فروة وجهه فيه»^(٣)، وهكذا رواه الترمذى فى «صفة النار» من جامعه، من حديث رِشْدِينَ بن سعد^(٤)، عن عمرو بن الحارث، عن دراج، به^(٥) . ثم قال: لا نعرفه إلا من حديث «رشدین»، وقد تكلم فيه من قبل حفظه، هكذا قال، وقد رواه الإمام أحمد كما تقدم عن حسن الأشيب، عن ابن لهيعة، عن درّاج، والله أعلم^(٦) .

وقال عبد الله بن المبارك، وبَقِيَّةُ بن الوليد، عن صفوان بن عمرو، عن عبد الله بن بُسر، عن أبى أمامة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿وَيَسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ . يَتَجَرَّعُهُ﴾ [إبراهيم: ١٦، ١٧] قال: «يقرب إليه فيتكرّره، فإذا قرب منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه^(٧) قطع أمعاءه، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يَغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾» .

وقال سعيد بن جبیر: إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم، فأكلوا^(٨) منها فاختلست جلود وجوههم، فلو أن ماراً مرّ بهم يعرفهم، لعرف جلود وجوههم فيها. ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون. فيغاثون بماء كالمهل، وهو الذى قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم^(٩) وجوههم التى قد سقطت عنها الجلود .

ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه^(١٠) الصفات [الذميمة]^(١١) القبيحة: ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ أى: بئس هذا الشراب^(١٢)، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿تَسْقَىٰ^(١٣) مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٥] أى: حارة، كما قال: ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ﴾ [الرحمن: ٤٤] .

(١) فى ف، أ: «شجرها» . (٢) فى ت: «قال كالمهل» .

(٣) المسند (٣/ ٧٠) .

(٤) فى ت: «بن الأسعد» .

(٥) سنن الترمذى برقم (٢٥٨١) .

(٦) فى ت: «فالله أعلم» .

(٧) فى ت: «جلود» .

(٨) فى ف، أ: «شرابا» .

(٩) فى ت، ف: «شرب» .

(١٠) فى ت: «بهذا» .

(١١) زيادة من ف، أ .

(١٢) فى ت، ف: «فيأكلون» .

(١٣) فى ف: «يسقى» .

﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [أى: وساءت النار]^(١) منزلاً ومقيلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق^(٢) كما قال فى الآية الأخرى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (٣٠) ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٣١).

لما ذكر تعالى حال الأشقياء، ثنى بذكر السعداء، الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به، وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة، فلهم ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ والعدن: الإقامة .

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أى: من تحت غرفهم ومنازلهم، قال [لهم]^(٣) فرعون: ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١].

﴿يُحَلَّوْنَ﴾ أى: من الحلية ﴿فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وقال فى المكان الآخر: ﴿وَلَوْثُوا وَلَبَّاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣] وفصله ههنا فقال: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ فالسندس: لباس^(٤) رقاق رقاق كالقمصان وما جرى مجراها، وأما الإستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق .

وقوله: ﴿مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾: الاتكاء قيل: الاضطجاع. وقيل: التربع فى الجلوس. وهو أشبه بالمراد ها هنا ومنه الحديث [فى]^(٥) الصحيح: «أما أنا فلا أكل متكئاً»^(٦) فيه القولان .

والأرائك: جمع أريكة، وهى السرير تحت الحجلة، والحجلة كما يعرفه^(٧) الناس فى زماننا هذا بالباشخاناه، والله أعلم .

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ قال: هى الحجال. قال معمر: وقال غيره: السَّرُّ فى الحجال^(٨).

وقوله: ﴿نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [أى: نعمت الجنة ثواباً على أعمالهم] ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أى: حسنت منزلاً ومقيلاً ومقاماً، كما قال فى النار: ﴿بئسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]^(٩). وهكذا قابل بينهما فى سورة الفرقان فى قوله: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦]، ثم ذكر صفات المؤمنين فقال: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَوْنَ فِيهَا تحيةً وسلاماً . خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥، ٧٦].

(٣) زيادة من ت.

(٢) فى ت: «الارتفاق».

(٥) زيادة من ت، ف.

(١) زيادة من ف.

(٤) فى ت، ف، أ: «ثياب».

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٣٩٨).

(٧) فى ت، ف: «تعرفه».

(٨) تفسير عبد الرزاق (١/٣٣٩).

(٩) زيادة من ف.

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كُلَّتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦)﴾.

يقول الله تعالى بعد ذكر^(١) المشركين المستكبرين عن مجالسة^(٢) الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم^(٣) مثلاً برجلين، جعل الله ﴿لأحدهما جنتين﴾ أى: بستانين من أعناب، محفوفين بالنخل^(٤) المحذقة فى جنباتهما، وفى خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل فى غاية الجود؛ ولهذا قال: ﴿كُلَّتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ أى: خرجت ثمرها ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أى: ولم تنقص منه شيئاً ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ أى: والأنهار تتخرق فيهما ههنا وههنا.

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ قيل: المراد به: المال. روى عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وقيل: الثمار وهو أظهر ههنا، ويؤيده القراءة الأخرى: «وكان له ثمر» بضم الثاء وتسكين الميم، فيكون^(٥) جمع ثمرة، كخشبة وخشب، وقرأ آخرون: ﴿ثمر﴾ بفتح الثاء والميم.

فقال - أى صاحب هاتين [الجنتين]^(٦) -: ﴿لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أى: يجادله ويخاصمه، يفتخر عليه ويتراأس: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أى: أكثر خدماً وحشماً وولداً.

قال قتادة: تلك - و الله - أمنية الفاجر: كثرة المال وعزة النفر.

وقوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ أى: بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ وذلك اغترار منه، لما رأى فيها^(٧) من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة فى جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تبنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف^(٨)، وذلك لقلّة عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة^(٩)؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أى: كائنة ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ أى: ولئن كان معاد ورجعة ومردّ إلى الله، ليكوننّ لى هناك أحسن من هذا لأننى مُحْظَى^(١٠) عند ربى، ولولا كرامتى^(١١) عليه ما أعطانى هذا، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت: ٥٠] وقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَلَؤَدَا﴾ [مريم: ٧٧] أى: فى الدار الآخرة، تألى على الله، عز

(٣) فى ت، ف، أ: «لهم ولهم».

(٦) زيادة من ف.

(٩) فى ت: «بالأخرى».

(٢) فى ت: «مجالسهم».

(٥) فى ت: «فيك».

(٨) فى ت: «ولا يسلم».

(١١) فى ت: «إكرامى».

(١) فى ت، ف: «ذكره».

(٤) فى ف، أ: «بالنخل».

(٧) فى ف: «فيهما».

(١٠) فى ت، ف: «محض».

وجل، وكان سبب نزولها في العاص بن وائل، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى، وبه الثقة .

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُّوتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما أجابه صاحبه المؤمن، واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاعتزاز: ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴾؟ وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه، الذي خلقه وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، كما قال تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة، ٢٨٠]، أى: كيف تجحدون ربكم، ودلالته عليكم ظاهرة جلية، كل أحد يعلمها من نفسه، فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوماً ثم وجد، وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شيء من المخلوقات؛ لأنه بمثابة، فعلم إسناد^(١) إيجاداً إلى خالقه، وهو الله، لا إله إلا هو، خالق كل شيء؛ ولذا^(٢) قال: ﴿ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي ﴾ أى: أنا لا أقول بمقاتك، بل أعترف لله بالربوبية والوحدانية ﴿ وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ أى: بل هو الله المعبود وحده لا شريك له .

ثم قال: ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ هذا تحضيض وحث على ذلك، أى: هلا إذا أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعط غيرك، وقلت: ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾؛ ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ولده أو ماله، فليقل: ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة. وقد روى فيه حديث مرفوع أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلى في مسنده:

حدثنا جَرَّاحُ بْنُ مَخْلَدٍ، حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عيسى بن عَوْن، حدثنا عبد الملك بن زُرَّارَةَ، عن أنس، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد، فيقول: ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ فيرى فيه آفة دون الموت ». وكان يتأول هذه الآية: ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾^(٣) .

(٢) فى ف: «ولهذا».

(١) فى ف: «استناد».

(٣) ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٤٥٢٥) من طريق الحسن بن صباح، عن عمر بن يونس به .

قال الحافظ أبو الفتح الأزدى: عيسى بن عون، عن عبد الملك بن زرارة، عن أنس: لا يصح حديثه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة وحجاج، حدثني شعبة، عن عاصم بن عبيد الله، عن عبيد مولى أبي رهم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا قوة إلا بالله ». تفرد به أحمد^(١).

وقد ثبت في الصحيح^(٢)، عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال له: « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله »^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا بكر^(٤) بن عيسى، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بلج، عن عمرو بن ميمون قال: قال أبو هريرة: قال لى نبي الله ﷺ: « يا أبا هريرة، أدلك^(٥) على كنز من كنوز الجنة تحت العرش؟ ». قال: قلت: نعم، فذاك أبي وأمي. قال: « أن تقول لا قوة إلا بالله ». قال أبو بلج: وأحسب أنه قال: « فإن الله يقول: أسلم عبيد واستسلم ». قال: فقلت لعمرو - قال أبو بلج: قال عمرو: قلت لأبي هريرة: لا حول ولا قوة إلا بالله؟ فقال: لا، إنها في سورة الكهف: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾^(٦).

وقوله: ﴿ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ ﴾ أى: في الدار الآخرة ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا ﴾ أى: على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تبيد ولا تفنى ﴿ حَسْبَانَا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، ومالك عن الزهري: أى عذاباً من السماء.

والظاهر أنه مطر عظيم مزعج، يقلع زرعها وأشجارها؛ ولهذا قال: ﴿ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ أى: بلقاً تراباً أملس، لا يثبت فيه قدم.

وقال ابن عباس: كالجرز الذي لا يثبت شيئاً.

وقوله: ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا ﴾ أى: غائراً في الأرض، وهو ضد النابح الذي يطلب وجه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها^(٧)، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَأْوُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك: ٣٠] أى: جار وسائح. وقال ههنا: ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ والغور: مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه، كما قال الشاعر^(٨):

تَظَلَّ جِيَادُهُ نَوْحًا عَلَيْهِ تَقَلَّدُهُ أَعْتَتَهَا صُفُوفًا

بمعنى: نائحات عليه.

(١) المسند (٢/ ٤٦٩).

(٢) فى ف: «الصحيحين».

(٣) صحيح البخارى برقم (٦٦١٠) وصحيح مسلم برقم (٢٧٠٤).

(٤) فى ف، أ: «بكير».

(٥) فى ت، ف: «ألا أدلك».

(٦) المسند (٢/ ٣٣٥).

(٧) فى ت، ف: «أسفل».

(٨) البيت فى تفسير الطبرى (١٥/ ١٦٣) غير منسوب.

﴿وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾: بأمواله، أو بشماره على القول الآخر. والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر، مما خوّفه به المؤمن من إرسال الحساب^(١) على جنته، التي اغتر بها^(٢) وألهمته عن الله، عز وجل ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ قال قتادة: يُصَفِّقُ كَفِّهِ متأسفاً متلهفاً على الأموال التي أذهبها عليه ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾. وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ أي: عشيرة أو ولد، كما افتخر بهم واستعز ﴿يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾. هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ اختلف القراء ههنا، فمنهم من يقف على قوله: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾. هُنَالِكَ أي: في ذلك الموطن الذي حل به عذاب الله، فلا منقذ منه، ويبتدئ [بقوله]^(٣) ﴿الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾، ومنهم من يقف على: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ ويبتدئ بقوله: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾.

ثم اختلفوا في قراءة ﴿الْوَلَايَةُ﴾ فمنهم من فتح الواو، فيكون المعنى: هُنَالِكَ المَوَالاة^(٤) لله، أي: هُنَالِكَ^(٥) كل أحد^(٦) من مؤمن أو كافر^(٧)، يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: ٨٤]، وكقوله إخباراً عن فرعون: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. آلآن وَقَدْ عَصَيْتُ قَبْلُ وَكُنْتُ مِنَ الْمُفْسِدِينَ [يونس: ٩٠، ٩١].

ومنهم من كسر الواو من ﴿الْوَلَايَةُ﴾ أي: هُنَالِكَ الحكم لله الحق.

ثم منهم من رفع ﴿الْحَقِّ﴾ على أنه نعت للولاية، كقوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

ومنهم من خفض القاف، على أنه نعت لله عز وجل، كقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي: جزاء ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: الأعمال التي تكون لله، عز وجل، ثوابها خير، وعاقبتها حميدة رشيدة، كلها خير.

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَتْرَكْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ .

(٣) زيادة من أ.
(٦) في ف: «واحد».

(٢) في ت: «اعتز».
(٥) في ت: «هناك».

(١) في ت: «الحسنات».
(٤) في ت: «الولاية».
(٧) في ف: «وكافر».

يقول تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ﴾ يا محمد للناس ﴿مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في زوالها وفنائها وانقضائها ﴿كَمَا أُنزِلَتْ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أى: ما فيها من الحب، فشب وحسن، وعلاه^(١) الزهر والنور والنضرة ثم بعد هذا كله ﴿أَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ يابساً ﴿تَذَرُوهُ الرِّيحُ﴾ أى: تفرقه وتطرّحه ذات اليمين وذات الشمال^(٢) ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ أى: هو قادر على هذه الحال، وهذه الحال^(٣)، وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كما فى سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أُنزِلَتْ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ﴾ الآية [يونس: ٢٤]، وقال فى سورة الزمر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعُ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١]. وقال فى سورة الحديد: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وفى الحديث الصحيح: «الدنيا حلوة خضرة»^(٤).

وقوله: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، كقوله: ﴿زِينَتٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ﴾ [آل عمران: ١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥] أى: الإقبال عليه والتفرغ لعبادته، خير لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم، والشفقة المفرطة عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا﴾ قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وغير واحد من السلف: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: الصلوات الخمس.

وقال عطاء بن أبى رباح، وسعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

وهكذا سئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه، عن: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ ما هى؟ فقال: هى^(٥) لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله. رواه الإمام أحمد:

حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا حيوة، أنبأنا أبو عقيل، أنه سمع الحارث مولى عثمان، رضى الله عنه، يقول: جلس عثمان يوماً وجلسنا معه، فجاءه المؤذن، فدعا بماء فى إناء، أظنه أنه سيكون فيه مُدٌ، فتوضأ ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئى هذا، ثم قال: «من توضأ وضوئى هذا، ثم قام فصلى^(٦) صلاة الظهر، غُفِرَ له ما كان بينها وبين الصبح، ثم صلى العصر غُفِرَ له ما بينها وبين الظهر، ثم صلى المغرب غُفِرَ له ما بينها وبين العصر، ثم صلى العشاء غُفِرَ له ما

(١) فى ت: «وعلاه». (٢) فى ت: «ذات يمين وذات شمال». (٣) فى ت: «هذه الحالة وهذه الحالة».

(٤) سبق تخريجه عند تفسير الآية الثامنة من هذه السورة.

(٥) فى ت: «هن». (٦) فى ت، ف: «يصلى».

بينها وبين المغرب، ثم لعله يبيت يتمرغ^(١) ليلته، ثم إن قام فتوضأ وصلى صلاة الصبح، غُفر له ما بينها^(٢) وبين صلاة العشاء وهي الحسنات يذهبن السيئات» قالوا: هذه الحسنات فما الباقيات الصالحات يا عثمان؟ قال: هي لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله^(٣). تفرد به^(٤).

وروى مالك، عن عمارة بن عبد الله بن صياد^(٥)، عن سعيد بن المسيب قال: ﴿الْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال محمد بن عجلان، عن عمارة قال: سألتني سعيد بن المسيب عن ﴿الْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ﴾، فقلت: الصلاة والصيام. قال^(٦): لم تصب. فقلت: الزكاة والحج. فقال: لم تصب، ولكنهن الكلمات الخمس: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال ابن جريج: أخبرني عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن نافع بن سرجس، أنه أخبره أنه سأل ابن عمر عن: ﴿الْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ قال: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. قال ابن جريج: وقال عطاء بن أبي رباح مثل ذلك.

وقال مجاهد: ﴿الْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر^(٧).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الحسن وقتاده في قوله: ﴿الْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ قال: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله، هُنَّ الباقيات الصالحات.

قال ابن جرير: وجدت في كتابي عن الحسن بن الصباح البزار، عن أبي نصر التمار، عن عبد العزيز بن مسلم، عن محمد بن عجلان، عن سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، من الباقيات الصالحات»^(٨).

قال: وحدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا عمرو بن الحارث أن دراجاً أبا السمح حدثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «استكثروا من الباقيات الصالحات». قيل: وما هي^(٩) يا رسول الله؟ قال: «الملة». قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: «التكبير، والتهليل، والتسبيح، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

وهكذا، رواه أحمد، من حديث دراج، به^(١٠).

وبه قال ابن وهب: أخبرني أبو صخر أن عبد الله بن عبد الرحمن، مولى سالم بن عبد الله

(١) في ف، أ: «لعله يتمرغ». (٢) في ت: «بينهما». (٣) في أ: «بالله العلى العظيم».

(٤) المسند (٧١/١).

(٥) في ف: «جياذ».

(٨) تفسير الطبري (١٦٧/١٥).

(٩) في أ: «وما هن».

(١٠) تفسير الطبري (١٦٧/١٥) والمسند (٧٥/٣).

حَدَّثَهُ قَالَ : أُرْسِلْنِي سَالِمَ إِلَى مُحَمَّدَ بْنِ كَعْبٍ الْقُرْظِيِّ ، فَقَالَ : قُلْ لَهُ : الْفَنَى عِنْدَ زَاوِيَةِ الْقَبْرِ ، فَإِنْ لِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ . قَالَ : فَالْتَقِيَا ، فَسَلِمَ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ ، ثُمَّ قَالَ سَالِمٌ : مَا تَعْدُ الْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ ؟ فَقَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ . فَقَالَ لَهُ سَالِمٌ : مَتَى جَعَلْتَ فِيهَا « لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » ؟ فَقَالَ : مَا زِلْتُ أَجْعَلُهَا . قَالَ : فَرَاغَهُ ^(١) مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ، فَلَمْ يَنْزِعْ ، قَالَ : فَأَثْبِتَ ^(٢) . قَالَ سَالِمٌ : أَجْلُ فَأَثْبِتَ ^(٣) ، فَإِنْ أَبَى أَيُّوبُ الْأَنْصَارِيُّ حَدَّثَنِي أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ : « عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ فَارَيْتُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ : يَا جَبْرِيلُ ، مِنْ هَذَا مَعَكَ ؟ فَقَالَ : مُحَمَّدٌ . فَرَحَّبَ بِي وَسَهَّلَ ، ثُمَّ قَالَ : مَرَّ أَمْتُكَ فَلْتَكْثِرْ مِنْ غِرَاسِ الْجَنَّةِ ، فَإِنْ تَرَبَّطَهَا طَيِّبَةٌ وَأَرْضُهَا وَاسِعَةٌ . فَقُلْتُ : وَمَا غِرَاسُ الْجَنَّةِ ؟ قَالَ : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » ^(٤) .

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ ، عَنْ الْعَوَامِ ، حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ، مِنْ آلِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ، عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ، قَالَ : خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَنَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ، فَرَفَعَ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ خَفَضَ ، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ قَدْ حَدَّثَ فِي السَّمَاءِ شَيْءًا ، ثُمَّ قَالَ : « أَمَا إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاءُ ، يَكْذِبُونَ وَيُظْلِمُونَ ، فَمَنْ صَدَقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَمَالَاهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَا أَنَا مِنْهُ ، وَمَنْ لَمْ يَصْدُقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَلَمْ يَمَالَهُمْ ^(٥) فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ . أَلَا وَإِنْ « سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ هُنَّ الْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ » ^(٦) .

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : حَدَّثَنَا عَفَانٌ ، حَدَّثَنَا أَبَانٌ ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ كَثِيرٍ ، عَنْ زَيْدٍ ، عَنْ أَبِي سَلَامٍ [عَنْ] ^(٧) مَوْلَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ [أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ] ^(٨) قَالَ : « بَخْ بَخْ لِحُمْسٍ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يَتَوَفَّى فِي حَتْسَبِهِ ^(٩) وَالِدُهُ » . وَقَالَ : « بَخْ بَخْ لِحُمْسٍ مَنْ لَقِيَ اللَّهَ مُسْتَبِقِنًا بِهِنَّ ، دَخَلَ الْجَنَّةَ : يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَبِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَبِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَبِالْحِسَابِ ^(١٠) » ^(١١) .

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : حَدَّثَنَا رَوْحٌ ، حَدَّثَنَا الْأَوْزَاعِيُّ ، عَنْ حَسَّانَ بْنِ عَطِيَّةٍ قَالَ : كَانَ شَدَادُ بْنُ أَوْسٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، [فِي سَفَرٍ] ^(١٢) فَتَزَلَّ مِنْزَلًا ، فَقَالَ لَغَلَامِهِ : « ائْتِنَا بِالشَّفَرَةِ نَعْبَثُ بِهَا » . فَأَنْكَرَتْ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : مَا تَكَلَّمْتُ بِكَلِمَةٍ مِثْلَ مَا أَسْلَمْتُ إِلَّا وَأَنَا أَخْطَمُهَا وَأَزْمُهَا غَيْرَ كَلِمَتِي هَذِهِ . فَلَا تَحْفَظُوهَا عَلَيَّ ^(١٣) ، وَاحْفَظُوا مَا أَقُولُ لَكُمْ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِذَا كُنَزَ النَّاسُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ فَانْكُزُوا ^(١٤) هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتُ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرَّشْدِ ، وَأَسْأَلُكَ ^(١٥) شُكْرَ نِعْمَتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ حَسْنَ عِبَادَتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا ، وَأَسْأَلُكَ لِسَانًا صَادِقًا ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ

(١) فِي ف ، أ : « فَرَاغَهُ » .

(٢) فِي ف ، أ : « فَأَثْبِتَ » .

(٤) تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ (١٥/١٦٦) .

(٥) فِي أ : « وَلَمْ يَمَالَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ » .

(٦) الْمُسْنَدُ (٤/٢٦٧) .

(١٠) فِي ت ، ف : « وَالْحِسَابِ » .

(٩) فِي ت : « فِي حَتْسَبِهِ » .

(٧) ، (٨) زِيَادَةُ مِنْ ف ، وَالتَّسْنُدُ .

(١١) الْمُسْنَدُ (٤/٢٣٧) ، وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي الْمَجْمَعِ (١٠/٨٨) : « رَجَّاهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ » .

(١٤) فِي أ : « فَانْكُزُوا » .

(١٣) فِي ت : « عَلَى ذَلِكَ » .

(١٢) زِيَادَةُ مِنْ ف ، وَالتَّسْنُدُ .

(١٥) فِي ت : « وَأَشْكُرُكَ » .

ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب»^(١).

ثم رواه أيضاً والنسائي^(٢)، من وجه آخر عن شداد، بنحوه^(٣).

وقال الطبراني: حدثنا عبد الله بن ناجية، حدثنا محمد بن سعد العوفي، حدثني أبي، حدثنا عمر بن الحسين، عن يونس بن نفع الجذلي، عن سعد بن جنادة، رضى الله عنه، قال: كنت في أول من أتى النبي ﷺ من أهل الطائف، فخرجت من أهلي^(٤) من السراة غدوة، فأتيت منى عند العصر، فتصاعدت في الجبل ثم هبطت، فأتيت النبي ﷺ فأسلمت، وعلمنى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾، وعلمنى هؤلاء الكلمات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وقال: «هن الباقيات الصالحات». وبهذا الإسناد: «من قام من الليل فتوضأ ومضمض فاه، ثم قال: سبحان الله مائة مرة، والحمد لله مائة مرة، والله أكبر مائة مرة، ولا إله إلا الله مائة مرة، غفرت ذنوبه إلا الدماء فإنها لا تبطل»^(٥).

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ قال: هى ذكر الله، قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، وتبارك الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله، وصلى الله على رسول الله، والصيام، والصلاة، والحج، والصدقة، والعنق، والجهد، والصلة، وجميع أعمال الحسنات. وهن الباقيات الصالحات، التى تبقى لأهلها فى الجنة، ما دامت السموات والأرض.

وقال العوفي، عن ابن عباس: هُنَّ الكلام الطيب.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هى الأعمال الصالحة كلها. واختاره ابن جرير، رحمه الله.

﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (٤٨) وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)﴾.

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظام، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا. وَتُسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا﴾ [الطور: ٩، ١٠] أى: تذهب من أماكنها وتزول، كما قال:

(١) المسند (١٢٣/٤).

(٢) فى ت: «فالنسائي».

(٣) سنن النسائي الكبرى برقم (١٢٢٧).

(٤) فى ت، ف، أ: «من أهلى الطائفة».

(٥) المعجم الكبير (٥١/٦) وفيه الحسين العوفي ضعيف.

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، وقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا. فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا. لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧]. يقول تعالى: إنه تذهب الجبال، وتتساوى المهاد، وتبقى الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي: سطحاً مستوياً لا عوج فيه ﴿وَلَا أَمْتًا﴾ أي: لا وادى ولا جبل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [أي: بادية ظاهرة، ليس فيها معلّم لأحد ولا مكان يوارى أحداً، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية .

قال مجاهد، وقتاده: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾^(١) لا خمرَ فيها ولا غيابة. قال قتادة: لا بناء ولا شجر.

وقوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: وجمعناهم، الأولين منهم والآخرين، فلم نترك منهم أحداً، لا صغيراً ولا كبيراً، كما قال: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ. لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، وقال: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

وقوله: ﴿وَعَرِضْهَُا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾: يحتمل أن يكون المراد: أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفّاً واحداً، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨]، يحتمل أنهم يقومون^(٢) صفوفاً صفوفاً، كما قال: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: هذا تقرير للمنكرين للمعاد، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد؛ ولهذا قال مخاطباً لهم: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَنَّنِي نَجْعَلُ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ أي: ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم، ولا أن هذا كائن .

وقوله: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ﴾ أي: كتاب الأعمال، الذي فيه الجليل والحقير، والفتيل والقطمير، والصغير والكبير ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي: من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة، ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا﴾ أي: يا حسرتنا وويلتنا^(٣) على ما فرطنا في أعمارنا ﴿مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أي: لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً ولا عملاً وإن صغر ﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أي: ضبطها، وحفظها.

وروى الطبراني، بإسناده المتقدم في الآية قبلها، إلى سعد بن جنادة قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين، نزلنا قفراً من الأرض، ليس فيه شيء، فقال النبي ﷺ: «اجمعوا، من وجد عوداً فليأت به، ومن وجد حطباً أو شيئاً فليأت به. قال: فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركماً، فقال النبي ﷺ: «أترون هذا؟ فكذاك تُجمع الذنوبُ على الرجل منكم كما جمعتم هذا. فليترك الله رجل ولا

(١) زيادة من ف. (٢) في ت، ف، أ: «وويلتنا».

(٢) في ف، أ: «أن يقوموا».

(١) زيادة من ف.

يذنب صغيرة ولا كبيرة، فإنها مُحْصَاة عليه ^(١).

وقوله: ﴿وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاصِرًا﴾ أى: من خير أو شر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿يُنَبِّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩] أى: تظهر المخبات والضمائر.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، عن ثابت، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «لكل غادر لواء يوم القيامة [يعرف به]» ^(٢).

أخرجاه فى الصحيحين، وفى لفظ: «يُرْفَعُ لكل غادر لواء يوم القيامة» ^(٣) عند استه بقدر غدرته، يقال: هذه غدرّة فلان بن فلان ^(٤).

وقوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أى: فيحكم بين عباده فى أعمالهم جميعاً، ولا يظلم أحدا من خلقه، بل يغفر ^(٥) ويصفح ويرحم ويعذب من يشاء، بقدرته وحكمته وعدله، ويملا النار من الكفار وأصحاب المعاصى، [ثم ينجي أصحاب المعاصى] ^(٦) ويُخَلِّدُ فيها الكافرون ^(٧)، وهو الحاكم الذى لا يجور ولا يظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] والآيات فى هذا ^(٩) كثيرة.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا همام بن يحيى، عن القاسم بن عبد الواحد المكي، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: بلغنى حديث عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ، فاشتريت بغيراً ثم شددت عليه رَحْلِي، فسرت عليه شهراً، حتى قدمت عليه الشام، فإذا عبد الله بن أنيس ^(١٠) فقلت للبواب: قل له: جابر على الباب. فقال: ابن عبد الله؟ فقلت: نعم. فخرج يطأ ثوبه، فاعتنقنى واعتنقته، فقلت: حديث بلغنى عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ فى القصاص، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعَه فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشرُ الله، عز وجل، الناس يوم القيامة - أو قال: العباد - عُرَاةً غُرُلًا بُهْمًا» قلت: وما بهما؟ قال: «ليس معهم شيء ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد، كما يسمعه من قَرَبٍ: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار، وله عند أحد من أهل الجنة حق، حتى أقصه ^(١١) منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، وله عند رجل من أهل النار حق، حتى أقصه ^(١٢) منه حتى اللطمة». قال: قلنا: كيف، وإنما تأتى الله، عز وجل، عُرَاةً غُرُلًا بُهْمًا؟ قال:

(٣) زيادة من ف.

(٢) المسند (١٤٢/٣).

(١) المعجم الكبير (٥٢/٦).

(٤) صحيح البخارى برقم (٣١٨٦) وصحيح مسلم برقم (١٧٣٧).

(٦) زيادة من ف.

(٥) فى ت، ف: «يعفو».

(٩) فى ت: «فى هذه»، وفى ف: «فيهما».

(٨) فى ت: «ولا» وهو خطأ.

(٧) فى ف: «الكافرين».

(١١، ١٢) فى ت، ف، أ: «أقصيه».

(١٠) فى ت: «أنس».

«بالحسنات والسيئات»^(١).

وعن شعبة، عن العوام بن مَرَّاحم، عن أبي عثمان، عن عثمان بن عفان، رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الجماء لتقتص من القرآن يوم القيامة»^(٢). رواه عبد الله بن الإمام أحمد وله شواهد من وجوه أخرى، قد ذكرناها عند قوله: ﴿وَنَضَعُ^(٣) الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وعند قوله تعالى: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۝﴾.

يقول تعالى منبهاً بنى آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم، ومقرعاً لمن اتبعه منهم وخالف خالقه ومولاه، الذى أنشأه وابتداه، وبألطاف رزقه غذاه، ثم بعد هذا كله والى إبليس وعادى الله، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ أى: لجميع الملائكة، كما تقدم تقريره فى أول سورة «البقرة»^(٤).

﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ أى: سجود تشريف وتكريم وتعظيم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩].

وقوله ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ أى: خانة أصله؛ فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، كما ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ مَارجٍ مِنْ نارٍ، خُلِقَ^(٥) آدَمُ مِمَّا وَصَفَ لَكُمْ»^(٦). فعند الحاجة نضح^(٧) كل وعاء بما فيه، وخانه الطبع عند الحاجة، وذلك أنه كان قد تَوَسَّم بأفعال الملائكة وتشبه بهم، وتعبد وتنسك، فلهذا دخل فى خطابهم، وعصى بالمخالفة.

ونبه تعالى ههنا على أنه ﴿مِنَ الْجِنِّ﴾ أى: إنه خُلِقَ من نار، كما قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢، وص: ٧٦].

قال الحسن البصرى: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قَطُّ، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم، عليه السلام، أصل البشر. رواه ابن جرير بإسناد صحيح [عنه]^(٨) ^(٩).

(١) المسند (٣/ ٤٩٥).

(٢) زوائد المسند (١/ ١٢).

(٣) عند تفسير الآية: ٣٤.

(٤) فى ت: «ويضع».

(٥) فى أ: «نضح لكم».

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٩٩٦).

(٧) زيادة من ف، أ.

(٨) تفسير الطبرى (١٥/ ١٧٠).

(٩) فى ت، ف، ومسلم: «وخلق».

وقال الضحّاك، عن ابن عباس: كان إبليس من حى من أحياء الملائكة، يقال لهم: الجن، خلقوا من نار السموم من بين الملائكة - قال: وكان اسمه الحارث، وكان خازناً من خزان الجنة، وخلقت الملائكة من نور غير هذا الحى - قال: وخلقت الجن الذين ذُكروا فى القرآن من مارج من نار. وهو لسان النار الذى يكون فى طرفها إذا التهبت.

وقال الضحّاك أيضاً، عن ابن عباس: كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة، وكان خازناً على الجنان، وكان له سلطان [السما] ^(١) الدنيا وسلطان الأرض، وكان مما سولت له نفسه، من قضاء الله أنه رأى أن له بذلك شرفاً على أهل السماء، فوقع من ذلك فى قلبه كبر ^(٢) لا يعلمه إلا الله. فاستخرج الله ذلك الكبر منه حين ^(٣) أمره بالسجود لآدم فاستكبر، وكان من الكافرين. قال ابن عباس: وقوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ أى: من خزان [الجنان]، كما يقال للرجل: مكى، ومدنى، وبصرى، وكوفى. وقال ابن جريج، عن ابن عباس، نحو ذلك.

وقال سعيد بن جبّير، عن ابن عباس قال: هو من خزان ^(٤) الجنة، وكان يدبر أمر السماء الدنيا، رواه ابن جرير من حديث الأعمش، عن حبيب بن أبى ثابت، عن سعيد، به.

وقال سعيد بن المسيب: كان رئيس ملائكة سماء ^(٥) الدنيا.

وقال ابن إسحاق، عن خلّاد بن ^(٦) عطاء، عن طاوس، عن ابن عباس قال: كان إبليس - قبل أن يركب المعصية - من الملائكة، اسمه عزازيل، وكان من سكان الأرض. وكان من أشد الملائكة اجتهداً وأكثرهم علماً. فذلك دعاه إلى الكبر، وكان من حى يسمون جناً.

وقال ابن جرّيج، عن صالح مولى التّوّامة وشريك بن أبى نمر، أحدهما أو كلاهما عن ابن عباس قال: إن من الملائكة قبيلة من الجنّ، وكان إبليس منها، وكان يسوس ما بين السماء والأرض. فعصى، فسخط الله عليه، فمسخه شيطاناً رجيماً - لعنه الله - ممسوخاً، قال: وإذا كانت خطيئة الرجل فى كبر فلا ترّجّه، وإذا كانت فى معصية فارجه.

وعن سعيد بن جبّير أنه قال: كان من الجنانين، الذين يعملون فى الجنة.

وقد روى فى هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التى تنقل لينظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها. ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذى بأيدينا، وفى القرآن غنيّة عن كل ما عده من الأخبار المتقدمة؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وضع فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفاظ المتقين الذين يَنْقُون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين، كما لهذه [الأمة من] ^(٧) الأئمة العلماء، والسادة الأتقياء والأبرار النجباء ^(٨)، من الجهابذة النقاد، والحفاظ

(٣) فى ت: «حتى».

(٦) فى ف: «عن».

(٢) فى ف: «كبر فى قلبه».

(٥) فى ت، ف: «السما».

(٨) فى أ: «البررة والنجباء».

(١) زيادة من ت، ف، أ.

(٤) زيادة من ف.

(٧) زيادة من ف.

الجياد، الذين دونوا الحديث وحرروه، وبيينوا صحيحه من حسنه، من ضعيفه، من منكروه وموضوعه، ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال، كل ذلك صيانة للجناب النبوى والمقام المحمدى، خاتم الرسل، وسيد البشر [عليه أفضل التحيات والصلوات والتسليمات] ^(١)، أن ينسب إليه كذب، أو يحدث عنه بما ليس [منه] ^(٢)، فرضى الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل.

وقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أى: فخرج عن طاعة الله؛ فإن الفسق هو الخروج، يقال: ^(٣) فسقت الرطبة: إذا خرجت من أكمامها ^(٤)، وفسقت الفأرة من جحرها: إذا خرجت منه للعيث ^(٥) والفساد.

ثم قال تعالى مقرباً وموبخاً لمن اتبعه وأطاعه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ أى: بدلاً عنى؛ ولهذا قال: ﴿يَبْسُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾.

وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأحوالها ومصير كل من الفريقين السعداء والأشقياء فى سورة يس: ﴿وَأَمَّا زُورَ الْيَوْمِ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنْ عِبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٥٩ - ٦٢].

﴿مَا أَشْهَدُتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا﴾ (٥١).

يقول تعالى: هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دونى عبید أمثالكم، لا يملكون شيئاً، ولا أشهدتهم خلقى للسموات ^(٦) والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى: أنا المستقل بخلق الأشياء كلها، ومدبرها ومقدرها وحدى، ليس معى فى ذلك شريك ولا وزير، ولا مشير ولا نظير، كما قال: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمْ مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظهيرٍ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ الآية [سبأ: ٢٢، ٢٣]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا﴾ قال مالك: أعواناً.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ

مُوبِقًا﴾ (٥٢) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ (٥٣).

يقول تعالى مخبراً عما يُخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريباً لهم وتوبيخاً:

(٣) فى أ: «تقول».

(٢) زيادة من ف.

(١) زيادة من أ.

(٦) فى ف، أ: «خلق السموات».

(٥) فى أ: «للعت».

(٤) فى أ: «كمامها».

﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أى: فى دار الدنيا، ادعوهم اليوم، ينقذونكم مما^(١) أنتم فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقوله: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [كما قال: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمُ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾^(٢) ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون] [القصص: ٦٤]، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ. وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا. كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ قال ابن عباس، وقتادة، وغير واحد: مهلكاً^(٣).

وقال قتادة: ذكر لنا أن عمر البكالى^(٤) حدث عن عبد الله بن عمرو قال: هو واد عميق، فُرق به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة.

وقال قتادة: ﴿مَوْبِقًا﴾: وادياً فى جهنم.

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن سنان القزاز، حدثني عبد الصمد، حدثنا يزيد بن درهم سمعت أنس بن مالك يقول فى قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ قال: واد فى جهنم، من قيح ودم.

وقال الحسن البصرى: ﴿مَوْبِقًا﴾: عداوة.

والظاهر من السياق ههنا: أنه المهلك، ويجوز أن يكون وادياً فى جهنم أو غيره، إلا أن الله تعالى أخبر^(٥) أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين، ولا وصول لهم إلى آلهتهم التى كانوا يزعمون فى الدنيا، وأنه يفرق بينهم وبينها فى الآخرة، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير.

وأما إن جعل الضمير فى قوله: ﴿بَيْنَهُمْ﴾^(٦) عائداً إلى المؤمنين والكافرين، كما قال عبد الله ابن عمرو: إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به، فهو كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومَذُّ الَّتِي تَقُومُونَ﴾ [الروم: ١٤]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا تَزُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَزِيلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ. فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ. هَٰئِلِك تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرَدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٢٨ - ٣٠].

(١) فى ت: «هلكاً».

(٢) فى ت: «بينهم».

(٣) زيادة من ف.

(٤) فى أ: «خير».

(٥) فى ت: «بما».

(٦) فى أ: «البكالى».

وقوله: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أى: إنهم لما عاينوا جهنم حين^(١) جىء بها تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فإذا رأى المجرمون النار، تحقّقوا لا محالة أنهم مواقعوها، ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه، عذاب ناجز .

﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أى: ليس^(٢) لهم طريق يعدل بهم عنها ولا بد لهم منها .

قال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن درّاج عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ^(٣) أنه قال: «إن الكافر يرى^(٤) جهنم، فيظن أنها مواقعه من مسيرة أربعين^(٥) سنة»^(٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن^(٧) لهيعة، حدثنا درّاج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «ينصب للكافر مقدار خمسين ألف سنة، كما لم يعمل فى الدنيا، وإن الكافر ليرى جهنم، ويظن أنها مواقعه من مسيرة أربعين سنة»^(٨).

﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾^(٥٤).

يقول تعالى: ولقد بينا للناس فى هذا القرآن، ووضحنا لهم الأمور، وفصلناها، كيلا^(٩) يضلوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهدى. ومع هذا البيان وهذا الفرقان، الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة .

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني على بن الحسين، أن حسين بن على أخبره، أن على بن أبى طالب أخبره، أن رسول الله ﷺ^(١٠) طرّقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة، فقال: «ألا تصليان؟» فقلت: يارسول الله، إنما أنفشنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعتنا. فانصرف حين قلت ذلك، ولم يرجع إلى شىء، ثم سمعته وهو مول^(١١) يضرب فخذه [ويقول]^(١٢): ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾. أخرجاه فى الصحيحين^(١٣).

(١) فى ت: «حتى». (٢) فى ت، ف، أ: «وليس». (٣) فى ف، أ: «عن النبى».

(٤) فى ف، أ: «ليرى». (٥) فى ف: «أربعمئة».

(٦) تفسير الطبرى (١٧٣/١٥) ودراج عن أبى الهيثم ضعيف.

(٧) فى ت: «أبى» وهو خطأ.

(٨) المسند (٧٥/٣).

(٩) فى ف، : «لئلا». (١٠) فى ف، أ: «النبى».

(١١) فى ت، ف، أ: «يقول».

(١٢) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.

(١٣) المسند (١١٢/١) وصحيح البخارى برقم (١٢٢٧) وصحيح مسلم برقم (٧٥٥).

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ۝٥٦﴾.

يخبر تعالى عن تمرد^(١) الكفرة في قديم الزمان وحديثه، وتكذيبهم بالحق البين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات [والآثار]^(٢) والدلالات الواضحات، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عياناً، كما قال أولئك لنبيهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، وآخرون قالوا: ﴿إِنَّا نَحْنُ بِالْبَاطِلِ كَاذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، وقال قريش: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ارْسِلْ عَلَيْنَا مِثَالَ الْبُحَارِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقالوا يأيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون. لو ما تأتينا بالملائكة إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [الحجر: ٦، ٧] إلى غير ذلك [من الآيات الدالة على ذلك]^(٤).

ثم قال: ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ من غشيانهم بالعذاب وأخذهم عن آخرهم، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أى: يروونه عياناً مواجهة [ومقابلة]^(٥)، ثم قال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ أى: قبل العذاب مبشرين^(٦) من صدقهم وآمن بهم، ومنذرين^(٧) من كذبهم وخالفهم.

ثم أخبر عن الكفار بأنهم يجادلون بالباطل ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ﴾ أى: ليضعفوا به ﴿الْحَقَّ﴾ الذى جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم. ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ أى: اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التى بعث^(٨) بها الرسل وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب ﴿هُزُوًا﴾ أى: سخروا منهم فى ذلك، وهو أشد التكذيب.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ۝٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا ۝٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ۝٥٩﴾.

يقول تعالى: وأى عباد الله أظلم^(٩) ممن ذكر بآيات الله^(١٠) فأعرض عنها، أى: تناساها وأعرض

(٣) فى ت، أ: «فأنتا» وهو خطأ.

(٧) فى ت، ف، أ: «ومنذرون».

(١٠) فى ف: «ربه».

(٢) زيادة من ف، أ.

(٦) فى ت، ف، أ: «مبشرون».

(٩) فى أ: «وأى عبادى أظلم».

(١) فى ت: «تمرد».

(٥، ٤) زيادة من ف، أ.

(٨) فى ت، أ: «أبعث».

عنها، ولم يصغ^(١) لها، ولا ألقى إليها بالاً، ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أى: من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أى: قلوب هؤلاء ﴿أَكِنَّةً﴾ أى: أغشية وغشاوة، ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أى: لئلا يفهموا^(٢) هذا القرآن والبيان، ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أى: صمم معنوى عن الرشد، ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

وقوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ أى: ربك^(٣) - يا محمد - غفور ذو رحمة واسعة، ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾، كما قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا^(٤) مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظَلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]. والآيات فى هذا كثيرة.

ثم أخبر أنه يحلم ويستر ويغفر، وربما هدى بعضهم من الغى إلى الرشد، ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد، وتضع كل ذات حمل حملها؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا﴾ أى: ليس لهم عنه محيد ولا محيص ولا معدل.

وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ أَمْثَلُكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أى: الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ أى: جعلناه إلى مدة معلومة ووقت [معلوم]^(٥) معين، لا يزيد ولا ينقص، أى: وكذلك أنتم أيها المشركون، احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذبتكم أشرف رسول^(٦) وأعظم نبي، ولستم بأعز علينا منهم، فخافوا عذابي ونذر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥)﴾.

سبب قول موسى [عليه السلام]^(٧) لفتاه - وهو: يوشع بن نون - هذا الكلام: أنه ذكر له أن عبداً من عباد الله بمجمع البحرين، عنده من العلم ما لم يحط به موسى، فأحب الذهاب إليه، وقال لفتاه ذلك: ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أى لا أزال سائراً حتى أبلغ هذا المكان الذى فيه مجمع البحرين، قال الفرزدق:

(١) فى ت: «يضع». (٢) فى ت: «يفهم»، وفى ف، أ: «يفهموه». (٣) فى ف، أ: «وربك». (٤) فى ت: «ماترك عليها» وهو خطأ. (٥) زيادة من ف، أ. (٦) فى ت: «رسول الله ﷺ». (٧) زيادة من ف، أ.

فَمَا بَرَحُوا حَتَّى تَهَادَتْ نَسَاؤُهُمْ يَبْطَحَاءُ ذِي قَارِ عِيَابَ اللَّطَائِمِ^(١)

قال قتادة وغير واحد: وهما بحر فارس مما يلي المشرق، وبحر الروم مما يلي المغرب.

وقال محمد بن كعب القرظي: مجمع البحرين عند طنجة، يعنى فى أقصى بلاد المغرب، فالله أعلم.

وقوله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أى: ولو أنى أسير حقبا من الزمان.

قال ابن جرير، رحمه الله: ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحُقْبُ فى لغة قيس^(٢): سنة. ثم قد روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال: الحُقْبُ ثمانون سنة. وقال مجاهد: سبعون خريفاً. وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ قال: دهرأ. وقال قتادة، وابن زيد، مثل ذلك.

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾، وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه، وقيل له: متى فقدت الحوت فهو ثمة. فسارا حتى بلغا مجمع البحرين؛ وهناك عين يقال لها: «عين الحياة»، فناما هنالك، وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء، فاضطرب^(٣)، وكان فى مكثل مع يوشع [عليه السلام]^(٤)، وطفر من المكثل إلى البحر، فاستيقظ يوشع، عليه السلام، وسقط الحوت فى البحر وجعل يسير فيه، والماء له مثل الطاق لا يلتئم بعده؛ ولهذا قال: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أى: مثل السرب فى الأرض.

قال ابن جريج^(٥): قال ابن عباس: صار أثره كأنه حَجَرٌ.

وقال العوفي، عن ابن عباس: جعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة^(٦).

وقال محمد - [هو]^(٧) بن إسحاق - عن الزهرى، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس، عن أبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ حين ذكر حديث ذلك: « ما انجاب ماء منذ كان الناس غيره، ثبت^(٨) مكان الحوت الذى فيه، فانجاب كالكوّة حتى رجع إليه موسى فرأى مسلكه»، فقال: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ﴾.

وقال قتادة: سَرَبٌ من البر^(٩)، حتى أفضى إلى البحر، ثم سلك فيه فجعل لا يسلك فيه طريقاً إلا جعل^(١٠) ماء جامداً.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أى: المكان الذى نسيا الحوت فيه، ونُسب النسيان إليهما وإن كان يوشع

(١) البيت فى تفسير الطبرى (١٥/١٧٦).

(٢) فى ف، أ: «العرب». (٣) فى ف، أ: «فاضطربت».

(٥) فى ت: «جرير». (٦) فى ت، ف، أ: «كصخرة».

(٨) فى أ: «غير مثبت». (٩) فى ت، أ: «الحر».

(١٠) فى ت، أ: «صار».

هو الذى نسيه، كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، وإنما يخرج من (١)

المالح فى أحد القولين .

فلما ذهبوا عن المكان الذى نسيه فيه مَرَحَلَةً ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لَفَتَاهُ أَتَنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ (٢) أى: الذى جاوزا فيه المكان ﴿نَصَبًا﴾ يعنى: تعباً. ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنَسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ قال قتادة: وقرأ ابن مسعود: «وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان» (٣)، ولهذا قال: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ﴾ أى: طريقه ﴿فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾. قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ ﴿أى: هذا الذى نطلب ﴿فَارْتَدَّا﴾ أى: رجعا ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمَا﴾ أى: طريقهما ﴿قَصَصًا﴾ أى: يقصان أثر مشيهم، ويقفوان أثرهما.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ وهذا هو الخضر، عليه السلام، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ . بذلك قال البخارى:

حدثنا الحميدى، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار، أخبرنى سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوحاً البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل. قال ابن عباس: كذب عدو الله، حدثنا أبى بن كعب، رضى الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيباً فى بنى إسرائيل فسئل: أى الناس أعلم؟ قال: أنا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك. فقال موسى: يارب، وكيف لى به؟ قال: تأخذ معك حوتاً، تجعله (٤) بمكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو (٥) ثم. فأخذ حوتاً، فجعله بمكتل (٦)، ثم انطلق وانطلق معه بفتاه (٧) يوشع بن نون عليهما (٨) السلام، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت فى المكتل، فخرج منه، فسقط فى البحر واتخذ (٩) سبيله فى البحر سرباً، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق. فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا ببقية يومهما وليلتهم، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: ﴿أَتَنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ ولم يجد موسى النَّصَبَ حتى جاوزا المكان الذى أمره الله به. قال له فتاه (١٠): ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنَسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قال: «فكان للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً، فقال: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾». قال: «فرجعا» (١١) يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مُسَجًى بثوب، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام! قال: أنا موسى. قال: موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمنى مما علّمت رشداً. ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، ياموسى إنى على علم من علم الله علمنيه، لاتعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علّمكه الله لا

(٣) زيادة من ف، أ، وفى هـ: «أن أذكره».

(٦) فى ف: «فى مكتل».

(٩) فى ف: «فاتخذ».

(٢) زيادة من ف، أ.

(٥) فى أ: «منهم».

(٨) فى ت، ف: «عليه».

(١١) فى ف: «فرجعان».

(١) فى ف، أ: «على».

(٤) فى أ: «فتجعله».

(٦) فى ف: «فتاه».

(١٠) فى ت: «قتادة» وهو خطأ.

أعلمه . فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ قال له الخضر: ﴿فَإِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة فكلهمم أن يحملوه^(١)، فعرفوا الخضر، فحملوهم^(٢) بغير نول، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدم، فقال له موسى: قد حملونا بغير نول فعمدت^(٣) إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟ لقد جئت شيئاً إمرأاً. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ^(٤) إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾. قَالَ لَا تَأْخُذْنِي بِمَا نَسِيتَ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا. قال: وقال رسول الله ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسياناً». قال: وجاء عصفور فنزل^(٥) على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة، [أو نقرتين]^(٦)، فقال له الخضر: ما علمى وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه [بيده]^(٧) فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى: ﴿أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً^(٨) بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟! قال: «وهذه أشد من الأولى»، ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾. فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ^(٩)، قال: مائل. فقال الخضر بيده: ﴿فَأَقَامَهُ﴾، فقال موسى: قوم آتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا، ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾. قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِيعَ عَلَيْهِ صَبْرًا. فقال رسول الله ﷺ: «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما».

قال سعيد بن جبیر: كان ابن عباس يقرأ: «وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا» وكان يقرأ: «وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين»^(١١).

ثم رواه^(١٢) البخاري عن قتبية، عن سفيان بن عيينة... فذكر نحوه^(١٣)، وفيه: «فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون، ومعهما الحوت حتى انتهيا إلى الصخرة، فنزلا عندها - قال: فوضع موسى رأسه فنام - قال سفيان: وفي حديث غير^(١٤) عمرو قال: وفي أصل الصخرة عين يقال لها: الحياة، لا يصيب من مائها شيء إلا حيى: فأصاب^(١٥) الحوت من ماء تلك العين، قال، فتحرك وانسل من المكتل، فدخل البحر، فلما استيقظ قال موسى لفتاه: ﴿أَتَنَا غَدَاةَنَا﴾. كذا قال: وساق^(١٦) الحديث. ووقع عصفور على حرف السفينة، فغمس منقاره في البحر، فقال الخضر لموسى: ما علمى

(١) فى ف، أ: «يحملوهم».

(٢) فى ف، أ: «عمدت».

(٣) فى ف، أ: «عمدت».

(٤) فى ف، أ: «عمدت».

(٥) فى ف، أ: «عمدت».

(٦) زيادة من أ.

(٧) زيادة من ف، أ.

(٨) فى ف، أ: «عمدت».

(٩) فى ف، أ: «عمدت».

(١٠) فى ف، أ: «عمدت».

(١١) صحيح البخارى برقم (٤٧٢٥).

(١٢) فى أ: «ورواه».

(١٣) فى ت: «قال: فأصاب».

(١) فى ت: «يحملوهم»، وفى ف، أ: «يحملوهم».

(٢) فى ف، أ: «أقل لك» وهو خطأ.

(٣) فى ف، أ: «أقل لك» وهو خطأ.

(٤) فى ف، أ: «أقل لك» وهو خطأ.

(٥) فى ف، أ: «أقل لك» وهو خطأ.

(٦) فى ف، أ: «أقل لك» وهو خطأ.

(٧) فى ف، أ: «أقل لك» وهو خطأ.

(٨) فى ف، أ: «أقل لك» وهو خطأ.

(٩) فى ف، أ: «أقل لك» وهو خطأ.

(١٠) فى ف، أ: «أقل لك» وهو خطأ.

(١١) فى ف، أ: «أقل لك» وهو خطأ.

وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره وذكر تمامه بنحوه^(١).

وقال البخاري أيضاً: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف، أن ابن جريج أخبرهم قال: أخبرني يعلى بن مسلم وعمرو بن دينار، عن سعيد بن جبير - يزيد أحدهما على صاحبه - وغيرهما قد سمعته يحدث عن سعيد بن جبير قال: إنا لعند ابن عباس في بيته، إذ قال: سلوني. فقلت: أي أبا عباس، جعلني الله فداك، بالكوفة رجل قاص، يقال له: «نوف» يزعم أنه ليس بموسى بنى إسرائيل - أما عمرو فقال لي: قال^(٢): كذب عدو الله! وأما يعلى فقال لي: قال ابن عباس: حدثني أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «موسى رسول الله، ذكر الناس يوماً، حتى إذا فاضت العيون، ورقت القلوب، ولى، فأدركه رجل فقال: أي رسول الله، هل في الأرض^(٣) أحد أعلم منك؟ قال: لا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله، قيل: بلى. قال: أي رب، وأين؟ قال: بمجمع البحرين. قال: أي رب، اجعل لي علماً أعلم ذلك به». قال لي عمرو: قال: حيث يفارق الحوت، وقال لي يعلى: خذ حوتاً ميتاً حيث ينفخ فيه الروح. فأخذ حوتاً فجعله في مكنل، فقال لفتاه: لا أكلفك إلا أن تخبرني حيث يفارق الحوت، قال: ما كلفت كبيراً. فذلك قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ يوشع بن نون، ليست عن سعيد بن جبير، قال: «فبينما^(٤) هو في ظل صخرة في مكان ثريان^(٥)، إذ تَضَرَّبَ^(٦) الحوت وموسى نائم، فقال فتاه: لا أوقظه، حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره، وتَضَرَّبَ الحوت حتى دخل البحر، فأمسك الله عنه جريرة الماء حتى كأن أثره في حجر». [قال: فقال لي عمرو: هكذا كأن أثره في حجر]^(٧)، وحلق بين إبهاميه والتي تليهما: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ قال: «وقد قطع الله عنك النصب» ليست هذه عن سعيد - أخبره، فرجعا فوجدا خضراً. قال: قال^(٨) عثمان بن أبي سليمان: على طنفسة خضراء على كبد^(٩) البحر. قال سعيد بن جبير: مُسَجَى بثوب، قد جعل طرفه تحت رجله، وطرفه تحت رأسه، فسلم عليه موسى، فكشف عن وجهه، وقال: هل بأرض من سلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم. قال: فما شأنك؟ قال: جئتكم لتعلمني مما علمت رشداً. قال: يكفيك^(١٠) التوراة^(١١) بيدك، وأن الوحي يأتيك! يا موسى، إن لي علماً لا ينبغي لك أن تعلمه، وإن لك علماً لا ينبغي لي أن أعلمه. فأخذ طائر بمنقاره من البحر فقال: والله ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر^(١٢)، حتى إذا ركبنا في السفينة وجدا معابر صغاراً تحمل^(١٣) أهل هذا الساحل إلى^(١٤) هذا الساحل الآخر عرفوه، فقالوا: عبد الله الصالح؟ قال: فقلنا لسعيد: خضر؟ قال: نعم. لا نحمله بأجر. فخرقها، ووتد فيها وتدا. قال موسى: ﴿أَخْرَقَتَهَا لِنَفْسٍ أَوْلَاهَا لَقَدْ جِئْتَ

(١) صحيح البخاري برقم (٤٧٢٧).

(٢) في أ: «فقال وقال».

(٣) في ت: «هل على الأرض»، وفي ف: «هل في الناس».

(٤) في ت: «فبينما».

(٥) في ف، أ: «يريان».

(٦) في ف، أ: «قال لي».

(٧) زيادة من ف، أ، والبخاري.

(٨) في أ: «أما يكفيك»، وفي ت: «ألا تكفيك».

(٩) في ف: «أما يكفيك أن التوراة».

(١٠) زيادة من ف، أ، والبخاري.

(١١) في ت: «فحمد».

(١٢) في ت، أ: «إلى أهل».

شَيْئًا إِمْرًا. قال مجاهد: منكرًا. قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ كانت الأولى نسياناً، والوسطى شرطاً، والثالثة عمداً ﴿قَالَ لَا تَأْخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تَرْهَقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا . فَانْطَلَقَا﴾ حتى لقياً غلاماً فقتله. قال يعلى: قال سعيد، وجد غلاماً يلعبون، فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً فأضجعه، ثم ذبحه بالسكين، فقال: ﴿قَتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ لم تعمل بالحنث^(١). وابن عباس قرأها ﴿زَكِيَّةً﴾ - ﴿زَاكِيَّةً﴾: مُسْلِمَةً، كقولك^(٢): غلاماً زكياً فانطلقا، فوجدا جداراً يريد أن ينقض فأقامه، قال [سعيد]^(٣) بيده هكذا، ورفع يده فاستقام - قال يعلى: حسبت أن سعيداً قال: فمسحه بيده فاستقام - قال: ﴿لَوْ شِئْتُ لَاتَّخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ قال سعيد: أجراً نأكله ﴿وَكَانَ رَأَاهُم مَلَكٌ﴾ وكان أمامهم، قرأها ابن عباس: «أمامهم ملك» يزعمون عن غير سعيد أنه هُدُدُ بن بُدَدَ، والغلام المقتول^(٤) اسمه - يزعمون - جيسور^(٥) ﴿مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ فأردت إذا هي مرت به أن يدعها بعيها، فإذا جاوزه^(٦) أصليحوها فانتفعوا بها. ومنهم من يقول: سدوها بقارورة. ومنهم من يقول: بالقار. ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ﴾ وكان كافراً، ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾. أن يحملها حبه على أن يتابعها^(٧) على دينه ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاءً﴾ كقوله: ﴿قَتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾، ﴿وَأَقْرَبَ رَحْمًا﴾: هما به أرحم منهما بالأول الذي قتل^(٨) خضر. وزعم غير سعيد بن جبير أنهما أبداً لا جارية. وأما داود بن أبي عاصم فقال عن غير واحد: إنها جارية^(٩).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: خطب موسى، عليه السلام، بنى إسرائيل فقال: ما أحد أعلم بالله وبأمره مني. فأمر أن يلقي هذا الرجل. فذكر نحو ما تقدم بزيادة ونقصان^(١٠)، والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق، عن الحسن بن عمار، عن الحكم بن عتيبة^(١١)، عن سعيد بن جبير قال: جلست عند ابن عباس وعنده نفر من أهل الكتاب فقال بعضهم: يا أبا العباس، إن نوباً بن امرأة كعب، يزعم عن كعب أن موسى النبي الذي طلب العالم إنما هو موسى بن ميثا؟ قال سعيد: فقال ابن عباس: أنوف يقول هذا؟ قال سعيد: فقلت له: نعم، أنا سمعت نوباً يقول^(١٢) ذلك. قال: أنت سمعته يا سعيد؟ قال: قلت: نعم. قال: كذب نوب. ثم قال ابن عباس: حدثني أبي بن كعب، عن رسول الله ﷺ: «أن موسى بنى إسرائيل سأل ربه فقال: أى رب، إن كان فى عبادك أحد^(١٣) هو أعلم مني، فدلني عليه. فقال له: نعم، فى عبادي من هو أعلم منك. ثم نعت له مكانه^(١٤) وأذن له فى لقيه. فخرج موسى ومعه فتاه، ومعه حوت مليح، قد قيل له: إذا^(١٥) حى هذا الحوت فى مكان، فصاحبك هنالك، وقد أدركت حاجتك. فخرج موسى ومعه فتاه، ومعه ذلك الحوت يحملانه، فسار حتى جهده السير، وانتهى إلى الصخرة وإلى ذلك الماء، وذلك الماء ماء الحياة، من

(٢) فى ت: «كقوله».

(٥) فى أ: «حيسون».

(٨) فى أ: «قتله».

(١٣) فى ت: «واحد».

(١) فى ت: «لم تعلم بالحنث»، وفى ف، أ: «لم تعمل الحنث».

(٤) فى ت: «المقصود».

(٧) فى ت: «تتابعاه».

(٣) زيادة من ف، أ، والبخارى.

(٦) فى أ: «جاوزوا».

(٩) صحيح البخارى برقم (٤٧٢٦).

(١٠) تفسير عبد الرزاق (١/٣٤١، ٣٤٢).

(١١) فى ف، أ: «عيينة».

(١٢) فى ت: «فيقول».

(١٥) فى أ: «إنه إذا».

(١٤) فى ف، أ: «بمكان».

شرب منه خلد، ولا يقاربه شيء ميت إلا حيى. فلما نزلوا ومس الحوت الماء حياً ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ فانطلقا فلما جاوز مُنْقَلَبَهُ قال: موسى لفته: ﴿آتَا عِدَاءَنَا لَقْدَ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾، قال الفتى - وذكر -: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾. قال ابن عباس: فظهر موسى على الصخرة حتى إذا انتهى إليها، فإذا رجل متلفف فى كساء له، فسلم موسى، فردّ عليه العالم ثم قال له: ما جاء بك إن كان لك فى قومك لشغل؟ قال له موسى: جئتكم لتعلمنى مما علمت رشداً ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ وكان رجلاً يعلم علم الغيب قد علّم ذلك - فقال موسى: بلى. قال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾؟ أى: إنما تعرف ظاهر ما ترى من العدل، ولم تحط من علم الغيب بما أعلم. ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ وإن رأيتُ ما يخالفنى، قال: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ [وإن أنكرته] ^(١) ﴿حَتَّىٰ أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾: فانطلقا يمشيان على ساحل البحر يتعرّضان الناس، يتلمسان ^(٢) من يحملهما، حتى مرّت بهما سفينة جديدة وثيقة، لم يمرّ بهما من السفن أحسن ولا أكمل ولا أوثق منها. فسألا أهلها أن يحملوهما، فحملوهما ^(٣)، فلما اطمأنّا فيها ولبّجت بهما مع أهلها، أخرج منقاراً له ومطرقة، ثم عمد إلى ناحية منها فضرب فيها بالمنقار حتى خرقتها. ثم أخذ لوحاً فطبقه عليها، ثم جلس عليها يرقعها، فقال: له موسى - ورأى أمراً أفضح به -: ﴿أَخْرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ أَي: بما تركت من عهدك، ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾. ثم خرجا ^(٤) من السفينة فانطلقا، حتى أتيا ^(٥) أهل قرية، فإذا غلمان يلعبون خلفها، فيهم غلام ليس فى الغلمان غلام أظرف منه ولا أثري ^(٦) ولا أوضأ ^(٧) منه، فأخذه بيده، وأخذ ^(٨) حجراً فضرب به رأسه حتى دمهغه فقتله، قال: فرأى موسى أمراً فظيلاً لا صبر عليه، صبى صغير قتله لا ذنب له ^(٩) قال: ﴿قَتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ ^(١٠) أى: صغيرة ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ^(١١) أى: قد أعذرت ^(١٢) فى شأنى. ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمُوا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾، فهدمه ثم قعد بينه، فضجر موسى مما يراه ^(١٣) يصنع من التكليف، وما ليس عليه صبر، قال: ﴿لَوْ شِئْتُ لَاتَّخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أى: قد استطعناهم فلم يطعمونا، وضمناهم فلم يضيّفونا، ثم قعدت تعمل من غير صنّعة، ولو شئت لأعطيت عليه أجراً فى عمله؟. قال: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأْنِيكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا. أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ - وفى قراءة أبى بن كعب: «كل سفينة صالحة» - وإنما عيبها ^(١٤) لأرده عنها، فسلمت ^(١٥) حين رأى

(١) زيادة من ف، أ، والطبرى. (٢) فى ف، أ: «يتلمسان». (٣) فى ت: «فحملوها». (٤) فى ت: «خرجاه». (٥) فى ف، أ: «حتى إذا أتيا». (٦) فى ف، أ: «ولا أبرأ». (٧) فى أ: «ولا أضوا». (٨) فى ف: «فأخذ». (٩) فى ف: «فأخذ». (١٠) فى أ: «زأكية». (١١) فى ف: «قد بلغت منى» وهو خطأ. (١٢) فى ت: «عذرت»، وفى أ: «عذرت». (١٣) فى أ: «رأه». (١٤) فى أ: «عيبها». (١٥) فى ف: «فسلمت منه».

العيب الذى صنعت بها. ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا . فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا . وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴿ أَى : ما فعلته عن نفسى ، ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ وكان ابن عباس يقول: ما كان الكنز إلا علماً^(١).

وقال العوفى، عن ابن عباس قال: لما ظهر موسى وقومه على مصر، أنزل قومه^(٢)، فلما استقرت بهم الدار، أنزل الله: أن ذكرهم بأيام الله. فخطب قومه، فذكر ما آتاهم الله من الخير والنعمة، وذكرهم إذ نجاهم الله من آل فرعون، وذكرهم هلاك عدوهم، وما استخلفهم الله فى الأرض، وقال: كلم الله نبيكم تكليماً، واصطفانى لنفسه، وأنزل علىّ محبة منه، وآتاكم الله من كل ما سألتموه؛ فنيبكم أفضل أهل الأرض، وأنتم تقرؤون التوراة، فلم يترك نعمة أنعمها عليهم إلا وعرفهم إياها. فقال له رجل من بنى إسرائيل: هم^(٣) كذلك يا نبي الله، قد عرفنا الذى تقول، فهل على الأرض أحد أعلم منك يا نبي الله؟ قال: لا. فبعث الله جبرائيل إلى موسى، عليهما السلام^(٤)، فقال: إن الله [عز وجل]^(٥) يقول: وما يدريك أين أضع علمى؟ بلى^(٦). إن على شط البحر رجلاً هو أعلم منك - قال ابن عباس: هو الخضر - فسأل موسى ربه أن يريه إياه، فأوحى إليه: أن ائت البحر، فإنك تجد على شط البحر حوتاً، فخذ فادفعه إلى فتاك، ثم الزم شط البحر، فإذا نسيت الحوت وهلك منك، فثم تجد العبد الصالح الذى تطلب. فلما طال سفر موسى نبي الله ونصب فيه، سأل فتاه عن الحوت، فقال له فتاه وهو غلامه: ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ لك ، قال الفتى: لقد رأيت الحوت حين اتخذ سبيله فى البحر سرباً فأعجب ذلك موسى، فرجع حتى أتى الصخرة، فوجد الحوت، فجعل الحوت يضرب فى البحر ويتبعه موسى، وجعل موسى يقدم عصاه يفرج بها عنه الماء يتبع^(٧) الحوت، وجعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس، حتى يكون صخرة^(٨)، فجعل نبي الله يعجب من ذلك، حتى انتهى به الحوت إلى جزيرة من جزائر البحر، فلقي الخضر بها فسلم عليه، فقال الخضر: وعليك السلام ، وأنى يكون السلام بهذه^(٩) الأرض؟ ومن أنت؟ قال: أنا موسى. فقال^(١٠) الخضر: أصحاب بنى إسرائيل ؟ [قال: نعم]^(١١) فرحب به وقال: ما جاء^(١٢) بك ؟ قال: جئتك ﴿ عَلَى أَنْ تَعْلَمَنْ مِمَّا عَلَّمْتُ ﴾ رُشْدًا . قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ يقول: لا تطيق ذلك. قال موسى: ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ قال: فانطلق به، وقال له: لا تسألنى عن شئ أصنعه حتى أبين لك شأنه ، فذلك قوله: ﴿ حَتَّى أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾.

وقال الزهرى، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس: أنه تمارى هو

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٥ / ١٨٠).

(٢) فى ت، ف، أ: «قومه مصر».

(٣) فى أ: «هن».

(٤) فى ف: « جبريل عليه السلام إلى موسى عليه السلام»، وفى أ: «جبريل إلى موسى عليه السلام».

(٥) زيادة من أ.

(٦) فى أ: «بل».

(٧) فى أ: «حتى يتبع».

(٨) فى ت: «حتى يكون مثل الحجر».

(٩) فى أ: «وأنى يكون هذا السلام بهذا».

(١٠) فى ف، أ: «فقال له».

(١١) زيادة من ف، أ، والطبرى.

(١٢) فى أ: «ما حاجتك».

(١٣) زيادة من ف، أ.

والحر بن قيس بن حصن الفزارى فى صاحب موسى، فقال ابن عباس: هو خضر. فمر بهما أبى بن كعب، فدعاه ابن عباس فقال: إني تمأرت أنا وصاحبى هذا فى صاحب موسى الذى سأل السبيل إلى لُقَيْهِ، فهل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « بينا موسى فى ملاء من بنى إسرائيل، إذ جاءه رجل فقال: تعلم مكان رجل أعلم منك؟ قال: لا ؛ فأوحى الله إلى موسى: بلى، عبدنا خضر. فسأل موسى السبيل إلى لُقَيْهِ، فجعل الله له الحوت آية، وقيل له: إذا فَقَدْتَ ^(١) الحوت [فهو ثمة] ^(٢) فارجع، فإنك ستلقاه. فكان موسى يتبع أثر الحوت فى البحر. فقال فتى موسى لموسى: ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ ﴾. قال موسى: ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ فوجدا عبدنا ^(٣) خضرًا، فكان من شأنهما ما قص الله فى كتابه ^(٤) ^(٥).

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴾ ^(٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ^(٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ^(٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ^(٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ^(٧٠) ﴿

يخبر تعالى عن قيل موسى، عليه السلام، لذلك [الرجل] ^(٦٦) العالم، وهو الخضر، الذى خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر، ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ سؤال بتلطف ^(٧)، لا على وجه الإلزام والإجبار. وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم. وقوله: ﴿ أَتَّبِعُكَ ﴾ أى: أصحبك وأرافقك، ﴿ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴾ أى: مما علمك الله شيئاً، أسترشد به فى أمرى، من علم نافع وعمل صالح. فعندها ﴿ قَالَ ﴾ الخضر لموسى: ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ أى: أنت لا تقدر أن تصاحبنى، لما ترى [مئى] ^(٨) من الأفعال التى تخالف شريعتك، لأننى على علم من علم الله، ما علمكه الله، وأنت على علم من علم الله، ما علمنيه الله، فكل منا مكلف بأمر ^(٩) من الله دون صاحبه، وأنت لا تقدر على صحبتى. ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾، فإنا أعرف أنك ستنكر على ما أنت معذور فيه، ولكن ما اطلعت على حكمته ومصلحته الباطنة التى اطلعت أنا عليها دونك ﴿ قَالَ ﴾ له ^(١٠) موسى: ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا ﴾ أى: على ما أرى من أمورك، ﴿ وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ أى: ولا أخالفك فى شيء. فعند ذلك شارطه الخضر ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ ﴾ أى: ابتداءً ﴿ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ أى: حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألنى.

قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب، عن هارون بن عنترة ^(١١)، عن أبيه، عن ابن

(٣) فى أ: «عبدًا».

(٢) زيادة من أ.

(١) فى ت: «بعدت».

(٤) فى ت: «كتابه العزيز».

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (١٨٣/١٥).

(٦) زيادة من أ.

(٧) فى ت، ف، أ: «تلطف».

(٨) زيادة من أ.

(١١) فى ف: «عرة».

(١٠) فى أ: «أى».

(٩) فى أ: «مأمور».

عباس قال: سأل موسى ربه، عز وجل، فقال^(١): رب، أى عبادك أحب إليك؟ قال: الذى يذكرنى ولا ينسانى. قال: فأى عبادك أفضى؟ قال: الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى. قال: أى رب، أى عبادك أعلم؟ قال: الذى يتغنى علم الناس إلى علمه، عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى، أو ترده عن ردى. قال: أى رب، فهل فى أرضك^(٢) أحد أعلم منى؟ قال: نعم. قال: فمن هو؟ قال الخضر. قال: فأين^(٣) أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة، التى ينفلت^(٤) عندها الحوت. قال: فخرج موسى يطلبه، حتى كان ما ذكر الله، وانتهى موسى إليه عند الصخرة، فسلم^(٥) كل واحد منهما على صاحبه. فقال له موسى: إني أريد أن تصحبني^(٦). قال: إنك لن تطيق^(٧) صحبتي. قال: بلى. قال: فإن صحبتني ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ قال: فسار به فى البحر^(٨) حتى انتهى إلى مجمع البحور^(٩)، وليس فى الأرض^(١٠) مكان أكثر ماء منه. قال: وبعث الله الخطاف، فجعل يستقى منه بمنقاره، فقال لموسى: كم ترى هذا الخطاف رزأ من هذا الماء؟ قال: ما أقل رزأ! قال: ياموسى، فإن علمى وعلمك فى علم الله كقدر ما استقى هذا الخطاف من هذا الماء. وكان موسى قد حدث نفسه أن ليس أحد أعلم منه، أو تكلم به، فمن ثم أمر أن يأتى الخضر. وذكر تمام الحديث فى خرق السفينة، وقتل الغلام، وإصلاح الجدار، وتفسيره له ذلك.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكَبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣)﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه، وهو الخضر، أنهما انطلقا لما توافقا واصطحباً، واشترط عليه ألا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذى يبتدئه^(١١) من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه، فركبا فى السفينة. وقد تقدم فى الحديث كيف ركبا فى السفينة، وأنهم عرفوا الخضر، فحملوهما بغير نول - يعنى بغير أجرة - تكرمة للخضر. فلما استقلت بهم السفينة فى البحر، ولججت، أى: دخلت اللجة، قام الخضر فخرقها، واستخرج لوحاً من ألواحها^(١٢)، ثم رقعها. فلم يملك موسى، عليه السلام، نفسه أن قال منكرأ عليه: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾. وهذه اللام العاقبة لا لام التعليل، كما قال الشاعر^(١٣):

لِدَوِّ اللَّمُوتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾: قال مجاهد: منكرأ. وقال قتادة: عجباً. فعندها قال له الخضر مذكراً^(١٤) بما تقدم من الشرط: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يعنى وهذا الصنيع فعلته^(١٥) قصداً،

(٣) فى ف، أ: «وأين».

(٦) فى ت: «تصحبني».

(٩) فى ف، أ: «البحرين».

(١٢) فى ت: «ألواح».

(١) فى ت، ف، أ: «فقال أى».

(٢) فى ت، ف، أ: «فى الأرض».

(٤) فى ت، ف: «ينفلت».

(٥) فى ت: «وسلم».

(٧) فى ت: «تستطيع».

(٨) فى ت: «فصار فى البحر»، وفى ف، أ: «فسار به إلى البحر».

(٩) فى ت: «فى البحر».

(١٠) فى ت: «فى البحر».

(١١) فى ف، أ: «يبتدئ به».

(١٣) هو أبو العتاهية، والبيت فى ديوانه (ص ٤٦) أ. هـ. مستفاداً من ط - الشعب.

(١٤) فى ت: «مذكوراً».

(١٥) فى ت: «عملته».

وهو^(١) من الأمور التي اشترطت معك ألا تنكر على فيها، لأنك لم تحط بها خيراً، ولها داخل هو مصلحة، ولم تعلمه^(٢) أنت. ﴿قَالَ﴾ أى موسى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ أى: لا تضيق على وتشدد^(٣) على؛ ولهذا تقدم فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كانت الأولى من موسى نسياناً» .

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (٧٦) .

يقول تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا﴾ أى: بعد ذلك، ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾. وقد تقدم أنه كان يلعب مع الغلمان فى قرية من القرى، وأنه عمد إليه من بينهم، وكان أحسنهم وأجملهم وأوضأهم^(٤)، فقتله، فروى أنه احتز رأسه، وقيل: رضخه بحجر. وفي رواية: اقتطفه بيده. والله أعلم.

فلما شاهد موسى، عليه السلام، هذا أنكره أشد من الأول، وبادر فقال: ﴿أَقْتَلْتَنِي زَكِيَّةً﴾^(٥) أى صغيرة لم تعمل الحنث^(٦)، ولا حملت إثماً بعد، فقتلته؟! ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أى: بغير مستند لقتله ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ أى: ظاهر النكارة. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ فأكد أيضاً فى التذكار بالشرط الأول؛ فهذا قال له موسى: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أى: إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ أى: قد أعذرت إلى مرة بعد مرة.

قال ابن جرير: حدثنا عبد الله بن أبى زياد، حدثنا حجاج بن محمد، عن حمزة الزيات، عن أبى إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن أبى بن كعب قال: كان النبى ﷺ إذا ذكر أحداً فدعا له، بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: «رحمة الله علينا وعلى موسى، لو لبث^(٧) مع صاحبه لأبصر العجب ولكنه قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً» [مشقة]^{(٨) (٩)}.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) .

يقول تعالى مخبراً عنهما: إنهما انطلقا بعد المراتين الأولىين^(١٠) ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾. روى

(١) فى ف: «وهى». (٢) فى ت: «تعلم». (٣) فى ت، ف: «ولا تشدد».

(٤) فى ف: «وأوضأهم». (٥) فى ت: «زكية بغير نفس». (٦) فى أ: «الخبث».

(٧) فى ف، أ: «بث». (٨) زيادة من ف، أ، والطبرى.

(٩) تفسير الطبرى (١٥ / ١٨٦) ورواه أبو داود فى السنن برقم (٣٩٨٤) من طريق حمزة الزيات به.

(١٠) فى أ: «الأولتين».

ابن جرير^(١)، عن ابن سيرين أنها الآية^(٢)، وفي الحديث: «حتى إذا أتيا أهل قرية لثاماً»^(٣) أى: بخلاء ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ إسناده الإرادة ههنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة، فإن الإرادة فى المحدثات بمعنى الميل. والانقضاض هو: السقوط.

وقوله: ﴿فَأَقَامَهُ﴾ أى: فردّه إلى حالة الاستقامة، وقد تقدم فى الحديث أنه ردّه بيديه، ودعمه حتى ردّ ميله^(٤). وهذا خارق فعند ذلك قال موسى له: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ^(٥) عَلَيْهِ أَجْراً﴾ أى: لأجل أنهم لم يضيفونا كان ينبغى ألاّ تعمل لهم مجاناً^(٦) ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [أى: لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتنى عن شيء بعدها فلا تصاحبنى، فهو فراق بينى وبينك]^(٧)، ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ﴾ أى: بتفسير ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (٧٩).

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى، عليه السلام، وما كان أنكر ظاهره وقد أظهر الله الخضر، عليه السلام، على^(٨) باطنة فقال إن: السفينة^(٩) إنما خرقتها لأعيبها؛ [لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صالحة، أى: جيدة ﴿غَصْبًا﴾ فأردت أن أعيبها]^(١٠)، لأرده عنها لعيبها^(١١)، فيتفجع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها. وقد قيل: إنهم أيتام.

و[قد]^(١٢) روى ابن جرير^(١٣) عن وهب بن سليمان، عن شعيب الجبائي؛ أن اسم ذلك الملك هُدد^(١٤) بن بُدد، وقد تقدم أيضاً فى رواية البخارى، وهو مذكور فى التوراة فى ذرية «العيص بن إسحاق» وهو من الملوك المنصوص عليهم فى التوراة، والله أعلم^(١٥).

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ (٨٠) ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاءً وَأَقْرَبَ رَحْمًا﴾ (٨١).

قد تقدم أن هذا الغلام كان اسمه جيسور. وفى الحديث عن ابن عباس، عن أبى بن كعب، عن النبى ﷺ قال: «الغلام الذى قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً». رواه ابن جرير من حديث ابن إسحاق، عن سعيد، عن ابن عباس، به؛ ولهذا قال: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا

(١) فى أ: «جرير». (٢) فى ت: «الآية».

(٣) رواه أحمد فى مسنده (١١٩/٥) من طريق أبى إسحاق، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، عن أبى بن كعب، رضى الله عنهما.

(٤) فى ت: «بيده وعمه حتى ردّ مثله». (٥) فى ت: «اتخذت» وهو خطأ.

(٦) فى ت: «يعمل مجاناً». (٧) زيادة من ف، أ.

(٨) فى ت: «فقال له السفينة»، وفى ف: «أما السفينة».

(٩) فى ت: «لعيبها». (١٠) زيادة من ف، أ.

(١١) فى ت: «لعيبها». (١٢) زيادة من ف، أ.

(١٣) فى ت: «جرير». (١٤) فى أ: «هؤد».

(١٥) فى ف: «فالله أعلم».

وَكُفِّرًا﴿١﴾ أى: يحملهما حبه على متابعتة على الكفر.

قال قتادة: قد فرح به أبواه حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقى كان فيه هلاكهما، فليرض^(١) امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه^(٢) فيما يحب.

وصح في الحديث: « لا يقضى الله للمؤمن قضاء^(٣) إلا كان خيراً له ». وقال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقوله [تعالى]^(٤): ﴿فَارْزُقْنَا أَنْ يُدْهِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا﴾ أى: ولداً أذكى من هذا، وهما أرحم به منه، قاله ابن جريج.

وقال قتادة: أبر بوالديه.

وقد تقدم أنهما بدلا جارية. وقيل: لما قتله الخضر كانت أمه حاملاً بغلام مسلم. قاله ابن جريج^(٥).

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (٨٢).

فى هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة؛ لأنه قال أولاً ﴿حَتَّى إِذَا أَتَى أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ [الكهف: ٧٧] وقال ههنا: ﴿فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَكَايْنِ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ﴾ [محمد: ١٣]، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] يعنى: مكة والطائف.

ومعنى الآية: أن هذا الجدار^(٦) إنما أصلحه^(٧) لأنه كان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما.

قال عكرمة، وقاتادة، وغير واحد: كان تحته مال مدفون لهما. وهذا ظاهر السياق من الآية، وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله.

وقال العوفى عن ابن عباس: كان تحته كنز علم. وكذا قال سعيد بن جبیر، وقال مجاهد: صحف فيها علم، وقد ورد فى حديث مرفوع ما يقوى ذلك، قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار فى مسنده المشهور: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا بشر بن المنذر، حدثنا الحارث بن عبد الله اليمصبي، عن عياش^(٨) بن عباس القتباني^(٩)، عن ابن حجرية^(١٠)، عن

(١) فى ت، ف، أ: «فرضى».

(٢) فى ف: «من قضائه له».

(٣) فى ت، ف، أ: «فرضى».

(٤) زيادة من ت.

(٥) فى ت: «ابن جرير».

(٦) فى ف: «أصلحته».

(٧) فى أ: «الغسانى».

(٨) فى ت، ف، أ: «عباس».

(٩) فى هـ: «أبى حجرية» والصواب ما أثبتناه من مسند البزار.

(١٠) فى هـ: «أبى حجرية» والصواب ما أثبتناه من مسند البزار.

أبى ذر، رضى الله عنه، [رفعه]^(١) قال: «إن الكنز الذى ذكر^(٢) الله فى كتابه: لوح من ذهب مصمت مكتوب فيه: عجبت لمن أيقن بالقدر لم نصب^(٣)؟ وعجبت لمن ذكر النار لم ضحك^(٤)؟ وعجبت لمن ذكر الموت لم غفل؟ لا إله إلا الله، محمد رسول الله^(٥)».

بشر بن المنذر هذا يقال له: قاضى المصيصة. قال الحافظ أبو جعفر العقيلي: فى حديثه وهم^(٦).

وقد روى فى هذا آثار عن السلف، فقال ابن جرير فى تفسيره: حدثنى يعقوب، حدثنى الحسن ابن حبيب بن ندبة^(٧)، حدثنا سلمة^(٨)، عن نعيم العنبري - وكان من جلساء الحسن - قال: سمعت الحسن - يعنى البصرى - يقول فى قوله: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ قال: لوح من ذهب مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن؟ وعجبت لمن يوقن^(٩) بالموت كيف يفرح؟ وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها؟ لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

وحدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى عبد الله بن عياش^(١٠)، عن عمر^(١١) مولى غفرة^(١٢) قال: إن الكنز الذى قال الله فى السورة التى يذكر فيها الكهف: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ قال: كان لوحاً من ذهب مُصَمَّتٌ مكتوباً فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجب لمن عرف النار^(١٣) ثم ضحك! عجب^(١٤) لمن أيقن بالقدر ثم نصب! عجب لمن أيقن بالموت ثم أمن! أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وحدثنى أحمد بن حازم الغفارى، حدثنا هنادة بنت مالك الشيبانية قالت: سمعت صاحبى حماد ابن الوليد الثقفى يقول: سمعت جعفر بن محمد يقول فى قول الله تعالى^(١٥): ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ قال: سطران ونصف لم يتم الثالث: عجبت للموقن بالرزق كيف يتعب وعجبت للموقن^(١٦) بالحساب كيف يغفل؟ وعجبت للموقن^(١٧) بالموت كيف يفرح؟ وقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] قالت: وذكر أنهما حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر منهما صلاح، وكان بينهما وبين الأب الذى حفظا به سبعة آباء، وكان ناسجاً.

وهذا الذى ذكره هؤلاء الأئمة، وورد به الحديث المتقدم وإن صح، لا ينافى قول عكرمة: إنه كان مالا لأنهم ذكروا أنه كان لوحاً من ذهب، وفيه مال جزيل، أكثر ما زادوا أنه كان مودعاً فيه علم^(١٨)، وهو حكم ومواظ، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ فى ذريته، وتشمل بركة

(١) زيادة من ت، ف، أ. (٢) فى ف، أ: «ذكره».

(٣) فى ت، ف: «يضحك»، وفى أ: «ضحك».

(٤) فى ت، ف: «يضحك»، وفى أ: «ضحك».

(٥) مسند البزار برقم (٢٢٢٩) «كشف الاستار» وقد روى موقوفاً من طرق عن ابن عباس وعلى، رضى الله عنهما، لكن أسانيدهما ضعيفة.

(٦) ميزان الاعتدال (٣٢٥/٢).

(٧) فى ت، ف: «يؤمن».

(٨) فى ف: «غفرة».

(٩) فى ف: «عز وجل».

(١٠) فى ف: «علماء».

(١١) فى ف: «علماء».

(١٢) فى ف: «علماء».

(١٣) فى ت: «عجبت لمن عرف الموت».

(١٤) فى ت: «للموقف».

(١٥) فى ت: «للموقف».

(١٦) فى ت: «للموقف».

(١٧) فى ت: «للموقف».

(١٨) فى ت: «للموقف».

عبادته لهم في الدنيا والآخرة، بشفاعته فيهم ورفع درجاتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم، كما جاء في القرآن ووردت السنة^(١) به. قال سعيد بن جبيرة عن ابن عباس: حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر لهما صلاح، وتقدم أنه كان الأب السابع. [فأله أعلم]^(٢).

وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾: ههنا أسند الإرادة إلى الله تعالى؛ لأن بلوغهما الحلم^(٣) لا يقدر عليه إلا الله؛ وقال في الغلام: ﴿فَارَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ﴾ وقال في السفينة: ﴿فَارَدْتُ أَنْ أُعَيِّبَهَا﴾، فأله أعلم.

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أي: هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة، إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالدي الغلام، وولدي الرجل الصالح، ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾، لكنني أمرت به ووقفت عليه، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر، عليه السلام، مع ما تقدم من^(٤) قوله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾.

وقال آخرون: كان رسولاً. وقيل: بل كان ملكاً. نقله الماوردي في تفسيره.

وذهب كثيرون إلى أنه لم يكن نبياً. بل كان ولياً. فأله أعلم.

وذكر ابن قتيبة في المعارف أن اسم الخضر بلياً بن ملكان بن فالغ بن غابر بن شالغ بن أرفخشذ ابن سام بن نوح، عليه السلام^(٥).

قالوا: وكان يكنى أبا العباس، ويلقب بالخضر، وكان من أبناء الملوك، ذكره النووي في تهذيب الأسماء، وحكى هو وغيره في كونه باقياً إلى الآن ثم إلى يوم القيامة قولين، ومال هو وابن الصلاح إلى بقاءه، وذكروا في ذلك حكايات وآثاراً عن السلف وغيرهم وجاء ذكره في بعض الأحاديث. ولا يصح شيء من ذلك، وأشهرها أحاديث^(٦) التعزية، وإسناده ضعيف.

ورجح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف ذلك، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] ويقول النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة، لا تعبد في الأرض»^(٧)، وبأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ [ولا حضر عنده، ولا قاتل معه. ولو كان حياً لكان من أتباع النبي ﷺ]^(٨) وأصحابه؛ لأنه عليه السلام^(٩) كان مبعوثاً إلى جميع الثقلين: الجن والإنس، وقد قال: «لو كان موسى وعيسى حيين ما^(١٠) وسعهما إلا اتباعي»^(١١)، وأخبر قبل موته بقليل: أنه لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف، إلى غير ذلك من الدلائل.

(٣) في ت: «الحكم».

(٦) في ت: «حديث».

(١٠) في ت، ف: «لما».

(٢) زيادة من ف، أ.

(٥) المعارف (ص ٤٢).

(٧) رواه مسلم في صحيحه برقم (١٧٦٣) من حديث عمر، رضى الله عنه.

(٩) في أ: «ﷺ».

(٨) زيادة من ف، أ.

(١١) ذكره ابن أبي العز في شرح الطحاوية في سياقه وعلق عليه الشيخ ناصر الألباني في تخريج الطحاوية بقوله: «كذا الأصل، وكأنه يشير إلى الحديث الذي ذكره شيخه ابن كثير في تفسير سورة الكهف بلفظ: «لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعي». وهو حديث محفوظ، دون ذكر «عيسى» فيه، فإنه منكر عندى لم أره في شيء من طرقه، وهى مخرجة فى إرواء الغليل برقم (١٥٨٩).

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا ابن المبارك، عن معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، عن النبي ﷺ [فى الخضر قال] ^(١): «إنما سُمى «خضرًا»؛ لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هى تحته [تهتز] ^(٢) خضراء» ^(٣).

ورواه أيضاً عن عبد الرزاق. وقد ثبت أيضاً فى صحيح البخارى، عن همام، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إنما سُمى الخضر؛ لأنه جلس على فَرَوَةٍ، فإذا هى تهتز [من خلفه] ^(٤) خضراء» ^(٥).

والمراد بالفروة ههنا ^(٦): الحشيش اليابس، وهو الهشيم من النبات، قاله عبد الرزاق. وقيل: المراد بذلك وجه الأرض.

وقوله: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ أى: هذا تفسير ما ضقت به ذرعاً، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداءً، ولما أن فسر له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال: ﴿[مَا لَمْ] ^(٧) تَسْطِعْ﴾ وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقیلاً فقال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ فقابل الأثقل بالاثقل، والأخف، بالأخف، كما قال تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ وهو الصعود إلى أعلاه، ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧]، وهو أشق من ذلك، فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى، والله أعلم.

فإن قيل: فما بال فتى موسى ذكر فى أول القصة ثم لم يذكر بعد ذلك؟

فالجواب: أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر وذكر ما كان بينهما، وفتى موسى معه تبع، وقد صرح فى الأحاديث المتقدمة فى الصحاح وغيرها أنه يوشع بن نون، وهو الذى كان يلى بنى إسرائيل بعد موسى، عليهما السلام. وهذا يدل على ضعف ما أورده ابن جرير فى تفسيره حيث قال: حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة ^(٨)، حدثنى ابن إسحاق، عن الحسن بن عمار، عن أبيه، عن عكرمة قال: قيل لابن عباس: لم نسمع لفتى موسى بذكر من حديث وقد كان معه؟ فقال ابن عباس فيما يذكر من حديث الفتى قال: شرب الفتى من الماء [فخلد، فأخذه] ^(٩) العالم، فطابق به سفينة ثم أرسله فى البحر، فإنها تموج به إلى يوم القيامة؛ وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه فشرب ^(١٠).

إسناد ضعيف، والحسن متروك، وأبوه غير معروف.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ

(١) زيادة من ف، أ، والمستد.

(٣) المستد (٣١٢/٢).

(٤) زيادة من ف، أ، والبخارى.

(٥) صحيح البخارى برقم (٣٤٠٢).

(٦) فى ت: «ههنا بالفروة».

(٩) زيادة من ف، أ، والطبرى، وفى هـ: «فحار».

(١٠) تفسير الطبرى (١٨٢/١٥).

(٨) فى ف: «مسلم».

(٧) زيادة من ف.

وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ .

يقول تعالى لنبى ﷺ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ يامحمد ﴿عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ﴾ أى: عن خبره . وقد قدمنا أنه بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألون^(١) منهم ما يمتحنون به النبى ﷺ، فقالوا: سلوه عن رجل طواف فى الأرض ، وعن فتية لا يدري ما صنعوا ، وعن الروح ، فنزلت سورة الكهف .

وقد أورد ابن جرير ههنا ، والأموى فى مغازيه ، حديثاً أسنده وهو ضعيف ، عن عقبة بن عامر ، أن نفرأ من اليهود جاؤوا يسألون النبى ﷺ عن ذى القرنين ، فأخبرهم بما جاؤوا له ابتداء ، فكان فيما أخبرهم به : «أنه كان شاباً^(٢) من الروم ، وأنه بنى الإسكندرية ، وأنه علا به ملك فى السماء ، وذهب به إلى السد ، ورأى أقواماً وجوههم مثل وجوه الكلاب» . وفيه طول ونكارة ، ورفع لا يصح ، وأكثر ما فيه أنه من أخبار بنى إسرائيل . والعجب أن أبا زرعة الرازى ، مع جلالة قدره ، ساقه بتمامه فى كتابه دلائل النبوة ، وذلك غريب منه ، وفيه من النكارة أنه من الروم ، وإنما الذى كان من الروم الإسكندر الثانى ابن فيليبس المقدونى ، الذى تؤرخ به الروم ، فأما الأول فقد ذكره الأزرقى وغيره أنه طاف بالبيت مع إبراهيم الخليل ، عليه السلام ، أول ما بناه وآمن به واتبعه ، وكان معه^(٣) الخضر ، عليه السلام ، وأما الثانى فهو ، اسكندر بن فيليبس المقدونى اليونانى ، وكان وزيره أرسطاطاليس الفيلسوف المشهور ، والله أعلم . وهو الذى تؤرخ به من مملكته ملة الروم . وقد كان قبل المسيح ، عليه السلام ، بنحو من ثلثمائة سنة ، فأما الأول المذكور فى القرآن فكان فى زمن الخليل ، كما ذكره الأزرقى وغيره ، وأنه طاف مع الخليل بالبيت العتيق لما بناه إبراهيم ، عليه السلام ، وقرب إلى الله قرباناً ، وقد ذكرنا طرفاً^(٤) من أخباره فى كتاب «البداية والنهاية»^(٥) ، بما فيه كفاية ، والله الحمد .

قال وهب بن منبه : كان ملكاً ، وإنما سمي ذا القرنين لأن؛ صفحتى رأسه كانتا من نحاس ، قال : وقال بعض أهل الكتاب : لأنه ملك الروم وفارس . وقال بعضهم : كان فى رأسه شبه القرنين ، وقال سفيان الثورى عن حبيب بن أبى ثابت ، عن أبى الطفيل قال : سئل على ، رضى الله عنه ، عن ذى القرنين ، فقال : كان عبداً ناصحاً الله فناصره ، دعا قومه إلى الله فضربوه^(٦) على قرنه فمات ، فأحياه الله ، فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات ، فسمى ذا القرنين .

وكذا رواه شعبة ، عن القاسم بن أبى بزة عن أبى الطفيل ، سمع علياً يقول ذلك . ويقال : إنما سمي ذا القرنين ؛ لأنه بلغ المشارق والمغارب ، من حيث يطلع^(٧) قرن الشمس ويغرب .

وقوله : ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: أعطيناه ملكاً عظيماً متمكناً ، فيه له من جميع ما يؤتى^(٨) الملوك ، من التمكين والجنود^(٩) ، وآلات الحرب والحصارات ؛ ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض ، ودانت له البلاد ، وخضعت له ملوك العباد ، وخدمته الأمم ، من العرب والعجم ؛ ولهذا ذكر

(١) فى ت : «يسألونك» . (٢) فى ت : «ماشيا» . (٣) فى أ : «وكان وزيره» .
(٤) فى ف ، أ : «طرفاً صالحاً» . (٥) البداية والنهاية (٩٥/٢) . (٦) فى ت ، ف ، أ : «فضرب» .
(٧) فى ت ، ف : «تطلع» . (٨) فى ف : «تؤتى» . (٩) فى ف : «من الجنود والتمكن» .

بعضهم أنه إنما سمى ذا القرنين؛ لأنه بلغ قرنى الشمس مشرقها ومغربها .

وقوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والسدى، وقتادة، والضحاك، وغيرهم: يعنى علماً .

وقال قتادة أيضاً فى قوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ قال: منازل الأرض وأعلامها .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ قال: تعليم الألسنة، كان لا يغزو قوماً إلا كلمهم بلسانهم .

وقال ابن لهيعة: حدثنى سالم بن غيلان، عن سعيد بن أبى هلال؛ أن معاوية بن أبى سفيان قال^(١) لكعب الأحبار: أنت تقول: إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا ؟ فقال له كعب: إن كنت قلت ذلك، فإن الله تعالى قال: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ .

وهذا الذى أنكره معاوية، رضى الله عنه، على كعب الأحبار هو الصواب^(٢)، والحق مع معاوية فى الإنكار؛ فإن معاوية كان يقول عن كعب: «إن كنا لنبلو^(٣) عليه الكذب» يعنى: فيما ينقله، لا أنه كان يعتمد نقل ما ليس فى صحيفته^(٤)، ولكن الشأن فى صحيفته^(٥) أنها من الإسرائيليات التى غالبها مبدل مصحف محرف مختلق^(٦)، ولا حاجة لنا مع خبر الله ورسول الله ﷺ [إلى شىء منها بالكلية، فإنه دخل منها على الناس شر كثير^(٨)، وفساد عريض . وتأويل كعب قول الله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ واستشهاده فى ذلك على ما يجده فى صحيفته من أنه كان يربط خيله بالثريا غير صحيح ولا مطابق؛ فإنه لا سبيل للبشر إلى شىء من ذلك، ولا إلى الترقى^(٩) فى أسباب السموات . وقد قال الله فى حق بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] أى: مما يؤتى مثلها من الملوك، وهكذا ذو القرنين يسر الله له الأسباب، أى: الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرساتيق والبلاد والأراضى وكسر الأعداء، وكبت ملوك الأرض، وإذلال أهل الشرك . قد أوتى من كل شىء مما^(١٠) يحتاج إليه مثله سبباً، والله أعلم .

وفى «المختارة» للحافظ الضياء المقدسى، من طريق قتيبة، عن أبى عوانة، عن سماك بن حرب، عن حبيب بن حماز^(١١) قال : كنت عند على، رضى الله عنه، وسأله رجل عن ذى القرنين: كيف بلغ المشارق والمغارب ؟ فقال سبحانه الله سخر له السحاب، وقَدَّرَ له الأسباب، وبسط له اليد^(١٢) .

﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ

(٣) فى أ: «لنتلوا» .

(٧) زيادة من ف، أ .

(١٠) فى أ: «ما» .

(٢) فى أ: «الطنوب» .

(٦) فى أ: «مخلق» .

(٩) فى ف: «الرقى» .

(١) فى ت: «يقول» .

(٤، ٥) فى ف، أ: «صحفه» .

(٨) فى ت: «كبير» .

(١١) فى ت، ف، أ: «حماد» .

(١٢) المختارة برقم (٤٠٩) .

نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ .

قال ابن عباس: ﴿فَاتَّبَعَ سَبِيًّا﴾ يعنى: بالسبب المنزل^(١). وقال مجاهد: ﴿فَاتَّبَعَ سَبِيًّا﴾: منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب.

وفى رواية عن مجاهد: ﴿سَبِيًّا﴾ قال: طريقاً فى الأرض .

وقال قتادة: أى اتبع منازل الأرض ومعالمها^(٢).

وقال الضحاك: ﴿فَاتَّبَعَ سَبِيًّا﴾ أى: المنازل^(٣).

وقال سعيد بن جبير فى قوله: ﴿فَاتَّبَعَ سَبِيًّا﴾ قال: علماً. وهكذا قال عكرمة وعبيد بن يعلى، والسدى.

وقال مطر: معالم وآثار كانت قبل ذلك .

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ أى: فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب، وهو مغرب الأرض. وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فمتعذر، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار فى الأرض مدة والشمس تغرب من ورائه فشىء لا حقيقة له. وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب، واختلاق^(٤) زنادقتهم وكذبهم^(٥).

وقوله: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أى: رأى الشمس فى منظره تغرب فى البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه، وهى لا تفارق الفلك الرابع الذى هى مثبتة فيه لا تفارقه^(٦).

والحمئة مشتقة على إحدى القراءتين^(٨) من «الحمأة» وهو الطين، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨] أى: طين أملس^(٩). وقد تقدم بيانه.

وقال ابن جرير: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب^(١٠)، حدثنى نافع بن أبى نعيم، سمعت عبد الرحمن الأعرج يقول: كان ابن عباس يقول^(١١) ﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ثم فسرهما: ذات حمأة. قال نافع: وسئل عنها كعب الأحبار فقال: أنتم أعلم بالقرآن منى، ولكنى أجدها فى الكتاب تغيب فى طينة سوداء^(١٢).

وكذا روى غير واحد عن ابن عباس، وبه قال مجاهد وغير واحد.

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا محمد بن دينار، عن سعد^(١٣) بن أوس، عن مصدع، عن ابن

(٢) فى هـ، ت، ف: «طرفى»، والمثبت من الطبرى، أ.

(١) زيادة من ف، أ.

(٤) فى ت: «المنزل».

(٣) فى ت: «ومغاربيها».

(٥) فى ت: «واختلاف».

(٧) فى ت: «يفارقه».

(٦) فى ف: «وكذبهم».

(٨) فى ت: «على أحد الروايتين».

(٩) فى ت: «إبليس».

(١١) فى ف، أ: «يقرا».

(١٠) فى ت: «حدثنا وهب».

(١٢) تفسير الطبرى (١٠/١٦).

(١٣) فى ت: «سعيد».

عباس، عن أبي بن كعب؛ أن النبي ﷺ أقرأه ﴿حَمِئَةً﴾^(١).

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «وجدتها تغرب في عين حامية» يعني: حارة. وكذا قال الحسن البصري.

وقال ابن جرير: والصواب أنهما قراءتان مشهورتان، فأيهما قرأ القارئ فهو مصيب^(٢).

قلت: ولا منافاة بين معنييهما، إذ قد تكون حارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها، وملاقاتها الشعاع بلا حائل و﴿حَمِئَةً﴾ في ماء وطين أسود، كما قال كعب الأحبار وغيره.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا^(٣) العوام، حدثني مولى لعبد الله بن عمرو، عن عبد الله قال: نظر رسول الله ﷺ إلى الشمس حين غابت، فقال: «في نار الله الحامية [في نار الله الحامية]^(٤)، لولا ما يزعها من أمر الله، لأحرقت ما على الأرض».

قلت: ورواه الإمام أحمد، عن يزيد بن هارون^(٥). وفي صحة رفع هذا الحديث نظر، ولعله من كلام عبد الله بن عمرو، من زاملتيه اللتين وجدتهما يوم اليرموك، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا حجاج بن حمزة، حدثنا محمد - يعني ابن بشر - حدثنا عمرو بن ميمون، أنبأنا ابن حاصر، أن ابن عباس ذكر له أن معاوية بن أبي سفيان قرأ الآية التي في سورة الكهف «تغرب في عين حامية» قال ابن عباس لمعاوية ما نقرأها^(٦) إلا ﴿حَمِئَةً﴾ فسأل معاوية عبد الله ابن عمرو كيف تقرأها: فقال عبد الله: كما قرأتها. قال ابن عباس: فقلت لمعاوية: في بيتي نزل القرآن؟ فأرسل إلى كعب فقال له: أين تجد الشمس تغرب في التوراة؟ [فقال له كعب: سل أهل العربية، فإنهم أعلم بها، وأما أنا فإنني أجده الشمس تغرب في التوراة]^(٧) في ماء وطين. وأشار بيده إلى المغرب. قال ابن حاصر: لو أني عندكما أفدتك^(٨) بكلام تزداد فيه بصيرة في حمئة. قال ابن عباس: وإذا ما هو؟ قلت: فيما يؤثر من قول تبع، فيما ذكر به ذا القرنين في تخلقه بالعلم واتباعه إياه:

بَلَّغَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ يَتَغَيَّرُ أَسْبَابَ أَمْرِ مِنْ^(٩) حَكِيمٍ مُرْشِدٍ

فَرَأَى مَغِيبَ^(١٠) الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِهَا فِي عَيْنِ ذِي خُلْبٍ وَنَاطٍ^(١١) حَرُمَدٍ^(١٢)

قال^(١٤) ابن عباس: ما الخُلب؟ قلت: الطين بكلامهم. [يعني بكلام حمير]^(١٥). قال: ما الناط؟

(١) مسند الطيالسي برقم (٥٣٦).

(٢) في ت: «المصيب». (٣) في ت: «حدثنا». (٤) زيادة من ف، أ، والطبري.

(٥) المسند (٢٠٧/٢).

(٦) زيادة من ف، أ، والطبري.

(٦) في ت: «تقرأها».

(٨) في أ: «لأفدتك».

(٩) في أ: «وأناط».

(١٠) البيتان في لسان العرب، مادة (نَاط) وهما لأمية بن أبي الصلت.

(١١) في ف: «فقال».

(١٢) في ف: «فقال».

(١٣) البيتان في لسان العرب، مادة (نَاط) وهما لأمية بن أبي الصلت.

(١٤) في ف: «فقال».

(١٥) زيادة من ت، ف.

قلت: الحمأة. قال: فما الحرمد؟ قلت: الأسود. قال: فدعا ابن عباس رجلاً أو غلاماً فقال: اكتب ما يقول هذا الرجل.

وقال سعيد بن جبیر: بينا ابن عباس يقرأ سورة الكهف فقرأ: ﴿وَجَدَهَا تُغْرِبُ فِي عَيْنِ حَمِئَةٍ﴾ فقال كعب: والذي نفس كعب بيده ما سمعت أحداً يقرأها كما أنزلت في التوراة غير ابن عباس، فإننا نجدتها في التوراة: تغرب في مدرة سوداء.

وقال أبو يعلى الموصلي: حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل، حدثنا هشام بن يوسف قال: في تفسير ابن جريج ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ قال: مدينة لها اثنا عشر ألف باب، لولا أصوات أهلها لسمع الناس وجوب الشمس حين تجب.

وقوله: ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ أى: أمة من الأمم، ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بنى آدم. وقوله: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ معنى هذا: أن الله تعالى مكنه منهم^(١)، وحكمه فيهم، وأظفره بهم^(٢) وخيره: إن شاء قتل وسبى، وإن شاء من أو فدى^(٣). فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه^(٤) فى قوله: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أى: من استمر على كفره وشركه بربه ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ قال قتادة: بالقتل: وقال السدى: كان يحمى لهم بقر النحاس ويضعهم فيها^(٥) حتى يذوبوا. وقال وهب بن منبه: كان يسلط الظلمة، فتدخل أفواههم ويوتهم، وتغشاهم من جميع جهاتهم، والله أعلم.

وقوله^(٦): ﴿ثُمَّ يَرُدُّهُ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ أى: شديداً بليغاً وجيعاً أليماً. وفيه^(٧) إثبات المعاد والجزاء.

وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ﴾ أى: تابعنا على مандعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أى: فى الدار الآخرة عند الله، عز وجل ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ قال مجاهد: معروفاً.

﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا﴾ (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١).

يقول: ثم سلك طريقاً فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها^(٨)، وكان كلما مرّ بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله عز وجل، فإن أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم آناهم، واستباح أموالهم، وأمتعهم واستخدم من كل أمة ما يستعين به مع جيوشه على أهل^(٩) الإقليم المتاخم لهم.. وذكر فى أخبار بنى إسرائيل أنه عاش ألفاً وستمئة سنة يجوب^(١٠) الأرض طولها والعرض^(١١)، حتى بلغ المشارق والمغارب. ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال الله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ

(١) فى ت: «فيهم». (٢) فى ت: «وأظفره عليهم»، وفى ف، أ: «وأظفره عليهم». (٣) فى ف، أ: «وافتدى». (٤) فى ت: «وثباته». (٥) فى ف: «فيه». (٦) فى ت: «فقوله». (٧) فى أ: «وفى هذا». (٨) فى ت: «من مطلع الشمس إلى مغربها». (٩) فى أ: «قتال». (١٠) فى ف، أ: «يخرب». (١١) فى ف، أ: «طولها وعرضها».

﴿قَوْمٌ﴾ أى: أمة ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ أى: ليس لهم بناء يَكْنَهُمْ، ولا أشجار تظلهم وتستترهم من حر الشمس.

قال سعيد بن جبیر: كانوا حُمْرًا قِصَارًا، مساكنهم الغيران، أكثر معيشتهم من السمك.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا سهل^(١) بن أبي الصلت، سمعت الحسن وسئل عن قوله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ قال: إن أرضهم^(٢) لا تحمل البناء، فإذا طلعت الشمس تغفروا^(٣) فى المياه، فإذا غربت خرجوا يتراعون كما ترعى البهائم. قال^(٤) الحسن: هذا حديث سمرة^(٥).

وقال قتادة: ذكر لنا أنهم بأرض لا تنبت لهم شيئاً، فهم إذا طلعت الشمس دخلوا فى أسراب، حتى إذا زالت^(٦) الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعاشهم.

وعن سلمة بن كهيل أنه قال: ليس لهم أكنان، إذا طلعت الشمس طلعت عليهم، فلا أحدهم أذن أن يفترش أحدهما^(٧) ويلبس الأخرى.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة فى قوله: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ قال: هم الزنج^(٨).

وقال ابن جريج فى قوله: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ قال: لم يبنوا فيها بناء قط، ولم يبن عليهم فيها بناء قط، كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسراباً لهم^(٩) حتى تزول الشمس، أو دخلوا البحر، وذلك أن أرضهم ليس فيها^(١٠) جبل، جاءهم جيش مرة فقال لهم أهلها: لا تطلعن عليكم الشمس وأنتم بها. قالوا: لا نبرح حتى تطلع الشمس، ما هذه العظام؟ قالوا: هذه جيف جيش طلعت عليهم الشمس ههنا فماتوا. قال: فذهبوا هارين فى الأرض.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ قال مجاهد، والسدى: علماء، أى: نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه، لا يخفى علينا منها شيء، وإن تفرقت أمهم وتقطعت بهم الأرض، فإنه تعالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥].

﴿ثُمَّ أَتَبَعَ سَبًّا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ

(٣) فى ت: «فقدوا»، وفى أ: «يفغروا».

(٢) فى ت: «أرضيكم».

(١) فى أ: «سهيل».

(٤) فى ت، ف: «فقال».

(٥) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٦/١٢) من طريق إبراهيم بن المستمر، عن أبى داود به.

(٧) فى ف، أ: «واحدة».

(٦) فى ت: «غربت».

(٨) تفسير عبد الرزاق (١/٣٤٦).

(١٠) فى أ: «بها».

(٩) فى ت: «أسراباً بهم».

وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ أَتُونِي زَبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ أَتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا ﴿٩٦﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن ذى القرنين: ﴿ثُمَّ أَتَعَ سَبًا﴾ أى: ثم سلك طريقاً من مشارق الأرض ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ وهما جبلان متناوحيان بينهما ثُغْرَةٌ يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيشون فيهم فساداً، ويهلكون الحرث والنسل، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم، عليه السلام، كما ثبت فى الصحيحين: «إن الله تعالى يقول: يا آدم. فيقول: لبيك وسعديك. فيقول: ابعث بعث النار. فيقول: وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة؟ فحينئذ يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، فيقال: إن فيكم أمتين، ما كانتا فى شيء إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج»^(١).

وقد حكى النووى^(٢)، رحمه الله، فى شرح «مسلم» عن بعض الناس: أن يأجوج ومأجوج خلقوا من منى خرج من آدم فاختلط بالتراب، فخلقوا من ذلك^(٣)، فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم، وليسوا من حواء. وهذا قول غريب جداً، [ثم]^(٤) لا دليل عليه لا من عقل ولا [من]^(٥) نقل، ولا يجوز الاعتماد ههنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب، لما عندهم من الأحاديث^(٦) المفتعلة، والله أعلم.

وفى مسند^(٧) الإمام أحمد، عن سَمُرَةَ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «وَلَكَدْ نُوْحٌ ثَلَاثَةٌ: سَامُ أَبَوَالْعَرَبِ، وَحَامُ أَبَوِ السُّودَانِ، وَيَافِثُ أَبُو التُّرْكِ»^(٨). فقال بعض العلماء: هؤلاء من نسل يافث أبى الترك، قال: [إنما]^(٩) سموا هؤلاء تركاً؛ لأنهم تركوا من وراء السد من^(١٠) هذه الجهة، وإلا فهم أقرباء أولئك، ولكن كان فى أولئك بغى وفساد وجراءة^(١١). وقد ذكر ابن جرير ههنا عن وهب بن منبه أثراً طويلاً عجباً فى سير ذى القرنين، وبنائه السد، وكيفية ما جرى له، وفيه طول وغرابة ونكارة فى أشكالهم وصفاتهم، [وطولهم]^(١٢) وقصر بعضهم، وأذانهم^(١٣). وروى ابن أبى حاتم أحاديث غريبة فى ذلك لا تصح^(١٤) أسانيداً، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [أى]^(١٥): لاستعجاب كلامهم وبعدهم

(١) صحيح البخارى برقم (٦٥٣٠) وصحيح مسلم برقم (٢٢٢) من حديث أبى سعيد، رضى الله عنه.

(٢) فى أ: «النواوى».

(٣) شرح النووى (٩٧/٣).

(٤) زيادة من ف، أ.

(٥) فى ف، أ: «المسند».

(٦) المسند (٩/٥).

(٧) فى أ: «وإنما».

(٨) زيادة من ف، أ.

(٩) تفسير الطبرى (١٤/١٦).

(١٠) فى ف، أ: «لا يصح».

(١١) زيادة من ف، أ.

(١٢) فى ت: «من الأكاذيب».

(١٣) زيادة من ت، ف.

(١٤) فى أ: «وجرأة».

(١٥) فى أ: «فمن».

عن الناس.

﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ قال ابن جريج عن عطاء، عن ابن عباس: أجرًا عظيمًا، يعني: أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم ما لا يعطونه إياه، حتى يجعل بينهم وبينهم سدًا. فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير: ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ أى: إن الذى أعطاني الله من الملك والتمكين^(١) خير لى من الذى تجمعونى، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿ أَمْتِدُونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ [النمل: ٣٦]. وهكذا قال ذو القرنين: الذى أنا فيه خير من الذى تبدلونه، ولكن ساعدونى ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ أى: بعملكم وآلات البناء، ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾. أتوني زبر الحديد، والزبر: جمع زبرة، وهى القطعة منه، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وهى كالبنة^(٢)، يقال: كل لبنة [زنة]^(٣) قنطار بالدمشقى، أو تزيد عليه.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ أى: وضع بعضه على بعض من الأساس حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً. واختلفوا فى مساحة عرضه وطوله على أقوال. ﴿ قَالِ انفُخُوا ﴾ أى: أجمع^(٤) عليه النار حتى صار كله ناراً، ﴿ قَالِ اتَّوْنِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، والسدى: هو النحاس. وزاد بعضهم: المذاب. ويستشهد بقوله تعالى: ﴿وَأَسْلَمْنَا لَهُ بَيْنَ الْقَظِرِ ﴾ [سبأ: ١٢] ولهذا يشبه^(٥) بالبرد المحبر.

قال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلاً قال: يارسول الله، قد رأيت سد يأجوج ومأجوج، قال: «انعت لى» قال: كالبرد المحبر، طريقة سوداء. وطريقة حمراء. قال: «قد رأيته». هذا حديث مرسل^(٦).

وقد بعث الخليفة الواثق فى دولته بعض أمرائه، ووجه^(٧) معه جيشاً سرية، لينظروا إلى السد ويعاينوه وينعتوه له إذا رجعوا. فتوصلوا من بلاد إلى بلاد، ومن مُلك إلى مُلك، حتى وصلوا إليه، ورأوا بناءه من الحديد ومن النحاس، وذكروا أنهم رأوا فيه باباً عظيماً، وعليه^(٨) أقفال عظيمة، ورأوا بقية اللبن والعمل فى برج هناك. وأن عنده حرساً^(٩) من الملوك المتاخمة له، وأنه منيف عال^(١٠) شاهق، لا يستطيع ولا ما حوله من الجبال. ثم رجعوا إلى بلادهم، وكانت غيبته أكثر من سنتين،

(٣) زيادة من ف، أ.

(٢) فى أ: «البنة».

(١) فى أ: «والتمكن».

(٥) فى أ: «شبه».

(٤) فى ف: «أججوا».

(٦) وقد روى موصولاً من طرق: فرواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى تخريج الكشاف (٣١٢/٢) من طريق أبى الجماهر - سعيد بن بشير - عن قتادة، عن رجل، عن أبى بكره الثقفى: أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال: إني قد رأيته، فذكر نحوه. ورواه البزار فى مسنده كما فى تخريج الكشاف (٣١٣/٢) من طريق عبد الملك بن أبى نعمة، عن يوسف بن أبى مريم، عن أبى بكره بنحوه مطولاً. ورواه ابن مردويه أيضاً من طريق سفيان، عن سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن رجل من أهل المدينة أنه قال للنبى ﷺ، فذكر نحوه.

(٩) فى ف، أ: «سرحاً».

(٨) فى ت: «وعلى».

(٧) فى ف، أ: «وجه».

(١٠) فى ت، ف، أ: «عال منيف».

وشاهدوا أهوالاً وعجائب.

ثم قال الله تعالى :

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن يأجوج ومأجوج أنهم ما قدروا على أن يصعدوا ^(١) فوق هذا السد ولا قدروا على نقبه من أسفله. ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلاً بما يناسبه فقال: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ وهذا دليل على أنهم لم ^(٢) يقدروا على نقبه، ولا على شيء منه.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد:

حدثنا روح، حدثنا سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، حدثنا أبو رافع، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: « إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً فيعودون إليه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس ^(٣) [حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس] ^(٤) قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله. ويستثنى، فيعودون إليه وهو كهيئته ^(٥) حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون ^(٦) على الناس، فينشفون المياه، ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء، [فترجع وعليها هيئة الدم، فيقولون: قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء] ^(٧). فيبعث الله عليهم نغفاً ^(٨) في أقفاثهم، فيقتلهم بها. قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إن دواب الأرض لتسمن، وتشكر شكراً من لحومهم ودمائهم» ^(٩).

ورواه أحمد أيضاً عن حسن - هو ابن موسى الأشيب - عن سفيان، عن قتادة، به ^(١٠). وكذا رواه ^(١١) ابن ماجه، عن أزهر بن مروان، عن عبد الأعلى، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة قال: حدث أبو رافع. وأخرجه الترمذی، من حديث أبي عوانة، عن قتادة ^(١٢). ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

- | | | |
|---|--------------------|------------------------|
| (١) في ف، أ: «يصعدوا من». | (٢) في ت: «لا». | (٣) في أ: «على النار». |
| (٤) زيادة من ف، أ، والمسند. | (٥) في أ: «كهينة». | (٦) في ت: «ويخرجونهم». |
| (٧) زيادة من ف، أ، والمسند. | (٨) في أ: «نغفاً». | |
| (٩) المسند (٥١٠/٢). | | |
| (١٠) المسند (٥١١/٢). | | |
| (١١) في أ: «رواه الإمام». | | |
| (١٢) سنن ابن ماجه برقم (٤٠٨٠) وسنن الترمذی برقم (٣١٥٣). | | |

وهذا إسناد قوى، ولكن فى^(١) رفعه نكارة؛ لأن ظاهر الآية يقتضى أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا من نقبه، لإحكام بنائه وصلابته وشدته. ولكن هذا قد روى عن كعب الأحبار: أنهم قبل خروجهم يأتونه فيلحسونه حتى لا يبقى منه^(٢) إلا القليل، فيقولون: غداً نفتحه. فيأتون من الغد وقد عاد كما كان، فيلحسونه حتى لا يبقى منه^(٣) إلا القليل، فيقولون كذلك، فيصبحون وهو كما كان، فيلحسونه ويقولون: غداً نفتحه. ويلهمون أن يقولوا: «إن شاء الله»، فيصبحون وهو كما فارقه، فيفتحونه. وهذا متجه، ولعل أبا هريرة تلقاه من كعب. فإنه كثيراً ما كان يجالسه^(٤) ويحدثه، فحدث به أبو هريرة، فتوهم^(٥) بعض الرواة عنه أنه مرفوع، فرفعه، والله أعلم.

ويؤكد ما قلناه^(٦) - من أنهم لم يتمكنوا من نقبه ولا نقب شيء منه، ومن نكارة هذا المرفوع - قول الإمام أحمد:

حدثنا سفيان، عن الزهرى، عن عروة، عن [زينب بنت أبى سلمة، عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت أبى سفيان، عن أمها أم حبيبة، عن^(٧) زينب بنت جحش زوج النبى ﷺ - قال سفيان: أربع نسوة - قالت: استيقظ النبى ﷺ من نومه. وهو محمر وجهه، وهو يقول: « لا إله إلا الله! ويل للعرب^(٨) من شر قد اقترب! فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا ». وحلّق. قلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: « نعم إذا كثر الخبث ».

هذا حديث صحيح، اتفق البخارى ومسلم على إخراجه، من حديث الزهرى^(٩)، ولكن سقط فى رواية البخارى ذكر حبيبة، وأثبتها مسلم. وفيه أشياء^(١٠) عزيزة نادرة قليلة الوقوع فى صناعة^(١١) الإسناد، منها رواية الزهرى عن عروة، وهما تابعيان ومنها^(١٢) اجتماع أربع نسوة فى سنده، كلهن يروى بعضهن عن بعض. ثم كل منهن صحابية^(١٣)، ثم ثنتان ربيبتان وثنان زوجتان، رضى الله عنهن.

وقد روى نحو هذا عن أبى هريرة أيضاً، فقال البزار: حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا مؤمل بن إسماعيل، حدثنا وهيب^(١٤)، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال: «فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا» وعقد التسعين. وأخرجه البخارى ومسلم من حديث وهيب^(١٥)، به^(١٦).

(٣) فى ف، أ: «فيه».

(٦) فى أ: «قلنا».

(١٢) فى أ: «وفيما».

(٢) فى ف: «فيه».

(٥) فى ت: «يفقرهم».

(٨) فى ت: «للغريب».

(٩) المسند (٦/٤٢٨) وصحيح البخارى برقم (٧١٣٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٨٠).

(١١) فى ت: «صياغة».

(١) فى ف، أ: «ولكن منه فى».

(٤) فى ت: «كان كثيراً ما يجالسه».

(٧) زيادة من ف، أ، والمسند.

(١٠) فى أ: «إسناد».

(١٣) فى أ: «منهم صاحبيه».

(١٤، ١٥) فى ت: «وهب».

(١٦) صحيح البخارى برقم (٧١٣٦) وصحيح مسلم برقم (٢٨٨١).

وقوله: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أى: لما بناه ذو القرنين ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أى: بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العيث^(١) فى الأرض والفساد. ﴿فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي﴾ أى: إذا اقترب الوعد الحق ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أى: ساواه^(٢) بالأرض. تقول العرب: ناقة دكاء: إذا كان ظهرها مستوياً لا سنام لها. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣] أى: مساوياً للأرض^(٣).

وقال عكرمة فى قوله: ﴿فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ قال: طريقاً كما كان.

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أى: كائناً لا محالة.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾^(٤) أى: الناس يومئذ أى: يوم يدك^(٥) هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون فى الناس ويفسدون على الناس أموالهم ويتلفون أشياءهم، وهكذا قال السدى فى قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قال: ذاك حين يخرجون على الناس. وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال، كما سيأتى بيانه [إن شاء الله تعالى]^(٦) عند قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ. وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٦، ٩٧] وهكذا قال ههنا: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ قال ابن زيد فى قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قال: هذا أول يوم القيامة، ﴿وَنُفِخَ^(٧) فِي الصُّورِ﴾ على أثر ذلك ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾.

وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أى: يوم القيامة يختلط الإنس والجن.

روى ابن جرير، عن محمد بن حميد، عن يعقوب القمي^(٨)، عن هارون بن عنترة، عن شيخ من بى فزارة^(٩) فى قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قال: إذا ماج الإنس والجن قال إبليس: أنا أعلم لكم علم هذا الأمر. فيظعن إلى المشرق فيجد الملائكة قد بطنوا^(١٠) الأرض، ثم يظعن إلى المغرب فيجد الملائكة بطنوا^(١١) الأرض، فيقول: «ما من محيص». ثم يظعن يمينا وشمالاً إلى أقصى الأرض فيجد الملائكة بطنوا^(١٢) الأرض فيقول: «ما من محيص». فبينما هو كذلك، إذ عرض له طريق كالشراك، فأخذ عليه هو وذريته، فبينما هم عليه إذ هجموا على النار، فأخرج الله خازناً من خزان النار، فقال: يا إبليس، ألم تكن لك المنزلة عند ربك؟! ألم تكن فى الجنان؟! فيقول: ليس هذا يوم عتاب، لو أن الله فرض على فريضة لعبده فيها عبادة لم يعبد مثلهما أحد من

(٣) فى ت: «الأرض».

(٢) فى ت، أ: «واساء».

(١) فى أ: «العبث».

(٤) زيادة من ف، أ.

(٥) فى ت: «بذكر».

(٦) زيادة من ف، أ.

(٩) فى أ: «قراءة».

(٨) فى أ: «العمى».

(٧) فى ت: «ينفخ».

(١٠-١٢) فى أ: «قد تطبقوا».

خلقه. فيقول: فإن الله قد فرض عليك فريضة. فيقول: ماهى؟ فيقول: يأمرك أن تدخل النار. فيتلکأ عليه، فيقول به وبذريته بجناحيه فيقذفهم فى النار. فتزفر النار^(١) زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبى مرسل إلا جثا لركبتيه^(٢).

وهكذا رواه ابن أبى حاتم من حديث يعقوب القمى به. رواه من وجه آخر عن يعقوب، عن هارون بن عنترة، عن أبيه، عن ابن عباس: «وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ» قال: الجن والإنس، يوج بعضهم فى بعض.

وقال الطبرانى: حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس الأصفهاني^(٣)، حدثنا أبو مسعود أحمد بن الفرات، حدثنا أبو داود الطيالسى، حدثنا المغيرة بن مسلم، عن أبى إسحاق، عن وهب بن جابر، عن عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم، ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معاشهم، ولن يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً، وإن من ورائهم ثلاث أمم: تاويل، وتايس^(٤) ومنسك^(٥)».

هذا حديث غريب، بل منكر ضعيف.

وروى النسائى من حديث شعبة عن النعمان بن سالم، عن عمرو بن أوس، عن أبيه، عن جده أوس بن أبى أوس مرفوعاً: «إن يأجوج ومأجوج لهم نساء، يجامعون ما شاؤوا، وشجر يلقحون ما شاؤوا، ولا يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً»^(٦).

وقوله: ﴿وَنَفَخَ فِي الصُّورِ﴾: والصور كما جاء فى الحديث: «قرن ينفخ فيه» والذى ينفخ فيه إسرافيل، عليه السلام، كما قد تقدم فى الحديث بطوله، والأحاديث فيه كثيرة.

وفى الحديث عن عطية، عن ابن عباس وأبى سعيد مرفوعاً: «كيف أنعم، وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته واستمع متى يؤمر». قالوا: كيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»^(٧).

وقوله: ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ أى: أحضرنا الجميع للحساب، ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

(١) فى أ: «جهنم».

(٢) تفسير الطبرى (٢٣/١٦).

(٣) فى ف، أ: «الأصفهاني».

(٤) فى ت، ف: «تاريس».

(٥) الحديث فى مسند الطيالسى برقم (٢٢٨٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٦/٨): «رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ورجاله ثقات».

تنبيه: وقع فى مجمع الزوائد «تاويل وتاريس ومنسك» وعند الطيالسى «تاويل وتاريس وتارليس ومنسك» وفى المطالب العالية «تاويل وتاريس وناسك».

(٦) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٣٤).

(٧) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٤٣١) وقال: «هذا حديث حسن».

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكفار يوم القيامة: أنه يعرض عليهم جهنم، أى: يبرزها لهم ويظهرها، ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها، ليكون ذلك أبلغ فى تعجيل الهم والحزن لهم.

وفى صحيح مسلم، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة سبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك [يجرونها]» (١) (٢).

ثم قال مخبراً عنهم: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ أى: تعاموا وتغافلوا وتصاموا (٣) عن قبول الهدى واتباع الحق، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقال ههنا: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أى: لا يعقلون عن الله أمره ونهيه.

ثم قال ﴿أَفَحَسِبَ﴾ (٤) الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴿أى: اعتقدوا أنهم يصح لهم ذلك، ويتنفعون بذلك؟﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿[مريم: ٨٢]؛ ولهذا أخبر أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة منزلاً .

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ .

قال البخارى: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عمرو، عن مُصْعَبٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَى - يَعْنَى سَعْدَ بْنَ أَبَى وَقَاصٍ -: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾: أَهَمُّ الْحَرُورِيَّةِ؟ قَالَ: لَا، هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، أَمَا الْيَهُودُ فَكَذَّبُوا مُحَمَّدًا ﷺ، وَأَمَا النَّصَارَى كَفَرُوا بِالْجَنَّةِ، وَقَالُوا: لَا طَعَامَ فِيهَا وَلَا شَرَابَ. وَالْحَرُورِيَّةُ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ. وَكَانَ سَعْدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَسْمِيهِمُ الْفَاسِقِينَ (٥).

(١) زيادة من ف، أ، ومسلم.

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٨٤٢).

(٣) فى أ: «تصاموا».

(٤) فى ت: «أفحسبتم» وهو خطأ.

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٢٨).

وقال على بن أبي طالب^(١)، والضحاك، وغير واحد: هم الحرورية.

ومعنى هذا عن على، رضى الله عنه: أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم، لا أنها نزلت فى هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء^(٢)، بل هى أعم من هذا؛ فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى وقبل^(٣) وجود الخوارج بالكلية، وإنما هى عامة فى كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ، وعمله مردود، كما قال تعالى: ﴿وَجْهٌ يُومِئُذٍ خَاشِعَةٌ . عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ . تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٢ - ٤] وقوله^(٤) تعالى: ﴿وَقَدَّمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩].

وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ﴾ أى: نخبركم ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾؟ ثم فسرهم فقال: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة، ﴿وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يَحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أى: يعتقدون أنهم على شىء، وأنهم مقبولون محبوبون.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ أى: جحدوا آيات الله فى الدنيا، وبراهينه التى أقام على وحدانيته، وصدق رسله، وكذبوا بالدار الآخرة، ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ أى: لا نثقل موازينهم؛ لأنها خالية عن الخير^(٥).

قال البخارى: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا سعيد بن أبى مريم، أخبرنا المغيرة، حدثنى أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنه ليأتى الرجل العظيم السمين^(٦) يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة» وقال: «اقرأوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾». وعن يحيى بن بكير، عن مغيرة بن عبد الرحمن، عن أبى الزناد، مثله^(٧).

هكذا ذكره عن يحيى بن بكير معلقاً^(٨). وقد رواه مسلم عن أبى بكر محمد بن إسحاق، عن يحيى بن بكير، به^(٩).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو الوليد، حدثنا عبد الرحمن بن أبى الزناد، عن صالح مولى التوأمة، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل الأكل والشروب العظيم، فيوزن بحبة فلا يزنها». قال: وقرأ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾.

وكذا رواه ابن جرير، عن أبى كريب، عن أبى الصلت، عن ابن أبى الزناد، عن صالح مولى

(١) فى ت: «طلحة» .
(٢) فى أ: «هو» .
(٣) فى ت: «وقيل» .
(٤) فى ت، ف، أ: «وقال» .
(٥) فى ت: «من الخير» .
(٦) فى ت: «السمين العظيم» .
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٧٢٩) .
(٨) فى ت: «معلقاً» .
(٩) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٥) .

التوأمة، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، مرفوعاً^(١) فذكره بلفظ البخارى سواء .

وقال أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار: حدثنا العباس بن محمد، حدثنا عون بن عُمارة^(٢)، حدثنا هشام بن حسان، عن واصل، عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فأقبل رجل من قريش يخطر في حلة له. فلما قام على النبي ﷺ قال: «يا بريدة، هذا ممن لا يقيم الله له يوم القيامة وزناً»^(٣) .

ثم قال: تفرد به واصل مولى أبي عنبسة^(٤) وعون^(٥) بن عُمارة^(٦)، وليس بالحافظ، ولم يتابع عليه. وقد قال ابن جرير أيضاً: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن شمر^(٧)، عن أبي يحيى، عن كعب قال: يؤتى يوم القيامة برجل عظيم طويل، فلا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرؤوا: ﴿فَلَا نَقِمْ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾^(٨) .

وقوله: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ هُمُ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا﴾ أى: إنما جازيناهم بهذا الجزاء جهنم، بسبب كفرهم واتخاذهم آيات الله ورسله هزواً، استهزؤوا بهم، وكذبوهم أشد التكذيب .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨) .

يخبر تعالى عن عباده السعداء، وهم الذين آمنوا بالله ورسله، وصدقوهم فيما جاؤوا به بأن لهم جنات الفردوس .

قال مجاهد: الفردوس هو: البستان بالرومية .

وقال كعب، والسدى، والضحاك: هو البستان الذى فيه شجر الأعناب .

وقال أبو أمامة^(٩): الفردوس: سرّة^(١٠) الجنة .

وقال قتادة: الفردوس: ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها .

وقد روى هذا مرفوعاً من حديث سعيد بن بشير^(١١)، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرّة، عن النبي ﷺ: «الفردوس»^(١٢): ربوة الجنة، أوسطها وأحسنها»^(١٣) .

(١) تفسير الطبرى (٢٩/١٦) .

(٢) فى ت: «عامر» .

(٣) مسند البزار برقم (٢٩٥٦) «كشف الاستار» .

(٤) فى ت: «مولى عن عبيد»، وفى ف، أ: «مولى أبى عيينة» .

(٥) فى ف، أ: «وعنه عون» .

(٨) تفسير الطبرى (٢٩/١٦) .

(٩) فى ت: «أسامة» .

(١٢) فى ت: «والفردوس» .

(١٣) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢١٣/٧) من طريق أبى الجماهر، عن سعيد بن بشير به .

(٧) فى ت: «سمرّة» .

(٦) فى ت: «عامر» .

(١١) فى ف، أ: «بشير» .

(١٠) فى ت: «شجرة» .

وهكذا رواه إسماعيل بن مسلم، عن الحسن، عن سمرة مرفوعاً. وروى عن قتادة، عن أنس ابن مالك مرفوعاً بنحوه. وقد نقله^(١) ابن جرير، رحمه الله^(٢).

وفي الصحيحين: «إذ سألتهم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط^(٣) الجنة، ومنه تُفَجَّرُ أنهار الجنة»^(٤).

وقوله: ﴿تَزُلَّ﴾ أى: ضيافة، فإن النزول هو الضيافة.

وقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: مقيمين ساكنين^(٥) فيها، لا يظعنون عنها أبداً، ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ أى: لا يختارون^(٦) غيرها، ولا يحبون سواها، وكما قال الشاعر^(٧):

فَحَلَّتْ سَوِيدَا الْقَلْبِ لَا أَنَا بَاعِيَا
سَواها وَلَا عَنْ حُبِّها أَتَحَوِّلُ

وفى قوله: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ تنبيه على رغبتهم فيها، وحُبهم لها، مع أنه قد يتوهم^(٨) فيمن هو مقيم فى المكان دائماً أنه يسأمه أو يمله، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي، لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولاً ولا انتقالاً ولا ظعنًا^(٩) ولا رحلة^(١٠) ولا بدلاً^(١١).

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (١٠٩).

يقول تعالى: قل يا محمد: لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذى تكتب^(١٢) به كلمات ربى وحكمه وآياته الدالة^(١٣) عليه، ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ [أى: لفرغ البحر]^(١٤) قبل أن يفرغ من كتابة ذلك ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ﴾ أى: بمثل البحر آخر، ثم آخر، وهلم جرا، بحور تمده ويكتب بها، لما نفدت كلمات الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

قال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم فى علم الله كقطرة من ماء البحور^(١٥) كلها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾.

(١) فى أ: «ذكر ذلك كله».

(٢) تفسير الطبرى (٣٠ / ١٦) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣١٧٤) من طريق روح بن عباد، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس، رضى الله عنه، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٣) فى ت: «وأوسطه».

(٤) صحيح البخارى برقم (٧٤٢٣).

(٥) فى ف، أ: «ماكنين».

(٦) فى ت: «لا تختارون».

(٧) هو النابغة الجعدى، والبيت فى معنى اللبيب (ص ٢٦٥) أ. هـ. مستفاداً من حاشية ط - الشعب.

(٨) فى أ: «رحيلة».

(٩) فى ت: «ضعفا».

(١٠) فى أ: «أنه قد توهم».

(١١) فى ت، ف، أ: «بديلا».

(١٢) فى ف: «يكتب».

(١٣) فى ت، ف، أ: «والدلالات».

(١٤) فى ت: «البحر».

(١٥) زيادة من ت، ف، أ.

يقول: لو كان البحر مدادا [لكلمات الله]^(١)، والشجر كله أقلام^(٢)، لانكسرت الأقلام وفنى ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يثنى عليه كما ينبغى، حتى يكون هو الذى يثنى على نفسه، إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول^(٣)، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها فى نعيم الآخرة^(٤) كحبة من خردل فى خلال الأرض [كلها]^(٥).

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (١١٠).

روى الطبرانى من طريق هشام بن عمار، عن إسماعيل بن عياش، عن عمرو بن قيس الكوفى، أنه سمع معاوية بن أبى سفيان أنه قال: هذه آخر آية أنزلت^(٦).

يقول لرسوله محمد ﷺ^(٧): ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فمن زعم^(٨) أنى كاذب، فليأت بمثل ما جئت به، فإنى لا أعلم الغيب فيما^(٩) أخبرتكم به من الماضى، عما سألتكم من قصة أصحاب الكهف، وخبر ذى القرنين، مما هو مطابق^(١٠) فى نفس الأمر، لولا ما أطلعنى الله عليه، وأنا أخبركم ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ﴾ الذى أدعوكم إلى عبادته، ﴿إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ لا شريك له، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أى: ثوابه وجزاءه الصالح، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾، وهو ما كان موافقاً لشرع الله، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وهو الذى يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل. لابد أن يكون خالصاً لله، صواباً^(١١) على شريعة رسول الله ﷺ^(١٢). وقد روى ابن أبى حاتم من حديث معمر، عن عبد الكريم الجزرى، عن طاوس قال: قال رجل: يا رسول الله، إنى أقف المواقف أريد وجه الله، وأحب أن يرى موطنى. فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً. حتى نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

وهكذا أرسل هذا مجاهد، وغير واحد.

وقال الأعمش: حدثنا حمزة أبو عمارة مولى بنى هاشم، عن شهر بن حوشب قال: جاء رجل إلى عبادة بن الصامت فقال: أنبئنى عما أسألك عنه: أرأيت رجلاً يصلى، ويتغنى وجه الله، ويحب أن يُحمد، ويصوم ويتغنى وجه الله، ويحب أن يحمد، ويتصدق ويتغنى وجه الله، ويحب أن يحمد، ويحج ويتغنى وجه الله، ويحب أن يحمد، فقال عبادة: ليس له شيء، إن الله تعالى يقول: «أنا خير شريك، فمن كان له معى شريك^(١٣) فهو له كله، لا حاجة لى فيه». ^(١٤)

(١) زيادة من أ.
(٢) فى أ: «والشجر أقلام كلها». (٣) فى ت، أ: «يقول».
(٤) فى أ: «الجنة».
(٥) زيادة من ت، ف، أ.
(٦) المعجم الكبير (٣٩٢/١٩) وقال الهيثمى فى المجمع (١٤/٧): «رجاله ثقات».
(٧) فى ت، ف، أ: «صلوات الله وسلامه عليه».
(٨) فى ف، أ: «يزعم».
(٩) فى أ: «مما».
(١٠) فى ت، أ: «المطابق».
(١١) فى ت: «صواباً خالصاً له».
(١٢) زيادة من ف، أ.
(١٣) فى أ: «شرك».
(١٤) تفسير الطبرى (٣٢/١٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير، ثنا كثير بن زيد، عن ربيع بن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري، عن أبيه، عن جده قال: كنا نتناوب رسول الله ﷺ، فنبيت عنده، تكون^(١) له الحاجة، أو يطرقه أمر من الليل، فيبعثنا. فكثير المحتسبون^(٢) وأهل الثوب، فكنا نتحدث، فخرج علينا رسول الله ﷺ فقال: « ما هذه النجوى؟ [ألم أنهكم عن النجوى]^(٣) ». قال: فقلنا: تبنا إلى الله، أى نبي الله، إنما كنا فى ذكر المسيح، وفرقنا منه، فقال: « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح عندى؟ » قال: قلنا: بلى. قال: « الشرك الخفى، أن يقوم الرجل يصلى لمكان الرجل »^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الحميد - يعنى ابن بهرام - قال: قال شهر بن حوشب: قال ابن غنم: لما دخلنا مسجد الجابية أنا وأبو الدرداء، لقينا عبادة بن الصامت، فأخذ يميني بشماله، وشمال أبي الدرداء بيمينه، فخرج يمشى بيننا ونحن نتناجى، والله أعلم بما نتناجى به، فقال عبادة بن الصامت: إن طال بكما عمر أحدكما أو كليكما، لتوشكان^(٥) أن تريا الرجل من ثبج المسلمين - يعنى من وسط - قرأ القرآن على لسان محمد ﷺ فأعاده وأبداه، وأحل حلاله وحرم^(٦) حرامه، ونزل عند منازلهم، لا يحور فيكم إلا كما يحور^(٧) رأس الحمار الميت. قال: فبينما نحن كذلك، إذ طلع شداد بن أوس، رضى الله عنه، وعوف بن مالك، فجلسا إلينا، فقال شداد: إن أخوف ما أخاف عليكم أيها الناس لما سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من الشهوة الخفية والشرك ». فقال عبادة بن الصامت، وأبو الدرداء: اللهم غفراً. أو لم يكن رسول الله ﷺ قد حدثنا أن الشيطان قد يئس أن يعبد فى جزيرة العرب. وأما الشهوة الخفية^(٨) فقد عرفناها، هى شهوات الدنيا من نسائها وشهواتها، فما هذا الشرك الذى تخوفنا به ياشداد؟ فقال شداد: أرايتكم لو رأيتم رجلاً يصلى لرجل، أو يصوم لرجل، [أو تصدق له، أترون أنه قد أشرك؟ قالوا: نعم، والله إنه من صلى لرجل أو صام له]^(٩) أو تصدق له، لقد أشرك. فقال شداد: فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من صلى يرائى فقد أشرك، ومن صام يرائى فقد أشرك، ومن تصدق يرائى فقد أشرك؟ » فقال^(١١) عوف بن مالك عند ذلك: أفلا يعمد الله إلى ما ابتغى به وجهه من ذلك العمل كله، فيقبل ما خلص له ويدع ما أشرك به؟ فقال شداد عن ذلك: فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الله يقول: أنا خير قسيم لمن أشرك بى، من أشرك بى شيئاً فإن [حشده]^(١٢) عمله قليله وكثيره لشريكه الذى أشرك به، وأنا عنه غنى »^(١٣).

طريق [أخرى]^(١٤) لبعضه: قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني عبد الواحد بن زياد، أخبرنا عبادة بن نسي، عن شداد بن أوس، رضى الله عنه، أنه بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: شئ سمعته من رسول الله ﷺ [يقوله فذكرته]^(١٥) فأبكاني، سمعت رسول الله يقول: « أتخوف على أمتي الشرك والشهوة الخفية ». قلت: يارسول الله، أشرك أمتك [من بعدك؟]^(١٦) قال: « نعم،

(١) فى ت، ف: « تأذن »، وفى أ: « نأذن ».

(٣) زيادة من ف، أ، والمسند.

(٤) المسند (٣٠/٣) وفى إسناده ربيع بن عبد الرحمن قال أحمد: ليس بمعروف، وقال البخارى: منكر الحديث.

(٥) فى أ: « ليوشكان ». (٦) فى ت: « فحرم ».

(٨) فى أ: « حفية ». (٩)، (١٠) زيادة من ف، أ، والمسند. (١١) فى ف، أ: « قال ». (١٢) زيادة من ف، أ.

(١٣) المسند (٤/١٢٥). (١٤-١٦) زيادة من ف، أ.

أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً، ولا حجراً ولا وثناً، ولكن يراؤون بأعمالهم، والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه ^(١) .

ورواه ابن ماجه من حديث الحسن بن ذكوان، عن عبادة بن نسي، به ^(٢) . وعبادة فيه ضعف وفي سماعه من شداد نظر .

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا الحسين ^(٣) بن علي بن جعفر الأحمر، حدثنا علي ابن ثابت، حدثنا قيس بن ^(٤) أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « يقول الله يوم القيامة: أنا خير شريك، من ^(٥) أشرك بي أحداً فهو له كله » .

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت العلاء يحدث عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، يرويه عن ربه، عز وجل، أنه قال: « أنا خير الشركاء، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري، فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك » . تفرد به من هذا الوجه ^(٦) .

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا ليث، عن يزيد - يعني ابن الهاد - عن عمرو، عن محمود بن لبيد؛ أن رسول الله ﷺ قال: « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » . قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: « الرياء » ، يقول الله يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ^(٧) .

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر ^(٨) ، أخبرنا عبد الحميد - يعني ابن جعفر - أخبرني أبي، عن زياد بن ميناء، عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري - وكان من الصحابة - أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة ليوم لا ريب فيه، نادى مناد: من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » .

وأخرجه الترمذي وابن ماجه، [من حديث محمد بن ^(٩) بكر ^(١٠) وهو البُرساني، به ^(١١) .

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا بكار، حدثني أبي - يعني عبد العزيز بن أبي بكرة ^(١٢) - عن أبي بكرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « من سمع سمع الله به، ومن رأى رأى الله به » ^(١٣) .

وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية، حدثنا شيبان، عن فراس، عن عطية، عن أبي سعيد

(١) في أ: «صيامه» .

(٢) المسند (١٢٣/٤) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٠٥) .

(٣) في ف، أ: «الحسن» .

(٤) في أ: «عن» .

(٥) في أ: «فمن» .

(٦) المسند (٣٠١/٢) ورواه ابن خزيمة في صحيحه برقم (٩٣٨) من طريق محمد بن جعفر به .

(٧) المسند (٤٢٨/٥) وقال الهيثمي في المجمع (١٠٢/١): «رجال رجال الصحيح» .

(٨) في ف، أ: «بكير» .

(٩) زيادة من ف، أ .

(١٠) في ف، أ: «بكير» .

(١١) المسند (٢١٥/٤) وسنن الترمذي برقم (٣١٥٤) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٠٣) .

(١٢) في ف، أ: «بكر» .

(١٣) المسند (٤٥/٥) .

الخدري، عن رسول الله ﷺ قال: « من يرائي يرائي الله به، ومن يسمع يسمع الله به »^(١).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة، حدثني عمرو بن مرة، قال: سمعت رجلاً في بيت أبي عبيدة؛ أنه سمع^(٢) عبد الله بن عمرو يحدث ابن عمر^(٣)، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « من سمع الناس بعمله سمع الله به، سامع خلقه وصغره وحقره » [قال]^(٤): فذرفت عينا عبد الله^(٥).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عمرو بن يحيى الأيلي، حدثنا الحارث بن غسان، حدثنا أبو عمران الجوني، عن أنس، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « تعرض أعمال بني آدم بين يدى الله، عز وجل، يوم القيامة فى صحف مختومة^(٦)، فيقول الله: ألقوا هذا، واقلبوا هذا، فتقول الملائكة: يارب، والله ما رأينا منه إلا خيراً. فيقول: إن عمله كان لغير وجهي، ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهي ».

ثم قال الحارث بن غسان: روى عنه جماعة وهو بصرى ليس به بأس^(٧).

وقال ابن وهب: حدثني يزيد بن عياض، عن عبد الرحمن الأعرج، عن عبد الله^(٨) بن قيس الخزاعي، أن رسول الله ﷺ قال: « من قام رياء وسمعة، لم يزل^(٩) فى مقت الله حتى يجلس »^(١٠).

وقال أبو يعلى: حدثنا محمد بن أبى بكر، حدثنا محمد بن دينار، عن إبراهيم الهجرى عن أبى الأحوص، عن عوف^(١١) بن مالك، عن ابن مسعود، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو، فتلك^(١٢) استهانة استهان بها ربه، عز وجل »^(١٣).

وقال ابن جرير: حدثنا أبو عامر إسماعيل بن عمرو السكوني، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا ابن عباس^(١٤)، حدثنا عمرو بن قيس الكندي؛ أنه سمع معاوية بن أبى سفيان تلا هذه الآية ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾، وقال: إنها آخر آية نزلت من القرآن^(١٥).

(١) المسند (٣/ ٤٠).

(٢) فى أ: «ليسمع».

(٣) فى أ: «عمرو».

(٥) المسند (٢/ ١٦٢).

(٦) فى أ: «مختمة».

(٧) مسند البزار برقم (٣٤٣٥) «كشف الاستار».

(٨) فى أ: «عبد الرحمن».

(٩) فى ت، أ: «يزد».

(١٠) قال الهيثمى فى المجمع (٢٢٣/ ١٠): «رواه الطبرانى وفيه يزيد بن عياض وهو متروك». وله شاهد من حديث أبى هند الدارى رواه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٧٠).

(١١) فى ت، ف، أ: «عروة».

(١٢) فى أ: «فذلك».

(١٣) مسند أبى يعلى (٩/ ٥٤) وحسنه الحافظ ابن حجر فى المطالب العلية (٣/ ١٨٣) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٢١): «فيه إبراهيم ابن مسلم الهجرى وهو ضعيف».

(١٤) فى ت، أ: «ابن عباس».

(١٥) تفسير الطبرى (١٦/ ٣٢).

وهذا أثر مشكل، فإن هذه الآية [هى] ^(١) آخر سورة الكهف. والكهف كلها مكية، ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها ما ينسخها ^(٢) ولا يغير حكمها ^(٣)، بل هى مثبتة محكمة، فاشتبه ذلك على بعض الرواة، فروى بالمعنى ما فهمه، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن على بن الحسن بن شقيق، حدثنا النضر بن شميل، حدثنا أبو قُرَّة، عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ فِي لَيْلَةٍ: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾، كَانَ لَهُ مِنْ نُورٍ، مِنْ عَدَنَ أَبِينِ إِلَى [مَكَّة] ^(٤) حَشْوَةُ الْمَلَائِكَةِ» ^(٥). غريب جداً.

آخر [تفسير] ^(٦) سورة الكهف والله الحمد ^(٧)

(١) زيادة من أ.

(٢) فى أ: «آية تنسخها».

(٣) فى ت، ف: «بعدها آية تنسخها ولا يغير حكمها».

(٤) زيادة من ف، أ.

(٥) مسند البزار برقم (٣١٠٨) «كشف الأستار»، وأبو قرة الأسدى جهله الذهبى وابن حجر، وقال الذهبى: «تفرد عنه النضر بن

شميل». وقال ابن حجر: «أخرج ابن خزيمة حديثه فى صحيحه وقال: لا أعرفه بعدالة ولا جرح».

(٦) زيادة من ت.

(٧) فى ت: «والحمد لله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، غفر الله لمن كتبه ولمن كان سبباً فى كتابته».

تفسير سورة مريم [عليها السلام] (١)

وهي مكية.

وقد روى محمد بن إسحاق في السيرة من حديث أم سلمة، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود، في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة: أن جعفر بن أبي طالب، رضى الله عنه، قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه (٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كَهَيْعَصَ (١) ذَكَرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة .

وقوله: ﴿ذَكَرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ أى: هذا ذكر رحمة الله بعبده زكريا.

وقرأ يحيى بن يعمر «ذَكَرَ رَحْمَةَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا».

[و] (٣) ﴿زَكَرِيَّا﴾: يمد ويقصر قراءتان مشهورتان. وكان نبياً عظيماً من أنبياء بنى إسرائيل. وفي

صحيح البخارى: أنه كان نجاراً، أى: كان يأكل من عمل يديه فى النجارة .

وقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾: قال بعض المفسرين: إنما أخفى دعاءه، لئلا ينسب فى طلب

الولد إلى الرعونة لكبره . حكاه الماوردى .

وقال آخرون: إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله . كما قال قتادة فى هذه الآية ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً

خَفِيًّا﴾: إن الله يعلم القلب التقى (٤) ، ويسمع الصوت الخفى .

وقال بعض السلف: قام من الليل، عليه السلام، وقد نام أصحابه، فجعل يهتف بربه يقول

خفية: يارب، يارب، يارب فقال الله: لبيك، لبيك، لبيك .

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أى: ضعفت (٥) وخارت القوى ، ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أى:

(١) زيادة من ت، ف، أ.

(٢) رواه الإمام أحمد من حديث أم سلمة (٥/ ٢٩٠) ومن حديث ابن مسعود (١/ ٤٦١).

(٥) فى ت، ف: «ضعف».

(٤) فى ت: «النقى».

(٣) زيادة من ت، ف.

اضطرم المشيب فى السواد، كما قال ابن دُرَيْد فى مقصورته^(١):

إِمَّا^(٢) تَرَى رَأْسِي حَاكِي لَوْنُهُ طُرَّةٌ صُبْحَ تَحْتَ أَذْيَالِ الدُّجَى
وَاشْتَعَلَ الْمُبْيَضُ فِى مُسَوَّدَةٍ مِثْلَ اشْتِعَالِ النَّارِ فِى جَمَرِ^(٣) الْغَضَا

والمراد من هذا: الإخبار عن الضعف والكبر، ودلائله الظاهرة والباطنة.

وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أى: ولم أعهد منك إلا الإجابة^(٤) فى الدعاء، ولم تردنى قط فيما سألتك.

وقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾: قرأ الأكثرون بنصب «الياء» من ﴿الْمَوَالِيَ﴾ على أنه مفعول، وعن الكسائى أنه سكن الياء، كما قال الشاعر:

كَأَنَّ أَيْدِيَهُنَّ فِى الْقَاعِ الْفَرْقُ أَيْدَى جَوَارٍ يَتَعَاطِينَ الْوَرَقَ^(٥)

وقال الآخر:

فَتَى لَوْ يُبَارَى الشَّمْسُ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا أَوْ الْقَمَرُ السَّارَى لَأَلْقَى الْمَقَالِدَا
ومنه قول أبى تمام حبيب بن أوس الطائى:

تَغَايِرُ الشَّعْرِ فِيهِ^(٦) إِذْ سَهَرَتْ لَهُ حَتَّى ظَنَنْتُ قَوَافِيهِ سَتَقْتُلُ^(٧)

وقال مجاهد، وقتادة، والسدى: أراد بالموالى العصبية. وقال أبو صالح: الكلالة.

وروى عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه، أنه كان يقرؤها: «وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي» بتشديد «الفاء» بمعنى: قلت عصبائى^(٨) من بعدى.

وعلى القراءة الأولى، وجه خوفه أنه خشى أن يتصرفوا [من]^(٩) بعده فى الناس تصرفاً سيئاً، فسأل الله ولداً، يكون نبياً من بعده، ليسوسهم بنبوته وما يوحى إليه. فأجيب فى ذلك، لا أنه خشى من وراثتهم له ماله، فإن النبى أعظم منزلة وأجل قدراً من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده^(١٠) أن يأنف^(١١) من وراثته عصبائه^(١٢) له، ويسأل أن يكون له ولد، فيحوز^(١٣) ميراثه دونه دونهم. هذا وجه.

الثانى: أنه لم يذكر أنه كان ذا مال، بل كان نجاراً يأكل من كسب^(١٤) يديه، ومثل هذا لا يجمع مالاً ولا سيما الأنبياء، عليهم السلام، فإنهم كانوا أزهد شىء فى الدنيا.

الثالث: أنه قد ثبت فى الصحيحين من غير وجه: أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تُورَثُ، مَا

(١) انظر: شرح مقصورة ابن دريد (ص ٢). أ. هـ. مستفاداً من حاشية ط - الشعب.

(٢) فى أ: «ما». (٣) فى ت، ف، أ: «جزل». (٤) فى أ: «إجابة».

(٥) الرجز فى اللسان مادة (قرق) غير منسوب.

(٦) فى ت: «منه».

(٧) البيت فى ديوان أبى تمام (٢٢٧) أ. هـ. مستفاداً من حاشية ط - الشعب.

(٨) فى أ: «عصائى». (٩) زيادة من ت، ف.

(١٠) فى أ: «حسده». (١١) فى أ: «يأنف». (١٢) فى أ: «عصائته».

(١٣) فى ف، أ: «ليجوز». (١٤) فى أ: «من عمل».

تركنا فهو صدقة»^(١). وفى رواية عند الترمذى بإسناد صحيح: «نحن معشر الأنبياء لا نورث»^(٢). وعلى^(٣) هذا فتعين حمل قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِي﴾ على ميراث النبوة؛ ولهذا قال: ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦] أى: فى النبوة؛ إذ لو كان فى المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان فى الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر فى جميع الشرائع والمثل أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثته خاصة لما أخبر بها، وكل هذا يقرره ويثبت^(٤) ما صح فى الحديث: «نحن معشر الأنبياء لا نورث»، ما تركنا فهو صدقة». قال مجاهد فى قوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [قال]^(٥): كان وراثته علماً وكان زكريا من ذرية يعقوب.

وقال هشيم: أخبرنا إسماعيل بن أبى خالد، عن أبى صالح فى قوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ قال: [قد]^(٦) يكون نبياً كما كانت آباؤه أنبياء.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، عن الحسن: يرث نبوته وعلمه.

وقال السدى: يرث نبوتى ونبوة آل يعقوب.

وعن مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ قال: نبوتهم.

وقال جابر بن نوح ويزيد بن هارون، كلاهما عن إسماعيل بن أبى خالد، عن أبى صالح فى قوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ قال: يرث مالى، ويرث من آل يعقوب النبوة. وهذا اختيار ابن جرير فى تفسيره.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا^(٧) معمر، عن قتادة: أن رسول الله ﷺ قال: «يرحم الله زكريا، وما كان عليه من ورثة، ويرحم الله لوطاً، إن كان ليأوى إلى ركن شديد»^(٨).

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا جابر بن نوح، عن مبارك - هو^(٩) ابن فضالة - عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أخى زكريا، ما كان عليه من ورثة ماله حين يقول: ﴿هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾»^(١٠).

(١) جاء من حديث عائشة، وأبى بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وطلحة، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام أما حديث عائشة فرواه البخارى: (٦٧٣٠) ومسلم برقم (١٧٥٨). وأما حديث أبو بكر فرواه البخارى برقم (٣٧/١) ومسلم برقم (١٧٥٩). وأما حديث عمر بن الخطاب وعثمان وطلحة والزبير، فرواه البخارى برقم (٣٠٩٤، ٦٧٢٨، ٧٣٠٥) ومسلم برقم (١٧٥٧).
(٢) لم أجده فى سنن الترمذى المطبوع بهذا اللفظ. وانظر كلام الحافظ ابن حجر عن هذه الرواية والوجه التى تحمل عليها فى الفتح (٨/١٢).

(٣) فى ف: «فعلى».

(٤) فى أ: «ونبيه».

(٥) زيادة من ف.

(٦) فى ت: «حدثنا».

(٧) زيادة من ف، أ.

(٨) تفسير عبد الرزاق (٥/٢) وقد وصل طرفه الثانى: «يرحم الله لوطاً لقد كان يأوى إلى ركن شديد».

(٩) الإمام أحمد فى مسنده (٣٥٠/٢) من طريق الزهري عن سعيد وأبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(١٠) فى ف: «وهو».

(١١) تفسير الطبرى (٣٧/١٦).

وهذه رسائل لاتعارض الصحاح، والله أعلم .

وقوله: ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ أى مرضياً عندك وعند خلقك، تحبه وتحببه إلى خلقك فى دينه وخلقه .

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) ﴾ .

هذا الكلام يتضمن محذوفاً، وهو أنه أجيب إلى ما سأل فى دعائه فقيل [له] (١): ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى ﴾، كما قال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ . فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٨، ٣٩] .

وقوله: ﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾: قال قتادة، وابن جريج، وابن زيد: أى لم يسم أحد قبله بهذا الاسم، واختاره ابن جرير، رحمه الله .

وقال مجاهد: ﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ أى: شبيهاً .

أخذه من معنى قوله: ﴿ فَأَعْبَدُهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥] أى: شبيهاً .

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أى لم تلد العواقر قبله مثله .

وهذا دليل على أن زكريا، عليه السلام، كان لا يولد له، وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها، بخلاف إبراهيم وسارة، عليهما السلام، فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق على كبرهما (٢) لا لعقرهما (٣) ؛ ولهذا قال: ﴿ أَبَشِّرْهُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسْنِيَ الْكِبَرِ فِيمَ تَبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر: ٥٤] مع أنه كان قد ولد له قبله (٤)، إسماعيل بثلاث عشرة سنة وقالت امرأته: ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ . قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ [هود: ٧٢، ٧٣] .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) ﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) ﴾ .

هذا تعجب من زكريا، عليه السلام، حين أجيب إلى ما سأل، وبُشِّر بالولد، ففرح فرحاً شديداً، وسأل عن كيفية ما يولد له، والوجه الذى يأتيه منه الولد، مع أن امرأته [كانت] (٥) عاقراً لم تلد من أول عمرها مع كبرها، ومع أنه قد كبر وعتا، أى عسا عظمه ونحل (٦) ولم يبق فيه لقاح ولاجماع .

تقول العرب للعود إذا يبس: «عَتَا يَعْتُو عَتِيًّا وَعُتْوًا، وَعَسَا يَعْسُو عُسْوًا وَعِيسِيًّا» .

(١) زيادة من ف، أ. (٢) فى أ: «لكبرهما» . (٣) فى أ: «لا لعقرها» .

(٤) فى ت، أ: «أنه قد كان ولد له قبل»، وفى ف: «أنه كان ولد له قبل» . (٥) زيادة من ف، أ. (٦) فى أ: «وقحل» .

وقال مجاهد: ﴿عَتِيًّا﴾ بمعنى: نحول^(١) العظم.

وقال ابن عباس وغيره. ﴿عَتِيًّا﴾ يعنى: الكبر.

والظاهر أنه أخص من الكبر.

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا هشيم، أخبرنا حصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لقد علمت السنة كلها، غير أنى لا أدري أكان رسول الله ﷺ يقرأ فى الظهر والعصر أم لا؟ ولا أدري كيف كان يقرأ هذا الحرف: ﴿وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عَتِيًّا﴾ أو ﴿عَسِيًّا﴾.

ورواه الإمام أحمد عن سريج^(٢) بن النعمان، وأبو داود، عن زياد بن أيوب، كلاهما عن هشيم،

به.

﴿قَالَ﴾ أى الملك مجيباً لذكرى عما استعجب منه: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أى: إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها ﴿هَيِّنٌ﴾ أى: يسير سهل على الله.

ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه، فقال: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ (١٠) فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا (١١).

يقول تعالى مخبراً عن زكريا، عليه السلام، أنه ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً﴾ أى: علامة ودليلاً على وجود ما وعدتنى، لتستقر نفسى ويطمئن قلبى بما وعدتنى كما قال إبراهيم، عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ الآية [البقرة: ٢٦٠]. ﴿قَالَ آيَتُكَ﴾ أى: علامتك ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أى: أن تحبس^(٤) لسانك عن الكلام ثلاث ليال وأنت صحيح سوى من غير مرض ولا علة^(٥).

قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وهب [بن منبه]^(٦)، والسدى وقتادة وغير واحد: اعتقل لسانه من غير مرض.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان يقرأ ويسبح ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أى: متتابعات.

والقول الأول عنه وعن الجمهور أصح^(٧)، كما قال تعالى فى [أول]^(٨) آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ

(١) فى أ: «يعنى فحول».

(٢) فى ف، أ: «شريح».

(٣) تفسير الطبرى (٣٩/١٦)، والمسند (٢٤٩/١) وسنن أبى دود برقم (٨٠٩).

(٤) فى ف: «تحتبس».

(٥) فى أ: «وعلامه».

(٦) زيادة من ت، ف، أ.

(٨) زيادة من أ.

(٧) فى ف، أ: «واضح».

اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آتَيْكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ [آل عمران: ٤١].

وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ من غير خرس.

وهذا دليل على أنه لم يكن يكلم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ أى: إشارة؛ ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ أى: الذى بشر فيه بالولد، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ أى: أشار إشارة خفية سريعة: ﴿أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أى: موافقة له فيما أمر به فى هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله، وشكراً لله على ما أولاه .

قال مجاهد: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ أى: أشار. وبه قال وهب، وقتادة .

وقال مجاهد فى رواية عنه: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ أى: كتب لهم فى الأرض. كذا قال السدى.

﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ .

وهذا أيضاً تضمن^(١) محذوفاً، تقديره: أنه وجد هذا الغلام المبشر به، وهو يحيى، عليه السلام، وأن الله علمه الكتاب، وهو التوراة التى كانوا يتدارسونها بينهم، ويحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأخبار . وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً، فلهذا نوه بذكره، وبما أنعم به عليه وعلى والديه، فقال: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ أى: تعلم الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أى: بجهد وحرص واجتهاد ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أى: الفهم والعلم والجد والعزم، والإقبال على الخير، والإكباب عليه، والاجتهاد فيه وهو صغير حدث [السن]^(٢).

قال عبد الله بن المبارك: قال معمر: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب. قال: ما للعب خلقت^(٣)، قال: فلهذا أنزل الله: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ .

وقوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ يقول: ورحمة من عندنا. وكذا قال عكرمة، وقتادة، والضحاك وزاد: لا يقدر عليها غيرنا. وزاد قتادة: رُحِمَ بها زكريا .

وقال مجاهد: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾: وتعطفاً من ربه عليه.

وقال عكرمة: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [قال: محبة عليه. وقال ابن زيد: أما الحنان فالمحبة. وقال عطاء بن أبى رباح: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾]^(٤)، قال: تعظيماً من لدنا^(٥).

(٣) فى ف، أ: «خلقتنا».

(٢) زيادة من أ.

(١) فى أ: «يضمن».

(٥) فى أ: «الدنيا».

(٤) زيادة من ف، أ.

وقال ابن جريج: أخبرني عمرو بن دينار، أنه سمع عكرمة عن ابن عباس قال: لا والله ما أدري^(١) ما حناناً .

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن منصور: سألت سعيد بن جبير عن قوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾، فقال: سألت عنها عباس، فلم يحر^(٢) فيها شيئاً .

والظاهر من هذا السياق أن: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾^(٣) معطوف على قوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أى: وأتيناه الحكم وحناناً، ﴿وَزَكَاةً﴾ أى: وجعلناه ذا حنان وزكاة، فالحنان هو المحبة فى شفقة وميل كما تقول العرب: حنّت الناقة على ولدها، وحنّت المرأة على زوجها. ومنه سميت المرأة «حنّة» من الحنّة، وحن الرجل إلى وطنه، ومنه التعطف والرحمة، كما قال الشاعر^(٤):

تَحَنَّنَ^(٥) عَلَى هَذَاكَ الْمَلِكِ فَإِنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا

وفى المسند للإمام أحمد، عن أنس، رضى الله عنه، أن^(٦) رسول الله ﷺ قال: «يبقى رجل فى النار ينادى ألف سنة: يا حنان يا منان»^(٧).

وقد يُشْنَى^(٨)، ومنهم من يجعل ما ورد من ذلك لغة بذاتها، كما قال طرفة:

أَنَا مُنْذَرُ أَفْنِيَتٍ فَاسْتَبَقَ بَعْضُنَا حَنَانِيكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ^(٩)

وقوله: ﴿وَزَكَاةً﴾ معطوف على ﴿وَحَنَانًا﴾ فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب.

وقال قتادة: الزكاة^(١١) العمل الصالح.

وقال الضحاك وابن جريج: العمل الصالح الزكى .

وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَزَكَاةً﴾ [قال: بركة]^(١٢) ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾: طهر، فلم يعمل بذنوب.

وقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾: لما ذكر تعالى طاعته لربه، وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة وتقى، عطف بذكر طاعته لوالديه وبره بهما، ومجانبته^(١٣) عقوقهما، قولاً وفعلًا [وأمرًا]^(١٤) ونهيًا؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾. ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُعْثَرُ حَيًّا﴾ أى: له الأمان فى هذه الثلاثة الأحوال.

وقال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون الخلق فى ثلاثة مواطن: يوم يولد، فيرى نفسه خارجاً عما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم. ويوم يبعث، فيرى نفسه فى محشر عظيم. قال: فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصه بالسلام عليه، فقال: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُعْثَرُ حَيًّا﴾.

(١) فى ت، أ: «لا أدري».

(٢) فى ف، أ: «يخير».

(٣) زيادة من ف، أ.

(٦) فى ت، ف، أ: «عن».

(٥) فى أ: «تعطف».

(٤) هو الخطيئة، والبيت فى اللسان، مادة «حنن».

(٧) المسند (٣/ ٢٣٠).

(٩) فى أ: «فى».

(٨) فى أ: «يعنى».

(١٠) البيت فى ديوانه (ص ٢٠٨) هـ - مستفاداً من حاشية ط - الشعب.

(١١) فى ت: «والزكاة».

(١٤) زيادة من أ.

(١٣) فى ف: «ومجانبة».

(١٢) زيادة من ف، أ.

يَبْعَثُ حَيًّا ﴿١٦﴾. رواه ابن جرير عن أحمد بن منصور المروزي عن صدقة بن الفضل عنه.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة، في قوله: ﴿جَبَّارًا عَصِيًّا﴾، قال: كان ابن المسيب يذكر قال: قال النبي ﷺ: «ما من أحد يلقى الله يوم القيامة إلا ذا ذنب، إلا يحيى بن زكريا». قال قتادة ما أذنّب ولا همّ بامرأة، مرسل^(١).

وقال محمد بن إسحاق، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، حدثني ابن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ قال^(٢): «كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب، إلا ما كان من يحيى بن زكريا»^(٣) ابن إسحاق هذا مدلس، وقد عنعن هذا الحديث، فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، أخبرنا علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ، أو همّ بخطيئة، ليس يحيى بن زكريا، وما ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»^(٤).

وهذا أيضاً ضعيف؛ لأن علي بن زيد بن جدعان له منكرات كثيرة، والله أعلم.

وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة: أن حسن قال: إن يحيى وعيسى، عليهما السلام، التقيا، فقال له عيسى: استغفر لي، أنت خير مني. فقال له الآخر: استغفر لي فأنت^(٥) خير مني. فقال له عيسى: أنت خير مني، سلّمت على نفسي، وسلم الله عليك، فعرف والله فضلها.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١)﴾.

لما ذكر تعالى قصة زكريا، عليه السلام، وأنه أوجد منه، في حال كبره وعقم زوجته، ولداً زكياً طاهراً مباركاً - عطف بذكر قصة مريم في إيجاده ولدها عيسى، عليهما^(٦) السلام، منها من غير أب، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة^(٧)؛ ولهذا ذكرهما في آل عمران وههنا وفي سورة الأنبياء، يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى، ليدل عباده على قدرته وعظمته سلطانه، وأنه على ما يشاء

(١) تفسير عبد الرزاق (٧/٢).

(٢) في ت: «أنه قال».

(٣) رواه الطبري في تفسيره (٤٤/١٦) والحاكم في المستدرک (٣٧٣/٢) من طريق محمد بن إسحاق به، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووفقه الذهبي، ورجح أبو حاتم وقفه، وقال لابنه: «لا يرفعون هذا الحديث».

(٤) المسند (٢٥٤/١).

(٥) في أ: «أنت».

(٦) في ف، أ: «عليه».

(٧) في أ: «ومشابهة».

قادر^(١)، فقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ وهى مريم بنت عمران، من سلالة داود، عليه السلام، وكانت من بيت طاهر طيب فى بنى إسرائيل. وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمها لها فى «آل عمران»، وأنها نذرتها محررة، أى: تخدم^(٢) مسجد بيت المقدس، وكانوا يتقربون بذلك، ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧] ونشأت فى بنى إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت^(٣) إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة^(٤) والتبتل والدؤوب، وكانت فى كفالة زوج أختها - وقيل: خالتها - زكريا نبي بنى إسرائيل إذ ذاك وعظيمهم، الذى يرجعون إليه فى دينهم. ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره، ﴿كَلَّمَآ دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] فذكر أنه كان يجد عندها ثمر^(٥) الشتاء فى الصيف وثمر^(٦) الصيف فى الشتاء، كما تقدم بيانه فى «آل عمران». فلما أراد الله تعالى - وله الحكمة والحجة البالغة - أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى، عليه السلام، أحد الرسل أولى العزم الخمسة العظام، ﴿فَانْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أى: اعتزلتهم وتنحت عنهم، وذهبت إلى شرق المسجد المقدس.

قال السدى: لحيض أصابها. وقيل لغير ذلك. قال أبو كُدَيْنَةَ، عن قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: إن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت والحج إليه، وما صرفهم عنه إلا قيل ربك: ﴿فَانْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾، قال: خرجت مريم مكاناً شرقياً، فصلوا قبل مطلع الشمس. رواه ابن أبى حاتم، وابن جرير.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا إسحاق بن شاهين، حدثنا خالد بن عبد الله، عن داود، عن عامر، عن ابن عباس قال: إني لأعلم خلق الله لاى شىء اتخذت النصارى المشرق قبلة؛ لقول الله تعالى^(٧): ﴿فَانْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ واتخذوا^(٨) ميلاد عيسى قبلة^(٩).

وقال قتادة: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾: شاسعاً متنجياً.

وقال محمد بن إسحاق: ذهبت بقلتها تستقى [من]^(١٠) الماء.

وقال نَوْفُ الْبِكَالَى: اتخذت لها منزلاً تتعبد فيه. فالله^(١١) أعلم.

وقوله: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أى: استترت منهم وتوارت، فأرسل الله تعالى إليها جبريل، عليه السلام، ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أى: على صورة إنسان تام كامل.

قال مجاهد، والضحاك، وقتادة، وابن جُرَيْج^(١٢)، ووهب بن منبه، والسدى فى قوله: ﴿فَارْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ يعنى: جبريل، عليه السلام.

(٣) فى ت: «وكانت».

(٢) فى أ: «لخدمة».

(١) فى ت، أ: «قدير».

(٥، ٦) فى أ: «ثمرة».

(٤) فى ت: «والعظمة».

(٨) فى أ: «فاتخذوا».

(٧) فى ت: «لقول الله عز وجل»، وفى ف: «لقوله».

(٩) تفسير الطبرى (٤٥/١٦).

(١٢) فى ت: «وابن جرير».

(١١) فى ت: «والله».

(١٠) زيادة من ت، ف، أ.

وهذا الذى قالوه هو ظاهر القرآن؛ فإنه تعالى قد قال فى الآية الأخرى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤].

وقال أبو جعفر الرازى^(١)، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالىة، عن أبى بن كعب قال: إن روح عيسى، عليه السلام، من جملة الأرواح التى أخذ عليها العهد فى زمان آدم، وهو الذى تمثل لها بشراً سوياً، أى: روح عيسى، فحملت الذى خاطبها وحل فى فيها.

وهذا فى غاية الغرابة والنكارة، وكأنه إسرائيلى.

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ أى: لما تبدى لها الملك فى صورة بشر، وهى^(٢) فى مكان منفرد وبينها وبين قومها حجاب، خافته وظنت أنه يريد لها على نفسها، فقالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ أى: إن كنت تخاف الله. تذكير^(٣) له بالله، وهذا هو المشروع فى الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل، فخوفته أولاً بالله، عز وجل.

قال ابن جرير: حدثنى أبو كريب، حدثنا أبو بكر، عن عاصم قال: قال أبو وائل - وذكر قصة مريم - فقال: قد علمت أن التقى ذو نهيّة حين قالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا. قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أى: فقال لها الملك مجيباً لها ومزيلاً ما^(٤) حصل عندها من الخوف على نفسها: لست مما تظنين، ولكنى رسول ربك، أى: بعثنى إليك، ويقال: إنها لما ذكرت الرحمن انتفض جبريل فرقا^(٥) وعاد إلى هيئته وقال: «إنما أنا رسول ربك ليهب لك غلاماً زكياً».

[هكذا قرأ أبو عمرو بن العلاء أحد مشهورى القراء. وقرأ الآخرون: ﴿لَأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا﴾]^(٦) وكلا القراءتين له وجه حسن، ومعنى صحيح، وكل تستلزم^(٧) الأخرى.

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ أى: فتعجبت مريم من هذا وقالت: كيف يكون لى غلام؟ أى: على أى صفة يوجد هذا الغلام منى، ولست بذات زوج، ولا يتصور منى الفجور؛ ولهذا قالت: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾. والبغى: هى الزانية؛ ولهذا جاء فى الحديث نهى عن مهر البغى. ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أى: فقال لها الملك مجيباً لها عما سألت: إن الله قد قال: إنه سيوجد منك غلاماً، وإن لم يكن لك بعل ولا توجد^(٨) منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قادر^(٩)؛ ولهذا قال: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أى: دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم، الذى نوع^(١٠) فى خلقهم، فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه فلا إله غيره ولا رب سواه.

وقوله: ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ أى ونجعل^(١١) هذا الغلام رحمة من الله نبياً من الأنبياء يدعو إلى عبادة

(١) فى أ: «وقال أبو جعفر الرازى عن أبيه».

(٢) فى ت، ف، أ: «وهو».

(٣) فى أ: «تذكر».

(٤) فى ف، أ: «فرعاً».

(٦) زيادة من ف، أ.

(٤) فى أ: «لما».

(٨) فى ت، ف، أ: «ولا يوجد».

(٩) فى أ: «قدير».

(٧) فى أ: «يستلزم».

(١١) فى ت، ف، أ: «ويجعل».

(١٠) فى ت، ف، أ: «تنوع».

اللَّهُ تَعَالَى وتوحيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ . وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦] أى: يدعو إلى عبادة الله ربه فى مهده^(١) وكهولته.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد الرحيم بن إبراهيم - دُحَيْمٌ - حدثنا مروان، حدثنا العلاء بن الحارث الكوفى، عن مجاهد قال: قالت مريم، عليها السلام: كنت إذا خلوت حدثنى عيسى وكلمنى وهو فى بطنى، وإذا كنت مع الناس سبح فى بطنى وكبر .

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ يحتمل أن هذا من تمام كلام جبريل لمريم، يخبرها أن هذا أمر مقدر فى علم الله تعالى وقدره ومشيتته . ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وأنه كنى بهذا عن النفخ فى فرجها، كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحریم: ١٢]، وقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١].

قال محمد بن إسحاق: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أى: أن الله قد عزم على هذا، فليس منه بد، واختار هذا أيضاً ابن جرير فى تفسيره، ولم يحك غيره، والله أعلم .

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا (٢٣)﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن الله تعالى ما قال، أنها استسلمت لقضاء الله تعالى^(٢) . فذكر غير واحد من علماء السلف أن الملك - وهو جبريل عليه السلام - عند ذلك نفخ فى جيب درعها، فنزلت النفخة حتى ولجت فى الفرج، فحملت بالولد بإذن الله تعالى . فلما حملت به ضاقت ذرعاً به^(٣)، ولم تدر ماذا تقول^(٤) للناس، فإنها تعلم أن الناس لا يصدقونها فيما تخبرهم به، غير أنها أفشت سرها وذكرت أمرها لأختها امرأة زكريا . وذلك أن زكريا، عليه السلام، كان قد سأل الله الولد، فأجيب إلى ذلك، فحملت امرأته، فدخلت عليها مريم فقامت إليها فاعتنقتها، وقالت: أشعرت يامريم أنى حبلى ؟ فقالت لها مريم: وهل علمت أيضاً أنى حبلى ؟ وذكرت لها شأنها وماكان من خبرها وكانوا بيت إيمان وتصدق، ثم كانت امرأة زكريا بعد ذلك إذا واجهت^(٥) مريم تجدد الذى فى جوفها^(٦) يسجد للذى فى بطن مريم، أى: يعظمه ويخضع له، فإن السجود كان فى ملتهم عند السلام مشروعاً، كما سجد ليوسف أبواه وإخوته، وكما أمر الله الملائكة أن تسجد^(٧) لآدم، عليه السلام، ولكن حرم فى ملتنا هذه تكميلاً لتعظيم جلال الرب تعالى .

قال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين قال: قرئ على الحارث بن مسكين وأنا أسمع، قال: أخبرنا عبد الرحمن بن القاسم قال : قال مالك، رحمه الله: بلغنى أن عيسى ابن مريم ويحيى بن

(١) فى ت، أ: «المهد» . (٢) فى ت: «الله عز وجل» . (٣) فى أ: «بهما» .
(٤) فى ت: «يقول» . (٥) فى أ: «وجهت» . (٦) فى ف: «بطنها» . (٧) فى ف، أ: «يسجدوا» .

زكريا ابنا خالة، وكان حملهما جميعاً معاً، فبلغنى أن أم يحيى قالت لمريم: إني أرى أن ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك . قال مالك: أرى ذلك لتفضيل عيسى، عليه السلام؛ لأن الله جعله يحيى الموتى ويرى الأكمه والأبرص.

ثم اختلف المفسرون فى مدة حمل عيسى، عليه السلام، فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر. وقال عكرمة: ثمانية أشهر - قال: ولهذا لا يعيش ولد لثمانية أشهر.

وقال ابن جرير: أخبرنى المغيرة بن عثمان^(١) بن عبد الله الثقفى، سمع ابن عباس وسئل عن حبل مريم، قال: لم يكن إلا أن حملت فوضعت^(٢).

وهذا غريب، وكأنه أخذه من ظاهر قوله تعالى: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَاتَّبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا . فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ فالفاء وإن كانت للتعقيب، ولكن تعقيب^(٣) كل شيء بحسبه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]، فهذه الفاء للتعقيب بحسبها. وقد ثبت فى الصحيحين: أن بين كل صفتين أربعين يوماً^(٤). وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ [الحج: ٦٣]. فالمشهور الظاهر- والله على كل شيء قدير- أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن؛ ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل عليها وكان معها فى المسجد رجل صالح من قريبتها يخدم معها البيت المقدس، يقال له: يوسف النجار، فلما رأى ثقل بطنها وكبره، أنكر ذلك من أمرها، ثم صرفه ما^(٥) يعلم من براءتها ونزاهتها ودينها وعبادتها، ثم تأمل ما هى فيه، فجعل أمرها يجوس فى فكره، لا يستطيع صرفه عن نفسه، فحمل نفسه على أن عرض لها فى القول، فقال: يا مريم، إني سائلك عن أمر فلا تعجلنى على. قالت: وما هو؟ قال: هل يكون قط شجر^(٦) من غير حب؟ وهل يكون زرع من غير بذر؟ وهل يكون ولد من غير أب؟ فقالت: نعم - فهمت^(٧) ما أشار إليه - أما قولك: «هل يكون شجر من غير حب وزرع من غير بذر؟» فإن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب، ولا بذر «هل خلق يكون من غير أب؟»^(٨)، فإن الله قد خلق آدم من غير أب ولا أم. فصدقها، وسلم لها حالها.

ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالريبة، انتبذت منهم مكاناً قصياً، أي: قاصياً منهم بعيداً عنهم، لئلا تراهم ولا يروها.

قال محمد بن إسحاق: فلما حملت به وملأت قلبها^(٩) ورجعت، استمسك عنها الدم وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوصب والترحم وتغير اللون، حتى فطّر لسانها، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا، وشاع الحديث فى بنى إسرائيل، فقالوا: «إنما صاحبها يوسف»، ولم يكن معها فى الكنيسة غيره، وتوارت من الناس، واتخذت من دونهم حجاباً، فلا^(١٠) يراها أحد ولا

(٣) فى أ: «تعقب».

(٢) فى ت، أ: «وضعت».

(١) فى أ: «ابن عتبة».

(٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه وسيأتى عند تفسير الآية: ٥ من سورة الحج.

(٧) فى أ: «وفهمت».

(٦) فى ف: «شجر قط».

(٥) فى ف: «لما».

(١٠) فى ف، أ: «فلم».

(٩) فى أ: «قلبيها».

(٨) فى أ: «هل يكون ولد من غير أب».

تراه .

وقوله: ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ [أى: فاضطرها وألجأها الطلق إلى جذع النخلة]^(١).
وهى نخلة فى المكان التى تنحت إليه .

وقد اختلفوا فيه، فقال السدى: كان شرقى محرابها الذى تصلى فيه من بيت المقدس .

وقال وهب بن منبه: ذهبت هاربة، فلما كانت بين الشام وبلاد مصر، ضربها الطلق .

وفى رواية عن وهب: كان ذلك على ثمانية أميال من بيت المقدس، فى قرية هناك يقال لها: «بيت لحم» .

قلت: وقد تقدم فى حديث^(٢) الإسرائ، من رواية النسائي عن أنس، رضى الله عنه، والبيهقى عن شداد بن أوس، رضى الله عنه: أن ذلك ببيت لحم . فالله أعلم، وهذا هو المشهور الذى تلقاه الناس بعضهم عن بعض، ولا تشك فيه النصارى أنه ببيت لحم، وقد تلقاه الناس . وقد ورد به الحديث إن صح .

وقوله تعالى إخباراً عنها: ﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾، فيه دليل على جواز تمنى الموت عند الفتنة؛ فإنها عرفت أنها ستبلى وتمتحن بهذا المولود الذى لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقونها فى خبرها، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة، تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية، فقالت: ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا ﴾ [أى: قبل هذا الحال، ﴿ وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾ أى: لم أخلق ولم أكن شيئاً . قاله ابن عباس .

وقال السدى: قالت وهى تطلق من الحبل - استحياء من الناس: يا ليتنى مت قبل هذا الكرب الذى أنا فيه، والحزن بولادتى المولود من غير بعْل ﴿ وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾ نَسِيَ فترك طلبه، كخرق الحيض التى إذا ألقيت وطرحتم لم تطلب ولم تذكر . وكذلك كل شئ نَسِيَ وترك فهو نَسِيَ .

وقال قتادة: ﴿ وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾ أى: شيئاً لا يعرف، ولا يذكر، ولا يدرى من أنا .

وقال الربيع بن أنس: ﴿ وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾: وهو^(٣) السقط .

وقال ابن زيد: لم أكن شيئاً قط .

وقد قدمنا الأحاديث الدالة على النهى عن تمنى الموت إلا عند الفتنة، عند قوله: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١] .

﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ (٢٤) وَهَزَيَّ إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦) .

(٣) فى ف، أ: «أى» .

(٢) فى ت، ف: «أحاديث» .

(١) زيادة من ف، أ .

قرأ بعضهم: ﴿ مِنْ تَحْتِهَا ﴾ بمعنى^(١) : الذى تحتها. وقرأ آخرون. ﴿ مِنْ تَحْتِهَا ﴾ على أنه حرف جر.

واختلف المفسرون فى المراد بذلك من هو؟ فقال العوفى وغيره، عن ابن عباس: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾: جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها. وكذا قال سعيد بن جبیر، والضحاك، وعمرو بن ميمون، والسدى، وقتادة: إنه الملك جبريل، عليه الصلاة والسلام، أى: ناداها من أسفل الوادى .

وقال مجاهد: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ قال: عيسى ابن مريم. وكذا قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة قال: قال الحسن: هو ابنها. وهو إحدى^(٢) الروایتين عن سعيد بن جبیر: أنه ابنها، قال: أو لم^(٣) تسمع الله يقول: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾؟ [مريم: ٢٩] واختاره ابن زيد، وابن جرير فى تفسيره^(٤).

وقوله: ﴿ أَلَّا تَحْزَنِي ﴾ أى: ناداها قائلاً: لا تحزنى، ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ قال سفيان الثورى وشعبة، عن أبى إسحاق، عن البراء بن عازب: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ قال: الجدول. وكذا قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: السرى: النهر. وبه قال عمرو بن ميمون: نهر تشرب منه.

وقال مجاهد: هو النهر بالسريانية .

وقال سعيد بن جبیر: السرى: النهر الصغير بالنبطية.

وقال الضحاك: هو النهر الصغير بالسريانية .

وقال إبراهيم النخعى: هو النهر الصغير.

وقال قتادة: هو الجدول بلغة أهل الحجاز.

وقال وهب بن منبه: السرى: هو ربيع الماء.

وقال السدى: هو النهر. واختار هذا القول ابن جرير. وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع، فقال الطبرانى:

حدثنا أبو شعيب الحرانى: حدثنا يحيى بن عبد الله البَابِلِيُّ^(٥)، حدثنا أيوب بن نهيك، سمعت عكرمة مولى ابن عباس يقول: سمعت ابن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن السرى الذى قال الله لمريم: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾: نهر أخرجه الله لتشرب منه^(٦) ». وهذا حديث غريب جداً من هذا الوجه. وأيوب بن نهيك هذا هو الحلبي^(٧)، قال فيه أبو حاتم الرازى: ضعيف . وقال أبو زرعة: منكر الحديث. وقال أبو الفتح الأزدي: متروك الحديث.

(٣) فى ت، أ: «ولم».

(٢) فى ت: «أحد».

(١) فى أ: «أى».

(٤) تفسير الطبرى (٥٢/١٦).

(٥) فى أ: «يحيى بن عبد النابلى».

(٦) المعجم الكبير (٣٤٦/١٢).

(٧) فى، أ: «الحلبى».

وقال آخرون: المراد بالسرى: عيسى، عليه السلام. وبه قال الحسن، والربيع بن أنس، ومحمد ابن عبّاد بن جعفر. وهو إحدى الروایتين عن قتادة، وقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والقول الأول أظهر؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَهَزَيَ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أى: وخذى إليك بجذع النخلة. قيل: كانت يابسة، قاله ابن عباس. وقيل: مثمرة. قال مجاهد: كانت عجوة. وقال الثورى، عن أبى داود^(١) نَفِيعُ الْأَعْمَى: كانت صَرْفَانَةً^(٢).

والظاهر أنها كانت شجرة، ولكن لم تكن فى إبان ثمرها، قاله وهب بن منبه؛ ولهذا امتن عليها بذلك، أن جعل عندها طعاماً وشراباً، فقال: ﴿تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا . فَكُلْ مِنْهُ وَاشْرَبْ وَقَرِّ عَيْنًا﴾ أى: طيبى نفساً؛ ولهذا قال عمرو بن ميمون: ما من شىء خير للنفساء من التمر والرطب، ثم تلا هذه الآية الكريمة.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا شيبان، حدثنا مسرور بن سعيد التميمي^(٣)، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، عن عروة بن رُوَيْمٍ، عن على بن أبى طالب قال: قال رسول الله ﷺ: « أكرموا عمتكم النخلة، فإنها خلقت من الطين الذى خلق منه آدم، عليه السلام، وليس من الشجر شىء^(٤) يُلَقَّحَ غيرها ». وقال رسول الله ﷺ: « أطعموا نساءكم الولد الرطب، فإن لم يكن رطب فتمر، وليس من الشجرة شجرة أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران ». هذا حديث منكر جداً، ورواه أبو يعلى، عن شيبان، به^(٥).

وقرأ بعضهم قوله: ﴿تُسَاقِطُ﴾ بتشديد السين، وآخرون بتخفيفها. وقرأ أبو نَهِيك: ﴿تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾، وروى أبو إسحاق عن البراء: أنه قرأها: ﴿تُسَاقِطُ﴾^(٦) أى: الجذع. والكل متقارب.

وقوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أى: مهما رأيت من أحد، ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنْسِيًّا﴾، المراد بهذا القول: الإشارة إليه بذلك. لا أن^(٧) المراد به القول اللفظى، لثلاثينافى: ﴿فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنْسِيًّا﴾.

قال أنس بن مالك فى قوله: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أى: صمتاً^(٨). وكذا قال ابن عباس، والضحاك. وفى رواية عن أنس: «صوماً وصمتاً»، وكذا قال قتادة وغيرهما.

والمراد أنهم كانوا إذا صاموا فى شريعتهم يحرم عليهم الطعام والكلام، نص على ذلك السدى،

(١) فى ت: «عن أبى الأسود». (٢) فى ف، أ: « صوفانة ». (٣) فى ت: «التميمي».

(٤) فى ف: «وليس شىء من الشجر».

(٥) مسند أبى يعلى (٣٥٣/١) ورواه أبو نعيم فى الحلية (١٢٣/٦) وابن عدى فى الكامل (٤٣١/٦) من طريق مسرور بن سعد التميمي به، وقد ذكر له ابن عدى ثلاث علل:

١ - تفرد به مسرور عن الأوزاعي فهو منكر.

٢ - أنه منقطع بين عروة بن رويم وعلى بن أبى طالب.

٣ - أن مسرور بن سعيد غير معروف. قلت: وضعفه ابن حبان والعقيلي.

(٨) فى أ: «صوتاً».

(٧) فى ت: «لأن».

(٦) فى أ: «يساقط».

وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد.

وقال أبو إسحاق، عن حارثة قال: كنت عند ابن مسعود، فجاء رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر، فقال: ما شأنك؟ قال أصحابه: حلف ألا يكلم الناس اليوم. فقال عبد الله بن مسعود: كلّم الناس وسلم عليهم، فإنما تلك امرأة علمت أن أحداً لا يصدقها أنها حملت من غير زوج. يعنى بذلك مريم، عليها السلام، ليكون عذراً لها إذا سئلت. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، رحمهما الله.

وقال عبد الرحمن بن زيد: لما قال عيسى لمريم: ﴿أَلَا تَحْزَنِي﴾، قالت: وكيف لا أحزن وأنت معي؟! لا ذات زوج ولا مملوكة، أى شئ عذرى عند الناس؟ يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً، قال لها عيسى: أنا أكفيك الكلام: ﴿فَإِذَا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾، قال: هذا كله من كلام عيسى لأمه. وكذا قال وهب.

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ذلك، وألا تكلم أحداً من البشر، فإنها^(١) ستكفي أمرها ويقام بحجتها^(٢)، فسلمت لأمر الله، عز وجل، واستسلمت لقضائه، وأخذت ولدها ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾، فلما رأوها كذلك، أعظموا أمرها واستنكروه جداً، وقالوا: ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أى: أمراً عظيماً. قاله مجاهد، وقتادة، والسدى، وغير واحد.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن أبى زياد، حدثنا سيار^(٣)، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا أبو عمران الجوني، عن نوف البكالى قال: وخرج قومها فى طلبها، وكانت من أهل بيت نبوة وشرف. فلم يحسوا^(٤) منها شيئاً، فرأوا^(٥) راعى بقر فقالوا: رأيت فتاة كذا وكذا نعتها؟ قال: لا، ولكن رأيت الليلة من بقرى ما لم أره منها قط. قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيتها^(٦) سجدتاً نحو هذ الوادى. قال عبد الله بن أبى زياد: وأحفظ عن سيار أنه قال: رأيت نوراً ساطعاً. فتوجهوا حيث قال لهم، فاستقبلتهم مريم، فلما رأتهم قعدت وحملت ابنها فى حجرها، فجاءوا حتى قاموا عليها، ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أمراً عظيماً. ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ أى: يا شبيهة هارون فى العبادة ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ أى: أنت من بيت طيب طاهر، معروف بالصلاح

(١) فى ف، أ: «فإنه».

(٢) فى ف: «وتقام حجتها».

(٣) فى ف، أ: «سفيان»، وفى أ: «شيان».

(٤) فى ت: «يحسبوا».

(٥) فى أ: «فلقوا».

(٦) فى ف، أ: «رأيتها الليلة».

والعبادة والزهادة^(١)، فكيف صدر هذا منك؟

قال على بن أبي طلحة^(٢)، والسدى: قيل لها: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ أى: أخى موسى، وكانت من نسله^(٣)، كما يقال للتيمى: يا أخا تميم، وللمضرى: يا أخا مضر.

وقيل: نسبت إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون، فكانت تقاس^(٤) به فى العبادة، والزهادة.

وحكى ابن جرير عن بعضهم: أنهم شبهوها برجل فاجر كان فيهم. يقال له: هارون. ورواه ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير.

وأغرب من هذا كله ما رواه ابن أبى حاتم.

حدثنا على بن الحسين الهسنجاني^(٥)، حدثنا ابن أبى مريم، حدثنا الفضل بن فضالة، حدثنا أبو صخر، عن القرظى فى قول الله عز وجل: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾، قال: هي أخت هارون لأبيه وأمه، وهي أخت موسى أخى هارون التى قصّت أثر موسى، ﴿فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جَنبٍ وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١].

وهذا القول خطأ محض؛ فإن الله تعالى قد ذكر فى كتابه أنه قفّى بعيسى بعد الرسل، فدل على أنه آخر الأنبياء بعثاً وليس بعده إلا محمد صلوات الله وسلامه عليه^(٦)؛ ولهذا ثبت فى الصحيح عند البخارى، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ^(٧) أنه قال: «أنا أولى الناس بابن مريم، إلا أنه^(٨) ليس بينى وبينه نبى» ولو كان الأمر كما زعم محمد بن كعب القرظى، لم يكن متأخراً عن الرسل سوى محمد. وكان قبل سليمان و^(٩) داود؛ فإن الله قد ذكر أن داود بعد موسى، عليهما السلام، فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلَكًا يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] فذكر القصة إلى أن قال: ﴿وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ﴾ الآية [البقرة: ٢٥١]، والذى جراً القرظى على هذه المقالة ما فى التوراة بعد خروج موسى وبني إسرائيل من البحر، وإغراق فرعون وقومه، قال: وكانت مريم بنت عمران أخت موسى وهارون النبيين، تضرب بالدف هى والنساء معها يسبحن الله ويشكرنه على ما أنعم به على بنى إسرائيل. فاعتقد القرظى أن هذه هى أم عيسى. وهى^(١٠) هفوة وغلطة شديدة، بل هى باسم هذه، وقد كانوا يسمون بأسماء^(١١) أنبيائهم وصالحينهم، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الله بن إدريس، سمعت أبى يذكره^(١٢) عن سمّاك، عن علقمة بن وائل، عن المغيرة ابن شعبة قال: بعثنى رسول الله ﷺ إلى نجران، فقالوا: أرايت ماتقروون: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾،

(١) فى ت: «والزهاد».

(٢) فى أ: «طالب».

(٣) فى ت: «قبيلة».

(٤) فى: «الحجستانى».

(٥) فى ت، ف: «تقاسى».

(٦) فى ف، أ: «عن رسول الله».

(٧) فى أ: «إن أولى الناس بابن مريم لأننا إن».

(٨) فى أ: «هذه».

(٩) فى أ: «بن».

(١٠) فى ف، أ: «باسم».

(١١) فى أ: «يذكر».

وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يَتَسَمَّونَ^(١) بالأنبياء والصالحين قبلهم؟».

انفرد بإخراجه مسلم، والترمذى، والنسائى، من حديث عبد الله بن إدريس، عن أبيه، عن سماك، به^(٢)، وقال الترمذى: حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن سعيد بن أبى صدقة، عن محمد بن سيرين قال نُبِّئْتُ أن كعباً قال: إن قوله: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾: ليس بهارون أخى موسى. قال: فقالت له عائشة: كذبت، قال^(٣): يا أم المؤمنين، إن كان النبى ﷺ قاله، فهو أعلم وأخبر، وإلا فلانى أجد بينهما ستمائة سنة. قال: فسكت^(٤). وفى هذا التاريخ نظر.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قوله: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ قال: كانت من أهل بيت يعرفون بالصلاح، ولا يعرفون بالفساد، [ومن الناس من يعرفون بالصلاح ويتوالدون به، وآخرون يعرفون بالفساد]^(٥) ويتوالدون به. وكان هارون مصلحاً محبباً، فى عشيرته، وليس بهارون أخى^(٦) موسى، ولكنه هارون آخر، قال: وذكر لنا أنه شيع جنازته يوم مات أربعون ألفاً، كلهم يسمون هارون، من بنى إسرائيل.

وقوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أى: إنهم لما استرابوا فى أمرها واستنكروا قضيتها^(٧)، وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية، وقد كانت يومها ذلك صائمة، صامته فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا متهمين بها، ظانين أنها تزدرى بهم وتلعب بهم: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾؟

قال ميمون بن مهران: ﴿فَأَشَارَتْ [إِلَيْهِ]﴾^(٨)، قالت: كلموه. فقالوا: على ما جاءت به من الداهية تأمرنا أن نكلّم من كان فى المهد صبياً!

وقال السدى: لما أشارت إليه غضبوا، وقالوا: لَسُخْرِئُهَا^(٩) بنا حين تأمرنا أن نكلّم هذا الصبى أشد علينا من زناها.

﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أى: من هو موجود فى مهده فى حال صباه وصغره، كيف يتكلّم؟ قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾، أول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى^(١٠)، وبرأ الله عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه.

وقوله: ﴿آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾: تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة.

(١) فى ف، أ: «يسمون».

(٢) المسند (٢٥٢/٤) وصحيح مسلم برقم (٢١٣٥) وسنن الترمذى برقم (٣١٥٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٣١٥).

(٣) فى ف، أ: «فقال».

(٤) تفسير الطبرى (٥٨/١٦).

(٧) فى ف، أ: «قصتها».

(٦) فى أ: «وليس أخى بهارون».

(٥) زيادة من ف، أ، والطبرى.

(١٠) فى ف، أ: «عز وجل».

(٩) فى أ: «لسخريتها».

(٨) زيادة من ف، أ.

قال نون البكالى: لما قالوا لأمه ما قالوا، كان يرتضع ثديه، فنزع الثدي من فمه، واتكأ على جنبه الايسر، وقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، إلى قوله: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

وقال حماد بن سلمة، عن ثابت البناني: رفع إصبعه السبابة فوق منكبه، وهو يقول: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ الآية.

وقال عكرمة: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ أى: قضى أنه^(١) يؤتىنى الكتاب فيما قضى.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن المصفى، حدثنا يحيى بن سعيد^(٢)، عن عبد العزيز بن زياد، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: كان عيسى ابن مريم قد درس الإنجيل وأحكمه^(٣) فى بطن أمه فذلك قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.

يحيى بن سعيد العطار الحمصى: متروك.

وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾، قال مجاهد، وعمر بن قيس، والثورى: وجعلنى معلماً للخير. وفى رواية عن مجاهد: نفعاً.

وقال ابن جرير: حدثنى سليمان بن عبد الجبار، حدثنا محمد بن يزيد^(٤) بن خنيس المخزومى، سمعت وهيب بن الورد مولى بنى مخزوم قال: لقي عالم عالماً هو فوqe فى العلم، فقال له: يرحمك الله، ما الذى أعلن من عملى؟ قال: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ فإنه دين الله الذى بعث به أنبياء إلى عباده، وقد أجمع الفقهاء على قول الله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾، وقيل: ما بركته؟ قال: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، أينما كان.

وقوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ كقوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

وقال عبد الرحمن بن القاسم، عن مالك بن أنس فى قوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾، قال: أخبره بما هو كائن من أمره إلى أن يموت^(٥)، ما أثبتها لأهل القدر.

وقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ أى: وأمرنى ببر والدتى، ذكره بعد طاعة الله ربه؛ لأن الله تعالى كثيراً ما يقرن^(٦) بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

وقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أى: ولم يجعلنى جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته وبر والدتى، فأشقى بذلك.

قال سفيان الثورى: الجبار الشقى: الذى يقبل^(٧) على الغضب.

(٣) فى أ: «وأحكمها».

(٦) فى أ: «قرن كثيراً».

(٢) فى أ: «يحيى بن سعيد العطار».

(٥) فى أ: «أمره حتى يموت».

(١) فى ف، أ: «أن».

(٤) فى أ: «زيد».

(٧) فى ف: «يقتل».

وقال بعض السلف: لا تجد أحداً عاقاً لوالديه إلا وجدته جباراً شقيماً، ثم قرأ: ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيماً﴾، قال: ولا تجد سبيئ الملكة إلا وجدته مختلاً فخوراً، ثم قرأ: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقال قتادة: ذكر لنا أن امرأة رأت ابن مريم يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص، فى آيات سلطه الله عليهن، وأذن له فيهن، فقالت: طوبى للبطن الذى حملك والثدى الذى أرضعت به، فقال نبي الله عيسى، عليه السلام، يجيها: طوبى لمن تلا كلام^(١) الله، فاتبع ما فيه ولم يكن جباراً شقيماً. وقوله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمٌ وُلِدْتُ وَيَوْمٌ أَمُوتُ وَيَوْمٌ أُبْعَثُ حَيًّا﴾: إثبات منه لعبوديته لله عز وجل، وأنه مخلوق من خلق الله يحيى^(٢)، ويموت ويبعث كسائر الخلائق، ولكن له السلامة فى هذه الأحوال التى هى أشق ما يكون على العباد، [صلوات الله وسلامه عليه]^(٣).

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) ﴿

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: عليه ذلك الذى قصصنا^(٤) عليك من خبر عيسى، ﴿قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أى: يختلف المبطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به؛ ولهذا قرأ الأكثرون: «قول الحق» برفع قول. وقرأ عاصم، وعبد الله بن عامر: ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾.

وعن ابن مسعود أنه قرأ: «ذلك عيسى ابن مريم قال الحق»، والرفع أظهر إعراباً، ويشهد له قوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٦٠].

ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبداً نبياً، نزه نفسه المقدسة فقال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾ أى: عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدون علواً كبيراً، ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أى: إذا أراد شيئاً فإنما يأمُر به، فيصير^(٥) كما يشاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩، ٦٠].

وقوله ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أى: وما^(٦) أمر عيسى به^(٧) قومه وهو فى مهده، أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربهم وربهم^(٨)، وأمرهم بعبادته، فقال: ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا

(١) فى أ: «كتاب».

(٢) فى أ: «يحيى ويميت».

(٣) زيادة من أ.

(٤) فى ف: «قصصناه».

(٥) فى ت: «تقصير».

(٦) فى ت، ف، أ: «به عيسى».

(٧) فى ت، ف: «ربه وربهم».

صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٤﴾ أى: هذا الذى جئتكم به عن الله صراط مستقيم، أى: قويم، من اتبعه رشد وهدى، ومن خالفه ضل وغوى .

وقوله: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ ﴿٣٥﴾ أى: اختلفت^(١) أقوال أهل الكتاب فى عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبده^(٢) ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فصممت طائفة - وهم جمهور اليهود، عليهم لعائن الله - على أنه ولد زنية، وقالوا: كلامه هذا سحر. وقالت طائفة أخرى: إنما تكلم^(٣) الله. وقال آخرون: هو ابن الله. وقال آخرون: ثالث ثلاثة. وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله. وهذا هو قول الحق، الذى أرشد الله إليه^(٤) المؤمنين. وقد روى [نحو هذا]^(٥) عن عمرو بن ميمون، وابن جريج، وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف.

قال عبد الرزاق: أخبرنا^(٦) معمر، عن قتادة فى قوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾، قال: اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر، أخرج كل قوم عالمهم، فامتروا^(٧) فى عيسى حين رفع، فقال أحدهم: هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحياء، وأمات من أمات، ثم صعد إلى السماء - وهم اليعقوبية. فقال الثلاثة: كذبت. ثم قال اثنان منهم للثالث: قل^(٨) أنت فيه. قال: هو ابن الله - وهم النسطورية. فقال الاثنان: كذبت. ثم قال أحد الاثنان للآخر: قل فيه. قال: هو ثالث ثلاثة: الله إله، وهو إله، وأمه إله - وهم الإسرائيلية ملوك^(٩) النصارى، عليهم لعائن الله. قال الرابع: كذبت، بل هو عبد الله ورسوله وروحه، وكلمته، وهم المسلمون. فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قالوا، فاقْتَلَوْا فَظَهَرَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ٢١] وقال^(١٠) قتادة: وهم الذين قال الله: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾، قال: اختلفوا فيه فصاروا أحزاباً^(١١).

وقد روى ابن أبى حاتم، عن ابن عباس، وعن عروة بن الزبير، وعن بعض أهل العلم، قريباً من ذلك. وقد ذكر غير واحد من علماء التاريخ من أهل الكتاب وغيرهم: أن قسطنطين جمعهم فى محفل كبير من مجامعهم الثلاثة المشهورة عندهم، فكان جماعة الأساقفة^(١٢) منهم ألفين ومائة وسبعين أسقفًا، فاختلَفوا فى عيسى ابن مريم، عليه السلام، اختلافًا متباينًا، فقالت كل شُرْذمة فيه قولاً، فمائة تقول فيه قولاً^(١٣)، وسبعون تقول^(١٤) فيه قولاً آخر، وخمسون تقول^(١٥) فيه شيئاً آخر، ومائة وستون تقول شيئاً، ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلاثمائة وثمانية منهم، اتفقوا على قول وصمّموا عليه^(١٦)، ومال^(١٧) إليهم الملك، وكان فيلسوفًا، فقدمهم ونصرهم وطردهم من عداهم، فوضعوا له الأمانة الكبيرة، بل هى الخيانة العظيمة، ووضعوا له كتب القوانين، وشرّعوا له أشياء^(١٨)،

(٣) فى ف، أ: «يكلم».

(٢) فى ت: «عبد الله».

(١) فى أ: «اختلف».

(٦) فى ت: «حدثنا».

(٥) زيادة من أ.

(٤) فى ت: «فيه».

(٩) فى ت: «ملك».

(٨) فى أ: «قلت».

(٧) فى أ: «فامتروا».

(١٠) فى ت، ف، أ: «قال».

(١١) تفسير عبد الرزاق (٩/٢).

(١٤، ١٥) فى ف، أ: «يقولون».

(١٣) فى أ: «شيئاً».

(١٢) فى ت: «الأساومة».

(١٨) فى أ: «شيئاً».

(١٧) فى ف، أ: «فمال».

(١٦) فى ت: «عليهم».

وابتدعوا بدعاً كثيرة، وحرفوا دين المسيح، وغيروه، فابتنى حينئذ لهم^(١) الكنائس الكبار فى مملكته كلها: بلاد الشام، والجزيرة، والروم، فكان مبلغ الكنائس فى أيامه ما يقارب اثنتى عشرة^(٢) ألف كنيسة، وبنت أمه هيلانة قمامة على المكان الذى صلب فيه المصلوب^(٣) الذى تزعم اليهود والنصارى أنه المسيح، وقد كذبوا بل، رفعه الله إلى السماء.

وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله، وافترى، وزعم أن له ولداً. ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة وأجلهم حلماً وثقة بقدرته عليهم؛ فإنه الذى لا يعجل على من عصاه، كما جاء فى الصحيحين: «إن الله ليملى^(٤) للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]. وفى الصحيحين أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه^(٥) من الله، إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافهم»^(٦). وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج: ٤٨] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أى: يوم القيامة. وقد جاء فى الحديث الصحيح المتفق على صحته، عن عبادة بن الصامت، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله [ورسوله]^(٧)، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»^(٨).

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٣٨) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠).

يقول تعالى مخبراً عن الكفار [يوم القيامة]^(٩) أنهم أسمعُ شئ وأبصرُه كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] أى: يقولون ذلك حين لا ينفعهم ولا يجدى^(١٠) عنهم شيئاً، ولو كان هذا قبل معاينة العذاب، لكان نافعاً لهم ومنقذاً من عذاب الله؛ لهذا قال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ﴾^(١١) وَأَبْصِرْ أى: ما أسمعهم وأبصرهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ يعنى: يوم القيامة ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ﴾ أى: فى الدنيا ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى: لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك.

(٢) فى ت، ف، أ: «فابتنى لهم حينئذ».

(٢) فى أ: «اثنتى عشر»، وهو خطأ والصواب ما بالاصل.

(٥) فى ت: «يسمعه».

(٤) فى ت: «إنه ليملى».

(٦) صحيح البخارى برقم (٦٠٩٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٤).

(٧) زيادة من ف، أ، والبخارى ومسلم.

(٨) صحيح البخارى برقم (٣٤٣٥) وصحيح مسلم برقم (٢٩).

(١١) فى أ: «به».

(١٠) فى ت: «يجزى».

(٩) زيادة من ف، أ.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ أى: أُنذر الخلائق يوم الحسرة، ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أى: فصل بين أهل الجنة وأهل النار، ودخل كل إلى ما صار إليه مخلداً فيه، ﴿وَهُمْ﴾ أى: اليوم ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ عما أُنذروا به ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: لا يُصدقون به .

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد [الخدري]^(١) قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل تعرفون هذا؟» قال: «فيشربون» [فينظرون]^(٢) ويقولون: نعم، هذا الموت. قال: «فيقال: يا أهل النار، هل تعرفون هذا؟ قال: «فيشربون فينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت» قال: «فيؤمر به»^(٣) فيذبح» قال: «ويقال: يا أهل الجنة، خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت» قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وأشار بيده^(٤). قال: «أهل الدنيا في غفلة الدنيا».

هكذا رواه الإمام أحمد وقد أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما، من حديث الأعمش، به^(٥). ولفظهما قريب من ذلك. وقد روى هذا الحديث الحسن بن عرفة: حدثنى أسباط بن محمد، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً، مثله. وفى سنن ابن ماجه وغيره، من حديث محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، بنحوه^(٦). وهو فى الصحيحين عن ابن عمر^(٧). ورواه ابن جرير قال: قال ابن عباس: فذكر من قبله نحوه^(٨). ورواه أيضاً عن أبيه أنه سمع عبيد بن عمير يقول فى قصصه: يؤتى بالموت كأنه دابة، فيذبح والناس ينظرون^(٩). وقال سفيان الثورى، عن سلمة بن كهيل، حدثنا أبو الزعراء، عن عبد الله - هو ابن مسعود - فى قصة ذكرها، قال: فليس نفس إلا وهى تنظر إلى بيت فى الجنة وبيت فى النار، وهو يوم الحسرة. [فيرى أهل النار البيت الذى كان قد أعدّه الله لهم لو آمنوا، فيقال لهم: لو آمنتم وعملتُم صالحاً، كان لكم هذا الذى ترونه فى الجنة. فتأخذهم الحسرة]^(١٠). قال: ويرى أهل الجنة البيت الذى فى النار، فيقال: لولا أن منَّ الله عليكم...^(١١).

وقال السدى، عن زياد، عن زُرِّ بن حبَّيش، عن ابن مسعود فى قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، أتى بالموت فى صورة كبش أملح، حتى يوقف بين الجنة والنار، ثم ينادى مناد: يا أهل الجنة، هذا الموت الذى كان يُميتُ الناس فى الدنيا، فلا يبقى أحد فى أهل عليين ولا فى أسفل درجة فى الجنة إلا نظر إليه، ثم ينادى: يا أهل

(١) زيادة من ف. (٢) زيادة من ف، أ، والمستد. (٣) فى ت: «فيؤتى بهم».

(٤) المستد(٩/٣).

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٣٠) وصحيح مسلم برقم (٢٨٤٩).

(٦) سنن ابن ماجه برقم (٤٣٢٧).

(٧) صحيح البخارى برقم (٦٥٤٨) وصحيح مسلم برقم (٢٨٥٠).

(٨) أخرجه الطبرى فى تفسيره(٦٦/١٦).

(٩) أخرجه الطبرى فى تفسيره(٦٧/١٦).

(١٠) زيادة من ف، أ، والطبرى

(١١) رواه الطبرى فى تفسيره(٦٦/١٦).

النار، هذا الموت الذى كان يميت الناس فى الدنيا، فلا يبقى أحد فى ضحضاح من نار ولا فى أسفل درك من جهنم، إلا نظر إليه، ثم يذبح بين الجنة والنار، ثم ينادى: يا أهل الجنة، هو الخلود أبد الآبدين، ويا أهل النار، هو الخلود أبد الآبدين، فيفرح أهل الجنة فرحة لو كان أحد ميتاً من فرح ماتوا، ويشهق أهل النار شهقة لو كان أحد ميتاً من شهقة ماتوا فذلك قوله: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾. يقول: إذا ذبح الموت. رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾: من أسماء يوم القيامة، عظمه الله وحذره عباده.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ قال: يوم القيامة، وقرأ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾: يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف، وأن الخلق كلهم يهلكون ويبقى هو، تعالى وتقدس ولا أحد يدعى ملكاً ولا تصرفاً، بل هو الوارث لجميع خلقه، الباقي بعدهم، الحاكم فيهم، فلا تظلم نفس شيئاً ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة.

قال ابن أبى حاتم: ذكر هذبة بن خالد القيسى: حدثنا حزم بن أبى حزم القطعى قال: كتب عمر ابن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن صاحب الكوفة: أما بعد، فإن الله كتب على خلقه حين خلقهم الموت، فجعل مصيرهم إليه، وقال فيما أنزل من كتابه الصادق الذى حفظه بعلمه، وأشهد ملائكته على خلقه: أنه يرث الأرض ومن عليها، وإليه يرجعون.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنَّي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥)﴾.

يقول تعالى لنبى محمد ﷺ^(١): واذكر فى الكتاب إبراهيم وأتله على قومك، هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، واذكر لهم ما كان من خبر إبراهيم خليل الرحمن الذين^(٢) هم من ذريته، ويدعون أنهم على ملته، وهو^(٣) كان صديقاً نبياً - مع أبيه - كيف نهاه عن عبادة الأصنام، فقال: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ أى: لا ينفعك ولا يدفع عنك ضرراً.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾: يقول: فإن كنت من صلبك وترى أنى أصغر منك، لأنى ولدك، فاعلم أنى قد اطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه ولا جاءك بعد، ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أى: طريقاً مستقيماً موصلاً إلى نيل المطلوب، والنجاة من المهروب.

(٣) فى ف: «وقد».

(٢) فى ت، ف: «الذى».

(١) فى ف: «صلوات الله وسلامه عليه».

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ أى: لا تطعه^(١) فى عبادتك هذه الأصنام، فإنه هو الداعي إلى ذلك، والراضى به، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠] وقال: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧].

وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ أى: مخالفاً مستكبراً عن طاعة ربه، فطرده وأبعده، فلا تتبعه تصر مثله .

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أى: على شركك وعصيانك لما أمرك به، ﴿فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾^(٢) يعنى: فلا يكون لك مولى ولا ناصرأ ولا مغيثاً إلا إبليس، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء، بل اتباعك له موجب لإحاطة العذاب بك، كما قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَرَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣].

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَنْ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾^(٣) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا^(٤) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا^(٥)﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن جواب أبى إبراهيم [لولده إبراهيم]^(٣) فيما دعاه إليه أنه قال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ يعنى: [إن كنت لا]^(٤) تريد عبادتها ولا ترضاها، فانتة عن سبها وشتماها وعيها، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصصت منك وشتمتك وسبيتك، وهو^(٥) قوله: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، قاله ابن عباس، والسدى، وابن جريج، والضحاك، وغيرهم .

وقوله: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾: قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومحمد بن إسحاق: يعنى دهرأ .

وقال الحسن البصرى: زماناً طويلاً .

وقال السدى: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ قال: أبداً .

وقال على بن أبى طلحة، والعمفى، عن ابن عباس: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ قال: سويأ سالماً، قبل أن تصيبك منى عقوبة. وكذا قال الضحاك، وقتادة وعطية الجدلى و[أبو]^(٦)مالك، وغيرهم، واختاره ابن جرير .

فعندها قال إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ كما قال تعالى فى صفة المؤمنين: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

(١) فى أ: «لا تطيعه» وهو خطأ، والصواب ما بالأصل . (٢) فى ت: «فيكون» . (٣) زيادة من ف، أ . (٤) زيادة من ف، أ، وفى هـ: «أما» . (٥) فى أ: «وهى» . (٦) زيادة من ف، أ .

ومعنى قول إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ يعنى: أما أنا فلا ينالك منى مكروه ولا أذى، وذلك لحرمة الأبوة، ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ أى: ولكن سأسأل الله تعالى فيك أن يهديك ويغفر ذنبك، ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ قال ابن عباس وغيره: لطيفاً، أى: فى أن هدانى لعبادته والإخلاص له. وقال مجاهد وقتادة، وغيرهما: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ قال^(١): [و]^(٢) عَوَّدَهُ الإجابة.

وقال السدى: «الحفي»: الذى يَهْتَمُّ بأمره .

وقد استغفر إبراهيم لأبيه مدة طويلة، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق، عليهما السلام، فى قوله: ﴿رَبَّنَا (٣) اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

وقد استغفر المسلمون لقرباتهم وأهلبيهم من المشركين فى ابتداء الإسلام، وذلك اقتداءً بإبراهيم الخليل فى ذلك حتى أنزل الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية [الممتحنة: ٤] ، يعنى إلا فى هذا القول، فلا^(٤) تتأسوا به. ثم بين تعالى أن إبراهيم أطلع عن ذلك، ورجع عنه، فقال^(٥) تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤].

وقوله: ﴿وَأَعْتَزَلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي﴾ أى: أجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التى تعبدونها [من دون الله]^(٦)، ﴿وَأَدْعُو رَبِّي﴾ أى: وأعبد ربى وحده لا شريك له، ﴿وَعَسَى الْأَكُونُ بِدَعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ و«عسى» هذه موجبة لا محالة، فإنه، عليه السلام، سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ.

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)﴾.

يقول: فلما اعتزل الخليل أباه وقومه فى الله، أبدله الله من هو خير منهم، ووهب له إسحاق ويعقوب، يعنى ابنه وابن إسحاق، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَيَعْقُوبُ نَافِلَةٌ﴾ [الأنبياء: ٧٢]، وقال: ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ [هود: ٧١].

ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب، وهو نص القرآن فى سورة البقرة: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: ١٣٣]. ولهذا إنما ذكر هاهنا إسحاق ويعقوب، أى: جعلنا له نسلا وعقبا أنبياء، أقر الله بهم

(٣) فى ت، ف، أ: «وب».

(٦) زيادة من ف، أ.

(٢) زيادة من ت.

(٥) فى ت: «وقال».

(١) فى أ: «قالوا».

(٤) فى ت: «ولا».

عينه فى حياته؛ ولهذا قال: ﴿وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾، فلو لم يكن يعقوب قد نبئ فى حياة إبراهيم، لما اقتصر عليه، ولذكر ولده يوسف، فإنه نبى أيضاً كما قال رسول الله ﷺ فى الحديث المتفق على صحته، حين سئل عن خير الناس، فقال: «يوسف نبى الله، ابن يعقوب نبى الله، ابن إسحاق نبى الله، ابن إبراهيم خليل الله»^(١). وفى اللفظ الآخر: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»^(٢).

وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى الثناء الحسن. وكذا قال السدى، ومالك بن أنس.

وقال ابن جرير: إنما قال: ﴿عَلِيًّا﴾؛ لأن جميع الملل والأديان يشنون عليهم ويمدحونهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥١ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ٥٢ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ٥٣﴾.

لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه، عطف بذكر الكليم، فقال: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ قرأ بعضهم بكسر اللام، من الإخلاص فى العبادة.

قال الثورى^(٣)، عن عبد العزيز بن رفيع^(٤)، عن أبى لبابة^(٥) قال: قال الخواريون: يا روح الله، أخبرنا عن المخلص لله. قال: الذى يعمل لله، لا يحب أن يحمد الناس.

وقرأ الآخرون^(٦) بفتحها، بمعنى أنه كان مصطفى، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتَكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾، جُمع له بين الوصفين، فإنه كان من المرسلين الكبار أولى^(٧) العزم الخمسة، وهم: نوح وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر الأنبياء أجمعين.

وقوله: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ﴾ أى: الجبل ﴿الْأَيْمَنِ﴾ أى: من جانبه الأيمن من موسى حين ذهب يبتغى من تلك النار جذوة، رآها تلوح فقصدتها، فوجدها فى جانب الطور الأيمن منه^(٨)، عند شاطئ الوادى. فكلمه الله تعالى، ناداه وقربه وناجاه^(٩). قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار^(١٠)، حدثنا يحيى - هو القطان - حدثنا سفيان، عن عطاء بن السائب^(١١)، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ قال: أدنى حتى سمع^(١٢) صريف القلم.

(١) صحيح البخارى برقم (٣٣٧٤) وصحيح مسلم برقم (٢٣٧٨).

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٨).

(٣) فى أ: «قال العوفى».

(٤) فى ت: «نفيح».

(٥) فى ت: «تامة».

(٦) فى أ: «قرأ آخرون».

(٧) فى ت: «وأولى».

(٨) فى ت، ف، أ: «منه غريبة».

(٩) فى ت: «ناداه أو وقربه فناجاه».

(١٠) فى ت: «ابن يسار».

(١٢) فى ت: «يسمع».

(١١) فى ت: «ابن يسارى»، وفى أ: «ابن يسار».

وهكذا قال مجاهد، وأبو العالية، وغيرهم. يعنون صريف القلم بكتابة التوراة.

وقال السدي: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ قال: أدخل في السماء فكلّم، وعن مجاهد نحوه.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ قال: نجا بصدقه^(١).

قال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الجبار بن عاصم، حدثنا محمد بن سلمة الحراني، عن أبي الوصل، عن شهر بن حوشب، عن عمرو بن معد يكرب قال: لما قرب الله موسى نجياً بطور سيناء، قال: يا موسى، إذا خلقت لك قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وزوجة تعين على الخير، فلم أخزن عنك من الخير شيئاً، ومن أخزن عنه هذا فلم أفتح له من الخير شيئاً.

وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ أي: وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه، فجعلناه نبياً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون﴾ [القصص: ٣٤]، وقال^(٢): ﴿قَدْ أُوتِيتَ سَوْلُكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٣٦]، وقال: ﴿فَأَرْسَلْ إِلَى هَارُونَ . وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٣، ١٤]؛ ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحد في أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبياً، قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾.

قال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن علفي، عن داود، عن عكرمة قال: قال ابن عباس: قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾، قال: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد: وهب له نبوته.

وقد ذكره ابن أبي حاتم معلقاً، عن يعقوب وهو ابن إبراهيم الدورقي، به .

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥)﴾.

هذا^(٣) ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل، عليهما السلام، وهو والد عرب الحجاز كلهم بأنه ﴿كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾.

قال^(٤) ابن جريج: لم يعد ربه عدة إلا أنجزها، يعني: ما التزم قط عبادة^(٥) بنذر إلا قام بها، ووفأها حقها.

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، أن سهل بن عقيل حدثه، أن إسماعيل النبي، عليه السلام، وعد رجلاً مكاناً أن يأتيه، فجاء ونسى الرجل، فظل به إسماعيل وibat حتى جاء الرجل من الغد، فقال: ما برحت من ههنا؟ قال: لا. قال: إني نسيت. قال: لم أكن لأبرح حتى تأتيني. فلذلك ﴿كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾.

(٣) في أ: «وهذا».

(٢) في ت، ف: «إلى أن قال».

(١) في ت: «لصدقه».

(٥) في ف، أ: «عبادة قط».

(٤) في ت: «قالت».

وقال سفيان الثوري: بلغني أنه أقام في ذلك المكان ينتظره حولاً حتى جاءه.

وقال ابن^(١) شوذب: بلغني أنه اتخذ ذلك الموضع سكناً.

وقد روى أبو داود في سننه، وأبو بكر محمد بن جعفر الخرائطي في كتابه «مكارم الأخلاق» من طريق إبراهيم بن طهمان، عن عبد الله^(٢) بن ميسرة، عن عبد الكريم - يعني: ابن عبد الله بن شقيق - عن أبيه، عن عبد الله بن أبي الحمساء قال: بايعت رسول الله ﷺ قبل أن يبعث فبقيت له على بقية، فوعده أن آتيه بها في مكانه ذلك، قال: فنسيت^(٣) يومى والغد، فأتيته في اليوم الثالث وهو في مكانه ذلك، فقال لى: «يا فتى، لقد شققت^(٤) على، أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظر ك » لفظ الخرائطي^(٥)، وساق آثاراً حسنة في ذلك.

ورواه ابن منده أبو عبد الله في كتاب «معركة الصحابة»، بإسناده^(٦) عن إبراهيم بن طهمان، عن بديل بن ميسرة، عن عبد الكريم، به^(٧).

وقال بعض: إنما قيل له: ﴿صَادِقَ الْوَعْدِ﴾؛ لأنه قال لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصفات: ١٠٢]، فصدق في ذلك.

فَصَدَّقُ الْوَعْدُ مِنَ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ، كما أن خُلْفَهُ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣]، وقال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»^(٨).

ولما كانت هذه صفات المنافقين، كان التلبس بضدها من صفات المؤمنين، ولهذا أثنى الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد، وكذلك كان رسول الله ﷺ صادق الوعد أيضاً، لا يعد أحداً شيئاً إلا وفى له به، وقد أثنى على أبي العاص بن الربيع زوج ابنته زينب، فقال: «حدثني فصدقني، ووعدني فوفى لى»^(٩). ولما توفي النبي ﷺ قال الخليفة أبو بكر الصديق: من كان له عند رسول الله ﷺ عدة أو دين فليأتنى أنجز له، فجاءه^(١٠) جابر بن عبد الله، فقال: إن رسول الله ﷺ كان قال: «لو جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا»، يعنى: ملء كفيه، فلما جاء مال البحرين أمر الصديق جابراً، فغرف بيديه من المال، ثم أمره بعهده، فإذا هو خمسمائة درهم، فأعطاه مثليها معها^(١١). وقوله: ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾: في هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق؛ لأنه إنما

(١) فى ت: «أبو». (٢) فى سنن أبى داود: «بديل». (٣) فى ت: «نسيت».

(٤) فى ت: «لو أشفقت».

(٥) سنن أبى داود برقم (٤٩٩٦) ومكارم الاخلاق برقم (١٧٧).

(٦) فى ت، أ: «إنه بإسناده».

(٧) ورواه ابن الأثير فى أسد الغابة (١١٣/٣) بإسناده إلى إبراهيم بن طهمان عن بديل بن ميسرة مثله.

(٨) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٣) ومسلم فى صحيحه برقم (٥٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٩) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٧٢٩) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٤٤٩) من حديث المسور بن مخرمة رضى الله عنه.

(١٠) فى أ: «فجاء».

(١١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٦٨٣) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٣١٤).

وصف^(١) بالنبوة فقط، وإسماعيل وصف^(٢) بالنبوة والرسالة. وقد ثبت في صحيح مسلم^(٣) أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل...» وذكر تمام الحديث، فدل على صحة ما قلناه.

وقوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾: هذا أيضاً من الثناء الجميل، والصفة الحميدة، والخلة السديدة^(٤)، حيث كان مثابراً على طاعة ربه أمراً بها لأهله^(٥)، كما قال تعالى لرسوله: ﴿أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ﴾ الآية [التحريم: ٦] أى: مروهم بالمعروف، وانهوهم عن المنكر، ولا تدعوهم هملاً فتاكلهم النار يوم القيامة، وقد جاء في الحديث، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى، وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء. رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت، وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت^(٦) في وجهه الماء» أخرجه أبو داود، وابن ماجه^(٧).

وعن أبي سعيد، وأبي هريرة، رضى الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته، فصليا ركعتين، كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات». رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، واللفظ له^(٨).

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧)﴾.

وهذا^(٩) ذكر إدريس، عليه السلام، بالثناء عليه، بأنه^(١٠) كان صديقاً نبياً، وأن الله رفعه مكاناً علياً. وقد تقدم في الصحيح: أن رسول الله ﷺ مرّ به في ليلة الإسراء وهو في السماء الرابعة.

وقد روى ابن جرير ههنا أثراً غريباً عجيباً، فقال: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، أخبرني جرير بن حازم، عن سليمان الأعمش، عن شمر بن عطية، عن هلال بن يساف قال: سأل ابن عباس كعباً، وأنا حاضر، فقال له: ما قول الله - عز وجل - لإدريس: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ فقال كعب: أما إدريس فإن الله أوحى إليه أنى أرفع لك كل يوم مثل عمل جميع بني آدم، فأحب أن يزداد عملاً^(١١)، فأتاه خليل له من الملائكة فقال: إن الله أوحى إلى كذا وكذا، فكلّم لى^(١٢) ملك الموت، فليؤخرنى حتى أزداد عملاً. فحمّله بين جناحيه، حتى صعد به إلى السماء، فلما كان في السماء الرابعة تلقاهم ملك الموت منحدرًا، فكلّم ملك الموت فى الذى كلمه فيه إدريس، فقال: وأين إدريس؟ فقال: هو ذا على ظهري. قال ملك الموت: فالعجب! بعثت وقيل لى: اقْبِضْ رُوحَ إِدْرِيسَ

(١، ٢) فى ف: «وصفه».

(٣) لفظه عند مسلم فى صحيحه برقم (٢٢٧٦): «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى من كنانة قريشًا»، والله أعلم.

(٤) فى ت: «الشديدة».

(٥) فى ف: «أهله».

(٦) فى ت: «فنضحت».

(٧) سنن أبى داود برقم (١٤٥٠) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٣٦).

(٨) سنن أبى داود برقم (١٤٥١) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٤٠٦) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٣٥).

(٩) فى ت: «وهكذا».

(١٠) فى أ: «فإنه».

(١١) فى ف، أ: «تزداد علمًا».

(١٢) فى ت: «له».

فى السماء الرابعة». فجعلت أقول: كيف^(١) أقبض روحه فى السماء الرابعة، وهو فى الأرض؟ فقبض روحه هناك، فذلك^(٢) قول الله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾^(٣).

هذا من أخبار كعب الأخبار الإسرائيليات، وفى بعضه نكارة، والله أعلم.

وقد رواه^(٤) ابن أبى حاتم من وجه آخر، عن ابن عباس: أنه سأل كعباً، فذكر نحو ماتقدم، غير أنه قال لذلك الملك: هل لك أن تسأله - يعنى: ملك الموت - كم بقي من أجلى لكى أزداد من العمل وذكر باقيه^(٥)، وفيه: أنه لما سأله عما بقي من أجله، قال^(٦): لا أدرى حتى أنظر. ثم نظر، قال: إنك تسألنى^(٧) عن رجل ما بقي من عمره إلا طرفة عين، فنظر الملك^(٨) تحت جناحه إلى إدريس، فإذا^(٩) هو قد قبض، عليه السلام، وهو لا يشعر به.

ثم رواه من وجه آخر عن ابن عباس: أن إدريس كان خياطاً، فكان^(١٠) لا يغرز إبرة إلا قال: «سبحان الله»، فكان يمسى حين يمسى^(١١)، وليس فى الأرض أحد أفضل عملاً منه. وذكر بقيته كالذى قبله، أو نحوه.

وقال ابن أبى نجيج، عن مجاهد فى قوله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قال: إدريس رفع ولم يمت، كما رفع عيسى.

وقال سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قال: [رفع إلى]^(١٢) السماء الرابعة.

وقال العوفى عن ابن عباس: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قال: رفع إلى السماء السادسة فمات بها. وهكذا قال الضحاك بن مزاحم.

وقال الحسن، وغيره، فى قوله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قال: الجنة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨)﴾.

يقول تعالى: هؤلاء النبىون - وليس المراد [هؤلاء]^(١٣) المذكورين فى هذه السورة فقط، بل جنس الأنبياء، عليهم السلام، استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس - ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ الآية.

(٢) فى ف: «فهذا».

(١) فى ف: «فكيف».

(٣) تفسير الطبرى (٧٢/١٦).

(٤) فى أ: «وقد روى».

(٥) فى أ: «وذكر ما فيه».

(٦) فى ف، أ: «فقال».

(٨) فى أ: «ملك الموت».

(٩) فى ت: «قال».

(٧) فى ف، أ: «لتسألنى».

(١٠) فى ف: «وكان».

(١١) فى أ: «وكان يمشى حين يمشى».

(١٢) زيادة من ف، أ.

(١٣) زيادة من ف، أ.

قال السدى وابن جرير، رحمه الله: [فالذي عنى به من ذرية آدم: إدريس؛ والذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوح: إبراهيم^(١)]، والذي عنى به من ذرية إبراهيم: إسحاق ويعقوب وإسماعيل، والذي عنى به من ذرية إسرائيل: موسى، وهارون، وزكريا، ويحيى وعيسى ابن مريم.

قال ابن جرير: ولذلك^(٢) فرق أنسابهم، وإن كان يجمع جميعهم آدم؛ لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة، وهو إدريس، فإنه جد نوح.

قلت: هذا هو الأظهر أن إدريس في عمود نسب نوح، عليهما السلام. وقد قيل: إنه من أنبياء بنى إسرائيل، أخذنا من حديث الإسراء، حيث قال في سلامه على النبي ﷺ: «مرحباً بالنبي الصالح، والأخ الصالح»، ولم يقل: «الولد الصالح»، كما قال آدم وإبراهيم^(٣)، عليهما السلام.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن عبد الله بن محمد^(٤) أن إدريس أقدم من نوح بعثه الله إلى قومه، فأمرهم أن يقولوا: «لا إله إلا الله»، ويعملوا^(٥) ما شاؤوا فأبوا، فأهلكهم الله عز وجل.

[ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنس الأنبياء، أنها كقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾^(٦) إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ . وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ . وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ . وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ إلى أن قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣-٩٠] وقال تعالى: ﴿مِّنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾^(٧) [غافر: ٧٨]. وفي صحيح البخاري، عن مجاهد: أنه سأل ابن عباس: أفي «ص» سجدة؟ قال^(٨): نعم، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ﴾، فنبهكم عن أمر أن يقتدى بهم، قال: وهو منهم، يعني داود^(٩).

وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِذَا تَلَّيْ عَلَىٰهِم آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا بُكِيًّا﴾ أى: إذا سمعوا كلام الله المتضمن حُجَّجَه ودلائله وبراهينه، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة، وحمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة.

«والبكى»: جمع باك، فهذا أجمع العلماء على شرعية السجود هاهنا، اقتداء بهم، واتباعاً لمثلهم^(١٠).

قال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي معمر قال: قرأ عمر بن الخطاب، رضى

(١) زيادة من ت. (٢) فى أ: «وكذلك». (٣) فى ت: «إبراهيم وآدم».

(٤) فى ف، أ: «ويعملون» وهو خطأ والصواب ما أثبتناه.

(٥) فى ت، ف، أ: «عليك وكلم الله موسى تكليماً». (٨) فى ف، أ: «فقال».

(٩) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٧).

(١٠) فى ف، أ: «لموالهم».

الله عنه، سورة مريم، فسجد وقال: هذا السجود، فأين البكى؟ يريد البكاء.

رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وسقط من روايته ذكر «أبي معمر» فيما رأيت^(١)، والله^(٢) أعلم.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠)﴾.

لما ذكر تعالى حزب السعداء، وهم الأنبياء، عليهم السلام، ومن اتبعهم، من القائمين بحدود الله وأوامره، المؤدين فرائض الله، التاركين لزواجه - ذكر أنه ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ أى: قرون آخر، ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ - وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع؛ لأنها عماد الدين وقوامه، وخير أعمال العباد - وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، فهؤلاء سيلقون غيا، أى: خساراً يوم القيامة.

وقد اختلفوا فى المراد بإضاعة الصلاة هاهنا، فقال قائلون: المراد بإضاعتها تركها بالكلية، قاله محمد بن كعب القرظي، وابن زيد بن أسلم، والسدي، واختاره ابن جرير. ولهذا ذهب من ذهب من السلف والخلف والأئمة كما هو المشهور عن الإمام أحمد، وقول عن الشافعي إلى تكفير تارك الصلاة، للحديث^(٣): «بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة»^(٤)، والحديث الآخر: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر»^(٥). وليس هذا محل بسط هذه المسألة.

وقال الأوزاعي، عن موسى بن سليمان، عن القاسم بن مخيمرة فى قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾، قال: إنما أضاعوا المواقيت، ولو كان تركاً كان كفراً.

وقال وكيع، عن المسعودي، عن القاسم بن عبد الرحمن، والحسن بن سعد، عن ابن مسعود أنه قيل له: إن الله يكثر ذكر الصلاة فى القرآن: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ و﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ و﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحْفَظُونَ﴾؟ قال ابن مسعود: على مواقيتها. قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على الترك؟ قال: ذاك^(٦) الكفر.

[و^(٧)] قال مسروق: لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس، فيكتب من الغافلين، وفى إفراطهن الهلكة، وإفراطهن: إضاعتهن عن وقتهن.

وقال الأوزاعي، عن إبراهيم بن يزيد^(٨): أن عمر بن عبد العزيز قرأ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾، ثم قال: لم تكن^(٩) إضاعتهم تركها، ولكن أضاعوا الوقت.

(١) تفسير الطبرى (٧٣/١٦).

(٢) فى ف، أ: «فأله».

(٣) فى أ: «الحديث».

(٤) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٨٢) من حديث جابر رضى الله عنه.

(٥) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٦٢١) والنسائى فى السنن (٢٣١/١) من حديث بريدة بن الحصيب رضى الله عنه وقال الترمذى:

«هذا حديث حسن صحيح غريب».

(٦) فى ت، ف، أ: «ذلك». (٧) زيادة من ت، ف. (٨) فى أ: «زيد».

(٩) فى ت، ف، أ: «يكن».

وقال ابن أبي نَجِيج، عن مجاهد: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ قال: عند قيام الساعة، وذهاب صالحى أمة محمد ﷺ، ينزو بعضهم على بعض فى الأزقة، وكذا روى ابن جُرَيْج، عن مجاهد، مثله ^(١).

وروى جابر الجعفي، عن مجاهد، وعكرمة، وعطاء بن أبى رباح: أنهم من هذه الأمة. يعنون فى آخر الزمان.

وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا الحسن الأشيب، حدثنا شريك، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾، قال: هم فى هذه، الأمة ^(٢)، يتراكبون تراكب الأنعام والحمر فى الطرق، لا يخافون الله فى السماء، ولا يستحيون الناس فى الأرض.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطى، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا حيوة، حدثنا بشير بن أبى عمرو الخولانى: أن الوليد بن قيس حدثه، أنه سمع أبا سعيد الخدرى يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون خلف بعد ستين سنة، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غيا. ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدو تراقيهم. ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن، ومنافق، وفاجر». قال بشير ^(٣): قلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ قال: المؤمن مؤمن به. والمنافق كافر به، والفاجر يأكل به.

وهكذا رواه أحمد عن أبى عبد الرحمن، المقرئ ^(٤)، به ^(٥).

وقال ابن أبى حاتم أيضاً: حدثني أبى، حدثنا إبراهيم بن موسى، أنبأنا عيسى بن يونس، حدثنا عبيد الله بن عبد الرحمن بن مَوْهَب ^(٦)، عن مالك، عن ^(٧) أبى الرجال؛ أن عائشة كانت ترسل بالشئ صدقة لأهل الصفة، وتقول: لا تعطوا منه بربريا ولا بربرية، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هم الخلف الذين قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾». هذا حديث غريب ^(٨).

وقال أيضاً: حدثني أبى، حدثنا عبد الرحمن بن الضحاك، حدثنا الوليد، حدثنا حَرِيز ^(٩)، عن شيخ من أهل المدينة؛ أنه سمع محمد بن كعب القرظى يقول فى قوله ^(١٠): ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ الآية، قال: هم أهل الغرب ^(١١)، يملكون وهم شر من ملك.

(١) فى ت: «منكم». (٢) فى ت، ف: «الآية». (٣) فى ف، أ: «بشر».

(٤) فى ف، أ: «المقبرى».

(٥) المسند (٣٨/٣).

(٦) فى ف، أ: «ابن وهب». (٧) فى ف: «ابن».

(٨) ورواه الحاكم فى المستدرک (٢٤٤/٢) من طريق الحسن بن على عن إبراهيم بن موسى به.

وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وتعقبه الذهبى بقوله: «عبيد الله مختلف فى توثيقه، ومالك لا أعرفه ثم هو منقطع».

(٩) فى ت، ف، أ: «ابن جرير». (١٠) فى ف: «قول الله عز وجل». (١١) فى ت: «القرى»، وفى أ: «المغرب».

وقال كعب الأحبار: والله إنى لأجد صفة المنافقين فى كتاب الله عز وجل: شرايين للقهوات تراكين^(١) للصلوات، لعابين بالكعبات، رقادين عن العتمات، مفرطين فى الغدوات، تراكين للجمعات^(٢) قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾.

وقال الحسن البصرى: عطلوا المساجد، ولزموا الضيعات.

وقال أبو الأشهب العطاردى: أوحى الله - تعالى - إلى داود: يا داود، حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات؛ فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عنى محجوبة، وإن أهون ما أصنع بالعبد من عبيدى إذا أثر شهوة من شهواته على^(٣) أن أحرمة طاعتى.

وقال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب حدثنا أبو [السمح]^(٤) التميمى، عن أبي قبيل^(٥)، أنه سمع عقبة^(٦) بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى أخاف على أمتى اثنتين: القرآن [واللبن، أما اللبن]^(٧) فيتبعون الرّيف، ويتبعون الشهوات ويتركون الصلوات، وأما القرآن فيتعلمه المنافقون، فيجادلون به المؤمنين»^(٨).

ورواه عن حسن بن موسى، عن ابن^(٩) لهيعة، حدثنا أبو قبيل، عن عقبة، به مرفوعاً بنحوه تفرد به^(١٠).

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ أى: خسراناً. وقال قتادة: شراً.

وقال سفيان الثورى، وشعبة، ومحمد بن إسحاق، عن أبى إسحاق السبيعى، عن أبى عبيدة، عن عبد الله بن مسعود: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ قال: واد فى جهنم، بعيد القعر، خبيث الطعم.

وقال الأعمش، عن زياد، عن أبى عياض فى قوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ قال: واد فى جهنم من قيح ودم.

وقال الإمام أبو جعفر ابن جرير: حدثني عباس بن أبى طالب، حدثنا محمد بن زياد بن زيان، حدثنا شرقى بن قطامى، عن لقمان بن عامر الخزاعى قال: جئت أبا أمامة صدق بن^(١١) عجلان الباهلى فقلت: حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، قال: فدعا بطعام، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن صخرة زنة عشر^(١٢) أواق قذف بها من شفير جهنم، ما بلغت قعرها خمسين خريفاً،

(١) فى أ: «تاركين». (٢) فى أ: «للجماعات». (٣) فى أ: «عليه».

(٤) زيادة من ف، أ، والمسنَد. (٥) فى أ: «عن ابن قبيل». (٦) فى ت: «عبد الله».

(٧) فى هـ، ت، ف، أ: «الكنى، أما الكنى» والمثبت فى المسند.

(٨) المسند (١٥٦/٤) والمراد باللبن كما قال الحربى: «أظنه أراد يتباعدون عن الأمصار وعن صلاة الجماعة، ويطلبون مواضع اللبن فى المراعى والبوادر».

(٩) فى ت: «أبى».

(١٠) المسند (١٤٦/٤).

(١١) فى ت: «حدثنى». (١٢) فى ف: «عشر عشر»، وفى أ: «عشر عشرات».

ثم تنتهى إلى غى وآثام». قال: قلت: وما غى وآثام؟ قال: «بثران فى أسفل جهنم، يسيل فيهما صديد أهل النار، وهما اللتان^(١) ذكر الله فى كتابه: ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾» وقوله فى الفرقان: ﴿وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾^(٢).

هذ حديث غريب ورفعه منكر .

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾، أى: إلا من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات، فإن الله يقبل توبته، ويحسن عاقبته، ويجعله من ورثة جنة النعيم؛ ولهذا قال: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾، وذلك؛ لأن التوبة تجب ما قبلها. وفى الحديث الآخر: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»^(٣)؛ ولهذا لا ينقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التى عملوها شيئاً، ولا قبولوا بما عملوه قبلها فينقص^(٤) لهم مما عملوه بعدها؛ لأن ذلك ذهب هدرًا وترك نسياً، وذهب مَجَانًا، من كرم الكريم، وحلم الحليم.

وهذا الاستثناء ههنا كقوله فى سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يَضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا . إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ (٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣) ﴿.

يقول تعالى: الجنات التى يدخلها^(٥) التائبون من ذنوبهم، هى ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أى: إقامة ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ﴾ بظهر الغيب، أى: هى من الغيب الذى يؤمنون به وما رأوه؛ وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم.

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾، تأكيد لحصول ذلك وثبوت واستقراره؛ فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبدله، كقوله: ﴿وَكَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾^(٦) [المزمل: ١٨] أى: كائنا لا محالة.

وقوله ههنا: ﴿مَأْتِيًا﴾ أى: العباد صائرون إليه، وسيأتونه.

ومنهم من قال: ﴿مَأْتِيًا﴾ بمعنى: آتيا؛ لأن كل ما أتاك فقد أتيت، كما تقول العرب: أتت على خمسون سنة، وأتيت على خمسين سنة، كلاهما بمعنى [واحد]^(٧).

(١) فى ف: «اللذان».

(٢) تفسير الطبرى (٧٥/١٦).

(٣) جاء من حديث أنس بن مالك، وابن مسعود، وأبو سعيد الأنصارى، وابن عباس، رضى الله عنهم، وأجودها حديث ابن مسعود. أخرجه ابن ماجه فى السنن برقم (٤٢٥٠) لكنه فيه انقطاع.

(٤) فى ف: «فنقص».

(٥) فى ت: «يدخل إليها».

(٦) زيادة من ف، أ.

(٧) فى ت: «إنه كان» وهو خطأ، وفى أ: «كان وعده مفعولاً» وهو الصواب.

وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أى: هذه^(١) الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له، كما قد يوجد فى الدنيا .

وقوله: ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ استثناء منقطع، كقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾^(٢). إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا [الواقعة: ٢٥، ٢٦] .

وقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أى: فى مثل وقت البُكرات ووقت العَشِيَّات، لا أن^(٣) هناك ليلاً أو نهاراً^(٤)، ولكنهم فى أوقات تتعاقب، يعرفون مضيتها بأضواء وأنوار، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن هَمَّام، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « أول زُمْرَة تلج الجنة صُورُهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يَبْصُقُونَ فيها، ولا يَتِمَخُطُونَ^(٥) فيها، ولا يَتَغَوَّطُونَ، آتيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم^(٦) الألوة، ورَشَحُهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مَخَّ ساقيهما^(٧) من وراء اللحم؛ من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشيا .

أخرجاه فى الصحيحين، من حديث معمر، به^(٨) .

وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن^(٩) ابن إسحاق، حدثنى الحارث بن^(١٠) فضيل الأنصارى، عن محمود بن لبيد الأنصارى، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة، فى قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا»^(١١) . تفرد به أحمد من هذا الوجه .

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قال: مقادير الليل والنهار .

وقال ابن جرير: حدثنا على بن سبه، حدثنا الوليد بن مسلم قال: سألت زهير بن محمد، عن قول الله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قال: ليس فى الجنة ليل، هم فى نور أبداً، ولهم مقدار الليل والنهار، يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب، ويفتح^(١٢) الأبواب :

وبهذا الإسناد عن الوليد بن مسلم، عن خُلَيْد، عن الحسن البصرى، وذكر أبواب الجنة، فقال: أبواب^(١٣) يُرى ظاهرها من باطنها، فتكلم وتكلم، فَتُهُمُهم^(١٤) انفتحت انغلقى، فتفعل .

(١) فى ت، ف: «أى: فى هذه» . (٢) فى ت: «تأثيم» . (٣) فى ت: «إلا أن» .

(٤) فى ف: «ونهاراً» . (٥) فى ف: «يتمخطون» . (٦) فى أ: «ومجامرهم من» .

(٧) فى ف: «ساقهما» .

(٨) المسند (٣١٦/٢) وصحيح البخارى برقم (٣٢٢٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٤) .

(٩) فى ت: «عن موسى بن إسحاق» . (١٠) فى ت: «ثم» .

(١١) المسند (٢٦٦/١) وقال الهيثمى فى المجمع (٢٩٤/٥): «إسناد رجاله ثقات» .

(١٢) فى ت، ف: «فتح» . (١٣) فى ت: «أبواب الجنة» . (١٤) فى ت: «فيفهمهم»، وفى ف، أ: «فتفهمهم» .

وقال قتادة فى قوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾: فيها ساعتان: بكرة وعشى: ليس ثم (١) ليل ولا نهار، وإنما هو ضوء ونور.

وقال مجاهد ليس [فيها] (٢) بكرة ولا عشى، ولكن يؤتون به على ما كانوا يشتهون فى الدنيا. وقال الحسن، وقتادة، وغيرهما: كانت العرب، الأنعم فيهم، من يتغذى ويتعشى، ونزل (٣) القرآن على ما فى أنفسهم (٤) من النعيم، فقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾. وقال ابن مهدي، عن حماد بن زيد، عن هشام، عن الحسن: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قال: البكور يرد على العشى، والعشى يرد على البكور، ليس فيها ليل.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا سليم (٥) بن منصور بن عمار، حدثنى أبى، حدثنا محمد بن زياد قاضى أهل شمشاط (٦) عن عبد الله بن جرير (٧)، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «ما من غداة من غدوات الجنة، وكل الجنة غدوات، إلا أنه يزف إلى ولى الله فيها زوجة من الحور العين، أدناهن التى خلقت من الزعفران» (٨). قال أبو محمد: هذا حديث منكر.

[وقوله تعالى] (٩): ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ أى: هذه الجنة التى وصفنا بهذه الصفات العظيمة هى التى نورثها عبادنا المتقين، وهم المطيعون لله - عز وجل - فى السراء والضراء، والكاظمون (١٠) الغيظ والعافون (١١) عن الناس، وكما قال تعالى فى أول سورة المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ. الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١-١١].

﴿وَمَا نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَبِيًّا﴾ (٦٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥).

قال الإمام أحمد: حدثنا يعلى ووكيع قالوا: حدثنا عمر بن ذر، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟» قال: فنزلت ﴿وَمَا نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية.

انفرد بإخراجه البخارى، فرواه عند تفسير هذه الآية عن أبى نعيم، عن عمر بن ذر، به. ورواه ابن أبى حاتم وابن جرير، من حديث عمر بن ذر، به (١٢). وعندهما زيادة فى آخر الحديث، فكان

(١) فى أ: «ثمت».

(٢) زيادة من ف، أ.

(٣) فى أ: «نزل».

(٤) فى ف: «نفوسهم».

(٥) فى جميع النسخ: «سليمان» والمثبت من الجرح والتعديل ١٧٦/١/٤.

(٦) فى أ: «شمياط».

(٧) فى ت، ف، أ: «جدير».

(٨) ورواه ابن عدى فى الكامل (٣٩٤/٦) من طريق سليم بن منصور بن عمار به وقال: «ولا يعرف هذا إلا لمنصور بهذا الإسناد»، ومنصور بن عمار ضعفه العقيلي وقال أبو حاتم: ليس بالقوى.

(٩) زيادة من ت، وفى أ: «وقوله».

(١٠) فى ت، ف: «والكاظمين».

(١١) فى ت، ف: «والعافين».

(١٢) المسند (٢٣١/١)، (٢٣٣/١) وصحيح البخارى برقم (٤٧٣١) وتفسير الطبرى (٧٨/١٦).

ذلك الجواب لمحمد ﷺ .

وقال العوفي، عن ابن عباس: احتبس جبريل عن رسول الله ﷺ، فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وحزن، فاتاه جبريل وقال: يا محمد، ﴿ وَمَا نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ .

وقال مجاهد: لبث جبريل عن محمد ﷺ اثنتي عشرة ليلة، ويقولون [قُلِي] ^(١)، فلما جاءه قال: يا جبريل، لقد رثت عليّ، حتى ظن المشركون كل ظن. فنزلت ﴿ وَمَا نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ ^(٢) وما كان ربك نسيًّا قال: وهذه الآية كالتى فى الضحى .

وكذلك قال الضحاك بن مزاحم، وقتادة، والسدى، وغير واحد: إنها نزلت فى احتباس جبريل .

وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة قال: أبطأ جبريل النزول على رسول الله ﷺ أربعين يوماً، ثم نزل، فقال له النبي ﷺ: «ما نزلت حتى اشتقت إليك». فقال له جبريل: بل أنا كنت إليك أشوق، ولكنى مأمور، فأوحى إلى جبريل أن قل له: ﴿ وَمَا نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ الآية. رواه ابن أبى حاتم، رحمه الله، وهو غريب .

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مجاهد قال: أبطأت الرسل على النبي ﷺ، ثم أتاه جبريل فقال له: ما حبسك يا جبريل؟ فقال له جبريل: وكيف نأتيكم وأنتم لا تقصون أظفاركم، ولا تتقون براجمكم، ولا تأخذون شواربكم، ولا تستاكون؟ ثم قرأ: ﴿ وَمَا نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ إلى آخر الآية .

وقد قال الطبرانى: حدثنا أبو عامر النهوى، حدثنا محمد بن إبراهيم الصورى، حدثنا سليمان ابن عبد الرحمن [الدمشقى] ^(٣) حدثنا إسماعيل بن عياش، أخبرنى ثعلبة بن مسلم، عن أبى كعب مولى ابن عباس، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: أن جبريل أبطأ عليه، فذكر ذلك له، فقال: وكيف وأنتم لا تستتون، ولا تقلمون أظفاركم، ولا تقصون شواربكم، ولا تتقون رواجبكم . وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبى اليمان، عن إسماعيل بن عياش، به نحوه ^(٤) .

وقال الإمام أحمد: حدثنا سيّار، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا المغيرة بن حبيب - [ختن] ^(٥) مالك بن دينار - حدثنى شيخ من أهل المدينة، عن أم سلمة قالت: قال لى رسول الله ﷺ: «أصلحى لنا المجلس، فإنه ينزل ^(٦) ملك إلى الأرض، لم ينزل إليها قط» ^(٧) .

وقوله: ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا ﴾ قيل: المراد: ما بين أيدينا: أمر الدنيا، وما خلفنا: أمر الآخرة، ﴿ وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾: ما بين النفختين. هذا قول أبى العالية، وعكرمة، ومجاهد، وسعيد بن

(١) زيادة من ت، ف، أ . (٢) فى ت، ف، أ: «إلى قوله» . (٣) زيادة من ت، ف، أ .

(٤) المعجم الكبير (٤٣١/١١) والمسند (٢٤٣/١) وفى إسناده أبو كعب مولى ابن عباس، قال أبو زرعة: «لا يسمى ولا يعرف إلا فى هذا الحديث» .

(٥) فى ه، ت، ف: «عن»، والمثبت من أ، والمسند . (٦) فى ف، أ: «ينزل» .

(٧) المسند (٢٩٦/٦) .

جبير. وقتادة، فى رواية عنهما، والسدى، والربيع بن أنس .

وقيل : ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ : ما نستقبل من أمر الآخرة ، ﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾ أى : ما مضى من الدنيا ، ﴿ وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ أى : ما بين الدنيا والآخرة . يروى نحوه عن ابن عباس، وسعيد بن جبیر، والضحاك، وقتادة، وابن جريج، والثورى . واختاره ابن جریر أيضاً، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ : قال مجاهد [والسدى] ^(١) : معناه : ما نسيتك ربك .

وقد تقدم عنه أن هذه الآية كقوله : ﴿ وَالضُّحَى ﴾ . وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ [الضحى : ١-٣] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا يزيد بن محمد بن عبد الصمد الدمشقى، حدثنا محمد بن عثمان ^(٢) - يعنى أبا الجماهير ^(٣) - حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا عاصم بن رجاء بن حيوة، عن أبيه، عن أبى الدرداء يرفعه قال : « ما أحل الله فى كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت [عنه] ^(٤) فهو عافية، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى ^(٥) شيئاً » ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ ^(٦) .

وقوله : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [أى : خالق ذلك ومدبره، والحاكم فيه والمتصرف الذى لا معقب لحكمه، ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ ^(٧) هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ : قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس : هل تعلم للرب مثلاً أو شبيهاً .

وكذلك قال مجاهد، وسعيد بن جبیر، وقتادة، وابن جريج وغيرهم .

وقال عكرمة، عن ابن عباس : ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى ، وتقديس اسمه .

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَاتُ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبُّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) ﴾ .

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ يَتَعَجَّبُ وَيَسْتَعْبِدُ إِعَادَتَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَإِنْ تَعَجَّبْ

(٣) فى أ : «أبا الجماهير» .

(٢) فى ت : «ابن عباس» .

(١) زيادة من ت ، ف .

(٥) فى أ : «لينسنا» .

(٤) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٦) ورواه البزار فى مسنده برقم (١٢٣) من طريق سليمان بن عبد الرحمن عن إسماعيل بن عياش به وقال : «إسناده صالح» .

ورواه الحاكم فى المستدرک (٣٧٥/٢) ومن طريقه البيهقى فى السنن الكبرى (١٠/ ١٢) عن طريق أبى نعيم الفضل بن دكين عن

عاصم بن رجاء عن أبيه به وقال الحاكم : «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» .

وله شاهد من حديث سلمان رضى الله عنه .

(٧) زيادة من ت ، ف ، أ .

فَعَجَبُ قَوْلِهِمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿[الرعد: ٥]﴾، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ - ٧٩]، وقال ههنا: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا. أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ يستدل، تعالى، بالبداءة على الإعادة، يعني أنه، تعالى [قد] ^(١) خلق الإنسان ولم يك شيئا، أفلا يعيده وقد صار شيئا، كما قال تعالى: ﴿وهو الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وفي الصحيح: «يقول الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني، وآذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني، أما تكذبيه إياي فقلوه: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من آخره، وأما آذاه إياي فقلوه: إن لي ولدا، وأنا الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ^(٢)، ولم يكن له ^(٣) كفواً أحد ^(٤)».

وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ أقسم الرب، تبارك وتعالى، بنفسه الكريمة، أنه لا بد أن يحشرهم جميعاً وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله، ﴿ثُمَّ لَنَحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾. قال العوفي، عن ابن عباس: يعني: قعوداً، كقوله: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةٍ﴾ [الجاثية: ٢٨]. وقال السدي في قوله: ﴿ثُمَّ لَنَحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾: يعني: قياماً، وروى عن مرة، عن ابن مسعود [مثله] ^(٥).

وقوله: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ يعني: من كل أمة. قاله مجاهد، ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾.

قال الثوري، عن [علي بن الأقرم] ^(٦)، عن أبي الأحوص، عن ابن مسعود قال: يحبس الأول على الآخر، حتى إذا تكاملت العدة ^(٧)، أتاهم جميعاً، ثم بدأ بالأكابر، فالأكابر جرماً، وهو قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾.

وقال قتادة: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ قال: ثم لنزعن من أهل كل ^(٨) دين قادتهم [ورؤساءهم] ^(٩) في الشر. وكذا قال ابن جريج، وغير واحد من السلف. وهذا كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرَاهُمْ لَأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ. وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لَأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾: «ثم» ههنا لعطف الخبر على الخبر، والمراد أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار جهنم ويخلد فيها، وبمن ^(١٠) يستحق تضعيف

(١) زيادة من ف، أ. (٢) في ت، ف، أ: «ألد ولم أولد». (٣) في ف، أ: «لي».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٥).

(٥) زيادة من ف، أ. (٦) زيادة من ت، ف، أ، وفي هـ: «أبى» والمثبت من الطبرى.

(٧) في ت: «المغيرة». (٨) في ت، ف: «من كل أهل». (٩) زيادة من ت، ف، أ.

(١٠) في ت، ف، أ: «ومن».

العذاب، كما قال في الآية المتقدمة: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جَنًّا (٧٢)﴾ .

قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا خالد بن سليمان، عن كثير بن زياد البُرْسانى، عن أبى سُمَيَّة قال: اختلفنا فى الورود، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن. وقال بعضهم: يدخلونها جميعاً، ثم ينجى الله الذين اتقوا. فلقيت جابر بن عبد الله، فقلت له: إنا اختلفنا فى الورود، فقال: يردونها جميعاً - وقال سليمان مرة^(١) يدخلونها جميعاً - وأهوى بأصبعيه إلى أذنيه، وقال: صُمْتَا، إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن^(٢) برداً وسلاماً، كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم، ثم ينجى الله الذين اتقوا، ويذر الظالمين فيها جثياً^(٣) » . غريب ولم يخرجوه .

وقال الحسن بن عرفة: حدثنا مروان بن معاوية، عن بكار بن^(٤) أبى مروان، عن خالد بن معدان قال: قال أهل الجنة بعد ما دخلوا الجنة: ألم يعدنا ربنا الورود على النار؟ قال: قد مررتم عليها وهى خامدة .

وقال عبد الرزاق، عن ابن عيينة، عن إسماعيل بن أبى خالد، عن قيس بن أبى حازم قال: كان عبد الله بن رَوَاحَة واضعاً رأسه فى حجر امرأته، فبكى، فبكت امرأته فقال^(٥): ما يبكيك؟ فقالت: رأيتك تبكى فبكيت. قال: إني ذكرت قول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾^(٦)، فلا أدري أنجو منها أم لا؟^(٨)، وفى رواية: وكان مريضاً .

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا ابن يَمَان، عن مالك بن مِغُول، عن أبى إسحاق: كان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه قال: يا ليت أُمى لم تلدنى ثم يبكى، فقيل: ما يبكيك يا أبا ميسرة؟ فقال: أخبرنا أنا واردوها، ولم نُخَبَر أنا صادرون عنها^(٩) .

وقال عبد الله بن المبارك، عن الحسن البصرى قال: قال رجل لأخيه: هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم. قال: فهل أتاك أنك صادر عنها؟ قال: لا. قال: فقيم الضحك؟ [قال فما رُئى ضاحكاً حتى لحق بالله]^(١٠) .

(١) فى أ: «سليمان بن مرة» . (٢) فى ف: «المؤمنين» .

(٣) المسند (٣٢٨/٣) وقال المنذرى فى الترغيب (٣٠٦/٢): «رجاله ثقات» .

(٤) فى ف: «عن» . (٥) فى ف: «قال» . (٦) فى أ: «قالت» .

(٧) فى ت: «وما منكم» .

(٨) تفسير عبد الرزاق (١١/٢) .

(٩) تفسير الطبرى (٨٢/١٦) .

(١٠) زيادة من ف، أ، والطبرى .

وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا ابن عيينة، عن عمرو، أخبرني من سمع ابن عباس يخاصم نافع ابن الأزرق، فقال ابن عباس: الورود^(١): الدخول؟ فقال نافع: لا، فقرأ ابن عباس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وردوا أم لا؟ وقال: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨]: أورد هو^(٢) أم لا؟ أما أنا وأنت فستدخلها، فانظر هل نخرج منها أم لا؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك فضحك نافع^(٣).

وروى ابن جريج، عن عطاء قال: قال أبو راشد الحروري - وهو نافع بن الأزرق -: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء: ١٠٢]، فقال ابن عباس: ويلك: أمجنون أنت؟ أين قوله: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨]، ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا﴾ [مريم: ٨٦]، ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا؟﴾ والله إن كان دعاء من مضى: اللهم أخرجني من النار سالماً، وأدخلني الجنة غانماً^(٤).

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن عبيد المحاربي، حدثنا أسباط، عن عبد الملك، عن عبيد الله، عن مجاهد قال: كنت عند ابن عباس، فأتاه رجل يقال له: أبو راشد، وهو نافع بن الأزرق، فقال له: يا ابن عباس، أرايت قول الله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾؟ قال: أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها، فانظر: هل تصدر عنها أم لا^(٥).

وقال أبو داود الطيالسي: قال شعبة، أخبرني عبد الله بن السائب، عمن سمع ابن عباس يقرؤها [كذلك]^(٦): «وإن منهم إلا واردها» يعني: الكفار^(٧).

وهكذا روى عمرو بن الوليد الشنّي^(٨)، أنه سمع عكرمة يقرؤها كذلك: «وإن منهم إلا واردها»، قال: وهم الظلمة. كذلك كنا نقرؤها. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

وقال العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ يعني: البر والفاجر، ألا تسمع إلى قول الله لفرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا﴾، فسمى الورود في النار دخولاً، وليس بصادر.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، عن إسرائيل، عن السدي، عن مرة، عن عبد الله - هو ابن مسعود - ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾: قال رسول الله ﷺ: «يرد الناس [النار]^(٩) كلهم، ثم يصعدون عنها بأعمالهم».

(٢) في ت: «أوردهم»، وفي أ: «أوردوها».

(١) في ت: «المورود».

(٣) تفسير عبد الرزاق (١١/٢).

(٤) رواه الطبري في تفسيره (٨٢/١٦).

(٥) تفسير الطبري (٨٤/١٦).

(٦) زيادة من ت، ف، أ.

(٧) رواه الطبري في تفسيره (٨٣/١٦).

(٩) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.

(٨) في أ: «السنّي».

ورواه الترمذى عن عبد بن حميد، عن عبيد الله، عن إسرائيل، عن السدى به^(١). ورواه من طريق شعبة، عن السدى، عن مرة، عن ابن مسعود موقوفاً^(٢) (٣).

هكذا وقع هذا الحديث ههنا مرفوعاً. وقد رواه أسباط، عن السدى، عن مرة عن عبد الله بن مسعود قال: يرد الناس جميعاً الصراط، وورودهم قيامهم حول النار، ثم يصعدون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمر مثل البرق^(٤)، ومنهم من يمر مثل الريح، ومنهم من يمر مثل الطير، ومنهم من يمر كأجود الخيل، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم من يمر كعدو الرجل، حتى إن آخرهم مرأ رجل نوره على موضعي^(٥) إبهامى قدميه، يمر يتكفاً^(٦) به الصراط، والصراط دَحْضٌ مَزَلَّةٌ، عليه حَسَكٌ كَحَسَكِ الْقَتَادِ، حافاته ملائكة، معهم كلاب من نار، يختطفون بها الناس. وذكر تمام الحديث. رواه^(٧) ابن أبي حاتم.

وقال ابن جرير: حدثنا خلاد بن أسلم، حدثنا النضر، حدثنا إسرائيل، أخبرنا أبو إسحاق، عن أبي الأحوص^(٨) عن عبد الله: قوله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: الصراط على جهنم مثل حد السيف، فتمر الطبقة الأولى كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم، ثم يمرون والملائكة يقولون: اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ.

ولهذا شواهد في الصحيحين وغيرهما، من رواية أنس، وأبي سعيد، وأبي هريرة، وجابر، وغيرهم، من الصحابة، رضى الله عنهم^(٩).

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة عن الجُرَيْرِي، عن [أبي السليل]^(١٠)، عن غُنَيْم ابن قيس قال: ذكروا ورود النار، فقال كعب: تمسك النار للناس^(١١) كأنها مَتْنٌ^(١٢) إهالة حتى يستوى عليها أقدام الخلائق، برهم وفاجرهم، ثم يناديها مناد: أن امسكى أصحابك، ودعى أصحابي. قال: فتخسف بكل ولى لها، ولهى أعلم بهم^(١٣) من الرجل بولده، ويخرج المؤمنون ندية ثيابهم. قال كعب: ما بين منكبي الخازن من خزنتها مسيرة سنة، مع كل واحد منهم عمود ذو شعبتين^(١٤)، يدفع به الدفع فيصرع به في النار سبعمائة ألف^(١٥).

(١) المسند (٤٣٤/١) وسنن الترمذى برقم (٣١٥٩) وقال: «حديث حسن، ورواه شعبة عن السدى فلم يرفعه».

(٢) في ت، ف: «مرفوعاً».

(٣) سنن الترمذى برقم (٣١٦٠).

(٤) في ف، أ: «البرق الخاطف».

(٥) في أ: «موضع».

(٦) في أ: «فيمر فيكفاً».

(٨) في ت: «مولى الأحوص».

(٩) أما حديث أنس فرواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٣٦٧) وضعف إسناده.

وأما حديث أبي هريرة فهو في صحيح البخارى برقم (٦٥٧٣) وصحيح مسلم برقم (١٨٢).

وأما حديث أبي سعيد فهو في صحيح البخارى برقم (٦٥٧٤) وصحيح مسلم برقم (١٨٣).

(١٠) في هـ: «ابن أبي ليلي» والمثبت من ت، ف، أ، والطبرى.

(١١) في ف، أ: «الناس».

(١٢) في أ: «بين».

(١٣) في أ: «فتخسف بكل وليها وهى أعلم بهم».

(١٤) في ت، ف، أ: «عمود وشعبتين».

(١٥) تفسير الطبرى (٨٢/١٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن أم مبشر، عن حفصة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إني لأرجو ألا يدخل النار - إن شاء الله - أحد شهد بدرًا والحديبية» قالت^(١): فقلت: أليس الله يقول ﴿وَأَنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ قالت^(٢): فسمعتة يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جَنَّتًا﴾^(٣).

وقال [الإمام]^(٤) أحمد أيضاً: حدثنا ابن إدريس، حدثنا الأعمش، عن أبي سفيان^(٥)، عن جابر، عن أم مبشر - امرأة زيد بن حارثة - قالت: كان رسول الله ﷺ في بيت حفصة، فقال: «لا يدخل النار أحد شهد بدرًا والحديبية» قالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿وَأَنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾^(٦).

وفى الصحيحين، من حديث الزهري، عن سعيد، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار، إلا تحلَّه القسم»^(٧).

وقال عبد الرزاق: قال معمر: أخبرني الزهري، عن ابن المسيب، عن أبي هريرة؛ أن النبي ﷺ قال: «من مات له ثلاثة لم تمسه النار إلا تحلَّه القسم» يعنى الورود^(٨).

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا زَمْعَةُ، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد، تمسه النار إلا تحلَّه القسم». قال الزهري: كأنه يريد هذه الآية: ﴿وَأَنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾^(٩).

وقال ابن جرير: حدثنا عمران بن بكار الكلاعي^(١٠)، حدثنا أبو المغيرة^(١١)، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن تميم، حدثنا إسماعيل بن عبيد الله، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: خرج رسول الله ﷺ يعود رجلاً من أصحابه وعكاً، وأنا معه، ثم قال: «إن الله تعالى يقول: هي نارى أسلطانها على عبدى المؤمن؛ لتكون حظه من النار فى الآخرة» غريب ولم يخرجوه من هذا الوجه^(١٢).

وحدثنا أبو كريب، حدثنا ابن يمان، عن عثمان بن الأسود، عن مجاهد قال: الحمى حظ كل مؤمن من النار، ثم قرأ: ﴿وَأَنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا زبَّان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهنى، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يختمها عشر

(١) فى ت: «قال».

(٣) المسند (٦/٢٨٥).

(٤) زيادة من ت.

(٥) فى ت: «شقيق».

(٦) المسند (٦/٣٦٢).

(٧) صحيح البخارى برقم (٦٦٥٦) وصحيح مسلم برقم (٢٦٣٢).

(٨) تفسير عبد الرزاق (١١/٢).

(٩) مسند الطيالسي برقم (٢٣٠٤).

(١٠) فى ت: «أبو شعبة».

(١١) فى ت: «الخلاعى».

(١٢) تفسير الطبرى (٦/٨٣١) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٣/٣٨٢) من طريق محمد بن يحيى عن أبي المغيرة به.

مرات، بنى الله له قصراً فى الجنة». فقال عمر: إذا نستكثر يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «الله»^(١) أكثر وأطيب»^(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «من قرأ ألف آية فى سبيل الله، كُتِبَ يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا، إن شاء الله. ومن حرس من وراء المسلمين فى سبيل الله متطوعاً لا بأجرة»^(٣) سلطان، لم ير النار بعينه إلا تحلة القسم، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، وإن الذكر فى سبيل [الله]^(٤) يُضَعَّفُ فوق النفقة بسبعمئة ضعف». وفى رواية: «بسبعمئة ألف ضعف»^(٥).

وروى أبو داود، عن أبي الطاهر، عن ابن وهب، عن يحيى بن أيوب [وسعيد بن أبي أيوب]^(٦) كلاهما عن زيان^(٧)، عن سهل، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ: «إن الصلاة والصيام والذكر تضاعف على النفقة فى سبيل الله بسبعمئة ضعف»^(٨).

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة قوله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: هو الممر عليها^(٩).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، قال: ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهريها، وورود المشركين: أن يدخلوها، وقال النبى ﷺ: «الزالون والزلات يومئذ كثير، وقد أحاط بالجسر يومئذ سِمَاطَان من الملائكة، دعاؤهم: يا أَللهُ سلم سلم»^(١٠).

وقال السدى، عن مرة، عن ابن مسعود فى قوله: ﴿كَانَ عَلَى رَيْكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ قال: قسماً واجباً. وقال مجاهد: [حتماً]^(١١)، قال: قضاء. وكذا قال ابن جريج^(١٢).

وقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أى: إذا مرّ الخلائق كلهم على النار، وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوى المعاصى، بحسبهم، نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم. فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التى كانت فى الدنيا، ثم يشفعون فى أصحاب الكبائر من المؤمنين، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون^(١٣)، فيخرجون خلقاً كثيراً قد أكلتهم النار، إلا دارات وجوههم - وهى مواضع السجود - وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما فى قلوبهم من الإيمان، فيخرجون أولاً من كان فى قلبه مثقال دينار من إيمان، ثم الذى يليه، ثم الذى يليه، [ثم الذى يليه]^(١٤) حتى يخرجوا من كان فى قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان ثم يخرج الله من النار

(١) زيادة من ف، أ، والمسند.

(٢) المسند (٤٣٧/٣).

(٣) فى ت، ف: «بأجر».

(٤) رواه أحمد فى مسنده (٤٣٧/٣) من حديث معاذ بن أنس رضى الله عنه.

(٥) زيادة من ف، أ.

(٦) سنن أبي داود برقم (٢٤٩٨).

(٧) تفسير عبد الرزاق (١١/٢).

(٨) تفسير الطبرى (٨٣/١٦).

(٩) زيادة من ف، أ.

(١٠) زيادة من ف، أ.

(١١) فى ت: «ابن جريج». (١٣) فى ت: «فيشفع الله الملائكة والنبيين والمؤمنين».

من قال يوماً من الدهر: «لا إله إلا الله»^(١) وإن لم يعمل خيراً قط، ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا﴾.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيَا (٧٤)﴾.

يخبر تعالى عن الكفار حين تلى^(٢) عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان: أنهم يصدون عن ذلك، ويعرضون ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم: ﴿خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [أى: أحسن منازل وأرفع دوراً وأحسن ندياً]^(٣)، وهو مجمع الرجال للحديث، أى: ناديتهم أجمع وأكثروا وارداً وطارقاً، يعنون: فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل، وأولئك [الذين هم]^(٤) مخفون مستترون في دار الأرقم بن أبى الأرقم ونحوها من^(٥) الدور على الحق؟. كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]. وقال قوم نوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مَنِّينَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]؛ ولهذا قال تعالى راداً عليهم شبهتهم: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ [أى: وكم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم، هم أحسن أثاثاً ورئياً] [أى: كانوا أحسن من هؤلاء أموالاً وأمتعة ومناظر وأشكالاً].

[و]^(٦) قال الأعمش، عن أبى ظبيان، عن ابن عباس: ﴿خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ قال: المقام: المنزل، والندى: المجلس، والأثاث: المتاع، والرائى: المنظر.

وقال العوفى، عن ابن عباس: المقام: المسكن، والندى: المجلس والنعمة والبهجة التى كانوا فيها، وهو كما قال الله لقوم فرعون حين^(٧) أهلكهم وقص شأنهم فى القرآن: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ (٨) وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان: ٢٥، ٢٦]، فالمقام: المسكن والنعيم، والندى: المجلس والمجمع الذى كانوا يجتمعون فيه، وقال [الله]^(٩) فيما قص على رسوله من أمر قوم لوط^(١٠): ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، والعرب تسمى المجلس: النادى.

وقال قتادة: لما رأوا أصحاب محمد ﷺ فى عيشهم خشونة، وفيهم قشافة، تعرّض^(١١) أهل الشرك بما تسمعون^(١٢): ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾. وكذا قال مجاهد، والضحاك.

ومنهم من قال فى الأثاث: هو المال. ومنهم من قال: المتاع. ومنهم من قال: الثياب، والرئى: المنظر كما قال ابن عباس، ومجاهد وغير واحد.

(١) فى ف: «من قال: لا إله إلا الله يوماً من الدهر». (٢) فى ف: «يتلى». (٣) (٤) زيادة من ف، أ. (٥) فى ت: «فى». (٦) زيادة من ت. (٧) فى ت: «حتى». (٨) فى ت، ف، أ: «وكنوز». (٩) زيادة من: ت، ف. (١٠) فى أ: «لوط إذ قال». (١١) فى ت: «وفيهم». (١٢) فى ت، ف، أ: «يسمعون».

وقال الحسن البصرى: يعنى الصور. وكذا قال مالك: ﴿أَثَاثًا وَرِيَاءًا﴾: أكثر أموالاً وأحسن صوراً. والكل متقارب صحيح.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ (٧٥).

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين بربههم المدعين، أنهم على الحق وأنكم على الباطل: ﴿مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ أى: منا ومنكم، ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ أى: فأملهه الرحمن^(١) فيما هو فيه، حتى يلقى ربه وينقضى^(٢) أجله، ﴿إِمَّا الْعَذَابَ﴾ يصيبه، ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ بغتة تأتيه، ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حينئذ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ [أى]^(٣): فى مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندى.

قال مجاهد فى قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾: فليدعه الله فى طغيانه. هكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير، رحمه الله.

وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه^(٤)، كما ذكر تعالى مباهلة اليهود فى قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦] أى: ادعوا على المبطل منا ومنكم بالموت^(٥) إن كنتم تدعون أنكم على الحق، فإنه لا يضركم الدعاء، فنكلوا عن ذلك، وقد تقدم تقرير ذلك فى سورة «البقرة» مبسوطاً، ولله الحمد. وكما ذكر تعالى المباهلة مع النصارى فى سورة «آل عمران» حين^(٦) صمموا على الكفر، واستمروا على الطغيان والغلو فى دعواهم أن عيسى ولد الله، وقد ذكر الله حُجَجَه وبراهينه على عبودية عيسى، وأنه مخلوق كآدم، قال^(٧) بعد ذلك: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١] فنكلوا أيضاً عن ذلك.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ (٧٦).

لما ذكر [الله]^(٨) تعالى إمداد من هو فى الضلالة فيما هو فيه وزيادته على ما هو عليه، أخبر بزيادة المهتدين هدى كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيمانًا وهم يستبشرون. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

(١) فى ت، ف، أ: «الله».

(٢) فى أ: «وينقضى».

(٣) زيادة من أ.

(٤) فى أ: «وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون على هدى قيامهم».

(٥) فى ف: «أى ادعوا بالموت على المبطل منا ومنكم». وفى أ: «أى ادعوا بالموت على المبطل منا أو منكم».

(٦) زيادة من ت.

(٧) فى ت: «وقال».

(٨) فى أ: «حتى».

وقوله: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: قد تقدم تفسيرها، والكلام عليها، وإيراد الأحاديث المتعلقة بها في سورة «الكهف».

﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أى: جزاء ﴿وَحَيْرٌ مَرَدًّا﴾ أى: عاقبة ومراداً على صاحبها.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا عمر بن راشد، عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال: جلس رسول الله ﷺ ذات يوم، فأخذ عوداً يابساً فَحَطَّ ورقة ثم قال: «إن قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله، تحط الخطايا كما تحط ورق هذه الشجرة الريح»^(١)، خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن، هن الباقيات الصالحات، وهن^(٢) من كنوز الجنة. قال أبو سلمة: فكان أبو الدرداء إذا ذكر هذا الحديث قال: لأهللن الله، ولأكبرن الله، ولأسبحن الله، حتى إذا رآنى الجاهل حسب أنى مجنون^(٣).

وهذا ظاهره^(٤) أنه مرسل، ولكن قد يكون من رواية أبى سلمة، عن أبى الدرداء، والله أعلم. وهكذا وقع فى سنن ابن ماجه، من حديث أبى معاوية، عن عمر^(٥) بن راشد، عن يحيى، عن أبى سلمة، عن أبى الدرداء، فذكر نحوه^(٦).

﴿أَفْرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠)﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، عن خباب بن الارت قال: كنت رجلاً قيناً، وكان لى على العاص بن وائل دين، فأتيته أقتاضاه. فقال: لا، والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد^(٧) [فقلت: لا، والله لا أكفر بمحمد ﷺ]^(٨) حتى تموت ثم تبعث. قال: فلمنى إذا مت ثم بعثت جئتني ولى ثم مال وولد، فأعطيتك. فأنزل الله: ﴿أَفْرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَلَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾.

أخرجه صاحبها الصحيح وغيرهما، من غير وجه، عن الأعمش به^(٩)، وفى لفظ البخارى: كنت قيناً بمكة، فعملت للعاص بن وائل سيفاً، فجئت أقتاضاه. فذكر الحديث، وقال: ﴿أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال: موثقاً.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثورى، عن الأعمش، عن أبى الضحى، عن مسروق قال: قال خباب

(١) فى أ: «كما يحط ورق هذا الشجر الريح».

(٣) تفسير عبد الرزاق (١٢/٢).

(٤) فى أ: «وهذا ظاهر».

(٦) سنن ابن ماجه برقم (٣٨١٣) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/١٩٤): «هذا إسناد ضعيف».

(٧) فى ت: «محمد».

(٩) المسند (٤/١١١) وصحيح البخارى برقم (٢٠٩١)، (٤٧٣٤)، (٤٧٣٥) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٥).

ابن الأرت: كنت قيناً بمكة، فكنت أعمل للعاص بن وائل، قال: فاجتمعت لى عليه دراهم، فجئت لأتقاضاه^(١)، فقال لى: لا أقضيك^(٢) حتى تكفر بمحمد. فقلت: لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث. قال: فإذا بعثت كان لى مال وولد. قال: فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾^(٣).

وقال العوفي عن ابن عباس: إن رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون العاص بن وائل السهمى بدين، فأتوه يتقاضونه، فقال: أستم ترعمون أن فى الجنة ذهباً وفضة وحريراً، ومن كل الثمرات؟ قالوا: بلى. قال: فإن موعدكم^(٤) الآخرة، فوالله لأوتين مالا وولداً، ولأوتين مثل كتابكم الذى جئتم به. فضرب الله مثله فى القرآن فقال^(٥): ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾.

وهكذا قال مجاهد، وقتادة، وغيرهم: إنها نزلت فى العاص بن وائل.

وقوله: ﴿لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾: قرأ بعضهم بفتح «الواو» من «ولداً» وقرأ آخرون بضمها، وهو بمعناه، قال رؤبة:

الحمد لله العزيز فرداً لم يتخذ من ولد شيء ولداً^(٦)

وقال الحارث بن حلزة:

ولقد رأيت معاشراً قد تمروا مالا وولداً^(٧)

وقال الشاعر:

فليت فلاناً كان فى بطن أمه وليت فلاناً كان ولد حماراً^(٨)

وقيل: إن «الولد» بالضم جمع، «والولد» بالفتح مفرد، وهى لغة قيس، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾: إنكار على هذا القائل، ﴿لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ يعنى: يوم القيامة، أى: أعلم ماله فى الآخرة حتى تآلى^(٩) وحلف على ذلك، ﴿أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾: أم له عند الله عهد سيؤتيه ذلك؟ وقد تقدم عند البخارى: أنه الموثق.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال: لا إله إلا الله، فيرجو بها^(١٠). وقال محمد بن كعب القرظى: ﴿أَمْ اتَّخَذَ^(١١) عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، ثم قرأ: ﴿أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾.

(٢) فى أ: «فقال لى أقضيك».

(١) فى ف، أ: «أتقاضاه».

(٣) تفسير عبد الرزاق (١٣/٢).

(٥) فى ت: «فقالوا».

(٤) فى ت: «قال فموعدكم».

(٦) الرجز فى تفسير الطبرى (٩٢/١٦).

(٧) البيت فى تفسير الطبرى (٩٢/١٦).

(٨) البيت فى تفسير الطبرى (٩٢/١٦) واللسان مادة «ولد» غير منسوب.

(٩) فى أ: «حتى مالا».

(١٠) فى أ: «فيرجونها».

(١١) فى ف: «أم اتخذ»، وفى هـ: «إلا من اتخذ»، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.

وقوله: ﴿كَلَّا﴾: هى حرف ردع لما قبلها وتأكيد لما بعدها، ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أى: من طلبه ذلك وحكمه لنفسه بما تمناه، وكفره بالله العظيم، ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ أى: فى الدار الآخرة، على قوله ذلك، وكفره [بالله]^(١) فى الدنيا، ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أى: من مال وولد، نسلبه منه، عكس ما قال: إنه يؤتى فى الدار الآخرة مالا وولداً، زيادة على الذى له فى الدنيا، بل فى الآخرة يُسَلَب من الذى كان له فى الدنيا؛ ولهذا قال: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أى: من المال والولد.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾، [قال: نرثه]^(٢).

وقال مجاهد: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾: ماله وولده، وذلك الذى قال العاص بن وائل.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ قال: ما عنده، وهو قوله: ﴿لَأُوتِينَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾ وفى حرف ابن مسعود: «ونرثه ما عنده».

وقال قتادة: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾: لا مال له، ولا ولد.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ قال: ما جمع من الدنيا، وما عمل فيها، قال: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ قال: فرداً من ذلك، لا يتبعه قليل ولا كثير.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَزَّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعْدُهُمْ عَذَابًا (٨٤)﴾.

يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم: أنهم اتخذوا من دونه آلهة، لتكون تلك الآلهة ﴿عِزًّا﴾ يعتزون بها ويستنصرونها.

ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا، ولا يكون ما طمعوا، فقال: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أى: يوم القيامة ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أى: بخلاف ما ظنوا فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ. وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ^(٣)﴾ [الاحقاف: ٥، ٦].

وقرأ أبو نَهِيك: «كل سيقفرون بعبادتهم».

وقال السدى^(٤): ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أى: بعبادة الأوثان. وقوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أى: بخلاف ما رجوا منهم.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: أعواناً.

قال مجاهد: عوناً عليهم، تُخَاصِمُهُمْ وتُكَذِّبُهُمْ.

(٣) فى ت: «كافرون»، وهو خطأ.

(١) زيادة من ف.

(٤) فى ت: «السندى».

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: قرناء .

وقال قتادة: قرناء فى النار، يلعن بعضهم بعضاً، ويكفر بعضهم ببعض .

وقال السدى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: الخصماء الأشداء فى الخصومة .

وقال الضحاك: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: أعداء .

وقال ابن زيد: الضد: البلاء .

وقال عكرمة: الضد: الحسرة .

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن

عباس: تغويهم إغواء .

وقال العوفى عنه: تحرضهم على محمد وأصحابه .

وقال مجاهد: تُشليهم إشلاء^(١) .

وقال قتادة: تزعجهم إزعاجاً إلى معاصى الله .

وقال سفيان الثورى: تغريهم إغراء وتستعجلهم استعجالاً .

وقال السدى: تطغيهم طغياناً .

وقال عبد الرحمن بن زيد: هذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ

قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] .

وقوله: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعْدُ لَهُمْ عَذًّا﴾ أى: لا تعجل يا محمد على هؤلاء فى وقوع

العذاب بهم، ﴿إِنَّمَا نَعْدُ لَهُمْ عَذًّا﴾ أى: إنما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط، وهم صائرون لا محالة

إلى عذاب الله ونكاله، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ

الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، ﴿فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رَوْدًا﴾ [الطارق: ١٧]، ﴿إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا

إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]، ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا

فَإِن مَّصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠] .

قال السدى: ﴿إِنَّمَا نَعْدُ لَهُمْ عَذًّا﴾: السنين، والشهور، والأيام، والساعات .

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِنَّمَا نَعْدُ لَهُمْ عَذًّا﴾ قال: نعد أنفاسهم فى الدنيا .

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًّا (٨٦) لَا

يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧) .

(١) فى ف: «تخليهم إملاء» .

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين، الذين خافوه في الدار الدنيا^(١)، واتبعوا رسله وصدقوهم فيما أخبروهم، وأطاعوهم فيما أمروهم به، وانتهوا عما عنه زجروهم: أنه^(٢) يحشرهم يوم القيامة وفداً إليه. والوفد: هم القادمون ركباناً، ومنه الوفود وركوبهم على نجائب من نور، من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمون على خير موفود إليه، إلى دار كرامته ورضوانه. وأما المجرمون المكذبون للرسل المخالفون لهم، فإنهم يساقون عنفاً إلى النار، ﴿وَرَدًّا﴾: عطاشاً، قاله [عطاء]^(٣)، وابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وغير واحد. وههنا يقال: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن خالد^(٤)، عن عمرو بن قيس الملائي، عن ابن مرزوق: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًّا﴾ قال: يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها، وأطيبها ريحاً، فيقول: من أنت؟ فيقول: أما تعرفني؟ فيقول: لا، إلا أن الله قد طيب ريحك وحسن وجهك. فيقول: أنا عملك الصالح، وهكذا كنت في الدنيا، حسن العمل طيبه، فطالما ركبتك في الدنيا، فهل أمركبني. فيركبه، فذلك قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًّا﴾.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًّا﴾ قال: ركباناً. وقال ابن جرير: حدثني ابن المنثي، حدثنا ابن مهدي، عن شعبة^(٥)، عن إسماعيل، عن رجل، عن أبي هريرة: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًّا﴾ قال: على الإبل. وقال ابن جريج: على النجائب.

وقال الثوري: على الإبل النوق. وقال قتادة: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًّا﴾ قال: إلى الجنة. وقال عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه: حدثنا سويد بن سعيد، أخبرنا علي بن مسهر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، حدثنا النعمان بن سعد قال: كنا جلوساً عند علي، رضى الله عنه، فقرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًّا﴾ قال: لا، والله ما على أرجلهم يحشرون، ولا يحشر الوفد على أرجلهم، ولكن بنوق لم ير^(٦) الخلائق مثلها، عليها رحائل من ذهب، فيركبون عليها، حتى يضربوا أبواب الجنة^(٧).

وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، من حديث عبد الرحمن بن إسحاق المدني، به. وزاد: «عليها رحائل الذهب، وأزمتها الزبرجد» والباقي مثله.

وروى ابن أبي حاتم ههنا حديثاً غريباً جداً مرفوعاً، عن علي، فقال: حدثنا أبي، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النهدي، حدثنا مسلمة بن جعفر البجلي،

(٣) زيادة من ف، أ.

(٦) في ف، أ: «لم تر».

(٢) في أ: «أن».

(٥) في أ: «سعيد».

(١) في ف: «الآخرة».

(٤) في ف: «أبو خالد».

(٧) زوائد المسند (١/١٥٥) وتفسير الطبري (٩٦/١٦).

سمعت أبا معاذ البصرى قال: إن عليا كان ذات يوم عند رسول الله ﷺ فقرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ فقال: ما أظن الوفد إلا الركب^(١) يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، إنهم إذا خرجوا من قبورهم يستقبلون - أو: يؤتون - بنوق بيض لها أجنحة، وعليها رجال الذهب، شرك نعالهم نور يتلألأ، كل خطوة منها مد البصر، فيتهدون إلى شجرة ينبع من أصلها عينان، فيشربون من إحداها، فتغسل ما فى بطونهم من دنس، ويغتسلون من الأخرى فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبداً، وتجرى عليهم نضرة النعيم، فينتهون أو: فيأتون باب الجنة، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب، فيضربون بالحلقة على الصفيحة^(٢) فيسمع^(٣) لها طنين يا على، فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل، فتبعث قيمها فيفتح له، فإذا رآه خرّ له - قال مسلمة^(٤): أراه قال: ساجداً - فيقول: ارفع رأسك، إنما أنا قيمك، وكلت بأمرك. فيتبعه ويقفو أثره، فتستخف الحوراء العجلة فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتنقه، ثم تقول: أنت - حبيبى، وأنا حبك، وأنا الخالدة التى لا أموت، وأنا الناعمة التى لا أبأس، وأنا الراضية التى لا أسخط، وأنا المقيمة التى لا أظعن. فيدخل بيتاً من أسه إلى سقفه مائة ألف ذراع، بناؤه على جندل اللؤلؤ طرائق: أضر وأحمر وأخضر، ليس منها طريقة تشاكل صاحبته. وفى البيت سبعون سريراً، على كل سرير سبعون حشية، على كل حشية سبعون زوجة، على كل زوجة سبعون حلة، يرى مخ ساقها من وراء الحلل، يقضى جماعها فى مقدار ليلة من لياليكم هذه. الأنهار من تحتهم تترد، أنهار من ماء غير آسن - قال: صاف لا كدر فيه^(٥) - وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، لم يخرج من ضروع الماشية، وأنهار من خمر لذة للشاربين، لم يعتصرها^(٦) الرجال بأقدامهم^(٧)، وأنهار من غسل مصفى لم يخرج من بطون النحل، فيستحلى^(٨) الثمار، فإن شاء أكل قائماً، وإن شاء قاعداً، وإن شاء متكئاً، ثم تلا: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤]، فيستهى الطعام، فيأتيه طير أبيض، وربما قال: أخضر^(٩)، فترفع أجنحتها، فيأكل من جنوبها أى الألوان شاء، ثم تطير فتذهب، فيدخل الملك فيقول: سلام عليكم: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، ولو أن شعرة من شعر الحوراء^(١٠) وقعت لأهل الأرض، لأضاءت الشمس معها سواد فى نور^(١١)».

هكذا وقع فى هذه الرواية مرفوعاً، وقد رويناه فى المقدمات من كلام على، رضى الله عنه، بنحوه، وهو أشبه بالصحة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِثًا﴾ أى: عطاشاً، ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ أى: ليس لهم من يشفع لهم، كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض، كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ

(١) فى أ: «الركوب». (٢) فى أ: «النبى».

(٣) فى أ: «فلا تسمع». (٤) فى ف، أ: «سلمة».

(٥) فى ف، أ: «بعصرها». (٦) فى أ: «بأقدامها».

(٧) فى ف، أ: «خضر». (٨) فى ف: «الخور العين، وفى، أ: «من شعر الحور».

(٩) فى ف، أ: «خضر». (١٠) فى ف: «الخور العين، وفى، أ: «من شعر الحور».

(١١) ورواه ابن أبى الدنيا فى صفة الجنة برقم (٧) من طريق الضحاك بن مزاحم، عن الحارث، عن على أنه سأل النبى ﷺ عن هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ فذكر نحوه.

شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿الشعراء: ١٠٠ ، ١٠١﴾ .

وقوله : ﴿إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ : هذا استثناء منقطع ، بمعنى : لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، والقيام بحقها .

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال : العهد : شهادة أن لا إله إلا الله ، ويبرأ إلى الله من الحول والقوة ، ولا يرجو إلا الله ، عز وجل .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عثمان بن خالد الواسطي ، حدثنا محمد بن الحسن الواسطي ، عن المسعودي ، عن عون بن عبد الله ، عن أبي فاختة ، عن الأسود بن يزيد قال : قرأ عبد الله - يعني ابن مسعود - هذه الآية : ﴿إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ، ثم قال : اتخذوا عند الله عهداً ، فإن الله يقول يوم القيامة : «من كان له عند الله عهد فليقيم» قالوا : يا أبا عبد الرحمن ، فعلمنا . قال : قولوا : اللهم ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا أنك إن تكلني إلى عمل تقربني من الشر وتباعدني^(١) من الخير ، وإني لا أثق إلا برحمتك ، فاجعل^(٢) لي عندك عهداً تؤديني إلى يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد .

قال المسعودي : فحدثني زكريا ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، أخبرنا ابن مسعود : وكان يُلْحِقُ بهن : خائفاً مستجيراً مستغفراً ، راهباً راغباً إليك^(٣) .

ثم رواه من وجه آخر ، عن المسعودي ، بنحوه .

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۚ﴾ (٨٨) ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ۖ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۚ﴾ (٩٠) ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۚ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۚ﴾ (٩٢) ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۚ﴾ (٩٤) ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ۚ﴾ (٩٥) .

لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى ، عليه السلام ، وذكر خلقه من مريم بلا أب ، شرع في مقام الإنكار علي من زعم أن له ولداً - تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً - فقال : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ﴾ أي : في قولكم هذا ، ﴿شَيْئًا إِدًّا﴾^(٤) قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، ومالك : أي عظيماً .

ويقال : ﴿إِدًّا﴾ بكسر الهمزة وفتحها ، ومع مدّها أيضاً ، ثلاث لغات ، أشهرها الأولى .

(١) في ف ، أ : «ويباعدوني» . (٢) في أ : «فاجعله» .

(٣) ورواه الحاكم في المستدرک (٣٧٧/٢) من طريق عبد الرحمن بن سعد عن المسعودي عن عون عن الأسود بن يزيد عن ابن مسعود بنحوه ، ولم يذكر أبا فاختة ، وقال : «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» .

(٤) في ف : «شئاً إدّا» أي : في قولكم هذا .

وقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ أى: يكاد يكون ذلك عند سماعهن^(١) هذه المقالة من فجرة بنى آدم، إعظاماً للرب وإجلالاً؛ لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا صاحبة له، ولا كفاء له، بل هو الأحد الصمد:

وفى كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

قال ابن جرير: حدثني علي، حدثنا عبد الله، حدثني معاوية، عن علي، عن ابن عباس، فى قوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ قال: إن الشرك^(٢) فزعت منه السموات والأرض والجبال، وجميع الخلائق إلا الثقلين، فكادت أن تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين، وقال رسول الله ﷺ: «لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله، فمن قالها عند موته وجبت له الجنة». قالوا: يا رسول الله، فمن قالها فى صحته؟ قال: «تلك أوجب وأوجب». ثم قال: «والذى نفسى بيده، لو جىء بالسموات والأرضين^(٣) وما فيهن، وما بينهن، وما تحتهن، فوضعن فى كفة الميزان، ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله فى الكفة الأخرى، لرجحت بهن»^(٤).

هكذا رواه ابن جرير، ويشهد له حديث البطاقة، والله أعلم.

وقال الضحاك: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ أى: يتشققن فرقاً^(٥) من عظمة الله.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾ أى: غضباً لله، عز وجل.

﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا﴾ قال ابن عباس: هدماً.

وقال سعيد بن جبير: ﴿هَدًا﴾: ينكسر بعضها على بعض متتابعات.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن سُوَيْدُ المَقْبَرى، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا مسعر، عن عون بن^(٦) عبد الله قال: إن الجبل لينادى الجبل باسمه: يا فلان، هل مر بك اليوم ذاكرُ الله عز وجل^(٧)؟ فيقول: نعم، ويستبشر. قال عون: لهُى^(٨) للخير أسمع، أفيستمعن^(٩) الزور والباطل إذا قيل ولا يسمعن^(١٠) غيره، ثم قرأ: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾^(١١).

(٣) فى أ: «والارض».

(٢) فى أ: «الشريك».

(١) فى ف، أ: «سماعهم».

(٤) تفسير الطبرى (٩٨/١٦).

(٥) فى ف: «فرعاً»، وفى أ: «أى ينشق فرعاً».

(٦) فى ف: «ابن».

(٧) فى ف، أ: «ذاكر الله تعالى».

(٨) فى أ: «لهى».

(٩) فى ف، أ: «أفيستمعن».

(١٠) فى ف، أ: «يستمعن».

(١١) ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (١١٧٦) من طريق ابن أبى عمر، عن سفيان، عن مسعر به، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٠٧/٩) من طريق سعيد بن منصور، عن سفيان، عن مسعر، عن عون، عن ابن مسعود، بنحوه. وقال الهيثمى فى المجمع

(١٠٧/٩): «رجال رجال الصحيح».

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا هُوَذَة ، حدثنا عوف، عن غالب بن عَجْرَدَ، حدثني رجل من أهل الشام في مسجد منى قال: بلغني أن الله لما خلق الأرض وخلق ما فيها من الشجر، لم يكن في الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منها منفعة - أو قال: كان لهم فيها منفعة - ولم تزل الأرض والشجر بذلك، حتى تكلم فجرة بنى آدم بتلك الكلمة العظيمة، قولهم: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾، فلما تكلموا بها اقشعرت الأرض، وشكاك الشجر.

وقال كعب الأحبار: غضبت الملائكة، واستعرت النار^(١)، حين قالوا ما قالوا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن سعيد بن جبيرة، عن أبي عبد الرحمن السلمى، عن أبي موسى، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحد^(٢) أصبر على أذى يسمعه^(٣) من الله، إنه يشرك به، ويجعل له ولداً، وهو يعافهم ويدفع عنهم، ويرزقهم».

أخرجاه في الصحيحين^(٤). وفى لفظ: «إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافهم».

وقوله: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أى: لا يصلح له، ولا يليق به لجلاله وعظمته؛ لأنه لا كفاء له من خلقه^(٥)؛ لأن جميع الخلائق عبيد له؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا. لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أى: قد علم عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة، ذكرهم وأنثاهم، وصغيرهم وكبيرهم، ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ أى: لا ناصر له ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له، فيحكم فى خلقه بما يشاء، وهو العادل الذى لا يظلم مثقال ذرة، ولا يظلم أحداً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّمَا يَسِرَّنَاهُ بِلسَانِكَ تُبَشِّرُ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرُ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨)﴾.

يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وهى الأعمال التى ترضى الله، عزوجل، لمتابعتها الشريعة المحمدية - يغرس لهم فى قلوب عباده الصالحين مودة، وهذا أمر لا بد منه، ولا محيد^(٦) عنه. وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجه.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوَّانة، حدثنا سُهَيْل، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريل، إني أحب فلاناً فأحبه. قال: فيحبه جبريل». قال: «ثم ينادى فى أهل السماء: إن الله يحب فلاناً». قال: «فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول فى الأرض، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريل، إني أبغض فلاناً».

(٣) فى ف، أ: «سمعه».

(٢) فى ف: «لا أحد».

(١) فى ف، أ: «واسعرت جهنم».

(٤) المسند (٤/٤٠٥) وصحيح البخارى برقم (٦٠٩٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٤).

(٦) فى أ: «فلا محيد».

(٥) فى ف، أ: «الخلق».

فأبغضه». قال: «فببغضه جبريل، ثم ينادى فى أهل السماء: إن الله ببغض فلاناً فأبغضوه». قال: «فببغضه أهل السماء، ثم يوضع له البغضاء فى الأرض».

ورواه مسلم من حديث سُهَيْل^(١). ورواه أحمد والبخارى، من حديث ابن جُرَيْج، عن موسى ابن عتبة^(٢)، عن نافع مولى ابن عمر، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ، بنحوه^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر^(٤)، حدثنا ميمون أبو محمد المثنى، حدثنا محمد بن عباد المخزومى، عن ثوبان، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: ^(٥) «إن العبد ليلتمس مرضات^(٦) الله، فلا يزال كذلك^(٧) فيقول الله، عز وجل، لجبريل: إن فلاناً عبدى يلتمس أن يرضينى؛ ألا وإن رحمتى عليه، فيقول جبريل: «رحمة الله على فلان»، ويقولها^(٨) حملة العرش، ويقولها من حولهم، حتى يقولها أهل السموات السبع، ثم يهبط إلى الأرض»^(٩).

غريب، ولم يخرجوه من هذا الوجه .

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا شريك، عن محمد بن سعد الواسطى، عن أبى ظبية، عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقة من الله - قال شريك: هى المحبة - والصبية من السماء، فإذا أحب الله عبداً قال لجبريل، عليه السلام: إنى أحب فلاناً، فينادى جبريل: إن ربكم يمح^(١٠) - يعنى: يحب - فلاناً، فأحبه - وأرى شريكاً قد قال: فتتزل له المحبة فى الأرض - وإذا أبغض عبداً قال لجبريل: إنى أبغض فلاناً فأبغضه»، قال: «فينادى جبريل: إن ربكم ببغض فلاناً فأبغضوه». قال: أرى شريكاً قد قال: فيجربى له البغض فى الأرض»^(١١).

غريب ولم يخرجوه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو داود الحفري، حدثنا عبد العزيز - يعنى ابن محمد، وهو الدراورذى - عن سهيل بن^(١٢) أبى صالح، عن أبيه، عن أبى هريرة؛ أن النبى ﷺ قال: «إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إنى قد أحببت فلاناً، فأحبه، فينادى فى السماء، ثم ينزل له المحبة فى أهل الأرض، فذلك قول الله، عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾».

(١) المسند (٢/ ٤١٣) وصحيح مسلم برقم (٢٦٣٧) .

(٢) فى ف، أ: «ابن عينة» .

(٣) المسند (٢/ ٥٤٠) وصحيح البخارى برقم (٦٠٤٠) .

(٤) فى ف، أ: «ابن بكير» .

(٦) فى أ: «فرحات» .

(٥) فى ف، أ: «أنه قال» .

(٨) فى ت: «ويقول» .

(٧) فى أ: «بذلك» .

(٩) المسند (٥/ ٢٧٩) .

(١٠) فى أ: «يمقه» .

(١١) المسند (٥/ ٢٦٣) .

(١٢) فى ف: «عن» .

رواه مسلم والترمذى كلاهما عن قتيبة، عن الدراوردي، به^(١). وقال الترمذى: حسن صحيح .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ قال : حباً .

وقال مجاهد، عنه: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ قال: محبة فى الناس فى الدنيا .

وقال سعيد بن جبير، عنه: يحبهم ويحببهم، يعنى: إلى خلقه المؤمنين . كما قال مجاهد أيضاً، والضحاك وغيرهم .

وقال العوفى، عن ابن عباس أيضاً: الود من المسلمين فى الدنيا، والرزق الحسن، واللسان الصادق .

وقال قتادة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾: إى والله، فى قلوب أهل الإيمان، ذكر^(٢) لنا أن هَرَمَ بن حَيَّان كان يقول: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم .

وقال قتادة: وكان عثمان بن عفان، رضى الله عنه، يقول: ما من عبد يعمل خيراً، أو شراً، إلا كساه الله، عز وجل، رداء عمله .

وقال ابن أبى حاتم، رحمه الله: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن الربيع بن صبيح، عن الحسن البصرى، رحمه الله قال: قال رجل: والله لأعبدن الله عبادة أذكر بها، فكان لا يرى فى حين صلاة إلا قائماً يصلى، وكان أول داخل إلى المسجد وآخر خارج، فكان لا يعظم، فمكث بذلك سبعة أشهر، وكان لا يمر على قوم إلا قالوا: «انظروا إلى هذا المرائى»، فأقبل على نفسه فقال: لا أرانى أذكر إلا بشراً، لأجعلن عملى كله لله، عز وجل، فلم يزد على أن^(٣) قلب نيته، ولم يزد على العمل الذى كان يعمل، فكان يمر بعد بالقوم، فيقولون: رحم الله فلاناً الآن، وتلا الحسن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾.

وقد روى ابن جرير أثراً أن هذه الآية نزلت فى هجرة عبد الرحمن بن عوف . وهو خطأ، فإن هذه السورة بتمامها^(٤) مكية لم ينزل منها شئ بعد الهجرة ، ولم يصح سند ذلك، والله أعلم .

وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾ يعنى: القرآن، ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أى: يا محمد، وهو اللسان العربى المبين الفصيح الكامل، ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ أى: المستجيبين لله المصدقين لرسوله، ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ أى: عوجاً عن الحق مائلين إلى الباطل .

وقال ابن أبى نجيع، عن مجاهد: ﴿قَوْمًا لُدًّا﴾: لا يستقيمون .

(١) صحيح مسلم برقم (٢٦٣٧) وسنن الترمذى برقم (٣١٦١) .

(٤) فى أ: «بكمالها» .

(٣) فى أ: «أنه» .

(٢) فى أ: «وذكر» .

وقال الثوري، عن إسماعيل - وهو السدّي - عن أبي صالح: ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾: عوجاً عن الحق .

[وقال الضحاك: هو الخصم. وقال القرظي: الألد: الكذاب]^(١) .

وقال الحسن البصري: ﴿قَوْمًا لُدًّا﴾: صماً.

وقال غيره صم آذان القلوب^(٢) .

وقال قتادة: ﴿قَوْمًا لُدًّا﴾: يعنى قريشاً .

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿قَوْمًا لُدًّا﴾: فجاراً . وكذا روى ليث بن أبي سليم عن مجاهد.

وقال ابن زيد: الألد: الظلوم، وقرأ قول الله: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤] .

وقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ﴾ أى: من أمة كفروا بآيات الله وكذبوا رسله، ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أى: هل ترى منهم أحداً، أو تسمع لهم ركزاً.

قال ابن عباس، وأبو العالية، وعكرمة، والحسن البصري، وسعيد بن جبّير، والضحاك، وابن زيد: يعنى: صوتاً .

وقال الحسن، وقاتدة: هل ترى عيناً، أو تسمع صوتاً.

والركز فى أصل اللغة: هو الصوت الخفى، قال الشاعر^(٣):

فَتَوَجَّسْتُ^(٤) رِكَزَ الْأَنْيَسِ فَرَأَعَهَا
عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ وَالْأَنْيَسُ سَقَامُهَا

آخر تفسير «سورة مريم» والله الحمد والمنة. ويتلوه إن شاء الله تعالى تفسير «سورة طه» والحمد لله

(١) زيادة من أ .

(٢) فى أ: «وقال غيرههم آذان القلوب» .

(٣) البيت فى تفسير الطبرى (١٦/ ١٠٢) غير منسوب، وهو لليد بن ربيعة من معلقته فى ديوانه (ص ٣١١) هـ. مستفاداً من حاشية

ط - الشعب .

(٤) فى ف: «فتوحشت» .

تفسير سورة طه

وهي مكية.

روى إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة في كتاب «التوحيد»، عن زياد بن أيوب، عن إبراهيم بن المنذر الحزامي، حدثنا إبراهيم بن مهاجر بن مسمار، عن عمر بن حفص بن ذكوان، عن مولى الحرقة - يعنى عبد الرحمن بن يعقوب - عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قرأ «طه» و«يس» قبل أن يخلق آدم بألف عام، فلما سمعت الملائكة قالوا: طوبى لأمة ينزل عليهم هذا^(١)، وطوبى لأجواف تحمل هذا، وطوبى لألسن تتكلم^(٢) بهذا^(٣)».

هذا حديث غريب، وفيه نكارة، وإبراهيم بن مهاجر وشيخه تكلم فيهما.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّمَن يَخْشَى (٣) تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) وَإِنْ تَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨)﴾.

تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة «البقرة» بما أغنى عن إعادته.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسين بن محمد بن شنبه^(٤) الواسطي، حدثنا أبو أحمد - يعنى: الزبيرى - أنبأنا إسرائيل عن سالم الأقطس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: طه: يا رجل. وهكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، [وعطاء]^(٥)، ومحمد بن كعب، وأبى مالك، وعطية العوفى، والحسن، وقتادة، والضحاك، والسدى، وابن أبى أنهم قالوا: «طه» بمعنى: يا رجل. وفى رواية عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، والثورى: أنها^(٦) كلمة بالنبطية معناها: يا رجل. وقال أبو صالح هي مُعَرَّبَةٌ.

وأسند القاضى عياض فى كتابه «الشفاء» من طريق عبد بن حميد فى تفسيره: حدثنا هاشم بن

(١) فى ف: «هذا عليهم». (٢) فى أ: «تكلم».

(٣) التوحيد (ص ١٠٩) ورواه ابن أبى عاصم فى السنة برقم (٦٠٧) واللالكائى فى شرح السنة برقم (٣٦٨) من طريق إبراهيم بن المنذر به.

قال ابن حبان: «هذا متن موضوع»، وقال ابن عدى: «لم أجد لإبراهيم - أى: ابن مهاجر - حديثاً أنكر من هذا؛ لأنه لا يرويه غيره».

(٤) فى أ: «أنه».

(٥) زيادة من ف، أ.

(٦) فى ف: «شبية».

[القاسم]^(١) عن ابن جعفر، عن الربيع بن أنس قال: كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل الله تعالى ﴿طه﴾، يعنى: طأ الأرض يا محمد، ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾. ثم قال: ولا خفاء بما فى هذا من الإكرام وحسن^(٢) المعاملة^(٣).

وقوله ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ قال جُوَيْر، عن الضحاك: لما أنزل الله القرآن على رسوله، قام به هو وأصحابه، فقال المشركون من قريش: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى! فأنزل الله تعالى: ﴿طه. مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى. إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾.

فليس الأمر كما زعمه المبطلون، بل من آتاه الله العلم فقد أراد به خيراً كثيراً، كما ثبت فى الصحيحين، عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «من يُرد الله به خيراً يفقهه فى الدين»^(٤).

وما أحسن الحديث الذى رواه الحافظ أبو القاسم الطبرانى فى ذلك حيث قال:

حدثنا أحمد بن زهير، حدثنا العلاء بن سالم، حدثنا إبراهيم الطالقانى، حدثنا ابن المبارك، عن سفيان، عن سَمَاك بن حرب، عن ثعلبة بن الحكم قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى للعلماء يوم القيامة إذا قَعَدَ على كرسيه لقضاء عبادته: إني لم أجعل علمى وحكمتى فيكم»^(٥) إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم، ولا أبالى»^(٦).

إسناده جيد وثعلبة بن الحكم هذا [هو الليثى]^(٧) ذكره أبو عمر فى استيعابه، وقال: نزل البصرة، ثم تحول إلى الكوفة، وروى عنه سَمَاك بن حرب^(٨).

وقال مجاهد فى قوله: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾: هى كقوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ﴾ [المزمل: ٢٠]، وكانوا يعلقون الحبال بصدورهم فى الصلاة.

وقال قتادة: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾: لا، والله ما جعله شقاء، ولكن جعله رحمة ونوراً، ودليلاً إلى الجنة.

﴿إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾: إن الله أنزل كتابه، وبعث رسله^(٩) رحمة، رحم بها العباد، ليتذكر ذاكر، ويتنفع رجل بما سمع من كتاب الله، وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه.

وقوله: ﴿تَنزِيلًا﴾^(١٠) مِّنْ خَلْقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى: أى: هذا القرآن الذى جاءك يا محمد

(٢) فى ف: «أو حسن»، وفى أ: «وأحسن».

(١) زيادة من ف، أ، والشاف.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢٦/١).

(٤) صحيح البخارى برقم (٧١) وصحيح مسلم برقم (١٠٣٧).

(٥) فى ف: «علمى فيكم وحكمتى».

(٦) المعجم الكبير (٨٤/٢) وقال الهيثمى فى المجمع (١٢٦/١): «رجاله موثقون».

(٨) الاستيعاب (٢٠٤/١).

(٧) زيادة من ف، أ.

(١٠) فى ف: «تنزيل».

(٩) فى أ: «رسوله».

[هو] ^(١) تنزيل من [ربك] ^(٢) رب كل شيء ومليكه، القادر على ما يشاء، الذى خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها، وخلق السموات العلى فى ارتفاعها ولطافتها! وقد جاء فى الحديث الذى صححه الترمذى وغيره. أن سُمك كل سماء مسيرة خمسمائة عام، وبُعد ما بينها والتى ^(٣) تليها [مسيرة] ^(٤) خمسمائة عام ^(٥).

وقد أورد ^(٦) ابن أبى حاتم ههنا حديث الأوعال ^(٧)، من رواية العباس عم رسول الله ﷺ ورضى الله عنه.

وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾: تقدم الكلام على ذلك فى سورة الأعراف، بما أغنى عن إعادته أيضاً، وأن المسلك الأسلم فى ^(٨) ذلك طريقة السلف، إمرار ما جاء فى ذلك من الكتاب والسنة من غير تكيف ولا تحريف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل.

وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ أى: الجميع ملكه وفى قبضته، وتحت تصرفه ومشيتته وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكة وإلهه، لا إله سواه، ولا رب غيره.

وقوله: ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ قال محمد بن كعب: أى ما تحت الأرض السابعة.

وقال الأوزاعى: إن يحيى بن أبى كثير حدثه أن كعباً سئل ف قيل له: ما تحت هذه الأرض؟ فقال: الماء. قيل: وما تحت الماء؟ قال: الأرض. قيل: وما تحت الأرض؟ قال: الماء. قيل: وما تحت الماء؟ قال: الأرض. قيل: وما تحت الأرض؟ قال: الماء. قيل: وما تحت الماء؟ قال: الأرض. قيل: وما تحت الأرض؟ قال: صخرة. قيل: وما تحت الصخرة؟ قال: ملك. قيل: وما تحت الملك؟ قال: حوت معلق طرفاه بالعرش، قيل: وما تحت الحوت؟ قال: الهواء والظلمة وانقطع العلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى، حدثنا عبد الله بن عيَّاش، حدثنا عبد الله بن سليمان عن درَّاج، عن عيسى بن هلال الصَّدْفَى، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الأرضين بين كل أرض والتى تليها مسيرة خمسمائة عام، والعليا منها على ظهر حوت، قد التقى طرفاه فى السماء، والحوت على صخرة، والصخرة بيد الملك، والثانية سجن ^(٩) الريح، والثالثة فيها حجارة جهنم، والرابعة فيها كبريت جهنم، والخامسة فيها حيات جهنم، والسادسة فيها عقارب جهنم، والسابعة فيها سقر، وفيها إبليس مُصَفَّد بالحديد، يد أمامه ويد خلفه،

(١، ٢) زيادة من ف، وفى أ: «يا محمد تنزيل من ربك».

(٣) فى أ: «وبين التى».

(٤) زيادة من ف، أ.

(٥) سنن الترمذى برقم (٣٢٩٨) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه، وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه».

(٦) فى ف: «روى».

(٧) سيأتى حديث الأوعال بطوله عند تفسير الآية ٧ من سورة غافر.

(٩) فى أ: «مسجن».

(٨) فى أ: «من».

فإذا أراد الله أن يطلقه لما يشاء أطلقه»^(١).

هذا حديث غريب جداً ورفع فيه نظر.

وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده: حدثنا أبو موسى الهروى، عن العباس بن الفضل [قال]:^(٢) قلت: ابن الفضل الأنصارى؟ قال: نعم، [عن القاسم]^(٣) بن عبد الرحمن، عن محمد بن على، عن جابر بن عبد الله قال: كنت مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، فأقبلنا راجعين فى حر شديد، فنحن متفرقون بين واحد واثنين، منتشرين، قال: وكنت فى أول العسكر: إذ عارضنا رجل فسلم، ثم قال: أيكم محمد؟ ومضى أصحابى ووقفت معه، فإذا رسول الله ﷺ قد أقبل فى وسط العسكر على جمل أحمر، مُقَنَّع بثوبه على رأسه من الشمس، فقلت: أيها السائل، هذا رسول الله ﷺ قد أتاك. فقال: أيهم هو؟ فقلت: صاحب البكر الأحمر. فدنا منه، فأخذ بخطام راحلته، فكف عليه رسول الله ﷺ، فقال^(٤): أنت محمد؟ قال: «نعم». قال: إني أريد أن أسألك عن خصال، لا يعلمهن أحد من أهل الأرض إلا رجل أو رجلان، فقال رسول الله ﷺ: «سل عما شئت». فقال: يا محمد، أينام النبی؟ فقال رسول الله ﷺ: «تنام عيناه ولا ينام قلبه». قال: صدقت. ثم قال: يا محمد، من أين يشبه الولد أباه وأمه؟ قال^(٥): «ماء الرجل أبيض غليظ، وماء المرأة أصفر رقيق، فأى الماءين غلب على الآخر نزع الولد». فقال^(٦): صدقت. فقال: ما للرجل من الولد وما للمرأة منه؟ فقال: «للرجل العظام والعروق والعصب، وللمرأة اللحم والدم والشعر»^(٧). قال: صدقت. ثم قال: يا محمد، ما تحت هذه، يعنى الأرض؟ فقال رسول الله ﷺ: «خلق». فقال: فما تحتهم؟ قال: «أرض». قال: فما تحت الأرض؟ قال: «الماء». قال: فما تحت الماء؟ قال: «ظلمة». قال: فما تحت الظلمة؟ قال: «الهواء». قال: فما تحت الهواء؟ قال: «الثرى». قال: فما تحت الثرى؟ ففاضت عنها رسول الله ﷺ بالبكاء، وقال: «انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق، أيها السائل، ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». قال: فقال: صدقت، أشهد أنك رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، هل تدرون من هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا جبريل ﷺ»^(٨)»^(٩).

هذا حديث غريب جداً، وسياق عجيب، تفرد به القاسم بن عبد الرحمن هذا، وقد قال فيه يحيى بن معين: «ليس يساوى شيئاً»، وضعفه أبو حاتم الرازى، وقال ابن عدى: لا يعرف.

(١) ورواه ابن منده فى كتاب التوحيد برقم (٦٣) من طريق حرملة بن يحيى عن عبد الله بن وهب بنحوه.

ورواه الحاكم فى المستدرک (٥٩٤/٤) من طريق بحر بن نصر عن عبد الله بن وهب عن عبد الله بن عياش عن عبد الله بن سليمان، عن دراج عن أبى الهيثم عن عيسى بن هلال عن عبد الله بن عمرو بمثله، فزاد أبو الهيثم فى إسناده.

وقال: «صحيح ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبى. قلت: «بلى منكر فيه عبد الله بن عياش وضعفه أبو داود وعند مسلم أنه: ثقة، ودراج وهو كثير المناكير».

(٢) فى ف: «قال».

(٣) زيادة من ف.

(٤) فى ف، أ: «ابن عباس».

(٥) فى أ: «فقال».

(٦) فى ف، أ: «قال».

(٧) فى ف، أ: «والكبد».

(٨) فى ف: «عليه السلام».

(٩) ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى الدر المنثور (٥٥٢/٥) من حديث جابر رضى الله عنه.

قلت: وقد خلط في هذا الحديث، ودخل عليه شيء في شيء، وحديث في حديث. وقد يُحتمل أنه تعمّد ذلك، أو أدخل عليه فيه، فالله أعلم.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أى: أنزل هذا القرآن الذى خلق [الأرض والسموات العلى، الذى يعلم السر وأخفى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِيهِ﴾^(١) السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦].

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قال: السر ما أسرّ ابن آدم فى نفسه، ﴿وَأَخْفَى﴾: ما أخفى على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه فالله يعلم ذلك كله، فعلمه فيما مضى من ذلك وما بقى علم واحد، وجميع الخلائق فى ذلك عنده كنفس واحدة، وهو قوله: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

وقال الضحاك: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قال: السر: ما تحدث به نفسك، وأخفى: ما لم تحدث به نفسك بعد.

وقال سعيد بن جبير: أنت تعلم ما تسر اليوم، ولا تعلم ما تسر غداً، والله يعلم ما تسر اليوم، وما تسر غداً.

وقال مجاهد: ﴿وَأَخْفَى﴾ يعنى: الوسوسة.

وقال أيضاً هو وسعيد بن جبير: ﴿وَأَخْفَى﴾ أى: ما هو عامله مما لم يحدث به نفسه.

وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [أى: الذى أنزل القرآن عليك هو الله الذى لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى]^(٢) والصفات العلى.

وقد تقدم بيان الأحاديث الواردة فى الأسماء الحسنى فى أواخر سورة «الأعراف» والله الحمد والمنة.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠)﴾.

من ههنا شرع، تبارك وتعالى، فى ذكر قصة موسى [عليه السلام]^(٣)، وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه إياه، وذلك بعد ما قضى موسى الأجل الذى كان بينه وبين صهره فى رعاية الغنم وسار بأهله قيل: قاصداً بلاد مصر، بعدما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين، ومعه زوجته، فأضل الطريق، وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال، فى برد وشتاء، وسحاب وظلام

(١) زيادة من ف.

(٢، ٣) زيادة من ف.

وضباب، وجعل يقدح بزند معه^(١) ليُورى نارا، كما جرت له العادة به، فجعل لا يقدح شيئاً، ولا يخرج منه شرر ولا شيء. فبينما هو كذلك، إذ آنس من جانب الطور نارا، أى: ظهرت له نار من جانب الجبل الذى هناك عن يمينه، فقال لأهله يبشرهم: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾، أى: شهاب^(٢) من نار. وفى الآية الأخرى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ [القصص: ٢٩]، وهى: الجمر الذى معه لهب، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩]، دل على وجود البرد، وقوله: ﴿بِقَبَسٍ﴾ دل على وجود الظلام.

وقوله: ﴿أَوْ أَجِدْ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أى: من يهدينى الطريق، دل على أنه قد تاه عن الطريق، كما قال الثورى، عن أبى سعد الأعور، عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله: ﴿أَوْ أَجِدْ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ قال: من يهدينى إلى الطريق. وكانوا شاتين وضلوا الطريق، فلما رأى النار قال: إن لم أجد أحداً يهدينى إلى الطريق آتكم^(٣) بنار توقدون بها.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ (١٦)﴾.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أى: النار واقترب^(٤) منها، ﴿نُودِيَ يَا مُوسَى﴾ وفى الآية الأخرى: ﴿نُودِيَ مِّن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠]، وقال هاهنا ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ أى: الذى يكلمك ويخاطبك، ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ قال على بن أبى طالب، وأبو ذر، وأبو أيوب، وغير واحد من السلف: كانتا من جلد حمار غير ذكى.

وقيل: إنما أمره بخلع نعليه تعظيماً للبقعة.

قال سعيد بن جبير: كما يؤمر الرجل أن يخلع نعليه إذا أراد أن يدخل^(٥) الكعبة.

وقيل: ليطأ الأرض المقدسة بقدميه حافياً غير متعل. وقيل: غير ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿طُوًى﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: هو اسم للوادي.

وكذا قال غير واحد، فعلى هذا يكون عطف بيان.

وقيل: عبارة عن الأمر بالوطء بقدميه.

(٣) فى أ: «آتيتكم».

(٢) فى ف: «شهاب».

(١) فى ف: «له».

(٥) فى ف، أ: «أراد دخول».

(٤) فى ف: «وقرب»، وفى أ: «واقرب».

وقيل: لأنه قدس مرتين، وطوى له البركة وكررت: والاول أصح، كقوله^(١): ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِاللَّوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٦].

وقوله: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ كقوله: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤] أى: على جميع الناس من الموجودين فى زمانه.

و[قد]^(٢) قيل: إن الله تعالى قال: ياموسى، أتدرى لم خصصتك بالتكليم من بين الناس؟ [قال: لا. قال:]^(٣) لأننى لم يتواضع لى أحد تواضعك.

وقوله: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ أى: اسمع الآن ما أقول لك وأوحى إليك ﴿إِنِّى أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾: هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله، وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿فَاعْبُدْنِى﴾ أى: وحدنى وقم بعبادتى من غير شريك، ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى﴾ قيل: معناه: صل لتذكرنى. وقيل: معناه: وأقم الصلاة عند ذكرى لى.

ويشهد لهذا الثانى ما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا المثنى بن سعيد، عن قتادة، عن أنس، عن النبى ﷺ قال: «إذا رقد أحدكم عن الصلاة، أو غفل عنها، فليصلها إذا ذكرها؛ فإن الله تعالى قال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى﴾»^(٤).

وفى الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من نام عن صلاة أو نسيها، فكفارته أن يصلها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك»^(٥).

وقوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ أى: قائمة لا محالة، وكائنة لا بد منها.

وقوله: ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس: أنه كان يقرؤها: «أكاد أخفيها من نفسى»، يقول: لأنها لا تخفى من نفس الله أبداً.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: من نفسه. وكذا قال مجاهد، وأبو صالح، ويحيى بن رافع.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ يقول: لا أطلع عليها أحداً غيرى.

وقال السدى: ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا قد أخفى الله عنه علم الساعة، وهى فى قراءة ابن مسعود: «إنى أكاد أخفيها من نفسى»، يقول: كتمتها من الخلائق، حتى لو استطعت أن أكتمها من نفسى لفعلت.

وقال قتادة: ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ وهى فى بعض القراءة أخفيها من نفسى، ولعمري لقد أخفاها الله من

(٢)، (٣) زيادة من ف، أ.

(١) فى ف: «لقوله».

(٤) المسند (٣/ ١٨٤).

(٥) صحيح البخارى برقم (٥٩٧) وصحيح مسلم برقم (٦٨٤).

الملائكة المقربين، ومن الأنبياء والمرسلين.

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْةٌ﴾ [الأعراف: ١٨٧] أى: ثقل علمها على أهل السموات والأرض.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ حدثنا مُنْجَاب، حدثنا أبو نُمَيْلَةَ، حدثني محمد بن سهل الأسدي، عن وِقَاء قال: أقرانيها سعيد بن جبير (أكاد أخفيها)، يعنى: بنصب^(١) الألف وخفض الفاء، يقول: أظهرها، ثم [قال]^(٢): أما سمعت قول الشاعر^(٣):

دَابَ شَهْرَيْنِ ، ثم شهراً دَمِيكاً
بَارِيكَيْنِ يَخْفِيَانِ غَمِيراً

وقال الأسدي: الغمير: نبت رطب، ينبت في خلال ييس. والأريكين: موضع، والدميك: الشهر التام. وهذا الشعر لكعب بن زهير.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾، أى: أقيمها لا محالة، لأجزى كل عامل بعمله، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] ، و﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦] .

وقوله: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾، المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين، أى: لا تتبعوا [سبيل]^(٤) من كذب بالساعة، وأقبل على ملاذه في دنياه، وعصى مولاه، واتبع هواه، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر ﴿فَتَرْدَى﴾ أى: تهلك وتعطب^(٥) قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: ١١] .

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (٢١) .

هذا برهان من الله تعالى لموسى، عليه السلام، ومعجزة عظيمة، وخرق للعادة باهر، دال^(٦) على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله عز وجل، وأنه لا يأتى به إلا نبى مرسل، وقوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾، قال بعض المفسرين: إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له. وقيل: إنما قال له

(١) فى أ: «ونصب» . (٢) زيادة من ف .

(٣) هو كعب بن زهير، والبيت فى ديوانه (ص ١٧٤) أ. هـ مستفاداً من حاشية الشعب .

(٤) زيادة من ف، أ .

(٥) فى ف، أ: «وتردى أى هلك وعطب» وفى أ: «ردى» .

(٦) فى ف، أ: «باهرة دالة» .

ذلك على وجه التقرير، أى: أما هذه التى فى يمينك عصاك التى تعرفها، فسترى ما نصنع بها الآن، ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ استفهام تقرير. ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾ أى: أعتمد عليها فى حال المشى ﴿وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ أى: أهز بها الشجرة ليسقط ورقها، لترعاه غنمى .

قال عبد الرحمن بن القاسم: عن الإمام مالك: والهش: أن يضع الرجل المحجن فى الغصن، ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثمره، ولا يكسر العود، فهذا الهش، ولا يخبط. وكذا قال ميمون بن مهران أيضاً .

وقوله: ﴿وَلِي فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَى﴾ أى: مصالح ومنافع وحاجات أخر غير ذلك .

وقد تكلف^(١) بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التى أبهمت، فقيل: كانت تضىء له بالليل، وتحرس له الغنم إذا نام، ويغرسها فتصير شجرة تظله، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة .

والظاهر أنها لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى صيروتها ثعباناً، فما كان يفر منها هارباً، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية^(٢)، وكذا قول بعضهم: إنها كانت لآدم، عليه السلام. وقول الآخر: إنها هى الدابة التى تخرج قبل يوم القيامة. وروى عن ابن عباس أنه قال: كان اسمها ماشا. والله أعلم بالصواب.

وقوله تعالى: ﴿[قَالَ] أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ أى: هذه العصا التى فى يدك يا موسى، ألقها ﴿فَأَلْقَاهَا^(٤)﴾ فإذا هى حية تسعى﴾ أى: صارت فى الحال حية عظيمة، ثعباناً طويلاً، يتحرك حركة سريعة، فإذا هى تهتز كأنها جان، وهو^(٥) أسرع الحيات حركة، ولكنه صغير، فهذه فى غاية الكبر، وفى غاية سرعة الحركة، ﴿تَسْعَى﴾ أى: تمشى وتضطرب.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن عبدة، حدثنا حفص بن جُميع، حدثنا سَمَّاك، عن عكرمة، عن [ابن عباس]^(٦): ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حِيَّةٌ تَسْعَى﴾: ولم تكن قبل ذلك حية، فمرت بشجرة فأكلتها، ومرت بصخرة فابتلعها، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة فى جوفها، فولى مدبراً، فنودى أن: ياموسى، خذها. فلم يأخذها، ثم نودى الثانية أن: خذها ولا تخف. فقيل له فى الثالثة: إنك من الأمنين. فأخذها.

وقال وهب بن منبه فى قوله: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حِيَّةٌ تَسْعَى﴾ قال: فألقاها على وجه الأرض، ثم حانت نظرة فإذا أعظم^(٧) ثعبان نظر إليه الناظرون، فدبّ يلتمس كأنه يبتغى شيئاً يريد أخذه، يمر بالصخرة مثل الخلفة من الإبل فيلتقمها، ويطعن بالناب من أنيابه فى أصل الشجرة العظيمة فيجتثها، عيناه توقدان ناراً، وقد عاد المحجن منها عرفاً. قيل: شعر مثل النيازك، وعاد الشعبتان منها مثل القليب الواسع، فيه أضراس وأنياب، لها صريف، فلما عاين ذلك موسى ولى مدبراً ولم يعقب،

(١) زيادة من ف .

(٢) فى أ: «الإسرائيليات» .

(٣) فى أ: «تكلم» .

(٤) فى ف: «فألقها» .

(٥) فى ف: «وهى» .

(٦) فى ف: «بأعظم» .

فذهب حتى أمعن، ورأى أنه قد أعجز الحية، ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه، ثم نودى: يا موسى أن: ارجع حيث كنت. فرجع موسى وهو شديد الخوف، فقال: ﴿خُذْهَا﴾ بيمينك ﴿وَلَا تَخَفْ سَعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾، وعلى موسى حينئذ مدرعة من صوف، فدخلها بخلال من عيدان، فلما أمره بأخذها أدلى طرف المدرعة على يده، فقال له ملك^(١): أرأيت يا موسى، لو أذن الله بما تحاذر أكانت المدرعة تغنى عنك شيئاً؟ قال: لا، ولكنى ضعيف، ومن ضعف خلقت. فكشف عن يده ثم وضعها على فم الحية، حتى سمع حسّ الأضراس والأنياب، ثم قبض فإذا هى عصاه التى عهد لها، وإذا يده فى موضعها الذى كان يضعها إذا توكأ بين الشعبتين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سَعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ أى: إلى حالها^(٢) التى تعرف قبل ذلك.

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ (٢٢) لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) واحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) واجْعَلْ لِّي زَيْرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بَصِيرًا (٣٥) .

وهذا برهان ثان لموسى، عليه السلام، وهو أن الله أمره أن يدخل يده فى جيبه، كما صرح به فى الآية الأخرى، وها هنا عبر عن ذلك بقوله: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾، وقال فى مكان آخر: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَّتْهُ﴾ [القصص: ٣٢].

وقال مجاهد: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾: كفه تحت عضده .

وذلك أن موسى، عليه السلام، كان إذا أدخل يده فى جيبه ثم أخرجها، تخرج تتلألاً كأنها فلقة قمر .

وقوله: ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أى: من غير برص ولا أذى، ومن غير شين. قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، والسدى، وغيرهم.

وقال الحسن البصرى: أخرجها - والله - كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قد لقي ربه عز وجل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ .

وقال وهب: قال له ربه: ادن: فلم يزل يدينه حتى شدّ ظهره بجذع الشجرة، فاستقر وذهبت عنه الرعدة، وجمع يده فى العصا، وخضع برأسه وعنته.

وقوله: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ أى: اذهب إلى فرعون ملك مصر، الذى خرّجت فاراً منه

(٢) فى ف: «حالتها» .

(١) فى ف: «مالك» .

وهارباً، فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومره فليُحَسِّن إلى بنى إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وبَغَى، وآثر الحياة الدنيا، ونسى الرب الأعلى.

قال وهب بن مُنبّه: قال الله لموسى: انطلق برسالتى فإنك بعينى وسمعى، وإنى^(١) معك أيدى ونَصْرَى، وإنى قد ألبستك جَنَّةً من سلطانى لتستكمل بها القوة فى أمرى، فأنت جند عظيم من جندى، بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقى، بطر نعمتى، وأمن مكبرى، وغرته الدنيا عنى، حتى جَحَدَ حقى، وأنكر ربوبيتى، وزعم أنه لا يعرفنى، فإنى أقسم بعزتى، لولا القدر الذى وضعت بينى وبين خلقى، لبطشت به بطشة جبار، يغضب لغضبه السموات والأرض، والجبال والبحار، فإن أمرت السماء حصبته، وإن أمرت الأرض ابتلعتة، وإن أمرت الجبال دمرته، وإن أمرت البحار غرقته، ولكنه هان علىّ، وسقط من عينى، ووسعه حلمى، واستغنيت بما عندى، وحقى إنى أنا الغنى لا غنىّ غيرى، فبلغه رسالتى، وادعه إلى عبادتى وتوحيدي وإخلاصى، وذكره أيامى^(٢)، وحذره نقمتى وبأسى، وأخبره أنه لا يقوم شئ لغضبى، وقل له فيما بين ذلك قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى، وخبره^(٣) أنى إلى العفو والمغفرة أسرع منى إلى الغضب والعقوبة، ولا يروعنك ما ألبسته من لباس الدنيا، فإن ناصيته بيدى، ليس ينطق ولا يطرف ولا يتنفس إلا بإذنى. وقل له: أجب ربك فإنه واسع المغفرة، وقد أمهلك أربعمئة سنة، فى كلها أنت مبارزه بالمحاربة، تسبه وتمثل به وتصدّ عباده عن سبيله وهو يमطر عليك السماء، وينبت لك الأرض، [و]^(٤) لم تسقم ولم تهرم ولم تفتقر [ولم تغلب]^(٥) ولو شاء أن يعجّل لك العقوبة لفعل، ولكنه ذو أناة وحلم عظيم. وجاهده بنفسك وأخيك وأنتما تحتسبان بجهاده^(٦). فإنى لو شئت أن آتیه بجنود لا قبل له بها لفعلت، ولكن ليعلم هذا العبد الضعيف الذى قد أعجبتة نفسه وجموعه أن الفئة القليلة - ولا قليل منى - تغلب الفئة الكثيرة بإذنى، ولا تعجبكما^(٧) زيتته، ولا ما مَتَّع به، ولا تمدا إلى ذلك أعينكما، فإنها زهر^(٨) الحياة الدنيا، وزينة المترفين. ولو شئت أن أزينكما من الدنيا بزينة، ليعلم فرعون حين ينظر إليها أن مقدرتة تعجز عن مثل ما أوتيتما، فعلت، ولكنى أرغب بكما عن ذلك، وأزويه عنكما. وكذلك أفعّل بأوليائى، وقديماً ما جرت عادتى فى ذلك، فإنى لأزودهم عن نعيمها ورخائها، كما يزود الراعى الشفيق إبله عن مبارك الغرة، وما ذاك لهوانهم علىّ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالماً موفراً لم تكلّمه الدنيا.

واعلم أنه لم يتزين لى العباد بزينة هى أبلغ مما^(٩) عندى من الزهد فى الدنيا، فإنها زينة المتقين، عليهم منها لباس يُعرَفون به من السكينة والخشوع، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود، أولئك أوليائى حقاً حقاً، فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك، وذلل قلبك لسانك، واعلم أنه من أهان لى

(١) فى ف: «وإن».

(٢) فى أ: «وذكره. آياتى».

(٣) فى ف: «وأخبره».

(٤) زيادة من ف.

(٥) زيادة من أ.

(٦) فى أ: «ولما يحتسب أن يجاهده».

(٨) فى ف، أ: «زهرة».

(٩) فى ف، أ «فيما».

(٧) فى ف، أ: «يعجبكما».

ولياً أو أخافه، فقد بارزنى بالمحاربة، وبادأنى وعرض لى نفسه ودعانى إليها، وأنا أسرع شىء إلى نصره أوليائى، أفيظن الذى يحاربنى أن يقوم لى، أم يظن الذى يعادينى أن يعجزنى، أم^(١) يظن الذى يبارزنى أن يسبقنى أو يفوتنى. وكيف وأنا الثائر لهم فى الدنيا والآخرة، لا أَكِلُ مضطربهم^(٢) إلى غيرى.

رواه ابن أبى حاتم.

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي. وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾: هذا سؤال من موسى، عليه السلام، لربه عز وجل، أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم، وخطب جسيم. بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرهم، وأشدهم كفراً، وأكثرهم جنوداً، وأعمرهم ملكاً، وأطغاهم وأبلغهم تمرداً، بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف الله، ولا يعلم لرعاياه إلهاً غيره.

هذا وقد مكث موسى فى داره مدة وليداً عندهم، فى حجر فرعون، على فراشه، ثم قتل منهم نفساً فخافهم أن يقتلوه، فهرب منهم هذه المدة بكمالها. ثم بعد هذا بعثه ربه عز وجل إليهم نذيراً يدعوهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي. وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ أى: إن لم تكن أنت عونى ونصيرى، وعضدى وظهيرى، وإلا فلا طاقة لى بذلك.

﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي. يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾، وذلك لما كان أصابه من اللثغ، حين عرض عليه التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، كما سيأتى بيانه، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث^(٣) يزول العى، ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة. ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية، قال الله تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] أى: يفصح بالكلام.

وقال الحسن البصرى: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي﴾ قال: حل عقدة واحدة، ولو سأل أكثر من ذلك أعطى.

وقال ابن عباس: شكا موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون فى القتل، وعقدة لسانه، فإنه كان فى لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له رداءً ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فأتاه سؤله، فحل عقدة من لسانه.

وقال ابن أبى حاتم: ذُكِرَ عن عمرو بن عثمان، حدثنا بَقِيَّةُ، عن أرطاة بن المنذر، حدثنى بعض أصحاب محمد بن كعب، عنه قال: أتاه ذو قرابة له. فقال له: ما بك بأس لولا أنك تلحن فى كلامك، ولست تعرب قى قراءتك؟ فقال القرطى: يا بن أخى، ألسنت أفهمك إذا حدثتك^(٤)؟ قال:

(٣) فى أ: «بحيث ما».

(٢) فى ف، أ: «نصرتهم».

(١) فى أ: «أو».

(٤) فى أ: «حدثت».

نعم. قال: فإن موسى، عليه السلام، إنما سأل ربه أن يحل^(١) عقدة من لسانه كي يفقه بنو إسرائيل كلامه، ولم يزد عليها. هذا لفظه.

وقوله: ﴿وَجَعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾. هَارُونُ أَخِي: وهذا أيضاً سؤال من موسى في أمر خارجي عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له.

قال الثوري، عن أبي سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: فُتِيَ هَارُونُ سَاعَتَهُدَّ حِينَ نَبِيُّ مُوسَى، عليهما السلام.

وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن ابن نمير، حدثنا أبو أسامة، عن هشام بن عروة^(٢)، عن أبيه، عن عائشة أنها خرجت فيما كانت تعتمر، فنزلت ببعض الأعراب، فسمعت رجلاً يقول: أى أخ كان في الدنيا^(٣) أنفع لأخيه؟ قالوا: ما ندرى. قال: واللّه أنا أدري^(٤). قالت: فقلت في نفسي: في حلفه لا يستثنى، إنه ليعلم أى أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه. قال: موسى حين سأل لأخيه النبوة. فقلت: صدق واللّه. قلت: وفي^(٥) هذا قال الله تعالى في الثناء على موسى، عليه السلام: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقوله: ﴿أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ قال مجاهد: ظهري ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ أى: في مشاورتي، ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾. وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا، قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً، حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً. وقوله: ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ أى: في اصطفاك لنا، وإعطائك إيانا النبوة، وبعثك لنا إلى عدوك فرعون، فلك الحمد على ذلك.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ (٣٦) وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مَّا يُوْحَى (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا (٤٠)﴾.

هذه^(٦) إجابة من الله لرسوله موسى، عليه السلام، فيما سأل من ربه عز وجل، وتذكير^(٧) له بنعمه السالفة عليه، فيما كان ألهم أمه حين كانت ترضعه، وتحذر عليه من فرعون وملكه أن يقتلوه؛ لأنه كان قد ولد في السنة التي يقتلون فيها الغلمان. فاتخذت له تابوتاً، فكانت^(٨) ترضعه ثم تضعه فيه، وترسله في البحر - وهو النيل - وتمسكه إلى منزلها بحبل فذهبت مرة لتربطه^(٩) فانفلت منها

(٣) في ف، أ: «في الدنيا كان».

(٦) في ف، أ: «هذا».

(٩) في ف، أ: «لتربط الحبل».

(٢) في أ: «هشام بن عون».

(٥) في أ: «ومن».

(٨) في ف، أ: «وكانت».

(١) في ف، أ: «يحلل».

(٤) في ف: «أنا والله أدري».

(٧) في ف، أ: «وتذكير».

وذهب به البحر، فحصل لها من الغم والهم ما ذكره الله عنها في قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ تُتْبِدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠]، فذهب به البحر إلى دار فرعون ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، أى قدراً مقدوراً^(١) من الله، حيث كانوا هم يقتلون الغلمان^(٢) من بنى إسرائيل، حذراً من وجود موسى، فحكم الله - وله السلطان العظيم، والقدرة التامة - ألا يربى إلا على فراش فرعون، ويغذى بطعامه وشرابه، مع محبته وزوجته له؛ ولهذا قال: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوُّهُ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [أى: عند عدوك، جعلته يحبك].

قال سلمة بن كهيل: ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾^(٣) قال: حبيبتك إلى عبادى.

﴿وَلِتَصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ قال أبو عمران الجوني: تربي بعين الله.

وقال قتادة: تغذى على عيني.

وقال معمر بن المثنى: ﴿وَلِتَصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ بحيث أرى.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعنى أجعله فى بيت الملك ينعم ويترف، غذاؤه عندهم غذاء الملك، فتلك الصنعة.

وقوله: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ وذلك أنه لما استقر عند آل فرعون، عرضوا عليه المراضع، فأبأها، قال الله عز وجل: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ فجاءت أخته وقالت^(٤): ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢]. تعنى^(٥): هل أدلكم على من ترضعه^(٦) لكم بالأجرة؟ فذهبت به وهم معها إلى أمه، فعرضت عليه ثديها، فقبله، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، واستأجروها على إرضاعه فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة فى الدنيا وفى الآخرة^(٧) أغنم وأجزل؛ ولهذا جاء فى الحديث: «مثل الصانع الذى يحتسب^(٨) فى صنعته الخير، كمثل أم موسى، ترضع ولدها وتأخذ أجرها»^(٩).

وقال تعالى هاهنا: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ أى: عليك، ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ يعنى: القبطى، ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾: وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله^(١٠)، ففر منهم هارباً، حتى ورد ماء مدين، وقال له ذلك الرجل الصالح: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

وقوله: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ قال الإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، رحمه الله، فى كتاب التفسير من سننه، قوله: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾:

(٣) زيادة من أ.

(٢) فى أ: «العلماء».

(١) فى أ: «أى قدراً مقدراً».

(٦) فى ف: «يرضعه».

(٥) فى ف، أ: «يعنى».

(٤) فى ف، أ: «فقلت».

(٨) فى ف، أ: «يحسب».

(٧) فى أ: «الآخري».

(٩) روى أبو داود فى المراسيل برقم (٣٣٢) من طريق جبير بن نفير نحوه ولفظه «مثل الذين يغزون من أمتى ويأخذون الجعل ويتقون على عدوهم به مثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها».

(١٠) فى ف: «آل فرعون ليقتلوه» وفى أ: «ليقتله».

حديث الفتون

حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا أصبغ بن زيد، حدثنا القاسم بن أبي أيوب، أخبرني سعيد بن جبير، قال: سألت عبد الله بن عباس عن قول الله، عز وجل، لموسى، عليه السلام: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ فسألته عن الفتون ما هو؟ فقال: استأنف النهار يا بن جبير، فإن لها حديثاً طويلاً. فلما أصبحت غدوت إلى ^(١) ابن عباس لأنتجز منه ما وعدني من حديث الفتون، فقال: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم، عليه السلام ^(٢)، أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً، فقال بعضهم: إن بنى إسرائيل ينتظرون ذلك، ما ^(٣) يشكون فيه، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب، فلما هلك قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم، فقال فرعون: فكيف ترون؟ فائتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجلاً معهم الشفار، يطوفون في بنى إسرائيل، فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه. ففعلوا ذلك، فلما رأوا أن الكبار من بنى إسرائيل يموتون بآجالهم، والصغار يذبحون، قالوا: يوشك أن تفنوا بنى إسرائيل، فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي ^(٤) كانوا يكفونكم، فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر، فيقل أبناؤهم ^(٥)، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار؛ فإنهم لن يكثرُوا ^(٦) بمن تستحيون منهم فتخافوا مكائرتهم إياكم، ولم يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم، فأجمعوا أمرهم على ذلك.

فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان، فولدته علانية آمنة. فلما كان من قابل حملت بموسى، عليه السلام، فوقع في قلبها الهم والحزن، وذلك من الفتون - يا بن جبير - ما دخل عليه في بطن أمه، مما يراد به، فأوحى الله [جل ذكره] ^(٧) إليها أن: ﴿لَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت ثم تلقية ^(٨) في اليم. فلما ولدت فعلت ذلك، فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان، فقالت في نفسها: ما فعلت بابني، لو ذبح عندى فواريته وكفنته، كان أحب إليّ من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيثانه.

فانتهى الماء به حتى أوفى به عند فُرْصَةٍ مستقى جوارى امرأة فرعون، فلما رأيته أخذته فهممن أن يفتحن التابوت، فقال بعضهن ^(٩): إن في هذا مالا، وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدناه فيه، فحملنه كهيته لم يخرجن منه شيئاً حتى رفعنه ^(١٠) إليها. فلما فتحته رأت فيه غلاماً، فالقى عليه منها ^(١١) محبة لم يلق منها على أحد قط. وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً من ذكر كل شيء، إلا من ذكر موسى.

فلما سمع الذباحون بأمره، أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه، وذلك من الفتون يابن

(١) في ف، أ: «على».
(٢) في ف، أ: «عليه السلام».
(٣) في ف: «ما كانوا».
(٤) في أ: «الذي».
(٥) في أ: «بناتهم».
(٦) في أ: «يكبروا».
(٧) زيادة من ف، أ.
(٨) في ف، أ: «وتلقية».
(٩) في أ: «بعضهم».
(١٠) في ف، أ: «عليها منه».
(١١) في ف، أ: «عليها منه».

جبير، فقالت لهم: أقروه، فإن هذا الواحد لا يزيد في بنى إسرائيل حتى أتى فرعون فاستوهبه منه، فإن وهبه لى كنتم قد أحسستم وأجملتم، وإن أمر بذبحه لم أملككم.

فأتت فرعون فقالت: ﴿قُرْتُ عَيْنِي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩] فقال فرعون: يكون لك، فأما لى فلا حاجة لى فيه. فقال رسول الله ﷺ: «والذى يُحْلَفُ به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له^(١)، كما أقرت امرأته، لهداه الله كما هداها، ولكن^(٢) حرمة ذلك». فأرسلت إلى من حولها، إلى كل امرأة لها لبن لتختار له ظئراً، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت، فأحزنها ذلك، فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس، ترجو أن تجد له ظئراً تأخذه منها، فلم يقبل، وأصبحت أم موسى والهأ، فقالت لأختها: قصى أثره واطلبيه، هل تسمعين له ذكراً، أحنى ابنى أم قد أكلته الدواب؟ ونسيت ما كان الله وعدا فيه، فبصرت به أختها عن جنب وهم لا يشعرون - والجنب: أن يسمو بصر الإنسان إلى شىء بعيد^(٣)، وهو إلى جنبه^(٤)، وهو لا يشعر به - فقالت من الفرح حين أعياهم الظُّورَات: أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون. فأخذوها فقالوا: ما يدريك؟ ما نصحهم له؟ هل يعرفونه^(٥)؟ حتى شكوا فى ذلك، وذلك من الفتون يابن جبير. فقالت: نصحهم^(٦) له وشفقتهم عليه رغبتهم فى ظُورَة الملك، ورجاء منفعة الملك. فأرسلوها فانطلقت إلى أمها^(٧)، فأخبرتها الخبر. فجاءت أمه، فلما وضعته فى حجرها نزا إلى ثديها فمصّه، حتى امتلأ جنباه رياً، وانطلق البشراء إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لابنك ظئراً. فأرسلت إليها. فأتت بها وبه، فلما رأت ما يصنع بها قالت: امكثى ترضعى ابنى هذا، فإنى لم أحب شيئاً حبه قط. قالت أم موسى: لا أستطيع أن أدع بيتى وولدى فيضيع، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتى، فيكون معى لا آلوه خيراً [فعلت، وإلا^(٨)] فإنى غير تاركة بيتى وولدى. وذكرت أم موسى ما كان الله وعدا فيه، فتعاسرت على امرأة فرعون، وأيقنت أن الله منجز وعده^(٩)، فرجعت به إلى بيتها من يومها، [وأنبته^(١٠)] الله نباتاً حسناً وحفظه^(١١) لما قد قضى فيه.

فلم يزل بنو إسرائيل، وهم فى ناحية القرية، ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم، فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى: أترينى^(١٢) ابنى؟ فَوَعَدْتُهَا يوماً^(١٣) تريها إياه فيه، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظُورَها وقهارمتها: لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابنى اليوم بهدية وكرامة لأرى ذلك^(١٤)، وأنا باعثة أميناً يحصى^(١٥) ما يصنع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايا والنحل

(١) فى ف، أ: «أن يكون له قرة عين». (٢) فى أ: «ولكن الله حرمة». (٣) فى ف، أ: «الشىء البعيد». (٤) فى ف، أ: «ناحية». (٥) فى ف، أ: «تعرفونه». (٦) فى ف، أ: «نصحتهم». (٧) فى ف، أ: «أمه». (٨) فى ف، أ: «أما». (٩) فى ف، أ: «معوذه». (١٠) فى ف، أ: «فأنبته». (١١) فى ف، أ: «حفظ». (١٢) فى ف، أ: «ترينى». (١٣) فى ف، أ: «يوماً أن». (١٤) فى ف، أ: «ذلك فيه». (١٥) فى ف، أ: «يحصى كل».

والكرامة^(١) تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون، فلما دخل عليها نحلته^(٢) وأكرمته، وفرحت به، ونحلت أمه لحسن أثرها عليه، ثم قالت: لآتين به فرعون فليَنحَلَّهُ^(٣) وليكرمنه، فلما دخلت به عليه جعله في حجره، فتناول موسى لحية فرعون يدها^(٤) إلى الأرض، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون: ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه، إنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك، فأرسل إلى الذباحين ليدبحوه. وذلك من الفتون يابن جبير بعد كل بلاء ابتلى به، وأريد به^(٥).

فجاءت امرأة فرعون فقالت^(٦): ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي؟ فقال^(٧): ألا تريه يزعم أنه يصرعني ويعلونني! فقالت: اجعل بيني وبينك أمراً يعرف فيه الحق، اثبت بجمرتين ولؤلؤتين، فقرنهنَّ إليه، فإن بطش باللؤلؤتين^(٨) واجتنب الجمرتين فاعرف^(٩) أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين، علمت أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل. فقرب إليه فتناول الجمرتين، فانزعجها منه مخافة أن يحرقا يده، فقالت المرأة: ألا ترى؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان قد همَّ به، وكان الله بالغاً فيه أمره.

فلما بلغ أشده وكان من الرجال، لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بنى إسرائيل معه بظلم ولا سخرة، حتى امتنعوا كل الامتناع، فبينما موسى، عليه السلام، يمشى في ناحية المدينة، إذا^(١٠) هو برجلين يقتتلان، أحدهما فرعوني والآخر إسرائيلي، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فغضب موسى غضباً شديداً؛ لأنه تناوله وهو يعلم منزلته^(١١) من بنى إسرائيل وحفظه لهم، لا يعلم الناس إلا أنما ذلك من الرضاع، إلا أم موسى، إلا أن يكون الله [سبحانه]^(١٢) أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره. فوكز^(١٣) موسى الفرعوني فقتله، وليس يراهما أحد إلا الله عز وجل والإسرائيلي، فقال موسى حين قتل الرجل: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص: ١٥]. ثم قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦] فأصبح في المدينة خائفاً يترقب الأخبار، فأتى فرعون، فقيل له: إن بنى إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون فخذ لنا بحقنا^(١٤) ولا ترخص لهم. فقال: ابغوني قاتله، ومن يشهد عليه، فإن الملك وإن كان صغوه مع قومه لا يستقيم له أن يقيد بغير بينة ولا ثبت، فاطلبوا لي علم ذلك آخذ لكم بحقكم. فبينما هم يطوفون ولا^(١٥) يجدون ثبناً، إذا بموسى^(١٦) من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلاً من آل فرعون آخر، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فصادف موسى قد ندم على ما كان منه وكره الذي رأى، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، فقال:

(١) في ف: «والكرامة والنحل». (٢) في أ: «بجلته».

(٣) في ف، أ: «فمدها». (٤) في ف، أ: «به فتونا».

(٥) في ف: «فقلت». (٦) في ف: «باللؤلؤ».

(٧) في ف: «إذا». (٨) في ف: «منزله».

(٩) في ف، أ: «فوكزه». (١٠) في ف، أ: «بحقك».

(١١) في ف: «موسى». (١٢) في ف، أ: «لا».

للإسرائيلى لما فعل بالأمس واليوم: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾. فنظر الإسرائيلى إلى موسى بعد ما قال له ما قال، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذى قتل فيه الفرعونى، فخاف أن يكون بعد ما قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص: ١٨] أن يكون إياه أراد، ولم يكن أراد، وإنما أراد الفرعونى. فخاف الإسرائيلى وقال: ﴿يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ [القصص: ١٩] وإنما قاله^(١) مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقته، فتتاركا، وانطلق الفرعونى فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلى من الخبر حين يقول: ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾. فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى، فأخذ رسل فرعون فى الطريق الأعظم يمشون على هيتهم يطلبون موسى، وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجل من شيعه موسى من أقصى المدينة، فاختصر طريقاً حتى سبقهم إلى موسى، فأخبره^(٢). وذلك من الفتون يابن جبير.

فخرج موسى متوجهاً نحو مدين، لم يلق بلاء قبل ذلك، وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عز وجل، فإنه قال: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾. وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ [القصص: ٢٢، ٢٣] يعنى بذلك حابستين غنمهما، فقال لهما: ما خطبكما معترلتين لا تسقيان مع الناس؟ قالتا^(٣): ليس لنا قوة نزاحم القوم، وإنما ننتظر فضول حياضهم. فسقى لهما، فجعل يغترف فى الدلو ماء كثيراً، حتى كان أول الرعاء، فانصرفتا^(٤) بغنمهما إلى أبيهما، وانصرف موسى، عليه السلام، فاستظل بشجرة، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتُ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]. واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حُقلاً بطاناً فقال: إن لكما اليوم لشأنا، فأخبرتا به بما صنع موسى، فأمر إحداهما أن تدعوه، فأنت موسى فدعته، فلما كلمه قال: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥]. ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان ولسنا فى مملكته، فقالت إحداهما: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] فاحتملته الغيرة على أن قال لها: ما يدريك ما قوته؟ وما أمانته؟ فقالت: أما قوته، فما رأيت منه فى الدلو حين سقى لنا، لم أر رجلاً قط أقوى فى ذلك السقى منه، وأما الأمانة فإنه نظر إلىّ حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أنى امرأة صوّب رأسه فلم يرفعه، حتى بلغته رسالتك. ثم قال لى: امشى خلفى، وانعنى لى الطريق. فلم يفعل هذا إلا وهو أمين، فسرى عن أبيها وصدقها، وظن به الذى قالت.

فقال له: هل لك ﴿أَنْ أَنْكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَاجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧] ففعل فكانت على نبي الله موسى ثمانى سنين واجبة، وكانت ستتان عدة منه، فقضى الله عنه عدته فأتمها عشراً.

قال سعيد - وهو ابن جبير - : فلقينى رجل من أهل النصرانية من علمائهم قال: هل تدري أى

(١) فى ف، أ: «قال له». (٢) فى ف، أ: «فأخبره الخبر». (٣) فى ف: «فقالتا».

(٤) فى ف: «وانصرفتا».

الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا. وأنا يومئذ لا أدري. فلقيت ابن عباس، فذكرت له ذلك، فقال: أما علمت أن ثمانياً كانت على نبي الله واجبة، لم يكن لنبي الله أن ينقص^(١) منها شيئاً، ويعلم أن الله كان قاضياً عن موسى عدته التي وعده فإنه قضى عشر سنين. فلقيت النصراني فأخبرته ذلك، فقال: الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك. قلت: أجل، وأولى.

فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ما قص الله عليك في القرآن، فشكا إلى الله تعالى^(٢) ما يتخوف من آل فرعون في القتل وعقدة لسانه، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون، يكون له رداءً، ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه. فأتاه الله سؤاله، وحل عقدة من لسانه، وأوحى الله إلى هارون وأمره أن يلقاه. فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هارون، عليهما^(٣) السلام. فانطلقا جميعاً إلى فرعون، فأقاما على بابه حيناً لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد، فقالا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]. قال: فمن ربكما؟ فأخبره بالذي قص الله عليك في القرآن؟ قال: فما تريدان؟ وذكره القتل، فاعتذر بما قد سمعت. قال: أريد أن تؤمن بالله، وترسل معي بنى إسرائيل؟ فأبى عليه وقال: ﴿فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤]. فألقى عصاه [إذا هي]^(٤) حية تسعى عظيمة فاغرة فاها، مسرعة إلى فرعون. فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها، فاقترحم عن سريرته واستغاث بموسى أن يكفها عنه. ففعل، ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء - يعنى من غير برص - ثم ردها فعادت إلى لونها الأول. فاستشار المأ حوله فيما رأى، فقالوا^(٥) له: هذان ساحران ﴿يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ [طه: ٦٣]، يعنى: ملكهم الذى هم فيه والعيش، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئاً مما طلب، وقالوا له: اجمع السحرة^(٦)، فإنهم بأرضك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما. فأرسل إلى^(٧) المدائن فحشر له كل ساحر متعالم، فلما أتوا فرعون قالوا: بم يعمل هذا الساحر؟ قالوا: يعمل بالحيات. قالوا: فلا والله ما أحد في الأرض يعمل بالسحر بالحيات والحبال والعصى الذى نعمل. وما أجرنا إن نحن غلبنا؟ قال لهم: أنتم أقاربى وخاصتى، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتهم، فتواعدوا يوم الزينة، وأن يحشر الناس ضحى.

قال سعيد بن جبير: فحدثنى ابن عباس: أن يوم الزينة الذى أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة، هو يوم عاشوراء.

فلما اجتمعوا فى صعيد واحد قال الناس بعضهم لبعض: انطلقوا فلنحضر هذا الأمر، ﴿لَعَلَّنَا تَتَّبِعُ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠]، يعنون موسى وهارون استهزاء بهما، فقالوا: يا موسى - لقد رتتهم بسحرهم - ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥]، ﴿قَالَ بَلْ أُلْقُوا﴾ [طه: ٦٦]، ﴿فَالْقُوا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤] فرأى

(١) فى ف: «نبي الله ﷺ لينقص».

(٢) فى ف، أ: «الله سبحانه».

(٣) فى ف: «عليه».

(٤) زيادة من ف، أ.

(٥) فى ف: «فقالا».

(٦) فى ف: «اجمع السحرة لهما».

(٧) فى ف، أ: «فى».

موسى من سحرهم ما أوجس فى نفسه خيفة فأوحى الله إليه أن ألق عصاك، فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيمة فاغرة فاها، فجعلت العصى تلتبس بالحبال حتى صارت جَزَراً إلى الثعبان، تدخل فيه، حتى ما أبقت عصا ولا حبلاً^(١) إلا ابتلعتها، فلما عرفت^(٢) السحرة ذلك قالوا: لو كان هذا سحراً لم يبلغ من سحرنا كل هذا، ولكنه أمر من الله عز وجل، آمنا بالله^(٣) وبما جاء به موسى، ونتوب إلى الله عما كنا عليه. فكسر الله ظهر فرعون فى ذلك^(٤) الموطن وأشياعه، وظهر الحق، وبطل ما كانوا يعملون ﴿فَغَلَبُوا هَٰئِلًا وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٩] وامرأة فرعون بارزة مبتذلة^(٥) تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه، وإنما كان حزنها وهما لموسى.

فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة، كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بنى إسرائيل، فإذا مضت أخلف موعده وقال: هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا؟. فأرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات، كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفها عنه، ويؤاqqه على أن يرسل معه بنى إسرائيل، فإذا كف ذلك أخلف موعده، ونكث عهده.

حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلاً، فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل فى المدائن حاشرين، فتبعه بجنود عظيمة كثيرة، وأوحى الله إلى البحر: إذا ضربك عبدى موسى بعصاه فانفلق اثنتى عشرة فرقة، حتى يجوز موسى ومن معه، ثم التق على من بقى بعد من فرعون وأشياعه. فنى موسى أن يضرب البحر بالعصا وانتهى إلى البحر وله قصيف، مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل فيصير عاصياً لله.

فلما تراءى الجمعان وتقاربا، قال أصحاب موسى: إنا لمدركون، افعل ما أمرك به ربك، فإنه لم يكذب ولم تكذب. قال وعدنى^(٦) أن إذا أتيت البحر انفرق اثنتى عشرة فرقة، حتى أجازه. ثم ذكر بعد ذلك العصا ف ضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى، فانفرق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى، فلما أن جاز موسى وأصحابه كلهم البحر، ودخل فرعون وأصحابه، التقى عليهم البحر كما أمر، فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه: إنا نخاف ألا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه. فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه.

ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ بِآطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩]. قد رأيتم من العبر وسمعتهم ما يكفيكم ومضى. فأنزلهم موسى منزلاً وقال^(٧): أطيعوا هارون، فإنى قد استخلفته عليكم، فإنى ذاهب إلى ربى. وأجلهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها، فلما أتى ربه وأراد

(١) فى ف، أ: «حبلاً». (٢) فى ف: «عرف» وفى أ: «علم». (٣) فى أ: «به». (٤) فى ف، أ: «هذا». (٥) فى ف: «مبتذلة». (٦) فى ف: «وعدنى ربى». (٧) فى ف، أ: «وقال لهم».

أن يكلمه في ثلاثين يوماً وقد صامهن، ليلهن ونهارهن، وكره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم، فتناول موسى من نبات الأرض شيئاً فمضغه، فقال له ربه حين أناه: لم أفطرت؟ وهو أعلم بالذي كان، قال: يارب، إنى كرهت أن أكلمك إلا وفى طيب الريح. قال: أوما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب من ريح المسك، ارجع فصم عشرة ثم اتنى. ففعل موسى، عليه السلام، ما أمر^(١) به، فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم في الأجل، ساءهم ذلك. وكان هارون قد خطبهم وقال: إنكم قد خرجتم من مصر، ولقوم فرعون عندكم عواري وودائع، ولكم فيهم مثل ذلك وأنا^(٢) أرى أنكم تحتسبون^(٣) ما لكم عندهم، ولا أحل لكم ودیعة استودعتموها ولا عارية، ولسنا برادین إليهم شيئاً^(٤) من ذلك ولا ممسكية لأنفسنا، فحفر حفيراً، وأمر كل قوم عندهم من ذلك من متاع أو حلية أن يقذفوه في ذلك الحفير، ثم أوقد عليه النار فأحرقه، فقال^(٥): لا يكون لنا ولا لهم.

وكان السامري من قوم يعبدون البقر، جيران لبني إسرائيل ولم يكن من بني إسرائيل، فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا، ففضى له أن رأى أثراً فقبض^(٦) منه قبضة، فمر بهارون، فقال له هارون، عليه السلام: يا سامري، ألا تلقى ما في يدك؟ وهو قابض عليه، لا يراه أحد طوال ذلك، فقال: هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر، ولا ألقياها لشيء إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يكون ما أريد. فآلقاها، ودعا له هارون، فقال: أريد أن يكون عجلاً. فاجتمع ما كان في الحفيرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد، فصار عجلاً أجوف. ليس فيه روح، وله خوار.

قال ابن عباس: لا والله، ما كان له صوت قط، إنما كانت الريح تدخل في^(٧) دبره وتخرج من فيه، فكان ذلك الصوت من ذلك.

فتفرق بنو إسرائيل فرقاً، فقالت فرقة: يا سامري ما هذا؟ وأنت أعلم به. قال: هذا ربكم ولكن موسى أضل الطريق. وقالت فرقة: لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى، فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حين رأيناه، وإن لم يكن ربنا فإننا نتبع قول موسى. وقالت فرقة: هذا عمل الشيطان، وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق، وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل، وأعلنوا التكذيب به، فقال لهم هارون: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ [طه: ٩٠]. قالوا^(٨): فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوماً ثم أخلفنا، هذه أربعون يوماً قد مضت؟ وقال^(٩) سفهاؤهم: أخطأ ربه فهو يطلبه ويتبعه.

فلما كلم الله موسى وقال له ما قال، أخبره بما لقي قومه من بعده، ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ [طه: ٨٦]، فقال لهم ما سمعتم في القرآن، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وألقى

(٣) في ف: «تحتسبوا».

(٢) في ف: «وإني».

(١) في ف، أ: «أمره».

(٦) في ف، أ: «فأخذ».

(٥) في ف: «وقال».

(٤) في ف: «شيئاً إليهم».

(٩) في ف: «فقال».

(٨) في أ: «هكذا قالوا».

(٧) في ف، أ: «من».

الآلواح من الغضب، ثم إنه عذر أخاه بعذره، واستغفر له وانصرف^(١) إلى السامري فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: قبضت قبضة من أثر الرسول، وفطنت لها^(٢) وعميت عليكم فخذتها ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي . قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٦، ٩٧]، ولو كان إلها لم يخلص إلى ذلك منه. فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة، واغبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأى هارون، فقالوا لجماعتهم: يا موسى، سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها، فيكفر عنا ما عملنا. فاختار موسى قومه سبعين رجلاً لذلك، لا يألو الخير، خيار بنى إسرائيل، ومن لم يشرك فى العجل، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة، فرجفت بهم الأرض، فاستحيا نبي الله من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل فقال: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّايَ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف: ١٥٥] وفيهم من كان اطلع الله منه^(٣) على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به، فلذلك رجفت بهم الأرض، فقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]. فقال: يا رب، سألتك التوبة لقومى، فقلت: إن رحمتى كتبها لقوم غير قومى، هلا أخرجتنى حتى تخرجنى فى أمة ذلك الرجل المرحومة؟ فقال له: إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم^(٤) من لقى من والد وولد، فيقتله بالسيف، ولا^(٥) يبالى من قتل فى ذلك الوطن، وتاب أولئك الذين كان خفى على موسى وهارون واطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها، وفعلوا ما أمروا، وغفر الله للقاتل والمقتول.

ثم سار بهم موسى، عليه السلام^(٦)، متوجهاً نحو الأرض المقدسة، وأخذ الآلواح بعد ما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالذى أمر به أن يبلغهم من الوظائف، فثقل ذلك عليهم، وأبوا أن يقروا بها، فتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل، والكتاب بأيديهم، وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم. ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون خَلَقَهُمْ خَلْقَ مُنْكَرٍ - وذكروا من ثمارهم أمراً عجيباً من عظمها - فقالوا: يا موسى إن فيها قوماً جبارين، لا طاقة لنا بهم، ولا ندخلها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها فإننا داخلون. قال رجلان من الذين يُخَافُونَ - قيل ليزيد: هكذا قرأه؟ قال: نعم من الجبارين، آمنا بموسى، وخرجنا إليه، فقالوا: نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم، فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم، فادخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون - ويقول أناس: إنهم^(٧) من قوم موسى. فقال الذين يخافون، بنو إسرائيل: ﴿[قَالُوا] (٨) يَا مُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، فأغضبوا موسى، فدعا عليهم وسماهم فاسقين، ولم يدع عليهم قبل ذلك، لما رأى

(٣) فى ف: «الله اطلع منه».

(٦) فى ف، أ: «ﷺ».

(٢) فى ف: «إليها».

(٥) فى ف: «لا».

(٨) زيادة من أ.

(١) فى ف: «فانصرف».

(٤) فى ف: «منهم كل».

(٧) فى ف، أ: «إنهما».

منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذ فاستجاب الله له وسماهم كما سماهم^(١) فاسقين، فحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض، يصبحون كل يوم فيسيرون، ليس لهم قرار، ثم ظلل عليهم الغمام في التيه، وأنزل عليهم المن والسلوى، وجعل لهم ثياباً لا تبلى ولا تتسخ، وجعل بين ظهرانيهم^(٢) حجراً مربعاً، وأمر موسى فضربه بعصاه. فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، في كل ناحية ثلاث^(٣) أعين، وأعلم كل سبط عينهم^(٤) التي يشربون منها، فلا يرتحلون من منقَلَةٍ إلا وجدوا ذلك الحجر معهم بالمكان الذي كان فيه بالأمس.

رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبي ﷺ، وصدق ذلك عندى أن معاوية سمع ابن عباس يحدث^(٥) هذا الحديث، فأنكر عليه أن يكون الفرعوني الذي أفشى على موسى أمر القتل الذي قتل، فقال: كيف يُفشى عليه ولم يكن علم به ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلي الذي حضر ذلك؟. فغضب ابن عباس، فأخذ بيد معاوية فانطلق به إلى سعد بن مالك الزهري، فقال له: يا أبا إسحاق، هل تذكر يوم حدثنا رسول الله ﷺ عن قتيل موسى الذي قتل من آل فرعون؟ الإسرائيلي الذي أفشى عليه أم الفرعوني؟ قال: إنما أفشى عليه الفرعوني، بما سمع من الإسرائيلي الذي شهد على ذلك وحضره.

هكذا رواه الإمام النسائي في السنن الكبرى، وأخرجه أبو جعفر بن جرير وابن أبي حاتم في تفسيريهما^(٦)، كلهم من حديث يزيد بن هارون به^(٧)، وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تلقاه ابن عباس، رضى الله عنه^(٨)، مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره، والله أعلم. وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى يقول ذلك أيضاً.

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾ (٤٠) وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) ﴿

يقول تعالى مخاطباً لموسى، عليه السلام: إنه لبث مقيماً في أهل «مدین» فاراً من فرعون وملته، يرعى على صهره، حتى انتهت المدة وانقضى الأجل، ثم جاء موافقاً لقدر الله وإرادته من غير ميعاد، والأمر كله لله^(٩) تبارك وتعالى، وهو المسير عباده وخلقه فيما يشاء؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾^(١٠) قال مجاهد: أى على موعد.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة في قوله: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾ قال: على قدر

(٣) في ف: «ثلاثة».

(٦) في أ: «في تفسيرهما».

(١٠) زيادة من ف، ١.

(٢) في ف: «أظهرهم».

(٥) في أ: «حدث».

(٩) في ف: «له».

(١) في ف، أ: «كما سماهم موسى».

(٤) في أ: «منهم».

(٧) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٣٢٦) وتفسير الطبري (١٦/١٢٥).

(٨) في ف، أ: «عنهما».

الرسالة والنبوة.

وقوله: ﴿وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنَفْسِي﴾ أى: اصطفتك واجتيتك رسولاً لنفسى، أى: كما أريد وأشاء.

وقال البخارى عند تفسيرها: حدثنا الصلت بن محمد، حدثنا مهدي بن ميمون، حدثنا محمد ابن سيرين عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «التقى آدم وموسى، فقال موسى: أنت الذى أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة؟ فقال آدم: وأنت الذى اصطفاك الله برسالكه واصطفاك لنفسه، وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم. قال: فوجدته قد كتب علىّ قبل أن يخلقنى؟ قال: نعم. فحجّ آدم موسى» أخرجاه (١).

﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ أى: بحُجَجِي وبراهينى ومعجزاتى، ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ قال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس: لا تُبْطِئَا.

وقال مجاهد، عن ابن عباس: لا تَضَعُفَا.

والمراد أنهما لا يفتران فى ذكر الله، بل يذكران الله فى حال مواجهة فرعون، ليكون ذكرُ الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له، كما جاء فى الحديث: «إن عبدى كل عبدى للذى (٢) يذكرنى وهو مُتَاجِزِ قِرْنِهِ» (٣).

﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾، أى: تمرّد وعتا وتَجَهَّرْ على الله وعصاه، ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون فى غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين، كما قال يزيد الرقاشى عند قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا﴾: يا من يتحجب إلى من يعاديه فكيف بمن يتولاه ويناديه؟

وقال وهب بن منبه: قولاً له: إني إلى العفو والمغفرة أقرب منى إلى الغضب والعقوبة.

وعن عكرمة فى قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا﴾، قال: لا إله إلا الله، وقال (٤) عمرو بن عبيد، عن الحسن البصرى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا﴾: أعذرا إليه، قولاً له: إن لك رباً ولك معاداً، وإن بين يديك جنة وناراً.

وقال بقیة، عن على بن هارون، عن رجل، عن الضحاك بن مزاحم، عن النزال بن سبرة، عن على فى قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا﴾ قال: كنه.

وكذا روى عن سفيان الثورى: كنه بأبى مرة.

(١) صحيح البخارى برقم (٤٧٣٦).

(٢) فى أ: «الذى».

(٣) رواه الترمذى فى السنن برقم (٣٥٨٠) من حديث عمارة بن زعكرة رضى الله عنه.

وقال: الترمذى «هذا حديث غريب ولا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده بالقوى».

(٤) فى أ: «وعن».

والحاصل من أقوالهم أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين قريب سهل، ليكون أوقع فى النفوس وأبلغ وأنجع، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الآية [النحل: ١٢٥].

[قوله] (١): ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ أى: لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة، ﴿أَوْ يَخْشَى﴾ أى: يوجد طاعة من خشية ربه، كما قال تعالى: «لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكَرَ أَوْ يَخْشَى» (٢) فالتذكر: الرجوع عن المحذور، والخشية: تحصيل الطاعة.

وقال الحسن البصرى [فى قوله] (٣): ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ يقول: لا تقل أنت يا موسى وأخوك هارون: أهلكه قبل أن أعذر (٤) إليه.

وهاهنا نذكر شعر زيد بن عمرو بن نفيل، ويروى لأمية بن أبى الصلت فيما ذكره ابن إسحاق:

وَأَنْتَ الَّذِي مِنْ فَضْلٍ مَنْ وَرَحْمَةٍ	بعثت إلى موسى رسولا مناديا
فَقُلْتُ لَهُ يَا أَذْهَبَ وَهَارُونَ فَادْعُوا	إلى الله فرعون الذى كان باغيا
فَقُولَا لَهُ هَلْ أَنْتَ سَوِيَّتْ هَذِهِ	بلا وتد حتى استقلت كما هيا
وَقُولَا لَهُ أَأَنْتَ رَفَعْتَ هَذِهِ	بلا عمد؟ أرفق إذن بك بانيا
وَقُولَا لَهُ أَأَنْتَ سَوِيَّتْ وَسْطَهَا	منيراً إذا ما جَسَنَهُ اللَّيْلُ هَادِيا
وَقُولَا لَهُ مِنْ يَخْرِجُ الشَّمْسَ بَكْرَةً	فيصبح مامست من الأرض ضاحيا
وَقُولَا لَهُ مِنْ يَنْبِتُ الْحَبَّ فِي الثَّرَى	فيصبح منه البقل يهتز رابيا
وَيَخْرِجُ مِنْهُ جَبْهَ فِي رُؤُوسِهِ (٥)	ففى ذاك آيات لمن كان واعيا (٦)

﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) فَأَتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨) .

يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون، عليهما السلام، أنهما قالا مستجيرين بالله تعالى شاكيتين

(١) زيادة من ف، وفى أ: «وقوله» .

(٢) هكذا فى كل النسخ، وليست آية .

(٣) زيادة من أ .

(٤) فى ف: «تعذرا»، وفى أ: «يعذر» .

(٥) فى أ: «دوبية» .

(٦) السيرة النبوية لابن هشام (٢٢٨/١) .

إليه: ﴿إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾، يعنيان أن يبدُر إليهما بعقوبة، أو يعتدى عليهما، فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك.

قال عبد الرحمن بن زيد: ﴿أَنْ يُفْرِطَ﴾: يَعَجَل.

وقال مجاهد: ييسط علينا.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾: يعتدى.

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ أى: لا تخافا منه، فإننى معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى على من أمركم شيء، واعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذنى وبعد أمرى، وأنا معكما بحفظى ونصرى وتأييدى.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن محمد الطَّنَافِسىّ، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمرو بن مَرْءَة، عن أبى عبيدة، عن عبد الله قال: لما بعث الله عز وجل موسى إلى فرعون قال: رب، أى شيء أقول؟ قال: قل: هيا شراها. قال الأعمش: فسر ذلك: الحى قبل كل شيء، والحى بعد كل شيء.

إسناد جيد، وشيء غريب.

﴿فَأَتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، قد تقدم فى حديث «الفتون» عن ابن عباس أنه قال: مكثا^(١) على بابه حيناً لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد.

وذكر محمد بن إسحاق بن يسار: أن موسى وأخاه هارون خرجا، فوقفا بباب فرعون يلتمسان الإذن عليه وهما يقولان: إنا رسل^(٢) رب العالمين، فآذنوا بنا هذا الرجل، فمكثا فيما بلغنى ستين يَغْدُوَان ويروحان، لا يعلم بهما ولا يجترئ أحد على أن يخبره بشأنهما، حتى دخل عليه بطال له يلاعبه ويضحكه، فقال له: أيها الملك، إن على بابك رجلاً يقول قولاً عجيباً، يزعم أن له إلهاً^(٣) غيرك أرسله إليك. قال: ببابى؟ قال: نعم. قال: أدخلوه، فدخل ومعه أخوه هارون وفى يده عصاه، فلما وقف على فرعون قال: إني رسول رب العالمين. فعرفه فرعون.

وذكر السدّى أنه لما قدم بلاد مصر، ضاف أمّه وأخاه وهما لا يعرفانه، وكان طعامهما^(٤) ليلتئذ الطعثل^(٥) وهو اللفت، ثم عرفاه وسلموا عليه، فقال له موسى: يا هارون، إن ربى قد أمرنى أن أتى هذا الرجل فرعون فأدعوه إلى الله، وأمر^(٦) أن تعاوننى. قال: افعل ما أمرك ربك. فذهبا، وكان ذلك ليلاً، فضرب موسى باب القصر بعصاه، فسمع فرعون فغضب وقال^(٧): من يجترئ على هذا

(١) فى ف: «عن ابن عباس أنهما مكثا فى بابه»، وفى أ: «عن ابن عباس أنه قال: مكثا فى بابه».

(٢) فى أ: «رسول». (٣) فى أ: «أن له إله» وهو خطأ والصواب ما أثبتناه.

(٤) فى أ: «وكان طعامهم». (٥) فى أ: «الطفلس».

(٦) فى ف، أ: «وأمر». (٧) فى ف، أ: «فقال».

الصنيع؟ فأخبره السدنة والبوابون^(١) بأن ههنا رجلاً مجنوناً يقول: إنه رسول الله. فقال: على به. فلما وقفا بين يديه قالوا وقال لهما ما ذكر^(٢) الله في كتابه.

وقوله: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ أى: بدلالة ومعجزة من ربك، ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ أى: والسلام عليك إن اتبعت الهدى.

ولهذا لما كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم [كتاباً، كان أوله: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم»]^(٣) سلام على من اتبع الهدى. أما بعد، [فإني أدعوك بدعاية الإسلام]^(٤) فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين.

وكذلك لما كتب مسيلمة إلى رسول الله ﷺ كتاباً صورته: «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك. أما بعد، فإنني قد أشركت^(٥) في الأمر معك، فلك المدر^(٦) ولى الوبر، ولكن قريش^(٧) قوم يعتدون». فكتب إليه رسول الله ﷺ: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»^(٨).

ولهذا قال موسى وهارون، عليهما السلام، لفرعون: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى . إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أى: قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحي المعصوم أن العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى . وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات ٣٧ - ٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى . لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى . الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [الليل: ١٤ - ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَا صَدْقَ وَلَا صُلَى . وَلَكِنَّ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢]. أى: كذب بقلبه وتولى بفعله.

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (٥٢)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى منكراً وجود الصانع الخالق، إله كل شيء وربّه ومليكه، قال: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾، أى: الذى بعثك وأرسلك من هو؟ فإننى لا أعرفه، وما علمت لكم من إله غيرى، ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس يقول: خلق لكل شيء زوجة.

(١) فى أ: «البوابين» وهو خطأ والصواب ما أثبتناه.

(٢) فى ف: «ذكره».

(٣) (٤) زيادة من ف، أ.

(٥) فى ف، أ: «اشتركت».

(٦) فى ف، أ: «قريشاً».

(٧) فى أ: «فلك الدر».

(٨) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٦٠٠).

وقال الضحّاك عن ابن عباس: جعل الإنسان إنساناً، والحمّار حمّاراً، والشاة شاةً .

وقال ليث بن أبي سلّيم، عن مجاهد: أعطى كل شيء صورته .

وقال ابن أبي نَجِيج، عن مجاهد: سَوَّى خلق كل دابة .

وقال سعيد بن جبّير في قوله: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، قال: أعطى كل ذى خلق ما يصلحه من خلقه، ولم يجعل للإنسان من خلق الدابة، ولا للدابة من خلق الكلب، ولا للكلب^(١) من خلق الشاة، وأعطى كل^(٢) شيء ما ينبغي له من النكاح، وهياً كل شيء على ذلك، ليس شيء منها يشبه شيئاً من أفعاله^(٣) في الخلق والرزق والنكاح .

وقال بعض المفسرين: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ٣] أى: قدر قدرأً، وهدى الخلاق إلىه، أى: كتَب الأعمال والآجال والأرزاق، ثم الخلائق ماشون على ذلك، لا يحدون عنه، ولا يقدر أحد على الخروج منه . يقول: ربنا الذى خلق [الخلق]^(٤)، وقدر القَدَر، وجَبَلَ الخليفة على ما أراد .

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾: أصح الأقوال فى معنى ذلك: أن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذى أرسله هو الذى خلق ورزق وقدر فهدى، شرع يحتج بالقرون الأولى، أى: الذين لم يعبدوا الله، أى: فما بالهم إذا كان الأمر كما تقول، لم يعبدوا ربك^(٥)، بل عبدوا غيره؟ فقال له موسى فى جواب ذلك: هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم^(٦) عند الله مضبوط عليهم، وسيجزئهم بعملهم فى كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال، ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾، أى: لا يشذ عنه^(٧) شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئاً . يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئاً، تبارك وتعالى وتقدس، فإن علم المخلوق يعتريه نقصانان^(٨) أحدهما: عدم الإحاطة بالشيء، والآخر نسيانه بعد علمه، فنزه نفسه عن ذلك .

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى الْأَحْيَاءُ ثُمَّ قَتَلْنَاهُمْ أَوْ أَخَذْنَاهُم بِالْأَيْمَانِ وَأَتَيْنَاهُمُ الْمَوْتَ ثُمَّ أَخْرَجْنَاهُمْ فِي سُدُورِهِمْ أَفْجَاءً وَتَوَلَّى وَكَانَ الْعَذَابَ عَظِيمًا (٥٦)﴾

هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه، عز وجل، حين سأله فرعون عنه، فقال: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، ثم اعترض الكلام بين ذلك، ثم قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ

(١) فى ف: «من فعّاله» .

(٢) فى ف، أ: «كل ذى» .

(٣) فى ف، أ: «لم يعبدوه» .

(٤) فى ف، أ: «نقصان» .

(٥) زيادة من ف، أ .

(٦) فى ف: «عليه» .

(٧) فى ف، أ: «نقصان» .

مِهَادًا﴿٢﴾، وفى قراءة بعضهم: «مهداً» أى: قراراً تستقرون^(١) عليها وتقومون وتنامون عليها^(٢) وتسافرون^(٣) على ظهرها، ﴿وَسَلَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أى: جعل لكم طرقاً تمشون فى منابها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ ثَبَاتٍ شَتَّى﴾ أى: [من]^(٤) ألوان النباتات من زروع، وثمار، من حامض وحلو، وسائر الأنواع.

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ أى: شئء لطعامكم وفاكهتكم، وشئء لأنعامكم لأقواتها خضرا ويابساً.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أى: لدلالات وحجج^(٥) وبراهين ﴿لِّأُولَى النَّهْيِ﴾ أى: لذوى العقول السليمة المستقيمة، على أنه لا إله إلا الله، ولا رب سواه.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ أى: من الأرض مبدؤكم، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض، ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أى: وإليها تصيرون إذا متم وبليتم، ومنها نخرجكم تارة أخرى. ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥].

وفى الحديث الذى فى السنن أن رسول الله ﷺ حضر جنازة، فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها فى القبر ثم قال^(٦): ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ ثم [أخذ]^(٧) أخرى وقال: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾. ثم أخذ أخرى وقال: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾، يعنى: فرعون، أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات، وعاین ذلك وأبصره، فكذب بها وأبأها كفراً وعناداً وبغياً، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾ (٥٧) ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ (٥٨) ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ (٥٩).

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى، وهى إلقاء عصاه فصارت ثعباناً عظيماً ونزع يده من تحت جناحه فخرجت^(٨) بيضاء من غير سوء فقال: هذا سحر، جئت به لتسحرنا وتستولى به على الناس، فيتبعونك وتكاثرنا بهم، ولا يتم هذا معك، فإن عندنا سحراً مثل

(٣) فى ف: «ويسافرون».

(٢) فى ف: «ويقومون وينامون عليها».

(١) فى ف: «يستقرون».

(٦) فى أ: «وقال».

(٥) فى أ: «وحجج» وهو خطأ والصواب ما أثبتناه.

(٤) زيادة من ف، أ.

(٨) فى أ: «فتخرج».

(٧) زيادة من ف، أ.

سحرك، فلا يغرنك ما أنت فيه ﴿فَجَعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أى: يوماً نجتمع نحن وأنت فيه، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر فى مكان معين ووقت معين فعند ذلك ﴿قال﴾ لهم موسى ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ وهو يوم عيدهم وتُورِزُهُم وتفرغهم من أعمالهم واجتماعهم جميعهم؛ ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء، ومعجزات الأنبياء، وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية، ولهذا قال: ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ﴾ أى: جميعهم ﴿ضَحَى﴾ أى: ضحوة من النهار ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء، كل أمرهم واضح، بين، ليس فيه خفاء ولا ترويح؛ ولهذا لم يقل «ليلاً» ولكن نهراً ضحى.

قال ابن عباس: وكان يوم الزينة يوم عاشوراء.

وقال السدى، وقتاده، وابن زيد: كان يوم عيدهم.

وقال سعيد بن جبیر: يوم سوقهم.

ولا منافاة. قلت: وفى مثله أهلك الله فرعون وجنوده، كما ثبت فى الصحيح.

وقال وهب بن منبه: قال فرعون: يا موسى، اجعل بيننا وبينك أجلاً ننظر فيه. قال موسى: لم أؤمر بهذا، إنما أمرت بمناجزتك، إن أنت لم تخرج دخلت إليك. فأوحى الله إلى موسى أن اجعل بينك وبينه أجلاً وقل له أن يجعل هو. قال فرعون: اجعله إلى أربعين يوماً. ففعل.

وقال مجاهد، وقتادة: ﴿مَكَانًا سُوءًا﴾^(١): مُنْصَفًا. وقال السدى: عدلاً. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿مَكَانًا سُوءًا﴾ [مستوى]^(٢) يتبين الناس ما^(٣) فيه، لا يكون صَوْبٌ^(٤) ولا شيء يتغيب بعض ذلك عن بعض مستور حتى^(٥) يرى.

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ (٦٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى (٦٢) قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ أَرَادَ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَ بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (٦٣) فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى (٦٤) ﴿.

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه لما تواعد هو بموسى^(٦)، عليه السلام، إلى وقت ومكان معينين، تولى، أى: شرع فى جمع السحرة من مدائن مملكته، كل من ينسب^(٧) إلى سحر فى ذلك الزمان. وقد كان السحر فيهم كثيراً نافقاً جداً، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس: ٧٩].

(١) فى أ: «سوبا». (٢) زيادة من ف، أ. (٣) فى أ: «وما». (٤) فى أ: «ولا صوت». (٥) فى ف، أ: «مستوى». (٦) فى أ: «تواعد هو وموسى». (٧) فى أ: «كل من يسب».

﴿ثُمَّ أَتَى﴾ أى: اجتمع الناس لميقات يوم معلوم وهو يوم الزينة، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف له أكابر دولته، ووقفت الرعايا يمناً ويسرة وأقبل موسى، عليه السلام، يتوكأ على عصاه، ومعه أخوه هارون، ووقف السحرة بين يدي فرعون صفوفًا، وهو يحرضهم ويحثهم، ويرغبهم فى إجادة عملهم فى ذلك اليوم، ويتمنون عليه، وهو يعدهم ويمنيهم، فيقولون: ﴿أَتَنْ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنِّكُمْ^(١) إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ [الشعراء: ٤١، ٤٢]. ﴿قَالَ^(٢) لَهُمُ مُوسَى وَيَلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أى: لا تُخِيلُوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها، وأنها مخلوقة، وليست مخلوقة، فتكونون قد كذبتُم على الله، ﴿فَيَسْحَتُكُمْ بِعَذَابٍ﴾ أى: يهلككم بعقوبة هلاكًا لا بقية له، ﴿وَقَدْ خَابَ مِنْ افْتَرَى﴾ فتنازعوا أمرهم بينهم ﴿قِيلَ﴾ معناه: أنهم تشاجروا فيما بينهم، فقاتل يقول: ليس هذا بكلام ساحر، إنما هذا كلام نبي. وقائل يقول: بل هو ساحر. وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ أى: تناجوا فيما بينهم، ﴿قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسَاحِرَانِ﴾ هذه لغة لبعض العرب، جاءت هذه القراءة على إعرابها، ومنهم من قرأ: ﴿إِنَّ هَذَيْنِ لَسَاحِرَانِ﴾، وهذه اللغة المشهورة، وقد توسع النحاة فى الجواب عن القراءة الأولى بما ليس هذا موضعه.

والغرض أن السحرة قالوا فيما بينهم: تعلمون^(٣) أن هذا الرجل وأخاه - يعنون: موسى وهارون - ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر، يريدان فى هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة ويقاتلا فرعون وجنوده، فينتصرا عليه ويخرجاكم من أرضكم.

وقوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ أى: ويستبدا بهذه الطريقة، وهى السحر، فإنهم كانوا معظمين بسببها، لهم أموال وأرزاق عليها، يقولون^(٤): إذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض، وتفردا بذلك، وتمحضت لهما الرياسة بها دونكم.

وقد تقدم فى حديث الفتون عن^(٥) ابن عباس [قال]^(٦) فى قوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ يعنى: ملكهم الذى هم فيه والعيش.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا هُشَيْم، عن عبد الرحمن بن إسحاق، سمع الشعبى يحدث عن على فى قوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ قال: يصرفا^(٧) وجوه الناس إليهما.

وقال مجاهد: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ قال: أولى الشرف والعقل والأسنان.

وقال أبو صالح: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ أشرافكم وسرواتكم. وقال عكرمة: بخيركم. وقال قتادة: وطريقتهم المثلى يومئذ بنو إسرائيل، كانوا أكثر القوم عددًا وأموالًا، فقال عدو الله: يريدان أن يذهبا بها لأنفسهما.

(٣) فى ف، أ: «يعلمون».

(٦) زيادة من ف، أ.

(٢) فى أ: «فقال».

(٥) فى ف، أ: «أن».

(١) فى ف: «إنكم».

(٤) فى ف: «يقولان».

(٧) فى ف، أ: «يصرفان».

وقال عبد الرحمن بن زيد: ﴿بَطْرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾، بالذى أنتم عليه.

وقوله: ﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا﴾ أى اجتمعوا كلكم^(١) صفًا واحدًا، وألقوا ما فى أيديكم مرة واحدة، لتبهروا الأبصار، وتغلبوا هذا وأخاه، ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى﴾ أى: منا ومنه، أما نحن فقد وعدنا هذا الملك العطاء الجزيل، وأما هو فينال الرياسة العظيمة.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعَصِيُّهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩) فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى (٧٠).

يقول تعالى مخبرًا عن السحرة حين توافقوا هم وموسى، عليه السلام، أنهم قالوا لموسى: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقَى﴾ أى: أنت أولاً ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾. قَالَ بَلْ أَلْقُوا: أى: أنتم أولاً ليرى ماذا تصنعون من السحر، وليظهر للناس جليلة أمرهم، ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعَصِيُّهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾. وفى الآية الأخرى أنهم لما ألقوا ﴿وَقَالُوا بَعْزَةٌ فَرَعُونَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤] وقال تعالى: ﴿سَحَرُوا^(٢) أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الاعراف: ١١٦]، وقال هاهنا ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعَصِيُّهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾.

وذلك أنهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد، بحيث يخيل للناظر^(٣) أنها تسعى باختيارها، وإنما كانت حيلة، وكانوا جمًّا غفيرًا وجمعًا كبيرًا^(٤)، فألقى كل منهم عصا وحبلًا، حتى صار الوادى ملآن حيات يركب بعضها بعضًا.

وقوله ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ أى خاف على الناس أن يَفْتَنُوا بسحرهم ويغفروا بهم قبل أن يلقى ما فى يمينه، فأوحى الله تعالى إليه فى الساعة الراهنة أن ﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ﴾ يعنى: عصاه، فإذا هى ﴿تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا﴾ وذلك أنها صارت تَنِيًّا^(٥) عظيمًا هائلًا ذا عيون وقوائم وعنق ورأس وأضراس، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصى حتى لم تبق^(٦) منها شيئًا إلا تلتفته وابتلعتة، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عيانًا جَهْرَةً، نهارًا ضحوة. فقامت المعجزة، واتضح البرهان، وبطل ما كانوا يعملون^(٧)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن موسى الشيبانى^(٨)، حدثنا حماد بن خالد، حدثنا ابن معاذ - أحسبه الصائغ - عن الحسن، عن جُنْدَب بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله

(٣) فى ف، أ: «لِلنَّاطِرِينَ».

(٦) فى ف: «لَمْ يَبْقَ».

(٢) فى ف: «فَسَحَرُوا».

(٥) فى ف، أ: «ثَعْبَانًا».

(٨) فى ف: «ابن الشيبانى».

(١) فى أ: «كُلُّهُمْ».

(٤) فى ف، أ: «كَثِيرًا».

(٧) فى ف، أ: «وَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ السَّحَرُ».

ﷺ «إذا أخذتم - يعنى: الساحر - فاقتلوه»، ثم قرأ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ قال: «لا يؤمن به حيث وجد».

وقد روى أصله الترمذى موقوفاً ومرفوعاً^(١).

فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه، ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه، علموا علم اليقين أن هذا الذى فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حق لا مرية فيه، ولا يقدر على هذا إلا الذى يقول للشئ كن فيكون، فعند ذلك وقعوا سُجَّدًا لله وقالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨].

ولهذا قال ابن عباس، وعبيد بن عمير: كانوا أول النهار سحرة، وفى آخر النهار شهداء بررة.

قال محمد بن كعب: كانوا ثمانين ألفاً، وقال القاسم بن أبى بزة: كانوا سبعين ألفاً.

وقال السدى: بضعة وثلاثين ألفاً.

وقال الثورى: عن عبد العزيز بن رفيع، عن أبى ثمامة: كان^(٢) سحرة فرعون تسعة عشر ألفاً.

وقال محمد بن أبى إسحاق: كانوا خمسة عشر ألفاً.

وقال كعب الأحبار: كانوا اثني عشر ألفاً.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن على بن حمزة، حدثنا^(٣) على بن الحسين بن واقد، عن أبيه، عن يزيد النحوى، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كانت السحرة سبعين رجلاً، أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا المسيب بن واضح بمكة، حدثنا ابن المبارك قال: قال الأوزاعى: لما خسر السحرة سُجَّدًا رُفِعَتْ لَهُمُ الْجَنَّةُ حَتَّى نَظَرُوا إِلَيْهَا.

قال: وذكر عن سعيد بن سلام: حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن سليمان، عن سالم الأقطس، عن سعيد بن جبير قوله: ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ قال: رأوا منازلهم تبنى لهم وهم فى سجودهم. وكذا قال عكرمة والقاسم بن أبى بزة.

(١) سنن الترمذى برقم (١٤٦٠) من طريق إسماعيل بن مسلم عن الحسن بن جندب رضى الله عنه وقال: «هذا حديث لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلم المكى يضعف فى الحديث، وإسماعيل بن مسلم العبدى البصرى قال وكيع: هو ثقة ويروى عن الحسن أيضاً والصحيح عن جندب موقوف، والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم». تنبيه:

ذكر الحافظ المزي هذا الحديث فى كتابه تحفة الأشراف (٤٤٦/٢) من مسند جندب الخير الأزدى لا من مسند جندب بن عبد الله البجلي رضى الله عنهما فليتنبه.

(٢) فى أ: «كانوا».

(٣) فى أ: «حدثنا محمد بن موسى حدثنى على بن الحسين».

﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) ﴿﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وعناده وبغيه ومكابرته الحق بالباطل، حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمة، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم وغلب كل الغلب - شرع في المكابرة والبهت، وعدل إلى استعمال جأه وسلطانه في^(١) السحرة، فتهدهم وأوعدهم^(٢)، وقال ﴿آمَنْتُمْ لَهُ﴾ أى: صدقتموه ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أى: وما أمرتكم بذلك، وافتم^(٣) على في ذلك. وقال قولاً يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بهت وكذب: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ أى: أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى، وانفقتم أنتم وإياه على وعلى رعيتي، لتظهروه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

ثم أخذ يتهدهم فقال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أى: لأجعلنكم مثله [ولأقتلكنم]^(٤) ولأشهرنكم.

قال ابن عباس: فكان أول من فعل ذلك. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ أى أنتم تقولون: إنى وقومى على ضلالة، وأنتم مع موسى وقومه على الهدى. فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه.

فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم، هانت عليهم أنفسهم فى الله عز وجل، و ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أى: لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين. ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ يحتمل أن يكون قسمًا، ويحتمل أن يكون معطوفاً على البيئات.

يعنون: لا^(٥) نختارك على فاطرنا وخالقنا الذى أنشأنا من العدم، المبتدئ خلقنا من الطين، فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت.

﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ أى: فافعل ما شئت وما وصلت إليه يدك، ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أى: إنما لك تسلط فى هذه الدار، وهى دار الزوال ونحن قد رغبتنا فى دار القرار^(٦).

(١) فى ف: «إلى». (٢) فى ف: «وتوعدهم» وفى أ: «فهددهم وتوعدهم». (٣) فى ف: «واقسم» وفى أ: «واقسم». (٤) زيادة من ف، أ. (٥) فى ف، أ: «لن». (٦) فى أ: «البقاء».

﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ﴾ أى: ما كان منا من الآثام، خصوصاً ما أكرهتنا عليه من السحر لنعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا سفيان بن عيينة، عن أبى سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ قال: أخذ فرعون أربعين غلاماً من بنى إسرائيل، فأمر أن يعلموا السحر بالقرمأ، وقال: علموهم تعليماً لا يعلمه^(١) أحد فى الأرض. قال ابن عباس: فهم من الذين آمنوا بموسى، وهم من الذين قالوا: ﴿[إِنَّا] آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾.

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أى: خير لنا منك ﴿وَأَبْقَى﴾ أى: أدوم ثواباً مما كنت وعدتنا ومنيتنا. وهو رواية عن ابن إسحاق، رحمه الله.

وقال محمد بن كعب القرظى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ أى: لنا منك إن أطيع، ﴿وَأَبْقَى﴾ أى: منك عذاباً إن عصى.

وروى نحوه عن ابن إسحاق أيضاً:

والظاهر أن فرعون - لعنه الله - صمم على ذلك وفعله بهم، رحمهم الله؛ ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف: أصبحوا سحرة، وأمسوا شهداء.

﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦) ﴾.

الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون، يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم السرمدى، ويرغبونه فى ثوابه الأبدى المخلد، فقالوا: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ أى: يلقى الله يوم القيامة وهو مجرم، ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ كقوله: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦]، وقال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى . الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى . ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [الأعلى: ١١ - ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَنَادُوا يَا مَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَأْكُونٌ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا إسماعيل، أخبرنا سعيد بن يزيد، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا

(١) زيادة من ف.

(١) فى أ: «يغلبهم».

يحيون ولكن [الناس] ^(١) تصيبهم النار بذنوبهم، فتميتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحمًا، أذن في الشفاعة، جىء بهم ضبائر، ضبائر، فَبُثُّوا على أنهار الجنة، فيقال: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم ^(٢)، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل» فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية.

وهكذا أخرجه مسلم في كتابه الصحيح من رواية شعبة وبشر بن المفضل، كلاهما عن أبي مسleme ^(٣) سعيد بن يزيد به ^(٤).

وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن عبد الوارث بن عبد الصمد بن عبد الوارث قال: حدثنا أبي، حدثنا حيّان، سمعت سليمان التيمي، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد؛ أن رسول الله ﷺ خطب فأتى على هذه الآية: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾، قال النبي ﷺ: «أما أهلها الذين هم أهلها، فلا يموتون فيها ولا يحيون، وأما الذين ليسوا من أهلها، فإن النار تمسهم، ثم يقوم الشفعاء فيشفعون، فتجعل الضبائر، فيؤتى ^(٥) بهم نهرا يقال له: الحياة - أو: الحيوان - فينبتون كما ينبت القثاء في حميل السيل».

وقوله: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ أى: ومن لقي ربه يوم المعاد مؤمن القلب، قد صدق ضميره بقوله وعمله، ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ أى: الجنة ذات الدرجات العاليات، والغرف الآمات، والمساكن الطيبات.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، أنبأنا همام، حدثنا زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ قال: «الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تخرج ^(٦) الأنهار الأربعة، والعرش فوقها، فإذا سألت الله فاسأله الفردوس».

ورواه الترمذي، من حديث يزيد بن هارون، عن همام، به ^(٧).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، أخبرنا خالد بن يزيد ابن أبي مالك، عن أبيه قال: كان يقال: الجنة مائة درجة، في كل درجة مائة درجة، بين ^(٨) كل درجتين كما بين السماء والأرض، فيهن الياقوت والحلى، في كل درجة أمير، يرون له الفضل والسؤدد.

وفى الصحيحين: «أن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء، لتفاضل ما بينهم». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء؟ قال: «بلى والذي نفسى بيده، رجال

(٣) فى ف، أ: «سلمة».

(٢) فى ف، أ: «علينا».

(١) زيادة من ف، والمسنَد.

(٤) المسند (١١/٣)، وصحيح مسلم برقم (١٨٥).

(٥) فى ف: «فيؤتون».

(٦) فى ف: «يخرج».

(٧) المسند (٣١٦/٥)، وسنن الترمذي برقم (٢٥٣١).

(٨) فى ف، أ: «ما بين».

آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ^(١). وفى السنن: «وإن أبا بكر وعمر لمنهم وأنعمًا»^(٢).

وقوله: ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(٣) خَالِدِينَ فِيهَا ﴿أى: ماكثين أبدا، ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾^(٤) أى: طهر نفسه من الدنس والخبث والشرك، وعبد الله وحده لا شريك له، وصدق^(٥) المرسلين فيما جاؤوا به من خبر وطلب.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ (٧٧) ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (٧٩) ﴿.

يقول تعالى مخبراً أنه أمر موسى، عليه السلام، حين أبى فرعون أن يرسل معه بنى إسرائيل، أن يسرى بهم فى الليل، ويذهب بهم من قبضة فرعون. وقد بسط الله هذا المقام فى غير هذه السورة الكريمة. وذلك أن موسى لما خرج ببني إسرائيل أصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا مجيب، فغضب فرعون غضباً شديداً وأرسل فى المدائن حاشرين، أى: من يجمعون له الجند من بلدانه ورساتيقه، يقول: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ. وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤، ٥٥] ثم لما جمع جنده واستوسق له جيشه، ساق فى طلبهم ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠] أى: عند طلوع الشمس ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ﴾ أى: نظر كل من الفريقين إلى الآخر ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ. قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢]، ووقف موسى ببني إسرائيل، البحر أمامهم، وفرعون وراءهم، فعند ذلك أوحى الله إليه أن ﴿اصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾، فضرب البحر بعصاه، وقال: «انفلق»^(٥)، ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] أى: الجبل العظيم. فأرسل الله الريح على أرض البحر فلفحته حتى صار يابسا كوجه الأرض؛ ولهذا قال: ﴿فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا﴾ أى: من فرعون، ﴿وَلَا تَخْشَى﴾ يعنى: من البحر أن يغرق قومك.

ثم قال تعالى: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ﴾^(٦) ﴿أى: البحر﴾ ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ أى: الذى هو معروف ومشهور. وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور، كما^(٧) قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى. فَغَشَاهَا مَا غَشَى﴾ [النجم: ٥٣، ٥٤]، وكما قال الشاعر:

أَنَا أَبُو النَّجْمِ وَشِعْرِى شِعْرِى

أى: الذى يعرف، وهو مشهور.

(١) صحيح البخارى برقم (٦٥٥٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٠) من حديث سهل بن سعد رضى الله عنه.

(٢) سنن أبى داود برقم (٣٩٨٧) وسنن ابن ماجه برقم (٩٦).

(٣) زيادة من ف، أ.

(٤) فى ف: «واتبع».

(٥) فى أ: «انفلق على».

(٦) فى ف: «وكما».

(٧) فى ف، أ: «اليم ما غشيهم».

وكما تقدمهم^(١) فرعون فسلك بهم في اليم فأضلهم وما هداهم إلى سبيل الرشاد، كذلك ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨].

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢)﴾.

يذكر تعالى نعمه على بنى إسرائيل العظام، ومنته الجسم، حيث نجّاهم من عدوهم فرعون، وأقر أعينهم منه، وهم ينظرون إليه وإلى جنده قد غرقوا في صبيحة واحدة، لم ينج منهم أحد، كما قال [تعالى]^(٢): ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠].

وقال البخارى: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا رَوْح بن عباد، حدثنا شعبة، حدثنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة واليهود تصوم عاشوراء، فسألهم فقالوا: هذا اليوم الذى أظفر الله فيه موسى على فرعون، فقال: «نحن أولى بموسى فصوموه» رواه مسلم أيضا فى صحيحه^(٣).

ثم إنه تعالى واعد موسى وبنى إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن، وهو الذى كلمه تعالى عليه، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هناك^(٤). وفى غُصُون ذلك عَبْد بنو إسرائيل العجل، كما يقصه تعالى قريبا.

وأما المن والسلى، فقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة «البقرة»^(٥) وغيرها. فالمن: حلوى كانت تنزل عليهم من السماء. والسلى: طائر يسقط عليهم، فيأخذون من كل، قدر الحاجة إلى الغد، لطفًا من الله، ورحمةً بهم، وإحسانًا إليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أى: كلوا من هذا [الرزق]^(٦) الذى رزقكم، ولا تطغوا فى رزقى، فتأخذوه من غير حاجة، وتخالقوا ما أمركم به، ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أى: أغضب عليكم ﴿وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾. قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أى: فقد شقى.

وقال شُقَى بن مائع: إن فى جهنم قصرًا يرمى الكافر من أعلاه، فيهوى فى جهنم أربعين خريفًا قبل أن يبلغ الصلصال، وذلك قوله: ﴿وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أى: كل من تاب إلى تبت عليه من أى ذنب كان، حتى إنه تعالى تاب^(٧) على من عبد العجل من بنى إسرائيل.

(١) فى ف: «يقدمهم».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧٣٧)، وصحيح مسلم برقم (١١٣٠).

(٣) فى ف، أ: «هناك».

(٤) عند تفسير الآية: ٥٧ وما بعدها.

(٥) زيادة من ف، أ.

(٦) فى ف، أ: «أنه تاب تعالى».

وقوله: ﴿تَابَ﴾ أى: رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو نفاق أو معصية.

وقوله: ﴿وَأَمَّنَ﴾ أى: بقلبه^(١)، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أى: بجوارحه.

وقوله: ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أى ثم لم يشكك.

وقال سعيد بن جبیر: ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ أى: استقام على السنة والجماعة. وروى نحوه عن مجاهد، والضحاك، وغير واحد من السلف.

وقال قتاده: ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ أى: لزم الإسلام حتى يموت.

وقال سفيان الثوري: ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ أى: علم أن لهذا^(٢) ثواباً.

وثم هاهنا لرتيب الخبر على الخبر، كقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصِّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧].

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِّنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩).

لما سار موسى، عليه السلام، ببني إسرائيل بعد هلاك فرعون، وافوا^(٣) ﴿عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩] وواعده ربه ثلاثين ليلة ثم أتبعها^(٤) له عشرًا، فتمت [له]^(٥) أربعين ليلة، أى: يصومها ليلاً ونهاراً. وقد تقدم فى حديث «الفتون» بيان ذلك. فسارع موسى، عليه السلام، مبادراً إلى الطور، واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى. قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي﴾ أى: قادمون ينزلون قريباً من الطور، ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ أى: لتزداد عني رضا، ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحدث فى بني إسرائيل، وعبادتهم العجل الذى عمله لهم ذلك

(٣) فى ف، أ: «واتوا».

(٢) فى ف: «هذا».

(١) فى ف: «قلبه».

(٥) زيادة من ف، أ.

(٤) فى ف، أ: «أتمها».

السامري. وفي الكتب الإسرائيلية: أنه كان اسمه هارون أيضاً، وكتب الله تعالى له في هذه المدة الألواح المتضمنة التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكُمَا بِأَحْسَنِهَا سَأَرِكُمَا دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥] أى: عاقبة الخارجين عن طاعتى المخالفين لأمرى.

وقوله ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أى: بعد ما أخبره تعالى بذلك، فى غاية الغضب والحنق عليهم، هو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم، وتسلم التوراة التى فيها شريعتهم، وفيها شرف لهم. وهم قوم قد عبدوا غير الله ما يعلم كل عاقل له لب [وحزم] ^(١) بطلان ^(٢) [ما هم فيه] ^(٣) وسخافة عقولهم وأذهانهم؛ ولهذا رجع إليهم غضبان أسفاً، والأسف: شدة الغضب.

وقال مجاهد: ﴿غَضْبَانٌ أَسِفًا﴾ أى: جزعاً. وقال قتادة، والسدى: ﴿أَسِفًا﴾ أى: حزيناً على ما صنع قومه من بعده.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾ أى: أما وعدكم على لسانى كل خير فى الدنيا والآخرة، وحسن العاقبة كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم، وإظهاركم عليه، وغير ذلك من أياديه عندهم؟ ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ ، أى: فى انتظار ما وعدكم الله. ونسان ما سلف من ^(٤) نعمه، وما بالعهد من قدم. ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ﴾ «أم» هاهنا بمعنى «بل»، وهى للإضراب عن الكلام الأول، وعدول إلى الثانى، كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم ﴿فَأَخْلَقْتُمْ مَّوْعِدِي قَالُوا﴾ أى: بنو إسرائيل فى جواب ما أنبههم ^(٥) موسى وقرعهم: ﴿مَا أَخْلَقْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا﴾ أى: عن قدرتنا واختيارنا.

ثم شرعوا يعتذرون بالعدو البارد، يخبرونه عن تورعهم كما كان بأيديهم من حلى القبط الذى كانوا قد استعاروه منهم، حين خرجوا من مصر، ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ أى: ألقيناها عنا. وقد تقدم فى حديث «الفتون» أن هارون، عليه السلام، هو الذى كان أمرهم بإلقاء الحلى فى حفيرة فيها نار.

وفى رواية السدى، عن أبى مالك، عن ابن عباس: إنما أراد هارون أن يجتمع الحلى كله فى تلك الحفيرة ^(٦)، ويجعل حجراً واحداً. حتى إذا رجع موسى يرى ^(٧) فيه ما يشاء. ثم جاء [بعد] ^(٨) ذلك السامري فألقى عليها تلك القبضة التى أخذها من أثر الرسول، وسأل هارون أن يدعو الله أن يستجيب له فى دعوته، فدعا له هارون - وهو لا يعلم ما يريد - فأجيب له ^(٩)، فقال السامري عند ذلك: أسأل الله أن يكون عجباً. فكان عجباً له خوار، أى: صوت، استدراجاً وإمهالاً ومحنة واختباراً؛ ولهذا قالوا: ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ. فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خَوَارٌ﴾.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبادة بن البختري ^(١٠)، حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا حماد

(٣) زيادة من ف، أ وفى هـ: «ما لقيه».

(٦) فى ف: «الحفرة».

(٩) فى ف، أ: «فيه».

(٢) فى ف: «بضلال».

(٥) فى أ: «نبيهم».

(٨) زيادة من ف، أ.

(١) زيادة من ف، أ.

(٤) فى ف: «فى».

(٧) فى ف، أ: «رأى».

(١٠) فى ف: «البختري».

عن سماك، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس؛ أن هارون مرَّ بالسامري وهو ينحت العجل، فقال له: ما تصنع؟ فقال: أصنع ما يضر ولا ينفع. فقال هارون: اللهم اعطه ما سأل على ما فى نفسه، ومضى هارون، فقال^(١) السامري: اللهم إني أسألك أن يَخُورَ فَخَارُ، فكان إذا خار سجدوا له، وإذا خار رفعوا رؤوسهم.

ثم رواه من وجه آخر عن حماد وقال: [أعمل]^(٢) ما ينفع ولا يضر.

وقال السدى: كان يخور ويمشى.

فقالوا - أى: الضُّلَّالُ منهم، الذين افتتنوا بالعجل وعبده - : ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ أى: نسيه هاهنا، وذهب يتطلبه. كذا تقدم فى حديث «الفتون» عن ابن عباس. وبه قال مجاهد.

وقال سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿فَنَسِيَ﴾ أى: نسى أن يذكركم أن هذا إلهكم.

وقال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فقالوا: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ ، قال: فعكفوا عليه وأحبوه حباً لم يحبوا شيئاً قط يعنى مثله، يقول الله: ﴿فَنَسِيَ﴾ أى: ترك ما كان عليه من الإسلام، يعنى: السامري.

قال الله تعالى ردّاً عليهم، وتقريعاً لهم، وبياناً لفضيحتهم وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أى: العجل ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أنه لا يجيبهم إذا سألوه، ولا إذا خاطبوه، ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أى: فى دنياهم ولا فى آخرهم.

قال ابن عباس، رضى الله عنه^(٣): لا والله ما كان خواره إلا أن يدخل الريح فى دبره فيخرج من فيه، فيسمع له صوت.

وقد تقدم فى متون الحديث^(٤) عن الحسن البصرى: أن هذا العجل اسمه بهموت.

وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط، فألقوها عنهم، وعبدوا العجل. فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير، كما جاء فى الحديث الصحيح عن ابن عمر: أنه سأل رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب - يعنى: هل يصلى فيه أم لا؟ - فقال ابن عمر، رضى الله عنه^(٥): انظروا إلى أهل العراق، قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ - يعنى: الحسين - وهم يسألون عن دم البعوض؟^(٦)

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا

أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١)﴾.

(٣) فى ف، أ: «عنهما».

(٢) زيادة من ف، أ.

(١) فى ف: «وقال».

(٥) فى ف، أ: «عنهما».

(٤) فى ف، أ: «حديث الفتون».

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٩٩٤).

يخبر تعالى عما كان من نهي هارون، عليه السلام، لهم عن عبادة العجل، وإخباره إياهم: إنما هذا فتنة لكم ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً، ذو العرش المجيد، الفعال لما يريد ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ أى: فيما أمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه.

﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ أى: لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه. وخالفوا هارون في ذلك وحاربوه، وكادوا أن يقتلوه.

﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحِيَّتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤)﴾.

يقول مخبراً عن موسى، عليه السلام، حين رجع إلى قومه، فرأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم، فامتلاً عند ذلك غيظاً^(١)، وألقى ما كان في يده من الألواح الإلهية، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وقد قدمنا في «الأعراف» بسط ذلك، وذكرنا هناك حديث: «ليس الخبر كالمعاينة».

وشرع يلوم أخاه^(٢) هارون فقال: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا. أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أى: فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع، ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ أى: فيما كنت تقدمت إليك، وهو قوله: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

قال ﴿يَبْنَؤُمْ﴾ تَرَفَّقَ له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه؛ لأن ذكر الأم هاهنا أرق وأبلغ، أى: فى الحنو والعطف؛ ولهذا قال: ﴿يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحِيَّتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾.

هذا اعتذار من هارون عند موسى فى سبب تأخره عنه، حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم، ﴿قَالَ إِنِّي خَشِيتُ﴾ أن أتبعك فأخبرك بهذا، فتقول لى: لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ أى: وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم.

قال ابن عباس: وكان هارون هائباً له مطيعاً.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَنَّهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨)﴾.

يقول موسى، عليه السلام، للسامري: ما حملك على ما صنعت؟ وما الذى عرض لك حتى فعلت ما فعلت؟

قال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان السامري رجلاً من أهل بَاجَرَمَا، وكان من قوم يعبدون البقر، وكان حُبُّ عبادة البقر فى نفسه، وكان قد أظهر الإسلام مع بنى إسرائيل. وكان اسم السامري: موسى بن ظفر.

وفى رواية عن ابن عباس: [إنه]^(١) كان من كرمان.

وقال قتادة: كان من قرية اسمها سامرا.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أى: رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون، ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أى: من أثر فرسه. وهذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عَمَّار بن الحارث، أخبرنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا إسرائيل، عن السدى، عن أبى بن عمارة، عن على، رضى الله عنه، قال: إن جبريل، عليه السلام، لما نزل فصعد بموسى إلى السماء، بصر به السامري من بين الناس، فقبض قبضة من أثر الفرس قال: وحمل جبريل موسى خلفه، حتى إذا دنا من باب السماء، صعد وكتب الله الألواح^(٢) وهو يسمع صرير الأقلام فى الألواح. فلما أخبره أن قومه قد فتنوا من بعده قال: نزل موسى، فأخذ العجل فأحرقه. غريب.

وقال مجاهد: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ قال: من تحت حافر فرس^(٣) جبريل، قال: والقبضة ملء الكف، والقبضة بأطراف الأصابع.

قال مجاهد: نبذ السامري، أى: ألقى ما كان فى يده على حلية بنى إسرائيل، فانسبك عجلاً جسداً له خوار حفيف الريح فيه، فهو خواره.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن يحيى، أخبرنا على بن المدينى، حدثنا يزيد بن زُرَيْع، حدثنا عمارة، حدثنا عكرمة؛ أن السامري رأى الرسول، فألقى فى روعه أنك إن أخذت من أثر هذا الفرس قبضة فألقيتها فى شئ، فقلت له: «كن فكان» فقبض قبضة من أثر الرسول، فبيست أصابعه على القبضة، فلما ذهب موسى للميقات وكان بنو إسرائيل استعاروا حلى آل فرعون، فقال لهم السامري: إنما أصابكم من أجل هذا الحلى، فاجمعوه. فجمعوه، فأوقدوا عليه، فذاب، فرآه السامري فألقى فى روعه أنك لو قذفت هذه القبضة فى هذه فقلت: «كن»، كان. فقذف القبضة وقال: «كن»، فكان عجلاً له خوار، فقال: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾.

ولهذا قال: ﴿فَبَيَّنْتُهَا﴾ أى: ألقيتها مع من ألقى، ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾ أى: حسنته وأعجبها إذ ذاك، ﴿قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أى: كما أخذت ومسست ما لم

(٣) فى ف: «فرس حافر».

(٢) فى ف: «وكتب الله الأقلام فى الألواح».

(١) زيادة من أ.

يكن أخذه ومسه من أثر الرسول، فعقوبتك في الدنيا أن تقول: «لا مساس»، أى: لا تماسّ الناس ولا يمسونك.

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ أى: يوم القيامة، ﴿لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ أى: لا محيد لك عنه.

وقال قتادة: ﴿أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ قال: عقوبة لهم، وبقياتهم اليوم يقولون: لا مساس.

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ قال الحسن، وقاتدة، وأبو نَهِيك: لن تغيب عنه.

وقوله: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ﴾ أى: معبودك، ﴿الَّذِي ظَلَّتْ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أى: أقمت على عبادته،

يعنى: العجل ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس، والسدى: سَحَلَه^(١) بالمبارد، وألقاه على النار.

وقال قتادة: استحال العجل من الذهب لحماً ودماً، فحرقه بالنار، ثم ألقاه، أى: رماده^(٢) فى

البحر؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن رجاء، أنبأنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن

عمارة بن^(٣) عبد وأبى عبد الرحمن، عن على، رضى الله عنه، قال: إن موسى لما تعجل إلى ربه،

عمد السامرى فجمع ما قدر عليه من حلى نساء بنى إسرائيل، ثم صوره عجلاً، قال: فعمد موسى

إلى العجل، فوضع عليه المبارد، فبرّده بها، وهو على شط نهر، فلم يشرب أحد من ذلك الماء ممن

كان يعبد العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب. فقالوا لموسى: ما توبتنا^(٤)؟ قال: يقتل بعضكم بعضاً.

وهكذا قال السدى: وقد تقدم فى تفسير سورة «البقرة»، ثم فى حديث «الفتون» بسط ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ [وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، يقول لهم موسى، عليه

السلام: ليس هذا إلهكم، إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو^(٥)، أى: لا يستحق ذلك على العباد إلا

هو، ولا تنبغى العبادة إلا له، فإن كل شىء فقير إليه، عبد لربه.

وقوله: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ نصب على التمييز، أى: هو عالم بكل شىء، ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ

شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨]، فلا ﴿يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾

[سبأ: ٣]، ﴿وَمَا^(٦) تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ

مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ

مُبِينٍ﴾ [هود: ٦] والآيات فى هذا كثيرة جداً.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ

(٣) فى ف: «عن».

(٢) فى ف: «ثم ألقى رماده».

(١) فى ف: «يتنحله».

(٦) فى ف: «ولا».

(٥) زيادة من ف، أ.

(٤) فى ف، أ: «ما يريد منا».

فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١) ﴿١٠١﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: كما قَصَصْنَا عَلَيْكَ خبر موسى، وما جرى له مع فرعون وجنوده على الجلية والأمر الواقع، كذلك نقص عليك الأخبار الماضية كما وقعت من غير زيادة ولا نقص، هذا ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا﴾ أى: عندنا ﴿ذِكْرًا﴾، وهو القرآن العظيم، الذى ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، الذى لم يعط نبى من الأنبياء [منذ بعثوا إلى أن ختموا] (١)، بمحمد ﷺ تسليمًا، كتابًا مثله ولا أكمل منه، ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن، وحُكْمُ الفصل بين الناس منه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أى: كذب به وأعرض عن اتباعه أمرًا وطلبًا، وابتغى الهدى فى غيره، فإن الله يضلّه ويهديه إلى سواء الجحيم؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ أى: إثما، كما قال [الله] (٢) تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧].

وهذا عام فى كل من بلغه القرآن من العرب والعجم، أهل الكتاب وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿لَا نُذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]. فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع، فمن اتبعه هدى، ومن خالفه وأعرض عنه ضلّ وشقى فى الدنيا، والنار موعده يوم القيامة؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾. خالدين فيه ﴿أى: لا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهُ وَلَا انْفِكَاءَ﴾، ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ أى: بشس الحمل حملهم (٣).

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤)﴾ (١٠٢) يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤) ﴿١٠٤﴾

ثبت فى الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن الصور، فقال: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ» (٤).

وقد جاء فى حديث «الصور» من رواية أبى هريرة: أنه قرن عظيم، الدّارة منه بقدر السموات والأرض، ينفخ فيه إسرافيل، عليه السلام.

وجاء فى الحديث: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له» فقالوا: يارسول الله، كيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا» (٥).

وقوله: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ قيل: معناه زُرْقُ العيون من شدة ما هم فيه من الأحوال.

﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾: قال ابن عباس: يتسارون (٦) بينهم، أى: يقول بعضهم لبعض: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا

(١)، (٢) زيادة من ف.

(٣) فى ف: «عليهم».

(٤) رواه أحمد فى مسنده (١٩٢/٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما.

(٥) سبق الحديث فى الكلام عن الصور عند الآية: ٧٣ من تفسير سورة الأنعام.

(٦) فى ف: «يتسارون».

عَشْرًا ﴿١٠٥﴾ أى: فى الدار الدنيا، لقد كان لبثكم فيها قليلاً، عشرة أيام أو نحوها.

قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أى: فى حال تناجيههم بينهم، ﴿إِذْ يَقُولُ امْثَلْهُمْ طَرِيقَةً﴾ أى: العاقل الكامل فيهم، ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ أى: لقصر مدة الدنيا فى أنفسهم [يوم المعاد؛ لأن الدنيا كلها وإن تكررت أوقاتها وتعاقبت لياليها وأيامها] ^(١) وساعاتها كأنها يوم واحد؛ ولهذا تستقصر مدة ^(٢) الحياة الدنيا يوم القيامة: وكان غرضهم فى ذلك [درء] ^(٣) قيام الحجة عليهم، لقصر المدة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ. وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦]، وقال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ. قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ. قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْتُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤] أى: إنما كان لبثكم فيها قليلاً، لو كنتم تعلمون لآثرتم الباقي على الفانى، ولكن تصرفتم فأسأتم التصرف، قدّمتم الحاضر الفانى على الدائم الباقي.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ أى: هل تبقى يوم القيامة أو تزول؟ ﴿فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ أى: يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسييراً، ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أى: الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أى: بساطاً واحداً.

والقاع: هو المستوى من الأرض. والصفصف تأكيد لمعنى ذلك، وقيل: الذى لا نبات فيه. والاول أولى، وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللازم؛ ولهذا قال: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ أى: لا ترى فى الأرض يومئذ وادياً ولا رابية، ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً، كذلك ^(٤) قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والحسن البصرى، والضحاك، وقتادة، وغير واحد من السلف.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أى: يوم يرون هذه الأحوال والأحوال، يستجيبون مسارعين إلى الداعى، حيثما أمروا بادرُوا إليه، ولو كان هذا فى الدنيا لكان أنفع لهم، ولكن حيث ^(٥) لا ينفعهم، كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتَنَّا﴾ [مريم: ٣٨]، وقال: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨].

قال محمد بن كعب القرظى: يحشر الله الناس يوم القيامة فى ظلمة، وتطوى ^(٦) السماء،

(١) زيادة من ف، أ. (٢) فى ف: «يستقصر الكافرون مدة». (٣) زيادة من ف، أ. (٤) فى أ: «وكذا». (٥) فى ف: «حيث كان». (٦) فى ف: «ويطوى».

وتتناثر^(١) النجوم، وتذهب^(٢) الشمس والقمر، وينادى مناد، فيتبع الناس الصوت [فيأتونه]^(٣)، فذلك قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾.

وقال قتادة: ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ لا يميلون عنه.

وقال أبو صالح: ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾: لا عوج عنه.

وقوله: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾: قال ابن عباس: سكنت: وكذا قال السدي.

﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾: قال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: يعنى: وطء الأقدام. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، والربيع بن أنس، وقتادة، وابن زيد، وغيرهم.

وقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾: الصوت الخفى. وهو رواية عن عكرمة، والضحاك.

وقال سعيد بن جبير: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾: الحديث، وسره، ووطء الأقدام. فقد جمع سعيد كلا القولين وهو محتمل، أما وطء الأقدام فالمراد سعى الناس إلى المحشر، وهو مشيهم فى سكون وخضوع. وأما الكلام الخفى فقد يكون فى حال دون حال، فقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢).

يقول تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أى: يوم القيامة ﴿لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾ أى: عنده ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذِنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨] وقال: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣]، وقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨].

وفى الصحيحين، من غير وجه، عن رسول الله ﷺ، وهو سيد ولد آدم، وأكرم الخلائق على الله عز وجل أنه قال: «أتى تحت العرش، وآخر^(٤) لله ساجداً، ويفتح على بمحامد لا أحصيها الآن، فيدعنى^(٥) ما شاء الله أن يدعنى، ثم يقول: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع^(٦)، واشفع تشفع». قال: «فيحد لى حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أعود»، فذكر أربع مرات، صلوات الله وسلامه عليه

(٣) زيادة من ف، أ.

(٦) فى ف: «تسمع».

(٢) فى ف: «ويذهب».

(٥) فى ف: «ويدعنى».

(١) فى ف: «ويتناثر».

(٤) فى ف، أ: «فاخر».

وعلى سائر الأنبياء.

وفى الحديث [أيضاً]^(١): «يقول تعالى: أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان، فُيُخْرَجُونَ خُلُقًا كَثِيرًا، ثم يقول: أخرجوا من النار من كان فى قلبه نصف مثقال من إيمان، أخرجوا من النار من كان فى قلبه ما يزن ذرة، من كان فى قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان» الحديث^(٢).

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أى: يحيط علماً بالخلائق كلهم، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾، كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ قال ابن عباس، وغير واحد: خضعت وذلت واستسلمت الخلائق لجبارها الحى الذى لا يموت، القيوم: الذى لا ينام، وهو قيم على كل شىء، يدبره ويحفظه، فهو الكامل فى نفسه، الذى كل شىء فقير إليه، لا قوام له إلا به.

وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أى: يوم القيامة، فإن الله سيؤدى كل حق إلى صاحبه، حتى يقتص للشاء الجماء من الشاة القرناء.

وفى الحديث: «يقول الله تعالى: وعزتى وجلالى، لا يجاوزنى اليوم ظلم ظالم^(٣)».

وفى الصحيح: «إياكم والظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»^(٤). والخبية كل الخبية لمن لقى الله وهو مشرك به؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾: لما ذكر الظالمين ووعيدهم، ثنى بالمتقين وحكمهم، وهو أنهم لا يُظْلَمُونَ ولا يُهْضَمُونَ، أى: لا يزداد فى سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم^(٥). قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والحسن، وقتادة، وغير واحد. فالظلم: الزيادة بأن يحمل عليه ذنب غيره، والهضم: النقص.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ (١١٣) ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (١١٤).

يقول: ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعاً لا محالة، أنزلنا القرآن بشيراً ونذيراً، بلسان

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) انظر: أحاديث الشفاعة عند تفسير الآية: ٧٩ من سورة الإسراء.

(٣) فى ف، أ: «الظالم».

(٤) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٣٩٠) من حديث جابر بلفظ: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة».

(٥) فى ف: «سيئاته ولا ينقص من حسناته».

عربى مبين فصيح^(١)، لا لبس فيه ولا عي، ﴿وَصَرَفْنَا^(٢) فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى: يتركون المآثم والمحارم والفواحش، ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ وهو إيجاد الطاعة وفعل القربات، ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أى: تنزهه وتقدس^(٣) الملك الحق، الذى هو حق، ووعدته حق، ووعيدته حق، ورسله حق، والجنة حق، والنار حق، وكل شئ منه حق. وعدله تعالى ألا يعذب أحداً قبل الإنذار وبعثه الرسل والإعذار إلى خلقه؛ لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾، كقوله تعالى فى سورة «لا أقسم بيوم القيامة»: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦-١٩]، وثبت فى الصحيح عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ كان يعالج من الوحي شدة، فكان مما يحرك لسانه، فأنزل^(٤) الله هذه الآية^(٥). يعنى: أنه، عليه السلام، كان إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية قالها معه، من شدة حرصه على حفظ^(٦) القرآن، فأرشدته الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف فى حقه؛ لئلا يشق عليه. فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ أى: أن نجمله فى صدرك، ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئاً، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ وقال فى هذه الآية: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أى: بل أنصت، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقراءه بعده، ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أى: زدنى منك علماً.

قال ابن عيينة، رحمه الله: ولم يزل ﷺ فى زيادة [من العلم]^(٧)، حتى توفاه الله عز وجل. ولهذا جاء فى الحديث: «إن الله تابع الوحي على رسوله، حتى كان الوحي أكثر ما كان يوم توفى رسول الله ﷺ»^(٨).

وقال ابن ماجه: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا عبد الله بن نُمَيْر، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن ثابت، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم، انفعنى بما علمتنى، وعلمنى ما ينفعنى، وزدنى علماً، والحمد لله على كل حال»^(٩). وأخرجه الترمذى، عن أبى كُرَيْب، عن عبد الله بن نُمَيْر، به. وقال: غريب من هذا الوجه. ورواه البزار عن عمرو بن على الفلاس، عن أبى عاصم، عن موسى بن عبيدة، به. وزاد فى آخره: «وأعوذ بالله من حال أهل النار».

(١) فى ف: «فصيح اللسان». (٢) فى أ: «وصرفنا ما فيه»، وهو خطأ. (٣) فى ف: «تقدس وتنزه».

(٤) فى ف: «فتزل».

(٥) صحيح البخارى برقم (٥) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.

(٦) فى ف، أ: «تحفظ». (٧) زيادة من ف.

(٨) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٩٨٢) من حديث أنس رضى الله عنه.

(٩) سنن ابن ماجه برقم (٢٥١) وسنن الترمذى برقم (٣٥٩٩).

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى (١١٩) فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢)﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمش، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس قال: إنما سمى الإنسان لأنه عهد إليه فَنَسَى. وكذا رواه علي بن أبي طلحة، عنه.

وقال مجاهد والحسن: تَرَكَ.

وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، يذكر تعالى تشریف آدم وتكريمه، وما فضله به على كثير ممن خلق تفضيلاً.

وقد تقدم الكلام على هذه القصة في سورة «البقرة»، وفي «الأعراف»، وفي «الحجر»، و«الكهف»^(١)، وسيأتى في آخر سورة «ص»^(٢) [إن شاء الله تعالى]^(٣). يذكر فيها تعالى خلق آدم وأمره الملائكة بالسجود له تشریفاً وتكراماً، ويبين عداوة إبليس لبني آدم ولأبيهم قديماً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ أى: امتنع واستكبر، ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ يعنى: حواء، عليهما السلام، ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ أى: إياك أن يسعى^(٥) فى إخراجك منها، فتتعب وتغنّى وتشقى فى طلب رزقك، فإنك ههنا فى عيش رغيد هنئ، لا^(٦) كلفة ولا مشقة.

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾: إنما قرن بين الجوع والعرى؛ لأن الجوع ذل الباطن، والعرى ذل الظاهر.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾: وهذان أيضاً متقابلان، فالظمأ: حر الباطن، وهو العطش. والضحى: حر الظاهر.

وقوله: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾: قد تقدم أنه^(٧) ﴿دَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢]؛ ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]. وقد

(١) انظر: تفسير سورة البقرة، الآيات: ٣٠ - ٣٨، وتفسير سورة الأعراف، الآيات: ١١ - ٢٤، وتفسير سورة الحجر، الآيات: ٢٨ -

٤٠، وتفسير سورة الكهف، الآية: ٥٠.

(٢) عند تفسير الآيات: ٧١ - ٨٥.

(٥) فى ف: «تسعى».

(٣) زيادة من ف، أ.

(٦) فى ف، أ: «بلا».

(٤) فى ف: «وبين».

(٧) فى ف: «أنهما».

تقدم أن الله تعالى أوحى إلى آدم وزوجته أن يأكلا من كل الثمار، ولا يقربا هذه الشجرة المعينة في الجنة. فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها، وكانت شجرة الخلد - يعنى: التى من أكل منها خلد ودام مكثه. وقد جاء فى الحديث ذكر شجرة الخلد، فقال أبو داود الطيالسى:

حدثنا شعبة عن أبي الضحاك^(١)، سمعت أبا هريرة يحدث، عن النبي ﷺ قال: «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام، ما يقطعها وهى شجرة الخلد». ورواه الإمام أحمد^(٢).

وقول: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ قال ابن أبى حاتم:

حدثنا على بن الحسين بن إشكاب، حدثنا على بن عاصم، عن سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم رجلاً طوالاً، كثير شعر^(٣) الرأس، كأنه نخلة سحوق. فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته. فلما نظر إلى عورته جعل يشتد فى الجنة، فأخذت شعرة شجرة، فنازعها، فنادى الرحمن: يا آدم، منى تفر؟ فلما سمع كلام الرحمن قال: يارب، لا، ولكن استحياء^(٤)، أرأيت إن تبت ورجعت، أعاندى إلى الجنة؟ قال: نعم» فذلك قوله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾^(٥).

وهذا منقطع بين الحسن وأبى بن كعب، فلم يسمعه منه، وفى رفعه نظر أيضاً.

وقوله: ﴿وَوَظَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾: قال مجاهد: يرقعان كهيئة الثوب. وكذا قال قتادة، والسدى.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا جعفر، عن^(٦) عون، حدثنا سفيان، عن ابن أبى لیلی، عن المنهال، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: ﴿وَوَظَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قال: ينزعان ورق التين، فيجعلانه على سواتهما.

وقوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى. ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾، قال البخارى:

حدثنا قتيبة، حدثنا أيوب بن النجار، عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، عن النبي ﷺ قال: «حاج موسى آدم، فقال له: أنت الذى أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى، أنت الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومنى على أمر قد كتبه الله علىّ قبل أن يخلقنى - أو: قدره الله علىّ قبل أن يخلقنى -» قال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى»^(٧).

(١) فى ف، أ: «أبى الضحى».

(٢) مسند الطيالسى برقم (٢٥٤٧)، والمسند للإمام أحمد (٢/٤٥٥).

(٣) فى ف: «الشعر». (٤) فى ف، أ: «أستحي».

(٥) سبق تخريج الحديث عند تفسير الآية: ٣٧ من سورة البقرة.

(٦) فى ف، أ: «ابن».

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٧٣٨).

وهذا الحديث له طرق في الصحيحين، وغيرهما من المسانيد^(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني أنس بن عياض، عن الحارث بن أبي ذباب، عن يزيد بن هرمز قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «حَجَّ آدم وموسى عند ربهما، فحج آدم موسى، قال موسى: أنت الذى خلقتك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك فى جنته، ثم أهبطت الناس إلى الأرض بخطيئتك؟ قال آدم: أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالته وكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقربك نجياً، فبكتم وجدت الله كتب التوراة [قبل أن أخلق]^(٢)؟ قال موسى: بأربعين عاماً. قال آدم: فهل وجدت فيها ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ قال: نعم. قال: أفتلومنى على أن عملتُ عملاً كتب الله على أن أعمله قبل أن يخلقنى بأربعين سنة». قال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى».

قال الحارث: وحدثني عبد الرحمن بن هرمز بذلك، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ^(٣).

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمًى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمًى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦)﴾.

يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس: اهبطوا منها جميعاً، أى: من الجنة كلكم. وقد بسطنا ذلك فى سورة «البقرة».

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: قال: آدم وذريته، وإبليس وذريته.

وقوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾، قال أبو العالية: الأنبياء والرسل والبيان.

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾: قال ابن عباس: لا يضل فى الدنيا، ولا يشقى فى الآخرة.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ أى: خالف أمرى، وما أنزلته على رسولى، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هدايه، ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أى: فى الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره [ضيق]^(٤) حَرَجٌ لضلّاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه

(١) انظر: صحيح البخارى برقم (٤٧٣٦) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٢).

(٢) زيادة من ف، أ.

(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٦٥٢) من طريق أنس بن عياض عن الحارث بن أبى ذياب عن يزيد بن هرمز وعبد الرحمن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٤) زيادة من ف، أ.

ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو فى قلق وحيرة وشك، فلا يزال فى ريبة يتردد. فهذا من ضنك المعيشة.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ قال: الشقاء.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾، قال: كل مال^(١) أعطيته عبداً من عبادى، قل أو كثر، لا يتقنى فيه، فلا خير فيه، وهو الضنك فى المعيشة. ويقال: إن قوماً ضلّالاً، أعرضوا عن الحق، وكانوا فى سعة من الدنيا متكبرين، فكانت معيشتهم ضنكاً؛ [و]^(٢) ذلك أنهم كانوا يرون أن الله ليس مخلفاً لهم معاشهم، من سوء ظنهم بالله والتكذيب، فإذا كان العبد يكذب بالله، ويسىء الظن به والثقة به اشتدت عليه معيسته، فذلك الضنك.

وقال الضحاك: هو العمل السيئ، والرزق الخبيث، وكذا قال عكرمة، ومالك بن دينار.

وقال سفيان بن عيينة، عن أبى حازم، عن أبى سلمة، عن أبى سعيد فى قوله: ﴿مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ قال: يضيق عليه قبره، حتى تختلف أضلاعه فيه. قال أبو حاتم الرازى: النعمان بن أبى عياش^(٣): يكنى أبا سلمة.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُوعَة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الله بن لهيعة، عن درّاج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ فى قول الله عز وجل: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ قال: «ضمة القبر». الموقف أصح^(٤).

وقال ابن أبى حاتم أيضاً: حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج أبو السمح، عن ابن حُجيرة - اسمه عبد الرحمن - عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «المؤمن فى قبره فى روضة خضراء، ويرحب له فى قبره سبعون ذراعاً، وينور له قبره كالقمر ليلة البدر، أتدرون فىم أنزلت هذه الآية: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾؟ أتدرون ما المعيشة الضنك؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «عذاب الكافر فى قبره، والذى نفسى بيده، إنه ليسلط عليه تسعة وتسعون تَنِيناً، أتدرون ما التنين؟ تسعة وتسعون حية، لكل حية سبعة رؤوس، ينفخون فى جسمه، ويلسعونه ويخدشونه إلى يوم يبعثون»^(٥).

رفعه منكر جداً.

وقال البزار: حدثنا محمد بن يحيى الأزدي، حدثنا محمد بن عمرو^(٦)، حدثنا هشام بن سعد، عن سعيد بن أبى هلال، [عن أبى حُجيرة]^(٧)، عن أبى هريرة، عن النبي ﷺ فى قول الله عز وجل: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ قال: «المعيشة الضنك الذى قال الله تعالى: أنه يسلط عليه تسعة وتسعون

(٣) فى ف: «عياض».

(٢) زيادة من ف.

(١) فى هـ: «ما» والمثبت من ف، أ.

(٤) والمرفوع فى إسناده دراج عن أبى الهيثم وهو ضعيف.

(٥) ورواه أبو يعلى فى مسنده (٥٢١/١١) من طريق ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن دراج به.

(٧) زيادة من ف، أ.

(٦) فى ف: «محمد بن عمر».

حية، ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة»^(١).

وقال أيضاً: حدثنا أبو زرعة، حدثنا أبو الوليد، حدثنا حماد بن سلمة، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا» قال: «عذاب القبر». إسناد جيد^(٢).

وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾: قال مجاهد، وأبو صالح، والسدي: لا حجة له.

وقال عكرمة: عمى عليه كل شيء إلا جهنم.

ويحتمل أن يكون المراد: أنه يُحْشَرُ أو يبعث^(٣) إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضاً، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمًى وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]. ولهذا يقول: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ أي: في الدنيا، ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ أي: لما عرضت عن آيات الله، وعاملتها معاملة من لم يذكرها، بعد بلاغها إليك تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها، كذلك تعاملتك [اليوم]^(٤) معاملة من ينساك^(٥)، ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١] فإن الجزاء من جنس العمل. فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه، فليس داخلاً في هذا الوعيد الخاص، وإن كان متوَعِّداً عليه من جهة أخرى، فإنه قد وردت السنة بالنهاي الأكيد، والوعيد الشديد في ذلك، قال الإمام أحمد:

حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا خالد، عن يزيد بن أبي زياد، عن عيسى بن فائد، عن رجل، عن سعد بن عباد، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل قرأ القرآن فنسيه، إلا لقي الله يوم يلقاه وهو أجذم»^(٦).

ثم رواه الإمام أحمد من حديث يزيد بن أبي زياد، عن عيسى بن فائد، عن عباد بن الصامت عن النبي ﷺ، فذكر مثله سواء^(٧).

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ (١٢٧).

يقول تعالى: وهكذا نجازي المفسرين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤] ولهذا قال: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ أي: أشد ألماً من عذاب الدنيا، وأدوم عليهم، فهم مخلدون فيه؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة».

(١) مسند البزار برقم (٢٢٣٣) «كشف الاستار» وقال الهيثمي في المجمع (٦٧/٧): «فيه من لم أعرفه».

(٢) وروى من حديث أبي سعيد مثله، ورواه الحاكم في المستدرک وابن أبي شيبه في المصنف.

(٣) في ف: «أن يبعث أو يحشر». (٤) زيادة من ف، أ. (٥) في ف، أ: «نسيك».

(٦) المسند (٢٨٥/٥).

(٧) المسند (٣٢٣/٥).

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٣٠)﴾.

يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ﴾ لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به: يا محمد، كم أهلكنا من الأمم المكذبين بالرسول قبلهم، فبادوا فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التي خلفوهم فيها، يمشون فيها، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ أى: العقول الصحيحة والألباب المستقيمة، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال فى سورة «الم السجدة»: ﴿أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أى: لولا الكلمة السابقة من الله وهو أنه^(١) لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والأجل المسمى الذى ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة، لجاءهم العذاب بغتة؛ ولهذا قال لنبىه مسلماً له: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ أى: من تكذيبهم لك، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ يعنى: صلاة الفجر، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعنى: صلاة العصر، كما جاء فى الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي، رضى الله عنه، قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون فى رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا»، ثم قرأ هذه الآية^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان بن عيينة، عن عبد الملك بن عمير، عن عمارة بن ربيعة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يُلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها». رواه مسلم من حديث عبد الملك بن عمير، به^(٣).

وفى المسند والسنن، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر فى ملكه مسيرة ألفى سنة، ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه، وإن أعلاهم منزلة لمن ينظر إلى الله عز وجل فى اليوم مرتين»^(٤).

(١) فى ف: «أن».

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٥٤) وصحيح مسلم برقم (٦٣٣).

(٣) المسند (١٣٦/٤)، وصحيح مسلم برقم (٦٣٤).

(٤) المسند (١٣/٢) وسنن الترمذى برقم (٣٣٣٠) وقال: «هذا حديث غريب».

وقوله: ﴿وَمِنْ آتَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ أى: من ساعاته فتهجد به. وحمله بعضهم على المغرب والعشاء، ﴿وَأَطْرَافِ النَّهَارِ﴾ فى مقابلة آتاء الليل، ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥].

وفى الصحيح: «يقول الله: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطينا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: إني أعطيتكم أفضل من ذلك. فيقولون: وأى شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضوانى، فلا أسخط عليكم بعده أبداً»^(١).

وفى الحديث [الآخر]^(٢) يقال: «يا أهل الجنة، إن لكم^(٣) عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه. فيقولون: وما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويزحزحنا عن النار، ويدخلنا^(٤) الجنة؟ فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم خيراً من النظر إليه، وهى^(٥) الزيادة»^(٦).

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٣١) وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢)﴾.

يقول تعالى لنبه محمد، صلوات الله وسلامه عليه: لا تنظر إلى هؤلاء المترفين^(٧) وأشباههم ونظرائهم، وما فيه من النعم^(٨)، فإنما هو زهرة زائلة، ونعمة حائلة، لنختبرهم بذلك، وقليل من عبادى الشكور.

وقال مجاهد: ﴿أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾ يعنى: الأغنياء، فقد آتاك [الله]^(٩) خيراً مما آتاهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾. لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ [الحجر: ٨٧، ٨٨]، وكذلك^(١٠) ما ادخره تعالى لرسوله فى الدار الآخرة أمر عظيم لا يُحَدِّ ولا يوصف، كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥] ولهذا قال: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

وفى الصحيح: أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ فى تلك المشربة التى كان قد اعتزل فيها نساءه، حين ألى منهن، فراه متوسداً مضطجعاً على رمال حصير. وليس فى البيت إلا صُبْرَةٌ من قَرَطٍ، وأهب^(١١) معلقة، فابتدرت عينا عمر بالبكاء، فقال رسول الله: «ما يبكيك»^(١٢)؟

(١) صحيح البخارى برقم (٦٥٤٩) من حديث أبى سعيد رضى الله عنه.

(٢) زيادة من ف، أ.

(٣) فى ف: «بكم».

(٤) فى ف: «تبيض وجوهنا وتثقل موازيننا وتزحزحنا عن النار وتدخلنا».

(٥) فى أ: «وهو».

(٦) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٨١) من حديث صهيب رضى الله عنه.

(٧) من أ: «إلى ما متعنا به هؤلاء المسرفين».

(٨) فى ف، أ: «النعم».

(٩) زيادة من ف، أ.

(١٠) فى ف: «ولذلك».

(١١) فى ف: «ما يبكيك يا عمر؟».

فقال: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه؟ فقال: «أوفى شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عَجَلَتْ طيباتهم في حياتهم الدنيا»^(١).

فكان، صلوات الله وسلامه عليه^(٢)، أزهّد الناس في الدنيا مع القدرة عليها، إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا، في عباد الله، ولم يدخر لنفسه شيئاً لغد.

قال ابن أبي حاتم: أنبأنا يونس، أخبرني ابن وهب، أخبرني مالك، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم، ما يفتح الله^(٣) من زهرة^(٤) الدنيا». قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟ قال: «بركات الأرض»^(٥).

وقال قتادة والسدي: زهرة الحياة الدنيا، يعني: زينة الحياة الدنيا.

وقال قتادة ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾: لنبليهم.

وقوله ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة، واصطبر أنت على فعلها، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه: أن عمر بن الخطاب كان يبيت عنده أنا ويقرأ، وكان له ساعة من الليل يصلي فيها، فربما لم يقم^(٦)، فنقول: لا يقوم الليلة كما كان يقوم، وكان إذا [استيقظ أقام]^(٧) - يعني: أهله - وقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾^(٨).

وقوله: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ يعني^(٩): إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨] ولهذا قال: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾، وقال الثوري: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ أي: لا نكلفك الطلب.

وقال ابن أبي حاتم [أيضاً]^(١٠): حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، عن هشام، عن أبيه؛ أنه كان إذا دخل على أهل الدنيا، فرأى من دنياهم طرفاً فإذا رجع إلى أهله، فدخل الدار

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩١٣).

(٢) في ف، أ: «عليه وسلامه». (٣) في أ: «يفتح الله لكم».

(٤) أصله في صحيح البخارى برقم (٢٨٤٢) وصحيح مسلم برقم (١٠٥٢) من طريق عطاء عن أبي سعيد الخدرى ولفظه: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا».

(٥) في ف، أ: «لم ينم».

(٦) زيادة من ف، أ.

(٧) ورواه مالك في الموطأ (١١٩/١) عن زيد بن أسلم عن أبيه بنحوه.

(٨) في ف: «أى».

(٩) زيادة من ف، أ.

قرأ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾، ثم يقول: الصلاة الصلاة، رحمكم الله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي زياد القَطَوَانِي، حدثنا سَيَّار، حدثنا جعفر، عن ثابت قال: كان النبي ﷺ إذا أصابه خصاصة نادى أهله: «يا أهلاه، صلوا، صلوا». قال ثابت: وكانت^(١) الأنبياء إذا نزل بهم^(٢) أمر، فزعوا إلى الصلاة^(٣).

وقد روى الترمذى وابن ماجه، من حديث عمران بن زائدة، عن أبيه، عن أبي خالد الوالبى، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلاً، ولم أسد فقرك»^(٤).

وروى ابن ماجه من حديث الضحاك، عن الأسود، عن ابن مسعود: سمعت نبيكم ﷺ يقول: «مَنْ جَعَلَ الهمومَ هَمًّا واحدًا، هَمَّ المعاد، كفاه الله هَمَّ دنياه. ومن تشعبت به الهموم فى أحوال الدنيا، لم يبال الله فى أى أوديته هلك»^(٥).

وروى أيضاً من حديث شعبة، عن عُمَرُ بن سليمان^(٦)، عن عبد الرحمن بن أبان، عن أبيه، عن زيد بن ثابت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كانت الدنيا هَمًّا، فرّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأتها من الدنيا إلا ما كُتِبَ له. ومن كانت الآخرة نَيْتًا، جمع له أمره، وجعل غناه فى قلبه، وأتته الدنيا وهى راعمة»^(٧).

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ أى: وحسن العاقبة فى الدنيا والآخرة، وهى الجنة، لمن اتقى الله.

وفى الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت الليلة كأننا فى دار عقبة بن رافع، وأنا أتينا برطب [من رطب]^(٨) ابن طاب، فأولت ذلك أن العاقبة لنا فى^(٩) الدنيا، والرفعة وأن ديننا قد طاب»^(١٠).

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى (١٣٤) قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنْ

(١) فى ف: «وكان». (٢) فى أ: «بها».

(٣) ورواه الإمام أحمد فى الزهد برقم (٤٨) عن سيار به، دون قول ثابت.

(٤) سنن الترمذى برقم (٢٤٦٦) وسنن ابن ماجه برقم (٤١٠٧) وقال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب».

(٥) سنن ابن ماجه برقم (٤١٠٦).

(٦) فى ف: «عمرو بن سليم».

(٧) سنن ابن ماجه برقم (٤١٠٥).

وقال البوصيرى فى الزوائد (٢٧١/٣): «هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات».

(٨) زيادة من ف، أ، ومسلم. (٩) فى ف: «فى الدار الدنيا».

(١٠) صحيح مسلم برقم (٢٢٧٠) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه.

اهتدى (١٣٥) ﴿ ٥ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الكفار فى قولهم : ﴿لَوْلَا﴾ أى : هلا ﴿يَأْتِينَا﴾ محمد ﴿بآيةٍ من ربه﴾ أى : بعلامة دالة على صدقه فى أنه رسول الله؟ قال الله تعالى : ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ يعنى : القرآن العظيم الذى أنزله عليه الله^(١) وهو أمى ، لا يحسن الكتابة ، ولم يدارس أهل الكتاب ، وقد جاء فيه أخبار الأولين ، بما كان منهم^(٢) فى سالف الدهور ، بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها ؛ فإن القرآن مهيمن عليها ، يُصدق الصحيح ، ويُبَيِّن خطأ المكذوب فيها وعليها . وهذه الآية كقوله تعالى فى سورة «العنكبوت» : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ^(٣) عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت : ٥٠ ، ٥١] وفى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : «ما من نبي إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلیّ ، وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»^(٥) .

وإنما ذكر هاهنا أعظم الآيات التى أعطيها ، عليه السلام ، وهو القرآن ، وله من المعجزات ما لا يحصى ولا يحصر ، كما هو مودع فى كتبه ، ومقرر فى مواضعه .

ثم قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ أى : لو أنا أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل^(٦) إليهم هذا الرسول الكريم ، ونزل عليهم هذا الكتاب العظيم لكانوا قالوا : ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ قبل أن تهلكنا ، حتى نؤمن به ونتبعه؟ كما قال : ﴿فَتَبَعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ ، يبين تعالى أن هؤلاء المكذبين متعتون معاندون لا يؤمنون ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس : ٩٧] ، كما قال تعالى : ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدَفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدَفُونَ﴾ [الأنعام : ١٥٥ - ١٥٧] وقال : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنِ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر : ٤٢] وقال : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنِ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنَنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ . وَنَقَلَبُ أَمْعِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام : ١٠٩ ، ١١٠] .

(١) فى ف : «أنزله الله عليه» . (٢) فى ف ، أ : «فيهم» . (٣) فى ف : «نزل» .

(٤) فى ف : «فقل» .

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٩٨١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٦) فى ف ، أ : «يرسل» .

ثم قال تعالى ﴿قُلْ﴾ أى: يا محمد لمن كذبك وخالفك واستمر على كفره وعناده ﴿كُلُّ مُتَّبِعٍ﴾
أى: منا ومنكم ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أى: فانتظروا، ﴿فَسَتَّعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ أى: الطريق
المستقيم، ﴿وَمَنْ اهْتَدَى﴾ إلى الحق وسبيل الرشاد، وهذا كقوله^(١) تعالى ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ
الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢] ، ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنْ الْكَذَّابُ الْأَشْرُ﴾ [القمر: ٢٦].

آخر تفسير سورة طه، والله الحمد والمنة

(١) فى هـ: «قوله» والمثبت من ف، أ .

سورة الأنبياء

وهي مكية.

قال البخارى: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غُندَر، حدثنا شعبة عن أبى إسحاق: سمعت عبد الرحمن بن يزيد^(١)، عن عبد الله قال: بنو إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، هن من العتاق الأول، وهن من تلادى^(٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَاءَ وَانْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ (٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) ﴾

هذا تنبيه من الله، عز وجل، على اقتراب الساعة ودنوها، وأن الناس فى غفلة عنها، أى: لا يعملون لها، ولا يستعدون من أجلها.

وقال النسائى: حدثنا أحمد بن نصر، حدثنا هشام بن عبد الملك أبو الوليد الطيالسى، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ ﴿فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ قال: «فى الدنيا»^(٣)، وقال تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقال [تعالى]^(٤): ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ . وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١، ٢].

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة الحسن بن هانئ أبى نُوَّاس الشاعر أنه قال: أشعر الناس الشيخ الطاهر أبو العتاهية حيث يقول:

النَّاسُ فِي غَفْلَاتِهِمْ وَرَحَا الْمَنِيَّةِ تَطْحَنُ

فقيل له: من أين أخذ^(٥) هذا؟ قال^(٦): من قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾^(٧).

(١) فى أ: «زيد» .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧٣٩) .

(٣) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٣٢) .

(٤) زيادة من ف، أ .

(٥) فى ف، أ: «أخذت» .

(٦) فى ف، أ: «فقال» .

(٧) تاريخ دمشق (٦١١/٤) «المخطوط» .

[وروى فى ترجمة «عامر بن ربيعة»، من طريق موسى بن عبيدة الأمدى، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه، عن عامر بن ربيعة: أنه نزل به رجل من العرب، فأكرم عامر مثواه، وكلم فيه رسول الله ﷺ، فجاءه الرجل فقال: إني استقطعت من رسول الله ﷺ وادياً فى العرب، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك. فقال عامر: لا حاجة لى فى قطيعتك، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾] (١) (٢).

ثم أخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحي الذى أنزل الله على رسوله، والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار، فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ﴾ أى: جديد إنزاله ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ كما قال ابن عباس: مالكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم وقد حرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه، وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرأونه محضاً لم يشب. ورواه البخارى بنحوه (٣).

وقوله: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى: قائلين فيما بينهم خفية ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ يعنون رسول الله ﷺ، يستبعدون كونه نبياً؛ لأنه بشرٌ مثلهم، فكيف اختص بالوحي دونهم؛ ولهذا قال: ﴿أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾؟ أى: أفتتبعونه فتكونون كمن أتى (٤) السحر وهو يعلم أنه سحر. فقال تعالى مجيباً لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: الذى يعلم ذلك، لا يخفى عليه خافية، وهو الذى أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين، الذى لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله، إلا الذى يعلم السر فى السموات والأرض.

وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [أى: السميع] (٥) لأقوالكم، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالكم. وفي هذا تهديد لهم ووعيد.

وقوله: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ﴾: هذا إخبار عن تعنت الكفار وإلحادهم، واختلافهم فيما يصفون به (٦) القرآن، وحيرتهم فيه، وضلالهم عنه. فتارة يجعلونه سحراً، وتارة يجعلونه شعراً، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام، وتارة يجعلونه مفترى، كما قال: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨، والفرقان: ٩].

وقوله: ﴿فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾: يعنون ناقة صالح، وآيات موسى وعيسى. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الآية] (٧) [الإسراء: ٥٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَهْمُ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: ما آتينا قرية من القرى الذين بعث فيهم الرسل آية على يدى نبيها فآمنوا بها، بل كذبوا، فأهلكناهم

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) تاريخ دمشق ٦٨٠ / ٨ «المخطوط».

(٣) صحيح البخارى برقم (٧٥٢٢).

(٤) زيادة من ف، أ.

(٥) فى أ: «يأتى».

(٦) زيادة من ف.

(٧) فى ف، أ: «فيه».

بذلك، أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو^(١) رآوها دون أولئك؟ كلا، بل ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

هذا كله، وقد شاهدوا من الآيات الباهرات، والحجج القاطعات، والدلائل البينات، على يدى رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجلى، وأبهر وأقطع وأقهر، مما شوهد مع غيره من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

قال ابن أبى حاتم، رحمه الله: ذكر عن زيد بن الحباب، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا الحارث بن زيد الحضرمي، عن على بن رباح اللخمي، حدثني من شهد عبادة بن الصامت، يقول: كنا فى المسجد ومعنا أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، يُقْرَأُ بعضنا بعضا القرآن، فجاء عبد الله بن أبى بن سلول، ومعه نمرقة وزريرة، فوضع واتكأ، وكان صبيحاً فصيحاً جدلاً، فقال: يا أبا بكر، قل لمحمد يأتينا بآية كما جاء الأولون؟ جاء موسى بالألواح، وجاء داود بالزبور، وجاء صالح بالناقة، وجاء عيسى بالإنجيل وبالمائدة . فبكى أبو بكر، رضى الله عنه، فخرج رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: قوموا إلى رسول الله^(٢) نستغيث به من هذا المنافق. فقال رسول الله ﷺ: «إنه لا يقام لى، إنما يقام لله عز وجل». فقلنا: يارسول الله، إنا لقينا من هذا المنافق. فقال: «إن^(٣) جبريل قال^(٤) لى: اخرج فأخبر بنعم الله التى أنعم بها عليك، وفضيلته التى فضلت بها، فبشرنى أنى بعثت إلى الأحمر والأسود، وأمرنى أن أنذر الجن، وآتاني كتابه وأنا أمى، وغفر ذنبى ما تقدم وما تأخر، وذكر اسمى فى الأذان وأيدنى^(٥) بالملائكة، وآتاني النصر، وجعل الرعب أمامى، وآتاني الكوثر، وجعل حوضى من أعظم الحياض يوم القيامة، ووعدنى المقام المحمود والناس مهطعون مقنعون^(٦) رؤوسهم، وجعلنى فى أول زمرة تخرج من الناس، وأدخل فى شفاعتى سبعين ألفاً من أمتى الجنة بغير حساب وآتاني السلطان والملك، وجعلنى فى أعلى غرفة فى الجنة فى جنات النعيم^(٧)، فليس فوقى أحد إلا الملائكة الذين يحملون العرش، وأحل لى^(٨) الغنائم^(٩)، ولم تحل لأحد كان قبلنا». وهذا الحديث غريب جداً .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩)﴾ .

يقول تعالى راداً على من أنكر بعثة الرسل من البشر: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا يُوْحِي (١٠) إِلَيْهِمْ﴾

(١) فى ف: «ولو» .
(٢) فى ف: «إلى رسوله» .
(٣) فى ف: «أنى» .
(٤) فى ف: «فقال» .
(٥) فى أ: «وأمرنى» .
(٦) فى ف: «مقنعى» .
(٧) فى ف، أ: «عدن» .
(٨) فى ف، أ: «لى ولأمتى» .
(٩) فى أ: «المغانم» .
(١٠) فى ف، أ: «نوحى» .

أى: جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالاً من البشر، لم يكن فيهم أحد من الملائكة، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوْحَىٰ^(١) إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، وقال تعالى حكاية عمن تقدم من الأمم أنهم أنكروا ذلك فقالوا: ﴿أَبَشْرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى: اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة؟ إنما كانوا بشراً، وذلك من تمام نعم الله على خلقه؛ إذ بعث فيهم رسلاً^(٢) منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ أى: بل قد كانوا أجساداً يأكلون الطعام، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] أى: قد كانوا بشراً من البشر، يأكلون ويشربون مثل الناس، ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بضرار لهم ولا ناقص منهم شيئاً، كما توهمه المشركون فى قولهم: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا. أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رِجَالًا مَسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٧، ٨].

وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ أى: فى الدنيا، بل كانوا يعيشون ثم يموتون، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من الله عز وجل، تنزل عليهم الملائكة عن الله بما يحكمهم^(٣) فى خلقه مما يأمر به وينهى عنه.

وقوله: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ أى: الذى وعدهم ربهم: «ليهلكن الظالمين»، صدقهم الله وعده ففعل ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾ أى: أتباعهم من المؤمنين، ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ أى: المكذبين بما جاءت الرسل به.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ^(١٠) وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ^(١١) فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ^(١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ^(١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ^(١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ^(١٥)﴾.

يقول تعالى منبهاً على شرف القرآن، ومحرضاً لهم على معرفة قدره: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾، قال ابن عباس: شرفكم.

وقال مجاهد: حديثكم. وقال الحسن: دينكم.

(٣) فى ف: «يحكمه».

(٢) فى ف، أ: «رسولا»، وهو خطأ.

(١) فى ف، أ: «نوحى».

﴿وَأَنَّهُ لَذِكْرُ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]. وقوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾: هذه صيغة تكثير، كما قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ (١) مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِثْرِ مَعْظَلَةٍ وَقَصُرَ مَشِيدٌ﴾ [الحج: ٤٥]. وقوله: ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أى: أمة أخرى بعدهم ﴿فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَاءِ﴾ أى: تيقنوا أن العذاب واقع (٢) بهم، كما وعدهم نبينهم، ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أى: يفرون هارين، ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ﴾: هذا تهكم بهم قدرأى: قيل لهم قدرأ: لا تركضوا هارين من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور، والعيشة والمساكن الطيبة.

قال قتادة: استهزاء بهم.

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ أى: عما كنتم فيه من أداء شكر النعمة. ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك، ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ أى: ما (٣) زالت تلك المقالة، وهى الاعتراف بالظلم، هجيرا هم حتى حصدناهم حصداً (٤) وخمدت حركاتهم وأصواتهم خموداً.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ (١٦) ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَهَوًا لَا تَتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (١٧) ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ (١٨) ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (١٩) ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (٢٠).

يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق، أى: بالعدل والقسط، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، وأنه لم يخلق ذلك عبثاً ولا لعباً، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ (٥) وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَهَوًا لَا تَتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾: قال ابن أبى نجيع، عن مجاهد: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَهَوًا لَا تَتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ يعنى: من عندنا، يقول: وما خلقنا جنة ولا ناراً، ولا موتاً، ولا بعثاً، ولا حساباً.

وقال الحسن، وقتادة، وغيرهما: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَهَوًا﴾ اللهو: المرأة بلسان أهل اليمن.

(١) فى ف: «وكأين».

(٢) فى ف: «تيقنوا العذاب أنه واقع».

(٣) فى ف: «فما».

(٤) فى ف، أ: «جعلناهم حصيداً خامدين».

وقال إبراهيم النخعي: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُوًّا لَأَتَّخِذْنَاهُ﴾ من الحور العين.

و قال عكرمة والسدي: المراد باللهو هاهنا: الولد.

وهذا والذي قبله متلازمان، وهو كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ﴾ [الزمر: ٤]، فنزه نفسه عن اتخاذ الولد مطلقاً، لا سيما عما يقولون من الإفك والباطل، من اتخاذ عيسى، أو العزيز^(١)، أو الملائكة، ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

وقوله: ﴿إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾: قال قتادة، والسدي، وإبراهيم النخعي، ومغيرة بن مقسم، أي: ما كنا فاعلين.

وقال مجاهد: كل شيء في القرآن «إن» فهو إنكار.

وقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ أي: نبين الحق فيدحض الباطل؛ ولهذا قال: ﴿فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: ذاهب مضمحل، ﴿وَلَكُمْ الْوَيْلُ﴾ أي: أيها القائلون: لله ولد، ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي: تقولون وتفترون.

ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له، ودأبهم في طاعته ليلاً ونهاراً، فقال: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ يعني: الملائكة، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ أي: لا يستكفون عنها، كما قال: ﴿لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَكْفِرْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢].

وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: لا يتعبون ولا يملئون، ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ فهم دائبون في العمل ليلاً ونهاراً، مطيعون قصداً وعملاً، قادرون عليه، كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن أبي دُلَامة البغدادي، أنبأنا عبد الوهاب بن عطاء، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن صفوان بن مُحَرِّز، عن حكيم بن حزام قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه، إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا: ما نسمع من شيء. فقال رسول الله ﷺ: «إني لأسمع أطيظ السماء، وما تلام أن تنظ، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم». غريب ولم يخرجوه^(٢).

ثم رواه ابن أبي حاتم من طريق يزيد بن زريع، عن سعيد، عن قتادة مرسلًا.

وقال أبو إسحاق^(٣)، عن حسان بن مخارق، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: جلست إلى كعب الأحبار وأنا غلام، فقلت له: رأيت قول الله [للملائكة]^(٤): ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا

(١) في ف: «أو عزيز».

(٢) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠١/٣) والطحاوي في مشكل الآثار برقم (١١٣٤) من طريق عبد الوهاب بن عطاء به، وله شاهد من حديث أبي ذر الغفاري أخرجه الترمذي في السنن برقم (٢٣١٢) وقال: «هذا حديث حسن غريب».

(٣) في هـ، ف، أ: «محمد بن إسحاق» والمثبت من الطبري ٧٠/١٧.

(٤) زيادة من ف، أ.

يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ أما يشغلهم عن التسبيح الكلام والرسالة والعمل؟ فقال: فمن هذا الغلام؟ فقالوا: من بنى عبد المطلب، قال: فقبل رأسى، ثم قال لى: يابنى، إنه جعل لهم التسبيح، كما جعل لكم النفس، أليس تتكلم وأنت تتنفس و^(١)أنت تتنفس؟ .

﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ .

ينكر^(٢) تعالى على من اتخذ من دونه آلهة، فقال: بل ﴿اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ أى: أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض؟ أى: لا يقدرّون على شيء من ذلك، فكيف جعلوها لله نداً وعبدوها معه .

ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفستت السموات والأرض، فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ﴾ أى: فى السماء والأرض، ﴿لَفَسَدَتَا﴾، كقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال هاهنا: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أى: عما يقولون إن له ولداً أو شريكاً، سبحانه وتعالى وتقدس وتنزه عن الذين يفترون ويأفكون علواً كبيراً.

وقوله: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ أى: هو الحاكم الذى لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد، لعظمته وجلاله وكبريائه، وعلوه وحكمته وعدله ولطفه، ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ أى: وهو سائل خلقه عما يعملون، كقوله: ﴿فَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] وهذا كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨].

﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ .

يقول تعالى: بل ﴿اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ﴾ يا محمد: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أى: دليلكم على ماتقولون، ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ﴾ أى: القرآن، ﴿وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾ أى: الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولون وتزعمون، فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل، ناطق بأنه لا إله إلا الله، ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق، فأنتم معرضون عنه؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، كما قال: ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ

(٣) فى ف، أ: «نوحى».

(٢) فى ف: «فينكر».

(١) فى ف: «وأنت تمشى».

آلِهَةٌ يُعْبُدُونَ ﴿[الزخرف: ٤٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفترة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا برهان لهم، وحجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد .

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى رداً على من زعم أن له - تعالى وتقدس - ولداً من الملائكة، كمن قال ذلك من العرب: إن الملائكة بنات الله، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أى: الملائكة عباد الله مكرمون عنده، فى منازل عالية ومقامات سامية، وهم له فى غاية الطاعة قولاً وفعلاً ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ أى: لا يتقدمون بين يديه بأمر، ولا يخالفونه فيما أمر^(١) به بل يبادرون إلى فعله، وهو تعالى علمه محيط بهم، فلا يخفى عليه منهم خافية، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾، كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]، فى آيات كثيرة فى معنى ذلك .

﴿وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ﴾ أى: من خوفه ورهبته ﴿مُشْفِقُونَ . وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّنْ دُونِهِ﴾ أى: من ادعى منهم أنه إله من دون الله، أى: مع الله، ﴿فَذَلِكْ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أى: كل من قال ذلك، وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه، كقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، وقوله: ﴿لَنِ أَشْرَكَتْ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] .

﴿أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى منهاً على قدرته التامة، وسلطانه العظيم فى خلقه الأشياء، وقهره لجميع المخلوقات، فقال: ﴿أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: الجاحدون لإلهيته العابدون^(٢) معه غيره، ألم يعلموا

(٢) فى أ: «العابدين» .

(١) فى ف، أ: «أمرهم» .

أن الله هو المستقل بالخلق، المستبد بالتدبير، فكيف يليق أن يعبد غيره أو يشرك به ما سواه، ألم^(١) يروا ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ أي: كان الجميع متصلًا بعضه ببعض متلاصق متراكم، بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه. فجعل السموات سبعاً، والأرض^(٢) سبعاً، وفصل بين سماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمرت السماء وأنبتت الأرض؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً، وذلك دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء:

فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

قال سفيان الثوري، عن أبيه، عن عكرمة قال: سئل ابن عباس: الليل كان قبل أو النهار؟ فقال: أرايتم السموات والأرض حين كانتا رتقاً، هل كان بينهما إلا ظلمة؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن أبي حمزة، حدثنا حاتم، عن حمزة بن أبي محمد، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر؛ أن رجلاً أتاه يسأله عن السموات والأرض ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾؟ قال: اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله، ثم تعال فأخبرني بما قال لك. قال: فذهب إلى ابن عباس فسأله. فقال ابن عباس: نعم، كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت. فلما خلق للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات. فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: الآن قد علمت أن ابن عباس قد أوتي في القرآن علماً، صدق - هكذا كانت. قال ابن عمر: قد كنت أقول: ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه قد أوتي في القرآن علماً.

وقال عطية العوفي: كانت هذه رتقاً لا تمطر، فأمرت. وكانت هذه رتقاً لا تنبت، فأنبتت.

وقال إسماعيل بن أبي خالد: سألت أبا صالح الحنفي عن قوله: ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾، قال: كانت السماء واحدة، ففتق منها سبع سموات، وكانت الأرض واحدة ففتق منها سبع أرضين.

وهكذا قال مجاهد، وزاد: ولم تكن السماء والأرض متماستين.

وقال سعيد بن جبير: بل كانت السماء والأرض ملتزقتين، فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض، كان ذلك فتقهما الذي ذكر الله في كتابه.

وقال الحسن، وقتادة، كانتا جميعاً، ففصل بينهما بهذا الهواء.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أي: أصل كل الأحياء منه.

(٢) في ف، أ: «والأرضين».

(١) في أ: «أو لم».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الجماهر^(١)، حدثنا سعيد بن بشير، حدثنا قتادة عن أبي ميمونة^(٢)، عن أبي هريرة أنه قال: يابى الله، إذا رأيتك قرت عيني، وطابت نفسي، فأخبرني عن كل شيء، قال: «كل شيء خلق من ماء».

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا همام، عن قتادة، عن أبي ميمونة، عن أبي هريرة قال: قلت: يارسول الله، إني إذا رأيتك طابت نفسي، وقرت عيني، فأنبئني عن كل شيء. قال: «كل شيء خلق من ماء» قال: قلت: أنبئني عن أمر إذا عملتُ به دخلت الجنة. قال: «أفش السلام، وأطعم الطعام، وصل الأرحام، وقم بالليل والناس نيام، ثم ادخل الجنة بسلام»^(٣).

ورواه أيضاً عبد الصمد وعفان وبهز، عن همام^(٤). تفرد به أحمد، وهذا إسناد على شرط الصحيحين، إلا أن أبا ميمونة من رجال السنن، واسمه سليم، والترمذي يصحح له. وقد رواه سعيد ابن أبي عروبة، عن قتادة مرسلًا، والله^(٥) أعلم.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي﴾ أى: جبالاً أرسى الأرض بها وقررها وثقلها؛ لئلا تميد بالناس، أى: تضطرب وتتحرك، فلا يحصل لهم عليها قرار^(٦) لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الربع، فإنه باد للهواء والشمس، ليشاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات، والحكم والدلالات؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أى: لئلا تميد بهم.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ أى: ثغراً فى الجبال، يسلكون فيها طرقاً من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، كما هو المشاهد فى الأرض، يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد، فيجعل الله فيه فجوة - ثغرة - ليسلك الناس فيها من هاهنا إلى هاهنا؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا﴾ أى: على الأرض وهى كالقبة عليها، كما قال: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وقال: ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: ٥]، ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، والبناء هو نصب القبة، كما قال رسول الله ﷺ: «بُنِيَ الإسلام على خمس» أى: خمس^(٧) دعائم، وهذا لا يكون إلا فى الخيام، على ما^(٨) تعهده العرب.

﴿مَحْفُوظًا﴾ أى: عالياً محروساً أن يُنال. وقال مجاهد: مرفوعاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدشتكى، حدثني

(١) فى ف، أ: «الجماهير». (٢) فى ف، أ: «أبى ميمون».

(٣) المسند (٢/ ٢٩٥) ورواه الحاكم فى المستدرک (٤/ ١٢٩) من طريق يزيد بن هارون وصححه.

ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٦٤٢) «موارد» من طريق أبى عامر العقدي عن همام به.

(٤) المسند (٢/ ٣٢٣ - ٤٩٣) من طريق عبد الصمد، (٢/ ٣٢٣) من طريق عفان، (٢/ ٣٢٤) من طريق بهز.

وقال الهيثمى فى المجمع (٥/ ١٦): «رجاله رجال الصحيح، خلا أبى ميمونة وهو ثقة».

(٥) فى ف: «فأله». (٦) فى ف: «قرار عليها». (٧) فى ف: «خمس».

(٨) فى ف: «كما».

أبى، عن أبيه، عن أشعث - يعنى ابن إسحاق القُمي - عن جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال رجل: يارسول الله، ما هذه السماء، قال: «موج مكفوف عنكم»^(١) إسناده غريب.

وقوله: ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾، كقوله: ﴿وَكَايِنَ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥] أى: لايتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم، والارتفاع الباهر، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات فى لييلها، وفى نهارها^(٢) من هذه الشمس التى تقطع الفلك بكماله، فى يوم وليلة فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الذى^(٣) قدرها وسخرها وسيرها.

وقد ذكر ابن أبى الدنيا، رحمه الله، فى كتابه «التفكر والاعتبار»: أن بعض عباد بنى إسرائيل تعبد ثلاثين سنة، وكان الرجل منهم إذا تعبد ثلاثين سنة أظلمت غمامة، فلم ير ذلك الرجل شيئاً مما كان يرى لغيره، فشكى ذلك إلى أمه، فقالت له: يابنى، فلعلك أذنبت فى مدة عبادتك هذه، فقال: لا والله ما أعلم، قالت: فلعلك هممت؟ قال: لا^(٤)، ولاهممت. قالت: فلعلك رفعت بصرك إلى السماء ثم رددته بغير فكر؟ فقال: نعم، كثيراً. قالت: فمن هاهنا أتيت.

ثم قال منبهاً على بعض آياته: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أى: هذا فى ظلامه وسكونه، وهذا بضياءه وأنسه، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى، وعكسه الآخر. ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾، هذه لها نور يخصصها، وفلك بذاته، وزمان على حدة، وحركة وسير خاص، وهذا بنور خاص آخر، وفلك آخر، وسير آخر، وتقدير آخر، ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، أى: يدورون.

قال ابن عباس: يدورون كما يدور المغزل فى الفلكة. وكذا قال مجاهد: فلا يدور المغزل إلا بالفلكة، ولا الفلكة إلا بالمغزل، كذلك النجوم والشمس والقمر، لا يدورون إلا به، ولا يدور إلا بهن، كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥).

يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أى: يا محمد، ﴿الْخُلْدَ﴾ أى: فى الدنيا بل ﴿كُلٌّ مِّنْ عَلَيْهَا فَإِنَّ وَيَقْضَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

وقد استدلل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر، عليه السلام، مات وليس بحى إلى الآن؛ لأنه بشر، سواء كان ولياً أو نبياً أو رسولاً، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن

(١) ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (٥٣٩) من طريق أحمد بن أحمد بن عبد الرحمن الدشتكى به.

(٢) فى ف، أ: «بل والله».

(٣) فى ف، أ: «الله».

(٤) فى ف، أ: «النهار».

قَبْلَكَ الْخُلْدُ ﴿٣٦﴾

وقوله : ﴿أَفَإِنْ مِتَّ﴾ أى : يا محمد ، ﴿فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾! أى : يؤملون أن يعيشوا بعدك ، لا يكون هذا ، بل كل إلى فناء ؛ ولهذا قال : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ ، وقد روى عن الشافعى ، رحمه الله ، أنه أنشد واستشهد بهذين البيتين :

تمنى رجـال أن أموت ، وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
فقل للذى يئنى خلاف الذى مضى : تهياً لأخرى مثلها فكأن قد^(١)

وقوله : ﴿وَنَبَلُوكُمْ بِالْأَشْرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ أى : نختبركم بالمصائب تارة ، وبالنعيم أخرى ، لننظر من يشكر ومن يكفر ، ومن يصبر ومن يقنط ، كما قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿وَنَبَلُوكُمْ﴾ ، يقول : نبليكم بالشر والخير فتنة ، بالشدة والرخاء ، بالصحة والسقم ، والغنى والفقر ، والحلال والحرام ، والطاعة والمعصية والهدى والضلال ..

وقوله : ﴿وَالْيَنَّا تُرْجَعُونَ﴾ أى : فنجازيكم بأعمالكم .

﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهْذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦) خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ (٣٧)﴾ .

يقول تعالى لنبىه ، صلوات الله وسلامه عليه ، ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعنى : كفار قريش كأبى جهل وأشباهه ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا﴾ أى : يستهزئون بك ويتقصصونك ، يقولون : ﴿أَهْذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ يعنون : أهذا الذى يسب آلِهتكم ويسفه أحلامكم ، قال تعالى : ﴿وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أى : وهم كافرون بالله ، ومع هذا يستهزئون برسول الله ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهْذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا . إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان : ٤١ ، ٤٢] .

وقوله ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿وَكَانَ^(٢) الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء : ١١] أى : فى الأمور .

قال مجاهد : خلق الله آدم بعد كل شىء من آخر النهار ، من يوم خلق الخلائق فلما أحيا الروح عينيه ولسانه ورأسه ، ولم يبلغ^(٣) أسفله قال : يارب ، استعجل بخلقى قبل غروب الشمس .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا محمد بن علقمة بن وقاص الليثى ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « خير يوم طلعت فيه

(١) البيتان ذكرهما البيهقى فى مناقب الشافعى (٦٢/٢) والرازى فى مناقب الشافعى (ص ١١٩) .

(٢) فى ف : «تبلغ» .

(٣) فى ف : « وخلق» .

الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة، وفيه أهبط منها، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة لا يوافقها مؤمن يصلى - وقبض أصابعه قَلَّلَهَا^(١) - فسأل الله خيراً، إلا أعطاه إياه». قال أبو سلمة: فقال عبد الله بن سلام: قد عرفت تلك الساعة، وهى آخر ساعات النهار من يوم الجمعة، وهى التى خلق الله فيها آدم، قال الله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾^(٢).

والحكمة فى ذكر عجلة الإنسان ها ههنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول، صلوات الله [وسلامه]^(٣) عليه، وقع فى النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت^(٤)، فقال الله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾؛ لأنه تعالى يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر؛ ولهذا قال: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ أى: نقمى وحكمى واقتدارى على من عصانى، ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٤٠).

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضاً بوقوع العذاب بهم، تكذيباً وجحوداً وكفراً وعناداً واستبعاداً، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، قال الله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ أى: لو تيقنوا أنها واقعة بهم لا محالة لما استعجلوا، ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٌ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال فى هذه الآية: ﴿حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ وقال: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم، ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أى: لا ناصر لهم كما قال: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤].

وقوله: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾^(٥) أى: «تأتيتهم النار بغتة»، أى: فجأة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أى: تذرهم^(٦) فيستسلمون لها حائرين، لا^(٧) يدرون ما يصنعون، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أى: ليس لهم حيلة فى ذلك، ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أى: ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة.

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٤١)

(١) فى أ: «يقللها».

(٢) أخرج مالك فى الموطأ (١/١٠٨) من طريق يزيد بن الهاد عن محمد بن إبراهيم عن أبى سلمة عن أبى هريرة نحوه دون ذكر الآية وأخرج الشيخان أوله والله أعلم.

(٣) زيادة من ف، أ.

(٤) فى ف، أ: «واستعجلت ذلك».

(٥) فى ف: «بغتة فتبتهتهم».

(٦) فى ف: «حاثرون ولا».

(٧) فى ف، أ: «تدعوهم».

قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ .

يقول تعالى مسلياً لرسوله [صلوات الله وسلامه عليه]^(١) عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يعنى: من العذاب الذى كانوا يستبعدون وقوعه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

ثم ذكر تعالى نعمته على عبيده فى حفظه لهم بالليل والنهار، وكلاءته وحراسته لهم بعينه التى لاتنام، فقال: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾؟ أى: بدل الرحمن بمعنى غيره كما قال الشاعر^(٢):

جَارِيَةٌ لَمْ تَلْبَسِ الْمَرْقَا وَلَمْ تَذُقْ مِنَ الْبُقُولِ الْفُسْتَقَا

أى: لم تذوق بدل البقول الفستق.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ أى: لا يعترفون^(٣) بنعمه عليهم وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه، ثم قال: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾ استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ، أى: ألهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا؟ ليس الأمر كما توهموا ولا كما^(٤) زعموا؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أى: هذه [الآلهة]^(٥) التى استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم. وقوله: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾: قال العوفى، عن ابن عباس: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أى: يجارون^(٦) وقال قتادة لا يصحبون [من الله]^(٧) بخير وقال غيره: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾: ينعون .

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) هو أبو نخيلة يعمر بن حزن، والبيت فى اللسان مادة (فسق) وصدرة:

دسته لم تأكل المرققا

وقد حمل صاحب اللسان قوله بأنه ظن الفستق من البقول.

(٥) زيادة من ف، أ.

(٤) فى ف، أ: « ولا قد كما ».

(٣) فى ف، أ: « لا يعرفون ».

(٧) زيادة من ف.

(٦) فى ف، أ: « يجازون ».

حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: إنما غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال، أنهم مُتَّعُوا في الحياة الدنيا، ونعموا وطال عليهم العمر فيما هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شيء.

ثم قال واعظاً لهم: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾، اختلف المفسرون في معناه، وقد أسلفناه في سورة «الرعد»، وأحسن ما فسر بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حولَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧].

وقال الحسن البصري: يعنى بذلك ظهور الإسلام على الكفر.

والمعنى: أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه، وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة، وإنجائه لعباده المؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ يعنى: بل هم المغلوبون الأسفلون الأخسرون الأردلون.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ أى: إنما أنا مبلغ^(١) عن الله ما أنذركم^(٢) به من العذاب والنكال، ليس ذلك إلا عما أوحاه الله إليّ، ولكن لا يجدى هذا عمن أعمى الله بصيرته، وختم على سمعه وقلبه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَثَنَ مَسْتَهْمُهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أى: ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شيء من عذاب الله، ليعترفن بذنوبهم، وأنهم كانوا ظالمين أنفسهم في الدنيا.

وقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أى: ونضع الموازين العدل ليوم القيامة. الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه.

وقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦].

وفى الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن إسحاق الطالقاني، حدثنا ابن المبارك، عن ليث بن سعد، حدثني عامر بن يحيى، عن أبي عبد الرحمن الحبلى، قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مد البصر، ثم يقول أنتكر من هذا شيئاً؟

(١) فى ف، أ: «مبلغكم». (٢) فى ف، أ: «أنذرتكم».

(٣) صحيح البخارى برقم (٧٥٦٣) وصحيح مسلم برقم (٢٦٩٤).

أظلمتك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يارب، قال: أفلك عذر، أو حسنة؟ قال: فيبهت الرجل فيقول: لا، يارب. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك. فيخرج له بطاقة فيها: «أشهد أن لا إله إلا الله، و أن^(١) محمداً عبده ورسوله» فيقول: أحضره، فيقول: يارب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم، قال: «فتوضع السجلات في كفة [والبطاقة في كفة]^(٢)»، قال: «فطاشت السجلات وثقلت البطاقة» قال: «ولا يثقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم»^(٣).

ورواه الترمذى وابن ماجه، من حديث الليث بن سعد، به،^(٤) وقال الترمذى: حسن غريب.

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة، عن عمرو بن يحيى، عن أبي عبد الرحمن الحبلى، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: «توضع الموازين^(٥) يوم القيامة، فيؤتى بالرجل، فيوضع في كفة، فيوضع^(٦) ما أحصى عليه، فتمايل^(٧) به الميزان» قال: «فبيعت به إلى النار» قال: فإذا أدبر به إذا^(٨) صائح من عند الرحمن عز وجل يقول: [لا تعجلوا]^(٩)، فإنه قد بقى له، فيؤتى ببطاقة فيها «لا إله إلا الله» فتوضع مع الرجل في كفة^(١٠)، حتى يميل به الميزان^(١١).

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو نوح قراد^(١٢)، أنبأنا ليث بن سعد، عن مالك بن أنس، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة؛ أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، جلس بين يديه، فقال: يارسول الله، إن لى مملوكين، يكذبوننى، ويخونوننى، ويعصوننى، وأضربهم وأشتمهم، فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول الله ﷺ: «يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم، إن^(١٣) كان عقابك إياهم دون ذنوبهم، كان فضلاً لك [عليهم]^(١٤) وإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم، كان كفافا لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم، اقتصص لهم منك الفضل الذى يبقى^(١٥) قبلك». فجعل الرجل يبكى بين يدى رسول الله ﷺ ويهتف، فقال رسول الله ﷺ: «ماله أما يقرأ كتاب الله؟: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾». فقال الرجل: يارسول الله، ما أجد شيئاً خيراً من فراق هؤلاء - يعنى عبده - إنى أشهدك أنهم أحرار كلهم^(١٦).

(١) فى ف: «وأشهد أن».

(٢) فى ف: «وأشهد أن».

(٣) المسند (٢/٢١٣).

(٤) سنن الترمذى برقم (٢٦٣٩) وسنن ابن ماجه برقم (٤٣٠٠).

(٥) فى ف: «ويوضع».

(٦) فى ف: «يوضع الميزان».

(٧) فى ف: «فيمايل».

(٨) زيادة من ف، والمسند.

(٩) فى ف: «فإذا».

(١٠) فى ف: «كفته».

(١١) المسند (٢/٢٢١).

(١٢) فى ف: «فإن».

(١٣) فى ف: «مراراً».

(١٤) زيادة من ف، والمسند.

(١٥) فى ف: «بقى».

(١٦) المسند (٦/٢٨٠).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيََاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٠)﴾.

قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهما، وبين كتابيهما؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾.

قال مجاهد: يعنى: الكتاب. وقال أبو صالح: التوراة، وقال قتادة: التوراة، حلالها وحرامها، وما فرق الله بين الحق والباطل. وقال ابن زيد: يعنى: النصر.

وجامع القول فى ذلك: أن الكتب السماوية تشتمل على التفرقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغبى والرشد، والحلال والحرام، وعلى ما يحصل نوراً فى القلوب، وهداية وخوفاً وإنباء وخشية؛ ولهذا قال: ﴿الْفُرْقَانَ وَضِيََاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أى: [تذكيراً] ^(١) لهم وعظة.

ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾، كقوله: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]، ﴿وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أى: خائفون وجلون.

ثم قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ يعنى: القرآن العظيم، الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ أى: أفتنكرونه وهو فى غاية [الجلء] ^(٢) والظهور ؟ .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ (٥٥) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦)﴾.

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم، عليه السلام، أنه آتاه رُشدَهُ من قبل، أى: من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وما يذكر من الأخبار عنه ^(٣) فى إدخال أبيه له فى السرب، وهو رضيع، وأنه خرج به بعد أيام، فنظر إلى الكواكب والمخلوقات، فتبصر فيها وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم - فعامتها أحاديث بنى إسرائيل، فما وافق منها الحق بما بأيدينا عن المعصوم قبلناه لموافقة الصحيح، وما خالف شيئاً من ذلك رددناه، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نصدقه ولا نكذبه، بل نجعله وقفاً، وما كان من هذا الضرب منها فقد ترخص كثير من السلف فى روايتها، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه، ولا حاصل له

(٣) فى ف: «عنه من الأخبار».

(١، ٢) زيادة من ف.

مما ينتفع به في الدين. ولو كانت فيه فائدة تعود على المكلفين في دينهم لبيته هذه الشريعة الكاملة الشاملة. والذي نسلكه^(١) في هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية، لما فيها من تضييع الزمان، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم، فإنهم لاتفرقة^(٢) عندهم بين صحيحها وسقيمها كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة.

والمقصود هاهنا: أن الله تعالى أخبر أنه قد أتى إبراهيم رشده، من قبل، أى: من قبل ذلك، وقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ أى: وكان أهلاً لذلك.

ثم قال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ هذا هو الرشد الذي أوتي به من صغره، الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله، عز وجل، فقال: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ أى: معتكفون على عبادتها.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن محمد الصباح، حدثنا أبو معاوية الضرير، حدثنا سعد بن طريف، عن الأصبغ بن نباتة، قال: مر على قوم يلعبون بالشطرنج، فقال: ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون؟ لأن يمس صاحبكم جمرأ حتى يطفأ خير له من أن يمسخها.

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾: لم يكن لهم حجة سوى صنع آبائهم الضلال؛ ولهذا قال: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أى: الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم، فأنتم وهم فى ضلال على غير الطريق المستقيم.

فلما سفه أحلامهم، وضلل آباءهم، واحتقر آلهتهم ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ يقولون^(٣): هذا الكلام الصادر عنك تقوله لآباء أو محققاً فيه؟ فإننا لم نسمع به قبلك. ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ أى: ربكم الذى لا إله غيره، هو الذى خلق السموات [والأرض]^(٤) وما حوت من المخلوقات الذى ابتداء خلقهن، وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أى: وأنا أشهد أنه لا إله غيره، ولا رب سواه.

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ﴾ (٥٧) فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون (٥٨) قالوا من فعل هذا بالهتنا إنه لمن الظالمين (٥٩) قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم (٦٠) قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون (٦١) قالوا أأننت فعلت هذا بالهتنا يا إبراهيم (٦٢) قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون (٦٣) .

ثم أقسم الخليل قسماً أسمع به قومهم ليكيدن أصنامهم، أى: ليحرصن على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يولوا^(٥) مدبرين أى: إلى عيدهم. وكان لهم عيد يخرجون إليه.

(٣) فى ف: «يقول».

(٢) فى ف: «لا معرفة».

(١) فى هـ: «بذكر» والمثبت من ف.

(٥) فى ف: «تولوا».

(٤) زيادة من ف.

قال السدى: لما اقترب^(١) وقت ذلك العيد قال أبوه: يا بني، لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا! فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض. وقال: إني سقيم، فجعلوا يرون عليه وهو صريع، فيقولون: مه! فيقول: إني سقيم، فلما جاز عامتهم وبقي ضعفاؤهم قال: ﴿تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ فسمعه أولئك.

وقال أبو إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: لما خرج قوم إبراهيم، إلى عيدهم مروا عليه فقالوا: يا إبراهيم ألا تخرج معنا؟ قال: إني سقيم. وقد كان بالأمس قال: ﴿تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ﴾ فسمعه ناس منهم.

وقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ أى: حطاماً كسرها كلها ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾ يعنى: إلا الصنم الكبير عندهم كما قال: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣].

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾: ذكروا أنه وضع القدم فى يد كبيرهم، لعلهم يعتقدون أنه هو الذى غَارَ لنفسه، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار، فكسرها.

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أى: حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة والإذلال الدال على قدم إلهيتها، وعلى سخافة عقول عابديها ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أى: فى صنيعه هذا ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ أى: قال من سمعه يحلف أنه ليكيدنهم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى﴾ أى: شاباً ﴿يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا جرير بن عبد الحميد، عن قابوس [عن أبيه]^(٢)، عن ابن عباس قال: ما بعث الله نبياً إلا شاباً، ولا أوتى العلم عالم إلا وهو شاب، وتلا هذه الآية: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

وقوله: ﴿قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ أى: على رؤوس الأشهاد فى الملأ الأكبر بحضرة الناس كلهم، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم أن يتبين^(٣) فى هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم^(٤) فى عبادة هذه الأصنام التى لاتدفع عن نفسها ضرراً، ولا تملك^(٥) لها نصراً، فكيف يطلب منها شىء من ذلك؟

﴿قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ. قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ يعنى: الذى تركه لم يكسره ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم، فيعترفوا أنهم لا ينطقون، فإن هذا لا يصدر عن هذا الصنم؛ لأنه جماد.

وفى الصحيحين من حديث هشام بن حسان عن محمد بن سيرين، عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم، عليه السلام، لم يكذب غير ثلاث: ثنتين فى ذات الله^(٦)، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾» قال: «وبينا هو يسير فى أرض جبار من الجبابرة ومعه

(٣) فى ف، أ: «يبين».

(٢) زيادة من ف.

فى ف: «قرب».

(٦) فى ف، أ: «كتاب».

(٥) فى ف: «ولا تستطيع».

فى ف: «عقولهم».

سارة، إذ نزل منزلاً، فأتى الجبار رجل، فقال: إنه قد نزل بأرضك رجل معه امرأة أحسن الناس، فأرسل إليه فجاء، فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: هي أختي. قال: فاذهب فأرسل بها إليّ، فانطلق إلى سارة فقال: إن هذا الجبار^(١) سألني عنك فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني عنده، فإنك أختي في كتاب الله، وأنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلى. فلما أن دخلت عليه فرأها أهوى إليها، فتناولها، فأخذ أخذاً شديداً، فقال: ادعى الله لى ولا أضرك، فدعت له فأرسل، فأهوى إليها فتناولها فأخذ بمثلها أو أشد. ففعل ذلك الثالثة فأخذ، [فذكر]^(٢) مثل المرتين الأولين^(٣)، فقال: ادعى الله فلا أضرك. فدعت، له فأرسل، ثم دعا أدنى حجاب، فقال: إنك لم تأتني بإنسان، وإنما^(٤) أتيتني بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر، فأخرجت وأعطيت هاجر، فأقبلت، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته، قال^(٥): مهيم؟ قالت: كفى الله كيد الكافر الفاجر، وأخدمني هاجر « قال محمد بن سيرين^(٦): وكان^(٧) أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال: قتلك أمكم يابنى ماء السماء^(٨).

﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧)﴾.

يقول تعالى مخبراً^(٩) عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال: ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أى: بالملامة فى عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم، فقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أى: فى ترككم لها مهملة لا حافظ عندها، ﴿ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ أى: ثم أطرقوا فى الأرض فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ قال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾. وقال السدى: ﴿ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ أى: فى الفتنة. وقال ابن زيد: أى فى رأى.

وقول قتادة أظهر فى المعنى؛ لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزاً؛ ولهذا قالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾، فكيف تقول لنا: سلوهم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم أنها لاتنطق فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ أى: إذا كانت لاتنطق^(١٠)، وهى لا تضر ولا تنفع، فلم تعبدونها من دون الله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أى: لم أجده فى الصحيحين من طريق هشام بن حسان وإنما هو فى السنن: فرواه أبو داود فى السنن برقم (٢٢١٢) من طريق عبد الوهاب الثقفى عن هشام بن حسان. ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٣٧٤) من طريق أبى أسامة عن هشام بن حسان. وهو فى الصحيحين من طريق أيوب عن محمد بن سيرين؛ صحيح البخارى برقم (٥٠٨٤)، وصحيح مسلم برقم (٢٣٧١).

(١) فى ف: «الجبار قد سألني». (٢) زيادة من ف، والسنن. (٣) فى ف، أ: «الاولتين». (٤) فى ف: «ولكنك». (٥) فى ف: «وقال». (٦) فى ف، أ: «إدريس». (٧) فى ف: «فكان». (٨) لم أجده فى الصحيحين من طريق هشام بن حسان وإنما هو فى السنن: فرواه أبو داود فى السنن برقم (٢٢١٢) من طريق عبد الوهاب الثقفى عن هشام بن حسان. ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٣٧٤) من طريق أبى أسامة عن هشام بن حسان. وهو فى الصحيحين من طريق أيوب عن محمد بن سيرين؛ صحيح البخارى برقم (٥٠٨٤)، وصحيح مسلم برقم (٢٣٧١). (٩) فى ف، أ: «يخبر تعالى». (١٠) فى أ: «كان لا ينطق».

تَعْلُونَ ﴿٦٨﴾ أى: أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ، الذى لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر؟ فأقام عليهم الحجة، وألزمهم بها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ الآية [الأنعام: ٨٣].

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾.

لما دَحَضَتْ حجَّتَهُم، وبان عجزهم، وظهر الحق، واندفع الباطل، عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم، فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾. فجمعوا حطباً كثيراً جداً - قال السدى: حتى إن كانت المرأة تمرض، فتتذر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحريق إبراهيم - ثم جعلوه فى جُوبَةٍ من الأرض، وأضرموها ناراً، فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع، لم توقد قط نار^(١) مثلها، وجعلوا إبراهيم، عليه السلام، فى كفة المنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد - قال شعيب الجبائى: اسمه هيزن - فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، فلما ألقوه قال: «حسبى الله ونعم الوكيل»، كما رواه البخارى، عن ابن عباس أنه قال: «حسبى^(٢) الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم حين ألقى فى النار، وقالها^(٣) محمد حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَرَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]^(٤).

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا ابن هشام، حدثنا إسحاق^(٥) بن سليمان، عن أبى جعفر، عن عاصم، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما ألقى إبراهيم، عليه السلام، فى النار قال: اللهم، إنك فى السماء واحد، وأنا فى الأرض واحد أعبدك»^(٦).

ويروى أنه لما جعلوا يوثقونه قال: لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد، ولك الملك، لا شريك لك^(٧).

وقال شعيب الجبائى: كان عمره ست عشرة سنة. فالله أعلم.

وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو فى الهواء، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، [وأما من الله فبلى]^(٨).

(٣) فى ف: «وقال».

(٢) فى ف: «حسبنا».

(١) فى ف، «نار قط».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٥٦٣).

(٥) فى ف، أ: «أبو إسحاق».

(٦) ورواه البزار فى مسنده برقم (٢٣٤٩) «كشف الاستار» وأبو نعيم فى الحلية (١٩١١) والخطيب فى تاريخ بغداد (٣٤٦/١٠) من طريق أبى هشام الرقاعى به.

وقال البزار: «لا نعلم رواه عن عاصم إلا أبا جعفر، ولا عنه إلا إسحاق، ولم نسمعه إلا من أبى هشام» قلت: عاصم بن عمر ابن حفص متكلم فيه.

(٧) رواه الطبرى فى تفسيره كما فى الدر المنثور (٦٤٢/٥) عن أرقم.

(٨) زيادة من ف.

وقال سعيد بن جبير - ويروى^(١) عن ابن عباس أيضاً - قال: لما ألقى إبراهيم جعل خازن المطر يقول: متى أومر بالمطر فأرسله؟ قال: فكان^(٢) أمر الله أسرع من أمره، قال الله: [عز وجل]^(٣) ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ قال: لم^(٤) يبق نار في الأرض إلا طفتت.

وقال كعب الأحبار: لم ينتفع [أحد]^(٥) يومئذ بنار، ولم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه.

وقال الثوري، عن الأعمش، عن شيخ، عن علي بن أبي طالب: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [قال: بَرَدَتْ عليه حتى كادت تقتله، حتى قيل: ﴿وَسَلَامًا﴾]^(٦)، قال: لا تضره.

وقال ابن عباس، وأبو العالية: لولا أن الله عز وجل قال: ﴿وَسَلَامًا﴾ لآذى إبراهيم بردها.

وقال جوير، عن الضحاك: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ قال: صنعوا له حظيرة من حطب جزل، وأشعلوا فيه النار من كل جانب، فأصبح ولم يصبه منها شيء حتى أحمدها الله - قال: ويذكرون أن جبريل كان معه يمسح وجهه من العرق، فلم يصبه منها شيء غير ذلك.

وقال السدي: كان معه فيها ملك الظل.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا مهران، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن المنهال بن عمرو قال: أخبرنا أن إبراهيم ألقى في النار، فقال: كان^(٧) فيها إما خمسين وإما أربعين، قال: ما كنت أياماً وليالي قط أطيّب عيشاً إذ كنت فيها، وددت أن عيشي وحياتي كلها مثل عيشي إذ كنت فيها.

وقال أبو زرعة بن عمرو بن جرير، عن أبي هريرة قال: إن أحسن [شيء]^(٨) قال أبو إبراهيم - لما رفع عنه الطبق وهو في النار، وجده يرشح جبينه - قال عند ذلك: نعم الرب ربك يا إبراهيم.

وقال قتادة: لم يأت يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار، إلا الوزغ - وقال الزهري: أمر النبي ﷺ بقتله وسماه فويسقاً^(٩).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثني عمي، حدثنا جرير بن حازم، أن نافعا حدثه قال: حدثني مولاة^(١٠) الفاكه بن المغيرة المخزومي قالت: دخلت على عائشة فرأيت في بيتها رمحا. فقلت: يا أم المؤمنين، ما تصنعين بهذا الرمح؟ فقالت: نقتل به هذه الأوزاغ، إن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حين ألقى في النار، لم يكن^(١١) في الأرض دابة إلا تطفئ النار، غير الوزغ، فإنه كان ينفخ على إبراهيم»، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله^(١٢).

(١) في ف، أ: «وروى». (٢) في ف: «وكان». (٣) زيادة من ف.

(٤) في ف، أ: «فلم». (٥، ٦) زيادة من ف. (٧) في ف: «فكان».

(٨) زيادة من ف.

(٩) جاء من حديث أم شريك: رواه البخاري برقم (٣٣٠٧) ومسلم في صحيحه برقم (٢٢٣٧).

(١٠) في ف، أ: «حدثني مولاة». (١١) في ف: «تكن».

(١٢) ورواه أحمد في المسند (٨٣/٦، ١٠٩) وابن ماجه في السنن برقم (٣٢٣١) من طريق نافع عن سائبة مولاة الفاكه به.

وقوله: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ أي: المغلوبين الأسفلين؛ لأنهم أرادوا بنى الله كيداً، فكادهم الله ونجاه من النار، فغلبوا هنالك.

وقال عطية العوفى: لما ألقى إبراهيم فى النار، جاء ملكهم لينظر إليه فطارت شرارة فوقعت على إبهامه، فأحرقتة مثل الصوفة.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم، أنه سلمه الله من نار قومه، وأخرجه من بين أظهرهم مهاجراً إلى بلاد الشام، إلى الأرض المقدسة منها، كما قال الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن أبى بن كعب فى قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ قال: الشام، وما من ماء عذب إلا يخرج من تحت الصخرة. وكذا قال أبو العالية أيضاً.

وقال قتادة: كانا بأرض العراق، فأُنجيا إلى الشام، [وكان يقال للشام: عماد دار الهجرة، وما نقص من الأرض زيد فى الشام]^(١) وما نقص من الشام زيد فى فلسطين. وكان يقال: هى أرض المحشر والمنشر، وبها ينزل عيسى ابن مريم، عليه السلام، وبها يهلك المسيح الدجال. وقال كعب الأحبار فى قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾: إلى حران.

وقال السدى: انطلق إبراهيم ولوط قبل الشام، فلقى إبراهيم سارة، وهى ابنة ملك حران، وقد طعنت على قومها فى دينهم، فتزوجها على ألا يغيرها.

رواه ابن جرير، وهو غريب [والمشهور أنها ابنة عمه، وأنه خرج بها مهاجراً من بلاده]^(٢).

وقال العوفى، عن ابن عباس: إلى مكة؛ ألا تسمع قوله: ﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران ٩٦].

وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ قال عطاء، ومجاهد: عطية.

وقال ابن عباس، وقاتدة، والحكم بن عيينة: النافلة ولد الولد، يعنى: أن يعقوب ولد إسحاق، كما قال: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: سأل واحداً فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصفات: ١٠٠]، فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة .

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أى: الجميع أهل خير وصلاح، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً﴾ أى: يقتدى بهم، ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أى: يدعون إلى الله بإذنه؛ ولهذا قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ من باب عطف الخاص على العام، ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ أى: فاعلين لما يأمرون الناس به .

ثم عطف بذكر لوط - وهو لوط بن هاران بن آزر - كان قد آمن بإبراهيم، واتبعه، وهاجر معه، كما قال تعالى: ﴿فَأَمْنٌ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦]، فاتاه الله حكماً وعِلماً، وأوحى إليه، وجعله نبياً، وبعثه إلى سدوم وأعمالها، فخالفوه وكذبوه، فأهلكهم الله ودمر عليهم، كما قص خبرهم فى غير موضع من كتابه العزيز؛ ولهذا قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَاثَاتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسَقِينَ . وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ .

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧)﴾ .

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح، عليه السلام، حين دعا على قومه لما كذبوه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا . إِنَّكَ إِن تَذَرْنَاهُمْ يَضْلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]، ولهذا قال هاهنا: ﴿إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ^(١) وَأَهْلَهُ﴾ أى: الذين آمنوا به كما قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] .

وقوله: ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أى: من الشدة والتكذيب والأذى، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل، فلم يؤمن به منهم إلا القليل، وكانوا يقصدون لأذاه^(٢)، ويتواصلون قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل على خلافه .

وقوله: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾ أى: ونجيناه وخلصناه منتصراً من القوم ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى: أهلكهم الله بعمامة، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحداً؛ إذ^(٣) دعا عليهم نبيهم .

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ

(١) فى ف، أ: «ونجيناه» .

(٢) فى ف: «أذاه» .

(٣) فى ف: «كما» .

وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لْتَحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴿٨٢﴾ .

قال أبو إسحاق، عن مرة، عن ابن مسعود: كان ذلك الحرث كرمًا قد نَبَتَ عناقيده. وكذا قال شريح.

قال ابن عباس: النَّفْسُ: الرعى.

وقال شريح، والزهرى، وقتادة: النَّفْسُ بالليل. راد قتادة: والهملُ بالنهار.

قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب وهارون بن إدريس الأصم قالا: حدثنا المحاربى، عن أشعث، عن أبى إسحاق، عن مرة، عن ابن مسعود فى قوله: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ قال: كرم قد أنبت عناقيده، فأفسدته. قال: فقاضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله! قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه، ودفعت الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾.

وهكذا روى العوفى، عن ابن عباس .

وقال حماد بن سلمة، عن على بن زيد، حدثنا^(١) خليفة، عن ابن عباس قال: فحكم^(٢) داود بالغنم لأصحاب الحرث، فخرج الرعاء معهم الكلاب، فقال لهم سليمان: كيف قضى بينكم؟ فأخبروه، فقال: لو وليت أمركم لقضيت بغير هذا! فأخبر بذلك داود، فدعاه فقال: كيف تقضى بينهم؟ قال^(٣): أدفع الغنم إلى صاحب الحرث، فيكون له أولادها وألبانها وسلاؤها ومنافعها ويؤذر أصحاب الغنم لأهل الحرث مثل حرثهم، فإذا بلغ الحرث الذى كان عليه أخذ أصحاب الحرث الحرث وردوا الغنم إلى أصحابها.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا خديج، عن أبى إسحاق، عن مرة، عن مسروق قال: الحرث الذى نفثت فيه الغنم إنما كان كرمًا نفثت فيه الغنم، فلم تدع فيه ورقة ولا عنقوداً من عنب إلا أكلته، فأتوا داود، فأعطاهم رقابها، فقال سليمان: لا، بل تؤخذ الغنم فيعطاهما^(٤) أهل الكرم، فيكون لهم لبنها ونفعها، ويعطى أهل الغنم الكرم فيصلحوه ويعمروه^(٥) حتى يعود كالذى كان ليلة نفثت فيه الغنم، ثم يعطى أهل الغنم غنمهم، وأهل الكرم كرمهم .

(٣) فى ف: «فقال» .

(٢) فى ف، أ: «قاضى» .

(١) فى ف: «حدثنى» .

(٥) فى ف: «فيعمروه ويصلحوه» .

(٤) فى ف: «فتعطى» .

وهكذا قال شريح، ومرة، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد وغير واحد.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن أبي زياد، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا إسماعيل، عن عامر، قال: جاء رجلان إلى شريح، فقال أحدهما: إن شاة هذا قطعت غزلاً لي، فقال شريح: نهاراً أم ليلاً؟ فإن كان نهاراً فقد برئ صاحب الشاة، وإن كان ليلاً ضامن، ثم قرأ: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ﴾ الآية .

وهذا الذى قاله شريح شبيه بما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، من حديث الليث بن سعد، عن الزهرى، عن حرام بن مَحِيصَة^(١)؛ أن ناقة البراء بن عازب دخلت حائطاً، فأفسدت فيه، ف قضى رسول الله ﷺ على أهل الحوائط حفظها بالنهار، وما أفسدت المواشى بالليل ضامن على أهلها^(٢). وقد علل هذا الحديث، وقد بسطنا الكلام عليه فى كتاب «الأحكام» وبالله التوفيق.

وقوله: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾: قال ابن أبى حاتم:

حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن حميد؛ أن إياس بن معاوية لما استقضى أتاها الحسن فبكى، قال^(٣): ما يبكيك؟ قال^(٤): يا أبا سعيد، بلغنى أن القضاة: رجل اجتهد فأخطأ، فهو فى النار، ورجل مال به الهوى فهو فى النار، ورجل اجتهد فأصاب فهو فى الجنة. فقال الحسن البصرى: إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان، عليهما السلام، والأنبياء حكماً يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم، قال الله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾، فأثنى الله على سليمان ولم يذم داود. ثم قال - يعنى: الحسن -: إن الله اتخذ على الحكماء ثلاثاً: لا يشترى به ثمناً قليلاً، ولا يتبعون فيه الهوى، ولا يخشون فيه أحداً، ثم تلا: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٥) [ص: ٢٦] وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَخْشَوْنِي﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [المائدة: ٤٤].

قلت: أما الأنبياء، عليهم السلام، فكلهم معصومون مؤيدون من الله عز وجل. وهذا مما لا خلاف^(٦) فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف، وأما من سواهم فقد ثبت فى صحيح البخارى، عن عمرو بن العاص أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران،

(١) فى ف: «عن حرام عن الزهرى بن محيصة».

(٢) المسند (٤٣٥/٥) وسنن أبى داود برقم (٣٥٧٠) وسنن ابن ماجه برقم (٢٣٣٢).

تنبيه:

هذا الطريق إنما هو طريق ابن ماجه، أما أحمد فرواه عن مالك وسفيان ومعمّر عن الزهرى، وأما أبو داود فرواه عن معمر والأوزاعى عن الزهرى.

(٦) فى ف: «ما لا اختلاف فيه».

(٥) زيادة من ف، أ.

(٤، ٣) فى ف، أ: «فقال».

وإذا اجتهد فأخطأ^(١) فله أجر^(٢)، فهذا الحديث يرد نصا ما توهمه «إياس» من أن القاضى إذا اجتهد فأخطأ فهو فى النار، والله أعلم.

وفى السنن : «القضاة ثلاثة: قاض فى الجنة، وقاضيان فى النار: رجل علم الحق وقضى به فهو فى الجنة، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو فى النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه، فهو فى النار^(٣)».

وقريب من هذه القصة المذكورة فى القرآن ما رواه الإمام أحمد فى مسنده ، حيث قال :

حدثنا على بن حفص، أخبرنا ورقاء عن أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « بينا امرأتان معهما ابنان لهما، جاء^(٤) الذئب فأخذ أحد الابنين، فتحاكما إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا. فدعاهما سليمان فقال: هاتوا السكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: يرحمك الله هو ابنها، لا تشقه، فقضى به للصغرى^(٥) ».

وأخرجه البخارى ومسلم فى صحيحهما^(٦) وبوّب عليه النسائى فى كتاب القضاء: (باب الحاكم يوهم خلاف الحكم ليستعلم الحق)^(٧).

وهكذا القصة التى أوردها الحافظ أبو القاسم ابن عساكر فى ترجمة «سليمان عليه السلام» من تاريخه، من طريق الحسن بن سفيان، عن صفوان بن صالح، عن الوليد بن مسلم، عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن مجاهد، عن ابن عباس - فذكر قصة مطولة^(٨) ملخصها - : أن امرأة حسناء فى زمان بنى إسرائيل، راودها عن نفسها أربعة من رؤسائهم، فامتنعت على^(٩) كل منهم، فاتفقوا فيما بينهم عليها، فشهدوا عليها عند داود، عليه السلام، أنها مكنت من نفسها كلباً لها، قد عودته ذلك منها، فأمر برجمها. فلما كان عشية ذلك اليوم، جلس سليمان، واجتمع معه ولدان، مثله، فانتصب حاكماً وتزيا أربعة منهم بزى أولئك، وآخر بزى المرأة، وشهدوا عليها بأنها مكنت من نفسها كلباً، فقال سليمان: فرقوا بينهم. فقال لأولهم: ما كان لون الكلب؟ فقال: أسود. فعزله، واستدى الآخر فسأله عن لونه، فقال: أحمر. وقال الآخر: أغبش. وقال الآخر: أبيض. فأمر بقتلهم، فحكى ذلك لداود، فاستدعى من فوره بأولئك الأربعة، فسألهم متفرقين عن لون ذلك الكلب، فاختلفوا عليه، فأمر بقتلهم^(١٠).

(١) فى ف: «وأخطأ».

(٢) صحيح البخارى برقم (٧٣٥٢).

(٣) سنن أبى داود برقم (٣٥٧٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (٥٩٢٢) وسنن ابن ماجه برقم (٢٣١٥).

(٤) فى ف: «إذ جاء».

(٥) المسند (٣٢٢/٢).

(٦) فى ف: «صحيحهما».

(٧) صحيح البخارى برقم (٦٧٦٩) وصحيح مسلم برقم (١٧٢٠) وسنن النسائى الكبرى برقم (٥٩٥٨) والباب فيه «التوسعة للحاكم فى أن يقول للشئ الذى لا يفعله أفعلى ليستبين له الحق».

(٨) فى ف: «طويلة».

(٩) فى أ: «عن».

(١٠) تاريخ دمشق (٥٦٥/٧) «المخطوط».

وقوله: ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾: وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء، فتجاوبه، وترد عليه الجبال تأويهاً؛ ولهذا لما مرَّ النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري، وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيب [جداً]^(١)، فوقف واستمع لقراءته، وقال: «لقد أوتى هذا من مزامير آل داود». قال يارسول الله، لو علمت أنك تسمع^(٢) لحبرته لك تحبيراً^(٣).

وقال أبو عثمان النهدي: ما سمعت صوت صنّج ولا يربط ولا مزار مثل صوت أبي موسى، رضى الله عنه، ومع هذا قال: لقد أوتى مزاميراً من مزامير آل داود.

وقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيَحْصِنَكُمْ^(٤) مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ يعنى صنعة الدروع.

قال قتادة: إنما كانت الدروع قبله صفائح، وهو أول من سردها حلقاً. كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ. أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ: ١٠، ١١] أى: لا توسع الحلقة فتقلق^(٥) المسمار، ولا تغلظ المسمار فتقعد الحلقة؛ ولهذا قال: ﴿لِيَحْصِنَكُمْ^(٦) مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ يعنى: فى القتال، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ أى: نعم الله عليكم، لما ألهم به عبده داود، فعلمه ذلك من أجلكم.

وقوله: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ أى: وسخرنا لسليمان الريح العاصفة، ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ يعنى أرض الشام، ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾. وذلك أنه كان له بساط من خشب، يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة، والخيل والجمال والحياض والجند، ثم يأمر الريح أن تحمله فتدخل تحته، ثم تحمله فترفعه وتسير به، وتظله الطير من الحر، إلى حيث يشاء من الأرض، فينزل وتوضع آلاته وخشبه^(٧)، قال الله تعالى: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]، وقال: ﴿غَدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢].

قال ابن أبي حاتم: ذكر عن سفيان بن عيينة، عن أبي سنان، عن سعيد بن جبیر قال: كان يُوضَع لسليمان ستمائة ألف كرسى، فيجلس مما يليه مؤمنو الإنس، ثم يجلس من ورائهم مؤمنو الجن، ثم يأمر الطير فتظلمهم، ثم يأمر الريح فتحمله ﷺ^(٨).

وقال عبد الله بن عبيد بن عمير: كان سليمان يأمر الريح، فتجتمع كالطود العظيم، كالجبل، ثم يأمر بفراشه فيوضع على أعلى مكان منها، ثم يدعو بقرس من ذوات الأجنحة، فترتفع^(٩) حتى تصعد^(١٠) على فراشه، ثم يأمر الريح فترتفع به كل شرف دون السماء، وهو مطأطئ رأسه، ما يلتفت يمينا ولا شمالاً، تعظيماً لله عز وجل، وشكراً لما يعلم من صغر ما هو فيه فى ملك الله

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) فى ف: «تسمع».

(٣) سبق الحديث فى فضائل القرآن.

(٤) فى ف، أ: «لتحصنكم».

(٥) فى ف: «فتقلق».

(٦) فى ف: «لتحصنكم».

(٧) فى أ: «وحشمه».

(٨) فى ف، أ: «فيرتفع».

(٩) فى أ: «فتحملهم عليه السلام».

(١٠) فى ف، أ: «يصعد».

تعالى^(١) حتى تضعه^(٢) الريح حيث شاء أن تضعه^(٣) .

وقوله: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ﴾ أى: فى الماء يستخرجون اللآلىء [وغير ذلك .
﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أى: غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينُ كُلٌّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ﴾^(٤)
وآخرين مقررّين في الأصفاد^(٥) [ص: ٣٧ ، ٣٨] .

وقوله: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ﴾^(٥) حَافِظِينَ﴾ أى: يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء، بل كل فى قبضته وتحت قهره لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه، بل هو مُحَكَّمٌ^(٦) فيهم، إن شاء أطلق، وإن شاء حبس منهم من يشاء؛ ولهذا قال: ﴿وآخرين مقررّين في الأصفاد﴾ .

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾^(٨٤) .

يذكر تعالى عن أيوب، عليه السلام، ما كان أصابه من البلاء، فى ماله وولده وجسده^(٧)، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحراث شئ كثير، وأولاد كثيرة، ومنازل مرضية . فابتلى فى ذلك كله، وذهب عن آخره، ثم ابتلى فى جسده - يقال: بالجذام فى سائر بدنه، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر بهما الله عز وجل، حتى عافه الجليس، وأفرد فى ناحية من البلد، ولم يبق من الناس أحد^(٨) يحنو عليه سوى زوجته، كانت تقوم بأمره^(٩)، ويقال: إنها احتاجت فصارت تخدم الناس من أجله، وقد قال النبى ﷺ: « أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل »^(١٠) وفى الحديث الآخر: « يتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه »^(١١) .

وقد كان نبى الله أيوب، عليه السلام، غاية فى الصبر، وبه يضرب المثل فى ذلك .

وقال يزيد بن ميسرة: لما ابتلى الله أيوب، عليه السلام، بذهاب الأهل والمال والولد، ولم يبق له شئ، أحسن الذكر، ثم قال: أحمدك رب الأرباب، الذى أحسنت إلى، أعطيتنى المال والولد، فلم يبق من قلبى شعبة، إلا قد دخله ذلك، فأخذت ذلك كله منى، وفرغت قلبى، ليس يحول بينى وبينك شئ، لو يعلم عدوى إبليس بالذى صنعت، حسدنى . قال: فلقى إبليس من ذلك منكراً .

قال: وقال أيوب، عليه السلام: يارب، إنك أعطيتنى المال والولد، فلم يقم على بابى أحد يشكونى لظلم ظلمته، وأنت تعلم ذلك . وأنه كان يوطأ لى الفراش فأتركها وأقول لنفسى:

(١) فى ف، أ: «عز وجل» . (٢) فى ف: «يضعه» . (٣) فى ف، أ: «حيث يشاء أن يضعه» .
(٤) زيادة من ف، أ . (٥) فى ف: «له» . (٦) فى ف، أ: «يحكم» .
(٧) فى ف: «وجسده وولده» . (٨) فى ف: «أحد من الناس» . (٩) فى ف: «بأوده» .
(١٠) رواه أحمد فى المسند (١٧٢/١) والترمذى فى السنن برقم (٢٣٩٨) وابن ماجه فى السنن برقم (٤٠٢٣) من حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه . وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح» .
(١١) هو جزء من الحديث المتقدم ، والله أعلم .

يانفس، إنك لم تخلقى لوطء الفرش^(١)، ما تركت ذلك إلا ابتغاء وجهك. رواه ابن أبى حاتم.

وقد ذكر عن وهب بن منبه فى خبره قصة طويلة، ساقها ابن جرير وابن أبى حاتم بالسند عنه، وذكرها غير واحد من متأخري المفسرين، وفيها غرابة تركناها لحال الطول^(٢).

وقد روى أنه مكث فى البلاء مدة طويلة، ثم اختلفوا فى السبب المهيج له على هذا الدعاء، فقال الحسن وقتادة: ابتلى أيوب، عليه السلام، سبع سنين وأشهرًا، ملقى على كُنَاسَة بنى إسرائيل، تختلف الدواب فى جسده ففرج الله عنه، وعَظَّم له الأجر، وأحسن عليه الشاء.

وقال وهب بن منبه: مكث فى البلاء ثلاث سنين، لا يزيد ولا ينقص.

وقال السدى: تساقط لحم أيوب حتى لم يبق إلا العصب والعظام، فكانت امرأته تقوم عليه وتأتيه بالزاد يكون فيه، فقالت له امرأته لما طال وجعه: يا أيوب، لو دعوت ربك^(٣) يفرج عنك؟ فقال: قد عشت سبعين سنة صحيحًا، فهل^(٤) قليل لله أن أصبر له سبعين سنة؟ فجزعت من ذلك فخرجت، فكانت تعمل للناس بأجر وتأتيه بما تصيب فتطعمه، وإن إبليس انطلق إلى رجلين من فلسطين كانا صديقين له وأخوين، فأتاها فقال: أخوكما أيوب أصابه من البلاء كذا وكذا، فأتياه وزوراه واحملا معكما من خمر أرضكما، فإنه إن شرب منه برأ. فأتياه، فلما نظرا إليه بكيا، فقال: من أنتما؟ فقالا^(٥): نحن فلان وفلان! فرحب بهما وقال: مرحبًا بمن لا يجفونى عند البلاء، فقالا: يا أيوب، لعلك كنت تُسر شيئًا وتظهر غيره، فلذلك ابتلاك الله؟ فرفع رأسه إلى السماء ثم قال: هو يعلم، ما أسررت شيئًا أظهرت غيره. ولكن ربي ابتلاني لينظر أأصبر أم أجزع، فقالا له: يا أيوب، اشرب من خمرنا فإنك إن شربت منه برأت. قال: فغضب وقال جاءكما الخبيث فأمركما بهذا؟ كلامكما وطعامكما وشرابكما على حرام. فقاما من عنده، وخرجت امرأته تعمل للناس فخبزت لأهل بيت لهم صبي، فجعلت لهم قرصًا^(٦)، وكان ابنهم نائمًا، فكروهوا أن يوقظوه، فوهبوه لها. فأنت به إلى أيوب، فأنكره وقال: ما كنت تأتيين بهذا، فما بالك اليوم؟ فأخبرته الخبر. قال: فلعل الصبي قد استيقظ، فطلب القرص فلم يجده فهو يبكي على أهله. [فانطلقى به إليه. فأقبلت حتى بلغت درجة القوم، فنطحتها شاة لهم، فقالت: تعس أيوب الخطاء! فلما صعدت وجدت الصبي قد استيقظ وهو يطلب القرص، ويبكى على أهله]^(٧)، لا يقبل منهم شيئًا غيره، فقالت: رحم الله أيوب فدفعت القرص إليه ورجعت. ثم إن إبليس أتاها فى صورة طيب، فقال لها: إن زوجك قد طال سقمه، فإن أراد أن يبرأ فليأخذ ذباباً فليذبحه باسم صنم بنى فلان فإنه يبرأ ويتوب بعد ذلك. فقالت ذلك لأيوب، فقال: قد أتاك الخبيث. لله على إن برأت أن أجلك مائة جلدة. فخرجت تسعى عليه، فحظر عنها الرزق، فجعلت لا تأتي أهل بيت فيريدونها، فلما اشتد عليها ذاك وخافت على أيوب

(١) فى ف: «الفرش».

(٢) تفسير الطبرى (٤٢/١).

(٣) فى ف، أ: «الله».

(٦) فى ف، أ: «قرصة».

(٥) فى ف، أ: «قالا».

(٤) فى أ: «فهو».

(٧) زيادة من ف، أ.

الجوع حلقت من شعرها قرناً فباعته من صبية من بنات الأشراف، فأعطوها طعاماً طيباً كثيراً فأتت به أيوب، فلما رآه أنكروه وقال: من أين لك هذا؟ قالت: عملت لأناس فأطعموني. فأكل منه، فلما كان الغد خرجت فطلبت أن تعمل فلم تجد فحلقت أيضاً قرناً فباعته من تلك الجارية، فأعطوها من ذلك الطعام، فأتت به أيوب، فقال: والله لا أطعمه حتى أعلم من أين هو؟ فوضعت خمارها، فلما رأى رأسها مخلوقاً جزع جزعاً شديداً، فعند ذلك دعا ربه عز وجل: ﴿أَنِّي مَسْنِيَ الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، حدثنا أبو عمران الجوني، عن نَوْفِ الْبِكَالِي؛ أن الشيطان الذي عرج في أيوب كان يقال له: «سوط»^(١)، قال: وكانت امرأة أيوب تقول: «ادع الله فيشفيك»، فجعل لا يدعو، حتى مر به نفر من بنى إسرائيل، فقال بعضهم لبعض: ما أصابه ما أصابه إلا بذنب عظيم أصابه، فعند ذلك قال: «رب إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين».

وحدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا جرير بن حازم، عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: كان لأيوب، عليه السلام، أخوان فجاء يوماً، فلم يستطيعوا أن يدنوا منه، من ريحه، فقاما من بعيد، فقال أحدهما للآخر: لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا؟ فجزع أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع من شيء قط، فقال: اللهم، إن كنت تعلم أنى لم أبت ليلة قط شعبان^(٢) وأنا أعلم مكان جائع، فصدقنى. فصدق من السماء وهما يسمعان. ثم قال: اللهم، إن كنت تعلم أنى لم يكن لى قميصان قط، وأنا أعلم مكان عار، فَصَدَقْنِي فَصدق من السماء وهما يسمعان. اللهم^(٣) بعزتك ثم خر ساجداً، ثم قال^(٤): اللهم بعزتك لا أرفع رأسى أبداً حتى تكشف عني. فما رفع رأسه حتى كشف عنه.

وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر مرفوعاً بنحو هذا فقال: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب أخبرني نافع بن يزيد، عن عَقِيل، عن الزهرى، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من إخوانه، كانا من أخص إخوانه، كانا^(٥) يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تَعَلَّم - والله - لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين. فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف^(٦) ما به. فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب، عليه السلام: لا أدري ما تقول، غير أن الله عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما، كراهة أن يذكر الله إلا فى حق. قال: وكان يخرج فى حاجته^(٧)، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه، فأوحى إلى

(١) فى ف، أ: «مبسط».

(٢) فى ف: «شعبان».

(٣) فى ف، أ: «ثم قال: اللهم».

(٤) فى ف: «فقال».

(٥) فى ف: «فكشف».

(٦) فى ف، أ: «له».

(٧) فى ف: «حاجة».

أيوب في مكانه: أن اركض برجلك، هذا مغتسل بارد وشراب»^(١).

رفع هذا الحديث غريب جداً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، أخبرنا علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، قال: وألبسه الله حلة من الجنة، فتنحى أيوب فجلس في ناحية، وجاءت امرأته، فلم تعرفه، فقالت: يا عبد الله، أين ذهب المبتلى الذي كان ها هنا؟ لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب، فجعلت تكلمه ساعة، فقال: ويحك! أنا أيوب! قالت: أتسخر مني يا عبد الله؟ فقال: ويحك! أنا أيوب، قد رد الله علي جسدي.

وبه قال ابن عباس: ورد عليه ماله وولده عياناً، ومثلهم معهم.

وقال وهب بن منبه: أوحى الله إلى أيوب: قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم، فاغتسل بهذا الماء، فإن فيه شفاءك، وقرب عن صاحبتك^(٢) قرباناً، واستغفر لهم، فإنهم قد عصوني فيك. رواه ابن أبي حاتم.

[وقال]^(٣) أيضاً: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عمرو بن مرزوق، حدثنا همام، عن قتادة، عن النضر ابن أنس، عن بشير^(٤) بن نهيك، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لما عافى الله أيوب، أمطر عليه جراداً من ذهب، فجعل يأخذ بيده ويجعله في ثوبه». قال: «فقل له: يا أيوب، أما تشبع؟ قال: يا رب، ومن يشبع من رحمتك».

أصله في الصحيحين^(٥)، وسيأتي في موضع آخر.

وقوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾: قد تقدم عن ابن عباس أنه قال: ردوا عليه بأعيانهم. وكذا رواه العوفي، عن ابن عباس أيضاً. وروى مثله عن ابن مسعود ومجاهد، وبه قال الحسن وقاتدة.

وقد زعم بعضهم أن اسم زوجته رحمة، فإن كان أخذ ذلك من سياق الآية فقد أبعد النجعة، وإن كان أخذه من نقل أهل الكتاب، وصح ذلك عنهم، فهو مما لا يصدق ولا يكذب. وقد سماها ابن عساكر في تاريخه - رحمه الله تعالى - قال: ويقال: اسمها ليا ابنة منشأ بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، قال: ويقال: ليا بنت يعقوب، عليه السلام، زوجة أيوب كانت معه بأرض البشنة.

وقال مجاهد: قيل له: يا أيوب، إن أهلك لك في الجنة، فإن شئت أتيناك بهم، وإن شئت

(١) ورواه ابن حبان في صحيحه برقم (٢٠٩١) «موارد» من طريق حرملة بن يحيى عن ابن وهب بنحوه.

(٢) في ف: «صاحبتك». (٣) زيادة من أ. (٤) في ف: «بشر».

(٥) ورواه الحاكم في المستدرک (٥٨٢/٢) من طرق عن عمرو بن مرزوق به، وسيأتي أصل الحديث في صحيح البخاري عند تفسير الآية: ٤٢ من سورة ص.

تركناهم لك فى الجنة، وعوضناك مثلهم. قال: لا بل اتركهم لى فى الجنة. فتركوا له فى الجنة وعوض مثلهم فى الدنيا.

وقال حماد بن زيد، عن أبى عمران الجونى، عن نوف البكالى قال: أوتى أجرهم فى الآخرة، وأعطى مثلهم فى الدنيا. قال: فحدثت به مطرفاً، فقال: ما عرفت وجهها قبل اليوم.

وهكذا روى عن قتادة، والسدى، وغير واحد من السلف، والله أعلم.

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أى: فعلنا به ذلك رحمة من الله به، ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ أى: وجعلناه فى ذلك قدوة، لئلا يظن أهل البلاء إنما فعلنا بهم ذلك^(١) لهوانهم علينا، وليتأسوا به فى الصبر على مقدورات الله وابتلائه لعباده بما^(٢) يشاء، وله الحكمة البالغة فى ذلك.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ

الصَّالِحِينَ (٨٦) .

أما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل، عليهما السلام، وقد تقدم ذكره فى سورة مريم، وكذلك إدريس، عليه السلام^(٣).

وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي. وقال آخرون: إنما كان رجلاً صالحاً، وكان ملكاً عادلاً، وحكماً مقسطاً، وتوقف ابن جرير فى ذلك، فالحق أعلم.

وقال ابن جرير، عن مجاهد فى قوله: ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ قال: رجل صالح غير نبي، تكفل لنبي قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيمهم له ويقضى بينهم بالعدل، ففعل ذلك، فسمى: ذا الكفل. وكذا روى ابن أبى نجیح، عن مجاهد أيضاً.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا داود، عن مجاهد قال: لما كبر اليسع قال: لو أنى استخلفت رجلاً على الناس يعمل عليهم فى حياتى، حتى أنظر كيف يعمل؟ فجمع الناس، فقال: من يتقبل منى بثلاث: أستخلفه يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب. قال: فقام رجل تردريه العين، فقال: أنا. فقال: أنت تصوم النهار، وتقوم الليل، ولا تغضب؟ قال: نعم، قال: فردهم^(٤) ذلك اليوم، وقال مثلها فى اليوم الآخر، فسكت الناس، وقام ذلك الرجل وقال^(٥): أنا. فاستخلفه، قال: وجعل إبليس يقول للشياطين: عليكم بفلان. فأعياهم ذلك^(٦)، قال: دعونى^(٧) وإياه، فأتاه فى صورة شيخ كبير فقير، فأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة -

(١) فى ف: «إنما فعل ذلك بهم».

(٢) فى ف: «إنا فعل ذلك بهم».

(٣) انظر: تفسير الآيات: ٥٤ - ٥٧.

(٤) فى ف: «فردهم».

(٥) فى ف: «فردهم».

(٦) فى ف: «فردهم».

(٧) فى ف: «فردهم».

وكان لا ينام الليل والنهار إلا تلك النومة - فدق الباب، فقال: من هذا؟ قال: شيخ كبير مظلوم. قال: فقام ففتح الباب، فجعل يقص عليه، فقال: إن بيني وبين قومي خصومة، وإنهم ظلموني، وفعلوا بى وفعلوا. وجعل يُطَوِّل عليه حتى حصر الرواح وذهبت القائلة، فقال^(١): إذا رحت فأنتى أخذ لك بحقك. فانطلق، وراح. فكان فى مجلسه، فجعل ينظر هل يرى الشيخ؟ فلم يره، فقام يتبعه، فلما كان الغد جعل يقضى بين الناس، ويتنظره ولا^(٢) يراه، فلما رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه، أتاه فدق الباب، فقال: من هذا؟ قال^(٣): الشيخ الكبير المظلوم. ففتح له^(٤) فقال: ألم أقل لك إذا قعدت فأنتى؟ قال: إنهم أخبث قوم، إذا عرفوا^(٥) أنك قاعد قالوا: نحن نعطيك حقك. وإذا قمت جحدونى. قال: فانطلق، فإذا رحت فأنتى. قال: ففاتته القائلة، فراح فجعل ينتظره^(٦) ولا يراه، وشق عليه النعاس، فقال لبعض أهله: لا تدعن أحداً يقرب هذا الباب حتى أنام، فإنى قد شق على النوم. فلما كان تلك الساعة أتاه^(٧) فقال له الرجل: وراءك وراءك؟ فقال: إنى قد أتيتك أمس، فذكرت له أمرى، فقال: لا، والله لقد أمرنا ألا ندع أحداً يقربه. فلما أعياه نظر فرأى كُوءاً فى البيت، فتسور منها، فإذا هو فى البيت، وإذا هو يدق الباب من داخل، قال: فاستيقظ الرجل فقال: يا فلان، ألم أمرك؟ فقال^(٨): أما من قبلى والله فلم تؤت، فانظر من أين أتيت؟ قال: فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه، وإذا الرجل معه فى البيت، فعرفه، فقال: أعدو الله؟ قال: نعم، أعييتنى فى كل شىء، ففعلت ما ترى لأغضبك. فسماه الله ذا الكفل؛ لأنه تكفل بأمر، فوفى به^(٩).

وهكذا رواه بن أبى حاتم، من حديث زهير بن إسحاق، عن داود، عن مجاهد، بمثله.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن مسلم، قال: قال ابن عباس: كان قاض فى بنى إسرائيل، فحضره الموت، فقال: من يقوم مقامى على ألا يغضب؟ قال: فقال رجل: أنا. فسمى ذا الكفل. قال: فكان^(١٠) ليله جميعاً يصلى، ثم يصبح صائماً فيقضى بين الناس - قال: وله^(١١) ساعة يقيها - قال: فكان كذلك، فأتاه الشيطان عند نومته، فقال له أصحابه: ما لك؟ قال: إنسان مسكين، له على رجل حق، وقد غلبنى عليه. قالوا: كما أنت حتى يستيقظ - قال: وهو فوق نائم - قال: فجعل يصيح عمدا حتى يوقظه^(١٢)، قال: فسمع، فقال: ما لك؟ قال: إنسان مسكين، له على رجل حق. قال: اذهب فقل له يعطيك. قال: قد أبى. قال: اذهب أنت إليه. قال: فذهب، ثم جاء من الغد، فقال: ما لك؟ قال: ذهبت إليه فلم يرفع بكلامك رأساً. قال: اذهب إليه فقل له يعطيك حقك، قال: فذهب، ثم جاء من الغد حين قال، قال: فقال له أصحابه: اخرج، فعل الله بك، تحجى كل يوم حين ينام، لا

(١) فى ف: «وقال».

(٢) فى ف: «فلا».

(٣) فى ف: «فقال».

(٤) فى ف: «افتتح الباب».

(٥) فى ف: «اعترفوا».

(٦) فى ف: «جاء».

(٧) فى ف: «قال».

(٨) تفسير الطبرى (٥٩/١٧).

(٩) فى ف: «بغضبه».

(١٠) فى ف: «فله».

(١١) فى ف: «فقال».

تدعه ينام؟ فجعل^(١) يصيح: من أجل أنى إنسان مسكين، لو كنت غنيا؟ قال: فسمع أيضاً، فقال: ما لك؟ قال: ذهبت إليه فضربني. قال: امش حتى أجيء معك. قال: فهو ممسك بيده، فلما رآه ذهب معه نثر يده منه^(٢) ففّر.

وهكذا روى عن عبد الله بن الحارث، ومحمد بن قيس، وابن حُجيرة الأكبر، وغيرهم من السلف، نحو من هذه القصة، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الجماهر^(٣)، أخبرنا سعيد بن بشير، حدثنا قتادة، عن أبي كنانة بن الأخنس قال: سمعت الأشعري وهو يقول على هذا المنبر: ما كان ذو الكفل بنبي، ولكن كان - يعنى: فى بنى إسرائيل - رجل صالح يصلى كل يوم مائة صلاة، فتكفل له ذو الكفل من بعده، فكان يصلى كل يوم مائة صلاة، فسمى ذا الكفل.

وقد رواه ابن جرير من حديث عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة قال: «قال أبو موسى الأشعري...» فذكره منقطعاً^(٤)، والله أعلم.

وقد روى الإمام أحمد حديثاً غريباً فقال:

حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن عبد الله، عن سعد^(٥) مولى طلحة، عن ابن عمر قال: سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين - حتى عدّ سبع مرات - ولكن قد سمعته أكثر من ذلك، قال: «كان الكفل من بنى إسرائيل، لا يتورّع من ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاهما ستين ديناراً، على أن يطأها، فلما قعد منها^(٦) مقعد الرجل من امرأته، أرعدت^(٧) وبكت، فقال: ما يبكيك؟ أكرهتك؟ قالت: لا، ولكن هذا عمل لم أعمله قط، وإنما حمّلتني عليه الحاجة. قال: فتفعلين هذا ولم تفعليه قط؟ فنزل^(٨) فقال: اذهبي فالدنانير لك. ثم قال: والله لا يعصى الله الكفل أبداً. فمات من ليلته، فأصبح مكتوباً على بابه: قد غفر الله للكفل»^(٩).

هكذا وقع فى هذه الرواية «الكفل»، من غير إضافة، فالله أعلم. وهذا الحديث لم يخرج له أحد من أصحاب الكتب الستة^(١٠)، وإسناده غريب، وعلى كل تقدير فلفظ الحديث إن كان «الكفل»، ولم يقل: «ذو الكفل»، فلعله رجل آخر، والله أعلم.

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاصِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ

(١) فى ف، أ: «قال: فجعل». (٢) فى أ: «منه فذهب». (٣) فى ف، أ: «أبو الجماهير».

(٤) تفسير الطبرى (١٧/ ٦٠).

(٥) فى ف، أ: «سعيد». (٦) فى أ: «معها». (٧) فى أ: «ارتعدت».

(٨) فى ف: «ثم نزل».

(٩) المسند (٢/ ٢٣).

(١٠) قلت: بل أخرجه الترمذى فى السنن برقم (٢٤٩٦) من طريق عبيد بن أسباط عن أبيه به، وقال: «هذا حديث حسن قد رواه شيبان وغير واحد عن الأعمش نحو هذا ورفعوه وروى بعضهم عن الأعمش فلم يرفعه».

سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴿

هذه القصة مذكورة ها هنا وفي سورة «الصفات» وفي سورة «ن»^(١) وذلك أن يونس بن متى، عليه السلام، بعثه الله إلى أهل قرية «نينوى»، وهى قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضبا لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث. فلما تحققوا منه ذلك، وعلموا أن النبى لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، وفرقوا بين الأمهات وأولادها، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل، وجأروا^(٢) إليه، ورغت الإبل وفُضِّلَانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحُمِّلَانها، فرفع الله عنهم العذاب، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ^(٣) الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وأما يونس، عليه السلام، فإنه ذهب فركب مع قوم فى سفينة فَكَجَّجَتْ بهم، وخافوا أن يغرقوا^(٤). فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه، فوقعت القرعة على يونس، فأبوا^(٥) أن يلقيه، ثم أعادوا القرعة فوقعت عليه أيضاً، فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً، قال الله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصفات: ١٤١]، أى: وقعت عليه القرعة^(٦)، فقام يونس، عليه السلام، وتجرد من ثيابه، ثم ألقى نفسه فى البحر، وقد أرسل الله، سبحانه وتعالى، من البحر الأخضر - فيما قاله ابن مسعود - حوتاً يشق البحار، حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة، وأوحى الله إلى ذلك الحوت ألا تأكل له لحماً، ولا تهشم له عظماً؛ فإن يونس ليس لك رزقا، وإنما بطنك له يكون سجناً.

وقوله: ﴿وَذَا النُّونُ﴾ يعنى: الحوت، صحت الإضافة إليه بهذه النسبة.

وقوله: ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾: قال الضحاك: لقومه، ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [أى: تضيق عليه فى بطن الحوت. يروى نحو هذا عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم، واختاره^(٧) ابن جرير، واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

وقال عطية العوفى: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾^(٨)، أى: نقضى عليه، كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير، فإن العرب تقول: قدرَ وقَدَّرَ بمعنى واحد، وقال الشاعر:

(٢) فى ت: «ولجؤا».

(٥) فى ت: «فأتوا».

(٨) زيادة من ت، ف، أ.

(١) سورة الصفات الآيات: ١٣٩ - ١٤٨، وسورة نون (القلم) الآيات: ٤٨ - ٥٠.

(٤) فى ت، ف: «تغرق بهم».

(٣) فى ت: «العذاب».

(٧) فى ت: «واختارهم».

(٦) فى ف: «فوقعت القرعة عليه».

فَلَا عَائِدَ ذَلِكَ الزَّمَانُ الَّذِي مَضَى تَبَارَكَتْ مَا تَقْدَرُ يَكُنْ، فَلَكَ الْأَمْرُ

ومنه قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢]، أى: قُدِّرَ.

وقوله: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾: قال ابن مسعود: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل. وكذا روى عن ابن عباس^(١)، وعمرو بن ميمون، وسعيد بن جبيرة، ومحمد بن كعب، والضحاك، والحسن، وقتادة.

وقال سالم بن أبي الجعد: ظلمة حوت في بطن حوت^(٢)، في ظلمة البحر.

قال ابن مسعود، وابن عباس وغيرهما: وذلك أنه ذهب به الحوت في البحار يشقها، حتى انتهى به إلى قرار البحر، فسمع^(٣) يونس تسبيح الحصى في قراره، فعند ذلك وهنالك قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ﴾.

وقال عوف: لما صار يونس في بطن الحوت، ظن أنه قد مات، ثم حرك رجله فلما تحركت سجد مكانه، ثم نادى: يا رب^(٤)، اتخذت لك مسجداً^(٥) في موضع ما اتخذته^(٦) أحد.

وقال سعيد بن الحسن البصري: مكث في بطن الحوت أربعين يوماً. رواهما^(٧) ابن جبيرة.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار، عمن حدثه، عن عبد الله بن رافع - مولى أم سلمة - سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت، أوحى الله إلى الحوت أن خذه، ولا تخدش لحما ولا تكسر عظما، فلما انتهى به إلى أسفل البحر، سمع يونس حساً، فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه، وهو في بطن^(٨) الحوت: إن هذا تسبيح دواب البحر. قال: فَسَبَّحَ وهو في بطن الحوت، فسمع^(٩) الملائكة تسبيحه فقالوا: يا ربنا، إنا نسمع صوتاً ضعيفاً [بأرض غريبة]^(١٠) قال: ذلك عبدى يونس، عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر. قالوا: العبد الصالح الذى كان يصعد إليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم. قال: «فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت فقذفه فى الساحل، كما قال الله عز وجل^(١١): ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾» [الصفافات: ١٤٥].

ورواه ابن جرير^(١٢)، ورواه البزار فى مسنده، من طريق محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن رافع، عن أبى هريرة، فذكره بنحوه، ثم قال: لا نعلمه يروى عن النبى ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد^(١٣)، وروى ابن عبد الحق من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن سلمة^(١٤)،

(١) فى ف: «ابن مسعود». (٢) فى ف، أ: «حوت آخر». (٣) فى ت، أ: «حتى يسمع»، وفى ف: «حتى سمع».

(٤) فى ت: «رب الحوت». (٥) فى ت: «مسجد». (٦) فى ف، أ: «ما أخذه».

(٧) فى ت: «رواها». (٨) فى ف: «وهو بطن». (٩) فى ف، أ: «فسمعت».

(١٠) زيادة من ف، أ. (١١) فى ت: «الله تعالى».

(١٢) تفسير الطبرى (٦٥/١٧).

(١٣) مسند البزار برقم (٢٢٥٤) «كشف الاستار».

(١٤) فى ت، ف: «مسلم».

عن علي مرفوعاً: لا ينبغي لعبد أن يقول: «أنا»^(١) خير من يونس بن متى؛ سبح الله في الظلمات^(٢).
وقد روى هذا الحديث بدون هذه الزيادة، من حديث ابن عباس، وابن مسعود، وعبد الله بن جعفر، وسيأتي أسانيدُها في سورة «ن»^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن بن أخى ابن وهب، حدثنا عمى: حدثني أبو صخر: أن يزيد الرقاشي حدثه قال: سمعت أنس بن مالك - ولا أعلم إلا أن أنسا يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ - أن يونس النبي، عليه السلام، حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو فى بطن الحوت، قال: «اللهم، لا إله إلا أنت، سبحانك، إني كنت من الظالمين». فأقبلت هذه الدعوة تحف بالعرش^(٤)، فقالت الملائكة: يا رب، صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة؟ فقال: أما تعرفون ذلك^(٥)؟ قالوا: لا، يا رب^(٦)، ومن هو؟ قال: عبدى يونس. قالوا: عبدك يونس الذى لم يزل يُرْفَع له عَمَلٌ مُّتَقَبَلٌ^(٧)، ودعوة مجابة؟ [قال: نعم]^(٨). قالوا: يا رب، أُولَا^(٩) ترحم ما كان يصنع^(١٠) فى الرخاء فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوت فطرحه فى العراء^(١١).

وقوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ أى: أخرجناه من بطن الحوت، وتلك الظلمات، ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: إذا كانوا فى الشدائد ودَعَوْنَا مُنِيبِينَ إِلَيْنَا، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء فى حال البلاء، فقد جاء الترغيب فى الدعاء بها عن سيد الأنبياء، قال الإمام أحمد:

حدثنا إسماعيل بن عمر، حدثنا يونس بن أبى إسحاق الهمداني، حدثنا إبراهيم بن محمد^(١٢) ابن سعد، حدثني والدى محمد عن أبيه سعد، - وهو ابن أبى وقاص - قال: مررت بعثمان بن عفان، رضى الله عنه، فى المسجد، فسلمت عليه، فملا عينيه منى ثم لم يردد على السلام، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت: يا أمير المؤمنين، هل حدث فى الإسلام شيء؟ مرتين، قال: لا، وما ذاك؟ قلت: لا، إلا أنى مررت بعثمان^(١٣) آنفاً فى المسجد، فسلمت عليه، فملا عينيه منى، ثم لم يردد^(١٤) على السلام. قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه، فقال: ما منعك ألا تكون رددت على أخيك

(١) فى ف: «أنا عند الله خير».

(٢) كذا (ابن عبد الحق)، وأظنه تحريف عن عبد بن حميد، إلا أنى لا أجزم بذلك، وقد ذكره الهندي فى كنز العمال (٤٧٦/١٢) وعزاه لابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر فى تاريخه.

(٣) كذا قال الحافظ ابن كثير، وإنما ذكره هناك من حديث ابن مسعود وأبى هريرة رضى الله عنهما.

فأما حديث ابن عباس: فرواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٣٩٥) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٣٧٧).

وأما حديث عبد الله بن جعفر: فرواه أبو داود فى السنن برقم (٤٦٧٠).

(٤) فى ت: «نحو العرش» وفى ف: «تحت العرش». (٥) فى ف: «ذلك». (٦) فى ت، ف: «يا ربنا».

(٧) فى ت، ف: «متقبلاً». (٨) زيادة من ف، أ. (٩) فى ت، ف، أ: «أفلا».

(١٠) فى ت، ف: «يصنعه».

(١١) ورواه ابن أبى الدنيا فى الفرج بعد الشدة برقم (٣٢) من طريق أحمد بن صالح عن عبد الله بن وهب به.

(١٢) فى ت: «محمد بن إبراهيم». (١٣) فى ف، أ: «بعثمان بن عفان رضى الله عنه».

(١٤) فى ت: «يرد».

السلام؟ قال: ما فعلتُ. قال سعد: قلتُ: بلى^(١). حتى حلفَ وحلفتُ، قال: ثم إن عثمانَ ذكرَ فقال: بلى، وأستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بى آنفا وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ لا والله ما ذكرتها قط إلا تَغَشَى بصرى وقلبي غشاوة. قال سعد: فأنا أثبتك بها، إن رسول الله ﷺ ذكر لنا [أول دعوة]^(٢) ثم جاء أعرابى فشغله، حتى قام رسولُ الله ﷺ فاتبعته، فلما أشفقت أن يسبقنى إلى منزله ضربت بقدمى الأرض، فالتفت إلى رسولِ الله ﷺ فقال: «من هذا؟ أبو إسحاق؟» قال: قلت: نعم، يا رسول الله. قال: «فمه؟» قلت: لا والله، إلا أنك ذكرتَ لنا أول دعوة، ثم جاء هذا الأعرابى فشغلك. قال: «نعم، دعوة ذى النون، إذ هو فى بطن الحوت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فإنه لم يدع بها مسلم ربه فى شىء قط إلا استجاب له».

ورواه الترمذى، والنسائى فى «اليوم والليلة»، من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد، عن أبيه، عن سعد^(٣)، به^(٤).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن كثير بن زيد، عن المطلب بن حنطب - قال أبو خالد: أحسبه عن مصعب، يعنى: ابن سعد - عن سعد^(٥) قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا بدعاء يونس، استُجيب^(٦) له». قال أبو سعيد: يريد به ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٧).

وقال ابن جرير: حدثنى عمران بن بكَّار الكَلَّاعى، حدثنا يحيى بن صالح، حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن، حدثنى بشر بن منصور، عن على بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: سمعت سعد بن مالك - وهو ابن أبى وقاص - يقول: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «اسم الله الذى إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سئل به أعطى، دعوة يونس بن متى». قال: قلت^(٨): يا رسول الله، هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: هى ليونس بن متى خاصة وللمؤمنين عامة، إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله عز وجل: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ. فهو شرط من الله لمن دعاه به^(٩).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن أبى سُرَيْج، حدثنا داود بن المُحَبَّر بن قَحْظَم المقدسى، عن كثير بن معبد قال: سألت الحسن، قلت: يا أبا سعيد، اسم الله الأعظم الذى إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سئل به أعطى؟ قال: ابن أخى، أما تقرأ القرآن؟ قول الله: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ

(١) فى ف: «ويلى». (٢) زيادة من ف، أ، والمُسند.

(٤) المُسند (١٧٠/١) وسنن الترمذى برقم (٣٥٠٥) وسنن النسائى الكبيرى برقم (١٠٤٩٢).

(٥) فى ت: «عن سعيد». (٦) فى ت: «استجبت».

(٧) ورواه الحاكم فى المُستدرک (٥٨٤/٢) من طريق يحيى بن عبد الحميد، وابن عدى فى الكامل (٦٨/٦) من طريق أبى هشام الرفاعى كلاهما عن أبى خالد الأحمر به.

(٨) فى ت، ف: «فقلت».

(٩) تفسير الطبرى (٦٥/١٧).

مُغَاضِبًا ﴿إِلَى قَوْلِهِ: ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾، ابن أخى، هذا اسم الله الأعظم، الذى إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سئل به أعطى.

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن عبده زكريا، حين طلب أن يهبه الله ولدا، يكون من بعده نبيا. وقد تقدمت القصة مبسطة فى أول سورة «مريم» وفى سورة «آل عمران» أيضا، وها هنا أخصر منهما؛ ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ أى: خفية عن قومه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أى: لا ولد لى ولا وارث يقوم بعدى فى الناس، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾، دعاء وثناء مناسب للمسألة.

قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ أى: امرأته.

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير: كانت عاقراً لا تلد، فولدت.

وقال عبد الرحمن بن مهدي^(١)، عن طلحة بن عمرو، عن عطاء: كان فى لسانها طول فأصلحها الله. وفى رواية: كان فى خلقها شئ فأصلحها الله. وهكذا قال محمد بن كعب، والسدى. والأظهر من السياق الأول.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أى: فى عمل القربات وفعل الطاعات، ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ قال الثورى: ﴿رَغَبًا﴾ فيما عندنا، و﴿رَهَبًا﴾ مما عندنا، ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أى مصدقين بما أنزل الله. وقال مجاهد: مؤمنين حقاً. وقال أبو العالية: خائفين. وقال أبو سنان: الخشوع هو الخوف اللازم للقلب، لا يفارقه أبداً. وعن مجاهد أيضاً ﴿خَاشِعِينَ﴾ أى: متواضعين. وقال الحسن، وقتادة، والضحاك: ﴿خَاشِعِينَ﴾ أى: متذللين لله عز وجل. وكل هذه الأقوال متقاربة.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن محمد الطنافسى، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق بن^(٢) عبد الله القرشى، عن عبد الله بن حكيم قال: خطبنا أبو بكر، رضى الله عنه، ثم قال: أما بعد، فإنى أوصيكم بتقوى الله، وتثبوتوا عليه بما هو له أهل، وتخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾.

(١) فى ت: «ابن منبه». (٢) فى ت، ف: «عن».

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١)﴾ .

هكذا قرّن تعالى^(١) قصة مريم وابنها عيسى، عليه السلام، بقصة زكريا وابنه يحيى، عليهما السلام، فيذكر أولا قصة زكريا، ثم يتبعها بقصة مريم؛ لأن تلك مُوطئة لهذه، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد في حال شبابها، ثم يذكر قصة مريم وهي أعجب، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر. هكذا وقع في سورة «آل عمران»، وفي سورة «مريم»، وها هنا ذكر قصة زكريا، ثم أتبعها بقصة مريم، فقله: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ يعنى: مريم، عليها السلام، كما قال في سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أى: دلالة على أن الله على كل شىء قدير، وأنه يخلق ما يشاء، و﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. وهذا كقوله: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١].

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عمرو بن على، حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مُخَلَّد^(٢)، عن شبيب^(٣) - يعنى: ابن بشر^(٤) - عن عكرمة، عن ابن عباس، فى قوله: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ قال: العالمين: الجن والإنس.

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطُّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤)﴾ .

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبّير، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، يقول: دينكم دين واحد.

وقال الحسن البصرى؛ فى^(٦) هذه الآية: بين لهم ما يتقون وما يأتون ثم قال: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى: سنتكم سنة واحدة. فقله: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾: إن واسمها، و﴿أُمَّتُكُمْ﴾ خبر إن، أى: هذه شريعتكم التى بينت لكم ووضحت لكم، وقوله: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ نصب^(٧) على الحال؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾. وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ [المؤمنون: ٥١، ٥٢]، وقال رسول الله ﷺ: «نحن معشر الأنبياء أولاد علّات ديننا واحد»، يعنى: أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

(١) فى ت: «يقرن الله تعالى» وفى ف، أ: «يقرن تعالى». (٢) فى ف: «عن مجلز». (٣) فى ت، ف، أ: «شبيب».

(٤) فى ف: «بشير». (٥) فى ت، ف: «وإن». (٦) فى ت: «من».

(٧) فى ت: «نصيب».

وقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أى: اختلفت الأمم على رسلها، فمن بين مصدق لهم ومكذب؛ ولهذا قال: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ أى: يوم القيامة، فيجازى كل بحسب عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر؛ ولهذا قال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أى: قلبه مصدق، وعمل عملاً صالحاً، ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾، كقوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] أى: لا يكفر سعيه، وهو عمله، بل يُشكر، فلا يظلم مثقال ذرة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ أى: يكتب جميع عمله، فلا يضيع عليه منه شيء.

﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٩٥) حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧).

يقول تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ﴾: قال ابن عباس: وجب، يعنى: قدراً مقدراً^(١) أن أهل كل^(٢) قرية^(٣) أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة. هكذا صرح به ابن عباس، وأبو جعفر الباقر، وقتادة، وغير واحد.

وفى رواية عن ابن عباس: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أى: لا يتوبون.

والقول الأول أظهر، والله أعلم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾: قد قدمنا أنهم من سلالة آدم، عليه السلام، بل هم من نسل نوح أيضاً^(٤)، من أولاد يافث أبى الترك، والترك شردمة منهم، تركوا من وراء السد الذى بناه ذو القرنين.

وقال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا . وَتَرَكَنَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٨، ٩٩]، وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ أى: يسرعون فى المشى إلى الفساد.

والحدب: هو المرتفع من الأرض، قاله ابن عباس، وعكرمة، وأبو صالح، والثورى وغيرهم، وهذه صفتهم فى حال خروجهم، كأن السامع مشاهد لذلك، ﴿وَلَا يُبْثِكُ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]: هذا إخبار عالم ما كان وما يكون، الذى يعلم غيب السموات والأرض، لا إله إلا هو.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن مثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عبيد الله بن أبى يزيد قال: رأى ابن عباس صبيانا يمزو بعضهم على بعض، يلعبون، فقال ابن عباس: هكذا

(٢) فى ت، ف: «إن كل أهل».

(١) فى ت، ف: «مقدور».

(٤) فى ف، أ: «عليه السلام».

(٣) فى ت: «القرية».

يخرج يأجوج ومأجوج^(١).

وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية:

فالحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، عن عاصم بن عُمَر بن قتادة، عن محمود بن لَبِيد، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُفْتَحُ يأجوجُ ومأجوجُ، فيخرجون كما قال الله عز وجل: ﴿وَهُمْ﴾^(٢) مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ»، فيغشون الناس، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم^(٣)، ويضمون إليهم مواشيهم، ويشربون مياه الأرض، حتى إن بعضهم ليمر بالنهر، فيشربون ما فيه حتى يتركوه يَبَسًا، حتى إن مَنْ بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول^(٤): قد كان ها هنا ماء مرة، حتى إذا لم يبقَ من الناس أحد إلا أحدٌ في حصن أو مدينة قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض، قد فرغنا منهم، بقى أهل السماء. قال: «ثم يهزأ أحدُهم حربته، ثم يرمى بها إلى السماء، فترجع إليه مُخْتَضِبَةً دَمًا؛ للبلاء والفتنة. فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل دودا في أعناقهم كَنَفَ الجراد الذي يخرج في أعناقه، فيصبحون^(٥) موتى لا يُسَمَعُ لهم حِس، فيقول المسلمون: ألا رجل يَشْرِى نفسه، فينظر ما فعل هذا العدو؟» قال: «فيتجرّد رجل منهم محتسبا نفسه، قد أوطئها على أنه مقتول، فينزل فيجدهم موتى، بعضهم على بعض، فينادى: يا معشر المسلمين، ألا أبشروا، إن الله عز وجل قد كفاكم عدوكم، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم وَيُسْرَحُونَ مواشيهم، فما يكون لها رعى إلا لحومهم، فَتَشْكُرُ عنه كأحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابته قط.

ورواه ابن ماجه، من حديث يونس بن بُكَيْر، عن ابن إسحاق، به^(٦).

الحديث الثاني: قال [الإمام]^(٧) أحمد أيضا: حدثنا الوليد بن مسلم أبو العباس الدمشقي، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، حدثني يحيى بن جابر الطائي - قاضي حمص - حدثني عبد الرحمن بن جُبَيْر بن نُفَيْر الحضرمي، عن أبيه، أنه سمع النّوّاس بن سَمْعَانَ الكلابي قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فحَفَضَ فيه ورَقَع، حتى ظنناه في طائفة النخل، [فلما رُحْنَا إليه عرف ذلك في وجوهنا، فسألناه فقلنا: يا رسول الله، ذكرت الدجال الغداة، فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل]^(٨). فقال: «غير الدجال أخوفُني عليكم، فإن يخرج وأنا فيكم فأنا حَجِيجُهُ دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامروا حَجِيجَ نفسه، والله خليفتي على كل مسلم: إنه شاب جَعْدٌ قَطَطَ عينه

(١) تفسير الطبري (١٧ / ٧٠).

(٢) زيادة من أ.

(٣) في ت: «في حصون».

(٤) المسند (٣ / ٧٧) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٧٩)، وقال البوصيري في الزوائد (٣ / ٢٦٠): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

(٥) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.

(٦) زيادة من ت، ف، أ.

طافية، وإنه يخرج خَلَّةً بين الشام والعراق، فعاث يمينا وشمالا، يا عباد الله اثبتوا».

قلنا: يا رسول الله، ما لبثه في الأرض؟ قال: «أربعين يوما، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم».

قلنا: يا رسول الله، فذاك اليوم الذي هو كسنة، أتكفيها فيه صلاة يوم وليلة؟ قال: «لا، اقدروا له قدره».

قلنا: يا رسول الله، فما إسرعه في الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح». قال: «فيمر بالحي فيدعوهم فيستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، وتروح عليهم سارحتهم وهي أطول ما كانت ذُرَى، وأمدته خواصر، وأسبغه ضروعا. ويمر بالحي فيدعوهم فيردون عليه قوله، فتتبعه أموالهم، فيصبحون مُّمَحْلِينَ، ليس لهم من أموالهم. ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيغاسيب النحل». قال: «ويأمر برجل فيُقتل، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رَمِيَّةَ الغَرَضِ، ثم يدعوه فيقبل إليه [يتهلل وجهه]^(١)».

فبينما هم على ذلك، إذ بعث الله عز وجل المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة^(٢) البيضاء، شرقى دمشق، بين مَهْرُودَتَيْنِ واضعا يده على أجنحة ملكين، فيتبعه فيدركه، فيقتله عند باب لُدَّ الشرقى».

قال: «فبينما هم كذلك، إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم: أنى قد أخرجت عبادا من عبادى لا يدان لك بقتالهم، فحوّز عبادى إلى الطور، فيبعث الله عز وجل يأجوج ومأجوج، وهم كما قال الله: ﴿مَنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل، فيرسل الله عليهم نَعْفًا في رقابهم، فيصبحون قَرُسَى، كموت نفس واحدة».

فيهبط عيسى وأصحابه، فلا يجدون في الأرض بيتا إلا قد ملأه زَهْمُهُمْ وَتَنَّهُمْ، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل عليهم طيرا كأعناق البُخْتِ، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله».

قال ابن جابر^(٣): فحدثني عطاء بن يزيد السَّكْسَكِيُّ^(٤)، عن كعب - أو غيره - قال: فتطرحهم بالمُهَيْلِ. [قال ابن جابر: فقلت: يا أبا يزيد، وأين المُهَيْلِ؟]^(٥)، قال: مطلع الشمس.

قال: «ويرسل الله مطراً لا يَكُنُّ^(٦) منه بيت مدّر ولا وِبر أربعين يوما، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلَقَةِ، ويقال للأرض: أنبتى ثمرتك، وردى بركتك». قال: «فيومئذ يأكل النفر من الرمانة ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرّسل، حتى إن اللّقحة من الإبل لتكفى الفِئَامَ من الناس، واللّقحة من البقر تكفى الفخذ، والشاة من الغنم تكفى أهل البيت».

(٣) فى ت: «جبري».

(٢) فى ت: «المنازل».

(١) زيادة من ف، أ، والمسند.

(٦) فى ت: «يكون».

(٥) زيادة من ف، أ، والمسند.

(٤) فى ت: «السلسلى».

قال: «فبينما هم على ذلك»^(١)، إذ بعث الله عز وجل ريحا طيبة تحت آباطهم، فتقبض روح كل مسلم - أو قال: كل مؤمن - ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمير، وعليهم تقوم الساعة».

انفرد^(٢) بإخراجه مسلم دون البخارى، فرواه مع بقية أهل السنن من طرق، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، به^(٣). وقال الترمذى: حسن صحيح.

الحديث الثالث: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بشر، حدثنا محمد بن عمرو، عن ابن حرملة، عن خالته قالت: خطب رسول الله ﷺ وهو عاصب أصبغ من لدغة عقرب، فقال: «إنكم تقولون: «لا عدو»^(٤)، وإنكم لا تزالون تقاتلون عدوًا، حتى يأتى يأجوج ومأجوج عراض الوجوه، صغار العيون، صُهب الشّعاف، من كل حَدَب ينسلون، كأن وجوههم المجان المطرقة»^(٥).

وكذا رواه ابن أبى حاتم من حديث محمد بن عمرو، عن خالد بن عبد الله بن حرملة المدلجى، عن خالة له، عن النبى ﷺ، فذكر مثله^(٦).

الحديث الرابع: قد تقدم فى تفسير آخر سورة الأعراف من رواية الإمام أحمد، عن هُشَيْم، عن العوّام، عن جبلة ابن سُحَيْم، عن مؤثر بن عَفَاة، عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى، عليهم السلام، قال: فتذاكروا أمر الساعة، فردوا أمرهم إلى إبراهيم، فقال: لا علم لى بها^(٧)، فردوا أمرهم إلى موسى، فقال: لا علم لى بها^(٨). فردوا أمرهم إلى عيسى، فقال: أما وَجَبَتْهَا فلا يعلم بها أحد إلا الله، وفيها عهد إلى ربى أن الدجال خارج». قال: «ومعى قضيبان، فإذا رَأَى ذاب كما يذوب الرصاص» قال: «فيهلكه الله إذا رَأَى، حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم إن تحتى كافراً، فتعال فاقتله». قال: «فيهلكهم الله، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم». قال: «فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حَدَب ينسلون، فيطؤون بلادهم، لا^(٩) يأتون على شىء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه». قال: «ثم يرجع الناس إلى يشكونهم، فأدعو الله عليهم، فيهلكهم ويميتهم، حتى تجوى الأرض من ثَن ريحهم، وينزل الله المطر فيجترف أجسادهم، حتى يقذفهم فى البحر. ففيما عهد إلى ربى أن ذلك إذا كان كذلك، أن الساعة كالحامل المتيم، لا يدرى أهلها متى تَفْجُوهم بولادها ليلاً أو نهاراً».

ورواه ابن ماجه، عن محمد بن بشار، عن يزيد بن هارون، عن العوّام بن حَوْشَب، به^(١٠)،

(١) فى ف: «هم كذلك».

(٢) المسند (١٨١/٤) وصحيح مسلم برقم (٢١٣٧) وسنن أبى داود برقم (٤٣٢١) وسنن الترمذى برقم (٢٢٤٠) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٧٨٣) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٧٥).

(٤) فى ت، ف، أ: «لا عدو لكم».

(٥) المسند (٢١٧/٥).

(٦) فى ت، أ: «مثله سواء».

(٩) فى ت، ف: «ولا».

(١٠) المسند (٣٧٥/١) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٨١) وسبق عند تفسير الآية: ١٨٧ من سورة الأعراف.

نحوه وزاد: «قال العَوَّام، ووجد تصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾».

ورواه ابن جرير ها هنا من حديث جبلة، به^(١).

والأحاديث في هذا كثيرة جدا، والآثار عن السلف كذلك.

وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث مَعْمَرٍ، عن غير واحد، عن حميد بن هلال، عن أبي الصَّيْف قال: قال كعب: إذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج، حفروا حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم، فإذا كان الليل قالوا: نجىء غدا فنخرج، فيعيده الله كما كان. فيجيئون من الغد فيجدونه قد أعاده الله كما كان، فيحفرون حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم، فإذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم بقول: نجىء غدا فنخرج إن شاء الله. فيجيئون من الغد فيجدونه كما تركوه، فيحفرون حتى يخرجوا. فتمر الزمرة الأولى بالبحيرة، فيشربون ماءها، ثم تمر الزمرة الثانية فيلحسون طينها، ثم تمر الزمرة الثالثة فيقولون^(٢): قد كان ها هنا مرة ماء، ويفر الناس منهم، فلا يقوم لهم شيء. ثم يرمون بسهامهم إلى السماء فترجع إليه مُخَضَّبَةٌ بالدماء فيقولون: غلبنا أهل الأرض وأهل السماء. فيدعو عليهم عيسى ابن مريم، عليه السلام، فيقول: «اللهم، لا طاقة ولا يَدِين لنا بهم، فاكفناهم بما شئت»، فيسلط الله عليهم دودا يقال له: النغف، فيفرس^(٣) رقابهم، ويبعث الله عليهم طيرا تأخذهم بمناقيرها فتلقيهم في البحر، ويبعث الله عينا يقال لها: «الحياة» يطهر الله الأرض وينبتها، حتى إن الرمانة ليشع منها السَّكْنُ. قيل: وما السَّكْنُ يا كعب؟ قال: أهل البيت - قال: «فبينما الناس كذلك إذ أتاهم الصَّريخ أن ذا السُّوقَتَيْنِ يريد». قال: فيبعث^(٤) عيسى ابن مريم طليعة سبعمائة، أو بين السبعمائة والثمانمائة، حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله ريحا يمانية طيبة، فيقبض فيها روح كل مؤمن، ثم يبقى عَجَاج^(٥) الناس، فيتسافدون كما تَسَافَدُ البهائم، فَمَثَلُ الساعة كمثل رجل يطيف حول فرسه ينتظرها متى تضع؟ قال كعب: فمن تكلف بعد قولي هذا شيئا - أو بعد علمي هذا شيئا - فهو المتكلف^(٦).

هذا من أحسن سياقات كعب الأخبار، لما شهد له من صحيح الأخبار.

وقد ثبت في الحديث أن عيسى ابن مريم يحج البيت العتيق، وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان ابن داود، حدثنا عمران، عن قتادة، عن عبد الله بن أبي عُبَيْة، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لِيُحَجََّنَّ هَذَا الْبَيْتَ، وَلِيُعْتَمَرََنَّ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ». انفرد بإخراجه البخاري^(٧).

(١) تفسير الطبري (١٧/٧٢).

(٢) في ت: «فيقول».

(٣) في ت: «يفرّش».

(٤) في ت: «فيبعث الله عيسى».

(٥) في ت، ف: «عجاج من».

(٦) تفسير الطبري (١٧/٧١).

(٧) المسند (٢٧/٣) وصحيح البخاري برقم (١٥٩٣).

وقوله: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ يعنى: يوم القيامة، إذا وجدت هذه الأهوال والزلازل والبلابل، أزفت الساعة واقتربت، فإذا كانت ووقعت قال الكافرون: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨]. ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ أى: يقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ أى: فى الدنيا، ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، يعترفون بظلمهم لأنفسهم، حيث لا ينفعهم ذلك.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣)﴾.

يقول تعالى مخاطبا لأهل مكة من مشركى قريش، ومن دان بدينهم من عبدة الأصنام والأوثان: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، قال ابن عباس: أى وقودها، يعنى كقوله: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦].

وقال ابن عباس أيضا: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ بمعنى: شجر جهنم. وفى رواية قال: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ يعنى: حطب جهنم، بالزنجية.

وقال مجاهد، وعكرمة، وقتادة: حطبها. وهى كذلك فى قراءة على وعائشة - رضى الله عنهما. وقال الضحاك: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أى: ما يرمى به فيها. وكذا قال غيره. والجميع قريب.

وقوله: ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ أى: داخلون، ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا﴾ يعنى: لو كانت هذه الأصنام والأنداد التى اتخذتموها من دون الله آلهة صحيحة لما وردوا النار، ولما دخلوها، ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أى: العابدون ومعبوداتهم، كلهم فيها خالدون، ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾، كما قال: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشِهيقٌ﴾ [هود: ١٠٦]، والزفير: خروج أنفاسهم، والشهيق: ولوج أنفاسهم، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن محمد الطَّنَافِسىّ، حدثنا ابن فضيل، حدثنا عبدالرحمن - يعنى: المسعودى - عن أبيه قال: قال ابن مسعود: إذا بقى من يخلد فى النار، جُعِلوا فى توابيت من نار، فيها مسامير من نار، فلا يرى أحد منهم أنه يعذب فى النار غيره، ثم تلا

عبدالله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾.

ورواه ابن جرير، من حديث حجاج بن محمد، عن المسعودي، عن يونس بن خباب^(١)، عن ابن مسعود فذكره.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾: قال عكرمة: الرحمة. وقال غيره: السعادة، ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله، عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسوله^(٢)، وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة، وأسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا، كما قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]: وقال ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فكما أحسنوا العمل في الدنيا، أحسن الله مآلهم وثوابهم، فنجاهم من العذاب، وحصل^(٣) لهم جزيل الثواب، فقال: ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ. لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أى: حريقها فى الأجساد.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن عمار، حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن أبيه، عن الجريري^(٤)، عن أبى عثمان: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾، قال: حيات على الصراط^(٥) تلسعهم، فإذا لسعتهم قال: حَسَّ حَسَّ.

وقوله: ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾: فسلمهم من المحذور والمرهوب، وحصل لهم المطلوب والمحبوب.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن أبى سريج، حدثنا محمد بن الحسن بن أبى يزيد الهمداني، عن ليث بن أبى سليم، عن ابن عم النعمان بن بشير، عن النعمان بن بشير قال - وسمر مع على ذات ليلة، فقرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ قال: أنا منهم، وعمر منهم، وعثمان منهم، والزبير منهم، وطلحة منهم، وعبد الرحمن منهم - أو قال: سعد منهم - قال: وأقيمت الصلاة فقام، وأظنه يجر ثوبه، وهو يقول: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾.

وقال شعبة، عن أبى بشر، عن يوسف المكي، عن محمد بن حاطب^(٦) قال: سمعت عليا يقول فى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ قال: عثمان وأصحابه.

ورواه ابن أبى حاتم أيضاً، ورواه ابن جرير من حديث يوسف بن سعد - وليس بابن ماهك - عن محمد بن حاطب، عن على، فذكره ولفظه: عثمان منهم.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾: فأولئك أولياء الله يمدون على الصراط مرأ هو أسرع من البرق، ويبقى الكفار فيها جثياً.

(٣) فى ت: «وجعل».

(٢) فى ت: «ورسوله».

(١) فى ت: «ابن حبان».

(٦) فى ت: «خاطب».

(٥) فى ت: «على الصراط المستقيم».

(٤) فى ت، ف، أ: «عن أبى عثمان الجريري».

فهذا مطابق لما ذكرناه، وقال آخرون: بل نزلت استثناء من المعبودين، وخرج منهم عزير والمسيح، كما قال حجاج بن محمد الأعور، عن ابن جريج وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، ثم استثنى فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾، فيقال^(١): هم الملائكة، وعيسى، ونحو ذلك مما يعبد من دون الله عز وجل. وكذا قال عكرمة، والحسن، وابن جريج^(٢).

وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ قال: نزلت في عيسى ابن مريم وعزير، عليهما السلام.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسين بن عيسى بن ميسرة، حدثنا أبو زهير، حدثنا سعد بن طريف، عن الأصمغ، عن علي في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ قال: كل شيء يعبد من دون الله في النار إلا الشمس والقمر وعيسى ابن مريم. إسناده ضعيف.

وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، قال: عيسى، وعزير، والملائكة.

وقال الضحاك: عيسى، ومريم، والملائكة، والشمس، والقمر. وكذا روى عن سعيد بن جبیر، وأبي صالح وغير واحد.

وقد روى ابن أبي حاتم في ذلك حديثاً غريباً جداً، فقال: حدثنا الفضل بن يعقوب الرُّخَّانِي، حدثنا سعيد بن مسلمة بن عبد الملك، حدثنا الليث بن أبي سليم، عن مُغِيث، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ قال: عيسى، وعزير، والملائكة^(٣).

وذكر بعضهم قصة ابن الزُّبَيْرِ ومناظرة المشركين، قال أبو بكر بن مَرْدُويه:

حدثنا محمد بن علي بن سهل، حدثنا محمد بن حسن الأنماطي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن عَرَعَرَةَ، حدثنا يزيد بن أبي حكيم، حدثنا الحكم - يعني: ابن أبان - عن عكرمة، عن ابن عباس قال: جاء عبد الله بن الزُّبَيْرِ إلى النبي ﷺ فقال: تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾، فقال ابن الزُّبَيْرِ: قد عبّدت الشمس والقمر والملائكة، وعزير وعيسى ابن مريم، كل هؤلاء في النار مع آلهتنا؟ فنزلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوا آلَٰهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا^(٤) بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾، ثم نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾. رواه الحافظ أبو عبد الله في كتابه «الأحاديث المختارة».

(٢) في ت: «وابن ماجه وابن جريج».

(١) في ف: «فقال».

(٣) وفي إسناده سعيد بن مسلمة وشيخه ليث بن أبي سليم وهما ضعيفان.

(٤) في ت: «مثلاً».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا قبيصة بن عقبة، حدثنا سفيان - يعني: الثوري - عن الأعمش، عن أصحابه، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ قال المشركون: فالملائكة^(١)، وعزير، وعيسى يُعبدون من دون الله؟ فنزلت: ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُّوهَا﴾، الآلهة التي يعبدون، ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وروى عن أبي كديئة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس مثل ذلك، وقال فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.

وقال [الإمام]^(٢) محمد بن إسحاق بن يسار^(٣)، رحمه الله، في كتاب «السيرة»: وجلس رسول الله - فيما بلغني - يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المسجد^(٤) غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر بن الحارث، فكلّمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، وتلا عليه وعليهم ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾^(٥)، ثم قام رسول الله ﷺ، وأقبل عبد الله بن الزبعرى السهمي حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبعرى: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفاً ولا قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد^(٦) من آلهتنا هذه حصب جهنم. فقال عبد الله بن الزبعرى: أما والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمداً: كل ما يُعبد^(٧) من دون الله في جهنم مع من عبده، فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيراً، والنصارى تعبد عيسى ابن مريم؟ فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس، من قول عبد الله بن الزبعرى، ورأوا أنه قد احتج وخاصم.

فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «كل من أحب أن يُعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشياطين^(٨) ومن أمرتهم^(٩) بعبادته. وأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ. لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ أى: عيسى وعزير ومن عبدوا من الأحبار والرهبان، الذين مضوا على طاعة الله، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله. ونزل فيما يذكرون، أنهم يعبدون الملائكة، وأنهم بنات الله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ. لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٩]، ونزل فيما ذكر من أمر عيسى، وأنه يعبد من دون الله، وعجب الوليد ومن حضره من حُجته وخصومته: ﴿وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ. وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ. إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ. وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ. وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ

(٢) زيادة من ف، أ.

(١) فى ت: «والملائكة».

(٤) فى ف: «المجلس».

(٣) فى ت: «ابن بشار».

(٥) فى ت، ف: «أنتم لها واردون. لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون. لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون».

(٨) فى ت، ف: «الشیطان».

(٧) فى ت: «يعبدون».

(٦) فى ت: «تعبدون».

(٩) فى ف: «أمرهم».

فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴿[الزخرف: ٥٧ - ٦١] أَى: ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام، فكفى به دليلاً على علم الساعة، يقول: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف ٦١].^(١)

وهذا الذى قاله ابن الزبعرى خطأ كبير؛ لأن الآية إنما نزلت خطاباً لأهل مكة فى عبادتهم الأصنام التى هى جماد لا تعقل، ليكون ذلك تقيعاً وتوبيخاً لعباديتها؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، فكيف يُورَدَ عَلَى هذا المسيح والعزير^(٢) ونحوهما، ممن^(٣) له عمل صالح، ولم يَرْضَ بعبادة من عبده. وعَوَّلَ ابن جرير فى تفسيره فى الجواب على أن «ما» لما لا يعقل عند العرب.

وقد أسلم عبد الله بن الزبعرى بعد ذلك، وكان من الشعراء المشهورين. وكان يهاجى المسلمين أولاً، ثم قال معذراً.

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ، إِنَّ لِسَانِي رَأَتْقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورُ
إِذْ أَجَارَى الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْغَى وَمَنْ مَالَ مِثْلَهُ مَثْبُورٌ^(٤)

وقوله: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾: قيل المراد بذلك الموت. رواه عبد الرزاق، عن يحيى بن ربيعة عن عطاء.

وقيل: المراد بالفزع الأكبر: النفخة فى الصور. قاله العوفى عن ابن عباس، وأبو سنان سعيد^(٥) ابن سنان الشيبانى، واختاره ابن جرير فى تفسيره.

وقيل: حين يُؤْمَرُ بالعبد إلى النار. قاله الحسن البصرى.

وقيل: حين تُطَبَّقُ النار على أهلها. قاله سعيد بن جببر، وابن جرير.

وقيل: حين يُذْبَحُ الموت بين الجنة والنار. قاله أبو بكر الهذلى^(٦)، فيما رواه ابن أبى حاتم، عنه.

وقوله: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾، يعنى: تقول لهم الملائكة، تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أَى: قابلوا^(٧) ما يسركم.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا

فَاعِلِينَ (١٠٤)﴾.

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣٥٨/١)، ورواه الطبرى فى تفسيره (٧٦/١٧).

(٢) فى ف: «وعزير».

(٣) فى ت: «وممن».

(٤) البيت فى السيرة النبوية لابن هشام (٤١٩/٢).

(٥) فى ت، ف، أ: «سعد».

(٦) فى ف، أ: «الهمدانى».

(٧) فى ت: «فاملوا».

يقول تعالى: هذا كائن يوم القيامة، ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] وقد قال البخاري:

حدثنا مُقَدِّم بن محمد، حدثني عمي القاسم بن يحيى، عن عُبَيْدِ اللَّهِ، عن نافع، عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ، قال: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين، وتكون السموات بيمينه»^(١).
انفرد به من هذا الوجه البخاري، رحمه الله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن أحمد بن الحجاج الرقي، حدثنا محمد بن سلمة، عن أبي الواصل^(٢)، عن أبي المليح الأزدي^(٣)، عن أبي الجوزاء الأزدي، عن ابن عباس قال: يطوى الله^(٤) السموات السبع بما فيها من الخليقة والأرضين السبع بما فيها من الخليقة، يطوى ذلك كله^(٥) بيمينه، يكون ذلك كله في يده بمنزلة خردلة.

وقوله: ﴿كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ﴾: قيل: المراد بالسجل [الكتاب]. وقيل: المراد بالسجل^(٦) هاهنا: ملك من الملائكة.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا يحيى بن يمان، حدثنا أبو الوفاء الأشجعي، عن أبيه، عن ابن عمر في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ﴾ قال: السجل: ملك، فإذا صعد بالاستغفار قال: اكتبها نوراً.

وهكذا رواه ابن جرير، عن أبي كُرَيْب، عن ابن يمان، به.

قال ابن أبي حاتم: وروى عن أبي جعفر^(٧) محمد بن علي بن الحسين أن السجل ملك.

وقال السدي في هذه الآية: السجل: ملك موكل بالصحف، فإذا مات الإنسان رفع^(٨) كتابه إلى السجل فطواه، ورفعته إلى يوم القيامة.

وقيل: المراد به اسم رجل صحابي، كان يكتب للنبي ﷺ الوحي:

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا نصر بن علي الجهضمي، حدثنا نوح بن قيس، عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس: [﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ﴾]^(٩)، قال: السجل: هو الرجل.

(١) صحيح البخاري برقم (٧٤١٢).

(٤) في ت: «إليه».

(٣) في ت: «الأودي».

(٢) في ت: «المواصل».

(٧) في ت: «أبي حفص».

(٦) زيادة من ف.

(٥) في ف: «كله ذلك».

(٩) زيادة من ف.

(٨) في ت: «دفع».

قال نوح: وأخبرني يزيد بن كعب - هو العوذى - عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: السجل كاتب^(١) للنبي ﷺ.

وهكذا رواه أبو داود والنسائي عن قتيبة بن سعيد^(٢)، عن نوح بن قيس، عن يزيد بن كعب، عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس، قال: السجل كاتب^(٣) للنبي ﷺ^(٤).

ورواه ابن جرير عن نصر بن على الجهضمي، كما تقدم. ورواه ابن عدى من رواية يحيى بن عمرو بن مالك النُكْرَى عن أبيه، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: كان للنبي ﷺ^(٥) كاتب يسمى^(٦) السجل وهو قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ﴾، قال: كما يطوى السجل الكتاب، كذلك نطوى السماء، ثم قال: وهو غير محفوظ^(٧).

وقال الخطيب البغدادي في تاريخه: أنبأنا أبو بكر البرقاني، أنبأنا محمد بن محمد بن يعقوب الحجاجي، أنبأنا أحمد بن الحسن الكرخي، أن حمدان بن سعيد حدثهم، عن عبد الله بن نمير، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر، قال: السجل: كاتب للنبي ﷺ^(٨).

وهذا منكر جداً من حديث نافع عن ابن عمر، لا يصح أصلاً، وكذلك ما تقدم عن ابن عباس، من رواية أبي داود وغيره، لا يصح أيضاً. وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه - وإن كان في سنن أبي داود - منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المزني، فسح الله في عمره، ونسأ في أجله، وختم له بصالح عمله، وقد أفردت لهذا الحديث جزءاً على حدة^(٩)، والله الحمد. وقد تصدى الإمام أبو جعفر بن جرير للإنكار على هذا الحديث، ورده أتم رد، وقال: لا يُعرف في الصحابة أحد^(١٠) اسمه السجل، وكتّاب النبي ﷺ معروفون، وليس فيهم أحد اسمه السجل، وصدق رحمه الله في ذلك، وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث. وأما من ذكر في أسماء الصحابة هذا، فإنما اعتمد على هذا الحديث، لا على غيره، والله أعلم. والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة، قاله على بن أبي طلحة والوفى، عنه. ونص على ذلك مجاهد، وقتادة، وغير واحد. واختاره ابن جرير؛ لأنه المعروف في اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ﴾ أى: على [هذا]^(١١) الكتاب، بمعنى المكتوب، كقوله: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّ لِلْجَبِينِ﴾ [الصفات: ١٠٣]، أى: على الجبين، وله نظائر في اللغة، والله أعلم.

وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ يعنى: هذا كائن لا محالة، يوم يعيد الله الخلائق خلقاً جديداً، كما بدأهم هو القادر على إعادتهم^(١٢)، وذلك واجب الوقوع، لأنه من

(٣) فى ت: «كانت».

(٢) فى ت: «سعد».

(١) فى ت: «كانت».

(٤) سنن أبي داود برقم (٢٩٣٥) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٣٣٥).

(٥) فى ت: «كان لرسول الله».

(٦) فى ت: «كانت تسمى».

(٧) الكامل (٢٠٥/٧).

(٨) تاريخ بغداد (١٧٥/٨).

(٩) فى أ: «حدثه».

(١١) زيادة من ف، أ.

(١٠) فى ف: «لا يعرف أحد فى الصحابة».

جملة وعد الله الذى لا يخلف ولا يبدل، وهو القادر على ذلك. ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وابن جعفر المعنى^(٢)، قال^(٣): حدثنا شعبة، عن المغيرة بن النعمان، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيده، وعداً علينا إنا كنا فاعلين»؛ وذكر تمام الحديث، أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة. ورواه^(٤) البخارى عند هذه الآية فى كتابه^(٥).

وقد روى ليث بن أبى سليم، عن مجاهد، عن عائشة عن النبى ﷺ^(٦)، نحو ذلك. وقال العوفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ قال: نهلك كل شىء، كما كان أول مرة.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾.

يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين، من السعادة فى الدنيا والآخرة، ووراثه الأرض فى الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. وقال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]. وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾^(٧)، الآية [النور: ٥٥].

وأخبر تعالى أن هذا مكتوب مسطور فى الكتب الشرعية والقدرية فهو كائن لا محالة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾، قال الأعمش: سألت سعيد بن جبيرة عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ فقال الزبور: التوراة، والإنجيل، والقرآن^(٨).

وقال مجاهد: الزبور: الكتاب.

وقال ابن عباس، والشعبي، والحسن، وقتادة، وغير واحد: الزبور: الذى أنزل على داود، والذكر: التوراة، وعن ابن عباس: الزبور: القرآن.

وقال سعيد بن جبيرة: الذكر: الذى فى السماء.

(١) فى ت: «إعادته».

(٢) فى هـ، ت، ف، أ: «وابن جعفر، وعفان المعنى» والثبت من المسند.

(٣) فى ت: «قالوا».

(٤) فى ت: «وذكره»، وفى ف، أ: «ذكره».

(٥) المسند (٢٣٥/١) وصحيح البخارى برقم (٤٦٢٥)، (٤٧٤٠) وصحيح مسلم برقم (٢٨٦٠).

(٦) فى ت، ف: «عن رسول الله».

(٧) زيادة من ف، أ.

(٨) فى أ: «الفرقان».

وقال مجاهد: الزبور: الكتبُ بعد الذكر، والذكر: أم الكتاب عند الله.

واختار ذلك ابن جرير رحمه الله^(١)، وكذا قال زيد بن أسلم: هو الكتاب الأول. وقال الثوري: هو اللوح المحفوظ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الزبور: الكتب التي نُزِلَتْ على الأنبياء، والذكر: أم الكتاب الذي^(٢) يكتب فيه الأشياء قبل ذلك.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أخبر الله سبحانه^(٣) في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض، أن يُورث أمة محمد ﷺ الأرض ويدخلهم الجنة، وهم الصالحون.

وقال مجاهد، عن ابن عباس: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ قال: أرض الجنة. وكذا قال أبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، والشعبي، وقتادة، والسدي، وأبو صالح، والربيع بن أنس، والثوري [رحمهم الله تعالى]^(٤).

وقوله: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أي: إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ لبلاغاً: لمنفعة وكفاية لقوم عابدين، وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم.

وقوله [تعالى]^(٥): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾: يخبر تعالى أن الله جعل محمداً ﷺ رحمة للعالمين، أي: أرسله رحمة لهم كلهم، فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة، سعد في الدنيا والآخرة، ومن ردّها وجحدّها خسر في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ. جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنسَوْنَ^(٦) الْفَرَارَ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]، وقال الله تعالى في صفة القرآن: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقال مسلم في صحيحه: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا مروان الفزاري، عن يزيد بن كيسان، عن ابن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين، قال: «إني لم أبعث لعناً، وإنما بعثت رحمة». انفرد بإخراجه مسلم^(٧).

وفى الحديث الآخر: «إنا أنا رحمة مهداة». رواه عبد الله بن أبي عرابة، وغيره، عن وكيع، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً^(٨). قال إبراهيم الحربي: وقد رواه غيره عن وكيع،

(١) تفسير الطبري (١٧/٨١).

(٢) في ت: «أم الكتاب والذي». (٣) في ف: «الله تعالى».

(٤) زيادة من ت، وفي ف، أ: «عز وجل». (٦) في ت، ف، أ: «فبش».

(٧) صحيح مسلم برقم (٢٥٥٩).

(٨) رواه أبو الحسن السكري في «الفوائد المنتقاة» (٢/١٥٧). كما في السلسلة الصحيحة (١/٨٠٣) للالباني - حدثنا عبد الله بن محمد

ابن أسد، حدثنا حاتم بن منصور الشاشي قال: حدثنا عبد الله بن أبي عرابة الشاشي به.

ورواه غيره متصلاً:

فرواه عبد الله بن نصر الأصم عن وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً.

فلم يذكر أبا هريرة^(١). وكذا قال البخاري، وقد سئل عن هذا الحديث، فقال: كان عند حفص بن غياث مرسلًا.

قال الحافظ ابن عساكر: وقد رواه مالك بن سَعِير بن الْخُمُس، عن الْأَعْمَش، عن أَبِي صَالِح، عن أَبِي هُرَيْرَةَ مرفوعاً^(٢). ثم ساقه من طريق أَبِي بَكْر بن الْقُرَيْ وَأَبِي أَحْمَد الْحَاكِم، كلاهما عن بَكْر ابن محمد بن إبراهيم الصوفي: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، عن أَبِي أَسَامَةَ، عن إِسْمَاعِيل بن أَبِي خَالِد، عن قَيْس^(٣) بن أَبِي حَازِم، عن أَبِي هُرَيْرَةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مَهْدَاة».

ثم أورده من طريق الصَّلْت بن مسعود، عن سَفْيَان بن عَيْنَةَ، عن مِسْعَر^(٤)، عن سعيد بن خالد، عن رجل، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي رَحْمَةً مَهْدَاة، بُعِثْتُ بِرَفْعِ قَوْمٍ وَخَفَضِ آخَرِينَ»^(٥).

قال أَبُو الْقَاسِم الطبراني: حدثنا أحمد بن محمد بن نافع الطحان، حدثنا أحمد بن صالح قال: وجدت كتاباً بالمدينة عن عبد العزيز الدراوردي وإبراهيم بن محمد بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف، عن محمد بن صالح التمار، عن ابن [شهاب]^(٦)، عن محمد بن جُبَيْر بن مطعم، عن أبيه قال: قال أبو جهل حين قدم [مكة]^(٧) منصرفه عن حَمْزَةَ: يا معشر قريش، إن محمداً نزل يثرب وأرسل طلائعه، وإنما يريد أن يصيب منكم شيئاً، فاحذروا أن تمروا طريقه أو تقاربوه^(٨)، فإنه كالأسد الضاري؛ إنه حَنَقَ عليكم؛ لأنكم نفيتموه نفى القردان عن المناسم^(٩)، والله إن له لَسَحْرَةً، ما رأيته قط ولا أحداً من أصحابه إلا رأيته معهم الشيطان، وإنكم قد عرفتم عداوة ابني قَيْلَةَ - يعني: الأوس والخزرج - لهو عدو استعان بعدو، فقال له مطعم بن عدي: يا أبا الحكم، والله ما رأيته أحداً أصدق لساناً، ولا أصدق موعداً، من أخيكم الذي طردتم، وإذا فعلتم الذي فعلتم فكونوا أكف الناس عنه. قال [أبو سفيان]^(١٠) بن الحارث: كونوا أشد ما كنتم عليه، إن^(١١) ابني قَيْلَةَ إن ظفروا بكم لم يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة، وإن أطعتموني ألجأتهم خير كناية، أو تخرجوا محمداً

= خرجه ابن عدي في الكامل (٢٣١/٤) من طريق عمر بن سنان عن عبد الله بن نصر.
وقال: «هكذا حدثنا عمر بن سنان عن عبد الله بن نصر عن وكيع عن الأعمش، وهذا غير محفوظ عن وكيع عن الأعمش، وإنما يرويه مالك بن سعيد عن الأعمش، وعبد الله بن نصر هذا له غير ما ذكرت مما أنكرت عليه».
(١) رواه ابن أبي شبة في المصنف (٥٠٤/١١) عن وكيع مرسلًا، ورواه ابن سعد في الطبقات (١٨٢/١) عن وكيع مرسلًا، ورواه البيهقي في دلائل النبوة (١٥٧/١) من طريق إبراهيم بن عبد الله عن وكيع مرسلًا.
(٢) ورواه البزار في مسنده برقم (٢٣٦٩) «كشف الاستار» والبيهقي في دلائل النبوة (١٥٨/١) من طريق زياد بن يحيى عن مالك بن سعيد به، وقال البزار: «لا نعلم أحداً وصله إلا مالك بن سعيد، وغيره يرسله».
(٣) في ت، أ: «حسن».
(٤) في أ: «عن شعبة».
(٥) وذكره السيوطي في الجامع الصغير ورمز له الألباني بالضعف.
(٦، ٧) زيادة من أ.
(٨) في ت: «أو تحاربوه».
(٩) في أ: «الناس».
(١٠) في ت: «فإن».
(١١) زيادة من أ.

من بين ظهرائهم، فيكون وحيدا مطرودا، وأما [ابنا قَيْلَة فوالله ما هما]^(١) وأهل [دهلك]^(٢) فى المذلة إلا سواء وسأكفيكم حدتهم، وقال:

سَامَحُ جَانِباً مَنَى غَلِيظاً عَلَى مَا كَانَ مِنْ قُرْبٍ وَبُعْدٍ
رَجَالُ الْخَزَرْجِيَّةِ أَهْلُ ذُلٍّ إِذَا مَا كَانَ هَزْلٌ بَعْدَ جَدٍّ

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «والذى نفسى بيده، لأقتلنهم ولأصلبنهم ولأهدينهم وهم كارهون، إني رحمة بعثنى الله، ولا يتوفأني حتى يظهر الله دينه، لى خمسة أسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى، وأنا العاقب»^(٣).

وقال أحمد بن صالح: أرجو أن يكون الحديث صحيحاً.

وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا زائدة، حدثني عمرو بن قيس، عن عمرو بن أبى قرة الكندى قال: كان حذيفة بالمدائن، فكان يذكر أشياء قالها رسول الله ﷺ، فجاء حذيفة إلى سلمان فقال سلمان: يا حذيفة، إن رسول الله ﷺ [كان يغضب فيقول، ويرضى فيقول: لقد علمت أن رسول الله ﷺ]^(٤) خطب فقال: «أما رجل من أمتى سببته [سبباً]^(٥) فى غضبى أو لعنته لعنة، فلما أنا رجل من ولد آدم، أغضب كما يغضبون، ولما بعثنى رحمة للعالمين، فاجعلها صلاة عليه يوم القيامة». ورواه أبو داود، عن أحمد بن يونس، عن زائدة^(٦).

فإن قيل: فأى رحمة حصلت لمن كفر به؟ فالجواب ما رواه أبو جعفر بن جرير: حدثنا إسحاق ابن شاهين، حدثنا إسحاق الأزرق، عن المسعودى، عن رجل يقال له: سعيد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ قال: من آمن بالله واليوم الآخر، كتب له الرحمة فى الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفى مما أصاب الأمم من الخسف والقذف^(٧). وهكذا رواه ابن أبى حاتم، من حديث المسعودى، عن أبى سعد - وهو سعيد بن المرزبان البقال - عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فذكره بنحوه، والله أعلم.

وقد رواه أبو القاسم الطبرانى عن عبدان بن أحمد، عن عيسى بن يونس الرملى، عن أيوب ابن سويد، عن المسعودى، عن حبيب بن أبى ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ قال: من تبعه كان له رحمة فى الدنيا والآخرة، ومن لم يتبعه عوفى مما كان يبتلى به سائر الأمم من الخسف والقذف^(٨).

(١، ٢) زيادة من ت، أ.

(٣) المعجم الكبير (٢/١٢٣).

(٤، ٥) زيادة من ت، أ، والمسند

(٦) المسند (٥/٤٣٧) وسنن أبى داود برقم (٤٦٥٩).

(٧) تفسير الطبرى (١٧/٨٣).

(٨) المعجم الكبير (١٢/٢٣).

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٨) ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أُدْرِيَ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ (١٠٩) ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ (١١٠) ﴿وَإِنْ أُدْرِيَ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (١١١) ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (١١٢).

يقول تعالى أمراً رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، أن يقول للمشركين: ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أى: متبعون على ذلك، مستسلمون منقادون^(١) له. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أى: تركوا ما دعوتهم إليه، ﴿فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أى: أعلمتكم أنى حرب لكم، كما أنكم حرب لى، برىء منكم كما أنكم برء منى، كقوله: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]. وقال: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]: ليكن^(٢) علمك وعلمهم بنذ العهود على السواء، وهكذا ها هنا، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أى: أعلمتكم ببراءتى منكم، وبراءتكم منى؛ لعلمى بذلك.

وقوله: ﴿وَإِنْ أُدْرِيَ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أى: هو واقع لا محالة، ولكن لا علم لى بقربه ولا ببعده، ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ أى: إن الله يعلم الغيب جميعه، ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون، يعلم الظواهر والضمائر، ويعلم السر وأخفى، ويعلم ما العباد عاملون فى أجهارهم وأسرارهم، وسيجزئهم على ذلك، على القليل والجليل.

وقوله: ﴿وَإِنْ أُدْرِيَ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أى: وما أدرى لعل هذا فتنه لكم ومتاع إلى حين.

قال ابن جرير: لعل تأخير ذلك^(٣) عنكم فتنه لكم، ومتاع إلى أجل مسمى^(٤). وحكاه عون، عن ابن عباس، والله أعلم.

﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ أى: افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق.

قال قتادة: كان الأنبياء، عليهم السلام، يقولون: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك.

وعن مالك، عن زيد بن أسلم: كان رسول الله ﷺ إذا شهد قتالا قال: ﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾

وقوله: ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أى: على ما يقولون ويفترون من الكذب، ويتنوعون فى مقامات التكذيب والإفك، والله المستعان عليكم فى ذلك^(٥).

(٣) فى أ: «هذا».

(٢) فى ت: «لكن».

(١) فى ت: «متقاربين».

(٤) تفسير الطبرى (١٧/٨٤).

(٥) وقع فى ت: «آخر تفسير «سورة الأنبياء» عليهم السلام، والله الحمد والمنة، عفا الله لمن نظر فيه ولكتابه للمسلمين أجمعين».

تفسير سورة الحج

[وهى مكية] (١).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝ (٢)﴾.

يقول تعالى آمرا عباده بتقواه، ومخبرا لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وزلازلها وأحوالها. وقد اختلف المفسرون فى زلزلة الساعة: هل هى بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عَرَصَاتِ القيامة؟ أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجداثهم؟ كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا. وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً. فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٤، ١٥]، وقال تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا. وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا. فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾ [الواقعة: ٦٤-٦٤].

فقال قائلون: هذه الزلزلة كائنة فى آخر عمر الدنيا، وأول أحوال الساعة.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بَشَّار، حدثنا يحيى، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة فى قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، قال: قبل الساعة.

ورواه ابن أبى حاتم من حديث الثورى، عن منصور والأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، فذكره. قال: وروى عن الشعبى، وإبراهيم، وعبيد بن عمير، نحو ذلك.

وقال أبو كُدَيْنَةَ، عن عطاء، عن عامر الشعبى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ الآية، قال: هذا فى الدنيا قبل يوم القيامة.

وقد أورد الإمام أبو جعفر بن جرير مُسْتَنَدَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ فى حديث الصُّور، من رواية إسماعيل ابن رافع قاضى أهل المدينة، عن يزيد بن أبى زياد، عن رجل من الأنصار، عن محمد بن كعب القرظى، عن رجل، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا فَرَّغَ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ خَلَقَ الصُّورَ، فَأَعْطَاهُ إِسْرَافِيلَ، فَهُوَ وَاضِعُهُ عَلَى فِيهِ، شَاخِصٌ بِيَصْرِهِ إِلَى الْعَرْشِ، يَنْتَظِرُ مَتَى يَوْمَرُ». قال أبو هريرة: يارسول الله، وما الصور؟

قال: «قرن» قال: فكيف هو؟ قال: «قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات، الأولى نفخة الفزع،

(١) زيادة من ت.

والثانية نفخة الصَّعَق، والثالثة نفخة ^(١) القيام لرب العالمين، يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول: انفخ نفخة الفزع. فيفزع أهل السموات وأهل الأرض، إلا من شاء الله، ويأمره فيمدها ويطولها ولا يفتر، وهى التى يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ [ص: ١٥] فَيُسِيرُ اللَّهُ الْجِبَالَ، فتكون سراباً وتُرج الأرض بأهلها رجاً، وهى التى يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ. تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ. قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات: ٦- ٨]، فتكون الأرض، كالسفينة الموبقة ^(٢) فى البحر، تضربها الأمواج تكفؤها بأهلها، وكالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الأرواح. فيمتد الناس على ظهرها، فتذهل المراضع، وتضع الحوامل. ويشيب ^(٣) الولدان، وتطير الشياطين هاربة، حتى تأتى الأقطار، فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها، فترجع، ويولى ^(٤) الناس مدبرين، ينادى بعضهم بعضاً، وهو الذى يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ ^(٥). يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَّا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣] فبينما هم على ذلك إذا انصدعت الأرض من قطر إلى قطر، فَرَأَوْا أَمْرًا عَظِيمًا، فأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به، ثم نظروا إلى السماء فإذا هى كالمهل، ثم خسف شمسها وخسف قمرها، وانتشرت نجومها، ثم كُشِطَتْ عَنْهُمْ قال رسول الله ﷺ: «والأموات لا يعلمون بشيء من ذلك» قال أبو هريرة: فمن استثنى الله حين يقول: ﴿فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ﴾ ^(٦) شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]؟ قال: أولئك الشهداء، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون، وقاهم الله شر ذلك اليوم وآمنهم، وهو عذاب الله بيعته على شرار خلقه، وهو الذى يقول الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ ^(٧).

وهذا الحديث قد رواه الطبرانى، وابن جرير، وابن أبى حاتم، وغير واحد ^(٨)، مطولاً جداً. والغرض منه أنه دل على أن هذه الزلزلة ^(٩) كائنة قبل يوم الساعة، وأضيفت إلى الساعة لقربها منها، كما يقال: أشرط الساعة، ونحو ذلك، والله أعلم.

وقال آخرون: بل ذلك هول وفزع وزلزال وبلبال، كائن يوم القيامة فى العرصات، بعد القيام من القبور. واختار ذلك ابن جرير. واحتجوا بأحاديث:

الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن هشام، حدثنا ^(١٠) قتادة، عن الحسن، عن عمران [ابن] ^(١١) حصين؛ أن رسول الله ﷺ قال وهو فى بعض أسفاره، وقد تفاوت بين أصحابه السير، رفع بهاتين الآيتين صوته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ

(٣) فى ت، أ: «وتشيب».

(٦) فى ت: «ما».

(٢) فى ت: «المرسية».

(٥) فى ت: «التنادى».

(١) فى ت: «والنفخة الثالثة».

(٤) فى ت: «وتولى».

(٧) تفسير الطبرى (١٧/ ٨٥).

(٨) حديث الصور سبق عند تفسير الآية ٧٣ من سورة الأنعام.

(١٠) فى ت: «عن».

(٩) فى ت: «الزلزلة له».

(١١) زيادة من ت، أ، والمسنَد.

مُرْضِعَةً عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿١﴾، فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المظي، وعرفوا أنه عند قول يقوله، فلما تأشهو حوله قال: «أتدرون أى يوم ذاك؟ يوم ينادى آدم، عليه السلام، فيناديه ربه عز وجل، فيقول: يا آدم، ابعث بعثك إلى النار فيقول: يارب، وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فى النار، وواحد فى الجنة». قال فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا بضاحكة، فلما رأى ذلك قال: «أبشروا واعملوا، فوالذى نفس محمد بيده، إنكم لمع^(١) خَلِيقَتَيْنِ ما كانتا مع شيء قط إلا كثرناه: يأجوج ومأجوج، ومن هلك من بنى آدم وبنى إبليس» قال: فسرى عنهم، ثم قال: اعملوا وأبشروا، فوالذى نفس محمد بيده، ما أنتم فى الناس إلا كالشامة فى جنب البعيرة، أو الرقمة فى ذراع الدابة».

وهكذا رواه الترمذى والنسائى فى كتاب التفسير من سننهما، عن محمد بن بشار، عن يحيى - وهو القَطَّان - عن هشام - وهو الدستوائى - عن قتادة، به^(٢) بنحوه. وقال الترمذى: حسن صحيح.

طريق أخرى لهذا الحديث: قال^(٣) الترمذى: حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا ابن جُدعان، عن الحسن، عن عمران بن حصين؛ أن النبى ﷺ قال: لما نزلت: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ^(٤) اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ» إلى قوله: «وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ»^(٥)، قال: أنزلت عليه هذه، وهو فى سفر، فقال: «أتدرون أى يوم ذلك؟» فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذلك يوم يقول الله لآدم: ابعث بعث النار. قال: يارب، وما بعث النار؟ قال: تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة» فأنشأ المسلمون ييكون، فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسددوا، فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية» قال: «فيؤخذ العدد من الجاهلية، فإن تمت وإلا كُملت من المنافقين، وما مثلكم والأمم إلا كمثل الرقمة فى ذراع الدابة، أو كالشامة^(٥) فى جنب البعير» ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبروا» ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة» فكبروا، ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة» فكبروا، قال: ولا أدري أقال الثلثين أم لا؟

وكذا رواه الإمام أحمد عن سفيان بن عيينة^(٦)، ثم قال الترمذى أيضا: هذا حديث حسن صحيح.

وقد روى عن سعيد بن أبى عروبة عن الحسن، عن عمران بن الحصين. وقد رواه ابن أبى حاتم من حديث سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن الحسن والعلاء بن زياد العدوى، عن عمران بن الحصين^(٧)، فذكره.

(١) فى ت: «مع».

(٢) المسند (٤٣٥/٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٦٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٤٠).

(٣) فى ت: «وقال». (٤) فى ت: «يأيها الذين آمنوا» وهو خطأ.

(٥) فى ت: «وكالشامة».

(٦) سنن الترمذى برقم (٣١٦٨) والمسند (٤٣٢/٤).

(٧) فى ت: «ابن حصين».

وهكذا روى ابن جرير عن بُندَار، عن عُندَر، عن عوف، عن الحسن قال: بلغني أن رسول الله ﷺ لما قفل من غزوة العُسرة ومعه أصحابه بعدما شارف المدينة قرأ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ وذكر الحديث^(١)، فذكر نحو سياق ابن جُدْعَانَ، فالله أعلم.

الحديث الثاني: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن الطَّبَّاع، حدثنا أبو سفيان - [يعنى]^(٢) المعمرى - عن مَعْمَر، عن قتادة، عن أنس قال: نزلت: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ وذكر - يعنى: نحو سياق الحسن عن عمران - غير أنه قال: «ومن هلك من كفره الجن والإنس».

رواه ابن جرير بطوله، من حديث معمر^(٣).

الحديث الثالث: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد - يعنى: ابن العوام - حدثنا هلال بن خباب^(٤)، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: تلا^(٥) رسول الله ﷺ هذه الآية فذكر نحوه، وقال فيه: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة»، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة» ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة» ففرحوا، وزاد أيضاً: «وإنما أنتم جزء من ألف جزء»^(٦).

الحديث الرابع: قال البخارى عند هذه الآية: حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثنا أبو صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك. فينادى بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار. قال: يارب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف - أراه قال - تسعمائة وتسعة وتسعين»^(٧). فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد، «وترى الناس سُكَّارَيْنِ وَمَا هُمْ بِسُكَّارَيْنِ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم، قال النبي ﷺ: «من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين»^(٨)، ومنكم واحد، ثم أنتم فى الناس كالشعرة السوداء فى جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء فى جنب الثور الأسود، وإنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة». فكبّرنا، ثم قال: «ثلث أهل الجنة». فكبّرنا، ثم قال: «شطر أهل الجنة» فكبّرنا^(٩).

وقد رواه البخارى أيضاً فى غير هذا الموضع، ومسلم، والنسائى فى تفسيره، من طرق، عن الأعمش، به^(١٠).

(١) تفسير الطبرى (٨٦/١٧).

(٢) زيادة من أ.

(٣) تفسير الطبرى (٨٧/١٧).

(٤) فى ت: «ابن حبان».

(٥) فى ت: «قال».

(٦) ورواه البزار فى مسنده برقم (٢٢٣٥) «كشف الأستار» حدثنا أبو بكر بن إسحاق عن سعد بن سليمان به، وقال: «لا نعلمه يروى عن ابن عباس إلا بهذا الإسناد».

وقال الهيثمى فى المجمع (٦٩/٧): «قلت فى الصحيح بعضه، رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير هلال بن خباب وهو ثقة».

(٧، ٨) فى ت: «وتسعون».

(٩) صحيح البخارى برقم (٤٧٤١).

(١٠) صحيح البخارى برقم (٣٣٤٨، ٧٤٨٣) وصحيح مسلم برقم (٢٢٢) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٣٩).

الحديث الخامس: قال الإمام أحمد: حدثنا عمار^(١) بن محمد - ابن أخت سفيان الثوري - وعبيدة المعنى، كلاهما عن إبراهيم بن مسلم، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث يوم القيامة منادياً [ينادى]^(٢): يا آدم، إن الله يأمرك أن تبعث بعثاً من ذريتك إلى النار، فيقول آدم: يارب، من هم؟ فيقال له: من كل مائة تسعة وتسعين». فقال رجل من القوم: من هذا الناجي منا بعد هذا يارسول الله؟ قال^(٣): «هل تدرّون ما أنتم في الناس إلا كالشامة في صدر البعير»^(٤).

انفرد بهذا السند وهذا السياق الإمام أحمد.

الحديث السادس: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن حاتم بن أبي صغيرة، حدثنا ابن أبي مليكة؛ أن القاسم بن محمد أخبره، عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «إنكم تحشرون يوم القيامة حُفَاة عِراة غرلاً». قالت عائشة: يارسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «يا عائشة، إن الأمر أشد من أن يهمهم ذاك». أخرجاه في الصحيحين^(٥).

الحديث السابع: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن خالد بن أبي عمران، عن القاسم بن محمد، عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة؟ قال: «يا عائشة، أما عند ثلاث فلا، أما عند الميزان حتى يثقل أو يخف، فلا. وأما عند تطاير الكتب فإذا يعطى يمينه أو يعطى بشماله، فلا. وحين يخرج عُتُق من النار فينطوى عليهم، ويتغيظ عليهم، ويقول ذلك العنق: وكلت بثلاثة، وكلت بثلاثة، وكلت بثلاثة: وكلت بمن ادعى مع الله إلهاً آخر، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب، ووكلت بكل جبار عنيد» قال: «فينطوى»^(٦) عليهم، ويرميهم في غمرات، ولجهنم جسر أدق من الشعر وأحد من السيف، عليه كلاليب وحسك يأخذون من شاء الله، والناس عليه كالطرف والبرق والالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، والملائكة يقولون: رب، سلّم، سلّم. فجاج مسلم، ومخدوش مسلم، ومكور^(٧) في النار على وجهه^(٨)»^(٩).

والأحاديث في أهوال يوم القيامة والآثار كثيرة جداً، لها موضع آخر، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ أي: أمر كبير، وخطب جليل، وطارق مفضّع، وحادث هائل، وكائن عجيب.

والزلازل^(١٠): هو ما يحصل للنفوس من الفزع، والرعب كما قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١].

(١) في ت: «عمارة». (٢) زيادة من ف، أ، والمسند. (٣) في ت: «فقال».

(٤) المسند (١/٣٨٨).

(٥) المسند (٦/٥٣) وصحيح البخاري برقم (٦٥٢٧) وصحيح مسلم برقم (٢٨٥٥).

(٦) في ت: «وينطوى». (٧) في أ: «ومكبوب». (٨) في ت: «وجوههم».

(٩) المسند (٦/١١٠).

(١٠) في ت: «والزلازل».

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾: هذا من باب ضمير الشأن؛ ولهذا قال مفسراً له: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أى: تشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها، والتي هى أشفق الناس عليه، تدهش عنه فى حال إرضاعها له؛ ولهذا قال: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾، ولم يقل: «مرضع» وقال: ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أى: عن رضيعها قبل فطامه.

وقوله: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أى: قبل تمامه لشدة الهول، ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ وقرئ: «سُكَرَى» أى: من شدة الأمر الذى [قد] ^(١) صاروا فيه قد دهشت عقولهم، وغابت أذهانهم، فمن رآهم حسب أنهم سُكَارَى، ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٤)﴾.

يقول تعالى ذاماً لمن كذب بالبعث، وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى، معرضاً عما أنزل الله على أنبيائه، متبعاً فى قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مرید، من الإنس والجن، وهذا حال أهل الضلال ^(٢) والبدع، المعرضين عن الحق، المتبعين للباطل، يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة، الدعاة إلى البدع بالآهواء والآراء، ولهذا قال فى شأنهم وأشباههم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أى: علم صحيح، ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾. كُتِبَ عَلَيْهِ قال مجاهد: يعنى الشيطان، يعنى: كتب عليه كتابة قدرية ﴿أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ﴾ أى: اتبعه وقلده، ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أى: يضلّه فى الدنيا ويقوده فى الآخرة إلى عذاب السعير، وهو الحار المؤلم المزعج المقلق.

وقد قال السدى، عن أبى مالك: نزلت هذه الآية فى النضر بن الحارث. وكذلك ^(٣) قال ابن جريج.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا عمرو بن سلم ^(٤) البصرى، حدثنا عمرو بن المحرم أبو قتادة، حدثنا المعمر ^(٥)، حدثنا أبو كعب المكي قال: قال خبيث من خبثاء قريش: أخبرنا ^(٦) عن ربكم، من ذهب هو، أو من فضة هو، أو من نحاس هو؟ فقعقت السماء قعقة - والقعقة فى العرب: الرعد - فإذا قحف رأسه ساقط بين يديه.

وقال ليث بن أبى سليم، عن مجاهد: جاء يهودى فقال: يامحمد، أخبرنى عن ربك: من أى شىء هو؟ من در أم من ياقوت؟ قال: فجاءت صاعقة فأخذته.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ

(٣) فى ف: «وكذا».

(٦) فى ت: «حدثنا».

(٢) فى ت: «الضلالة».

(٥) فى ت: «المعتمر».

(١) زيادة من ت.

(٤) فى ت، ف: «ابن مسلم».

عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لَكُمْ يُعَلِّمُ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٧) ﴿﴾

لما ذكر تعالى المخالف للبعث، المنكر للمعاد، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد، بما يشاهد من بدئه للخلق^(١)، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ أي: فى شك ﴿مِّنَ الْبَعْثِ﴾ وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ﴾ أي: أصل برئه^(٢) لكم من تراب، وهو الذى خلق منه آدم، عليه السلام ﴿ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ﴿ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ﴾ ذلك أنه إذا استقرت النطفة فى رحم المرأة، مكثت أربعين يوما كذلك، يضاف إليه ما يجتمع إليها، ثم تنقلب علقه حمراء بإذن الله، فتمكث كذلك أربعين يوما، ثم تستحيل فتصير مضغة - قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط - ثم يشرع فى التشكيل والتخطيط، فيصور منها رأس ويدان، وصدر وبطن، وفخذان ورجلان، وسائر الأعضاء. فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ﴾ أي: كما تشاهدونها، ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: وتارة تستقر فى الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها، كما قال مجاهد فى قوله تعالى: ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ﴾، قال: هو السقط مخلوق وغير مخلوق. فإذا مضى عليها أربعون يوما، وهى مضغة، أرسل الله تعالى إليها ملكا فنفخ^(٣) فيها الروح، وسواها كما يشاء الله عز وجل^(٤)، من حسن وقبيح، وذكر وأنثى، وكتب رزقها وأجلها، وشقى أو سعيد، كما ثبت فى الصحيحين، من حديث الأعمش، عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ - وهو الصادق المصدوق -: «إن خلق أحدكم يُجمع فى بطن أمه أربعين ليلة، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات: بكتب عمله وأجله ورزقه، وشقى أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح»^(٥).

وروى ابن جرير، وابن أبى حاتم من حديث داود بن أبى هند، عن الشعبي، عن علقمة، عن عبدالله قال: النطفة إذا استقرت فى الرحم، أخذها^(٦) ملك بكفه قال^(٧): يارب، مخلقة أو غير

(١) فى ت: «بما شاهد من بين يديه للخلق»، وفى ف: «بما يشاهده من بين يديه للخلق».

(٢) فى ت، ف: «تربه». (٣) فى أ: «فينفخ».

(٥) صحيح البخارى برقم (٦٥٩٤) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٣).

(٦) فى هـ، ت، ف: «جاءها»، والمثبت من الدر المنثور ٣/ ٣٤٥.

(٧) فى ت، ف: «فقال».

مخلقة؟ فإن قيل: «غير مخلقة» لم تكن نسمة، وقذفتها الأرحام دماً. وإن قيل: «مخلقة»، قال: أى رب، ذكر أو أنثى؟ شقى أو سعيد؟ ما الأجل؟ وما الأثر؟ وبأى أرض يموت^(١)؟ قال: فيقال للنطفة: من ربك؟ فتقول: الله. فيقال: من رازقك؟ فتقول: الله. فيقال له: اذهب إلى أم الكتاب، فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة. قال: فتخلق فتعيش فى أجلها، وتأكل رزقها، وتطأ أثرها، حتى إذا جاء أجلها ماتت، فدفنت فى ذلك المكان، ثم تلا عامر الشعبي: «يَأْيُهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ ﴿١﴾ فإذا بلغت مضغة نكست فى الخلق الرابع فكانت نسمة، فإن كانت غير مخلقة قذفتها الأرحام دماً، وإن كانت مخلقة نكست فى الخلق.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن أبى الطفيل، عن حذيفة بن أسيد - يبلغ به النبى ﷺ - قال: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين أو خمس وأربعين، فيقول: أى رب، أشقى أم سعيد؟ فيقول الله، ويكتبان، فيقول: أذكر أم أنثى؟ فيقول الله ويكتبان، ويكتب عمله وأثره ورزقه وأجله، ثم تطوى الصحف، فلا يزداد على ما فيها ولا ينقص^(٢)».

ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة، ومن طرق أخر، عن أبى الطفيل، بنحو معناه^(٣).

وقوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ أى: ضعيفاً فى بدنه، وسمعه وبصره وحواسه، وبطشه وعقله. ثم يعطيه الله القوة شيئاً فشيئاً، ويلطف^(٤) به، ويحنن عليه والديه فى آناء الليل وأطراف النهار؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ أى: يتكامل^(٥) القوى ويتزايد، ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر. ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّتَوَفَّى﴾، أى: فى حال شبابه وقواه، ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾، وهو الشيخوخة والهَرَمَ وضعف القوة والعقل والفهم، وتناقص الأحوال من الخرف^(٦) وضعف الفكر؛ ولهذا قال: ﴿لَكَيْلًا﴾^(٧) يعلم من بعد علم شيئاً، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

وقد قال الحافظ أبو يعلى [أحمد]^(٨) بن على بن المثنى الموصلى فى مسنده: حدثنا منصور بن أبى مزاحم^(٩)، حدثنا خالد الزيات، حدثنى داود أبو سليمان، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر ابن حزم الأنصارى، عن أنس بن مالك - رفع الحديث - قال: «المولود حتى يبلغ الحنث، ما عمل من حسنة، كتبت لوالده أو لوالدته^(١٠)، وما عمل من سيئة لم تكتب عليه ولا على والديه، فإذا بلغ الحنث جرى الله عليه القلم أمر الملكان اللذان معه أن يحفظا وأن يشددا، فإذا بلغ أربعين سنة فى

(١) فى ف: «تموت». (٢) فى ف: «ولا ينقص».

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٦٤٤).

(٤) فى ت، ف، أ: «من الحزن».

(٥) فى ت: «تتكامل».

(٦) فى أ: «ابن أبى عاصم».

(٨) زيادة من ت، ف، أ.

(٧) فى ت: «لا».

(١٠) فى ت، ف: «لوالديه».

الإسلام أمته الله من البليات الثلاث: الجنون، والجذام، والبرص. فإذا بلغ الخمسين، خفف الله حسابه. فإذا بلغ ستين رزقه الله الإنابة إليه بما يحب، فإذا بلغ السبعين أحبه أهل السماء، فإذا بلغ الثمانين كتب الله حسناته وتجاوز عن سيئاته، فإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وشفعه في أهل بيته، وكان أسير الله في أرضه، فإذا بلغ أرذل العمر ﴿لَكَيْلًا يَعْلَمُ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، كتب الله له مثل ما كان يعمل في صحته من الخير، فإذا عمل سيئة لم تكتب عليه^(١).

هذا حديث غريب جدا، وفيه نكارة شديدة. ومع هذا قد رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده مرفوعا وموقوفا فقال:

حدثنا أبو النضر، حدثنا الفرج، حدثنا محمد بن عامر، عن محمد بن عبد الله العامري^(٢)، عن عمرو بن جعفر، عن أنس قال: إذا بلغ الرجل المسلم أربعين سنة، أمته الله من أنواع البليات، من الجنون والجذام والبرص^(٣)، فإذا بلغ الخمسين لَّيَّنَ الله حسابه، وإذا بلغ الستين رزقه الله إنابة يحبه عليها، وإذا بلغ السبعين أحبه الله، وأحبه أهل السماء، وإذا بلغ الثمانين تقبل الله حسناته، ومحا عنه سيئاته، وإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسمى أسير الله في الأرض، وشفع في أهله^(٤).

ثم قال: حدثنا هاشم، حدثنا الفرج، حدثني محمد بن عبد الله العامري، عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ، مثله^(٥).

ورواه الإمام أحمد أيضا: حدثنا أنس بن عياض، حدثني يوسف بن أبي ذرة^(٦) الأنصاري، عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ما من معمر يعمر في الإسلام أربعين سنة، إلا صرف الله عنه ثلاثة أنواع من البلاء: الجنون والجذام والبرص^(٧)... وذكر تمام الحديث، كما تقدم سواء^(٨).

ورواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عبد الله بن شبيب، عن أبي شيبة، عن عبد الله بن عبد الملك^(٩)، عن أبي قتادة العذري، عن ابن أخي الزهري، عن عمه، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يعمر في الإسلام أربعين سنة، إلا صرف الله عنه أنواعا من البلاء: الجنون والجذام والبرص، فإذا بلغ خمسين سنة لين الله له الحساب، فإذا بلغ ستين سنة رزقه الله الإنابة إليه بما يحب، فإذا بلغ سبعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسمى أسير الله، وأحبه أهل السماء^(١٠)، فإذا بلغ الثمانين تقبل الله منه حسناته وتجاوز عن سيئاته، فإذا بلغ التسعين غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسمى أسير الله في أرضه، وشفع في أهل بيته^(١١).

(١) مسند أبي يعلى (٣٥٢/٦).

(٢) في ف: «البرص والجذام».

(٣) في ت، ف: «العالمى».

(٤) المسند (٨٩/٢).

(٥) المسند (٨٩/٢).

(٦) في ت: «أو الجذام أو البرص».

(٧) في هـ، ت، ف: «أبي بردة»، والتصويب من كتب الرجال.

(٨) المسند (٢١٧/٣) وفي إسناده يوسف بن أبي ذرة وهو ضعيف.

(٩) في ت: «عبد الله بن مالك».

(١٠) في أ: «السموات».

(١١) مسند البزار برقم (٣٥٨٨) «كشف الاستار».

وقوله: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾: هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى، كما يحيى الأرض الميتة الهامدة، وهى القحلة التى لا نبت فيها ولا شئ^(١).

وقال قتادة: غبراء متهشمة. وقال السدى: ميتة.

﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ﴾ أى: فإذا أنزل الله عليها المطر ﴿اهْتَزَّتْ﴾ أى: تحركت وحييت بعد موتها، ﴿وَرَبَتْ﴾ أى: ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون، من ثمار وزروع، وأشجار النباتات فى اختلاف ألوانها وطعومها، وروائحها وأشكالها ومنافعها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ﴾ أى: حسن المنظر طيب الريح.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أى: الخالق المدبر الفعال لما يشاء، ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [أى: كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع؛ ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾] ^(٢)، ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، ف ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أى: كائنة لا شك فيها ولا مرية، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أى: يعيدهم بعد ما صاروا فى قبورهم ربما، ويوجدتهم بعد العدم، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ. الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ [يس: ٧٨ - ٨٠] والآيات فى هذا كثيرة^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا بهز^(٤)، حدثنا حماد بن سلمة قال: أنبأنا يعلى عن عطاء، عن وكيع ابن حُدُس^(٥)، عن عمه أبى رزین العقيلي - واسمه لَقِيط بن عامر^(٦) - أنه قال: يا رسول الله، أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة؟ وما آية ذلك فى خلقه؟ فقال رسول الله ﷺ: «أليس كلکم ينظر إلى القمر مُخْلِياً به؟» قلنا: بلى. قال: «فالله أعظم». قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيى الله الموتى، وما آية ذلك فى خلقه؟ قال: «أما مررت بواى أهلك محلاً^(٧)» قال: بلى. قال: «ثم مررت به يهتز خضراً؟». قال: بلى. قال: «فكذلك يحيى الله الموتى، وذلك آيته فى خلقه».

ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث حماد بن سلمة، به^(٨).

ثم رواه الإمام أحمد أيضاً: حدثنا على بن إسحاق، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن سليمان بن موسى، عن أبى رزین العقيلي قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، كيف يحيى الله الموتى؟ قال: «أمررت بأرض من أرضك مُجْدَبَةٌ، ثم مررت بها

(١) فى ت: «التى لا ينبت فيها شيئاً». (٢) زيادة من ف، أ. (٣) فى ت: «الكثيرة».

(٤) فى ت: «يزيد».

(٥) فى ت: «عديس»، وفى ف، أ: «عدي».

(٦) فى ت: «ليث بن أبى عامر». (٧) فى أ: «محلاً».

(٨) المسند (١١/٤) وسنن أبى داود برقم (٤٧٣١) وسنن ابن ماجه برقم (١٨٠).

مخصبة؟» قال: نعم. قال: «كذلك النشور»^(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عُبَيْسُ^(٢) بن مرحوم، حدثنا بُكَيْرُ بن أبي السُّمَيْطِ، عن قتادة، عن أبي الحجاج، عن معاذ بن جبل قال: من علم أن الله هو الحق المبين، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور - دخل الجنة. [والله أعلم]^(٣).

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ (٨) ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠).

لما ذكر تعالى حال الضلال الجاهل المقلد في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾، ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾، أي: بلا عقل صحيح، ولا نقل صحيح صريح، بل بمجرد الرأي والهوى.

وقوله: ﴿ثَانِي عَطْفِهِ﴾: قال ابن عباس وغيره: مستكبراً عن الحق إذا دعى إليه.

وقال مجاهد، وقاتدة، ومالك عن زيد بن أسلم: ﴿ثَانِي عَطْفِهِ﴾ أي: لاوى عنقه، وهى رقبته، يعنى: يعرض عما يدعى إليه من الحق رقبته استكباراً، كقوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ. فَتَوَلَّىٰ بُرْكَتَهُ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٣٨، ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥]، وقال لقمان لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨] أي: تميله عنهم استكباراً عليهم، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تَنَلَّىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ١٧].

وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: قال بعضهم: هذه لام العاقبة؛ لأنه قد لا يقصد ذلك، ويحتمل أن تكون لام التعليل. ثم إما أن يكون المراد بها المعاندين^(٤)، أو يكون المراد بها أن هذا الفاعل لهذا إنما جبلناه على هذا الخلق الذى يجعله ممن يضل عن سبيل الله.

ثم قال تعالى: ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وهو الإهانة والذل، كما أنه لما استكبر عن آيات الله لَقَّاهُ الله المذلة فى الدنيا، وعاقبه فيها قبل الآخرة؛ لأنها أكبر همّه ومبلغ علمه، ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ﴾

(١) المسند (١١/٤).

(٢) فى ف، أ: «عيسى».

(٣) زيادة من ف، أ.

(٤) فى ت، ف: «المعاندون».

الْحَرِيقِ . ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ ﴿١١﴾ أَى: يقال له هذا تقرّيعاً وتوبيخاً، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾، كقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ . ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ . ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ . إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٤٧ - ٥٠].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن الصباح، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا هشام، عن الحسن قال: بلغني أن أحدهم يُحرق في اليوم سبعين ألف مرة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٣﴾ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾.

قال مجاهد، وقتادة، وغيرهما: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾: على شك^(١).

وقال غيرهم: على طرف. ومنه حرف الجبل، أى: طرفه، أى: دخل في الدين على طرف، فإن وجد ما يحبه استقر، وإلا انشمر.

وقال البخارى: حدثنا إبراهيم بن الحارث، حدثنا يحيى بن أبى بكير^(٢)، حدثنا إسرائيل، عن أبى حصين، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ قال: كان الرجل يقدّم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاماً، وتنجت خيله، قال: هذا دين صالح. وإن لم تلد امرأته، ولم تنتج^(٣) خيله قال: هذا دين سوء^(٤).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثني أبى، عن أبيه، عن أشعث بن إسحاق القمى، عن جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: كان ناس من الأعراب يأتون النبى ﷺ فإذا رجعوا إلى بلادهم، فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن، قالوا: «إن ديننا هذا لصالح، فتمسكوا به». وإن وجدوا عام جدوبة وعام ولاد سوء وعام قحط، قالوا: «ما فى ديننا هذا خير». فأنزل الله على نبيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾.

وقال العوفى، عن ابن عباس: كان أحدهم إذا قدم المدينة، وهى أرض وبيثة^(٥)، فإن صح بها جسمه، وتنجت فرسه مهراً حسناً، وولدت امرأته غلاماً، رضى به واطمأن إليه، وقال: «ما أصبت منذ كنت على ديني هذا إلا خيراً». وإن أصابته فتنة - والفتنة: البلاء - أى: وإن أصابه وجع المدينة،

(١) فى ت: «على شدة».

(٢) فى ف: «ابن أبى بكر».

(٣) فى ت، ف: «ينتج».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٤٢).

(٥) فى هـ، ت: «وهم أرض دونه» والمثبت من ف، أ.

وولدت امرأته جارية، وتأخرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شراً. وذلك الفتنة.

وهكذا ذكر قتادة، والضحاك، وابن جريج، وغير واحد من السلف، في تفسير هذه الآية.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو المنافق، إن صلحت له دنياه أقام على العبادة، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت، انقلب فلا يقيم على العبادة إلا لِمَا صلح من دنياه، فإن^(١) أصابته فتنة أو شدة أو اختبار أو ضيق، ترك دينه ورجع إلى الكفر.

وقال مجاهد في قوله: ﴿انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ أى: ارتد كافراً.

وقوله: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ أى: فلا هو حصّل من الدنيا على شيء، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم، فهو فيها فى غاية الشقاء والإهانة؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أى: هذه هى الخسارة العظيمة، والصفقة الخاسرة.

وقوله: ﴿يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ﴾ أى: من الأصنام والأنداد، يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها، وهى لا تنفعه ولا تضره، ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ. يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ أى: ضرره فى الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها، وأما فى الآخرة فضرره محقق متيقن.

وقوله: ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾: قال مجاهد: يعنى الوثن، يعنى: بشس هذا الذى دعا به من دون الله مولى، يعنى: ولياً وناصرأ، ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ وهو المخالط والمعاشر.

واختار ابن جرير أن المراد: لبس ابن العم والصاحب من يعبد [الله]^(٢) على حرف، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾.

وقول مجاهد: إن المراد به الوثن، أولى وأقرب إلى سياق الكلام، والله أعلم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (١٤).

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء، عطف بذكر الأبرار السعداء، من الذين آمنوا بقلوبهم، وصدقوا بإيمانهم بأفعالهم، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات، [وتركوا المنكرات]^(٣)، فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات، فى روضات الجنات.

ولما ذكر أنه أضل أولئك، وهدى هؤلاء، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَن لَّنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ

(١) فى ت، ف، أ: «فإذا».

(٢) زيادة من ت، ف، أ.

(٣) زيادة من ف، أ.

فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴿١٦﴾ .

قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ في الدنيا والآخرة، ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ أى: بجبل ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ أى: سماء بيته، ﴿ثُمَّ لَيَقَطَعْ﴾ يقول: ثم ليختنق به. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وأبو الجوزاء، وقتادة، وغيرهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ ^(١) بسبب إلى السماء أى: ليتوصل إلى بلوغ السماء، فإن النصر إنما يأتي محمداً من السماء، ﴿ثُمَّ لَيَقَطَعْ﴾ ذلك عنه، إن قدر على ذلك.

وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر فى المعنى، وأبلغ فى التهكم؛ فإن المعنى: من ظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه، إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]؛ ولهذا قال: ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ﴾.

قال السدى: يعنى: من شأن محمد ^(٢) ﷺ.

وقال عطاء الخراسانى: فلينظر هل يشفى ذلك ما يجد فى صدره من الغيظ.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أى: القرآن ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أى: واضحات فى لفظها ومعناها، حجة من الله على الناس ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ أى: يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، وله الحكمة التامة والحجة ^(٣) القاطعة فى ذلك، ﴿لَا^(٤) يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، أما هو فلحكيمته ورحمته وعدله، وعلمه وقهره وعظمته، لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِّينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿١٧﴾ .

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين، ومن سواهم من اليهود والصابئين - وقد قدمنا فى سورة «البقرة» التعريف بهم، واختلاف الناس فيهم - والنصارى والمجوس، والذين أشركوا فعبدوا غير الله معه؛ فإنه تعالى ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ويحكم بينهم بالعدل ^(٥)، فيدخل من آمن به الجنة، ومن كفر به ^(٦) النار، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، حفيظ لأقوالهم، عليم بسرائرهم، وما تكن ضمائرهم.

(١) فى ت: «وليمدد».

(٢) فى ت: «محمد».

(٣) فى ت: «وله الحجة».

(٤) فى ت: «ولا».

(٦) فى ت، أ: «إلى».

(٥) فى ت: «بالعذاب».

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرَمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (١٨).

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد^(١) لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً وسجود [كل شيء مما]^(٢) يختص به، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا^(٣) إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨]. وقال ها هنا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: من الملائكة فى أقطار السموات، والحيوانات فى جميع الجهات، من الإنس والجن والدواب والطيور، ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾: إنما ذكر هذه على التنصيص؛ لأنها قد عُبِدَت من دون الله، فبين أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وفى الصحيحين عن أبى ذر، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدرى أين تذهب هذه الشمس؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها: ارجعى من حيث جئت»^(٤).

وفى المسند وسنن أبى داود، والنسائى، وابن ماجه، فى حديث الكسوف: «إن الشمس والقمر خَلَقَانِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، وإنيهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله عز وجل إذا تجلّى لشيء من خلقه خشع^(٥) له»^(٦).

وقال أبو العالية: ما فى السماء نجم ولا شمس ولا قمر، إلا يقع لله ساجداً حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعته.

وأما الجبال والشجر فسجودهما بقاء ظلّهما^(٧) عن اليمين والشمال: وعن ابن عباس قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، إني رأيتنى الليلة وأنا نائم، كأنى أصلى خلف شجرة، فسجدتُ فسجدت الشجرة لسجودى، فسمعتها وهى تقول: اللهم، اكتب لى بها عندك أجراً، وضع عنى بها وزراً، واجعلها لى عندك ذخراً، وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود. قال ابن عباس: فقرأ

(١) فى ت: «سجد». (٢) زيادة من ف. (٣) فى ت: «يرى».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٣) وصحيح مسلم برقم (١٥٩).

(٥) فى ف، أ: «خضع».

(٦) المسند (٢٦٧/٤) وسنن أبى داود برقم (١١٧٧) وسنن النسائى (١٤١١٣) وسنن ابن ماجه برقم (١٢٦٢).

(٧) فى ت: «فسجودها على ظلّها».

النبي ﷺ سجدة ثم سجد، فسمعتة وهو يقولُ مثلَ ما أخبره الرجل عن قول الشجرة.
رواه الترمذى، وابن ماجه، وابن حبان فى صحيحه^(٢).

وقوله: ﴿وَالدَّوَابُّ﴾ أى: الحيوانات كلها.

وقد جاء فى الحديث عن الإمام أحمد: أن رسول الله ﷺ نهى عن اتخاذ ظهور الدواب^(٣) منابر^(٤). فرب مركوبة خير^(٥) وأكثر ذكراً لله من ركبها.

وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ أى: يسجد لله طوعاً مختاراً متعبداً بذلك، ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾
أى: ممن امتنع وأبى واستكبر، ﴿وَمَن يَهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن شيبان الرملى، حدثنا القداح، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن على قال: قيل لعلى: إن ها هنا رجلاً يتكلم فى المشيئة. فقال له على: يا عبد الله، خلقتك الله كما يشاء أو كما شئت^(٦)؟ قال: بل كما شاء. قال: فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء؟ قال: بل حيث يشاء. قال: والله لو قلت غير ذلك لضربت الذى فيه عينك بالسيف.

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابنُ آدمُ السجدة اعتزل^(٧) الشيطان يبكى يقول: يا ويله. أمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت، فلى النار» رواه مسلم^(٨).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم وأبو عبد الرحمن المقرئ قالوا: حدثنا ابن لهيعة، حدثنا مشرح بن هاعان^(٩) أبو مُصعب الماعفرى قال: سمعت عقبة بن عامر يقول: قلت يا رسول الله، أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجديتين؟ قال: «نعم، فمن لم يسجد بهما فلا يقرأهما».

ورواه أبو داود والترمذى، من حديث عبد الله بن لهيعة، به^(١٠). وقال الترمذى: «ليس بقوى^(١١)» وفى هذا نظر؛ فإن ابن لهيعة قد صرح فيه بالسماع، وأكثر ما نَقَمُوا عليه تدليسه.

(١) فى ت: «رسول الله».

(٢) سنن الترمذى برقم (٥٧٩) وسنن ابن ماجه برقم (١٠٥٣) وقال الترمذى: «هذا حديث غريب من حديث ابن عباس لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

(٣) فى ف، أ: «الحيوانات».

(٤) ورواه أبو داود فى السنن برقم (٢٥٦٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٥) فى ف: «خيراً».

(٦) فى ت، ف: «لما يشاء أو لما شئت».

(٧) فى ف: «فاعتزل».

(٨) صحيح مسلم برقم (٨١).

(٩) فى أ: «عاهان».

(١٠) المسند (١٥١/٤) وسنن أبى داود برقم (١٤٠٢) وسنن الترمذى برقم (٥٧٨).

(١١) فى ف: «ليس هو بقوى».

وقد قال أبو داود في المراسيل: حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح، أنبأنا ابن وهب، أخبرني معاوية بن صالح، عن عامر بن جشيب^(١)، عن خالد بن معدان؛ أن رسول الله ﷺ قال: «فُضِّلَت سورة الحج على القرآن بسجديتين».

ثم قال أبو داود: وقد أَسَدَ هذا، يعنى: من غير هذا الوجه، ولا يصح^(٢).

وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلي: حدثنا ابن أبي داود، حدثنا يزيد بن عبد الله، حدثنا الوليد، حدثنا أبو عمرو، حدثنا حفص بن عنان، حدثني نافع، حدثني أبو الجهم: أن عمر سجد سجديتين في الحج، وهو بالجابية، وقال: إن هذه فضلت بسجديتين^(٣).

وروى أبو داود وابن ماجه، من حديث الحارث بن سعيد العتقى، عن عبد الله بن مئین، عن عمرو بن العاص؛ أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن، منها ثلاث في المَفْصَل، وفي سورة الحج سجدتان^(٤). فهذه^(٥) شواهد يَشُدُّ بعضها بعضها.

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢)﴾.

ثبت في الصحيحين، من^(٦) حديث أبي مجلز، عن قيس بن عباد، عن أبي ذر؛ أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ نزلت في حمزة وصاحبه، وعتبة وصاحبه، يوم برزوا في بدر^(٧).

لفظ البخارى عند تفسيرها، ثم قال البخارى:

حدثنا الحجاج بن منهال، حدثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبي، حدثنا أبو مجلز عن قيس بن عباد، عن علي بن أبي طالب أنه قال: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة. قال قيس: وفيهم نزلت: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾، قال: هم الذين بارزوا يوم بدر: عليّ وحمزة وعبيدة، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة. انفرد به البخارى^(٨).

وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في قوله: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ قال: اختصم المسلمون وأهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابتنا قبل كتابكم. فنحن أولى بالله

(١) في ف، أ: «جيب».

(٢) المراسيل برقم (٧٨).

(٣) ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٣١٧/٢) من طريق نافع عن رجل من أهل مصر أنه صلى مع عمر بن الخطاب فذكر مثله.

(٤) سنن أبي داود برقم (١٤٠١) وسنن ابن ماجه برقم (١٠٥٧).

(٥) في ف: «فهو».

(٦) في ت: «عن».

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٧٤٣) وصحيح مسلم برقم (٣٠٣٣).

(٨) صحيح البخارى برقم (٤٧٤٤).

منكم. وقال المسلمون: كتابنا يقضى على الكتب كلها، ونبينا خاتم الأنبياء، فنحن أولى بالله منكم. فافلج الله الإسلام على من ناواه، وأنزل: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾. وكذا روى العوفى، عن ابن عباس.

وقال شعبة، عن قتادة فى قوله: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ قال: مُصدق ومكذب.

وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد فى هذه الآية: مثل الكافر والمؤمن اختصما فى البعث. وقال - فى رواية: هو وعطاء فى هذه الآية -: هم المؤمنون والكافرون.

وقال عكرمة: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ قال: هى الجنة والنار، قالت النار: اجعلنى للعقوبة، وقالت الجنة: اجعلنى للرحمة.

وقولُ مجاهد وعطاء: إن المراد بهذا الكافرون والمؤمنون، يشمل الأقوال كلها، ويتنظم فيه قصة يوم بدر وغيرها؛ فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل. وهذا اختيار ابن جرير، وهو حسن؛ ولهذا قال: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ﴾ أى: فصلت لهم مقطعات من نار.

قال سعيد بن جبیر: من نحاس وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمى.

﴿يُصَّبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ. يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ أى: إذا صب على رؤوسهم الحميم، وهو الماء الحار فى غاية الحرارة.

وقال سعيد [بن جبیر]^(١): هو النحاس المذاب، أذاب ما فى بطونهم من الشحم والأمعاء. قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، وغيرهم. وكذلك تذوب^(٢) جلودهم، وقال ابن عباس وسعيد: تساقط.

وقال ابن جرير: حدثنى محمد بن المثنى، حدثنا إبراهيم أبو إسحاق الطالقانى، حدثنا ابن المبارك عن سعيد بن زيد^(٣)، عن أبى السَّمْح، عن ابن^(٤) حُجيرة، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «إن الحميم يُصَّبُّ على رؤوسهم، فينفذُ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه، فيسلت^(٥) ما فى جوفه، حتى يبلغ قدميه، وهو الصهر، ثم يعاد كما كان».

ورواه الترمذى من حديث ابن المبارك^(٦)، وقال: حسن صحيح. وهكذا رواه ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن أبى نعيم، عن ابن المبارك، به ثم قال ابن أبى حاتم:

حدثنا على بن الحسين، حدثنا أحمد بن أبى الحواري، سمعت عبد الله بن السُرِّيَّ قال: يأتى الملك يحمل الإناء بكلبتين من حرارته، فإذا أدناه من وجهه تكرهه، قال: فيرفع مِقْمَعَةً معه فيضرب

(٣) فى ت، ف: «يزيد».

(٢) فى ف: «يذوب».

(١) زيادة من ف، أ.

(٥) فى أ: «فيسلب».

(٤) فى ت: «أبى».

(٦) تفسير الطبرى (١٧/ ١٠٠) وسنن الترمذى برقم (٢٥٨٢).

بها رأسه، فَيُفْرَغُ^(١) دماغه، ثم يُفْرَغُ^(٢) الإناء من دماغه، فيصل إلى جوفه من دماغه، فذلك قوله: ﴿يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بَطُونِهِمْ وَالْجُلُودَ﴾

وقوله: ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾، قال الإمام أحمد:

حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا درّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «لو أن مِقْمَعًا مِنْ حَدِيدٍ وُضِعَ فِي^(٣) الأرض، فاجتمع له الثقلان ما أَقْلَوْهُ مِنَ الأرض»^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا^(٥) درّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لو ضُربَ الجبلُ بِمِقْمَعٍ مِنْ حَدِيدٍ، لَتَفَتَّتْ ثُمَّ عَادَ كَمَا كَانَ، وَلَوْ أَنَّ دَلُوا مِنْ غَسَّاقٍ يُهْرَأَقُ فِي الدُّنْيَا لَأَتَتْ أَهْلَ الدُّنْيَا»^(٦).

وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾ قال: يضربون بها، فيقع كل عضو على حياله، فيدعون^(٧) بالشبور.

وقوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾: قال الأعمش، عن أبي ظبيان، عن سلمان قال: النار سوداء مظلمة، لا يضيء لها ولا جمرها، ثم قرأ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾.

وقال زيد بن أسلم في هذه الآية: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾، قال: بلغني أن أهل النار في النار لا يتنفسون.

وقال الفضيل^(٨) بن عياض: والله ما طمعوا في الخروج، إن الأرجل لمقيدة، وإن الأيدي لموثقة، ولكن يرفعهم لها، وتردهم^(٩) مقامها.

وقوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، كقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠] ومعنى الكلام: أنهم يهانون بالعذاب قولاً وفعلًا.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ^(٢٣) وَهَدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُّوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ^(٢٤)﴾

لما أخبر تعالى عن حال أهل النار، عياداً بالله من حالهم، وما هم فيه من العذاب والنكال

(١) في ت، ف: «يفرق».

(٢) في ت: «يقرق».

(٣) في ت: «على».

(٤) المسند (٢٩/٣).

(٥) في ت، ف: «عن».

(٦) المسند (٨٣/٣) ودراج عن أبي الهيثم ضعيف.

(٧) في ف: «ويردهم».

(٨) في ت: «الفضل».

(٩) في ف: «ويردهم».

والحريق والأغلال، وما أعد لهم من الثياب من النار، ذكر حال أهل الجنة - نسأل الله من فضله وكرمه أن يدخلنا الجنة - فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أى: تتخرق فى أكنافها وأرجائها وجوانبها، وتحت أشجارها وقصورها، يصرفونها حيث شاؤوا وأين شاؤوا، ﴿يُحَلَّلُونَ فِيهَا﴾ من الحلية، ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أى: فى أيديهم، كما قال النبى ﷺ فى الحديث المتفق عليه: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»^(١).

وقال كعب الأحبار: إن فى الجنة ملكاً لو شئت أن أسميه لسميته، يصوغ لأهل الجنة الحلى منذ خلقه الله إلى يوم القيامة، لو أبرز قلب منها - أى: سوار منها - لرد شعاع الشمس، كما ترد^(٢) الشمس نور القمر.

وقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾: فى مقابلة ثياب أهل النار التى فصلت لهم، لباس هؤلاء من الحرير، إستبرقه وسندسه، كما قال: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضِرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا. إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢١، ٢٢]، وفى الصحيح: «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج فى الدنيا، فإنه من لبسه فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة»^(٣).

قال عبد الله بن الزبير: ومن لم يلبس الحرير فى الآخرة، لم يدخل الجنة، قال الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

وقوله: ﴿وَهُدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، كقوله: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣]، وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ. سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا. إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، فهدوا إلى المكان الذى يسمعون فيه الكلام الطيب، ﴿وَيَلْقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، لا كما يهان أهل النار بالكلام الذى يروعون به^(٤) ويقرعون به، يقال لهم: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

وقوله: ﴿وَهُدُّوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ﴾ أى: إلى المكان الذى يحمدون فيه ربهم، على ما أحسن إليهم وأنعم به وأسداه إليهم، كما جاء فى الصحيح: «إنهم يلهمون التسبيح والتحميد، كما يلهمون النفس».

وقد قال بعض المفسرين فى قوله: ﴿وَهُدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أى: القرآن. وقيل: لا إله إلا الله. وقيل: الأذكار المشروعة، ﴿وَهُدُّوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ﴾ أى: الطريق المستقيم فى الدنيا. وكل هذا لا ينافى ما ذكرناه، والله أعلم.

(١) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٤٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) فى ف: «يرد».

(٣) الحديث فى صحيح البخارى برقم (٥٤٢٦) وصحيح مسلم برقم (٢٠٦٧) من حديث حذيفة رضى الله عنه.

(٤) فى ت: «يوبخون فيه»، وفى ف، أ: «يوبخون به».

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (٢٥).

يقول تعالى منكرًا على الكفار في صَدَّهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام، وقضاء مناسكهم فيه، ودعواهم أنهم أولياؤه: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَائِهِ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وفى هذه الآية دليل [على] (١) أنها مدنية، كما قال في سورة «البقرة»: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال هاهنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أى: ومن صفتهم مع كفرهم أنهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام، أى: ويصدون عن المسجد الحرام من أَرادَه من المؤمنين الذين هم أحق الناس به في نفس الأمر، وهذا التركيب فى هذه الآية كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] أى: ومن صفتهم أنهم تطمئن قلوبهم بذكر الله.

وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ [أى: يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام، وقد جعله الله شرعا سواء، لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه، ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾] (٢) ومن ذلك استواء الناس فى رباع مكة وسكنائها، كما قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ قال: ينزل أهل مكة وغيرهم فى المسجد الحرام. وقال مجاهد [فى قوله] (٣): ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾: أهل مكة وغيرهم فى سواء فى المنازل. وكذا قال أبو صالح، وعبد الرحمن بن سابط، وعبد الرحمن بن زيد [بن أسلم] (٤).

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: سواء فيه أهله وغير أهله.

وهذه المسألة اختلف فيها الشافعى وإسحاق بن راهويه بمسجد الخيف، وأحمد بن حنبل حاضر (٥) أيضاً، فذهب الشافعى، رحمه الله (٦)، إلى أن رباع مكة قملك وتورث وتؤجر، واحتج بحديث الزهرى، عن على بن الحسين، عن عمرو بن عثمان، عن أسامة بن زيد قال: قلت: يا رسول الله، أتتزل غداً فى دارك (٧) بمكة؟ فقال: «وهل ترك لنا عقيل من رباع». ثم قال: «لا يرث الكافر المسلم، ولا المسلم الكافر». وهذا الحديث مُخَرَّج فى الصحيحين (٨) [وبما ثبت أن عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أمية داراً بمكة، فجعلها سجناً بأربعة آلاف درهم. وبه قال طاوس، وعمرو بن دينار.

وذهب إسحاق بن راهويه إلا أنها تورث ولا تؤجر. وهو مذهب طائفة من السلف، ونص عليه

(١) زيادة من ت. (٢) زيادة من ف. (٣) زيادة من ف، أ. (٤) زيادة من أ. (٥) فى ت: «حاضر». (٦) «رضى الله عنه»، وفى أ: «رضى الله تعالى عنه». (٧) فى ف: «بدارك». (٨) صحيح البخارى برقم (٦٧٦٤) وصحيح مسلم برقم (١٦١٤) من حديث أسامة بن زيد رضى الله عنه.

مجاهد وعطاء، واحتج إسحاق بن راهويه بما رواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن عيسى ابن يونس، عن عُمَرُ بن سعيد بن أبي حُسَيْن^(١)، عن عثمان بن أبي سليمان، عن علقمة بن نَضْلَةَ قال: تُوَفِّي رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وما تدعى رباة مكة إلا^(٢) السوائب، من احتاج سكن، ومن استغنى أسكن^(٣).

وقال عبد الرزاق عن ابن مجاهد، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو أنه قال: لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها.

وقال أيضاً عن ابن جريج: كان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم، وأخبرني أن عمر بن الخطاب كان ينهى أن تُبَوَّب دور مكة؛ لأن ينزل الحاج في عَرَصاتها، فكان أول من بَوَّب داره سُهَيْل بن عمرو، فأرسل إليه عمر بن الخطاب في ذلك، فقال: أنظرني يا أمير المؤمنين، إني كنت امرأ تاجراً، فأردت أن أتخذ بابين يحبسان لى ظهري قال: فذلك إذاً.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن منصور، عن مجاهد؛ أن عمر بن الخطاب قال: يا أهل مكة، لا تتخذوا لدوركم أبواباً لينزل البادي حيث يشاء^(٤).

قال: وأخبرنا مَعْمَر، عن سمع عطاء يقول [في قوله]^(٥): ﴿سَوَاءُ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾، قال: ينزلون حيث شاؤوا.

وروى الدارقطني من حديث ابن أبي نَجِيح، عن عبد الله بن عمرو موقوفاً^(٦): من أكل كراء بيوت مكة أكل ناراً^(٧).

وتوسط الإمام أحمد [فيما نقله صالح ابنه]^(٨) فقال: تملك وتورث ولا تؤجر، جمعاً بين الأدلة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾: قال بعض المفسرين من أهل العربية: الباء هاهنا زائدة، كقوله: ﴿تُبَّتْ بِالذَّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] أى: تُبَّتْ الدهن، وكذا قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ﴾^(٩) تقديره إلحاداً، وكما قال الأعشى:

ضَمَنْتُ بَرَزُقَ عِيَالِنَا أَرْمَاحُنَا بَيْنَ الْمَرَّاجِلِ، وَالصَّرِيحَ الْأَجْرَدِ^(١٠)

وقال الآخر^(١١):

بَوَادٍ يَمَانٍ يُنْبِتُ الشَّتَّ صَدْرُهُ وَأَسْفَلُهُ بِالْمَرْخِ وَالشَّبَّهَانِ

(١) في ت: «جبير»، وفي ف، أ: «حيوة».

(٢) سنن ابن ماجه برقم (٣١٠٧) وهو مرسل.

(٣) في ت، ف: «شاء».

(٤) سنن الدارقطني (٢/ ٣٠٠).

(٥) زيادة من ف، أ.

(٦) في ف، أ: «مرفوعاً».

(٧) سنن الدارقطني (١٧/ ١٠٣).

(٨) زيادة من ف، أ.

(٩) في ف، أ: «إلحاد بظلم».

(١٠) البيت في تفسير الطبري (١٧/ ١٠٣) غير منسوب.

والأجود أنه ضمن الفعل ها هنا معنى «يَهْمُ»، ولهذا^(١) عداه بالباء، فقال: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ﴾ أى: يَهْمُ فيه بأمر فظيع من المعاصى الكبار.

وقوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ أى: عامدا قاصدا أنه ظلم ليس بمتأول، كما قال ابن جريج^(٢)، عن ابن عباس: هو [التعمد]^(٣).

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿بِظُلْمٍ﴾: بشرك.

وقال مجاهد: أن يعبد فيه غير الله. وكذا قال قتادة، وغير واحد.

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿بِظُلْمٍ﴾: هو أن تَسْتَحِلَّ من الحرام ما حَرَّمَ الله عليك من لسان أو قتل، فتظلم من لا يظلمك، وتقتل من لا يقتلك، فإذا فَعَلَ ذلك فقد وَجَبَ [له]^(٤) العذاب الأليم.

وقال مجاهد: ﴿بِظُلْمٍ﴾: يعمل فيه عملا سيئا.

وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقب البادى فيه الشر، إذا كان عازما عليه، وإن لم يوقعه، كما قال ابن أبى حاتم فى تفسيره:

حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا شعبة، عن السدّي: أنه سمع مرة يحدث عن عبد الله - يعنى: ابن مسعود - فى قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ﴾ قال: لو أن رجلا أراد فيه بإلحاد بظلم، وهو بعدن آيين، أذاقه^(٥) الله من العذاب الأليم.

قال شعبة: هو رفعه لنا، وأنا لا أرفعه لكم. قال يزيد: هو قد رفعه، ورواه أحمد، عن يزيد بن هارون، به^(٦).

[قلت: هذا الإسناد]^(٧) صحيح على شرط البخارى، ووقفه أشبه من رفعه؛ ولهذا صَمَّمَ شعبة على وَفَّقه من كلام ابن مسعود. وكذلك رواه أسباط، وسفيان الثورى، عن السدى، عن مرة، عن ابن مسعود موقوفا، والله أعلم.

وقال الثورى، عن السدى، عن مرة، عن عبد الله قال: ما من رجل يهم بسيئة فتكتب عليه، ولو أن رجلا بعدن آيين هم أن يقتل رجلا بهذا البيت، لأذاقه الله من العذاب الأليم. وكذا قال الضحاك بن مزاحم.

وقال سفيان [الثورى]^(٨)، عن منصور، عن مجاهد «إلحاد فيه»، لا والله، وبلى والله. وروى عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو، مثله.

(١) فى ف: «ولذا».

(٢) فى ت: «جريح».

(٣) زيادة من ف، أ.

(٤) زيادة من أ.

(٥) فى ت، ف، أ: «لأذاقه».

(٦) المسند (١/٤٢٨).

(٧) زيادة من ف.

(٨) زيادة من ف، أ.

وقال سعيد بن جبير: شتم الخادم ظلم فما فوقه.

وقال سفيان الثوري، عن عبد الله بن عطاء، عن ميمون بن مهران، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ﴾ قال: تجارة الأمير فيه.

وعن ابن عمر: بيع الطعام [بمكة] ^(١) إلحاد.

وقال حبيب ^(٢) بن أبي ثابت: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ﴾ قال: المحتكر بمكة. وكذا قال غير واحد.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن إسحاق الجوهري، أنبأنا أبو عاصم، عن جعفر بن يحيى، عن عمه عمارة بن ثوبان، حدثني موسى بن باذان، عن يعلى بن أمية؛ أن رسول الله ﷺ قال: «احتكار الطعام بمكة إلحاد» ^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير ^(٤)، حدثنا ابن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار، حدثني سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس في قول الله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ﴾ قال: نزلت في عبد الله بن أنيس، أن رسول الله ﷺ بعثه مع رجلين، أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار، فافتخروا في الأنساب، فغضب عبد الله بن أنيس، فقتل الأنصاري، ثم ارتد عن الإسلام، وهرب إلى مكة، فنزلت فيه: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ﴾ يعني: من لجأ إلى الحرم بإلحاد، يعني بميل عن الإسلام.

وهذه الآثار، وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد، ولكن هو أعم من ذلك، بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها، ولهذا لما هم أصحاب الفيل على تخريب البيت أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ . فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّا كُولٍ﴾ [الفيل: ٤، ٥]، أي: دمرهم وجعلهم عبرة ونكالا لكل من أراد به سوء؛ ولذلك ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «يغزو هذا البيت جيش، حتى إذا كانوا ببغداد من الأرض خسف بأولهم وآخرهم» الحديث ^(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن كُنااسة، حدثنا إسحاق بن سعيد، عن أبيه قال: أتى عبد الله بن عمر عبد الله بن الزبير، فقال: يا ابن الزبير، إياك والإلحاد في حرم الله، فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيلحد فيه رجل من قريش، لو تَوَزَّنْ ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت»، فانظر لا تكن هو ^(٦).

وقال أيضا [في مسند عبد الله بن عمرو بن العاص] ^(٧): حدثنا هاشم، حدثنا إسحاق بن سعيد،

(١) زيادة من ت، ف، أ. (٢) في ت: «جندب».

(٣) ورواه أبو داود في السنن برقم (٢٠٢٠)، والفاكهى في تاريخ مكة برقم (١٧٧١) من طريق أبي عاصم به.

(٤) في ت، ف: «بكر».

(٥) رواه البخاري في صحيحه برقم (٢١١٨) من حديث عائشة رضی الله عنها.

(٦) المسند (١٣٦/٢).

(٧) زيادة من ف، أ.

حدثنا سعيد بن عمرو قال: أتى عبد الله بن عمرو بن الزبير، وهو جالس في الحِجْر فقال: يا بن الزبير، إياك والإلحاد في الحرم، فإنني أشهد لسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يحلها ويحل به رجل من قريش، ولو وزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لوزنتها». قال: فانظر لا تكن^(١) هو^(٢).

ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب من هذين الوجهين.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧)﴾.

هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله، وأشرك به من قريش، في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فذكر تعالى أنه بوأ إبراهيم مكان البيت، أي: أرشده إليه، وسلمه له، وأذن له في بنائه.

واستدل به كثير ممن قال: «إن إبراهيم، عليه السلام، هو أول من بنى البيت العتيق، وأنه لم ين قبله»، كما ثبت في الصحيح^(٣) عن أبي ذر قلت: يا رسول الله، أي مسجد وُضِعَ أول؟ قال: «المسجد الحرام». قلت: ثم أي؟ قال: «بيت المقدس». قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»^(٤).

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَعَهَدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

وقد قدمنا ذكر ما ورد في بناء البيت من الصحاح والآثار، بما أغنى عن إعادته هاهنا^(٥).

وقال تعالى هاهنا: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي﴾ أي: ابنه على اسمي وحدي، ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ قال مجاهد وقتادة: من الشرك، ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي: اجعله خالصا لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له.

فالطائف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها، ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ أي: في الصلاة؛ ولهذا قال: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، فقرن الطواف بالصلاة؛ لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت، فالطواف عنده، والصلاة إليه في غالب الأحوال، إلا ما استثنى من الصلاة عند اشتباه القبلة وفي الحرب، وفي النافلة في السفر، والله أعلم.

(١) في ت: «لا يكون» وفي ف: «لا تكون».

(٢) المسند (٢١٩١٢).

(٣) في ف: «الصحيحين».

(٤) صحيح البخاري برقم (٣٣٦٦) وصحيح مسلم برقم (٥٢٠).

(٥) انظر تفسير الآية: ١٢٥ من سورة البقرة.

وقوله: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ أى: ناد فى الناس داعيا لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذى أمرناك ببنائه. فذكر أنه قال: يارب، وكيف أبلغ الناس وصوتى لا ينفذهم؟ فقيل: ناد وعلينا البلاغ. فقام على مقامه، وقيل: على الحجر، وقيل: على الصفا، وقيل: على أبى قبيس، وقال: يا أيها الناس، إن ربكم قد اتخذ بيتا فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من فى الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شىء سمعه من حجر ومدبر وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة: «لييك اللهم لبيك».

هذا مضمون ما روى عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وغير واحد من السلف، والله أعلم. أوردها ابن جرير، وابن أبى حاتم مطولة^{(١)(٢)}.

وقوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾: قد يستدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشيا، لمن قدر عليه، أفضل من الحج راكبا؛ لأنه قدمهم فى الذكر، فدل على الاهتمام بهم وقوة همهم وشدة عزمهم، والذى عليه الأكثر أن الحج راكبا أفضل؛ اقتداء برسول الله ﷺ، فإنه حج راكبا مع كمال قوته، عليه السلام.

وقوله: ﴿يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ يعنى: طريق، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ [الأنبياء: ٣١].

وقوله: ﴿عَمِيقٍ﴾ أى: بعيد. قاله مجاهد، وعطاء، والسدى، وقتادة، ومقاتل بن حيان، والثورى، وغير واحد.

وهذه الآية كقوله تعالى إخبارا عن إبراهيم، حيث قال فى دعائه: ﴿فَجَعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف، فالناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار.

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ (٢٨) ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩).

قال ابن عباس: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ قال: منافع الدنيا والآخرة؛ أما منافع الآخرة فرضوان الله، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والربح^(٣) والتجارات. وكذا قال مجاهد، وغير واحد: إنها منافع الدنيا والآخرة، كقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

(١) فى ف: «بطولة».

(٢) تفسير الطبرى (١٧/١٠٦).

(٣) فى ت، ف، أ: «والذبايح».

وقوله: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ [فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ]﴾^(١) عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ»، قال شعبة [وَهُشَيْم] ^(٢) عن [أبي بشر عن سعيد] ^(٣) عن ابن عباس: الأيام المعلومات: أيام العشر، وعلقه البخاري عنه بصيغة الجزم به ^(٤). ويروى مثله عن أبي موسى الأشعري، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراساني، وإبراهيم النخعي. وهو مذهب الشافعي، والمشهور عن أحمد بن حنبل.

وقال البخاري: حدثنا محمد بن عَرَفَةَ، حدثنا شعبة، عن سليمان، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «ما العمل في أيام أفضل منها في هذه» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل، يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء».

ورواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه ^(٥). وقال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح. وفي الباب عن ابن عمر، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وجابر.

قلت: وقد تفصيت هذه الطرق، وأفردت لها جزءاً على حديثه ^(٦)، فمن ذلك ما قال الإمام أحمد: حدثنا عَفَّان، أنبأنا أبو عَوَّانَةَ، عن يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العملُ فيهن، من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد» ^(٧) وروى من وجه آخر، عن مجاهد، عن ابن عمر، بنحوه ^(٨). وقال البخاري: وكان ابن عمر، وأبو هريرة يخرجان إلى السوق في أيام العشر، فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما ^(٩).

وقد روى أحمد عن جابر مرفوعاً: أن هذا هو العشر الذي أقسم الله به في قوله: ﴿وَالْفَجْرِ . وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١، ٢] ^(١٠).

وقال بعض السلف: إنه المراد بقوله: ﴿وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وفي سنن أبي داود: أن رسول الله ﷺ كان يصوم هذا العشر ^(١١).

وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة الذي ثبت في صحيح مسلم عن أبي قتادة قال: سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة، فقال: «أحتسب على الله أن يكفر السنة الماضية والآتية» ^(١٢).

(١) ٢، ٣، زيادة من ف، أ.

(٤) صحيح البخاري (٤٥٧/٢) «فتح».

(٥) صحيح البخاري برقم (٩٦٩) وسنن أبي داود برقم (٢٤٣٨) وسنن الترمذي برقم (٧٥٧) وسنن ابن ماجه برقم (١٧٢٧).

(٦) سماه: «الأحاديث الواردة في فضل الأيام العشرة من ذي الحجة».

(٧) المسند (٧٥/٢).

(٨) رواه أبو عوانة كما في إرواء الغليل (٣٩٨١٣) عن الحافظ ابن حجر - من طريق موسى بن أبي عائشة عن مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٩) صحيح البخاري (٤٥٧/٢) «فتح».

(١٠) المسند (٣٢٧/٣).

(١١) سنن أبي داود برقم (٢٤٣٧).

(١٢) صحيح مسلم برقم (١١٦٢) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

ويشتمل على يوم النحر الذى هو يوم الحج الأكبر، وقد ورد فى حديث أنه أفضل الأيام عند الله^(١).

وبالجملة، فهذا العشر قد قيل: إنه أفضل أيام السنة، كما نطق به الحديث، ففضله كثير على عشر رمضان الأخير؛ لأن هذا يشرع فيه ما يشرع فى ذلك، من صيام وصلاة وصدقة وغيره، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فرض الحج فيه.

وقيل: ذاك أفضل لاشتماله على ليلة القدر، التى هى خير من ألف شهر.

وتوسط آخرون فقالوا: أيام هذا أفضل، وليالى ذاك أفضل. وبهذا يجتمع شمل الأدلة، والله أعلم.

قول ثان فى الأيام المعلومات: قال الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس: الأيام المعلومات: يوم النحر وثلاثة أيام بعده. ويروى هذا عن ابن عمر، وإبراهيم النخعى، وإليه ذهب أحمد بن حنبل فى رواية عنه.

قول ثالث: قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن المدينى، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا ابن عجلان، حدثنى نافع؛ أن ابن عمر كان يقول: الأيام المعلومات والمعدودات هن جميعهن أربعة أيام، فالأيام المعلومات يوم النحر ويومان بعده، والأيام المعدودات ثلاثة أيام يوم النحر.

هذا إسناد صحيح إليه، وقاله^(٢) السدى: وهو مذهب الإمام مالك بن أنس، ويعضد هذا القول والذى قبله قوله تعالى: ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ يعنى به: ذكر الله عند ذبحها.

قول رابع: إنها يوم عرفة، ويوم النحر، ويوم آخر بعده. وهو مذهب أبى حنيفة.

وقال ابن وهب: حدثنى^(٣) ابن زيد بن أسلم، عن أبيه أنه قال: المعلومات يوم عرفة، ويوم النحر، وأيام التشريق.

وقوله: ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ يعنى: الإبل والبقر والغنم، كما فصلها تعالى فى سورة الأنعام وأنها ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ الآية [الأنعام: ١٤٣].

وقوله ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ استدل بهذه الآية من ذهب إلى وجوب الأكل من الأضاحى وهو قول غريب، والذى عليه الأكثر أنه من باب الرخصة أو الاستحباب، كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ، فأكل من لحمها، وحسا من مرقها^(٤).

وقال عبد الله بن وهب: [قال لى مالك: أحب أن يأكل من أضحيته؛ لأن الله يقول: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ : قال ابن وهب]^(٥): وسألت الليث، فقال لى مثل ذلك.

(١) رواه أحمد فى المسند (٤/ ٣٥٠) وأبو داود فى السنن برقم (١٧٦٥) من حديث عبد الله بن قرط رضى الله عنه.

(٢) فى ت: «وقال». (٣) فى ت، ف: «وقال ابن وهب وحدثنى».

(٤) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٢١٨) من حديث جابر رضى الله عنه.

(٥) زيادة من ف، أ.

وقال سفيان الثوري، عن منصور، عن إبراهيم: ﴿فَكُلُّوا مِنْهَا﴾ قال: كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم فرخص للمسلمين، فمن شاء أكل، ومن شاء لم يأكل. وروى عن مجاهد، وعطاء نحو ذلك.

قال هُشَيْمٌ، عن حُصَيْنٍ، عن مجاهد في قوله ﴿فَكُلُّوا مِنْهَا﴾: هي كقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ^(١) الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠].

وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره، واستدل من نصر القول بأن الأضاحي يتصدق منها بالنصف بقوله في هذه الآية: ﴿فَكُلُّوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾، فجزأها نصفين: نصف للمضحى، ونصف للفقراء.

والقول الآخر: أنها تجزأ ثلاثة أجزاء: ثلث له، وثلث يهديه، وثلث يتصدق به؛ لقوله في الآية الأخرى: ﴿فَكُلُّوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦] وسيأتي الكلام عليها عندها، إن شاء الله، وبه الثقة.

وقوله: ﴿الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾، قال عكرمة: هو المضطر الذي عليه البؤس، [والفقير]^(٢): المتعفف.

وقال مجاهد: هو الذي لا ييسط يده. وقال قتادة: هو الزمّن. وقال مقاتل بن حيان: هو الضرير.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو وضع [الإحرام]^(٣)، من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظفار، ونحو ذلك. وهكذا روى عطاء ومجاهد، عنه. وكذا قال عكرمة، ومحمد بن كعب القرظي.

وقال عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال: التفت: المناسك.

وقوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني: نحر ما نذر من أمر البدن.

وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾: نذر الحج والهدى وما نذر الإنسان من شيء يكون في الحج.

وقال إبراهيم بن ميسرة، عن مجاهد: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال: الذبائح.

وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾: كل نذر إلى أجل.

وقال عكرمة: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾، قال: [حجهم].

وكذا روى الإمام ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان في قوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال: ^(٤) نذر الحج، فكل من دخل الحج فعليه من العمل فيه: الطواف بالبيت

(١) في ت: «قضيت».

(٢) زيادة من ف، أ.

(٣) زيادة من ت، ف، أ.

(٤) في ت: «قضيت».

وبين الصفا والمروة، وعرفة، والمزدلفة، ورمى الجمار، على ما أمروا به. وروى عن مالك نحو هذا.

وقوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾: قال مجاهد: يعنى: الطواف الواجب يوم النحر.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن أبى حمزة قال: قال لى ابن عباس: أتقرأ سورة الحج؟ يقول (١) الله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، فإن آخر المناسك الطواف بالبيت.

قلت: وهكذا صنع رسول الله ﷺ، فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ يرمى الجمرة، فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه، وحلق رأسه، ثم أفاض فطاف بالبيت. وفى الصحيح عن ابن عباس أنه قال: أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض (٢).

وقوله: ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾: فيه مستدل لمن ذهب إلى أنه يجب الطواف من وراء الحجر؛ لأنه من أصل (٣) البيت الذى بناه إبراهيم، وإن كانت قريش قد أخرجه من البيت، حين قصرت بهم النفقة؛ ولهذا طاف رسول الله ﷺ من وراء الحجر، وأخبر أن الحجر من البيت، ولم يستلم الركنين الشاميين؛ لأنهما لم يتمما على قواعد إبراهيم العتيقة؛ ولهذا قال ابن أبى حاتم:

حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر العدنى، حدثنا سفيان، عن هشام بن حجر، عن رجل، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، طاف رسول الله ﷺ من وراءه (٤).

وقال قتادة، عن الحسن البصرى فى قوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [قال] (٥): لأنه أول بيت وضع للناس. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وعن عكرمة أنه قال: إنما سمي البيت العتيق؛ لأنه أعتق يوم الغرق زمان نوح.

وقال خَصِيف: إنما سمي البيت العتيق؛ لأنه لم يظهر عليه جبار قط.

وقال ابن أبى نَجِيج وليث عن مجاهد: أعتق من الجبابة أن يسلطوا عليه. وكذا قال قتادة.

وقال حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن بن مسلم، عن مجاهد: لأنه لم يُرِدْه أحد بسوء إلا هلك.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهرى، عن ابن الزبير قال: إنما سمي البيت العتيق؛ لأن الله أعتقه من الجبابة (٦).

وقال الترمذى: حدثنا محمد بن إسماعيل وغير واحد، حدثنا عبد الله بن صالح، أخبرنى

(١) فى ت: «فيقول».

(٢) صحيح البخارى برقم (٣٢٩) وصحيح مسلم برقم (١٣٢٨) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.

(٣) فى أ: «داخل».

(٤) ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى الدر المنثور (٤١/٦).

(٥) زيادة من ف، أ.

(٦) تفسير عبد الرزاق (٣٢/٢).

الليث، عن عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب، عن محمد بن عروة، عن عبد الله بن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سمي البيت العتيق؛ لأنه لم يظهر عليه جبار».

وكذا رواه ابن جرير، عن محمد بن سهل النجاري^(١)، عن عبد الله بن صالح، به^(٢). وقال: إن كان صحيحاً وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، ثم رواه من وجه آخر عن الزهري، مرسلًا^(٣).

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١)﴾.

يقول تعالى: هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء المناسك، وما لفاعلها من الثواب الجزيل.

﴿وَمَنْ يُعْظَمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ أى: ومن يجتنب معاصيه ومحارمه ويكون ارتكابها عظيماً في نفسه، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أى: فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل، فكما على فعل الطاعات ثواب جزيل وأجر كبير، وكذلك على ترك المحرمات و[اجتناب]^(٤) المحظورات.

قال ابن جريج: قال مجاهد في قوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ قال: الحرمه: مكة والحج والعمرة، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها. وكذا قال ابن زيد.

وقوله: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أى: أحللنا^(٥) لكم جميع الأنعام، وما جعل الله من بحيرة، ولا سائبة، ولا وصيلة، ولا حام.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أى: من تحريم ﴿الْمَيْتَةِ وَالْدَّمِ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ [إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ]^(٦) الآية [المائدة: ٣]، قال ذلك ابن جرير، وحكاه عن قتادة.

وقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾: «من» هاهنا لبيان الجنس، أى: اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان. وقرن الشرك بالله^(٧) بقول الزور، كقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَإِثْمَ وَالْبَغْيِ بغيرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ومنه شهادة الزور. وفي الصحيحين عن أبى بكره قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى، يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين - وكان متكئاً فجلس، فقال: - ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور». فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت^(٨).

(١) فى ف: «المحاربى».

(٢) سنن الترمذى برقم (٣١٧٠) وفيه «هذا حديث حسن صحيح» وأظنه خطأ.

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٦٥٤) وصحيح مسلم برقم (٨٧).

(٤) زيادة من أ.

(٥) فى ت: «أحلت».

(٦) زيادة من ت، ف، أ.

(٧) فى أ: «به».

(٨) صحيح البخارى برقم (٢٦٥٤) وصحيح مسلم برقم (٨٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا مروان بن معاوية الفزاري، أنبأنا سفيان بن زياد، عن فاتك بن فضالة، عن أيمن بن خريم قال: قام رسول الله ﷺ خطيباً فقال: «يا أيها الناس، عدلت شهادة الزور إشراكاً بالله» ثلاثاً، ثم قرأ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾.

وهكذا رواه الترمذي، عن أحمد بن منيع، عن مروان بن معاوية، به^(١). ثم قال: «غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد. وقد اختلف عنه في رواية هذا الحديث، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعاً من النبي ﷺ».

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا سفيان العُصْفَرِيُّ، عن أبيه، عن حبيب ابن النعمان الأسدي، عن خريم بن فاتك^(٢) الأسدي قال: صلى رسول الله ﷺ الصبح، فلما انصرف قام قائماً فقال: «عدلت شهادة الزور الإشرک بالله، عز وجل»، ثم تلا هذه الآية: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾. حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ^(٣).

وقال سفيان الثوري، عن عاصم بن أبي النجود، عن وائل بن ربيعة، عن ابن مسعود أنه قال: تعدل شهادة الزور بالشرك بالله، ثم قرأ هذه الآية^(٤).

وقوله: ﴿حُفَاءَ لِلَّهِ﴾ أي: مخلصين له الدين، منحرفين عن الباطل قصداً إلى الحق؛ ولهذا قال ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾.

ثم ضرب للمشرك مثلاً في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى فقال: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: سقط منها، ﴿فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ﴾، أي: تقطعه الطيور في الهواء، ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أي: بعيد مهلك لمن هوى فيه؛ ولهذا جاء في حديث البراء: «إن الكافر إذا توفته ملائكة الموت، وصعدوا بروحه إلى السماء، فلا تفتح له أبواب السماء، بل تطرح روحه طرحاً من هناك». ثم قرأ هذه الآية، وقد تقدم الحديث في سورة «إبراهيم»^(٥) بحروفه وألفاظه وطرقه.

وقد ضرب [الله]^(٦) تعالى للمشرك مثلاً آخر في سورة «الأنعام»، وهو قوله: ﴿قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ [وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ]^(٧)﴾ [الأنعام: ٧١].

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣).

(١) المسند (١٧٨/٤) وسنن الترمذي برقم (٢٢٩٩).

(٢) في ت: «مقاتل».

(٣) المسند (٣٢١/٤).

(٤) تفسير الطبري (١٧/١١٢).

(٥) انظر تفسير الآية: ٢٧.

(٦) زيادة من ف، أ، وفي الاصل: «الآية».

(٧) زيادة من أ.

يقول تعالى: هذا ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ أى: أوامره، ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ومن ذلك تعظيم الهدايا والبدن، كما قال الحكم، عن مفسّم، عن ابن عباس: تعظيمها: استسمانها واستحسانها. وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، عن ابن أبى ليلى، عن ابن أبى نجيج، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ قال: الاستسمان والاستحسان والاستعظام.

وقال أبو أمامة بن سهل: كنا نسمن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يُسمّون. رواه البخارى^(١).

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «دم عفراء أحبّ إلى الله من دم سوداوين». رواه أحمد، وابن ماجه^(٢).

قالوا: والعفراء هى البيضاء بياضاً ليس بناصع، فالبيضاء أفضل من غيرها، وغيرها يجرى أيضاً؛ لما ثبت فى صحيح البخارى، عن أنس: أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين أملحين أقرنين^(٣). وعن أبى سعيد: أن رسول الله ﷺ ضحى بكبش أقرن فحيل^(٤) يأكل فى سواد، وينظر فى سواد، ويمشى فى سواد.

رواه أهل السنن، وصححه الترمذى^(٥)، أى: بكبش أسود^(٦) فى هذه الأماكن. وفى سنن ابن ماجه، عن أبى رافع: أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين مَجُوعَيْنِ^(٧). قيل: هما الخَصِيَّان. وقيل: اللذان رُضَّ خُصْيَاهُما، ولم يقطعهما^(٨)، والله أعلم.

وكذا روى أبو داود وابن ماجه عن جابر: ضحى رسول الله ﷺ بكبشين أقرنين أملحين مَجُوعَيْنِ [والمَجُوعَيْنِ قيل: هما الخَصِيَّان]^(٩)^(١٠).

وعن على رضى الله عنه، قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن، وألا نضحى بمقابلة، ولا مدابرة، ولا شرقاء، ولا خرقاء.

رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذى^(١١).

ولهم عنه، قال: نهى رسول الله ﷺ أن نُضحى^(١٢) بأعضب القرن والأذن^(١٣).

(١) صحيح البخارى (٩/١٠) «فتح» معلقاً.

(٢) المسند (٤١٧/٢) ولم يقع لى فى سنن ابن ماجه.

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٥٥٨).

(٤) فى ف: «فحل».

(٥) سنن أبى داود برقم (٢٧٩٦) وسنن الترمذى برقم (١٤٩٦) وسنن النسائى (٢٢١/٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٢٨).

(٦) فى أ: «فيه نكتة سوداء».

(٧) لم يقع فى سنن ابن ماجه من حديث أبى رافع وإنما من حديث عائشة وأبى هريرة برقم (٣١٢٢) وحديث أبى رافع رواه أحمد فى المسند (٨/٦).

(٨) فى ت: «ولم يقطعها».

(٩) زيادة من ت، ف، أ.

(١٠) سنن أبى داود برقم (٢٧٩٥).

(١١) المسند (٨٠/١)، وسنن أبى داود برقم (٢٨٠٤) وسنن الترمذى برقم (١٤٩٨) وسنن النسائى (٢١٧/٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٤٢).

(١٢) فى ت: «يضحى».

(١٣) المسند (٨٣/١) وسنن أبى داود برقم (٢٨٠٥) وسنن الترمذى برقم (١٥٠٤) وسنن النسائى (٢١٧/٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٤٥).

وقال سعيد بن المسيب: العَضْب: النصف فأكثر.

وقال بعض أهل اللغة: إن كُسِرَ قرنُها الأعلى فهي قصماء، فأما العَضْب فهو كسر الأسفل، وعَضِبَ الأذن قطع بعضها.

وعند الشافعي أن التضحية بذلك مجزئة، لكن تكره.

وقال [الإمام] ^(١) أحمد: لا تجزئ الأضحية بأعضب القرن والأذن؛ لهذا الحديث.

وقال مالك: إن كان الدم يسيل من القرن لم يجزئ، وإلا أجزأ، والله أعلم.

وأما المقابلة: فهي التي قطع مقدم أذنها، والمدابرة: من مؤخر أذنها. والشرقاء: هي التي قطعت أذنها طولا، قاله الشافعي. والخرقاء: هي التي خَرَقَتِ السَّمةُ أذنها خرقاً مُدَوَّراً، والله أعلم.

وعن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع لا تجوز في الأضاحي: العوراء البين عورها، والمريضة البين مرضها، والعرجاء البين ظللها» ^(٢)، والكسيرة التي لا تُنقى».

رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذي ^(٣).

وهذه العيوب تنقص اللحم، لضعفها وعجزها عن استكمال الرعي؛ لأن الشاء يسبقونها إلى المرعى، فلهذا لا تجزئ التضحية ^(٤) بها عند الشافعي وغيره من الأئمة، كما هو ظاهر الحديث. واختلف قول الشافعي في المريضة مرضاً يسيراً، على قولين.

وروى أبو داود، عن عتبة بن عبد السلمي؛ أن رسول الله ﷺ نهى عن المَصْفَرَّةِ، والمستأصلة، والبَخْقَاءِ، والمشيعَّةِ، والكسراء ^{(٥)(٦)}.

فالمصفرة قيل: الهزيلة. وقيل: المستأصلة الأذن. والمستأصلة: المكسورة القرن. والبخقاء: هي العوراء. والمشيعَّة: هي التي لا تزال تُشيع خلف الغنم، ولا تتبع لضعفها. والكسراء: العرجاء. فهذه العيوب كلها مانعة [من الإجزاء، فإن طرأ العيب] ^(٧) بعد تعيين الأضحية فإنه لا يضر عيبه عند الشافعي خلافاً لأبي حنيفة.

وقد روى الإمام أحمد، عن أبي سعيد قال: اشترت كبشاً أضحي به، فعدا الذئب فأخذ الألية. فسألت النبي ﷺ، فقال: «ضَحَّ به» ^(٨).

ولهذا [جاء] ^(٩) في الحديث: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن. أي: أن تكون

(١) زيادة من ت.

(٢) في ت، أ: «عرجها».

(٣) المسند (٢٨٤/٤) وسنن أبي داود برقم (٢٨٠٢) وسنن الترمذي برقم (١٤٩٧) وسنن النسائي (٢١٥/٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٤٤).

(٥) في أ: «الكسيرة».

(٤) في أ: «الأضحية».

(٦) سنن أبي داود برقم (٢٨٠٣).

(٧) زيادة من ف، أ.

(٨) المسند (٣٢/٣).

(٩) زيادة من أ.

الهدية أو الأضحية سميئة حسنة ثمينة، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود، عن عبد الله بن عمر قال: أهدى عمر نجيباً، فأعطى بها ثلاثمائة دينار، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى أهديت نجيباً، فأعطيتُ بها ثلاثمائة دينار، أفأبيعها وأشتري بثلثها بدنأ؟ قال: «لا، انحرها إياها»^(١).

وقال الضحاك، عن ابن عباس: البدن من شعائر الله.

وقال محمد بن أبي موسى: الوقوف ومزدلفة والجمار والرمي والبدن والحلق: من شعائر الله.

وقال ابن عمر: أعظم الشعائر البيت.

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أى: لكم فى البدن منافع، من لبنها، وصوفها وأوبارها وأشعارها، وركوبها.

﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: قال مِقْسَم، عن ابن عباس [فى قوله]^(٢): ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال: ما لم يُسَمَّ بدنأ.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، قال: الركوب واللبن والولد، فإذا سُمِّتَ بدنّةً أو هدياً، ذهب ذلك كله. وكذا قال عطاء، والضحاك، وقتادة، [ومقاتل]^(٣) وعطاء الخراسانى، وغيرهم.

وقال آخرون: بل له أن ينتفع بها وإن كانت هدياً، إذا احتاج إلى ذلك، كما ثبت فى الصحيحين عن أنس: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنّةً، قال: «اركبها». قال: إنها بدنّة. قال: «اركبها، ويحك»، فى الثانية أو الثالثة^(٤).

وفى رواية لمسلم، عن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها»^(٥).

وقال شعبة، عن زهير بن أبى ثابت الأعمى، عن المغيرة بن حذف، عن على؛ أنه رأى رجلاً يسوق بدنّةً ومعها ولدها، فقال: لا تشرب من لبنها إلا ما فضل عن ولدها، فإذا كان يوم النحر فاذبحها وولدها.

وقوله: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أى: محل الهدى وانتهاءه إلى البيت العتيق، وهو الكعبة، كما قال تعالى: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال ﴿وَالْهَدْيُ مَعْكُوفًا أَنْ يَلْبُغَ مَحِلَّهُ﴾ [الفتح: ٢٥].

وقد تقدم الكلام على معنى «البيت العتيق» قريباً، والله الحمد^(٦).

وقال ابن جرّيج، عن عطاء: كان ابن عباس يقول: كل من طاف بالبيت، فقد حل، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

(١) المسند (١٤٥/٢) وسنن أبى داود برقم (١٧٥٦).

(٢) زيادة من ت، ف، أ. (٣) زيادة من ت، ف، أ.

(٤) صحيح البخارى برقم (١٦٩٠) وصحيح مسلم برقم (١٣٢٣).

(٥) صحيح مسلم برقم (١٣٢٣).

(٦) فى ت: «والله أعلم».

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٥)﴾.

يخبر تعالى أنه لم يَزَكْ ذَبْحُ المناسك وإِراقَةُ الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل.

قال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ قال: عيداً.

وقال عكرمة: ذبحاً. وقال زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾: إنها مكة، لم يجعل الله لأمة قط منسكا غيرها.

[وقوله^(١)]: ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾، كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين، فسَمَّى وكبر، ووضع رجله على صفاحهما^(٢).

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا سلام بن مسكين، عن عائذ الله المجاشعي، عن أبي داود - وهو نُفَيْع بن الحارث - عن زيد بن أرقم قال: قلت - أو: قالوا -: يا رسول الله، ما هذه الأضاحي؟ قال: «سنة أبيكم إبراهيم». قالوا: ما لنا منها؟ قال: «بكل شعرة حسنة» قالوا: فالصوف؟ قال: «بكل شعرة من الصوف حسنة».

وأخرجه الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه في سننه، من حديث سلام بن مسكين، به^(٣).

وقوله: ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أى: معبودكم واحد، وإن تَنَوَّعَتْ شرائع الأنبياء ونَسَخَ بعضها بعضاً، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده، لا شريك له، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي (٤) إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٥) [الأنبياء: ٢٥]. ولهذا قال: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أى: أخلصوا واستسلموا لحُكْمه وطاعته.

﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾: قال مجاهد: المطمئنين، وقال الضحاك، وقتادة: المتواضعين. وقال السدي: الوجلين. وقال عمرو بن أوس^(٦): المخبتون^(٧): الذين لا يظلمون، وإذا ظُلموا لم ينتصروا.

وقال الثوري: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ قال: المطمئنين الراضين بقضاء الله، المستسلمين له.

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٥٥٨) وصحيح مسلم برقم (١٩٦٦).

(٣) المسند (٣٦٨/٤).

(٤) فى ت، أ: «يوحى».

(٥) فى ت: «فاعبدونى».

(٦) فى ت، أ: «يوحى».

(٧) فى ت: «المخبتين».

وأحسن ما يفسر بما بعده وهو قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أى: خافت منه قلوبهم،
﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ أى: من المصائب.

قال الحسن البصرى: والله لتصبرن أو لتهلكن.

﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾: قرأ الجمهور بالإضافة. السبعة، وبقية العشرة أيضا. وقرأ ابن^(١)
السَّمِيعُ: «والمقيمين الصلاة» بالنصب.

وقال الحسن البصرى: ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾، وإنما حذفت النون هاهنا تخفيفا، ولو حذفت
للإضافة لوجب خفض الصلاة، ولكن على سبيل التخفيف فنصبت.

أى: المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أى: وينفقون
ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهلهم وأقربائهم وقرباتهم، وفقرائهم ومحاوريجهم، ويحسنون إلى
خلق الله مع محافظتهم على حدود الله. وهذه بخلاف صفات المنافقين، فإنهم بالعكس من هذا كله،
كما تقدم تفسيره فى سورة «براءة» [فلله الحمد والمنة]^(٢) ^(٣).

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا
وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ﴾ (٣٦).

يقول تعالى ممتنا على عباده فيما خلق لهم من البدن، وجعلها من شعائره، وهو أنه جعلها تهدي
إلى بيته الحرام، بل هى أفضل ما يهدى [إلى بيته الحرام]^(٤)، كما قال تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ
وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ [وَلَا آمِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَتَّغُونَ فَضْلًا مِّنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا]^(٥)﴾ الآية:
[المائدة: ٢].

قال ابن جريج: قال عطاء فى قوله: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾، قال: البقرة،
والبعير. وكذا روى عن ابن عمر، وسعيد بن المسيب، والحسن البصرى.

وقال مجاهد: إنما البدن من الإبل.

قلت: أما إطلاق البدنة على البعير فمتفق عليه، واختلفوا فى صحة إطلاق البدنة على البقرة،
على قولين، أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعا كما صح فى الحديث.

ثم جمهور العلماء على أنه تُجزئ البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة، كما ثبت به الحديث عند
مسلم، من رواية جابر بن عبد الله [وغيره]^(٦)، قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك فى الأضاحى،

(٢) زيادة من ف، أ.

(١) فى ت: «أبو»

(٣) انظر تفسير الآية: ٦٧.

(٤ - ٦) زيادة من أ.

البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة^(١).

[وقال إسحاق بن رَاهَوِيَه وغيره: بل تُجْزئ البقرة عن سبعة، والبعير عن عشرة]^(٢). وقد ورد به حديث فى مسند الإمام أحمد، وسنن النسائي، وغيرهما^(٣)، فالله أعلم.

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾، أى: ثواب فى الدار الآخرة.

وعن سليمان بن يزيد الكعبى، عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: «ما عَمِلَ ابن آدم يوم النحر عملاً أحبَّ إلى الله من هِرَاقَة دم، وإنه لىأتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بكان، قبل أن يقع على الأرض، فطيبُوا بها نفساً». رواه ابن ماجه، والترمذى وحسنه^(٤).

وقال سفيان الثورى: كان أبو حاتم^(٥) يستدين ويسوق البدن، ف قيل له: تستدين وتسوق البدن؟ فقال: إني سمعت الله يقول: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنفقت الورق فى شىء أفضل من نحية فى يوم عيد». رواه الدارقطنى فى سننه^(٦).

وقال مجاهد: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ قال: أجر ومنافع.

وقال إبراهيم النخعى: يركبها ويحلبها إذا احتاج إليها.

وقوله: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ﴾: وعن [المطلب بن عبد الله بن حنطب، عن]^(٧) جابر ابن عبد الله قال: صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى، فلما انصرف أتى بكبش فذبحه، فقال: «باسم الله والله أكبر، اللهم هذا عنى وعن لم يُصَحَّ من أمتى». رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى^(٨).

وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن أبى حبيب، عن ابن عباس، عن جابر قال: ضحى رسول الله ﷺ بكبشين فى يوم عيد، فقال حين وجههما: «وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً، وما أنا من المشركين، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين. لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين، اللهم منك ولك، وعن محمد وأمثه». ثم سمي الله وكبر

(١) صحيح مسلم برقم (١٣١٨).

(٢) زيادة من ف، أ.

(٣) المسند (٢٧٥/١) وسنن النسائي (٢٢٢/٧) عن عبد الله بن عباس رضى الله عنه قال: «كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر فحضر النحر فاشتركتنا فى البعير عن عشرة والبقرة عن سبعة».

(٤) سنن الترمذى برقم (١٤٩٣) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٢٦).

(٥) فى أ: «أبو حازم».

(٦) سنن الدارقطنى (٢٨٢/٤) من طريق إبراهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار عن طاوس عن ابن عباس.

(٧) زيادة من ف، أ.

(٨) المسند (٣٥٦/٣) وسنن أبى داود برقم (٢٨١٠) وسنن الترمذى برقم (١٥٢١) وقال الترمذى: «هذا حديث غريب من هذا الوجه».

وذبح^(١).

وعن علي بن الحسين، عن أبي رافع؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين، فإذا صلى وخطب الناس أتى^(٢) بأحدهما وهو قائم في مصلاه فذبحه بنفسه بالمدينة^(٣)، ثم يقول: «اللهم، هذا عن أمتي جميعها، مَنْ شهد لك بالتوحيد وشهد لى بالبلاغ». ثم يؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه، ثم يقول: «هذا عن محمد وآل محمد» فيطعمهما جميعاً المساكين، [ويأكل]^(٤) هو وأهله منهما.

رواه أحمد، وابن ماجه^(٥).

وقال الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ﴾، قال: قياماً على ثلاث قوائم، معقولة يدها اليسرى، يقول: «باسم الله والله أكبر^(٦)»، اللهم منك ولك». وكذلك روى مجاهد، وعلى بن أبي طلحة، والعوفي، عن ابن عباس، نحو هذا. وقال ليث، عن مجاهد: إذا عُقِلَ رجلها اليسرى قامت على ثلاث. وروى ابن أبي نجيح، عنه، نحوه^(٧).

وقال الضحاك: تُعقل رجل^(٨) واحدة فتكون على ثلاث.

وفى الصحيحين عن ابن عمر: أنه أتى على رجل قد أناخ بدنته وهو ينحرها، فقال: ابعثها قياماً مقيدة سنة أبي القاسم ﷺ^(٩).

وعن جابر: أن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا ينحرون البدن معقولة اليسرى، قائمة على ما بقى من قوائمها. رواه أبو داود^(١٠).

وقال ابن لهيعة: حدثني عطاء بن دينار، أن سالم بن عبد الله قال لسليمان بن عبد الملك: قف من شقها الأيمن، وانحر من شقها الأيسر.

وفى صحيح مسلم، عن جابر، في صفة حجة الوداع، قال فيه: فنحر رسول الله ﷺ بيده ثلاثاً وستين بدنة، جعل^(١١) يطعنُ بحربة في يده^(١٢).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة قال: في حرف ابن مسعود: «صوافن»، أى: مُعقَّلة^(١٣) قياماً^(١٤).

(١) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية: ١٦٢ من سورة «الأنعام».

(٢) فى ت: «أمر». (٣) فى ت، أ: «بالمدينة». (٤) زيادة من ف، أ.

(٥) المسند (٨/٦) وتقدم الحديث فى هذه السورة.

(٦) فى ف، أ: «والله أكبر، لا إله إلا الله». (٧) فى أ: «نحو هذا». (٨) فى ت، ف: «يعقل يداً».

(٩) صحيح البخارى برقم (١٧١٣) وصحيح مسلم برقم (١٣٢٠).

(١٠) سنن أبى داود برقم (١٧٦٧).

(١١) فى ت: «وجعل».

(١٢) صحيح مسلم برقم (١٢١٨).

(١٣) فى ت، أ: «معلقة».

(١٤) تفسير عبد الرزاق (٣٣/٢).

وقال سفيان الثوري، عن منصور، عن مجاهد: مَنْ قرأها «صوافن» قال: معقولة. ومن قرأها «صَوَافٍ»، قال: تصف بين يديها.

وقال طاوس، والحسن، وغيرهما: «فاذكروا اسم الله عليها صوافي» يعني: خالصة لله عز وجل. وكذا رواه مالك، عن الزهري.

وقال عبد الرحمن بن زيد: «صوافي»: ليس فيها شرك كشرك الجاهلية لأصنامهم.

وقوله: «فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا» قال: ابن أبي نَجِيع، عن مجاهد: يعني: سقطت إلى الأرض. وهو رواية عن ابن عباس، وكذا قال مقاتل بن حيان.

وقال العوفي، عن ابن عباس: «فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا» يعني: نحرت.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا» يعني: ماتت.

وهذا القول هو مُرَادُ ابن عباس ومجاهد، فإنه لا يجوز الأكل من البدنة^(١) إذا نُحِرَتْ حتى تموت وتَبْرُدَ حركتها. وقد جاء في حديث مرفوع: «وَلَا تُعْجِلُوا النُّفُوسَ أَنْ تَزْهَقَ»^(٢). وقد رواه الثوري في جامعه، عن أيوب، عن يحيى ابن أبي كثير، عن فَرَاصَةَ الحنفى، عن عمر بن الخطاب؛ أنه قال ذلك^(٣). ويؤيده حديث شَدَّاد بن أوس في صحيح مسلم: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ»^(٤)، وَلْيُحَدِّثْ أَحَدُكُمْ شَفَرَتَهُ، وَلْيُزِيحْ ذَبِيحَتَهُ»^(٥).

وعن أبي واقد الليثي قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا قُطِعَ مِنَ الْبَهِيمَةِ وَهِيَ حَيَّةٌ، فَهُوَ مَيْتَةٌ».

رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي وصححه^(٦).

وقوله: «فَكُلُّوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ» قال بعض السلف^(٧): قوله: «فَكُلُّوا مِنْهَا» أمر بإباحة.

وقال مالك: يستحب ذلك. وقال غيره: يَجِبُ. وهو وَجْهٌ لبعض الشافعية. واختلف في المراد بالقانع والمعتَر، فقال العوفي، عن ابن عباس: القانع: المستغنى بما أعطيته، وهو في بيته. والمعتَر: الذى يتعرض لك، ويُلَمُّ بك أن تعطيه من اللحم، ولا يسأل. وكذا قال مجاهد، ومحمد بن كعب القرظي.

(١) فى ت: «البدن».

(٢) رواه الدارقطنى فى السنن (٢٨٣/٤) من طريق سعيد بن سلام العطار عن عبد الله بن بديل عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة رضى الله عنه مرفوعاً وسعيد بن سلام العطار كذبه أحمد وابن غير، وضعف البيهقي هذا الحديث فى السنن الكبرى (٢٧٨/٩).

(٣) ومن طريقه رواه البيهقي فى السنن الكبرى (٢٧٨/٩).

(٤) فى ت: «الذبيحة».

(٥) صحيح مسلم برقم (١٩٥٥).

(٦) المسند (٢١٨/٥) وسنن أبى داود برقم (٢٨٥٨) وسنن الترمذى برقم (١٤٨٠).

(٧) فى أ: «الناس».

وقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: القانع: المتعفف. والمعتز: السائل. وهذا قول قتادة، وإبراهيم النخعي، ومجاهد في رواية عنه.

وقال ابن عباس، وزيد بن أسلم وعكرمة^(١)، والحسن البصري، وابن الكلبي، ومقاتل بن حيان، ومالك بن أنس: القانع: هو الذي يَقْنَعُ إِلَيْكَ ويسألك. والمعتز: الذي يعتريك، يتضرع ولا يسألك. وهذا لفظ الحسن.

وقال سعيد بن جبير: القانع: هو السائل، ثم قال: أما سمعت قول الشَّماخ.
لَمَالُ الْمَرْءِ يُصْلِحُهُ فَيُغْنِي مَفَاقِرَهُ^(٢)، أَعْفُ مِنَ الْقُنُوعِ^(٣)

قال: يعني من السؤال، وبه قال ابن زيد.

وقال زيد بن أسلم: القانع: المسكين الذي يطوف. والمعتز: الصديق والضعيف^(٤) الذي يزور. وهو رواية عن عبد الله^(٥) بن زيد أيضاً.

وعن مجاهد أيضاً: القانع: جارك الغني [الذي يبصر ما يدخل بيتك]^(٦). والمعتز: الذي يعتريك^(٧) من الناس.

وعنه: أن القانع: هو الطامع. والمعتز: هو الذي يَعْتَرِ بالبُذْن من غنى أو فقير.

وعن عكرمة نحوه، وعنه القانع: أهل مكة.

واختار ابن جرير أن القانع: هو السائل؛ لأنه من أقنع بيده إذا رفعها للسؤال، والمعتز من الاعتزاز، وهو: الذي يتعرض لأكل اللحم.

وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تُجزأ ثلاثة أجزاء: فثلث لصاحبها يأكله [منها]^(٨)، وثلث يهديه لأصحابه، وثلث يتصدق به على الفقراء؛ لأنه تعالى قال: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾. وفي الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال للناس: «إني كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فكلوا وادخروا ما بدا لكم»^(٩). وفي رواية: «فكلوا وادخروا وتصدقوا». وفي رواية: «فكلوا وأطعموا وتصدقوا»^(١٠).

والقول الثاني: أن المضحي يأكل النصف ويتصدق بالنصف، لقوله في الآية المتقدمة: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨]، ولقوله في الحديث: «فكلوا وادخروا وتصدقوا».

فإن أكل الكل فقيل^(١١): لا يضمن شيئاً. وبه قال ابن سريج من الشافعية.

(١) في ف، أ: «وعكرمة وزيد بن أسلم». (٢) في ت: «مفارقة».

(٣) البيت في ديوانه (ص ٢٢١) أ. هـ مستفاداً من حاشية الشعب.

(٤) في ت: «والضيف».

(٥) في أ: «عن أبيه عبد الرحمن».

(٦) زيادة من ف، أ.

(٧) في أ: «يعتزل».

(٨) زيادة من ت، ف، أ.

(٩) صحيح مسلم برقم (٩٧٧) من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه.

(١٠) رواه مالك في الموطأ (٤٨٤/٢) من حديث جابر رضي الله عنه.

(١١) في ت، ف، أ: «فقد قيل».

وقال بعضهم: يضمونها كلها بمثلها أو قيمتها. وقيل: يضمّن نصفها. وقيل: ثلثها. وقيل: أدنى جزء منها. وهو المشهور من مذهب الشافعى.

وأما الجلود، ففي مسند أحمد عن قتادة بن النعمان فى حديث الأضاحى: «فكلوا وتصدقوا، واستمتعوا بجلودها، ولا تبيعوها»^(١).

ومن العلماء من رخص [فى ذلك]^(٢)، ومنهم من قال: يقاسم الفقراء ثمنها، والله أعلم.
[مسألة]^(٣):

عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما نبأ^(٤) به فى يومنا هذا أن نصلى، ثم نرجع فننحر. فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا، ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم [عجله]^(٥) لأهله، ليس هو من النسك فى شىء» أخرجاه^(٦).

فلهذا قال الشافعى وجماعة من العلماء: إن أول وقت الأضحى إذا طلعت الشمس يوم النحر، ومضى قدر صلاة العيد والخطبتين. زاد أحمد: وأن يذبح الإمام بعد ذلك، لما جاء فى صحيح مسلم: «وَأَلَّا تَذْبَحُوا حَتَّى يَذْبَحَ الْإِمَامُ»^(٧).

وقال أبو حنيفة: أما أهل السواد من القرى ونحوهم^(٨)، فلهم أن يذبحوا بعد طلوع الفجر، إذ لا صلاة عيد^(٩) عنده لهم. وأما أهل الأمصار فلا يذبحوا حتى يصلى الإمام، والله أعلم.

ثم قيل: لا يشرع الذبح إلا يوم النحر وحده. وقيل: يوم النحر لأهل الأمصار، لتيسر^(١٠) الأضاحى عندهم، وأما أهل القرى فيوم النحر وأيام التشريق بعده، وبه قال سعيد بن جبير. وقيل: يوم النحر، ويوم بعده للجميع. وقيل: ويومان بعده، وبه قال أحمد. وقيل: يوم النحر وثلاثة أيام التشريق بعده، وبه قال الشافعى؛ لحديث جبير بن مطعم: أن رسول الله ﷺ قال: «وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ كُلُّهَا ذَبْحٌ». رواه أحمد وابن حبان^(١١).

وقيل: إن وقت الذبح يمتد إلى آخر ذى الحجة، وبه قال إبراهيم النخعى، وأبو سلمة بن عبد الرحمن. وهو قول غريب.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: يقول تعالى: من أجل هذا ﴿سَخَرْنَاهَا لَكُمْ﴾ أى: ذللناها لكم، أى: جعلناها منقادة لكم خاضعة، إن شئتم ركبتهم، وإن شئتم حلّيتهم، وإن شئتم ذبحتهم، كما قال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ . وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾

(١) المسند (١٥/٤).

(٢، ٣) زيادة من ف، أ. (٤) فى ت: «يبدأ». (٥) زيادة من ت، ف، أ، والبخارى، وفى هـ: «يديه».

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٥٤٥) وصحيح مسلم برقم (١٩٦١).

(٧) لم يقع لى فى مسلم هذا اللفظ وينظر صحيح مسلم (١٥٥١/٣).

(٨) فى ف: «وغيرها». (٩) فى أ: «عيد تشرع». (١٠) فى ف: «لتيسر».

(١١) المسند (٨٢/٤).

فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ . وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ [يس: ٧١-٧٣] ، وقال فى هذه الآية الكريمة : ﴿كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ .

يقول تعالى : إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا ، لتذكروه عند ذبحها ، فإنه الخالق الرازق^(١) لا أنه يناله شيء من لحومها ولا دماؤها ، فإنه تعالى هو الغنى عما سواه .

وقد كانوا فى جاهليتهم إذا ذبحوها لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابتهم ، ونضحوا عليها من دماؤها ، فقال تعالى : ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا محمد بن أبى حماد ، حدثنا إبراهيم بن المختار ، عن ابن جريج قال : كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودماؤها ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فنحن أحق أن ننضح ، فأنزل الله : ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ أى : يتقبل ذلك ويجزى عليه .

كما جاء فى الصحيح : «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم»^(٢) ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٣) وما جاء فى الحديث : «إن الصدقة لتقع فى يد الرحمن قبل أن تقع فى يد السائل ، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض» كما تقدم الحديث . رواه^(٤) ابن ماجه ، والترمذى وحسنه عن عائشة مرفوعا . فمعناه : أنه سيق لتحقيق القبول من الله لمن أخلص فى عمله ، وليس له معنى يتبادر عند العلماء المحققين سوى هذا ، والله أعلم .

وقال وكيع ، عن [يحيى]^(٥) بن مسلم أبى الضحاك : سألت عامراً الشعبى عن جلود الأضاحى ، فقال : ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ ، إن شئت فبع ، وإن شئت فأمسك ، وإن شئت فتصدق .

وقوله : ﴿كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ﴾ أى : من أجل ذلك سخر^(٦) لكم البدن ، ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ أى : لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه وما يحبه ، وما يرضاه ، ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه .

وقوله : ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى : وبشر يا محمد المحسنين ، أى : فى عملهم ، القائمين بحدود الله ، المتبعين لما شرع لهم ، المصدقين الرسول فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربه عز وجل . [مسألة^(٧)]

وقد ذهب أبو حنيفة ومالك والثورى إلى القول^(٨) بوجوب الأضحية على من ملك نصابا ، وزاد

(٢) فى ت ، ف : «ألوأنكم» .

(١) فى ت ، ف : «الرازق» .

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٥٦٤) .

(٤) فى ت : «ورواه» .

(٦) فى ت ، ف : «سخرناها» .

(٥) زيادة من ت .

(٨) فى ت : «بالقول» .

(٧) زيادة من ف .

أبو حنيفة اشتراط الإقامة أيضاً. واحتج لهم بما رواه أحمد وابن ماجه بإسناد رجاله كلهم ثقات، عن أبي هريرة مرفوعاً: «من وجد سعة فلم يَصَحَّ، فلا يقربن مُصَلَّانا»^(١) على أن فيه غرابة، واستنكره أحمد بن حنبل^(٢).

وقال ابن عمر: أقام رسول الله ﷺ عشر سنين يضحى. رواه الترمذى^(٣).

وقال الشافعى، وأحمد: لا تجب الأضحية، بل هى مستحبة؛ لما جاء فى الحديث: «ليس فى المال حق سوى الزكاة»^(٤). وقد تقدم أنه، عليه السلام^(٥)، ضحى عن أمته فأسقط ذلك وجوبها عنهم.

وقال أبو سريحة: كنت جاراً لأبى بكر وعمر، فكانا لا يضحيان خشية أن يقتدى الناس بهما.

وقال بعض الناس: الأضحية سنة كفاية، إذا قام بها واحد من أهل دار أو محلة، سقطت عن الباقيين؛ لأن المقصود إظهار الشعار.

وقد روى الإمام أحمد، وأهل السنن - وحسنه الترمذى - عن مخنف بن سليم؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول بعرفات: «على كل أهل بيت فى كل عام أضحية وعتيرة، هل تدرون ما العتيرة؟ هى^(٦) التى تدعونها الرجبية». وقد تكلم فى إسناده^(٧).

وقال أبو أيوب: كان الرجل فى عهد رسول الله ﷺ يضحى بالشاة الواحدة عنه وعن أهل بيته، يأكلون ويطعمون [حتى تباهى]^(٨) الناس فصار كما ترى.

رواه الترمذى وصححه، وابن ماجه^(٩).

وكان عبد الله بن هشام يضحى بالشاة الواحدة عن جميع أهله. رواه البخارى.

وأما مقدار سنّ الأضحية، فقد روى مسلم عن جابر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تذبحوا إلا مُسنّة، إلا أن يعسر عليكم، فتذبحوا جذعة من الضأن»^(١٠).

(١) المسند (٣٢١/٢) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٢٣).

(٢) فى إسناده عبد الله بن عياش، قال البوصيرى فى الزوائد (٥٠/٣): «وإن روى له مسلم فإنما روى له فى المتابعات والشواهد فقد ضعفه أبو داود والنسائى، وقال أبو حاتم، وابن يونس: منكر الحديث وذكره ابن حبان فى الثقات».

ثم نقل عن البيهقى أنه بلغه عن الترمذى: أن الصحيح عن أبى هريرة موقوف أ. هـ.

ويمكن أن يجاب بأن هذا الحديث لا يدل على الوجوب، كما فى حديث: «من أكل الثوم فلا يقربن مصلانا» ذكر ذلك ابن الجوزى وهناك لا يلزم استنكاره.

(٣) سنن الترمذى برقم (١٥٠٧) وحسنه.

(٤) رواه ابن ماجه فى السنن برقم (١٧٨٩) من حديث فاطمة بنت قيس رضى الله عنها.

(٥) فى أ: «ﷺ». (٦) فى ف، أ: «قال: هى».

(٧) المسند (١٢٥/٤) وسنن أبى داود برقم (٢٧٨٨) وسنن الترمذى برقم (١٥١٨) وسنن النسائى (١٦٧/٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٢٥).

(٨) زيادة من ت، ف.

(٩) سنن الترمذى برقم (١٥٠٥) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٤٧).

(١٠) صحيح مسلم برقم (١٩٦٣).

ومن هاهنا ذهب الزهرى إلى أن الجذع لا يجزئ. وقابله الأوزاعى فذهب إلى أن الجذع يجزئ من كل جنس، وهما غريبان. وقال الجمهور: إنما يجزئ الشئ من الإبل والبقر والمعز، والجذع من الضأن، فأما الشئ من الإبل: فهو الذى له خمس سنين، ودخل فى السادسة. ومن البقر: ما له [ستتان]^(١) ودخل فى [الثالثة]^(٢)، وقيل: [ما له]^(٣) ثلاث [ودخل فى]^(٤) الرابعة. ومن المعز: ما له ستان. وأما الجذع من الضأن فقليل: ما له سنة، وقيل: عشرة أشهر، وقيل: ثمانية أشهر، وقيل: ستة أشهر، وهو أقل ما قيل فى سنه، وما دونه فهو حَمَل، والفرق بينهما: أن الحمل شعر ظهره قائم، والجذع شعر ظهره نائم، قد انعدل صدعين، والله أعلم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (٣٨).

يخبر تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكّلوا عليه وأنابوا إليه شر الأشرار وكيد الفجار، ويحفظهم ويكلّوهم وينصرهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] وقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ أى: لا يحب من عباده من اتصف بهذا، وهو الخيانة فى العهود والمواثيق، لا يفى بما قال. والكفر^(٥): الجحد للنعم، فلا يعترف بها.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدِمَتْ صَوَامِعُ وَبِيعَ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠).

قال العوفى، عن ابن عباس: نزلت فى محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة.

وقال غير واحد من السلف^(٦): هذه أول آية نزلت فى الجهاد، واستدل بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنية، وقاله مجاهد، والضحاك، وقتادة، وغير واحد.

وقال ابن جرير: حدثنى يحيى بن داود الواسطى: حدثنا إسحاق بن يوسف، عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم - هو البطّين - عن سعيد بن جبّير، عن ابن عباس قال: لما أخرج^(٧) النبى ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم. إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن. قال ابن عباس: فأنزل الله عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، قال أبو بكر، رضى الله تعالى عنه: فعرفت أنه سيكون قتال.

(٦) فى ف، أ: «وقال مجاهد والضحاك وقتادة».

(٥) فى ت: «والكفور».

(١-٤) زيادة من ف.

(٧) فى ت، ف: «خرج».

ورواه الإمام أحمد، عن إسحاق بن يوسف الأزرق، به^(١) وزاد: قال ابن عباس: وهى أول آية نزلت فى القتال.

ورواه الترمذى، والنسائى فى التفسير من سننهما، وابن أبى حاتم^(٢) من حديث إسحاق بن يوسف - زاد الترمذى: ووَكِّع، كلاهما عن سفيان الثورى، به. وقال الترمذى: حديث حسن، وقد رواه غير واحد، عن الثورى، وليس فيه ابن عباس^(٣).

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ أى: هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن هو يريد من عباده أن يبلوا^(٤) جهدهم فى طاعته، كما قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوا الرَّوَاقِ فِيمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَيَبْلُوَنَّكُمْ بَعْضُ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَنْ يَضِلَّ أَعْمَالُهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحَ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ - ٦]، وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ^(٥) وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمُ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ [اللَّهُ]^(٦) الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

والآيات فى هذا كثيرة؛ ولهذا قال ابن عباس فى قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾: وقد فَعَلَ.

وإنما شرع [الله]^(٧) تعالى الجهاد فى الوقت الأليق به؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً، فلو أمر المسلمين، وهم أقل من العشر، بقتال الباقيين^(٨) لَشَقَّ عليهم؛ ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ، وكانوا نيفا وثمانين، قالوا: يا رسول الله، ألا نميل على أهل الوادى - يعنون أهل منى - ليالى منى فنقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنى لم أؤمر بهذا». فلما بَغَى المشركون، وأخرجوا النبی ﷺ من بين أظهرهم، وهموا بقتله، وشردوا أصحابه شَرْدَ مَذَرٍ، فذهب^(٩) منهم طائفة إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينة. فلما استقروا بالمدينة، ووافاهم رسول الله ﷺ، واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره، وصارت لهم دار إسلام ومعقلاً يلجؤون إليه - شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل فى ذلك، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ

(١) تفسير الطبرى (١٧/١٢٣) والمسنند (١/٢١٦).

(٢) فى ت: «ماجه».

(٣) سنن الترمذى برقم (٣١٧١) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٤٥).

(٤) فى ت: «يبدلوا».

(٥) زيادة من ت، ف، أ.

(٦) فى ت: «بأيديهم».

(٧) زيادة من ف.

(٨) فى ت: «المنافقين».

(٩) فى ف: «فذهب».

لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ.

قال العوفي، عن ابن عباس: أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق، يعنى: محمداً وأصحابه.
﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾ أى: ما كان لهم إلى قومهم إساءة، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم عبدوا الله^(١) وحده لا شريك له. وهذا استثناء منقطع بالنسبة إلى ما فى نفس الأمر، وأما عند المشركين فهو أكبر الذنوب، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال تعالى فى قصة أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]. ولهذا لما كان المسلمون يرتجزون فى بناء الخندق، ويقولون:

لَاهُمْ^(٢) لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلِّينَا
فَأَنْزَلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَتَبَّتْ الْأَقْدَامُ إِنْ لَا قَيْنَا
إِنَّ الْأَلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَيْنَا^(٣)

فيوافقهم رسول الله ﷺ، ويقول معهم آخر كل قافية، فإذا قالوا: «إذا أرادوا فتنة أينا»، يقول: «أينا»، يمد بها صوته.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أى: لولا أنه يدفع عن قوم بقوم، ويكشف شر أناس عن غيرهم، بما يخلقه ويقدره من الأسباب، لفسدت الأرض، وأهلك القوى الضعيف.
﴿لَهْدِمْتُ صَوَامِعُ﴾: وهى المعابد الصغار للربان، قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية، وعكرمة، والضحاك، وغيرهم.

وقال قتادة: هى معابد الصابئين. وفى رواية عنه: صوامع المجوس.

وقال مقاتل بن حيان: هى البيوت التى على الطرق.

﴿وَبِيعُ﴾: وهى أوسع منها، وأكثر عابدين فيها. وهى للنصارى أيضاً. قاله أبو العالية، وقاتادة، والضحاك، وابن^(٤) صخر، ومقاتل بن حيان، وخُصيف، وغيرهم.

وحكى ابن جبير عن مجاهد وغيره: أنها كنائس اليهود. وحكى السدى، عن حدثه، عن ابن عباس: أنها كنائس اليهود، ومجاهد إنما قال: هى الكنائس، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَصَلَّاتُ﴾: قال العوفي، عن ابن عباس: الصلوات: الكنائس. وكذا قال عكرمة، والضحاك، وقاتادة: إنها كنائس اليهود. وهم يسمونها صلُّوتا.

وحكى السدى، عن حدثه، عن ابن عباس: أنها كنائس النصارى.

(١) فى ف، أ: «وحد الله».

(٢) فى أ: «والله».

(٣) الآيات لعامر بن الاكوع كما فى صحيح مسلم برقم (١٨٠٣).

(٤) فى أ: «أبو».

وقال أبو العالية، وغيره: الصلوات: معابد الصابئين.

وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: الصلوات: مساجد لأهل الكتاب ولأهل الإسلام بالطرق. وأما المساجد فهي للمسلمين.

وقوله: ﴿يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾: فقد قيل: الضمير في قوله: ﴿يُذَكِّرُ فِيهَا﴾ عائد إلى المساجد؛ لأنها أقرب المذكورات.

وقال الضحاك: الجميع يذكر فيها اسم الله كثيرا.

وقال ابن جرير: الصواب: لهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى وصلوات اليهود، وهي كنائسهم، ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيرا؛ لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب.

وقال بعض العلماء: هذا تَرَقُّ من الأقل إلى الأكثر إلى أن ينتهي إلى المساجد، وهي أكثر عمارا وأكثر عبادا، وهم ذوو القصد الصحيح.

وقوله: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾، كقوله^(١) تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٧، ٨].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وَصَفَ نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديرا، وبعزته لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، بل كل شيء ذليل لديه، فقير إليه. ومن كان القوى العزيز ناصره فهو المنصور، وعدوه هو المقهور، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات ١٧١ - ١٧٣] وقال [الله]^(٢) تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٤١).

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الربيع الزهراني، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب وهشام، عن محمد قال: قال عثمان بن عفان: فينا نزلت: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، فأخرجنا من ديارنا بغير حق، إلا أن قلنا: «ربنا الله»، ثم مكنا في الأرض، فأقمنا الصلاة، وآتينها الزكاة، وأمرنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر، والله عاقبة الأمور، فهي لى ولأصحابى.

(٢) زيادة من ت.

(١) في ت: «لقوله».

وقال أبو العالية: هم أصحاب محمد ﷺ.

وقال الصباح بن سواده الكندي: سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو يقول: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، ثم قال: إلا أنها ليست على الوالى وحده، ولكنها على الوالى والمولى عليه، ألا أنبئكم بما لكم على الوالى من ذلكم، وبما للوالى عليكم منه؟ إن لكم على الوالى من ذلكم أن يؤاخذكم بحقوق الله عليكم، وأن يأخذ لبعضكم من بعض، وأن يهديكم للتى هى أقوم ما استطاع، وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المبزوزة ولا المستكرهة، ولا المخالف سرها علانيته.

وقال عطية العوفى: هذه الآية كقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ] ^(١) ﴿[النور: ٥٥].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾، كقوله تعالى ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وقال زيد بن أسلم: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾: وعند الله ثواب ما صنعوا.

﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِثْرٍ مُعْتَلَّةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾.

يقول تعالى مسلماً نبياً محمداً ﷺ فى تكذيب من خالفه من قومه: ﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى أن قال ^(٢): ﴿وَكَذَّبَ مُوسَى﴾، أى: مع ما جاء به من الآيات البينات والدلائل الواضحات.

﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أى: أنظرتهم وأخرتهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أى: فكيف كان إنكارى عليهم، ومعاقبتى لهم؟!.

ذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النارعات: ٢٤]، وبين إهلاك الله له أربعون سنة.

وفى الصحيحين عن أبى موسى، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [١٠٢] ^(٣).

(١) زيادة من أ. (٢) فى ف، أ: «وعاد و ثمود. وقوم إبراهيم وقوم لوط. وأصحاب مدين».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٦) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٣).

ثم قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أى: كم من قرية أهلكتها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾^(٢) أى: مكذبة لرسولها، ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ قال الضحاك: سقوفها، أى: قد خربت منازلها وتعطلت حواضرها.

﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ﴾ أى: لا يستقى منها، ولا يردها أحد بعد كثرة واردتها والازدحام عليها.
﴿وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾: قال عكرمة: يعنى المبيض بالحص. .

وروى عن على بن أبى طالب، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، وأبى المليح، والضحاك، نحو ذلك.

وقال آخرون: هو المنيف المرتفع.

وقال آخرون: الشديد المنيع الحصين.

وكل هذه الأقوال متقاربة، ولا منافاة بينها، فإنه لم يحمْ أهله شدة بنائه ولا ارتفاعه، ولا إحكامه ولا حصانته، عن حلول بأس الله بهم، كما قال تعالى: ﴿أَيَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: بأبدانهم وبفكرهم أيضا، وذلك كاف، كما قال ابن أبى الدنيا فى كتاب «التفكر والاعتبار»:

حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا سيّار، حدثنا^(٣) جعفر، حدثنا مالك بن دينار قال: أوحى الله تعالى إلى موسى، عليه السلام، أن يا موسى، اتخذ نعلين من حديد وعصا، ثم سحّ فى الأرض، واطلب الآثار والعبر، حتى تتخرق النعلان^(٤) وتكسر العصا.

وقال ابن أبى الدنيا: قال بعض الحكماء: أحى قلبك بالمواعظ، ونوّره بالفكر، وموّته بالزهد، وقوّه باليقين، وذللّه بالموت^(٥)، وقرّره بالفناء^(٦)، وبصرّه فجائع^(٧) الدنيا، وحذّره صولة^(٨) الدهر وفحش تقلّب الأيام، واعرض عليه أخبار الماضين، وذكره ما أصاب^(٩) من كان قبله، وسرّ فى ديارهم وآثارهم، وانظر ما فعلوا، وأين حلّوا، وعمّ انقلبوا.

أى: فانظروا^(١٠) ما حل بالأمم المكذبة من النقم والنكال، ﴿فَتَكُونُ﴾^(١١) لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا، أى: فيعتبرون بها، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أى: ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر، ولا تدرى ما الخير. وما أحسن ما قاله بعض الشعراء فى هذا المعنى - وهو أبو محمد عبد الله ابن محمد بن سارة^(١٢) الأندلسى الشنترينى، وقد كانت وفاته سنة سبع عشرة وخمسمائة:

(١) فى ت، ف: «وكأين». (٢) زيادة من ف، أ. (٣) فى ت، ف: «ابن». (٤) فى ت، ف: «تخرق النعال». (٥) فى ت، ف: «بالقرب». (٦) فى ت، ف: «وتدبره بالثناء». (٧) فى ت، ف، أ: «بمجامع». (٨) فى ف: «بصولة». (٩) فى ت، أ: «وذكره بأم كتاب». (١٠) فى ت، ف: «فينظروا». (١١) فى ت: «فيكون». (١٢) فى ت، ف، أ: «ابن حبان».

يا مَنْ يُصَيِّخُ إِلَى دَاغَى الشَّقَاءِ، وَقَدْ
 إِنْ كُنْتَ لَا تَسْمَعُ الذِّكْرَى، فَفِيمَ تُرَى
 لَيْسَ الْأَصَمُّ وَلَا الْأَعْمَى سِوَى رَجُلٍ
 لَا الدَّهْرُ يَبْقَى وَلَا الدُّنْيَا، وَلَا الْفَلَكَ الـ
 لَيَرْحَلَنَّ عَنِ الدُّنْيَا، وَإِنْ كَرِهَا^(١)
 نَادَى بِهِ النَّاعِيَانِ: الشَّيْبُ وَالْكِبَرُ
 فِي رَأْسِكَ الْوَاعِيَانِ: السَّمْعُ وَالْبَصَرُ؟
 لَمْ يَهْدِهِ الْهَادِيَانِ: الْعَيْنُ وَالْأُتْرُ
 أَعْلَى وَلَا النَّيِّرَانِ: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
 فَرَاقَهَا، الثَّاوِيَانِ: الْبَدْوُ وَالْحَضَرُ

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ (٤٨)﴾.

يقول تعالى لنبه، صلوات الله وسلامه عليه^(٢). ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ أى: هؤلاء الكفار الملقحون المكذبون^(٣) بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر، كما قال [الله]^(٤) تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعَانًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

وقوله: ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أى: الذى قد وعد، من إقامة الساعة والانتقام من أعدائه، والإكرام لأوليائه.

قال الأصمعي: كنت عند أبى عمرو بن العلاء، فجاء عمرو بن عبيد، فقال: يا أبا عمرو، وهل يخلف الله الميعاد؟ فقال: لا. فذكر آية وعيد، فقال له: أمن^(٥) العجم أنت؟ إن العرب تعد الرجوع عن الوعد لؤما، وعن الإيعاد كرما، أو ما سمعت قول الشاعر^(٦):

لَا يُرْهِبُ ابْنَ الْعَمِ مِنْى^(٧) سَطَوَتِى وَلَا أُخْتَتِى^(٨) مِنْ سَطَوَةِ الْمُتَهَدِّدِ
 فَإِنِّى وَإِنْ أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهِ لَمْخُلْفُ إِيْعَادِى وَمُنْجِزُ مَوْعِدِى

وقوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ أى: هو تعالى لا يعجل، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه، لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لا يفوته شئ، وإن أجَّلَ وأنظَرَ وأملَى؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنى عبدة بن سليمان، عن محمد بن عمرو، عن

(١) فى ت، ف، أ: «كرهن». (٢) فى ف، أ: «عليه وسلامه». (٣) فى ت، ف: «الملحدون المكذبون».

(٤) زيادة من ف. (٥) فى ت، ف، أ: «من». (٦) هو عامر بن الطفيل والبيت فى اللسان مادة (ختا)، (وعد).

(٧) فى ت، ف، أ: «والجار». (٨) فى ت، ف، أ: «ينثنى».

أبى سلمة، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، خمسمائة عام».

ورواه الترمذى والنسائى، من حديث الثورى، عن محمد بن عمرو، به^(١). وقال الترمذى: حسن صحيح. وقد رواه ابن جرير، عن أبى هريرة موقوفا^(٢)، فقال:

حدثنى يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا سعيد الجُرَيْرى، عن أبى نُضْرَةَ، عن سُمَيْر بن نهار قال: قال أبو هريرة: يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمقدار نصف يوم. قلت: وما نصف يوم؟ قال: «أَوْ مَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟». قلت: بلى. قال: «وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ»^(٣).

وقال أبو داود فى آخر كتاب الملاحم من سننه: حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، عن شُرَيْح بن^(٤) عُبَيْد، عن سعد بن أبى وقاص، عن النبى ﷺ أنه قال: «إِنى لأرجو ألا تَعْجِزَ أمتى عند ربها، أن يؤخرهم نصف يوم». قيل لسعد: وما نصف يوم؟ قال: خمسمائة سنة^(٥).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان^(٦)، حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدَى، عن إسرائيل، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس: «وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ» قال: من الأيام التى خلق الله فيها السموات والأرض.

رواه ابن جرير، عن ابن بَشَّار^(٧)، عن ابن مَهْدَى^(٨). وبه قال مجاهد، وعكرمة، ونص عليه أحمد بن حنبل فى كتاب «الرد على الجهمية».

وقال مجاهد: هذه الآية كقوله: «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ» [السجدة: ٥].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عارم - محمد بن الفضل - حدثنا حماد بن زيد، عن يحيى بن عَتِيق، عن محمد بن سيرين، عن رجل من أهل الكتاب أسلم قال: إن الله تعالى خلق السموات والأرض فى ستة أيام، «وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ»، وجعل أجل الدنيا ستة أيام، وجعل الساعة فى اليوم السابع، «وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ»، فقد مضت الستة الأيام، وأنتم فى اليوم السابع. فمثل ذلك كمثل الحامل إذا دخلت شهرها، فى أية لحظة ولدت كان تماما.

(١) سنن الترمذى برقم (٢٣٥٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٤٨) أى أن النصف يوم خمسمائة عام.

(٢) فى ت: «مرفوعاً».

(٣) تفسير الطبرى (١٧/١٢٩).

(٤) فى ت: «عن».

(٥) سنن أبى داود برقم (٤٣٥٠).

(٦) فى ف، أ: «شبيان».

(٧) فى ت: «يسار».

(٨) تفسير الطبرى (١٧/١٢٩).

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١) ﴿﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب منه الكفار وقوع العذاب، واستعجلوه به: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أى: إنما أرسلنى الله إليكم نذيراً لكم بين يدى عذاب شديد، وليس إلى من حسابكم من شىء، أمركم إلى الله، إن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء أخره عنكم، وإن شاء تاب على من يتوب إليه، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار، [و] (١) ﴿لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١] و﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾. فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿﴾ أى: آمنت قلوبهم وصدقوا إيمانهم بأعمالهم، ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أى: مغفرة لما سلف من سيئاتهم، ومجازاة حسنة على القليل من حسناتهم.

[و] (٢) قال محمد بن كعب القرظي: إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فهو الجنة.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾: قال مجاهد: يُبْطِئُونَ النَّاسَ عَنْ مَتَابَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ. وكذا قال عبد الله بن الزبير: مثبطين.

وقال ابن عباس: ﴿مُعَاجِزِينَ﴾: مراغمين.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾: وهى النار الحارة الموجهة الشديد عذابها ونكالها، أجازنا الله منها. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤) ﴿﴾

قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة العرائق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة، ظناً منهم أن مشركى قريش قد أسلموا. ولكنها من طرق كلها مرسله، ولم أرها مسنده من وجه صحيح، والله أعلم.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة «النجم» فلما بلغ هذا الموضع: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ قال: فألقى الشيطان على لسانه: «تلك الغرائق العلى. وإن شفاعتهن^(١) ترتجى». قالوا: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم. فسجد وسجدوا، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٢).

رواه ابن جرير، عن بُنْدَار، عن غُنْدَر، عن شعبة، به نحوه^(٣)، وهو مرسل، وقد رواه البزار في مسنده، عن يوسف بن حماد، عن أمية بن خالد، عن شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس - فيما أحسب، الشك في الحديث - أن النبي ﷺ قرأ بمكة سورة «النجم»، حتى انتهى إلى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾، وذكر بقيته. ثم قال البزار: لا^(٤) يروى متصلاً إلا بهذا الإسناد، تفرد بوصله أمية بن خالد، وهو ثقة مشهور. وإنما يروى هذا من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس^(٥).

ثم رواه ابن أبي حاتم، عن أبي العالقة، وعن السدي، مرسلًا. وكذا رواه ابن جرير، عن محمد ابن كعب القرظي، ومحمد بن قيس، مرسلًا أيضاً^(٦).

وقال قتادة: كان النبي ﷺ [يصلى]^(٧) عند المقام إذ نَعَسَ، فألقى الشيطان على لسانه «وإن شفاعتها لترتجى. وإنها لمع الغرائق العلى»، فحفظها المشركون. وأجرى الشيطان أن نبي الله قد قرأها، فزَلَّتْ بها ألسنتهم، فأنزل الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾^(٨) الآية، فَدَحَرَ اللَّهُ الشَّيْطَانَ.

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا موسى بن أبي موسى الكوفي، حدثنا محمد بن إسحاق المُسَيَّبِي، حدثنا محمد بن فُلَيْح، عن موسى بن عقبة، عن ابن شهاب قال: أنزلت سورة النجم، وكان المشركون يقولون: لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه، ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذى يذكر آلهتنا من الشتم والشر. وكان رسول الله ﷺ قد اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم، وأحزنه ضلالهم، فكان^(٩) يتمنى هُدَاهُمْ، فلما أنزل الله سورة

(١) فى ت، ف: «شفاعتهم».

(٣) تفسير الطبرى (١٧/١٣٣).

(٤) فى ف، أ: «لأنعلمه».

(٥) مسند البزار برقم (٢٢٦٣) «كشف الأستار».

(٦) تفسير الطبرى (١٧/١٣١).

(٧) زيادة من ف، أ.

(٩) فى ف: «وكان».

«النجم قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ . أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾»، ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت، فقال: «وإنهن لهن الغرائق العلى . وإن شفاعتهن لهى التى ترتجى^(١)». وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته، فوقعت هاتان الكلمتان فى قلب كل مشرك بمكة، وزلت بها ألسنتهم، وتباشروا بها، وقالوا: إن محمداً، قد رجع إلى دينه الأول، ودين قومه . فلما بلغ رسول الله ﷺ [آخر النجم]^(٢)، سجد وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك . غير أن الوليد ابن المغيرة كان رجلاً كبيراً، فرفع على^(٣) كفه تراباً، فسجد عليه . فعجب الفريقان كلاهما^(٤) من جماعتهم فى السجود، لسجود رسول الله ﷺ، فأما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين - ولم يكن المسلمون سمعوا الآية التى^(٥) ألقى الشيطان فى مسامع المشركين - فاطمأنت أنفسهم لما ألقى الشيطان فى أمانة رسول الله ﷺ، وحدثهم به الشيطان أن رسول الله ﷺ قد قرأها فى السورة، فسجدوا لتعظيم آلهتهم . ففشت تلك الكلمة فى الناس، وأظهرها الشيطان، حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين، عثمان بن مظعون وأصحابه، وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم، وصلوا مع رسول الله ﷺ، وبلغهم سجود الوليد بن المغيرة على التراب على كفه، وحُدِّثُوا أن المسلمين قد آمنوا بمكة فأقبلوا سراعاً وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله آياته، وحفظه^(٦) من الفرية، وقال [تعالى]^(٧): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾، فلما بين الله قضاءه، وبراه من سجع الشيطان، انقلب المشركون بضلالهم^(٨) وعداوتهم المسلمين، واشتدوا عليهم . وهذا أيضاً مرسل .

وفى تفسير ابن جرير عن الزهرى، عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، نحوه^(٩) . وقد رواه الإمام^(١٠) أبو بكر البيهقى فى كتابه «دلائل النبوة» فلم يَجْزُ به موسى بن عقبة، ساقه فى مغازيه بنحوه، قال: وقد رويانا عن ابن إسحاق هذه القصة .

قلت: وقد ذكرها محمد بن إسحاق فى السيرة بنحو من هذا، وكلها مراسلات ومنقطعات، فالله أعلم . وقد ساقها البغوى فى تفسيره مجموعة من كلام ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظى، وغيرهما بنحو من ذلك، ثم سأل هاهنا سؤالاً: كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه؟ ثم حكى أجوبة عن الناس، من ألفتها: أن الشيطان أوقع فى مسامع المشركين ذلك، فتوهموا أنه صدر عن رسول الله ﷺ، وليس كذلك فى نفس الأمر، بل إنما

(١) فى أ: «ترجى» .

(٢) زيادة من ف، أ .

(٣) فى ت، أ: «ملء» .

(٤) فى ت: «الفريقان منهما كلاهما» .

(٥) فى أ: «الذى» .

(٦) فى ت، أ: «وحفظه الله» .

(٧) زيادة من ف، أ .

(٨) فى ف: «بضلالهم» .

(٩) تفسير الطبرى (١٧/١٣٣) .

(١٠) فى أ: «الحافظ» .

كان من صنيع الشيطان لا من رسول الرحمن ﷺ، والله أعلم^(١).

وهكذا تنوعت أجوبة المتكلمين عن هذا بتقدير صحته. وقد تعرض القاضى عياض، رحمه الله، فى كتاب «الشفاء» لهذا، وأجاب بما حاصله^(٢).

(١) معالم التنزيل للبخارى (٣٩٤/٥).

(٢) كذا فى جميع النسخ وكلام القاضى عياض فى الشفاء (١٠٧/٢) أذكره مختصراً له، قال رحمه الله:

«فأعلم، أكرمك الله أن لنا فى الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين: أحدهما: فى توهين أصله. والثانى: على تسليمه.

أما المأخذ الأول: فيكفيك أن هذا حديث لم يخرج أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل... وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم.

وصدق القاضى بكر بن العلاء المالكي حيث قال: لقد بلى الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير، وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف نقلته، واضطراب رواياته، وانقطاع إسناده، واختلاف كلماته، فقائل يقول: إنه فى الصلاة، وآخر يقول: قالها فى نادى قومه حين أنزلت عليه السورة، وآخر يقول: قالها وقد أصابته سنة، وآخر يقول: بل حدث نفسه فسها، وآخر يقول: إن الشيطان قالها على لسانه وإن النبى ﷺ لما عرضها على جبريل قال: ما هكذا أقرأتك، وآخر يقول: بل أعلمهم الشيطان أن النبى ﷺ قرأها فلما بلغ النبى ﷺ ذلك قال: «والله ما هكذا أنزلت».

إلى غير ذلك من اختلاف الرواة.

ومن حكيه هذه الحكاية عنه من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة وأمية.

والمرفوع فيه حديث شعبة عن أبى بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: فيما أحسب - الشك فى الحديث أن النبى ﷺ كان بمكة وذكر القصة.

قال أبو بكر البزار: هذا لا نعلمه يروى عن النبى ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره إلا هذا، ولم يسند عن شعبة إلا أمية بن خالد، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير، وإنما يعرف عن الكلبي، عن أبى صالح، عن ابن عباس. فقد بين لك أبو بكر، رحمه الله، أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا، وفيه من الضعف ما نبه عليه مع وقوع الشك فيه كما ذكرناه الذى لا يوثق به ولا حقيقة معه.

أما حديث الكلبي فمما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه، كما أشار إليه البزار، رحمه الله.

والذى منه فى الصحيح: أن النبى ﷺ قرأ «والنجم» وهو بمكة فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس هذا توهينه من طريق النقل.

أما من جهة المعنى، فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته ﷺ، ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة، إما من ثمنه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله وهو كفر أو يتصور عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ويعتقد النبى ﷺ أن من القرآن ما ليس منه حتى ينهيه جبريل، عليه السلام، وذلك كله متنع فى حقه ﷺ.

أو يقول ذلك النبى ﷺ من قبل نفسه عمداً وذلك كفر، أو سهواً وهو معصوم من هذا كله.

ووجه ثان: هو استحالة هذه القصة نظراً وعرفاً. وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روى لكان بعيد الالتئام، متناقض الأقسام، ممتزج المدح بالذم، متخاذل التأليف والنظم، ولما كان النبى ﷺ ولا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك. وهذا لا يخفى على أدنى متأمل فكيف بمن رجح حلمه، واتسع فى باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه!!

ووجه ثالث: أنه قد علم من عادة المنافقين، ومعاندى المشركين، وضعفة القلوب، والجهلة من المسلمين، نفورهم لأول وهلة، وتخليط العدو على النبى ﷺ لأقل فتنة، وتعيرهم المسلمين والشمامنة بهم الفينة بعد الفينة وارتداد من فى قلبه مرض ممن أظهر الإسلام لأدنى شبهة...

ولم يحك أحد فى هذه القصة شيئاً سوى هذه الرواية الضعيفة.

ووجه رابع: ذكر الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت «وإن كادوا ليفتنونك...» الآيتين.

وهاتان الآيتان تردان الخبر الذى روي؛ لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفتري، وأنه لولا أن ثبته لكاد يركن إليهم. فمضمون هذا ومفهومه: أن الله تعالى عصمه من أن يفتري، وثبته حتى لم يركن إليهم قليلاً فكيف كثيراً وهم يروون فى أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم وأنه قال ﷺ: افترت على الله وقلت ما لم يقل وهذا ضد مفهوم الآية وهى تضعف الحديث لو صح، فكيف ولا صحة له، وهذا مثل قوله تعالى فى الآية الأخرى: «ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت=

وقوله: ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾، هذا فيه تسلية له، صلوات الله وسلامه عليه^(١)، أى: لا يهيدنك ذلك، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء.

قال البخارى: قال ابن عباس: ﴿فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ إذا حَدَّثَ ألقى الشيطان فى حديثه، فيبطل الله ما يلقى الشيطان ويحكم الله آياته.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِذَا تَمَنَّى [أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾، يقول: إذا حدث ألقى الشيطان فى حديثه.

وقال مجاهد: ﴿إِذَا تَمَنَّى﴾^(٢)، يعنى: إذا قال.

ويقال: ﴿أُمْنِيَّتِهِ﴾: قراءته، ﴿إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨]، يقولون ولا يكتبون.

قال البغوى: وأكثر المفسرين قالوا: معنى قوله: ﴿تَمَنَّى﴾ أى: تلا وقرأ كتاب الله، ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أى: فى تلاوته، قال الشاعر فى عثمان حين قتل:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ وَآخِرَهَا لَأَقَى حَمَامَ الْمَقَادِرِ^(٣)

وقال الضحاك: ﴿إِذَا تَمَنَّى﴾: إذا تلا.

قال ابن جرير: هذا القول أشبه بتأويل الكلام.

وقوله: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾، حقيقة النسخ لغة: الإزالة والرفع.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أى فيبطل الله - سبحانه وتعالى - ما ألقى الشيطان.

وقال الضحاك: نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله آياته.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ^(٤)﴾، [أى: بما يكون من الأمور والحوادث، لا تخفى عليه خافية]^(٥)،

﴿حَكِيمٌ﴾ أى: فى تقديره وخلقه وأمره، له الحكمة التامة والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي

الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أى: شك وشرك وكفر ونفاق، كالمشركين حين فرحوا بذلك،

واعتقدوا أنه صحيح، وإنما كان من الشيطان.

= طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء.

وأما المأخذ الثانى: فهو مبنى على تسليم الحديث لو صح. وقد أعادنا الله من صحته، ولكن على كل حال فقد أجاب عن ذلك أئمة المسلمين بأجوبة منها الغث والسمين.

ثم ذكر الأجوبة على ذلك (١١١/٢-١١٤) ومن أنكرها الإمام ابن خزيمة وقال: «هذا من وضع الزنادقة» وهذا هو الصواب. للاستزادة: انظر: الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير ص - ٣١٤ لمحمد أبى شهبه، ونصب المجانيق لأبطال قصة الغرائق لمحمد ناصر الدين الألبانى.

(١) فى ف، أ: «عليه وسلامه». (٢) زيادة من ف، أ.

(٣) البيت فى اللسان، مادة (منى) غير منسوب.

(٤) فى ف، أ: «عليم حكيم». (٥) زيادة من ت.

قال ابن جريج: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ هم: المنافقون ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: المشركون.
وقال مقاتل بن حيان: هم [الكافرون] ^(١) اليهود.

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أى: فى ضلال ومخالفة وعناد بعيد، أى: من الحق والصواب.
﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أى: وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذى يفرقون به بين الحق والباطل، المؤمنون بالله ورسوله، أن ما أوحينا إليك هو الحق من ربك، الذى أنزله بعلمه وحفظه وحرسه أن يختلط به غيره، بل هو كتاب حكيم، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقوله: ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أى: يصدقوه وينقادوا له، ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أى: تخضع وتذل، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفى الآخرة يهديهم [إلى] ^(٢) الصراط المستقيم، الموصل إلى درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ (٥٥) الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥٧)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار: أنهم لا يزالون فى مرية، أى: فى شك وريب من هذا القرآن، قاله ابن جريج، واختاره ابن جرير.

وقال سعيد بن جبیر، وابن زيد: ﴿مِنْهُ﴾ أى: مما ألقى الشيطان.

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾: قال مجاهد: فجأة. وقال قتادة: ﴿بَغْتَةً﴾، بغت [القوم] ^(٣) أمر الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وعرثهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، إنه لا يغتر بالله ^(٤) إلا القوم الفاسقون.

وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾: قال مجاهد: قال أبى بن كعب: هو يوم بدر، وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبیر، وقتادة وغير واحد. واختاره ابن جرير.

وقال عكرمة، ومجاهد [فى رواية عنهما] ^(٥): هو يوم القيامة لا ليلة له. وكذا قال الضحاك، والحسن البصرى .

وهذا القول هو الصحيح، وإن كان يوم بدر من حملة ما أوعدوا به، لكن هذا هو المراد؛ ولهذا

(٣) فى ت: «اليوم» والمثبت من ف، أ.

(٢) زيادة من أ.

(١) زيادة من ت.

(٥) زيادة من ت، ف، أ.

(٤) فى أ: «فلا يغتر به».

قال: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، كقوله ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، وقوله: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: آمنت قلوبهم، وصدقوا بالله ورسوله، وعملوا بمقتضى ما علموا، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم^(١).

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، أى: لهم النعيم المقيم، الذى لا يحول ولا يزول ولا يبيد.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أى: كفرت قلوبهم بالحق، وجحدوا به^(٢) وكذبوا به، وخالفوا الرسل، واستكبروا عن اتباعهم ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أى: مقابلة استكبارهم وإعراضهم^(٣) عن الحق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أى: صاغرين.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٥٨) لِيَدْخُلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضُونَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ (٦٠).

يخبر تعالى عن مخرج مهاجراً فى سبيل الله ابتغاء مرضاته، وطلباً لما عنده، وترك الأوطان والأهلين والخلائن، وفارق بلاده فى الله ورسوله، ونصرة لدين الله ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ أى: فى الجهاد ﴿أَوْ مَاتُوا﴾ أى: حتف أنفسهم^(٤)، أى: من غير قتال على فرشهم، فقد حصلوا على الأجر الجزيل، والثناء الجميل، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وقوله: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أى: لِيُجْرِينَ عليهم^(٥) من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ لِيَدْخُلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضُونَهُ أى: الجنة. كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾. فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ [الواقعة: ٨٨، ٨٩] فأخبر أنه يحصل له الراحة والرزق وجنة نعيم، كما قال هاهنا: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، ثم قال: ﴿لَيَدْخُلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضُونَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ أى: بمن يهاجر ويجاهد فى سبيله، وبمن يستحق ذلك، ﴿حَلِيمٌ﴾ أى: يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه، وتوكلهم عليه. فأما من قتل فى سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فإنه حى عند ربه يرزق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، والأحاديث فى هذا كثيرة، كما تقدم^(٦) وأما من توفى

(٣) فى أ: «وإياهم».

(٢) فى أ: «وجحدته».

(١) فى أ: «وأفعالهم».

(٦) فى أ: «مر».

(٥) فى أ: «ليجزئهم عليه».

(٤) فى أ: «أنفسهم».

فى سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراء الرزق عليه، وعظيم إحسان الله إليه.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا المسيب بن واضح، حدثنا ابن المبارك، عن عبد الرحمن ابن شريح، عن ابن ^(١) الحارث - يعنى: عبد الكريم - عن ابن عقبة - يعنى: أبا عبيدة بن عقبة - قال: حدثنا ^(٢) شريح بن السَّمط: طال رباطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم، فمر بى سلمان - يعنى: الفارسى - رضى الله عنه، فقال: إنى سمعت رسول الله يقول: «من مات مرابطاً، أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر، وأجرى عليه الرزق، وأمن ^(٣) من الفتنين» واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

وقال أيضاً: حدثنا أبو زرعة، حدثنا زيد بن بشر، أخبرنى همام، أنه سمع أبا قبيل وربيعه بن سيف المعافى يقولان: كنا برودس، ومعنا فضالة بن عبيد الأنصارى - صاحب رسول الله ﷺ - فمر بجنازتين، إحداهما قتيل والأخرى متوفى، فمال الناس على القتل، فقال فضالة: ما لى ^(٤) أرى الناس مالوا مع هذا، وتركوا هذا؟! فقالوا: هذا قتيل فى سبيل الله تعالى. فقال: والله ما أبالى من أى حفرتيهما بعثت، اسمعوا كتاب الله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ^(٥).

وقال أيضاً: حدثنا أبى، حدثنا عبدة بن سليمان، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا ابن لهيعة، حدثنا سلامان بن عامر الشعبانى، أن عبد الرحمن بن جحْدَم الخولانى حدثه: أنه حضر فضالة بن عبيد فى البحر مع جنازتين، أحدهما أصيب بمنجنيق والآخر توفى، فجلس فضالة بن عبيد عند قبر المتوفى، فقليل له: تركت الشهيد فلم تجلس عنده؟ فقال: ما أبالى من أى حفرتيهما بعثت، إن الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا﴾ ^(٦) يَرْضَوْنَهُ، فما تبتغى ^(٧) أيها العبد إذا أدخلت مدخلا ترضاه ورزقت رزقاً حسناً، والله ما أبالى من أى حفرتيهما بعثت.

ورواه ابن جرير، عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، أخبرنى عبد الرحمن بن شريح، عن سلامان بن عامر قال: كان فضالة برودس أميراً على الأرباع، فخرج بجنازتى رجلين، أحدهما قتيل ^(٨) والآخر متوفى. . . فذكر نحو ما تقدم ^(٩).

(١) فى أ: «أبى». (٢) فى أ: «قال».

(٣) فى أ: «وأومن». (٤) فى أ: «ما».

(٥) زيادة من ف، أ وفى هـ، ت: «حتى آخر الآية».

(٦) زيادة من ف، وفى ت: «إلى قوله».

(٧) فى أ: «ينبغى».

(٨) فى أ: «قتل».

(٩) تفسير الطبرى (١٧/١٣٦).

وقوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَهُ اللَّهُ﴾، ذكر ^(١) مقاتل بن حيان وابن جريج أنها نزلت فى سرية من الصحابة، لقوا جمعاً من المشركين فى شهر محرم، فناشدتهم المسلمون لئلا يقتلواهم فى الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا قتالهم وبغوا عليهم، فقاتلهم المسلمون، فنصرهم الله عليهم، [و] ^(٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ غَفُورٌ﴾.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٦١)
 ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٦٢).

يقول تعالى منها على أنه الخالق المتصرف فى خلقه بما يشاء، كما قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ^(٣) [آل عمران: ٢٦، ٢٧] ومعنى إيلاجه الليل فى النهار، والنهار فى الليل: إدخاله من هذا فى هذا، ومن هذا فى هذا، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، كما فى الشتاء، وتارة يطول النهار ويقصر الليل، كما فى الصيف.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أى: سميع بأقوال عباده، بصير بهم، لا يخفى عليه منهم خافية فى أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم.

ولما بين أنه المتصرف فى الوجود، الحاكم الذى لا معقب لحكمه، قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أى: الإله الحق الذى لا تنبغى العبادة إلا له؛ لأنه ذو السلطان العظيم، الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكل شىء فقير إليه، ذليل لديه، ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ أى: من الأصنام والأنداد والأوثان، وكل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل؛ لأنه لا يملك ضرراً ولا نفعاً.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، كما قال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: الْكَبِيرُ ^(٤) الْمُتَعَالَى [الرعد: ٩]، فكل شىء تحت قهره وسلطانه وعظمته، لا إله إلا هو، ولا رب سواه؛ لأنه العظيم الذى لا أعظم منه، العلى الذى لا أعلى منه، الكبير الذى لا أكبر منه، تعالى وتقدس وتنزه، وعز وجل عما يقول الظالمون [المعتدون] ^(٥) علواً كبيراً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ

(٣) زيادة من ف، أ: وفى ت: «الآية».

(٢) زيادة من أ.

(١) فى أ: «قال».

(٥) زيادة من أ.

(٤) فى ت، ف: «وهو الكبير».

اللَّهُ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ .

وهذا أيضا من الدلالة على قدرته وعظيم سلطانه، فإنه يرسل^(١) الرياح، فتثير سحابا، فيمطر على الأرض الجُرُزَ التي^(٢) لا نبات فيها، وهي هامة يابسة سوداء قحلة، ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾ [الحج: ٥].

وقوله: ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً﴾، «الفاء» هاهنا للتعقيب، وتعقيب كل شيء بحسبه، كما قال: ﴿خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقد ثبت في الصحيحين: «أن بين كل شيئين أربعين يوما» ومع هذا هو معقب^(٣) بالفاء، وهكذا هاهنا قال: ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً﴾ أى: خضراء بعد يبسها ومحولها^(٤).

وقد ذكر عن بعض أهل^(٥) الحجاز: أنها تصبح عقب المطر خضراء، فالله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أى: عليم بما فى أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحب وإن صغر، لا يخفى عليه خافية، فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء فينبته به، كما قال لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦] وقال: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ الآية [يونس: ٦١]؛ ولهذا قال أمية بن [أبى] الصلت^(٦) - أو: زيد بن عمرو بن نفيل - فى قصيدته:

وَقُولَا لَهُ: مَنْ يُنْبِتُ الْحَبَّ فِي الثَّرَى فَيُصْبِحَ مِنْهُ الْبَقْلُ يَهْتَزُّ رَابِيَا؟
وَيُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّةً فَيُرْوِسُهَا فَقَى ذَاكَ آيَاتِ لَمْ يَكُنْ كَانَ وَأَعْيَا^(٧)

وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أى: ملكه جميع الأشياء، وهو غنى عما سواه، وكل شيء فقير إليه، عبد لديه.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: من حيوان، وجماد، وزروع، وثمار. كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجن: ١٣] أى: من إحسانه وفضله وامتنانه، ﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ أى: بتسخيره وتسييره، أى: فى البحر العجاج، وتلاطم الأمواج، تجرى الفلك بأهلها^(٨) بريح طيبة، ورفق وتؤدة، فيحملون فيها ما شاؤوا من تجار وبضائع

(٣) فى أ: «تعقيب».

(٢) فى أ: «الذى».

(١) فى أ: «وأنه مرسل».

(٦) زيادة من ف، أ.

(٥) فى هـ ت: «أرض» والمثبت من ف، أ.

(٤) فى أ: «وقحوطا».

(٧) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٢٨).

(٨) فى أ: «بأمرها».

ومنافع، من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء، كما ذهبوا بما عند هؤلاء إلى أولئك، مما يحتاجون إليه، ويطلبونه ويريدونه، ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أى: لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض، فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَوُّوفٌ رَحِيمٌ﴾ أى: مع ظلمهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾، كقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية: ٢٦]، وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا أَثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١] ومعنى الكلام: كيف تجعلون [مع] ^(١) الله أنداداً وتعبدون معه غيره، وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ أى: خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً يذكر، فأوجدكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ أى: جحود.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعَنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ (٦٧) وَإِنْ جَادُلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩).

يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم ^(٢) منسكا.

قال ابن جرير: يعنى: لكل أمة نبي منسكا. قال: وأصل المنسك فى كلام العرب: هو الموضع الذى يعتاده الإنسان، ويتردد إليه، إما لخير أو شر. قال: ولهذا سميت مناسك الحج بذلك، لترداد الناس إليها وعكوفهم عليها ^(٣).

فإن كان كما قال من أن المراد: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾، فيكون المراد بقوله: ﴿فَلَا يُنَازِعَنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ أى: هؤلاء المشركون. وإن كان المراد: «لكل أمة جعلنا منسكا جعلاً قدرياً - كما قال: ﴿وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيَّهَا﴾ [البقرة: ١٤٨] ولهذا قال هاهنا: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾، أى: فاعلوه - فالضمير هاهنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق، أى: هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته، فلا تتأثر بمنازعتهم لك، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق؛ ولهذا قال: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ أى: طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود.

وهذه كقوله: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٧].

(٢) فى ت: «أمة».

(١) زيادة من ت، ف.

(٣) تفسير الطبرى (١٧/١٣٨).

وقوله: ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، كقوله: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد، كقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأحقاف: ٨]؛ ولهذا قال: ﴿اللَّهُ^(١) يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

وهذه كقوله: ﴿فَلَذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٧٠).

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه، وأنه محيط بما في السموات وما في الأرض، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها، وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ، كما ثبت في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»^(٢).

وفى السنن، من حديث جماعة من الصحابة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن. فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة»^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا ابن بكير، حدثني ابن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار، حدثني سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس: خلق الله اللوح المحفوظ مسيرة مائة عام، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق - وهو على العرش تبارك وتعالى - اكتب. قال القلم: وما أكتب؟ قال: علمي في خلقى إلى يوم تقوم الساعة. فجرى القلم بما هو كائن في علم الله إلى يوم القيامة. فذلك قوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

وهذا من تمام علمه تعالى أنه علم الأشياء قبل كونها، وقدرها وكتبها أيضاً، فما العباد عاملون قد علمه تعالى قبل ذلك، على الوجه الذى يفعلونه، فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره، وهذا يعصى باختياره، وكتب ذلك عنده، وأحاط بكل شيء علماً، وهو سهل عليه، يسير لديه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

(١) فى ت: «والله» وهو خطأ.

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٦٥٣) بلفظ «كتب الله مقادير الخلائق».

(٣) جاء من حديث عبادة بن الصامت: أخرجه أبو داود فى السنن برقم (٤٧٠٠) والترمذى فى السنن برقم (٣٣١٩) وقال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب».

وجاء من حديث ابن عباس: رواه البيهقى فى الأسماء والصفات (ص٣٧٨).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَُم النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢)﴾.

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فيما جهلوا وكفروا، وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطانا، يعنى: حجة وبرهان، كقوله: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]. ولهذا قال هاهنا: ﴿مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أى: ولا علم لهم فيما اختلقوه واتفكوه، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا حجة، وأصله مما سول لهم الشيطان وزينه لهم؛ ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ أى: من ناصر ينصرهم من الله، فيما يحل بهم من العذاب والنكال.

ثم قال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أى: وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله، وأنه لا إله إلا هو، وأن رسله الكرام حق وصدق، ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أى: يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن، ويسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء! ﴿قُلْ﴾ أى: يا محمد لهؤلاء: ﴿أَفَأَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَُم النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا^(١)﴾ أى: النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأطم وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين فى الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم، إن نلتهم بزعمكم وإرادتكم.

وقوله: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أى: وبئس النار منزلا ومقيلا ومرجعا وموتلا ومقاما، ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)﴾.

يقول تعالى منها على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ﴾ أى: لما يعبد الجاهلون بالله المشركون به، ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ أى: أنصتوا وتفهموا، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أى: لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا

(١) فى ت، ف، أ: «كفروا وبئس المصير».

على خلق ذباب واحد ماقدروا على ذلك. كما قال الإمام أحمد.

حدثنا أسود بن عامر، حدثنا شريك، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زُرْعَةَ، عن أبي هريرة - رفع الحديث - قال: «ومن أظلم ممن خلق [خلقاً] ^(١) كخلقى؟ فليخلقوا مثل خلقى ذرة، أو ذبابة، أو حبة ^(٢)».

وأخرجه صاحبها الصحيح، من طريق عمارة، عن أبي زُرْعَةَ، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: قال الله عز وجل: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى؟ فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة» ^(٣).

ثم قال تعالى أيضاً: ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ﴾ أى: هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه، لو سلبها شيئاً من الذى عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستنقذه منه، لما قدرت على ذلك. هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها ولهذا قال: ﴿ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ ^(٤).

قال ابن عباس: الطالب: الصنم، والمطلوب: الذباب. واختاره ابن جرير، وهو ظاهر السياق.

وقال السدى وغيره: الطالب: العابد، والمطلوب: الصنم.

ثم قال: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أى: ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره، من هذه ^(٥) التى لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أى: هو القوى الذى بقدرته وقوته خلق كل شىء، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ. إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٢، ١٣]، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

وقوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ أى: قد عز ^(٦) كل شىء فقهره وغلبه، فلا يمانع ولا يغالب، لعظمته وسلطانه، وهو الواحد القهار.

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦).

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلاً فيما يشاء من شرعه وقدره، ومن الناس لإبلاغ رسالاته، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أى: سميع لأقوال عباده، بصير بهم، عليم بمن يستحق ذلك منهم، كما قال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أى: يعلم ما يفعل برسله فيما

(١) زيادة من ت، ف، والمسند.

(٢) المسند (٣٩١/٢).

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٩٥٣) وصحيح مسلم برقم (٢١١١).

(٦) فى ف: «قدر».

(٥) فى أ: «هذا الذى».

(٤) زيادة، ت، ف.

أرسلهم به، فلا يخفى عليه من أمورهم شيء، كما قال: ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا. إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ [فَإِنَّهُ يُسَلِّكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا. لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ]﴾^(١) وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿[الجن: ٢٦ - ٢٨]، فهو سبحانه رقيب عليهم، شهيد على ما يقال لهم، حافظ لهم، ناصر لجنابهم؛ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رَسُولَتَهُ وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ الآية [المائدة: ٦٧].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (٧٨).

اختلف الأئمة، رحمهم الله، في هذه السجدة الثانية من سورة الحج: هل هي مشروع السجود فيها أم لا؟ على قولين. وقد قدمنا عند الأولى حديث عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ: «فُضِّلَتْ سورة الحج بسجدة، فمن لم يسجد لهما فلا يقرأهما».

وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ أى: بأموالكم وألستكم وأنفسكم، كما قال تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقوله: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ أى: يا هذه الأمة، الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول، وأكمل شرع.

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أى: ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء فشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجا ومخرجا، فالصلاة - التى هى أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين - تجب فى الحَضَر أربعاً وفى السفر تُقْصَرُ إلى ثنتين، وفى الخوف يصلحها بعض الأئمة ركعة، كما ورد به الحديث، وتُصَلَّى رجالاً وركبانا، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها. وكذا فى النافلة فى السفر إلى القبلة وغيرها، والقيام فيها يسقط بعذر المرض، فيصلحها المريض جالسا، فإن لم يستطع فعلى جنبه، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات، فى سائر الفرائض والواجبات؛ ولهذا قال، عليه السلام^(٢): «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»^(٣)، وقال لمعاذ وأبى موسى، حين بعثهما أميرين إلى اليمن: «بَشْرًا وَلَا

(١) زيادة من ف، أ. وفى ت: «إلى قوله».

(٢) فى ت: «عليه الصلاة والسلام»، وفى ف، أ: «ﷺ».

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٢٦٦/٥) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه.

تنفرا، وَيَسْرًا وَلَا تُعْصِرًا»^(١). والأحاديث في هذا كثيرة؛ ولهذا قال ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُم فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ يعني: من ضيق.

وقوله: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾: قال ابن جرير: نصب على تقدير: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُم فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أى: من ضيق، بل وسَّعه عليكم كلمة أبيكم إبراهيم. [قال: ويحتمل أنه منصوب على تقدير: الزموا ملة أبيكم إبراهيم^(٢)].

قلت: وهذا المعنى فى هذه الآية كقوله: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ الآية [الأنعام: ١٦١].

وقوله: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾: قال الإمام عبد الله بن المبارك، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس فى قوله: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ قال: الله عز وجل. وكذا قال مجاهد، وعطاء، والضحاك، والسدى، وقتادة، ومقاتل بن حيان.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: إبراهيم، وذلك لقوله: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

قال ابن جرير: وهذا لا وجه له؛ لأنه من المعلوم أن إبراهيم لم يسم هذه الأمة فى القرآن مسلمين، وقد قال الله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ قال مجاهد: الله سماكم المسلمين من قبل فى الكتب المتقدمة وفى الذكر، ﴿وفى هذا﴾ يعنى: القرآن. وكذا قال غيره.

قلت: وهذا هو الصواب؛ لأنه تعالى قال: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بأنه ملة أبيهم إبراهيم الخليل، ثم ذكر منته تعالى على هذه الأمة بما نوه به من ذكرها والثناء عليها فى سالف الدهر وقديم الزمان، فى كتب الأنبياء، يتلى على الأحرار والرهبان، فقال: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ أى: من قبل هذا القرآن ﴿وفى هذا﴾، وقد قال النسائي عند تفسير هذه الآية:

أنبأنا هشام بن عمار، حدثنا محمد بن شعيب، أنبأنا معاوية بن سلام^(٣)، أن أخاه زيد بن سلام أخبره، عن أبى سلام أنه أخبره قال: أخبرنى الحارث الأشعري، عن رسول الله ﷺ قال: «من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثى جهنم». قال رجل: يا رسول الله، وإن صام وصلى؟ قال: «نعم، وإن صام وصلى، فادعوا بدعوة الله التى سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله»^(٤).

وقد قدمنا هذا الحديث بطوله عند تفسير قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ من سورة البقرة [الآية: ٢١]؛ ولهذا قال: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٠٣٨) ومسلم فى صحيحه برقم (١٧٣٢).

(٢) زيادة من ت، ف.

(٣) فى ت: «سالم».

(٤) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٣٤٩).

شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴿١﴾ أى: إنما جعلناكم هكذا أمة وسطاً عُدُولاً^(١) خياراً، مشهوداً بعدالتكم عند جميع الأمم، لتكونوا يوم القيامة ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها^(٢) على كل أمة سواها؛ فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة، فى أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك. وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وذكرنا حديث نوح وأمه بما أغنى عن إعادته.

وقوله: ﴿فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أى: قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها، وأدوا حق الله عليكم فى أداء ما افترض، وطاعة ما أوجب، وترك ما حرم. ومن أهم ذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وهو الإحسان إلى خلق الله، بما أوجب للفقير على الغنى، من إخراج جزء نزر من ماله فى السنة للضعفاء والمحاويج، كما تقدم بيانه وتفصيله فى آية الزكاة من سورة «التوبة»^(٣).

وقوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ أى: اعتضدوا بالله^(٤)، واستعينوا به، وتوكلوا^(٥) عليه، وتأيدوا به، ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ أى: حافظكم وناصركم ومُظْفِرْكُمْ على أعدائكم، ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ يعنى: [نعم]^(٦) الولى ونعم الناصر من الأعداء.

قال وهيب بن الورد: يقول الله تعالى: ابن آدم، اذكرنى إذا غضبتَ أذكرك إذا غضبتُ، فلا أمحقك فيمن أمحق، وإذا ظلمتَ فاصبر، وارض بنصرتى، فإن نصرتى لك خير من نصرتك لنفسك. رواه ابن أبى حاتم.

والله تعالى أعلم وله الحمد والمنة، والثناء الحسن والنعمة، وأسأله التوفيق والعصمة، فى سائر الأفعال والأقوال.

هذا آخر تفسير سورة «الحج»، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم
وشرف وكرم، ورضى الله تعالى عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين^(٧)

(١) فى أ: «عدلاً». (٢) فى أ: «بسيادتهم وفضلهم».

(٣) انظر تفسير الآية: ٦٠ من سورة التوبة.

(٤) فى أ: «به».

(٥) فى أ: «اتكلوا».

(٦) زيادة من ت.

(٧) فى ت: «وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، وحسبنا الله ونعم الوكيل».

تفسير سورة المؤمنون^(١)

مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِآمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)﴾ .

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرني يونس بن سليم قال: أُملى على يونس بن يزيد^(٢) الأيلي، عن ابن شهاب، عن عروة بن الزبير، عن عبد الرحمن بن عبد القاري قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي، يسمع عند وجهه كدوى النحل فمكثنا ساعة، فاستقبل القبلة ورفع يديه، فقال: «اللهم، زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر [علينا، وارض عنا]^(٣) وأرضنا»، ثم قال: «لقد أنزلت على عشر آيات، مَنْ أقامهن دخل الجنة»، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى ختم العشر.

وكذا روى^(٤) الترمذي في تفسيره، والنسائي في الصلاة، من حديث عبد الرزاق، به^(٥). وقال الترمذي: منكر، لا نعرف أحدا رواه غير يونس بن سليم، ويونس لا نعرفه.

وقال النسائي في تفسيره: أنبأنا قتيبة بن سعيد، حدثنا جعفر، عن أبي عمران عن يزيد بن بابتوس قال: قلنا لعائشة: يا أم المؤمنين، كيف كان^(٦) خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن، فقرأت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، حتى انتهت إلى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، قالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ^(٧).

وقد روى عن كعب الأحبار، ومجاهد، وأبي العالية، وغيرهم: لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ جَنَّةَ عَدْنِ،

(٣) زيادة من ف، أ، والمسنَد.

(٢) في أ: «زيد».

(١) في ف: «المؤمنين».

(٤) في أ: «رواه».

(٥) المسند (٣٤/١) وسنن الترمذي برقم (٣١٧٣) وسنن النسائي الكبرى برقم (١٤٣٩).

(٦) في أ: «حال».

(٧) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٣٥٠).

وغرسها بيده، نظر إليها وقال لها: تكلمي. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. قال كعب الأحبار: لِمَا أَعَدَّ لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْكَرَامَةِ. وقال أبو العالية: فَأَنْزَلَ اللَّهُ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ.

وقد روى ذلك عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً، فقال أبو بكر البزار:

حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا المغيرة بن سلمة، حدثنا وهيب، عن الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: خلق الله الجنة، لَبَنَةً من ذهب ولبنة من فضة، وغرسها، وقال لها: تكلمي. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، فدخلتها الملائكة فقالت: طوبى لك، منزل الملوك! (١).

ثم قال (٢): وحدثنا بشر بن آدم، وحدثنا يونس بن عبيد الله العمري، حدثنا عدي بن الفضل، حدثنا الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «خلق الله الجنة، لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وملاطها (٣) المسك». قال أبو بكر: ورأيت في موضع آخر في (٤) هذا الحديث: «حائط الجنة، لبنة ذهب ولبنة فضة، وملاطها المسك. فقال لها: تكلمي. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. فقالت الملائكة: طوبى لك، منزل الملوك!».

ثم قال البزار: لا نعلم أحداً رفعه إلا عدي بن الفضل، وليس هو بالحافظ، وهو شيخ متقدم الموت (٥).

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن علي، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا بَقِيَّةٌ، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «لما خلق الله جنة عدن، خلق فيها ما لا عين رأت، [ولا أذن سمعت] (٦)، ولا خطر على قلب بشر. ثم قال لها: تكلمي. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾» (٧).

بَقِيَّةٌ: عن الحجازيين ضعيف.

وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا منجأ بن الحارث، حدثنا حماد ابن عيسى العباسي، عن إسماعيل السدي، عن أبي صالح، عن ابن عباس - يرفعه - : «لما خلق الله جنة عدن بيده، ودلّى فيها ثمارها، وشق فيها أنهارها، ثم نظر إليها فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. قال: وعزتي (٨) لا يجاورني فيك بخيل» (٩).

(١) مسند البزار برقم (٣٥٠٧) «كشف الأستار».

تنبيه:

وقع في مسند البزار سنده هكذا: «حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا حجاج بن المنهال، حدثنا حماد بن سلمة عن الجريري عن أبي نضرة عن أبي سعيد.

(٢) في أ: «وقال». (٣) في أ: «بلاطها». (٤) في أ: «من».

(٥) مسند البزار برقم (٣٥٠٨) «كشف الأستار» وقال الهيثمي في المجمع (٣٩٧/١٠): «رجال الموقوف رجال الصحيح».

(٦) زيادة من ف، أ.

(٧) المعجم الكبير (١١/١٨٤).

(٨) في أ: «وعزتي وجلالي».

(٩) المعجم الأوسط برقم (٤٨٦١) «مجمع البحرين»، وأبي صالح ضعيف.

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن المثني البزار، حدثنا محمد بن زياد الكلبي، حدثنا يعيش بن حسين، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أنس، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله جنة عدن بيده، لبنة من دُرّة بيضاء، ولبنة من ياقوتة حمراء، ولبنة من زبرجدة خضراء، ملاطها المسك، وحصباؤها اللؤلؤ، وحشيشها الزعفران، ثم قال لها: انطقى. قالت^(١): ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، فقال الله: وعزتي، وجلالي لا يجاورني فيك بخيل». ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَمَنْ يُوقِ شَعْنَهُ فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ [الحشر: ٩]^(٢). فقله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح، وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾: قال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿خَاشِعُونَ﴾: خائفون ساكنون. وكذا روى عن مجاهد، والحسن، وقاتدة، والزهرى^(٣).

وعن على بن أبي طالب، رضى الله عنه: الخشوع: خشوع القلب. وكذا قال إبراهيم النخعي.

وقال الحسن البصري: كان خشوعهم فى قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم، وخفضوا الجناح.

وقال محمد بن سيرين: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة، فلما نزلت هذه الآية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ خفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم.

[و]^(٤) قال ابن سيرين: وكانوا يقولون: لا يجاوز بصره مُصَلِّاه، فإن كان قد اعتاد النظر فليغمض. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

ثم روى^(٥) ابن جرير عنه، وعن عطاء بن أبي رباح أيضاً مرسلًا: أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك، حتى نزلت هذه الآية.

والخشوع فى الصلاة إنما يحصل بمن فرغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقرة عين، كما قال النبى ﷺ، فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والنسائى، عن أنس، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حُبِّبَ إِلَى الطَّيِّبِ وَالنَّسَاءِ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة»^(٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا مسعر، عن عمرو بن مرة، عن سالم بن أبي الجعد،

(١) فى أ: «فقلت».

(٢) صفة الجنة لابن أبي الدنيا برقم (٢٠) وفى إسناده محمد بن زياد الكلبي، قال ابن معين: لا شيء.

تنبيه:

وقع فى صفة الجنة: «حدثنا محمد بن زياد الكلبي حدثنا بشر بن الحسين» وفى النهاية فى الفتن والملاحم لابن كثير (٢٧٩/٢)

«نفس بن زين».

(٥) فى أ: «ورواه».

(٤) زيادة من أ.

(٣) فى ف، أ: «والزهرى وقاتدة».

(٦) المسند (١٢٨/٣) وسنن النسائى (٦١١٧).

عن رجل من أسلم، أن رسول الله ﷺ قال: «يا بلال، أرحنا بالصلاة»^(١).

وقال الإمام أحمد أيضاً؛ حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا إسرائيل، عن عثمان بن المغيرة، عن سالم بن أبي الجعد، أن محمد بن الحنفية قال: دخلت مع أبي على صهر لنا من الأنصار، فحضرت الصلاة، فقال: يا جارية، اتنى بوضوء لعلى أصلى فأستريح. فرأنا^(٢) أنكرنا عليه ذلك^(٣)، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قم يا بلال، فأرحنا بالصلاة»^(٤).

وقال^(٥): ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ أى: عن الباطل، وهو يشمل: الشرك - كما قاله بعضهم - والمعاصي - كما قاله آخرون - وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

قال قتادة: أتاهم والله من أمر الله ما وقدهم عن ذلك.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾: الاكثرون على أن المراد بالزكاة هاهنا زكاة الأموال، مع أن هذه [الآية]^(٦) مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة. والظاهر أن التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات النصب والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة، كما قال تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة هاهنا: زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠] وكقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ. الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧]، على أحد القولين في تفسيرها.

وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال؛ فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذى يتعاطى هذا وهذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ. فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أى: والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام، فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا أو لواط، ولا يقربون سوى أزواجهم التى أحلها الله لهم، وما مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ من السرارى، ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج؛ ولهذا^(٧) قال: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ. فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أى: غير الأزواج والإماء، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أى: المعتدون.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا سعيد، عن قتادة، أن امرأة

(١) المسند (٥/٣٦٤).

(٢) فى ف: «ذلك عليه».

(٣) فى ف، أ: «فراى أنا».

(٤) المسند (٥/٣٧١).

(٥) فى ف: «لهذا».

(٦) زيادة من ف، أ.

(٧) فى أ: «وقوله».

اتخذت مملوكها، وقالت: تأولت آية من كتاب الله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾، [قال] (١): فأتى بها عمر ابن الخطاب، فقال له ناس من أصحاب النبي ﷺ (٢): تأولت آية من كتاب الله على غير وجهها. قال: فغرب (٣) العبد وجزّ رأسه: وقال: أنت بعده حرام على كل مسلم.

هذا أثر غريب منقطع، ذكره (٤) ابن جرير في أول تفسير سورة المائدة (٥)، وهو هاهنا أليق، وإنما حرّمها على الرجال معاملة لها بنقيض قصدها، والله أعلم.

وقد استدلل الإمام الشافعي، رحمه الله، ومن وافقه على تحريم الاستمراء باليد بهذه الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَعْتَابِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ قال: فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين، وقد قال: ﴿فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾. وقد استأنسوا بحديث رواه الإمام الحسن بن عرفة في جزئه المشهور حيث قال:

حدثني علي بن ثابت الجزري، عن مسلمة بن جعفر، عن حسان بن حميد (٦)، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزيكهم، ولا يجمعهم مع العاملين، ويدخلهم النار أول الداخلين، إلا أن يتوبوا، فمن تاب تاب الله عليه: ناكح يده (٧)، والفاعل، والمفعول به، ومدمن (٨) الخمر، والضارب والديه حتى يستغيثا، والمؤذى جيرانه حتى يلعنوه، والناكح حليمة جاره» (٩).

هذا حديث غريب، وإسناده فيه من لا يعرف؛ لجهالته، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ أي: إذا أؤتمنوا لم يخونوا، بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان».

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يواظبون عليها في مواقيتها، كما قال ابن مسعود: سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». أخرجه في الصحيحين (١٠). وفي مستدرك الحاكم قال: «الصلاة في أول وقتها» (١١).

(١) زيادة من أ. (٢) في أ: «رسول الله». (٣) في ف، أ: «فضرِب» وهو الصحيح.

(٤) في أ: «ذكرها».

(٥) تفسير الطبري (٥٨٦/٩) ط - المعارف.

(٦) في ف، أ: «أحمد». (٧) في ف، أ: «الناكح يده». (٨) في ف، أ: «المدمن».

(٩) جزء الحسن بن عرفة برقم (٤١).

(١٠) صحيح البخاري برقم (٥٩٧٠) وصحيح مسلم برقم (٨٥).

(١١) المستدرک (١٨٨/١) وقال الحاكم: «فقد صحت هذه اللفظة باتفاق الثقتين بدار بن بشار، والحسن بن مكرم على روايتهما عن عثمان بن عمرو، وهو صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

وقال ابن مسعود، ومسروق في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ يعنى: مواقيت الصلاة. وكذا قال أبو الضحى، وعلقمة بن قيس، وسعيد بن جبير، وعكرمة.

وقال قتادة: على مواقيتها وركوعها وسجودها.

وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة، واختتمها بالصلاة، فدل على أفضليتها، كما قال رسول الله ﷺ: «استقيموا ولن تُحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»^(١).

ولما وصَّفهم [الله]^(٢) تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ. الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سألتكم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل في الجنة ومنزل في النار، فإن مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾»^(٤).

وقال ابن جريج، عن ليث، عن مجاهد: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ قال: ما من عبد إلا وله منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فأما المؤمن فينبى بيته الذي في الجنة، ويهدم بيته الذي في النار^(٥)، وأما الكافر فيهدم بيته الذي في الجنة، ويبنى بيته الذي في النار. وروى عن سعيد بن جبير نحو ذلك.

فالمؤمنون يرثون منازل الكفار؛ لأنهم [كلهم]^(٦) خلقوا لعبادة الله تعالى^(٧)، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة، وترك أولئك ما أمروا به مما خلُقوا له - أحرز هؤلاء نصيب

(١) جاء من حديث ثوبان: رواه ابن ماجه فى السنن برقم (٢٧٧) من طريق سفيان عن منصور عن ابن أبى الجعد عنه به وفيه انقطاع. ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: رواه ابن ماجه فى السنن برقم (٢٧٨) من طريق المعتمر عن ليث عن مجاهد عنه به، وليث بن أبى سليم ضعيف.

ومن حديث أبى أمامة: رواه ابن ماجه فى السنن برقم (٢٧٩) من طريق إسحاق بن أسيد عن أبى حفص الدمشقى عنه به، وضعفه البوصيرى فى الزوائد.

(٢) زيادة من ف، أ.

(٣) البخارى فى صحيحه برقم (٢٧٩٠)، (٧٤٢٣) عن أبى هريرة، ولم يعزه صاحب التحفة إلى غير البخارى.

(٤) ورواه ابن ماجه فى السنن برقم (٤٣٤١) عن أبى بكر بن أبى شيبة وأحمد بن سنان، كلاهما عن أبى معاوية به. وقال البوصيرى فى الزوائد (٣٢٧/٣): «هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين».

(٥) فى ف، أ: «فيهدم بيته الذى فى النار، ويبنى بيته الذى فى الجنة». (٦) زيادة من أ. (٧) فى ف، أ: «وحده لا شريك له».

أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل، بل أبلغ من هذا أيضاً، وهو ما ثبت في صحيح مسلم، عن أبي بردة^(١)، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم، ويضعها على اليهود والنصارى»^(٢).

وفي لفظ له: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً، فيقال^(٣): هذا فكأكك من النار». فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبا بردة بالله الذي لا إله إلا هو، ثلاث مرات، أن أباه حدثه عن رسول الله ﷺ، قال: فحلف له^(٤). قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣]، وكقوله: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٣]. وقد قال مجاهد، وسعيد بن جبیر: الجنة بالرومية هي الفردوس. وقال بعض السلف: لا يسمى البستان فردوساً إلا إذا كان فيه عنب، فالله أعلم^(٥).

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين، وهو آدم، عليه السلام، خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون.

وقال الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن أبي يحيى، عن ابن عباس: ﴿مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ قال: صفوة الماء.

وقال مجاهد: ﴿مِنْ سُلَالَةٍ﴾ أى: من منى آدم.

قال ابن جرير: وإنما سمي آدم طيناً لأنه مخلوق منه.

وقال قتادة: استل آدم من الطين. وهذا أظهر في المعنى، وأقرب إلى السياق، فإنه آدم، عليه السلام، خلق من طين لازب، وهو الصلصال من الحمأ المسنون، وذلك مخلوق من التراب، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

(١) في ف، أ: «بردة بن أبي موسى».

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٧٦٧).

(٣) في ف، أ: «فيقول».

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٧٦٧).

(٥) في ف، أ: «والله أعلم».

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عوف، حدثنا قسامة بن زهير، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأسود والأبيض، وبين ذلك، والخبيث والطيب، وبين ذلك».

وقد رواه أبو داود والترمذي، من طرق، عن عوف الأعرابي، به نحوه^(١). وقال الترمذي: حسن صحيح.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾: هذا الضمير عائد على جنس الإنسان، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة ٧، ٨] أى: ضعيف، كما قال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ. فَجَعَلْنَاهُ^(٢) فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾، يعنى: الرحم معد لذلك مهياً له، ﴿إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ. فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٢، ٢٣]، أى: [إلى]^(٣) مدة معلومة وأجل معين حتى استحکم وتنقل من حال إلى حال، وصفة إلى صفة؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أى: ثم صيرنا النطفة، وهى الماء الدافق الذى يخرج من صلب الرجل - وهو ظهره - وترائب المرأة - وهى عظام صدرها ما بين الترقوة إلى التندوة - فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة. قال عكرمة: وهى دم.

﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾: وهى قطعة كالبضعة من اللحم، لا شكل فيها ولا تخطيط، ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ يعنى: شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها. وقرأ آخرون: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا^(٤)﴾.

قال ابن عباس: وهو عظم الصلب.

وفى الصحيح، من حديث أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل جسد ابن آدم يبلى إلا عَجَبُ الذَّنْبِ، منه خلق ومنه^(٥) يركب^(٦)».

﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ أى: وجعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه، ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أى: ثم نفخنا فيه الروح، فتحرك وصار ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾ ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا جعفر بن مسافر، حدثنا يحيى بن حسان، حدثنا النضر - يعنى: ابن كثير، مولى بنى هاشم - حدثنا زيد بن على، عن أبيه، عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، قال: إذا أتمت النطفة أربعة أشهر، بُعث إليها ملك فنفخ فيها الروح فى

(١) المسند (٤/ ٤٠٠) وسنن أبى داود برقم (٤٦٩٣) وسنن الترمذى برقم (٢٩٥٥).

(٢) فى أ: «فجعلناه نطفة» وهو خطأ. (٣) زيادة من ف، أ. (٤) فى ف، أ: «النطفة عظاما».

(٥) فى أ: «وفيه».

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٩٣٥) وصحيح مسلم برقم (٢٩٥٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

الظلمات الثلاث، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يعني: نفخنا فيه الروح^(١).

وروى عن أبي سعيد الخدري أنه نفخ الروح.

قال ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يعني به: الروح^(٢). وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والشعبي، والحسن، وأبو العالية، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدي، وابن زيد، واختاره ابن جرير^(٣).

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يعني: ننقله من حال إلى حال، إلى أن خرج طفلاً، ثم نشأ صغيراً، ثم احتلم، ثم صار شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً، ثم هرمًا. وعن قتادة، والضحاك نحو ذلك. ولا منافاة، فإنه من ابتداء^(٤) نفخ الروح [فيه]^(٥) شرع في هذه التنقلات والأحوال. والله أعلم.

قال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدق: «إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه في أربعين يوماً، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: رزقه، وأجله، وعمله، وهل هو شقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها، وإن الرجل^(٦) ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها». أخرجاه من حديث سليمان بن مهران الأعمش^(٧).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن خيثمة قال: قال عبد الله^(٨) - يعني: ابن مسعود - إن النطفة إذا وقعت في الرحم، طارت في كل شعر وظفر، فتمكث أربعين يوماً، ثم تتحدّر^(٩) في الرحم فتكون علقه.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا حسين بن الحسن، حدثنا أبو كدينة، عن عطاء بن السائب، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله قال: مرّ يهودى برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه، فقالت قريش: يا يهودى، إن هذا يزعم أنه نبي. فقال: لأسأله عن شيء لا يعلمه إلا نبي. قال: فجاءه حتى جلس، فقال: يا محمد، ممّ يخلق الإنسان؟ فقال: «يا يهودى، من كل

(٢) في ف: «يعني نفخنا فيه الروح».

(١) في ف: «يعني به الروح».

(٣) تفسير الطبري (٨/ ٨١).

(٤) في ف: «ابتداء».

(٥) زيادة من ف، أ.

(٦) في ف: «أحدكم».

(٧) المسند (١/ ٣٨٢) وصحيح البخارى برقم (٦٥٩٤) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٣).

(٩) في ف، أ: «تحدّر».

(٨) في ف: «عن خيثمة عن عبد الله قال: قال».

يُخْلَقُ، من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة، فأما نطفة الرجل فنطفة غليظة منها العظم والعصب، وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة منها اللحم والدم» فقام اليهودى فقال: هكذا كان يقول من قبلك^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان عن عمرو، عن أبي الطفيل، حذيفة بن أسيد الغفارى قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين ليلة، فيقول: يا رب، ماذا؟ أشقى أم سعيد؟ أذكر أم أنثى؟ فيقول الله، فيكتبان^(٢). فيقولان: ماذا؟ أذكر أم أنثى؟ فيقول الله عز وجل، فيكتبان ويكتبُ عمله، وأثره، ومصيبته، ورزقه، ثم تطوى الصحيفة، فلا يُزاد على ما فيها ولا ينقص».

وقد رواه مسلم فى صحيحه، من حديث سفيان بن عيينة، عن عمرو - وهو ابن دينار - به^(٣) نحوه. ومن طرق أخرى، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، عن حذيفة بن أسيد أبى سريحة^(٤) الغفارى بنحوه، والله أعلم^(٥).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن عبدة، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عبيد الله بن أبى بكر، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله وكل بالرحم ملكاً فيقول: أى رب، نطفة. أى رب، علقه^(٦) أى رب، مضغة. فإذا أراد الله خلقها قال: يا رب، ذكر أو أنثى؟ شقى أو سعيد؟ فما الرزق والأجل؟» قال: «فذلك يكتب فى بطن أمه».

أخرجاه فى الصحيحين من حديث حماد بن زيد به^(٧).

وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ يعنى: حين ذكر قدرته ولطفه فى خلق هذه النطفة من حال إلى حال، وشكل إلى شكل، حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السوى الكامل الخلق، قال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا على ابن زيد، عن أنس، قال: قال عمر - يعنى: ابن الخطاب رضى الله عنه -: وافقت ربى ووافقنى فى أربع: نزلت هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ الآية، قلت^(٨) أنا: فتبارك الله أحسن الخالقين. فنزلت: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

(١) المسند (١/٤٦٥).

(٢) فى ف: «ويكتبان».

(٣) المسند (٦/٤) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٤).

(٤) فى أ: «سريح».

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٦٤٥).

(٦) فى ف: «فخلق».

(٧) صحيح البخارى برقم (٣١٨) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٦).

(٨) فى ف، أ: «الآية، فلما نزلت قلت».

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شيبان، عن جابر الجعفي، عن عامر الشعبي، عن زيد بن ثابت الأنصاري قال: أُملى على رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿خَلَقْنَا آخَرَ﴾، فقال معاذ: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، فضحك رسول الله ﷺ. فقال له معاذ: مم ضحكك يا رسول الله؟ قال: «بها ختمت ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾»^(١).

جابر بن يزيد الجعفي ضعيف جداً، وفي خبره هذا نكارة شديدة، وذلك أن هذه السورة مكية، وزيد بن ثابت إنما كتب الوحي بالمدينة، وكذلك^(٢) إسلام معاذ بن جبل إنما كان بالمدينة أيضاً، فالله أعلم^(٣).

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ يعني: بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ يعني: النشأة الآخرة، ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠] يعني: يوم المعاد، وقيام الأرواح والأجساد، فيحاسب الخلائق، ويوفى كل عامل عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ (١٧).

لما ذكر تعالى خلق الإنسان، عطف بذكر خلق السموات السبع، وكثيراً ما يذكر تعالى خلق السموات والأرض^(٤) مع خلق الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وهكذا في أول ﴿الْم﴾ السجدة، التي كان رسول الله ﷺ يقرأ بها [في]^(٥) صبيحة يوم الجمعة، في أولها خلق السموات والأرض، ثم بيان خلق الإنسان من سلالة من طين، وفيها أمر المعاد والجزاء، وغير ذلك من المقاصد.

فقوله: ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾: قال مجاهد: يعني السموات السبع، وهذه كقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥]، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. وهكذا قال هاهنا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أى: ويعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها،

(١) ورواه الطبراني في المعجم الاوسط برقم (٣٣٦٧) «مجمع البحرين» عن أبي زرعة عن آدم بن إياس به وجابر الجعفي ضعيف.

(٢) في ف، أ: «وكذا».

(٣) في ف، أ: «والله أعلم».

(٤) في أ: «السبع».

(٥) زيادة من ف، أ.

وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وهو معكم أينما كنتم، والله بما تعملون بصير. وهو - سبحانه - لا يحجب عنه سماء سماء، ولا أرض أرضاً، ولا جبل إلا يعلم ما فى وعره، ولا بحر إلا يعلم ما فى قعره، يعلم عدد ما فى الجبال والتلال والرمال، والبحار والقفار والأشجار، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ (١٨) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلَّكِلَيْنِ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢)﴾.

يذكر تعالى نعمه على عبده^(١) التى لا تعد ولا تحصى، فى إنزاله القَطَر من السماء ﴿بِقَدَرٍ﴾ أى: بحسب الحاجة، لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلاً فلا يكفى الزروع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقى والشرب والانتفاع به، حتى إن الأراضى التى تحتاج ماء كثيراً لزرعها ولا تحمل دُمُنتها إنزال المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى، كما فى أرض مصر، ويقال لها: «الأرض الجُرْزُ»، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة فى زمان أمطارها، فيأتى الماء يحمل طيناً^(٢) أحمر، فيسقى أرض مصر، ويقر الطين على أرضهم ليزدروا فيه، لأن أرضهم سباح يغلب عليها الرمال، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور.

وقوله: ﴿فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد فى الأرض، وجعلنا^(٣) فى الأرض قابلية له، تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى.

وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ﴾ أى: لو شئنا ألا تمطر لفعلنا، ولو شئنا لصرفناه عنكم إلى السباح والبرارى [والبهار]^(٤) والقفار لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه أجاباً لا ينتفع به لشرب ولا لسقى لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل فى الأرض، بل ينجر على وجهها لفعلنا. ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا. ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذبةً فرائاً زلالاً، فيسكنه فى الأرض ويسلكه ينابيع فى الأرض، فيفتح^(٥) العيون والأنهار، فيسقى^(٦) به الزروع والثمار، وتشربون منه ودوابكم وأنعامكم، وتغتسلون^(٧) منه وتطهرون

(١) فى ف، أ: «عبده».

(٢) فى ف: «الطين».

(٣) فى ف، أ: «وجعل».

(٤) زيادة من ف، أ.

(٥) فى ف: «فيفجر».

(٦) فى ف: «ويسقى».

(٧) فى ف: «ويغتسلون وتغتسلون».

وتتظفون، فله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ يعنى: فأخرجنا لكم بما أنزلنا من الماء ﴿جَنَّاتٍ﴾ أى: بساتين وحدائق ذات بهجة، أى: ذات منظر حسن.

وقوله: ﴿مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أى: فيها نخيل وأعناب. وهذا ما كان يألف أهل الحجاز، ولا فرق بين الشيء وبين نظيره، وكذلك فى حق كل أهل إقليم، عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم ما يعجزون عن القيام بشكره.

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ أى: من جميع الثمار، كما قال: ﴿يُنَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ١١].

وقوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كأنه معطوف على شيء مقدر، تقديره: تنظرون إلى حسنه ونضجه، ومنه تأكلون.

وقوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ يعنى: الزيتون. والطور: هو الجبل. وقال بعضهم: إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجر، فإن عرى عنها سمي جبلاً لا طوراً، والله أعلم. وطور سيناء: هو طور سينين، وهو الجبل الذى كَلَّمَ [الله] ^(١) عليه موسى بن عمران، عليه السلام، وما حوله من الجبال التى فيها شجر الزيتون.

وقوله: ﴿تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ﴾: قال بعضهم: الباء زائدة، وتقديره: تنبت الدهن، كما فى قول العرب: ألقى فلان بيده، أى: يده. وأما على قول من يُضَمُّن الفعل فتقديره: تخرج بالدهن، أو ^(٢) تأتى بالدهن؛ ولهذا قال: ﴿وَصَبَّغُ﴾ أى: أدم، قاله قتادة. ﴿لِّلَاكِلِينَ﴾ أى: فيها ما يتفقع به من الدهن والاصطباغ، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا وكيع، عن عبد الله بن عيسى، عن عطاء الشامي، عن أبى أسيد - واسمه مالك بن ربيعة الساعدي الأنصاري - قال: قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيت وادهنوا به» ^(٣)؛ فإنه من شجرة مباركة» ^(٤).

وقال عبد بن حميد فى مسنده وتفسيره: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «اتدموا بالزيت وادهنوا به، فإنه يخرج من شجرة مباركة».

ورواه الترمذى وابن ماجه من غير وجه، عن عبد الرزاق ^(٥). قال الترمذى: ولا يعرف إلا من

(١) زيادة من ف، وفى أ: «والله تعالى».

(٢) فى ف، أ: «أى».

(٣) فى أ: «بالزيت».

(٤) المسند (٤٩٧/٣).

(٥) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١٣) وسنن الترمذى برقم (١٨٥١) وسنن ابن ماجه برقم (٣٣١٩).

حديثه، وكان يضطرب فيه، فرمى ذكر فيه عمر^(١)، وربما لم يذكره.

قال^(٢) أبو القاسم الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبي، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثني الصَّعْبُ بن حكيم بن شريك بن غنمة، عن أبيه عن جده، قال: ضُفَّتْ لَيْلَةُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ لَيْلَةَ عَاشُورَاءَ^(٣)، فَأَطْعَمَنِي^(٤) مِنْ رَأْسِ بَعِيرٍ بَارِدٍ، وَأَطْعَمَنَا زَيْتًا، وَقَالَ: هَذَا الزَّيْتُ الْمُبَارَكُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ لَنَبِيِّهِ ﷺ^(٥).

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾: يذكر تعالى ما جعل لخلقه في الأنعام من المنافع، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين قرث ودم، ويأكلون من حُمْلَانِهَا، ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويركبون ظهورها ويحملونها^(٦) الأحمال الثقيل إلى البلاد النائية عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ. وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ. وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١ - ٧٣].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾^(٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ^(٢٤) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ^(٢٥)﴾.

يخبر تعالى عن نوح، عليه السلام، حين بعثه^(٧) إلى قومه، لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد، وانتقامه ممن أشرك به وخالف أمره وكذب رسله، ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: ألا تخافون من الله في إشراككم به؟! فقال الملأ - وهم السادة والأكابر منهم -: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ يعنون: يترفع عليكم ويتعظم بدعوى^(٨) النبوة، وهو بشر مثلكم. فكيف أوحى إليه دونكم؟ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي: لو أراد أن يبعث نبياً، لبعث ملكاً من عنده ولم يكن بشراً! ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أي: ببعثة البشر في آبائنا الأولين. يعنون^(٩) بهذا أسلافهم وأجدادهم والأمم^(١٠) الماضية.

(٣) في ف: «ضفت ليلة عمر بن الخطاب».

(٢) في ف، أ: «وقال».

(١) في أ: «عمرو».

(٤) في ف: فاطموني «عودا». وفي أ: «عسورا».

(٥) المعجم الكبير (٧٤/١) والصعب بن حكيم لا يعرف كما قال الذهبي.

(٦) في ف: «ويحملون».

(٧) في ف، أ: «بعثه الله».

(٨) في ف، أ: «بدعوة».

(١٠) في ف، أ: «الدهور».

(٩) في ف: «يعني».

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ﴾ أى: مجنون فيما يزعمه، من أن الله أرسله إليكم، واختصه من بينكم بالوحى ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أى: انتظروا به ريب المنون، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ﴾ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٨) وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ (٢٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ (٣٠).

يقول تعالى مخبراً عن نوح، عليه السلام، أنه دعا ربه يستنصره على قومه، كما قال تعالى مخبراً [عنه] (١) في الآية الأخرى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرُ﴾ [القمر: ١٠]، وقال هاهنا: ﴿قَالَ﴾ (٢) رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ﴾ فعند ذلك أمره الله تعالى بصنعة السفينة وإحكامها وإتقانها، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، أى: ذكراً وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار، وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهله ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أى: سبق فيه القول من الله بالهلاك، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله، كابنه وزوجته، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ أى: عند معاينة إنزال المطر العظيم، لا تأخذنك رافة بقومك، وشفقة عليهم، وطمع فى تأخيرهم لعلمهم يؤمنون، فإنى قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان. وقد تقدمت القصة مبسطة فى سورة «هود» (٣) بما يغنى عن إعادة ذلك هاهنا.

وقوله: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، كما قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ . لَتَسْتَبِشُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤]. وقد امتثل نوح، عليه السلام، هذا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١]. فذكر الله تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أى: إن فى هذا الصنيع - وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين -

(٢) زيادة من أ.

(١) زيادة من ف، أ.

(٣) انظر تفسير الآيات: ٢٥ - ٤٨.

﴿لَايَاتٍ﴾ أى: لحججاً^(١) ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاؤوا به عن الله تعالى، وأنه تعالى فاعل لما يشاء، وقادر على كل شيء، عليم بكل شيء.

وقوله: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أى: لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَاتَّرفَنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ (٣٤) أَيْعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) هِيَاهُ هِيَاهُ لِمَا تُوْعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١).

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرناً آخرين^(٢) - قيل: المراد بهم عاد، فإنهم مستخلفين بعدهم. وقيل: المراد بهؤلاء ثمود؛ لقوله: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ - وأنه تعالى أرسل فيهم رسولا منهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له. فكذبوه وخالفوه، وأبوا من اتباعه لكونه بشراً مثلهم، واستنكفوا عن اتباع رسول بشرى، فكذبوا بلقاء الله فى القيامة، وأنكروا المعاد الجثمانى، وقالوا: ﴿أَيْعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ﴾. هِيَاهُ هِيَاهُ لِمَا تُوْعَدُونَ﴾ أى: بعيد ذلك. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أى: فيما جاءكم^(٣) به من الرسالة والنذارة والإخبار بالمعاد. ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾. قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ﴾ أى: استفتح عليهم الرسول واستنصر ربه عليهم، فأجاب دعاءه، ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ أى: بمخالفتك وعنادك فيما جتتهم به، ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ أى: وكانوا يستحقون ذلك من الله لكفرهم وطغيانهم.

والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوى الباردة، ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى﴾ (٤) إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ أى: صرعى هلكى كغشاء السيل، وهو الشيء الحقيق التافه الهالك الذى

(٣) فى ف، أ «جاء».

(٢) فى ف، أ: «آخر».

(١) فى ف، أ: «الحجج».

(٤) فى ف، أ: «ترى».

لا ينتفع بشيء منه. ﴿فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، كقوله^(١): ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦] أى: بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله، فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذِبُهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِّقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (٤٤).

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ أى: أما وخلائق، ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ يعنى^(٢): بل يُؤَخِّدُونَ^(٣) حسب ما قدر لهم تعالى فى كتابه المحفوظ وعلمه قبل كونهم، أمة بعد أمة، وقرنا بعد قرن، وجيلا بعد جيل، وخلفاء بعد سلف.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرَا﴾: قال ابن عباس: يعنى يتبع بعضهم بعضاً. وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، وقوله: ﴿كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذِبُهُ﴾ يعنى: جمهورهم وأكثرهم، كقوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠].

وقوله: ﴿فَاتَّبَعْنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا﴾ أى: أهلكتناهم، كقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أى: أخباراً وأحاديث للناس، كقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرْقَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ﴾ [الآية^(٤)] [سبأ: ١٩] ﴿فَبَعْدًا لِّقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٥).

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أَنْزِلْ لَنَا قَوْمَهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩).

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى، عليه السلام، وأخاه هارون إلى فرعون وملئه، بالآيات والحجج الدامغات، والبراهين القاطعات، وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما، والانقياد لأمرهما، لكونهما بشرين كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر، تشابهت قلوبهم، فأهلك الله فرعون وملأه، وأغرقهم فى يوم واحد أجمعين، وأنزل على موسى الكتاب - وهو التوراة - فيها أحكامه وأوامره ونواهيته، وذلك بعد ما قصم الله فرعون والقبط، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر؛ وبعد أن

(١) فى ف: «كقولهم». (٢) فى ف، أ: «بل». (٣) فى ف، أ: «يوجدون».

(٤) زيادة من ف. وفى هـ: «إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون». (٥) زيادة من ف.

أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامة، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].

ثم قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم، عليهما السلام، أنه جعلهما آية للناس: أى حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى.

وقوله: ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾: قال الضحاك، عن ابن عباس: الربوة: المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة.

قال ابن عباس: وقوله: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ يقول: ذات خصب ﴿وَمَعِينٍ﴾ يعنى: ماء ظاهر^(١).

وقال مجاهد: ربوة مستوية.

وقال سعيد بن جبير: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾: استوى الماء فيها.

وقال مجاهد، وقتادة: ﴿وَمَعِينٍ﴾: الماء الجارى.

ثم اختلف المفسرون فى مكان هذه الربوة فى أى أرض [الله]^(٢) هى؟ فقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: ليس الربى إلا بمصر. والماء حين يرسل^(٣) يكون الربى عليها القرى، ولولا الربى غرقت القرى.

وروى عن وهب بن منبه نحو هذا، وهو بعيد جداً.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب فى قوله تعالى: ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، قال: هى دمشق^(٤).

قال: وروى عن عبد الله بن سلام، والحسن، وزيد بن أسلم، وخالد بن معدان نحو ذلك.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع، عن إسرائيل، عن سمالك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: أنهار دمشق.

(١) فى ف: «طاهر».

(٢) زيادة من ف.

(٣) فى ف: «يسيل».

(٤) فى أ: «الدمشق».

وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾^(١)، قال: عيسى ابن مريم وأمه، حين أويا إلى غوطة دمشق وما حولها.

وقال عبد الرزاق، عن بشر بن رافع، عن أبي عبد الله ابن عم أبي هريرة، قال: سمعت أبا هريرة يقول: في قوله^(٢): ﴿إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: هي الرملة من فلسطين.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف الفريابي، حدثنا رواد^(٣) بن الجراح، حدثنا عباد بن عباد الخواص أبو عتبة، حدثنا السياني^(٤)، عن ابن^(٥) وعلة، عن كريب السحولي، عن مرة البهزي قال: سمعت النبي ﷺ يقول لرجل: «إنك ميت^(٦) بالربوة» فمات بالرملة.^(٧) وهذا حديث غريب جداً.

وأقرب الأقوال في ذلك ما رواه العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، قال: المعين الماء الجارى، وهو النهر الذى قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤].

وكذا قال الضحاك، وقتادة: ﴿إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾: هو بيت المقدس. فهذا والله أعلم هو الأظهر؛ لأنه المذكور في الآية الأخرى. والقرآن يفسر بعضه بعضاً. وهو أولى ما يفسر به، ثم الأحاديث الصحيحة، ثم الآثار.

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطُّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبْرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦).

يأمر تعالى عباده المرسلين، عليهم الصلاة والسلام أجمعين، بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء، عليهم السلام، بهذا أتم القيام. وجمعوا بين كل خير، قولاً وعملاً ودلالة ونصحاً، فجزاهم الله عن العباد خيراً.

قال الحسن البصري في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ قال: أما والله ما أمروا بأصفركم ولا أحمركم، ولا حلوكم ولا حامضكم، ولكن قال: انتهوا إلى الحلال منه.

وقال سعيد بن جبير، والضحاك: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني: الحلال.

(٣) في ف: «داود».

(٢) في ف: «في قول الله».

(١) زيادة من ف.

(٦) في ف، أ: «نقوت».

(٥) في ف، أ: «أبى» وهو الصحيح.

(٤) في ف، أ: «الشياني» وهو الصحيح.

(٧) فيه عباد بن عباد له مناكير.

وقال أبو إسحاق السبيعي، عن أبي ميسرة بن شريحيل: كان عيسى ابن مريم يأكل من غزل أمه. وفي الصحيح: «ما من نبي إلا رعى الغنم». قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم، كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة»^(١).

وفي الصحيح: أن داود، عليه السلام، كان يأكل من كسب يده^(٢).

وفي الصحيحين: «إن أحب الصيام إلى الله صيام داود، وأحب القيام إلى الله قيام داود، كان^(٣) ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يقر إذا لاقى»^(٤).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع، حدثنا أبو بكر بن أبي مريم، عن ضمرة بن حبيب، أن أم عبد الله، أخت^(٥) شداد بن^(٦) أوس بعثت إلى النبي ﷺ بقدر لبن عند فطره وهو صائم، وذلك في أول النهار وشدة الحر، فرد إليها رسولها: أني كانت لك الشاة؟ فقالت: اشتريتها من مالي، فشرب منه، فلما كان الغد أتته أم عبد الله أخت^(٧) شداد فقالت: يا رسول الله^(٨)، بعثت إليك بلبن مرثية^(٩) لك من طول النهار وشدة الحر، فرددت إلى الرسول فيه؟ فقال لها: «بذلك أمرت الرسل، ألا تأكل إلا طيباً، ولا تعمل إلا صالحاً»^(١٠).

وقد ثبت في صحيح مسلم، وجامع الترمذي، ومسنَد الإمام أحمد - واللفظ له - من حديث فضيل بن مرزوق، عن عدي بن ثابت، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾». وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾» [البقرة: ١٧٢]. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغدّي بالحرام، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، فأني يستجاب لذلك»^(١١).

وقال الترمذي: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث فضيل بن مرزوق.

(١) صحيح البخارى برقم (٢٢٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) صحيح البخارى برقم (٢٠٧٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) فى ف: «وكان».

(٤) صحيح البخارى برقم (١١٣١) وصحيح مسلم برقم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما.

(٥) فى أ: «بنت».

(٦) فى ف: «بنت».

(٧) فى ف: «بنت».

(٨) فى ف: «يا رسول الله صلى الله عليك»، وفى أ: «يا رسول الله ﷺ».

(٩) فى ف: «مرثية».

(١٠) ورواه الحاكم فى المستدرک (١٢٥/٤) من طريق المعافى بن عمران عن أبى بكر بن أبى مريم به نحوه، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبي: «قلت: وابن أبى مريم واه».

(١١) صحيح مسلم برقم (١٠١٥) وسنن الترمذى برقم (٢٩٨٩) والمسنَد (٦/١٥٩).

وقوله: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى (١): دينكم - يامعشر الأنبياء - دين واحد، وملة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾، وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة «الأنبياء»، وأن قوله: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ منصوب على الحال.

وقوله: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أى: الأمم الذين بُعث إليهم الأنبياء، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أى: يفرحون بما هم فيه من الضلال؛ لأنهم يحسبون أنهم مهتدون؛ ولهذا قال متهدداً لهم ومتوعداً: ﴿فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ﴾ أى: فى غيهم وضلالهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أى: إلى حين حينهم وهلاكهم، كما قال تعالى: ﴿فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رَوِيدًا﴾ [الطارق: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَمْتَعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعنى: أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا؟ كلا، ليس الأمر كما يزعمون فى قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]، لقد أخطؤوا فى ذلك وخاب رجائهم، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجاً وإنظاراً وإملاءً؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهِذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥] وقال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر: ١١- ١٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧] والآيات فى هذا كثيرة.

قال (٢) قتادة فى قوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قال: مكرَ الله بالقوم فى أموالهم وأولادهم، يابن آدم، فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد [بن عبيد، حدثنا أبان بن إسحاق، عن الصباح بن محمد، عن مرة الهمداني، حدثنا عبد الله (٣) بن مسعود رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ، كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحْبَبَهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْلَمُ (٤) عَبْدٌ حَتَّىٰ يَسْلَمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ، وَلَا يُؤْمِنُ حَتَّىٰ يَأْمَنَ جَارَهُ بَوَائِقِهِ - قالوا: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: غشمه وظلمه -

(٢) فى أ: «وقال».

(٤) فى ف: «يؤمن».

(١) فى ف، أ: «وإن».

(٣) زيادة من ف، أ، والمسنَد.

ولا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل^(١) منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يحو السيئ بالسيئ، ولكن يحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يحو الخبيث^(٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ أى: هم مع^(٣) إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح، مشفقون من الله خائفون منه، وجلون من مكره بهم، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمناً.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، كقوله تعالى إخباراً عن مريم، عليها السلام: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ﴾ [التحریم: ١٢]، أى: أيقنت أن ما كان فإنما هو عن قدر الله وقضائه، وما شرعه الله فهو إن كان أمراً فمما يحبه ويرضاه، وإن كان نهياً^(٤) فهو مما يكرهه ويأباه، وإن كان خيراً فهو حق، كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أى: لا يعبدون معه غيره، بل يوحدهونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحداً صمداً، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنه لا نظير له ولا كفاء له.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أى: يعطون العطاء^(٥) وهم خائفون^(٦) ألا يتقبل منهم، لخوفهم^(٧) أن يكونوا قد قصرُوا في القيام بشروط الإعطاء. وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا مالك بن مغول، حدثنا عبد الرحمن بن سعيد بن وهب، عن عائشة؛ أنها قالت: يارسول الله، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾، هو الذى يسرق ويزنى ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «لا يابنت أبى بكر، يابنت الصديق، ولكنه الذى يصلى ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله عز وجل».

وهكذا رواه الترمذى وابن أبى حاتم، من حديث مالك بن مغول، به بنحوه^(٨). وقال: «لا يابنت الصديق، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون، وهم يخافون ألا يقبل منهم، ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾». قال الترمذى: ورؤى هذا الحديث من حديث عبد الرحمن بن سعيد، عن

(١) فى ف: «منه ليتقبل» وفى أ: «فيتقبل».

(٢) المسند (٣٨٧/١).

(٣) فى ف: «قى» وفى أ: «من».

(٤) فى ف: «منهيا».

(٥) فى ف: «تخوفهم».

(٨) المسند (١٥٩/٦) وسنن الترمذى برقم (٣١٧٥).

(٦) فى أ: «خائفون وجلون».

(٥) فى ف: «العطاء فيه».

أبى حازم، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ نحو هذا^(١).

وهكذا قال ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظى، والحسن البصرى فى تفسير هذه الآية.

وقد قرأ آخرون هذه الآية: «والذين يأتون ما أتوا وقلوبهم وجلة» أى: يفعلون ما يفعلون وهم خائفون، وروى هذا مرفوعاً إلى النبى ﷺ أنه قرأ كذلك.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا صخر بن جويرية، حدثنا إسماعيل المكى، حدثنى أبوخلف مولى بنى جُمَح: أنه دخل مع عُيَيْد بن عُمَيْر على^(٢) عائشة، رضى الله عنها، فقالت: مرحباً بأبى عاصم، ما يمنعك أن تزورنا - أو: تَلَمَّ بنا؟ - فقال: أخشى أن أُمَلِّك. فقالت: ما كنت لتفعل؟ قال: جئت لأسأل^(٣) عن آية فى كتاب الله عز وجل، كيف كان رسول الله ﷺ يقرؤها؟ قالت: آية آية؟ فقال: «الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا» أو «الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا»؟ فقالت: أيتهما^(٤) أحب إليك؟ فقلت: والذى نفسى بيده، لإحدهما أحب إلى من الدنيا جميعاً^(٥) - أو: الدنيا وما فيها - قالت: وماهى؟ فقلت: «الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا» فقالت: أشهد أن رسول الله ﷺ كذلك كان يقرؤها، وكذلك أنزلت، ولكن الهجاء حرف^(٦).

إسماعيل بن مسلم المكى، وهو ضعيف.

والمعنى على القراءة الأولى - وهى قراءة الجمهور: السبعة وغيرهم - أظهر؛ لأنه قال: «أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ»، فجعلهم من السابقين. ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك ألا يكونوا من السابقين، بل من المقتصدين أو المقصرين، والله تعالى أعلم.

﴿وَلَا نَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٦٢) **بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ** (٦٣) **حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجَارُونَ** (٦٤) **لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصِرُونَ** (٦٥) **قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِبُونَ** (٦٦) **مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ** (٦٧).

يقول تعالى مخبراً عن عدله فى شرعه على عباده فى الدنيا: أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، أى: إلا ما تطيق حمله والقيام به، وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التى كتبها عليهم فى كتاب مسطور لا يضيع منه شىء؛ ولهذا قال: «وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ» يعنى: كتاب الأعمال، «وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» أى: لا يبخسون من الخير شيئاً، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين.

(١) سنن الترمذى برقم (٣١٧٥).

(٢) فى أ: «إلى».

(٣) فى ف: «لأسألك».

(٤) فى أ: «أيتها».

(٥) فى ف: «جميعها».

(٦) المسند (٩٥/٦).

ثم قال منكراً على الكفار والمشركون من قريش: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ ۖ أَى: غفلة وضلالة ۖ مِنْ هَذَا ۖ أَى: القرآن الذى أنزله [الله تعالى] ^(١) على رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾: قال الحكم ^(٢) بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ ۖ أَى: سيئة من دون ذلك، يعنى: الشرك، ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ قال: لا بد أن يعملوها. وكذا روى عن مجاهد، والحسن، وغير واحد.

وقال آخرون: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ أَى: قد كتب عليهم أعمال سيئة لا بد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة، لتحقق عليهم كلمة العذاب. وروى نحو هذا عن مقاتل بن حيان والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهو ظاهر قوى حسن. وقد قدمنا فى حديث ابن مسعود: «فوالذى لا إله غيره، إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها».

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجَارُونَ﴾ يعنى: حتى إذا جاء مترفيهم - وهم السعداء المنعمون فى الدنيا - عذاب الله وبأسه ونقمته بهم ﴿إِذَا هُمْ يَجَارُونَ﴾ أَى: يصرخون ويستغيثون، كما قال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا ۖ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ۖ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١١ - ١٣]، وقال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَاتْ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣].

وقوله: ﴿لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصِرُونَ﴾ أَى: لا نجيركم ^(٣) مما حل بكم، سواء جأرتكم أو سكتكم، لا محيد ولا مناص ولا وزر لزم الأمر ووجب العذاب.

ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكُصُونَ﴾ أَى: إذا دعيتم أبيتم، وإن ^(٤) طلبتم امتنعتم؛ ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢].

وقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾: فى تفسيره قولان، أحدهما: أن مستكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإبائهم إياه، استكباراً عليه واحتقاراً له ولأهله، فعلى هذا الضمير فى ﴿به﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدهما ^(٥): أنه الحرم بمكة، ذموا لأنهم كانوا يسمرون بالهجر ^(٦) من الكلام.

والثانى: أنه ^(٧) ضمير القرآن، كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام: «إنه سحر، إنه شعر، إنه كهانة» إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة.

(٣) فى أ: «يجيركم».

(٦) فى أ: «الهجر».

(٢) فى أ: «الحكيم».

(٥) فى أ: «أحدها».

(١) زيادة من أ.

(٤) فى ف، أ: «وإذا».

(٧) فى أ: «هو».

والثالث: أنه محمد ﷺ، كانوا يذكرونه في سمرهم بالأقوال الفاسدة، ويضربون له الأمثال الباطلة، من أنه شاعر، أو كاهن، أو ساحر، أو كذاب، أو مجنون. وكل ذلك باطل، بل هو عبد الله ورسوله، الذى أظهره الله عليهم، وأخرجهم من ^(١) الحرم صاغرين أذلاء.

وقيل: المراد بقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ أى: بالبيت، يفتخرون به ويعتقدون أنهم ^(٢) أولياؤه، وليسوا ^(٣) بهم، كما قال النسائي فى التفسير ^(٤) من سننه:

أخبرنا أحمد بن سليمان، أخبرنا عبيد الله، عن إسرائيل، عن عبد الأعلى، أنه سمع سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس أنه قال: إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾، فقال: مستكبرين بالبيت، يقولون: نحن أهله، ﴿سَامِرًا﴾ قال: يتكبرون [ويسمرون فيه، ولا] ^(٥) يعمرونه، ويهجرونه ^(٦).

وقد أطنب ابن أبى حاتم هاهنا بما ذا ^(٧) حاصله.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَآكُثْرُهُمُ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَّاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاَكِبُونَ (٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥)﴾.

يقول تعالى منكرا على المشركين فى عدم تفهمهم للقرآن العظيم، وتدبرهم له وإعراضهم عنه، مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذى لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف، لا سيما وآباؤهم الذين ماتوا فى الجاهلية، حيث لم يبلغهم كتاب ولا أتاهاهم نذير، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التى أسداها الله إليهم بقبولها، والقيام بشكرها وتفهمها، والعمل بمقتضاها آناء الليل وأطراف النهار، كما فعله النجباء منهم من أسلم واتبع الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، ورضى عنهم.

وقال قتادة: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾: إذا والله يجدون ^(٨) فى القرآن زاجرا عن معصية الله لو تدبره القوم وعقلوه، ولكنهم أخذوا بما تشابه، فهلكوا عند ذلك.

(٣) فى ف: «وليس» وفى أ: «ولستم».

(٢) فى أ: «وتعتقدون أنكم».

(١) فى أ: «إلى».

(٥) زيادة من ف.

(٤) فى ف، أ: «تفسيره».

(٦) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٣٥١).

(٨) فى ف، أ: «تجدون».

(٧) فى أ: «هذا».

ثم قال منكراً على الكافرين من قريش: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ (١) أى: أفهم (١) لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانيته التى نشأ بها فيهم، أفقدرون (٢) على إنكار ذلك والمباهة فيه؟ ولهذا قال جعفر بن أبى طالب، رضى الله عنه، للنجاشى ملك الحبشة: أيها الملك، إن الله بعث إلينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته. وهكذا قال المغيرة بن شعبة لثائب كسرى حين بارزهم وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل، حين سألته وأصحابه عن صفات النبي ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته، وكانوا بعد كفاراً لم يسلموا، ومع هذا ما أمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾: يحكى قول المشركين عن النبي ﷺ أنه تقول (٣) القرآن، أى: افتراه من عنده، أو أن به جنونا لا يدري ما يقول. وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به، وهم يعلمون بطلان ما يقولونه فى القرآن، فإنه قد أتاهم من كلام الله ما لا يطاق ولا يدافع، وقد تحداهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله، فما استطاعوا ولا يستطيعون أبد الأبدى؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾: يحتمل أن تكون هذه جملة حالية، أى: فى حال كراهة (٤) أكثرهم للحق، ويحتمل أن تكون خبرية مستأنفة، والله أعلم.

وقال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ لقي رجلاً فقال له: «أسلم» فقال الرجل: إنك لتدعونى إلى أمر أنا له كاره. فقال نبي الله ﷺ: «وإن كنت كارهاً». وذكر لنا أنه لقي رجلاً فقال له: «أسلم» فتصعده (٥) ذلك وكبر عليه، فقال له نبي الله: «أرأيت لو كنت فى طريق وعر وعث، فلقيت رجلاً تعرف وجهه، وتعرف نسبه، فدعاك إلى طريق واسع سهل، أكنت متبعه (٦)؟» قال: نعم. فقال: «فوالذى (٧) نفس محمد بيده، إنك لفى أوعر من ذلك الطريق لو قد كنت عليه، وإنى لأدعوك إلى أسهل من ذلك لو دعيت إليه». وذكر لنا أن نبي الله ﷺ لقي رجلاً، فقال له: «أسلم» فتصعده ذلك، فقال له نبي الله ﷺ: «أرأيت فتيتك، أحدهما إذا حدثك صدقك، وإذا (٨) اتبعتته أدى إليك أهو أحب إليك، أم فتاك الذى إذا حدثك كذبك وإذا (٩) اتبعتته خانك؟». قال: بل فتاى الذى إذا حدثنى صدقنى، وإذا اتبعتته أدى إلى. فقال النبي ﷺ: «كذاكم أنتم عند ربكم».

وقوله: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾: قال مجاهد، وأبو صالح والسدى: الحق هو الله عز وجل، والمراد: لو أجابهم الله إلى ما فى أنفسهم من الهوى، وشرع الأمور على وفق ذلك ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ (١١) ومن فيهن: أى: لفساد أهوائهم واختلافها، كما أخبر عنهم فى قولهم: ﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، ثم قال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢] وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يَأْتُونَ النَّاسَ

(١) فى ف: «هم» وفى أ: «أهم».

(٢) فى ف، أ: «أفتقدرون».

(٣) فى أ: «يقول».

(٤) فى ف، أ: «فصعده».

(٦) فى ف: «تبعه».

(٨، ٩) فى ف: «وإن».

(١٠) فى ف: «نبي الله».

(٧) فى ف: «والذى».

(١١) فى ف: «الأرض والسماوات».

نَقِيرًا ﴿[النساء: ٥٣]، ففي هذا كله تبين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، وتدبيره لخلقه^(١)، تعالى وتقدس، فلا إله غيره، ولا رب سواه.

ثم قال: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ يعنى: القرآن، ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾.

وقوله: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾: قال الحسن: أجرا. وقال قتادة: جعلاً ﴿فَخَرَجَ رَبُّكَ خَيْرٌ﴾ أى: أنت لا تسألهم أجره ولا جعلاً ولا شيئاً على دعوتك إياهم إلى الهدى، بل أنت فى ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه، كما قال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِيْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبأ: ٤٧]، وقال: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، وقال: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ. اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠، ٢١].

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاَكِبُونَ﴾ قال الإمام أحمد:

حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن على بن زيد بن جُدعان، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ أتاه - فيما يرى النائم - ملكان، فقعده أحدهما عند رجله، والآخر عند رأسه، فقال الذى عند رجله للذى عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته. فقال: إن مثله ومثل أمته، كمثله قوم سُفِرَ انتهوا إلى رأس مفازة، فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به، فبينما^(٢) هم كذلك إذ أتاهم رجل فى حلة حبرة، فقال: رأيتم إن وردت بكم رياضاً معشبة، وحياضاً رواء تتبعونى؟ فقالوا: نعم: قال. فانطلق، فأوردهم رياضاً معشبة وحياضاً رواء، فأكلوا وشربوا وسمنوا فقال لهم: ألم ألكم على تلك الحال، فجعلتم لى إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعونى؟ قالوا^(٣): بلى قال: فإن بين أيديكم رياضاً أعشب من هذه، وحياضاً هى أروى من هذه، فاتبعونى. قال: فقالت طائفة: صدق والله، لتتبعنه. وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه^(٤).

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا زهير، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا يعقوب بن عبد الله الأشعري، حدثنا حفص بن حميد، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى ممسك بحجزكم: هلم عن النار، هلم عن النار، وتغلبونى وتقاحمون فيها تقاحم الفرائش والجنادب، فأوشك أن أرسل حجزكم وأنا فرطكم على الحوض، فتزدون على معا وأشتاتا، أعرفكم بسيماكم وأسمائكم، كما يعرف الرجل الغريب من الإبل فى إبله، فيذهب بكم ذات اليمين وذات الشمال، فأنشد فيكم رب العالمين: أى رب، قومى، أى رب أمتى.

(٣) فى أ: «فقالوا».

(٢) فى أ: «فبينما».

(١) فى ف: «بخلقه».

(٤) المسند (١/٢٦٧).

فيقال: يا محمد، إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم كانوا يمشون بعدك القهقري على أعقابهم، فلأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء، ينادى: يا محمد، يا محمد. فأقول: لا أملك لك شيئا. قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل بعيرا له رغاء، ينادى: يا محمد، يا محمد. فأقول: لا أملك^(١) شيئا، قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل فرسا لها حمومة، فينادى: يا محمد، يا محمد، فأقول: لا أملك لك شيئا، قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل سقاء من آدم، ينادى: يا محمد، يا محمد: فأقول: لا أملك لك شيئا قد بلغت^(٢).

وقال على بن المديني: هذا حديث حسن الإسناد، إلا أن حفص بن حميد مجهول، لا أعلم روى عنه غير يعقوب بن عبد الله الأشعري القمي.

قلت: بل قد روى عنه أيضا أشعث بن إسحاق، وقال فيه يحيى بن معين: صالح. ووثقه النسائي وابن حبان.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاَكِبُونَ﴾ أي: لعادلون جائرون منحرفون. تقول العرب: نكب فلان عن الطريق: إذا زاغ عنها.

وقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: يخبر تعالى عن غلظهم^(٣) في كفرهم بأنه لو أراح علكهم وأفهمهم القرآن، لما انقادوا له ولا استمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بَيَّاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. بَلْ يَدَّاهُمْ مَا كَانُوا يَخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧ - ٢٩] فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون، لو كان كيف يكون^(٤).

[و] ^(٥) قال الضحاك، عن ابن عباس: كل ما فيه «لو»، فهو مما لا يكون أبدا

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا

(١) في ف، أ: «لا أملك لك».

(٢) ورواه البزار في مسنده برقم (٩٠٠) وابن عبد البر في التمهيد (٣٠٠ / ٢) من طريق مالك بن إسماعيل عن يعقوب بن عبد الله الأشعري به نحوه.

وقال الهيثمي في المجمع (٨٥ / ٣): «رواه أبو يعلى في الكبير والبزار إلا أنه قال: يحمل قشعا مكان سقاء. ورجال الجميع ثقات».

(٣) في أ: «غلظهم».

(٤) في ف، أ: «ولو كان كيف كان يكون».

أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ أى: ابتليناهم بالمصائب والشدائد، ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِربِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾، أى: فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة، بل استمروا على ضلالهم وغيهم. ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا﴾ أى: ما خشعوا، ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أى: ما دعوا، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن حمزة المروزي، حدثنا على ابن الحسين، حدثنا أبى، عن يزيد - يعنى: النحوى - عن عكرمة، عن ابن عباس، أنه قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، أنشدك الله والرحم، فقد أكلنا العلهز - يعنى: الوبر والدم - فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِربِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾.

وهكذا رواه النسائي عن محمد بن عقيل، عن على بن الحسين، عن أبيه، به ^(١). وأصل هذا الحديث فى الصحيحين: أن ^(٢) رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال: «اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف» ^(٣).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا عبد الله بن إبراهيم ابن عمر بن كيسان، عن ^(٤) وهب بن عمر بن كيسان قال: حُبِسَ وهب بن منبه، فقال له رجل من الأبناء: ألا أنشدك بيتا من شعر يا أبا عبد الله؟ فقال وهب: نحن فى طرف من عذاب الله، والله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِربِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ قال: وصام وهب ثلاثا متواصلة، فقيل له: ما هذا الصوم يا أبا عبد الله؟ قال: أَحَدَثَ لَنَا فَأَحْدَثْنَا. يعنى: أحدث لنا الحبس، فأحدثنا زيادة عبادة.

وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أى: حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة وأخذهم من عقاب الله ما لم يكونوا يحتسبون، فعند ذلك أبلَسُوا ^(٥) من كل خير، وأيسوا من كل راحة، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم.

ثم ذكر تعالى نعمته على عباده فى أن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، وهى العقول والفهوم، التى يدركون ^(٦) بها الأشياء، ويعتبرون بما فى الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى، وأنه الفاعل المختار لما يشاء.

(١) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٣٥٢).

(٢) فى ف، أ: «عن».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٩٣) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٨) من حديث ابن م - رضى الله عنه.

(٤) فى ف، أ: «حدثنى».

(٥) فى أ: «أيسوا».

(٦) فى ف: «تدركون».

وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أى: وما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم، كقوله ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر، فى برّته الخليفة وذرته لهم فى سائر أقطار الأرض، على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم، فلا يترك منهم صغيراً ولا كبيراً، ولا ذكراً ولا أنثى، ولا جليلاً ولا حقيراً، إلا أعاده كما أبداه؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أى: يحيى الرمم ويميت الأمم، ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أى: وعن أمره تسخير الليل والنهار، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، يتعاقبان لا يفتران، ولا يفترقان بزمان غيرهما، كقوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أى: أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم، الذى قد قهر كل شىء، وعز كل شىء، وخضع له كل شىء.

ثم قال مخبراً عن منكرى البعث، الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ . قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ يعنى يستبعدون وقوع ذلك بعد صيورتهم إلى البلى، ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يعنون: [أن] ^(١) الإعادة محال، إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلاقهم. وهذا الإنكار والتكذيب منهم كقوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً . قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ . فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١١ - ١٤]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ - ٧٩].

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٩٠).

يقرر تعالى وحدانيته، واستقلاله بالخلق والتصرف والملك، ليرشد إلى أنه الذى لا إله إلا هو، ولا تنبغى العبادة إلا له وحده لا شريك له؛ ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غيره، المعترفين له بالربوبية، وأنه لا شريك له فيها، ومع هذا فقد أشركوا معه فى

الإلهية، فعبدوا غيره معه، مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئاً، ولا يملكون شيئاً، ولا يستبدون بشيء، بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، فقال: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ أى: من مالكةا الذى خلقها ومن (٢) فيها من الحيوانات والنباتات والشمات، وسائر صنوف المخلوقات ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أى: فيعرفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له، فإذا كان ذلك (٣) ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [أى: لا تذكرون] (٤) أنه لا تنبغي (٥) العبادة إلا للخالق الرازق (٦) لا لغيره.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أى: من هو خالق العالم العلوى بما فيه من الكواكب النيرات، والملائكة الخاضعين له فى سائر الأقطار منها والجهات، ومن هو رب العرش العظيم، يعنى: الذى هو سقف المخلوقات، كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «شأن الله أعظم من ذلك، إن (٧) عرشه على سمواته هكذا» وأشار بيده مثل القبة (٨).

وفى الحديث الآخر: «ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن فى الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن الكرسي بما فيه بالنسبة إلى العرش كتلك الحلقة فى تلك الفلاة» (٩). ولهذا قال بعض السلف: إن مسافة ما بين قطرى العرش من جانب إلى جانب مسيرة خمسين ألف سنة، [وارتفاعها عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة] (١٠).

وقال الضحاك، عن ابن عباس: إنما سمي عرشاً لارتفاعه.

وقال الأعمش عن كعب الأحبار: إن السموات والأرض فى العرش، كالقنديل المعلق بين السماء والأرض.

وقال مجاهد: ما السموات والأرض فى العرش إلا كحلقة فى أرض فلاة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا العلاء بن سالم، حدثنا وكيع، حدثنا (١١) سفيان الثوري، عن عمار الدهنى (١٢)، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: العرش لا يقدر أحد قدره. وفى رواية: إلا الله عز وجل (١٣).

وقال بعض السلف: العرش من ياقوتة حمراء.

ولهذا قال هاهنا: ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ يعنى: الكبير: وقال فى آخر السورة: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ

(١) فى أ: «إنما» وهو خطأ. (٢) فى ف، أ: «وما».

(٤) زيادة من ف، أ. (٥) فى أ: «يليق».

(٦) فى ف: «لأن».

(٨) سنن أبي داود برقم (٤٧٢٦) عن حديث جبير بن مطعم رضى الله عنه.

(٩) رواه الطبري فى تفسيره (٣٩٩/٥) من طريق ابن وهب عن ابن زيد عن أبيه عن أبي ذر رضى الله عنه، وقد سبق من رواية ابن مردويه عند تفسير الآية ٢: من سورة الرعد.

(١٠) زيادة من أ. (١١) فى أ: «عن».

(١٢) فى أ: «الذهبي».

(١٣) ورواه ابن أبي شيبة فى صفة العرش (ق ١١٤) والحاكم فى المستدرک (٢/٢٨٢) من طريق الضحاك بن مخلد عن سفيان عن

عمار الدهنى به، وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» وأقره الذهبي.

الْكَرِيمِ ﴿١﴾ أَى: الحسن البهى. فقد جمع العرش بين العظمة فى الاتساع والعلو، والحسن الباهر؛ ولهذا قال من قال: إنه من ياقوتة حمراء.

وقال ابن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور ^(١) العرش من نور وجهه.

وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أَى: إذا كنتم تعترفون ^(٢) بأنه رب السموات ورب العرش العظيم، أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه، فى عبادتكم معه غيره وإشراككم به؟

قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا القرشى فى كتاب «التفكر والاعتبار»: حدثنا إسحاق ابن إبراهيم، أخبرنا عبد الله ^(٣) بن جعفر، أخبرنى عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحدث عن امرأة كانت فى الجاهلية على رأس جبل، معها ابن لها يرعى غنما، فقال لها ابنها: يا أماء، من خلقتك؟ قالت: الله. قال: فمن خلق أبى؟ قالت: الله. قال: فمن خلقتنى؟ قالت: الله. قال: فمن خلق السماء؟ قالت: الله. قال: فمن خلق الأرض؟ قالت: الله. قال: فمن خلق الجبل؟ قالت: الله. قال: فمن خلق هذه الغنم؟ قالت: الله. قال: فإنى أسمع لله شأننا ثم ألقى نفسه من الجبل فتقطع.

قال ابن عمر: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحدثنا هذا الحديث.

قال عبد الله بن دينار: كان ^(٤) ابن عمر كثيراً ما يحدثنا بهذا الحديث.

قلت: فى إسناده عبد الله ^(٥) بن جعفر المدينى، والد الإمام على بن المدينى، وقد تكلموا فيه، فالله أعلم ^(٦).

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أَى: بيده الملك، ﴿مَنْ دَابَّةٌ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦]، أَى: متصرف فيها. وكان رسول الله ﷺ يقول: «لا، والذى نفسى بيده»، وكان إذا اجتهد فى اليمين قال ^(٧): «لا، ومقلب القلوب»، فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف، ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً، لا يُخَفَّرُ فى جواره، وليس لمن دونه أن يجير عليه، لثلاث يفتات عليه، ولهذا قال الله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أَى: وهو السيد العظيم الذى لا أعظم منه، الذى له الخلق والأمر، ولا معقب لحكمه، الذى لا يمانع ولا يخالف، وما شاء ^(٨) كان، وما لم يشأ لم يكن، وقال الله: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، أَى: لا يسئل عما يفعل؛ لعظمته وكبريائه، وقهره وغلبته، وعزته وحكمته ^(٩)، والخلق كلهم يسألون عن

(٣) فى ف، أ: «عبيد الله».

(٢) فى أ: «تعرفون».

(١) فى أ: «فوق».

(٥) فى أ: «عبيد الله».

(٤) فى ف: «وكان».

(٦) ورواه ابن عدى فى الكامل (١٧٨/٤) من طريق إسحاق بن أبى إسرائيل عن عبد الله بن جعفر به، وقال: «غير محفوظ لا يحدث به عن ابن دينار غير عبد الله بن جعفر» وعبد الله بن جعفر المدينى ضعيف عند الأئمة.

(٩) فى ف، أ: «وحكمته وعدله».

(٨) فى ف، أ: «وما شاء الله».

(٧) فى أ: «يقول».

أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أى: سيترفون أن السيد العظيم الذى يجبر ولا يجار عليه، هو الله تعالى، وحده لا شريك له ﴿قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ أى: فكيف تذهب عقولكم فى عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك.

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾، وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله، وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك، ﴿وَأَنَّهُمْ لَكَادِبُونَ﴾ أى: فى عبادتهم مع الله غيره، ولا دليل لهم على ذلك، كما قال فى آخر السورة: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾، فالمشركون لا يفعلون ذلك [عن دليل قادهم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال، وإنما يفعلون ذلك] ^(١) اتباعاً لأبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال، كما قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (٩١) **عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ قَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** (٩٢).

ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك فى الملك، فقال: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أى: لو قُدِّر تعدد الآلهة، لانفرد كل منهم بما يخلق، فما كان ينتظم الوجود. والمشاهد أن الوجود منتظم متسق، كل من العالم العلوى والسفلى مرتبط ببعضه ببعض، فى غاية الكمال، ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ﴾ [الملك: ٣] ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعلو بعضهم على بعض. والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعداً، فأراد واحد تحريك جسم وأراد الآخر سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، والواجب لا يكون عاجزاً، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد. وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد، فيكون محالاً، فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان الغالب هو الواجب، والآخر المغلوب ممكناً؛ لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً؛ ولهذا قال: ﴿وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أى: عما يقول الظالمون المعتدون فى دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيراً.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه، ﴿قَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى: تقدس وتنزه وتعالى وعز وجل [عما يقول الظالمون والجاحدون] ^(٢).

﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيْنِي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيْكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوْذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوْذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨) ﴾ .

يقول تعالى آمرا [نبيه محمداً ﷺ] ^(١) أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم: ﴿ رَبِّ إِمَّا تُرِيْنِي مَا يُوعَدُونَ ﴾ أى: إن عاقبتهم - وإنى شاهد ذلك - فلا تجعلنى فيهم، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والترمذى - وصححه -: «وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنى إليك غير مفتون» ^(٢).

وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيْكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ أى: لو شئنا لأريناك ما نحل ^(٣) بهم من النقم والبلاء والمحن.

ثم قال مرشداً له إلى التَّرياق النافع فى مخالطة الناس، وهو الإحسان إلى من يسىء، ليستجلب خاطره، فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة، فقال: ﴿ اَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ ﴾، وهذا كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ اَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥]: أى ما يلهم هذه الوصية أو الخصلة ^(٤) أو الصفة ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أى: على أذى الناس، فعاملوهم بالجميل مع إسدائهم إليهم القبيح، ﴿ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوْذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ : أمره أن يستعيز من الشياطين، لأنهم لا تنفع ^(٥) معهم الخيل، ولا يتقادون بالمعروف.

وقد قدمنا عند الاستعاذة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه» ^(٦).

وقوله: ﴿ وَأَعُوْذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ أى: فى شىء من أمرى؛ ولهذا أمر بذكر الله فى ابتداء الأمور - وذلك مطردة للشياطين ^(٧) - عند الأكل والجماع والذبح، وغير ذلك من الأمور؛ ولهذا روى أبو داود أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهرم، وأعوذ بك من الهدم ومن الغرق، وأعوذ بك أن يتخطبنى الشيطان عند الموت» ^(٨).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا محمد بن إسحاق، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه،

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) المسند (٢٤٣/٥) وسنن الترمذى برقم (٣٢٣٥) من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه، وقال: «هذا حديث حسن صحيح، سألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فقال: هذا حديث حسن صحيح».

(٣) فى ف، أ: «ما يحل». (٤) فى ف: «الخلصة أو الوصية». (٥) فى ف، أ: «لا ينفع».

(٦) انظر الاستعاذة عند تفسير سورة الفاتحة.

(٧) فى ف: «للشيطان».

(٨) سنن أبى داود برقم (١٥٥٢).

عن جده قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم، من الفزع: «باسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه، ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» قال: فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيرا لا يعقل أن يحفظها، كتبها له، فعلقها في عنقه.

ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، من حديث محمد بن إسحاق^(١)، قال الترمذي: حسن غريب.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (١٠٠)﴾.

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت، من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى، وقيلهم عند ذلك، وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا، ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١٠، ١١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبِ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسَوْهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ. ذَلِكُمْ بَأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]، فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة، فلا يجابون، عند الاحتضار، ويوم النشور ووقت العرض على الجبار، وحين يعرضون على النار، وهم في غمرات عذاب الجحيم.

وقوله: هاهنا: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾: كلا: حرف ردع وزجر، أى: لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه.

(١) المسند (١٨١/٢) وسنن أبي داود برقم (٣٨٩٣) وسنن الترمذي برقم (٣٥٢٨) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١٠٦٠١).

وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أى لابد أن يقولها لا محالة كل مختصر ظالم.

ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله: «كلا»، أى: لأنها كلمة، أى: سؤاله الرجوع ليعمل صالحا هو كلام منه، وقول لا عمل معه، ولو رد لما عمل صالحا، ولكان يكذب فى مقالته هذه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

وقال محمد بن كعب القرظى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ قال: فيقول الجبار: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾.

وقال عمر بن عبد الله مولى غفرة: إذا سمعت الله يقول: ﴿كَلَّا﴾، فإنما يقول: كذب^(١).

وقال قتادة فى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾: قال: كان العلاء بن زياد يقول: ليتزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت، فاستقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعة الله عز وجل.

وقال قتادة: والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله، فانظروا أمنية الكافر المفرط فاعملوا بها، ولا قوة إلا بالله. وعن محمد بن كعب القرظى نحوه.

وقال محمد بن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن يوسف، حدثنا فضيل - يعنى: ابن عياض - عن ليث، عن طلحة بن مُصَرِّف، عن أبى حازم، عن أبى هريرة قال: إذا وضع - يعنى: الكافر - فى قبره، فيرى مقعده من النار. قال: فيقول: رب، ارجعون أتوب وأعمل صالحا. قال: فيقال: قد عُمِّرْتَ ما كنت مُعَمَّرًا. قال: فيضيق عليه قبره، قال: فهو كالمنهوش، ينام ويفزع، تهوى^(٢) إليه هَوَامُّ الأرض وحياتها وعقاربها.

وقال أيضاً: حدثنا أبى، حدثنا عمرو بن على، حدثنى سلمة بن تمام، حدثنا على بن زيد^(٣)، عن سعيد بن المسيب، عن عائشة، أنها قالت: ويل لأهل المعاصى من أهل القبور!! تدخل^(٤) عليهم فى قبورهم حيات سود - أو: دُهم - حية عند رأسه، وحية عند رجله، يقرصانه حتى يلتقيا^(٥) فى وسطه، فذلك العذاب فى البرزخ الذى قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

وقال أبو صالح وغيره فى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ﴾: يعنى: أمامهم.

وقال مجاهد: البرزخ: الحاجز ما بين الدنيا والآخرة.

وقال محمد بن كعب: البرزخ: ما بين الدنيا والآخرة، ليسوا^(٦) مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون، ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم.

وقال أبو صخر: البرزخ: المقابر، لا هم فى الدنيا، ولا هم فى الآخرة، فهم مقيمون إلى يوم

(١) فى ف: «كذبت».

(٢) فى ف، أ: «ويهوى».

(٣) فى أ: «يزيد».

(٤) فى ف، أ: «يدخل».

(٥) فى ف: «تقرصانه حتى يلتقيا».

(٦) فى ف، أ: «ليس».

يبعثون.

وفى قوله: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ﴾: تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ، كما قال: ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠] وقال: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧].

وقوله: ﴿إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾ أى: يستمر به العذاب إلى يوم البعث، كما جاء فى الحديث: «فلا يزال معذبا فيها»^(١)، أى: فى الأرض.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلَفَحَ وَجُوهُهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤)﴾.

يخبر تعالى أنه نفخ فى الصور نفخة النشور، وقام الناس من القبور، ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ أى: لا تنفع الأنساب يومئذ، ولا يرثى والد لولده، ولا يلوى عليه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا. يُبْصِرُونَهُمْ﴾ [المعارج: ١٠، ١١] أى: لا يسأل القريب قريبه وهو يبصره، ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره، وهو أعز الناس عليه - كان - فى الدنيا، ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضة، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ. لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

وقال ابن مسعود: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد: ألا من كان له مظلمة فليجيئ فليأخذ حقه: قال: فيفرح^(٢) المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيرا، ومصدق ذلك فى كتاب الله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ رواه ابن أبى حاتم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد - مولى بنى هاشم - حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثتنا أم بكر بنت المسور بن مخرمة، عن عبيد الله بن أبى رافع، عن المسور - هو ابن مخرمة - رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: فاطمة بضعة منى، يقبضنى ما يقبضها، ويسطنى ما يسطها^(٣)، وإن الأنساب تنقطع^(٤) يوم القيامة غير نسبى وسبى وصهرى^(٥).

هذا الحديث له أصل فى الصحيحين عن المسور أن^(٦) رسول الله ﷺ قال: «فاطمة بضعة منى،

(١) رواه الترمذى فى السنن برقم (١٠٧١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه، وقال: «حديث حسن غريب».

(٢) فى أ: «يفرح والله». (٣) فى أ: «يفيضى ما يفيضها وينشطنى ما ينشطها». (٤) فى أ: «منقطع».

(٥) المسند (٣٢٣/٤).

(٦) فى ف، أ: «عن».

يرينى ما رابها، ويؤذيني ما آذاها»^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا زهير، عن عبد الله بن محمد، عن حمزة بن أبي سعيد الخدرى، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على هذا المنبر: «ما بال رجال يقولون: إن رحم رسول الله ﷺ لا تنفع قومه؟ بلى، والله إن رحمى موصولة فى الدنيا والآخرة، وإنى - أيها الناس - فرط لكم، إذا^(٢) جئتم» قال رجل: يارسول الله، أنا فلان بن فلان، [وقال أخوه: أنا فلان ابن فلان]^(٣) فأقول لهم: «أما النسب فقد عرفت، ولكنكم أحدثتم بعدى وارتددتم القهقرى»^(٤).

وقد ذكرنا فى مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب^(٥)، من طرق متعددة عنه، رضى الله عنه: أنه لما تزوج أم كلثوم بنت على بن أبى طالب، رضى الله عنهما، قال: أما - والله - ما بى إلا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل سببٍ ونسبٍ فإنه منقطع يوم القيامة، إلا سببى ونسبى».

رواه^(٦) الطبرانى، والبزار والهيثم بن كليب، والبيهقى، والحافظ الضياء فى «المختارة»^(٧) وذكرنا أنه أصدقها أربعين ألفاً؛ إعظماً وإكراماً، رضى الله عنه؛ فقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أبى العاص بن الربيع - زوج زينب بنت رسول الله ﷺ - من طريق أبى القاسم البغوى: حدثنا سليمان بن عمر بن الأقطع، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام، عن إبراهيم بن يزيد، عن محمد ابن عباد بن جعفر، سمعت ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «كل نسبٍ وصهرٍ ينقطع يوم القيامة إلا نسبى وصهرى»^(٨). وروى فيها من طريق عمار بن سيف، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «سألت ربى عز وجل ألا أتزوج إلى أحد من أمتى، ولا يتزوج إلى أحد منهم، إلا كان معى فى الجنة، فأعطانى ذلك»^(٩)، ومن حديث عمار بن سيف، عن إسماعيل، عن عبد الله ابن عمرو.

وقوله: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى: من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة، قاله ابن عباس.

﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى: الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة.

وقال ابن عباس: أولئك الذين فازوا بما طلبوا، ونجوا من شر ما منه هربوا.

(١) صحيح البخارى برقم (٣٧١٤) وصحيح مسلم برقم (٢٤٤٩).

(٢) فى ف، أ: «فإذا».

(٤) المسند (١٨/٣).

(٥) مسند عمر بن الخطاب لابن كثير (٣٨٩/١).

(٦) فى أ: «ورواه الحافظ».

(٧) المعجم الكبير (٤٥/٣) ومسند البزار برقم (٢٤٤٥) «كشف الأستار» وسنن البيهقى الكبرى (٦٤/٧) والمختارة للمقدسى برقم (٢٨١).

(٨) تاريخ دمشق (١١٩/١٩) «المخطوط» ورواه على بن سعيد عن سليمان بن عمر الرقى عن إبراهيم بن عبد السلام عن إبراهيم بن يزيد عن محمد بن عباد بن جعفر عن عبد الله بن الزبير مرفوعاً، وأخرجه الطبرانى فى الأوسط برقم (٣٩٦٣).

(٩) تاريخ دمشق (١١٩/١٩) «المخطوط» ورواه الطبرانى فى الأوسط برقم (٣٩٦١) «مجمع البحرين» من طريق يزيد بن الكميت عن عمار بن سيف به. قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٨٥/٧): «إسناده واه» وفى الباب عن ابن أبى أوفى رضى الله عنه.

﴿وَمَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أى: ثقلت سيئاته على حسنات، ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أى: خابوا وهلكوا، وباؤوا بالصفقة ^(١) الخاسرة.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث، حدثنا داود بن المحبر، حدثنا صالح المُرِّي، عن ثابت البناني وجعفر بن زيد ومنصور بن زاذان، عن أنس بن مالك يرفعه قال: «إن لله ملكا موكلا بالميزان، فيؤتى بابن آدم، فيوقف بين كفتي الميزان، فإن ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق: سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خف ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق: شقى فلان شقاوة لا ^(٢) يسعد بعدها أبداً» ^(٣).

إسناده ضعيف، فإن داود بن المحبر متروك.

ولهذا قال: ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ أى: ماكثون، دائمون مقيمون لا يظعنون. ﴿تَلْفَحُ وَجُوهُهُمْ النَّارُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَتَغْشَى وَجُوهُهُمْ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وقال: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وَجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فروة بن أبي المغراء ^(٤)، حدثنا محمد بن سلمان بن الأصبهاني، عن أبي سنان ضرار بن مرة، عن عبد الله بن أبي الهذيل، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «إن جهنم لما سيق [إليها] ^(٥) أهلها يلقاهم ^(٦) لهبها، ثم تلفحهم لفحة، فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب» ^(٧).

وقال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى الفزاز، حدثنا الخضر بن على بن يونس القطان، حدثنا عمر بن أبي الحارث بن الخضر القطان، حدثنا سعد بن سعيد ^(٨) المقبري، عن أخيه، عن أبيه، عن أبي الدرداء، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ فى قوله الله: ﴿تَلْفَحُ وَجُوهُهُمْ النَّارُ﴾، قال: «تلفحهم لفحة، فتسيل لحومهم على أعقابهم» ^(٩).

وقوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالْحُوتِ﴾ قال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعنى عابسون.

وقال الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالْحُوتِ﴾، قال: ألم تر إلى الرأس والمشييط الذى قد بدا أسنانه وقلصت شفتاه.

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: أخبرنا على بن إسحاق، أخبرنا عبد الله - هو ابن المبارك، رحمه

(١) فى أ: «فازوا بالصفة». (٢) فى ف: «فلا».

(٣) ورواه أبو نعيم فى الحلية كما فى تخريج الإحياء (٤٠٩٨) وقال: «تفرد به داود بن المحبر».

(٤) فى أ: «أبى الفراء». (٥) زيادة من ف. (٦) فى ف: «تلقيم».

(٧) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٣٦٣/٤) وقال: «لم يروه مرفوعاً متصلاً عن أبى سنان عن عبد الله إلا محمد بن سليمان الأصبهاني، ورواه ابن عيينة وابن فضيل وجريز عن أبى سنان فأوقفه ابن فضيل على أبى هريرة».

(٨) فى ف، أ: «سعيد بن أبى سعيد».

(٩) ورواه الضياء المقدسى فى صفة النار كما فى الدر المنثور (١١٧/٦) من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه.

الله - أخبرنا سعيد بن يزيد، عن أبي السَّمْح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخُدْرِي، عن النبي ﷺ قال: «وَهُمْ فِيهَا كَالْحُونِ»، قال: «تَشْوِيهِ النَّارِ فَتَقْلَصُ شَفْتَهُ الْعُلْيَا حَتَّى تَبْلُغَ وَسَطَ رَأْسِهِ، وَتَسْتَرُخِي شَفْتَهُ السُّفْلَى حَتَّى تَضْرِبَ سُرَّتَهُ».

ورواه الترمذی، عن سُوَيْدِ بْنِ نَصْرٍ^(١)، عن عبد الله بن المبارك، به^(٢). وقال: حسن غريب.

﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ (١٠٧).

هذا تقرير من الله تعالى لأهل النار، وتوبيخ لهم على ما ارتكبوا من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم، التي أوبقتهم في ذلك، فقال: «أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ» أي: قد أرسلت إليكم الرسل، وأنزلت الكتب، وأزلت^(٣) شبهكم، ولم يبق لكم حجة تدلون بها كما قال: «لَوْلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ» [النساء: ١٦٥]، وقال: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا» [الإسراء: ١٥]، وقال: «كُلَّمَا أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ. قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ. وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ. فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ» [الملك: ٨ - ١١]، ولهذا قالوا: «رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ» أي: قد قامت علينا الحجة، ولكن كنا أشقى من أن ننقاد لها ونتبعها، فَضَلَلْنَا عَنْهَا وَلَمْ نُرْزَقْهَا.

ثم قالوا: «رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ» أي: رُدُّنَا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا، فَإِنْ عُدْنَا إِلَى مَا سَلَفَ مِنَّا، فَنَحْنُ ظَالِمُونَ مُسْتَحِقُونَ لِلْعُقُوبَةِ، كما قالوا: «فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ. ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ» [غافر: ١١، ١٢] أي: لا سبيل إلى الخروج؛ لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحده المؤمنون.

﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (١١١).

هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار^(٤)، يقول: «اخْسَئُوا فِيهَا» أي: امكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء. «وَلَا تُكَلِّمُونَ» أي: لا تعودوا إلى سؤالكم هذا، فإنه لا جواب لكم عندي.

(١) في أ: «نصير».

(٢) المسند (٨٨/٣) وسنن الترمذی برقم (٣١٧٦).

(٣) في أ: «وارخت». (٤) في أ: «الدنيا».

قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿اٰخَسْتُوْا فِيْهَا وَلَا تَكْلِمُوْنَ﴾ قال: هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبدة بن سليمان المروزي، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أبي أيوب، عن عبد الله بن عمرو قال: إن أهل جهنم يدعون مالكا، فلا يجيبهم أربعين عاما، ثم يردّ عليهم: إنكم ماكثون. قال: هانت دعوتهم - والله^(١) - على مالك وربّ مالك. ثم يدعون ربهم فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ قال: فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين، ثم يردّ عليهم: ﴿اٰخَسْتُوْا فِيْهَا وَلَا تَكْلِمُوْنَ﴾. قال: والله ما نَس^(٢) القوم بعدها بكلمة واحدة، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم. قال: فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير، أولها زفير وآخرها شهيق.

وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان، عن سلمة بن كهيل، حدثنا أبو الزعرى قال: قال عبد الله بن مسعود: إذا أراد الله ألا يخرج منهم أحداً - يعني: من جهنم - غير وجوههم وألوانهم، فيجىء الرجل من المؤمنين، فيشفع فيقول: يا رب^(٣). فيقول: من عرف أحداً فليخرجه. فيجىء الرجل فينظر فلا يعرف أحداً فيقول: أنا فلان. فيقول: ما أعرفك. قال: فعند ذلك يقول: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾، فعند ذلك يقول: ﴿اٰخَسْتُوْا فِيْهَا وَلَا تَكْلِمُوْنَ﴾. وإذا^(٤) قال ذلك، أطبقت عليهم فلا^(٥) يخرج منهم بشر.

ثم قال تعالى مذكراً لهم بذنوبهم في الدنيا، وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا﴾ أي: فسخرتم منهم في دعائهم إياي وتضرعهم إليّ، ﴿حَتَّىٰ أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي﴾ أي: حملكم بغضهم على أن نسيتهم معاملتي ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ أي: من صنيعهم وعبادتهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ . وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٢٩، ٣٠] أي: يلمزونهم استهزاء.

ثم أخبر عما جازى به أوليائه وعباده الصالحين، فقال: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: على أذاكم لهم واستهزائكم منهم، ﴿أَنَّهَمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي: جعلتهم هم الفائزين^(٦) بالسعادة والسلامة والجنة، الناجين^(٧) من النار.

(٢) في ف: «فوالله ما ييس».

(٤) في ف، أ: «فإذا».

(٦) في ف: «الفائزون».

(١) في ف، أ: «والله دعوتهم».

(٣) في ف، أ: «يارب يارب».

(٥) في ف، أ: «فلم».

(٧) في ف: «الناجون».

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)﴾.

يقول تعالى منها لهم على ما أضاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده، ولو صبروا في مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون، ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ أى: كم كانت إقامتكم في الدنيا؟ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ﴾ أى: الحاسبين ﴿قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى: مدة يسيرة على كل تقدير ﴿لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى: لما آثرتم الفانى على الباقي، ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيئ، ولا استحققتكم من الله سخطة في تلك المدة اليسيرة، ولو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته^(١) - كما فعل المؤمنون - لفزتم كما فازوا.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن الوزير، حدثنا الوليد، حدثنا صفوان، عن أبيه ابن عبد الكلأعي؛ أنه سمعه يخطب الناس فقال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَدْخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ، قَالَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ؟ قَالُوا: لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ. قَالَ: لَنَعْمَ مَا اتَّجَرْتُمْ فِي يَوْمٍ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ: رَحِمْتِي وَرِضْوَانِي وَجَنَّتِي، امْكُثُوا فِيهَا خَالِدِينَ مَخْلُودِينَ؟ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ النَّارِ، كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ؟ قَالُوا: لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ. فيقول: بئس ما اتَّجَرْتُمْ فِي يَوْمٍ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ: نَارِي وَسَخَطِي، امْكُثُوا فِيهَا خَالِدِينَ مَخْلُودِينَ»^(٢).

وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ أى: أظننتم أنكم مخلوقون عبثاً بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا، ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ أى: لا تعودون في الدار الآخرة، كما قال: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، يعنى هملًا^(٣).

وقوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أى: تقدس أن يخلق شيئاً عبثاً، فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾، فذكر العرش؛ لأنه سقف جميع المخلوقات، ووصفه بأنه كريم، أى: حسن المنظر بهى الشكل، كما قال تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا علي بن محمد الطَّنَافِسيّ، حدثنا إسحاق بن سليمان - شيخ من أهل العراق - أنبأنا شعيب بن صفوان، عن رجل من آل سعيد بن العاص قال:

(١) في ف: «على عبادته وطاعته».

(٢) ورواه ابن الأثير في أسد الغابة (١/١٨٧) بإسناده إلى الحكم بن موسى عن الوليد عن صفوان به.

(٣) في أ: «هملاً».

كان آخر خطبة خطب عمر بن عبد العزيز أن حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإنكم لم تخلقوا عبثاً، ولن^(١) تتركوا سدى، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم بينكم والفصل بينكم، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله، وحرّم جنة عرضها السموات والأرض، ألم تعلموا أنه لا يأمن غداً إلا من حذر هذا اليوم وخافه، وباع نافداً بباقي، وقليلًا بكثير، وخوفاً بأمان، ألا ترون أنكم من أصلاب الهالكين، وسيكون من بعدكم الباقي، حتى تردون^(٢) إلى خير الوارثين؟ ثم إنكم في كل يوم تُشيعون غادياً ورائحاً إلى الله عز وجل، قد قضى نحبه، وانقضى أجله، حتى تغيّبه في صدع من الأرض، في بطن صدع غير ممهد ولا موسد، قد فارق الأحباب وباشر التراب، وواجه الحساب، مُرْتَهَنَ بعمله، غنى عما ترك، فقير إلى ما قدم. فاتقوا الله عباد الله قبل انقضاء موثيقه، ونزول الموت بكم ثم جعل طرف رذائه على وجهه، فبكى وأبكى من حوله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يحيى بن نصر^(٣) الخولاني، حدثنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة، عن أبي هُبَيْرَةَ عَنْ حَنْشٍ^(٤) بن عبد الله؛ أن رجلاً مصاباً مرّ به عبد الله بن مسعود، فقرأ في أذنه هذه الآية: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾. فتعالى الله الملك الحق، حتى ختم السورة فَبَرًّا، [فذكر ذلك لرسول الله ﷺ]^(٥)، فقال رسول الله ﷺ: «بماذا قرأت في أذنه؟» فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو أن رجلاً مؤمناً قرأها على جبل لزال».

وروى أبو^(٦) نُعَيْمٍ من طريق خالد بن نزار، عن سفيان بن عيينة، عن محمد بن المنكدر، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث، عن أبيه قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، وأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾، قال: فقرأناها فغنمنا وسلمنا^(٧).

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا إسحاق بن وهب العلاف الواسطي، حدثنا أبو المسيّب سلمة بن سلام، حدثنا بكر بن خنيس^(٨)، عن نهشل بن سعيد، عن الضحاك بن مزاحم، عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا في السفن: باسم الله الملك الحق، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: ٤١]»^(٩).

(٢) في ف: «حين تردوا».

(٤) في ف: «حسن».

(٦) في ف: «ابن».

(١) في ف: «ولم».

(٣) في أ: «نصير».

(٥) زيادة من ف، أ.

(٧) معرفة الصحابة لأبي نعيم برقم (٧٢٦).

(٨) في ف: «حبش».

(٩) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٢/١٢٤) وفي كتاب الدعاء برقم (٨٠٤) من طرق عن عبد الحميد الهلالي، عن نهشل بن وهب، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/١٣٢): «نهشل بن سعيد متروك».

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (١١٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾.

يقول تعالى متوعدا من أشرك به غيره، وعبد معه سواه، ومخبراً أن من أشرك بالله ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ﴾ أى: لا دليل له على قوله - فقال: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾، وهذه جملة معترضة، وجواب الشرط فى قوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أى: الله يحاسبه على ذلك. ثم أخبر: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أى: لديه يوم القيامة، لا فلاح لهم ولا نجاة.

قال قتادة: ذكر لنا أن نبى الله ﷺ قال لرجل: «ما تعبد؟» قال: أعبد الله، وكذا وكذا - حتى عد أصناماً، فقال رسول الله ﷺ: «فأيهم إذا أصابك ضرر فدعوته، كشفه عنك؟». قال: الله عز وجل. قال: «فأيهم إذا كانت لك حاجة فدعوته أعطاكها؟» قال: الله عز وجل. قال^(١): «فما يحملك على أن تعبد هؤلاء معه؟» قال: أردت شكره بعبادة هؤلاء معه أم حسبت أن يغلب عليه. فقال رسول الله ﷺ: «تعلمون ولا تعلمون» قال^(٢) الرجل بعد ما أسلم: لقيت رجلاً خصمنى.

هذا مرسل من هذا الوجه، وقد روى أبو عيسى الترمذى فى جامعه مسنداً عن عمران بن الحصين، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ نحو ذلك^(٣).

وقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾: هذا إرشاد من الله إلى هذا الدعاء، فالغفر - إذا أطلق - معناه محو الذنب وستره عن الناس، والرحمة معناها: أن يسدده ويوفقه فى الأقوال والأفعال.

آخر تفسير سورة المؤمنون

(١) زيادة من ف، أ. (٢) فى أ: «فقال».

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٤٨٣) وقال: «هذا حديث غريب».

تفسير سورة النور

وهي مدنية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ .

يقول تعالى : هذه ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا﴾ ، فيه تنبيه على ^(١) الاعتناء بها ولا ينفي ما عداها .

﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ : قال مجاهد وقتادة : أى بيّنا الحلال والحرام ، والأمر والنهي ، والحدود .

وقال البخارى : ومن قرأ « فَرَضْنَاهَا » يقول : فَرَضْنَا عَلَيْكُمْ وعلى من بعدكم .

﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أى : مفسرات واضحات ، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ : هذه الآية الكريمة فيها حكم الزانى فى الحد ، وللعلماء فيه تفصيل ونزاع ؛ فإن الزانى لا يخلو إما أن يكون بكراً ، وهو الذى لم يتزوج . أو محصناً ، وهو الذى قد وطئ فى نكاح صحيح ، وهو حر بالغ عاقل . فأما إذا كان بكراً لم يتزوج ، فإن حده مائة جلدة ^(٢) ، كما فى الآية ، ويزاد على ذلك أن يُغَرَّبَ عاماً [عن بلده] ^(٣) عند جمهور العلماء ، خلافاً لأبى حنيفة ، رحمه الله ؛ فإن عنده أن التغريب إلى رأى الإمام ، إن شاء غَرَّبَ وإن شاء لم يغَرَّبَ .

وحجة الجمهور فى ذلك ما ثبت فى الصحيحين ، من رواية الزهرى ، عن عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة بن مسعود ، عن أبى هريرة وزيد بن خالد الجهنى ، فى الأعرابيين اللذين أتيا رسول الله ﷺ ، فقال أحدهما : يا رسول الله ، إن ابني كان عسيفاً - يعنى : أجيراً - على هذا ، فزنى بامرأته ، فافتديت [ابني] ^(٤) منه بمائة شاة ووكيدة ، فسألت أهل العلم ، فأخبروني أن ^(٥) على ابني جلد مائة وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجم . فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لأقضين بينكما بكتاب الله : الوليدة والغنم ردُّ عليك ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام . واغد يا أنيس - لرجل من أسلم - إلى امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها » . فغدا عليها ، فاعترفت ، فرجمها ^(٦) .

ففى هذا دلالة على تغريب الزانى مع جلد مائة إذا كان بكراً لم يتزوج ، فأما إن كان محصناً فإنه يرجم ، كما قال الإمام مالك :

(١) فى أ : « إلى » .

(٢) فى ف ، أ : « جلد مائة » .

(٣) زيادة من ف ، أ .

(٤) فى أ : « إنما » .

(٥) زيادة من ف ، أ ، وصحیح البخارى ومسلم .

(٦) صحیح البخارى برقم (٢٣١٤ ، ٦٦٣٣) وصحیح مسلم برقم (١٦٩٧) .

حدثني ابن شهاب ، أخبرنا ^(١) عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، أن ابن عباس أخبره ، أن عمر ، رضى الله عنه ، قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، أيها الناس ، فإن ^(٢) الله بعث محمداً بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم ، فقرأناها ووعيناها ، ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده ، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل : لا نجد آية الرجم في كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله ، فالرجم في كتاب الله حق على من زنى ، إذا أحصن ، من الرجال والنساء ، إذا قامت البينة ، أو الحبل ، أو الاعتراف .

أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك مطولا ^(٣) ، وهذا ^(٤) قطعة منه ، فيها مقصودنا هاهنا .
وروى الإمام أحمد عن هشيم ، عن الزهري ، عن عبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس : حدثني عبد الرحمن بن عوف ؛ أن عمر بن الخطاب خطب الناس فسمعه يقول : ألا وإن أناسا ^(٥) يقولون : ما بال رجم ؟ في كتاب الله الجلد . وقد رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده . ولولا أن يقول قائلون - أو يتكلم ^(٦) متكلمون - أن عمر زاد في كتاب الله ما ليس منه ^(٧) ، لأثبتها كما نزلت . وأخرجه النسائي ، من حديث عبيد الله بن عبد الله ، به ^(٨) .

وقد روى أحمد ^(٩) أيضاً عن هشيم ، عن علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس قال : خطب عمر بن الخطاب فذكر الرجم فقال : لا تُخَدَعَنَّ ^(١٠) عنه ؛ فإنه حد من حدود الله ، ألا إن رسول الله ﷺ قد رجم ورجمنا بعده ، ولولا أن يقول قائلون : زاد عمر في كتاب الله ما ليس فيه ، لكتبت في ناحية من المصحف : وشهد عمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وفلان وفلان : أن رسول الله ﷺ قد رجم ورجمنا بعده . ألا وإنه سيكون من بعدكم قوم يكذبون بالرجم وبالديال ^(١١) وبالشفاعة وبعبذاب القبر ، ويقوم يخرجون من النار بعد ما امتحشوا ^(١٢) .

وروى أحمد ^(١٣) أيضاً عن يحيى القطان ، عن يحيى الأنصاري ، عن سعيد بن المسيب ، عن عمر بن الخطاب ^(١٤) : إياكم أن تهلكوا عن آية الرجم .

الحديث رواه الترمذي ، من حديث سعيد عن عمر ، وقال : صحيح ^(١٥) .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري ، حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا ابن ^(١٦) عون ، عن محمد - هو ابن سيرين - قال : ثبت عن كثير بن الصلت قال : كنا عند

(١) في ف : « عن » . (٢) في ف : « إن » .

(٣) الموطأ (٢ / ٨٢٢) وصحيح البخاري برقم (٦٨٢٩ ، ٦٨٣٠) وصحيح مسلم برقم (١٦٩١) وهو عندهما بهذا السياق من حديث ابن شهاب الزهري .

(٤) في ف ، أ : « وهذه » . (٥) في ف : « ناساً » . (٦) في ف : « ويتكلم » . (٧) في أ : « فيه » .

(٨) المسند (١ / ٢٩) والنسائي في السنن الكبرى (٧١٥٤) .

(٩) في ف ، أ : « الإمام أحمد » . (١٠) في أ : « لا تحيد عنه » . (١١) في ف : « والديال » .

(١٢) المسند (١ / ٢٣) .

(١٣) في ف ، أ : « الإمام أحمد » . (١٤) في ف ، أ : « عمر رضى الله عنه » .

(١٥) المسند (١ / ٣٦) وسنن الترمذي برقم (١٤٣١) .

(١٦) في ف : « أبو » .

مروان وفيما زيد ، فقال زيد : كنا نقرأ : « والشيخ والشيخة فارجموهما ^(١) البتة » . قال مروان : ألا كتبتهما في المصحف ؟ قال : ذكرنا ذلك وفيما عمر بن الخطاب ، فقال : أنا أشفيكم من ذلك . قال : قلنا : فكيف ؟ قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ ، قال : فذكر كذا وكذا ، وذكر الرجم ، فقال : يا رسول الله ، أكتبني آية الرجم : قال : « لا أستطيع الآن » . هذا أو نحو ^(٢) ذلك .

وقد رواه النسائي عن محمد بن المثني ، عن غندر ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن يونس بن جبير ، عن كثير بن الصلت ، عن زيد بن ثابت ، به ^(٣) .

وهذه طرق كلها متعددة ^(٤) ، ودالة على أن آية الرجم كانت مكتوبة ففسخ تلاوتها ، وبقي حكمها معمولاً به ، والله الحمد ^(٥) .

وقد أمر رسول الله ﷺ برجم هذه المرأة ، وهي زوجة الرجل الذي استأجر الأجير لما زنت مع الأجير . ورجم النبي ﷺ ^(٦) ماعزاً والغامدية . وكل هؤلاء لم يُنقل عن رسول الله ﷺ أنه جلداهم قبل الرجم . وإنما وردت الأحاديث الصحاح المتعددة الطرق والألفاظ ، بالاقتصار على رجمهم ، وليس فيها ذكر الجلد ؛ ولهذا كان هذا مذهب جمهور العلماء ، وإليه ذهب أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، رحمهم الله . وذهب الإمام أحمد ، رحمه الله ، إلى أنه يجب أن يجمع على الزاني المحصن بين ^(٧) الجلد للآية ، والرجم للسنّة ، كما روى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، أنه لما أتى بشرأحة ^(٨) ، وكانت قد زنت وهي مُحَصَّنَةٌ ، فجلدها يوم الخميس ، ورجمها يوم الجمعة ، ثم قال : جلدتها بكتاب الله ، ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ .

وقد روى الإمام أحمد ومسلم ، وأهل السنن الأربعة ، من حديث قتادة ، عن الحسن ، عن حطّان ^(٩) بن عبد الله الرقاشي ، عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « خذوا عني ، خذوا عني ، قد جعل الله لهن سبيلاً : البكر بالبكر جلد مائة وتغريب سنة ^(١٠) ، والثيب بالثيب ، جلد مائة والرجم » ^(١١) .

وقوله : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ أي : في حكم الله . لا ترجموهما وترأفوا بهما في شرع الله ، وليس المنهى عنه ^(١٢) الرأفة الطبيعية [ألا تكون حاصلة] ^(١٣) على ترك الحد ، [وإنما هي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد] ^(١٤) ، فلا ^(١٥) يجوز له ذلك .

قال مجاهد : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ قال : إقامة الحدود إذا رُفِعَتْ إلى السلطان ، فتقام ولا تعطل . وكذا روى عن سعيد بن جبير ، وعطاء بن أبي رباح . وقد جاء في الحديث :

(١) في ف ، أ : « والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما » .

(٣) النسائي في السنن الكبرى برقم (٧١٤٨) .

(٤) في ف ، أ : « متعاضدة » . (٥) في ف ، أ : « والله أعلم » .

(٦) في أ : « من » .

(٨) في أ : « بسراجة » . (٩) في أ : « عطاء » .

(١٠) في أ : « عام » .

(١١) المسند (٥ / ٣١٧) وصحيح مسلم برقم (١٦٩٠) وسنن أبي داود برقم (٤٤١٦) وسنن الترمذي برقم (١٤٣٤) والنسائي في

السنن الكبرى برقم (١١٠٩٢) وسنن ابن ماجه برقم (٢٥٥٠) .

(١٢) في ف : « النهي عن » . (١٣) ، (١٤) زيادة من ف ، أ . (١٥) في ف : « فإنه لا » .

«تَعَاوُوا الْخُدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ ، فَمَا بَلَغْنِي مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجَبَ» (١) . وفى الحديث الآخر : «لَحْدٌ يَقَامُ فِي الْأَرْضِ ، خَيْرٌ لِأَهْلِهَا مِنْ أَنْ يُمَطَّرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا» (٢) .

وقيل : المراد : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ : فلا تقيموا الحد كما ينبغي ، من شدة الضرب الزاجر عن المأثم ، وليس المراد الضرب المبرح .

قال عامر الشعبي : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ قال : رحمة (٣) فى شدة الضرب . وقال عطاء : ضرب ليس بالمبرح . وقال سعيد بن أبى عروبة ، عن حماد بن أبى سليمان : يجلد (٤) القاذف وعليه ثيابه ، والزانى تخلع ثيابه ، ثم تلا : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ ، فقلت : هذا فى الحكم ؟ قال : هذا فى الحكم والجلد - يعنى فى إقامة الحد ، وفى شدة الضرب .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا عمرو بن عبد الله الأودى (٥) ، حدثنا وكيع ، عن نافع ، [عن] (٦) ابن عمر ، عن (٧) ابن أبى مليكة ، عن عبيد الله (٨) بن عبد الله بن عمر : أن جارية لابن عمر زنت ، فضرب رجلها - قال نافع : أراه قال : وظهرها - قال : قلت : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ ، قال : يا بنى ، ورأيتنى أخذتنى بها رافة ؟ إن الله لم يأمرنى أن أقتلها ، ولا أن أجعل جلدها فى رأسها ، وقد أوجعت حيث ضربت (٩) .

وقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أى : فافعلوا ذلك : أقيموا الحدود على من زنى ، وشددوا عليه الضرب ، ولكن ليس مبرحاً ؛ ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك . وقد جاء فى المسند عن بعض الصحابة أنه قال : يا رسول الله ، إنى لأذبح الشاة وأنا أرحمها ، فقال : « ولك فى ذلك أجر » (١٠) .

وقوله : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ : هذا فيه تنكيل للزانيين إذا جُلدا بحضرة الناس ، فإن ذلك يكون أبلغ فى زجرهما ، وأنجع فى ردعهما ، فإن فى ذلك توبيخاً وفضيحة إذا كان الناس حضورا .

قال الحسن البصرى فى قوله : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعنى : علانية . ثم قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، الطائفة : الرجل فما فوقه .

وقال مجاهد : الطائفة : رجل إلى الألف . وكذا قال عكرمة ؛ ولهذا قال الإمام أحمد : إن الطائفة تصدق على واحد .

وقال عطاء بن أبى رباح : اثنان . وبه قال إسحاق بن راهويه . وكذا قال سعيد بن جبير : ﴿ طَائِفَةٌ

(١) رواه أبو داود فى السنن برقم (٤٣٧٦) والنسائى فى السنن (٧٠ / ٨) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

(٢) المسند (٣٦٢ / ٢) والنسائى فى السنن (٧٥ / ٨) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٣) فى ف ، أ : « رحمة الله » . (٤) فى أ : « نجلد » . (٥) فى ف : « الأزدى » ، وفى أ : « الأزمى » .

(٦) زيادة من ج ، أ . (٧) فى ف ، أ : « وعن » . (٨) فى ف ، أ : « عبد الله » .

(٩) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٨ / ٥٢) من طريق نافع عن ابن عمر فذكره .

(١٠) المسند (٤٣٦ / ٣) من حديث قرة المزنى ، رضى الله عنه .

مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ قال : يعنى : رجلين فصاعدا .

وقال الزهرى : ثلاثة نفر فصاعدا .

وقال عبد الرزاق : حدثني ابن وهب ، عن الإمام مالك فى قوله : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : الطائفة : أربعة نفر فصاعدا ؛ لأنه لا يكون شهادة فى الزنا دون أربعة شهداء فصاعداً . وبه قال الشافعى .

وقال ربيعة : خمسة . وقال الحسن البصرى : عشرة . وقال قتادة : أمر الله أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ، أى : نفر من المسلمين ؛ ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالا .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا يحيى بن عثمان ، حدثنا بَقِيَّةُ قال : سمعت نصر بن علقمة فى قوله : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : ليس ذلك للفضيحة ، إنما ذلك ليدعى الله تعالى لهما بالتوبة والرحمة .

﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

هذا خبر من الله تعالى بأن الزانى لا يَطَأُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً . أى : لا يطاوعه على مراده من الزنا إِلَّا زَانِيَةً عَاصِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ، لا ترى حرمة ذلك ، وكذلك : ﴿ الزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ أى : عاص بزناه ، ﴿ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ : لا يعتقد تحريمه .

قال سفيان الثورى ، عن حبيب بن أبى عمرة ، عن سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما : ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾ قال : ليس هذا بالنكاح ، إنما هو الجماع ، لا يزنى بها إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ .

وهذا إسناد صحيح عنه ، وقد روى عنه من غير وجه أيضا . وقد روى عن مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبیر ، وعروة بن الزبير ، والضحاك ، ومكحول ، ومقاتل بن حيان ، وغير واحد ، نحو ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : تعاطيه والتزويج بالبغايا ، أو تزويج العفاف بالفجار من الرجال .

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا قيس ، عن أبى حصين ، عن سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس : ﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : حرّم الله الزنا على المؤمنين .

وقال قتادة ، ومقاتل بن حيان : حرّم الله على المؤمنين نكاح البغايا ، وتقدّم فى ذلك فقال : ﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وهذه الآية كقولہ تعالی : ﴿ مُحْصَنَاتٌ غَيْرُ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ [النساء : ٢٥] ، وقوله : ﴿ مُحْصَنِينَ غَيْرُ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ الآية [المائدة : ٥] . ومن هاهنا ذهب الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله ، إلى أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغى ما دامت

كذلك حتى تستتاب ، فإن تابت صح العقد عليها وإلا فلا ، وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح ، حتى يتوب توبة صحيحة ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عارم ^(١) ، حدثنا معتمر بن سليمان قال : قال أبي : حدثنا الحضرمي ، عن القاسم بن محمد ، عن عبد الله بن عمرو ، رضى الله عنهما ، أن رجلا من المسلمين استأذن رسول الله ﷺ في امرأة - يقال لها : « أم مهزول » - كانت تسافح ، وتشتري له أن تنفق عليه - قال : فاستأذن رسول الله ﷺ - أو : ذكر له أمرها - قال : فقرأ عليه رسول الله ﷺ ^(٢) : ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٣) .

وقال النسائي : أخبرنا عمرو بن علي ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، عن الحضرمي ، عن القاسم بن محمد ، عن عبد الله بن عمرو قال : كانت امرأة - يقال لها : « أم مهزول » - وكانت تسافح ، فأراد رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ^(٤) أن يتزوجها ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٥) .

[و] ^(٦) قال الترمذي : حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا روح بن عبادة بن عبيد الله بن الأخنس ، أخبرني عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده قال : كان رجل يقال له « مرثد بن أبي مرثد » ، وكان رجلا يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة . قال : وكانت امرأة بغى ^(٧) بمكة يقال لها « عناق » ، وكانت صديقة له ، وأنه واعد ^(٨) رجلا من أسارى مكة يحمله . قال : فجنثت حتى انتهت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة ، قال : فجاءت « عناق » فأبصرت سواد ظلي تحت الحائط ، فلما انتهت إلى عرفتي ^(٩) ، فقالت : مرثد ؟ فقلت : مرثد . فقالت : مرحباً وأهلاً ، هلم فبت عندنا الليلة . قال : فقلت ^(١٠) : يا عناق ، حرم الله الزنا . فقالت ^(١١) : يا أهل الخيام ، هذا الرجل يحمل أسراكم . قال : فتبعني ثمانية ودخلت الحندمة ^(١٢) ، فأنتهت إلى غار - أو : كهف - فدخلت فيه ^(١٣) ، فجاؤوا حتى قاموا على رأسى فبالوا ، فظل بولهم على رأسى ، فأعماهم الله عنى - قال : ثم رجعوا ، فرجعت إلى صاحبي فحملته ، وكان رجلا ثقيلا ، حتى انتهت إلى الإذخر ، ففككت عنه أكبله ^(١٤) ، فجعلت أحمله ويعينني ، حتى أتيت به ^(١٥) المدينة ، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، أنكح عناقا ؟ أنكح عناقا ؟ - مرتين - فأمسك رسول الله ﷺ ، فلم يرد على شيئا ، حتى نزلت : ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، فقال رسول الله ﷺ : « يا مرثد ، ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً »

(١) في ف ، أ : « عارم بن الفضل » .

(٢) المسند (١٥٩ / ٢) .

(٣) في ف : « النبي » .

(٤) النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٣٥٩) .

(٥) زيادة في ف ، أ . (٦) في أ : « تغنى » . (٧) في ف : « وعد » . (٨) في ف ، أ : « عرفت » .

(٩) في ف : « قلت » . (١٠) في ف : « قالت » . (١١) في ف ، أ : « الحديقة » . (١٢) في أ : « به » .

(١٣) في أ : « أكبله » . (١٤) في ف : « قدمت » .

[وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ] ^(١) ، فلا تنكحها . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وقد رواه أبو داود والنسائي ، فى كتاب النكاح من سنتهما ^(٢) ، من حديث عبيد الله بن الأخنس ، به ^(٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا مُسَدَّدُ أبو الحسن ، حدثنا عبد الوارث ، عن حبيب المعلم ، حدثنى عمرو بن شعيب ، عن سعيد المَقْبَرِيِّ ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ينكح الزانى المجلود إلا مثله » .

وهكذا أخرجه أبو داود فى سننه عن مسدد وأبى معمر - عبد الله بن عمرو - كلاهما عن عبد الوارث ، به ^(٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب ، حدثنا عاصم بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، عن أخيه عمر بن محمد ، عن عبد الله بن يسار - مولى ابن عمر - قال : أشهد لسمعت سلماً يقول : قال عبد الله : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يدخلون الجنة ، ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، والمرأة المترجلة - المتشبهة بالرجال - والديوث . وثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، ومُدمِن الخمر ، والمنان بما أعطى » .

ورواه النسائي عن عمرو بن على الفلاس ، عن يزيد بن زريع ، عن عُمر بن محمد العُمَرى ، عن عبد الله بن يسار ، به ^(٥) .

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا يعقوب ، حدثنا أبى ، حدثنا الوليد بن كثير ، عن قُطْن بن وهب ، عن عويمر بن الأجدع ، عن حدثه ، عن سالم بن عبد الله بن عمر قال : حدثنى عبد الله ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة حرم الله عليهم الجنة : مدمن الخمر ، والعاق ، والديوث الذى يقر فى أهله الخبث » ^(٦) .

وقال أبو داود الطيالسى فى مسنده : حدثنا شعبة ، حدثنى رجل - من آل سهيل بن حنيف - عن محمد بن عَمَّار ، عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة ديوث » ^(٧) . يستشهد به لما قبله من الأحاديث .

وقال ابن ماجه : حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا سلام بن سَوَّار ، حدثنا كثير بن سليم ، عن الضحَّاك بن مَزَاحِم : سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله ﷺ [يقول] ^(٨) : « من أراد أن يلقى الله طاهراً مطَّهَّراً ، فليتزوج الحرائر » .

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) سنن الترمذى برقم (٣١٧٧) وسنن أبى داود برقم (٢٠٥١) وسنن النسائي (٦ / ٦٦) .

(٣) سنن أبى داود برقم (٢٠٥٢) .

(٤) المسند (٢ / ١٣٤) وسنن النسائي (٨ / ٨٠) .

(٥) المسند (٢ / ٦٩) وقال الهيثمى فى المجمع (٨ / ١٤٧) : « فيه راوٍ لم يسم » .

(٦) مسند الطيالسى برقم (٦٤٢) .

(٧) زيادة من ف ، أ .

فى إسناده ضعف (١) .

قال الإمام أبو نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهري فى كتاب « الصحاح فى اللغة » : الديوث القنْذُع وهو الذى لا غيرة له (٢) .

فأما الحديث الذى رواه الإمام أبو عبد الرحمن النسائى فى كتاب « النكاح » من (٣) سننه : أخبرنا محمد بن إسماعيل بن عُلَيَّة ، عن يزيد بن هارون ، عن حماد بن سلمة وغيره ، عن هارون ابن رثاب ، عن عبد الله بن عبيد بن عمير - وعبد الكريم ، عن عبد الله بن عبيد بن عمير ، عن ابن عباس - عبد الكريم رفعه إلى ابن عباس ، وهارون لم يرفعه - قالوا : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : إن عندى امرأة [هى] (٤) من أحب الناس إلى (٥) ، وهى لا تمنع يد لأمس . قال : « طلقها » . قال : لا صبر لى عنها . قال : « استمتع بها » .

ثم قال النسائى : هذا الحديث غير ثابت ، وعبد الكريم ليس بالقوى ، وهارون أثبت منه ، وقد أرسل الحديث وهو ثقة ، وحديثه أولى بالصواب من حديث عبد الكريم (٦) .

قلت : وهو ابن أبى المخارق البصرى المؤدب تابعى ضعيف الحديث ، وقد خالفه هارون بن رثاب ، وهو تابعى ثقة من رجال مسلم ، فحديثه المرسل أولى كما قال النسائى . لكن قد رواه النسائى فى كتاب « الطلاق » ، عن إسحاق بن راهويه ، عن النضر بن شُمَيْل (٧) ، عن حماد بن سلمة ، عن هارون بن رثاب ، عن عبد الله بن عبيد بن عمير ، عن ابن عباس مسندا ، فذكره بهذا الإسناد ، رجاله على شرط مسلم ، إلا أن النسائى بعد روايته له قال : « وهذا خطأ ، والصواب مرسل » (٨) . ورواه غير النضر على الصواب .

وقد رواه النسائى أيضا وأبو داود ، عن الحسين بن حُرَيْث ، أخبرنا الفضل بن موسى ، أخبرنا الحسين بن واقد ، عن عُمارة بن أبى حفصة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس عن النبى ﷺ فذكره . وهذا إسناد جيد (٩) .

وقد اختلف الناس فى هذا الحديث ما بين مُضَعَّف له ، كما تقدم عن النسائى ، وكما قال الإمام أحمد : هو حديث منكر .

وقال ابن قتيبة : إنما أراد أنها سخية لا تمنع سائلا . وحكاها النسائى فى سننه عن بعضهم فقال : وقيل : « سخية تعطى » ، وردّ هذا بأنه لو كان المراد لقال : لا تردّ يد ملتمس .

(١) سنن ابن ماجه برقم (١٨٦٢) وجه ضعف إسناده ؛ لأن فيه كثير بن سليم ، وهو ضعيف ، وسلام هو ابن سليمان بن سوار المدائنى ، قال ابن عدى : « عنده مناكير » ، وقال العقيلي : « فى حديثه مناكير » ، قال ذلك البوصيرى فى مصباح الزجاجة (٧٣/٢) .

(٢) الصحاح (١ / ٢٨٢) .

(٣) فى ف ، أ : « فى » . (٤) زيادة من ف ، أ ، والنسائى . (٥) فى ف : « لى » .

(٦) سنن النسائى (٦ / ٦٧) .

(٧) فى ف ، أ : « إسماعيل » .

(٨) سنن النسائى (٦ / ١٧٠) .

(٩) سنن النسائى (٦ / ١٦٩) .

وقيل : المراد أن سجيتها لا تَرُدُّ يد لامس ، لا أن المراد أن هذا واقع منها ، وأنها تفعل الفاحشة؛ فإن رسول الله ﷺ لا يأذن في مصاحبة من هذه صفتها . فإن زوجها - والحالة هذه - يكون ديوثا ، وقد تقدم الوعيد على ذلك . ولكن لما كانت سجيتها هكذا ليس فيها ممانعة ولا مخالفة لمن أَرادها لو خلا بها أحد ، أمره رسول الله ﷺ بفراقها . فلما ذكر أنه يحبها أباح له البقاء معها ؛ لأن محبته لها محققة ، ووقوع الفاحشة منها متوهم ^(١) ، فلا يُصار إلى الضرر العاجل لتوهم الآجل ، والله ، سبحانه وتعالى ، أعلم .

قالوا : فأما إذا حصلت توبة فإنه يحل التزويج ، كما قال الإمام أبو محمد بن أبي حاتم ، رحمه الله :

حدثنا أبو سعيد الأشجّ ، حدثنا أبو خالد ، عن ابن أبي ذئب ، قال : سمعت [شعبة] ^(٢) - مولى ابن عباس ، رضى الله عنه - قال : سمعت ابن عباس وسأله رجل قال ^(٣) : إني كنت ألم بامرأة آتى منها ما حرّم الله ، عز وجل ، علىّ ، فرزق الله ، عز وجل من ذلك توبة ، فأردت أن أتزوجها ، فقال أناس : إن الزانى لا ينكح إلا زانية . فقال ابن عباس : ليس هذا فى هذا ، انكحها فما كان من إثم فعلى .

وقد ادعى طائفة آخرون من العلماء أن هذه الآية منسوخة ، قال ابن أبي حاتم :

حدثنا أبو سعيد الأشجّ ، حدثنا أبو خالد ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب قال : ذكر عنده ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرَكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ ، قال : كان يقال : نسختها [الآية] ^(٤) التى بعدها : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ ﴾ [النور : ٣٢] ، قال : كان يقال الأيامى من المسلمين .

وهكذا رواه الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب « الناسخ والمنسوخ » له ، عن سعيد بن المسيب . ونص على ذلك أيضا الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى ، رحمه الله .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ^(٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ .

هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة ، وهى الحرة البالغة العفيفة ، فإذا كان المقدوف رجلا فكذلك يجلد قاذفه أيضا ، وليس فى هذا نزاع بين العلماء . فأما إن أقام القاذف بينة على صحة ما قاله ، ردّ عنه الحد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ، فأوجب على القاذف إذا لم يقم بينة على

(٢) زيادة من ف ، أ .

(٤) زيادة من ف ، أ .

(١) فى أ : « يتوهم » .

(٣) فى أ : « فقال » .

صحة ما قاله ثلاثة أحكام :

أحدها : أن يجلد ثمانين جلدة .

الثانى : أنه ^(١) ترد شهادته دائما .

الثالث : أن يكون فاسقاً ليس بعدل ، لا عند الله ولا عند الناس .

ثم قال تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، اختلف العلماء فى هذا الاستثناء : هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط فترفع التوبة الفسق فقط ، ويبقى مردود الشهادة دائما وإن تاب ، أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة ؟ أما الجلد فقد ذهب وانقضى ، سواء تاب أو أصر ، ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف - فذهب الإمام مالك والشافعى وأحمد بن حنبل إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته ، وارتفع عنه حكم الفسق . ونص عليه سعيد بن المسيب - سيد التابعين - وجماعة من السلف أيضاً .

وقال الإمام أبو حنيفة : إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط ، فيرتفع الفسق بالتوبة ، ويبقى مردود الشهادة أبداً . ومن ذهب إليه من السلف القاضى - شريح ، وإبراهيم النخعى ، وسعيد ابن جبير ، ومكحول ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ^(٢) .

وقال الشعبى والضحاك : لا تقبل شهادته وإن تاب ، إلا أن يعترف على نفسه بأنه قد قال البهتان ، فحينئذ تقبل شهادته ، والله أعلم .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ^(٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ^(٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ^(٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ^(٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ^(١٠) ﴾ .

هذه الآية الكريمة فيها فرج للأزواج وزيادة مخرج ، إذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه إقامة البينة ، أن يلاعنها ، كما أمر الله ، عز وجل ^(٣) ، وهو أن يحضرها إلى الإمام ، فيدعى عليها بما رماها به ، فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله فى مقابلة أربعة شهداء ، ﴿ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أى : فيما رماها به من الزنا ، ﴿ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ . فإذا قال ذلك ، بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعى وطائفة كثيرة من العلماء ، وحرمت عليه أبداً ، ويعطى مهرها ، ويتوجه عليها حد الزنا ، ولا يدرأ عنها إلا أن تلاعن ، فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، أى : فيما رماها به ، ﴿ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . ولهذا قال : ﴿ وَيَدْرَأُ ﴾

(١) فى أ : « الله تعالى » .

(٢) فى ف : « جابر » .

(٣) فى ف : « أن » .

عَنْهَا الْعَذَابُ ﴿١﴾ يعنى : الحد ، ﴿٢﴾ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣﴾ . فخصها بالغضب ، كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور ، وهى تعلم صدقه فيما رماها به . ولهذا كانت الخامسة فى حقها أن غضب الله عليها . والمغضوب عليه هو الذى يعلم الحق ثم يحيد عنه .

ثم ذكر تعالى لطفه بخلقه ، ورأفته بهم ، وشرعه ^(١) لهم الفرج والمخرج من شدة ما يكون فيه من الضيق ، فقال : ﴿٤﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴿٥﴾ أى : لخرجتم ^(٢) ولشق عليكم كثير من أموركم ، ﴿٦﴾ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ ﴿٧﴾ [أى] ^(٣) : على عباده - وإن كان بعد الحلف والأيمان المغلظة - ﴿٨﴾ حَكِيمٌ ﴿٩﴾ فيما يشرعه ^(٤) ويأمر به وفيما ينهى عنه .

وقد وردت الأحاديث بمقتضى العمل بهذه الآية ، وذكر سبب نزولها ، وفيمن نزلت فيه من الصحابة ، فقال الإمام أحمد :

حدثنا يزيد ، أخبرنا عباد بن منصور عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿١٠﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ﴿١١﴾ قال سعد بن عباد - وهو سيد الأنصار - : هكذا أنزلت يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « يا معشر الأنصار ، ألا تسمعون ما يقول سيدكم ؟ » قالوا : يا رسول الله ، لا تلمه فإنه رجل غيور ، والله ما تزوج امرأة قط [إلا بكرًا ، وما طلق امرأة له قط] ^(٥) فاجترأ رجل منا أن يتزوجها ، من شدة غيظه . فقال سعد : والله - يا رسول الله - إنى لأعلم أنها حق ، وأنها من الله ، ولكنى قد تعجبت أنى لو وجدت لكاعًا قد تفخذها رجل ، لم يكن لى أن أهيج به ولا أحرکه حتى أتى بأربعة شهداء ، فوالله لا أتى بهم حتى يقضى حاجته . قال : فما لبثوا إلا يسيرًا حتى جاء هلال بن أمية - وهو أحد الثلاثة الذين تبى عليهم - فجاء من أرضه عشاء ، فوجد عند أهله رجلا ، فرأى بعينه ، وسمع بأذنيه ، فلم يهيج به حتى أصبح ، فغدا على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى جئت أهلى عشاء ، فوجدت عندها رجلا ، فرأيت بعينى ، وسمعت بأذنى . فكره رسول الله ﷺ ما جاء به ، واشتد عليه ، واجتمعت الأنصار فقالوا ^(٦) : قد ابتلينا بما قال سعد بن عباد ، الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ، ويبطل شهادته فى المسلمين ^(٧) . فقال هلال : والله إنى لأرجو أن يجعل الله لى منها مخرجًا . وقال هلال : يا رسول الله ، إنى قد أرى ما اشتد عليك مما ^(٨) جئت به ، والله يعلم إنى لصادق . فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه ، إذا أنزل الله على رسول الله ﷺ الوحي - وكان إذا نزل عليه الوحي عرفوا ذلك ، فى تَرَبُّدٍ وَجْهِهِ ^(٩) . يعنى : فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي - فنزلت : ﴿١٠﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ ﴿١١﴾ الآية ، فسرى عن رسول الله ﷺ ، فقال : « أبشر يا هلال ، قد جعل الله لك فرجًا ومخرجًا » . فقال هلال : قد كنت أرجو ذلك من ربى ، عز وجل . فقال رسول الله ﷺ : « أرسلوا إليها » .

(١) فى ف ، أ : « فى شرعه » . (٢) فى ف : « خرجتم » . (٣) زيادة من ف ، أ .

(٤) فى أ : « فيما شرعه » . (٥) زيادة من ف ، أ ، والمسنَد . (٦) فى ف : « فقالت » .

(٧) فى هـ : « ويبطل شهادته فى الناس » والمثبت من ف ، أ ، والمسنَد . (٨) فى ف : « فيما » .

(٩) فى أ : « جلده » . (١٠) فى ف ، أ : ﴿١٠﴾ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ﴿١١﴾ .

فأرسلوا إليها ، فجاءت ، فتلاها رسول الله ﷺ عليهما ، وذكرهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا . فقال هلال : والله - يا رسول الله - لقد صدقتُ عليها . فقالت : كذب . فقال رسول الله ﷺ : « لاعنوا بينهما » . فقليل لهلال : اشهد . فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، فلما كان في الخامسة قيل له : يا هلال ، اتق الله ، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب . فقال : والله لا يعذبني الله عليها ، كما لم يجلدني عليها . فشهد في الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ثم قيل [لها : اشهدى أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، فلما كانت الخامسة قيل ^(١) لها : اتقى الله ، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب . فتلكأت ساعة ، ثم قالت : والله لا أفضح قومي . فشهدت في الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين . ففرق رسول الله ﷺ بينهما ، وقضى ألا يدعى ولدها لأب ولا يرمى ولدها ، ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد ، وقضى ألا [بيت لها عليه ولا] ^(٢) قوت لها ، من أجل أنهما يتفرقان من غير طلاق ، ولا متوفى عنها . وقال : « إن جاءت به أصيَّهَب أريَّسَح حَمَش الساقين فهو لهلال ، وإن جاءت به أورك جعداً جُماليّاً خدلَج الساقين سابغ الأليتين ، فهو الذي رميت به » . فجاءت به أورك جعداً جُماليّاً خدلَج الساقين سابغ الأليتين ، فقال رسول الله ﷺ : « لولا الأيمان لكان لى ولها شأن » .

قال عكرمة : فكان بعد ذلك أميراً على مصر ، وكان يدعى لأمه ولا يدعى لأب .
ورواه أبو داود عن الحسن بن عليّ ، عن يزيد ^(٣) بن هارون ، به نحوه مختصراً ^(٤) .

ولهذا الحديث شواهد كثيرة في الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة ، فمنها ما قال البخاري :

حدثني محمد بن بشار ، حدثنا ابن أبي عديّ ، عن هشام بن حسان ، حدثني عكرمة ، عن ابن عباس ؛ أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحّماء ، فقال رسول الله ﷺ ^(٥) : « البينة أوحد في ظهرك » . فقال : يا رسول الله ، إذا أرى ^(٦) أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة ؟ فجعل النبي ﷺ يقول : « البينة وإلا حد في ظهرك » . فقال هلال : والذي بعثك بالحق إني لصادق ، وليتزلزل ^(٧) الله ما يُبرئ ظهري ^(٨) من الحد . فنزل جبريل ، وأنزل ^(٩) عليه : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ ، فقرأ حتى بلغ : ﴿ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . فانصرف النبي ﷺ ، فأرسل إليهما ، فجاء هلال فشهد ، والنبي ﷺ يقول : « الله يشهد أن أحكما كاذب ، فهل منكما تائب ؟ » ثم قامت فشهدت ، فلما كانت عند الخامسة وقَفُوها وقالوا : إنها مُوجبة . قال ابن عباس : فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ، ثم قالت : لا أفضح قومي سائر اليوم . فمضت ، فقال النبي ﷺ : « أبصروها ، فإن جاءت به أكحل العينين ، سابغ الأليتين ، خدلَج الساقين ، فهو لشريك بن سحّماء » . فجاءت به كذلك ، فقال النبي ﷺ : « لولا ما مضى من كتاب الله ، لكان لى ولها شأن » .

(١) ، (٢) زيادة من ف ، أ ، والمُسند . (٣) في ف : « زيد » .

(٤) المُسند (١ / ٢٣٨) وسنن أبي داود برقم (٢٢٥٦) .

(٥) في ف ، أ : « النبي » . (٦) في ف ، أ : « رأى » . (٧) في أ : « وليتزلزل » .

(٨) في ف : « ما يطهرني » . (٩) في ف : « فأنزل » .

انفرد به البخارى من هذا الوجه ^(١) ، وقد رواه من غير وجه ، عن ابن عباس وغيره .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن منصور الزياى ^(٢) ، حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا صالح - وهو ابن عمر - حدثنا عاصم - يعنى : ابن كُليب - عن أبيه ، حدثنى ابن عباس قال : جاء رجل إلى رسول الله ، فرمى امرأته برجل ، فكره ذلك رسول الله ﷺ ، فلم يزل يُردّده حتى أنزل الله : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ [إِلَّا أَنْفُسُهُمْ] ^(٣) ﴾ ، [فقرأ] ^(٤) حتى فرغ من الآيتين ، فأرسل إليهما فدعاهما ، فقال : « إن الله ، عزّ وجل ، قد أنزل فيكما » . فدعا الرجل فقرأ عليه ، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين . ثم أمر به فأمسك على فيه فوعظه ، فقال له : « كل شيء أهون عليه من لعنة الله » . ثم أرسله فقال : ﴿ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ، ثم دعا بها ، فقرأ عليها ، فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، ثم أمر بها فأمسك على فيها فوعظها ، وقال : « ويحك . كل شيء أهون من غضب الله » . ثم أرسلها ، فقالت : ﴿ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . فقال رسول الله ﷺ : « أما والله لأقضين بينكما قضاء فصلا » . قال : فولدت ، فما رأيت مولوداً بالمدينة أكثر غاشية منه ، فقال : « إن جاءت به لكذا وكذا فهو كذا ، وإن جاءت به لكذا وكذا فهو لكذا » . فجاءت به يشبه الذى قُذفت به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا عبد الملك بن أبى سليمان قال : سمعت سعيد بن جبّير قال : سئلت عن المتلاعنين أيفرق بينهما - فى إمارة ابن الزبير ؟ فما دريتُ ما أقول ، فقمت من مكاني إلى منزل ابن عمر فقلت : أبا عبد الرحمن ، المتلاعنان أيفرق بينهما ؟ فقال : سبحان الله ، إن أول من سأل عن ذلك فلان بن فلان فقال : يا رسول الله ، أرايت الرجل يرى امرأته على فاحشة فإن تكلم تكلم بأمر عظيم ، وإن سكت سكت على مثل ذلك . فسكت فلم يجبه ، فلما كان بعد ذلك أتاه فقال : الذى سألتك عنه قد ابتليت به . فأنزل الله عز وجل هذه الآيات ^(٥) فى سورة النور : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ ، حتى بلغ : ﴿ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . فبدأ بالرجل فوعظه وذكره ، وأخبره أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، فقال : والذى بعثك بالحق ما كذبتك . ثم ثنى بالمرأة فوعظها وذكرها ، وأخبرها أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، فقالت : والذى بعثك بالحق ^(٦) ، إنه لكاذب . قال : فبدأ بالرجل ، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ثم ثنى بالمرأة فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ، ثم فرّق بينهما .

رواه النسائى فى التفسير ، من حديث عبد الملك بن أبى سليمان ، به ^(٧) . وأخرجاه فى الصحيحين من حديث سعيد بن جبّير ، عن ابن عباس ^(٨) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن حماد ، حدثنا أبو عوامة ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن

(١) صحيح البخارى برقم (٤٧٤٧) .

(٢) زيادة من أ . (٣ ، ٤)

(٣) فى أ : « الرمادى » .

(٤) زيادة من ف ، أ . فى ف ، أ : « والذى بعثك بالحق ما كذبتك » .

(٥) فى أ : « الآية » .

(٦) زيادة من ف ، أ . والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٥٧) .

(٧) المسند (٢ / ١٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٥٧) .

(٨) صحيح البخارى برقم (٥٣١٢) وصحيح مسلم برقم (١٤٩٣) .

علقمة ، عن عبد الله قال : كنا جلوساً عشية الجمعة في المسجد ، فقال رجل من الأنصار : أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً فقتله قتلتموه ، وإن تكلم جلدتموه ، وإن سكت سكت عن غيظ ؟ والله لئن أصبحت صالحاً لأسألن رسول الله ﷺ . قال : فسأله . فقال : يا رسول الله ، إن أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً فقتله قتلتموه ، وإن تكلم جلدتموه ، وإن سكت سكت على غيظ ؟ اللهم احكم . قال : فأنزل آية اللعان ، فكان ذلك الرجل أول من ابتلى به .

انفرد بإخراجه مسلم ، فرواه من طريق ، عن سليمان بن مهران الأعمش ، به (١) .

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا أبو كامل : حدثنا إبراهيم بن سعد ، حدثنا ابن شهاب ، عن سهل بن سعد ، قال : جاء عويمر إلى عاصم بن عدى فقال : سأل رسول الله ﷺ : أرايت رجلاً وجد رجلاً مع امرأته فقتله ، أيقتل به أم كيف يصنع ؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ ، فعاب رسول الله ﷺ المسائل . قال : فلقبه عويمر فقال : ما صنعت ؟ قال : ما صنعت ! إنك لم تأتني بخير ؛ سألت رسول الله ﷺ فعاب المسائل . فقال عويمر : والله لآتين رسول الله ﷺ فلا سأله . فأتاه فوجده قد أنزل عليه فيهما . قال : فدعا بهما فلاعن بينهما . قال عويمر : لئن انطلقت بها يا رسول الله لقد كذبت عليها . قال : ففارقها قبل أن يأمره رسول الله ﷺ ، فصارت سنة المتلاعنين ، فقال رسول الله ﷺ : « أبصروها ، فإن جاءت به أسحمت أدعج العينين عظيم الألتين ، فلا أراه إلا قد صدق ، وإن جاءت به أحيمرت كأنه وحرّة فلا أراه إلا كاذباً » . فجاءت به على النعت المكروه .

أخرجاه في الصحيحين وبقية الجماعة إلا الترمذى ، من طرق ، عن الزهري ، به (٢) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا إسحاق بن الضيف ، حدثنا النضر بن شميل ، حدثنا يونس بن أبي إسحاق ، عن أبيه ، عن زيد (٣) بن يثيع ، عن حذيفة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ لأبى بكر : « لو رأيت مع أم رومان رجلاً ما كنت فاعلاً به ؟ قال : كنت والله فاعلاً به شراً . قال : « فأنت ياعمر ؟ » . قال : كنت والله فاعلاً ، كنت أقول : لعن الله الأعجز ، وإنه خبيث . قال : فنزلت : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ﴾ .

ثم قال : لا نعلم أحداً أسنده إلا النضر بن شميل ، عن يونس بن أبي إسحاق ، ثم رواه من حديث الثوري عن [أبى] (٤) أبى إسحاق ، عن زيد بن يثيع مرسل ، فالله أعلم (٥) .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا مسلم بن أبى مسلم الجرمي ، حدثنا مخلد بن الحسين ، عن هشام ، عن ابن سيرين ، عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : لأول لعان كان في الإسلام أن شريك بن سحمة قذفه هلال بن أمية بامرأته ، فرفعه إلى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أربعة شهود وإلا فحد في ظهرك » . فقال : يا رسول الله ، إن الله يعلم إنى لصادق ، ولينزلن الله عليك ما يبرئ به ظهري من الجلد . فأنزل الله آية اللعان : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ﴾ إلى آخر الآية . قال : فدعاه النبي ﷺ فقال : « اشهد بالله إنك لمن الصادقين فيما رميتها به من الزنا » فشهد بذلك أربع

(١) المسند (١ / ٤٢١) وصحيح مسلم برقم (١٤٩٥) .

(٢) المسند (٥ / ٣٣٤) وصحيح البخارى برقم (٤٧٤٥) وصحيح مسلم برقم (١٤٩٢) وسنن أبى داود برقم (٢٢٤٥) وسنن النسائي

(١٤٣ / ٦) وسنن ابن ماجه برقم (٢٠٦٦) .

(٣) فى أ : « يزيد » . (٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) مسند البزار برقم (٢٢٣٧) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (٧ / ٧٤) : « رجاله ثقات » .

شهادات ، ثم قال له فى الخامسة : « ولعنة الله عليك إن كنت من الكاذبين فيما رميتها به من الزنا » ، ففعل . ثم دعاها رسول الله ﷺ فقال : « قومى فاشهدى بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماك به من الزنا » . فشهدت بذلك أربع شهادات ، ثم قال لها فى الخامسة : « وغضب الله عليك إن كان من الصادقين فيما رماك به من الزنا » ، فقالت : فلما كانت الرابعة أو الخامسة سكنت سكتة ، حتى ظنوا أنها ستعترف ، ثم قالت : لا أفصح قومى سائر اليوم . فمضت على القول ، ففرق رسول الله ﷺ بينهما ، وقال : « انظروه ، فإن جاءت به جعداً حمش الساقين ، فهو لشريك بن سحماء ، وإن جاءت به أبيض سبطا فضى ^(١) ، العينين فهو لهلال بن أمية » . فجاءت به آدم جعداً حمش الساقين ، فقال رسول الله ﷺ : « لولا ما نزل فيهما من كتاب الله ، لكان لى ولها شأن » ^(٢) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١١) .

هذه العشر الآيات كلها نزلت فى شأن عائشة أم المؤمنين ، رضى الله عنها ، حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية التى غار الله تعالى ^(٣) لها ولنبهه ، صلوات الله وسلامه عليه ، فأنزل [الله عز وجل] ^(٤) براءتها صيانة لعرض الرسول ، عليه أفضل الصلاة والسلام ^(٥) ، فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ ﴾ أى : جماعة منكم ، يعنى : ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة ، فكان المقدم فى هذه اللعنة ^(٦) عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين ، فإنه كان يجمعه ويستوشيه ، حتى دخل ذلك فى أذهان بعض المسلمين ، فتكلموا به ، وجوزه آخرون منهم ، وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر ، حتى نزل القرآن ، وسياق ذلك فى الأحاديث الصحيحة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهرى قال : أخبرنى سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وعلقمة بن وقاص ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، عن حديث عائشة زوج النبى ﷺ ، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، فبرأها الله ، وكلهم قد حدثنى بطائفة من حديثها ، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت اقتصاصاً ، وقد وعيت عن كل واحد منهم الحديث الذى حدثنى ، وبعض حديثهم يصدق بعضاً : ذكروا أن عائشة زوج النبى ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سقراً أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه ، قالت عائشة : فأقرع بيننا فى غزوة غزاهما ، فخرج فيها سهمى ، وخرجت مع رسول الله ﷺ ، وذلك بعدما أنزل الحجاب ، فأنا أحمل فى هودجى وأنزل فيه مسيرنا ، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه وقفل ودنونا من المدينة ، أذن ليلة بالرحيل ، فقممت حين أذنوا بالرحيل ، فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى الرحل فلمست صدرى ، فإذا عقد من جزع ظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدى ، فحبسنى ابتغاؤه . وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بى فحملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب - وهم يحسبون أنى فيه - قالت : وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يهلبهن ولم يغشن اللحم ، إنما يأكلن العلقمة من الطعام . فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ،

(١) فى أ : « قضى قصير » .

(٢) مسند أبى يعلى (٥ / ٢٠٧) ورواه مسلم فى صحيحه برقم (١٤٩٦) من طريق هشام عن محمد ، به .

(٣) فى أ : « جل شأنه » . (٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى أ : « ﷺ » . (٦) فى أ : « العصبه » .

ووجدت عقدى بعدما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فقيمتم منزلى الذى كنت فيه ، وظننت أن القوم سيفقدونى فيرجعون إلى . فبينما أنا جالسة فى منزلى ، غلبتنى عينى فنمت - وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذكوانى قد عرس من وراء الجيش - فادّلع فأصبح عند منزلى ، فرأى سواد إنسان نائم ، فأتانى فعرفنى حين رآنى . وقد كان يرانى قبل أن يضرب على الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى ، فخمّرت وجهى بجلبابى ، واللّه ما كلمنى كلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه ، حتى أناخ راحلته ، فوطئ على يدها فركبتها ، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا مؤخرين فى نحر الظهيرة . فهلك من هلك فى شأنى ، وكان الذى تولى كبره عبد الله بن أبى بن سلول . فقدّمت المدينة فاشتكت حين قدمنا شهرا ، والناس يفيضون فى قول أهل الإفك ، ولا أشعر بشيء من ذلك ، وهو يرينى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ، ثم يقول : « كيف تيكُم ؟ » فذلك يرينى ولا أشعر بالشر ، حتى خرجت بعد ما نَقَهْتُ وخَرَجْتُ معى أم مسطح قبل المناصع - وهو مُتَبَرِّزٌ - ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكُفّ قريبا من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول فى التزّه ، وكنا نتأذى بالكُفّ أن نتخذها فى بيوتنا . فانطلقت أنا وأم مسطح - وهى ابنة أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف ، وأمها ابنة ضخر بن عامر ، خالة أبى بكر الصديق ، وابنها مسطح بن أثانة بن عبّاد بن المطلب - فأقبلت أنا وابنة أبى رهم قبل بيتى حين فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت : « تعس مسطح » . فقلت لها : بشما قلت . تسين رجلا [قد] (١) شهد (٢) بدرا ؟ قالت : أى هتاه ، ألم (٣) تسمعى ما قال ؟ قلت : وماذا قال ؟ فأخبرتني (٤) بقول أهل الإفك ، فازددت مرضاً إلى (٥) مرضى . فلما رجعت إلى بيتى فدخل على رسول الله ﷺ فسلم ، ثم قال : « كيف تيكُم ؟ » قلت : أتأذن لى أن أتى أبوى ؟ - قالت : وأنا حيثئذ أريد أن أتقن الخبر من قبلهما - فأذن لى رسول الله ﷺ ، فجئت أبوى فقلت لأمى : يا أمّاه ، ما يتحدث الناس ؟ فقالت : أى بُنية (٦) ، هونئى عليك ، فواللّه لقلما كانت (٧) امرأة قطّ وضيئة ، عند رجل يحبها ، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها . قالت : فقلت : سبحان الله أوقد تحدث الناس بهذا ؟ قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت ، لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكى . فدعا رسول الله ﷺ علياً (٨) ، وأسامة بن زيد حين استلبت الوحى ، يستشيرهما فى فراق أهله ، قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله ، وبالذى يعلم فى نفسه له من الود ، فقال : يا رسول الله ، هم أهلك ، ولا نعلم إلا خيرا . وأما على بن أبى طالب فقال : لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدّقك . الخبر . قالت (٩) : فدعا رسول الله ﷺ بريرة ، فقال : « أى بريرة ، هل رأيت من شيء يرريك من عائشة ؟ » فقالت له بريرة : والذى بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قطّ أغمصه عليها ، أكثر من أنها جارية حديثة السن ، تنام عن عجين أهلها ، فتأتى الداجن فتأكله ، فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أبى بن سلول . قالت : فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر : « يا معشر المسلمين ، مَنْ يعذرني من رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى ، فواللّه ما علمت على أهلى إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ،

(٣) فى ف : « أولم » .

(٢) فى أ : « شاهد » .

(١) زيادة من ف ، أ ، والمسند .

(٦) فى ف ، أ : « يا بنية » .

(٥) فى أ : « على » .

(٤) فى ف ، أ : « وماذا قال ؟ قالت : فأخبرتني » .

(٩) فى ف : « قال » .

(٨) فى المسند : « على بن أبى طالب » .

(٧) فى ف : « ما كانت » .

وما كان يدخل على أهلى إلا معى . فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال : أنا أعذرک منه يا رسول الله ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج ، أمرتنا ففعلنا أمرک . قالت : فقام سعد بن عبادة - وهو سيد الخزرج ، وكان رجلاً صالحاً ، ولكن احتملته الحمية - فقال لسعد بن معاذ : لعمر الله لا تقتله^(١) ، ولا تقدر على قتله . فقام أسيد بن حضير - وهو ابن عم سعد بن معاذ - فقال لسعد بن عبادة : كذبت ! لعمر الله^(٢) لنقتله ، فإنک منافق تجادل عن المنافقين . فتشاور الحیان الأوس والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا ، ورسول الله ﷺ [قائم على المنبر . فلم يزل رسول الله ﷺ]^(٣) يُخَفِّضُهُمْ حتى سكتوا وسكت رسول الله ﷺ ، قالت : وبكى يومئذ ذلك ، لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، وأبوای يظنان أن البكاء فالتى كبدي . قالت : فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكى ، استأذنت على امرأة من الأنصار ، فأذنت لها ، فجلست تبكى معى ، فبينما نحن على ذلك^(٤) ، إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس - قالت : ولم يجلس عندي منذ قيل [لى]^(٥) ما قيل ، وقد لبث شهراً لا يُوحى إليه فى شأنى شيء - قالت : فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ، ثم قال : أما بعد يا عائشة ، فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئک الله ، وإن كنت أَلَمَمْتَ بذنب فاستغفرى الله ثم توبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب ، تاب الله عليه . قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قَلَصَ دمعى حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت^(٦) لأبى : أجب عنى رسول الله ﷺ . فقال : والله ما أدرى ما أقول للرسول . فقلت لأمى : أجبى عنى رسول الله . فقالت : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله . قالت : فقلت - وأنا جارية حديثة السن ، لا أحفظ^(٧) كثيراً من القرآن - : [إنى]^(٨) والله لقد عرفت أنکم قد سمعتم بهذا ، حتى استقر^(٩) فى أنفسکم وصدقتم به ، ولكن^(١٠) قلت لکم إنى بريئة - والله يعلم إنى بريئة - لا تصدقونى [بذلك . ولئن اعترفت لکم بأمر والله عز وجل يعلم أنى بريئة تصدقونى]^(١١) ، وإنى والله ما أجد لى^(١٢) ولکم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : ١٨] . قالت : ثم تحولت فاضطجعت على فراشى ، قالت : وأنا والله حينئذ أعلم أنى بريئة ، وأن الله مُبرئى براءتى ، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وحى يتلى ، ولشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله فى بأمر يتلى . ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها . قالت : فوالله ما رام رسول الله ﷺ من مجلسه ، ولا خرج من أهل البيت أحد ، حتى أنزل الله على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحى ، حتى إنه لينحدر منه مثل الحُمَان من العرق فى اليوم الشاتى ، من ثقل القول الذى أنزل عليه . قالت^(١٣) : فلما سُرِّى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، كان أول كلمة تكلم بها أن قال : «أبشرى يا عائشة ، أما الله^(١٤) فقد برأك^(١٥)» . فقالت لى أمى : قومى إليه . فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمداً إلا الله عز وجل ، هو الذى أنزل براءتى^(١٦) ، وأنزل الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ ﴾ عشر آيات . فأنزل الله هذه الآيات براءتى . قالت : فقال أبو بكر ، رضى الله عنه - وكان ينفق على مسطح لقربته منه وفقره - : والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذى قال لعائشة . فأنزل الله عز

(١) فى ف : « لعمر الله لنقتله » . (٢) فى ف : « والله » . (٣) زيادة من ف ، أ ، والمُسند .

(٤) فى ف ، أ : « كذلك » . (٥) زيادة من ف ، أ ، والمُسند . (٦) فى ف ، أ : « قلت » .

(٧) فى ف ، أ : « لا أقرا » . (٨) زيادة من ف ، أ ، والمُسند . (٩) فى ف ، أ : « استقرت » .

(١٠) فى ف : « وإن » . (١١) زيادة من ف ، أ ، والمُسند . (١٢) فى ف : « والله إنى لا أجد لى » .

(١٣) فى ف : « ذلك » . (١٤) فى ف ، أ : « والله » . (١٥) فى ف ، أ : « فقد برأك الله » .

(١٦) فى أ : « هو الذى برأنى » .

وجل : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولَ الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [النور : ٢٢] ، فقال أبو بكر (١) : والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ، فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه . وقال : لا أنزعها منه أبداً .

قالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش - زوج النبي ﷺ - عن أمرى : يا زينب ، ما علمت ، أو : ما رأيت [أو ما بلغك] (٢) ؟ فقالت : يا رسول الله ، أحمى سمعى وبصرى ، والله ما علمت إلا خيراً . قالت عائشة : وهى التى كانت تُسَامِنى من أزواج النبي ﷺ (٣) ، فعصمها الله تعالى بالورع . وطَفَقَتْ أختها حَمْنَةُ بنت جحش تُحارب لها ، فهلكت فيمن هلك .

قال ابن شهاب : فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط .

أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما ، من حديث الزهرى (٤) . وهكذا رواه ابن إسحاق ، عن الزهرى كذلك ، قال : وحدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه ، عن عائشة . وحدثنى عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصارى ، عن عمرة ، عن عائشة (٥) بنحو (٦) ما تقدم ، والله أعلم (٧) .

ثم قال البخارى : وقال أبو أسامة ، عن هشام بن عروة قال : أخبرنى أبى ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : لما ذُكر من شأنى الذى ذُكر وما علمت به ، قام رسول الله ﷺ فى خطيبا ، فتشهد فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : « أما بعد ، أشيروا علىّ فى أناس أبتوا أهلى ، وأيم الله ما علمت على أهلى من سوء (٨) ، وأبئوهم بمن والله ما علمت عليه من سوء قط ، ولا يدخل بيتى قط إلا وأنا حاضر ، ولا غبت فى سفر إلا غاب معى » . فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال : ائذن يا رسول الله أن تضرب أعناقهم ، فقام رجل من الخزرج - وكانت أم حسان [بن ثابت] (٩) من رهط ذلك الرجل - فقال : كذبت ، أما والله لو كانوا من الأوس ما أحببت أن تضرب أعناقهم . حتى كاد أن يكون بين الأوس والخزرج شرٌّ فى المسجد ، وما علمت . فلما كان مساء ذلك اليوم ، خرجت لبعض حاجتى ومعى أم مسطح ، فعثرت فقالت : تعس مسطح ، فقلت : أى أم ، أتسبين ابنك ؟ وسكتت ، ثم عثرت الثانية فقالت : تعس مسطح . فقلت لها : أى أم ، تسبين ابنك ؟ ثم عثرت الثالثة فقالت : تعس مسطح . فانتهرتها فقالت : والله ما أسبه إلا فيك ، فقلت : فى أى شأنى ؟ قالت : فَبَقَرْتُ لى الحديث . فقلت : وقد كان هذا ؟ قالت : نعم والله . فرجعتُ إلى بيتى كأن الذى خرجت له لا أجد منه قليلا ولا كثيرا ، ووُعِكت ، وقلت لرسول الله ﷺ : أرسلنى إلى بيت أبى . فأرسل معى الغلام ، فدخلت الدار ، فوجدت أم رومان فى السفلى ، وأبا بكر فوق البيت يقرأ ، فقالت [لى] (١٠) أمى : ما جاء بك يا بنية ؟ فأخبرتها ، وذكرت لها الحديث ، وإذا هو لم يبلغ منها مثل ما بلغ منى ، [فقالت : يا بنية ، خَفَضَى عليك الشأن ؛ فإنه - والله - لَقَلَّمَا كانت امرأة

(١) فى ف ، أ : « فقال أبو بكر : أى والله » . (٢) زيادة من ف ، أ ، والمسد . (٣) فى ف ، أ : « رسول الله » .

(٤) المسند (٦ / ١٩٤) وصحيح البخارى برقم (٤٧٥٠) وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٠) .

(٥) فى ف ، أ : « عمرة ، أخبرنى أبى عن عائشة » . (٦) فى ف : « نحو » .

(٧) رواه ابن هشام فى السيرة (٢ / ٢٩٧) من طريق ابن إسحاق ، ورواه الحافظ ابن ديزيل فى جزئه برقم (٢) من طريق أبى أويس عن عبد الله بن أبى بكر بن عمرو بن حزم الأنصارى عن عمرة عن عائشة .

(٨) فى ف ، أ : « ما علمت على أهلى إلا خيرا ، أو ما علمت على أهلى من سوء » . (٩) زيادة من ف ، أ ، والبخارى .

(١٠) فى ف ، أ : « فقالت لى أمى » .

حسناً ، عند رجل يحبها ، لها ضرائر إلا حسدنها ، وقيل فيها وإذا هو لم يبلغ منها ما بلغ مني ، فقلت : وقد علم به أبي ؟ قالت : نعم . قلت : ورسول الله ﷺ ؟ قالت : نعم ، ورسول الله ﷺ [١] . فاستعبرت وبكيت ، فسمع أبو بكر صوتي ، وهو فوق البيت يقرأ ، فنزل فقال لأمي : ما شأنها ؟ قالت : بلغها الذي ذكر من شأنها . ففاضت عيناه وقال (٢) : أقسمت عليك - أي بنية - إلا رجعت إلى بيتك . فرجعت ، ولقد جاء رسول الله ﷺ بيتي ، فسأل عني خادمي (٣) ، فقالت : لا ، والله ما علمت عليها عيباً ، إلا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خميرها - أو : عجينةا - وانتهرها بعض أصحابه فقال : اصدقي رسول الله ﷺ ، حتى أسقطوا لها به ، فقالت : سبحان الله . والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر . وبلغ الأمر ذلك الرجل الذي قيل له ، فقال : سبحان الله . والله ما كشفتُ كَنَفَ أُنثَى قط - قالت عائشة : فقتل شهيدا في سبيل الله - قالت : وأصبح أبوأي عندي ، فلم يزا حتى دخل على رسول الله ﷺ وقد صلى العصر ، ثم دخل وقد اكتنفتني أبوأي عن يميني وعن شمالي ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد يا عائشة ، إن كنت قارفت سوءاً أو ظلمت فتوبى إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده » . قالت : وقد جاءت امرأة من الأنصار ، فهي (٤) جالسة بالباب ، فقلت : ألا تستحي من هذه المرأة أن تذكر شيئاً ؟ فوعظ رسول الله ﷺ ، فالتفت إلى أبي ، فقلت له : أجبه . قال : فماذا أقول ؟ فالتفت إلى أمي فقلت : أجيبه . قالت : أقول ماذا ؟ فلما لم يجيبها ، تشهدت فحمدت الله وأثنت عليه بما هو أهله ، ثم قلت : أما بعد ، فوالله لئن قلت لكم إنني لم أفعل - والله عز وجل يشهد إنني لصادقة - ما ذاك بنافعي عندكم ، لقد تكلمتم به ، وأشربته قلوبكم ، وإن قلت : إنني قد فعلت - والله يعلم أني لم أفعل - لتقولن : قد باءت به على نفسها ، وإنني - والله - ما أجد لي ولكم مثلاً - والتهمت اسم يعقوب فلم أقدر عليه - إلا أبا يوسف حين قال : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : ١٨] ، وأنزل الله على رسوله ﷺ من ساعته ، فسكتنا ، فرفع عنه وإنني لأتبين السرور في وجهه ، وهو يسمح جبينه ويقول : « أبشري يا عائشة ، فقد أنزل الله براءتك » ، قالت : وكنت (٥) أشد ما كنت غضباً ، فقال لي أبوأي : قومي [إليه] (٦) . فقلت : لا ، والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا أحمدكما ، ولكن أحمد الله الذي أنزل براءتي ، لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه ، وكانت عائشة تقول : أما زينب بنت جحش فقد عصمها الله بدینها ، فلم تقل إلا خيراً . وأما أختها حمنة بنت جحش ، فهلكت فيمن هلك . وكان الذي يتكلم به (٧) مسطح وحسان بن ثابت . وأما المنافق عبد الله بن أبي بن سلول فهو الذي [كان] (٨) يستوشيه ويجمعه ، وهو الذي تولى كبره منهم هو وحمنة . قالت : وحلف أبو بكر ألا ينفع مسطحاً بنافعة أبداً ، فأنزل الله : ﴿ وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلَ مِنْكُمْ ﴾ إلى آخر الآية ، يعني : أبا بكر ، ﴿ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أَوْلِيَ الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ ﴾ يعني : مسطحاً ، إلى قوله : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النور : ٢٢] . فقال أبو بكر : بلى والله يا ربنا ، إنا لنحب أن تغفر لنا وعاد له بما كان يصنع .

هكذا رواه البخاري من هذا الوجه معلقاً بصيغة الجزم (٩) ، عن أبي أسامة حماد بن أسامة [أحد

(٣) في ف ، أ : « خادمتي » .

(٢) في ف : « فقال » .

(١) زيادة من ف ، أ ، والبخاري .

(٦) زيادة من ف ، أ ، والبخاري .

(٥) في ف : « فكنت » .

(٤) في ف : « وهي » .

(٨) زيادة من ف ، أ ، والبخاري .

(٧) في ف : « فيه » .

(٩) صحيح البخاري برقم (٤٧٥٧) .

الأئمة الثقات . وقد رواه ابن جرير فى تفسيره عن سفيان بن وكيع ، عن أبى أسامة [(١)] ، به مطولا ، مثله أو نحوه (٢) . ورواه ابن أبى حاتم عن أبى سعيد الأشج ، عن أبى أسامة ، ببعضه . وقال الإمام أحمد : حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ ، أَخْبَرَنَا عُمَرُ (٣) بن أبى سلمة ، عن أبيه ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : لما نزل عُذْرَى من السماء ، جاءنى النبى ﷺ فأخبرنى بذلك ، فقلت : نَحْمَدُ الله لا نَحْمَدُكَ (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنى ابن أبى عدى ، عن محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن أبى بكر ، عن عُمَرَةَ ، عن عائشة قالت : لما نزل عُذْرَى قام رسول الله ﷺ فذكر ذلك ، وتلا القرآن ، فلما نزل أَمَرَ برجلين وامرأة فَضْرَبُوا حُدُومَهُمْ (٥) .

وأخرجه أهل السنن الأربعة ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن . ووقع عند أبى داود تسميتهم : حسان بن ثابت ، وَمَسْطُحُ بن أثاثه ، وَحَمْنَةُ بنت جحش . فهذه طرق متعددة عن أم المؤمنين عائشة ، رضى الله عنها ، فى المسانيد والصحاح والسنن وغيرها (٦) .

وقد روى من حديث أمها أم رومان ، رضى الله عنها ، فقال الإمام أحمد : حدثنا على بن عاصم ، أخبرنا حُصَيْنٌ عن أبى وائل ، عن مسروق ، عن أم رومان قالت : بينا أنا عند عائشة ، إذ دخلت عليها (٧) امرأة من الأنصار فقالت : فعل الله - بابنها - وفعل . فقالت عائشة : ولم ؟ قالت : إنه كان فيمن حَدَّثَ الحديث . قالت عائشة : وأى حديث ؟ قالت : كذا وكذا . قالت : وقد بلغ ذلك رسول الله ﷺ ؟ قالت : نعم ، وبلغ أبا بكر ؟ قالت : نعم ، فخرت عائشة ، رضى الله عنها ، مغشيا عليها ، فما أفأقت إلا وعليها حمى بنافض . قالت : فقامت فدرستها ، قالت : وجاء النبى ﷺ فقال : « ما شأن هذه ؟ » قلت : يا رسول الله ، أخذتها حمى بنافض . قال : فلعله فى حديث تُحَدِّثُ به . قالت : فاستوت له عائشة قاعدة فقالت : والله لئن حلقت لكم لا تصدقونى ، ولئن اعتذرت إليكم لا تُعْذِرُونِى ، فمثلى ومثلكم كمثل يعقوب وبنيه ﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : ١٨] . قالت : وخرج رسول الله ﷺ ، فأنزل الله عُذْرَهَا ، فرجع رسول الله ﷺ معه أبو بكر ، [فدخل فقال : « يا عائشة ، إن الله تعالى قد أنزل عُذْرَكَ » . فقالت : بحمد الله لا بحمدك . فقال لها أبو بكر : تقولين هذا لرسول الله ﷺ ؟ قالت : نعم . قالت : فكان فيمن حدث هذا الحديث رجل كان يعوله أبو بكر [(٨)] ، فحلف أبو بكر ألا يصله ، فأنزل الله : ﴿ وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ ﴾ إلى آخر الآية [النور : ٢٢] ، قال أبو بكر : بلى . فوصله .

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) تفسير الطبرى (١٨ / ٧٤) ورواه الحافظ ابن ديزيل فى جزئه برقم (١) من طريق إسماعيل بن أبى أويس عن أبيه عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مثله .

(٣) فى أ : « عمرو » .

(٤) المسند (٦ / ٣٠) .

(٥) المسند (٦ / ٣٥) وسنن أبى داود برقم (٤٤٧٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٨١) والسنن الكبرى برقم (٧٣٥١) وسنن

ابن ماجه برقم (٢٥٦٧) .

(٦) زيادة من ف ، أ ، والمسند .

(٧) فى ف : « علينا » .

(٨) فى ف : « وغيرهم » .

تفرد به البخارى دون مسلم ، من طريق حُصَيْن (١) . وقد رواه البخارى عن موسى بن إسماعيل عن أبى عَوَانَةَ - وعن محمد بن سلام - عن محمد بن فضيل ، كلاهما عن حصين ، به (٢) . وفى لفظ أبى عوانة : حدثنى أم رومان . وهذا صريح فى سماع مسروق منها ، وقد أنكر ذلك جماعة من الحفاظ ، منهم الخطيب البغدادي ، وذلك لما ذكره أهل التاريخ أنها ماتت فى زمان النبى ﷺ ، قال الخطيب : وقد كان مسروق يرسله فيقول : « سئلت أم رومان » ، ويسوقه ، فلعل بعضهم كتب « سئلت » بألف ، فاعتقد الراوى أنها « سألَت » ، فظنه متصلا . قال الخطيب : « وقد رواه البخارى كذلك ، ولم تظهر (٣) له علته » . كذا قال ، والله أعلم .

ف قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ ﴾ أى : بالكذب والبهت والافتراء ، ﴿ عَصَبَةٌ ﴾ أى : جماعة منكم ، ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ ﴾ أى : يا آل أبى بكر ، ﴿ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة ، لسان صدق فى الدنيا ورفعة منازل فى الآخرة ، وإظهار شرف لهم باعتناء الله بعائشة أم المؤمنين ، حيث أنزل الله تعالى براءتها فى القرآن العظيم الذى ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] ؛ ولهذا لما دخل عليها ابن عباس ، رضى الله عنه (٤) ، وهى فى سياق الموت ، قال لها : أبشرى ، فإنك زوجة رسول الله ﷺ ، وكان يحبك ، ولم يتزوج بكراً غيرك ، وأنزل (٥) براءتك من السماء (٦) .

وقال ابن جرير فى تفسيره : حدثنى محمد بن عثمان الواسطى ، حدثنا جعفر بن عون ، عن المعلّى بن عوفان ، عن محمد بن عبد الله بن جحش قال : تفاخرت عائشة وزينب ، رضى الله عنهما ، فقالت زينب : أنا التى نزل تزوجى [من السماء] (٧) ، قال : وقالت عائشة : أنا التى نزل عذرى فى كتابه ، حين حملنى ابن المعطل على الراحلة . فقالت لها زينب : يا عائشة ، ما قلت حين ركبتيها؟ قالت : قلت : حسيبى الله ونعم الوكيل . قالت : قلت كلمة المؤمنين (٨) .

وقوله : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ﴾ أى : لكل من تكلم فى هذه القضية ورمى أم المؤمنين عائشة ، رضى الله عنها ، بشيء من الفاحشة ، نصيب عظيم من العذاب .

﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ ﴾ (٩) : قيل : ابتدأ به . وقيل : الذى كان يجمعه ويستوشيه ويذيعه ويشيعه ، ﴿ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أى : على ذلك .

ثم الأكثرون على أن المراد بذلك إنما هو عبد الله بن أبى بن سلول - قبحه الله ولعنه - وهو الذى تقدم النص عليه فى الحديث ، وقال ذلك مجاهد وغير واحد .

وقيل : بل المراد به حسان بن ثابت ، وهو قول غريب ، ولولا أنه وقع فى صحيح البخارى ما

(١) المسند (٦ / ٣٦٧) وصحيح البخارى برقم (٤٧٥١) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤١٤٣) من رواية موسى بن إسماعيل ، وبرقم (٣٣٨٨) من رواية محمد بن سلام .

(٣) فى ف : « يظهر » . (٤) فى ف : « عنها » . (٥) فى ف : « ونزلت » .

(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٧٥٣) .

(٧) زيادة من ف ، أ .

(٨) تفسير الطبرى (١٨ / ٧٠) .

(٩) فى ف ، أ : « كبره منهم » .

قد يدل على ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة ، فإنه من الصحابة الذين كان لهم فضائل ومناقب ومآثر ، وأحسن محاسنه أنه كان يَذُبُّ عن رسول الله ﷺ [بشعره] ^(١) ، وهو الذى قال له رسول الله ﷺ : «هاجهم وجبريل معك» .

وقال الأعمش ، عن أبى الضُّحَى ، عن مسروق قال : كنتُ عندَ عائشة ، رضى الله عنها ، فدخل حسان بن ثابت ، فأمرت فألقى له وسادة ، فلما خرج قلت لعائشة : ما تصنعين بهذا ؟ يعنى : يدخل عليك - وفى رواية قيل لها : أتأذنين لهذا يدخل عليك ، وقد قال الله : ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ؟ قالت : وأىّ عذاب أشدّ من العمى - وكان قد ذهب بصره - لعل الله أن يجعل ذلك هو العذاب العظيم . ثم قالت : إنه كان يُنافحُ عن رسول الله ﷺ .

وفى رواية أنه أنشدها عندما دخل عليها [شعراً] ^(٢) يمتدحها به ، فقال :

حَصَانُ رَزَانُ مَا تُزَنُّ ^(٣) بَرِيَّةٌ وَتُصْبِحُ غَرَّتِي مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ

فقلت : أما أنت فلست كذلك . وفى رواية : لكنك لست كذلك ^(٤) .

وقال ابن جرير : حدثنا الحسن بن قَزَعَةَ ، حدثنا سلمة بن علقمة ، حدثنا داود ، عن عامر عن عائشة أنها قالت : ما سمعت بشيء أحسن من شعر حسان ، ولا تمثلت به إلا رجوت له الجنة ، قوله لأبى سفيان - يعنى ابن [الحارث] ^(٥) ابن عبد المطلب - :

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا ، فَاجَبْتُ ^(٦) عَنْهُ	وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ
فَإِنَّ أَبَى وَوَالِدَهُ وَعَرْضِي	لِعَرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ
أَتَشْتُمُهُ ، وَلَسْتَ لَهُ بِكُفٍّ ؟	فَشَرَكُكُمْ لِخَيْرِكُمْ الْفِدَاءُ
لِسَانِي صَارُمٌ لَا عَيْبَ فِيهِ	وَبَحْرِي لَا تُكَدِّرُهُ الدَّلَاءُ

ف قيل : يا أم المؤمنين ، أليس هذا لغوا ؟ قالت : لا ، إنما اللغو ما قيل عند النساء . قيل : أليس الله يقول : ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ، قالت : أليس قد أصابه [عذاب] ^(٧) عظيم ؟ [أليس] ^(٨) قد ذهب بصره وكُفِّعَ بالسيف ؟ تعنى : الضربة التى ضربه إياها ^(٩) صفوان بن المعطل [السلمي] ^(١٠) ، حين بلغه عنه أنه يتكلم فى ذلك ، فعلاه بالسيف ، وكاد أن يقتله ^(١١) .

﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ^(١٢) ﴾

لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ^(١٣) ﴾ .

هذا تأديب من الله للمؤمنين فى قضية ^(١٢) عائشة ، رضى الله عنها ، حين أفاض بعضهم فى

(١ ، ٢) زيادة من ف ، أ . (٣) فى ف : « ما ترن » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤١٤٦) حدثني بشر بن خالد عن محمد بن جعفر عن شعبة عن الأعمش ، به .

(٥) زيادة من ف ، أ . (٦) فى ف : « وأجبت » . (٧ ، ٨) زيادة من ف ، أ ، والطبرى .

(٩) فى ف : « ضربها إياه » . (١٠) زيادة من ف ، أ .

(١١) تفسير الطبرى (١٨ / ٦٩) .

(١٢) فى ف : « قصة » .

ذلك الكلام السيئ ، وما ذكر من شأن الإفك ، فقال : ﴿ لَوْلَا ﴾ بمعنى : هلا ﴿ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ﴾ أى : ذلك الكلام ، أى : الذى رميت به أم المؤمنين ﴿ ظَنُّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ أى : قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم ، فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأخرى .

وقد قيل : إنها نزلت فى أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى وامراته ، رضى الله عنهما ، كما قال الإمام محمد بن إسحاق بن يسار ، عن أبيه ، عن بعض رجال بنى النجار ؛ أن أبا أيوب خالد بن زيد قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب ، أما تسمع ما يقول الناس فى عائشة ، رضى الله عنها ؟ قال : نعم ، وذلك الكذب . أكننت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا ، والله ما كنت لأفعله . قال : فعائشة والله خير منك . قال : فلما نزل القرآن ذكر الله ، عز وجل ، من قال فى الفاحشة ما قال من أهل الإفك : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ ﴾ [النور : ١١] ، وذلك حسان وأصحابه ، الذين قالوا ما قالوا ، ثم قال : ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ ^(١) ﴾ الآية ، أى : كما قال أبو أيوب وصاحبه (٢) .

وقال محمد بن عمر الواقدي : حدثني ابن أبى حبيبة (٣) ، عن داود بن الحصين ، عن أبى سفيان ، عن أفلح مولى أبى أيوب ، أن أم أيوب قالت لأبى أيوب : ألا تسمع (٤) ما يقول الناس فى عائشة ؟ قال : بلى ، وذلك الكذب ، أفكننت يا أم أيوب [فاعلة ذلك] (٥) ؟ قالت : لا والله . قال : فعائشة والله خير منك : فلما نزل القرآن ، وذكر أهل الإفك ، قال الله ، عز وجل : ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ يعنى : أبا أيوب حين قال لأم أيوب ما قال .

ويقال : إنما قالها أبى بن كعب .

وقوله : ﴿ ظَنُّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ أى : هلا ظنوا الخير ، فإن أم المؤمنين أهله وأولى به ، هذا ما يتعلق بالباطن ، ﴿ وَقَالُوا ﴾ أى : بألسنتهم : ﴿ هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ أى : كذب ظاهر على أم المؤمنين ، فإن الذى وقع لم يكن ريبة ، وذلك أن مجيء أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل فى وقت الظهيرة ، والجيش بكماله يشاهدون ذلك ، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم ، لو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا (٦) جهرة ، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد ، بل كان يكون هذا - لو قدر - خفية مستورا ، فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت ، والقول الزور ، والرغوة الفاحشة [الفاجرة] (٧) ، والصفقة الخاسرة .

قال الله تعالى : ﴿ لَوْلَا ﴾ أى : هلا ﴿ جَاءُوا عَلَيْهِ ﴾ أى : على ما قالوه ﴿ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ يشهدون على صحة ما جاؤوا به ، ﴿ فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ أى : فى حكم الله كذبة فاجرون (٨) .

(١) فى ف ، أ : « ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا » .

(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (١٨ / ٧٧) .

(٣) فى ف ، أ : « حبيب » .

(٤) فى ف : « تسمع » .

(٥) زيادة من ف ، أ .

(٦) زيادة من ف ، أ .

(٨) فى ف : « فجرة » .

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٤ ﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسِبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ١٥ ﴾ .

يقول : [الله] (١) : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ أيها الخائضون في شأن عائشة ، بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا ، وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة ، ﴿ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ ﴾ ، من قضية الإفك ، ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ . وهذا فيمن عنده إيمان برزقه الله بسببه التوبة إليه ، كمسطح ، وحسان ، وحمئة بنت جحش ، أخت زينب بنت جحش . فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبي بن سلول وأضرابه ، فليس أولئك مرادين في هذه الآية ؛ لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه . وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين ، يكون مطلقاً مشروطاً بعدم التوبة ، أو ما يقابله من عمل صالح يوازنه أو يرجح عليه .

ثم قال تعالى : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ : قال مجاهد ، وسعيد بن جبير : أى : يرويه بعضكم عن بعض ، يقول هذا : سمعته من فلان ، وقال فلان كذا ، وذكر بعضهم كذا .
وقرأ آخرون « إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ » . وفي صحيح البخارى عن عائشة : أنها كانت تقرأها كذلك (٢) . وتقول : هو من ولق القول . يعنى : الكذب الذى يستمر صاحبه عليه (٣) ، تقول العرب : ولق فلان فى السير : إذا استمر فيه (٤) . والقراءة الأولى أشهر ، وعليها الجمهور ، ولكن الثانية مروية عن أم المؤمنين عائشة .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة ، عن نافع بن عمر (٥) ، عن ابن أبى مليكة ، [عن عائشة أنها كانت تقرأ : « إِذْ تَلَقَّوْنَهُ » ، وتقول : إنما هو ولق القول - والولق : الكذب . قال ابن أبى مليكة (٦)] : هى أعلم به من غيرها .

وقوله : ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ أى : تقولون ما لا تعلمون .
ثم قال تعالى : ﴿ وَتَحْسِبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ أى : تقولون ما تقولون فى شأن أم المؤمنين ، وتحسبون ذلك يسيراً [سهلاً] (٧) ، ولو لم تكن زوجة النبى ﷺ لما كان هيناً ، فكيف وهى زوجة النبى الأمى ، خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ، فعظيم عند الله أن يقال فى زوجة رسوله ما قيل ! الله يغار لهذا ، وهو ، سبحانه وتعالى ، لا يُقدَّر على زوجة نبي من أنبيائه ذلك ، حاشا وكلاً ، ولما [لم يكن ذلك] (٨) ، فكيف يكون هذا فى سيدة نساء الأنبياء ، وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق فى الدنيا والآخرة ؟ ! ولهذا قال تعالى : ﴿ وَتَحْسِبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ ، وفى الصحيحين :

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤١٤٤ ، ٤٧٥٢) .

(٣) فى ف : « فيه » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤١٤٤) .

(٥) زيادة من ف ، أ ، (٦ ، ٧ ، ٨)

(٥) فى ف ، أ : « نافع عن ابن عمر » .

«إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سَخَطَ الله، لا يدرى ما تَبْلُغُ، يَهْوِي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض». وفي رواية: «لا يلقي لها بالا» (١).

﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٦)
يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) .

هذا تأديب آخر بعد الأول : الأمر بالظن خيرا ، أى : إذا ذكر ما لا يليق من القول فى شأن الخيرة (٢) ، فأولى ينبغى الظن بهم خيرا ، وألا يشعر نفسه سوى ذلك ، ثم إن علق بنفسه شىء من ذلك - وسوسة أو خيالاً - فلا ينبغى أن يتكلم به ، فإن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها » (٣) ، ما لم تقل أو تعمل . أخرجاه فى الصحيحين (٤) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا ﴾ أى : ما ينبغى لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد ﴿ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ ، أى : سبحان الله أن يقال هذا الكلام على (٥) زوجة [نبيه و] (٦) رسوله وحليلة خليله .

ثم قال تعالى : ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا ﴾ أى : ينهاكم الله متوعدا أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً ، أى : فيما يستقبل . فلهذا قال : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى : إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه ، وتعظمون رسوله ﷺ ، فأما من كان متصفاً بالكفر فذاك له حكم آخر .

ثم قال : ﴿ وَيَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أى : يوضح لكم الأحكام الشرعية والحكم القدريّة ، ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، أى : عليم بما يصلح عباده ، حكيم فى شرعه وقدره .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١٩) .

وهذا تأديب ثالث لمن سمع شيئاً من الكلام السيئ ، فقام بذنه منه شىء ، وتكلم به ، فلا يكثر منه ويشيعه ويذيعه ، فقد قال تعالى (٧) : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى : يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح ، ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ ، أى : بالحد ، وفى الآخرة بالعذاب ، ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أى : فردوا الأمور إليه ترشّدوا .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن بكر ، حدثنا ميمون بن أبى محمد المرثي ، حدثنا محمد بن عباد المخزومي ، عن ثوبان ، عن النبي ﷺ قال : « لا تؤذوا عباد الله ولا تُغيروهم ، ولا تطلبوا

(١) صحيح البخارى برقم (٦٤٧٨) وصحيح مسلم برقم (٢٩٨٨) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٢) فى أ : « الحرة » . (٣) فى ف : « نفسها » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٢٦٩) وصحيح مسلم برقم (١٢٧) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٥) فى ف : « عن » . (٦) زيادة من ف ، أ . (٧) فى ف ، أ : « قال الله تعالى » .

عوراتهم ، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم ، طلب الله عورته ، حتى يفضحه فى بيته » (١) .

﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَعُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢١) .

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَعُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ أى : لولا هذا لكان أمر آخر ، ولكنه تعالى رؤوف بعباده ، رحيم بهم . فتاب على من تاب إليه من هذه [القضية] (٢) ، وظهر من ظهر منهم بالحد الذى أقيم عليه .

ثم قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ ﴾ يعنى : طرائقه ومسالكه وما يأمر به ، ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ : هذا تنفير وتحذير من ذلك ، بأفصح العبارة وأوجزها وأبلغها وأحسنها .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ ﴾ : عمله . وقال عكرمة : نزغاته . وقال قتادة : كل معصية فهى من خطوات الشيطان . وقال أبو مجلز : النذور فى المعاصى من خطوات الشيطان .

وقال مسروق : سأل رجل ابن مسعود فقال : إني حرمت أن أكل طعاماً ؟ فقال : هذا من نزغات الشيطان ، كَفَّرَ عن يمينك ، وكُلْ .

وقال الشعبى فى رجل نَذَرَ ذَبْحَ ولده : هذا من نزغات الشيطان ، وأفتاه أن يذبح كبشاً .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا حسان بن عبد الله المصرى ، حدثنا السرى بن يحيى ، عن سلمان التيمى ، عن أبى رافع قال : غضبت على امرأتى فقالت : هى يوماً يهودية ، ويوماً نصرانية ، وكل مملوك لها حر ، إن لم تطلق امرأتك . فأتيت عبد الله بن عمر فقال : إنما هذه من نزغات الشيطان . وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة ، وهى يومئذ أفضه امرأة بالمدينة ، وأتيت عاصم ابن عمر ، فقال مثل ذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ أى : لولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه ، ويزكى النفوس من شركها وفجورها ودسها وما فيها من أخلاق رديئة ، كل بحسبه ، لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيراً ، ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى : من خلقه ، ويضل من يشاء ويرديه فى مهالك الضلال والغى .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ أى : سميع لأقوال عباده (٣) ، ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بهم ، مَنْ يستحق منهم الهدى والضلال .

(١) المسند (٥ / ٢٧٩) .

(٣) فى ف : « العباد » .

(٢) زيادة من ف ، أ .

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢٢) .

يقول تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ ﴾ من الآلية ، [وهى : الحلف] (١) ، أى : لا يحلف ﴿ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ ﴾ أى : الطَّوَل والصدقة والإحسان ﴿ وَالسَّعَةِ ﴾ أى : الجَدَّة ، ﴿ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى : لا تحلفوا ألا تصلوا قراياتكم المساكين والمهاجرين . وهذه (٢) فى غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ﴾ أى : عما تقدم منهم من الإساءة والأذى ، وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم .

وهذه الآية نزلت فى الصديق ، حين حلف ألا ينفع مسطح بن أثاثه بنافعة بعدما قال فى عائشة ما قال ، كما تقدم فى الحديث . فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة ، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت ، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين فى ذلك ، وأقيم الحد على من أقيم عليه (٣) - شرع تبارك وتعالى ، وله الفضل والمنة ، يعطف الصديق على قريبه ونسيبه ، وهو مسطح بن أثاثه ، فإنه كان ابن خالة الصديق ، وكان مسكيناً لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر ، رضى الله عنه ، وكان من المهاجرين فى سبيل الله ، وقد ولى ولقة (٤) تاب الله عليه منها ، وضرب الحد عليها . وكان الصديق ، رضى الله عنه ، معروفاً بالمعروف ، له الفضل والأيدى على الأقارب والأجانب . فلما نزلت هذه الآية إلى قوله : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، أى : فإن الجزاء من جنس العمل ، فكما تغفر (٥) عن المذنب إليك تغفر (٦) لك ، وكما تصفح نصفح (٧) عنك . فعند ذلك قال الصديق : بلى ، والله إنا نحب - يا ربنا - أن تغفر لنا . ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة ، وقال : والله لا أنزعها منه أبداً ، فى مقابلة ما كان قال : والله لا (٨) أنفعه بنافعة أبداً ، فلهذا كان الصديق هو الصديق [رضى الله عنه وعن بنته] (٩) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوقِفُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ (٢٥) .

هذ وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات - خرج الغالب - المؤمنات . فأمهات المؤمنين أولى بالدخول فى هذا من كل محصنة ، ولاسيما التى كانت سبب النزول ، وهى عائشة بنت الصديق ، رضى الله عنهما . وقد أجمع العلماء ، رحمهم الله ، قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورمها بما رماها به [بعد هذا

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف : « وهذا » . (٣) فى ف ، أ : « من أقيم الحد عليه » .
(٤) فى ف : « زلق زلقة » . (٥) فى ف : « يغفر » . (٦) فى ف : « يغفر » .
(٧) فى ف : « يصفح » . (٨) فى ف : « ما » . (٩) زيادة من ف ، أ .

الذى ذكر [(١)] فى هذه الآية ، فإنه كافر ؛ لأنه معاند للقرآن . وفى بقية أمهات المؤمنين قولان : أصحهما أنهن كهين ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ لَعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ، كقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ (٢) [الأحزاب : ٥٧] .

وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة ، فقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عبد الله بن خراش ، عن العوام ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [قال : (٣)] : نزلت فى عائشة خاصة .

وكذا قال [سعيد بن جبير و (٤)] مقاتل بن حيان ، وقد ذكره ابن جرير عن عائشة فقال :

حدثنا أحمد بن عبد الصبى ، حدثنا أبو عوانة ، عن عمر بن أبى سلمة ، عن أبيه قال : قالت عائشة : رُميت بما رُميت به وأنا غافلة ، فبلغنى بعد ذلك . قالت : فبينما رسول الله ﷺ جالس عندي (٥) ، إذ أوحى (٦) إليه . قالت : وكان إذا أوحى إليه أخذه كهيئة السبات ، وإنه أوحى إليه وهو جالس عندي ، ثم استوى جالساً يمسح على وجهه ، وقال : « يا عائشة ، أبشرى » . قالت : قلت : بحمد الله لا بحمدك . فقرأ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ، حتى قرأ (٧) : ﴿ أُولَئِكَ مَبْرُؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ [النور : ٢٦] (٨) .

هكذا أورده ، وليس فيه أن الحكم خاص بها ، وإنما فيه أنها سبب النزول دون غيرها ، وإن كان الحكم يعمها كغيرها ، ولعله مراد ابن عباس ومن قال كقوله ، والله أعلم .

وقال الضحاك ، وأبو الجوزاء ، وسلمة بن نبيب : المراد بها أزواج النبى خاصة ، دون غيرهن من النساء .

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ الآية : يعنى أزواج النبى ﷺ ، رماهن أهل النفاق ، فأوجب الله لهم اللعنة والغضب ، وباؤوا بسخط من الله ، فكان (٩) ذلك فى أزواج النبى ﷺ ثم نزل بعد ذلك : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، فأنزل الله الجلد والتوبة ، فالتوبة تقبل ، والشهادة تُرد .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا هشيم ، أخبرنا العوام بن حوشب ، عن شيخ (١٠) من بني أسد ، عن ابن عباس - قال : فسر سورة النور ، فلما أتى على هذه الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا ﴾ الآية - قال : فى شأن عائشة ، وأزواج النبى ﷺ ، وهى مبهمة ، وليست لهم توبة ، ثم قرأ : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾ الآية [النور : ٤ ، ٥] ، قال : فجعل

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف : « والآخرة ولهم عذاب مهين » وهو خطأ . (٣) (٤ ، ٣) زيادة فى ف ، أ .

(٥) فى ف ، أ : « عندي جالس » . (٦) فى ف ، أ : « أوحى الله تعالى إليه » . (٧) فى ف ، أ : « بلغ » .

(٨) تفسير الطبرى (١٨ / ٨٢) .

(٩) فى ف : « وكان » . (١٠) فى ف ، أ : « العوام بن حوشب عن حوشب عن شيخ » .

لهؤلاء توبة ، ولم يجعل لمن قذف أولئك توبة ، قال : فهم بعض القوم أن يقوم إليه فيقبل رأسه ، من حسن ما فسر به سورة النور (١) .

ف قوله : « وهى مبهمه » ، أى : عامة فى تحريم قذف كل محصنة ، ولعنته فى الدنيا والآخرة . وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هذا فى عائشة ، ومن صنع مثل هذا أيضاً اليوم فى المسلمات ، فله ما قال الله ، عز وجل ، ولكن عائشة كانت إمام ذلك .

وقد اختار ابن جرير عمومها ، وهو الصحيح ، ويعضد العموم (٢) ما رواه ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن عبد الرحمن - ابن أخى ابن وهب - حدثنا عمى ، حدثنا سليمان بن بلال ، عن ثور بن زيد ، عن أبى الغيث (٣) ، عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات » . قيل : يا رسول الله ، وما هن ؟ قال : « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

أخرجاه فى الصحيحين ، من حديث سليمان بن بلال ، به (٤) . وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا محمد بن عمرو بن خالد الحذاء الحرانى ، حدثنى أبى ، (ح) وحدثنا أبو شعيب الحرانى ، حدثنا جدى أحمد بن أبى شعيب ، حدثنا موسى بن أعين ، عن ليث ، عن أبى إسحاق ، عن صلالة بن زفر ، عن حذيفة ، عن النبى ﷺ قال : « قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة » (٥) .

وقوله : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ، قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو يحيى الرازى ، عن عمرو بن أبى قيس ، عن مطرف ، عن المنهال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : إنهم - يعنى : المشركين - إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة ، قالوا : تعالوا حتى نجحد . فيجحدون فيختم [الله] (٦) على أفواههم ، وتشهد أيديهم وأرجلهم ، ولا يكتُمون الله حديثاً .

وقال ابن جرير ، وابن أبى حاتم أيضاً : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث ، عن دراج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد عن رسول الله ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة ، عُرف الكافر بعمله ، فيجحد ويخاصم ، فيقال له : هؤلاء جيرانك يشهدون عليك . فيقول : كذبوا . فيقول : أهلك وعشيرتك . فيقول : كذبوا ، فيقول : احلفوا . فيحلفون ، ثم يُصمّتهم الله ، فتشهد عليهم أيديهم وألسنتهم ، ثم يدخلهم النار » (٧) .

وقال ابن أبى حاتم أيضاً : حدثنا أبو شيبة إبراهيم بن عبد الله بن أبى شيبة الكوفى ، حدثنا

(١) تفسير الطبرى (١٨ / ٨٣) .

(٢) فى ف ، أ : « الصحيح » . (٣) فى أ : « الغيب » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٢٧٦٦) وصحيح مسلم برقم (٨٩) .

(٥) المعجم الكبير للطبرانى (٣ / ١٩٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٦ / ٢٧٩) : « وفيه ليث بن أبى سليم وهو ضعيف وقد يحسن حديثه ، وبقيه رجاله رجال الصحيح » .

(٦) زيادة من ف ، أ .

(٧) تفسير الطبرى (١٨ / ١٠٥) ورواه أبو يعلى فى مسنده برقم (١٣٩٢) من طريق ابن لهيعة ، عن دراج ، عن أبى الهيثم به ، ودراج عن أبى الهيثم ضعيف .

مَنْجَابُ بْنُ الْحَارِثِ التَّمِيمِيُّ ^(١) ، حَدَّثَنَا أَبُو عَامِرٍ الْأَسَدِيُّ ، حَدَّثَنَا سَفِيَانُ ، عَنْ عُبَيْدِ الْمَكْتَبِ ، عَنْ فَضِيلِ بْنِ عَمْرٍو الْفُقَيْمِيِّ ، عَنْ الشَّعْبِيِّ ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَضَحَكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ، ثُمَّ قَالَ : « أَتَدْرُونَ ^(٢) مِمَّ أَضْحَكُ ؟ » قُلْنَا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : « مِنْ مَجَادِلَةِ الْعَبْدِ رَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَقُولُ : يَا رَبِّ ، أَلَمْ تُجَرِّنِي مِنَ الظُّلْمِ ؟ » فَيَقُولُ : بَلَى . فَيَقُولُ : لَا أَجِيزُ عَلَى شَاهِدٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي . فَيَقُولُ : كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا ، وَبِالْكَرَامِ عَلَيْكَ شُهُودًا ^(٣) . فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ ، وَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ : انْطَقِي ، فَتَنْطَقُ بِعَمَلِهِ ، ثُمَّ يَخْلَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ ، فَيَقُولُ : بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا ، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أَنَا ضَلُّ .

وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ جَمِيعًا ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي النَّضْرِ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ ^(٤) الْأَشْجَعِيِّ ، عَنْ سَفِيَانَ الثَّوْرِيِّ ، بِهِ ^(٥) . ثُمَّ قَالَ النَّسَائِيُّ : لَا أَعْلَمُ أَحَدًا رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ سَفِيَانَ الثَّوْرِيِّ غَيْرَ ^(٦) الْأَشْجَعِيِّ ، وَهُوَ حَدِيثٌ غَرِيبٌ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . هَكَذَا قَالَ .

وَقَالَ قَتَادَةُ : ابْنُ آدَمَ ، وَاللَّهُ إِنْ عَلَيْكَ لَشُهُودًا غَيْرَ مَتَهَمَةٍ فِي بَدَنِكَ ، فَرَأَيْتَهُمْ وَاتَّقِ اللَّهَ فِي سِرِّكَ ^(٧) وَعِلَانِيَتِكَ ، فَإِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، الظُّلْمَةُ عِنْدَهُ ضَوْءٌ ^(٨) ، وَالسِّرُّ عِنْدَهُ عِلَانِيَةٌ ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ وَهُوَ بِاللَّهِ حَسَنُ الظَّنِّ ، فَلْيَفْعَلْ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ﴾ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ دِينَهُمْ ﴾ أَيُّ : حَسَابِهِمْ ، وَكُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ ﴿ دِينَهُمْ ﴾ أَيُّ : حَسَابِهِمْ . وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ .

ثُمَّ إِنْ قَرَأْتَ الْجُمُهورَ بِنَصَبِ ﴿ الْحَقَّ ﴾ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ لَدِينِهِمْ ، وَقَرَأَ مُجَاهِدٌ بِالرَّفْعِ ، عَلَى أَنَّهُ نَعْتُ الْجَلَالَةِ . وَقَرَأَهَا بَعْضُ السَّلَفِ فِي مَصْحَفِ أَبِي بَكْرٍ : « يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ الْحَقَّ دِينَهُمْ » ^(٩) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ أَيُّ : وَعَدَهُ وَوَعِيدَهُ وَحَسَابَهُ هُوَ الْعَدْلُ ، الَّذِي لَا جَوْرَ فِيهِ .

﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢٦) .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الْخَبِيثَاتُ مِنَ الْقَوْلِ لِلْخَبِيثِينَ مِنَ الرِّجَالِ ، وَالْخَبِيثُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلْخَبِيثَاتِ مِنَ الْقَوْلِ . وَالطَّيِّبَاتُ مِنَ الْقَوْلِ ، لِلطَّيِّبِينَ مِنَ الرِّجَالِ ، وَالطَّيِّبُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلطَّيِّبَاتِ مِنَ الْقَوْلِ . قَالَ : وَنَزَلَتْ فِي عَائِشَةَ وَأَهْلِ الْإِفْكِ .

وَهَكَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ ، وَعَطَاءٍ ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ، وَالشَّعْبِيِّ ، وَالْحَسَنِ بْنِ أَبِي الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ، وَحَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ ، وَالضَّحَّاكِ . وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَوَجَّهَهُ بِأَنَّ الْكَلَامَ الْقَبِيحَ أَوْلَى بِأَهْلِ الْقَبِيحِ مِنَ النَّاسِ ، وَالْكَلَامَ الطَّيِّبَ أَوْلَى بِالطَّيِّبِينَ مِنَ النَّاسِ ، فَمَا نَسَبَهُ أَهْلُ النِّفَاقِ إِلَى عَائِشَةَ هُمْ

(١) فِي ف : « التَّمِيمِيُّ » . (٢) فِي ف : « تَدْرُونَ » . (٣) فِي ف ، أ : « شَهِيدًا » . (٤) فِي أ : « عَبْدُ اللَّهِ » .

(٥) صَحِيحُ مُسْلِمٍ بِرَقْمِ (٢٩٦٩) .

(٦) فِي أ : « إِلَّا » . (٧) فِي أ : « سَرَاثِرُكَ » . (٨) فِي ف : « ضِيَاءٌ » . (٩) فِي أ : « يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ » .

أولى به ، وهى أولى بالبراءة والزهادة منهم ؛ ولهذا قال : ﴿ أُولَئِكَ مَبْرُؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ .
وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء ، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء .

وهذا - أيضاً - يرجع إلى ما قاله أولئك باللازم ، أى : ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهى طيبة ؛ لأنه أطيّب من كلّ طيب من البشر ، ولو كانت خبيثة لما صلحت له ، لا شرعاً ولا قدراً ؛ ولهذا قال : ﴿ أُولَئِكَ مَبْرُؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ أى : هم بُعداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان ، ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ أى : بسبب ما قيل فيهم من الكذب ، ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ أى : عند الله فى جنات النعيم . وفيه وعد بأن تكون زوجة النبي ﷺ فى الجنة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن مسلم ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا عبد السلام بن حرب ، عن يزيد بن عبد الرحمن ، عن الحكم ، عن يحيى بن الجزار قال : جاء أسير^(٢) بن جابر إلى عبد الله فقال : لقد سمعت الوليد بن عقبة اليوم تكلم بكلام أعجبنى . فقال عبد الله : إن الرجل المؤمن يكون فى قلبه الكلمة غير طيبة^(٣) تتجلجل فى صدره ما تستقر حتى يلفظها ، فيسمعها^(٤) رجل عنده يتلها فيضمها إليه . وإن الرجل الفاجر يكون فى قلبه الكلمة الطيبة تتجلجل فى صدره ما تستقر حتى يلفظها ، فيسمعها^(٥) الرجل الذى عنده يتلها^(٦) فيضمها إليه ، ثم قرأ عبد الله : ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ .

ويشبه هذا ما رواه الإمام أحمد فى المسند مرفوعاً : « مثل الذى يسمع الحكمة ثم لا يحدث إلا بشر ما سمع ، كمثّل رجل جاء إلى صاحب غنم ، فقال : أجزرنى شاة . فقال : اذهب فخذ بأذن أيها شئت . فذهب فأخذ بأذن كلّب الغنم^(٧) » . وفى الحديث الآخر : « الحكمة^(٨) ضالة المؤمن ، حيث وجدها أخذها »^(٩) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

(٣) فى أ : « طائل » .

(٢) فى ف ، أ : « أسيد » .

(١) فى ف ، أ : « فأولئك » وهو خطأ .

(٦) فى أ : « مثلها » .

(٤ ، ٥) فى أ : « فسمعها » .

(٧) المسند (٢ / ٣٥٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٨) فى أ : « الكلمة » .

(٩) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٦٨٧) وابن ماجه فى السنن برقم (٤١٦٩) من طريق عبد الله بن غير ، عن إبراهيم بن الفضل ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه . وقال الترمذى : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإبراهيم ابن الفضل المدنى المخزومى ، يضعف فى الحديث من قبل حفظه » .

هذه آداب شرعية ، أدب الله بها عباده المؤمنين ، وذلك في الاستئذان ، أمر الله المؤمنين ألا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأنسوا ، أى : يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده . وينبغي أن يستأذن ثلاثاً ، فإن أذن له ، وإلا انصرف ، كما ثبت ^(١) فى الصحيح : أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثاً ، فلم يؤذن له ، انصرف . ثم قال عمر : ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له . فطلبوه فوجدوه قد ذهب ، فلما جاء بعد ذلك قال : ما رجعتك ؟ قال : إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لى ، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا استأذن أحدكم ثلاثاً ، فلم يؤذن له ، فليانصرف » . فقال : لتأتين على هذا بيينة وإلا أوجعتك ضرباً . فذهب إلى ملا من الأنصار ، فذكر لهم ما قال عمر ، فقالوا : لا يشهد ^(٢) لك إلا أصغرنا . فقام معه أبو سعيد الخدرى فأخبر عمر بذلك ، فقال : ألهانى عنه الصنف بالأسواق ^(٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر عن ثابت ، عن أنس - أو : غيره ^(٤) - أن رسول الله ﷺ استأذن على سعد بن عبادة فقال : « السلام عليك ورحمة الله » . فقال سعد : وعليك السلام ورحمة الله ولم يسمع النبى ﷺ حتى سلم ثلاثاً . ورد عليه ^(٥) سعد ثلاثاً ولم يسمع . فرجع النبى ﷺ ، وابعه سعد فقال : يا رسول الله ، أبى وأنت وأمى ، ما سلمت تسليمة إلا وهى بأذنى ، ولقد رددت عليك ولم أسمعك ، وأردت أن أستكثر من سلامك ومن البركة . ثم أدخله البيت ، فقرب إليه زيباً ، فأكل نبى الله . فلما فرغ قال : « أكل طعامكم الأبرار ، وصلت عليكم الملائكة ، وأفطر عندكم الصائمون » ^(٦) .

وقد روى أبو داود والنسائى ، من حديث أبى عمرو الأوزاعى : سمعت يحيى بن أبى كثير يقول : حدثنى محمد بن عبد الرحمن بن سعد ^(٧) بن زرارة ، عن قيس بن سعد - هو ابن عبادة - قال : زارنا رسول الله ﷺ فى منزلنا ، فقال : « السلام عليكم ورحمة الله » ، فرد سعد ردّاً خفياً ^(٨) ، قال قيس : فقلت : ألا تأذن لرسول الله ﷺ ؟ فقال : ذره ^(٩) يكثر علينا من السلام . فقال رسول الله ﷺ : « السلام عليكم ورحمة الله » ، فرد سعد ردّاً خفياً ^(١٠) ، ثم قال رسول الله ﷺ : « السلام عليكم ورحمة الله » ، ثم رجع رسول الله ﷺ ، وابعه سعد فقال : يا رسول الله ، إني كنت أسمع تسليمك ، وأرد عليك ردّاً خفياً ^(١١) ، لتكثر علينا من السلام . قال : فانصرف معه [رسول الله ﷺ] ، فأمر له سعد بغسل ، فاغتسل ، ثم ناوله ملحفة مصبوغة ^(١٢) بزعفران - أو : ورس - فاشتمل بها ، ثم رفع رسول الله ﷺ يديه وهو يقول : « اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة » . قال : ثم أصاب رسول الله ﷺ من الطعام ، فلما أراد الانصراف قرب إليه سعد حماراً قد وطأ عليه بقطيفة ، فركب رسول الله ﷺ ، فقال سعد : يا قيس ، اصحب رسول

(١) فى أ : « وثبت » . (٢) فى أ : « لا تشهد » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٦٢٤٥) وصحيح مسلم برقم (٢١٥٣) .

(٤) فى أ : « وغيره » . (٥) فى أ : « على » .

(٦) المسند (٣ / ١٣٨) .

(٧) فى أ : « أسعد » . (٨) فى أ : « خفياً » .

(٩) فى أ : « ودعه » . (١٠) فى أ : « خفياً » .

(١١) فى أ : « خفياً » . (١٢) زيادة من أ ، وأبى داود .

اللَّهُ ﷻ . قال قيس : فقال رسول الله ﷺ : « اركب » . فأبيت ، فقال : « إما أن تركب وإما أن تنصرف » . قال : فانصرفت .

وقد روى هذا من وجه آخر ^(١) ، فهو حديث جيد قوى ، والله أعلم .
ثم ليَعْلَمُ أنه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل ألا يقف تلقاء الباب بوجهه ، ولكن ليكن ^(٢) البابُ عن يمينه أو يساره ؛ لما رواه أبو داود : حدثنا مُؤَمِّلُ بن الفضل الحارثي - في آخرين - قالوا : حدثنا بَقِيَّةُ ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن ، عن عبد الله بن بُسر ^(٣) ، قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم ، لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ، ويقول : « السلام عليكم ، السلام عليكم » . وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور . تفرَّد به أبو داود ^(٤) .

وقال أبو داود أيضاً : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا جرير ، (ح) قال أبو داود : وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا حفص ، عن الأعمش ، عن طلحة ، عن هُزَيْل قال : جاء رجل - قال عثمان : سعد - فوقف على باب النبي ﷺ يستأذن ، فقام على الباب - قال عثمان : مستقبل الباب - فقال له النبي ﷺ : « هكذا عنك - أو : هكذا - فأما الاستئذان من النظر » ^(٥) .

وقد رواه أبو داود الطيالسي ، عن سفيان الثوري ، عن الأعمش ، عن طلحة بن مُصَرِّف ، عن رجل ، عن سعد عن النبي ﷺ . رواه أبو داود من حديثه ^(٦) .

وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لو أن امرأً اطلع عليك بغير إذن فَحَذَفَتْه بحصاة ، ففَقَات عينه ، ما كان عليك من جُنَاح » ^(٧) .

وأخرج الجماعة من حديث شعبة ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر قال : أتيتُ النبي ﷺ في دين كان على أبي ، فدققتُ الباب ، فقال : « من ذا » ؟ قلت : أنا . قال : « أنا ، أنا » ، كأنه كرهه ^(٨) .

وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لا يُعرَف صاحبها حتى يُفصح باسمه أو كنيته التي هو مشهور بها ، وإلا ، فكل أحد يُعبِّر عن نفسه بـ « أنا » ، فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان ، الذي هو الاستئناس بالمأمور به في الآية .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : الاستئناس : الاستئذان . وكذا قال غير واحد .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بَشَّار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في هذه الآية : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا ﴾

(١) سنن أبي داود برقم (٥١٨٥) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١٠١٥٧) ، (٥٠١٥٩) من طريق عبد الله عن الأوزاعي عن يحيى ابن أبي كثير عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان : أن رسول الله ﷺ أتى سعد بن عبادَةَ زائراً ، فذكر الحديث .

(٢) في أ : « ليكون » . (٣) في أ : « بشر » .

(٤) سنن أبي داود برقم (٥١٨٦) .

(٥) سنن أبي داود برقم (٥١٧٤) .

(٦) سنن أبي داود برقم (٥١٧٥) .

(٧) صحيح البخاري برقم (٦٩٠٢) وصحيح مسلم برقم (٢١٥٨) .

(٨) صحيح البخاري برقم (٦٢٥٠) وصحيح مسلم برقم (٢١٥٥) وسنن أبي داود برقم (٥١٨٧) وسنن الترمذي برقم (٢٧١١) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١٠١٦٠) وسنن ابن ماجه برقم (٣٧٠٩) .

وَتَسَلِّمُوا^(١) قال : إنما هي خطأ من الكاتب ، « حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا » .

وهكذا رواه ^(٢) هُشَيْمٌ عن أبي بشر - وهو جعفر بن إياس - به . وروى معاذ بن سليمان ، عن جعفر بن إياس ، عن سعيد ، عن ابن عباس ، بمثله ، وزاد : وكان ابن عباس يقرأ : « حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا » ، وكان يقرأ على قراءة أبي بن كعب رضى الله عنه . وهذا غريب جداً عن ابن عباس .

وقال هُشَيْمٌ ^(٣) : أخبرنا مغيرة ، عن إبراهيم قال : فى مصحف ابن مسعود : « حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا » . وهذا أيضاً رواية عن ابن عباس ، وهو اختيار ابن جرير . وقد قال الإمام أحمد : حدثنا رَوْحٌ ، حدثنا ابن جُرَيْجٍ ، أخبرنى عمرو بن أبى سفيان : أن عمرو بن أبى صفوان أخبره ، أن كَلْدَةَ بن الحنبل أخبره ، أن صفوان بن أمية بعثه فى الفتح بِلْبَاً وجدائياً وضغائيس ، والنبي ﷺ بأعلى الوادى . قال : فدخلتُ عليه ولم أسلم ولم أستأذن ، فقال النبي ﷺ : « ارجع فقل : السلام عليكم ، أَدْخُلْ ؟ » ، وذلك بعدما أسلم صفوان . ورواه أبو داود والترمذى والنسائى من حديث ابن جريج ، به ^(٤) وقال الترمذى : حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديثه .

وقال أبو داود : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا أبو الأحوص ، عن منصور ، عن رُبْعَى قال : حدثنا ^(٥) رجل من بنى عامر استأذن على النبي ﷺ ، وهو فى بيته ، فقال : أَلْجَ ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه : « اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان ، فقل له : قل : السلام عليكم ، أَدْخُلْ ؟ » فسمعه الرجل فقال : السلام عليكم ، أَدْخُلْ ؟ فأذن له النبي ﷺ ، فدخل ^(٦) .

وقال هُشَيْمٌ : أخبرنا منصور ، عن ابن سيرين - وأخبرنا يونس بن عبيد ، عن عمرو بن سعيد الثقفى - أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال : أَلْجَ - أو : أنلج ؟ - فقال النبي ﷺ لأمة له ، يقال لها روضة : « قومى إلى هذا فعلميه ، فإنه لا يحسن يستأذن ، فقولى له يقول : السلام عليكم ، أَدْخُلْ » . فسمعها الرجل ، فقالها ، فقال : « ادْخُلْ » ^(٧) .

وقال الترمذى : حدثنا الفضل بن الصباح ، حدثنا سعيد بن زكريا ، عن عَنَسَةَ بن عبد الرحمن ، عن محمد بن زاذان ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « السلام قبل الكلام » ^(٨) .

ثم قال الترمذى : عنبة ضعيف الحديث ذاهب ، ومحمد بن زاذان مُتَكَرِّرُ الحديث . وقال هُشَيْمٌ : قال مغيرة : قال مجاهد : جاء ابن عمر من حاجة ، وقد آذاه الرمضاء ، فأتى قُسْطَاطَ امرأة من قریش ، فقال : السلام عليكم ، أَدْخُلْ ؟ قالت : ادخل بسلام . فأعاد ، فأعادت ،

(٣) فى أ : « سفيان » .

(٢) فى أ : « روى » .

(١) فى ف ، أ زيادة : « على أهلها » .

(٤) المسند (٣ / ٤١٤) .

(٥) فى أ : « جاء » .

(٦) سنن أبى داود برقم (٥١٧٧) .

(٧) رواه الطبرى فى تفسيره (١٨ / ٨٧) .

(٨) سنن الترمذى برقم (٢٦٩٩) .

وهو يرأوح بين قدميه ، قال : قولى : ادخل . قالت : ادخل ، فدخل (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو نعيم الأحول ، حدثنا خالد بن إياس ، حدثتني جدتي أم إياس قالت : كنت فى أربع نسوة نستأذن [على عائشة] (٢) فقلت : ندخل ؟ قالت : لا ، قلن (٣) لصاحبتكن : تستأذن . فقالت : السلام عليكم ، أندخل ؟ قالت : ادخلوا ، ثم قالت : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ [الآية] (٤) . وقال هشيم : أخبرنا أشعث بن سوار ، عن كردوس ، عن ابن مسعود قال : عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم . قال أشعث ، عن عدى بن ثابت : إن امرأة من الأنصار قالت : يا رسول الله ، إنى أكون فى منزلى على الحال التى لا أحب أن يرانى أحد عليها ، والد ولا ولد ، وإنه لا يزال يدخل على رجل من أهلى ، وأنا على تلك الحال ؟ قال : فتزلى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ (٥) .

وقال ابن جريج : سمعت عطاء بن أبى رباح يخبر عن ابن عباس ، رضى الله عنه ، قال : ثلاث آيات جحدّها الناس : قال الله : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، قال : ويقولون : إن أكرمهم عند الله أعظمهم بيتاً . قال : والإذن كله قد جحدّه الناس . قال : قلت : أستأذن على أخواتى أيتام فى حجرى ، معى فى بيت واحد ؟ قال : نعم . فرددت ليرخص (٦) لى ، فأبى . قال : تحب أن تراها عريانة ؟ قلت : لا . قال : فاستأذن . قال : فراجعتة أيضاً ، فقال : أحب أن تطيع الله ؟ قلت : نعم . قال : فاستأذن .

قال ابن جريج : وأخبرنى ابن طاوس عن أبيه قال : ما من امرأة أكره إلى أن أرى عريتها من ذات محرم . قال : وكان يشدد فى ذلك .

وقال ابن جريج ، عن الزهرى : سمعت هزبل بن شرحبيل الأودى الأعمى ، أنه سمع ابن مسعود يقول : عليكم الإذن على أمهاتكم .

وقال ابن جريج : قلت لعطاء : أيستأذن الرجل على امرأته ؟ قال : لا .

وهذا محمول على عدم الوجوب ، وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به ، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها .

وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا القاسم ، [قال] (٧) حدثنا الحسين ، حدثنا محمد بن حازم ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن يحيى بن الجزار ، عن ابن أخى زينب - امرأة عبد الله بن مسعود - عن زينب ، رضى الله عنها ، قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فأنتهى إلى الباب ، تنحنح وبزق ؛ كراهية (٨) أن يهجم منا على أمر يكرهه (٩) . إسناده صحيح .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطى ، حدثنا عبد الله بن نمير ، حدثنا

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٨ / ٨٧) .

(٢) زيادة من ف ، أ . (٣) فى هـ ، أ : « قلت » ، والمثبت من ف . (٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (١٨ / ٨٧) .

(٦) فى أ : « على لمن خضرنى » . (٧) زيادة من ف ، أ .

(٨) فى ف : « كراهة » .

(٩) تفسير الطبرى (١٨ / ٨٨) .

الأعمش، عن عمرو بن مرة ، عن أبي هُبَيْرَةَ ^(١) قال : كان عبد الله إذا دخل الدار استأنس - تكلم ورفع صوته .

[و] ^(٢) قال مجاهد : ﴿ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا ﴾ قال : تنحنحوا - أو ^(٣) : تَنَحَّمُوا .

وعن الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله ، أنه قال : إذا دخل الرجل بيته ، استحب له أن يتنحنح ، أو يحرك نعليه .

ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ : أنه نَهَى أن يطرق الرجل أهله طُرُوقاً - وفي رواية : ليلا يَتَخَوَّنُهُمْ ^(٤) .

وفي الحديث الآخر : أن رسول الله ﷺ قدم المدينة نهائراً ، فأناخ بظاهاها ، وقال : « انتظروا حتى تدخل عشاء - يعنى : آخر النهار - حتى تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة » ^(٥) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا عبد الرحمن ^(٦) بن سليمان ، عن واصل بن السائب ، حدثني أبو سَوْرَةَ ابن أخى أبي أيوب ، عن أبي أيوب قال : قلت : يا رسول الله ، هذا السلام ، فما الاستئناس ؟ قال : « يتكلم الرجل بتسيحة وتكبيرة وتحميدة ، ويتنحنح فيؤذن أهل البيت » . هذا حديث غريب ^(٧) .

وقال قتادة في قوله : ﴿ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا ﴾ ، قال : هو الاستئذان . [قال : وكان يقال : الاستئذان] ^(٨) ثلاث ، فمن لم يؤذن له فيهن ، فليرجع . أما الأولى : فليسمع ^(٩) الحى ، وأما الثانية : فليأخذوا حذرهم ، وأما الثالثة : فإن شاؤوا أذنوا وإن شاؤوا ردّوا . ولا تَقْفَنَّ على باب قوم ردوك عن بابهم ؛ فإن للناس حاجات ولهم أشغال ، والله أولى بالعذر .

وقال مقاتل بن حيان في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ : كان الرجل فى الجاهلية إذا لقي صاحبه ، لا يسلم عليه ، ويقول : حَيِّتَ صباحاً وحيت مساء ، وكان ذلك تحية القوم بينهم . وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم ، ويقول : « قد دخلت » . فيشق ذلك على الرجل ، ولعله يكون مع أهله ، فغير الله ذلك كله ، فى ستر وعفة ، وجعله نقياً نزهاً من الدنس والقذر والدرن ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ .

(١) فى ف ، أ : « عبدة » . (٢) زيادة من ف ، أ . (٣) فى أ : « و » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٢٤٣ ، ٥٢٤٤) وصحيح مسلم برقم (٧١٥) من حديث جابر ، رضى الله عنه .

(٥) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٢٤٧) من حديث جابر ، رضى الله عنه .

(٦) فى هـ : « عبد الرحيم » .

(٧) رواه ابن أبى شيبة فى المصنف (٨ / ٦٠٧) ومن طريقه ابن ماجة فى السنن برقم (٣٧٠٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير

(١٧٨ / ٤) ، حدثنا عبيد بن غنام عن أبى بكر بن أبى شيبة ، به . قال البوصيرى فى الزوائد (٣ / ١٧١) : « هذا إسناد ضعيف » .

(٨) زيادة من ف ، أ . (٩) فى ف ، أ : « فليستع » .

وهذا الذى قاله مقاتل حسن ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ يعنى : الاستئذان خير لكم ، بمعنى : هو خير للطرفين ^(١) : للمستأذن ولأهل البيت ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ ، وذلك لما فيه من التصرف فى ملك الغير بغير إذنه ، فإن شاء أذن ، وإن شاء لم يأذن ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ أى : إذا ردوكم من الباب قبل الإذن أو بعده ، ﴿ فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ أى : رجوعكم ^(٢) أزكى لكم وأطهر ، ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ .

وقال قتادة : قال بعض المهاجرين : لقد طلبتُ عمرى كلَّه هذه الآية فما أدركتها : أن أستأذن عليَّ بعض إخواني ، فيقول لى : « ارجع » ، فأرجع وأنا مغتبط ^(٣) [لقوله] ^(٤) : ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ .

وقال سعيد بن جبير : ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ﴾ أى : لا تقفوا على أبواب الناس . وقوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ : هذه الآية الكريمة أخص من التى ^(٥) قبلها ، وذلك أنها تقتضى جواز الدخول إلى البيوت التى ليس فيها أحد ، إذا كان له ^(٦) فيها متاع ، بغير إذن ، كالبيت المعد للضيف ، إذا أذن له فيه أول مرة ، كفى .

قال ابن جرير : قال ابن عباس : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾ ، ثم نسخ واستثنى فقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ﴾ . وكذا روى عن عكرمة ، والحسن البصرى .

وقال آخرون : هى بيوت التجار ، كالحانات ^(٧) ، ومنازل الأسفار ، وبيوت مكة ، وغير ذلك . واختار ذلك ابن جرير ، وحكاه عن جماعة . والأول أظهر ، والله أعلم . وقال مالك عن زيد بن أسلم : هى بيوت الشعر .

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (٣٠) .

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم ، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه ^(٨) ، وأن يغضوا ^(٩) أبصارهم عن المحارم ، فإن اتفق أن وقع البصر على محرماً من غير قصد ، فليصرف بصره عنه سريعاً ، كما رواه مسلم فى صحيحه ، من حديث يونس بن عبيد ، عن عمرو بن سعيد ، عن أبى زُرْعَةَ بن عمرو بن جرير ، عن جده جرير بن عبد الله البجلي ، رضى الله عنه ، قال : سألت النبى ﷺ عن نظرة الفجأة ، فأمرنى أن أصرف بصرى . وكذا رواه الإمام أحمد ، عن هُشَيْم ، عن يونس بن عبيد ، به . ورواه أبو داود والترمذى

(١) فى ف ، أ : « من الطرفين » .

(٢) فى أ : « رجعوكم » .

(٣) فى ف ، أ : « من الطرفين » .

(٤) فى أ : « الذى » .

(٥) فى ف ، أ : « لكم » .

(٦) فى أ : « فى الحانات » .

(٧) فى ف : « يغضوا » .

(٨) فى ف : « إليهم » .

والنسائي ، من حديثه أيضاً ^(١) . وقال الترمذى : حسن صحيح . وفى رواية لبعضهم : فقال : « أطرقتُ بصرى » ، يعنى : انظر إلى الأرض . والصرف أعم ؛ فإنه قد يكون إلى الأرض ، وإلى ^(٢) جهة أخرى ، والله أعلم .

وقال أبو داود : حدثنا إسماعيل بن موسى الفزاري ، حدثنا شريك ، عن أبى ربيعة الإيادى ، عن عبد الله بن بُريدة ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ لعلّى : « يا على ، لا تتبع النظرة النظرة ، فإن لك الأولى وليس لك الآخرة » .

ورواه الترمذى من حديث شريك ^(٣) ، وقال : غريب ، لا نعرفه إلا من حديثه .

وفى الصحيح عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إياكم والجلوس على الطرقات » . قالوا : يا رسول الله ، لا بد لنا من مجالسنا ، نتحدث فيها . فقال رسول الله ﷺ : « إن أبيتم ، فأعطوا الطريق حقّه » . قالوا : وما حقّ الطريق يا رسول الله ؟ قال : « غصّ البصر ، وكفّ الأذى ، وردّ السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر » ^(٤) .

وقال أبو القاسم البغوى : حدثنا طالوت بن عباد ، حدثنا فضل ^(٥) بن جبير : سمعت أبا أمامة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اكفلوا لى بست أكفل لكم بالجنة : إذا حدث أحدكم فلا يكذب ، وإذا أوتن فلا يخن ، وإذا وعد فلا يخلف . وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم ، واحفظوا فروجكم » ^(٦) .

وفى صحيح البخارى : « من يكفل ^(٧) لى ما بين لحييه وما بين رجليه ، أكفل له الجنة » ^(٨) . وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر ، عن أيوب ، عن ابن سيرين ، عن عبيدة قال : كل ما عصى الله به ، فهو كبيرة . وقد ذكر الطرّفين فقال : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ . ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب ، كما قال بعض السلف : « النظر سهام سم إلى القلب » ؛ ولذلك أمر الله بحفظ الفروج كما أمر بحفظ الأبصار التى هى بواعث إلى ذلك ، فقال : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ . وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنا ، كما قال : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [المعارج : ٢٩ ، ٣٠] وتارة يكون بحفظه من النظر إليه ، كما جاء فى الحديث فى مسند أحمد ^(٩) والسنن :

(١) صحيح مسلم برقم (٢١٥٩) والمسند (٤ / ٣٦١) وسنن أبى داود برقم (٢١٤٨) وسنن الترمذى برقم (٢٧٧٦) والنسائي فى السنن الكبرى برقم (٩٢٣٣) .

(٢) فى أ : « أو إلى » .

(٣) سنن أبى داود برقم (٢١٤٩) وسنن الترمذى برقم (٢٧٧٧) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٢٤٦٥) وصحيح مسلم برقم (٢١٢١) من حديث أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه .

(٥) فى هـ : « فضال » .

(٦) رواه الخطيب البغدادي فى تاريخ بغداد (٧ / ٣٩٢) من طريق أبى القاسم البغوى ، به . ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨ / ٣١٤) وابن حبان فى المجروحين (٢ / ٢٠٤) من طريق فضال بن جبير . ويقال : ابن زبير ، به . وقال ابن حبان : « فضال بن جبير لا يحل الاحتجاج به » .

(٧) فى أ : « كفل » .

(٨) صحيح البخارى برقم (٦٤٧٤) من حديث سهل بن سعد ، رضى الله عنه .

(٩) فى أ : « المسند » .

« احفظ عورتك ، إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك » (١) .

﴿ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ أى : أظهر لقلوبهم وأتقى لدينهم ، كما قيل : « من حفظ بصره ، أورثه الله نوراً فى بصيرته » . ويروى : « فى قلبه » .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عتّاب ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، أخبرنا يحيى بن أيوب ، عن عبيد الله بن زحر ، عن على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمانة ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة [أول مرة] (٢) ، ثم يغضّ بصره ، إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها » (٣) .

وروى هذا مرفوعاً عن ابن عمر ، وحذيفة ، وعائشة ، رضى الله عنهم (٤) ، ولكن فى إسناده ضعف ، إلا أنها فى الترغيب ، ومثله يتسامح فيه .

وفى الطبرانى من طريق عبيد الله بن زحر ، عن على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمانة مرفوعاً : « لَتَغْضُنَ أَبْصَارُكُمْ ، وَلَتَحْفَظُنَّ فُرُوجَكُمْ ، وَلَتَقِيمُنَّ وَجُوهَكُمْ - أو : لتكسفن وجوهكم » (٥) .

وقال الطبرانى : حدثنا أحمد بن زهير التُّسْتَرِيّ قال : قرأنا على محمد بن حفص بن عمر الضرير المقرئ ، حدثنا يحيى بن أبى بكير ، حدثنا هُرَيْمٌ بن سفيان ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم ، من تركه مخافتى ، أبدلته إيماناً يجد حلاوته فى قلبه » (٦) .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩] .

وفى الصحيح ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظُّهُ مِنَ الزَّانَا ، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ . فَزَنَا الْعَيْنَيْنِ : النَّظَرُ . وَزَنَا اللِّسَانِ : النَّطْقُ . وَزَنَا الْأَذْنَيْنِ : الْاسْتِمَاعُ . وَزَنَا الْيَدَيْنِ : الْبَطْشُ . وَزَنَا الرِّجْلَيْنِ : الْخَطْيُ . وَالنَّفْسُ تَمْنَى وَتَشْتَهَى ، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ » .

(١) المسند (٥ / ٣ ، ٤) وسنن أبى داود برقم (٤٠١٧) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٢٠) من حديث معاوية بن حيدة ، رضى الله عنه .
(٢) زيادة من ف ، أ .

(٣) المسند (٥ / ٢٦٤) . وفى إسناده عبيد الله بن زحر ، قال ابن حبان : « يروى الموضوعات عن الآثبات وإذا روى عن على بن يزيد أتى بالطامات ، وإذا اجتمع فى إسناده خبر عبيد الله بن زحر وعلى بن يزيد والقاسم أبو عبد الرحمن ، لم يكن ذلك الخبر إلا مما عملته أيديهم » .

(٤) أما حديث حذيفة ، فرواه الحاكم فى المستدرک (٤ / ٣١٤) من طريق إسحاق القرشى عن هشيم عن عبد الرحمن عن إسحاق عن محارب عن صلة بن زفر عن حذيفة ، رضى الله عنه ، وصححه الحاكم ، وتعقبه الذهبى . قلت : إسحاق واه وعبد الرحمن هو الواسطى ضعفه . وأما حديث ابن عمر ، فرواه أبو نعيم فى الحلية (٦ / ١٠١) من طريق أبى اليمان عن أبى المهدي عن أبى الزاهرية عن كثير بن مرة عن ابن عمر ، رضى الله عنهما ، وإسناده ضعيف جداً .

(٥) المعجم الكبير (٨ / ٢٤٦) وعبيد الله بن زحر وعلى بن يزيد والقاسم ضعفاء .

(٦) المعجم الكبير (١٠ / ٢١٤) وقال الهيثمى فى المعجم (٨ / ٦٣) : « وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الواسطى وهو ضعيف » .

رواه البخارى تعليقاً ، ومسلم مسنداً من وجه آخر (١) ، بنحو ما تقدم .
وقد قال كثير من السلف : إنهم كانوا ينهون أن يحد الرجل بصره (٢) إلى الأمرد . وقد شدد كثير من أئمة الصوفية فى ذلك ، وحرّمه طائفة من أهل العلم ، لما فيه من الافتتان ، وشدد آخرون فى ذلك كثيراً جداً .

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنا أبو سعيد المدنى (٣) ، حدثنا عمر بن سهل المازنى ، حدثنى عمر بن محمد بن صُهَبان ، حدثنى صفوان بن سليم ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كل عين باكية (٤) يوم القيامة ، إلا عيناً غَضَّتْ عن محارم الله ، وعيناً سهرت فى سبيل الله ، وعيناً يخرج منها مثل رأس الذباب ، من خشية الله ، عز وجل » (٥) .

﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٣١) .

هذا (٦) أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات ، وغيره (٧) منه لأزواجهن ، عباده المؤمنين ، وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات . وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيان قال : بلغنا - والله أعلم - أن جابر بن عبد الله الأنصارى حدث : أن « أسماء بنت مرشدة » كانت فى محل لها فى بنى حارثة ، فجعل النساء يدخلن عليها غير متأزرات فيبدو ما فى أرجلهن من الخلخل ، وتبدو صدورهن وذوائبهن ، فقالت أسماء : ما أقبح هذا . فأنزل الله : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ الآية .

فقله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ أى : عما حرّم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن . ولهذا ذهب [كثير من العلماء] (٨) إلى أنه : لا يجوز للمرأة أن تنظر إلى الأجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلاً . واحتج كثير منهم بما رواه أبو داود والترمذى ، من حديث الزهري ، عن نبهان - مولى أم سلمة - أنه حدثه : أن أم سلمة حدثته : أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة ، قالت : فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم ، فدخل عليه ، وذلك بعدما أمرنا بالحجاب ، فقال رسول الله ﷺ : « احتجبا منه » . فقلت : يا رسول الله ، أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟

(١) صحيح البخارى برقم (٦٣٤٣) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٧) .

(٢) فى أ : « نظره » . (٣) فى أ : « المقبرى » . (٤) فى أ : « زانية » .

(٥) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٣ / ١٦٣) من طريق داود بن عطاء عن عمر بن صهبان ، عن صفوان عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، به . فلا أدرى أسقط أبو سلمة من إسناد ابن أبى الدنيا أم لا ؟ وعمر بن صهبان منكر الحديث اتفق الأئمة على تضعيفه .

(٦) فى ف ، أ : « وهذا » . (٧) فى أ : « وعزة » . (٨) زيادة من ف ، أ .

فقال رسول الله ﷺ : « أو عَمِيَاوَان (١) أَتَمْتَا تَبْصِرَانِهِ » (٢) .

ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجانب بغير شهوة ، كما ثبت فى الصحيح : أن رسول الله ﷺ جَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى الْحَبْشَةِ وَهُمْ يَلْعَبُونَ بِحُرَابِهِمْ يَوْمَ الْعِيدِ فِي الْمَسْجِدِ ، وَعَائِشَةُ أُمُ الْمُؤْمِنِينَ تَنْظُرُ إِلَيْهِمْ مِنْ وَرَائِهِ : وَهُوَ يَسْتَرُهَا مِنْهُمْ حَتَّى مَلَّتْ وَرَجَعَتْ (٣) .

وقوله : ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ : قال سعيد بن جبيرة : عن الفواحش . وقال قتادة وسفيان : عما لا يحل لهن . وقال مقاتل : عن الزنا . وقال أبو العالية : كل آية أنزلت فى القرآن يذكر فيها حفظ الفروج ، فهو من الزنا ، إلا هذه الآية : ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ ألا يراها أحد .

وقال (٤) : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ أى : ولا يُظْهِرنَ شيئاً من الزينة للأجانب ، إلا ما لا يمكن إخفاؤه .

وقال ابن مسعود : كالرداء والثياب . يعنى : على ما كان يتعاناه نساء العرب ، من المقنعة التى تُجَلَّلُ ثِيَابُهَا ، وما يبدو من أسافل الثياب فلا حرج عليها فيه ؛ لأن هذا لا يمكن إخفاؤه . [ونظيره فى زى النساء ما يظهر من إزارها ، وما لا يمكن إخفاؤه . وقال (٥) بقول ابن مسعود : الحسن ، وابن سيرين ، وأبو الجوزاء ، وإبراهيم النخعي ، وغيرهم .

وقال الأعمش ، عن سعيد بن جبيرة ، عن ابن عباس : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ قال : وجهها وكفيها والخاتم . وروى عن ابن عمر ، وعطاء ، وعكرمة ، وسعيد بن جبيرة ، وأبى الشعثاء ، والضحاك ، وإبراهيم النخعي ، وغيرهم - نحو ذلك . وهذا يحتمل أن يكون تفسيراً للزينة التى نهين عن إبدائها ، كما قال أبو إسحاق السبيعي ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله قال فى قوله : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ : الزينة القُرْطُ والدُمْلَجُ والخلخال والقلادة . وفى رواية عنه بهذا الإسناد قال : الزينة زينتَان : فزينة لا يراها إلا الزوج : الخاتم والسوار ، [وزينة يراها الأجانب ، وهى (٦) الظاهر من الثياب .

وقال الزهري : [لا يبدو] (٧) لهؤلاء الذين سَمَّى الله ممن لا تحل له إلا الأسورة والأخمرة والأقراط من غير حسر ، وأما عامة الناس فلا يبدو منها إلا الخواتم .

وقال مالك ، عن الزهري : ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ : الخاتم والخلخال .

ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين ، وهذا هو المشهور عند الجمهور ، ويستأنس له بالحديث الذى رواه أبو داود فى سننه :

حدثنا يعقوب بن كعب الإنطاكى ومُؤَمِّلُ بْنُ الْفَضْلِ الْحَرَّانِي قَالَا : حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ بَشِيرٍ ، عَنْ قَتَادَةَ ، عَنْ خَالِدِ بْنِ دُرَيْكٍ عَنْ عَائِشَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ؛ أَنَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ دَخَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهَا ثِيَابٌ رَقَاقٌ ، فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَقَالَ : « يَا أَسْمَاءُ ، إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا بَلَغَتْ الْمَحِيضَ لَمْ

(١) فى أ : « أفعميَاوَان » .

(٢) سنن أبى داود برقم (٤١١٢) وسنن الترمذى برقم (٢٧٧٨) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٥٤) .

(٤) فى أ : « وقوله » . (٥ ، ٦ ، ٧) زيادة من ف ، أ .

يصلح أن يُرى منها إلا هذا « وأشار إلى وجهه وكفيه (١) .

لكن قال أبو داود وأبو حاتم الرازي : هذا مرسل ؛ خالد بن ذريك لم يسمع من عائشة ، فالله أعلم .

وقوله : ﴿ وَلَيَضْرِبَنَّ بِخُمْرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ يعنى : المقانع يعمل لها صَنَفَات ضاربَات على صدور النساء ، لتوارى ما تحتها من صدرها وترائيها ؛ ليخالفن شعارَ نساء أهل الجاهلية ، فإنهن لم يكن يفعلن ذلك ، بل كانت المرأة تمر بين الرجال مسفحة بصدرها ، لا يواريه شيء ، وربما أظهرت (٢) عنقها وذوائب شعرها وأقرطه آذانها . فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هيئاتهن وأحوالهن ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ [الأحزاب : ٥٩] . وقال فى هذه الآية الكريمة : ﴿ وَلَيَضْرِبَنَّ بِخُمْرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ والخمر : جمع خمار ، وهو ما يُخمر به ، أى : يغطى به الرأس ، وهى التى تسميها الناس المقانع .

قال سعيد بن جبير : ﴿ وَلَيَضْرِبَنَّ ﴾ : وليشددن ﴿ بِخُمْرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ يعنى : على النحر والصدر ، فلا يرى منه شيء .

وقال البخارى : وقال أحمد بن شبيب (٣) : حدثنا أبى ، عن يونس ، عن (٤) ابن شهاب ، عن عُرْوَةَ ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : يرحم الله نساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله : ﴿ وَلَيَضْرِبَنَّ بِخُمْرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ شققن مروطهن فاختمرن به (٥) (٦) .

وقال أيضا : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا إبراهيم بن نافع ، عن الحسن بن مسلم ، عن صفية بنت شيبة ؛ أن عائشة ، رضى الله عنها ، كانت تقول (٧) : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَلَيَضْرِبَنَّ بِخُمْرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ أخذن أزهرن فشققنها من قبل الحواشى ، فاختمرن بها (٨) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس ، حدثنى الزنجى بن خالد ، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن صفية بنت شيبة قالت : بينا نحن عند عائشة ، قالت : فذكرنا نساء قريش وفضلهن . فقالت عائشة ، رضى الله عنها : إن لنساء قريش لفضلاً ، وإنى - والله - وما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقاً بكتاب الله ، ولا إيماناً بالتنزيل . لقد أنزلت سورة النور : ﴿ وَلَيَضْرِبَنَّ بِخُمْرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ ، انقلب إليهن رجالهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها ، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته ، وعلى كل ذى قرابة (٩) ، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مِرطها المُرَحَّل فاعتجرت به ، تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه ، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ الصبح معتجرات ، كأن على رؤوسهن الغربان .

(١) سنن أبى داود برقم (٤١٠٤) .

(٢) فى ف : « ظهرت » .

(٣) فى هـ : « حدثنا أحمد بن شبيب » وفى ف ، أ : « حدثنا أحمد بن شبيب قال » والمثبت من البخارى .

(٤) فى ف ، أ : « قال » .

(٥) فى ف : « بها » وفى أ : « بهن » .

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧٥٨) .

(٧) فى هـ ، ف : « رضى الله عنها قالت : لما » ، والمثبت من البخارى .

(٨) صحيح البخارى برقم (٤٧٥٩) .

(٩) فى ف : « قرابته » .

ورواه أبو داود من غير وجه ، عن صفية بنت شيبة ، به (١) .
وقال ابن جرير : حدثنا يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أن قُرَّةَ بن عبد الرحمن أخبره ، عن ابن شهاب ، عن عُرْوَةَ ، عن عائشة ؛ أنها قالت : يرحم الله النساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ شَقَّقْنَ أَكْثَفَ مَرُوطِهِنَّ فَاخْتَمَرْنَ بِهِ . ورواه أبو داود من حديث ابن وهب ، به (٢) .

وقوله : ﴿ وَلَا يُدِينُ زَيْنَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ يعني : أزواجهن ، ﴿ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ ﴾ ، كل هؤلاء محارم المرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزینتها ، ولكن من غير اقتصاد وتبهرج (٣) .

وقال ابن المنذر : حدثنا موسى - يعني : ابن هارون - حدثنا أبو بكر - يعني ابن أبي شيبة - حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا داود ، عن الشعبي وعكرمة في هذه الآية : ﴿ وَلَا يُدِينُ زَيْنَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ ﴾ - حتى فرغ منها قال : لم يذكر العم ولا الخال ؛ لأنهما ينعتان (٤) ، ولأنهما ، ولا تضع خمارها عند العم والخال فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله ، فتصنع له ما لا يكون بحضرة غيره .

وقوله : ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ يعني : تظهر زينتها أيضاً للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة ؛ لثلاث تصفهن لرجالهن ، وذلك - وإن كان محذوراً في جميع النساء - إلا أنه في نساء أهل الذمة أشد ، فإنهن لا يمنعهن من ذلك مانع ، وأما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتتزجر عنه . وقد قال رسول الله ﷺ : « لا تبأش المرأة المرأة ، تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها » . أخرجاه في الصحيحين ، عن ابن مسعود (٥) .

وقال سعيد بن منصور في سننه : حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن هشام بن الغاز ، عن عبادة بن نُسَيٍّ ، عن أبيه ، عن الحارث بن قيس قال : كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة : أما بعد ، فإنه بلغني أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك ، فإنه من قبلك فلا (٦) يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها (٧) .
وقال مجاهد في قوله : ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ قال : نساؤهن المسلمات ، ليس المشركات من نساؤهن ، وليس للمرأة المسلمة أن تنكشف بين يدي المشركة .

وروى عبدُ في تفسيره (٨) ، عن الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس : ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ قال : هن المسلمات لا تبديه ليهودية ولا نصرانية ، وهو النحر والقرط والوشاح ، وما لا يحل أن يراه إلا محرم .

(١) سنن أبي داود برقم (٤١٠٠ ، ٤١٠١) .

(٢) تفسير الطبري (١٨ / ٩٤) وسنن أبي داود برقم (٤١٠٢) .

(٣) في أ : « بهرج » .

(٥) صحيح البخاري برقم (٥٢٤١) .

(٦) في ف ، أ : « فإنه لا » .

(٧) ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٧ / ٩٥) من طريق سعيد بن منصور ، به .

(٨) في ف : « تفسير » .

وروى سعيد : حدثنا جرير ، عن ليث ، عن مجاهد قال : لا تضع المسلمة خمارها عند مشركة ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ أَوْ نَسَائِهِنَّ ﴾ ، فليست ^(١) من نسائهن .

وعن مكحول وعبادة بن نسي : أنهما كرها أن تقبل النصرانية واليهودية والمجوسية المسلمة .

فأما ما رواه ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أبو عمير ، حدثنا ضمرة قال : قال ابن عطاء ، عن أبيه : ولما قدم أصحاب النبي ﷺ بيت المقدس ، كان قوَّابِلُ نسائهم اليهوديات والنصرانيات فهذا - إن صح - مَحْمُولٌ على حال الضرورة ، أو أن ذلك من باب الامتهان ، ثم إنه ليس فيه كشف عورة ولا بد ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ قال ابن جرير ^(٢) : يعنى : من نساء المشركين ، فيجوز لها أن تظهر [زينتها لها وإن كانت مشركة ؛ لأنها أمتها . وإليه ذهب سعيد بن المسيب . وقال الأكرثون : بل يجوز لها أن تظهر] ^(٣) على رقيقها من الرجال والنساء ، واستدلوا بالحديث الذى رواه أبو داود :

حدثنا محمد بن عيسى ، حدثنا أبو جميع سالم بن دينار ، عن ثابت ، عن أنس ، رضى الله عنه ، أن النبي ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها . قال : وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجلها ، وإذا غطت به رجلها لم يبلغ رأسها ، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال : « إنه ليس عليك بأس ، إنما هو أبوك وغلارك » ^(٤) .

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى تاريخه [فى] ^(٥) ترجمة حُذَيْجِ الحَصِيِّ - مولى معاوية - أن عبد الله بن مسعدة الفزارى كان أسود شديد الأدمة ، وأنه قد كان النبي ﷺ وهبه لابنته فاطمة ، فربته ثم أعتقته ، ثم قد كان بعد ذلك كله مع معاوية أيام صفين ، وكان من أشد الناس على علي بن أبي طالب ، رضى الله عنه ^(٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان بن عيينة ، عن الزهرى ، عن نبهان ، عن أم سلمة ، ذكرت أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كان لإحداكن مَكَّابٌ ، وكان له ما يؤدى ، فلتحتجب منه » . ورواه أبو داود ، عن مُسَدَّدٍ ، عن سفيان ، به ^(٧) .

وقوله : ﴿ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ ﴾ يعنى : كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء ، وهم مع ذلك فى عقولهم وكه وخوٲ ^(٨) ، ولا هم لهم إلى النساء ولا يشتهونهن . قال ابن عباس : هو المغفل الذى لا شهوة له .

وقال مجاهد : هو الأبله .

وقال عكرمة : هو المخنث الذى لا يقوم زبه . وكذلك قال غير واحد من السلف .

وفى الصحيح من حديث الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة ؛ أن مخنثاً كان يدخل على أهل

(١) فى ف : « فليس » ، وفى أ : « فلسن » .

(٢) فى أ : « جرير » .

(٣) زيادة من ف ، أ .

(٤) سنن أبى داود برقم (٤١٠٦) .

(٥) زيادة من ف ، أ .

(٦) تاريخ دمشق (٤ / ٢٧٨) المخطوط .

(٧) المسند (٦ / ٢٨٩) وسنن أبى داود برقم (٣٩٢٨) .

(٨) فى ف ، أ : « وحب » .

رسول الله ﷺ ، وكانوا يعدونه من غير أولى الإربة ، فدخل النبي ﷺ وهو ينعت امرأة : إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت أدبرت بثمان . فقال رسول الله ﷺ : « ألا أرى هذا يعلم ما هاهنا ، لا يدخلن عليكن » فأخرجه ، فكان بالبيداء يدخل يوم كل جمعة يستطعم (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن زينب بنت أبي سلمة ، عن أم سلمة قالت : دخل عليها [رسول الله ﷺ] (٢) وعندها مخنث ، وعندها [أخوها] (٣) عبد الله بن أبي أمية [والمخنث يقول لعبد الله : يا عبد الله بن أبي أمية] (٤) ، إن فتح الله عليكم الطائف غداً ، فعليك بابنة غيلان ، فإنها تقبل بأربع وتدبر (٥) بثمان . قال : فسمعه رسول الله ﷺ فقال لأم سلمة : « لا يدخلن هذا عليك » .

أخرجاه في الصحيحين ، من حديث هشام بن عروة ، به (٦) .
وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن الزهري ، عن عروة بن الزبير ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : كان رجل يدخل على أزواج النبي ﷺ مخنث ، وكانوا يعدونه من غير أولى الإربة ، فدخل النبي ﷺ يوماً وهو عند بعض نسائه ، وهو ينعت امرأة . فقال : إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت أدبرت بثمان . فقال النبي ﷺ : « ألا أرى هذا يعلم ما هاهنا ؟ لا يدخلن عليكم هذا » ، فحجبه .

ورواه مسلم ، وأبو داود ، والنسائي من طريق عبد الرزاق ، به (٧) .
وقوله : ﴿ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ يعني : لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن (٨) الرخيم ، وتعطفهن في المشية وحركاتهن ، فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك ، فلا بأس بدخوله على النساء . فأما إن كان مراهقاً أو قريباً منه ، بحيث يعرف ذلك ويدريه ، ويفرق بين الشوهاء والحسنة ، فلا يمكن من الدخول على النساء . وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إياكم والدخول على النساء » . قالوا : يا رسول الله ، أفرأيت الحمى؟ قال : « الحمى الموت » .

وقوله : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾ : كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت (٩) تمشى في الطريق وفي رجلها خلخال صامت - لا يسمع صوته - ضربت برجلها الأرض ، فيعلم الرجال طينته ، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك . وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستوراً ، فتحركت بحركة لتظهر (١٠) ما هو خفي ، دخل في هذا النهي ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾ . ومن ذلك أيضاً أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها ليشتتم (١١) الرجال طيبها ، فقد قال أبو عيسى الترمذى :

(١) صحيح مسلم برقم (٢١٨١) وزيادة : « فأخرجه ، فكان بالبيداء يدخل كل يوم جمعة . . . الحديث » أخرجه أبو داود في السنن برقم (٤١٠٩) من طريق الزهري ، به ، وليست في صحيح مسلم .

(٢) زيادة من ف ، أ ، والمسند . (٥) في ف ، أ : « وتذهب » .

(٦) المسند (٦ / ٢٩٠) وصحيح البخارى برقم (٥٨٨٧) وصحيح مسلم برقم (٢١٨٠) .

(٧) المسند (٦ / ١٥٢) وصحيح مسلم برقم (٢١٨١) وسنن أبي داود برقم (٤١٠٨) والنسائي في السنن الكبرى (٩٢٤٧) .

(٨) في ف : « كلامهم » . (٩) في ف : « كانت المرأة إذا كانت في الجاهلية » .

(١٠) في ف : « ليظهر » . (١١) في أ : « ليشم » .

حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا يحيى بن سعيد القطان ، عن ثابت بن عُمارة الحنفي ، عن غُنَيْمِ ابن قيس ، عن أبي موسى ، رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « كل عين زانية ، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا » يعنى زانية (١) .

قال : وفى الباب عن أبي هريرة ، وهذا حسن صحيح .
رواه أبو داود والنسائي ، من حديث ثابت بن عُمارة ، (٢) به .

وقال أبو داود : حدثنا محمد بن كثير ، أخبرنا سفيان ، عن عاصم بن (٣) عبيد الله ، عن عبيد مولى أبي رهم ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، قال : لقيت امرأة وجد منها ريح الطيب ، ولذيلها إعصار فقال : يا أمة الجبار ، جئت من المسجد ؟ قالت : نعم . قال لها : [وله] (٤) تَطَيَّبْتَ ؟ قالت : نعم . قال : إني سمعت حبي أبا القاسم (٥) ﷺ يقول : « لا يقبل الله صلاة امرأة تَطَيَّبَتْ لهذا المسجد ، حتى ترجع فتغتسل غُسُلاً من الجنابة » .

ورواه ابن ماجه ، عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن سفيان - هو ابن عيينة - (٦) به .
وروى الترمذى أيضاً من حديث موسى بن عبيدة ، عن أيوب بن خالد ، عن ميمونة بنت سعد ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « الرافلة فى الزينة فى غير أهلها ، كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها » (٧) .
ومن ذلك أيضاً أنهم يُنْهَوْنَ عن المشى فى وسط الطريق ؛ لما فيه من التبرج . قال أبو داود :

حدثنا القَعْنَبِيُّ ، حدثنا عبد العزيز - يعنى : ابن محمد - عن (٨) أبي اليمان ، عن شداد بن أبي عمرو بن حماس ، عن أبيه ، عن حمزة بن أبي أسيد الأنصارى ، عن أبيه : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو خارج من المسجد - وقد اختلط الرجال مع النساء فى الطريق - فقال رسول الله ﷺ للنساء : « استأخرن ، فإنه ليس لكن أن تَحْقُقْنَ (٩) الطريق ، عليكن بحافات الطريق » ، فكانت المرأة تلصق بالجدار ، حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار ، من لصوقها به (١٠) .

وقوله : ﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أى : افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة ، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة ، فإن الفلاح كل الفلاح فى فعل ما أمر الله به ورسوله ، وترك ما نها (١١) عنه ، والله تعالى هو المستعان [وعليه التكلان] (١٢) .

﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣٢) وَلَيْسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ

(١) سنن الترمذى برقم (٢٧٨٦) .

(٢) سنن أبي داود برقم (٤١٧٣) وسنن النسائي (٨ / ١٥٣) .

(٣) فى ف : « عن » . (٤) زيادة من ف ، أ ، وأبى داود . (٥) فى ف : « رسول الله » .

(٦) سنن أبي داود برقم (٤١٧٤) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٠٢) .

(٧) سنن الترمذى برقم (١١٦٧) وقال الترمذى : « وهذا حديث لا نعرفه إلا من حديث موسى بن عبيدة ، وموسى بن عبيدة يضعف فى الحديث من قبل حفظه وهو صدوق ، وقد رواه بعضهم عن موسى بن عبيدة ولم يرفعه » .

(٨) فى ف : « ابن » . (٩) فى ف : « تختصن » ، وفى أ : « تختص » .

(١٠) سنن أبي داود برقم (٥٢٧٢) .

(١١) فى أ : « ما نهاه » . (١٢) زيادة من ف ، أ .

فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبَتُّوا عَرْضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤) .

اشتملت هذه الآيات الكريمات المبينة على جمل من الأحكام المحكمة ، والأوامر المبرمة ، فقوله تعالى : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾ : هذا أمر بالتزويج . وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه ، على كل من قَدَّرَ عليه . واحتجوا بظاهر قوله ﷺ : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء » . أخرجه ابن مسعود^(١) .

وجاء في السنن - من غير وجه - أن رسول الله ﷺ قال : « تَزَوَّجُوا ، توالدوا ، تناسلوا ، فإنني مباه بكم الأمم يوم القيامة »^(٢) . وفي رواية : « حتى بالسقط » .

الأيامى : جمع أيم ، ويقال ذلك للمرأة التى لا زوج لها ، وللرجل الذى لا زوجة له . وسواء كان قد تزوج ثم فارق ، أو لم يتزوج واحد منهما ، حكاه الجوهري عن أهل اللغة ، يقال : رجل أيم وامرأة أيم أيضا .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : رغبهم الله فى التزويج ، وأمر به الأحرار والعبيد ، ووعدهم عليه الغنى ، فقال : ﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمود بن خالد الأزرق ، حدثنا عمر بن عبد الواحد ، عن سعيد - يعنى : ابن عبد العزيز - قال : بلغنى أن أبا بكر الصديق ، رضى الله عنه ، قال : أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ، ينجز [لكم]^(٣) ما وعدكم من الغنى ، قال : ﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ .

وعن ابن مسعود : التمسوا الغنى فى النكاح ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ . رواه^(٤) ابن جرير ، وذكر البغوى عن عمر بنحوه .

وعن الليث عن محمد بن عجلان ، عن سعيد المقبري ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة حق على الله عونهم : الناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء ، والغازى فى سبيل الله » . رواه الإمام أحمد ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه^(٥) .

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠٦٦) وصحيح مسلم برقم (١٤٠٠) .

(٢) سنن أبى داود برقم (٢٠٥٠) وسنن النسائى (٦ / ٦٥) .

(٣) زيادة من ف ، أ . (٤) فى ف ، أ : « ورواه » .

(٥) المسند (٢ / ٢٥١) وسنن الترمذى برقم (١٦٥٥) وسنن النسائى (٦ / ٦١) وسنن ابن ماجه برقم (٢٥١٨) .

وقد زوج رسول الله ﷺ ذلك الرجل الذى لم يجد إلا إزاره ^(١) ، ولم يقدر على خاتم من حديد ، ومع هذا فروّجه بتلك المرأة ، وجعل صداقها عليه أن يعلمها ما يحفظه من القرآن . والمعهود من كرم الله تعالى ولطفه أن يرزقه [وإياها] ^(٢) ما فيه كفاية له ولها . فأما ما يورده كثير من الناس على أنه حديث : « تزوجوا فقراء يغنكم الله » ، فلا أصل له ، ولم أره بإسناد قوى ولا ضعيف إلى الآن ، وفي القرآن غنية عنه ، وكذا ^(٣) هذا الحديث الذى أوردناه ، ولله الحمد . وقوله : ﴿ وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ : هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجاً [بالتعفف] ^(٤) عن الحرام ، كما قال - عليه الصلاة والسلام ^(٥) - : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج . ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » .

وهذه ^(٦) الآية مطلقة ، والتي فى سورة النساء أخص منها ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحِ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمَنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ، إلى أن قال : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [النساء : ٢٥] ، أى صبركم عن تزويج الإماء خيراً ؛ لأن الولد يجىء رقيقاً ، ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قال عكرمة فى قوله : ﴿ وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا ﴾ قال : هو الرجل يرى المرأة فكأنه يشتهى ، فإن كانت له امرأة فليذهب إليها وليقض ^(٧) حاجته منها ، وإن لم يكن له امرأة فلينظر فى ملكوت السموات [والأرض] ^(٨) حتى يغنيه الله .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ : هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب منهم عبيدهم الكتابة أن يكتبوا ^(٩) ، بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤدى إلى سيده المال الذى شارطه على أدائه . وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا الأمر أمر إرشاد واستحباب ، لا أمر تحتم وإيجاب ، بل السيد مخير ، إذا طلب منه عبده الكتابة إن شاء كاتبه ، وإن شاء لم يكتبه .

وقال الثورى ، عن جابر ، عن الشعبي : إن شاء كاتبه وإن شاء لم يكتبه . وقال ابن وهب ، عن إسماعيل بن عياش ، عن رجل ، عن عطاء بن أبى رباح : إن يشأ يكتبه وإن لم يشأ لم يكتبه ^(١٠) . وكذا قال مقاتل بن حيان ، والحسن البصرى . وذهب آخرون إلى أنه يجب على السيد إذا طلب منه عبده ذلك ، أن يجيبه إلى ما طلب ؛ أخذًا بظاهر هذا الأمر :

قال البخارى : وقال روح ، عن ابن جريج قلت لعطاء : [أوجب على إذا علمت له مالا أن كاتبه ؟ قال : ما أراه إلا واجباً . وقال عمرو بن دينار : قلت لعطاء] ^(١١) : أتأثره عن أحد ؟ قال : لا . ثم أخبرنى أن موسى بن أنس أخبره ، أن سيرين سأل أنسًا المكاتب - وكان كثير المال ، فأبى .

(١) فى أ : « الإزاره » .

(٢) زيادة من ف ، أ .

(٣) فى أ : « الإزاره » .

(٤) فى ف : « فهذه » .

(٥) فى ف : « ﷺ » .

(٦) زيادة من ف ، أ .

(٧) فى ف : « فليقض » .

(٨) زيادة من ف ، أ .

(٩) فى ف : « فليقض » .

(١٠) فى ف ، أ : « إن شاء كاتبه وإن شاء لم يكتبه » . (١١) زيادة من ف ، أ ، والبخارى .

فانطلق إلي عمر بن الخطاب فقال : كاتبه . فأبى ، فضربه بالدرة ، وبتلو عمر ، رضى الله عنه : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ ^(١) إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ ، فكاتبه ^(٢) .

هكذا ذكره البخارى تعليقا ^(٣) ، ورواه عبد الرزاق : أخبرنا ابن جريج قال : قلت لعطاء : أوجب على إذا علمت له مالا أن أكاتبه ؟ قال : ما أراه إلا واجبا . وقال عمرو ^(٤) بن دينار ، قال : قلت لعطاء : أتأثره عن أحد ؟ قال : لا ^(٥) .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن بكر ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك : أن سيرين أراد أن يكاتبه ، فتلكأ عليه ، فقال له عمر : لتكاتبته . إسناد صحيح ^(٦) .

وقال سعيد بن منصور : حدثنا هشيم بن جوير ، عن الضحاك قال : هى عزمة .

وهذا هو القول القديم من قولى الشافعى ، رحمه الله ، وذهب فى الجديد إلى أنه لا يجب ؛ لقوله ، عليه الصلاة والسلام ^(٧) : « لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب من نفسه » ^(٨) .

وقال ابن وهب : قال مالك : الأمر عندنا أن ليس على سيد العبد أن يكاتبه إذا سأله ذلك ، ولم أسمع أحداً من الأئمة أكره أحداً على أن يكاتب عبده . قال مالك : وإنما ذلك أمر من الله ، وإذن منه للناس ، وليس بواجب .

وكذا قال الثورى ، وأبو حنيفة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهم . واختار ابن جرير قول الوجوب لظاهر الآية .

وقوله : ﴿ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ ، قال بعضهم : أمانة . وقال بعضهم : صدقا . [وقال بعضهم : مالا] ^(٩) . وقال بعضهم : حيلة وكسبا .

وروى أبو داود فى كتاب المراسيل ، عن يحيى بن أبى كثير قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ قال : « إن علمتم فيهم حرفة ، ولا ترسلوهم كلاً ^(١٠) على الناس » .

وقوله : ﴿ وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ ، اختلف المفسرون فيه ، فقال قائلون : معناه اطرحو لهم من الكتابة بعضها ، ثم قال بعضهم : مقدار الربع . وقيل : الثلث . وقيل : النصف . وقيل : جزء من الكتابة من غير واحد .

وقال آخرون : بل المراد من قوله : ﴿ وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ : هو النصيب الذى فرض الله لهم من أموال الزكوات . وهذا قول الحسن ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وأبيه ، ومقاتل ابن حيان . واختاره ابن جرير .

(١) فى ف : « وكاتبوهم » وهو خطأ .

(٢) صحيح البخارى (١٨٤ / ٥) « فتح » .

(٣) فى أ : « معلقا » .

(٤) فى أ : « عمر » .

(٥) ورواه الطبرى فى تفسيره (٩٨ / ١٨) من طريق عبد الرزاق به .

(٦) تفسير الطبرى (٩٨ / ١٨) .

(٧) فى ف : « ﷺ » .

(٨) رواه أحمد فى مسنده (٧٢ / ٥) من حديث عم أبى حرة الرقاشى ، وفى (٤٢٥ / ٥) من حديث أبى حميد الساعدى ، وفى

(٤٢٣ / ٣) من حديث عمرو بن يربى .

(٩) زيادة من ف ، أ . (١٠) فى ف ، أ : « كلايا » .

وقال إبراهيم النَّخَعِيُّ في قوله : ﴿ وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ قال : حَثَّ النَّاسَ عَلَيْهِ ^(١) ، مولاة وغيره . وكذلك قال بُرَيْدَةُ بْنُ الْحُصَيْبِ الْأَسْلَمِيُّ ، وقتادة .

وقال ابن عباس : أمر الله المؤمنين أن يعينوا في الرقاب . وقد تقدَّم في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « ثلاثة حق على الله عونهم » : فذكر منهم المكاتب يريد الأداء ، والقول الأول أشهر .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا وكيع ، عن ابن شبيب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن عمر ؛ أنه كاتب عبداً له ، يكنى أبا أمية ، فجاء بنجمه حين حل ، فقال : يا أبا أمية ، اذهب فاستعن به في مكاتبتك . قال : يا أمير المؤمنين ، لو تركته حتى يكون من آخر نجم ؟ قال : أخاف ألا أدرك ذلك . ثم قرأ : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ ، قال عكرمة : كان ^(٢) أول نجم أدى في الإسلام .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا هارون بن المغيرة ، عن عنبسة ، عن سالم الأفطس ، عن سعيد بن جبيرة قال : كان ابن عمر إذا كاتب مكاتبه لم يضع عنه شيئاً من أول نجومه ، مخافة أن يعجز فترجع إليه صدقته . ولكنه إذا كان في آخر مكاتبته ، وضع عنه ما أحب ^(٣) .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ قال : يعني : ضبعوا عنهم من مكاتبهم . وكذلك قال مجاهد ، وعطاء ، والقاسم بن أبي بزة ، وعبد الكريم بن مالك الجزري ، والسدي .

وقال محمد بن سيرين في قوله : ﴿ وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ : كان يعجبهم أن يدع الرجل لمكاتبه طائفة من مكاتبته .

وقال ابن أبي حاتم : أخبرنا الفضل بن شاذان المقرئ ، أخبرنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا هشام ابن يوسف ، عن ابن جريج ، أخبرني عطاء بن السائب : أن عبد الله بن جندب أخبره ، عن علي ، رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « ربع الكتابة » ^(٤) .

وهذا حديث غريب ، ورفع منكر ، والأشبه أنه موقوف على علي ، رضي الله عنه ، كما رواه عنه أبو عبد الرحمن السلمي ، رحمه الله ^(٥) .

وقوله : ﴿ وَلَا تَكْرَهُوا فِتْيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الآية : كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة ، أرسلها تزني ، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت . فلما جاء الإسلام ، نهى الله المسلمين ^(٦) عن ذلك .

وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة - فيما ذكره غير واحد من المفسرين ، من السلف والخلف - في شأن عبد الله بن أبي بن سلول [المنافق] ^(٧) ، فإنه كان له إماء ، فكان يكرهن على البغاء طلباً لخراجهن ، ورغبة في أولادهن ، ورياسة منه فيما يزعم [قبحه الله ولعنه] ^(٨) .

(١) في ف ، أ : « على » . (٢) في ف ، أ : « فكان » .

(٣) تفسير الطبري (١٨ / ١٠١) .

(٤) ورواه عبد الرزاق في المصنف برقم (١٥٥٨٩) من طريق ابن جريج ، به . وقال : « قال ابن جريج : وأخبرني غير واحد عن عطاء ابن السائب أنه كان يحدث بهذا الحديث ، لا يذكر فيه النبي ﷺ » .

(٥) ورواه عبد الرزاق في مصنفه برقم (١٥٥٩٠) من طريق معمر ، عن عطاء بن السائب ، عن أبي عبد الرحمن السلمي ، به .

(٦) في ف ، أ : « المؤمنين » . (٧ ، ٨) زيادة من ف ، أ .

[ذكر الآثار ^(١) الواردة في ذلك] ^(٢) :

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار ، رحمه الله ، في مسنده : حدثنا أحمد ابن داود الواسطي ، حدثنا أبو عمرو اللخمي - يعني : محمد بن الحجاج - حدثنا محمد بن إسحاق ، عن الزهري قال : كانت جارية لعبد الله بن أبي بن سلول ، يقال لها : معاذة ، يكرهها على الزنا ، فلما جاء الإسلام نزلت : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٣) .

وقال الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر في هذه الآية : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ﴾ قال : نزلت في أمة لعبد الله بن أبي بن سلول يقال لها : مُسَيِّكَة ، كان يكرهها على الفجور - وكانت لا بأس بها - فتأبى . فأنزل الله ، عز وجل ، هذه الآية إلى قوله : ﴿ وَمَنْ يَكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٤) .

وروى النسائي ، من حديث ابن جريج ، عن أبي الزبير ، عن جابر نحوه ^(٥) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا عمرو بن علي ، حدثنا علي بن سعيد ، حدثنا الأعمش ، حدثني أبو سفيان ، عن جابر قال : كان لعبد الله بن أبي بن سلول جارية يقال لها : مسيكة ، وكان يكرهها على البغاء ، فأنزل الله : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ وَمَنْ يَكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

صرح الأعمش بالسماع من أبي سفيان طلحة بن نافع ، فدل على بطلان قول من قال : « لم يسمع منه ، إنما هو صحيفة » حكاه البزار .

قال أبو داود الطيالسي ، عن سليمان بن معاذ ، عن سَمَاك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ؛ أن جارية لعبد الله بن أبي كانت تزني في الجاهلية ، فولدت أولاداً من الزنا ، فقال لها : ما لك لا تزنين؟ قالت ^(٦) : لا ، والله لا أزني . فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ ^(٧) .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن الزهري : أن رجلاً من قريش أُسر يوم بدر ، وكان عند عبد الله بن أبي أسيراً ، وكانت لعبد الله بن أبي جارية يقال لها : معاذة ، وكان القرشي الأسير يريدتها على نفسها ، وكانت مسلمة ^(٨) ، وكانت تمتنع منه لإسلامها ، وكان عبد الله بن أبي يكرهها على ذلك ويضربها ، رجاء أن تحمل للقرشي ، فيطلب فداء ولده ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ ^(٩) .

(١) في أ : « الأحاديث » .

(٣) مسند البزار برقم (٢٢٤٠) « كشف الأستار » وقال الهيثمي في المجمع (٧ / ٨٣) : « فيه محمد بن الحجاج اللخمي وهو كذاب » .

(٤) رواه الطبري في تفسيره (١٨ / ١٠٣) من طريق الأعمش به .

(٥) النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٣٦٥) من طريق ابن جريج عن أبي الزبير ، به .

(٦) في ف : « فقالت » .

(٧) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١١ / ٢٨٤) من طريق أبي داود الطيالسي ، به .

(٨) في أ : « تسلم » .

(٩) تفسير عبد الرزاق (٢ / ٥٠) .

وقال السدى : أنزلت هذه الآية الكريمة فى عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين ، وكانت له جارية تدعى معاذة ، وكان إذا نزل به ضيف أرسلها إليه ليوافقها ، إرادة الثواب منه والكرامة له . فأقبلت الجارية إلى أبى بكر ، رضى الله عنه ، فشكت إليه ذلك ، فذكره أبو بكر للنبي ﷺ ، فأمره بقبضها . فصاح عبد الله بن أبى : من يعذرنى من محمد ، يغلبنا على مملوكتنا ؟ فأنزل الله فيهم هذا .

وقال مقاتل بن حيان : بلغنا - والله أعلم - أن هذه الآية نزلت فى رجلين كانا يكرهان أمتين لهما ، إحداهما اسمها مُسَيِّكة ، وكانت للأنصارى ، وكانت أئمة أم مسيكة لعبد الله بن أبى ، وكانت معاذة وأروى بتلك المنزلة ، فأتت مسيكة وأمها النبي ﷺ ، فذكرتا ذلك له ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ﴾ يعنى : الزنا .

وقوله : ﴿ إِنْ أَرَدَنْ تَحْصِنًا ﴾ : هذا خرج مخرج الغالب ، فلا مفهوم له .
وقوله : ﴿ لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ [الدنيا] ﴾ (١) أى : من خراجهن ومهورهن وأولادهن . وقد نهى رسول الله ﷺ عن كسب الحجام ، ومهر البغى وحلوان الكاهن (٢) - وفى رواية : « مهر البغى خبيث ، وكسب الحجام خبيث ، وثمن الكلب خبيث » (٣) .
وقوله : ﴿ وَمَنْ يَكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [أى : لهن ، كما تقدم فى الحديث عن جابر .

وقال ابن أبى طلحة ، عن ابن عباس : فإن فعلتم فإن الله لهن غفور رحيم (٤) وإثمهن على من أكرههن : وكذا قال مجاهد ، وعطاء الخراسانى ، والأعمش ، وقتادة .
وقال أبو عبيد : حدثنى إسحاق الأزرق ، عن عوف ، عن الحسن فى هذه الآية : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ قال : لهن والله . لهن والله .
وعن الزهرى قال : غفور لهن ما أكرهن عليه .
وعن زيد بن أسلم قال : غفور رحيم للمكرهات .
حكاهن ابن المنذر فى تفسيره بأسانيده .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا يحيى بن عبد الله ، حدثنى ابن لهيعة ، حدثنى عطاء ، عن سعيد بن جبير قال : فى قراءة عبد الله بن مسعود : « فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ لهن غَفُورٌ (٥) رَحِيمٌ » وإثمهن على من أكرههن .
وفى الحديث المرفوع عن رسول الله ﷺ أنه قال : « رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ ، وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ » (٦) .

(١) زيادة من ف ، أ . وهو الصواب .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٢٣٧) ومسلم فى صحيحه برقم (١٥٦٧) من حديث أبى مسعود الأنصارى رضى الله عنه : « أن النبى ﷺ نهى عن ثمن الكلب ومهر البغى وحلوان الكاهن » ، وأما كسب الحجام ، فروى ابن ماجه فى السنن برقم (٢١٦٥) من حديث عقبة بن عمرو : « نهى النبى ﷺ عن كسب الحجام » .

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٣ / ٤٦٤) من حديث رافع بن خديج ، رضى الله عنه .

(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى ف : « غفور لهن » .

(٦) رواه ابن ماجه فى السنن برقم (٢٠٤٣) وقد سبق الكلام عليه فى سورة الأعراف .

ولما فصل تعالى (١) هذه الأحكام وبيّنها قال : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ يعنى : القرآن فيه آيات واضحة مفسرات ، ﴿ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أى : خبراً عن الأمم الماضية ، وما حل بهم فى مخالفتهم أوامر الله تعالى (٢) ، كما قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ [الزخرف : ٥٦] .

﴿ وَمَوْعِظَةً ﴾ أى : زاجراً عن ارتكاب المآثم والمحارم ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أى : لمن اتقى الله وخافه . قال على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، فى صفة القرآن : فيه حكم ما بينكم ، وخبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله . ومن ابتغى الهدى من (٣) غيره أضله الله .

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٣٥) .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يقول : هادى أهل السموات والأرض .

وقال ابن جرير : قال مجاهد وابن عباس فى قوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ : يدبر الأمر فيهما ، نجمهما وشمسهما وقمرهما .

وقال ابن جرير : حدثنا سليمان بن عمر بن خالد الرقى ، حدثنا وهب بن راشد ، عن فرقد ، عن أنس بن مالك قال : إن إلهى يقول : نورى هداى . واختار هذا القول ابن جرير ، رحمه الله .

وقال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، عن أبى بن كعب فى قول الله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال : هو المؤمن الذى قد جعل [الله] (٤) الإيمان والقرآن فى صدره ، فضرب الله مثله فقال : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، فبدأ بنور نفسه ، ثم ذكر نور المؤمن فقال : مثل نور من آمن به . قال : فكان أبى بن كعب يقرأها : « مثل نور من آمن به » (٥) ، فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن فى صدره .

وهكذا قال (٦) سعيد بن جبير ، وقيس بن سعد ، عن ابن عباس أنه قرأها كذلك : « نور من آمن بالله » .

وقرأ بعضهم : « اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » .

وعن الضحاك : « اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » .

(١) فى ف ، أ : « ولا فصل تبارك وتعالى » . (٢) فى ف ، أ : « عز وجل » . (٣) فى أ : « فى » .

(٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) فى أ : « بالله » .

(٦) فى ف : « روى » .

وقال السدى فى قوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ : فبنوره أضاءت السموات والأرض .
وفى الحديث الذى رواه محمد بن إسحاق فى السيرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال فى دعائه
يوم آذاه أهل الطائف : « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا
والآخرة ، أن يحل بى غضبك أو ينزل بى سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا
بك (١) » (٢) .

وفى الصحيحين عن ابن عباس : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول : « اللهم لك
الحمد ، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن
فيهن » الحديث (٣) .

وعن ابن مسعود ، رضى الله عنه ، قال : إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش من
نور وجهه .

وقوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ : فى هذا الضمير قولان :

أحدهما : أنه عائد إلى الله ، عز وجل ، أى : مثل هداه فى قلب المؤمن ، قاله ابن عباس
﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ .

والثانى : أن الضمير عائد إلى المؤمن الذى دل عليه سياق الكلام : تقديره : مثل نور المؤمن
الذى فى قلبه ، كمشكاة . فشبّه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى ، وما يتلقاه من القرآن
المطابق لما هو مفطور عليه ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ [هود :
١٧] ، فشبّه قلب (٤) المؤمن فى صفائه فى نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري ، وما
يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافى المشرق المعتدل ، الذى لا كدر فيه ولا انحراف .

فقوله (٥) : ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، ومحمد بن كعب ، وغير واحد : هو
موضع الفتيلة من القنديل . هذا هو المشهور ؛ ولهذا قال بعده : ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ ، وهو الذبالة التى
تضىء .

وقال العوفى ، عن ابن عباس [فى] (٦) قوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا
مِصْبَاحٌ ﴾ : وذلك أن اليهود قالوا لمحمد ﷺ : كيف يخلص نور الله من دون السماء ؟ فضرب الله
مثل ذلك لنوره ، فقال : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ . والمشكاة : كوة فى البيت - قال :
وهو مثل ضربته الله لطاعته (٧) . فسمى الله طاعته نوراً ، ثم سمّاها أنواعاً شتى .

وقال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : الكوة بلغة الحبشة . وزاد غيره فقال : المشكاة : الكوة التى
لا منفذ لها . وعن مجاهد : المشكاة : الحداث التى يعلق بها القنديل .

والقول الأول أولى ، وهو : أن المشكاة هى موضع الفتيلة من القنديل ؛ ولهذا قال : ﴿ فِيهَا
مِصْبَاحٌ ﴾ ، وهو النور الذى فى الذبالة .

(١) فى ف ، أ : « بالله » .

(٢) رواه ابن هشام فى السيرة النبوية (١ / ٤٢٠) عن ابن إسحاق .

(٣) صحيح البخارى برقم (١١٢٠) وصحيح مسلم برقم (٧٦٩) .

(٤) فى ف ، أ : « القلب » . (٥) فى أ : « وقوله » . (٦) زيادة من ف ، أ . (٧) فى ف : « لاهل طاعته » .

قال أبى بن كعب : المصباح : النور ، وهو القرآن والإيمان الذى فى صدره .
وقال السدى : هو السراج .

﴿ الْمَصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾ أى : هذا الضوء مشرق فى زجاجة صافية .

قال أبى بن كعب وغير واحد : وهى نظير قلب المؤمن . ﴿ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ : قرأ بعضهم بضم الدال من غير همزة ، من الدر ، أى : كأنها كوكب من در .
وقرأ آخرون : « درىء » و « درىء » بكسر الدال وضمها مع الهمز ، من الدرء وهو الدفع ؛
وذلك أن النجم إذا رمى به يكون أشد استنارة من سائر الأحوال ، والعرب تسمى ما لا يعرف من الكواكب درارى .

قال أبى بن كعب : كوكب مضىء . وقال قتادة : مضىء مبين ضخم .

﴿ يُوقَدُ ^(١) مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ أى : يستمد من زيت زيتون شجرة مباركة ﴿ زَيْتُونَةٍ ﴾ بدل أو عطف بيان ﴿ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ أى : ليست فى شرقى بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار ، ولا فى غربها فيتقلص عنها الفىء قبل الغروب ، بل هى فى مكان وسط ، تفرعه ^(٢) الشمس من أول النهار إلى آخره ، فيجىء زيتها معتدلاً صافياً مشرقاً .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عمار قال : حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن سعد ، أخبرنا عمرو بن أبى قيس ، عن سمك بن حرب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : شجرة بالصحراء ، لا يظلمها جبل ولا شجر ولا كهف ، ولا يوارىها شيء ، وهو أجود لزيتها .

وقال يحيى بن سعيد القطان ، عن عمران بن حدير ، عن عكرمة ، فى قوله : ﴿ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : هى بصحراء ، وذلك أصفى لزيتها .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا عمر بن فروخ ، عن حبيب بن الزبير ، عن عكرمة - وسأله رجل عن : ﴿ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال ^(٣) : تلك [زيتونة] ^(٤) بأرض فلاة ، إذا أشرقت الشمس أشرقت عليها ، وإذا غربت غربت عليها فذاك أصفى ما يكون من الزيت .
وقال مجاهد فى قوله : ﴿ [زَيْتُونَةٍ] ^(٥) لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : ليست بشرقية ، لا تصيبها الشمس إذا غربت ، ولا غربية لا تصيبها الشمس إذا طلعت ، ولكنها شرقية وغربية ، تصيبها إذا طلعت [^(٦) وإذا غربت .

وقال سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ ﴾ قال : هو أجود الزيت . قال : إذا طلعت الشمس أصابتها من صوب المشرق ، فإذا أخذت فى الغروب أصابتها الشمس ، فالشمس تصيبها بالغداة والعشي ، فتلك لا تعد شرقية ولا غربية .
وقال السدى [فى] ^(٧) قوله : ﴿ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ يقول : ليست بشرقية يحوزها

(٣) فى ف ، أ : « فقال » .

(٢) فى هـ ، أ : « تقصرها » والمثبت من ف .

(١) فى ف ، أ : « توقد » .

(٤ - ٧) زيادة من ف ، أ .

المشرق ، ولا غربية يحوزها المغرب دون المشرق ، ولكنها على رأس جبل ، أو فى صحراء ، تصيبها الشمس النهار كله .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ : إنها فى وسط الشجر ، وليست بادية للمشرق ولا للمغرب .

وقال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، عن أبى بن كعب ، فى قول الله تعالى : ﴿ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : فهى خضراء ناعمة ، لا تصيبها الشمس على أى حال كانت ، لا إذا طلعت ولا إذا غربت . قال : فكذلك هذا المؤمن ، قد أجبر من أن يصيبه شئ من الفتن ، وقد ابتلى بها فيثبته الله فيها ، فهو بين أربع خلال : إن قال صدق ، وإن حكم عدل ، وإن ابتلى صبر ، وإن أعطى شكر ، فهو فى سائر الناس كالرجل الحى يمشى فى قبور الأموات .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا مُسَدَّد قال : حدثنا أبو عوَّانة ، عن أبى بشر عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : هى وسط الشجر ، لا تصيبها الشمس شرقا ولا غربا .

وقال عطية العوقى : ﴿ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : هى شجرة فى موضع من الشجر ، يرى ظل ثمرها فى ورقها ، وهذه من الشجر لا تطلع عليها الشمس ولا تغرب .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عمار ، حدثنا عبد الرحمن الدَّسْتَكْنِى ، حدثنا عمرو بن أبى قيس ، عن عطاء ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، فى قوله تعالى : ﴿ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ : ليست شرقية ليس فيها غرب ، ولا غربية ليس فيها شرق ، ولكنها شرقية غربية . وقال محمد بن كعب القرظى : ﴿ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : هى القبلىة . وقال زيد بن أسلم : ﴿ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : الشام .

وقال الحسن البصرى : لو كانت هذه الشجرة فى الأرض لكانت شرقية أو غربية ، ولكنه مثل ضربه الله لنوره .

وقال الضحَّاك ، عن ابن عباس : ﴿ تَوْقُدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ قال : رجل صالح ، ﴿ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : لا يهودى ولا نصرانى .

وأولى هذه الأقوال القول الأول ، وهو أنها فى مستوى من الأرض ، فى مكان فسيح بارز ظاهر ضاح للشمس ، تفرعه من أول النهار إلى آخره ، ليكون ذلك أصفى لزيتهما والطف ، كما قال غير واحد ممن تقدم ؛ ولهذا قال : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى : لضوء إشراق الزيت .

وقوله : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ قال العوفى ، عن ابن عباس : يعنى بذلك إيمان العبد وعمله .

وقال مجاهد ، والسدى : يعنى نور النار ونور الزيت .

وقال أبى بن كعب : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ : فهو يتقلب فى خمسة من النور ، فكلامه نور ، وعمله نور ، ومدخله نور ، ومخرجه نور ، ومصيره إلى النور يوم القيامة إلى الجنة .

وقال شمر بن عطية : جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال : حدثنى عن قول الله : ﴿ يَكَادُ

زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴿٣٥﴾ قال : يكاد محمد يبين للناس ، وإن ^(١) لم يتكلم ، أنه نبي ، كما يكاد ذلك الزيت أن يضيء .

وقال السدّي في قوله : ﴿ نُوْرٌ عَلَى نُوْرٍ ﴾ قال : نور النار ونور الزيت ، حين اجتماعا أضواء ، ولا يضيء واحد بغير صاحبه [كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتماعا ، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه] ^(٢) .

وقوله : ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ أى : يرشد الله إلى هدايته من يختاره ، كما جاء في الحديث الذى رواه الإمام أحمد :

حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا إبراهيم بن محمد الفزارى ، حدثنا الأوزاعى ، حدثنى ربيعة بن يزيد ، عن عبد الله [بن] ^(٣) الديلمى ، عن عبد الله بن عمرو ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله خلق خلقه فى ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ ، فمن أصاب يومئذ من نوره اهتدى ، ومن أخطأه ضل . فلذلك أقول : جف القلم على علم الله ، عز وجل » ^(٤) .

طريق أخرى عنه : قال البزار : حدثنا أيوب ^(٥) بن سُوَيْد ، عن يحيى بن أبى عمرو الشيبانى ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله خلق خلقه فى ظلمة ، فألقى عليهم نوراً من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ^(٦) ضل . [ورواه البزار عن عبد الله بن عمرو من طريق آخر ، بلفظه وحروفه] ^(٧) ^(٨) .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ : لما ذكر تعالى هذا مثلاً لنور هداه فى قلب المؤمن ، ختم الآية بقوله : ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى : هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر : حدثنا أبو معاوية - يعنى ^(٩) شيبان - عن ليث ، عن عمرو ابن مُرَّة ، عن أبى البَخْتَرى ، عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يُزهرُ ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مُصَفَّح : فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن ، سراج فيه نوره . وأما القلب الأغلف فقلب الكافر . وأما القلب المنكوس فقلب [المنافق] ^(١٠) ، عَرَفَ ثم أنكر . وأما القلب المُصَفَّح فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يَمُدُّها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القُرحة يَمُدُّها القيح والدم ، فأى المَدَّتَيْنِ غلبت على الأخرى غلبت عليه » . إسناده جيد ^(١١) ولم يخرجوه .

(١) فى ف ، أ : « ولو » . (٢) زيادة من ف ، أ . (٣) زيادة من ف ، أ ، والمسنَد .

(٤) المسند (٢ / ١٧٦) .

(٥) فى ف ، أ : « قال البزار : حدثنا شهاب بن عثمان حدثنا أيوب » . (٦) فى ف ، أ : « أخطأ » . (٧) زيادة من ف ، أ .

(٨) مسند البزار برقم (٢١٤٥) « كشف الأستار » ، ورواه أحمد فى مسنده (٢ / ١٩٧) من طريق محمد بن مهاجر عن عروة بن

رويم عن ابن الديلمى عن عبد الله بن عمرو ، به .

(٩) فى هـ : « حدثنا » والمثبت من ف ، أ ، والمسنَد . (١٠) زيادة من ف ، أ ، والمسنَد .

(١١) المسند (٣ / ١٧) .

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) ﴾ .

لما ضرب الله تعالى [مثل] (١) قلب المؤمن ، وما فيه من الهدى والعلم ، بالمصباح في الزجاجة الصافية المتوقد من زيت طيب ، وذلك كالقنديل ، ذكر محلها وهي المساجد ، التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض ، وهي بيوته التي يعبد فيها ويوحّد ، فقال : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ ﴾ أى : أمر الله تعالى برفعها ، أى : بتطهيرها من الدنس واللغو ، والأفعال والأقوال التي لا تليق فيها ، كما قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى هذه الآية الكريمة : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ ﴾ قال : نهى ، الله سبحانه ، عن اللغو فيها . وكذا قال عكرمة ، وأبو صالح ، والضحاك ، ونافع بن جبیر ، وأبو بكر بن سليمان بن أبى حنّمة (٢) ، وسفيان بن حسين ، وغيرهم من علماء المفسرين (٣) .

وقال قتادة : هي هذه المساجد ، أمر الله ، سبحانه ، بينهاها ورفعها ، وأمر بعمارها وتطهيرها . وقد ذكر لنا أن كعباً كان يقول : إن فى التوراة مكتوباً : « ألا إن بيوتى فى الأرض المساجد ، وإنه من توضع فأحسن وضوءه ، ثم زارنى فى بيتى أكرمته ، وحقّ على المزور كرامة الزائر » . رواه عبد الرحمن بن أبى حاتم فى تفسيره .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى بناء المساجد ، واحترامها وتوقيرها ، وتطيبها وتبخيرها . وذلك له محل مفرد يذكر فيه ، وقد كتبت فى ذلك جزءاً على حدة ، ولله الحمد والمنة . ونحن بعون الله تعالى نذكر (٤) هاهنا طرفاً من ذلك ، إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان :

فعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضى الله عنه ، قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « من بنى مسجداً يبتغى به وجه الله ، بنى الله له مثله فى الجنة » . أخرجاه فى الصحيحين (٥) .

وروى ابن ماجه ، عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من بنى مسجداً يذكر فيه اسم الله ، بنى الله له بيتاً فى الجنة » (٦) .

وللنسائي عن عمرو بن عبّسة (٧) مثله (٨) . والأحاديث فى هذا كثيرة جداً .

وعن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد فى الدور ، وأن تنظف

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف ، أ : « خيثة » . (٣) فى ف ، أ : « التفسير » . (٤) فى ف : « سنذكر » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٥٠) وصحيح مسلم برقم (٥٣٣) .

(٦) سنن ابن ماجه برقم (٧٣٥) من طريق الوليد بن أبى الوليد عن عثمان بن عبد الله عن عمر . وقال البوصيرى فى الزوائد (١ / ٢٦٠) : « هذا إسناد مرسل ، عثمان بن عبد الله بن سراقه روى عن عمر وهو جده لأمه ، ولم يسمع منه . قاله المزى » .

(٧) فى أ : « عبسة » .

(٨) سنن النسائي (٢ / ٣١) .

وتطيب^(١) . رواه أحمد وأهل السنن إلا النسائي . ولأحمد وأبي داود ، عن سَمُرَةَ بن جُنْدَب نحوه^(٢) .

وقال البخارى : قال عمر : ابن للناس ما يكنهم ، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس^(٣) . وروى ابن ماجه عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما ساء عمل قوم قط إلا زخرفوا مساجدهم »^(٤) . وفى إسناده ضعف .

وروى أبو داود عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أمرت بتشديد المساجد » . قال ابن عباس : لَتَزَخَرُفُنَهَا كَمَا زَخَرَفَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى^(٥) .

وعن أنس ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس فى المساجد » . رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذى^(٦) .

وعن بُرَيْدَةَ أن رجلاً أنشد فى المسجد ، فقال : من دعا إلى الجمل الأحمر ؟ فقال النبى ﷺ : « لا وجدت ، إنما بُنِيت المساجد لما بُنِيت له » . رواه مسلم^(٧) .

وعن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : نهى رسول الله ﷺ عن البيع والابتاع ، وعن تناشد الأشعار فى المساجد . رواه أحمد وأهل السنن^(٨) ، وقال الترمذى : حسن .

وعن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد ، فقولوا : لا أربح الله تجارتك . وإذا رأيتم من ينشد ضالة فى المسجد ، فقولوا : لا رد الله عليك » . رواه الترمذى ، وقال : حسن غريب^(٩) .

وقد روى ابن ماجه وغيره ، من حديث ابن عمر مرفوعاً ، قال : « خصال لا تنبغى فى المسجد : لا يُتَّخَذُ طريقاً ، ولا يُشْهَر فيه سلاح ، ولا يُنْبَض فيه بقوس ، ولا ينثر فيه نبل ، ولا يُمر فيه بلحم نيئ : ولا يُضْرَب فيه حدٌ ، ولا يُقْتَص فيه من أحد ، ولا يُتَّخَذ سوقاً »^(١٠) .

وعن واثلة بن الأسقع ، عن رسول الله ﷺ قال : « جَنَّبُوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم ، وشراءكم وبيعكم ، وخصوماتكم ورفع أصواتكم ، وإقامة حدودكم وسل سيفكم ، واتخذوا على أبوابها المطاهر ، وجَمَرُوهَا فى الجُمُع » .

(١) المسند (٢٧٩ / ٦) وسنن أبى داود برقم (٤٥٥) وسنن الترمذى برقم (٥٩٤) وسنن ابن ماجه برقم (٧٥٩) .

(٢) المسند (٥ / ١٧) وسنن أبى داود برقم (٤٥٦) .

(٣) صحيح البخارى (١ / ٥٣٩) « فتح » .

(٤) سنن ابن ماجه برقم (٧٤١) من طريق جبارة بن المغلس عن عبد الكريم بن عبد الرحمن عن عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب ، به . قال البوصيرى فى الزوائد (١ / ٢٦٢) : « هذا إسناده فى جبارة بن المغلس وقد اتهم » .

(٥) سنن أبى داود برقم (٤٤٨) .

(٦) المسند (٣ / ١٣٤) وسنن أبى داود برقم (٤٤٩) وسنن النسائي (٢ / ٣٢) وسنن ابن ماجه برقم (٧٣٩) .

(٧) صحيح مسلم برقم (٥٦٩) .

(٨) المسند (٢ / ١٧٩) وسنن أبى داود برقم (١٠٧٩) وسنن الترمذى برقم (٣٢٢) وسنن النسائي (٢ / ٤٧) وسنن ابن ماجه برقم (٧٤٩) .

(٩) سنن الترمذى برقم (٣١٢١) .

(١٠) سنن ابن ماجه برقم (٧٤٨) وقال البوصيرى فى الزوائد (١ / ٢٦٤) : « هذا إسناده فى زيد بن جبيره . قال ابن عبد البر : أجمعوا على أنه ضعيف » .

ورواه ابن ماجة أيضاً^(١) ، وفي إسنادهما^(٢) ضعف .
 أما أنه « لا يتخذ طريقاً » ، فقد كره بعض العلماء المرور فيه إلا الحاجة إذا وجد مندوحة عنه .
 وفي الأثر : « إن الملائكة لتتعجب من الرجل يمر بالمسجد لا يصلى فيه » .
 وأما أنه « لا يشهر فيه سلاح »^(٣) ، ولا ينبض فيه بقوس ، ولا ينثر فيه نبل^(٤) ، فلما يخشى من إصابة بعض الناس به ، لكثرة المصلين فيه ؛ ولهذا أمر رسول الله ﷺ إذا مر أحد بسهام أن يقبض على نصالها ؛ لئلا يؤذى أحداً ، كما ثبت فى الصحيح^(٥) .
 وأما النهى عن المرور باللحم النيئ فيه ، فلما يخشى من تقاطر الدم منه ، كما نهيت الحائض عن المرور فيه إذا خافت التلوّث .
 وأما أنه « لا يضرب فيه حد أو يقتص » ، فلما يخشى من إيجاد نجاسة فيه من المضروب أو المقطوع .

وأما أنه « لا يتخذ سوقاً » ، فلما تقدم من النهى عن البيع والشراء فيه ، فإنه إنما بنى لذكر الله والصلاة كما قال النبى ، عليه الصلاة والسلام ،^(٦) لذلك الأعرابى الذى بال فى طائفة المسجد : « إن المساجد لم تبَن لهذا ، إنما بنيت لذكر الله والصلاة فيها » . ثم أمر بسجل من ماء ، فأهريق على بوله^(٧) .

وفى الحديث الثانى : « جَنَّبُوا مساجدكم صبيانكم » ؛ وذلك لأنهم يلعبون فيه ولا يناسبهم ، وقد كان عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، إذا رأى صبياناً يلعبون فى المسجد^(٨) ، ضربهم بالمخففة - وهى الدرة - وكان يعُسُّ^(٩) المسجد بعد العشاء ، فلا يترك فيه أحداً .
 « ومجانينكم » يعنى : لأجل ضعف عقولهم ، وسخر الناس بهم ، فيؤدى إلى^(١٠) اللعب فيها ، ولما يخشى من تقذيرهم المسجد ، ونحو ذلك .
 « وبيعكم وشراءكم » ، كما تقدم .

« وخصوماتكم » يعنى : التحاكم والحكم فيه ؛ ولهذا نص كثير من العلماء على أن الحاكم لا ينتصب لفصل الأقضية فى المسجد ، بل يكون فى موضع غيره ؛ لما فيه من كثرة الحكومات والتشاجر والعياط^(١١) الذى لا يناسبه ؛ ولهذا قال بعده : « ورفع أصواتكم » .

وقال البخارى : حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا الجُعَيْد^(١٢) بن عبد الرحمن قال : حدثنى^(١٣) يزيد بن خَصِيفَة^(١٤) ، عن السائب بن يزيد الكندى قال : كنت قائماً فى المسجد ، فحصبني رجل ، فنظرت فإذا عمر^(١٥) بن الخطاب ، فقال : اذهب فائتنى بهذين . فجئته بهما ، فقال : من أتما ؟ أو : من أين أتما ؟ قال : من أهل الطائف . قال : لو كنتما من أهل

(١) سنن ابن ماجة برقم (٧٥٠) وقال البوصيرى فى الزوائد (١ / ٢٦٥) : « هذا إسناده ضعيف ، أبو سعيد هو محمد بن سعيد المصلوب ، قال أحمد : عمداً كان يضع الحديث ، ثم قال : والحارث بن نيهان ضعيف » .

(٢) فى ف ، أ : « إسناده » . (٣) فى أ : « السلام » . (٤) فى ف : « بنبل » .

(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٦١٥) من حديث أبى موسى الأشعرى .

(٦) فى أ : « ﷺ » .

(٧) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٨٤) من حديث أنس بن مالك ، رضى الله عنه .

(٨) فى ف : « فيه » . (٩) فى ف ، أ : « يقتش » . (١٠) فى أ : « على » .

(١١) فى أ : « والغياط » . (١٢) فى ف ، أ : « الجعد » . (١٣) فى ف ، أ : « عن » .

(١٤) فى ف ، أ : « حفصة » . (١٥) فى ف ، أ : « فإذا هو عمر » .

البلد لأوجعتكما . ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ (١) .

وقال النسائي : حدثنا سُوَيْدُ بن نصر ، عن عبد الله بن المبارك ، عن شعبة ، عن سعد بن إبراهيم ، عن أبيه إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال : سمع عمر صوت رجل في المسجد فقال : أتدرى أين أنت ؟ وهذا أيضاً صحيح (٢) .

وقوله : « وإقامة حدودكم ، وسل سيوفكم » : تقدماً (٣) .

وقوله : « واتخذوا على أبوابها المطاهر » ، يعنى : المراحيض التى يستعان بها على الوضوء وقضاء الحاجة . وقد كانت قريباً من مسجد رسول الله ﷺ آبار (٤) يستقون منها ، فيشربون ويتطهرون ، ويتوضؤون وغير ذلك .

وقوله : « وجمروها في الجمع » يعنى : بخروها في أيام الجمع لكثرة اجتماع الناس يومئذ .

وقد قال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا عبيد الله ، حدثنا عبد الرحمن (٥) بن مهدي ، عن عبد الله بن عمر ، عن نافع عن ابن عمر ؛ أن عمر كان يُجَمِّرُ مسجد رسول الله ﷺ كل جمعة . إسناده حسن لا بأس به (٦) ، والله أعلم .

وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « صلاة الرجل في الجماعة تُضَعَّفُ على صلاته في بيته وفي سوقه ، خمساً وعشرين ضعفاً . وذلك أنه إذا توضأ فأحسن وضوءه (٧) ، ثم خرج إلى المسجد ، لا يخرجها إلا الصلاة ، لم يخطُ خطوة إلا رُفِعَ له بها درجة ، وحطَّ عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام في مُصَلَّاه : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة » (٨) .

وعند الدارقطني مرفوعاً : « لا صلاة بلجار المسجد إلا في المسجد » (٩) .

وفى السنن : « بشر المشائين إلى المساجد في الظلم بالنور التام يوم القيامة » (١٠) .

والمستحب لمن دخل المسجد أن يبدأ برجله اليمنى ، وأن يقول كما ثبت في صحيح البخارى عن عبد الله بن عمرو (١١) ، رضى الله عنه (١٢) ، عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد قال :

(١) صحيح البخارى برقم (٤٧٠) .

(٢) وذكره المزى فى تحفة الأشراف (٤ / ٨) وعزاه للنسائي فى السنن الكبرى فى المواظ .

(٣) فى أ : « تقدم » . (٤) فى أ : « أباريق » . (٥) فى أ : « عبد الله » .

(٦) مسند أبى يعلى (١ / ١٧٠) .

(٧) فى ف ، أ : « الوضوء » .

(٨) صحيح البخارى برقم (٦٤٧) وصحيح مسلم برقم (٦٤٩) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٩) سنن الدارقطني (١ / ٤٢٠) من طريق سليمان بن داود اليمامى عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة مرفوعاً ، به . وقد رواه الحاكم فى المستدرک (١ / ٢٤٦) والبيهقى فى السنن الكبرى (٣ / ٥٧) من طريق سليمان بن داود ، به . وسليمان بن داود مجمع على تضعيفه . ومن حديث جابر ، رواه الدارقطني أيضاً فى السنن (١ / ٤٢٠) من طريق محمد بن مسكين عن عبد الله بن بكير عن محمد بن سوقة عن محمد بن المنكدر عن جابر مرفوعاً ، به . وقال أبو الطيب فى التعليق : « فيه محمد بن مسكين ، قال الذهبى : لا يعرف وخبره منكر . وقال البخارى : فى إسناده حديثه نظر » .

(١٠) رواه أبو داود فى السنن برقم (٥٦١) والترمذى فى السنن برقم (٢٢٣) من حديث بريدة بن الحصيب ، رضى الله عنه ، وقال الترمذى : « هذا حديث غريب من هذا الوجه مرفوع ، وهو صحيح مسند وموقوف إلى أصحاب النبى ﷺ ، ولم يسند إلى النبى ﷺ » .

(١١) فى أ : « عمر » . (١٢) فى ف ، أ : « عنهما » .

« أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم » [قال : أقط ؟ قال : نعم] (١) . قال : فإذا قال ذلك قال الشيطان : حُفَظَ مِنِّي سائر اليوم (٢) .

وروى مسلم بسنده عن أبي حميد - أو : أبي أسيد - قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أحدكم المسجد فليقل : اللهم افتح لي أبواب رحمتك ، وإذا خرج فليقل : اللهم إني أسألك من فضلك » .

ورواه النسائي عنهما ، عن النبي ﷺ (٣) [مثله] (٤) (٥) .

وعن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أحدكم المسجد ، فليسلم على النبي ﷺ وليقل : اللهم افتح لي أبواب رحمتك . وإذا خرج فليسلم على النبي ﷺ وليقل : اللهم اعصمني من الشيطان الرجيم » .

ورواه ابن ماجه ، وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما (٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا ليث بن أبي سليم ، عن عبد الله بن حسن (٧) ، عن أمه فاطمة بنت حسين ، عن جدتها فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ، ثم قال : « اللهم ، اغفر لي ذنوبى ، وافتح لي أبواب رحمتك » . وإذا خرج صلى على محمد وسلم ثم قال : « اللهم ، اغفر لي ذنوبى ، وافتح لي أبواب فضلك » .

ورواه الترمذى وابن ماجه (٨) ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن وإسناده ليس بمتصل ؛ لأن فاطمة بنت الحسين الصغرى لم تدرك فاطمة الكبرى .

فهذا الذى ذكرناه ، مع ما تركناه من الأحاديث الواردة فى ذلك لحال الطول (٩) ، كله داخل فى قوله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَيُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ أى : اسم الله ، كقوله : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف : ٣١] ، وقوله : ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [الأعراف : ٢٩] ، وقوله : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن : ١٨] .

قال ابن عباس : ﴿ وَيُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ يعنى : يتلى فيها كتابه .

وقوله : ﴿ يَسْبَحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ أى : فى البكرات والعشيَّات . والآصال : جمع أصيل ،

(١) زيادة من أ .

(٢) لم أجده فى صحيح البخارى ، وقد ذكره المزي فى تحفة الأشراف وابن الأثير فى جامع الأصول ولم يعزواه إلا لأبى داود فى السنن برقم (٤٦٦) .

(٣) فى ف ، أ : « رسول الله » . (٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) صحيح مسلم برقم (٧١٣) وسنن النسائي (٢ / ٥٣) .

(٦) سنن ابن ماجه برقم (٧٧٣) وصحيح ابن خزيمة برقم (٤٥٢) وصحيح ابن حبان برقم (٢٠٤٨) « الإحسان » كلهم من طريق أبى بكر الحنفى عن الضحاك بن عثمان عن المقبرى عن أبى هريرة ، به . وقال البوصيرى فى الزوائد (١ / ٩٧) : « هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات » .

(٧) فى أ : « حسين » .

(٨) المسند (٦ / ٢٨٢) وسنن الترمذى برقم (٣١٤) وسنن ابن ماجه برقم (٧٧١) .

(٩) فى ف ، أ : « لجافى القول » .

وهو آخر النهار .

وقال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : كل تسبيح في القرآن هو الصلاة .
وقال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : يعني بالغدو : صلاة الغداة ، ويعنى بالآصال : صلاة العصر ، وهما أول ما افترض الله من الصلاة ، فأحب أن يذكرهما وأن يذكر بهما عباده .
وكذا قال الحسن ، والضحاك : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ يعني : الصلاة .
ومن قرأ من القراءة (١) : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ - بفتح الباء من « يُسَبِّح » على أنه مبنى لما لم يسم فاعله - وقف (٢) على قوله : ﴿ وَالْآصَالِ ﴾ وقفًا تامًا ، وابتدأ بقوله : ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ وكأنه مفسر للفاعل المحذوف ، كما قال الشاعر (٣) :
لَيْكَ يَزِيدُ ، ضَارِعٌ لِحُصُومَةٍ وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوَائِحُ

كأنه قال : من يبيكه ؟ قال : هذا يبيكه . وكأنه قيل : من يسبح له فيها ؟ قال : رجال .
وأما على قراءة مَنْ قرأ : ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ - بكسر الباء - فجعله فعلا ، وفاعله : ﴿ رِجَالٌ ﴾ ، فلا يحسن الوقف إلا على الفاعل ؛ لأنه تمام الكلام .

فقوله : ﴿ رِجَالٌ ﴾ فيه إشعار بهمهم السامية ، ونياتهم وعزائمهم العالية ، التي بها صاروا عُمَارًا للمساجد ، التي هي بيوت الله في أرضه ، ومواطن عبادته وشكره ، وتوحيده وتنزيهه ، كما قال تعالى : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

فأما النساء فصلاتهن في بيوتهن أفضل لهن ؛ لما رواه أبو داود ، عن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها ، وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها » (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن غيلان ، حدثنا رشدين ، حدثني عمرو ، عن أبي السمح ، عن السائب - مولى أم سلمة - عن أم سلمة ، رضى الله عنها ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « خير مساجد النساء [قعر] (٥) بيوتهن » (٦) .

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا هارون ، أخبرني عبد الله بن وهب ، حدثنا داود بن قيس ، عن عبد الله بن سويد الأنصاري ، عن عمته أم حميد - امرأة أبي حميد الساعدي - : أنها جاءت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إني أحب الصلاة معك قال : « قد علمت أنك تحبين الصلاة معي ، وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك ، وصلاتك في حُجْرَتِكَ خير من صلاتك في دارك ، وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك ، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدى » . قال : فأمرت فبني لها مسجد في أقصى بيت من بيوتها وأظلمه (٧) ، فكانت تصلى فيه حتى لقيت الله ، عز وجل . لم يخرجوه (٨) .

(١) في ف ، أ : « القراءة » . (٢) في ف : « ويقف » .

(٣) ينسب للشاعر نهشل بن حري ولغيره ، وهو من شواهد الكتاب لسبويه (١ / ١٤٥) والمقتضب للمبرد (٣ / ٣٨٢) ومغنى اللبيب لابن هشام الشاهد رقم (١٠٤٨) ١ . هـ ، مستفاداً من حاشية الشعب .

(٤) سنن أبي داود برقم (٥٨٠) .

(٥) زيادة من ف ، أ .

(٦) المسند (٦ / ٢٩٧) .

(٧) في هـ : « بيوتها والله » وفي ف ، أ : « بيتها والله » ، والمثبت من المسند .

(٨) المسند (٦ / ٣٧١) .

هذا ويجوز لها شهود جماعة الرجال ، بشرط ألا تؤذى أحداً من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب ، كما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عمر أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » (١) .

رواه البخارى ومسلم ، ولأحمد وأبى داود : « بيوتهن خير لهن » (٢) ، وفى رواية : « وليخرجن وهن ثقلات » (٣) أى : لا ريح لهن .

وقد ثبت فى صحيح مسلم ، عن زينب - امرأة ابن مسعود - قالت : قال لنا رسول الله ﷺ : « إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيباً » (٤) .

وفى الصحيحين عن عائشة ، رضى الله عنها ، أنها قالت : كان نساء المؤمنين (٥) يشهدن الفجر مع رسول الله ﷺ ، ثم يرجعن متلفعات بمروطهن ، ما يُعرفن من الغلَس (٦) .

وفى الصحيحين أيضاً أنها قالت : لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن المساجد ، كما منعت نساء بنى إسرائيل (٧) .

وقوله : ﴿ رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون : ٩] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الجمعة : ٩] .

يقول تعالى : لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وملاذ بيعها وريحها ، عن ذكر ربهم الذى هو خالقهم ورازقهم ، والذين يعلمون أن الذى عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم ؛ لأن ما عندهم ينفد وما عند الله باق ؛ ولهذا قال : ﴿ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ أى : يقدمون طاعته ومُرادَه ومحَبته على مرادهم ومحبتهم .

قال هُشَيْمٌ : عن سَيَّار (٨) : [قال] (٩) حَدَّثْتُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ رَأَى قَوْمًا مِنْ أَهْلِ السُّوقِ ، حَيْثُ نُودِيَ بِالصَّلَاةِ ، تَرَكُوا بَيَاعَاتِهِمْ وَنَهَضُوا إِلَى الصَّلَاةِ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : هَؤُلَاءِ مِنَ الَّذِينَ ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ : ﴿ رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (١٠) .

وهكذا روى عمرو بن دينار القَهْرَمَانِيُّ ، عن سالم ، عن عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، أنه كان فى السوق (١١) فأقيمت الصلاة ، فأغلَقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد ، فقال ابن عمر : فيهم

(١) صحيح البخارى برقم (٩٠٠) وصحيح مسلم برقم (٤٤٢) .

(٢) المسند (٧٦ / ٢) وسنن أبى داود برقم (٥٦٧) من حديث عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما .

(٣) وهى فى المسند (٤٣٨ / ٢) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٤) صحيح مسلم برقم (٤٤٣) .

(٥) فى ف ، أ : « المؤمنات » .

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٧٨) وصحيح مسلم برقم (٦٤٥) .

(٧) صحيح البخارى برقم (٨٦٩) وصحيح مسلم برقم (٤٤٥) .

(٨) فى ف ، أ : « شيان » .

(٩) زيادة من ف ، أ .

(١٠) رواه الطبرى فى تفسيره (١٨ / ١١٣) .

(١١) فى ف ، أ : « بالسوق » .

نزلت : ﴿ رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ . رواه ابن أبي حاتم ، وابن جرير ^(١) .
وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عبد الله بن بكر ^(٢) الصنعاني ، حدثنا أبو سعيد مولى بنى
هاشم ^(٣) ، حدثنا عبد الله بن بُجَيْر ، حدثنا أبو عبد رب ^(٤) قال : قال أبو الدرداء ، رضى الله عنه :
إني قمت ^(٥) على هذا الدرج أبياع عليه ، أربح كل يوم ثلاثمائة دينار ، أشهد الصلاة في كل يوم في
المسجد ، أما إني لا أقول : « إن ذلك ليس بحلال » ، ولكني أحب أن أكون من الذين قال الله :
﴿ رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .

وقال عمرو بن دينار الأعور : كنت مع سالم بن عبد الله ونحن نريد المسجد ، فمررنا بسوق
المدينة وقد قاموا إلى الصلاة وخمروا متاعهم ، فنظر سالم إلى أمتعتهم ليس معها أحد ، فتلا سالم
هذه الآية : ﴿ رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ، ثم قال : هم هؤلاء .

وكذا قال سعيد بن أبي الحسن ، والضحاك : لا تلهيهم التجارة والبيع أن يأتوا الصلاة في وقتها .
وقال مطر الوراق : كانوا يبيعون ويشترون ، ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانه في يده
خفضه ، وأقبل إلى الصلاة .

وقال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ يقول : عن
الصلاة المكتوبة . وكذا قال الربيع بن أنس ومقاتل بن حيان .
وقال السدي : عن الصلاة في جماعة .

وعن مقاتل بن حيان : لا يلهيهم ذلك عن حضور الصلاة ، وأن يقيموها كما أمرهم ^(٦) الله ،
وأن يحافظوا على مواقيتها ، وما استحفظهم الله فيها .

وقوله : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ أى : يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب
والأبصار ، أى : من شدة الفزع وعظمة الأهوال ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ
لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينَ ﴾ [غافر : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾
[إبراهيم : ٤٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوَجْهِ
اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا . إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا . فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ
وَلَقَاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا . وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان : ٨ - ١٢] .

وقال هاهنا ﴿ لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ أى : هؤلاء من الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا
ويتجاوز عن سيئاتهم .

وقوله : ﴿ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى : يتقبل منهم الحسن ويضاعفه لهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ
اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يضاعفها وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٠] ، وقال
تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام : ١٦٠] ، وقال : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهُ قَرْضًا
حَسَنًا فَيضاعفه لَهُ أَضعافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة : ٢٤٥] ، وقال : ﴿ وَاللَّهُ يضاعفُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة :

(١) تفسير الطبرى (١٨ / ١١٣) .

(٢) فى ف ، أ : « بكر » . (٣) فى أ : « هشام » . (٤) فى ف ، أ : « عبد ربه » .

(٥) فى أ : « أقمتم » . (٦) فى ف ، أ : « أمر » .

[٣٦١] ، كما قال هاهنا : ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

وعن ابن مسعود : أنه جىء بلبن فعرضه على جلسائه واحداً واحداً ، فكلهم لم يشربه لأنه كان صائماً ، فتناوله ابن مسعود وكان مفطراً فشربه ، ثم تلا قوله تعالى (١) : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ ، رواه النسائي ، وابن أبي حاتم ، من حديث الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عنه (٢) .

وقال [ابن أبي حاتم] (٣) أيضاً : حدثنا أبي ، حدثنا سُوَيْدُ بْنُ سَعِيدٍ ، حدثنا علي بن مُسَهَّرٍ عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن شهر بن حَوْشَبٍ عن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله ﷺ : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، جاء مناد فناد بصوت يُسمع الخلائق : سيعلم أهلُ الجمع من أولى بالكرم ، ليقم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . فيقومون ، وهم قليل ، ثم يحاسب سائر الخلائق » (٤) .

وروى الطبراني ، من حديث بَقِيَّةٍ ، عن إسماعيل بن عبد الله الكندي ، عن الأعمش ، عن أبي وائل ، عن ابن مسعود ، عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ ﴾ [فاطر : ٣٠] قال : ﴿ أَجُورَهُمْ ﴾ يدخلهم الجنة ، ﴿ وَيَزِيدَهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ ﴾ : الشفاعة لمن وجبت له الشفاعة ، لمن صنع لهم المعروف في الدنيا (٥) .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ (٤٠) ﴾ .

هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعى الكفار ، كما ضرب للمنافقين فى أول « البقرة » (٦) مثلين نارياً ومائياً ، وكما ضرب لما يقر فى القلوب من الهدى والعلم فى سورة « الرعد » (٧) مثلين مائياً ونارياً ، وقد تكلمنا على كل منها (٨) فى موضعه بما أغنى عن إعادته ، ولله الحمد والمنة .
فأما الأول من هذين المثلين : فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم ، الذين يحسبون أنهم على شىء من الأعمال والاعتقادات ، وليسوا فى نفس الأمر على شىء ، فمثلهم فى ذلك كالسراب الذى يرى فى القيعان من الأرض عن (٩) بعد كانه بحر طام .

(١) فى ف ، أ : « عز وجل » .

(٢) ذكره المزي فى تحفة الأشراف برقم (٩٤٣٥) وعزاه للنسائي فى المواظ .

(٣) زيادة من ف ، أ .

(٤) ورواه هناد فى الزهد برقم (١٧٦) من طريق أبى معاوية عن عبد الرحمن بن إسحاق ، به . وعبد الرحمن بن إسحاق ضعيف .

(٥) المعجم الكبير للطبراني (١٠ / ٢٤٨) وقال الحافظ ابن كثير عند تفسير الآية : ١٧٣ من سورة النساء : « هذا إسناد لا يثبت ، وإذا روى عن ابن مسعود موقوفاً فهو جيد » .

(٦) عند الآية : ١٧ ، والآية : ١٩ . (٧) عند الآية : ١٧ . (٨) فى ف ، أ : « منهما » . (٩) فى ف : « من » .

والقيعة : جمع قاع ، كجار وجيرة . والقاع أيضاً : واحد القيعان ، كما يقال : جار وجيران . وهى : الأرض المستوية المتسعة المنبسطة ، وفيه يكون السراب ، وإنما يكون ذلك بعد نصف النهار . وأما الآل (١) فإنما يكون أول النهار ، يرى كأنه ماء بين السماء والأرض ، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء ، حسبه ماءً فقصده ليشرب منه ، فلما انتهى إليه ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ ، فكذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملاً ، وأنه قد حصل شيئاً ، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها ، ونوقش على أفعاله ، لم يجد له شيئاً بالكلية قد قيل ، إما لعدم الإخلاص ، وإما لعدم سلوك الشرع ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَدْ مَنَا إِلَى مَا عَمَلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً ﴾ [الفرقان : ٢٣] .

وقال هاهنا : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ . وهكذا روى عن أبي بن كعب ، وابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة وغير واحد .

وفى الصحيحين (٢) : أنه يقال يوم القيامة لليهود : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد عزير ابن الله . فيقال : كذبتهم ، ما اتخذ الله من ولد ، ماذا تبغون ؟ فيقولون : أى ربنا ، عطشنا فاسقنا . فيقال : ألا ترون ؟ فتمثل لهم النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً ، فينطلقون فيتهافون فيها (٣) .

وهذا المثل مثال لذوى الجهل المركب . فأما أصحاب الجهل البسيط ، وهم الطغامم الأغشام المقلدون لأئمة الكفر ، الصم البكم الذين لا يعقلون ، فمثلهم كما قال تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ﴾ . قال قتادة : وهو العميق . ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا ﴾ أى : لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام ، فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذى لا يدرى أين يذهب ، ولا [هو] (٤) يعرف حال من يقوده ، بل كما يقال فى المثل للجاهل : أين تذهب ؟ قال : معهم . قيل : فإلى أين يذهبون ؟ قال : لا أدري .

وقال العوفى ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما : ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾ : يعنى بذلك : الغشاوة التى على القلب والسمع والبصر ، وهى كقوله : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : ٧] ، وكقوله (٥) : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٣] .

وقال أبى بن كعب فى قوله : ﴿ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ : فهو يتقلب فى خمسة من الظلم : كلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات ، إلى النار .

وقال الربيع بن أنس ، والسددي نحو ذلك أيضاً .

وقوله : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ أى : من لم يهده الله فهو هالك جاهل حائر بائر كافر ، كما قال تعالى : ﴿ مَنْ يَضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ﴾ [الأعراف : ١٨٦] ، وهذا [فى] (٦)

(١) فى أ : « الأول » . (٢) فى أ : « الصحيح » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٥٨١) وصحيح مسلم برقم (١٨٣) من حديث أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه .

(٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) فى أ : « وقوله » .

(٦) زيادة من ف ، أ .

مُقابِلة ما قال فى مثل المؤمنين : ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ : فنسأل الله العظيم أن يجعل فى قلوبنا نوراً ، وعن إيماننا نوراً ، وعن شمائلنا نوراً ، وأن يعظم لنا نوراً .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) ﴾ .

يخبر تعالى أنه يُسَبِّحُه من فى السموات والأرض ، أى : من الملائكة والأناسى ، والحيوان ، حتى الجماد ، كما قال تعالى : ﴿ تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

وقوله : ﴿ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ﴾ أى : فى حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدتها إليه ، وهو يعلم ما هى فاعلة ؛ ولهذا قال : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ أى : كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه فى عبادة الله ، عز وجل .

ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك ، لا يخفى عليه من ذلك شيء ؛ ولهذا ^(١) قال : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

ثم أخبر تعالى : أن له ملك السموات والأرض ، فهو الحاكم المتصرف الذى لا معقب لحكمه ، وهو الإله المعبود الذى لا تنبغى العبادة إلا له . ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى : يوم القيامة ، فيحكم فيه بما يشاء ؛ ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم : ٣١] ، فهو الخالق المالك ، ألا له الحكم فى الدنيا والآخرة ، وله الحمد فى الأولى والآخرة ؟ !

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِثَالِ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَآ بَرَقَهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤) ﴾ .

يذكر تعالى أنه بقدرته يسوق السحاب أول ما ينشئها وهى ضعيفة ، وهو الإزجاء ، ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ أى : يجمعه بعد تفرقه ، ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ﴾ أى : متراكماً ، أى : يركب بعضه بعضاً ، ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ ﴾ أى المطر ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ أى : من خلكه . وكذا ^(٢) قرأها ابن عباس والضحاك .

قال عبيد بن عمير الليثى : يبعث الله المثيرة فتَقَمُّ الأرض قمأ ، ثم يبعث الله الناشئة فتنشئ السحاب ، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه ، ثم يبعث [الله] ^(٣) اللواقح فتلقح السحاب . رواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير ، رحمهما الله .

وقوله : ﴿ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِثَالِ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ : قال بعض النحاة : « من » الأولى : لابتداء الغاية ، والثانية : للتبعيض ، والثالثة : لبيان الجنس . وهذا إنما يجىء على قول من ذهب من

(١) زيادة من ف .

(٢) فى ف ، أ : « وكذلك » .

(٣) فى ف ، أ : « ولذا » .

المفسرين إلى أن قوله : ﴿ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ ومعناه : أن في السماء جبالَ بَرَدٍ ينزل الله منها البرد . وأما من جعل الجبال هاهنا عبارة ^(١) عن السحاب ، فإن « من » الثانية عند هذا لابتداء الغاية أيضاً ، لكنها بَدَلٌ من الأولى ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ ﴾ : يحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ ﴾ أى : بما ينزل من السماء من نوعي البرد والمطر ^(٢) ، فيكون قوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ رحمة لهم ، ﴿ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى : يؤخر عنهم الغيث .

ويحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ ﴾ أى : بالبرد نقمة على من يشاء لما فيه من نثر ثمارهم وإتلاف زروعهم وأشجارهم . ويصرفه عمن يشاء [أى : ^(٣) رحمة بهم] .

وقوله : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ أى : يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته .

وقوله : ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى : يتصرف فيهما ، فيأخذ من طول هذا فى قصر هذا حتى يعتدلاً ، ثم يأخذ من هذا فى هذا ، فيطول الذى كان قصيراً ، ويقصر الذى كان طويلاً . والله هو المتصرف فى ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ أى : لدليلاً على عظمته تعالى ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠] ، وما بعدها من الآيات الكريمات .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤٥) .

يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم ، فى خلقه أنواع [المخلوقات] ^(٤) ، على اختلاف أشكالها وألوانها ، وحركاتها وسكناتها ، من ماء واحد ، ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ﴾ كالحية وما شاكلها ، ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ﴾ كالإنسان والطيور ، ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات ؛ ولهذا قال : ﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ أى : بقدرته ؛ لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٤٦) .

يقرر تعالى أنه أنزل فى هذا القرآن من الحكم ^(٥) والأمثال البينة المحكمة ، كثيراً ^(٦) جداً ، وأنه يرشد إلى تفهمها وتعقلها أولى الأبواب والبصائر والنهى ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

(٣) فى ف : أ . (٤) زيادة من ف ، أ .
(٦) فى ف : « المحكمة ما هو كثير » .

(١) فى ف ، أ : « كناية » . (٢) فى ف : « المطر والبرد » .
(٥) فى هـ : « من الحكم والحكم والأمثال » . والمثبت من ف ، أ .

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ .

يخبر تعالى عن صفات المنافقين ، الذين يظهرون خلاف ما يبطنون ، يقولون قولاً بالستهم : ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ أى : يخالفون أقوالهم بأعمالهم ، فيقولون ما لا يفعلون ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ أى : إذا طلبوا إلى اتباع الهدى ، فيما أنزل الله على رسوله ، أعرضوا عنه واستكبروا فى أنفسهم عن اتباعه . وهذه كقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ [النساء : ٦٠ : ٦١] .

وفى الطبرانى من حديث روح بن عطاء بن (١) أبى ميمونة ، عن أبيه ، عن الحسن ، عن سمرة مرفوعاً : « من دُعِيَ إِلَى سُلْطَانٍ فَلَمْ يَجِبْ ، فَهُوَ ظَالِمٌ لَا حَقَّ لَهُ » (٢) .

وقوله : ﴿ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ أى : إذا كانت الحكومة لهم لا عليهم ، جاؤوا سامعين مطيعين وهو معنى قوله : ﴿ مُذْعِنِينَ ﴾ ، وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ودعا إلى غير الحق ، وأحب أن يتحاكم إلى غير النبى ﷺ ليروج باطله ثم . فإذعانه أو لاس لم يكن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق ، بل لأنه موافق لهواه ؛ ولهذا لما خالف الحق قصده ، عدل عنه إلى غيره ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ ﴾ يعنى : لا يخرج أمرهم عن أن يكون فى القلوب مرض لازم لها ، أو قد عرض لها شك فى الدين ، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم فى الحكم . وأيا ما كان فهو كفر محض ، والله عليم بكل منهم ، وما هو عليه منطو من هذه الصفات .

وقوله : ﴿ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى : بل هم الظالمون الفاجرون ، والله ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور ، تعالى الله ورسوله عن ذلك .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا مبارك ، حدثنا الحسن قال :

(١) فى ف ، أ : « عن » .

(٢) المعجم الكبير للطبرانى (٧ / ٢٢٥) وقال الهيثمى فى المجمع (٤ / ١٩٨) : « فيه روح بن عطاء ، وثقه ابن عدى وضعفه الأئمة » .

كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة ، فدعى إلى النبي ﷺ وهو مُحَقَّقٌ أذعن ، وعلم أن النبي ﷺ سيقضى له بالحق . وإذا أراد أن يظلم فدعى إلى النبي ﷺ أعرض ، وقال : أنطلق إلى فلان . فأنزل الله هذه الآية ، فقال رسول الله ﷺ : « من كان بينه وبين أخيه شيء ، فدعى إلى حكم من حكم المسلمين فأبى أن يجيب ، فهو ظالم لا حق له » (١) .

وهذا حديث غريب ، وهو مرسل .

ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ، الذين لا ييغون ديناً سوى كتاب الله وسنة رسوله ، فقال : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ أى : سمعاً وطاعة ؛ ولهذا وصفهم تعالى بفلاح ، وهو نيل المطلوب والسلامة من المرهوب ، فقال : ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

وقال قتادة فى هذه الآية : ﴿ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ : ذكر لنا أن عبادة بن الصامت - وكان عقيباً بدرى ، أحد نقباء الأنصار - أنه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبى أمية : ألا أنبئك بماذا عليك وماذا لك ؟ قال : بلى . قال : فإن عليك السمع والطاعة ، فى عسرك ويسرك ، ومنشطك ومكرهك ، وأثرة عليك . وعليك أن تقيم لسانك بالعدل ، وألا تنازع الأمر أهله ، إلا أن يأمروك بمعصية الله بأوآحا ، فما أمرت به من شيء يخالف كتاب الله ، فاتبع كتاب الله .

وقال قتادة : وذكر (٢) لنا أن أبا الدرداء قال : لا إسلام إلا بطاعة الله ، ولا خير إلا فى جماعة ، والنصيحة لله ولرسوله ، وللخليفة وللمؤمنين عامة .

قال : وقد ذكر لنا أن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، كان يقول : عروة الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والطاعة لمن ولاه الله أمر المسلمين . رواه ابن أبى حاتم . والأحاديث والآثار فى وجوب الطاعة لكتاب الله [وسنة رسوله ، وللخلفاء الراشدين ، والأئمة إذا أمروا بطاعة الله] (٣) كثيرة جداً ، أكثر من أن تحصر فى هذا المكان . وقوله : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أى : فيما أمراه به وترك (٤) وما نهياه (٥) عنه ، ﴿ وَيَخْشَ اللَّهَ ﴾ فيما مضى من ذنوبه ، ﴿ وَيَتَّقَهُ ﴾ فيما يستقبل .

وقوله : ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ يعنى : الذين فازوا بكل خير ، وأمنوا من كل شر (٦) فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) ﴾ .

(١) ورواه عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن مرسل كما فى الدر المنثور (٦ / ٢١٣) .

(٢) فى ف : « وذكروا » . (٣) زيادة من ف ، أ . (٤) فى أ : « وترك » .

(٥) فى ف ، أ : « نهيا » . (٦) فى ف ، أ : « سوء » .

يقول تعالى مخبراً عن أهل النفاق ، الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ : لئن أمرهم ^(١) بالخروج [فى الغزو] ^(٢) ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ لَا تَقْسِمُوا ﴾ أى : لا تحلفوا .

وقوله : ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ : قيل : معناه ^(٣) : طاعتكم طاعة معروفة ، أى : قد علمت طاعتكم ، إنما هي قول لا فعل معه ، وكلما حلفتكم كذبتكم ، كما قال تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٩٦] ، وقال تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون : ٢] ، فهم من سجيئتهم الكذب حتى فيما يختارونه ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلِّنَنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴾ [الحشر : ١١ ، ١٢] .

وقيل : المعنى فى قوله : ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ أى : ليكن أمركم طاعة معروفة ، أى : بالمعروف من غير حلف ولا إقسام ، كما يطيع الله ورسوله المؤمنون بغير حلف ، فكونوا أنتم مثلهم .

﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أى : هو خير بكم وبمن يطيع ممن يعصى ، فالحلف وإظهار الطاعة - والباطن بخلافه ، وإن راج على المخلوق ^(٤) - فالخالق ، تعالى ، يعلم السر وأخفى ، لا يروج عليه شئ من التدليس ، بل هو خير بضماير عباد ، وإن أظهرها خلافها .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ أى : اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله .

وقوله : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أى : تتولوا عنه وتتركوا ما جاءكم به ، ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ ﴾ أى : إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة ، ﴿ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ﴾ أى : من ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه ، ﴿ وَإِنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ ؛ وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ [الشورى : ٥٣] .

وقوله : ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ كقوله : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٤٠] ، وقوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية : ٢١ ، ٢٢] .

وقال وهب بن منبه : أوحى الله إلى نبي من أنبياء بنى إسرائيل - يقال له : شعيا - : أن قم فى بنى إسرائيل فإننى سأطلق لسانك بوحي . فقام فقال : يا سماء اسمعى ، ويا أرض أنصتى ، فإن الله يريد أن يقضى شأنًا ويدبر أمرًا هو منفذه ، إنه يريد أن يحول الريف إلى الفلاة ، والأجام ^(٥) فى الغيطان ، والأنهار فى الصحارى ، والنعمة فى الفقراء ، والملك فى الرعاة ، ويريد أن يبعث أميا من الأميين ، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ، لو يمر إلى جنب السراج لم يطفئه من سكينته ، ولو يمشى على القصب اليابس لم يسمع من تحت قدميه . أبعثه مبشراً ونذيراً ، لا يقول

(١) فى ف ، أ : « أمرتهم » .

(٢) زيادة من ف ، أ .

(٣) فى ف ، أ : « تقديره » .

(٤) فى أ : « الأجسام » .

(٥) فى ف : « المحلوف » .

الحنّا ، أفتح به أعينا عميًا ، وأذنًا صمًا ، وقلوبًا غُلْفًا ، وأسَدَّه لكل أمر جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة منطقته ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والحق شريعته ، والعدل سيرته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملته ، وأحمد اسمه ، أهدي به بعد الضلالة ، وأعلم به من الجهالة ، وأرفع به بعد الخُمالة ، وأعرف به بعد النُكْرة ، وأكثر به بعد القلة وأغنى به بعد العيلة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف به بين أمم متفرقة ، وقلوب مختلفة ، وأهواء متشتتة ، وأستنقذ به فئاماً من الناس عظيماً من الهلكة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، يأمرهم بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، موحدون مؤمنين مخلصين ، مصدقون بما جاءت به رُسُلِي . رواه ابن أبي حاتم (١) .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) ﴾ .

هذا وعد من الله لرسوله ﷺ (٢) ، بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض ، أى : أئمة الناس والولاء عليهم ، وبهم تصلح (٣) البلاد ، وتخضع (٤) لهم العباد ، وليبدلنَّ بعد خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم ، وقد فعل تبارك وتعالى ذلك ، وله الحمد والمنة ، فإنه لم يمت رسول الله ﷺ حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين ، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكما لها . وأخذ الجزية من مجوس هَجَرَ ، ومن بعض أطراف الشام ، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية - وهو المقوقس - وملوك عمان والنجاشى ملك الحبشة ، الذى تملك بعد أصحمة ، رحمه الله وأكرمه .

ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة ، قام بالأمر بعده خليفته أبوبكر الصديق ، فلمَّ شعث ما وهى عند (٥) موته ، عليه الصلاة والسلام (٦) ، وأطدَّ جزيرة العرب ومهداها ، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد ، رضى الله عنه ، ففتحوا طرفاً منها ، وقتلوا خلقاً من أهلها . وجيشاً آخر صحبة أبى عبيدة ، رضى الله عنه ، ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام ، وثالثاً صحبة عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، إلى بلاد مصر ، ففتح الله للجيش الشامى فى أيامه بصرى ودمشق ومخاليقهما من بلاد حوران وما والاها ، وتوفاه الله ، عزوجل ، واختار له ما عنده من الكرامة . ومنَّ على الإسلام وأهله بأن ألهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق ، فقام فى الأمر بعده قياماً تاماً ، لم يدُر الفلك بعد الأنبياء [عليهم السلام] (٧) على مثله ، فى قوة سيرته وكمال عدله . وتم فى أيامه فتح البلاد الشامية بكما لها ، وديار مصر إلى آخرها ، وأكثر إقليم فارس ، وكسّر كسرى وأهان غاية الهوان ، وتقهر إلى أقصى مملكته ، وقصر قيصر ، وانتزع يده عن بلاد الشام فانحاز إلى قسطنطينية ، وأنفق أموالهما فى سبيل الله ، كما أخبر

(١) وروى عن عبد الله بن سلام وكعب الأحبار كما فى الشفاء للقاضى عياض (١ / ١٥) .

(٢) فى ف ، أ : « صلوات الله وسلامه عليه » . (٣) فى ف ، أ : « يصلح » . (٤) فى ف ، أ : « ويخضع » .

(٥) فى ف : « بعد » . (٦) فى ف ، أ : « ﷺ » . (٧) زيادة من ف ، أ .

بذلك ووعد به رسول الله ، عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة .

ثم لما كانت الدولة العثمانية ، أمتدت الممالك ^(١) الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها ، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك : الأندلس ، وقبرص ، وبلاد القيروان ، وبلاد سبتة مما يلي البحر المحيط ، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين ، وقتل كسرى ، وباد ملكه بالكلية . وفتحت مدائن العراق ، وخراسان ، والأهواز ، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدا ، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان ، وجبى الخراج من المشرق والمغرب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضى الله عنه . وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن ؛ ولهذا ثبت فى الصحيح ^(٢) عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله زوى لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » ^(٣) . فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، فنسأل ^(٤) الله الإيمان به ، وبرسوله ، والقيام بشكره على الوجه الذى يرضيه عنا .

قال الإمام مسلم بن الحجاج : حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن عبد الملك بن عمير ، عن جابر بن سمرة قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « لا يزال أمر الناس ماضيا ما وليهم اثنا عشر رجلا » . ثم تكلم النبی ﷺ بكلمة خفيت عنى ^(٥) فسألت أبى : ماذا قال رسول الله ﷺ ؟ فقال : « كلهم من قريش » .

ورواه البخارى من حديث شعبة ، عن عبد الملك بن عمير ، به ^(٦) .

وفى رواية لمسلم أنه قال ذلك عشية رجم ماعز بن مالك ، وذكر معه أحاديث أخر ^(٧) .

وهذا الحديث فيه دلالة على أنه لا بد من وجود اثني عشر خليفة عادلا ، وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثني عشر فإن كثيرا من أولئك لم يكن إليهم من الأمر شيء ؛ فأما هؤلاء فإنهم يكونون من قريش ، يَلُون فيعدلون . وقد وقعت البشارة بهم فى الكتب المتقدمة ، ثم لا يشترط أن يكونوا متتابعين ، بل يكون وجودهم فى الأمة متتابعاً ومتفرقا ، وقد وجد منهم أربعة على الولاء ، وهم : أبوبكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم على ، رضى الله عنهم . ثم كانت ^(٨) بعدهم ^(٩) فترة ، ثم وجد منهم ما شاء الله ، ثم قد يوجد منهم من بقى فى وقت يعلمه الله . ومنهم المهدي الذى يطابق اسمه اسم رسول الله ﷺ ، وكنيته كنيته ، يملأ الأرض عدلا وقسطا ، كما ملئت جورا وظلما .

وقد روى الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، من حديث سعيد بن جهمان ، عن سَفِينَةَ - مولى رسول الله ﷺ - قال : قال رسول الله ﷺ ^(١٠) : « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ، ثم

(١) فى ج ، أ : « الممالك » .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٨٨٩) من حديث ثوبان ، رضى الله عنه .

(٤) فى ف : « ونسأل » .

(٥) فى ف ، أ : « على » .

(٦) صحيح مسلم برقم (١٨٢١) وصحيح البخارى برقم (٧٢٢٢) .

(٧) صحيح مسلم برقم (١٨٢٢) .

(٨) فى ف ، أ : « كان » .

(٩) فى ف ، أ : « بينهم » .

(١٠) فى ف ، أ : « عن سفينة مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال » ، والثبت من المسند وسننى أبى داود والترمذى .

يكون ملكاً عضوضاً» (١) .

وقال الربيع بن أنس ، عن أبي العالية في قوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ (٢) فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ الآية ، قال : كان النبي ﷺ وأصحابه بمكة (٣) نحواً من عشر سنين ، يدعون إلى الله وحده ، وعبادته وحده لا شريك له سرّاً وهم خائفون ، لا يؤمرون بالقتال ، حتى أمروا بعد الهجرة إلى المدينة ، فقدموا المدينة ، فأمرهم الله بالقتال ، فكانوا بها خائفين يُمسُون في السلاح ويصبحون في السلاح ، فغَيَّرُوا (٤) بذلك ما شاء الله . ثم إن رجلاً من أصحابه (٥) قال : يا رسول الله ، أبدأ الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا [فيه] (٦) السلاح ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لن تَغَيِّرُوا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملاء العظيم مُحْتَبِئاً ليست فيهم حديدية » . وأنزل الله هذه الآية ، فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب ، فأمنوا ووضعوا السلاح . ثم إن الله ، عز وجل ، قبض نبيه ﷺ ، فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا ، فأدخل [الله] (٧) عليهم الخوف فاتخذوا الحِجْزَةَ والشرط وغيروا ، فغَيَّرَ بهم .

وقال بعض السلف : خلافة أبي بكر وعمر ، رضى الله عنهما ، حق في كتابه ، ثم تلا هذه الآية .

وقال البراء بن عازب : نزلت هذه الآية ، ونحن في خوف شديد .

وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى : ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٦] .

وقوله : ﴿ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ كما قال تعالى عن موسى ، عليه السلام ، أنه قال لقومه : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُكِنِّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : ٥ ، ٦] .

وقوله : ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ ، كما قال رسول الله ﷺ لعدى بن حاتم ، حين وفد عليه : « أتعرف الحيرة ؟ » قال (٨) : لم أعرفها ، ولكن قد (٩) سمعت بها . قال : « فوالذي نفسى بيده ، ليؤمنن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى

(١) المسند (٥ / ٢٢٠) وسنن أبي داود برقم (٤٦٤٦) وسنن الترمذى برقم (٢٢٢٦) والسنن الكبرى برقم (٨١٥٥) وقال الترمذى : « حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث سعيد بن جهمان » ، ولم ترد لفظة : « عضوض » في هذه المصادر ، وإنما وردت في حديث آخر عن أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى بدأ هذا الأمر نبوة ورحمة ، وكائناتاً خلافة ورحمة ، وكائناتاً ملكاً عضوضاً ، وكائناتاً عنوة وجبرية وفساداً في الأمة ... الحديث » أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٥٩/٨) .

(٢) في ف : « لنستخلفنهم » . (٣) في ف ، أ : « بمكة وأصحابه » . (٤) في ف : « فصبروا » ، وفي أ : « فغيروا » . (٥) في ف ، أ : « الصحابة » . (٦ ، ٧) زيادة من أ ، والدر المنثور ٥ / ٥٥ . (٨) في ف ، أ : « لم أرها وقد » . (٩) في ف ، أ : « لم أرها وقد » .

تطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز . قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : « نعم ، كسرى بن هرمز ، وليُذَكَّنَ المالُ حتى لا يقبله أحد » . قال عدى بن حاتم : فهذه الطعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن افتتح ^(١) كنوز كسرى بن هرمز ، والذي نفسى بيده ، لتكون الثالثة ؛ لأن رسول الله ﷺ قد قالها ^(٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا سفيان ، عن أبى سلمة ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « بشر هذه الأمة بالسَّاء والرفعة ، والدين والنصر والتمكين فى الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا ، لم يكن له فى الآخرة نصيب » ^(٣) .

وقوله : ﴿ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ ، قال الإمام أحمد :

حدثنا عفان ، حدثنا همام ، حدثنا قتادة عن أنس ، أن معاذ بن جبل حدثه قال : بينا ^(٤) أنا رديف رسول الله ﷺ ليس بينى وبينه إلا آخرة الرَّحْل ، قال : « يا معاذ » ، قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال : ثم سار ساعة ثم قال : « يا معاذ بن جبل » ، قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك . [ثم سار ساعة ، ثم قال : « يا معاذ بن جبل » ، قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك] ^(٥) . قال : « هل تدري ما حق الله على العباد » ، قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « [فإن] ^(٦) حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » . قال : ثم سار ساعة . ثم قال : « يا معاذ بن جبل » ، قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال : « فهل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ » ، قال : قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن حق العباد على الله ألا يعذبهم » . أخرجاه فى الصحيحين من حديث قتادة ^(٧) .

وقوله : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أى : فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك ، فقد فَسَقَ عن أمر ربه وكفى بذلك ذنباً عظيماً . فالصَّحابة ، رضى الله عنهم ، لما كانوا أقوم الناس بعد النبى ﷺ بأوامر الله ، عز وجل ، وأطوعهم لله - كان نصرهم بحسبهم ، وأظهروا كلمة الله فى المشارق والمغارب ، وأيدهم تأييداً عظيماً ، وتحكموا فى سائر العباد والبلاد . ولما قَصَرَ الناس بعدهم فى بعض الأوامر ، نقص ظهورهم بحسبهم ، ولكن قد ثبت فى الصحيحين ، من غير وجه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى اليوم ^(٨) القيامة » . وفى رواية : « حتى يأتى أمر الله ، وهم كذلك ^(٩) » . وفى رواية : « حتى يقاتلوا الدجال » . وفى رواية : « حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم ظاهرون » . وكل

(١) فى أ : « فتح » .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٥٩٥) .

(٣) المسند (٥ / ١٣٤) .

(٤) فى أ : « بينما » . (٥ ، ٦) زيادة من ف ، أ ، والمسند .

(٧) المسند (٥ / ٢٤٢) وصحيح البخارى برقم (٥٩٦٧) وصحيح مسلم برقم (٣٠) .

(٨) فى ف ، أ : « يوم » . (٩) فى ف ، أ : « على ذلك » .

هذه الروايات صحيحة ، ولا تعارض بينها .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿ (٥٧) ﴾ .

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بإقام الصلاة ، وهى عبادة الله وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة ، وهى : الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم ، وأن يكونوا فى ذلك مطيعين للرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، أى : سالكين وراءه فيما به أمرهم ، وتاركين ^(١) ما عنه زجرهم ، لعل الله يرحمهم بذلك . ولا شك أن من فعل ذلك أن الله سيرحمهم ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ [التوبة : ٧١] .

وقوله ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ﴾ ، أى : [لا تظن] ^(٢) يا محمد ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : خالفوك وكذبوك ، ﴿ مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : لا يعجزون الله ، بل الله قادر عليهم ، وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا لَهُمُ ﴾ أى : فى الدار الآخرة ﴿ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أى : بشس المال مأل الكافرين ، وبشس القرار وبشس المهاد .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْفُؤْا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهْرِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ (٦٠) ﴾ .

هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض . وما تقدم فى أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض . فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنه خدمهم مما ملكت أيمانهم وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم فى ثلاثة أحوال : الأول من قبل صلاة الغداة ؛ لأن الناس إذ ذاك يكونون نياماً فى فرشهم ، ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ ﴾ أى : فى وقت القيلولة ؛ لأن الإنسان قد يضع ثيابه فى تلك الحال مع أهله ، ﴿ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ﴾ ؛ لأنه وقت النوم ، فيؤمر الخدم والأطفال ألا يهجموا على أهل البيت فى هذه الأحوال ، لما يخشى من أن يكون الرجل

(١) فى ف : « وترك » .

(٢) زيادة من ف ، أ .

علي أهله ، ونحو ذلك من الأعمال ؛ ولهذا قال : ﴿ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾ أى : إذا دخلوا فى حال غير هذه الأحوال فلا جناح عليكم فى تمكينكم إياهم من ذلك ، ولا عليهم إن رأوا شيئاً فى غير تلك الأحوال ؛ لأنه قد أذن لهم فى الهجوم ، ولأنهم ﴿ طَوَافُونَ ﴾ عليكم ، أى : فى الخدمة وغير ذلك ، ويغتفر فى الطوافين ما لا يغتفر فى غيرهم ؛ ولهذا روى الإمام مالك وأحمد بن حنبل وأهل السنن أن رسول الله ﷺ قال فى الهرة : « إنها ليست بنجس ؛ إنها من الطوافين عليكم - أو - والطوافات » (١) .

ولما كانت هذه الآية محكمة ولم تنسخ بشئ ، وكان عمل الناس بها قليلاً جداً ، أنكر عبد الله ابن عباس ذلك على الناس ، كما قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبو زُرْعَةَ ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير ، حدثنى عبد الله بن لهيعة ، حدثنى عطاء ابن دينار ، عن سعيد بن جبير قال : قال ابن عباس : ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يُلْفُوا الْحِلْمُ [مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ] ﴾ (٢) إلى آخر الآية ، والآية التى فى سورة النساء : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ ﴾ [النساء : ٨] ، والآية التى فى الحجرات : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وروى أيضاً من حديث إسماعيل بن مسلم - وهو ضعيف - عن عمرو بن دينار ، عن عطاء بن أبى رباح ، عن ابن عباس قال : غلب الشيطان الناس على ثلاث آيات ، فلم يعملوا بهن : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ إلى آخر الآية .

وقال أبو داود : حدثنا ابن الصباح بن سفيان وابن عبدة - وهذا حديثه - أخبرنا سفيان ، عن عبيد الله بن أبى يزيد ، سمع ابن عباس يقول : لم يؤمن بها أكثر (٣) الناس - آية الإذن - وإنى لأمر جاريتى هذه تستأذن على .

قال أبو داود : وكذلك رواه عطاء ، عن ابن عباس يأمر به (٤) .

وقال الثورى ، عن موسى بن أبى عائشة سألت الشعبى : ﴿ لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ ، قال : لم تنسخ قلت . فإن الناس لا يعملون بها . فقال : الله المستعان .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا الربيع بن سليمان ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنا سليمان بن بلال ، عن عمرو بن أبى عمرو ، عن عكرمة عن ابن عباس ؛ أن رجلين سألاه عن الاستئذان فى الثلاث عورات التى أمر الله بها فى القرآن ، فقال ابن عباس : إن الله ستر يحب السر ، كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ولا حِجَال فى بيوتهم ، فربما فاجأ الرجل خادمه أو ولده أو يتيمة فى حجره ،

(١) الموطأ (٢٣ / ١) والمسند (٢٩٦ / ٥) وسنن أبى داود برقم (٧٥) وسنن الترمذى برقم (٩٢) وسنن النسائى (١ / ٥٥) وسنن ابن ماجه برقم (٣٦٧) .

(٢) فى ف ، أ : « كثير من » .

(٣) زيادة من ف ، أ .

(٤) سنن أبى داود برقم (٥١٩١) .

وهو على أهله ، فأمرهم الله أن يستأذنوا فى تلك العورات التى سمى الله . ثم جاء الله بعد بالاستور ^(١) ، فبسط [الله] ^(٢) عليهم الرزق ، فاتخذوا الستور واتخذوا الحِجَال ، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذى أمروا به .

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس ، ورواه أبو داود ، عن القَعْنَبِيِّ ، عن الدَّرَّاورِدِيِّ ، عن عمرو ابن أبى عمرو ، به ^(٣) .

وقال السُّدِّيُّ : كان أناس من الصحابة ، رضى الله عنهم ، يحبون أن يُواقِعوا نساءهم فى هذه الساعات ليغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة ، فأمرهم الله أن يأمرُوا المملوكين والغلمان ألا يدخلوا عليهم فى تلك الساعات إلا بإذن .

وقال مقاتل بن حَيَّان : بلغنا - والله أعلم - أن رجلاً من الأنصار وامرأته أسماء بنت مُرْشدة صنعا للنبي ﷺ طعاما ، فجعل الناس يدخلون بغير إذن ، فقالت أسماء : يا رسول الله ، ما أقبح هذا ! إنه ليدخل على المرأة وزوجها وهما في ثوب واحد ، غلامهما بغير إذن ! فأنزل الله فى ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ [ثَلَاثَ مَرَّاتٍ] ﴾ ^(٤) الآية .

ومما يدل على أنها محكمة لم تنسخ ، قوله : ﴿ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ . يعنى : إذا بلغ الأطفال الذين إنما كانوا يستأذنون فى العورات الثلاث ، إذا بلغوا الحلم ، وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال ، يعنى بالنسبة إلى أجانبيهم وإلى الأحوال التى يكون الرجل على امرأته ، وإن لم يكن فى الأحوال الثلاث .

قال الأوزاعى ، عن يحيى بن أبى كثير : إذا كان الغلام رباعيا فإنه يستأذن فى العورات الثلاث على أبيه ، فإذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال . وهكذا قال سعيد بن جبير .

وقال فى قوله : ﴿ كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يعنى : كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه .

وقوله : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ : قال سعيد بن جبير ، ومُقاتِل بن حَيَّان ، وقتادة ، والضحاك : هن اللواتى انقطع عنهن الحيض ويئسن من الولد ، ﴿ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ أى : لم يبق لهن تشوف إلى التزويج ، ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ أى : ليس عليها من الحرج فى التستر كما على غيرها من النساء .

قال أبو داود : حدثنا أحمد بن محمد المروزى حدثني علي بن الحسين بن واقد ، عن أبيه ، عن يزيد النحوى ، عن عكرمة عن ابن عباس : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ الآية [النور : ٣١] فنسخ ، واستثنى من ذلك ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ الآية ^(٥) .

قال ابن مسعود [فى قوله] ^(٦) : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ قال : الجلباب ، أو

(١) فى ف : « بعده بالاستور » ، وفى أ : « بعده الستر » . (٢) زيادة من أ ، والدر المنثور ٥ / ٥٦ .

(٣) سنن أبى داود برقم (٥١٩٢) .

(٤) زيادة من أ .

(٥) سنن أبى داود برقم (٤١١١) .

(٦) زيادة من أ .

الرداء : وكذا روى عن ابن عباس ، وابن عمر ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأبى الشعثاء (١) ، وإبراهيم النخعي ، والحسن ، وقتادة ، والزهرى ، والأوزاعى ، وغيرهم .

وقال أبو صالح : تضع الجلباب ، وتقوم بين يدى الرجل فى الدرع والخمار .

وقال سعيد بن جبير وغيره ، فى قراءة عبد الله بن مسعود : « أن يضعن من ثيابهن » : وهو الجلباب من فوق الخمار فلا بأس أن يضعن عند غريب أو غيره ، بعد أن يكون عليها خمار صفيق .

وقال سعيد بن جبير : ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ يقول : لا يتبرجن بوضع الجلباب ، أن يرى ما عليها من الزينة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عبيد الله ، حدثنا ابن المبارك ، [حدثنى سوار ابن ميمون ، حدثنا طلحة بنت عاصم ، عن أم المصاعن ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، أنها قالت : دخلت على] (٢) فقلت : يا أم المؤمنين ، ما تقولين فى الخضاب ، والنفاض ، والصباغ ، والقرطين ، والخلخال ، وخاتم الذهب ، وثياب الرقاق ؟ فقالت : يا معشر النساء ، قصتن (٣) كلها واحدة ، أحل الله لكن الزينة غير متبرجات . أى : لا يحل لكن أن يروا منكن محرما .

وقال السدى : كان شريك لى يقال له : « مسلم » ، وكان مولى لامرأة حذيفة بن اليمان ، فجاء يوما إلى السوق وأثر الحناء فى يده ، فسألته عن ذلك ، فأخبرنى أنه خضب رأس مولاته - وهى امرأة حذيفة - فأنكرت ذلك . فقال : إن شئت أدخلتك عليها ؟ فقلت : نعم . فأدخلنى عليها ، فإذا امرأة جليلة ، فقلت : إن مسلما حدثنى أنه خضب رأسك ؟ فقالت : نعم يا بنى ، إنى من القواعد اللاتى لا يرجون نكاحا ، وقد قال الله فى ذلك ما سمعت .

وقوله : ﴿ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ أى : وترك وضعهن لثيابهن - وإن كان جائزا - خير وأفضل لهن ، والله سميع عليم .

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) ﴾ .

اختلف المفسرون - رحمهم الله - فى المعنى الذى رفع من أجله الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض هاهنا ، فقال عطاء الخراسانى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : نزلت فى الجهاد .

(٣) فى أ : « فصلن » .

(٢) زيادة من ف ، أ .

(١) فى أ : « والشعبى » .

وجعلوا هذه الآية هاهنا كالتى فى سورة الفتح ^(١) . وتلك فى الجهاد لا محالة ، أى : أنهم لا إثم عليهم فى ترك الجهاد ؛ لضعفهم وعجزهم ، وكما قال تعالى فى سورة براءة : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴾ [التوبة : ٩١ ، ٩٢] .

وقيل : المراد [هاهنا] ^(٢) أنهم كانوا يتخرجون من الأكل مع الأعمى ؛ لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات ، فربما سبقه غيره إلى ذلك . ولا مع الأعرج ؛ لأنه لا يتمكن من الجلوس ، فيفتات عليه جلسه . والمريض لا يستوفى من الطعام كغيره ، فكروها أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم ، فأنزل الله هذه الآية رخصة فى ذلك . وهذا قول سعيد بن جبير ، ومقسم .

وقال الضحاك : كانوا قبل المبعث يتخرجون من الأكل مع هؤلاء تقذراً وتقزراً ، ولئلا يتفضلوا عليهم ، فأنزل الله هذه الآية .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ ﴾ الآية قال : كان الرجل يذهب بالأعمى أو الأعرج أو المريض إلى بيت أبيه أو بيت أخيه ، أو بيت أخته ، أو بيت عمته ، أو بيت خالته . فكان الزمنى يتخرجون ^(٣) من ذلك ، يقولون : إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم ^(٤) . فنزلت هذه الآية رخصة لهم ^(٥) .

وقال السدى : كان الرجل يدخل بيت أبيه ، أو أخيه أو ابنه ، فتتحفه المرأة بالشيء من الطعام ، فلا يأكل من أجل أن رب البيت ليس ثم . فقال الله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ ، إنما ذكر هذا - وهو معلوم - ليعطف عليه غيره فى اللفظ ، وليستأديه ^(٦) ما بعده فى الحكم . وتضمن هذا بيوت الأبناء ؛ لأنه لم ينص عليهم . ولهذا استدل بهذا من ذهب إلى أن مال الولد بمنزلة مال أبيه ، وقد جاء فى المسند والسنن ، من غير وجه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أنت ومالك لأبيك » ^(٧) .

وقوله : ﴿ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ ، هذا ظاهر . وقد استدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض ، كما هو مذهب [الإمام] ^(٨) أبى حنيفة والإمام أحمد بن حنبل ، فى المشهور عنهما .

(١) عند الآية : ١٧ . (٢) زيادة من أ . (٣) فى أ : « يخرجون » . (٤) فى أ : « عشيرتهم » .

(٥) تفسير عبد الرزاق (٢ / ٥٣) .

(٦) فى أ : « ولا يساوى » .

(٧) المسند (٢ / ١٧٩) وسنن أبى داود برقم (٣٥٣٠) وسنن ابن ماجه برقم (٢٢٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، رضى الله عنهما .

(٨) زيادة من ف ، أ .

وأما قوله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ : فقال سعيد بن جبيرة ، والسددي : هو خادم الرجل من عبد وقهرمان ، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف .

وقال الزهري ، عن عروة ، عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : كان المسلمون يرغبون في النفير مع رسول الله ﷺ ، فيدفعون مفاتيحهم إلى ضمّنائهم ، ويقولون : قد أحللتنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه . فكانوا يقولون : إنه لا يحل لنا أن نأكل ؛ إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم ، وإنما نحن أمناء . فأنزل الله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ .

وقوله : ﴿ أَوْ صَدِيقُكُمْ ﴾ أى : بيوت أصدقاؤكم وأصحابكم ، فلا جناح عليكم فى الأكل منها ، إذا علمتم أن ذلك لا يشقّ عليهم ولا يكرهون ذلك .

وقال قتادة : إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه .

وقوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ : قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس فى هذه الآية : وذلك لما أنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ [النساء : ٢٩] ، قال المسلمون : إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، والطعام هو أفضل من الأموال ، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد . فكف الناس عن ذلك ، فأنزل الله : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى ﴾ (١) ، إلى قوله : ﴿ أَوْ صَدِيقُكُمْ ﴾ (٢) . وكانوا أيضاً يأنفون ويخرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده ، حتى يكون معه غيره ، فرخص الله لهم فى ذلك ، فقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ .

وقال قتادة : وكان هذا الحى من بنى كنانة ، يرى أحدهم أن مخزاة عليه أن يأكل وحده فى الجاهلية ، حتى إن كان الرجل لیسوق الذود الحقل وهو جائع ، حتى يجد من يؤاكله ويشاربه ، فأنزل الله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ .

فهذه رخصة من الله تعالى فى أن يأكل الرجل وحده ، ومع الجماعة ، وإن كان الأكل مع الجماعة أفضل وأبرك ، كما رواه الإمام أحمد :

حدثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن وحشي بن حرب ، عن أبيه ، عن جده ؛ أن رجلاً قال للنبي ﷺ : إنا نأكل ولا نشبع . قال : « فلعلكم تأكلون متفرقين ، اجتمعوا على طعامكم ، واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه » .

ورواه أبو داود وابن ماجه ، من حديث الوليد بن مسلم ، به (٣) .

وقد روى ابن ماجه أيضاً ، من حديث عمرو بن دينار القهرمانى ، عن سالم ، عن أبيه ، عن عمر ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « كلوا جميعاً ولا تفرقوا ؛ فإن البركة مع الجماعة » (٤) .

وقوله : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ : قال سعيد بن جبيرة ، والحسن البصرى ،

(١) بعدها فى ف ، أ : « ولا على الأعرج حرج » .

(٣) المسند (٥٠١ / ٣) وسنن أبى داود برقم (٣٧٦٤) وسنن ابن ماجه برقم (٣٢٨٦) .

(٤) سنن ابن ماجه برقم (٣٢٨٧) وقال البوصيرى فى الزوائد (٧٧ / ٣) : « هذا إسناد ضعيف » .

وقتادة ، والزهرى : فليسلم بعضهم على بعض .

وقال ابن جريج : حدثنا أبو الزبير : سمعتُ جابر بن عبد الله يقول : إذا دخلتَ على أهلك ، فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة . قال : ما رأيته إلا يوجبه .

قال ابن جريج : وأخبرني زياد ، عن ابن طاوس أنه كان يقول : إذا دخلَ أحدكم بيته ، فليسلم .

قال ابن جريج : قلت لعطاء : أوجب إذا خرجت ثم دخلت أن أسلم عليهم ؟ قال : لا ، ولا أثر وجوبه عن أحد ، ولكن هو أحب إلى ، وما أدعه إلا نائياً ^(١) .

وقال مجاهد : إذا دخلت المسجد فقل : السلام على رسول الله . وإذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

وروى الثوري ، عن عبد الكريم الجزري ، عن مجاهد : إذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل : بسم الله ، والحمد لله ، السلام علينا من ربنا ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

وقال قتادة : [إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد ، فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين] ^(٢) . فإنه كان يؤمر بذلك ، وحُذِّثنا أن الملائكة ترد عليه .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا عوبد بن أبي عمران الجوني ، عن أبيه ، عن أنس قال : أوصاني النبي ﷺ بخمس خصال ، قال : « يا أنس ، أسبغ الوضوء يزد في عمرك ، وسلم على من لقيك من أمتي تكثر حسناتك ، وإذا دخلت - يعني : بيتك - فسلم على أهل بيتك ، يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك . يا أنس ، ارحم الصغير ، ووقر الكبير ، تكن من رفقاء يوم القيامة » ^(٣) .

وقوله : ﴿ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ : قال محمد بن إسحاق : حدثني داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه كان يقول : ما أخذت التشهد إلا من كتاب الله ، سمعت الله يقول : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ ، فالتشهد في الصلاة : التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . ثم يدعو لنفسه ويسلم .

هكذا رواه ابن أبي حاتم ، من حديث ابن إسحاق .

والذي في صحيح مسلم ، عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ يخالف هذا ^(٥) ، والله أعلم .

(١) في ف ، أ : « ناسياً » . (٢) زيادة من ف ، أ . (٣) في ف : « رسول الله » .

(٤) ورواه ابن عدى في الكامل (٥ / ٣٨٢) من طريق موسى عن عويد بن أبي عمران الجوني ، به . ونقل عن البخاري : « عويد بن أبي عمران عن أبيه منكر الحديث » ثم قال ابن عدى : « وعويد بين على حديثه الضعف » .

(٥) صحيح مسلم برقم (٤٠٣) ، ولفظه : كان رسول الله ﷺ يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن ، فكان يقول : « التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » .

وقوله : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ : لما ذكر تعالى ما فى هذه السورة الكريمة من الأحكام المحكمة والشرائع المتقنة المبرمة ، نبه تعالى على أنه يبين لعباده الآيات بيانا شافيا ، ليتدبروها ويتعقلوها .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٦٢) .

وهذا أيضاً أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه ، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول ، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف - لا سيما إذا كانوا فى أمر جامع مع الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، من صلاة جمعة أو (١) عيد أو (٢) جماعة ، أو اجتماع لمشورة ونحو ذلك - أمرهم الله تعالى ألا ينصرفوا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته . وإن من يفعل ذلك فهو من المؤمنين الكاملين . ثم أمر رسوله - صلوات الله وسلامه عليه - إذا استأذنه أحد منهم فى ذلك أن يأذن له ، إن شاء ؛ ولهذا قال : ﴿ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وقد قال أبو داود : حدثنا أحمد بن حنبل ومُسَدَّد ، قالا : حدثنا بشر - هو ابن المفضل - عن عجلان عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم ، فإذا أراد أن يقوم فليسلم ، فليست الأولى بأحق من الآخرة » . وهكذا رواه الترمذى والنسائي ، من حديث محمد بن عجلان ، به (٣) . وقال الترمذى : حسن .

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٦٣) .

قال الضحاك ، عن ابن عباس : كانوا يقولون : يا محمد ، يا أبا القاسم ، فنهاهم الله عز وجل ، عن ذلك ، إعظاماً لنبهه ، صلوات الله وسلامه عليه (٤) . قال : فقالوا : يا رسول الله ، يا نبي الله . وهكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبير .

وقال قتادة : أمر الله أن يهاب نبيه ﷺ ، وأن يُجَلَّ وأن يعظم وأن يسود .

(١ ، ٢) فى ف : « و » .

(٣) سنن أبى داود برقم (٥٢٠٨) وسنن الترمذى برقم (٢٧٠٦) والنسائي فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٠١) .

(٤) فى ف ، أ : « ﷺ » .

وقال مقاتل [بن حيان] ^(١) فى قوله : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ يقول : لَا تُسَمِّوْهُ إِذَا دَعَوْتُمُوهُ : يَا مُحَمَّد ، وَلَا تَقُولُوا : يَا ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ ، وَلَكِنْ شَرِّفُوهُ فَقُولُوا : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، يَا رَسُولَ اللَّهِ ^(٢) .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ قال : أَمَرَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَشْرَفُوهُ .

هذا قول . وهو الظاهر من السياق ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمِعُوا ﴾ [البقرة : ١٠٤] ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [الحجرات : ٢ - ٥] .

فهذا كله من باب الأدب [فى مخاطبة النبى ﷺ والكلام معه وعنده كما أمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته] ^(٣) .

والقول الثانى فى ذلك أن المعنى فى : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ أى : لَا تَعْتَقِدُوا أَنَّ دُعَاءَهُ عَلَى غَيْرِهِ كَدُعَاءِ غَيْرِهِ ، فَإِنْ دُعَاءَهُ مُسْتَجَابٌ ، فَاحْذَرُوا أَنْ يَدْعُو عَلَيْكُمْ فَتَهْلِكُوا . حكاها ابن أبى حاتم ، عن ابن عباس ، والحسن البصرى ، وعطية العوفى ، والله ^(٤) أعلم .

وقوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ﴾ : قال مقاتل بن حيان : هم المنافقون ، كان يثقل عليهم الحديث فى يوم الجمعة - ويعنى بالحديث الخطبة - فيلوذون ببعض الصحابة - أصحاب محمد ﷺ - حتى يخرجوا من المسجد ، وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن من النبى ﷺ ، فى يوم الجمعة ، بعدما يأخذ فى الخطبة ، وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بإصبعه إلى النبى ﷺ ، فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل ؛ لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبى ﷺ - يخطب ، بطلت جُمُعته .

قال السدسى كانوا إذا كانوا معه فى جماعة ، لاذ بعضهم ببعض ، حتى يتغيبوا عنه ، فلا يراهم . وقال قتادة فى قوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ﴾ ، يعنى : لَوَاذًا [عن نبى الله وعن كتابه] :

وقال سفيان : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ﴾ ، قال : من الصف . وقال مجاهد فى الآية : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ﴾ [^(٥) قال : خلافاً .

وقوله : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ أى : عن أمر رسول الله ﷺ ، سبيله هو ^(٦)

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف : « يا رسول الله ، يا نبى الله » . (٣) زيادة من ف ، أ . (٤) فى ف ، أ : « فالله » . (٥) زيادة من ف ، أ . (٦) فى ف : « وهو سبيله » .

ومنهاجه وطريقته [وسنته] ^(١) وشريعته ، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله ، فما وافق ذلك قُبِلَ ، وما خالفه فهو مَرْدُودٌ على قائله وفاعله ، كائنا ما كان ، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ » ^(٢) .

أى : فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطنًا أو ظاهرًا ﴿ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أى : فى قلوبهم ، من كفر أو نفاق أو بدعة ، ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : فى الدنيا ، بقتل ، أو حد ، أو حبس ، أو نحو ذلك .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلى ومثلكم كمثلى رجل استوقد نارًا ، فلما أضاءت ما حولها ^(٣) ، جعل الفراش وهذه الدواب اللاتي [يقعن فى النار] ^(٤) يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبهن ويتقحمن فيها » : قال : « فذلك مثلى ومثلكم ، أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار ، فتغلبونى وتقتحمون فيها » . أخرجاه من حديث عبد الرزاق ^(٥) .

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٦٤) .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأنه عالم غيب السموات والأرض ، وهو عالم بما العباد عاملون فى سرهم وجهرهم ، فقال : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ و « قد » للتحقيق ، كما قال قبلها : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونُ مِنْكُمْ لَوْأَدَّ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ [الأحزاب : ١٨] . وقال تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١] : وقال : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣] ، وقال : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ [فَلَنُؤْيِّنَنَّ قَبْلَةَ تَرْضَاهَا] ^(٦) ﴾ [البقرة : ١٤٤] . فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بـ « قد » ، كما يقول المؤذن تحقيقًا وثبوتًا : « قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة » : فقله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أى : هو عالم به ، مشاهد له ، لا يعزب عنه مثقال ذرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ . وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّاجِدِينَ . إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء : ٢١٧ - ٢٢٠] . وقال : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) صحيح البخارى برقم (٢٦٩٧) وصحيح مسلم برقم (١٧١٨) .

(٣) فى ف ، أ : « حوله » .

(٤) زيادة من ف ، أ ، والمسنَد .

(٥) المسند (٢ / ٣١٢) ومسلم برقم (٢٢٨٤) وليس عند البخارى من هذا الطريق .

(٦) زيادة من ف ، أ .

السَّمَاءِ^(١) وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿ [يونس : ٦١] وقال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : ٣٣] أى : هو شهيد على عباده بما هم فاعلون من خير وشر . وقال تعالى : ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ [إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ] ﴾^(٢) [هود : ٥] وقال تعالى : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ [الرعد : ١٠] : وقال تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [هود : ٦] ، وقال : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] . والآيات والأحاديث فى هذا كثيرة جداً .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أى : ويوم ترجع^(٣) الخلائق إلى الله - وهو يوم القيامة - ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى : يخبرهم بما فعلوا فى الدنيا ، من جليل وحقيق ، وصغير وكبير ، كما قال تعالى : ﴿ يَنْبَأُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة : ١٣] . وقال : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩] . ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ والحمد لله رب العالمين ، ونسأله التمام .

(١) فى ف : « فى السموات ولا فى الأرض » ، وهو خطأ .

(٢) زيادة من ف ، أ . (٣) فى ف : « يرجع » .

تفسير سورة الفرقان

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝ (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ۝ (٢) ﴾ .

يقول تعالى حامداً نفسه الكريمة على ما نزله على رسوله الكريم من القرآن العظيم ، كما قال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ [أَنْ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا . مَا كُنَّ فِيهِ أَبَدًا] (١) ﴾ [الكهف : ١ - ٣] ، وقال هاهنا : ﴿ تَبَارَكَ ﴾ ، وهو تفاعل من البركة المستقرة الدائمة الثابتة ﴿ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ ﴾ نزل : فَعَلَ ، من التكرار ، والتكثر ، كما قال : ﴿ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [النساء : ١٣٦] ؛ لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة ، والقرآن نزل (٢) مُنْجَمًا مُفْرَقًا مُفَصَّلًا ، آيات بعد آيات ، وأحكاماً بعد أحكام ، وسوراً بعد سور ، وهذا أشد وأبلغ ، وأشد اعتناءً بمن أنزل عليه كما قال فى أثناء هذه السورة : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا . وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٣٢ ، ٣٣] . ولهذا سماه هاهنا الفرقان ؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغنى والرشاد ، والحلال والحرام .

وقوله : ﴿ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ : هذه صفة مدح وثناء ؛ لأنه أضافه إلى عبوديته ، كما وصفه بها فى أشرف أحواله ، وهى ليلة الإسراء ، فقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ [الإسراء : ١] ، وكما وصفه بذلك فى مقام الدعوة إليه : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن : ١٩] ، وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه ، فقال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ .

وقوله : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ أى : إنما خصه بهذا الكتاب العظيم المبين المفصل المحكم الذى : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] ، الذى جعله فرقاناً عظيماً - إنما خصه به ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء ، ويستقل على الغبراء ، كما قال - صلوات الله وسلامه عليه - : « بعثت إلى الأحمر والأسود » (٣) . وقال : « أعطيت خمسا لم

(٢) فى ١ : « ينزل » .

(١) زيادة من ف ، أ .

(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٥٢١) هو الذى يليه من حديث جابر ، رضى الله عنه .

يعطهن أحد من الأنبياء قبلى » ، فذكر منهن : أنه « كان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعث إلى الناس عامة » ، وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ [لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ] ^(١) يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [الأعراف : ١٥٨] أى : الذى أرسلنى هو مالك السموات والأرض ، الذى يقول للشيء كن فيكون ، وهو الذى يحيى ويميت ، وهكذا قال هاهنا : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ ، فنزّه نفسه عن الولد ، وعن الشريك . ثم أخبر أنه : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ أى : كل شيء مما سواه مخلوق مربوب ، وهو خالق كل شيء وربّه ومليكه وإلهه ، وكل شيء تحت قهره [وتسخيره] ^(٢) ، وتديبره وتقديره ^(٣) .

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾ ^(٣) .

يخبر تعالى عن جهل المشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله ، الخالق لكل شيء ، المالك لأزمنة الأمور ، الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . ومع هذا عبدوا معه من الأصنام ما لا يقدر على خلق جناح بعوضة ، بل هم مخلوقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، فكيف يملكون لعابديهم ؟ ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾ أى : ليس لهم من ذلك شيء ، بل ذلك مرجعه كله إلى الله عز وجل ، الذى هو يحيى ويميت ، وهو الذى يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم ، ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً ﴾ [لقمان : ٢٨] ، ﴿ وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَةً بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر : ٥٠] ، ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣ ، ١٤] ، ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ [الصافات : ١٩] ، ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس : ٥٣] . فهو الله الذى لا إله غيره ولا رب سواه ، ولا تنبغى العبادة إلا له ؛ لأنه ما شاء كان وما يشأ لم يكن . وهو الذى لا ولد له ولا والد ، ولا عدل ولا نديد ولا وزير ولا نظير ، بل هو الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ ^(٤) وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ^(٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ^(٦) .

يقول تعالى مخبراً عن سخافة عقول الجهلة من الكفار ، فى قولهم عن القرآن : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ ﴾ أى : كذب ، ﴿ افْتَرَاهُ ﴾ يعنون النبي ﷺ ^(٤) ، ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ أى : واستعان على جمعه بقوم آخرين . قال الله تعالى : ﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ أى : فقد افتروا هم قولاً باطلاً ، هم

(١) زيادة من أ وهو الصواب .

(٢) زيادة من ف ، أ .

(٣) فى ف ، أ : « قهره وتقديره وتسخيره وتديبره » . (٤) فى ف ، أ : « محمداً » .

يعلمون أنه باطل، ويعرفون كذب أنفسهم فيما يزعمون (١) .

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ﴾ يعنون : كتب الأوائل استنسخها ، ﴿ فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أى : تُقرأ عليه ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أى : فى أول النهار وآخره .

وهذا الكلام - لسخافته وكذبه وبهته منهم - كُلَّ أَحَدٍ يَعْلَمُ (٢) بطلانه ، فإنه قد عُلِمَ بالتواتر وبالضرورة : أن محمداً رسول الله لم يكن يعانى شيئاً من الكتابة ، لا فى أول عمره ولا فى آخره ، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة ، وهم يعرفون مدخله ومخرجه ، وصدقه ، وبره وأمانته ونزاهته من الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة ، حتى إنهم لم يكونوا يسمونه فى صغره إلى أن بعث (٣) إلا الأمين ، لما يعلمون من صدقه وبره . فلما أكرمه الله بما أكرمه به ، نصبوا له العداوة ، ورَمَوْهُ بهذه الأقوال التى يعلم كل عاقل براءته منها ، وحاروا ماذا يقذفونه به ، فتارة من إفكهم يقولون : ساحر ، وتارة يقولون : شاعر ، وتارة يقولون : مجنون ، وتارة يقولون : كذاب ، قال الله تعالى : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٤٨] .

وقال تعالى فى جواب ما عاندوا هاهنا وافتروا : ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخباراً حقاً صدقاً مطابقاً للواقع فى الخارج ، ماضياً ومستقبلاً ﴿ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ ﴾ أى : الله الذى يعلم غيب السموات والأرض ، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ : دعاء لهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار بأن رحمته واسعة ، وأن حلمه عظيم ، وأن من تاب إليه تاب عليه . فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتهم وكفرهم وعنادهم ، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا ، يدعوههم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٧٣ ، ٧٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ [البروج : ١٠] . قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : انْظُرُوا إِلَى هَذَا الْكُفْرِ وَالْجُودِ ، قَتَلُوا أَوْلِيَاءَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ [سبحانه وتعالى] (٤) .

﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٨) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ

(١) فى ف ، أ : « زعموه » .

(٢) فى ف ، أ : « بهته كل أحد منهم يعلم » .

(٣) فى أ : « بعثه » .

(٤) زيادة من ف ، أ .

شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقْرِنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ .

يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم ، وإنما تعللوا بقولهم : ﴿ مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ﴾ ، يعنون : كما نأكله ، ويحتاج إليه كما نحتاج إليه ، ﴿ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ أى : يتردد فيها وإليها طلباً للتكسب والتجارة ، ﴿ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ يقولون (١) : هلا أنزل إليه ملك من عند الله ، فيكون له شاهداً على صدق ما يدعيه ! وهذا كما قال فرعون : ﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ ﴾ (٢) مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّرِينَ ﴿ [الزخرف: ٥٣] . وكذلك قال هؤلاء على السواء ، تشابهت قلوبهم ؛ ولهذا قال : ﴿ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ ﴾ أى : علم كنز [يكون] (٣) ينفق منه ، ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ أى : تسير معه حيث سار . وهذا كله سهل يسير على الله ، ولكن له الحكمة فى ترك ذلك ، وله الحجة البالغة ﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾ أى : جاؤوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك ، من قولهم « ساحر ، مسحور ، مجنون ، كذاب ، شاعر » ، وكلها أقوال باطلة ، كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم فى ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ فَضَلُّوا ﴾ أى : عن طريق الهدى ، ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ ، وذلك لأن كل من خرج عن الحق فإنه ضال حيثما توجه ؛ لأن الحق واحد ومنهج متحد ، يُصَدِّقُ بعضه بعضاً .

ثم قال تعالى مخبراً نبيه أنه لو شاء لآتاه خيراً مما يقولون فى الدنيا وأفضل وأحسن ، فقال [تعالى] (٤) : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴾ .

قال مجاهد : يعنى : فى الدنيا ، قال : وقریش يسمون كل بيت من حجارة قصراً ، سواء كان كبيراً أو صغيراً (٥) .

وقال سفيان الثوري ، عن حبيب بن أبى ثابت ، عن خيثمة ؛ قيل للنبي ﷺ : إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم يعط نبي قبلك ، ولا يُعطى أحد من بعدك ، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله ؟ فقال : اجمعوها لى فى الآخرة ، فأنزل الله عز وجل فى ذلك : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴾ .

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) زيادة من أ .

(٢) فى ف : « أسورة » .

(١) فى أ : « يقول » .

(٥) فى ف ، أ : « صغيراً أو كبيراً » .

شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿١﴾ .

وقوله : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ أى : إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيباً وعناداً ، لا أنهم يطلبون ذلك تبصراً واسترشاداً ، بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال ، ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أى : وأرصدنا ﴿لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ أى : عذاباً أليماً حاراً لا يطاق فى نار جهنم .

وقال الثورى ، عن سلمة بن كهيل ، عن سعيد بن جبير : «السَّعِيرُ» : واد من قيح جهنم .
وقوله : ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ﴾ أى : جهنم ﴿مِّنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يعنى : فى مقام المحشر . قال السدى : من مسيرة مائة عام ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا﴾ أى : حنقا (٢) عليهم ، كما قال تعالى : ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ . تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك : ٧ ، ٨] أى : يكاد ينفصل بعضها من بعض ؛ من شدة غيظها على من كفر بالله .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا إدريس بن حاتم بن الأخيف (٣) الواسطى : أنه سمع محمد بن الحسن الواسطى ، عن أصبغ بن زيد ، عن خالد بن كثير ، عن خالد بن دُرَيْك ، عن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من يقل على ما لم أقل ، أو ادعى إلى غير والديه ، أو اتهم إلى غير مواليه ، فليتبوأ [مقعده من النار] . وفى رواية : « فليتبوأ » (٤) بين عيني جهنم مقعدا . قيل : يارسول الله ، وهل لها من عينين ؟ قال : « أما سمعت الله يقول : ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِّنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ الآية .

ورواه ابن جرير ، عن محمد (٥) بن خِدَاش ، عن محمد بن يزيد (٦) الواسطى ، به (٧) .
وقال أيضاً : حدثنا أبى ، حدثنا على بن محمد الطَّنَافِسى ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن عيسى ابن سليم ، عن أبى وائل قال : خرجنا مع عبد الله - يعنى : ابن مسعود - ومعنا الربيع بن خيثم فمروا على حداد ، فقام عبد الله ينظر إلى حديدة فى النار ، ونظر الربيع بن خيثم إليها فتمايل ليسقط ، فمر عبد الله على أتون على شاطئ الفرات ، فلما رآه عبد الله والنار تلتهب فى جوفه قرأ هذه الآية : ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِّنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا﴾ فصعق - يعنى : الربيع بن خيثم - فحملوه إلى أهل بيته (٨) ، ورابطه عبد الله إلى الظهر فلم يفق ، رضى الله عنه .

وحدثنا أبى : حدثنا عبد الله بن رجاء ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى يحيى ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : إن العبد ليجر إلى النار ، فتشبهق إليه شهقة البغلة إلى الشعير ، ثم تفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف .

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٨/ ١٤٠) من طريق سفيان به مراسلاً .

(٤) زيادة من ف ، أ .

(٣) فى ف ، أ : « الأحنف » .

(٦) فى أ : « زيد » .

(٥) فى ف : « محمود » .

(٧) تفسير الطبرى (١٨/ ١٤٠) .

(٨) فى أ : « إلى أهله » .

هكذا رواه ابن أبي حاتم مختصراً ، وقد رواه الإمام أبو جعفر بن جرير :

حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي ، حدثنا عبيد الله بن موسى ، أخبرنا إسرائيل ، عن أبي يحيى ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : إن الرجل ليجر إلى النار ، فتزوى وتنقبض بعضها إلى بعض ، فيقول لها الرحمن : مالك ؟ قالت : إنه يستجير مني . فيقول : أرسلوا (١) عبي . وإن الرجل ليُجر إلى النار ، فيقول : يارب ، ما كان هذا الظن بك ؟ فيقول : فما كان ظنك ؟ فيقول : أن تسعني رحمتك . فيقول : أرسلوا عبي . وإن الرجل ليُجر إلى النار ، فتشهى إليه النار شهوق البغلة إلى الشعر ، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف . وهذا إسناد صحيح .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن منصور ، عن مجاهد ، عن عبيد بن عمير في قوله : ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْطًا وَزَفِيرًا ﴾ قال : إن جهنم تزفر زفرة ، لا يبقى ملك ولا نبي إلا خرّ ترعداً فرائصه ، حتى إن إبراهيم ، عليه السلام ، ليجثو على ركبتيه ويقول : رب ، لا أسألك اليوم إلا نفسي (٢) . وقوله : ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضِيقًا ﴾ : قال قتادة ، عن أبي أيوب ، عن عبد الله (٣) بن عمرو قال : مثل الزج في الرمح (٤) ، أى : من ضيقه .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرني نافع بن يزيد ، عن يحيى بن أبي أسيد - يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ - أنه سئل عن قول الله : ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضِيقًا مُّقْرَّنِينَ ﴾ قال : « والذى نفسي بيده ، إنهم ليستكرهون في النار ، كما يستكره الود في الحائط » (٥) .

وقوله : ﴿ مُّقْرَّنِينَ ﴾ : قال أبو صالح : يعني مكثفين : ﴿ دَعُوا هَٰؤُلَاءِ ثُبُورًا ﴾ أى : بالويل والحسرة والخيبة ، ﴿ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد (٦) ، عن أنس بن مالك ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « أول من يكسى حلّة من النار إبليس ، فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه ، وذريته من بعده ، وهو ينادى : يا ثبوره . وينادون : يا ثبورهم . حتى يقفوا على النار ، فيقول : يا ثبوره . ويقولون : يا ثبورهم . فيقال لهم : لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً ، وادعوا ثبوراً كثيراً » .

لم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة ، ورواه ابن أبي حاتم ، عن أحمد بن سنان ، عن عفان ، به : ورواه ابن جرير ، من حديث حماد بن سلمة به (٧) .

(١) فى أ : « أن تغلوا » .

(٢) تفسير عبد الرزاق (٥٦/٢) .

(٣) فى ف ، أ : « عبيد الله » .

(٤) فى ف : « رمحه » .

(٥) رواه ابن أبي حاتم ، كما فى الدر المنثور (٢٤٠/٦) .

(٦) فى هـ ، ف ، أ : « على بن يزيد » والصواب ما أثبتناه من المسند (٢٥٢/٣) .

(٧) المسند (١٥٢/٣) وتفسير الطبرى (١٤١/١٨) .

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ أى : لا تدعوا اليوم ويلا واحداً ، وادعوا ويلا (١) كثيراً .

وقال الضحاك : الثبور : الهلاك .

والأظهر : أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار ، كما قال موسى لفرعون : ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠٢] أى : هالكا . وقال عبد الله بن الزبعرى :
إِذْ أَجَارَى الشَّيْطَانُ فِي سَنَنِ الْغَدَى ، وَمَنْ مَالَ مَيْلُهُ (٢) مَثْبُورٌ (٣)

﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (١٦) ﴾ .

يقول تعالى : يا محمد ، هذا (٤) الذى وصفناه من حال أولئك الأشقياء (٥) ، الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم ، فتتلقاهم بوجه عبوس وبغيظ (٦) وزفير ، ويلقون فى أماكنها الضيقة مقرنين ، لا يستطيعون حراكا ، ولا انتصاراً ولا فكاً كما هم فيه - : أهذا خير أم جنة الخلد التى وعدها الله المتقين من عباده ، التى أعدها لهم ، وجعلها لهم جزاء على ما أطاعوه فى الدنيا ، وجعل مآلهم إليها . ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ [أى (٧) : من الملاذ : من مآكل ومشارب ، وملابس ومساكن ، ومراكب ومناظر ، وغير ذلك ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب أحد (٨) . وهم فى ذلك خالدون أبدا دائما (٩) سرمدا بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء ، لا ييغون عنها حولا . وهذا من وعد الله الذى تفضل به عليهم ، وأحسن به إليهم . ولهذا قال : ﴿ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴾ أى لا بد أن يقع وأن يكون ، كما حكاه أبو جعفر بن جرير ، عن بعض علماء العربية أن معنى قوله : ﴿ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴾ أى : وعدا واجبا .

وقال ابن جرير ، عن عطاء ، عن ابن عباس ﴿ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴾ : يقول : سلوا الذى واعدتكم - أو قال : واعدناكم - نُنَجِّزْ .

وقال محمد بن كعب القرظى فى قوله : ﴿ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴾ : إن الملائكة تسأل لهم ذلك : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ﴾ [غافر : ٨] .

وقال أبو حازم : إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون : ربنا عملنا لك بالذى أمرتنا ، فأنجز لنا ما وعدتنا . فذلك قوله : ﴿ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴾ .

وهذا المقام فى هذه السورة من ذكر النار ، ثم التنبيه على حال أهل الجنة ، كما ذكر تعالى فى

(١) فى ف ، أ : « بلاء » . (٢) فى أ : « مثله » .

(٣) البيت فى السيرة النبوية لابن هشام (٤١٩/٢) .

(٤) فى أ : « أهذا » . (٥) فى أ : « من هؤلاء الأشقياء » . (٦) فى أ : « وتغيظ » .

(٧) زيادة من ف ، أ . (٨) فى ف ، أ : « بشر » . (٩) فى ف : « دائما أبدا » .

سورة « الصافات » حال أهل الجنة ، وما فيها من النضرة والخبور ، ثم قال : ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ . إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ . إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ . طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيَاطِينِ . فَإِنَّهُمْ لَا كُلُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْ تَوَنَّا مِنْهَا الْبُطُونُ . ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ . ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ . إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ . فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ [الصافات : ٦٢ - ٧٠] .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِم مِّنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما يَقَعُ يومَ القيامةِ من تقريع الكفار في عبادتهم من عبدوا من دُونِ اللَّهِ ، من الملائكة وغيرهم ، فقال : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ (١) وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ، قال مجاهد : عيسى ، والعزير ، والملائكة . ﴿ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ أى : فيقول الرب تبارك وتعالى [للمعبودين] (٢) أأنتم دعوتهم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني ، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم ، من غير دعوة منكم لهم ؟ كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ (٣) ﴾ ، إلى آخر الآية [المائدة : ١١٦ ، ١١٧] ؛ ولهذا قال تعالى مخبراً عما يُجِيبُ به المعبودون يوم القيامة : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ قرأ الأكثرون بفتح « النون » من قوله : ﴿ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ أى : ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحدا سواك ، لا نحن ولاهم ، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك ، بل هم قالوا (٤) ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا ونحن برآء منهم ومن عبادتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ (٥) مُؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ : ٤٠ ، ٤١] . وقرأ آخرون : « مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ » أى : ما ينبغي لأحد أن يعبدنا ، فإنا عبید لك ، فقراء إليك . وهى قريبة المعنى من الأولى .

﴿ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ ﴾ أى : طال عليهم العمر حتى نسوا الذكر ، أى : نسوا ما أنزلته إليهم على السنة رسلك ، من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك .

(١) فى ف : « يحشرهم » . (٢) زيادة من أ .

(٣) بعدها فى ف ، أ : ﴿ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾ .

(٤) فى أ : « فعلوا » . (٥) فى هـ : « به » والثبت من أ ، وهو الصواب .

﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ : قال ابن عباس : أى هلكى . وقال الحسن البصرى ، ومالك عن الزهرى :
أى لا خير فيهم . وقال ابن الزبعرى حين أسلم :

يا رَسُولَ الْمَلِكِ إِنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورٌ
إِذْ أَجَارَى الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْغَدِّ سَى ، وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورٌ

قال الله تعالى : ﴿فَقَدْ كَذَّبَكُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ أى : فقد كذبكم الذين عبدتم فيما زعمتم أنهم لكم أولياء ، وأنكم اتخذتموهم قرباناً يقربونكم ^(١) إليه زلفى ، كما قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف : ٥ ، ٦] .

وقوله : ﴿فَمَا ^(٢) تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ أى : لا يقدرُونَ على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم ، ﴿وَمَنْ يَظْلِمِ مَنكُمُ﴾ أى : يشرك بالله ، ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ^(٢٠)﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين : أنهم كانوا يأكلون الطعام ، ويحتاجون إلى التغذى به ﴿وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أى : للتكسب والتجارة ، وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم ؛ فإن الله جعل لهم من السمات الحسنة ، والصفات الجميلة ، والأقوال الفاضلة ، والأعمال الكاملة ، والخوارق الباهرة ، والأدلة [القاهرة] ^(٣) ، ما يستدل به كل ذى لب سليم ، وبصيرة مستقيمة ، على صدق ما جاؤوا به من الله عز وجل . ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف : ١٠٩] ، ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء : ٨] .

وقوله : ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ أى : اختبرنا بعضكم ببعض ، وبلونا بعضكم ببعض ، لنعلم من يطيع من يعصى ؛ ولهذا قال : ﴿أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أى : بمن يستحق أن يوحى إليه ، كما قال تعالى : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام : ١٢٤] ، ومن يستحق أن يهديه الله لما أرسلهم به ، ومن لا يستحق ذلك .

وقال محمد بن إسحاق فى قوله : ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ قال : يقول الله : لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى فلا يخالفون ، لفعلت ، ولكنى قد أردت أن أبتلى العباد بهم ،

(٣) زيادة من أ .

(٢) فى أ : « فلا » وهو خطأ .

(١) فى أ : « يقربو بكم » .

وأبتليهم^(١) بهم .

وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار ، عن رسول الله ﷺ : « يقول الله : إني مُبتليكَ ومُبتلي بك »^(٢) . وفى المسند عن رسول الله ﷺ : « لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة » ، وفى الصحيح أنه - عليه أفضل الصلاة والسلام - خير بين أن يكون نبياً ملكاً أو عبداً رسولاً ، فاختار أن يكون عبداً رسولاً .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا ﴾ (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ يَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدَمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن تَعَنَّتِ الكفار فى كفرهم ، وعنادهم فى قولهم : ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ﴾ (٣) الْمَلَائِكَةُ ﴿ أَى : بالرسالة كما نُزِّلَ (٤) على الأنبياء ، كما أخبر عنهم تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] ، ويحتمل أن يكون مرادهم هاهنا : ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ ﴾ فنراهم عياناً ، فيخبرونا أن محمداً رسول الله ، كقولهم (٥) : ﴿أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٩٢] . وقد تقدم تفسيرها فى سورة « سبحان » ؛ ولهذا قال (٦) : ﴿ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾ ؛ ولهذا قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا ﴾ . وقد قال [الله] (٧) تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١١١] .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ يَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ أَى : هم لا يرون الملائكة فى يوم خير لهم ، بل يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ لهم (٨) ، وذلك يَصْدُقُ على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار ، وغضب الجبار ، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه : اخرجى أيتها النفس الخبيثة فى الجسد الخبيث ، اخرجى إلى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ، وظلٍّ من يَحْمُومٍ . فتأبى الخروج وتتفرق فى البدن (٩) ، فيضربونه ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٥٠] . وقال : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ ﴾ أَى : بالضرب ، ﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٣] ؛ ولهذا قال فى هذه الآية

(١) فى ١ : « وأبتليكم » .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥) .

(٣) فى ١ : « عليه » وهو خطأ .

(٤) فى ١ : « تنزل » .

(٥) فى ف ، أ : « وكقولهم » .

(٦) فى ف ، أ : « قالوا » .

(٨) فى ف ، أ : « للمجرمين » .

(٩) فى ١ : « الجسد » .

(٧) زيادة من ف ، أ .

الكريمة : ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ ، وهذا بخلاف حال المؤمنين في وقت احتضارهم ، فإنهم يبشرون بالخيرات ، وحصول المسرات . قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ . نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢] .

وفى الحديث الصحيح عن البراء بن عازب : أن الملائكة تقول لروح المؤمن : « اخرجى أيتها النفس الطيبة^(١) فى الجسد الطيب ، كنت تعمريه ، اخرجى إلى روح وريحان ورب غير غضبان » . وقد تقدم الحديث فى سورة « إبراهيم »^(٢) . عند قوله تعالى : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧] . وقال آخرون : بل المراد بقوله : ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ يعنى : يوم القيامة . قاله مجاهد ، والضحاك ؛ وغيرهما .

ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدم ، فإن الملائكة فى هذين اليومين يوم المات ويوم المعاد تتجلى للمؤمنين وللكافرين ، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان ، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران ، فلا بشرى يومئذ للمجرمين .

﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أى : وتقول الملائكة للكافرين حرّام محرم عليكم الفلاح اليوم . وأصل « الحجر » : المنع ، ومنه يقال : حَجَرَ القاضى على فلان ، إذا منعه التصرف إما لسفه ، أو فُلَس ، أو صغر ، أو نحو ذلك . ومنه سُمى « الحجر » عند البيت الحرام ؛ لأنه يمنع الطواف أن يطوفوا فيه^(٣) ، وإنما يطاف من ورائه . ومنه يقال للعقل « حجر »^(٤) ؛ لأنه يمنع صاحبه عن تعاطى ما لا يليق .

والغرض أن الضمير فى قوله : ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عائد على الملائكة . هذا قول مجاهد ، وعكرمة ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، وعطية العوفى ، وعطاء الخراسانى ، وخُصِيف ، وغير واحد . واختاره ابن جرير^(٥) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا موسى - يعنى ابن قيس - عن عطية العوفى ، عن أبى سعيد الخدرى : ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ قال : حراماً محرّماً أن يُبَشَّرَ بما يبشر به المتقون .

وقد حكى ابن جرير ، عن ابن جُرَيْج أنه قال: ذلك من كلام المشركين : ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ ، [أى : يتعوذون من الملائكة ؛ وذلك أن العرب كانوا إذا نزل بأحدهم نازلة أو شدة]^(٦) يقولون : ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ .

(١) فى ف ، أ : « المطمنة » .

(٢) عند الآية : ٢٧ .

(٣) فى ف : « به » .

(٤) فى أ : « حجر » .

(٥) تفسير الطبرى (٢/١٩) .

(٦) زيادة من ف ، أ .

وهذا القول - وإن كان له مأخذ ووجه - ولكنه بالنسبة إلى السياق في الآية بعيد ، ولا سيما قد نص الجمهور على خلافه . ولكن قد روى ابن أبي نَجِيج ، عن مجاهد ؛ أنه قال في قوله : ﴿ حَجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أى : عوداً معاداً . فيحتمل (١) أنه أراد ما ذكره ابن جريج . ولكن في رواية ابن أبي حاتم ، عن ابن أبي نَجِيج ، عن مجاهد أنه قال : ﴿ حَجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [أى] (٢) : عوداً معاداً ، الملائكة تقول : فإله (٣) أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ﴾ : وهذا يوم القيامة ، حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من خير وشر ، فأخبر أنه لا يتحصّل لهؤلاء المشركين من الأعمال - التى ظنوا أنها منجاة لهم - شىء ؛ وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعى ، إما الإخلاص فيها ، وإما المتابعة لشرع الله . فكل عمل لا يكون خالصاً وعلى الشريعة المرضية ، فهو باطل . فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين ، وقد تجمعهما معا ، فتكون أبعد من القبول حينئذ ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ﴾ .

قال مجاهد ، والثورى : ﴿ وَقَدِمْنَا ﴾ أى : عمدنا .

وقال السدى : (قدما) : عمدنا . وبعضهم يقول : أتينا عليه .

وقوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ﴾ : قال سفيان الثوري ، عن أبي إسحاق ، عن الحارث ، عن علي ، رضى الله عنه ، فى قوله : ﴿ [فَجَعَلْنَاهُ] ﴾ (٤) هَبَاءً مَّنْثُورًا ، قال : شعاع الشمس إذا دخل فى الكوة . وكذا روى من غير هذا الوجه عن علي . وروى مثله عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد ابن جبير ، والسدى ، والضحاك ، وغيرهم . وكذا قال الحسن البصرى : هو الشعاع فى كوة أحدهم (٥) ، ولو ذهب يقبض عليه لم يستطع .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ هَبَاءً مَّنْثُورًا ﴾ قال : هو الماء المهرق .

وقال أبو الأحوص ، عن أبي إسحاق ، عن الحارث ، عن علي : ﴿ هَبَاءً مَّنْثُورًا ﴾ قال : الهباء رَهَج (٦) الدواب وروى مثله عن ابن عباس أيضا ، والضحاك ، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وقال قتادة فى قوله : ﴿ هَبَاءً مَّنْثُورًا ﴾ قال : أما رأيت يَبِيسَ الشجر إذا ذرته (٧) الريح ؟ فهو ذلك الورق .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرنى عاصم بن حكيم ، عن أبى سريع الطائى ، عن يعلى بن عبيد (٨) قال : وإن الهباء الرماد .

وحاصل هذه الأقوال التنبيه على مضمون الآية ، وذلك أنهم عملوا أعمالا اعتقدوا أنها شىء ، فلما عرضت على الملك الحكيم (٩) العدل الذى لا يجوز ولا يظلم أحدا ، إذا إنها لاشىء بالكلية . وشبهت فى ذلك بالشىء التافه الحقيق المتفرق ، الذى لا يقدر منه صاحبه على شىء بالكلية ، كما قال

(٤) زيادة من ف ، أ .

(٣) فى أ : « والله » .

(٢) زيادة من أ .

(٧) فى أ : « أذرته » .

(٦) فى ف ، أ : « وهج » .

(٥) فى ف ، أ : « أحدهم » .

(٩) فى ف : « الحكيم » .

(٨) فى أ : « عبيد بن يعلى » .

اللَّهُ تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة : ٢٦٤] ، وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩] . وتقدم الكلام على تفسير ذلك ، ولله الحمد والمنة .

وقوله : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أى : يوم القيامة ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر : ٢٠] ، وذلك لأن (١) أهل الجنة يصيرون إلى الدرجات العاليات ، والغرفات الآمات ، فهم فى مقام أمين ، حسن المنظر ، طيب المقام ، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان : ٧٦] ، وأهل النار يصيرون إلى الدركات السافلات ، والحسرات المتتابعات ، وأنواع العذاب والعقوبات ، ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦] أى : بشئ المنزل منظرا وبئس (٢) المقيلا مقاما ؛ ولهذا قال : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أى : بما عملوه من الأعمال المتقبلة ، نالوا ما نالوا ، وصاروا إلى ما صاروا إليه (٣) ، بخلاف أهل النار فإنه ليس لهم عمل واحد يقتضى لهم دخول الجنة والنجاة من النار ، فَنَبَّهَ - تعالى - بحال السعداء على حال الأشقياء ، وأنه لا خير عندهم بالكلية ، فقال : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ .

قال الضحاك ، عن ابن عباس : إنما هى ضحوة ، فيقيل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين ، ويقيل أعداء الله مع الشياطين مقرنين .

وقال سعيد بن جبير : يفرغ الله من الحساب نصف النهار ، فيقيل أهل الجنة فى الجنة ، وأهل النار فى النار ، قال الله تعالى : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ .

وقال عكرمة : إنى لأعرف الساعة التى يدخل فيها أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار : هى الساعة التى تكون فى الدنيا عند ارتفاع الضحى الأكبر ، إذا انقلب الناس إلى أهلهم للقلولة ، فيصرف أهل النار إلى النار ، وأما أهل [الجنة فينطلق بهم إلى] (٤) الجنة ، فكانت قيلولتهم [فى الجنة] (٥) وأطعموا كبد حوت ، فأشبعهم [ذلك] (٦) كلهم ، وذلك قوله : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ .

وقال سفيان ، عن ميسرة ، عن المنهال ، عن أبى عبيدة ، عن عبد الله بن مسعود ، أنه قال : لا ينتصف النهار حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء ثم قرأ : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ وقرأ : ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات : ٦٨] .

(١) فى أ : « أن » . (٢) فى ف : « أو » . (٣) فى ف : « وصاروا إلى ما إليه صاروا » .

(٤) ٥ ، ٦ زيادة من ف ، أ .

وقال العوفي ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ قال : قالوا فى الغرف من الجنة ، وكان حسابهم أن (١) عرضوا على ربهم عريضة واحدة ، وذلك الحساب اليسير ، وهو مثل قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ . فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا . وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مُسْرُورًا ﴾ [الانشقاق : ٧ - ٩] .

وقال قتادة فى قوله : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ أى : مأوى ومنزلا - قال قتادة : وحدث صفوان بن محرز أنه قال: يجاء يوم القيامة برجلين ، أحدهما كان ملكا (٢) فى الدنيا - إلى الحمرة والبياض فيحاسب ، فإذا عبد ، لم يعمل خيرا فيؤمر به إلى النار . والآخر كان صاحب كساء فى الدنيا ، فيحاسب فيقول : يارب ، ما أعطيتنى من شىء فتحاسبنى به . فيقول : صدق عبدى ، فأرسلوه . فيؤمر به إلى الجنة ، ثم يتركان ما شاء الله . ثم يدعى صاحب (٣) النار ، فإذا هو مثل الحُمّة (٤) السوداء ، فيقال له : كيف وجدت ؟ فيقول : شر مقيّل . فيقال (٥) له : عد (٦) . ثم يدعى بصاحب الجنة ، فإذا هو مثل القمر ليلة البدر ، فيقال له : كيف وجدت ؟ فيقول : رب ، خير مقيّل . فيقال له : عد . رواها ابن أبى حاتم كلها .

وقال ابن جرير : حدثنى يونس ، أنبأنا ابن وهب ، أنبأنا عمرو بن الحارث ، أن سعيدا (٧) الصوّاف حدثه ، أنه بلغه : أن يوم القيامة يقصر على المؤمن (٨) حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس ، وأنهم ليقبلون فى رياض الجنة حتى يفرغ من الناس ، وذلك (٩) قوله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ (١٠) .

﴿ وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩) ﴾ .

يخبر تعالى عن هول يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأمور العظيمة ، فمنها انشقاق (١١) السماء وتفتطرها وانفراجها بالغمام ، وهو ظلّل (١٢) النور العظيم الذى يبهر الأبصار ، ونزول ملائكة السموات يومئذ ، فيحيطون بالخلائق فى مقام المحشر . ثم يجىء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء . قال مجاهد : وهذا كما قال تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ [البقرة : ٢١٠] .

(١) فى أ : « إذ » . (٢) فى أ : « ملك » . (٣) فى أ : « بصاحب » . (٤) فى ف ، أ : « الفحمة » . (٥) فى أ : « فقال » . (٦) فى ف ، أ : « عده » . (٧) فى أ : « سعيد » . (٨) فى أ : « المؤمنين » . (٩) فى ف ، أ : « فذلك » . (١٠) تفسير الطبرى (٥/١٩) . (١١) فى أ : « انشقاق » . (١٢) فى أ : « ظل » .

قال بن أبي حاتم : حدثنا محمد بن الحارث ، حدثنا مؤمل ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس ، أنه قرأ هذه الآية : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ نَزِيلًا ﴾ قال ابن عباس : يجمع الله الخلق يوم القيامة ^(١) في صعيد واحد ، الجن والإنس والبهائم والسباع والطيور وجميع الخلق ، فتشق السماء الدنيا ، فينزل أهلها - وهم أكثر من الجن والإنس ومن جميع الخلائق ^(٢) - فيحيطون بالجن والإنس وجميع الخلق . ثم تنشق السماء الثانية فينزل أهلها ، وهم أكثر من أهل السماء الدنيا ومن الجن والإنس ، ومن جميع الخلق [فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم والجن والإنس وجميع الخلق ^(٣)] ^(٤) ثم تنشق السماء الثالثة ، فينزل أهلها ، وهم أكثر من أهل السماء الثانية والسماء الدنيا ومن جميع الخلق ، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم ، وبالجن والإنس وجميع الخلق . ثم كذلك كل سماء ، حتى تنشق السماء السابعة ، فينزل أهلها وهم أكثر ممن نزل قبلهم من أهل السموات ومن الجن والإنس ومن جميع الخلق ، فيحيطون ^(٥) بالملائكة الذين نزلوا قبلهم من أهل السموات ، وبالجن والإنس وجميع الخلق ، وينزل ربنا عز وجل في ظلل من الغمام ، وحوله الكروبيون ، وهم أكثر من أهل السموات السبع الإنس ^(٦) والجن وجميع الخلق ، لهم قرون كأعقب القنا ، وهم تحت العرش ، لهم زجل بالتسبيح والتلهيل ^(٧) والتقديس لله عز وجل ، ما بين إخمص قدم أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام ، وما بين كعبه إلى ركبتيه ^(٨) مسيرة خمسمائة عام ، وما بين ركبتيه إلى حُجْرَتِهِ ^(٩) مسيرة خمسمائة عام وما بين حُجْرَتِهِ ^(١٠) إلى تَرْقُوتِهِ مسيرة خمسمائة عام ، وما بين تَرْقُوتِهِ إلى موضع القُرْطِ مسيرة خمسمائة عام . وما فوق ذلك مسيرة خمسمائة عام ، وجهنم مجنبتة ^(١١) ، هكذا رواه ابن أبي حاتم بهذا السياق .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثني الحجاج ، عن مبارك بن فضالة ، عن علي بن زيد بن جُدْعَانَ ، عن يوسف بن مهران ، أنه سمع ابن عباس يقول : إن هذه السماء إذا انشقت نزل منها من الملائكة أكثر من الجن والإنس ، وهو يوم التلاق ، يوم يلتقي أهل السماء وأهل الأرض ، فيقول أهل الأرض : جاء ربنا ؟ فيقولون : لم يَجِئْ ، وهو آت . ثم تنشق السماء الثانية ، ثم سماء سماء على قدر ذلك من التضعيف إلى السماء السابعة . فينزل منها من الملائكة أكثر من [جميع من] ^(١٢) نزل من السموات ومن الجن والإنس . قال : فتنزل ^(١٣) الملائكة الكُرُوبِيُّونَ ، ثم يأتي ربنا في حملة العرش الثمانية ، بين كعب كل ملك وركبتيه مسيرة سبعين سنة ، وبين فخذه ومنكبه مسيرة سبعين سنة . قال : وكل ملك منهم لم يتأمل وجه صاحبه ، وكل ملك منهم واضع رأسه بين ثدييه يقول : سبحان الملك القدوس . وعلى رؤوسهم شيء مبسوط كأنه القباء ^(١٤) ، والعرش فوق ذلك .

(١) في ف ، أ : « يجمع الله تعالى الخلق كلهم يوم القيامة » . (٢) في ف ، أ : « الخلق » . (٣) في ف ، أ : « الخلائق » .

(٤) زيادة من ف ، أ ، والدر المنثور ٥ / ٦٨ . (٥) في أ : « فيحيطون » . (٦) في ف ، أ : « والإنس » .

(٧) في ف ، أ : « بالتلهيل والتسبيح » . (٨) في أ : « ركبتيه » . (٩ ، ١٠) في ف ، أ : « أرنبتيه » .

(١١) في هـ ، ف غير منقوطة ، وفي أ : « مجنبتة » . (١٢) زيادة من ف ، أ ، والطبري .

(١٣) في ف ، أ : « فينزل » . (١٤) في أ : « القباء » .

ثم وقف ، فمداره على علي بن زيد بن جدعان ، وفيه ضعف ، وفي سياقاته غالباً نكارة شديدة . وقد ورد في حديث الصور المشهور (١) قريب من هذا ، والله أعلم .

وقد قال [الله] (٢) تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ . وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة ١٥ - ١٧] ، قال شهر بن حوشب : حملة العرش ثمانية ، أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على حلمك بعد علمك . وأربعة يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك ، رواه ابن جرير عنه .

وقال أبو بكر بن عبد الله : إذا نظر أهل الأرض إلى العرش يهبط عليهم من فوقهم ، شخصت إليه أبصارهم ، ورجفت كلاًهم في أجوافهم ، وطارت قلوبهم من مقرها من صدورهم إلى حناجرهم .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا معتمر بن سليمان ، عن عبد الجليل ، عن أبي حازم ، عن عبد الله بن عمرو قال : يهبط الله حين يهبط وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب ، منها النور والظلمة ، فيصوت الماء في تلك الظلمة صوتاً تنخلع منه (٣) القلوب .

وهذا موقوف على (٤) عبد الله بن عمرو من كلامه ، ولعله من الزامتين ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦] . وفي الصحيح : « إن الله يطوى السموات بيمينه ، يأخذ الأرضين بيده الأخرى ، ثم يقول : أنا الملك ، أنا الديان ، أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون » (٥) .

وقوله : ﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ أى : شديداً صعباً ؛ لأنه يوم عدل وقضاء فصل ، كما قال تعالى : ﴿ [فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ] (٦) ، ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ [المدثر : ٨ - ١٠] ، فهذا حال الكافرين في ذلك اليوم . وأما المؤمنون فكما قال تعالى : ﴿ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٣] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن (٧) بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا دراج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد الخدري قال : قيل : يا رسول الله : ﴿ يَوْمٌ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ ما (٨) أطول هذا اليوم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسى بيده ، إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية : ٧٣ من سورة الأنعام .

(٢) زيادة من ف ، أ . (٣) فى ف . أ : له . (٤) فى ف ، أ : عن .

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٨) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنه ، وليس فيه : « أنا الديان » .

(٦) زيادة من ف ، أ . (٧) فى ف ، أ : حسين . (٨) فى ف ، أ : وما .

أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا » (١) .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ : يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول وما جاء به من عند الله من الحق المبين ، الذي لا مزية فيه ، وسلك طريقاً أخرى غير سبيل الرسول ، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم ، وعضّ على يديه حسرةً وأسفاً .

وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أو غيره من الأشقياء ، فإنها عامة في كل ظالم ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَقْلُبُ أُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ . وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا . رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنَا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٦٦ - ٦٨] فكل (٢) ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم ، ويعضّ على يديه قائلاً : ﴿ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا . يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا ﴾ يعني : من (٣) صرفه عن الهدى ، وعدل به إلى طريق الضلالة [من دعاة الضلالة] (٤) ، وسواء في ذلك أمية بن خلف ، أو أخوه أبي بن خلف ، أو غيرهما .

﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ ﴾ [وهو القرآن] (٥) ﴿ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾ أى : بعد بلوغه إلى ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ أى : يخذله عن الحق ، ويصرفه عنه ، ويستعمله في الباطل ، ويدعوه إليه .

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ (٣٠) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿ (٣١) ۞ .

يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمد (٦) - صلوات الله وسلامه (٧) عليه دائماً إلى يوم الدين - أنه قال : ﴿ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ ، وذلك أن المشركين كانوا لا يُصْغُونَ للقرآن ولا يسمعون (٨) ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت : ٢٦] ، وكانوا إذا تلى عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره ، حتى لا يسمعه . فهذا من هجرانه ، وترك [علمه وحفظه أيضاً من هجرانه ، وترك] (٩) الإيمان به وتصديقه من هجرانه ، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه ، وترك العمل به وامتنال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه ، والعدول عنه إلى غيره - من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره - من هجرانه ، فنسأل الله الكريم المنان القادر على ما يشاء ، أن يخلصنا مما يُسْخِطه ، ويستعملنا فيما يرضيه ، من حفظ كتابه وفهمه ، والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف النهار ، على الوجه الذي

(١) المسند (٧٥/٣) وفي إسناده دراج عن أبي الهيثم ضعيف .

(٢) فى ف ، أ : « وكل » . (٣) فى ف ، أ : « لمن » . (٤) فى أ : « يستمعونه » .

(٦) فى أ : « محمداً » . (٧) زيادة من ف ، أ . (٨) زيادة من ف ، أ .

يحبّه ويرضاه ، إنه كريم وهاب .

وقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى : كما حصل لك - يا محمد - فى قومك من الذين هجروا القرآن ، كذلك كان فى الأمم الماضين ؛ لأن الله جعل لكل نبيّ عدوا من المجرمين ، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ . وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٢ ، ١١٣] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ أى : لمن اتبع رسوله ، وآمن بكتابه وصدقه واتبعه ، فإن الله هاديه وناصره فى الدنيا والآخرة . وإنما قال : ﴿ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن ، لئلا يهتدى أحد به ، ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن ؛ فلهذا قال : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٣٤) .

يقول تعالى مخبراً عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم ، وكلامهم فيما لا يعنيههم ، حيث قالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ أى : هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذى أوحى إليه جملة واحدة ، كما نزلت الكتب قبله ، كالتوراة والإنجيل والزبور ، وغيرها من الكتب الإلهية . فأجابهم الله عن ذلك بأنه إنما أنزل منجماً فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث ، وما يحتاج إليه من الأحكام لتثبيت (١) قلوب المؤمنين به كما قال : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ [الإسراء : ١٠٦] ؛ ولهذا قال : ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ : قال قتادة : وبيناه تبيناً . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : وفسرناه تفسيراً .

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ أى : بحجة وشبهة ﴿ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ أى : ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق ، إلا أجبناهم (٢) بما هو الحق فى نفس الأمر ، وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم . قال (٣) سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ أى : بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول ﴿ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ أى : إلا نزل جبريل من الله بجوابهم .

ثم فى هذا اعتناء كبير ؛ لشرف الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه (٤) ، حيث كان يأتيه الوحي من الله بالقرآن صباحاً ومساءً ، ليلاً ونهاراً ، سفراً وحضراً ، فكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن كإنزال كتاب مما قبله من الكتب المتقدمة ، فهذا المقام أعلى (٥) وأجل ، وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله ، ومحمد ، صلوات

(٣) فى ف : « ثنا » .

(٢) فى أ : « جئناهم » .

(١) فى أ : « ليثبت » .

(٥) فى أ : « لعل » .

(٤) فى ف : « عليه وسلامه » .

الله وسلامه عليه ، أعظم نبي أرسله الله وقد جمع الله تعالى للقرآن الصفتين معا ، ففي الملاء الأعلى أنزل جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في سماء الدنيا (١) ، ثم نزل بعد ذلك إلى الأرض منجما بحسب الوقائع والحوادث .

قال أبو عبد الرحمن النسائي : أخبرنا أحمد بن سليمان ، حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا داود ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة ، قال : ﴿ وَلَا يَأْتُوكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ (٢) [الإسراء : ١٠٦] .

ثم قال تعالى مخبراً عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة وحشرهم إلى جهنم ، في أسوأ الحالات وأقبح الصفات : ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ . وفي الصحيح ، عن أنس : أن رجلاً قال : يا رسول الله ، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ فقال : « إن الذي أمشاه علي رجله قادر أن يُمَشِّيه على وجهه يوم القيامة » (٣) . وهكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وغير واحد من المفسرين ، [والله أعلم] (٤) .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمِطْرَتْ مَطَرُ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠) ﴾ .

يقول تعالى متوعداً من كذب رسوله محمداً ، صلوات الله وسلامه عليه ، من مشركى قومه ومن خالفه (٥) ، ومحذرهم من عقابه وأليم عذابه ، مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسوله ، فبدأ بذكر موسى ، عليه السلام ، وأنه ابتعته وجعل معه أخاه هارون وزيراً ، أى : نبياً مؤازراً ومؤيداً وناصراً ، فكذبهما فرعون وجنوده ، ف ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ [محمد : ١٠] . وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحاً ، عليه السلام ، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل ؛ إذ لا فرق بين رسول ورسول ، ولو فرض أن الله بعث إليهم كل رسول فإنهم كانوا يكذبونه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ ﴾ ، ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط ، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، يدعوهم إلى الله ، ويحذرهم نقمه ، فما آمن معه إلا قليل . ولهذا أغرقهم الله

(١) فى أ : « من السماء الدنيا » .

(٢) النسائي فى السنن الكبرى برقم (١١٣٧٢) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧٦٠) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٦) .

(٤) زيادة من ف . (٥) فى ف ، أ : « خالفهم » .

جميعاً ، ولم يبق منهم أحد ، ولم يبق على وجه الأرض من بنى آدم سوى أصحاب السفينة فقط .
﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ أي : عبرة يعتبرون بها ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّا لَمَّا طَفَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَأَعْيَةٌ﴾ [الحاقة : ١١ ، ١٢] . أي : وأبقينا لكم من السفن ما تركبون في لجج البحار ، لتذكروا نعمة الله عليكم في إنجائكم من الغرق ، وجعلكم من ذرية من آمن به وصدق أمره .

وقوله : ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ﴾ قد (١) تقدم الكلام على قصتيهما في غير ما سورة ، منها في سورة «الأعراف» بما أغنى عن الإعادة (٢) .

وأما أصحاب الرس فقال ابن جرير ، عن (٣) ابن عباس : هم أهل قرية من قرى ثمود .

وقال ابن جرير : قال عكرمة : أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب يس .

وقال قتادة : فلج من قرى اليمامة .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم [النبل] (٤) ، حدثنا الضحاك بن مخلد أبو عاصم ، حدثنا شبيب بن بشر (٥) ، حدثنا عكرمة عن ابن عباس في قوله : ﴿وَأَصْحَابُ الرُّسِّ﴾ قال : بئر بأذربيجان .

وقال سفيان الثوري عن أبي بكير (٦) ، عن عكرمة : الرس بئر رسوا فيها نبيهم . أي دفنوه بها (٧) .

وقال محمد بن إسحاق ، عن محمد بن كعب [القرظي] (٨) قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود ، وذلك أن الله - تعالى وتبارك - بعث نبياً (٩) إلى أهل قرية ، فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك العبد الأسود ، ثم إن أهل القرية عدواً على النبي ، فحفروا له بئراً فألقوه فيها ، ثم أطبقوا عليه بحجر ضخمة (١٠) » قال : « فكان ذلك العبد يذهب فيحطب على ظهره ، ثم يأتي بحطبه فيبيعه ، ويشتري به طعاماً وشراباً ، ثم يأتي به إلى تلك البئر ، فيرفع تلك الصخرة ، ويعينه الله عليها ، فيدلى إليه طعامه وشرابه ، ثم يردها كما كانت » . قال : « فكان كذلك ما شاء الله أن يكون ، ثم إنه ذهب يوماً يحطب كما كان يصنع ، فجمع حطبه وحزم وفرغ منها فلما أراد أن يحتملها وجد سنة ، فاضطجع فنام . فضرب الله على أذنه سبع سنين نائماً ، ثم إنه هب فتمطى ، فتحول لشقه الآخر فاضطجع ، فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى . ثم إنه هب واحتمل حزمته ولا يحسب إلا أنه نام ساعة من نهار (١١) ، فجاء إلى القرية فباع حزمته ، ثم اشترى طعاماً وشراباً كما كان يصنع . ثم ذهب (١٢) إلى الحفيرة في موضعها الذي كانت فيه ، فالتمسه فلم يجده . وكان قد بدا لقومه فيه بداء ، فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه » . قال :

(١) في ف : « وقد » . (٢) في ف ، أ : « إعادته » . (٣) في أ : « قال » . (٤) زيادة من ف .
(٥) في أ : « بشير » . (٦) في ف ، أ : « بكر » . (٧) في ف : « فيها » . (٨) زيادة من ف ، والطبرى .
(٩) في ف : « بعث نبياً من الأنبياء » . (١٠) في ف : « أصم » .
(١١) في أ : « النهار » . (١٢) في ف ، أ : « ثم إنه ذهب » .

« فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود : ما فعل ؟ فيقولون له : ما ندرى . حتى قبض الله النبي ، وأهَبَّ الأسودَ من نومته بعد ذلك » . فقال رسول الله ﷺ : « إن ذلك الأسودَ لأولُ من يدخل الجنة » .

هكذا رواه ابن جرير (١) ، عن ابن حميد ، عن سلمة عن ابن إسحاق ، عن محمد بن كعب مرسلًا . وفيه غرابة ونكارةٌ ، ولعل فيه إدراجاً ، والله أعلم . وأما ابن جرير فقال : لا يجوز أن يحمل هؤلاء على أنهم أصحاب الرس الذين ذكروا في القرآن ؛ لأن الله أخبر عنهم أنه أهلكتهم ، وهؤلاء قد بدا لهم فآمنوا بنبيهم ، اللهم إلا أن يكون حدث لهم أحداث ، آمنوا بالنبي بعد هلاك آبائهم ، والله أعلم .

واختار ابن جرير أن المراد بأصحاب الرس هم أصحاب الأخدود ، الذين ذكروا في سورة البروج ، فالله أعلم .

وقوله : ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ أى : وأما بين أضعاف مَنْ ذُكر أهلكتهم كثيرة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكَلَّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ﴾ أى : بينا لهم الحجج ، ووضّحنا لهم الأدلة - كما قال قتادة : أرحنا (٢) عنهم الأعدار - ﴿ وَكَلَّا تَبَرَّنَا تَبِيرًا ﴾ أى : أهلكتنا إهلاكاً ، كقوله : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء : ١٧] .

والقرن : هو الأمة من الناس ، كقوله : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ [المؤمنون : ٣١] . وحده بعضهم (٣) بمائة وعشرين سنة . وقيل : بمائة سنة . وقيل : بثمانين سنة . وقيل : أربعين . وقيل غير ذلك . والأظهر : أن القرن هم الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد ؛ فإذا ذهبوا وخلفهم جيل آخر فهم قرن ثان ، كما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » الحديث .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرَتَ مَطَرُ السَّوَاءِ ﴾ يعنى : قرية قوم لوط ، وهي سدوم ومعاملتها التي أهلكتها الله بالقلب ، وبالطر الحجارة من سجيل ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٧٣] وقال : ﴿ وَإِنِّكُمْ لَتَمْرُونُ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفْلًا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨] وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لِبِسْبِيلٍ مُقِيمٍ ﴾ [الحجر : ٧٦] . وقال : ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ [الحجر : ٧٩] ؛ ولهذا قال : ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرُونَهَا ﴾ أى : فيعتبروا بما حلَّ بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم بالرسول ومخالفتهم أوامر الله .

وقوله : ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ يعنى : المارين بها من الكفار لا يعتبرون لأنهم لا يرجون نشوراً ، أى : معاداً يوم القيامة .

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ (٤) **إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ**

(١) تفسير الطبرى : ١٩ / ١٠ .

(٢) فى ١ ، أ : « بعض المفسرين » .

(٣) فى ١ : « وأرحنا » .

آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، إذا رأوه ، كما قال : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ لَيُخَذُّونَكَ مِنَ الْأَمْرِ الْأَكْبَرِ الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ [الأنبياء : ٣٦] يعنونه بالغيب والنقص ، وقال هاهنا : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ مِنْهُمْ لَيُخَذُّونَكَ مِنَ الْأَمْرِ الْأَكْبَرِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ ؟ أى : على سبيل التنقيص ^(١) والازدراء - قبحهم الله - كما قال : ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرعد : ٣٢] .

وقولهم (٢) : ﴿ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ يعنون : أنه كاد يشنيهم عن عبادة أصنامهم ، لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا على عبادتها . قال الله تعالى متوعداً لهم ومتهدداً : ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ .

ثم قال تعالى لنبيه ، منبهاً له أن من كتب الله عليه الشقاوة والضلال ، فإنه لا يهديه أحد إلا الله .

﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ أى : مهما استحسنت من شيء ورآه حسناً فى هوى نفسه ، كان دينه ومذهبه ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ لَمْ يَضِلُّ مِنَ الْيُضْلُ مِنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ﴾ [فاطر : ٨] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ . قال ابن عباس : كان الرجل فى الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً ، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثانى وترك الأول .

ثم قال : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ أى : أسوأ حالا من الأنعام السارحة ، فإن تلك تعقل ما خلقت له ، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له ، وهم يعبدون غيره ويشركون به ، مع قيام الحجة عليهم ، وإرسال الرسل إليهم .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾

من هاهنا شرع تعالى فى بيان الأدلة الدالة على وجوده ، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ ؟ قال ابن عباس ، وابن عمر ، وأبو

(٢) فى أ : « وقوله » .

(١) فى ف ، أ : « التنقيص » .

العالية ، وأبو مالك ، ومسروق ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي ، والضحاك ، والحسن البصري ، وقتادة ، والسدي ، وغيرهم : هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أى : دائماً لا يزول ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القصص : ٧١ ، ٧٢] .
وقوله : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أى : لولا أن الشمس تطلع عليه ، لما عرف ، فإن (١) الضد لا يعرف إلا بضده .

وقال قتادة ، والسدي : دليلاً يتلوه ويتبعه حتى يأتى عليه كله .

وقوله : ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أى : الظل . وقيل : الشمس . ﴿يَسِيرًا﴾ أى : سهلاً . قال ابن عباس : سريعاً . وقال مجاهد : خفياً . وقال السدي : قبضاً خفياً ، حتى لا يبقى فى الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة ، وقد أظلت الشمس ما فوقه .
وقال أيوب بن موسى : ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أى : قليلاً قليلاً .
وقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أى : يلبس الوجود ويُغشيه (٢) ، كما قال : ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى﴾ [الليل : ١] وقال [٣] : ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس : ٤] .

﴿وَالنَّوْمُ سُبَاتًا﴾ أى : قطعاً للحركة لراحة الأبدان ، فإن الأعضاء والجوارح تكل من كثرة الحركة فى الانتشار بالنهار فى المعاش ، فإذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات ، فاستراحت فحصل النوم الذى فيه راحة البدن والروح معاً .

﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ أى : ينتشر الناس فيه (٤) لمعاشهم ومكاسبهم وأسبابهم ، كما قال تعالى : ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص : ٧٣] .

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ (٤٨)
لُنُحْيِي بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْآسِي كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠) .

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم ، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات ، أى : بمجيء السحاب بعدها ، والرياح أنواع ، فى صفات كثيرة من التسخير ، فمنها ما يثير السحاب ، ومنها ما يحمله ، ومنها ما يسوقه ، ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشراً ، ومنها ما يكون قبل ذلك يقم الأرض ، ومنها ما يلقيح السحاب ليمطر ؛ ولهذا قال : ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ أى : آلة يتطهر بها ، كالسحور والوقود (٥) وما جرى مجراه . فهذا أصح ما يقال فى ذلك . وأما من قال : إنه فعول

(٣) زيادة من أ .

(٢) فى ف : « ويغشاه » .

(١) فى ف : « وإن » .

(٥) فى أ : « والوجود » .

(٤) فى ف : « فيه الناس » .

بمعنى فاعل ، أو : إنه مبنى للمبالغة أو التعدى ، فعلى كل منهما ^(١) إشكالات من حيث اللغة والحكم ، ليس ^(٢) هذا موضع بسطها ، والله أعلم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدثنا أبي ، عن أبي جعفر الرازي ، حدثني حميد الطويل ، عن ثابت البناني قال : دخلت مع أبي العالية في يوم مطير ، وطرق البصرة قدرة ، فصلى ، فقلت له ، فقال : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ ، قال : طهره ماء السماء .

وقال أيضاً : حدثنا أبي ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا وهيب ^(٣) ، عن داود ، عن سعيد بن المسيب في هذه الآية : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ [قال : أنزله الله ماءً طاهراً] ^(٤) لا ينجسه شيء . وعن أبي سعيد قال : قيل : يا رسول الله ، أنتوضأ من بثر بضاعة ؟ - وهى بثر يلقي فيها التّن ولحوم الكلاب - فقال : « إن الماء طهور لا ينجسه شيء » . رواه الشافعي ، وأحمد وصححه ، وأبو داود ، والترمذي وحسنه ، والنسائي ^(٥) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو الأشعث ، حدثنا معتمر ، سمعت أبي يحدث عن سيّار ، عن خالد بن يزيد ، قال : كان عند عبد الملك بن مروان ، فذكروا الماء ، فقال خالد بن يزيد : منه من السماء ، ومنه ما يسقيه الغيم من البحر فيُعَذِّبه الرعد والبرق . فأما ما كان من البحر ، فلا يكون له نبات ، فأما النبات فمما كان من السماء .

وروى عن عكرمة قال : ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بها في الأرض عشباً أو في البحر لؤلؤة . وقال غيره : في البر ، وفي البحر دُرّ .

وقوله : ﴿ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مِّيتًا ﴾ أى : أرضاً قد طال انتظارها للغيث ، فهى هامة لا نبات فيها ولا شيء . فلما جاءها الحيا عاشت واكتست رباها أنواع الأزهار والألوان ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥] .

﴿ وَنَسْقِيهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْآسِي كَثِيرًا ﴾ أى : وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناسى محتاجين إليه غاية الحاجة ، لشربهم وزروعهم وثمارهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [الشورى : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ ﴾ ^(٦) كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [الروم : ٥٠] .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا بِهِمْ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ أى : أمطرنا هذه الأرض دون هذه ، وسقنا السحاب فمر على الأرض وتعداها وجاوزها إلى الأرض الأخرى ، [فأمطرتها وكفتها فجعلتها عذقا ، والتى وراءها] ^(٧) لم ينزل فيها قطرة من ماء ، وله فى ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة .

(١) فى أ : منها . (٢) فى ف ، أ : « وليس » . (٣) فى أ : « وهب » . (٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) الأم للشافعي (٩ / ١) والمسند (١٥ / ٣) وسنن أبي داود برقم (٦٦) وسنن الترمذي برقم (٦٦) وسنن النسائي (١٧٤ / ١) .

(٦) فى ف ، أ : « وهو على » وهو الصواب . (٧) زيادة من ف ، أ .

قال ابن مسعود وابن عباس : ليس عام بأكثر مطراً من عام ، ولكن الله يصرفه كيف يشاء ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا فَآبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝ ﴾ .

أى : ليذكروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات (١) والعظام الرفات . أو : ليذكر من منع القطر أنما أصابه ذلك بذنب أصابه ، فيقلع عما هو فيه .

وقال عمر مولى غفرة (٢) : كان جبريل ، عليه السلام ، فى موضع الجنائز ، فقال له النبي ﷺ : « يا جبريل ، إني أحب أن أعلم أمر السحاب ؟ » قال : فقال جبريل : يا نبي الله ، هذا ملك السحاب فسله . فقال : تأتينا صكأك مختمة : اسق بلاد كذا وكذا ، كذا وكذا قطرة . رواه ابن حاتم ، وهو حديث مرسل .

وقوله : ﴿ فَآبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝ ﴾ : قال عكرمة : يعنى : الذين (٣) يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا .

وهذا الذى قاله عكرمة كما صح فى الحديث المخرج فى صحيح مسلم ، عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوماً ، على أثر سماء أصابتهم من الليل : « أتدرون ماذا قال ربكم » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بى كافر بالكوكب . وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذاك كافر بى ، مؤمن بالكوكب » (٤) .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ۝٥١﴾ فَلَا تَطْعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ۝٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝٥٤﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ۝ ﴾ : يدعوهم إلى الله عز وجل ، ولكننا خصصناك - يا محمد - بالبعثة إلى جميع أهل الأرض ، وأمرناك أن تبلغ الناس هذا القرآن ، ﴿ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩] ، ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : ١٧] ، ﴿ وَلَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام : ٩٢] ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] وفى الصحيحين : « بعثت إلى الأحمر والأسود » . وفيهما : « وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلَا تَطْعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ ﴾ يعنى : بالقرآن ، قاله ابن عباس ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ٧٣] ،

(١) فى ف ، أ : « الموتى » . (٢) فى ف ، أ : « عقبه » . (٣) فى أ : « الذى » .

(٤) صحيح مسلم برقم (٧١) من حديث زيد بن خالد الجهنى .

التحريم : ٩] .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أى : خلق المائين : الحلو والملح ، فالخلو كالأنهار والعيون والآبار ، وهذا هو البحر الحلو الفرات العذب الزلال . قاله ابن جريج ، واختاره ابن جرير ، وهذا الذى لاشك فيه ، فإنه ليس فى الوجود بحر ساكن وهو عذب فرات . والله سبحانه إنما أخبر بالواقع (١) لينبه العباد على نعمه عليهم ليذكروه ، فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس ، فرقه تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهارا وعيونا فى كل أرض بحسب حاجتهم وكفائتهم لأنفسهم وأراضيهم .

وقوله : ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أى : مالح مَرَّ زَعَاقٌ لا يستساغ ، وذلك كالبهار المعروفة فى المشرق والمغرب : البحر المحيط وما يتصل به من الزقاق وبحر القلزم ، وبحر اليمن ، وبحر البصرة ، وبحر فارس وبحر الصين والهند وبحر الروم وبحر الخزر ، وما شاكلها وشابهها (٢) من البحار الساكنة التى لا تجرى ، ولكن تتموج وتضطرب وتغتلم فى زمن الشتاء وشدة الرياح ، ومنها ما فيه مد وجزر ، ففى أول كل شهر يحصل منها مد وفيض (٣) ، فإذا شرع الشهر فى النقصان جَزَرَتْ ، حتى ترجع إلى غايتها الأولى ، فإذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت فى المد إلى الليلة الرابعة عشرة (٤) ثم تشرع فى النقص ، فأجرى الله سبحانه وتعالى - وله القدرة التامة - العادة بذلك . فكل هذه البحار الساكنة خلقها الله سبحانه وتعالى مالحة الماء ، لئلا يحصل بسببها نتن الهواء ، فيفسد الوجود بذلك ، ولئلا تجوى الأرض بما يموت فيها من الحيوان . ولما كان ماؤها ملحا كان هواؤها صحيحا وميتتها طيبة ؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ وقد سئل عن ماء البحر : أنتوضأ به ؟ فقال : « هو الطهور ماؤه ، الحل ميتته » . رواه الأئمة : مالك ، والشافعى ، وأحمد ، وأهل السنن بإسناد جيد (٥) .

وقوله : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا ﴾ أى : بين العذب والمالح ﴿ بَرْزَخًا ﴾ أى : حاجزا ، وهو اليبس من الأرض ، ﴿ وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ أى : مانعا أن يصل أحدهما إلى الآخر ، كما قال : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : ١٩ - ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِنْ إِلَهَ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل : ٦١] .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ أى : خلق الإنسان من نطفة ضعيفة ، فسواه وعدله ، وجعله كامل الخلقة ، ذكرا أو أنثى ، كما يشاء ، ﴿ فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ ، فهو فى ابتداء أمره ولد نسيب ، ثم يتزوج فيصير صهرا ، ثم يصير له أصهار وأختان وقربات . وكل ذلك من ماء مهين ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ۝٥٥ وَمَا

(١) فى ١ : « عن الواقع » . (٢) فى ١ : « وأشبهها » . (٣) فى ١ : « وفيض » . (٤) فى ١ : « عشر » .

(٥) سبق تخريجه عند تفسير الآية : ٣ من سورة المائدة .

أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ ﴿

يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام ، التي لا تملك لهم نفعاً ولا ضرراً ، بلا دليل قادم إلى ذلك ، ولا حجة أدتهم إليه ، بل بمجرد الآراء ، والتشهى والأهواء ، فهم يوالونهم ^(١) ويقاتلون في سبيلهم ، ويعادون الله ورسوله [والمؤمنون] ^(٢) فيهم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ أى : عوناً في سبيل الشيطان على حزب الله ، وحزب الله هم الغالبون ، كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ . لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحَضَّرُونَ ﴾ [يس: ٧٤ ، ٧٥] أى : آلهتهم التي اتخذوها من دون الله لا تملك ^(٣) لهم نصراً ، وهؤلاء الجبهة للأصنام جند محضرون يقاتلون عنهم ، ويدبّون عن حوزتهم ، ولكن العاقبة والنصرة لله ولرسوله في الدنيا والآخرة .

قال مجاهد : ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ قال : يظهر الشيطان على معصية الله ، يعينه . وقال سعيد بن جبّير : ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ يقول : عوناً للشيطان على ربه بالعداوة والشرك . وقال زيد بن أسلم : ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ قال : موالياً .

ثم قال تعالى لرسوله ، صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ أى : بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين ، مبشراً بالجنة لمن أطاع الله ، ونذيراً بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله .

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أى : على هذا البلاغ وهذا الإنذار من أجرة أطلبها من أموالكم ، وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله ، ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ [التكويد : ٢٨] ، ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ أى : طريقاً ومسلحاً ومنهجاً يقتدى فيها بما جئت به .

ثم قال : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ أى : فى أمورك كلها كن متوكلاً على الله الحى الذى لا يموت أبداً ، الذى هو ﴿ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : ٣] ، الدائم الباقي السرمدى الأبدى ، الحى القيوم ربّ كل شىء ومليكه ، اجعله ذخرك وملجأك ، وهو الذى يتوكل عليه ويفزع إليه ، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا

(٣) فى أ : « لا يملكون » .

(٢) زيادة من أ .

(١) فى أ : « والتشهى فيهم يوالون لهم » .

أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴿٦٧﴾ [المائدة : ٦٧].

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عبد الله بن محمد بن علي بن نُفَيْل قال : قرأت على مَعْقِل - يعنى ابن عبيد الله - عن عبد الله بن أبي حسين ، عن شَهْر بن حَوْشَب قال : لقي سلمانُ رسولَ الله ﷺ فى بعض فجاج (١) المدينة ، فسجد له ، فقال : « لا تسجد لى يا سلمان ، واسجد للحى الذى لا يموت » . وهذا مرسل حسن (٢) .

[وقوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ ، أى : اقرن بين حمده وتسيبحه] (٣) ؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك » أى : أخلص له العبادة والتوكل ، كما قال تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل : ٩] .

وقال : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود : ١٢٣] ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الملك : ٢٩] .

وقوله : ﴿ وَكَفَى بِهِ بَذْنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾ أى : لعلمه (٤) التام الذى لا يخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة .

وقوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أى : هو الحى الذى لا يموت ، وهو خالق كل شىء وربّه ومليكه، الذى خلق بقدرته وسلطانه السموات السبع فى ارتفاعها واتساعها، والأرضين السبع فى سفولها وكثافتها، ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ [الرَّحْمَنُ] ﴾ (٥) ، أى : يدبر الأمر ، ويقضى الحق ، وهو خير الفاصلين .

وقوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْتَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ أى : استعلم عنه من هو خير به عالم به فاتبعه واقتد به ، وقد علم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد ، صلوات الله وسلامه ، على (٦) سيد ولد آدم على الإطلاق ، فى الدنيا والآخرة ، الذى لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى - فما قاله فهو حق ، وما أخبر به فهو صدق ، وهو الإمام المحكم الذى إذا تنازع الناس فى شىء وجب ردّ نزاعهم إليه ، فما يوافق أقواله ، وأفعاله فهو الحق ، وما يخالفها (٧) فهو مردود على قائله وفاعله ، كائنا من كان ، قال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء : ٥٩] .

وقال : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى : ١٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام : ١١٥] أى : صدقا فى الإخبار وعدلا فى الأوامر والنواهي ؛

(١) فى أ : « مخارج » .

(٢) ورواه أبو نعيم فى تاريخ أصبهان (١٠٣/٢) من طريق محمد بن أحمد بن سيار عن هشام عن إسماعيل بن عياش عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين به .

(٣) زيادة من أ .

(٤) فى ف ، أ : « بعلمه » .

(٥) زيادة من ف ، أ .

(٦) فى أ : « وما خالفها » .

(٧) فى ف ، أ : « عليه » .

ولهذا قال : ﴿ فَاسْتَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ قال مجاهد فى قوله : ﴿ فَاسْتَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ قال : ما أخبرتك (١) من شىء فهو كما أخبرتك . وكذا قال ابن جرير .

وقال شمر بن عطية فى قوله : ﴿ فَاسْتَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ قال : هذا القرآن خبير به .

ثم قال تعالى منكر على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ؟ أَى : لا نعرف الرحمن . وكانوا ينكرون أن يُسمى الله باسمه الرحمن ، كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبى ﷺ للكاتب : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقالوا : لا نعرف الرحمن ولا الرحيم ، ولكن اكتب كما كنت تكتب : باسمك اللهم ؛ ولهذا أنزل الله : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الإسراء : ١١٠] أى : هو الله وهو الرحمن . وقال فى هذه الآية (٢) : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ؟ أَى : لا نعرفه ولا نقر به ؟ ﴾ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا أَى : لمجرد قولك ؟ . ﴿ وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ ، أما (٣) المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذى هو الرحمن الرحيم ، ويُفَرِّدُونَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ ويسجدون له . وقد اتفق العلماء - رحمهم الله - على أن هذه السجدة التى فى الفرقان مشروع السجود عندها لقارئها ومستمعها ، كما هو مقرر فى موضعه ، والله أعلم .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَنۢ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) .

يقول تعالى مجدا نفسه ، ومعظما على جميل ما خلق فى السماء من البروج - وهى الكواكب العظام - فى قول مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأبى صالح ، والحسن ، وقتادة .

وقيل : هى قصور فى السماء للحرس ، يروى هذا عن على ، وابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وإبراهيم النخعى ، وسليمان بن مهران الأعمش . وهو رواية عن أبى صالح أيضا ، والقول الأول أظهر . اللهم إلا أن يكون الكواكب العظام هى قصور للحرس ، فيجتمع القولان ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ [الملك : ٥] ؛ ولهذا قال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا ﴾ وهى الشمس المنيرة ، التى هى كالسراج فى الوجود ، كما قال : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ [النبأ : ١٣] .

﴿ وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ أى : مضيئا مشرقا بنور آخر ونوع وفن آخر ، غير نور الشمس ، كما قال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس : ٥] ، وقال مخبرا عن نوح ، عليه السلام ، أنه قال لقومه : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴾ [نوح : ١٥ ، ١٦] .

(٢) فى ف ، أ : « الآية الكريمة » .

(٤) فى أ : « نشورا » وهو خطأ .

(١) فى أ : « ما أخبرك » .

(٣) فى ف ، أ : « فاما » .

ثم قال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ أى : يخلف كل واحد منهما الآخر ، يتعاقبان لا يفتران . إذا ذهب هذا جاء هذا ، وإذا جاء هذا ذهب ذلك (١) ، كما قال : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ [إبراهيم : ٣٣] ، وقال : ﴿ يُغْشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ [الأعراف : ٥٤] وقال : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠] .

وقوله : ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكَرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ أى : جعلهما يتعاقبان ، توقيتا لعبادة عباده له ، فمن فاته عمل فى الليل استدركه فى النهار ، ومن فاته عمل فى النهار استدركه فى الليل . وقد جاء فى الحديث الصحيح : « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » (٢) .

قال أبو داود الطيالسى : حدثنا أبو حرة (٣) ، عن الحسن : أن عمر بن الخطاب أطل صلاة الضحى ، فقبل له : صنعت اليوم شيئا لم تكن تصنعه ؟ فقال : إنه بقى على من وردى شيء ، فأحببت أن أتمه - أو قال : أقضيه - وتلا هذه الآية : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ [لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكَرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا] (٤) ﴿ (٥) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس [قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ (٦)] يقول : من فاته شيء من الليل أن يعمل به ، أدركه بالنهار ، أو من النهار أدركه بالليل . وكذا قال عكرمة ، وسعيد بن جبير . والحسن .

وقال مجاهد ، وقتادة : ﴿ خِلْفَةً ﴾ أى : مختلفين ، هذا بسواده ، وهذا بضياؤه .

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) .

هذه صفات عباد الله المؤمنين ﴿ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ أى : بسكينة ووقار من غير جبرية ولا استكبار ، كما قال : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٧] . فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح ، ولا أشر ولا بطر ،

(١) فى ١ : « هذا » .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٧٥٩) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

(٣) فى ١ : « أبو حمزة » . (٤) زيادة من ف ، ا .

(٥) وهذا منقطع ، فالحسن لم يسمع من عمر .

(٦) زيادة من ف ، ا .

وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى من التصانع تصنعاً ورياء ، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صَبَب ، وكأنما الأرض تطوى له . وقد كره بعض السلف المشى بتضعف وتصنع ، حتى روى عن عمر أنه رأى شاباً يمشى رؤيداً ، فقال : ما بالك ؟ أنت مريض ؟ قال : لا ، ياأمير المؤمنين . فعلاه بالدرة ، وأمره أن يمشى بقوة . وإنما (١) المراد بالهَوْن هاهنا السكينة والوقار ، كما قال رسول الله ﷺ : « إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، وأتوها وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا » (٢) .

وقال عبد الله بن المبارك ، عن مَعْمَر ، عن يحيى (٣) بن المختار ، عن الحسن البصرى فى قوله : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ قال : إن المؤمنين قوم ذُلل ، ذلت منهم - والله - الأسماع والأبصار والجوارح ، حتى تحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض ، وإنهم لأصحاء ، ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة ، فقالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن . أما والله ما أحزنهم حزن الناس ، ولا تعاظم فى نفوسهم شئ طلبوا به الجنة ، أبكاهم الخوف من النار ، وإنه من لم يتعز بعزاء الله تَقَطَّعَ نفسه على الدنيا حسرات ، ومن لم ير لله نعمة إلا فى مطعم أو فى مشرب ، فقد قل علمه (٤) وحَضَرَ عذابه .

وقوله : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ أى : إذا سَفِهَ عليهم الجاهل بالسَّيِّء ، لم يقابلوهم عليه بمثله ، بل يعفون ويصفحون ، ولا يقولون إلا خيراً ، كما كان رسول الله ﷺ لا تزيد شدة الجهل عليه إلا حلماً ، وكما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص : ٥٥] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا أبو بكر ، عن الأعمش ، عن أبى خالد الوالى ، عن النعمان بن مقرن المزنى قال : قال رسول الله ﷺ [وسبَّ رجلٌ رجلاً عنده ، قال : فجعل الرجل المسبوب يقول : عليك السلام . قال : فقال رسول الله ﷺ : « أما [(٥) إن ملكاً بينكما يذب عنك ، كلما شتمك هذا قال له : بل أنت وأنت أحق به . وإذا قال له : عليك السلام ، قال : لا ، بل عليك ، وأنت أحق به » . إسناده حسن ، ولم يخرجوه (٦) .

وقال مجاهد : ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾ يعنى : قالوا : سداداً .

وقال سعيد بن جبیر : ردوا معروفاً من القول .

وقال الحسن البصرى : ﴿ قَالُوا [سَلَامًا] ﴾ ، قال : حلماء لا يجهلون [(٧) ، وإن جهل عليهم حلموا . يصاحبون عباد الله نهارهم بما تسمعون (٨) . ثم ذكر أن ليلهم خير ليل .

(١) فى ف ، أ : « وأما » .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٣٥) ومسلم فى صحيحه برقم (٦٠٣) من حديث أبى قتادة رضى الله عنه .

(٣) فى ف ، أ : « عمر » . (٤) فى أ : « عمله » . (٥) زيادة من ف ، أ ، والمسنده .

(٦) المسند (٤٤٥/٥) وقال الهيثمى فى المجمع (٧٥/٨) : « رجاله رجال الصحيح ، غير أبى خالد الوالى وهو ثقة » .

(٧) زيادة من ف ، أ . (٨) فى ف ، أ : « بما يسمعون » .

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ أى : فى عبادته وطاعته ، كما قال تعالى : ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات : ١٧ ، ١٨] ، وقال : ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة : ١٦] وقال : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آثَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ الآية [الزمر : ٩] ، ولهذا قال : ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أى : ملازمًا دائمًا ، كما قال الشاعر^(١) :

إِنْ يُعَذَّبُ يَكُنْ غَرَامًا ، وَإِنْ يُعْطَى ط جزيلًا ، فإنه لا يُبَالَى

ولهذا قال الحسن فى قوله : ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ : كل شىء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام ، وإنما الغرام اللازم ما دامت السموات والأرض . وكذا قال سليمان التيمي .

وقال محمد بن كعب [القرظى] ^(٢) : ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ يعنى : ما نعموا فى الدنيا ؛ إن الله سأل الكفار عن النعمة فلم يردوها إليه ، فأغرمهم فأدخلهم النار .

﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أى : بشس المنزل منظرا ، وبشس المقييل مقامًا .

[و] ^(٣) قال ابن أبى حاتم عند قوله : ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ : حدثنا أبى ، حدثنا الحسن ابن الربيع ، حدثنا أبو الأحوص عن الأعمش ، عن مالك بن الحارث قال : إذا طُرح الرجل فى النار هوى فيها ، فإذا انتهى إلى بعض أبوابها قيل له : مكانك حتى تتحف ، قال : فيسقى كأسًا من سُمِّ الأسود والعقارب ، قال : فيميز الجلد على حدة ، والشعر على حدة ، والعصب على حدة ، والعروق على حدة .

وقال أيضاً : حدثنا أبى ، حدثنا الحسن بن الربيع ، حدثنا أبو الأحوص ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن عبيد بن عمير قال : إن فى النار لجباباً فيها حيات أمثال البخت ، وعقارب أمثال البغال الدلم ^(٤) ، فإذا قذف بهم فى النار خرجت إليهم من أوطانها فأخذت بشفاههم وأبشارهم وأشعارهم ، فكشطت لحومهم إلى أقدامهم ، فإذا وجدت حر النار رجعت .

وقال الإمام أحمد : حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا سلام - يعنى ابن مسكين - عن أبى ظلال ، عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « إن عبداً فى جهنم لينادى ألف سنة : يا حنان ، يا منان . فيقول الله لجبريل : اذهب فأتنى بعبدى هذا . فينطلق جبريل فيجد أهل النار مُنكبين^(٥) ، فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره ، فيقول الله عز وجل : أتنى به فإنه فى مكان كذا وكذا . فيجىء به فيوقفه على ربه عز وجل ، فيقول له : يا عبدى ، كيف وجدت مكانك ومقيلك ؟ فيقول : يارب شر مكان ، شر مقييل . فيقول : ردوا عبدى . فيقول : يارب ، ما كنت أرجو إذ أخرجتنى منها أن تردنى فيها ! فيقول : دعوا عبدى ^(٦) .

وقوله : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ أى : ليسوا بمبذرين فى

(١) هو الأعشى - ميمون بن قيس - والبيت فى تفسير الطبرى (٢٣/١٩) .

(٢) (٣ ، ٢) زيادة من أ . (٤) فى أ : « الدهم » . (٥) فى أ : « مكين » .

(٦) المسند (٢٣٠/٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٣٨٤/١٠) : « رجاله رجال الصحيح غير أبى ظلال وضعفه الجمهور ، ووثقه ابن حبان » .

إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة ، ولا بخلاء على أهلهم فيقصرون في حقهم فلا يكفونهم ، بل عدلاً خياراً ، وخير الأمور أوسطها ، لا هذا ولا هذا ، ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ ، كما قال : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٩] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عصام (١) بن خالد ، حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني ، عن ضمرة ، عن أبي الدرداء ، عن النبي ﷺ قال : « من فقه الرجل رفقه في معيشته » . ولم يخرجوه (٢) .

وقال [الإمام] (٣) أحمد أيضاً : حدثنا أبو عبيدة الخداد ، حدثنا سكين (٤) بن عبد العزيز العبدى ، حدثنا إبراهيم الهجرى عن أبي الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما عال من اقتصد » . ولم يخرجوه (٥) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أحمد بن يحيى ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن ميمون (٦) ، حدثنا سعيد (٧) بن حكيم ، عن مسلم بن حبيب ، عن بلال - يعنى العبسى - عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أحسن القصد فى الغنى ، وأحسن القصد فى الفقر ، وأحسن القصد فى العبادة » . ثم قال : لا نعرفه يروى إلا من حديث حذيفة رضى الله عنه (٨) .

وقال إياس بن معاوية : ما جاوزت به أمر الله فهو سرف .

وقال غيره : السرف النفقة فى معصية الله .

وقال الحسن البصرى : ليس النفقة فى سبيل الله سرف [والله أعلم] (٩) .

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن شقيق ، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : سئل رسول الله ﷺ : أى الذنب أكبر ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » . قال : ثم أى ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » . قال : ثم أى ؟ قال : « أن تزاني » .

(١) فى أ : « عاصم » .

(٢) المسند (١٩٤/٥) .

(٣) زيادة من أ . (٤) فى أ : « مسكين » .

(٥) المسند (٤٤٧/١) وقال الهيثمى فى المجمع (٢٥٢/١٠) : « فى إسناده إبراهيم بن مسلم الهجرى وهو ضعيف » .

(٦) فى ف ، أ : « إبراهيم بن محمد بن محمد بن ميمون » . (٧) فى ، أ : « سعد » .

(٨) مسند البزار برقم (٣٦٠٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٢٥٢/١٠) : « رواه البزار عن سعيد بن حكيم عن مسلم بن حبيب ، ومسلم هذا لم أجد من ذكره إلا ابن حبان فى ترجمة سعيد الراوى عنه ، وبقية رجاله ثقات » .

(٩) زيادة من أ .

حليّة جارك » . قال عبد الله : وأنزل الله تصديق ذلك : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ .

وهكذا رواه النسائي عن هناد بن السرى ، عن أبى معاوية ، به (١) .

وقد أخرجه البخارى ومسلم ، من حديث الأعمش ومنصور - زاد البخارى : وواصل - ثلاثتهم عن أبى وائل ، شقيق بن سلمة ، عن أبى ميسرة عمرو بن شرحبيل ، عن ابن مسعود ، به (٢) ، فالله أعلم ، ولفظهما عن ابن مسعود قال : قلت : يا رسول الله ، أى الذنب أعظم ؟ الحديث .

طريق غريب : وقال ابن جرير : حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي ، حدثنا عامر بن مذكّر ، حدثنا السرى - يعنى ابن اسماعيل - حدثنا الشعبى ، عن مسروق قال : قال عبد الله : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم فاتبعته ، فجلس على نشز من الأرض ، وقعدت أسفل منه ، ووجهى حيال ركبتيه ، واغتنمت (٣) خلوته وقلت (٤) : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، أى الذنوب (٥) أكبر ؟ قال : « أن تدعو لله نداً وهو خلقك » . قلت : ثم مه ؟ (٦) قال : « أن تقتل ولدك كراهية أن يطعم معك » . قلت : ثم مه ؟ قال : « أن تزانى حليّة جارك » . ثم قرأ : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ . [إلى آخر] (٧) الآية (٨) .

وقال النسائي : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا جرير ، عن منصور ، عن هلال بن يساف ، عن سلمة بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ فى حجة الوداع : « ألا إنما هى أربع - فما أنا بأشع عليهن منى منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ - : لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا » (٩) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا على بن المدينى ، رحمه الله ، حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان ، حدثنا محمد بن سعد (١٠) الأنصارى ، سمعت أبا طيبة الكلاعى ، سمعت المقداد بن الأسود ، رضى الله عنه ، يقول : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « ما تقولون فى الزنا » ؟ قالوا : حرّمه الله ورسوله ، فهو حرام إلى يوم القيامة ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « لأن يزنى الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره » . قال : « ما تقولون فى السرقة » ؟ قالوا : حرّمها الله ورسوله ، فهى حرام . قال : « لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره » (١١) .

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنا عمار بن نصر ، حدثنا بقية ، عن أبى بكر بن أبى مريم ، عن الهيثم بن مالك الطائى عن النبى ﷺ : قال : « ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل فى رحم لا يحل له » (١٢) .

(١) المسند (١/ ٣٨٠) والنسائي فى السنن الكبرى برقم (١١٣٦٨) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٦٨١١) ، وصحيح مسلم برقم (٦٨) .

(٣) فى ف : « فاغتنمت » . (٤) فى أ : « فقلت » .

(٥) فى أ : « الذنب » . (٦) فى أ : « أى » .

(٧) زيادة من أ .

(٨) صحيح البخارى برقم (٦٨١١) ، وصحيح مسلم برقم (٦٨) .

(٩) النسائي فى السنن الكبرى برقم (١١٣٧٣) (١٠) فى ف ، أ : « سعيد » .

(١١) المسند (٨/ ٦) وقال الهيثمى فى المجمع (١٦٨/ ٨) : « رجاله ثقات » .

(١٢) الورع لابن أبى الدنيا برقم (١٣٧) : « وهو مرسل ، وفى إسناده بقية وهو مدلس وابن أبى مريم ضعيف » أ . هـ مستفاداً من كلام المحقق الفاضل محمد الحمود

وقال ابن جرير : أخبرني يعلى ، عن سعيد بن جبیر أنه سمعه يحدث ^(١) عن ابن عباس : أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا أن لما عملنا ^(٢) كفارة ، فنزلت : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ ، ونزلت : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [إنه هو الغفور الرحيم] ^(٣) [الزمر: ٥٣] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن أبى فاختة قال : قال رسول الله ﷺ لرجل : « إن الله ينهك أن تعبد المخلوق وتدع الخالق ، وينهك أن تقتل ولدك وتغزو كلبك ، وينهك أن تزنى بحليلة جارك » . قال سفيان : وهو قوله : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ ^(٤) .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ : روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال : ﴿ أَثَامًا ﴾ : واد فى جهنم .

وقال عكرمة : ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ : أودية فى جهنم يعذب فيها الزناة . وكذا روى عن سعيد بن جبیر ، ومجاهد .

وقال قتادة : ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ : نكالا ، كنا نحدث أنه واد فى جهنم .

وقد ذكر لنا أن لقمان كان يقول : يا بنى ، إياك والزنا ، فإن أوله مخافة ، وآخره ندامة .

وقد ورد فى الحديث الذى رواه ابن جرير وغيره ، عن أبى أمامة الباهلى - موقوفا ومرفوعا - : أن « غيا » و« أثاما » بثران فى قعر جهنم ^(٥) . أجازنا الله منها بمنه وكرمه .

وقال السدى : ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ : جزاء .

وهذا أشبه بظاهر الآية ؛ ولهذا فسر به بما بعده مبدلاً منه ، وهو قوله : ﴿ يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أى : يكرر عليه ويغلظ ، ﴿ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ﴾ أى : حقيراً ذليلاً .

وقوله : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ [عَمَلًا] ^(٦) صَالِحًا ﴾ أى : جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ ﴾ فى الدنيا إلى الله ^(٧) من جميع ذلك ، فإن الله يتوب عليه .

وفى ذلك دلالة على صحة توبة القاتل ، ولا تعارض ^(٨) بين هذه وبين آية النساء : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣] فإن هذه

(١) فى أ : « يحدثه » . (٢) فى أ : « أن لنا إن عملنا » . (٣) زيادة من ف ، أ .

(٤) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٢٧٧/٦) وعزاه لابن أبى حاتم . ووقع فيه : « عن أبى قتادة » ، فإن كان كذلك فهو موصول ، وإن كان كما هو مثبت هنا فهو مرسل ، ولم يتبين لى الصواب منهما ، والله أعلم .

(٥) تفسير الطبرى (٢٩/١٩) .

(٦) زيادة من ف ، وهو الصواب .

(٧) فى ف : « إلى الله فى الدنيا » . (٨) فى أ : « ولا معارض » .

وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة ، فتحمل على من لم يتب ، لأن هذه مقيدة بالتوبة ، ثم قد قال [الله] (١) تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨ ، ١١٦] .

وقد ثبتت السنة الصحيحة ، عن رسول الله ﷺ بصحة توبة القاتل ، كما ذكر مقررا من قصة الذى قتل مائة رجل ثم تاب ، وقبل منه ، وغير ذلك من الأحاديث .

وقوله : ﴿ فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ : فى معنى قوله : ﴿ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ قولان :

أحدهما : أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات . قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ قال : هم المؤمنون ، كانوا من قبل إيمانهم على السيئات ، فرغب الله بهم عن ذلك فحولهم إلى الحسنات ، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات .

وروى مجاهد ، عن ابن عباس أنه كان ينشد عند هذه الآية :

بُدِّلْنَ بَعْدَ حَرِّ خَرِيفَا (٢) وَبَعْدَ طُولِ النَّفْسِ الْوَجِيفَا (٣)

يعنى : تغيرت تلك الأحوال إلى غيرها .

وقال عطاء بن أبى رباح : هذا فى الدنيا (٤) ، يكون الرجل على هيئة قبيحة ، ثم يبدله الله بها خيراً .

وقال سعيد بن جبیر : أبدلهم بعبادة الأوثان عبادة الله ، وأبدلهم (٥) بقتال المسلمين قتالا مع المسلمين للمشركين ، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات .

وقال الحسن البصرى : أبدلهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح ، وأبدلهم بالشرك إخلاصا ، وأبدلهم بالفجور إحصانا وبالكفر إسلاما .

وهذا قول أبى العالية ، وقتادة ، وجماعة آخرين .

والقول الثانى : أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوص حسنات ، وما ذاك إلا أنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر ، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار . فيوم القيامة وإن وجدته مكتوبا عليه لكنه لا يضره وينقلب حسنة فى صحيفته ، كما ثبتت السنة بذلك ، وصحت به الآثار المروية عن السلف ، رحمهم الله تعالى - وهذا سياق الحديث - قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن المعرور بن سويد ، عن أبى ذر ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار ، وآخر أهل الجنة دخولا إلى الجنة : يؤتى برجل فيقول : نَحْوًا كِبَارَ ذُنُوبِهِ وَسَلْوَهُ عَنْ صَغَارِهَا ، قال : فيقال له : عملت يوم كذا وكذا كذا ، وعملت يوم كذا وكذا كذا ؟ فيقول : نعم - لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئا -

(٢) فى أ : « صريفا » .

(١) زيادة من ف ، أ .

(٣) البيت فى تفسير الطبرى (١٩ / ٣٠) .

(٥) فى ف : « وبدلهم » .

(٤) فى أ : « هذا يكون فى الدنيا » .

فيقال: فإن لك بكل سيئة حسنة . فيقول : يارب ، عملت أشياء لا أراها هاهنا » . قال : فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه . وانفرد به مسلم (١) .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا هاشم بن يزيد ، حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثني أبي ، حدثني ضَمْضَم بن زُرْعَةَ ، عن شُرَيْح بن عبيد (٢) ، عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا نام ابن آدم قال الملك للشيطان : أعطني صحيفة . فيعطيه إياها ، فما وجد في صحيفته من حسنة محابها عشر سيئات من صحيفة الشيطان ، وكتبهن حسنات ، فإذا أراد أن ينام أحدكم فليكبر ثلاثاً وثلاثين تكبيرة ، ويحمد أربعاً وثلاثين تحميدة ، ويسبح ثلاثاً وثلاثين تسبيحة ، فتلك مائة » (٣) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو سلمة وعارم قالا : حدثنا ثابت - يعني : ابن يزيد أبو زيد - حدثنا عاصم ، عن أبي عثمان ، عن سلمان قال : يعطى رجل يوم القيامة صحيفته فيقرأ أعلاها ، فإذا سيئاته (٤) ، فإذا كاد (٥) يسوء ظنه نظر (٦) في أسفلها فإذا حسناته ، ثم ينظر في أعلاها فإذا هي قد بدلت حسنات .

وقال أيضاً : حدثنا أبي ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا سليمان بن موسى الزهري أبو داود ، حدثنا أبو العنّس ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : ليأتين الله عز وجل بأناس (٧) يوم القيامة رأوا أنهم قد استكثروا من السيئات ، قيل : من هم يا أبا هريرة ؟ قال : الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات .

وقال أيضاً : حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن أبي زياد ، حدثنا سيّار ، حدثنا جعفر ، حدثنا أبو حمزة ، عن أبي الضيف - وكان من أصحاب معاذ بن جبل - قال : يدخل أهل الجنة الجنة على أربعة أصناف : المتقين ، ثم الشاكرين ، ثم الخائفين ، ثم أصحاب اليمين . قلت : لم سموا أصحاب اليمين ؟ قال : لأنهم عملوا الحسنات (٨) والسيئات ، فأعطوا كتبهم بأيمانهم ، فقرأوا سيئاتهم حرفاً حرفاً - قالوا : يا ربنا ، هذه سيئاتنا ، فأين حسناتنا ؟ . فعند ذلك محا الله السيئات وجعلها حسنات ، فعند ذلك قالوا : (هاؤم اقرؤوا كتابه) ، فهم أكثر أهل الجنة .

وقال علي بن الحسين زين العابدين : « يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ » قال : في الآخرة .

وقال مكحول : يغفرها لهم فيجعلها حسنات : [رواهما ابن أبي حاتم ، وروى ابن جرير ، عن سعيد بن المسيب مثله] (٩) .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي ، حدثنا الوليد بن مسلم ،

(١) المسند (٥/ ١٧٠) وصحيح مسلم برقم (١٩٠) .

(٢) في ف ، أ : « عبدة » .

(٣) المعجم الكبير للطبراني (٣/ ٢٩٦) قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٢١) : « فيه محمد بن إسماعيل بن عياش وهو ضعيف » ، ولم يثبت سماعه عن أبيه أيضاً .

(٤) في أ : « إساءته » . (٥) في أ : « كان » . (٦) في أ : « ينظر » . (٧) في أ : « أناس » .

(٨) في أ : « بالحسنات » . (٩) زيادة من ف ، أ .

حدثنا أبو (١) جابر ، أنه سمع مكحولاً يحدث قال : جاء شيخ كبير هرم قد سقط (٢) حاجباه على عينيه ، فقال : يا رسول الله ، رجل غدر وفجر ، لم يدع حاجة ولا داجة إلا اقتطعها بيمينه ، لو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم ، فهل له من توبة ؟ فقال له رسول الله ﷺ (٣) : «أسلمت؟» قال (٤) : «أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن (٥) محمداً عبده ورسوله . فقال النبي ﷺ : « فإن الله غافر لك ما كنت كذلك ، ومبدل (٦) سيئاتك حسنات » . فقال : يارسول الله ، وغدراأتى وفجراأتى ؟ فقال : « وغدراأتك وفجراأتك » . فوَلَّى الرجل يهمل ويكبر (٧) . (٨) .

وروى الطبراني من حديث أبي المغيرة ، عن صفوان بن عمرو (٩) ، عن عبد الرحمن بن جبير ، عن أبي فروة - شطب - أنه أتى رسول الله ﷺ فقال : أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها ، ولم يترك حاجة ولا داجة ، فهل له من توبة ؟ فقال : « أسلمت ؟ » فقال : نعم ، قال : « فافعل الخيرات ، واترك السيئات ، فيجعلها (١٠) الله لك خيرات كلها » . قال : وغدراأتى وفجراأتى ؟ قال : « نعم » . قال فما زال يكبر حتى توارى (١١) .

ورواه الطبراني من طريق أبي فروة الراوى ، عن ياسين الزيات ، عن أبي سلمة الحمصى ، عن يحيى بن جابر ، عن سلمة بن نفيل مرفوعاً (١٢) .

وقال أيضاً : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا إبراهيم بن المنذر ، حدثنا عيسى بن شعيب بن ثوبان ، عن فُلَيْحِ الشَّامِ ، عن عبيد بن أبي عبيد (١٣) عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، قال : جاءتنى امرأة فقالت : هل لى من توبة ؟ إني زني وولدت وقتلته . فقلت (١٤) : لا ، ولا نعت العين ولا كرامة . فقامت وهى تدعو بالحسرة . ثم صليت مع النبي ﷺ الصبح ، فقصصت عليه ما قالت المرأة وما قلت لها ، فقال رسول الله ﷺ : « بئسما قلت ! أما كنت تقرأ هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ فقرأتها عليها . فخرت ساجدة وقالت : الحمد لله الذى جعل لى مخرجاً .

هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وفى رجاله من لا يُعرف والله أعلم . وقد رواه ابن جرير من

(١) فى أ : « ابن » . (٢) فى أ : « أسقطت » . (٣) فى أ : « النبي » . (٤) فى أ : « فقال » .

(٥) فى أ : « وأشهد أن » . (٦) فى أ : « ويبدل » . (٧) فى ف ، أ : « يكبر ويهمل » .

(٨) وقد وصله الإمام أحمد فى مسنده (٣٨٤/٤) من طريق نوح بن قيس عن أشعث بن جابر الخداني عن مكحول عن عمرو بن عبسة به مرفوعاً باختصار فى أوله وآخره ، وقال الهيثمى فى المجمع (٣٢/١) : « رجاله موثقون إلا أنه من رواية مكحول عن عمرو بن عبسة ، فلا أدري أسمع منه أم لا » .

(٩) فى أ : « عمر » . (١٠) فى ف ، أ : « فيجعلهم » .

(١١) المعجم الكبير للطبراني (٣١٤/٧) ورواه الخطيب فى تاريخ بغداد (٣٥٢/٣) من طريق أبي القاسم البغوى عن محمد بن هارون الحربى عن أبي المغيرة به . وقال أبو القاسم البغوى : « روى هذا الحديث غير محمد بن هارون عن أبي المغيرة عن صفوان عن عبد الرحمن ابن جبير : أن رجلاً أتى النبي ﷺ طويلاً شطب الممدود ، وأحسب أن محمداً بن هارون صحف فيه ، والصواب ما قال غيره » .

(١٢) المعجم الكبير للطبراني (٥٣/٧) وقال الهيثمى فى المجمع (٣١/١) : « فى إسناده ياسين الزيات يروى الموضوعات » .

(١٣) فى هـ ، ف ، أ : « عن فليح بن عبيد بن أبي عبيد الشماس عن أبيه » والمثبت من الطبرى .

(١٤) فى أ : « فقال » .

حديث إبراهيم بن المنذر الحزامي بسنده بنحوه ، وعنده : فخرجت تدعو بالحسرة وتقول : يا حسرتا ! أخلق هذا الحسن للنار ؟ وعنده أنه لما رجع من عند رسول الله ﷺ ، تَطَلَّبَهَا (١) في جميع دور المدينة فلم يجدها ، فلما كان من الليلة المقبلة جاءته ، فأخبرها بما قال له رسول الله ﷺ ، فخرت ساجدة وقالت : الحمد لله الذي جعل لي مخرجاً وتوبة مما عملت . وأعتقت جارية كانت معها وابتنها ، وتابت إلى الله عز وجل (٢) .

ثم قال تعالى مخبراً عن عموم رحمته بعباده (٣) ، وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أى ذنب كان ، جليل أو حقير ، كبير أو صغير : فقال : ﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ أى : فإن الله يقبل (٤) توبته ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠] ، وقال : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : ١٠٤] ، وقال : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] ، أى : لمن تاب إليه .

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) ﴾ .

وهذه أيضاً من صفات عباد الرحمن ، أنهم : ﴿ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ . قيل : هو الشرك وعبادة الأصنام . وقيل : الكذب ، والفسق ، واللغو ، والباطل . وقال محمد بن الحنفية : [هو] (٥) اللهو والغناء .

وقال أبو العالية ، وطاوس ، ومحمد بن سيرين ، والضحاك ، والربيع بن أنس ، وغيرهم : هى أعياد المشركين (٦) .

وقال عمرو بن قيس : هى مجالس السوء والخنأ .

وقال مالك ، عن الزهري : [شرب الخمر] (٧) لا يحضرونه ولا يرغبون فيه ، كما جاء فى الحديث : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر » (٨) .

وقيل : المراد بقوله تعالى : ﴿ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ أى : شهادة الزور ، وهى الكذب متعمداً على غيره ،

(١) فى ف : « فطلبها » .

(٢) تفسير الطبرى (٢٧/١٩) ورواه ابن مردويه كما فى الدر المنثور (٢٧٩/٦) وقال السيوطى : « إسناده ضعيف » .

(٣) فى أ : « لعباده » . (٤) فى أ : « يتقبل » . (٥) زيادة من أ .

(٦) فى ف : « للمشركين » . (٧) زيادة من ف ، أ .

(٨) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٨٠١) من طريق ليث بن أبى سليم عن طاوس عن جابر به مرفوعاً ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث طاوس عن جابر إلا من هذا الوجه » ثم نقل كلام العلماء فى تضعيف ليث بن أبى سليم .

كما [ثبت] (١) في الصحيحين عن أبي بكره قال: قال (٢) رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر» ثلاثاً، قلنا: بلى، يارسول الله، قال: «الشرك بالله، وعقوق الوالدين». وكان متكئاً فجلس، فقال: «ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور [وقول الزور وشهادة الزور] (٣)». فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت (٤).

والأظهر من السياق أن المراد: لا يشهدون الزور، أى: لا يحضرونه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ أى: لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشيء (٥)؛ ولهذا قال: ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو الحسين العجلي، عن محمد بن مسلم، أخبرني إبراهيم بن ميسرة، أن ابن مسعود مر بلهو معرضاً (٦)، فقال النبي ﷺ: «لقد أصبح ابن مسعود، وأمسى كريماً».

وحدثنا الحسن بن محمد بن سلمة النحوى، حدثنا حبان، أنا عبد الله، أنا محمد بن مسلم، أخبرني ابن ميسرة قال: بلغني أن ابن مسعود مر بلهو معرضاً فلم يقف، فقال رسول الله ﷺ (٧): «لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً» (٨)، ثم تلا إبراهيم بن ميسرة: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (٩).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [و] (١٠) هذه من صفات المؤمنين ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، بخلاف الكافر، فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يقصر عما كان عليه، بل يبقى مستمراً على كفره وطغيانه وجهله وضلاله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

فقوله: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أى: بخلاف الكافر الذى ذكر بآيات ربه، فاستمر على حاله، كأن لم يسمعها أصم أعمى.

قال مجاهد: قوله: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾: لم يسمعوا ولم يبصروا، ولم يفقهوا شيئاً.

وقال الحسن البصرى: كم من رجل يقرؤها ويخر عليها أصم أعمى.

(٣) زيادة من ف، أ.

(١) زيادة من ف، أ.

(٤) صحيح البخارى برقم (٢٦٥٤) وصحيح مسلم برقم (٨٧).

(٧) فى أ: «النبى».

(٥) فى أ: «فيه شيء».

(٦) فى أ: «فلم يقف».

(٨) زيادة من ف، أ.

(٩) ورواه ابن عساكر كما فى المختصر لابن منظور (٥٥/١٤) من طريق إبراهيم بن ميسرة به.

(١٠) زيادة من أ.

وقال قتادة : قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ ، يقول : لم يصموا عن الحق ولم يعموا فيه ، فهم - والله - قوم عقلوا عن الله (١) وانتفعوا بما (٢) سمعوا من كتابه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أسيد بن عاصم ، حدثنا عبد الله بن حمران ، حدثنا ابن عون قال : سألت الشعبي قلت : الرجل يرى القوم سجوداً ولم يسمع ما سجدوا ، أيسجد معهم ؟ قال : فتلا هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ ، يعني : أنه لا يسجد معهم لأنه لم يتدبر آية السجدة (٣) ، فلا ينبغي للمؤمن أن يكون إمعة ، بل يكون على بصيرة من أمره ، ويقين واضح بين .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ : يعني : الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم وذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له .

قال ابن عباس : يعنون من يعمل بالطاعة ، فتقرُّ به أعينهم في الدنيا والآخرة .

وقال عكرمة : لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالا ، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين .

وقال الحسن البصري - وسئل عن هذه الآية - فقال : أن يرى الله العبد المسلم من زوجته ، ومن أخيه ، ومن حميمه طاعة الله . لا والله ما شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولدا ، أو ولد ولد ، أو أخا ، أو حميماً مطيعاً لله عز وجل .

وقال ابن جرير في قوله : ﴿ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ قال : يعبدونك ويحسنون (٤) عبادتك ، ولا يجرون علينا الجرائر .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعني : يسألون الله لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يعمر (٥) بن بشر (٦) ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، أخبرنا صفوان بن عمرو ، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، عن أبيه قال : جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً ، فمر به رجل فقال : طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ ! لوددنا أنا رأينا ما رأيت ، وشهدنا ما شهدت . فاستغضب ، فجعلت أعجب ، ما قال إلا خيراً ! ثم أقبل إليه فقال : ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضراً غيبه الله عنه ، لا يدرى لو شهد كيف كان يكون فيه ؟ والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوام أكبهم الله على مناخرهم في جهنم ، لم يجيئوه ولم يصدقوه ، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين لما جاء به نبيكم ، قد (٧) كفيتم البلاء بغيركم ؟ لقد بعث الله النبي ﷺ على أشد حال بعث عليها نبياً من الأنبياء في فترة من جاهلية ، ما يرون أن ديناً أفضل من عبادة الأوثان . فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل ، وفرق بين الوالد وولده ، حتى إن كان الرجل ليرى والده وولده ، أو أخاه كافراً ، وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان ، يعلم أنه إن هلك دخل

(١) في أ : « الحق » . (٢) في أ : « بما » . (٣) في ف ، أ : « أمر السجدة » .

(٤) في أ : « فيحسنون » . (٥) في هـ ، ف ، أ : « معمر » والمثبت من المسند . (٦) في أ : « بشير » .

(٧) في ف ، أ : « وقد » .

النار ، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه فى النار ، وإنها التى قال الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ . وهذا إسناد صحيح ، ولم يخرجوه (١) .

وقوله : ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ : قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والسدى ، والربيع بن أنس : أئمة يقتدى بنا فى الخير .

وقال غيرهم : هداة مهتدين (٢) [ودعاة] (٣) إلى الخير ، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم (٤) ، وأن يكون هداهم متعدياً (٥) إلى غيرهم بالنفع ، وذلك أكثر (٦) ثواباً ، وأحسن مآباً ؛ ولهذا ورد فى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له ، أو علم ينتفع به من بعده ، أو صدقة جارية » (٧) .

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْزُبُ عَنْكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧)﴾ .

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من [هذه] (٨) الصفات الجميلة ، والأفعال والأقوال (٩) الجليلة (١٠) - قال بعد ذلك كله : ﴿أُولَئِكَ﴾ أى : المتصفون بهذه ﴿يُجْزَوْنَ﴾ أى : يوم القيامة ﴿الْغُرْفَةَ﴾ وهى الجنة .

قال أبو جعفر الباقر ، وسعيد بن جبیر ، والضحاك ، والسدى : سميت بذلك لارتفاعها .

﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أى : على القيام بذلك ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ أى : فى الجنة ﴿تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ أى : يتبدرون (١١) فيها بالتحية والإكرام . ويلقون [فيها] (١٢) التوقير والاحترام ، فلهم السلام وعليهم السلام ، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار .

وقوله : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى : مقيمين ، لا يظعنون ولا يحولون ولا يموتون ، ولا يزولون عنها ولا يبعثون عنها حولا ، كما قال تعالى : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ﴾ [هود : ١٠٨] .

وقوله ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أى : حسنت منظرا وطابت مقيلا ومنزلا .

(١) المسند (٢/٦) .

(٢) فى أ : « مهدين » .

(٣) زيادة من أ .

(٤) فى أ : « ذريتهم » .

(٥) فى أ : « أكبر » .

(٦) فى أ : « متعد » .

(٧) صحيح مسلم برقم (١٦٣١) .

(٨) زيادة من ف ، أ .

(٩) فى ف ، أ : « الأقوال والأفعال » .

(١٠) فى أ : « الجميلة » .

(١١) فى أ : « يتبدون » .

(١٢) زيادة من ف ، أ .

ثم قال (١) تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَعْْبَأُ بِكُمْ رَبِّي ﴾ أى : لا يبالى ولا يكثرث بكم إذا لم تعبدوه ؛ فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلا .

وقال مجاهد ، وعمرو بن شعيب : ﴿ مَا يَعْْبَأُ بِكُمْ رَبِّي ﴾ يقول : ما يفعل بكم ربى .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ قُلْ مَا يَعْْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ يقول : لولا إيمانكم ، وأخبر الله الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين ، ولو كان له بهم حاجة لحب إليهم الإيمان كما حبه (٢) إلى المؤمنين .

وقوله : ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ أى : أيها الكافرون ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ أى : فسوف يكون تكذيبكم (٣) لزاماً لكم ، يعنى : مقتضيا لهلاككم وعذابكم ودماركم فى الدنيا والآخرة ، ويدخل فى ذلك يوم بدر ، كما فسر به ذلك عبد الله بن مسعود ، وأبى بن كعب ، ومحمد بن كعب القرظى ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، والسدى ، وغيرهم .

وقال الحسن البصرى : ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ يعنى : يوم القيامة . ولا منافاة بينهما . والله أعلم .

(٣) فى أ : « تكذيبهم » .

(٢) فى ف : « حب » .

(١) فى أ : « وقال » .

تفسير سورة الشعراء

وهي مكية . ووقع في تفسير مالك المروى عنه تسميتها : سورة الجامعة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طَسَمَ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ نَشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩) ﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور ، فقد تكلمنا عليه في أول تفسير سورة البقرة .

وقوله : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ أى : هذه آيات القرآن المبين ، أى : البين الواضح ، الذى يفصل بين الحق والباطل ، والغنى والرشاد .

وقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ ﴾ أى : مهلك ﴿ نَفْسَكَ ﴾ أى : مما تحرص [عليهم] (١) وتحزن عليهم ﴿ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ، وهذه تسليية من الله لرسوله ، صلوات الله وسلامه عليه ، فى عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ﴾ [فاطر : ٨] ، وقال : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف : ٦] .

قال مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، وعطية ، والضحاك : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ ﴾ أى : قاتل نفسك . قال الشاعر (٢) :

أَلَا أَيُّهَا الْبَاخِعُ الْحُزْنَ نَفْسَهُ لَشَيْءٍ (٣) نَحْتُهُ عَنْ يَدَيْهِ الْمَقَادِرُ

ثم قال الله تعالى : ﴿ إِنْ نَشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ أى : لو شئنا لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهرا ، ولكننا لا نفعل ذلك ؛ لأننا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختيارى ؛ وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] ، وقال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود : ١١٨ ، ١١٩] ، فنفذ قدره ، ومضت (٤) حكمته ، وقامت حجته البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم ، وإنزال الكتب عليهم .

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) هو ذو الرمة ، والبيت فى تفسير الطبرى (١٩ / ٣٧) .

(٣) فى ف : « بشىء » .

(٤) فى ف ، أ : « وقضت » .

ثم قال : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٌ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ أي : كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس ، كما قال : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] ، وقال : ﴿ يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [يس : ٣٠] ، وقال : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرَا كُلٌّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون : ٤٤] ؛ ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي : فقد كذبوا بما جاءهم من الحق ، فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢٧] .

ثم نبه تعالى على عظمته في سلطانه وجلالة قدره وشأنه ، الذين اجتروا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه ، وهو القاهر العظيم القادر ، الذي خلق الأرض وأثبت فيها من كل زوج كريم ، من زروع وثمار وحيوان .

قال سفيان الثوري ، عن رجل ، عن الشعبي : الناس من نبات الأرض ، فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لئيم .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أي : دلالة على قدرة الخالق للأشياء ، الذي بسط الأرض ورفع بناء السماء ، ومع هذا ما آمن أكثر الناس ، بل كذبوا به وبرسله وكتبه ، وخالفوا أمره ^(١) وارتكبوا زواجره .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أي : الذي عزَّ كلَّ شيء وقهره وغلبه ، ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ أي : بخلقه ، فلا يعجل على من عصاه ، بل ينظره ويؤجله ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر .

قال أبو العالية ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، و [محمد ^(٢)] بن إسحاق : العزيز في نعمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره .

وقال سعيد بن جبير : الرحيم بمن تاب إليه وأتاب .

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون (١٤) قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥) فَآتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما أمر به عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران ، صلوات الله وسلامه عليه، حين ناداه من جانب الطور الأيمن ، وكلمه وناجاه ، وأرسله واصطفاه ، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ . قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون . وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَرُونَ . وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون ﴾ : هذه أعذار سأل من الله إزاحتها عنه ، كما قال فى سورة طه : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي . وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي . وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي . هَرُونَ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي . كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً . وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً . إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً . قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ [طه : ٢٥ - ٣٦] .

وقوله : ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون ﴾ أى : بسبب ماكان [من] (١) قتل ذلك القبطى الذى كان سبب خروجه من بلاد مصر. ﴿ قَالَ كَلَّا ﴾ أى : قال الله له : لا تخف من شيء من ذلك كما قال : ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ أى : برهانا ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ [القصص : ٣٥] .

﴿ فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه: ٤٦] [أى: إننى معكما بحفظى وكلاءتى ونصرى وتأيدى .

﴿ فَأْتَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، وقال فى الآية الأخرى : ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ [طه : ٤٧] [أى : كل منا رسول الله إليك ، ﴿ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى : أطلقهم من إسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك ، فإنهم عباد الله المؤمنون ، وحزبه المخلصون ، وهم معك فى العذاب المهين . فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعون عما هنالك بالكلية ، ونظر بعين الازدراء والغمص فقال : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ . وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) [أى : أما أنت الذى ربيناه فىنا (٣) ، وفى بيتنا وعلى فراشنا [وغذيناه (٤)] ، وأنعمنا عليه مدة من السنين ، ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة ، أن قتلت منا رجلا ، وجحدت نعمتنا عليك ؛ ولهذا قال : ﴿ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى : الجاحدين . قاله ابن عباس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، واختاره ابن جرير .

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا ﴾ أى : فى تلك الحال ، ﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أى : قبل أن يوحى إلى وينعم الله على بالرسالة والنبوة (٥) .

قال ابن عباس ، رضى الله عنهما ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم : ﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أى : الجاهلين .

قال ابن جريج : وهى كذلك فى قراءة عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه . ﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أى : الحال الأول انفصل

وجاء أمر آخر ، فقد أرسلنى الله إليك ، فإن أطعته سلمت ، وإن خالفته عَطِبْتُ .

ثم قال موسى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى : وما أحسنت إلى وريثتى مقابل ما أسأت إلى (١) بنى إسرائيل ، فجعلتهم عبيداً وخداماً ، تصرفهم فى أعمالك ومشاق رعيتك ، أفقى إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم ؟ أى : ليس ما ذكرته شيئاً بالنسبة إلى ما فعلت بهم .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمْعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون ، وتمرده وطغيانه وجحوده ، فى قوله : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ؟ وذلك أنه كان يقول لقومه : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : ٣٨] ، ﴿ فَاسْتَخَفَّ (٢) قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ ﴾ [الزخرف : ٥٤] ، وكانوا يجحدون الصانع - تعالى - ويعتقدون أنه لارب لهم سوى فرعون ، فلما قال له موسى : ﴿ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الزخرف : ٤٦] ، قال له : ومن هذا الذى تزعم أنه رب العالمين غيرى ؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف ، حتى قال السدى : هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى . قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه : ٤٩ ، ٥٠] .

ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم ؛ أن هذا سؤال عن الماهية ، فقد غلط ؛ فإنه لم يكن مقراً بالصانع حتى يسأل عن الماهية (٤) ، بل كان جاحداً له بالكلية فيما يظهر ، وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه ، فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين : ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أى : خالق جميع ذلك ومالكه ، والمتصرف فيه وإلهه ، لاشريك له ، هو الله الذى خلق الأشياء كلها ، العالم العلوى وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيرات ، والعالم السفلى وما فيه من بحار وقفار ، وجبال وأشجار ، وحيوان ونبات وثمار ، وما بين ذلك من الهواء والطيور ، وما يحتوى عليه الجو ، الجميع (٥) عبيد له خاضعون ذليلون .

﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ أى : إن كانت لكم قلوب موقنة ، وأبصار نافذة . فعند ذلك التفت فرعون إلى من حوله من ملته ورؤساء دولته قائلاً لهم ، على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله : ﴿ أَلَا تَسْتَمْعُونَ ﴾ أى : ألا تعجبون عما يقول هذا فى زعمه : أن لكم إلهاً غيرى ؟ فقال لهم موسى : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى : خالقكم وخالق آبائكم الأولين (٦) ، الذين كانوا قبل فرعون وزمانه . ﴿ قَالَ ﴾ أى : فرعون لقومه : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ أى : ليس

(٣) فى ف ، أ : « ومن » وهو خطأ .

(٢) فى أ : « واستخف » .

(١) فى ف ، أ : « على » .

(٦) فى أ : « الأولين » .

(٥) فى ف : « والجميع » .

(٤) فى أ : « ماهيته » .

له عقل فى دعواه أن ثم ربا غيرى . ﴿ قَالَ ﴾ أى : موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة ، فأجاب موسى بقوله : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى : هو الذى جعل المشرق مشرقاً تطلع منه الكواكب ، والمغرب مغرباً تغرب فيه^(١) الكواكب ، ثوابتها وسياراتها ، مع هذا النظام الذى سخرها فيه وقدرها ، فإن كان هذا الذى يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقا فليعكس الأمر ، وليجعل المشرق مغرباً ، والمغرب مشرقاً ، كما أخبر تعالى عن ﴿ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ؛ ولهذا لما غلب فرعون وانقطعت حجته ، عدل إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه ، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ فى موسى ، عليه السلام ، فقال ما أخبر الله تعالى عنه :

﴿ قَالَ لَنْ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ (٢٩) قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) .

لما قامت على فرعون الحجة بالبيان والعقل ، عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه ، وظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال^(٢) ، فقال : ﴿ لَنْ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ . فعند ذلك قال موسى : ﴿ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴾ ؟ أى : بيرهان قاطع واضح ، ﴿ قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾ أى : ظاهر واضح فى غاية الجلاء والوضوح والعظمة ، ذات قوائم وفم كبير ، وشكل هائل مزعج ، ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ أى : من جيبه ، ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ أى : تتلأأ كقطعة من القمر . فبادر فرعون - بشقائه - إلى التكذيب والعناد ، فقال للملأ حوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أى : فاضل بارع فى السحر . فَرَوَّجَ عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة ، ثم هيجهم وحرصهم على مخالفته ، والكفر به . فقال : ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ ؟ أى : أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا ، فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ويغلبكم على دولتكم ، فيأخذ البلاد منكم ، فأشيروا على فيه ماذا أصنع به ؟ ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ ﴾ (٣) عَلِيمٌ ﴿ [أى : أخره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحار عليم] (٤) يقابلونه ، ويأتون بنظير ما جاء به ، فتغلبه أنت وتكون لك النصرة والتأييد . فأجابهم إلى ذلك . وكان هذا من تسخير الله تعالى

(٢) فى هـ : « مقام » والمثبت من ف ، أ .

(١) فى ف ، أ : « منه » .

(٤) زيادة من ف ، أ .

(٣) فى أ : « ساحر » .

لهم في ذلك ؛ ليجتمع الناس في صعيد واحد ، ولتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة .

﴿ فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا أَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨) ﴾ .

ذكر [الله] (١) تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى والقبط في « سورة الأعراف » وفي « سورة طه » ، وفي هذه السورة : وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، فأبى (٢) الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . وهذا شأن الكفر والإيمان ، ما تواجهها وتقابلا إلا غلبه الإيمان ، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٨] ، ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : ٨١] ، ولهذا لما جاء السحرة ، وقد جمعوهم من أقاليم بلاد مصر ، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس وأصنعهم وأشدهم تخيلا في ذلك ، وكان السحرة جمعا كثيرا ، وجما غفيرا ، قيل : كانوا اثني عشر ألفا . وقيل : خمسة عشر ألفا . وقيل : سبعة عشر ألفا وقيل : تسعة عشر ألفا . وقيل : بضعة وثلاثين ألفا . وقيل : ثمانين ألفا . وقيل غير ذلك ، والله أعلم بعدتهم .

قال ابن إسحاق : وكان أمرهم راجعا إلى أربعة منهم وهم رؤساؤهم : وهم : ساتور وعازور (٣) وحطحط (٤) ويصقي .

واجتهد (٥) الناس في الاجتماع ذلك اليوم ، وقال قائلهم : ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ . [قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ] (٦) ﴾ ، ولم يقولوا : نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى ، بل الرعية على دين ملكهم . ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ ﴾ أي : إلى مجلس فرعون وقد ضرب له وطاقا ، وجمع حشمه وخدمه [وأمرائه] (٧) ووزرائه ورؤساء دولته وجنود مملكته ، فقام السحرة بين يدي فرعون (٨) ، يطلبون منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا ، أي هذا الذي جمعنا من أجله ، فقالوا : ﴿ أَئِنَّا لَنَا أَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ . قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي : وأخصص بما تطلبون أجعلكم من المقربين عندي وجلسائي . فعادوا إلى مقام المناظرة ﴿ قَالُوا (٩) يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى . قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴾ [طه : ٦٥ ، ٦٦] ، وقد اختصر هذا ههنا . فقال لهم موسى : ﴿ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ . فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ ، وهذا كما يقوله

(٣) في ف ، أ : « وعادون » .

(٢) في ف ، أ : « فيأبى » .

(١) زيادة من ف ، أ .

(٦) زيادة من ف .

(٥) في أ : « وحشر » .

(٤) في أ . « وحطحة » .

(٩) في أ : « فقالوا » وهو خطأ

(٨) في ف ، أ : « بين يديه » .

(٧) زيادة من أ .

الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئاً : هذا بثواب فلان . وقد ذكر الله في « سورة الأعراف » : أنهم ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : ١١٦] ، وقال في « سورة طه » : ﴿ فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيهِمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى . فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةُ مُوسَى . قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى . وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ [طه : ٦٦ - ٦٩] . وقال ههنا : ﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أى : تختطفه (١) وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئاً ، قال تعالى : ﴿ فَرَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . فَغُلِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ . وَأَلْقَى السِّحْرَ سَاجِدِينَ . قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ [الأعراف : ١١٨-١٢٢] وكان هذا أمراً عظيماً جداً ، وبرهاناً قاطعاً للعذر وحجة دامغة ، وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا ، قد غلبوا وخضعوا وآمنوا بموسى فى الساعة الراهنة ، وسجدوا لله رب العالمين ، الذى أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة ، فغلب فرعون غلباً لم يشاهد العالم مثله ، وكان وقحاً جريئاً عليه لعنة الله ، فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل ، فشرع يتهدهم ويتوعدهم ، ويقول : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ [طه : ٧١] ، وقال : ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٣] .

﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) ﴾ .

تهدهم فلم يقطع ذلك فيهم ، وتوعدهم فما زادهم إلا إيماناً وتسليماً . وذلك أنه قد كشف عن قلوبهم حجاب الكفر ، وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل قومهم ، من أن هذا الذى جاء به موسى لا يصدر عن بشر ، إلا أن يكون الله قد أيده به ، وجعله له حجة ودلالة على صدق ما جاء به من ربه ؛ ولهذا لما قال لهم فرعون : ﴿ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ ؟ أى : كان ينبغي أن تستأذنونى فيما فعلتم ، ولا تفتاتوا على فى ذلك ، فإن أذنت لكم فعلتم ، وإن منعتكم امتنعتم ، فإنى أنا الحاكم المطاع ؛ ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ . وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها ، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم ، فكيف يكون كبيرهم الذى أفادهم صناعة السحر ؟ هذا لا يقوله عاقل .

ثم توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب ، فقالوا : ﴿ لَا ضَيْرَ ﴾ أى : لا حرج ولا يضرنا ذلك ولا نبالى به ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ أى : المرجع (٢) إلى الله ، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، ولا يخفى عليه ما فعلت بنا ، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء ؛ ولهذا قالوا (٣) : ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا ﴾ أى : ما قارفناه (٤) من الذنوب ، وما أكرهتنا عليه من السحر ، ﴿ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : بسبب أننا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان . فقتلهم (٥) كلهم .

(١) فى ف ، أ : « تختطفه » .

(٢) فى ف ، أ : « الرجوع » .

(٣) فى ف ، أ : « قال » .

(٤) فى ف ، أ : « قبلهم » .

(٥) فى أ : « ما فرقناه » .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴾ (٥٢) فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) .

لما طال مقام موسى ، عليه السلام ، ببلاد مصر ، وأقام بها حُجَجَ الله ^(١) وبراهينه على فرعون وملئه ، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون ، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال ، فأمر الله موسى ، عليه السلام ، أن يخرج بني إسرائيل ليلاً من مصر ، وأن يمضى بهم حيث يؤمر ، ففعل موسى ، عليه السلام ، ما أمره به ربه ، عز وجل . خرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعون حلياً كثيراً ، وكان خروجه بهم ، فيما ذكر غير واحد من المفسرين ، وقت طلوع القمر . وذكر مجاهد ، رحمه الله ، أنه كُفِّسَ القمر تلك الليلة ، فالله أعلم ، وأن موسى ، عليه السلام ، سأل عن قبر يوسف ، عليه السلام ، فدلته امرأة عجوز من بني إسرائيل عليه ، فاحتمل تابوته معهم ، ويقال : إنه هو الذي حمله بنفسه ، عليهما السلام ، وكان يوسف قد أوصى بذلك إذا خرج بنو إسرائيل أن يحملوه ^(٢) معهم ، وقد ورد في ذلك حديث رواه ابن أبي حاتم ، رحمه الله ، فقال :

حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا عبد الله بن عمر ^(٣) بن أبان بن صالح ، حدثنا ابن فضيل ^(٤) ، عن عبد الله ^(٥) بن أبي إسحاق ، عن ابن أبي بردة ، عن أبيه ، عن أبي موسى قال : نزل رسول الله ﷺ بأعرابي فأكرمه ، فقال له رسول الله ﷺ : تعاهدنا . فأتاه الأعرابي فقال له رسول الله ﷺ : « ما حاجتك ؟ » قال ^(٦) : « ناقة برحلتها وأعتر ^(٧) يحتلبها أهلي ، فقال : « أعجزت أن تكون مثل عجوز بني إسرائيل ؟ » . فقال له أصحابه : وما عجوز بني إسرائيل يا رسول الله ؟ قال : « إن موسى لما أراد أن يسير ببني إسرائيل أضل الطريق ، فقال لبني إسرائيل : ما هذا ؟ فقال له علماء بني إسرائيل : نحن نحدثك أن يوسف ، عليه السلام ، لما حضره الموت أخذ علينا موثقاً من الله ألا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا ، فقال لهم موسى : فأيكُم يدرى أين قبر يوسف ؟ قالوا : ما يعلمه إلا عجوز لبني إسرائيل . فأرسل إليها فقال ^(٨) لها : دليني على قبر يوسف . فقالت : والله لا أفعل حتى تعطيني حكمي . قال لها : وما حكمك ؟ قالت ^(٩) : حكمي أن أكون معك في الجنة . فكأنه ثقل عليه ذلك ، فقبل له : أعطها حكمها . قال : فانطلقت معهم إلى بحيرة - مستنقع ماء - فقالت لهم : انضبوا هذا الماء . فلما أنضبوه قالت : احتفروا ^(١٠) ، فلما احتفروا استخرجوا قبر يوسف ، فلما احتملوه إذا الطريق مثل ضوء النهار ^(١١) . »

(١) في ف : « وأقام حجج الله بها » . (٢) في أ : « يحملوه » . (٣) في هـ : « عبد الله بن عمر بن محمد بن أبان » .
(٤) في هـ : « فضل » والمثبت من أ . (٥) في أ : « يونس » . (٦) في ف ، أ : « فقال » .
(٧) في أ : « وأعتر » . (٨) في أ : « وقال » . (٩) في أ : « قال » .
(١٠) في أ : « احفروا » .

(١١) ورواه أبو يعلى في مسنده (٢٣٦ / ١٣) وابن حبان في صحيحه برقم (٢٤٣٥) « موارد » ، والحاكم في المستدرک (٥٧١ / ٢) من طريق محمد بن فضيل ، عن يونس بن أبي إسحاق ، عن أبي بردة عن أبي موسى به . وقال الهيثمي في المجمع (١٠ / ١٧٠) : « رجال أبي يعلى رجال الصحيح » .

هذا حديث غريب جداً ، والأقرب أنه موقوف ، والله أعلم .

فلما أصبحوا وليس في ناديتهم داع ولا مجيب ، غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بني إسرائيل ؛ لما يريد الله به من الدمار ، فأرسل سريعاً في بلاده حاشرين ، أى : من يحشر الجند ويجمعه ، كالنقباء والحجّاب ، ونادى فيهم : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ ﴾ - يعنى : بني إسرائيل - ﴿ لَشَرْدَمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ أى : لطائفة قليلة ، ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ أى : كل وقت يصل لنا منهم ما يغيظنا ، ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِرُونَ ﴾ أى : نحن كل وقت نحذر من غائلتهم وإنى أريد أن أستأصل شأقتهم ، وأبيد خضرأهم . فجوزى فى نفسه وجنده بما أراد لهم ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ أى : فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم ، وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والملك والجاه الوافر في الدنيا ، ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرُشُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُكِنِّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : ٥ ، ٦] .

﴿ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨) .

ذكر غير واحد من المفسرين : أن فرعون خرج في جحفل عظيم وجمع كبير ^(١) ، وهو عبارة عن مملكة الديار المصرية في زمانه ، أولى الحل والعقد والدول ، من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود ، فأما ما ذكره غير واحد من الإسرائيليات ، من أنه خرج في ألف ألف وستمائة ألف فارس ، منها مائة ألف على خيل دهم ، وقال كعب الأحبار : فيهم ثمانمائة ألف حصان أدهم - ففى ذلك نظر . والظاهر أنه من مجازفات بني إسرائيل ، والله ، سبحانه وتعالى ، أعلم . والذى أخبر به هو النافع ، ولم يعين عدتهم ؛ إذ لا فائدة تحته ، إلا أنهم خرجوا بأجمعهم .

﴿ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ أى : وصلوا إليهم عند شروق الشمس ، وهو طلوعها : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ ﴾ أى : رأى كل من الفريقين صاحبه ، فعند ذلك ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ ، وذلك أنه انتهى بهم السير إلى سيف البحر ، وهو بحر القلزم ، فصار أمامهم البحر ، وفرعون قد أدركهم بجنوده ، فلماذا قالوا : ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ . قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ أى : لا يصل إليكم

(١) فى أ : « كثير » .

شيء مما تحذرون ، فإن الله ، سبحانه ، هو الذى أمرنى أن أسير ههنا بكم ، وهو لا يخلف الميعاد .
وكان هارون ، عليه السلام ، فى المقدمة ، ومعه يوشع بن نون ، [ومؤمن آل فرعون وموسى ،
عليه السلام ، فى الساقة ، وقد ذكر غير واحد من المفسرين : أنهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون ،
وجعل يوشع بن نون] ^(١) ، أو مؤمن آل فرعون يقول لموسى ، عليه السلام : يا نبي الله ، ههنا
أمرك الله أن تسير ؟ فيقول : نعم ، واقترب فرعون وجنوده ، ولم يبق إلا القليل . فعند ذلك أمر
الله نبيه موسى أن يضرب بعصاه البحر ، فضربه ، وقال : انفلق بإذن الله .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَةَ ، حدثنا صفوان بن صالح ، حدثنا الوليد ، حدثنا ^(٢)
محمد بن حمزة [بن محمد] ^(٣) بن يوسف بن عبد الله بن سلام : أن موسى ، عليه السلام ، لما
انتهى إلى البحر قال : يا من كان قبل كل شيء والمكون لكل شيء ، والكائن قبل كل شيء ، اجعل
لنا مخرجاً . فأوحى الله إليه : ﴿ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ .

وقال قتادة : أوحى الله تلك الليلة إلى البحر : أن إذا ضربك موسى بعصاه فاسمع له وأطع ،
فبات البحر تلك الليلة ، وله اضطراب ^(٤) ، ولا يدرى من أى جانب يضربه موسى ، فلما انتهى إليه
موسى قال له فتاه يوشع بن نون : يا نبي الله ، أين أمرك ربك ؟ قال : أمرنى أن أضرب البحر .
قال : فاضربه .

وقال محمد بن إسحاق : أوحى الله - فيما ذكر لى - إلى البحر : أن إذا ضربك موسى بعصاه
فانفلق له . قال : فبات البحر يضرب بعضه بعضاً ، فرقا من الله تعالى ، وانتظاراً لما أمره الله ،
وأوحى الله إلى موسى : ﴿ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ ، فضربه بها ، وفيها ^(٥) سلطان الله الذى
أعطاه ، فانفلق .

وذكر غير واحد أنه كناه فقال : انفلق على أبا خالد بحول الله ^(٦) .

قال الله تعالى : ﴿ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ أى : كالجبل الكبير . قاله ابن مسعود ،
وابن عباس ، ومحمد بن كعب ، والضحاك ، وقتادة ، وغيرهم .

وقال عطاء الخراسانى : هو الفَجَّ بين الجبلين .

وقال ابن عباس : صار البحر اثني عشر طريقاً ، لكل سبط طريق - وزاد السدى : وصار فيه
طاقات ينظر بعضهم إلى بعض ، وقام الماء على حيله كالحيطان ، وبعث الله الريح على قعر البحر
فلفحته ، فسار يبساً ^(٧) كوجه الأرض ، قال الله تعالى : ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ
دَرْكاً وَلَا تَخْشَى ﴾ [طه : ٧٧] ، وقال فى هذه القصة : ﴿ وَأَرْزَلْنَا ﴾ أى : هنالك ^(٨) ﴿ الْآخِرِينَ ﴾ .

قال ابن عباس ، وعطاء الخراسانى ، وقتادة ، والسدى : ﴿ وَأَرْزَلْنَا ﴾ أى : قربنا فرعون وجنوده

(٢) فى ف ، أ : « عن » .

(١) زيادة من ف ، أ .

(٣) زيادة من الجرح والتعديل (٢٣٦/٢/٣) والدر المنثور (٨٦/٥) .

(٦) فى ف ، أ : « بإذن الله » .

(٥) فى أ : « ففيها » .

(٤) فى أ : « اتكل » .

(٨) فى ف : « هناك » .

(٧) فى أ : « يابساً » .

من البحر وأدنيانهم إليه .

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ۖ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ ١ : أى : أنجينا موسى وبنى إسرائيل ومن معهم على دينهم فلم يهلك (١) منهم أحد ، وأغرق فرعون وجنوده ، فلم يبق منهم رجل (٢) إلا هلك .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا شبابة ، حدثنا يونس بن أبى إسحاق ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله - هو ابن مسعود - أن موسى ، عليه السلام ، حين أسرى ببنى إسرائيل بلغ فرعون ذلك ، فأمر بشاة فذبحت ، ثم قال : لا ، والله لا يفرغ من سلخها حتى يجتمع إلى ستمائة ألف من القبط . فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر ، فقال له : انفرق . فقال البحر : لقد استكبرت يا موسى ، وهل انفرقت (٣) لأحد من ولد (٤) آدم فأنفرق (٥) لك ؟ قال : ومع موسى رجل على حصان له ، فقال له ذلك الرجل : أين أمرت يا نبي الله ؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه [يعنى : البحر ، فأقحم فرسه ، فسبح به فخرج ، فقال : أين أمرت يا نبي الله ؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه] (٦) . قال : والله ما كذبت ولا كذبت . ثم اقتحم الثانية فسبح ، ثم خرج فقال : أين أمرت يا نبي الله ؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه ؟ قال : والله ما كذبت (٧) ولا كذبت . قال : فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، فضربه موسى بعصاه ، فانفلق ، فكان فيه اثنا عشر طريقاً ، لكل سبط طريق يترأون ، فلما خرج أصحاب موسى وتآم أصحاب فرعون ، التقى البحر عليهم فأغرقهم .

وفى رواية إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله قال : فلما خرج آخر أصحاب موسى ، وتكامل أصحاب فرعون ، اضطم عليهم البحر ، فما رثى سواد أكثر من يومئذ ، وغرق فرعون لعنه الله .

ثم قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ﴾ أى : فى هذه القصة وما فيها من العجائب والنصير والتأييد لعباد الله المؤمنين ؛ لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة ، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ٢ تقدم تفسيره .

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۖ (٦٩) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُ لَهَا عَافِيْنَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧)﴾ ٣ .

هذا إخبار من الله تعالى (٨) عن عبده ورسوله وخليفه إبراهيم إمام الخنفاء ، أمر الله رسوله محمداً ، صلوات الله وسلامه عليه ، أن يتلوه على أمته ، ليقنوا به فى الإخلاص والتوكل ، وعبادة الله وحده لا شريك له ، والتبرى من الشرك وأهله ؛ فإن الله تعالى أتى إبراهيم رشده من قبل ، أى : من صغره إلى كبره ، فإنه من وقت نشأ وشب ، أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله ، عز وجل ، فقال :

(١) فى أ : « نهلك » .

(٢) فى ف : « رجل منهم » .

(٣) فى ف : « فرقت » .

(٤) فى أ : « بنى » .

(٥) فى أ : « فأفرق » .

(٦) زيادة من ف ، أ .

(٧) فى أ : « ما كذب » .

(٨) فى أ : « عز وجل » .

﴿ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ؟ أى : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ أى : مقيمين على عبادتها ودعائها ، ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ . قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ يعنى : اعترفوا بأن^(١) أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك ، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون ، فهم على آثارهم يُهرعون . فعند ذلك قال لهم إبراهيم : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير ، فلتخلص إلى بالمساءة ، فإننى عدو لها لا أباليها ولا أفكر فيها . وهذا كما قال تعالى مخبراً عن نوح ، عليه السلام : ﴿ فَاجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [يونس : ٧١] ، وقال هود ، عليه السلام : ﴿ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٤ - ٥٦] . وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم وقال : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴾ [الأنعام : ٨١] . وقال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [المتحنة : ٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٦ - ٢٨] يعنى : لا إله إلا الله .

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) .

يعنى : لا أعبد إلا الذى يفعل هذه الأشياء ، ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ أى : هو الخالق الذى قدر قادراً ، وهدى الخلائق إليه ، فكل يجرى على [ما] (٢) قدر ، وهو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء . ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ أى : هو خالقى ورازقى ، بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية ، فساق المزن ، وأنزل الماء ، وأحيا به الأرض ، وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد ، وأنزل الماء عذاباً زلالاً ﴿ نُسْقِيهِ مِمَّا خَلَقْنَا (٣) أَنْعَامًا وَأَنَاسِي كَثِيرًا ﴾ [الفرقان : ٤٩] .

وقوله : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ أسند المرض إلى نفسه ، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه ، ولكن أضافه إلى نفسه أدباً ، كما قال تعالى آمراً للمصلى أن يقول : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة : ٦ ، ٧] فأسند الإنعام إلى الله ، سبحانه وتعالى ، والغضب حذف فاعله أدباً ، وأسند الضلال إلى العبيد ، كما قالت الجن : ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرَ أَرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن : ١٠] ؛ ولهذا^(٤) قال

(١) فى ف ، أ : « أن » .

(٢) زيادة من أ .

(٣) فى م : « ليسقيه مما خلق » وهو خطأ .

(٤) فى ف ، أ : « وهكذا » .

إبراهيم : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ أى : إذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره ، بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه ، ﴿ وَالَّذِي يَمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ أى : هو الذى يحيى ويميت ، لا يقدر على ذلك أحد سواه ، فإنه هو الذى يبدئ ويعيد ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أى : هو الذى لا يقدر على غفر الذنوب فى الدنيا والآخرة ، إلا هو ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، وهو الفعال لما يشاء .

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاعْفُرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُعْثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴿

وهذا سؤال من إبراهيم ، عليه السلام ، أن يؤتیه ربه حكماً .

قال ابن عباس : وهو العلم . وقال عكرمة : هو اللب . وقال مجاهد : هو القرآن . وقال السدى : هو النبوة . وقوله : ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ أى : اجعلنى مع (١) الصالحين فى الدنيا والآخرة ، كما قال النبى ﷺ عند الاحتضار : « اللهم الرفيق الأعلى » قالها ثلاثاً (٢) . وفى الحديث فى الدعاء [(٣) : « اللهم أحينا مسلمين ، وأمنا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين ، غير خزايا ولا مبدين » (٤) .

وقوله : ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ أى : واجعل لى ذكراً جميلاً بعدى أذكر به ، ويقتدى بى فى الخير ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٨ - ١١٠] .

قال مجاهد ، وقتادة : ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ يعنى : الثناء الحسن . قال مجاهد : وهو كقوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٧] ، وكقوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النحل : ١٢٢] .

قال ليث بن أبى سليم : كل ملة تحبه وتتولاه . وكذا قال عكرمة .

وقوله : ﴿ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ أى : أنعم علىّ فى الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدى ، وفى الآخرة بأن تجعلنى من ورثة جنة النعيم .

وقوله : ﴿ وَاعْفُرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ كقوله : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ [إبراهيم : ٤١] ، وهذا مما رجّع عنه إبراهيم ، عليه السلام ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ

(١) فى أ : « من » .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٥٠٩) ومسلم فى صحيحه برقم (٢١٩١) من حديث عائشة ، رضى الله عنها ، وليس عندهما أنه قالها ثلاثاً ، وإنما فيهما ما يفيد أنها مرتين ، والله أعلم .

(٣) زيادة من ف ، أ .

(٤) رواه أحمد فى مسنده (٤٢٤ / ٣) من حديث الزرقى ، وعنده : « غير خزايا ولا مفتونين » .

مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ [التوبة : ١١٤] . وقد قطع [الله] (١) تعالى الإلحاق في استغفاره لأبيه ، فقال : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴿١١٥﴾ [الممتحنة : ٤] . وقوله : ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ أى : أجزنى من الحزى يوم القيامة و [يوم] (٢) يبعث الخلائق أولهم وآخرهم .

قال البخارى فى قوله : ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ : وقال إبراهيم بن طهمان ، عن ابن أبى ذئب ، عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن إبراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه الغبرة والقتر » (٣) .

حدثنا إسماعيل ، حدثنا أخى ، عن ابن أبى ذئب ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « يلقى إبراهيم أباه ، فيقول : يا رب ، إنك وعدتني أنك لا تخزيني (٤) يوم يبعثون . فيقول الله : إني حرمت الجنة على الكافرين » .

هكذا رواه عند هذه الآية (٥) . وفى أحاديث الأنبياء بهذا الإسناد بعينه منفرداً به ، ولفظه : يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قتر وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك : لا تعصني (٦) ؟ فيقول أبوه (٧) : فاليوم لا أعصيك . فيقول إبراهيم : يا رب ، إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون ، فأى خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين . ثم يُقال : يا إبراهيم ، ما تحت رجلك ؟ فينظر فإذا هو بذبح متلطح ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار (٨) .

وقال أبو عبد الرحمن النسائى فى التفسير من سننه الكبير قوله : ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ : أخبرنا أحمد بن حفص (٩) بن عبد الله ، حدثنى أبى ، حدثنى إبراهيم بن طهمان ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى ، عن أبيه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن إبراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه الغبرة والقتر » ، وقال (١٠) له : قد نهيتك عن هذا فعصيتنى . قال : لكنى اليوم لا أعصيك واحدة . قال : يا رب ، وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون ، فإن (١١) أخزيت أباه فقد أخزيت الأبعد . قال : يا إبراهيم ، إني (١٢) حرمتها على الكافرين . فأخذ منه ، قال : يا إبراهيم ، أين أبوك ؟ قال : أنت أخذته منى . قال : انظر أسفل منك . فنظر (١٣) فإذا ذبيح يتمرغ (١٤) فى ننته ، فأخذ بقوائمه فألقى فى النار (١٥) » .

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) زيادة من ف ، أ .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧٦٨) .

(٤) فى ف ، أ : « أن لا تخزنى » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٦٩) ولفظه : « وعدتني أن لا تخزنى يوم يبعثون » .

(٦) فى ف : « لا تعصينى » .

(٧) فى ف : « أباه » وهو خطأ .

(٨) صحيح البخارى برقم (٣٣٥٠) .

(٩) فى ف : « جعفر » .

(١٠) فى ف : « فقال » .

(١١) فى أ : « فاني » .

(١٢) فى ف ، أ : « فينظر » .

(١٣) فى ف : « متمرغ » .

(١٤) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٧٥) .

هذا إسناد ^(١) غريب ، وفيه نكارة .

والذيخ ^(٢) : هو الذكر من الضباع ، كأنه حول أذر إلى صورة ذيخ متلطخ بعذرتة ^(٣) ، فيلقى في النار كذلك .

وقد رواه البزار من حديث حماد بن سلمة ، عن أيوب ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ ، وفيه غرابة . ورواه أيضاً من حديث قتادة ، عن جعفر بن عبد الغافر ، عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ ، بنحوه .

وقوله : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ أى : لا يبقى المرء ^(٤) من عذاب الله ماله ، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ، ﴿ وَلَا بَنُونَ ﴾ ولو افتدى بمن فى الأرض جميعاً ، ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله ، وإخلاص الدين له ، والتبرى من الشرك ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أى : سالم من الدنس والشرك .

قال محمد بن سيرين : القلب السليم أن يعلم أن الله حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور .

وقال ابن عباس : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ حَيٍّ ^(٥) يشهد أن لا إله إلا الله .

وقال مجاهد ، والحسن ، وغيرهما : ﴿ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ يعنى : من الشرك .

وقال سعيد بن المسيب : القلب السليم : هو القلب الصحيح ، وهو قلب المؤمن ؛ لأن قلب [الكافر و] ^(٦) المنافق مريض ، قال الله : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ [البقرة : ١٠] .

وقال أبو عثمان النيسابورى : هو القلب الخالى من البدعة ، المطمئن على السنة .

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكَبَّوْا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤) ﴾ .

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ ﴾ أى : قربت الجنة وأدنت ^(٧) من أهلها يوم القيامة مزخرفة مزينة ^(٨) لناظرها ، وهم المتقون الذين رغبوا فيها ، وعملوا لها [عملها] ^(٩) فى الدنيا . ﴿ وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ أى :

(١) فى ف : « سياق » .

(٢) فى أ : « والذايح » .

(٣) فى أ : « بقذرتة » .

(٤) فى ف ، أ : « يعنى » .

(٥) زيادة من ف ، أ .

(٦) فى ف ، أ : « مزينة مزخرفة » .

(٧) فى ف : « أدنت وقربت » .

أظهرت وكُشف^(١) عنها ، وبدت منها عُنُقٌ ، فزفرت زفرة بلغت منها القلوب [إلى]^(٢) الحناجر ، وقيل لأهلها تقرّيعاً وتوبيخاً : ﴿ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾^(٣) . مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ؟
أى : ليست الآلهة التى عبدتموها من دون الله ، من تلك الأصنام والأنداد تغنى عنكم اليوم شيئاً ، ولا تدفع عن أنفسها ؛ فإنكم وإياها اليوم حصَبُ جهنم أنتم لها واردون .
وقوله : ﴿ فَكَبِّرُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾ : قال مجاهد : يعنى : فذهوروا^(٤) فيها .

وقال غيره : كبوا فيها . والكاف مكررة ، كما يقال : صرصر . والمراد : أنه ألقى بعضهم على بعض ، من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك ، ﴿ وَجُنُودِ إبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ أى : ألقوا فيها عن آخرهم . ﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ . تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : يقول الضعفاء الذين استكبروا : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيًّا مِنَ النَّارِ ﴾ [غافر : ٤٧] . ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة : ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : نجعل أمركم مطاعاً كما يطاع أمر رب العالمين ، وعبدناكم مع رب العالمين ، ﴿ وَمَا أَصْلَنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ ﴾ أى : ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون ، ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴾ قال بعضهم : يعنى من الملائكة ، كما يقولون : ﴿ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلْ ﴾ [الأعراف : ٥٣] . وكذا قالوا : ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ أى : قريب .

قال قتادة : يعلمون - والله - أن الصديق إذا كان صالحاً نفع ، وأن الحميم إذا كان صالحاً شفع . ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وذلك أنهم يتمنون أنهم يردون^(٥) إلى الدار الدنيا ، ليعملوا بطاعة ربهم - فيما يزعمون - وهو ، سبحانه وتعالى ، يعلم أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . وقد أخبر تعالى^(٦) عن تخاصم^(٧) أهل النار فى سورة « ص » ، ثم قال : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ [ص : ٦٤] .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى : إن فى محاجة إبراهيم لقومه وإقامته الحجج^(٨) عليهم فى التوحيد آية ودلالة واضحة جليلة على أنه لا إله إلا الله ، ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١١٠) ﴾ .

هذا إخبار من الله ، عز وجل ،^(٩) عن عبده ورسوله نوح ، عليه السلام ، وهو أول رسول بعث

(١) فى ف ، أ : « وكشفت » . (٢) زيادة من أ . (٣) فى ف ، أ : « تشركون » .
(٤) فى أ : « صوروا » . (٥) فى ف : « أن يردون » ، وفى أ : « أن يردوا » . (٦) فى أ : « الله » وهو خطأ .
(٧) فى أ : « بتخاصم » . (٨) فى ف : « الحجة » . (٩) فى ف ، أ : « تعالى » .

إلى الأرض بعد ما عبدت الأصنام والأنداد ، بعثه الله ناهياً عن ذلك ، ومحذراً من وبيل عقابه ، فكذبه قومه واستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم ، ويتنزل (١) تكذيبهم له بمنزلة تكذيب جميع الرسل ؛ ولهذا قال : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أى : ألا (٢) تخافون الله فى عبادتكم غيره ؟ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أى : أنى رسول من الله إليكم ، أمين فيما بعثنى به ، أبلغكم رسالة الله لا أزيد فيها ولا أنقص منها ، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ [إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ] ﴾ (٣) أى : لا أطلب منكم جزاء على نصحى لكم ، بل أدخر ثواب ذلك عند الله ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ فقد وضع لكم وبان صدقى ونصحى وأمانتى فيما بعثنى به واثمتنى عليه .

﴿ قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ ﴾ (١١١) قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥) .

يقولون : أنؤمن لك ونتبعك ، ونساوى فى ذلك بهؤلاء الأراذل (٤) الذين اتبعوك وصدقوك ، وهم أراذلنا (٥) ؛ ولهذا قالوا : ﴿ أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ . قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ؟ أى : وأى شىء يلزمنى من اتباع هؤلاء لى ، ولو كانوا على أى شىء كانوا عليه لا يلزمنى التنبى عنه والبحث والفحص ، إنما على أن أقبل منهم تصديقهم (٦) إياى ، وأكل سرائرهم إلى الله ، عز وجل ، ﴿ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ . وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، كأنهم سألوا منه أن يبعدهم عنه ليتابعوه (٧) ، فأبى عليهم ذلك ، وقال : ﴿ مَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ . إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أى : إنما بعثت نذيراً ، فمن أطاعنى واتبعنى وصدقنى كان منى وكنت منه ، سواء كان شريفاً أو وضيعاً ، أو جليلاً أو حقيراً .

﴿ قَالُوا لئن لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنِّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢) .

لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً ، وجهراً وإسراراً ، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ ، والامتناع الشديد ، وقالوا فى الآخر : ﴿ لئن لَمْ تَنْتَهِ ﴾ أى : عن دعوتك إيانا إلى دينك يا نوح ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ أى : لنرجمك (٨) . فعند ذلك دعا

(٣) زيادة من ف ، أ .

(٢) فى أ : « لا » .

(١) فى أ : « وتنزل » .

(٦) فى أ : « صدقهم » .

(٥) فى أ : « أراذلنا » .

(٤) فى أ : « الأراذل » .

(٨) فى أ : « لنرجمك » .

(٧) فى ف : « ليتابعون » ، وفى أ : « ليابعوه » .

عليهم دعوة استجاب الله منه ، فقال : ﴿ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُون . فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ قَدْ عَاوَيْتُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِر . فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ [القمر : ١٠ - ١٤] ، وقال ههنا : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾ . والمشحون : هو المملوء بالأمّعة والأزواج التى حمل فيه من كل زوجين اثنين ، أى : نجيناه ^(١) ومن معه ^(٢) كلهم ، وأغرقنا من كذبه وخالف أمره كلهم ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) ﴾ .

وهذا إخبار من [الله تعالى عن] ^(٣) عبده ورسوله هود ، عليه السلام ، أنه دعا قومه عاداً ، وكانوا قوماً يسكنون الأحقاف ، وهى : جبال الرمل قريباً من بلاد حضرموت متاخمة ^(٤) لبلاد اليمن ، وكانوا زمانهم بعد قوم نوح ، [كما قال فى « سورة الأعراف » : ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾] ^(٥) وزادكم فى الخلق بصطة ﴿ [الأعراف : ٦٩] ، وذلك أنهم كانوا فى غاية من قوة التركيب ، والقوة والبطش الشديد ، والطول المديد ، والأرزاق الدارة ، والأموال والجنان ^(٦) والعيون ، والأبناء والزروع والثمار ، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه ، فبعث الله إليهم رجلاً منهم رسولاً وبشيراً ونذيراً ، فدعاهم إلى الله وحده ، وحذرهم نقمته وعذابه فى مخالفته ، فقال لهم كما قال نوح لقومه ، إلى أن قال : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ ، اختلف المفسرون فى الريع بما حاصله : أنه المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة . تبون هنالك بناء محكما باهراً هائلاً ؛ ولهذا قال : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً ﴾ أى : معلما بناء مشهوراً ، تعبثون ، وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه ؛ بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة ؛ ولهذا أنكر عليهم نبهم ، عليه السلام ، ذلك ؛ لأنه تضييع للزمان وإتعايب للأبدان فى غير فائدة ، واشتغال بما لا يجدى فى الدنيا ولا فى الآخرة .

ثم قال : ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ ، قال مجاهد المصانع : البروج المشيدة ، والبنيان المخلد . وفى رواية عنه : بروج الحمام .

(٣) زيادة من ف ، أ .

(٢) فى أ : « اتبعه » .

(١) فى أ : « نجينا نوحاً » .

(٦) فى أ : « والجنان » .

(٥) زيادة من ف ، أ .

(٤) فى ف : « متخمة » .

وقال قتادة : هي مأخذ الماء . قال قتادة : وقرأ بعض القراء (١) : «وتتخذون مصانع كأنكم خالدون» .

وفى القراءة المشهورة : ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أى : لكى تقيموا فيها أبداً ، وليس ذلك بحاصل لكم ، بل زائل عنكم ، كما زال عمن كان قبلكم .

وقال ابن أبى حاتم ، رحمه الله : حدثنا أبى ، حدثنا الحكم بن موسى ، حدثنا الوليد ، حدثنا ابن عجلان ، حدثنى عون بن عبد الله بن عتبة ، أن أبا الدرداء ، رضى الله عنه ، لما رأى ما أحدث المسلمون فى الغوطة من البنيان ونصب الشجر ، قام فى مسجدهم فنادى : يا أهل دمشق ، فاجتمعوا إليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ألا تستحيون ! ألا تستحيون ! تجمعون ما لا تأكلون ، وتبنون ما لا تسكنون ، وتأملون ما لا تدركون ، إنه كانت قبلكم (٢) قرون ، يجمعون فيرعون ، ويبنون فيوثقون (٣) ، ويأملون فيطيلون ، فأصبح أملهم غروراً ، وأصبح جمعهم بوراً ، وأصبحت مساكنهم (٤) قبوراً ، ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً ، فمن يشتري منى ميراث عاد بدرهمين ؟ وقوله : ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ : وصفهم بالقوة والغلظة والجبروت ، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رِبَّكُمْ﴾ أى : اعبدوا ربكم ، وأطيعوا رسولكم .

ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم فقال : ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أى : إن كذبتهم وخالفتم ، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب ، فما نفع فيهم .

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠)﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن جواب قوم هود له ، بعدما حذرهم وأنذرهم ، ورغبهم ورهبهم ، وبين لهم الحق ووضحه : ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ أى : لا نرجع عما نحن فيه ، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود : ٥٣] . وهكذا الأمر ؛ فإن الله تعالى قال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة : ٦] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] .

وقولهم : ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ : قرأ بعضهم : «إن هذا إلا خلق» بفتح الخاء وتسكين

(٢) فى ف : «قد كانت قبلكم» ، وفى أ : «قد كانت لكم» .

(٤) فى ف : «منازلهم» .

(١) فى ف : «الكوفيين» .

(٣) فى أ : «فيوثقون» .

اللام .

قال ابن مسعود ، والعوفى عن عبد الله بن عباس ، وعلقمة ، ومجاهد : يعنون ما هذا الذى جئتنا به إلا أخلاق الأولين . كما قال المشركون من قريش : ﴿ وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [اكتسبها فهي تملئ عليه بكرة وأصيلا] [الفرقان : ٥] ، وقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا . وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الفرقان : ٤ ، ٥] ، وقال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [٢] [النحل : ٢٤] .

وقرأ آخرون : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ - بضم الخاء واللام - يعنون : دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأوائل من الآباء والأجداد . ونحن تابعون لهم ، سالكون وراءهم ، نعيش كما عاشوا ، ونموت كما ماتوا ، ولا بعث ولا معاد ؛ ولهذا قالوا : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ يقول : دين الأولين . وقاله عكرمة ، وعطاء الخراساني ، وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، واختاره ابن جرير (٣) .

قال الله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ أى : فاستمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده ، فأهلكهم الله ، وقد بين سبب إهلاكه إياهم فى غير موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية ، أى : ريحاً شديدة الهبوب ذات برد شديد جداً ، فكان إهلاكهم من جنسهم ، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره ، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة ، كما قال : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ [ذَاتِ الْعِمَادِ] (٤) ﴾ [الفجر : ٦ ، ٧] ، وهم عاد الأولى ، كما قال : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴾ [النجم : ٥٠] ، وهم من نسل إرم بن سام بن نوح . ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ أى : الذين كانوا يسكنون العمدة . ومن زعم أن « إرم » مدينة ، فإنما أخذ ذلك من الإسرائيليات من كلام كعب وهب ، وليس لذلك أصل أصيل . ولهذا قال : ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ [الفجر : ٨] ، أى : لم يخلق مثل هذه القبيلة فى قوتهم وشدتهم وجبروتهم ، ولو كان المراد بذلك مدينة لقال : التى لم بين مثلها فى البلاد ، وقال : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت : ١٥] .

وقد قدمنا أن الله تعالى لم يرسل عليهم من الريح إلا بمقدار أنف الثور ، عتت على الخزنة ، فأذن (٥) الله لها فى ذلك ، وسلكت وحصبت بلادهم ، فحصبت كل شيء لهم ، كما قال تعالى : ﴿ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى (٦) إِلَّا مَسَکْنُهُمْ ﴾ الآية [الأحقاف : ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ [الحاقة : ٦ ، ٧] ، أى : كاملة ، ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة : ٧] ، أى : بقوا أبداناً بلا رؤوس ؛

(١) فى ف ، أ : « وقيل للذين كفروا » وهو خطأ .

(٢) زيادة من ف ، أ .

(٣) تفسير الطبرى (١٩ / ٦٠) .

(٤) فى ف ، أ : « لا ترى » .

(٥) فى أ : « ياذن » .

(٦) زيادة من ف ، أ .

وذلك أن الريح كانت تأتي الرجل منهم فتقتله وترفعه في الهواء ، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخ دماغه ، وتكسر رأسه ، وتلقيه ، كأنهم أعجاز نخل منقعر . وقد كانوا تحصنوا في الجبال والكهوف والمغارات ، وحفروا لهم في الأرض إلى أنصافهم ، فلم يغن عنهم ذلك ^(١) من أمر الله شيئاً ، ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴾ [نوح : ٤] ؛ ولهذا قال : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) ﴾ .

وهذا إخبار من الله ، عز وجل ، عن عبده ورسوله صالح ، عليه السلام : أنه بعثه إلى قوم ثمود ، وكانوا عرباً يسكنون مدينة الحجر ، التي بين وادي القرى وبلاد الشام ، ومساكنهم معروفة مشهورة . وقد قدمنا في « سورة الأعراف » ^(٢) الأحاديث المروية في مرور رسول الله ﷺ بهم حين أراد غزو الشام ، فوصل ^(٣) إلى تبوك ، ثم عاد إلى المدينة ليتأهب لذلك . وقد كانوا بعد عاد وقبل الخليل ، عليه السلام . فدعاهم نبيهم صالح إلى الله ، عز وجل ، أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة ، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه . فأخبرهم أنه لا يتغنى بدعوتهم أجراً منهم ، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله ، عز وجل ، ثم ذكرهم آلاء الله عليهم فقال :

﴿ أَتُرْكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) ﴾ .

يقول لهم واعظاً لهم ومحذراً إياهم نقم ^(٤) الله أن تحل بهم ، ومذكراً بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارة ، وجعلهم في أمن من المحذورات . وأنبأ لهم من الجنات ^(٥) . وأنبع لهم من العيون الجاريات ، وأخرج لهم من الزروع والثمرات ؛ ولهذا قال : ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ . قال العوفي ، عن ابن عباس : أنبع وبلغ ، فهو هضيم .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ يقول : مُعْشَبَةٌ .

[و] ^(٦) قال إسماعيل بن أبي خالد ، عن عمرو بن أبي عمرو - وقد أدرك الصحابة - عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ قال : إذا رطب واسترخى . رواه ابن أبي حاتم ، قال : وروى عن أبي صالح نحو هذا .

(١) في ف ، أ : « لم يغن ذلك عنهم » .

(٢) في أ : « فدخل » .

(٣) عند الآيات ٧٣ - ٧٨ .

(٤) في أ : « النقم » .

(٥) زيادة من أ .

وقال أبو إسحاق ، عن أبي العلاء : ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ قال : هو المذنب من الرطب .

وقال مجاهد : هو الذى إذا كبس^(١) تهشم وتفتت وتناثر .

وقال ابن جريج : سمعت عبد الكريم أبا أمية ، سمعت مجاهد يقول : ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾

قال : حين يطلع تقبض عليه فتهضمه ، فهو من الرطب الهضم ، ومن اليابس الهشيم ، تقبض عليه فتهشمه .

وقال عكرمة ، وقتادة : الهضم : الرطب اللين .

وقال الضحاك : إذا كثر حمل الثمرة^(٢) ، وركب بعضه بعضاً ، فهو هضم .

وقال مرة : هو الطلُع حين يتفرق ويخضر .

وقال الحسن البصرى : هو الذى لا نوى له .

وقال أبو صخر : ما^(٣) رَأَيْتَ الطَّلْعَ حِينَ يُشَقُّ^(٤) عَنْهُ الْكَمُّ ، فترى الطلع قد لصق بعضه ببعض ،

فهو الهضم ، وقوله : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾ قال ابن عباس ، وغير واحد : يعنى :

حاذقين . وفى رواية عنه : شرهين أشرين^(٥) . وهو اختيار مجاهد وجماعة . ولا منافاة بينهما ؛

فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة فى الجبال أشراً وبطراً وعبثاً ، من غير حاجة إلى سكنها ،

وكانوا حاذقين^(٦) متقنين لنحتها ونقشها ، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم ؛ ولهذا قال :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ أى : أقبلوا على عمل ما يعود نفعه عليكم^(٧) فى الدنيا والآخرة ، من عبادة

ربكم الذى خلقكم ورزقكم لتوحيده وتعبده وتسبحوه بكرة وأصيلاً ، ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ .

الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلَحُونَ ﴾ يعنى : رؤساءهم وكبراءهم ، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ،

ومخالفة الحق .

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ

الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ

فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنْ فِي

ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (١٥٩) .

يقول تعالى مخبراً عن ثمود فى جوابهم لنبيهم صالح ، عليه السلام ، حين دعاهم إلى عبادة

ربهم ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ . قال مجاهد ، وقتادة : يعنون من المسحورين .

وروى^(٨) أبو صالح ، عن ابن عباس : ﴿ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾^(٩) : يعنى من المخلوقين ، واشتهد

بعضهم على هذا القول بما قال الشاعر^(١٠) .

(٣) فى ف ، أ : « أما » .

(٢) فى ف ، أ : « حمل النخلة الثمرة » .

(١) فى ف ، أ : « مس » .

(٦) فى أ : « صادقين » .

(٥) فى ف : « أشرين شرهين » .

(٤) فى ف ، أ : « يشقق » .

(٩) فى ف ، أ : « المسحورين » .

(٨) فى ف : « وقال » .

(٧) فى ف ، أ : « عليكم نفعه » .

(١٠) هو لبيد بن ربيعة ، والبيت فى ديوانه ص (٥٦) أ . هـ ، مستفاداً من ط . الشعب .

يعنى الذين لهم سُحور ، والسحر : هو الرثة .

والأظهر فى هذا قول مجاهد وقتادة : أنهم يقولون : إنما أنت فى قولك هذا مسحور لا عقل لك .
ثم قالوا : ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ يعنى : فكيف أوحى إليك دوننا ؟ كما قالوا فى الآية الأخرى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَعِظَمِ الْكَذِبِ ﴾ (١) الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ . سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ﴿ [القمر : ٢٥ ، ٢٦] .

ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتى بهم بها ، ليعلموا صدقه بما (٢) جاءهم به من ربهم فطلبوا منه - وقد اجتمع ملؤهم - أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرة عندهم - ناقة عُسراء من صفتها كذا وكذا . فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق ، لئن أجابهم إلى ما سألوا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ ، [وليصدقنّه] (٣) ، وليتبعنه ، فأنعموا بذلك . فقام نبي الله صالح ، عليه السلام ، فصلى ، ثم دعا الله ، عز وجل ، أن يجيبهم إلى سؤالهم ، فانفطرت تلك الصخرة التى أشاروا إليها عن ناقة عُسراء ، على الصفة التى وصفوها . فأمن بعضهم وكفر أكثرهم ، ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَهَا شُرْبٌ وَلَكُمْ شُرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ يعنى : ترد ماءكم يوماً ، ويوماً تردونه أنتم ، ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فحذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء ، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ترد الماء ، وتأكل الورق والمرعى . ويتتفعون بلبنها ، يحتلبون منها ما يكفيهم شرباً ورياً ، فلما طال عليهم الأمد وحضر شقاؤهم ، تمالؤوا على قتلها وعقرها ، ﴿ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ . فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ وهو أن أرضهم زلزلت زلزالاً شديداً ، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب عن محالها ، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون ، فأصبحوا فى ديارهم جائمين ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله لوط ، عليه السلام ، وهو : لوط بن هاران بن آزر ، وهو ابن أخى إبراهيم الخليل ، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة فى حياة إبراهيم ، وكانوا يسكنون « سدوم » وأعمالها التى أهلكها الله بها ، وجعل مكانها بحيرة متنتة خبيثة ، وهى مشهورة ببلاد الغور ، متاخمة لجبال البيت (٤) المقدس ، بينها وبين بلاد الكرك والشوبك . فدعاهم إلى الله ، عز وجل ، أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوا رسولهم الذى بعثه الله إليهم ، ونهاهم عن معصية الله ، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه فى العالم ، مما لم يسبقهم الخلائق إلى فعله ، من إتيان الذكران دون الإناث ؛ ولهذا قال تعالى :

(١) فى ف ، أ : « وأنزل » وهو خطأ .
(٢) فى أ : « فيما » .
(٣) زيادة من ف ، أ .
(٤) فى ف ، أ : « بيت » .

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥) ﴾ .

لما نهاهم نبي الله عن إتيانهم الفواحش ، وغشيانهم الذكور ، وأرشدهم إلى إتيان نسائهم اللاتي خلقهن الله لهم - ما كان جواب قومه له إلا أن قالوا : ﴿ لَنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا لُوط ﴾ يعنون : عما جئنا (١) به ، ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ أى : ننفيك من بين أظهرنا ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا (٢) كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ (٣) مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٨٢] ، فلما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه وأنهم مستمرّون على ضلالتهم ، تبرأ منهم فقال : ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾ أى : المُبْغِضِينَ ، لا أحبه ولا أرضى به ؛ فأنا برئ منكم . ثم دعا الله عليهم قال : ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ أى : كلهم ، ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾ ، وهى امرأته ، وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت (٤) مع من بقى من قومها ، وذلك كما أخبر الله تعالى عنهم فى « سورة الأعراف » و « هود » ، وكذا فى « الحجر » حين أمره الله أن يسرى بأهله إلا امرأته ، وأنهم لا يلتفتون إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه ، فصبروا لأمر الله واستمروا ، وأنزل الله على أولئك العذاب الذى عمّ جميعهم ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ؛ ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) ﴾ .

هؤلاء - أعنى أصحاب الأيكة - هم أهل مدين على الصحيح . وكان نبي الله شعيب من أنفسهم ، وإنما لم يقل هنا أخوهم شعيب ؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة ، وهى شجرة . وقيل : شجر ملتف كالغضة ، كانوا يعبدونها ؛ فلماذا لما قال : كذب أصحاب الأيكة المرسلين ، لم يقل : « إذ قال لهم أخوهم شعيب » ، وإنما قال : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ ، فقطع نسبة الأخوة بينهم ؛ للمعنى الذى نسبوا إليه ، وإن كان أخاهم نسباً . ومن الناس من لم يتفطن لهذه النكتة ، فظن أن أصحاب الأيكة غير

(١) فى ف : « يعنى مما جئنا » .

(٢) فى ف ، أ : « فما » وهو خطأ .

(٣) فى جميع النسخ : « أخرجوا آل لوط » والصواب ما أثبتناه .

(٤) فى ف ، أ : « مهلكة » .

أهل مدين ، فزعم أن شعيباً ، عليه السلام ، بعثه الله إلى أمتين ، ومنهم من قال : ثلاث أمم .
وقد روى إسحاق بن بشر الكاهلي - وهو ضعيف - حدثني ابن السدي ، عن أبيه - وزكريا بن عمر^(١) ، عن خصيف ، عن عكرمة قالا : ما بعث الله نبياً مرتين إلا شعيباً ، مرة إلى مدين فأخذهم الله بالصيحة ، ومرة إلى أصحاب الأيكة فأخذهم الله بعذاب يوم الظلة .

وروى أبو القاسم البغوي ، عن هُدْبَةَ ، عن هَمَّامٍ ، عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ ﴾ . [ق : ١٢] قوم شعيب ، وقوله : ﴿ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ﴾ . [ق : ١٤] قوم شعيب .

قال إسحاق بن بشر : وقال غير جُوَيْرٍ : أصحاب الأيكة ومدين هما واحد . والله أعلم .

وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة « شعيب » ، من طريق محمد بن عثمان بن أبي شيبة ، عن أبيه ، عن معاوية بن هشام ، عن هشام بن سعد ، عن سعيد بن أبي هلال ، عن ربيعة بن سيف ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « إن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان ، بعث^(٢) الله إليهما شعيباً النبي ، عليه السلام »^(٣) .

وهذا غريب ، وفي رفعه نظر ، والأشبه أن يكون موقوفاً . والصحيح أنهم أمة واحدة ، وصفوا في كل مقام بشيء ؛ ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان ، كما في قصة مدين سواء بسواء^(٤) ، فدل ذلك على أنهم أمة واحدة^(٥) .

﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ (١٨٤) ﴾ .

يأمرهم تعالى^(٦) بإيفاء المكيال^(٧) والميزان ، وينهاهم عن التطفيف فيهما ، فقال : ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ أي : إذا دفعتم إلى الناس فكمّلوا^(٨) الكيل لهم ، ولا تخسروا الكيل فتعطوه ناقصاً ، وتأخذوه - إذا كان لكم - تاماً وافياً ، ولكن خذوا كما تعطون ، واعطوا كما تأخذون .

﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ : والقسطاس هو : الميزان ، وقيل : القَبَّانُ . قال بعضهم : هو معرب من الرومية .

وقال مجاهد : القسطاس المستقيم : العدل - بالرومية . وقال قتادة : القسطاس : العدل .

وقوله : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ أي : تَنْقُصُوهم أموالهم ، ﴿ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ ﴾

(٢) في ف ، أ : « بعث » .

(١) في ف ، أ : « عمرو » .

(٣) انظر : مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٣٠٩/١٠) .

(٤) في أ : « سواء » .

(٦) في ف ، أ : « عليه السلام » .

(٥) في أ : « فدل ذلك على أنهم أمة واحدة » .

(٨) في أ : « فكمّلوا » .

(٧) في ف ، أ : « الكيل » .

مُفْسِدِينَ ﴿ يَعْنِي : قطع الطريق ، كما في الآية الأخرى : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ [وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ] ^(١) ﴾ [الأعراف : ٨٦] .

وقوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ ﴾ : يخوفهم بأس الله الذي خلقهم وخلق آباءهم الأوائل ، كما قال موسى ، عليه السلام : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الصفافات : ١٢٦] . قال ابن عباس ، ومجاهد ، والسُّدِّي ، وسفيان بن عيينة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ ﴾ يقول : خلق الأولين . وقرأ ابن زيد : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ [يس : ٦٢] .

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَاسْقُطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١) ﴾ .

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها ^(٢) - تشابهت قلوبهم - حيث قالوا : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ يعنون : من المسحورين ، كما تقدم . ﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى : تتعمد الكذب فيما تقوله ، لا أن الله أرسلك إلينا ، ﴿ فَاسْقُطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ : قال الضحاك : جانباً من السماء . وقال قتادة : قطعاً من السماء . وقال السدى : عذاباً من السماء . وهذا شبيه بما قالت قريش فيما أخبر الله عنهم فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ ، إلى أن قالوا : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٩٠ - ٩٢] . وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢] ، وهكذا قال هؤلاء الكفرة الجهلة : ﴿ فَاسْقُطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

﴿ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يقول : الله أعلم بكم ، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به غير ظالم لكم ، وكذلك وقع بهم كما سألوا ، جزاءً وفاقاً ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهذا من جنس ما سألوا ، من إسقاط الكسف عليهم ، فإن الله ، سبحانه وتعالى ، جعل عقوبتهم ^(٣) أن أصابهم حر شديد جداً مدة سبعة أيام لا يَكْنُهُمْ منه شيء ، ثم

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) فى ف ، أ : « لرسولها » .

(٣) فى أ : « عقوبته » .

أقبلت إليهم سحابة أظلتهم ، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر ، فلما اجتمعوا [كلهم]^(١) تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شرراً من نار ، ولهباً ووهجاً عظيماً ، ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة عظيمة أزهدت أرواحهم ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن ^(٢) ، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق ، ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ؛ وذلك لأنهم قالوا : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف : ٨٨] ، فأرجفوا بنبي الله ومن اتبعه ، فأخذتهم الرجفة . وفي سورة هود قال : ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ﴾ [هود : ٩٤] ؛ وذلك لأنهم استهزؤوا بنبي الله في قولهم : ﴿ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود : ٨٧] . قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء ، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم ، فقال : ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ﴾ ^(٣) . وههنا قالوا : ﴿ فَاسْقُطْ عَلَيْنَا كَسَافًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ على وجه التعنت والعناد ، فناسب أن يحق عليهم ما استبعدوا وقوعه : ﴿ فَأَخَذَهُمُ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

قال قتادة : قال عبد الله بن عمر ^(٤) ، رضى الله عنه : إن الله سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلمهم منه شيء ، ثم إن الله أنشأ لهم سحابة ، فانطلق إليها أحدهم واستظل ^(٥) بها ، فأصاب تحتها برداً وراحة ، فأعلم بذلك قومه ، فأتوها جميعاً ، فاستظلوا تحتها ، فأججت عليهم ناراً .

وهكذا روى عن عكرمة ، وسعيد بن جبيرة ، والحسن ، وكتادة ، وغيرهم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، بعث الله إليهم الظلة ، حتى إذا اجتمعوا كلهم ، كشف الله عنهم الظلة ، وأحمى عليهم الشمس ، فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقلَى .

وقال محمد بن كعب القرظي : إن أهل مدين عذبوا بثلاثة أصناف من العذاب : أخذتهم الرجفة في دارهم حتى خرجوا منها ، فلما خرجوا منها أصابهم فزع شديد ، ففرقوا أن يدخلوا إلى البيوت فتسقط عليهم ، فأرسل الله عليهم الظلة ، فدخل تحتها رجل فقال : ما رأيت كالיום ظلاً ^(٦) أطيب ولا أبرد من هذا . هلموا أيها الناس . فدخلوا جميعاً تحت الظلة ، فصاح بهم صيحة واحدة ، فماتوا جميعاً . ثم تلا محمد بن كعب : ﴿ فَأَخَذَهُمُ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وقال ابن جرير : حدثني الحارث ، حدثني الحسن ، حدثني سعيد بن زيد - أخو حماد بن زيد - حدثني حاتم بن أبي صغيرة ^(٧) ، حدثني يزيد الباهلي : سألت ابن عباس عن هذه الآية ﴿ فَأَخَذَهُمُ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ قال : بعث الله عليهم ومدة ^(٨) وحرا شديدا ، فأخذ

(٢) في أ : « مواضع » .

(٤) في ف ، أ : « عمرو » .

(١) زيادة من ف ، أ .

(٣) في ف : « فأخذتهم الصيحة » .

(٥) في ف ، أ : « فاستظل » .

(٦) في ف : « ما رأيت ظلاً كالיום » .

(٧) في أ : « صغيرة » .

(٨) في ف ، أ : « رعدة » .

بأنفاسهم [فدخلوا البيوت ، فدخل عليهم أجواف البيوت ، فأخذ بأنفاسهم] ^(١) ، فخرجوا من البيوت هرباً إلى البرية ، فبعث الله سحابة فأظلمت من الشمس ، فوجدوا لها برداً ولذة ، فنادى بعضهم بعضاً ، حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسلها ^(٢) الله عليهم ناراً . قال ابن عباس : فذلك عذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم ^(٣) . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أى : العزيز فى انتقامه من الكافرين ، الرحيم بعباده المؤمنين .

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ^(١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ^(١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ^(١٩٥) .

يقول تعالى مخبراً عن الكتاب الذى أنزله على عبده ورسوله محمد ، صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أى : القرآن الذى تقدم ذكره فى أول السورة فى قوله : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ ^(٤) مُحَدَّثٌ ﴿ [الآية] ^(٥) . ﴾ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : أنزله الله عليك وأوحاه إليك ، ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ وهو جبريل ، عليه السلام ، قاله غير واحد من السلف : ابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وقتادة ، وعطية العوفى ، والسدى ، والضحاك ، والزهرى ، وابن جريج . وهذا ما لا نزاع فيه . قال الزهرى : وهذه كقوله : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ الآية [البقرة: ٩٧] .

وقال مجاهد : من كلمه الروح الأمين لا تأكله ^(٦) الأرض . ﴿ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ [أى : نزل به ملك كريم أمين ، ذو مكانة عند الله ، مطاع فى الملأ الأعلى ، ﴿ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ يا محمد ، سالماً من الدنس والزيادة والنقص ؛ ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾] ^(٧) أى : لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه ، وتبشر به المؤمنين المتبعين له . وقوله : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ أى : هذا القرآن الذى أنزلناه إليك [أنزلناه] ^(٨) بلسانك العربى الفصيح الكامل الشامل ، ليكون بيناً واضحاً ظاهراً ، قاطعاً للعدو ، مقيماً للحجة ، دليلاً إلى المحجة . قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن أبى بكر العتكى ، حدثنا عباد بن عباد المهلبى ، عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمى ، عن أبيه قال : بينما رسول الله ﷺ مع أصحابه فى يوم دجن إذ قال لهم : « كيف ترون بواسقها ؟ » . قالوا : ما أحسنها وأشد تراكمها . قال : « فكيف ترون قواعدها ؟ » . قالوا : ما أحسنها وأشد تمكناها . قال : « فكيف ترون جونها ^(٩) ؟ » . قالوا : ما أحسنه وأشد سواده . قال : « فكيف ترون رحاها استدارت ^(١٠) ؟ » . قالوا : ما أحسنها وأشد

(٢) فى ف ، أ : « أرسل » .

(١) زيادة من ف ، أ ، والطبرى .

(٣) تفسير الطبرى (٦٧ / ١٩) .

(٥) زيادة من ف ، أ .

(٤) فى ف ، أ : « ربهم » وهو خطأ .

(٧) ، (٨) زيادة من ف ، أ .

(٦) فى ف : « لا يأكله » .

(١٠) فى ف : « رحلها استدار » .

(٩) فى ف ، أ : « حرنا » .

استدارتها . قال : « فكيف ترون برقها ، أوميض أم خفقو ^(١) أم يشق شقاً ^(٢) ؟ » . قالوا : بل يشق شقاً . قال : « الحياء الحياء إن شاء الله » . قال : فقال رجل : يا رسول الله ، بأبى وأمى ما أفصحك ، ما رأيت الذى هو أعرب منك . قال : فقال : « حق لى ، وإنما أنزل ^(٣) القرآن بلسانى ، والله يقول : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ ^(٤) .

وقال سفيان الثورى : لم ينزل وحى إلا بالعربية ، ثم تَرجم كل نبي لقومه ، واللسان يوم القيامة بالسريانية ، فمن دخل الجنة تكلم بالعربية . رواه ابن أبى حاتم .

﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبْرِ الْأَوَّلِينَ ^(١٩٦) أَوْلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ^(١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ^(١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ^(١٩٩) ﴾ .

يقول تعالى : وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود فى كتب الأولين الماثورة عن أنبيائهم ، الذين بشروا به فى قديم الدهر وحديثه ، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك ، حتى قام آخرهم خطيباً فى ملته بالبشارة بأحمد : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : ٦] ، والزبر ههنا هى الكتب وهى جمع زبور ^(٥) ، وكذلك الزبور ، وهو كتاب داود . وقال تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ [القمر : ٥٢] أى : مكتوب عليهم فى صحف الملائكة .

ثم قال تعالى : ﴿ أَوْلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى : أو ليس يكفهم من الشاهد الصادق على ذلك : أن العلماء من بنى إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن فى كتبهم التى يدرسونها ؟ والمراد : العدول منهم ، الذين يعترفون بما فى أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمته ، كما أخبر بذلك من آمن منهم كعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسي ، عمن أدركه منهم ومن شاكلهم . وقال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ الآية [الأعراف : ١٥٧] .

ثم قال تعالى مخبراً عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن ؛ أنه لو أنزله على رجل من الأعاجم ، ممن لا يدرى من العربية كلمة ، وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته ، لا يؤمنون به ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ . فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ ، كما أخبر عنهم فى الآية الأخرى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾ [الحجر : ١٤ ، ١٥] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الأنعام : ١١١] ، وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] .

(١) فى أ : « خفق » . (٢) فى أ : « شققا » . (٣) فى ف : « نزل » .

(٤) ورواه الرامهرمزي فى أمثال الحديث ص (١٥٥) من طريق عبد الله بن محمد الاموى ، عن عباد بن عباد المهلبى به .

(٥) فى ف ، أ : « زبرة » .

﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (٢٠٨) ذَكَرْنَاهُ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) ﴾ .

يقول تعالى: كذلك سلكنا التكذيب والكفر والجحود والعناد ، أى : أدخلناه فى قلوب المجرمين ، ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أى : بالحق ، ﴿ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ أى : حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ، ﴿ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً ﴾ أى : عذاب الله بغتة ، ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴾ ؟ أى : يتمنون حين يشاهدون العذاب أن لو أنظروا قليلا ليعملوا [من فرعهم ^(١)] بطاعة الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم : ٤٤] ، فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته ، ندم ندماً شديداً هذا فرعون لما دعا عليه الكليم بقوله : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ . قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا [فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ] (٢) ﴾ [يونس : ٨٨ ، ٨٩] ، فأثرت هذه الدعوة فى فرعون ، فما آمن حتى رأى العذاب الأليم ، ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ . الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٩٠ ، ٩١] ، وقال : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكْ يَنْفَعِهِمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ الآية [غافر : ٨٤ ، ٨٥] .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ : إنكار عليهم ، وتهديد لهم ؛ فإنهم كانوا يقولون للرسول تكديباً واستبعاداً : ﴿ أَتِنَّا بِعَذَابِ اللَّهِ ﴾ [العنكبوت : ٢٩] ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ الآيات [العنكبوت : ٥٣] .

ثم قال : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ أى : لو أخرناهم وأنظرناهم ، وأملينا لهم برهة من الزمان وحيناً من الدهر وإن طال ، ثم جاءهم أمر الله ، أى شئ يجدى عنهم ما كانوا فيه من النعم ، ﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات : ٤٦] ، وقال تعالى : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ﴾ [البقرة : ٩٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ [الليل : ١١] ؛ ولهذا قال : ﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ .

وفى الحديث الصحيح : « يؤتى بالكافر فيغمس فى النار غمسة ^(٣) ، ثم يقال له : هل رأيت

(٣) فى ف : « فيغمس غمسة فى النار » .

(١ ، ٢) زيادة من ف ، أ .

خيراً قط ؟ هل رأيت نعيماً قط ؟ فيقول : لا [واللّه يا رب] ^(١) . ويؤتى بأشد الناس بؤساً كان في الدنيا ، فيصبغ في الجنة صبغة ، ثم يقال له : هل رأيت بؤساً قط ؟ فيقول : لا واللّه يا رب « أى : ما كان شيئاً كان ^(٢) . ولهذا كان عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه يتمثل بهذا البيت :

كَأَنَّكَ لَمْ تُؤْتِرْ مِنَ الدَّهْرِ لَيْلَةً إِذَا أَنْتَ أَدْرَكْتَ الَّذِي كُنْتَ تَطْلُبُ

ثم قال الله تعالى مخبراً عن عدله فى خلقه : أَنَّهُ مَا أَهْلَكَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا بَعْدَ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ ، وَالْإِنْذَارِ لَهُمْ وَبَعَثَ الرُّسُلَ إِلَيْهِمْ وَقَامَ الْحُجُجَ عَلَيْهِمْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ . ذَكَرْنَاهَا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا ^(٣) [وَأَهْلَاهَا ظَالِمُونَ] [القصص : ٥٩] .

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ (٢١٢) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد : أَنَّهُ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ الْمُؤَيَّدُ مِنَ اللَّهِ ، ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾ . ثم ذكر أَنَّهُ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجِهٍ ، أَحَدُهَا : أَنَّهُ مَا ^(٤) يَنْبَغِي لَهُمْ ، أَيْ : لَيْسَ هُوَ مِنْ بَغْيَتِهِمْ وَلَا مِنْ طَلِبَتِهِمْ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ سَجَايَاهُمْ الْفَسَادَ وَإِضْلَالَ الْعِبَادَ ، وَهَذَا فِيهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَنُورٌ وَهُدًى وَبِرْهَانٌ عَظِيمٌ ، فَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّيَاطِينِ مَنَافَاةٌ عَظِيمَةٌ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أى : وَلَوْ أَنْبَغِي لَهُمْ لَمَا اسْتَطَاعُوا ذَلِكَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [الحشر : ٢١] .

ثم بين أَنَّهُ لَوْ أَنْبَغِي ^(٥) لَهُمْ وَاسْتَطَاعُوا حَمْلَهُ وَتَأْدِيَتَهُ ، لَمَا وَصَلُوا إِلَى ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُمْ بِمَعْزُولٍ عَنْ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ حَالِ نَزْوِهِ ؛ لِأَنَّ السَّمَاءَ مَلَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُبُهًا فِي مُدَّةِ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَى رَسُولِهِ ، فَلَمْ يَخْلُصْ أَحَدٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ إِلَى اسْتِمَاعِ حَرْفٍ وَاحِدٍ مِنْهُ ، لِثَلَاثِ سَبَبَاتٍ الْأَمْرُ . وَهَذَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ ، وَحَفَظَهُ لَشَرْعِهِ ، وَتَأْيِيدَهُ لِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْجَنِّ : ﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مَلَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُبُهًا . وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا . وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن : ٨ - ١٠] .

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْضَعْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) ﴾

(١) زيادة من ف ، أ ، والمسنَد .

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٢٠٣/٣) من حديث أنس بن مالك ، رضى الله عنه .

(٣) زيادة من ف ، أ . وفى هـ : « إلى قوله » .

(٤) فى ف : « لا » .

(٥) فى ف : « ابتغى » .

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠) .

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له ، ومخبراً أن من أشرك به عذبه .

ثم قال تعالى آمراً لرسوله ، صلوات الله وسلامه عليه ^(١) أن ينذر عشيرته الأقربين ، أى : الأدين إليه ، وأنه لا يخلص أحداً منهم إلا إيمانهُ بربه ، عز وجل ، وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين . ومن عصاه من خلق الله كائناً من كان فليتبأ منه ؛ ولهذا قال : ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ . وهذه النذارة الخاصة لا تنافى العامة ، بل هى فرد من أجزائها ، كما قال : ﴿ لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [يس : ٦] ، وقال : ﴿ لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى : ٧] ، وقال : ﴿ وَأُنذِرَ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام : ٥١] ، وقال : ﴿ لَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ﴾ [مريم : ٩٧] ، وقال : ﴿ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩] ، كما قال : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : ١٧] .

وفى صحيح مسلم : «والذى نفسى بيده، لا يسمع بى أحدٌ من هذه الأمة، يهودى ولا نصرانى، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار» .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى نزول هذه الآية الكريمة ، فلنذكرها :

الحديث الأول :

قال الإمام أحمد ، رحمه الله : حدثنا عبد الله ، بن نُمَيْر ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : لما أنزل الله ، عز وجل : ﴿ وَأُنذِرَ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، أتى النبى ﷺ الصفا فصعد عليه ، ثم نادى : « يا صباحاه » . فاجتمع الناس إليه بين رجل يجىء إليه ، وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله ﷺ : « يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهر ، يا بنى لؤى ، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل ، تريد أن تغير عليكم ، صدقتمونى ؟ » . قالوا : نعم . قال : « فإنى نذير لكم بين يدي عذاب شديد » . فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا ؟ وأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [سورة المسد] .

ورواه البخارى ومسلم والنسائى والترمذى ، من طرق ، عن الأعمش ، به ^(٢) .

الحديث الثانى :

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا هشام ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : لما نزلت : ﴿ وَأُنذِرَ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، قام رسول الله ﷺ فقال : « يا فاطمة ابنة محمد ، يا صفية ابنة عبد المطلب ، يا بنى عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئاً ، سلونى من مالى ما شئتم » . انفرد بإخراجه مسلم ^(٣) .

(١) فى ف ، أ : « صلوات الله عليه وسلامه » .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٠١) وصحيح مسلم برقم (٢٠٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٧١٤) وسنن الترمذى برقم (٣٣٦٣) .

(٣) المسند (١٨٧ / ٦) وصحيح مسلم برقم (٢٠٥) .

الحديث الثالث :

قال أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا زائدة ، حدثنا عبد الملك بن عمير ، عن موسى بن طلحة ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، دعا رسول الله ﷺ [قريشا] ^(١) ، فعم وخص ، فقال : « يا معشر قريش ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا معشر بنى كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا معشر بنى هاشم ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا معشر بنى عبد المطلب ، أنقذوا أنفسكم من النار . [يا فاطمة بنت محمد ، أنقذى نفسك من النار] ^(٢) ، فإنى - والله - ما أملك لكم من الله شيئاً ، إلا أن لكم رَحِمًا سَأْبِلُهَا بِلَالِهَا » .

ورواه مسلم والترمذى ، من حديث عبد الملك بن عمير ، به ^(٣) . وقال الترمذى : غريب من هذا الوجه . ورواه النسائى من حديث موسى بن طلحة مرسلًا ، لم يذكر فيه أبا هريرة ^(٤) . والموصول هو الصحيح . وأخرجاه فى الصحيحين من حديث الزهرى ، عن سعيد بن المسيب ، وأبى سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبى هريرة ^(٥) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا محمد - يعنى ابن إسحاق - عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يا بنى عبد المطلب ، اشتروا أنفسكم من الله . يا صفية عمة رسول الله ، ويا فاطمة بنت رسول الله ، اشتريا أنفسكما من الله ، لا أغنى عنكما من الله شيئاً ، سلانى من مالى ما شئتما » .

تفرد به من هذا الوجه ^(٦) ، وتفرد به أيضاً ، عن معاوية ، عن زائدة ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ بنحوه ^(٧) . ورواه أيضاً عن حسن ، ثنا ابن لهيعة ، عن ^(٨) الأعرج : سمعت أبا هريرة مرفوعاً ^(٩) .

وقال أبو يعلى : حدثنا سويد بن سعيد ، حدثنا ^(١٠) ضِمَام بن إسماعيل ، عن موسى بن وردان ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : « يا بنى قصى ، يا بنى هاشم ، يا بنى عبد مناف . أنا النذير والموت المغير . والساعة الموعد » ^(١١) .

الحديث الرابع :

قال أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا التيمى ، عن أبى عثمان ، عن قبيصة بن مَخَارِق

(١) ، ٢) زيادة من ف ، أ ، والمسند .

(٣) المسند (٣٦٠ / ٢) وصحيح مسلم برقم (٢٠٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٨٥) .

(٤) سنن النسائى (٢٤٨ / ٦) .

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٧١) وصحيح مسلم برقم (٢٠٦) .

(٦) المسند (٤٤٨ / ٢) .

(٧) المسند (٣٩٨ / ٢) .

(٨) فى ف : « ثنا » .

(٩) المسند (٣٥٠ / ٢) .

(١٠) فى ف : « عن » .

(١١) مسند أبى يعلى (١٠ / ١١) وسويد بن سعيد متكلم فيه .

وزُهَيْر بن عمرو قالوا : لما نزلت : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، صعد رسول الله ﷺ رَضْمَةً من جبل على أعلاها حجر ، فجعل ينادى : « يا بنى عبد مناف ، إنما أنا نذير ، إنما مثلى ومثلكم كرجل رأى العدو ، فذهب يربأ أهله ، يخشى أن يسبقوه ، فجعل ينادى ويهتف : يا صباحاه » .

ورواه مسلم والنسائي ، من حديث سليمان بن طرخان التيمي ، عن أبي عثمان عبد الرحمن بن مِلْ النَّهْدِيِّ ، عن قَيْصَةَ وَزُهَيْر بن عمرو الهلالي ، به (١) .

الحديث الخامس :

قال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا شريك عن الأعمش ، عن المنهال ، عن عباد بن عبد الله الأسدي ، عن علي ، رضي الله عنه ، قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، جمع النبي ﷺ من أهل بيته ، فاجتمع ثلاثون ، فأكلوا وشربوا قال : وقال لهم : « من يضمن عني ديني ومواعيدي ، ويكون معي في الجنة ، ويكون خليفتي في أهلي ؟ » . فقال رجل - لم يسمه شريك - : يا رسول الله ، أنت كنت بحراً (٢) ، من يقوم بهذا ؟ قال : ثم قال الآخر ، قال : فعرض ذلك على أهل بيته ، فقال علي : أنا (٣) .

طريق أخرى بأبسط من هذا السياق : قال أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا أبو عوَّانة ، عن عثمان بن المغيرة ، عن أبي صادق ، عن ربيعة بن ناجذ ، عن علي ، رضي الله عنه ، قال : جمع رسول الله ﷺ - أو دعا رسول الله ﷺ - بنى عبد المطلب ، وهم رهط ، كلهم يأكل الجذعة ويشرب الفرق - قال : وصنع (٤) لهم مداً من طعام فأكلوا حتى شبعوا - قال : وبقي الطعام كما هو كأنه لم يمس . ثم دعا بغُمر (٥) فشرَبوا حتى رووا ، وبقي الشراب كأنه لم يمس - أو لم يشرب - وقال : « يا بنى عبد المطلب ، إني بعثت إليكم خاصة وإلى الناس عامة ، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم ، فأياكم يبايعني على أن يكون أخى وساحبى ؟ » . قال : فلم يقم إليه أحد . قال : ففقت إليه - وكنت أصغر القوم - قال : فقال : « اجلس » . ثم قال ثلاث مرات ، كل ذلك أقوم إليه فيقول لى : « اجلس » . حتى كان في الثالثة ضرب بيده على يدي (٦) .

طريق أخرى أغرب وأبسط من هذا السياق بزيادات أخر : قال الحافظ أبو بكر البيهقي في «دلائل النبوة» : أخبرنا محمد بن عبد الله الحافظ ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، حدثنا أحمد بن عبد الجبار ، حدثنا يونس بن بكير ، عن محمد بن إسحاق قال : فحدثني من سمع عبد الله بن الحارث بن نوفل - واستكتمني اسمه - عن ابن عباس ، عن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، قال : لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ . وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، قال رسول الله ﷺ : « عرفت أنني إن بادأت بها قومي ، رأيت منهم ما أكره ،

(١) المسند (٦٠/٥) وصحيح مسلم برقم (٢٠٧) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٣٧٩) .

(٢) في أ : « تجرى » .

(٣) المسند (١١١/١) وقال الهيثمي في المجمع (٣٠٢/٨) : رجال أحمد رجال الصحيح ، غير شريك وهو ثقة .

(٤) في ف ، أ : « فصنع » . (٥) في ف ، أ : « بفس » .

(٦) المسند (١٥٩/١) وقال الهيثمي في المجمع (٣٠٢/٨) : رجاله ثقات .

فَصَمَتُ . فجاءني جبريل ، عليه السلام ، فقال : يا محمد ، إن لم تفعل ما أمرك به ربك عذبك ربك . قال على ، رضى الله عنه : فدعاني فقال : « يا على ، إن الله قد أمرني [أن] ^(١) أنذر عشيرتي الأقربين ، فعرفت أنني إن بادأتهم بذلك رأيت منهم ما أكره ، فَصَمَتُ عن ذلك ، ثم جاءني جبريل فقال : يا محمد ، إن لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك . فاصنع لنا يا على شاة على صاع من طعام ، وأعد لنا عُسَّ لبن ، ثم اجمع لى ^(٢) بنى عبد المطلب . ففعلتُ فاجتمعوا له ، وهم يومئذ أربعون رجلاً ، يزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً . فيهم أعمامه : أبو طالب ، وحمزة ، والعباس ، وأبو لهب الكافر الخبيث . فقدمت إليهم تلك الجفنة ، فأخذ رسول الله ﷺ منها حذية فشققها بأسنانه ثم رمى بها فى نواحيها ، وقال : « كلوا بسم الله » . فأكل القوم حتى نهلوا عنه ما يرى إلا آثار أصابعهم : والله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها . ثم قال رسول الله ﷺ : « اسقهم يا على » . فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعاً ، وإيم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله . فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم ، بَدَرَهُ أبو لهب إلى الكلام فقال : لَهْدٌ ما سحركم صاحبكم . فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله ﷺ . فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ : « يا على ، عد لنا بمثل الذى كنت صنعت بالأمس من الطعام والشراب ؛ فإن هذا الرجل قد بَدَرَنى إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم » . ففعلت ، ثم جمعتهم له ، فصنع رسول الله ﷺ كما صنع بالأمس ، فأكلوا حتى نهلوا عنه ، وإيم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها . ثم قال رسول الله ﷺ : « اسقهم يا على » . فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعاً . وإيم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله . فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم بَدَرَهُ أبو لهب بالكلام فقال : لَهْدٌ ما سحركم صاحبكم . فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله . فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ : « يا على ، عد لنا بمثل الذى كنت صنعت لنا بالأمس من الطعام والشراب ؛ فإن هذا الرجل قد بَدَرَنى إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم » . ففعلت ، ثم جمعتهم له فصنع رسول الله ﷺ [كما صنع] ^(٣) بالأمس ، فأكلوا حتى نهلوا عنه ، ثم سقيتهم من ذلك القعب حتى نهلوا عنه ، وإيم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ويشرب مثلها ، ثم قال رسول الله ﷺ : « يا بنى عبد المطلب ، إني - والله - ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتمكم به ، إني قد جئتمكم بأمر الدنيا والآخرة » .

قال أحمد بن عبد الجبار : بلغني أن ابن إسحاق إنما ^(٤) سمعه من عبد الغفار بن القاسم أبى مريم ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد الله بن الحارث ^(٥) .

وقد رواه أبو جعفر بن جرير ، عن ابن حميد ، عن سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن عبد الغفار ابن القاسم ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد الله بن الحارث ، عن ابن عباس ، عن على بن أبى طالب ، فذكر مثله ، وزاد بعد قوله : « إني جئتمكم بخير الدنيا والآخرة » . « وقد أمرنى الله أن أدعوكم إليه ، فأياكم يؤازرنى ^(٦) على هذا الأمر على أن يكون أخى ، وكذا وكذا » ؟ قال : فأحجم

(٢) فى ف : « لنا » .

(٤) فى ف : « لا » .

(١) زيادة من ف ، أ ، ودلائل النبوة .

(٣) زيادة من ف ، أ ، ودلائل النبوة .

(٥) دلائل النبوة (١٧٨/٢) .

(٦) فى ف : « واازرنى » .

القوم عنها جميعاً ، وقلت - وإنى لأحدثهم سناً ، وأرمصهم عيناً ، وأعظمهم بطناً ، وأحمشهم ساقاً . أنا يا نبي الله ، أكون وزيرك عليه ، فأخذ يرقبني ثم قال : « إن هذا أخى ، وكذا وكذا ، فاسمعوا له وأطيعوا » . قال : فقام القوم يضحكون ويقولون لأبى طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع ^(١) .

تفرد بهذا السياق عبد الغفار بن القاسم أبى مريم ، وهو متروك كذاب شيعى ، اتهمه على ابن المدينى وغيره بوضع الحديث ، وضعفه الأئمة رحمهم الله .

طريق أخرى : قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا الحسين بن عيسى بن ميسرة الحارثى ، حدثنا عبد الله بن عبد القدوس ، عن الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد الله بن الحارث قال : قال على ، رضى الله عنه : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، قال لى رسول الله ﷺ : « اصنع لى رجل شاة بصاع من طعام وإناء لينا » . قال : ففعلت ، ثم قال : « ادع بنى هاشم » . قال : فدعوتهم وإنهم يومئذ لأربعون غير رجل - أو : أربعون ورجل - قال : وفيهم عشرة كلهم يأكل الجذعة بإدامها . قال : فلما أتوا بالقصة أخذ رسول الله ﷺ من ذروتها ثم قال : « كلوا » ، فأكلوا حتى شبعوا ، وهى على هيئتها ^(٢) لم يرزؤوا منها إلا يسيراً ، قال : ثم أتيتهم بالإناء فشربوا حتى رَوُوا . قال : وَفَضِّلَ فَضْلٌ ، فلما فرغوا أراد رسول الله ﷺ أن يتكلم ، فبدروه الكلام ، فقالوا : ما رأينا كالיום فى السحر . فسكت رسول الله ﷺ ، ثم قال : « اصنع لى » ^(٣) رجل شاة بصاع من طعام . فصنعت ، قال : فدعاهم ، فلما أكلوا وشربوا ، قال : فبدروه فقالوا مثل مقالته الأولى ، فسكت رسول الله ﷺ ثم قال لى : « اصنع لى » ^(٤) رجل شاة بصاع من طعام . فصنعت ، قال : فجمعتهم ، فلما أكلوا وشربوا بدرهم رسول الله ﷺ الكلام فقال : « أيكم يقضى عني دينى ^(٥) ويكون خليفتي فى أهلى ؟ » . قال : فسكتوا وسكت العباس خشية أن يحيط ذلك بماله ، قال : وسكت أنا لسن العباس . ثم قالها مرة أخرى فسكت العباس ، فلما رأيت ذلك قلت : أنا يا رسول الله . [فقال : « أنت »] ^(٦) قال : وإنى يومئذ لأسوأهم هيئة ، وإنى لأعمش العينين ، ضخم البطن ، حمش الساقين .

فهذه طرق متعددة لهذا الحديث عن على ، رضى الله عنه . ومعنى سؤاله ، عليه الصلاة والسلام ^(٧) ، لأعمامه وأولادهم أن يقضوا عنه دينه ، ويخلفوه فى أهله ، يعنى إن قتل فى سبيل الله ، كأنه خشى إذا قام بأعباء الإنذار أن يقتل ، ولما أنزل الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] ، فعند ذلك أمن . وكان أولاً يحرس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ . ولم يكن فى بنى هاشم إذ ذاك أشد إيماناً وإيقاناً وتصديقاً لرسول الله ﷺ من على ، رضى الله عنه ؛ ولهذا ^(٨) بدرهم إلى التزام ما طلب منهم رسول الله ﷺ ، ثم كان بعد هذا - والله أعلم - دعاؤه الناس جهرَةً على الصفا ، وإنذاره لبطن قريش عموماً وخصوصاً ، حتى سمى من سمى من أعمامه وعماته وبناته ، لينبه بالادنى على الأعلى ، أى : إنما أنا نذير ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

(١) تفسير الطبرى (١٩ / ٤٠) .

(٢) فى ف : « وهى كهيتها » .

(٣ ، ٤) زيادة من ف .

(٥) فى ف : « دينى عني » .

(٦) فى ف : « ﷺ » .

(٨) فى ف : « فلها » .

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة عبد الواحد الدمشقى - غير منسوب - من طريق عمرو بن سَمَرَةَ ، عن محمد بن سُوْقَةَ ، عن عبد الواحد الدمشقى قال : رأيت أبا الدرداء ، رضى الله عنه ، يحدث الناس ويفتيهم ، وولده إلى جنبه ، وأهل بيته جلوس فى جانب المسجد يتحدثون ، فقبل له : ما بال الناس يرغبون فيما عندك من العلم ، وأهل بيتك جلوس لاهين ؟ فقال : لأننى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أزهّد الناس فى الدنيا الأنبياء ، وأشدّهم عليهم الأقربون » . وذلك فيما أنزل الله ، عز وجل : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، ثم قال : « إن أزهّد الناس فى العالم أهله حتى يفارقهم » . ولهذا قال [الله تعالى] (١) : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ . وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ أى : فى جميع أمورك ؛ فإنه مؤيدك وناصرك وحافظك ومظفرك ومُعَلِّ كَلِمَتِكَ .

وقوله : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أى : هو معتن بك ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ (٣) لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور : ٤٨] .

قال ابن عباس : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ يعنى : إلى الصلاة .

وقال عكرمة : يرى قيامه وركوعه وسجوده .

وقال الحسن : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ : إذا صليت وحدك .

وقال الضحاك : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أى : من فراشك أو مجلسك .

وقال قتادة : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ ﴾ : قائما وجالسا وعلى حالاتك .

وقوله : ﴿ وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ : قال قتادة : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ . وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾

قال : فى الصلاة ، يراك وحدك ويراك فى الجَمْع . وهذا قول عكرمة ، وعطاء الخراسانى ، والحسن البصرى .

وقال مجاهد : كان رسول الله ﷺ يرى من خلفه كما يرى من أمامه ؛ ويشهد لهذا ما صح فى الحديث : « سَوَّاهُ صُفُوفُكُمْ ؛ فَإِنِى أَرَاكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِى » (٤) .

وروى البزار وابن أبى حاتم ، من طريقين ، عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : يعنى قلبه من صلب نبي إلى صلب نبي ، حتى أخرجه نبيا .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أى : السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ

(١) زيادة من أ .

(٢) تاريخ دمشق (٥٨٧ / ١٠ المخطوط) .

(٣) فى جميع النسخ : « فاصبر » والصواب ما أثبتناه .

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٢٣) .

تُفِيضُونَ فِيهِ ﴿ الآية [يونس : ٦١] .

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧) ﴾ .

يقول تعالى مخاطباً لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ليس حقاً ، وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه ، أو أنه أتاه به رثي من الجن ، فتنزه الله ، سبحانه ، جناب رسوله عن قولهم وافتراءهم ، ونبه أن ما جاء به إنما هو [الحق] (١) من عند الله ، وأنه تنزيله ووحيه ، نزل به ملك كريم أمين عظيم ، وأنه ليس من قبيل الشياطين ، فإنهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم ، وإنما ينزلون (٢) على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة ؛ ولهذا قال الله : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ ﴾ أى : أخبركم ﴿ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ أى : كذوب فى قوله ، وهو الأفَّاك الأثيم ، أى (٣) : الفاجر فى أفعاله . فهذا هو الذى تنزل عليه الشياطين كالكهان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة ، فإن الشياطين أيضاً كذبة فسقة .

﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ ﴾ أى : يسترقون السمع من السماء ، فيسمعون الكلمة من علم الغيب ، فيزيدون معها مائة كذبة ، ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس فيتحدثون بها ، فيصدقهم الناس فى كل ما قالوه ، بسبب صدقهم فى تلك الكلمة التى سمعت من السماء ، كما صح بذلك الحديث ، كما رواه البخارى ، من حديث الزهرى : أخبرنى يحيى بن عروة بن الزبير ، أنه سمع عروة بن الزبير يقول : قالت عائشة ، رضى الله عنها : سأل ناس النبى ﷺ عن الكهان ، فقال : « إنهم ليسوا بشيء » . قالوا : يا رسول الله ، فإنهم يحدثون بالشئ يكون حقاً ؟ فقال النبى ﷺ : « تلك الكلمة من الحق يخطفها (٤) الجنى ، فيقرقرها فى أذن وليه كقرقرة الدجاجة ، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة » (٥) .

وقال البخارى أيضاً : حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو قال : سمعت عكرمة يقول : سمعت أبا هريرة يقول : إن نبى الله ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاعاً لقوله ، كأنها (٦) سلسلة على صفوان ، حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال : الحق وهو العلى الكبير . فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع ، هكذا بعضهم فوق بعض » . ووصف سفيان بيده فحرفها ، وبدد بين أصابعه « فيسمع الكلمة ، فيلقها إلى من تحته ، ثم يلقها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقها على لسان الساحر - أو الكاهن - فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة . فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التى سمع (٧) من السماء » . انفرد به البخارى (٨) .

(٣) فى ف : « وهو » .

(٢) فى أ : « يتزلون » .

(١) زيادة من ف ، أ .

(٤) فى ف ، أ : « يحفظها » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٧٥٦١) .

(٦) فى ف : « كأنه » .

(٧) فى هـ ، ف ، أ : « سمعت » والصواب ما أثبتناه من البخارى .

(٨) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٠) .

وروى مسلم من حديث الزهري ، عن علي بن الحسين ، عن ابن عباس ، عن رجال من الأنصار قريباً من هذا . وسيأتى عند قوله تعالى في سبأ : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ الآية [سبأ : ٢٣] ، [إن شاء الله تعالى] (١) .

وقال البخارى : وقال الليث : حدثنى خالد بن يزيد ، عن سعيد بن أبى هلال : أن أبا الأسود أخبره ، عن عروة ، عن عائشة ، عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الملائكة تَحَدَّثُ فى العَنَانِ - والعَنَانُ : الغَمَامُ - بالأمر [يكون] (٢) فى الأرض ، فتسمع الشياطين الكلمة ، فتقرؤها فى أذن الكاهن كما تُقَرَّرُ القارورة ، فيزيدون معها مائة كذبة » (٣) .

وقال البخارى فى موضع آخر من كتاب « بدء الخلق » عن سعيد بن أبى مريم ، عن الليث ، عن عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبى الأسود محمد بن عبد الرحمن ، عن عروة ، عن عائشة ، بنحوه (٤) . وقوله : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : يعنى : الكفار يتبعهم ضلال الإنس والجن . وكذا قال مجاهد ، رحمه الله ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهما .

وقال عكرمة : كان الشاعران يتهاجيان ، فينتصر لهذا فتأم من الناس ، ولهذا فتأم من الناس ، فأنزل الله : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا ليث ، عن ابن الهاد ، عن يَحْنَسَ (٥) - مولى مصعب ابن الزبير - عن أبى سعيد قال : بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعِجْر ، إذ عَرَضَ شاعر يُنشد ، فقال النبى ﷺ : « خذوا الشيطان - أو امسكوا الشيطان - لأن يمتلى جوف أحدكم قيحاً خيراً له من أن يمتلى شعراً » (٦) .

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : فى كل لغو يخوضون .

وقال الضحاك عن ابن عباس : فى كل فن من الكلام . وكذا قال مجاهد وغيره .

وقال الحسن البصرى : قد - والله - رأينا أوديتهم التى يهيمون فيها ، مرة فى شتمة (٧) فلان ، ومرة فى مدحة (٨) فلان .

وقال قتادة : الشاعر يمدح قوماً بباطل ، ويذم قوماً بباطل .

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ : قال العوفى ، عن ابن عباس : كان رجلان على عهد رسول الله ، أحدهما من الأنصار ، والآخر من قوم آخرين ، وإنهما تهاجيا ، فكان (٩) مع كل

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) زيادة من ف ، أ ، والبخارى .

(٣) صحيح البخارى برقم (٣٢٨٨) وقد وصله أبو نعيم فى المستخرج من طريق أبى حاتم الرازى عن أبى صالح كاتب الليث عنه ، كما فى الفتح (٤٣٢/٦) .

(٤) صحيح البخارى رقم (٢٢١٠) .

(٥) فى ف : « محنش » .

(٦) المسند (٨/٣) .

(٧) فى ف : « شتمة » .

(٨) فى ف : « مديحة » .

(٩) فى ف : « وكان » .

واحد منهما غَوَاةٌ من قومه - وهم ^(١) السفهاء - فقال الله تعالى : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : أكثر قولهم يكذبون فيه .

وهذا الذى قاله ابن عباس ، رضى الله عنه ، هو الواقع فى نفس الأمر ؛ فإن الشعراء يَتَّبِعُونَ بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم ، فيتكثرون بما ليس لهم ؛ ولهذا اختلف العلماء ، رحمهم الله ، فيما إذا اعترف الشاعر فى شعره بما يوجب حداً : هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا ، لأنهم يقولون ما لا يفعلون ؟ على قولين . وقد ذكر محمد بن إسحاق ، ومحمد بن سعد فى الطبقات ، والزبير بن بكَّار فى كتاب الفكاهة : أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، استعمل النعمان بن عدى بن نضلة على « ميسان » - من أرض البصرة - وكان يقول الشعر ، فقال :

أَلَا هَلْ أَتَى الْحَسَنَاءَ أَنْ حَلِيلَهَا	بِمَيْسَانَ ، يُسْقَى فِى زُجَاجٍ وَحَتَمٍ
إِذَا شَتَّتْ غَنْتَنى دَهَاقِىنُ قَرْيَةٍ	وَرَقَاصَةٌ تَجْذُو عَلَى كُلِّ مَنْسَمٍ ^(٢)
فَإِنْ كُنْتَ نَذْمَانِى فَبِالْأَكْبَرِ اسْقِنِى	وَلَا تَسْقِنِى بِالْأَصْغَرِ الْمُتَلْتَمِ ^(٣)
لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوْهُ	تَنَادُمْنَا بِالْجَوْسَقِ الْمُتَهَدِّمِ

فلما بلغ [ذلك] ^(٤) أمير المؤمنين قال : إى والله ، إنه ليسوئنى ذلك ، ومن لقيه فليخبره أنى قد عزلته . وكتب إليه : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . حَمِّ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴾ [غافر : ١ - ٣] ، أما بعد فقد بلغنى قولك :

لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوْهُ تَنَادُمْنَا بِالْجَوْسَقِ ^(٥) الْمُتَهَدِّمِ

وايم الله ، إنه ليسوئنى وقد عزلتك . فلما قدم على عمر بكَّته بهذا الشعر ، فقال : والله - يا أمير المؤمنين - ما شربتها قطّ ، وما ذاك الشعر إلا شىء طَفَحَ على لسانى . فقال عمر : أظن ذلك ، ولكن والله لا تعمل لى على عمل أبداً ، وقد قُلْتَ ما قُلْتَ ^(٦) .

فلم يُذكر أنه حدّه على الشراب ، وقد ضمنه شعره ؛ لأنهم يقولون ما لا يفعلون ، ولكنه ^(٧) ذمه عمر ، رضى الله عنه ، ولامه على ذلك وعزله به . ولهذا جاء فى الحديث : « لأن يمتلى جوف أحدكم قيحاً ، يَرِيهِ خير له من أن يمتلى شعراً » ^(٨) .

والمراد من هذا : أن ^(٩) الرسول ﷺ ^(١٠) الذى أنزل عليه ^(١١) القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر ؛

(١) فى ف : « فهم » . (٢) فى ف ، أ : « مبسم » . (٣) فى ف : « المتلثم » .

(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى ف ، أ : « فى الجوسق » .

(٦) الآيات فى السيرة النبوية لابن هشام (٢٦٦/٢) والطبقات الكبرى لابن سعد (١٤٠/٤) .

(٧) فى ف : « ولكن » .

(٨) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٢٥٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٩) فى ف ، أ : « أن هذا الرسول » .

(١٠) فى ف ، أ : « صلوات الله وسلامه عليه » . (١١) فى ف ، أ : « عليه هذا القرآن » ..

لأن حاله مناف لحالهم من وجوه ظاهرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ [يس : ٦٩] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٠ - ٤٣] ، وهكذا قال ههنا : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴾ إلى أن قال : ﴿ هَلْ أَنْبَيْتُكُمْ عَلَىٰ مِنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ . تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ . وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ : قال محمد بن إسحاق ، عن يزيد ^(١) بن عبد الله ابن قُسيط ، عن أبي الحسن سالم البرّاد - مولى تميم الداري - قال : لما نزلت : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ ، جاء حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ ، وهم يبيكون فقالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء . فتلا النبي ﷺ : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ قال : « أنتم » ، ﴿ وَذَكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ قال : « أنتم » ، ﴿ وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴾ قال : « أنتم » .

رواه ابن أبي حاتم . وابن جرير ، من رواية ابن إسحاق ^(٢) .

وقد روى ابن أبي حاتم أيضا ، عن أبي سعيد الأشج ، عن أبي أسامة ، عن الوليد بن كثير ، عن يزيد بن عبد الله ، عن أبي الحسن مولى بني نوفل ؛ أن حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة أتيا رسول الله ﷺ حين نزلت : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ يكيان ، فقال رسول الله ﷺ ، وهو يقرؤها عليهما : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ حتى بلغ : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ، قال : « أنتم » ^(٣) .

وقال أيضا : حدثنا أبي ، حدثنا أبو سلمة ^(٤) ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن هشام بن عروة ، عن عروة قال : لما نزلت : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ قال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ، قد علم الله أنى منهم . فأنزل الله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ إلى قوله : ﴿ يَنْقَلِبُونَ ﴾ .

وهكذا قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، وزيد بن أسلم ، وغير واحد أن هذا استثناء مما تقدم . ولا شك أنه استثناء ، ولكن هذه السورة مكية ، فكيف يكون سبب نزول هذه الآية [فى] ^(٥) شعراء الأنصار ؟ فى ذلك نظر ، ولم يتقدم إلا مراسلات لا يعتمد عليها ، والله أعلم ، ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم ، حتى يدخل فيه من كان متلبساً من شعراء الجاهلية بدم الإسلام وأهله ، ثم تاب وأناب ، ورجع وأقلع ، وعمل صالحاً ، وذكر الله كثيراً فى

(١) فى ف : « زيد » .

(٢) تفسير الطبرى (٧٩ / ١٩) .

(٣) ورواه الحاكم فى المستدرک (٤٨٨ / ٣) من طريق أبى أسامة به .

(٤) فى ف ، أ : « أبو مسلم » .

(٥) زيادة من ف .

مقابلة ما تقدم من الكلام السيئ ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وامتح الإسلام وأهله في مقابلة ما كذب (١) بذهمه ، كما قال عبد الله بن الزبعرى حين أسلم :

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ ، إِنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورٌ
إِذْ أَجَارَى الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْغَدَاةِ ، وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورٌ

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، كان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ ، وهو ابن عمه ، وأكثرهم له هجواً ، فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ ، وكان يمدح رسول الله ﷺ بعد ما كان يهجوّه ، ويتولاه بعد ما كان قد عاداه . وهكذا روى مسلم في صحيحه ، عن ابن عباس : أن أبا سفيان صخر بن حرب لما أسلم قال : يا رسول الله ، ثلاث أعطينهن قال : «نعم» . قال : معاوية تجعله كاتباً بين يديك . قال : «نعم» . قال : وتؤمرني حتى أقاتل الكفار ، كما كنت أقاتل المسلمين . قال : «نعم» . وذكر الثلاثة (٢) .

ولهذا قال تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ قيل : معناه : ذكروا الله كثيراً في كلامهم . وقيل : في شعرهم ، وكلاهما صحيح مكفّر لما سبق .

وقوله : ﴿وَأَنْتَصِرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ : قال ابن عباس : يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، وغير واحد . وهذا كما ثبت في الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال لحسان : «اهجهم - أو قال : هاجهم - وجبريل معك» (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهري ، عن عبد الرحمن بن كعب ابن مالك ، عن أبيه أنه قال للنبي ﷺ : إن الله ، عز وجل ، قد أنزل في الشعر ما أنزل ، فقال : «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذي نفسي بيده ، لكان ما ترمونهم به نضح النبل» (٤) .

وقوله : ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر : ٥٢] وفي الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : «إياكم والظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة» (٥) .

وقال قتادة بن دعامه في قوله : ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ يعني : من الشعراء وغيرهم .

وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا إياس بن أبي تيمية ، قال : حضرت الحسن ومراً عليه بجنابة نصراني ، فقال الحسن : ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ .

وقال عبد الله بن ربّاح ، عن صفوان بن محرز : أنه كان إذا قرأ هذه الآية - بكى حتى أقول : قد اندق قضيب زوره - : ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ .

(١) في ف ، أ : « ما كان » .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٥٠١) .

(٣) صحيح البخاري برقم (٦١٥٣) وصحيح مسلم برقم (٢٤٨٦) من حديث البراء بن عازب ، رضى الله عنه .

(٤) المسند (٣٨٧/٦) .

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٨) من حديث جابر ، رضى الله عنه ، ولفظه : « اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » .

وقال ابن وهب : أخبرني ^(١) ابن سريج الإسكندراني ، عن بعض المشيخة : أنهم كانوا بأرض الروم ، فبينما هم ليلة على نار يشتون ^(٢) عليها - أو : يصطلون - إذا بركاب ^(٣) قد أقبلوا ، فقاموا إليهم ، فإذا فضالة بن عبيد فيهم ، فأنزلوه فجلس معهم - قال : وصاحب لنا قائم يصلي - قال : حتى مرّ بهذه الآية : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ قال فضالة بن عبيد : هؤلاء الذين يخربون البيت .

وقيل : المراد بهم أهل مكة . وقيل : الذين ظلموا من المشركين . والصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم ، كما قال ابن أبي حاتم : ذكر عن زكريا بن يحيى الواسطي : حدثني الهيثم بن محفوظ أبو سعد ^(٤) النهدي ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن المجير ^(٥) ، حدثنا هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : كتب أبي وصيته سطرين : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبي قحافة ، عند خروجه من الدنيا ، حين يؤمن الكافر ، وينتهي الفاجر ، ويصدق الكاذب : إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن يعدل فذاك ظني به ، ورجائي فيه ، وإن يجر ويدل فلا أعلم الغيب ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ .

آخر تفسير سورة « الشعراء » والحمد لله رب العالمين

(٣) في ف ، أ : « بركبان » .

(٢) في أ : « يشون » .

(١) في ف ، أ : « حدثنا » .

(٥) في أ : « الحبر » .

(٤) في ف ، أ : « أبو سعيد » .

تفسير سورة النمل

وهي مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طَسَ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينًا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) ﴾ .

قد تقد الكلام فى « سورة البقرة » على الحروف المتقطعة (١) فى أوائل السور .

وقوله : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ ﴾ أى : هذه آيات ﴿ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ أى : بين واضح ، ﴿ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقه ، وعمل بما فيه ، وأقام الصلاة المكتوبة ، وآتى الزكاة المفروضة ، وآمن (٢) بالدار الآخرة والبعث بعد الموت ، والجزاء على الأعمال ، خيرها وشرها ، والجنة والنار ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٤] . وقال : ﴿ لَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ [مريم : ٩٧] ؛ ولهذا قال ههنا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى : يكذبون بها ، ويستبعدون وقوعها ﴿ زِينًا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أى : حسنا لهم ما هم فيه ، ومددنا لهم فى غيهم فهم يتيهون فى ضلالهم . وكان هذا جزاء على ما كذبوا به من الدار الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَقَلَبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٠] ، ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة ، ﴿ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴾ أى : ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر .

وقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أى : ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ يامحمد - قال قتادة : ﴿ لَتَلْقَى ﴾ أى : لتأخذ - ﴿ الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أى : من عند حكيم عليم ، أى : حكيم فى أوامره ونواهيه ، عليم بالأمور جليلها وحقيرها ، فخبيره هو الصدق المحض ، وحكمه هو العدل التام ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا [لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ] ﴾ (٣) [الأنعام : ١١٥] .

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لَأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ

(٣) زيادة من ف ، أ .

(٢) فى ف : « وأيقن » .

(١) فى ف : « المقطعة » .

تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) ﴿

يقول تعالى لرسوله ﷺ (١) ، مذكراً له ما كان من أمر موسى ، كيف اصطفاه الله وكلمه ، وناجاه وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة ، والأدلة القاهرة ، وابتعثه إلى فرعون وملئه ، فجحدها بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له ، فقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ ﴾ أى : اذكر حين سار موسى بأهله ، فأضل الطريق ، وذلك فى ليل وظلام ، فأنس من جانب الطور ناراً ، أى : رأى ناراً تأجج (٢) وتضطرم ، فقال ﴿ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ أى : عن الطريق ، ﴿ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أى : تتدفقون به . وكان كما قال ، فإنه رجع منها بخبر عظيم ، واقتبس منها نوراً عظيماً ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أى : فلما أتاها رأى (٣) منظرًا هائلاً عظيماً ، حيث انتهى إليها ، والنار تضطرم فى شجرة خضراء ، لا تزداد النار إلا توقداً ، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة ، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء . قال ابن عباس وغيره : لم تكن ناراً ، إنما كانت نوراً (٤) يتوهج .

وفى رواية عن ابن عباس : نور رب العالمين . فوقف موسى متعجباً مما رأى ، فنودى أن بورك من فى النار . قال ابن عباس : [أى] (٥) قدس . ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أى : من الملائكة . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، وقتادة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا يونس بن حبيب ، حدثنا أبو داود - [و] (٦) هو الطيالسى - حدثنا شعبة والمسعودى ، عن عمرو بن مرة ، سمع أبا عبيدة يحدث ، عن أبى موسى ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل (٧) » . زاد المسعودى : « وحجابه النور - أو النار - لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل شئ أدركه بصره » . ثم قرأ أبو عبيدة : ﴿ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ

(١) فى ف ، أ : « صلوات الله وسلامه عليه » . (٢) فى ف ، أ : « تأجج » . (٣) فى ف : « رأى » .

(٤) فى ف : « وإنما نور » . (٥) زيادة من ف ، أ . (٦) فى ف : « عمل الليل بالنهار وعمل النهار بالليل » .

(٧) فى ف ، أ : « عمل الليل بالنهار وعمل النهار بالليل » .

وَمَنْ حَوَّلَهَا ﴿١﴾ . وأصل هذا الحديث مخرج فى الصحيح لمسلم ، من حديث عمرو بن مُرة ، به (٢) .
 وقوله : ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : الذى يفعل ما يشاء ولا يشبه شيئا من مخلوقاته ،
 ولا يحيط به شىء من مصنوعاته ، وهو العلى العظيم ، المباين لجميع المخلوقات ، ولا يكتنفه الأرض
 والسموات ، بل هو الأحد الصمد ، المنزه عن مماثلة المحدثات .
 وقوله : ﴿ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ : أعلمه (٣) أن الذى يخاطبه ويناجيه هو ربه الله
 العزيز ، الذى عز كل شىء وقهره وغلبه ، الحكيم فى أفعاله وأقواله .

ثم أمره أن يلقي عصاه من يده ؛ ليظهر له دليلا واضحا على أنه الفاعل المختار ، القادر على كل
 شىء . فلما ألقى موسى تلك العصا (٤) من يده انقلبت فى الحال حية عظيمة هائلة فى غاية الكبر ،
 وسرعة الحركة مع ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ والجان : ضرب من الحيات ،
 أسرع حركة ، وأكثره اضطرابا - وفى الحديث نهى عن قتل جِنَّان (٥) البيوت (٦) - فلما عاين موسى
 ذلك ﴿ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أى : لم يلتفت من شدة فرقه ، ﴿ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ
 الْمُرْسَلُونَ ﴾ أى : لا تخف مما ترى ، فإنى أريد أن أصطفيك رسولا ، وأجعلك نبيا وجيها .

وقوله : ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ : هذا استثناء منقطع ، وفيه بشارة
 عظيمة للبشر ، وذلك أن من كان على [عمل] (٧) شىء ثم أقلع عنه ، ورجع وأتاب ، فإن الله
 يتوب عليه ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ [طه : ٨٢] ،
 وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠]
 والآيات فى هذا كثيرة جدا .

وقوله : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضًا مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ : هذه آية أخرى ، ودليل باهر على
 قدرة الله الفاعل المختار ، وصدق من جعل له معجزة ، وذلك أن الله - تعالى - أمره أن يدخل يده
 فى جيب درعه ، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة ، كأنها قطعة قمر ، لها لمعان يتلألا (٨)
 كالبرق الخاطف .

وقوله : ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ ﴾ أى : هاتان ثنتان من تسع آيات أؤيدك بهن ، وأجعلهن برهانا لك إلى
 فرعون وقومه ، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ .

وهذه هى الآيات التسع التى قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ [الإسراء :
 ١٠١] كما تقدم تقرير ذلك هنالك . وقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ أى : بينة واضحة ظاهرة ،

(١) ورواه أحمد فى مسنده (٤٠١/٤) من طريق وكيع عن السعوى بنحوه .

(٢) صحيح مسلم برقم (١٧٩) .

(٣) فى ف : « اعلم » .

(٤) فى ف ، أ : « العصا » .

(٥) فى ف ، أ : « حيات » .

(٦) صحيح البخارى برقم (٣٢٩٨) من حديث ابن عمر ، رضى الله عنهما .

(٧) زيادة من أ .

(٨) فى ف : « تتلألا » .

﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وأرادوا معارضته بسحرهم فغلبوا [هنالك] ^(١) وانقلبوا صاغرين ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ أى : فى ظاهر أمرهم ، ﴿وَأَسْتَيْقَنَتَهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ أى : علموا فى أنفسهم أنها حق ^(٢) من عند الله ، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ، ﴿ظَلَمُوا وَعُلَّوْا﴾ أى : ظلما من أنفسهم ، سَجِيَّةً ملعونة ، ﴿وَعُلَّوْا﴾ أى : استكباراً عن اتباع الحق ؛ ولهذا قال : ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أى : انظر يا محمد كيف كان عاقبة كفرهم ^(٣) ، فى إهلاك الله إياهم ، وإغراقهم عن آخرهم فى صبيحة واحدة .

وفحوى الخطاب يقول : احذروا أيها المكذبون بمحمد ، الجاحدون لما جاء به من ربه ، أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأخرى ؛ فإن محمداً ، صلوات الله وسلامه عليه ^(٤) ، أشرف وأعظم من موسى ، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى ، بما آتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده فى نفسه وشماله ، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به ، وأخذ الموائيق له ، عليه ^(٥) من ربه أفضل الصلاة والسلام .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ^(١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ^(١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ^(١٧) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ^(١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ ^(١٩) .

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبيه داود وابنه سليمان ، عليهما من الله السلام ، من النعم الجزيلة ، والمواهب الجليلة ، والصفات الجميلة ، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة ، والملك والتمكين التام فى الدنيا ، والنبوة والرسالة فى الدين ؛ ولهذا قال : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

قال ابن أبى حاتم : ذكر عن إبراهيم بن يحيى بن تمام ^(٦) : أخبرنى أبى ، عن جدى قال : كتب عمر بن عبد العزيز : إن الله لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها ، إلا كان حمدُهُ أفضل من نعمته ^(٧) ، لو كنت لا تعرف ذلك إلا فى كتاب الله المنزل ؛ قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، وأى نعمة أفضل مما أوتى داود

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف ، أ : « أمرهم » . (٣) فى ف : « نعمة » . (٤) فى ف : « نعمة » . (٥) فى ف : « عليهم » . (٦) فى ف : « هشام » . (٧) فى ف : « نعمه » .

وسليمان ، عليهما السلام .

وقوله : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ أى : فى الملك والنبوة ، وليس المراد وراثته المال ؛ إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود ، فإنه قد كان لداود مائة امرأة . ولكن المراد بذلك وراثته الملك والنبوة ؛ فإن الأنبياء لا تورث أموالهم ، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ [فى قوله]^(١) : « نحن معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة »^(٢) (٣) .

وقوله^(٤) : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾^(٥) ، أى : أخبر سليمان بنعم الله عليه ، فيما وهبه له من الملك التام ، والتمكين العظيم ، حتى إنه سخر له الإنس والجن والطيور . وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً ، وهذا شئ لم يُعطه أحد من البشر - فيما علمناه - مما أخبر الله به ورسوله . ومن زعم من الجهلة والرّاع أن الحيوانات كانت تنطق كنطق بنى آدم قبل سليمان بن داود - كما يتفوه به كثير من الناس - فهو قولٌ بلا علم . ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة ، إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم ، ويعرف ما تقول ، فليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا ، بل لم تزل^(٦) البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال . ولكن الله ، سبحانه وتعالى ، كان قد أفهم سليمان ، عليه السلام ، ما يتخاطب به الطيور فى الهواء ، وما تنطق^(٧) به الحيوانات على اختلاف أصنافها ؛ ولهذا قال : ﴿ عَلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى : مما يحتاج إليه الملك ، ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ أى : الظاهر البين لله علينا .

قال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن ، عن عمرو بن أبى عمرو ، عن المطلب ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « كان داود ، عليه السلام ، فيه غيرة شديدة ، فكان إذا خرج أغلقت الأبواب ، فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع » . قال : « فخرج ذات يوم وأغلقت^(٨) الأبواب ، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار ، فإذا رجل قائم وسط الدار ، فقالت لمن فى البيت : من أين دخل هذا الرجل ، والدار مغلقة ؟ والله لفتضحن بداود ، فجاء داود ، عليه السلام ، فإذا الرجل قائم وسط الدار ، فقال له داود : من أنت ؟ قال : الذى لا يهاب الملوك ، ولا يمتنع من الحجاب . فقال داود : أنت والله إذاً ملك الموت . مرحباً بأمر الله ، فتزمل داود ، عليه السلام ، مكانه حتى قبضت نفسه ، حتى فرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس ، فقال سليمان ، عليه السلام ، للطير : أظلى على داود ، فأظلت عليه الطير حتى أظلمت عليهما الأرض ،

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف ، أ : « ما تركناه فهو صدقة » .

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٧٢٧) من حديث عائشة بلفظ : « لا نورث ما تركناه صدقة » . قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٨/١٢) : وأما ما اشتهر فى كتب أهل الأصول وغيرهم بلفظ : « نحن معشر الأنبياء لا نورث » فقد أنكره جماعة من الأئمة ، وهو كذلك بالنسبة لخصوص لفظ : « نحن » ، وانظر بقية كلامه وحمله لعنى الحديث فى الفتح .

(٤) فى ف : « وقال » . (٥) بعدها فى ف ، أ : « إن هذا لهو الفضل المبين » . (٦) فى ف : « بل نزل » .

(٧) فى ف : « وما ينطق » . (٨) فى ف : « وغلقت » .

فقال لها سليمان : اقبضى جناحا جناحا « قال أبو هريرة : يارسول الله ، كيف فعلت الطير؟ فقبض رسول الله ﷺ يده ، وغلبت عليه يومئذ المضرحية (١) (٢) .

قال أبو الفرج بن الجوزي : المضرحية (٣) : النور الحمر .

وقوله تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أى : وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير ، يعنى : ركب فيهم فى أبهة وعظمة (٤) كبيرة فى الإنس ، وكانوا هم الذين يلونه ، والجن وهم بعدهم [يكونون] (٥) فى المنزلة ، والطير ومنزلتها فوق رأسه ، فإن كان حر أظلمته منه بأجنحتها .

وقوله : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أى : يكف أولهم على آخرهم ؛ لثلا يتقدم أحد عن منزلته التى هى مرتبة له .

قال مجاهد : جعل على كل صنف وزعة ، يردون أولها على آخرها ، لثلا يتقدموا فى المسير ، كما يفعل الملوك اليوم .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ ﴾ أى : حتى إذا مر سليمان ، عليه السلام ، بمن معه من الجيوش والجنود على وادى النمل ، ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

أورد (٦) ابن عساكر ، من طريق إسحاق بن بشر ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن : أن اسم هذه النملة حرس ، وأنها من قبيلة يقال لهم : بنو الشيصان ، وأنها كانت عرجاء ، وكانت بقدر الذئب (٧) .

أى : خافت على النمل أن تحطمها (٨) الخيول بحوافرها ، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنها (٩) ، ففهم ذلك سليمان ، عليه السلام ، منها (١٠) ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ أى : ألهمنى أن أشكر نعمتك التى مننت بها على ، من تعلیمی منطق الطير والحيوان ، وعلى والدى بالإسلام لك ، والإيمان بك ، ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ أى : عملا تحبه وترضاه ، ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ أى : إذا توفيتنى فألحقنى بالصالحين من عبادك ، والرفيق الأعلى من أوليائك .

ومن قال من المفسرين : إن هذا الوادى كان بأرض الشام أو بغيره ، وإن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب ، أو غير ذلك من الأقاويل ، فلا حاصل لها .

(١) فى ف : « المضرحية » .

(٢) المسند (٤١٩/٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٢٠٦/٨) : « فيه المطلب بن عبد الله بن حنطب وثقه أبو زرعة وغيره ، وبقيّة رجاله رجال الصحيح » .

(٣) فى هـ ، ف ، أ : « المضرحية » والمثبت من لسان العرب ، مادة « ضرح » .

(٤) فى ف : « عظيمة » .

(٥) زيادة من ف .

(٦) فى ف ، أ : « فأورد » .

(٧) فى ف : « الذئب » .

(٨) فى ف : « يحطمها » .

(٩) فى ف : « مساكنهم » .

(١٠) فى ف : « عنها » .

وعن نَوْفَ الْبِكَالِي أنه قال : كان نمل سليمان أمثال الذناب . هكذا رأيته مضبوطا بالياء المثناء من تحت . وإنما هو بالباء الموحدة ، وذلك تصحيف ، والله أعلم .

والغرض أن سليمان ، عليه السلام ، فهم قولها ، وتبسم ضاحكاً من ذلك ^(١) ، وهذا أمر عظيم جداً .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا مِسْعَرٌ ، عن زيد العمى ، عن أبي الصديق الناجي قال : خرج سليمان ^(٢) ، عليه ^(٣) السلام ، يستسقى ، فإذا هو بنملة مستلقية على ظهرها ، رافعة قوائمها إلى السماء ، وهى تقول : اللهم ، إنا خلق من خلقك ، ولا غنى بنا عن سقيك ، وإلا تسقنا تهلكنا . فقال سليمان ، عليه السلام : ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم .

وقد ثبت فى الصحيح - عند مسلم - من طريق عبد الرزاق ، عن مَعْمَرٍ ، عن همام ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ [قال] ^(٤) : « قَرَصَتْ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَمْلَةً ، فَأَمَرَ بِقَرِيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ ، أَفَى ^(٥) أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَهْلَكَتْ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ تُسَبِّحُ ؟ فَهَلَا نَمْلَةٌ وَاحِدَةٌ ! » ^(٦) .

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدَّهْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لِأَعْدَبْنَاهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحْنَاهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١) ﴾ .

قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وغيرهما ، عن ابن عباس وغيره : كان الهدهد مهندساً ، يدل سليمان ، عليه السلام ، على الماء ، إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء فى تخوم الأرض ، كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض ، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض ، فإذا دلهم عليه أمر سليمان ، عليه السلام ، الجان فحفروا له ذلك المكان ، حتى يستنبط ^(٧) الماء من قراره ، فنزل سليمان ، عليه السلام [يوماً] ^(٨) ، بفلاة من الأرض ، فتفقد الطير ليرى الهدهد ، فلم يره ، ﴿ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدَّهْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ .

حدث يوماً عبد الله بن عباس بنحو هذا ، وفى القوم رجل من الخوارج ، يقال له : « نافع بن الأزرق » ، وكان كثير الاعتراض على ابن عباس ، فقال له : قف يا ابن عباس ، غلبت اليوم ! قال : ولم ؟ قال : إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء فى تخوم الأرض ، وإن الصبى ليضع له الحبة فى الفخ ، ويحثو على الفخ تراباً ، فيجىء الهدهد ليأخذها فيقع فى الفخ ، فيصيده الصبى . فقال ابن عباس : لولا أن يذهب هذا فيقول : رددت على ابن عباس ، لما أجبتة . فقال ^(٩) له : ويحك ! إنه إذا نزل القدر عمى البصر ، وذهب الحذر . فقال له نافع : والله لا أجادلك فى شيء من القرآن

(١) فى ف : « من قولها » . (٢) فى ف ، أ : « سليمان بن داود » . (٣) فى ف : « عليهما » .

(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى ف ، أ : « أى » .

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٢٤١) .

(٧) فى ف : « يستنبطوا » . (٨) زيادة من ف ، أ . (٩) فى ف ، أ : « ثم قال » .

أبدأ (١) .

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عبد الله البرزى - من أهل « برزة » من غوطة دمشق، وكان من الصالحين يصوم [يوم] (٢) الإثنين والخميس ، وكان أعور قد بلغ الثمانين - فروى ابن عساكر بسنده إلى أبي سليمان بن زيد : أنه سأله عن سبب عوره ، فامتنع عليه ، فألح عليه شهوراً ، فأخبره أن رجلين من أهل خراسان نزلا عنده الجمعة في قرية برزة ، وسألاه عن واد بها ، فأريتهما إياه ، فأخرجا مجامر وأوقدا فيها بخوراً كثيراً ، حتى عجعج الوادى بالدخان ، فأخذا يعزمان والحيات تقبل من كل مكان إليهما ، فلا يلتفتان إلى شيء منها ، حتى أقبلت حية نحو الذراع ، وعيناها توقدان مثل الدينار . فاستبشرا بها عظيماً ، وقالوا : الحمد لله الذى لم يخيب سفرنا من سنة ، وكسرا المجامر ، وأخذوا الحية فأدخلوا في عينها ميلاً فاكتحلا به ، فسألتهما أن يكحلاني ، فأبيا ، فألحت عليهما وقلت : لابد من ذلك ، وتوعدتهما بالدولة ، فكحلا عيني الواحدة اليمنى ، فحين وقع في عيني نظرت إلى الأرض تحتى مثل المرأة ، أنظر ما تحتها كما ترى المرأة ، ثم قالوا لى : سر معنا قليلاً ، فسرت معهما وهما يحدثان ، حتى إذا بعدت عن القرية ، أخذاني فكتفاني ، وأدخل أحدهما يده في عيني ففقاها ، ورمى بها ومضيا . فلم أزل كذلك ملقى مكتوفاً ، حتى مر بى نفر فكفك وثاقى . فهذا ما كان من خبر عيني (٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة بن عمرو الغساني ، حدثنا عباد بن ميسرة المنقرى ، عن الحسن قال : اسم هدهد سليمان ، عليه السلام : عنبر .

وقال محمد بن إسحاق : كان سليمان ، عليه السلام ، إذا غدا إلى مجلسه الذى كان يجلس فيه : تفقد الطير ، وكان فيما يزعمون يأتيه نوبٌ من كل صنف من الطير ، كل يوم طائر ، فنظر فرأى من أصناف الطير كلها من حصره إلا الهدهد ، ﴿ فَقَالَ مَا لِي لَا أَرَى الْهَدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ أخطأه بصرى من الطير ، أم غاب فلم يحضر ؟

وقوله : ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ : قال الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد ، عن ابن عباس : يعنى نف ريشه .

وقال عبد الله بن شداد : نف ريشه وتشميسه . وكذا قال غير واحد من السلف : إنه نف ريشه ، وتركه ملقى يأكله الذر والنمل .

وقوله : ﴿أَوْ لَاذْبَحْنَهُ﴾ يعنى : قتله ، ﴿أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أى : بعذر واضح بين .

وقال سفيان بن عيينة ، وعبد الله بن شداد : لما قدم الهدهد قال له الطير : ما خلفك ، فقد نذر سليمان دمك ! فقال : هل استثنى ؟ فقالوا : نعم ، قال : ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَاذْبَحْنَهُ أَوْ لِيَأْتِنِي

(١) رواه الحاكم فى المستدرک (٢/ ٤٠٥) من طريق المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبیر بنحوه .

(٢) زيادة من ف .

(٣) تاريخ دمشق (١٩/ ١٣٠ « المخطوط ») .

بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ، فقال : نجوت إذا .

قال مجاهد : إنما دفع [الله] (١) عنه ببره بأمه (٢) .

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴾ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (٢٦) .

يقول تعالى : ﴿ فَمَكَثَ ﴾ الهدد ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أى : غاب زماناً يسيراً ، ثم جاء فقال لسليمان : ﴿ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ أى : اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ، ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴾ أى : بخبر صدق حق يقين .

وسبأ هم : حمير ، وهم ملوك اليمن .

ثم قال : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ ، قال الحسن البصرى : وهى بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ .

وقال قتادة : كانت أمها جنية ، وكان مؤخر قدميها مثل حافر الدابة ، من بيت مملكة .

وقال زهير بن محمد : هى بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن الريان ، وأمها فارعة الجنية .

وقال ابن جريج : بلقيس بنت ذى شرخ ، وأمها يلتقة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا مُسَدَّدٌ ، حدثنا سفيان - يعنى ابن عيينة - عن عطاء بن السائب ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : كان مع صاحبة (٣) سليمان ألف قيل ، تحت كل قيل مائة ألف [مقاتل] (٤) .

وقال الأعمش ، عن مجاهد : كان تحت يدي ملكة سبأ اثنا عشر ألف قيل ، تحت كل قيل : مائة ألف مقاتل .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا (٥) معمر ، عن قتادة فى قوله : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ : كانت من بيت مملكة ، وكان أولو مشورتها ثلاثمائة واثنى عشر رجلاً ، كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل . وكانت بأرض يقال لها مأرب ، على ثلاثة أميال من صنعاء .

وهذا القول هو أقرب ، على أنه كثير على مملكة اليمن ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى : من متاع الدنيا ما (٦) يحتاج إليه الملك المتمكن ، ﴿ وَلَهَا

(٣) فى ف : « كان لصاحبة » .

(٢) فى ف : « أمه » .

(١) زيادة من ف ، أ .

(٦) فى ف : « مما » .

(٥) فى ف : « عن » .

(٤) زيادة من ف ، أ .

عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يعنى : سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب ، وأنواع الجواهر واللاّلىء .
قال زهير بن محمد : كان من ذهب صفحته ، مرمول بالياقوت والزبرجد . [طوله ثمانون ذراعاً ، وعرضه أربعون ذراعاً .

وقال محمد بن إسحاق : كان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد [(١) واللؤلؤ ، وكان إنما يخدمها النساء ، لها ستمائة امرأة تلى الخدمة (٢) .

قال علماء التاريخ : وكان هذا السرير فى قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم ، كان فيه ثلاثمائة وستون طاقة من شرقه ومثلها من غربه (٣) ، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة ، وتغرب من مقابلتها ، فيسجدون لها صباحاً ومساءً ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى : عن طريق الحق ، ﴿ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ [معناه : ﴿ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾] (٤) أى : لا يعرفون سبيل الحق التى هى إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من شىء من الكواكب وغيرها ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٧] .

وقرأ بعض القراء : « ألا يا اسجدوا لله » ، جعلها « ألا » الاستفتاحية ، و« يا » للنداء ، وحذف المنادى ، تقديره عنده : « ألا يا قوم ، اسجدوا لله » .

وقوله : ﴿ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : يعلم كل خبيثة فى السماء والأرض . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وغير واحد .

وقال سعيد بن المسيب : الخَبْءُ : الماء . وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : خبء السموات والأرض : ما جعل فيها من الأرزاق : المطر من السماء ، والنبات من الأرض .

وهذا مناسب من كلام الهدهد ، الذى جعل الله فيه من الخاصة ما ذكره ابن عباس وغيره ، من أنه يرى الماء يجرى فى تخوم الأرض ودواخلها .

وقوله : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أى : يعلم ما يخفيه العباد ، وما يعلنونه من الأقوال والأفعال . وهذا كقوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ [الرعد : ١٠] .

(٢) فى ف : « امرأة تليها » .

(١) زيادة من ف ، أ .

(٤) زيادة من ف ، أ .

(٣) فى ف : « من شرقية ومثلها من غربية » .

وقوله : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أى : هو المدعو الله ، وهو الذى لا إله إلا هو رب العرش العظيم ، الذى ليس فى المخلوقات أعظم منه .

ولما كان الهدهد داعياً إلى الخير ، وعبادة الله وحده والسجود له ، نهى عن قتله ، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : نهى النبى ﷺ عن قتل أربع من الدواب : النملة والنحلة والهدهد والصرد . وإسناده صحيح (١) .

﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) ﴾

يخبر تعالى عن قيل سليمان ، عليه السلام ، للهدهد حين أخبره عن أهل سبا وملكتهم : ﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى : أصدقت (٢) فى إخبارك هذا ، ﴿ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ فى مقاتلتك ، فتخلص (٣) من الوعيد الذى أوعدتك ؟ ﴿ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ وذلك أن سليمان ، عليه السلام ، كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها . وأعطاه لذلك الهدهد فحمله ، قيل : فى جناحه كما هو عادة الطير ، وقيل : بمنقاره . وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس ، إلى الخلوة التى كانت تختلئ فيها بنفسها ، فألقاه إليها من كوة هنالك (٤) بين يديها ، ثم تولى ناحية أدياً ورياسة ، فتحيرت مما رأت ، وهالها ذلك ، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته ، ففتحت ختمه وقرأته ، فإذا فيه : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكته ، ثم قالت لهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ تعنى بكرمه : ما رآته من عجب أمره ، كون طائر أتى به (٥) فألقاه إليها ، ثم تولى عنها أدياً . وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك ، ولا سبيل لهم إلى ذلك ، ثم قرأته عليهم ، ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ . فعرفوا أنه من نبى الله سليمان ، وأنه لا قبل لهم به . وهذا الكتاب فى غاية البلاغة والوجازة والفصاحة ، فإنه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها ، قال العلماء : ولم يكتب أحد ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قبل سليمان ، عليه السلام .

وقد روى ابن أبى حاتم فى ذلك حديثاً فى تفسيره ، حيث قال : حدثنا أبى ، حدثنا هارون بن الفضل (٦) أبو يعلى الخنات (٧) ، حدثنا أبو يوسف ، عن سلمة بن صالح ، [عن عبد الكريم] (٨) أبى أمية ، عن ابن بريدة ، عن أبيه قال : كنت أمشى مع رسول الله ﷺ فقال : « إني أعلم آية لم

(١) لم أجده من حديث أبى هريرة إلا عند ابن ماجه فى السنن برقم (٣٢٢٣) بلفظ : « نهى رسول الله ﷺ عن قتل الصرد والضفدع والنملة والهدهد » . وهو بهذا اللفظ من حديث ابن عباس فى مسند الإمام أحمد (١/٢٣٢) وسنن أبى داود برقم (٥٢٦٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣٢٢٤) .

(٢) فى ف : « صدقت » . (٣) فى ف : « لتخلص » . (٤) فى ف ، أ : « هناك » .

(٥) فى ف ، أ : « جاء به » . (٦) فى أ : « المفضل » . (٧) فى ف ، أ : « الخياط » . (٨) زيادة من ف ، أ .

تنزل على نبي قبلي بعد سليمان بن داود . قال : قلت : يا رسول الله ، أى آية ؟ قال : «سأعلمكها قبل أن أخرج من المسجد» . قال : فانتهى إلى الباب ، فأخرج إحدى قدميه ، فقلت : نسي ، ثم التفت إلى وقال : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (١) .

هذا حديث غريب ، وإسناده ضعيف .

وقال ميمون بن مهران : كان رسول الله ﷺ يكتب : باسمك اللهم ، حتى نزلت هذه الآية ، فكتب : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

وقوله : ﴿ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ ﴾ يقول (٢) قتادة : لا تحيروا على ﴿ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لا تمتنعوا ولا تتكبروا على .

﴿ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ : قال ابن عباس : موحدين . وقال غيره : مخلصين . وقال سفيان بن عيينة :

طائعين .

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بِأَسْ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (٣٥) .

لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم فى أمرها ، وما قد نزل بها ؛ ولهذا قالت : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ أى : حتى تحضرون وتشهرون . ﴿ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بِأَسْ شَدِيدٍ ﴾ أى : منوا إليها بعددهم وعددهم وقوتهم ، ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا : ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ أى : نحن ليس لنا عاقبة [ولا بنا بأس ، إن شئت أن تقصديه وتحاربه ، فما لنا عاقبة] (٣) عنه . وبعد هذا فالأمر (٤) إليك ، مرى فينا برأيك (٥) نمتله ونطيعه .

قال الحسن البصرى ، رحمه الله : فوضوا أمرهم إلى عُلَجة تضطرب ثديها ، فلما قالوا لها ما قالوا ، كانت هى أحزم رأياً منهم ، وأعلم بأمر سليمان ، وأنه (٦) لا قبل لها بجنوده وجيوشه ، وما سَخَّرَ له من الجن والإنس والطير ، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمراً عجيباً بديعاً ، فقالت لهم : إني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه ، فيقصدنا بجنوده ، ويهلكنا بمن معه ، ويخلص إلى وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا ؛ ولهذا قالت : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ .

(١) ورواه أبو نعيم فى تاريخ أصفهان (١٨٧/٢) من طريق الحسين بن حفص عن أبى يوسف به .

(٢) فى ف : « قال » . (٣) زيادة من ف ، أ . (٤) فى أ : « وبعدها فالأمر » .

(٥) فى ف : « رأيك » . (٦) فى ف : « وأنها » .

قال ابن عباس : أى إذا دخلوا بلداً (١) عُنُوهُ أَفْسَدُوهُ ، أى : خَرَّبُوهُ ، ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةً أَهْلَهَا أَذَلَّةً﴾
أى : وقصدوا من فيها من الولاة والجنود ، فأهانوهم غاية الهوان ، إما بالقتل أو بالأسر .

قال ابن عباس : قالت بلقيس : ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةً أَهْلَهَا أَذَلَّةً﴾ (٢) ،
قال الرب، عز وجل : ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ . ثم عدلت إلى المهادنة والمصالحة والمسألة والمخادعة
والمصانعة ، فقالت : ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾^(٣) أى : سأبعث إليه بهدية
تليق به (٣) وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك ، فلعله يقبل ذلك ويكف عنا ، أو يضرب علينا خراجاً
نحمله إليه فى كل عام ، ونلتزم له بذلك ويترك قتالنا ومحاربتنا . قال قتادة : رحمها الله ورضى
عنها، ما كان أعقلها فى إسلامها وفى شركها !! علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس .

وقال ابن عباس وغير واحد : قالت لقومها : إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه ، وإن لم يقبلها
فهو نبى فاتبعوه .

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ
تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ
صَاغِرُونَ (٣٧)﴾ .

ذكر غير واحد من المفسرين ، من السلف وغيرهم : أنها بعثت إليه بهدية عظيمة من ذهب
وجواهر ولائى وغير ذلك . وقال بعضهم : أرسلت إليه بلبنة من ذهب . والصحيح أنها أرسلت
[إليه] (٤) بآنية من ذهب .

قال مجاهد ، وسعيد بن جبیر ، وغيرهما : وأرسلت جوارى فى زى الغلمان ، وغلمان فى زى
الجوارى ، وقالت : إن عرف هؤلاء من هؤلاء فهو نبى . قالوا : فأمرهم [سليمان] (٥) ، عليه
السلام ، أن يتوضؤوا ، فجعلت الجارية تُفَرِّغُ عَلَى يَدِهَا مِنَ الْمَاءِ ، وجعل الغلام يغترف ، فميزهم
بذلك .

وقيل : بل جعلت الجارية تغسل باطن (٦) يدها قبل ظاهرها ، والغلام بالعكس .

وقيل : بل جعلت الجوارى يغتسلن (٧) من أكفهن إلى مرافقهن ، والغلمان من مرافقهم إلى
أكفهم . ولا منافاة بين ذلك كله ، والله أعلم .

وذكر بعضهم : أنها أرسلت إليه بقدرح ليملاء ماء رواء ، لا من السماء ولا من الأرض ، فأجرى
الخليل حتى عرقت ، ثم ملأه من ذلك . وبخرزة وسلك ليضعه فيها ، ففعل ذلك . والله أعلم أكان
ذلك أم لا ، وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات . والظاهر أن سليمان ، عليه السلام ، لم ينظر إلى ما

(١) فى أ : « بلدة » . (٢) فى ف ، أ : « أذلة وكذلك يفعلون » . (٣) فى ف : « بمثله » .
(٤) (٥ ، ٤) زيادة من ف ، أ . (٦) فى ف : « بطن » . (٧) فى ف : « يغسلن » .

جاؤوا به بالكلية ، ولا اعتنى به ، بل أعرض عنه ، وقال منكرأ عليهم : ﴿ أَتُمَدُّونَ بِمَالٍ ﴾ أى : اتصانعوننى بمال لأترككم على شرككم وملككم !؟ ﴿ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ ﴾ أى : الذى أعطانى الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه ، ﴿ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ أى : أنتم الذين (١) تنقادون للهدايا والتحف ، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف .

قال الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، رضى الله عنه : أمر سليمان الشياطين فموهوا له ألف قصر من ذهب وفضة . فلما رأت رسلها ذلك قالوا : ما يصنع هذا بهديتنا . وفى هذا دلالة على جواز تهيه الملوك وإظهارهم الزينة للرسل والقصاد .
﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ أى : بهديتهم ، ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قَبْلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ أى : لا طاقة لهم بقتالهم ، ﴿ وَلَنَخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا ﴾ أى : من بلدهم ، ﴿ أَذِلَّةٌ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ أى : مهانون مدحورون .

فلما رجعت إليها رسلها بهديتها ، وبما قال سليمان ، سمعت وأطاعت هى وقومها ، وأقبلت تسير إليه فى جنودها خاضعة ذليلة ، معظمة لسليمان ، نارية متابعته فى الإسلام . ولما تحقق سليمان ، عليه السلام ، قدومهم عليه ووفودهم إليه ، فرح (٢) بذلك وسره .

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (٣٨) قَالَ عَفْرَيْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿ (٤٠) ﴾

قال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان قال : فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت : قد - والله - عرفت ، ما هذا بملك ، وما لنا به من طاقة ، وما نصنع بمكاثرتة (٣) شيئاً . وبعثت إليه : إني قادمة عليك بملوك قومي ، لأنظر ما أمرك وما تدعوننا إليه من دينك . ثم أمرت بسرير ملكها الذى كانت تجلس عليه - وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ - فجعل فى سبعة أبيات ، بعضها فى بعض ، ثم أقفلت عليه الأبواب ، ثم قالت لمن خلفت على سلطانها : احتفظ بما قبلك ، وسرير ملكى ، فلا يخلص إليه أحد من عباد الله ، ولا يرينه أحد حتى آتيك . ثم شخّصت إلى سليمان فى اثنى عشر ألف قيل من ملوك اليمن ، تحت يدى كل قيل منهم ألوف كثيرة . فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة ، حتى إذا دنت جمع من عنده من الجن والإنس ، ممن تحت يديه ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ .

وقال قتادة : لما بلغ سليمان أنها جائية ، وكان قد ذكر له عرشها فأعجبه ، وكان من ذهب ،

(١) فى ١ : « الذى » . (٢) فى ٢ : « فرح » .

(٣) فى هـ : « بمكاثرتة » ، والمثبت من ف ، أ ، والطبرى (١٩/ ١٠٠) .

وقوائمه لؤلؤ وجوهر ، وكان مستتراً بالديباج والحرير ، وكانت عليه تسعة مغاليق ^(١) ، فكره أن يأخذه بعد إسلامهم . وقد علم نبي الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم مع دمائهم فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ .

وهكذا قال عطاء الخراساني ، والسدّي ، وزهير بن محمد : ﴿ قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ فتحرم على أموالهم بإسلامهم .

﴿ قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجِنِّ ﴾ : قال مجاهد : أى مارد من الجن .

قال شعيب الجبائي : وكان اسمه كوزن . وكذا قال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان . وكذا قال أيضا وهب بن منبه .

قال أبو صالح : وكان كانه جبل .

﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾ : قال ابن عباس : يعنى : قبل أن تقوم من مجلسك . وقال مجاهد : مقعدك ، وقال السدى ، وغيره : كان يجلس للناس للقضاء والحكومات وللطعام ^(٢) من أول النهار إلى أن تزول الشمس .

﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ : قال ابن عباس : أى قوى على حمله ، أمين على ما فيه من الجوهر .

فقال سليمان ، عليه السلام : أريد أعجل من ذلك . ومن ههنا يظهر أن النبي سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهبه الله له من الملك ، وسخر له من الجنود ، الذى لم يعطه أحد قبله ، ولا يكون لأحد من بعده . وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها ؛ لأن هذا خارق عظيم أن يأتى بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه . هذا وقد حجته بالأغلاق والأقفال والحفظة . فلما قال سليمان : أريد أعجل من ذلك ، ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ - قال ابن عباس : وهو آصف كاتب سليمان . وكذا روى محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان : أنه آصف بن برخياء ، وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم .

وقال قتادة : كان مؤمناً من الإنس ، واسمه آصف . وكذا قال أبو صالح ، والضحاك ، وقتادة : إنه كان من الإنس - زاد قتادة : من بنى إسرائيل .

وقال مجاهد : كان اسمه أسطوم .

وقال قتادة - فى رواية عنه - : كان اسمه بليخا .

وقال زهير بن محمد : هو رجل من الأندلس ^(٣) يقال له : ذو النور .

وزعم عبد الله بن لهيعة : أنه الخضر . وهو غريب جداً .

وقوله : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ أى : ارفع بصرك وانظر مدّ بصرك مما تقدر عليه ، فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك .

(٣) فى أ : « الإنس » .

(٢) فى ف ، أ : « والطعام » .

(١) فى ف : « مغاليق » .

وقال وهب بن منبه : امدد بصرك ، فلا يبلغ مداه حتى آتاك به .

فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن التي فيها هذا العرش المطلوب ، ثم قام فتوضاً ، ودعا الله عز وجل .

قال مجاهد : قال : ياذا الجلال والإكرام . وقال الزهري : قال : يا إلهنا وإله كل شيء ، إلهاً واحداً ، لا إله إلا أنت ، ائتنى بعرشها . قال : فتمثل له بين يديه .

قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، ومحمد بن إسحاق ، وزهير بن محمد ، وغيرهم : لما دعا الله عز وجل ، وسأله أن يأتيه بعرش بلقيس - وكان في اليمن ، وسليمان ، عليه السلام ، بيت المقدس - غاب السرير ، وغاص في الأرض ، ثم نبع من بين يدي سليمان ، عليه السلام .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، لم يشعر سليمان إلا وعرشها يحمل بين يديه . قال : وكان هذا الذي جاء به من عباد البحر ، فلما عين سليمان ومكّؤه ذلك ، ورآه مستقراً عنده ، ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾ أى : هذا من نعم الله على ، ﴿ لِيُبْلِيَني ﴾ أى : ليختبرني ، ﴿ أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ ، كقوله : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت : ٤٦] ، وكقوله : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَهُمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم : ٤٤] .

وقوله : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ أى : هو غنى عن العباد وعبادتهم ، ﴿ كَرِيمٌ ﴾ أى : كريم في نفسه ، وإن لم يعبه أحد ، فإن عظمته ليست مفتقرة (١) إلى أحد ، وهذا كما قال موسى : ﴿ إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٨] .

وفى صحيح مسلم : « يقول الله تعالى : يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل منكم ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً . يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم [ثم أوفىكم إياها] (٢) فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » (٣) .

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ

(١) فى أ : « تفقر » . (٢) زيادة من ف ، أ ، وصحيح مسلم .

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧) من حديث أبى ذر الغفارى ، رضى الله عنه .

سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾

لما جىء سليمان ، عليه السلام ، بعرش بلقيس قبل قدومها ، أمر به أن يغير بعض صفاته ، ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته ، هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس به ، فقال : ﴿ نَكْرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ .

قال ابن عباس : نزع عنه فصوصه ومرافقه .

وقال مجاهد : أمر به فغير ما كان أحمر جعل أصفر ، وما كان أصفر جعل أحمر : وما كان أخضر جعل أحمر ، غير كل شيء عن حاله .

وقال عكرمة : زادوا فيه ونقصوا .

[وقال قتادة : جعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره ، وزادوا فيه ونقصوا] (١) .

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ ﴾ أى : عرض عليها عرشها ، وقد غير ونكر ، وزيد فيه ونقص منه ، فكان فيها ثبات وعقل ، ولها لب ودهاء وحزم ، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها ، ولا أنه غيره ، لما رأت من آثاره وصفاته ، وإن غير وبدل ونكر ، فقالت : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ أى : يشبهه ويقاربه . وهذا غاية فى الذكاء والحزم .

وقوله : ﴿ وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ : قال مجاهد : سليمان يقوله .

وقوله : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ : هذا من تمام كلام سليمان ، عليه السلام - فى قول مجاهد ، وسعيد بن جبیر ، رحمهما الله - أى : قال سليمان : ﴿ وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ ، وهى كانت قد صدّها ، أى : منعها من عبادة الله وحده . ﴿ مَا (٢) كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ . وهذا الذى قاله مجاهد وسعيد حسن (٣) ، وقاله ابن جرير أيضا .

ثم قال ابن جرير : ويحتمل أن يكون فى قوله : ﴿ وَصَدَّهَا ﴾ ضمير يعود إلى سليمان ، أو إلى الله ، عز وجل ، تقديره : ومنعها ، ﴿ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى : صدّها عن عبادة غير الله ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ .

قلت : ويؤيد قول مجاهد : أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح ، كما سيأتى .

وقوله : ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا ﴾ وذلك أن سليمان ، عليه السلام ، أمر الشياطين فبنوا له قصرًا عظيمًا من قوارير ، أى : من زجاج ، وأجرى تحته الماء ، فالذى لا يعرف أمره يحسب أنه ماء ، ولكن الزجاج يحول بين الماشى وبينه . واختلفوا فى السبب الذى دعا

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف : « بل » وهو خطأ . (٣) فى أ : « سعيد بن جبیر أيضا » .

سليمان ، عليه السلام ، إلى^(١) اتخاذه ، فقيل : إنه لما عزم على تزويجها واصطفائها لنفسه ؛ ذكر له جمالها وحسنها ، ولكن فى ساقها هُلْبٌ^(٢) عظيم ، ومؤخر أقدامها كمؤخر الدابة . فسأه ذلك ، فاتخذ هذا ليعلم صحته أم لا ؟ - هذا قول محمد بن كعب القرظى ، وغيره - فلما دخلت وكشفت عن ساقها ، رأى أحسن الناس وأحسنه قدماً ، ولكن رأى على رجلها شعراً ؛ لأنها ملكة ليس لها بعل^(٣) ، فأحب أن يذهب ذلك عنها فقيل لها : موسى ؟ فقالت : لا أستطيع ذلك . وكره سليمان ذلك ، وقال^(٤) للجن : اصنعوا شيئاً غير موسى يذهب به هذا الشعر ، فصنعوا له النُورَةَ . وكان أول من اتخذت له النُورَةَ ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب القرظى ، والسدى ، وابن جرير ، وغيرهم .

وقال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان : ثم قال لها : ادخلى الصرح ، ليربها ملكاً هو أعز من ملكها ، وسلطانا هو أعظم من سلطانها . فلما رآته حسبته لجة وكشفت عن ساقها ، لا تشك أنه ماء تخوضه ، فقيل لها : إنه صرح مُمرّد من قوارير . فلما وقفت على سليمان ، دعاها إلى عبادة الله وعابتها فى عبادتها الشمس^(٥) من دون الله .

وقال الحسن البصرى : لما رأت العُلْجَةُ الصرح عرفت - والله - أن قد رأت ملكاً أعظم من ملكها .

وقال محمد بن إسحاق ، عن بعض أهل العلم ، عن وهب بن منبه قال : أمر سليمان بالصرح ، وقد عملته له الشياطين من زجاج ، كأنه الماء بياضاً . ثم أرسل الماء تحته ، ثم وضع له فيه سريره ، فجلس عليه ، وعكفت عليه الطير والجن والإنس ، ثم قال : ادخلى الصرح ، ليربها ملكاً هو أعز من ملكها ، وسلطانا هو أعظم من سلطانها ، ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا ﴾ ، لا تشك أنه ماء تخوضه ، قيل لها : ﴿ إِنَّهُ صَرَحٌ مُّمرّدٌ مِنْ قَوَارِيرٍ ﴾ ، فلما وقفت على سليمان ، دعاها إلى عبادة الله ، عز وجل ، وعابتها فى عبادتها الشمس من دون الله . فقالت بقول الزنادقة ، فوقع سليمان ساجداً إعظاماً لما قالت ، وسجد معه الناس ، فسقط فى يديها حين رأت سليمان صنع ما صنع ، فلما رفع سليمان رأسه قال : ويحك ! ماذا قلت ؟ - قال : (٦) وأنسيت ما قالت (٧) - فقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، فأسلمت وحسن إسلامها .

وقد روى الإمام أبو بكر بن أبى شيبة فى هذا أثراً غريباً عن ابن عباس ، قال : (٨) حدثنا الحسين ابن على ، عن زائدة ، حدثنى عطاء بن السائب ، حدثنا مجاهد - ونحن فى الأزد - قال : حدثنا ابن عباس قال : كان سليمان ، عليه السلام ، يجلس على سريره ، ثم تُوضَعُ كراسى حوله ، فيجلس عليها الإنس ، ثم يجلس (٩) الجن ، ثم الشياطين ، ثم تأتى الريح فترفعهم ، ثم تظلمهم الطير ، ثم

(١) فى ف : « فى » . (٢) فى أ : « هلف » . (٣) فى ف ، أ : « زوج » . (٤) فى ف : « وقال سليمان » . (٥) فى ف ، أ : « الشيطان » . (٦) فى ف : « قالت » . (٧) فى ف : « ما قلت » . (٨) فى ف : « فقال » . (٩) فى ف : « تجلس » .

يغدون قدر ما يشتهي الراكب أن ينزل شهراً ورواحها شهراً ، قال : فيبينما هو ذات يوم في مسير له ، إذ تفقد الطير ففقد الهدهد فقال (١) : ﴿ مَا لِي لَا أَرَى الْهَدَّهْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ . لِأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لِأَذْهَبَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ ، قال : فكان عذابه إياه أن ينتفه ، ثم يلقيه في الأرض ، فلا يتمتع من غلة ولا من شيء من هوام الأرض .

قال عطاء : وذكر سعيد بن جبيرة عن ابن عباس مثل حديث مجاهد ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ - فقراً حتى انتهى إلى قوله - : ﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا ﴾ وكتب : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، إلى بلقيس : ﴿ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ ، فلما ألقى الهدهد بالكتاب (٢) إليها ، ألقى في روعها : إنه كتاب كريم ، وإنه من سليمان ، وأن لا تعلقوا على واثوني مسلمين . قالوا : نحن أولو قوة . قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وإنني مرسله إليهم بهدية . فلما جاءت الهدية سليمان قال : أتمدوني بمال ، ارجع إليهم . فلما نظر إلى الغبار - أخبرنا ابن عباس قال : وكان بين سليمان وبين ملكة سبأ ومن معها حين نظر إلى الغبار كما بيننا وبين الحيرة ، قال عطاء : ومجاهد حينئذ في الأزد - قال سليمان : أيكم يأتي بي بعرشها ؟ قال : وبين عرشها وبين سليمان حين نظر إلى الغبار مسيرة شهرين ، ﴿ قَالَ عَفَرْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾ - قال : وكان لسليمان مجلس يجلس فيه للناس ، كما يجلس الأمراء ثم يقوم - قال (٣) : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾ ، قال سليمان : أريد أعجل من ذلك . فقال الذي عنده علم من الكتاب : أنا أنظر في كتاب ربي ، ثم آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . قال : [فنظر إليه سليمان فلما قطع كلامه رد سليمان بصره] (٤) ، فنبع عرشها من تحت قدم سليمان ، من تحت كرسي كان سليمان يضع عليه رجله ، ثم يصعد إلى السرير . قال : فلما رأى سليمان عرشها [مستقراً عنده] (٥) قال : ﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾ ، ﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾ ، فلما جاءت قيل لها : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو . قال : فسألته عن أمرين ، قالت لسليمان : أريد ماء [من زيد رواء] (٦) ليس من أرض ولا من سماء - وكان سليمان إذا سئل عن شيء ، سأل الإنس ثم الجن ثم الشياطين . [قال] (٧) فقالت الشياطين : هذا هين ، أجز الخيل ثم خذ عرقها ، ثم املاً منه الآية . قال : فأمر بالخيل (٨) : فأجريت ، ثم أخذ عرقها فملاً منه الآية . قال : وسألت عن لون الله ، عز وجل . قال : فوثب سليمان عن سريره ، فخر ساجداً ، فقال : يارب ، لقد سألتني عن أمر إنه يتكايد (٩) ، أي : يتعاضم في قلبي أن أذكره لك . قال : ارجع فقد كفيتهكهم ، قال : فرجع إلى سريره فقال : ما سألت عنه ؟ قالت : ما سألتك إلا عن الماء . فقال لجنوده : ما سألت عنه ؟ فقالوا : ما سألتك إلا عن الماء . قال : ونسوه كلهم . قال : وقالت الشياطين لسليمان : تريد أن تتخذها لنفسك (١٠) ، فإن اتخذها لنفسه ثم ولد بينهما ولد ، لم ننفعك من عبوديته . قال : فجعلوا صرحاً ممرداً من قوارير ، فيه السمك . قال : فقيل لها :

(١) في ف : « قال وتفقد الهدهد قال » . (٢) في ف ، أ : « هذا الكتاب » . (٣) في ف ، أ : « فقال » . (٤) ، (٥) زيادة من ف ، أ . (٦) ، (٧) زيادة من ف . (٨) في ف : « أمر الخيل » . (٩) في ف ، أ : « ليتكابر » . (١٠) في ف ، أ : « يريد أن يتخذها لنفسه » .

ادخلى الصرح. فلما رآته حسبته لجة ، وكشفت عن ساقها ، فإذا هي شعراء . فقال سليمان : هذا قبيح ، ما يذهبه ؟ فقالوا : تذهبه (١) المواسي . فقال : أثر موسى (٢) قبيح ! قال : فجعلت الشياطين النورة . قال : فهو أول من جعل له النورة .

ثم قال أبو بكر بن أبي شيبة : ما أحسنه من حديث .

قلت : بل هو منكر غريب جداً ، ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس ، والله أعلم . والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقة عن أهل الكتاب ، مما يوجد في صحفهم ، كروايات كعب ووهب - سامحهما الله تعالى - فيما نقلنا إلى هذه الأمة من أخبار بنى إسرائيل ، من الأوابد (٣) والغرائب والعجائب ، مما كان وما لم يكن ، ومما حرف وبدل ونسخ . وقد أغنانا الله ، سبحانه ، عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ، والله الحمد والمنة .

أصل الصرح في كلام العرب : هو القصر ، وكل بناء مرتفع ، قال الله ، سبحانه وتعالى ، إخباراً عن فرعون - لعنه الله - أنه قال لوزيره هامان : ﴿ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . الْأَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ الآية [غافر : ٣٦ ، ٣٧] . والصرح : قصر في اليمن على البناء ، والممرد أى : المبنى بناء محكما أملس ﴿ مِنْ قَوَارِيرَ ﴾ أى : زجاج . وتمريد البناء تمليسه . ومارد : حصن بدومة الجندل .

والغرض أن سليمان ، عليه السلام ، اتخذ قصراً عظيماً منيفاً من زجاج لهذه الملكة ؛ ليربها عظمة سلطانه وتمكنه ، فلما رأت ما آتاه الله ، تعالى ، وجلالة ما هو فيه ، وتبصرت في أمره انقادت لأمر الله (٤) وعرفت أنه نبي كريم ، وملك عظيم ، فأسلمت لله ، عز وجل ، وقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ أى : بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها الشمس (٥) من دون الله ، ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : متابعة لدين سليمان في عبادته لله (٦) وحده ، لا شريك له ، الذى خلق كل شيء فقدره تقديراً .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (٤٥)
قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٤٦) قَالُوا أَطِئْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ (٤٧) .

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح ، عليه السلام ، حين بعثه الله إليهم ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ - قال مجاهد : مؤمن وكافر - كقوله تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَغْفِرُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَنْ صَالِحًا مَرْسَلٌ مِّنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٧٥ ، ٧٦] .

(٣) فى أ : « النواذر » .

(٢) فى أ : « المواسي » .

(١) فى ف ، أ : « يذهبه » .

(٥) فى ف : « للشمس » .

(٤) فى أ : « لأوامر الله » .

(٦) فى ف : « فى عبادة الله » .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ ، أى : لم تدعون بحضور العذاب ، ولا تطلبون من الله رحمته ؟ ولهذا قال : ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ . قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ﴾ أى : ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً . وذلك أنهم - لشقائهم - كان لا يصيب أحداً منهم سوء إلا قال : هذا من قبل صالح وأصحابه .

قال مجاهد : تشاءموا بهم . وهذا كما قال تعالى إخباراً عن قوم فرعون : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [الأعراف : ١٣١] . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ [النساء : ٧٨] أى : بقضاء الله وقدره (١) . وقال مخبراً عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون : ﴿ قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ﴾ [يس : ١٨ ، ١٩] . وقال هؤلاء : ﴿ اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالِ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى : الله يجازيكم على ذلك ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ قال قتادة : تبتلون بالطاعة والمعصية .

والظاهر أن المراد بقوله : ﴿ تُفْتَنُونَ ﴾ أى : تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال .

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (٤٩) وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (٥٣) .

يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤوسهم ، الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلالة والكفر وتكذيب صالح ، وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة ، وهموا بقتل صالح أيضاً ، بأن يبيتوه فى أهله ليلاً فيقتلوه غيلة ، ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه : إنهم ما علموا بشيء من أمره ، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به ، من أنهم لم يشاهدوا ذلك ، فقال تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ أى : مدينة ثمود ، ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ أى : تسعة نفر ، ﴿ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود ؛ لأنهم كانوا كباراً فيهم ورؤساءهم .

قال العوفي ، عن ابن عباس : هؤلاء هم الذين عقروا الناقة ، أى : الذين صدر ذلك عن آرائهم ومشورتهم - قبحهم الله ولعنهم - وقد فعل ذلك .

وقال السدي ، عن أبي مالك ، عن ابن عباس : كان أسماء هؤلاء التسعة : دعى ، ودعى ، ودعى ،

(١) فى ف ، أ : « بقدر الله وقضائه » .

وهرما ، وهريم ، وداب ، وصواب ، ورياب ، ومسطع ، وقدار بن سالف عاقر الناقة ، أى : الذى بأمر ذلك بيده . قال الله تعالى : ﴿ فَنادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ [القمر : ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ إِذْ أَنْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ [الشمس : ١٢] .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا يحيى بن ربيعة الصنعاني ، سمعت عطاء - هو ابن أبى رباح - يقول : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ قال : كانوا يقرضون الدراهم^(١) ، يعنى : أنهم كانوا يأخذون منها ، وكأنهم كانوا يتعاملون بها عدداً ، كما كان العرب يتعاملون .

وقال الإمام مالك ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب أنه قال : قَطَعَ الذهب والورق من الفساد فى الأرض^(٢) .

وفى الحديث - الذى رواه أبو داود وغيره - : أن رسول الله ﷺ نهى عن كسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس^(٣) .

والغرض أن هؤلاء الكفرة الفسقة ، كان من صفاتهم الإفساد فى الأرض بكل طريق يقدرُونَ عليها ، فمنها ما ذكره هؤلاء الأئمة وغير ذلك .

وقوله : ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ أى : تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح ، عليه السلام ، من لقيه ليلاً غيلة . فكادهم الله ، وجعل الدائرة عليهم .

قال مجاهد : تقاسموا وتحالفوا^(٤) على هلاكه ، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين . وقال قتادة : توافقوا على أن يأخذوه ليلاً فيقتلوه ، وذكر لنا أنهم بينما هم معانقون إلى صالح ليفتكوا به ، إذ بعث الله عليهم صخرة فأهمدتهم .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : هم الذين عقروا الناقة ، قالوا حين عقروها : نُبِيتُ صالحاً [وأهله]^(٥) وقومه فنقتلهم ، ثم نقول لأولياء صالح : ما شهدنا من هذا شيئاً ، وما لنا به علم . فدمرهم الله أجمعين .

وقال محمد بن إسحاق : قال هؤلاء التسعة بعد ما عقروا الناقة : هَلُمَّ فلنقتل صالحاً ، فإن كان صادقاً عجلناه قبلنا ، وإن كان كاذباً كنا قد ألحقناه بناقته ! فأتوه ليلاً لبيئته فى أهله ، فدمغتهم الملائكة بالحجارة ، فلما أبطؤوا على أصحابهم ، أتوا منزلاً صالح ، فوجدوهم منشدين قد رضخوا بالحجارة ، فقالوا لصالح : أنت قتلتهم ، ثم هموا به ، فقامت عشيرته دونه ، ولبسوا السلاح ، وقالوا لهم : والله لا تقتلونه أبداً ، وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم فى ثلاث ، فإن كان صادقاً فلا تزيدوا ربكم عليكم غضباً ، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون . فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك .

(١) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٧٠) .

(٢) الموطأ (٢/ ٦٣٥) .

(٣) سنن أبى داود برقم (٣٤٤٩) .

(٤) زيادة من أ .

(٥) فى ف : « تحالفوا » .

وقوله : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أى : حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ؛ ولهذا قال : ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أى : الذين قامت عليهم الحجة ، ووصل إليهم الإنذار ، فخالفوا الرسول وكذبوه ، وهموا بإخراجه من بينهم .

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آلَهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِلَهُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (٦٠).

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أى : على نعمه على عباده ، من النعم التى لا تعد ولا تحصى ، وعلى ما اتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى ، وأن يُسَلِّمَ على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم ، وهم رسله وأنبيأؤه الكرام ، عليهم من الله الصلاة والسلام ، هكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيره : إن المراد بعباده الذين اصطفى : هم الأنبياء ، قال : وهو كقوله تعالى : ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصفات : ١٨٠ - ١٨٢] .

وقال الثورى ، والسدى : هم أصحاب محمد ﷺ ورضى [الله] (١) عنهم أجمعين ، وروى نحوه عن ابن عباس .

ولا منافاة ، فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى ، فالأنبياء بطريق الأولى والأخرى ، والقصد أن الله تعالى أمر رسوله ومن اتبعه بعد ما ذكر لهم (٢) ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد ، وما أحل بأعدائه من الخزي والنكال والقهر ، أن يحمده على جميع (٣) أفعاله ، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار .

وقد قال أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن عمار بن صبيح ، حدثنا طلق بن غنام ، حدثنا الحكم بن ظهير ، عن السدى - إن شاء الله - عن أبى مالك ، عن ابن عباس : ﴿وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ قال : هم أصحاب محمد ﷺ ، اصطفاهم الله لنبيه، رضى الله عنهم (٤) .

وقوله : ﴿آلَهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ : استفهام إنكار على المشركين فى عبادتهم مع الله آلهة أخرى ، ثم شرع تعالى يبين (٥) أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره ، فقال : ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أى : تلك السموات بارتفاعها وصفائها ، وما جعل فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة ، والأرض باستفالها وكثافتها ، وما جعل فيها من الجبال والأوعار والسهول ، والفيافى والقفار ، والأشجار والزرع ، والثمار والبحور (٦) ، والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك .

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف : « بعد ذكره لهم » . (٣) فى ف : « جميل » .

(٤) مسند البزار برقم (٢٢٤٣) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (٨٧/٧) : « وفيه الحكم بن ظهير ، وهو متروك » .

(٥) فى ف : « شرع يبين تعالى » . (٦) فى ف : « والبحار » .

وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أى : جعله رزقاً للعباد ، ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾ أى : بساتين ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أى : منظر حسن وشكل بهى ، ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ أى : لم تكونوا تقدرّون على إنبات شجرها ، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق ، المستقل بذلك المتفرد به ، دون ما سواه من الأصنام والأنداد ، كما يعترف (١) به هؤلاء المشركون ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف : ٨٧] ، ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت : ٦٣] أى : هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له ، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق ، وإنما يستحق أن يُفرد بالعبادة من هو المتفرد بالخلق والرزق ؛ ولهذا قال : ﴿إِلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ أى : إله مع الله يعبد. وقد تبين لكم ولكل ذى لب مما يعرفون (٢) به أيضاً أنه الخالق الرازق .

ومن المفسرين من يقول : معنى قوله : ﴿إِلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ [أى : إله مع الله] (٣) فعل هذا . وهو يرجع إلى معنى الأول ؛ لأن تقدير الجواب أنهم يقولون : ليس ثم أحد فعل هذا معه ، بل هو المتفرد به . فيقال : فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المتفرد بالخلق والتدبير ؟ كما قال : ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل : ١٧] .

وقوله ههنا : ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ : ﴿أَمَّنْ﴾ فى هذه الآيات [كلها] (٤) تقديره : أمن يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها ؟ هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر ؛ لأن فى قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك ، وقد قال : ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

ثم قال فى آخر الآية : ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أى : يجعلون الله عدلا ونظيراً . وهكذا قال تعالى : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر : ٩] أى : أمن هو هكذا كمن ليس كذلك ؟ ولهذا قال : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِذَا الْأَلْبَابُ﴾ [الزمر : ٩] ، ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزمر : ٢٢] ، وقال : ﴿أَفَمَنْ (٥) هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد : ٣٣] أى : أمن هو شهيد على أفعال الخلق ، حركاتهم وسكناتهم ، يعلم الغيب جليله وحقيقه ، كمن هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الأصنام التى عبدوها ؟ ولهذا قال : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبُهُمْ﴾ [الرعد : ٣٣] ، وهكذا هذه الآيات الكريمات كلها .

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً إِلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦١) .

(١) فى ف : « كما يعرف » . (٢) فى ف ، أ : « يعترفون » . (٣) (٤ ، ٣) زيادة من ف ، أ .

(٥) فى جميع النسخ : « أمن » ، والصواب ما أثبتناه .

يقول : ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أى : قارة ساكنة ثابتة ، لا تميد ولا تتحرك بأهلها ولا ترجف بهم ، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة ، بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً بسيطاً ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [غافر : ٦٤] .

﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ أى : جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة تشقها فى خلالها ، وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك ، وسيرها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً ، بحسب مصالح عباده فى أقاليمهم وأقطارهم حيث ذراهم فى أرجاء الأرض ، سير لهم^(١) أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه ، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي﴾ أى : جبلاً شامخة ترسى الأرض وتثبتها ؛ لئلا تميد بكم ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أى : جعل بين المياه العذبة والمالحة^(٢) حاجزاً ، أى : مانعاً يمنعها من الاختلاط ، لئلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا ، فإن الحكمة الإلهية تقتضى بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه ، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس . والمقصود منها : أن تكون عذبة زلالا تسقى الحيوان والنبات والثمار منها . والبحار المالحة هى المحيطة بالأرجاء والأقطار : من كل جانب ، والمقصود منها : أن يكون ماؤها ملحاً أجاجاً ، لئلا يفسد الهواء بريحتها ، كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان : ٥٣] ؛ ولهذا قال : ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾ أى : فعل هذا ؟ أو يعبد على^(٣) القول الأول والآخر ؟ وكلاهما متلازم صحيح ، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى : فى عبادتهم غيره .

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٦٢) .

ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد ، المرجو عند النوازل ، كما قال : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ﴾ [الإسراء : ٦٧] ، وقال تعالى : ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل : ٥٣] . وهكذا قال ههنا : ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أى : من هو الذى لا يلجأ المضطر إلا إليه ، والذى لا يكشف ضر المضرورين سواه .

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا وهيب ، حدثنا خالد الحذاء ، عن أبى تيمية الهجيمى ، عن رجل من بلهجوم قال : قلت : يا رسول الله ، إلام تدعو ؟ قال : « أدعو إلى الله وحده ، الذى إن مسك ضر فدعوته كشف عنك ، والذى إن أضللت بأرض قفر فدعوته ردّ عليك ، والذى إن أصابتك سنة فدعوته أثبت لك » . قال : قلت : أوصنى . قال : « لاتسبن أحداً ، ولا تزهدن فى المعروف ، ولو أن تلقى أخاك وأنت منبسط إليه وجهك ، ولو أن تفرغ من ذكوك فى إناء المستقى ،

(١) فى أ : « إليهم » .

(٢) فى ف ، أ : « والمالحة » .

(٣) فى ف ، أ : « أو بعد هذا » .

واتزر إلى نصف الساق ، فإن أبيت فإلى الكعبين . وإياك وإسبال الإزار ، فإن إسبال الإزار من المخيلة ، [وإن الله - تبارك وتعالى - لا يحب المخيلة] (١) « (٢) .

وقد رواه الإمام أحمد من وجه آخر ، فذكر اسم الصحابي فقال : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا يونس - هو ابن عبيد - حدثنا عبيدة الهجيمي (٣) ، عن أبي تميم الهجيمي ، عن جابر ابن سليم الهجيمي قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو مُحْتَبٍ بِشَمْلَةٍ ، وقد وقع هُذْبُهَا على قدميه ، فقلت : أيكم محمد - أو : رسول الله ؟ - فأومأ بيده إلى نفسه ، فقلت : يا رسول الله ، أنا من أهل البادية ، وفي جفائهم ، فأوصني . فقال : « لا تحقرن من المعروف شيئا ، ولو أن تلقى أخاك ووجهك مُنْبَسَطٌ ، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي ، وإن امرؤ شتمك بما يعلم فيك فلا تشتمه بما تعلم فيه ، فإنه يكون لك أجره وعليه وزره . وإياك وإسبال الإزار ، فإن إسبال الإزار من المَخِيلَةِ ، وإن الله لا يحب المخيلة ، ولا تَسْبِنَ أحداً » . قال : فما سببت بعده أحداً ، ولا شاة ولا بعيراً (٤) .

وقد روى أبو داود والنسائي لهذا الحديث طرقاً ، وعندهما طرف صالح منه (٥) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا علي بن هاشم (٦) ، حدثنا عبدة بن نوح ، عن عمر بن الحجاج ، عن عبيد الله بن أبي صالح قال : دخل على طاوس يعودني ، فقلت (٧) له : ادع الله لي يا أبا عبد الرحمن . فقال : ادع لنفسك ، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه .

وقال وهب بن منبه : قرأت في الكتاب الأول : إن الله يقول : بعزتي إنه من اعتصم بي فإن كادته السموات ومن (٨) فيهن ، والأرض بمن فيها ، فإنني (٩) أجعل له من بين ذلك مخرجاً . ومن لم يعتصم بي فإنني (١٠) أخسف به من تحت قدميه الأرض ، فأجعله في الهواء ، فأكله إلى نفسه .

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة رجل - حكى عنه أبو بكر محمد بن داود الدينوري ، المعروف بالدققي الصوفي - قال هذا الرجل (١١) : كنت أكارى على بغل لي من دمشق إلى بلد الزبداني ، فركب معي ذات مرة رجل ، فمررنا على بعض الطريق ، على طريق غير مسلوكة ، فقال لي : خذ في هذه ، فإنها أقرب . فقلت : لا خبرة لي فيها ، فقال : بل هي أقرب . فسلكناهما فانتهينا إلى مكان وعَرُ وواد عميق ، وفيه قتلى كثير ، فقال لي : أمسك رأس البغل حتى أنزل . فنزل وتشمر ، وجمع عليه ثيابه ، وسل سكيناً معه وقصدني ، ففررت من بين يديه وتبعني ، فناشدته الله وقلت : خذ البغل بما عليه . فقال : هو لي ، وإنما أريد قتلك . فخوفته الله والعقوبة فلم يقبل ، فاستسلمت بين يديه وقلت : إن رأيت أن تتركني حتى أصلي ركعتين ؟ فقال : [صل] (١٢) وعجل . فقامت أصلي فأرتج

(١) زيادة من ف ، أ ، والمسنَد .

(٢) المسند (٦٤/٥) .

(٣) في هـ ، ف ، أ : « الهجيمي عن أبيه » .

(٤) المسند (٦٣/٥) .

(٥) سنن أبي داود برقم (٤٠٨٤) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١٠٤٩ - ١٠٥٢) .

(٦) في أ : « هشام » . (٧) في ف ، أ : « قال » . (٨) في ف : « بمن » . (٩) في ف : « أن » ، وفي أ : « أي » .

(١٠) في ف : « فإنه » . (١١) في ف : « بالرجل » . (١٢) زيادة من ف .

على القرآن فلم يحضرني منه حرف واحد ، فبقيت واقفاً متحيراً وهو يقول : هيه . افرغ . فأجرى الله على لساني قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ ، فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادى ، ويده حربة ، فرمى بها الرجل فما أخطأت فؤاده ، فخر صريعاً ، فتعلقت بالفارس وقلت : بالله من أنت ؟ فقال : أنا رسول [الله] (١) الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء . قال : فأخذت البغل والحمل ورجعت سالماً .

وذكر فى ترجمة « فاطمة بنت الحسن أم أحمد العجلية » ، قالت : هزم الكفار يوماً المسلمين فى غزاة ، فوقف جواد جيدٌ بصاحبه ، وكان من ذوى اليسار ومن الصلحاء ، فقال للجواد : مالك ؟ ويلك . إنما كنت أعدك لمثل هذا اليوم . فقال له الجواد : ومالى لا أقصر وأنت تكل علوقتى إلى السَّوَّاس فيظلموننى ولا يطعموننى (٢) إلا القليل ؟ فقال : لك على عهد الله أنى لا أعلفك بعد هذا اليوم إلا فى حجرى . فجرى الجواد عند ذلك ، ونجى صاحبه ، وكان لا يعلفه بعد ذلك إلا فى حجره . واشتهر أمره بين الناس ، وجعلوا يقصدونه لسمعوا منه ذلك ، وبلغ ملك الروم أمره ، فقال : ما تُضَام (٣) بلدة يكون هذا الرجل فيها . واحتال ليحصله فى بلده ، فبعث إليه رجلاً من المرتدين عنده ، فلما انتهى إليه أظهر له أنه قد حسنت نيته فى الإسلام وقومه ، حتى استوثق ، ثم خرجا يوماً يمشيان على جنب الساحل ، وقد واعد شخصاً آخر من جهة ملك الروم ليتساعدا على أسره ، فلما اكتنفاه ليأخذه رَفَعَ طرفه إلى السماء وقال : اللهم ، إنه إنما خَدَعَنى بك فاكفنيهما بما شئت ، قال : فخرج سبعان إليهما فأخذاهما ، ورجع الرجل سالماً (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ أى : يُخَلِّفُ قَرْنَا لِقَرْنٍ قَبْلَهُمْ وَخَلَفًا لِسَلْفٍ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنْ يَشَاءْ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلَفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ [الأنعام: ١٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] ، أى قوماً يخلف بعضهم بعضاً كما قدمنا تقريره . وهكذا هذه الآية : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ أى : أمة بعد أمة ، وجيلاً بعد جيل ، وقوماً بعد قوم . ولو شاء لأوجدتهم كلهم فى وقت واحد ، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض ، بل لو شاء لخلقهم (٥) كلهم أجمعين ، كما خلق آدم من تراب . ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض (٦) ، ولكن لا يمت أحداً حتى تكون وفاة الجميع فى وقت واحد ، فكانت تضيق عليهم الأرض (٧) ، وتضيق عليهم معاشهم وأكسابهم ، ويتضرر بعضهم ببعض . ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة ، ثم يكثرهم غاية الكثرة ، ويذراهم فى الأرض ، ويجعلهم قروناً بعد قرون ، وأما بعد أمم ، حتى ينقضى الأجل وتفرغ البرية ، كما قدر ذلك تبارك وتعالى ، وكما أحصاهم وعدَّهم عدداً ، ثم يقيم (٨) القيامة ، ويوفى كلَّ عامل عمله إذا بلغ الكتاب

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف ، أ : « فيظلمونى ولا يطعمونى »

(٣) فى ف ، أ : « ما نظام » .

(٤) تاريخ دمشق ٤٨٩/١٩ « المخطوط » .

(٥) فى أ : « لجعلهم » . (٦) فى ف ، أ : « من ذرية بعضهم بعضاً » .

(٧) فى ف : « تضيق الأرض عليهم » . (٨) فى ف : « يوم » .

أجله ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ أى : يقدر على ذلك ، أو إله مع الله يُعْبَدُ ، وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك ﴿قَلِيلًا مَّا يَذْكُرُونَ﴾^(١) أى : ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم .

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٦٣) .

يقول : ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أى : بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية ، كما قال : ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل : ١٦] ، وقال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ الآية [الأنعام : ٩٧] .

﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أى : بين يدي السحاب الذي فيه مطر ، يغيث به عباده المُجِدِّينَ الْأَزْلِينَ الْقَنْطِينَ ، ﴿إِلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٦٤) .

أى : هو الذى بقدرته وسلطانه يبدأ^(٢) الخلق ثم يعيده ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿إِنْ يَبْطِشْ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ . إِنَّهُ هُوَ يَبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج : ١٢ ، ١٣] ، وقال : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم : ٢٧] .

﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أى : بما ينزل من مطر السماء ، وينبت من بركات الأرض ، كما قال : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ . وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ [الطارق : ١١ ، ١٢] ، وقال : ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [الحديد : ٤] ، فهو ، تبارك وتعالى ، ينزل من السماء مباركاً فيسكنه في الأرض ، ثم يخرج به [منها]^(٣) أنواع الزروع والثمار والأزهار ، وغير ذلك من ألوان شتى ، ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ [طه : ٥٤] ؛ ولهذا قال : ﴿إِلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ أى : فعل هذا . وعلى القول الآخر : يعبد ؟ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على صحة ما تدعونه^(٤) من عبادة آلهة أخرى ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فى ذلك ، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان ، كما قال [الله] ^(٥) : ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون : ١١٧] .

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾^(٦٥) بَلْ

(٣) زيادة من ف .

(٢) فى ف ، أ : « بدأ » .

(١) فى ف ، أ : « ماتذكرون » .

(٥) زيادة من أ .

(٤) فى أ : « من يدعونه » .

إِدَارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ .

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول معلماً لجميع الخلق: أنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب. وقوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ استثناء منقطع ، أى: لا يعلم أحد ذلك إلا الله ، عز وجل ، فإنه المنفرد بذلك وحده ، لا شريك له ، كما قال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الآية [الأنعام: ٥٩] ، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان : ٣٤] ، والآيات في هذا كثيرة .

وقوله : ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أى : وما يشعر الخلائق الساكنون فى السموات والأرض بوقت الساعة ، كما قال : ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧] ، أى: ثقل علمها على أهل السموات والأرض .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن الجعد ، حدثنا أبو جعفر الرازى ، عن داود بن أبى هند ، عن الشعبي ، عن مسروق ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : من زعم أنه يعلم - يعنى لنبى ﷺ - ما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفرية ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (١) .

وقال قتادة : إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصلات (٢) : جعلها زينة للسماء ، وجعلها يهتدى بها ، وجعلها رجوماً [للشياطين] (٣) ، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه ، وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به . وإن ناساً جهلّة بأمر الله ، قد (٤) أحدثوا من هذه النجوم كهانة: من أعرّس بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا . ومن سافر بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا . ومن ولد بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا . ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود ، والقصير والطويل ، والحسن والدميم ، وما علم هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشيء من الغيب! وقضى الله: أنه لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيان يبعثون .

رواه ابن أبى حاتم عنه بحروفه ، وهو كلام جليل متين صحيح ، وقوله : ﴿بَلْ إِدَارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ أى : انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها .

وقرأ آخرون : « بل أدرك (٦) علمهم » أى: تساوى علمهم فى ذلك ، كما فى الصحيح لمسلم: أن رسول الله ﷺ قال لجبريل - وقد سأله عن وقت الساعة -: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل (٧) ، أى: تساوى فى العجز عن درك ذلك علم المسؤول والسائل .

(١) أصله فى الصحيحين لكن فيهما الشاهد قوله تعالى : ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ بدل هذه الآية : ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ .

(٢) فى ف ، أ : « خصل » . (٣) زيادة من ف ، أ . (٤) فى ف ، أ : « فقد » .

(٥) فى أ : « أدرك » . (٦) فى أ : « ادرك » .

(٧) صحيح مسلم برقم (٨) .

قال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ بَلِ ادْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ أى : غاب .
وقال قتادة : ﴿ بَلِ ادْرَكَ ﴾ (١) عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ يعنى : يُجْهَلَمُ (٢) ربهم ، يقول : لم ينفذ (٣) لهم
إلى الآخرة علم ، هذا قول .

وقال ابن جرير ، عن عطاء الخراساني ، عن ابن عباس : « بل أدرك علمهم فى الآخرة » ،
حين لم ينفع العلم ، وبه قال عطاء الخراساني ، والسدي : أن علمهم إنما يُدرك ويكمل يوم القيامة
حيث لا ينفعهم ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ ﴾ [مريم : ٣٨] .

وقال سفيان ، عن عمرو بن عبيد ، عن الحسن أنه كان يقرأ : « بل أدرك علمهم » ، قال :
اضمحل علمهم فى الدنيا ، حين عاينوا الآخرة .

وقوله : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ﴾ عائد على الجنس ، والمراد الكافرون ، كما قال تعالى :
﴿ وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴾
[الكهف : ٤٨] أى : الكافرون منكم (٤) . وهكذا قال ههنا : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ﴾ أى : شاكون فى
وجودها ووقوعها ، ﴿ بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴾ أى : فى عماية وجهل كبير فى أمرها وشأنها .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ (٦٧) لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ
وآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (٧٠) .

يقول تعالى مخبراً عن منكرى البعث من المشركين : أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها
عظاماً ورفاتاً وتراباً ، ثم قال : ﴿ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى : ما زلنا نسمع بهذا نحن
وآبَاؤنا ، ولا نرى له حقيقة ولا وقوعاً .

وقولهم : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ : يعنون : ما هذا الوعد بإعادة الأبدان ، ﴿ إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾
أى : أخذه (٥) قوم عن قبلهم ، من قبلهم (٦) يتلقاه بعض عن بعض ، وليس له حقيقة . قال الله
تعالى مجيباً لهم عما ظنوه من الكفر وعدم المعاد : ﴿ قُلْ ﴾ - يامحمد - لهؤلاء : ﴿ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى : المكذبين بالرسول وما جاؤوهم به من أمر المعاد وغيره ، كيف
حلت بهم نَقَمُ اللَّهِ وعذابه ونكاله ، ونجى الله من بينهم رسله الكرام ومن اتبعهم من المؤمنين ، فدل
ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته .

ثم قال تعالى مسلماً لنبية ، صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : المكذبين بما
جئت به ، ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات ، ﴿ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أى :

(١) فى أ : « أدرك » . (٢) فى أ : « بجهلهم » . (٣) فى ف : « يتقدم » . (٤) فى ف ، أ : « منهم » .
(٥) فى ف : « يأخذه » ، وفى أ : « أخذ » . (٦) فى أ : « كتبهم » .

فى كيدك وردّ ما جئت به ، فإن الله مؤيدك وناصرك ، ومظهر دينك على من خالفه وعانده فى المشارق والمغارب .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٧١) قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٧٥) .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ، فى سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قال الله مجيباً لهم : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ . [قال ابن عباس أن يكون قرب - أو : أن يقرب - لكم بعض الذى تستعجلون] (١) . وهكذا (٢) قال مجاهد ، والضحاك ، وعطاء الخراساني ، وقتادة ، والسدى .

وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء : ٥١] ، وقال تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٥٤] .

وإنما دخلت « اللام » فى قوله : ﴿ رَدِفَ لَكُمْ ﴾ ؛ لأنه ضُمن معنى « عَجَلَ لَكُمْ » ، كما قال مجاهد فى رواية عنه : ﴿ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ ﴾ : عجل لكم .

ثم قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ أى : فى إسباغه نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم ، وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم ، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أى : يعلم السرائر والضمائر ، كما يعلم الظواهر ، ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾ [الرعد : ١٠] ، ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه : ٧] ، ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [هود : ٥] .

ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السموات والأرض ، وأنه عالم الغيب والشهادة - وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه - فقال : ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال ابن عباس : يعنى : وما من شيء ، ﴿ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ وهذا كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج : ٧٠] .

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١) ﴿

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز ، وما اشتمل عليه من الهدى والبيّنات والفرقان (١) : أنه يقص على بنى إسرائيل - وهم حملة التوراة والإنجيل - ﴿ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ، كاختلافهم فى عيسى وتباينهم فيه ، فاليهود افتروا ، والنصارى غلّوا ، فجاء [إليهم] (٢) القرآن بالقول الوسط الحق العدل : أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسله الكرام ، عليه [أفضل] (٣) الصلاة والسلام ، كما قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ [مريم : ٣٤] .

وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : هدى لقلوب المؤمنين ، ورحمة لهم فى العمليات . ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ فى انتقامه ، ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم .

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى : فى أمورك ، وبلغ رسالة ربك ، ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ أى : أنت على الحق المبين وإن خالفك من خالفك ، ممن كتبت (٤) عليه الشقاوة وحقّت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى ﴾ أى : لا تسمعهم شيئاً ينفعهم ، فكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة ، وفى آذانهم وقْر الكفر ؛ ولهذا قال : ﴿ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ . وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [أى] (٥) : إنما يستجيب لك من هو سميع بصير ، السمع والبصر النافع فى القلب والبصيرة الخاضع لله ، ولما جاء عنه على السنة الرسل ، عليهم السلام .

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) ﴾

هذه الدابة تخرج فى آخر الزمان عند فساد الناس وترْكهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق ، يخرج الله لهم دابة من الأرض - قيل : من مكة . وقيل : من غيرها . كما سيأتى تفصيله - فتكلم الناس على ذلك .

قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة - وروى عن على ، رضى الله عنه - : تكلمهم كلاماً أى : تخاطبهم مخاطبة .

وقال عطاء الخراسانى : تكلمهم فنقول لهم : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون . ويروى هذا عن على ، واختاره ابن جرير . وفى هذا [القول] (٦) نظر لا يخفى ، والله أعلم .

(١) فى ف : « والبيان » . (٢) (٣) زيادة من ف ، أ . (٤) فى ف ، أ : « كتب » . (٥) زيادة من ف ، أ . (٦) زيادة من ف ، أ .

وقال ابن عباس - فى رواية - : تجرحهم . وعنه رواية ، قال : كلاً (١) تفعل يعنى هذا وهذا ، وهو قول حسن ، ولا منافاة ، والله أعلم .

وقد ورد فى ذكر الدابة أحاديث وآثار كثيرة ، فلنذكر ما تيسر منها ، والله المستعان :

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن فُرَات ، عن أبى الطفيل ، عن حُذَيْفَةَ بن أسيد الغفارى قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال : لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمغرب ، وخسف بالشرق ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق - أو : تحشر - الناس ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقبل معهم حيث قالوا « (٢) .

وهكذا رواه مسلم وأهل السنن ، من طرق ، عن فُرَات القزاز ، عن أبى الطفيل عامر بن واثلة ، عن حُذَيْفَةَ موقوفاً (٣) . وقال الترمذى : حسن صحيح (٤) . ورواه مسلم أيضاً من حديث عبد العزيز ابن رُقَيْع ، عن أبى الطفيل ، عنه مرفوعاً (٥) (٦) . والله أعلم .

طريق أخرى : قال أبو داود الطيالسى ، عن طلحة بن عمرو ، وجريز بن حازم ، فأما طلحة فقال : أخبرنى عبد الله بن عبيد الله بن عمير الليثى : أن أبا الطفيل حدثه ، عن حُذَيْفَةَ بن أسيد الغفارى أبى سَرِيحَةَ ، وأما جريز فقال : عن عبد الله بن عبيد ، عن رجل من آل عبد الله بن مسعود - وحديث طلحة أتم وأحسن - قال : ذَكَرَ رسولُ الله ﷺ الدابة فقال : «لها ثلاث خرجات من الدهر، فتخرج خُرْجة من أقصى البادية ، ولا يدخل ذكرها القرية - يعنى : مكة - ثم تكمن زماناً طويلاً ، ثم تخرج خُرْجة أخرى دون تلك ، فيعلو ذكرها فى أهل البادية ، ويدخل ذكرها القرية» يعنى : مكة . قال رسول الله ﷺ : « ثم بينما الناس فى أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها : المسجد الحرام ، لم يرْعُهُمْ إلا وهى تَرْغُو (٧) بين الركن والمقام ، تنفض عن رأسها التراب . فارفض الناس عنها شتّى ومعاً ، وبقيت عصابة من المؤمنين ، وعرفوا أنهم لم يعجزوا الله ، فبدأت بهم فجَلَّتْ وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدرّى ، وولت فى الأرض لا يدركها طالب ، ولا ينجو منها هارب ، حتى إن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة ، فتأتيه من خلفه فتقول : يا فلان ، الآن تصلى ؟

(١) فى ف : « كل » .

(٢) رواه الإمام أحمد فى المسند (٦/٤) ولكن باختلاف فى الألفاظ ، وهذا اللفظ هو سياق حديث ابن مهدى عن سفيان وهو فى المسند (٧/٤) .

(٣) فى ف ، أ : « به مرفوعاً » .

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٩٠١) وسنن أبو داود برقم (٤٣١١) وسنن الترمذى برقم (٢١٨٣) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٤١) .

(٥) فى ف ، أ : « موقوفاً » .

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٩٠١) .

(٧) فى أ : « تربو » .

فيقبل عليها فتسّمهُ (١) في وجهه ، ثم تنطلق ويشارك الناس في الأموال ، ويصطحبون في الأمصار ، يعرف المؤمن من الكافر ، حتى إن المؤمن ليقول : يا كافر ، اقضنى حقي . وحتى إن الكافر ليقول : يا مؤمن ، اقضنى حقي» (٢) .

ورواه ابن جرير من طريقين ، عن حذيفة بن أسيد موقوفاً (٣) . فالله أعلم . ورواه من رواية حذيفة بن اليمان مرفوعاً ، وأن ذلك في زمان عيسى ابن مريم ، وهو يطوف بالبيت ، ولكن إسناده لا يصح (٤) .

حديث آخر : قال مسلم بن الحجاج : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا محمد بن بشر ، عن أبي حيان ، عن أبي زرعة ، عن عبد الله بن عمرو قال : حَفِظْتُ من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه (٥) بعد : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الآيات خروجاُ طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيتهما ما كانت قبل صاحبتهما ، فالأخرى (٦) على أثرها قريباً » (٧) .

حديث آخر : روى مسلم في صحيحه من حديث العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب - مولى الحرقة - عن أبيه : عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « بادروا بالأعمال ستاً (٨) : طلوع الشمس من مغربها ، أو الدخان ، أو الدجال ، أو الدابة ، أو خاصة أحدكم ، أو أمر العامة » (٩) . وله من حديث قتادة ، عن الحسن ، عن زياد بن رباح ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « بادروا بالأعمال ستاً : الدجال ، والدخان ، ودابة الأرض ، وطلوع الشمس من مغربها ، وأمر العامة وخويصة أحدكم » (١٠) .

حديث آخر : قال ابن ماجه : حدثنا حرملة بن يحيى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث وابن لهيعة ، عن يزيد بن أبي حبيب ، عن سنان بن سعد ، عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « بادروا بالأعمال ستاً : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، ودابة الأرض ، والدجال ، وخويصة أحدكم ، وأمر العامة » . تفرد به (١١) .

حديث آخر : قال أبو داود الطيالسى أيضاً : حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن أوس (١٢) بن خالد ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « تخرج دابة الأرض ، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان ، عليهما السلام ، فتخطم أنف الكافر بالعصا ، وتُجلى وجه المؤمن

(١) فى أ : « فتشمه » .

(٢) مسند الطيالسى برقم (١٠٦٩) .

(٣) تفسير الطبرى (١٠/٢٠) .

(٤) تفسير الطبرى (١١/٢٠) .

(٥) فى ف : « لم أنساه » . (٦) فى ف : « والأخرى » .

(٧) صحيح مسلم برقم (٢٩٤١) .

(٨) فى ف ، أ : « ستة » .

(٩) ، (١٠) صحيح مسلم برقم (٢٩٤٧) .

(١١) سنن ابن ماجه برقم (٤٠٥٦) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/٢٥٦) : « هذا إسناده حسن ، سنان بن سعد مختلف فيه وفى اسمه » .

(١٢) فى هـ ، ف ، أ : « أوس » والمثبت من المسند .

بالخاتم ، حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر » .

ورواه الإمام أحمد ، عن بهز وعفان ويزيد بن هارون ، ثلاثهم عن حماد بن سلمة ، به (١) .
وقال : « فتخطم أنف الكافر بالخاتم ، وتجلو وجه المؤمن بالعصا ، حتى إن أهل الخوان الواحد ليجتمعون فيقول هذا : يا مؤمن ، ويقول هذا : يا كافر » .

ورواه ابن ماجه ، عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن يونس بن محمد المؤدب ، عن حماد بن سلمة ، به (٢) .

حديث آخر : قال ابن ماجه : حدثنا أبو غسان محمد بن عمرو ، حدثنا أبو تَمِيْلَة ، حدثنا خالد ابن عُبَيْد ، حدثنا عبد الله بن بُرَيْدَة ، عن أبيه قال : ذهب بى رسول الله ﷺ إلى موضع بالبادية ، قريب من مكة ، فإذا أرض يابسة حولها رمل ، فقال رسول الله ﷺ : « تخرج الدابة من هذا الموضع . فإذا فتر في شبر » .

قال ابن بُرَيْدَة : فحجبت بعد ذلك بسنين ، فأرانا عصاً له ، فإذا هو بعصاى هذه (٣) ، كذا وكذا (٤) .

وقال عبد الرزاق عن مَعْمَر ، عن قتادة ؛ أن ابن عباس قال : هى دابة ذات زَعَب ، لها أربع قوائم ، تخرج من بعض أودية تهامة (٥) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن رَجَاء ، حدثنا فضيل بن مرزوق ، عن عطية قال : قال عبد الله : تخرج الدابة من صِدْع من الصفا كَجَرَى الفرس ثلاثة أيام ، لم يخرج ثلثها .

وقال محمد بن إسحاق ، عن أَبَان بن صالح قال : سئل عبد الله بن عمرو عن الدابة ، فقال : الدابة تخرج من تحت صخرة بجياد ، والله لو كنت معهم - أو لو شئت بعصاى الصخرة التى تخرج الدابة من تحتها . قيل : فتصنعُ ماذا يا عبد الله بن عمرو ؟ قال : تستقبل المشرق فتصرخ صرخة تنفذه ، ثم تستقبل الشام فتصرخ (٦) صرخة تنفذه ، ثم تستقبل المغرب فتصرخ صرخة تنفذه ، ثم تستقبل اليمن فتصرخ صرخة تنفذه ، ثم تروح من مكة فتصبح (٧) بعسفان . قيل : ثم ماذا ؟ قال : لا أعلم .

وعن عبد الله بن عمر ، أنه قال : تخرج الدابة ليلة جَمْع (٨) . ورواه ابن أبى حاتم . وفى

(١) مسند الطيالسى برقم (٢٥٦٤) والمسند (٢٩٥/٢) من حديث عفان ويزيد ، و(٢٩١/٢) من حديث بهز .

(٢) سنن ابن ماجه برقم (٤٠٦٦) .

(٣) فى ف ، أ : « هذا » .

(٤) سنن ابن ماجه برقم (٤٠٦٧) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢٥٩/٣) : « هذا إسناد ضعيف » .

(٥) تفسير عبد الرزاق (٧١/٢) .

(٦) فى أ : « ثم تصرخ » .

(٧) فى أ : « فتضع » .

(٨) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٨٠/١٥) من طريق عبد الملك بن المغيرة ، عن ابن البيلىمان ، عن ابن عمر قال : « تخرج الدابة ليلة جمع والناس يسرون إلى منى فتحملهم بين عجزها وذنبها فلا يبقى منافق إلا خطمته ، قال : وتمسح المؤمن ، قال : فيصبحون وهم أشرف من الدجال » .

إسناده ابن البيلمان (١) .

وعن وهب بن منبه : أنه حكى من كلام عَزِير ، عليه السلام ، أنه قال : وتخرج من تحت سدوم دابة تكلم الناس كل يسمعها ، وتضع الجبالى قبل التمام ، ويعود الماء العذب أجاجاً ، ويتعادي الأخلاء ، وتُحرقُ الحكمة ، ويرْفَعُ العلم ، وتكلم الأرض التى تليها . وفى ذلك الزمان يرجو الناس مالا يبلغون ، ويتعبون فيما لا ينالون ، ويعملون فيما لا يأكلون . رواه ابن أبى حاتم ، عنه .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو صالح - كاتب الليث - حدثنى معاوية بن صالح ، عن أبى مريم : أنه سمع أبا هريرة ، رضى الله عنه ، يقول : إن الدابة فيها من كل لون ، ما بين قرنها فرسخ (٢) للراكب .

وقال ابن عباس : هى مثل الحربة الضخمة .

وعن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، أنه قال : إنها دابة لها ريش وزغب وحافر ، وما لها ذنب ، ولها لحية ، وإنها لتخرج حُضْرُ الفرس الجواد ثلاثاً ، وما خرج ثلثها (٣) . ورواه ابن أبى حاتم .

وقال ابن جُرَيْج ، عن ابن الزبير أنه وصف الدابة فقال : رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن أيل ، وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هرّ ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير ، بين كل مفصلين اثنا [عشر] (٤) ذراعاً ، تخرج معها عصا موسى ، وخاتم سليمان ، فلا يبقى مؤمن إلا نكتت فى وجهه بعصا موسى نكتة بيضاء ، فتنفשו تلك النكتة حتى يبيض لها وجهه ، ولا يبقى كافر إلا نكتت فى وجهه نكتة سوداء بخاتم سليمان ، فتنفشوا تلك النكتة حتى يسود لها وجهه ، حتى إن الناس يتبايعون فى الأسواق : بكم ذا يا مؤمن ، بكم ذا يا كافر ؟ وحتى إن أهل البيت يجلسون على مائدتهم ، فيعرفون مؤمنهم من كافرهم ، ثم تقول لهم الدابة : يا فلان ، أبشر ، أنت من أهل الجنة ؟ ويا فلان ، أنت من أهل النار . فذلك قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ (٥) .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ إِذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِسُكُونٍ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ .

(١) فى ف : « البيلماني » . (٢) فى أ : « فرح » . (٣) فى ف ، أ : « ثلاثها » . (٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) وهذا من الإسرائيليات عما لا فائدة من ذكره ، وأوصاف الدابة لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى .

يقول تعالى مخبراً عن يوم القيامة ، وحشر الظالمين المكذبين ^(١) بآيات الله ورسله إلى بين يدي الله، عز وجل ، ليسألهم عما فعلوه في الدار الدنيا ، تقرعاً وتوبيخاً ، وتصغيراً وتحقيراً فقال : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ﴾ أى : من كل قوم وقرن ^(٢) فوجاً ، أى : جماعة ، ﴿ مِمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ [الصافات : ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [التكوير : ٧] .

وقوله : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ : قال ابن عباس، رضى الله عنهما : يدفعون . وقال قتادة : وزعة ترد ^(٣) أولهم على آخرهم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يساقون .
﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا ﴾ أى : أوقفوا بين يدي الله ، عز وجل ، فى مقام المسألة ، ﴿ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تَحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَآذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ؟ أى : ويسألون ^(٤) عن اعتقادهم ، وأعمالهم فلما لم يكونوا من أهل السعادة ، وكانوا كما قال الله تعالى عنهم : ﴿ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى . وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴾ [القيامة : ٣١ ، ٣٢] ، فحينئذ قامت عليهم الحجة ، ولم يكن لهم عذر يعتذرون به ، كما قال تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ . وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات : ٣٥ - ٣٧] ، وهكذا قال ههنا : ﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ أى : بهتوا فلم يكن لهم جواب ؛ لأنهم كانوا فى الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم ، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذى لا تخفى ^(٥) عليه خافية .

ثم قال تعالى منبهاً على قدرته التامة ، وسلطانه العظيم ، وشأنه الرفيع الذى تجب طاعته والانقياد لأوامره ، وتصديق أنبيائه فيما جاؤوا به من الحق الذى لا محيد عنه ، فقال : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ ﴾ أى : فيه ظلام تسكن ^(٦) بسببه حركاتهم ، وتهدا أنفاسهم ، ويستريحون من نصب التعب فى نهارهم . ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أى : منيراً مشرقاً ، فبسبب ذلك يتصرفون فى المعاش والمكاسب ، والأسفار والتجارات ، وغير ذلك من شؤونهم التى يحتاجون إليها ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَهُ دَاخِرِينَ ﴾ (٨٧) وترى الجبال تحسبها جامدةً وهى تمرُّ مرَّ السحابِ صنعَ الله الذى أتقن كلَّ شيءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَرْعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) .

(١) فى ف ، أ : « الظالمين مع المكذبين » . (٢) فى ف : « قرن وقوم » . (٣) فى ف ، أ : « يرد » .
(٤) فى ف : « يسألون » . (٥) فى ف : « لا يخفى » . (٦) فى ف : « يسكن » .

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع في الصور ، وهو كما جاء في الحديث : « قرن ينفخ فيه » . وفي حديث (الصور) أن إسرافيل هو الذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى ، فينفخ فيه أولاً نفخة الفزع ويطولها ، وذلك في آخر عمر الدنيا ، حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء ، فيفزع من في السموات ومن في الأرض ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ، وهم الشهداء ، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون .

قال الإمام مسلم بن الحجاج : حدثنا عبيد الله ^(١) بن مُعَاذ العنبري ، حدثنا أبي ، حدثنا شعبة ، عن النعمان بن سالم : سمعت يعقوب بن عاصم بن عروه بن مسعود الثقفي ، سمعت عبد الله بن عمرو ، رضى الله عنه ، وجاءه رجل فقال : ما هذا الحديث الذي تحدث أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا ؟ فقال : سبحان الله - أو : لا إله إلا الله - أو كلمة نحوهما - لقد هممت ألا أحدث أحدًا شيئاً أبداً ، إنما قلت : إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً يخرب البيت ، ويكون ويكون . ثم قال : قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين - [لا أدري أربعين] ^(٢) يوماً ، أو أربعين شهراً ، أو أربعين عاماً - فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود ، فيطلبه فيهلكه . ثم يمكث الناس سبع سنين ، ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدهم دخل في كبد جبل لدخلته ^(٣) عليه حتى تقبضه » . قال : سمعتها من رسول الله ﷺ ، قال : « فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع ، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً ، فيمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبيون ؟ فيقولون : فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ، وهم في ذلك ^(٤) دار رزقهم ، حسن عيشهم . ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتها [ورفع ليتها] ^(٥) » . قال : « وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله » . قال : « فيصعق ويصعق الناس ، ثم يرسل الله - أو قال : ينزل الله مطراً كأنه الطل - أو قال : الظل - نعمان الشاك - فتنبت ^(٦) منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . ثم يقال : يأياها الناس ، هلموا إلى ربكم ، وقفوهم إنهم مسؤولون . ثم يقال : أخرجوا بعث النار . فيقال : من كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين » . قال : « فذلك ^(٧) يوم يجعل الولدان شيباً ، وذلك يوم يكشف عن ساق » ^(٨) .

وقوله ^(٩) : « ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتها ورفع ليتها » ، الليت ^(١٠) : هو صفحة العنق ، أى : آمال عنقه ليستمعه من السماء جيداً .

فهذه نفخة الفزع . ثم بعد ذلك نفخة الصعق ، وهو الموت . ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين ، وهو النشور من القبور لجميع الخلائق ؛ ولهذا قال : ﴿وَكُلُّ أُنثَى دَاخِرِينَ﴾ - قرئ بالمد ، وبغيره ^(١١) على الفعل ، وكل بمعنى واحد - و﴿دَاخِرِينَ﴾ أى : صاغرين مطيعين ، لا يتخلف أحد

(١) فى أ : « عبد الله » . (٢) زيادة من ف ، أ ، وصحيح مسلم . (٣) فى ف ، أ : « لدخلت » .

(٤) فى أ : « وهى فى تلك » . (٥) زيادة من ف ، وصحيح مسلم . وفى أ : « أصغى ليتها ورفع ليتها » .

(٦) فى ف : « فتنبت » . (٧) فى أ : « فذلك » .

(٨) صحيح مسلم برقم (٢٩٤٠) .

(٩) فى ف ، أ : « فقله » . (١٠) فى أ : « إلا أصغى ليتها ورفع ليتها الليت » .

(١١) فى ف : « وغيره » .

عن أمره ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : ٥٢] ، وقال : ﴿ ثم إذا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم : ٢٥] . وفى حديث الصور : أنه فى النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح ، فتوضع فى ثقب (١) فى الصور ، ثم ينفخ إسرافيل فيه بعد ما تنبت (٢) الأجساد فى قبورها وأماكنها ، فإذا نفخ فى الصور طارت الأرواح ، تتوهج أرواح المؤمنين نوراً ، وأرواح الكافرين ظلمة ، فيقول الله ، عز وجل : وعزتى وجلالى لترجعن كل روح (٣) إلى جسدها . فتجىء الأرواح إلى أجسادها ، فتدب فيها كما يدب السم فى اللديغ ، ثم يقومون فينفضون التراب من قبورهم ، قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصَبٍ يُّوفُونَ ﴾ [المعارج : ٤٣] .

وقوله : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ أى : تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه ، وهى تمر مر السحاب ، أى : تزول عن أماكنها ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا . وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ [الطور : ٩ ، ١٠] ، وقال : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه : ١٠٥ - ١٠٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَسِيرُ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [الكهف : ٤٧] .

وقوله : ﴿ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أى : يفعل ذلك بقدرته العظيمة الذى قد أتقن كل ما خلق ، وأودع فيه (٤) من الحكمة ما أودع ، ﴿ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ أى : هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر فيجازيهم عليه .

ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ فقال : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ - قال قتادة : بالإخلاص . وقال زين العابدين : هى لا إله إلا الله - وقد بين فى المكان (٥) الآخر (٦) أن له عشر أمثالها . ﴿ وَهُمْ مِّنْ فِرْعَ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفِرْعُ الْأَكْبَرُ ﴾ [الأنبياء : ١٠٣] ، وقال : ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [فصلت : ٤٠] ، وقال : ﴿ وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ ﴾ [سبأ : ٣٧] .

وقوله : ﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ أى : من لقي الله مسيئاً لا حسنة له ، أو : قد رجحت سيئاته على حسناته ، كل بحسبه (٧) ؛ ولهذا قال : ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

وقال ابن مسعود وأبو هريرة وابن عباس ، رضى الله عنهم ، وأنس بن مالك ، وعطاء ، وسعيد ابن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد ، وإبراهيم النخعى ، وأبو وائل ، وأبو صالح ، ومحمد بن كعب ، وزيد ابن أسلم ، والزهرى ، والسدى ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، وابن زيد ، فى قوله : ﴿ وَمَن جَاءَ

(١) فى أ : « ثقب » . (٢) فى أ : « ما نبتت » . (٣) فى ف : « كل ربح » .

(٤) فى ف : « به » . (٥) فى أ : « الموضع » .

(٦) يشير ابن كثير - رحمه الله - إلى الآية : ١٦٠ من سورة الأنعام ، وهى قوله تعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

(٧) فى أ : « الحسنه » .

بِالسَّيِّئَةِ ﴿٩١﴾ يعنى : بالشرك .

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٩١) وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣) ۞ .

يقول تعالى مخبراً رسوله وأمرأ له أن يقول : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۞ ﴾ ، كما قال : ﴿ قُلْ (١) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ۞ ﴾ [يونس : ١٠٤] .

وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها ، كما قال : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۞ ﴾ [قريش : ٣ ، ٤] .

وقوله : ﴿ الَّذِي حَرَّمَهَا ۞ ﴾ أى : الذى إنما صارت حراماً قدراً وشرعاً ، بتحريمه لها ، كما ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يُعَصَّدُ شوكه ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لُقْطَتُهُ إلا لمن عرفها ، ولا يختلى خلاها » الحديث بتمامه . وقد ثبت فى الصحيحين والحسان والمسانيد من طرق جماعة تفيد القطع (٢) ، كما هو مبين فى موضعه من (٣) كتاب الأحكام ، والله الحمد .

وقوله : ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۞ ﴾ : من باب عطف العام على الخاص ، أى : هو رب هذه البلدة ، ورب كل شئ ومليكه ، ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ ﴾ أى : الموحدون المخلصون المنقادون لأمره المطيعين له .

وقوله : ﴿ وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ ۞ ﴾ أى : على الناس أبلغهم إياه ، كقوله : ﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ۞ ﴾ [آل عمران : ٥٨] ، وكقوله : ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ ﴾ [القصص : ٣] أى : أنا مبلغ ومنذر ، ﴿ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ۞ ﴾ أى : لى سوية الرسل الذين أنذروا قومهم ، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم ، وخلصوا من عهدتهم ، وحساب أمهم على الله ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ۞ ﴾ [الرعد : ٤٠] ، وقال : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۞ ﴾ [هود : ١٢] .

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ۞ ﴾ أى : لله الحمد الذى لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة

(١) فى هـ : « قال » والثبت من ف ، أ .

(٢) صحيح البخارى برقم (١٨٣٤) وصحيح مسلم برقم (١٣٥٣) وسنن أبى داود برقم (٢٠١٨) وسنن الترمذى برقم (١٥٩٠) وسنن

النسائى (٢٠٣/٥) والمسند (٢٥٩/١) .

(٣) فى ف : « فى » .

عليه ، والإعذار إليه ؛ ولهذا قال : ﴿ سِرُّكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

وقوله : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى : بل هو شهيد على كل شيء .

قال ابن أبى حاتم : ذكر عن أبى عمر الحوضى حفص بن عمر : حدثنا أبو أمية بن يعلى الثقفى ، حدثنا سعيد بن أبى سعيد ، سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « يأبها الناس ، لا يَغْتَرَنَّ أحدكم باللّه ؛ فإن اللّه لو كان غافلاً شيئاً لأغفل البعوضة والخرذلة والذرة » (١) .

[قال أيضا] (٢) : حدثنا محمد بن يحيى ، حدثنا نصر بن على ، قال أبى : أخبرنى خالد بن قيس ، عن مطر ، عن عمر بن عبد العزيز قال : فلو كان اللّه مغفلاً شيئاً لأغفل ما تعفى الرياح من أثر قدمى ابن آدم .

وقد ذكر عن الإمام أحمد ، رحمه الله ، أنه كان ينشد هذين البيتين ، إما له أو لغيره :

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ	خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَى رَقِيبٍ
وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ يَغْفِلُ سَاعَةً	وَلَا أَنْ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ

(١) ورواه الديلمى فى مسند الفردوس برقم (٨١٦٧) من طريق أبى أمية بن يعلى به .

(٢) زيادة من ف ، أ .

[بسم الله الرحمن الرحيم . رب يسر بفضلك] (١)

تفسير سورة القصص

[وهى مكية] (٢) .

قال الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا وكيع ، عن أبيه ، عن أبى إسحاق ، عن معد يكرب قال : أتينا عبد الله فسألناه أن يقرأ علينا ﴿ طسّم ﴾ المائتين ، فقال : ما هى معى ، ولكن عليكم من أخذها من رسول الله ﷺ : خبّاب بن الأرت . قال : فأتينا خبّاب بن الأرت ، فقرأها علينا ، رضى الله عنه (٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسّم ﴾ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة .

وقوله : ﴿ تِلْكَ ﴾ أى : هذه ﴿ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ أى : الواضح الجلى الكاشف عن حقائق الأمور ، وعلم ما قد كان وما هو كائن .

وقوله : ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ [يوسف : ٣] أى : نذكر لك الأمر على ما كان عليه ، كأنك شاهد وكأنك حاضر .

ثم قال : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : تكبر وتجبّر وطغى ، ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا ﴾ أى : أصنافاً ، قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته .

وقوله : ﴿ يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ ﴾ يعنى : بنى إسرائيل . وكانوا فى ذلك الوقت خيار أهل زمانهم . هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم فى أخس الأعمال ، ويكُدُّهم ليلاً ونهاراً فى أشغاله وأشغال رعيته ، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيى نساءهم ، إهانة لهم واحتقاراً ، وخوفاً من أن يوجد منهم الغلام الذى كان قد تخوف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام ،

(٢) زيادة من ف .

(١) زيادة من ت .

(٣) المسند (١ / ٤١٩) .

يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه . وكانت القبط قد تلقوا هذا من بنى إسرائيل فيما كانوا يدرسون من قول إبراهيم الخليل ، حين ورد الديار المصرية ، وجرى له مع جبارها ما جرى ، حين أخذ سارة ليتخذها جارية ، فصانها الله منه ، ومنعه منها ^(١) بقدرته وسلطانه . فبشر إبراهيم ، عليه السلام ، ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك ملك مصر على يديه ، فكانت القبط تتحدث بهذا عند فرعون ، فاحتز فرعون من ذلك ، وأمر بقتل ذكور بنى إسرائيل ، ولن ينفع حذر من قدر ؛ لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، ولكل أجل كتاب ؛ ولهذا قال : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيْ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمَا مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ . وقد فعل تعالى ذلك بهم ، كما قال : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٧] ، وقال : ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : ٥٩] ، أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى ، فما نفعه ذلك مع قَدْرَ الملك العظيم الذى لا يخالف أمره القدرى ، بل نفذ حكمه وجرى قلمه فى القدم بأن يكون إهلاك فرعون على يديه ، بل يكون هذا الغلام الذى احتزت من وجوده ، وقتلت بسببه ألوفا من الولدان إنما منشؤه ومرباه على فراشك ، وفى دارك ، وغذاؤه من طعامك ، وأنت تربيته وتدله وتتفاده ، وحتفك ، وهلاكك وهلاك جنودك على يديه ، لتعلم أن رب السموات العلا هو القادر والغالب العظيم ، العزيز القوى الشديد المحال ، الذى ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنَ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) ﴾ .

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بنى إسرائيل ، خافت القبط أن يفنى بنى إسرائيل ^(٢) ، فَيَلُون ^(٣) هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة . فقالوا لفرعون : إنه يوشك - إن استمر هذا الحال - أن يموت شيوخهم ، وغلمانهم لا يعيشون ، ونساؤهم لا يمكن أن يَقْمَنَ بما يقوم به رجالهم من الأعمال ، فيخلص إلينا ذلك . فأمر بقتل الولدان عاماً وتركهم عاماً ، فولد هارون ، عليه السلام ، فى السنة التى يتركون فيها الولدان ، وولد موسى ، عليه السلام ، فى السنة التى يقتلون فيها الولدان ، وكان لفرعون أناس موكلون بذلك ، وقوابل يَدْرَنَ على النساء ، فمن رأينها قد حملت

(١) فى ف ، أ : « ومنعها منه » .

(٢) فى ف : « أن تفنى بنو إسرائيل » ، وفى أ : « أن يفنى بنو إسرائيل » .

(٣) فى أ : « فيكون » .

أحصوا اسمها ، فإذا كان وقت ولادتها لا يَقْبَلُهَا إلا نساء القبط ، فإذا ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن ، وإن ولدت غلاماً دخل أولئك الذبّاحون ، بأيديهم الشفار المرفهة ، فقتلوه ومضوا قَبْحَهُمُ الله . فلما حملت أم موسى به ، عليه السلام ، لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها ، ولم تفتن لها الدايات ، ولكن لما وضعت ذكراً ضاقت به ذرعاً ، وخافت عليه خوفاً شديداً وأحبته حباً زائداً ، وكان موسى ، عليه السلام ، لا يراه أحد إلا أحبه ، فالسعيد من أحبه طبعاً وشرعاً قال الله تعالى : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ [طه : ٣٩] . فلما ضاقت ذرعاً به ألهمت في سرها ، وألقى في خلدتها ، ونفت في روعها ، كما قال الله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ قَالَتْ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ . وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل ، فاتخذت تابوتاً ، ومهدت فيه مهداً ، وجعلت ترضع ولدها ، فإذا دخل عليها أحد ممن تخاف جعلته في ذلك التابوت ، وسيرته ^(١) في البحر ، وربطته ^(٢) بحبل عندها . فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه ، فذهبت فوضعت في ذلك التابوت ، وأرسلته في البحر وذهلت عن أن تربطه ، فذهب مع الماء واحتمله ، حتى مر به ^(٣) على دار فرعون ، فالتقطه الجوارى فاحتملته ، فذهبن به إلى امرأة فرعون ، ولا يدرين ما فيه ، وخشين أن يفتتن عليها في فتحه دونها . فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأباهاه ، فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه ، وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها ؛ ولهذا قال : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ ^(٤) .

قال محمد بن إسحاق وغيره : « اللام » هنا لام العاقبة لا لام التعليل ؛ لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك . ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضي ما قالوه ، ولكن إذا نظر إلى معنى السياق فإنه تبقى ^(٥) اللام للتعليل ؛ لأن معناه أن الله ، تعالى ، قيضهم لالتقاطه ليجعله لهم عدواً وحزناً فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه ؛ ولهذا قال : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ .

وقد روى عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كتب كتاباً إلى قوم من القدرية ، في تكذيبهم بكتاب الله وبأقداره النافذة في علمه السابق : وموسى في علم الله السابق لفرعون عدو وحزن ، قال الله تعالى : ﴿وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ ، وقتلتم أنتم : لو شاء فرعون أن يكون لموسى ولياً ونصيراً ، والله يقول : ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ . يعنى : أن فرعون لما رآه هم بقتله خوفاً من أن يكون من بنى إسرائيل فجعلت امرأته آسية بنت مزاحم تُحَاجُّ عنه وتذبِّدونه ، وتحببه إلى فرعون ، فقالت : ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ﴾ فقال : أما لك فنعم ، وأما لى فلا . فكان كذلك ، وهداها الله به ، وأهلكه الله على يديه ، وقد تقدم في حديث الفتون في سورة « طه » هذه القصة بطولها ، من رواية ابن عباس مرفوعاً عن النسائي وغيره .

(٣) فى أ : « حتى قر به » .

(٢) فى أ : « وأوثقته » .

(١) فى ت : « وأرسلته » .

(٥) فى ت : « يعنى » .

(٤) زيادة من ت ، ف ، أ .

وقوله : ﴿عَسَىٰ أَنْ يَفْعَنَّا﴾ ، وقد حصل لها ذلك ، وهداها الله به ، وأسكنها الجنة بسببه .
وقولها : ﴿أَوْ نَتَّخِذْهُ وَلَدًا﴾ أى : أرادت أن تتخذه ولداً وتتبناه ، وذلك أنه لم يكن لها ولد منه .
وقوله تعالى : ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أى : لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه ، من الحكمة العظيمة البالغة ، والحجة القاطعة .

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١١ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ١٢ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٣﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن فؤاد أم موسى ، حين ذهب ولدها فى البحر ، أنه أصبح فارغاً ، أى : من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وأبو عبيدة ، والضحاك ، والحسن البصرى ، وقتادة ، وغيرهم .

﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ أى : إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لتُظهر أنه ذهب لها ولد ، وتخبر بحالها ، لولا أن الله ثبَّتَها وصَبَّرَها ، قال الله تعالى : ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ . وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ أى : أمرت ابنتها - وكانت كبيرة تعى ما يقال لها - فقالت لها : ﴿قُصِّيهِ﴾ أى : اتبعى أثره ، وخذى خبره ، وتطلَّعى شأنه من نواحي البلد . فخرجت لذلك ، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ﴾ - قال ابن عباس : عن جانب .
وقال مجاهد : ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ﴾ : عن بعيد .
وقال قتادة : جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده .

وذلك أنه لما استقر موسى ، عليه السلام ، بدار فرعون ، وأحبته امرأة الملك ، واستطلقته منه ، عرضوا عليه المراضع التى فى دارهم ، فلم يقبل منها ثدياً ، وأبى أن يقبل شيئاً من ذلك . فخرجوا به إلى سوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته ، فلما رأته بأيديهم عرفته ، ولم تظهر ذلك ولم^(١) يشعروا بها ، قال الله تعالى : ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ أى : تحريماً قَدَرِيّاً ، وذلك لكرامة الله له صانه^(٢) عن أن يرتضع غير ثدى أمه ؛ ولأن الله - سبحانه - جعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمه ، لترضعه وهى آمنة ، بعدما كانت خائفة . فلما رأتهم [أخته]^(٣) حائرین فيمن يرضعه قالت : ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ﴾^(٤) لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ .

(٢) فى ت : « صيانة » .

(٤) فى ت : « يرضعونه » .

(١) فى ت ، ف : « فلم » .

(٣) زيادة من ت .

قال ابن عباس : لما قالت ذلك أخذوها ، وشكوا في أمرها ، وقالوا لها : وما يدريك نصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في ظُورَة (١) الملك ورجاء منفعتهم . فأرسلوها ، فلما قالت لهم ذلك وخلصت من أذاهم ، ذهبوا معها إلى منزلهم ، فدخلوا به (٢) على أمه ، فأعطته ثديها فالتقمه ، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً . وذهب البشير إلى امرأة الملك ، فاستدعت أم موسى ، وأحسن إليها ، وأعطتها عطاءً جزيلاً ، وهى لا تعرف أنها أمه في الحقيقة ، ولكن لكونه وافق ثديها . ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه ، فأبت عليها وقالت : إن لى بعلأ وأولاداً ، ولا أقدر على المقام عندك . ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتى فعلت . فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك ، وأجرت عليها النفقة والصلوات والكساوى والإحسان الجزيل . فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية ، قد أبدلها الله من بعد خوفها أمناً ، فى عز وجاه ورزق دار . ولهذا جاء فى الحديث : « مثل الذى يعمل ويحتسب فى صنعته الخير ، كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها » ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل : يوم وليلة ، أو نحوه ، والله [سبحانه] (٣) أعلم ، فسبحان من بيديه الأمر ! ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ، الذى يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجاً ، وبعد كل ضيق (٤) مخرجاً . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ أى : به ، ﴿ وَلَا تَحْزَنْ ﴾ أى : عليه ، ﴿ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى : فيما وعدها من رده إليها ، وجعله من المرسلين . فحيثُ تحقق برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين ، فعاملته فى تربيته ما ينبغى له طبعاً وشرعاً .

وقوله : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : حُكَمَ الله فى أفعاله وعواقبها المحموده ، التى هو المحمود عليها فى الدنيا والآخرة ، فربما يقع الأمر كريبها إلى النفوس ، وعاقبته محموده فى نفس الأمر ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٦] وقال تعالى : ﴿ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ١٩] .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٤) ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين (١٥) قال رب إنى ظلمت نفسى فاعفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم (١٦) قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيراً للمجرمين (١٧) .

لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى ، عليه السلام ، ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى ، آناه الله حكماً وعِلْماً - قال مجاهد : يعنى النبوة ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

(١) فى هـ ، ت ، ف ، أ : « صهر » ، والمثبت من حديث الفتون . انظر : الجزء الخامس ، تفسير سورة طه .

(٢) فى ت : « بها » .

(٣) زيادة من أ .

(٤) فى ت : « ضيقة » .

ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما كان تعالى قدّر له من النبوة والتكليم : قضية قتله ذلك القبطي ، الذي كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين ، فقال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ قال ابن جرير ، عن عطاء الخراساني ، عن ابن عباس : وذلك بين المغرب والعشاء .

وقال ابن المنكدر ، عن عطاء بن يسار ، عن ابن عباس : كان ذلك نصف النهار . وكذلك قال سعيد بن جبير ، وعكرمة ، والسدي ، وقتادة .

﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ أى : يتضاربان ويتنازعان ، ﴿ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ ﴾ أى : من بنى إسرائيل (١) ، ﴿ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ أى : قبطي ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والسدي ، ومحمد بن إسحاق . فاستغاث الإسرائيلي بموسى ، عليه السلام ، ووجد موسى فرصة ، وهى غفلة الناس ، فعمد إلى القبطي ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ .

قال مجاهد : وكزه ، أى : طعنه بجمع (٢) كفه .

وقال قتادة : وكزه بعضا كانت معه .

﴿ فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ أى : كان فيها حتفه فمات ، ﴿ قَالَ ﴾ موسى : ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ . قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴿ أى : بما جعلت لى من الجاه والعزة والمنعة ﴾ ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً ﴾ أى : معينا ﴿ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ أى : الكافرين بك ، المخالفين لأمرك .

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ (١٨) فلما أن أراد أن يبش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين (١٩) .

يقول تعالى مخبراً عن موسى ، عليه السلام (٣) ، لما قتل ذلك القبطي أنه أصبح ﴿ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً ﴾ أى : من معرفة ما فعل ، ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ أى : يتلفت ويتوقع (٤) ما يكون من هذا الأمر ، فمر فى بعض الطرق ، فإذا ذاك (٥) الذى استنصره بالأمس علي ذلك القبطي يقاتل آخر ، فلما مر موسى ، استصرخه على الآخر ، فقال له موسى : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ أى : ظاهر الغواية كثير الشر . ثم عزم على البطش بذلك القبطي ، فاعتقد الإسرائيلي لحوره وضعفه وذلته أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك ، فقال يدفع عن نفسه : ﴿ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتُ نَفْساً بِالْأَمْسِ ﴾ وذلك لأنه لم

(٢) فى ت : « بجمع » .

(١) فى ت : « أى إسرائيلي » .

(٤) فى هـ ، ت : « أى يتقلب أى يتوقع » والمثبت من ف ، أ .

(٣) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » .

(٥) فى ت ، ف : « ذلك » .

يعلم به إلا هو وموسى ، عليه السلام ، فلما سمعها ذلك القبطى لَقَفَهَا من فمه ، ثم ذهب بها إلى باب فرعون فألقاها عنده ، فعلم بذلك ، فاشتد حنقه ، وعزم على قتل موسى ، فطلبوه وبعثوا وراءه ليحضروه لذلك .

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (٢٠) .

قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ ﴾ ، وصفه بالرجولية لأنه خالف الطريق ، فسلك طريقاً أقرب من طريق الذين بُعثوا وراءه ، فسبق إلى موسى ، فقال له : يا موسى ، ﴿ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ أى : يتشاورون فيك ﴿ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ ﴾ أى : من البلد ، ﴿ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ .

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدَرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (٢٤) .

لما أخبره ذلك الرجل بما تمألاً عليه فرعون ودولته فى أمره ، خرج من مصر وحده ، ولم يألف ذلك قلبه ، بل كان فى رفاهية ونعمة ورياسة ، ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ أى : يتلفت ، ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى : من فرعون وملئه . فذكروا أن الله ، سبحانه وتعالى ، بعث له ملكاً على فرس ، فأرشده إلى الطريق ، فآله أعلم .

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنَ ﴾ أى : أخذ طريقاً سالكاً مهيباً فرح بذلك ، ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أى : إلى الطريق الأقوم . ففعل الله به ذلك ، وهدهد إلى الطريق المستقيم فى الدنيا والآخرة ، فجعله هادياً مهدياً .

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾ أى : ولما وصل إلى مدين وورد ماءها ، وكان لها بئر ترده رعاء الشاء ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ أى : جماعة ﴿ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ أى : تكفكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذيا . فلما رآهما موسى ، عليه السلام ، رق لهما ورحمهما ، ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أى : ما خبركما لا تردان مع هؤلاء ؟ ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدَرَ الرِّعَاءُ ﴾ أى : لا يحصل لنا سقى إلا بعد فراغ هؤلاء ، ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ أى : فهذا الحال الملجئ لنا إلى ما ترى . قال الله تعالى : ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ .

قال أبو بكر بن أبى شيبة : حدثنا عبد الله ، أنبأنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو (١)

(١) فى هـ ، ت ، ف ، أ : « عروة بن ميمون » والمثبت من مصنف ابن أبى شيبة .

ابن ميمون الأودى ، عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، أن موسى ، عليه السلام ، لما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون ، قال : فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال ، فإذا هو بامراتين تذودان ، قال : ما خطبكما ؟ فحدثاه ، فأتى الحجر فرفعه ، ثم لم يستق إلا ذنوبا واحدا حتى رويت الغنم . إسناده صحيح (١) .

وقوله : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ - قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ، ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافياً فما وصل مدين حتى سقطت نعل قدمه . وجلس (٢) فى الظل وهو صفوة الله من خلقه ، وإن بطنه لاصق بظهره من الجوع ، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه وإنه لمحتاج إلى شق تمرة .

وقوله : ﴿ إِلَى الظِّلِّ ﴾ : قال ابن عباس ، وابن مسعود ، والسدى : جلس تحت شجرة .

وقال ابن جرير : حدثني الحسين بن عمرو العنقرى (٣) ، حدثنا أبى ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : حثت (٤) على جمل ليلتين ، حتى صبحت مدين ، فسألت عن الشجرة التى أوى إليها موسى ، فإذا شجرة خضراء ترف ، فأهوى إليها جملى - وكان جائعا - فأخذها جملى فعالجها ساعة ، ثم لفظها ، فدعوت الله لموسى ، عليه السلام ، ثم انصرفت (٥) .

وفى رواية عن ابن مسعود : أنه ذهب إلى الشجرة التى كلم الله منها لموسى ، كما سيأتى والله (٦) أعلم .

وقال السدى : كانت من شجر السمر .

وقال عطاء بن السائب : لما قال موسى : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ ، أسمع المرأة .

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَاجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) ﴾ .

لما رجعت المرأتان سرعاً (٧) بالغنم إلى أبيهما ، أنكر حالهما ومجيئهما سريعا ، فسألتهما عن

(١) المصنف لابن أبى شيبة (١١ / ٥٣٠) .

(٢) فى هـ ، أ : « ولما جلس » . (٣) فى ف : « عمير العنقرى » ، وفى أ : « عمير القفقرى » . (٤) فى ف ، أ : « أخبيت » .

(٥) تفسير الطبرى (٢٠ / ٣٧) .

(٦) فى ف : « فالله » .

(٧) فى أ : « سريعا » .

خبرهما ، فقصتا عليه ما فعل موسى ، عليه السلام . فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها قال الله تعالى : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ أى : مشى الحائر ، كما روى عن أمير المؤمنين عمر ، رضى الله عنه ، أنه قال : كانت مسترة بكم درعها .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا [أبى ، حدثنا] (١) أبو نعيم ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن عمر بن ميمون قال : قال عمر ، رضى الله عنه : جاءت تمشى على استحياء ، قائلة بثوبها على وجهها ، ليست بسلفع (٢) خراجة ولاجة . هذا إسناد صحيح .

قال الجوهري : السلفع من الرجال : الجسور ، ومن النساء : الجريئة السليطة ، ومن النوق : الشديدة .

﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ ، وهذا تأدب فى العبارة ، لم تطلبه طلبا مطلقا لئلا يوهم رية ، بل قالت : ﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ يعنى : ليشبك ويكافئك على سقيك لغنما . ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ﴾ أى : ذكر له ما كان من أمره ، وما جرى له من السبب الذى خرج من أجله من بلده ، ﴿ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ يقول : طب نفسا وقر عينا ، فقد خرجت من مملكتهم فلا حكم لهم فى بلادنا . ولهذا قال : ﴿ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وقد اختلف المفسرون فى هذا الرجل : من هو ؟ على أقوال : أحدها أنه شعيب النبی ، عليه السلام (٣) ، الذى أرسل إلى أهل مدين . وهذا هو المشهور عند كثيرين ، وقد قاله الحسن البصرى وغير واحد . ورواه ابن أبى حاتم .

حدثنا أبى ، حدثنا عبد العزيز الأويسى ، حدثنا مالك بن أنس ؛ أنه بلغه أن شعيبا هو الذى قص عليه موسى القصص ، قال : ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وقد روى الطبرانى عن سلمة بن سعد العنزي أنه وفد على رسول الله ﷺ فقال له : « مرحبا بقوم شعيب وأختان موسى ، هديت » (٤) .

وقال آخرون : بل كان ابن أخى شعيب . وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب . وقال آخرون : كان شعيب قبل زمان موسى ، عليه (٥) السلام ، بمدة طويلة ؛ لأنه قال لقومه : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : ٩٥] . وقد كان هلاك قوم لوط فى زمن الخليل ، عليه السلام (٦) ، بنص القرآن ، وقد علم أنه كان بين موسى والخليل ، عليهما السلام ، مدة طويلة تزيد على أربعمئة سنة ، كما

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف : « تستلفع » .

(٣) فى ف : « صلى الله عليه وسلم » ، وفى أ : « صلى الله عليه » .

(٤) المعجم الكبير (٥٥/٧) من طريق حفص بن سلمة عن شيان بن قيس عن سلمة بن سعد به ، وقال الهيثمى : « فيه من لم أعرفهم » .

(٥) فى ت : « عليهما » . (٦) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » .

ذكره غير واحد. وما قيل : إن شعيبا عاش مدة طويلة ، إنما هو - والله أعلم - احتراز من هذا الإشكال ، ثم من المقوى لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه فى القرآن هاهنا . وما جاء فى (١) بعض الأحاديث من التصريح بذكره فى قصة موسى (٢) ، لم يصح إسناده ، كما سنذكره قريباً إن شاء الله . ثم من الموجود فى كتب بنى إسرائيل أن هذا الرجل اسمه : « ثبرون » ، والله أعلم .

وقال أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود : وأثرون (٣) وهو ابن أخى شعيب ، عليه السلام .

وعن أبى حمزة (٤) ، عن ابن عباس : الذى استأجر موسى يثرى صاحب مدين . رواه ابن جرير ، ثم قال : الصواب أن هذا لا يدرك إلا بخبر ، ولا خبر تجب به الحجة فى ذلك .

وقوله : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ أى : قالت إحدى ابنتى هذا الرجل . قيل : هى التى ذهبت وراء موسى ، عليه السلام ، قالت لأبيها : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾ أى : لرعية هذه (٥) الغنم .

قال عمر ، وابن عباس ، وشريح القاضى ، وأبو مالك ، وقتادة ، ومحمد بن إسحاق ، وغير واحد : لما قالت : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ ، قال لها أبوها : وما علمك بذلك ؟ قالت : إنه رفع الصخرة التى لا يطيق حملها إلا عشرة رجال ، وإنه لما جئت معه تقدمت أمامه ، فقال لى : كونى من ورائى ، فإذا اجتنبت (٦) الطريق فاحذى [لى (٧)] بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأتهدى (٨) إليه .

قال سفيان الثورى ، عن أبى إسحاق ، عن أبى عبيدة ، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : أفرس الناس ثلاثة : أبو بكر حين تفرس فى عُمَر ، وصاحب يوسف حين قال : ﴿ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ ﴾ [يوسف : ٢١] ، وصاحبة موسى حين قالت : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ .

قال : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نُنكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ أى : طلب إليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرمى عنه (٩) ويزوجه إحدى ابنتيه هاتين .

قال شعيب الجبائى : وهما صفوراً ، ولياً .

وقال محمد بن إسحاق : صفوراً وشرقاً ، ويقال : ليا . وقد استدل أصحاب أبى حنيفة [رحمه الله تعالى] [١٠] بهذه الآية على صحة البيع فيما إذا قال : « بعثك أحد هذين العبدین بمائة » . فقال : اشترت « أنه يصح ، والله أعلم .

(١) فى ت : « من » .

(٢) فى أ : « لموسى » .

(٣) فى أ : « يثرون » .

(٤) فى ف ، أ : « أبى هريرة » .

(٥) فى أ : « رعية هذا » .

(٦) فى أ : « اختلفت » .

(٧) زيادة من أ .

(٨) فى أ : « لاهتدى » .

(٩) فى ت ، ف ، أ : « غنمه » .

(١٠) زيادة من ت ، ف .

وقوله : ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ أى : على أن ترعى على ثمانى سنين ، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك ^(١) ، وإلا ففى ثمان كفاية ، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أى : لا أشاقتك ، ولا أؤاذيك ، ولا أماريك .

وقد استدلووا بهذه الآية الكريمة لمذهب الأوزاعى ، فيما إذا قال : « بعتك هذا بعشرة نقداً ، أو بعشرين نسيئة » أنه يصح ، ويختار المشتري بأيهما أخذه صح . وحُمل الحديث المروى فى سنن أبى داود : « من باع يبعثين فى بيعه ، فله أو كسهما أو الربا » ^(٢) على هذا المذهب . وفى الاستدلال بهذه الآية وهذا الحديث على هذا المذهب نظر ، ليس هذا موضع بسطه لطوله . والله أعلم .

ثم قد استدل أصحاب الإمام أحمد ومن تبعهم ، فى صحة ^(٣) استئجار الأجير بالطعمة والكسوة بهذه الآية ، واستأنسوا فى ذلك بما وراه أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه فى كتابه السنن ، حيث قال : « باب استئجار الأجير على طعام بطنه » : حدثنا محمد بن المصفى الحمصى ، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد ، عن مسلمة ^(٤) بن على ، عن سعيد بن أبى أيوب ، عن الحارث بن يزيد ، عن على بن ربّاح قال : سمعت ^(٥) عُبَّةَ بن النُّدَرِ ^(٦) يقول : كنا عند رسول الله ﷺ فقرأ ﴿طَسَمَ﴾ ^(٧) ، حتى إذا بلغ قصة موسى قال : إن موسى أجز نفسه ثمانى سنين - أو : عشر ^(٨) سنين - على عفة فرجه وطعام بطنه ^(٩) .

وهذا الحديث من هذا الوجه ضعيف ^(١٠) ؛ لأن مسلمة ^(١١) بن على وهو الخُشْنَى الدمشقى البلاطى ضعيف الرواية عند الأئمة ، ولكن قد روى من وجه آخر ، وفيه نظر أيضا .

وقال ^(١٢) ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَةَ ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الله بن لهيعة ، عن الحارث بن يزيد الحضرمى ، عن على بن ربّاح اللخمي قال : سمعت عتبة بن النُّدَرِ السلمى - صاحب رسول الله ﷺ - يحدث أن رسول الله ﷺ قال : « إن موسى أجز نفسه بعفة فرجه ، وطعمة بطنه » ^(١٣) .

وقوله تعالى إخباراً عن موسى ، عليه السلام : ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ ، يقول : إن موسى قال لصهره : الأمر على ما قلت من أنك استأجرتنى على ثمان سنين ، فإن أتممت عشراً فمِن عِنْدِي ، فأنا متى فعلت أفلهما [فقد] ^(١٤) برئت من العهد ، وخرجت من الشرط ؛ ولهذا قال : ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أى : فلا

(١) فى ت : « لك » .

(٢) سنن أبى داود برقم (٣٤٦١) .

(٣) فى أ : « حجة » .

(٤) فى أ : « سلمة » .

(٥) فى ت : « ثم روى بإسناده عن » . (٦) فى هـ ، ت : « المنذر » ، والمثبت من ف ، وسنن ابن ماجه .

(٧) فى ت : « طس » . (٨) فى ت : « أو عشرة » .

(٩) سنن ابن ماجه برقم (٢٤٤٤) وضعفه البوصيرى فى الزوائد (٢/ ٢٦٠) لتدليس بَقِيَّةِ بن الوليد .

(١٠) فى ت : « وهذا الحديث فيه ضعف من هذا الوجه » . (١١) فى أ : « سلمة » .

(١٢) فى أ : « فقال » .

(١٣) ورواه البزار فى مسنده برقم (١٤٩٥) « كشف الأستار » من طريق يحيى بن بكير عن ابن لهيعة بأطول منه ، وفى إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف .

(١٤) زيادة من أ .

خرج على مع أن الكامل - وإن كان مباحاً لكنه فاضل من جهة أخرى ، بدليل من خارج . كما قال [الله] (١) تعالى : ﴿ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : ٢٠٣] .

وقال رسول الله ﷺ لحمزة بن عمرو الأسلمي ، رضى الله عنه ، وكان كثير الصيام ، وسأله عن الصوم فى السفر - فقال : « إن شئت فصم ، وإن شئت فأفطر » (٢) ، مع أن فعل الصيام راجح من دليل آخر .

هذا وقد دل الدليل على أن موسى ، عليه السلام ، إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما ؛ قال البخارى :

حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا مروان بن شجاع ، عن سالم الألفطس ، عن سعيد بن جبير قال : سألتى يهودى من أهل الحيرة : أى الأجلين قضى موسى ؟ فقلت : لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله . فقدمت فسألت ابن عباس ، رضى الله عنه ، فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ، إن رسول الله إذا قال فعل . هكذا رواه البخارى (٣) ، وهكذا رواه حكيم بن جبير وغيره ، عن سعيد بن جبير . ووقع فى « حديث الفتون » ، من رواية القاسم ابن أبى أيوب ، عن سعيد بن جبير ؛ أن الذى سأله رجل من أهل النصرانية . والأول أشبه ، والله أعلم ، وقد روى من (٤) حديث ابن عباس مرفوعا ، قال ابن جرير :

حدثنا أحمد بن محمد الطوسى ، حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنى إبراهيم بن يحيى ابن أبى يعقوب ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « سألت جبريل : أى الأجلين قضى موسى قال : أكملهما وأتمهما » (٥) .

ورواه ابن أبى حاتم ، عن أبيه ، عن الحميدى ، عن سفيان - وهو ابن عيينة - حدثنى إبراهيم ابن يحيى بن أبى يعقوب - وكان من أسناني أو أصغر منى - فذكره . قلت : وإبراهيم هذا ليس بمعروف .

ورواه البزار عن أحمد بن أبان القرشى ، عن سفيان بن عيينة ، عن إبراهيم بن أعين ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ ، فذكره . ثم قال : لا نعرفه مرفوعا عن ابن عباس إلا من هذا الوجه (٦) .

وقال (٧) ابن أبى الحاتم : قرئ على يونس بن عبد الأعلى ، أنبأنا ابن وهب ، أنبأنا عمرو بن الحارث ، عن يحيى بن ميمون الحضرمى ، عن يوسف بن تيرح : أن رسول الله ﷺ سئل : أى

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٤٩٣/٣) والنسائى فى السنن (١٨٥/٤) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٦٨٤) .

(٤) فى ت : « روى طرق مرسل من » .

(٥) تفسير الطبرى (٤٤/٢٠) .

(٦) قال الحافظ ابن حجر فى لسان الميزان (١٢٤/١) : « إبراهيم بن يحيى العدنى عن الحكم بن أبان وعنه سفيان بن عيينة بخبر منكرو الرجل نكرة ، وحديثه عن الحميدى ومثته : سأل النبى ﷺ جبريل عليه السلام أى الأجلين قضى موسى ، انتهى . وهذا الرجل ذكره ابن حبان فى الثقات . وقال الأزدى : لا يتابع فى حديثه ، وأخرج الحاكم حديثه المذكور فى المستدرک » .

(٧) فى ف : « ثم قال » .

الأجلين قضى موسى؟ قال: «لا علم لى». فسأل رسول الله ﷺ جبريل، فقال جبريل: لا علم لى، فسأل جبريل ملكا فوفقه فقال: لا علم لى. فسأل (١) ذلك الملك ربه - عز وجل - عما سأل عنه جبريل عما سأل عنه محمد ﷺ فقال الرب سبحانه وتعالى: «قضى أبرهما وأبقاهما - أوقال: أزكاهما» (٢).

وهذا مرسل ، وقد جاء مرسلًا من وجه آخر ، وقال (٣) سنيد : حدثنا حجاج ، عن ابن جريج قال : قال مجاهد : إن النبي ﷺ سأل جبريل : «أى الأجلين قضى موسى ؟» فقال : سوف أسأل إسرئيل . فسأله فقال : سوف أسأل الرب عز وجل . فسأله فقال : «أبرهما وأوفاهما» (٤).

طريق أخرى مرسله أيضا : قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبي ، حدثنا أبو معشر ، عن محمد بن كعب القرظي قال : سئل رسول الله ﷺ : «أى الأجلين قضى موسى ؟» قال : «أوفاهما وأتمهما» (٥).

فهذه طرق متعاضدة ، ثم قد (٦) روى [هذا] (٧) مرفوعاً من رواية أبي ذر ، رضى الله عنه ، قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أبو عبيد الله يحيى بن محمد بن السكن ، حدثنا إسحاق بن إدريس ، حدثنا عوبد بن أبي عمران الجوني ، عن أبيه ، عن عبد الله بن الصامت ، عن أبي ذر : أن النبي ﷺ سئل : «أى الأجلين قضى موسى ؟» قال : «أوفاهما وأبرهما» ، قال : «وإن سئلت أى المرأتين تزوج ؟ فقل الصغرى منهما» .

ثم قال البزار : لا نعلم يروى عن أبي ذر إلا بهذا الإسناد (٨) .

وقد رواه ابن أبي حاتم من حديث عوبد بن أبي عمران - وهو ضعيف - ثم قد روى أيضا نحوه من حديث عتبة بن النذر (٩) بزيادة غريبة جدا ، فقال أبو بكر البزار : حدثنا عمر بن الخطاب السجستاني ، حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا الحارث بن يزيد عن علي بن رباح اللخمي قال : سمعت عتبة بن النذر (١٠) يقول : إن رسول الله ﷺ سئل : «أى الأجلين قضى موسى؟» قال : «أبرهما وأوفاهما» . ثم قال النبي ﷺ : «إن موسى ، عليه السلام ، لما أراد فراق شعيب ، عليه السلام ، أمر امرأته أن تسأل أباهما أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به . فأعطاهما ما ولدت غنمه في ذلك العام من قالب لَوْن . قال : فما مرت شاة إلا ضرب موسى جنبها بعصاه ، فولدت قَوَالِبَ ألوان كلها ، وولدت ثنتين وثلاثاً كل شاة ليس فيها فشوش ولا ضبوب ، ولا كَمِيشة تُفَوّت الكف ، ولا تُعُول » . وقال رسول الله ﷺ : «إذا افتتحتم الشام فإنكم ستجدون بقايا منها ، وهي السامرية» (١٢).

(١) فى ف ، أ : «عز وجل» .

(٢) مسند البزار برقم (٢٢٤٥) «كشف الأستار» .

(٣) فى ف ، أ : «فقال» .

(٤ ، ٥) تفسير الطبرى (٢٠/٤٤) .

(٦) فى ف : «وقد» .

(٨) مسند البزار برقم (٢٢٤٤) «كشف الأستار» .

(٩ ، ١٠) فى ف ، أ : «المنذر» .

(١٢) مسند البزار برقم (٢٢٤٦) «كشف الأستار» .

(٧) زيادة من ف ، أ .

(١١) فى أ : «إنكم إذا» .

هكذا أورده البزار . وقد رواه ابن أبي حاتم بأبسط من هذا ^(١) ، فقال :

حدثنا أبو زُرْعَةَ ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بُكَيْر ، حدثني عبد الله بن لهيعة (ح) وحدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الله بن لهيعة ، عن الحارث بن يزيد الحضرمي ، عن علي بن رباح اللخمي قال : سمعت عتبة بن النُّدَر ^(٢) السلمي - صاحب رسول الله ﷺ - يحدث أن رسول الله ﷺ قال : « إن موسى ، عليه السلام ^(٣) ، أجر نفسه بعفة فرجه وطُعمة بطنه . فلما وفي الأجل - قيل : يارسول الله ، أى الأجلين ؟ قال - : أبرهما وأوفاهما . فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباهما أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به ، فأعطاهما ما ولدت من غنمه من قالب ^(٤) لون من ولد ذلك العام ، وكانت غنمه سوداء حسناء ، فانطلق موسى ، عليه السلام ، إلى عصاه فسمَّاهما من طرفها ، ثم وضعها في أدنى الخوض ، ثم أوردتها فسقاها ، ووقف موسى بإزاء الخوض فلم تصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة قال : « فأثامت وأثلثت ، ووضعت كلها قوالب ألوان ، إلا شاة أو شاتين ليس فيها فشوش - قال يحيى : ولا ضبون . وقال صفوان : ولا ضبُوب . قال أبو زرعة : الصواب ضبُوب - ولا عزُوز ولا ثُعُول ولا كميشة تُفَوَّت الكف » . قال النبي ﷺ : « فلو افتتحتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهي السامرية » .

وحدثنا أبو زُرْعَةَ ، حدثنا صفوان قال : سمعت الوليد قال : فسألت ابن لهيعة : مالفشوش ؟ قال : التي تُفَشِّ بلبنها واسعة الشَّخَب . قلت : فما الضبُوب ؟ قال : الطويلة الضرع تجره . قلت : فما العزُوز ؟ قال : ضيقة الشَّخَب . قال فما الثُعُول ؟ قال : التي ليس لها ضرع إلا كهيئة حلمتين . قلت : فما الكميشة ؟ قال : التي تُفَوَّت الكف ، كميشة الضرع ، صغير لا يدركه الكف .

مدار هذا الحديث على عبد الله بن لهيعة المصري - وفي حفظه سوء - وأخشى أن يكون رفعه خطأ ، والله أعلم . وينبغي أن يُروى ليس فيها فشوش ولا عزوز ، ولا ضبُوب ولا ثُعُول ولا كميشة ، لتذكر كل صفة ناقصة مع ما يقابلها من الصفات الناقصة . وقد روى ابن جرير من ^(٥) كلام أنس بن مالك - موقوفا عليه - ما يقارب بعضه بإسناد جيد ^(٦) ، فقال : حدثنا محمد بن المثني ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنا أبي ، عن قتادة ، حدثنا أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : لما دعى نبي الله موسى ، عليه السلام ، صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما ، قال له صاحبه : كل شاة ولدت على غير لونها فذلك ولدها لك . فعمد فرفع حبلاً على الماء ، فلما رأت الخيال فرعت فجالت جولة ، فولدت كلهن بلقاً إلا شاة واحدة ، فذهب بأولادهن ذلك العام ^(٧) .

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ ^(٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ^(٣٠)

(٣) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » .

(٢) فى ت ، ف ، أ : « المنذر » .

(١) فى ت : « بزيادة غريبة » .

(٥) فى ت : « عن » .

(٤) فى ت : « قابله » .

(٦) فى ت : « ما يقارب هذا » .

(٧) تفسير الطبرى (٢٠ / ٤٤) .

وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) .

قد تقدم فى تفسير الآية قبلها أن موسى ، عليه السلام ، قضى أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملهما وأنقاهما ، وقد يستفاد هذا أيضاً من الآية الكريمة من قوله (١) : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ ﴾ أى : الأكمل منهما ، والله (٢) أعلم .

قال ابن أبى نجیح ، عن مجاهد : قضى عشر سنين ، وبعدها عشرا آخر . وهذا القول لم أره لغيره ، وقد حكاه عنه ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، والله (٣) أعلم .

وقوله : ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ : قالوا : كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله ، فعزم على زيارتهم فى خفية من فرعون وقومه ، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التى وهبها له صهره ، فسلك بهم فى ليلة مظلمة باردة ، فنزل منزلاً فجعل كلما أورى زنده لا يضىء شيئاً ، فتعجب من ذلك ، فبينما هو كذلك [إذ] (٤) ﴿ أَنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ أى : رأى نارا تضىء له على بعد ، ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ أى : حتى أذهب إليها ، ﴿ لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ . وذلك لأنه كان قد أضل الطريق ، ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ ﴾ أى : قطعة منها (٥) ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أى : تتدفؤون بها من البرد . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ ﴾ أى : من جانب الوادى مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب ، كما قال تعالى (٦) : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغُرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ ، فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة ، والجبل الغربى عن يمينه ، والنار وجدها تضطرم فى شجرة خضراء فى لحف الجبل مما يلي الوادى ، فوقف باهتاً فى أمرها ، فناداه ربه : ﴿ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ .

قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن أبى عبيدة ، عن عبد الله قال : رأيت الشجرة التى نودى منها موسى ، عليه السلام ، سمرة خضراء ترف . إسناده مقارب .

وقال محمد بن إسحاق ، عن بعض من لا يتهم ، عن وهب بن منبه قال : شجرة من العُلُق ، وبعض أهل الكتاب يقول : من العوسج .

وقال قتادة : هى من العوسج ، وعصاه من العوسج .
وقوله تعالى : ﴿ أَنْ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : الذى يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين ، الفعال لما يشاء ، لا إله غيره ، ولا رب سواه ، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات فى

(١) فى أ : « حيث قال » .

(٢) فى ت : « فالله » .

(٣) فى ف : « « فالله » .

(٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) فى ت : « قطعة من النار » .

(٦) فى ت : « قال الله تعالى » .

ذاته وصفاته ، وأقواله وأفعاله سبحانه !

وقوله : ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ أى : التى فى يدك . كما قرره على ذلك فى قوله : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى . قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ [طه : ١٧ ، ١٨] . والمعنى : أما هذه عصاك التى تعرفها ألقها ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ ، فعرف وتحقق أن الذى يخاطبه ويكلمه هو الذى يقول للشئ : كن ، فيكون . كما تقدم بيان ذلك فى سورة « طه » .

وقال هاهنا : ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ﴾ أى : تضطرب ﴿كَأَنَّهُمَا جَانَ﴾ أى : فى حركتها السريعة مع عظم خلق قوائمها (١) واتساع فمها ، واصطكاك أنيابها وأضراسها ، بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتهما ، فتتحدرد فى فيها تتققع ، كأنها حادة فى واد . فعند ذلك ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أى : ولم يكن يلتفت ؛ لأن طبع البشرية ينفر من ذلك . فلما قال الله له : ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ ، رجع فوقف فى مقامه الأول ، ثم قال الله له : ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ أى : إذا أدخلت يدك فى جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تتلألأ ، كأنها قطعة قمر فى لمعان البرق ؛ ولهذا قال : ﴿مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ أى : من غير برص .

وقوله : ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ : قال مجاهد : من الفزع . وقال قتادة : من الرعب . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير : مما حصل لك من خوفك من الحية .

والظاهر أن المراد أعم من هذا ، وهو أنه أمر ، عليه السلام ، إذا خاف من شئ أن يضم إليه جناحه من الرهب ، وهى يده ، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف . وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يديه على فؤاده ، فإنه يزول عنه ما يجد أو يخف ، إن شاء الله ، وبه الثقة .

قال (٢) ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا الربيع بن ثعلب الشيخ الصالح ، أخبرنا أبو إسماعيل المؤدب ، عن عبد الله بن مسلم ، عن مجاهد ، قال (٣) : كان موسى ، عليه السلام ، قد ملئ قلبه رعباً من فرعون ، فكان إذا رآه قال : اللهم ، إني أدرك بك فى نحره ، وأعوذ بك من شره ، ففرغ (٤) الله ما كان فى قلب موسى ، عليه السلام ، وجعله فى قلب فرعون ، فكان إذا رآه بال كما يبول الحمار .

وقوله : ﴿فَدَاكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعنى : إلقاء العصا وجعلها حية تسعى ، وإدخاله يده فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء - دليلان قاطعان واضحيان على قدرة الفاعل المختار ، وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه ؛ ولهذا قال : ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُ﴾ أى : وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أى : خارجين عن طاعة الله ، مخالفين لدين الله ، [والله

(٢) فى ت : « روى » .

(١) فى ت : « عظم خلقها » ، وفى ف : « عظم خلقتها » .

(٤) فى ت ، ف ، أ : « فتزع » .

(٣) فى ت : « بإسناده » .

أعلم [(١)] .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ (٣٥) .

لما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون ، الذى إنما خرج من ديار مصر فراراً منه وخوفاً من سطوته ، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا ﴾ . يعنى : ذلك القبطى ، ﴿ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ أى : إذا رأونى . ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾ ، وذلك أن موسى ، عليه السلام ، كان فى لسانه لثغة ، بسبب ما كان تناول تلك الجمرة ، حين خيّر بينها وبين التمرة أو الدرة ، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه ، فحصل فيه شدة فى التعبير ؛ ولهذا قال : ﴿ وَأَحْلَلْ عَقْدَةً مِن لِسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي . وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي . هَارُونُ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ [طه : ٢٧ - ٣٢] ، أى : يؤنسنى فيما أمرتنى به من هذا المقام العظيم ، وهو القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى هذا الملك المتكبر الجبار العنيد . ولهذا قال : ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ﴾ (٢) ، أى : وزيراً ومعيناً ومقوياً لأمرى ، يصدقنى فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل ؛ لأن خبر اثنين أنجح فى النفوس من خبر واحد ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ .

وقال محمد بن إسحاق : ﴿ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ﴾ أى : يبين لهم عنى ما أكلمهم به ، فإنه يفهم [عنى] (٣) .

فلما سأل ذلك قال الله تعالى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ أى : سنقوى أمرك ، ونعز جانبك بأخيك ، الذى سألت له أن يكون نبياً معك . كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ [طه : ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٥٣] . ولهذا قال بعض السلف : ليس أحد أعظم منةً على أخيه ، من موسى على هارون ، عليهما السلام ، فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبياً ورسولاً معه إلى فرعون وملئه ، ولهذا قال [الله تعالى] (٤) فى حق موسى : ﴿ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ [الأحزاب : ٦٩] .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ أى : حجة قاهرة ، ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا ﴾ أى : لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكما آيات الله ، كما قال الله تعالى [لرسوله محمد ﷺ] (٥) : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ [وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ] (٦) وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] . وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُلْفُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٣٩] ، أى : وكفى بالله ناصرًا ومعيناً ومؤيداً . ولهذا أخبرهما أن العاقبة لهما ولمن اتبعهما فى الدنيا والآخرة ، فقال : ﴿ أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ ، كما قال

(٣) زيادة من أ .

(٢) زيادة من ت .

(١) زيادة من ف .

(٦) زيادة من ت ، أ ، وفى هـ : « إلى قوله » .

(٥) زيادة من ت ، أ .

(٤) زيادة من ت ، ف ، أ .

تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر : ٥١ ، ٥٢] .

وجه ابن جرير على أن المعنى : ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ ، ثم يتدنى فيقول : ﴿ بآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ الْغَالِبُونَ ﴾ ، تقديره : أنتم ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا (١) .

ولا شك أن هذا المعنى صحيح ، وهو حاصل من التوجيه الأول ، فلا حاجة إلى هذا ، والله أعلم .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ (٣٦) وقال موسى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) .

يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه ، وعرضه ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة والدلالات القاهرة ، على صدقهما فيما أخبر عن الله عز وجل من توحيده واتباع أوامره . فلما عاين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوه ، وأيقنوا أنه من الله ، عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمباهة ، وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق ، فقالوا : ﴿ مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى ﴾ أى : مفتعل مصنوع . وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه ، فما صعد معهم ذلك .

وقوله (٢) : ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ يعنون : عبادة الله وحده لا شريك له ، يقولون : ما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدين ، ولم نر (٣) الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى . فقال موسى ، عليه السلام ، مجيباً لهم : ﴿ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ ﴾ يعنى : منى ومنكم ، وسيفصل بيني وبينكم . ولهذا قال : ﴿ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾ أى : النصرة والظفر والتأييد ، ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى : المشركون بالله .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٣٨) واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون (٣٩) فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين (٤٠) وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون (٤١) وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين (٤٢) .

(١) تفسير الطبرى (٤٨/٢٠) .

(٢) فى ف : « وما نرى » .

(٣) فى ت ، ف : « وقولهم » .

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافتراءه فى دعوى الإلهية لنفسه القبيحة - لعنه الله - كما قال تعالى : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [الزخرف : ٥٤] ، وذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالإلهية ، فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم وسخافة أذهانهم ؛ ولهذا قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَمَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ ، [و] ^(١) قال تعالى إخباراً عنه : ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى . فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾ [النازعات : ٢٣ - ٢٦] يعنى : أنه جمع قومه ونادى فيهم بصوته العالى مُصْرَحاً لهم بذلك ، فأجابوه سامعين مطيعين . ولهذا انتقم الله تعالى منه ، فجعله عبرة لغيره فى الدنيا والآخرة ، وحتى إنه واجه موسى الكليم بذلك فقال : ﴿ لَئِنْ اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٩] .

وقوله : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ أى : أمر وزيره هامان ومدبر رعيته ومشير دولته أن يوقد له على الطين ، ليتخذ له آجرًا لبناء الصرح ، وهو القصر المنيف الرفيع - كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ فِرْعَوْنَ سَوْءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنْ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ [غافر : ٣٦ ، ٣٧] ، وذلك لأن ^(٢) فرعون بنى هذا الصرح الذى لم ير فى الدنيا بناء أعلى منه ، إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير فرعون ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى : فى قوله إن ثم رباً غيرى ، لا أنه كذبه فى أن الله أرسله ؛ لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع ، فإنه قال : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٣] ، وقال : ﴿ لَئِنْ اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٩] ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَمَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ وهذا قول ابن جرير .

وقوله : ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ أى : طغوا وتجبروا ، وأكثروا فى الأرض الفساد ، واعتقدوا أنه لا معاد ولا قيامة ^(٣) ، ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبَالْمُرْصَادِ ﴾ [الفجر : ١٣ ، ١٤] ، ولهذا قال هاهنا : ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ أى : أغرقناهم فى البحر فى صبيحة واحدة ، فلم يبق منهم أحد ، ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ . وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ أى : لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقتهم ، فى تكذيب الرسل وتعطيل الصانع ، ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَنْصُرُونَ ﴾ أى : فاجتمع عليهم خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ [محمد : ١٣] .

وقوله : ﴿ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ ^(٤) فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ أى : وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين رسله ، وكما أنهم فى الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء وأتباعهم ، كذلك ، ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ . قال قتادة : وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ [هود : ٩٩] .

(٢) فى ت : « أن » .

(٤) فى ت : « فاتبعناهم » .

(١) زيادة من ت ، ف .

(٣) فى ت : « لا قيامة ولا معاد » .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٤٣) .

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم ، عليه من ربه الصلاة والتسليم ، من إنزال التوراة عليه بعد ما أهلك فرعون وملأه .

وقوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ ﴾ يعنى : أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة ، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين ، كما قال : ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ . فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴾ [الحاقة : ٩ ، ١٠] .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا محمد وعبد الوهاب قالا : حدثنا عوف ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد الخدري قال : ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض ، غير القرية التي مسحوا قرده ، ألم تر أن الله يقول : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ ﴾ (١) .

ورواه ابن أبي حاتم ، من حديث عوف بن أبي جميلة (٢) الأعرابي ، بنحوه . وهكذا رواه أبو بكر البزار في مسنده ، عن عمرو بن على الفلاس ، عن يحيى القطان ، عن عوف ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد موقوفاً (٣) . ثم رواه عن نصر بن على ، عن عبد الأعلى ، عن عوف ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد - رفعه (٤) إلى النبي ﷺ - قال : « ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا قبل موسى » ، ثم قرأ : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ ﴾ (٥) .

وقوله : ﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ ﴾ أى : من العمى والغي ، ﴿ وَهُدًى ﴾ إلى الحق ، ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أى : إرشاداً إلى الأعمال الصالحة ، ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى : لعل الناس يتذكرون به ، ويهتدون بسببه .

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلَا أَن تَصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا

(١) تفسير الطبرى (٢٠ / ٥٠) .

(٢) فى أ : « حيلة » .

(٣) مسند البراز برقم (٢٢٤٧) « كشف الأستار » .

(٤) فى ت : « مرفوعاً » .

(٥) مسند البزار برقم (٢٢٤٨) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٨٨) : « رواه البزار موقوفاً ومرفوعاً ورجالهما رجال الصحيح » .

رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ .

يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد ، صلوات الله وسلامه عليه ، حيث أخبر بالغيوب الماضية ، خبراً كأن سامعه شاهد وراء لما تقدم ، وهو رجل أُمى لا يقرأ شيئاً من الكتب ، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك ، كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها ، قال تعالى : ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران : ٤٤] ، أى : ما كنت حاضراً لذلك ، ولكن الله أوحاه إليك . وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه ، وما كان من إنجاء الله له وإغراق قومه .

ثم قال تعالى : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود : ٤٩] وقال فى آخر السورة : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف : ١٠٢] ، وقال فى سورة طه : ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه : ٩٩] ، وقال هاهنا - بعد ما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها ، وكيف كان ابتداء إحياء الله إليه وتكليمه له - : ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ يعنى : يا محمد ، ما كنت بجانب الجبل الغربى الذى كلم الله موسى من الشجرة التى هى شرقية على شاطئ الوادى ، ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لذلك ، ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك ذلك ، ليجعله حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدها ، ونسوا حجج الله عليهم ، وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين .

وقوله : ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أى : وما كنت مقيماً فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، حين أخبرت عن نبيا شعيب ، وما قال لقومه ، وما ردوا عليه ، ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أى : ولكن نحن أوحينا إليك ذلك ، وأرسلناك للناس رسولا .

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ - قال أبو عبد الرحمن النسائى ، فى التفسير من سننه : أخبرنا على بن حجر ، أخبرنا عيسى - وهو ابن يونس - عن حمزة الزيات ، عن الأعمش ، عن على ابن مذك ، عن أبى زرعة ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه : ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ ، قال : نودوا : يا أمة محمد ، أعطيتكم قبل أن تسألونى ، وأجبتكم قبل أن تدعونى .

وهكذا رواه ابن جرير وابن أبى حاتم ، من حديث جماعة ، عن حمزة - وهو ابن حبيب الزيات - عن الأعمش . ورواه ابن جرير من حديث وكيع ويحيى بن عيسى ، عن الأعمش ، عن على بن مذك ، عن أبى زرعة - وهو ابن عمرو بن جرير (٢) - أنه قال ذلك من كلامه ، والله أعلم .

وقال مقاتل بن حيان : ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ : أمتك فى أصلاب آبائهم أن يؤمنوا

(١) فى ت ، ف : « الغيب » وهو خطأ .

(٢) تفسير الطبرى (٥١/٢٠) والذى فيه من طريق سفيان ويحيى بن عيسى .

بك إذا بعثت .

وقال قتادة : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ موسى . وهذا - والله أعلم - أشبه بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغُرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ .

ثم أخبر هاهنا بصيغة أخرى أخص من ذلك ، وهو النداء ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى ﴾ [الشعراء : ١٠] ، وقال : ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [النازعات : ١٦] ، وقال : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم : ٥٢] .

وقوله : ﴿ وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى : ما كنت مشاهداً لشيء من ذلك ، ولكن الله أوحاه إليك وأخبرك به ، رحمة منه لك وبالعباد بإرسالك إليهم ، ﴿ لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى : لعلهم يهتدون بما جتتهم به من الله عز وجل .

﴿ وَلَوْ لَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة ولتقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم ، فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير ، كما قال تعالى بعد ذكره إنزال كتابه المبارك وهو القرآن : ﴿ أَنْ تَقُولُوا (١) إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَيْنَا طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ [الأنعام : ١٥٦ ، ١٥٧] ، وقال : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء : ١٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة : ١٩] ، والآيات فى هذا كثيرة [والله أعلم] (٢) .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُمْ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم ، لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول : أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ، صلوات الله وسلامه عليه (٣) ، قالوا على

(٢) زيادة من ف ، أ .

(١) فى ت ، ف : « يقولوا » .

(٣) فى أ : « صلى الله عليه وسلم » .

وجه التعنت والعناد والكفر والجهل والإلحاد : ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ ، يعنون - والله أعلم - : من الآيات الكثيرة ، مثل العصا واليد ، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، وتنقص (١) الزروع والثمار ، مما يضيق على أعداء الله ، وكفلق البحر وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى ، إلى غير ذلك من الآيات الباهرة ، والحجج القاهرة ، التي أجراها الله على يدى موسى ، عليه السلام ، حجة وبراهين له على فرعون وملئه وبنى إسرائيل ، ومع هذا كله لم ينبجع فى فرعون وملئه ، بل كفروا بموسى وأخيه هارون ، كما قالوا لهما : ﴿أَجِئْنَا لَتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس : ٧٨] ، وقال تعالى : ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون : ٤٨] . ولهذا قال هاهنا : ﴿أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ أى : أو لم يكفر البشر بما أُوتى موسى من تلك الآيات العظيمة . ﴿قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا﴾ ، أى تعاونا ، ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُمْ لَكَافِرُونَ﴾ أى : بكل منهما كافرون . ولشدة التلازم والتصاحب والمقارنة بين موسى وهارون ، دل ذكر أحدهما على الآخر ، كما قال الشاعر :

فَمَا أَدْرَى إِذَا يَمَمْتُ أَرْضاً أَرِيدُ الْخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي

أى : فما أدري أيلينى الخير أو الشر . قال مجاهد بن جبر : أمرت اليهود قريشا أن يقولوا لمحمد ﷺ ذلك ، فقال الله : ﴿أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا﴾ قال : يعنى : موسى وهارون ﷺ (٢) ﴿تَظَاهَرَا﴾ أى : تعاونا وتناصرا وصدق كل منهما الآخر . وبهذا قال سعيد ابن جبير وأبو رزّين فى قوله : ﴿سَاحِرَانِ﴾ يعنون : موسى وهارون . وهذا قول جيد قوى ، والله أعلم . وقال مسلم بن يسار ، عن ابن عباس ﴿قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا﴾ يعنى : موسى ومحمداً ، صلوات الله وسلامه عليهما (٣) . وهذا رواية عن الحسن البصرى .

وقال الحسن وقتادة : يعنى : عيسى ومحمداً ، صلى الله عليهما وسلم ، وهذا فيه بعد ؛ لأن عيسى لم يجز له ذكر هاهنا ، والله أعلم .

وأما من قرأ ﴿سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا﴾ ، فقال على بن أبى طلحة والعوفى ، عن ابن عباس . يعنون : التوراة والقرآن : وكذا قال عاصم الجندى ، والسدى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، قال السدى : يعنى صدق كل واحد منهما الآخر .

وقال عكرمة : يعنون : التوراة والإنجيل . وهو رواية عن أبى زرعة ، واختاره ابن جرير (٤) .

وقال الضحاك وقتادة : الإنجيل والقرآن . والله ، سبحانه ، أعلم بالصواب . والظاهر على قراءة : ﴿سَاحِرَانِ﴾ أنهم يعنون : التوراة والقرآن ؛ لأنه قال بعده : ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْ﴾ ، وكثيراً ما يقرن الله بين التوراة والقرآن ، كما فى قوله تعالى ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ إلى أن قال : ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام : ٩١ ، ٩٢] ،

(١) فى ت ، ف ، أ : « تنقيص » . (٢) فى ف ، أ : « عليهما السلام » . (٣) فى ف : « عليهما وسلم » .

(٤) تفسير الطبرى (٥٣/٢٠) .

وقال في آخر السورة : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ﴾ ، إلى أن قال : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٥] ، وقالت الجن : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى [مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ] ﴾ (١) [الأحقاف : ٣٠] وقال ورقة بن نوفل : هذا الناموس الذى أنزل [الله] (٢) على موسى . وقد علم بالضرورة لذوى الألباب أن الله لم ينزل كتاباً من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذى أنزل على محمد، ﷺ (٣) ، وهو القرآن ، وبعده فى الشرف والعظمة الكتاب الذى أنزله على موسى بن عمران ، عليه السلام ، وهو التوراة التى قال الله تعالى فيها : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ [المائدة : ٤٤] ، والإنجيل إنما نزل متمماً للتوراة ومُحلاً لبعض ما حُرِّمَ على بنى إسرائيل . ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلْ فَاتَّبِعُوا بَكِتَابِ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى : فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ أى : فإن لم يجيبوك عما قلت لهم ولم يتبعوا الحق ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى : بلا دليل ولا حجة ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾ أى : بغير حجة مأخوذة من كتاب الله ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .
وقوله : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾ ، قال مجاهد : فضلنا لهم القول .

وقال السدى : بينا لهم القول .

وقال قتادة : يقول تعالى : أخبرهم كيف صنع بمن مضى وكيف هو صانع ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .
قال مجاهد وغيره : ﴿ وَصَّلْنَا لَهُمُ ﴾ يعنى : قريشا . وهذا هو الظاهر ، لكن قال حماد بن سلمة ، عن عمرو بن دينار ، عن يحيى بن جعدة ، عن رفاعه - رفاعه هذا هو ابن قُرْظَةَ الْقُرْظَى ، وجعله ابن منده : رفاعه بن سموا ، خال صفية بنت حبي ، وهو الذى طلق تميمه بنت وهب التى تزوجها بعده عبد الرحمن بن الزبير بن باطا ، كذا ذكره ابن الأثير (٤) - قال : نزلت : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾ فى عشرة أنا أحدهم . رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديثه (٥) .

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) .

(١) زيادة من أ .

(٢) فى ف ، أ : « صلوات الله وسلامه عليه » .

(٣) أسد الغابة لابن الأثير (٢/٢٢٨) .

(٤) تفسير الطبرى (٥٦/٢٠) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٥٣/٥) من طريق حماد بن سلمة به

يخبر تعالى عن العلماء الأولياء (١) من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [البقرة : ١٢١] ، وقال : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٩٩] ، وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ [الإسراء : ١٠٧ ، ١٠٨] ، وقال : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة : ٨٢ ، ٨٣] .

قال سعيد بن جبیر : نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي ، فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم : ﴿ يَسَ . وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴾ ، حتى ختمها ، فجعلوا يبكون وأسلموا ، ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ . يعنى : من قبل هذا القرآن كنا مسلمين ، أى : موحدين مخلصين لله مستجيبين له .

قال الله : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى : هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثانى [يؤتون أجرهم مرتين بإيمانهم بالرسول الأول ثم بالثانى] (٢) ؛ ولهذا قال : ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى : على اتباع الحق ؛ فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس . وقد ورد فى الصحيحين من حديث عامر الشعبي ، عن أبي بردة ، عن أبي موسى الأشعري ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنيه ثم آمن بى ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها » (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق السيلحني ، حدثنا ابن لهيعة ، عن سليمان (٤) بن عبد الرحمن ، عن القاسم ، عن أبي أمامة قال : إني لتحت راحلة رسول الله ﷺ يوم الفتح ، فقال قولاً حسناً جميلاً ، وقال فيما قال : « من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين ، وله ما لنا وعليه ما علينا ، [ومن أسلم من المشركين ، فله أجره ، وله ما لنا وعليه ما علينا] (٥) » (٦) .

وقوله ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أى : لا يقابلون السيئ (٧) بمثله ، ولكن يعفون ويصفحون . ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ أى : ومن الذى رزقهم من الحلال ينفقون على خلق الله فى النفقات الواجبة لأهلهم وأقاربهم ، والزكاة المفروضة والمستحبة من التطوعات ، وصدقات النفل والقربات .

(١) فى ت ، ف : « الألباء » وفى أ : « الألباب » .

(٢) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٣) صحيح البخارى برقم (٩٧) وصحيح مسلم برقم (١٥٤) .

(٤) فى ، أ : « سليم » .

(٥) المسند (٢٥٩/٥) .

(٦) فى ت ، ف ، أ : « يقابلون على السيئ » .

وقوله : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ أى : لا يخالطون أهله ولا يعاشرهم ، بل كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٢] .

﴿ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ أى : إذا سَفَهَ عليهم سَفِيه ، وكَلَّمَهُم بما لا يَلِيقُ بهم الجوابُ عنه ، أَعْرَضُوا عنه ولم يَقابِلُوهُ بِمِثْلِهِ مِنَ الْكَلَامِ الْقَبِيحِ ، ولا يصدر عنهم إِلَّا كَلَامٌ طيب . ولهذا قال عنهم : إنهم قالوا : ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ أى : لا نُريدُ طَرِيقَ الجاهِلين ولا نُحبُّها .

قال محمد بن إسحاق فى السيرة ، ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلا ، أو قريب من ذلك ، من النصارى ، حين (١) بلغهم خبره من الحبشة . فوجدوه فى المسجد ، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه - ورجال من قريش فى أُنديتهم حول الكعبة - فلما فرغوا من مساءلة رسول الله عما أرادوا ، دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره . فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش ، فقالوا (٢) لهم : خِيَبَكُمُ الله من ركب . بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم (٣) بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال ؛ ما نعلم ركبا أحق منكم . أو كما قالوا لهم . فقالوا [لهم] (٤) : سلام عليكم ، لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيرا (٥) .

قال : ويقال : إن نفر النصارى من أهل نجران ، فالله أعلم أى ذلك كان (٦) .

قال : ويقال - والله أعلم - إن فيهم نزلت هذه الآيات : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ .

قال : وقد سألت الزهري عن هذه الآيات فيمن أنزلن (٧) ، قال : مازلت أسمع من علمائنا أنهم أنزلن (٨) فى النجاشى وأصحابه ، رضى الله عنهم ، والآيات التى (٩) فى سورة المائدة : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسَّيْسِينَ وَرُهَبَانًا ﴾ إلى قوله : ﴿ فَكُتِبَ عَلَيْهِمُ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة : ٨٢ ، ٨٣] .

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (٥٦) وَقَالُوا
إِنْ تَتَّبِعِ الْهْدَىٰ مَعَكَ نَتَّخِطْفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) .

(٢) فى أ : « فقال » .

(٤) زيادة من ت ، ف ، أ .

(١) فى أ : « حتى » .

(٣) فى ت : « فتأتوهم » .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (٣٩٢/١) .

(٦) فى أ : « كما » .

(٧) فى ت : « نزلت » ، وفى ف ، أ : « نزلن » .

(٨) فى أ : « نزلن » .

(٩) فى أ : « اللاتى » .

يقول تعالى لرسوله ، صلوات الله وسلامه عليه : إِنَّكَ يَا مُحَمَّد ﴿ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ أى : ليس إليك ذلك ، إنما عليك البلاغ ، والله يهدي من يشاء ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، كما قال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] ، وقال : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] .

وهذه الآية أخص من هذا كله ؛ فإنه قال : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ أى : هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية ، وقد ثبت فى الصحيحين أنها نزلت فى أبى طالب عم رسول الله ﷺ ، وقد كان يحوطه وينصره ، ويقوم فى صفه ويحبه حباً [شديداً] (١) طبعياً لا شريعياً ، فلما حضرته الوفاة وحان أجله ، دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول فى الإسلام ، فسبق القدر فيه ، واختطف من يده ، فاستمر على ما كان عليه من الكفر ، ولله الحكمة (٢) التامة .

قال الزهري : حدثني سعيد بن المسيب ، عن أبيه - وهو المسيب بن حزن المخزومي ، رضى الله عنه - قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ ، فوجد عنده أبا جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة . فقال رسول الله ﷺ : « يا عم ، قل : لا إله إلا الله ، كلمة أشهد لك بها عند الله » . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ، ويعودان له بتلك المقالة ، حتى قال آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول : لا إله إلا الله . فقال رسول الله ﷺ : « أما لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » . فأنزل الله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى ﴾ [التوبة : ١١٣] ، وأنزل فى أبى طالب : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

أخرجاه (٣) من حديث الزهري (٤) . وهكذا رواه (٥) مسلم فى صحيحه ، والترمذى ، من حديث يزيد بن كيسان ، عن أبى حازم ، عن أبى هريرة قال : لما حضرت وفاة أبى طالب أتاه رسول الله ﷺ فقال : « يا عمّاه ، قل : لا إله إلا الله ، أشهد لك بها يوم القيامة » . فقال : لولا أن تُعيرنى (٦) بها قريش ، يقولون : ما حملة عليه إلا جزع الموت ، لأقررتُ بها عينك ، لا أقولها إلا لأقر بها عينك . فأنزل الله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ . وقال الترمذى : حسن غريب (٧) ، لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن كيسان (٨) .

ورواه الإمام أحمد ، عن يحيى بن سعيد القطان ، عن يزيد بن كيسان ، حدثني أبو حازم ، عن أبى هريرة ، فذكره بنحوه (٩) .

(١) زيادة من ت ، ف ، أ . (٢) فى أ : « الحجة » . (٣) فى ت : « البخارى ومسلم » .

(٤) صحيح البخارى برقم (١٣٦٠) وصحيح مسلم برقم (٢٤) . (٥) فى ت : « وروى » .

(٦) فى ف : « يعيرنى » . (٧) فى ت : « رواه الترمذى وقال : حسن صحيح » .

(٨) صحيح مسلم برقم (٢٥) وسنن الترمذى برقم (٣١٨٨) .

(٩) المسند (٢/٤٣٤) .

وهكذا قال ابن عباس ، وابن عمر ، ومجاهد ، والشعبي ، وقتادة : إنها نزلت في أبي طالب حين عَرَضَ عليه رسولُ الله ﷺ أن يقول : « لا إله إلا الله » ، فأبى عليه ذلك ، وقال (١) : أى ابن أخى ، ملةً الأشياخ . وكان آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب .

وقال (٢) ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم (٣) ، عن سعيد بن أبي راشد قال : كان رسول قيصر جاء (٤) إلى قال : كتب معي قيصر إلى رسول الله ﷺ كتاباً ، فأتيته فدفعت الكتاب ، فوضعه في حجره ، ثم قال : « ممن الرجل ؟ » قلت : من تنوخ (٥) . قال : « هل لك في دين أبيك إبراهيم الحنيفة ؟ » قلت : إني رسول قوم ، وعلى دينهم حتى أرجع إليهم . فضحك رسول الله ﷺ ونظر إلى أصحابه وقال (٦) : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (٧) .

وقوله : ﴿ وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نَتَّخِطُفُ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ : [يقول تعالى مخبراً عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع (٨) الهدى حيث قالوا لرسول الله ﷺ : ﴿ إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نَتَّخِطُفُ مِنْ أَرْضِنَا ﴾] (٩) ، أى : نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى ، وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين ، أن يقصدونا بالأذى والمحاربة ، ويتخطفونا أينما كنا ، فقال الله تعالى مجيباً لهم : ﴿ أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا ﴾ . يعنى : هذا الذى اعتذروا به كذب وباطل ؛ لأن الله جعلهم في بلد أمين ، وحرم معظم آمن منذ وُضع ، فكيف يكون هذا الحرم آمناً في حال كفرهم وشركهم ، ولا يكون آمناً لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق ؟

وقوله : ﴿ يُجَبِّىْ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى : من سائر الشمار مما حوله من الطائف وغيره ، وكذلك المتاجر والأمتعة ﴿ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا ﴾ أى : من عندنا ، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فلماذا قالوا ما قالوا .

وقد قال (١٠) النسائي : أنبأنا الحسن بن محمد ، حدثنا الحجاج ، عن ابن جريج ، أخبرني ابن أبي مليكة قال : قال عمرو بن شعيب ، عن ابن عباس - ولم يسمعه منه - : أن الحارث بن عامر بن نوفل الذى قال : ﴿ إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نَتَّخِطُفُ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ (١١) .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ

(١) فى أ : « وكان » . (٢) فى ت : « وروى » . (٣) فى ت : « بإسناده » .

(٤) فى أ : « جاراً » . (٥) فى هـ : « تبرح » والمثبت من ف ، أ .

(٦) فى ت ، ف ، أ : « فقال » .

(٧) رواه أحمد في المسند (٣/ ٤٤١) من طريق حماد بن سلمة بنحوه .

(٨) فى أ : « اتباعهم » . (٩) زيادة من ت ، ف ، أ .

(١٠) النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٣٨٥) . (١١) فى ت : « وقد روى » .

آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ .

يقول تعالى مُعْرِضاً بأهل مكة في قوله : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أى : طغت وأشربت وكفرت نعمة الله ^(١) ، فيما أنعم به عليهم من الأرزاق ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل : ١١٢ ، ١١٣] ولهذا قال : ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى : دثرت ديارهم فلا ترى إلا مساكنهم .

وقوله : ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أى : رجعت خراباً ليس فيها أحد .

وقد ذكر ابن أبى حاتم [هاهنا] ^(٢) عن ابن مسعود أنه سمع كعباً يقول لعمر : إن سليمان ، عليه السلام ^(٣) ، قال للهامة - يعنى البومة - : ما لك لا تأكلين الزرع ؟ قالت : لأنه أخرج آدم بسببه من الجنة . قال : فما لك لا تشربين الماء ؟ قالت : لأن الله أغرق قوم نوح به . قال : فما لك لا تأوين إلا إلى الخراب ؟ قالت : لأنه ميراث الله عز وجل ، ثم تلا : ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ .

ثم قال الله ^(٤) مخبراً عن عدله ، وأنه لا يهلك أحداً ظالماً له ، وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم ، ولهذا قال : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ﴾ وهى مكة ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ . فيه دلالة على أن النبى الأمى ، وهو محمد ، صلوات الله وسلامه عليه ^(٥) ، المبعوث من أم القرى ، رسول إلى جميع القرى ، من عرب وأعجام ، كما قال تعالى : ﴿لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى : ٧] ، وقال تعالى : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، وقال : ﴿لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام : ١٩] ، وقال : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود : ١٧] . وتام الدليل [قوله] ^(٦) : ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء : ٥٨] . فأخبر أنه سيهلك كل قرية قبل يوم القيامة ، وقد قال : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء : ١٥] . فجعل تعالى بعثة النبى الأمى شاملة لجميع القرى ؛ لأنه مبعوث إلى ^(٧) أمها وأصلها التى ترجع إليها . وثبت فى الصحيحين عنه ، صلوات الله وسلامه عليه ^(٨) ، أنه قال : « بعثت إلى الأحمر والأسود » . ولهذا ختم به الرسالة والنبوة ، فلا نبى بعده ولا رسول ، بل شرعه باق بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة . وقيل : المراد بقوله : ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ﴾ أى : أصلها وعظيمتها ، كأمهات الرساتيق والأقاليم . حكاه الزمخشري وابن الجوزي ، وغيرهما ، وليس ببعيد .

(٢) زيادة من ف ، أ .

(٤) فى ت ، ف : « تعالى » .

(٦) زيادة من ت ، أ .

(٨) فى ف ، أ : « صلى الله عليه وسلم » .

(١) فى ف : « بنعم الله » ، وفى أ : « نعم الله » .

(٣) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » .

(٥) فى ت ، ف ، أ : « صلى الله عليه وسلم » .

(٧) فى ت ، ف ، أ : « فى » .

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٠) أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا (١) ، وما فيها من الزينة الدنيئة والزهرة الفانية بالنسبة إلى ما أعدّه الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم ، كما قال : ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٌ﴾ [النحل : ٩٦] ، وقال : ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران : ١٩٨] ، وقال : ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد : ٢٦] ، وقال : ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى : ١٦ ، ١٧] ، وقال رسول الله ﷺ : « والله ما الدنيا في الآخرة ، إلا كما يغمس أحدكم إصبعه في اليم ، فلينظر ماذا يرجع إليه » (٢) .

[وقوله] (٣) : ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤) أى : أفلا يعقل مَنْ يقدم الدنيا على الآخرة ؟ وقوله : ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ : يقول : أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح أعماله من الثواب الذى هو صائر إليه لا محالة ، كمن هو كافر مكذب ببقاء الله ووعدته ووعدته ، فهو ممتع فى الحياة الدنيا أياماً قلائل ، ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ قال مجاهد ، وقتادة : من المعذنين .

ثم قد قيل : إنها نزلت فى رسول الله ﷺ وفى أبى جهل . وقيل : فى حمزة وعلى وأبى جهل ، وكلاهما عن مجاهد . والظاهر أنها عامة ، وهذا كقوله تعالى إخباراً عن ذلك المؤمن حين أشرف على صاحبه ، وهو فى الدرجات وذاك فى الدركات : ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات : ٥٧] ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات : ١٥٨] .

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧)﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة ، حيث يناديهم فيقول : ﴿أَيْنَ

(١) فى ت : « عن الحياة الدنيا وحقارتها » .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٨٥٨) من حديث المستورد بن شداد رضى الله عنه .

(٣) زيادة من ف ، أ . (٤) فى ف ، أ : « تعقلون » .

شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ يعنى : أين الآلهة التى كنتم تعبدونها فى الدار الدنيا ، من الأصنام والأنناد ، هل ينصروكم أو ينتصرون ؟ وهذا على سبيل التقرير والتهديد ، كما قال : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٣﴾ [الأنعام : ٩٤] .

وقوله : ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ يعنى : من الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر ، ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ ، فشهدوا عليهم أنهم أغووههم فاتبعوهم ، ثم تبرؤوا من عبادتهم ، كما قال تعالى : ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم : ٨١ ، ٨٢] ، وقال : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف : ٥ ، ٦] ، وقال الخليل لقومه : ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْنُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَمَا أَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت : ٢٥] ، وقال الله (١) : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِي مَا كُنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة : ١٦٦ ، ١٦٧] ؛ ولهذا قال : ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ [أى] (٢) : ليخلصوكم مما أنتم فيه ، كما كنتم ترجون منهم فى الدار الدنيا ، ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أى : وتيقنوا أنهم صاثرون إلى النار لا محالة .

وقوله : ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ أى : فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين فى الدار الدنيا . وهذا كقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا . وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف : ٥٢ ، ٥٣] .

وقوله : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ : النداء الأول عن سؤال التوحيد ، وهذا فيه إثبات النبوات : ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم ؟ وكيف كان حالكم معهم ؟ وهذا كما يسأل العبد فى قبره : من ربك ؟ ومن نبيك ؟ وما دينك (٣) ؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبد الله (٤) ورسوله . وأما الكافر فيقول : هاه . هاه . لا أدري ؛ ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت ؛ لأن من كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، ولهذا قال تعالى : ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ .

وقال مجاهد : فعमित عليهم الحجج ، فهم لا يتساءلون بالأنساب .

وقوله : ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أى : فى الدنيا ، ﴿فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾

(٢) زيادة من أ .

(١) فى ت ، ف : « تعالى » ، وفى أ : « الله تعالى » .

(٤) فى ف ، أ : « عبده »

(٣) فى أ : « من نبيكم وما دينكم » .

أى : يوم القيامة ، و « عسى » من الله موجبة ، فإن هذا واقع بفضل الله ومّنه لا محالة .

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾
(٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي
الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) .

يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار ، وأنه ليس له فى ذلك منازع ولا معقب فقال : ﴿ وَرَبُّكَ
يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ أى : ما يشاء ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فالأمور كلها خيرها
وشرها بيده ، ومرجعها إليه .

وقوله : ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ ﴾ نفى على أصح القولين ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا
مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

وقد اختار ابن جرير أن ﴿ مَا ﴾ هاهنا بمعنى « الذى » ، تقديره : ويختار الذى لهم فيه خيرة .
وقد احتج بهذا المسلك طائفة المعتزلة على وجوب مراعاة الأصلح . والصحيح أنها نافية ، كما نقله
ابن أبى حاتم ، عن ابن عباس وغيره أيضاً ، فإن المقام فى بيان انفراد تعالى بالخلق والتقدير
والاختيار ، وأنه لا نظير له فى ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أى : من
الأصنام والأنداد ، التى لا تخلق ولا تختار شيئاً .

ثم قال : ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أى : يعلم ما تكن ^(١) الضمائر ، وما تنطوى
عليه السرائر ، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق ، ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ
وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ [الرعد : ١٠] .

وقوله : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى : هو المنفرد بالإلهية ، فلا معبود سواه ، كما لا رب يخلق
ويختار سواه ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ﴾ أى : فى جميع ما يفعله هو المحمود عليه ، لعدله
وحكمته ﴿ وَلَهُ الْحُكْمُ ﴾ أى : الذى لا معقب له ، لقهره وغلبته وحكمته ورحمته ، ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾
أى : جميعكم يوم القيامة فيجازى ^(٢) كل عامل بعمله ، من خير وشر ، ولا يخفى عليه منهم خافية
فى سائر الأعمال .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ
بِضْيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ
غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَنَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ .

(١) فى هـ ، أ : « مكتمة » والمثبت من ت ، ف . (٢) فى ت ، ف : « فيجزي » .

يقول تعالى ممتناً على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار ، اللذين لا قوَامَ لهم بدونهما . وبين أنه لو جعل الليل دائماً عليهم سرمداً إلى يوم القيامة ، لأضرّ ذلك بهم ، ولسئمت النفوس وانحصرت منه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٌ ﴾ أى : تبصرون به وتستأنسون بسببه ، ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ .

ثم أخبر أنه لو جعل النهار سرمداً دائماً مستمراً إلى يوم القيامة ، لأضرّ ذلك بهم ، ولتعبت الأبدان وكلت من كثرة الحركات والأشغال ؛ ولهذا قال : ﴿ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ أى : تستريحون من حركاتكم وأشغالكم ، ﴿ أَفَلَا تَبْصُرُونَ . وَمِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ أى : بكم ﴿ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى : خلق هذا وهذا ، ﴿ لَتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ أى : فى الليل ، ﴿ وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى : فى النهار بالأسفار والترحال ، والحركات والأشغال ، وهذا من باب اللف والنشر .

وقوله : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى : تشكرون الله بأنواع العبادات فى الليل والنهار ، ومن فاته شئ بالليل استدركه بالنهار ، أو بالنهار استدركه بالليل ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان : ٦٢] ، والآيات فى هذا كثيرة (١) .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥) ﴾ .

وهذا أيضاً نداء [ثان] (٢) على سبيل التقرير والتوبيخ لمن عبد مع الله إلهاً آخر ، يناديه الرب - تبارك وتعالى - على رؤوس الأشهاد فيقول : ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أى : فى الدار الدنيا . ﴿ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ : قال مجاهد : يعنى : رسولا . ﴿ فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أى : على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء ، ﴿ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ ﴾ أى : لا إله غيره ، أى : فلم ينطقوا ولم يحيروا (٣) جواباً ، ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى : ذهبوا فلم ينفعوهم .

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) ﴾ .

(١) بعدها فى ت ، ف :

« فصل : فانظر إلى هذه الآيات وما تضمنته من العبرة والدلالة على ربوبية الله وحكمته ، كيف جعل الليل سكناً ولباساً ؟ يغشى العالم ، فتسكن فيه الحركات ، وتأوى الحيوانات إلى بيوتها ، والطير إلى أوكارها ، وتستجم فيه النفوس ، وتستريح من كد السعى والتعب ، حتى إذا أخذت منه النفوس راحتها وثباتها ، وتطلعت إلى معاشها وتصرفها . جاء فائق الإصباح سبحانه بالنهار ، فقدم حيثه بشير الصباح ، فهزم تلك الظلمة ومزقها كل ممزق ، وأزالها وكشفها عن العالم ، فإذا هم مبصرون ، فانتشر الحيوان ، وتصرف فى معاشه ومصالحه ، وخرجت الطيور من أوكارها ، فإيا له من معاد ! ونشأة دال على قدرة الله سبحانه على المعاد الأكبر ، وتكرره ومشاهدة النفوس له بحيث صار عادة ومألفاً ، منعها من الاعتبار والاستدلال به على النشأة الثانية ، وإحياء الخلق بعد موتهم ، كما وردت السنة بذلك ، أنه يستجاب للعبد إذا قام من نومه يقول : الحمد لله الذى أحيانا بعد موتنا وإليه النشور » .

(٢) فى ت : « فلم يحييوا » .

(٣) زيادة من أ .

قال الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى ﴾ ، قال : كان ابن عمه . وهكذا قال إبراهيم النخعي ، وعبد الله بن الحارث بن نوفل ، وسماك بن حرب ، وقتادة ، ومالك بن دينار ، وابن جريج ، وغيرهم : أنه كان ابن عم موسى ، عليه السلام (١) .

قال ابن جريج : هو قارون بن يصهر بن قاهث ، وموسى بن عمران بن قاهث .

وزعم محمد بن إسحاق بن يسار : أن قارون كان عم موسى (٢) ، عليه السلام .

قال ابن جرير : وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه ، والله أعلم .

وقال قتادة بن دعامه : كنا نُحدِّث أنه كان ابن عم موسى ، وكان يسمى المنور لحسن صوته بالتوراة ، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري ، فأهلكه البغي لكثرة ماله .

وقال شهر بن حوشب : زاد في ثيابه شبراً طولا ، ترفعاً على قومه .

وقوله : ﴿ وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ﴾ أى : [من] (٣) الأموال ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾ أى : لِيُثْقِلُ حَمْلُهَا الْفَتَامَ مِنَ النَّاسِ لكَثْرَتِهَا .

قال الأعمش ، عن خيثمة : كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود ، كل مفتاح مثل الأصبع ، كل مفتاح على خزانة على حدته ، فإذا ركب حُمِلت على ستين بغلا أغر محجلاً . وقيل : غير ذلك ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ أى : وعظه فيما هو فيه صالح قومه ، فقالوا على سبيل النصيح والإرشاد : لا تفرح بما أنت فيه ، يعنون : لا تبطر بما أنت فيه من الأموال (٤) ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ .

قال ابن عباس : يعنى : المرحين . وقال مجاهد : يعنى : الأشرين البطرين ، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم .

وقوله : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ أى : استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة ، فى طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات ، التى يحصل لك بها الثواب فى الدار الآخرة . ﴿ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ أى : مما أباح الله فيها (٥) من المأكَل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح ، فإن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك

(٢) فى ف ، أ : « موسى بن عمران » .

(٤) فى ت ، ف ، أ : « المال » .

(١) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » .

(٣) زيادة من ت .

(٥) فى ت ، ف : « لك » .

حقاً ، ولزورك عليك حقاً ، فأت كل ذى حق حقه .

﴿ وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ أى : أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك ، ﴿ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به الأرض ^(١) ، وتسبىء إلى خلق الله ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوْ لَمْ يَعْلَمِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٧٨) .

يقول تعالى مخبراً عن جواب قارون لقومه ، حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير ، ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ أى : أنا لا أفتر إلى ما تقولون ، فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأنى أستحقه ، ولمحبته لى فتقديره : إنما أعطيته لعلم الله فى أنى أهل له ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا (٢) مَسَّ الْإِنْسَانَ ضِرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الزمر : ٤٩] . أى : على علم من الله بى ، وكقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مِّسَتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ [فصلت : ٥٠] أى : هذا أستحقه .

وقد روى عن بعضهم أنه أراد : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ أى : إنه كان يعانى علم الكيمياء : وهذا القول ضعيف ؛ لأن علم الكيمياء فى نفسه علم باطل ؛ لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليها إلا الله عز وجل ، قال الله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ [الحج : ٧٣] ، وفى الصحيح عن النبى ^(٣) ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى ، فليخلقوا ذرة ، فليخلقوا شعيرة » ^(٤) . وهذا ورد فى المصورين الذين يشبهون بخلق الله فى مجرد الصورة الظاهرة أو الشكل ، فكيف بمن يدعى أنه يحيل ماهية هذه الذات إلى ماهية ذات أخرى ، هذا زور ومحال ، وجهل وضلال . وإنما يقدر على الصبغ فى الصورة الظاهرة ، وهو كذب وزغل وتمويه ، وترويج أنه صحيح فى نفس الأمر ، وليس كذلك قطعاً لا محالة ، ولم يثبت بطريق شرعى أنه صح مع أحد من الناس من هذه الطريقة التى يتعاناها هؤلاء الجهلة الفسقة الأفاكون فأما ما يجريه الله تعالى ^(٥) من خرق العوائد على يدى بعض الأولياء من قلب بعض الأعيان ذهباً أو فضة أو نحو ذلك ، فهذا أمر لا ينكره مسلم ، ولا يرده مؤمن ، ولكن هذا ليس من قبيل الصناعات وإنما هذا عن مشيئة رب الأرض والسموات ، واختياره وفعله ، كما روى عن حيوة بن شريح المصرى ، رحمه الله ، أنه سأل سائل ، فلم يكن عنده ما يعطيه ، ورأى ضرورته ، فأخذ حصاة من الأرض فأجالها فى كفه ، ثم ألقاها إلى ذلك السائل فإذا هى ذهب أحمر . والأحاديث والآثار [فى هذا] ^(٦) كثيرة جداً يطول ذكرها .

(١) فى أ : « فى الأرض » . (٢) فى ت ، أ : « وإذا » وهو خطأ .

(٣) فى ف : « رسول الله » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٩٥٣) وصحيح مسلم برقم (٢١١١) .

(٥) فى ت ، ف : « سبحانه » . (٦) زيادة من ت ، ف ، أ .

وقال بعضهم : إن قارون كان يعلم الاسم الأعظم ، فدعا الله به ، فتمول بسببه . والصحيح المعنى الأول ؛ ولهذا قال الله تعالى - راداً عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال - : ﴿ أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ أى : قد كان من هو أكثر منه مالا وما كان ذلك عن محبة منا له ، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أى : لكثرة ذنوبهم .

قال قتادة : ﴿ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ : على خير عندي .

وقال السدى : على علم أنى أهل لذلك .

وقد أجاد فى تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، فإنه قال فى قوله : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيَتْهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ قال : لولا رضا الله عنى ، ومعرفة بفضلى ما أعطانى هذا المال ، وقرأ : ﴿ أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [وهكذا يقول من قل علمه إذا رأى من وسع الله عليه يقول : لولا أنه يستحق ذلك لما أعطى (١)] .

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) .

يقول تعالى مخبراً عن قارون : إنه خرج ذات يوم على قومه فى زينة عظيمة ، وتجميل باهر ، من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه ، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخرفها وزينتها ، تمنوا أن لو كان لهم مثل الذى أعطى ، قالوا : ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أى : ذو حظ وافر من الدنيا . فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم : ﴿ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أى : جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين فى الدار الآخرة خير مما ترون .

[كما فى الحديث الصحيح : « يقول الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، واقروا إن شئتم : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ » (٢) [السجدة : ١٧] « (٣) .

وقوله : ﴿ وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ : قال السدى : وما يلقى الجنة (٤) إلا الصابرون . كأنه جعل ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم . قال ابن جرير : وما يلقى (٥) هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا ، الراغبون فى الدار الآخرة . وكأنه جعل ذلك مقطوعاً من كلام أولئك ، وجعله من كلام الله عز وجل وإخباره بذلك .

(١) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٨٢٤) .

(٤) فى أ : « وما يلقاها أى الجنة » .

(٥) فى أ : « وما يلقاها » .

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآئُ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَآئُ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) .

لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينته ، وفخره على قومه وبغيه عليهم ، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض ، كما ثبت في الصحيح - عند البخارى من حديث الزهرى ، عن سالم - : أن أباه حدثه : أن رسول الله ﷺ قال : « بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به ^(١) ، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة » .

ثم رواه من حديث جرير بن زيد ، عن سالم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ ، نحوه ^(٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا النضر بن إسماعيل أبو المغيرة القاص ، حدثنا الأعمش ، عن عطية ^(٣) ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ^(٤) ﷺ : « بينا رجل فيمن كان قبلكم ، خرج في بردين أخضرين يختال فيهما ، أمر الله الأرض فأخذته ، فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة » . تفرد به أحمد ^(٥) ، وإسناده حسن .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا أبو خيثمة ، حدثنا أبو معلى بن منصور ^(٦) ، أخبرني محمد بن مسلم ، سمعت زياداً النميرى يحدث عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا رجل فيمن ^(٧) كان قبلكم خرج في بردين فاختلف فيهما ، فأمر الله الأرض فأخذته ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » ^(٨) .

وقد ذكر [الحافظ] ^(٩) محمد بن المنذر - شكر - في كتاب العجائب الغريبة بسنده عن نوفل بن مساحق قال : رأيت شاباً في مسجد نجران ، فجعلت أنظر إليه وأتعجب من طوله وقمائه وجماله ، فقال : ما لك تنظر إلي ؟ فقلت : أعجب من جمالك وكمالك . فقال : إن الله ليعجب منى . قال : فما زال ينقص وينقص حتى صار بطول الشبر ، فأخذ به بعض قرابته في كفه وذهب .

وقد ذكر أن هلاك قارون كان عن دعوة نبي الله موسى ، عليه السلام ^(١٠) . واختلف في سببه ، فعن ابن عباس والسدى : أن قارون أعطى امرأة بغيّاً مالا على أن تبته موسى بحضرة الملائكة من بنى إسرائيل ، وهو قائم فيهم يتلو عليهم كتاب الله ، فتقول : ياموسى ، إنك فعلت بى كذا وكذا . فلما قالت في الملائكة ذلك ^(١١) لموسى ، عليه السلام ، أرعد من الفرق ، وأقبل عليها ^(١٢) وصلى ركعتين ثم قال : أنشدك بالله الذى فرق البحر ، وأنجاك من فرعون ، وفعل كذا و [فعل] ^(١٣) كذا ،

(١) فى ت : « خسف الله به » .

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٧٩٠) .

(٣) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » . (٤) فى ت : « النبى » .

(٥) المسند (٤٠/٣) .

(٦) فى هـ : « أبو يعلى بن منصور » والصواب ما أثبتناه من مسند أبى يعلى . (٧) فى ف ، أ : « من » .

(٨) مسند أبى يعلى (٢٧٩/٧) وقال الهيثمى فى المجمع (١٢٦/٥) : « فيه زياد بن عبد الله النميرى وهو ضعيف ، وقد وثقه ابن حبان وقال : يخطئ » .

(٩) زيادة من ف ، أ . (١٠) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » . (١١) فى أ : « بذلك » .

(١٢) فى أ : « بعد ما » . (١٣) زيادة من ف ، أ .

لما أخبرتنى بالذى حملك على ما قلت ؟ فقالت : أما إذ نَشَدْتَنِي فَإِنْ قَارُونَ أَعْطَانِي كَذَا وَكَذَا ، على أن أقول لك ، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه ، فعند ذلك خَرَّ موسى لله عز وجل ساجداً ، وسأل الله فى قَارُونَ . فأوحى الله إليه أنى قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه ، فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره فكان (١) ذلك .

وقيل : إن قَارُونَ لما خرج على قومه فى زينتته تلك ، وهو راكب على البغال الشَّهب ، وعليه وعلى خدمه الثياب الأرجوان الصَّبْغة (٢) ، فمر فى جَحْفَلِهِ ذلك على مجلس نبي الله موسى ، عليه السلام ، وهو يذكرهم بأيام الله . فلما رأى الناس قَارُونَ انصرفت وجوه الناس حوله ، ينظرون إلى ما هو فيه . فدعاه موسى ، عليه السلام ، وقال : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : يا موسى ، أما لئن كنت فَضَّلْتَ عَلَيَّ بالنبوة ، فلقد فضلت عليك بالدنيا ، ولئن شئت لنخرجن ، فلتدعون عليّ وأدعو عليك . فخرج وخرج قَارُونَ فى قومه ، فقال موسى (٣) : تدعو أو أدعو أنا ؟ قال : بل أنا أدعو . فدعا قَارُونَ فلم يجب له ، ثم قال موسى (٤) : أدعو ؟ قال : نعم . فقال موسى : اللهم ، مُرْ الأرض أن تطيعنى (٥) اليوم . فأوحى الله إليه أنى قد فعلت ، فقال موسى : يا أرض ، خذيههم . فأخذتهم إلى أقدامهم . ثم قال : خذيههم . فأخذتهم إلى ركبهم ، ثم إلى مناكبهم . ثم قال : أقبلى بكنوزهم وأموالهم . قال : فأقبلت بها حتى نظروا إليها . ثم أشار موسى بيده فقال : اذهبوا بنى لاوى (٦) فاستوت بهم الأرض .

وعن ابن عباس أنه قال : خُسِفَ بهم إلى الأرض السابعة .

وقال قتادة : ذكر لنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة ، فهم يتجلجلون فيها إلى يوم القيامة .

وقد ذكر هاهنا إسرائيليات [غريبة] (٧) أضربنا عنها صفحاً .

وقوله : ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ أى : ما أغنى عنه ماله وما جمعه ، ولا خدمه و [لا] (٨) حشمه . ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله [به] (٩) ، ولا كان هو فى نفسه منتصراً لنفسه ، فلا ناصر له [لا] (١٠) من نفسه ، ولا من غيره .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ ﴾ أى : الذين لما رأوه فى زينتته ﴿ قَالُوا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ ، فلما خسف به أصبحوا يقولون : ﴿ وَيَكُنَّ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾ أى : ليس المال بدال على رضا الله عن صاحبه [وعن عباده] (١١) ؛ فإن الله يعطى ويمنع ، ويضيق ويوسع ، ويخفض ويرفع ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة . وهذا كما فى الحديث المرفوع عن ابن مسعود : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم ، كما قسم أرزاقكم ، وإن الله يعطى المال من يحب ، ومن لا يحب ، ولا يعطى الإيمان إلا من يحب » (١٢) .

﴿ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَاهُ ﴾ أى : لولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا ، كما خسف

(١) فى ف ، أ : « وكان » . (٢) فى ت ، ف ، أ : « المصبغة » .

(٣) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » ، وفى ف ، أ : « عليه السلام » . (٤) فى ف ، أ : « قال : يا موسى » .

(٥) فى ت : « فلتطعننى » . (٦) فى أ : « اذهبوا به لا أرى » . (٧) ، (٨) زيادة من ت ، ف .

(٩ - ١١) زيادة من أ .

(١٢) المسند (١/٣٨٧) .

به ، لأننا وَدَدْنَا أَنْ نَكُونَ مِثْلَهُ .

﴿ وَيَكَّأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ : يعنون : أنه كان كافراً ، ولا يفلح الكافرون عند الله ، لا في الدنيا ولا في الآخرة .

وقد اختلف النحاة في معنى قوله تعالى [هاهنا] (١) : ﴿ وَيَكَّأَن ﴾ ، فقال بعضهم : معناها : «ويلك اعلم أن » ، ولكن خُفِّفَتْ فَقِيلَ : « ويك » ودل فتح « أن » على حذف « اعلم » . وهذا القول ضعفه ابن جرير (٢) ، والظاهر أنه قوى ، ولا يشكل على ذلك إلا كتابتها في المصاحف متصلة «ويكأن» . والكتابة أمر وضعى اصطلاحى ، والمرجع إلى اللفظ العربى ، والله أعلم .

وقيل : معناها : ويكأن ، أى : ألم تر أن . قاله قتادة . وقيل : معناها : « وى كأن » ، ففصلها وجعل حرف « وى » (٣) للتعجب أو للتنبيه ، و « كأن » بمعنى « أظن وأحسب » . قال ابن جرير : وأقوى الأقوال فى هذا قول قتادة : إنها بمعنى : ألم تر أن ، واستشهد بقول الشاعر (٤) :

سَأَلَتَانِي الطَّلَاقُ أَنْ رَأَتَانِي قَلَّ مَا لِي ، قَدْ جِئْتُمَانِي بِنُكْرٍ
وَيَكَّأَنُ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَشَبٌ يُحِبُّ سَبَّ ، وَمَنْ يَفْتَقِرُ يَعِشُ عَيْشَ ضُرٍّ

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤) ﴾ .

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذى لا يحول ولا يزول ، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين ، الذين لا يريدون علوًّا فى الأرض ، أى : ترفعاً على خلق الله وتعاضماً عليهم وتجبراً بهم ، ولا فساداً فيهم . كما قال عكرمة : العلو : التجبر .

وقال سعيد بن جبير : العلو : البغى .

وقال سفيان بن سعيد الثورى ، عن منصور ، عن مسلم (٥) البطين : العلو فى الأرض : التكبر بغير حق . والفساد : أخذ المال بغير حق .

وقال ابن جرير : ﴿ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ ﴾ تعظماً وتجبراً (٦) ، ﴿ وَلَا فُسَادًا ﴾ : عملاً بالمعاصى .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبى ، عن أشعث السمان (٧) ، عن أبى سلام الأعرج ، عن على قال : إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك صاحبه ، فيدخل (٨) فى قوله : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

(١) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٢) تفسير الطبرى (٧٧/٢٠) .

(٣) فى أ : « أى » .

(٤) هو زيد بن عمرو بن نفيل ، والبيت فى تفسير الطبرى (٧٧/٢٠) .

(٥) فى أ : « أشعب السماك » .

(٦) فى ف : « ولا تجبرا » .

(٧) فى أ : « سالم » .

(٨) فى أ : « فدخل » .

وهذا محمول على ما إذا أراد [بذلك] (١) الفخر [والتطاول] (٢) على غيره ؛ فإن ذلك مذموم ، كما ثبت في الصحيح ، عن النبي ﷺ [أنه قال] (٣) : « إنه أوحى إلى أن تواضعوا ، حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد » (٤) ، وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمل فهذا لا بأس به ، فقد ثبت أن رجلاً قال : يارسول الله ، إنى أحب أن يكون ردائي حسناً ونعلي حسنة ، أفمن الكبر ذلك ؟ فقال : « لا ، إن الله جميل يحب الجمال » .

وقال (٥) : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ أى : ثواب الله خير من حسنة العبد ، فكيف والله يضاعفه أضعافاً كثيرة فهذا (٦) مقام الفضل .

ثم قال : ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل : ٩٠] وهذا مقام الفصل العدل .

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨) ﴾ .

يقول تعالى أمراً رسولَه ، صلوات الله وسلامه عليه ، ببلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس ، ومخبراً له بأنه سيرده إلى معاد ، وهو يوم القيامة ، فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أى : افترض عليك أداءه إلى الناس ، ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أى : إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف : ٦] ، وقال : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ [قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ] (٧) [المائدة : ١٠٩] ، [وقال] (٨) : ﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ [الزمر : ٦٩] .

وقال السدى عن أبى صالح ، عن (٩) ابن عباس : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ ، يقول : لرادك إلى الجنة ، ثم سائلك عن القرآن . قال السدى : وقال أبو سعيد مثلها . وقال الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، [و] (١٠) عن ابن عباس ، رضى الله عنهما : ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ قال : إلى يوم القيامة . ورواه مالك ، عن الزهري .

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) (٣) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار رضى الله عنه .

(٥) زيادة من ف ، أ .

(٦) فى ف : « وهذا » .

(٧) فى ت ، ف : « وقوله » .

(٨) زيادة من ت .

(٩) فى ت : « وقال » .

(١٠) زيادة من ت ، أ .

وقال الثوري ، عن الأعمش ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (١) : ﴿لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ : إلى الموت .

ولهذا طُرُقٌ عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، وفى بعضها : لرادك إلى معدنك من الجنة .
وقال مجاهد : يحييك يوم القيامة . وكذا روى عن عكرمة ، وعطاء ، وسعيد بن جبير ، وأبى قزعة ، وأبى مالك ، وأبى صالح .

وقال الحسن البصرى : أى واللّه ، إن له لمعاداً (٢) ، يبعثه الله يوم القيامة ثم يدخله الجنة .

وقد روى عن ابن عباس غير ذلك ، كما قال البخارى فى التفسير من صحيحه (٣) :

حدثنا محمد بن مقاتل ، أنبأنا يعلى ، حدثنا سفيان العُصْفُرى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ قال : إلى مكة .

وهكذا رواه النسائى فى تفسير سننه ، وابن جرير من حديث يعلى - وهو ابن عبيد الطَّنَافسى - به (٤) . وهكذا روى العوفى ، عن ابن عباس : ﴿لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ أى : لرادك إلى مكة كما أخرجك منها .

وقال محمد بن إسحاق ، عن مجاهد فى قوله : ﴿لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ : إلى مولدك بمكة .

قال ابن أبى حاتم : وقد روى عن ابن عباس ، ويحيى بن الجزار ، وسعيد بن جبير ، وعطية ، والضحاك ، نحو ذلك .

[وحدثنا أبى ، حدثنا ابن أبى عمر قال : قال سفيان : فسمعناه من مقاتل منذ سبعين سنة ، عن الضحاك] (٥) قال : لما خرج النبى ﷺ من مكة ، فبلغ الجُحْفَةَ ، اشتاق إلى مكة ، فأنزل الله عليه : ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ إلى مكة .

وهذا من كلام الضحاك يقتضى أن هذه الآية مدنية ، وإن كان مجموع السورة مكية ، والله أعلم .

وقد قال عبد الرزاق : حدثنا معمر ، عن قتادة فى قوله : ﴿لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ قال : هذه مما كان ابن عباس يكتمها ، وقد روى ابن أبى حاتم بسنده عن نعيم القارئ أنه قال فى قوله : ﴿لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ قال : إلى بيت المقدس .

وهذا - والله أعلم - يرجع إلى قول من فسر ذلك بيوم القيامة ؛ لأن بيت المقدس هو أرض المحشر والمنشر ، والله الموفق للصواب .

ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة ، وهو الفتح الذى هو عند ابن عباس أمانة على اقتراب أجله ، صلوات الله وسلامه عليه (٦) ، كما فسر ابن عباس

(١) فى ت : « وعنه » .

(٢) فى ت : « إنه لمعاد » .

(٣) فى ت : « كما روى البخارى بإسناده » .

(٤) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٨٦) وتفسير الطبرى (٨٠ / ٢٠) .

(٥) فى أ : « أجل النبى صلى الله عليه وسلم » .

(٦) زيادة من ف ، أ .

بسورة ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ أنه أجلُّ رسول الله ﷺ نعى إليه ، وكان ذلك بحضرة عمر بن الخطاب ، ووافقه عمر على ذلك ، وقال : لا أعلم منها غير الذى تعلم . ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله : ﴿ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ بالموت ، وتارة بيوم القيامة الذى هو بعد الموت ، وتارة بالجنة التى هى جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين : الجن والإنس ، ولأنه أكمل خلق الله ، وأفصح (١) خلق الله ، وأشرف خلق الله على الإطلاق .

وقوله : ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : قل - لمن خالفك وكذبك يا محمد من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم - قل : ربي أعلم بالمهتدى منكم ومنى ، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار ، ولمن تكون العاقبة والنصرة فى الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى مذكراً لنبيه نعمته العظيمة عليه وعلى العباد إذ أرسله إليهم : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ ﴾ أى : ما كنت تظن قبل إنزال الوحي (٢) إليك أن الوحي ينزل عليك ، ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى : إنما نزل (٣) الوحي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك ، فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا ﴾ أى : معيناً ﴿ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ، [أى (٤) : ولكن فارقههم ونازلهم وخالفهم .

﴿ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ أى : لا تتأثر لمخالفتهم لك وصدهم الناس عن طريقك (٥) لا تلوى على ذلك ولا تباله ؛ فإن الله مُعَلِّمُكُمُ الدِّينَ ، ومؤيدُ دينك ، ومظهر ما أرسلت (٦) به على سائر الأديان ؛ ولهذا قال : ﴿ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أى : إلى عبادة ربك وحده لا شريك له ، ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى : لا تليق العبادة إلا له ولا تنبغى الإلهية إلا لعظمته .

وقوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ : إخبار بأنه الدائم الباقي الحى القيوم ، الذى تموت الخلائق ولا يموت ، كما قال تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦ ، ٢٧] ، فعبّر بالوجه عن الذات ، وهكذا قوله هاهنا : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ أى : إلا إياه .

وقد ثبت فى الصحيح ، من طريق أبى سلمة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «أصدق كلمة قالها شاعر [كلمة (٧)] لبيد :

ألا كلُّ شَيْءٍ مَآخِلًا لِلَّهِ بَاطِلٌ» (٨) .

وقال مجاهد والثورى فى قوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ أى : إلا ما أريد به وجهه ،

(١) فى أ : « وأنصح » . (٢) فى أ : « الذكر » .

(٣) فى ت ، أ : « أنزل » .

(٤) زيادة من أ .

(٥) فى أ : « طريقتك » .

(٦) فى أ : « ما أرسلك » .

(٧) زيادة من ف ، أ ، وصحيح البخارى .

(٨) صحيح البخارى برقم (٣٨٤١) وصحيح مسلم برقم (٢٢٥٦) .

وحكاية البخارى فى صحيحه كالمقرر له .

قال ابن جرير : ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر :

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ذَنْبًا لَسْتُ مُحْصِيَهُ رَبَّ الْعِبَادِ ، إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ

وهذا القول لا ينافى القول الأول ، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد بها وجه الله (١) عز وجل من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة . والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية (٢) وهالكة وزائلة إلا ذاته (٣) تعالى ، فإنه الأول الآخر الذى هو قبل كل شىء وبعد كل شىء .

قال (٤) أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا فى كتاب « التفكير والاعتبار » : حدثنا أحمد بن محمد بن أبى بكر ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا عمر بن سليم الباهلى ، حدثنا أبو الوليد قال : كان (٥) ابن عمر إذا أراد أن يتعاهد قلبه ، يأتى الخربة فيقف على بابها ، فينادى بصوت حزين فيقول : أين أهلك ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ .

وقوله : ﴿ لَهُ الْحُكْمُ ﴾ أى : الملك والتصرف ، ولا معقب لحكمه ، ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى : يوم معادكم ، فيجزىكم (٦) بأعمالكم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، [والله أعلم .

آخر تفسير سورة « القصص » [(٧)

(٢) فى ت : « تفنى » .

(٤) فى ت : « وروى » .

(٦) فى ت : فيجازيكم » .

(١) فى ف : « به وجه الله » ، وفى أ : « به وجهه » .

(٣) فى ت : « وجهه » .

(٥) فى ت : « بسنده أن » .

(٧) زيادة من ف ، أ .

تفسير سورة العنكبوت

[وهى] ^(١) مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ (١) أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) ﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم فى أول سورة « البقرة » .

وقوله : ﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ استفهام إنكار ، ومعناه : أن الله سبحانه وتعالى لابد أن يبتلى عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان ، كما جاء فى الحديث الصحيح : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى البلاء » ^(٢) وهذه الآية كقوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ (٣) ﴾ [آل عمران : ١٤٢] ، ومثلها فى سورة « براءة » وقال فى البقرة : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِئْسَاءِ وَالضَّرَاءُ وَذُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نَصْرَ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى : الذين صدقوا فى دعواهم الإيمان ممن هو كاذب فى قوله ودعواه . والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ^(٤) . وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة ؛ ولهذا يقول ابن عباس وغيره فى مثل : ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ ﴾ [البقرة : ١٤٣] : إلا لنرى ؛ وذلك أن الرؤية إنما تتعلق بالموجود ، والعلم أعم من الرؤية ، فإنه [يتعلق] ^(٥) بالمعْدوم والموجود .

وقوله : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أى : لا يحسبن الذين لم يدخلوا فى الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان ، فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ما

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) استند (١ / ١٧٢) ، والترمذى فى السنن برقم (٢٣٩٨) ، من طريق مصعب بن سعد عن أبيه سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، وقال الترمذى : « حديث حسن صحيح » .

(٣) هكذا وقعت الآية فى جميع المخطوطات ، والصواب بعدم إثبات قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ ﴾ ؛ لأنها ليست نهاية تزييل الآية ونهاية تزييل الآية : ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَعِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

(٤) فى ف ، أ : « كيف كان يكون » .

(٥) زيادة من ف ، أ .

هو أغلظ من هذا وأطم ؛ ولهذا قال : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ﴾ أى : يفوتونا ، ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أى : بشس ما يظنون .

﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٥) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) .

يقول تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ ﴾ أى : فى الدار الآخرة ، وعمل الصالحات رجاء ما عند الله من الثواب الجزيل ، فإن الله سيحقق له رجاءه ويوفيه عمله كاملاً موفوراً^(١) ، فإن ذلك كائن لا محالة ؛ لأنه سميع الدعاء ، بصير بكل الكائنات^(٢) ؛ ولهذا قال : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ ، كقوله : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴾ [فصلت : ٤٦] أى : من عمل صالحاً فإنما يعود نفع عمله على نفسه ، فإن الله غنى عن أفعال العباد ، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل [واحد]^(٣) منهم ، ما زاد ذلك فى ملكه شيئاً ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قال الحسن البصرى : إن الرجل ليجاهد ، وما ضرب يوماً من الدهر بسيف .

ثم أخبر أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم من إحسانه وبره بهم يجازى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء ، وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذى عملوا ، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما^(٤) كانوا يعملون ، فيقبل القليل من الحسنات ، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ويجزى على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٠] ، وقال هاهنا : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩) .

يقول تعالى آمراً عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده ، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان ، ولهما عليه^(٥) غاية الإحسان ، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ

(١) فى أ : « موفراً » .

(٢) فى ت : « بصير بالكائنات » .

(٣) زيادة من أ .

(٤) فى ت ، ف ، أ : « الذى » .

(٥) فى أ : « إليه » .

لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿ [الإسراء : ٢٣ ، ٢٤] .

ومع هذه الوصية بالرفقة والرحمة والإحسان إليهما ، في مقابلة إحسانهما المتقدم ، قال : ﴿ وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ أى : وإن حرصا عليك أن تتابعهما فى دينهما إذا كانا مشركين ، فإياك وإياهما ، لا تطعهما فى ذلك ، فإن مرجعكم إلى يوم القيامة ، فأجزيك بإحسانك إليهما ، وصبرك على دينك ، وأحشرك مع الصالحين لا فى زمرة والديك ، وإن كنت أقرب الناس إليهما فى الدنيا ، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب ، أى : حباً دينياً ؛ ولهذا قال : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ .

وقال (١) الترمذى عند تفسير هذه الآية : حدثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثنى ، حدثنا محمد ابن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن سَمَّاك بن حرب قال : سمعت مُصْعَب بن سعد يحدث عن أبيه سعد ، قال : نزلت فى أربع آيات . فذكر قصة ، وقالت أم سعد : أليس قد أمرك الله بالبر ؟ والله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر ، قال : فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شَجَرُوا فاهَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ (٢) ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا وَإِنْ جَاهِدَاكَ ﴾ الآية .

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى أيضا (٣) ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿ (١١) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن صفات قوم من [المكذبين] (٤) الذين يدعون الإيمان بالسنتهم ، ولم يثبت الإيمان فى قلوبهم ، بأنهم إذا جاءتهم فتنة ومحنة فى الدنيا ، اعتقدوا أن هذا من نعمة الله تعالى بهم ، فارتدوا عن الإسلام ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ .

قال ابن عباس : يعنى : فتنته أن يرتد عن دينه إذا أُوذِيَ فى الله . وكذا قال غيره من علماء السلف . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الحج : ١١] .

ثم قال : ﴿ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ أى : ولئن جاء نصر قريب من ربك - يا محمد - وفتح ومغانم ، ليقولن هؤلاء لكم : إنا كنا معكم ، أى [كنا] (٥) إخوانكم فى الدين ، كما

(١) فى ت : « وروى » .

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٠٧٩) ، والمسند (١٨١ / ١) ، وصحيح مسلم برقم (١٧٤٨) ، وسنن أبى داود برقم (٢٧٤٠) .

(٤) زيادة من ف .

(٥) زيادة من ف ، أ .

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء : ١٤١] ، وقال تعالى : ﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنَّ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ [المائدة : ٥٢] .

وقال تعالى مخبراً عنهم هاهنا : ﴿ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : أو ليس الله بأعلم بما فى قلوبهم ، وما تكنه ضمائرهم ، وإن أظهروا لكم الموافقة ؟

وقوله : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ أى : وليختبرن الله الناس بالضراء والسراء ، ليطيخ الله فى الضراء والسراء ، وإنما يطيعه فى حظ نفسه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١] ، وقال تعالى بعد وقعة أحد ، التى كان فيها ما كان من الاختبار والامتحان : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ الآية [آل عمران : ١٧٩] ، [والله أعلم ^(١)] .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْأَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (١٣) .

يقول تعالى مخبراً عن كفار قريش : أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى : ارجعوا عن دينكم إلى ديننا ، واتبعوا سبيلنا ، ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾ أى : وآثامكم - إن كانت لكم آثام فى ذلك - علينا وفى رقابنا ، كما يقول القائل : « افعل هذا وخطيئتك فى رقبتي » . قال الله تكذيباً لهم : ﴿ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى : فيما قالوه : إنهم يحملون عن أولئك خطاياهم ، فإنه لا يحمل أحد وزر أحد ، ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَ لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [فاطر : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يُصْرُونَهُمْ ﴾ [المعارج : ١٠ ، ١١] .

وقوله : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ : إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة ، أنهم يوم القيامة يحملون أوزار أنفسهم ، وأوزاراً آخر بسبب من أضلوا من الناس ، من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئاً ، كما قال تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴾ [النحل : ٢٥] .

وفى الصحيح : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم

القيامة ، من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً ^(١) وفى الصحيح : « ما قتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ؛ لأنه أول من سنّ القتل » ^(٢) .

وقوله : ﴿ وَلَيَسْأَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى : يكذبون ويختلقون من البهتان .

وقد ذكر ^(٣) ابن أبى حاتم هاهنا حديثاً فقال: حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة ، حدثنا عثمان بن حفص بن أبى العالية ، حدثنى سليمان بن حبيب المحاربى ^(٤) ، عن أبى أمامة ، رضى الله عنه ، قال : إن رسول الله ﷺ بلغ ما أرسل به ، ثم قال : « إياكم والظلم ، فإن الله يعزم يوم القيامة فيقول : وعزتى لا يجوزنى اليوم ظلم ! ثم ينادى مناد فيقول : أين فلان ابن فلان؟ فيأتى يتبعه من الحسنات أمثال الجبال ، فيشخص الناس إليها أبصارهم حتى يقوم بين يدى الله الرحمن عز وجل ثم يأمر المنادى فينادى ^(٥) : من كانت له تباعة - أو : ظلامة - عند فلان ابن فلان ، فهلّم . فيقبلون حتى يجتمعوا قياماً بين يدى الرحمن ، فيقول الرحمن : اقضوا عن عبدى . فيقولون : كيف نقضى عنه ؟ فيقول لهم : خذوا لهم من حسناته . فلا يزالون يأخذون منها حتى لا يبقى له حسنة ، وقد بقى من أصحاب الظلمات ، فيقول : اقضوا عن عبدى . فيقولون : لم يبق له حسنة . فيقول : خذوا من سيئاتهم فاحملوها عليه » . ثم نزع النبى ﷺ بهذه الآية الكريمة : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْأَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ .

وهذا الحديث له شاهد ^(٦) فى الصحيح ^(٧) من غير هذا الوجه .

وقال ^(٨) ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، حدثنا أبو بشر الحذاء ، عن أبى حمزة ^(٩) الشمالى ، عن معاذ بن جبل ، رضى الله عنه ، قال : قال لى رسول الله ﷺ : « يا معاذ ، إن المؤمن يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه ، حتى عن كحل عينيه ، وعن فتات الطينة بإصبعيه ^(١٠) ، فلا أَلْفَيْكَ تأتي يوم القيامة وأحد أسعد بما آتاك ^(١١) الله منك » ^(١٢) .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (١٥) ﴾ .

هذه تسليية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه ، يخبره عن نوح ^(١٣) ، عليه السلام ، : أنه مكث ^(١٤) فى قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً ، وسراً ، وجهاراً ،

(١) تقدم تخريج الحديث عند الآية : ٢ من سورة المائدة .

(٢) تقدم تخريج الحديث عند الآية : ٣٠ من سورة المائدة .

(٣) فى ت : « روى » . (٤) فى أ : « البخارى » . (٥) فى ت ، ف : « أن ينادى » .

(٦) فى ف ، أ : « شواهد » .

(٧) بعدها فى ت ، أ : « إن الرجل ليأتى يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال وقد ظلم هذا ، وأخذ مال هذا ، وأخذ من عرض هذا فأخذ هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإذا لم يبق له حسنة ، أخذ من سيئاتهم ، فطرح عليه » .

(٨) فى ت : « وروى » . (٩) فى أ : « عن أبى النسائي » .

(١٠) فى أ : « بإصبعه » . (١١) فى ت ، ف : « آتاه » .

(١٢) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٣١ / ١٠) من طريق إسحاق بن أبى حسان عن أحمد بن أبى الحوارى به .

(١٣) فى ت : « قوم نوح » . (١٤) فى أ : « لبث » .

ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً عن الحق ، وإعراضاً عنه وتكذيباً له ، وما آمن معه منهم إلا قليل ؛ ولهذا قال : ﴿ قَلَبْتُ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ أى : بعد هذه المدة الطويلة ما نجح فيهم البلاغ والإنذار ، فأنت - يا محمد - لا تأسف على من كفر بك من قومك ، ولا تحزن عليهم ؛ فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، ويبيد الأمر وإليه ترجع ^(١) الأمور ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] ، واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك ، ويذل عدوك ، ويكتبهم ويجعلهم أسفل السفالين .

قال حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن يوسف بن ماهك ^(٢) ، عن ابن عباس قال : بعث نوح وهو لأربعين سنة ، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وعاش بعد الطوفان ستين عاماً ، حتى كثر الناس وفشوا .

وقال قتادة : يقال إن عمره كله [كان] ^(٣) ألف سنة إلا خمسين عاماً ، لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلثمائة سنة ، ودعاهم ثلثمائة ولبث بعد الطوفان ثلثمائة وخمسين سنة .
وهذا قول غريب ، وظاهر السياق من الآية أنه مكث في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً .

وقال عون بن أبي شداد : إن الله أرسل نوحاً إلى قومه وهو ابن خمسين وثلثمائة سنة ، فدعاهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ثم عاش بعد ذلك ثلثمائة وخمسين سنة .

وهذا أيضاً غريب ، رواه ابن أبي حاتم ، وابن جرير ، وقول ابن عباس أقرب ، والله أعلم .
وقال الثوري ، عن سلمة بن كهيل ، عن مجاهد قال : قال لى ابن عمر : كم لبث نوح في قومه ؟ قال : قلت : ألف سنة إلا خمسين عاماً . قال : فإن الناس لم يزالوا في نقصان من أعمارهم وأحلامهم وأخلاقهم إلى يومك هذا .

وقوله : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ أى : الذين آمنوا بنوح عليه السلام . وقد تقدم ذكر ذلك مفصلاً في سورة « هود » ، وتقدم تفسيره بما أغنى عن إعادته .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ أى : وجعلنا تلك السفينة باقية ، إما عينها كما قال قتادة : إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي ، أو نوعها جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق ، كيف نجّاهم من الطوفان ، كما قال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ . وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ . إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾ [يس : ٤١ - ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١١ ، ١٢] ، وقال هاهنا : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ ، وهذا من باب التدرّج من الشخص إلى الجنس ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ

(٣) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٢) فى أ : « وائل » .

(١) فى ف : « يرجع » .

وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴿ [الملك : ٥] أى : وجعلنا نوعها ، فإن التى يرمى ^(١) بها ليست هى التى زينة للسماء ^(٢) وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿ [المؤمنون : ١٢ ، ١٣] ، ولهذا نظائر كثيرة .

وقال ابن جرير : لو قيل : إن الضمير فى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ^(٣) ﴾ ، عائد إلى العقوبة ، لكان وجهاً ، والله أعلم .

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء : أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والإخلاص له فى التقوى ، وطلب الرزق منه وحده لا شريك له ، وتوحيده فى الشكر ^(٤) ، فإنه المشكور على النعم ، لا مُسَدِّى لها غيره ، فقال لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾ أى : أخلصوا له العبادة والخوف ، ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير فى الدنيا والآخرة ، واندفع عنكم الشر فى الدنيا والآخرة .

ثم أخبرهم أن الأصنام التى يعبدونها والأوثان ، لا تضر ولا تنفع ، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء ، سميتوها ^(٥) آلهة ، وإنما هى مخلوقة مثلكم . هكذا روى العوفى عن ابن عباس . وبه قال مجاهد ، والسدى .

وروى الوالى ^(٦) ، عن ابن عباس : وتصنعون إفكاً ، أى : تحتونها أصناماً . وبه قال مجاهد - فى رواية - وعكرمة ، والحسن ، وقتادة وغيرهم ، واختاره ابن جرير ، رحمه الله .

وهى لا تملك لكم رزقا ، ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ وهذا أبلغ فى الحصر ، كقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] ، ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِدَّةَ نَبَاتٍ فِي الْجَنَّةِ ﴾ [التحريم : ١١] ؛ ولهذا قال : ﴿ فَابْتَغُوا ﴾ أى فاطلبوا ﴿ عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ أى : لا عند غيره ، فإن غيره لا يملك شيئاً ، ﴿ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ أى : كلوا من رزقه واعبدوه وحده ^(٧) ، واشكروا له على ما أنعم به عليكم ، ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى : يوم القيامة ، فيجازى كل عامل بعمله .

وقوله : ﴿ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أى : فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال فى مخالفة الرسل ، ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ يعنى : إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله تعالى

(١) فى ف : « ترمى » . (٢) فى أ : « السماء » . (٣) فى ت : « وجعلناها آية للعالمين » .

(٤) فى أ : « الشكر » . (٥) فى ف : « فسميتوها » . (٦) فى أ : « البخارى » .

(٧) فى ف ، أ : « وحده لا شريك له » .

به من الرسالة ، والله يضل من يشاء ويهdy من يشاء ، فاحرصوا ^(١) لأنفسكم أن تكونوا من السعداء .
وقال قتادة فى قوله : ﴿ وَإِنْ تَكْذَبُوا فَقَدْ كَذَبَ أَمَمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ ﴾ قال : يُعزى نبيه ﷺ . وهذا من قتادة يقتضى أنه قد انقطع الكلام الأول ، واعترض بهذا إلى قوله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ . وهكذا نص على ذلك ابن جرير أيضا ^(٢) .

والظاهر من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل ، عليه السلام [لقومه] ^(٣) يحتج عليهم لإثبات المعاد ، لقوله بعد هذا كله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ ، والله أعلم .

﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) .

يقول تعالى مخبراً عن الخليل ، عليه السلام ، أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذى ينكرونه ، بما يشاهدونه فى أنفسهم من خلق الله إياهم ، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين ، فالذى بدأ هذا قادر على إعادته ؛ فإنه سهل عليه يسير لديه .

ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما فى الآفاق من الآيات المشاهدة ^(٤) من خلق الله الأشياء : السماوات وما فيها من الكواكب النيرة : الثوابت ، والسيارات ، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال ، وأودية وبرارى وقفار ، وأشجار وأنهار ، وثمار وبحار ، كل ذلك دال على حدوثها فى أنفسها ، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار ، الذى يقول للشيء : كن ، فيكون ؛ ولهذا قال : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ، كقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ أى : يوم القيامة ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] ، وكقوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور : ٣٥ ، ٣٦] .

وقوله : ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ﴾ أى : هو الحاكم المتصرف ، الذى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، فله الخلق والأمر ، مهما فعل فعُدل ؛ لأنه

(١) فى ت : « فأخلصوا » .

(٢) تفسير الطبرى (٢٠ / ٨٩) .

(٣) زيادة من أ .

(٤) فى أ : « الباهرة » .

المالك الذى لا يظلم مثقال ذرة ، كما جاء فى الحديث الذى رواه أهل السنن : « إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه ، لعذبهم وهو غير ظالم لهم » (١) ولهذا قال تعالى : ﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ أى : ترجعون يوم القيامة .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ أى : لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه ، بل هو القاهر فوق عباده ، وكل شئ خائف منه ، فقير إليه ، وهو الغنى عما سواه .

﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ ﴾ أى : جحدوها (٢) وكفروا بالمعاد ، ﴿ أُولَئِكَ يَتَسَوَّأْنَ مِنْ رَحْمَتِي ﴾ أى : لا نصيب لهم فيها ، ﴿ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : موجه فى الدنيا والآخرة .

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ (٢٥) .

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم فى كفرهم وعنادهم ومكابرتهم ، ودفعهم الحق بالباطل : أنه ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان ، ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ ، وذلك لأنهم قام عليهم البرهان ، وتوجهت عليهم الحجة ، فعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم ، ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ . فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات : ٩٧ ، ٩٨] ، وذلك أنهم حشدوا فى جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة ، وحوَّطوا حولها ، ثم أضرموها فيها النار ، فارتفع لها لهب إلى عَنَانِ السماء : ولم توقد (٣) نار قط أعظم منها ، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه فى كفة المنجنيق ، ثم قذفوا به فيها ، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً ، وخرج منها سالماً بعدما مكث فيها أياماً . ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً . فإنه بذل نفسه للرحمن ، وجسده للنيران ، وسخا بولده للقربان ، وجعل ماله للضيفان ، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان .

وقوله : ﴿ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ أى : سَلَّمَهُ [الله] (٤) منها ، بأن جعلها عليه برداً وسلاماً ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يقول لقومه مقررّاً لهم وموبخاً على سوء صنيعهم ، فى عبادتهم الأوثان : إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها فى الدنيا ، صداقة وألفة منكم ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ فى الحياة الدنيا . وهذا على قراءة من نصب ﴿ مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ ﴾ ، على أنه مفعول له ، وأما على قراءة الرفع فمعناه : إنما اتخذاكم (٥) هذا يُحَصِّلُ لكم المودة

(١) رواه أبو داود فى السنن برقم (٤٦٩٩) وابن ماجه فى السنن برقم (٧٧) من حديث أبى بن كعب وزيد بن ثابت رضى الله عنهما .

(٢) فى ت ، ف ، أ : « جحدوها بها » .

(٣) فى ت : « توجد » .

(٤) فى ف ، أ : « إنما اتخذتم » .

(٥) زيادة من ت ، ف .

فى الدنيا فقط ، ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ، ينعكس هذا الحال ، فبقى هذه الصداقة والمودة بغضةً وشنآنا ، ﴿ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ﴾ أى : تتجادلون ما كان بينكم ، ﴿ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ أى : يلعن الأتباع المتبوعين ، والمتبوعون ^(١) الأتباع ، ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف : ٣٨] ، وقال تعالى : ﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٦٧] ، وقال هاهنا : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ أى : ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار ، وما لكم من ناصر ينصركم ، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله . وهذا حال الكافرين ، فأما المؤمنون فبخلاف ذلك .

قال ^(٢) ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي ^(٣) ، حدثنا أبو عاصم الثقفى [حدثنا] ^(٤) الربيع بن إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن جعدة بن هبيرة المخزومى ، عن أبيه ، عن جده ^(٥) ، عن أم هانئ - أخت على بن أبى طالب - قالت : قال لى النبى ﷺ : « أخبرك أن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين يوم القيامة فى صعيد واحد ، فمن يدرى أين الطرفان ^(٦) » ، فقالت الله ورسوله أعلم « ثم ينادى مناد من تحت العرش : يا أهل التوحيد ، فيشرئبون » قال أبو عاصم : يرفعون رؤوسهم « ثم ينادى يا أهل التوحيد ، ثم ينادى الثالثة : يا أهل التوحيد ، إن الله قد عفا عنكم » قال : « فيقوم الناس قد تعلق بعضهم ببعض فى ظلمات الدنيا - يعنى : المظالم - ثم ينادى : يا أهل التوحيد ، ليعف بعضكم عن بعض ، وعلى الله الثواب » ^(٧) .

﴿ فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) ﴿

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم : أنه آمن له لوط ، يقال : إنه ابن أخى إبراهيم ، يقولون هو : لوط ابن هاران بن آزر ، يعنى : ولم يؤمن به من قومه سواه ، وسارة امرأة [إبراهيم] ^(٨) الخليل . لكن يقال : كيف الجمع بين هذه الآية ، وبين الحديث الوارد فى الصحيح ^(٩) : أن إبراهيم حين مرَّ على ذلك الجبار ، فسأل إبراهيم عن سارة : ما هى منه ؟ فقال : [هى] ^(١٠) أختى ، ثم جاء إليها فقال لها : إني قد قلت له : « إنك : أختى » ، فلا تكذبنى ، فإنه ليس على وجه الأرض [أحد] ^(١١) مؤمن غيرك وغيرى ^(١٢) ، فأنت أختى فى الدين . وكأن المراد من هذا - والله وأعلم - أنه ليس على وجه

(٣) فى أ : « الأحمصى » .

(٢) فى ت : « روى » .

(١) فى ت ، ف : « المتبوعين » وهو خطأ .

(٦) فى ت ، ف : « الطرفين » .

(٥) فى ت : « بإسناده » .

(٤) زيادة من ف ، أ .

(٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٨٠٣) من طريق محمد بن إسماعيل الأحمسي به ، وقال : « لا يروى عن أم هانئ إلا بهذا الإسناد ، تفرد به أبو عاصم » . وقال الهيثمى فى المعجم (٣٥٥ / ١٠) : « فيه أبو عاصم - الربيع بن إسماعيل - منكر الحديث ، قاله أبو حاتم » .

(٨) زيادة من ف ، أ .

(٩) صحيح مسلم برقم (٢٣٧١) .

(١٠) زيادة من ت .

(١٢) فى ت : « غيرى وغيرك » .

(١١) زيادة من ت ، أ .

الأرض زوجان على الإسلام غيرى وغيرك ، فإن لوطاً ، عليه السلام ، آمن به من قومه ، وهاجر معه إلى بلاد الشام ، ثم أرسل في حياة الخليل إلى أهل « سدوم » وإقليمها ، وكان من أمرهم ^(١) ما تقدم وما سيأتى .

وقوله : ﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴾ : يحتمل عود الضمير فى قوله : ﴿ وَقَالَ ﴾ ، على لوط ، لأنه ^(٢) أقرب المذكورين ، ويحتمل عوده إلى إبراهيم - قال ^(٣) ابن عباس ، والضحاك : هو المكنى عنه بقوله : ﴿ فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ أى : من قومه .

ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم ، ابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : له العزة ولرسوله وللمؤمنين به ، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ ، فى أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية .

وقال قتادة : هاجرا جميعاً من « كوثى » ، وهى من سواد ^(٤) الكوفة إلى الشام . قال : وذُكر لنا أن نبيَّ الله ﷺ قال : « إنها ستكون هجرة بعد هجرة ، ينحاز أهل الأرض إلى مُهَاجِرِ إبراهيم ، ويبقى فى الأرض شرار أهلها ، حتى تلفظهم أرضهم وتقذرهم روح الله ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير ، تبيت معهم إذا باتوا ، وتَقِيلُ معهم إذا قالوا ، وتأكل ما سقط منهم » .

وقد أسند الإمام أحمد هذا الحديث ، فرواه مطولاً من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال ^(٥) :

حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن قتادة ، عن شهر بن حوشب قال : لما جاءتنا بيعة يزيد ابن معاوية ، قدمت الشام فأخبرت بمقام يقومه نوف البكالى ، فجئته ؛ إذ جاء رجل ، فانتبذ الناس وعليه خميصة ، وإذا ^(٦) هو عبد الله بن عمرو بن العاص . فلما رآه نوف أمسك عن الحديث ، فقال عبد الله : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنها ستكون هجرة بعد هجرة ، فينحاز الناس إلى مُهَاجِرِ إبراهيم ، لا يبقى فى الأرض إلا شرار أهلها ، فتلفظهم ^(٧) أرضهم ، تقذرهم نفس الرحمن ، تحشرهم النار مع القردة والخنازير فتبيت معهم إذا باتوا ، وتَقِيلُ معهم إذا قالوا ، وتأكل منهم من تخلف » . قال : و سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيخرج أناس ^(٨) من أمتى من قبل المشرق ، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، كلما خرج منهم قرن قطع ، كلما خرج منهم قرن قطع » حتى عدها زيادة على عشرين مرة « كلما خرج منهم قرن قطع ، حتى يخرج الدجال فى بقيتهم » ^(٩) .

ورواه أحمد عن أبى داود ، وعبد الصمد ، كلاهما عن هشام الدستوائى ، عن قتادة ، به ^(١٠) .

وقد رواه أبو داود فى سننه ، فقال فى كتاب الجهاد ، باب ما جاء فى سكنى الشام :

حدثنا عبيد الله بن عمر ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنى [أبى] ^(١١) ، عن قتادة ، عن شهر بن

(١) فى ت : « إبراهيم » . (٢) فى ت ، ف : « الذى هو » . (٣) فى أ : « قاله » .

(٤) فى ف ، أ : « من أرض سواد » . (٥) فى أ : « فقال » . (٦) فى ف : « فلذا » .

(٧) فى ف : « تلفظهم » . (٨) فى ت : « ناس » .

(٩) المسند (١٩٨/٢) .

(١٠) المسند (٢٠٩/٢) .

(١١) زيادة من سنن أبى داود .

حوشب، عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ستكون هجرة بعد هجرة ، فخير أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم ، ويبقى فى الأرض شرار أهلها تلفظهم أرضهم وتقذرهم نفس الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير » (١) .

وقال (٢) الإمام أحمد أيضاً : حدثنا يزيد ، أخبرنا أبو جَنَاب يحيى بن أبى حية ، عن شهر بن حوشب قال : سمعت (٣) عبد الله بن عمر يقول (٤) : لقد رأيتنا وما صاحب الدينار والدرهم بأحق من أخيه المسلم ، ثم لقد رأيتنا بآخره الآن ، والدينار والدرهم أحب إلى أحدنا من أخيه المسلم ، ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لئن أنتم اتبعتم أذناب البقر ، وتبايعتم بالعينة ، وتركتم الجهاد فى سبيل الله ، ليلزمنكم الله مذلة فى أعناقكم ، ثم لا تنزع منكم حتى ترجعوا إلى ما كنتم عليه ، وتتوبوا إلى الله عز وجل » . وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « لتكونن هجرة بعد هجرة إلى مهاجر أبيكم إبراهيم حتى لا يبقى فى الأرضين (٥) إلا شرار أهلها وتلفظهم أرضوهم ، وتقذرهم روح الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير ، تقيل حيث يقيلون (٦) ، وتبيت حيث يبيتون ، وما سقط منهم فلها » . ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يخرج من أمتى قوم يسيئون الأعمال ، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم - قال يزيد : لا أعلمه إلا قال - : يحقر أحدكم علمه مع علمهم ، يقتلون أهل الإسلام ، فإذا خرجوا فاقتلوه ، ثم إذا خرجوا فاقتلوه ، ثم إذا خرجوا فاقتلوه ، فطوبى لمن قتلهم ، وطوبى لمن قتلوه . كلما طلع منهم قرن قطعاه الله » . فردد ذلك رسول الله ﷺ عشرين مرة ، أو أكثر، وأنا أسمع (٧) .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى : أخبرنا أبو الحسين بن الفضل ، أخبرنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا يعقوب بن سفيان ، حدثنا أبو النضر إسحاق بن يزيد وهشام بن عمار الدمشقيان قالا : حدثنا يحيى ابن حمزة ، حدثنا الأوزاعى ، عن نافع - وقال أبو النضر ، عن نافع - عن عبد الله بن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : « سيهاجر أهل الأرض هجرة بعد هجرة ، إلى مهاجر إبراهيم ، حتى لا يبقى إلا شرار أهلها ، تلفظهم الأرضون (٨) وتقذرهم روح الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا ، لها ما سقط منهم » .

غريب من حديث نافع . والظاهر أن الأوزاعى قد رواه عن شيخ له من الضعفاء ، والله أعلم . وروايته من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أقرب إلى الحفظ .

وقوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٤٩] أى : إنه لما فارق قومه أقر الله عينه بوجود ولد صالح نبى [وولد له ولد صالح] (٩) فى حياة جده . وكذلك (١٠) قال الله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ

(١) سنن أبى داود برقم (٢٤٨٢) .

(٢) فى ت : « وروى » . (٣) فى ت : « عن » . (٤) فى أ : « سمعت عبد الله بن عمرو قال » .

(٥) فى ت ، ف : « الأرض » . (٦) فى ، ه ، ت ، ف ، أ : « تقيل معهم حيث قالوا » والمثبت من المسند .

(٧) المسند (٨٤/٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٥/٢٥١) : « فيه أبو جناب الكلبي وهو ضعيف » . وقال الحافظ ابن حجر فى الفتح

(١١ / ٣٨٠) : « سنده لا بأس به » .

(٨) فى ف : « الأرض » . (٩) زيادة من ت ، ف . (١٠) فى ف : « ولذلك » .

وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴿ [الأنبياء : ٧٢] أى : زيادة ، كما قال : ﴿ فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ أى : ويولد لهذا الولد ولد فى حياتكما ، تقر به أعينكما . وكون يعقوب ولد لإسحاق نص عليه القرآن ، وثبتت به السنة النبوية ، قال الله : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبْنِي مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٣] ، وفى الصحيحين : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » (١) .

فأما ما رواه العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ [نَافِلَةً] ﴾ (٢) ، قال : « هما ولدا إبراهيم » . فمعناه : أن ولد الولد بمنزلة الولد ؛ فإن هذا أمر لا يكاد يخفى على من هو دون ابن عباس .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ ، هذه خلعة (٣) سنية عظيمة ، مع اتخاذ الله إياه خليلا ، وجعله للناس إماما ، أن جعل فى ذريته النبوة والكتاب ، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم عليه السلام ، إلا وهو من سلالته ، فجميع أنبياء بنى إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم ، فقام فى ملئهم مبشراً بالنبي العربى القرشى الهاشمى ، خاتم الرسل على الإطلاق ، وسيد ولد آدم فى الدنيا والآخرة ، الذى اصطفاه الله من صميم العرب العرباء ، من سلالة إسماعيل بن إبراهيم ، عليهم السلام : ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه ، عليه أفضل الصلاة والسلام [من الله تعالى] (٤) .

وقوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أى : جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة ، فكان له فى الدنيا الرزق الواسع الهنىء والمنزل الرحب ، والمورد العذب ، والزوجة الحسنة الصالحة ، والثناء الجميل ، والذكر الحسن ، فكل أحد يحبه ويتولاه ، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم ، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ [النجم : ٣٧] ، أى : قام بجميع ما أمر به ، وكمل طاعة ربه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النحل : ١٢٠ - ١٢٢] .

﴿ وَلَوْ طَآ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٨)
أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ

(١) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٨) من حديث ابن عمر ، ولم أجده عند مسلم .

(٢) زيادة من ت ، وفى أ : « من الله » .

(٣) فى أ : « خلقة » .

(٤) زيادة من ف ، أ .

المُفْسِدِينَ (٣٠) ﴿﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط ، عليه السلام ، أنه أنكر على قومه سوء صنيعهم ، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال ، في إتيانهم الذكران من العالمين ، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم وكانوا مع هذا يكفرون بالله ، ويكذبون رسوله ويخالفون ويقطعون السبيل ، أى : يقفون فى طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم ، ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ ، أى : يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال فى مجالسهم التى يجتمعون فيها ، لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك ، فمن قائل : كانوا يأتون بعضهم بعضاً فى الملاء ، قاله مجاهد . ومن قائل : كانوا يتضارطون ويتضاحكون ؛ قالت عائشة ، رضى الله عنها ، والقاسم . ومن قائل : كانوا يناطحون بين الكباش ، ويناقرون بين الديوك ، وكل ذلك كان يصدر عنهم ، وكانوا شراً من ذلك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حماد بن أسامة ، أخبرنى حاتم بن أبى صغيرة ، حدثنا سَمَاكُ بن حرب ، عن أبى صالح - مولى أم هانئ - عن أم هانئ ^(١) قالت : سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل : ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ ، قال : « يحذفون أهل الطريق ، ويسخرون منهم ، وذلك المنكر الذى كانوا يأتونه » .

ورواه الترمذى ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم من حديث أبى أسامة حماد بن أسامة عن أبى يونس القشيري ، حاتم بن أبى صغيرة ^(٢) ، به ^(٣) . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث حاتم بن أبى صغيرة ^(٤) ، عن سَمَاكُ .

وقال ^(٥) ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا محمد بن كثير ، عن عمرو بن قيس ، عن الحكم ^(٦) ، عن مجاهد : ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ قال : الصفير ، ولعب الحمام ^(٧) والجلاشق ، والسؤال فى المجلس ، وحل أزرار القباء .

وقوله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم ؛ ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال : ﴿ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ^(٨) .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنْ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ ^(٣١) قَالَ إِنْ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ^(٣٢) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ^(٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ

(١) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن أم هانئ » .

(٢) فى أ : « حيوه » .

(٣) المسند (٦ / ٣٤١) وسنن الترمذى برقم (٣١٩٠) .

(٤) فى أ : « حيوه » .

(٥) فى ت : « وروى » .

(٦) فى ت : « بإسناده » .

(٨) فى أ : « الفاسقين » وهو خطأ .

(٧) فى أ : « الحمام » .

رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥) ﴿

لما استنصر لوط ، عليه السلام ، الله عليهم ، بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم ، عليه السلام ، فى هيئة أضياف ، فجاءهم بما ينبغى للضيف ، فلما رأى أنه لا همّة لهم إلى الطعام نكّرهم وأوجس منهم خيفة ، فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة - وكانت حاضرة - فتعجبت من ذلك ، كما تقدم بيانه فى سورة « هود » و « الحجر » . فلما جاءت إبراهيم بالبشرى ، وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط ، أخذ يدافع لعلهم يُنظرون ، لعل الله أن يهديهم ، ولما قالوا : ﴿ إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أى : من الهالكين ؛ لأنها كانت تماثلهم على كفرهم وبغيهم ودبرهم . ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط فى صورة شباب حسان ، فلما رآهم كذلك ، ﴿ سَيِّءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ ، أى : اهتم ^(١) بأمرهم ، إن هو أضافهم خاف ^(٢) عليهم من قومه ، وإن لم يضيفهم خشى عليهم منهم ، ولم يعلم بأمرهم فى الساعة الراهنة . ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ . إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ ، وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها إلى عَنَانَ السماء ، ثم قلبها عليهم . وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببيعد ، وجعل [الله] ^(٣) مكانها بحيرة خبيثة منتنة ، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد (٤) ، وهم من أشد الناس عذابا يوم المعاد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً ﴾ أى : واضحة ، ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ، كما قال : ﴿ وَإِنكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨] .

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي

الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ (٣٧) ﴿

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب ، عليه السلام ، أنه أئذّر قومه أهل مدين ، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، وأن يخافوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة ، فقال : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ .

قال ابن جرير : قال بعضهم : معناه : واخشوا اليوم الآخر ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ [الممتحنة : ٦] .

ثم نهاهم عن العيث فى الأرض بالفساد ، وهو السعى فيها والبغى على أهلها ، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان ، ويقطعون الطريق على الناس ، هذا مع كفرهم بالله ورسوله ، فأهلكهم الله

(٣) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٢) فى أ : « خوفا » .

(١) فى ف ، أ : « اغتم » .

(٤) فى ت : « القيامة » .

برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم ، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها (١) ، وعذاب يوم الظلة الذى أزهق الأرواح من مستقرها ، إنه كان عذاب يوم عظيم . وقد تقدمت قصتهم مبسطة فى سورة الأعراف ، وهود ، والشعراء .

وقوله : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِعِينَ ﴾ ، قال قتادة : ميتين . وقال غيره : قد ألقى بعضهم على بعض .

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَّسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ (٣٨) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ .

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسول كيف أبادهم وتنوع فى عذابهم ، فأخذهم (٢) بالانتقام منهم ، فعاد قوم هود ، وكانوا يسكنون الأحقاف وهى قرية (٣) من حضرموت بلاد اليمن ، وثمود قوم صالح ، وكانوا يسكنون الحجر قريباً من وادى القرى . وكانت العرب تعرف مساكنهما (٤) جيداً ، وتمر عليها كثيراً . وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة . وفرعون ملك مصر فى زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله ورسوله ، ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ﴾ أى : كانت عقوبته بما يناسبه ، ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ ، وهم عاد ، وذلك أنهم قالوا : من أشد منا قوة ؟ فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد ، عاتية شديدة الهبوب جداً ، تحمل عليهم حصباء الأرض فتقلبها عليهم ، وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم إلى عَنَانِ السَّمَاءِ ، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى بدنأً بلا رأس ، كأنهم أعجاز نخل منقعر (٥) . ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ ، وهم ثمود ، قامت عليهم الحجة وظهرت لهم (٦) الدلالة ، من تلك الناقة التى انفلقت عنها الصخرة ، مثل ما سألوا سواء بسواء ، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم ، وتهددوا نبي الله صالحاً ومن آمن معه ، وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم ، فجاءتهم صيحة أخرجت الأصوات منهم والحركات . ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾ ، وهو قارون الذى طغى وبغى وعتا ، وعصى الرب الأعلى ، ومشى فى الأرض مرحاً ، وفرح ومرح وتاه بنفسه ، واعتقد أنه أفضل من غيره ، واختال فى مشيته ، فخسف الله به وبداره الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة . ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾ ، وهم (٧) فرعون ووزيره هامان ، وجنوده عن آخرهم ، أغرقوا فى صيحة واحدة ، فلم ينج منهم مخبر ، ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ ﴾ أى : فيما فعل بهم ، ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أى : إنما فعل ذلك

(١) فى ت : « حناجرهم » .

(٢) فى ت ، ف : « وأخذهم » .

(٣) فى ت : « حناجرهم » .

(٤) فى ت : « مساكنهم » .

(٥) فى ف ، أ : « خاوية » .

(٦) فى ف ، أ : « وهو » .

بهم جزاء وفاقا بما كسبت أيديهم .

وهذا الذى ذكرناه ظاهر سياق الآية ، وهو من باب اللف والنشر ، وهو أنه ذكر الأمم المكذبة ، ثم قال : ﴿ فَكَلَّا^(١) أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ﴾ [الآية] ^(٢) ، أى : من هؤلاء المذكورين ، وإنما نَبِهْتُ على هذا لأنه قد روى أن ابن جريج قال : قال ^(٣) ابن عباس فى قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ ، قال : قوم لوط . ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾ ، قال : قوم نوح .

وهذا ^(٤) منقطع عن ابن عباس ؛ فإن ابن جريج لم يدركه . ثم قد ذكر فى هذه السورة إهلاك قوم نوح بالطوفان ، وقوم لوط بإنزال الرجز من السماء ، وطال السياق والفصل بين ذلك وبين هذا السياق .

وقال قتادة : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ قال : قوم لوط ، ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ ، قوم شعيب . وهذا بعيد أيضاً لما تقدم ، والله أعلم .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ^(٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ^(٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ ^(٤٣) ﴾ .

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله ، يرجون نصرهم ورزقهم ، ويتمسكون بهم فى الشدائد ، فهم فى ذلك كبيت العنكبوت فى ضعفه ووهنه ^(٥) فليس فى أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت ، فإنه لا يجدى عنه شيئاً ، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء ، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله ، وهو مع ذلك يحسن العمل فى اتباع الشرع فإنه مستمسك ^(٦) بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، لقوتها وثباتها .

ثم قال تعالى متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به : إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ، ويعلم ما يشركون به من الأنداد ، وسيجزئهم وصفهم إنه حكيم عليم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ ﴾ أى : وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون فى العلم المتصلعون منه .

قال ^(٧) الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثني ابن لهيعة ، عن أبى قَبِيل ^(٨) ، عن عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، قال : عَقَلْتُ عن رسول الله ﷺ ألف مثل ^(٩) .

وهذه منقبة عظيمة لعمر بن العاص - رضى الله عنه - حيث يقول [الله] ^(١٠) تعالى :

(١) فى ت : « فمنهم » وهو خطأ .
(٢) زيادة من أ .
(٣) فى ت : « عن » .
(٤) فى ت : « وهو » .
(٥) فى ت : « وذهابه » .
(٦) فى ف : « متمسك » .
(٧) فى ت : « روى » .
(٨) فى ت : « بإسناده » .
(٩) المسند (٢٠٣ / ٤) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٢٦٤ / ٨) : « إسناده حسن » .
(١٠) زيادة من ت ، وفى ف : « تبارك و » .

﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ .

وقال (١) ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، حدثنا أبي ، حدثنا ابن سنان ، عن عمرو بن مرة قال : ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني ، لأنني سمعت الله تعالى يقول : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ .

﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤٤) اَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾ .

يقول تعالى [مخبراً] (٢) عن قدرته العظيمة : أنه خلق السموات والأرض بالحق ، يعني : لا على وجه العبث واللعب ، ﴿ لَتَجْزِيَّ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ [طه : ١٥] ، ﴿ لَيَجْزِيَّ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَّ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم : ٣١] .

وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية .

ثم قال تعالى أمرا رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن، وهو قراءته وإبلاغه للناس : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ يعني : أن الصلاة تشتمل على شيئين : على ترك الفواحش والمنكرات ، أى : إن مواظبتها تحمل على ترك ذلك . وقد جاء فى الحديث من رواية عمران، وابن عباس مرفوعا : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم تزد من الله إلا بعدا » (٣) . [ذكر الآثار الواردة فى ذلك] (٤) :

قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن هارون المخرمي الفلاس ، حدثنا عبد الرحمن بن نافع أبو زياد ، حدثنا عمر بن أبي عثمان ، حدثنا الحسن ، عن عمران بن حصين قال : سئل النبي ﷺ عن قول الله : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ ، قال : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، فلا صلاة له » (٥) .

(٢) زيادة من ف ، أ .

(١) فى ت : « رواه » .

(٣) أما حديث عمران بن حصين ، فقد أخرجه ابن أبي حاتم - كما سيأتى - من طريق عمر بن أبي عثمان عن الحسن عن عمران به ، والحسن لم يسمع من عمران بن حصين . وأما حديث ابن عباس ، فقد رواه الطبراني فى المعجم الكبير (٥٤ / ١١) من طريق ليث عن طاوس عن ابن عباس به .

(٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) وهذا الحديث فيه علتان ذكرهما الشيخ ناصر الدين الألبانى فى الضعيفة وهما :

١ - الانقطاع بين الحسن - وهو البصرى - وعمران بن حصين ، فإنهم اختلفوا فى سماعه منه فإنه ثبت ، فعلته عنعته الحسن فإنه مدلس معروف بذلك .

٢ - جهالة عمر بن أبي عثمان ، ذكره ابن أبي حاتم فى الجرح والتعديل (١٢٣ / ١ / ٣) وقال : « سمع طاوساً قوله ، روى عنه يحيى ابن سعيد » .

وحدثنا على بن الحسين ، حدثنا يحيى بن أبى طلحة اليربوعي حدثنا أبو معاوية ، عن ليث ، عن طاوس ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم تنته صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لم يزد بها من الله إلا بعدا » ورواه الطبراني من حديث أبى معاوية (١) .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا خالد بن عبد الله ، عن العلاء بن المسيب ، عن ذكره ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ ، قال : فمن لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر ، لم يزد بصلاته من الله إلا بعدا . فهذا موقف (٢) .

قال ابن جرير : وحدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا على بن هاشم بن (٣) البريد ، عن جُوَيْرٍ ، عن الضحاك ، عن ابن مسعود ، عن النبى ﷺ أنه قال : « لا صلاة لمن لم يطع الصلاة ، وطاعة الصلاة أن تنهى عن الفحشاء والمنكر » قال : وقال سفيان : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ ﴾ [هود : ٨٧] قال : فقال سفيان : أى والله ، تأمره وتنهاه (٤) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد ، عن جوير ، عن الضحاك ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ - وقال أبو خالد مرة : عن عبد الله - : « لا صلاة لمن لم يطع الصلاة ، وطاعة الصلاة تنهاه (٥) عن الفحشاء والمنكر » (٦) .

والموقوف أصح ، كما رواه الأعمش ، عن مالك بن الحارث ، عن عبد الرحمن بن يزيد قال : قيل لعبد الله : إن فلانا ليطيل الصلاة ؟ قال : إن الصلاة لا تنفع إلا من أطاعها (٧) .

وقال ابن جرير : قال على : حدثنا إسماعيل بن مسلم (٨) ، عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى صلاة لم تنهه عن الفحشاء والمنكر ، لم يزد بها من الله إلا بعداً » (٩) .

والأصح فى هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن وقتادة ، والأعمش وغيرهم ، والله أعلم .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا جرير - يعنى ابن عبد الحميد - عن الأعمش ، عن أبى صالح قال : أراه عن جابر - شك الأعمش - قال : قال رجل للنبي ﷺ : إن فلانا يصلى فإذا أصبح سرق ، قال : « سينهاه (١٠) ما يقول » (١١) .

(١) المعجم الكبير (٥٤ / ١١) وقال الحافظ العراقي فى تخريج الإحياء : « إسناده لين » .

(٢) تفسير الطبرى (٩٩ / ٢٠) .

(٣) فى ف : « عن » .

(٤) تفسير الطبرى (٩٩ / ٢٠) وفيه جوير وهو متروك .

(٥) فى ف : « تنهى » .

(٦) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦ / ٤٦٥) مرفوعا ، وقال : « أخرج عبد بن حميد وابن جرير ، وابن مردويه بسند ضعيف » فذكر الرواية التى قبلها .

(٧) ورواه ابن أبى شيبه فى المصنف (١٣ / ٢٩٨) من طريق زائدة عن عاصم عن شقيق عن ابن مسعود قال : « لا تنفع الصلاة إلا من أطاعها ثم قرأ عبد الله : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ الآية » .

(٨) فى هـ ، ت ، ف ، أ : « وقال ابن جرير : حدثنا على بن إسماعيل بن مسلم » والمثبت من الطبرى .

(٩) تفسير الطبرى (٩٩ / ٢٠) وهو من مراسيل الحسن .

(١٠) فى ف : « سنهه » .

(١١) مسند البزار برقم (٧٢١) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (٢ / ٢٥٨) : « رجاله ثقات » .

وحدثنا محمد بن موسى الحرشي ^(١) ، حدثنا زياد بن عبد الله ، عن الأعمش عن أبي صالح ، عن جابر ، عن النبي ﷺ بنحوه - ولم يشك ^(٢) - ثم قال : وهذا الحديث قد رواه غير واحد عن الأعمش واختلفوا في إسناده ، فرواه غير واحد عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة أو غيره ، وقال قيس عن الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر ، وقال جرير وزياد : عن عبد الله ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن جابر .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا الأعمش قال : أنا أبو صالح ^(٣) ، عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إن فلانا يصلى بالليل فإذا أصبح سرق ؟ فقال : « إنه سينهاه ما يقول (٤) » (٥) .

وتشتمل الصلاة أيضاً على ذكر الله تعالى ، وهو المطلوب الأكبر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أى : أعظم من الأول ، ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ أى : يعلم جميع أقوالكم وأعمالكم . وقال أبو العالية فى قوله : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ ، قال : إن الصلاة فيها ثلاث خصال ^(٦) ، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة : الإخلاص ، والخشية ، وذكر الله . فالإخلاص يأمره بالمعروف ، والخشية تنهاه عن المنكر ، وذكر القرآن يأمره وينهاه .

وقال ابن عَوْنُ الأنصارى : إذا كنت فى صلاة فأنت فى معروف ، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر ، والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر .

وقال حماد بن أبى سليمان : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ يعنى : ما دمت فيها . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ، يقول : ولذكر الله لعباده أكبر ، إذا ذكروه من ذكرهم إياه .

وكذا روى غير واحد عن ابن عباس . وبه قال مجاهد ، وغيره .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد الأحمر ، عن داود بن أبى هند ، عن رجل ، عن ابن عباس : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ قال : ذكر الله عند طعامك وعند منامك . قلت : فإن صاحباً لى فى المنزل يقول غير الذى تقول : قال : وأى شيء يقول ؟ قلت : قال : يقول الله : ﴿ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٥٢] ، فلذكر الله إيانا أكبر من ذكرنا إياه . قال : صدق .

قال : وحدثنا أبى ، حدثنا النفيلى ، حدثنا إسماعيل ، عن خالد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس

(١) فى ف ، أ : « الجرشي » .

(٢) مسند البزار برقم (٧٢٢) « كشف الأستار » .

(٣) فى هـ ، ت ، ف : « أبو صالح أخبرنا » ، والمثبت من المسند .

(٤) فى ف : « ستنهاه ما تقول » .

(٥) المسند (٢ / ٤٤٧) ، ورواه البزار فى مسنده برقم (٧٢٠) « كشف الأستار » من طريق الأعمش به ، وقال الهيثمى فى المجمع

(٢ / ٢٥٨) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٦) فى أ : « خلال » .

فى قوله : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ، قال : لها وجهان ، قال : ذكر الله عندما حرمه ، قال : وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه .

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا هشيم ، أخبرنا عطاء بن السائب ، عن عبد الله بن ربيعة قال : قال لى ابن عباس : هل تدرى ما قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ؟ قال : قلت : نعم . قال : فما هو ؟ قلت : التسبيح والتحميد والتكبير فى الصلاة ، وقراءة القرآن ، ونحو ذلك . قال : لقد قلت قولاً عجباً ، وما هو كذلك ، ولكنه إنما يقول : ذكر الله إياكم عند ما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه ، أكبر من ذكركم إياه (١) .

وقد روى هذا من غير وجه عن ابن عباس . وروى أيضا عن ابن مسعود ، وأبى الدرداء ، وسلمان الفارسي ، وغيرهم . واختاره ابن جرير .

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٤٦)

قال قتادة وغير واحد : هذه الآية منسوخة بآية السيف ، ولم يبق معهم مجادلة ، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف .

وقال آخرون : بل هى باقية أو محكمة لمن أراد الاستبصار منهم فى الدين ، فيجادل بالتي هى أحسن ، ليكون أنجع فيه ، كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥] ، وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه : ٤٤] . وهذا القول اختاره ابن جرير (٢) ، وحكاه عن ابن زيد .

وقوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ أى : حادوا عن وجه الحق (٣) ، وعموا عن واضح المحجة ، وعاندوا وكابروا ، فحينئذ ينتقل من الجدل إلى الجلال ، ويقاثلون بما يردعهم ويمنعهم ، قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد : ٢٥] .

قال جابر : أمرنا من خالف كتاب الله أن نصره بالسيف .

قال مجاهد : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ ، يعنى : أهل الحرب ، ومن امتنع منهم عن أداء الجزية .

وقوله : ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ ﴾ ، يعنى : إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه ، فهذا لا تقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقاً ، ولا على تصديقه ، فلعله أن يكون باطلاً ،

(١) تفسير الطبرى (٢٠ / ٩٩) .

(٢) تفسير الطبرى (٢١ / ٢) .

(٣) فى ف ، أ : « المحجة » .

ولكن نؤمن به إيماناً معلقاً على شرط وهو أن يكون منزلاً ، لا مبدلاً ولا مؤولاً .

وقال البخارى ، رحمه الله : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عثمان بن عُمر ، أخبرنا على بن المبارك ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ^(١) ، رضى الله عنه ، قال : كان أهل الكتاب ^(٢) يقرؤون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم ، وإلهاكم وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » : وهذا الحديث تفرد ^(٣) به البخارى ^(٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عثمان بن عُمر ، أخبرنا يونس ، عن الزهري ، أخبرنى ابن أبى نملة ^(٥) : أن أبا نَمْلَةَ الأنصارى أخبره ، أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ ، جاءه رجل من اليهود ، فقال : يا محمد ، هل تتكلم هذه الجنازة ؟ قال رسول الله ﷺ : « الله أعلم » : قال اليهودى أنا أشهد أنها تتكلم . فقال رسول الله ﷺ : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله ورسوله وكتبه ، فإن كان حقاً لم ^(٦) تكذبوهم ، وإن كان باطلاً لم ^(٧) تصدقوهم » ^(٨) . قلت : وأبو نَمْلَةَ هذا هو : عُمارة . وقيل : عمار . وقيل : عمرو بن معاذ بن زُرارة الأنصارى ، رضى الله عنه .

ثم ليعلم أن أكثر ما يُحدثون به غالبه كذب وبهتان ؛ لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل ، وما أقل الصدق فيه ، ثم ما أقل فائدة كثير منه لو كان صحيحاً .

قال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا أبو عاصم ، حدثنا سفيان ، عن سليمان بن عامر ، عن عمارة بن عمير ، عن حُرَيْث ^(٩) بن ظُهَيْر ، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل ، فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفى قلبه تالية ، تدعوه إلى دينه كتالية المال ^(١٠) .

وقال البخارى : حدثنا موسى بن إسماعيل ^(١١) ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، أخبرنا ابن شهاب ، عن عُبَيْدِ اللَّهِ بن عبد الله ^(١٢) ، عن ابن عباس قال : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتابكم الذى أنزل على رسوله ﷺ أحدث ^(١٣) تقرؤونه محضاً لم يُشَبَّ ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله ، وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هو ^(١٤) من عند الله ، ليشتروا به ثمناً قليلاً ؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن ^(١٥) مسألتهم ؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذى أنزل عليكم ^(١٦) .

(١) فى ت : « روى البخارى بإسناده عن أبى هريرة » .

(٢) فى هـ ، ت ، ف : « كان أهل التوراة » والمثبت من البخارى .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٤٨٥ ، ٧٣٦٢) .

(٥) فى ت : « روى الإمام أحمد بإسناده » . (٧ ، ٦) فى ت : « فلا » .

(٨) المسند (١٣٦ / ٤) .

(٩) فى أ : « حرب » .

(١٠) تفسير الطبرى (٢١ / ٤) .

(١١) فى أ : « سليمان » . (١٢) فى ت : « روى البخارى بإسناده » . (١٣) فى ت : « أحدث الكتب » .

(١٤) فى ف ، أ : « وقالوا : هذا هو » . (١٥) فى ف : « من » .

(١٦) صحيح البخارى برقم (٧٣٦٣) .

وقال البخارى : وقال أبو اليمان : أخبرنا شعيب ، عن الزهرى ، أخبرنى حميد بن عبد الرحمن : أنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة - وذكر كعب الأحمار - فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب (١) .

قلت : معناه أنه يقع منه الكذب لغة من غير قصد ؛ لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن ، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة ؛ لأنهم لم يكن فى ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة ، ومع ذلك وقرب العهد وضعت (٢) أحاديث كثيرة فى هذه الأمة ، لا يعلمها إلا الله ومن منحه الله علماً بذلك ، كل بحسبه ، ولله الحمد والمنة .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لِأَرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩) ﴾

قال ابن جرير : يقول الله تعالى : كما أنزلنا الكتب (٣) على من قبلك - يا محمد - من الرسل ، كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب .

وهذا الذى قاله حسن ومناسبة وارتباط (٤) جيد .

وقوله : ﴿ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أى : الذين أخذوه فتلوه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء ، كعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسى ، وأشباههما .

وقوله : ﴿ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ ، يعنى العرب من قريش وغيرهم ، ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴾ ، أى : ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل ، ويغضى ضوء الشمس بالوصائل ، وهيئات .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ ، أى : قد لبثت فى قومك - يا محمد - ومن قبل أن تأتى بهذا القرآن عمراً لا تقرأ كتاباً ولا تحسن الكتابة ، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمى لا تقرأ ولا تكتب (٥) . وهكذا صفتة فى الكتب المتقدمة ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ الآية [الأعراف : ١٥٧] . وهكذا كان ، صلوات الله وسلامه عليه [دائماً أبداً] (٦) إلى يوم القيامة (٧) ، لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرأ ولا حرفاً بيده ، بل كان له كتاب يكتبون بين

(١) صحيح البخارى برقم (٧٣٦١) .

(٢) فى ت : « وضعت » .

(٣) فى أ : « الكتاب » .

(٤) فى ف : « ومناسبه وارتباطه » . (٥) فى ف : « لا يقرأ ولا يكتب » .

(٦) زيادة من ف ، و فى أ : « دائماً » . (٧) فى ف ، أ : « الدين » .

يديه الوحى والرسائل إلى الأقاليم . ومن زعم من متأخري الفقهاء ، كالقاضى أبى الوليد الباجى ومن تابعه أنه ، عليه السلام ^(١) ، كتب يوم الحديبية : « هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله » : فإنما حملة على ذلك رواية فى صحيح البخارى : « ثم أخذ فكتب » : وهذه محمولة على الرواية الأخرى : « ثم أمر فكتب » . ولهذا اشتد النكير بين فقهاء المغرب والمشرق على من قال بقول الباجى ، وتبرؤوا منه ، وأنشدوا فى ذلك أقوالا ، وخطبوا به فى محافلهم : وإنما أراد الرجل - أعنى الباجى ، فيما يظهر عنه - أنه كتب ذلك على وجه المعجزة ، لا أنه كان يحسن الكتابة ، كما قال ، عليه الصلاة والسلام ^(٢) ، إخباراً عن الدجال : « مكتوب بين عينيه كافر » وفى رواية : « ك ف ر ، يقرؤها كل مؤمن » ^(٣) ، وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت ، عليه السلام ^(٤) ، حتى تعلم الكتابة ، فضعيف لا أصل له ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو ﴾ أى : تقرأ ﴿ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ﴾ ، لتأكيد النفى ، ﴿ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ ﴾ تأكيد أيضاً ، وخرج مخرج الغالب ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

وقوله : ﴿ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أى : لو كنت تحسنها ^(٥) لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول : إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء ، مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمى لا يحسن الكتابة : ﴿ وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفرقان : ٥] ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ [الفرقان : ٦] ، وقال هاهنا : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ أى : [هذا] ^(٦) القرآن آيات بينة واضحة فى الدلالة على الحق ، أمراً ونهياً وخبراً ، يحفظه العلماء ، يسره الله عليهم حفظاً وتلاوة وتفسيراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القمر : ١٧] ، وقال رسول الله ﷺ : « ما من نبي إلا وقد أعطى ما آمن على مثله البشر و إنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً » ^(٧) .

وفى حديث عياض بن حمار ^(٨) ، فى صحيح مسلم : « يقول الله تعالى : إني مبتليك ومبتل بك ، ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء ، تقرؤه نائماً ويقظان » ^(٩) . أى : لو غسل الماء المحل المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك المحل ، كما جاء فى الحديث الآخر : « لو كان القرآن فى إهاب ، ما أحرقتة النار » ^(١٠) لأنه محفوظ فى الصدور ، ميسر ^(١١) على الألسنة ، مهيمن على القلوب ، معجز لفظاً ومعنى ؛ ولهذا جاء فى الكتب المتقدمة ، فى صفة هذه الأمة : « أناجيلهم فى صدورهم » .

(١) فى ف ، أ : « ﷺ » . (٢) فى ف ، أ : « ﷺ » .

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧١٣١) من حديث أنس رضى الله عنه .

(٤) فى أ : « ﷺ » . (٥) فى ت : « تحسن الكتابة » . (٦) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٧) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٢٧٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وسيأتى إن شاء الله .

(٨) فى أ : « حماد » .

(٩) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥) .

(١٠) رواه أحمد فى مسنده (١٥١ / ٤) من حديث عقبة بن عامر وتقدم الكلام عليه فى فضائل القرآن .

(١١) فى ت : « وميسر » .

واختار ابن جرير أن المعنى فى قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ ، بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتاباً ولا تخطه يمينك ، آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب ^(١) . ونقله عن قتادة ، وابن جريج . وحكى الأول عن الحسن [البصرى] ^(٢) فقط .

قلت : وهو الذى رواه العوفى عن عبد الله بن عباس ، وقاله الضحاك ، وهو الأظهر ، والله أعلم . وقوله : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ أى : ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون ، أى : المعتدون المكابرون ، الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٥٠ أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٥١ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ٥٢ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فى تعنتهم وطلبهم آيات - يعنون - ترشدتهم إلى أن محمداً رسول الله كما جاء صالح بناقته ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد : ﴿ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى : إنما أمر ذلك إلى الله ، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم ؛ لأن ذلك سهل عليه ، يسير لديه ، ولكنه يعلم منكم أنما قصدكم التعنت والامتحان ، فلا يجيبكم إلى ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ [الإسراء : ٥٩] .

وقوله : ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى : إنما بعثت نذيراً لكم بين النذارة فعلى أن أبلغكم رسالة الله و ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضِلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف : ١٧] ، وقال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] .

ثم قال تعالى مبيناً كثرة جهلهم ، وسخافة عقلهم ، حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد فيما جاءهم [به] ^(٣) - وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، الذى هو أعظم من كل معجزة ، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته ، بل عن معارضة عشر سور من مثله ، بل عن معارضة سورة منه - فقال تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : أو لم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم ، الذى فيه خبر ما قبلهم ، ونبأ ما بعدهم ، وحكم ما بينهم ، وأنت رجل أُمى لا تقرأ ولا تكتب ، ولم تخالط أحداً

(١) تفسير الطبرى (٢١ / ٥) .

(٢) زيادة من ف .

(٣) زيادة من ف ، ا .

من أهل الكتاب، فجئتهم بأخبار ما فى الصحف الأولى ، ببيان الصواب مما اختلفوا فيه ، وبالحق الواضح البين الجلى، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : ١٩٧] وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ ^(١) مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ [طه : ١٣٣] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثنا ليث ، حدثنى سعيد بن أبى سعيد ، عن أبيه ^(٢) عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » . أخرجاه ^(٣) من حديث الليث ^(٤) .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى : إن فى هذا القرآن : ﴿ لَرَحْمَةً ﴾ أى : بياناً للحق ، وإزاحة للباطل و ﴿ ذِكْرَى ﴾ بما فيه حلول النقمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين ، ﴿ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى: قل: ﴿ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ^(٥) ﴾ أى: هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب، ويعلم ما أقول لكم من إخبارى عنه ، بأنه أرسلنى ، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم منى ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤ - ٤٧] ، وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به ، ولهذا أيدنى بالمعجزات الواضحات ، والدلائل القاطعات .

﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [أى] ^(٦) : لا تخفى عليه خافية .
﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أى : يوم معادهم سيجزيهم على ما فعلوا ، ويقابلهم على ما صنعوا ، من تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل ، كذبوا برسول الله مع قيام الأدلة على صدقهم ، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل ، سيجازيهم على ذلك ، إنه حكيم عليم .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ^(٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ^(٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ^(٥٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين فى استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم ، وبأس الله أن يحل

(١) فى جميع النسخ : ﴿ لَوْلَا أَنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ ﴾ والصواب ما أثبتناه .

(٢) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » .

(٣) فى ت : « أخرجه البخارى ومسلم » .

(٤) المسند (٢ / ٣٤١) وصحيح البخارى برقم (٤٩٨١) وصحيح مسلم برقم (١٥٢) .

(٥) فى أ : « كفى بالله شهيداً بينى وبينكم » وهو خطأ .

(٦) زيادة من ت ، أ .

عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢] ، وقال هاهنا : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أى : لولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه .

ثم قال ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ ﴾ أى : فجأة ، ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ أى : يستعجلون بالعذاب ، وهو واقع بهم لا محالة .

قال شعبة ، عن سِمَاك ، عن عِكْرِمَةَ قال فى قوله : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ ، قال : البحر . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا عمر بن إسماعيل بن مجالد ، حدثنا أبى عن مجالد ، عن الشعبى ؛ أنه سمع ابن عباس يقول : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ : وجهنم هو هذا البحر الأخضر ، تنتثر الكواكب فيه ، وتكور فيه الشمس والقمر ، ثم يستوقد فيكون هو جهنم . وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو عاصم ، حدثنا عبد الله بن أمية ، حدثنى محمد بن حبيب ، حدثنا (١) صفوان بن يعلى ، عن أبيه ، أن النبى ﷺ قال : « البحر هو جهنم » ، قالوا : ليعلى ، فقال : ألا ترون أن الله يقول : ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ [الكهف : ٢٩] ، قال : لا ، والذى نفس يعلى بيده لا أدخلها أبداً حتى أعرض على الله ، ولا يصيبني منها قطرة حتى أعرض على الله عز وجل (٢) . هذا تفسير غريب ، وحديث غريب جداً ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف : ٤١] ، وقال : ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر : ١٦] ، وقال : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ [الأنبياء : ٣٩] ، فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم ، وهذا أبلغ فى العذاب الحسى .

وقوله : ﴿ وَيَقُولُ ذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، تهديد وتقريع وتوبيخ ، وهذا عذاب معنوى على النفوس ، كقوله : ﴿ يَوْمَ يَسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر ٤٨ ، ٤٩] ، وقال : ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ . أَفَسَحَرَّ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ . اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور : ١٣ - ١٦] .

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيَايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

(١) فى ت : « وروى الإمام أحمد بسنده عن » .

(٢) المسند (٤ / ٢٣٣) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٣٨٦) : « رجاله ثقات » .

الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠) ﴿

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذى لا يقدرّون فيه على إقامة الدين ، إلى أرض الله الواسعة ، حيث يمكن إقامة الدين ، بأن يوحّدوا الله ويعبدوه كما أمرهم ؛ ولهذا قال : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد ، حدثني جُبَيْر بن عمرو القرشى ، حدثني أبو سعد الأنصارى ، عن أبي يحيى مولى ^(١) الزبير بن العوام قال : قال رسول الله ﷺ : « البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله ، فحيثما أصبتَ خيراً فأقم » ^(٢) .

ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها ، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ، ليؤمنوا ، على دينهم هناك ، فوجدوا هناك خير المنزلين ، أصحمة النجاشى ملك الحبشة ، رحمه الله ، آواهم وأيدهم بنصره ، وجعلهم سيّوما ببلاده . ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة ^(٣) .

(١) فى ت : « روى الإمام أحمد بإسناده عن » .

(٢) المسند (١ / ١٦٦) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٤ / ٧٢) : « فيه جماعة لم أعرفهم » .

(٣) بعدها فى ت - وأظنها من الناسخ - ما يلى : « أما قصة هجرة الحبشة ، فقال ابن إسحاق : حدثني الزهرى ، عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، عن أمه أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة زوج النبى ﷺ قالت : لما نزلنا بأرض الحبشة جاورنا خير جار النجاشى ، آمنا على ديننا ، وعبدنا الله لا نؤذى ، ولا نسمع شيئاً نكرهه فلما بلغ ذلك قريشا اتهموا بينهم ، أن يبعثوا إلينا رجلين جلدين ، وأن يهدوا إلى النجاشى هدايا بما يُستطرف من متاع مكة ، وكان أعجب ما يأتيه منها الأدم ، فجمعوا له أدماً كثيراً ، ولم يتركوا من بطارقتهم بطريقاً إلا أهدوا له هدية وقالوا لهما : ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشى ، ثم قدموا إلى النجاشى هداياه ، ثم سلوه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم .

قالت : فخرجنا حتى قدمنا عليه ، ونحن عنده بخير دار ، عند خير جار فلم يبق بطريق من بطارقتهم إلا دفعوا إليه هديته قبل أن يكلموا النجاشى ، ثم قالوا لكل بطريق : إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم ، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردوهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم فاشيروا عليه أن يسلمهم إلينا ، ولا يكلمهم فإن قومهم أعلا بهم ديناً وأعلم بما عابوا عليهم ؛ فقالوا لهما : نعم ، ثم أنهما قدما هداياهما إلى النجاشى فقبلها منهما ثم كلماه فقالا : أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، جاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم وآباءهم وأعمامهم وعشائهم لتردهم إليهم فهم أعلا بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

قالت : ولم يكن شئ أبغض إلى عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشى ، فقالت بطارقتهم حوله : صدقوا أيها الملك قومهم أعلا بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهم ليردوهم إلى بلادهم وقومهم ، فغضب النجاشى وقال : لاها الله لا أسلمهم إليهم أبداً ولا أكاد ، قوم جاورونى ، ونزلوا بلادى ، واختارونى على من سواى حتى أدعوه فأسألهم عما يقول هذان الرجلان . فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى بلادهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم وأحسن جوارهم ما جاورونى ونزلوا بلادى .

قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ ، فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون لهذا الرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول : والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ ، كائنًا فى ذلك ما هو كائن ، قال : فلما جاؤوه وقد دعا النجاشى أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله ، فلما دخلوا عليه سألهم ، فقال : ما هذا الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا دين أحد من هذه الملل .

ثم قال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أى : أينما كنتم يدرككم الموت ، فكونوا فى طاعة الله وحيث أمركم الله ، فهو خير لكم ، فإن الموت لا بد منه ، ولا محيد عنه ، ثم إلى الله

= قالت : فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب . فقال : أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لئوحد ، ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه ، الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . قالت : فعد عليه أمور الإسلام . فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله عز وجل ، فعبدنا الله لا نشرك به شيئاً ، وحرمتنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله ، وأن نستحل كما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلدك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك . قال : فقال له النجاشى : وهل عندك مما جاء به من عند الله شئ ؟ قالت : فقال له جعفر : نعم . فقال له النجاشى : فاقراءه على ، فقرأ عليه صدىراً من ﴿ كهيعص ﴾ .

قالت : فبكى النجاشى حتى اخضلت لحيته ، وبكى أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم ، حين سمعوا ما يتلى عليهم . وقال النجاشى : إن هذا الذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة . انطلقا . لا والله لا أسلمهم إليكما ولا أكاد . قالت : فلما خرجا من عنده . قال عمرو بن العاص : والله لآتينه غدا بما أستأصل به خضراءهم .

قالت : فقال له عبد الله بن أبى ربيعة - وكان أتقى الرجلين فينا - : لا تفعل فإن لهم أرحاماً ، وإن كانوا قد خالفونا . قال : والله لأخبرنه أنهم يقولون فى عيسى قولاً عظيماً . فأرسل إليهم فسألهم عما يقولون فيه . قالت : فأرسل إليهم ليسألهم عنه . قالت : ولم ينزل بنا مثلها ، فاجتمع القوم . فقال بعضهم لبعض : ما تقولون فى عيسى إن سألكم عنه . قالوا : نقول فيه ما قال الله عز وجل ، وما جاء به نبينا ، كائن فى ذلك ما هو كائن . قالت : فلما دخلوا عليه . قال لهم : ما تقولون فى عيسى ابن مريم ، قالت : فقال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاء به نبينا ﷺ . يقول فيه : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول . قالت : فضرب النجاشى يده إلى الأرض ، فأخذ منها عوداً ، ثم قال له : ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود .

قالت : فتناخرت بطارقه حوله حين قال ما قال . فقال : وإن تناخرتم اذهبوا فأنتم شيوم بأرضى . والشيوم : الآمنون . من سبكم غُرْمٌ ، من سبكم غرم ، ما أحب أن لى دبراً من ذهب ، وأنى آذيت رجلاً منكم . والدبر : بلسان الحبشة الجبل . وردوا عليهما هدياهما ، فلا حاجة لى بها ، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى ، فأخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فى ، فأطيعهم فيه . قالت : فخرجنا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما . قالت أم سلمة : فكنت أتعرض لهم ليسبونى فأغرمهم ، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار .

قالت : فوالله ما أغلا لعلى ذلك ، إذ انبرى له رجل من الحبشة ينازعه ملكه . قالت : فوالله ، ما أعلمنا حزناً قط كان أشد من حزن حزنه ، عند ذلك تخوفاً من أن يظهر ذلك الرجل على النجاشى . فأتى رجلاً لا يعرف من حقنا ما كان النجاشى يعرف منه . قالت : وسار إليه النجاشى وبينهما عرض النيل . قالت : فقال أصحاب رسول الله ﷺ : من رجل يخرج حتى يشهد وقعة القوم ثم يأتينا بخبر القوم ؟ قالت : فقال الزبير بن العوام : أنا ، قالت : وكان من أحدث القوم سناً . قالت : فنفعوا له قرية فجعلوها فى صدره ، ثم سبح حتى خرج إلى النيل التى بها ملتقى القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم . قالت : ودعونا الله عز وجل للنجاشى بالظهور على عدوه ، والتمكين له من بلاده .

قالت : فوالله إنا لعلى ذلك الحال متوقعين لما هو كائن ، إذا طلع الزبير يسعى ، ويليح بثوبه ، ألا أبشروا ، قد ظهر النجاشى ، وقد أهلك الله عدوه ، فوالله ما أعلمنا فرحاً فرحة قط مثلها . قالت : ورجع النجاشى وأهلك الله عدوه ، ومكن له فى بلاده ، واستوسق عليه أمر الحبشة ، فكنا عنده فى خير منزل ، حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة .

وروى عن الزبير قال : لما نزل بالنجاشى عدوه من أهل أرضه ، جاءه المهاجرون فقالوا : إنا نحب أن نخرج إليهم فنقاتل معك ، وترى جراثنا ، ونجزيك بما صنعت بنا فقال : ذو ينصره الله خير من الذى ينصره الناس ، فأتى ذلك عليهم .

المرجع [والمآب] (١) ، فمن كان مطيعاً له جازاه أفضل الجزاء ، ووفاه أتم (٢) الثواب ؛ ولهذا قال : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أى : لنسكنهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها الأنهار ، على اختلاف أصنافها ، من ماء وخمر ، وعسل ولبن ، يصرفونها ويجرونها حيث شاؤوا ، ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى : ماكثين فيها أبدا لا ييغون عنها حولا ، ﴿ نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ : نعمت هذه الغرف أجراً على أعمال المؤمنين ، ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أى : على دينهم ، وهاجروا إلى الله ، وناذبوا الأعداء ، وفارقوا الأهل والأقرباء ، ابتغاء وجه الله ، ورجاء ما عنده وتصديق موعوده .

قال ابن أبي حاتم ، رحمه الله : حدثني أبي ، حدثنا صفوان المؤذن ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا معاوية بن سلام ، عن أخيه زيد بن سلام ، عن جده أبي سلام الأسود ، حدثني أبو معاتق (٣) الأشعري ، أن أبا مالك الأشعري حدثه أن (٤) رسول الله ﷺ حدثه أن في الجنة غُرَفًا يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله لمن أطعم الطعام ، وأطاب الكلام ، وأباح الصيام ، وأقام الصلاة (٥) والناس نيام (٦) .

[قوله] (٧) : ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ، فى أحوالهم كلها ، فى دينهم ودنياهم .

ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة ، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين كانوا ، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب ، فإنهم (٨) بعد قليل صاروا حكام البلاد فى سائر الأقطار والأمصار ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ أى : لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تؤخر (٩) شيئاً لغد ، ﴿ اللَّهُ يَرْزُقُهَا إِيَّائَكُمْ ﴾ أى : الله يفيض لها رزقها على ضعفها ، ويسره عليها ، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه ، حتى الذر فى قرار الأرض ، والطير فى الهواء والحيتان فى الماء ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [هود : ٦] .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عبد الرحمن الهروى ، حدثنا يزيد - يعنى ابن هارون - حدثنا الجراح بن منهال الجزرى - هو أبو العطوف - عن الزهرى ، عن رجل (١٠) ، عن ابن عمر قال : خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة ، فجعل يلتقط من التمر ويأكل ، فقال لى : « يا ابن عمر ، مالك لا تأكل ؟ » قال : قلت : لا أشتهيه يا رسول الله ، قال : « لكنى أشتهيه ،

(١) زيادة من أ . (٢) فى ت : « ووفاه تمام » .

(٣) فى هـ ، ت : « أبو معاوية » ، والصواب ما أثبتناه من ف ، أ ، والمسند (٥ / ٣٤٣) .

(٤) فى ت : « روى ابن أبي حاتم بإسناده عن أبي مالك الأشعري » .

(٥) فى أ : « وتابع الصلاة والصيام وقام بالليل » .

(٦) ورواه الإمام أحمد فى مسنده (٥ / ٣٤٣) من طريق أبي معاتق عن أبي مالك به ، وسيأتى عند الآية : ٢٠ من سورة الزمر .

(٧) زيادة من ت . (٨) فى ف : « فهم » . (٩) فى أ : « ولا يدخر » .

(١٠) فى ت : « وروى ابن أبي حاتم بإسناده » .

وهذه صبح رابعة منذ لم أزق طعاما ولم أجده ، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك قيصر وكسرى فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبثون رزق سنتهم بضعف اليقين ؟ قال : فو الله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « إن الله لم يأمرني بكنز الدنيا ، ولا باتباع الشهوات ، فمن كنز دنياه يريد بها حياة باقية فإن الحياة بيد الله ، ألا وإنني لا أكنز ديناراً ولا درهما ، ولا أخبئ رزقا لغد (١) » (٢) .

وهذا حديث غريب ، وأبو العطوف الجزري ضعيف .

وقد ذكروا أن الغراب إذا فقس عن فراخه البيض ، خرجوا وهم بيض فإذا رآهم أبواهم كذلك ، نفرا عنهم أياما حتى يسود الريش ، فيظل الفرخ فاتحاً فاه يتفقد أبويه ، فيقيض الله له طيراً (٣) صغاراً كالبرغش فيغشاه فيتقوت منه تلك الأيام حتى يسود ريشه ، والأبوان يتفقدانه كل وقت ، فكلما رآوه أبيض الريش نفرا عنه ، فإذا رآوه قد اسود ريشه عطفوا عليه بالحضانة والرزق ، ولهذا قال الشاعر :

يارازق النعاب (٤) في عشه وجابر العظم الكسير المهيض

وقد قال الشافعي في جملة كلام له في الأوامر ، كقول النبي ﷺ : « سافروا تصحوا وترزقوا » .

قال البيهقي أخبرنا إمام أبو الحسن علي بن عبدان ، أخبرنا أحمد بن عبيد ، أخبرنا محمد بن غالب ، حدثني محمد بن سنان ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن رداد - شيخ من أهل المدينة - حدثنا عبد الله بن دينار (٥) ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « سافروا تصحوا وتغنموا » . قال : ورويناه عن ابن عباس (٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا ابن لهيعة ، عن دراج ، عن عبد الرحمن بن حنيفة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « سافروا تربحوا ، وصوموا تصحوا ، واغزوا تغنموا » (٧) .

وقد ورد مثل حديث ابن عمر عن ابن عباس مرفوعاً ، وعن معاذ بن جبل موقوفاً (٨) . وفي

(١) في ت : « إلى غد » .

(٢) ورواه البغوي في تفسيره (٢٥٣ / ٦) من طريق إسماعيل بن زرارمة عن الجراح بن المنهال به - وقال الشوكاني في فتح القدير (٢١٣ / ٤) : « وهذا الحديث فيه نكارة شديدة لمخالفته لما كان عليه النبي ﷺ فقد كان يعطى نساءه قوت العام كما ثبت ذلك في كتب الحديث المعتمدة ، وفي إسناده أبو العطوف الجزري وهو ضعيف » . أ . هـ مستفاداً من حاشية تفسير البغوي .

(٣) في ت : « طيوراً » .

(٤) في ت : « وروى البيهقي بسنده » .

(٥) في ت : « البغاب » وفي أ : « النعام » .

(٦) السنن الكبرى (١٠٢ / ٧) ورواه ابن عدي في الكامل (١٩٠ / ٦) من طريق محمد بن عبد الرحمن بن رواد به ، وقال : « لا أعلم يرويه غير الرواد هذا ، وعامة ما يرويه غير محفوظ » وقال ابن أبي حاتم في العلل (٣٠٦ / ٢) : « سألت أبي عن هذا الحديث فقال : هذا حديث منكر » .

(٧) المسند (٣٨٠ / ٢) وفيه ابن لهيعة ودراج ضعيفان .

(٨) أما حديث ابن عباس ، فرواه البيهقي في السنن الكبرى (١٠٢ / ٧) ، من طريق بسطام بن حبيب عن القاسم عن أبي حازم عن ابن عباس مرفوعاً ، ورواه ابن عدي في الكامل (٥٧ / ٧) من طريق نهشل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، مرفوعاً . وقال : « هذه الأحاديث كلها عن الضحاك غير محفوظة » . ولم أجده عن معاذ موقوفاً ، وسيأتي مرفوعاً ، وجاء من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً . ورواه ابن عدي في الكامل (٤٥٤ / ٣) عن سوار بن مصعب ، عن عطية ، عن أبي سعيد ، مرفوعاً وقال : « سوار هذا عامة ما يرويه غير محفوظ » .

لفظ : « سافروا مع ذوى الحدود والميسرة » (١) .

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أى : السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم .
﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (٦١) اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾
وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ .

يقول تعالى مقرا (٢) أنه لا إله إلا هو ؛ لأن المشركين - الذين يعبدون معه غيره - معترفون أنه (٣) المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر، وتسخير الليل والنهار ، وأنه الخالق الرازق لعباده، ومقدر آجالهم ، واختلافها واختلاف أرزاقهم ففاوت بينهم ، فمنهم الغنى والفقر ، وهو العليم بما يصلح كلا منهم ، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر ، فذكر أنه المستبد بخلق الأشياء (٤) المتفرد بتدبيرها ، فإذا كان الأمر كذلك فلم يُعبد غيره ؟ ولم يتوكل على غيره ؟ فكما أنه الواحد فى ملكه فليكن الواحد فى عبادته ، وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية . وقد كان المشركون يعترفون بذلك ، كما كانوا يقولون فى تلييتهم : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك » .

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها ، وأنها لا دوام لها ، وغاية ما فيها لهو ولعب : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ أى : الحياة الدائمة الحق الذى لا زوال لها ولا انقضاء ، بل هى مستمرة أبد الأبد .

وقوله : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : لآثروا ما يبقى على ما يفنى .

ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطراب يدعونه وحده لا شريك له ، فهلا يكون هذا

(١) رواه الدليمى فى مسند الفردوس برقم (٣٣٨٧) من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه ، وذكره السيوطى فى الجامع ورمز له بالضعف وأعله المناوى بإسماعيل بن زياد .

(٢) فى ت : « مخبراً » .

(٣) فى ف : « بأنه » .

(٤) فى ت : « الأصنام » .

منهم دائما ، ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكَ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ، كقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ ﴾ (١) إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ [الإسراء : ٦٧] . وقال هاهنا : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ .

وقد ذكر محمد بن إسحاق ، عن عكرمة بن أبى جهل : أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فاراً منها ، فلما ركب فى البحر ليذهب إلى الحبشة ، اضطربت بهم السفينة ، فقال أهلها : يا قوم ، أخلصوا لربكم الدعاء ، فإنه لا يُنجى ههنا إلا هو . فقال عكرمة : والله إن كان لا ينجى فى البحر غيره ، فإنه لا ينجى غيره فى البر أيضا ، اللهم لك على عهد لئن خرجت لأذهبن فلاضعن يدي فى يد محمد فلاجدنه رؤوفاً رحيما ، وكان (٢) كذلك .

وقوله : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ﴾ : هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة ؛ لأنهم لا يقصدون ذلك ، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم ، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقيضه إياهم لذلك فهى لام التعليل . وقد قدمنا تقرير ذلك فى قوله : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص : ٨] .

﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبَالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) .

يقول تعالى ممتنا على قريش فيما أحلهم من حرمة ، الذى جعله للناس سواء العاكف فيه والبادى ، ومن دخله كان آمنا ، فهم فى أمن عظيم ، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضا ويقتل بعضهم بعضا ، كما قال تعالى : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ . إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : ١ - ٤] .

وقوله : ﴿ أَفَبَالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ أى : أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به ، وعبدوا معه [غيره من] (٣) الأصنام والأنداد ، و ﴿ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨] ، وكفروا بنبي الله وعبدوه ورسوله ، فكان اللاتق بهم إخلاص العبادة لله ، وألا يشركوا به ، وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره ، فكذبوه وقتلوه وأخرجوه من بين ظهرهم ؛ ولهذا سلبهم الله ما كان أنعم به عليهم ، وقتل من قتل منهم بيد ، وصارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين ، ففتح الله على رسوله مكة ، وأرغم أنافهم وأذل رقابهم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ ، أى : لا أحد أشد

(١) فى ت : « أنجأكم » وهو خطأ .

(٣) زيادة من أ .

(٢) فى ت ، ف : « فكان » .

عقوبة ممن كذب على الله فقال : إن الله أوحى إليه شيء . ولم يوح إليه شيء . ومن قال : سأُنزل مثل ما أنزل الله . وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه ، فالأول مفتر ، والثاني مكذب ؛ ولهذا قال : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ .

ثم قال ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ﴾ ، يعنى : الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ، ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ، أى : لنُبَصِّرَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، أى : طرقتنا فى الدنيا والآخرة .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أحمد بن أبى الحواري ، حدثنا عباس الهمداني أبو أحمد - من أهل عكا - فى قول الله ^(١) : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ قال : الذين يعملون بما يعلمون ، يهديهم لما لا يعلمون . قال أحمد بن أبى الحواري : فحدثت به أبا سليمان الداراني فأعجبه ، وقال : ليس ينبغي لمن ألهم شيئا من الخير أن يعمل به حتى يسمعه فى الأثر ، فإذا سمعه فى الأثر عمل به ، وحمد الله حين وافق ما فى نفسه ^(٢) .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبى ، حدثنا عيسى بن جعفر - قاضى الرى - حدثنا أبو جعفر الرازى ، عن المغيرة ، عن ^(٣) الشعبى قال : قال عيسى ابن مريم ، عليه السلام : إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، ليس ^(٤) الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك . [وفى حديث جبريل لما سأل رسول الله ﷺ عن الإحسان قال : « أخبرنى عن الإحسان » . قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

[انتهى تفسير سورة العنكبوت ، ولله الحمد والمنة ^(٥)] ^(٦)

(٢) فى أ : « قلبه » .

(١) فى ت ، أ : « قوله تعالى » .

(٣) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده إلى » .

(٤) فى ت : « وليس » .

(٥) فى هـ : « والله أعلم » .

(٦) زيادة من ت .

تفسير سورة الروم

مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اَلَمْ (١) غَلَبَتِ الرُّومُ (٢) فِي اَدْنٰى اَلْاَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلّٰهِ اَمْرٌ مِّنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللّٰهِ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعَدَ اللّٰهُ لَا يَخْلِفُ اللّٰهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) ﴾ .

[نزلت] (١) هذه الآيات حين غلب (٢) سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصى بلاد الروم ، واضطر هرقل ملك الروم حتى أُلجأ إلى القسطنطينية ، وحاصره فيها مدة طويلة ، ثم عادت الدولة لهرقل ، كما سيأتى .

قال الإمام أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا أبو إسحاق ، عن سفيان ، عن حبيب بن أبى عمرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (٣) ، رضى الله عنهما ، فى قوله تعالى : ﴿ اَلَمْ . غَلَبَتِ الرُّومُ . فى اَدْنٰى اَلْاَرْضِ ﴾ قال : غَلَبَتْ وَغَلَبَتْ . قال : كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ؛ لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر (٤) الروم على فارس ؛ لأنهم أهل كتاب ، فذكر (٥) ذلك لأبى بكر ، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إنهم سيغلبون » ، فذكره أبو بكر لهم ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلا ، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا ، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا . فجعل أجلا خمس (٦) سنين ، فلم يظهروا ، فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ فقال : « ألا جعلتها إلى دُونِ » أراه قال : « العشر » . قال سعيد بن جبير : البضع ما دون العشر . ثم ظهرت الروم بعد ، قال : فذلك قوله : ﴿ اَلَمْ . غَلَبَتِ الرُّومُ . فى اَدْنٰى اَلْاَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فى بَضْعِ سِنِينَ لِلّٰهِ اَمْرٌ مِّنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللّٰهِ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

هكذا رواه (٧) الترمذى والنسائى جميعا ، عن الحسين (٨) بن حُرَيْث ، عن معاوية بن عمرو ، عن أبى إسحاق الفزارى ، عن سفيان بن سعيد الثورى (٩) به ، وقال الترمذى : حسن غريب ، إنما نعرفه من حديث سفيان ، عن حبيب .

(٣) فى ت : « فروى الإمام أحمد بإسناده إلى » .

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى أ : « غلبت » .

(٤) فى ف : « يظهر » . (٥) فى ت : « فذكروه » ، وفى ف ، أ : « فذكروا » . (٦) فى ت : « خمسين » .

(٧) فى ت : « ورواه » . (٨) فى أ : « الحسن » .

(٩) المسند (٢٧٦/١) وسنن الترمذى برقم (٣١٩٣) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٨٩) .

ورواه ابن أبي حاتم ، عن محمد بن إسحاق الصاغانى ^(١) ، عن معاوية بن عمرو ، به . ورواه ابن جرير :

حدثنا محمد بن المثني ، حدثنا محمد بن سعيد - أو سعيد ^(٢) الثعلبي الذي يقال له : أبو سعد من أهل طرسوس - حدثنا أبو إسحاق الفزاري ، ذكره . وعندهم : قال سفيان : فبلغني أنهم غلبوا يوم بدر ^(٣) .

حديث آخر : قال سليمان بن مهران الأعمش ، عن مسلم ، عن مسروق ، قال : قال عبد الله : خمس قد مضين : الدخان ، واللزام ، والبطشة ، والقمر ، والروم . أخرجاه ^(٤) ^(٥) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا المحاربى ، عن داود بن أبي هند ، عن عامر - هو الشعبي - عن عبد الله - هو ^(٦) ابن مسعود رضى الله عنه - قال : كان فارس ظاهراً على الروم ، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم . وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ؛ لأنهم أهل كتاب وهم أقرب إلى دينهم ، فلما نزلت : ﴿الْم . غَلَبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ قالوا : يا أبا بكر ، إن صاحبك يقول : إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين ؟! قال : صدق . قالوا : هل لك إلى أن نقامرك . فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين ، فمضت السبع ولم يكن شيء ، ففرح المشركون بذلك وشق على المسلمين ، فذكر ^(٧) ذلك للنبي ﷺ ، فقال : « ما بضع سنين عندكم » ؟ قالوا : دون العشر . قال : « اذهب فزايدهم وازدد ستين في الأجل » . قال : فما مضت الستين حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس ، ففرح المؤمنون بذلك ، وأنزل الله : ﴿الْم . غَلَبَتِ الرُّومُ﴾ إلى قوله : ﴿[وَعَدَ اللَّهُ] ^(٨) لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ ^(٩) .

حديث آخر : قال ^(١٠) ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عمر الوكيعي ، حدثنا مؤمل ، عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن البراء ، قال : لما نزلت : ﴿الْم . غَلَبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ ، قال المشركون لأبي بكر : ألا ترى إلى ما يقول صاحبك ؟ يزعم أن الروم تغلب فارس . قال : صدق صاحبي . قالوا : هل لك أن نخاطرك ؟ فجعل بينه وبينهم أجلاً ، فحل الأجل قبل أن تغلب الروم فارس ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فسأه ذلك وكرهه ، وقال لأبي بكر : « ما دعاك إلى هذا ؟ » قال : تصديقاً لله ولرسوله . فقال : « تَعَرَّضَ لَهُمْ وَأَعْظَمَ الْخَطَرَ واجعله إلى بضع سنين » . فأتاهم أبو بكر فقال لهم : هل لكم في العود ، فإن العود أحمد ؟ قالوا :

(١) في أ : « الصنعاني » .

(٢) في ف ، أ : « أبو سعد » .

(٣) تفسير الطبري (١٢/٢١) .

(٤) في ت : « البخاري ومسلم » .

(٥) صحيح البخاري برقم (٤٧٦٧) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٨) .

(٦) في ت : « وروى ابن جرير عن » . (٧) في ت : « فذكروا » . (٨) زيادة من ت ، أ .

(٩) تفسير الطبري (١٤/٢١) .

(١٠) في ت : « روى » .

نعم . [قال] ^(١) : فلم تمض تلك السنين حتى غلبت الروم فارساً ، وربطوا خيولهم بالمدائن ، وبنوا الرومية ، فجاء به أبو بكر إلى النبي ﷺ فقال : هذا السحت ، قال : « تصدق به » ^(٢) .

حديث آخر : قال أبو عيسى الترمذى : حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا إسماعيل بن أبى أويس ، أخبرنى ابن أبى الزناد ، عن عروة بن الزبير ^(٣) ، عن نيار بن مكرم الأسلمى قال : لما نزلت ، ﴿ أَلَمْ يَغْلِبِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴾ ، فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم ، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم ؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب ، وفى ذلك قول الله : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بَنَصَرَ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ ، وكانت قريش تحب ظهور فارس ؛ لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان بيعت ، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح فى نواحي مكة : ﴿ أَلَمْ يَغْلِبِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴾ ، قال ^(٤) ناس من قريش لأبى بكر : فذاك بيننا وبينك ^(٥) . زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس فى بضع سنين ، أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال : بلى - وذلك قبل تحريم الرهان - فارتهن أبو بكر والمشركون ، وتواضعوا الرهان ، وقالوا لأبى بكر : كم تجعل البضع : ثلاث سنين إلى تسع سنين ، فسم بيننا وبينك وسطاً تنتهى إليه . قال : فسموا بينهم ست سنين . قال : فمضت ست السنين قبل أن يظهروا ، فأخذ المشركون رهن أبى بكر ، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس ، فعاب المسلمون على أبى بكر تسمية ست سنين ، قال : لأن الله قال : ﴿ فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴾ . قال : فأسلم عند ذلك ناس كثير ^(٦) .

هكذا ساقه الترمذى ، ثم قال : هذا ^(٧) حديث حسن صحيح ، لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبى الزناد . وقد روى نحو هذا مرسلًا عن جماعة من التابعين ، مثل عكرمة ، والشعبي ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدى ، والزهرى ، وغيرهم .

ومن أغرب هذه السياقات ما رواه الإمام سنيد بن داود فى تفسيره حيث قال : حدثنى حجاج ، عن أبى بكر بن عبد الله ، عن عكرمة قال : كانت فى فارس امرأة لاتلد إلا الملوك الأبطال ، فدعاها كسرى فقال : إنى أريد أن أبعث إلى الروم جيشاً وأستعمل عليهم رجلاً من بنيك ، فأشيرى على ، أيهم أستعمل ؟ فقالت : هذا فلان ، وهو أروغ من ثعلب ، وأحذر من صقر . وهذا فرخان ، وهو أنفذ من سنان . وهذا شهريراز ^(٨) ، وهو أحلم من كذا - تعنى أولادها الثلاثة - فاستعمل أيهم شئت . قال : فإنى قد استعملت الحلیم . فاستعمل شهريراز ^(٩) ، فسار إلى الروم بأهل فارس ، فظهر عليهم فقتلهم ، وخرّب مدائنهم ، وقطع زيتونهم .

(١) زيادة من ت ، أ .

(٢) ورواه أبو يعلى فى المسند الكبير ، كما فى إتخاف المهرة للبوصيرى (ق ١٨٣ سليمانىة) من طريق إبراهيم بن محمد بن عرعة ، عن المؤمل بنحوه ، وقال البوصيرى : « وله شاهد من حديث نيار بن مكرم رواه الترمذى . وهو الآتى بعده .

(٣) فى ت : « رواه أبو عيسى الترمذى » . (٤) فى ت ، ف : « فقال » . (٥) فى ت ، ف : « وبينكم » .

(٦) سنن الترمذى برقم (٣١٩٤) .

(٨ ، ٩) فى ت : « شهريراز » .

(٧) فى ت : « وقال الترمذى » .

قال أبو بكر بن عبد الله : فحدثت بهذا الحديث عطاء الخراساني فقال : أما رأيت بلاد الشام ؟ قلت : لا ، قال : أما إنك لو رأيتها ^(١) لرأيت المدائن التي خربت ، والزيتون الذي قطع . فأتيت الشام بعد ذلك فرأيتها ^(٢) .

قال عطاء الخراساني : حدثني يحيى بن يعمر : أن قيصر بعث رجلا يدعى قطعة بجيش من الروم ، وبعث كسرى شهريراز ^(٣) ، فالتقيا بأذرعات وبُصرى ، وهى أدنى الشام إليكم ، فلقيت فارس الروم ، فغلبتهم فارس . ففرحت بذلك كفار قریش وكرهه المسلمون .

قال عكرمة : ولقى المشركون أصحاب النبي ﷺ وقالوا : إنكم أهل كتاب ، والنصارى أهل كتاب ، [ونحن أميون ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب] ^(٤) ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم ، فأنزل الله : ﴿ أَلَمْ يَغْلِبِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ، فخرج أبو بكر الصديق إلى الكفار فقال : أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا ، فلا تفرحوا ، ولا يقرن الله أعينكم ، فوالله ليظهرن الله الروم على فارس ، أخبرنا بذلك نبينا ﷺ . فقام إليه أبى بن خلف فقال : كذبت يا أبا فضيل . فقال له أبو بكر : أنت أكذب ياعدو الله . فقال : أنا حبك عشر قلائص منى وعشر قلائص منك ، فإن ظهرت الروم على فارس غرمت ، وإن ظهرت فارس غرمت إلى ثلاث سنين . ثم جاء ^(٥) أبو بكر إلى النبي ﷺ فأخبره ، فقال : « ما هكذا ذكرت ، إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع ، فزايدته في الخطر وماده في الأجل » . فخرج أبو بكر فلقى أبا فقال : لعلك ندمت ؟ فقال : لا ، تعال أزايدك في الخطر وأمادك في الأجل ، فاجعلها مائة قلووس لمائة قلووس إلى تسع سنين . قال : قد فعلت . فظهرت الروم على فارس قبل ذلك ، فغلبهم المسلمون .

قال عكرمة : لما أن ظهرت فارس على الروم ، جلس فرخان يشرب وهو أخو شهريراز ^(٦) ، فقال لأصحابه : لقد رأيت كائى جالس على سرير كسرى . فبلغت كسرى فكتب إلى شهريراز ^(٧) : إذا أتاك كتابى [هذا] ^(٨) فابعث إلى برأس فرخان . فكتب إليه : أيها الملك ، إنك لن تجد مثل فرخان ، له نكاية وصوت فى العدو ، فلا تفعل . فكتب إليه : إن فى رجال فارس خلفاً منه ، فعجل إلى برأسه . فراجعته ، فغضب كسرى فلم يجبه ، وبعث بريداً إلى أهل فارس : إني قد نزعت ^(٩) عنكم شهريراز ، واستعملت عليكم فرخان . ثم دفع إلى البريد صحيفة لطيفة صغيرة فقال : إذا ولى فرخان الملك ، وانقاد له أخوه ، فأعطه هذه . فلما قرأ شهريراز الكتاب قال : سمعا وطاعة ، ونزل عن سريره ، وجلس فرخان ، ودفع إليه الصحيفة ، قال ^(١٠) : اثنوني بشهريراز ^(١١) ، وقدمه ليضرب عنقه ، قال : لا تعجل [على] ^(١٢) حتى أكتب وصيتي ، قال : نعم . فدعا بالسفط فأعطاه

(١) فى ف : « لو أتيتها » .

(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣/٢١) من طريق سنيد به .

(٣) فى ت : « شهريراز » ، وفى ف ، أ : « بشهريراز » .

(٤) زيادة من ت ، ف .

(٥) فى ت : « فجاء » .

(٨) زيادة من ف .

(٦ ، ٧) فى ت : « شهريراز » .

(١٠) فى ف : « فقال » .

(١١) فى ت : « بشهريراز » .

(٩) فى ف : « عزلت » .

(١٢) زيادة من ت .

الصّحائف^(١) وقال : كل هذا راجعتُ فيك كسرى ، وأنت أردت أن تقتلني بكتاب واحد . فرد الملك إلى أخيه شهريراز^(٢) ، وكتب شهريراز إلى قيصر ملك الروم : إن لى إليك حاجة لا تحملها البرد ولا تحملها الصّحف ، فالقنى، ولا تلقنى إلا فى خمسين روميا ، فإنى ألقاك فى خمسين فارسيا . فأقبل قيصر فى خمسمائة ألف رومى ، وجعل يضع العيون بين يديه فى الطريق ، وخاف أن يكون قد مكر به ، حتى أتاه عيونه أنه ليس معه إلا خمسون رجلا . ثم بسط لهما والتقىا فى قبة ديباج ضربت لهما ، مع كل واحد منهما سكين ، فدعيا^(٣) ترجمانا بينهما ، فقال شهريراز^(٤) : إن الذين خربوا مدائنك أنا وأخى بكيدنا وشجاعتنا ، وإن كسرى حسدنا وأراد أن أقتل أخى فأبيت ، ثم أمر أخى أن يقتلنى . وقد خلعناه جميعا ، فنحن نقاتله معك . قال : قد أصبتما . ثم أشار أحدهما إلى صاحبه أن السر بين اثنين فإذا جاوز اثنين فشا . قال : أجل . فقتلا الترجمان جميعا بسكينيهما . [قال]^(٥) : فأهلك الله كسرى ، وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ يوم الحديبية ، وفرح المسلمون معه .

فهذا سياق غريب ، وبناء عجيب . ولنتكلم على كلمات هذه الآيات الكريمة ، فقوله تعالى : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴾ ، قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور ، فى أول سورة « البقرة » . وأما الروم فهم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم ، وهم أبناء عم بنى إسرائيل ، ويقال لهم : بنو الأصفر . وكانوا على دين اليونان ، واليونان من سلالة يافث بن نوح ، أبناء^(٦) عم الترك . وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة ، ويقال لها : المتحيرة ، ويصلون إلى القطب الشمالى ، وهم الذين أسسوا دمشق ، وبنوا معبدها ، وفيه محارب إلى جهة الشمال ، فكان^(٧) الروم على دينهم إلى مبعث المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة ، وكان من ملك الشام مع الجزيرة منهم يقال له : قيصر . فكان أول من دخل فى دين النصارى من الملوك قسطنطين بن قسطنس ، وأمه مريم الهيلانية الشدقانية^(٨) من أرض حران ، كانت قد تنصرت قبله ، فدعته إلى دينها ، وكان قبل ذلك فيلسوفا ، فتابعها - يقال : تقيّة - واجتمعت به النصارى ، وتناظروا فى زمانه مع عبد الله بن أريوس ، واختلفوا اختلافا [كثيرا]^(٩) منتشرا متشتتا لا ينضبط ، إلا أنه اتفق من جماعتهم^(١٠) ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا ، فوضعوا لقسطنطين العقيدة ، وهى التى يسمونها الأمانة الكبيرة ، وإنما هى الخيانة الحقيرة ، ووضعوا له القوانين - يعنون كتب الأحكام من تحليل وتحريم وغير ذلك مما يحتاجون إليه ، وغيرَوا دين المسيح ، عليه السلام ، وزادوا فيه ونقصوا منه . وفصلوا إلى المشرق^(١١) واعتاضوا عن السبت بالأحد ، وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير . واتخذوا أعياداً أحدثوها كعيد الصليب والقداس^(١٢) والغطاس ، وغير ذلك من البواعيث والشعائين ، وجعلوا له الباب وهو كبيرهم ، ثم البتاركة ، ثم المطارنة ، ثم الأساقفة والقساوسة ، ثم الشماسة . وابتدعوا الرهبانية . وبنى لهم الملك الكنائس

(١) فى ت ، ف ، أ : « ثلاث صحائف » . (٢) فى ت : « شهريراز » . (٣) فى ت ، ف : « فدعا » .
(٤) فى ت : « شهريراز » . (٥) زيادة من ت . (٦) فى أ : « أتباع » .
(٧) فى ف : « وكان » . (٨) فى ت : « القنداقية » ، وفى ف : « القنداقية » . (٩) زيادة من ت ، ف ، أ .
(١٠) فى ت : « جماعته » . (١١) فى ت ، ف ، أ : « وصلوا إلى الشرق » . (١٢) فى ف ، أ : « والقرايين » .

والمعابد ، وأسس المدينة المنسوبة إليه وهى القسطنطينية ، يقال : إنه بنى فى أيامه (١) اثنى عشر ألف كنيسة ، وبنى بيت لحم بثلاثة (٢) محاريب ، وبنى أمه القمامة ، وهؤلاء هم الملكية ، يعنون الذين هم على دين الملك .

ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الإسكاف ، ثم النسطورية أصحاب نسطورا ، وهم فرق وطوائف كثيرة ، كما قال رسول الله ﷺ : « إنهم افرقوا على اثنتين وسبعين فرقة » (٣) . والغرض أنهم استمروا على النصرانية ، كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده ، حتى كان آخرهم هرقل . وكان من عقلاء الرجال ، ومن أحزم الملوك وأدهاهم ، وأبعدهم غورا وأقصاهم رأيا ، فتملَّك عليهم فى رئاسة عظيمة وأبهة كبيرة ، فناواه كسرى ملك الفرس ، ومَلَّك البلاد كالعراق وخراسان والرَّى ، وجميع بلاد العجم ، وهو سابور ذو الأكتاف . وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر ، وله رئاسة العجم وحماقة الفرس ، وكانوا مجوسا يعبدون النار . فتقدم عن عكرمة أنه بعث إليه نوابه وجيشه فقاتلوه ، والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه فى بلاده فقهره وكسَّره وقصره ، حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية . فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه ، وكانت النصارى تعظمه تعظيما زائدا ، ولم يقدر كسرى على فتح البلد ، ولا أمكنه ذلك لحصانتها ؛ لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من (٤) ناحية البحر ، فكانت تأتيهم الميرة والمدد من هنالك . فلما طال الأمر دبر قيصر مكيده ، ورأى فى نفسه خديعة ، فطلب من كسرى أن يقلع عن بلاده على مال يصلحه عليه ، ويشترط عليه ما شاء . فأجابه إلى ذلك ، وطلب منه أموالا عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا (٥) ، من ذهب وجواهر وأقمشة وجوار وخدام وأصناف كثيرة . فطاوعه قيصر ، وأوهمه أن عنده جميع ما طلب ، واستقل عقله لما طلب منه ما طلب ، ولو اجتمع هو وإياه لعجزت قدرتهما عن جمع عُشره ، وسأل كسرى أن يُمكنه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته ، ليسعى فى تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائنه ، فأطلق سراحه ، فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية ، جمع أهل ملته وقال : إني خارج فى أمر قد أبرمته ، فى جند قد عينته من جيشى ، فإن رجعت إليكم قبل الحول فأنا ملككم ، وإن لم أرجع إليكم قبلها فأنتم بالخيار ، إن شئتم استمررتم على بيعتى ، وإن شئتم وليتم عليكم غيرى . فأجابوه بأنك ملكنا ما دمت حيا ، ولو غبت عشرة أعوام . فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة فى جيش متوسط ، هذا وكسرى مُخَيَّم على القسطنطينية ينتظره ليرجع ، فركب قيصر من فوره وسار مسرعا حتى انتهى إلى بلاد فارس ، فعاث فى بلادهم قتلا لرجالها ومن بها من المقاتلة ، أولاً فأولاً ، ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن ، وهى كرسى مملكة كسرى ، فقتل من بها ، وأخذ جميع حواصله وأمواله ، وأسر نساءه وحريمه ، وحلق رأس ولده ، وركَّبه على

(١) فى أ : « زمانه » . (٢) فى ف : « بثلاث » .

(٣) سنن أبى داود برقم (٤٥٩٦) وابن ماجه فى السنن برقم (٣٩٩٢) وقال البوصيرى فى الزوائد : « إسناد عوف بن مالك فيه مقال ، وراشد بن سعد قال فيه أبو حاتم : صدوق . وعباد بن يوسف لم يخرج له أحد سوى ابن ماجه ، وليس له عندى سوى هذا الحديث قال ابن عدى : روى أحاديث تفرد بها . وذكره ابن حبان فى الثقات وبقى رجال الإسناد ثقات » .

(٤) فى ت : « فى » . (٥) فى ت : « الأرض » .

حمار وبعث معه من الأساورة من قومه فى غاية الهوان والذلة ، وكتب إلى كسرى يقول : هذا ما طلبت فخذ . فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم ما لا يحصيه إلا الله عز وجل ، واشتد حنقه على البلد ، فاشتد (١) فى حصارها بكل ممكن فلم يقدر على ذلك . فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون ، التى لا سبيل (٢) لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها ، فلما علم قيصر بذلك احتال بحيلة عظيمة لم يسبق إليها ، وهو أنه أرصد جنده وحواصله التى معه عند فم المخاضة ، وركب فى بعض الجيش ، وأمر بأحمال من التبن والبعر والروث فحملت معه ، وسار إلى قريب من يوم فى الماء مصعدا ، ثم أمر بإلقاء تلك الأحمال فى النهر ، فلما مرت بكسرى ظن هو وجنده أنهم قد خاضوا من هنالك ، فركبوا فى طلبهم فشغرت المخاضة عن الفرس ، وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض فى الخوض ، فخاضوا وأسرعوا السير ففاتوا كسرى وجنوده ، ودخلوا القسطنطينية . وكان ذلك يوما مشهوداً عند النصرى ، وبقي كسرى وجيوشه (٣) حائرين لا يدرون ماذا يصنعون . لم يحصلوا على بلاد قيصر ، وبلادهم قد خربت الروم وأخذوا حواصلهم ، وسبوا ذراريهم ونساءهم . فكان هذا من غلب الروم فارس ، وكان ذلك بعد تسع (٤) سنين من غلب الفرس للروم (٥) .

وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرعات وبُصرى ، على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما ، وهى طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز .

وقال مجاهد : كان ذلك فى الجزيرة ، وهى أقرب بلاد الروم من فارس ، فالله (٦) أعلم .

ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين ، وهى تسع ؛ فإن البُضع فى كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع . وكذلك جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى ، وابن جرير وغيرهما ، من حديث عبد الله بن عبد الرحمن الجُمَحى ، عن الزهرى ، عن عبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر فى مُناجبة (٧) : ﴿ اَلَمْ غَلِبَتِ الرُّومُ ﴾ : « ألا احتطت يا أبا بكر ، فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع ؟ » ، ثم قال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه (٨) .

وروى ابن جرير ، عن عبد الله بن عمرو : أنه قال ذلك (٩) .

وقوله : ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ أى : من قبل ذلك ومن بعده ، فبنى على الضم لما قطع المضاف ، وهو قوله : ﴿ قَبْلُ ﴾ عن الإضافة ، ونويت .

﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ أى : للروم أصحاب قيصر ملك الشام ، على فارس أصحاب كسرى ، وهم المجوس . وقد كانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر فى قول طائفة كبيرة من العلماء ، كابن عباس ، والثورى ، والسُدِّى ، وغيرهم . وقد ورد فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم والبخارى ، من حديث الأعمش ، عن عطية (١٠) ، عن أبى سعيد قال : لما

(١) فى أ : « فجذ » . (٢) فى أ : « لا مسلك » . (٣) فى ت ، ف ، أ : « وجنوده » .

(٤) فى ت : « ثلاث » . (٥) فى ت ، ف : « من غلب فارس للروم » ، وفى أ : « من غلب فارس الروم » .

(٦) فى ف : « والله » . (٧) فى ت : « مبايعته » .

(٨) سنن الترمذى برقم (٣١٩١) ، وتفسير الطبرى (١٢/٢١) .

(٩) تفسير الطبرى (١٦/٢١) .

(١٠) فى ت : « وقد روى مالك » .

كان يوم بدر ، ظهرت الروم على فارس ، فأعجب ذلك المؤمنين وفرحوا به ، وأنزل الله : ﴿ وَيَوْمَذِي يَقَرَّحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

وقال آخرون : بل كان نصرة الروم على فارس عام (٢) الحديبية ؛ قاله عكرمة ، والزهرى ، وقتادة ، وغيرهم (٣) ، ووجه بعضهم هذا القول بأن قيصر كان قد نذر لئن أظفره الله بكسرى ليمشين من حمص إلى إيليا - وهو بيت المقدس - شكراً (٤) الله عز وجل ، ففعل ، فلما بلغ بيت المقدس لم يخرج منه حتى وافاه كتاب رسول الله ﷺ ، الذى بعثه مع دحية بن خليفة ، فأعطاه دحية لعظيم بصرى ، فدفعه عظيم بصرى إلى قيصر . فلما وصل إليه سأل من بالشام من عرب الحجاز ، فأحضر له أبو سفيان صخر بن حرب الأموى فى جماعة من كفار قريش كانوا فى غزة ، فجاء بهم إليه ، فجلسوا بين يديه ، فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبي ؟ فقال أبو سفيان : أنا . فقال لأصحابه - وأجلسهم خلفه - : إني سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذب فكذبوه . فقال أبو سفيان : فوالله لولا أن يأتروا على الكذب لكذبت . فسأله هرقل عن نسبه وصفته ، فكان فيما سألته أن قال : فهل يغدر ؟ قال : قلت : لا ، ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو صانع فيها - يعنى بذلك الهدنة التى كانت قد وقعت بين رسول الله ﷺ وكفار قريش يوم (٥) الحديبية على وضع الحرب بينهم عشر سنين ، فاستدلوا بهذا على أن نصر الروم على فارس كان عام الحديبية ؛ لأن قيصر إنما وفى بنذره بعد الحديبية ، والله أعلم .

ولأصحاب القول الأول أن يجيئوا عن هذا بأن بلاده كانت قد خربت وتشعثت ، فما تمكن من وفاء نذره حتى أصلح ما ينبغى إصلاحه وتفقد بلاده ، ثم بعد أربع سنين من نصرته وفى بنذره ، والله أعلم .

والأمر (٦) فى هذا سهل قريب ، إلا أنه لما انتصرت فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين ، فلما انتصرت الروم على فارس فرح المؤمنون بذلك ؛ لأن الروم أهل كتاب فى الجملة ، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس ، كما قال [الله] (٧) تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيسِينَ وَرَهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة : ٨٢ ، ٨٣] ، وقال تعالى ههنا : ﴿ وَيَوْمَذِي يَقَرَّحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنى أسيد الكلابى ، قال : سمعت (٨) العلاء بن الزبير الكلابى يحدث عن أبيه ، قال : رأيت غلبة فارس الروم ، ثم رأيت غلبة الروم فارس ، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم ، كل ذلك فى خمس عشرة سنة .

(١) سنن الترمذى برقم (٣١٩٢) وتفسير الطبرى (١٦/٢١) .

(٢) فى ت : « تشكراً » .

(٣) فى أ : « وغير واحد » .

(٤) زيادة من ت .

(٥) فى ت : « فالأمر » .

(٦) فى ت ، ف : « عام » .

(٨) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم عن » .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : فى انتصاره وانتقامه من أعدائه ، ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بعباده المؤمنين .

وقوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ أى : هذا (١) الذى أخبرناك به - يا محمد - من أنا سننصر الروم على فارس ، وعد من الله حق ، وخبر صدق لا يخلف ، ولا بد من كونه ووقوعه ؛ لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتلتين إلى الحق ، ويجعل لها العاقبة ، ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : بحكم الله فى كونه وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل .

وقوله : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ أى : أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها ، فهم حذاق أذكياء فى تحصيلها ووجوه مكاسبها ، وهم غافلون عما ينفعهم فى الدار الآخرة ، كأن أحدهم مغفل لا ذهن (٢) له ولا فكرة .

قال الحسن البصرى : والله لبلغ (٣) من أحدهم بدنياء أنه يقلب الدرهم على ظفره ، فيخبرك بوزنه ، وما يحسن أن يصلى .

وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ يعنى : الكفار ، يعرفون عمران الدنيا ، وهم فى أمر الدين جهال .

﴿ أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ (٨) أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاءُوا السُّوْأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ (١٠) ﴾ .

يقول تعالى منها على التفكير فى مخلوقاته ، الدالة على وجوده وانفراده بخلقها ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، فقال : ﴿ أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ يعنى به : النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوى والسفلى ، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة ، والأجناس المختلفة ، فيعلموا (٤) أنها ما خلقت سدى ولا باطلا ، بل بالحق ، وأنها مؤجلة (٥) إلى أجل مسمى ، وهو يوم القيامة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ .

ثم نبههم على صدق رسله فيما جاؤوا به عنه ، بما أيدهم به من المعجزات ، والدلائل (٦) الواضحات ، من إهلاك من كفر بهم ، ونجاة من صدقهم ، فقال : ﴿ أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين ؛ ولهذا قال : ﴿ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ .

(٣) فى ت ، ف ، أ : « ليلغ » .

(٢) فى أ : « لا ذكر » .

(١) فى أ : « هو » .

(٤) جميع النسخ : « فيعلموا » وهو خطأ ، والصواب : « فيعلمون » لعدم جواز النصب فيها ؛ لأنها لم تسبق بطلب ، فتكون الفاء ناصبة .

(٦) فى ت ، ف ، أ : « والدلالات » .

(٥) فى ت : « وأنهما مؤجلين » .

كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴿١﴾ أى : كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم - أيها المبعوث إليهم محمد صلوات الله وسلامه عليه (١) ، وأكثر أموالاً وأولاداً ، وما أوتيتم معشار ما أوتوا ، ومكنوا فى الدنيا تمكيناً لم تبلغوا إليه ، وعمرؤا فيها أعماراً طوالاً ، فعمروها أكثر منكم . واستغلوها أكثر من استغلالكم ، ومع هذا لما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا ، أخذهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله من واق ، ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين بأس (٢) الله ، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة ، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال ، ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أى : وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله ، واستهزؤوا بها ، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم ؛ ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءُ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَقَلَبْ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٠] ، وقوله (٣) : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : ٥] ، وقال : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمْنَا أَنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بَعْضُ ذُنُوبِهِمْ ﴾ [المائدة : ٤٩] .

وعلى هذا تكون (٤) السوإى منصوبة مفعولاً لأسأؤوا . وقيل : بل المعنى فى ذلك : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءُ ﴾ أى : كانت السوإى عاقبتهم ؛ لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون . فعلى هذا تكون السوإى منصوبة خبر كان . هذا توجيه ابن جرير (٥) ، ونقله (٦) عن ابن عباس وقتادة . ورواه ابن أبى حاتم عنهما وعن الضحاك بن مزاحم ، وهو الظاهر ، والله أعلم ، ﴿ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِّدُ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) .

يقول تعالى : ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أى : كما هو قادر على بداءته فهو قادر على إعادته ، ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ، أى : يوم القيامة ، فيجازى كل عامل بعمله .

ثم قال : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ قال ابن عباس : يبأس المجرمون .

وقال مجاهد : يفتضح المجرمون . وفى رواية : يكتب المجرمون .

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ ﴾ أى : ما شفعت فيهم الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله ، وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم .

(١) فى ت : ﴿ يَبْدَأُ ﴾ . (٢) فى ت : « أمر » . (٣) فى ت ، ف : « وقال » .

(٤) فى ف : « يكون » .

(٥) تفسير الطبرى (١٨/٢١) .

(٦) فى ت : « ومنقول » .

ثم قال : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومَذِّ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ ، قال قتادة : هي - والله - الفرقة التي لا اجتماع بعدها ، يعنى : إذا رفع هذا إلى عليين ، وخفض هذا إلى أسفل السافلين ، فذاك آخر العهد بينهما ؛ ولهذا قال : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قال مجاهد وقتادة : ينعمون .

وقال يحيى بن أبى كثير : يعنى سماع الغناء . والخبرة أعم من هذا كله ، قال العجاج :

الحمد (١) لله الذى أعطى الحبرَ مَوَالِيَّ الْحَقِّ إِنَّ الْمَوْلَى شَكَرَ (٢)

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) ﴾

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة ، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده ، فى هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه : عند المساء ، وهو إقبال الليل بظلامه ، وعند الصباح وهو إسفار النهار عن ضيائه .

ثم اعترض بحمده ، مناسبة للتسبيح وهو التحميد ، فقال : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : هو المحمود على ما خلق فى السموات والأرض .

ثم قال : ﴿ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ ، فالعشاء (٣) هو : شدة الظلام ، والإظهار : قوة الضياء . فسبحان خالق هذا وهذا ، فائق الإصباح وجاعل الليل سكنا ، كما قال : ﴿ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا . وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ [الشمس : ٣ ، ٤] ، وقال : ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى . وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ﴾ [الليل : ١ ، ٢] ، وقال : ﴿ وَالضُّحَى . وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى ﴾ [الضحى : ١ ، ٢] ، والآيات فى هذا كثيرة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا زبَّان بن فائد ، عن سهل بن معاذ ابن أنس الجهنى ، عن أبيه (٤) ، عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : « ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذى وفى ؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى : سبحان الله حين تمشون وحين تصبحون ، وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون » (٥) .

وقال الطبرانى : حدثنا مطلب بن شعيب الأزدي ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثنى الليث بن سعد ، عن سعيد بن بشير ، عن محمد بن عبد الرحمن بن البيلماني ، عن أبيه (٦) ، عن عبد الله بن عباس ، عن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يصبح : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ .

(١) فى ت : « فالحمد » .

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (١٩/٢١) ، ولسان العرب لابن منظور مادة « حبر » .

(٣) فى ت : « فالعشى » . (٤) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن أنس الجهنى » .

(٥) المسند (٤٣٩/٣) .

(٦) فى ت : « وروى الطبرانى بإسناده » .

وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١﴾ الآية بكمالها ، أدرك ما فاتته في يومه ، ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاتته في ليلته . إسناده جيد (١) ، ورواه أبو داود في سننه (٢) .

وقوله : ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ : هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة . وهذه الآيات المتتابعة الكريمة كلها من هذا النمط ، فإنه يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها ، ليدل خلقه على كمال قدرته ، فمن ذلك إخراج النبات من الحب ، والحب من النبات ، والبيض من الدجاج ، والدجاج من البيض ، والإنسان من النطفة ، والنطفة من الإنسان ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن .

وقوله : ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ، كقوله : ﴿وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ [يس : ٣٣ ، ٣٤] ، وقال : ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج : ٥ - ٧] ، وقال : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَفْلَتْ سَحَابًا نَبَأْنَا أَفْئِدَةً لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف : ٥٧] ؛ ولهذا قال ههنا : ﴿وَكَذَلِكَ تَخْرُجُونَ﴾ .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾ .

يقول تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب ، ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ ، فأصلكم من تراب ، ثم من ماء مهين ، ثم تصوّر فكان علقه ، ثم مضغة ، ثم صار عظاما ، شكله على شكل الإنسان ، ثم كسا الله تلك العظام لحما ، ثم نفخ فيه الروح ، فإذا هو سميع بصير . ثم خرج من بطن أمه صغيرا ضعيفا القوى والحركة ، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار بيني المدائن والحصون ، ويسافر في أقطار الأقاليم ، ويركب متن البحور ، ويدور أقطار الأرض ويتكسب ويجمع الأموال ، وله فكرة وغور ، ودهاء ومكر ، ورأى وعلم ، واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه . فسبحان من أقدرهم وسيّرهم وسخرهم وصرفهم في فنون المعاش والمكاسب ، وفاوت بينهم في العلوم والفكرة ، والحسن والقبح ، والغنى والفقر ، والسعادة والشقاوة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ

(١) في أ : «إسناده ضعيف» ، وهو الصواب .

(٢) المعجم الكبير (٢٣٩/١٢) وسنن أبي داود برقم (٥٠٧٦) .

بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٢﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد وغندر ، قالا : حدثنا عوف ، عن قسامة بن زهير ^(١) ، عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والخبيث والطيب ، والسهل والحزن ، وبين ذلك » .

ورواه أبو داود والترمذي من طرق ، عن عوف الأعرابي ، به ^(٢) . وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أى : خلق لكم من جنسكم إناثا يكن لكم أزواجا ، ﴿ تَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٩] يعنى بذلك : حواء ، خلقها الله من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر . ولو أنه جعل بنى آدم كلهم ذكورا وجعل إناثهم من جنس آخر [من غيرهم] ^(٣) إما من جان أو حيوان ، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج ، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس . ثم من تمام رحمته ببنى آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم ، وجعل بينهم وبينهن مودة : وهى المحبة ، ورحمة : وهى الرأفة ، فإن الرجل ^(٤) يمسك المرأة إما لمحبتة لها ، أو لرحمة بها ، بأن يكون لها منه ولد ، أو محتاجة إليه فى الإنفاق ، أو للألفة بينهما ، وغير ذلك ،

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتَلَفَ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ .

يقول تعالى : ومن آيات قدرته العظيمة ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : خلق السموات فى ارتفاعها واتساعها ، وشفوف أجرامها وزهارة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات ، والأرض فى انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبال وأودية ، وبحار وقفار ، وحيوان وأشجار .

وقوله : ﴿ وَاخْتَلَفَ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ يعنى : اللغات ، فهؤلاء بلغة العرب ، وهؤلاء تتر لهم لغة أخرى ، وهؤلاء كرج ، وهؤلاء روم ، هؤلاء إفرنج ، وهؤلاء بربر ، وهؤلاء تكرر ، وهؤلاء حبشة ، وهؤلاء هنود ، وهؤلاء عجم ، وهؤلاء صقالبة ، وهؤلاء خزر ، وهؤلاء أرمن ، وهؤلاء أكراد ، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله من اختلاف لغات بنى آدم ، واختلاف ألوانهم وهى حُلَاهُم ، فجميع أهل الأرض - بل أهل الدنيا - منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة : كل له عينان وحاجبان ، وأنف وجبين ،

(١) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » .

(٢) المسند (٤٠٠ / ٤) وسنن أبي داود برقم (٣٦٩٣) وسنن الترمذى برقم (٢٩٥٥) .

(٣) زيادة من ت ، ف . (٤) فى ت ، ف : « فالرجل » .

وفم وخذان . وليس يشبه واحد منهم الآخر ، بل لابد أن يفارقه بشيء من السمات أو الهيئة أو الكلام ، ظاهرا كان أو خفيا ، يظهر عند التأمل ، كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لا تشبه الأخرى . ولو توافق جماعة في صفة من جمال أو قبح (١) ، لابد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ . وَمِنَ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّن فَضْلِهِ ﴾ أى : ومن الآيات ما جعل لكم من صفة النوم فى الليل والنهار ، فيه تحصل الراحة وسكون الحركة ، وذهاب الكلال والتعب ، وجعل لكم الانتشار والسعى فى الأسباب والأسفار فى النهار ، وهذا ضد النوم ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أى : يعون .

قال الطبرانى : حدثنا حجاج بن عمران السدوسى ، حدثنا عمرو بن الحصين العقبلى ، حدثنا محمد بن عبد الله بن عُلَثة ، حدثنى ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان ، سمعت عبد الملك بن مروان يحدث عن أبيه (٢) ، عن زيد بن ثابت ، رضى الله عنه ، قال : أصابنى أرق من الليل ، فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : « قل : اللهم غارت النجوم ، وهذأت العيون ، وأنت حى قيوم ، يا حى يا قيوم ، [أتم عيني و] (٣) أهدئ ليلي » فقلتها ، فذهب عني (٤) .

﴿ وَمِنَ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُم دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمِنَ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على عظمته أنه ﴿ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ [خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أى : [(٥) تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة ، أو صواعق متلفة ، وتارة ترجون مبيضه وما يأتى بعده من المطر المحتاج إليه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أى : بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء ، فلما جاءها الماء ﴿ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيج ﴾ [الحج : ٥] . وفى ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ ، كقوله : ﴿ وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج : ٦٥] ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾ [فاطر : ٤١] . وكان عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، إذا اجتهد فى اليمين يقول : لا ، والذى تقوم السماء والأرض بأمره ، أى : هى قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيرها إياها ، ثم إذا كان يوم القيامة بدلت الأرض

(١) فى أ : « قبيح » . (٢) فى ت : « وروى الطبرانى بإسناده » . (٣) زيادة من ت ، ف ، ومعجم الطبرانى .

(٤) المعجم الكبير (١٢٤/٥) ، ورواه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة برقم (٧٤٥) وابن عدى فى الكامل (١٥٠/٥) من طريق عمرو بن الحصين به ، وقال ابن عدى : « تفرد به عمرو بن الحصين وهو مظم الحديث ، ويروى عن قوم معروفين » . وله شاهد من حديث

أنس ، حسنه الحافظ ابن حجر كما فى الفتوحات الربانية لابن علان (١٧٧/٣) .

(٥) زيادة من ت .

غير الأرض والسموات ، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم ؛ ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣ ، ١٤] ، وقال : ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس : ٥٣] .

﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) .

يقول تعالى : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : ملكه وعبيده ، ﴿ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ أى : خاضعون خاشعون طوعاً وكرهاً .

وفى حديث درّاج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد ، مرفوعاً : « كل حرف فى (١) القرآن يُذكر فيه القنوت فهو الطاعة » (٢) .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ قال [على] (٣) بن أبى طلحة عن ابن عباس : يعنى : أيسر عليه .

وقال مجاهد : الإعادة أهون عليه من البدأة ، والبداءة عليه هينٌ . وكذا قال عكرمة وغيره .

وقال البخارى : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، أخبرنا أبو الزناد ، عن الأعرج (٤) ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « قال الله : كَذَبَنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقلوه : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أو الخلق بأهون على من إعادته . وأما شتمه إياى فقلوه : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » (٥) .

انفرد بإخراجه البخارى كما انفرد بروايته - أيضاً - من حديث عبد الرزاق عن معمر ، عن همام ، عن أبى هريرة ، به (٦) . وقد رواه الإمام أحمد منفرداً به عن حسن بن موسى ، عن ابن لهيعة ، حدثنا أبو يونس سليم بن جبير ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ بنحوه ، أو مثله (٧) .

وقال آخرون : كلاهما بالنسبة إلى القدرة على السواء .

(١) فى ت : « من » .

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده (٧٥/٣) ، وتقدم الحديث عند تفسير الآية : ١١٦ من سورة البقرة . قال الحافظ ابن كثير : « ولكن هذا الإسناد ضعيف لا يعتمد عليه ، ورفع هذا الحديث منكر وقد يكون من كلام الصحابى ، أو من دونه ، والله أعلم » .

(٣) زيادة من أ . (٤) فى ت : « وقال البخارى بإسناده » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٤) .

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٥) .

(٧) المسند (٢/٣٥٠) .

قال العوفي ، عن ابن عباس : كل عليه هين . وكذا قال الربيع بن خثيم . ومال إليه ابن جرير ، وذكر عليه شواهد كثيرة ، قال : ويحتمل أن يعود الضمير في قوله : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ إلى الخلق ، أى : وهو أهون على الخلق .

وقوله : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ : قال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس كقوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] .

وقال قتادة : مثله أنه لا إله إلا هو ، ولا رب غيره ، وقال مثل هذا ابن جرير .

وقد أُنشد بعض المُفسرين عند ذكر هذه الآية لبعض أهل المعارف :

إِذَا سَكَنَ الْغَدِيرُ عَلَى صَفَاءٍ وَجُنِبَ أَنْ يُحَرِّكَهُ النَّسِيمُ
تَرَى فِيهِ السَّمَاءَ بَلَا امْتِرَاءٍ كَذَٰكَ الشَّمْسُ تَبْدُو وَالنَّجُومُ
كَذَٰكَ قُلُوبُ أَرْبَابِ التَّجَلَّى يُرَى فِي صَفْوِهَا اللَّهُ الْعَظِيمُ

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ : الذى (١) لا يغالب ولا يمانع ، بل قد غلب كل شيء ، وقهر كل شيء بقدرته وسلطانه ، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أفعاله وأقواله ، شَرَعًا وَقَدَرًا .

وعن مالك فى تفسيره المروى عنه ، عن محمد بن المنكدر ، فى قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ ، قال : لا إله إلا الله .

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَّا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢٨) بل اتَّبِعِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴾ (٢٩) .

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به ، العابدين معه غيره ، الجاعلين له شركاء وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له ، ملك له ، كما كانوا فى تلييتهم يقولون : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك . فقال تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أى : تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم ، ﴿ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَّا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ أى : لا يرتضى أحد منكم أن يكون عبده شريكا له فى ماله ، فهو وهو فيه على السواء ﴿ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أى : تخافون أن يقاسموكم الأموال .

قال أبو مجلز : إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك ، وليس له ذاك (٢) ، كذلك الله لا شريك له .

والمعنى: أن أحدكم يأنف من ذلك ، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه . وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ [النحل : ٦٢] أى : من البنات ، حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، وجعلوها بنات الله ، وقد كان أحدهم إذا بُشِّرَ بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، فهم يأنفون من البنات . وجعلوا الملائكة بنات الله ، فنسبوا إليه ما لا يرتضونه لأنفسهم ، فهذا أغلظ الكفر . وهكذا فى هذا المقام جعلوا له شركاء من عبيده وخلقه ، وأحدهم يأبى غاية الإباء ويأنف غاية الأنفة من ذلك ، أن يكون عبده شريكه فى ماله ، يساويه فيه . ولو شاء لقاسمه عليه ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

قال الطبرانى : حدثنا محمود بن الفرغ الأصبهاني ، حدثنا إسماعيل بن عمرو البجلي ، حدثنا حماد بن شعيب ، عن حبيب بن أبى ثابت ، عن سعيد بن جبير ^(١) ، عن ابن عباس قال : كان يلبى أهل الشرك : لبيك اللهم [لبيك] ^(٢) ، لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك . فأنزل الله : ﴿ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ ^(٣) .

ولما كان التنبيه بهذا المثل على براءته تعالى ونزاهته بطريق الأولى والأحرى ، قال : ﴿ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى مبينا أن المشركين إنما عبدوا غيره سقها من أنفسهم وجهلا : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى : المشركون ﴿ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى : فى عبادتهم الأنداد بغير علم ، ﴿ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ [أى : فلا أحد يهديهم إذا كتب الله إضلالهم] ^(٤) ، ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ أى : ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجير ، ولا محيد لهم عنه ؛ لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٣٠) مُبَيِّنِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ^(٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ^(٣٢) .

يقول تعالى : فسدد وجهك واستمر على الذى شرعه الله لك ، من الحنيفية ملة إبراهيم ، الذى هداك الله لها ، وكملها لك غاية الكمال ، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة ، التى فطر الله الخلق عليها ، فإنه تعالى فطر خلقه على [معرفته وتوحيده ، وأنه لا إله غيره ، كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ، وفى الحديث : « إني خلقت

(١) فى ت : « روى الطبرانى بإسناده » . (٢) زيادة من ت .

(٣) المعجم الكبير (٢٠ / ١٢) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٢٢٣ / ٣) : « وفيه حماد بن شعيب وهو ضعيف » .

(٤) زيادة من ت ، أ .

عبادى حنفاء ، فاجتالهم الشياطين عن دينهم » . وسنذكر فى الأحاديث أن الله تعالى فطر خلقه على [(١) الإسلام ، ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية أو النصرانية أو المجوسية (٢)] .

وقوله : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ : قال بعضهم : معناه لا تبدلوا خلق الله ، فتغيروا الناس عن فطرتهم التى فطرهم الله عليها . فيكون خبرا بمعنى الطلب ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ [آل عمران : ٩٧] ، وهذا معنى حسن صحيح .

وقال آخرون : هو خبر على بابه ، ومعناه : أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم فى الفطرة على الجبلبة المستقيمة ، لا يولد أحد إلا على ذلك ، ولا تفاوت بين الناس فى ذلك ؛ ولهذا قال ابن عباس ، وإبراهيم النخعي ، وسعيد بن جببر ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد (٣) فى قوله : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ أى : لدين الله .

وقال البخارى : قوله : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ : لدين الله ، خَلَقَ الأولين : [دين الأولين] (٤) ، والدين والفطرة : الإسلام .

حدثنا عبدان ، أخبرنا عبد الله ، أخبرنا يونس ، عن الزهرى ، أخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن (٥) : أن أبا هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم يقول : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ ﴾ .

ورواه مسلم من حديث عبد الله بن وهب ، عن يونس بن يزيد الأيلى ، عن الزهرى ، به (٦) . وأخرجاه - أيضا - من حديث عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همام ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ (٧) .

وفى معنى هذا الحديث قد وردت أحاديث عن جماعة من الصحابة ، فمنهم الأسود بن سريع التميمي . قال (٨) الإمام أحمد :

حدثنا إسماعيل ، حدثنا يونس ، عن الحسن (٩) ، عن الأسود بن سريع [التميمي] (١٠) قال : أتيت رسول الله ﷺ وغزوت معه ، فأصبحت ظهرا (١١) ، فقتل الناس يومئذ ، حتى قتلوا الولدان . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية ؟ » . فقال رجل : يا رسول الله ، أما هم أبناء المشركين ؟ فقال : « ألا إنما خياركم أبناء المشركين » . ثم قال : « لا تقتلوا ذرية ، لا تقتلوا ذرية » . وقال : « كل نسمة تولد على الفطرة ، حتى يُعرب عنها لسانها ، فأبواها يهودانها أو ينصرانها » .

(١) زيادة من ت ، أ . (٢) فى ت ، ف : « والنصرانية والمجوسية » . (٣) فى ت : « وسعيد بن جببر وغيرهم » .

(٤) زيادة من ت ، أ . (٥) فى ت : « ثم روى بسنده » .

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧٧٥) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٨) .

(٧) صحيح البخارى برقم (٦٥٩٩) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٨) .

(٨) فى ت : « فروى » . (٩) فى ت : « بإسناده » . (١٠) زيادة من ف .

(١١) فى ت ، ف : « ظفرا » .

ورواه النسائي في كتاب السير ، عن زياد بن أيوب ، عن هُشَيْم ، عن يونس - وهو ابن عبيد - عن الحسن البصري ، به (١) (٢) .

ومنهم جابر بن عبد الله الأنصاري ، قال الإمام أحمد :

حدثنا هاشم ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع بن أنس ، عن الحسن ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، حتى يُعرب عنه لسانه ، فإذا عبر (٣) عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً » (٤) .

ومنهم عبد الله بن عباس الهاشمي ، قال الإمام أحمد :

حدثنا عفان ، حدثنا أبو عَوَّانَةَ ، حدثنا أبو بشر ، عن سعيد بن جبير (٥) ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ سئل عن أولاد المشركين ، فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم » . أخرجه في الصحيحين ، من حديث أبي بشر جعفر بن إياس اليشكري ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس مرفوعاً بذلك (٦) .

وقد قال (٧) أحمد أيضاً : حدثنا عفان ، حدثنا حماد - يعني ابن سلمة - أنبأنا عمار بن أبي عمار ، عن ابن عباس قال : أتى على زمان وأنا أقول : أولاد المسلمين مع أولاد المسلمين ، وأولاد المشركين مع المشركين . حتى حدثني فلان عن (٨) فلان : أن رسول الله ﷺ سئل (٩) عنهم فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » . قال : فلقيت الرجل فأخبرني . فأمسكت عن قولي (١٠) .

ومنهم عياض بن حمار المجاشعي ، قال (١١) الإمام أحمد :

حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا هشام ، حدثنا قتادة ، عن مطرف ، عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته : « إن ربي ، عز وجل ، أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا ، كل مال نحلته عبادي حلال ، وإنني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فآفصلتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً ، ثم إن الله ، عز وجل ، نظر إلى أهل الأرض فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب ، وقال : إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك ، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء ، تقرؤه نائماً ويقظان .

(١) في ت : « وروى أيضاً بإسناده » .

(٢) المسند (٤٣٥/٣) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٨٦١٦) .

(٣) في ف : « عرب » .

(٤) المسند (٣٥٣/٣) وقال الهيثمي في المجمع (٢١٨/٧) : « وفيه أبو جعفر الرازي وهو ثقة وفيه خلاف ، وبقيّة رجاله ثقات » .

(٥) في ت : « وروى أيضاً بإسناده » .

(٦) المسند (٣٢٨/١) وصحيح البخاري برقم (١٣٨٣) وصحيح مسلم برقم (٢٦٦٠) .

(٧) في ت : « وروى » .

(٨) في ت ، ف : « ابن » . (٩) في أ : « عن رسول الله ﷺ أنه سئل » .

(١٠) المسند (٧٣/٥) وقال الهيثمي في المجمع (٢١٨/٧) : « رجاله رجال الصحيح » .

(١١) في ت : « وقال » .

ثم إن الله أمرني أن أحرق قريشا ، فقلت : يارب ، إذا يُلْعَغو رأسي فيدعوه خبزةً . قال (١) : استخرجهم كما استخرجوك ، واغزهم نُغْرَكَ ، وأنفق عليهم فسننق عليك . وابعث جيشا نبعث خمسة مثله ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك » . قال : « وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مُقسط متصدق موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم ، ورجل عفيف فقير متصدق . وأهل النار خمسة : الضعيف الذي لا زبر له ، الذين هم فيكم تبعاً ، لا يبتغون أهلاً ولا مالا . والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانته . ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن (٢) أهلك ومالك » . وذكر البخيل ، أو الكذاب ، والشنظير : الفحاش (٣) .

انفرد بإخراجه مسلم ، فرواه من طرق عن قتادة ، به (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أى : التمسك بالشرعية (٥) والفطرة السليمة هو الدين القويم المستقيم ، ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : فلهذا لا يعرفه أكثر الناس ، فهم عنه ناكبون ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] ، ﴿ وَإِنْ طَعِ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ طِغْيَاكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الآية [الأنعام : ١١٦] .

وقوله : ﴿ مُبِينٌ إِلَيْهِ ﴾ : قال ابن زيد ، وابن جريج : أى راجعين إليه ، ﴿ وَأَتَقُوهُ ﴾ أى : خافوه وراقبوه ، ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ وهى الطاعة العظيمة ، ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى : بل من الموحدين المخلصين له العبادة ، لا يريدون بها سواه .

قال ابن جرير : [حدثنا ابن حميد] (٦) ، حدثنا يحيى بن واضح ، حدثنا يونس بن أبى إسحاق ، عن يزيد (٧) بن أبى مريم قال : مر عمر ، رضى الله عنه ، بمعاذ بن جبل فقال : ما قوام هذه الأمة (٨) ؟ قال معاذ : ثلاث ، وهن [من] (٩) المنجيات : الإخلاص ، وهى الفطرة ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، والصلاة وهى الملة ، والطاعة وهى العصمة . فقال عمر : صدقت .

حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن علية ، حدثنا أيوب ، عن أبى قلابة : أن عمر ، رضى الله عنه ، قال لمعاذ : ما قوام هذا الأمر ؟ فذكره نحوه (١٠) .

وقوله : ﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أى : لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم ، أى : بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض .

وقرأ بعضهم : « فارقوا دينهم » أى : تركوه وراء ظهورهم ، وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبد الأوثان ، وسائر أهل الأديان الباطلة ، بما عدا أهل الإسلام ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٩] ، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومثل باطلة ، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شىء ،

(١) فى ت ، ف : « فقال » . (٢) فى ت : « على » . (٣) فى ت ، ف : « الفاحش » .

(٤) المسند (١٦٢/٤) ، وصحيح مسلم برقم (٢٨٦٥) .

(٥) فى ت : « التمسك بالشرعة » . (٦) زيادة من ف ، أ ، والطبرى .

(٧) فى أ : « زيد » . (٨) فى ت : « الآية » . (٩) زيادة من ت .

(١٠) تفسير الطبرى (٢٦/٢١) .

وهذه الأمة^(١) أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة^(٢) إلا واحدة ، وهم أهل السنة والجماعة ، المتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ^(٣) ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين ، وأئمة المسلمين فى قديم الدهر وحديثه ، كما رواه الحاكم فى مستدركه أنه سئل ، عليه السلام^(٤) ، عن الفرقة الناجية منهم ، فقال : « ما أنا عليه [اليوم] ^(٥) وأصحابى »^(٦).

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم فى حال الاضطراب يدعون الله وحده لا شريك له ، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم ، إذا فريق منهم ، [أى]^(٧) فى حالة الاختبار يشركون بالله ، ويعبدون معه غيره . وقوله : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ ، هى لام العاقبة عند بعضهم ، ولام التعليل عند آخرين ، ولكنها تعليل لتقيض الله لهم ذلك .

ثم توعدهم بقوله : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾^(٨) ، قال بعضهم : والله لو توعدنى حارس درب لحفت منه ، فكيف والمتوعد ههنا [هو]^(٩) الذى يقول للشئ : كن ، فيكون .

ثم قال منكرأ على المشركين فيما اختلقوه من عبادة الأوثان بلا دليل ولا حجة ولا برهان : ﴿ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا ﴾ أى : حجة ، ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ ﴾ أى : ينطق ﴿ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ ؟ وهذا استفهام إنكار ، أى : لم يكن [لهم]^(١٠) شئ من ذلك .

ثم قال : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ ، هذا إنكار على الإنسان من حيث هو ، إلا من عصمه الله ووفقه ؛ فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر وقال : ﴿ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود : ١٠] ، أى : يفرح فى نفسه ويفخر على غيره ، وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية ؛ قال الله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [هود : ١١] ، أى : صبروا فى الضراء ، وعملوا الصالحات فى الرخاء ، كما ثبت فى الصحيح : « عجباً للمؤمن ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته سراء شكر فكان

(١) فى ت : « الآية » . (٢) فى أ : « ضالة » . (٣) فى ف : « رسوله » .

(٤) فى ف ، أ : « ﷺ » . (٥) زيادة من أ ، والمستدرک .

(٦) المستدرک (١٢٨ / ١ ، ١٢٩) ، وقال الحافظ ابن حجر فى تخريج الكشاف ص (٦٣) : « إسناده حسن » .

(٧) زيادة من أ . (٨) فى ت : « يعلمون » . (٩) زيادة من ت ، ف ، أ .

(١٠) زيادة من أ .

خيراً له ، وإن أصابته ضرأء (١) صبر فكان خيراً له (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أى : هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله ، فيوسع على قوم ويضيق على آخرين ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٣٨) وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لَّيْرُبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرُبُّو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٤٠) .

يقول تعالى آمراً بإعطاء ذى ﴿ الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ﴾ أى : من البر والصلة ، ﴿ وَالْمِسْكِينَ ﴾ وهو : الذى لا شىء له ينفق عليه ، أو له شىء لا يقوم بكفايته ، ﴿ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ وهو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه فى سفره ، ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ أى : النظر إليه يوم القيامة ، وهو الغاية القصوى ، ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى : فى الدنيا وفى الآخرة (٣) .

ثم قال : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لَّيْرُبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرُبُّو عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى : من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم ، فهذا لا ثواب له عند الله - بهذا فسر ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب ، والشعبي - وهذا الصنيع مباح (٤) ، وإن كان لا ثواب فيه (٥) ، إلا أنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة ، قاله الضحاك ، واستدل بقوله : ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾ [المذثر : ٦] أى : لا تعط العطاء تريد أكثر منه .

وقال ابن عباس : الربا رباءان ، فربا لا يصح (٦) ، يعنى : ربا البيع ؟ وربا لا بأس به ، وهو هدية الرجل يريد فضلها (٧) وأضعافها . ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لَّيْرُبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرُبُّو عِنْدَ اللَّهِ ﴾ .

وإنما الثواب عند الله فى الزكاة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ أى : الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء ، كما [جاء] (٨) فى الصحيح : « وما تصدق أحد بحدل تمر من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه ، فِيرِيَّهَا لصاحبها كما يُرِيَّي أَحَدَكُمْ فَلَوْه أَوْ فَصِيلَه ، حتى تصير التمرة أعظم من أحد » (٩) .

(١) فى ت : « الضراء » .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب الرومى رضى الله عنه .

(٣) فى ت ، ف : « الأخرى » .

(٤) فى ت : « فسر ابن عباس وغيره » .

(٥) فى ت : « به » .

(٦) فى أ : « لا يصلح » .

(٧) فى أ : « أفضلها » .

(٨) زيادة من أ .

(٩) صحيح البخارى برقم (١٤١٠) .

وقوله : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أى : هو الخالق الرازق (١) ، يخرج الإنسان من بطن أمه عريانا لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قُوَى ، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك ، والرياش واللباس والمال والأُملاك والمكاسب ، كما قال (٢) الإمام أحمد :

حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن سلام أبي شرحبيل ، عن حبة وسواء ابني خالد قالا : دخلنا على النبي ﷺ وهو يصلح شيئا فأعناهُ ، فقال : « لا تياسا من الرزق ما تَهَزَّزَتْ رؤوسكما ؛ فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة ، ثم يرزقه الله عز وجل » (٣) .

وقوله : ﴿ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ﴾ أى : بعد هذه الحياة ، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أى : يوم القيامة .

وقوله : ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ أى : الذين تعبدونهم من دون الله ، ﴿مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أى : لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك ، بل الله سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق والرزق ، والإحياء والإماتة ، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة ؛ ولهذا قال بعد هذا كله : ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى : تعالى وتقدس وتنزه وتعظم وجل وعزّ عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساو ، أو ولد أو والد ، بل هو الأحد الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢)﴾ .

قال ابن عباس ، وعكرمة ، والضحاك ، والسُدّي ، وغيرهم : المراد بالبر ههنا : الفيافي ، وبالبحر : الأمصار والقرى ، وفى رواية عن ابن عباس وعكرمة : البحر : الأمصار والقرى ، ما كان منها على جانب نهر .

وقال آخرون : بل المراد بالبر هو البر المعروف ، وبالبحر : البحر المعروف .

وقال زيد (٤) بن رُفَيْع : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ﴾ ، يعنى : انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط ، وعن البحر تعمى (٥) دوابه . رواه ابن أبى حاتم .

وقال : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ ، عن سفيان ، عن حميد بن قيس الأعرج ، عن مجاهد : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ، قال : فساد البر : قتل ابن آدم ، وفساد (٦) البحر : أخذ السفينة غصبا .

وقال عطاء الخراساني : المراد بالبر : ما فيه من المدائن والقرى ، وبالبحر : جزائره .

(١) فى ١ : « الرزاق » . (٢) فى ت : « كما روى » .

(٣) المسند (٤٦٩/٣) .

(٤) فى ١ : « يزيد » . (٥) فى ت ، ف : « يعنى » . (٦) فى ت ، ف : « وفى » .

والقول الأول أظهر ، وعليه الأكثر ، ويؤيده ما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة : أن رسول الله ﷺ صَالَحَ ملك أيلة ، وكتب له ببحره ، يعنى : ببلده .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ أى : بان النقص فى (١) الثمار والزروع بسبب المعاصى .

وقال أبو العالية : من عصى الله فى الأرض فقد أفسد فى الأرض ؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة ؛ ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود : « لَحَدُّ يُقَامُ فى الأرض أحب إلى أهلها من أن يمتطروا أربعين صباحا » (٢) . والسبب فى هذا أن الحدود إذا أقيمت ، انكف الناس - أو أكثرهم ، أو كثير منهم - عن تعاطى المحرمات ، وإذا ارتكبت المعاصى كان سببا فى محاق (٣) البركات من السماء والأرض ؛ ولهذا إذا نزل عيسى [ابن مريم] (٤) ، عليه السلام ، فى آخر الزمان فحكم بهذه الشريعة المطهرة فى ذلك الوقت ، من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية ، وهو تركها - فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف ، فإذا أهلك الله فى زمانه الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج ، قيل للأرض : أخرجى بركاتك . فياكل من الرمانة الفئام من الناس ، ويستظلون بقحفها ، ويكفى لبن اللقحة الجماعة من الناس . وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة رسول الله ﷺ ، فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير ؛ [ولهذا] (٥) ثبت فى الصحيح (٦) : « إن الفاجر إذا مات تستريح منه العباد والبلاد ، والشجر والدواب » (٧) .

ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا محمد والحسين قالا : حدثنا عوف ، عن أبي قحزم قال (٨) : وجد رجل فى زمان زياد - أو : ابن زياد - صرة فيها حب ، يعنى من بر أمثال النوى ، عليه مكتوب : هذا نبت فى زمان كان يعمل فيه بالعدل (٩) .

وروى مالك ، عن زيد بن أسلم : أن المراد بالفساد هاهنا الشرك . وفيه نظر .

وقوله : ﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أى : يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات ، اختبارا منه ، ومجازاة على صنيعهم ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أى : عن المعاصى ، كما قال تعالى : ﴿ وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٨] .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فى الأرضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ﴾ أى : من قبلكم ، ﴿ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ ﴾ أى : فانظروا ماذا حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم .

(١) فى ت : « من » .

(٢) رواه أحمد فى المسند (٣٦٢/٢) ، والنسائى فى السنن (٧٥/٨) من حديث أبى هريرة ، ولم يقع لى فى سنن أبى داود .

(٣) فى ت ، ف ، أ : « حصول » . (٤) زيادة من ت ، ف ، أ . (٥) زيادة من أ .

(٦) فى ت ، أ : « الصحيحين » .

(٧) صحيح البخارى برقم (٦٥١٢) .

(٨) فى ت : « وروى أنه » .

(٩) المسند (٢٩٦/٢) .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ (٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥) ﴾ .

يقول تعالى آمراً عباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته ، والمبادرة إلى الخيرات : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى : يوم القيامة ، إذا أراد كونه فلا راد له ، ﴿ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ ﴾ أى : يتفرقون ، وفريق في الجنة وفريق في السعير ؛ ولهذا قال : ﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ يَمْهَدُونَ . لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى : يجازيهم مجازاة الفضل : الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى ما يشاء الله ، ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ . ومع هذا هو العادل فيهم ، الذى لا يجور .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ .

يذكر تعالى نعمه على خلقه ، فى إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته ، بمجئ الغيث (١) عقيها ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ أى : المطر الذى ينزله فيحيى به العباد والبلاد ، ﴿ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ ﴾ أى : فى البحر ، وإنما سيرها بالريح ، ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى : فى التجارات والمعاش ، والسير من إقليم إلى إقليم ، وقطر إلى قطر ، ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى : تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة ، التى لا تعد ولا تحصى .

ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا ﴾ هذه تسليية من الله لعبده ورسوله محمد ، صلوات الله وسلامه عليه (٢) ، بأنه وإن كذبه كثير من قومه ومن الناس ، فقد كُذِّبَ الرسل المتقدمون مع ما جاؤوا أمهم به من الدلائل الواضحات ، ولكن الله انتقم ممن كذبهم وخالفهم ، وأنجى المؤمنين بهم ، ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، هو حق أوجبه على نفسه الكريمة ، تكرما وتفضلا ، كقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: ٥٤] .

قال (٣) ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن نفيل ، حدثنا موسى بن أعين ، عن ليث ، عن شهر بن حوشب (٤) ، عن أم الدرداء ، عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما

(١) فى ت ، ف : « بمجئ المطر والغيث » .

(٢) فى ت : « ﷺ » .

(٣) فى ت : « وروى » .

(٤) فى ت : « بإسناده » .

من امرئ مسلم يردُّ عن عرض أخيه ، إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة » . ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مَنَّ قَبْلَهُ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ (٥١) .

يبين تعالى كيف يخلق السحاب التي (٢) ينزل منها الماء (٣) فقال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ ، إما من البحر على ما ذكره غير واحد ، أو مما يشاء الله عز وجل ، ﴿ فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ أى : يمدّه فيكثره ويُنمّيه ، ويجعل من القليل كثيرا ، ينشئ سحابة فتري فى رأى العين مثل الترس ، ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق . وتارة يأتى السحاب من نحو البحر ثقلا مملوءة ماء ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٥٧] ، وكذلك قال ههنا : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا ﴾ .

قال مجاهد ، وأبو عمرو بن العلاء ، ومطر الوراق ، وقتادة : يعنى قطعا .

وقال غيره : متراكما ، قاله الضحاك .

وقال غيره : أسود من كثرة الماء ، تراه مدلهما ثقيلًا قريبا من الأرض .

وقوله : ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ أى : فتري المطر - وهو القطر - يخرج من بين ذلك السحاب ، ﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أى : لحاجتهم إليه يفرحون بنزوله عليهم ووصوله إليهم .

وقوله : ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مَنَّ قَبْلَهُ لَمُبْلِسِينَ ﴾ ، معنى الكلام : أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قنطين أزلين من نزول المطر إليهم قبل ذلك ، فلما جاءهم ، جاءهم على فاقة ، فوقع منهم موقعا عظيما .

وقد اختلف النحاة فى قوله : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مَنَّ قَبْلَهُ لَمُبْلِسِينَ ﴾ ، فقال ابن جرير : هو

(١) ورواه أحمد فى المسند (٤٤٨/٦) من طريق إسماعيل ، وابن أبى الدنيا فى الغيبة والنميمة برقم (١٠٢) من طريق جرير كلاهما عن ليث - وهو ابن أبى سليم - به ولم يذكر الآية .

(٢) فى أ : « الذى » . (٣) فى ت : « المطر » .

تأكيد . وحكاية عن بعض أهل العربية .

وقال آخرون : [وإن كانوا] ^(١) من قبل أن ينزل عليهم المطر ، ﴿ مِّن قَبْلِهِ ﴾ أى : الإنزال ﴿ لَمُبْلِسِينَ ﴾ .

ويحتمل أن يكون ذلك من دلالة التأسيس ، ويكون معنى الكلام : أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله ، ومن قبله - أيضا - قد فات عندهم نزوله وقتا بعد وقت ، فترقبوه فى إبانة فتأخر ، فمضت مدة فترقبوه فتأخر ، ثم جاءهم بغتة بعد الإياس منه والقنوط ، فبعد ما كانت أرضهم مقشعرة هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت ، وأنبئت من كل زوج بهيج ؛ ولهذا قال : ﴿ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ ﴾ يعنى : المطر ، ﴿ كَيْفَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ .

ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها ، فقال : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ أى : إن الذى فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات ، ﴿ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ ، يقول : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا ﴾ ، يابسة على الزرع الذى زرعه ، ونبت وشب واستوى على سوقه ، فرأوه مصفرا ، أى : قد اصفر وشرع فى الفساد ، لظلوا من بعده ، أى : بعد هذا الحال يكفرون ، أى : يجحدون ما تقدم [إليهم] ^(٢) من النعم ، كما قال : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ . أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ . لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ . إِنَّا لَمَغْرُمُونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٣ - ٦٧] .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع ، حدثنا هشيم ^(٣) ، عن يعلى ابن عطاء ، عن أبيه ^(٤) ، عن عبد الله بن عمرو ، قال : الرياح ثمانية ، أربعة منها رحمة ، وأربعة عذاب ، فأما الرحمة فالناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات . وأما العذاب فالعقيم والصرصر ، وهما فى البر ، والعاصف والقاصف ، وهما فى البحر [فإذا شاء سبحانه وتعالى حركه بحركة الرحمة فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدي رحمته ، ولاقحاً للسحاب تلقحه بحمله الماء ، كما يلقيح الذكر الأنثى بالحمل ، وإن شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقيماً ، وأودعه عذاباً أليماً ، وجعله نقمة على من يشاء من عباده ، فيجعله صرصرًا وعاتياً ومفسداً لما يمر عليه ، والرياح مختلفة فى مهابها : صبا ودبور ، وجنوب ، وشمال ، وفى منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف ، فريح لينة رطبة تغذى النبات وأبدان الحيوان ، وأخرى تجففه ، وأخرى تهلكه وتعطبه ، وأخرى تسيره وتصلبه ، وأخرى توهنه وتضعفه] ^(٥) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو ^(٦) عبيد الله ابن أخى ابن وهب ، حدثنا عمى ، حدثنا عبد الله ابن عيَّاش ^(٧) ، حدثنى عبد الله بن سليمان ، عن دراج ، عن عيسى بن هلال الصدفى ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « الريح مسخرة من الثانية - يعنى الأرض الثانية - فلما أراد الله أن يهلك عادا ، أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحا تهلك عاداً ، فقال : يارب ، أرسل عليهم من الريح قدر منخر الثور . قال له الجبار تبارك وتعالى : لا ، إذا تكفأ الأرض وما عليها ،

(٣) فى أ : « هاشم » .

(٢) زيادة من أ .

(١) زيادة من أ .

(٥) زيادة من ت .

(٤) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » .

(٧) فى أ : « عباس » .

(٦) فى أ : « ابن » .

ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم » ، فهي التي قال الله في كتابه : ﴿ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ (١) [الذاريات : ٤٢] . هذا حديث غريب ، ورفع منكر . والأظهر أنه من كلام عبد الله ابن عمرو ، رضى الله عنه .

﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمِّيَّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٥٣) ﴾ .

يقول تعالى : كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجدائها ، ولا تبلغ (٢) كلامك الصم الذين لا يسمعون ، وهم مع ذلك مُدْبِرُونَ عنك ، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق ، وردهم عن ضلالتهم ، بل ذلك إلى الله تعالى ، فإنه بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء ، ويهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، وليس ذلك لأحد سواه ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أى : خاضعون مستجيبون مطيعون ، فأولئك هم الذين يستمعون (٣) الحق ويتبعونه ، وهذا حال المؤمنين ، والأول مثل الكافرين ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٦] .

وقد استدلت أم المؤمنين عائشة ، رضى الله عنها ، بهذه الآية : ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى ﴾ ، على توهيم عبد الله بن عمر في روايته مخاطبة النبي ﷺ القتلى الذين ألقوا في قليب بدر (٤) ، بعد ثلاثة أيام ، ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم ، حتى قال له عمر : يا رسول الله ، ما تخاطب من قوم قد جِيفُوا؟ فقال : « والذى نفسى بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يجيبون » . وتأولته عائشة على أنه قال : « إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق » (٥) .

وقال قتادة : أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته تفرحاً وتويخاً ونقمة .

(١) سيأتى تخريج الحديث عند تفسير الآية : ٤٢ من سورة الذاريات .

(٢) فى ت : « ولا يبلغ » . (٣) فى ت : « يسمعون » .

(٤) فى ت ، أ : « فى روايته أن النبى ﷺ خاطب القتلى الذين ألقوا فى القليب ، قليب بدر » .

(٥) قال الإمام الزركشى رحمه الله فى كتابه « الإجابة لإيراد ما استدرسته عائشة على الصحابة » ص (١٢١) : « أخرج البخارى عن ابن عمر قال : وقف النبى ﷺ على قليب بدر فقال : « هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا » ، ثم قال : « إنهم الآن يسمعون ما أقول » ، فذكر لعائشة فقالت : إنما قال النبى ﷺ : « إنهم ليعلمون الآن أن ما كنت أقول لهم حق » . قال السهلى فى الروض : « وعائشة لم تحضر ، وغيرها ممن حضر أحفظ للفظه ﷺ ، وقد قالوا له : يا رسول الله ، أنخاطب قوماً قد جيفوا أو أجفوا ؟ فقال : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » ، وإذا جاز أن يكونوا فى تلك الحال عاقلين ، جاز أن يكونوا سامعين ، إما بأذان رؤوسهم ، إذا قلنا : إن الروح تعاد إلى الجسد أو إلى بعضه عند المسألة . وهو قول جمهور أهل السنة ، وإما بأذن القلب أو الروح على مذهب من يقول بتوجه السؤال إلى الروح من غير رجوع إلى الجسد أو إلى بعضه . قال : وقد روى أن عائشة احتجت بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنَ فِي الْقُبُورِ ﴾ وهذه الآية كقوله : ﴿ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمَى ﴾ أى : إن الله هو الذى يهدى ويوقف ويدخل الموعدة إلى أذان القلوب لا أنت ، وجعل الكفار أمواتاً وصماً على جهة التشبيه بالأموات وبالصم ، فالله هو الذى يسمعهم على الحقيقة إذا شاء ، فلا تعلق لها فى الآية لوجهين : أحدهما : أنها إنما نزلت فى دعاء الكفار إلى الإيمان ، الثانى : أنه إنما نفى عن نبيه أن يكون هو المسمع لهم ، وصدق الله ، فإنه لا يسمعهم إذا شاء إلا هو » .

والصحيح عند العلماء رواية ابن عمر ، لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة ، من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر مصححاً [له] (١) ، عن ابن عباس مرفوعاً : « ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم ، كان يعرفه في الدنيا ، فيسلم عليه ، إلا رد الله عليه روحه ، حتى يرد عليه السلام » (٢).

[وثبت عنه عليه السلام أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له ، إذا انصرفوا عنه ، وقد شرع النبي ﷺ لأمته إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول المسلم : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ، ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدم والجماذ ، والسلف مجمعون على هذا ، وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف بزيارة الحى له ويستبشر ، فروى ابن أبي الدنيا في كتاب القبور عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده ، إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم » .

وروى عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، قال : إذا مر رجل بقبر يعرفه فسلم عليه ، رد عليه السلام .

وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن رجل من آل عاصم الجحدري قال : رأيت عاصماً الجحدري في منامى بعد موته بسنتين ، فقلت : أليس قد مت ؟ قال : بلى ، قلت : فأين أنت ؟ قال : أنا - والله - في روضة من رياض الجنة ، أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزني ، فتتلقى أخباركم . قال : قلت : أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال : هيهات ! قد بليت الأجسام ، وإنما تتلاقى الأرواح ، قال : قلت : فهل تعلمون بزيارتنا إياكم ؟ قال : نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس ، قال : قلت : فكيف ذلك دون الأيام كلها ؟ قال : لفضل يوم الجمعة وعظمته .

قال : وحدثنا محمد بن الحسين ، ثنا بكر بن محمد ، ثنا حسن القصاب قال : كنت أغدو مع محمد بن واسع في كل غداة سبت حتى نأتى أهل الجبان ، فنقف على القبور فنسلم عليهم ، وندعو لهم ثم ننصرف ، فقلت ذات يوم : لو صيرت هذا اليوم يوم الاثنين ؟ قال : بلغنى أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوماً قبلها ويوماً بعدها . قال : ثنا محمد ، ثنا عبد العزيز بن أبان قال : ثنا سفيان الثوري قال : بلغنى عن الضحاك أنه قال : من زار قبراً يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته ، فقليل له : وكيف ذلك ؟ قال : لمكان يوم الجمعة .

حدثنا خالد بن خدّاش ، ثنا جعفر بن سليمان ، عن أبي التّياح يقول : كان مُطَرَّفٌ يغدو ، فإذا كان يوم الجمعة أدلج . قال : وسمعت أبا التّياح يقول : بلغنا أنه كان ينزل بغوطة ، فأقبل ليلة حتى إذا كان عند المقابر يقوم وهو على فرسه ، فرأى أهل القبور كل صاحب قبر جالساً على قبره ، فقالوا : هذا مطرف يأتى الجمعة ويصلون عندكم يوم الجمعة ؟ قالوا : نعم ، ونعلم ما يقول فيه الطير . قلت : وما يقولون ؟ قال : يقولون : سلام عليكم ؛ حدثني محمد بن الحسن ، ثنا يحيى بن أبى بكر ،

(١) زيادة من أ .

(٢) الاستذكار لابن عبد البر من طريق بشر بن بكير ، عن الأوزاعي ، عن عطاء ، عن عبيد بن عمير ، عن ابن عباس ، مرفوعاً . ولفظه : « ما من أحد مر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام » .

ثنا الفضل بن الموفق ابن خال سفيان بن عيينة قال : لما مات أبى جزعت عليه جزءاً شديداً ، فكنت آتى قبره فى كل يوم ، ثم قصرت عن ذلك ما شاء الله ، ثم إنى أتيته يوماً ، فبينما أنا جالس عند القبر غلبتنى عيناي فنمت ، فرأيت كأن قبر أبى قد انفرج ، وكأنه قاعد فى قبره متوشح أكفانه ، عليه سحنة الموتى ، قال : فكأنى بكيت لما رأيته . قال : يا بنى ، ما أبطأ بك عنى ؟ قلت : وإنك لتعلم بمجيئى ؟ قال : ما جئت مرة إلا علمتها ، وقد كنت تأتيني فأسر بك ويسر من حولى بدعائك ، قال : فكنت آتية بعد ذلك كثيراً .

حدثنى محمد ، حدثنا يحيى بن بسطام ، ثنا عثمان بن سويد الطقأوى قال : وكانت أمه من العابدات ، وكان يقال لها : راهبة ، قال : لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء فقالت : يا ذخرى وذخيرتى من عليه اعتمادى فى حياتى وبعد موتى ، لا تخذلنى عند الموت ولا توحشنى . قال : فماتت . فكنت آتيتها فى كل جمعة فأدعو لها وأستغفر لها ولأهل القبور ، فرأيتها ذات يوم فى منامى ، فقلت لها : يا أمى ، كيف أنت ؟ قالت : أى بنى ، إن للموت لكربة شديدة ، وإنى بحمد الله لفى برزخ محمود يفرش فيه الرياح ، ونتوسد السندس والإستبرق إلى يوم النشور ، فقلت لها : ألك حاجة ؟ قالت : نعم ، قلت : وما هى ؟ قالت : لا تدع ما كنت تصنع من زيارتنا والدعاء لنا ، فإنى لأبشر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك ، يقال لى : يا راهبة ، هذا ابنك ، قد أقبل ، فأسر ويسر بذلك من حولى من الأموات .

حدثنى محمد ، حدثنا محمد بن عبد العزيز بن سليمان ، حدثنا بشر بن منصور قال : لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبان ، فيشهد الصلاة على الجنائز ، فإذا أمسى وقف على المقابر فقال : أنس الله وحشتكم ، ورحم غربتكم ، وتجاوز عن مسيئكم ، وقبل حسناتكم ، لا يزيد على هؤلاء الكلمات ، قال : فأمسيت ذات ليلة وانصرفت إلى أهلى ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو ، قال : فبينما أنا نائم إذا بخلق قد جاؤونى ، فقلت : ما أنتم وما حاجتكم ؟ قالوا : نحن أهل المقابر ، قلت : ما حاجتكم ؟ قالوا : إنك عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك ، قلت : وما هى ؟ قالوا : الدعوات التى كنت تدعو بها ، قال : قلت : فإنى أعود لذلك ، قال : فما تركتها بعد .

وأبلغ من ذلك أن الميت يعلم بعمل الحى من أقاربه وإخوانه . قال عبد الله بن المبارك : حدثنى ثور بن يزيد ، عن إبراهيم ، عن أيوب قال : تعرض أعمال الأحياء على الموتى ، فإذا رأوا حسناً فرحوا واستبشروا وإن رأوا سوءاً قالوا : اللهم راجع به .

وذكر ابن أبى الدنيا عن أحمد بن أبى الحوارى قال : ثنا محمد أخى قال : دخل عباد بن عباد على إبراهيم بن صالح وهو على فلسطين فقال : عظمى ، قال : بم أعظك ، أصلحك الله ؟ بلغنى أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم من الموتى ، فانظر ما يعرض على رسول الله ﷺ من عملك ، فبكى إبراهيم حتى أخضل لحيته . قال ابن أبى الدنيا : وحدثنى محمد بن الحسين ، ثنا خالد بن عمرو الأموى ، ثنا صدقة بن سليمان الجعفرى قال : كانت لى شرة سمجة ، فمات أبى فتبت وندمت على ما فرطت ، ثم زللت أيما زلة ، فرأيت أبى فى المنام ، فقال : أى بنى ، ما كان أشد فرحى بك

وأعمالك تعرض علينا ، فنشبهها بأعمال الصالحين ، فلما كانت هذه المرة استحيت لذلك حياءً شديداً ، فلا تخزني فيمن حولي من الأموات ، قال : فكنت أسمع بعد ذلك يقول في دعائه في السحر ، وكان جاراً لى بالكوفة : أسألك إجابة لا رجعة فيها ولا حور ، يا مصلح الصالحين ، ويا هادي المضلين ، ويا أرحم الراحمين .

وهذا باب فيه آثار كثيرة عن الصحابة . وكان بعض الأنصار من أقارب عبد الله بن رواحة يقول : اللهم إني أعوذ بك من عمل أخزى به عند عبد الله بن رواحة ، كان يقول ذلك بعد أن استشهد عبد الله .

وقد شرع السلام على الموتى ، والسلام على من لم يشعر ولا يعلم بالمسلم محال ، وقد علم النبي ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا : « سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية » ، فهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد ، وإن لم يسمع المسلم الرد ، والله أعلم^(١) .

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشِبْهَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (٥٤) .

ينبه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالا بعد حال ، فأصله من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقه ، ثم من مضغة ، ثم يصير عظاما ثم يكسى لحما ، ويُفخ فيه الروح ، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفا نحيفا واهن القوى . ثم يشب قليلا قليلا حتى يكون صغيراً ، ثم حدثاً ، ثم مراهقاً ، ثم شاباً . وهو القوة بعد الضعف ، ثم يشرع في النقص فيكتهل^(٢) ، ثم يشيخ ثم يهرم ، وهو الضعف بعد القوة . فتضعف الهمة والحركة والبطش ، وتشيب اللمة ، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة ؛ ولهذا قال : ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشِبْهَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي : يفعل ما يشاء ويتصرف في عييده بما يريد ، ﴿وهو العليم القدير﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن فضيل ويزيد ، حدثنا فضيل بن مرزوق^(٣) ، عن عطية العوفي ، قال : قرأت على ابن عمر : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾^(٤) ، فقال : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾ ، ثم قال : قرأت على رسول الله ﷺ كما قرأت على ، فأخذ على كما أخذت عليك .

ورواه أبو داود والترمذي - وحسنه - من حديث فضيل ، به^(٥) . ورواه أبو داود من حديث عبد الله بن جابر ، عن عطية ، عن أبي سعيد ، بنحوه^(٦) .

(٢) في ت ، ف ، أ : « فيكتهل » .

(١) زيادة من ت ، أ .

(٤) في أ : « ضعفا وشيبة » .

(٣) في ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » .

(٥) المسند (٥٨/٢) ، وسنن أبي داود برقم (٣٩٧٨) ، وسنن الترمذي برقم (٢٩٣٦) .

(٦) سنن أبي داود برقم (٣٩٧٩) .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ (٥٥)
وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ
وَلَكِنِّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعَذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ .

يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان ،
وفى الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضا ، فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا في الدنيا إلا ساعة
واحدة ، ومقصودهم هم بذلك عدم قيام الحجة عليهم ، وأنهم لم يَنْظُرُوا حتى يُعَذَّرَ إليهم . قال الله
تعالى : ﴿ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ أى :
فيرد عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة ، كما أقاموا عليهم حجة الله في الدنيا ، فيقولون لهم حين
يحلفون ما لبثوا غير ساعة : ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أى : فى كتاب الأعمال ، ﴿ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾
أى : من يوم خلقتهم إلى أن بعثتم ، ﴿ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ أى : يوم القيامة ، ﴿ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعَذِرَتُهُمْ ﴾ أى : [لا ينفعهم] (١)
اعتذارهم عما فعلوا ، ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أى : ولاهم يرجعون إلى الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ
يُسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ [فصلت : ٢٤] .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ (٥٨) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ
اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أى : قد بينا لهم الحق ، ووضحنا
لهم ، وضربنا لهم فيه الأمثال ليتبينوا الحق ويتبعوه . ﴿ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا
مُبْطِلُونَ ﴾ أى : لو رأوا أى آية كانت ، سواء كانت باقتراحهم أو غيره ، لا يؤمنون بها ، ويعتقدون
أنها سحر وباطل ، كما قالوا فى انشقاق القمر ونحوه ، كما قال [الله] (٢) تعالى : ﴿ إِنْ الَّذِينَ حَقَّتْ
عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] ؛
ولهذا قال ههنا : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى : اصبر
على مخالفتهم وعنادهم ، فإن الله منجز لك ما وعدك من نصره إياك ، وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك
فى الدنيا والآخرة ، ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ أى : بل اثبت على ما بعثك الله به ، فإنه الحق
الذى لا مرية فيه ، ولا تعدل عنه وليس فيما سواه هدى يتبع ، بل الحق كله منحصر فيه .

قال سعيد عن قتادة : نادى رجل من الخوارج عليا ، رضى الله عنه ، وهو فى الصلاة - صلاة

الغداة - فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٥] ، فأنصت له على حتى فهم ما قال ، فأجابه وهو فى الصلاة : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم . وقد رواه ابن جرير من وجه آخر فقال :

حدثنا ابن وكيع ، حدثنا يحيى بن آدم ، عن شريك ، عن عثمان بن أبى زُرعة ، عن على بن ربيعة قال : نادى رجل من الخوارج عليا وهو فى صلاة الفجر ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ، فأجابه على وهو فى الصلاة : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (١) .

طريق أخرى : قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن الجعد ، أخبرنا شريك ، عن عمران بن ظبيان ، عن أبى تيميا قال : صلى على (٢) رضى الله عنه ، صلاة الفجر ، فناداه رجل من الخوارج : ﴿ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ، فأجابه على (٣) ، وهو فى الصلاة : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ .

[ما روى فى فضل هذه السورة الشريفة ، واستحباب قراءتها فى الفجر] (٤) :

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، عن شعبة ، عن عبد الملك بن عمير ، سمعت شبيب - أبا روح - يحدث عن رجل (٥) من أصحاب النبى ﷺ ، أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح ، فقرأ فيها الروم فأوهم ، فقال : «إنه يلبس علينا القرآن ، فإن أقواما منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء ، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء» (٦) .

وهذا إسناد حسن ومتمن حسن (٧) ، وفيه سر عجيب ، ونبا غريب ، وهو أنه ، عليه السلام (٨) ، تأثر بنقصان وضوء من ائتم به ، فدل ذلك أن صلاة المأموم متعلقة (٩) بصلاة الإمام .

[آخر تفسير سورة « الروم »] (١٠)

(١) تفسير الطبرى (٣٨/٢١) .

(٢) ، ٣ ، فى ف ، أ : « على بن أبى طالب » .

(٥) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن رجل » .

(٦) المسند (٤٧١/٣) .

(٧) فى ت : « إسناده حسن ومتمن حسن » .

(٨) فى أ : « ﷺ » .

(٩) زيادة من ت .

(١٠) زيادة من ت .

تفسير سورة لقمان

وهي مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ (١) تَلِكْ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) ﴾ .

تقدم في أول سورة « البقرة » عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة ، وهو أنه تعالى جعل هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين ، وهم الذين أحسنوا العمل في اتباع الشريعة ، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها ، وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها ، ووصلوا قراباتهم وأرحامهم ، وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة ، فرغبوا إلى الله في ثواب ذلك ، لم يراؤوا به ولا أرادوا جزاء من الناس ولا شكورا ، فمن فعل ذلك كذلك فهو من الذين قال الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أى : على بصيرة وبينة ومنهج واضح وجلى ، ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَكُنَّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَآءَةً فَنَشِرْهُ بَعْدَآبٍ أَلِيمٍ (٧) ﴾ .

لما ذكر تعالى حال السعداء ، وهم الذين يهتدون بكتاب الله ويتفعلون بسماحه ، كما قال [الله] (١) تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدًى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣] ، عطف بذكر حال الأشقياء ، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماح كلام الله ، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب ، كما قال ابن مسعود فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ قال : هو - والله - الغناء .

قال ابن جرير : حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى يزيد بن يونس ، عن أبى صخر ، عن أبى معاوية البجلي ، عن سعيد بن جبيرة ، عن أبى الصهباء البكرى ، أنه سمع عبد الله بن مسعود - وهو يسأل عن هذه الآية : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ - فقال عبد الله : الغناء ، والله الذى لا إله إلا هو ، يرددها (٢) ثلاث مرات (٣) .

(١) زيادة من أ .

(٢) فى ت : « فرددها » .

(٣) تفسير الطبرى (٣٩/٢١) .

حدثنا عمرو بن علي ، حدثنا صفوان بن عيسى ، أخبرنا حميد الخراط ، عن عمار ، عن سعيد ابن جبير ، عن أبي الصهباء : أنه سأل ابن مسعود عن قول الله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ قال : الغناء (١).

وكذا قال ابن عباس ، وجابر ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، ومكحول ، وعمرو بن شعيب ، وعلي بن بديمة .

وقال الحسن البصري : أنزلت هذه الآية : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ في الغناء والمزامير .

وقال قتادة : قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ : والله لعله لا ينفق فيه مالا ، ولكن شراؤه استحبابه ، بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق ، وما يضر على ما ينفع .

وقيل : عنى بقوله : ﴿ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ : اشتراء المغنيات من الجوارى .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي : حدثنا وكيع ، عن خلاد الصفار ، عن عبيد الله بن زحر ، عن علي بن يزيد ، عن القاسم بن عبد الرحمن (٢) ، عن أبي أمامة ، عن النبي ﷺ قال : « لَا يَحِلُّ بَيْعُ الْمَغْنِيَّاتِ وَلَا شَرَاؤُهُنَّ ، وَأَكْلُ أَثْمَانِهِنَّ حَرَامٌ ، وَفِيهِنَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عِزًّا وَجَلَّ عَلَيَّ : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ » .

وهكذا رواه الترمذي وابن جرير ، من حديث عبيد الله بن زحر بنحوه (٣) ، ثم قال الترمذي : هذا حديث غريب . وضعف (٤) على بن يزيد المذكور .

قلت : علي ، وشيخه ، والراوى عنه ، كلهم ضعفاء . والله أعلم .

وقال الضحاك في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ يعنى : الشرك . وبه قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ؛ واختار ابن جرير أنه كل كلام يصد عن آيات الله واتباع سبيله .

وقوله : ﴿ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى : إنما يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله .

وعلى قراءة فتح الياء ، تكون اللام لام العاقبة ، أو تعليلا للأمر القدرى ، أى : فيضوا لذلك ليكونوا كذلك .

وقوله : ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ قال مجاهد : ويتخذ سبيل الله هزوا ، يستهزئ بها .

وقال قتادة : يعنى : ويتخذ آيات الله هزوا . وقول مجاهد أولى .

وقوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أى : كما استهانوا بآيات الله وسبيله ، أهينوا يوم القيامة فى العذاب الدائم المستمر .

(١) تفسير الطبرى (٣٩/٢١) .

(٢) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » .

(٣) سنن الترمذى برقم (٣١٩٥) ، وتفسير الطبرى (٤٠/٢١) .

(٤) فى ت : « وفى إسناده » .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا تَلَّيْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَاءً ﴾ أى : هذا المقل على اللهو واللعب والطرب ، إذا تليت عليه الآيات القرآنية ، ولى عنها وأعرض وأدبر وتَصَامَّ وما به من صَمَم ، كأنه ما يسمعها ؛ لأنه يتأذى بسماعها ، إذ لا انتفاع له بها ، ولا أرب له فيها ، ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى : يوم القيامة يؤلمه ، كما تألم بسماع كتاب الله وآياته .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) ﴾ .

هذا ذكر مآل الأبرار من السعداء فى الدار الآخرة ، الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ، وعملوا الأعمال الصالحة المتابعة (١) لشريعة الله ﴿ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴾ أى : يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسار ، من المآكل والمشارب ، والملابس المساكن ، والمراكب والنساء ، والنصرة والسماع الذى لم يخطر ببال أحد ، وهم فى ذلك مقيمون دائما فيها ، لا يظعنون ولا ييغون عنها حولا .

وقوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ﴾ أى : هذا كائن لا محالة ؛ لأنه من وعد الله ، والله لا يخلف الميعاد ؛ لأنه الكريم المنان ، الفعال لما يشاء ، القادر على كل شيء ، ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ ، الذى قد قهر كل شيء ، ودان له كل شيء ، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ ، فى أقواله وأفعاله ، الذى جعل القرآن هدى للمؤمنين ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت : ٤٤] ، ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١١) ﴾ .

يبين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض ، وما فيهما وما بينهما ، فقال : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ ، قال الحسن وقتادة : ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية .

وقال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد : لها عمد لا ترونها . وقد تقدم تقرير هذه المسألة فى أول سورة « الرعد » بما أغنى (٢) عن إعادته .

﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ يعنى : الجبال أُرست الأرض وثقلتها لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء ؛ ولهذا قال : ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أى : لئلا تميد بكم .

وقوله : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ أى : وذرا فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها

(١) فى ف : « التابة » ، وفى أ : « المتابعة » .

(٢) فى ت : « بما يغنى » .

وألوانها إلا الذى خلقها .

ولما قرر أنه الخالق نبه على أنه الرازق بقوله تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ أى : من كل زوج من النبات كريم ، أى : حسن المنظر .

وقال الشعبى : والناس - أيضاً - من نبات الأرض ، فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لنيم .

وقوله : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ ﴾ أى : هذا الذى ذكره تعالى من خلق السموات ، والأرض وما بينهما ، صادر عن فعل الله وخلقته وتقديره ، وحده لا شريك له فى ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى : مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد ، ﴿ بَلِ الظَّالِمُونَ ﴾ يعنى : المشركين بالله العابدين معه غيره ، ﴿ فِي ضَلَالٍ ﴾ أى : جهل وعمى ، ﴿ مُبِينٍ ﴾ أى : واضح ظاهر لا خفاء به .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (١٢) .

اختلف السلف فى لقمان ، عليه السلام : هل كان نبياً ، أو عبداً صالحاً من غير نبوة ؟ على قولين ، الأكثرون على الثانى .

وقال سفيان الثورى ، عن الأشعث ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً .

وقال قتادة ، عن عبد الله بن الزبير ، قلت لجابر بن عبد الله : ما انتهى إليكم من شأن لقمان ؟ قال : كان قصيراً أفطس من النبوة .

وقال يحيى بن سعيد الأنصارى ، عن سعيد بن المسيب قال : كان لقمان من سودان مصر ، ذا مشافر ، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة .

وقال الأوزاعى ، رحمه الله : حدثنى عبد الرحمن بن حرملة قال : جاء أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله ، فقال له سعيد بن المسيب : لا تحزن من أجل أنك أسود ، فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان : بلال ، ومهجع مولى عمر بن الخطاب ، ولقمان الحكيم ، كان أسوداً نوبياً ذا مشافر (١) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبى ، عن أبى الأشهب (٢) ، عن خالد الربيعي قال : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً ، فقال له مولاه : اذبح لنا هذه الشاة . فذبحها ، فقال : أخرج أطيب مضغتين فيها . فأخرج اللسان والقلب ، فمكث ما شاء الله ثم قال : اذبح لنا هذه الشاة . فذبحها ، فقال : أخرج أخبث مضغتين فيها . فأخرج اللسان والقلب ، فقال له مولاه : أمرتك أن تخرج أطيب

(١) تفسير الطبرى (٤٣/٢١) .

(٢) فى ١ : « الأشعث » .

مضغتين فيها فأخرجتهما ، وأمرت أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما . فقال لقمان : إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا (١) .

وقال شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد : كان لقمان عبداً صالحاً ، ولم يكن نبياً .

وقال الأعمش : قال مجاهد : كان لقمان عبداً أسود عظيم الشفتين ، مشقق القدمين .

وقال حكّام بن سلّم ، عن سعيد الزبيدي ، عن مجاهد : كان لقمان الحكيم عبداً حبشياً غليظ الشفتين ، مُصَفَّح القدمين ، قاضياً على بني إسرائيل .

وذكر غيره : أنه كان قاضياً على بني إسرائيل في زمن (٢) داود ، عليه السلام .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا الحكم ، حدثنا عمرو بن قيس قال : كان لقمان ، عليه السلام ، عبداً أسود غليظ الشفتين ، مُصَفَّح القدمين ، فأتاه رجل وهو في مجلس أناس يحدثهم ، فقال له : أأنت الذي كنت ترعى معي الغنم في مكان كذا وكذا ، قال : نعم . فقال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : صدق الحديث ، والصمت عما لا يعني (٣) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا (٤) عبد الرحمن ابن يزيد (٥) عن جابر قال : إن الله رفع لقمان الحكيم بحكمته ، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك ، فقال له : أأنت عبد بني فلان الذي كنت ترعى بالأمس ؟ قال : بلى . قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : قَدَّرُ الله ، وأداء الأمانة ، وصدق الحديث ، وتركى ما لا يعني .

فهذه الآثار منها ما هو مُصرَّح فيه بنفى كونه نبياً ، ومنها ما هو مشعر بذلك ؛ لأن كونه عبداً قد مَسَّ الرق ينافي كونه نبياً ؛ لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها ؛ ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبياً ، وإنما ينقل كونه نبياً عن عكرمة - إن صح السند إليه ، فإنه رواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم من حديث وكيع (٦) ، عن إسرائيل ، عن جابر ، عن عكرمة فقال : كان لقمان نبياً . وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفي ، وهو ضعيف ، والله (٧) أعلم .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرني عبد الله بن عياش القتباني ، عن عمر مولى غفرة قال : وقف رجل على لقمان الحكيم فقال : أنت لقمان ، أنت عبد بني الحسحاس ؟ قال : نعم . قال : أنت راعي الغنم ؟ قال : نعم . قال : أنت الأسود ؟ قال : أما سوادى فظاهر ، فما الذي يعجبك من أمرى ؟ قال : وطء الناس بساطك ، وغشيهم بابك ، ورضاهم بقولك . قال : يا ابن أخي (٨) ، إن صَغَيْتَ (٩) إلى ما أقول لك كنت كذلك . قال لقمان : غضى بصرى ، وكفى لسانى ، وعفة طعمتى ، وحفظى فرجى ، وقولى بصدق ، ووفائى بعهدى ، وتكرمتى ضيفى ، وحفظى جارى ، وتركى ما لا يعني ، فذاك الذى صيرنى إلى ما (١٠) ترى .

(١) تفسير الطبرى (٤٣/٢١) .

(٢) فى أ : « زمان » .

(٣) تفسير الطبرى (٤٤/٢١) .

(٤) فى أ : « بن » .

(٥) فى ت : « عن وكيع » .

(٦) فى ف ، أ : « أبى » .

(٧) فى ت : « ورؤى ابن أبى حاتم بسنده » .

(٨) فى ت : « فإله » .

(٩) فى ف ، أ : « إن صنعت » .

(١٠) فى ت ، ف ، أ : « كما » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ابن نُفَيْل ، حدثنا عمرو بن واقد ، عن عَبْدِ بن رَبَّاح ، عن ربيعة ، عن (١) أبي الدرداء ، رضى الله عنه ، أنه قال يوماً - وذكرَ لقمان الحكيم - فقال : ما أوتى ما أوتى عن أهل ولا مال ، ولا حسب ولا خصال ، ولكنه كان رجلاً صَمَصَامَةً سَكِيْتًا ، طويل التفكير ، عميق النظر ، لم ينم نهاراً قط ، ولم يره أحد قط ييزق ولا يتنخَّع ، ولا يبول ولا يتغوط ، ولا يغتسل ، ولا يعبث ولا يضحك ، وكان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه أحد ، وكان قد تزوج وولد له أولاد ، فماتوا فلم يبك عليهم . وكان يغشى السلطان ، ويأتى الحكام ، لينظر ويتفكر ويعتبر (٢) ، فبذلك أوتى ما أوتى .

وقد ورد أثر غريب عن قتادة ، رواه ابن أبي حاتم ، فقال :

حدثنا أبي ، حدثنا العباس بن الوليد ، حدثنا زيد بن يحيى بن عبيد الخزاعي ، حدثنا سعيد بن بشير ، عن قتادة قال : خيَّرَ الله لقمان الحكيم بين النبوة والحكمة ، فاختار الحكمة على النبوة . قال : فأتاه جبريل وهو نائم فذَرَّ عليه الحكمة - أو : رش عليه الحكمة - قال : فأصبح ينطق بها . قال سعيد : فسمعت عن قتادة يقول : قيل للقمان : كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيرك ربك ؟ فقال : إنه لو أرسل إلى بالنبوة عَزَمَةً لرجوت فيه الفوز منه ، ولكنك أرجو أن أقوم بها ، ولكنه خيرني فخفت أن أضعف عن النبوة ، فكانت الحكمة أحب إليَّ .

فهذا من رواية سعيد بن بشير ، وفيه ضعف قد تكلموا فيه بسببه ، فالله أعلم .

والذى رواه سعيد بن أبي عَرُوبَةَ ، عن قتادة ، فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ أى : الفقه فى الإسلام ، ولم يكن نبياً ، ولم يوح إليه .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ أى : الفهم والعلم والتعبير ، ﴿ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ أى : أمرناه أن يشكر الله ، عز وجل ، على ما آتاه الله ومنحه ووهبه من الفضل ، الذى خصه (٣) به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أى : إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين (٤) لقوله (٥) تعالى : ﴿ وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلْأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم : ٤٤] .

وقوله : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أى : غنى عن العباد ، لا يتضرر بذلك ، ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً ، فإنه الغنى عما سواه ؛ فلا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه .

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لَابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا ﴾

(١) فى ت : « وروى ابن أبي حاتم بسنده إلى » .

(٢) فى ت : « ويعتب » .

(٣) فى أ : « خصه » .

(٤) فى ت ، ف : « الشاكر » .

(٥) فى ف : « كفوله » .

فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده - وهو : لقمان بن عنقاء بن سدون . واسم ابنه : ثاران في قول حكاه السهيلي . وقد ذكره [الله] (١) تعالى بأحسن الذكر ، فإنه آتاه الحكمة ، وهو يوصى ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه ، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف ؛ ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً ، ثم قال محذراً له : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ أى : هو أعظم الظلم .

قال البخارى حدثنا قتيبة ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة (٢) ، عن عبد الله ، رضى الله عنه ، قال : لما نزلت : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام : ٨٢] ، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، وقالوا : أينما لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنه ليس بذاك ، ألا (٣) تسمع إلى قول لقمان : ﴿ يَا بَنِيَّ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ » . ورواه مسلم من حديث الأعمش ، به (٤) .

ثم قرآن بوصيته إياه بعبادة الله وحده البر بالوالدين . كما قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء : ٢٣] . وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن وقال ههنا : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حِمْلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ . قال مجاهد : مشقة وهن الولد . وقال قتادة : جهداً على جهد .

وقال عطاء الخراساني : ضعفاً على ضعف .

وقوله : ﴿ وَفَصَّالَهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ أى : تربيته وإرضاعه بعد وضعه فى عامين ، كما قال تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يَرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] . ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ؛ لأنه قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف : ١٥] .

وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها فى سهرها ليلاً ونهاراً ، ليذكر الولد بإحسانها المتقدم إليه ، كما قال تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٤] ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ أى : فإنى سأجزيك (٥) على ذلك أوفر الجزاء .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عبد الله بن أبى شيبة ، ومحمود بن غيلان قالا : حدثنا عبيد الله ، أخبرنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق (٦) ، عن سعيد بن وهب قال : قدم علينا معاذ ابن جبل ، وكان بعثه النبى ﷺ ، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إني [رسول] (٧) رسول الله ﷺ إليكم : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تطيعونى لا آلوكم خيراً ، وأن المصير إلى

(٣) فى أ : « ألم » .

(٢) فى ت : « روى البخارى بسنده » .

(١) زيادة من ت .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٧٦) وصحيح مسلم برقم (١٢٤) .

(٥) فى أ : « سأجزيك » .

(٧) زيادة من ت ، أ .

(٦) فى ت : « روى ابن أبى حاتم بسنده » .

الله ، وإلى الجنة أو إلى النار ، إقامة فلا ظعن ، وخلود فلا موت .
وقوله : ﴿ وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ أى : إن حرصاً عليك كل الحرص على أن تتابعهما (١) على دينهما ، فلا تقبل منهما ذلك ، ولا يمنعنك ذلك من أن تصاحبهما فى الدنيا معروفا ، أى : محسناً إليهما ، ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ يعنى : المؤمنين ، ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

قال الطبرانى فى كتاب العشرة : حدثنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثنا أحمد بن أيوب بن راشد ، حدثنا مسلمة بن علقمة ، عن داود بن أبى هند [عن أبى عثمان النهدي] (٢) : أن سعد بن مالك قال : أنزلت فى هذه الآية : ﴿ وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ الآية ، وقال : كنت رجلاً براً بأبى ، فلما أسلمت قالت : يا سعد ، ما هذا الذى أراك قد أحدثت ؟ لَتَدَعَنَّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت ، فتعير بى ، فيقال : «ياقاتل أمه» . فقلت : لا تفعلنى يا أمه ، فإننى لا أدع دينى هذا لشيء . فمكثت يوماً وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوماً [آخر] (٣) وليلة أخرى لا تأكل ، فأصبحت قد اشتد جهدها ، فلما رأيت ذلك قلت : يا أمه ، تعلمين والله لو كانت لكى مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ، ما تركت دينى هذا لشيء ، فإن شئت فكلنى ، وإن شئت لا تأكلنى . فأكلت (٤) .

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) ﴾ .

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله تعالى عن لقمان الحكيم ؛ ليمثلها الناس ويقتدوا بها ، فقال : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ﴾ أى : إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة [من] (٥) خردل . وجوز بعضهم أن يكون الضمير فى قوله : ﴿ إِنَّهَا ﴾ ضمير الشأن والقصة . وجوز على هذا رفع ﴿ مِثْقَالٍ ﴾ والأول أولى .

وقوله : ﴿ يَا بُنَيَّ بِهَا اللَّهُ ﴾ أى : أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط ، وجازى عليها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . كما قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] ، وقال تعالى :

(١) فى أ : « تتابعهما » . (٢) زيادة من أسد الغابة ، والدر المنثور . (٣) زيادة من ت ، ف .

(٤) وذكره ابن الأثير فى أسد الغابة (٢/٢١٦) عن داود بن أبى هند .

(٥) زيادة من ت ، أ .

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] ، ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة فى داخل صخرة صماء ، أو غائبة ذاهبة فى أرجاء السموات أو الأرض (١) ، فإن الله يأتى بها ؛ لأنه لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ؛ ولهذا قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أى : لطيف العلم ، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت ، ﴿خَبِيرٌ﴾ بدبيب النمل فى الليل البهيم .

وقد زعم بعضهم أن المراد بقوله : ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ : أنها صخرة تحت الأرضين (٢) السبع ، ذكره السدّى بإسناده ذلك المطروق عن ابن عباس وابن مسعود وجماعة من الصحابة إن صح ذلك ، ويروى هذا عن عطية العوفى ، وأبى مالك ، والثورى ، والمنهال بن عمرو ، وغيرهم . وهذا والله أعلم ، كأنه متلقى من الإسرائيليات التى لا تصدق ولا تكذب ، والظاهر - والله أعلم - أن المراد : أن هذه الحبة فى حقارتها لو كانت داخل صخرة ، فإن الله سيبيدها ويظهرها بلطيف علمه ، كما قال (٣) الإمام أحمد :

حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا دراج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ، ليس لها باب ولا كوة ، لخرج عمله للناس كائناً ما كان » (٤) .

ثم قال : ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أى : بحدودها وفروضها وأوقاتها ، ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أى : بحسب طاقتك وجهدك ، ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ ، علم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا بد أن يناله من الناس أذى ، فأمره بالصبر .

وقوله : ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أى : إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور .

وقوله : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول : لا تُعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك ، احتقاراً منك لهم ، واستكباراً عليهم ولكن ألن جانبك ، وابسط وجهك إليهم ، كما جاء فى الحديث : « ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه مُنْبَسِطٌ ، وإياك وإسبال الإزار فإنها من الخيلة ، والمخيلة لا يحبها الله » .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول : لا تتكبر فتحقر (٥) عباد الله ، وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك . وكذا روى العوفى وعكرمة عنه .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ : لا تكلم وأنت معرض . وكذا روى عن مجاهد ، وعكرمة ، ويزيد بن الأصم ، وأبى الجوزاء ، وسعيد بن جبّير ، والضحاك ، وابن يزيد ، وغيرهم .

وقال إبراهيم النخعى : يعنى بذلك : التشديق فى الكلام .

(١) فى ف : « والأرض » . (٢) فى ف ، أ : « الأرض » . (٣) فى ت : « كما روى » .

(٤) المسند (٢٨/٣) ، وحسنه الهيثمى فى المجمع (٢٢٥/١٠) وفيه ابن لهيعة عن دراج وهما ضعيفان .

(٥) فى ت ، أ : « فتحقر » .

والصواب القول الأول .

قال ابن جرير : وأصل الصَّعْر : داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها ، حتى تُلْفَتَ (١) أعناقها عن رؤوسها ، فشبه به الرجل المتكبر ، ومنه قول عمرو بن حُنْى التَّغْلَبِي :

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ أَقْمَنَا لَهُ مِنْ مِيلِهِ فَتَقَوَّمَا (٢)

وقال أبو طالب في شعره :

وَكُنَّا قَدِيمًا لَا نَقْر ظِلَامَةً إِذَا مَا ثَنَوْا صَعْرَ الرُّؤُوسِ نُقِيمَهَا (٣)

وقوله : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أي : جذلا متكبرا جباراً عنيداً ، لا تفعل ذلك ييغضك الله ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أي : مختال معجب في نفسه ، فخور : أي على غيره ، وقال تعالى (٤) : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٧] ، وقد تقدم الكلام على ذلك في موضعه .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي ، حدثنا محمد بن عمران ابن أبي ليلى ، حدثنا أبي ، عن ابن أبي ليلى ، عن عيسى ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى (٥) ، عن ثابت بن قيس بن شماس قال : ذكر الكبر عند رسول الله ﷺ فشدد فيه ، فقال : « إن الله لا يحب كل مختال فخور » . فقال رجل من القوم : والله يا رسول الله إني لأغسل ثيابي فيعجبني بياضها ، ويعجبني شراك نعلِي ، وعِلَاقَةُ سَوَاطِي ، فقال : « ليس ذلك الكبر ، إنما الكبر أن تَسْفَهَ الحق وتَغْمَطَ (٦) الناس » (٧) .

ورواه من طريق أخرى بمثله ، وفيه قصة طويلة ، ومقتل ثابت ووصيته بعد موته (٨) .

وقوله : ﴿ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ أي : امش مشياً مقتصداً ليس بالبطيء المتشط ، ولا بالسريع المفرط ، بل عدلاً وسطاً بين بين .

وقوله : ﴿ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾ أي : لا تبألغ في الكلام ، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ ، قال مجاهد وغير واحد : إن أقبح الأصوات لصوت الحمير ، أي : غاية من رفع صوته أنه يشبه بالحمير في علوه ورفعه ، ومع هذا هو بغض إلى الله تعالى . وهذا التشبيه في هذا بالحمير يقتضى تحريمه وذمه غاية الذم ؛ لأن رسول الله ﷺ قال : « ليس لنا مثل السوء ، العائد في هبته كالكلب يقىء ثم يعود في قيئه » .

وقال النسائي عند تفسير هذه الآية : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا الليث ، عن جعفر بن ربيعة ، عن الأعرج (٩) ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ [أنه] (١٠) قال : « إذا سمعتم صياح الديكة

(١) في ت : « تلتفت » ، وفي أ : « بلغت » .

(٢) البيت في مجاز القرآن لأبي عبيدة (١٢٧ / ٢) .

(٣) البيت في السيرة النبوية لابن هشام (٢٦٩ / ١) .

(٤) في أ : « وقد قال الله تعالى » . (٥) في ت : « وروى الطبراني بإسناده » . (٦) في ت ، ف : « تغمص » .

(٧) المعجم الكبير (٦٩ / ٢) وفيه انقطاع بين ابن أبي ليلى وثابت .

(٨) المعجم الكبير (٧٠ / ٢) من طريق عبد الرحمن بن يزيد ، عن عطاء ، عن بنت ثابت بقصة أبيها ، وقال الهيثمي في المجمع (٣٢٢ / ٩) :

« وبنت ثابت بن قيس لم أعرفها ، وبقي رجاله رجال الصحيح » .

(٩) في ت : « وروى النسائي عند تفسير هذه الآية بإسناده » . (١٠) زيادة من أ .

فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير ^(١) فتعوذوا بالله من الشيطان ، فإنها رأت شيطاناً » .
وقد أخرجه بقية الجماعة سوى ابن ماجه ، من طرق ، عن جعفر بن ربيعة به ^(٢) ، وفي بعض
الألفاظ : « بالليل » ، فالله أعلم .

فهذه وصايا نافعة جداً ، وهى من قصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم . وقد روى عنه من
الحكم والمواعظ أشياء كثيرة ، فلنذكر منها أنموذجاً ودستوراً إلى ذلك .

قال الإمام أحمد : حدثنا ابن إسحاق ، أخبرنا ابن المبارك ، أخبرنا سفيان ، أخبرنى نَهْشَل بن
مُجَمِّع الضبى عن قزعة ، عن ابن عمر ^(٣) ، رضى الله عنه ^(٤) ، قال : أخبرنا رسول الله ﷺ قال :
« إن لقمان الحكيم كان يقول : إن الله إذا استودع شيئاً حفظه » ^(٥) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عيسى بن يونس ، عن الأوزاعى ، عن
موسى بن سليمان ، عن القاسم [بن مُخَيَّمَةَ يحدث عن أبى موسى الأشعرى] ^(٦) أن رسول الله ﷺ
قال : « قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بنى ، إياك والتقنع فإنه مخوفة بالليل ، مذلة بالنهار » ^(٧) .

وقال : حدثنا أبى ، حدثنا عمرو بن عثمان ، عن ضَمْرَةَ ، حدثنا السَّريُّ بن يحيى ^(٨) قال : قال
لقمان لابنه : يا بنى ، إن الحكمة أجلسست المساكين مجالس الملوك .

وقال : حدثنا أبى ، حدثنا عبدة بن سليمان ، أخبرنا ابن المبارك ، حدثنا عبد الرحمن
المسعودى ^(٩) ، عن عَوْن بن عبد الله قال : قال لقمان لابنه : يا بنى ، إذا أتيت نادى قوم فارمهم
بسهم الإسلام - يعنى السلام - ثم اجلس فى ناحيتهم ، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا ، فإن أفاضوا
فى ذكر الله فأجل سهمك معهم ، وإن أفاضوا فى غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم .

وحدثنا أبى ، حدثنا عمرو بن عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار ، حدثنا ضمرة ^(١٠) ، عن
حفص ابن عمر ، رضى الله عنه ، قال : وضع لقمان جراباً من خردل إلى جانبه ، وجعل يعظ ابنه
وعظة ويخرج خردلة ، حتى نقذ الخردل ، فقال : يا بنى ، لقد وعظتك موعظة لو وعظها جبل
لتفطر . قال : فتفطر ابنه .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا يحيى بن عبد الباقي المصيصى ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن
الحرانى ، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الطرائفى ، حدثنا أبيْن ^(١١) بن سفيان المقدسى ، عن خليفة
ابن سلام ، عن عطاء بن أبى رباح ^(١٢) ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « اتخذوا

(١) فى ت : « الحمار » .

(٢) النسائى فى السنن الكبرى (١١٣٩١) وصحيح البخارى برقم (٣٣٠١) ، وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٩) وسنن أبى داود برقم (٥١٠٢)
وسنن الترمذى برقم (٣٤٥٩) .

(٣) فى ت : « فروى الإمام أحمد بإسناده » .

(٤) فى ت ، ف : « عنهما » .

(٥) المسند (٨٧/٢) .

(٦) زيادة من أ ، والمستدرک .

(٧) ورواه الحاكم فى المستدرک (٤١١/٢) وقال : « هذا متن شاهده إسناده صحيح » وأقره الذهبى .

(٨) فى ت : « وروى أيضا بإسناده عن السرى بن يحيى » . (٩) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده عن القاسم بن مخيمرة » .

(١٠) فى ت : « وروى أيضا » . (١١) فى ت ، أ ، ف ، هـ : « أنس » ، والتصويب من المعجم الكبير وكتب الرجال .

(١٢) فى ت : « وروى الطبرانى بسنده » .

السودان فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة : لقمان الحكيم ، والنجاشي ، وبلال المؤذن » (١) .
قال أبو القاسم الطبراني : أراد الحبش .

فصل في الخمول والتواضع

وذلك متعلق بوصية لقمان ، عليه السلام ، لابنه ، وقد جمع في ذلك الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا كتاباً مفرداً [و] (٢) نحن ، نذكر منه مقاصده ، قال : حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا عبد الله ابن موسى المدني ، عن أسامة بن زيد ، عن حفص بن عبيد الله بن أنس بن مالك : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « رَبِّ أَشْعَثَ ذِي طَمْرَيْنٍ يُصَفَّحَ عَنْ أَبْوَابِ النَّاسِ ، إِذَا (٣) أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرِهِ » (٤) .
ثم رواه من حديث جعفر بن سليمان ، عن ثابت وعلى بن زيد ، عن أنس ، عن النبي ﷺ ، فذكره ، وزاد ، منهم البراء بن مالك (٥) .

[وروى أيضاً عن أنس ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « طوبى للأثرياء الذين إذا حضروا لم يعرفوا ، وإذا غابوا لم يفتقدوا ، أولئك مصابيح مجردون من كل فتنة غبراء مشينة »] (٦) .

وقال أبو بكر بن سهل التميمي : حدثنا ابن أبي مريم ، حدثنا نافع بن يزيد ، عن عياش بن عباس ، عن عيسى بن عبد الرحمن ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن عمر ، رضى الله عنه ، أنه دخل المسجد فإذا هو بمعاذ بن جبل يكيى عند قبر رسول الله ﷺ ، فقال له : ما يكييك يا معاذ ؟ قال : حديث سمعته من رسول الله ﷺ ، سمعته يقول : « إن اليسير من الرياء شرك ، وإن الله يحب الاتقياء الأخفياء الأثرياء ، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، ينجون من كل غبراء مظلمة » (٧) .

حدثنا الوليد بن شجاع ، حدثنا عثام بن على ، عن حميد بن عطاء الأعرج ، عن عبد الله بن الحارث ، عن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « رَبِّ ذِي طَمْرَيْنٍ لَا يُؤْبَهُ لَهُ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرِهِ ، لَوْ قَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ لِأَعْطَاهُ الْجَنَّةَ ، وَلَمْ يَعْطِهِ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئاً » (٨) .

وقال أيضاً : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن سالم بن أبي الجعد قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَوْ أَتَى بَابَ أَحَدِكُمْ يَسْأَلُهُ دِينَاراً أَوْ دَرَاهِمًا أَوْ

(١) المعجم الكبير (١١/١٩٨) ، وقال الهيثمي في المجمع (٤/٢٣٥) : « فيه أبي بن سفيان وهو ضعيف »

(٢) زيادة من ت ، ف . (٣) في ت ، ف : « لو » .

(٤) ورواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٥٠٥٤) « مجمع البحرين » قال : « حدثنا أحمد بن يحيى الخولاني ، حدثنا إبراهيم بن المنذر ، فذكر مثله - ثم قال - : لم يروه عن حفص إلا أسامة » ، وله شاهد في صحيح مسلم برقم (٢٦٢٢) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه .

تنبه : سقط هذا الحديث من مخطوطة التواضع والخمول لابن أبي الدنيا ، وكذا الرواية بعده .

(٥) ورواه الترمذى في السنن برقم (٣٨٥٤) من طريق سيار عن جعفر بن سليمان به ، وقال : « هذا حديث حسن صحيح من هذا الوجه » (٦) زيادة من ت ، أ .

(٧) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا برقم (٨) .

(٨) سقط الحديث من مخطوطة التواضع والخمول ، ورواه الديلمي في مسند الفردوس برقم (٣٢٤٦) من طريق ابن أبي الدنيا .

فلساً لم يعطه ، ولو سأل الله الجنة لأعطاه إياها ، ولو سألته (١) الدنيا لم يعطه إياها ، ولم يمنعها إياه لهوانه عليه ، ذو طمرين لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره » (٢) .
وهذا مرسل من هذا الوجه .

وقال أيضا : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، أخبرنا جعفر بن سليمان ، حدثنا عوف قال : قال أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من ملوك الجنة كل (٣) أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له ، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم ، وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا ، وإذا قالوا لم يُنصت لهم ، حوائج أحدهم تتجلى في صدره ، لو قسم نوره يوم القيامة بين الناس لوسعهم » (٤) .

قال : وأنشدني عمر بن شبة ، عن ابن عائشة قال : قال عبد الله بن المبارك :
ألا ربّ ذى طمرين في منزل غداً زرابيه مبثوثة ونمارقه
قد اطردت أنهاره حول قصره وأشرق والتفت عليه حدائقه (٥)

وروى - أيضا - من حديث عبيد الله بن زحر ، عن علي بن زيد ، عن القاسم ، عن أبي أمامة مرفوعا : « قال الله : من أغبط أوليائي عندي : مؤمن خفيف الحاذ ، ذو حظ من صلاة ، أحسن عبادة ربه ، وأطاعه في السر ، وكان غامضا في الناس ، لا يشار إليه بالأصابع . إن صبر على ذلك » . قال : ثم نقد رسول الله بيده وقال : « عجّلت منيته ، وقل تراثه ، وقلت بواكيه » (٦) .

وعن عبد الله بن عمرو قال : أحب عباد الله (٧) إلى الله الغرباء . قيل : ومن الغرباء ؟ قال : الفرارون بدينهم ، يجمعون يوم القيامة إلى عيسى ابن مريم (٨) .

وقال الفضيل بن عياض : بلغني أن الله تعالى (٩) يقول للعبد يوم القيامة : ألم أنعم عليك ؟ ألم أعطك ؟ ألم أسترّك ؟ ألم . . . ؟ ألم . . . ؟ ألم أحمل ذكرك ؟ ثم قال الفضيل : إن استطعت ألا تُعرف فافعل ، وما عليك ألا يُثنى عليك ، وما عليك أن تكون مذموما عند الناس محموداً عند الله . وكان ابن مُحَيْرِيز يقول : اللهم إني أسألك ذكرا خاملا .

وكان الخليل بن أحمد يقول : اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك ، واجعلني في نفسي من أوضع خلقك ، وعند الناس من أوسط خلقك .

ثم قال (١٠) :

باب ما جاء في الشهرة

حدثنا أحمد بن عيسى المصري ، حدثنا ابن وهب ، عن عمر بن الحارث وابن لهيعة ، عن يزيد ابن أبي حبيب ، عن سنان بن سعد ، عن أنس ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حسب امرئ من

(١) في ت : « ولو سأل الله » .

(٢) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا برقم (١) ، وهو مرسل .

(٣) في ت ، ف ، أ : « من هو » .

(٤) ورواه ابن أبي الدنيا في الأولياء برقم (٩) عن الحسن مرسلأ بنحوه ، وقد سقط هذا الحديث من مخطوطة التواضع والخمول .

(٥) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا برقم (٥) .

(٦) التواضع والخمول برقم (١٣) وقد قال ابن حبان : « إذا روى عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم فهو مما عملته أيديهم » .

(٧) في أ : « أحب العباد » .

(٨) التواضع والخمول برقم (١٦) .

(٩) أي ابن أبي الدنيا .

(١٠) في ت ، أ : « عز وجل » .

الشر - إلا من عصم الله - أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه ، وإن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم » (١) .

وروى مثله عن إسحاق بن البهلول ، عن ابن أبي فديك ، عن محمد بن عبد الواحد الأحنسي ، عن عبد الواحد بن أبي كثير ، عن جابر بن عبد الله مرفوعاً ، مثله (٢) .

وروى عن الحسن مرسلاً نحوه (٣) ، فقليل للحسن : فإنه يشار إليك بالأصابع ؟ فقال : إنما المراد من يشار إليه في دينه بالبدعة وفي دنياه بالفسق (٤) .

وعن علي ، رضى الله عنه ، قال : لا تبدأ لأن تشتهر ، ولا ترفع شخصك لتذكر ، وتعلم واكتم ، واصمت تسلم ، تسر الأبرار ، وتغيظ الفجار .

وقال إبراهيم بن أدهم ، رحمه الله : ما صدق الله من أحب الشهرة .

وقال أيوب : ما صدق الله عبده إلا سره ألا يشعر بمكانه .

وقال محمد بن العلاء : من أحب الله أحب ألا يعرفه الناس .

وقال سمّاك بن سلمة : إياك وكثرة الأخلاء .

وقال أبان بن عثمان : إن أحببت أن يسلم لك دينك فأقل من المعارف ؛ كان أبو العالية إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة نهض وتركهم .

وقال : حدثنا علي بن الجعد ، أخبرنا شعبة ، عن عوف ، عن أبي رجاء قال : رأى طلحة قوما يمشون معه ، فقال : ذباب طمع ، وفراش النار .

وقال ابن إدريس ، عن هارون بن عنترة (٥) ، عن سليم بن حنظلة قال : بينا نحن حول أبي إذ علاه عمر بن الخطاب بالدرة وقال : إنها مذلة للتابع ، وفنة للمتبوع .

وقال ابن عون ، عن الحسن : خرج ابن مسعود فاتبعه أناس ، فقال : والله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ، ما اتبعني منكم رجلان .

وقال حماد بن زيد : كنا إذا مررنا على المجلس ، ومعنا أيوب ، فسلم ، ردوا ردا شديدا ، فكان ذلك يَغْمُه .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر : كان أيوب يطيل قميصه ، فقليل له في ذلك ، فقال : إن الشهرة فيما مضى كانت في طول القميص ، واليوم في تشميره . واصطنع مرة نعلين على حذو نعلي النبي ﷺ ، فلبسهما أياما ثم خلعهما ، وقال : لم أر الناس يلبسونهما .

وقال إبراهيم النخعي : لا تلبس من الثياب ما يُشهر في الفقهاء ، ولا ما يزدريك السفهاء .

وقال الثوري : كانوا يكرهون من الثياب الجياد ، التي يُشتهر بها ، ويرفع الناس إليه فيها أبصارهم . والثياب الرديئة التي يحتقر فيها ، ويستذل دينه .

(١) التواضع والخمول برقم (٣٠) وفيه سنن ابن سعد ضعيف .

(٢) التواضع والخمول برقم (٣١) وقال العراقي : « ليس معروفاً من حديث جابر إنما هو معروف من حديث أبي هريرة » .

(٣) التواضع والخمول برقم (٣٢) .

(٤) التواضع والخمول برقم (٣٣) .

(٥) في أ : « هارون بن أبي عسيرة » .

وحدثنا خالد بن خدّاش : حدثنا حماد ، عن أبي حنيفة - صاحب الزيادة - قال : كنا عند أبي قلابة إذ دخل عليه رجل عليه أكسية ، فقال : إياكم وهذا الحمار النهاق .
وقال الحسن ، رحمه الله : إن قوما جعلوا الكبر في قلوبهم ، والتواضع في ثيابهم ، فصاحب الكساء بكسائه أعظم من صاحب المطرف بمطرفه ^(١) ، مالههم تفاقدوا .
وفى بعض الأخبار أن موسى ، عليه السلام ، قال لبنى إسرائيل : ما لكم تأتونى عليكم ثياب الرهبان ، وقلوبكم قلوب الذئاب ، البسوا ثياب الملوك ، وألبنوا قلوبكم بالخشية .

فصل فى حسن الخلق

قال أبو التياح ، عن أنس ، رضى الله عنه : كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقا ^(٢) .
وعن عطاء ، عن ابن عمر : قيل : يا رسول الله ، أى المؤمنين أفضل ؟ قال : « أحسنهم خلقا » ^(٣) .
وعن نوح بن عباد ، عن ثابت ، عن أنس مرفوعا : « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجات الآخرة وشرف المنازل ، وإنه لضعيف العبادة . وإنه ليبلغ بسوء خلقه درك جهنم وهو عابد » ^(٤) . وعن سنّان بن هارون ، عن حميد ، عن أنس مرفوعا : « ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة » ^(٥) ، وعن عائشة مرفوعا : « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار » ^(٦) .
وقال ابن أبي الدنيا : حدثنى أبو مسلم عبد الرحمن بن يونس ، حدثنا عبد الله بن إدريس ، أخبرنى أبى وعمى ، عن جدى ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه : سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ، فقال : « تقوى الله وحسن الخلق » . وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ، فقال : « الأجوفان : الفم والفرج » ^(٧) .

وقال أسامة بن شريك : كنت عند رسول الله ﷺ ، فجاءته الأعراب من كل مكان ، فقالوا : يا رسول الله ، ما خير ما أعطى الإنسان ؟ قال : « حسن الخلق » ^(٨) .
وقال يعلى بن مملك ^(٩) ، عن أم الدرداء ، عن أبى الدرداء - يبلغ به - قال : « ما [من] ^(١٠) شيء أثقل فى الميزان من حسن الخلق » ^(١١) ، وكذا رواه عطاء ، عن أم الدرداء ، به ^(١٢) .
وعن مسروق ، عن عبد الله بن عمرو مرفوعا : « إن من خياركم أحاسنكم أخلاقا » ^(١٣) .
حدثنا عبد الله بن أبى بدر ، حدثنا محمد بن عبيد ^(١٤) ، عن محمد بن أبى سارة ، عن الحسن

(١) فى ت ، أ : « المطرق بمطرفه » .

(٢) التواضع والخمول برقم (١٦٣) .

(٣) التواضع والخمول برقم (١٦٤) .

(٤) التواضع والخمول برقم (١٦٨) .

(٥) التواضع والخمول برقم (١٦٩) .

(٦) التواضع والخمول برقم (١٦٦) .

(٧) التواضع والخمول برقم (١٧٠) .

(٨) التواضع والخمول برقم (١٧١) .

(٩) فى ت ، أ ، ف ، هـ : « سماك » والصواب ما أثبتناه من كتب الرجال .

(١٠) التواضع والخمول برقم (١٧٢) .

(١٢) التواضع والخمول برقم (١٧٣) .

(١٣) التواضع والخمول برقم (١٧٤) .

(١٤) فى ت ، ف : « عني » ، وفى أ : « عيسى » والصواب ما أثبتناه من التواضع والخمول لابن أبى الدنيا ، وكتب الرجال .

ابن علي قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق ، كما يعطي المجاهد في سبيل الله ، يغدو عليه الأجر ويروح » (١) .
وعن مكحول، عن أبي ثعلبة مرفوعاً: «إن أحبك إلى وأقربكم مني مجلساً ، أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلى وأبعدكم مني منزلاً في الجنة مساويكم أخلاقاً، الثرثارون المتشدقون المتفيهقون » (٢) .

وعن أبي أويس ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر مرفوعاً : « ألا أخبركم بأكملكم إيماناً ، أحاسنكم أخلاقاً ، الموطئون أكنافاً ، الذين يؤلفون ويألفون » (٣) .
وقال الليث ، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة ، عن بكر بن أبي الفرات قال : قال رسول الله ﷺ : « ما حسن الله خلق رجلٍ وخلقه فتطعمه النار » (٤) .

وعن عبد الله بن غالب الحدّاني ، عن أبي سعيد مرفوعاً : « خصلتان لا يجتمعان في مؤمن : البخل ، وسوء الخلق » (٥) ، وقال ميمون بن مهران ، عن رسول الله ﷺ : « ما من ذنب أعظم عند الله من سوء الخلق ؛ وذلك أن صاحبه لا يخرج من ذنب إلا وقع في آخر » (٦) .

حدثنا علي بن الجعد ، حدثنا أبو المغيرة الأحمسي ، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق ، عن رجل من قريش قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من ذنب أعظم عند الله من سوء الخلق ؛ إن الخلق الحسن ليذيب الذنوب كما تذيب الشمس الجليد ، وإن الخلق السيئ ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل » (٧) .

وقال عبد الله بن إدريس ، عن أبيه ، عن جده ، عن أبي هريرة مرفوعاً : « إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ، ولكن يسعهم منكم بسط وجوه وحسن خلق » (٨) .
وقال محمد بن سيرين : حسن الخلق عون على الدين .

فصل في ذم الكبر

قال علقمة ، عن ابن مسعود - رفعه - : « لا يدخل الجنة من في قلبه (٩) مثقال حبة من كبر ، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال حبة (١٠) من إيمان » (١١) .
وقال إبراهيم بن أبي عبلة ، عن أبي سلمة ، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً : « من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ، أكبه الله على وجهه في النار » (١٢) .

حدثنا إسحاق بن إسماعيل ، حدثنا أبو معاوية ، عن عمر بن راشد ، عن إياس بن سلمة ، عن أبيه مرفوعاً : « لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب عند الله من الجبارين ، فيصيبه ما أصابهم من العذاب » (١٣) .
وقال مالك بن دينار : ركب سليمان بن داود ، عليهما (١٤) السلام ، ذات يوم البساط في مائتي

(١) التواضع والخمول برقم (١٧٦) .

(٢) التواضع والخمول برقم (١٧٧) .

(٣) التواضع والخمول برقم (١٧٨) .

(٤) التواضع والخمول برقم (١٨٠) .

(٥) التواضع والخمول برقم (١٨٢) .

(٦) التواضع والخمول برقم (١٨٣) .

(٧) التواضع والخمول برقم (١٨٤) .

(٨) التواضع والخمول برقم (١٩٠) .

(٩) في ت ، ف ، أ : « ذرة » .

(١٠) في ت ، ف ، أ : « ذرة » .

(١١) التواضع والخمول برقم (١٩٢) .

(١٢) التواضع والخمول برقم (١٩٦) .

(١٣) التواضع والخمول برقم (١٩٨) .

(١٤) في ت : « عليه » .

ألف من الإنس ، ومائتي ألف من الجن ، فَرُفِعَ حتى سمع تسبيح الملائكة في السماء ، ثم خفضوه حتى مست قدمه ماء البحر ، فسمعوا صوتا لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لحسف به أبعد مما رفع .

حدثنا أبو خَيْثَمَةَ ، حدثنا يزيد بن هارون ، عن حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس قال : كان أبو بكر يخطبنا فيذكر بدء خلق الإنسان ، حتى إن أحدنا ليقدر نفسه ، يقول : خرج من معجى البول مرتين (١) .

وقال الشعبي : من قتل اثنين فهو جبار ، ثم تلا : ﴿ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ [القصص: ١٩] وقال الحسن : عجباً لابن آدم ، يغسل الخرق بيده في اليوم مرتين ثم يتكبر ! يعارض جبار السموات ، قال : حدثنا خالد بن خدّاش ، حدثنا حماد بن زيد ، عن علي بن الحسن ، عن الضحّاك بن سفيان ، فذكر الحديث . ضرب مثل الدنيا بما يخرج من ابن آدم (٢) .
وقال الحسن ، عن يحيى ، عن أبي قال : إن مطعم ابن آدم ضرب مثل للدنيا وإن قَرَحَهُ ومَلَّحَهُ .
وقال محمد بن الحسين بن علي - من ولد علي رضي الله عنه - : ما دخل قلب رجل شيء من كبر إلا نقص من عقله بقدر ذلك .

وقال يونس بن عبيد : ليس مع السجود كبر ، ولا مع التوحيد نفاق .
ونظر طاوس إلى عمر بن عبد العزيز وهو يختال في مشيته ، وذلك قبل أن يستخلف ، فطعنه طاوس في جنبه بأصبعه ، وقال : ليس هذا شأن (٣) من في بطنه خرق ؟ . فقال له كالمعتزr إليه : يا عم ، لقد ضرب كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلمتها .

قال أبو بكر بن أبي الدنيا : كانت بنو أمية يضربون أولادهم حتى يتعلموا (٤) هذه المشية .

فصل في الاختيال

عن أبي ليلى ، عن ابن بُرَيْدَةَ ، عن أبيه مرفوعاً : « مَنْ جَرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه » (٥) .
ورواه عن إسحاق بن إسماعيل ، عن سفيان ، عن زيد بن أسلم ، عن ابن عمر مرفوعاً مثله (٦) .
وحدثنا محمد بن بَكَّار ، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد ، عن أبيه ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة مرفوعاً : « لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره » (٧) . و « بينما رجل يتبختر في برديه ، أعجبته نفسه ، خسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » (٨) .
وروى الزهري عن سالم ، عن أبيه : « بينما رجل . . . » إلى آخره (٩) .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ

(١) التواضع والخمول برقم (٢٠٠) .

(٢) التواضع والخمول برقم (٢١٠) .

(٣) في ف ، أ : « مشى » .

(٥) التواضع والخمول برقم (٢٣٨) .

(٦) التواضع والخمول برقم (٢٣٩) .

(٧) التواضع والخمول برقم (٢٣٢) .

(٨) التواضع والخمول برقم (٢٣٣) .

(٩) التواضع والخمول برقم (٢٣٤) .

(٤) في ف ، أ : « يتعلمون » .

اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ .

يقول تعالى منبها خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة ، بأنه سخر لهم ما في السموات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم ، وما يخلق فيها من سحب وأمطار وثلج وبرد ، وجعله إياها لهم سقفا محفوظا ، وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار . وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب ، وإزاحة الشبه والعلل ، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم ، بل منهم من يجادل في الله ، أى : فى توحيده وإرسال الرسل . ومجادلته فى ذلك بغير علم ، ولا مستند من حجة صحيحة ، ولا كتاب ماثور صحيح ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّثِيرٍ ﴾ أى : مبين يضىء . ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أى : لهؤلاء المجادلين فى توحيد الله : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أى : على رسوله من الشرائع المطهرة ، ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ أى : لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين ، قال الله : ﴿ أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠] أى : فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم ، أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه ؛ ولهذا قال : ﴿ أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ .

﴿ وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (٢٢) وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن أسلم وجهه لله ، أى : أخلص له العمل وانقاد لأمره واتبع شريعته ؛ ولهذا قال : ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أى : فى عمله ، باتباع ما به أمر ، وترك ما عنه زجر ، ﴿ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ أى : فقد أخذ موثقا من الله متيناً أنه لا يعذبه ، ﴿ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ . وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ﴾ أى : لا تحزن يا محمد عليهم فى كفرهم بالله وبما جئت به ؛ فإن قدر الله نافذ فيهم ، إلى الله مرجعهم فينبئهم بما عملوا ، أى : فيجزئهم عليه ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ، فلا تخفى عليه خافية .

ثم قال : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ﴾ أى : فى الدنيا ، ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ ﴾ أى : نلجئهم ﴿ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ أى : فطبع صعب مشق على النفوس ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : ٦٩ ، ٧٠] .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء المشركين به : إنهم يعرفون أن الله خالق السموات والأرض ، وحده لا شريك له ، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلق له وملك له ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ [أى : إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم] (١) ، ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : هو خلقه وملكه ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أى : الغنى عما سواه ، وكل شيء فقير إليه ، الحميد فى جميع ما خلق ، له الحمد فى السموات والأرض على ما خلق وشرع ، وهو المحمود فى الأمور كلها .

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢٧) مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) .

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وجلاله ، وأسمائه الحسنی وصفاته العلا وكلماته التامة التى لا يحيط بها أحد ، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها ، كما قال سيد البشر وخاتم الرسل : « لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ [أى : ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً ، وجعل البحر مداداً ومدّه سبعة أبحر [(٢)] معه ، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام ، ونفد ماء البحر ، ولو جاء أمثالها مدداً .

وإنما ذكرت « السبعة » على وجه المبالغة ، ولم يرد الحصر ولا [أن] (٣) ثم سبعة أبحر موجودة تحيط بالعالم ، كما يقوله من تلقاه من كلام الإسرائيليين التى لا تصدق ولا تكذب ، بل كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ [الكهف : ١٠٩] ، فليس المراد بقوله : ﴿ بِمِثْلِهِ ﴾ آخر فقط ، بل بمثله ثم بمثله ثم بمثله ، ثم هلم جرا ؛ لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته .

وقال الحسن البصرى : لو جعل شجر الأرض أقلاماً ، وجعل البحر مداداً ، وقال الله : « إن من أمرى كذا ، ومن أمرى كذا » لنفد ما فى البحور ، وتكسرت الأقلام .

وقال قتادة : قال المشركون : إنما هذا كلام يوشك أن ينفد ، فقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾ أى : لو كان شجر الأرض أقلاماً ، ومع البحر سبعة أبحر ، ما كان لتنفد عجائب ربي وحكمته وخلقته وعلمه .

(١) زيادة من ت ، ف ، ١ .

(٢، ٣) زيادة من ت ، ف ، ١ .

وقال الربيع بن أنس : إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها ، وقد أنزل الله ذلك : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾ الآية .

يقول : لو كان ذلك البحر مدادا لكلمات الله والأشجار كلها أقلاما ، لا تكسرت الأقلام ، وفنى ماء البحر ، وبقيت . كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء ؛ لأن أحدا لا يستطيع أن يقدر قدره ، ولا يثنى عليه كما ينبغي ، حتى يكون هو الذى يثنى على نفسه . إن ربنا كما يقول ، وفوق ما نقول .

وقد روى أن هذه الآية نزلت جوابا لليهود ، قال ابن إسحاق : حدثني ابن أبي محمد ، عن سعيد بن جبيرة أو عكرمة ، عن ابن عباس ؛ أن أحبار يهود قالوا لرسول الله ﷺ بالمدينة : يا محمد ، أرايت قولك : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ؟ [الإسراء : ٨٥] ، إيانا تريد أم قومك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « كلا » . فقالوا : ألسنت تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شيء ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنها في علم الله قليل ، وعندكم من ذلك ما يكفيكم » . وأنزل الله فيما سأله عنه من ذلك : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾ الآية .

وهكذا روى عن عكرمة ، وعطاء بن يسار . وهذا يقتضى أن هذه الآية مدنية لا مكية ، والمشهور أنها مكية ، والله (١) أعلم .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أى : عزيز قد عز كل شيء وقهره وغلبه ، فلا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معقب لحكمه ، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى خلقه وأمره ، وأقواله وأفعاله ، وشرعه وجميع شؤونه .

وقوله : ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً ﴾ أى : ما خلق جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة [خلق] (٢) نفس واحدة ، الجميع هين عليه و﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] ، ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر : ٥٠] أى : لا يأمر بالشىء إلا مرة واحدة ، فيكون ذلك الشىء لا يحتاج إلى تكرره وتوكده (٣) . ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣ ، ١٤] .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ أى : كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة ؛ ولهذا قال : ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ] (٤) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) .

يخبر تعالى أنه ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ بمعنى : يأخذ منه فى النهار ، فيطول ذلك ويقصر هذا ،

(١) فى ت ، ف : « فالله » .

(٢) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٣) فى ت ، ف ، أ : « وتوكيده » .

(٤) زيادة من ت ، ف ، أ ، وفى هـ : « الآية » .

وهذا يكون زمن الصيف يطول النهار إلى الغاية ، ثم يسرع في النقص فيطول الليل ويقصر النهار ، وهذا يكون في الشتاء ، ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قيل : إلى غاية محدودة . وقيل : إلى يوم القيامة . وكلا المعنيين صحيح ، ويستشهد للقول الأول بحديث أبي ذر ، رضى الله عنه ، الذى فى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال : « يا أبا ذر ، أتدرى أين تذهب هذه الشمس ؟ » . قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ، ثم تستأذن ربها فيوشك أن يقال لها : ارجعى من حيث جئت » (١) .

وقال ابن أبى الحاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو صالح ، حدثنا يحيى بن أيوب ، عن ابن جريج ، عن عطاء بن أبى رباح (٢) ، عن ابن عباس أنه قال : الشمس بمنزلة الساقية ، تجرى بالنهار فى السماء فى فلکها ، فإذا غربت جرت بالليل فى فلکها تحت الأرض حتى تطلع من مشرقها ، قال : وكذلك القمر . إسناده صحيح .

وقوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ، كقوله : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ (٣) وَالْأَرْضِ ﴾ [الحج : ٧٠] . ومعنى هذا : أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء ، كقوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ أى : إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق ، أى : الموجود الحق ، الإله الحق ، وأن كل ما سواه باطل ؟ فإنه الغنى عما سواه ، وكل شيء فقير إليه ؛ لأن كل ما (٤) فى السموات والأرض الجميع خلقه وعبيده ، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه ، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذبابا لعجزوا عن ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ أى : العلى : الذى لا أعلى منه ، الكبير : الذى هو أكبر من كل شيء ، فكل (٥) شيء خاضع حقير بالنسبة إليه .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) ﴾ .

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٣) وصحيح مسلم برقم (١٥٩) .

(٢) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » .

(٣) فى ت : « السموات » وهو خطأ .

(٥) فى ت ، ف : « وكل » .

(٤) فى ت : « من » .

يخبر تعالى أنه هو الذى سَخَّرَ البحر لتجرى فيه الفلك بأمره ، أى : بلطفه وتسخيره ؛ فإنه لولا ما جعل فى الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت ؛ ولهذا قال : ﴿ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ﴾ أى : من قدرته ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى : صبار فى الضراء ، شكور فى الرخاء .

ثم قال : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلِّ ﴾ أى : كالجبال والغمام ، ﴿ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ ﴾ [الإسراء : ٦٧] ، وقال : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥] .

ثم قال : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ قال مجاهد : أى كافر . كأنه فسر المقتصد ههنا بالجاحد ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥] .

وقال ابن زيد : هو المتوسط فى العمل .

وهذا الذى قاله ابن زيد هو المراد فى قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ [فاطر : ٣٢] ، فالمقتصد ههنا هو : المتوسط فى العمل . ويحتمل أن يكون مراداً هنا أيضاً ، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأحوال و الأمور العظام والآيات الباهرات فى البحر ، ثم بعد ما أنعم الله عليه من الخلاص ، كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام ، والدؤوب فى العبادة ، والمبادرة إلى الخيرات . فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً والحالة هذه ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ : فالخَتَّار : هو الغَدَّار . قاله مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، ومالك عن (١) زيد بن أسلم ، وهو الذى كلما عاهد نقض عهده ، والخَتَر : أتم الغدر وأبلغه ، قال عمرو بن معد يكرب :

وَأَنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ أَبَا عُمَيْرٍ
مَلَأَتْ يَدَيْكَ مِنْ غَدَرٍ وَخَتَرٍ (٢)

وقوله : ﴿ كَفُورٍ ﴾ أى : جحود للنعم لا يشكرها ، بل يتناساها ولا يذكرها .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَآخِشُوا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٣٣) ﴾ .

يقول تعالى منذراً للناس يوم المعاد ، وآمراً لهم بتقواه والخوف منه ، والخشية من يوم القيامة حيث ﴿ لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ﴾ أى : لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه . وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يتقبل منه .

ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ [أى : لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة] (٣) ، ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ يعنى : الشيطان . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة . فإنه يغر ابن آدم ويَعِدُّه ويمنيه ، وليس من ذلك شئ بل كما قال تعالى :

(١) فى ١ : « و » .

(٢) زيادة من ت ، ف ، ا .

(٣) البيت فى تفسير الطبرى (٥٤ / ٢١) .

﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء : ١٢٠] .

قال وهب بن منبه : قال عزيز ، عليه السلام : لما رأيت بلاء قومي اشتد حزني وكثر همي ، وأرق نومي ، فضرعت ^(١) إلى ربي وصليت وصمت فأنا في ذلك أتضرع أبكي إذ أتاني الملك فقلت له : أخبرني هل تشفع أرواح المصدقين ^(٢) للظلمة ، أو الآباء لأبنائهم ؟ قال : إن القيامة فيها ^(٣) فصل القضاء وملك ظاهر ، ليس فيه رخصة ، لا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الرحمن ، ولا يؤخذ فيه والد عن ولده ، ولا ولد عن والده ، ولا أخ عن أخيه ، ولا عبد عن سيده ، ولا يهتم أحد بغيره ^(٤) ولا يحزن لحزنه ، ولا أحد يرحمه ، كل مشفق على نفسه ، ولا يؤخذ إنسان عن إنسان ، كل يهتم همه ويكي عوله ، ويحمل وزره ، ولا يحمل وزره معه غيره . رواه ابن أبي حاتم .

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٣٤) .

هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها؛ فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب ، ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] ، وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله ، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه . وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه [الله] ^(٥) تعالى سواه ، ولكن إذا أمر بكونه ذكرا أو أنثى ، أو شقيا أو سعيدا علم الملائكة الموكلون بذلك ، ومن شاء الله من خلقه . وكذلك لا تدري نفس ماذا تكسب غدا في دنياها وأخرها ، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ في بلدتها أو غيره من أي بلاد الله كان ، لا علم لأحد بذلك . وهذه شبيهة بقوله تعالى : ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الآية [الأنعام : ٥٩] . وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس : مفاتيح الغيب .

قال الإمام أحمد : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثني حسين بن واقد ، حدثني عبد الله بن بريدة ، سمعت أبي - بريدة - ^(٦) يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «خمس لا يعلمهن إلا الله عز وجل : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾» ^(٧) .

هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجه .

حديث ابن عمر : قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر ^(٨) قال : قال رسول الله ﷺ : «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ

(١) في ف : « وتضرعت » (٢) في ت ، ف : « الصديقين » (٣) في ت ، ف ، أ : « إن يوم القيامة فيه » .

(٤) في ت « ولا يهتم بهم أحد » . (٥) زيادة من ت ، ف ، أ . (٦) في ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن بريدة » .

(٧) المسند (٣٥٣/٥) وقال الهيثمي في المجمع (٩٠/٧) : « رجال أحمد رجال الصحيح » .

(٨) في ت : « وروى البخاري عن عبد الله بن عمر » . (٩) في ت : « النبي » .

أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ .

انفرد بإخراجه البخارى فرواه فى « كتاب الاستسقاء » من صحيحه ، عن محمد بن يوسف الفريابى ، عن سفيان بن سعيد الثورى ، به (١) . ورواه فى التفسير من وجه آخر فقال :

حدثنا يحيى بن سليمان ، حدثنا ابن وهب ، حدثنى عمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر : أن أباه حدثه أن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مفاتيح الغيب خمس » . ثم قرأ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ ، انفرد به أيضا (٢) .

ورواه الإمام أحمد عن غندر ، عن شعبة ، عن عمر بن محمد ؛ أنه سمع أباه يحدث ، عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال : « أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ » (٣) .

[حديث ابن مسعود ، رضى الله عنه : قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى ، عن شعبة ، حدثنى عمرو بن مرة ، عن عبد الله بن سلمة قال : قال عبد الله (٤) : أوتي نبيكم ﷺ مفاتيح كل شيء غير خمس : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾] (٥) (٦) .

وكذا رواه عن محمد بن جعفر ، عن شعبة ، عن عمرو بن مرة ، به . وزاد فى آخره : قال : قلت له : أنت سمعته من عبد الله ؟ قال : نعم . أكثر من خمسين مرة (٧) .

ورواه أيضا عن وكيع ، عن مسعر ، عن عمرو بن مرة به (٨) .

وهذا إسناد حسن على شرط أصحاب السنن ولم يخرجوه .

حديث أبى هريرة : قال البخارى عند تفسير هذه الآية : حدثنا إسحاق ، عن جرير ، عن أبى حيان ، عن أبى زرعة ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه (٩) ؛ أن رسول الله ﷺ كان يوما بارزا للناس ، إذ أتاه رجل يمشى ، فقال : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال : « الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ، وتؤمن بالبعث الآخر » . قال : يا رسول الله ، ما الإسلام ؟ قال : « الإسلام : أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان » . فقال : يا رسول الله ، ما الإحسان ؟ قال : « الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . قال : يا رسول الله ، متى الساعة ؟ قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، ولكن سأحدثك عن أسرارها : إذا ولدت الأمة ربَّتها ، فذاك من أسرارها . وإذا كان الحفاة

(١) المسند (٢٤/٢) وصحيح البخارى برقم (١٠٣٥) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٦٩٧) .

(٣) المسند (٨٥/٢) .

(٤) فى ت : « وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال » .

(٥) زيادة من ف ، أ .

(٦) المسند (٣٨٦/١) .

(٧) المسند (٤٣٨/١) .

(٨) المسند (٤٤٥/١) .

(٩) فى ت : « وروى البخارى » .

الْعُرَاةَ رُؤُوسِ النَّاسِ ، فذاك من أشراطها ، فى خمس لا يعلمهن ^(١) إلا الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ... ﴾ ، ثم انصرف الرجل فقال : « ردوه علىَّ » . فأخذوا ليردوه ، فلم يروا شيئاً ، فقال : « هذا جبريل ، جاء ليعلم الناس دينهم » ^(٢) .

ورواه البخارى أيضا فى « كتاب الإيمان » ، ومسلم من طرق ، عن أبى حيان ، به ^(٣) . وقد تكلمنا عليه فى أول شرح البخارى . وذكرنا ثم حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى ذلك بطوله ، وهو من أفراد مسلم ^(٤) .

حديث ابن عباس : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر ، حدثنا عبد الحميد ، حدثنا شهر ، حدثنا عبد الله بن عباس ، رضى الله عنهما ، قال : جلس رسول الله ﷺ مجلسا له ، فأتاه جبريل فجلس بين يدى رسول الله ﷺ ^(٥) واضعاً كفيه على ركبتي النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، [حدثنى] ^(٦) ما الإسلام ؟ قال رسول الله ﷺ : « الإسلام : أن تسلم وجهك لله عز وجل ، وتشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله » . قال : فإذا فعلت ذلك فقد أسلمت ؟ قال : « إذا فعلت ذلك فقد أسلمت » . قال : يا رسول الله ، فحدثنى ما الإيمان ؟ قال : « الإيمان : أن تؤمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبين ، وتؤمن بالموت ، وبالحياة بعد الموت ، وتؤمن بالجنة والنار ، والحساب والميزان ، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره » . قال : فإذا فعلت ذلك فقد آمنت ؟ قال : « إذا ^(٧) فعلت ذلك فقد آمنت » . قال : يا رسول الله ، حدثنى ما الإحسان ؟ قال رسول الله ﷺ : « الإحسان : أن تعمل لله كأنك تراه ، فإن كنت لا تراه فإنه يراك » . قال : يا رسول الله ، فحدثنى متى الساعة ؟ قال رسول الله ﷺ : « سبحان الله . فى خمس لا يعلمهن إلا هو ^(٨) : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ ، ولكن إن شئت حدثتك بمعالم لها دون ذلك ؟ » . قال : أجل ، يا رسول الله ، فحدثنى . قال رسول الله ﷺ : « إذا رأيت الأمة ولدت ربّتها - أو : ربها - ورأيت أصحاب الشاء يتناولون فى البنيان ، ورأيت الحفاة الجياع العالة [كانوا رؤوس الناس ، فذلك من معالم الساعة وأشراطها] . قال : يا رسول الله ، ومن أصحاب الشاء والحفاة الجياع العالة ؟ قال : « العرب » ^(٩) ^(١٠) .

حديث غريب ، ولم يخرجوه

حديث رجل من بنى عامر : روى الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن منصور ، عن ربعى بن حراش ، عن رجل من بنى عامر ؛ أنه استأذن على النبى ﷺ فقال : أألج ؟ فقال النبى ﷺ لخادمه : « أخرجنى إليه ، فإنه لا يحسن الاستئذان فقولى له : فليقل : « السلام عليكم ، أأدخل ؟ » قال : فسَمِعته يقول ذلك ، فقلت : السلام عليكم ، أأدخل ؟ فأذن ، فدخلت ، فقلت : بم أتيتنا به ؟ قال : « لم آتكم إلا بخير ، أتيتكم أن تعبدوا الله وحده لا شريك له ، وأن

(١) فى ت : « لا يعلمهم » .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧٧٧) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٠) وصحيح مسلم برقم (٩) .

(٤) صحيح مسلم برقم (٨) .

(٥) فى ف ، أ : « بين يديه » . (٦) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمُسند .

(٧) فى ف : « فإذا » . (٨) فى أ : « الله » .

(٩) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمُسند . (١٠) المُسند (٣١٨/١) .

تَدَعُوا اللّات والعزى ، وأن تصلوا بالليل والنهار خمس صلوات ؛ وأن تصوموا من السنة شهراً ، وأن تحجوا البيت ، وأن تأخذوا الزكاة من مال أغنيائكم فتردوها على فقرائكم » . قال : فقال : فهل بقى من العلم شيء لا تعلمه ؟ قال : « قد علّم الله عز وجل خيراً ، وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله عز وجل : الخمس : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ » (١) . وهذا إسناد صحيح .

وقال ابن أبى نجیح ، عن مجاهد : جاء رجل من أهل البادية فقال : إن امرأتى حبلى ، فأخبرنى ما تلد ؟ وبلادنا جدبة ، فأخبرنى متى ينزل الغيث ؟ وقد علمت متى ولدت فأخبرنى متى أموت ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ [وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ] ﴾ (٢) ، إلى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ . قال مجاهد : وهى (٣) مفاتيح الغيب التى قال الله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام : ٥٩] . رواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير .

وقال الشعبى ، عن مسروق ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، أنها قالت : من حدثك أنه يعلم ما فى غد فقد كذب ، ثم قرأت : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ (٤) .

وقوله : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ : قال قتادة : أشياء استأثر الله بهن ، فلم يُطلع عليهن ملكاً مقرباً ، ولا نبياً مرسلًا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ ، فلا يدرى أحد من الناس متى تقوم الساعة ، فى أى سنة أو فى أى شهر ، أو ليل أو نهار ، ﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ ، فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ، ليلاً أو نهاراً ، ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ ، فلا يعلم أحد ما فى الأرحام ، أذكر أم أنثى ، أحمر أو أسود ، وما هو ، ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ ، أخير أم شر ، ولا تدرى يا ابن آدم متى تموت ؟ لعلك الميت غدا ، لعلك المصاب غدا ، ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ ليس أحد من الناس يدرى أين مضجعه من الأرض ، أفى بحر أم بر ، أو سهل أو جبل ؟

وقد جاء فى الحديث : « إذا أراد الله قبض عبد بأرض ، جعل له إليها حاجة » ، فقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى فى معجمه الكبير ، فى مسند أسامة بن زيد :

حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، أخبرنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن أيوب ، عن أبى المليح ، عن أسامة (٥) بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : « ما جعل الله ميتة (٦) عبد بأرض إلا جعل له فيها حاجة » (٧) .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا أبو داود الحفري ، عن

(١) المسند (٣٦٨/٥) .

(٢) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٣) فى أ : « وهن » .

(٤) تفسير الطبرى (٥٦/٢١) .

(٥) فى ت : « فروى أبو القاسم الطبرانى فى معجمه الكبير فى مسند أسامة » .

(٦) فى ت ، ف ، أ : « منية » .

(٧) المعجم الكبير (١٧٨/١) وقال الهيثمى فى المجمع (١٩٦/٧) ، « ورجاله رجال الصحيح » وفيها : « منية » بدل : « ميتة » .

سفيان ، عن أبي إسحاق ، عن مطر بن عكّامس قال : قال رسول الله ﷺ (١) : « إذا قضى الله ميتة عبد بأرض ، جعل له إليها حاجة » .

وهكذا رواه الترمذى فى « القدر » ، من حديث سفيان الثورى ، به (٢) . ثم قال : « حسن غريب ، ولا يعرف لمطر عن النبى ﷺ غير هذا الحديث . وقد رواه أبو داود فى « المراسيل » (٣) ، فالله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا أيوب ، عن أبي المليح بن أسامة (٤) ، عن أبي عزة (٥) قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله قبض روح عبد بأرض جعل له فيها - أو قال : بها - حاجة » .

وأبو عزة هذا هو : يسار (٦) بن عبد الله ، ويقال : ابن عبد الهذلى .

وأخرجه الترمذى من حديث إسماعيل [بن إبراهيم - وهو ابن علية (٧) ، وقال : صحيح .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن عصام الأصفهاني ، حدثنا المؤمل بن إسماعيل [(٨) ، حدثنا عبيد الله بن أبى حميد ، عن أبى المليح ، عن أبى عزة الهذلى قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله قبض عبد بأرض ، جعل له إليها حاجة ، فلم ينته حتى يقدمها » . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٩) .

حديث آخر : قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أحمد بن ثابت الجحدريّ ومحمد بن يحيى القطعى قالا : حدثنا عمر بن على ، حدثنا إسماعيل ، عن قيس ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة » . ثم قال البزار : وهذا الحديث لا نعلم أحداً يرفعه إلا عمر بن على المقدّمى (١٠) . وقال ابن أبى الدنيا : حدثنى سليمان بن أبى مسيح (١١) قال : أنشدنى محمد بن الحكم لأعشى همدان :

فَمَا تَزَوَّدَ مِمَّا كَانَ يَجْمَعُهُ	سَوَى حُنُوطِ غَدَاةِ الْبَيْنِ مَعَ خَرَقِ
وَعَبْرَ نَفْحَةِ أَغْوَادٍ تُشَبِّهُ لَهُ	وَقَلَّ ذَلِكَ مِنْ زَادٍ لُنُطَلِقَ !
لَا تَأْسَيْنَ عَلَى شَيْءٍ فَكُلْ فَتَى	إِلَى مَنِيَّتِهِ سَيَّارُ فِى عَنَقِ (١٢)
وَكُلَّ مَنْ ظَنَّ أَنَّ الْمَوْتَ يُخْطِئُهُ	مُعَلَّلٌ بِأَعَالِيلٍ مِنَ الْحَمَقِ
بِأَيِّمَا بَلَدَةٍ تُقْدَرُ مَنِيَّتُهُ	إِنْ لَا يُسَيِّرُ إِلَيْهَا طَائِعًا يُسَقِ

(١) فى ت : « روى عبد الله بن الإمام أحمد بإسناده أن رسول الله ﷺ قال » .

(٢) زوائد المسند (٢٢٧/٥) وسنن الترمذى برقم (٢١٤٦) .

(٣) لم أجده فى المطبوع من المراسيل .

(٤) فى ت : « وروى الإمام أحمد » . (٥) فى أ : « عن أبى عزة الهذلى » . (٦) فى ف : « بشار » .

(٧) المسند (٤٢٩/٣) وسنن الترمذى برقم (٢١٤٧) .

(٨) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٩) ورواه الطبرانى فى الأوسط برقم (٣٢٤٨) « مجمع البحرين » من طريق عباد بن صهيب ، عن عبيد الله بن أبى حميد به ، وعباد ابن صهيب متروك .

(١٠) ورواه الحاكم فى المستدرک (٣٦٧/١) من طريق محمد بن خالد الوهيب ، عن إسماعيل بن أبى خالد بنحوه .

(١١) فى ت ، ف ، أ : « شيخ » . (١٢) فى ت : « يسير فى غنق » .

أورده الحافظ ابن عساكر ، رحمه الله ، فى ترجمة عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث (١) ، وهو أعشى همدان ، وكان الشعبى زوج أخته ، وهو مَزُوجٌ بأخت الشعبى أيضا ، وقد كان ممن طلب العلم وتَفَقَّه ، ثم عدل إلى صناعة الشعر فعُرف به .

وقد رواه ابن ماجه عن أحمد بن ثابت وعُمَر بن شَبَّة ، كلاهما عن عمر بن على (٢) مرفوعا : « إذا كان أجل أحدكم بأرض أو ثبَّتْهُ (٣) إليها حاجة ، فإذا بلغ أقصى أثره (٤) ، قبضه الله عز وجل ، فتقول الأرض يوم القيامة : رب ، هذا ما أودعتنى » (٥) .

قال الطبرانى : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن أيوب ، عن أبى المليح ، عن أسامة أن رسول الله ﷺ قال : « ما جعل الله منية عبد بأرض ، إلا جعل له إليها حاجة » (٦) .

[آخر تفسير سورة « لقمان » والحمد لله رب العالمين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل] (٧)

(١) لم أجد الآيات فيما بين يدي من تاريخ دمشق ولا فى المختصر لابن منظور .

(٢) فى ت ، ف : « عكرمة » .

(٣) فى ف : « آتت » .

(٤) فى ت ، ف : « أمره » .

(٥) سنن ابن ماجه برقم (٤٢٦٣) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/٢٦٤) : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » . والكلام هنا متعلق برواية البزار ولم أستسغ تقديمها ؛ لورودها هكذا فى النسخ .

(٦) المعجم الكبير (١/١٧٨) وقد مر ذكره .

(٧) زيادة من ت ، ف ، أ .

تفسير سورة السجدة (١)

وهي مكية.

قال البخارى فى « كتاب الجمعة » : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا سفيان ، عن سعد بن إبراهيم ، عن عبد الرحمن بن هُرْمُزٍ الأعرج (٢) ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : كان النبى ﷺ يقرأ فى الفجر يوم الجمعة : ﴿ اَلَمْ . تَنْزِيلُ ﴾ السجدة ، و ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ ﴾ .

ورواه مسلم أيضا من حديث سفيان الثورى ، به (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، أخبرنا الحسن بن صالح ، عن ليث ، عن أبى الزبير ، عن جابر قال : كان النبى ﷺ لا ينام حتى يقرأ ﴿ اَلَمْ . تَنْزِيلُ ﴾ السجدة ، و ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ تفرد به أحمد (٥) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اَلَمْ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) ﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أول سورة « البقرة » بما أغنى عن إعادته .

وقوله : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أى : لا شك فيه ولا مرية أنه نزل (٦) ، ﴿ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

ثم قال مخبراً عن المشركين : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ ، بل يقولون : ﴿ افْتَرَاهُ ﴾ أى : اختلقه من تلقاء نفسه ، ﴿ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أى : يتبعون الحق .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) ﴾ .

(٣) فى ت : « رسول الله » .

(٢) فى ت : « وروى البخارى بإسناده » .

(١) فى أ : « سورة آلم السجدة » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٨٩١) وصحيح مسلم برقم (٨٨٠) .

(٥) المسند (٣/ ٣٤٠) .

(٦) فى ف ، أ : « منزل » .

يخبر تعالى أنه الخالق للأشياء ، فخلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش . وقد تقدم الكلام على ذلك .

﴿ مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مَنِ وَلِيَ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ أى : بل هو المالك لأزمة الأمور ، الخالق لكل شىء ، المدبر لكل شىء ، القادر (١) على كل شىء ، فلا ولى لخلقه سواه ، ولا شفيع إلا من بعد إذنه .
﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ يعنى : أيها العابدون غيره ، المتوكلون على من عداه - تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك أو نديد ، أو وزير أو عدل ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

وقد أورد النسائي ههنا حديثا فقال: حدثنا إبراهيم بن يعقوب ، حدثنى محمد بن الصباح ، حدثنا أبو عبيدة الحداد ، حدثنا الأخضر بن عجلان ، عن ابن جرير المكي ، عن عطاء (٢) ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ أخذ بيدي فقال : « إن الله خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش فى اليوم (٣) السابع ، فخلق التربة يوم السبت ، والجبال يوم الأحد ، والشجر يوم الإثنين ، والمكروه يوم الثلاثاء ، والنور يوم الأربعاء ، والدواب يوم الخميس ، وآدم يوم الجمعة فى آخر ساعة من النهار بعد العصر ، وخلق من أديم الأرض ، بأحمرها وأسودها ، وطيبها وخبيثها ، من أجل ذلك جعل الله من بنى آدم الطيب والخبيث » (٤) .

هكذا أورد هذا الحديث إسناداً ومتنا ، وقد أخرج مسلم والنسائي أيضا من حديث الحجاج بن محمد الأعور ، عن ابن جرير ، عن إسماعيل بن أمية ، عن أيوب بن خالد ، عن عبد الله بن رافع ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بنحو من هذا السياق (٥) .

وقد علله البخارى فى كتاب « التاريخ الكبير » فقال : « وقال بعضهم : أبو هريرة عن كعب الأخبار وهو أصح » (٦) ، وكذا علله غير واحد من الحفاظ ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ أى : يتنزل (٧) أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة ، كما قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لَعَلَّكُمْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا ، ومسافة ما بينها وبين الأرض [مسيرة] (٨) خمسمائة سنة ، وسمك السماء خمسمائة سنة .

وقال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك : النزول من الملك فى مسيرة خمسمائة عام ، وصعوده فى مسيرة خمسمائة عام ، ولكنه يقطعها فى طرفة عين ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾

(١) فى ت ، ف ، أ : « القاهر » . (٢) فى ت : « وروى مسلم والنسائي حديثا » . (٣) فى ت : « على العرش يوم » .

(٤) النسائي فى السنن الكبرى برقم (١١٣٩٢) .

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٩) والنسائي فى السنن الكبرى برقم (١١٠١٠) .

(٦) التاريخ الكبير للبخارى (١/ ٤١٣ ، ٤١٤) ومن أعله من الحفاظ ابن المدينى كما نقل ذلك البيهقى فى الأسماء والصفات ص (٢٧٥)، وقد رد ذلك الشيخ ناصر الألبانى فى صحيحته برقم (١٨٣٣)، والحديث يحتاج إلى بحث ، والله أعلم .

(٧) فى ت ، ف : « ينزل » . (٨) زيادة من ت ، ف ، أ .

مِمَّا تَعْدُونَ ﴿٦﴾ .

﴿ ذَلِكْ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أى : المدبر لهذه الأمور الذى هو شهيد على أعمال عباده ، يرفع إليه جليلها وحقيرها ، وصغيرها وكبيرها - هو ﴿ الْعَزِيز ﴾ الذى قد عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ فقهره وغلبه ، ودانت له العباد والرقاب ، ﴿ الرَّحِيم ﴾ بعباده المؤمنين . فهو عزيز فى رحمته ، رحيم فى عزته [وهذا هو الكمال : العزة مع الرحمة ، والرحمة مع العزة ، فهو رحيم بلا ذل] (١) .

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٩) ﴿٩﴾ .

يقول تعالى : إنه الذى أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ قال : أحسن خلق كل شيء . كأنه جعله من المقدم والمؤخر .

ثم لما ذكر خلق السموات والأرض ، شرع فى ذكر خلق الإنسان فقال : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ ، يعنى : خلق أبا البشر آدم من طين ، ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ أى : يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة ، ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ يعنى : آدم ، لما خلقه من تراب خلقه سويا مستقيما ، ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ ، يعنى : العقول ، ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أى : بهذه القوى التى رزقكموها الله عز وجل (٢) . فالسعيد من استعملها فى طاعة ربه عز وجل .

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴿١١﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فى استبعادهم المعاد حيث قالوا : ﴿ أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : تمزقت أجسامنا وتفرقت فى أجزاء الأرض (٣) وذهبت ، ﴿ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ؟ أى : أننا لنعود بعد تلك الحال ؟! يستبعدون ذلك (٤) ، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قدرتهم العاجزة ، لا بالنسبة إلى قُدرة الذى بدأهم وخلقهم من العدم ، الذى إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ؛ ولهذا قال : ﴿ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ ، الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص

(٣) فى أ : « الأرضين » .

(٢) فى ف ، أ : « تعالى » .

(١) زيادة من ت ، ف .

(٤) فى أ : « تلك الحال » .

معين من الملائكة ، كما هو المتبادر من حديث البراء المتقدم ذكره في سورة « إبراهيم » (١) ، وقد سمى في بعض الآثار بعزرائيل ، وهو المشهور ، قاله قتادة وغير واحد ، وله أعوان . وهكذا (٢) ورد في الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد ، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت .

قال مجاهد : حُوت له الأرض فجعلت له مثل الطست ، يتناول منها حيث يشاء (٣) . ورواه زهير بن محمد عن النبي ﷺ ، بنحوه مرسل . وقاله ابن عباس ، رضى الله عنهما .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا يحيى بن أبي يحيى المقرئ ، حدثنا (٤) عمرو بن شمر (٥) عن جعفر بن محمد قال : سمعت أبي يقول : نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار ، فقال له النبي ﷺ : « ياملك الموت ، ارفق بصاحبى فإنه مؤمن » . فقال ملك الموت : يامحمد ، طب نفساً وقر عيناً فإنى بكل مؤمن رفيق ، واعلم أن ما فى الأرض بيت مدر ولا شعر ، فى بر ولا (٦) بحر ، إلا وأنا أتصفحه فى كل يوم خمس مرات ، حتى إنى أعرف (٧) بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم ، والله يا محمد ، لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الأمر بقبضها (٨) .

قال جعفر : بلغنى أنه إنما يتصفحهم عند (٩) مواقيت الصلاة ، فإذا حضرهم عند الموت فإن كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه الملك ، ودفع عنه الشيطان ، ولقنه الملك : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » فى تلك الحال العظيمة .

وقال عبد الرزاق : حدثنا محمد بن مسلم ، عن إبراهيم بن ميسرة قال : سمعت مجاهداً يقول (١٠) : ما على ظهر الأرض من بيت شعر أو مدر إلا وملك الموت يطيف به كل يوم مرتين .

وقال كعب الأحبار : والله ما من بيت فيه أحد من أهل الدنيا إلا وملك الموت يقوم على بابه كل يوم سبع مرات . ينظر هل فيه أحد أمر أن (١١) يتوفاه . رواه ابن أبي حاتم .

وقوله : « ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ » أى : يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِن

(١) عند الآية السابعة والعشرين ، وقد جاء الحديث بتمامه فى نسخة ت .

(٢) فى ت : « كما » . (٣) فى ت : « شاء » . (٤) فى ت : « وروى ابن أبي حاتم بإسناده عن » .

(٥) فى ت ، ف ، أ ، هـ : « عمر بن سمرة » ، والتصويب من البداية والنهاية والمعجم .

(٦) فى ت : « أو » . (٧) فى ف ، أ : « لأعرف » .

(٨) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٢٠ / ٤) ، والبراز فى مسنده برقم (٧٨٤) « كشف الأستار » من طريق إسماعيل بن أبان ، عن عمرو

ابن شمر الجعفى ، عن جعفر بن محمد عن أبيه ، عن الحارث بن الخزرج عن أبيه ، أنه سمع رسول الله ﷺ فذكر نحوه ، فأسنده

ولم يرسله ، ذكره الحافظ ابن حجر فى الإصابة وقال : « عمرو بن شمر متروك الحديث » .

(٩) فى ف : « فى » . (١٠) فى ت : « وقال مجاهد » . (١١) فى ت ، ف ، أ : « به » .

الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة ، وحالهم حين عاينوا البعث ، وقاموا بين يدي الله حقيرين ذليلين ، ناكسى رؤوسهم ، أى : من الحياء والخجل ، يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ (١) أى : نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك ، كما قال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصُرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم : ٣٨] . وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا (٢) دخلوا النار بقولهم : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١٠] . وهكذا هؤلاء يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا ﴾ أى : إلى الدار الدنيا ، ﴿ نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ أى : قد أيقنا وتحققنا أن وعدك حق ولقاءك حق ، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى الدار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفاراً يكذبون آيات (٣) الله ويخالفون رسله ، كما قال : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٧ - ٢٩] . وقال ههنا : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مِنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس : ٩٩] .

﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أى : من الصنفين ، فدارهم النار (٤)

لا محيد لهم عنها ولا محيص لهم منها ، نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك .

﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ أى : يقال لأهل النار على سبيل التقرير والتوبيخ : ذوقوا

[هذا] (٥) العذاب بسبب تكذيبكم به ، واستبعادكم وقوعه ، وتناسيكم له ؛ إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له ، ﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ أى : [إننا] (٦) سنعاملكم معاملة الناسى ؛ لأنه تعالى لا ينسى شيئاً ولا يضل عنه شيء ، بل من باب المقابلة ، كما قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ [الجنّة : ٣٤] .

وقوله : ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى : بسبب كفركم وتكذيبكم (٧) ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا . إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا . جَزَاءً وَفَاقًا . إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا . وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا . وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا . فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبا : ٢٤ - ٣٠] .

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا

(١) بعدها فى ف ، أ : « فارجعنا نعمل صالحاً » .

(٢) فى ت : « إذ » .

(٣) فى ت ، ف : « بآيات » .

(٤) فى ت ، ف : « قد ذرأهم للنار » .

(٥) زيادة من أ .

(٦) زيادة من ت .

(٧) فى ت : « كفرهم وتكذيبهم » .

يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ أى : إنما يصدق بها ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ أى : استمعوا لها وأطاعوها قولاً وفعلاً ، ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [أى (١)] عن اتباعها والانقياد لها ، كما يفعلها الجاهلة من الكفرة الفجرة ، [وقد (٢)] قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] .

ثم قال [تعالى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾] يعنى بذلك : قيام الليل ، وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطينة . قال مجاهد والحسن فى قوله تعالى [(٣) : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ ﴾] ، يعنى بذلك : قيام الليل .

وعن أنس ، وعكرمة ، ومحمد بن المنكدر ، وأبى حازم ، وقتادة : هو الصلاة بين العشاءين . وعن أنس أيضاً : هو انتظار صلاة العتمة . رواه ابن جرير بإسناد جيد (٤) .

وقال الضحاك : هو صلاة العشاء فى جماعة ، وصلاة الغداة فى جماعة . ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أى : خوفاً من وبال عقابه ، وطمعاً فى جزيل ثوابه ، ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ، فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية ، ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم فى الدنيا والآخرة رسول الله ﷺ ، كما قال عبد الله بن رواحة ، رضى الله عنه :

وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ يَتْلُو كِتَابَهُ إِذَا انشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الصُّبْحِ سَاطِعٌ
[أَرَانَا الْهُدَى بَعْدَ الْعَمَى فَقَلُّوبُنَا بِهِ مُوقِنَاتٌ أَنَّ مَا قَالَ وَاقِعٌ] (٥)
يَبِيتُ يُجَافَى جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ إِذَا اسْتَثْقَلَتْ بِالْمُشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ

وقال الإمام أحمد : حدثنا روح وعفان قالا : حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا عطاء بن السائب ، عن مروة الهمداني ، عن ابن مسعود (٦) ، عن النبي ﷺ قال : « عجب ربنا من رجلين : رجل ثار من وطأته ولخافه ، ومن بين أهله وحيه (٧) إلى صلاته ، [فيقول ربنا : أيا ملائكتى ، انظروا إلى عبدى ، ثار من فراشه ووطأته ، ومن بين حيه وأهله إلى صلاته] (٨) رغبة فيما عندى ، وشفقة مما عندى . ورجل غزا فى سبيل الله ، عز وجل ، فانهزموا ، فعلم ما عليه من الفرار ، وما له فى

(٣) زيادة من ت ، ف .

(٢) زيادة من ت .

(١) زيادة من ت ، ف .

(٤) تفسير الطبرى (٦٣/٢١) .

(٥) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٦) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن ابن مسعود » .

(٨) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسنند .

(٧) فى ت ، ف ، أ : « من بين بنيه وأهله » .

الرجوع ، فرجع حتى أهرى دم ، رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى . فيقول الله ، عز وجل للملائكة : انظروا إلى عبدى رجع رغبة فيما عندى ، ورهبة مما عندى ، حتى أهرى دم .

وهكذا رواه أبو داود فى « الجهاد » ، عن موسى بن إسماعيل ، عن حماد بن سلمة ، به بنحوه (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن عاصم بن أبى النجود ، عن أبى وائل (٢) ، عن معاذ بن جبل قال : كنت مع النبى ﷺ فى سفر ، فأصبحت يوما قريبا منه ، ونحن نسير ، فقلت : يا نبى الله (٣) ، أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار . قال : « لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت » . ثم قال : « ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل فى (٤) جوف الليل » . ثم قرأ : ﴿ تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ ، حتى بلغ ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ . ثم قال : « ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ » فقلت : بلى ، يارسول الله . فقال : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله » . ثم قال : « ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ » فقلت : بلى ، يا نبى الله . فأخذ بلسانه ثم قال : « كَفَّ عليك هذا » . فقلت : يارسول الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به . فقال : « ثكلتك أمك يامعاذ ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم - أو قال : على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم » .

رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه فى سننهم ، من طرق عن معمر ، به (٥) . وقال (٦) الترمذى : حسن صحيح . ورواه ابن جرير من حديث شعبة ، عن الحكم قال : سمعت عروة بن النزال (٧) يحدث عن معاذ بن جبل ؛ أن رسول الله ﷺ قال له : « ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جنة ، والصدقة تكفر الخطيئة ، وقيام العبد فى جوف الليل » ، وتلا هذه الآية : ﴿ تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٨) .

ورواه أيضا من حديث الثورى ، عن منصور بن المعتمر ، عن الحكم ، عن ميمون بن أبى شبيب ، عن معاذ ، عن النبى ﷺ بنحوه ، ومن حديث الأعمش ، عن حبيب بن أبى ثابت ، والحكم عن ميمون بن أبى شبيب ، عن معاذ مرفوعا بنحوه . ومن حديث حماد بن سلمة ، عن عاصم بن أبى النجود ، عن شهر ، عن معاذ بن جبل ، عن النبى ﷺ ، فى قوله تعالى : ﴿ تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٩) .

(١) المسند (٤١٦/١) وسنن أبى داود برقم (٥٢٣٦) .

(٢) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » .

(٣) فى ت : « يارسول الله » . (٤) فى ت : « من » .

(٥) المسند (٢٣١/٥) وسنن الترمذى برقم (٢٦١٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٩٤) وسنن ابن ماجه برقم (٣٩٧٣) .

(٦) فى ت : « رواه » . (٧) فى أ : « الزبير » .

(٨) تفسير الطبرى (٦٤/٢١) .

المَضَاجِعِ ﴿١﴾ ، قال : « قيام العبد من الليل » (١) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطي ، حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا فطر بن خليفة ، عن حبيب بن أبي ثابت ، والحكم ، وحكيم بن جبير ، عن ميمون بن أبي شبيب ، عن معاذ بن جبل قال : كنت مع النبي ﷺ في غزوة تبوك فقال : « إن شئت أنبأتك بأبواب الخير : الصوم جنة ، والصدقة تطفي الخطيئة ، وقيام الرجل في جوف الليل » ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ .

ثم قال : حدثنا أبي ، حدثنا سويد بن سعيد ، حدثنا علي بن مسهر ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن شهر بن حوشب (٢) ، عن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله ﷺ : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، جاء مناد فنادى بصوت يُسمعُ الخلائق : سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم . ثم يرجع فينادى : ليقم (٣) الذين كانت ﴿ تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ الآية ، فيقومون وهم قليل » (٤) .

وقال البزار : حدثنا عبد الله بن شبيب ، حدثنا الوليد بن عطاء بن الأغر ، حدثنا عبد الحميد بن سليمان ، حدثني مصعب ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه قال : قال بلال (٥) لما نزلت هذه الآية : ﴿ تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ [الآية] (٦) ، كنا نجلس في المجلس ، وناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون بعد المغرب إلى العشاء ، فنزلت هذه الآية : ﴿ تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ .

ثم قال : لا نعلم روى أسلم عن بلال سواه ، وليس له طريق عن بلال غير هذه الطريق (٧) . وقوله : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّنْ قُرَّةٍ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى : فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم ، واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد ، لَمَّا أخفوا أعمالهم (٨) أخفى الله لهم من الثواب ، جزاء وفاقا ؛ فإن الجزاء من جنس العمل .

قال الحسن [البصري] (٩) : أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم تر عين ، ولم يخطر (١٠) على قلب بشر . رواه ابن أبي حاتم .

قال البخاري : قوله : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّنْ قُرَّةٍ أَعْيُنٍ ﴾ الآية : حدثنا علي بن

(١) تفسير الطبري (٢١/٦٤ ، ٦٥) .

(٢) في ت : « وروى ابن أبي حاتم بإسناده » .

(٣) في ت : « لتقم » .

(٤) ورواه إسحاق بن راهويه في مسنده ، وأبو يعلى في المسند الكبير كما في المطالب العالية (٤/٣٧٣) من حديث أسماء بنت يزيد رضى الله عنها .

(٥) في ت : « وقال البزار بإسناده عن بلال قال » .

(٦) زيادة من ت ، ف .

(٧) مسند البزار برقم (٢٢٥٠) « كشف الاستار » ، وقال الهيثمي في المجمع (٧/٩٠) : « فيه عبد الله بن شبيب وهو ضعيف » .

(٨) في ت ، ف ، أ : « أعمالهم كذلك » .

(٩) زيادة من أ . (١٠) في ت : « ولا يخطر » .

عبد الله، حدثنا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». قال أبو هريرة: فاقروا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

قال: وحدثنا سفيان، حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال الله مثله (١). قيل لسفيان: رواية؟ قال: فأى شيء؟

ورواه مسلم والترمذى من حديث سفيان بن عيينة، به (٢). وقال الترمذى: حسن صحيح.

ثم قال البخارى: حدثنا إسحاق بن نصر، حدثنا أبو أسامة، عن الأعمش، حدثنا (٣) أبو صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ذخراً من بلك ما أطلعتم عليه»، ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قال أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، قرأ أبو هريرة: «قُرَّتْ أَعْيُنٌ». انفرد به البخارى من هذا الوجه (٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

أخرجاه فى الصحيحين من رواية عبد الرزاق (٥). ورواه الترمذى فى التفسير، وابن جرير، من حديث عبد الرحيم بن سليمان، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ بمثله. ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح (٦).

وقال حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أبي رافع، عن أبي هريرة (٧)، رضى الله عنه، قال حماد: أحسبه عن النبي (٨) ﷺ قال: «من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، فى الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

(١) فى ف، أ: «تعالى».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧٧٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٩٧).

(٣) فى ف، أ: «عن».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٠) وفى البخارى «رواية أبي معاوية» بعد الحديث المتقدم.

(٥) المسند (٣١٣/٢) وصحيح البخارى برقم (٨٤٩٨) من طريق عبد الله عن معمر به، ولم أجده فى الصحيحين من رواية عبد الرزاق.

(٦) سنن الترمذى برقم (٣٢٩٢) وتفسير الطبرى (٦٦/٢١).

(٧) فى ت: «وروي مسلم عن أبي هريرة».

(٨) فى ت: «رسول الله».

رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة ، به (١) .

وروى (٢) الإمام أحمد : حدثنا هارون ، حدثنا ابن وهب ، حدثني أبو صخر ، أن أبا حازم حدثه قال : سمعت (٣) سهل بن سعد الساعدي ، رضى الله عنه ، يقول : شهدت من رسول الله ﷺ مجلسا وصف فيه الجنة ، حتى انتهى ، ثم قال فى آخر حديثه : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ (٤) ، إلى قوله : ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ .

وأخرجه مسلم فى صحيحه عن هارون بن معروف ، وهارون بن سعيد ، كلاهما عن ابن وهب ، به (٥) .

وقال ابن جرير : حدثني العباس بن أبي طالب ، حدثنا معلى بن أسد ، حدثنا سلام بن أبى مطيع ، عن قتادة ، عن عقبة بن عبد الغافر ، عن أبى سعيد الخدرى ، عن رسول الله ﷺ ، يروى عن ربه ، عز وجل ، قال : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . لم يخرجوه (٦) .

وقال (٧) مسلم أيضا فى صحيحه : حدثنا ابن أبى عمر وغيره ، حدثنا سفيان ، حدثنا مطرف بن طريف وعبد الملك بن سعيد ، سمعا الشعبى يخبر عن المغيرة بن شعبة قال : سمعته على المنبر - يرفعه إلى النبى ﷺ - قال : « سأل موسى ، عليه السلام (٨) ربه عز وجل : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هو رجل يجىء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة . فيقول : أى رب ، كيف وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل مُلْكٍ مُلْكٍ من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب . فيقول : لك ذلك ، ومثله ، ومثله ، ومثله ، ومثله ، فقال فى الخامسة : رضيت رب . فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله (٩) ، ولك ما اشتئت نفسك ولذت عينك . فيقول : رضيت رب . قال : رب ، فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت ، غرستُ كرامتهم بيدي ، وختمت عليها ، فلم تر عين ، ولم تسمع (١٠) أذن ، ولم يخطر على قلب بشر » ، قال : ومصادقه من كتاب الله : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

ورواه الترمذى عن ابن أبى عمر ، وقال : حسن صحيح ، قال : ورواه بعضهم عن الشعبى ، عن المغيرة ولم يرفعه ، والمرفوع أصح (١١) .

(١) صحيح مسلم برقم (٢٨٣٦) .

(٢) فى ت : « وروى مسلم أيضا عن » .

(٣) فى أ : « وقال » .

(٤) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٥) المسند (٥/٣٣٤) ، وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٥) .

(٦) تفسير الطبرى (٦٧/٢١) .

(٧) فى ت : « وروى » .

(٨) فى ت : « ﷺ » .

(٩) فى ف ، أ : « وعشرة أمثاله معه » .

(١٠) فى ف « تسمع » .

(١١) صحيح مسلم برقم (١٨٩) ، وسنن الترمذى برقم (٣١٩٨) .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا جعفر بن منير المدائني ، حدثنا أبو بدر شجاع بن الوليد ، حدثنا زياد ابن خيثمة ، عن محمد بن جحادة ، عن عامر^(١) بن عبد الواحد قال : بلغني أن الرجل من أهل الجنة يمكث في مكانه سبعين سنة ، ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه ، فتقول له : قد أتى لك أن يكون لنا منك نصيب ؟ فيقول : من أنت ؟ فتقول : أنا من المزيدي . فيمكث معها سبعين سنة ، ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه ، فتقول له : قد أتى لك أن يكون لنا منك نصيب ، فيقول : من أنت ؟ فتقول : أنا التي^(٢) قال الله : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ .

وقال ابن لهيعة : حدثني عطاء بن دينار ، عن سعيد بن جبيرة قال : تدخل عليهم الملائكة في مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات ، معهم التحف من الله من جنات عدن ما ليس في جناتهم ، وذلك قوله : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ ، ويخبرون أن الله عنهم^(٣) راض .

وقال ابن جرير : حدثنا سهل بن موسى الرازي ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن صفوان بن عمرو ، عن أبي اليمان الهوزني - أو غيره - قال : الجنة مائة درجة ، أولها درجة فضة وأرضها فضة ، ومساكنها فضة ، [وأنيبها فضة]^(٤) وترابها المسك . والثانية ذهب ، وأرضها ذهب ، ومساكنها ذهب ، وأنيبها ذهب ، وترابها المسك . والثالثة لؤلؤ ، وأرضها لؤلؤ ، ومساكنها اللؤلؤ ، وأنيبها اللؤلؤ ، وترابها المسك . وسبع وتسعون بعد ذلك ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ثم تلا هذه الآية : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(٥) .

وقال ابن جرير : حدثني يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا معتمر بن سليمان ، عن الحكم بن أبان ، عن الغطريف ، عن جابر بن زيد ، عن ابن عباس^(٦) ، عن النبي ﷺ ، عن الروح الأمين قال : « يؤتى بحسنات العبد وسيئاته ، ينقص بعضها من بعض ، فإن بقيت حسنة [واحدة]^(٧) وسع الله له في الجنة » ، قال : فدخلت على « يزداد » فحدثت بمثل هذا الحديث ، قال : فقلت : فأين ذهبت الحسنة ؟ قال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يوعَدُونَ ﴾ [الأحقاف : ١٦] . قلت : قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ ، قال : العبد يعمل سراً أسرّه إلى الله ، لم يعلم به الناس ، فأسرّ الله له يوم القيامة قرّة أعين^(٨) .

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) ﴾

(٢) في أ : « أنا من الذين » .

(١) في ت : « وروى ابن أبي حاتم عن عباس » .

(٤) زيادة من ت ، ف ، أ ، والطبري .

(٣) في ت : « عليهم » .

(٥) تفسير الطبري (٦٦/٢١) .

(٧) زيادة من ت ، ف ، أ ، والطبري .

(٦) في ت : « وروى ابن جرير بإسناده عن ابن عباس » .

(٨) تفسير الطبري (٦٧/٢١) .

وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ
بآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ .

يخبر تعالى عن عدله [وكرمه] (١) أنه لا يساوى فى حكمه يوم القيامة من كان مؤمناً بآياته متبعاً
لرسله ، بمن كان فاسقاً ، أى : خارجاً عن طاعة ربه مكذباً لرسله إليه (٢) ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْ
حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا
يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي
الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ
أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [الحشر : ٢٠] ؛ ولهذا قال تعالى : ههنا : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ
فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ أى : عند الله يوم القيامة .

وقد ذكر عطاء بن يسار والسدي وغيرهما : أنها نزلت فى على بن أبى طالب ، وعقبة بن أبى
مُعِيط ؛ ولهذا فصل حكمهم فقال : ﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أى : صدقت قلوبهم بآيات
الله وعملوا بمقتضاها (٣) ، وهى الصالحات ، ﴿ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى ﴾ أى : التى فيها المساكن والدور
والغرف العالية ، ﴿ نُزُلًا ﴾ أى : ضيافة وكرامة ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا ﴾ أى : خرجوا عن
الطاعة ، ﴿ فَمَا وَهُمْ نَارُ النَّارِ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ كقوله : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا
مِنْ غَمٍ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ الآية [الحج : ٢٢] .

قال الفضيل بن عياض : والله إن الأيدى لموثقة ، وإن الأرجل لمقيدة ، وإن اللهب ليرفعهم
والملائكة تقمعهم .

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ أى : يقال لهم ذلك تقرعاً وتوبيخاً .
وقوله : ﴿ وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ [لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ] ﴾ (٤) قال (٥) ابن
عباس : يعنى بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتهما ، وما يحل بأهلها مما يتلى الله به عباده
ليتوبوا إليه . وروى مثله عن أبى بن كعب ، وأبى العالية ، والحسن ، وإبراهيم النخعى ،
والضحاك ، وعلقمة ، وعطية ، ومجاهد ، وقتادة ، وعبد الكريم الجزرى ، وخصيف .

وقال ابن عباس - فى رواية عنه - : يعنى به إقامة الحدود عليهم .

وقال : البراء بن عازب ، ومجاهد ، وأبو عبيدة : يعنى به عذاب القبر .

وقال النسائى : أخبرنا عمرو بن على ، أخبرنا عبد الرحمن بن مهدى ، عن إسرائيل ، عن أبى

(١) فى ت ، ف : « لرسول الله » .

(١) زيادة من أ .

(٤) زيادة من ت .

(٣) فى ت : « قلوبهم بقاء الله ومقتضاها » .

(٥) فى ت : « وقال » .

إسحاق ، عن أبي الأحوص وأبي عبيدة (١) ، عن عبد الله : ﴿وَلَنَذِقْنَهُمُ الْعَذَابَ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ قال : سنون أصابتهم (٢) .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : حدثني عبيد الله بن عمر القواريري ، حدثنا يحيى بن سعيد ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن عَزْرَةَ (٣) ، عن الحسن العُرنِي ، عن يحيى بن الجزار ، عن ابن أبي ليلى (٤) ، عن أبي بن كعب في هذه الآية : ﴿وَلَنَذِقْنَهُمُ الْعَذَابَ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ قال : المصيبات (٥) والدخان قد مضيا ، والبطشة واللزام (٦) .

ورواه مسلم من حديث شعبة ، به موقوفا نحوه (٧) . وعند البخاري عن ابن مسعود ، نحوه (٨) . وقال عبد الله بن مسعود (٩) أيضا ، في رواية عنه : العذاب الأدنى : ما أصابهم من القتل والسبى يوم بدر . وكذا قال مالك ، عن زيد بن أسلم .

قال السُّدِّي وغيره : لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتيل لهم أو أسير ، فأصيبوا أو غرِموا (١٠) ، ومنهم من جمع له الأمران .

وقوله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أى : لا أظلم ممن ذكَّره الله بآياته وبينها له ووضحها ، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها ، كأنه لا يعرفها .

قال قتادة ، رحمه الله : إياكم والإعراض عن ذكر الله ، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرة ، وأعوز أشد العوز (١١) ، وعظم من أعظم الذنوب .

ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك : ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ أى : سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام .

وقال ابن جرير : حدثني عمران بن بكار الكلاعى ، حدثنا محمد بن المبارك ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، حدثنا عبد العزيز بن عبيد الله ، عن عبادة بن نسي ، عن جنادة بن أبي أمية (١٢) ، عن معاذ ابن جبل قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ثلاث من فعلهن فقد أجرم ، من عقد (١٣) لواء في غير حق ، أو عقى والديه ، أو مشى مع ظالم ينصره ، فقد أجرم ، يقول الله تعالى : ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ » (١٤) .

(١) فى ت : « وروى النسائي بإسناده » .

(٢) النسائي فى السنن الكبرى برقم (١١٣٩٥) .

(٣) فى ف ، أ : « عزة » .

(٤) فى ت ، أ : « المضمار » .

(٥) زوائد المسند (١٢٨/٥) .

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٧٩٩) .

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٨٢٠) ولفظه : « مضي خمس : الدخان والروم والقمر والبطشة واللزام » .

(٨) فى ت : « وعن ابن مسعود » . (٩) فى ت ، أ : « وأعوز أشد العورة » .

(١٠) فى ت : « هزموا » . (١١) فى ت ، أ : « وأعوز أشد العورة » .

(١٢) فى ت : « وروى ابن جرير بإسناده » . (١٣) فى ت : « اعتقد » ، وفى أ : « أعقد » .

(١٤) تفسير الطبرى (٦٩/٢١) .

ورواه ابن أبي حاتم ، من حديث إسماعيل بن عياش ، به ، وهذا حديث غريب جداً .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (٢٣)
وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ
بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى ، عليه السلام ، أنه آتاه الكتاب وهو التوراة .

وقوله : ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ ﴾ : قال قتادة : يعنى به ليلة الإسراء (١) . ثم روى عن أبي العالية الرياحي قال : حدثني ابن عم نبيكم - يعنى ابن عباس - قال : قال رسول الله ﷺ : « أريت ليلة أسرى بى موسى بن عمران ، رجلاً آدم طويلاً جعداً ، كأنه من رجال شنوءة . ورأيت عيسى رجلاً مربوع الخلق ، إلى الحمرة والبياض ، مبسط الرأس ، ورأيت مالكا خازن النار والدجال ، فى آيات أراهن الله إياه » ، ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ ﴾ ، أنه قد رأى موسى ، ولقى موسى ليلة أسرى به (٢) .

وقال الطبراني : حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا الحسن بن على الحلواني ، حدثنا روح بن عباد ، حدثنا سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة ، عن أبى العالية ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ، قال : جعل موسى هدى لبني إسرائيل ، وفى قوله : ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ ﴾ ، قال : من لقاء موسى ربه عز وجل (٣) .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُ ﴾ أى : الكتاب الذى آتيناه ﴿ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ، [كما قال تعالى فى سورة الإسراء : ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٢] .
وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ ، أى : لما كانوا صابرين على أوامر الله وترك نواهيهِ وزواجره وتصديق رسله واتباعهم فيما جاؤوهم به ، كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله ، ويدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر . ثم لما بدلوا وحرّفوا وأولّوا ، سلبوا ذلك المقام ، وصارت قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، فلا عمل صالحاً ، ولا اعتقاد صحيحاً (٤) ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ (٥) قال قتادة وسفيان : لما صبروا عن الدنيا : وكذلك قال الحسن بن صالح .

قال سفيان: هكذا كان هؤلاء ، ولا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يُقتدى به حتى يتحامى عن الدنيا .

قال وكيع : قال سفيان : لا بد للدين من العلم ، كما لا بد للجسد من الخبز .

(١) فى ت : « الأسرى » .

(٢) انظر الأثر عند تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء وتخريجه هناك .

(٣) المعجم الكبير للطبراني (١٢/ ١٦٠) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٠) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٤) فى ت : « فلا عملاً صالحاً ولا اعتقاداً صحيحاً » .

(٥) فى ف ، أ : « ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب » .

وقال ابن بنت الشافعي : قرأ أبي على عمى - أو : عمى على أبي - سئل سفيان عن قول على ، رضى الله عنه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ألم تسمع قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ ، قال : لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوساً . قال بعض العلماء : بالصبر واليقين تنال الإمامة فى الدين .

ولهذا قال تعالى [١] : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ [وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ] (٢) فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ [الجاثية : ١٦ ، ١٧] ، كما قال هنا : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أى : من الاعتقادات والأعمال .

﴿ أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ (٢٦) أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٢٧) .

يقول تعالى : أو لم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسول ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية ، بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاؤوهم به من قويم السبل ، فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر ؟ ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم : ٩٨] ؛ ولهذا قال : ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ ﴾ أى : وهؤلاء المكذبون يمشون فى مساكن أولئك المكذبين فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها ، ذهبوا منها ، ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ [الأعراف : ٩٢] ، كما قال : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ﴾ [النمل : ٥٢] ، وقال : ﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ . أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٥ ، ٤٦] ؛ ولهذا قال ههنا : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أى : إن فى ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل ، ونجاة من آمن بهم ، لآيات وعبراً ومواعظ ودلائل (٣) متظاهرة .

﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ أى : أخبار من تقدم ، كيف كان أمرهم ؟

وقوله : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ : يبين تعالى لطفه بخلقه ، وإحسانه إليهم فى إرساله الماء إما من السماء أو من السيج ، وهو : ما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال إلى الأراضى المحتاجة إليه فى أوقاته ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ ، وهى [الأرض] (٤) التى لا نبات فيها ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف : ٨] ، أى : يبساً لا تنبت شيئاً .

(٣) فى ت ، أ : « دلالات » .

(١) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٤) زيادة من ت ، أ .

وليس المراد من قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزُ﴾ أرض مصر فقط ، بل هي بعض المقصود ، وإن مثل بها كثير من المفسرين فليست [هي] (١) المقصودة وحدها ، ولكنها مرادة قطعاً من هذه الآية ، فإنها في نفسها أرض رخوة غليظة تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطراً لتهدمت أبنيتها ، فيسوق الله إليها النيل بما يتحملة من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة ، وفيه طين أحمر ، فيغشى أرض مصر ، وهي أرض سبخة مرملة محتاجة إلى ذلك الماء ، وذلك الطين أيضاً لينبت الزرع فيه ، فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطور في غير بلادهم ، وطين جديد من غير أرضهم ، فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود ابتداء .

قال ابن لهيعة ، عن قيس بن حجاج ، عن حدثه قال : لما فُتحت مصر ، أتى أهلها عمرو بن العاص - [وكان أميراً بها] (٢) - حين دخل بؤونة من أشهر العجم ، فقالوا : أيها الأمير ، إن لنيلنا سنة لا يجرى إلا بها . قال : وما ذاك ؟ قالوا : إذا كانت ثنتا عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمَدنا إلى جارية بكر بين (٣) أبيوها ، فأرضينا أبيوها ، وجعلنا عليها من الحلوى والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها في هذا النيل . فقال لهم عمرو : إن هذا ما لا يكون في الإسلام ، إن الإسلام يهدم ما كان قبله . فأقاموا بؤونة والنيل لا يجرى ، حتى هموا بالجلاء ، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك ، فكتب إليه : إنك قد أصبت بالذي فعلت ، وقد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابي هذا ، فألقها في النيل . فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر ، أما بعد . . . فإنك إن كنت إنما تجرى من قبلك فلا تجر ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله أن يجريك . قال : فألقى البطاقة في النيل ، وأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة ، وقطع الله تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم . رواه الحافظ أبو القاسم اللالكائي الطبري في كتاب « السنة » له (٤) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ . أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا . فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعَبًّا وَقُضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا . [مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ] ﴾ (٥) [عبس : ٢٤ - ٣٢] ؛ ولهذا قال ههنا : ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ .

وقال ابن أبي نجيح ، عن رجل ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ قال : هي التي لا تمطر إلا مطراً لا يغنى عنها شيئاً ، إلا ما يأتيها من السيول .

وعن ابن عباس ، ومجاهد : هي أرض باليمن .

وقال الحسن ، رحمه الله : هي قرى فيما بين اليمن والشام .

وقال عكرمة ، والضحاك ، وقتادة ، والسدي ، وابن زيد : الأرض الجرز : التي لا نبات فيها

(١) زيادة من ت ، أ . (٢) زيادة من ت . (٣) في أ : « من » .

(٤) كتاب السنة للالكائي برقم (٦٦) « قسم كرامات الأولياء » : حدثنا محمد بن أبي بكر ، حدثنا محمد بن مخلد ، حدثنا محمد بن

إسحاق ، حدثنا عبد الله بن صالح ، عن ابن لهيعة به ، وهو مرسل .

(٥) زيادة من ت ، ف ، أ .

وهى مغبرة .

قلت : وهذا كقوله : ﴿وَايَةُ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ . لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس : ٣٣ - ٣٥] .

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرِ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ (٣٠) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار وقوع بأس الله بهم ، وحلول غضبه ونقمته عليهم ، استبعاداً وتكذيباً وعناداً : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ ﴾ ؟ أى : متى تنصر علينا يا محمد ؟ كما تزعم أن لك وقتاً تدال علينا ، ويُنْتَقِمُ لَكَ مِنَّا ، فمتى يكون هذا ؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين ! قال الله تعالى : ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ ﴾ أى : إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه في الدنيا وفي الآخرة ، ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . فَلَمَّا رَأَوْا بِأَسْنًا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكْ يَنْفَعِهِمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بِأَسْنًا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَاكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٣ - ٨٥] ، ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة فقد أبعد النجعة ، وأخطأ فأحش ، فإن يوم الفتح قد قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء ، وقد كانوا قريباً من ألفين ، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم ؛ لقوله : ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ ، وإنما المراد الفتح الذى هو القضاء والفصل ، كقوله تعالى : ﴿فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين ﴾ [الشعراء : ١١٨] ، وكقوله : ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ [سبأ : ٢٦] ، وقال تعالى : ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [إبراهيم : ١٥] ، وقال : ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [البقرة : ٨٩] ، وقال : ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ [الأنفال : ١٩] .

ثم قال : ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرِ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ ﴾ أى : أعرض عن هؤلاء المشركين وبلغ ما أنزل إليك من ربك ، كقوله : ﴿اتَّبِعْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ١٠٦] ، وانتظر فإن الله سينجز لك ما وعدك ، وسينصرك على من خالفك ، إنه لا يخلف الميعاد .

وقوله : ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ ﴾ أى : أنت منتظر ، وهم منتظرون ، ويتربصون بكم الدوائر ، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبِّصُ بِهِ رَبُّهُنَّ أَلْمُونٌ ﴾ [الطور : ٣٠] ، وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة الله ، فى نصرتك وتأيدك ، وسيجدون غب ما ينتظرونه فيك وفى أصحابك ، من وبيل عقاب الله لهم ، وحلول عذابه بهم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، [والله أعلم] (١) .

[آخر تفسير سورة «الم السجدة»] (٢)

تفسير سورة الأحزاب

[وهى] (١) مدنية .

قال [عبد الله بن] الإمام أحمد (٢) : حدثنا خلف بن هشام ، حدثنا حماد بن زيد ، عن عاصم ابن بهدلة ، عن زرّ قال : قال لى أبى بن كعب : كآين تقرأ سورة الأحزاب ؟ أو كآين تعدها ؟ قال : قلت : ثلاثاً وسبعين آية . فقال : قط ! لقد رأيتها وإنها لتعادل « سورة البقرة » ، ولقد قرأنا فيها : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ، نكالا من الله ، والله عليم (٣) حكيم « (٤) .
ورواه النسائي من وجه آخر ، عن عاصم - وهو ابن أبى النجود ، وهو ابن بهدلة - به (٥) . وهذا إسناده حسن ، وهو يقتضى أنه كان (٦) فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضاً ، والله أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣) .

هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى ، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا ، فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى . وقد قال طلق بن حبيب : التقوى : أن تعمل بطاعة الله ، على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله ، على نور من الله ، مخافة عذاب الله .

وقوله : ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ أى : لا تسمع منهم ولا تستشرهم ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أى : فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه ، فإنه عليم بعواقب الأمور ، حكيم فى أقواله وأفعاله . ولهذا قال : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى : من قرآن وسنة ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ أى : فلا تخفى عليه خافية . ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى : فى جميع أمورك وأحوالك ، ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾

(١) زيادة من ت ، أ .

(٢) فى هـ : « قال الإمام أحمد : إنما قاله عبد الله بن أحمد » ، وفى ت ، ف ، أ : « قال الإمام أحمد » وأثبتنا ما بين القوسين ليستقيم السياق ، والذي فى المسند : « حدثنا عبد الله ، حدثنا خلف » .

(٣) فى ت ، أ : « عزيز » .

(٤) المسند (١٣٢/٥) .

(٥) النسائي فى السنن الكبرى برقم (٧١٥٠) .

(٦) فى أ : « أنه قد كان » .

وَكَيْلًا ۖ أَي: وكفى به وكيلًا لمن توكل عليه وأناب إليه .

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥) ۖ ﴾

يقول تعالى موطئاً قبل المقصود المعنوي أمراً حسيماً معروفاً ، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه ، ولا تصير زوجته التي يظهر منها بقوله : أنت على كظهر أمي أمأ له ، كذلك لا يصير الدعي ولداً للرجل إذا تبناه فدعاه ابناً له ، فقال : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ ، كقوله : ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ [المجادلة : ٢] .

وقوله : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ : هذا هو المقصود بالنفي ؛ فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ ، كان النبي ﷺ قد تبناه قبل النبوة ، وكان يقال له : « زيد بن محمد » ، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ ، كما قال في أثناء السورة : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٠] ، وقال ههنا : ﴿ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾ يعني : تبنيكم لهم قول لا يقتضى أن يكون ابناً حقيقياً ، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر ، فما يمكن أن يكون له أبوان ، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان .

﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ : قال سعيد بن جبير : ﴿ يَقُولُ الْحَقَّ ﴾ أي : العدل . وقال قتادة : ﴿ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ أي : الصراط المستقيم ۝

وقد ذكر غير واحد : أن هذه الآية نزلت في رجل من قريش ، كان يقال له : « ذو القلبين » ، وأنه كان يزعم أن له قلبين ، كل منهما بعقل وافر . فأنزل الله هذه الآية رداً عليه . هكذا روى العوفي عن ابن عباس . قاله مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، واختاره ابن جرير .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا زهير ، عن قابوس - يعني ابن أبي ظبيان - أن أباه حدثه قال : قلت لابن عباس : أرايت قول الله تعالى (١) : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ ، ما عنى بذلك ؟ قال : قام رسول الله ﷺ يوماً يصلي ، فخطر خطرة ، فقال المنافقون الذين يصلون معه : ألا ترون له قلبين ، قلباً معكم وقلباً معهم ؟ فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ (٢) .

(١) في ف : « عز وجل » .

(٢) المسند (١/٢٦٧) .

وهكذا رواه الترمذى عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى ، عن صاعد الحرانى - وعن عبد بن حميد ، عن أحمد بن يونس - كلاهما عن زهير ، وهو ابن معاوية ، به . ثم قال : وهذا حديث حسن . وكذا رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، من حديث زهير ، به (١) .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن الزهرى ، فى قوله : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ ﴾ قال : بلغنا أن ذلك كان فى زيد بن حارثة ، ضرب له مثل ، يقول : ليس ابن رجل آخر ابنك (٢) .

وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : أنها نزلت فى زيد بن حارثة . وهذا يوافق ما قدمناه من التفسير ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ : هذا أمر ناسخ لما كان فى ابتداء الإسلام من جواز إدعاء الأبناء الأجانب ، وهم الأدعياء ، فأمر [الله] (٣) تعالى برد نسبهم إلى آبائهم فى الحقيقة ، وأن هذا هو العدل والقسط .

قال البخارى ، رحمه الله : حدثنا معلى (٤) بن أسد ، حدثنا عبد العزيز بن المختار ، حدثنا موسى ابن عقبة قال : حدثنى سالم عن عبد الله بن عمر ؛ أن زيداً بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ، ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ .

وأخرجه مسلم والترمذى والنسائى ، من طرق ، عن موسى بن عقبة ، به (٥) .

وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه ، فى الخلوة بالمحارم وغير ذلك ؛ ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبى حذيفة : يا رسول الله ، كنا (٦) ندعو سالماً ابناً ، وإن الله قد أنزل ما أنزل ، وإنه كان يدخل علىّ ، وإنى أجد فى نفس أبى حذيفة من ذلك شيئاً ، فقال ﷺ : « أرضعيه تحرمى عليه » الحديث (٧) .

ولهذا لما نسخ هذا الحكم ، أباح تعالى زوجة الدعوى ، وتزوج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش زوجة (٨) زيد بن حارثة ، وقال : ﴿ لَكِيْ لَا يَكُوْنُ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ حَرَجٌ فِىْ أَزْوَاجٍ أَدْعَايُهُمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٧] ، وقال فى آية التحريم : ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ [النساء : ٢٣] ، احترازاً عن زوجة الدعوى ، فإنه ليس من الصلب ، فأما الابن من الرضاعة ، فممنزلة منزلة ابن الصلب شرعاً ، بقوله ، عليه السلام (٩) فى الصحيحين : « حرّموا من الرضاعة ما يحرم من النسب » (١٠) . فأما دعوة الغير ابناً على سبيل التكريم والتحيب ، فليس مما نهى عنه فى هذه الآية ، بدليل ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذى ، من حديث سفيان الثورى ، عن سلمة بن كهيل ،

(١) سنن الترمذى برقم (٣١٩٩) وتفسير الطبرى (٧٤/٢١) .

(٢) تفسير عبد الرزاق (٩٢/٢) . (٣) زيادة من ت ، ف ، أ . (٤) فى ف : « يعلى » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٢) وصحيح مسلم برقم (٢٤٢٥) وسنن الترمذى برقم (٣٢٠٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٩٧) .

(٦) فى ت ، ف ، أ : « إنا كنا » .

(٧) الحديث فى صحيح مسلم برقم (١٤٥٣) عن عائشة ، رضى الله عنها .

(٨) فى ف : « مطلقة » . (٩) فى أ : « ﷺ » .

(١٠) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٦) وصحيح مسلم برقم (١٤٤٥) من حديث عائشة ، رضى الله عنها .

عن الحسن العُرنى ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، قال : قدمنا على رسول الله ﷺ أغيلمة بنى عبد المطلب على حُمُرَات لَنَا مِنْ جَمْع ، فجعل يَلْطَخُ أفخاذنا ويقول : « أُبَيِّنِي لَا ترموا الجمرة (١) حتى تطلع الشمس » (٢) . قال أبو عبيد وغيره : « أُبَيِّنِي » : تصغير بنى (٣) . وهذا ظاهر الدلالة ، فإن هذا كان فى حجة الوداع سنة عشر ، وقوله : « ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ » فى شأن زيد بن حارثة ، وقد قتل فى يوم مؤتة سنة ثمان ، وأيضاً فى صحيح مسلم ، من حديث أبى عوَّانة الوضاح بن عبد الله الشَّكْرَى ، عن الجَعْدِ أبى عثمان البصرى ، عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : قال لى رسول الله ﷺ : « يا بُنَى » . ورواه أبو داود والترمذى (٤) .

وقوله : « فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ » : أمر [الله] (٥) تعالى برد أنساب الأدياء إلى آبائهم ، إن عرفوا ، فإن لم يعرفوا (٦) آباءهم ، فهم إخوانهم فى الدين ومواليهم ، أى : عوضاً عما فاتهم من النسب . ولهذا قال رسول الله ﷺ يوم خرج من مكة عام عُمرة القضاء ، وتبعته ابنة حمزة تنادى : يا عم ، يا عم . فأخذها على وقال لفاطمة : دونك ابنة عمك فاحتمليها (٧) . فاختصم فيها على ، وزيد ، وجعفر فى أيهم يكفلها ، فكل أدلى بحجة (٨) ؛ فقال على : أنا أحق بها وهى ابنة عميس - وقال زيد : ابنة أخى . وقال جعفر بن أبى طالب : ابنة عمى ، وخالتها تحتى - يعنى أسماء بنت عميس . فقضى النبى (٩) ﷺ لخالتها ، وقال : « الخالة بمنزلة الأم » . وقال لعللى : « أنت منى ، وأنا منك » . وقال لجعفر : « أشبهت خلقى وخلقى » . وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا » (١٠) .

ففى هذا الحديث أحكام كثيرة من أحسنها : أنه ، عليه الصلاة والسلام (١١) ، حكم بالحق ، وأرضى كلاً من المتنازعين ، وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا » ، كما قال تعالى : « فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ » .

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عُلَيَّة ، عن عيينة بن عبد الرحمن ، عن أبيه قال : قال أبو بكره : قال الله ، عز وجل : « ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ » ، فأنا ممن لا يُعرف أبوه ، وأنا من إخوانكم فى الدين . قال أبى : والله إنى لأظنه لو علم أن أباه كان حماراً لانتضى (١٢) إليه .

(١) فى ف : « جمرة العقبة » .

(٢) المسند (٣١١/١) وسنن أبى داود برقم (١٩٤٠) وسنن النسائى (٢٧٠/٥) وسنن ابن ماجه برقم (٣٠٢٥) .

(٣) فى ت ، ف ، أ : « أبنى » .

(٤) صحيح مسلم برقم (٢١٥١) وسنن أبى داود برقم (٤٩٦٤) وسنن الترمذى برقم (٤٨٣١) .

(٥) زيادة من ت ، أ . (٦) فى أ : « يعلموا » .

(٧) فى ت ، أ : « فاحتملتها » . (٨) فى أ : « بحجة » . (٩) فى أ : « فقضى بها النبى » .

(١٠) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٦٩٩) من حديث البراء ، رضى الله عنه .

(١١) فى ف : « ﷺ » .

(١٢) فى ت : « لانتضب » .

وقد جاء فى الحديث : « من ادعى لغير أبيه ، وهو يعلمه ، كفر » (١) « (٢) . وهذا تشديد وتهديد ووعيد أكيد ، فى التبرى من النسب المعلوم ؛ ولهذا قال : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ﴾ أى : إذا نسبتهم بعضهم إلى غير أبيه فى الحقيقة خطأ ، بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع ؛ فإن الله قد وضع الحرج فى الخطأ ورفع إثمه ، كما أرشد إليه فى قوله أمراً بعباده أن يقولوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تَوَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة ٢٨٦] . وثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله : قد فعلت » (٣) . وفى صحيح البخارى ، عن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب ، فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ ، فله أجر » (٤) . وفى الحديث الآخر : « إن الله رفع عن أمتى الخطأ والنسيان ، وما يكرهون » (٥) عليه .

وقال هاهنا : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أى : وإنما الإثم على من تعمد الباطل كما قال تعالى (٦) : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ . وفى الحديث المتقدم : « من ادعى إلى غير أبيه ، وهو يعلمه ، إلا كفر » . وفى القرآن المنسوخ : « فَإِنْ كَفَرَأَ بِكُمْ أَنْ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ » .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن الزهرى ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، عن ابن عباس ، عن عمر أنه قال : بعث الله (٨) محمداً ﷺ ، بالحق ، وأنزل معه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم ، فرجم رسول الله ﷺ ، ورجمنا بعده . ثم قال : قد كنا نقرأ : « ولا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ [فإنه كفر بكم - أو : إن كفرأ بكم - أن تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ] » (٩) ، وإن رسول الله ﷺ قال : « لا تطروني [كما أطرى] (١٠) عيسى ابن مريم ، وإنما أنا عبد ، فقولوا : عبده ورسوله » (١١) . وربما قال معمر : « كما أطرت النصارى ابن مريم » (١٢) .

ورواه فى الحديث الآخر : « ثلاث فى الناس كفر : الطعن فى النسب ، والنياحة على الميت ، والاستسقاء بالنجوم » (١٣) .

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ (٦)

(١) فى أ : « وهو يعلمه إلا كفر » .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٥٠٨) من حديث أبى ذر ، رضى الله عنه ، بلفظ مقارب .

(٣) صحيح مسلم برقم (١٢٦) من حديث ابن عباس .

(٤) صحيح البخارى برقم (٧٣٥٢) .

(٥) فى أ : « والامر يكرهون » . (٦) فى ف : « الله » . (٧) فى أ : « فإنه » .

(٨) فى ت : « إن الله بعث » ، وفى ف : « إن الله ، عز وجل ، بعث » .

(٩) ، (١٠) زيادة من ت ، ف ، والمسند .

(١١) فى ف ، أ : « أنا عبد الله وقولوا عبد الله ورسوله » .

(١٢) المسند (٤٧/١) .

(١٣) المسند (٣٤٢/٥) ورواه مسلم فى صحيحه برقم (٩٣٤) كلاهما عن أبى مالك الأشعرى بلفظ : « أربع فى أمتى من أمر الجاهلية =

قد علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته، ونصحهم لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وحكمه فيهم مقدماً على اختيارهم لأنفسهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. وفي الصحيح: «والذى نفسى بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين»^(١). وفي الصحيح أيضاً أن عمر، رضى الله عنه، قال: يا رسول الله، والله لأنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسى. فقال: «لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال: يا رسول الله^(٢)، لأنت أحب إلى من كل شيء حتى من نفسى. فقال: «الآن يا عمر»^(٣). ولهذا قال تعالى فى هذه الآية: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾.

وقال البخارى عندها^(٤): حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا [محمد بن] ^(٥) فليح، حدثنا أبى، عن هلال بن على، عن عبد الرحمن بن أبى عمرة، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة. اقرؤوا إن شئتم: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، فأما مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا. فإن ترك ديناً أو ضياعاً، فليأتنى فأنا مولاه». تفرد به البخارى^(٦).

ورواه أيضاً فى «الاستقراض» وابن جرير، وابن أبى حاتم، من طرق، عن فليح، به مثله^(٧). ورواه الإمام أحمد، من حديث أبى حصين، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، عن رسول الله بنحوه^(٨).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهرى فى قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ عن أبى سلمة، عن جابر بن عبد الله، عن النبى ﷺ كان يقول: «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، فأما رجل مات وترك ديناً، فإلى. ومن ترك مالا فلورثته»^(٩). ورواه أبو داود، عن أحمد ابن حنبل^(١٠)، به نحوه.

وقوله: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أى: فى الحرمة والاحترام، والإكرام والتوقير والإعظام، ولكن لا

= لا يتركوهن: الفخر فى الأنساب ثم ذكر هذه الثلاث.

(١) صحيح البخارى برقم (١٤).

(٢) فى أ: «فقال: والله يا رسول الله».

(٣) صحيح البخارى برقم (٦٦٣٢).

(٤) فى ف، ت، أ: «عند هذه الآية الكريمة».

(٥) زيادة من ت، ف، أ، والبخارى.

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧٨١).

(٧) صحيح البخارى برقم (٢٣٩٩) وتفسير الطبرى (٧٧/٢١).

(٨) المسند (٣٣٤/٢).

(٩) فى ف: «فهو لورثته».

(١٠) المسند (٢٩٦/٣) وسنن أبى داود برقم (٢٩٥٦).

تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع، وإن سمي بعض العلماء بناتهن أخوات المؤمنين، كما هو منصوص الشافعي في المختصر، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم . وهل يقال لمعاوية وأمثاله: خال المؤمنين؟ فيه قولان للعلماء. ونص الشافعي على أنه يقال ذلك. وهل يقال لهن: أمهات المؤمنات، فيدخل النساء (١) في جمع المذكر السالم تغليبا؟ فيه قولان: صح عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: لا يقال ذلك. وهذا أصح الوجهين في مذهب الشافعي، رحمه الله (٢).

وقد روى عن أبي بن كعب، وابن عباس أنهما قرآ: « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم »، وروى نحو هذا عن معاوية، ومجاهد، وعكرمة، والحسن: وهو أحد الوجهين في مذهب الشافعي . حكاه البغوي وغيره، واستأنسوا عليه بالحديث الذي رواه أبو داود :

حدثنا عبد الله بن محمد النفيلي، حدثنا ابن المبارك، عن محمد بن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها، ولا يستطب يمينه »، وكان يأمر بثلاثة أحجار، وينهى عن الروث والرمة.

وأخرجه النسائي وابن ماجه، من حديث ابن عجلان (٣).

والوجه الثاني: أنه لا يقال ذلك، واحتجوا بقوله: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ وقوله: ﴿ وَأَوَّلُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أي: في حكم الله ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾ أي: القرباب أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار. وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالخلف والمؤاخاة التي كانت بينهم، كما قال ابن عباس وغيره: كان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته (٤) وذوى رحمه، للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ، وكذا قال سعيد بن جبيرة، وغير واحد من السلف والخلف .

وقد أورد فيه ابن أبي حاتم حديثاً عن الزبير بن العوام، رضي الله عنه، فقال: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي بكر المصعبى - من ساكنى بغداد - عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن الزبير بن العوام قال: أنزل الله، عز وجل، فينا خاصة معشر قريش والأنصار: ﴿ وَأَوَّلُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾، وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة (٥)، قدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نغم الإخوان، فواخيئناهم ووارثناهم. فواخى أبو بكر خارجة بن زيد، وأخى عمر فلانا، وأخى عثمان بن عفان رجلاً من بنى زريق، سعد الزرقى، ويقول بعض الناس غيره. قال الزبير:

(١) فى ف، أ: « فدخل النساء فيه » . (٢) فى ت: « رضى الله عنه » .

(٣) سنن أبى داود برقم (٨) وسنن النسائى (٣٨/١) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٣) .

(٤) فى ت: « أقاربه » . (٥) فى ت: « لما قدمنا إلى المدينة » .

وواخيت أنا كعب بن مالك، فجئته فابتعلته فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى، فوالله يا بنى، لو مات يومئذ عن الدنيا، ما ورثه غيرى، حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة، فرجعنا إلى موارثنا .

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَّعْرُوفًا﴾ أى : ذهب الميراث، وبقي النصر والبر والصلة والإحسان والوصية .

وقوله: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أى : هذا الحكم، وهو أن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض، حكم من الله مقدر مكتوب فى الكتاب الأول، الذى لا يبدل، ولا يغير. قاله مجاهد وغير واحد. وإن كان قد يقال (١): قد شرع خلافه فى وقت لما له فى ذلك من الحكمة البالغة، وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار فى قدره الأزلى (٢)، وقضائه القدرى الشرعى .

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨)﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن أولى العزم الخمسة، وبقية الأنبياء: أنه أخذ عليهم العهد والميثاق فى إقامة دين الله، وإبلاغ رسالته، والتعاون والتناصر والاتفاق، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١] . فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم، وكذلك هذا . ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة، وهم أولو العزم، وهو من باب عطف الخاص على العام، وقد صرح بذكرهم أيضاً فى هذه الآية، وفى قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] ، فذكر الطرفين والوسط، الفاتح والخاتم، ومن بينهما على [هذا] (٣) الترتيب. فهذه هى الوصية التى أخذ عليهم الميثاق بها، كما قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ [وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ] (٤)﴾ ، فبدأ فى هذه الآية بالخاتم ؛ لشرفه - صلوات الله [وسلامه] (٥) عليه - ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله [وسلامه] (٦) عليهم .

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ الدمشقى، حدثنا محمد بن بكار، حدثنا سعيد بن بشير، حدثنى قتادة، عن الحسن (٧)، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ، فى قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ الآية: قال النبى ﷺ: « كنت أول النبيين فى الخلق

(١) فى ت، ف: « وإن كان تعالى » .

(٢) فى ت: « إلى ما هو جار فى قدره الأول »، وفى ف: « إلى ما هو جار فى قدره الأزلى » .

(٣) زيادة من ف . (٤) زيادة من ت، ف . (٥) زيادة من ف، أ .

(٧) فى ت: « روى ابن أبى الدنيا » .

وآخرهم فى البعث، [قُبْدَى بى] (١) قبلهم » (٢) سعيد بن بشير فيه ضعف .

وقد رواه سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة مرسلأ ، وهو أشبه ، ورواه بعضهم عن قتادة موقوفاً ، فإلله أعلم .

وقال أبو بكر البزار: حدثنا عمرو بن على ، حدثنا أو أحمد ، حدثنا حمزة الزيات ، حدثنا على بن ثابت ، عن أبى حازم (٣) ، عن أبى هريرة قال : خيار ولد آدم خمسة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، وخيرهم محمد ﷺ أجمعين (٤) . موقوف ، وحمزة فيه ضعف (٥) .

وقد قيل : إن المراد بهذا الميثاق الذى أخذ منهم حين أخرجوا فى صورة الذر من صلب آدم ، كما قال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، عن أبى بن كعب قال : ورفع أباهم آدم ، فنظر إليهم - يعنى : ذريته - وأن فيهم الغنى والفقر ، وحسن الصورة ، ودون ذلك ، فقال : رب ، لوسويت بين عبادك؟ فقال : إني أحببت أن أشكر . وأرى فيهم الأنبياء مثل السرج ، عليهم كالنور ، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة ، فهو الذى يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ نُوْحٌ [وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم] ﴾ (٦) الآية وهذا قول مجاهد أيضاً .

وقال ابن عباس : الميثاق الغليظ : العهد .

وقوله : ﴿ لَيْسَ أَلِصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ﴾ ، قال مجاهد : المبلغين المؤدين عن الرسل .

وقوله : ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أى : من أتهم ﴿ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ أى : موجعاً ، فنحن نشهد أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم ، ونصحوا الأمم وأفصحوا لهم عن الحق المبين ، الواضح الجلى ، الذى لا لبس فيه ، ولا شك ، ولا امتراء ، وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين والقاسطين ، فما جاءت به الرسل هو الحق ، ومن خالفهم فهو على الضلال .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴾ (١٠) .

يقول تعالى مخبراً عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عبادة المؤمنين ، فى صرفه أعداءهم وهزمه إياهم عام تألبوا عليهم وتحزبوا وذلك عام الخندق ، وذلك فى شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح

(١) زيادة من ت ، ف ، والدلائل والكامل .

(٢) ورواه أبو نعيم فى دلائل النبوة ص (٦) وابن عدى فى الكامل (٣/٣٧٣) وتام فى الفوائد برقم (٣/١٠٠) من طرق عن سعيد بن بشير عن قتادة به ، وفى إسناده علتان :

الأولى : الحسن البصرى مدلس وقد عنعن .

الثانية : سعيد بن بشير ضعيف وقد خولف ، خالفه أبو هلال وسعيد بن أبى عروبة كما ذكره المؤلف فقالا : عن قتادة مرسلأ ، ا . هـ . مستفاداً من السلسلة الضعيفة برقم (٦٦١) للشيخ ناصر الألبانى .

(٣) فى ت : « وروى أبو بكر البزار بإسناده » .

(٤) مسند البزار برقم (٢٣٦٨) « كشف الأستار » .

(٥) فى ت : « موقوف ضعيف » .

(٦) زيادة من ت ، ف .

المشهور.

وقال موسى بن عقبة وغيره كانت في سنة أربع .

وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفرأ من أشراف يهود بنى النضير، الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة إلى خيبر، منهم: سلام بن أبي الحقيق، وسلام بن مشكم، وكنانة بن الربيع، خرجوا إلى مكة واجتمعوا بأشراف قريش، وألبوهم على حرب رسول الله ﷺ (١) ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة. فأجابوهم إلى ذلك، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم أيضاً. وخرجت قريش في أحايishها ومن تابعها، وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب، وعلى غطفان عيينة بن حصن بن بدر، والجميع قريب من عشرة آلاف، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلي الشرق (٢)، وذلك بإشارة سلمان الفارسي، فعمل المسلمون فيه واجتهدوا، ونقل معهم رسول الله ﷺ التراب وحفر، وكان في حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحة .

وجاء المشركون فنزلوا شرقى المدينة قريباً من أحد، ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، وهم نحو ثلاثة آلاف، وقيل: سبعمائة، وأسندوا (٣) ظهورهم إلى سلع ووجوههم إلى نحو العدو، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الرجال والخيالة أن تصل إليهم، وجعل النساء والذراري في أطام المدينة، وكانت بنو قريظة - وهم طائفة من اليهود - لهم حصن شرقى المدينة، ولهم عهد من النبي ﷺ وذمة، وهم قريب من ثمانمائة مقاتل فذهب إليهم حبي بن أخطب النضري [اليهودي] (٤)، فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد، ومالؤا الأحزاب على رسول الله ﷺ، فعظم الخطب واشتد الأمر، وضاق الحال، كما قال الله تعالى: ﴿هَٰئِلِكِ ابْتَلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾.

ومكثوا محاصرين للنبي ﷺ وأصحابه قريباً من شهر، إلا أنهم لا يصلون إليهم، ولم يقع بينهم قتال، إلا أن عمرو بن عبد ود العامري - وكان من الفرسان الشجعان المشهورين في الجاهلية - ركب ومعه فوارس فاقتحموا الخندق، وخلصوا إلى ناحية المسلمين، فندب رسول الله ﷺ خيل المسلمين إليه، فلم (٥) يبرز إليه أحد، فأمر علياً فخرج إليه، فتجاولا ساعة، ثم قتله على، رضى الله عنه، فكان علامة على النصر .

ثم أرسل الله، عز وجل، على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية، حتى لم تبق (٦) لهم خيمة ولا شيء ولا تُوقَد لهم نار، ولم يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ (٧) .

قال مجاهد: وهى الصبا، ويؤيده الحديث الآخر: « نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور » .

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن المثني، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود، عن عكرمة قال: قالت

(٢) فى ف: « المشرق » .

(١) فى ف: « النبى » .

(٤) زيادة من ت . (٥) فى ت، ف: « فيقال » .

(٣) فى ت، ف: « فأسندوا » .

(٧) بعدها فى ف: ﴿ وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ .

(٦) فى ت: « يبق » .

الجنوب للشمال ليلة الأحزاب: انطلقى ننصر رسول الله ﷺ. فقالت الشمال: إن الحرة لا تسرى بالليل . قال : فكانت الريح التى أرسلت عليهم الصبا (١) .

ورواه ابن أبى حاتم ، عن أبى سعيد الأشج ، عن حفص بن غياث ، عن داود ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، فذكره .

وقال ابن جرير أيضاً : حدثنا يونس ، حدثنا ابن وهب ، حدثنى عبيد الله بن عمر ، عن نافع ، عن عبد الله بن عمر قال : أرسلنى خالى عثمان بن مظعون ليلة الخندق فى برد شديد وريح إلى المدينة ، فقال : ائتنا بطعام ولحاف . قال : فاستأذنت رسول الله ﷺ ، فأذن لى ، وقال : « من أتيت من أصحابى فمرهم يرجعوا » . قال : فذهبت والريح تسفى كل شىء ، فجعلت لا ألقى أحداً إلا أمرته بالرجوع إلى النبى ﷺ ، قال : فما يلوى أحد منهم عنقه . قال : وكان معى ترس لى ، فكانت الريح تضربه على ، وكان فيه حديد ، قال : فضربت الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفى ، فأنفدها (٢) إلى الأرض (٣) .

وقوله : ﴿ وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ : وهم الملائكة ، زلزلتهم وألقت فى قلوبهم الرعب والخوف ، فكان رئيس كل قبيلة يقول : يا بنى فلان إلى . فيجتمعون إليه فيقول : النجاء ، النجاء . لما ألقى الله تعالى فى قلوبهم من الرعب .

وقال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القرظى قال : قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان : يا أبا عبد الله ، رأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه ؟ قال : نعم يا بن أخى . قال : وكيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنا نجهد . قال الفتى : والله لو أدركناه ما تركناه يمشى على الأرض ولحملناه على أعناقنا . قال : قال حذيفة : يا بن أخى ، والله لو رأيتمنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى رسول الله ﷺ هُويًا من الليل ، ثم التفت فقال : « مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ؟ - يَشْرُطُ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ يَرْجِعُ - أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ » . قال : فما قام رجل . ثم صلى رسول الله ﷺ هُويًا من الليل ثم التفت إلينا ، فقال مثله ، فما قام منا رجل . ثم صلى رسول الله ﷺ هُويًا من الليل ثم التفت إلينا فقال : « مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ - يَشْرُطُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّجْعَةَ - أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ » . فما قام رجل من القوم ؛ من شدة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد . فلما لم يبق أحد ، دعانى رسول الله ﷺ . فلم يكن لي يد من القيام حين دعانى فقال : « يا حذيفة ، اذهب فادخل فى القوم فانظر ما يفعلون ، ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا » . قال : فذهبت فدخلت [فى القوم] (٤) ، والريح وجنود الله ، عز وجل ، تفعل بهم ما تفعل ، لا تُقرّ لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً ، فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش ، لينظر امرؤ من جلسيه . قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذى إلى جنبى ، فقلت : من أنت ؟ فقال : أنا فلان بن فلان ، ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والحُفّ ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من هذه الريح الذى ترون (٥) . والله

(١) تفسير الطبرى (٢١ / ٨٠) .

(٢) فى ١ : « فأنفدها » .

(٣) تفسير الطبرى (٢١ / ٨٠) .

(٤) زيادة من ت ، ف ، أ ، والسيرة النبوية .

(٥) فى ١ : « ما ترون » .

ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا ، فإنى مرتحل ، ثم قام إلى جملة وهو معقول ، فجلس عليه ، ثم ضربه ، فوثب به على ثلاث ، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم . ولولا عهد رسول الله ﷺ إلى : « ألا تحدث شيئاً حتى تأتيني » ثم شئت ، لقتلته بسهم .

قال حذيفة : فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلى فى مرط لبعض نسائه مرّحل ، فلما رأتى أدخلنى بين رجله ، وطرح على طرف المرط ، ثم ركع ، وسجد وإنى لفيه ، فلما سلم أخبرته الخبر ، وسمعت غطّان بما فعلت قريش ، فانشمروا راجعين إلى بلادهم (١) .

وقد رواه مسلم فى صحيحه من حديث الأعمش ، عن إبراهيم التيمى ، عن أبيه قال : كنا عند حذيفة بن اليمان ، رضى الله عنه ، فقال له رجل : لو أدركت رسول الله ﷺ ، قاتلت معه وأبليت . فقال له حذيفة : أنت كنت تفعل ذلك ؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب فى ليلة ذات ریح شديدة وقرّ ، فقال رسول الله ﷺ : « ألا رجل يأتى بخبر القوم ، يكون معى يوم القيامة ؟ » . فلم يجبه منا أحد ، ثم الثانية ، ثم الثالثة مثله . ثم قال : « يا حذيفة ، قم فأتنا بخبر من القوم » . فلم أجد بداً إذ دعانى باسمى أن أقوم ، فقال : « اتتني بخبر القوم ، ولا تدعهم على » . قال : فمضيت كأنما أمشى فى حمام حتى أتيتهم ، فإذا أبو سفيان يصلى ظهره بالنار ، فوضعت سهما فى كبد قوسى ، وأردت أن أرميه ، ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ : « لا تدعهم على » ، ولو رميته لأصبت . قال : فرجعت كأنما أمشى فى حمام ، فأتيت رسول الله ﷺ ، ثم أصابنى البرد حين فرغت وقررت فأخبرت رسول الله ﷺ ، وألبسنى من فضل عباءة كانت عليه يصلى فيها ، فلم أزل نائماً حتى الصبح ، فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ : « قم يا نومان (٢) » (٣) .

ورواه يونس بن بكير ، عن هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم : أن رجلاً قال لحذيفة ، رضى الله عنه : نشكو إلى الله صحبتكم لرسول الله ﷺ ؛ إنكم أدركتموه ولم ندركه ، ورأيتموه ولم نره . فقال حذيفة : ونحن نشكو إلى الله إيمانكم به ولم تروه ، والله لا تدري يا بن أخى لو أدركته كيف كنت تكون . لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الخندق فى ليلة باردة مطيرة . . . ثم ذكر نحو ما تقدم مطولاً (٤) .

وروى بلال بن يحيى العباسى ، عن حذيفة نحو ذلك أيضاً (٥) .

وقد أخرج الحاكم والبيهقى فى « الدلائل » ، من حديث عكرمة بن عمار ، عن محمد بن عبد الله الدؤلى ، عن عبد العزيز ابن أخى حذيفة قال : ذكر حذيفة مشاهدتهم مع رسول الله ﷺ (٦) ، فقال

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٣١) .

(٢) فى أ : « نوام » .

(٣) صحيح مسلم برقم (١٧٨٨) .

(٤) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤٥٤) من طريق أحمد بن عبد الجبار ، عن يونس بن بكير به .

(٥) أخرجه الحاكم فى المستدرک (٣/٣١) ومن طريق البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤٥٠) عن موسى بن أبى المختار ، عن بلال العباسى ، عن حذيفة .

(٦) فى ت : « مع النبى » .

جلساؤه : أما والله لو شهدنا ذلك لكننا فعلنا وفعلنا . فقال حذيفة : لا تمنوا ذلك . لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود ، أبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا ، وقريظة اليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا ، وما أتت علينا قط أشد ظلمة ولا أشد ريحاً ، في أصوات ريحها أمثال الصواعق، وهي ظلمة ما يرى أحداً إصبعه ، فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ ويقولون : « إن بيوتنا عورة وما هي بعورة » . فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له ، ويأذن لهم فيتسللون ، ونحن ثلاثمائة ونحو ذلك ، إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رجلاً رجلاً حتى أتى عليّ وما عليّ جنة^(١) من العدو ولا من البرد إلا مرط لأمراتي ، ما يجاوز ركبتي . قال : فأتاني ﷺ وأنا جاث على ركبتي فقال : « من هذا؟ » فقلت : حذيفة . قال : « حذيفة » . فتقاصرت بالأرض^(٢) فقلت : بلى يا رسول الله ، كراهية أن أقوم . [قال : قم]^(٣) ، فقممت ، فقال : « إنه كائن في القوم خبر فأتني بخبر القوم » - قال : وأنا من أشد [الناس]^(٤) فزعاً ، وأشدّهم قرأ - قال : فخرجت ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ، احفظه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، ومن فوقه ومن تحته » . قال : فوالله ما خلق الله فزعاً ولا قرأ في جوفى إلا خرج من جوفى ، فما أجد فيه شيئاً . قال : فلما وليت قال : « يا حذيفة ، لا تحدثن في القوم شيئاً حتى تأتيني » . قال : فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت في ضوء نار لهم توقد ، وإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار ، ويمسح خاصرته ، ويقول : الرحيل الرحيل ، ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك ، فانتزعت سهماً من كنانتي أبيض الريش ، فأضعه في كبد قوسي لأرميه به في ضوء النار ، فذكرت قول رسول الله ﷺ : « لا تحدثن فيهم شيئاً حتى تأتيني » ، [فأمسكت]^(٥) ورددت سهمي إلى كنانتي ، ثم إنني شجعت نفسي حتى دخلت العسكر ، فإذا أدنى الناس مني بنو عامر يقولون : يا آل عامر ، الرحيل الرحيل ، لا مقام لكم . وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبراً ، فوالله إنني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرستهم^(٦) الريح تضربهم بها ، ثم خرجت نحو النبي ﷺ ، فلما انتصفت في الطريق أو نحو من ذلك ، إذا أنا بنحو من عشرين فارساً أو نحو ذلك^(٧) معتمين ، فقالوا : أخبر صاحبك أن الله تعالى كفاه القوم . فرجعت إلى رسول الله ﷺ ، وهو مشتمل في شملة يصلى ، فوالله ما عدا أن رجعت راجعني القر وجعلت أقرق ، فأومأ إلى رسول الله ﷺ [بيده]^(٨) وهو يصلى ، فدنوت منه ، فأسبل على شملته . وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى ، فأخبرته خبر القوم ، وأخبرته أنني تركتهم يترحلون^(٩) ، وأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝ (١٠) ۝ .

وأخرج أبو داود في سننه منه : كان رسول الله ﷺ : إذا حزبه أمر من حديث عكرمة بن عمار ،

به (١١) .

(١) في أ : « جنة » .
(٢) في ت : « إلى الأرض » .
(٣) زيادة من ت ، ف ، والدلائل .
(٤) ، (٥) زيادة من ت ، ف ، والدلائل .
(٦) في ت ، ف : « وفرستهم » .
(٧) في ف : « نحواً من ذلك » .
(٨) زيادة من ت ، ف ، والدلائل .
(٩) في أ : « يترحلون » .
(١٠) دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٤٥١) .
(١١) سنن أبي داود برقم (١٣١٩) .

وقوله : ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أى : الأحزاب ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ : تقدم عن حذيفة أنهم بنو قريظة ، ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ أى : من شدة الخوف والفرع ، ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ .

قال ابن جرير : ظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ أن الدائرة على المؤمنين ، وأن الله سيفعل ذلك (١) .

وقال محمد بن إسحاق فى قوله : ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ : ظن المؤمنون (٢) كل ظن ، ونجم النفاق حتى قال مُعْتَب (٣) بن قشير - أخو بنى عمرو بن عوف - : كان محمد يَعِدُنَا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط . وقال الحسن فى قوله : ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ : ظنون مختلفة ، ظن المنافقون أن محمدا وأصحابه يستأصلون (٤) ، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق ، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

وقال (٥) ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن عاصم الأنصارى ، حدثنا أبو عامر (ح) وحدثنا أبى ، حدثنا أبو عامر العقدي ، حدثنا الزبير - يعنى : ابن عبد الله ، مولى عثمان بن عفان - عن رُتَيْج ابن عبد الرحمن بن أبى سعيد ، عن أبيه ، عن أبى سعيد قال : قلنا يوم الخندق : يا رسول الله، هل من شىء نقول ، فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال ﷺ : « نعم ، قولوا : اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا » . قال : فضرب وجوه أعدائه بالريح ، فhezهم بالريح . وكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل ، عن أبى عامر العقدي (٦) .

﴿هَذَا لِكِ ابْتِلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَزُلْزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) .

يقول تعالى مخبراً عن ذلك الحال ، حين نزلت الأحزاب حول المدينة ، والمسلمون محصورون فى غاية الجهد والضيق ، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم : أنهم ابتلوا واختبروا وزُلْزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ، فحينئذ ظهر النفاق ، وتكلم الذين فى قلوبهم مرض بما فى نفوسهم : ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أما المنافق، فنجم نفاقه، والذى فى قلبه شبهة أو

(١) تفسير الطبرى (١/٨٣) .

(٢) فى ت : « ظن المتون » .

(٣) فى أ : « معقب » .

(٤) فى ت : « يستأصلون » .

(٥) فى ت : « وروى » .

(٦) المسند (٣/٣) .

حَسِيكَةً، ضَعْفُ حاله فتنفس بما يجده من الوسواس في نفسه ؛ لضعف إيمانه ، وشدة ما هو فيه من ضيق الحال . وقوم آخرون قالوا كما قال الله : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ﴾ يعني : المدينة ، كما جاء في الصحيح : « أريت [في المنام] (١) دارَ هجرتكم ، أرض بين حَرَّتَيْنِ فذهب وهلى أنها هَجَرَ ، فإذا هى يثرب » (٢) ، وفى لفظ : « المدينة » .

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن مهدي ، حدثنا صالح بن عمر ، عن يزيد ابن أبى زياد ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن البراء ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من سَمَى المدينة يثرب ، فليستغفر الله ، هى طابة ، هى طابة » (٣) .

تفرد به الإمام أحمد ، وفى (٤) إسناده ضعف ، والله أعلم .

ويقال : إنما كان أصل تسميتها « يثرب » برجل نزلها من العماليق ، يقال له : يثرب بن عييل بن مهلايل بن عوص بن عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح . قاله السهيلي ، قال : وروى عن بعضهم أنه قال : إن لها [فى التوراة] (٥) أحد عشر اسما : المدنية ، وطابة ، وطيبة ، والمسكينة ، والجابرة ، والمحبة ، والمحبوبة ، والقاصمة ، والمجبورة ، والعذراء ، والمرحومة .

وعن كعب الأحبار قال : إنا نجد فى التوراة يقول الله للمدينة : ياطيبة ، وياطابة ، ويامسكينة ، [لا تقلى الكنوز ، أرفع أحاجرك على أحاجر القرى] (٦) .

وقوله : ﴿ لَا مَقَامَ لَكُمْ ﴾ أى : هاهنا ، يعنون عند النبي ﷺ فى مقام المراقبة ، ﴿ فَارْجِعُوا ﴾ أى : إلى بيوتكم ومنازلكم . ﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيَّ ﴾ : قال العوفى ، عن ابن عباس : هم بنو حارثة قالوا : بيوتنا نخاف عليها السرقة . وكذا قال غير واحد .

وذكر ابن إسحاق : أن القائل لذلك هو أوس بن قَيْطَى ، يعنى : اعتذروا فى الرجوع إلى منازلهم بأنها عورة ، أى : ليس دونها ما يحجبها عن العدو ، فهم يخشون عليها منهم . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ بِعُورَةٍ ﴾ أى : ليست كما يزعمون ، ﴿ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أى : هرباً من الزحف .

﴿ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴾ (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدُّبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥) قُلْ لَّنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧) .

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿ يَقُولُونَ إِنْ بَيُّوتُنَا عُورَةٌ وَمَا هِيَ بِعُورَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ : أنهم لو

(١) زيادة من ت ، ف ، والبخارى .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٠٣٥) من حديث أبى موسى ، رضى الله عنه .

(٣) المسند (٢٨٥/٤) .

(٦) زيادة من ف ، أ .

(٥) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٤) فى ت : « فى » .

دَخَلَ عَلَيْهِمُ الْأَعْدَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ الْمَدِينَةِ ، وَقَطَرُ مِنْ أَقْطَارِهَا ، ثُمَّ سَلُّوا الْفِتْنَةَ ، وَهِيَ الدَّخُولُ فِي الْكُفْرِ ، لِكُفْرِهِمْ سَرِيعاً . وَهُمْ لَا يَحَافِظُونَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَلَا يَسْتَمْسِكُونَ بِهِ مَعَ أَدْنَى خَوْفٍ وَفَزَعٍ .

هكذا فسرهما قتادة ، وعبد الرحمن بن زيد ، وابن جرير ، وهذا ذم لهم في غاية الذم .
ثم قال تعالى : يَذْكُرُهُمْ بِمَا كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ هَذَا الْخَوْفِ ، أَلَا يُولُوا الْأَدْبَارَ وَلَا يَفِرُوا (١) مِنَ الزَّحْفِ ، ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ أَي : وَإِنَّ اللَّهَ سَيَسْأَلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ ، لَا بَدَّ مِنْ ذَلِكَ .
ثم أخبرهم أن فرارهم ذلك لا يؤخر آجالهم ، ولا يطول أعمارهم ، بل ربما كان ذلك سبباً في تعجيل أخذهم غرة ؛ ولهذا قال : ﴿وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَي : بَعْدَ هَرَبِكُمْ وَفِرَارِكُمْ ، ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء : ٧٧] .

ثم قال : ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أَي : يَمْنَعُكُمْ ، ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أَي : لَيْسَ لَهُمْ وَلَا لغيرهم مِنْ دُونِ اللَّهِ مُجِيرٌ وَلَا مَغِيثٌ (٢) .

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٨)
أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِاللَّسِنَةِ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) .

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب ، والقائلين لإخوانهم ، أَي : أصحابهم (٣) وعُشْرَائِهِمْ وَخُلَطَائِهِمْ ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أَي : إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الْإِقَامَةِ فِي الظَّلَالِ وَالشُّمَارِ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ ﴿لَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ . أَشْحَةً عَلَيْكُمْ أَي : بِخِلَاءِ بِالْمُودَةِ ، وَالشَّفَقَةِ عَلَيْكُمْ .
وقال السُّدِّي : ﴿أَشْحَةً عَلَيْكُمْ﴾ أَي : فِي الْغَنَائِمِ .

﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أَي : مِنْ شِدَّةِ خَوْفِهِ وَجَزَعِهِ ، وَهَكَذَا خَوْفُ هَؤُلَاءِ الْجَبْنَاءِ مِنَ الْقِتَالِ ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِاللَّسِنَةِ حِدَادٍ﴾ أَي : فَإِذَا كَانَ الْأَمْنُ ، تَكَلَّمُوا كَلَاماً بَلِيغاً فَصِيحاً عَالِياً ، وَادَّعَوْا لَأَنْفُسِهِمُ الْمَقَامَاتِ الْعَالِيَةَ فِي الشَّجَاعَةِ وَالنَّجْدَةِ ، وَهُمْ يَكْذِبُونَ فِي ذَلِكَ .

وقال ابن عباس : ﴿سَلَقُوكُمْ﴾ (٤) أَي : اسْتَقْبَلُوكُمْ .

(١) فِي ت ، ف : « أَلَا يُولُونَ وَلَا يَفِرُونَ » . ر (٢) فِي ت ، ف ، أ : « مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا مُجِيرًا مَغِيثًا » .

(٣) فِي ت : « أَي لِأَصْحَابِهِمْ » .

(٤) فِي أ : « سَلَقُوكُمْ بِاللَّسِنَةِ » .

وقال قتادة : أما عند الغنيمة فأشح قوم ، وأسوأه مقاسمة : أعطونا ، أعطونا ، قد (١) شهدنا معكم . وأما عند البأس فأجبن قوم ، وأخذله للحق .

وهم مع ذلك أشحه على الخير ، أى : ليس فيهم خير ، قد جمَعُوا الجبن والكذب وقلة الخير، فهم (٢) كما قال فى أمثالهم الشاعر (٣) :

أفى السِّلَمِ أعياراً (٤) جَفَاءً وغلظةً وفى الحَرْبِ أمثالَ النِّسَاءِ العَوَارِكِ

أى : فى حال المسألة كأنهم الحمير . والأعيار : جمع غير ، وهو الحمار . وفى الحرب كأنهم النساء الحيض ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُمْنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أى : سهلاً هيناً عنده .

﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٢٠) .

وهذا أيضاً من صفاتهم القبيحة فى الجبن والخوف والخور ، ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ ، بل هم قريب منهم ، وإن لهم عودة إليهم ﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾ أى : ويودّون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون (٥) حاضرين معكم فى المدينة بل فى البادية، يسألون عن أخباركم ، وما كان من أمركم مع عدوكم ، ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى : ولو كانوا بين أظهركم ، لما قاتلوا معكم إلا قليلاً ؛ لكثرة جبنهم وذلتهم وضعف يقينهم .

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) .

هذه الآية الكريمة أصل كبير فى التأسى برسول الله ﷺ فى أقواله وأفعاله وأحواله ؛ ولهذا أمر الناس بالتأسى بالنبي ﷺ (٦) يوم الأحزاب ، فى صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه ، عز وجل ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ؛ ولهذا قال تعالى للذين تقلقوا وتضجعوا وتزلزلوا واضطربوا فى أمرهم يوم الأحزاب : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أى : هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ؟ ولهذا قال : ﴿لَمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ .

ثم قال تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين المصدقين بموعود الله لهم ، وجعله العاقبة حاصلة لهم فى

(١) فى أ : « فقد » . (٢) فى ت : « فيهم » .

(٣) البيت لهند بنت عتبة ، وهو فى السيرة النبوية لابن هشام (٦٥٦/١) .

(٤) فى ت : « أعيار » . (٥) فى ت : « لا يكونوا » .

(٦) فى ت : « برسول الله » .

الدنيا والآخرة ، فقال : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۝ ﴾ .

قال ابن عباس وقتادة : يعنون قوله تعالى في « سورة البقرة » : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ۝ ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

أى هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذى يعقبه النصر القريب ؛ ولهذا قال : ﴿ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۝ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۝ ﴾ : دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس (١) وأحوالهم ، كما قاله جمهور الأئمة : إنه (٢) يزيد وينقص . وقد قررنا ذلك فى أول « شرح البخارى » ، ولله الحمد والمنة .

ومعنى قوله : ﴿ وَمَا زَادَهُمْ ۝ ﴾ أى : ذلك الحال والضيق والشدة [ما زادهم] (٣) ﴿ إِلَّا إِيمَانًا ۝ ﴾ بالله ، ﴿ وَتَسْلِيمًا ۝ ﴾ أى : انقيادا لأوامره ، وطاعة لرسوله .

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٤) ۝ ﴾ .

لما ذكر عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذى كانوا عاهدوا الله عليه لايولون الأدبار ، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق و ﴿ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ۝ ﴾ ، قال بعضهم : أجله .

وقال البخارى : عهده . وهو يرجع إلى الأول .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ۝ ﴾ أى : وما غيروا عهد الله ، ولا نقضوه ولا بدلوه .

قال البخارى : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهرى قال : أخبرنى خارجة بن زيد بن ثابت ، عن أبيه (٤) قال : لما نسخنا الصحف (٥) ، فَقَدْتُ آيَةً من « سورة الأحزاب » كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها ، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصارى - الذى جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين - : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ ۝ ﴾ .

(٣) زيادة من ت .

(٢) فى ت : « أن الإيمان » .

(١) فى ف : « بالنسبة إلى إيمان الناس » .

(٥) فى ت ، أ : « المصحف » .

(٤) فى ت : « روى البخارى عن زيد بن ثابت » .

انفرد به البخارى دون مسلم . وأخرجه أحمد فى مسنده ، والترمذى والنسائى - فى التفسير من سننهما - من حديث الزهري ، به (١) . وقال الترمذى : « حسن صحيح » .

وقال (٢) البخارى أيضا : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى ، حدثنى أبى ، عن ثُمَامَةَ ، عن أنس بن مالك قال : نرى هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر : ﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ (٣) .

انفرد به البخارى من هذا الوجه ، ولكن له شواهد من طرق أخر . قال الإمام أحمد :

حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت (٤) قال : قال أنس : عمى أنس بن النضر سُميت به ، لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر ، فشق عليه وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غُيِّبْتُ (٥) عنه ، لئن أرانى الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ لَيَرَيْنَ الله ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها ، فشهد مع رسول الله ﷺ [يوم] (٦) أحد ، فاستقبل سعد بن معاذ فقال له أنس (٧) : يا أبا عمرو، أبى . واهأ لريح الجنة أجده دون أحد ، قال : فقاتلهم حتى قُتِلَ قال : فوجد فى جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية ، فقالت أخته - عمتى الربيع ابنة النضر (٨) - : فما عرفتُ أخى إلا بينانه . قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ . قال : فكانوا يُروْنَ أنها نزلت فيه ، وفى أصحابه .

ورواه مسلم والترمذى والنسائى ، من حديث سليمان بن المغيرة ، به (٩) . ورواه النسائى أيضا وابن جرير ، من حديث حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس ، به نحوه (١٠) .

وقال (١١) ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا حميد ، عن أنس أن عمه - يعنى : أنس بن النضر - غاب عن قتال بدر ، فقال : غُيِّبْتُ عن أول قتال قاتله رسول الله ﷺ المشركين ، لئن الله أشهدنى قتالاً للمشركين، لَيَرَيْنَ الله ما أصنع . قال : فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون ، فقال : اللهم إنى أعترذ إليك مما صنع هؤلاء - يعنى : أصحابه - وأبرأ إليك مما جاء هؤلاء - يعنى : المشركين - ثم تقدم فلقى سعد - يعنى : ابن معاذ - دون أحد ، فقال : أنا معك . قال سعد : فلم أستطع أن أصنع ما صنع . قال : فوجد فيه بضع وثمانون ضربة سيف ، وطعنة رمح ، ورمية سهم . وكانوا (١٢) يقولون : فيه وفى أصحابه [نزلت] (١٣) : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾ .

(١) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٤) والمسنَد (١٨٨/٥) وسنن الترمذى برقم (٣١٠٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٠١) .

(٢) فى ت : « روى » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٣) .

(٤) فى ت : « روى الإمام أحمد » . (٥) فى ت : « غبت » . (٦) زيادة من ف ، والمسنَد .

(٧) أنس بن النضر . (٨) فى ت : « عمة الربيع بنت النضر » .

(٩) المسنَد (١٩٣/٤) وصحيح مسلم برقم (١٩٠٣) وسنن الترمذى برقم (٣٢٠٠) .

(١٠) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٠٤) وتفسير الطبرى (٩٣/٢١) .

(١١) فى ت : « وروى » . (١٢) فى ت ، ف ، أ : « وطعنة برمح ورمية بسهم فكانوا » .

(١٣) زيادة من ف .

وأخرجه الترمذى فى التفسير عن عبد بن حميد، والنسائى فيه أيضا، عن إسحاق بن إبراهيم، كلاهما، عن يزيد بن هارون، به (١). وقال الترمذى : حسن . وقد رواه البخارى فى المغازى عن حسان بن حسان ، عن محمد بن طلحة بن مُصَرِّف ، عن حميد ، عن أنس ، به (٢) ، ولم يذكر نزول الآية . ورواه ابن جرير ، من حديث المعتمر بن سليمان ، عن حميد ، عن أنس ، به (٣) .

وقال (٤) ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن الفضل العسقلانى ، حدثنا سليمان بن أيوب بن سليمان ابن عيسى بن موسى بن طلحة بن عبيد الله ، حدثنى أبى ، عن جدى ، عن موسى بن طلحة ، عن أبيه طلحة قال : لما أن رجع النبى ﷺ من أحد ، صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وعزى المسلمين بما أصابهم ، وأخبرهم بما لهم فيه من الأجر والذخر ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿رِجَالٌ صدَّقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (٥). فقام إليه رجل من المسلمين فقال : يا رسول الله ، من هؤلاء ؟ فأقبلتُ وعلى ثوبان أخضران حَضْرَمِيَّان فقال : « أيها السائل ، هذا منهم » .

وكذا رواه ابن جرير من حديث سليمان بن أيوب الطَّلَحى ، به (٦) . وأخرجه الترمذى فى التفسير والمناقب أيضا، وابن جرير ، من حديث يونس بن بُكَيْر ، عن طلحة بن يحيى ، عن موسى وعيسى ابْنى طلحة ، عن أبيهما ، به (٧) . وقال : حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث يونس .

وقال أيضا : حدثنا أحمد بن عصام الأنصارى ، حدثنا أبو عامر - يعنى : العقدي - حدثنا إسحاق - يعنى : ابن طلحة بن عبيد الله - عن موسى بن طلحة قال : [دخلت على معاوية ، رضى الله عنه ، فلما خرجت ، دعانى فقال : ألا أضع عندك يابن أخى حديثا سمعته من رسول الله ﷺ ؟ أشهد لَسَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول : « طلحة ممن قضى نجه » (٨) .

ورواه (٩) ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا عبد الحميد الحِمَانى ، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة الطَّلَحى ، عن موسى بن طلحة قال [(١٠) : قام معاوية بن أبى سفيان فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « طلحة ممن قضى نجه » (١١) .

ولهذا قال مجاهد فى قوله : ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ قال : عهده ، ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ﴾ قال : يوما

(١) سنن الترمذى برقم (٣٢٠١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٠٣) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٠٤٨) .

(٣) تفسير الطبرى (٩٣/٢١) . (٤) فى ت : « وروى » .

(٥) بعدها فى ت ، ف ، أ : « فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا » .

(٦) تفسير الطبرى (٩٤/٢١) .

(٧) سنن الترمذى برقم (٣٢٠٣) .

(٨) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٢٠٢) من طريق عمرو بن عاصم ، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة ، به وقال الترمذى : « هذا

حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإنما روى عن موسى بن طلحة عن أبيه » .

(٩) فى ت : « وروى » . (١٠) زيادة من ت ، ف ، أ ، والطبرى .

(١١) تفسير الطبرى (٩٣/٢١) .

(١٢) فى أ : « فنصدق » .

وقال الحسن : ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ يعنى : موته على الصدق والوفاء . ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ الموت على مثل ذلك ، ومنهم من لم يبدل (١) تبديلاً . وكذا قال قتادة ، وابن زيد .
وقال بعضهم : ﴿نَحْبَهُ﴾ : نذره .

وقوله : ﴿وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ أى : وما غيروا عهدهم ، وبدلوا الوفاء بالغدر ، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه ، وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا : ﴿إِنَّ بَيْوتَنَا عِوَرَةٌ وَمَا هِيَ بِعِوَرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ ، ﴿وَلَقَدْ (٢) كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْلُونَ الْأَدْبَارَ﴾ .

وقوله : ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أى : إنما يختبر عباده بالخوف والزلال ليميز (٣) الخبيث من الطيب ، فيظهر أمر هذا بالفعل ، وأمر هذا بالفعل ، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه ، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم ، حتى يعملوا بما يعلمه فيهم (٤) ، كما قال تعالى : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ (٥) الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُو (٦) أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد : ٣١] ، فهذا علم بالشيء بعد (٧) كونه ، وإن كان العلم (٨) السابق حاصلاً به قبل وجوده . وكذا قال تعالى : ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران : ١٧٩] ، ولهذا قال هاهنا : ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أى : بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه ، وقيامهم به ، ومحافظةهم عليه . ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾ : وهم الناقضون لعهد الله ، المخالفون لأوامره ، فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه ، ولكن هم تحت مشيئته فى الدنيا ، إن شاء استمر بهم على ما فعلوه حتى يلقوه به فيعذبهم عليه ، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان ، وعمل (٩) الصالح بعد الفسوق والعصيان . ولما كانت رحمته ورأفته بخلقه هى الغالبة لغضبه قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ .

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥)﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة ، بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية ، ولولا أن جعل الله رسوله رحمة للعالمين ، لكانت هذه الريح عليهم أشد من الريح العقيم على عاد ، ولكن قال الله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [وما كان الله لمُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ] (١٠) [الأنفال : ٣٣] ، فسلط عليهم هواء فرق شملهم ، كما كان سبب اجتماعهم من الهوى ، وهم أخلاط من قبائل شتى ، أحزاب وآراء ، فتاسب أن يرسل عليهم الهواء الذى فرق

(٣) فى ت : « فيميز » .

(٥) فى ت : « يعلم » .

(٨) فى ت : « العالم » .

(٢) فى ت : « وقد » .

(٤) فى ت : « بما علمه منهم » ، وفى ف : « بما يعلمه منهم » .

(٧) فى ف : « قبل » .

(١٠) زيادة من أ .

(١) فى ت : « من بدل » .

(٩) فى ت ، ف : « والعمل » .

جماعتهم، وردهم خائبين خاسرين بغيظهم وحقنهم، لم ينالوا خيراً لا فى الدنيا ، بما كان فى أنفسهم من الظفر والمغنم ، ولا فى الآخرة بما تحملوه (١) من الآثام فى مبارزة الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، بالعداوة ، وهمهم بقتله ، واستئصال جيشه ، ومن همّ بشيء وصدق همّه بفعله ، فهو فى الحقيقة كفاعله .

وقوله : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ أى : لم يحتاجوا (٢) إلى منازلهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم ، بل كفى الله وحده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ (٣) : « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده » . أخرجاه من حديث أبى هريرة (٤) .

وفى الصحيحين من حديث إسماعيل بن أبى خالد ، عن عبد الله بن أبى أوفى قال : دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب . اللهم ، اهزمهم وزلزلهم » (٥) .

وفى قوله : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ : إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش ، وهكذا وقع بعدها ، لم يغزهم المشركون ، بل غزاهم المسلمون فى بلادهم .

قال محمد بن إسحاق : لما (٦) انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله ﷺ فيما بلغنا : « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم » ، فلم تغز (٧) قريش بعد ذلك ، وكان هو بغزورهم بعد ذلك ، حتى فتح الله عليه مكة .

وهذا الحديث الذى ذكره محمد بن إسحاق (٨) حديث صحيح ، كما قال (٩) الإمام أحمد : حدثنا يحيى ، عن سفيان ، حدثنى أبو إسحاق قال : سمعت سليمان بن صرد يقول (١٠) : قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب : « الآن نغزوهم ولا يغزونا » .

وهكذا رواه البخارى فى صحيحه ، من حديث الثورى وإسرائيل ، عن أبى إسحاق ، به (١١) . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ أى : بحوله وقوته ، ردهم خائبين ، لم ينالوا خيراً ، وأعز الله الإسلام وأهله ، وصدق وعده ، ونصر رسوله وعبده ، فله الحمد والمنة .

﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْثُوهَا وَكَانَ

(١) فى ت : « مما عملوا » . (٢) فى أ : « لم يحتاجوا » . (٣) فى ت : « ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤١١٤) وصحيح مسلم برقم (٢٧٢٤) باختلاف فى اللفظ .

(٥) صحيح البخارى برقم (٢٩٣٣) وصحيح مسلم برقم (١٧٤٢) .

(٦) فى ت ، ف : « فلما » . (٧) فى أ : « تعد » . (٨) فى ت : « وهذا الذى ذكره ابن إسحاق » .

(٩) فى ت : « رواه » . (١٠) فى ت : « قال » .

(١١) المسند (٢٦٢/٤) وصحيح البخارى برقم (٤١٠٩) .

اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٧﴾

قد تقدم أن بنى قريظة لما قدمت جنود الأحزاب ، ونزلوا على المدينة ، نقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد ، وكان ذلك بسفارة حيي بن أخطب النَّضْرِي - لعنه الله - دخل حصنهم ، ولم يزل يسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد ، وقال له فيما قال : ويحك ، قد جئتكَ بعز الدهر ، أتيتكَ بقريش وأحاييشها ، وغطفان وأتباعها ، ولا يزالون هاهنا حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه . فقال له كعب : بل والله أتيتني بذلّ الدهر . ويحك يا حيي ، إنك مشؤوم ، فدعنا (١) منك . فلم يزل يفتل في الذروة والغارب حتى أجابه ، واشترط له حيي (٢) إن ذهب الأحزاب ، ولم يكن من أمرهم شيء ، أن يدخل معهم في الحصن ، فيكون له (٣) أسوتهم . فلما نقضت قريظة ، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، ساءه ، وشق عليه وعلى المسلمين جداً ، فلما أيد الله ونصر ، وكبت الأعداء وردهم خائبين بأخسر صفقة ، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيداً منصوراً ، ووضع الناس السلاح . فبينما رسول الله ﷺ يغتسل (٤) من وعثاء تلك المرابطة في بيت أم سلمة إذ تبدى له جبريل معتجراً بعمامة من إستبرق ، على بغلة عليها قطيفة [من] (٥) ديباج ، فقال : أوضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : « نعم » . قال : لكن الملائكة لم تضع أسلحتها ، وهذا الآن رجوعى من طلب القوم . ثم قال : إن الله يأمرك أن تنهض إلى بنى قريظة . وفي رواية فقال له : عذيرك من مقاتل ، أوضعتم السلاح ؟ قال : « نعم » . قال : لكننا لم نضع أسلحتنا بعد ، انهض إلى هؤلاء . قال : « أين ؟ » . قال : بنى قريظة ، فإن الله أمرنى أن أزلزل عليهم . فنهض رسول الله ﷺ من فوره ، وأمر الناس بالمسير إلى بنى قريظة ، وكانت على أميال من المدينة ، وذلك بعد صلاة الظهر ، وقال : « لا يصلين أحد منكم العصر إلا فى بنى قريظة » . فسار الناس ، فأدركتهم الصلاة فى الطريق ، فصلى بعضهم فى الطريق وقالوا : لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل السير ، وقال آخرون : لا نصليها إلا فى بنى قريظة . فلم يُعْنَفَ واحداً من الفريقين . وتبعهم رسول الله ﷺ ، وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وأعطى الراية لعلى بن أبى طالب . ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصره خمساً وعشرين ليلة ، فلما طال عليهم الحال ، نزلوا على حكم سعد بن معاذ - سيد الأوس - لأنهم كانوا حلفاءهم فى الجاهلية ، واعتقدوا أنه يحسن إليهم فى ذلك ، كما فعل عبد الله بن أبى بن سلول فى مواليه بنى قينقاع ، حين استطلقهم من رسول الله ﷺ ، فظن هؤلاء أن سعداً سيفعل فيهم كما فعل ابن أبى فى أولئك ، ولم يعلموا أن سعداً ، رضى الله عنه ، كان قد أصابه سهم فى أكحله أيام الخندق ، فكواه رسول الله ﷺ فى أكحله ، وأنزله فى قبة فى المسجد ليعوده من قريب . وقال سعد فيما دعا به : اللهم ، إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقنى لها . وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فافجرها ولا تمتنى حتى تُقرَّ عيني من بنى قريظة . فاستجاب الله دعاءه ، وقدّر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم طلباً من تلقاء أنفسهم ، فعند ذلك استدعاه رسول الله ﷺ من المدينة ليحكم فيهم ، فلما

(١) فى ت : « دعنا » . (٢) فى أ : « حتى » . (٣) فى ت : « لهم » . (٤) فى ت : « يغسل رأسه » .

(٥) زيادة من ت ، ف ، أ .

أقبل وهو راكب [على حمار] (١) قد وطؤوا له عليه ، جعل الأوس يلوذون به ويقولون : ياسعد، إنهم مواليك ، فأحسن فيهم . ويرققونه عليهم ويعطفونه ، وهو ساكت لا يرد عليهم . فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم . فعرفوا أنه غير مستبقيهم ، فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى سيدكم » . فقام إليه المسلمون ، فأنزلوه إعظاماً وإكراماً واحتراماً له في محل ولايته ، ليكون أنفذ لحكمه فيهم . فلما جلس قال له رسول الله ﷺ : « إن هؤلاء - وأشار إليهم - قد نزلوا على حكمك ، فأحكم فيهم بما شئت » . قال : وحكمي نافذ عليهم ؟ قال : « نعم » . قال : وعلى من في هذه الخيمة ؟ قال : « نعم » . قال : وعلى من هاهنا . وأشار إلى الجانب الذي فيه رسول الله ﷺ - وهو معرض بوجهه عن رسول الله ﷺ إجلالاً (٢) وإكراماً وإعظاماً - فقال له رسول الله ﷺ : « نعم » . فقال : إني أحكم أن تقتل مقاتلتهم ، وتُسبى ذريتهم وأموالهم . فقال له رسول الله ﷺ : « لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة » (٣) ، وفي رواية : « لقد حكمت بحكم الملك » . ثم أمر رسول الله ﷺ بالأخاديد فخذت في الأرض ، وجيء بهم مكثفين ، فضرب أعناقهم ، وكانوا ما بين السبعمئة إلى الثمانمئة ، وسبى من لم يُنبت منهم مع النساء وأموالهم (٤) ، وهذا كله مقرر مفصل بأدلته وأحاديثه وبسطه في كتاب السيرة ، الذي أفردناه موجزاً ومقتصاً (٥) ، ولله الحمد والمنة .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ ﴾ أى : عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعنى : بنى قريظة من اليهود ، من بعض أسباط بنى إسرائيل ، كان قد نزل أبائهم الحجاز قديماً ، طمعاً في اتباع النبی الامی الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ [البقرة : ٨٩] ، فعليهم لعنة الله .

وقوله : ﴿ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ﴾ يعنى : حصونهم . كذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وعطاء ، وقتادة ، والسدي ، وغيرهم (٦) ومنه سميت صياصي البقر ، وهى قرونها ؛ لأنها أعلى شئ فيها .

﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ وهو الخوف ؛ لأنهم كانوا مالؤوا المشركين على حرب رسول الله ﷺ (٧) ، وليس من يعلم كمن لا يعلم ، فأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليعزوا (٨) في الدنيا ، فانعكس

(١) زيادة من ت ، ف ، والبداية والنهاية . (٢) فى ت : « إجلالاً له » .

(٣) رواه ابن إسحاق فى السيرة كما فى البداية والنهاية (١٢٣/٤) من طريق عاصم بن عمر ، عن عبد الرحمن بن عمر ، عن علقمة بن وقاص قال : قال رسول الله ﷺ فذكره ، وأظن فى السند خطأ . ورواه ابن سعد فى الطبقات (٤٢٦/٣) من طريق محمد بن صالح التمار ، عن سعد بن إبراهيم ، عن عامر بن سعد ، عن أبيه سعد بن أبى وقاص مرفوعاً بلفظ : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات » ، وأصله فى صحيح البخارى من دون قوله : « فوق سبع سموات » برقم (٣٠٤٣) من حديث أبى سعيد الخدرى .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٢٣٩/٢) .

(٥) فى ت ، ف ، أ : « وبسيطاً » .

(٦) فى ت : « كذا قال مجاهد وغير واحد من السلف » ، وفى أ : « كذا قال مجاهد وغيرهم من السلف » .

(٧) فى ف : « النبی » . (٨) فى ت ، ف ، أ : « ليغزوهم » .

عليهم الحال ، وانقلب الفال (١) ، انشمر (٢) المشركون ففازوا بصفقة المغبون ، فكما راموا العز ذلوا (٣) ، وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا ، وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة ، فصارت الجملة أن هذه هي الصفقة الخاسرة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ﴾ (٤) فَرِيقًا ، فالذين قتلوا هم المقاتلة ، والأسراء هم الأصاغر والنساء .

قال (٥) الإمام أحمد : حدثنا هُشَيْمُ بْنُ بِشِيرٍ ، أخبرنا عبد الملك بن عمير ، عن عطية القرظي قال : عُرِضَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ قَرِيظَةَ فَشَكُوا فِيَّ ، فَأَمَرَ بِي النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَنْظُرُوا : هَلْ أَنْبَتَ بَعْدَ ؟ فَنَظَرُوا فَلَمْ يَجِدُونِي أَنْبَتَ ، فَخَلَى عَنِّي وَأَلْحَقَنِي بِالسَّبِي .

وكذا رواه أهل السنن كلهم من طرق ، عن عبد الملك بن عمير ، به (٦) . وقال الترمذي : « حسن صحيح » . ورواه النسائي أيضاً ، من حديث ابن جُرَيْجٍ ، عن ابن أبي نَجِيحٍ ، عن مجاهد ، عن عطية ، بنحوه (٧) .

وقوله : ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ أى : جعلها لكم من قتلكم (٨) لهم ﴿وَأَرْضًا لَمْ تَطْتُووها﴾ : قيل : خبير . وقيل : مكة . رواه مالك ، عن زيد بن أسلم . وقيل : فارس والروم . وقال ابن جرير : يجوز أن يكون الجميع مراداً .

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ : قال الإمام أحمد :

حدثنا يزيد ، أخبرنا محمد بن عمرو ، عن أبيه ، عن جده علقمة بن وقاص قال : أخبرتنى (٩) عائشة قالت : خرجت يوم الخندق أقفوا الناس ، فسمعت وثيد الأرض ورائى ، فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مجنّه ، قالت : فجلست إلى الأرض ، فمر سعد وعليه درع من حديد قد خرجت منه أطرافه ، فأنا أتخوف على أطراف سعد ، قالت : وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم ، فمر وهو يرتجز (١٠) ويقول :

لَبَّثْتُ قَلِيلًا يَشْهَدُ الْهَيْجَا حَمَلٌ
مَا أَحْسَنَ الْمَوْتَ إِذَا حَانَ الْأَجَلُ

قالت : فقممت فافتحمت حديقة ، فإذا فيها نفر من المسلمين ، وإذا فيها عمر بن الخطاب ، وفيهم رجل عليه تَسْبِغَةٌ (١١) له - تعنى المغفر - فقال عمر : ما جاء بك ؟ لعمرى والله إنك لجرئئة (١٢) ، وما يؤمنك أن يكون بلاء أو يكون تحوّر . قالت : فما زال يلومنى حتى تمنيت أن الأرض انشقت بى (١٣)

(١) فى ت ، أ : « وانقلب عليهم الفال » . (٢) فى أ : « انشمر » . (٣) فى ت : « فلما راموا العز أذلوا » .

(٤) فى ت : « يقتلون ويأسرون » . (٥) فى ت : « روى » .

(٦) المسند (٣١١/٥) وسنن أبى داود برقم (٤٤٠٤) وسنن الترمذى برقم (١٥٨٤) وسنن النسائى (٩٢/٨) وسنن ابن ماجة برقم (٢٥٤٢) .

(٧) النسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٦١٩) .

(٨) فى ت ، ف : « قبلكم » .

(٩) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن » .

(١٠) فى ت : « يرتجز » .

(١١) فى ت : « مشيقة » ، وفى ف : « نشيقة » . (١٢) فى ت : « محلبة » . (١٣) فى ت ، ف : « لى » .

ساعتئذ ، فدخلت فيها ، فرفع الرجل التسبغة^(١) عن وجهه ، فإذا هو طلحة بن عبيد الله فقال : يا عمر ، ويحك ، إنك قد أكثرت منذ اليوم ، وأين التحوُّز أو الفرار إلا إلى الله تعالى ؟ قالت : ويرمى سعداً رجل من قريش ، يقال له ابن العرقة بسهم^(٢) ، وقال له : خذها وأنا ابن العرقة فأصاب أكحلَّه فقطعه ، فدعا الله سعد فقال : اللهم ، لا تمتني حتى تُقر عيني من قريظة . قالت : وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية ، قالت : فرقاً كلُّهم ، وبعث الله الريح على المشركين ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً . فلحق أبو سفيان ومن معه بتهامة ، ولحق عيينة بن بدر ومن معه بنجد ، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا في صياصيمهم ، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وأمر بقبة من آدم فضربت على سعد في المسجد ، قالت : فجاءه جبريل ، عليه السلام ، وإن على ثنياه لنقع الغبار ، فقال : أو قد وضعت السلاح ؟ لا ، والله ما وضعت الملائكة بعد السلاح ، أخرج إلى بنى قريظة فقاتلهم . قالت : فلبس رسول الله ﷺ لأُمته ، وأذن في الناس بالرحيل أن يخرجوا ، [فخرج رسول الله ﷺ]^(٣) فمر على بنى غنم^(٤) وهم جيران المسجد حوله فقال : ومن مر بكم ؟ قالوا : مر بنا دحية الكلبي - وكان دحية الكلبي تشبه لحيته ، وسنه ووجهه جبريل ، عليه الصلاة والسلام ، فأتاهم رسول الله ﷺ فحاصره خمساً وعشرين ليلة ، فلما اشتد حصارهم واشتد البلاء قيل لهم : انزلوا على حكم رسول الله ﷺ . فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر ، فأشار إليهم أنه الذبح . قالوا : ننزل على حكم سعد بن معاذ [فقال رسول الله ﷺ : « انزلوا على حكم سعد بن معاذ » . فنزلوا وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ]^(٥) فأتى به على حمار عليه إكاف من ليف قد حُمِل عليه ، وحَفَّ به قومه ، فقالوا : يا أبا عمرو ، حلفاؤك ومواليك وأهل النكايه ، ومن قد علمت ، قالت : ولا يرجع إليهم شيئاً ، ولا يلتفت إليهم ، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال : قد آن لى ألا أبالي فى الله لومة لائم . قال^(٦) : قال أبو سعيد^(٧) : فلما طلع قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى سيدكم فأنزلوه » . فقال عمر : سيدنا الله . قال : « أنزلوه » . فأنزلوه ، قال رسول الله ﷺ : « احكم فيهم » . قال سعد : فإنى أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم ، وتقسم أموالهم ، فقال رسول الله : « لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله » . ثم دعا سعد فقال : اللهم ، إن كنت أبقيت على نبيك من حرب قريش شيئاً ، فأبقني لها . وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم ، فاقبضنى إليك . قال : فانفجر كلُّهم ، وكان قد برئ منه إلا مثل الخُرْص ، ورجع إلى قبته التى ضرب عليه رسول الله .

قالت عائشة : فَحَصَرَهُ رسولُ الله ﷺ وأبو بكر ، وعمر : قالت : فوالذى نفس محمد بيده ، إنى لأعرف بكاء أبى بكر من بكاء عمر ، وأنا فى حجرتى . وكانوا كما قال الله تعالى : ﴿ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ .

قال علقمة : فقلت : أى أمه ، فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع ؟ قالت : كانت عينه لا تدمع على أحد ، ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلحيته^(٨) .

(١) فى ف : « النسيقة » . (٢) فى ت ، ف : « بسهم له » . (٣) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمُسند .

(٤) فى ت ، ف : « نعيم » . (٥) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمُسند . (٦) فى ت ، ف ، أ : « قالت » .

(٧) فى أ : « أبو سعد » .

(٨) المُسند (١٤١/٦) .

وقد أخرج البخارى ومسلم من حديث عبد الله بن غير ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة نحواً من هذا ، ولكنه (١) أخصر منه ، وفيه دعاء سعد ، رضى الله عنه (٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ (٢٨) وَإِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٢٩) .

هذا أمر من الله لرسوله ، صلوات الله وسلامه عليه (٣) ، بأن يخيّر نساءه بين أن يفارقهن ، فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها ، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله فى ذلك الثواب الجزيل ، فاخترن ، رضى الله عنهن وأرضاهن ، الله ورسوله والدار الآخرة ، فجمع الله لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة .

قال (٤) البخارى : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهرى ، قال : أخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن ، أن عائشة ، رضى الله عنها ، زوج النبى ﷺ أخبرته : أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله أن يخيّر أزواجه ، فبدأ بى رسول الله ﷺ فقال : « إني ذاك لك أمراً ، فلا عليك أن تستعجلي حتى تستأمرى أبويك » ، وقد علم أن أبوى لم يكونا يأمرانى بفراقه . قالت : ثم قال : « وإن الله قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ ﴾ » إلى تمام الآيتين ، فقلت له : ففى أى هذا أستمأمر أبوى؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة (٥) .

وكذا رواه معلقاً عن الليث : حدثنى يونس ، عن الزهرى ، عن أبى سلمة ، عن عائشة ، فذكره وزاد : قالت : ثم فعل أزواج النبى ﷺ مثل ما فعلت (٦) .

وقد حكى البخارى أن معمرًا اضطرب ، فتارة (٧) رواه عن الزهرى ، عن أبى سلمة ، وتارة رواه عن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة (٨) .

وقال ابن جرير : حدثنا أحمد بن عبدة الضبى ، حدثنا أبو عوانة ، عن عمر بن أبى سلمة ، عن أبيه قال : قالت عائشة : لما نزل الخيار قال لى رسول الله ﷺ : « إني أريد أن أذكر لك أمراً ، فلا تقضى فيه شيئاً حتى تستأمرى أبويك » . قالت : قلت : وما هو يا رسول الله ؟ قال : فردّه عليها . فقالت : فما هو يا رسول الله ؟ قالت : فقرأ عليها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ إلى آخر الآية . قالت : فقلت : بل نختار الله ورسوله والدار الآخرة . قالت : ففرح بذلك النبى ﷺ (٩) .

(١) فى ت ، أ : « ولكن » .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤١١٧) وصحيح مسلم برقم (١٧٦٩) .

(٣) فى ت : « ﷺ » .

(٤) فى ت : « فروى » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٥) .

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٦) .

(٧) فى أ : « فيه فتادة و » .

(٨) صحيح البخارى (٥٢٠ / ٨) « فتح » .

(٩) تفسير الطبرى (١٠٠ / ٢١) .

وحدثنا ابن وكيع ، حدثنا محمد بن بشر ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : لما نزلت آية التخيير ، بدأ بى رسول الله ﷺ ، فقال : « يا عائشة ، إني عارض عليك أمراً ، فلا تفتاتى فيه [بشيء] ^(١) حتى تعرضيه على أبويك أبى بكر وأم رومان » . فقلت : يا رسول الله ، وما هو ؟ قال : « قال الله عزوجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيعاً . وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴾ » . قالت : فإننى أريد الله ورسوله والدار الآخرة ، ولا أوامر فى ذلك أبوى أبى بكر وأم رومان ، فضحك رسول الله ﷺ ثم استقرأ الحجر فقال : « إن عائشة قالت كذا وكذا » . فقلن : ونحن نقول مثل ما قالت عائشة ، رضى الله عنهن كلهن ^(٢) .

ورواه ابن أبى حاتم ، عن أبى سعيد الأشج ، عن أبى أسامة ، عن محمد بن عمرو ، به .

قال ابن جرير : وحدثنا سعيد بن يحيى الأموى ، حدثنا أبى ، عن ^(٣) محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن أبى بكر ، عن عمرة ، عن عائشة : أن رسول الله ﷺ لما نزل إلى نساءه أمر أن يخيرهن ، فدخل على فقال : « سأذكر لك أمراً فلا تعجلى حتى تستشيرى أباك » . فقلت : وما هو يأنى الله ؟ قال : « إني أمرت أن أخيركن » ، وتلا عليها آية التخيير ، إلى آخر الآيتين . قالت : فقلت : وما الذى تقول لا تعجلى حتى تستشيرى أباك ؟ فإننى أختار الله ورسوله ، فسر بذلك ، وعرض على نساءه فتابعن كلهن ، فاخترن الله ورسوله ^(٤) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا يزيد بن سنان البصرى ، حدثنا أبو صالح عبد الله بن صالح ، حدثنى الليث ، حدثنى عقيل ، عن الزهرى ، أخبرنى عبيد الله بن عبد الله بن أبى ثور ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، قال : قالت عائشة ، رضى الله عنها : أنزلت آية التخيير فبدأ بى أول امرأة من نساءه ، فقال : « إني ذاك لك أمراً ، فلا ^(٥) عليك ألا تعجلى حتى تستأمرى أبويك » . قالت : قد علم ^(٦) أن أبوى لم يكونا يأمرانى بفراقه . قالت : ثم قال : « إن الله قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكَ ﴾ » الآيتين . قالت عائشة : فقلت : أفى هذا أستأمر أبوى ؟ فإننى أريد الله ورسوله والدار الآخرة . ثم خير نساءه كلهن ، فقلن مثل ما قالت عائشة ، رضى الله عنهن .

وأخرجه البخارى ومسلم جميعاً ، عن قتيبة ، عن الليث ، عن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة ، مثله ^(٧) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن مسلم بن صبيح ، عن مسروق ، عن عائشة قالت : خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه ، فلم يعدها علينا شيئاً . أخرجاه من حديث الأعمش ^(٨) .

(١) زيادة من ت ، ف ، والطبرى .

(٢) تفسير الطبرى (١٠١/٢١) .

(٣) فى أ : « أنبأنا » .

(٤) تفسير الطبرى (١٠١/٢١) .

(٥) فى أ : « ألا » .

(٦) فى ف : « أعلم » .

(٧) كذا ولم أجده بهذا السند فيهما ، ولا ذكره المزى فى تحفة الأشراف ولعلنى أئداركه فيما بعد .

(٨) المسند (٤٥/٦) وصحيح البخارى برقم (٥٢٦٢) وصحيح مسلم برقم (١٤٧٧) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو، حدثنا زكريا بن إسحاق ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : أقبل أبو بكر ، رضى الله عنه ، يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس ، والنبي ﷺ جالس : فلم يؤذن له . ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له . ثم أذن لأبى بكر وعمر فدخلوا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه ، وهو ساكت ، فقال عمر : لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك ، فقال عمر : يا رسول الله ، لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتني النفقة أنفاً ، فوجأت عنقها . فضحك النبي ﷺ حتى بدا ناجذه (١) وقال : « هن حولى يسألننى النفقة » . فقام أبو بكر ، رضى الله عنه ، إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر ، رضى الله عنه ، إلى حفصة ، كلاهما يقولان : تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده . فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن نساؤه : والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده . قال : وأنزل الله ، عز وجل ، الخيار ، فبدأ بعائشة فقال : « إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلنى فيه حتى تستأمرى أبويك » . قالت : وما هو ؟ قال : فتلا عليها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ ﴾ الآية ، قالت عائشة ، رضى الله عنها : أفيك أستأمر أبوى ؟ بل أختار الله ورسوله ، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت . فقال : « إن الله تعالى لم يبعثنى معنفاً ، ولكن بعثنى معلماً ميسراً (٢) ، لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها » .

انفرد بإخراجه مسلم دون البخارى ، فرواه هو والنسائى ، من حديث زكريا بن إسحاق المكى ، به (٣) .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : حدثنا سريج بن يونس ، حدثنا على بن هاشم بن البريد ، عن محمد بن عبيد [الله بن على] (٤) ابن أبى رافع ، عن عثمان بن على بن الحسين ، عن أبيه ، عن على ، رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ خير نساءه الدنيا والآخرة ، ولم يخيرهن الطلاق (٥) .

وهذا منقطع ، وقد روى عن الحسن وقتادة وغيرهما نحو ذلك . وهو خلاف الظاهر من الآية ، فإنه قال : ﴿ فَتَعَالَيْنِ أُمَتِّعْكُنَّ وَأَسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾ أى : أعطيكن حقوقكن وأطلق سراحكن .

وقد اختلف العلماء فى جواز تزويج غيره لهن لو طلقهن ، على قولين ، وأصحهما نعم لو وقع ، ليحصل المقصود من السراح ، والله أعلم .

قال عكرمة : وكان تحته يومئذ تسع نسوة ، خمس من قريش : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة ، وكانت تحته ﷺ صفية بنت حيى النضرية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية ، رضى الله عنهن وأرضاهن .

[ولم يتزوج واحدة منهن ، إلا بعد أن توفيت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ابن كلاب ، تزوجها رسول الله ﷺ بمكة ، وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وبقيت معه إلى أن أكرمه الله برسالاته فأمنت به ونصرته ، وكانت له وزير صدق ، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين ، رضى الله عنها ، فى الأصح ، ولها خصائص منها : أنه لم يتزوج عليها غيرها ، ومنها أن أولاده كلهم منها ، إلا إبراهيم ، فإنه من سريته مارية ، ومنها أنها خير نساء الأمة .

(١) فى ف : « نواجذه » . (٢) فى ت : « مبشراً » .

(٣) المسند (٣/٣٢٨) وصحيح مسلم برقم (١٤٧٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٢٠٨) .

(٤) زيادة من ت ، ف ، والمسند .

(٥) روائد المسند (٧٨/١) .

واختلف فى تفضيلها على عائشة على ثلاثة أقوال ، ثالثها الوقف .

وسئل شيخنا أبو العباس بن تيمية عنهما فقال : اختصت كل واحدة منهما بخاصية ، فخديجة كان تأثيرها فى أول الإسلام ، وكانت تُسَلَّى رسول الله ﷺ وتثبته ، وتسكنه ، وتبذل دونه مالها ، فأدركت غرة الإسلام ، واحتملت الأذى فى الله وفى رسوله وكان نصرتها للرسول فى أعظم أوقات الحاجة ، فلها من النصرة والبذل ما ليس لغيرها . وعائشة تأثيرها فى آخر الإسلام ، فلها من التفقه فى الدين وتبليغه إلى الأمة ، وانتفاع بنيتها بما أدت إليهم من العلم ، ما ليس لغيرها . هذا معنى كلامه ، رضى الله عنه .

ومن خصائصها : أن الله ، سبحانه ، بعث إليها السلام مع جبريل ، فبلغها رسول الله ﷺ ذلك . روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : أتى جبريل ، عليه السلام ، النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، هذه خديجة ، قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب ، فإذا هى أتتك فأقرأها السلام من ربها ومنى ، وبشرها بيت فى الجنة ، من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب (١) وهذه لعمر الله خاصة ، لم تكن لسواها . وأماً عائشة ، رضى الله عنها ، فإن جبريل سلم عليها على لسان النبى ﷺ ، فروى البخارى بإسناده أن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ يوماً : « يا عائشة ، هذا جبريل يقرئك السلام » . فقلت : وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ، ترى ما لا أرى ، تريد رسول الله ﷺ (٢) .

ومن خواص خديجة ، رضى الله عنها : أنه لم تسوء قط ، ولم تغاضبه ، ولم ينلها منه إيلاء ، ولا عتب قط ، ولا هجر ، وكفى بهذه منقبة وفضيلة .

ومن خواصها : أنها أول امرأة آمنت بالله ورسوله من هذه الأمة .

فصل :

فلما توفاهما الله تزوج بعدها سودة بنت زمعة ، رضى الله عنها ، وهى سودة بنت زمعة بن قيس ابن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن جيل بن عامر بن لؤى ، وكبرت عنده ، وأراد طلاقها فوهبت يومها لعائشة ، فأمسكها . وهذا من خواصها : أنها أثرت بيومها حب النبى ﷺ تقرباً إلى رسول الله ﷺ ، وحبا له ، وإيثاراً لمقامها معه ، فكان يقسم لعائشة يومها ويوم سودة ، ويقسم لنسائه ، ولا يقسم لها وهى راضية بذلك مؤثرة ، لترضى رسول الله ﷺ .

وتزوج الصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبى بكر ، رضى الله عنهما ، وهى بنت ست سنين قبل الهجرة بستين ، وقيل : بثلاث ، وبني بها بالمدينة أول مقدمه فى السنة الأولى ، وهى بنت تسع ، ومات عنها وهى بنت ثمان عشرة ، وتوفيت بالمدينة ، ودفنت بالبقيع ، وأوصت أن يصلى عليها أبو هريرة سنة ثمان وخمسين ، ومن خصائصها : أنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه ، كما ثبت ذلك عنه فى البخارى وغيره ، أنه سئل أى الناس أحب إليك ؟ قال : « عائشة » . قيل : فمن الرجال ؟ قال : « أبوها » (٣) .

ومن خصائصها أيضاً : أنه لم يتزوج بكرة غيرها ، ومن خصائصها : أنه كان ينزل عليه الوحي وهو

(١) صحيح البخارى برقم (٣٨٢٠) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٣٧٦٨) .

(٣) لم أقف عليه فى صحيح البخارى . وهو فى سنن الترمذى برقم (٣٨٧٩) من حديث عمرو بن العاص ، رضى الله عنه .

فى لحافها دون غيرها .

ومن خصائصها: أن الله، عزوجل، لما أنزل عليه آية التخيير بدأ بها فخيرها، فقال: « ولا عليك ألا تعجلى حتى تستأمرى أبويك » . فقالت : أفى هذا أستأمر أبواى ، فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة . فاستن بها بقية أزواجه ﷺ ، وقلن كما قالت .

ومن خصائصها : أن الله، سبحانه، برأها مما رماها به أهل الإفك ، وأنزل فى عذرها، وبراءتها، وحيأ يتلى فى محاريب المسلمين ، وصلواتهم إلى يوم القيامة ، وشهد لها أنها من الطيبات ، ووعدا المغفرة والرزق الكريم ، وأخبر ، سبحانه ، أن ما قيل فيها من الإفك كان خيراً لها ، ولم يكن بذلك الذى قيل فيها شر لها ، ولا عيب لها ، ولا خافض من شأنها ، بل رفعها الله بذلك ، وأعلا قدرها وعظم شأنها، وأصار لها ذكراً بالطيب والبراءة بين أهل الأرض والسماء ، فيا لها من منقبة ما أجلها . وتأمل هذا التشريف والإكرام الناشئ عن فرط تواضعها واستصغارها لنفسها، حيث قالت : ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فى بوحى يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا يبرئنى الله بها ، فهذه صديقة الأمة ، وأم المؤمنين ، وحب رسول الله ﷺ ، وهى تعلم أنها بريئة مظلومة ، وأن قاذفيها ظالمون مفترون عليها ، قد بلغ أذاهم إلى أبويها ، وإلى رسول الله ﷺ ، وهذا كان احتقارها لنفسها وتصغيرها لشأنها ، فما ظنك بمن قد صام يوماً أو يومين ، أو شهراً أو شهرين ، قد قام ليلة أو ليلتين ، فظهر عليه شئ من الأحوال ، ولا حظوا أنفسهم بعين استحقاق الكرامات ، وأنهم ممن يتبرك بلقائهم ، ويغتتم بصالح دعائهم ، وأنهم يجب على الناس احترامهم وتعظيمهم وتعزيزهم وتوقيرهم ، فيتمسح بأثوابهم ، ويقبل ثرى أعتابهم ، وأنهم من الله بالمكانة التى تنتقم لهم لأجلها من تنقصهم فى الحال ، وأن يؤخذ من أساء الأدب عليهم من غير إمهال ، وإن إساءة الأدب عليهم ذنب لا يكفره شئ إلا رضاهم .

ولو كان هذا من وراء كفاية لهان ، ولكن من وراء تخلف ، وهذه الحماقات والرعنات نتاج الجهل الضميم ، والعقل غير المستقيم ، فإن ذلك إنما يصدر من جاهل معجب بنفسه ، غافل عن جرمه وعيوبه وذنوبه ، مغتر بإمهال الله له عن أخذه بما هو فيه من الكبر والازدراء على من لعله عند الله خير منه . نسأل الله العافية فى الدنيا والآخرة .

وينبغى للعبد أن يستعيز بالله أن يكون عند نفسه عظيماً ، وهو عند الله حقيراً ، ومن خصائص عائشة، رضى الله عنها: أن الأكابر من الصحابة، رضى الله عنهم ، كان إذا أشكل الأمر عليهم من الدين ، استفتوها فيجدون علمه عندها .

ومن خصائصها : أن رسول الله ﷺ توفى فى بيتها . ومن خصائصها : أن الملك أرى صورتها للنبي ﷺ قبل أن يتزوجها فى خرقة حرير ، فقال النبي ﷺ : « إن يكن هذا من عند الله يمضه » (١) . ومن خصائصها : أن الناس كانوا يتحرون هداياهم يومها من رسول الله ﷺ تقرباً إلى الرسول ﷺ ، فيتحنفونه بما يحب فى منزل أحب نسائه إليه ، رضى الله عنهم أجمعين ، وتكنى أم عبد الله ، وروى أنها أسقطت من النبي ﷺ سقطاً ، ولا يثبت ذلك .

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٠٧٨) من حديث عائشة ، رضى الله عنها .

وتزوج رسول الله ﷺ حفصة بنت عمر بن الخطاب ، وكانت قبله عند حبيش بن حذافة ، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ ومن شهد بدرًا ، توفيت سنة سبع ، وقيل : ثمان وعشرين ، ومن خواصها : ما ذكره الحافظ أبو محمد المقدسي في مختصره في السيرة : أن النبي ﷺ طلقها ، فأتاه جبريل فقال : إن الله يأمرك أن تراجع حفصة ، فإنها صوامة قوامة وإنها زوجتك في الجنة .

وقال الطبراني في المعجم الكبير : حدثنا أحمد بن طاهر بن حرملة بن يحيى ، حدثنا جدى حرملة ، حدثنا ابن وهب ، حدثني عمرو بن صالح الحضرمي ، عن موسى بن علي بن رباح ، عن أبيه ، عن عقبة بن عامر ، أن النبي ﷺ طلق حفصة ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب ، فوضع التراب على رأسه ، وقال : ما يعبأ الله بابن الخطاب بعد هذا . فتزل جبريل ، عليه السلام ، على النبي ﷺ فقال : إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة لعمر (١) .

وتزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان ، واسمها رملة بنت صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، هاجرت مع زوجها عبد الله بن جحش إلى أرض الحبشة ، فتتصر بالحبشة ، وأتم الله لها الإسلام ، وتزوجها رسول الله ﷺ وهى بأرض الحبشة ، وأصدقها عند النجاشي أربعمئة دينار ، وبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري بها إلى أرض الحبشة ، وولى نكاحها عثمان بن عفان ، وقيل : خالد بن سعيد بن العاص ، وهى التى أكرمت فراش رسول الله ﷺ أن يجلس عليه أبوها لما قدم أبو سفيان المدينة ، وقالت له : إنك مشرك ، ومنعته الجلوس عليه .

وتزوج رسول الله ﷺ أم سلمة واسمها هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب ، وكانت قبله عند أبي سلمة بن عبد الأسد ، توفيت سنة اثنين وستين ، ودفنت بالبقيع ، وهى آخر أزواج النبي ﷺ موتاً ، وقيل : بل ميمونة ، ومن خصائصها : أن جبريل دخل على النبي ﷺ ، وهى عنده فرأته فى صورة دحية الكلبي . ففى صحيح مسلم عن أبي عثمان قال : أنبت أن جبريل أتى النبي ﷺ ، وعنده أم سلمة ، فقال : فجعل يتحدث ، ثم قام فقال نبي الله ﷺ : « من هذا ؟ » أو كما قال . قالت : هذا دحية الكلبي . قالت : وايم الله ، ما حسبت إلا إياه ، حتى سمعت خطبة النبي ﷺ ، يخبر أنه جبريل ، أو كما قال ، قال سليمان التيمي : فقلت لأبي عثمان : ممن سمعت هذا الحديث ؟ قال : من أسامة بن زيد (٢) . وزوجها ابنها - عمر - من رسول الله ﷺ ، وردت طائفة ذلك بأن ابنها لم يكن له من السن حينئذ ما يعقد التزويج ، ورد الإمام أحمد ذلك ، وأنكر على من قاله ، ويدل على صحة قول أحمد ما رواه مسلم فى صحيحه أن عمر بن أبي سلمة - ابنها - سأل النبي ﷺ عن القبلة للصائم ؟ فقال : « سل هذه » يعنى : أم سلمة فأخبرته أن رسول الله ﷺ يفعله ، فقال : لسا كرسول الله ﷺ ، يحل الله لرسوله ما شاء . فقال رسول الله ﷺ : « إني أتقاكم لله وأعلمكم به » (٣) أو كما قال . ومثل هذا لا يقال لصغير جداً ، وعمر ولد بأرض الحبشة قبل الهجرة . وقال البيهقي : وقول من زعم أنه كان صغيراً ،

(١) المعجم الكبير (٢٩١/١٧) وقال الهيثمي فى المجمع (٤/٣٣٤) : « فيه عمرو بن صالح الحضرمي ، ولم أعرفه ، وبقيّة رجاله ثقات » .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٤٥١) .

(٣) صحيح مسلم برقم (١١٠٨) .

دعوى ولم يثبت صغره بإسناد صحيح .

وتزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش من بنى خزيمه بن مدركة بن إلياس بن مضر ، وهى بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب ، وكانت قبل عند مولاة زيد بن حارثة ، فطلقها فزوجه الله إياها من فوق سبع سموات ، وأنزل عليه : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا ﴾ فقام فدخل عليها بلا استئذان ، وكانت تفخر بذلك على سائر أزواج النبي ﷺ ، وتقول : زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سمواته ، وهذا من خصائصها . توفيت بالمدينة سنة عشرين ، ودفنت بالبقيع .

وتزوج النبي ﷺ زينب بنت خزيمه الهلالية ، وكانت تحت عبد الله بن جحش ، تزوجها سنة ثلاث من الهجرة ، وكانت تسمى أم المساكين ، ولم تلبث عند رسول الله ﷺ إلا يسيراً ، شهرين أو ثلاثة ، وتوفيت ، رضى الله عنها .

وتزوج رسول الله ﷺ جويرية بنت الحارث من بنى المصطلق ، وكانت سبيت فى غزوة بنى المصطلق ، ف وقعت فى سهم ثابت بن قيس ، فكاتبها ، ف قضى رسول الله ﷺ كتابتها ، وتزوجها سنة ست من الهجرة ، وتوفيت سنة ست وخمسين ، وهى التى أعتق المسلمون بسببها مائة أهل بيت من الرقيق ، وقالوا : أصهار رسول الله ﷺ ، وكان ذلك من بركتها على قومها .

وتزوج رسول الله ﷺ صفية بنت حبي ، من ولد هارون بن عمران أخى موسى ، سنة سبع ، فإنها سبيت من خيبر ، وكانت قبله تحت كنانة بن أبى الحقيق ، فقتله رسول الله ﷺ ، وتوفيت سنة ست وثلاثين ، وقيل : سنة خمسين . ومن خصائصها : أن رسول الله ﷺ أعتقها وجعل عتقها صداقها . قال أنس : أمهرها نفسها ، وصار ذلك سنة للأمة إلى يوم القيامة ، ويجوز للرجل أن يجعل عتق جاريتها صداقها ، وتصير زوجته على منصوص الإمام أحمد ، رحمه الله . قال الترمذى : حدثنا إسحاق بن منصور ، وعبد بن حميد ، قالا : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن ثابت ، عن أنس قال : بلغ صفية أن حفصة قالت : صفية بنت يهودى ، فبكت ، فدخل عليها النبي ﷺ وهى تبكى فقال : « ما يبكيك ؟ » قالت : قالت لى حفصة : إني ابنة يهودى . فقال النبي ﷺ : « إنك لابنة نبي وإن عمك لنبي ، وإنك لتحت نبي ، فبما تفخر عليك ؟ » ثم قال : « اتق الله يا حفصة » (١) . قال الترمذى : هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه . وهذا من خصائصها ، رضى الله عنها .

وتزوج رسول الله ﷺ ميمونة بنت الحارث الهلالية ، تزوجها بسرف وهو على تسعة أميال من مكة ، وهى آخر من تزوج من أمهات المؤمنين ، توفيت سنه ثلاث وستين ، وهى خالة خالد بن الوليد ، وخالة ابن عباس ، فإن أمه أم الفضل بنت الحارث وهى التى اختلف فى نكاح النبي ﷺ لها . هل نكحها حلالاً أو محرماً ؟ والصحيح إنما تزوجها حلالاً كما قال أبو رافع الشفير فى نكاحها .

قال الحافظ أبو محمد المقدسى وغيره : وعقد على سبع ولم يدخل بهن ، فالصلاة على أزواجه تابعة لاحترامهن وتحريمهن على الأمة ، وأنهن نساؤه ﷺ فى الدنيا والآخرة ، فمن فارقتها فى حياتها ولم يدخل ، لا يثبت لها أحكام زوجاته اللاتى دخل بهن صلى الله عليه وعلى أزواجه وآله وذريته وسلم تسليماً [(٢)] .

(١) سنن الترمذى برقم (٣٨٩٤) وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه » .

(٢) زيادة من ت .

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) ﴾

يقول تعالى واعظاً نساء النبي ﷺ، اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واستقر (١) أمرهن تحت رسول الله ﷺ أن يخبرهن (٢) بحكمهن [وتخصيصهن] (٣) دون سائر النساء، بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة - قال ابن عباس: وهى النشوز وسوء الخلق. وعلى كل تقدير فهو شرط، والشرط لا يقتضى الوقوع كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وكقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]. فلما كانت محلتهن رفيعة، ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظاً، صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾.

قال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ قال: فى الدنيا والآخرة. وعن ابن أبى نجيح [عن مجاهد] (٤) مثله.

﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أى: سهلاً هيناً.

ثم ذكر عدله وفضله فى قوله: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أى: يطع (٥) الله ورسوله ويستجيب ﴿نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ أى: فى الجنة، فإنهن فى منازل رسول الله ﷺ، فى أعلى عليين، فوق منازل جميع الخلائق، فى الوسيلة التى هى أقرب منازل الجنة إلى العرش.

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) ﴾

هذه آداب أمر الله بها نساء النبي ﷺ، ونساء الأمة تبع لهن فى ذلك، فقال مخاطباً لنساء النبي ﷺ [٦] بأنهن إذا اتقين الله كما أمرهن، فإنه لا يشبههن أحد من النساء، ولا يلحقهن فى الفضيلة

(٣) زيادة من أ.

(٢) فى أ: «يخبرن».

(١) فى ت: «فاستقر».

(٤) زيادة من ت، ف، أ. (٥) فى ت، ف: «يطيع».

(٦) زيادة من ت، وفى ف: «صلوات الله وسلامه عليه».

والمنزلة ، ثم قال : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ﴾ .

قال السيّدّي وغيره : يعنى بذلك : ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال ؛ ولهذا قال : ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ أى : دغل ، ﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ : قال ابن زيد : قولاً حسناً جميلاً معروفاً فى الخير .

ومعنى هذا : أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم ، أى : لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها .

وقوله : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ أى : الزمن بيوتكن فلا (١) تخرجن لغير حاجة . ومن الحوائج الشرعية الصلاة فى المسجد بشرطه ، كما قال رسول الله ﷺ : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ، وليخرجن وهن تَفِلَات » ، وفى رواية : « وبيوتهن خير لهن » (٢) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا حميد بن مسعدة (٣) ، حدثنا أبو رجاء الكلبى ، روح بن المسيب ثقة ، حدثنا ثابت البنانى (٤) ، عن أنس ، رضى الله عنه ، قال : جئن النساء إلى رسول الله ﷺ فقلن : يا رسول الله ، ذهب الرجال بالفضل والجهاد فى سبيل الله تعالى ، فما لنا عمل ندرك به عمل المجاهدين فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « من قعد - أو كلمة نحوها - منكن فى بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين (٥) فى سبيل الله » .

ثم قال : لا نعلم رواه عن ثابت إلا روح بن المسيب ، وهو رجل من أهل البصرة مشهور (٦) .

وقال (٧) البزار أيضاً : حدثنا محمد بن المننى ، حدثنا عمرو بن عاصم ، حدثنا همام ، عن قتادة ، عن مَورِق ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله ، عن النبى ﷺ قال : « إن المرأة عورة ، فإذا خرجت استشرفها الشيطان ، وأقرب ما تكون (٨) بروحة ربها وهى فى قعر بيتها » .

ورواه الترمذى ، عن بُندَار ، عن عمرو بن عاصم ، به نحوه (٩) .

وروى البزار بإسناده المتقدم ، وأبو داود أيضاً ، عن النبى ﷺ قال : « صلاة المرأة فى مَخْدَعها أفضل من صلاتها فى بيتها ، وصلاتها فى بيتها أفضل من صلاتها فى حجرتها » (١٠) . وهذا إسناد (١١) جيد .

(١) فى ت : « ولا » .

(٢) رواه بهذا اللفظ أبو داود فى السنن برقم (٥٦٥) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه ، وبالرواية الثانية برقم (٥٦٧) من حديث ابن عمر ، رضى الله عنهما ، وأصله فى الصحيحين من حديث ابن عمر .

(٣) فى أ : « مسعود » . (٤) فى ت : « وروى أبو بكر البزار بإسناده » . (٥) فى ت : « المجاهد » .

(٦) مسند البزار برقم (١٤٧٥) « كشف الأستار » ورواه أبو يعلى فى المسند (١٤٠/٦) وابن حبان فى المجروحين (٢٩٩/١) من طريق أبى رجاء الكلبى بنحوه . قال ابن حبان : « وكان روح ممن يروى عن الثقات الموضوعات ، ويقلب الأسانيد ، ويرفع الموقوفات » ثم قال : « لا تحل الرواية عنه ولا كتابة حديثه إلا للاختبار » . وقال ابن عدى فى الكامل : « أحاديثه غير محفوظة » .

(٧) فى ت : « وروى » . (٨) فى أ : « ما يكون » .

(٩) سنن الترمذى برقم (١١٧٣) وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » . ورواه ابن خزيمة فى صحيحه برقم (١٦٨٥) ومن طريقه ابن حبان فى صحيحه برقم (٣٢٩) « موارد » عن عمرو بن عاصم ، به ، وشك ابن خزيمة فى سماع قتادة هذا الحديث من مورك .

(١٠) سنن أبى داود برقم (٥٧٠) .

(١١) فى ت : « إسناده » .

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾: قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال، فذلك تبرج الجاهلية.

وقال قتادة: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾: يقول: إذا خرجت من بيتك - وكانت لهن^(١) مشية وتكسر وتغنج - فنهى الله عن ذلك.

وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾: والتبرج: أنها تلقى الخمار على رأسها، ولا تشده فيواري قلائدها وقرطها وعنقها، ويبدو ذلك كله منها، وذلك التبرج، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج.

وقال ابن جرير: حدثني ابن زهير، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا داود - يعني ابن أبي الفرات - حدثنا علي بن أحمر، عن عكرمة^(٢) عن ابن عباس قال: تلا هذه الآية: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾. قال: كانت فيما بين نوح وإدريس، وكانت ألف سنة، وإن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل، والآخر يسكن الجبل. وكان رجال الجبل صباحاً وفي النساء دمامة. وكان نساء السهل صباحاً وفي الرجال دمامة، وإن إبليس أتى رجلاً من أهل السهل في صورة غلام، فأجر نفسه منه، فكان يخدمه واتخذ إبليس شيئاً مثل الذي يُزمر فيه الرعاء، فجاء فيه بصوت لم يسمع الناس مثله، فبلغ ذلك من حوله، فانتابوهم يسمعون إليه، واتخذوا عيداً يجتمعون إليه في السنة، فيتبرج النساء للرجال. قال: ويتزين^(٣) الرجال لهن، وإن رجلاً من أهل الجبل هجم عليهم في عيدهم ذلك، فرأى النساء وصباحتهن، فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك، فتحولوا إليهن، فنزلوا معهن وظهرت الفاحشة فيهن، فهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾^(٤).

وقوله: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، نهاهن أولاً عن الشر ثم أمرهن بالخير، من إقامة الصلاة - وهي: عبادة الله وحده لا شريك له - وإيتاء الزكاة، وهي: الإحسان إلى المخلوقين، ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، وهذا من باب عطف العام على الخاص.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾: وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت هاهنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً، إما وحده على قول أو مع غيره على الصحيح.

وروى ابن جرير: عن عكرمة أنه كان ينادى في السوق: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، نزلت^(٥) في نساء النبي ﷺ خاصة، وهكذا روى ابن أبي حاتم قال:

حدثنا علي بن حرب الموصلي، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا حسين بن واقد، عن يزيد النحوي، عن عكرمة عن^(٦) ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ قال: نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة.

(١) في أ: «لها». (٢) في ت: «وروى ابن جرير بإسناده». (٣) في ت، ف: «وتنزل».

(٤) تفسير الطبري (٤/٢٢).

(٥) في ت: «وروى ابن أبي حاتم بسنده إلى».

(٦) في ت: «انزلت».

وقال عكرمة : من شاء باهله أنها نزلت في أزواج النبي ﷺ .

فإن كان المراد أنهم كُنَّ سبب النزول دون غيرهن فصحيح ، وإن أريد أنهم المراد فقط دون غيرهن ، ففي هذا نظر ؛ فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك :

الحديث الأول : قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ، أخبرنا علي بن زيد ^(١) ، عن أنس ابن مالك ، رضى الله عنه ، قال : إن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر ، يقول : « الصلاة يا أهل البيت ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً » .

ورواه الترمذى عن عبد بن حميد ، عن عفان ، به . وقال : حسن غريب ^(٢) .

حديث آخر : قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا يونس بن أبى إسحاق ، أخبرني أبو داود ، عن أبى الحمراء قال : رابطة المدينة سبعة أشهر على عهد رسول الله ﷺ ، [قال : رأيت رسول الله ﷺ] ^(٤) إذا طلع الفجر ، جاء إلى باب على وفاطمة فقال : « الصلاة الصلاة ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً » ^(٥) .

أبو داود الأعمى هو : نفع بن الحارث ، كذاب .

حديث آخر : وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا محمد بن مصعب ، حدثنا الأوزاعى ، حدثنا شداد أبو عمار ^(٦) قال : دخلت على وائلة بن الأسقع وعنده قوم ، فذكروا علياً ، رضى الله عنه ، فلما قاموا قال لى : ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله ﷺ ؟ قلت : بلى . قال : أتيت فاطمة أسألها عن علي فقالت : تَوَجَّهَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله ﷺ ومعه علي وحسن وحسين ، أخذ كل واحد منهما بيده حتى دخل ، فأدنى علياً وفاطمة وأجلسهما بين يديه ، وأجلس حسناً وحسيناً كل واحد منهما علي فخذه ، ثم لف عليهم ^(٧) ثوبه - أو قال : كساءه - ثم تلا هذه الآية : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً » ، « اللهم ^(٨) هؤلاء أهل بيتي ، وأهل بيتي أحق » ، وقد رواه أبو جعفر بن جرير عن عبد الكريم بن أبى عمير ^(٩) ، عن الوليد بن مسلم ، عن أبى عمرو الأوزاعى بسنده نحوه - زاد فى آخره : قال وائلة : فقلت : وأنا يا رسول الله - صلى الله عليك - من أهلك ؟ قال : « وأنت من أهلى » قال وائلة : إنها من أرحى ما أرتحى ^(١٠) .

ثم رواه أيضاً عن عبد الأعلى بن واصل ، عن الفضل بن دكين ، عن عبد السلام بن حرب ، عن كلثوم المحاربى ، عن شداد أبى عمار قال : إني لجالس عند وائلة بن الأسقع إذ ذكروا علياً

(٢) فى ت : « حديث حسن » .

(١) فى ت : « فروى الإمام أحمد بإسناده » .

(٣) المسند (٢٥٩/٣) وسنن الترمذى برقم (٣٢٠٦) .

(٤) زيادة من ت ، ف ، أ ، والطبرى .

(٥) تفسير الطبرى (٦/٢٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٢٠/٢٢) من طريق منصور بن الأسود ، عن أبى داود بنحوه .

(٦) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن شداد بن عمار » .

(٧) فى ت : « عليهما » . (٨) فى ت ، ف : « وقال : اللهم » . (٩) فى أ : « عمر » .

(١٠) المسند (١٠٧/٤) وتفسير الطبرى (٦/٢٢) .

فشتموه، فلما قاموا قال : اجلس حتى أخبرك عن الذى شتموه ، إني عند رسول الله ﷺ إذ جاء على وفاطمة وحسن حسين فألقى ﷺ عليهم كساء له ، ثم قال : « اللهم هؤلاء أهل بيتي ، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » . قلت : يا رسول الله ، وأنا ؟ قال : « وأنت » . قال : فوالله إنها لأوثق عملي عندي (١) .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن غير ، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان ، عن عطاء بن أبي رباح ، حدثني من سمع أم سلمة تذكر أن النبي ﷺ كان في بيتها ، فأنته فاطمة ، رضى الله عنها ، ببرمة فيها خزيرة ، فدخلت بها عليه فقال لها : « ادعى زوجك وابنيك » . قالت : فجاء على وحسن وحسين فدخلوا عليه ، فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة ، وهو على منامة له على دكان (٢) تحته كساء خيبرى ، قالت : وأنا في الحجرة أصلى ، فأنزل الله ، عز وجل ، هذه الآية : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ . قالت : فأخذ فضل الكساء فغطاهم به ، ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء ، ثم قال : « اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي ، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » ، قالت : فأدخلت رأسي البيت ، فقلت : وأنا معكم يا رسول الله ؟ فقال : « إنك إلى خير ، إنك إلى خير » (٣) .

فى إسناده من لم يسم (٤) ، وهو شيخ عطاء ، وبقية رجاله ثقات .

طريق أخرى : قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا عوف ، عن أبي المعدل (٥) ، عن عطية الطُّفَاوِي ، عن أبيه ؛ أن أم سلمة حدثته قالت (٦) : بينما رسول الله ﷺ في بيتي يوماً إذ قال الخادم : إن فاطمة وعلياً بالسدة قالت : فقال لى : « قومي فتنحى عن (٧) أهل بيتي » . قالت : فقمت فتنحيت في البيت قريباً ، فدخل على فاطمة ، ومعهما الحسن والحسين ، وهما صبيان صغيران ، فأخذ الصبيين فوضعهما في حجره فقبلهما ، واعتنق علياً بإحدى يديه وفاطمة باليد الأخرى ، وقبّل فاطمة وقبّل علياً ، وأغدق عليهم خميصاً سوداء وقال : « اللهم ، إليك لا إلى النار أنا وأهل بيتي » . قالت : فقلت : وأنا يا رسول الله ؟ صلى الله عليك . قال : « وأنت » (٨) .

طريق أخرى : قال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا [الحسن بن عطية ، حدثنا] (٩) فضيل بن مرزوق ، عن عطية ، عن أبي سعيد ، عن أم سلمة ؛ أن هذه الآية نزلت في بيتها : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ . قالت : وأنا جالسة على باب البيت فقلت : يا رسول

(١) تفسير الطبرى (٧/٢٢) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٦٥/٢٢) من طريق على بن عبد العزيز عن الفضل بن دكين ، أبو نعيم به

(٢) فى ف : « وكان » .

(٣) المسند (٦/٢٩٢) وقد سمي شيخ عطاء فى رواية الطبراني فى المعجم الكبير (١١/٩) فقال عن عطاء بن أبي رباح ، عن عمر بن أبي سلمة بنحوه .

(٤) فى أ : « يسم » .

(٥) فى أ : « العدل » .

(٦) فى ت : « وروى الإمام أحمد بسنده أن أم سلمة قالت » .

(٧) فى أ : « فتنحى لى عن » .

(٨) المسند (٦/٢٩٦) .

(٩) زيادة من : ت ، ف ، و الطبرى .

الله، أَلَسْتُ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ ؟ فقال : « إِنَّكَ إِلَى خَيْرٍ ، أَنْتَ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ » قالت : وَفِي الْبَيْتِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَلَى ، وَفَاطِمَةُ ، وَالْحَسَنُ ، وَالْحُسَيْنُ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ (١) .

طريق أخرى : رواه ابن جرير أيضاً ، عن أَبِي كُرَيْبٍ ، عن وَكِيعٍ ، عن عبد الحميد بن بهرام ، عن شهر بن حوشب ، عن أم سلمة بنحوه (٢) .

طريق أخرى : قال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْبٍ ، حدثنا خالد بن مَخْلَدٍ ، حدثني موسى بن يعقوب ، حدثني هاشم بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، عن عبد الله بن وهب بن زَمْعَةَ قال : أخبرني أم سلمة ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَمَعَ فَاطِمَةَ وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ ، ثُمَّ أَدْخَلَهُمْ تَحْتَ ثَوْبِهِ ، ثُمَّ جَاءَ إِلَى اللَّهِ ، عَزَّوَجَلَّ ، ثُمَّ قَالَ : « هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي » . قالت أم سلمة : فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَدْخَلْنِي مَعَهُمْ . فقال : « أَنْتَ مِنْ أَهْلِي » (٣) .

طريق أخرى : رواه ابن جرير أيضاً ، عن أحمد بن محمد الطوسي ، عن عبد الرحمن بن صالح ، عن محمد بن سليمان الأصبهاني ، عن يحيى بن عبيد المكي ، عن عطاء ، عن عمر بن أبي سلمة ، عن أمه بنحو ذلك (٤) .

طريق أخرى : قال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْبٍ ، حدثنا مصعب بن المقدام ، حدثنا سعيد بن زُرَيْبٍ ، عن محمد بن سيرين ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ ، عن أم سلمة قالت : جَاءَتْ فَاطِمَةُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِيَرْمَةٍ لَهَا قَدْ صَنَعَتْ فِيهَا عَصِيدَةً تَحْمِلُهَا عَلَى طَبَقٍ ، فَوَضَعْتُهَا بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ : « أَيْنَ ابْنُ عَمِّكَ وَابْنَاكَ ؟ » فَقَالَتْ : فِي الْبَيْتِ . فقال : « ادْعِيهِمْ » . فجاءت إلى علي فقالت : أَجَبَ رَسُولَ اللَّهِ أَنْتَ وَابْنَاكَ . قالت أم سلمة : فَلَمَّا رَأَاهُم مُقْبِلِينَ مَدَّ يَدَهُ إِلَى كِسَاءِ كَانَتْ عَلَى الْمَنَامَةِ ، فَمَدَّهُ وَبَسَطَهُ ، وَأَجْلَسَهُمْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَخَذَ بِأَطْرَافِ الْكِسَاءِ الْأَرْبَعَةِ بِشِمَالِهِ ، فَضَمَّهُمْ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ ، وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ الْيُمْنَى إِلَى رَبِّهِ ، عَزَّوَجَلَّ ، فَقَالَ : « اللَّهُمَّ ، هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي ، فَأَذْهَبْ عَنْهُمْ الرَّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً » (٥) .

طريق أخرى : قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا عبد الله (٦) بن عبد القدوس ، عن الأعمش ، عن حكيم بن سعد قال : ذَكَرْنَا عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عِنْدَ أُمِّ سَلَمَةَ ، فَقَالَتْ : فِي بَيْتِي نَزَلَتْ : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً » . قالت أم سلمة : جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَيْتِي فَقَالَ : « لَا تَأْذَنِي لِأَحَدٍ » . فجاءت فَاطِمَةُ فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَحْجِبَهَا عَنْ أَبِيهَا . ثُمَّ جَاءَ الْحَسَنُ فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَحْجِبَهُ عَنْ أُمِّهِ وَجَدَهُ ، ثُمَّ جَاءَ الْحُسَيْنُ فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَحْجِبَهُ ، ثُمَّ جَاءَ عَلِيُّ فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَحْجِبَهُ ، فَاجْتَمَعُوا فَجَلَّلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِكِسَاءٍ كَانَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : « هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي ، فَأَذْهَبْ عَنْهُمْ الرَّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً » . فنزلت هذه الآية حين اجتمعوا على البساط . قالت : فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَأَنَا ؟ قالت : فَوَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ ، وَقَالَ : « إِنَّكَ إِلَى خَيْرٍ » (٧) .

حديث آخر : قال ابن جرير : حدثنا ابن وَكِيعٍ ، حدثنا محمد بن بشر (٨) ، عن زكريا ، عن مصعب ابن شيبة ، عن صفية بنت شيبة قالت : قالت عائشة ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ

(١) تفسير الطبري (٧/٢٢) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣/٢٤٩) من طريق فضيل بن مرزوق به مختصراً .

(٢) تفسير الطبري (٦/٢٢) ورواه الطحاوي في مشكل الآثار برقم (٧٧٠) من طريق عبد الحميد بن بهرام ، به . ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣/٣٣٣) من طريق زييد ، عن شهر بن حوشب ، عن أم سلمة .

(٣) تفسير الطبري (٧/٢٢) ورواه الطحاوي في مشكل الآثار برقم (٧٦٣) من طريق خالد بن مخلد القطواني به .

(٤) تفسير الطبري (٧/٢٢) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣/٢٨٦) من طريق شريك ، عن عطاء ، عن أم سلمة .

(٥) تفسير الطبري (٧/٢٢) .

(٦) في أ : « عبد الملك » .

(٧) تفسير الطبري (٧/٢٢) ورواه الطحاوي في مشكل الآثار برقم (٧٦٢) من طريق جرير بن عبد الحميد ، عن الأعمش بنحوه .

(٨) في أ : « بشير » .

غداة، وعليه مرط مُرَحَّل من شَعْر أسود، فجاء الحسن فأدخله معه، ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم جاء علي فأدخله معه، ثم قال: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾.

ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن محمد بن بشر (١)، به (٢).

طريق أخرى: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سُرَيْج بن يونس أبو الحارث، حدثنا محمد ابن يزيد، عن العوام - يعني: ابن حَوْشَب - عن عم له قال: دخلت مع أبي على عائشة، فسألتها عن علي، رضي الله عنه، فقالت، رضي الله عنها: تسألني عن رجل كان من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وكانت تحته ابنته وأحب الناس إليه؟ لقد رأيت رسول الله ﷺ دعا علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فألقى عليهم ثوباً فقال: «اللهم، هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». قالت: فدنوت منه فقلت: يا رسول الله، وأنا من أهل بيتك؟ فقال: «تَنَحَّى، فإنك على خير».

حديث آخر: قال ابن جرير حدثنا المثنى، حدثنا بكر (٣) بن يحيى بن زبَّان العنزي، حدثنا منذل، عن الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت هذه الآية في خمسة: في، وفي علي، وحسن، وحسين، وفاطمة: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾» (٤).

قد تقدم أن فضيل بن مرزوق رواه عن عطية، عن أبي سعيد، عن أم سلمة، كما تقدم.

وروى ابن أبي حاتم من حديث هارون بن سعد العجلي، عن عطية، عن أبي سعيد موقوفاً، فإله أعلم.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا أبو بكر الحنفى، حدثنا بُكَيْر بن مسمار قال: سمعت عامر بن سعد قال: قال سعد: قال رسول الله ﷺ حين نزل عليه الوحي، فأخذ علياً وابنيه وفاطمة فأدخلهم تحت ثوبه، ثم قال: «رب، هؤلاء أهلى وأهل بيتي» (٥).

حديث آخر: وقال مسلم في صحيحه: حدثني زُهَيْر بن حرب، وشُجَاع بن مَخْلَد جميعاً، عن ابن عُليّة - قال زهير: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثني أبو حيان، حدثني يزيد بن حيان قال: انطلقت أنا وحُصَيْن بن سَبْرَة وعمر بن مسلم (٦) إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً [رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه، وغزوت معه، وصليت خلفه، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً] (٧)؛ حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال: يا بن أخي، والله لقد

(١) فى ١: «بشير».

(٢) تفسير الطبرى (٥/٢٢) وصحيح مسلم برقم (٢٠٨١).

(٣) فى ف: «بكير».

(٤) تفسير الطبرى (٥/٢٢).

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (٧/٢٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٤٣٩) من طريق أبى بكر الحنفى، عن بكير بن مسمار، به.

(٦) زيادة من ت، ف، ومسلم.

(٧) فى ت، ف، أ: «سلمة».

كَبُرَتْ (١) سَنَى ، وقدم عهدي ، ونسيتُ بعضُ الذي كنتُ أَعْمَى من رسول الله ﷺ ، فما حَدَّثْتُكُمْ فاقبلوا، وما لَا فلا تُكَلِّفُونِيهِ . ثم قال : قام فينا رسول الله ﷺ يوماً خطيباً بماءٍ يدعى خُماً - بين مكة والمدينة - فحمد الله وأثنى عليه ، ووعظ وذكّر ، ثم قال : « أما بعد ، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك (٢) أن يأتي رسول ربي فأجيب ، وأنا تارك فيكم ثقلين ، وأولهما كتاب الله ، فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » . فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَرَغَّبَ فِيهِ ، ثم قال : « وأهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي » ثلاثاً . فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حُرِّمَ الصَّدَقَةُ بعده . قال : ومن هم ؟ قال هم آل علي ، وآل عَقِيل ، وآل جعفر ، وآل عباس . قال : كل هؤلاء حُرِّمَ الصَّدَقَةُ ؟ قال : نعم (٣) .

ثم رواه عن محمد بن بكّار بن الريّان ، عن حسان بن إبراهيم ، عن سعيد بن مسروق ، عن يزيد ابن حيّان (٤) ، عن زيد بن أرقم ، فذكر الحديث بنحو ما تقدم ، وفيه : فقلنا له : من أهل بيته ؟ نساؤه ؟ قال : لا وإيم الله ، إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها . أهل بيته أصله وعَصَبَتُهُ الذين حُرِّمُوا الصَّدَقَةُ بعده (٥) .

هكذا وقع في هذه الرواية ، والأولى أولى ، والأخذ بها أخرى . وهذه الثانية تحتل أنه أراد تفسير الأهل المذكورين في الحديث الذي رواه ، وإنما المراد بهم آل الذين حُرِّمُوا الصَّدَقَةُ ، أو أنه ليس المراد بالأهل الأزواج فقط ، بل هم مع آلهم ، وهذا الاحتمال أرجح ؛ جمعا بينها وبين الرواية التي قبلها ، وجمعا أيضاً بين القرآن والأحاديث المتقدمة إن صحت ، فإن في بعض أسانيدنا نظراً ، والله أعلم . ثم الذي لا يشكّ فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ ، فإن سياق الكلام معهن ؛ ولهذا قال تعالى بعد هذا كله : ﴿ وَادْكُرْ مَا يَتْلُو فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ أى : اعملن بما ينزل الله على رسوله في بيوتكن من الكتاب والسنة . قاله قتادة وغير واحد . واذكرن هذه النعمة التي خصصتن (٦) بها من بين الناس ، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس ، وعائشة [الصديقة] (٧) بنت الصديق أولاهن بهذه النعمة ، وأحظاهن بهذه الغنيمة ، وأخصهن من هذه الرحمة العميمة ، فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحي في فراش امرأة سواها ، كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه عليه (٨) . قال بعض العلماء ، رحمه الله : لأنه لم يتزوج بكراً سواها ، ولم ينم معها رجل في فراشها سواها ، فناسب أن تخصص بهذه المزية ، وأن تفرد بهذه الرتبة العلية . ولكن إذا كان أزواجه من أهل

(١) في أ : كبر . (٢) في ف : « فيوشك » .

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٤٠٨) .

(٤) في أ : « حسان » .

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٤٠٨) .

(٦) في أ : « خصصتن » .

(٧) زيادة من أ . (٨) في ت : « رسول الله ﷺ » .

بيته، فقرابته أحق بهذه التسمية ، كما تقدم فى الحديث : « وأهل بيتى أحق » . وهذا يشبه ما ثبت فى صحيح مسلم : أن رسول الله ﷺ لما سئل عن المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم، فقال: « هو مسجدي هذا » (١) . فهذا من هذا القبيل ؛ فإن الآية إنما نزلت فى مسجد قباء ، كما ورد فى الأحاديث الأخر . ولكن إذا كان ذاك أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله ﷺ أولى بتسميته بذلك ، والله أعلم .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو الوليد ، حدثنا أبو عوانة ، عن حصين بن عبد الرحمن ، عن أبى جميلة (٢) قال : إن الحسن بن على استخلف حين قُتل على ، رضى الله عنهما (٣) ، قال : فينما هو يصلى إذ وثب عليه رجل فطعنه بخنجر وزعم حصين أنه بلغه أن الذى طعنه رجل من بنى أسد ، وحسن ساجد قال : فيزعمون أن الطعنة وقعت فى وركه ، فمرض منها أشهراً ، ثم برأ فقعده على المنبر ، فقال : يا أهل العراق ، اتقوا الله فينا ، فإننا أمراؤكم وضيغانكم ، ونحن أهل البيت الذى قال الله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ قال : فما زال يقولها حتى ما بقى أحد من أهل المسجد إلا وهو يحن بكاء .

وقال السدّي ، عن أبى الديلم قال : قال على بن الحسين لرجل من أهل الشام : أما قرأت فى الأحزاب : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ ؟ قال : نعم ، ولأنتم هم ؟ قال : نعم .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ أى : بلطفه بكن بلغتن هذه المنزلة ، وبخبرته (٤) بكن وأنكن أهل لذلك ، أعطاكم ذلك وخصكن بذلك .

قال ابن جرير ، رحمه الله : واذكرن نعمة الله عليكن بأن جعلكن فى بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة ، فاشكرن الله على ذلك واحمدنه .

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ أى : ذا لطف بكن ، إذ جعلكن فى البيوت التى تتلى فيها آياته والحكمة . وهى السنة ، خبيراً بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجاً .

وقال قتادة : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ قال : يمتن عليهن بذلك . رواه ابن جرير .

وقال عطية العوفى فى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ يعنى : لطيف باستخراجها ، خبير بموضعها . رواه ابن أبى حاتم ، ثم قال : وكذا روى عن الربيع بن أنس ، عن قتادة (٥) .

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ

(١) صحيح مسلم برقم (١٣٩٨) من حديث أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه .

(٢) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بسنده » . (٣) فى ت ، ف ، أ : « عنه » . (٤) فى ت : « بمخبرته » .

(٥) فى ت : « وقتادة » .

وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا عثمان بن حكيم ، حدثنا (١) عبد الرحمن بن شيبه ، سمعت أم سلمة زوج النبي ﷺ تقول : قلت للنبي ﷺ : ما لنا لا نُذَكِّرُ في القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت (٢) : فلم يرعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر ، قالت : وأنا أَسْرَحُ شعري ، فلففت شعري ، ثم خرجت إلى حُجْرَةٍ من حُجَرِ بَيْتِي ، فجعلت سمعي عند الجريد ، فإذا هو يقول عند المنبر : « يا أيها الناس ، إن الله يقول : إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات » إلى آخر الآية .

وهكذا رواه النسائي وابن جرير ، من حديث عبد الواحد بن زياد ، به مثله (٣) .

طريق أخرى عنها : قال النسائي أيضاً : حدثنا محمد بن حاتم ، حدثنا سُوَيْدٌ ، أخبرنا عبد الله بن شريك ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أم سلمة أنها قالت للنبي ﷺ : يا نبي الله ، ما لي أسمع الرجال يذكرون في القرآن ، والنساء لا يذكرون ؟ فأنزل الله : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (٤) .

وقد رواه ابن جرير ، عن أبي كُرَيْبٍ ، عن أبي معاوية ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة : أن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب ، حدثه عن أم سلمة ، رضي الله عنها ، قالت : قلت : يا رسول الله ، أذكر الرجال في كل شيء ولا نذكر ؟ فأنزل الله : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ الآية (٥) .

طريق أخرى : قال سفيان الثوري ، عن ابن أبي نَجِيحٍ ، عن مجاهد قال : قالت أم سلمة : يا رسول الله ، يذكر الرجال ولا نذكر ؟ فأنزل الله : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ الآية .

حديث آخر : قال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْبٍ قال : حدثنا سَيَّارُ بْنُ مَظَاهِرِ الْعَنْزِيِّ (٦) ، حدثنا أبو كُدَيْنَةَ يَحْيَى بْنُ الْمُهَلَّبِ ، عن قابوس بن أبي ظَبْيَانَ ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : قال النساء للنبي ﷺ : ما له يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات ؟ فأنزل الله : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ الآية (٧) .

وحدثنا بشر (٨) ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد (٩) ، عن قتادة قال : دخل نساء على نساء النبي ﷺ ، فقلن : قد ذَكَرَكُنَّ اللَّهُ في القرآن ، ولم نُذَكَّرْ بشيء ، أما فينا ما يذكر ؟ فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ الآية (١٠) .

(١) في ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن » . (٢) في ف : « قال » .

(٣) المسند (٣٠٥/٦) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١٤٠٥) وتفسير الطبري (٩/٢٢) .

(٤) النسائي في السنن الكبرى برقم (١٤٠٤) .

(٥) تفسير الطبري (٨/٢٢) .

(٦) في ف ، أ : « سنان بن مظاهر العمري » .

(٧) تفسير الطبري (٨/٢٢) .

(٨) في ف ، أ : « بشير » .

(٩) في ف ، أ : « سعد » .

(١٠) تفسير الطبري (٨/٢٢) .

فقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ دليل على أن الإيمان غير الإسلام، وهو أخص منه، لقوله^(١) تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]. وفي الصحيحين: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن». فيسلبه^(٢) الإيمان، ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين، فدل على أنه أخص منه كما قررناه فى أول شرح البخارى .

[وقوله] (٣): ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾: القنوت: هو الطاعة فى سكون، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦]، ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]، ﴿وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] فالإسلام بعده مرتبة^(٤) يرتقى إليها، ثم القنوت ناشئ عنهما .

﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾: هذا فى الأقوال، فإن الصدق خصلة محمودة؛ ولهذا كان بعض الصحابة لم تُجرب عليه كذبة لا فى الجاهلية ولا فى الإسلام^(٥)، وهو علامة على الإيمان، كما أن الكذب أمانة على النفاق، ومن صدق نجا، «عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة. وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار. ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»^(٦) والأحاديث فيه كثيرة جداً .

﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾: هذه سَجِيَّةُ الأثبات، وهى الصبر على المصائب، والعلم بأن المقدور كائن لا محالة، وتَلَقَّى ذلك بالصبر والثبات، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى، أى: أصعبه فى أول وهلة، ثم ما بعده أسهل منه، وهو صدق السجية وثباتها .

﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾: الخشوع^(٧): السكون والطمأنينة، والتؤدة والوقار والتواضع. والحامل عليه الخوف من الله ومراقبته، [كما فى الحديث] (٨): «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» .

﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾: الصدقة: هى الإحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء، الذين لا كَسْبَ لهم ولا كاسب، يعطون من فضول الأموال^(٩) طاعة لله، وإحساناً إلى خلقه، وقد ثبت فى الصحيحين: «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله» فذكر منهم: «ورجل تصدق بصدقة

(٣) زيادة من ت، أ .

(٢) فى ت، ف، أ: «فسلبه» .

(١) فى أ: «كقوله» .

(٥) فى ت، ف: «جاهلية ولا إسلام» .

(٤) فى ت: «قربة» .

(٧) فى ت، ف، أ: «أى» .

(٦) فى ت، ف، أ: «أتى بعجز الحديث وآخر صدره» .

(٩) فى أ: «الأعمال» .

(٨) زيادة من ت، ف، أ .

فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه «^(١) . وفى الحديث الآخر : « والصدقة تطفى الخطيئة ، كما يطفى الماء النار »^(٢) .

[وفى الترمذى عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ ، قال : « إن الصدقة تطفى غضب الرب وتدفع ميتة السوء » .

وفى الصحيحين عن عدى بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ، ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه ، فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر أشأم منه ، فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه . فاتقوا النار ولو بشق تمرة » .

وفى حديث أبى ذر أنه قال : سألت رسول الله ﷺ ماذا ينجى العبد من النار ؟ قال : « الإيمان بالله » . قلت : يا نبى الله ، مع الإيمان عمل ؟ قال : « ترسخ مما حوّلك الله » ، أو : « ترسخ مما رزقك الله » ؛ ولهذا لما خطب النبى ﷺ يوم العيد قال فى خطبته : « يا معشر النساء تصدقن ولو من حليكن ، فإنى رأيتكن أكثر أهل النار » . وكأنه حثهن ورغبهن على ما يفدين به أنفسهن من النار ، وقال عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه : ذكر لى أن الأعمال تتباهى ، فتقول الصدقة : أنا أفضلكم .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال : ضرب رسول الله ﷺ ، مثل البخيل والمتصدق ، كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد ، أو جنتان من حديد . قد اضطرت أيديهما إلى ثدييهما وتراقيهما ، فجعل المتصدق ، كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه ، حتى تغشى أنامله ، وتعفو أثره ، وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت ، وأخذت كل حلقة مكانها . قال أبو هريرة : فأنأ رأيت رسول الله ﷺ يقول بإصبعه هكذا فى جيبه . فلو رأيت يوسعها ولا يتسع . وقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن : ١٦] . فجود الرجل يحبيه إلى أصداده ، وبخله يبغضه إلى أولاده . كما قيل :

ويظهر عيب المرء فى الناس ببخله وتستره عنهم جميعا سخاؤه

تعط بأثواب السخاء فإننى أرى كل عيب والسخاء غطاؤه^(٣)

والأحاديث فى الحث عليها كثيرة جداً ، له موضع بذاته .

﴿ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ﴾ : فى الحديث الذى رواه ابن ماجه : « والصوم زكاة البدن » أى : تزكيه وتطهره وتنقيه من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً .

قال^(٤) سعيد بن جبیر : من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر ، دخل فى قوله : ﴿ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ﴾ .

(١) صحيح البخارى برقم (١٤٢٣) وصحيح مسلم برقم (١٠٣١) .

(٢) رواه الترمذى فى السنن برقم (٦١٤) من حديث كعب بن عجرة ، رضى الله عنه ، وقال : « هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه » . ورواه أحمد فى المسند ٣/ ٣٢١ من حديث جابر بن عبد الله ، رضى الله عنه ، ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٦١٦) وابن ماجه فى السنن برقم (٣٩٧٣) من حديث معاذ ، رضى الله عنه .

(٣) زيادة من ت . (٤) فى أ : « كما قال » .

ولما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة - كما قال رسول الله ﷺ : « يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباء فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » (١) - ناسب أن يذكر بعده : ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ﴾ أى : عن المحارم والمآثم إلا عن المباح ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفْجَاهِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥ - ٧] .

وقوله : ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ﴾ : قال ابن أبي حاتم :

حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عبيد الله ، حدثنا محمد بن جابر ، عن علي بن الأقرم ، عن الأغر أبى مسلم (٢) ، عن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل ، فصليا ركعتين ، كتبنا (٣) تلك الليلة من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات » .

وقد رواه أبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه ، من حديث الأعمش ، [عن علي بن الأقرم] (٤) ، عن الأغر أبى مسلم ، عن أبى سعيد وأبى هريرة ، عن النبى ﷺ ، بمثله (٥) .

وقال (٦) الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا دراج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، أنه قال : قلت : يا رسول الله ، أى العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة ؟ قال : « الذاكرون الله كثيرا والذاكرات » .

قال : قلت : يا رسول الله ، ومن الغازى فى سبيل الله ؟ قال : « لو ضرب بسيفه فى الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دما لكان الذاكرون الله أفضل منه » (٧) .

وقال (٨) الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم ، عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : كان النبى ﷺ يسير فى طريق مكة ، فأتى على جُمدان فقال : « هذا جُمدان ، سيروا فقد سبق المُفردون » . قالوا : وما المُفردون (٩) ؟ قال : « الذاكرون الله كثيرا » (١٠) . ثم قال : « اللهم اغفر للمحلقين » . قالوا : والمقصرين ؟ قال : « اللهم ، اغفر للمحلقين » . قالوا : والمقصرين ؟ قال : « والمقصرين » .

تفرد به من هذا الوجه ، ورواه مسلم دون آخره (١١) .

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠٦٦) وصحيح مسلم برقم (١٤٠٠) .

(٢) فى ت : « روى ابن أبى حاتم بإسناده » . (٣) فى ت ، أ : « كانا » .

(٤) زيادة من ت ، ف ، وسنن أبى داود وابن ماجه .

(٥) سنن أبى داود برقم (١٣٠٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٠٦) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٣٥) .

(٦) فى ت : « وروى » .

(٧) المسند (٧٥/٣) ودراج عن أبى الهيثم ضعيف .

(٨) فى ت : « وروى » . (٩) فى ف ، أ : « وما المفردون يا رسول الله ؟ » .

(١٠) فى ف ، أ : « الذاكرون الله كثيرا والذاكرات » .

(١١) المسند (٤١١/٢) وصحيح مسلم برقم (١٣٠٢) وإنما رواه مسلم دون أوله ، والله أعلم .

وقال (١) الإمام أحمد : حدثنا حُجَيْنُ بن المثنى ، حدثنا عبد العزيز بن أبى سلمة ، عن زياد بن أبى زياد - مولى عبد الله ابن عِيَّاش (٢) بن أبى ربيعة - أنه بلغه عن معاذ بن جبل ، رضى الله عنه ، أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما عمل آدمى عملاً قط أنجى له من عذاب الله من ذكر الله ». وقال معاذ : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من تعاطى الذهب والفضة ، ومن أن تلقوا عدوكم غداً فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « ذكر الله ، عز وجل » (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا زبَّان بن فائد ، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني ، عن أبيه ، عن رسول الله ﷺ : أن رجلاً سأله فقال : أى المجاهدين أعظم أجراً يا رسول الله ؟ فقال : « أكثرهم (٤) لله ذكراً » . قال : فأى الصائمين أكثر أجراً ؟ قال : « أكثرهم لله ذكراً » . ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة ، كل ذلك يقول رسول الله ﷺ : « أكثرهم لله ذكراً » . فقال أبو بكر لعمر ، رضى الله عنهما : ذهب الذاكرون بكل خير . فقال رسول الله ﷺ : « أجل » (٥) .

وسنذكر بقية الأحاديث الواردة في كثرة الذكر عند قوله تعالى في هذه السورة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ الآية [الأحزاب : ٤١ ، ٤٢] ، إن شاء الله تعالى . وقوله : ﴿ أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أى : هيا لهم (٦) منه لذنوبهم مغفرة وأجرًا عظيمًا وهو الجنة .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ . وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ (٣٦) .

قال العوفي ، عن ابن عباس : قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ الآية ، وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة ، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية فخطبها ، فقالت : لست بناكحته ، فقال رسول الله ﷺ : « بل فانكحيه » . قالت : يا رسول الله ، أوامر في نفسي . فبينما هما يتحادثان أنزل الله هذه الآية على رسوله ﷺ : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا ﴾ الآية ، قالت : قد رضيته لى منكحا يا رسول الله ؟ قال : « نعم » . قالت : إذا لا أعصى رسول الله ﷺ ، قد أنكحته نفسي (٧) .

(٢) فى ف ، أ : « عباس » .

(١) فى ت : « وروى » .

(٣) المسند (٥/٢٣٩) .

(٤) فى أ : « أكثرهم » .

(٥) المسند (٣/٤٣٨) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٧٤) : « وفيه زبَّان بن فائد وهو ضعيف ، وقد وثق ، وكذلك ابن لهيعة ، وبقية رجاله ثقات » .

(٦) فى ت ، ف : « أعد لهم » .

(٧) تفسير الطبرى (٩/٢٢) .

وقال ابن لهيعة ، عن ابن أبي عمرة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة ، فاستنكفت منه ، وقالت : أنا خير منه حسبا - وكانت امرأة فيها حدة - فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ الآية كلها .

وهكذا قال مجاهد ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان : أنها نزلت في زينب بنت جحش [الأسدية] (١) حين خطبها رسول الله ﷺ على مولاه زيد بن حارثة ، فامتنعت ثم أجابت .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، نزلت في أم كلثوم (٢) بنت عقبة بن أبي معيط ، وكانت أول من هاجر من النساء - يعنى : بعد صلح الحديبية - فوهبت نفسها للنبي ﷺ ، فقال : قد قبلت . فزوجها زيد بن حارثة - يعنى والله أعلم بعد فراقه زينب - فسخطت هي وأخوها وقالا : إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوجنا عبده . قال : فنزل القرآن : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا ﴾ إلى آخر الآية . قال : وجاء أمر أجمع من هذا : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ قال : فذاك خاص وهذا جماع .

وقال (٣) الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن ثابت البناني ، عن أنس قال : خطب النبي ﷺ على جلييب امرأة من الأنصار إلى أبيها ، فقال : حتى أستأمر أمها . فقال النبي ﷺ : فنعم (٤) إذا . قال : فانطلق الرجل إلى امرأته ، [فذكر ذلك لها] (٥) ، فقالت : لاها الله ذا (٦) ، ما وجد رسول الله ﷺ إلا جلييبا ، وقد منعناها من فلان وفلان ؟ قال : والجارية في سترها (٧) تسمع . قال : فانطلق الرجل يريد أن يخبر النبي ﷺ بذلك . فقالت الجارية : أتريدون أن تردوا على رسول الله ﷺ أمره ؟ إن كان قد رضى لكم فأنكحوه . قال : فكانها جلت عن أبيها ، وقالا : صدقت . فذهب أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال : إن كنت رضىته فقد رضىناه . قال : « فإني قد رضىته » . قال : فزوجها (٨) ، ثم فرغ أهل المدينة ، فركب جلييب فوجدوه قد قتل ، وحوله ناس من المشركين قد قتلهم ، قال أنس : فلقد رأيتها [وإنها] (٩) لمن أنفق بيت بالمدينة (١٠) .

وقال (١١) الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد - يعنى : ابن سلمة - عن ثابت ، عن كنانة بن نعيم العدوى ، عن أبي برزة الأسلمي أن جلييبا كان امرأ يدخل على النساء يمر بهن ويلاعبهن ، فقلت لامرأتى : لا يدخلن اليوم عليكم (١٢) جلييب ، فإنه إن دخل عليكم (١٣) لأفعلن ولأفعلن . قال : وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيم لم يزوجه حتى يعلم : هل لبنى الله ﷺ فيها حاجة أم لا . فقال رسول الله ﷺ لرجل من الأنصار : « زوجنى ابنتك » . قال : نعم ، وكرامة يا رسول الله (١٤) ، ونعمة عين . فقال : إني لست أريدها لنفسى . قال : فلمن يارسول الله ؟ قال : لجلييب .

(٣) فى ت : « وروى » .

(٢) فى أ : « أم مكتوم » .

(١) زيادة من أ .

(٥) زيادة من ت ، ف ، والمسنند .

(٤) فى ف : « لنعم » .

(٦) فى هـ ، أ : « إذا » والمثبت من ت ، ف والنهاية لابن الأثير .

(٩) زيادة من ت ، ف ، والمسنند .

(٨) فى أ : « فزوجها » .

(٧) فى ت : « خدرها » .

(١٠) المسند (٣/١٣٦) .

(١٢) ، (١٣) فى أ : « عليكن » .

(١١) فى ت : « وروى » .

(١٤) فى أ : « برسول الله » .

فقال : يا رسول الله ، أشاور أمها . فأتى أمها فقال : رسول الله ﷺ يخطب ابتك ؟ فقالت : نعم ونعمة عين . فقال : إنه ليس يخطبها لنفسه ، إنما يخطبها لجليب . فقالت : أجليب إنه (١) ؟ أجليب إنه (٢) ؟ لا ، لعمر الله لا تزوجه . فلما أراد أن يقوم ليأتى رسول الله ﷺ فيخبره بما قالت أمها ، قالت الجارية : من خطبني إليكم ؟ فأخبرتها أمها . قالت : أتردون على رسول الله ﷺ أمره ؟ ! ادفعوني إليه ، فإنه لن يضيعني . فانطلق أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال : شأنك بها . فزوجه جليبا . قال : فخرج رسول الله ﷺ في غزاة له ، فلما أفاء الله عليه قال لأصحابه : « هل تفقدون من أحد ؟ » قالوا : لا . قال : « لكنى أفقد جليبا » . قال : « فاطلبوه في القتلى » . فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه . [فقالوا : يا رسول الله ، ها هو ذا إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه] (٣) . فأتاه رسول الله ﷺ فقام عليه ، فقال : قتل سبعة [وقتلوه] (٤) ، هذا منى وأنا منه . مرتين أو ثلاثا ، ثم وضعه رسول الله ﷺ على ساعديه [وحفر له ، ما له سرير إلا ساعد النبي ﷺ] (٥) . ثم وضعه في قبره ، ولم يذكر أنه غسله ، رضى الله عنه . قال ثابت : فما كان في الأنصار أيم أنفق منها . وحدث إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ثابتا : هل تعلم ما دعا لها رسول الله ﷺ ؟ فقال : « اللهم ، صب عليها [الخير] (٦) صبا ، ولا تجعل عيشها كذا » كذا قال ، فما كان في الأنصار أيم أنفق منها .

هكذا أورده الإمام أحمد بطوله (٧) ، وأخرج منه مسلم والنسائي في الفضائل قصة قتله (٨) . وذكر الحافظ أبو عمر بن عبد البر في « الاستيعاب » أن الجارية لما قالت في خدرها : أتردون على رسول الله ﷺ أمره ؟ تلت (٩) هذه الآية : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (١٠) .

وقال ابن جرير [أخبرني عامر بن مصعب ، عن طاوس قال : إنه سأل ابن عباس عن ركعتين بعد العصر ، فنهاه ، وقرأ ابن عباس ، رضى الله عنه (١١) : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾] (١٣) .

فهذه الآية عامة في جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء ، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد هاهنا ، ولا رأى ولا قول ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] ، وفي الحديث : « والذي نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » . ولهذا شدد في خلاف ذلك ، فقال : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٣] .

(١) ، (٢) في هـ ، ت ، ف ، أ : « ابنه » والتصويب من المسند .

(٣) ، (٤) ، (٥) ، (٦) زيادة من ت ، ف ، والمسند .

(٧) المسند (٤/٤٢٢) .

(٨) صحيح مسلم برقم (٢٤٨٢) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٨٢٤٦) .

(٩) في أ : « نزلت » .

(١٠) الاستيعاب (١/٢٥٩) .

(١١) في ت : « تكون » . (١٣) زيادة من ت ، ف ، أ .

(١١) في أ : « عنهما » .

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۖ﴾ (٣٧)

يقول تعالى مخبراً عن نبيه ، صلوات الله وسلامه عليه ، أنه قال لمولاه زيد بن حارثة وهو الذي أنعم الله عليه ، أى : بالإسلام ومتابعة الرسول ، عليه أفضل الصلاة والسلام : ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أى : بالعتق من الرق ، وكان سيدا كبير الشأن جليل القدر ، حبيباً إلى النبي ﷺ ، يقال له : الحب ، ويقال لابنه أسامة : الحب ابن الحب . قالت عائشة ، رضى الله عنها : ما بعثه رسول الله ﷺ فى سرية إلا أمره عليهم ، ولو عاش بعده لاستخلفه . رواه أحمد عن سعيد بن محمد الوراق ومحمد بن عبيد ، عن وائل بن داود ، عن عبد الله البهي عنها (١) .

وقال (٢) البزار : حدثنا خالد بن يوسف ، حدثنا أبو عوانة (ح) ، وحدثنا محمد بن معمر ، حدثنا أبو داود ، حدثنا أبو عوانة ، أخبرني عمران بن أبي سلمة (٣) ، عن أبيه : حدثني أسامة بن زيد قال : كنت فى المسجد ، فأتاني العباس وعلى بن أبي طالب ، رضى الله عنهما ، فقالا : يا أسامة ، استأذن لنا على رسول الله ﷺ . قال : فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته ، فقلت : على والعباس يستأذنان ؟ فقال : «أتدري ما حاجتهما ؟» فقلت : لا يا رسول الله . فقال : «لكنى أدري» ، قال : فأذن لهما . قالوا : يا رسول الله ، جئناك لتخبرنا : أى أهلك أحب إليك ؟ فقال : «أحب أهلى إلى فاطمة بنت محمد» ، قالوا : يا رسول الله ، ما نسألك عن فاطمة . قال : «فأسامة بن زيد بن حارثة ، الذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه» (٤) .

وكان رسول الله ﷺ قد زوجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية - وأمها أميمة (٥) بنت عبد المطلب - وأصدقها عشرة دنانير ، وستين درهماً ، وخماراً ، وملحقة ، ودرعاً ، وخمسين مداً من طعام ، وعشرة أمداد من تمر . قاله مقاتل بن حيان ، فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها ، ثم وقع بينهما ، فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ ، فجعل رسول الله ﷺ يقول له : «أمسك عليك زوجك ، واتق الله» . قال الله تعالى : ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ .

ذكر ابن جرير ، وابن أبي حاتم هاهنا آثاراً عن بعض السلف ، رضى الله عنهم ، أحببنا أن نضرب

(١) المسند (٢٢٧/٦) .

(٢) فى ت : «وروى» .

(٣) فى ت ، ف ، أ ، هـ : «عمر بن أبي سلمة» ، والصواب ما أثبتناه .

(٤) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٨١٩) من طريق أبي عوانة بنحوه ، وقال الترمذى : «حديث حسن صحيح» .

(٥) فى ت : «أمية» .

عنها صفحا لعدم صحتها فلا نوردتها .

وقد روى الإمام أحمد هاهنا أيضاً حديثاً ، من رواية حماد بن زيد ، عن ثابت ، عن أنس فيه غرابة تركنا سياقه أيضاً (١) .

وقد روى البخارى أيضاً بعضه مختصراً فقال : حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا مَعْلَى (٢) بن منصور ، عن حماد بن زيد ، حدثنا ثابت ، عن أنس بن مالك قال : **إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾** نزلت في شأن زينب بنت جحش ، وزيد بن حارثة ، رضى الله عنهما (٣) .

وقال (٤) ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن هاشم بن مرزوق ، حدثنا ابن عيينة ، عن علي ابن زيد بن جُدعان قال : سألتني على بن الحسين ما يقول الحسن في قوله : **﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾** فقال : قد أخبرتك أني مَزُوجُكها ، وتُخْفِي في نفسك ما الله مبديه .

وهكذا روى عن السُّدِّي أنه قال نحو ذلك .

وقال (٦) ابن جرير : حدثني إسحاق بن شاهين ، حدثني خالد ، عن داود عن عامر ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، أنها قالت : لو كنتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحى إليه من كتاب الله ، لكنتم : **﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾** (٧) .

وقوله : **﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا ﴾** : الوطر : هو الحاجة والأرب ، أى : لما فرغ منها ، وفارقها ، وزَوَّجْنَاهَا ، وكان الذى وكى تزويجها منه هو الله ، عز وجل ، بمعنى : أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولى ولا مهر ولا عقد ولا شهود من البشر .

قال (٨) الإمام أحمد : حدثنا هاشم - يعنى : ابن القاسم أبو النضر - حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، عن أنس ، رضى الله عنه ، قال : لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : **« اذهب فاذكرها على »** . فانطلق حتى أتاها وهى تُخَمَّرُ عَجِينُهَا ، قال : فلما رأيتها عظمت في صدرى - حتى ما أستطيع أن أنظر إليها - أن رسول الله ﷺ ذكرها ، فوليتها ظهري ونكصت (٩) على عقبي ، وقلت : يا زينب ، أبشرى ، أرسلنى رسول الله ﷺ يذكرك . قالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى

(١) الحديث فى المسند (١٤٩/٣) والغرابة من قوله : « فرأى رسول الله ﷺ امرأته زينب وكأنه دخله » . فقد شك مؤمل فى الرواية ، وهو سئى الحفظ .

(٢) فى أ : « يعلى » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٧) .

(٤) فى ت : « وروى » . (٥) زيادة من ف . (٦) فى ت : « وروى » .

(٧) تفسير الطبرى (١١/٢٢) وأصله فى الصحيح بلفظ : « من حدثك بثلاث » .

(٨) فى ت : « وروى » . (٩) فى ف ، أ : « وركضت » .

أوامر ربي، عز وجل . فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن ، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن. ولقد رأيتنا حين دَخَلْتُ على رسول الله ﷺ أطمعنا عليها الخبز واللحم ، فخرج الناس وبقى رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام ، فخرج رسول الله ﷺ [واتبعته] (١) فجعل يتبع حجر نسائه يسلم عليهن ، ويقولن : يا رسول الله ، كيف وجدت أهلك ؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر . قال : فانطلق حتى دخل البيت ، فذهبت أدخل معه ، فألقى الستر بيني وبينه ، ونزل الحجاب ، ووعظ القوم بما وعظوا به : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ الآية .

ورواه مسلم والنسائي من طرق ، عن سليمان (٢) بن المغيرة ، به (٣) .

وقد روى البخاري ، رحمه الله ، عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ فتقول : زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات (٤) .

وقد قدمنا في « سورة النور » عن محمد بن عبد الله بن جحش قال : تفاخرت زينب وعائشة ، فقالت زينب ، رضى الله عنها (٥) : أنا التي نزل تزويجي من السماء ، وقالت عائشة : أنا التي نزل عذري من السماء ، فاعترفت لها زينب ، رضى الله عنها (٦) .

وقال (٧) ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا جرير ، عن المغيرة ، عن الشعبي قال : كانت زينب تقول للنبي ﷺ : إني لأدل عليك بثلاث ، ما من نسائك امرأة تدل بهن : إن جدي وجدك واحد ، وإني أنكحنيك الله من السماء ، وإن السفير جبريل عليه السلام (٨) .

وقوله : ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ أى : إنما أبحنا لك تزويجها وفعلنا ذلك ؛ لئلا يبقى حرج على المؤمنين فى تزويج المطلقات الأدعياء ، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة ، فكان يقال له : « زيد بن محمد » ، فلما قطع الله هذه النسبة بقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَائَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ . ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ، ثم زاد ذلك بياناً وتأكيذاً بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش لما طلقها زيد بن حارثة ؛ ولهذا قال فى آية التحريم : ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ [النساء : ٢٣] ليحترز من الابن الدعى ؛ فإن ذلك كان كثيراً فيهم .

وقوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ أى : وكان هذا الأمر الذى وقع قد قدره الله تعالى وحتمه ، وهو كائن لا محالة ، كانت زينب فى علم الله ستصير من أزواج النبي ﷺ .

(١) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند . (٢) فى أ : « سليم » .

(٣) المسند (١٩٥/٣) وصحيح مسلم برقم (١٤٢٨) وسنن النسائي (٧٩/٦) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٧٤٢٠) .

(٥) فى ت : « عنهما » .

(٦) عند الآية : ١١ .

(٧) فى ت : « وروى » .

(٨) تفسير الطبرى (١١/٢٢) .

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ (٣٨).

يقول تعالى : ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ﴾ أى : فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب التى طفّلها دعيه زيد بن حارثة .

وقوله : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى : هذا حكم الله فى الانبياء قبله ، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم فى ذلك حرج ، وهذا ردّ على من توهّم من المنافقين نقصاً فى تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه ، الذى كان قد تبناه .

﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ أى : وكان أمره الذى يقدره كائن لا محالة ، وواقعاً لا محيد عنه ولا معدل ، فما شاء [الله] (١) كان ، وما لم يشأ لم يكن .

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (٣٩)
مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠).

يمدح تعالى (٢) : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ ﴾ أى : إلى خلقه ويؤدونها بأمانتها ، ﴿ وَيَخْشَوْنَهُ ﴾ أى : يخافونه ولا يخافون أحداً سواه فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله ، ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أى : وكفى بالله ناصرًا ومعيناً . وسيد الناس فى هذا المقام - بل وفى كل مقام - محمد رسول الله ﷺ ؛ فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب ، إلى جميع أنواع بنى آدم ، وأظهر الله كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع ، فإنه قد كان النبى يبعث (٣) إلى قومه خاصة ، وأما هو ، صلوات الله عليه ، فإنه بعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم ، ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده ، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه ، رضى الله عنهم ، بلغوا عنه كما أمرهم به فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله ، فى ليله ونهاره ، وحضره وسفره ، وسره وعلايته ، فرضى الله عنهم وأرضاهم . ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا ، فبنورهم يقتدى المهتدون ، وعلى منهجهم يسلك الموفقون . فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم .

قال (٤) الإمام أحمد : حدثنا ابن نُمَيْرٍ ، أخبرنا الأعمش ، عن عمرو بن مُرَّة ، عن أبى البَخْتَرى ، عن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَحْقِرَنَّ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ أَنْ يَرَى أَمْرَ اللَّهِ فِيهِ مَقَالٌ ثُمَّ لَا (٥) يَقُولُهُ ، فيقول الله : ما يمنعك أن تقول فيه ؟ فيقول : رب ، خشيت الناس . فيقول : فأنا أحق أن يخشى (٦) » .

(٢) فى ت ، ف : « يمدح الله تعالى » ، وفى أ : « يمدح الله عز وجل » .

(١) زيادة من ت .

(٣) فى ت ، ف ، أ : « وكان النبى قبله إنما يبعث » .

(٤) فى ت : « روى » .

(٦) فى أ : « يخشاه » .

(٥) فى ت : « أن لا » .

ورواه أيضاً عن عبد الرزاق ، عن الثوري ، عن زيد ، عن عمرو بن مرة (١) .
ورواه ابن ماجه ، عن أبي كريب ، عن عبد الله بن غير وأبي معاوية ، كلاهما عن الأعمش ،
به (٢) .

وقوله : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ ، نهى (٣) [تعالى] (٤) أن يقال بعد هذا : « زيد بن محمد » أى : لم يكن أباه وإن كان قد تبناه ، فإنه ، صلوات الله عليه وسلامه ، لم يعيش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم ؛ فإنه ولد له القاسم ، والطيب ، والطاهر ، من خديجة فماتوا صغارا ، وولد له إبراهيم من مارية القبطية ، فمات أيضا رضيعا (٥) ، وكان له من خديجة أربع بنات : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، رضى الله عنهم (٦) أجمعين ، فمات فى حياته ثلاث وتأخرت فاطمة حتى أصيبت به ، صلوات الله وسلامه عليه ، ثم ماتت بعده لسته أشهر .

وقوله : ﴿ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ ، كقوله : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] فهذه الآية نص فى (٧) أنه لا نبى بعده ، وإذا كان لا نبى بعده فلا رسول [بعده] (٨) بطريق الأولى والأخرى ؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبى ، ولا ينعكس . وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عامر الأزدي ، حدثنا زهير بن محمد ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن الطفيل بن أبي كعب (٩) ، عن أبيه ، عن النبى ﷺ قال : « مثلى فى النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها ، وترك فيها موضع لبنة لم يضعها ، فجعل الناس يطوفون بالبنين ويعجبون منه ، ويقولون : لو تم موضع هذه اللبنة ! فأنا فى النبيين موضع تلك اللبنة » .

ورواه الترمذى ، عن بُندار ، عن أبي عامر العقدي ، به (١٠) ، وقال : حسن صحيح .

حديث آخر : قال (١١) الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا المختار بن فلفل ، حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرسالة والنبوة قد انقطعت ، فلا رسول بعدى ولا نبى » . قال : فشق ذلك على الناس قال : قال (١٢) : « ولكن المبشرات » . قالوا : يا رسول الله ، وما المبشرات ؟ قال : « رؤيا الرجل المسلم ، وهى جزء من أجزاء النبوة » .

وهكذا روى الترمذى عن الحسن بن محمد الزعفرانى ، عن عفان بن مسلم ، به (١٣) . وقال : صحيح غريب من حديث المختار بن فلفل .

(١) المسند (٣/ ٣٠ ، ٧٣) .

(٢) سنن ابن ماجه برقم (٤٠٠٨) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢٤٢) : « هذا إسناده صحيح » .

(٣) فى أ : « ينهى » . (٤) زيادة من أ . (٥) فى أ : « أيضا صغيرا رضيعا » .

(٦) فى أ : « عنهن » . (٧) فى أ : « على » . (٨) زيادة من أ .

(٩) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن أبي بن كعب » .

(١٠) المسند (٥/ ١٣٦) وسنن الترمذى برقم (٣٦١٣) .

(١١) فى ت : « وروى » . (١٢) فى ت ، ف ، أ : « فقال » .

(١٣) المسند (٣/ ٢٦٧) وسنن الترمذى برقم (٢٢٧٢) .

حديث آخر: قال أبو داود الطيالسي: حدثنا سليم بن حيّان، عن سعيد بن ميناء، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: « مثلى ومثل الأنبياء كمثلى رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة، فكان من دخلها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة ! فأنما موضع اللبنة، ختم بى الأنبياء، عليهم السلام » .

ورواه البخارى، ومسلم، والترمذى، من طرق، عن سليم (١) بن حيّان، به (٢). وقال الترمذى: صحيح غريب من هذا الوجه .

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدرى، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « مثلى ومثل النبيين [من قبلى] (٣) كمثلى رجل بنى داراً فأتهاها إلا لبنة واحدة، فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة » . انفرد بإخراجه مسلم من رواية الأعمش، به (٤) .

حديث آخر: قال [الإمام] (٥) أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عثمان بن عبيد الراسبى قال: سمعت أبا الطفيل قال: قال رسول الله ﷺ: « لا نبوة بعدى إلا المبشرات » . قال: قيل: وما المبشرات يا رسول الله ؟ قال: « الرؤيا الحسنة - أو قال - : الرؤيا الصالحة » (٦) .

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة (٧) قال: قال رسول الله ﷺ: « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثلى رجل ابنتى بيوتا فأحسنها وأكملها وأجملها، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها، فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان ويقولون: ألا وضعت هاهنا لبنة فيتم بنيانك؟! » قال رسول الله ﷺ: « فكنتم أنا اللبنة » . أخرجه من حديث عبد الرزاق (٨) .

حديث آخر: عن أبي هريرة أيضاً: قال (٩) الإمام مسلم: حدثنا يحيى بن أيوب (١٠) وقتيبة وعلى ابن حجر قالوا: حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: « فُضِّلْتُ على الأنبياء بست: أُعْطِيتُ جوامع الكلم، ونُصِرْتُ بالرعب، وأُحِلَّتْ لى الغنائم، وجعلت لى الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بى النبيون » .

(١) فى ف : « سليمان » .

(٢) مسند الطيالسى برقم (١٧٨٥) وصحيح البخارى برقم (٣٥٣٤) وصحيح مسلم برقم (٢٢٨٧) وسنن الترمذى برقم (٢٨٦٢) .

(٣) زيادة من ت ، أ ، والمسنَد .

(٤) المسند (٩/٣) وصحيح مسلم برقم (٢٢٨٦) .

(٥) زيادة من أ .

(٦) المسند (٤٥٤/٥) وقال الهيثمى فى المجمع (١٧٣/٧): « ورجاله ثقات » .

(٧) فى ت : « وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة، رضى الله عنه » .

(٨) المسند (٣١٢/٢) وصحيح مسلم برقم (٢٢٨٦) ولم أجده فى البخارى ولم يعزه المزى فى تحفة الأشراف إلا لمسلم .

(٩) فى ت : « وروى » . (١٠) فى أ : « يعقوب » .

ورواه الترمذى وابن ماجه ، من حديث إسماعيل بن جعفر ، وقال الترمذى : حسن صحيح^(١).
حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي سعيد
الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ، كمثل رجل بنى داراً فأتمها إلا
موضع لبنة واحدة ، فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة » .

ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة ، وأبى كريب ، كلاهما عن أبي معاوية ، به^(٢) .
حديث آخر : قال (٣) الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا معاوية بن صالح عن
سعيد بن سويد الكلبي ، عن عبد الأعلى بن هلال السلمي ، عن العرياض بن سارية قال : قال النبي
ﷺ : « إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طيئته »^(٤) .

حديث آخر : قال (٥) الزهري : أخبرني محمد بن جبير بن مطعم ، عن أبيه ، رضى الله عنه ،
قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن لى أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو
الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب الذى ليس بعده (٦)
نبي » . أخرجاه فى الصحيحين (٧) .

وقال (٨) الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق ، حدثنا ابن لهيعة ، عن عبد الله بن هبيرة ، عن
عبد الرحمن بن جبير قال : سمعت عبد الله بن عمرو يقول : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً كالمودع ،
فقال : « أنا محمد النبي الأمي - ثلاثاً - ولا نبي بعدى : أوتيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه ،
وعلمت كم خزنة النار وحملة العرش ، وتجاوز بى ، وعوفيت وعوفيت (٩) أمتي ؛ فاسمعوا وأطيعوا
مادمت فيكم ، فإذا ذهب بى فعليكم بكتاب الله ، أحلوا حلاله ، وحرموا حرامه » . تفرد به الإمام
أحمد (١٠) .

ورواه (١١) [الإمام] أحمد أيضاً عن يحيى بن إسحاق ، عن ابن لهيعة ، عن عبد الله بن
هبيرة ، عن عبد الله بن مريح (١٣) الخولاني ، عن أبي قيس - مولى عمرو بن العاص - عن عبد الله بن
عمرو فذكر مثله سواء (١٤) (١٥) .

والأحاديث فى هذا كثيرة ، فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد ، صلوات الله وسلامه
عليه ، إليهم ، ثم من تشريفه له ختم الأنبياء والمرسلين به ، وإكمال الدين الحنيف له . وقد أخبر تعالى
فى كتابه ، ورسوله فى السنة المتواترة عنه : أنه لا نبي بعده ؛ ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده

(١) صحيح مسلم برقم (٥٢٣) وسنن الترمذى برقم (١٥٥٣) وسنن ابن ماجه برقم (٥٦٧) .

(٢) تقدم الحديث من قريب .

(٣) فى ت : « وروى » .

(٤) المسند (١٢٧/٤) .

(٥) فى ت : « وقال » . (٦) فى أ : « بعدى » .

(٧) صحيح البخارى برقم (٣٥٣٢) وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٤) .

(٨) فى ت : « وروى » . (٩) فى ت : « وعرفت » .

(١٠) المسند (١٢/٢) وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف .

(١١) فى ف : « وحدثني » . (١٢) زيادة من ف ، أ . (١٣) فى أ : « سريح » .

(١٤) فى أ : « سواء » .

(١٥) المسند (١٧٢/٢) وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف .

فهو كذاب أفك ، دجال ضال مضل ، ولو تخرق (١) وشعبذ ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرجيات (٢) ، فكلها محال وضلال عند أولى الألباب ، كما أجرى الله ، سبحانه وتعالى ، على يد الأسود العنسى باليمن ، ومسيلمة الكذاب باليمامة ، من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة ، ما علم كل ذى لب وفهم وحجى أنهما كاذبان ضالان ، لعنهما الله . وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال ، [فكل واحد من هؤلاء الكذابين] (٣) يخلق الله معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من (٤) جاء بها . وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه ، فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرن بمعروف ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل الاتفاق ، أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره ، ويكون فى غاية الإفك والفجور فى أقوالهم وأفعالهم ، كما قال تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٢٢١ ، ٢٢٢] . وهذا بخلاف الأنبياء ، عليهم السلام ، فإنهم فى غاية البر والصدق (٥) والرشد والاستقامة [والعدل] (٦) فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرن به وينهون عنه ، مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات ، والأدلة الواضحات ، والبراهين الباهرات ، فصلوات الله وسلامه عليهم دائما مستمرا ما دامت الأرض والسموات .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّيٰ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤) ﴾ .

يقول تعالى أمرا عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تعالى ، المنعم عليهم بأنواع النعم وأصناف (٧) المنن ، لما لهم فى ذلك من جزيل الثواب ، وجميل المآب .

قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، عن عبد الله بن سعيد (٨) ، حدثنى مولى ابن عياش (٩) عن أبى بحرية (١٠) ، عن أبى الدرداء ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقكم ؟ » قالوا : وما هو يا رسول الله ؟ قال : « ذكر الله ، عز وجل » .

وهكذا رواه الترمذى وابن ماجه ، من حديث عبد الله بن سعيد بن أبى هند ، عن زياد - مولى ابن عياش (١١) - عن أبى بحرية - واسمه عبد الله بن قيس التراغمى - عن أبى الدرداء ، به (١٢) . قال الترمذى : ورواه بعضهم عنه فأرسله .

(١) فى ١ : « تخرق » . (٢) فى ١ : « النيرجيات » . (٣) زيادة من ١ . (٤) فى ١ : « ما » . (٥) فى ١ : « الصدقة » . (٦) زيادة من ١ . (٧) فى ١ : « وصنوف » . (٨) فى ١ : « سعد » . (٩) فى ١ : « عباس » . (١٠) فى ١ : « عن أبى عرة » . (١١) فى ١ : « عباس » . (١٢) المسند (١٩٥/٥) وسنن الترمذى برقم (٣٣٧٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣٧٩٠) .

قلت : وقد تقدم هذا الحديث عند قوله تعالى : ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ في مسند [الإمام] (١) أحمد ، من حديث زياد بن أبي زياد مولى عبد الله بن عياش : أنه بلغه عن معاذ بن جبل ، عن رسول الله ﷺ ، بنحوه ، فإله أعلم .

وقال (٢) الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا فرج بن فضالة ، عن أبي سعد الحمصي قال : سمعت أبا هريرة يقول : دعاء سمعته من رسول الله ﷺ لا أدعه : « اللهم ، اجعلني أعظم شكرك ، وأتبع نصيحتك ، وأكثر ذكرك ، وأحفظ وصيتك » (٣) .

ورواه الترمذي عن يحيى بن موسى ، عن وكيع ، عن أبي فضالة الفرّج بن فضالة ، عن أبي سعيد الحمصي ، عن أبي هريرة ، فذكر مثله وقال : غريب (٤) .

وهكذا رواه الإمام أحمد أيضاً عن أبي النضر هاشم بن القاسم ، عن فرج بن فضالة ، عن أبي سعيد المدني (٥) عن أبي هريرة فذكره (٦) .

وقال (٧) الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن معاوية بن صالح ، عن عمرو بن قيس قال : سمعت عبد الله بن بسر يقول : جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ ، فقال أحدهما : يا رسول الله ، أيّ الناس خير ؟ قال : « من طال عمره وحسن عمله » . وقال الآخر : يا رسول الله ، إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا (٨) ، فمرني بأمر أتثبت به . قال : « لا يزال لسانك رطباً بذكر الله » (٩) .

وروى الترمذي وابن ماجه [منه] (١٠) الفصل الثاني ، من حديث معاوية بن صالح ، به (١١) . وقال الترمذي : حسن غريب .

وقال (١٢) الإمام أحمد : حدثنا سريج (١٣) ، حدثنا ابن وهب ، عن عمرو بن الحارث قال : إن دراجاً أبا السّمح حدثه ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد الخدري ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « أكثروا ذكر الله حتى يقولوا : مجنون » (١٤) .

وقال الطبراني : حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنا عقبة بن مكرم العمي ، حدثنا سعيد بن سفيان (١٥) الجحدري ، حدثنا الحسن بن أبي جعفر ، عن عقبة بن أبي ثبيت (١٦) الراسي ، عن أبي الجوزاء ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « اذكروا الله ذكراً كثيراً [حتى] » (١٧) يقول

(١) زيادة من أ . (٢) في ت : « وروى » .

(٣) المسند (٤٧٧/٢) .

(٤) سنن الترمذي برقم (٣٦٠٤) .

(٥) في أ : « المزني » .

(٦) المسند (٣١١/٢) .

(٧) في ت : « وروى » . (٨) في ت : « على » .

(٩) المسند (١٩٠/٤) .

(١٠) زيادة من ف ، أ .

(١١) سنن الترمذي برقم (٣٣٧٥) وسنن ابن ماجه برقم (٣٧٩٣) .

(١٢) في ت : « وروى » . (١٣) في أ : « شريح » .

(١٤) المسند (٦٨/٣) وفيه دراج ، عن أبي الهيثم ضعيف .

(١٥) في أ : « سفر » . (١٦) في أ : « سبب » . (١٧) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمعجم .

المنافقون: تراؤون « (١) .

وقال (٢) الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم ، حدثنا شداد أبو طلحة الراسبي ، سمعت أبا الوازع جابر بن عمرو يحدث عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من قوم جلسوا مجلساً لم يذكروا الله فيه ، إلا رأوه حسرة يوم القيامة » (٣) .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ : إن الله لم يفرض [على عباده] (٤) فريضة إلا [جعل لها حدا معلوما ، ثم] (٥) عذر أهلها في حال عذر، غير الذكر ، فإن الله لم يجعل له حداً ينتهي إليه ، ولم يعذر أحداً في تركه ، إلا مغلوباً على تركه ، فقال : ﴿ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [النساء : ١٠٣] ، بالليل والنهار ، [في البر والبحر] (٦) ، وفي السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والصحة والسقم ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال ، وقال : ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ ، فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته .

والأحاديث والآيات والآثار في الحث على ذكر الله كثيرة جداً ، وفي هذه الآية الكريمة الحث على الإكثار (٧) من ذلك .

وقد صنف الناس في الأذكار المتعلقة بآناء الليل والنهار كالنسائي والمعمري وغيرهما (٨) ، ومن أحسن الكتب المؤلفة في ذلك كتاب الأذكار للشيخ محيي الدين النووي ، رحمه الله تعالى (٩) .

(١) المعجم الكبير للطبراني (١٦٩/١٢) وقال الهيثمي في المجمع (٧٦/١٠) : « فيه الحسين بن أبي جعفر الجعفرى وهو ضعيف » .

(٢) فى أ : « زاده » .

(٣) المسند (٢٢٤/٢) وقال الهيثمي في المجمع (٨٠/١٠) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٤) (٦ - ٤) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٥) فى أ : « الإكثار » . (٨) فى ت : « والمعمري والكلم الطيب لشيخ الإسلام وغيرهم » .

(٩) وقد طبع كتاب الأذكار بتحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط فى دار الهدى وعليه تخريج لابن علان اسمه : « الفتوحات الربانية » طبع فى الهند .

هذا وقد جاء فى نسخة « ت » بعد هذه الفقرة ما يلى :

« فذكر الله أصل موالاة الله ، عز وجل ، ورأسها . والغفلة أصل معاداته ورأسها ، فإن العبد لا يزال يذكر ربه حتى يحبه فيؤايله ، ولا يزال يغفل عنه حتى يبغضه ويبغضه . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْعَمْ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ﴾ وما استجلبت نعم الله تعالى واستدفعت نقمة بمثل ذكر الله ، فالذكر جلاب النعم دفاع النقم . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وفى القراءة الأخرى : ﴿ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فدفعه ودفاعه عنهم بحسب قوة إيمانهم وكماله ومادة الإيمان وقوته بذكر الله ، فمن كان أكمل إيماناً وأكثر ذكراً كان دفاع الله عنه ، ودفعه أعظم . ومن نقص نقص ذكر بذكر ونسيان بنسيان ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ والذكر رأس الشكر ، والشكر جلاب النعم ، موجب للمزيد . قال بعض السلف : ما أقيح الغفلة عن ذكر من لا يغفل عن برك . ومجالس الذكر رياض الجنة كما روى ابن أبى الدنيا من حديث جابر ، عن عبد الله قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ، فقال : « يا أيها الناس ارتعوا فى رياض الجنة » قلنا يا رسول الله : وما رياض الجنة ؟ قال : « مجالس الذكر » ، ثم قال : « اغدوا وروحوا فاذكروا فمن كان يحب أن يعلم منزله عند الله ، فلينظر كيف منزلة الله عنده ، فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه » . فمجالس الذكر مجالس الملائكة كما فى الصحيحين عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله ملائكة فضلاً عن كتاب الناس يطوفون فى الطريق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكر الله تنادوا هلم إلى حاجتكم ، فتحنف بأجنتها إلى السماء الدنيا ، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم : ما يقول عبادى ؟ قال : يقولون : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك قال : وهل رأونى ؟ قال : يقولون : لا والله يا ربنا ما رأوك ، فيقول : كيف لو أنهم رأونى ؟ قال : فيقولون : لو أنهم رأوك

= كانوا أشد عبادة وأشد تحميدا وتمجيذا ، وأكثر تسييحا ، فيقول : ما يسألونى ؟ فيقولون : يسألونك الجنة ، فيقول : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا والله ياربنا ما رأوها ، فيقول : كيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها كانوا أشد حرصاً عليها ، وأشد لها طلباً ، وأعظم فيها رغبة ، فيقول : مم يتعذون ؟ قال : فيقولون : من النار ، فيقول : هل رأوها ؟ فيقولون : لا والله ياربنا ما رأوها ، فيقول : كيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فراراً وأشد لها مخافة ، فيقول : فاشهدكم أنى قد غفرت لهم ، فيقول ملك من الملائكة : إن فيهم فلاناً ليس منهم ، إنما جاء لحاجة . قال : هم القوم لا يشقى بهم جليسهم ، فهذا من بركتهم على نفوسهم وعلى جليسهم ، فلم نصيب من قوله : « **وجعلني مباركا أينما كنت** » [مريم : ٣١] ، وإن الله ، عز وجل ، ليباهى بالذاكرين الملائكة ، كما روى مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى قال : خرج معاوية على حلقة فى المسجد ، فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله . قال : ما أجلسكم إلا ذلك ؟ قالوا : والله ما أجلسنا إلا ذلك . قال : أما إنى لم أسألكم تهمة لكم ، وما كان أحد بمنزلة من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثاً منى ، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه . قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ، ومن علينا بك . قال : « **الله ما أجلسكم إلا ذلك ؟** » قالوا : الله ما أجلسنا إلا ذلك ؟ قال : « **أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم ، ولكن أثنى جبريل فأخبرنى أن الله يباهى بكم الملائكة** » فهذه المباهاة من الرب تبارك وتعالى ، دليل على شرف الذكر عنده ومحبة له وأن له منزلة على غيره من الأعمال .

والذكر نوعان : أحدهما : ذكر أسماء الرب وصفاته والثناء عليه ، وتزييه وتقديسه عما لا يليق به وهذا أيضاً نوعان : أحدهما : إنشاء الثناء بها من الذاكر ، وهذا النوع هو المذكور فى الحديث نحو : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر ، وسبحان الله وبحمده ، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، ونحو ذلك ، فأفضل هذا النوع أجمعه للثناء وأعمه نحو : سبحان الله عدد خلقه ، فهذا أفضل من مجرد سبحان الله ، وقول : الحمد لله عدد ما خلق فى السماء ، وعدد ما خلق فى الأرض ، وعدد ما خلق بينهما ، وعدد ما هو خالق ، أفضل من مجرد قولك : الحمد لله ، وهذا فى حديث جويرية أن النبى ﷺ قال لها : « **لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم ، لوزنتهن** : سبحان الله عدد خلقه ، سبحان الله رضا نفسه ، سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله مداد كلماته » . رواه مسلم . وفى الترمذى وسنن أبى داود عن سعد بن أبى وقاص أنه دخل مع رسول الله ﷺ على امرأة بين يديها نوى أو حصى تسبح به ، فقال : « **أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا وأفضل ؟** » فقال : سبحان الله عدد ما خلق فى السماء ، وسبحان الله عدد ما خلق فى الأرض ، وسبحان الله عدد ما بين ذلك ، وسبحان الله عدد ما هو خالق ، والله أكبر مثل ذلك ، ولا إله إلا الله مثل ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك » .

والنوع الثانى : الخبر عن الرب تبارك وتعالى بأحكام أسمائه وصفاته نحو قولك : إن الله ، عز وجل ، يسمع أصوات عباده ، ويرى حركاتهم ، ولا يخفى عليه خافية من أعمالهم ، وهو أرحم من آبائهم وأمهاتهم ، وهو على كل شيء قدير ، وهو أفرح بتوبة عبده من الفاقد الواجد ونحو ذلك . وأفضل هذا النوع الثناء عليه بما أثبت به على نفسه ، وبما أثبت عليه رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تشبيه ولا تمثيل كما قال : « **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** » ، وهذا النوع أيضاً ثلاثة أنواع : حمد ، وثناء ، ومجد .

فالحمد : الإخبار عنه بصفات كماله مع محبته والرضا عنه ، ولا يكون المحب الساكنت حامداً ، ولا المثنى بلا محبة حامداً ، حتى يجمع له المحبة والثناء ، فإن كرر المحامد شيئاً بعد شيء ، كانت ثناء ، فإن كان المدح بصفات الجلال والعظمة والكبرياء والملك كان مجداً . قد جمع الله تعالى لعبده الأنواع الثلاثة فى أول سورة فاتحة الكتاب ، فإذا قال العبد : « **الحمد لله رب العالمين** » قال الله : حمدنى عبدى ، وإذا قال : « **الرحمن الرحيم** » ، قال : أثنى على عبدى . وإذا قال : « **مالك يوم الدين** » قال : مجدنى عبدى . والنوع الثانى من الذكر : ذكر أمره ونهيه وأحكامه ، وهذا أيضاً نوعان : أحدهما : ذكره بذلك إخباراً عنه بأنه أمر بكذا ونهى عن كذا وأحب كذا وسخط كذا ، والثانى : ذكره عند أمره فيبادر إليه ، وعند نهيه فيهرب منه ، فذكر أمره ونهيه شيء ، وذكره عند أمره ونهيه شيء آخر ، فإذا اجتمعت هذه الأنواع للذاكر ، فذكره أفضل الذكر وأجله وأعظمه .

فهذا ذكره هو الفقه الأكبر ، وما دونه من أفضل الذكر إذا صحت فيه النية ، ومن ذكره تعالى ذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وأباده ومواقع فضله على عبيده ، وهذا من أجل أنواع الذكر ، فهذه خمسة أنواع ، وهى تكون بالقلب واللسان ، وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان ؛ لأن ذكر القلب يثمر المعرفة ، ويصح المحبة ، ويشير الحياء ، ويبعث على المخافة ، ويدعو إلى المراقبة ، ويردع عن التقصير فى الطاعة والتهاون فى المعاصى والسيئات ، وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئاً من تلك الأثمار ، وإن أثمر شيئاً ما ، فثمرته ضعيفة .

والذكر أفضل من الدعاء ؛ لأن الذكر ثناء على الله ، عز وجل ، بجميع صفاته وآلائه وأسمائه ، والدعاء سؤال العبد حاجته ، فأين هذا من هذا ؟ ولهذا جاء فى الحديث : « **من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين** » . ولهذا كان مستحباً فى الدعاء أن يبدأ الداعى بحمد الله والثناء عليه بين يدي حاجته ، ثم يسأل حاجته كما جاء فى حديث فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ =

= سمع رجلاً يدعو في صلاته لم يحمد الله ولم يصل على النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «لقد عجل هذا»، ثم دعاه فقال له أو لغيره: «إذا صلى أحدكم، فليبدأ بتحميد ربه والثناء عليه، ثم يصلي على النبي ﷺ، ثم يدعو بما شاء». رواه الإمام أحمد والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح. وهكذا دعا ذو النون الذي قال فيه النبي ﷺ: «دعوة أخى ذى النون إذ دعا بها في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»، وفي الترمذي: «دعوة أخى ذى النون إذ دعا بها في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له». وهكذا عامة الأدعية النبوية، ومنه قول النبي ﷺ في دعاء الكرب: «لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب الأرض ورب العرش الكريم». ومنه حديث بريدة الأسلمي، رواه أهل السنن أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو وهو يقول: اللهم أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، فقال: «والذى نفسى بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى». وروى أبو داود والنسائي من حديث أنس أنه كان مع النبي ﷺ جالساً ورجل يصلى ثم دعا: اللهم أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم فقال النبي ﷺ: «لقد دعا الله باسمه العظيم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى» وروى أبو داود والنسائي من حديث أنس، فأخبر النبي ﷺ أن الدعاء يستجاب إذا تقدمه هذا الثناء والذكر، وأنه اسم الله الأعظم، فكان ذكر الله والثناء عليه أنجح ما سأل به جوائزه، فهذا من فوائد الذكر، وهو أنه يجعل الدعاء مستجاباً فلهذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا. وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ فالدعاء الذى يتقدمه الذكر والثناء أقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرد، فإن انضاف إلى ذلك إخبار العبد بحاله ومسكته وافتقاره واعترافه، كان أبلغ فى الإجابة وأفضل. فإنه يكون قد توسل إلى المدعو بصفات كماله وإحسانه وفضله، وعرض، بل صرح، بشدة حاله وضرورته وفقره ومسكته، فهذا مقتضى منه وأوصاف المسؤول مقتضى منه، فاجتمع المقتضى من السائل والمقتضى من المسؤول فى الدعاء، فكان أبلغ وألطف موقعاً وأتم معرفة وعبودية، وأنت ترى فى الشاهد ولله المثل الأعلى أن الرجل إذا توسل إلى من يريد معروفه بكرمه وجوده وبره، وذكر حاجته هو وفقره ومسكته، كان أعطف لقلب المسؤول، وأقرب إلى قضاء حاجته من أن يقول له ابتداء أعطى كذا وكذا، فإذا عيرف هذا فتأمل قول موسى، عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ وقول ذى النون فى دعائه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وقول آيينا آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وفى الصحيحين أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه؛ قال يا رسول الله، علمنى دعاء أدعوه به فى صلاتى فقال: «قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم» فجمع فى هذا الدعاء الشريف العظيم القدر بين الاعتراف بحاله، والتوسل إلى ربه بفضله وجوده، وأنه المتفرد بغفران الذنوب ثم سأل حاجته بعد التوسل بالأميرين معا فهكذا آداب الدعاء والعبودية.

وقراءة القرآن أفضل الأذكار وهى أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء، وهذا من حيث النظر إلى كل واحد منهما مجزئاً، وقد تعرض للمفضول ما يجعله أولى من الفاضل، بل تعينه فلا يجوز أن يعدل عنه إلى الفاضل، وهذا كالتمسك بالركوع والسجود، فإنه أفضل من قراءة القرآن، وكذلك التشهد، وكذلك رب اغفر لى بين السجدين، وقول رب اغفر لى وارحمنى واهدنى وعافنى وارزقنى بين السجدين أفضل من القراءة. وكذلك الذكر عقيب السلام من الصلاة، ذكر التهليل والتسبيح والتكبير والتحميد أفضل من الاشتغال عنه بالقراءة. وكذلك إجابة المؤذن، والقول كما يقول، أفضل من القراءة، وإن كان فضل القرآن على كل كلام كفضل الله على خلقه، لكن لكل مقام مقال، متى فات مقاله فيه وعدل عنه إلى غيره، واختلت الحكمة، وفقدت المصلحة المطلوبة منه، وهكذا الأذكار المفيدة بمحال مخصوصة أفضل من القراءة المطلقة اللهم إلا أن يعرض للعبد ما يجعل الذكر أو الدعاء أنفع له من قراءة القرآن، مثاله أن يحدث له من التفكير فى ذنوبه فيحصل له توبة واستغفار أو يحصل له ما يخاف أذاه من شياطين الإنس والجن، فيعدل إلى الأذكار والدعوات التى تحصنه وتحوطه، وكذلك أيضاً قد يعرض للعبد حاجة ضرورية إذا اشتغل عن سؤالها بقراءة القرآن، لم يحضر قلبه فيها. وإذا أقبل على الذكر والدعاء إليها اجتمع قلبه كله على الله، وأحدث له تضرعاً وخشوعاً وابتهالاً، فهذا قد يكون اشتغاله بالدعاء والحالة هذه أنفع له، وإن كان كل من القراءة والذكر أفضل وأكثر أجراً، وهذا باب نافع يحتاج إلى فقه نص وفرقان بين فضيلة الشيء فى نفسه وبين فضيلته العارضة، فيعطى كل ذى حق حقه ويضع كل شيء موضعه، فللعين موضع، وللرجل موضع، وللنفس موضع، وللحم موضع، وحفظ المراتب هو من تمام الحكمة التى هى نظام الأمر والنهى، والله الموفق.

وهكذا الصابون والأشنان أنفع للثوب فى وقت، والتحميم وماء الوارد أنفع له فى وقت. وقلت لشيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله، يوماً: سئل بعض أهل العلم: أيما أنفع للعبد التسبيح أو الاستغفار؟ فقال: إذا كان الثوب نقياً فالبخور وماء الوارد نافع له، وإن كان دنساً فالصابون والماء الجارى أنفع له فقال: كيف والياب لا تزال دنسة؟

ومن هذا الباب أن سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن، ومع هذا فلا تقوم مقام آيات المواريث والطلاق والخلع والعدد ونحوها، بل هذه الآيات فى وقتها، وعند الحاجة إليها أنفع من تلاوة سورة الإخلاص. ولما كانت الصلاة مشتملة على القراءة والذكر=

وقوله: ﴿وَسَبِّحْهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أى: عند الصباح والمساء، كقوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ. وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧، ١٨].

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾: هذا تهيج إلى الذكر، أى: إنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم، كقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ. فَادْكُرُونِي أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢]. وقال النبي ﷺ: «يقول الله: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم» (١).

والصلاة من الله ثناؤه على العبد عند الملائكة، حكاه البخارى عن أبى العالية. ورواه أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عنه.

وقال غيره: الصلاة من الله: الرحمة [ورد بقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾] (٢).

وقد يقال: لا منافاة بين القولين والله أعلم.

وأما الصلاة من الملائكة، فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار (٣)، كقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ. رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ الآية [غافر: ٧ - ٩].

وقوله: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أى: بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم، ودعاء ملائكته لكم، يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين. ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أى: فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا: فإنه هداهم إلى الحق الذى جهله غيرهم، وبصّرهم الطريق الذى ضل عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأشياهم (٤) من الطغام (٥). وأما رحمته بهم فى الآخرة: فآمنهم من الفزع الأكبر، وأمر ملائكته بتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار، وما ذاك إلا لمحبتهم لهم ورأفته بهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبى عدى، عن حميد، عن أنس، رضى الله عنه، قال: مر رسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه وصبى فى الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابنى، ابنى، وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت

= والدعاء، وهى جامعة لأجزاء العبودية على أتم الوجوه، فكانت أفضل من كل القراءة والذكر والدعاء بمفرده بجمعها ذلك كله مع عبودية سائر الأعضاء فهذا أصل نافع جداً للعبد يفتح للعبد باب معرفة مراتب الأعمال وينزلها منازلها لئلا يشتغل بمفضولها عن فاضلها فيرنح عليه إبليس الفضل الذى بينهما أو ينظر إلى فاضلها فيشتغل عن مفضولها، وإن كان ذلك وقته فتقوته مصلحته بالكلية لظنه أن اشتغاله به أكثر ثواباً وأعظم أجراً (١). هـ.

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٤٠٥) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٦٧٥) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

(٢) زيادة من ت. (٣) فى ت: «والاستغفار إليهم».

(٤) فى ت، أ: «وأتباعهم».

(٥) فى أ: «الطغاة».

هذه لتلقى ابنها فى النار . قال : فَخَفَّضَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وقال: « ولا الله (١) ، لا يلقى حبيبه فى النار » .

إسناده على شرط الصحيحين ، ولم يخرجـه أحد من أصحاب الكتب الستة (٢) ، ولكن فى صحيح الإمام البخارى ، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبى قد أخذت صبيها لها ، فألصقته إلى صدرها ، وأرضعته فقال: « أترون هذه تلقى ولدها فى النار وهى تقدر على ذلك ؟ » قالوا : لا . قال : « فوالله ، لله أرحم بعباده من هذه بولدها » (٣) .

وقوله : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ : الظاهر أن المراد - والله أعلم - ﴿ تَحِيَّتُهُمْ ﴾ أى : من الله تعالى يوم يلقونه ﴿ سَلَامٌ ﴾ أى : يوم يسلم عليهم كما قال تعالى : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾ [يس : ٥٨] .

وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيى (٤) بعضهم بعضا بالسلام ، يوم يلقون الله فى الدار الآخرة . واختاره ابن جرير .

قلت : وقد يستدل بقوله (٥) تعالى : ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس : ١٠] .

وقوله : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ (٦) يعنى : الجنة وما فيها من المآكل والمشارب ، والملابس المساكن ، والمناجى والملاذ والمناظر وما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٤٥) ودَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٤٨) .

قال الإمام أحمد : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا فُلَيْحُ بن سليمان ، عن هلال بن على (٧) ، عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت : أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة . قال : أجل ، والله إنه لموصوف فى التوراة بصفته فى القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ وحرزا للأمين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، لست بفظ (٨) ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر (٩) ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن لا إله إلا الله ، فيفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا .

(١) فى أ : « لا والله » .

(٢) المسند (١٠٤/٣) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٩٩٩) .

(٤) فى ت : « يحيون » . (٥) فى ت ، ف ، أ : « وقد يستدل له بقوله » . (٦) فى ت : « عظيما » وهو خطأ

(٧) فى ت : « روى الإمام أحمد بإسناده » .

(٨) فى ت : « لا بفظ » ، وفى أ : « لا فظ » .

(٩) فى ف : « يعفو ويصفح ويغفر » .

وقد رواه البخارى فى « البيوع » عن محمد بن سنان ، عن فُلَيْح بن سليمان ، عن هلال بن على به . ورواه فى التفسير عن عبد الله - قيل : ابن رجاء ، وقيل : ابن صالح - عن عبد العزيز بن أبى سلمة ، عن هلال ، عن عطاء بن يسار ، عن عبد الله بن عمرو ، به ^(١) . ورواه ابن أبى حاتم ، عن أبيه ، عن عبد الله بن رجاء ، عن عبد العزيز بن أبى سلمة الماجشون ، به .

وقال البخارى فى البيوع : وقال سعيد ، عن هلال ، عن عطاء ، عن عبد الله بن سلام .

وقال وهب بن منبه : إن الله أوحى إلى نبي من أنبياء بنى إسرائيل - يقال له : شعيب - : أن قم فى قومك بنى إسرائيل ، فإننى منطق لسانك بوحى وأبعث أميا من الأميين ، أبعثه [مبشراً] ^(٢) ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه ، من سكينته ، ولو يمشى على القصب لم يسمع من تحت قدميه ، أبعثه مبشرا ونذيرا ، لا يقول الخنا ، أفتح به أعينا كُمها ^(٣) ، وأذانا صما ، وقلوبا غلفا ، أسدده لكل أمر جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة منطقته ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والحق شريعته ، والعدل سيرته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملته ، وأحمد اسمه ، أهدى به بعد الضلالة ، وأعلم به بعد الجهالة ، وأرفع به بعد الحُمالة ، وأعرف به بعد النُكُرة ، وأكثر به بعد القلة ، وأغنى به بعد العيلة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف به بين أمم متفرقة ، وقلوب مختلفة ، وأهواء متشتتة ، وأستنقذ به فثما من الناس عظيمة ^(٤) من الهلكة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، موحدون مؤمنين مخلصين ، مصدقين لما جاءت به رسلى ^(٥) : ألهمهم التسييح والتحميد ، والثناء والتكبير والتوحيد ، فى مساجدهم ومجالسهم ، ومضاجعهم ومنقلبهم ومثاهم ، يصلون لى قياما وقعودا ، ويقاثلون فى سبيل الله ^(٦) صفوفًا وزُحُوفًا ، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضاتى ألُوفًا ، يطهرون الوجوه والأطراف ، ويشدون الثياب فى الأنصاف ، قربانهم دماؤهم ، وأناجيلهم فى صدورهم ، رهبان بالليل ليوث بالنهار ، وأجعل فى أهل بيته وذريته السابقين ، والصديقين والشهداء والصالحين ، أمته من بعده يهدون بالحق وبه يعدلون ، أعز من نصرهم ، وأؤيد من دعا لهم ، وأجعل دائرة السوء على من خالفهم أو بغى عليهم ، أو أراد أن ينتزع شيئا مما فى أيديهم . أجعلهم ورثة لنبيهم ، والداعية إلى ربهم ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ويوفون بعهدهم ، أختم بهم الخير الذى بدأته بأولهم ، ذلك فضلى أوتيته من أشاء ، وأنا ذو الفضل العظيم .

هكذا رواه ابن أبى حاتم ، عن وهب بن منبه اليماني ، رحمه الله .

ثم قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الرحمن بن صالح ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد

(١) المسند (١٧٤/٢) وصحيح البخارى برقم (٢١٢٥) ورقم (٤٨٣٨) .

(٢) فى ت : « عظيم » .

(٣) فى ت : « أعينا عميا كمها » .

(٤) فى أ : « فى سبيلي » .

(٥) فى ت : « الرسل » .

ابن عبيد الله العرزمي^(١)، عن شيبان النحوي، أخبرني قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس^(٢) قال: لما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ - وقد كان أمر عليا ومعاذا أن يسيرا إلى اليمن - فقال: «انطلقا فبشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، إنه قد أنزل على: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾».

ورواه الطبراني عن محمد بن نصر بن حميد البزاز البغدادي، عن عبد الرحمن بن صالح الأزدي، عن عبد الرحمن [بن محمد]^(٣) بن عبيد الله العرزمي، بإسناده مثله^(٤). وقال في آخره: «فإنه قد أنزل^(٥) على: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً على أمتك ومبشراً بالجنة، ونذيراً من النار، وداعياً إلى شهادة أن لا إله إلا الله بإذنه، وسراجاً منيراً بالقرآن».

وقوله: ﴿شَاهِدًا﴾ أى: لله بالوحدانية، وأنه لا إله غيره، وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة، ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾. كقوله: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقوله: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أى: بشيراً للمؤمنين بجزيل الثواب، ونذيراً للكافرين من وبيل العقاب.

وقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ أى: داعياً للخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك، ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ أى: وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق، كالشمس فى إشراقها وإضاءتها، لا يجحدها إلا معاند.

وقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ أى: لا تطعهم ولا [لا]^(٧) تسمع منهم فى الذى يقولونه^(٨) ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾، أى: اصفح وتجاوز عنهم، وكل أمرهم إلى الله، فإن فيه كفاية لهم؛ ولهذا قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (٤٩).

هذه الآية الكريمة فيها أحكام^(٩) كثيرة. منها: إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس فى القرآن آية أصرح فى ذلك منها، وقد اختلفوا فى النكاح: هل هو حقيقة فى العقد وحده، أو فى الوطء، أو فيهما؟ على ثلاثة أقوال، واستعمال القرآن إنما هو فى العقد والوطء بعده، إلا فى هذه الآية فإنه استعمل فى العقد وحده؛ لقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾. وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها.

(١) فى ١: «عبد الله القرشى».

(٢) فى ت: «ثم روى ابن أبى حاتم بإسناده إلى ابن عباس».

(٤) المعجم الكبير (٣١٢/١١) وقال الهيثمى فى المجمع (٩٢/٧): «وفيه عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله العرزمي وهو ضعيف».

(٥) فى ت، أ: «أنزلت».

(٦) زيادة من ت، ف، أ.

(٧) زيادة من ت.

(٨) فى ت: «الذين يتولونهم».

(٩) فى ت «اشتملت على أحكام».

(١٠) فى ت: «نكحتموا».

وقوله: ﴿الْمُؤْمِنَاتُ﴾: خرج مخرج الغالب؛ إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في ذلك بالاتفاق. وقد استدل ابن عباس، وسعيد بن المسيب، والحسن البصري، وعلى بن الحسين، زين العابدين، وجماعة من السلف بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ (١) الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾، فعقب النكاح بالطلاق، فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله. وهذا مذهب الشافعي، وأحمد بن حنبل، وطائفة كثيرة من السلف والخلف، رحمهم الله تعالى.

وذهب مالك وأبو حنيفة، رحمهما الله، إلى صحة الطلاق قبل النكاح؛ فيما إذا قال: «إن تزوجت فلانة فهي طالق»: فعندهما متى تزوجها طلقت منه. واختلفا فيما إذا قال: «كل امرأة أتزوجها فهي طالق». فقال مالك: لا تطلق حتى يعين المرأة. وقال أبو حنيفة، رحمه الله: كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه، فأما الجمهور فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور المروزي، حدثنا النضر بن شميل، حدثنا يونس - يعني: ابن أبي إسحاق - سمعت آدم مولى خالد، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: [إذا قال] (٢): «كل امرأة أتزوجها فهي طالق»، قال: ليس بشيء من أجل أن الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ الآية.

وحدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا وكيع، عن مطر، عن الحسن بن مسلم بن يثاق (٣)، عن ابن عباس قال: إنما قال الله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾، ألا ترى أن الطلاق بعد النكاح؟!

وهكذا روى محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال الله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ فلا طلاق [قبل النكاح] (٤).

وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك». رواه الإمام أحمد والترمذي، وأبو داود، وابن ماجه (٥). وقال الترمذي: «هذا حديث حسن». وهو أحسن شيء روى في هذا الباب. وهكذا روى ابن ماجه عن علي، والمسور بن مخرمة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا طلاق قبل نكاح» (٦). [وفي الآية دليل على أن الميسس مطلق، ويراد به الوطاء] (٧).

(٢) زيادة من ت.

(١) في ت: «نكحتموا».

(٤) زيادة من ف، أ.

(٣) في ت: «وروى أيضا بإسناده».

(٥) المسند (١٨٩/٢) وسنن الترمذي برقم (١١٨١) وسنن أبي داود برقم (٢١٩١) وسنن ابن ماجه برقم (٢٠٤٧).

(٦) سنن ابن ماجه برقم (٢٠٤٨) من طريق علي بن الحسين، عن هشام بن سعد، عن الزهري، عن عروة، عن المسور، به. وقال البوصيري في الزوائد (١٣٢/٢): «هذا إسناده حسن، علي بن الحسين وهشام بن سعد مختلف فيهما». وبرقم (٢٠٤٩) من طريق جوير، عن الضحاك، عن النزال بن سبرة، عن علي، به. وقال البوصيري في الزوائد (١٣٢/٢): «هذا إسناده ضعيف لاتفاقهم على ضعف جوير بن سعيد البجلي، لكن لم ينفرد به جوير، فقد رواه البيهقي في الكبرى (٣٢٠/٧) من طريق معاذ الغنيري، عن حميد الطويل، عن الحسن بن علي، به، ثم رواه من طريق سعيد بن جوير به موقوفا من الطريقين معاً».

(٧) زيادة من ت.

وقوله (١): ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا﴾: هذا أمر مجمع عليه بين العلماء: أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها فتذهب فتتزوج في فورها من (٢) شاءت، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها، فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشراً، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضاً.

وقوله: ﴿فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَحوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾: المتعة هاهنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى، أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمي لها، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. وقال: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفَرِّضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

وفى صحيح البخارى، عن سهل بن سعد وأبى أسيد؛ أن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شراحيل، فلما أدخلت (٣) عليه بسط يده إليها، فكانها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقين (٤).

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، رضى الله عنهما: إن كان سمي لها صداقاً، فليس لها إلا النصف، وإن لم يكن سمي لها صداقاً فأمتعها على قدر عسره ويسره، وهو السراح الجميل.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عُمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠)﴾.

يقول تعالى مخاطباً نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهرهن، وهى الأجور هاهنا. كما قاله مجاهد وغير واحد، وقد كان مهره لنسائه اثنتى (٥) عشرة أوقية ونشاً وهو نصف (٦) أوقية، فالجميع خمسمائة درهم، إلا أم حبيبة بنت أبى سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشى، رحمه الله، أربعمائة دينار، وإلا صفية بنت حنظل فإنه اصطفاها من سبى خيبر، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها. وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية، أدى عنها كتابتها إلى ثابت ابن قيس بن شماس وتزوجها، رضى الله عن جميعهن (٧).

(١) فى هـ: «وقال». (٢) فى ت: «فى فورها متى»، وفى أ: «فى قرنها من».

(٣) فى ت: «فلما دخلت» وفى ف، أ: «فلما أن دخلت».

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٢٥٦، ٥٢٥٧).

(٥) فى ت: «ثنتى». (٦) فى ت: «والنش النصف».

(٧) فى ت: «رضى الله عنهن أجمعين».

وقوله : ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أى : وأباح لك الترسى مما أخذت من المغنم^(١) ، وقد ملك صفية وجويرية فأعتقتهما وتزوجهما . وملك ريحانة بنت شمعون النضرية ، ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم ، عليه السلام ، وكانتا من السرارى ، رضى الله عنهما .

وقوله : ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّائِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ : هذا عدل وسط بين الإفراط والتفريط ؛ فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعدا ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته ، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى ، فأباح بنت العم والعمة ، وبنت الخال والخالة ، وتحريم^(٢) ما قرطت^(٣) فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت ، وهذا بشع^(٤) فظيع .

وإنما قال : ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ﴾ فَوَحَّدَ لفظ الذكر لشرفه ، وجمع الإناث لنقصهن كقوله : ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [النحل : ٤٨] ، ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة : ٢٥٧] ، ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام : ١] ، وله نظائر كثيرة .
وقوله : ﴿اللَّائِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ : قال ابن أبى حاتم ، رحمه الله :

حدثنا محمد بن عمار بن^(٥) الحارث الرازى ، حدثنا عبيد الله^(٦) بن موسى ، حدثنا إسرائيل ، عن السدى ، عن أبى صالح^(٧) ، عن أم هانئ قالت : خطبنى رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه بعذرى ، ثم أنزل الله : ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّائِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾ إلى قوله : ﴿اللَّائِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ قالت : فلم أكن أحل له ، ولم أكن ممن هاجر معه ، كنت من الطلقاء .

ورواه ابن جرير عن أبى كريب ، عن عبيد الله بن موسى ، به^(٨) .

ثم رواه ابن أبى حاتم من حديث إسماعيل بن أبى خالد ، عن أبى صالح ، عنها بنحوه .

ورواه الترمذى فى جامعه^(٩) . وهكذا قال أبو رزین وقتادة : إن المراد : من هاجر معه إلى المدينة . وفى رواية عن قتادة : ﴿اللَّائِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أى : أسلمن . وقال الضحاك : قرأ ابن مسعود : «وَاللَّائِي هَاجَرْنَ مَعَكَ» .

وقوله : ﴿وَأَمْرًا مُّؤَمَّنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ أى : ويحل لك - يأيها النبى - المرأة المؤمنة إذا وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك . وهذه الآية توالى فيها شرطان ، كقوله تعالى إخباراً عن نوح ، عليه السلام ، أنه قال لقومه : ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود : ٣٤] ، وكقول موسى : ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ

(١) فى أ : « الغنائم » . (٢) فى أ : « وحرم » . (٣) فى ت : « ما حرموا » .

(٤) فى ف ، أ : « شنيع » . (٥) فى أ : « و » . (٦) فى أ : « عبد الله » .

(٧) فى ت : « روى ابن أبى حاتم بإسناده » .

(٨) تفسير الطبرى (١٥/٢٢) .

(٩) سنن الترمذى برقم (٣٢١٤) وقال : « هذا حديث حسن صحيح لا أعرفه إلا من هذا الوجه من حديث السدى » .

فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ [يونس : ٨٤] . وقال هاهنا : ﴿وَأَمْرًا مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَكِحَّهَا﴾ ، وقد قال الإمام أحمد (١) :

حدثنا إسحاق ، أخبرنا مالك ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد الساعدي ؛ أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت : يا رسول الله ، إني قد وهبت نفسي لك . فقامت قياما طويلا ، فقام رجل فقال : يا رسول الله ، زوّجنيها إن لم يكن لك بها حاجة . فقال رسول الله ﷺ : « هل عندك من شيء تُصدقها إياه ؟ » فقال : ما عندي إلا إزارى هذا . فقال رسول الله ﷺ : « إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك ، فالتمس شيئا » . فقال : لا أجد شيئا . فقال : « التمس ولو خاتما من حديد » فالتمس فلم يجد شيئا ، فقال له النبي ﷺ : « هل معك من القرآن شيء ؟ » قال : نعم ؛ سورة كذا ، وسورة كذا - لسور يسميها - فقال له رسول الله ﷺ : « زوجتكها بما معك من القرآن » .
أخرجاه من حديث مالك (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان (٣) ، حدثنا مرحوم ، سمعت ثابتا يقول (٤) : كنت مع أنس جالسا وعنده ابنة له ، فقال أنس : جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت : يا نبي الله ، هل لك في حاجة ؟ فقالت ابنته : ما كان أقل حياءها . فقال : « هي خير منك ، رغبت في النبي ، فعرضت عليه نفسها » .
انفرد بإخراجه البخاري ، من حديث مرحوم بن عبد العزيز [العتار] (٥) ، عن ثابت البناني ، عن أنس ، به (٦) .

وقال (٧) أحمد أيضا : حدثنا عبد الله بن بكر ، حدثنا سنان بن ربيعة ، عن الحضرمي ، عن أنس ابن مالك : أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ، ابنة لى كذا وكذا . فذكرت من حسناتها وجمالها ، فأثرتك بها . فقال : « قد قبلتها » . فلم تزل تمدحها حتى ذكرت أنها لم تصدع ولم تشك شيئا قط ، فقال : « لا حاجة لى في ابتك » . لم يخرجوه (٨) .

وقال (٩) ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا منصور بن أبي مزاحم ، حدثنا ابن أبي الوضاح - يعنى : محمد بن مسلم - عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : التى وهبت نفسها للنبي ﷺ خولة بنت حكيم (١٠) .

وقال ابن وهب ، عن سعيد بن عبد الرحمن وابن أبي الزناد ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه : أن خولة بنت حكيم بن الأوقص ، من بنى سليم ، كانت من اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ (١١) .
وفى رواية له عن سعيد بن عبد الرحمن ، عن هشام ، عن أبيه : كنا نتحدث أن خولة بنت حكيم

(١) فى ت : « وقد روى البخارى ومسلم » .

(٢) المسند (٣٣٦/٥) وصحيح البخارى برقم (٥١٣٥) وصحيح مسلم برقم (١٤٢٥) ولكنه عند مسلم من طريق يعقوب وعبد العزيز بن أبى حازم وسفيان بن عيينة والدراوردى وزائدة كلهم عن أبى حازم بنحوه .

(٣) فى أ : « عثمان » . (٤) فى ت : « وروى البخارى أن ثابتا قال » . (٥) زيادة من أ .

(٦) المسند (٢٦٨/٣) وصحيح البخارى برقم (٥١٢٠) .

(٧) فى ت : « وروى » .

(٨) المسند (١٥٥/٣) .

(٩) فى ت : « وروى » .

(١٠) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٥٥/٧) من طريق منصور بن أبى مزاحم ، به .

(١١) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٣/٢٢) .

كانت وهبت نفسها لرسول الله ﷺ ، وكانت امرأة سالحة (١) .

فيحتمل أن أم سليم هي خولة بنت حكيم ، أو هي امرأة أخرى .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي ، حدثنا وكيع ، حدثنا موسى بن عبيدة ، عن محمد بن كعب ، وعمر بن الحكم ، وعبد الله بن عبيدة قالوا : تزوج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة امرأة ، ست من قريش ، خديجة ، وعائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة . وثلاث من بني عامر بن صعصعة ، وامرأتان من بني هلال بن عامر : ميمونة بنت الحارث ، وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ ، وزينب أم المساكين - امرأة من بني أبي بكر بن كلاب من القرطاء - وهي التي اختارت الدنيا ، وامرأة من بني الجون ، وهي التي استعادت منه ، وزينب بنت جحش الأسدية ، والسبيتان صفية بنت حيي بن أخطب ، وجويرية بنت الحارث بن عمرو بن المصطلق الخزاعية (٢) .

وقال سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن ابن عباس : ﴿ وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ قال : هي ميمونة بنت الحارث .

فيه انقطاع : هذا مرسل ، والمشهور أن زينب التي كانت تدعى أم المساكين هي زينب بنت خزيمة الأنصارية ، وقد ماتت عند النبي ﷺ في حياته ، فالله أعلم .

والغرض من هذا أن اللاتي وهبن أنفسهن من النبي ﷺ كثير ، كما قال (٣) البخاري ، حدثنا زكريا ابن يحيى ، حدثنا أبو أسامة قال : هشام بن عروة حدثنا عن أبيه ، عن عائشة قالت : كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن من النبي ﷺ وأقول : أتهد امرأة (٤) نفسها ؟ فلما أنزل الله : ﴿ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمِنْ ابْتِغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ قلت : ما أرى ربك إلا يسارع في هواك (٥) .

وقد قال (٦) ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا محمد بن منصور الجعفي ، حدثنا يونس ابن بكير ، عن عنبسة بن الأزهر ، عن سمالك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له .

ورواه ابن جرير عن أبي كريب ، عن يونس بن بكير (٧) . أى : إنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له ، وإن كان ذلك مباحاً له ومخصوصاً به ؛ لأنه مردود إلى مشيئته ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَكِحَّهَا ﴾ أى : إن اختار ذلك .

(١) رواه الطبري في تفسيره (٢٢/٢٣) .

(٢) ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (٥/٢٧٠) من طريق وكيع بلفظ : « تزوج رسول الله ﷺ امرأة من بني الجون فطلقها وهي التي استعادت منه » .

(٣) في ت : « كما روى » . (٤) في ت ، أ : « المرأة » .

(٥) صحيح البخاري برقم (٤٧٨٨) .

(٦) في ت : « وروى » .

(٧) تفسير الطبري (٢٢/١٧) .

وقوله: ﴿خَالِصَةً لِّكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال عكرمة: أى لا تحل الموهوبة لغيرك ، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئاً . وكذا قال مجاهد والشعبي وغيرهما .

أى :إنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل ، فإنه متى دخل بها وجب لها عليه مهر مثلها ، كما حكم به رسول الله ﷺ فى بَرُوع^(١) بنت واشق لما فوضت ، فحكم لها رسول الله ﷺ بصدّاق مثلها لما توفى عنها زوجها ، والموت والدخول سواء فى تقرير^(٢) المهر وثبوت مهر المثل فى المفوضة لغير النّبي ﷺ ، فأما هو ، عليه السلام ، فإنه لا يجب عليه للمفوضة شيء ولو دخل بها ؛ لأن له أن يتزوج بغير صدّاق ولا ولي ولا شهود ، كما فى قصة زينب بنت جحش ، رضى الله عنها . ولهذا قال قتادة فى قوله: ﴿خَالِصَةً لِّكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، يقول : ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولى ولا مهر إلا للنّبي ﷺ .

[وقوله تعالى : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾]^(٣) : قال أبى بن كعب ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة وابن جرير فى قوله : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ أى : من حَصَرِهِمْ فى أربع نسوة حرائر وما شاؤوا^(٤) من الإماء ، واشترط الولى والمهر والشهود عليهم ، وهم الأمة ، وقد رخصنا لك فى ذلك ، فلم نوجب عليك شيئاً منه ؛ ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ .

﴿ تَرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَن ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ٥١ ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن بشر^(٥) ، حدثنا هشام بن عروة ، عن أبيه^(٦) ، عن عائشة ، رضى الله عنها ؛ أنها كانت تُعَيَّرُ^(٧) النساء اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ ، قالت : ألا تستحى المرأة أن تعرض نفسها بغير صدّاق ؟ فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ تَرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَن ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ ، قالت : إني أرى ربك يسارع لك فى هواك^(٨) .

وقد تقدم أن البخارى رواه من حديث أبى أسامة ، عن هشام بن عروة ، فدل هذا على أن المراد بقوله : ﴿ تَرْجِي ﴾ أى : تؤخر ﴿ مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ ﴾ أى : من الواهبات [أنفسهن]^(٩) ﴿ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ﴾ أى : من شئت قبلتها ، ومن شئت رددتها ، ومن رددتها فأنت فيها أيضاً بالخيار بعد ذلك ، إن

(١) فى أ : « تزويج » . (٢) فى ت : « تقدير » .

(٣) زيادة من ت ، أ . (٤) فى ت : « وما يشاء » . (٥) فى أ : « بشير » .

(٦) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » .

(٧) فى ف : « تغير من النساء » وفى أ : « تغير النساء » .

(٨) المسند (٦/١٥٨) .

(٩) زيادة من ت .

شئت عُدْتُ فِيهَا فَأَوَيْتَهَا ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ . قال عامر الشعبي في قوله : ﴿ تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ : كن نساء وهبن أنفسهن للنبي ﷺ فدخل ببعضهن وأرجأ بعضهن لم يُنكحن بعده ، منهن أم شريك .

وقال آخرون : بل المراد بقوله : ﴿ تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ أى : من أزواجك ، لا حرج عليك أن تترك القسمَ لهن ، فتقدم من شئت ، وتؤخر من شئت ، وتجمع من شئت ، وتترك من شئت .

هكذا يروى عن ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وأبى رزين ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهم ، ومع هذا كان ، صلوات الله وسلامه عليه ، يقسم لهن ؛ ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجباً عليه ، صلوات الله وسلامه عليه ، واحتجوا بهذه الآية الكريمة .

وقال (١) البخارى : حدثنا حبان بن موسى ، حدثنا عبد الله - هو ابن المبارك - أخبرنا عاصم الأحول ، عن مُعَاذَةَ (٢) عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يستأذن في يوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية : ﴿ تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ ، فقلت لها : ما كنت تقولين ؟ فقالت : كنت أقول : إن كان ذاك إلىَّ فإنى لا أريد يا رسول الله أن أوتر عليك أحداً (٣) .

فهذا الحديث عنها يدل على أن المراد من (٤) ذلك عدم وجوب القسم ، وحديثها الأول يقتضى أن الآية نزلت فى الواهبات ، ومن هاهنا اختار ابن جرير أن الآية عامة فى الواهبات وفى النساء اللاتى عنده ، أنه مخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم . وهذا الذى اختاره حسن جيد قوى ، وفيه جمع بين الأحاديث ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَأَ عَيْنُهُنَّ وَلَا يُحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾ أى : إذا علمن أن الله قد وضع عنك (٥) الحرج فى القسم ، فإن شئت قسمت ، وإن شئت لم تقسم ، لا جناح عليك فى أى ذلك فعلت ، ثم مع هذا أنت تقسم لهن اختياراً منك لا أنه على سبيل الوجوب ، فرحن بذلك واستبشرون به وحملن جميلك فى ذلك ، واعترفن بمبتك (٦) عليهن فى قسمك لهن وتسويتك بينهن وإنصافك لهن وعدلك فيهن .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أى : من الميل إلى بعضهن دون بعض ، مما لا يمكن دفعه ، كما قال (٧) الإمام أحمد :

حدثنا يزيد ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن أيوب ، عن أبى قلابة ، عن عبد الله بن يزيد ، عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول : « اللهم هذا فعلى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » .

(٢) فى أ : « معاذ » .

(١) فى ت : « وروى » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٩) .

(٤) فى أ : « فى » .

(٥) فى أ : « عليك » .

(٦) فى أ : « بأمانتك » .

(٧) فى ت : « كما روى » .

ورواه أهل السنن الأربعة ، من حديث حماد بن سلمة (١) - وزاد أبو داود بعد قوله : فلا تلمني (٢) فيما تملك ولا أملك : يعنى القلب . وإسناده صحيح ، ورجاله كلهم ثقات . ولهذا عقب ذلك بقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ أى : بضمائر السرائر ، ﴿ حَلِيمًا ﴾ أى : يحلم ويغفر .

﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النَّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ۝٥٢ ﴾ .

ذكر غير واحد من العلماء - كابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وابن زيد ، وابن جرير ، وغيرهم - أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ ورضاً عنهن ، على حسن صنعتهن فى اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة ، لما خيرهن رسول الله ﷺ ، كما تقدم فى الآية . فلما اخترن رسول الله ﷺ ، كان جزاؤهن أن [الله] (٣) قَصَرَهُ عليهن ، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن ، أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن ، ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء والسراى فلا حرج عليه فيهن . ثم إنه تعالى رفع عنه الحجر (٤) فى ذلك ونسخ حكم هذه الآية ، وأباح له التزوج (٥) ، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تَزَوُّجٌ لتكون المنة للرسول (٦) ﷺ عليهن .

قال (٧) الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن عطاء ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء (٨) .

ورواه أيضاً من حديث ابن جريج ، عن عطاء ، عن عبيد بن عمير (٩) ، عن عائشة . ورواه الترمذى والنسائى فى سننهما (١٠) .

وقال (١١) ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَةَ ، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الملك بن شيبه ، حدثنى عمر بن أبى بكر ، حدثنى المغيرة بن عبد الرحمن الحزامى (١٢) ، عن أبى النضر مولى عمر بن عبيد الله (١٣) ، عن عبد الله بن وهب بن زَمْعَةَ ، عن أم سلمة أنها قالت : لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء ، إلا ذات محرم ، وذلك قول الله ، عز وجل : ﴿ تَرْجِي مِنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءُ ﴾ .

فجعلت هذه ناسخة للتى بعدها فى التلاوة ، كآيتى عدة الوفاة فى البقرة ، الأولى ناسخة للتى بعدها ، والله (١٤) أعلم .

(١) المسند (١٤٤/٦) وسنن أبى داود برقم (٢١٣٤) وسنن الترمذى برقم (١١٤٠) وسنن النسائى (٦٣/٧) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٧١) .

(٢) فى أ : « فلا تلمنى » . (٣) زيادة من ت ، أ . (٤) فى ت : « الحرج » .

(٥) فى أ : « التزوج » . (٦) فى ف : « لرسول الله » . (٧) فى ت : « روى » .

(٨) المسند (٤١/٦) .

(٩) فى أ : « عن عمير بن عبيد » .

(١٠) المسند (١٨٠/٦) وسنن الترمذى برقم (٣٢١٦) وسنن النسائى (٥٦/٦) .

(١١) فى ت : « وروى » . (١٢) فى أ : « الحزامى » . (١٣) فى أ : « عبد الله » .

(١٤) فى ت : « فالله » .

وقال آخرون: بل معنى الآية: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ أى: من بعد ما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتي أحللنا لك من نسائك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك، وبنات العم والعمات (١) والخال والخالات (٢) والواهة وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك. هذا مروى عن أبي بن كعب، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك - فى رواية - وأبى رزین - فى رواية عنه - وأبى صالح، والحسن، وقتادة - فى رواية - والسدى، وغيرهم .

قال ابن جرير : حدثنا يعقوب ، حدثنا ابن عُلَیَّةَ ، عن داود بن أبى هند ، حدثنى محمد بن أبى موسى ، عن زياد - رجل من الأنصار (٣) - قال : قلت لأبى بن كعب : أرأيت لو أن أزواج النبى ﷺ تُوفين ، أما كان له أن يتزوج ؟ فقال : وما يمنعه من ذلك ؟ قال : قلت : قوله : ﴿لَا تَحِلُّ (٤) لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ . فقال : إنما أحل الله له ضرباً من النساء ، فقال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ إلى قوله : ﴿إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ ثم قيل له : ﴿لَا تَحِلُّ (٥) لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ .

ورواه عبد الله بن أحمد بن طارق ، عن داود ، به (٦) . وروى الترمذى ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، قال : نهى رسول الله ﷺ عن أصناف النساء ، إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات بقوله : ﴿لَا تَحِلُّ (٧) لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ ، فأحل الله فتياتكم المؤمنات ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ ، وحرم كل ذات دين غير الإسلام ، ثم قال : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وقال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ (٨)﴾ إلى قوله : ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، وحرم ما سوى ذلك من أصناف النساء (٩) .

وقال مجاهد : ﴿لَا تَحِلُّ (١٠) لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ أى : من بعد ما سمي لك ، لا (١١) مسلمة ولا يهودية ولا نصرانية ولا كافرة .

وقال أبو صالح : ﴿لَا تَحِلُّ (١٢) لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ : أمر ألا يتزوج أعرابية ولا غريبة (١٣) ، ويتزوج بعد من نساء تهامة ، وما شاء من بنات العم والعمة ، والخال والخالة ، إن شاء ثلاثمائة .

وقال عكرمة : ﴿لَا تَحِلُّ (١٤) لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ أى : التى سمي الله .

(١) فى ت : « وبنات العمات » .

(٢) فى أ : « الخالة » .

(٣) فى ت : « فروى ابن جرير بإسناده عن رجل من الأنصار » .

(٤) ، (٥) فى ت ، أ : « لا يحل » .

(٦) تفسير الطبرى (٢٢/٢١) وزوائد المسند (٥/١٣٢) .

(٧) فى أ : « لا يحل » .

(٨) بعدها فى أ : « مما آفاه الله عليك » .

(٩) سنن الترمذى برقم (٣٢١٥) وقال : « هذا حديث حسن إنما نعرفه من حديث عبد الحميد بن بهرام ، قال : سمعت أحمد بن الحسن يقول : قال أحمد بن حنبل : لا بأس بحديث عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب » .

(١٠) فى أ : « لا يحل » .

(١١) فى أ : « لا يحل » .

(١٢) فى أ : « لا يحل » .

(١٣) فى أ : « لا يحل » .

(١٤) فى أ : « لا يحل » .

(١٤) فى أ : « لا يحل » .

واختار ابن جرير ، رحمه الله ، أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء ، وفي النساء اللواتي في عصمته وكن تسعاً . وهذا الذي قاله جيد ، ولعله مراد كثير من حكينا عنه من السلف ؛ فإن كثيراً منهم روى عنه هذا وهذا ، ولا منافاة ، والله أعلم .

ثم أورد ابن جرير على نفسه ما روى أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها ، وعزم على فراق سودة حتى وهبته يومها لعائشة ، ثم أجاب بأن هذا كان قبل نزول قوله : ﴿ لَا تَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ ، وهذا الذي قاله من أن هذا كان قبل نزول الآية صحيح ، ولكن لا يحتاج إلى ذلك ؛ فإن الآية إنما دلت على أنه لا يتزوج بمن عدا اللواتي في عصمته ، وأنه لا يستبدل بهن غيرهن ، ولا يدل ذلك على أنه لا يطلق واحدة منهن من غير استبدال ، والله أعلم .

فأما قضية سودة ففي الصحيح عن عائشة ، رضى الله عنها ، وهى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا [وَالصُّلْحُ خَيْرٌ] ﴾ (١) الآية [النساء : ١٢٨] (٢) .

وأما قضية (٣) حفصة فروى أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه ، من طرق عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة ، عن صالح بن صالح بن حى (٤) عن سلمة بن كهيل ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن عمر ؛ أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها . وهذا إسناد (٥) قوى (٦) .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو كريب ، حدثنا يونس بن بكير ، عن الأعمش ، عن أبي صالح (٧) ، عن ابن عمر قال : دخل عمر على حفصة وهى تبكى ، فقال : ما يبكيك ؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك ؟ إنه قد كان طلقك مرة ثم راجعك من أجلى ؛ والله لئن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبداً . ورجاله على شرط الصحيحين (٨) .

وقوله : ﴿ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ ، فنهاه عن الزيادة عليهن ، أو طلاق واحدة منهن واستبدال غيرها بها إلا ما ملكت يمينه (٩) .

وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً مناسباً ذكره هاهنا ، فقال :

حدثنا إبراهيم بن نصر ، حدثنا مالك بن إسماعيل ، حدثنا عبد السلام بن حرب ، عن إسحاق بن عبد الله (١٠) القرشى ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار (١١) ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ،

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) انظر تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية : ١٢٨ من سورة النساء .

(٣) فى ت : « قصة » . (٤) فى أ : « يحيى » . (٥) فى ت : « إسناده » .

(٦) سنن أبى داود برقم (٢٢٨٣) وسنن النسائي (٢١٣/٦) وسنن ابن ماجه برقم (٢٠١٦) .

(٧) فى ت : « وروى الإمام الحافظ أبو يعلى بسنده » .

(٨) مسند أبى يعلى (١/ ١٦٠) .

(٩) فى أ : « يمينك » . (١٠) فى أ : « عبيد الله » .

(١١) فى ت : « وروى البزار بإسناده » .

قال : كان البدلُ في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل : بادلني امرأتك وأبادلك بامرأتى . أي: تنزل لى عن امرأتك ، وأنزل لك عن امرأتى . فأنزل الله: ﴿ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَيْنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ قال: فدخل عينة بن حصن (١) على النبي ﷺ ، وعنده عائشة ، فدخل بغير إذن ، فقال له رسول الله ﷺ : « فأين الاستئذان ؟ » فقال يا رسول الله ، ما استأذنت على رجل من مُضَرٍّ منذ أدركت . ثم قال : من هذه الحميراء إلى جنبك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هذه عائشة أم المؤمنين » . قال : أفلا أنزل لك على أحسن الخلق (٢) ؟ قال : « يا عينة إن الله قد حرم ذلك » . فلما أن خرج قالت عائشة : من هذا ؟ قال : هذا أحرق مطاع ، وإنه على ما ترين لسيد قومه .

ثم قال البزار إسحاق (٣) بن عبد الله : لين الحديث جداً ، وإنما ذكرناه لأننا لم نحفظه إلا من هذا الوجه ، وبيننا العلة فيه (٤) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَاطِرِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَنْسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تَخَفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤) ﴾

هذه آية الحجاب ، وفيها أحكام وآداب شرعية ، وهى مما وافق تنزيلها قول (٥) عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، كما ثبت ذلك فى الصحيحين عنه أنه قال : وافقت ربي فى ثلاث ، فقلت : يا رسول الله ، لو اتخذت من مقام إبراهيم صلى ؟ فأنزل الله : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : ١٢٥] . وقلت : يا رسول الله ، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو حجبتهم ؟ فأنزل الله آية الحجاب . وقلت لأزواج النبي ﷺ لما تمالأن عليه فى الغيرة : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُمْ ﴾ [التحریم : ٥] ، فنزلت كذلك (٦) .

وفى رواية لمسلم ذكر أسارى بدر ، وهى قضية رابعة .

وقد قال (٧) البخارى : حدثنا مُسَدَّدٌ ، عن يحيى ، عن حميد ، عن أنس بن مالك قال : قال عمر بن

(١) فى أ : « عينة الفزاري » .

(٢) فى ت : « قال أنزل لى عنها وأنا أنزل لك عن أحسن الخلق » ، وفى أ : « قال أنزل لك عن أحسن الخلق » .

(٣) فى ت : « ثم قال البزار : فى إسناده إسحاق » .

(٤) مسند البزار برقم (٢٢٥١) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (٩٢/٧) : « وفيه إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة وهو متروك » .

(٥) فى ت : « لقول » .

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٠٢) .

(٧) فى ت : « وروى » .

الخطاب : يا رسول الله ، يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ؟ فأنزل الله آية الحجاب (١) .

وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزینب بنت جحش ، التي تولى الله تعالى تزويجها بنفسه ، وكان ذلك في ذى القعدة من السنة الخامسة ، في قول قتادة والواقدي وغيرهما .

وزعم أبو عبيدة معمر بن المثنى ، وخليفة بن خياط : أن ذلك كان في سنة ثلاث ، فالله أعلم .

قال (٢) البخارى : حدثنا محمد بن عبد الله الرقاشى ، حدثنا معتمر بن سليمان ، سمعت أبى ، حدثنا أبو مجلز ، عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش ، دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون ، فإذا هو [كأنه] (٣) يتهاى (٤) للقيام فلم يقوموا . فلما رأى ذلك قام ، فلما قام [قام] (٥) من قام ، وقعد ثلاثة نفر . فجاء النبى ﷺ ليدخل ، فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا فانطلقت ، فجئت فاخبرت النبى ﷺ أنهم قد انطلقوا . فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخل ، فالتقى [الحجاب] (٦) بينى وبينه ، فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ الآية .

وقد رواه أيضاً في موضع آخر ، ومسلم والنسائى ، من طرق ، عن معتمر بن سليمان ، به (٧) . ثم رواه البخارى منفرداً به من حديث أيوب ، عن أبى قلابة ، عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، [بنحوه (٨)] . ثم قال (٩) : حدثنا أبو معمر ، حدثنا عبد الوارث ، حدثنا عبد العزيز بن صهيب ، عن أنس ابن مالك [(١٠)] قال : بنى [على] (١١) النبى ﷺ بزینب بنت جحش بخبز ولحم ، فأرسلت على الطعام داعياً ، فيجىء قوم فيأكلون ويخرجون ، ثم يجىء قوم فيأكلون ويخرجون . فدعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه ، فقلت : يا نبى الله ، ما أجد أحداً أدعوه . قال : « ارفعوا طعامكم » ، وبقي ثلاثة رهط يتحدثون فى البيت ، فخرج النبى ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة ، فقال : « السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته » . قالت : وعليك السلام ورحمة الله ، كيف وجدت أهلک ، بارک الله لك؟ فتقرى حجر نسائه كلهن ، يقول لهن كما يقول لعائشة ، ويقلن له كما قالت عائشة . ثم رجع رسول الله ﷺ (١٢) فإذا رهط ثلاثة [فى البيت] (١٣) يتحدثون . وكان النبى ﷺ شديد الحياء ، فخرج منطلقاً نحو حجرة عائشة ، فما أدري أخبرته أم أخبر أن القوم خرجوا ؟ فرجع حتى إذا وضع رجله فى أسكفة الباب داخله ، وأخرى خارجه ، أرخى الستر بينى وبينه ، وأنزلت آية الحجاب .

(١) صحيح مسلم برقم (٢٣٩٩) .

(٢) فى ت : « وروى » .

(٣) زيادة من ت ، ف ، أ ، والبخارى . (٤) فى ت : « تهاى » . (٥) (٦ ، ٥) زيادة من ت ، ف ، أ ، والبخارى .

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٧٩١) وبرقم (٦٢٣٩ ، ٦٢٧١) وصحيح مسلم برقم (١٤٢٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٢٠) .

(٨) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٢) .

(٩) فى ت : « قال البخارى » . (١٠) زيادة من ت ، ف ، أ .

(١١) زيادة من ت ، ف ، والبخارى ، وفى أ : « بنى الله على النبى » .

(١٢) فى ت : « النبى » .

(١٣) زيادة من ت ، ف ، أ ، والبخارى .

انفرد به البخارى من بين أصحاب الكتب [الستة] (١) ، سوى النسائي فى اليوم واللييلة ، من حديث عبد الوارث (٢) .

ثم رواه عن إسحاق - هو ابن منصور - عن عبد الله بن بكر (٣) السهمي ، عن حميد ، عن أنس ، بنحو ذلك (٤) ، وقال : « رجلان » انفرد به من هذا الوجه . وقد تقدم فى أفراد مسلم من حديث سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، عن أنس .

وقال ابن أبى حاتم (٥) : حدثنا أبى ، حدثنا أبو المظفر ، حدثنا جعفر بن سليمان ، عن الجعد - أبى عثمان اليشكري - عن أنس بن مالك قال : أعرس رسول الله ﷺ ببعض نسائه ، فصنعت أم سليم حيساً ثم وضعت (٦) فى تور ، فقالت : اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ ، وأقرئه منى السلام ، وأخبره أن هذا منا له قليل - قال أنس : والناس يومئذ فى جهد - فجئت به فقلت : يا رسول الله ، بعثت بهذا أم سليم إليك ، وهى تقرئك السلام ، وتقول : أخبره أن هذا منا له قليل ، فنظر إليه ثم قال : « ضعه » فوضعت فى ناحية البيت ، ثم قال : « اذهب فادع لى فلاناً وفلاناً » . وسمى رجلاً كثيراً ، وقال : « ومن لقيت من [المسلمين] . فدعوت من قال لى ، ومن لقيت من [(٧) المسلمين] ، فجئت والبيت والصفة والحجرة ملاءى من الناس - فقلت : يا أبا عثمان ، كم كانوا ؟ فقال : كانوا زهاء ثلاثمائة - قال أنس : فقال لى رسول الله ﷺ : « جئ به » . فجئت به إليه ، فوضع يده عليه ، ودعا وقال : « ما شاء الله » . ثم قال : « ليتحلقت عشرة عشرة ، وليسموا (٨) ، وليأكل كل إنسان مما يليه » . فجعلوا يسمون ويأكلون ، حتى أكلوا كلهم . فقال لى رسول الله ﷺ : « ارفعه » . قال : فجئت فأخذت التور فما أدري أهو حين وضعت أكثر أم حين أخذت ؟ قال : وتخلف رجال يتحدثون فى بيت رسول الله ، وزوج رسول الله ﷺ التى دخل بها معهم مؤلّية وجهها إلى الحائط ، فأطالوا الحديث ، فشقوا على رسول الله ﷺ ، وكان أشد الناس حياء - ولو أعلموا (٩) كان ذلك عليهم عزيزاً - فقام رسول الله ﷺ فخرج فسلم على حجره وعلى نسائه ، فلما رآوه قد جاء ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه ، ابتدروا الباب فخرجوا ، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى الستر ، ودخل البيت وأنا فى الحجرة ، فمكث رسول الله ﷺ فى بيته يسيراً ، وأنزل الله عليه القرآن ، فخرج وهو يقرأ هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ إلى قوله : ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ . قال أنس : فقرأهن على قبل الناس ، فأنا أحدث الناس بهن عهداً .

(١) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٣) والنسائي فى السنن الكبرى برقم (١٠١٠١) .

(٣) فى أ : « بكير » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٤) .

(٥) فى ت : « روى مسلم والنسائي » .

(٦) فى ت ، ف : « جعلت » .

(٨) فى ت ، ف ، أ : « ويسموا » .

(٧) زيادة من ف ، أ .

(٩) فى ت ، ف ، أ : « علموا » .

وقد رواه مسلم والترمذى والنسائى جميعاً ، عن قتيبة ، عن جعفر بن سليمان ، به (١) . وقال الترمذى : حسن صحيح وعَلَّقَهُ البخارى فى كتاب النكاح فقال :

وقال إبراهيم بن طهمان ، عن الجعد أبى عثمان ، عن أنس ، فذكر نحوه (٢) .

ورواه مسلم أيضاً عن محمد بن رافع ، عن عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن الجعد ، به (٣) . وقد روى هذا الحديث عبد الله بن المبارك ، عن شريك ، عن بيان بن بشر ، عن أنس ، بنحوه .

وروى (٤) البخارى والترمذى ، من طريقين آخرين ، عن بيان بن بشر الأحمسى الكوفى ، عن أنس ، بنحوه (٥) .

ورواه ابن أبى حاتم أيضاً ، من حديث أبى نضرة العبدى ، عن أنس بن مالك ، بنحوه (٦) . ورواه ابن جرير من حديث عمرو بن سعيد ، ومن حديث الزهرى ، عن أنس ، بنحو ذلك (٧) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا بهز وهاشم بن القاسم قالا : حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، عن أنس قال : لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ : « اذهب فاذكرها على » . قال : فانطلق زيد حتى أتاه ، قال : وهى تُحْمَرُ عَجِينَهَا ، فلما رأيتها عظمُت فى صدرى . . . وذكر تمام الحديث ، كما قدمناه عند قوله : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا ﴾ ، وزاد فى آخره بعد قوله : وَوَعَظَ الْقَوْمَ بِمَا وَعَظُوا به . قال هاشم فى حديثه : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظْرِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَنْسِبِينَ لِحَدِيثٍ إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ .

وقد أخرجه مسلم والنسائى ، من حديث سليمان بن المغيرة (٨) ، به (٩) .

وقال (١٠) ابن جرير : حدثنى أحمد بن عبد الرحمن - ابن أخى ابن وهب - حدثنى عمى عبد الله ابن وهب ، حدثنى يونس عن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة قالت : إن أزواج رسول الله ﷺ كنَّ يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصب - وهو صعيد أفيح - وكان عمر يقول لرسول الله ﷺ : احجب نساءك . فلم يكن رسول الله ﷺ ليفعل ، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبى ﷺ ، وكانت امرأة طويلة ، فنادها عمر بصوته الأعلى : قد عرفناك يا سودة . حرصاً أن (١١) ينزل الحجاب ، قالت (١٢) : فأنزل الله الحجاب (١٣) .

(١) صحيح مسلم برقم (١٤٢٨) وسنن الترمذى برقم (٣٢١٨) وسنن النسائى (١٣٦/٦) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٥١٦٣) .

(٣) صحيح مسلم برقم (١٤٢٨) .

(٤) فى أ : « ورواه » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٥١٧٠) وسنن الترمذى برقم (٣٢١٩) .

(٦) فى أ : « بنحوه ولم يخرجوه » .

(٧) تفسير الطبرى (٢٧/٢٢) .

(٨) فى هـ ، أ : « جعفر بن سليمان » ، والتصويب من ت ، ف ، ومسلم .

(٩) المسند (٣/١٩٥) وصحيح مسلم برقم (١٤٢٨) وسنن النسائى (٧٩/٦) .

(١٠) فى ت : « وروى » . (١١) فى ف ، أ : « حرصاً أن » .

(١٢) فى ت : « قال » .

(١٣) تفسير الطبرى (٢٨/٢٢) .

هكذا وقع فى هذه الرواية. والمشهور أن هذا كان بعد نزول الحجاب ، كما رواه الإمام أحمد والبخارى ومسلم ، من حديث هشام بن عروة ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها ، وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها ، فرأها عمر بن الخطاب فقال : يا سودة ، أما والله ما تخفين علينا ، فانظري كيف تخرجين ؟ قالت : فانكفات راجعة ، ورسول الله ﷺ فى بيتي ، وإنه ليتعشى ، وفى يده عرق ، فدخلت فقالت : يا رسول الله ، إنى خرجت لبعض حاجتى ، فقال لى عمر كذا وكذا . قالت : فأوحى الله إليه ، ثم رفع عنه وإن العرق فى يده ، ما وضعه . فقال : « إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتك » . لفظ البخارى (١) .

فقوله : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ : حَظَرَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَدْخُلُوا مَنَازِلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِغَيْرِ إِذْنٍ ، كما كانوا قبل ذلك يصنعون فى بيوتهم فى الجاهلية وابتداء الإسلام ، حتى غار الله لهذه الأمة ، فأمرهم بذلك ، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة ؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ : « إياكم والدخول على النساء » (٢) .

ثم استثنى من ذلك فقال : ﴿ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَاطِرِينَ إِنَاهُ ﴾ .

قال مجاهد وقتادة وغيرهما : أى غير متحينين نضجه واستواءه ، أى : لا ترقبوا الطعام حتى (٣) إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول ، فإن هذا يكرهه الله ويذمه . وهذا دليل على تحريم التطفيل ، وهو الذى تسميه العرب الضيفن ، وقد صنف الخطيب البغدادي فى ذلك كتابا فى ذم الطفيليين . وذكر من أخبارهم أشياء يطول إيرادها .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ . وفى صحيح مسلم عن ابن عمر ، رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دعا أحدكم أخاه فليجب ، عرساً كان أو غيره » (٤) . وأصله فى الصحيحين وفى الصحيح أيضاً ، عن رسول الله ﷺ : « لو دُعيت إلى ذراع لأجبت ، ولو أهدى إلى كراع لقبلت ، فإذا فرغتم من الذى دُعيتُم إليه فخففوا عن أهل المنزل ، وانتشروا فى الأرض » (٥) ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَا مُسْتَسِينِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ ، أى : كما وقع لأولئك نفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث ، ونسوا أنفسهم ، حتى شق ذلك على رسول الله ﷺ ، كما قال [الله] (٦) تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ﴾ (٧) .

وقيل : المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه (٨) كان يشق عليه ويتأذى به ، لكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حيائه ، عليه السلام ، حتى أنزل الله عليه النهى عن ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ أى : ولهذا نهاكم عن ذلك وزجركم عنه .

(١) المسند (٥٦/٦) وصحيح البخارى برقم (٤٧٩٥) وصحيح مسلم برقم (٢١٧٠) .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٢٣٢) ومسلم فى صحيحه برقم (٢١٧٢) من حديث عقبة بن عامر ، رضى الله عنه .

(٣) فى ١ : « الطعام إذا طبخ حتى » .

(٤) صحيح مسلم برقم (١٤٢٩) .

(٥) فى صحيح البخارى برقم (٢٥٦٨) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٦) زيادة من ف . (٧) بعدها فى ١ : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾

(٨) فى ١ : « إذن » .

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أى: وكما نهيتكم عن الدخول عليهن، كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية، ولو كان لأحدكم (١) حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب.

وقال (٢) ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان، عن مسعر، عن موسى ابن أبى كثير، عن مجاهد، عن عائشة قالت: كنت أكل مع النبى ﷺ (٣) حيساً فى قعب، فمر عمر فدعاه، فأصابته إصبعة إصبعى، فقال: حس (٤) - أو: أوه - لو أطاع فيكن ما رأيتك (٥) عين. فنزل الحجاب (٦).

﴿ذَلِكُمْ أَظْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أى: هذا الذى أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أظهر وأطيب.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾: قال (٧) ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن أبى حماد، حدثنا مهران، عن سفيان، عن داود بن أبى هند، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ قال: نزلت فى رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبى ﷺ. قال رجل لسفيان: أهى عائشة؟ قال: قد ذكروا ذاك.

وكذا قال مقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وذكر بسنده عن السدى أن الذى عزم على ذلك طلحة بن عبيد الله، رضى الله عنه، حتى نزل التنبيه على تحريم ذلك؛ ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفى عنها رسول الله ﷺ من أزواجه (٨) أنه يحرم على غيره تزويجها من بعده؛ لأنهن أزواجه فى الدنيا والآخرة وأمّهات المؤمنين، كما تقدم. واختلفوا فيما دخل بها ثم طلقها فى حياته (٩) هل يحل لغيره أن يتزوجها؟ على قولين، مأخذهما: هل دخلت هذه فى عموم قوله: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أم لا؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها، فما نعلم فى حلها لغيره - والحالة هذه - نزاعاً، والله أعلم.

وقال (١٠) ابن جرير: حدثنى [محمد] (١١) بن المثنى، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا داود، عن عامر؛ أن نبى الله ﷺ مات وقد ملك قيلة بنت (١٢) الأشعث - يعنى: ابن قيس - فتزوجها عكرمة بن أبى جهل بعد ذلك، فشق ذلك على أبى بكر مشقة شديدة، فقال له عمر: يا خليفة رسول الله، إنها ليست من نسائه، إنها لم يُخَيَّرْها رسول الله ﷺ ولم يحجبها، وقد برأها الله منه بالردة التى ارتدت

(١) فى ت: «لأحدكم». (٢) فى ت: «وروى». (٣) فى ت: «رسول الله».

(٤) فى هـ: «خير»، وفى ت، ف، أ: «حسن»، والمثبت من النهاية لابن الأثير ٣٨٥/١.

(٥) فى ت، أ: «ما رأيتك».

(٦) ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤١٩) من طريق زكريا بن يحيى عن ابن أبى عمر، به.

(٧) فى ت: «روى». (٨) فى ف، أ: «زوجاته». (٩) فى ت: «حياتها».

(١٠) فى ت: «وروى». (١١) زيادة من ف، أ، والطبرى. (١٢) فى أ: «قيلة ابنة».

مع قومها . قال : فاطمأن أبو بكر ، رضى الله عنهما (١) ، وسكن (٢) .

وقد عظم تبارك وتعالى ذلك ، وشدد فيه وتوعد عليه بقوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ ، ثم قال : ﴿ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تَخَفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ أى : مهما تكنه ضمائرکم وتنطوي عليه سرائركم ، فإن الله (٣) يعلمه ؛ فإنه لا تخفى (٤) عليه خافية ، ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩] .

﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥) ﴾ .

لما أمر تعالى النساء بالحجاب من الأجانب ، بين أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم ، كما استثناهم في سورة النور ، عند قوله : ﴿ وَلَا يُدِينُ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ إلى آخرها [النور : ٣١] ، وفيها زيادات على هذه . وقد تقدم تفسيرها والكلام عليها بما أغنى عن إعادته . وقد سأل بعض السلف فقال : لم لم يذكر العم والخال في هاتين الآيتين ؟ فأجاب عكرمة والشعبي : بأنهما لم يذكرنا ؛ لأنهما قد يصفان ذلك لبيهما .

قال ابن جرير : حدثني محمد بن المثني ، حدثنا حجاج بن منهال ، حدثنا حماد ، حدثنا داود ، عن الشعبي وعكرمة في قوله : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ قلت : ما شأن العم والخال لم يذكرنا ؟ قالا : هما (٥) ينعتانها لأبنائهما . وكرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها .

وقوله : ﴿ وَلَا نِسَائِهِنَّ ﴾ : يعنى بذلك : عدم الاحتجاب من النساء المؤمنات .

وقوله : ﴿ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ : يعنى به : أرقاءهن من الذكور والإناث ، كما تقدم التنبيه عليه ، وإيراد الحديث فيه (٦) .

قال سعيد بن المسيب : إنما يعنى به : الإماء فقط . رواه ابن أبي حاتم .

وقوله : ﴿ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ أى : واخشينه في الخلوة والعلانية ، فإنه شهيد على كل شيء ، لا تخفى عليه خافية ، فراقبن الرقيب .

(١) في ت ، ف : « عنه » .

(٢) تفسير الطبرى (٢٩/٢٢) .

(٣) في ف : « فإنه » .

(٤) في ت ، ف : « لا يخفى » .

(٥) في أ : « لأنهما » .

(٦) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية : ٣١ من سورة النور .

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٥٦).

قال البخارى : قال أبو العالية : صلاة الله : ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاة الملائكة : الدعاء . وقال ابن عباس : يصلون : يبركون . هكذا علقه البخارى عنهما (١) .

وقد رواه أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية كذلك . وروى مثله عن الربيع أيضاً . وروى على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس كما قاله سواء ، رواهما ابن أبى حاتم .

وقال أبو عيسى الترمذى : وروى عن سفيان الثورى وغير واحد من أهل العلم قالوا : صلاة الرب : الرحمة ، وصلاة الملائكة : الاستغفار .

ثم قال ابن أبى حاتم : حدثنا عمرو الأودى ، حدثنا وكيع ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، قال الأعمش عن عطاء (٢) بن أبى رباح : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ قال : صلاته تبارك وتعالى : سُبُوح قدوس ، سبقت رحمتى غضبى .

والمقصود من هذه الآية : أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده فى الملأ الأعلى ، بأنه يثنى عليه عند الملائكة المقربين ، وأن الملائكة تصلى عليه . ثم أمر تعالى أهل العالم السفلى بالصلاة والتسليم عليه ، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوى والسفلى جميعاً .

وقد قال (٣) ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن أشعث بن إسحاق ، عن جعفر - يعنى : ابن المغيرة - عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أن بنى إسرائيل قالوا لموسى ، عليه السلام : هل يصلى ربك ؟ فناداه ربه : يا موسى ، سألك : «هل يصلى ربك ؟» فقل : نعم ، إنما أصلى أنا وملائكتى على أنبيائى ورسلى . فأنزل الله ، عز وجل ، على نبيه ﷺ : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ .

وقد أخبر أنه ، سبحانه وتعالى (٤) ، يصلى على عباده المؤمنين فى قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب : ٤١ - ٤٣] . وقال تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (٥) . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة : ١٥٥ - ١٥٧] . وفى الحديث : «إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف» . وفى

(١) صحيح البخارى (٥٣٢/٨) «فتح» .

(٢) فى ت : «وروى ابن أبى حاتم بسنده عن عطاء» .

(٣) فى ت : «وقد روى» .

(٤) فى ت : «وقد أخبر الله تعالى» ، وفى ف : «وقد أخبر أنه سبحانه بأنه» .

(٥) فى ت : «المؤمنين» وهو خطأ .

الحديث الآخر: « اللهم ، صل على آل أبي أوفى ». وقال رسول الله ﷺ لامرأة جابر - وقد سألته أن يصلى عليها وعلى زوجها - : « صلى الله عليك ، وعلى زوجك (١) » (٢).

وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه ، وكيفية الصلاة عليه ، ونحن نذكر منها إن شاء الله تعالى ما تيسر ، والله المستعان .

قال البخارى - عند تفسير هذه الآية (٣) - : حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد ، حدثنا أبى ، عن مسعر ، عن الحكم ، عن ابن أبى ليلى ، عن كعب بن عُجْرَةَ قال : قيل : يا رسول الله ، أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة ؟ فقال : « قولوا : اللهم ، صل على محمد ، وعلى آل محمد ، [كما صليت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد . اللهم ، بارك على محمد وعلى آل محمد] (٤) كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » (٥) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة (٦) ، عن الحكم قال : سمعت ابن أبى ليلى قال : لقيني كعب بن عُجْرَةَ فقال : ألا أهدي لك هدية ؟ خرج علينا رسول الله ﷺ فقلنا : يا رسول الله ، قد علمنا - أو : عرفنا - كيف السلام (٧) عليك ، فكيف الصلاة ؟ قال : « قولوا : اللهم ، صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على [آل] إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم ، بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » .

وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة في كتبهم ، من طرق متعددة ، عن الحكم - وهو ابن عتبة (٩) - زاد البخارى : وعبد الله بن عيسى ، كلاهما عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، فذكره (١٠) .

وقال ابن أبى حاتم (١١) : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا هُشَيْم بن بُشَيْر ، عن يزيد بن أبى زياد ، حدثنا عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن كعب بن عُجْرَةَ قال : لما نزلت : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ . قال : قلنا : يا رسول الله ، قد علمنا السلام (١٢) ، فكيف الصلاة عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد . وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما

(١) فى ف ، أ : « وعلى آل زوجك » .

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٣/٣٩٨) وابن حبان فى صحيحه برقم (١٩٥١) « موارد » من طريق الأسود بن قيس عن نبيح العنزى عن جابر رضى الله عنه .

(٣) فى ت : « روى البخارى فى صحيحه » .

(٤) زيادة من ت ، ف ، والبخارى .

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٧) .

(٦) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » .

(٧) فى أ : « نسلم » .

(٨) زيادة من ت ، ف ، والمسند .

(١٠) المسند (٤/٢٤١) وصحيح البخارى برقم (٣٣٧٠) وبرقم (٦٣٥٧) وبرقم (٤٧٩٧) وصحيح مسلم برقم (٤٠٦) وسنن أبى داود برقم (٩٧٦) وسنن الترمذى برقم (٤٨٣) وسنن النسائى (٣/٤٧) وسنن ابن ماجه برقم (٩٠٤) .

(١١) فى أ : « وقال البخارى » .

(١٢) فى ت ، ف ، أ : « السلام عليك » .

باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم . إنك حميد مجيد » . وكان عبد الرحمن بن أبي ليلى يقول :
وعلينا معهم .

ورواه الترمذى بهذه الزيادة (١) .

ومعنى قولهم : « أما السلام عليك فقد عرفناه » : هو الذى فى التشهد الذى كان يعلمهم إياه ،
كما كان يعلمهم السورة من القرآن ، وفيه : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » .

حديث آخر : قال (٢) البخارى : حدثنا عبد الله بن يوسف ، حدثنا الليث ، عن ابن (٣) الهاد ، عن
عبد الله بن خباب ، عن أبي سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، قال : قلنا : يا رسول الله ، هذا
السلام (٤) ، فكيف نصلى عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم صل على محمد عبدك ورسولك ، كما صليت على
آل إبراهيم . وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم » . [وفى رواية] (٥) :
قال أبو صالح ، عن الليث : « على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم » .

حدثنا إبراهيم بن حمزة ، حدثنا ابن أبي حازم والدراوردى ، عن يزيد - يعنى : ابن الهاد -
قال : « كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وآل محمد ، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم » .
وأخرجه النسائى وابن ماجه ، من حديث ابن الهاد ، به (٦) .

حديث آخر : قال (٧) الإمام أحمد : قرأت على عبد الرحمن : مالك ، عن عبد الله بن أبي بكر ،
عن أبيه ، عن عمرو بن سليم أنه قال : أخبرنى أبو حميد الساعدى أنهم قالوا : يا رسول الله ، كيف
نصلى عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته ، كما صليت على [آل] (٨)
إبراهيم ، وبارك على محمد وأزواجه وذريته ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » .
وقد أخرجه بقية الجماعة ، سوى الترمذى ، من حديث مالك ، به (٩) .

حديث آخر : قال مسلم : حدثنا يحيى التميمى قال : قرأت على مالك ، عن نعيم بن عبد الله
المجمر ، أخبرنى محمد بن عبد الله بن زيد الأنصارى - قال : وعبد الله بن زيد هو الذى كان أرى
النداء بالصلاة - أخبره عن أبي مسعود الأنصارى - قال : أتانا رسول الله ﷺ ونحن فى مجلس سعد
ابن عبادة ، فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلى عليك [يا رسول الله] (١٠) ، فكيف نصلى
عليك ؟ قال : فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله ﷺ : « قولوا :
اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل
محمد ، كما باركت على آل إبراهيم فى العالمين ، إنك حميد مجيد ، والسلام كما قد علمتم » .

وقد رواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى من حديث مالك ، به (١١) . وقال الترمذى : حسن

(١) سنن الترمذى برقم (٤٨٣) وقال : « حديث حسن صحيح »

(٢) فى ت : « روى » . (٣) فى أ : « أبى » .

(٤) فى أ : « هذا السلام عليك » .

(٥) زيادة من ت .

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٨) .

(٧) فى ت : « وروى » .

(٨) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسنند .

(٩) المسند (٥/٤٢٤) وصحيح البخارى برقم (٣٣٦٩) وصحيح مسلم برقم (٤٠٧) وسنن أبى داود برقم (٩٧٩) وسنن النسائى (٣/٤٩)
وسنن ابن ماجه برقم (٩٠٥) .

(١٠) زيادة من ت ، ف ، أ ، ومسلم .

(١١) صحيح مسلم برقم (٤٠٥) وسنن أبى داود برقم (٩٨٠) وسنن الترمذى برقم (٣٢٢٠) وسنن النسائى (٣/٤٥) .

صحيح .

وروى الإمام أحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن خزيمة ، وابن حبان ، والحاكم فى مستدركه ، من حديث محمد بن إسحاق ، عن محمد بن إبراهيم التيمى ، عن محمد بن عبد الله بن زيد بن عبد ربه ، عن أبى مسعود البدرى أنهم قالوا : يا رسول الله ، أما السلام فقد عرفناه ، فكيف نصلى عليك إذا نحن صلينا فى صلاتنا ؟ فقال : « قولوا : اللهم ، صل على محمد وعلى آل محمد . . . » وذكره (١) .

ورواه الشافعى ، رحمه الله ، فى مسنده ، عن أبى هريرة ، بمثله (٢) . ومن هاهنا ذهب الشافعى ، رحمه الله ، إلى أنه يجب على المصلى أن يصلى على رسول الله ﷺ فى التشهد الأخير ، فإن تركه لم تصح صلاته . وقد شرع بعض المتأخرين من المالكية وغيرهم يُشنع على الإمام الشافعى فى اشتراطه ذلك فى الصلاة ، ويزعم أنه قد تفرد بذلك ، وحكى الإجماع على خلافه أبو جعفر الطبرى والطحاوى والخطابى وغيرهم ، فيما نقله القاضى عياض . وقد تعسف القائل (٣) فى رده على الشافعى ، وتكلف فى دعواه الإجماع فى ذلك ، [وقال ما لم يحط به علما] (٤) ، فإنه قد روينا وجوب ذلك والأمر بالصلاة على رسول الله ﷺ فى الصلاة كما هو ظاهر الآية ، ومفسر (٥) بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة ، منهم : ابن مسعود ، وأبو مسعود البدرى ، وجابر بن عبد الله ، ومن التابعين : الشعبى ، وأبو جعفر الباقر ، ومقاتل بن حيان . وإليه ذهب الشافعى ، لا خلاف عنه فى ذلك ولا بين (٦) أصحابه أيضا ، وإليه ذهب [الإمام] (٧) أحمد أخيرا فيما حكاه عنه أبو زرعة الدمشقى ، به . وبه قال إسحاق ابن راهويه ، والفقهاء الإمام محمد بن إبراهيم المعروف بابن المَوَاز المالكى ، رحمهم الله ، حتى إن بعض أئمة الحنابلة أوجب أن يقال فى الصلاة عليه ﷺ كما علمهم أن يقولوا لما سألوه ، وحتى إن بعض أصحابنا أوجب الصلاة على الآل ممن (٨) حكاه البندنجى ، وسليم الرازى ، وصاحبه نصر بن إبراهيم المقدسى ، ونقله إمام الحرمين وصاحبه الغزالى قولاً عن الشافعى . والصحيح أنه وجه ، على أن الجمهور على خلافه ، وحكوا الإجماع على خلافه ، وللقول بوجوبه ظواهر الحديث ، والله أعلم .

والغرض أن الشافعى ، رحمه الله ، لقوله (٩) بوجوب الصلاة على النبى ﷺ فى الصلاة - سَلَفٌ وَخَلَفٌ (١٠) كما تقدم ، لله الحمد والمنة ، فلا إجماع على خلافه فى هذه المسألة لا قديما ولا حديثا ، والله أعلم .

ومما يؤيد ذلك : الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى - وصححه - والنسائي وابن خزيمة ، وابن حبان فى صحيحيهما ، من رواية حيوة بن شريح المصرى ، عن أبى هانىء حميد بن

(١) المسند (١١٩/٤) وسنن أبى داود برقم (٩٨١) والنسائي فى السنن الكبرى برقم (٩٨٧٧) والمستدرک (١/٦٦٨) وقال الحاكم : « هذا حديث صحيح على شرط مسلم » .

(٢) مسند الشافعى برقم (٢٦٨) « بدائع المنن » ورواه النسائي فى السنن الكبرى برقم (٩٨٧٥) من طريق داود بن قيس ، عن نعيم بن عبد الله ، عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) فى أ : « تعسف هذا القائل » . (٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى ت : « ومشعر » .

(٦) فى أ : « من » . (٧) زيادة من ت ، ف ، أ . (٨) فى ف : « فيما » وفى أ : « فيمن » .

(٩) فى أ : « يقول » . (١٠) فى أ : « سلفاً وخلفاً » .

هانيء ، عن عمرو بن مالك أبي على الجنبى (١) ، عن فضالة بن عبيد ، رضى الله عنه ، قال : سمع رسول الله ﷺ رجلا يدعو فى صلاته ، لم يمجّد الله ولم يصل على النبي ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « عَجَل هذا » . ثم دعاه فقال له ولغيره : « إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد الله ، عز وجل ، والثناء عليه ، ثم ليصل على النبي ثم ليدع [بعد] (٢) بما شاء » (٣) .

وكذا الحديث الذى رواه ابن ماجه ، من رواية عبد المهيم بن عباس بن سهل بن سعد الساعدى ، عن أبيه ، عن جده ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا صلاة لمن لا وضوء له ، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه ، ولا صلاة لمن لم يصل على النبي ، ولا صلاة لمن لم يحب الانتصار » (٤) .

ولكن عبد المهيم هذا متروك . وقد رواه الطبرانى من رواية أخيه « أبى بن عباس » ، ولكن فى ذلك نظر (٥) ، وإنما يعرف من رواية « عبد المهيم » ، والله أعلم .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا إسماعيل ، عن أبى داود الأعمى ، عن بُريدة قال : قلنا : يا رسول الله ، قد علمنا كيف نسلم عليك ، فكيف نصلى عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد ، كما جعلتها على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد » .

أبو داود الأعمى اسمه : نفيح بن الحارث ، متروك (٦) .

حديث آخر موقوف : رويناه من طريق سعيد بن منصور وزيد بن الحباب ويزيد بن هارون ، ثلاثتهم عن نوح بن قيس : حدثنا سلامة الكندى : أن عليا ، رضى الله عنه ، كان يعلم الناس هذا الدعاء : اللهم داحى المدحوات ، وبارئ السموكات ، وجبّار القلوب على فطرتها شقيها وسعيدها . اجعل شرائف صلواتك ، ونوامى بركاتك ، ورأفة تحننك ، على محمد عبدك ورسولك ، الخاتم لما سبق ، والفتاح لما أغلق ، والمعلن الحق بالحق ، والدامغ جيّشات الأباطيل ، كما حُمِّلَ فاضطلع بأمرك لطاعتك ، مستوفزا فى مرضاتك ، غير نكل فى قَدَم ، ولا واهن فى عزم ، واعيا لوحيك ، حافظا لعهدك ، ماضيا على نفاذ أمرك ، حتى أورى قبسا لقابس ، آلاء الله تصل بأهله أسبابه ، به هديت القلوب بعد خوضات الفتن والإثم ، [وأقام] (٧) مُوضحات الأعلام ، ومُنيرات الإسلام ونائرات الأحكام ، فهو أمينك المأمون ، وخازن علمك المخزون ، وشهيدك يوم الدين ، وبَعِيثُك نعمة ، ورسولك بالحق رحمة . اللهم افسح له مُفسحات فى عدلك ، واجزه مضاعفات الخير من فضلك . مهتات له غير مكدرات ، من فوز ثوابك المعلول وجزيل عطائك المجمعول . اللهم ، أعل على بناء البانين

(١) فى أ : « الحسينى » .

(٢) زيادة من ف ، أ ، والمسنّد .

(٣) المسنّد (١٨/٦) وسنن أبى داود برقم (١٤٨١) وسنن الترمذى برقم (٣٤٧٧) وسنن النسائى (٤٤/٣) .

(٤) سنن ابن ماجه برقم (٤٠٠) وقال البوصيرى فى الزوائد (١٦٧/١) : « هذا إسناد ضعيف لاتفاقهم على ضعف عبد المهيم » .

(٥) المعجم الكبير للطبرانى (١٢١/٦) .

(٦) المسنّد (٣٥٣/٥) .

(٧) زيادة من ت ، ف .

بنيانه^(١)، وأكرم مثواه لديك ونزله . وأتمم^(٢) له نوره ، واجزه من ابتعائك له مقبول الشهادة ، مرضى المقالة ، ذا منطق عدل ، وخُطَّة فصل ، وحجة وبرهان عظيم^(٣) .

هذا مشهور من كلام على ، رضى الله عنه ، وقد تكلم عليه ابن قتيبة فى مشكل الحديث ، وكذا أبو الحسين أحمد بن فارس اللغوى فى جزء جمعه فى فضل الصلاة على النبى ﷺ ، إلا أن فى إسناده نظرا .

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزى : سلامة^(٤) الكندى هذا ليس بمعروف ، ولم يدرك عليا^(٥) . كذا قال . وقد روى الحافظ أبو القاسم الطبرانى هذا الأثر عن محمد بن على الصائغ ، عن سعيد بن منصور ، حدثنا نوح بن قيس ، عن سلامة الكندى قال : كان على ، رضى الله عنه ، يعلمنا الصلاة على النبى ﷺ فيقول : « اللهم ، داحى المدحوات » وذكره^(٦) .

حديث آخر موقوف : قال ابن ماجه : [حدثنا الحسين بن بيان^(٧)] ، حدثنا زياد بن عبد الله ، حدثنا المسعودى ، عن عون بن عبد الله ، عن أبى فاختة ، عن الأسود بن يزيد^(٨) ، عن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، قال : إذا صليتم على رسول الله ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه ؛ فإنكم لا تدرون لعل ذلك يُعرض عليه . قال : فقالوا له : فعلمنا . قال : قولوا : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وخاتم النبيين ، محمد عبدك ورسولك ، إمام الخير وقائد الخير ، ورسول الرحمة . اللهم ابعثه مقاماً محموداً يَغْبِطُهُ به الأولون والآخرون ، اللهم صل على محمد [وعلى آل محمد]^(٩) ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد . اللهم ، بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد^(١٠) .

وهذا موقوف ، وقد روى إسماعيل القاضى عن عبد الله بن عمرو - أو : عمر - على الشك من الراوى قريباً من هذا^(١١) .

حديث آخر : قال^(١٢) قال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا مالك بن إسماعيل ، حدثنا أبو

-
- (١) فى أ : « اللهم علِّ بناء الناس بناءه » .
 (٢) فى أ : « وأتمم » .
 (٣) رواه أبو نعيم فى عوالى سعيد بن منصور برقم (١٨) فقال : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا مسعدة بن سعد ، حدثنا سعيد بن منصور فذكره ، ورواه الحنائى فى الفوائد (١٠/١٦٢ ب) - كما فى حاشية العوالى - من طريق يزيد بن هارون ، به .
 (٤) فى ف : « سلام » .
 (٥) سلامة الكندى ذكره البخارى فى التاريخ الكبير (٤/١٩٥) وابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل (٤/٣٠٠) وأشار ابن أبى حاتم إلى هذا الحديث وقال : « مرسل » .
 (٦) المعجم الأوسط برقم (٤٦٥٣) « مجمع البحرين » لكن فيه : « حدثنا مسعدة بن سعد ، حدثنا سعيد بن منصور » فلعل الحافظ نقله هنا من مسند العشرة .
 (٧) زيادة من ت ، ف ، وابن ماجه .
 (٨) زيادة من ت ، ف ، وابن ماجه .
 (٩) سنن ابن ماجه برقم (٩٠٦) وقال البوصيرى فى الزوائد (١/٣١١) : « هذا إسناده رجاله ثقات إلا أن المسعودى واسمه عبد الرحمن بن عتبة بن مسعود اختلط بآخره ، ولم يتميز حديثه الأول بالآخر ، فاستحق الترك . قاله ابن حبان » .
 (١٠) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٦٢) .
 (١١) فى ت : « وروى » .
 (١٢) فى ت : « وروى » .

إسرائيل ، عن يونس بن خَبَّاب قال : خطبنا بفارس فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ، فقال : أنبأني من سمع ابن عباس يقول : هكذا أنزل . فقلنا - أو : قالوا - : يا رسول الله ، علمنا السلام عليك ، فكيف الصلاة عليك ؟ فقال : « اللهم ، صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم ، إنك حميد مجيد ، وارحم محمدًا وآل محمد ، كما رحمت آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد ، [وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد] (١) » (٢) .

فيستدل بهذا الحديث من ذهب إلى جواز الترحم على النبي ﷺ ، كما هو قول الجمهور : ويعضده حديث الأعرابي الذي قال : اللهم ، ارحمني ومحمدًا ، ولا ترحم معنا أحدًا . فقال رسول الله ﷺ : « لقد حجرت (٣) واسعا » .

وحكى القاضي عياض عن جمهور المالكية منعه ، قال : وأجازه أبو محمد بن أبي زيد .
حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، أخبرنا شعبة ، عن عاصم بن عبيد الله (٤) قال : سمعت عبد الله بن عامر بن ربيعة يحدث عن أبيه قال : سمعت النبي (٥) ﷺ يقول : « من صلى على صلاة لم تزل الملائكة تصلى عليه ما صلى على ، فَلْيُقِلَّ عبد من ذلك أو ليكثر » .
ورواه ابن ماجه ، من حديث شعبة ، به (٦) .

حديث آخر : قال (٧) الإمام أحمد : حدثنا أبو سلمة منصور بن سلمة الخزاعي ، ويونس - هو ابن محمد - قالوا : حدثنا ليث ، عن يزيد بن الهاد ، عن عمرو بن أبي عمرو ، عن أبي الحويرث ، عن محمد ابن جببر بن مطعم ، عن عبد الرحمن بن عوف قال : خرج رسول الله ﷺ فاتبعته حتى دخل نخلا ، فسجد فأطال السجود ، حتى خفت - أو : خشيت - أن يكون الله قد توفاه أو قبضه . قال : فجئت أنظر ، فرفع رأسه فقال : « ما لك يا عبد الرحمن ؟ » قال : فذكرت ذلك له فقال : « إن جبريل ، عليه السلام ، قال لي : ألا أبشرك ؟ إن الله ، عز وجل ، يقول : من صلى عليك صليت عليه ، ومن سلّم عليك سلمت عليه » (٨) .

طريق أخرى : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم ، حدثنا سليمان بن بلال ، حدثنا عمرو بن أبي عمرو ، من عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن عوف ، عن عبد الرحمن بن عوف قال : خرج (٩) رسول الله ﷺ فتوجه نحو صدقته ، فدخل فاستقبل القبلة ، فخر ساجدا ، فأطال

(١) زيادة من ت ، أ ، والطبرى .

(٢) تفسير الطبرى (٣١/٢٢) .

(٣) فى أ : « تحجرت » .

(٤) فى أ : « عبد الله » . (٥) فى ف : « رسول الله » .

(٦) المسند (٤٤٥/٣) وسنن ابن ماجه برقم (٩٠٧) .

(٧) فى ت : « وروى » .

(٨) المسند (١٩١/١) .

(٩) فى هـ : « قال » وفى ت ، ف ، أ : « قام » والمثبت من المسند .

السجود، حتى ظننت أن الله قد قبض نفسه فيها ، فدنوت منه ثم جلست ، فرفع رأسه فقال : « من هذا؟ » فقلت : عبد الرحمن . قال : « ما شأنك ؟ » قلت : يا رسول الله ، سجدت سجدة خشيت أن [يكون] (١) الله ، عز وجل ، قبض نفسك فيها . فقال : « إن جبريل أتاني فبشرني أن الله ، عز وجل ، يقول لك : من صلى عليك صليت عليه ، ومن سلم عليك سلمت عليه - فسجدتُ لله ، عز وجل ، شكراً » (٢) .

حديث آخر : قال (٣) [الحافظ] (٤) أبو القاسم الطبراني : حدثنا محمد بن عبد الرحيم بن بحير ابن عبد الله بن معاوية بن بحير بن ريسان ، [حدثنا عمرو بن الربيع بن طارقة] (٥) ، حدثنا يحيى بن أيوب ، حدثنا عبد الله (٦) بن عمر ، عن الحكم بن عتيبة (٧) ، عن إبراهيم النخعي ، عن الأسود بن يزيد ، عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، قال : خرج رسول الله ﷺ لحاجة فلم يجد أحداً يتبعه ، ففزع عمر ، فاتاه بمِطْهَرَةٍ من خلفه ، فوجد النبي ﷺ ساجداً في مَشْرَبَةٍ (٨) ، ففتحني عنه من خلفه حتى رفع النبي ﷺ رأسه ، فقال : « أحسنت يا عمر حين وجدتنى ساجداً ففتحيت عني ، إن جبريل أتاني فقال : من صلى عليك من أمتك واحدة ، صلى الله عليه عشر صلوات (٩) ، ورفعه عشر درجات » .

وقد اختار هذا الحديث الحافظ الضياء المقدسي في كتابه « المستخرج » (١٠) على الصحيحين (١١) . وقد رواه إسماعيل القاضي ، عن القعنبى ، عن سلمة بن وردان ، عن أنس ، عن عمر بنحوه (١٢) . ورواه أيضاً عن يعقوب بن حميد ، عن أنس بن عياض ، عن سلمة بن وردان ، عن مالك بن أوس بن الحدثان ، عن عمر بن الخطاب ، بنحوه (١٣) .

حديث آخر : قال (١٤) أبو عيسى الترمذى : حدثنا بُنْدَار ، حدثنا محمد بن خالد بن عثمة ، حدثني موسى بن يعقوب الزمعي ، حدثني عبد الله بن كيسان ؛ أن عبد الله بن شداد أخبره ، عن عبد الله بن مسعود ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم على صلاة » .

تفرد بروايته الترمذى ، رحمه الله ، ثم قال : هذا حديث حسن غريب (١٥) .

حديث آخر : قال إسماعيل القاضي : حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، عن يعقوب بن زيد ابن طلحة قال : قال رسول الله ﷺ : « أتاني آت من ربي فقال لى : ما من عبد يصلى عليك صلاة إلا

(١) زياد من ت ، ف ، أ ، والمسنَد .

(٢) المسند (١/١٩١) .

(٣) فى ت : « وروى » .

(٤) زيادة من ت .

(٥) زيادة من المعجم الصغير .

(٦) فى أ : « عينة » .

(٧) فى ت ، ف : « عشر » .

(٨) فى ف ، أ : « المختارة » .

(٩) فى ف ، أ : « المختارة » .

(١٠) المعجم الصغير (٢/٨٩) والمختارة برقم (٩٣) . وقال الطبراني : « لم يروه عن عبيد الله بن عمر إلا يحيى بن أيوب ، تفرد به عمرو ابن الربيع » .

(١١) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٤) .

(١٢) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٥) .

(١٣) فى ت : « وروى » .

(١٤) سنن الترمذى برقم (٤٨٤) .

صلى الله عليه بها عشراً^(١). فقام رجل^(٢) فقال: يا رسول الله، ألا أجعل نصف دعائى لك؟ قال: «إن شئت». قال: ألا أجعل ثلثى دعائى لك؟ قال: «إن شئت». قال: ألا أجعل دعائى لك كله؟ قال: «إذن يكفيك الله هم الدنيا وهم الآخرة». فقال شيخ - كان بمكة، يقال له: منيع^(٣) - لسفيان: عمن أسنده؟ قال: لا أدري^(٤).

حديث آخر: قال إسماعيل القاضي: حدثنا سعيد بن سلام العطار، حدثنا سفيان - يعنى: الثوري - عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ يخرج في جوف الليل فيقول: «جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه». قال أبى: يا رسول الله، إنى أصلى من الليل، أفأجعل لك ثلث صلاتى؟ قال رسول الله ﷺ: «الشطر». قال: أفأجعل لك شطر صلاتى؟ قال رسول الله ﷺ: «الثلثان». قال أفأجعل لك صلاتى كلها؟ قال: «إذن يغفر الله لك ذنبك كله»^(٥).

وقد رواه^(٦) الترمذى بنحوه فقال: حدثنا هناد، حدثنا قبيصة، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: «يا أيها الناس، اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه». قال أبى: قلت: يا رسول الله، إنى أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتى؟ قال: «ما شئت». قلت: الربع؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك». قلت: فالنصف؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك». قلت: فالثلثين؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك». قلت: أجعل لك صلاتى كلها؟ قال: «إذن تكفى همك، ويغفر لك ذنبك». ثم قال: هذا حديث حسن^(٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبى، عن أبيه قال: قال رجل: يا رسول الله، أرأيت إن جعلتُ صلاتى كلها عليك؟ قال: «إذن يكفيك الله ما أهمك من دنياك وآخرتك»^(٨).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن سليمان مولى الحسن بن على، عن عبد الله بن أبى طلحة، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم، والسرور يرى في وجهه، فقالوا: يا رسول الله، إنا لنرى السرور في وجهك. فقال: «إنه أتانى الملك فقال: يا محمد، أما يرضيك أن ربك، عز وجل، يقول: إنه لا يصلى عليك أحد من أمتك

(٢) فى أ: «سبع».

(١) فى أ: «فقام إليه رجل».

(٣) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (١٣).

(٤) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (١٤).

(٥) فى ت: «وروى».

(٦) سنن الترمذى برقم (٢٤٥٧).

(٧) المسند (١٣٦/٥).

إلا صليت عليه عشراً ، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشراً ؟ قال : بلى .

ورواه النسائي من حديث حماد بن سلمة ، به (١) . وقد رواه إسماعيل القاضي ، عن إسماعيل بن أبي أويس ، عن أخيه ، عن سليمان بن بلال ، عن عبيد الله بن عمر ، عن ثابت ، عن أبي طلحة ، بنحوه (٢) (٣) .

طريق أخرى : قال [الإمام] (٤) أحمد : حدثنا سُرَيْج (٥) ، حدثنا أبو مَعْشَر ، عن إسحاق بن كعب بن عُجْرَةَ ، عن أبي طلحة الأنصاري قال : أصبح رسول الله ﷺ يوماً طيب النفس ، يرى في وجهه البشر ، قالوا : يا رسول الله ، أصبحت اليوم طيب النفس ، يرى في وجهك البشر ؟ قال : « أجل ، أتاني آت من ربي ، عز وجل ، فقال : من صلى عليك من أمتك صلاة ، كتَبَ الله له بها عشر حسنات ، ومحا عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات ، ورد عليه مثلها » (٦) .

هذا أيضاً إسناد جيد ، ولم يخرجوه .

حديث آخر : روى (٧) مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ، من حديث إسماعيل بن جعفر ، عن العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ؛ عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى على واحدة ، صلى الله عليه بها عشراً » .

قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وفي الباب عن عبد الرحمن بن عوف ، وعامر بن ربيعة ، وعمار ، وأبي طلحة ، وأنس ، وأبي بن كعب (٨) .

وقال (٩) الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا شريك ، عن ليث ، عن كعب ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « صلوا على ؛ فإنها زكاة لكم . وسلوا الله لى الوسيلة ؛ فإنها درجة فى أعلى الجنة ، لا ينالها إلا رجل ، وأرجو أن أكون أنا هو » .

تفرد به أحمد (١٠) ، وقد رواه البزار من طريق مجاهد ، عن أبي هريرة ، بنحوه فقال : حدثنا محمد ابن إسحاق البكالى ، حدثنا عثمان بن سعيد ، حدثنا داود بن عُلَيَّة ، عن ليث ، عن مجاهد ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « صلوا على ، فإنها زكاة لكم ، وسلوا الله لى الدرجة الوسيلة من الجنة » فسألناه - أو : أخبرنا - فقال : « هى درجة فى أعلى الجنة ، وهى لرجل ، وأنا أرجو أن أكون ذلك الرجل » .

(١) المسند (٤/ ٣٠) والنسائي فى السنن الكبرى برقم (٩٨٨٨) .

(٢) فى ف : « بمثله » .

(٣) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (١) .

(٤) زيادة من ف . (٥) فى أ : « شريح » .

(٦) المسند (٤/ ٢٩) .

(٧) فى ت : « وروى » .

(٨) صحيح مسلم برقم (٤٠٨) وسنن أبى داود برقم (١٥٣٠) وسنن الترمذى برقم (٤٨٥) وسنن النسائي (٣/ ٥٠) .

(٩) فى ت : « وروى » .

(١٠) المسند (٢/ ٣٦٥) .

فى إسناده بعض من تُكَلَّم فيه (١) .

حديث آخر : قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق ، حدثنا ابن لهيعة ، [عن عبد الله بن هبيرة] (٢)، عن عبد الرحمن بن مَرِيج الخولاني ، سمعت أبا قيس - مولى عمرو بن العاص - سمعت عبد الله بن عمرو يقول : من صلى على رسول الله ﷺ صلاة ، صلى الله عليه وملائكته بها سبعين صلاة ، فَلْيُقَلِّعْ عبد من ذلك أو ليكثر . وسمعت عبد الله بن عمرو يقول : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً كالمودع فقال : « أنا محمد النبي الأمي - قاله ثلاث مرات - ولا نبي بعدى ، أوتيت فواتح الكلام (٣) وخواتمه وجوامعه ، وعَلِمْتُ كم خزانة النار وحملة العرش ، وتجاوز بى ، عُوِفِت وعُوِفِت أمتى ، فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم ، فإذا ذُهِب بى فعليكم بكتاب الله ، أحلوا حلاله ، وحرّموا حرامه » (٤) .

حديث آخر : قال أبو داود الطيالسي : حدثنا أبو سلمة الخراساني ، حدثنا أبو إسحاق ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من ذُكِرَتْ عنده فَلْيُصَلِّ على ، ومن صَلَّى على مرة واحدة صلى الله عليه عشراً » .

ورواه النسائي فى « اليوم والليلة » ، من حديث أبى داود الطيالسي ، عن أبى سلمة - وهو المغيرة ابن مسلم الخراساني - عن أبى إسحاق عمرو بن عبد الله السبيعي ، عن أنس ، به (٥) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن فضيل ، حدثنا يونس بن عمرو - يعنى : يونس بن أبى إسحاق - عن بُرَيْد (٦) بن أبى مريم ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى على صلاة واحدة ، صلى الله عليه عشر صلوات ، وحط عنه عشر خطيئات » (٧) .

حديث آخر : قال (٨) الإمام أحمد : حدثنا عبد الملك بن عمرو وأبو سعيد [قالا] (٩) : حدثنا سليمان بن بلال ، عن عمارة بن غَزِيَّة (١٠) ، عن عبد الله بن الحسين ، عن أبيه على بن الحسين ، عن أبيه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « البخيل من ذُكِرَتْ عنده ، ثم لم يصل على » . وقال أبو سعيد : « فلم يصل على » .

ورواه الترمذى من حديث سليمان بن بلال ، ثم قال : هذا حديث حسن غريب صحيح (١١) .

ومن الرواة من جعله من مسند « الحسين بن على » ، ومنهم من جعله من مسند « على » نفسه .

(١) مسند البزار برقم (٣٦٣) « كشف الأستار » وقال الهيثمى : « فيه داود بن علية ، ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما ووثقه ابن نمير ، وقال موسى بن داود الضبي : ثنا ذؤاد بن علبه وأثنى عليه خيرا ، وقال ابن عدى : هو فى جملة الضعفاء ممن يكتب حديثه » . كذا فيه ذؤاد بن علبه وهو الصواب . انظر : الكامل (١٢١/٣) والتهذيب (٢٢١/٣) والميزان (٣٢/٢) .

(٢) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند .

(٣) فى ف ، أ : « الكلم » .

(٤) المسند (١٧٢/٢) .

(٥) السنن الكبرى برقم (٩٨٨٩) .

(٦) فى أ : « زيد » .

(٧) المسند (١٠٢/٣) .

(٨) فى ت : « وروى » .

(٩) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند . (١٠) فى أ : « نمير » .

(١١) المسند (٢٠١/١) .

حديث آخر : قال إسماعيل القاضي : حدثنا حجاج بن منهل ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن معبد ابن هلال العنزي ، حدثني رجل من أهل دمشق ، عن عوف بن مالك ، عن أبي ذر ، رضى الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إن أبخل الناس من ذكرت عنده فلم يصل على » (١) .

حديث آخر مرسل : قال إسماعيل : وحدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا جرير بن حازم ، سمعت الحسن يقول : قال رسول الله ﷺ : « بحسب امرئ من البخل أن أذكر عنده فلا يُصَلِّي على » (٢) ، صلوات الله عليه .

حديث آخر : قال (٣) الترمذي : حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي ، حدثنا ربيع بن إبراهيم ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على . [ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ، ثم انسلخ قبل أن يغفر له] (٤) ، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخله الجنة » . ثم قال : حسن غريب (٥) .

قلت : وقد رواه البخاري في الأدب ، عن محمد بن عبيد الله ، حدثنا ابن أبي حازم ، عن كثير بن زيد ، عن الوليد بن رباح ، عن أبي هريرة مرفوعا ، بنحوه (٦) . ورويناه من حديث محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، به . قال الترمذي : وفي الباب عن جابر وأنس .

قلت : وابن عباس ، وكعب بن عُجْرَة ، وقد ذكرت طرق هذا الحديث في أول كتاب الصيام وعند قوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَلْعَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ [الإسراء : ٢٣] .

وهذا الحديث والذي قبله دليل على وجوب الصلاة عليه ﷺ كلما ذكر ، وهو مذهب طائفة من العلماء [منهم الطحاوي والحليمي] (٧) ، ويتقوى بالحديث الآخر الذي (٨) رواه ابن ماجه :

حدثنا جبارة بن المغلس ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا عمرو بن دينار ، عن جابر بن زيد ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من نسي الصلاة على خطيئ طريق الجنة » (٩) .

جبارة ضعيف . ولكن رواه إسماعيل القاضي من غير وجه ، عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر قال : قال رسول الله ﷺ : « من نسي الصلاة على خطيئ طريق الجنة » . وهذا مرسل يتقوى بالذي قبله [والله أعلم] (١٠) (١١) .

وذهب آخرون إلى أنه تجب الصلاة في المجلس مرة واحدة ، ثم لا تجب في بقية ذلك المجلس ، بل

(١) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٣٧) .

(٢) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٣٨) .

(٣) في ت : « وروى » . (٤) زيادة من ت ، ف ، أ ، والترمذي .

(٥) سنن الترمذي برقم (٣٥٤٥) .

(٦) الأدب المفرد للبخاري برقم (٢١) .

(٧) زيادة من ت ، ف ، أ . (٨) في ت : « بما » .

(٩) سنن ابن ماجه برقم (٩٠٨) وقال البوصيري في الزوائد (٣١٣/١) : « هذا إسناد ضعيف لضعف جبارة بن المغلس » .

(١٠) زيادة من ف ، أ .

(١١) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٤١) .

تستحب . نقله الترمذى عن بعضهم ، ويتأيد بالحديث الذى رواه الترمذى :

حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن صالح - مولى التوأمة - عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه ، ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة ، فإن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم » .

تفرد به الترمذى من هذا الوجه . ورواه الإمام أحمد عن حجاج ويزيد بن هارون ، كلاهما عن ابن أبى ذئب ، عن صالح - مولى التوأمة - عن أبى هريرة ، مرفوعا مثله . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن (١) .

وقد روى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ ، من غير وجه ، وقد رواه إسماعيل القاضى من حديث شعبة ، عن سليمان ، عن ذكوان ، عن أبى سعيد قال : « ما من قوم يقعدون ثم يقومون ولا يصلون على النبى ﷺ ، إلا كان عليهم حسرة ، وإن دخلوا الجنة لما يرون [من] (٢) الثواب » (٣) .

وحكى عن بعضهم أنه إنما تجب الصلاة عليه ، عليه السلام ، فى العمر مرة واحدة ، امتثالا لأمر الآية ، ثم هى مستحبة فى كل حال ، وهذا هو الذى نصره القاضى عياض بعدما حكى الإجماع على وجوب الصلاة عليه ﷺ فى الجملة . قال : وقد حكى الطبرانى (٤) أن محملا الآية على الندب ، وادعى فيه الإجماع . قال : ولعله فيما زاد على المرة ، والواجب منه مرة كالشهادة له بالنبوة ، وما زاد على ذلك فمندوب مرغّب فيه من سنن الإسلام ، وشعار أهله .

قلت : وهذا قول غريب ، فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه فى أوقات كثيرة ، فمنها واجب ، ومنها مستحب على ما نبينه .

فمنه : بعد النداء للصلاة ؛ للحديث الذى رواه الإمام أحمد :

حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حيوة ، حدثنا كعب بن علقمة ، أنه سمع عبد الرحمن بن جبير يقول : إنه سمع (٥) عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : إنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إذا سمعتم مؤذنا فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علىّ ؛ فإنه من صلى علىّ صلاة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا لى الوسيلة ، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه (٦) الشفاعة » .

وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى ، من حديث كعب بن علقمة (٧) .

طريق أخرى : قال إسماعيل القاضى : حدثنا محمد بن أبى بكر ، حدثنا عمرو بن على ، عن أبى

(١) سنن الترمذى برقم (٣٣٨٠) والمسنند (٤٥٣/٢) .

(٢) زيادة من ت ، ف ، أ ، وفضل الصلاة .

(٣) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٥٥) .

(٤) فى ت : « الطبرى » . (٥) فى ت : « عن » .

(٦) فى ت : « له » .

(٧) المسند (١٦٨/٢) وصحيح مسلم برقم (٣٨٤) وسنن أبى داود برقم (٥٢٣) وسنن الترمذى برقم (٣٦١٤) وسنن النسائى (٢٥/٢) .

بكر الجُشمي ، عن صفوان بن سليم ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « من سأل الله لى الوسيلة ، حقَّت عليه شفاعتى يوم القيامة » (١) .

حديث آخر : قال إسماعيل القاضي : حدثنا سليمان (٢) بن حرب ، حدثنا سعيد بن زيد ، عن ليث ، عن كعب - هو كعب الأخبار - عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « صلوا علىّ ، فإن صلاتكم علىّ زكاة لكم ، وسلوا الله لى الوسيلة » . قال : فإما حدَّثنا وإما سألناه ، فقال : « الوسيلة أعلى درجة فى الجنة ، لا ينالها إلا رجل ، وأرجو أن أكون ذلك (٣) الرجل » .

ثم رواه عن محمد بن أبى بكر ، عن معتمر ، عن ليث - وهو ابن أبى سليم - به (٤) . وكذا الحديث الآخر :

قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا بكر بن سودة ، عن زياد بن نعيم ، عن وفاء (٥) الحضرمي ، عن رُوَيْفَع بن ثابت الأنصارى ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « من صلى على محمد وقال : اللهم ، أنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة ، وجبت له شفاعتى » . وهذا إسناد لا بأس به ، ولم يخرجوه (٦) .

أثر آخر (٧) : قال إسماعيل القاضي : حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، حدثني معمر ، عن ابن (٨) طاوس ، عن أبيه ، سمعت ابن عباس يقول : اللهم تقبل شفاعة محمد الكبرى ، وارفع درجته العليا ، وأعطه سُؤْلَه فى الآخرة والأولى ، كما آتيت إبراهيم وموسى ، عليهما السلام . إسناد جيد قوى صحيح (٩) .

ومن ذلك : عند دخول المسجد والخروج منه : للحديث الذى رواه الإمام أحمد (١٠) :

حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا ليث بن أبى سليم ، عن عبد الله بن الحسن (١١) ، عن أمه فاطمة بنت الحسين ، عن جدته [فاطمة] (١٢) بنت رسول الله ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم وقال : « اللهم اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب رحمتك » . وإذا خرج صلى على محمد وسلم ، ثم قال : « اللهم اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب فضلك » (١٣) .

وقال إسماعيل القاضي : حدثنا يحيى بن عبد الحميد ، حدثنا سفيان (١٤) بن عمر التميمي ، عن

(١) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٥٠) .

(٢) فى أ : « سليم » . (٣) فى ف ، أ : « أكون أنا ذلك » .

(٤) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٤٦ ، ٤٧) .

(٥) فى ف ، أ : « ورقاء » .

(٦) المسند (١٠٨/٤) .

(٧) فى أ : « حسن » . (٨) فى أ : « أبى » .

(٩) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٥٢) .

(١٠) فى ت : « ومنه عند دخول المسجد لما روى الإمام أحمد » .

(١١) فى ت ، أ : « الحسين » . (١٢) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند .

(١٣) المسند (٢٨٢/٦) .

(١٤) فى أ : « سيف » .

سليمان الضبِّيَّ ، عن علي بن الحسين قال : قال علي بن أبي طالب ، رضى الله عنه (١) : إذا مررتُم بالمساجد فصلوا على النبي ﷺ (٢) .

وأما الصلاة عليه ﷺ فى الصلاة ، فقد قدمنا الكلام عليها فى التشهد الأخير ، ومن ذهب إلى ذلك من العلماء مع (٣) الشافعى ، رحمه الله (٤) . وأما التشهد الأول فلا تجب فيه قولاً واحداً ، وهل تستحب ؟ على قولين للشافعى .

ومن ذلك (٥) : الصلاة عليه ﷺ فى صلاة الجنائز : فإن السنة أن يقرأ فى التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب ، وفى الثانية يصلى على النبي ﷺ ، وفى الثالثة يدعو للميت ، وفى الرابعة يقول : اللهم لا تحرمنّا أجره ، ولا تفتنّا بعده .

قال الشافعى ، رحمه الله : حدثنا مطرف بن مازن ، عن معمر ، عن الزهرى : أخبرنى أبو أمامة ابن سهل بن حنيف أنه أخبره رجل من أصحاب النبي ﷺ : أن السنة فى الصلاة على الجنائز أن يكبر الإمام ، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرا فى نفسه ثم يصلى على النبي ﷺ ويخلص الدعاء للجنائز ، وفى التكبيرات لا يقرأ فى شىء منها ، ثم يسلم سرا فى نفسه (٦) .

ورواه النسائى ، عن أبى أمامة نفسه أنه قال : من السنة ، فذكره (٨) .

وهذا من الصحابى فى حكم المرفوع على الصحيح .

ورواه إسماعيل القاضى ، عن محمد بن المثنى ، عن عبد الأعلى ، عن معمر ، عن الزهرى ، عن أبى أمامة بن سهل ، عن سعيد بن المسيب أنه قال : السنة فى الصلاة على الجنائز . . . فذكره (٩) .

وهكذا روى عن أبى هريرة ، وابن عمر ، والشعبى .

ومن ذلك (١٠) : فى صلاة العيد : قال إسماعيل القاضى (١١) : حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا هشام الدستوائى ، حدثنا حماد بن أبى سليمان ، عن إبراهيم ، عن (١٢) علقمة : أن ابن مسعود وأبا موسى وحذيفة خرج عليهم الوليد بن عقبة يوماً قبل العيد (١٣) ، فقال لهم : إن هذا العيد قد دنا ، فكيف التكبير فيه ؟ قال عبد الله : تبدأ فتكبر تكبيرة تفتتح بها الصلاة ، وتحمد ربك وتصلى على

(١) فى ت : « وعن علي بن أبي طالب ، رضى الله عنه ، قال » .

(٢) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٨٠) .

(٣) فى ت ، أ : « منهم » . (٤) فى ت ، أ : « مع الشافعى وأحمد ، رحمهما الله » .

(٥) فى ت : « ومنه » .

(٦) فى ت : « فروى الشافعى ، رحمه الله ، بإسناده عن » .

(٧) الأم (٢٣٩/١) .

(٨) سنن النسائى (٧٥/٤) .

(٩) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٩٤) .

(١٠) فى ت : « ومنه الصلاة على النبي ﷺ » .

(١١) فى ت : « روى القاضى إسماعيل » .

(١٢) فى ت : « بن » .

(١٣) فى ت ، أ : « عقبة صلى العيد يوماً » .

النبي ﷺ ، ثم تدعو ، وتكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تدعو ، ثم تقرأ ثم تكبر وتركع ، ثم تقوم فتقرأ وتحمد ربك وتصلى على النبي ﷺ ثم تدعو وتكبر ، وتفعل مثل ذلك ، ثم تركع . فقال حذيفة وأبو موسى : صدق أبو عبد الرحمن . إسناده (١) صحيح (٢) .

ومن ذلك : أنه يُسْتَحَبُّ ختم الدعاء بالصلاة عليه ﷺ قال الترمذی :

حدثنا أبو داود ، أخبرنا النضر بن شميل (٣) ، عن أبي قُرّة الأسدي ، عن سعيد بن المسيّب ، عن عمر بن الخطاب (٤) قال : الدعاء موقوف بين السماء والأرض ، لا يصعد منه شيء حتى تصلى على نبيك (٥) .

وهكذا رواه أيوب بن موسى ، عن سعيد بن المسيّب ، عن عمر بن الخطاب ، قوله . ورواه معاذ بن الحارث ، عن أبي قرة ، عن سعيد بن المسيّب ، عن عمر مرفوعاً (٦) . وكذا رواه رزين بن معاوية (٧) في كتابه مرفوعاً ، عن النبي ﷺ قال : « الدعاء موقوف بين السماء والأرض ، لا يصعد حتى يصلى على ، فلا تجعلوني كغمر الراكب ، صلوا على أول الدعاء وأوسطه وآخره » (٨) .

وهذه الزيادة إنما تروى من رواية جابر بن عبد الله في مسند الإمام عبد بن حميد الكشي [حيث] (٩) قال : حدثنا جعفر بن عون ، أخبرنا موسى بن عبيدة ، عن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم ، عن أبيه قال : قال جابر : قال لنا رسول الله ﷺ : « لا تجعلوني كقدح الراكب ، إذا علق تعاليقه أخذ قدحه فملأه من الماء ، فإن كان له حاجة في الوضوء توضأ ، وإن كان له حاجة في الشرب شرب وإلا أهرق ما فيه ، اجعلوني في أول الدعاء ، وفي وسط الدعاء ، وفي آخر الدعاء » . فهذا حديث غريب ، وموسى بن عبيدة ضعيف الحديث (١٠) .

ومن [أكد] (١١) ذلك : دعاء القنوت لما رواه الإمام أحمد وأهل السنن ، وابن خزيمة (١٢) ، وابن حبان ، والحاكم ، من حديث أبي الخوراء (١٣) ، عن الحسن بن علي ، رضي الله عنهما ، قال : علّمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر : « اللهم اهدني فيمن هديت ، وعافني فيمن عافيت ،

(١) في ت ، ف ، أ : « إسناده » .

(٢) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٨٨) .

(٣) في أ : « سهيل » .

(٤) في ت : « روى الترمذی بإسناده عن عمر بن الخطاب » .

(٥) سنن الترمذی برقم (٤٨٦) .

(٦) أخرجه الواحدی ومن طريقه الحافظ الرهاوی في الأربعين كما في تخريج الكشاف للحافظ ابن حجر (ص ١٣٧) .

(٧) في ت : « ورواه رزين بن أبي معاوية » .

(٨) ذكره ابن الأثير في جامع الأصول (١٥٥/٤) رواية رزين .

(٩) زيادة من ف ، أ .

(١٠) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١١٣٠) ورواه البزار في مسنده برقم (٣١٥٦) « كشف الأستار » من طريق موسى بن عبيدة به .

(١١) زيادة من ت ، أ .

(١٢) في أ : « الجوزاء » .

(١٣) في أ : « وابن جرير » .

وتولني فيمن توليت ، وبارك لي فيما أعطيت ، وقني شر ما قضيت ، فإنك تقضي ولا يقضى عليك ، إنه لا يذل من واليت (١) ، تباركت [ربنا] (٢) وتعاليت (٣) .

وزاد النسائي في سننه بعد هذا : وصلى الله على النبي محمد .

ومن ذلك : أنه يستحب الإكثار من الصلاة عليه [في] (٤) يوم الجمعة وليلة الجمعة : قال الإمام أحمد : حدثنا حسين بن علي الجعفي ، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، عن أبي الأشعث الصنعاني (٥) ، عن أوس بن أوس الثقفي ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا على من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة على » . قالوا : يا رسول الله ، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمّت ؟ - يعني : وقد بليت - قال : « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » .

ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه ، من حديث حسين بن علي الجعفي (٦) . وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والدارقطني ، والنووي في الأذكار .

حديث آخر : قال أبو عبد الله بن ماجه : حدثنا عمرو بن سواد المصري (٧) ، حدثنا عبد الله بن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، عن سعيد بن أبي هلال ، عن زيد بن أيمن (٨) ، عن عبادة بن نسي ، عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « أكثروا الصلاة على يوم الجمعة ؛ فإنه مشهود تشهده الملائكة . وإن أحداً لن يصلى على إلا عُرِضت على صلاته حتى يفرغ منها » . قال : قلت : وبعد الموت ؟ قال : « [وبعد الموت] (٩) ، إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » [فنبى الله حتى يرزق] (١٠) .

هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وفيه انقطاع بين عبادة بن نسي وأبي الدرداء ، فإنه لم يدركه (١١) ، والله أعلم .

وقد روى البيهقي من حديث أبي أمامة وأبي مسعود ، عن النبي ﷺ في الأمر بالإكثار من الصلاة عليه ليلة الجمعة ويوم الجمعة (١٢) ، ولكن في إسنادهما ضعف ، والله أعلم . وروى مرسلًا عن الحسن

(١) في ف ، أ : « واليت ، ولا يعز من عاديته » .

(٢) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند .

(٣) المسند (١٩٩/١) وسنن أبي داود برقم (١٤٢٥) وسنن الترمذي برقم (٤٦٤) وسنن النسائي (٢٤٨/٣) وسنن ابن ماجه برقم (١١٧٨) وصحيح ابن خزيمة (١٠٩٥) وصحيح ابن حبان (١٤٨/٢) والمستدرک (١٧١/٣) .

(٤) زيادة من ت .

(٥) في ت : « روى الإمام أحمد بإسناده » .

(٦) المسند (٨/٤) وسنن أبي داود برقم (١٠٤٧) وسنن النسائي (٩١/٣) وسنن ابن ماجه برقم (١٦٣٦) .

(٧) في أ : « عمرو بن نذار المقرئ » .

(٨) في ف : « ثابت » . (٩) ، ١٠ : زيادة من ت ، ف ، وابن ماجه .

(١١) سنن ابن ماجه برقم (١٦٣٧) .

(١٢) السنن الكبرى للبيهقي (٢٤٩/٣) من حديث أبي أمامة ، رضى الله عنه ، ولم أجده عنده من حديث أبي مسعود وإنما هو من حديث أنس ، رضى الله عنه .

البصرى ، فقال إسماعيل القاضى :

حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا جرير بن حازم ، سمعت الحسن - هو البصرى - يقول : قال رسول الله ﷺ : « لا تأكل الأرض جسداً من كلمه (١) روح القدس » . مرسل حسن (٢) .

وقال الشافعى : أخبرنا إبراهيم بن محمد ، أخبرنا صفوان بن سليم (٣) أن النبى ﷺ قال : « إذا كان يوم الجمعة وليلة الجمعة ، فأكثروا الصلاة على » . هذا مرسل (٤) .

وهكذا يجب على الخطيب أن يصلى على النبى ﷺ يوم الجمعة على المنبر فى الخطبتين ، ولا تصح الخطبتان إلا بذلك ؛ لأنها (٥) عبادة ، وذكر الله فيها شرط (٦) ، فوجب ذكر الرسول ﷺ فيها كالأذان والصلاة . هذا مذهب الشافعى وأحمد ، رحمهما الله .

ومن ذلك : أنه يستحب الصلاة والسلام عليه عند زيارة قبره ، صلوات الله وسلامه عليه : قال (٧) أبو داود :

حدثنا ابن عوف - هو محمد - حدثنا (٨) المقرئ ، حدثنا حيوة ، عن أبى صخر حميد بن زياد ، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط ، عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « ما من (٩) أحد يسلم على إلا رد الله على روحى ، حتى أرد عليه السلام » .

تفرد به أبو داود ، وصححه النووى فى الأذكار (١٠) . ثم قال (١١) أبو داود :

حدثنا أحمد بن صالح قال : قرأت على عبد الله بن نافع ، أخبرنى ابن أبى ذئب ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، ولا تجعلوا قبرى عيداً ، وصلوا على ، فإن صلاتكم تبلغنى حيثما كنتم » .

تفرد به أبو داود أيضاً (١٢) . وقد رواه الإمام أحمد عن سريج ، عن عبد الله بن نافع - وهو الصائغ - به (١٣) . وصححه النووى أيضاً . وقد روى من وجه آخر عن على ، رضى الله عنه . قال القاضى إسماعيل (١٤) بن إسحاق فى كتابه « فضل الصلاة على النبى ﷺ » :

حدثنا إسماعيل بن أبى أويس ، حدثنا جعفر بن إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن جعفر ابن أبى طالب [عمن أخبره] (١٥) من أهل بيته ، عن على بن الحسين بن على : أن رجلاً كان يأتى كل

(١) فى أ : « كلم » .

(٢) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٢٣) .

(٣) فى أ : « صفوان بن أبى سليم » .

(٤) الأم (١٨٤/١) .

(٥) فى ت : « لأنهما » .

(٦) فى ت : « مشروط » .

(٧) فى أ : « ما منكم من » .

(٨) سنن أبى داود برقم (٢٠٤١) .

(٩) فى ت : « روى » .

(١٠) سنن أبى داود برقم (٢٠٤٢) .

(١١) المسند (٣٦٧/٢) .

(١٢) فى أ : « القاضى ابن إسماعيل » .

(١٣) زيادة من أ ، وفى هـ : « عن أخيه » والمثبت من ت ، ف ، أ .

غداة فيزور قبر النبي ﷺ ويصلى عليه ، ويصنع من ذلك ما اشتهر عليه على بن الحسين ، فقال له على ابن الحسين : ما يحملك على هذا ؟ قال : أحب السلام على النبي ﷺ . فقال له على بن الحسين : هل لك أن أحدثك حديثاً عن أبي ؟ قال : نعم . فقال له على بن الحسين : أخبرني أبي ، عن جدى أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تجعلوا قبرى عيداً ، ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، وصلوا على وسلموا حيثما كنتم فتبلغنى ^(١) صلاتكم وسلامكم » .

فى إسناده رجل مبهم لم يُسمَّ ^(٢) . وقد روى من وجه آخر مرسل ، قال عبد الرزاق فى مصنفه ، عن الثورى ، عن ابن عجلان ، عن رجل - يقال له : سهيل - عن الحسن بن الحسن بن على ؛ أنه رأى قوماً عند القبر فنهاهم ، وقال : إن النبي ﷺ قال : « لا تتخذوا قبرى عيداً ، ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً ، وصلوا على حيثما كنتم ؛ فإن صلاتكم تبلغنى » ^(٣) . فلعله رآهم يسيئون الأدب برفع أصواتهم [فوق الحاجة] ^(٤) ، فنهاهم .

وقد روى أنه رأى رجلاً يتتاب القبر فقال : يا هذا ، ما أنت ورجل بالأندلس منه إلا سواء ، أى : الجميع يبلغه ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين .

وقال الطبرانى فى معجمه الكبير : حدثنا أحمد بن رشد بن المصرى ، حدثنا سعيد بن أبى مريم ، حدثنا محمد بن جعفر ، أخبرنى حميد بن أبى زينب ، عن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب ، رضى الله عنهم ، عن أبيه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « صلوا على حيثما كنتم ، فإن صلاتكم تبلغنى » ^(٥) .

ثم قال الطبرانى : حدثنا العباس بن حمدان الأصبهاني ، حدثنا شعيب بن عبد الحميد الطحان ، أخبرنا يزيد بن هارون عن ^(٦) شيبان ، عن الحكم بن عبد الله بن خطاف ^(٧) ، عن أم أنيس بنت الحسن بن على ، عن أبيها قال : قال رسول الله ﷺ : « أرأيت قول الله ، عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ ؟ » فقال : « إن هذا من المكتوم ، ولولا أنكم سألتمنى عنه لما أخبرتكم ، إن الله وكل بى ملكين لا أذكر عند عبد مسلم فيصلى على إلا قال ذاك الملكان : « غفر الله لك » . وقال الله وملائكته جواباً لذينك الملكين : « آمين » . ولا يصلى أحد إلا قال ذاك الملكان : « غفر الله لك » . ويقول الله وملائكته جواباً لذينك الملكين : « آمين » .

غريب جداً ، وإسناده فيه ضعف شديد ^(٨) .

(١) فى ف ، أ : « فتبلغنى » .

(٢) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٢٠) .

(٣) المصنف برقم (٦٧٢٦) .

(٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) المعجم الكبير (٨٢/٣) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠٠/١٦٢) : « فى حميد بن أبى زينب لم أعرفه ، وبقيه رجاله رجال الصحيح » .

(٦) فى هـ ، ت ، أ ، ف : « بن أبى » والصواب ما أثبتناه من المعجم الكبير للطبرانى .

(٧) فى هـ ، ت ، أ ، ف : « خطاب » والصواب ما أثبتناه من المعجم الكبير للطبرانى وكتب الرجال .

(٨) المعجم الكبير (٨٩/٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٩٣/٧) : « فى الحكم بن عبد الله بن خطاف وهو كذاب » .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن عبد الله بن السائب ، عن زاذان ، عن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «إن لله ملائكة سياحين فى الأرض ، يبلغونى من (١) أمتى السلام» .

وهكذا رواه النسائي من حديث سفيان الثورى وسليمان بن مهران الأعمش ، كلاهما عن عبد الله ابن السائب ، به (٢) .

فأما الحديث الآخر : « من صلى علىّ عند قبرى سمعته ، ومن صلى على من بعيد بلغته » - ففى إسناده نظر ، تفرد به محمد بن مروان السدى الصغير ، وهو متروك ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة مرفوعاً (٣) .

قال أصحابنا : ويستحب للمحرم إذا لى وفرغ من تليته أن يصلى على النبى ﷺ : لما روى (٤) عن الشافعى والدارقطنى من رواية صالح بن محمد بن زائدة ، عن القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق قال : كان يؤمر الرجل إذا فرغ من تليته أن يصلى على النبى ﷺ على كل حال (٥) .

وقال إسماعيل القاضى : حدثنا عارم بن الفضل ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، حدثنا زكريا ، عن الشعبى ، عن وهب بن الأجدع قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : إذا قدمتم فطوفوا بالبيت سبعا ، وصلوا عند المقام ركعتين ، ثم اتوا الصفا فقوموا عليه من حيث ترون البيت ، فكبروا سبع تكبيرات ، تكبيرا بين حمد الله وثناء عليه ، وصلاة على النبى ﷺ ، ومسألة لنفسك ، وعلى المروة مثل ذلك (٦) .

إسناده جيد حسن قوى .

وقالوا : ويستحب الصلاة على النبى ﷺ مع ذكر الله عند الذبح : واستأنسوا بقوله (٧) تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح : ٤] ، قال بعض المفسرين : يقول الله تعالى : « لا أذكر إلا ذكرت معى » . وخالفهم فى ذلك الجمهور ، وقالوا : هذا موطن يفرد فيه ذكر الرب تعالى ، كما عند الأكل ، والدخول ، والوقاع وغير ذلك ، مما لم ترد فيه السنة بالصلاة على النبى ﷺ .

حديث آخر : قال إسماعيل القاضى : حدثنا محمد بن أبى بكر المقدمى ، حدثنا عمر بن هارون ، عن موسى بن عبيدة ، عن محمد بن ثابت ، عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « صلوا على أنبياء الله ورسله ؛ فإن الله بعثهم كما بعثنى » .

فى إسناده ضعيفان ، وهما عمر بن هارون وشيخه (٨) ، والله أعلم . وقد رواه عبد الرزاق ، عن الثورى ، عن موسى بن عبيدة الربدى ، به (٩) .

(١) فى ف ، أ : « عن » .

(٢) المسند (٤٤١/١) وسنن النسائي (٤٣/٣) .

(٣) أخرجه الخطيب فى تاريخ بغداد (٢٩٢/٣) من طريق الأصمعى عن السدى به ، ثم روى بإسناده عن ابن قتيبة قال : سألت ابن نمير عن حديث : « من صلى علىّ عند قبرى » فقال : « دع ذا ، محمد بن مروان ليس بشئ » .

(٤) فى ت : « لما رواه » .

(٥) الام (١٣٤/٢) .

(٦) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٨١) .

(٧) فى ف : « يقول الله » .

(٨) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٤٥) وعمر بن هارون متروك ، وموسى بن عبيدة ضعيف .

(٩) المصنف لعبد الرزاق برقم (٣١١٨) .

ومن ذلك : أنه يستحب الصلاة عليه عند طنين الأذن ، إن صح الخبر في ذلك ، على أن الإمام أبا بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة قد رواه في صحيحه فقال : حدثنا زياد بن يحيى ، حدثنا معمر بن محمد بن عبيد الله ، عن أبيه محمد (١) ، عن أبيه أبي رافع (٢) قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا طنت أذن أحدكم فليذكرني وليصل على ، وليقل : ذَكَرَ اللَّهُ مَنْ ذَكَرْنِي بخير » . إسناده غريب ، وفي ثبوته نظر (٣) ، والله أعلم .

[وهاهنا مسألة] (٤) :

وقد استحب أهل الكتابة أن يكرر الكاتب الصلاة على النبي ﷺ كلما كتبه ، وقد ورد في الحديث من طريق كادح بن رحمة ، عن نهشل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى على في كتاب ، لم تزل الصلاة جارية له ما دام اسمي في ذلك الكتاب » (٥) .

وليس هذا الحديث بصحيح من وجوه كثيرة ، وقد روى من حديث أبي هريرة ، ولا يصح أيضاً (٦) ، قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي شيخنا : أحسبه موضوعاً . وقد روى نحوه عن أبي بكر ، وابن عباس . ولا يصح من ذلك شيء (٧) ، والله أعلم . وقد ذكر الخطيب البغدادي في كتابه : « الجامع لأدب الراوى والسامع » (٨) ، قال : رأيت بخط الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله : كثيراً ما يكتب اسم النبي ﷺ من غير ذكر الصلاة عليه كتابة ، قال : وبلغني أنه كان يصلى عليه لفظاً (٩) .

[فصل] (١٠)

وأما الصلاة على غير الأنبياء ، فإن كانت (١١) على سبيل التبعية كما تقدم في الحديث : « اللهم ، صل على محمد وآله وأزواجه وذريته » ، فهذا جائز بالإجماع ، وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم :

(١) في هـ ، ت ، ف ، أ : « عن علي بن أبي رافع » والصواب ما أثبتناه .

(٢) في ت : « بإسناده عن أبي رافع » .

(٣) ورواه الطبراني في المعجم الصغير (٢/ ١٢٠) وابن عدى في الكامل (٦/ ٤٥١) من طريق معمر به ، وقال ابن عدى : « معمر بن محمد بن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه منكر الحديث ، ومقدار ما يرويه لا يتابع عليه » .

(٤) زيادة من ت .

(٥) أخرجه أبو القاسم الأصبهاني في الترغيب والترهيب برقم (١٦٩٩) من طريق أحمد بن جعفر الهاشمي عن سليمان بن الربيع عن كادح بن رحمة به .

(٦) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٢٣٤) « مجمع البحرين » من طريق يزيد بن عياض عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه .

(٧) أما حديث ابن عباس فسبق ، وأما حديث أبي بكر فرواه ابن عدى في الكامل (٣/ ٢٤٩) من طريق أبي داود النخعي ، عن أيوب بن موسى ، عن القاسم ، عن أبي بكر ، رضى الله عنه ، وداود النخعي وضاع .

(٨) في ت : « والسائل » .

(٩) الجامع لأخلاق الراوى (١/ ٢٧١) ثم قال عقبه : « وقد خالفه غيره من الأئمة المتقدمين في ذلك » .

(١٠) زيادة من ف ، أ .

(١١) في ت ، ف ، أ : « كان » .

فقال قائلون : يجوز ذلك ، واحتجوا بقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ ، وبقوله : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [البقرة : ١٥٧] ، وبقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ^(١) وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣] ، وبحديث عبد الله بن أبي أوفى قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : « اللهم صل عليهم » . وأتاه أبى بصدقته فقال : « اللهم صل على آل أبى أوفى » . أخرجاه فى الصحيحين . وبحديث جابر : أن امرأته قالت : يا رسول الله ، صل على وعلى زوجى . فقال : « صلى الله عليك وعلى زوجك » ^(٢) .

وقال الجمهور من العلماء : لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة ؛ لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا ، فلا يلحق بهم غيرهم ، فلا يقال : « قال أبو بكر صلى الله عليه » . أو : « قال على صلى الله عليه » . وإن كان المعنى صحيحاً ، كما لا يقال : « قال محمد ، عز وجل » ، وإن كان عزيزاً جليلاً ؛ لأن هذا من شعار ذكر الله ، عز وجل . وحملوا ما ورد فى ذلك من الكتاب والسنة على الدعاء لهم ؛ ولهذا لم يثبت شعاراً لآل أبى أوفى ، ولا لجابر وامرأته . وهذا مسلك حسن .

وقال آخرون : لا يجوز ذلك ؛ لأن الصلاة على غير الأنبياء قد صارت من شعار أهل الأهواء ، يصلون على من يعتقدون فيهم ، فلا يقتدى بهم فى ذلك ، والله أعلم .

ثم اختلف المانعون من ذلك : هل هو من باب التحريم ، أو الكراهة التنزيهية ، أو خلاف الأولى ؟ على ثلاثة أقوال ، حكاهما الشيخ أبو زكريا النووى فى كتاب الأذكار . ثم قال : والصحيح الذى عليه الأكثرون أنه مكروه كراهة تنزيه ؛ لأنه شعار أهل البدع ، وقد نهينا عن شعارهم ، والمكروه هو ما ورد فيه نهى مقصود . قال أصحابنا : والمعتمد فى ذلك أن الصلاة صارت مخصوصة فى اللسان ^(٣) بالأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم ، كما أن قولنا : « عز وجل » ، مخصوص بالله سبحانه وتعالى ، فكما لا يقال : « محمد عز وجل » ، وإن كان عزيزاً جليلاً ، لا يقال : « أبو بكر - أو : على - صلى الله عليه » . هذا لفظه بحروفه . قال : وأما السلام فقال الشيخ أبو محمد الجوينى من أصحابنا : هو فى معنى الصلاة ، فلا يستعمل فى الغائب ، ولا يفرد به غير الأنبياء ، فلا يقال : « على عليه السلام » ، وسواء فى هذا الأحياء والأموات ، وأما الحاضر فيخاطب به ، فيقال : سلام عليكم ، أو سلام عليك ، أو السلام عليك أو عليكم . وهذا مجمع عليه . انتهى ما ذكره ^(٤) .

قلت : وقد غلب هذا فى عبارة كثير من النساخ للكتب ، أن يفرد على ، رضى الله عنه ، بأن يقال : « عليه السلام » ، من دون سائر الصحابة ، أو : « كرم الله وجهه » وهذا وإن كان معناه

(١) فى ت ، ف : « تطهرهم بها وتزكئهم » وهو خطأ .

(٢) تقدم تخريج هذين الحديثين فى هذه السورة .

(٣) فى ت ، ف ، أ : « فى لسان السلف » .

(٤) الأذكار ص (١٥٩ ، ١٦٠) .

صحيحاً ، لكن ينبغي أن يُسأوى بين الصحابة في ذلك ؛ فإن هذا من باب التعظيم والتكريم ، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان [بن عفان] (١) أولى بذلك منه ، رضى الله عنهم أجمعين .

قال إسماعيل القاضي : حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثني عثمان بن حكيم بن عباد بن حنيفة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال : لا تصح (٢) الصلاة على أحد إلا على النبي ﷺ ، ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالمغفرة (٣) (٤) .

وقال أيضاً : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا حسين بن علي ، عن جعفر بن برقان قال : كتب عمر بن عبد العزيز ، رحمه الله : أما بعد ، فإن أناساً من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة ، وإن ناساً من القصاص قد أحدثوا في الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل الصلاة على النبي ﷺ ، فإذا جاءك كتابي هذا فمرهم أن تكون صلاتهم على النبيين ودعائهم للمسلمين عامة ، ويدعوا ما سوى ذلك . أثر حسن (٥) .

قال إسماعيل القاضي : حدثنا معاذ بن أسد ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثني خالد بن يزيد ، عن سعيد بن أبي هلال ، عن نبيه بن وهب ؛ أن كعباً دخل على عائشة ، رضى الله عنها ، فذكروا رسول الله ﷺ ، فقال كعب : ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي ﷺ ، سبعون ألفاً بالليل ، وسبعون ألفاً بالنهار ، حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يزفونه (٦) .

[فرع] (٧) :

قال النووي : إذا صلى على النبي ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم ، فلا يقتصر على أحدهما فلا يقول : « صلى الله عليه فقط » ، ولا : « عليه السلام » فقط ، وهذا الذي قاله منتزع من هذه الآية الكريمة ، وهى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ، فالأولى أن يقال : ﷺ تسليماً .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٥٨) ﴾ .

(١) زيادة من ف .

(٢) فى ت ، ف ، أ : « لا تصلح » .

(٣) فى ت ، ف ، أ : « بالاستغفار » .

(٤) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٧٥) ولفظه عنده « لا تصلوا على أحد إلا على النبي ﷺ ، ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالاستغفار » .

(٥) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٧٦) .

(٦) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (١٠٢) .

(٧) زيادة من : ت ، أ .

يقول تعالى : متهدداً ومتوعداً مَنْ آذاه ، بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك ، وأذى رسوله بغيب أو تنقص ، عياداً بالله من ذلك .

قال عكرمة فى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ : نزلت فى المصوّرين .

وفى الصحيحين ، من حديث سفيان بن عيينة ، عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله ، عز وجل : يؤذنى ابن آدم ، يَسُبُّ الدهر ، وأنا الدهر ، أقلب ليله ونهاره » (١) .

ومعنى هذا : أن الجاهلية كانوا يقولون : يا خيبة الدهر ، فعل بنا كذا وكذا . فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ، ويسبونه ، وإنما الفاعل لذلك هو الله ، عز وجل ، فنهى عن ذلك . هكذا قرره الشافعى وأبو عبيد وغيرهما من العلماء ، رحمهم الله .

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ : نزلت فى الذين طعنوا [على النبى ﷺ] (٢) فى تزويجه صفية بنت حيى بن أخطب .

والظاهر أن الآية عامة فى كل من آذاه بشيء ، من آذاه فقد آذى الله ، ومن (٣) أطاعه فقد أطاع الله ، كما قال (٤) الإمام أحمد :

حدثنا يونس ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، عن عبيدة بن أبى رائلة الحذاء التميمى ، عن عبد الرحمن [بن زياد] (٥) ، عن عبد الله بن المغفل المزنى قال : قال النبى ﷺ : « الله الله فى أصحابى ، لا تتخذوهم غرَضاً بعدى ، فمن أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » .

وقد رواه الترمذى من حديث عبيدة بن أبى رائلة ، عن عبد الرحمن بن زياد ، عن عبد الله بن المغفل ، به . ثم قال : وهذا حديث غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه (٦) .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا ﴾ أى : ينسبون إليهم ما هم برّاء منه لم يعملوه ولم يفعلوه ، ﴿ فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ وهذا هو البهت البين أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه ، على سبيل العيب والتنقص (٧) لهم ، ومن أكثر من يدخل فى هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله (٨) ، ثم الرافضة الذين يتنقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برّاهم الله منه ، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم ؛ فإن الله ، عز وجل ، قد أخبر أنه قد رضى عن المهاجرين

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٢٦) وصحيح مسلم برقم (٢٢٤٦) .

(٢) زيادة من ت ، أ .

(٣) فى أ : « كما أن من » .

(٤) فى ت : « كما روى » .

(٥) زيادة من ت ، أ ، والمسنَد .

(٦) المسند (٨٧/٤) وسنن الترمذى برقم (٣٨٦٢) .

(٧) فى ت : « والنقص » .

(٨) فى أ : « ورسله » .

والأنصار ومدحهم ، وهؤلاء الجهلاء الأغبياء يسبونهم ويتنقصونهم^(١) ، ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبداً ، فهم فى الحقيقة منكوسو القلوب^(٢) ، يذمون المدوحين ، ويمدحون المذمومين .

وقال^(٣) أبو داود : حدثنا القَعْنَبِيُّ ، حدثنا عبد العزيز - يعنى : ابن محمد - عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، أنه قيل : يا رسول الله ، ما الغيبة ؟ قال : « ذِكْرُكَ أَخَاكَ بما يكره » . قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » .

وهكذا رواه الترمذى ، عن قتيبة ، عن الدراوردى ، به . قال : حسن صحيح^(٤) .

وقد قال^(٥) ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سلمة ، حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا معاوية بن هشام ، عن عمار بن أنس ، عن ابن أبى مُلَيْكَةَ ، عن عائشة ، قالت : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أىُّ الربا أربى عند الله ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « أربى الربا عند الله استحلالُ عرض امرئ مسلم » ، ثم قرأ : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾^(٦) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾^(٥٩) لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لَنُغْرِيبَنَّ بِهَمِّ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا^(٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا^(٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا^(٦٢) .

يقول تعالى أمراً رسوله ، صلى الله عليه وسلم تسليماً ، أن يأمر النساء المؤمنات - خاصة أزواجه وبناته لشرفهن - بأن يدنين عليهن من جلابيبن ، ليميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإماء . والجلباب هو : الرداء فوق الخمار . قاله ابن مسعود ، وعبيدة ، وقتادة ، والحسن البصرى ، وسعيد ابن جبیر ، وإبراهيم النَّخَعِيُّ ، وعطاء الخراسانى ، وغير واحد . وهو بمنزلة الإزار اليوم .

قاله الجوهرى : الجلباب : الملحفة ، قالت امرأة من هذيل ترثى قتيلاً لها :

تَمْشَى النَّسْرُ إِلَيْهِ وَهِيَ لَاهِيَةٌ مَشَى الْعَذَارَى عَلَيْهِنَّ الْجَلَابِيْبُ^(٧) .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : أمر الله نساء المؤمنين^(٨) إذا خرجن من بيوتهن فى

(١) فى ١ : « ويتنقصونهم » . (٢) فى ٢ : « قلوبهم منكوسة » . (٣) فى ٣ : « وروى » .

(٤) سنن أبى داود برقم (٤٨٧٤) وسنن الترمذى برقم (١٩٣٤) .

(٥) فى ٥ : « وروى » .

(٦) ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٦٧١١) من طريق يحيى بن واضح عن عمار بن أنس ، به .

(٧) الصحاح (١٠١/١) .

(٨) فى ٨ : ف ، أ : « المؤمنات » .

حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ، ويبدن عينا واحدة .

وقال محمد بن سيرين : سألت عبيدة السلماني عن قول الله تعالى : ﴿ يَدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ ، فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى .

وقال عكرمة : تغطي ثُغرة نحرها بجلابيبها تدنيه عليها .

وقال (١) ابن أبي حاتم : أخبرنا أبو عبد الله الطهراني (٢) فيما كتب إلى ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن ابن خثيم ، عن صفية بنت شيبة ، عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿ يَدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ ، خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة ، وعليهن أكسية سود يلبسناها (٣) .

وقال (٤) ابن أبي حاتم ، حدثنا أبي ، حدثنا أبو صالح ، حدثني الليث ، حدثنا يونس بن يزيد قال: وسألناه (٥) - يعني : الزهري - : هل على الوليدة خمار متزوجة أو غير متزوجة ؟ قال : عليها الخمار إن كانت متزوجة ، وتنهى عن الجلباب لأنه يكره لهن أن يتشبهن بالحرائر إلا محصنات (٦) . وقد قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ .

وروى عن سفيان الثوري أنه قال : لا بأس بالنظر إلى زينة نساء أهل الذمة ، إنما ينهى عن ذلك لخوف الفتنة ؛ لا لحرمتهن ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ أى : إذا فعلن ذلك عُرفنَ أَنَّهُنَّ حرائر ، لسن بإماء ولا عواهر، قال السدي فى قوله تعالى : ﴿ [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ] قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ قال : كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة ، يتعرضون للنساء ، وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة ، فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن ، فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن ، فإذا رأوا امرأة عليها جلباب قالوا : هذه حرة ، كفوا عنها . وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب، قالوا : هذه أمة . فوثبوا إليها (٨) .

وقال مجاهد : يتجلبن فيعلم أَنَّهُنَّ حرائر ، فلا يعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة .

وقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أى : لما سلف فى أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك .

ثم قال تعالى متوعداً للمنافقين ، وهم الذين يظهرون الإيمان ويبتغون الكفر : ﴿ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ قال عكرمة وغيره : هم الزناة هاهنا ﴿ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ يعنى: الذين يقولون: « جاء

(١) فى ت : « وروى » . (٢) فى أ : « الطبراني » .

(٣) تفسير عبد الرزاق (١٠١ / ٢) ورواه الحسن بن مسلم عن صفية بنت شيبة عن عائشة مثله ، وأخرجه البخارى فى صحيحه برقم (٤٧٥٩) .

(٤) فى ت : « وروى » . (٥) فى ت : « سئل » . (٦) فى أ : « بالحرائر المحصنات » .

(٨) فى ت ، ف : « عليها » . (٧) زيادة من أ .

الأعداء » و « جاءت الحروب » ، وهو كذب وافتراء ، لئن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : أى : لنسلطنك عليهم . وقال قتادة ، رحمه الله : لنحرشئك بهم . وقال السدى : لنعلمنك بهم .

﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا﴾ أى : فى المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا . مُلْعُونِينَ﴾ حال منهم فى مدة إقامتهم فى المدينة مدة قريبة مطرودين مبعدين ، ﴿أَيْنَمَا تَقِفُوا﴾ أى : وجدوا ، ﴿أُخِذُوا﴾ لذلتهم وقتلتهم ، ﴿وَقَتِلُوا تَقْتِيلًا﴾ .

ثم قال : ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أى : هذه سنته فى المنافقين إذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه ، أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم ، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أى : وسنة الله فى ذلك لا تبدل ولا تغير .

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ (٦٣) **إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا** (٦٤) **خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا** (٦٥) **يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ** (٦٦) **وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا** (٦٧) **رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنَا كَبِيرًا** (٦٨) .

يقول تعالى مخبراً لرسوله ﷺ : أنه لا علم له بالساعة ، وإن سأله الناس عن ذلك . وأرشده أن يرد علمها إلى الله ، عز وجل ، كما قال له فى سورة « الأعراف » ، وهى مكية وهذه مدنية ، فاستمر الحال فى ردّ علمها إلى الذى يقيمها ، لكن (١) أخبره أنها قريبة بقوله : ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ، كما قال : ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر : ١] ، وقال : ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء : ١] ، وقال : ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل : ١] .

ثم قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾ أى : أبعدهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ أى : فى الدار الآخرة : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أى : ماكثين مستمرين ، فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها ، ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أى : وليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه .

ثم قال : ﴿يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ أى : يسحبون فى النار على وجوههم ، وتلوى وجوههم على جهنم ، يقولون وهم كذلك ، يتمنون أن لو كانوا فى الدار الدنيا بمن أطاع الله وأطاع الرسول ، كما أخبر عنهم فى حال العرصات بقوله : ﴿وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا . يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ

(١) فى ت : « لكنه » .

الذِّكْرَ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ رَبُّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ [الحجر : ٢] . وهكذا أخبر عنهم في حالتهم ^(١) هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا ، ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ . وقال طاوس : سادتنا : يعني الأشراف ، وكبراءنا : يعني العلماء . رواه ابن أبي حاتم .

أى : اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة ، وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئاً ، وأنهم على شيء فإذا هم ليسوا على شيء ، ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ أى : بكفرهم وإغوائهم إيانا ، ﴿ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَثِيرًا ﴾ ^(٢) . قرأ بعض القراء بالباء الموحدة . وقرأ آخرون بالثاء المثلثة ، وهما قريباً المعنى ، كما فى حديث عبد الله بن عمرو : أن أبا بكر قال : يا رسول الله ، علمنى دعاء أدعوه به فى صلاتى . قال : « قل : اللهم ، إني ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم » . أخرجاه فى الصحيحين ^(٣) ، يروى « كبيراً » و « كثيراً » ، وكلاهما بمعنى صحيح .

واستحب بعضهم أن يجمع الداعى بين اللفظين فى دعائه ، وفى ذلك نظر ، بل الأولى أن يقول هذا تارة ، وهذا تارة ، كما أن القارئ مخير بين القراءتين أيتهما قرأ فحَسَنَ ، وليس له الجمع بينهما ، والله أعلم .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا ضَرَّارُ بْنُ صُرْدٍ ، حدثنا على بن هاشم ، عن [محمد بن] ^(٤) عبيد الله بن أبى رافع ، عن أبيه ^(٥) ، فى تسمية من شهد مع على ، رضى الله عنه : الحجاج بن عمرو بن غزوة ، وهو الذى كان يقول عند اللقاء : يا معشر الأنصار ، أتريدون أن تقولوا لربنا إذا لقيناه : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا . رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ ؟ ^(٦) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ (٦٩) .

قال البخارى عند تفسير ^(٧) هذه الآية : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا روح بن عبادة ، حدثنا عوف ، عن الحسن [ومحمد] ^(٨) وخلاس ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن موسى كان رجلاً حيّاً ، وذلك قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ ^(٩) .

(١) فى ت ، ف ، أ : « حالهم » . (٢) فى ت : « كثيراً كبيراً أو كلاهما » وفى ف ، أ : « كبيراً » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٨٣٤) وصحيح مسلم برقم (٢٧٠٥) .

(٤) زيادة من المعجم الكبير للطبرانى . (٥) فى ت : « وروى أبو القاسم الطبرانى بإسناده عن أبى رافع » .

(٦) المعجم الكبير (٢٢٣ / ٣) .

(٧) فى ت : « روى البخارى عند تفسيره » . (٨) زيادة من ت ، أ ، والبخارى .

(٩) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٩) .

هكذا أورد هذا الحديث هاهنا مختصراً جداً ، وقد رواه في أحاديث « الأنبياء » بهذا السند بعينه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن موسى ، عليه السلام ، كان رجلاً حَيًّا سَتِيْرًا ، لا يُرى من جلده شيء استحياء منه ، فأذاهُ من آذاهُ من بنى إسرائيل ، فقالوا : ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده ، إما برص وإما أدرّة وإما آفة ، وإن الله ، عز وجل ، أراد أن يُبرِّئه مما قالوا لموسى ، عليه السلام ، فخلا يوماً وحده ، فخلع ثيابه على حجر ، ثم اغتسل ، فلماً فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبى حَجَر ، ثوبى حَجَر ، حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل ، فأروه عُرِيَاناً أحسن ما خلق الله ، عز وجل ، وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر ، فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه ، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً - قال : فذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ .

وهذا سياق حسن مطول ، وهذا الحديث من أفراد البخارى دون مسلم (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا روح ، حدثنا عوف ، عن الحسن ، عن النبي ﷺ - وخلاس ، ومحمد ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ قال : قال النبي ﷺ : « إن موسى كان رجلاً حَيًّا سَتِيْرًا ، لا يكاد يرى من جلده شيء استحياء منه » (٢) .

ثم ساق الحديث كما رواه البخارى مطولاً ، ورواه في تفسيره (٣) عن روح ، عن عوف ، به . ورواه ابن جرير من حديث الثورى ، عن جابر الجعفى ، عن عامر الشعبي ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بنحو هذا (٤) . وهكذا رواه من حديث سليمان بن مهران الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، وعبد الله بن الحارث ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى ﴾ قال : قال قومه له : إنك آدر . فخرج ذات يوم يغتسل ، فوضع ثيابه على صخرة ، فخرجت الصخرة تشتد بثيابه ، وخرج يتبعها عرياناً حتى انتهت به مجالس بنى إسرائيل ، قال : فأروه ليس بآدر ، فذلك قوله : ﴿ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ .

وهكذا رواه العوفى ، عن ابن عباس سواء .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا روح بن حاتم وأحمد بن المولى الأدمى قالا : حدثنا يحيى بن حماد ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن أنس ، عن النبي ﷺ قال : « كان موسى ، عليه السلام ، رجلاً حَيًّا ، وإنه أتى - أحسبه قال : الماء - ليغتسل ، فوضع ثيابه على صخرة ، وكان لا يكاد تبدو عورته ، فقال (٥) بنو إسرائيل : إن موسى آدر - أو : به آفة ، يعنون : أنه لا يضع ثيابه -

(١) صحيح البخارى برقم (٣٤٠٤) .

(٢) المسند (٥١٤/٣) .

(٣) فى أ : « ورواه عنه فى تفسيره » .

(٤) تفسير الطبرى (٣٦/٢٢) .

(٥) فى ف ، أ : « فقالت » .

فاحتملت الصخرة ثيابة حتى صارت بحذاء مجالس بنى إسرائيل ، فنظروا إلى موسى كأحسن الرجال ، أو كما قال ، فذلك قوله : ﴿ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ (١) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا عباد بن العوام ، عن سفيان ابن حسين ، حدثنا الحكم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (٢) ، عن علي بن أبي طالب ، رضى الله عنهم ، فى قوله : ﴿ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ قال : صعد موسى وهارون الجبل ، فمات هارون ، عليه السلام ، فقال بنو إسرائيل لموسى ، عليه السلام : أنت قتلتنا ، كان ألين لنا منك وأشد حياء . فأذوه من ذلك ، فأمر الله الملائكة فحملته ، فمروا (٣) به على مجالس بنى إسرائيل ، فتكلمت بموته ، فما عرف موضع قبره إلا الرخم ، وإن الله جعله أصم أبكم .

وهكذا رواه ابن جرير ، عن علي بن موسى الطوسى ، عن عباد بن العوام ، به (٤) .

ثم قال : وجائز أن يكون هذا هو المراد بالأذى ، وجائز أن يكون الأول هو المراد ، فلا قول أولى من قول الله ، عز وجل .

قلت : يحتمل أن يكون الكل مراداً ، وأن يكون معه غيره ، والله أعلم .

قال (٥) الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن شقيق ، عن عبد الله قال : قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسماً ، فقال رجل من الأنصار : إن هذه القسمة (٦) ما أريد بها وجه الله . قال : فقلت : يا عدو الله ، أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت . قال : فذكر (٧) ذلك للنبي ﷺ فاحمر وجهه ، ثم قال : « رحمة الله على موسى ، لقد أودى بأكثر من هذا فصبر » .

أخرجه فى الصحيحين (٨) من حديث سليمان بن مهران الأعمش ، به (٩) .

طريق أخرى : قال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، سمعت إسرائيل بن يونس ، عن الوليد بن أبي هاشم (١٠) - مولى الهمداني ، عن زيد بن زائد ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « لا يبلغنى أحد من أصحابى عن أحد شيئاً ، فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا [سليم الصدر] » (١١) . فأتى رسول الله ﷺ مالٌ فقسمه ، قال : فمررت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه : والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة . قال : فَتَثَبْتُ حَتَّى سَمِعْتُ (١٢) ما قالوا ، ثم أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إنك قلت لنا : « لا يبلغنى أحد عن أصحابى شيئاً » ، وإنى مررت بفلان وفلان ، وهما يقولان كذا وكذا . فاحمر وجه رسول الله ﷺ وشقَّ عليه ، ثم قال : « دعنا منك ، لقد أودى موسى بأكثر من هذا ، فصبر » (١٣) .

(١) مسند البزار برقم (٢٢٥٢) «كشف الاستار» وقال الهيثمى فى المجمع (٩٢/٧) : « فيه إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة وهو متروك » .

(٢) فى ت : « وروى ابن أبي حاتم بإسناده » . (٣) فى أ : « فمرت » .

(٤) تفسير الطبرى (٣٧/٢٢) .

(٥) فى ت : « وروى » . (٦) فى أ : « لقسمة » .

(٧) فى ت ، أ : « فذكرت » . (٨) فى ت : « أخرجه البخارى ومسلم » .

(٩) المسند (٣٨٠/١) وصحيح البخارى برقم (٣٤٠٥) وصحيح مسلم برقم (١٠٦٢) .

(١٠) فى أ : « هشام » . (١١) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند . (١٢) فى أ : « فقلت حين سمعت » .

(١٣) المسند (٣٩٥/١) .

وقد رواه أبو داود في الأدب ، عن محمد [بن يحيى الذهلي ، عن محمد بن يوسف الفريابي ، عن إسرائيل عن الوليد] ^(١) بن أبي هاشم ^(٢) به مختصراً : « لا يبلغني أحد [من أصحابي] ^(٣) عن أحد شيئاً ؛ إني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » ^(٤) .

وكذا رواه الترمذي في « المناقب » ، عن الذهلي سواء ، إلا أنه قال : « زيد بن زائدة » . ورواه أيضاً عن محمد بن إسماعيل ، عن عبد الله بن محمد ، عن عبيد الله بن موسى وحسين بن محمد ، كلاهما عن إسرائيل ، عن السدي ، عن الوليد بن أبي هاشم ، به مختصراً أيضاً ، فزاد في إسناده السدي ، ثم قال : غريب من هذا الوجه ^(٥) .

وقوله : ﴿ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِهاً ﴾ أى : له وجهة وجاه عند ربه ، عز وجل .

قال الحسن البصري : كان مستجاب الدعوة عند الله . وقال غيره من السلف : لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه ، ولكن منع الرؤية لما يشاء الله ، عز وجل .

وقال بعضهم : من وجاهته العظيمة [عند الله] ^(٦) : أنه شفع في أخيه هارون أن يرسله الله معه ، فأجاب الله سؤاله ، وقال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٥٣] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً ﴾ (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ (٧١) .

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه ، وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه ، وأن يقولوا ﴿ قَوْلًا سَدِيداً ﴾ أى : مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف . ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك ، أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم ، أى : يوفقهم للأعمال الصالحة ، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية . وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها .

ثم قال : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ : وذلك أنه يجاز من النار ، ويصير إلى النعيم المقيم .

قال ^(٧) ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عمرو بن عون ، حدثنا خالد ، عن ليث ، عن أبي بردة ، عن أبي موسى الأشعري قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر ، فلما انصرف أوماً إلينا بيده فجلسنا ، فقال : « إن الله أمرني أن آمركم ، أن تتقوا الله وتقولوا قولاً سديداً » . ثم أتى النساء فقال : « إن الله أمرني أن آمركن : أن تتقين الله وتقلن قولاً سديداً » ^(٨) .

وقال ^(٩) ابن أبي الدنيا في كتاب « التقوى » : حدثنا محمد بن عباد بن موسى ، حدثنا عبد

(١) زيادة من ت ، ف ، أ ، وأبي داود . (٢) فى ف ، أ : « هشام » . (٣) زيادة من ت ، ف ، أ ، وأبي داود .

(٤) سنن أبي داود برقم (٤٨٦٠) .

(٥) سنن الترمذي برقم (٣٨٩٦) .

(٦) زيادة من ت . (٧) فى ت : « وروى » .

(٨) ورواه أحمد فى مسنده (٣٩١/٤) من طريق شيبان عن ليث ، به .

العزير بن عمران الزهرى ، حدثنا عيسى بن سَمُرَةَ ، عن هشام بن عُرْوَةَ ، عن أبيه (٢) ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : ما قام رسول الله ﷺ على المنبر إلا سمعته يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ الآية . غريب جدًا .

وروى من حديث عبد الرحيم بن زيد العمى ، عن أبيه ، عن محمد بن كعب ، عن ابن عباس موقوفاً (٣) ، من سره أن يكون أكرم الناس ، فليتنق الله . قال عكرمة : القول السديد : لا إله إلا الله .

وقال غيره : السديد : الصدق . وقال مجاهد : هو السداد . وقال غيره : هو الصواب . والكل حق .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٧٣) .

قال العوفى ، عن ابن عباس : يعنى بالأمانة : الطاعة ، وعرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم ، فلم يطقها (٤) . فقال لآدم : إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها (٥) ، فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال : يا رب ، وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . فأخذها آدم فتحملها ، فذلك قوله : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، الأمانة : الفرائض ، عرضها الله على السموات والأرض والجبال ، إن أدوها أثابهم . وإن ضيعوها عذبهم (٦) ، فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية ، ولكن تعظيماً لدين الله ألا يقوموا بها ، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها ، وهو (٧) قوله : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ يعنى : غراً بأمر الله .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، عن أبى بشر (٨) ، عن سعيد بن جبير ، عن (٩) ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ قال : عرضت على آدم فقال : خذها بما فيها ، فإن أطعت غفرت لك ، وإن عصيت عذبتك . قال : قبلت ، فما كان إلا قدر ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم ، حتى أصاب الخطيئة .

وقد روى الضحاك ، عن ابن عباس ، قريباً من هذا . وفيه نظر وانقطاع بين الضحاك وبينه ، والله أعلم . وهكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، والحسن البصرى ، وغير واحد :

(١) فى ت : « وروى » . (٢) فى ت : « بسنده » . (٣) فى ت : « مرفوعاً » .
(٤) فى ت : « يطقها » ، وفى أ : « يطنها » . (٥) فى أ : « يطنها » . (٦) فى ت ، أ : « عذبهم الله » .
(٧) فى أ : « وهى » . (٨) فى أ : « حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن أبى بشر » .
(٩) فى ت : « وروى ابن جرير بسنده إلى » .

[ألا] ^(١) إن الأمانة هي الفرائض .

وقال آخرون : هي الطاعة .

وقال الأعمش ، عن أبي الضحى ، عن مسروق [قال] ^(٢) : قال أبي بن كعب : من الأمانة أن المرأة أؤتمنت على فرجها .

وقال قتادة : الأمانة : الدين والفرائض والحدود .

وقال بعضهم : الغسل من الجنابة .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم قال : الأمانة ثلاثة : الصلاة ، والصوم ، والاغتسال من الجنابة .

وكل هذه الأقوال لا تنافى بينها ، بل هي ^(٣) متفقة وراجعة إلى أنها التكليف ، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها ، وهو أنه إن قام بذلك أثيب ، وإن تركها عُوِّبَ ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه ، إلا من وفق الله ، وبالله المستعان .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبد العزيز بن المغيرة [البصرى] ^(٤) ، حدثنا حماد بن واقد - يعنى : أبا عمر الصفار - سمعت أبا معمر ^(٥) - يعنى : عون بن معمر - يحدث عن الحسن - يعنى : البصرى ^(٦) - أنه تلا هذه الآية : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ﴾ قال : عرضها على السبع الطبايق الطرائق التى زينت بالنجوم ، وحملة العرش العظيم ، فقيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : قيل لها : إن أحسنت جُزيت ، وإن أسأت عُوِّبت . قالت : لا . ثم عرضها على الأرضين السبع الشداد ، التى شدت بالأوتاد ، وذلت بالمهاد ، قال : فقيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : قيل لها : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . قالت : لا . ثم عرضها على الجبال الشم ^(٧) الشوامخ الصعاب الصلاب ، قال : قيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : قيل لها : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . قالت : لا .

وقال مقاتل بن حيان : إن الله حين خلق خلقه ، جمع بين الإنس والجن ، والسموات والأرض والجبال ، فبدأ بالسموات فعرض عليهن الأمانة وهى الطاعة ، فقال لهن : أتحملن هذه الأمانة ، ولكن على الفضل والكرامة والثواب فى الجنة . . ؟ فقلن : يا رب ، إنا لا نستطيع هذا الأمر ، وليست بنا قوة ، ولكننا لك مطيعين . ثم عرض الأمانة على الأرضين ، فقال لهن : أتحملن هذه الأمانة وتقبلنهن منى ، وأعطيكن الفضل والكرامة ^(٨) ؟ فقلن : لا صبر لنا على هذا يا رب ولا نطق ، ولكننا لك سامعين مطيعين ، لا نعصيك فى شيء تأمرنا به . ثم قرب آدم فقال له : أتحمل هذه الأمانة وترعاها حق رعايتها ؟ فقال عند ذلك آدم : ما لى عندك ؟ قال : يا آدم ، إن أحسنت وأطعت ورعيت الأمانة ، فلك عندى الكرامة والفضل وحسن الثواب فى الجنة . وإن عصيت ولم ترعها حق رعايتها

(٤) زيادة من أ .

(٣) فى ت : « وهى » .

(١) (٢) زيادة من أ .

(٦) فى ت : « وروى ابن أبي حاتم عن الحسن البصرى » .

(٥) فى أ : « أبا عمر » .

(٨) فى أ : « والكرامة فى الدنيا » .

(٧) فى أ : « الصم » .

وأَسَات ، فَإِنِّي مَعَذِبُكَ وَمَعَاذُكَ النَّارُ . قَالَ : رَضِيتَ [يَا] ^(١) رَبِّ . وَتَحَمَّلَهَا ^(٢) ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : قَدْ حَمَلْتُكَهَا . فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾ . رواه ابن أبي حاتم .

وعن ^(٣) مجاهد أنه قال : عرضها على السموات فقالت : يا رب ، حملتني الكواكب وسكان السماء وما ذكر ، وما أريد ثوابا ولا أحمل فريضة . قال : وعرضها على الأرض فقالت : يا رب ، غرست في الأشجار ، وأجريت في الأنهار وسكان الأرض وما ذكر ، وما أريد ثوابا ولا أحمل فريضة . وقالت الجبال مثل ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ في عاقبة أمره . وهكذا قال ابن جرير .

وعن ابن أشوع أنه قال : لما عرض الله عليهن حمل الأمانة ، ضَجَّجْنَ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالِيَهُنَّ ، وَقَلْنَ : رَبَّنَا . لَا طَاقَةَ لَنَا بِالْعَمَلِ ، وَلَا نَرِيدُ الثَّوَابَ .

ثم قال ^(٤) ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا هارون بن زيد بن أبي الزرقاء الموصلي ، حدثنا أبي ، حدثنا هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم في هذه الآية : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ﴾ [الآية] ^(٥) ، فقال الإنسان : بين أذني وعاتقي فقال الله تعالى ^(٦) : إِنِّي مُعِينُكَ عَلَيْهَا ، أَيُّ : مُعِينُكَ عَلَى عَيْنِكَ بِطَبَقَتَيْنِ ، فَإِذَا نَازَعَاكَ إِلَى مَا أَكْرَهَ فَاطْبُقْ . وَمُعِينُكَ عَلَى لِسَانِكَ بِطَبَقَتَيْنِ ، فَإِذَا نَازَعَاكَ إِلَى مَا أَكْرَهَ فَاطْبُقْ . وَمُعِينُكَ عَلَى فَرْجِكَ بِلِبَاسٍ ، فَلَا تَكْشِفْهُ إِلَى مَا أَكْرَهَ .

ثم روى عن أبي حازم نحو هذا .

وقال ابن جرير : حدثنا يونس ، حدثنا ابن وهب قال : قال ابن زيد في قول الله ، عز وجل : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ قال : إن الله عرض عليهن الأمانة أن يفترض عليهن الدين ، ويجعل لهن ثوابا وعقابا ، ويستأمنهن على الدين . فقلن : لا ، نحن مسخرات لأمرك ، لا نريد ثوابا ولا عقابا . قال ^(٧) : وعرضها الله على آدم فقال : بين أذني وعاتقي . قال ابن زيد : فقال الله تعالى له : أما إذ تحملت هذا فسأعنيك ، أجعل لبصرك حجابا ، فإذا خشيت أن تنظر إلى ما لا يحل لك فأرخ عليه حجابه ، وأجعل للسانك بابا وغلقا ، فإذا خشيت فأغلق ، وأجعل لفرجك لباسا فلا تكشفه إلا على ما أحللت لك .

وقال ابن جرير : حدثني سعيد ^(٨) بن عمرو السَّكُونِي ، حدثنا بَقِيَّةٌ ، حدثنا عيسى بن إبراهيم ، عن موسى بن أبي حبيب ، عن ^(٩) الحكم بن عمير - وكان من أصحاب النبي ﷺ - قال : قال النبي ﷺ : « إِنْ الْأَمَانَةَ وَالْوَفَاءَ نَزَلَا عَلَى ابْنِ آدَمَ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ ، فَأَرْسَلُوهُ بِهِ ، فَمِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ، وَمِنْهُمْ نَبِيٌّ ، وَمِنْهُمْ نَبِيٌّ رَسُولٌ ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ ، وَنَزَلَتِ الْعَرَبِيَّةُ وَالْعَجَمِيَّةُ ، فَعَلِمُوا أَمْرَ الْقُرْآنِ وَعَلِمُوا أَمْرَ السَّنَنِ بِالسُّنَنِ ، وَلَمْ يَدْعِ اللَّهُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ مِمَّا يَأْتُونَ وَمَا يَجْتَنِبُونَ وَهِيَ الْحَجَجُ عَلَيْهِمْ ، إِلَّا بَيْنَهُ لِهِمْ . فَلَيْسَ أَهْلُ لِسَانٍ إِلَّا وَهُمْ يَعْرِفُونَ الْحَسْنَ وَالْقَبِيحَ ، ثُمَّ الْأَمَانَةُ أَوَّلُ شَيْءٍ يَرْفَعُ وَيَبْقَى »

(١) زيادة من أ .

(٢) في أ : « وتحملتها » .

(٣) في ت : « ثم روى » .

(٤) في ت ، ف ، أ .

(٥) في ت : « وقال » .

(٦) في ت : « ثم روى » .

(٧) في ت : « وروى ابن جرير بإسناده إلى » .

(٨) في أ : « سعد » .

(٩) في ت : « وقال رسول الله ﷺ »

الله عنه ، عن النبي ﷺ ، بنحوه . ولم يذكر: « الأمانة في الصلاة وفي كل شيء » (١) . إسناده جيد، ولم يخرجوه .

ومما يتعلق بالأمانة الحديث الذي رواه الإمام أحمد (٢) :

حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن زيد بن وهب ، عن حذيفة قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا « أن الأمانة نزلت في جذر (٣) قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة » . ثم حدثنا عن رفع الأمانة ، فقال : « ينال الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر [الوكت ، فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر] (٤) المجل كجمر دحرجته [على رجله ، تراه مُتَبَرِّكاً وليس فيه شيء » . قال : ثم أخذ حصي (٥) فدحرجه [(٦) على رجله ، قال : « فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة ، حتى يقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً ، حتى يقال للرجل : ما أجمله وأظرفه وأعقله . وما في قلبه حبة من خردل من إيمان . ولقد أتى على زمان وما أبالي أيكم بايعت ، إن كان مسلماً ليردنه على دينه ، وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه على ساعيه ، فأما اليوم فما كنت أباع منكم إلا فلانا وفلانا .

وأخرجه في الصحيحين من حديث الأعمش ، به (٧) .

وقال (٨) الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، عن الحارث بن يزيد (٩) الحضرمي ، عن عبد الله بن عمرو ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « أربع إذا كنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة ، وصديق حديث ، وحسن خليفة ، وعفة طعمة » .

هكذا رواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص (١٠) .

وقد قال الطبراني في مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب : حدثني يحيى بن أيوب العلاف المصري (١١) ، حدثنا سعيد بن أبي مريم ، حدثنا ابن لهيعة ، عن الحارث بن يزيد ، عن ابن حجرية ، عن عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أربع إذا كنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة ، وصديق حديث ، وحسن خليفة ، وعفة طعمة » . فزاد في الإسناد : « ابن حجرية » ، وجعله من (١٢) مسند ابن عمر (١٣) .

(١) تفسير الطبري (٢٢ / ٤٠) .

(٢) في ت : « الذي في الصحيحين » .

(٣) في أ : « صدر » .

(٤) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسنَد .

(٥) في ت ، أ : « حصاة » .

(٦) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسنَد .

(٧) المسند (٥ / ٢٨٣) وصحيح البخاري برقم (٦٤٩٧) وصحيح مسلم برقم (١٤٣) .

(٨) في ت : « وروى » .

(٩) في أ : « زيد » .

(١٠) المسند (٢ / ١٧٧) .

(١١) في أ : « في » .

(١٢) في ف ، أ : « المقرئ » .

(١٣) مجمع الزوائد (٤ / ١٤٥) وقال الهيثمي : « رواه أحمد والطبراني في الكبير ، وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

وقد ورد النهى عن الحلف بالأمانة ، قال عبد الله بن المبارك فى كتاب الزهد (١) : حدثنا شريك ، عن أبى إسحاق الشيبانى ، عن خُناص بن سُحيم - أو قال : جبلة بن سُحيم - قال : أقبلت مع زياد ابن حدير من الجابية فقلت فى كلامى : لا والأمانة . فجعل زياد يبكى ويبكى ، فظننت أنى أتيتُ أمراً عظيماً ، فقلت له : أكان يكره هذا ؟ فقال : نعم . كان عمر بن الخطاب ينهى عن الحلف بالأمانة أشد النهى (٢) .

وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع ، قال (٣) أبو داود : حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس ، حدثنا زهير ، حدثنا الوليد بن ثعلبة الطائى ، عن ابن بُريدة ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « من حلف بالأمانة فليس منا » ، تفرد به أبو داود ، رحمه الله (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ أى : إنما حمل ابن آدم الأمانة وهى التكليف ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات ، وهم الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله ، ﴿ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ ، وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ، عز وجل ، ومخالفة رسله ، ﴿ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أى : وليرحم (٥) المؤمنين من الخلق (٦) الذى آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ .

[آخر تفسير سورة « الأحزاب »] (٧)

(١) فى ت : « فروى ابن المبارك بإسناد » .

(٢) الزهد برقم (٢١٣) .

(٣) فى ت : « رواه » .

(٤) سنن أبى داود برقم (٣٢٥٣) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (١٣١٨) « موارد » من طريق وكيع عن الوليد بن ثعلبة ، به .

(٥) فى أ : « وليرحم الله » . (٦) فى أ : « الحلف » . (٧) زيادة من ف .

تفسير سورة سبأ

وهي مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ① يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ② ﴾ .

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة : أن له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة ؛ لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة ، المالك لجميع ذلك ، الحاكم في جميع ذلك ، كما قال : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٧٠] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : الجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وتصرفه ، كما قال : ﴿ وَإِنَّا لَنَآ لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ [الليل : ١٣] .

ثم قال : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ﴾ ، فهو المعبود ① أبداً ، المحمود على طول المدى . وقال : ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ أى : فى أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ، ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ الذى لا تخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه شئ .

وقال مالك عن الزهري : خبير بخلقه ، حكيم بأمره ؛ ولهذا قال : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ أى : يعلم عدد القطر النازل فى أجزاء الأرض ، والحب المبدور والكامن فيها ، ويعلم ما يخرج من ذلك : عدده وكيفيته وصفاته ، ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : من قطر ورزق ، ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أى : من الأعمال الصالحة وغير ذلك ، ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ أى : الرحيم بعباده فلا يعاجل عصاتهم بالعقوبة ، الغفور ② عن ذنوب [عباده] ③ التائبين إليه المتوكلين عليه .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ③ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ④ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ⑤ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ⑥ ﴾ .

(٣) زيادة من أ .

(٢) فى ت : « الغفور » .

(١) فى أ : « للمحمود » .

هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهن ، مما أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد ، فأحداهن في سورة يونس : ﴿ وَيَسْتَبِشُّونَكَ أَهَقُ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ [يونس : ٥٣] ، والثانية هذه : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمْ ﴾ ، والثالثة في التغابن : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَفَرُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُعَذِّبُنَّهُمْ وَلَتَنْبَأُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن : ٧] ، فقوله : ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمْ ﴾^(١) ، ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره : ﴿ عَالَمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ .

قال مجاهد وقتادة : ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ ﴾ : لا يغيب عنه ، أى : الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه منه شيء ، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت ، فهو عالم أين ذهبت وأين^(٢) تفرقت ، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة ، فإنه بكل شيء عليم .

ثم بين حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ﴾ أى : سعوا في الصد عن سبيل الله وتكذيب رسله ، ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ﴾ أى : لينعم السعداء من المؤمنين ، ويعذب الأشقياء من الكافرين ، كما قال : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [الحشر : ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص : ٢٨] .

وقوله : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ : هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها ، وهى أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد علموه من كتب الله فى الدنيا رأوه حينئذ عين اليقين ، ويقولون يومئذ أيضاً : ﴿ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ٤٣] ، ويقال أيضاً : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس : ٥٢] ، ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ﴾ [الروم : ٥٦] ، ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ . العزيز هو : المنيع الجنب^(٤) ، الذى لا يغالب ولا يمانع ، بل قد قهر كل شيء ، الحميد فى جميع أقواله وأفعاله وشرعه ، وقدره ، وهو المحمود فى ذلك كله .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبْسِكُمْ إِذَا مِزَقْتُمْ كُلٌّ مِّمَّزَقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (٧) أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَاشِئَنَا خَسِيفٌ بِهِمُ الْأَرْضُ أَوْ نَسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩) .

(١) فى أ : « وإن » .

(٢) فى أ : « الجبار » .

(٣) فى ت : « ليأتينكم » .

(٤) فى س : « وترى » .

هذا إخبار من الله عن استبعاد الكفرة الملحدين قيام الساعة واستهزائهم بالرسول ﷺ في إخباره بذلك : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلُّ مُمْزِقٍ ۚ أَىٰ : تفرقت (١) أجسادكم في الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزقت كل ممزق : ﴿ إِنَّكُمْ ۚ أَىٰ : بعد هذا الحال ﴿ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ أَىٰ : تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك ، وهو في هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين : إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله أنه قد أوحى إليه ذلك ، أو أنه لم يتعمد لكن لبس عليه كما يلبس على المعتوه والمجنون ؛ ولهذا قالوا : ﴿ أَفَتُرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ۚ ؟ قال الله تعالى راداً عليهم : ﴿ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ۚ أَىٰ : ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه ، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الذي جاء بالحق ، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء ، ﴿ فِي الْعَذَابِ ۚ أَىٰ : [فى] (٢) الكفر المفضى بهم إلى عذاب الله ، ﴿ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ۚ من (٣) الحق فى الدنيا .

ثم قال منبهاً لهم على قدرته فى خلق السموات والأرض ، فقال : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ أَىٰ : حيثما (٤) توجهوا وذهبوا فالسما مظلّة مظللة عليهم ، والأرض تحتهم ، كما قال : ﴿ وَالسَّمَاءُ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ . وَالْأَرْضُ قَرَشْنَاهَا فَغَمَّ الْمَاهِدُونَ ﴿ [الذاريات : ٤٧ ، ٤٨] .

قال (٥) عبد بن حميد : أخبرنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ ؟ قال : إنك إن نظرت عن يمينك أو عن شمالك ، أو من بين يديك أو من خلفك ، رأيت السماء والأرض .

وقوله : ﴿ إِنْ نَشَأْ نُخَسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ ۚ أَىٰ : لو شئنا لفعلنا بهم ذلك لظلمهم وقدرتنا عليهم ، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا .

ثم قال : ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنبِئٍ ۚ : قال معمر ، عن قتادة : ﴿ مُّنبِئٍ ۚ : تائب .

وقال سفيان (٦) عن قتادة : المنيب : المقبل إلى (٧) الله عز وجل .

أى : إن فى النظر إلى خلق السماء والأرض لدلالة لكل عبد فطن لبيب رجّاع إلى الله ، على قدرة الله على بعث الأجساد ووقوع المعاد ؛ لأن من قدر على خلق هذه السموات فى ارتفاعها (٨) واتساعها ، وهذه الأرضين فى انخفاضها وأطوالها وأعراضها ، إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام ، كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ (٩) بَلَىٰ ۚ ﴾ [يس : ٨١] ، وقال : ﴿ لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۚ ﴾ [غافر : ٥٧] .

(٣) فى أ : « عن » .

(٢) زيادة من ت ، أ .

(١) فى ت : « فرقت » .

(٦) فى أ : « شيان » .

(٥) فى ت : « روى » .

(٤) فى ت ، س : « حيث » .

(٨) فى ت ، س : « وارتفاعها » .

(٧) فى ت ، أ : « على » .

(٩) فى ت ، س ، أ : « على أن يحيى الموتى » ، والصواب ما أثبتناه .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَآلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنْ اْعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١١) .

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود ، صلوات الله وسلامه عليه ، ، مما آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن ، والجنود ذوى العدد والعدد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم ، الذى كان إذا سبج به تسبج معه الجبال الراسيات ، الصم الشامخات ، وتقف له الطيور السارحات ، والغاديات والرائحات ، وتجاوبه بأنواع اللغات . وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبى موسى الأشعرى يقرأ من الليل ، فوقف فاستمع لقراءته (١) ، ثم قال « لقد أوتى هذا مزمّاراً من مزامير آل داود » .

وقال أبو عثمان النهدي : ما سمعت صوت صنّج ولا برّبط ولا وتر أحسن من صوت أبى موسى الأشعرى ، رضى الله عنه (٢) .

ومعنى قوله : ﴿ أَوِّبِي ﴾ أى : سبّحى . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد .

وزعم أبو (٣) ميسرة أنه بمعنى سبّحى بلسان الحبشة . وفى هذا نظر ، فإن التأويب فى اللغة هو الترجيع ، فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها .

وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجى فى كتابه « الجمل » فى باب النداء منه : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ أى : سبّحى معه بالنهار كله ، والتأويب : سير النهار كله ، والإسّاد (٤) : سير الليل كله . وهذا لفظه ، وهو غريب جداً لم أجده (٥) لغيره ، وإن كان له مساعدة من حيث اللفظ فى اللغة ، لكنه بعيد فى معنى الآية هاهنا . والصواب أن المعنى فى قوله تعالى : ﴿ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ أى : رَجَعِي مُسَبِّحَةً مَعَهُ ، كما تقدم ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَآلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ : قال الحسن البصرى ، وقتادة ، والأعمش وغيرهم : كان لا يحتاج أن يَدْخُلَهُ ناراً ولا يضربه بمطرقة ، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنْ اْعْمَلْ سَابِغَاتٍ ﴾ وهى : الدروع . قال قتادة : وهو أول من عملها من الخلق ، وإنما كانت قبل ذلك صفائح .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا ابن سماعة ، حدثنا ابن ضَمْرَةَ (٦) ، عن ابن شوذب قال : كان داود ، عليه السلام ، يرفع فى كل يوم درعاً فيبيعها بستة آلاف درهم : ألفين له ولأهله ، وأربعة آلاف درهم يطعم بها بنى إسرائيل خبز الحواري .

(١) فى ت : « فاستمع رسول الله لقراءته » .

(٢) سبق تخريج الحديث والأثر فى فضائل القرآن .

(٣) فى أ : « ابن » .

(٤) فى أ : « والآباد » .

(٥) فى أ : « لم أر » ، وفى ت : « لم أره » .

(٦) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » .

﴿ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ ﴾ : هذا إرشاد من الله لنبيه داود ، عليه السلام ، فى تعليمه صنعة الدروع .
قال مجاهد فى قوله : ﴿ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ ﴾ : لا تُدَقِّ المِسمارَ فيَقْلَقُ فى الحلقة ، ولا تُغْلَظَه فيفصمها ، واجعله بقدر .

وقال الحكم بن عتيبة ^(١) : لا تُغْلَظَه فيفصم ، ولا تُدَقِّه فيَقْلَقُ ^(٢) . وهكذا روى عن قتادة ، وغير واحد .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : السرد : حَلَقَ ^(٣) الحديد . وقال بعضهم : يقال : درع مسرودة : إذا كانت مسمورة الحلق ، واستشهد بقول الشاعر ^(٤) :

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا « دَاوُدُ » ، أَوْ صَنَعَ السَّوَابِغَ « تَبَعُ »

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة داود ، عليه السلام ، ^(٥) من طريق إسحاق بن بشر - وفيه كلام - عن أبى إلياس ، عن وهب بن منبه ما مضمونه : أن داود ، عليه السلام ، كان يخرج متنكراً ، فيسأل الركبان عنه وعن سيرته ، فلا يسأل أحداً إلا أثنى عليه خيراً فى عبادته وسيرته ومعدلته ، صلوات الله وسلامه عليه . قال وهب : حتى بعث الله ملكاً فى صورة رجل ، فلقبه داود فسأله كما كان يسأل غيره ، فقال : هو خير الناس لنفسه ولأئمة ، إلا أن فيه خصلة لو لم تكن فيه كان كاملاً قال : ما هى ؟ قال : يأكل ويطعم عياله من مال المسلمين ، يعنى : بيت المال ، فعند ذلك نصب داود ، عليه السلام ، إلى ربه فى الدعاء أن يعلمه عملاً بيده يستغنى به ويغنى به عياله ، فالأن له الحديد ، وعلمه صنعة الدروع ، فعمل الدرع ^(٦) ، وهو أول من عملها ، فقال الله : ﴿ أَنْ اْعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ يعنى : مسامير الحلق ، قال : وكان يعمل الدرع ^(٧) ، فإذا ارتفع من عمله درع باعها ، فتصدق بثلثها ، واشترى بثلثها ما يكفيه وعياله ، وأمسك الثلث يتصدق به يوماً بيوم إلى أن يعمل غيرها . وقال : إن الله أعطى داود شيئاً لم يعطه غيره من حسن الصوت ، إنه كان إذا قرأ الزبور تسمع الوحش ^(٨) حتى يؤخذ بأعناقها وما تنفر ، وما صنعت الشياطين المزامير والبرابط والصنوج إلا على أصناف صوته . وكان شديد الاجتهاد ، وكان إذا افتتح الزبور بالقراءة كأنما ينفخ فى المزامير ، وكان ^(٩) قد أعطى سبعين مزمراً فى حلقة .

وقوله : ﴿ وَأَعْمَلُوا صَالِحاً ﴾ أى : فى الذى أعطاكم الله من النعم ، ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أى : مراقب لكم ، بصير بأعمالكم وأقوالكم ، لا يخفى على من ذلك شيء .

﴿ وَلَسْلِمَانَ الرِّيحَ غَدُوهاً شَهْرٌ وَرَوَّاحهاً شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ

(١) فى س ، أ : « عينة » . (٢) فى ت ، أ : « فيلق » . (٣) فى ت ، س : « هو » .

(٤) هو أبو ذؤيب الهذلى ، والبيت فى اللسان مادة (قضى) .

(٥) تاريخ دمشق (٧٠٨ / ٥) المخطوط .

(٦ ، ٧) فى ت ، أ : « الدروع » . (٨) فى ت ، س ، أ : « تجتمع الوحوش إليه » . (٩) فى ت ، س : « وكان » .

مِنْ مَّحَارِيبَ وَتَمَائِيلَ وَجِفَانَ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ .

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود ، عطف بذكر ما أعطى سليمان ^(١) ، من تسخير الريح له تحمل بساطه ، غدوها شهر ورواحها شهر .

قال الحسن البصري : كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل بإصطخر يتغذى ^(٢) بها ، ويذهب رائحا من إصطخر فيبيت بكابل ، وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع ، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع .

وقوله : ﴿ وَأَسْلَنَّا ^(٣) لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعطاء الخراساني ، وقتادة ، والسدي ، ومالك عن زيد بن أسلم ، و ^(٤) عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغير واحد : القطر : النحاس . قال قتادة : وكانت باليمن ، فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان ، عليه السلام .

قال السدي : وإنما أسيلت له ثلاثة أيام .

وقوله : ﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ أي : وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن الله ، أي : بقدره ^(٥) ، وتسخيرهم لهم بمشيئته ما يشاء من البنائيات وغير ذلك . ﴿ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا ﴾ أي : ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة ﴿ نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ وهو الحريق .

وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديثا غريبا فقال : حدثنا أبي ، حدثنا أبو صالح ، حدثنا معاوية بن صالح ، عن أبي الزاهرية ، عن جبير بن نفير ^(٦) ، عن أبي ثعلبة الخشني ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « الجن على ثلاثة أصناف : صنف له أجنحة يطفرون في الهواء ، وصنف حيات وكلاب ، وصنف يحلون ويظعنون » . رفعه غريب جدا ^(٧) .

وقال ^(٨) أيضا : حدثنا أبي ، حدثنا حرملة ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني بكر ^(٩) بن مضر ، عن محمد ، عن ابن أنعم أنه قال : الجن ثلاثة : صنف لهم الثواب وعليهم العقاب ، وصنف طيارون فيما بين السماء والأرض ، وصنف حيات وكلاب .

قال بكر بن مضر : ولا أعلم إلا أنه قال : حدثني أن الإنس ثلاثة ^(١٠) : صنف يظلمهم الله بظل عرشه يوم القيامة . وصنف كالأنعام بل هم أضل سبيلا . وصنف في صور الناس على قلوب الشياطين .

(١) في ت ، أ : « ما أعطى ابنه سليمان بن داود » وفي س : « ما أعطى ابنه سليمان » . (٢) في ت : « فيتغذى » .

(٣) في ت : « واسلنا » . (٤) في ت : « بن » .

(٥) في ت ، أ : « أي الإذن القدرى » وفي س : « أي القدرى » . (٦) في ت : « وقد روى ابن أبي حاتم هاهنا حديثا غريبا بإسناده » .

(٧) ورواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٤٥٦) وصححه ، ووافقه الذهبي ، والطبرانی في الكبير (٢٢ / ٢١٤) من طريق عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح به ، ورواه ابن حبان في صحيحه برقم (٢٠٠٧) من طريق ابن وهب عن معاوية بن صالح ، به .

(٨) في ت : « وروى » . (٩) في أ : « بكير » . (١٠) في أ : « ثلاثة أصناف » .

وقال أيضا ^(١) : حدثنا أبى : حدثنا على بن هاشم بن مرزوق حدثنا سلمة - يعنى : ابن الفضل - عن إسماعيل ، عن الحسن ^(٢) قال : الجن ولد إبليس ، والإنس ولد آدم ، ومن هؤلاء مؤمنون ومن هؤلاء مؤمنون ، وهم شركاؤهم فى الثواب والعقاب ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمنا فهو ولى الله ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافرا فهو شيطان .

وقوله : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَتَمَائِيلٍ ﴾ : أما المحارِب فهى البناء الحسن ، وهو أشرف شىء فى المسكن وصدره .

وقال مجاهد : المحارِب بنيان دون القصور . وقال الضحاك : هى المساجد . وقال قتادة : هى المساجد والقصور ، وقال ابن زيد : هى المساكن . وأما التمايل فقال عطية العوفى ، والضحاك والسدى : التمايل : الصور . قال مجاهد : وكانت من نحاس . وقال قتادة : من طين وزجاج .

وقوله : ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ﴾ : الجواب : جمع جابية ، وهى الحوض الذى يجبى فيه الماء ، كما قال الأعشى ميمون بن قيس :

تَرُوحُ عَلَى آلِ الْمَحَلِّ جَفْنَةً كَجَابِيَةِ الشَّيْخِ الْعِرَاقِيِّ تَفْهَقُ ^(٣) ^(٤)

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ كَالْجَوَابِ ﴾ أى : كالجوبة من الأرض .

وقال العوفى ، عنه : كالحياض . وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقاتة ، والضحاك وغيرهم . والقُدُور الراسيات : أى الثابتات ، فى أماكنها ^(٥) لا تتحول ولا تتحرك عن أماكنها لعظمها . كذا قال مجاهد ، والضحاك ، وغيرهما .

وقال عكرمة : أثافيها منها .

وقوله : ﴿ اَعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ أى : وقلنا لهم اعملوا شكرًا على ما أنعم به عليكم فى الدنيا والدين .

وشكرًا : مصدر من غير الفعل ، أو أنه مفعول له ، وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول وبالنية ، كما قال :

أَفَادَتُكُمْ النِّعْمَاءُ مِنِّى ^(٦) ثَلَاثَةً : يَدِي ، وَلِسَانِي ، وَالضَّمِيرُ الْمُحْجَبُ

قال أبو عبد الرحمن الجُبلى ^(٧) : الصلاة شكر ، والصيام شكر ، وكل خير عمله لله شكر . وأفضل الشكر الحمد . رواه ابن جرير .

وروى هو وابن أبى حاتم ، عن محمد بن كعب القرظى قال : الشكر تقوى الله والعمل الصالح .

(١) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم أيضا » . (٢) فى ت : « الحسن » . (٣) فى ت : « بقق »

(٤) البيت فى تفسير الطبرى (٢٢ / ٤٩) .

(٥) فى ت ، س ، أ : « أماكنهم » . (٦) فى ت : « عندي » .

(٧) فى هـ ، ت ، س ، أ : « السلمى » والتصويب من الطبرى ٢٢ / ٥٠ ، مستفادا من طبعة الشعب .

وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل ، وقد كان آل داود ، عليه السلام ، كذلك قائمين بشكر الله قولاً وعملاً .

قال (١) ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن أبي بكر ، حدثنا جعفر - يعني : ابن سليمان - عن ثابت البناني قال : كان داود ، عليه السلام ، قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة ، فكان لا تأتي عليهم (٢) ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي ، فغمرتهم هذه الآية : ﴿ اَعْمَلُوا آل دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ .

وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً . ولا يفتر إذا لاقى » (٣) .

وقد روى أبو عبد الله بن ماجه من حديث سُنَيْد بن داود ، حدثنا يوسف بن محمد بن المنكدر ، عن أبيه ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « قالت أم سليمان بن داود لسليمان : يا بني ، لا تكثر النوم بالليل ، فإن كثرة النوم بالليل ترك الرجل فقيراً يوم القيامة » (٤) .

وروى ابن أبي حاتم عن داود ، عليه السلام ، هاهنا أثراً غريباً مطولاً جداً ، وقال أيضاً : حدثنا أبي ، حدثنا عمران بن موسى ، حدثنا أبو يزيد (٥) فيض بن إسحاق الرقي (٦) قال : قال فضيل في قوله تعالى : ﴿ اَعْمَلُوا آل دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ . فقال داود : يا رب ، كيف أشكرك ، والشكر نعمة منك ؟ قال : « الآن شكرتني حين علمت (٧) أن النعمة (٨) مني » . وقوله : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ : إخبار عن الواقع .

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ فَلَمَّا خَرَ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) ﴾ .

يذكر تعالى كيفية موت سليمان ، عليه السلام ، وكيف عمى الله موته على الجنّ المسخرين له في الأعمال الشاقة ، فإنه مكث متوكئاً على عصاه - وهي منسأته - كما قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة وغير واحد - مدة طويلة نحواً من سنة ، فلما أكلتها (٩) دابة الأرض ، وهي الأرضة ، ضعفت (١٠) وسقط (١١) إلى الأرض ، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة - تبينت الجن والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب ، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك .

(١) في ت : « روى » . (٢) في ت : « لا يأتي عليهم » ، وفي أ : « لا يأتي عليهم » .

(٣) صحيح البخاري برقم (١١٣١) وصحيح مسلم برقم (١١٥٩) .

(٤) سنن ابن ماجه برقم (١٣٣٢) وقال البوصيري في الزوائد (١ / ٤٣٣) : « هذا إسناد ضعيف » .

(٥) في هـ : « زيد » والثبت من ت ، س ، أ ، والجرح والتعديل ٣ / ٢ / ٨٨ مستفاداً من طبعة الشعب .

(٦) في أ : « المرى » . (٧) في ت ، س : « قلت » .

(٨) في أ : « النعم » . (٩) في ت : « فلما أكلت العصا » .

(١٠) في ت ، س ، أ : « فضعفت » . (١١) في أ : « وسقطت » .

وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع غريب ، وفى صحته نظر ، قال ابن جرير :

حدثنا أحمد بن منصور ، حدثنا موسى بن مسعود أبو حذيفة ، حدثنا إبراهيم بن طهمان ، عن عطاء ، عن السائب ، عن سعيد بن جبير ^(١) عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « كان سليمان نبى الله ، عليه السلام ، إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه فيقول لها : ما اسمك ؟ فتقول : كذا . فيقول : لأى شىء أنت ؟ فإن كانت لغرس غُرِسَتْ ، وإن كانت لدواء كُتِبَتْ . فبينما هو يصلى ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه ، فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : الخروب . قال : لأى شىء أنت ؟ قالت : لخراب هذا البيت . فقال سليمان : اللهم ، عمّ على الجن موتى ^(٢) حتى يعلم الإنسان أن الجن لا يعلمون الغيب . فنحتها عصاً ، فتوأكأ عليها حولا ميتا ، والجن تعمل . فأكلتها الأرضة ، فتبينت الإنسان أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا [حولا] ^(٣) فى العذاب المهين » .

قال : وكان ابن عباس يقرؤها كذلك قال : « فشكرت الجن الأرضة ^(٤) ، فكانت تأتيها بالماء » ^(٥) . وهكذا رواه ابن أبى حاتم ، من حديث إبراهيم بن طهمان ، به . وفى رفعه غرابة ونكارة ، والأقرب أن يكون موقوفاً ، وعطاء بن أبى مسلم الخراسانى له غرابات ، وفى بعض حديثه نكارة . وقال السدّى ، فى حديث ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح ، عن ابن عباس - وعن مرة الهمداني ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ، قال : كان سليمان يتحرر فى بيت المقدس السنة والستين والشهر والشهرين ، وأقل من ذلك وأكثر ، يدخل طعامه وشرابه ، فأدخله فى المرة التى توفى فيها ، وكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت فى بيت المقدس شجرة ، فيأتيها فيسألها ، فيقول : ما اسمك ؟ فتقول : اسمى كذا وكذا . فإن كانت لغرس غرسها ، وإن كانت نبت دواء قالت : نبت دواء لكذا وكذا . فيجعلها ^(٦) كذلك ، حتى نبتت شجرة يقال لها : الخروبة ، فسألها : ما اسمك ؟ فقالت : أنا الخروبة . قال : ولأى شىء نبتت ؟ قالت : نبت لخراب هذا المسجد . قال سليمان : ما كان الله ليُخرّبهُ وأنا حي ؟ أنت التى على وجهك هلاكى وخراب بيت المقدس . فترعها وغرسها فى حائط له ، ثم دخل المحراب فقام يصلى متكئاً على عصاه ، فمات ولا تعلم ^(٧) به الشياطين ، وهم فى ذلك يعملون له ، يخافون أن يخرج فيعاقبهم . وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب ، وكان المحراب له كوى بين يديه وخلفه ، فكان الشيطان الذى يريد أن يخلع يقول : أأست جلداً ^(٨) إن دخلت فخرجت من ذلك الجانب ؟ فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر ، فدخل شيطان من أولئك فمر ، ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان فى المحراب إلا احترق . فمر ولم يسمع صوت سليمان ، ثم رجع فلم يسمع ، ثم رجع فوقع فى البيت ولم يحترق . ونظر إلى سليمان ، عليه السلام ، قد سقط ميتا . فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات . ففتحوا ^(٩) عنه

(١) فى ت : « رواه ابن جرير بإسناده » .

(٢) فى ت : « موتى » .

(٣) زيادة من ت ، س ، أ ، والطبرى .

(٤) فى ت ، س ، أ : « للأرضة » .

(٥) تفسير الطبرى (٢٢ / ٥١) .

(٦) فى ت ، س : « فيجعل الشجرة » .

(٧) فى أ : « ولم يعلم » .

(٨) فى ت : « جلداً » .

(٩) فى هـ ، س : « ففتحوا » .

فأخرجوه . وَوَجَدُوا مِنْسَاتَهُ - وهى : العصا بلسان الحبشة - قد أكلتها الأرضة ، ولم يعلموا منذ كم مات ؟ فوضعوا الأرضة على العصا ، فأكلت منها يوماً وليلة ، ثم حسبوا على ذلك النحو ، فوجدوه قد مات منذ سنة . وهى فى قراءة ابن مسعود : فمكثوا يدأبون له من بعد موته حولا (١) ، فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبونهم ولو أنهم علموا الغيب ، لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا فى العذاب يعملون له سنة ، وذلك قول الله (٢) عز وجل : ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنَّهُ لَأَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ . يقول : تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم ، ثم إن الشياطين قالوا للأرضة : لو كنت تأكلين الطعام أتيناك بأطيب الطعام ، ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب ، ولكننا سننقل إليك الماء والطين - قال : فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت - قال : ألم تر إلى الطين الذى يكون فى جوف الخشب ؟ فهو ما تأتيا به الشياطين ، شكراً (٣) لها (٤) .

وهذا الأثر - والله أعلم - إنما هو مما تلقى من علماء أهل الكتاب ، وهى وَقْفٌ ، لا يصدق منها (٥) إلا ما وافق الحق ، ولا يكذب منها إلا ما خالف الحق ، والباقي لا يصدق ولا يكذب (٦) .

وقال ابن وهب وأصبع بن الفرّج ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ ﴾ قال : قال سليمان ، عليه السلام ، لملك الموت : إذا أمرت بى فأعلمنى . فأتاه فقال : يا سليمان ، قد أمرت بك ، قد بقيت لك سويعة . فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير ، وليس له باب ، فقام يصلي فاتكأ على عصاه ، قال : فدخل عليه ملك الموت ، فقبض روحه وهو متوكئ على عصاه ، ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت . قال : والجن يعملون (٧) بين يديه وينظرون إليه ، يحسبون أنه حى . قال : فبعث الله ، عز وجل ، دابة الأرض . قال : والدابة تأكل العيدان - يقال لها : القادح - فدخلت فيها فأكلتها ، حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت ، وثقل عليها فخر ميتاً ، فلما رأت ذلك الجن انفضوا وذهبوا . قال : فذلك قوله : ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ ﴾ . قال أصبع : بلغنى عن غيره أنها قامت (٨) سنة تأكل منها قبل أن يخرب (٩) . وقد ذكر غير واحد من السلف نحوه من هذا ، والله أعلم .

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) ﴾ .

(١) فى ت ، س ، أ : « حولا كاملا » . (٢) فى ت : « قوله » . (٣) فى ت ، س ، أ : « تشكرا » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٢ / ٥١) .
(٥) فى س ، أ : « لا تصدق منه » . (٦) فى ت ، أ : « لا تصدق ولا تكذب » .
(٧) فى ت ، س ، أ : « تعمل » . (٨) فى ت : « أقامت » . (٩) فى أ : « تخر » .

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها ، وكانت التبابعة منهم ، وبلقيس - صاحبة سليمان - منهم ^(١) ، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم ، وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم . وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ، ويشكروه ^(٢) بتوحيده وعبادته ، فكانوا كذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ ، شذر مذر ، كما يأتي تفصيله وبيانه قريباً إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

قال الإمام أحمد ، رحمه الله : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا ابن لهيعة ، عن عبد الله بن هبيرة ، عن عبد الرحمن بن وعلة قال : سمعت ابن عباس يقول ^(٣) : إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ : ما هو ؟ رجل ^(٤) أم امرأة أم أرض ؟ قال : « بل هو رجل ، ولد عشرة ^(٥) ، فسكن اليمن منهم ستة ، وبالشام منهم أربعة ، فأما اليمانيون : فمذحج ، وكندة ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحمير . وأما الشامية فلخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسان .

ورواه عبد ، عن الحسن بن موسى ، عن ابن لهيعة ، به ^(٦) . وهذا إسناد ^(٧) حسن ، ولم يخرجوه ، [وقد روى من طرق متعددة] ^(٨) . وقد رواه الحافظ أبو عمر بن عبد البر في كتاب « القصد والأمم » ، بمعرفة أصول أنساب العرب والعجم » ، من حديث ابن لهيعة ، عن علقمة بن وعلة ، عن ابن عباس فذكر نحوه . وقد روى نحوه من وجه آخر .

وقال الإمام [أحمد] ^(٩) أيضاً وعبد بن حميد : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا أبو جَنَاب يحيى ابن أبي حية الكلبي ، عن يحيى بن هانئ بن عروة ، عن فروة بن مسيك قال : أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، أقاتل بمقبل قومي مدبرهم ؟ قال : « نعم ، فقاتل بمقبل قومك مدبرهم » . فلما وليت دعاني فقال : « لا تقاتلهم حتى تدعوهم إلى الإسلام » . فقلت : يا رسول الله ، أرايت سبأ ؛ أواد هو ، أو رجل ^(١٠) ، أو ما هو ؟ قال : « [لا] ^(١١) ، بل رجل من العرب ، ولد له عشرة فتيان ستة وتشاءم أربعة ، تيامن الأزد ، والأشعريون ، وحمير ، وكندة ، ومذحج ، وأنمار الذين يقال لهم : بجيلة وخثعم . وتشاءم خم ، وجذام ، وعاملة ، وغسان » .

وهذا أيضاً إسناد جيد ^(١٢) وإن كان فيه أبو جَنَاب الكلبي ، وقد تكلموا فيه ^(١٣) . لكن رواه ابن جرير عن أبي كريب ، عن العنقري ^(١٤) ، عن أسباط بن نصر ، عن يحيى بن هانئ المرادي ، عن عمه أو عن أبيه - يشك أسباط - قال : قدم فروة بن مسيك على رسول الله ﷺ ، فذكره ^(١٥) .

طريق أخرى لهذا الحديث : قال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب ، حدثني ابن لهيعة ، عن توبة بن نمر ^(١٦) ، عن عبد العزيز بن يحيى أنه أخبره قال : كنا عند عبيدة ^(١٧)

(١) في ت ، س ، أ : « من جملتهم » . (٢) في أ : « ويشكروا له » .

(٣) في ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس قال » . (٤) في ت ، س : « أرجل » . (٥) في أ : « ولد له عشرة » . (٦) المسند (١ / ٣١٦) .

(٧) في ت : « وإسناده » . (٨) زيادة من ت . (٩) زيادة من ت ، س ، أ .

(١٠) في أ : « أم جبل » . (١١) زيادة من أ . (١٢) في أ : « حسن » .

(١٣) ذكره الحافظ ابن حجر في أطراف المسند (٥ / ١٧٨) وليس في المطبوع من المسند .

(١٤) في أ : « العنقري » .

(١٥) تفسير الطبري (٢٢ / ٥٣) .

(١٦) في س ، أ : « نمر » . (١٧) في أ : « عبدة » .

ابن عبد الرحمن بإفريقية فقال يوماً : ما أظن قوما بأرض إلا هم من أهلها . فقال على بن رباح : كلا ، قد حدثني فلان أن فروة بن مُسَيْك الغُطَيْفِي (١) قدم على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول (٢) الله ، إن سبأ قوم كان لهم عز في الجاهلية ، وإنني أخشى أن يرتدوا عن الإسلام ، أفأقاتلهم ؟ فقال : « ما أمرت فيهم بشيء بعد » . فأنزلت هذه الآية : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسَاكِنِهِمْ آيَةٌ ﴾ الآيات ، فقال له رجل : يا رسول الله ، ما سبأ ؟ فذكر مثل هذا الحديث الذي قبله : أن رسول الله ﷺ سئل عن سبأ : ما هو ؟ أبلد ، أم رجل ، أم امرأة ؟ قال : « بل رجل ، وكَلْدَ عَشْرَةٍ فسكن اليمن منهم ستة ، والشام أربعة ، أما اليمانيون : فمذحج ، وكندة ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحمير غير ما حلها . وأما الشام : فلخم ، وجذام ، وغسان ، وعاملة » .

فيه غرابة من حيث ذكر [نزول] الآية بالمدينة ، والسورة مكية كلها ، والله (٤) أعلم .

طريق أخرى : قال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا أبو أسامة ، حدثني الحسن بن الحكم ، حدثنا أبو (٥) سَبْرَةَ النَّخَعِي ، عن فَرَوَةَ بن مُسَيْك الغُطَيْفِي (٦) قال : قال رجل : يا رسول الله ، أخبرني عن سبأ : ما هو ؟ أرض ، أم امرأة ؟ قال : « ليس بأرض ولا امرأة ، ولكنه رجل ولد عشرة من الولد ، فتيامن ستة وتشاءم أربعة ، فأما الذين تشاءموا : فلخم وجذام وعاملة وغسان ، وأما الذين تيامنوا : فكندة : والأشعريون ، والأزد ، ومذحج ، وحمير ، وأنمار » . فقال رجل : ما أنمار ؟ قال : « الذين منهم خثعم وبجيلة » .

ورواه الترمذي في جامعه ، عن أبي كُرَيْب وعبد بن حميد قالا : حدثنا أبو أسامة ، فذكره أبسط من هذا ، ثم قال : هذا حديث حسن غريب (٧) .

وقال أبو عمر بن عبد البر : حدثنا عبد الوارث بن سفيان ، حدثنا قاسم بن أصبغ ، حدثنا أحمد ابن زهير ، حدثنا عبد الوهاب بن نجدة الحوطي ، حدثنا ابن كثير - هو عثمان بن كثير - عن الليث ابن سعد ، عن موسى بن علي ، عن يزيد بن حصين ، عن تميم الداري ؛ أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فسأله عن سبأ ، فذكر مثله ، فقوى هذا الحديث وحسن (٨) .

قال علماء النسب ، منهم محمد بن إسحاق : اسم سبأ : عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

وإنما سمي سبأ لأنه أول من سبأ في العرب ، وكان يقال له : الرائش ؛ لأنه أول من غنم في الغزو فأعطى قومه ، فسمى الرائش ، والعرب تسمى المال : ريشا ورياشا . وذكروا أنه بشر برسول الله ﷺ في زمانه (٩) المتقدم ، وقال في ذلك شعراً :

(١) في أ : « القطيعي » . (٢) في س ، أ : « يانبي » . (٣) زيادة من أ .
(٤) في س : « فالله » . (٥) في أ : « ابن » . (٦) في أ : « القطيعي » .
(٧) تفسير الطبري (٢٢ / ٥٣) وسنن الترمذي برقم (٣٢٢٢) .
(٨) القصص والأمم ص (٢٠) .
(٩) في ت ، أ : « الزمان » .

سَيَمْلِكُ بَعْدَنَا مُلْكًا عَظِيمًا نَبِيٌّ لَا يُرَخِّصُ فِي الْحَرَامِ
وَيَمْلِكُ بَعْدَهُ مِنْهُمْ مُلُوكٌ يَدِينُونَ الْعِبَادَ بِغَيْرِ ذِمٍّ
وَيَمْلِكُ بَعْدَهُمْ مَنَا مُلُوكٌ يَصِيرُ الْمُلْكُ فِينَا بِاِقْتِسَامٍ
وَيَمْلِكُ بَعْدَ قَحْطَانَ نَبِيٌّ تَقَى خَبِئَةً خَيْرَ الْأَنَامِ
وَسُمِّيَ أَحْمَدًا يَا لَيْتَ أَنِي أَعْمَرُ بَعْدَ مَبْعَثِهِ بَعَامٍ
فَأَعْضُدُهُ وَأُحْبِوهُ بِنَصْرِي بِكُلِّ مُدَجَّجٍ وَبِكُلِّ رَامٍ
مَتَى يَظْهَرُ فَكُونُوا نَاصِرِيهِ وَمَنْ يَلْقَاهُ يُبْلِغْهُ سَلَامِي

ذكر ذلك الهمداني في كتاب « الإكليل » .

واختلفوا في قحطان على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه من سلالة إرم بن سام بن نوح ، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث^(١) طرائق .

والثاني : أنه من سلالة عابر ، وهو هود ، عليه الصلاة والسلام ، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضاً .

والثالث : أنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، عليهما السلام ، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضاً . وقد ذكر ذلك مستقصى الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر النمرى ، رحمه الله ، في كتابه [المسمى]^(٢) : « الإنباه على ذكر أصول القبائل الرواة^(٣) » .

ومعنى قوله عليه السلام : « كان رجلاً من العرب » يعنى : العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل ، عليه السلام ، من سلالة سام بن نوح . وعلى القول الثالث : كان من سلالة الخليل ، عليه السلام ، وليس هذا بالمشهور عندهم ، والله أعلم . وفى صحيح البخارى : أن رسول الله ﷺ مر بنفر من « أسلم » يتتضلون ، فقال : « ارموا بنى إسماعيل ، فإن أباكم كان رامياً »^(٤) . فأسلم قبيلة من الأنصار ، والأنصار أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ ، نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ في البلاد ، حين بعث الله عليهم سيل العرم ، ونزلت طائفة منهم بالشام ، وإنما^(٥) قيل لهم : غَسَّانَ بماء نزلوا عليه قيل : باليمن . وقيل : إنه قريب من المُشَلَّل^(٦) ، كما قال حسان بن ثابت :

إِمَّا سَأَلْتُ فَإِنَّا مَعَشَرٌ نُجَبُّ الْأَزْدُ نَسَبَتُنَا ، وَالْمَاءُ غَسَّانُ^(٧)

ومعنى قوله : « ولد له عشرة من العرب » أى : كان^(٨) من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع

(١) فى أ : « ثلاثة » . (٢) زيادة من أ . (٣) فى ت : « بالرواة » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٥٠٧) من حديث سلمة ، رضى الله عنه .

(٥) فى ت : « وإن » . (٦) فى ت : « المسلك » وفى أ : « المسكن » .

(٧) البيت فى السيرة النبوية لابن هشام (١ / ١٠) .

(٨) فى ت : « كانوا » .

إليهم أصول القبائل من عرب اليمن ، لا أنهم ولدوا من صلبه ، بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر ، كما هو مقرر مبين في مواضعه من ^(١) كتب النسب .

ومعنى قوله : « فتيا من منهم ستة ، وتشاء منهم أربعة » أى : بعد ما أرسل الله عليهم سيل العرم ، منهم من أقام ببلادهم ، ومنهم من نزح عنها إلى غيرها ، وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضا سيول أمطارهم وأوديتهم ، فعمد ملوكهم الأقدام ، فبنوا بينهما سدا عظيما محكما حتى ارتفع الماء ، وحكم على حافات ذينك الجبلين ، فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار فى غاية ما يكون من الكثرة والحسن ، كما ذكر غير واحد من السلف ، منهم قتادة : أن المرأة كانت تمشى تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل ، وهو الذى تخترق ^(٢) فيه الثمار ، فيتساقط من الأشجار فى ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قُطاف ، لكثرت ونضجه واستوائه ، وكان هذا السد بمأرب : بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ، ويعرف بسد مأرب .

وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ، ولا شيء من الهوام ، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم ، ليوحده ويعبدوه ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ﴾ ، ثم فسرها بقوله : ﴿ جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ أى : من ناحيتي الجبلين والبلدة بين ^(٣) ذلك ، ﴿ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غَفُورٌ ﴾ أى : غفور لكم إن استمررتم على التوحيد .

وقوله : ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ أى : عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم ، وعدلوا إلى عبادة الشمس ، كما قال هدهد سليمان : ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ . إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : ٢٢ - ٢٤]

وقال محمد بن إسحاق ، عن وهب بن منبه : بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبيا .

وقال السدّي : أرسل الله إليهم اثني عشر ألف نبى ، والله ^(٤) أعلم .

وقوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ : قيل : المراد بالعرم المياه . وقيل : الوادى . وقيل : الجرذ . وقيل : الماء الغزير . فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته ، مثل : « مسجد الجامع » . و« سعيد كرز » حكى ذلك السهيلي ^(٥) .

وذكر غير واحد منهم ابن عباس ، ووهب بن منبه ، وقتادة ، والضحاك ؛ أن الله ، عز وجل ، لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم ، بعث على السد دابة من الأرض ، يقال لها : « الجرذ » نقبته - قال وهب بن منبه : وقد كانوا يجدون فى كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجرذ فكانوا يرصدون عنده السنانيير برهة من الزمان ، فلما جاء القدر غلبت الفأر السنانيير ، وولجت إلى السد فنقبته ، فانهار عليهم .

(١) فى ت : « فى » .

(٢) فى ت : « يحترق » .

(٣) فى أ : « من » .

(٥) الروض الألف (١ / ١٥) .

(٤) فى ت ، س : « فالله » .

وقال قتادة وغيره : الجُرْدُ : هو الخُلْد ، نقتب أسافله حتى إذا ضَعَفَ وَوَهَى ، وجاءت أيام السيول ، صَدَمَ الماءُ البناءَ فسقط ، فانساب الماء في أسفل ^(١) الوادى ، وخَرَبَ ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك ، ونضب الماء عن الأشجار التى فى الجبلين عن يمين وشمال ، فيسبت وتخطمت ، وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعِكْرِمَةُ ، وعطاء الخُرَّاسانى ، والحسن ، وقتادة ، والسُّدِّى : وهو الأراك ، وأكلة البرير .

﴿ وَأَثْلٍ ﴾ : قال العوفى ، عن ابن عباس : هو الطَّرَفَاء .

وقال غيره : هو شجر يشبه الطرفاء . وقيل : هو السَّمَر . فالله أعلم .

وقوله : ﴿ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ : لما كان أجودَ هذه الأشجار المبدل بها هو السِّدْر قال : ﴿ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ ، فهذا الذى صار أمر تَيْنِكَ ^(٢) الجنتين إليه ، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة ، والظلال العميقة والأنهار الجارية ، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسِّدْر ذى الشوك الكثير والثمر القليل . وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله ، وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا ﴾ ^(٣) وَهَلْ نَجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿ أى : عاقبناهم بكفرهم .

قال مجاهد : ولا يعاقب إلا الكفور .

وقال الحسن البصرى : صدق الله العظيم . لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور .

وقال طاوس : لا يناقش إلا الكفور .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أبو عمر بن النحاس الرملى ، حدثنا حجاج ابن محمد ، حدثنا أبو البيداء ، عن هشام بن صالح التغلبى ^(٤) ، عن ابن خيرة - وكان من أصحاب على ، رضى الله عنه - قال : جزاء المعصية الوهن فى العبادة ، والضيق فى المعيشة ، والتعسر فى اللذة . قيل : وما التعسر فى اللذة ؟ قال : لا يصادف لذة حلال ^(٥) إلا جاءه من يُنْغِصُه إياها .

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلٌّ مِّمَزَقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) ﴾ .

يذكر تعالى ما كانوا فيه من الغبطة والنعمة ، والعيش الهنى الرغيد ، والبلاد الرخية ، والأماكن الآمنة ، والقرى المتواصلة المتقاربة ، بعضها من بعض ، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها ، بحيث

(١) فى ت : « أصل » .

(٢) فى ت ، أ : « تلك » .

(٣) فى ت : « بكفرهم » وهو خطأ .

(٤) فى ت : « وقال ابن أبى حاتم بإسناده » .

(٥) فى ت : « حلالاً » .

إن مسافرهم لا يحتاج إلا حمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماء وثمرًا ، وَيَقِيلُ فِي قَرْيَةٍ وَيَبِيتُ فِي أُخْرَى ، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ ، قال وهب بن منبه : هي قرى بصنعاء . وكذا قال أبو مالك .

وقال مجاهد : والحسن ، وسعيد بن جبير ، ومالك عن زيد بن أسلم ، وقتادة ، والضحاك ، والسدّي ، وابن زيد وغيرهم ^(١) : يعني : قرى الشام . يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : القرى التي باركنا فيها ^(٢) : بيت المقدس .

وقال العوفي ، عنه أيضا : هي قرى عربية بين المدينة والشام .

﴿ قَرْيَ ظَاهِرَةٍ ﴾ أي : بينة واضحة ، يعرفها المسافرون ، يقلون في واحدة ، ويبيتون في أخرى ؛ ولهذا قال : ﴿ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ ، أي : جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ، ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ أي : الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلا ونهارا .

﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ ، وقرأ آخرون : « بعد بين أسفارنا » ، وذلك أنهم بطروا هذه النعمة - كما قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وغير واحد - وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحرور والمخاوف ، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض ، من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، مع أنهم كانوا في عيش رغيد في مَنْ وسلوى وما يشتهون من مأكَل ومشارب وملابس مرتفعة ؛ ولهذا قال لهم : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٦١] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ [القصص : ٥٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢] . وقال في حق هؤلاء : ﴿ وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ ^(٣) ، أي : بكفرهم ، ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلُّ مُمَزَّقٍ ﴾ أي : جعلناهم حديثا للناس ، وَسَمَرًا يتحدثون به من ^(٤) خبرهم ، وكيف مكر الله بهم ، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء تفرقوا في البلاد هاهنا وهاهنا ؛ ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا : « تفرقوا أيدي سبأ » و « تفرقوا شذَر مَدَر » ^(٥) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان ، حدثنا إبراهيم بن حبيب بن الشهيد ، سمعت أبي يقول : سمعت ^(٦) عكرمة يحدث بحديث أهل سبأ ، قال : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ [عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ] ﴾ ^(٧) إلى قوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ : وكانت فيهم

(١) في ت : « وخلق غيرهما » . (٢) في ت : « هي » . (٣) في ت ، س ، أ : « فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا » .

(٤) في ت : « في » . (٥) في ت : « ومدر » .

(٦) في ت : « وروى ابن أبي حاتم بسنده إلى عكرمة » . (٧) زيادة من ت ، س ، أ .

كهنة، وكانت الشياطين يسترقون السمع ، فأخبروا الكهنة ^(١) بشيء من أخبار ^(٢) السماء ، فكان ^(٣) فيهم رجل كاهن شريف كثير المال ، وإنه خُبر أن زوال أمرهم قد دنا ، وأن العذاب قد أظلمهم ^(٤) . فلم يدر كيف يصنع ؛ لأنه كان له مال كثير من عقار ، فقال لرجل من بنيهِ - وهو أعزهم أخوالا - : إذا كان غدا وأمرتكَ بأمر فلا تفعل ، فإذا انتهرتكَ فانتهرنى ، فإذا تناولتكَ فالطمنى . فقال : يا أبت ، لا تفعل ، إن هذا أمر عظيم ، وأمر شديد ، قال : يا بنى ، قد حدث أمر لا بد منه . فلم يزل به حتى وافاه على ذلك . فلما أصبحوا واجتمع الناس ، قال : يا بنى ، افعل كذا وكذا . فأبى ، فانتهره أبوه ، فأجابه ، فلم يزل ذلك بينهما حتى تناولوه أبوه ، فوثب على أبيه فلفطمه ، فقال : ابنى يلطمنى؟ علىّ بالشفرة . قالوا : وما تصنع بالشفرة ؟ قال : أذبجه . قالوا : تذبح ابنك . الطمه أو اصنع ما بدا لك . قال : فأبى ، قال : فأرسلوا إلى أخواله فأعلموهم ذلك ، فجاء أخواله فقالوا : خذ منا ما بدا لك . فأبى إلا أن يذبجه . قالوا : فلتموتن قبل أن تذبحه . قال : فإذا كان الحديث هكذا فإننى لا أرى أن أقيم ببلد يحال بينى وبين ولدى ^(٥) فيه ، اشتروا منى دورى ، اشتروا منى أرضى ، فلم يزل حتى باع دوره وأراضيه وعقاره ، فلما صار الثمن فى يده وأحرزه ، قال : أى قوم ، إن العذاب قد أظلمكم ، وزوال أمركم قد دنا ، فمن أراد منكم دارا جديدا ، وجملا شديدا ، وسفرا بعيدا ، فليلحق بعمان . ومن أراد منكم الخمر والخمير والعصير - وكلمة ، قال ^(٦) إبراهيم : لم أحفظها - فليلحق ^(٧) ببصرى ، ومن أراد الراسخات فى الوحل ، المطاعم فى المحل ، المقيمات فى الضحل ، فليلحق ^(٨) بيثرب ذات نخل . فأطاعه قومه ^(٩) ، فخرج أهل عمان إلى عمان . وخرجت غسان إلى بصرى . وخرجت الأوس والخزرج وبنو عثمان إلى يثرب ذات النخل . قال : فأتوا على بطن مر فقال بنو عثمان : هذا مكان صالح ، لا نبغى به بدلا . فأقاموا به ، فسموا لذلك خزاعة ، لأنهم انخزعوا من أصحابهم ، واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة ، وتوجه أهل عمان إلى عمان ، وتوجهت غسان إلى بصرى .

هذا أثر غريب عجيب ، وهذا الكاهن هو عمرو بن عامر أحد رؤساء اليمن وكبراء سبأ وكهانهم ^(١٠) .

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار فى أول السيرة ما كان من أمر عمرو بن عامر الذى كان أول من خرج من بلاد اليمن ، بسبب استشعاره بإرسال العرم فقال : وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن - فيما حدثنى أبو زيد الأنصارى - : أنه رأى جرّداً يحفر ^(١١) فى سد مأرب ، الذى كان يحبس عنهم الماء فيصرفونه حيث شاؤوا من أرضهم . فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك ، فاعتزم على النقلة عن اليمن فكاد ^(١٢) قومه ، فأمر أصغر أولاده إذا أغلظ له ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه ، ففعل ابنه ما أمره به ، فقال عمرو : لا أقيم ببلد لطم وجهى فيها أصغر ولدى ^(١٣) . وعرض أمواله ، فقال

(١) فى س : « فأخبروا به الكهنة » .
(٢) فى أ : « خبر » .
(٣) فى س : « وكان » .
(٤) فى أ : « أضلمهم » .
(٥) فى ت ، س : « ابنى » .
(٦) فى ت : « قالها » .
(٧) فى ت : « فيحق » .
(٨) فى ت : « فليحق » .
(٩) فى س : « قومنا » .
(١٠) فى ت : « كهاناتهم » .
(١١) فى س : « تحفر » .
(١٢) فى ت ، س : « وكاد » .
(١٣) فى ت : « أولادى » .

أشراف من أشراف اليمن : اغتتموا غَضَبَهُ عمرو . فاشترؤا منه أمواله ، وانتقل في ولده وولد ولده . وقالت الأزدي : لا نتخلف عن عمرو بن عامر . فباعوا أموالهم ، وخرجوا معه فساروا (١) حتى نزلوا بلاد « عك » مجتازين يرتادون البلدان ، فحاربتهم عك ، وكانت حربهم سجالاً . ففي ذلك يقول عباس بن مرداس السلمى :

وَعَكَ بْنِ عَدْنَانَ الَّذِينَ تَغَلَّبُوا بَغْسَانَ ، حَتَّى طَرَدُوا كُلَّ مَطَرَدٍ

وهذا البيت من (٢) قصيدة له .

قال : ثم ارتحلوا عنهم ففترقوا في البلاد ، فنزل آل جَفْنَةَ بن عمرو بن عامر الشام ، ونزلت الأوس والخزرج يثرب ، ونزلت خزاعة مرّاً . ونزلت أزد السراة السراة ، ونزلت أزد عُمان عُمان ، ثم أرسل الله على السد السيل فهدمه ، وفي ذلك أنزل الله عز وجل هذه الآيات (٣) .

وقد ذكر السدى قصة عمرو بن عامر بنحو مما ذكر محمد بن إسحاق ، إلا أنه قال : « فأمر ابن أخيه » ، مكان « ابنه » ، إلى قوله : « فباع ماله وارتحل بأهله ، ففترقوا » . رواه ابن أبي حاتم .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، أخبرنا [سلمة] (٤) ، عن ابن إسحاق قال : يزعمون أن عمرو بن عامر - وهو عم القوم - كان كاهناً ، فرأى في كهنته أن قومه سَيَمَزَقُونَ ويبيعون بين أسفارهم . فقال لهم : إنى قد علمت أنكم ستمزقون ، فمن كان منكم ذاهماً بعيداً وجمل شديداً ، ومزاد جديداً - فليلق بأكاس أو كرود . قال : فكانت وادعة بن عمرو . ومن كان منكم ذا همٍّ مدنٍّ ، وأمر دغنٍّ ، فليلق بأرض شنٍّ . فكانت عوف بن عمرو ، وهم الذين يقال لهم : بارق . ومن كان منكم يريد عيشاً أنياً ، وحرماً آمناً ، فليلق بالأرزين . فكانت خزاعة . ومن كان منكم يريد الراسيات في الوحل ، المطعمات في المحل ، فليلق بيشرب ذات النخل . فكانت الأوس والخزرج ، وهما هذان الحيان من الأنصار . ومن كان منكم يريد خمراً وخميراً ، وذهباً وحريراً ، وملكا وتأميراً ، فليلق بكوثى ويصرى ، فكانت غسان بنو جَفْنَةَ (٥) ملوك الشام . ومن كان منهم بالعراق .

قال ابن إسحاق : وقد سمعت بعض أهل العلم يقول : إنما قالت هذه المقالة طريفة امرأة عمرو ابن عامر ، وكانت كاهنة ، فرأت في كهنتها ذلك ، فالله أعلم أى ذلك كان (٦) .

وقال سعيد ، عن قتادة ، عن الشعبي : أما غسان فليحقوا بالشام ، وأما الأنصار فليحقوا بيشرب ، وأما خزاعة فليحقوا بتهامة ، وأما الأزدي فليحقوا بعمان ، فمزقهم الله كل ممزق . رواه ابن أبي حاتم وابن جرير .

ثم قال محمد بن إسحاق : حدثني أبو عبيدة قال : قال الأعشى - أعشى بنى قيس بن ثعلبة - واسمه : ميمون بن قيس :

(٢) فى ت ، س : « فى » .

(١) فى ت : « فسار » .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١ / ١٠) .

(٤) فى ت : « بنو حنيفة » .

(٥) زيادة من ت ، والطبرى .

(٦) تفسير الطبرى (٢٢ / ٥٩) .

وَفِي ذَٰلِكَ لِلْمُؤْتَسَى (١) أُسْوَةٌ
رُخَامٌ بَنَتْهُ لَهُمْ حَمِيرٌ
فَأَرْوَى الزَّرُوعَ وَأَعْنَابَهَا
فَصَارُوا أَيَْادِي مَا يَقْدُرُوا
وَمَارَبُ عَفَى عَلَيْهَا الْعَرَمُ
إِذَا جَاءَ مَوَارُهُ لَمْ يَرْمُ
عَلَى سَعَةِ مَاؤُهُمْ إِذْ (٢) قُسِمَ
نَ مِنْهُ عَلَى شَرْبِ طِفْلِ قُطِمَ (٣)

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى : إن فى هذا الذى حل بهؤلاء من النعمة والعذاب ، وتبديل النعمة وتحويل العافية ، عقوبة على ما ارتكبه من الكفر والآثام - لعبرة ودلالة لكل عبد صبار (٤) على المصائب ، شكور على النعم .

قال (٥) الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن وعبد الرزاق المعنى ، قالوا : أخبرنا سفيان ، عن أبى إسحاق ، عن العيزار بن حريث عن عمر بن سعد ، عن أبيه - هو سعد بن أبى وقاص ، رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « عَجِبْتُ مِنْ قِضَاءِ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ حَمَدَ رَبَّهُ وَشَكَرَ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ حَمِدَ رَبَّهُ وَصَبَرَ ، يُؤْجِرُ الْمُؤْمِنُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّى فِي اللَّقْمَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى فِيهِ أَمْرَاتِهِ » .

وقد رواه النسائي فى « اليوم والليلة » ، من حديث أبى إسحاق السبيعي ، به (٦) - وهو حديث عزيز - من رواية عمر بن سعد ، عن أبيه . ولكن له شاهد فى الصحيحين من حديث أبى هريرة : « عَجِبًا لِلْمُؤْمِنِ ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قِضَاءَ إِلَّا كَانَ خَيْرًا (٧) ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ . وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ » (٨) .

قال عبد : حدثنا يونس ، عن شيبان ، عن (٩) قتادة ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ قال : كان مطرف يقول : نعم العبد الصبار الشكور ، الذى إذا أعطى شكر ، وإذا ابتلى صبر .

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ (٢١) ﴾ .

لما ذكر [الله] (١٠) تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم فى اتباعهم الهوى والشيطان ، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى ، وخالف الرشاد والهدى ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ .

(١) فى ت : « وفى ذلك للمؤتسى » .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١ / ١٤) .

(٣) فى ت : « صبار شكور على » .

(٤) فى ت : « صبار شكور على » .

(٥) فى ت : « ورؤى » .

(٦) المسند (١ / ١٧٣) والنسائي فى السنن الكبرى برقم (١٠٩٠٦) .

(٧) فى ت ، س : « خيراً له » .

(٨) لم أجده من حديث أبى هريرة ، وقد رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب ، رضى الله عنه .

(٩) فى ت : « وعن » .

(١٠) زيادة من ت .

قال ابن عباس وغيره : هذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم ، ثم قال : ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْت عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦٢] ، ثم قال (١) : ﴿ ثُمَّ لَا تَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدْ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧] والآيات في هذا كثيرة .

وقال الحسن البصري : لما أهبط الله آدم من الجنة ومعه حواء ، هبط (٢) إبليس فرحاً بما أصاب منهما ، وقال : إذا أصبت من الأبوين ما أصبت ، فالذرية أضعف وأضعف . وكان ذلك ظناً من إبليس ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فقال عند ذلك إبليس : « لا أفارق ابن آدم ما دام فيه الروح ، أعدّه (٣) وأمنّيه وأخذعه » . فقال الله : « وعزتي لا أحجب عنه التوبة ما لم يُغرغر بالموت ، ولا يدعوني إلا أجبتّه ، ولا يسألني إلا أعطيتّه ، ولا يستغفرني إلا غفرت له » . رواه ابن أبي حاتم .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ : قال ابن عباس : أى من حجة .

وقال الحسن البصري : والله ما ضربهم بعضاً ، ولا أكرههم على شيء ، وما كان إلا غرورا وأمانى دعاهم إليها فأجابوه .

وقوله : ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْمنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴾ أى : إنما سلطناه عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء ، فيحسن عبادة ربه عز وجل فى الدنيا ، ممن هو منها فى شك .

وقوله : ﴿ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴾ أى : ومع حفظه ضلّ من ضلّ من أتباع إبليس ، وبحفظه وكلاءته سلم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل .

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) ﴾ .

بَيَّنَّ (٤) تعالى أنه الإله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لا نظير له ولا شريك له ، بل هو المستقل بالأمر وحده ، من غير مشارك ولا منازع ولا معارض ، فقال : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى : من الآلهة التى عبدت من دونه ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٣] .

وقوله : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ ﴾ أى : لا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل الشركة ، ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ أى : وليس لله من (٥) هذه الأنداد من ظهير يستظهر به فى الأمور ، بل

(٣) فى ت ، س : « أغره » .

(٢) فى أ : « أهبط » .

(١) فى ت ، س : « وقال » .

(٥) فى ت : « فى » .

(٤) فى ت ، س ، أ : « بين » .

الخلق كلهم فقراء إليه ، عبید لديه .

قال قتادة فى قوله : ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ ﴾ ، من عون يعينه بشىء .

وقال (١) : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ أى : لعظمته [وجلاله] (٢) وكبريائه لا يجترئ أحد أن يشفع عنده تعالى فى شىء إلا بعد إذنه له فى الشفاعة ، كما قال تعالى : ﴿ مِنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقال : ﴿ وَكَمْ مِّنْ مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَن بَعْدَ أَنْ يَأْذِنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ [وَيَرْضَى] ﴾ (٣) [النجم : ٢٦] ، وقال : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٨] .

ولهذا ثبت فى الصحيحين (٤) ، من غير وجه عن رسول الله ﷺ - وهو سيد ولد آدم ، وأكبر شفيع عند الله - : أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع فى الخلق كلهم أن يأتى ربهم لفصل القضاء ، قال : « فأسجد لله فیدعنى ما شاء الله أن يدعنى ، ويفتح على بمحامد لا أحصيها الآن ، ثم يقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع (٥) ، وسل تعطه واشفع تشفع » الحديث بتمامه .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ . وهذا أيضا مقام رفيع فى العظمة . وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحى ، سمع أهل السموات كلامه ، أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشى . قاله ابن مسعود ومسروق ، وغيرهما .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ أى : زال الفزع عنها . قال ابن عباس ، وابن عمر وأبو عبد الرحمن السلمى والشعبي ، وإبراهيم النخعي ، والضحاك والحسن ، وقاتادة فى قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ يقول : جُلَّى عن قلوبهم ، وقرأ بعض السلف - وجاء مرفوعا - : « [حَتَّى] (٦) إِذَا فَرَغَ » بالغين (٧) المعجمة ، ويرجع إلى الأول .

فإذا كان كذلك يسأل بعضهم بعضا : ماذا قال ربكم ؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم ، حتى ينتهى الخبر إلى أهل السماء الدنيا ؛ ولهذا قال : ﴿ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ أى : أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ .

وقال آخرون : بل معنى قوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ يعنى : المشركين عند الاحتضار ، ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة فى الدنيا ، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة ، قالوا : ماذا قال ربكم ؟ فقل لهم : الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين فى الدنيا .

قال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ : كشف عنها الغطاء يوم القيامة .

وقال الحسن : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ يعنى : ما فيها من الشك والتكذيب .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ يعنى : ما فيها من الشك ،

(٣) زيادة من ت ، أ .

(٢) زيادة من أ .

(١) فى ت : « ثم قال » .

(٤) تقدمت أحاديث الشفاعة عند تفسير الآية : ٧٩ من سورة الإسراء .

(٧) فى ت : « بالعين » .

(٦) زيادة من أ .

(٥) فى س ، أ : « تسمع » .

قال : فزع الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانهم وما كان يضلهم ، ﴿ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ قال : وهذا فى بنى آدم ، هذا عند الموت ، أقرؤا حين لا ينفعهم الإقرار .

وقد اختار ابن جرير القول الأول : أن الضمير عائد على الملائكة ^(١) . هذا هو الحق الذى لا مرية فيه ، لصحة الأحاديث فيه والآثار ، ولنذكر منها طرفا يدل على غيره :

قال البخارى عند تفسير هذه الآية الكريمة فى صحيحه : حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو ، سمعت عكرمة ، سمعت أبا هريرة ^(٢) يقول : إن نبى الله ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاعاً لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال : الحق ، وهو العلى الكبير فيسمعها مسترق السمع ، ومسترق السمع - هكذا بعضه ^(٣) فوق بعض - ووصف سفيان بيده - فحرقها وبَدَدَ ^(٤) بين أصابعه - فيسمع الكلمة ، فيلقها إلى من تحته ، ثم يلقها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقها على لسان الساحر ^(٥) أو الكاهن : فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا ^(٦) وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التى سُمعت من السماء .

انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم من هذا الوجه . وقد رواه أبو داود ، والترمذى ، وابنه ماجه ، من حديث سفيان بن عيينة ، به ^(٧) .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر وعبد الرزاق : أخبرنا معمر ، أخبرنا الزهرى ، عن على بن الحسين ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ [جالساً] ^(٨) فى نفر من أصحابه - قال عبد الرزاق : « من الأنصار » - فرمى بنجم فاستنار ، [قال] ^(٩) : « ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا فى الجاهلية ؟ » قالوا : كنا نقول يؤلّد عظيم ، أو يموت ^(١٠) عظيم - قلت للزهرى : أكان يرمى بها فى الجاهلية ؟ قال : نعم ، ولكن غلظت حين بعث النبى ﷺ - قال : فقال رسول الله ﷺ : « فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا ، تبارك وتعالى ، إذا قضى أمراً سبح حملة العرش [ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح هذه ^(١١) الدنيا ، ثم يستخبر أهل السماء الذين يُلُون حملة العرش ، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش] ^(١٢) : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ، ويخبر أهل كل سماء سماء ؛ حتى ينتهى الخبر إلى هذه السماء ، وتخطف الجن السمع فيرمون ، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون .

هكذا رواه الإمام أحمد ^(١٣) . وقد أخرجه مسلم فى صحيحه ، من حديث صالح بن كيسان ،

(١) تفسير الطبرى (٢٢ / ٦٤) .

(٢) فى ت : « قال البخارى عند تفسيره هذه الآية الكريمة فى صحيحه بإسناده عن أبى هريرة » .

(٣) فى أ : « بعضهم » .

(٤) فى أ : « وسدد » .

(٥) فى أ : « الآخر » .

(٦) فى أ : « وكذا ، يوم كذا » .

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٠) وسنن أبى داود برقم (٣٩٨٩) وسنن الترمذى برقم (٣٢٢٣) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٤) .

(٨) فى ت ، س : « ويموت » .

(٩) زيادة من ت ، س ، والمسند .

(١٠) فى ت ، س : « وكذا ، يوم كذا » .

(١١) فى ت ، س : « السماء » .

(١٢) المسند (١ / ٢١٨) .

والأوزاعي ، ويونس ومَعْقِل بن عبيد الله ^(١) ، أربعتهم عن الزهري ، عن علي بن الحسين ، عن ابن عباس عن رجل من الأنصار ، به ^(٢) . ورواه وقال يونس : عن رجال من الأنصار ^(٣) . وكذا رواه النسائي ^(٤) في « التفسير » من حديث الزبيدي ، عن الزهري ، به ^(٥) . ورواه الترمذي فيه عن الحسين بن حريث ، عن الوليد بن مسلم ، عن الأوزاعي ، عن الزهري ، عن عبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس ، عن رجل من الأنصار ، رضى الله عنه ^(٦) ، والله ^(٧) أعلم .

حديث آخر : قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عوف وأحمد بن منصور بن سيار الرمادي - والسياق لمحمد بن عوف - قالوا : حدثنا نعيم بن حماد ، حدثنا الوليد - هو ابن مسلم - عن عبد الرحمن بن يزيد ^(٨) بن جابر ، عن عبد الله بن أبي زكرياء ، عن رجاء بن حيوة ، عن النواس بن سمعان ^(٩) قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله أن يوحى بأمره تكلم بالوحي ، فإذا تكلم أخذت السموات منه ^(١٠) رجفة - أو قال : رعدة - شديدة ؛ من خوف الله ، فإذا سمع بذلك أهل السموات صعبوا وخروا لله سجدا ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، فيمضي به جبريل على الملائكة ، كلما مرَّ بسماء سماء سألته ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول : قال : الحق ، وهو العلى الكبير . فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهي جبريل بالوحي حيث أمره الله من السماء والأرض » .

وكذا رواه ابن جرير وابن خزيمة ، عن زكريا بن أبان المصري ، عن نعيم بن حماد ، به ^(١١) . قال ابن أبي حاتم : سمعت أبي يقول : ليس هذا الحديث بالشام عن الوليد بن مسلم ، رحمه الله .

وقد روى ابن أبي حاتم من حديث العوفي ، عن ابن عباس - وعن قتادة : أنهما فسرا هذه الآية بابتداء إichاء الله سبحانه إلى محمد ﷺ بعد الفترة التي كانت بينه وبين عيسى ، ولا شك أن هذا أولى ما دخل في هذه الآية .

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢٤) قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ

(١) في س : « بن عبد الله » .

(٢) (٣ ، ٢) صحيح مسلم برقم (٢٢٢٩) .

(٤) في ت : « وكذا رواه النسائي والترمذي » .

(٥) سنن الترمذي برقم (٣٢٢٤) .

(٦) النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٢٧٢) .

(٧) في س : « فآله » . (٨) في أ : « زيد » .

(٩) في ت : « حديث آخر رواه ابن جرير بإسناده عن النواس بن سمعان » .

(١٠) في أ : « منها » .

(١١) تفسير الطبري (٢٢ / ٦٣) والتوحيد لابن خزيمة ص (٩٥) ورواه ابن أبي عاصم في السنة برقم (٥١٥) من طريق محمد بن

عوف ، عن نعيم بن حماد ، به .

بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ .

يقول تعالى مقررًا تفردَه بالخلق والرزق ^(١) ، وانفراده بالإلهية أيضا ، فكما كانوا يعترفون بأنه لا يرزقهم من السماء ^(٢) والأرض - أى : بما ينزل من المطر وينبت من الزرع - إلا الله ، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره .

وقوله : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ : هذا من باب اللف والنشر ، أى : واحد من الفريقين مبطل ، والآخر محق ، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال ، بل واحد منا مصيب ، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد ، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

قال قتادة : قد قال ذلك أصحاب محمد ﷺ للمشركين : والله ما نحن وإياكم على أمر واحد ، إن أحد الفريقين لمهتد .

وقال عكرمة وزيد بن أبى مریم : معناه : إنا نحن لعلی هدى ، وإنكم لفي ضلال مبين .

وقوله : ﴿ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ : معناه : التبرى منهم ، أى : لستم منا ولا نحن منكم ، بل ندعوكم إلى الله وإلى توحيده وإفراد العبادة له ، فإن أجبتهم فأنتم منا ونحن منكم ، وإن كذبتهم فنحن برآء منكم وأنتم برآء منا ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن (٣) كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ٤١] ، وقال : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [سورة الكافرون] .

وقوله : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ أى : يوم القيامة ، يجمع [بين] ^(٤) الخلائق فى صعيد واحد ، ثم يفتح بيننا بالحق ، أى : يحكم بيننا بالعدل ، فيجزى كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئذٍ يَتَفَرَّقُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ [الروم : ١٤ - ١٦] ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ أى : الحاكم ^(٥) العادل العالم بحقائق الأمور .

وقوله : ﴿ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ ﴾ أى : أرونى هذه الآلهة التى جعلتموها لله أندادا وصيرتموها له عدلا . ﴿ كَلَّا ﴾ أى : ليس له نظير ولا نديد ، ولا شريك ولا عديل ، ولهذا قال : ﴿ بَلْ هُوَ اللَّهُ ﴾ : أى : الواحد الأحد الذى لا شريك له ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى : ذو العزة التى قد قهر

(١) فى ت : « يفرضه بالرزق والخلق » . (٢) فى ت ، أ : « السموات » .

(٣) فى هـ ، ت ، س ، أ : « فإن » والصواب ما أثبتناه . (٤) زيادة من ت . (٥) فى ت ، أ : « الحكام » .

بها كل شيء ، وَغَلَبَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، الحكيم في أفعاله وأقواله ، وشرعه وقدره ، تعالى وتقدس .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ .

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه (١) : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾ (٢) : أى : إلا إلى جميع الخلق من المكلفين ، كقوله (٣) تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] . ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أى تبشر (٤) من أطاعك بالجنة ، وتنذر من عصاك بالنار .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، كقوله (٥) تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] ، ﴿ وَإِنْ تَطَّعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١١٦] .

قال محمد بن كعب فى قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾ يعنى : إلى الناس عامة .

وقال قتادة فى هذه الآية : أرسل الله محمدا ﷺ إلى العرب والعجم ، فأكرمهم على الله أطوعهم لله عز وجل .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو عبد الله الظهراني ، حدثنا حفص بن عمر العدني ، حدثنا الحكم - يعنى : ابن أبان (٦) - عن عكرمة قال : سمعت ابن عباس يقول : إن الله فضل محمدا ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء . قالوا : يا ابن عباس ، فيم فضله الله (٧) على الأنبياء ؟ قال : إن الله قال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ ، وقال للنبي ﷺ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾ ، فأرسله الله إلى الجن والإنس .

وهذا الذى قاله ابن عباس قد ثبت فى الصحيحين رفعه عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر . وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، فأيا رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل . وأحللت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى . وأعطيت الشفاعة . وكان النبى يبعث إلى قومه ، وبعثت إلى الناس عامة » (٨) .

وفى الصحيح أيضا أن رسول الله ﷺ قال : « بعثت إلى الأسود والأحمر » (٩) . قال مجاهد : يعنى : الجن والإنس . وقال غيره : يعنى : العرب والعجم . والكل صحيح .

ثم قال تعالى مخبرا عن الكفار فى استبعادهم قيام الساعة : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

(١) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » .

(٤) فى س : « يبشر » .

(٢) فى ت : « للناس بشيرا » . (٣) فى ت ، س : « لقوله » .

(٧) فى ت ، س : « فما فضله » .

(٦) فى ت : « روى ابن أبى حاتم بإسناده » .

(٨) صحيح البخارى برقم (٣٣٥) وصحيح مسلم برقم (٥٢١) .

(٩) وهو قطعة من حديث جابر السابق عند مسلم فى صحيحه برقم (٥٢١) .

صَادِقِينَ ﴿ ١٨ 〉 ، كما قال تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ الآية [الشورى : ١٨] .

ثم قال : ﴿ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ أى : لكم ميعاد مؤجل معدود محدد ، لا يزداد ولا ينقص ، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴾ [نوح : ٤] ، وقال : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ . يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٤ ، ١٠٥] .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلُ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنْحُنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يَجْزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) ﴾ .

يخبر تعالى عن تمادى الكفار فى طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن وما أخبر به من أمر المعاد ؛ ولهذا قال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ، قال الله تعالى متهددا لهم ومتوعدا ، ومخبرا عن مواقفهم الدليلة بين يديه فى حال تخاصمهم وتحاجهم : ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلُ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا ﴾ منهم وهم الأتباع ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم قادتهم وسادتهم : ﴿ لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ أى : لولا أنتم تصدوننا ، لكننا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاؤونا به . فقال لهم القادة والسادة ، وهم الذين استكبروا : ﴿ أَنْحُنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ﴾ أى : نحن ما فعلنا بكم ^(١) أكثر من أننا دعوناكم فاتبعتمونا من غير ^(٢) دليل ولا برهان ، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التى جاءت بها الأنبياء ، لشهوتكم واختياركم لذلك ؛ ولهذا قالوا : ﴿ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أى : بل كنتم تمكرون بنا ليلا ونهارا ، وتغرؤنا وتمنونا ، وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شيء ، فإذا جميع ذلك باطل وكذب ومين .

قال قتادة ، وابن زيد ^(٣) : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ يقول : بل مكرهم بالليل والنهار . وكذا قال مالك ، عن زيد بن أسلم : مكرهم بالليل والنهار .

﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ﴾ أى نظراء وآلهة معه ، وتقيموا لنا شُبهاً وأشياء من

(١) فى س ، أ : « بكم ذلك » . (٢) فى ت ، س ، أ : « بغير » . (٣) فى ت ، أ : « ابن زيد بن أسلم » .

المحال ، تضلونا بها ﴿ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ ﴾ أى : الجميع من السادة والأتباع ، كُلُّ نَدَمٍ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْهُ .

﴿ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ : وهى السلاسل التى تجمع أيديهم مع أعناقهم ، ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) أى : إنما نجازيكم بأعمالكم (٢) ، كُلُّ بِحْسَبِهِ ، للقادة عذاب بحسبهم ، وللأتباع بحسبهم ﴿ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٨] .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا فروة بن أبى المغراء ، حدثنا محمد بن سليمان (٣) بن الأصبهاني ، عن أبى سنان ضرار بن صرد ، عن عبد الله بن أبى الهذيل (٤) ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلقاهم لهابها ، ثم لفحتهم لفحة فلم يبق لحم (٥) إلا سقط على العرقوب » (٦) .

وحدثنا (٧) أبى ، حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، حدثنا الطيب أبو الحسن ، عن الحسن بن يحيى الحُشْنَى قال : ما فى جهنم دار ولا مغار ولا غل ولا سلسلة ولا قيد ، إلا اسم صاحبها عليه مكتوب . قال : فحدثته أبا سليمان - يعنى : الداراني ، رحمة الله عليه (٨) - فبكى ثم قال : ويحك . فكيف به لو جمع هذا كله عليه ، فجعل القيد فى رجليه ، والغُل فى يديه والسلسلة فى عنقه ، ثم أدخل الدار وأدخل المغار ؟ !

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ ﴾ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (٣٩) .

يقول تعالى مسليا لنبيه ، وأمر له بالتأسي بمن قبله من الرسل ، ومخبره بأنه ما بعث نبياً فى قرية إلا كذبه (٩) متترفوها ، واتبعه ضعفاؤهم ، كما قال قويم نوح : ﴿ أَنْزَمْنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ ﴾ [الشعراء : ١١١] ، ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادْي الرَّأْيِ ﴾ [هود : ٢٧] ، وقال الكبراء من قوم صالح : ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَن آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا

(١) فى ت ، س : « هل تجزون إلا ما كنتم تعملون » . (٢) فى أ : « نجازيهم بأعمالهم » . (٣) فى أ : « سليم » .

(٤) فى ت : « روى ابن أبى حاتم بإسناده » . (٥) فى ت : « فلم يبق لهم لحم » .

(٦) ورواه الطبراني فى المعجم الأوسط برقم (٤٨٤٨) « مجمع البحرين » وأبو نعيم فى الحلية (٤ / ٣٦٣) من طرق عن محمد بن سليمان الأصبهاني ، به . وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٣٨٩) : « وفيه محمد بن سليمان الأصبهاني وهو ضعيف » .

(٧) فى ت : « وروى » . (٨) فى ت : « رحمه الله » . (٩) فى ت : « إلا كفر به » .

أَرْسَلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٥﴾ [الأعراف ٧٥ ، ٧٦] وقال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام : ٥٣] ؟ وقال : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مَجْرُمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، وقال : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا [فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ] ﴿١١﴾﴾ [الإسراء : ١٦] . وقال هاهنا : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ ﴿١٢٣﴾﴾ أى : نبي أو رسول ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴿١٢٤﴾﴾ ، وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة .

قال قتادة : هم جبابرتهم وقادتهم ورؤوسهم فى الشر . ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ أى : لا تؤمن به ولا تتبعه .

قال (٢) ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا هارون بن إسحاق ، حدثنا محمد بن عبد الوهاب عن سفيان عن عاصم ، عن أبى رزین قال : كان رجلان شريكان (٣) خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر ، فلما بعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله : ما فعل ؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش ، إنما (٤) اتبعه أراذل (٥) الناس ومساكينهم . قال : فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال : دلنى عليه - قال : وكان يقرأ الكتب ، أو بعض الكتب - قال : فأتى النبي ﷺ فقال : إلام تدعو ؟ قال : «إلى كذا وكذا» . قال : أشهد أنك رسول الله . قال : «وما علمك بذلك ؟» قال : إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه رذالة الناس ومساكينهم . قال : فتزلت هذه الآية (٦) : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الآيات (٧)] ، قال : فأرسل إليه النبي ﷺ «إن الله قد أنزل تصديق ما قلت» (٨) .

وهكذا قال هرقل لأبى سفيان حين سأله عن تلك المسائل ، قال فيها : وسألتك : أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم فزعمت : بل ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل .

وقوله تعالى إخبارا عن المترفين المكذبين : ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ أى : افتخروا بكثرة الأموال والأولاد ، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم واعتنائه بهم ، وأنه ما كان ليعطيهم هذا فى الدنيا ، ثم يعذبهم فى الآخرة ، وهيهات لهم ذلك . قال الله : ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦] وقال : ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴿١٢٩﴾﴾ بها فى الحياة الدنيا وتزهد أنفسهم وهم كافرون ﴿[التوبة : ٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا . سَأَرَّهُنَّ صَعُودًا ﴿١٣٠﴾﴾ [المدثر : ١١ - ١٧] .

(٣) فى ت ، س : «شريكين» .

(٢) فى ت : «روى» .

(١) زيادة من ت .

(٥) فى ت ، س : «رذالة» .

(٤) فى س : «إلا» .

(٧) زيادة من ت ، س .

(٦) فى ت ، س : «الآيات» .

(٨) ورواه ابن أبي شيبة وابن المنذر كما فى الدر المنثور (٦ / ٧٠٤) ووقع فى الدر : «ابن زيد» بدل : «أبو رزین» .

(٩) فى ت ، س : «أن يعذبهم» .

وقد أخبر الله عن صاحب تينك الجنتين : أنه كان ذا مال وولد وثمر ، ثم لم تُغن عنه شيئا ، بل سلب ذلك كله في الدنيا قبل الآخرة ؛ ولهذا قال تعالى هاهنا : ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أى : يعطى المال لمن يحب ومن لا يحب ، فيفقر من يشاء ويغنى من يشاء ، وله الحكمة النامة البالغة ، والحجة الدامغة القاطعة ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى ﴾ أى : ليست هذه دليلا على محبتنا لكم ، ولا اعتنائنا بكم .

قال (١) الإمام أحمد ، رحمه الله : حدثنا كثير ، حدثنا جعفر ، حدثنا يزيد بن الأصم ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال سول الله ﷺ (٢) : « إِنْ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » . [و] (٣) رواه مسلم وابن ماجة ، من حديث كثير بن هشام ، عن جعفر ابن بُرقان ، به (٤) .

ولهذا قال : ﴿ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أى : إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح ، ﴿ فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى : تضاعف (٥) لهم الحسنة بعشرة (٦) أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ﴿ وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ ﴾ أى : فى منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى ، ومن كل شر يُحذر منه .

قال (٧) ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا فروة بن أبى المغراء الكندى ، حدثنا القاسم وعلى بن مسهر ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن النعمان بن سعد ، عن على ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ فِي الْجَنَّةِ لَغُرَفًا تَرَى ظَهْرَهَا مِنْ بَطُونِهَا ، وَبَطُونَهَا مِنْ ظَهْرِهَا » . فقال أعرابى : لمن هى ؟ قال : « لِمَنْ طِيبَ الْكَلَامِ ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ ، [وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسِ نِيَامَ] (٨) » (٩) .

﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ﴾ أى : يسعون فى الصد عن سبيل الله ، واتباع الرسل والتصديق بآياته ، ﴿ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ أى : جميعهم مجزيون بأعمالهم فيها بحسبهم .

وقوله : ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ أى : بحسب ما له فى ذلك من الحكمة ، ييسط على هذا من المال كثيرا ، ويضيق على هذا ويقتصر عليه رزقه جدًّا ، وله فى ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره ، كما قال تعالى : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٢١] أى : كما هم متفاوتون فى الدنيا : هذا فقير مدقع ، وهذا غنى

(١) فى ت : « كما روى » . (٢) فى ت ، س : « أن رسول الله ﷺ قال » . (٣) زيادة من س .

(٤) المسند (٢ / ٥٣٩) وصحيح مسلم برقم (٢٥٦٤) وسنن ابن ماجة برقم (٤١٤٣) .

(٥) فى س : « يضاعف » . (٦) فى ت ، س ، أ : « بعشر » .

(٧) فى ت : « وروى » . (٨) زيادة من ت ، أ .

(٩) ورواه الترمذى فى السنن برقم (١٩٨٤) من طريق على بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحاق بأطول منه ، وقال : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن إسحاق ، وقد تكلم أهل الحديث فى عبد الرحمن بن إسحاق هذا من قبل حفظه وهو كوفى » . قلت : وله شواهد من حديث عبد الله بن عمرو وأبى مالك الأشعرى وأبى معاتق الأشعرى ، رضى الله عنهم .

مُوسَّعٌ عَلَيْهِ ، فَكَذَلِكَ هُمْ فِي الْآخِرَةِ : هَذَا فِي الْغُرَفَاتِ فِي أَعْلَى الدَّرَجَاتِ ، وَهَذَا فِي الْغَمَرَاتِ فِي أَسْفَلِ الدَّرَكَاتِ . وَأَطِيبِ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا ، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ » . رواه مسلم من حديث ابن عمرو (١) .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ أى : مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم ، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل ، وفي الآخرة بالجزاء والثواب ، كما ثبت في الحديث (٢) : « يقول الله تعالى : أنفق (٣) أنفق عليك » (٤) . وفي الحديث : أن ملكين يصيحان كل يوم ، يقول أحدهما : « اللهم أعط مُمَسِّكًا تَلَفًا » ، ويقول الآخر : « اللهم أعط متفقًا خَلَفًا » (٥) وقال رسول الله ﷺ « أنفق بلالا ، ولا تخش من ذي العرش إقلالا » (٦) .

وقال (٧) ابن أبي حاتم عن يزيد بن عبد العزيز الطلاس ، حدثنا هُشَيْمٌ عن الكوثر بن حكيم ، عن مكحول قال : بلغني عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا إن بعدكم (٨) زمان عضوض ، يعرض المورس على ما في يده (٩) حذار الإنفاق » . ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (١٠) .

وقال (١١) الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا روح بن حاتم ، حدثنا هُشَيْمٌ ، عن الكوثر بن حكيم ، عن مكحول قال : بلغني عن حذيفة أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض ، يعرض المورس على ما في يده حذار الإنفاق » ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ ، وَيَنْهَلُ شَرَارَ الْخَلْقِ يَبَايَعُونَ كُلَّ مُضْطَرٍ ، ألا إن بيع المضطرين حرام ، [ألا أن بيع المضطرين حرام] (١٢) المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ، إن كان عندك معروف ، فعد به على أخيك ، وإلا فلا تزد هلاكًا إلى هلاكه .

هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وفي إسناده ضعف (١٣) .

وقال سفيان الثوري ، عن أبي يونس الحسن بن يزيد قال : قال مجاهد : لا يتأولن أحدكم هذه

(١) صحيح مسلم برقم (١٠٥٤) .

(٢) في ت : « في الصحيح » . (٣) في أ : « ابن آدم أنفق » .

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٦٨٤) ومسلم فى صحيحه برقم (٩٩٣) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٥) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٤٤٢) ومسلم فى صحيحه برقم (١٠١٠) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٦) جاء عن جماعة من الصحابة ، فرواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١ / ٣٤٠) من طريق قيس بن الربيع عن أبى حصين ، عن يحيى ابن وثاب ، عن مسروق عن ابن مسعود ، رضى الله عنه ، وقيس بن الربيع ضعفه . ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١ / ٣٤٢) ، وأبو يعلى فى مسنده (١٠ / ٤٢٩) وأبو نعيم فى الحلية (٢ / ٢٨٠) عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة ، رضى الله عنه . ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١ / ٣٥٩) من طريق أبى إسحاق عن مسروق عن بلال ، رضى الله عنه ، وفيه ابن زبالة وهو ضعيف .

(٧) فى ت : « وروى » . (٨) فى س : « بعدكم هذا زمان » . (٩) فى ت ، س : « يديه » .

(١٠) ذكره السيوطى فى الدر (٦ / ٧٠٧) وقال : « أخرج أبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه بسند ضعيف فذكره » .

(١١) فى ت : « وروى » . (١٢) زيادة من ت ، س .

(١٣) ذكره الحافظ ابن حجر فى المطالب العالية (١ / ٢٦١) وعزاه لأبى يعلى فى مسنده .

الآية : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ : إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه ، فإن الرزق مقسوم .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) ﴾ .

يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صور الملائكة ليقربوهم إلى الله زلفى ، فيقول للملائكة : ﴿ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ ؟ أى : أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم ؟ كما قال فى سورة الفرقان : ﴿ أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ [الفرقان : ١٧] ، وكما يقول لعيسى : ﴿ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخَذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ﴾ [المائدة : ١١٦] . وهكذا تقول الملائكة : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أى : تعاليت وتقدسيت عن أن يكون معك إله ﴿ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ ﴾ أى : نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء ، ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ يعنون : الشياطين ؛ لأنهم هم الذين ^(١) يزينون لهم عبادة الأوثان ويضلونهم ^(٢) ، ﴿ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنْ يَدْعُونَ (٣) مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ (٤) إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴾ [النساء : ١١٧] . قال الله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ أى : لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان ، التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكربكم ، اليوم لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً ، ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ - وهم المشركون - ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أى : يقال لهم ذلك ، تقريباً وتوبيخاً .

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) ﴾ .

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب ؛ لأنهم كانوا إذا تلى

(١) فى هـ : « الشياطين ثم الذين » والمثبت من ت ، س .

(٢) فى س : « ويضلونهم » .

(٣ ، ٤) فى س : « تدعون » .

عليهم آياته بينات يسمعونها غَضَّةً طرية من لسان رسوله (١) ﷺ ، ﴿ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ﴾ ، يعنون أن دين آبائهم هو الحق ، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل - عليهم وعلى آبائهم لعائن الله - ﴿ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى ﴾ يعنون : القرآن ، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كِتَابٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴾ أى : ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن ، وما أرسل إليهم نبياً قبل محمد ﷺ ، وقد كانوا يودّون ذلك ويقولون : لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب ، لكننا أهدي من غيرنا ، فلما منَّ الله عليهم بذلك كذبوه وعاندوه وجحدوه . ثم قال : ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى : من الأمم ، ﴿ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ قال ابن عباس : أى من القوة في الدنيا . وكذلك (٢) قال قتادة ، والسدي ، وابن زيد . كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيهَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٦] ، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً ﴾ [غافر : ٨٢] ، أى : وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده ، بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسوله ؛ ولهذا قال : ﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٌ ﴾ أى : كيف كان نكالي وعقابي وانتصاري لرسلي (٣) ؟

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفَرَادًى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون : ﴿ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ﴾ أى : إنما أمركم بواحدة ، وهى : ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفَرَادًى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ ﴾ أى : تقوموا قياماً خالصاً لله ، من غير هوى ولا عصبية ، فيسأل بعضكم بعضاً : هل بمحمد من جنون ؟ فينصح بعضكم بعضاً ، ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ أى : ينظر الرجل لنفسه فى أمر محمد ﷺ ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ، ويتفكر فى ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفَرَادًى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ ﴾ .

هذا معنى ما ذكره مجاهد ، ومحمد بن كعب ، والسدي ، وقتادة ، وغيرهم ، وهذا هو المراد من الآية .

فأما الحديث الذى رواه ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة بن خالد ، حدثنا عثمان بن أبى العاتكة ، عن على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول : « أعطيت ثلاثاً لم يعطهن من قبلى ولا فخر : أحلت لى الغنائم ، ولم تحل لمن قبلى ، كانوا قبلى يجمعون غنائمهم فيحرقونها . وبُعِثت إلى كل أحمر وأسود ، وكان كل نبى يبعث

(٢) فى ت ، س : « وكذا » .

(١) فى ت : « رسول الله » .

(٣) فى ت : « أى فكيف كان عقابي وانتصاري لرسلي » .

إلى قومه ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، أتيتم بالصعيد ، وأصلى حيث أدركتنى الصلاة ، قال الله : ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى خِزْفٍ ﴾ ، وأعنت بالربع مسيرة شهر بين يدي - فهو حديث ضعيف الإسناد ، وتفسير الآية بالقيام فى الصلاة فى جماعة وفردى بعيد ، ولعله مقحم فى الحديث من بعض الرواة ، فإن أصله ثابت فى الصحاح وغيرها (١) ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ : قال (٢) البخارى عندها :

حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا محمد بن خازم ، حدثنا الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن سعيد بن جبير (٣) ، عن ابن عباس قال : صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم ، فقال : « يا صباحاه » . فاجتمعت إليه قريش ، فقالوا : ما لك ؟ فقال : « أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يُصَبِّحكم أو يُمَسِّيكُم ، أما كنتم تصدقونى ؟ » قالوا : بلى . قال : « فإننى نذير لكم بين يدي عذاب شديد » . فقال أبو لهب : تبأ لك ! ألهذا جمعنا ؟ فأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ [المسد] (٤) .

وقد تقدم عند قوله : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا بشير بن المهاجر ، حدثنى عبد الله بن بريدة (٥) ، عن أبيه قال : خرج إلينا رسول الله ﷺ يوماً فنادى ثلاث مرات فقال : « أيها الناس ، تدرون ما مثلى ومثلكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « إنما مثلى ومثلكم مثل قوم خافوا عدوا يأتيهم ، فبعثوا رجلاً يتراءى لهم ، فبينما هو كذلك أبصر العدو ، فأقبل لينذرهم وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى بثوبه : أيها الناس ، أوتيتم . أيها الناس ، أوتيتم - ثلاث مرات » .

وبهذا الإسناد (٦) قال رسول الله ﷺ : « بعثت أنا والساعة جميعاً ، إن كادت لتسبقنى » .

تفرد به الإمام أحمد فى مسنده (٧) .

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٤٧)
 ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَآمُ الْغُيُوبِ ﴾ (٤٨) ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ (٤٩) ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِى إِلَيَّ رَبِّى إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ (٥٠) .

يقول تعالى آمراً رسوله أن يقول للمشركين : ﴿ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ أى : لا أريد منكم جُعلاً ولا عطاء على أداء رسالة الله إليكم ، ونصحى إياكم ، وأمركم بعبادة الله ، ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ أى : إنما أطلب ثواب ذلك عند الله ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى : عالم بجميع الأمور ، بما أنا عليه من إخبارى عنه بإرساله إياى إليكم ، وما أنتم عليه .

(١) سبق تخريج حديث جابر ، رضى الله عنه ، فى الصحيحين عند تفسير الآية : ٢٨ من هذه السورة .

(٢) فى ت : « روى » . (٣) فى ت : « بإسناده » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٠١) .

(٥) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن عبد الله بن زيد » . (٦) فى ت : « بإسناده » .

(٧) المسند (٥ / ٣٤٨) .

وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَآمُ الْغُيُوبِ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [غافر : ١٥] . أى : يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض ، وهو علام الغيوب ، فلا تخفى عليه خافية فى السموات ولا فى الأرض .

وقوله : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ أى : جاء الحق من الله والشرع العظيم ، وذهب الباطل وزهق واضمحل ، كقوله : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ [فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ] ﴾^(١) [الأنبياء : ١٨] ، ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح ، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة ، جعل يطعن الصنم^(٢) بسية قوسه ، ويقرأ : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ ، ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ . رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وحده عند هذه الآية ، كلهم من حديث الثورى ، عن ابن أبى نجیح ، عن مجاهد ، عن أبى معمر عبد الله بن سخرية ، عن ابن مسعود ، به^(٣) .

أى : لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة .

وزعم قتادة والسدى : أن المراد بالباطل هاهنا إبليس ، أى : إنه لا يخلق أحدا ولا يعيده ، ولا يقدر على ذلك . وهذا وإن كان حقا ولكن ليس هو المراد هاهنا^(٤) ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾ أى : الخير كله من عند الله ، وفيما أنزله عز وجل من الوحي والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد ، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه ، كما قال عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، لما سئل عن تلك المسألة فى المفوضة : أقول فيها برأى ، فإن يكن صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه^(٥) .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ أى : سميع لأقوال عباده ، قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه . وقد روى النسائى هاهنا حديث أبى موسى الذى فى الصحيحين [أن رسول الله ﷺ قال]^(٦) : «إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنما تدعون سميعا^(٧) قريبا مجيبا^(٨)» .

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ۖ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ۚ ﴾^(٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ۚ ﴾^(٥٣)

(١) زيادة من ت . (٢) فى ت ، س ، أ : « الصنم منها » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٤٧٨ ، ٤٢٨٧) وصحيح مسلم برقم (١٧٨١) وسنن الترمذى برقم (٣١٣٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٢٨) .

(٤) فى ت : « الآية » .

(٥) انظر الاثر فى المسند (١ / ٤٧٧) .

(٦) زيادة من ت ، أ . (٧) فى أ : « سميعا بصيرا » .

(٨) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٢٧) وصحيح البخارى برقم (٤٢٠٥) وصحيح مسلم برقم (٢٧٠٤) .

وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ .

يقول تعالى : ولو ترى - يا محمد - إذا فَرَّعَ هؤلاء المكذبون ^(١) يوم القيامة ، ﴿ فَلَا فُوتَ ﴾ أى : فلا مفر لهم ، ولا وزر ولا ملجأ ﴿ وَأَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ أى : لم يكونوا يَمْنَعُونَ فى الهرب ^(٢) ، بل أخذوا من أول وهلة .

قال الحسن البصرى : حين خرجوا من قبورهم .

وقال مجاهد ، وعطية العوفى ، وقتادة : من تحت أقدامهم .

وعن ابن عباس والضحاك : يعنى : عذابهم فى الدنيا .

وقال عبد الرحمن بن زيد : يعنى : قتلهم يوم بدر .

والصحيح : أن المراد بذلك يوم القيامة ، وهو الطامة العظمى ، وإن كان ما ذكر متصلا بذلك .

وحكى ابن جرير عن بعضهم قال : إن المراد بذلك جيش يخسف بهم بين مكة والمدينة فى أيام بنى العباس ، ثم أورد فى ذلك حديثا موضوعا بالكلية . ثم لم ينبه على ذلك ، وهذا أمر عجيب غريب منه .

﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ ﴾ أى : يوم القيامة يقولون : آمنا بالله وبكتبه ورسله ^(٣) ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ١٢] ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أى : وكيف لهم تعاطى ^(٤) الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم وصاروا إلى الدار الآخرة ، وهى دار الجزاء لا دار الابتلاء ، فلو كانوا آمنوا فى الدنيا لكان ذلك نافعهم ، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان ، كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد .

قال مجاهد : ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ ﴾ قال : التناول لذلك .

وقال الزهرى : التناوش : تناولهم الإيمان وهم فى الآخرة ، وقد انقطعت عنهم الدنيا .

وقال الحسن البصرى : أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال ، تعاطوا الإيمان من مكان بعيد .

وقال ابن عباس : طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه ، وليس بحين ^(٥) رجعة ولا توبة . وكذا قال محمد بن كعب القرظى ، رحمه الله .

وقوله : ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى : كيف يحصل لهم الإيمان فى الآخرة ، وقد كفروا بالحق فى الدنيا وكذبوا بالرسول ؟

﴿ وَيَقْدِرُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ : قال مالك ، عن زيد بن أسلم : ﴿ وَيَقْدِرُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ قال : بالظن .

(١) فى ت : « المكذبن » . (٢) فى ت : « لم يمكنوا أى يمنعوا عن الهرب » ، وفى س ، أ : « لم يمكنوا أن يمنعوا فى الهرب » .

(٣) فى ت ، أ : « ويرسله » . (٤) فى ت ، س ، أ : « تعاطى عن » . (٥) فى ت ، أ : « وليس هو حين » .

قلت : كما قال تعالى : ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ [الكهف : ٢٢] ، فتارة يقولون : شاعر . وتارة يقولون : كاهن . وتارة يقولون : ساحر . وتارة يقولون : مجنون . إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة ، ويكذبون بالغيب ^(١) والنشور والمعاد ، ويقولون : ﴿ إِنْ نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية : ٣٢] .

قال قتادة : يرجمون بالظن ، لا بعث ولا جنة ولا نار .

وقوله : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ : قال الحسن البصرى ، والضحاك ، وغيرهما : يعنى : الإيمان .

وقال السدّى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ وهى : التوبة . وهذا اختيار ابن جرير ، رحمه الله .

وقال مجاهد : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ من هذه الدنيا ، من مال وزهرة وأهل . وروى [ذلك] ^(٢) عن ابن عباس وابن عمر والربيع بن أنس . وهو قول البخارى وجماعة . والصحيح : أنه لا منافاة بين القولين ؛ فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم فى الدنيا وبين ما طلبوه فى الآخرة ، فمنعوا منه .

وقد ذكر ابن أبى حاتم هاهنا أثراً غريباً [عجيباً] ^(٣) جداً ، فلنذكره بطوله فإنه قال : حدثنا محمد بن يحيى ، حدثنا بشر بن حجر السامى ^(٤) ، حدثنا على بن منصور الأنبارى ، عن الشَّرْقِيِّ بْنِ قُطَامَى ، عن سعد بن طريف ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قول الله عز وجل : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ إلى آخر الآية ، قال : كان رجل من بنى إسرائيل فاتحاً - أى : فتح الله له مالا - فمات فورثه ابن له تافه - أى : فاسد - فكان يعمل فى مال الله بمعاصى الله . فلما رأى ذلك إخوان أبيه أتوا الفتى فعذلوه ولاموه ، فضجر الفتى فباع عقاره بصامت ، ثم رحل فأتى عينا ثجاجة فسرّح فيها ماله ، وابتنى قصرًا . فبينما هو ذات يوم جالس إذ شمكت عليه [ريح] ^(٥) بامرأة من أحسن الناس وجهًا وأطيبهم أرجًا - أى : ريحًا - فقالت : من أنت يا عبد الله ؟ فقال : أنا امرؤ من بنى إسرائيل . قالت : فلك هذا القصر ، وهذا المال ؟ قال : نعم . قالت : فهل لك من زوجة ؟ قال : لا . قالت : فكيف يهنئك العيش ولا زوجة لك ؟ قال : قد كان ذلك . فهل لك من بعل ؟ قالت : لا . قال : فهل لك إلى أن أتزوجك ؟ قالت : إني امرأة منك على مسيرة ميل ، فإذا كان غد فتزود زاد يوم واثنين ، وإن رأيت فى طريقك هولا فلا يهولنك . فلما كان من الغد تزود زاد يوم ، وانطلق فانتهى إلى قصر ، ففرع رتاجه ، فخرج إليه شاب من أحسن الناس وجهًا وأطيبهم أرجًا - أى : ريحًا - فقال : من أنت يا عبد الله ؟ فقال : أنا الإسرائيلي . قال : فما حاجتك ؟ قال : دعتنى صاحبة هذا القصر إلى نفسها . قال : صدقت ، فهل رأيت فى طريقك [هولا ؟] ^(٦) قال : نعم ، ولولا أنها أخبرتنى أن لا بأس علىّ ، لهالنى الذى رأيت ؛ أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل ، إذا أنا بكلبة فاتحة

(٣) زيادة من س ، أ .

(٢) زيادة من ت .

(١) فى ت ، س ، أ : « بالبعث » .

(٥ ، ٦) زيادة من ت ، س ، والدر المنثور .

(٤) فى ت : « الشامى » .

فاها ، ففزعت ، فَوَكَّبَتْ فإذا أنا من ورائها ، وإذا جِراؤها ينبحن في بطنها . فقال له الشاب : لست تدرك هذا ، هذا يكون في آخر الزمان ، يقاعد الغلام المشيخة في مجلسهم وَيَزَيِّمُ حديثهم .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل ، إذا أنا بمائة عنز حُفِّلَ ، وإذا فيها جدى يمصّها ، فإذا أتى عليها وظن أنه لم يترك شيئاً ، فتح فاه يلتمس الزيادة . فقال : لست تدرك هذا ، هذا يكون في آخر الزمان ، ملك يجمع صامت الناس كلّهم ، حتى إذا ظن أنه لم يترك شيئاً فتح فاه يلتمس الزيادة .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا بشجر ، فأعجبني غصن من شجرة منها ناضر ، فأردت قطعه ، فنادتني شجرة أخرى : « يا عبد الله ، منى فخذ » . حتى ناداني الشجر أجمع : « يا عبد الله ، منى فخذ » . قال : لست تدرك هذا ، هذا يكون في آخر الزمان ، يقل الرجال ويكثر (١) النساء ، حتى إن الرجل ليخطب امرأة فتدعوه العشر والعشرون إلى أنفسهن .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا برجل قائم على عين ، يغرف لكل إنسان من الماء ، فإذا تصدّعوا عنه صَبَّ في جرّته فلم تَعْلَقْ جرّته من الماء بشيء . قال : لست تدرك هذا ، هذا يكون في آخر الزمان ، القاص يعلم الناس العلم ثم يخالفهم إلى معاصي الله .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا بعنز ، وإذا يقوم قد أخذوا بقوائمها ، وإذا رجل قد أخذ بقرنيها ، وإذا رجل قد أخذ بذنبها ، وإذا رجل (٢) قد ركبها ، وإذا رجل يحلبها . فقال : أما العنز فهي الدنيا ، والذين أخذوا بقوائمها يتساقطون من عيشها ، وأما الذى قد أخذ بقرنيها فهو يعالج من عيشها ضيقاً ، وأما الذى أخذ بذنبها فقد أدبرت عنه ، وأما الذى ركبها (٣) فقد تركها . وأما الذى يحلبها فَبَخ [بخ] (٤) ، ذهب ذلك (٥) بها .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل ، وإذا أنا برجل يمتح على قلب ، كلما أخرج (٦) دلوه صَبَّ في الحوض ، فانساب الماء راجعاً إلى القلب . قال : هذا رجل رَدَّ الله [عليه] (٧) صالح عمله ، فلم يقبله .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل ، إذا أنا برجل يبذر بذراً فيستحصد ، فإذا حنطة طيبة . قال : هذا رجل قبل الله صالح عمله ، وأزكاه (٨) له .

قال : ثم أقبلت حتى [إذا] (٩) انفرج بى السبيل ، إذا أنا برجل مستلق على قفاه ، قال : يا عبد الله ، ادن منى فخذ بيدى وأقعدنى ، فوالله ما قعدت منذ خلقنى الله فأخذت بيده ، فقام يسعى حتى ما أراه . فقال له الفتى : هذا عمر الأبعد نَفَدَ ، أنا ملك الموت وأنا المرأة التى أتتك (١٠) . . . أمرنى الله بِقَبْضِ رُوحِ الأبعد فى هذا المكان ، ثم أصيره إلى نار جهنم قال : ففيه نزلت هذه : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ الآية .

(١) فى ت : « وتكثر » . (٢) فى ت ، س ، أ : « راكب » . (٣) فى ت ، س ، أ : « الذى قد ركبها » .

(٤) زيادة من ت ، س ، أ ، والدر المنثور . (٥) فى ت ، س ، أ : « ذاك » . (٦) فى أ : « فلما أن خرج » .

(٧) زيادة من ت ، س ، أ . (٨) فى أ : « وزكاه » .

(٩) زيادة من ت ، س . (١٠) فى أ : « أتيتك » .

هذا أثر غريب ^(١) ، وفي صحته نظر ، وتنزيل [هذه] ^(٢) الآية عليه وفي حقه بمعنى أن الكفار كلهم يتوفون وأرواحهم متعلقة بالحياة الدنيا ، كما جرى لهذا المغرور المفتون ، ذهب يطلب مراده فجاءه الموت فجأة بغتة ، وحيل بينه وبين ما يشتهي .

وقوله : ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ ﴾ أى : كما جرى للأمم الماضية المكذبة للرسل ، لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم ، ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٤ ، ٨٥] .

وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّريبٍ ﴾ أى : كانوا فى الدنيا فى شك وريبة ، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة الذباب .
قال قتادة : إياكم والشك والريبة ، فإنه من مات على شك بُعث عليه ، ومن مات على يقين بعث عليه .

آخر تفسير سورة « سبأ » ، ولله الحمد والمنة

(١) الاثر ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦ / ٧١٦) وعزاه لابن أبى حاتم .
(٢) زيادة من ت .

تفسير سورة فاطر

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعٍ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

قال سفيان الثوري ، عن إبراهيم بن مهاجر ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض ، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما [لصاحبه] (١) : أنا فطرتهما ، أنا بدأتها . فقال ابن عباس أيضاً : ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ : بديع السموات والأرض . (٢)

وقال الضحاك : كل شيء في القرآن فاطر السموات والأرض فهو : خالق السموات والأرض .
وقوله : ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾ أى : بينه وبين أنبيائه ، ﴿ أُولِي أَجْنَحَةٍ ﴾ أى : يطيرون بها ليلغوا ما أمروا به سريعاً ﴿ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعٍ ﴾ أى : منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة (٣) ، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك ، كما جاء في الحديث : أن رسول الله ﷺ رأى جبريل ليلة الإسراء وله ستمائة جناح ، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ؛ ولهذا قال : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . قال السدي : يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء .
وقال الزهري ، وابن جرير (٤) فى قوله : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ يعنى : حسن الصوت . رواه عن الزهري البخارى فى الأدب ، وابن أبى حاتم فى تفسيره .
وقرئ فى الشاذ : « يَزِيدُ فى الخلق » ، بالحاء المهملة ، والله أعلم .

﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢) .

يخبر تعالى أنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع .
قال (٥) الإمام أحمد : حدثنا على بن عاصم ، حدثنا مغيرة ، أخبرنا عامر ، عن وراد - مولى المغيرة بن شعبة - قال : كتب معاوية إلى المغيرة بن شعبة : اكتب إلى بما سمعت من رسول الله ﷺ . فدعاني المغيرة فكتبت إليه : إني سمعت (٦) رسول الله ﷺ إذا انصرف من الصلاة قال : « لا

(١) زيادة من ت ، س ، ا .

(٢) رواه البيهقي فى شعب الإيمان برقم (١٦٨٢) من طريق يحيى بن سعيد عن سفيان به .

(٣) فى ت : « ثلاثة أجنحة » . (٤) فى ت : « جرير » . (٥) فى ت : « وروى » .

(٦) فى أ : « سمعت من » .

إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » ، وسمعتة ينهى عن قيل وقال ، وكثرة السؤال وإضاعة المال ، وعن وأد البنات ، وعقوق الأمهات ، ومنع وهات . وأخرجاه من طرق عن ورّاد ، به (١) .

وثبت فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : « سمع الله لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السماء (٢) والأرض (٣) ، وملء ما شئت من شيء بعد . اللهم ، أهل الثناء والمجد . أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد . اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » (٤) . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ [يونس : ١٠٧] . ولهذا (٥) نظائر كثيرة .

وقال الإمام مالك : كان أبو هريرة إذا مطروا يقول : مطرنا بنوء الفتح ، ثم يقرأ هذه الآية : ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ . ورواه ابن أبى حاتم ، عن يونس ، عن ابن وهب ، عنه (٦) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتْنِ تَوْفُكُونَ ﴾ (٣) .

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده فى إفراد العبادة له ، كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فليفرد بالعبادة (٧) ، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ؛ ولهذا قال : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتْنِ تَوْفُكُونَ ﴾ (٨) ، أي : فكيف توفكون (٩) بعد هذا البيان ، ووضوح هذا البرهان ، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان ؟

﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) .

يقول : وإن يكذبوك - يامحمد - هؤلاء المشركون بالله ويخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد ، فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة ؛ فإنهم كذلك جاؤوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد

(١) المسند (٤/٢٥٤) وصحيح البخارى برقم (٨٤٤) وصحيح مسلم برقم (٥٩٣) .

(٢) فى ت ، س ، أ : « السموات » .

(٣) فى ت ، س ، أ : « وملء الأرض » .

(٤) صحيح مسلم برقم (٤٧٧) .

(٥) فى ت : « ولهما » ، وفى س : « ولها » .

(٦) الموطأ (١/١٩٢) .

(٧) فى أ : « بالعبادة وحده » .

(٨ ، ٩) فى س ، أ : « يوفكون » .

فكذبوهم وخالفوهم ، ﴿وَالِلّٰهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أى : وسنجزئهم على ذلك أوفر الجزاء .
ثم قال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أى : المعاد كائن لا محالة ، ﴿فَلَا تَغُرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾
أى : العيشة الدنيئة ^(١) بالنسبة إلى ما أعد ^(٢) الله لأولياته وأتباع رسله من الخير العظيم فلا تتلهوا ^(٣)
عن ذلك ^(٤) الباقي بهذه الزهرة الفانية ، ﴿وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللّٰهِ الْغُرُورُ﴾ وهو الشيطان . قاله ابن عباس .
أى : لا يفتننكم الشيطان ويصرفنكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته فإنه غرّار كذاب أفاك .
وهذه الآية كالأية التى فى آخر لقمان : ﴿فَلَا تَغُرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللّٰهِ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣] .

قال مالك ، عن زيد بن أسلم : هو الشيطان . كما قال : يقول المؤمنون للمنافقين يوم القيامة
حين يضرب ﴿بَيْنَهُمْ يَسُورٌ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ . يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا
بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللّٰهِ الْغُرُورُ﴾
[الحديد: ١٣ ، ١٤] .

ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ ^(٥) أى : هو
مبارز لكم بالعداوة ، فعادوه أنتم أشد العداوة ، وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به ، ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ
لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أى : إنما يقصد أن يضللكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير ، فهذا
هو العدو المبين . فنسأل الله القوى العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان ^(٦) ، وأن يرزقنا اتباع كتابه ،
والاقتفاء بطريق رسوله ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير . وهذه كقوله : ﴿وَإِذْ قُلْنَا
لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي
وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بُنِيَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف : ٥٠] .

[وقال بعض العلماء : وتحت هذا الخطاب نوع لطيف من العتاب كأنه يقول : إنما عادت إبليس
من أجل أبيكم ومن أجلكم ، فكيف يحسن بكم أن توالوه ؟ بل اللائق بكم أن تعادوه وتخالفوه ولا
تطاوعوه] ^(٧) .

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ
كَبِيرٌ﴾ ^(٧) أَفَمَنْ زِينَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا
تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ^(٨) .

لما ذكر [الله] ^(٨) تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى [عذاب] ^(٩) السعير ، ذكر بعد ذلك أن
الذين كفروا لهم عذاب شديد ^(١٠) ؛ لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن ، وأن الذين آمنوا بالله

(٣) فى أ : « فلا يلتهاوا » .

(٢) فى ت : « ما وعد » .

(١) فى أ : « المعيشة الدنية » .

(٥) فى س بعدها : « إنما يدعو حزبه » .

(٤) فى س : « ذاك » .

(٨) زيادة من ت .

(٧) زيادة من ت ، أ .

(٦) فى ت : « للشياطين »

(١٠) فى ت : « للذين كفروا عذابا شديدا » .

(٩) زيادة من ت ، أ .

ورسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أى : لما كان منهم من ذنب ، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ على ما عملوه من خير .

ثم قال : ﴿أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ يعنى : كالكفار والفجار ، يعملون أعمالا سيئة ، وهم فى ذلك يعتقدون ويحسنون ^(١) أنهم يحسنون صنعا ، أى : أفمن كان هكذا قد أضله الله ، ألك فيه حيلة ؟ لا حيلة لك فيه ، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أى : بقدره كان ذلك ، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ أى : لا تأسف على ذلك فإن الله حكيم فى قدره ، إنما يضل من يضل ^(٢) ويهدي من يهدي ^(٣) ، لما له فى ذلك من الحجة البالغة ، والعلم التام ؛ ولهذا قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ .

وقال ^(٤) ابن أبى حاتم عند هذه الآية : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن عوف الحمصى ، حدثنا محمد بن كثير ، عن الأوزاعى ، عن يحيى بن أبى عمرو السبباني - أو : ربيعة - عن عبد الله بن الديلمي قال : أتيت عبد الله بن عمرو ، وهو فى حائط بالطائف يقال له : الوهط ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله خلق خلقه فى ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى ، ومن أخطأه منه ضل ، فلذلك أقول : جف القلم على ما علم الله عز وجل » ^(٥) .

ثم قال : حدثنا يحيى بن عبدك القزويني ، حدثنا حسان بن حسان البصري ، حدثنا إبراهيم بن بشر ^(٦) ، حدثنا يحيى بن معين ^(٧) ، حدثنا إبراهيم القرشي ، عن سعد بن شرحبيل ^(٨) ، عن زيد ابن أبى أوفى قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : « الحمد لله الذى يهدي من ^(٩) الضلالة ، ويلبس الضلالة على من أحب » ^(١٠) .

وهذا أيضا حديث غريب جداً .

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾

(١) ، ٢) ، ٣) فى أ : « يشاء » .

(١) فى ت ، س ، أ : « يحسون » .

(٤) فى ت : « وروى » .

(٥) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (١٨١٢) « موارد » والحاكم فى المستدرک (٣٠ / ١) من طريق الأوزاعى عن ربيعة بن يزيد ، عن عبد الله الديلمي بنحوه ، ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٦٤٢) من طريق إسماعيل بن عياش عن يحيى بن أبى عمرو السبباني عن عبد الله الديلمي بنحوه ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن » .

(٦) فى هـ ، ت ، س ، أ : « بشر » ، والصواب ما أثبتناه . (٧) فى هـ ، ت ، س ، أ : « معن » ، والصواب ما أثبتناه .

(٨) فى ت : « ثم روى بسنده » . (٩) فى ت ، أ : « يهدي من يشاء من » .

(١٠) ورواه البخارى فى التاريخ الأوسط (٢٥٠ / ١) : حدثنا حسان بن حسان عن إبراهيم بن بشر عن يحيى بن معين المدنى عن إبراهيم القرشى عن سعيد بن شرحبيل عن زيد بن أبى أوفى ، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٢٠ / ٥) من طريق عبد المؤمن بن عباد عن يزيد بن معن عن عبد الله بن شرحبيل عن رجل من قرشى عن زيد بن أبى أوفى بأطول منه ، ورواه ابن الأثير فى أسد الغابة (١٢٦ / ٢) من طريق شعيب بن يونس عن موسى بن صهيب عن يحيى بن زكريا عن عبد الله بن شرحبيل عن رجل من قرشى عن زيد بن أبى أوفى ، وقال البخارى بعدما أورده : « وهذا إسناد مجهول لا يتابع عليه ، ولا يعرف سماع بعضهم من بعض ، رواه بعضهم عن إسماعيل بن خالد عن عبد الله بن أبى أوفى ، عن النبى ﷺ ولا أصل له » .

كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) ﴿

كثيرا ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها - كما فى [أول] (١) سورة الحج - ينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك ، فإن الأرض تكون ميتة هامة لا نبات فيها ، فإذا أرسل إليها (٢) السحاب تحمل الماء وأنزله عليها ، ﴿ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتُ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ ﴾ [الحج : ٥] ، كذلك الأجساد (٣) ، إذا أراد الله سبحانه بعثها ونشورها ، أنزل من تحت العرش مطرا يعم (٤) الأرض جميعاً فتنبت الأجساد فى قبورها كما ينبت (٥) الحب فى الأرض ؛ ولهذا جاء فى الصحيح : « كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب ، منه خلق ومنه يركب » ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ .

وتقدم فى « الحج » (٦) حديث أبى رزین : قلت : يا رسول الله ، كيف يحيى الله الموتى ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال : « يا أبا رزین ، أما مررت بوادى قومك محلاً (٧) ثم مررت به يهتز خضراً ؟ » قلت : بلى . قال : « فكَذَلِكَ يحيى الله الموتى » .

وقوله : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ أى : من كان يحب أن يكون عزيزاً فى الدنيا والآخرة ، فليلزم طاعة الله ، فإنه يحصل له مقصوده ؛ لأن الله مالك الدنيا والآخرة ، وله العزة جميعها ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْتَنُونَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ١٣٩] .

وقال تعالى ﴿ وَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [يونس : ٦٥] ، وقال : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون : ٨] .

قال مجاهد : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ ﴾ بعبادة الأوثان ، ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ .

وقال قتادة : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ أى : فليتعزز بطاعة الله عز وجل .

وقيل : من كان يريد علم العزة ، لمن هو ، ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ ، حكاه ابن جرير .

وقوله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ يعنى : الذكر والتلاوة والدعاء . قاله غير واحد من السلف .

وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن إسماعيل الأحمسي ، أخبرنى جعفر بن عون ، عن عبد الرحمن بن عبد الله المسعودى ، عن عبد الله بن المخارق ، عن أبيه المخارق بن سليم (٨) قال :

(١) زيادة من ت ، س ، أ . (٢) فى ت : « عليها » . (٣) فى ت ، س : « الأجساد » .

(٤) فى أ : « فعم » . (٥) فى ت : « كما تنبت » .

(٦) عند الآيات : ١٢ - ١٦ .

(٧) فى ت ، س ، أ : « محلاً » . (٨) فى ت : « وروى ابن جرير بإسناده عن عبد الله بن أبي المخارق بن سليم » .

قال لنا عبد الله - هو ابن مسعود - إذا حدثناكم حديثاً أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله : إن العبد المسلم إذا قال : « سبحان الله وبحمده ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، تبارك الله » ، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ، ثم صعد بهن إلى السماء فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن ، حتي يجيء بهن وجه الرحمن عز وجل ، ثم قرأ عبد الله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ .

وحدثني يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عُلَيَّةَ ، أخبرنا سعيد الجريري (١) ، عن عبد الله بن شقيق قال (٢) : قال كعب الأحبار : إن لـ « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » لدويا حول العرش كدوى النحل ، يُدَكَّرْنَ بصاحبهن ، والعمل الصالح في الخزائن (٣) . وهذا إسناد صحيح إلى كعب الأحبار ، رحمه الله ، وقد روى مرفوعاً .

قال الإمام أحمد : حدثنا ابن نُمَيْرٍ ، حدثنا موسى - يعني : ابن مسلم الطحان - عن عون بن عبد الله ، عن أبيه - أو : عن أخيه (٤) - عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : « الذين يذكرون من جلال الله ، من تسيحه وتكبيره وتحميده وتهليله ، يتعاطفن حول العرش ، لهن دوى كدوى النحل ، يذكرون بصحابهن ألا يحب أحدكم ألا يزال له عند الله شيء يذكر به ؟ » (٥) .

وهكذا رواه ابن ماجه عن أبي بشر بكر بن خلف ، عن يحيى بن سعيد (٦) القطان ، عن موسى ابن أبي [عيسى] (٧) الطحان ، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، عن أبيه - أو : عن أخيه - عن النعمان بن بشير ، به (٨) .

وقوله : ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ : قال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : الكلم الطيب : ذكر الله ، يصعد به إلى الله ، عز وجل ، والعمل الصالح : أداء فرائضه . ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه ، رد كلامه على عمله ، فكان أولى به .

وكذا قال مجاهد : العمل الصالح يرفع الكلام الطيب . وكذا قال أبو العالية ، وعكرمة ، وإبراهيم النخعي ، والضحاك ، والسدي ، والربيع بن أنس ، وشهر بن حوشب ، وغير واحد [من السلف] (٩) .

وقال إياس بن معاوية القاضي : لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام .

وقال الحسن ، وقتادة : لا يقبل قولٌ إلا بعمل .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ : قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وشهر بن حوشب : هم المراؤون بأعمالهم ، يعني : يمحرون بالناس ، يوهمون أنهم في طاعة الله ، وهم بغضاء إلى الله

(١) في أ : « سعيد بن الجريري » . (٢) في ت : « وروى بإسناده » .

(٣) تفسير الطبري (٢٢/٨٠) .

(٤) في ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » .

(٥) المسند (٢٦٨/٤) .

(٦) في أ : « عيسى » .

(٧) زيادة من ت ، س ، وابن ماجه .

(٨) سنن ابن ماجه برقم (٣٨٠٩) وقال البوصيري في الزوائد (٣/١٩٣) : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » .

(٩) زيادة من ت .

عز وجل ، يراؤون بأعمالهم ، ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٤٢] .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المشركون .

والصحيح أنها عامة ، والمشركون داخلون بطريق الأولى ؛ ولهذا قال : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ ﴾ ، أى : يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولى البصائر والنهى ، فإنه ما أسر عبد (١) سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله رداءها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . فالمرأى لا يروج أمره ويستمر إلا على غيب ، أما المؤمنون المتفردون فلا يروج ذلك عليهم ، بل يكشف (٢) لهم عن قريب ، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ أى : ابتداء خلق أبيكم آدم من تراب ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أى : ذكراً وأنثى ، لطفاً منه ورحمة أن جعل لكم أزواجاً من جنسكم ، لتسكنوا إليها .

وقوله : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ ﴾ أى : هو عالم بذلك ، لا يخفى عليه من ذلك شيء ، بل ﴿ مَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] . وقد تقدم الكلام على قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَرْذَاذُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ ﴾ [الرعد : ٨ ، ٩] .

وقوله : ﴿ وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ أى : ما يعطى بعض النطف من العمر الطويل يعلمه ، وهو عنده فى الكتاب الأول ، ﴿ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ الضمير عائد على الجنس ، لا على العين ؛ لأن العين الطويل للعمر فى الكتاب وفى علم الله لا ينقص من عمره ، وإنما عاد الضمير على الجنس .

قال ابن جرير : وهذا كقولهم : « عندى ثوب ونصفه » أى : ونصف آخر .
وروى من طريق العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ، يقول : ليس أحد قضيت له طول عمر (٤) وحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت ذلك له ، وإنما ينتهى إلى الكتاب الذى قدرت لا يزداد عليه ، وليس أحد قضيت له أنه قصير العمر والحياة ببالغ للعمر ، ولكن ينتهى إلى الكتاب الذى كتبت له ، فذلك قوله : ﴿ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ، يقول : كل ذلك فى كتاب عنده .
وهكذا قال الضحاك بن مزاحم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه : ﴿ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ قال : ما لفظت الأرحام من الأولاد من غير تمام .

(٢) فى ت ، س ، أ : « ينكشف » .

(١) فى أ : « أحد » .

(٤) فى ت ، س : « العمر » .

(٣) زيادة من ت ، س ، أ ، وفى هـ : « إلى قوله » .

وقال عبد الرحمن فى تفسيرها : ألا ترى الناس ، يعيش الإنسان مائة سنة ، وآخر يموت حين يولد فهذا هذا .

وقال قتادة : والذى ينقص من عمره : فالذى يموت قبل ستين سنة .

وقال مجاهد : ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أى : فى بطن أمه يكتب له ذلك ، لم يخلق الخلق على عمر واحد ، بل لهذا عمر ، ولهذا عمر هو أنقص من عمره ، وكل ذلك مكتوب لصاحبه ، بالغ ما بلغ .

وقال بعضهم : بل معناه : ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ أى : ما يكتب من الأجل ﴿وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ ، وهو ذهابه قليلا قليلا ، الجميع معلوم عند الله سنة بعد سنة ، وشهراً بعد شهر ، وجمعة بعد جمعة ، ويوماً بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ، الجميع مكتوب عند الله فى كتاب .

نقله (١) ابن جرير عن أبى مالك . وإليه ذهب السدى ، وعطاء الخراسانى . واختار ابن جرير [القول] (٢) الأول ، وهو كما قال .

وقال النسائى عند تفسير هذه الآية الكريمة : حدثنا أحمد بن يحيى بن أبى زيد بن سليمان ، سمعت ابن وهب يقول : حدثنى يونس ، عن ابن شهاب ، عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سره أن يُبْسَطَ له فى رزقه ، ويُنْسَأَ له فى أجله (٣) فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ » .

وقد رواه البخارى ومسلم وأبو داود ، من حديث يونس بن يزيد الأيلي ، به (٤) .

وقال (٥) ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا الوليد بن عبد الملك بن عبيد الله أبو مسرح ، حدثنا عثمان بن عطاء ، عن مسلمة (٦) بن عبد الله ، عن عمه أبى مشجعة بن ربيع ، عن أبى الدرداء ، رضى الله عنه ، قال : ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال : « إن الله لا يأخر نفساً إذا جاء أجلها ، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها العبد ، فيدعون له من بعده ، فيلحقه دعاؤهم فى قبره ، فذلك زيادة العمر » .

وقوله : ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أى : سهل عليه ، يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله فى جميع مخلوقاته ، فإن علمه شامل لجميع ذلك لا يخفى منه عليه شىء .

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلَّ تَاْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَآخِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢)﴾ .

يقول تعالى منها على قدرته العظيمة فى خلقه الأشياء المختلفة : وخلق البحرين العذب الزلال ،

(١) فى أ : « رواه » .

(٢) زيادة من ت ، أ .

(٣) فى ت ، س ، أ : « أثره » .
(٤) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٢٩) وصحيح البخارى برقم (٢٠٦٧) وصحيح مسلم برقم (٢٥٥٧) وسنن أبى داود برقم (١٦٩٣) .

(٥) فى أ : « سلمة » .

(٦) فى ت « وروى » .

وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس ، من كبار وصغار ، بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصاير ، والعمران والبرارى والقفار ، وهى عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك ، ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ ، وهو البحر الساكن الذى تسير فيه السفن الكبار ، وإنما تكون مالحة زُعَاقاً مُرَّةً ، ولهذا قال : ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ ، أى : مر .

ثم قال : ﴿ وَمَنْ كُلَّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ يعنى : السمك ، ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : ٢٢ ، ٢٣] .

وقوله : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَآخِرُ (١) ﴾ أى : تمخره وتشقه بحيزومها ، وهو مقدمها المُسَنَّم الذى يشبه جَوْجُو الطير - وهو : صدره .

وقال مجاهد : تمخر الريح السفن ، ولا يمحى الريح من السفن إلا العظام .

وقوله ﴿ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى : بأسفاركم بالتجارة ، من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم ، وهو البحر ، تتصرفون فيه كيف شئتم ، وتذهبون أين أردتم ، ولا يمتنع عليكم شىء منه ، بل بقدرته قد سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ، الجميع من فضله ومن رحمته .

﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) ﴾ .

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم ، فى تسخير الليل بظلامه والنهار بضياءه ، ويأخذ من طول هذا فيزيده على قصر هذا (٢) فيعتدلان . ثم يأخذ من هذا فى هذا ، فيطول هذا ويقصر هذا ، ثم يتقارضان صيفاً وشتاء ، ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ أى : والنجوم السيارات ، والثوابت الثاقبات بأضوائهن أجرام السموات ، الجميع يسيرون بمقدار معين ، وعلى منهاج مقنن محرر ، تقديرأ من عزيز عليم .

﴿ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى (٣) ﴾ أى : إلى يوم القيامة .

﴿ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أى : الذى فعل هذا هو الرب العظيم ، الذى لا إله غيره ، ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى : من الأنداد والأصنام التى هى على صورة من تزعمون (٤) من الملائكة المقربين ، ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ .

(١) فى ت ، س : « وترى الفلك مواخر فيه » ولعلهما أرادا الآية : ١٤ من سورة النحل .

(٢) فى ت ، أ : « فيزيد فى قصر هذا » .

(٤) فى س : « يزعمون » .

(٣) فى ت ، س : « إلى أجل مسمى » .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعطاء وعطية العوفى ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم : القطمير : هو اللفافة التى تكون على نواة التمرة ، أى : لا يملكون من السموات والأرض شيئاً ، ولا بمقدار هذا القطمير .

ثم قال : ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴾ يعنى : الآلهة التى تدعونها من دون الله لا يسمعون (١) دعاءكم (٢) ؛ لأنها جماد لا أرواح فيها ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ أى : لا يقدر (٣) على ما تطلبون منها ، ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ ﴾ ، أى : يتبرؤون منكم ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الاحقاف : ٥ ، ٦] ، وقال : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم : ٨١ ، ٨٢] .

وقوله : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ أى : ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه ، مثل خبير بها .

قال قتادة : يعنى نفسه تبارك وتعالى ، فإنه أخبر بالواقع لا محالة .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَرَكَّىٰ فَاِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨) ﴾

يخبر تعالى بغنائه عما سواه ، وبافتقار المخلوقات كلها إليه ، وتذلله بين يديه ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أى : هم محتاجون إليه فى جميع الحركات والسكنات ، وهو الغنى عنهم بالذات ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أى : هو المنفرد (٤) بالغنى وحده لا شريك له ، وهو الحميد فى جميع ما يفعله ويقول ، ويقدره ويشعره .

وقوله : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أى : لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم ، وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أى : يوم القيامة ، ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا ﴾ ، أى : وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تساعد على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ، ﴿ لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ ، أى : ولو كان قريباً إليها ، حتى ولو كان أباهاً أو ابنها ، كل مشغول بنفسه وحاله ، [كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾] (٥) [عبس : ٣٤ - ٣٧] .

قال (٦) عكرمة فى قوله : ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا ﴾ الآية ، قال : هو الجار يتعلق بجاره يوم

(١) فى ت ، أ : « يسمعون » .

(٢) فى أ : « دعاءهم » .

(٣) فى ت ، أ : « يقيمون » .

(٤) فى ت : « المنفرد » .

(٥) زيادة من ت .

(٦) فى ت : « كما قال » .

القيامة ، فيقول : يا رب ، سل هذا : لم كان يغلق بابه دوني . وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة ، فيقول له : يا مؤمن ، إن لى عندك يداً ، قد عرفت كيف كنت لك فى الدنيا ؟ وقد احتجت إليك اليوم . فلا يزال المؤمن يشفع له إلى ربه حتى يرده إلى [منزل دون] (١) منزله (٢) ، وهو فى النار . وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة ، فيقول : يا بنى ، أى والد كنت لك ؟ فيثنى خيراً ، فيقول له : يا بنى إنى قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى . فيقول له ولده : يا أبت ، ما أيسر ما طلبت ، ولكنى أتخوف مثل ما تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً ، ثم يتعلق بزوجه فيقول : يا فلانة - أو : يا هذه - أى زوج كنت لك ؟ فتثنى خيراً ، فيقول لها : إنى أطلب إليك حسنة واحدة تهينها لى ، لعلنى أنجو بها مما ترين . قال : فنقول : ما أيسر ما طلبت . ولكنى لا أطيق أن أعطيك شيئاً ، إنى أتخوف مثل الذى تتخوف ، يقول الله : ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَآ ﴾ (٣) الآية ، ويقول الله : ﴿ لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ [لقمان : ٣٣] ، ويقول تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ . رواه ابن أبى حاتم ، رحمه الله ، عن أبى عبد الله الطهرانى (٤) ، عن حفص بن عمر ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، به .

ثم قال : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ﴾ (٥) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴿ أى : إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنهى ، الخائفون من ربهم ، الفاعلون ما أمرهم به ، ﴿ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ﴾ أى : ومن عمل صالحاً فلنمسا يعود نفعه على نفسه ، ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى : وإليه المرجع والمآب ، وهو سريع الحساب ، وسيجزى كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴿

يقول تعالى : كما لا تستوى هذه الأشياء المتباينة المختلفة ، كالأعمى والبصير لا يستويان ، بل بينهما فرق وبون كثير ، وكما لا تستوى الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، كذلك لا تستوى الأحياء ولا الأموات . وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين وهم الأحياء ، وللكافرين وهم الأموات ، كقوله تعالى : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ

(٣) زيادة من ت ، س ، أ .

(٢) فى ت : « فى منزلة دون منزلته » .

(١) زيادة من ت ، أ .

(٥) فى س : « ينذر » .

(٤) فى أ : « الطبرانى » .

مَنْهَا ﴿ [الأنعام : ١٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ [هود : ٢٤] فالمؤمن سميع بصير فى نور يمشى ، على صراط مستقيم فى الدنيا والآخرة ، حتى يستقر به الحال فى الجنات ذات الظلال والعيون ، والكافر أعمى أصم ، فى ظلمات يمشى ، لا خروج له منها ، بل هو يتيه فى غيه وضلاله فى الدنيا والآخرة ، حتى يفضى به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم ، ﴿ وَظِلٌّ مِّنْ يَحْمُومٍ . لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ [الواقعة : ٤٣ ، ٤٤] .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ﴾ أى : يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ أى : كما لا [يسمع و ^(١)] ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم ، وهم كفار بالهداية والدعوة إليها ، كذلك هؤلاء المشركون الذين كُتب عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم ، ولا تستطيع هدايتهم .

﴿ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ أى : إنما عليك البلاغ والإنذار ، والله يضل من يشاء ويهدى من يشاء .
﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أى : بشيرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين ، ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ أى : وما من أمة خلعت من بنى آدم إلا وقد بعث الله إليهم النذر ، وأزاح عنهم العلل ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد : ٧] ، وكما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ الآية [النحل : ١٣٦] ، والآيات فى هذا كثيرة .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ وهى : المعجزات الباهرات ، والأدلة القاطعات ، ﴿ وَبِالزُّبُرِ ﴾ وهى الكتب ، ﴿ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ أى : الواضح البين . ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم فيما جاؤوهم به ، فأخذتهم ، أى : بالعقاب والنكال ، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى : فكيف رأيت ^(٢) إنكارى عليهم عظيمًا شديدًا بليغا ؟

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴾ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿ (٢٨) ﴾ .

يقول تعالى منها على كمال قدرته فى خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشئ الواحد ، وهو الماء الذى ينزله من السماء ، يخرج به ثمرات مختلفة ألوانها ، من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض ، إلى غير ذلك من ألوان الثمار ، كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٍ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى ^(٣) بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلَ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : ٤] .

(١) فى ت ، س : « تسقى » .

(٢) فى ت : « رأيت كان » .

(٣) زيادة من ت ، أ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أى : وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان ، كما هو المشاهد أيضا من بيض وحمرة ، وفى بعضها طرائق - وهى : الجُدَدُ ، جمع جُدَّة - مختلفة الألوان أيضا .

قال ابن عباس ، رضى الله عنهما : الجُدَدُ : الطرائق . وكذا قال أبو مالك ، والحسن ، وقتادة ، والسدى (١) .

ومنها ﴿غَرَايِبُ سُودٌ﴾ ، قال عكرمة : الغرايب : الجبال الطوال السود . وكذا قال أبو مالك ، وعطاء الخراساني وقتادة .

وقال ابن جرير : والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد ، قالوا : أسود غريب . ولهذا قال بعض المفسرين فى هذه الآية : هذا من المقدم والمؤخر فى قوله تعالى : ﴿وَغَرَايِبُ سُودٌ﴾ أى : سود غريب . وفيما قاله نظر .

وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ أى : [و (٢)] كذلك الحيوانات من الأناسى والدواب - وهو : كل ما دب على قوائم - والأنعام ، من باب عطف الخاص على العام . كذلك هى مختلفة أيضا ، فالناس منهم بربر وحُبُوش وطُمَاطم فى غاية السواد ، وصقالبة وروم فى غاية البياض ، والعرب بين ذلك ، والهنود دون ذلك ؛ ولهذا قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿وَإِخْتِلَافُ أَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الروم : ٢٢] . وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان ، حتى فى الجنس الواحد ، بل النوع الواحد منهم مختلف الألوان ، بل الحيوان الواحد يكون أبلق ، فيه من هذا اللون وهذا اللون ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

وقد قال (٣) الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده : حدثنا الفضل بن سهل ، حدثنا عبد الله بن عمر ابن أبان بن صالح ، حدثنا زياد بن عبد الله ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : أيصبغ ربك ؟ فقال : « نعم صبغا لا يُنفَضُ ، أحمر وأصفر وأبيض » (٤) . وروى مرسلًا وموقوفًا ، والله أعلم .

ولهذا قال تعالى بعد هذا : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ أى : إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى - كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل ، كانت الخشية له أعظم وأكثر .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال : الذين يعلمون أن الله على كل شىء قدير .

وقال ابن لهيعة ، عن ابن أبى عمرة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس (٥) قال : العالم بالرحمن (٦) من لم يشرك به شيئا ، وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، وحفظ وصيته ، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله .

(١) فى ت : « وكذلك قال غيره » . (٢) زيادة من ت ، س ، أ . (٣) فى ت : « وقد روى » .

(٤) مسند البزار برقم (٢٩٤٤) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (١٢٨/٥) : « وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط » .

(٥) فى ت : « وعنه » . (٦) فى أ : « بالرحمن من عباده » .

وقال سعيد بن جبير : الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله عز وجل .

وقال الحسن البصري : الإيمان مَنْ خَشِيَ الرحمن بالغيب ، ورغب فيما رغب الله فيه ، وزهد فيما سخط الله فيه ، ثم تلا الحسن : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ .

وعن ابن مسعود ، رضى الله عنه ، أنه قال : ليس العلم عن كثرة الحديث ، ولكن العلم عن (١) كثرة الخشية .

وقال أحمد بن صالح المصرى ، عن ابن وهب ، عن مالك قال : إن العلم ليس بكثرة الرواية ، وإنما العلم نور يجعله الله فى القلب .

قال أحمد بن صالح المصرى (٢) : معناه : أن الخشية لا تدرك بكثرة الرواية ، وأما العلم الذى فرض (٣) الله ، عز وجل ، أن يتبع فإنما هو الكتاب والسنة ، وما جاء عن الصحابة ، رضى الله عنهم ، ومن بعدهم من أئمة المسلمين ، فهذا لا يدرك إلا بالرواية ويكون تأويل قوله : « نور » يريد به فهم العلم ، ومعرفة معانيه .

وقال سفيان الثورى ، عن أبى حيان [التميمى] (٤) ، عن رجل قال : كان يقال : العلماء ثلاثة : عالم بالله عالم بأمر الله ، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله ، وعالم بالله ليس بعالم بالله . فالعالم بالله وبأمر الله : الذى يخشى الله ويعلم الحدود والفرائض . والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله : الذى يخشى الله ولا يعلم الحدود ولا الفرائض . والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله : الذى يعلم الحدود والفرائض ، ولا يخشى الله عز وجل .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) ﴾ .

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه ، من إقام الصلاة ، والإنفاق مما رزقهم الله فى الأوقات المشروعة ليلا ونهارا ، سرا وعلانية ، ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ ، أى : يرجون ثوابا عند الله لا بد من حصوله . كما قدمنا فى أول التفسير عند فضائل القرآن أنه يقول لصاحبه : « إن كل تاجر من وراء تجارته ، وإنك اليوم من وراء كل تجارة » ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ أى : ليوفيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم ، ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ ﴾ أى : لذنوبهم ، ﴿ شَكُورٌ ﴾ للقليل من أعمالهم .

قال قتادة : كان مُطَرَّف ، رحمه الله ، إذا قرأ هذه الآية يقول : هذه آية القراء .

(٢) فى ت : « المرى » .
(٤) زيادة من ت ، س ، أ .

(١) فى ت ، س : « من » .
(٣) فى ت ، س : « فرضه » .

قال (١) الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حيوة ، حدثنا سالم بن غيلان أنه سمع دراجاً أبا السمع يحدث عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى (٢) إذا رضى عن العبد أثنى عليه سبعة (٣) أصناف من الخير لم يعمله ، وإذا سخط على العبد أثنى عليه سبعة (٤) أصناف من الشر لم يعمله (٥) » . غريب جدا .

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ

بَصِيرٌ (٣١) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يا محمد من الكتاب ، وهو القرآن ﴿ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى : من الكتب المتقدمة يصدقها ، كما شهدت (٦) له بالتنويه (٧) ، وأنه منزل من رب العالمين .

﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ أى : هو خير بهم ، بصير بمن يستحق ما يفضل به على من سواه . ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر ، وفضل النبيين بعضهم على بعض ، ورفع بعضهم درجات ، وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم ، صلوات الله عليهم أجمعين .

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ

سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) ﴾ .

يقول تعالى : ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم ، المصدق لما بين يديه من الكتب ، الذين اصطفينا من عبادنا ، وهم هذه الأمة ، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع (٨) ، فقال : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ ، وهو : المفرط فى فعل بعض الواجبات ، المرتكب لبعض المحرمات . ﴿ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ وهو : المؤدى للواجبات ، التارك للمحرمات ، وقد يترك بعض المستحبات ، ويفعل بعض المكروهات . ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وهو : الفاعل للواجبات والمستحبات ، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا [مِنْ عِبَادِنَا] ﴾ (٩) ، قال : هم أمة محمد ﷺ ، ورثهم الله كل كتاب (١٠) أنزله ، فظالمهم يغفر له ، ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح ، وعبد الرحمن بن معاوية العتبي قالا : حدثنا أبو الطاهر بن السرح ، حدثنا موسى بن عبد الرحمن الصنعاني ، حدثني ابن جريج ، عن عطاء ، عن (١١) ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ أنه قال ذات يوم : « شفاعتى لأهل الكبائر من

(١) فى ت : « وروى » . (٢) فى أ : « عز وجل » . (٣) ، (٤) فى ت ، س ، أ : « بسبعة » .

(٥) المسند (٣٨/٣) ودراج له منكر وروايته عن أبى الهيثم ضعيفة .

(٦) فى ت ، س ، أ : « شهدت هى » .

(٧) فى ت ، أ : « بالنبوة » . (٨) فى ت : « أقسام » . (٩) زيادة من ت ، س .

(١٠) فى ت : « ورثهم الله كتابا » . (١١) فى ت : « وروى القاسم الطبرانى بسنده إلى » .

أمتي . قال ابن عباس : السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله ، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ (١) .

وهكذا (٢) روى عن غير واحد من السلف : أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين ، على ما فيه من عوج وتقصير .

وقال آخرون : بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ، ولا من المصطفين الوارثين الكتاب .

قال ابن أبي حاتم ، حدثنا أبي ، حدثنا علي بن هاشم بن مرزوق ، حدثنا ابن عيينة ، عن عمرو (٣) ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما (٤) : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ قال : هو الكافر . وكذا روى عنه عكرمة ، وبه قال عكرمة أيضا فيما رواه ابن جرير .

وقال ابن أبي نجیح ، عن مجاهد فى قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ قال : هم أصحاب المشأمة .

وقال مالك عن زيد بن أسلم ، والحسن ، وقتادة : هو المنافق .

ثم قد قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة : وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام الثلاثة المذكورة فى أول سورة « الواقعة » وآخرها .

والصحيح : أن الظالم لنفسه من هذه الأمة . وهذا اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية ، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ ، من طرق يشد بعضها بعضا ، ونحن نورد منها ما تيسر :

الحديث الأول : قال (٥) الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن الوليد بن العيزار ؛ أنه سمع رجلا من ثقيف يحدث عن رجل من كنانة ، عن أبي سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال فى هذه الآية : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ﴾ ، قال : « هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة ، وكلهم فى الجنة » .

هذا (٦) حديث غريب من هذا الوجه ، وفى إسناده من لم يسم . وقد رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ، من حديث شعبة ، به نحوه (٧) .

ومعنى قوله : « بمنزلة واحدة » أى : فى أنهم من هذه الأمة ، وأنهم من أهل الجنة ، وإن كان بينهم فرق فى المنازل فى الجنة .

الحديث الثانى : قال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنا أنس بن عياض الليثى أبو ضمرة ، عن موسى بن عقبة ، عن [على] (٨) بن عبد الله الأزدي ، عن أبي الدرداء (٩) ، رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ﴾ ، فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وأما الذين اقتصدوا فأولئك (١٠) يحاسبون حسابا يسيرا ، وأما

(١) المعجم الكبير (١٨٩/١١) وابن جرير مدلس وقد عنعن .

(٢) فى ت ، س : « وكذا » . (٣) فى ت : « وروى ابن أبي حاتم بسنده » . (٤) فى ت ، س : « عنه » .

(٥) فى ت : « رواه » . (٦) فى ت : « وهذا » .

(٧) المسند (٧٨/٣) وتفسير الطبرى (٩٠/٢٢) .

(٨) زيادة من س ، أ .

(٩) فى ت : « رواه الإمام أحمد بسنده عن أبي الدرداء » .

(١٠) فى أ : « فأولئك الذين » .

الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحسبون في طول المحشر ، ثم هم الذين تلافاهم ^(١) برحمته ، فهم الذين يقولون : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ . الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ ^(٢) .

طريق أخرى ^(٣) : قال ابن أبي حاتم : حدثنا أسيد بن عاصم ، حدثنا الحسين بن حفص ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن رجل ، عن أبي ثابت ، عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ قال : « فأما الظالم لنفسه فيحسب حتى يصيبه الهم والحزن ، ثم يدخل الجنة » .

ورواه ابن جرير من حديث سفيان الثوري ، عن الأعمش قال : ذكر أبو ثابت أنه دخل المسجد ، فجلس إلى جنب أبي الدرداء ، فقال : اللهم ، آتس وحشتي ، وارحم غربتي ، ويسر لي جليسا صالحا . قال أبو الدرداء : لئن كنت صادقا لأنا أسعد بك منك ، سأحدثك حديثا سمعته من رسول الله ﷺ لم أحدث به منذ سمعته منه ، ذكر هذه الآية : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ ، « فأما السابق بالخيرات فيدخلها بغير حساب وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا ، وأما الظالم لنفسه فيصيبه في ذلك المكان من الغم والحزن ، وذلك قوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ﴾ » ^(٤) .

الحديث الثالث : قال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس ، حدثنا ابن مسعود ، أخبرنا سهل بن عبد ربه ^(٥) الرازي ، حدثنا عمرو بن أبي قيس ، عن ابن أبي ليلى ، عن أخيه ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ^(٦) ، عن أسامة بن زيد : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ الآية ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كلهم من هذه الأمة » ^(٧) .

الحديث الرابع : قال ^(٨) ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عزيز ، حدثنا سلامة ، عن عقيل ، عن ابن شهاب ، عن عوف ^(٩) بن مالك ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أمتي ثلاثة أثلاث : فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ثم يدخلون الجنة ، وثلث يمحسون ويكشفون ، ثم تأتى الملائكة فيقولون : وجدناهم يقولون : « لا إله إلا الله وحده » . يقول الله عز وجل : صدقوا ، لا إله إلا أنا ^(١٠) ، أدخلوهم الجنة بقولهم : « لا إله إلا الله وحده » واحملوا خطاياهم على أهل النار ، وهى التى قال الله تعالى : ﴿ وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتَ لَا تَعْمَلُ فِي شَيْءٍ ﴾ [العنكبوت : ١٣] ، وتصديقها فى التى فيها ذكر الملائكة ، قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ، فجعلهم ثلاثة أنواع ^(١٢) ، وهم أصناف كلهم ، فمنهم ظالم

(١) فى ت ، س ، أ : « تلافاهم الله » .

(٢) المسند (١٩٨/٥) .

(٣) فى ت : « وروى من طريق أخرى » .

(٤) تفسير الطبرى (٩٠/٢٢) ورواه الحاكم فى المستدرک (٤٢٦/٢) ومن طريقه البيهقى فى البعث برقم (٦٢) من طريق الأعمش ، به .

(٥) فى أ : « عبد الله » .

(٦) فى ت : « رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني بإسناده » .

(٧) المعجم الكبير (١٦٧/١) وقد وقع فى إسناده سقط ، ورواه البيهقى فى البعث برقم (٦٤) من طريق محمد بن سعيد ، عن عمرو

ابن أبي قيس ، عن ابن أبي ليلى ، عن أخيه عيسى ، عن أبيه ، عن أسامة بن زيد ، به . ورواه أيضا برقم (٦٣) من طريق حصين بن

غدير عن ابن أبي ليلى ، عن أخيه ، عن أبيه ، عن أسامة بن زيد ، بنحوه .

(٨) فى ت : « رواه » .

(٩) فى أ : « أنس » .

(١٠) فى س : « إلا الله » . (١١) فى س : « ولتحملن » . (١٢) فى ت ، س : « أفواج » .

لنفسه، فهذا الذى يكشف ويمحص . غريب جدا (١) .

أثر عن ابن مسعود : قال ابن جرير : حدثني ابن حميد ، حدثنا الحكيم بن بشير ، عن عمرو ابن قيس ، عن عبد الله بن عيسى ، عن يزيد بن الحارث ، عن شقيق أبي وائل ، عن عبد الله بن مسعود ؛ أنه قال : هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة : ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ، وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول : ما هؤلاء ؟ - وهو أعلم تبارك وتعالى - فتقول الملائكة : هؤلاء جاؤوا بذنوب عظام ، إلا أنهم لم يشركوا بك فيقول الرب عز وجل : أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي : وتلا عبد الله هذه الآية : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ (٢) الآية .

أثر آخر : قال أبو داود الطيالسي ، عن الصلت بن دينار أبو شعيب (٣) ، عن عقبة بن صُهَبَانَ الهُنَائِي قال : سألت عائشة ، رضى الله عنها ، عن قول الله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ الآية ، فقالت لى : يا بنى ، هؤلاء فى الجنة ، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ ، شهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق ، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه فمثلى ومثلكم . قال : فجعلت نفسها معنا (٤) .

وهذا منها ، رضى الله عنها ، من باب الهضم والتواضع ، وإلا فهى من أكبر السابقين بالخيرات ؛ لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام .

وقال عبد الله بن المبارك ، رحمه الله : قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضى الله عنه : فى قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ قال : هى لأهل بدونا ، ومقتصدنا أهل حضرنا ، وسابقنا أهل الجهاد . رواه ابن أبى حاتم .

وقال عوف الأعرابى : حدثنا عبد الله بن الحارث بن نوفل قال : حدثنا كعب الأحبار قال : إن الظالم لنفسه من هذه الأمة ، والمقتصد والسابق بالخيرات كلهم فى الجنة ، ألم تر أن الله تعالى قال : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ . جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ قال : فهؤلاء أهل النار .

[و] (٥) رواه ابن جرير من طرق ، عن عوف ، به . ثم قال :

حدثني يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عُلَيَّةَ ، أخبرنا حميد ، عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث ، عن أبيه أن ابن عباس سأل كعبا (٦) عن قوله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ إلى قوله : ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ قال : تماسّت منابكهم ورب كعب (٧) ، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم .

(١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨٠ / ١٨) من طريق محمد بن عزيز ، به . وقال الهيثمى فى المجمع (٩٦ / ٧) : « فيه سلامة بن روح وثقه ابن حبان ، وضعفه جماعة ، وبقيه رجاله ثقات » .

(٢) زيادة من أ .

(٣) فى هـ ، س : « دينار بن الأشعث » ، وفى أ : « عن الأشعث » ، والمثبت من مسند الطيالسى .

(٤) مسند الطيالسى برقم (١٤٨٩) .

(٥) زيادة من ت .

(٦) فى ت : « ثم روى عن ابن عباس أنه سأل كعبا » .

(٧) فى أ : « الكعبة » .

ثم قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا الحكم بن بشير ، حدثنا عمرو بن قيس ، عن أبي إسحاق السبيعي في هذه الآية : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ الآية ، قال أبو إسحاق : أما ما سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناج .

ثم قال : حدثنا ابن حميد ، حدثنا الحكم ، حدثنا عمرو ، عن (١) محمد بن الحنفية قال : إنها أمة مرحومة ، الظالم مغفور له ، والمقتصد في الجنان عند الله ، والسابق بالخيرات في الدرجات عند الله .

ورواه الثوري ، عن إسماعيل بن سميع ، عن رجل ، عن محمد بن الحنفية ، بنحوه . وقال أبو الجارود : سألت محمد بن علي - يعني : الباقر - عن قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ فقال : هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

فهذا ما تيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام . وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة ، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة ، وأولى الناس بهذه الرحمة ، فإنهم كما قال الإمام أحمد ، رحمه الله :

حدثنا محمد بن يزيد ، حدثنا عاصم بن رجاء بن حيوة (٢) ، عن قيس بن كثير قال : قدم رجل من المدينة إلى أبي الدرداء - وهو بدمشق - فقال : ما أقدمك أي أخي ؟ قال : حديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ . قال أما قدمت لتجارة ؟ قال : لا . قال : أما قدمت لحاجة ؟ قال : لا ؟ قال : أما قدمت إلا في طلب هذا الحديث ؟ قال : نعم . قال : فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقاً يطلب فيه (٣) علماً ، سلك الله به طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم (٤) ، وإنه ليستغفر للعالم من في السموات والأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب . إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه به أخذ بحظ وافر » .

وأخرجه (٥) أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، من حديث كثير بن قيس - ومنهم من يقول : قيس بن كثير - عن أبي الدرداء (٦) . وقد ذكرنا طرقه واختلاف الرواة فيه في شرح « كتاب العلم » من « صحيح البخاري » ، ولله الحمد والمنة .

وقد تقدم في أول « سورة طه » حديث ثعلبة بن الحكم ، عن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء : إني لم أضع علمي وحكمي فيكم إلا وأنا أريد [أن] (٧) أغفر لكم ، على ما كان منكم ، ولا أبالي » (٨) .

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ (٣٣)

(١) في ت : « وعن » .

(٢) في ت : « كما روى الإمام أحمد رحمه الله بإسناده » .

(٣) في س : « فيها » .

(٤) في ت : « رواه » .

(٥) في أ : « العلم رضا بما يصنع » .

(٦) المسند (١٩٦/٥) وسنن أبي داود برقم (٣٦٤١) وسنن الترمذي برقم (٢٦٨٢) وسنن ابن ماجه برقم (٢٢٣) .

(٧) زيادة من ت ، س ، أ .

(٨) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية (٢) من سورة طه .

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ .

يخبر تعالى أن ماوى هؤلاء المصطفين من عباده ، الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أى : جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدمهم على ربهم ، عز وجل ، ﴿يُحَلِّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ ، كما ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تبلغ الحلية (١) من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » (٢) .

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ، ولهذا كان محظوراً عليهم فى الدنيا ، فأباحه الله لهم فى الدار الآخرة ، وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « من لبس الحرير فى الدنيا ، لم يلبسه فى الآخرة » . وقال : « [لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة] (٣) هى لهم فى الدنيا ولكم (٤) فى الآخرة » .

وقال (٥) ابن أبى حاتم : حدثنا عمرو بن سواد السرحى ، أخبرنا ابن وهب ، عن ابن لبيبة ، عن عقيل بن خالد ، عن الحسن ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ؛ أن أبا أمامة حدث : أن رسول الله ﷺ حدثهم ، وذكر حلى أهل الجنة فقال : « مسورون بالذهب والفضة ، مكللة بالدر ، وعليهم أكاليل من درّ وياقوت متواصلة ، وعليهم تاج كتاج الملوك ، شباب جرد جرد مرد مكحلون » (٦) .

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ وهو الخوف من المحذور ، أزاحه عنا ، وأراحنا مما كنا نتخوفه ، ونحذره من هموم الدنيا والآخرة .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس على أهل « لا إله إلا الله » وحشة فى قبورهم ولا فى منشريهم ، وكأنى بأهل « لا إله إلا الله » ينفضون التراب عن رؤوسهم ، ويقولون : ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾ » . رواه ابن أبى حاتم من حديثه (٧) .

وقال (٨) الطبرانى : حدثنا جعفر بن محمد الفريابي ، حدثنا يحيى بن موسى (٩) المروزي ، حدثنا سليمان بن عبد الله بن وهب الكوفى ، عن عبد العزيز بن حكيم ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس على أهل « لا إله إلا الله » وحشة فى الموت ولا فى قبورهم ولا فى النشور (١٠) . وكأنى أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب ، يقولون : ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾ » (١١) .

(١) فى ت : « الحليلة » ، وفى أ : « الحلة » .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٤٦) .

(٣) زيادة من ت ، أ . (٤) فى س : « ولنا » . (٥) فى ت : « وروى » .

(٦) ورواه أبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٢٦٧) من طريق على بن الحسن عن عمرو بن سواد ، به . والحسن البصرى لم يسمع من أبى هريرة .

(٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٥٣١) « مجمع البحرين » وابن عدى فى الكامل (٢٧١/٤) من طريق يحيى الحماني عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، به . وقال ابن عدى فى ترجمة عبد الرحمن بن زيد : « أحاديثه غير محفوظة » . وقال المنذرى فى

الترغيب (٤١٦/٢) : « فى متنه نكارة » .

(٨) فى ت : « وروى » .

(٩) فى هـ ، ت ، س ، أ : « موسى بن يحيى » والصواب ما أثبتناه من الإكمال وتخريج الكشاف للزيلعى .

(١٠) فى س : « منشريهم » .

(١١) قال الهيثمى فى المجمع (٣٣٣/١٠) : « رواه الطبرانى وفيه جماعة لم أعرفهم » . ورواه ابن عدى فى الكامل (٦٥/٢) والبيهقى فى

البعث برقم (٨٨) من طريق الحسن عن بهلول بن عبيد عن سلمة بن كهيل عن ابن عمر بنحوه ، وقال البيهقى : « هذا مرسل عن سلمة بن كهيل وابن عمر ، وبهلول تفرد به وليس بالقوى » .

قال ابن عباس ، وغيره : غَفَّرَ لَهُمُ الْكَثِيرُ ^(١) من السيئات ، وشكر لهم اليسير من الحسنات .

﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ : يقولون : الذى أعطانا هذه المنزلة ، وهذا المقام من فضله وَمَنَّهُ ^(٢) ورحمته ، لم تكن أعمالنا تساوى ذلك . كما ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ » ^(٣) .

﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ أى : لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء .

والنَّصَبُ واللُّغُوبُ : كل منهما يستعمل فى التعب . وكأن المراد ينفي هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم ^(٤) ، والله أعلم . فمن ذلك أنهم كانوا يدُبُّونَ أنفسهم فى العبادة فى الدنيا ، فسقط عنهم التكليف بدخولها ، وصاروا فى راحة دائمة مستمرة ، قال الله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٢٤] .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ ^(٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكَّرٍ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ ^(٣٧) .

لما ذكر تعالى حال السعداء ، شرع فى بيان مآل الأشقياء ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ [طه : ٧٤] . وثبت فى صحيح مسلم : أن رسول الله ﷺ قال : « أما أهل النار الذين هم أهلها ، فلا يموتون فيها ولا يحيون » ^(٥) . قال [الله] ^(٦) تعالى : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ ﴾ [الزخرف : ٧٧] . فهم فى حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم ، ولكن لا سبيل إلى ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ خَالِدُونَ . لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٤ ، ٧٥] ، وقال : ﴿ كُلَّمَا حَبَّبْتَ ذُنُوبَهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء : ٩٧] ﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبأ : ٣٠] .

ثم قال : ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ أى : هذا جزاء كل من كفر بربه ، وكذب بالحق .

وقوله : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا ﴾ أى : ينادون فيها ، يجأرون إلى الله ، عز وجل ، بأصواتهم : رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أى : يسألون الرجعة إلى الدنيا ، ليعملوا غير عملهم

(٢) فى س : « ومته » .

(١) فى أ : « الكبير » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٦٧٣) وصحيح مسلم برقم (٢٨١٦) .

(٤) فى ت ، أ : « ولا على أرواحهم » .

(٥) صحيح مسلم برقم (١٨٥) .

(٦) زيادة من ت ، س .

الأول ، وقد علم الرب ، جل جلاله ، أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا ، لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون . فلماذا لا يجيبهم إلى سؤالهم ، كما قال تعالى مخبراً عنهم في قولهم : ﴿ فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ . ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ [غافر : ١١ ، ١٢] ، أى : لا يجيبكم إلى ذلك ، لأنكم كنتم كذلك ، ولو رددتم لعدتم إلى ما نهيتم عنه ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ أى : أو ما عشتم في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم ؟

وقد اختلف المفسرون في مقدار العمر المراد هاهنا ، فروى عن علي بن الحسين زين العابدين أنه قال : مقدار سبع عشرة سنة .

وقال قتادة : اعلّموا أن طول العمر حجة ، فنعوذ بالله أن نُعَيَّرَ (٢) بطول العمر ، قد نزلت هذه الآية : ﴿ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ ، وإن فيهم لابن ثمانى عشرة سنة . وكذا قال أبو غالب الشيباني .

وقال عبد الله بن المبارك ، عن معمر ، عن رجل ، عن وهب بن منبه في قوله : ﴿ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ ، قال : عشرين (٣) سنة .

وقال هشيم ، عن منصور ، عن زاذان ، عن الحسن في قوله : ﴿ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ قال : أربعين سنة .

وقال هشيم [أيضاً] (٤) ، عن مجاهد ، عن الشعبي ، عن مسروق أنه كان يقول : إذا بلغ أحدكم أربعين سنة ، فليأخذ حذره من الله عز وجل .

وهذا رواية عن ابن عباس فيما قال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا بشر بن المفضل ، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن مجاهد قال : سمعت ابن عباس يقول : العمر الذي أعذر الله إلى ابن آدم : ﴿ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ أربعون سنة .

هكذا رواه من هذا الوجه ، عن ابن عباس . وهذا القول هو اختيار ابن جرير . ثم رواه من طريق الثوري وعبد الله بن إدريس ، كلاهما عن عبد الله بن عثمان بن خثيم (٥) ، عن مجاهد (٦) ، عن ابن عباس قال : العمر الذي أعذر الله فيه لابن آدم في قوله : ﴿ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ ستون سنة .

فهذه الرواية أصح عن ابن عباس ، وهى الصحيحة فى نفس الأمر أيضاً ، لما ثبت فى ذلك من الحديث - كما سنورده - لا كما زعمه ابن جرير ، من أن الحديث لم يصح ؛ لأن فى إسناده من يجب التثبت فى أمره .

وقد روى (٧) أصبغ بن نباتة ، عن علي ، رضى الله عنه ، أنه قال : العمر الذى عيّرهم الله به فى قوله تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ ستون سنة .

(٣) فى ت ، س ، أ : « عشرون » .

(٦) فى ت : « وفى رواية أخرى » .

(٢) فى أ : « نغتر » .

(٥) فى أ : « خثيم » .

(١) فى ت ، س : « مرد » وهو خطأ .

(٤) زيادة من س .

(٧) فى ت : « فروى » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي : حدثنا دُحَيْمٌ ، حدثنا ابن أبي فُدَيْكٍ ، حدثني إبراهيم بن الفضل المخزومي ، عن ابن أبي حُسَيْنِ المكي ؛ أنه حدثه عن عطاء - هو ابن أبي رباح - عن (١) ابن عباس ، رضى الله عنهما (٢) ، أن النبي ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة قيل : أين أبناء الستين ؟ وهو العمر الذى قال الله فيه : ﴿ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ » .

وكذا رواه ابن جرير ، عن على بن شعيب ، عن محمد بن إسماعيل (٣) بن أبي فُدَيْكٍ ، به . وكذا رواه الطبراني من طريق ابن أبي فُدَيْكٍ ، به (٤) . وهذا الحديث فيه نظر ؛ لحال إبراهيم بن الفضل ، والله أعلم .

حديث آخر : قال (٥) الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَرٌ ، عن رَجُلٍ من بنى غفَّارٍ ، عن سعيد المَقْبُرِيِّ ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ أنه قال : « لقد أعذر الله إلى عبد أحياء حتى بلغ ستين أو سبعين سنة ، لقد أعذر الله إليه ، لقد أعذر الله إليه » (٦) .

وهكذا رواه الإمام البخارى فى « كتاب الرقاق » من صحيحه : حدثنا عبد السلام بن مُطَهَّرٍ ، عن عُمَرُ بن على ، عن مَعْنُ بن محمد الغفَّارى ، عن سعيد المَقْبُرِيِّ ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أعذر الله عز وجل إلى امرئ أخر عمره حتى بلغه ستين سنة » . ثم قال البخارى : تابعه أبو حازم وابن عَجَلان ، عن سعيد المَقْبُرِيِّ (٧) .

فأما أبو حازم فقال ابن جرير : حدثنا أبو صالح الفَزَارِيُّ ، حدثنا محمد بن سَوَّارٍ ، أخبرنا يعقوب بن عبد الرحمن بن عبد القارى الإسكندري ، حدثنا أبو حازم ، عن سعيد المقبرى ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « [من عمره] (٨) الله ستين سنة ، فقد أعذر إليه فى العمر » .

وقد رواه الإمام أحمد والنسائي فى الرقاق جميعا عن قتيبة ، عن يعقوب بن عبد الرحمن ، به (٩) .

ورواه البزار قال : حدثنا هشام بن يونس ، حدثنا عبد العزيز بن أبي حازم ، عن أبيه ، عن سعيد المقبرى ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « العمر الذى أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة » . يعنى : ﴿ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ (١٠) .

وأما متابعة « ابن عجلان » فقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو السفر يحيى بن محمد بن عبد الملك ابن قرعة بسامراء ، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ ، حدثنا سعيد بن أبي أيوب ، حدثني محمد بن

(٢) فى ت ، س : « عنه » .

(١) فى ت : « فقال ابن أبي حاتم بإسناده إلى » .

(٣) فى جميع النسخ : « عن إسماعيل ، والمثبت من الطبرى » .

(٤) تفسير الطبرى (٩٣/٢٢) والمعجم الكبير للطبراني (١٧٧/١١) وقال الهيثمى فى المجمع (٩٧/٧) : « وفيه إبراهيم بن الفضل المخزومي وهو ضعيف » .

(٥) فى ت : « وروى » .

(٦) المسند (٢٧٥/٢) .

(٧) صحيح البخارى برقم (٦٤١٩) .

(٨) زيادة من ت ، والطبرى .

(٩) تفسير الطبرى (٩٣/٢٢) والمسند (٤١٧/٢) والنسائي فى السنن الكبرى كما فى تحفة الأشراف للمزى (٤٧٢/٩) .

(١٠) ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى تخريج الكشاف للزيلعى (١٥٥/٣) من طريق سليمان بن حرب ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد ، وربما لم يقل : عن سهل ، فذكر نحوه دون الآية ، والمحفوظ عن أبي هريرة ، رضى الله عنه .

عجلان ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من أتت عليه ستون سنة فقد أعذر الله ، عز وجل ، إليه في العمر » . وكذا رواه الإمام أحمد عن أبي عبد الرحمن هو المقرئ (١) ، به (٢) . ورواه أحمد أيضا عن خلف عن أبي معشر ، عن سعيد المقبري .

طريق أخرى عن أبي هريرة : قال ابن جرير : حدثني أحمد بن الفرّج أبو عتبة (٣) الحمصي ، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد ، حدثنا المطرف بن مازن الكنانى ، حدثني معمر بن راشد قال : سمعت محمد ابن عبد الرحمن الغفارى يقول : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « لقد أعذر الله عز وجل ، إلى صاحب الستين سنة والسبعين » (٤) .

فقد صح هذا الحديث من هذه الطرق ، فلو لم يكن (٥) إلا الطريق التى ارتضاها أبو عبد الله البخارى شيخ هذه الصناعة لكفت . وقول ابن جرير : (إن فى رجاله بعض من يجب التثبت فى أمره) ، لا يلتفت إليه مع تصحيح البخارى ، والله أعلم .

وذكر بعضهم أن العمر الطبيعى عند الأطباء مائة وعشرون سنة ، فالإنسان لا يزال فى ازدياد إلى كمال الستين ، ثم يشرع بعد هذا فى النقص والهرم ، كما قال الشاعر :

إِذَا بَلَغَ الْفَتَى سِتِينَ عَامًا فَقَدْ ذَهَبَ الْمَسَرَّةُ وَالْفَتَاءُ (٦)

ولما كان هذا هو العمر الذى يعذر الله إلى عباده به ، ويزيح به عنهم العلل ، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة ، كما ورد بذلك الحديث ، قال الحسن بن عرفة ، رحمه الله :

حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى ، حدثنا محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين ، وأقلهم من يجوز ذلك » .

وهكذا رواه الترمذى وابن ماجه جميعا فى كتاب الزهد ، عن الحسن بن عرفة ، به . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه (٧) .

وهذا عَجَبٌ من الترمذى ، فإنه قد رواه أبو بكر بن أبى الدنيا من وجه آخر وطريق أخرى ، عن أبى هريرة ، حيث قال :

حدثنا سليمان (٨) بن عمر ، عن محمد بن ربيعة ، عن كامل أبى العلاء ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين ، وأقلهم من يجوز ذلك » .

وقد رواه الترمذى فى « كتاب الزهد » أيضا ، عن إبراهيم بن سعيد الجوهري ، عن محمد بن ربيعة ، به (٩) . ثم قال : هذا حديث حسن غريب ، من حديث أبى صالح عن أبى هريرة ، وقد

(١) فى أ : « المقبرى » .

(٢) المسند (٢/ ٣٢٠) .

(٣) فى أ : « أبو عينة » .

(٤) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٣) .

(٥) فى س : « لم تكن » .

(٦) البيت نسبته أبو عبيدة للربيع بن ضبع الفزارى مستفاداً من حاشية طبعة الشعب .

(٧) سنن الترمذى برقم (٣٥٥٠) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٣٦) .

(٨) فى أ : « سليم » .

(٩) سنن الترمذى برقم (٢٣٣١) .

روى من غير وجه عنه . هذا نصه بحروفه فى الموضوعين ، والله أعلم .

وقال (١) الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو موسى الأنصارى ، حدثنا ابن أبى فديك ، حدثني إبراهيم ابن الفضل - مولى بنى مخزوم - عن المقبرى ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مُعْتَرَكُ المَنَيا ما بين الستين إلى السبعين » .

وبه قال : قال رسول الله ﷺ : « أَقَلُّ أُمْتِي أَبْنَاءُ سَبْعِينَ » . إسناده ضعيف (٢) .

حديث آخر فى معنى ذلك : قال (٣) الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده :

حدثنا إبراهيم بن هانئ ، حدثنا إبراهيم بن مهدي ، حدثنا عثمان بن مطر ، عن أبى مالك ، عن ربِيعى عن حذيفة أنه قال : يا رسول الله ، أثبتنا بأعمار أمتك . قال : « ما بين الخمسين إلى الستين » . قالوا : يارسول الله ، فأبناء السبعين ؟ قال : « قل من يبلغها من أمتى ، رحم الله أبناء السبعين ، ورحم الله أبناء الثمانين » .

ثم قال البزار : لا يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد ، وعثمان بن مطر من أهل البصرة ليس بقوى (٤) .

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ عاش ثلاثة وستين سنة . وقيل : ستين . وقيل : خمسا وستين سنة . والمشهور الأول ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ ﴾ : روى عن ابن عباس ، وعكرمة ، وأبى جعفر الباقر ، وقتادة ، وسفيان بن عُيينة أنهم قالوا : يعنى : الشيب .

وقال السُّدِّى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى به الرسول ﷺ وقرأ ابن زيد : ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأَوَّلِيِّ ﴾ [النجم : ٥٦] . وهذا هو الصحيح عن قتادة ، فيما رواه شيبان ، عنه أنه قال : احتج عليهم بالعمر والرسول .

وهذا اختيار ابن جرير ، وهو الأظهر ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رُبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا تُكُونُ . لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٧ ، ٧٨] ، أى : لقد بينا لكم الحق على السنة الرسل ، فأبيتكم وخالفتم ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ [الملك : ٨ ، ٩] .

وقوله : ﴿ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ أى : فذوقوا عذاب النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء فى مدة أعمالكم ، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال .
﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ

(١) فى ت : « وروى » .

(٢) مسند أبى يعلى (١١/٤٢٢ ، ٤٢٣) وفيه إبراهيم بن الفضل وهو متروك .

(٣) فى ت : « وروى » .

(٤) مسند البزار برقم (٣٥٨٦) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٢٠٦) : « وفيه عثمان بن مطر وهو ضعيف » .

خَلَّافٌ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ .

يخبر تعالى بعلمه غيب السموات والأرض ، وأنه يعلم ما تكنه السرائر وتنطوى عليه الضمائر ، وسيجازى كل عامل بعمله .

ثم قال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : يخلف قوم لآخرين قبلهم ، وجيل لجيل قبلهم ، كما قال : ﴿ وَيَجْعَلْكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾ [النمل : ٦٢] ﴿ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ ، أى : فإنما يعود وبال ذلك (١) على نفسه (٢) دون غيره ، ﴿ وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ﴾ ، أى : كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله ، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة ، بخلاف المؤمنين فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله ، ارتفعت درجته ومنزلته فى الجنة ، وزاد أجره ، وأحب خالقه وبارئته رب العالمين ، [فسبحان المقدر المدير رب العالمين] (٣) .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعْذِرُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ .

يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين : ﴿ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى : من الأصنام والأنداد ، ﴿ أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ أى : ليس لهم شيء من ذلك ، ما يملكون من قطمير .

وقوله : ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ ﴾ أى : أم أنزلنا عليهم كتابا بما يقولون من الشرك والكفر ؟ ليس الأمر كذلك ، ﴿ بَلْ إِنْ يَعْذِرُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ أى : بل إنما اتبعوا فى ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيتهم التى تمنوها لأنفسهم ، وهى غرور وباطل وزور .

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التى بها تقوم السماء والأرض عن أمره ، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما ، فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾ أى : أن تضطربا عن أماكنهما ، كما قال : ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج : ٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ [الروم : ٢٥] ﴿ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ ، أى : لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو ، وهو مع ذلك حلیم غفور ، أى : يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه ، وهو يحلم (٤) فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يعجل ، ويستتر آخرين ويغفر ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ .

(٢) فى ت : « وعليه » .

(١) فى ت ، س ، أ : « وبال كفره ذلك » .

(٤) فى ت ، أ : « يحلم عنهم » .

(٣) زيادة من أ .

وقد أورد ابن أبي حاتم هاهنا حديثا غريبا بل منكرًا ، فقال : حدثنا علي بن الحسين بن الجعيد ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثني هشام بن يوسف ، عن أمية بن شبل ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن (١) أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يحكى عن موسى ، عليه السلام (٢) ، على المنبر قال : « وقع فى نفس موسى ، عليه السلام : هل ينام الله ، عز وجل ، فأرسل الله إليه ملكا ، فأرقه ثلاثا (٣) ، وأعطاه قارورتين ، فى كل يد قارورة ، وأمره أن (٤) يحتفظ بهما . قال : فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان ، ثم يستيقظ فيحبس إحدهما (٥) عن الأخرى ، حتى نام نومه ، فاصطفقت يداه فتكسرت القارورتان . قال : ضرب الله له مثلا : إن الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض » (٦) .

والظاهر أن هذا الحديث ليس بمرفوع ، بل من الإسرائيليات المنكرة ؛ فإن موسى ، عليه السلام ، أجل من أن يُجَوَّزَ على الله ، سبحانه وتعالى ، النوم ، وقد أخبر الله تعالى فى كتابه العزيز بأنه : ﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] . وثبت فى الصحيحين عن أبي موسى الأشعرى ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » (٧) .

وقد قال أبو جعفر بن جرير (٨) : حدثنا ابن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبي وائل قال : جاء رجل إلى عبد الله - هو ابن مسعود - فقال : من أين جئت ؟ قال : من الشام . قال : من لقيت ؟ قال : لقيت كعبا . قال : ما حدثك كعب ؟ قال : حدثني أن السموات تدور على منكب ملك . قال : أفصدقه أو كذبه ؟ قال : ما صدقته ولا كذبه . قال : لوددت أنك افتديت من رحلتك إليه براحتك ورحلها ، كذب كعب . إن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (٩) .

وهذا إسناد صحيح إلى كعب وإلى ابن مسعود . ثم رواه ابن جرير عن ابن حميد ، عن جرير ، عن مغيرة ، عن إبراهيم قال : ذهب جندب البجلي إلى كعب بالشام ، فذكر نحوه (١٠) . وقد رأيت فى مصنف الفقيه (١١) يحيى بن إبراهيم بن مزين الطليطلى ، سماه « سير الفقهاء » ، أورد هذا الأثر عن محمد بن عيسى بن الطباع ، عن وكيع ، عن الأعمش ، به . ثم قال : وأخبرنا زونان - يعنى : عبد الملك بن الحسن - عن ابن وهب ، عن مالك أنه قال : السماء لا تدور . واحتج بهذه الآية ، وبحديث : « إن بالمغرب بابا للتوبة لا يزال مفتوحا حتى تطلع الشمس منه » .

(١) فى ت : « بسنده إلى أبي هريرة » . (٢) فى ت : « ﷺ » . (٣) فى ت : « ثلثا » .

(٤) فى ت : « بأن » . (٥) فى س : « أحدهما » .

(٦) ورواه أبو يعلى فى مسنده (٢١/١٢) من طريق إسحاق بن إبراهيم ، به ، وسبق أيضا تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية : ٢٥٥ من سورة البقرة .

(٧) صحيح مسلم برقم (١٧٩) وليس فى صحيح البخارى ، فإن الحافظ ذكره عند تفسير الآية : ٢٥٥ من سورة البقرة فقال : « وفى الصحيح هكذا بالافراد » .

(٨) فى ت : « وروى ابن جرير » .

(٩) تفسير الطبرى (٩٤/٢٢) .

(١٠) تفسير الطبرى (٩٥/٢٢) .

(١١) فى س ، أ : « للفقيه » .

قلت : وهذا الحديث فى الصحيح (١) ، والله أعلم .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۚ ﴾ (٤٢) استَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ۚ ﴾ (٤٣) .

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم ، قبل إرسال الرسول إليهم : ﴿ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ﴾ أى : من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل . قاله الضحاك وغيره ، كقوله تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا (٢) لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهْدًى وَرَحْمَةً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيَّاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٥٦ ، ١٥٧] ، وكقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ لَوْ أَنَّا عِدْنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ . لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ . فَكْفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الصافات : ١٦٧-١٧٠] .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ - وهو : محمد ﷺ - بما أنزل معه من الكتاب العظيم ، وهو القرآن المبين ، ﴿ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ أى : ما ازدادوا (٣) إلا كفرًا إلى كفرهم ، ثم بين ذلك بقوله : ﴿ استَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : استكبروا عن اتباع آيات الله ، ﴿ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ﴾ أى : ومكروا بالناس فى صدهم إياهم عن سبيل الله ، ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ ، [أى : وما يعود وبال ذلك إلا عليهم (٤) أنفسهم دون غيرهم .

قال (٥) ابن أبى حاتم : ذكر على بن الحسين ، حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن أبى زكريا الكوفى عن رجل حدثه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إياك ومكر السيئ ، فإنه لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله » [(٦) ، ولهم من الله طالب » (٧) ، وقد قال محمد بن كعب القرظى : ثلاث من فعلهن لم ينبج حتى ينزل به من مكر أو بغى أو نكث ، وتصديقها فى كتاب الله : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ ، ﴿ إِنَّمَا بِغِيكُم عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [يونس : ٢٣] ، ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾ [الفتح : ١٠] .

وقوله : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ﴾ يعنى : عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره (٨) ، ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أى (٩) : لا تغير ولا تبدل ، بل هى جارية كذلك فى كل

(١) لم أعثر على الحديث فى الصحيحين ، وهو فى سنن الترمذى برقم (٣٥٣٦) وصحيح ابن خزيمة برقم (١٩٣) والمسند للإمام أحمد (٢٤٠ / ٤) ما يوافق ذلك من حديث صفوان بن عسال ، رضى الله عنه ، ولفظه عند ابن خزيمة : « إن بالمغرب باباً مفتوحاً للتوبة مسيرته سبعون سنة لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها » نحوه .

(٢) فى ت : « أو يقولوا » .

(٣) فى ت : « ما زادوهم » .

(٤) فى ت : « على » .

(٥) فى ت : « روى » .

(٦) زيادة من ت ، س ، أ .

(٧) وهذا مرسل ولم أجد من أخرجه غير ابن أبى حاتم ، وقد روى ابن المبارك فى الزهد برقم (٧٢٥) عن الزهرى مرسلأ نحوه .

(٨) فى ت : « على تكذيبهم أمره ومخالفتهم رسله » .

(٩) فى ت : « يعنى » .

مكذب ، ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ أى : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ﴾ [الرعد : ١١] ، ولا يكشف ذلك عنهم ، ويحوله عنهم أحد .

﴿ أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ (٤٤) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿ (٤٥) .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الرسالة : سيروا فى الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل ؟ كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، فخلّيت منهم منازلهم ، وسلبوا ما كانوا فيه من النعم بعد كمال القوة ، وكثرة العدد والعدد ، وكثرة الأموال والأولاد ، فما أغنى ذلك شيئا ، ولا دفع (١) عنهم من عذاب الله من شيء ، لما جاء أمر ربك لأنه تعالى لا يعجزه شيء ، إذا أراد كونه فى السموات والأرض ؟ ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ أى : عليم بجميع الكائنات ، قدير على مجموعها .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ أى : لو آخذهم (٢) بجميع ذنوبهم ، لأهلك جميع أهل الأرض ، وما يملكونه من دواب وأرزاق .

قال (٣) ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان الثوري ، عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله قال : كاد الجعلل أن يعذب فى جحره بذنوب ابن آدم ، ثم قرأ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ .

وقال سعيد بن جبير ، والسدى فى قوله : ﴿ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ أى : لما سقاهم المطر ، فماتت جميع الدواب .

﴿ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى : ولكن يُنظرهم إلى يوم القيامة ، فيحاسبهم يومئذ ، ويوفى كل عامل بعمله ، فيجازى بالثواب أهل الطاعة ، وبالعقاب أهل المعصية ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ .

آخر تفسير سورة « فاطر » ولله الحمد والمنة

(١) فى ت ، س : « ولا يدفع » .

(٢) فى ت ، أ : « يؤاخذهم » .

(٣) فى ت : « روى » .

تفسير سورة يس

[وهى] (١) مكية .

قال أبو عيسى الترمذى : حدثنا قتيبة وسفيان بن وكيع ، حدثنا حميد بن عبد الرحمن الرؤاسى ، عن الحسن بن صالح ، عن هارون أبى محمد ، عن مقاتل بن حيان ، عن قتادة (٢) ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لكل شىء قلبا ، وقلب القرآن يس . ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات » .

ثم قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حميد بن عبد الرحمن . وهارون أبو محمد شيخ مجهول . وفى الباب عن أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه ، ولا يصح لضعف إسناده ، وعن أبى هريرة منظور فيه (٣) .

أما حديث الصديق فرواه الحكيم الترمذى فى كتابه نوادر الأصول (٤) . وأما حديث أبى هريرة فقال (٥) أبو بكر البزار : حدثنا عبد الرحمن بن الفضل ، حدثنا زيد - هو ابن الحباب - حدثنا حميد - هو المكى ، مولى آل علقمة - عن عطاء - هو ابن أبى رباح - عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لكل شىء قلبا ، وقلب القرآن يس » .

ثم قال : لا نعلم رواه إلا زيد ، عن حميد (٦) .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا إسحاق بن أبى إسرائيل ، حدثنا حجاج بن محمد ، عن هشام بن زياد ، عن الحسن قال : سمعت أبا هريرة يقول (٧) : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ يس فى ليلة أصبح مغفوراً له . ومن قرأ : « حم » التى فيها الدخان أصبح مغفوراً له » . إسناده (٨) جيد (٩) .

وقال (١٠) ابن حبان فى صحيحه : حدثنا محمد بن إسحاق بن إبراهيم - مولى ثقيف - حدثنا الوليد بن شجاع بن الوليد السكونى ، حدثنا أبى ، حدثنا زياد بن خيثمة ، حدثنا محمد بن جحادة ،

(١) زيادة من ت ، س ، أ . (٢) فى ت : « روى أبو عيسى الترمذى بإسناده » .

(٣) سنن الترمذى برقم (٢٨٨٧) وقال ابن أبى حاتم فى العلل (٥٦/٢) بعد ما ذكر الحديث : « قال أبى : مقاتل هذا هو مقاتل بن سليمان رأيت هذا الحديث فى أول كتاب وضعه مقاتل وهو حديث باطل لا أصل له . قلت لأبى : مقاتل أدرك قتادة ؟ قال : وأكبر من قتادة أبو الزبير » .

(٤) نوادر الأصول ص (٣٣٥) ورواه ابن الضريس فى فضائل القرآن برقم (٢١٧) والبيهقى فى شعب الإيمان برقم (٢٤٦٥) وابن الجوزى فى الموضوعات (٢٤٧/١) من طرق عن إسماعيل بن أبى أويس عن محمد بن عبد الرحمن الجلعانى عن سليمان بن مرقاع عن هلال ابن الصلت عن أبى بكر ، رضى الله عنه . وقال ابن الجوزى : « هذا الحديث من جميع طرقه باطل لا أصل له » .

(٥) فى ت : « وروى » .

(٦) مسند البزار برقم (٢٣٠٤) « كشف الأستار » .

(٧) فى ت : « وروى الحافظ أبو يعلى عن أبى هريرة قال » . (٨) فى ت : « إسناده » .

(٩) مسند أبى يعلى (٩٣/١١) وفى إسناده هشام بن زياد ضعفه الأئمة ، وقال ابن حبان : « كان ممن يروى الموضوعات عن الثقات ، والمقلوبات عن الأثبات حتى يسبق إلى قلب المستمع أنه كان المعتمد لها ، لا يجوز الاحتجاج به » . والحسن لم يسمع من أبى هريرة ، وانظر التعليق على أبى يعلى عند قوله : « سمعت » .

(١٠) فى ت ، أ : « وروى » .

عن الحسن ، عن جُنْدَب بن (١) عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله ، غفر له » (٢) .

وقد قال (٣) الإمام أحمد : حدثنا عارم ، حدثنا معتمر ، عن أبيه ، عن رجل ، عن أبيه ، عن معقل بن يسار ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « البقرة سنام القرآن وذروته ، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكا ، واستخرجت ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] من تحت العرش فوصلت بها - أو : فوصلت بسورة البقرة - ويس قلب القرآن ، لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة ، إلا غفر له ، واقرؤها على موتاكم » .

وكذا رواه النسائي في «اليوم والليلة» عن محمد بن عبد الأعلى ، عن معتمر بن سليمان ، به (٤) . ثم قال الإمام أحمد : حدثنا عارم ، حدثنا ابن المبارك ، حدثنا سليمان التيمي ، عن أبي عثمان - وليس بالنهدى - عن أبيه ، عن معقل بن يسار قال : قال رسول الله ﷺ : « اقرؤها على موتاكم » - يعنى : يس .

ورواه أبو داود ، والنسائي في «اليوم والليلة» وابن ماجه من حديث عبد الله بن المبارك ، به (٥) إلا أن في رواية النسائي : عن أبي عثمان ، عن معقل بن يسار . ولهذا قال بعض العلماء : من خصائص هذه السورة : أنها لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسره الله . وكأن قراءتها عند الميت لتتزل الرحمة والبركة ، وليسهل (٦) عليه خروج الروح ، والله أعلم . قال الإمام أحمد ، رحمه الله : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا صفوان قال : كان المشيخة يقولون : إذا قرئت - يعنى يس - عند الميت خُفِّفَ عنه بها (٧) .

وقال (٨) البزار : حدثنا سلمة بن شبيب ، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان ، عن أبيه ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال النبي ﷺ (٩) : « لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي » - يعنى : يس (١٠) .

(١) في أ : « عن » .

(٢) صحيح ابن حبان برقم (٦٦٥) « موارد » والحسن لم يسمع من جندب ، قاله أبو حاتم .

(٣) في ت : « وروى » .

(٤) المسند (٢٦/٥) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١٠٩١٤) وقد أعله ابن القطان كما في التلخيص لابن حجر (١٠٤/٢) بثلاث علل : الاضطراب في الإسناد ، وبالوقف ، وبجهالة حال أبي عثمان وأبيه . ثم نقل عن الدارقطني قوله : « هذا حديث ضعيف الإسناد ، مجهول المتن ، ولا يصح في الباب حديث » .

(٥) المسند (٢٦/٥) وسنن أبي داود برقم (٣١٢١) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١٠٩١٣) وسنن ابن ماجه برقم (١٤٤٨) .

(٦) في ت ، س : « وتسهل » .

(٧) المسند (١٠٥/٤) .

(٨) في ت : « وروى » .

(٩) في ت : « رسول الله » .

(١٠) مسند البزار برقم (٢٣٠٥) « كشف الأستار » .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَسَ ١ ﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿ ٢ ﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿ ٣ ﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ ٤ ﴾
تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿ ٥ ﴾ لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿ ٦ ﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى
أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿ ٧ ﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أول « سورة البقرة » : ورؤى عن ابن عباس وعكرمة ،
والضحاك ، والحسن وسفيان بن عيينة ^(١) أن « يس » بمعنى : يا إنسان .
وقال سعيد بن جبیر : هو كذلك فى لغة الحبشة .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : هو اسم من أسماء الله تعالى .

﴿ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ أى : المحكم الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ﴿ إِنَّكَ ﴾
يا محمد ﴿ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أى : على منهج ودين قويم ، وشرع مستقيم ، ﴿ تَنْزِيلَ
الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ أى : هذا الصراط والمنهج والدين الذى جئت به مُنْزَلٌ من رب العزة ، الرحيم بعباده
المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ [الشورى : ٥٢ ، ٥٣] .

وقوله تعالى : ﴿ لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ يعنى بهم : العرب ؛ فإنه ما أتاها من
نذير من قبله . وذكرهم وحدهم لا ينفى من عداهم [كما زعمه بعض النصارى] ^(٢) ، كما أن ذكر
بعض الأفراد لا ينفى العموم . وقد تقدم ذكر الآيات والأحاديث المتواترة فى عموم بعثته ، صلوات
الله وسلامه عليه ، عند قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

وقوله : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ ﴾ : قال ابن جرير : لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن
[الله قد] ^(٣) حتم عليهم فى أم الكتاب أنهم لا يؤمنون ، ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بالله ، ولا يصدقون رسله .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ
سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١)
إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢) .

يقول تعالى : إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة من
جُعِلَ فى عنقه غُلٌّ ، فجمع يديه مع عنقه تحت ذقنه ، فارتفع رأسه ، فصار مقمحا ؛ ولهذا قال : ﴿ فَهُمْ
مُقْمَحُونَ ﴾ ، والمقمح : هو الرافع رأسه ، كما قالت أم زرع فى كلامها : « وأشرب فأنقمح » أى :

(١) فى ت : « وعكرمة وغيرهما » .

(٢) زيادة من أ .

(٣) زيادة من ت ، س .

أشرب فأروى ، وأرفع رأسي تهنيئاً وترّوياً . واكتفى بذكر الغل في العنق عن ذكر اليدين ، وإن كانتا مرادتين ، كما قال الشاعر (١) :

فَمَا أَدْرَى إِذَا يَمَّمْتُ أَرْضًا أُرِيدُ الْخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي
الْأَخِيرُ الَّذِي أَنَا أَبْتَغِيهِ أَمْ الشَّرُّ الَّذِي لَا يَأْتَلِينِي

فاكتفى بذكر الخير عن ذكر الشرّ لَمَّا دل السياق والكلام عليه (٢) ، وكذا هذا ، لما كان الغلّ إنمّا يعرف فيما جمَعَ اليدين مع العنق ، اكتفى بذكر العنق عن اليدين .

قال العوفي ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ قال : هو كقول الله (٣) تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾ [الإسراء : ٢٩] يعنى بذلك : أن أيديهم موثقة (٤) إلى أعناقهم ، لا يستطيعون أن يسطوها بخير .

وقال مجاهد : ﴿ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ قال : رافعو (٥) رؤوسهم ، وأيديهم موضوعة على أفواههم ، فهم مغلولون عن كل خير .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ﴾ : قال مجاهد : عن الحق ، ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ قال مجاهد : عن الحق ، فهم يترددون . وقال قتادة : الضلالات .

وقوله : ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ ﴾ أى : أغشينا أبصارهم عن الحق ، ﴿ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ أى : لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه .

قال ابن جرير : وروى عن ابن عباس أنه كان يقرأ : « فأغشيناهم » بالعين المهملة ، من العشا وهو داء فى العين .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : جعل الله هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان ، فهم لا يخلصون إليه ، وقرأ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] ثم قال : من منعه الله لا يستطيع .

وقال عكرمة : قال أبو جهل : لئن رأيتُ محمداً لأفعلن ولأفعلن ، فأنزلت : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا ﴾ إلى قوله : ﴿ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٦) ، قال : وكانوا يقولون : هذا محمد . فيقول : أين هو ؟ أين هو ؟ لا يبصره . رواه ابن جرير .

وقال محمد بن إسحاق : حدثني يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب قال : قال أبو جهل وهم جلوس : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه (٧) كتتم ملوكا ، فإذا متم (٨) بعثتم بعد موتكم ، وكانت لكم جناتٌ خير من جنات الأردن . وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح ، ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نارٌ تُعَذَّبون بها . وخرج [عليهم] (٩) رسول الله ﷺ عند ذلك ، وفى يده حفنة من تراب ، وقد أخذ الله على أعينهم دونه ، فجعل يذرّها على رؤوسهم ، ويقرأ : ﴿ يَس . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾

(١) البيت فى تفسير الطبرى (٩٨/٢٢) .

(٢) فى ت : « لما دل عليه السياق » .

(٤) فى ت : « موثوقة » .

(٣) فى ت : « كقوله » .

(٧) فى ت : « بايعتموه » .

(٦) زيادة من ت ، أ .

(٥) فى ت ، س : « رافعى » .

(٩) زيادة من أ .

(٨) فى ت : « أنتم » .

حتى انتهى إلى قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ، وانطلق رسول الله ﷺ لحاجته ، وباتوا رُصْداء على بابه ، حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار ، فقال: ما لكم ؟ قالوا : ننتظر محمداً . قال : قد خرج عليكم ، فما بقى منكم من رجل إلا [قد] (١) وضع على رأسه تراباً ، ثم ذهب لحاجته . فجعل كل رجل منهم ينفذ ما على رأسه من التراب . قال : وقد بلغ النبي ﷺ قول أبي (٢) جهل فقال : « وأنا أقول ذلك : إن لهم منى لذبحا ، وإنه أحدهم » .

وقوله : ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى : قد ختم الله عليهم بالضلالة ، فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به .

وقد تقدم نظيرها فى أول سورة البقرة (٣) ، وكما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] .

﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ أى : إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر ، وهو القرآن العظيم ، ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ ﴾ أى : حيث لا يراه أحد إلا الله ، يعلم أن الله مطلع عليه ، وعالم بما يفعل ، ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ أى : لذنوبه ، ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ أى : كبير واسع حسن جميل ، كما قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك : ١٢] .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ أى : يوم القيامة ، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيى قلب من يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة ، فيهديهم بعد ذلك إلى الحق ، كما قال بعد ذكر قسوة القلوب : ﴿ اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الحديد : ١٧] .

وقوله : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴾ أى : من الأعمال .

وفى قوله : ﴿ وَأَثَارَهُمْ ﴾ قولان :

أحدهما : نكتب أعمالهم التى باشروها بأنفسهم ، وآثارهم التى أثروها من بعدهم ، فنجزهم على ذلك أيضاً ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، كقوله ﷺ : « من سن فى الإسلام سنة حسنة ، كان له أجرها وأجر من عمل (٤) بها من بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة ، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً » .

رواه مسلم ، من رواية شعبة ، عن عون بن أبي جحيفة ، عن المنذر بن جرير ، عن أبيه جرير بن عبد الله البجلي ، رضى الله عنه ، وفيه قصة مُجْتَابَى النَّمَارِ الْمُضْرِيَّ (٥) . ورواه ابن أبى حاتم عن أبيه ، عن يحيى بن سليمان الجعفى ، عن أبى المحياة يحيى بن يَعْلَى ، عن عبد الملك بن عمير ، عن جرير بن عبد الله ، فذكر الحديث بطوله ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ .

وقد رواه مسلم من رواية أبى عَوَانَةَ ، عن عبد الملك بن عمير ، عن المنذر بن جرير ، عن أبيه ، فذكره (٦) .

(٢) فى ت : « قول أبى » وهو خطأ .

(١) زيادة من أ .

(٣) عند تفسير الآية السادسة .

(٤) فى أ : « يعمل » .

(٥ ، ٦) صحيح مسلم برقم (١٠١٧) .

وهكذا الحديث الآخر الذى فى صحيح مسلم عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ابن آدم ، انقطع عمله إلا من ثلاث : من علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده » (١) .

وقال سفيان الثورى ، عن أبى سعيد قال : سمعت مجاهداً يقول فى قوله (٢) : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ قال : ما أورثوا من الضلالة .

وقال ابن لهيعة ، عن عطاء بن دينار ، عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ يعنى : ما أثروا . يقول : ما سَنُوا من سنة ، فعمل (٣) بها قوم من بعد موتهم ، فإن كان خيراً فله مثل أجورهم ، لا ينقص من أجر من عمله شيئاً ، وإن كانت شراً فله مثل أوزارهم ، ولا ينقص من أوزار من عمله شيئاً . ذكرهما ابن أبى حاتم . وهذا القول هو اختيار البغوى (٤) .

والقول الثانى : أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية .

قال ابن أبى نجيع وغيره ، عن مجاهد : ﴿ مَا قَدَّمُوا ﴾ : أعمالهم . ﴿ وَآثَارَهُمْ ﴾ قال : خطاهم بأرجلهم . وكذا قال الحسن وقتادة : ﴿ وَآثَارَهُمْ ﴾ يعنى : خطاهم . قال قتادة : لو كان الله تعالى (٥) مغفلاً شيئاً من شأنك يا بن آدم ، أغفل ما تعفى الرياح من هذه الآثار ، ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله ، حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة الله أو من معصيته ، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره فى طاعة الله ، فليفعل . وقد وردت فى هذا المعنى أحاديث :

الحديث الأول : قال (٦) الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا أبى ، حدثنا الجريرى ، عن أبى نضرة ، عن جابر بن عبد الله قال : خلت البقاع حول المسجد ، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فقال لهم : « إنه بلغنى أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد » . قالوا : نعم ، يا رسول الله ، قد أردنا ذلك . فقال : « يا بنى سلمة ، دياركم تكتب آثاركم ، دياركم تكتب آثاركم » .

وهكذا رواه مسلم ، من حديث سعيد الجريرى وكهْمَس بن الحسن ، كلاهما عن أبى نضرة - واسمه : المنذر بن مالك بن قطعة العبدى - عن جابر (٧) .

الحديث الثانى : قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن الوزير الواسطى ، حدثنا إسحاق الأزرق ، عن سفيان الثورى ، عن أبى سفيان ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد الخدرى قال : كانت بنو سلمة فى ناحية من المدينة ، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قريب من المسجد ، فنزلت : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾

(١) صحيح مسلم برقم (١٦٣١) .

(٢) فى ت : « وعن مجاهد فى قوله » .

(٣) فى أ : « يعمل » .

(٤) معالم التنزيل للبغوى (٩/٧) .

(٥) فى ت ، س ، أ : « عز وجل » .

(٦) فى ت : « رواه » .

(٧) المسند (٣٣٢/٣) وصحيح مسلم برقم (٦٦٥) .

مَا قَدَّمُوا وَأَثَارَهُمْ ﴿١﴾ فقال لهم النبي ﷺ : « إن آثاركم تكتبُ » . فلم ينتقلوا .

انفرد بإخراجه الترمذى ^(١) عند تفسير هذه الآية الكريمة ، عن محمد بن الوزير ، به ^(٢) . ثم قال : « حسن غريب من حديث الثوري » ^(٣) .

ورواه ابن جرير ، عن سليمان بن عمر بن خالد الرقي ، عن ابن المبارك ، عن سفيان الثوري ، عن طريف - وهو ابن شهاب أبو سفيان السعدي - عن أبي نضرة ، به ^(٤) .

وقد روى من غير طريق الثوري ، فقال الحافظ أبو بكر البزار :

حدثنا عباد بن زياد الساجي ، حدثنا عثمان بن عمر ، حدثنا شعبة ، عن سعيد الجري ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد قال : إن بنى سلمة شكوا إلى رسول الله ﷺ بعد منازلهم من المسجد ، فنزلت : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ ، فأقاموا في مكانهم .

وحدثنا ابن المنني ^(٥) ، حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا الجري ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ ، بنحوه .

وفيه غرابة من حيث ذكر نزول هذه الآية ، والسورة بكمالها مكية ، فالله أعلم .

الحديث الثالث : قال ابن جرير :

حدثنا نصر بن علي الجهضمي ، حدثنا أبو أحمد الزيزي ، حدثنا إسرائيل ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ^(٦) ابن عباس قال : كانت منازل الأنصار متباعدة من المسجد ، فأرادوا أن ينتقلوا إلى المسجد ، فنزلت : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ ، فقالوا : ثبت مكاننا . هكذا رواه وليس فيه شيء مرفوع ^(٧) .

ورواه الطبراني عن عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم ، عن محمد بن يوسف الفريابي ، عن إسرائيل ، عن سماك ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كانت الأنصار بعيدة منازلهم من المسجد ، فأرادوا أن يتحولوا إلى المسجد ، فنزلت : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ ، فثبتوا في منازلهم ^(٨) .

الحديث الرابع : قال ^(٩) الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثني حيي بن عبد الله ، عن أبي عبد الرحمن الحبلي ، عن عبد الله بن عمرو قال : توفي رجل بالمدينة ، فصلي عليه النبي ﷺ وقال : « يا ليت مات في غير مولده » . فقال رجل من الناس : ولم يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ ^(١٠) : « إن الرجل إذا توفي في غير مولده ، قيس له من مولده إلى منقطع أثره

(١) في ١ : « مسلم » .

(٢) سنن الترمذى برقم (٣٢٢٦) .

(٣) في ت : « أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن غريب » .

(٤) تفسير الطبري (١٠٠ / ٢٢) .

(٥) في س ، ١ : « وحدثنا محمد بن المنني » .

(٦) تفسير الطبري (١٠٠ / ٢٢) .

(٨) المعجم الكبير (٨ / ١٢) وشيخه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم ضعيف .

(٩) في ت : « رواه » .

(١٠) في ت ، س : « النبي » .

فى الجنة » .

ورواه النسائى عن يونس بن عبد الأعلى ، وابن ماجه عن حرملة ، كلاهما عن ابن وهب ، عن حى بن (١) عبد الله ، به (٢) .

وقال (٣) ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا أبو تُمَيْلَةَ ، حدثنا الحسين ، عن ثابت قال : مشيت مع أنس فأسرعت المشى ، فأخذ بيدي فمشينا رويداً ، فلما قضينا الصلاة قال أنس : مشيت مع زيد بن ثابت فأسرعت المشى ، فقال : يا أنس ، أما شعرت أن الآثار تكتب ؟ أما شعرت أن الآثار تكتب ؟ (٤) .

وهذا القول لا تنافى بينه وبين الأول ، بل فى هذا تنبيه ودلالة على ذلك (٥) بطريق الأولى والأخرى ، فإنه إذا كانت هذه الآثار تُكْتَبُ ، فلأن تُكْتَبَ تلك التى فيها قُدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : جميع الكائنات مكتوب فى كتاب مسطور مضبوط فى لوح محفوظ ، والإمام المبين هنا هو أم الكتاب . قاله مجاهد ، وقتادة ، وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم ، وكذا فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ [الإسراء : ٧١] أى : بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير وشر ، كما قال تعالى : ﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ وَجِيءً بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ [الزمر : ٦٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فُتْرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩] .

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) ﴾ .

يقول تعالى : واضرب - يا محمد - لقومك الذين كذبوك ﴿ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ .

قال ابن إسحاق - فيما بلغه عن ابن عباس ، وكعب الأحبار ، ووهب بن منبه - : إنها مدينة أنطاكية ، وكان بها ملك يقال له : انطيوخس بن انطيوخس بن انطيوخس ، وكان يعبد الأصنام ، فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل ، وهم : صادق وصدوق وشلوم (٦) ، فكذبهم .

(١) فى أ : « عن » .

(٢) المسند (١٧٧/٢) وسنن النسائى (٧/٤) وسنن ابن ماجه برقم (١٦١٤) .

(٣) فى ت : « وروى » .

(٤) تفسير الطبرى (١٠٠/٢٢) .

(٥) فى ت : « وشكوك » .

(٦) فى أ : « ذاك » .

وهكذا روى عن بُرَيْدَةَ بن الحُصَيْب ، وعِكْرِمَةَ ، وقتادة ، والزهرى : أنها أنطاكية .
وقد استشكل بعضُ الأئمة كونها أنطاكية ، بما سنذكره بعد تمام القصة ، إن شاء الله تعالى .
وقوله : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ أى : بادروهما بالكذب ، ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ ، أى :
قويَناهم ^(١) وشددنا أزرهما برسول ثالث .

قال ابن جُرَيْج ، عن وهب بن سليمان ، عن شعيب الجبائى قال : كان اسم الرسولين الأولين
شمعون ويوحنا ، واسم الثالث بولص ، والقرية أنطاكية .

﴿ فَقَالُوا ﴾ أى : لأهل تلك القرية : ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴾ أى : من ربكم الذى خلقكم ، نأمركم
بعبادته وحده لا شريك له . قاله أبو العالية .

وزعم قتادة بن دعامة : أنهم كانوا رسل المسيح ، عليه السلام ، إلى أهل أنطاكية . ﴿ قَالُوا مَا
أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ أى : فكيف أوحى إليكم وأنتم بشر ونحن بشر ، فلم لا أوحى إلينا مثلكم ؟ ولو
كنتم رسلاً لكنتم ملائكة . وهذه شبه ^(٢) كثير من الأمم المكذبة ، كما أخبر الله تعالى عنهم فى قوله :
﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ [التغابن : ٦] ، فاستعجبوا ^(٣) من ذلك
وأنكروه . وقوله : ﴿ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تَرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ
مُبِينٍ ﴾ [إبراهيم : ١٠] . وقوله حكاية عنهم فى قوله : ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴾
[المؤمنون : ٣٤] ، ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ ؟
[الإسراء : ٩٤] . ولهذا قال هؤلاء : ﴿ مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا
تَكْذُوبُونَ . قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ أى : أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين : الله يعلم أنا رسله
إليكم ، ولو كنا كذبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام ، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم ، وستعلمون لمن
تكون عاقبة الدار ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ^(٤)
وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٢] .

﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ : يقولون : إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم ، فإن أطعتم
كانت لكم السعادة فى الدنيا والآخرة ، وإن لم تحجبوا فستعلمون غيب ذلك ، والله أعلم .

﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٨) قَالُوا
طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَنْتُمْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) .

فعند ذلك قال لهم أهل القرية : ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ أى : لم نر على وجوهكم خيراً فى عيشنا .
وقال قتادة : يقولون : إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم .

وقال مجاهد : يقولون : لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها .

﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ : قال قتادة : بالحجارة . وقال مجاهد : بالشتم .

(١) فى ت : « قويَناهما بثالث » . (٢) فى ت ، س : « شبهة » . (٣) فى ت ، س : « أى استعجبوا » .

(٤) فى ت ، س ، أ ، هـ : « يعلم ما فى السموات وما فى الأرض » والصواب ما أثبتناه .

﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : عقوبة شديدة . فقالت لهم رسلهم : ﴿ طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ﴾ أى : مردود عليكم ، كقوله تعالى فى قوم فرعون : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [الأعراف : ١٣١] ، وقال قوم صالح (١) : ﴿ أَطِيرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [النمل : ٤٧] . وقال قتادة ، ووهب بن منبه : أى أعمالكم معكم . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٧٨] .
وقوله : ﴿ أَتَنْذَرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ أى : من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له ، قابلتمونا بهذا الكلام ، وتوعدتمونا وتهددتمونا ؟ بل أنتم قوم مسرفون .
وقال قتادة : أى إن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا ، بل أنتم قوم مسرفون .

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ (٢٥) ﴾ .

قال ابن إسحاق - فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأبحار ووهب بن منبه - : إن أهل القرية هموا بقتل رسلهم فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى ، أى : لينصرهم من قومه - قالوا : وهو حبيب ، وكان يعمل الجريز - وهو (٢) الحبال - وكان رجلا سقيما (٣) قد أسرع فيه الجذام ، وكان كثير الصدقة ، يتصدق بنصف كسبه ، مستقيم النظرة (٤) .

وقال ابن إسحاق عن رجل سماه ، عن الحكم ، عن مقسم - أو : عن مجاهد - عن ابن عباس قال : [كان] (٥) اسم صاحب يس حبيب ، وكان الجذام قد أسرع فيه .

وقال الثوري ، عن عاصم الأحول ، عن أبي مجلز : كان اسمه حبيب بن مري .

وقال شبيب بن بشر (٦) ، عن عكرمة ، عن ابن عباس [أيضا] (٧) قال : اسم صاحب يس حبيب النجار ، فقتله قومه .

وقال السدى : كان قصّاراً . وقال عمر بن الحكم : كان إسكافا . وقال قتادة : كان يتعبد فى غار هناك .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ : يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم ، ﴿ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾ أى : على إبلاغ الرسالة ، ﴿ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ فيما يدعونكم إليه ، من عبادة الله وحده لا شريك له .

(٣) فى أ : « مستقيما » .

(٢) فى ت ، س ، أ : « يعنى » .

(١) فى ت ، س : « لوط » وفى أ : « شعيب » .

(٦) فى أ : « بشير » .

(٥) زيادة من ت ، س .

(٤) فى أ : « الفطرة » .

(٧) زيادة من ت .

﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ أى : وما يمنعنى من إخلاص العبادة للذى خلقنى وحده لا شريك له ، ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى : يوم المعاد ، فيجازيكم على أعمالكم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .
 ﴿ أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ ؟ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع ، ﴿ إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ ﴾ أى : هذه الآلهة التى تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئاً ، فإن الله لو أرادنى بسوء ، ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾ [يونس : ١٠٧] . وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه ، ولا ينقذونى مما أنا فيه ، ﴿ إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : إن اتخذتها آلهة من دون الله .
 وقوله : ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴾ : قال ابن إسحاق - فيما بلغه عن ابن عباس وكعب وهب - يقول لقومه : ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ الذى كفرتم به ، ﴿ فَاسْمِعُونِ ﴾ أى : فاسمعوا قولى .
 ويحتمل أن يكون خطابه للرسول بقوله : ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ أى : الذى أرسلكم ، ﴿ فَاسْمِعُونِ ﴾ أى : فاشهدوا لى بذلك عنده . وقد حكاه ابن جرير فقال : وقال آخرون : بل خاطب بذلك الرسل ، وقال لهم : اسمعوا قولى ، لتشهدوا لى بما أقول لكم عند ربى ، إني [قد] (١) آمنت بربكم واتبعتكم (٢) .

وهذا [القول] (٣) الذى حكاه هؤلاء أظهر فى المعنى ، والله أعلم .

قال ابن إسحاق - فيما بلغه عن ابن عباس وكعب وهب - : فلما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه ، ولم يكن له أحد يمنع عنه .

وقال قتادة : جعلوا يرمونه بالحجارة ، وهو يقول : « اللهم ، اهد قومى ، فإنهم لا يعلمون » . فلم يزلوا به حتى أقعصوه وهو يقول كذلك ، فقتلوه ، رحمه الله .

﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ (٢٩) .

قال محمد بن إسحاق ، عن بعض أصحابه ، عن ابن مسعود : إنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُهُ من دبره وقال الله له : ﴿ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ ، فدخلها فهو يرزق منها ، قد أذهب الله عنه سُقْمَ الدنيا وحزنها ونَصَبَهَا .

وقال مجاهد : قيل لحبيب النجار : ادخل الجنة . وذلك أنه قُتِلَ فوجبت له (٤) ، فلما رأى الثواب ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ .

قال قتادة : لا تلقى المؤمن إلا ناصحاً ، لا تلقاه غاشياً ؛ لَمَّا عَاينَ [ما عاين] (٥) من كرامة الله

(١) زيادة من ت .

(٢) تفسير الطبرى (١٠٤ / ٢٢) .

(٣) زيادة من ت .

(٤) فى ت ، س ، أ : « له الجنة » .

(٥) زيادة من ت ، أ .

﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ . تمنى على الله أن يعلم قومه ما عاين من كرامة الله [له] ^(١) ، وما هجم عليه .

وقال ابن عباس : نصيح قومه في حياته بقوله : ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس : ٢٠] ، وبعد مماته في قوله : ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ . رواه ابن أبي حاتم .
وقال سفيان الثوري ، عن عاصم الأحول ، عن أبي مجلز : ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ : بإيماني بربي ، وتصديقي المرسلين .

ومقصوده أنهم لو اطلعوا على ما حصل من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم ، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل ، فرحمه الله ورضى عنه ، فلقد كان حريصا على هداية قومه .

قال ^(٢) ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا هشام بن عبيد الله ، حدثنا ابن جابر - وهو محمد - عن ^(٣) عبد الملك - يعني : ابن عمير - قال : قال عروة بن مسعود الثقفي للنبي ﷺ : ابعثنني إلى قومي أدعوهم إلى الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « إني أخاف أن يقتلوك » . فقال : لو وجدوني نائما ما أيقظوني . فقال له رسول الله ﷺ : « انطلق » . فانطلق فمر على اللات والعزى ، فقال : لأصبحنك غدا بما يسوؤك . فغضبت ثقيف ، فقال : يا معشر ثقيف ، إن اللات لا لات ، وإن العزى لا عزى ، أسلموا تسلموا . يا معشر الأحلاف ، إن العزى لا عزى ، وإن اللات لا لات ، أسلموا تسلموا . قال ذلك ثلاث مرات ، فرماه رجل فأصاب أكحله فقتله ، فبلغ رسول الله ﷺ فقال : « هذا مثله كمثلي صاحب يس ، ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ » ^(٤) .

وقال محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر بن حزم : أنه حدث عن كعب الأحبار : أنه ذكر له حبيب بن زيد بن عاصم - أخو بني مازن بن النجار - الذي كان مسيلمة الكذاب قَطَّعه باليمامة ، حين جعل يسأله عن رسول الله ﷺ ، فجعل يقول : أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ فيقول : نعم . ثم يقول : أتشهد أني رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع . فيقول له مسيلمة : أسمع هذا ولا تسمع ذاك ؟ فيقول : نعم . فجعل يُقَطِّعه عضوا عضوا ، كلما سأله لم يزده على ذلك حتى مات في يديه . فقال كعب حين قيل له : اسمه حبيب ، وكان والله صاحب يس اسمه حبيب ^(٥) .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ : يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه ، غضباً منه تعالى عليهم ؛ لأنهم كذبوا رسله ، وقتلوا وليه . ويذكر تعالى : أنه ما أنزل عليهم ، وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم ، بل الأمر كان أيسر من ذلك . قاله ابن مسعود ، فيما رواه ابن إسحاق ، عن بعض أصحابه ، عنه أنه قال في قوله : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ أى : ما كثرناهم بالجموع الأمر

(١) زيادة من أ .

(٢) في ت : « روى » .

(٣) في أ : « بن » .

(٤) ورواه الحاكم في المستدرک (٦١٥/٣) والطبرانی في المعجم الكبير (١٤٨/١٧) من طريق ابن لهيعة ، عن أبي الأسود ، عن عروة ابن الزبير ، بنحوه . ورواه الطبرانی في المعجم الكبير (١٤٨/١٧) من طريق موسى بن عقبة ، عن الزهري ، بنحوه . وقال الهيثمي في المجمع (٣٨٦/٩) : « وكلاهما مرسل ، وإسنادهما حسن » .

(٥) رواه الطبري في تفسيره (١٠٣/٢٢) .

كان أيسر علينا من ذلك ، ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ ، قال : فأهلك الله ذلك الملك ، وأهلك أهل أنطاكية ، فبادوا عن وجه الأرض ، فلم يبق (١) منهم باقية .

وقيل : ﴿ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ أى : وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم ، بل نبعث عليهم عذابا يدمرهم .

وقيل : المعنى فى قوله : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : من رسالة أخرى إليهم . قاله مجاهد وقتادة . قال قتادة : فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله ، ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ .

قال ابن جرير : والأول أصح ؛ لأن الرسالة لا تسمى جنداً .

قال المفسرون : بعث الله إليهم جبريل ، عليه السلام ، فأخذ بعضادتي باب بلدهم ، ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون عن آخرهم ، لم تبق بهم روح تتردد فى جسد .

وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هى أنطاكية ، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلا من عند المسيح ، عليه السلام ، كما نص عليه قتادة وغيره ، وهو الذى لم يذكر عن (٢) واحد من متأخري المفسرين غيره ، وفى ذلك نظر من وجوه :

أحدها : أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله ، عز وجل ، لا من جهة المسيح ، كما قال تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾ إلى أن قالوا : ﴿ رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ . وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِين ﴾ [يس : ١٤ - ١٧] . ولو كان هؤلاء من الخواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح ، عليه السلام ، والله أعلم . ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : ﴿ مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ [يس : ١٥] .

الثانى : أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم ، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح ؛ ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللاتى فيهن بئركة ، وهن القدس لأنها بلد المسيح ، وأنطاكية لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها ، والإسكندرية لأن فيها (٣) اصطالحوا على اتخاذ البئركة والمطارنة والأساقفة والقساوسة (٤) والشمامسة والرهايين . ثم رومية لأنها مدينة الملك قسطنطين الذى نصر دينهم وأطدّه . ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البئركة من رومية إليها ، كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريخهم كسعيد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين ، فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت ، فأهل هذه القرية قد ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله (٥) ، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخدمتهم (٦) ، فالله أعلم .

الثالث : أن قصة أنطاكية مع الخواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة ، وقد ذكر أبو سعيد الخدرى وغير واحد من السلف : أن الله تعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين ، ذكره عند قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ﴾ [القصص : ٤٣] . فعلى هذا يتعين أن هذه القرية

(١) فى س : « تبق » . (٢) فى أ : « غير » . (٣) فى ت ، س : « منها » . (٤) فى ت ، س : « القساوسة » . (٥) فى ت : « رسلهم » . (٦) فى ت ، س : « أخذتهم » .

المذكورة فى القرآن [العظيم] (١) قرية أخرى غير أنطاكية ، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضا . أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظا فى هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة ، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا فى الملة النصرانية ولا قبل ذلك ، والله ، سبحانه وتعالى ، أعلم .

فأما الحديث الذى رواه الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا الحسين بن إسحاق التستري ، حدثنا الحسين بن أبى السرى العسقلانى ، حدثنا حسين الأشقر ، حدثنا ابن عيينة ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، عن (٢) ابن عباس ، عن النبى ﷺ قال : « السبق ثلاثة : فالسابق إلى موسى يوشع بن نون ، والسابق إلى عيسى صاحب يس ، والسابق إلى محمد على بن أبى طالب » (٣) ، فإنه حديث منكر ، لا يعرف إلا من طريق (٤) حسين الأشقر ، وهو شيعى متروك ، [والله أعلم] (٥) .

﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) ﴾ .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ أى : يا ويل العباد . وقال قتادة : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ : أى يا حسرة العباد على أنفسهم ، على ما ضيعت من أمر الله ، فرطت فى جنب الله . قال : وفى بعض القراءة : « يا حسرة (٦) العباد على أنفسهم » .

ومعنى هذا : يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب ، كيف كذبوا رسل الله ، وخالفوا أمر الله ، فإنهم كانوا فى الدار الدنيا المكذبون منهم .

﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أى : يكذبونه ويستهزئون به ، ويجحدون ما أرسل به من الحق .

ثم قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أى : أَلَمْ يَتَعَذَّبُوا بِمَن أَهْلَكَ اللَّهُ قَبْلَهُم مِّنَ الْمَكْذِبِينَ لِلرَّسُلِ ، كيف لم تكن لهم إلى هذه الدنيا كرامة ولا رجعة ، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلهم وفجرتهم من (٧) قولهم : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ [المؤمنون : ٣٧] ، وهم القائلون بالدور من الدهرية ، وهم الذين يعتقدون جهلا منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها ، فرد الله تعالى عليهم باطلهم ، فقال : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أى : وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر

(٢) فى ت : « رواه الحافظ الطبرانى بإسناده إلى » .

(١) زيادة من ت .

(٣) المعجم الكبير (٩٣/١١) ورواه ابن مردويه فى تفسيره ، والعقلى فى الضعفاء كما فى تخريج الكشاف للزيلعى (١٦٢/٣) من طريق حسين الأشقر ، به ، وأعله العقلى بحسين الأشعرى كما ذكر الحافظ ابن كثير هنا وقال : « إنه شيعى متروك ولا يعرف هذا إلا منجته ، وهو حديث منكر » .

(٥) زيادة من ت ، س .

(٤) فى أ : « حديث » .

(٧) فى أ : « مثل » .

(٦) فى ت ، س ، أ : « حسرة على » .

لحساب يوم القيامة بين يدي الله ، عز وجل ، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها ، ومعنى هذه كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيَؤْفِقِيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [هود : ١١١] .

وقد اختلف القراء فى أداء هذا الحرف ؛ فمنهم من قرأ : « وَإِنْ كُلَّ لَمَّا » بالتخفيف ، فعنده أن « إِنْ » للإثبات ، ومنهم من شدد « لَمَّا » ، وجعل « إِنْ » نافية ، و « لَمَّا » بمعنى « إلا » تقديره : وما كل إلا جميع لدينا محضرون ، ومعنى القراءتين واحد ، والله أعلم .

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ ﴾ أى : دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه الموتى ﴿ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ ﴾ أى : إذا كانت ميتة هامة لا شىء فيها من النبات ، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ؛ ولهذا قال : ﴿ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ أى : جعلناه رزقا لهم ولأنعامهم ، ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ أى : جعلنا فيها أنهارا سارحة فى أمكنة ، يحتاجون إليها لياكلوا من ثمره . لما امتن على خلقه بإيجاد الزروع لهم عطف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها .

وقوله : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى : وما ذاك كله إلا من رحمة الله بهم ، لا بسعيهم ولا كدهم ، ولا بحولهم وقوتهم . قاله ابن عباس وقتادة ؛ ولهذا قال : ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ ؟ أى : فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التى لا تعد ولا تحصى ؟ واختار ابن جرير - بل جزم به ، ولم يحك غيره إلا احتمالا - أن « ما » فى قوله : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ بمعنى : « الذى » ، تقديره : لياكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أى : غرسوه ونصبوه ، قال : وهى كذلك فى قراءة ابن مسعود ﴿ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ ﴾ أى : من زروع وثمار ونبات . ﴿ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ فجعلهم ذكرا وأنثى ، ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : من مخلوقات شتى لا يعرفونها ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٩] .

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴾ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ .

يقول تعالى : ومن الدلالة لهم على قدرته تعالى العظيمة خلق الليل والنهار ، هذا بظلامه وهذا

بضياته ، وجعلهما يتعاقبان ، يجيء هذا فيذهب هذا ، ويذهب هذا فيجىء هذا ، كما قال : ﴿ يَغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ [الأعراف : ٥٤] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ أى : نصرمه منه فيذهب ، فيقبل الليل ؛ ولهذا قال : ﴿ فَإِذَا هُمْ مُظْلَمُونَ ﴾ ، كما جاء فى الحديث : « إذا أقبل الليل من هاهنا ، وأدبر النهار من هاهنا ، وغربت الشمس ، فقد أفطر الصائم » (١) .

هذا هو الظاهر من الآية ، وزعم قتادة أنها كقوله تعالى : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ ﴾ [الحج : ٦١] . وقد ضعف ابن جرير قول قتادة هاهنا ، وقال : إنما معنى الإيلاج : الأخذ من هذا فى هذا ، وليس هذا مراداً فى هذه الآية . وهذا الذى قاله ابن جرير حق .

وقوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ ، فى معنى قوله : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ قولان : أحدهما : أن المراد : مستقرها المكانى ، وهو تحت العرش مما يلى الأرض من ذلك الجانب ، وهى أينما كانت فهى تحت العرش هى وجميع المخلوقات ؛ لأنه سقفها ، وليس بكرة كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة ، وإنما هو قبة ذات قوائم تحملها الملائكة ، وهو فوق العالم مما يلى رؤوس الناس ، فالشمس إذا كانت فى قبة الفلك وقت الظهيرة تكون أقرب ما تكون إلى العرش ، فإذا استدارت فى فلكها الرابع إلى مقابلة هذا المقام ، وهو وقت نصف الليل ، صارت أبعد ما تكون من العرش ، فحينئذ تسجد وتستأذن فى الطلوع ، كما جاءت بذلك الأحاديث .

قال البخارى : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم [التيمى] (٢) ، عن أبيه ، عن أبى ذر ، رضى الله عنه ، قال : كنت مع النبى ﷺ فى المسجد عند غروب الشمس ، فقال : « يا أبا ذر ، أتدرى أين تغرب الشمس ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش ، فذلك قوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ » .

حدثنا عبد الله بن الزبير الحميدى ، حدثنا وكيع عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن أبيه ، عن أبى ذر قال : سألت رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ ، قال : « مستقرها تحت العرش » (٣) .

كذا أورده هاهنا . وقد أخرجه فى أماكن متعددة (٤) ، ورواه بقية الجماعة إلا ابن ماجه ، من طرق ، عن الأعمش ، به (٥) .

وقال (٦) الإمام أحمد : حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم التيمى ، عن أبيه ، عن أبى ذر قال : كنت مع رسول الله ﷺ فى المسجد حين وجبت الشمس ، فقال : « يا أبا ذر ، تدرى أين تذهب الشمس ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٩٥٤) ومسلم فى صحيحه برقم (١١٠٠) من حديث عمر رضى الله عنه .

(٢) زيادة من ت ، س ، أ .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٢ ، ٤٨٠٣) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٣١٩٩ ، ٧٤٢٤ ، ٧٤٣٣) .

(٥) صحيح مسلم برقم (١٥٩) وسنن أبى داود برقم (٤٠٠٢) وسنن الترمذى برقم (٣٢٢٧) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٣٠) .

(٦) فى ت : « وروى » .

ربها عز وجل ، فتستأذن فى الرجوع فيؤذن لها ، وكأنها قد قيل لها : ارجعى من حيث جئت .
فترجع إلى مطلعها ، وذلك مستقرها ، ثم قرأ : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ (١) .

وقال سفيان الثوري ، عن الأعمش ، عن إبراهيم التيمي ، عن أبيه ، عن أبي ذر ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ لأبى ذر حين غربت الشمس : « أتدرى أين هذا ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش ، فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها ، وتستأذن فلا يؤذن لها ، ويقال لها : ارجعى من حيث جئت . فتطلع من مغربها ، فذلك قوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ » (٢) .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن أبي إسحاق ، عن وهب بن جابر ، عن عبد الله بن عمرو قال فى قوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ ، قال : إن الشمس تطلع فتردها ذنوب بنى آدم ، حتى إذا غربت سلّمت وسجدت واستأذنت فيؤذن لها ، حتى إذا كان يوم غربت فسلّمت وسجدت ، واستأذنت فلا يؤذن لها ، فتقول : إن المسير بعيد وإنى إلا يؤذن لى لا أبلغ ، فتحبس ما شاء الله أن تحبس ، ثم يقال لها : « اطلعى من حيث غربت » . قال : « فمن يومئذ إلى يوم القيامة لا ينفع نفساً إيمانها ، لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت فى إيمانها خيراً » (٣) .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ : هو انتهاء سيرها وهو غاية ارتفاعها فى السماء فى الصيف وهو أوجها ، ثم غاية انخفاضها فى الشتاء وهو الخضيض .

والقول الثانى : أن المراد بمسقرها هو : منتهى سيرها ، وهو يوم القيامة ، يبطل سيرها وتسكن حركتها وتكور ، وينتهى هذا العالم إلى غايته ، وهذا هو مستقرها الزمانى .

قال قتادة : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ أى : لوقتها ولأجل لا تعدوه .

وقيل : المراد : أنها لا تزال تنتقل فى مطالعها الصيفية إلى مدة لا تزيد عليها ، يروى هذا عن عبد الله بن عمرو .

وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس : « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا » أى : لا قرار لها ولا سكون ، بل هى سائرة ليلاً ونهاراً ، لا تفر ولا تقف . كما قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾ [إبراهيم : ٣٣] أى : لا يفران ولا يقفان إلى يوم القيامة .

﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ أى : الذى لا يخالف ولا يمانع ، ﴿ الْعَلِيمِ ﴾ بجميع الحركات والسكنات ، وقد قدر ذلك وقتنه على منوال لا اختلاف فيه ولا تعاكس ، كما قال تعالى : ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام : ٩٦] . وهكذا ختم آية (٤) « حم السجدة » بقوله : ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [فصلت : ١٢] .

ثم قال : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ أى : جعلناه يسير سيراً آخر يستدل به على مضى الشهور ، كما أن

(١) المسند (١٥٢/٥) .

(٢) رواية سفيان فى صحيح البخارى برقم (٣١٩٩) .

(٣) تفسير عبد الرزاق (١١٥/٢) ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (٦٢٨) من طريق عبد الرزاق .

(٤) فى ت : « ختم آخر آية » .

الشمس يعرف بها الليل والنهار ، كما قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ [البقرة : ١٨٩] ، وقال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابِ ﴾ الآية [يونس : ٥] ، وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحْوُنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابِ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾ [الإسراء : ١٢] ، فجعل الشمس لها ضوء يخصها ، والقمر ^(١) له نور يخصه ، وفاوت بين سير هذه وهذا ، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره على ضوء واحد ، ولكن تنتقل في مطالعها ومغاربها صيفاً وشتاء ، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل ، ثم يطول الليل ويقصر النهار ، وجعل سلطانها بالنهار ، فهي كوكب نهاري . وأما القمر ، فقدرة منازل ، يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلاً قليل النور ، ثم يزداد نوراً في الليلة الثانية ، ويرتفع ^(٢) منزلة ، ثم كلما ارتفع ازداد ضياءً ، وإن كان مقتبساً من الشمس ، حتى يتكامل نوره ^(٣) في الليلة الرابعة عشرة ، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر ، حتى يصير كالعرجون القديم .

قال ابن عباس : وهو أصل العذق .

وقال مجاهد : العرجون القديم : أى العذق اليابس .

يعنى ابن عباس : أصل العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى ، وكذا قال غيرهما . ثم بعد هذا يبيده الله جديداً في أول الشهر الآخر ، والعرب تسمى كل ثلاث ^(٤) ليال من الشهر باسم باعتبار القمر ، فيسمون الثلاث الأول « غُرَر » واللواتى بعدها « نُفَل » ، واللواتى بعدها « تُسَع » ؛ لأن أخراهن التاسعة ، واللواتى بعدها « عَشَر » ؛ لأن أولاهن العاشرة ، واللواتى بعدها « البيض » ؛ لأن ضوء القمر فيهن إلى آخرهن ، واللواتى بعدهن « دُرْع » جمع دَرْعاء ؛ لأن أولهن سُود ^(٥) ؛ لتأخر القمر في أولهن ، ومنه الشاة الدرعاء وهى التى رأسها أسود . وبعدهن ثلاث « ظُلَم » ثم ثلاث « حَنَادَس » ، وثلاث « دَادئ » ^(٦) ، وثلاث « مُحَاق » ؛ لانمحاق القمر أواخر الشهر فيهن . وكان أبو عبيد ^(٧) ينكر التسع والعشر . كذا قال فى كتاب « غريب المصنف » .

وقوله : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ : قال مجاهد : لكل منهما حد لا يعدوه ولا يقصر دونه ، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن الحسن فى قوله : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ قال : ذلك ليلة الهلال .

وروى ابن أبى حاتم هاهنا عن عبد الله بن المبارك أنه قال : إن للريح جناحاً ، وإن القمر يأوى إلى غلاف من الماء .

وقال الثورى ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن أبى ^(٨) صالح : لا يدرك هذا ضوء هذا ، ولا هذا ضوء هذا ^(٩) .

(٣) فى أ : « ضوءه » .

(٦) فى أ : « درارى » .

(٨) فى ت ، س : « أبو » .

(٢) فى ت : « يرتفع » .

(٥) فى ت ، أ : « أسود » .

(١) فى س : « وللقمر » .

(٤) فى ت : « ثلاثة » وهو خطأ .

(٧) فى أ : « أبو عبيدة » .

(٩) فى س : « لا يدرك هذا ضر هذا ولا هذا ضر هذا » .

وقال عكرمة [فى قوله] (١) : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ : يعنى : أن لكل منهما سلطاناً ، فلا ينبغى للشمس أن تطلع بالليل .

وقوله : ﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ : يقول : لا ينبغى إذا كان الليل أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار ، فسلطان الشمس بالنهار ، وسلطان القمر بالليل .

وقال الضحاك : لا يذهب الليل من هاهنا حتى يجرى النهار من هاهنا . وأوماً بيده إلى المشرق .

وقال مجاهد : ﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ : يَطْلُبَانِ حَيْثُينِ ، ينسلخ أحدهما من الآخر .

والمعنى فى هذا : أنه لا فترة بين الليل والنهار ، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ ؛ لأنهما مسخران دائبين يتطالبان طلباً حثيثاً .

وقوله : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يعنى : الليل والنهار ، والشمس والقمر ، كلهم يسبحون ، أى : يدورون فى فلك السماء . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، وعطاء الخراسانى (٢) .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : فى فلك بين السماء والأرض . رواه ابن أبى حاتم ، وهو غريب جداً ، بل منكر .

قال ابن عباس وغير واحد من السلف : فى فَلَكَةٍ كَفَلَكَةِ الْمَغْزَلِ .

وقال مجاهد : الْفَلَكُ كحديدة الرَّحَى ، أو كفلكة المغزل ، لا يدور المغزل إلا بها ، ولا تدور إلا به .

﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢)

وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤) ﴾ .

يقول تعالى : ودلالة لهم أيضا على قدرته تعالى : تسخير البحر ليحمل (٣) السفن ، فمن ذلك - بل أوله - سفينة نوح ، عليه السلام ، التى أنجاه الله فيها بمن معه من المؤمنين ، الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم غيرهم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أى : آباءهم ، ﴿ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴾ أى : فى السفينة [الموقرة] (٤) المملوءة من الأمتعة والحيوانات ، التى أمره الله أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين .

قال ابن عباس : المشحون : الموقر . وكذا قال سعيد بن جبير ، والشعبي ، وقتادة ، [والضحاك] (٥) ، والسدى .

وقال الضحاك ، وقتادة ، وابن زيد : وهى سفينة نوح ، عليه السلام .

وقوله : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ : قال العوفى ، عن ابن عباس : يعنى بذلك : الإبل ، فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبونها . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة - فى رواية - وعبد الله بن شداد ، وغيرهم (٦) .

وقال السدى - فى رواية - : هى الأنعام .

(٣) فى أ : « ليحمل فيه » .

(٢) فى ت : « قاله ابن عباس وغيره » .

(١) زيادة من أ .

(٦) فى ت : « عكرمة وغيره » .

(٥) زيادة من أ .

(٤) زيادة من ت ، أ .

وقال ابن جرير : حدثنا الفضل بن الصباح ، حدثنا محمد بن فضيل ، عن عطاء ، عن سعيد بن جبير^(١) ، عن ابن عباس قال : تدرون ما ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ ؟ قلنا : لا . قال : هي السفن ، جعلت من بعد سفينة نوح على مثلها .

وكذا قال [غير واحد و]^(٢) أبو مالك ، والضحاك ، وقتادة ، وأبو صالح ، والسدى أيضاً : [المراد بقوله]^(٣) : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ : أى السفن .

ويُقوى هذا المذهب فى المعنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١١ ، ١٢] .

وقوله : ﴿ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ يعنى : الذين فى السفن ، ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ أى : فلا مغيث لهم مما هم فيه ، ﴿ وَلَا هُمْ يَنْقُذُونَ ﴾ أى : مما أصابهم ، ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا ﴾ . وهذا استثناء منقطع ، تقديره : لكن برحمتنا نسيركم فى البر والبحر ، ونُسَلِّمُكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أى : إلى وقت معلوم عند الله .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٧) .

يقول تعالى مخبراً عن تمادى المشركين فى غيهم وضلالهم ، وعدم اكتراثهم بذنوبهم التى أسلفوها ، وما هم يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ قال مجاهد : من الذنوب . وقال غيره بالعكس ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أى : لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمّنكم من عذابه . وتقدير كلامه : أنهم لا يجيبون إلى ذلك ويعرضون عنه . واكتفى عن ذلك بقوله : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أى : على التوحيد وصدق الرسل ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ أى : لا يتأملونها ولا ينتفعون^(٤) بها .

وقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ ﴾ أى : وإذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج من المسلمين ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى : عن الذين آمنوا من الفقراء ، أى : قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإنفاق محاجين لهم فيما أمروهم به : ﴿ أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾ أى : هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم ، لو شاء الله لأغناهم ولأطعمهم من رزقه ، فنحن نوافق مشيئة الله فيهم ، ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى : فى أمركم لنا بذلك .

قال ابن جرير : ويحتمل أن يكون من قول الله للكفار حين ناظروا المسلمين^(٥) وردوا عليهم ، فقال لهم : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾^(٦) ، وفى هذا نظر .

(٣) زيادة من أ .

(٢) زيادة من ت .

(١) فى ت : « وروى ابن جرير بإسناده » .

(٥) فى أ : « المؤمنين » .

(٤) فى أ : « ولا يشعرون » .

(٦) تفسير الطبرى (٩ / ٢٣) .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة في قولهم: ﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ [إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] ﴾ (١)؟ ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ [الشورى : ١٨] ، قال الله تعالى : ﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ أى : ما ينتظرون (٢) إلا صيحة واحدة ، وهذه - والله أعلم - نفخة الفزع ، ينفخ في الصور نفخة الفزع ، والناس في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم ، فينما هم كذلك إذ أمر الله تعالى إسرافيل فنفخ في الصور نفخة يطولها ويمدّها ، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليتها ، ورفع ليتها - وهى (٣) صفحة العنق - يسمع الصوت من قبل السماء . ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار ، تحيط بهم من جوانبهم ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ أى : على ما يملكونه ، الأمر أهم من ذلك ، ﴿ وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ . وقد وردت هاهنا آثار وأحاديث ذكرناها في موضع آخر (٤) ، ثم تكون (٥) بعد هذا نفخة الصعق ، التى تموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحى القيوم ، ثم بعد ذلك نفخة البعث .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ (٥١) قَالُوا يَا وَلَنَّا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

هذه هى النفخة الثالثة (٦) ، وهى نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث والقبور ؛ ولهذا قال : ﴿ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ ، والنَّسْلَان هو : المشى السريع ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج : ٤٣] .

﴿ قَالُوا يَا وَلَنَّا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا ﴾ ؟ يعنون : [من] (٧) قبورهم التى كانوا يعتقدون فى الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها ، فلما عاينوا ما كذبوه فى محشرهم ﴿ قَالُوا يَا وَلَنَّا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا ﴾ ، وهذا لا ينفى عذابهم فى قبورهم ؛ لأنه بالنسبة إلى ما بعده فى الشدة كالرقاد .

وقال أبى بن كعب ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة : ينامون نومة قبل البعث .

قال قتادة : وذلك بين النفختين .

فلذلك يقولون : ﴿ مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا ﴾ ، فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون - قاله غير واحد من

(٣) فى أ : « وهو » .

(٢) فى أ : « ما ينظرون » .

(١) زيادة من أ .

(٤) عند تفسير الآية : ٧٣ من سورة الأنعام .

(٧) زيادة من ت .

(٦) فى ت : « الثانية »

(٥) فى ت ، س ، أ : « ثم يكون » .

السلف - : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ .

وقال الحسن : إنما يجيبهم بذلك الملائكة .

ولا منافاة إذ الجمع ممكن ، والله أعلم .

وقال عبد الرحمن بن زيد : الجميع من قول الكفار : ﴿ يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ .

نقله ابن جرير ، واختار الأول ، وهو أصح ^(١) ، وذلك كقوله تعالى في الصفات : ﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ . هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الصفات : ٢٠ ، ٢١] ، وقال [الله] ^(٢) تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٥٥ ، ٥٦] .

وقوله : ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ ، كقوله : ﴿ إِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣ ، ١٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ^(٣) ﴾ [النحل : ٧٧] ، وقال : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٥٢] .

أى : إنما نأمرهم أمراً واحداً ، فإذا الجميع محضرون ، ﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ نَفْسًا شَيْئًا ﴾ أى : من عملها ، ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهُونَ ^(٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ ^(٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ^(٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ^(٥٨) ﴾ .

يخبر تعالى عن أهل الجنة : أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العرصات فنزلوا فى روضات الجنات : أنهم ﴿ فِي شُغْلٍ ﴾ [فَكِهُونَ] أى : فى شغل ^(٤) عن غيرهم ، بما هم فيه من النعيم المقيم ، والفوز العظيم .

قال الحسن البصرى : وإسماعيل بن أبى خالد : ﴿ فِي شُغْلٍ ﴾ عما فيه أهل النار من العذاب .

وقال مجاهد : ﴿ فِي شُغْلٍ فَكِهُونَ ﴾ أى : فى نعيم معجبون ، أى : به . وكذا قال قتادة .

وقال ابن عباس : ﴿ فَكِهُونَ ﴾ : أى فرحون .

وقال عبد الله بن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والأعمش ، وسليمان التيمي ، والأوزاعي فى قوله : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهُونَ ﴾ قالوا : شغلهم اقتضاى الأ Bakar .

(٢) زيادة من أ .

(١) فى أ : « وهو صحيح » .

(٤) زيادة من ت ، أ .

(٣) فى ت : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر أو هو أقرب » وهو خطأ .

وقال ابن عباس - فى رواية عنه ^(١) - : ﴿ فِي شُغْلٍ فَآكِهِون ﴾ : أى بسماع الأوتار .

وقال أبو حاتم : لعله غلط من المستمع ، وإنما هو اقتضاض الأبكار .

وقوله : ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ ﴾ : قال مجاهد : وحلائلهم ﴿ فِي ظِلَالٍ ﴾ أى : فى ظلال الأشجار ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ ﴾ .

قال ابن عباس ، ومجاهد وعكرمة ، ومحمد بن كعب ، والحسن ، وقتادة ، والسدّي ، وخُصَيْف ^(٢) : ﴿ الْأَرَائِكِ ﴾ : هى السرر تحت الحجال .

قلت : نظيره فى الدنيا هذه التخوت ^(٣) تحت البشاحين ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ أى : من جميع أنواعها ، ﴿ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴾ أى : مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عوف الحمصى ، حدثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار ، حدثنا محمد بن مهاجر ، عن الضحاك المعافرى ، عن سليمان ^(٤) بن موسى ، حدثنى كريب ؛ أنه سمع أسامة بن زيد يقول ^(٥) : قال رسول الله ﷺ : « ألا هل مُشَمَّرٌ إلى الجنة ؟ فإن الجنة لا خَر لها ، هى - ورب الكعبة - نوركلها يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مُطَرَّد ، وثمره نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام فى أبد ، فى دار سلامة ، وفاكهة خضرة وحبيرة ونعمة ، ومحلة عالية بهيئة » . قالوا : نعم يا رسول الله ، نحن المشمرون لها . قال : « قولوا : إن شاء الله » . قال القوم : إن شاء الله .

وكذا رواه ابن ماجه فى « كتاب الزهد » من سننه ، من حديث الوليد بن مسلم ، عن محمد بن مهاجر ، به ^(٦) .

وقوله : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴾ : قال ابن جريج : قال ابن عباس فى قوله : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴾ : فإن الله نفسه سلام على أهل الجنة .

وهذا الذى قاله ابن عباس كقوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ [الأحزاب : ٤٤] .

وقد روى ابن أبى حاتم هاهنا حديثا فى إسناده نظر ، فإنه قال : حدثنا موسى بن يوسف ، حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب ، حدثنا أبو عاصم العبادانى ، حدثنا الفضل الرقاشى ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا أهل الجنة فى نعيمهم ، إذ سطع لهم نور ، فرفعوا رؤوسهم ، فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم ، فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة . فذلك قوله : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴾ » . قال : « فينظر إليهم وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ما داموا ينظرون إليه ، حتى يحتجب عنهم ، ويبقى نوره وبركته عليهم وفى ديارهم » .

(١) فى ت : « وفى رواية عن ابن عباس » .

(٢) فى ت : « ومحمد بن كعب وغيرهم » .

(٤) فى أ : « سليم » .

(٥) فى ت : « روى ابن أبى حاتم عن أسامة بن زيد قال » .

(٦) سنن ابن ماجه برقم (٤٣٣٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣ / ٣٢٥) : « هذا إسناد فيه مقال ، الضحاك المعافرى ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال الذهبى فى طبقات التهذيب : مجهول وسليمان الأموى مختلف فيه وباقي رجال الإسناد ثقات » .

ورواه ابن ماجه فى « كتاب السنة » من سننه ^(١) ، عن محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب ^(٢) ،

به .

وقال ^(٣) ابن جرير : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، حدثنا حرملة ، عن سليمان بن حميد قال : سمعت محمد بن كعب القرظي يحدث عن عمر بن عبد العزيز قال : إذا فرغ الله من أهل الجنة والنار ، أقبل فى ظلل من الغمام والملائكة ، قال : فيسلم على أهل الجنة ، فيردون عليه السلام - قال القرظي : وهذا فى كتاب الله ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ - فيقول : سلونى . فيقولون : ماذا نسألك أى رب ؟ قال : بلى سلونى . قالوا : نسألك - أى رب - رضاك . قال : رضائى أحلكم دار كرامتى . قالوا : يا رب ، فما الذى نسألك ، فوعزتكم وجلالك وارتفاع مكانك ، لو قسمت علينا رزق الثقلين لأطعمناهم ولأسقيناهم ولألبسناهم ولأخدمناهم ، لا ينقصنا ذلك شيئاً . قال : إن لدىّ مزيداً . قال : فيفعل ذلك بهم فى درجهم ، حتى يستوى فى مجلسه . قال : ثم تأتيتهم التحف من الله ، عز وجل ، تحملها إليهم الملائكة . ثم ذكر نحوه . وهذا أثر غريب ، أورده ابن جرير من طرق ^(٤) .

﴿وَأَمَّا زُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢)﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا ، بمعنى ^(٥) : يتميزون عن المؤمنين فى موقفهم ، كقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَزَيْلَنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُورَثُونَ﴾ [الروم : ١٤] ، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ﴾ [الروم : ٤٣] أى : يصيرون صدعين فرقتين ، ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات : ٢٢ ، ٢٣] .

وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ : هذا تقرير من الله للكفرة من بنى آدم ، الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين ، وعصوا الرحمن وهو الذى خلقهم ورزقهم ؛ ولهذا قال : ﴿وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أى : قد أمرتكم فى دار الدنيا بعصيان الشيطان ، وأمرتكم بعبادتي ، وهذا هو الصراط المستقيم ، فسلكتكم غير ذلك واتبعتم الشيطان فيما أمركم به ؛ ولهذا قال : ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ ، يقال : «جبلًا» بكسر الجيم ، وتشديد اللام . ويقال : «جبلًا» بضم الجيم والباء ، وتخفيف اللام . ومنهم من يسكن الباء . والمراد

(١) فى ت : « رواه ابن ماجه فى سننه » .

(٢) سنن ابن ماجه برقم (١٨٤) وقال البوصيرى فى الزوائد (٨٦/١) : « هذا إسناد ضعيف لضعف الفضل بن عيسى بن أبان القرشى » .

(٣) فى ت : « وروى » .

(٤) تفسير الطبرى (١٥/٢٣) .

(٥) فى ت : « يعنى » .

بذلك : الخلق الكثير ، قاله مجاهد ، والسدّي ، وقتادة ، وسفيان بن عيينة .

وقوله : ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ ؟ أى : أفما (١) كان لكم عقل فى مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته (٢) وحده لا شريك له ، وعدوكم إلى اتباع الشيطان ؟!

قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى ، عن إسماعيل بن رافع ، عن حدثنا عن محمد بن كعب القرظى (٣) ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة أمر الله جهنم فيخرج منها عنق ساطع مظلم ، يقول (٤) : ﴿ أَلَمْ أُعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ . هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ امتازوا اليوم أيها المجرمون . فيتميز الناس ويبحثون ، وهى التى يقول الله تعالى : ﴿ وَتَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٥) [الجاثية : ٢٨] .

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُصِرُّونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧) ﴾ .

يقال للكفرة من بنى آدم يوم القيامة ، وقد برزت الجحيم لهم تقريبا وتوبيخا : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ أى : هذه التى حذرتكم الرسل فكذبتموهم ، ﴿ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ . أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الطور : ١٣ - ١٥] .

وقوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ : هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة ، حين ينكرون ما اجترموا فى الدنيا ، ويحلفون ما فعلوه ، فيختم الله على أفواههم ، ويستنتق جوارحهم بما عملت .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو شيبة إبراهيم بن عبد الله بن أبى شيبة ، حدثنا منجاب بن الحارث التميمي ، حدثنا أبو عامر الأسدى ، حدثنا سفيان ، عن عبيد المكتب ، عن الفضيل بن عمرو ، عن الشعبي (٦) ، عن أنس بن مالك قال : كنا عند النبى ﷺ ، فضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال : « أتدرون مم أضحك ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : « من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ، يقول : رب (٧) ألم تجرنى من الظلم ؟ فيقول : بلى . فيقول : لا أجزى على إلا شاهداً من نفسى .

(١) فى ت ، س : « عباد الله » .

(٤) فى ت ، س ، أ : « ثم يقول » .

(٧) فى ت ، س : « يا رب » .

(١) فى ت ، س : « أما » .

(٣) فى ت : « وروى ابن جرير بإسناده » .

(٥) تفسير الطبرى (١٦ / ٢٣) .

(٦) فى ت : « روى النسائى ومسلم » .

فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيياً ، وبالكرام الكاتين (١) شهوداً . فيختم علي فيه ، ويقال لأركانه : انطقي . فتتطق بعمله ، ثم يخلو بينه وبين الكلام ، فيقول : بعداً لكن وسحقاً ، فعنكن كنت أناضل .

وقد رواه مسلم والنسائي ، كلاهما عن أبي بكر بن أبي النضر ، عن أبي النضر ، عن عبيد الله ابن عبد الرحمن الأشجعي ، عن سفيان - هو الثوري - به (٢) . ثم قال النسائي : [لا أعلم (٣) أحداً روى هذا الحديث عن سفيان غير الأشجعي ، وهو حديث غريب ، والله تعالى أعلم .

كذا قال ، وقد تقدم من رواية أبي عامر عبد الملك بن عمرو الأسدي - وهو العقدي - عن سفيان . وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن بهز (٤) بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبي ﷺ قال : « إنكم تدعون مقدمة (٥) أفواهكم بالفدأ ، فأول ما يسأل عن أحدكم فخذوه وكتفه » . رواه النسائي [(٦) عن محمد بن رافع ، عن عبد الرزاق ، به (٧) .

وقال سفيان بن عيينة ، عن سهيل ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ في حديث القيامة الطويل ، قال فيه : « ثم يلقي (٨) الثالث فيقول : ما أنت ؟ فيقول : أنا عبدك ، آمنت بك وبنيك وبكتابك ، وصمت وصليت وتصدقته - ويشئى بخير ما استطاع - قال : فيقال له : ألا نبعث عليك شاهداً (٩) ؟ قال : فيفكر في نفسه ، من الذى يشهد عليه ، فيختم على فيه ، ويقال لفخذه : انطقي . فتتطق (١٠) فخذوه ولحمه وعظامه بما كان يعمل ، وذلك المناق ، وذلك ليعذر من نفسه . وذلك الذى سخط الله عليه » .

ورواه مسلم وأبو داود ، من حديث سفيان بن عيينة ، به بطوله (١١) .

ثم قال ابن أبي حاتم ، رحمه الله : حدثنا أبي ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، حدثنا ضمضم بن زُرعة عن شريح بن عبيد (١٢) ، عن عقبة بن عامر ؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يُختم على الأفواه ، فخذوه من الرجل اليسرى (١٣) » . ورواه ابن جرير عن محمد بن عوف ، عن عبد الله بن المبارك ، عن إسماعيل بن عياش ، به مثله (١٤) .

وقد جَوَّدَ إسناده الإمام أحمد ، رحمه الله ، فقال : حدثنا الحكم بن نافع ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن ضمضم بن زُرعة ، عن شريح بن عبيد الحضرمي ، عن حدثه عن عقبة بن عامر ؛ أنه

(١) فى ت : « الكاتين عليك » .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٩٦٩) والنسائي فى السنن الكبرى برقم (١١٦٥٣) .

(٣) فى س : « ما أعلم » . (٤) فى ت ، س : « يزيد » ، وفى أ : « زيد » . (٥) فى س : « مفدما » .

(٦) زيادة من ت ، س ، والسنن الكبرى .

(٧) النسائي فى السنن الكبرى برقم (١١٤٦٩) .

(٨) فى ت : « يأتى » . (٩) فى ت ، أ : « شاهداً » . (١٠) فى ت ، س : « قال فتتطق » .

(١١) صحيح مسلم برقم (٢٩٦٨) وسنن أبي داود برقم (٤٧٣٠) .

(١٢) فى ت : « وروى الإمام أحمد » .

(١٣) فى ت : « الشمال » .

(١٤) تفسير الطبرى (١٧/٢٣) .

سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يُختم على الأفواه ، فخذ من الرجل الشمال » (١) .

وقال ابن جرير : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عُلَيَّة ، حدثنا يونس بن عُبيد ، عن حميد ابن هلال قال : قال أبو بردة : قال أبو موسى (٢) — هو الأشعري ، رضى الله عنه — : يدعى المؤمن للحساب يوم القيامة ، فيعرضُ عليه (٣) ربه عمله فيما بينه وبينه ، فيعترف (٤) فيقول : نعم أى رب ، عملتُ عملتُ عملت . قال : فيغفر الله له ذنوبه ، ويستره منها . قال : فما على الأرض خَلِيقَةٌ ترى (٥) من تلك الذنوب شيئاً ، وتبدو حسناته ، فَوَدَّ أن الناس كلهم يرونها ، ويدعى الكافر والمنافق للحساب ، فيعرض ربه عليه عمله ، فيجحد فيقول : أى رب ، وعزتك لقد كتب على هذا الملك ما لم أعمل . فيقول له الملك : أما عملت كذا ، فى يوم كذا ، فى مكان كذا ؟ فيقول : لا ، وعزتك أى رب ما عملته . فإذا فعل ذلك خُتم على فيه . قال أبو موسى الأشعري : فإنى أحسب أول ما ينطق منه الفخذ (٦) اليمنى ، ثم تلا : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٧) .

وقوله : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى تفسيرها : يقول : ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى ، فكيف يهتدون ؟ وقال مرة (٨) : أعميناهم .

وقال الحسن البصرى : لو شاء الله لطمس على أعينهم ، فجعلهم عمياً يترددون .

وقال السدى : لو شئنا أعمينا أبصارهم .

قال مجاهد ، وأبو صالح ، وقتادة ، والسدى : ﴿ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ ﴾ يعنى : الطريق .

وقال ابن زيد : يعنى بالصراط هاهنا : الحق ، ﴿ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ وقد طمسنا على أعينهم ؟

وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ [يقول] (٩) : لا يبصرون الحق .

وقوله : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ ﴾ : قال العوفى عن ابن عباس : أهلكناهم .

وقال السدى : يعنى : لغيرنا خلقهم .

وقال أبو صالح : لجعلناهم حجارة .

وقال الحسن البصرى ، وقتادة : لأقعدهم على أرجلهم .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا ﴾ أى : إلى أمام ، ﴿ وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ أى : إلى وراء ، بل يلزمون حالا واحداً ، لا يتقدمون ولا يتأخرون .

(١) المسند (١٥١/٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٣٥١/١) : « إسناده جيد » .

(٢) فى ت ، أ : « على » .

(٣) وروى ابن جرير بإسناده عن أبى موسى .

(٤) فى ت : « فيعرف » .

(٥) فى ت : « يرى » .

(٦) فى ت ، س : « لفخذه » .

(٧) تفسير الطبرى (١٧/٢٣) .

(٨) زيادة من أ .

(٩) فى أ : « غيره » .

﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٦٨) وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ .

يخبر تعالى عن ابن آدم^(١) أنه كلما طال عمره ردّ إلى الضعف بعد القوة والعجز بعد النشاط ، كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم : ٥٤] . وقال : ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ [الحج : ٥] .

والمراد من هذا - والله أعلم - الإخبار عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال ، لا دار دوام واستقرار ؛ ولهذا قال : ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ أى : يتفكرون بعقولهم فى ابتداء خلقهم ثم صيرورتهم إلى [نفس]^(٢) الشَّيْبَةِ ، ثم إلى الشيخوخة ؛ ليعلموا أنهم خلّقوا لدار أخرى ، لا زوال لها ولا انتقال منها ، ولا محيد عنها ، وهى الدار الآخرة .

وقوله : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ : يقول تعالى مخبراً عن نبيه محمد ﷺ^(٣) : أنه ما علمه الشعر ، ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ أى : وما هو فى طبعه ، فلا يحسنه ولا يحبه ، ولا تقتضيه جبلته ؛ ولهذا وردّ أنه ، عليه الصلاة والسلام ، كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم ، بل إن أنشده زحّفه أو لم يتمه .

وقال أبو زرعة الرازى : حدثت عن إسماعيل بن مجالد ، عن أبيه ، عن الشعبي أنه قال : ما ولد عبد المطلب ذكراً ولا أنثى إلا يقول الشعر ، إلا رسول الله ﷺ . ذكره ابن عساكر فى ترجمة « عتبة بن أبى لهب » الذى أكله السبع بالزرقاء^(٤) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن الحسن^(٥) - هو البصرى - قال : إن رسول الله ﷺ كان يتمثل بهذا البيت :

كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً

فقال أبو بكر : يا رسول الله :

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً

قال أبو بكر ، أو عمر : أشهد أنك رسول الله ، يقول الله : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾^(٦) .

وهكذا روى البيهقى فى الدلائل : أن رسول الله ﷺ قال : للعباس بن مرداس السلمى : « أنت القائل :

أتجعل نهى ونهيب العبيد بين الأقرع وعيينة » .

فقال : إنما هو : « بين عيينة والأقرع » فقال : « الكل سواء »^(٧) .

(١) فى أ : « بنى » . (٢) زيادة من أ . (٣) فى أ : « صلوات الله وسلامه عليه » .

(٤) لم أجد ترجمته فيما بين يدي من تاريخ دمشق ، ولا فى المختصر لابن منظور .

(٥) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده عن الحسن » .

(٦) ورواه ابن سعد فى الطبقات (١ / ٣٨٢) من طريق عارم عن حماد بن زيد عن على بن زيد عن الحسن به مرسلأ .

(٧) دلائل النبوة للبيهقى (٥ / ١٨١) .

يعنى : فى المعنى ، صلوات الله وسلامه عليه .

وقد ذكر السهيلي فى « الروض الأنف » لهذا التقديم والتأخير الذى وقع فى كلامه ، عليه السلام ، فى هذا البيت مناسبة أغرب فيها ، حاصلها شرف الأقرع بن حابس على عيينة بن بدر الفزارى ؛ لأنه ارتد أيام الصديق ، بخلاف ذاك ، والله أعلم .

وهكذا روى الأموى فى مغازيه : أن رسول الله ﷺ جعل يمشى بين القتلى يوم بدر ، وهو يقول : « نُفْلِقْ هَامًا » .

فيقول الصديق ، رضى الله عنه ، متمماً للبيت :

..... مِنْ رَجَالٍ أَعَزَّةٍ عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعَقَّ وَأَظْلَمَا

وهذا لبعض شعراء العرب فى قصيدة له ، وهى فى الحماسة (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هُشَيْمٌ ، حدثنا مغيرة ، عن (٢) الشعبى ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : كان رسول الله إذا استراث الخير ، تمثل فيه بيت طرفة :

وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ

وهكذا رواه النسائى فى « اليوم والليلة » من طريق إبراهيم بن مهاجر ، عن الشعبى (٣) ، عنها . ورواه الترمذى والنسائى أيضاً من حديث المقدم بن شريح بن هانئ ، عن أبيه ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، كذلك . ثم قال (٤) الترمذى : هذا حديث حسن صحيح (٥) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا أسامة ، عن زائدة ، عن سِمَاك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يتمثل من الأشعار :

وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ

ثم قال : رواه (٦) غير زائدة ، عن سِمَاك ، عن عكرمة ، عن عائشة (٧) .

وهذا فى شعر طرفة بن العبد ، فى معلقته المشهورة ، وهذا المذكور [هو عجز بيت] (٨) منها ، أوله :

سَتُبْدَى لَكَ الْيَوْمَ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ

وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَبْعَ لَهُ بَتَاتَا وَلَمْ تَضْرِبْ لَهُ وَقْتَ مَوْعِدِ (٩)

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، حدثنا أبو حفص عمر بن أحمد بن

(١) الحماسة لأبى تمام (١٠٧/١) .

(٢) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده إلى » .

(٣) المسند (٣١/٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٨٣٤) .

(٤) فى ت : « وقال » .

(٥) سنن الترمذى برقم (٢٨٤٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٨٣٥) وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٦) فى س : « ورواه » .

(٧) رواه ابن سعد فى الطبقات (٣٨٣/١) من طريق الوليد بن أبى ثور عن سِمَاك عن عكرمة قال : سئلت عائشة فذكره نحوه .

(٨) زيادة من أ .

(٩) انظر ديوان طرفة بن العبد ص (٦٦) .

نعيم - وكيل المتقى ببغداد - حدثنا أبو محمد عبد الله بن هلال النحوى الضرير ، حدثنا على بن عمرو الأنصارى ، حدثنا سفيان بن عيينة (١) ، عن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : ما جمع رسول الله ﷺ بيت شعر قط ، إلا بيتاً واحداً (٢) .

تَفَاعُلٌ بِمَا تَهْوَى يَكُنْ فَلَقَلَّمَا يُقَالُ لَشَيْءٍ كَانَ إِلَّا تَحَقَّقَا (٣)

سألت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى عن هذا الحديث ، فقال : هو منكر . ولم يعرف شيخ الحاكم ، ولا الضرير .

وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة : قيل لعائشة : هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر ؟ قالت : كان أبغض الحديث إليه ، غير أنه كان يتمثل ببيت أخى بنى قيس ، فيجعل أوله آخره ، وآخره أوله . فقال أبو بكر ليس هكذا . فقال رسول الله ﷺ : « إني والله ما أنا بشاعر ولا ينبغي لى » . رواه ابن أبى حاتم وابن جرير ، وهذا لفظه (٤) .

وقال معمر عن قتادة : بلغنى أن عائشة سألت : هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر ؟ فقالت : لا ، إلا بيت طرفة :

سَتُبْدَى لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ

فجعل يقول : « من لم تُزَوِّدْ بِالْأَخْبَارِ » . فقال أبو بكر : ليس هذا هكذا . فقال : « إني لست بشاعر ، ولا ينبغي لى » (٥) .

وثبت فى الصحيحين أنه ، عليه الصلاة والسلام ، تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة ، ولكن تبعاً لقول أصحابه ، فإنهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون ، فيقولون :

لَاهُمُ لَوْلَا أَنْتَ (٦) مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزَلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَبَتَّ الْأَقْدَامُ إِنْ لَاقَيْنَا
إِنَّ الْأَلْسَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةَ أَبِينَا

ويرفع صوته بقوله : « أبيتنا » ويمدها (٧) . وقد روى هذا بزحاف فى الصحيح أيضاً . وكذلك ثبت أنه قال يوم حنين وهو راكب البغلة ، يُقدم بها فى نحور العدو :

أَنَا النَّبَى لَا كَذِبُ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ (٨)

لكن قالوا : هذا وقع اتفاقاً من غير قصد لوزن شعر ، بل جرى على اللسان من غير قصد إليه . وكذلك ما ثبت فى الصحيحين عن جندب بن عبد الله قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى غار

(١) فى س : « حاشية بخط جمال الدين المزى هذا موضوع على ابن عيينة » . (٢) فى أ : « واحداً فقال » .

(٣) السنن الكبرى للبيهقى (٤٣/٧) وقال : « لم أكتبه إلا بهذا الإسناد ، وفيهم من يجهل حاله » .

(٤) تفسير الطبرى (١٩/٢٣) .

(٥) رواه عبد الرزاق فى تفسيره (١١٧/٢) عن معمر عن قتادة ، به .

(٦) فى ت : « لولا الله » .

(٧) صحيح البخارى برقم (٧٢٣٦) وصحيح مسلم برقم (١٨٠٣) من حديث البراء بن عازب ، رضى الله عنه .

(٨) صحيح البخارى برقم (٢٨٦٤) وصحيح مسلم برقم (١٧٧٦) .

فَنَكَبْتُ أَصْبَعَهُ ، فَقَالَ :

هَلْ أَنْتَ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتَ وفي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتَ^(١)

وسَيَأْتِي عند قوله تعالى : ﴿ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ [النجم : ٣٢] إنشاد^(٢)

إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا

وكل هذا لا ينافي كونه ﷺ ما عَلِمَ شعراً ولا ينبغي له ؛ فإن الله تعالى إنما علمه القرآن العظيم ،
﴿الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت : ٤٢] . وليس هو^(٣)
بشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش ، ولا كهانة ، ولا مفتعل ، ولا سحر يُؤثر ، كما تنوعت
فيه أقوال الضُّلَّال^(٤) وآراء الجُهَّال . وقد كانت سجيته ﷺ تأبى صناعة الشعر طبعاً وشرعاً ، كما رواه
أبو داود قال :

حدثنا عبيد الله بن عمر ، حدثنا عبد الله بن يزيد ، حدثنا سعيد بن أبي أيوب ، حدثنا شرحبيل
ابن يزيد المَعافري ، عن عبد الرحمن^(٥) بن رافع التَّوْخِي قال : سمعت عبد الله بن عمرو يقول^(٦) :
[سمعت رسول الله ﷺ يقول] ^(٧) : « ما أبالي ما أوتيت إن أنا شربت ترياقاً ، أو تعلقت تميمة ، أو
قلت الشعر من قبل نفسي » . تفرد به أبو داود ^(٨) .

وقال ^(٩) الإمام أحمد ، رحمه الله : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن الأسود بن شيبان ،
عن أبي نوفل قال : سألت عائشة : أكان رسول الله ﷺ يتسامع عنده الشعر ؟ فقالت : كان أبغض
الحديث إليه . وقال عن عائشة : كان رسول الله ﷺ يعجبه الجوامع من الدعاء ، ويدع ما بين
ذلك^(١٠) .

وقال أبو داود : حدثنا أبو الوليد الطيالسي ، حدثنا شعبة ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن
أبي هريرة ، رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ : « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً ، خير له من أن يمتلئ
شعراً » . تفرد به من هذا الوجه ، وإسناده على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه ^(١١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا بريد ، حدثنا قَزَعَةُ بن سُوَيْد الباهلي ، عن عاصم بن مَخْلَد ، عن أبي
الْأَشْعَثِ الصنعاني (ح) وحدثنا الْأَشْيَبُ فقال : عن ابن عاصم ، عن [أبي] ^(١٢) الْأَشْعَثِ ^(١٣) ، عن
شَدَّاد بن أَوْس قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرض بيت شعر بعد العشاء الآخرة ، لم تقبل له ^(١٤)
صلاة تلك الليلة » ^(١٥) .

(١) صحيح البخارى برقم (٢٨٠٢) وصحيح مسلم برقم (١٧٩٦) .

(٢) فى أ : « إنشاده » . (٣) فى أ : « هذا » . (٤) فى ت : « أقوال أهل الضلال » .

(٥) فى أ : « عبد الله » . (٦) فى ت : « كما رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو قال » .

(٧) زيادة من ت ، س ، وأبى داود .

(٨) سنن أبى داود برقم (٣٨٦٩) .

(٩) فى ت : « وروى » .

(١٠) المسند (١٤٨/٦) .

(١١) سنن أبى داود برقم (٥٠٠٩) .

(١٢) زيادة من ت ، س ، والمسند . (١٣) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » . (١٤) فى ت : « لم يقبل الله له » .

(١٥) المسند (١٢٥/٤) .

وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، ولم يخرج له أحد من أصحاب الكتب الستة . والمراد بذلك نظمه لا إنشاده ، والله أعلم . على أن الشعر فيه ما هو مشروع ، وهو هجاء المشركين الذي كان يتعاطاه شعراء الإسلام ، كحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رَوَاحَة ، وأمثالهم وأضرابهم ، رضى الله عنهم أجمعين . ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب ، كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلية ، ومنهم أمية بن أبى الصلت الذى قال فيه النبى ﷺ : « آمن شعره وكفر قلبه »^(١) . وقد أنشد بعض الصحابة منه للنبى ﷺ مائة بيت ، يقول عقب كل بيت : « هيه » . يعنى يستطعمه ، فيزيده من ذلك^(٢) .

وقد روى أبو داود من حديث أبى بن كعب ، وبريدة بن الحُصَيْب^(٣) ، وعبد الله بن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن من البيان سحراً ، وإن من الشعر حكماً »^(٤) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ ﴾ يعنى : محمداً ﷺ ما علمه الله شعراً ، ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ أى : وما يصلح له ، ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ أى : ما هذا الذى علمناه ، ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ أى : بين واضح جلى لمن تأمله وتدبره . ولهذا قال : ﴿ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ﴾ أى : لينذر هذا القرآن البين كلَّ حى على وجه الأرض ، كقوله : ﴿ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩] ، وقال : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : ١٧] . وإنما ينتفع بنذارته من هو حى القلب ، مستنير البصيرة ، كما قال قتادة : حى القلب ، حى البصر . وقال الضحاك : يعنى : عاقلاً ، ﴿ وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أى : هو رحمة للمؤمن ، وحجة على الكافر .

﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) .

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التى سخرها لهم ، ﴿ فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ . قال قتادة : مطيقون^(٥) أى : جعلهم يقهرونها^(٦) وهى ذليلة لهم ، لا تمتنع منهم ، بل لو جاء صغير إلى بغير لأناخه ، ولو شاء لأقامه وساقه ، وذاك ذليل منقاد معه . وكذا لو كان القطارُ مائة بغير أو أكثر ، لسار الجميع بسير صغير .

وقوله : ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ أى : منها ما يركبون فى الأسفار ، ويحملون عليه الأثقال ، إلى سائر الجهات والأقطار . ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ إذا شأوا نَحَرُوا واجتزروا ، ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ ﴾ أى : من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ، ﴿ وَمَشَارِبُ ﴾ أى : من ألبانها وأبوالها لمن يتداوى ، ونحو ذلك . ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ ؟ أى : أفلا يوحدون خالق ذلك ومسخره ، ولا يشركون به غيره ؟

(١) رواه ابن عبد البر فى التمهيد (٧/٤) من طريق أبى بكر الهذلى عن عكرمة عن ابن عباس ، رضى الله عنه .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٢٥٥) من حديث الشريد ، رضى الله عنه .

(٣) فى أ : « الحضيف » .

(٤) سنن أبى داود برقم (٥٠١٠ - ٥٠١٢) .

(٥) فى أ : « مطيعون » .

(٦) فى أ : « يرونها » .

﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يَنْصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنََّّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على المشركين في اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله ، يَتَغَوَّنُونَ بِذَلِكَ أَنْ تَنْصَرَهُمْ تِلْكَ الْآلِهَةُ وَتَرْزُقَهُمْ وَتَقْرِبَهُمْ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى . قال الله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ أى : لا تقدر الآلهة على نصر (١) عابديها ، بل هى أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحق وأدخر ، بل لا تقدر على الانتصار لأنفسها ، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء ؛ لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل .

وقوله : ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ ﴾ : قال مجاهد : يعنى : عند الحساب ، يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة ، محضرة عند حساب عابديها ؛ ليكون ذلك أبلغ فى خزيهم ، وأذل عليهم فى إقامة الحجة عليهم .

وقال قتادة : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ يعنى : الآلهة ، ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ ﴾ ، والمشركون يغضبون للآلهة فى الدنيا وهى لا تسوق إليهم خيراً ، ولا تدفع عنهم سوءاً ، إنما هى أصنام . وهكذا قال الحسن البصرى . وهذا القول حسن ، وهو اختيار ابن جرير ، رحمه الله .

وقوله : ﴿ فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ ﴾ أى : تكذيبهم لك (٢) وكفرهم بالله ، ﴿ إِنََّّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أى : نحن نعلم جميع ما هم عليه ، وسنجزئهم وصفهم ونعاملهم (٣) على ذلك ، يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلاً ولا حقيراً ، ولا صغيراً ولا كبيراً ، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً .

﴿ أَوْ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الشَّجَرِ الْأَخْضَرَ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ (٨٠) ﴾ .

قال مجاهد ، وعكرمة ، وعروة بن الزبير ، والسدّى . وقاتدة : جاء أبى بن خلف [لعنه الله] (٤) إلى رسول الله ﷺ وفى يده عظم رميم وهو يُفْتَتُّه ويذريه (٥) فى الهواء ، وهو يقول : يا محمد ، أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ فقال : « نعم ، يمتك الله ثم يبعثك ، ثم يحشرك إلى النار » . ونزلت هذه الآيات من آخر « يس » : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ ، إلى آخرهن .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين بن الجنيد ، حدثنا محمد بن العلاء ، حدثنا عثمان ابن سعيد الزيات ، عن هُشَيْم ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبيرة (٦) ، عن ابن عباس ، أن العاصي (٧) بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففتته بيده ، ثم قال لرسول الله ﷺ : أيعبى الله تعالى هذا بعد ما أرى ؟ (٨) فقال رسول الله ﷺ : « نعم ، يمتك الله ثم يحييك ، ثم يدخلك جهنم » . قال :

(١) فى أ : « نصرة » . (٢) فى أ : « ذلك » . (٣) فى أ : « ونقابلهم » .
(٤) زيادة من س ، أ . (٥) فى أ : « ويذروه » . (٦) فى ت ، س ، أ : « العاص » . (٧) فى ت ، س ، أ : « أرم » .
(٨) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بسنده » .

ونزلت الآيات من آخر « يس » .

ورواه ابن جرير عن يعقوب بن إبراهيم ، عن هُشَيْم ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، فذكره ولم يذكر « ابن عباس » (١) .

وروى من طريق العوفي ، عن ابن عباس قال : جاء عبد الله بن أبي بعظم ففته وذكر نحو ما تقدم .

وهذا منكر ؛ لأن السورة مكية ، وعبد الله بن أبي بن سلول إنما كان بالمدينة . وعلى كل تقدير سواء كانت هذه الآيات نزلت في أبي بن خلف ، أو [في] (٢) العاصم [بن وائل] (٣) ، أو فيهما ، فهي عامة في كل من أنكر البعث . والآلف واللام في قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ ﴾ للجنس ، يعم كل (٤) منكر للبعث .

﴿ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ أى : أو لم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة ، فإن الله ابتداء خلق الإنسان من سلاله من ماء مهين ، فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ . فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ [المرسلات : ٢٠ - ٢٢] ، وقال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ ﴾ [الإنسان : ٢] أى : من نطفة من أخلاط متفرقة ، فالذى خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته ؟ كما قال (٥) الإمام أحمد في مسنده :

حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا حريز ، حدثني عبد الرحمن بن ميسرة ، عن جبير بن نفير ، عن بسر ابن جحاش ؛ أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه ، فوضع عليها أصبعه ، ثم قال : « قال الله تعالى : ابن آدم ، أننى تُعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سَوَيْتَكَ وَعَدَلْتُكَ ، مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بَلَغْتَ التراقي قلت : أتصدق وأتئى أوان الصدقة ؟ » .

ورواه ابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن يزيد بن هارون ، عن حريز بن عثمان ، به (٦) . ولهذا قال : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ ؟ أى : استبعد إعادة الله تعالى - ذى القدرة العظيمة التى خلقت (٧) السموات والأرض - للأجساد والعظام الرميمة ، ونسى نفسه ، وأن الله خلقه من العدم ، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ أى : يعلم العظام فى سائر أقطار الأرض وأرجائها ، أين ذهبت ، وأين تفرقت وتمزقت .

قال (٨) الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا أبو عوانة ، عن عبد الملك بن عمير ، عن ربيع قال : قال عتبة بن عمرو لحذيفة : ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ ؟ فقال : سمعته يقول : « إن رجلاً حضره الموت ، فلما أيس من الحياة أوصى أهله : إذا أنا مت فاجمعوا لى حطباً كثيراً

(١) تفسير الطبرى (٢٣ / ٢١) .

(٢) زيادة من أ . (٣) زيادة من س . (٤) فى س : « لكل » . (٥) فى ت : « كما روى » .

(٦) المسند (٤ / ٣١٠) وسنن ابن ماجه برقم (٧٧٠٧) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢ / ٣٦٤) : « إسناده حديثه صحيح ورجاله ثقات » .

(٧) فى أ : « الذى خلق » . (٨) فى ت : « روى » .

جزلاً ، ثم أوقدوا فيه ناراً ، حتى إذا [أكلت] ^(١) لحمى وخلصت إلى عظمى فامتحتشت ، فخذوها فذرّوها في اليم . ففعلوا ، فجمعه الله إليه فقال له : لم فعلت ذلك ؟ قال : من خشيتك . فغفر الله له . فقال عقبة بن عمرو : وأنا سمعته يقول ذلك ، وكان نبأشاً ^(٢) .

وقد أخرجاه في الصحيحين ، من حديث عبد الملك بن عمير ، بألفاظ كثيرة ^(٣) ، منها : أنه أمر بنيه أن يحرقوه ثم يسحقوه ، ثم يذرّوا نصفه في البر ونصفه في البحر ، في يوم رائج ^(٤) ، أى : كثير الهواء — ففعلوا ذلك . فأمر الله البحر فجمع ما فيه ، وأمر البر فجمع ما فيه ، ثم قال له : كن . فإذا هو رجل قائم . فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : مخافتك وأنت أعلم . فما تلافاه أن غفر له .

وقوله : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ أى : الذى بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضراً نضراً ذا ثمر وينع ، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً ، توقد به النار ، كذلك هو فعال لما يشاء ، قادر على ما يريد لا يمنعه شيء .

قال قتادة في قوله : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ يقول : الذى أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر أن يبعثه .

وقيل : المراد بذلك سرح المرخ والعفار ، ينبت في أرض الحجاز فيأتى من أراد قذح نار وليس معه زناد ، فيأخذ منه عودين أخضرين ، ويقدح ^(٥) أحدهما بالآخر ، فتولد النار من بينهما ، كالزناد سواء . روى هذا عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ^(٦) . وفي المثل ^(٧) : لكل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار ^(٨) . وقال الحكماء : في كل شجر نار إلا الغاب ^(٩) .

﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ ^(٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ^(٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ^(٨٣) .

يقول تعالى منبهاً على قدرته العظيمة في خلق السموات السبع ، بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت ، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال ، وبحار وقفار ، وما بين ذلك ، ومرشداً إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة ، كقوله تعالى : ﴿ لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر : ٥٧] . وقال هاهنا : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ أى : مثل البشر ، فيعيدهم كما بدأهم . قاله ابن جرير ^(١٠) .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّبْ خَلْقَهُنَّ بِقَادِرٍ

(١) زيادة من ت ، س ، والمسند .

(٢) المسند (٣٩٥/٥) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٦٤٨٠) وصحيح مسلم برقم (٢٧٥٦) .

(٤) فى س ، أ : « راج » . (٥) فى أ : « فيحك » . (٦) فى ت ، س : « عنه » . (٧) فى أ : « الراجز » .

(٨) مجمع الأمثال للميداني برقم (٢٧٥٢) .

(٩) فى أ : « الغاب » .

(١٠) تفسير الطبرى (٢١/٢٣) .

عَلَى أَنْ يُخَيَّيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ [الأحقاف : ٣٣] ، وقال : ﴿ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أى : يأمر بالشئ أمراً واحداً ، لا يحتاج إلى تكرار :
إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ « كُنْ » قَوْلُهُ فَيَكُونُ (١)

وقال (٢) الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير ، حدثنا موسى بن المسيب ، عن شهر ، عن عبد الرحمن بن غنم ، عن أبي ذر ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يقول : يا عبادى ، كلکم مذنّب إلا من عافيت ، فاستغفرونى أغفر لكم . وكلکم فقير إلا من أغنيت ، إني جواد ماجد واجد أفعال ما أشاء ، عطائي كلام ، وعذابي كلام ، إذا أردت شيئاً فإنما أقول له كن فيكون » (٣) .

وقوله : ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى : تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحي القيوم ، الذى بيده مقاليد السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، وله الخلق والأمر ، وإليه ترجع العباد يوم القيامة ، فيجازى كل عامل بعمله ، وهو العادل المتفضل .
ومعنى قوله : ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ كقوله عز وجل : ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٤) [المؤمنون : ٨٨] ، وكقوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ [الملك : ١] ، فالملك والملكوت واحد فى المعنى ، كرحمة ورحموت ، ورهبة ورهبوت ، وجبر وجبروت . ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجساد (٥) ، والملكوت هو عالم الأرواح ، والأول هو الصحيح ، وهو الذى عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم .

قال (٦) الإمام أحمد : حدثنا حماد ، عن عبد الملك بن عمير ، حدثنى ابن عم لحذيفة ، عن حذيفة - وهو ابن اليمان - رضى الله عنه ، قال : قمت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ، فقرأ السبع الطوّل (٧) فى سبع ركعات ، وكان إذا رفع رأسه من الركوع قال : « سمع الله لمن حمده » . ثم قال : « الحمد لذى (٨) ذى الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة » وكان ركوعه مثل قيامه ، وسجوده مثل ركوعه ، فأنصرف وقد كادت تنكسر رجلاى (٩) .

وقد روى أبو داود ، والترمذى فى الشمائل ، والنسائى ، من حديث شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن أبى حمزة - مولى الأنصار - عن رجل من بنى عبس ، عن حذيفة ؛ أنه رأى رسول الله ﷺ من الليل ، وكان يقول : « الله أكبر - ثلاثاً - ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة » . ثم استفتح فقرأ البقرة ، ثم ركع فكان ركوعه نحواً من قيامه ، وكان يقول فى ركوعه : « سبحان ربى العظيم » . ثم رفع رأسه من الركوع ، فكان قيامه نحواً من [ركوعه ، يقول : « لربى الحمد » . ثم سجد ، فكان سجوده نحواً من] (١٠) قيامه ، وكان يقول فى سجوده : « سبحان ربى الأعلى » . ثم رفع

(١) انظر البيت عند تفسير الآية : ٤٠ من سورة النحل .

(٢) فى ت : « وروى » .

(٣) المسند (٥/١٧٧) .

(٤) فى ت ، س : « الأجسام » .

(٥) فى ت : « قل من بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » وهو خطأ .

(٦) فى ت ، س : « الله » .

(٧) فى ت : « الطوال » .

(٨) فى ت : « وروى » .

(٩) المسند (٥/٣٨٨) .

(١٠) زيادة من ت ، وأبى داود .

رأسه من السجود ، وكان يقعد فيما بين السجدين نحواً من سجوده ، وكان يقول : « رب ، اغفر لى ، رب اغفر لى » . فصلى أربع ركعات ، فقرأ فيهن البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة - أو الأنعام^(١) - شك شعبة - هذا لفظ أبى داود^(٢) .

وقال النسائي : « أبو حمزة عندنا : طلحة بن يزيد ، وهذا الرجل يشبه أن يكون صلة » . كذا قال . والأشبه أن يكون ابن عم حذيفة ، كما تقدم فى رواية الإمام أحمد ، [والله أعلم]^(٣) . فأما رواية صلة بن زفر ، عن حذيفة ، فإنها فى صحيح مسلم ، ولكن ليس فيها ذكر الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة .

وقال^(٤) أبو داود : حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، حدثنى معاوية بن صالح ، عن عمرو بن قيس ، عن عاصم بن حميد ، عن عوف بن مالك الأشجعي قال : قمتُ مع رسول الله ﷺ ليلة فقام فقرأ سورة البقرة ، لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل ، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ . قال : ثم ركع بقدر قيامه ، يقول فى ركوعه : « سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة » . ثم سجد بقدر قيامه ، ثم قال فى سجوده مثل ذلك ، ثم قام فقرأ بآل عمران ، ثم قرأ سورة سورة . ورواه الترمذى فى الشمائل ، والنسائي ، من حديث معاوية بن صالح ، به^(٥) .

[آخر تفسير سورة « يس » ولله الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً]^(٦)

(١) فى ت : « والأنعام » .

(٢) سنن أبى داود برقم (٨٧٤) والشمائل للترمذى برقم (٢٦٠) وسنن النسائي (١٩٩ / ٢) .

(٣) زيادة من س . (٤) فى ت : « وروى » .

(٥) سنن أبى داود برقم (٨٧٣) والشمائل للترمذى برقم (٢٩٦) وسنن النسائي (١٩١ / ٢) .

(٦) زيادة من س .

تفسير سورة الصافات

[وهي^(١) مكية .

قال النسائي: أخبرنا إسماعيل بن مسعود، حدثنا خالد - يعنى ابن الحارث - عن ابن أبي ذئب قال: أخبرني الحارث بن عبد الرحمن، عن سالم بن عبد الله، عن عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا^(٢) بالتخفيف، ويؤمنا بالصافات. تفرد به النسائي^(٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ۝٥﴾ .

قال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، أنه قال: «وَالصَّافَّاتِ صَفًّا» وهى: الملائكة، «فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا» وهى: الملائكة، «فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا» ، هى: الملائكة.

وكذا قال ابن عباس، ومسروق، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، ومجاهد، والسدي، وقتادة، والربيع بن أنس.

قال قتادة: الملائكة صفوف فى السماء.

وقال^(٤) مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا محمد بن فضيل، عن أبي مالك الأشجعي، عن ربيعة، عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا^(٥) وَجُعِلَتْ لَنَا تُرْبَتُهَا^(٦) طَهْرًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ»^(٧).

وقد روى مسلم أيضاً، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، من حديث الأعمش، عن المسيب بن رافع، عن تميم بن طرفة، عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا تَصِفُّونَ كَمَا تَصِفُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟» قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْمُتَقَدِّمَةَ وَيَتَرَاصُونَ فِي الصَّفِّ»^(٨).

وقال السدي وغيره: معنى قوله: «فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا»: أنها تزجر السحاب.

وقال الربيع بن أنس: «فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا»: ما زجر الله عنه فى القرآن. وكذا روى مالك، عن

(١) زيادة من ت، س.

(٢) سنن النسائي (٩٥/٢).

(٣) فى ت: «وروى».

(٤) فى س: «مسجدا وطهورا».

(٥) فى ت، س: «تربتها لنا».

(٦) صحيح مسلم برقم (٥٢٢).

(٧) صحيح مسلم برقم (٤٣٠) وسنن أبي داود برقم (٦٦١) وسنن النسائي (٩٢/٢) وسنن ابن ماجه برقم (٩٢٢).

زيد بن أسلم.

﴿فَالْتَالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ قال السدي: الملائكة يجيئون بالكتاب، والقرآن من عند الله إلى الناس. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا. عَذْرًا أَوْ نَذْرًا﴾ [المرسلات: ٥، ٦].

وقوله: ﴿إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ﴾، هذا هو المقسم عليه؛ أنه تعالى لا إله إلا هو ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أى: من المخلوقات، ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ أى: هو المالك المتصرف فى الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب^(١) ثوابت، وسيارات تبدو من المشرق، وتغرب من المغرب. واكتفى بذكر المشارق عن المغرب لدالاتها عليه. وقد صرح بذلك فى قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠]. وقال فى الآية الأخرى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧]، يعنى: فى الشتاء والصيف، للشمس والقمر.

﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحَفَظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ وَيُقَذَّفُونَ مِّنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ (٩) إِلَّا مَن خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠)﴾.

يخبر تعالى أنه زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض ﴿بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾، قرئ بالإضافة وبالبدل، وكلاهما بمعنى واحد، فالكواكب السيارة والثوابت يثقب ضوءها جرم السماء الشفاف، فتضىء^(٢) لأهل الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ. إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨].

وقوله هاهنا: ﴿وَحَفَظًا﴾ تقديره: وحفظناها حفظاً، ﴿مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ يعنى: المتمرد العاتى إذا أراد أن يسترق السمع، أتاه شهاب ثاقب فأحرقه؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ﴾ أى: لئلا يصلوا^(٣) إلى الملأ الأعلى، وهى السموات ومن فيها من الملائكة، إذا تكلموا بما يوحى الله مما يقوله من شرعه وقدره، كما تقدم بيان ذلك فى الأحاديث التى أوردناها عند قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

ولهذا قال: ﴿وَيُقَذَّفُونَ﴾ أى: يرمون، ﴿مِّنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ أى: من كل جهة يقصدون السماء منها، ﴿دُحُورًا﴾ أى: رجما يدحرون به ويزجرون، ويمنعون من الوصول إلى ذلك، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ﴾ أى: فى الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجه مستمر، كما قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥].
وقوله: ﴿إِلَّا مَن خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ أى: إلا من اختطف من الشياطين الخطفة، وهى الكلمة يسمعها

(٣) فى ت، س: «يصلون».

(٢) فى ت، س: «فيضىء».

(١) فى ت: «الكواكب».

من السماء فيلقها إلى الذى تحته، ويلقيها الآخر إلى الذى تحته، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقها وربما ألقاها بقدر الله قبل أن يأتية الشهاب فيحرقه، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن، كما تقدم فى الحديث؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أى: مستتير.

قال^(١) ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا وكيع، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كانت للشياطين مقاعد فى السماء فكانوا^(٢) يستمعون الوحي. قال: وكانت النجوم لا تجرى، وكانت الشياطين لا ترمى. قال: فإذا سمعوا^(٣) الوحي نزلوا إلى الأرض، فزادوا فى الكلمة تسعاً. قال: فلما بعث رسول الله ﷺ، جعل الشيطان إذا قعد مقعده جاء شهاب فلم يُخطئه حتى يُحرقه. قال: فشكوا ذلك إلى إبليس، فقال: ما هو إلا من أمر حدث. قال: فَبِثَّ جنوده، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى بين جبلَى نخلة - قال وكيع: يعنى بطن نخلة - قال: فرجعوا إلى إبليس فأخبروه، فقال: هذا الذى حدث^(٤).

وستأتى الأحاديث الواردة مع الآثار فى هذا المعنى عند قوله تعالى إخباراً عن الجن أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا. وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا. وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ٨ - ١٠].

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنِ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ ۝ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ۝ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ۝ (١٤) وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ (١٥) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝ (١٦) أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۝ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ۝ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ۝ (١٩)﴾.

يقول تعالى: فَسَلْ هَؤُلَاءِ الْمُنْكَرِينَ للبعث: أيما أشد خلقاً هم أم^(٥) السموات والأرض، وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة؟ - وقرأ ابن مسعود: «أم من عددنا» - فإنهم يُقرّون أن هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم، وإذا كان الأمر كذلك فلم ينكرون البعث؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا^(٦)، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

ثم بين أنهم خلقوا من شىء ضعيف، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾.

قال مجاهد، وسعيد بن جبیر، والضحاك: هو الجيّد الذى يلتزق بعضه ببعض. وقال ابن

(٣) فى أ: «استمعوا».

(٢) فى ت، س: «قال: فكانوا».

(١) فى ت: «وروى».

(٤) تفسير الطبرى (٢٣/٢٥).

(٦) فى ت، أ: «أنكروه».

(٥) فى س: «أو».

عباس، وعكرمة: هو اللزج. وقال قتادة: هو الذى يلزق باليد.

وقوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ أى: بل عجبت - يا محمد - من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله به من الأمر العجيب، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها. وهم بخلاف أمرك، من شدة تكذيبهم يسخرون مما تقول لهم من ذلك.

قال قتادة: عجب محمد ﷺ، وسخر ضلل بنى آدم.

﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ أى: دلالة واضحة على ذلك ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ قال مجاهد، و قتادة: يستهزئون.

﴿وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: إن هذا الذى جئت به إلا سحر مبين، ﴿أَنْذَا مَتْنًا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظَامًا أَنِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ يستبعدون ذلك ويكذبون به، ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أى: قل لهم يا محمد: نعم تبعثون يوم القيامة بعد ما تصيرون ترابا وعظاما، ﴿وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أى: حقرون تحت القدرة العظيمة، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ أُنُوفٍ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

ثم قال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أى: إنما هو أمر واحد من الله عز وجل، يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض، فإذا هم [قيام]^(١) بين يديه، ينظرون إلى أهوال يوم القيامة.

﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقَفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) .

يخبر تعالى عن قيل الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة، ويعترفون بأنهم^(٢) كانوا ظالمين لأنفسهم فى الدار الدنيا، فإذا عاينوا أهوال القيامة ندموا كلَّ الندم حيث لا ينفعهم الندم، ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ ، فتقول لهم الملائكة والمؤمنون: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾. وهذا يقال لهم على وجه التقرير والتوبيخ، ويأمر الله الملائكة أن تميز الكفار من المؤمنين فى الموقف فى محشرهم ومنشرهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال النعمان ابن بشير^(٣)، رضى الله عنه: يعنى بأزواجهم أشباههم وأمثالهم. وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن

(١) زيادة من ت، س، أ.

(٢) فى ت: «أنهم».

(٣) فى أ: «بشر».

جَبِيرٌ، وَعِكْرِمَةُ وَمَجَاهِدٌ، وَالسُّدِّيُّ، وَأَبُو صَالِحٍ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ [وغيرهم] ^(١).

وقال سفيان الثوري، عن سمّاك، عن النعمان بن بشير ^(٢)، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: «أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ» قال: إخوانهم ^(٣).

وقال شريك، عن سمّاك، عن النعمان قال: سمعت عمر يقول: «أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ» قال: أشباههم. قال: يجيء صاحب الربا مع أصحاب الربا، وصاحب ^(٤) الزنا مع أصحاب الزنا، وصاحب ^(٥) الخمر مع أصحاب الخمر.

وقال خُصَيْفٌ، عن مِقْسَمٍ، عن ابن عباس: «أَزْوَاجَهُمْ»: نساءهم.

وهذا غريب، والمعروف عنه الأول، كما رواه مجاهد وسعيد بن جبیر، عنه: «أَزْوَاجَهُمْ»: قرناءهم ^(٦).

«وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» أى: من الأصنام والأنداد، تحشر معهم فى أماكنهم.

وقوله: «فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ» أى: أرشدوهم إلى طريق جهنم، وهذا كقوله تعالى: «وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عَمِيَائًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا» [الإسراء: ٩٧].

وقوله: «وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ» أى: قفّوهم حتى يسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التى صدرت عنهم فى الدار الدنيا كما قال الضحّاك، عن ابن عباس: يعنى احبسوهم إنهم محاسبون.

وقال ابن أبى حاتم ^(٧): حدثنا أبى، حدثنا الثّفلّى، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعت ليثاً يُحدّث عن بشر، عن أنس بن مالك [رضى الله عنه] ^(٨) قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى شَيْءٍ كَانَ مَوْقُوفًا مَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يَغَادِرُهُ وَلَا يَفَارِقُهُ، وَإِنْ دَعَا رَجُلٌ رَجُلًا»، ثم قرأ: «وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ».

ورواه الترمذى، من حديث ليث بن أبى سليم ^(٩). ورواه ابن جرير، عن يعقوب بن إبراهيم، عن معتمر، عن ليث، عن رجل، عن أنس مرفوعاً ^(١٠).

وقال عبد الله بن المبارك: سمعت عثمان بن زائدة يقول: إن أول ما يُسأل عنه الرجل جلساؤه، ثم يقال لهم على سبيل التقرير والتوبيخ: «مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ» أى: كما ^(١١) زعمتم أنكم جميع منتصر، «بَلْ هُمَ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ» أى: منقادون لأمر الله، لا يخالفونه ولا يحدون عنه.

(١) زيادة من ت.

(٢) زيادة من ت.

(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (٣١/٢٣).

(٤) فى س: «أصحاب».

(٥) فى ت، س، أ: «أصحاب».

(٦) فى س: «قرباؤهم».

(٧) فى ت: «الترمذى».

(٨) سنن الترمذى برقم (٣٢٢٨).

(٩) سنن الترمذى برقم (٣٢٢٨).

(١٠) تفسير الطبرى (٣٢/٢٣).

(١١) فى ت: «كلما».

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَأَنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧)﴾ .

يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة، كما يتخاصمون في دركات النار، ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨] . وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ ^(١) مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلُ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣] . قالوا لهم ها هنا: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس: يقولون: كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا؛ لأننا ^(٢) كنا أذلاء وكنتم أعزاء .

وقال مجاهد: يعنى: عن الحق، الكفار تقوله ^(٣) للشياطين .

وقال قتادة: قالت الإنس للجن: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ قال: من قبل الخير، فتنهونا عنه وتبطئونا عنه .

وقال السدى: تأتوننا [عن اليمين] ^(٤) من قبل الحق، تزينون ^(٥) لنا الباطل، وتصدونا عن الحق .

وقال الحسن فى قوله: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ إى والله، يأتية عند كل خير يريد فيصده عنه .

وقال ابن زيد: معناه تحولون بيننا وبين الخير، ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذى أمرنا به .

وقال يزيد الرشك: من قبل «لا إله إلا الله» . وقال خُصيف: يعنون من قبل ميامنهم . وقال

(٣) فى ت: «بقوله» .

(٢) فى أ: «لأننا» .

(١) فى ت، س: «المجرمون» .

(٥) فى أ: «وتزينوا» .

(٤) زيادة من أ .

عكرمة: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾، قال: من حيث أنامكم.

وقوله: ﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾: تقول القادة من الجن، والإنس للاتباع: ما الأمر كما ترعمون؟ بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان، قابلة للكفر والعصيان، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ^(١) مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أى: من حجة على صحة ما دعوناكم إليه، ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَآغِينَ﴾ أى: بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق؛ فلهذا استجبتم لنا وتركتم الحق الذى جاءكم به الأنبياء، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاؤوكم به، فخالفتموهم.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ . فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾، يقول الكبراء للمستضعفين: حقت علينا كلمة الله^(٢): إِنَّا مِنَ الْأَشْقِيَاءِ الذَّاغِقِينَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾ أى: دعوناكم إلى الضلالة، ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ أى: دعوناكم^(٣) إلى ما نحن فيه، فاستجبتم لنا، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أى: الجميع فى النار، كل بحسبه، ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ . إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ أى: فى الدار الدنيا ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى: يستكبرون أن يقولوها، كما يقولها المؤمنون.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى، حدثنا الليث، عن ابن مسافر - يعنى عبد الرحمن بن خالد - عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله، وأنزل الله فى كتابه - وذكر قوما استكبروا - فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾»^(٤).

وقال^(٥) ابن أبى حاتم أيضا: حدثنا أبى، حدثنا أبو سلمة موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن سعيد الجريرى، عن أبى العلاء قال: يؤتى باليهود يوم القيامة فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: الله وعزيراً. فيقال لهم: خذوا ذات الشمال، ثم يؤتى بالنصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: نعبد الله والمسيح. فيقال لهم: خذوا ذات الشمال. ثم يؤتى بالمشركون فيقال لهم: «لا إله إلا الله»، فيستكبرون. ثم يقال لهم: «لا إله إلا الله»، فيستكبرون. ثم يقال لهم: «لا إله إلا الله»، فيستكبرون. فينطلقون أسرع من الطير - قال أبو العلاء: ثم يؤتى بالمسلمين فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد الله. فيقال لهم: هل تعرفونه إذا رأيتموه؟ فيقولون: نعم. فيقال لهم: فكيف تعرفونه ولم تروه؟ قالوا: نعم أنه لا عدل له. قال: فيتعرف لهم تبارك وتعالى، وينجى الله المؤمنين.

(١) فى ت: «لكم علينا».

(٢) فى ت: «دعوناكم».

(٣) فى ت: «دعوناكم».

(٤) وقد رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢١) بدون ذكر الآية من طريق يونس عن الزهرى به.

(٥) فى ت: «وروى».

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ أى: أنحن^(١) نترك عبادة آلِهتنا وآلهة آبائنا عن قول [هذا]^(٢) الشاعر المجنون، يعنون رسول الله ﷺ؟! قال الله تعالى تكذبا لهم، وردا عليهم: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾، يعنى رسول الله ﷺ جاء بالحق فى جميع شرعة^(٣) الله له من الإخبار والطلب، ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أى: صدقهم فيما أخبروه^(٤) عنه من الصفات الحميدة، والمناهج السديدة، وأخبر عن الله فى شرعه [وقدره]^(٥) وأمره كما أخبروا، ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية [فصلت: ٤٣].

﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهِ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥) بَيَّضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (٤٩)﴾.

يقول تعالى مخاطباً للناس: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ . وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين، كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ١-٣].

وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٤-٦]، وقال: ﴿وَأِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا . ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المدرثر: ٣٨، ٣٩]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أى: ليسوا يذوقون العذاب الأليم، ولا يناقشون فى الحساب، بل يتجاوز عن سيئاتهم، إن كان لهم سيئات، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، إلى ما يشاء الله من التضعيف.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ قال قتادة، والسدى: يعنى الجنة. ثم فسره بقوله تعالى: ﴿فَوَاكِهَةٍ﴾ أى: متنوعة ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ أى: يُخدمون [ويرزقون]^(٦) ويرفهن وينعمون، ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ قال مجاهد: لا ينظر بعضهم فى قفا بعض.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يحيى بن عبدك^(٧) القزوينى، حدثنا حسان بن حسان^(٨)، حدثنا إبراهيم ابن بشر^(٩)، حدثنا يحيى بن معين، حدثنا إبراهيم القرشى، عن سعيد بن شرحبيل، عن زيد بن أبى أوفى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فتلا هذه الآية: ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ ينظر بعضهم إلى بعض.

(٣) فى أ: «ما شرعه».

(٦) زيادة من أ.

(٩) فى أ: «بشير».

(٢) زيادة من ت، س.

(٥) زيادة من ت، أ.

(٨) فى أ: «حبان».

(١) فى ت: «نحن».

(٤) فى ت، س: «أخبروا».

(٧) فى أ: «عبد الله».

وقوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ بَيِّضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ لَا يُصْذَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ﴾ [الواقعة: ١٧ - ١٩]، فتره الله خمر الآخرة^(٢) عن الآفات التي في خمر الدنيا، من صداع الرأس ووجع البطن - وهو الغول - وذهابها بالعقل جملة، فقال هاهنا: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ﴾ أى: بخمر من أنهار جارية، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها.

قال مالك، عن زيد بن أسلم: خمر جارية^(٣) بيضاء، أى: لونها مشرق حسن بهى لا كخمر الدنيا فى منظرها البشع الردىء، من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة^(٤)، إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم.

وقوله: ﴿لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ أى: طعمها طيب كلونها، وطيب الطعم دليل على طيب الريح، بخلاف خمر الدنيا فى جميع ذلك.

وقوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ يعنى: لا تؤثر فيهم غولا - وهو وجع البطن. قاله مجاهد، وقتادة، وابن زيد - كما تفعله خمر الدنيا من القولنج ونحوه، لكثرة مائيتها.

وقيل: المراد بالغول هاهنا: صداع الرأس. وروى هكذا عن ابن عباس.

وقال قتادة: هو صداع الرأس، ووجع البطن. وعنه، وعن السدى: لا تغتال عقولهم، كما قال الشاعر:

فَمَا زَالَتْ الْكَأْسُ تُغْتَالُنَا وَتَذْهَبُ بِالْأَوَّلِ الْأَوَّلِ^(٥) (٦)

وقال سعيد بن جبیر: لا مكروه فيها ولا أذى. والصحيح قول مجاهد: أنه وجع البطن.

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ قال مجاهد: لا تذهب عقولهم، وكذا قال ابن عباس، ومحمد بن كعب، والحسن، وعطاء بن أبى مسلم الخراسانى، والسدى، وغيرهم.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: فى الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول. فذكر الله خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال، كما ذكر فى سورة «الصافات»^(٧).

وقوله: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أى: عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن. كذا قال ابن

(١) ورواه البخارى فى التاريخ الكبير (٣/٣٨٦) فى ترجمة زيد بن أبى أوفى من طريق حسان بن حسان به، وقال: «لا يتابع عليه».

(٢) فى ت، س: «الجنة». (٣) فى ت، س: «جارية». (٤) فى ت: «كدورة».

(٥) فى ت: «فالاول».

(٦) البيت فى تفسير الطبرى (٢٣/٣٥).

(٧) فى ت: «والصافات».

عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وقتادة، والسدى، وغيرهم.

وقوله: ﴿عَيْنٌ﴾ أى: حسان الأعين. وقيل: ضخام الأعين. وهو يرجع إلى الأول، وهى النجلاء العيناء، فوصف عيونهن بالحسن والعفة، كقول زليخا فى يوسف حين جملته وأخرجته على تلك النسوة، فأعظمته وأكبرنه، وظن أنه ملك من الملائكة لحسنه وبهاء منظره، قالت: ﴿فَدَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] أى: هو مع هذا الجمال عفيف تقى نقى، [فأترتهن جماله الظاهر وأخبرتهن بجماله الباطن] ^(١). وهكذا الحور العين ﴿خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠]، ولهذا قال: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطُّرْفِ عَيْنٍ﴾.

وقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾: وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، رضى الله عنهما: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ يقول: اللؤلؤ المكنون.

وينشد هاهنا بيت أبى دهيل الشاعر فى قصيدة له:

وَهى زَهْرَاءُ مِثْلَ لَوْلُؤَةِ الْغَوِّ اص مِيَزَتْ مِنْ جَوْهَرِ مَكْنُونٍ ^(٢)

وقال الحسن: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ يعنى: محصون ^(٣) لم تمسه الأيدى.

وقال السدى: البيض فى عشه مكنون.

وقال سعيد بن جبیر: ﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ ^(٤) بَيْضٌ مَكْنُونٌ، يعنى: بطن البيض ^(٥).

وقال عطاء الخراسانى: هو السحاء الذى يكون بين قشرته العليا ولباب البيضة.

وقال السدى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ يقول: بياض البيض حين ينزع قشره. واختاره ابن جرير

لقوله: ﴿مَكْنُونٌ﴾، قال: والقشرة العليا يسها جناح الطير والعش، وتناولها الأيدى بخلاف داخلها، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، حدثنا محمد بن الفرج الصدقى

الدمياطى، عن عمرو بن هاشم، عن ابن أبى كريمة، عن هشام، عن الحسن، عن أمه، عن أم سلمة ^(٦)، رضى الله عنها، قلت ^(٧): يا رسول الله، أخبرنى عن قول الله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ ^(٨)

قال: «رقتن كركة الجلدة التى رأيتها فى داخل البيضة، التى تلى القشر، وهى الغرقى» ^(٩).

(١) زيادة من ت.

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٣٧/٢٣).

(٣) فى ت: «مصون».

(٤) زيادة من ت.

(٥) فى ت: «العين».

(٦) فى ت: «وروى ابن جرير بإسناده عن أم سلمة».

(٧) فى ت: «عنها قالت: قلت».

(٨) فى ت، س: «أخبرنى عن قول الله: ﴿حور عين﴾ قال: «العين: الضخام العيون، شفر الحوراء مثل جناح النسر». قلت: يا رسول الله، أخبرنى عن قول الله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾.

(٩) تفسير الطبرى (٣٧/٢٣) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣٦٧/٢٣) حدثنا بكر بن سهل الدمياطى حدثنا عمرو بن هاشم به، قال الهيثمى فى المجمع (١١٩/٧): «فيه سليمان بن أبى كريمة ضعفه أبو حاتم وابن عدى».

وقال^(١) ابن أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا أبو غسان النهدي، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن ليث، عن الربيع بن أنس، عن أنس، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا حزنوا، وأنا شفيعهم إذا حبسوا، لواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي عز وجل ولا فخر، يطوف على ألف خادم كأنهن البيض المكنون - أو: اللؤلؤ المكنون»^(٢).

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَأُنْكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلَعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) ﴾.

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، أى: عن أحوالهم، وكيف كانوا فى الدنيا، وماذا كانوا يعانون فيها؟ وذلك من حديثهم على شرايبهم^(٣)، واجتماعهم فى تنادهم وعشرتهم فى مجالسهم، وهم جلوس على السرر، والخدم بين أيديهم، يسعون ويجيئون بكل خير عظيم، من مأكّل ومشارب وملابس، وغير ذلك مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ قال مجاهد: يعنى شيطاناً.

وقال العوفى، عن ابن عباس: هو الرجل المشرك، يكون له صاحب من أهل الإيمان فى الدنيا.

ولا تنافى بين كلام مجاهد، وابن عباس؛ فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس فى النفس، ويكون من الإنس فيقول كلاماً تسمعه الأذان، وكلاهما متعاديان^(٤)، قال الله تعالى: ﴿ يُوْحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢]. وكل منهما يوسوس، كما قال^(٥) تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلَهِ النَّاسِ ﴾^(٦). مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ . الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ [سورة الناس]؛ ولهذا ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ . يَقُولُ أَأُنْكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴾ أى: أأنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء! يعنى: يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد، والكفر والعناد، ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَدِينُونَ ﴾ قال مجاهد، والسدى: لمحاسبون؟ وقال ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظى: لمجزيون بأعمالنا؟

(١) فى ت: «وروى».

(٢) ورواه البيهقى فى دلائل النبوة (٤٨٣/٥) من طريق منصور بن أبى الأسود عن ليث عن الربيع بن أنس به، ثم رواه من طريق حبان بن على عن ليث عن عبيد الله بن زحر عن الربيع عن أنس به، وقال: «تابعه - أى الليث - محمد بن فضيل عن عبيد الله بن زحر».

(٣) فى أ: «سراتهم». (٤) فى ت، س: «متعاونان». (٥) فى ت: «قال الله تعالى».

(٦) زيادة من ت، س، أ.

قال: ﴿ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴾ أى: مشرفون. يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة. ﴿ فَاطَّلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾. قال ابن عباس، وسعيد بن جبیر، وخلیل العصری وقتادة، والسدى، وعطاء الخراسانی [وغيرهم]^(١): يعنى فى وسط الجحيم.

وقال الحسن البصرى: فى وسط الجحيم كأنه شهاب يتقد.

وقال قتادة: ذكر لنا أنه اطلع فرأى جماجم القوم تغلى. وذكر لنا أن كعب الأخبار قال: فى الجنة كوى إذا أراد أحد من أهلها أن ينظر إلى عدوه فى النار اطلع فيها، فازداد شكرا.

﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ تُرْذِنُ ﴾، يقول المؤمن مخاطبا للكافر: والله إن كدت لتهلكنى لو أطعته، ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِّينَ ﴾ أى: ولولا فضل الله على لكنت مثلك فى سواء الجحيم حيث أنت، محضر معك فى العذاب، ولكنه تفضل [على]^(٢) ورحمنى فهدانى للإيمان، وأرشدنى إلى توحيده، ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقوله: ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾، هذا من كلام المؤمن مغبطا نفسه بما أعطاه الله من الخلد فى الجنة^(٣) والإقامة فى دار الكرامة، لا موت فيها ولا عذاب؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

قال^(٤) ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبد الله الطهرانى، حدثنا حفص بن عمر العدنى، حدثنا الحكم ابن أبان، عن عكرمة قال: قال ابن عباس، رضى الله عنهما، فى قول الله تبارك وتعالى لأهل الجنة: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور: ١٩]، قال ابن عباس، رضى الله عنهما: قوله: ﴿ هَنِيئًا ﴾ أى: لا يموتون^(٥) فيها. فعندها قالوا: ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾.

وقال الحسن البصرى: علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه، فقالوا: ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾، قيل [لهم]^(٦): لا. قالوا: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

وقوله: ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ قال قتادة: هذا من كلام أهل الجنة.

وقال ابن جرير: هو من كلام الله تعالى، ومعناه: لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون فى الدنيا، ليصيروا إليه فى الآخرة^(٧).

وقد ذكروا قصة رجلين كانا شريكين فى بنى إسرائيل، تدخل فى ضمن عموم هذه الآية الكريمة.

قال أبو جعفر بن جرير: حدثنى إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد، حدثنا عتاب بن بشير، عن خصيف، عن فرات بن ثعلبة البهرانى فى قوله: ﴿ إِنِّى كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ قال: إن رجلين كانا

(٣) فى ت: «فى الجنة من الخلد».

(٢) زيادة من س، أ.

(١) زيادة من ت.

(٦) زيادة من ت، أ.

(٥) فى ت، س: «لا تموتون».

(٤) فى ت: «روى».

(٧) تفسير الطبرى (٢٣/ ٤٠).

شريكين، فاجتمع لهما ثمانية آلاف دينار، وكان أحدهما له حرفة، والآخر ليس له حرفة، فقال الذي له حرفة للآخر: ليس عندك حرفة، ما أراني إلا مفارقك ومقاسمك، فقاسمه وفارقه، ثم إن الرجل اشترى داراً بألف دينار كانت للملك، مات، فدعا صاحبه فأراه فقال: كيف^(١) ترى هذه الدار؟ ابتعتها بألف دينار؟ قال: ما أحسنها! فلما خرج قال: اللهم، إن صاحبي ابتاع^(٢) هذه الدار بألف دينار، وإنني أسألك داراً من دور الجنة، فتصدق بألف دينار، ثم مكث ما شاء الله أن يمكث، ثم إنه تزوج بامرأة^(٣) بألف دينار، فدعا وصنع له طعاماً. فلما أتاه قال: إنني تزوجت امرأة بألف دينار. قال: ما أحسن هذا! فلما انصرف قال: يارب، إن صاحبي تزوج امرأة بألف دينار، وإنني أسألك امرأة من الحور العين. فتصدق بألف دينار، ثم إنه مكث ما شاء الله أن يمكث. ثم اشترى بستانين بألفي دينار، ثم دعاه فأراه فقال: إنني ابتعت هذين البستانين^(٤). فقال: ما أحسن هذا! فلما خرج قال: يارب، إن صاحبي قد اشترى بستانين بألفي دينار، وأنا أسألك بستانين في الجنة. فتصدق بألفي دينار، ثم إن الملك أتاهما فتوفاهما، ثم انطلق بهذا المتصدق، فأدخله داراً تعجبه، وإذا امرأة تطلع يضيء ما تحتها من حسناتها، ثم أدخله بستانين وشيئاً الله به عليم^(٥)، فقال عند ذلك: ما أشبه هذا برجل كان من أمره كذا وكذا. قال: فإنه ذاك، ولك هذا المنزل والبستانان والمرأة. قال: فإنه كان لي صاحب يقول: أئتلك لمن المصدقين؟ قيل له: فإنه في الجحيم. قال: هل أنتم مطلعون؟ فاطلع فرآه في سواء الجحيم. فقال عند ذلك: ﴿تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينَ. وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ الآيات.

قال ابن جرير: وهذا يقوى قراءة من قرأ: «أئتلك لمن المصدقين» بالتشديد.

وقال^(٦) ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عمر بن عبد الرحمن الأبار أبو حفص قال: سألت إسماعيل السدي عن هذه الآية: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ. يَقُولُ أَتِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾؟ قال: فقال لي: ما ذكرك هذا؟ قلت: قرأته آنفاً فأحببت أن أسألك عنه؟ فقال: أما فاحفظ، كان شريكاً في بني إسرائيل، أحدهما مؤمن والآخر كافر، فافترقا على ستة آلاف دينار، كل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار، فمكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت في مالك؟ أضربت به شيئاً؟ أتجرت به في شيء؟ فقال له المؤمن: لا، فما صنعت أنت؟ فقال: اشتريت به أرضاً ونخلاً وثماراً وأنهاراً^(٧) قال: فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم. فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلي، فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه، ثم قال: اللهم إن فلانا - يعني شريكه الكافر - اشترى أرضاً ونخلاً وثماراً وأنهاراً بألف دينار، ثم يموت غداً ويتركها، اللهم إنني اشتريت منك بهذه الألف دينار^(٨) أرضاً ونخلاً وثماراً وأنهاراً في الجنة. قال: ثم أصبح فقسمها في المساكين. قال: ثم مكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر

(٣) في ت، س: «امرأة».

(٦) في ت: «وروى».

(٢) في ت، س: «إن صاحبي هذا قد ابتاع».

(٥) في ت: «وفيها ما الله به عليم».

(٨) في س: «الدينار».

(١) في ت، س: «فكيف».

(٤) في ت، أ: «البستانين بألفي دينار».

(٧) في ت، س: «وأنهار بألف دينار».

للمؤمن: ما صنعت فى مالك، أضربت به فى شىء؟ أتجرت به فى شىء؟ قال: لا، فما صنعت أنت. قال: كانت ضيعتى قد اشتد على مؤنتها، فاشتريت رقيقا بألف دينار، يقومون بى^(١) فيها، ويعملون لى فيها. فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم. قال: فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلى، فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه، ثم قال: اللهم إن فلانا - يعنى شريكه الكافر - اشترى رقيقا من رقيق الدنيا بألف دينار، يموت غدا ويتركهم، أو يموتون فيتركونه، اللهم، وإنى أشتري منك بهذه الألف الدينار رقيقا فى الجنة. ثم أصبح فقسمها فى المساكين. قال: ثم مكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت فى مالك؟ أضربت به فى شىء؟ أتجرت به فى شىء؟ قال: لا، فما صنعت أنت؟ قال: أمرى كله قد تم إلا شيئا واحدا، فلانة قد مات عنها زوجها، فأصدقتها ألف دينار، فجاءتنى بها ومثلها معها. فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم. فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلى، فلما انصرف أخذ الألف الدينار الباقية، فوضعها بين يديه، وقال: اللهم إن فلانا - يعنى شريكه الكافر - تزوج زوجة من أزواج الدنيا^(٢)، فيموت غدا فيتركها، أو يموت فتتركه، اللهم وإنى أخطب إليك بهذه الألف الدينار^(٣) حوراء عينا فى الجنة. ثم^(٤) أصبح فقسمها بين المساكين. قال: فبقى المؤمن ليس عنده شىء. قال: فلبس قميصا من قطن، وكساء من صوف، ثم أخذ مَرًّا فجعله على رقبتة، يعمل الشىء ويحفر الشىء بقوته. قال: فجاءه رجل فقال: يا عبد الله، أتؤاجرني نفسك مشاهرة، شهرا بشهر، تقوم على دواب لى تعلقها وتكنس سرفينها؟ قال: نعم. قال: فواجره نفسه مشاهرة، شهرا بشهر، يقوم على دوابه. قال: فكان صاحب الدواب يغدو كل يوم ينظر إلى دوابه، فإذا رأى منها دابة ضامرة، أخذ برأسه فوجأ عنقه، ثم يقول له: سرقت شعير هذه^(٥) البارحة؟ فلما رأى المؤمن هذه الشدة قال: لآتين شريكى الكافر، فلأعملن فى أرضه فيطعمنى هذه الكسرة يوما^(٦)، ويكسونى هذين الثوبين إذا بليا. قال: فانطلق يريده، فلما انتهى إلى بابه وهو ممس، فإذا قصر مشيد فى السماء، وإذا حوله البوابون، فقال لهم: استأذنوا لى^(٧) صاحب هذا القصر، فإنكم إذا فعلتم سره ذلك، فقالوا له: انطلق إن كنت صادقا فتم فى ناحية، فإذا أصبحت فتعرض له. قال: فانطلق المؤمن، فألقى نصف كسائه تحته، ونصفه فوقه، ثم نام. فلما أصبح أتى شريكه فتعرض له، فخرج شريكه الكافر وهو راكب، فلما رآه عرفه فوقف عليه وسلم عليه وصافحه، ثم قال له: ألم تأخذ من المال مثل ما أخذت؟ قال: بلى وهذه حالى^(٨) وهذه حالك. قال: أخبرنى ما صنعت فى مالك؟ قال: لا تسألنى عنه. قال: فما جاء بك؟ قال: جئت أعمل فى أرضك هذه، فتطعمنى هذه الكسرة يوما بيوم، وتكسونى هذين الثوبين إذا بليا. قال: لا، ولكن أصنع بك ما هو خير من هذا، ولكن لا ترى منى خيرا حتى تخبرنى ما صنعت فى مالك؟ قال: أقرضته: قال: من؟ قال: الملىء الوفى. قال: من؟ قال: الله ربى. قال: وهو

(١) فى ت، س، أ: «لى». (٢) فى ت، س: «الدنيا بألف دينار». (٣) فى ت: «دينار». (٤) فى ت، س: «قال: ثم». (٥) فى ت: «هذه الدابة». (٦) فى ت، س: «يوما بيوم». (٧) فى ت، س: «لى على». (٨) فى ت: «حالى».

مصافحه، فانتزع يده من يده، ثم قال: ﴿أَنْتَكَ لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ. أَنْذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتَا لَمَدِينُونَ﴾ - قال السدى: محاسبون - قال: فانطلق^(١) الكافر وتركه. قال: فلما رآه المؤمن ليس يلوى عليه، رجع وتركه، يعيش المؤمن فى شدة من الزمان، ويعيش الكافر فى رخاء من الزمان. قال: فإذا كان يوم القيامة وأدخل الله المؤمن الجنة، يمر فإذا هو بأرض ونخل وثمار وأنهار، فيقول: لمن هذا^(٢)؟ فيقال: هذا لك. فيقول: يا سبحان الله! أو بلغ من فضل عملى أن أتاب بمثل هذا؟! قال: ثم يمر فإذا هو برقيق لا تحصى عدتهم، فيقول: لمن هذا؟ فيقال: هؤلاء لك. فيقول: يا سبحان الله! أو بلغ من فضل عملى أن أتاب بمثل هذا؟! قال: ثم يمر فإذا هو بقبة من ياقوتة حمراء مجوفة، فيها حوراء عيناء، فيقول: لمن هذه؟ فيقال: هذه لك. فيقول: يا سبحان الله! أو بلغ من فضل عملى أن أتاب بمثل هذا؟! قال: ثم يذكر المؤمن شريكه الكافر فيقول: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ. يَقُولُ أَنْتَكَ لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ. أَنْذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتَا لَمَدِينُونَ﴾ قال: فالجنة عالية، والنار هابوية. قال: فيريه الله شريكه فى وسط الجحيم، من بين أهل النار، فإذا رآه المؤمن عرفه، فيقول: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ تُتْرَدِينَ. وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ. أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ. إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ : بمثل ما^(٣) من عليه. قال: فيتذكر المؤمن ما مر عليه فى الدنيا من الشدة، فلا يذكر مما مر عليه فى الدنيا من الشدة، أشد عليه من الموت^(٤).

﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئَاسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَا كَلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) .

يقول الله تعالى: أهذا الذى ذكره^(٥) من نعيم الجنة وما فيها من مأكول ومشارب ومناكح وغير ذلك من الملاذ - خير ضيافة وعطاء ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾؟ أى: التى فى جهنم.

وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة معينة، كما قال بعضهم من أنها شجرة تمتد فروعها إلى جميع محال جهنم كما أن شجرة طوبى ما من دار فى الجنة إلا وفيها منها غصن.

وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر، يقال له: الزقوم، كقوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةٌ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٌ لِلْأَكْلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، يعنى الزيتون. ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمَكِيدُونَ. لَا كَلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زَقُّومٍ﴾ [الواقعة: ٥١، ٥٢].

وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾، قال قتادة: ذكرت شجرة الزقوم، فافتتن بها أهل الضلالة،

(١) فى ت، س: «وانطلق».

(٢) فى أ: «هذه».

(٣) فى ت، س: «ما قد».

(٤) وهذا من أخبار بنى إسرائيل التى لا يعتمد عليها.

وقالوا: صاحبكم ينبئكم أن فى النار شجرة، والنار تأكل الشجر، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ غدت من النار، ومنها خلقت.

وقال مجاهد: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾، قال أبو جهل - لعنه الله -: إنما الزقوم التمر والزبد أتزقمه.

قلت: ومعنى الآية: إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اختباراً تختبر^(١) به الناس، من يصدق منهم ممن يكذب، كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

وقوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أى: أصل منبتها فى قرار النار، ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ تبشيع [لها]^(٢) وتكرية لذكرها.

قال وهب بن منبه: شعور الشياطين قائمة إلى السماء.

وإنما شبهها برؤوس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين؛ لأنه قد استقر فى النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر.

وقيل: المراد بذلك ضرب من الحيات، رؤوسها بشعة المنظر.

وقيل: جنس من النبات، طلعه فى غاية الفحاشة.

وفى هذين الاحتمالين نظر، وقد ذكرهما ابن جرير، والأول أقوى وأولى، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَاكُلُونَ مِنْهَا فَمَا لُتُونَ مِنْهَا الْبُطُونُ﴾، ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التى لا أبشع منها، ولا أقبح من منظرها، مع ما هى عليه من سوء الطعم والريح والطبع، فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها، لأنهم لا يجدون إلا إياها، وما^(٣) فى معناها، كما قال [تعالى]^(٤): ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ لَا يَسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٦، ٧].

وقال ابن أبى حاتم، رحمه الله: حدثنا أبى، حدثنا عمرو بن مرزوق، حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية، وقال: «اتقوا الله حق تقاته، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت فى بحار الدنيا، لأفسدت على أهل الأرض معاشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟».

ورواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، من حديث شعبة^(٥)، وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ قال ابن عباس: يعنى شرب الحميم على الزقوم.

(١) فى ت، س: «تختبر».

(٢) زيادة من ت، س، أ.

(٣) فى ت، س: «أو ما هو».

(٤) زيادة من ت، س.

(٥) سنن الترمذى برقم (٢٥٨٥) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٠٧٠) وسنن ابن ماجه برقم (٤٣٢٥).

وقال فى رواية عنه: ﴿شَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾: مزجا من حميم.

وقال غيره: يعنى يمزج لهم الحميم بصديد وغساق، مما يسيل من فروجهن وعيونهن.

وقال^(١) ابن أبى حاتم، حدثنا أبى، حدثنا حيوة بن شريح الحضرمى، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد، عن صفوان بن عمرو، أخبرنى عبيد الله بن بسر^(٢) عن^(٣) أبى أمانة الباهلى، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ، أنه كان يقول: «يقرب - يعنى إلى أهل النار - ماء فيتكرهه، فإذا أدنى منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه فيه^(٤). فإذا شربه قطع أمعاء حتى تخرج من دبره^(٥)».

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عمرو بن رافع، حدثنا يعقوب بن عبد الله، عن جعفر وهارون بن عنترة^(٦)، عن سعيد بن جبير قال: إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم، فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم [فيها]^(٧)، فلو أن مارا يمر بهم يعرفهم لعرف وجوههم فيها، ثم يصب عليهم العطش، فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل - وهو الذى قد انتهى حره - فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التى قد سقطت عنها الجلود، ويصهر ما فى بطونهم، فيمشون تسيل أمعاؤهم وتتساقط جلودهم، ثم يضربون بمقامع من حديد، فيسقط كل عضو على حياله، يدعون بالشبور.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أى: ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لإِلَى نارٍ تتأجج، وجحيم تنوقد، وسعير تنوهج، فتارة فى هذا وتارة فى هذا، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]. هكذا تلا قتادة هذه الآية عند هذه الآية، وهو تفسير حسن قوى.

وقال السدى فى قراءة عبد الله: «ثم إن مقيلمهم لإلى الجحيم» وكان عبد الله يقول: والذى نفسى بيده لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة فى الجنة، وأهل النار فى النار. ثم قرأ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

وروى الثورى، عن ميسرة، عن المنهال بن عمرو، عن أبى عبيدة، عن عبد الله قال: لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء ويقيل هؤلاء. قال سفيان: أراه، ثم قرأ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾، «ثم إن مقيلمهم لإلى الجحيم».

قلت: على هذا التفسير تكون «ثم» عاطفة لخبر على خبر.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ أى: إنما جازيناهم بذلك لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك، من غير دليل ولا برهان؛ ولهذا قال: ﴿فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يَهْرَعُونَ﴾ قال

(٣) فى ت: «بإسناده».

(٢) فى س، أ: «بشير».

(١) فى ت: «وروى».

(٤) فى ت، أ: «فروة رأسه فى فيه».

(٥) ورواه أحمد فى مسنده (٢٦٥/٥) والحاكم فى المستدرک (٣٥١/٢) من طريق عبد الله بن المبارك عن صفوان بن عمرو به.

(٧) زيادة من ت.

(٦) فى ت: «وروى أيضا بإسناده».

مجاهد: شبيهة بالهرولة. وقال سعيد بن جبير: يسفهنون.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤)﴾ .

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أخرى. وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين، يندرون بأس الله، ويحذرونهم سطوته ونقمته، ممن كفر به وعبد غيره، وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم. فأهلك المكذبين ودمرهم، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم؛ ولهذا قال: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ . إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ .

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ (٨٢)﴾ .

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة، شرع يبين ذلك مفصلاً، فذكر نوحاً، عليه السلام، وما لقي من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة، [فإنه] ^(١) لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة، فدعى ربه أنى مغلوب فانتصر، فغضب الله لغضبه عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ أي: فلنعم المجيبون ^(٢) له، ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، وهو التكذيب والأذى، ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ قال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس يقول: لم تبق إلا ذرية نوح عليه السلام.

وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ قال: الناس كلهم من ذرية نوح [عليه السلام] ^(٣) .

وقد روى الترمذی، وابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث سعيد بن بشير، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾، قال: «سام، وحام، ويافث» .

وقال ^(٤) الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة؛ أن نبي الله ﷺ قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم» .

ورواه الترمذی عن بشر بن معاذ العقدي، عن يزيد بن زريع، عن سعيد - وهو ابن أبي عروبة -

(٣) زيادة من ت، أ.

(٢) في ت، س، أ: «المجيبون كنا له» .

(١) زيادة من ت.

(٥) في ت: «النبي» .

(٤) في ت: «وروى» .

قال الحافظ أبو عمر بن عبد البر: وقد روى عن عمران^(٢) بن حصين، عن النبي ﷺ مثله^(٣). والمراد بالروم هاهنا: هم الروم الأول، وهم اليونان المنتسبون إلى رومي بن ليطى بن يونان بن يافث ابن نوح، عليه السلام. ثم روى من حديث إسماعيل بن عياش، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: ولد نوح ثلاثة: سام وحام ويافث، وولد كل واحد من هذه الثلاثة ثلاثة، فولد سام العرب وفارس والروم، وولد يافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج، وولد حام القبط والسودان والبربر. وروى عن وهب بن منبه نحو هذا^(٤)، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾، قال ابن عباس: يذكر بخير.

وقال مجاهد: يعنى لسان صدق للأنبياء كلهم.

وقال قتادة والسدى: أبقى الله عليه الثناء الحسن فى الآخرين. قال الضحاك: السلام والثناء الحسن.

وقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ مفسر لما أبقي عليه من الذكر الجميل والثناء الحسن أنه يسلم عليه فى جميع الطوائف والأمم.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: هكذا نجزي من أحسن من العباد فى طاعة الله، نجعل له لسان صدق يذكر به بعده بحسب مرتبته فى ذلك.

ثم قال: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: المصدقين الموحدين الموقنين، ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ أى: أهلكناهم، فلم تبق^(٦) منهم عين تطرف، ولا ذكر لهم ولا عين ولا أثر، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة.

﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَتُفَكُّ آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) .

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ يقول: من أهل دينه. وقال مجاهد: على منهاجه وسنته.

﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قال ابن عباس: يعنى: شهادة أن لا إله إلا الله.

(١) المسند (٩/٥) وسنن الترمذى برقم (٣٩٣١) وقال الترمذى: «هذا حديث حسن».

(٢) فى س: «عمر».

(٣) حديث عمران بن حصين: رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٤٦/١٨) من طريق سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن عمران بن حصين وسمرة بن جندب به.

(٤) فى ت: «مثله». (٥) فى ت، س: «يجعل». (٦) فى ت، أ: «يقى».

وقال ^(١)ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن عوف: قلت لمحمد بن سيرين: ما القلب السليم؟ قال: يعلم ^(٢)أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور.

وقال الحسن: سليم من الشرك، وقال عروة: لا يكون لعانا.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾: أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد؛ ولهذا قال: ﴿أَنْفَكَا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ . فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . قال قتادة: [يعنى] ^(٣): ما ^(٤)ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟!

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) .

إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك؛ ليقيم فى البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنه كان قد أزف خروجهم إلى عيد لهم، فأحب أن يختلى بآلهتهم فيكسرهما، فقال لهم كلاما هو حق فى نفس الأمر، فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه، ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكر: نظر فى النجوم: يعنى قتادة: أنه نظر فى ^(٥)السماء متفكرا فيما يليهم ^(٦)به، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أى: ضعيف.

فأما الحديث الذى رواه ابن جرير هاهنا: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو أسامة، حدثنى هشام، عن محمد، عن أبي هريرة ^(٧)؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، غير ثلاث كذبات: ثنتين فى ذات الله، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقوله فى سارة: هى أختى» ^(٨). فهو حديث مخرج فى الصحاح ^(٩) والسنن من طرق ^(١٠)، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقى الذى يذم فاعله، حاشا وكلا وإنما أطلق الكذب على هذا

(٣) زيادة من س، أ.

(٢) فى ت: «تعلم».

(١) فى ت: «وروى».

(٦) فى س: «يكيدهم».

(٥) فى ت، س: «إلى».

(٤) فى ت: «فما».

(٧) فى ت: «فأما الحديث الذى رواه البخارى وأهل السنن عن أبي هريرة»

(٨) تفسير الطبرى (٤٥/٢٣) ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٣٧٤) من طريق حماد بن أسامة به.

(٩) فى ت: «الصحیح».

(١٠) جاء من طريق أيوب عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة: رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٠٨٤) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٣٧١) من طريق جرير بن حازم به، ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٣٥٨) من طريق حماد بن زيد به. وجاء من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة: رواه الترمذى فى السنن برقم (٣١٦٦) من طريق محمد بن إسحاق به، ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٣٧٥) من طريق شعيب بن أبي حمزة به.

تجوزا، وإنما هو من المعارض في الكلام لمقصد شرعى دينى، كما جاء فى الحديث: «إن [فى]»^(١) المعارض لمدوحة عن الكذب»^(٢).

وقال^(٣) ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان، عن على بن زيد بن جدعان، عن أبى نضرة^(٤)، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ فى كلمات إبراهيم الثلاث التى قال: «ما منها كلمة إلا ما حمل بها عن دين الله تعالى، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾»، وقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾»، وقال للملك حين أراد المرأة: «هى أختى»^(٥).

قال سفيان فى قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ يعنى: طعين. وكانوا يفرون من المطعون، فأراد أن يخلو بآلهتهم. وكذا قال العوفى، عن ابن عباس: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ. فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾، فقالوا له وهو فى بيت آلهتهم: اخرج. فقال: إني مطعون، فتركوه مخافة الطاعون.

وقال قتادة، عن سعيد بن المسيب: رأى نجما طلع فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ كابد نبي الله عن دينه^(٦) ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

وقال آخرون: فقال^(٧): ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ بالنسبة إلى ما يستقبل، يعنى: مرض الموت.

وقيل: أراد ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أى: مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله عز وجل.

وقال الحسن البصرى: خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم، فأرادوه على الخروج، فاضطجع على ظهره وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وجعل ينظر فى السماء، فلما خرجوا أقبل إلى آلهتهم فكسرها. رواه ابن أبى حاتم.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ أى: إلى عيدهم، ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهِمْ﴾ أى: ذهب إليها بعد أن خرجوا فى سرعة واختفاء، ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاما قربانا لتبرك لهم فيه.

قال السدى: دخل إبراهيم، عليه السلام، إلى بيت الآلهة، فإذا هم^(٨) فى بهو عظيم، وإذا مستقبل باب البهو صنم عظيم، إلى جنبه [صنم آخر]^(٩) أصغر منه، بعضها إلى جنب بعض، كل صنم يليه أصغر منه، حتى بلغوا باب البهو، وإذا هم قد جعلوا طعاما وضعوه بين أيدي الآلهة، وقالوا: إذا كان حين نرجع وقد بركت الآلهة فى طعامنا أكلنا، فلما نظر إبراهيم، عليه السلام، إلى ما بين أيديهم من الطعام قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ . مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾؟!

(١) زيادة من ت، س، أ.

(٢) رواه البيهقى فى السنن الكبرى (١٠٠/١٩٩) من طريق داود بن الزبرقان عن سعيد عن قتادة عن زرارة عن عمران بن الحصين مرفوعاً.

ورواه أيضاً من طريق عبد الوهاب بن عطاء عن سعيد عن قتادة عن مطرف عن عمران بن الحصين موقوفاً وقال: «هذا هو الصحيح موقوفاً».

(٣) فى ت: «وروى».

(٤) فى ت: «بإسناده».

(٥) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣١٤٨) حدثنا ابن أبى عمر عن سفيان به فذكر حديث الشفاعة مطولاً، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح» وعلى بن زيد بن جدعان أجمع الأئمة على ضعفه.

(٦) فى ت، أ: «ذنبه».

(٧) فى ت، س: «أراد».

(٨) فى أ: «هن».

(٩) زيادة من ت، أ.

وقوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾: قال الفراء: معناه مال عليهم ضربا باليمين.

وقال قتادة والجوهري: فأقبل عليهم ضربا باليمين.

وإنما ضربهم باليمين لأنها أشد وأنكى؛ ولهذا تركهم جزاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون، كما تقدم في سورة الأنبياء تفسير ذلك.

وقوله هاهنا: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ﴾: قال مجاهد وغير واحد: أى يسرعون.

وهذه القصة هاهنا مختصرة، وفي سورة الأنبياء مبسطة، فإنهم لما رجعوا ما عرفوا من أول وهلة من فعل ذلك حتى كشفوا واستعلموا، فعرفوا أن إبراهيم، عليه السلام، هو الذى فعل ذلك. فلما جاؤوا ليعاتبوه أخذ فى تأنيبهم وعيبتهم، فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾؟! أى: أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم؟! ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ يحتمل أن تكون «ما» مصدرية، فيكون تقدير الكلام: والله خلقكم وعملكم. ويحتمل أن تكون بمعنى «الذى» تقديره: والله خلقكم والذى تعملونه. وكلا القولين متلازم، والأول أظهر؛ لما رواه البخارى فى كتاب «أفعال العباد»، عن على بن المدنى، عن مروان^(١) بن معاوية، عن أبى مالك، عن ربيع بن حراش، عن حذيفة مرفوعا قال: «إن الله يصنع كل صانع وصنعتة»^(٢). وقرأ بعضهم: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر، فقالوا: ﴿ابْنُوا لَهُ بَنِينَ فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ وكان من أمرهم ما تقدم بيانه فى سورة الأنبياء، ونجاه الله من النار وأظهره عليهم، وأعلى حجته ونصرها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣) ﴿

يقول تعالى مخبرا عن خليله إبراهيم [عليه السلام]^(٣): أنه بعد ما نصره الله على قومه وأيس من

(١) فى ت، س: «هارون».

(٢) خلق أفعال العباد (ص ٧٣).

(٣) زيادة من ت، س.

إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة، هاجر من بين أظهرهم، وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ . رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني: أولادا مطيعين عوضاً من قومه وعشيرته الذين فارقهم. قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام، فإنه أول ولد بشر به إبراهيم، عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم أن إسماعيل وُلِدَ لإبراهيم، عليه السلام، ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمر إبراهيم تسع وتسعون سنة. وعندهم أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيداً، وفي نسخة: بكره، فأقحموا هاهنا كذباً وبهتاناً «إسحاق»، ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا «إسحاق» لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم، فزادوا ذلك وحرّفوا وحيدك، بمعنى الذي ليس عندك غيره، فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى جنب^(١) مكة . وهذا تأويل وتحريف باطل، فإنه لا يقال: «وحيد» إلا لمن ليس له غيره، وأيضاً فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار.

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكى ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة أيضاً، وليس ذلك في كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تلقى إلا عن أخبار أهل الكتاب، وأخذ ذلك مسلماً من غير حجة. وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾. ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ [هود: ٧١]، أي: يولد له في حياتهما ولد يسمى يعقوب، فيكون من ذريته عقب ونسل. وقد قدمنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير؛ لأن الله [تعالى]^(٢) قد وعدهما بأنه سيعقب، ويكون له نسل، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيراً، وإسماعيل وصف هاهنا بالحلم؛ لأنه مناسب لهذا المقام.

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أي: كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه. وقد كان إبراهيم، عليه السلام، يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد «فاران» وينظر في أمرهما، وقد ذكر أنه كان يركب على البراق سريعاً إلى هناك، فالله أعلم.

وعن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبّير، وعطاء الخراساني، وزيد بن أسلم، وغيرهم: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ يعني: شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل، ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قال عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وحى، ثم تلا هذه الآية: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدثنا أبو عبد الملك الكرندي، حدثنا

(٢) زيادة من ت.

(١) في ت: «حيث».

سفيان بن عيينة، عن إسرائيل بن يونس، عن سَمَاح، عن عكرمة^(١)، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رؤيا الأنبياء في المنام وَحْيٌ» ليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه^(٢).

وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه من صغره على طاعة الله وطاعة أبيه.

﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أى: امض لما أمرك^(٣) الله من ذبحي، ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ أى: سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل. وصدق، صلوات الله وسلامه عليه، فيما وعد؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا. وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥]. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أى: فلما تشهدا وذكرنا الله تعالى^(٤): إبراهيم على الذبح والولد على شهادة الموت. وقيل: ﴿أَسْلَمَا﴾، [يعنى]^(٥): استسلما وانقادا؛ إبراهيم امتثل أمر الله، وإسماعيل طاعة الله وأبيه. قاله مجاهد، وعكرمة والسدى، وقتادة، وابن إسحاق، وغيرهم.

ومعنى ﴿تَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أى: صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه، ليكون أهون عليه، قال ابن عباس، ومجاهد^(٦)، وسعيد بن جبیر، والضحاك، وقتادة: ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾: أكبه على وجهه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيْج^(٧) ويونس قالوا: حدثنا حماد بن سلمة، عن أبي عاصم الغنوي، عن أبي الطفيل^(٨)، عن ابن عباس أنه قال: لما أمر إبراهيم بالناسك^(٩) عَرَضَ له الشيطان عند السعى، فسابقه فسابقه إبراهيم، ثم ذهب به جبريل إلى جمره العقبة، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمره الوسطى فرماه بسبع حصيات، وثُمَّ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ، وعلى إسماعيل قميص أبيض، فقال له: يا أبت، إنه ليس لى ثوب تكفني فيه غيره، فاخلعه حتى تكفني فيه. فعالجه ليخلعه، فتودى من خلفه: ﴿أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا﴾، فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين. قال ابن عباس: لقد رأينا نتبع ذلك الضرب من الكباش.

وذكر تمام الحديث فى «المناسك» بطوله^(١٠). ثم رواه أحمد بطوله عن يونس، عن حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبیر^(١١)، عن ابن عباس، فذكر نحوه إلا أنه قال: «إسحاق»^(١٢). فعن ابن عباس فى تسمية الذبيح^(١٣) روايتان، والأظهر عنه إسماعيل، لما سيأتى بيانه.

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده».

(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٦/١٢) من وجه آخر عن سماك: فرواه من طريق الفريابى عن سفيان عن سماك بن حرب عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس به.

(٣) فى أ: «أنزل». (٤) فى ت، س، أ: «عز وجل». (٥) زيادة من ت، وفى أ: «بمعنى».

(٦) فى ت: «ومجاهد وغيرهما». (٧) فى أ: «شريح». (٨) فى ت: «بإسناده».

(٩) فى أ: «لما أمر الله إبراهيم عليه السلام بالمناسك».

(١٠) المسند (٢٩٧/١).

(١١) فى ت: «بسند».

(١٢) المسند (٣٠٦/١).

(١٣) فى أ: «الذبيح».

وقال محمد بن إسحاق، عن الحسن بن دينار، عن قتادة، عن جعفر بن إياس، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ قال: خرج عليه كبش من الجنة. قد رعى قبل ذلك أربعين خريفاً، فأرسل إبراهيم ابنه واتبع الكبش، فأخرجه إلى الجمرة الأولى، فرماه بسبع حصيات فأفلته عندها، فجاء الجمرة الوسطى فأخرجه عندها، فرماه بسبع حصيات ثم أفلته^(١) فأدركه عند الجمرة الكبرى، فرماه بسبع حصيات فأخرجه عندها. ثم أخذه، فأتى به المنحر من منى فذبحه، فوالذي نفس ابن عباس بيده لقد كان أول الإسلام، وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه في ميزاب الكعبة قد حش^(٢)، يعني: ييس.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، أخبرنا القاسم قال: اجتمع أبو هريرة وكعب، فجعل أبو هريرة يحدث عن النبي ﷺ، وجعل كعب يحدث عن الكُتُب، فقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «إن لكل نبي دعوة مستجابة، وإنني قد خبأتُ دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة». فقال له كعب: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: فذاك أبي وأمي - أو: فذاه أبي وأمي - أفلا أخبرك عن إبراهيم عليه السلام؟ إنه لما أرى ذبح ابنه إسحاق قال الشيطان: إن لم أفتن هؤلاء عند هذه لم أفتنهم أبداً. فخرج إبراهيم بابنه ليذبحه، فذهب الشيطان فدخل على سارة، فقال: أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت: غدا به لبعض حاجته. قال: لم يغد حاجة، وإنما ذهب به ليذبحه. قالت: وكم يذبحه؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك. قالت: فقد أحسن أن يطيع ربه. فذهب الشيطان في أثرهما فقال للغلام: أين يذهب بك أبوك؟ قال: لبعض حاجته. قال^(٣): إنه^(٤) لا يذهب بك لحاجة، ولكنه يذهب بك ليذبحك. قال: ولم يذبحني؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك. قال: فوالله لئن كان الله أمره بذلك ليفعلن. قال: فيئس منه فليحق^(٥) بإبراهيم، فقال: أين غدوت بابنك؟ قال: لحاجة. قال: فإنك لم تغد به لحاجة، وإنما غدوت به لتذبحه قال: وكلم أذبحه؟ قال: تزعم أن ربك أمرك بذلك. قال: فوالله لئن كان الله أمرني^(٦) بذلك لأفعلن. قال: فتركه ويئس أن يطاع^(٧).

وقد رواه ابن جرير عن يونس، عن ابن وهب، عن يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، أن عمرو ابن أبي سفيان بن أسيد^(٨) بن جارية الثقفي أخبره، أن كعباً قال لأبي هريرة... فذكره بطوله، وقال في آخره: وأوحى الله إلى إسحاق أني أعطيتك دعوة أستجيب لك فيها. قال إسحاق: اللهم، إنني أدعو^(٩) أن تستجيب لي: أيما عبد لقيك من الأولين والآخرين، لا يشرك بك شيئاً، فأدخله الجنة^(١٠).

(٣) في أ: «فقال».

(٢) في س: «وشح».

(١) في س: «فأفلته».

(٥) في ت، س: «فيئس منه فتركه فليحق».

(٤) في س: «فإنه».

(٦) في أ: «كان أمرني ربي».

(٧) تفسير عبد الرزاق (٢/١٢٣).

(٨) في أ: «أسد».

(٩) في ت، س: «أدعوك».

(١٠) تفسير الطبري (٢٣/٥٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عطاء بن يسار^(١)، عن أبي هريرة [رضى الله عنه]^(٢) قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خيرني بين أن يغفر لنصف أمتي، وبين أن أختبئ شفاعتي، فاخترت شفاعتي، ورجوت أن تكفر الجحيم^(٣) لأمتي، ولولا الذي سبقني إليه العبد الصالح لتعجلت فيها دعوتي، إن الله لما فرج عن إسحاق كرب الذبح قيل له: يا إسحاق، سَلْ تُعْطَ. فقال: أما والذي نفسي بيده لا تعجلنها قبل نزغات الشيطان، اللهم من مات لا يشرك بك شيئا فاغفر له وأدخله الجنة».

هذا حديث غريب منكر^(٤). وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف الحديث، وأخشى أن يكون في الحديث زيادة مُدْرَجَة، وهى قوله: «إن الله تعالى لما فرج عن إسحاق» إلى آخره، والله أعلم. فهذا إن كان محفوظاً فالأشبه أن السياق إنما هو عن «إسماعيل»، وإنما حرفوه بإسحاق؛ حسداً منهم كما تقدم، وإلا فالمناسك والذبايح إنما محلها بمنى من أرض مكة، حيث كان إسماعيل لا إسحاق [عليهما السلام]^(٥)، فإنه إنما كان ببلاد كنعان من أرض الشام.

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقَ الرُّءْيَا﴾ أى: قد حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح.

وذكر السدى وغيره أنه أمر السكين على رقبته فلم تقطع شيئاً، بل حال بينها وبينه صفيحة من نحاس، ونودى إبراهيم، عليه السلام، عند ذلك: ﴿قَدْ صَدَّقَ الرُّءْيَا﴾.

وقوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجا ومخرجاً، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقد استدل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل، خلافاً لطائفة من المعتزلة، والدلالة من هذه ظاهرة، لأن الله تعالى شرع لإبراهيم ذبح ولده، ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء، وإنما كان المقصود من شرعه أولاً إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده وعزمه على ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ أى: الاختبار الواضح الجلى؛ حيث أمر بذبح ولده، فسارع إلى ذلك مستسلماً لأمر الله، منقاداً لطاعته؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧].

(١) فى ت: «وروى ابن أبي حاتم بإسناده».

(٢) زيادة من ت.

(٣) فى أ: «أن تكون أعم».

(٤) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٣٦٠٣) وابن عدى فى الكامل (٢٧٢/٤) من طريق الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم به، وذكره ابن أبي حاتم فى العلل (٢١٩/٢) وقال: «سألت أبى، فقال: هذا حديث منكر».

(٥) زيادة من أ.

وقوله: ﴿وَقَدْ يَنَافُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ قال سفيان الثوري، عن جابر الجعفي، عن أبي الطفيل، عن علي، رضي الله عنه: ﴿وَقَدْ يَنَافُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ قال: بكبش أبيض أعين أقرن، قد ربط بسمرة - قال أبو الطفيل وجدوه مربوطاً بسُمرَة في ثبير^(١).

وقال الثوري أيضاً، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يوسف بن يعقوب الصفار، حدثنا داود العطار، عن ابن خثيم^(٢)، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: الصخرة التي بمنى بأصل ثبير هي الصخرة التي ذبح عليها إبراهيم فداء ابنه، هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء، فذبحه، وهو الكبش الذي قرّبه ابن آدم فتقبل منه، فكان مخزوناً حتى فدى به إسحاق.

وروى أيضاً عن سعيد بن جبير أنه قال: كان الكبش يرتع في الجنة حتى تشقق عنه ثبير، وكان عليه عهن أحمر.

وعن الحسن البصري: أنه كان اسم كبش إبراهيم: جرير.

وقال ابن جرير: قال عبيد بن عمير: ذبحه بالمقام. وقال مجاهد: ذبحه بمنى عند المنحر^(٣). وقال هشيم، عن سيار، عن عكرمة؛ أن ابن عباس كان أفتى الذي جعل عليه نذراً أن ينحر نفسه، فأمره بمائة من الإبل. ثم قال بعد ذلك: لو كنت أفتيته بكبش لأجزأه أن يذبح كبشاً، فإن الله تعالى قال في كتابه: ﴿وَقَدْ يَنَافُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه فُدى بكبش. وقال الثوري، عن رجل، عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقَدْ يَنَافُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ قال: وعُلّ.

وقال محمد بن إسحاق، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن أنه كان يقول: ما فدى إسماعيل إلا بتيس من الأروى، أهبط عليه من ثبير^(٤).

وقد قال^(٥) الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا منصور، عن خاله مسافع^(٦)، عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرتنى امرأة من بنى سليم - وكلدت عامة أهل دارنا - أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان ابن طلحة - وقال^(٧) مرة: إنها سألت عثمان: لم دعاك النبي ﷺ؟ قال: قال: «إني كنت رأيتُ قرني الكبش، حين دخلت البيت، ففسيت أن أمرك أن تخمرهما، فخرهما، فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلى». قال سفيان: لم يزل قرنا الكبش معلقين^(٨) في البيت حتى احترق البيت، فاحترقا^(٩).

(٣) في أ: «النحر».

(٦) في أ: «شافع».

(٢) في أ: «خثيم».

(٥) في ت: «وروى».

(٨) في أ: «معلقة».

(١) في أ: «ثبين».

(٤) في أ: «ثبين».

(٧) في أ: «وقالت».

(٩) المسند (٤/٦٨).

وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل، عليه السلام، فإن قريشا توارثوا قرنى الكبش الذى فدى به إبراهيم^(١) خلفا عن سلف وجيلا بعد جيل، إلى أن بعث الله رسوله ﷺ.

فصل فى ذكر الآثار الواردة عن السلف فى أن الذبيح من هو؟

ذكر من قال : هو إسحاق [عليه السلام]^(٢):

قال حمزة الزيات، عن أبى ميسرة، رحمه الله، قال: قال يوسف، عليه السلام، للملك فى وجهه: ترغب أن تأكل معى، وأنا - والله - يوسف بن يعقوب نبى الله، ابن إسحاق ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله.

وقال الثورى، عن أبى سنان، عن ابن أبى الهذيل: إن يوسف، عليه السلام، قال للملك كذلك أيضا.

وقال سفيان الثورى، عن زيد بن أسلم، عن عبد الله بن عبيد بن عمير، عن أبيه قال: «قال موسى: يارب، يقولون: يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فبم قالوا ذلك؟ قال: إن إبراهيم لم يعدل بى شيء قط إلا اختارنى عليه. وإن إسحاق جاد لى بالذبح، وهو بغير ذلك أجود. وإن يعقوب كلما زده بلاء زادنى حسن ظن».

وقال شعبة، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص قال: افتخر رجل عند ابن مسعود فقال: أنا فلان بن فلان، ابن الأشياخ الكرام. فقال عبد الله: ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله [صلوات الله وسلامه عليهم]^(٣).

وهذا صحيح إلى ابن مسعود، وكذا روى عكرمة، عن ابن عباس أنه إسحاق. وعن أبيه العباس، وعلى بن أبى طالب مثل ذلك. وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والشعبي، وعبيد بن عمير، وأبو ميسرة، وزيد بن أسلم، وعبد الله بن شقيق، والزهرى، والقاسم بن أبى بزة، ومكحول، وعثمان بن حاضر، والسدى، والحسن، وقتادة، وأبو الهذيل، وابن سابط. وهو اختيار ابن جرير. وتقدم روايته عن كعب الأحبار أنه إسحاق.

وهكذا روى ابن إسحاق عن عبد الله بن أبى بكر، عن الزهرى، عن أبى سفيان بن العلاء بن جارية^(٤)، عن أبى هريرة، عن كعب الأحبار، أنه قال: هو إسحاق^(٥).

وهذه الأقوال - والله أعلم - كلها مأخوذة عن كعب الأحبار، فإنه لما أسلم فى الدولة العمرية جعل يحدث عمر، رضى الله عنه، عن كتبه، فربما استمع له عمر، رضى الله عنه، فترخص الناس فى استماع ما عنده، ونقلوا عنه غثها وسمينها، وليس لهذه الأمة - والله أعلم - حاجة إلى حرف

(٣) زيادة من ت.

(٢) زيادة من ت، س.

(١) فى ت: «إسماعيل».

(٤) فى أ: «والعلاء بن حارث».

(٥) ورواه الطبري فى تفسيره (٥٢/٢٣).

واحد مما عنده. وقد حكى البغوى هذا القول بأنه إسحاق عن عمر، وعلى، وابن مسعود، والعباس، ومن التابعين عن كعب الأحبار، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومسروق، وعكرمة، ومقاتل، وعطاء، والزهرى، والسدى - قال: وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس^(١).

وقد ورد فى ذلك حديث - لو ثبت لقلنا به على الرأس والعين، ولكن لم يصح سنده - قال ابن جرير:

حدثنا أبو كريب، حدثنا زيد بن حباب، عن الحسن بن دينار، عن على بن زيد بن جدعان، عن الحسن، عن الأحنف بن قيس، عن العباس بن عبد المطلب، عن النبى ﷺ فى حديث ذكره قال: هو إسحاق^(٢).

ففى إسناده ضعيفان^(٣)، وهما الحسن بن دينار البصرى، متروك. وعلى بن زيد بن جدعان منكر الحدث. وقد رواه ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن مسلم بن إبراهيم، عن حماد بن سلمة، عن على بن زيد بن جدعان، به مرفوعا^(٤). ثم قال: قد رواه مبارك بن فضالة، عن الحسن، عن الأحنف، عن العباس قوله، وهذا^(٥) أشبه وأصح.

[ذكر الآثار الواردة بأنه إسماعيل - عليه السلام - وهو الصحيح المقطوع به]^(٦):

قد تقدمت الرواية عن ابن عباس أنه إسحاق. قال سعيد بن جبير، وعامر الشعبى، ويوسف بن مهران، ومجاهد، وعطاء، وغير واحد، عن ابن عباس، هو إسماعيل عليه السلام.

وقال ابن جرير: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى عمرو بن قيس، عن عطاء بن أبى رباح^(٧)، عن ابن عباس أنه قال: المفدى إسماعيل، عليه السلام، وزعمت اليهود أنه إسحاق، وكذبت اليهود^(٨).

وقال إسرائيل، عن ثور، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: الذبيح إسماعيل.

وقال ابن أبى نجیح، عن مجاهد: هو إسماعيل. وكذا قال يوسف بن مهران.

وقال الشعبى: هو إسماعيل، عليه السلام، وقد رأيت قرنى الكبش فى الكعبة.

وقال^(٩) محمد بن إسحاق، عن الحسن بن دينار، وعمرو بن عبيد، عن الحسن البصرى: أنه كان لا يشك فى ذلك: أن الذى أمر بذبحه من ابنى إبراهيم إسماعيل.

قال ابن إسحاق: وسمعت محمد بن كعب القرظى وهو يقول: إن الذى أمر الله إبراهيم بذبحه

(١) معالم التنزيل للبغوى (٤٦/٧).

(٢) تفسير الطبرى (٥٢/٢٣).

(٣) فى ت: «لأن فى سنده ضعيفين».

(٤) فى ت: «مرفوعا قال: هو إسحاق».

(٥) فى ت: «وهو».

(٦) زيادة من ت، س.

(٧) فى ت: «وروى ابن جرير بإسناده».

(٨) تفسير الطبرى (٥٢/٢٣).

(٩) فى ت: «وروى».

من ابنه إسماعيل. وإنا لنجد ذلك في كتاب الله، وذلك أن الله حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾. يقول الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾، يقول: بابن وابن ابن، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من [الله] ^(١) الموعود بما وعده ^(٢)، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل.

وقال ابن إسحاق، عن بريدة بن سفيان بن فروة ^(٣) الأسلمي، عن محمد بن كعب القرظي أنه حدثهم؛ أنه ^(٤) ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام، فقال له عمر: إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه، وإنى لأراه كما قلت. ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام، كان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم، فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك - قال محمد ابن كعب: وأنا عند عمر بن عبد العزيز - فقال له عمر: أى ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإن يهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب، على أن يكون أباكم الذى كان من أمر الله فيه، والفضل الذى ذكره الله منه لصبره لما أمر به، فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنه إسحاق، بكون ^(٥) إسحاق أبوهم، والله أعلم أيهما كان، وكل قد كان طاهرا طيبا مطيعا لله عز وجل ^(٦).

وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: سألت أبا عن الزبيح، من هو؟ إسماعيل أو إسحاق؟ فقال: إسماعيل. ذكره في كتاب الزهد.

وقال ابن أبي حاتم: وسمعت أبا يقول: الصحيح أن الذبيح إسماعيل، عليه السلام. قال: وروى عن علي، وابن عمر، وأبي هريرة، وأبي الطفيل، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبيرة، والحسن، ومجاهد، والشعبي، ومحمد بن كعب القرظي، وأبي جعفر محمد بن علي، وأبي صالح أنهم قالوا: الذبيح إسماعيل.

وقال البغوي في تفسيره: وإليه ذهب عبد الله بن عمر، وسعيد بن المسيب، والسدي، والحسن البصري، ومجاهد، والربيع بن أنس، ومحمد بن كعب القرظي، والكلبي، وهو رواية عن ابن عباس، وحكاها أيضا عن أبي عمرو بن العلاء ^(٧).

وقد روى ابن جرير في ذلك حديثا غريبا فقال: حدثني محمد بن عمار الرازي، حدثنا إسماعيل ابن عبيد بن أبي كريمة، حدثنا عمر بن عبد الرحيم الخطابي، عن عبيد الله بن محمد العتبي - من ولد عتبة بن أبي سفيان - عن أبيه: حدثني عبد الله بن سعيد، عن الصنابحي قال: كنا عند معاوية بن

(١) زيادة من أ.

(٢) فى أ: «ما أوعده».

(٤) فى ت: «به».

(٦) رواه الطبري في تفسيره (٥٤/٢٣).

(٧) معالم التنزيل للبغوي (٤٧/٧).

(٣) فى أ: «بردة».

(٥) فى أ: «لأن».

أبى سفيان، فذكروا الذبيح: إسماعيل أو إسحاق؟ فقال: على الخبير^(١) سقطتم، كنا عند رسول الله ﷺ، فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، عُدْ على مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين. فضحك رسول الله ﷺ، فقيل له: يا أمير المؤمنين، وما الذبيحان؟ فقال: إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر الله إن سهل الله أمرها عليه، ليذبحن أحد ولده، قال: فخرج السهم على عبد الله، فمنعه أخواله وقالوا: افد ابنك بمائة من الإبل. ففداه بمائة من الإبل، وإسماعيل الثاني^(٢).

وهذا حديث غريب جدا. وقد رواه الأُموي في مغازيه: حدثنا بعض أصحابنا، أخبرنا إسماعيل ابن عبيد بن أبى كريمة، حدثنا عمر بن عبد الرحمن القرشي، حدثنا عبيد الله^(٣) بن محمد العتبي - من ولد عتبة بن أبى سفيان - حدثنا عبد الله بن سعيد، حدثنا الصنابحي قال: حضرنا مجلس معاوية، فتذاكر القوم إسماعيل وإسحاق، وذكره. كذا كتبه من نسخة مغلوطة^(٤).

وإنما عول ابن جرير في اختياره أن الذبيح إسحاق عليّ قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾، فجعل هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله: ﴿وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]. وأجاب عن البشارة بـيعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعى، أى العمل. ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضا. قال: وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة فمن الجائز أنهما نقلتا من بلاد الشام. قال: وقد تقدم أن من الناس من ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك. هذا ما اعتمد عليه في تفسيره، وليس ما ذهب إليه بمذهب ولا لازم، بل هو بعيد جدا، والذي استدلل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى، والله أعلم^(٥).

وقوله: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، لما تقدمت البشارة بالذبيح - وهو إسماعيل - عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق، وقد ذكرت في سورتي^(٦) «هود» و «الحجر»^(٧).

وقوله: ﴿نَبِيًّا﴾ حال مقدرة، أى: سيصير منه نبي من الصالحين.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عليّ، عن داود، عن عكرمة قال: قال ابن عباس، رضى الله عنهما: الذبيح إسحاق. قال: وقوله: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: بشر بنوته. قال: وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣] قال: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد: وهب له نبوته.

وحدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعت داود يحدث، عن عكرمة، عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: إنما بشر به نبيا حين فداه الله من الذبح، ولم تكن البشارة بالنبوة عند مولده^(٨).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان الثوري، عن داود، عن عكرمة،

(١) في س: «الخير».

(٢) تفسير الطبري (٥٤/٢٣).

(٣) في أ: «عبد الله».

(٤) في أ: «من نسخة كذا والله أعلم».

(٥) وقد حرر هذه المسألة الإمام ابن تيمية - رحمه الله - في الفتاوى. انظر المواضع في: الفهرس العام (٣٦/٣٢).

(٦) في ت: «سورة».

(٧) سورة هود، الآية: ٧١، وسورة الحجر، الآية: ٥٣.

(٨) تفسير الطبري (٥٧/٢٣).

عن ابن عباس: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: بشر به حين ولد، وحين نبى.

وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في قوله: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: بعد ما كان من أمره، لما جاد الله بنفسه، وقال الله: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾.

وقوله: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمَنْ ذُرِّيَّتَهُمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾، كقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨].

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢)﴾.

يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمد في حقهم من الإساءة العظيمة، من قتل الأبناء واستحياء النساء، واستعمالهم في أخس الأشياء. ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم، وأقر أعينهم منهم، فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمعوه طول حياتهم. ثم أنزل الله على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلى المستبين، وهو التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وقال هاهنا: ﴿وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ. وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أى: فى (١) الأقوال والأفعال، ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ أى: أبقينا لها (٢) من بعدهما ذكرا جميلا وثناء حسنا، ثم فسر بقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٣٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢)﴾.

قال (٣) قتادة، ومحمد بن إسحاق، يقال: إلياس هو إدريس.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو نعيم، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عبيدة ابن ربيعة (٤)، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، قال: إلياس هو إدريس. وكذا قال الضحاك.

(٢) فى ت، س: «لهما».

(٤) فى ت: «وقال ابن أبى حاتم بإسناده».

(١) فى أ: «من».

(٣) فى ت: «وروى».

وقال وهب بن منبه: هو إلياس بن ياسين^(١) بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران، بعثه الله في بنى إسرائيل بعد حزقيل، عليهما السلام، وكانوا قد عبدوا صنما يقال له: «بعل»، فدعاهم إلى الله، ونهاهم عن عبادة ما سواه. وكان قد آمن به ملكهم ثم ارتد^(٢)، واستمروا على ضلالتهم، ولم يؤمن به منهم أحد. فدعا الله عليهم، فحبس عنهم القطر ثلاث سنين، ثم سألوه أن يكشف ذلك عنهم، ووعدوه^(٣) الإيمان به إن هم أصابهم المطر. فدعا الله لهم، فجاءهم الغيث فاستمروا على أنحبث ما كانوا عليه من الكفر، فسأل الله أن يقبضه إليه. وكان قد نشأ على يديه اليسع بن أخطوب، عليه السلام، فأمر إلياس أن يذهب إلى مكان كذا وكذا، فمهما جاءه فليركبه ولا يهبه، فجاءته فرس من نار فركب^(٤)، وألبسه الله النور وكساه الريش، وكان يطير مع الملائكة ملكا إنسيا سماويا أرضيا، هكذا حكاه وهب عن أهل الكتاب، والله أعلم بصحته.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أى: ألا تخافون الله في عبادتكم غيره؟ ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدى: ﴿بَعْلًا﴾ يعنى: ربا. قال قتادة وعكرمة: وهى لغة أهل اليمن. وفى رواية عن قتادة قال: هى لغة أزد شنوءة. وقال ابن إسحاق: أخبرنى بعض أهل العلم أنهم كانوا يعبدون امرأة اسمها: «بعل». وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: هو اسم صنم كان يعبداه أهل مدينة يقال لها: «بعلبك»، غربى دمشق.

وقال الضحاك: هو صنم كانوا يعبدونه.

وقوله: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ أى: أتعبدون صنما؟ ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ. اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أى: هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أى للعذاب يوم الحساب، ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أى: الموحدين منهم. وهذا استثناء منقطع من مثبت.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أى: ثناء جميلا، ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ كما يقال فى إسماعيل: إسماعيلين. وهى لغة بنى أسد. وأنشد بعض بنى نمر فى ضب صاده.

يَقُولُ رَبُّ السُّوقِ لَمَّا جِئْنَا هَذَا وَرَبَّ الْبَيْتِ إِسْرَائِيلِيْنَا^(٥)

ويقال: ميكال، وميكائيل، وميكائين، وإبراهيم وإبراهام، وإسرائيل وإسرائين، وطور سيناء، وطور سينين. وهو موضع واحد، وكل هذا سائغ^(٦).

وقرأ آخرون: «سلام على إدراسين»، وهى قراءة عبد الله بن مسعود. وآخرون: «سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ»، يعنى: آل محمد ﷺ.

وقوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ قد تقدم تفسيره^(٧).

(١) فى ت: «شبي» وفى س: «تبي».

(٣) فى ت، س: «فوعدوه».

(٥) البيت فى تفسير الطبرى (٥٧/٢٣).

(٦) فى أ: «شائع».

(٢) فى ت: «ارتدوا».

(٤) فى ت، س: «فركبه».

(٧) فى ت: «كما تقدم من تفسيرها».

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنكُم لَتَمُرُونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط، عليه السلام، أنه بعثه إلى قومه فكذوبه، فنجاه الله من بين أظهرهم هو وأهله، إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها، فإن الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات، وجعل محلّتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح، وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرون ليلا ونهارا؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنكُم لَتَمُرُونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: أى: أفلا تعتبرون بهم، كيف دمر الله عليهم، وتعلمون أن للكافرين أمثالها؟

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبَثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَأَمْنُوا فَمَنْعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (١٤٨)﴾ .

قد تقدمت قصة يونس، عليه السلام، فى سورة الأنبياء. وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى ونسبه إلى أمه»^(١)، وفى رواية قيل: «إلى أبيه».

وقوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ قال ابن عباس: هو الموقر، أى: المملوء بالأمّعة. ﴿فَسَاهَمَ﴾ أى: قارع، ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أى: المغلوبين. وذلك أن السفينة تَلَعَبَتْ^(٢) بها الأمواج من كل جانب، وأشرفوا على الغرق، فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقى فى البحر، لتخف بهم السفينة، فوقع القرعة على نبي الله يونس، عليه الصلاة والسلام^(٣)، ثلاث مرات، وهم يضمنون^(٤) به أن يلقى من بينهم، فتجرد من ثيابه ليلقى نفسه وهم يأبون عليه ذلك. وأمر الله تعالى حوتا من البحر الأخضر أن يشق البحار، وأن يلتقم يونس، عليه السلام، فلا يَهْشِمُ له لحما، ولا يكسر له عظما^(٥). فجاء ذلك الحوت وألقى يونس، عليه السلام، نفسه، فالتقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلها. ولما استقر يونس فى بطن الحوت، حسب أنه قد مات، ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حى، فقام يصلى فى بطن الحوت، وكان من جملة دعائه: «يا رب، اتخذت لك مسجدا فى موضع لم يبلغه أحد من الناس» واختلفوا فى مقدار ما لبث فى بطن الحوت، فقيل: ثلاثة أيام، قاله قتادة. وقيل: جمعة^(٦)، قاله جعفر الصادق. وقيل: أربعين يوما، قاله أبو مالك.

(١) صحيح البخارى برقم (٣٣٩٥) وصحيح مسلم برقم (٢٣٧٧).

(٢) فى ت: «يظنون».

(٣) فى ت: «عليه السلام».

(٤) فى أ: «تلعب».

(٥) فى س: «فلا تهشم له لحما ولا تكسر له عظما».

(٦) فى ت، س، أ: «سبعة».

وقال مجالد^(١)، عن الشعبي: التقمه ضحى، وقذفه^(٢) عشية.

والله أعلم بمقدار ذلك. وفى شعر أمية بن أبى الصلت:

وَأَنْتَ بِفَضْلِ مَنْكَ نَجَّيْتَ يُونُسًا وَقَدْ بَاتَ فِي أَضْعَافِ حُوتٍ لَيَالِيَا^(٣)

وقوله: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، قيل: لولا ما تقدم له من العمل فى الرخاء. قاله الضحاك بن قيس، وأبو العالية، وهب بن منبه، وقتادة، وغير واحد. واختاره ابن جرير. وقد ورد فى الحديث الذى سنورده ما يدل على ذلك إن صح الخبر. وفى حديث عن ابن عباس: «تعرّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة»^(٤).

وقال ابن عباس، وسعيد بن جبّير، والضحاك، وعطاء بن السائب، والسدى، والحسن، وقتادة: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾، يعنى: المصلين.

وصرح بعضهم بأنه كان من المصلين قبل ذلك. وقال بعضهم: كان من المسبحين فى جوف أبويه. وقيل: المراد: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾، هو قوله: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]، قاله سعيد بن جبّير وغيره.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى، حدثنا أبو صخر^(٥): أن يزيد الرقاشى حدّثه: أنه سمع أنس بن مالك - ولا أعلم إلا أن أنسا يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ - «أن يونس النّبى ﷺ^(٦) حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات، وهو فى بطن الحوت، فقال: اللهم، لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين. فأقبلت الدعوة تحف بالعرش، قالت الملائكة: يا رب، هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة؟ فقال: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يا رب، ومن هو؟ قال: عبدى يونس. قالوا: عبدك يونس الذى لم يزل يرفع له عمل متقبل، ودعوة مستجابة؟ قالوا: يا رب، أو لا ترحم ما كان يصنع فى الرخاء فتنجّيه من البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوت فطرحه بالعرءاء».

ورواه ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب، به^(٧)^(٨). زاد ابن أبى حاتم: قال أبو صخر حميد ابن زياد: فأخبرنى ابن قُسيط وأنا أحدثه هذا الحديث: أنه سمع أبا هريرة يقول: طرح بالعرءاء، وأنبأ الله عليه اليقطينة. قلنا: يا أبا هريرة، وما اليقطينة، قال: شجرة الدباء. قال أبو هريرة: وهباً الله له أروية وحشية تأكل من خشاش الأرض - أو قال: هشاش الأرض - قال: فَتَفْتَشِحُ^(٩) عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت.

(١) فى ت: «مجاهد». (٢) فى أ: «ونقله».

(٣) البيت فى السيرة النبوية لابن هشام (٢٢٨/١).

(٤) سيأتى تخريجه عند الآية: ٣٨ من سورة الزمر.

(٥) فى ت: «بإسناده».

(٨) تفسير الطبرى (٦٤/٢٣).

(٩) فى ت، س: «تفتشخ».

(٧) بياض فى س.

(٦) فى ت، س: «عليه السلام».

وقال أمية بن أبى الصلت فى ذلك بيتا من شعره:

فَأَنْبَتَ يَقْطِينًا عَلَيْهِ بِرَحْمَةٍ
مِنَ اللَّهِ، لَوْلَا اللَّهُ أَلْفَى ضَاحِيًا^(١)

وقد تقدم حديث أبى هريرة مسنداً مرفوعاً فى تفسير سورة «الأنبياء»^(٢).

ولهذا قال تعالى: ﴿فَبَدَّنَاهُ﴾ أى: ألقيناه ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ قال ابن عباس، وغيره: وهى الأرض التى ليس بها نبت ولا بناء. قيل: على جانب دجلة. وقيل: بأرض اليمن. فالله أعلم.

﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أى: ضعيف البدن. قال ابن مسعود، رضى الله عنه: كهيئة الفرخ ليس عليه ريش. وقال السدى: كهيئة الصبى^(٣): حين يولد، وهو المنفوس. وقاله ابن عباس، وابن زيد أيضا.

﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾: قال ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ووهب بن منبه، وهلال بن يساف، وعبد الله بن طاوس، والسدى، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراسانى^(٤)، وغير واحد قالوا كلهم: اليقطين هو القرع.

وقال هُشَيْمٌ، عن القاسم بن أبى أيوب، عن سعيد بن جبير: كل شجرة لا ساق لها فهى من اليقطين.

وفى رواية عنه: كل شجرة تهلك من^(٥) عَامِهَا فهى من اليقطين.

وذكر بعضهم فى القرع فوائد، منها: سرعة نباته، وتظليل ورقه لكبره، ونعومته، وأنه لا يقربها الذباب، وجودة أغذية ثمره، وأنه يؤكل نيئاً ومطبوخاً بلبه وقشره أيضا. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يُحِبُّ الدُّبَاءَ، ويتبعه^(٦) من حَوَاشَى الصَّحْفَةِ^{(٧)(٨)}.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾: روى شهر بن حوشب، عن ابن عباس أنه قال: إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذه الحوت. رواه ابن جرير: حدثنى الحارث قال: حدثنا الحسن قال: حدثنا أبو^(٩) هلال، عن شهر، به.

وقال ابن أبى نَجِيجٍ، عن مجاهد: أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت.

قلت: ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولا، أمر بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت، فصدقوه كلهم وآمنوا به. وحكى البغوى أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت، كانوا مائة ألف أو يزيدون.

وقوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال ابن عباس - فى رواية عنه -: بل يزيدون، وكانوا مائة وثلاثين ألفا.

(١) البيت فى السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٢٨).

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.

(٣) فى أ: «الصبى يعنى».

(٤) فى ت: «وابن عباس وغيرهما من التابعين».

(٥) فى ت: «فى».

(٦) فى أ: «ويتبعه».

(٨) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٤٣٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه.

(٩) فى أ: «ابن».

وعنه: مائة ألف وبضعة وثلاثين ألفاً. وعنه: مائة ألف وبضعة وأربعين ألفاً.

وقال سعيد بن جبير: يزيدون سبعين ألفاً.

وقال مكحول: كانوا مائة ألف وعشرة آلاف. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الرحيم البرقي^(١)، حدثنا عمرو بن أبي سلمة قال: سمعت زهيراً عن سمع أبا العالية قال: حدثني أبي بن كعب: أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾، قال: «يزيدون عشرين ألفاً»^(٢).

ورواه الترمذي عن علي بن حجر، عن الوليد بن مسلم، عن زهير، عن رجل، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب، به، وقال: غريب. ورواه ابن أبي حاتم من حديث زهير، به^(٣).

قال ابن جرير: وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول في ذلك: معناه إلى المائة الألف^(٤)، أو كانوا يزيدون عندكم، يقول: كذلك كانوا عندكم.

وهكذا سلك ابن جرير هاهنا ما سلكه عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، وقوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٩] أن المراد ليس أنقص من ذلك، بل أزيد.

وقوله: ﴿فَآمَنُوا﴾ أي: فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس، عليه السلام، جميعهم. ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ أي: إلى وقت آجالهم، كقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُّونُسَ لَمَا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

﴿فَاسْتَفْتِهِمُ أَلَرَبُّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ (١٥٦) فَآتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠).

يقول تعالى منكرأ على هؤلاء المشركين في جعلهم لله البنات، سبحانه، ولهم ما يشتهون، أي: من الذكور، أي: يودون لأنفسهم الجيد. ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨] أي: يسوؤه ذلك، ولا يختار لنفسه إلا البنين. يقول تعالى: فكيف نسبوا إلى الله

(١) في أ: «الرقى».

(٢) تفسير الطبري (٦٧/٢٣).

(٣) سنن الترمذي برقم (٣٢٢٩).

(٤) في أ: «ألف».

[تعالى] ^(١) القسم الذى لا يختارونه لأنفسهم؟ ولهذا قال: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أى: سلهم على سبيل الإنكار عليهم: ﴿أَلَرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ كقوله: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾. تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴿ [النجم: ٢١، ٢٢].

وقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ أى: كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم؟ كقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩] أى: يسألون عن ذلك يوم القيامة.

وقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ أى: من كذبهم ﴿لَيَقُولُونَ﴾ وَلَدَ اللَّهُ أى: صدر منه الولد ﴿وَأِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، فذكر الله عنهم فى الملائكة ثلاثة أقوال فى غاية الكفر والكذب، فأولا جعلوهم بنات الله، فجعلوا لله ولداً. وجعلوا ذلك الولد أنثى، ثم عبدوهم من دون الله. وكل منها كاف فى التخليد فى نار جهنم.

ثم قال منكرا عليهم: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ أى: أى شىء يحمله عن ^(٢) أن يختار البنات دون البنين؟ كقوله: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠]؛ ولهذا قال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أى: ما لكم عقول تتدبرون بها ما تقولون؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾. أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ؟ أى: حجة على ما تقولونه، ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: هاتوا برهاناً على ذلك يكون مستنداً إلى كتاب مُنَزَّلٍ مِنَ السَّمَاءِ عَنِ اللَّهِ: أنه اتخذ ما تقولونه، فإن ما تقولونه لا يمكن استناده ^(٣) إلى عقل، بل لا يُجَوِّزُهُ الْعَقْلُ بِالْكَلِيَّةِ.

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِسْبًا﴾ قال مجاهد: قال المشركون: الملائكة بناتُ الله. فسأل أبو بكر، رضى الله عنه: فمن أمهاتهن؟ قالوا: بنات سرّوات الجن. وكذا قال قتادة، وابن زيد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾ أى: الذين نسبوا إليهم ذلك: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أى: إن الذين قالوا ذلك لمحضرون فى العذاب يوم الحساب لكذبهم فى ذلك وافترائهم، وقولهم الباطل بلا علم.

وقال العوفى: عن ^(٤) ابن عباس فى قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِسْبًا﴾ قال: زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى هو وإبليس أخوان. حكاه ابن جرير ^(٥).

وقوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أى: تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد، وعمّا يصفه به الظالمون الملحدون علواً كبيراً.

وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع، وهو من مثبت، إلا أن يكون الضمير فى قوله: ﴿عَمَّا يُصِفُونَ﴾ عائد إلى جميع الناس ثم استثنى منهم المخلصين، وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبي ومرسل. وجعل ابن جرير هذا الاستثناء من قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾. إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ، وفى هذا الذى قاله نظر.

(٢) فى أ: «على».

(١) زيادة من ت، أ.

(٤) فى ت: «وعن».

(٣) فى س: «إسناده».

(٥) تفسير الطبرى (٦٩/٢٣).

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكْفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠)﴾.

يقول تعالى مخاطبا للمشركين: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ . مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ . إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ أى: ما ينقاد^(١) لمقالكيم وما^(٢) أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة إلا من هو أضل منكم ممن ذرى للنار. ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. فهذا الضرب من الناس هو الذى ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ . يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ أَفْكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩] أى: إنما يضل به من هو مأفوك ومبطل.

ثم قال تعالى مُنْزَمًا للملائكة عما نَسَبُوا^(٣) إليهم من الكفر بهم والكذب عليهم أنهم بنات الله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ أى: له موضع مخصوص فى السماوات ومقامات العبادة^(٤) لا يتجاوزه ولا يتعداه^(٥).

وقال ابن عساكر فى ترجمته لمحمد بن خالد، بسنده إلى عبد الرحمن بن العلاء بن سعد^(٦)، عن أبيه - وكان ممن بايع يوم الفتح - أن رسول الله ﷺ قال يوما جلسائه: «أُطِّتَ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَنْتَطَّ، لَيْسَ فِيهَا مَوْضِعٌ قَدَّمَ إِلَّا عَلَيْهِ مَلِكٌ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ». ثم قرأ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾^(٧).

وقال الضحاك فى تفسيره: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ قال: كان مسروق يروى عن عائشة، رضى الله عنها، أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم». فذلك قوله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾^(٨).

وقال الأعمش، عن أبى إسحاق، عن مسروق: عن^(٩) ابن مسعود، رضى الله عنه، قال: إن فى السموات لسماء ما فيها موضع شبر إلا عليه جبهة ملك أو قدماء، ثم قرأ عبد الله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ . وكذا قال سعيد بن جبيرة.

وقال قتادة: كانوا يُصَلُّونَ الرجال والنساء جميعاً، حتى نزلت: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾، فتقدم الرجال وتأخر النساء.

(٣) فى أ: «نسبهم».

(٢) فى س: «ولما».

(١) فى أ: «منقاد».

(٦) فى أ: «سعيد».

(٥) فى س: «لا يتجاوزه ولا نتعداه».

(٤) فى ت، س، أ: «العبادات».

(٧) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٧٧/١٥) «القسم المخطوط».

(٨) ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (٥٠٨) والمرزى فى تعظيم قدر الصلاة برقم (٢٥٣) من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك به.

(٩) فى ت: «وعن».

﴿وَأَنَا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ أى: نقف صفوفاً فى الطاعة، كما تقدم عند قوله: ﴿وَالصَّافَاتِ صَفًّا﴾. قال ابن جرير، عن الوليد بن عبد الله بن أبى مغيث قال: كانوا لا يصفون فى الصلاة حتى نزلت: ﴿وَأَنَا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾، فصفوا.

وقال أبو نضرة: كان عمر إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه، ثم قال: أقيموا صفوفكم، استووا قياماً، يريد الله بكم هدى الملائكة، ثم يقول: ﴿وَأَنَا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾، تأخر يا فلان، تقدم يا فلان، ثم يتقدم فيكبر، رضى الله عنه. رواه ابن أبى حاتم، وابن جرير.

وفى صحيح مسلم عن حذيفة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بثلاث: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ مَسْجِداً، وَتَرَبَّعَتْهَا طَهُوراً» الحديث^(١).

﴿وَأَنَا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ أى: نصطف فنسبح الرب ونمجده ونقدسه ونزهره عن النقائص، فنحن عبيد له، فقراء إليه، خاضعون لديه.

وقال ابن عباس، ومجاهد: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾: الملائكة، ﴿وَأَنَا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾: الملائكة، ﴿وَأَنَا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾: الملائكة يسبحون الله عز وجل.

وقال قتادة: ﴿وَأَنَا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾، يعنى: المصلون، يثبتون^(٢) بمكانهم من العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلِداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ . وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٩].

وقوله: ﴿وَأَنَا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾. لو أن عندنا ذكراً من الأولين. لكننا عباد الله المخلصين﴾ أى: قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله، وما كان من أمر القرون الأولى، ويأتيهم بكتاب الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾ [فاطر: ٤٢]، وقال: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدَفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدَفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَكَفَرُوا بِهِ فَسُوفَ يَعْلَمُونَ﴾، وعيد أكيد وتهديد شديد، على كفرهم بربهم - سبحانه وتعالى - وتكذيبهم - رسوله ﷺ^(٣).

(١) سبق تخريجه فى أول السورة.

(٢) فى أ: «يثبتون» تسليمًا.

(٣) فى ت: «ينبون».

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَقْبِعْ عَذَابَنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩)﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ أى: تقدم فى الكتاب الاول أن العاقبة للرسول وأتباعهم فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة. كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم من كذبهم وخالفهم، وكيف أهلك الله الكافرين، ونجى عباده المؤمنين: ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أى: تكون لهم العاقبة. وقوله جل وعلا: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أى: اصبر على أذاهم لك، وانتظر إلى وقت مؤجل، فإننا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر؛ ولهذا قال بعضهم: غيى^(١) ذلك إلى يوم بدر. وما بعدها أيضاً فى معناها.

وقوله: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ أى: انظرهم وارقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال على مخالفتك^(٢) وتكذيبك؛ ولهذا قال على وجه التهديد والوعيد: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ . ثم قال عز وجل: ﴿أَقْبِعْ عَذَابَنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أى: هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم^(٣)، فإن الله يغضب عليهم بذلك، ويعجل لهم العقوبة، ومع هذا أيضاً كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أى: فإذا نزل العذاب بمحلتهم، فبئس ذلك اليوم يومهم، بإهلاكهم ودمارهم^(٤).

قال السدى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ يعنى: بدارهم، ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أى: فبئس ما يصبحون، أى: بئس الصباح صباحهم؛ ولهذا ثبت فى الصحيحين من حديث إسماعيل بن عُلَيَّةَ، عن عبد العزيز بن صُهَيْب، عن أنس، رضى الله عنه، قال: صَبَّحَ رسول الله ﷺ خبيراً، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش، رجعوا [وهم]^(٥) يقولون: محمد والله، محمد والخميس. فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، خربت خبير، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»^(٦).

ورواه البخارى من حديث مالك، عن حميد، عن أنس^(٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن أبى طلحة قال: لما صَبَّحَ رسول الله ﷺ خبيراً، وقد أخذوا مساحيهم وغَدَّوا إلى حروثهم

(١) فى أ: «عنا». (٢) فى ت، أ: «بمخالفتك». (٣) فى أ: «لتكذيبك وكفرهم بك».

(٤) فى أ: «وبإدمارهم». (٥) زيادة من أ.

(٦) صحيح البخارى برقم (٣٧١) وصحيح مسلم برقم (١٣٦٥).

(٧) صحيح البخارى برقم (٤١٩٧).

وأرضيهم، فلما رأوا النبي ﷺ ولوا^(١) مدبرين، فقال نبي الله ﷺ: «الله أكبر، الله أكبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»^(٢).

لم يخرجوه من هذه الوجه، وهو صحيح على شرط الشيخين.
وقوله: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ. وَأَبْصُرْ فَسَوْفَ يَصِيرُونَ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)﴾.

ينزه تعالى نفسه الكريمة ويقدها ويبرئها عما يقوله الظالمون المكذبون المعتدون - تعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً - ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾، أي: ذى العزة التى لا تُرَام، ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: عن قول هؤلاء المعتدين المفتريين، ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: سلام الله عليهم فى الدنيا والآخرة، لسلامة ما قالوه فى ربهم، وصحته وحقيقته^(٣)، ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: له الحمد فى الأولى والآخرة فى كل حال. ولما كان التسييح يتضمن التنزيه والتبرئة^(٤) من النقص بدلالة المطابقة، ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة، ويستلزم التنزيه من النقص - قرن بينهما فى هذا الموضع، وفى مواضع كثيرة من القرآن؛ ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ. وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سلمتم على فسلموا على المرسلين، فإنما أنا رسول من المرسلين».

هكذا رواه ابن جرير، وابن أبى حاتم، من حديث سعيد، عنه كذلك^(٥).

وقد أسنده ابن أبى حاتم، رحمه الله، فقال: حدثنا على بن الحسين بن الجنيد، حدثنا أبو بكر الأعمش، ومحمد بن عبد الرحيم صاعقة قالوا: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا شيان، عن قتادة قال: حدث أنس بن مالك، عن أبى طلحة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سلمتم على فسلموا على المرسلين»^(٦).

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمد بن أبى بكر، حدثنا نوح، حدثنا أبو هارون، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا سلم^(٧) قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ. وَسَلَامٌ عَلَى

(١) فى س، أ: «نكصوا».

(٢) المسند (٢٨/٢).

(٣) فى أ: «وحقيقته».

(٤) فى أ: «والتبرئة».

(٥) تفسير الطبرى (٧٤/٢٣).

(٦) ورواه ابن مردويه وابن سعد كما فى الدر المنثور (١٤٠/٧) من طريق سعيد عن قتادة عن أنس عن أبى طلحة به مرفوعا.

(٧) فى س، أ: «إذا أراد أن يسلم».

الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ ثم يسلم . إسناده ضعيف^(١) .

وقال^(٢) ابن أبي حاتم : حدثنا عمار بن خالد الواسطي ، حدثنا شبابة ، عن يونس بن^(٣) أبي إسحاق^(٤) ، عن الشعبي قال : قال رسول الله ﷺ : «من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة ، فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم : ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾»^(٥) .

وروى من وجه آخر متصل موقوف على^(٦) علي ، رضي الله عنه .

قال أبو محمد البغوي في تفسيره : أخبرنا أبو سعيد أحمد بن شريح ، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي ، أخبرني ابن فنجويه ، حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان ، حدثنا إبراهيم بن سهلويه ، حدثنا علي بن محمد الطنافسي ، حدثنا وكيع ، عن ثابت بن أبي صفية ، عن الأصبع بن نباتة ، عن علي ، رضي الله عنه ، قال : من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه في مجلسه : ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٧) .

وروى الطبراني من طريق عبد الله بن صخر بن أنس^(٨) ، عن عبد الله بن زيد بن أرقم ، عن أبيه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «من قال دبر كل صلاة : ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثلاث مرات ، فقد اكتال بالجريب الأوفى من الأجر»^(٩) .

وقد وردت أحاديث في كفارة المجلس : سبحانك اللهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك . وقد أفردت لها جزءا على حدة ، فلتكتب ها هنا إن شاء الله تعالى^(١٠) .

آخر تفسير سورة الصافات

(١) وفي إسناده عمارة بن جوين - أبو هارون العبدى - متروك الحديث ، ورواه أبو يعلى في مسنده (٣٦٣/٢) فقال : حدثنا إسحاق ، حدثنا حماد ، عن أبي هارون بنحوه .

(٢) في ت : «وروى» . (٣) في أ : «عن» . (٤) في ت : «بسند» .

(٥) وذكره السيوطي في الدر (١٤١/٧) ولم يعزه لغيره ، وهو مرسل .

(٦) في ت : «بسند» .

(٧) معالم التنزيل للبغوي (٦٦/٧) ورواه الواحدى في الوسيط (٥٣٦/٣) عن الأصبع بن نباتة به ، والأصبع بن نباتة ضعفه الأئمة .

(٨) في أ : «الأنسى» .

(٩) المعجم الكبير (٢١١/٥) من طريق عبد المنعم بن بشير عن عبد الله بن محمد الأنسى عن عبد الله بن زيد بن أرقم عن أبيه مرفوعا . قال الهيثمي في المجمع (١٠٣/١٠) : «فيه عبد المنعم بن بشير ، وهو ضعيف جدا» .

(١٠) كذا ولم أجد إثباته في النسخ ، والأحاديث التي وردت في كفارة المجلس جاءت عن جمع من الصحابة والتابعين وهم : ١ - أبو هريرة :

قال الترمذى في سننه برقم (٣٤٣٣) : أخبرنا أبو عبيدة بن أبي السفر الكوفي - أحمد بن عبد الله الهمداني - حدثنا حجاج بن محمد قال : قال ابن جريج : أخبرني موسى بن عقبة عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك» .

ورواه النسائي في السنن الكبرى برقم (١٠٢٣٠) ، والحاكم في المستدرک (٥٣٦/١) من طريق ابن جريج به ، وقال الترمذى : حسن صحيح ، وقال الحاكم : «إسناده على شرط مسلم إلا أن البخارى علله» .

قال الحافظ ابن كثير: «علله الإمام أحمد والبخارى ومسلم وأبو حاتم وأبو زرعة والدارقطني وغيرهم، ونسبوا الوهم فيه إلى ابن جريج»، على أن أبا داود قد رواه في سننه برقم (٤٨٥٨) من طريق عبد الرحمن بن أبي عمرو عن سعيد المقبري عن أبي هريرة بنحوه.

٢ - أبو برزة الأسلمي:

قال أبو داود في السنن برقم (٤٨٥٩): حدثنا محمد بن حاتم الجرجاني وعثمان بن أبي شيبة، أن عبدة بن سليمان أخبرهم عن الحجاج بن دينار عن أبي هاشم عن أبي العالية عن أبي برزة الأسلمي قال: كان رسول الله ﷺ يقول بأخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»، فقال رجل: يا رسول الله، إنك تقول قولاً ما كنت تقوله فيما مضى، قال: «كفارة لما يكون في المجلس»، ورواه النسائي في السنن الكبرى برقم (١٠٢٥٩)، والحاكم في المستدرک (٥٣٧/١) من طريق الحجاج بن دينار به.

٣ - رافع بن خديج:

قال النسائي في السنن الكبرى برقم (١٠٢٦٠): أخبرنا عبيد الله بن إبراهيم بن سعد قال: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا مصعب بن حيان - أخو مقاتل بن حيان - عن مقاتل بن حيان، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية الرياحي، عن رافع بن خديج قال: كان رسول الله ﷺ بأخرة إذا اجتمع إليه أصحابه فأراد أن ينهض قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»، عملت سوءاً، وظلمت نفسي، فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»، قال: فقلنا يا رسول الله، إن هذه كلمات أحدثهن؟ قال: «أجل جاءني جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، هن كفارات المجلس»، ورواه الحاكم في المستدرک (٥٣٧/١) من طريق يونس بن محمد به.

٤ - عبد الله بن عمرو بن العاص:

قال أبو داود في السنن برقم (٤٨٥٧): حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب قال: أخبرني عمرو أن سعيد بن هلال حدثه أن سعيد بن أبي سعيد المقبري حدثه عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: كلمات لا يتكلم بهن أحد في مجلسه عند قيامه ثلاث مرات إلا كفر بهن عنه، ولا يقولهن في مجلس خير ومجلس ذكر إلا ختم له بهن عليه كما يختم بالخاتم على الصحيفة: «سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك». هكذا رواه أبو داود موقوفاً، وقد رواه الطبراني من وجه آخر مرفوعاً، قال الهيثمي في المجمع (١٤٢/١٠): «وفيه محمد بن جامع العطار وثقه ابن حبان وضعفه جماعة، وبقيّة رجاله رجال الصحيح».

٥ - عبد الله بن مسعود:

قال الطبراني في المعجم الكبير (٢٠٣/١٠): حدثنا أحمد بن زهير التستري، حدثنا عثمان بن حفص التومني، حدثنا يحيى ابن كثير، عن عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كفارة المجلس أن يقول العبد: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا الله، أستغفرك وأتوب إليك».

٦ - عائشة:

قال الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٤٦١١) «مجمع البحرين»: حدثنا محمد بن أحمد الرقام، حدثنا أحمد بن المقدم العجلي، حدثنا النضر بن أبي النضر، عن عمرو بن عبد الجبار، عن الحكم بن عتيبة، عن مسروق، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه إلى سقف البيت قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك» قالت عائشة: فسأله عنهن، فقال: «أمرت بهن».

قال الطبراني: لم يروه عن الحكم إلا عمرو، ولا عنه إلا النضر تفرد به أبو الأشعث.

وفى إسناده من لا يعرف.

ورواه النسائي في عمل اليوم والليلة من وجه آخر، فرواه من طريق سعيد بن الحكم، عن خلاد بن سليمان، عن خالد بن أبي عمران، عن عروة بن الزبير، عن عائشة قالت: ما جلس رسول الله ﷺ مجلساً، ولا تلا قرآناً إلا ختم ذلك بكلمات، فقلت: يا رسول الله أراك ما تجلس مجلساً، ولا تتلو قرآناً، ولا تصلي إلا ختمت بهؤلاء الكلمات قال: «نعم، من قال خيراً كان له طابعا على ذلك الخير، ومن قال شراً كن كفارة له: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك».

٧ - جبير بن مطعم:

قال الطبراني في المعجم الكبير (١٣٨/٢): حدثنا العباس بن حمدان الحنفى، حدثنا عبد الجبار بن العلاء، حدثنا =

=سفيان، حدثني ابن عجلان عن مسلم بن أبي مريم، عن نافع بن جبير عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: سبحان الله وبحمده، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، فقالها في مجلس ذكر؛ كان كالطابع يطبع عليه، ومن قالها في مجلس لغو؛ كانت كفارة له»، ثم رواه من طريق خالد بن يزيد العمري، عن داود بن قيس، عن نافع ابن جبير بنحوه.

٨ - الزبير بن العوام:

قال الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٤٦٠٦) «مجمع البحرين»: حدثنا محمد بن علي الطرائفي الرقي، حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا الحسن بن محمد بن أعين قال: كتب محمد بن سلمة النصيبى يذكر أن عبد العزيز بن صهيب حدثه عن خباب مولى الزبير بن العوام عن الزبير قال: قلنا: يا رسول الله، إنا إذا قمنا من عندك أخذنا في حديث الجاهلية فقال: «إذا جلستم تلك المجالس التي تخافون فيها على أنفسكم فقولوا عند مقامكم: سبحانك اللهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك وتوب إليك، يكفر عنكم ما أصبتم» قال الطبراني: لا يروى عن الزبير إلا بهذا الإسناد، تفرد به محمد بن علي. وفي إسناده من لا يعرف.

٩ - أنس بن مالك:

قال البزار في مسنده برقم (٣١٢٣) «كشف الأستار»: حدثنا عمر بن موسى الشامي، حدثنا عثمان بن مطر، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «كفارة المجلس أن تقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك»، قال البزار: لا نعلمه يروى عن أنس إلا من هذا الوجه، وعثمان لين الحديث روى عنه مسلم وغيره، ورواه الطبراني في الأوسط برقم (٤٦١٠) «مجمع البحرين» من طريق عثمان بن مطر به.

١٠ - أم سلمة:

قال الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٤٦٠٩) «مجمع البحرين»: حدثنا عبد الرحمن بن سلم، حدثنا سهل بن عثمان، حدثنا حفص بن غياث، عن عاصم، عن الشعبي، عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ قبل أن يموت يكثر أن يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك، قلت: يا رسول الله، إني أراك تكثر أن تقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك قال: «إني أمرت بأمر فقرأ: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾» قال الطبراني: لم يروه عن عاصم إلا حفص تفرد به سهل.

١١ - السائب بن يزيد:

قال الإمام أحمد في مسنده (٤٥٠/٣): حدثنا يونس، عن ليث، عن يزيد - يعني ابن الهاد - عن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «ما من إنسان يكون في مجلس فيقول حين يريد أن يقوم: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك؛ إلا غفر له ما كان في ذلك المجلس»، فحدثت هذا الحديث يزيد بن خصيفة، قال: هكذا حدثني السائب بن يزيد عن رسول الله ﷺ. ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٥٤/٧) من طريق الليث به. وقال الهيثمي في المجمع (١٤١/١٠): «رجالهما رجال الصحيح».

١٢ - إسماعيل بن عبد الله بن جعفر:

وسياق حديثه في الذي قبله وهو مرسل.

١٣ - عمر بن الخطاب:

لم أقع على إسناده، وقد ذكره الحافظ ابن كثير عند تفسير سورة الطور، وعزاه للإسماعيلي.

١٤ - جبير بن نفير:

لم أقع على إسناده، وقد ساقه المتقي الهندي في كنز العمال برقم (٢٥٤٦٩) ولفظه: «كفارة المجلس ألا يقوم أحد حتى يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، تب علي، واغفر لي، يقولها ثلاث مرات، فإن كان في مجلس لغو، كانت كفارته، وإن كان في مجلس ذكر، كان طابعا عليه»، وعزاه لابن النجار.

١٥ - أبو عثمان الفقير:

قال عبد الرزاق في المصنف برقم (١٩٧٩٦): أخبرنا معمر، عن عبد الكريم الجزري عن أبي عثمان الفقير أن جبريل عَمَّ =

= النبي ﷺ إذا قام من مجلسه أن يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.
قال معمر: وسمعت غيره يقول: هذا القول كفارة المجلس.

١٦ - أبو العالية الرياحي:

قال النسائي في السنن الكبرى برقم (١٠٢٦١): أخبرنا محمد بن بشار، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا سفيان، عن منصور، عن زياد بن حصين، عن أبي العالية الرياحي قال: قالوا: يا رسول الله ما كلمات سمعناك تقولهن؟ قال: «كلمات علمنيهن جبريل عليه السلام كفارة المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك» .
ثم رواه من طريق فضيل بن عمر وعاصم عن زياد بن حصين به مرسلًا.

تفسير سورة ص

[وهى^(١) مكية.]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم فى أول سورة «البقرة» بما أغنى عن إعادته هاهنا .
وقوله: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ أى: والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد، ونفع لهم فى المعاش والمعاد .

قال الضحاك فى قوله: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾، كقوله: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] أى: تذكيركم . وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير .

وقال ابن عباس، وسعيد بن جبیر، وإسماعيل بن أبى خالد، وابن عيينة، وأبو^(٢) حصين، وأبو صالح، والسدى^(٣): ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾: ذى الشرف، أى: ذى الشأن والمكانة .

ولا منافاة بين القولين، فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار .
واختلفوا فى جواب هذا القسم، فقال بعضهم: هو قوله: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ﴾ [ص: ١٤] . وقيل قوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤]، حكاها^(٤) ابن جرير، وهذا الثانى فيه بعد كبير، وضعفه ابن جرير .

وقال قتادة: جوابه: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾، واختاره ابن جرير .
وقيل: جوابه ما تضمنه سياق السورة بكمالها، والله أعلم .
ثم حكى ابن جرير عن بعض أهل العلم^(٥) أنه قال: جوابه «ص» بمعنى: صدق حق والقرآن ذى الذكر .

وقوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ أى: إن فى هذا القرآن لذكراً لمن يتذكر، وعبرة لمن يعتبر . وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم ﴿فِي عِزَّةٍ﴾ أى: استكبار عنه وحمية، ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أى: مخالفة له ومعاندة ومفارقة .

ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسول وتكذيبهم الكتب المنزلة من

(١) زيادة من ت، س . (٢) فى أ: «ابن» . (٣) فى ت: «وخلق غيرهما» .

(٤) فى س: «رواهما» . (٥) فى أ: «العريية» .

السماء، فقال: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أى: من أمة مكذبة، ﴿فَنَادَوْا﴾ أى^(١): حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله. وليس ذلك بمُجْد عنهم شيئاً. كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ [الأنبياء: ١٢] أى: يهربون، ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٣].

قال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق، عن التميمي قال: سألت ابن عباس عن قول الله: ﴿فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، قال: ليس بحين نداء، ولا نَزْو، ولا فرار^(٢).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ليس بحين مغاث.

وقال شبيب بن بشر^(٣)، عن عكرمة، عن^(٤) ابن عباس: نادوا النداء حين لا ينفعهم، وأنشد:

تَذَكَّرَ لَيْلَى لَاتَ حِينَ تَذَكَّرَ^(٥)

وقال محمد بن كعب فى قوله: ﴿فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، يقول: نادوا بالتوحيد حين تولت الدنيا عنهم، واستنصوا للتوبة حين تولت الدنيا عنهم.

وقال قتادة: لما رأوا العذاب أرادوا التوبة فى غير حين النداء.

وقال مجاهد: ﴿فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، ليس بحين فرار ولا إجابة.

وقد روى نحو هذا عن عكرمة، وسعيد بن جبيرة، وأبى مالك، والضحاك، وزيد بن أسلم، والحسن، وقاتدة.

وعن مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، ولا نداء فى غير حين النداء.

وهذه الكلمة وهى «لات»، هى «لا» التى للنفى، زيدت معها «التاء»، كما تزداد فى «ثم»، فيقولون: «ثمت»، و«رب» فيقولون: «ربت». وهى مفصولة، والوقف عليها. ومنهم من حكى عن المصحف الإمام فيما ذكره [ابن جرير]^(٦) أنها متصلة بحين: «ولا تحين مناص». والمشهور الأول. ثم قرأ الجمهور بنصب «حين»، تقديره: وليس الحين حين مناص. ومنهم من جوز النصب بها، وأنشد:

تَذَكَّرَ حُبَ لَيْلَى لَاتَ حِينَا وَأَضْحَى الشَّيْبُ قَدْ قَطَعَ الْقَرِينَا^(٧)

ومنهم من جوز الجر بها، وأنشد:

طَلَبُوا صَلْحَنَا وَلَاتَ أَوَانٍ فَاجَبْنَا أَنْ لَيْسَ حِينُ بَقَاءِ^(٨)

(١) فى ت: «إلى».

(٢) وقد رواه الطستى فى مسائل نافع بن الأزرق أنه سأل ابن عباس فذكره.

(٣) فى أ: «بشير».

(٤) فى ت: «سئل».

(٥) البيت للأعشى، وعجزه: وقد تبت عنها والمناص بعيد.

(٦) ما بين المعقوفين بياض فى س.

(٧) البيت فى تفسير الطبرى (٧٧/٢٣).

(٨) البيت لأبى زبيد الطائى، وهو فى تفسير الطبرى (٧٧/٢٣).

وأنشد بعضهم أيضا:

وَلَاتَ سَاعَةَ مَنَدَمٍ

بخفض الساعة. وأهل اللغة يقولون: النوص: التأخر، والبوص: التقدم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أى: ليس الحين حين فرار ولا ذهاب.

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ (٤) أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ﴿٥﴾ وَأَنْطَلِقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ أَوْنَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فى تعجبهم من بعثة الرسول بشرا، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس: ٢]. وقال هاهنا: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أى: بشر مثلهم، ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أى: أزعجهم أن المعبود واحد لا إله إلا هو؟! أنكر المشركون ذلك - قبحهم الله تعالى - وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم، وإفراد الله (١) بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ . وَأَنْطَلِقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾، وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم قائلين: ﴿[أَنْ]﴾ (٢) امشوا﴾ أى: استمروا على دينكم ﴿وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾، ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد.

وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ . قال ابن جرير: إن هذا الذى يدعونا (٣) إليه محمد من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم، والاستعلاء، وأن يكون له منكم أتباع، ولسنا مجيبيه إليه.

ذكر سبب نزول هذه الآيات :

قال السدى: إن أناسا من قريش اجتمعوا، فيهم: أبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، فى نفر من مشيخة قريش، فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى أبى طالب فلنكلمه فيه، فليصفنا منه، فليكيف عن شتم آلهتنا، وندعه وإلهه الذى يعبد؛ فإننا نخاف أن يموت هذا الشيخ، فيكون منا إليه شيء. فتعيرنا [به] (٤) العرب، يقولون:

(١) فى ت، س، أ: «الإله».

(٢) زيادة من أ.

(٣) فى ت: «يدعوا».

(٤) زيادة من ت، س، أ.

«تركوه حتى إذا مات عنه^(١) تناولوه». فبعثوا رجلا منهم يقال له^(٢): «المطلب»، فاستأذن لهم على أبى طالب، فقال: هؤلاء مشيخة قومك وسراهم يستأذنون عليك. قال: أدخلهم. فلما دخلوا عليه قالوا: يا أبا طالب، أنت كبيرنا وسيدنا، فأنصفنا من ابن أخيك، فمره فليكيف عن شتم آلهمتنا وندعه وإلهه. قال: فبعث إليه أبو طالب، فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال: يا ابن أخى، هؤلاء مشيخة قومك وسراهم، وقد سألوكم أن تكف عن شتم آلهمتنا ويدعوك وإلهك. قال: «يا عم، أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم؟»، قال: وإلام تدعوهم؟ قال: «أدعوهم [إلى]^(٣) أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب، ويملكون بها العجم». فقال أبو جهل من بين القوم: ما هى وأبيك؟ لنعطينها^(٤) وعشرة أمثالها. قال: تقولون: «لا إله إلا الله». فنفر وقال: سلنا غير هذا^(٥). قال: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها فى يدي، ما سألتكم غيرها». فقاموا من عنده غضابا، وقالوا: والله لنشتمنك وإلهك الذى أمرك^(٦) بهذا. ﴿وَأَنطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهِمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾.

رواه ابن أبى حاتم، وابن جرير، وزاد: فلما خرجوا دعا رسول الله ﷺ عمه إلى قول: «لا إله إلا الله»، فأبى وقال: بل على دين الأشياخ. ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]^(٧).

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا أبو كريب وابن وكيع قالوا: حدثنا أبو أسامة، حدثنا الأعمش، حدثنا عباد، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: لما مرض أبو طالب، دخل عليه رهط من قريش، فيهم أبو جهل، فقالوا: إن ابن أخيك يشتتم آلهمتنا، ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيته؟ فبعث إليه، فجاء النبي ﷺ فدخل البيت، وبينهم وبين أبى طالب قدر مجلس رجل، قال: فخشى أبو جهل إن جلس إلى جنب أبى طالب أن يكون أرق له عليه. فوثب فجلس فى ذلك المجلس، ولم يجد رسول الله ﷺ مجلسا قرب عمه، فجلس عند الباب. فقال له أبو طالب: أى ابن أخى، ما بال قومك يشكونك، يزعمون أنك تشتتم آلهمتنا، وتقول وتقول؟ قال: وأكثروا عليه من القول، وتكلم رسول الله ﷺ فقال: «يا عم، إنى أريدكم على كلمة واحدة! يقولونها تدين لهم بها العرب، وتؤدى إليهم بها العجم الجزية»، ففزعوا لكلمته ولقوله، وقالوا^(٨): كلمة واحدة! نعم وأبيك عشرين، فقالوا: وما هى؟ وقال أبو طالب: وأى كلمة هى يا ابن أخى؟ فقال: «لا إله إلا الله»، فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾، قال: ونزلت من^(٩) هذا الموضع إلى قوله: ﴿لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ﴾ لفظ أبى كريب^(١٠).

وهكذا رواه الإمام أحمد والنسائي، من حديث محمد بن عبد الله بن نمير، كلاهما عن أبى أسامة، عن الأعمش، عن عباد، غير منسوب، به نحوه^(١١)، ورواه الترمذى، والنسائي، وابن أبى حاتم، وابن جرير أيضا، كلهم فى تفاسيرهم من حديث سفيان الثوري، عن الأعمش، عن يحيى بن عمار

(٣) زيادة من أ.

(٦) فى أ: «يامرك».

(٢) فى ت، س، أ: «يدعى».

(٥) فى ت، س، أ: «غيرها».

(١) فى أ: «عمه»، وكذا فى الطبرى.

(٤) فى ت، س، أ: «لنعطينكما».

(٧) تفسير الطبرى (٢٣/ ٨٠).

(٩) فى أ: «فى».

(٨) فى ت، س، أ: «فقال القوم».

(١٠) تفسير الطبرى (٢٣/ ٧٩).

(١١) المسند (١/ ٣٦٢) والنسائي فى السنن الكبرى برقم (١١٤٣٧).

الكوفى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فذكر نحوه. وقال الترمذى^(١): حسن^(٢).

وقولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ أى: ما سمعنا بهذا الذى يدعوننا إليه محمد من التوحيد فى الملة الآخرة.

قال مجاهد، وقتادة، وابن^(٣) زيد: يعنون دين قريش.

وقال غيرهم: يعنون النصرانية، قاله محمد بن كعب، والسدى.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾، يعنى: النصرانية، قالوا: لو كان هذا القرآن حقا أخبرتنا به النصارى.

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾: قال مجاهد، وقتادة: كذب، وقال ابن عباس: تخرص.

وقولهم: ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ يعنى: أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم، كما قالوا فى الآية الأخرى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢]؛ ولهذا لما قالوا هذا الذى دل على جهلهم وقلة عقلهم، فى استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم، قال الله تعالى: ﴿بَلْ لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ﴾ أى: إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذاب الله ونقمته، سيعلمون غيب ما قالوا، وما كذبوا به، يوم يُدْعَوْنَ إلى نار جهنم دَعَاً.

ثم قال مبينا أنه المتصرف فى ملكه، الفعال لما يشاء، الذى يعطى من يشاء ما يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويهدى من يشاء، ويضل من يشاء، وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده، ويختص على قلب من يشاء، فلا يهديه أحد من بعد الله، وإن العباد لا يملكون شيئاً من الأمر، وليس إليهم من التصرف فى الملك ولا مثقال ذرة، وما يملكون من قطمير؛ ولهذا قال تعالى منكراً عليهم: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ أى: العزيز الذى لا يرام جنبه، الوهاب الذى يعطى ما يريد لمن يريد.

وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا . أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا . فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٣-٥٥]، وقوله: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَا مُسْكِنٌ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠]، وذلك بعد الحكاية عن الكفار أنهم أنكروا بعثة الرسول البشرى، وكما أخبر تعالى عن قوم صالح [عليه السلام]^(٤) حين قالوا: ﴿أَلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ . سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشْرِ﴾ [القمر: ٢٥، ٢٦].

(١) فى ت: «ورواه الترمذى وقال: حديث حسن».

(٢) سنن الترمذى برقم (٣٢٣٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٣٦) وتفسير الطبرى (٧٩/٢٣).

(٣) فى ت: «وابو». (٤) زيادة من أ.

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ أى: إن كان لهم ذلك فليصعدوا فى الأسباب.

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، وقتادة، وغيرهم: يعنى طرق السماء.

وقال الضحاك: فليصعدوا إلى السماء السابعة.

ثم قال: ﴿جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أى: هؤلاء الجند المكذبون الذين هم فى عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويكبتون، كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين، وهذه كقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾ سيهزم الجميع منتصرين. سيهزم الجميع ويؤلون الدبر وكان ذلك يوم بدر، ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُ﴾ [القمر: ٤٤-٤٦].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣)﴾ إن كلُّ إلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ (١٤) وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (١٥) وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية، وما حل بهم من العذاب والنكال والنقمات فى مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء. وقد تقدمت قصصهم مبسطة فى أماكن متعددة.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ أى: كانوا أكثر منكم وأشد قوة، وأكثر أموالاً وأولاداً، فما دافع^(١) ذلك عنهم من عذاب الله من شىء، لما جاء أمر ربك^(٢)؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ﴾ فجعل علة هلاكهم هو تكذيبهم بالرسل، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر.

وقوله: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾: قال مالك، عن زيد بن أسلم: أى ليس لها مشوية، أى: ما ينظرون إلَّا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها، أى: قد اقتربت ودنت وأزفت، وهذه الصيحة هى نفخة الفزع التى يأمر الله إسرأفيل أن يطولها، فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلَّا فزع، إلَّا من استثنى^(٤) الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ هذا إنكار من الله على المشركين فى دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب، فإن القط هو الكتاب وقيل: هو الحظ والنصيب.

قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والحسن، وغير واحد: سألوا تعجيل العذاب - زاد قتادة: كما قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

(٢) فى أ: «الله».

(٤) فى أ: «شاء».

(١) فى ت، أ: «دفع»، وفى س: «لما دفع».

(٣) فى أ: «وما ينظرون» وهو خطأ.

وقيل: سألوا تعجيل نصيبهم من الجنة، إن كانت موجودة أن يلقوا^(١) ذاك في الدنيا. وإنما خرج هذا منهم مخرج الاستبعاد والتكذيب.

وقال ابن جرير: سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر في الدنيا، وهذا الذي قاله جيد، وعليه يدور كلام الضحاك، وإسماعيل بن أبي خالد، والله أعلم.

ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد، قال الله تعالى لرسوله ﷺ آمراً له بالصبر على أذاهم، ومبشراً له على صبره بالعاقبة والنصر^(٢) والظفر.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (١٧) **إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ**
وَالْإِشْرَاقِ (١٨) **وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ**
الْخِطَابَ (٢٠)﴾ .

يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود، عليه السلام: أنه كان ذا أيد، والأيد: القوة في العلم والعمل.

قال [ابن عباس]^(٣) وابن زيد والسدي: الأيد: القوة، وقرأ ابن زيد: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

وقال مجاهد: الأيد: القوة في الطاعة .

وقال قتادة: أعطى داود [عليه السلام]^(٤) قوة في العبادة، وفقها في الإسلام، وقد ذكر لنا أنه، عليه السلام، كان يقوم ثلث الليل، ويصوم نصف الدهر.

وهذا ثابت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى»^(٥). وإنه كان أواباً، وهو الرجاء إلى الله عز وجل في جميع أموره وشؤونه.

وقوله: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ أي: إنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، كما قال تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ [سبأ: ١٠]. وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه، وترجع بترجيعه، إذا مر به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور، لا تستطيع الذهاب، بل تقف في الهواء، وتسبح معه وتحبب الجبال الشامخات، ترجع معه، وتسبح تبعاً له.

قال^(٦) ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا محمد بن بشر، عن مِسْعَرٍ، عن عبد الكريم، عن

(٣) زيادة من ت، س.

(٢) في أ: «والنصرة».

(١) في أ: «يسلموا».

(٤) زيادة من ت، س، أ.

(٥) صحيح البخاري برقم (١١٣١) وصحيح مسلم برقم (١١٥٩).

(٦) في ت: «وروى».

موسى بن أبى كثير^(١)، عن ابن عباس^(٢) أنه بلغه: أن أم هانئ ذكرت أن رسول الله ﷺ يوم فتح مكة صلى الضحى ثمانى ركعات، قال^(٣) ابن عباس: قد ظننت أن لهذه الساعة صلاة، يقول الله تعالى: ﴿يَسْبَحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾^(٤).

ثم رواه من حديث سعيد بن أبى عروبة، عن أبى المتوكل، عن أيوب بن صفوان، عن مولاة عبدالله بن الحارث بن^(٥) نوفل، أن ابن عباس كان لا يصلى الضحى، قال: فأدخلته على أم هانئ فقلت: أخبرى هذا ما أخبرتنى به. فقالت أم هانئ: دخل على رسول الله ﷺ يوم الفتح فى بيتى، ثم أمر بماء صب فى قصعة، ثم أمر بثوب، فأخذ بينى وبينه، فاغتسل ثم رش ناحية البيت، فصلى ثمان ركعات، وذلك من الضحى، قيامهن وركوعهن وسجودهن وجلوسهن سواء، قريب بعضهن من بعض، فخرج ابن عباس وهو يقول: لقد قرأت ما بين اللوحين ما عرفت صلاة الضحى إلا الآن: ﴿يَسْبَحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾، وكنت أقول: أين صلاة الإشراق، وكان بعد يقول: صلاة الإشراق^(٦).

ولهذا قال: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ أى: محبوسة فى الهواء، ﴿كُلُّ لَهْ أَوَّابٍ﴾ أى: مطيع يسبح تبعاً له.

قال سعيد بن جبير، وقتادة، ومالك عن زيد بن أسلم، وابن زيد: ﴿كُلُّ لَهْ أَوَّابٍ﴾ أى: مطيع.

[وقوله]^(٧): ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ أى: جعلنا له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك.

قال ابن أبى نجيح، عن مجاهد: كان أشد أهل الدنيا سلطاناً.

وقال السدى: كان يحرسه فى كل يوم أربعة آلاف.

وقال بعض السلف: بلغنى أنه كان حرسه فى كل ليلة ثلاثة وثلاثين ألفاً، لا تدور عليهم النوبة إلى مثلها من العام القابل.

وقال غيره: أربعون ألفاً مشتملون^(٨) بالسلاح.

وقد ذكر^(٩) ابن جرير، وابن أبى حاتم، من رواية علباء بن أحمر، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن نفرين من بنى إسرائيل استعدى أحدهما على الآخر إلى داود، عليه السلام، أنه اغتصبه بقرأ، فأنكر الآخر، ولم يكن^(١٠) للمدعى بينة، فأرجأ أمرهما، فلما كان الليل أمر داود، عليه السلام، فى المنام بقتل المدعى، فلما كان النهار طلبهما وأمر بقتل المدعى، فقال: يا نبى الله، علام تقتلنى وقد اغتصبنى هذا بقرى؟ فقال: إن الله عز وجل أمرنى بقتلك، فأنا قاتلك لا محالة. فقال: والله يا نبى

(١) فى ت: «باسناده».

(٢) فى ت: «فقال».

(٣) تفسير الطبرى (٨٧/٢٣).

(٤) فى أ: «عن».

(٥) تفسير الطبرى (٨٧/٢٣).

(٦) زيادة من ت، س، أ.

(٧) فى ت، س، أ: «مشتكون».

(٨) فى س: «تكن».

(٩) فى ت: «وروى».

الله إن الله لم يأمرك بقتلى لأجل هذا الذي ادعيت عليه، وإنى لصادق فيما ادعيت، ولكنى كنت قد اغتلت أباه وقتلته، ولم يشعر بذلك أحد، فأمر به داود [عليه السلام]^(١) فقتل.

قال ابن عباس: فاشتدت هيئته فى بنى إسرائيل، وهو الذى يقول الله عز وجل: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾. وقوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ قال مجاهد: يعنى: الفهم والعقل والفطنة. وقال مرة: الحكمة والعدل. وقال مرة: الصواب.

وقال قتادة: كتاب الله واتباع ما فيه.

وقال السدى: ﴿الْحِكْمَةَ﴾: النبوة.

وقوله: ﴿وَفَصَلَ الْخِطَابِ﴾ قال شريح القاضى، والشعبى: فصل الخطاب: الشهود والأيمان.

وقال قتادة: شاهدان على المدعى، أو يمين المدعى عليه، هو فصل الخطاب الذى فصل به الأنبياء والرسل - أو قال: المؤمنون والصالحون - وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة، وكذا قال أبو عبد الرحمن السلمى.

وقال مجاهد، والسدى: هو إصابة القضاء وفهمه.

وقال مجاهد أيضا: هو الفصل فى الكلام وفى الحكم^(٢).

وهذا يشمل هذا كله، وهو المراد، واختاره ابن جرير.

وقال^(٣) ابن أبى حاتم: حدثنا عمر بن شبة النميرى، حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنى عبد العزيز ابن أبى ثابت، عن عبد الرحمن بن أبى الزناد، عن أبيه، عن بلال بن أبى بردة، عن أبيه^(٤)، عن أبى موسى، رضى الله عنه، قال: أول من قال: «أما بعد» داود، عليه السلام، وهو فصل الخطاب.

وكذا قال الشعبى: فصل الخطاب: «أما بعد».

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَى نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥)﴾.

(٢) فى ت: «فى القضاء والحكم».

(٤) فى ت: «بإسناده».

(١) زيادة من س، ت، أ.

(٣) فى ت: «ورواه».

قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي، عن أنس - ويزيد وإن كان من الصالحين - لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن^(١) يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله عز وجل؛ فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضاً.

وقوله: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ﴾^(٢) فَفَزِعَ مِنْهُمْ، إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه، وهو أشرف مكان في داره، وكان قد أمر ألا يدخل عليه أحد ذلك اليوم، فلم يشعر إلا بشخصين قد تسوّرا عليه المحراب، أي: احتاطا به يسألانه عن شأنهما.

وقوله: ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْخَطَابِ﴾ أي: غلبني. يقال: عز يعز: إذا قهر وغلب.

وقوله: ﴿وَطَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي اختبرناه.

وقوله: ﴿وَوَخَّرَّا كَعًا﴾ أي: ساجداً ﴿وَأَنَابَ﴾. ويحتمل أنه ركع أولاً، ثم سجد بعد ذلك، وقد ذكر أنه استمر ساجداً أربعين صباحاً، ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ أي: ما كان منه مما يقال فيه: إن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وقد اختلف الأئمة، رضى الله عنهم^(٣)، في سجدة «ص»، هل هي من عزائم السجود؟ على قولين، الجديد من مذهب الشافعي، رحمه الله، أنها ليست من عزائم السجود، بلى هي سجدة شكر. والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد حيث قال:

حدثنا إسماعيل - وهو ابن علي - عن أيوب، عن ابن عباس^(٤) أنه قال في السجود في «ص»: ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها.

ورواه البخاري، وأبو داود، والترمذي، والنسائي في تفسيره، من حديث أيوب، به^(٥). وقال الترمذي: حسن^(٦) صحيح.

وقال^(٧) النسائي أيضاً عند تفسير هذه الآية: أخبرني إبراهيم بن الحسن - هو المقسمى - حدثنا حجاج بن محمد، عن عمرو^(٨) بن ذر، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، أن النبي ﷺ سجد في «ص»، وقال: «سجدها داود، عليه السلام، توبة، ونسجدها شكراً».

تفرد بروايته النسائي^(٩)، ورجال إسناده كلهم ثقات، وقد أخبرني شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي قراءة عليه وأنا أسمع:

(١) في ت: «أنه».

(٢) في أ: «رحمهم الله».

(٣) في أ: «عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس»، وفي ت: «ما رواه الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس» زيادة من أ.

(٤) المسند (١/ ٣٦٠) وصحيح البخاري برقم (١٠٦٩) وسنن أبي داود برقم (١٤٠٩) وسنن الترمذي برقم (٥٧٧).

(٥) في أ: «حديث حسن».

(٦) في ت: «وروى».

(٧) في أ: «عمر».

(٨) النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٤٣٨).

أخبرنا أبو إسحاق المدرجي^(١)، أخبرنا زاهر بن أبي طاهر الثقفي، أخبرنا زاهر بن طاهر الشحامى، أخبرنا أبو سعد الكنجروذى، أخبرنا الحاكم أبو أحمد محمد بن محمد الحافظ، أخبرنا أبو العباس السراج، حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا محمد بن يزيد بن خنيس، عن الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيد قال: قال لى ابن جريج: يا حسن، حدثني جدك عبيد الله^(٢) بن أبي يزيد، عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني رأيت فيما يرى النائم كأنى أصلى خلف شجرة، فقرأت السجدة، فسجدت فسجدت الشجرة لسجودى، فسمعتها تقول وهى ساجدة: اللهم، اكتب لى بها عندك أجرا، واجعلها لى عندك ذخرا، وضع عني بها وزرا، واقبلها منى كما قبلتها من عبدك داود.

قال ابن عباس: فرأيت النبي ﷺ قام فقرأ السجدة، ثم سجد، فسمعتة يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة^(٣).

رواه الترمذى عن قتيبة، وابن ماجه عن أبي بكر بن خلاد، كلاهما عن محمد بن يزيد بن خنيس^(٤)، نحوه. وقال الترمذى: غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه^(٥).

وقال البخارى عند تفسيرها أيضا: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا محمد بن عبيد الطنافسى، عن العوام قال: سألت مجاهدا عن سجدة «ص» فقال^(٦): سألت ابن عباس: من أين سجدت؟ فقال: أو ما تقرأ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودُ وَسُلَيْمَانُ﴾ [الأنعام: ٨٤]، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ^(٧) فَبِهَدَاهُمْ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩]، فكان داود، عليه السلام، ممن^(٨) أمر نبيكم ﷺ أن يقتدى به، فسجدها داود، عليه السلام، فسجدها رسول الله ﷺ^(٩).

وقال^(١٠) الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا حميد، حدثنا بكر - هو ابن عبد الله المزنى - أنه أخبره^(١١): أن أبا سعيد الخدرى^(١٢) رأى رؤيا أنه يكتب «ص»، فلما بلغ إلى التى يسجد بها رأى الدواة والقلم وكل شىء بحضرته انقلب ساجدا، قال: فقصها على النبي ﷺ، فلم يزل يسجد بها بعد. تفرد به [الإمام]^(١٣) أحمد^(١٤).

وقال^(١٥) أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرنى عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبى هلال، عن عياض بن عبد الله بن سعد بن أبى سرح، عن أبى سعيد الخدرى، رضى

(١) فى أ: «أبو إسحاق بن المدرجى».

(٣) رواه المزنى فى تهذيب الكمال (٦/٣١٤).

(٤) فى أ: «يزيد بن حبيش».

(٥) سنن الترمذى برقم (٥٧٩) وسنن ابن ماجه برقم (١٠٥٣).

(٦) فى ت: «بإسناده إلى مجاهد قال».

(٧) فى ت، س، أ: «هداهم» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.

(٩) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٧).

(١٠) فى ت: «وروى».

(١٣) زيادة من أ.

(١٤) المسند (٣/٧٨).

(١٥) فى ت: «وروى».

(٢) فى أ: «عبد الله».

(٨) فى ت، س: «فيمن».

(١١) فى ت: «بإسناده».

(١٢) فى أ: «الخدرى رضى الله عنه».

الله عنه، قال: قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر «ص»، فلما بلغ السجدة نزل فسجد، وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ السجدة تَشَرَّنَ^(١) الناس للسجود، فقال: «إنما هي توبة نبي، ولكني رأيتمكم تَشَرَّنْتُمْ». فنزل وسجد، وسجدوا.

تفرد به أبو داود^(٢)، وإسناده على شرط الصحيح.

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ﴾ أى: وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله عز وجل بها، وحسن مرجع، وهو الدرجات العاليات فى الجنة، لتوبته^(٣) وعدله التام فى ملكه، كما جاء فى الصحيح: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يقسطون فى أهليهم وما ولوا»^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا فضيل، عن عطية^(٥)، عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسا، إمام عادل»^(٦). وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابا، إمام جائر.

ورواه الترمذى من حديث فضيل - وهو ابن مرزوق الأغر - عن عطية، به^(٧). وقال: لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه.

وقال^(٨) ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عبد الله بن أبى زياد، حدثنا سيار، حدثنا جعفر ابن سليمان: سمعت مالك بن دينار فى قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ﴾، قال: يقام داود يوم القيامة عند ساق العرش، ثم يقول: يا داود، مجدنى اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذى كنت تمجدنى به فى الدنيا. فيقول: وكيف وقد سلبته؟ فيقول: إني أردت عليك اليوم. قال: فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان.

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)﴾.

هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيله^(٩). وقد تواعد [الله]^(١٠) تعالى من ضل عن سبيله،

(١) فى ت: «تشدد».

(٢) سنن أبى داود برقم (١٤١٠).

(٣) فى ت، س: «لتوبته».

(٤) صحيح مسلم برقم (١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنه.

(٥) فى ت: «وروى الترمذى». (٦) فى أ: «عدل».

(٧) المسند (٢٢/٣) وسنن الترمذى برقم (١٣٢٩).

(٨) فى ت: «وروى».

(٩) فى أ: «سبيل الله».

(١٠) زيادة من أ.

وتناسى يوم الحساب، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد.

قال^(١) ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا الوليد، حدثنا مروان بن جناح، حدثني إبراهيم أبو زرعة - وكان قد قرأ الكتاب - أن الوليد بن عبد الملك قال له^(٢): أيحاسب الخليفة، فإنك قد قرأت الكتاب الأول، وقرأت القرآن وفقته؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أقول؟ قال: قل في أمان. قلت: يا أمير المؤمنين، أنت أكرم على الله أو داود؟ إن الله - عز وجل - جمع له النبوة والخلافة، ثم توعدته في كتابه فقال: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ﴾ الآية.

وقال عكرمة: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾، هذا من المقدم والمؤخر، لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا.

وقال السدي: لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب.

وهذا القول أمشى على ظاهر الآية، فالله أعلم.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ (٢٩) ﴿.

يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثاً، وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحدوه، ثم يجمعهم^(٣) ليوم الجمع، فيثيب المطيع ويعذب الكافر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: الذين لا يرون بعثاً ولا معاداً، وإنما يعتقدون هذه الدار فقط، ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾، أى: ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم.

ثم بين تعالى أنه من عدله وحكمته لا يساوى بين المؤمن والكافر، فقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ أى: لا نفعل ذلك، ولا يستوون عند الله، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى، يثاب فيها هذا المطيع، ويعاقب^(٤) فيها هذا الفاجر^(٥). وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لا بد من معاد وجزاء، فإننا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده، فلا بد فى حكمة الحكيم العليم العادل، الذى لا يظلم مثقال ذرة، من إنصاف هذا من هذا. وإذا لم يقع هذا فى هذه الدار، فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة. ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة، قال: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أى: ذوو العقول، وهى الألباب، جمع لب، وهو العقل.

(٣) فى ت، س: «جمعهم».

(٢) فى ت: «الابى ورعة».

(١) فى ت: «روى».

(٥) فى س: «العاصى».

(٤) فى ت: «ويعذب».

قال الحسن البصري: والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن [كله]^(١)، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل. رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٣٠) إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣).

يقول تعالى مخبرا أنه وهب لداود سليمان، أي: نبيا، كما قال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦] أي: في النبوة، وإلا فقد كان له بنون غيره، فإنه قد كان عنده مائة امرأة حرائر. وقوله: ﴿نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، ثناء على سليمان، عليه السلام، بأنه كثير الطاعة والعبادة والإجابة إلى الله عز وجل.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمود بن خالد، حدثنا الوليد، حدثنا^(٣) مكحول قال: لما وهب الله لداود سليمان، عليه^(٤) السلام، قال له: يا بني، ما أحسن؟ قال: سكينة الله وإيمان. قال: فما أقبح؟ قال: كفر بعد إيمان. قال: فما أحلى؟ قال: روح الله بين عباده. قال: فما أبرد؟ قال: عفو الله عن الناس، وعفو الناس بعضهم عن بعض. قال داود، عليه السلام: فأنت نبي. وقوله: ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ أي: إذ عرض على سليمان في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات.

قال مجاهد: وهى التى تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة، والجياذ: السراع. وكذا قال غير واحد من السلف.

وقال^(٥) ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا مؤمل، حدثنا سفيان، عن أبيه سعيد بن مسروق، عن إبراهيم التيمي في قوله: ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ قال: كانت عشرين فرسا ذات أجنحة. كذا رواه ابن جرير.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا ابن أبي زائدة، أخبرني إسرائيل، عن سعيد بن مسروق^(٦)، عن إبراهيم التيمي قال: كانت الخيل التى شغلت سليمان، عليه الصلاة والسلام، عشرين ألف فرس، فعفرها. وهذا أشبه^(٧)، والله أعلم.

وقال^(٨) أبو داود: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا سعيد بن أبي مريم، أخبرنا يحيى بن أيوب، حدثني عمارة بن غزيرة: أن محمد بن إبراهيم حدثه، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن^(٩)، عن عائشة،

(٣) فى ت: «بإسناده».

(٦) فى ت: «بإسناده».

(٩) فى ت: «بإسناده».

(٢) فى ت: «روى».

(٥) فى ت: «روى».

(٨) فى ت: «وروى».

(١) زيادة من ت، س، أ.

(٤) فى ت، س: «عليهما».

(٧) فى أ: «الأشبه».

رضى الله عنها، قالت: قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك - أو خيبر - وفي سهوتها ستر، فهبت الريح، فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة - لُعب - فقال: «ما هذا يا عائشة؟» قالت: بناتى. ورأى بينهن فرسا له^(١) جناحان من رقا، فقال: «ما هذا؟»^(٢) الذى أرى وسطهن؟». قالت: فرس. قال: «وما هذا الذى عليه؟». قالت: جناحان قال: «فرس له جناحان؟!». قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة؟ قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ^(٣).

وقوله: ﴿فَقَالَ^(٤) إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾، ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت^(٥) صلاة العصر، والذي يقطع به أنه لم يتركها عمدا بل نسيانا، كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب^(٦)، وذلك ثابت فى الصحيحين من غير وجه، من ذلك عن جابر قال: جاء عمر، رضى الله عنه، يوم الخندق بعد ما غربت الشمس، فجعل يسب كفار قريش، ويقول: يا رسول الله، والله ما كدت أصلى العصر حتى كادت الشمس تغرب. فقال رسول الله ﷺ: «والله ما صليتها». فقال^(٧): فقمنا إلى بَطْحَانَ فتوضأ للصلاة وتوضأنا^(٨) لها، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب^(٩).

ويحتمل أنه كان^(١٠) سائغا فى ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال. والخيل تراد للقتال. وقد ادعى طائفة^(١١) من العلماء أن هذا كان مشروعاً فنسخ ذلك بصلاة الخوف، ومنهم من ذهب إلى ذلك فى حال المسابقة والمضايقة، حيث لا يمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود، كما فعل الصحابة، رضى الله عنهم، فى فتح تستر، وهو منقول عن مكحول، والأوزاعى، وغيرهما. والأول أقرب؛ لأنه قال بعدها: ﴿رَدُّوْهَا عَلَيَّ فَفُطِّقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾.

قال الحسن البصرى. قال: لا، والله لا تشغلينى عن عبادة ربى آخر ما^(١٢) عليك. ثم أمر بها فعقرت. وكذا قال قتادة.

وقال السدى: ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: جعل يمسح أعراف الخيل، وعراقيبها حبالها.

وهذا القول اختاره ابن جرير، قال: لأنه لم يكن ليعذب حيوانا بالعرقبة، ويهلك مالا من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها. وهذا الذى رجح به ابن جرير فيه نظر؛ لأنه قد يكون فى شرعهم جواز مثل هذا، ولا سيما إذا كان غضبا لله عز وجل بسبب أنه

(١) فى أ: «لها». (٢) فى أ: «ما هذا يا عائشة».

(٣) سنن أبى داود برقم (٤٩٣٢).

(٤) فى ت، س: «قال».

(٥) فى ت، أ: «عن وقت».

(٦) فى أ: «المغرب».

(٨) فى ت: «فتوضأنا».

(٩) صحيح البخارى برقم (٤١١٢) وصحيح مسلم برقم (٦٣١).

(١٠) فى س، أ: «أنه قد كان».

(١٢) فى أ: «أحرماً».

اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة؛ ولهذا لما خرج عنها لله تعالى^(١) عوضه الله تعالى ما^(٢) هو خير منها، وهى^(٣) الريح التى تجرى بأمره رخاء حيث أصاب، غدوها شهر ورواحها شهر، فهذا أسرع وخير من الخيل^(٤).

وقال^(٥) الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال^(٦)، عن أبى قتادة وأبى الدهماء - وكانا يكثران السفر نحو البيت - قالأ: أتينا على رجل من أهل البادية، فقال البدوى: أخذ بيدى رسول الله ﷺ فجعل يعلمنى مما علمه الله تعالى، وقال: «إنك لا تدع شيئاً اتقاء الله^(٧) - عز وجل - إلا أعطاك الله خيراً منه»^(٨).

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ (٤٠)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ أى: اختبرناه بأن سلبناه الملك مرة، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، والحسن، وقتادة، وغيرهم: يعنى شيطانا. ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أى^(٩): رجع إلى ملكه وسلطانه وأبتهه.

قال ابن جرير: وكان اسم ذلك الشيطان صخرا. قاله ابن عباس، وقتادة. وقيل: آصف. قاله مجاهد. وقيل: أصروا. قاله مجاهد أيضا. وقيل: حقيق. قاله السدى. وقد ذكروا هذه القصة مبسطة ومختصرة.

وقد قال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة: قال أمر سليمان، عليه السلام، ببناء بيت المقدس، فقيل له: ابنه ولا يسمع فيه صوت حديد. فقال: فطلب ذلك فلم يقدر عليه. فقيل له: إن شيطانا فى البحر يقال له: «صخر» شبه المارد. قال: فطلبه وكانت عين فى البحر يردّها فى كل سبعة أيام مرة، فنزح ماؤها وجعل فيها خمر، فجاء يوم وردّه فإذا هو بالخمر، فقال: إنك لشراب طيب، إلا أنك تصبين الحليم، وتزيدين الجاهل جهلا. ثم رجع حتى عطش عطشاً شديداً، ثم أتاها^(١٠) فقال: إنك لشراب طيب، إلا أنك تصبين الحليم، وتزيدين الجاهل جهلا. ثم شربها حتى غلبت على عقله، قال: فأرى الخاتم، أو ختم به بين كتفيه فذلّ. قال: وكان ملكه فى خاتمه، فأتى به سليمان فقال: إنه

(٣) فى ت، س، أ: «وهو».

(٢) فى ت، س: «بما».

(١) فى ت، س: «عز وجل».

(٤) وهذا هو الصواب، وانظر كلام القرطبى فى: الجامع لأحكام القرآن (١٥/١٩٥، ١٩٦).

(٥) فى ت: «وروى».

(٧) فى أ: «الله».

(٦) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده».

(٨) المسند (٥/٧٨) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٢٩٦): «رجاله رجال الصحيح».

(١٠) فى أ: «أتاها».

(٩) فى ت، س: «ثم».

قد أمرنا ببناء هذا البيت، وقيل لنا: لا يسمعن فيه صوت حديد. قال: فأتى ببيض الهدهد فجعل عليه زجاجة، فجاء الهدهد فدار حولها، فجعل يرى بيضه ولا يقدر عليه، فذهب فجاء بالماس فوضعه عليه، فقطعها به، حتى أفضى إلى بيضه. فأخذ الماس، فجعلوا يقطعون به الحجارة. وكان سليمان [عليه السلام]^(١) إذا أراد أن يدخل الخلاء - أو: الحمام - لم يدخل بخاتمه فانطلق يوما إلى الحمام، وذلك الشيطان صخر معه، وذلك عند مقارفة قارف فيه^(٢) بعض نسائه. قال: فدخل الحمام وأعطى الشيطان خاتمه، فألقاه في البحر، فالتقمته سمكة، ونزع ملك سليمان منه، وألقى على الشيطان شبه سليمان. قال: فجاء فقع على كرسيه وسريه، وسلط على ملك سليمان كله غير نسائه. قال: فجعل يقضى بينهم، وجعلوا ينكرون منه أشياء، حتى قالوا: لقد فتن نبي الله. وكان فيهم رجل يشبهونه بعمر بن الخطاب في القوة فقال: والله لأجربنه. قال: فقال: يا نبي^(٣) الله - وهو لا يرى إلا أنه نبي الله - أهدنا تصنيبه الجنابة في الليلة الباردة، فيدع الغسل عمدا حتى تطلع الشمس، أترى^(٤) عليه بأسا؟ فقال^(٥): لا. قال: فينا هو كذلك أربعين ليلة حتى وجد نبي الله خاتمه في بطن سمكة، فأقبل فجعل لا يستقبله جنى ولا طير إلا سجد له، حتى انتهى إليهم، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾، قال: هو الشيطان صخر^(٦).

وقال السدي: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ أى: ابتلينا سليمان، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ قال: جلس الشيطان على كرسيه أربعين يوما. قال: وكان لسليمان، عليه السلام، مائة امرأة، وكانت امرأة منهن يقال لها: «جرادة»، وهى أثر نسائه وآمنهن عنده، وكان إذا أجنب أو أتى حاجة^(٧) نزع خاتمه، ولم يأمن^(٨) عليه أحدا من الناس غيرها، فأعطاهما يوما خاتمه ودخل الخلاء، فخرج الشيطان في صورته، فقال: هاتى الخاتم. فأعطته، فجاء حتى جلس على مجلس سليمان، وخرج سليمان بعد ذلك فسألها أن تعطيه خاتمه، فقالت: ألم تأخذه قبل؟ قال: لا. وخرج مكانه تائها. قال: ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوما، قال: فأنكر الناس أحكامه، فاجتمع قراء بنى إسرائيل وعلماءهم، فجاءوا حتى دخلوا على نسائه، فقالوا: إنا قد أنكرنا هذا، فإن كان سليمان فقد ذهب عقله وأنكرنا أحكامه. قال: فبكى النساء عند ذلك، قال: فأقبلوا يمشون حتى أتوا^(٩)، فأحدقوا به ثم نشروا التوراة فقرأوا. قال: فطار من بين أيديهم حتى وقع على شرفة، والخاتم معه. ثم طار حتى ذهب إلى البحر، فوقع الخاتم منه في البحر، فابتلعه حوت من حيتان البحر. قال: وأقبل سليمان فى حاله التى كان فيها، حتى انتهى إلى صياد من صيادى^(١٠) البحر، وهو جائع، وقد اشتد جوعه. فاستطعمهم من صيدهم، وقال: إنى أنا سليمان. فقام إليه بعضهم فضربه بعصا فشجّه، فجعل يغسل دمه وهو على شاطئ البحر، فلام الصيادون صاحبهم الذى ضربه، فقالوا بشئ ما صنعت حيث ضربته. قال: إنه

(٣) فى أ: «أنبى».

(٢) فى ت: «فيها».

(١) زيادة من أ.

(٥) فى ت، س: «قال».

(٤) فى ت: «ترى».

(٦) تفسير الطبرى (١٠١/٢٣).

(٩) فى أ: «أثوه».

(٨) فى ت: «يامن».

(٧) فى أ: «حاجته».

(١٠) فى ت، س، أ: «صيادين».

إنه زعم أنه سليمان. قال: فأعطوه سمكتين مما قد مذر عندهم، فلم يشغله ما كان به من الضرب حتى قام إلى شط البحر، فشق بطونهما، فجعل يغسل [دمه]^(١)، فوجد خاتمه في بطن إحداهما، فأخذه فلبسه، فرد الله عليه بهاءه وملكه، وجاءت الطير حتى حامت عليه فعرف القوم أنه سليمان، عليه السلام، فقام القوم يعتذرون مما صنعوا [به]^(٢)، فقال: ما أحمدكم على عذرکم، ولا ألومکم على ما كان منكم، كان هذا الأمر لا بد منه. قال: فجاء حتى أتى ملكه، وأرسل إلى الشيطان، فجاء به فأمر به فجعل في صندوق من حديد، ثم أطبق عليه، وقفل عليه بقفل، وختم عليه بخاتمه، ثم أمر به فألقى في البحر، فهو فيه حتى تقوم الساعة. وكان اسمه حقيق. قال: وسخر^(٣) له الريح، ولم تكن سخرت له قبل ذلك، وهو قوله: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾^(٤).

وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهٖ جَسَدًا﴾ قال: شيطاناً يقال له: آصف. فقال له سليمان: كيف تفتنون الناس؟ قال: أرني خاتمك أخبرك. فلما أعطاه إياه نبذه آصف في البحر، فساح سليمان وذهب ملكه، وقعد آصف على كرسيه، ومنعه الله نساء سليمان فلم يقرهن - ولم يقربنه وأنكرنه. قال: فكان سليمان يستطعم، فيقول: أتعرفوني؟ أطعموني، أنا سليمان. فيكذبونه، حتى أعطته امرأة يوماً حوتا فجعل يطيب بطنه، فوجد خاتمه في بطنه، فرجع إليه ملكه، وفر آصف، فدخل البحر فاراً.

وهذه كلها من الإسرائيليات، ومن أنكرها ما قال ابن أبي حاتم:

حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء وعثمان بن أبي شيبة وعلي بن محمد قالوا: حدثنا أبو معاوية، أخبرنا الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس [رضي الله عنهما]^(٥): ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهٖ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾، قال: أراد سليمان أن يدخل الخلاء، فأعطى الجراداة خاتمه - وكانت الجراداة^(٦) امرأته، وكانت أحب نسائه إليه - فجاء الشيطان في صورة سليمان، فقال لها: هاتي خاتمي. فأعطته إياه. فلما لبسه دانت له الإنس والجن^(٧) والشياطين، فلما خرج سليمان من الخلاء قال لها: هاتي خاتمي. قالت: قد أعطيته سليمان. قال: أنا سليمان. قالت: كذبت، لست سليمان^(٨)، فجعل لا يأتي أحداً فيقول له: «أنا سليمان»، إلا كذبه، حتى جعل^(٩) الصبيان يرمونه بالحجارة. فلما رأى ذلك عَرَفَ أنه من أمر الله عز وجل. قال: وقام الشيطان يحكم بين الناس، فلما أراد الله أن يرد على سليمان سلطانه، ألقى في قلوب الناس إنكار ذلك الشيطان. قال: فأرسلوا إلى نساء سليمان فقالوا لهن: أتتكرن من سليمان شيئاً؟ قلن: نعم، إنه يأتينا ونحن حيض، وما كان يأتينا قبل ذلك. فلما رأى الشيطان أن قد فُظِنَ له^(١٠)، ظن أن أمره قد انقطع، فكتبوا كتباً فيها سحر وكفر، فدفنوها تحت كرسي سليمان، ثم أثاروها وقرؤوها على الناس. وقالوا:

(١) زيادة من أ. (٢) في ت، أ: «وسخرت».

(٤) تفسير الطبري (١٠١/٢٣).

(٥) زيادة من أ. (٦) في ت: «جرادة».

(٧) في أ: «والجن والطير».

(٨) في ت: «بسليمان».

(٩) في أ: «جاء».

(١٠) في ت: «أنه فُظِنَ له».

بهذا كان يظهر سليمان على الناس [ويغلبهم]^(١). فأكفر الناس سليمان، عليه السلام، فلم يزالوا يكفرونه، وبعث ذلك الشيطانُ بالخاتم فطرحه في البحر، فتلقتة سمكة فأخذته. وكان سليمان يحمل على شط البحر بالأجر، فجاء رجل فاشترى سمكاً فيه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم، فدعا سليمان فقال: تحمل لى هذا السمك؟ فقال: نعم. قال: بكم؟ قال بسمكة من هذا السمك. قال: فحمل سليمان، عليه السلام، السمك، ثم انطلق به إلى منزله، فلما انتهى الرجل إلى بابه أعطاه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم، فأخذها سليمان فشق بطنها، فإذا الخاتم في جوفها، فأخذه فلبسه. قال: فلما لبسه دانت له الجن والإنس والشياطين، وعاد إلى حاله، وهرب الشيطان حتى دخل جزيرة^(٢) من جزائر البحر، فأرسل سليمان في طلبه، وكان شيطاناً مريداً، فجعلوا يطلبونه ولا يقدرّون عليه، حتى وجدوه يوماً نائماً، فجاءوا فبنوا عليه بنياناً من رصاص، فاستيقظ فوثب فجعل لا يثيب في مكان من البيت إلا انماط معه الرصاص، قال: فأخذه فأوثقوه، وجاءوا به إلى سليمان، فأمر به فنقر^(٣) له تخت من رخام، ثم أدخل في جوفه، ثم سد بالنحاس، ثم أمر به فطرح في البحر، فذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾، قال: يعنى الشيطان الذى كان سلط عليه.

إسناده إلى ابن عباس قوى، ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس - إن صح عنه - من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان، عليه السلام، فالظاهر أنهم يكذبون عليه؛ ولهذا كان في السياق منكرات من أشدها ذكر النساء، فإن المشهور أن^(٤) ذلك الجنى لم يسلط على نساء سليمان، بل عصمهن الله منه، تشريفاً وتكريماً لنبيه ﷺ، وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف، كسعيد بن المسيب، وزيد بن أسلم، وجماعة آخرين، وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب، والله أعلم بالصواب.

وقال يحيى بن أبى عمرو السيباني: وجد سليمان خاتمه في عسقلان، فمشى في خرقه^(٥) إلى بيت المقدس، تواضعاً لله عز وجل، رواه ابن أبى حاتم.

وقد روى ابن أبى حاتم عن كعب الأحبار في صفة كرسى سليمان، عليه الصلاة والسلام، خبراً عجيباً، فقال: حدثنا أبى، رحمه الله، حدثنا أبو صالح كاتب الليث، أخبرنى أبو إسحاق المصرى، عن كعب الأحبار؛ أنه لما فرغ من حديث «إرم ذات العماد» قال له معاوية: يا أبا إسحاق، أخبرنى عن كرسى سليمان بن داود، وما كان عليه؛ ومن أى شيء هو؟ فقال: كان كرسى سليمان من أنياب الفيلة مُفَصَّصاً بالدر والياقوت والزبرجد واللؤلؤ. وقد جعل له درجة منها مُفَصَّصة بالدر والياقوت والزبرجد، ثم أمر بالكرسى فحُفَّ من جانبيه بالنخل، نخل من ذهب، شماريخها من ياقوت وزبرجد ولؤلؤ. وجعل على رؤوس النخل التي عن يمين الكرسى طواويس من ذهب، ثم جعل على رؤوس النخل التي على يسار الكرسى نسور من ذهب مقابلة الطواويس، وجعل على يمين الدرجة الأولى

(٣) فى ت: «فثقب».

(٢) فى ت: «لحق بجزيرة».

(١) زيادة من أ.

(٤) فى أ: «فإن المشهور عن مجاهد وغير واحد من السلف أن».

(٥) فى أ: «بحرقه».

شجرتا صنوبر من ذهب، وعن يسارها أسدان من ذهب، وعلى رؤوس الأسدین عمودان من زبرجد، وجعل من جانبي الكرسي شجرتا كرم من ذهب، قد أظلتا الكرسي، وجعل عناقيدهما درا وياقوتا أحمر. ثم جعل فوق درج الكرسي أسدان عظيمان من ذهب مجوفان محشوان مسكا وعنبرا. فإذا أراد سليمان أن يصعد على كرسيه استدار الأسدان ساعة، ثم يقعان^(١) فينضحان ما في أجوافهما من المسك والعنبر حول كرسي سليمان، عليه السلام، ثم يوضع منبران من ذهب، واحد لخليفته، والآخر لرئيس أحبار بني إسرائيل ذلك الزمان. ثم يوضع أمام كرسيه سبعون منبرا من ذهب، يقعد عليها سبعون قاضيا من بني إسرائيل وعلمائهم، وأهل الشرف منهم والطول، ومن خلف تلك المنابر كلها خمسة وثلاثون منبرا من ذهب، ليس عليها أحد، فإذا أراد أن يصعد على كرسيه وضع قدميه على الدرجة السفلى، فاستدار الكرسي كله بما فيه وما عليه، ويبسط الأسد يده اليمنى وينشر النسر جناحه الأيسر، ثم يصعد [سليمان]^(٢) على الدرجة الثانية، فيبسط الأسد يده اليسرى، وينشر النسر جناحه الأيمن، فإذا استوى سليمان على الدرجة الثالثة وقعد على الكرسي، أخذ نسر من تلك النسور عظيم تاج سليمان فوضعه على رأسه، فإذا وضعه على رأسه استدار الكرسي بما فيه كما تدور الرحي المسرعة. فقال معاوية، رضى الله عنه: وما الذى يديره يا أبا إسحاق؟ قال: تين من ذهب، ذلك الكرسي عليه وهو عظيم مما عمله صخر الجنى، فإذا أحست بدورانه تلك النسور والأسد والطواويس التى فى أسفل الكرسي دُرْنَ إلى أعلاه، فإذا وقف وقفن كلهن منكسات رؤوسهن على رأس سليمان [ابن داود]^(٣) عليه^(٤) السلام وهو جالس، ثم ينضحن جميعاً ما فى أجوافهن من المسك والعنبر على رأس سليمان، عليه السلام. ثم تتناول حمامة من ذهب واقفة على عمود من جوهر، التوراة فتجعلها فى يده، فيقرؤها سليمان على الناس.

وذكر تمام الخبر^(٥)، وهو غريب جدا.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾، قال بعضهم: معناه: لا ينبغى لأحد من بعدى، أى: لا يصلح لأحد أن يسلمني، كما كان من قضية^(٦) الجسد الذى ألقى على كرسيه، لا أنه يحجر على من بعده من الناس. والصحيح أنه سأل من الله ملكا لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله، وهذا هو ظاهر السياق من الآية، وبه^(٧) وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله ﷺ.

قال^(٨) البخارى عند تفسير هذه الآية: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا روح ومحمد بن جعفر، عن شعبة، عن محمد بن زياد^(٩)، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «إن عفريتاً من الجن تَفَلَّتْ عَلَى الْبَارِحَةِ - أو كلمة نحوها - ليقطع على الصلاة، فأمكننى الله منه، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تَبْصَحُوا وتظنوا إليه كلکم، فذكرت قول أخى سليمان: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾».

(١) فى ت: «يقعان». (٢) زيادة من ت. أ. (٣) زيادة من أ.
(٤) فى أ: «عليهما». (٥) فى ت: «الحديث». (٦) فى ت: «فى قصة»، وفى أ: «من قصة».
(٧) فى ت، س، أ: «وبذلك». (٨) فى ت: «فروى». (٩) فى ت: «ياستاده».

قال روح: فردّه خاسئاً^(١).

وكذا رواه مسلم والنسائي، من حديث شعبة، به^(٢).

وقال مسلم فى صحيحه: حدثنا محمد بن سلمة المراءى، حدثنا عبد الله بن وهب، عن معاوية ابن صالح، حدثنى ربيعة بن يزيد، عن أبى إدريس الخولانى^(٣)، عن أبى الدرداء قال: قام رسول الله ﷺ يصلى، فسمعناه يقول: «أعوذ بالله منك». ثم قال: «ألعنك بلعنة الله» - ثلاثاً - وبسط يده كأنه يتناول شيئاً، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله، قد سمعناك تقول فى الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك؟ قال: «إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجمعه فى وجهى، فقلت: أعوذ بالله منك - ثلاث مرات - ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة. فلم يستأخر ثلاث مرات، ثم أردت أخذه والله لولا دعوة أخينا سليمان، لأصبح موثقاً يلعب به صبيان^(٤) أهل المدينة»^(٥).

وقال^(٦) الإمام أحمد: حدثنا أبو أحمد، حدثنا ميسرة بن معبد، حدثنا أبو عبيد حاجب سليمان قال: رأيت عطاء بن يزيد الليثى قائماً يصلى، فذهبت أمر بين يديه فردنى، ثم قال^(٧): حدثنى^(٨) أبو سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قام يصلى^(٩) صلاة الصبح وهو خلفه، فقرأ فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته قال: «لو رأيتمونى وإبليس، فأهويت ييدى، فما زلت أخنقه حتى وجدت برداً لعابه بين إصبعى هاتين - الإبهام والتى تليها - ولولا دعوة أخى سليمان لأصبح^(١٠) مربوطاً بسارية من سواري المسجد، يتلاعب به صبيان المدينة، فمن استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل».

وقد روى أبو داود منه: «من استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل»، عن أحمد ابن أبى سريج، عن أبى أحمد الزبيرى، به^(١١).

وقال^(١٢) الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا إبراهيم بن محمد الفزارى، حدثنا الأوزاعى، حدثنى ربيعة بن يزيد^(١٣)، عن عبد الله الديلمى قال: دخلت على عبد الله بن عمرو، وهو فى حائط له بالطائف يقال له: «الوهط»، وهو مُحَاصِرُ فتى من قریش يُزَنُّ بِشَرْبِ الخمر، فقلت: بلغنى عنك حديث أنه «من شرب شربة خمر لم يقبل الله، عز وجل، له توبة أربعين صباحاً، وإن الشقى من شقى فى بطن أمه، وإنه من أتى بيت المقدس لا ينهزه إلا الصلاة فيه، خرج

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٨).

(٢) صحيح مسلم برقم (٥٤١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٤٠).

(٣) فى ت: «بإسناده». (٤) فى ت، س، أ: «ولدان».

(٥) صحيح مسلم برقم (٥٤٢).

(٦) فى ت: «وروى». (٧) فى ت: «بإسناده». (٨) فى ت: «عن».

(٩) فى ت: «فصلى».

(١٠) فى ت: «أصبح».

(١١) المسند (٨٣/٣) وسنن أبى داود برقم (٦٩٩).

(١٢) فى ت: «وروى». (١٣) فى ت: «بإسناده».

من خطيئته مثل يوم ولدته أمه، فلما سمع الفتى ذكر الخمر اجتذب يده من يده، ثم انطلق. فقال عبدالله بن عمرو^(١): «إني لا أحل لأحد أن يقول على ما لم أقبل، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شرب من الخمر شربة، لم تقبل له صلاة أربعين صباحا، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد لم تقبل له صلاة أربعين صباحا، فإن تاب تاب الله عليه. فإن عاد - قال: فلا أدري في الثالثة أو الرابعة - فإن عاد كان حقا على الله أن يسقيه من رَدَّغَةِ الخبال يوم القيامة». قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى، ومن أخطأه ضل، فلذلك^(٢) أقول: جف القلم على علم الله عز وجل». وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن سليمان سأل الله تعالى ثلاثا، فأعطاه اثنتين، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة: سألته حكما يصادف حكمه، فأعطاه إياه، وسألته ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطاه إياه، وسألته أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد، خرج من خطيئته كيوم^(٣) ولدته أمه، فنحن نرجو أن يكون الله تعالى^(٤) قد أعطانا إياها»^(٥).

وقد روى هذا الفصل الأخير من هذا الحديث النسائي وابن ماجه من طرق، عن عبد الله بن فيروز الديلمي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه، عز وجل، خللا ثلاثا...» وذكره^(٦).

وقد روى من حديث رافع بن عمير، رضى الله عنه، بإسناد وسياق غريبين، فقال الطبراني:

حدثنا محمد بن الحسن بن قُتَيْبَةَ العسقلاني، حدثنا محمد بن أيوب بن سُويْد، حدثني أبي، حدثنا إبراهيم بن أبي عبلة، عن أبي الزاهرية^(٧)، عن رافع بن عمير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل لداود، عليه السلام: ابن لى بيتاً فى الأرض. فبنى داود^(٨) بيتاً لنفسه قبل البيت الذى أمر به، فأوحى الله إليه: يا داود، نصبت بيتك قبل بيتى؟ قال: يا رب، هكذا قضيت^(٩)، من ملك استأثر. ثم أخذ فى بناء المسجد، فلما تم السور سقط، ثلاثا، فشكا ذلك إلى الله عز وجل، فقال: يا داود^(١٠)، إنك لا تصلح أن تبنى لى بيتاً. قال: ولم يا رب؟ قال: لما جرى على يديك من الدماء. قال: يا رب، أو ما كان^(١١) ذلك فى هواك ومحبتك؟ قال: بلى، ولكنهم عبادى، وأنا أرحمهم. فشق ذلك عليه، فأوحى الله إليه: لا تحزن، فإنى سأقضى بناءه على يدي ابنك سليمان. فلما مات داود أخذ سليمان فى بنائه فلما تم قرب القرابين، وذبح الذبائح، وجمع بنى إسرائيل، فأوحى الله إليه: قد أرى سرورك ببنيان بيتى، فسلنى أعطك. قال: أسألك ثلاث خصال: حكما يصادف حكمك، وملكاً لا ينبغي لأحد من بعدى، ومن أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه

(١) فى أ: «عمرو رضى الله عنهما».

(٢) فى أ: «وإن».

(٣) فى أ: «ولذلك».

(٤) فى ت، س، أ: «عز وجل».

(٥) فى ت، س، أ: «مثل يوم».

(٦) المسند (١٧٦/٢).

(٧) سنن النسائي (٤٣/٢) وسنن ابن ماجه برقم (١٤٠٨).

(٨) فى ت: «وروى الطبراني بإسناده».

(٩) فى ت، س، أ: «هكذا قلت فيما قضيت».

(١٠) فى ت، س، أ: «فأوحى الله إليه».

(١١) فى ت، س، أ: «أو لم يكن».

خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه». قال رسول الله ﷺ: «أما ثنتان فقد أعطيهما، وأنا أرجو أن يكون قد أعطى الثالثة»^(١).

وقال^(٢) الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عمر بن راشد اليمامي، حدثنا إياس بن سلمة ابن الأكوع، عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله ﷺ دعا دعاءً إلا استفتح به «سبحان الله ربى الأعلى العلى الوهاب»^(٣).

وقد قال^(٤) أبو عبيد: حدثنا علي بن ثابت، عن جعفر بن برقان، عن صالح بن مسمار قال: لما مات نبي الله داود أوحى الله إلى ابنه سليمان، عليهما^(٥) السلام: أن سلني حاجتك. قال: أسألك أن تجعل لى قلبا يخشاك، كما كان قلب أبى، وأن تجعل قلبى يحبك كما كان قلب أبى. فقال الله: أرسلت إلى عبدى وسألت^(٦) حاجته، فكانت [حاجته]^(٧) أن أجعل قلبه يخشاني، وأن أجعل قلبه يحبني. لأهبن له ملكا لا ينبغى لأحد من بعده. قال الله تعالى: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾، والتي بعدها، قال: فأعطاه [الله]^(٨) ما أعطاه، وفى الآخرة لا حساب عليه.

هكذا أورده أبو القاسم ابن عساكر فى ترجمة سليمان، عليه السلام، فى تاريخه^(٩).

وروى عن بعض السلف أنه قال: بلغنى عن داود [عليه السلام]^(١٠) أنه قال: «إلهى، كن لسليمان كما كنت لى»: فأوحى الله إليه: أن قل لسليمان: يكون لى كما كنت لى، أكون له كما كنت لك.

وقوله: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾: قال الحسن البصرى، رحمه الله: لما عقر سليمان الخيل غضبا لله، عز وجل، عوضه الله ما هو خير منها وأسرع، الريح التى غدوها شهر ورواحها شهر.

وقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أى: حيث أراد من البلاد.

وقوله: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَغَوَاصٍ﴾ أى: منهم من هو مستعمل فى الأبنية الهائلة من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التى لا يقدر عليها البشر، وطائفة غواصون فى البحار يستخرجون مما^(١١) فيها من اللآلىء والجواهر والأشياء النفيسة التى لا توجد إلا فيها، ﴿وَأَخْرَيْنَ مُقْرِنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ أى: موثوقون فى الأغلال والأكبال، ممن قد تمرّد وعصى وامتنع من العمل وأبى، أو قد أساء فى صنيعه واعتدى.

(١) المعجم الكبير (٢٤/٥) قال الهيثمى فى المجمع (٨/٤): «فيه محمد بن أيوب بن سويد الرملى وهو منهم بالوضع».

(٢) فى ت: «وروى».

(٣) المسند (٥٤/٤) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/١٥٦): «فيه عمر بن راشد اليمامى وثقه غير واحد، وبقية رجاله رجال الصحيح».

(٤) فى ت: «وروى». (٥) فى ت، أ: «عليه». (٦) فى ت، س: «أسأله».

(٧) زيادة من ت، س. (٨) زيادة من أ.

(٩) تاريخ دمشق (٥٦٩/٧) «القسم المخطوط».

(١٠) زيادة من ت، س، أ. (١١) فى ت: «ما».

وقوله: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى: هذا الذى أعطيناك من الملك التام والسلطان الكامل كما سألنا، فأعط من شئت واحرم من شئت، لا حساب عليك، أى: مهما فعلت فهو جائز لك، احكم بما شئت فهو صواب.

وقد ثبت فى الصحيحين^(١) أن رسول الله ﷺ لما خيّر بين أن يكون عبداً رسولاً - وهو الذى يفعل ما يؤمر به، وإنما هو قاسم يقسم بين الناس ما أمره الله به - وبين أن يكون ملكاً نبياً، يعطى من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح، اختار المنزلة الأولى بعد ما استشار جبريل، فقال له: تواضع. فاختار المنزلة الأولى؛ لأنها أرفع قدراً عند الله وأعلى منزلة فى المعاد. وإن كانت المنزلة الثانية وهى النبوة مع الملك عظيمة أيضاً فى الدنيا وفى الآخرة؛ ولهذا لما ذكر تعالى ما أعطى سليمان فى الدنيا نبه على أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضاً، فقال: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحَسَنَ مَّآبٍ﴾ أى: فى الدار الآخرة.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (٤١) اركض برجلك هذا مغتسل بارداً وشراباً (٤٢) ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمةً منا وذكرى لأولي الألباب (٤٣) وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب (٤٤).

يذكر تعالى عبده ورسوله أيوب، عليه السلام، وما كان ابتلاه تعالى به من الضر فى جسده وماله وولده، حتى لم يبق من جسده مغرز إبرة سليماً سوى قلبه، ولم يبق له من حال الدنيا شئ يستعين به على مرضه وما هو فيه، غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله ورسوله، فكانت تخدم الناس بالأجرة^(٢) وتطعمه، وتخدمه نحواً من ثمانى عشرة سنة. وقد كان قبل ذلك فى مال جزيل وأولاد وسعة طائلة من الدنيا، فسلب جميع ذلك، حتى آل به الحال إلى أن ألقى على مزبلة من مزابل البلدة هذه المدة بكمالها، ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته، رضى الله عنها، فإنها كانت لا تفارقه صباحاً ولا^(٣) مساءً إلا بسبب خدمة الناس، ثم تعود إليه قريباً. فلما طال المطال، واشتد الحال، وانتهى القدر المقدور، وتم الأجل المقدر، تضرع^(٤) إلى رب العالمين وإله المرسلين، فقال: ﴿أَنِّي مَسْنِيَ الضَّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وفى هذه الآية الكريمة قال: رَبِّ، إني مسنى الشيطان بنصب وعذاب، قيل: بنصب فى بدنى، وعذاب فى مالى وولدى. فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين، وأمره أن يقوم من مقامه، وأن يركض الأرض برجله. ففعل فأنبع الله عينا وأمره أن يغتسل منها، فأذهب جميع ما كان فى بدنه من الأذى^(٥). ثم أمره فاضرب الأرض فى مكان آخر، فأنبع له عينا أخرى وأمره أن يشرب منها، فأذهبت ما كان فى بطنه^(٦) من السوء، وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.

(٣) زيادة من أ.

(٢) فى أ: «بالأجر».

(١) فى أ: «الصحيح».

(٦) فى أ: «بباطنه».

(٥) فى ت، س: «ما كان به من الأذى».

(٤) فى ت، س: «ضرع».

قال^(١) ابن جرير، وابن أبي حاتم جميعاً: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني نافع بن يزيد، عن عقيل، عن ابن شهاب^(٢)، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن نبي الله أيوب، عليه السلام، لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين كانا من أخص إخوانه به، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم - والله - لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين. قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: من ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله، فيكشف ما به^(٣). فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له. فقال أيوب: لا أدري ما تقول، غير أن الله يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان، فيذكران الله، عز وجل، فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما، كراهية أن يذكر الله إلا فى حق. قال: وكان^(٤) يخرج إلى حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، وأوحى الله تعالى إلى أيوب، عليه السلام، أن «ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ»، فاستبطأته، فتلقته تنظر، فأقبل^(٥) عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو على أحسن ما كان. فلما رآته قالت: أى بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى. فوالله على ذلك، ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً. قال: فإنى^(٦) أنا هو. قال: وكان له أندران، أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى فى أندر الشعير حتى فاض. هذا لفظ ابن جرير رحمه الله^(٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا^(٨) أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أيوب يغتسل عريانا، خرّ عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحثو فى ثوبه، فناداه ربه^(٩): يا أيوب، ألم أكن أغنيك عما ترى؟ قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى بى عن بركتك».

انفرد بإخراجه البخارى، من حديث عبد الرزاق، به^(١٠).

ولهذا قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، قال الحسن، وقتادة: أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم.

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ أى: به على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته، ﴿وَذِكْرَى لَأُولِي

الْأَلْبَابِ﴾ أى: لذوى العقول، ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والمخرج والراحة.

(١) فى ت: «روى». (٢) فى ت: «يسندهما». (٣) فى أ: «ما به من مرضه». (٤) فى أ: «وكان أيوب». (٥) فى أ: «وأقبل». (٦) فى أ: «فقال إنى». (٧) تفسير الطبرى (٢٣/١٠٧) ورواه البزار فى مسنده (٢٣٥٧) «كشف الأستار»، وأبو نعيم فى الحلية (٣/٣٧٤) من طريق سعيد ابن أبى مريم عن نافع بن يزيد به. قال البزار: «لا نعلم رواه عن الزهري عن أنس إلا عقيل، ولا عنه إلا نافع، ورواه عن نافع غير واحد»، وقال الهيثمى فى المجمع (٨/٢٠٨): «رجال البزار رجال الصحيح». (٨) فى ت: «وروى القارى». (٩) فى ت، س، أ: «ربه عز وجل». (١٠) المسند (٢/٣١٤) وصحيح البخارى برقم (٢٧٨).

وقوله: ﴿وَحُذِّبِيكَ ضِعْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾، وذلك أن أيوب، عليه السلام، كان قد غضب على زوجته، ووجد عليها في أمر فعلته. قيل: [إنها]^(١) باعت ضفيريها^(٢) بخبز فأطعمته إياه، فلامها على ذلك، وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة. وقيل: لغير ذلك من الأسباب. فلما شفاه الله وعافاه، ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب، فأفتاه الله، عز وجل، أن يأخذ ضغثاً - وهو: الشُّمْرَاخ - فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة، وقد برت يمينه، وخرج من حنثه ووفى بنذره، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأناب إليه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، أثنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه ﴿نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أى: رجّاع منيب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقد استدل كثير من الفقهاء بهذه الآية الكريمة على مسائل فى الإيمان وغيرها، وأخذوها^(٣) بمقتضاها، [ومنع طائفة أخرى من الفقهاء من ذلك وقالوا: لم يثبت أن الكفارة كانت مشروعة فى شرع أيوب، عليه السلام، فلذلك رخص له فى ذلك، وقد أغنى الله هذه الأمة بالكفارة]^(٤).

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِيَ الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ (٤٧) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (٤٨) هَذَا ذِكْرٌ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِيَ الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ يعنى بذلك: العمل الصالح والعلم النافع والقوة فى العبادة والبصيرة النافذة.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿أُولِيَ الْأَيْدِي﴾ يقول: أولى القوة، ﴿وَالْأَبْصَارِ﴾ يقول: الفقه فى الدين.

وقال مجاهد: ﴿أُولِيَ الْأَيْدِي﴾، يعنى: القوة فى طاعة الله، ﴿وَالْأَبْصَارِ﴾ يعنى: البصر^(٥) فى الحق.

وقال قتادة والسدى: أعطوا قوة فى العبادة وبصراً فى الدين.

[وقوله]^(٦): ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ قال مجاهد: أى جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم همّ غيرها. وكذا قال السدى: ذكرهم للآخرة وعملهم لها.

وقال مالك بن دينار: نزع الله من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها. وكذا قال عطاء الخراسانى.

(٣) فى ت، س: «وأخذوا».

(٦) زيادة من ت، س، أ.

(٢) فى أ: «ضفيريها».

(٥) فى أ: «البصير».

(١) زيادة من ت، أ.

(٤) زيادة من ت، أ.

وقال سعيد بن جبيرة: يعنى بالدار الجنة، يقول: أخلصناها لهم بذكرهم لها^(١)، وقال فى رواية أخرى: ﴿ذَكَرَى الدَّارَ﴾: عقبى الدار.

وقال قتادة: كانوا يذكرون الناس الدار الآخرة والعمل لها.

وقال ابن زيد: جعل لهم^(٢) خاصة أفضل شىء فى الدار الآخرة.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ أى: لمن المختارين المجتبيين الأخيار، فهم أخيار مختارون.

وقوله: ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾، قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم مستقصاة فى سورة «الأنبياء» بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقوله: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ أى: هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر.

وقال السدى: يعنى القرآن.

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْتَحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَكِنِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (٥٤)﴾.

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء، أن لهم فى [الدار]^(٣) الآخرة ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ وهو: المرجع والمنقلب. ثم فسره بقوله: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أى: جنات إقامة مفتحة لهم الأبواب.

والألف واللام هنا^(٤) بمعنى الإضافة، كأنه يقول: «مفتحة لهم أبوابها» أى: إذا جاؤوها فتحت لهم أبوابها.

قال^(٥) ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن ثواب الهبارى، حدثنا عبد الله بن نُمير، حدثنا عبد الله بن مسلم - يعنى: ابن هرمز - عن ابن سابط^(٦)، عن عبد الله بن عمرو [رضى الله عنهما]^(٧) قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة قصرا يقال له: «عدن»، حوله البروج والمروج، له خمسة آلاف باب، عند كل باب خمسة آلاف حبرة لا يدخله - أو: لا يسكنه - إلا نبى أو صديق أو شهيد أو إمام عدل»^(٨).

وقد ورد فى [ذكر]^(٩) أبواب الجنة الثمانية أحاديث كثيرة من وجوه عديدة.

وقوله: ﴿مُتَكِنِينَ فِيهَا﴾: قيل: متربعين فيها على سرر^(١٠) تحت الحجال، ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ

(١) فى ت: «أخلصناهم بذكرهم لها».

(٢) فى ت: «لها».

(٣) زيادة من س، أ.

(٤) فى ت: «هاهنا».

(٥) فى ت: «روى».

(٦) فى ت: «بإسناده».

(٧) زيادة من أ.

(٨) ورواه البزار فى مسنده برقم (١٥٩١) «كشف الأستار» من طريق محمد بن ثواب به، وقال الهيثمى فى المجمع (١٩٦/٥): «فيه عبد الله بن مسلم بن هرمز وهو ضعيف».

(٩) فى أ: «سرير».

(١٠) زيادة من ت، أ.

كثيرة ﴿أى: مهما طلبوا وجدوا، وحضر كما أرادوا. ﴿وَشَرَابٍ﴾ أى: من أى أنواعه شاؤوا أتتهم به الخدام ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٨].

﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطُّرْفِ﴾ أى: عن غير أزواجهن، فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن، ﴿أَتْرَابٍ﴾ أى: متساويات فى السن والعمر. هذا معنى قول ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، ومحمد بن كعب، والسدى.

﴿هَذَا مَا توعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أى: هذا الذى ذكرنا من صفة الجنة التى ^(١) وعدها لعباده المتقين، التى ^(٢) يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار.

ثم أخبر عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا انقضاء ولا زوال ولا انتهاء، فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾، كقوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وكقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، وكقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨] أى: غير مقطوع، وكقوله: ﴿أَكَلَهَا دَائِمٌ وَظَلَّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥] والآيات فى هذا كثيرة جدا.

﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤)﴾.

لما ذكر تعالى مآل السعداء، تبنى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم فى دار معادهم وحسابهم، فقال: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ وهم: الخارجون عن طاعة الله، المخالفون لرسول الله، ﴿لَشَرَّ مَآبٍ﴾ أى: لسوء منقلب ومرجع. ثم فسره بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ أى: يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم، ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾. هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ أما الحميم فهو: الحار الذى قد انتهى حره، وأما الغساق فهو: ضده، وهو البارد الذى لا يستطيع من شدة برده المؤلم؛ ولهذا قال: ﴿وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ أى: وأشياء من هذا القبيل، الشئ وضده يعاقبون بها.

قال ^(٣) الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبى الهيثم ^(٤)، عن أبى سعيد ^(٥)، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن دلوًا من غساق يهراق فى الدنيا، لأنتن أهل الدنيا» ^(٦).

(١) فى ت، س، أ: «الجنة هى التى».

(٢) فى أ: «الذين».

(٣) فى ت: «روى».

(٤) فى ت: «يسنده».

(٥) فى أ: «سعيد رضى الله عنه».

(٦) المسند (٢٨/٣).

ورواه الترمذى، عن سُوَيْد بن نصر، عن ابن المبارك، عن رشدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث، عن دَرَّاج، به. ثم قال: «لا نعرفه إلا من حديث رشدين»^(١). كذا قال: وقد تقدم من غير حديثه. ورواه ابن جرير، عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، به^(٢).

وقال كعب الأحبار: غساق: عين فى جهنم، يسيل إليها حُمّة كل ذات حُمّة من حية وعقرب وغير ذلك، فيستنقع، فيؤتى بالآدمى فيغمس فيها غمسة واحدة، فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام، ويتعلق جلده ولحمه فى كعبيه وعقبه، ويُجر لحمه كما يجر الرجل ثوبه. رواه ابن أبى حاتم.

وقال الحسن البصرى فى قوله: «وَأَخْرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ»: ألوان من العذاب.

وقال غيره: كالزهرير، والسموم، وشرب الحميم، وأكل الزقوم، والصعود والهوى، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة والمتضادة^(٣)، والجميع مما يعذبون به، ويهانون بسببه.

وقوله: «هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ»، هذا إخبار عن قيل أهل النار بعضهم لبعض، كما قال تعالى: «كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا» [الأعراف: ٣٨]، يعنى بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون^(٤)، ويكفر بعضهم ببعض، فتقول الطائفة التى تدخل قبل الأخرى، إذا أقبلت التى بعدها مع الخزنة من الزبانية: «هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ» أى: داخل معكم، «لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ» [أى]^(٥): لأنهم من أهل جهنم^(٦). «قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ» أى: فيقول لهم الداخلون: «بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا» أى: أنتم دعوتونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير، «فَبُئْسَ الْقَرَارُ» أى: فبئس المنزل والمستقر والمصير. «قَالُوا رَبَّنَا مِنْ قَدَمٍ لَنَا هَذَا فَرَدَهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ»، كما قال عز وجل^(٧): «قَالَتْ أَخَرَاهُمْ لَأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتَاهُمُ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ» [الأعراف: ٣٨]، أى: لكل منكم عذاب بحسبه، «وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رَجُلًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ . أَتُخَذُّنَاهُمْ سَخِرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ»، هذا إخبار عن الكفار فى النار أنهم يفقدون رجالا كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة، وهم المؤمنون فى زعمهم، قالوا: ما لنا لا نراهم معنا فى النار؟

قال^(٨) مجاهد: هذا قول أبى جهل، يقول: ما لى لا أرى بلالا وعمارا وصهيبا وفلانا وفلانا.

وهذا مثل ضرب، وإلا فكل الكفار هذا حالهم: يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم، فقالوا: «ما لنا لا نرى رجلاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ . أَتُخَذُّنَاهُمْ سَخِرِيًّا» أى: فى الدنيا^(٩)، «أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ»، يسلون أنفسهم بالمحال، يقولون: أو لعلمهم

(١) سنن الترمذى برقم (٢٥٨٤).

(٢) تفسير الطبرى (١١٤/٢٣).

(٣) فى ت، س: «التضاضة والمتخالفة».

(٤) فى ت: «ويتجادبون».

(٥) زيادة من ت، س.

(٦) فى ت: «النار».

(٧) فى ت، س: «تعالى».

(٨) فى ت: «وقال».

(٩) فى أ: «دار الدنيا».

معنا في جهنم، ولكن لم يقع بصرنا عليهم. فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات^(١)، وهو^(٢) قوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ . أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ [٣] ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤ - ٤٩].

وقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ أى: إن هذا الذى أخبرناك به يا محمد، من تخاصم أهل النار بعضهم فى بعض، ولعن بعضهم لبعض، لحق لا مرية فيه ولا شك.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٦٥) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٧٠) .

يقول تعالى أمرا رسوله ﷺ^(٤) أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله: إنما أنا منذر^(٥) لست كما تزعمون، ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أى: هو^(٦) وحده قد قهر كل شيء وغلبه. ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أى: هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه، ﴿الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ أى: غفار مع عزته وعظمته.

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أى: خبر عظيم وشأن بليغ، وهو إرسال الله إياى إليكم، ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ أى: غافلون.

قال مجاهد، وشريح القاضى، والسدى فى قوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ يعنى: القرآن.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أى: لولا الوحي من أين كنت أدرى باختلاف الملائكة الأعلى؟ يعنى: فى شأن آدم وامتناع إبليس من السجود له، ومحااجة ربه فى تفضيله عليه.

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم، حدثنا جهمم اليمامى، عن يحيى بن أبى كثير، عن زيد بن أبى سلام، عن أبى سلام، عن عبد الرحمن بن عائش، عن مالك بن يخامر، عن معاذ، رضى الله عنه، قال: احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح، حتى كدنا نترأى قرن الشمس. فخرج رسول الله ﷺ سريعا، فتَوَّبَ بالصلاة فصلّى، وتَجَوَّزَ فى صلاته، فلما سلم قال: «كما أنتم على مصافكم». ثم أقبل إلينا فقال: «إنى سأحدثكم ما حبسنى عنكم الغداة، إنى قمت من الليل فصليت ما قُدِّرَ لى، فنعست فى صلاتى حتى استيقظت، فإذا أنا بربى^(٧) فى أحسن صورة، فقال: يا محمد، أتدرى فيم يختصم الملائكة الأعلى؟

(١) فى ت: «العلا».

(٢) فى أ: «وهى».

(٣) زيادة من ت، س.

(٤) فى س: «صلوات الله وسلامه عليه».

(٥) فى أ: «نذير مبين».

(٦) فى ت: «وهو».

(٧) فى ت، س، أ: «بربى عز وجل».

قلت: لا أدري رب - أعادها ثلاثاً - فرأيتَه وضع كفه بين كتفي، حتى وجدت برد أنامله بين صدري، فتجلى لى كل شيء وعرفت، فقال: يا محمد، فيم يختصم الملائكة الأعلى؟ قلت: فى الكفارات. قال: وما الكفارات؟ قلت^(١): نقل الأقدام إلى الجمعات^(٢)، والجلوس^(٣) فى المساجد بعد الصلوات، وإسباغ الوضوء عند الكريهات. قال: وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة والناس نيام. قال: سل. قلت: اللهم، إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لى وترحمنى، وإذا أردت فتنة بقوم فتوفنى غير مفتون، وأسألك حبك وحب من يحبك، وحب عمل يقربنى إلى حبك». وقال رسول الله ﷺ: «إنها حق فادرسوها وتعلموها»^(٤)، فهو حديث المنام المشهور، ومن جعله يقظة فقد غلط، وهو فى السنن من طرق.

وهذا الحديث بعينه قد رواه الترمذى من حديث «جهضم بن عبد الله اليمامى» به. وقال: «حسن صحيح»^(٥) وليس هذا الاختصاص هو الاختصاص المذكور فى القرآن^(٦) إن هذا قد فسر، وأما الاختصاص الذى فى القرآن فقد فسر بعد هذا، وهو قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ مِّنْهُنَّ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥)﴾.

هذه القصة ذكرها الله، تعالى، فى سورة «البقرة»، وفى أول «الأعراف»، وفى سورة «الحجر»، وفى^(٧) «سبحان»، و«الكهف»، وهاهنا. وهى أن الله، سبحانه، أعلم الملائكة قبل خلق آدم، عليه السلام، بأنه سيخلق بشرا من صلصال من حمأ مسنون، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراما وإعظاما واحتراما، وامثالاً لأمر الله عز وجل. فامثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس، ولم يكن منهم جنسا؛ كان من الجن فخانه طبعه وجبلته أحوج ما كان إليه، فاستنكف^(٨) عن السجود لآدم، وخاصم ربه عز وجل فيه، وادعى^(٩) أنه خير من آدم؛ فإنه مخلوق

(١) فى أ: «قال». (٢) فى ت، أ: «الجماعات». (٣) فى ت، س، أ: «وجلوس».

(٤) المسند (٥/٢٤٣).

(٥) سنن الترمذى برقم (٣٢٣٥) وقال: «سألت محمد بن إسماعيل - يعنى: عن هذا الحديث - فقال: «حسن صحيح».

(٦) فى ت: «المذكور فى الآية الكريمة فى القرآن».

(٧) زيادة من ت. (٨) فى أ: «فاستأنف». (٩) فى ت: «فادعى».

من نار وآدم خلق من طين، والنار خير من الطين، فى زعمه. وقد أخطأ فى ذلك، وخالف أمر الله، وكفر بذلك، فأبعده الله وأرغم أنفه، وطرده عن^(١) باب رحمته ومحل أنسه، وحضرة قدسه، وسماه «إبليس»، إعلاما له بأنه قد أبلس من الرحمة، وأنزله من السماء مذموما مدحورا إلى الأرض، فسأل الله النظرة إلى يوم البعث، فأنظره الحليم الذى لا يعجل على من عصاه. فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى، وقال: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ كما قال: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنُ أُخْرِتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَكَنَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، وهؤلاء هم المستثنون فى الآية الأخرى، وهى^(٢) قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥].

وقوله: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ. لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد برفع «الحق» الأولى^(٣)، وفسره مجاهد بأن معناه: أنا الحق، والحق أقول. وفى رواية عنه: الحق منى، وأقول الحق.

وقرأ آخرون بنصبهما.

قال السدى: هو قسم أقسم الله به.

قلت: وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وكقوله تعالى: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣].

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (٨٦) **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ** (٨٧) **وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ** (٨٨).

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجرا تعطونيهِ من عرض الحياة الدنيا، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أى: وما أزيد على ما أرسلنى الله به، ولا أبتغى زيادة عليه، بل ما أمرت به أديته لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغى بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة.

قال سفيان الثورى، عن الأعمش ومنصور، عن أبى الضحى، عن مسروق قال: أتينا عبد الله بن مسعود قال: يأيها الناس، من علم شيئا فليقل به، ومن لا^(٤) يعلم فليقل: الله أعلم؛ فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله^(٥) قال لنبيكم ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾. أخرجاه^(٦) من حديث الأعمش، به^(٧).

(٣) فى أ: «من».

(٢) فى أ: «الله عز وجل».

(١) فى أ: «لم».

(٥) فى أ: «الأول».

(٤) فى أ: «وهو».

(٦) فى ت: «أخرجه البخارى ومسلم».

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٩) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٨).

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ يعنى: القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن، قاله ابن عباس. ورواه ابن أبى حاتم عن أبيه، عن أبى غسان مالك بن إسماعيل: حدثنا قيس، عن عطاء ابن السائب، عن سعيد بن جبير^(١)، عن^(٢) ابن عباس فى قوله: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ قال: الجن والإنس.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، [وكقوله]^(٣): ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧].

وقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ أى: خبره وصدقه ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ أى: عن قريب.

قال قتادة: بعد الموت. وقال عكرمة: يعنى يوم القيامة. ولا منافاة بين القولين؛ فإن من مات فقد^(٤) دخل فى حكم القيامة.

وقال قتادة فى قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾: قال الحسن: يا بن آدم، عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

آخر تفسير سورة «ص»، والله الحمد والمنة

(١) فى ت: «بإسناده».

(٢) فى ت: «إلى».

(٣) زيادة من أ.

(٤) فى ت، س، أ: «قد».

تفسير سورة الزمر

وهي مكية .

قال النسائي: حدثنا محمد بن النضر بن مساور، حدثنا حماد، عن مروان أبي لبابة^(١)، عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر. ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم. وكان يقرأ في كل ليلة بنى إسرائيل والزمر^(٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤)﴾ .

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب - وهو القرآن العظيم - من عنده، تبارك وتعالى، فهو الحق الذي لا مزية فيه ولا شك، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَنَزَّلَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥]. وقال: ﴿وَأَنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]. وقال هاهنا: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾ أى: المنيع الجنب، ﴿الْحَكِيمِ﴾ أى: فى أقواله وأفعاله، وشرعه، وقدره.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ أى: فاعبد الله وحده لا شريك له، وادع الخلق إلى ذلك، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له [وحده]^(٣)، وأنه^(٤) ليس له شريك ولا عدل ولا نديد؛ ولهذا قال: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أى: لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده، لا شريك له.

وقال قتادة فى قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾: شهادة أن لا إله إلا الله.

ثم أخبر تعالى عن عبادة الأصنام من المشركين أنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ أى: إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين فى زعمهم، فعبدوا^(٥) تلك الصور تنزيلا لذلك منزلة عبادتهم الملائكة؛ ليشفعوا لهم عند الله فى

(١) فى ت: «روى النسائي بإسناده عن عائشة».

(٢) النسائي فى السنن الكبرى برقم (١١٤٤٤).

(٣) زيادة من ت، أ.

(٤) فى ت: «فإنه».

(٥) فى أ: «فعدوا».

نصرهم ورزقهم، وما ينوبهم من أمر^(١) الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به.
قال قتادة، والسدى، ومالك عن زيد بن أسلم، وابن زيد: ﴿لَا لِيُقَرَّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أى:
ليشفعوا لنا، ويقربونا عنده منزلة.

ولهذا كانوا يقولون فى تلييتهم إذا حجوا فى جاهليتهم: «لييك لا شريك لك»^(٢)، إلا شريكا هو
لك، تملكه وما ملك». وهذه الشبهة هى التى اعتمدها المشركون فى قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم
الرسول، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، بردها والنهى عنها، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده
لا شريك له، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه ولا رضى به، بل
أبغضه ونهى عنه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وأخبر أن الملائكة التى فى السموات من المقرين وغيرهم، كلهم عبيد خاضعون لله، لا يشفعون
عنده إلا بإذنه لمن ارتضى، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم، يشفعون عندهم بغير إذنه فيما أحبه
الملوك وأبوه، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، تعالى الله عن ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿فَفِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أى: سيفصل بين
الخلائق يوم معادهم، ويجزى كل عامل بعمله، ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ﴾^(٣) ﴿لِلْمَلَائِكَةِ أَهْؤُلَاءِ
إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾
[سبا: ٤٠، ٤١].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أى: لا يرشد إلى الهداية من قصده^(٤) الكذب
والافتراء على الله، وقلبه كفار يجحد بآياته [وحججه]^(٥) وبراهينه.

ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين فى الملائكة، والمعاندون^(٦) من اليهود
والنصارى فى العزيز وعيسى، فقال: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أى: لكان
الأمر على خلاف ما يزعمون^(٧). وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال، وإنما قصد
تجهيلهم^(٨) فيما ادعوه وزعموه، كما قال: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾
[الأنبياء: ١٧]، ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، كل هذا من باب
الشرط، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم.

وقوله: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أى: تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد، فإنه
الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى كل شيء عبد لديه، فقير إليه، وهو الغنى عما سواه، الذى قد
قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت.

(١) فى س، أ: «أمور».

(٢) فى أ: «لك لبيك».

(٣) فى س، أ: «نقول».

(٤) فى أ: «قصد».

(٥) زيادة من أ.

(٦) فى س: «تزعمون».

(٧) فى أ: «بجهلهم».

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُوِّرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُوِّرُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ٥﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَىٰ تُصْرَفُونَ ٦﴾.

يخبر تعالى أنه الخالق لما فى السموات والأرض، وما بين ذلك من الأشياء، وأنه مالك الملك المتصرف فيه، يقلب ليله ونهاره، ﴿يَكُوِّرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُوِّرُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ﴾ أى: سخرهما بجريان^(١) متعاقبين لا يقران^(٢)، كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا، كقوله: ﴿يَغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤] هذا معنى ما روى عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدى، وغيرهم.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: إلى مدة معلومة عند الله ثم تنقضى يوم القيامة. ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ أى: مع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه.

وقوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أى: خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألستكم والوانكم من نفس واحدة، وهو آدم، عليه السلام، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وهى حواء، عليهما السلام، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أى: وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج، وهى المذكورة فى سورة الأنعام: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣]، ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

وقوله: ﴿يَخْلُقْكُمْ^(٣) فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أى: قدركم^(٤) فى بطون أمهاتكم ﴿خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أى: يكون أحدكم أولا نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم يخلق فيكون لحما وعظما وعصبا وعروقا، وينفخ فيه الروح فيصير خلقا آخر، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وقوله: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ يعنى: ظلمة الرحم، وظلمة المشيمة^(٥) - التى هى كالغشاوة والوقاية على الولد - وظلمة البطن. كذا قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو مالك، والضحاك، وقتادة، والسدى، وابن^(٦) زيد [وغيرهم]^(٧).

وقوله: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أى: هذا الذى خلق السموات والأرض وما بينهما وخلقكم وخلق آباءكم^(٨)، هو الرب له الملك والتصرف^(٩) فى جميع ذلك، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى: الذى لا تنبغى

(٣) فى ت، س: «يذراكم».

(٦) فى ت، س: «وأبو».

(٩) فى أ: «والتصريف».

(٢) فى أ: «لا يفتران».

(٥) فى ت، س: «الشيمة».

(٨) فى أ: «آباءكم وإياكم».

(١) فى س: «تجريان».

(٤) فى ت، س: «يخلقكم»، وفى أ: «يذراكم».

(٧) زيادة من ت.

العبادة إلا له وحده، ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أى: فكيف تعبدون معه غيره؟ أين يذهبُ بقولكم؟!!

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٧) وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن نفسه تعالى: أنه ^(١) الغنى عما سواه من المخلوقات، كما قال موسى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨] .

وفى صحيح مسلم: «يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً» ^(٢) .

وقوله ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ أى: لا يحبه ولا يأمر به، ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أى: يحبه منكم ويزدكم ^(٣) من فضله .

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أى: لا تحمل نفس عن نفس شيئاً، بل كل مطالب بأمر نفسه، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: فلا تخفى عليه خافية .

وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أى: عند الحاجة يضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضُوا وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧] . ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أى: فى حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَّسِّهِ﴾ [يونس: ١٢] .

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أى: فى حال العافية يشرك بالله، ويجعل له ^(٤) أندادا. ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أى: قل لمن هذه حاله وطريقته ومسلكه: تمتع بكفرِكَ قليلاً. وهذا تهديد شديد ووعد أكيد، كقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، وقوله: ﴿نُتِمِعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤] .

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آَنَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (٩) .

(١) فى ت، أ: «بأنه» .

(٢) صحيح مسلم يرقم (٢٥٧٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه .

(٣) فى أ: «ويزيدكم» .

(٤) فى ت: «الله» .

يقول تعالى: أَمِنْ هَذِهِ صَفَتِهِ كَمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ وَجَعَلَ لَهُ ^(١) أُنْدَادًا؟ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مَنِ أَهْلُ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال هاهنا: ﴿أَمِنْ هُوَ قَانَتْ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ أى: فى حال سجوده وفى حال قيامه؛ ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع فى الصلاة، ليس هو القيام وحده، كما ذهب إليه آخرون.

قال الثورى، عن فراس، عن الشعبي، عن مسروق، عن ابن مسعود أنه قال: القانت: المطيع لله ولرسوله.

وقال ابن عباس، والحسن، والسدى، وابن زيد: ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾: جوف الليل.

وقال الثورى، عن منصور: بلغنا أن ذلك بين المغرب والعشاء.

وقال الحسن، وقتادة: ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾: أوله وأوسطه وآخره.

وقوله: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ أى: فى حال عبادته خائف راجٍ ^(٢)، ولا بد فى العبادة من هذا وهذا، وأن يكون الخوف فى مدة الحياة هو الغالب؛ ولهذا قال: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾، فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه، كما قال ^(٣) الإمام عبد بن حميد فى مسنده.

حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا ثابت، عن أنس قال: دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو فى الموت، فقال له: «كيف تجدك؟» ^(٤) قال: أرجو وأخاف. فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله عز وجل الذى يرجو، وأمنه الذى يخافه».

ورواه الترمذى والنسائى فى «اليوم والليلة»، وابن ماجه، من حديث سيّار بن حاتم، عن جعفر بن سليمان، به ^(٥). وقال الترمذى: «غريب. وقد رواه بعضهم عن ثابت، عن أنس، عن النبى ﷺ مرسلًا».

وقال ^(٦) ابن أبى حاتم، حدثنا عمر بن شبة ^(٧)، عن عبيدة النميرى، حدثنا أبو خلف عبد الله بن عيسى الخزّاز، حدثنا ^(٨) يحيى البكاء، أنه سمع ابن عمر قرأ: ﴿أَمِنْ هُوَ قَانَتْ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾؛ قال ابن عمر: ذاك عثمان بن عفان، رضى الله عنه.

وإنما قال ابن عمر ذلك؛ لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان بالليل وقراءته، حتى إنه ربما قرأ القرآن فى ركعة، كما روى ذلك أبو عبيدة عنه، رضى الله عنه ^(٩)، وقال الشاعر ^(١٠).

(١) فى أ: «الله».

(٢) فى ت: «خائفًا راجيًا».

(٣) فى ت: «روى».

(٤) فى أ: «تحذر».

(٥) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١٣٦٨) وسنن الترمذى برقم (٩٨٣) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٦١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٩٠١).

(٦) فى ت: «روى».

(٧) فى أ: «شبية».

(٨) فى ت: «عنهما».

(٩) هو حسان بن ثابت الأنصارى، والبيت فى ديوانه (ص ٢٤٨).

ضَحُّوا بِأَشْمَطِ عُنْوَانِ السُّجُودِ بِهِ يُقَطِّعَ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنًا

وقال^(١) الإمام أحمد: كتب إلى الربيع بن نافع: حدثنا الهيثم بن حميد، عن زيد بن واقد، عن سليمان بن موسى، عن كثير بن مرة^(٢)، عن تميم الداري قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بمائة آية في ليلة، كتب له قنوت ليلة».

وكذا رواه النسائي في «اليوم والليلة» عن إبراهيم بن يعقوب، عن عبد الله بن يوسف والربيع بن نافع، كلاهما عن الهيثم بن حميد، به^(٣).

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: هل يستوى هذا والذي قبله ممن جعل الله أنثادا ليضل عن سبيله؟! ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل.

﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢).

يقول تعالى أمرا عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي: لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة في دنياهم وأخراهم.

وقوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾: قال مجاهد: فهاجروا فيها، وجاهدوا، واعتزلوا الأوثان.

وقال شريك، عن منصور، عن عطاء في قوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ قال: إذا دعيتم إلى المعصية فاهربوا، ثم قرأ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، قال الأوزاعي: ليس يوزن لهم ولا يكال^(٤)، إنما يغرف لهم غرفا.

وقال ابن جريج: بلغني أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط، ولكن يزدون^(٥) على ذلك.

وقال السدي: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: يعني في الجنة.

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ أي: إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾، قال السدي: يعني من أمته ﷺ.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٣) قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا

(٢) في ت: «بإسناده».

(١) في ت: «روى».

(٣) المسند (١٠٣/٤) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١٠٥٥٣).

(٥) في ت: «يزدادون».

(٤) في ت، أ: «يكال لهم».

ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادُهُ يَا عِبَادٍ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴿١٦﴾ .

يقول تعالى: قل يا محمد وأنت رسول الله: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ، وهو يوم القيامة . وهذا شرط ، ومعناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأحرى ، ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي . فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ ، وهذا أيضا تهديد وتبر^(١) منهم ، ﴿قُلِ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ أى : إنما الخاسرون كل الخسيران^(٢) ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى : تفارقوا فلا التقاء لهم أبدا ، سواء ذهب أهلوههم إلى الجنة وقد ذهبوا هم إلى النار ، أو أن الجميع أسكنوا النار ، ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور ، ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أى : هذا هو الخسار البين الظاهر الواضح .

ثم وصف حالهم فى النار فقال: ﴿لَهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ ، كما قال: ﴿لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١] ، وقال: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِّن فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥] . وقوله: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادُهُ﴾ أى : إنما يقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده ، لينزجروا عن المحارم والمآثم .

وقوله: ﴿يَا عِبَادٍ فَاتَّقُونِ﴾ أى : اخشوا بأسى وسطوتى ، وعذابى ونقمتى .

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادَ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمْعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْأُولَوْنَ﴾

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ نزلت فى زيد بن عمرو بن نفيل ، وأبى ذر ، وسلمان الفارسى .

والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم ، ممن اجتنب عبادة الأوثان ، وأناب إلى عبادة الرحمن . فهؤلاء هم الذين لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

ثم قال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ . الَّذِينَ يَسْتَمْعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ أى : يفهمونه ويعملون بما فيه ، كقوله تعالى لموسى حين أتاه التوراة: ﴿فَخَذَاهَا بِقُوَّةٍ وَأْمَرَ قَوْمَكِ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥] .

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ أى : المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله فى الدنيا والآخرة^(٣) ، أى : ذوو العقول الصحيحة ، والفطر المستقيمة .

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾ .

(١) فى أ: «وتبرى» .

(٢) فى ت ، س: «الخاسرون» .

(٣) فى س: «والأخرى» .

يقول تعالى: أَمَّنْ كَتَبَ اللَّهُ أَنَّهُ شَقِيٌّ تَقْدَرُ تُنْقِذُهُ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْهَلَاكِ؟ أَى: لَا يَهْدِيهِ أَحَدٌ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ؛ لِأَنَّهُ مَنْ يَضِلُّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَمَنْ يَهْدِهِ فَلَا مُضِلَّ لَهُ.

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ عِبَادَةِ السَّعْدَاءِ أَنَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ الْقُصُورُ الشَّاهِقَةُ، ﴿مَنْ فَوْقَهَا غُرَفٌ مَبْنِيَةٌ﴾، أَى: طَبَاقٌ فَوْقَ طَبَاقٍ، مَبْنِيَّاتٌ مُحْكَمَاتٌ مَزْخَرَفَاتٌ عَالِيَاتٌ.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عِبَادُ بْنُ يَعْقُوبَ الْأَسَدِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فَضِيلٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنِ النَّعْمَانِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَغُرَفًا يُرَى بِطُونُهَا مِنْ ظَهْوَرِهَا، وَظَهْوَرُهَا مِنْ بَطُونِهَا». فَقَالَ أُعْرَابِيٌّ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَصَلَّى لِلَّهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسَ نِيَامًا».

وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِسْحَاقَ^(١)، وَقَالَ: «حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَقَدْ تَكَلَّمَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِيهِ مِنْ قَبْلِ حِفْظِهِ».

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ ابْنِ مُعَانِقٍ - أَوْ: أَبِي مُعَانِقٍ - عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَغُرَفَةً^(٢) يَرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَلَانَ الْكَلَامَ، وَتَابَعَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى وَالنَّاسَ نِيَامًا».

تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُعَانِقٍ الْأَشْعَرِيِّ، عَنْ أَبِي مَالِكٍ، بِهِ^(٣).

وَقَالَ^(٤) الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ^(٥)، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ الْغُرَفَةَ فِي الْجَنَّةِ كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ فِي السَّمَاءِ». قَالَ: فَحَدَّثْتُ بِذَلِكَ النَّعْمَانُ بْنُ أَبِي عِيَّاشٍ، فَقَالَ: سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ يَقُولُ: «كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدَّرِيَّ^(٦) فِي الْأَفْقِ الشَّرْقِيِّ أَوْ الْغَرْبِيِّ».

أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي حَازِمٍ^(٧)، وَأَخْرَجَاهُ أَيْضًا فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ سَلِيمٍ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَّارٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ^(٨).

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا فَزَّارَةُ، أَخْبَرَنِي فُلَيْحٌ، عَنْ هَلَالِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَّارٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ فِي الْجَنَّةِ أَهْلَ الْغُرَفِ، كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدَّرِيَّ الْغَارِبَ فِي الْأَفْقِ الطَّالِعِ، فِي تَفَاضُلِ أَهْلِ الدَّرَجَاتِ». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَلَيْكَ النَّبِيُّونَ؟ فَقَالَ: «بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، وَأَقْوَامٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الرَّسُلَ».

(١) زوائد عبد الله على المسند (١/ ١٥٥) وسنن الترمذی برقم (١٩٨٤).

(٢) في س، أ: «غرفة».

(٣) المسند (٥/ ٣٤٣).

(٤) في ت: «وروى».

(٥) في س، أ: «الذي».

(٦) المسند (٥/ ٣٤٠) وصحيح البخارى برقم (٦٥٥٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٠).

(٨) صحيح البخارى برقم (٦٥٥٦) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣١).

ورواه الترمذى عن سويد^(١)، عن ابن المبارك، عن فليح، به^(٢)، وقال: حسن صحيح.

وقال^(٣) الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر وأبو كامل^(٤) قالوا: حدثنا زهير، حدثنا سعد الطائى، حدثنا أبو المدلل - مولى أم المؤمنين - أنه سمع أبا هريرة يقول: قلنا: يا رسول الله، إنا إذا رأيناك رقت قلوبنا، وكنا من أهل الآخرة، فإذا فارقتك أعجبتنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد. قال: «لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التى أنتم عليها عندى، لصافحتكم الملائكة بأكفهم، ولزارتكم فى بيوتكم. ولو لم تذهبوا لجاء الله بقوم يذنبون كى يغفر لهم» قلنا: يا رسول الله، حدثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «لَبِنَةُ ذَهَبٍ وَلَبِنَةُ فِضَّةٍ، وملاطها المسك الأذفر، وحصبأؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يئأس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه. ثلاثة لا تُردَّ دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تحمّل على الغمام، وتفتح لها أبواب السموات، ويقول الرب: وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين»^(٥).

وروى الترمذى، وابن ماجه بعضه، من حديث سعد^(٦) أبى مجاهد الطائى - وكان ثقة - عن أبى المدلل - وكان ثقة - به^(٧).

وقوله: ﴿تَجْرِي مِنَ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أى: تسلك^(٨) الأنهار بين خلال ذلك، كما يشاؤون^(٩) وأين أرادوا، ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ أى: هذا الذى ذكرناه وعَدَّ وَعَدَهُ الله عباده المؤمنين ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١) أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٢)﴾.

يخبر تعالى: أن أصل الماء فى الأرض من السماء كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨]، فإذا أنزل الماء من السماء كَمَن فى الأرض، ثم يصرفه تعالى فى أجزاء الأرض كما يشاء، ويتبعه عيوناً ما بين صغار وكبار، بحسب الحاجة إليها؛ ولهذا قال: ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾.

قال^(١٠) ابن أبى حاتم - رحمه الله -: حدثنا على بن الحسين، حدثنا عمرو بن على، حدثنا أبوقتيبة عتبة بن يقظان، عن عكرمة^(١١)، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾، قال: ليس فى الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكن عروق فى الأرض

(١) فى أ: «يزيد».

(٢) المسند (٣٣٩/٢) وسنن الترمذى برقم (٢٥٥٦).

(٣) فى ت: «وروى».

(٤) فى أ: «وأبو عامر».

(٥) المسند (٣٠٤/٢).

(٦) فى أ: «سعيد».

(٧) سنن الترمذى برقم (٣٥٩٨) وسنن ابن ماجه برقم (١٧٥٢) قال الترمذى: «هذا حديث حسن»، ثم أشار إلى رواية أحمد المطولة.

(٨) فى ت: «تلك».

(٩) فى أ: «يشاؤون».

(١٠) فى ت: «روى».

(١١) فى ت: «بسنده».

تغيره، فذلك قوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾، فمن سره أن يعود الملح عذاب فليصعده.

وكذا قال سعيد بن جبير، وعامر الشعبي: أن كل ماء في الأرض فأصله من السماء.

وقال سعيد بن جبير: أصله من الثلج، يعنى: أن الثلج يتراكم على الجبال، فيسكن في قرارها، فتنبع العيون من أسافلها.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أى: ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعاً ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أى: أشكاله وطعومه وروائح و منافعه، ﴿ثُمَّ يَهِيحُ﴾ أى: بعد نضارته وشبابه يكتهل ^(١) ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾، قد خالطه اليبس، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ أى: ثم يعود يابساً يتحطم، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أى: الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا، تكون خضرة نضرة حسناء، ثم تعود عجوزاً شوهاء، والشباب يعود شيخاً هرمًا كبيراً ضعيفاً [قد خالطه اليبس] ^(٢)، وبعد ذلك كله الموت. فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير، وكثيراً ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء، وينبت به زروعاً وثماراً، ثم يكون بعد ذلك حطاماً، كما قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

وقوله: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ﴾ أى: هل يستوى هذا ومن هو قاسى القلب بعيد من الحق؟! كقوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ ولهذا قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى: فلا تلين عند ذكره ^(٣)، ولا تخشع ولا تعى ولا تفهم، ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ (٢٣)﴾.

هذا مدح من الله - عز وجل - لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي﴾ قال مجاهد: يعنى القرآن كله متشابه مثنى.

وقال قتادة: الآية تشبه الآية، والحرف يشبه الحرف.

وقال الضحاك: ﴿مَّثَانِي﴾: ترديد القول ليفهموا عن ربهم عز وجل.

وقال عكرمة، والحسن: ثنى الله فيه القضاء - زاد الحسن: تكون السورة فيها آية، وفى السورة الأخرى آية تشبهها.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿مَّثَانِي﴾: مُرَدَّد، رُدَّد موسى فى القرآن، وصالح وهود

(٣) فى ت، أ: ذكر الله.

(٢) زيادة من ت، أ.

(١) فى ت، أ: «يتكهل».

والأنبياء، عليهم السلام، في أمكنة كثيرة.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿مَّثَانِي﴾ قال: القرآن يشبه بعضه بعضاً، ويرد^(١) بعضه على بعض.

وقال بعض العلماء: ويروى عن سفيان بن عيينة معنى قوله: ﴿مُتَشَابِهًا مَّثَانِي﴾: أن سياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد، فهذا من المتشابه، وتارة تكون بذكر الشيء وضده، كذكر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفة الجنة ثم صفة النار، وما أشبه هذا، فهذا من المثنائي، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الأنفطار: ١٣، ١٤]، وكقوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سَجِينٍ﴾ [المطففين: ٧]، إلى أن قال: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيْنِ﴾ [المطففين: ١٨]، ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٤٩]. إلى أن قال: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ [ص: ٥٥]، ونحو هذا من السياقات، فهذا كله من^(٢) المثنائي، أى: في معنيين اثنين، وأما إذا كان السياق كله في معنى واحد يشبه بعضه بعضاً، فهو المتشابه وليس هذا من المتشابه المذكور في قوله: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، ذلك معنى آخر.

وقوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى: هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد. والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لما يرجون ويؤمنون من رحمته^(٣) ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الكفار^(٤) من وجوه:

أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نغمات لأبيات، من أصوات القينات.

الثاني: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً، بأدب وخشية، ورجاء ومحبة، وفهم وعلم، كما قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣] أى: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مصغين إليها، فاهمين بصيرين بمعانيها؛ فلهذا إنما يعملون بها، ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم [أى يرون غيرهم قد سجد فيسجدون تبعاً له]^(٥).

الثالث: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة، رضى الله عنهم، عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله. لم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك؛ ولهذا فازوا بالقدرح المعلن في الدنيا والآخرة.

قال عبد الرزاق: حدثنا معمر قال: تلا قتادة، رحمه الله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ

(١) فى ت: «يردد».

(٢) فى أ: «فى».

(٣) فى ت: «من رحمة الله».

(٤) فى ت، س، أ: «الفجار».

(٥) زيادة من أ.

ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴿٢٤﴾ قال: هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم، وتبكي أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا فى أهل البدع، وهذا من الشيطان.

وقال السدّي: ﴿ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى: إلى وعد الله.

وقوله: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أى: هذه صفة من هداه الله، ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله الله، ﴿وَمَنْ يَضِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَّاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾.

يقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ويُقرَعُ فيقال له ولا مثاله من الظالمين: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، كمن يأتي آمنا يوم القيامة؟! كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المالك: ٢٢]، وقال: ﴿يَوْمَ يَسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨]، وقال [تعالى] (١): ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت: ٤٠]، واكتفى فى هذه الآية بأحد القسمين عن الآخر، كقول الشاعر (٢):

فَمَا أَدْرَى إِذَا يَمَمْتُ أَرْضًا أريدُ الخيرَ: أيهما يَلِينِي؟

يعنى: الخير أو الشر.

وقوله: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَّاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعنى: القرون الماضية المكذبة للرسول، أهلكهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق.

وقوله: ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: بما أنزل بهم من العذاب والنكال وتشفى (٣) المؤمنين بهم، فليحذر المخاطبون من ذلك، فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل، وخاتم الأنبياء، والذي أعدّه الله لهم فى الآخرة من العذاب الشديد أعظم مما أصابهم فى الدنيا؛ ولهذا قال: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾.

(١) زيادة من ت.

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٩٨/٢٢).

(٣) فى س، أ: «يشفى».

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أى: بينا للناس فيه بضرب الأمثال، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ، فإن المثل يُقَرَّبُ المعنى إلى الأذهان، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨] أى: تعلمونه من أنفسكم، وقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقوله: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أى: هو قرآن بلسان عربى مبین، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان ووضوح وبرهان، وإنما جعله الله [عز وجل]^(١) كذلك، وأنزله بذلك، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى: يحذرون ما فيه من الوعيد، ويعملون بما^(٢) فيه من الوعد^(٣).

ثم قال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ أى: يتنازعون فى ذلك العبد المشترك بينهم، ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ أى: خالصا لرجل، لا يملكه أحد غيره، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أى: لا يستوى هذا وهذا. كذلك لا يستوى المشرك الذى يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذى لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له. فأين هذا من هذا؟

قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: هذه الآية ضربت مثلا للمشرك والمخلص، ولما كان هذا المثل ظاهرا بينا جليا، قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أى: على إقامة الحجة عليهم، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: فلهذا يشركون بالله.

وقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾: هذه الآية من الآيات التى استشهد بها الصديق [رضى الله عنه]^(٤) عند موت الرسول ﷺ^(٥)، حتى تحقق الناس موته، مع قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

ومعنى هذه الآية: ستقلون من هذه الدار لا محالة، وستجتمعون عند الله فى الدار الآخرة، وتختصمون فيما أنتم فيه فى الدنيا من التوحيد والشرك بين يدى الله عز وجل، فيفصل بينكم، ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم، فينجى المؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين.

ثم إن هذه الآية - وإن كان سياقها فى المؤمنين والكافرين، وذکر الخصومة بينهم فى الدار الآخرة - فإنها شاملة لكل متنازعين فى الدنيا، فإنه تعاد عليهم الخصومة فى الدار الآخرة.

قال^(٦) ابن أبى حاتم، رحمه الله: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن محمد بن عمرو، عن ابن حاطب - يعنى يحيى بن عبد الرحمن - عن ابن الزبير، عن الزبير قال: لما نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال الزبير: يا رسول الله، أكرر علينا الخصومة؟ قال: «نعم». قال: إن الأمر إذاً لشديد.

وكذا رواه الإمام أحمد عن سفيان، وعنده زيادة: ولما نزلت: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾

(٣) فى ت، أ: «الوعيد».

(٢) فى ت، أ: «لما».

(١) زيادة من أ.

(٦) فى ت: «روى».

(٥) فى ت: «رسول الله».

(٤) زيادة من ت.

[التكاثر: ٨] قال الزبير: أى رسول الله، أى نعيم نسأل عنه؟ وإغما - يعنى: هما^(١) الأسودان: التمر والماء - قال: «أما إن ذلك سيكون».

وقد روى هذه الزيادة الترمذى وابن ماجه، من حديث سفيان، به^(٢). وقال الترمذى: حسن.

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا ابن نمير، حدثنا محمد - يعنى ابن عمرو - عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، عن عبد الله بن الزبير، عن الزبير بن العوام^(٣) قال: لما نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال الزبير: أى رسول الله، أكرر علينا ما كان بيننا فى الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: «نعم، ليكررن عليكم، حتى يؤدّى إلى كل ذى حق حقه». قال الزبير: والله إن الأمر لشديد.

ورواه الترمذى من حديث محمد بن عمرو، به^(٤) وقال: حسن صحيح.

وقال^(٥) الإمام أحمد: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ابن لهيعة، عن أبى عثمان، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «أول الخصمين يوم القيامة جاران». تفرد به أحمد^(٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبى الهيثم^(٧)، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، إنه ليختصم^(٨)، حتى الشاتان فيما انتطحتا» تفرد به أحمد^(٩).

وفى المسند عن أبى ذر، رضى الله عنه [أنه]^(١٠) قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين ينتطحان، فقال: «أتدرى فيم ينتطحان يا أبا ذر؟» قلت: لا. قال: «لكن الله يدرى وسيحكم بينهما»^(١١).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا سهل بن بحر، حدثنا حيان بن أغلب، حدثنا أبى، حدثنا ثابت عن أنس^(١٢) [رضى الله عنه]^(١٣)، قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بالإمام الخائن^(١٤) يوم القيامة، فتخاصمه الرعية فيفلجون عليه، فيقال له: سد ركننا من أركان جهنم».

ثم قال: الأغلب بن تميم ليس بالحافظ^(١٥).

(١) فى أ: «بهما».

(٢) المسند (١/١٦٤) وسنن الترمذى برقم (٣٣٥٦) وسنن ابن ماجه برقم (٤١٥٩).

(٣) فى م: «العوام رضى الله عنه».

(٤) المسند (١/١٦٧) وسنن الترمذى برقم (٣٢٣٦).

(٥) فى ت: «وروى».

(٦) المسند (٤/١٥١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٧/٣٠٣) من طريق ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن أبى عثمان به.

(٧) فى ت: «وروى أيضا».

(٨) فى أ: «يختصم».

(٩) المسند (٣/٢٩) ودراج أبو السمح عن أبى الهيثم ضعيف.

(١٠) زيادة من ت.

(١١) المسند (٥/١٦٢).

(١٢) فى ت: «وروى الحافظ أبو بكر البزار بسنده عن أنس».

(١٣) زيادة من أ.

(١٤) فى أ: «الجائر».

(١٥) مسند البزار برقم (١٦٤٤) «كشف الأستار» ولفظه: «يجاء بالإمام الجائر يوم القيامة فيخاصمه الرعية، فيفلحوا عليه.» ثم ذكر

بقية الحديث كما هو هنا.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، رضى الله عنهما^(١): ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، يقول: يخاصم الصادق الكاذب، والمظلوم الظالم، والمهدى الضال، والضعيف المستكبر^(٢).

وقد روى ابن منده فى كتاب «الروح»، عن ابن عباس أنه قال: يختصم الناس يوم القيامة، حتى تختصم الروح مع الجسد، فتقول الروح للجسد: أنت فعلت. ويقول الجسد للروح: أنت أمرت، وأنت سولت. فيبعث الله ملكا يفصل بينهما، فيقول [لهما]^(٣): إن مثلكما كمثلى رجل مقعد بصير وآخر ضرير، دخلا بستانا، فقال المقعد للضرير: إني أرى هاهنا ثمارا، ولكن لا أصل إليها. فقال له الضرير: اركبني فتناولها، فركبه فتناولها، فأيهما المعتدى؟ فيقولان: كلاهما. فيقول لهما الملك: فإنكما قد حكمتما على أنفسكما. يعنى: أن الجسد للروح كالمطية، وهو راكبه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا جعفر بن أحمد بن عوسجة، حدثنا ضرار، حدثنا أبو سلمة الخزاعي منصور بن سلمة، حدثنا القمى - يعنى يعقوب بن عبد الله - عن جعفر بن المغيرة، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عمر^(٤) [رضي الله عنهما]^(٥) قال: نزلت هذه الآية، وما نعلم فى أى شيء نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [قال]^(٦): قلنا: من نخاصم؟ ليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومة، فمن نخاصم؟ حتى وقعت الفتنة، فقال ابن عمر: هذا الذى وعدنا ربنا - عز وجل - نختصم فيه.

ورواه النسائى عن محمد بن عامر، عن منصور بن سلمة، به^(٧).

وقال أبو العالية [فى قوله]^(٨): ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال: يعنى أهل القبلة.

وقال ابن زيد: يعنى أهل الإسلام وأهل الكفر.

وقد قدمنا أن الصحيح العموم، والله أعلم.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥)﴾.

يقول تعالى مخاطبا للمشركين الذين افتروا على الله، وجعلوا معه آلهة أخرى، وادعوا أن الملائكة بنات الله، وجعلوا لله ولدا - تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا - ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على السنة رسل الله، صلوات الله [وسلامه]^(٩) عليهم أجمعين، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ أى: لا أحد أظلم من هذا؛ لأنه جمع بين طرفى الباطل،

(١) زيادة من أ.

(٢) فى أ: «المتكبر».

(٣) فى ت: «عنه».

(٤) زيادة من أ.

(٥) زيادة من أ.

(٦) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده إلى ابن عمر».

(٧) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٤٧).

(٨) زيادة من أ.

(٩) زيادة من ت، أ.

كذب على الله، وكذب رسول الله، قالوا الباطل وردوا الحق؛ ولهذا قال متوعدا لهم: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ وهم الجاحدون المكذوبون.

ثم قال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال مجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، وابن^(١) زيد: ﴿الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾: هو الرسول.

وقال السدي: هو جبريل عليه السلام، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ يعني: محمدا ﷺ.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ قال: من جاء بلا إله إلا الله، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ يعني: رسول الله ﷺ.

وقرأ الربيع بن أنس: «الذين جاؤوا بالصدق» يعني: الأنبياء، «وصدقوا به» يعني: الاتباع.

وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال: أصحاب القرآن المؤمنون يحييئون يوم القيامة، فيقولون: هذا ما أعطيتونا، فعملنا فيه بما أمرتونا.

وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين؛ فإن المؤمن يقول الحق ويعمل به، والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول في هذه الآية على هذا التفسير، فإنه جاء بالصدق^(٣)، وصدق المرسلين، وآمن بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ هو رسول الله ﷺ، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾: المسلمون^(٤).

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ قال ابن عباس: اتقوا الشرك.

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يعني: في الجنة، مهما طلبوا وجدوا، ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ . لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. كما قال في الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ (٣٧) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٤٠)﴾.

(١) في أ: «وابو».

(٢) في أ: «والذي جاء».

(٣) في أ: «جاء بالحق».

(٤) في ت، س، أ: «قال المسلمون».

يقول تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ - وقرأ بعضهم: «عباده» - يعنى أنه تعالى يكفى من عبده وتوكل عليه.

وقال^(١) ابن أبى حاتم هاهنا: حدثنا أبو عبيد الله^(٢) ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى، حدثنا أبو هانىء، عن أبى على عمرو بن مالك الجنبى^(٣)، عن فضالة بن عبيد الأنصارى؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أفلح من هدى إلى الإسلام، وكان عيشه كفافا، وقنع به».

ورواه الترمذى والنسائى، من حديث حيوة بن شريح، عن أبى هانىء الخولانى، به^(٤). وقال الترمذى: صحيح.

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعنى: المشركين يخوفون الرسول ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم التى يدعونها^(٥) من دونه؛ جهلا منهم وضلالا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ. وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ لِلَّهِ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ أى: منيع الجنب لا يضام، من استند إلى جنبه ولجأ إلى بابه، فإنه العزيز الذى لا أعز منه، ولا أشد انتقاما منه، ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَتَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ يعنى: [أن]^(٦) المشركين كانوا يعترفون بأن الله هو الخالق للأشياء كلها، ومع هذا يعبدون معه غيره، مما^(٧) لا يملك لهم ضرا ولا نفعاً؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضِرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ أى: لا تستطيع شيئا من الأمر^(٨).

وذكر ابن أبى حاتم هاهنا حديث قيس بن الحجاج، عن حنش الصنعانى، عن^(٩) ابن عباس مرفوعاً: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، جفت الصحف، ورفعت الأقلام، واعمل لله بالشكر فى اليقين، واعلم أن الصبر على ما تكره خيرا كثيرا، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا»^(١٠).

﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أى: الله كافى، عليه توكلت وعليه يتوكل المتوكلون، كما قال هود، عليه السلام، حين قال له قومه: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُون. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦].

(٣) فى أ: «الحسينى».

(٢) فى أ: «عبد الله».

(١) فى ت: «وروى».

(٤) ورواه الحاكم فى المستدرک (١٢٢/٤) والطبرانى فى المعجم الكبير (٣٠٦/١٨) من طريق عبد الله بن وهب عن أبى هانىء به.

(٧) فى ت، س، أ: «ممن».

(٦) زيادة من ت، أ.

(٥) فى أ: «يدعون بها».

(٩) فى ت: «حديثا بسنده إلى».

(٨) فى ت: «الأمور».

(١٠) رواه أحمد فى مسنده (٢٩٣/١) والترمذى فى السنن برقم (٢٥١٦) من طريق الليث بن سعد عن قيس بن الحجاج به، قال

الترمذى: «حديث حسن صحيح».

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عصام الأنصاري، حدثنا عبد الله بن بكر^(١) السهمي، حدثنا محمد بن حاتم، عن أبي المقدام - مولى آل عثمان - عن محمد بن كعب القرظي، حدثنا ابن عباس^(٢) [رضى الله عنهما]^(٣) - رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق [منه]^(٤) بما في يديه، ومن أحب أن يكون أكرم الناس، فليتك الله»^(٥).

وقوله: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على طريقتكم، وهذا تهديد ووعد. ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أي: على طريقتي ومنهجى، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ستعلمون غب ذلك ووباله ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: في الدنيا، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: دائم مستمر، لا محيد له عنه. وذلك يوم القيامة.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (٤١) الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون (٤٢).

يقول تعالى مخاطبا رسوله محمدا ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني: القرآن ﴿لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي: لجميع الخلق من الإنس والجن لتتذرعهم به، ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه، ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: إنما يرجع وبال ذلك على نفسه، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: بموكل أن يهتدوا، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، ﴿إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

ثم قال تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى، بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠، ٦١]. فذكر الوفاة الصغرى ثم الكبرى. وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى؛ ولهذا قال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، فيه دلالة على أنها تجتمع في الملائكة الأعلى، كما ورد بذلك الحديث المرفوع الذي رواه ابن منده وغيره. وفي صحيح البخاري ومسلم من حديث عبيد الله^(٦) بن عمر، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضى الله عنه،

(١) فى أ: «بكبر». (٢) فى ت: «وروى ابن أبي حاتم بإسناده إلى ابن عباس».

(٣) زيادة من ت. (٤) زيادة من ت، س، أ.

(٥) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٢١٨/٣) من طرق عن أبي المقدام به، ورواه ابن عدى فى الكامل (٢٤١/٥) من طريق شيبان عن عيسى ابن ميمون عن محمد بن كعب القرظي به.

(٦) فى أ: «عبد الله».

الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليَنفُضْهُ بداخله إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم ليقل: باسمك ربى وضعت جنبى، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسى فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»^(١).

وقال بعض السلف [رحمهم الله]^(٢): يَقْبِضُ أرواحُ الأموات إذا ماتوا، وأرواحُ الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف، ﴿فَيَمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ﴾ التى قد ماتت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى.

قال السدى: إلى بقية أجلها. وقال ابن عباس: يمسك أنفُسُ الأموات، ويرسل أنفُسُ الأحياء، ولا يغلط. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥).

يقول تعالى ذاما للمشركين فى اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد، التى اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حذاهم على ذلك، وهى لا تملك شيئاً من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هى جمادات أسوأ حالا من الحيوان بكثير^(٣).

ثم قال: قل: أى يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه^(٤) شفعاء لهم عند الله، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له، فمرجعها كلها إليه، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: هو المتصرف فى جميع ذلك، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى: يوم القيامة، فيحكم بينكم بعدله، ويجزى كلا بعمله.

ثم قال تعالى ذاما للمشركين أيضاً: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أى: إذا قيل: لا إله إلا الله ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ قال مجاهد: ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾: انقبضت.

وقال السدى: نفرت. وقال قتادة: كفرت واستكبرت. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: استكبرت. كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]، أى: عن المتابعة والانقياد لها. فقلوبهم^(٥) لا تقبل الخير، ومن لم يقبل الخير يقبل الشر؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أى: من الأصنام والأنداد، قاله مجاهد، ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أى: يفرحون ويسرون.

(١) صحيح البخارى برقم (٦٣٢٠) وصحيح مسلم برقم (٢٧١٤).

(٢) فى س: «بكبير».

(٣) زيادة من ت.

(٤) فى ت: «بقلوبهم».

(٥) فى ت: «ما اتخذوا».

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتِ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾ .

يقول تعالى بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر، من المذمة لهم في حبهام الشرك، ونفرتهم عن التوحيد، ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: ادع أنت الله وحده لا شريك له، الذى خلق السموات والأرض وفطرها، أى: جعلها على غير مثال سبق، ﴿عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: السر والعلانية، ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أى: فى دنياهم^(١)، ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم، وقيامهم من قبورهم.

وقال^(٢) مسلم فى صحيحه: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا يحيى بن أبى كثير، حدثنى أبو سلمة^(٣) بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة [رضى الله عنها]^(٤): بأى شىء كان رسول الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم، رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدى من يشاء إلى صراط مستقيم»^(٥).

وقال^(٦) الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، وأخبرنا سهيل بن أبى صالح وعبد الله ابن عثمان بن خثيم، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن عبد الله بن مسعود^(٧) أن رسول الله ﷺ قال: «من قال: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إني أعهد إليك فى هذه الدنيا»^(٨) أنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمدا عبدك ورسولك، فإنك إن تكلنى إلى نفسى تقربنى من الشر وتبعدنى من الخير، وإنى لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لى عندك عهدا تُوفِّينىه يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد، إلا قال الله، عز وجل، لملائكته يوم القيامة: إن عبدى قد عهد إلى عهدا فأوفوه إياه، فدخله الله الجنة».

قال سهيل: فأخبرت القاسم بن عبد الرحمن أن عوناً أخبر بكذا وكذا؟ فقال: ما فى أهلنا جارية إلا وهى تقول هذا فى خدرها. انفرد به الإمام أحمد^(٩).

وقال^(١٠) الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنى حُيَّي^(١١) بن عبد الله؛ أن

(١) فى أ: «دنيا لهم».

(٢) فى ت: «عن أبى سلمة».

(٣) فى ت: «عن أبى سلمة».

(٤) صحيح مسلم برقم (٧٧٠).

(٥) فى ت: «وروى».

(٦) فى ت: «وروى».

(٧) فى ت، أ: «مسعود رضى الله عنه».

(٨) فى أ: «فى الحياة الدنيا».

(٩) المسند (٤١٢/١) قال الهيثمى فى المجمع (١٧٤/١٠): «رجاله رجال الصحيح».

(١٠) فى ت: «وروى».

(١١) فى ت: «يحيى».

أبو عبد الرحمن حدثه قال: أخرج لنا عبد الله بن عمرو قرطاسا وقال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا يقول: «اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت رب كل شيء، وإله كل شيء، أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، وأن محمدا عبدك ورسولك، والملائكة يشهدون، أعوذ بك من الشيطان وشركه، وأعوذ بك أن أقترف على نفسي إثما، أو أجرحه إلى^(١) مسلم».

قال أبو عبد الرحمن: كان رسول الله ﷺ يعلمه^(٢) عبد الله بن عمرو أن يقول ذلك حين يريد أن ينام. تفرد به أحمد أيضا^(٣).

وقال^(٤) [الإمام]^(٥) أحمد أيضا: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا ابن عياش^(٦)، عن محمد بن زياد الألهاني، عن أبي راشد الحبراني قال: أتيت عبد الله بن عمرو فقلت له: حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ. فألقى بين يدي صحيفة فقال: هذا ما كتب لى رسول الله ﷺ، فنظرت فيها فإذا فيها أن أبا بكر الصديق^(٧) قال: يا رسول الله، علمنى، ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت. فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، قل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، لا إله إلا أنت، رب كل شيء ومليكه، أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشركه، أو^(٨) أقترف على نفسي سوءا، أو أجرحه إلى مسلم».

ورواه الترمذى، عن الحسن بن عرفة، عن إسماعيل بن عياش^(٩)، به^(١٠)، وقال: حسن غريب من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا شيبان، عن ليث، عن مجاهد قال: قال أبو بكر الصديق: أمرنى رسول الله ﷺ أن أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعى من الليل: «اللهم فاطر السموات والأرض» إلى آخره^(١١).

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم المشركون، ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أى: ولو أن جميع ملك الأرض وضعفه معه ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ﴾ أى: الذى أوجبه الله لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يتقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهبًا، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أى: وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن فى بالهم ولا فى حسابهم، ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا﴾ أى: وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا فى الدار الدنيا من المحارم والمآثم، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أى: وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به فى الدار الدنيا.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيَتْهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ

(١) فى أ: «على». (٢) فى ت، س: «يعلم».

(٣) المسند (١٧١/٢).

(٤) فى ت: «وروى».

(٥) زيادة من أ.

(٦) فى ت: «عباس».

(٨) فى ت، أ: «أن».

(٩) فى أ: «عباس».

(٧) فى ت: «الصديق رضى الله عنه».

(١٠) المسند (١٩٦/٢) وسنن الترمذى برقم (٣٥٢٩).

(١١) المسند (١٤/١).

فِتْنَةً وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيَّيْبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن^(١) الإنسان أنه في حال الضراء يَضْرَعُ إلى الله، عز وجل، وينيب إليه ويدعوه، وإذا^(٢) خوله منه نعمة بغى وطغى، وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتَهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أى: لما يعلم الله من استحقاقى له، ولولا أنى عند الله تعالى خصيص لما خولنى هذا!

قال قتادة: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾: على خير عندى.

قال الله عز وجل: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أى: ليس الأمر كما زعموا، بل [إنما]^(٣) أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم يعصى؟ مع علمنا المتقدم بذلك، فهي فتنة أى: اختبار، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فلهذا يقولون ما يقولون، ويدعون ما يدعون.

﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أى: قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى، كثير من سلف من الأمم، ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: فما صح قولهم ولا منعهم جمعهم وما كانوا يكسبون، ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ﴾ أى: من المخاطبين^(٤) ﴿سَيَّيْبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أى: كما أصاب أولئك، ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ كما قال تعالى مخبرا عن قارون أنه قال له قومه: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ . قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتَهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَو لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٦ - ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعْزِينَ﴾ [سبا: ٣٥].

وقوله: ﴿أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أى: يوسعه على قوم ويضيقه على آخرين، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: لعبرا وحججا.

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٣) وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ

(١) فى ت: «عن حال».

(٢) فى ت: «فإذا».

(٣) زيادة من ت، أ.

(٤) فى ت: «المخاطبين».

لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ .

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل مثل زبد البحر. ولا يصح حمل هذه [الآية]^(١) على غير توبة^(٢)؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه.

وقال البخارى: حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام بن يوسف؛ أن ابن جريج أخبرهم: قال يعلى: إن سعيد بن جبيرة أخبره عن ابن عباس^(٣) [رضى الله عنهما]^(٤)؛ أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا. فأتوا محمدا ﷺ فقالوا: إن الذى تقول وتدعو إليه حسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة. فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، ونزل [قوله]^(٥): ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾.

وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي، من حديث ابن جريج، عن يعلى بن مسلم المكي، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، به^(٦).

والمراد من الآية الأولى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ الآية [الفرقان: ٧٠].

وقال^(٧) الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو قبيل قال: سمعت أبا عبد الرحمن المرى^(٨) يقول: سمعت^(٩) ثوبان - مولى رسول الله ﷺ - يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أحب أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ إلى آخر الآية، فقال رجل: يا رسول الله، فمن أشرك؟ فسكت النبي ﷺ^(١٠)، ثم قال: «ألا ومن أشرك» ثلاث مرات. تفرد به الإمام أحمد^(١١).

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا سريج^(١٢) بن النعمان، حدثنا روح بن قيس، عن أشعث بن جابر الحداني، عن مكحول، عن^(١٣) عمرو بن عبسة^(١٤) قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، شيخ كبير يدعم على عصا له، فقال: يا رسول الله إن لى غدرات وفجرات، فهل يغفر لى؟ فقال: «ألست تشهد أن لا إله إلا الله؟» قال: بلى، وأشهد أنك رسول الله. فقال: «قد غفر لك غدراتك وفجراتك». تفرد به أحمد^(١٥).

(٢) فى ت: «التوبة».

(١) زيادة من أ.

(٥) زيادة من ت، س.

(٤) زيادة من أ.

(٣) فى ت: «روى البخارى بسنده عن ابن عباس».

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٨١٠) وصحيح مسلم برقم (١٢٢) وسنن أبى داود برقم (٧٢٧٤) وسنن النسائى (٨٦/٧).

(٨) فى أ: «السرى».

(٧) فى ت: «وروى».

(١٠) فى ت: «رسول الله».

(٩) فى ت: «سمعت عن».

(١١) المسند (٢٧٥/٥).

(١٤) فى ت، أ: «عنبسة».

(١٣) فى ت: «وعن».

(١٢) فى أ: «سريج».

(١٥) المسند (٣٨٥/٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن شهر بن حوشب^(١)، عن أسماء بنت يزيد^(٢) قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]، وسمعتة يقول: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ولا يبالى ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

ورواه أبو داود والترمذى، من حديث ثابت، به^(٣).

فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد: أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة، ولا يقنطن^(٤) عبد من رحمة الله، وإن عظمت ذنوبه وكثرت؛ فإن باب التوبة والرحمة واسع، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقال تعالى في حق المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا. إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦]، وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، ثم قال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج: ١٠].

قال الحسن البصرى: انظر^(٥) إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة!

والآيات فى هذا كثيرة جدا.

وفى الصحيحين عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ، حديث الذى^(٦) قتل تسعا^(٧) وتسعين نفسا، ثم ندم وسأل عابدا من عبَاد بنى إسرائيل: هل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله وأكمل^(٨) به مائة. ثم سأل عالما من علمائهم: هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها، فقصدها فأتاه الموت فى أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأمر الله أن يقيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيهما كان أقرب فهو منها. فوجدوه أقرب إلى الأرض التى هاجر إليها بشبر، فقبضته ملائكة الرحمة. وذكر أنه نأى ب صدره عند الموت، وأن الله أمر البلدة الخيرة أن تقترب، وأمر تلك البلدة أن تتباعد^(٩) ^(١٠).

هذا معنى الحديث، وقد كتبناه فى موضع آخر بلفظه.

(١) فى ت: «وروى أيضا».

(٢) فى أ: «يزيد رضى الله عنها».

(٣) المسند (٤٥٤/٦) وسنن أبى داود برقم (٣٩٨٢) وسنن الترمذى برقم (٣٢٣٧)

(٤) فى ت: «ولا يقنط».

(٥) فى ت: «انظروا».

(٦) فى أ: «تسعة».

(٧) فى ت: «أن رجلا».

(٨) فى أ: «تبتعد».

(٩) فى ت: «فاكمل».

(١٠) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٤٧٠) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٧٦٦).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، رضى الله عنهما^(١)، [فى]^(٢) قوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ إلى آخر الآية، قال: قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيزاً^(٣) ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤] ثم دعا إلى توبته من هو أعظم قولا من هؤلاء، من قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]. قال ابن عباس [رضى الله عنهما]^(٤): من آيس عباد الله^(٥) من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه.

وروى الطبراني من طريق الشعبي، عن شتير بن شكل أنه قال: سمعت ابن مسعود يقول: إن أعظم آية في كتاب الله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وإن أجمع آية في القرآن بخير وشر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، وإن أكثر آية في القرآن فرجا في سورة الغرف: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾، وإن أشد آية في كتاب الله تصريفاً^(٦): ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. فقال له مسروق: صدقت.

وقال الأعمش، عن أبي سعيد، عن أبي الكنود قال: مر عبد الله - يعني ابن مسعود - على قاص، وهو يذكر الناس، فقال: يا مذكر، لم تُقنط^(٧) الناس؟ ثم قرأ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾. رواه ابن أبي حاتم.

ذكر أحاديث فيها نفى القنوط:

قال^(٨) الإمام أحمد: حدثنا سريج بن النعمان، حدثنا أبو عبيدة عبد المؤمن بن عبيد الله^(٩)، حدثني أخشن السدوسي قال: دخلت على أنس بن مالك^(١٠) فقال^(١١): سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذى نفسى بيده، لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتم الله لغفر لكم، والذى نفس محمد بيده، لو لم تخطئوا^(١٢) لجاء الله بقوم يخطئون، ثم يستغفرون الله فيغفر لهم». تفرد به [الإمام]^(١٣) أحمد^(١٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى^(١٥)، حدثني ليث، حدثني محمد بن قيس - قاص عمر بن عبد العزيز - عن أبي صرمة، عن أبي أيوب الأنصاري، رضى الله عنه، أنه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كتمت منكم شيئا سمعته من رسول الله ﷺ، يقول: «لولا أنكم تذنوبون، لخلق الله

(١) فى س: «عنه». (٢) زيادة من أ. (٣) فى ت: «العزير».

(٤) زيادة من ت. (٥) فى أ: «العباد». (٦) فى ت، س: «تفويضا».

(٧) فى س: «يقنط». (٨) فى ت: «روى». (٩) فى أ: «عبيد الله السدوسي».

(١٠) فى ت: «عن ابن مالك»، وفى أ: «أنس بن مالك رضى الله عنه». (١١) فى ت: «قال».

(١٢) فى ت: «تخطئون». (١٣) زيادة من أ.

(١٤) المسند (٢٣٨/٣).

(١٥) فى أ: «إسحاق بن أبي عيسى».

قوما يذنبون فيغفر لهم».

هكذا^(١) رواه الإمام أحمد، وأخرجه مسلم في صحيحه، والترمذي جميعاً، عن قتيبة، عن الليث بن سعد، به^(٢). ورواه مسلم من وجه آخر به، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي صرمة - وهو الأنصاري صحابي - عن أبي أيوب، به^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك الحراني، حدثنا يحيى بن عمرو بن مالك النكري قال: سمعت أبي يحدث عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس^(٤) قال: قال رسول الله ﷺ: «كفارة الذنب^(٥) الندامة»، وقال رسول الله ﷺ: «لو لم تذبوا لجاء الله بقوم يذنبون، فيغفر لهم» تفرد به أحمد^(٦).

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثني عبد الأعلى بن حماد النرسي، حدثنا داود بن عبد الرحمن، حدثنا أبو عبد الله مسلمة الرازي، عن أبي عمرو البجلي، عن عبد الملك بن سفيان الثقفي، عن أبي جعفر محمد بن علي، عن محمد بن الحنفية، عن أبيه، علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب العبد المفتن التواب». لم يخرجوه من هذا الوجه^(٧).

وقال^(٨) ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، أخبرنا ثابت وحميد، عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: إن إبليس - عليه لعائن الله - قال: يارب، إنك أخرجتني من الجنة من أجل آدم، وإنني لا أستطيعه إلا بسلطانك. قال: فأنت مسلط. قال: يارب، زدني. قال: لا يولد له ولد إلا ولد لك مثله. قال: يارب، زدني. قال: أجعل صدورهم مساكن لكم، وتخرجون منهم مجرى الدم. قال: يارب، زدني. قال: أجلب عليهم بخيلك ورجلك، وشاركهم في الأموال والأولاد، وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا. فقال آدم [عليه السلام]^(٩): يارب، قد سلطته علي، وإنني لا أمتنع [منه]^(١٠) إلا بك. قال: لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه من قرناء السوء. قال: يارب، زدني. قال: الحسنة عشر أو أزيد، والسيئة واحدة أو أمحوها. قال: يارب، زدني. قال: باب التوبة مفتوح ما كان الروح في الجسد. قال: يارب، زدني. قال: «يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ».

وقال محمد بن إسحاق: قال نافع: عن عبد الله بن عمير، عن عمر، رضي الله عنه، في حديثه قال: وكنا نقول ما الله بقابل ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً ولا توبة، عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم. قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم. قال: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، أنزل الله فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم: «يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ». وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ.

(١) في س: «كذا».

(٢) المسند (٤١٤/٥) وصحيح مسلم برقم (٢٧٤٨) وسنن الترمذي برقم (٣٥٣٩).

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٧٤٨).

(٤) في أ: «ابن عباس رضي الله عنهما». (٥) في أ: «الذنب».

(٦) المسند (٢٨٩/١).

(٧) زوائد عبد الله على المسند (٨٠/١).

(٨) زيادة من ت، س، أ.

(٩) زيادة من ت، س، أ.

(١٠) في ت: «وروي».

وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بُغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾. قال عمر، رضى الله عنه: فكتبتها بيدى فى صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاص قال: فقال هشام: لما أتنى جعلت أقرؤها بذى طووى أصعد بها فيه وأصوت ولا أفهمها، حتى قلت: اللهم أفهمنيها. قال: فألقى الله فى قلبى أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول فى أنفسنا، ويقال فينا. قال: فرجعت إلى بعيرى فجلست عليه، فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة.

ثم استحث [سبحانه]^(١) وتعالى عباده إلى المسارعة إلى التوبة، فقال: ﴿وَأَنْبِئُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾ أى: ارجعوا إلى الله واستسلموا له، ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ أى: بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة، ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وهو القرآن العظيم، ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بُغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أى: من حيث لا تعلمون ولا تشعرون.

ثم قال: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ أى: يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط فى التوبة والإنابة، ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله عز وجل.

وقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتَ لِمَنِ السَّخَرِينَ﴾ أى: إنما كان عملى فى الدنيا عمل ساخر مستهزئ غير موقن مصدق.

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾. أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: تود أن لو^(٢) أعيدت إلى الدار فتحسن^(٣) العمل.

قال على بن أبى طلحة: عن ابن عباس: أخبر الله سبحانه^(٤)، ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه^(٥). وقال: ﴿وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّخَرِينَ﴾. أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فأخبر الله تعالى: أن لو ردوا لما قدروا على الهدى، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقد قال^(٦) الإمام أحمد: حدثنا أسود، حدثنا أبو بكر، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هداني؟! فتكون عليه حسرة». قال: «وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني!» قال: «فيكون له الشكر».

ورواه النسائي من حديث أبى بكر بن عياش، به^(٧).

(١) زيادة من ت، وفى أ: «الله».

(٢) فى أ: «لتحسن».

(٣) فى أ: «أخبرنا الله تعالى».

(٤) فى ت: «روى».

(٥) فى ت، س: «وعلمهم قبل أن يعلموه».

(٦) فى ت: «روى».

(٧) المسند (٢/٥١٢).

ولما تمنى أهل الجرائم العودَ إلى الدنيا، وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسله، قال [الله سبحانه وتعالى] ^(١): ﴿بَلَىٰ ^(٢) قَدْ جَاءَ تَكْ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه ^(٣) آياتي في الدار الدنيا، وقامت حججى عليك، فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها، وكنت من الكافرين بها، الجاحدين لها.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ^(٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ^(٦١) .

يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه، وتبيض فيه وجوه، تسود وجوه أهل الفرق والاختلاف، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة، قال تعالى هاهنا: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: فى دعواهم له شريكا ولولداً ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ أي: بكذبهم وافترائهم.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: أليست جهنم كافية لها ^(٤) سجنًا وموئلاً، لهم فيها [دار] ^(٥) الخزي والهوان، بسبب تكبرهم وتجرهم وإبائهم عن الانقياد للحق.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى، حدثنا عيسى بن أبى عيسى الخياط، عن عمرو بن شعيب ^(٦)، عن أبيه، عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر فى صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار، حتى يدخلوا سجنًا من النار فى واد يقال له بولس، من نار الأنبار، ويسقون عصارة أهل النار، من طينة الخبال» ^(٧).

وقوله: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي: مما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله، ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: ولا يحزنهم ^(٨) الفزع الأكبر، بل هم آمنون من كل فزع، مزحزون عن كل شر، مؤملون كل خير.

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ^(٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ^(٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ^(٦٤) وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ^(٦٥) بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ^(٦٦) .

يخبر تعالى أنه خالق ^(٩) الأشياء كلها، وربها ومليكتها والمتصرف فيها، وكل تحت تدبيره وقهره وكلاءته.

(٣) فى ١: «منه جاءتك».

(٢) فى ت: «قل» وهو خطأ.

(١) زيادة من ت، س، أ.

(٥) زيادة من ت، س.

(٤) فى ت، س: «لهم».

(٦) فى ت: «روى ابن أبى حاتم بإسناده عن عمرو بن شعيب».

(٧) ورواه أحمد فى مسنده (١٧٨/٢) والترمذى فى السنن برقم (٢٤٩٢) من طريق محمد بن عجلان عن عمرو بن شعيب بنحوه، قال

الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح».

(٩) فى ت: «خلق».

(٨) فى ت: «أى لا يجزيهم».

وقوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ، قال مجاهد: المقاليد هي: المفاتيح بالفارسية. وكذا قال قتادة، وابن زيد، وسفيان بن عيينة.

وقال السدي: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: خزائن السموات والأرض.

والمعنى على كلا القولين: أن أزمة الأمور بيده، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أى: حججه وبراهينه، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وقد روى ابن أبي حاتم هاهنا حديثاً غريباً جداً - وفي صحته نظر - ولكن^(١) نذكره كما ذكره، فإنه قال:

حدثنا يزيد^(٢) بن سنان البصري بمصر، حدثنا يحيى بن حماد، حدثنا الأغلب بن تميم، عن مَخْلَد بن هذيل العبدي، عن عبد الرحمن المدني، عن عبد الله بن عمر، عن عثمان بن عفان، رضى الله عنه، أنه سأل رسول الله ﷺ عن تفسير: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فقال: «ما سألني عنها أحد قبلك يا عثمان»، قال: «تفسيرها: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، أستغفر الله، ولا قوة إلا بالله، الأول والآخر، والظاهر والباطن، بيده الخير، يحيى ويميت، وهو على كل شيء قدير، من قالها يا عثمان إذا أصبح عشر مرار أعطى خصالاً ستاً: أما أولاهن: فيحرس من إبليس وجنوده، وأما الثانية: فيعطى قنطاراً من الأجر، وأما الثالثة: فترفع^(٣) له درجة في الجنة، وأما الرابعة: فيتزوج من الحور العين، وأما الخامسة: فيحضره^(٤) اثنا عشر ملكاً، وأما السادسة: فيعطى من الأجر كمن قرأ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور. وله مع هذا يا عثمان من الأجر كمن حج وتقبلت حجته، واعتمر فتقبلت عمرته، فإن مات من يومه طبع بطابع الشهداء».

ورواه أبو يعلى الموصلى من حديث يحيى بن حماد، به مثله^(٥). وهو غريب، وفيه نكارة شديدة، والله أعلم.

وقوله: ﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾: ذكروا في سبب نزولها ما رواه ابن أبي حاتم وغيره، عن ابن عباس [رضى الله عنهما أنه قال]^(٦): إن المشركين بجهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم، ويعبدوا معه إلهه، فنزلت: ﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ. وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وهذه كقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقوله: ﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أى: أخلص العبادة لله وحده، لا شريك له، أنت

(١) فى أ: «ولكن نحن».

(٢) فى أ: «زيد».

(٣) فى ت: «فيرفع».

(٤) فى س: «فتحضره».

(٥) ورواه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة برقم (٧٣) من طريق أبى عن شجاع بن مخلد عن يحيى بن حماد به، وقال الهيثمى فى

المجمع (١١٥/١٠): «رواه أبو يعلى فى الكبير، وفيه الاغلب بن تميم، وهو ضعيف».

(٦) زيادة من ت، س.

ومن معك، أنت ومن اتبعك وصدقك.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٦٧).

يقول تعالى: وما قدر المشركون الله حق قدره، حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذى لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته.

قال مجاهد: نزلت فى قريش. وقال السدى: ما عظموه حق عظمتهم.

وقال محمد بن كعب: لو قدروه حق قدره ما كذبوه.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس [رضى الله عنهما]^(١): ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾: هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله [تعالى]^(٢) عليهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير، فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره.

وقد وردت^(٣) أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفى أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف.

قال البخارى: قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، حدثنا آدم، حدثنا شيبان، عن منصور، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله بن مسعود^(٤) قال: جاء خبر من الأخبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد: إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء^(٥)، والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع. فيقول: أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، تصديقا لقول الخبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية^(٦).

و[قد]^(٧) رواه البخارى أيضا فى غير هذا الموضع من^(٨) صحيحه، والإمام أحمد، ومسلم، والترمذى والنسائى فى التفسير من سننهما، كلهم من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن إبراهيم عن عبيدة، عن [عبد الله]^(٩) ابن مسعود، رضى الله عنه، بنحوه^(١٠).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم عن علقمة، عن عبد الله، رضى الله عنه، قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ من أهل الكتاب، فقال: يا أبا القاسم، أبلغك أن الله [تعالى]^(١١) يحمل الخلائق على إصبع، والسموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على

(١)، (٢) زيادة من أ.

(٣) فى ت: «ورد».

(٤) فى ت، أ: «مسعود رضى الله عنه».

(٥) فى ت، أ: «الماء على إصبع».

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٨١١).

(٧) زيادة من أ.

(٨) فى أ: «فى».

(٩) زيادة من ت.

(١٠) صحيح البخارى برقم (٧٤١٥، ٧٤١٤، ٧٤٥١) والمسند (٤٢٩/١) وصحيح مسلم برقم (٢٧٨٦) وسنن الترمذى برقم (٣٢٣٨)

والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٥١).

(١١) زيادة من أ.

إصبع، والثرى على إصبع؟ قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه. قال: وأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ إلى آخر الآية.

وهكذا رواه البخارى، ومسلم، والنسائى - من طرق - عن الأعمش^(١)، به^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن حسن الأشقر، حدثنا أبو كدينة، عن عطاء، عن أبي الضحى، عن ابن عباس^(٣) قال: مر يهودى برسول الله ﷺ وهو جالس فقال: كيف تقول يا أبا القاسم: يوم يجعل الله السماء على ذه - وأشار بالسبابة - والأرض على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق^(٤) على ذه - كل ذلك يشير بإصبعه^(٥) - قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية.

وكذا رواه الترمذى فى التفسير عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى، عن محمد بن الصلت أبى جعفر، عن أبى كدينة يحيى بن المهلب، عن عطاء بن السائب، عن أبى الضحى مسلم بن صبيح، به^(٦)، وقال: حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

ثم قال البخارى: حدثنا سعيد بن غفير، حدثنا الليث، حدثنى عبد الرحمن بن خالد بن مسافر، عن ابن شهاب، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن: أن أبا هريرة^(٧)، رضى الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله الأرض، ويطوى السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض». تفرد به من هذا الوجه^(٨)، ورواه مسلم من وجه آخر^(٩).

وقال^(١٠) البخارى - فى موضع آخر - حدثنا مَقْدَمٌ بن محمد، حدثنا عمى القاسم بن يحيى، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر^(١١)، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع، وتكون السموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك».

تفرد به أيضا من هذا الوجه^(١٢)، ورواه مسلم من وجه آخر^(١٣). وقد رواه^(١٤) الإمام أحمد من طريق أخرى بلفظ آخر أبسط من هذا السياق وأطول، فقال:

حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة، عن عبيد الله بن مقسم، عن ابن عمر^(١٥) أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده، يحركها يقبل بها ويدبر: «يمجد الرب نفسه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا

(١) فى ت: «من طريق الأعمش».

(٢) المسند (٣٧٨/١) وصحيح البخارى برقم (٧٤٥١) وصحيح مسلم برقم (٢٧٨٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٥٢).

(٣) فى ت: «عن ابن عباس رضى الله عنهما». (٤) فى أ: «الخلايق». (٥) فى ت: «بأصابعه».

(٦) المسند (٣٢٤/١) وسنن الترمذى برقم (٣٢٤٠).

(٧) فى ت: «وروى البخارى بإسناده أن أبا هريرة».

(٨) صحيح البخارى برقم (٤٨١٢).

(٩) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٧) من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة به.

(١٠) فى ت: «وروى». (١١) فى أ: «عن ابن عمر رضى الله عنهما».

(١٢) صحيح البخارى برقم (٧٤١٢).

(١٣) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٨) من طريق سالم بن عبد الله عن عبد الله بن عمر به.

(١٤) فى ت: «وروى». (١٥) فى أ: «عن ابن عمر رضى الله عنهما».

الملك، أنا العزيز، أنا الكريم». فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا: لِيَخْرُنَّ بِهِ.

وقد رواه مسلم، والنسائي، وابن ماجه من حديث عبد العزيز بن أبي حازم - زاد مسلم: ويعقوب بن عبد الرحمن، كلاهما عن أبي حازم، عن عبيد الله بن مقسم، عن ابن (١) عمر، به، نحوه (٢).

ولفظ مسلم - عن عبيد الله بن مقسم (٣) في هذا الحديث -: أنه نظر إلى عبد الله بن عمر كيف يحكى النبي ﷺ، قال: يأخذ الله سمواته وأرضيه بيده ويقول: أنا الملك، ويقبض أصابعه ويبسطها: أنا الملك، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه، حتى إنى لأقول: أساقط هو برسول الله ﷺ؟

وقال البزار: حدثنا سليمان بن سيف (٤)، حدثنا أبو علي الحنفى، حدثنا عباد المنقرى، حدثني محمد بن المنكدر قال: حدثنا عبد الله بن عمر [رضى الله عنهما] (٥)، أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية على المنبر: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» حتى بلغ: «سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ»، فقال المنبر هكذا، فجاء وذهب ثلاث مرات (٦).

ورواه الإمام الحافظ أبو القاسم الطبرانى من حديث عبيد بن عمير، عن عبد الله بن عمرو، وقال: صحيح (٧).

وقال الطبرانى فى المعجم الكبير: حدثنا عبد الرحمن بن معاوية العُتْبَى، حدثنا حيان بن نافع بن صخر بن جويرية، حدثنا سعيد بن سالم القداح، عن معمر بن الحسن، عن بكر بن خنيس، عن أبى شيبه، عن عبد الملك بن عمير، عن جرير (٨) قال: قال رسول الله ﷺ لنفر من أصحابه: «إِنِّى قَارِئُ عَلَيْكُمْ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الزُّمَرِ، فَمَنْ بَكَى مِنْكُمْ وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ؟ فَقَرَأَهَا مِنْ عِنْدِ قَوْلِهِ: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ»، إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، فَمَنْ بَكَى، وَمَنْ لَمْ يَبْكْ، فَقَالَ الَّذِينَ لَمْ يَبْكُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَقَدْ جَهِدْنَا أَنْ نَبْكى، فَلَمْ نَبْكْ؟ فَقَالَ: «إِنِّى سَأَقْرُؤُهَا عَلَيْكُمْ، فَمَنْ لَمْ يَبْكْ فَلْيَتَبَاكَ». هذا حديث غريب جدا (٩).

وأغرب منه ما رواه فى المعجم الكبير أيضا: حدثنا هاشم بن مرثد (١٠)، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثنى أبى، حدثنى ضمضم بن زرعة، عن شريح بن عبيد، عن أبى مالك

(١) فى أ: «أبى».

(٢) المسند (٧٢/٢) وصحيح مسلم برقم (٢٧٨٨) والنسائي فى السنن الكبرى برقم (٧٦٨٩) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٧٥).

(٣) فى ت: «عمر». (٤) فى أ: «يوسف». (٥) زيادة من أ.

(٦) ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (١٢٨): حدثنا أبو بكر البرذعى عن سليمان بن سيف به، ورواه ابن عدى فى الكامل (٣٤٢/٤) والطبرانى فى المعجم الكبير (٣٥٢/١٢) من طريق عبادة بن ميسرة به، وفى إسناده عباد بن ميسرة المنقرى، وهو ضعيف، وعند ابن عدى: «فتحرك المنبر مرتين».

(٧) لم أجده فى المطبوع من مسند عبد الله بن عمرو رضى الله عنه.

(٨) فى ت: «وروى الطبرانى فى المعجم الكبير بإسناده عن جرير».

(٩) المعجم الكبير (٣٤٨/٢) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠١/٧): «فيه بكر بن خنيس وهو متروك».

(١٠) فى هـ، ت، أ: «زيد» والتصويب من المعجم.

الأشعري^(١) قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: ثلاث خلال غيبتهن عن عبادي، لو رآهن رجل ما عمل سوءاً أبداً: لو كشفت غطائي فرآني حتى نستيقن ويعلم كيف أفعل بخلقى إذا أتيتهم، وقبضت السموات بيدي، ثم قبضت الأرض^(٢) والأرضين، ثم قلت: أنا الملك، من ذا الذى له الملك دونى؟ ثم أريتهم^(٣) الجنة وما أعددت لهم فيها من كل خير، فيستيقنوها. وأريتهم النار وما أعددت لهم فيها من كل شر فيستيقنوها، ولكن عمداً غيبت ذلك عنهم لأعلم كيف يعملون، وقد بينته لهم^(٤)».

وهذا إسناد متقارب، وهى نسخة تروى بها أحاديث جملة، والله أعلم.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة، فقله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾، هذه النفخة هى الثانية، وهى نفخة الصعق، وهى التى يموت^(٥) بها الأحياء من أهل السموات والأرض، إلا من شاء الله كما هو^(٦) مصرح^(٧) به مفسراً فى حديث الصور المشهور. ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحى القيوم الذى كان أولاً، وهو الباقي آخر بالديمومة^(٨) والبقاء، ويقول: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] ثلاث مرات. ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أى: الذى هو واحد وقد قهر كل شىء، وحكم بالفناء على كل شىء. ثم يحيى أول من يحيى إسرافيل، ويأمره أن ينفخ فى الصور أخرى، وهى النفخة الثالثة نفخة البعث، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ أى: أحياء بعد ما كانوا عظاماً ورفاتا، صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣]، [١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥].

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن النعمان بن سالم قال: سمعت

(١) فى أ: «الأشعري رضى الله عنه».

(٢) فى هـ: «قبضت الأرضين»، وفى س، ت، أ: «قبضت الأرض ثم الأرضين» والمثبت من المعجم.

(٣) فى س: «أريتهم».

(٤) المعجم الكبير (٣/٢٩٤)، وفى إسناده: محمد بن إسماعيل بن عياش، ضعيف ولم يسمع من أبيه.

(٥) فى أ: «جاء».

(٦) فى س: «تموت».

(٧) فى أ: «بالديمومية».

(٨) فى ت، س: «مصرحاً».

يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود قال: سمعت رجلاً قال لعبد الله بن عمرو^(١): إنك تقول: الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ قال: لقد هممت ألا أحدثكم شيئاً، إنما قلت: سترون بعد قليل أمراً عظيماً. ثم قال عبد الله بن عمرو: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في أمتي، فيمكث فيهم أربعين - لا أدرى أربعين يوماً أو أربعين عاماً أو أربعين شهراً أو أربعين ليلة - فيبعث الله^(٢) عيسى ابن مريم^(٣)، كأنه عروة بن مسعود الثقفي، فيظهر فيهلكه الله^(٤). ثم يلبث الناس بعده سنين سبعة ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، حتى لو أن^(٥) أحدهم كان في كبد جبل لدخلت عليه». قال: سمعتها من رسول الله ﷺ: «ويبقى شرار الناس في خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً». قال: «فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبن؟ فيأمرهم بالأوثان فيعبدونها، وهم في ذلك دارة أرزاقهم، حسن عيشهم. ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى له، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه، فيصعق، ثم لا يبقى أحد إلا صعق. ثم يرسل الله - أو: ينزل الله مطراً كأنه الطل - أو الظل، شك نعمان - فتنبت منه أجساد الناس. ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ: ﴿وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ﴾ [الصفات: ٢٤]، قال: «ثم يقال: أخرجوا بعث النار». قال: «فيقال: كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين^(٦). فيومئذ تبعث الولدان شيئا، ويومئذ يكشف عن ساق».

انفرد بإخراجه مسلم في صحيحه^(٧).

وقال البخاري: حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش قال: سمعت أبا صالح قال: سمعت أبا هريرة [رضي الله عنه]^(٨) عن النبي ﷺ قال: «بين النفختين أربعون^(٩)». قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عَجَبُ ذنبه، فيه يركب الخلق^(١٠).

وقال أبو يعلى: حدثنا يحيى بن معين، حدثنا أبو اليمان، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عمر ابن محمد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن أبي هريرة [رضي الله عنه]^(١١)، عن النبي ﷺ قال: «سألت جبريل، عليه السلام، عن هذه الآية: ﴿وَنَفِخْ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾: من الذين لم يشأ الله أن يصعقهم؟ قال: هم الشهداء، مقلدون أسياهم حول عرشه، تتلقاهم ملائكة يوم القيامة إلى المحشر بنجائب من ياقوت نمارها ألين من الحرير، مد^(١٢) خطاها مد أبصار الرجال، يسيرون في الجنة يقولون عند طول النزهة: انطلقوا بنا إلى ربنا، عز وجل، لننظر كيف يقضى بين خلقه، يضحك إليهم إلهي، وإذا ضحك إلى عبد في موطن فلا حساب عليه».

(١) في أ: «عمرو رضي الله عنهما». (٢) في أ: «الله تعالى». (٣) في أ: «ابن مريم عليه السلام».

(٤) في أ: «فيهلكه الله على يده».

(٥) في ت، س، أ: «حتى أن لو كان».

(٦) في س: «وتسعون».

(٧) المسند (١٦٦/٢) وصحيح مسلم برقم (٢٩٤٠).

(٨) في ت: «أربعين».

(٩) زيادة من أ.

(١٠) في أ: «قدر».

(١١) زيادة من ت، أ.

(١٢) صحيح البخاري برقم (٤٨١٤).

رجاله كلهم ثقات إلا شيخ إسماعيل بن عياش، فإنه غير معروف، والله أعلم^(١).

وقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أى: أضاءت يوم القيامة إذا تجلّى الحق، تبارك وتعالى، للخلائق لفصل القضاء، ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ قال قتادة: كتاب الأعمال، ﴿وَجِيءَ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ قال ابن عباس: يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات^(٢) الله إليهم، ﴿وَالشَّهَدَاءُ﴾ أى: الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر، ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أى: بالعدل، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. قال الله [تعالى]^(٣): ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال [الله]^(٤) تعالى: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، ولهذا قال: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أى: من خير أو شر، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢)﴾.

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار؟ وإنما يساقون سوقا عنيفا بزجر وتهديد ووعيد، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاءً﴾ [الطور: ١٣] أى: يدفعون إليها دفعا. هذا وهم عطاش ظماء، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا . وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِثَةً﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦]. وهم فى تلك الحال صم وبكم وعمى، منهم من يمشى على وجهه، ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عَمِيًَّا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّا وَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أى: بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعا، لتعجل لهم العقوبة، ثم يقول لهم خزناتها من الزبانية - الذين هم غلاظ الأخلاق، شداد القوى، على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل -: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ أى: من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم، ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ أى: يقيمون عليكم الحجج والبراهين^(٥) على صحة ما دعوكم إليه، ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أى: ويحذرونكم من شر هذا اليوم؟ فيقول الكفار لهم: ﴿بَلَىٰ﴾ أى: قد جاؤنا وأنذرونا، وأقاموا علينا الحجج والبراهين، ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ

(١) ورواه الحاكم فى المستدرک (٢/٢٥٣) من طريق أبى أسامة عن عمر بن محمد عن زيد بن أسلم بنحوه، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى.

(٢) زيادة من ت، س، أ.

(٣) فى س، أ: «رسالة».

(٤) فى س، أ: «والبرهان».

(٥) زيادة من أ.

عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١﴾ أَى: ولكن كذبناهم وخالفناهم، لما سبق إلينا^(١) من الشقوة التى كنا نستحقها حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل، كما قال تعالى مخبراً عنهم فى الآية الأخرى: ﴿كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾. قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ. وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٢﴾ [الملك: ٨ - ١٠] أَى: رجعوا على أنفسهم باللامه والندامة ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١] أَى: بعدا لهم وخساراً.

وقوله هاهنا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَى: كل من رآهم وعلم حالهم يشهد^(٢) عليهم بأنهم مستحقون للعذاب؛ ولهذا لم يسند هذا القول^(٣) إلى قائل معين، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم مستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به؛ ولهذا قال جل وعلا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَى: ما كثر فيها لا خروج لكم منها، ولا زوال لكم عنها، ﴿فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أَى: فبئس المصير وبئس المقيلا لكم، بسبب تكبركم فى الدنيا، وإبائكم عن اتباع الحق، فهو الذى صيركم إلى ما أنتم فيه، فبئس الحال وبئس المآل.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوُّنَ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) ﴿.

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفدا إلى الجنة ﴿زُمَرًا﴾ أَى: جماعة بعد جماعة: المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صنف مع صنف، كل زمرة تناسب بعضها بعضاً.

﴿حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا﴾ أَى: وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط، حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فاقتصر لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هُذِّبُوا ونُقُوا أذن لهم فى دخول الجنة، وقد ورد فى حديث الصور أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة تشاوروا فيمن يستأذن لهم بالدخول، فيقصدون آدم، ثم نوحاً، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمداً، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كما فعلوا فى العرصات^(٤) عند استشفاعهم إلى الله، عز وجل، أن يأتى لفصل القضاء، ليظهر شرف محمد ﷺ على سائر البشر فى المواطن كلها.

وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أنس، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول شافع فى الجنة» وفى لفظ لمسلم: «وأنا أول من يقرع باب الجنة»^(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا سليمان، عن ثابت، عن أنس بن مالك، رضى الله

(١) فى س، أ: «لنا».

(٢) فى أ: «شهد».

(٣) فى أ: «هذا الذى قاله».

(٤) فى ت، أ: «العرصات».

(٥) صحيح مسلم برقم (١٩٦).

عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتى باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. قال: يقول: بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك».

ورواه مسلم عن عمرو^(١) الناقد وزهير بن حرب، كلاهما عن أبي النضر هاشم بن القاسم، عن سليمان - وهو ابن المغيرة القيسي - عن ثابت، عن أنس، به^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن همام بن منبه، عن أبي هريرة^(٣) قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج^(٤) الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، ولا يصقون فيها، ولا يمتخطون فيها، ولا يتغيطون فيها. آتيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة^(٥)، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ ساقهما من وراء اللحم، من الحسن. لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد^(٦)، يسبحون الله بكرة وعشيا».

رواه البخاري عن محمد بن مقاتل، عن ابن المبارك. ورواه مسلم عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق، كلاهما عن معمر بإسناده نحوه^(٧). وكذا رواه أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة [رضى الله عنه]^(٨)، عن رسول الله ﷺ^(٩).

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خيثمة، حدثنا جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة [رضى الله عنه]^(١٠) قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغيطون ولا يتفلون ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعاً في السماء»^(١١). وأخرجه أيضاً من حديث جرير^(١٢).

وقال الزهري، عن سعيد، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «يدخل الجنة من أمتي زمرة، هم سبعون ألفاً، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر». فقام عكاشة بن محصن فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم: فقال: «اللهم اجعله منهم». ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. فقال ﷺ: «سبقت بها عكاشة».

أخرجه^(١٣) (١٤). وقد روى هذا الحديث - في السبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب - البخاري ومسلم، عن ابن عباس، وجابر بن عبد الله، وعمران بن حصين، وابن مسعود، ورفاعة بن عرابة

(١) في أ: «عمرو بن محمد الناقد».

(٢) المسند (٣١٦/٢) وصحيح مسلم برقم (١٩٧).

(٣) في أ: «أبي هريرة رضى الله عنه».

(٤) في ت: «يدخلون».

(٥) في س، أ: «ومجامرهم من الألوة».

(٦) في أ: «قلب رجل واحد».

(٧) المسند (٣١٦/٢) وصحيح البخاري برقم (٣٢٢٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٤).

(٨) زيادة من أ.

(٩) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٣٢٤٦).

(١٠) مسند أبي يعلى (٤٧٠ / ١٠).

(١١) صحيح البخاري برقم (٣٣٢٧) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٤).

(١٢) في ت: «أخرجه البخاري ومسلم».

(١٣) صحيح البخاري برقم (٦٥٤٢) وصحيح مسلم برقم (٢١٥).

الجهننى، وأم قيس بنت محصن.

ولهما عن أبى حازم، عن سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال: «ليدخلن الجنة من أمتى سبعون ألفاً - أو: سبعمئة ألف - آخذٌ بعضهم ببعض، حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر»^(١).

وقال^(٢) أبو بكر بن أبى شيبة: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن محمد بن زياد قال: سمعت أبا أمامة^(٣) الباهلى يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: وعدني ربى، عز وجل، أن يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفاً، مع كل ألف سبعون ألفاً، ولا حساب عليهم ولا عذاب، وثلاث حثيات من حثيات ربى عز وجل^(٤).

وكذا رواه الوليد بن مسلم، عن صفوان بن عمرو، عن سليم بن عامر، [و]^(٥) أبى اليمان عامر ابن عبد الله بن لحي^(٦) عن أبى أمامة [رضى الله عنه]^{(٧)(٨)}.

ورواه الطبرانى، عن عتبة بن عبد السلمي: «ثم يشفع كل ألف فى سبعين ألفاً»^(٩).

وروى مثله عن ثوبان، وأبى سعيد الأنمارى. وله شواهد من وجوه كثيرة.

وقوله: «حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طُبِّمَ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ»: لم يذكر الجواب هاهنا، وتقديره: حتى إذا جاؤوها، وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراماً وتعظيماً، وتلقاهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء، لا كما تلقى الزبانية الكفرة بالشرىب^(١٠) والتأنيب، فتقديره: إذا كان هذا سعدوا وطابوا، وسرّوا وفرحوا، بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم. وإذا حذف الجواب هاهنا ذهب الذهن كل مذهب فى الرجاء والأمل.

ومن زعم أن «الروا» فى قوله: «وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا» واو الثمانية، واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية، فقد أبعد النجعة، وأغرق فى النزاع. وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهرى، عن حميد بن عبد الرحمن^(١١)، عن أبى هريرة^(١٢) قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق زوجين من ماله فى سبيل الله، دعى من أبواب الجنة، وللجنة أبواب^(١٣)، فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الريان» فقال أبو بكر، رضى الله تعالى عنه: يا رسول الله، ما

(١) صحيح البخارى برقم (٦٥٥٤) وصحيح مسلم برقم (٢١٩).

(٢) فى ت: «وروى».

(٣) فى ت: «عن أبى أمامة».

(٤) المصنف (٤٧١/١١) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٤٣٧) من طريق إسماعيل بن عياش به، وقال: «هذا حديث حسن غريب».

(٥) زيادة من أ.

(٦) فى أ: «يحيى».

(٨) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٨٧/٨).

(٩) المعجم الكبير (١٢٦/١٧، ١٢٧).

(١٠) فى أ: «بالذم».

(١١) فى ت: «فروى البخارى ومسلم».

(١٢) فى أ: «أبى هريرة رضى الله عنه».

(١٣) فى أ: «أبواب ثمانية».

على أحد من ضرورة دُعى، من أيها^(١) دعى، فهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم».

ورواه البخارى ومسلم، من حديث الزهرى، بنحوه^(٢).

وفيهما من حديث أبى حازم سلمة بن دينار^(٣)، عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة ثمانية أبواب، باب منها يسمى الريان، لا يدخله إلا الصائمون»^(٤).

وفى صحيح مسلم، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو: فيسبغ الوضوء - ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء»^(٥).

وقال^(٦) الحسن بن عرفة: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حُسين، عن شهر بن حوشب، عن معاذ، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مفتاح الجنة: لا إله إلا الله»^(٧).

ذكر سعة أبواب الجنة - نسأل الله العظيم من فضله أن يجعلنا من أهلها :-

فى الصحيحين من حديث أبى زرعة، عن أبى هريرة [رضى الله عنه]^(٨) فى حديث الشفاعة الطويل: «يقول الله^(٩): يا محمد، أدخل من لا حساب عليه^(١٠) من أمتك من الباب الأيمن، وهم شركاء الناس فى الأبواب الأخر. والذى نفس محمد بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة - ما بين عضادتي الباب - لكما بين مكة وهجر - أو: هجر ومكة». وفى رواية: «مكة وبصرى»^(١١).

وفى صحيح مسلم، عن عتبة بن غزوان أنه خطبهم خطبة فقال فيها: «ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة، مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام»^(١٢). وفى المسند عن حكيم بن معاوية، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ، مثله^(١٣).

وقال عبد بن حميد: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «إن ما بين مصراعين فى الجنة مسيرة أربعين سنة»^(١٤).

وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ أى: طابت أعمالكم وأقوالكم، وطاب سعيكم فطاب جزاؤكم، كما أمر رسول الله ﷺ أن ينادى بين المسلمين فى بعض الغزوات: «إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة» وفى رواية: «مؤمنة»^(١٥).

(١) فى أ: «أيتهما».

(٢) المسند (٢٦٨/٢) وصحيح البخارى برقم (٣٦٦٦) وصحيح مسلم برقم (١٠٢٧).

(٣) فى ت: «وفى الصحيحين».

(٤) صحيح البخارى برقم (١٨٩٦) وصحيح مسلم برقم (١١٥٢).

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٣٤). (٦) فى ت: «وروى».

(٧) ورواه أحمد فى مسنده (٢٤٢/٥) من طريق إسماعيل بن عياش به، وشهر بن حوشب فيه كلام ولم يسمع من معاذ.

(٨) زيادة من أ. (٩) فى أ: «قال الله عز وجل». (١٠) فى أ: «لا حساب عليه ولا ملامة».

(١١) صحيح البخارى برقم (٤٧١٢) وصحيح مسلم برقم (١٩٤).

(١٢) صحيح مسلم برقم (٢٩٦٧).

(١٣) المسند (٣/٥).

(١٤) المنتخب برقم (٩٢٤) ودراج عن أبى الهيثم ضعيف. (١٥) رواه النسائى فى السنن (٢٣٤/٥) من حديث أبى هريرة.

وقوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ أى: ماكثين فيها أبداً، لا يبعثون عنها حولا.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أى: يقول المؤمنون إذا عاينوا فى الجنة ذلك الثواب الوافر، والعطاء العظيم، والنعيم المقيم، والملك الكبير، يقولون عند ذلك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أى: الذى كان وعدنا على السنة رسله الكرام، كما دعوا فى الدنيا: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ. الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

وقولهم: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ قال أبو العالية، وأبو صالح، وقتادة، والسدى، وابن زيد^(١): أى أرض الجنة.

وهذه الآية كقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ولهذا قالوا: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أى: أين^(٢) شئنا حللنا، فنعم الأجر أجرنا على عملنا. وفى الصحيحين من حديث الزهرى، عن أنس فى قصة المعراج قال النبى ﷺ: «أدخلت الجنة، فإذا فيها جنازات اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك»^(٣).

وقال عبد بن حميد: حدثنا روح بن عبادة، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا الجريري، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد [رضى الله عنه]^(٤) أن رسول الله ﷺ سأل ابن صائد عن تربة الجنة؟ فقال: دَرَمَكَة بيضاء مسك خالص: فقال رسول الله ﷺ: «صدق».

وكذا رواه مسلم، من حديث أبى مسلمة^(٥)، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد، به^(٦).

ورواه مسلم [أيضاً]^(٧) عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن أبى أسامة، عن الجريري، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد؛ أن ابن صائد^(٨) سأل رسول الله ﷺ عن تربة الجنة، فقال: «دَرَمَكَة بيضاء، مسك خالص»^(٩).

وقول ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عاصم بن ضمرة^(١٠)، عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، فى قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾، قال: سيقوا حتى انتهوا إلى باب من أبواب الجنة، فوجدوا عندها شجرة يخرج من تحت ساقها عيان، فعمدوا إلى إحداها فتطهروا منها، فجرت عليهم نضرة

(١) فى ت: «وأبو صالح وغيرهما».

(٢) انظر: الحديث بطوله عند تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء.

(٣) زيادة من أ.

(٤) فى س: «سلمة».

(٥) فى س: «سلمة».

(٦) المنتخب برقم (٨٧٤) وصحيح مسلم برقم (٢٩٢٨).

(٧) زيادة من أ.

(٨) فى س: «صياد».

(٩) صحيح مسلم برقم (٢٩٢٨).

(١٠) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده عن على»، وفى أ: «حمزة».

النعيم، فلم تُغَيَّرْ أبشارهم بعدها أبداً، ولم تُشَعَثْ أشعارهم أبداً بعدها، كأنما دهنوا بالدهان، ثم عمدوا إلى الأخرى كأنما أمروا بها، فشرَبوا منها، فأذهبت ما كان في بطونهم من أذى أو قذى، وتلقتهُم الملائكة على أبواب^(١) الجنة: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾. ويلقى كل غلمان صاحبهم يُطِيفُونَ به، فعل^(٢) الولدان بالحميم جاء من الغيبة: أبشِر، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا. وقال: وينطلق غلام من غلمانه إلى أزواجه من الحور العين، فيقول: هذا فلان - باسمه في الدنيا - فيقلن: أنت رأيتَه؟ فيقول: نعم. فيستخفن الفرح حتى تخرج إلى أَسْكُفَةٍ^(٣) الباب. قال: فيجىء فإذا هو بنمارق مصفوفة، وأكواب موضوعة، ووزابي ماثوبة. قال: ثم ينظر إلى تأسيس بنيانه^(٤)، فإذا هو قد أسس على جندل اللؤلؤ، بين أحمر وأخضر وأصفر [وأبيض]^(٥)، ومن كل لون. ثم يرفع طرفه إلى سقفه، فلولا أن الله قدره له، لآلَمَ أن يذهب ببصره، إنه لمثل البرق. ثم ينظر إلى أزواجه من الحور العين، ثم يتكىء على أريكة من أرائكه، ثم يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] الآية^(٦).

ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النهدي، حدثنا مسلمة^(٧) بن جعفر البجلي قال: سمعت أبا معاذ البصري يقول: إن علياً، رضى الله عنه، كان ذات يوم عند رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: «والذي نفسى بيده، إنهم إذا خرجوا من قبورهم يُسْتَقْبَلُونَ - أو: يُؤْتُونَ - بنوق لها أجنحة، وعليها رحال الذهب، شراك نعالهم نور يتلألأ، كل خطوة منها مد البصر، فينتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عINAN، فيشربون من إحداها فيُغَسَّلَ ما في بطونهم من دنس، ويغتسلون من الأخرى، فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبداً، وتجري عليهم نضرة النعيم، فينتهون - أو: فيأتون - باب الجنة، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب، فيضربون بالحلقة على الصفيحة^(٩)، فيسمع^(١٠) لها طنين يا على، فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل، فتبعث قِيمَها فيفتح له، فإذا رآه خَرَّ له - قال مسلمة: أراه قال: ساجداً^(١١) - فيقول: ارفع رأسك، فإنما أنا قِيمُكَ، وَكَلْتُ بِأَمْرِكَ. فيتبعه ويقفو أثره، فتستخف الحوراء العجلة، فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتقه، ثم تقول: أنت حبي، وأنا حبك، وأنا الخالدة التي لا أموت، وأنا الناعمة التي لا أبأس، وأنا الراضية التي لا أسخط، وأنا المقيمة التي لا أظعن». فيدخل بيتاً من أسه إلى سقفه مائة ألف ذراع، بناؤه على جندل اللؤلؤ، طرائق أصفر وأخضر وأحمر، ليس فيها^(١٢) طريقة تشاكل صاحبته، في البيت سبعون سريراً، على كل سرير سبعون حَشِيَّةً، على كل حشية سبعون زوجة، على كل زوجة سبعون حلة، يرى مُخَّ ساقها من باطن الحُلُل، يقضى جماعها في مقدار ليلة من لياليكم هذه. الأنهار

(١) فى أ: «باب».

(٢) فى أ: «مثل».

(٣) فى س: «أسفكة».

(٤) فى أ: «بنائه».

(٥) زيادة من ت، س، أ.

(٦) ورواه الطبرى فى تفسيره (٣٥/٢٤) وابن المبارك فى الزهد برقم (١٤٥٠) والضياء المقدسى فى المختارة برقم (٥٤١) من طرق عن أبى إسحاق بنحوه.

(٧) فى ت، أ: «سلمة».

(٨) فى ت: «رسول الله».

(٩) فى س: «الصفحة».

(١٠) فى أ: «فلو سمع».

(١١) فى ت: «خر له ساجداً» وهو خطأ، والصواب: «ساجداً».

(١٢) فى ت، س: «منها».

من تحتهم تطرد، أنهار من ماء غير آسن - قال: صاف، لا كدر فيه - وأنهار من لبن لم يتغير طعمه - قال: لم يخرج من ضروع الماشية - وأنهار من خمر لذة للشاربين - قال: لم تعصرها الرجال بأقدامهم - وأنهار من عسل مصفى - قال: لم يخرج من بطون النحل. يستجني الثمار، فإن شاء قائما، وإن شاء قاعدا، وإن شاء متكئا - ثم تلا: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤] - فيشتهي الطعام فيأتيه طير أبيض - قال: وربما قال: أخضر. قال: - فترفع أجنحتها، فيأكل من جنوبها، أى الألوان شاء، ثم يطير فيذهب^(١)، فيدخل الملك فيقول: سلام عليكم، تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون. ولو أن شعرة من شعر^(٢) الحوراء وقعت لأهل الأرض، لأضاءت الشمس معها سواداً فى نور».

هذا حديث غريب، وكأنه مرسل، والله أعلم.

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧٥).

لما ذكر تعالى حكمه فى أهل الجنة والنار، وأنه نزل كلاً فى المحل الذى يليق به ويصلح له، وهو العادل فى ذلك الذى لا يجور - أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول عرشه المجيد، يسبحون بحمد ربهم، ويمجدونه^(٣) ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور، وقد فصل القضية، وقضى الأمر، وحكم بالعدل؛ ولهذا قال: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أى: بين الخلائق ﴿بِالْحَقِّ﴾.

ثم قال: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: ونطق الكون أجمعه^(٤) - ناطقه وبهيمه - لله رب العالمين، بالحمد فى حكمه وعدله؛ ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه، فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد.

قال قتادة: افتتح الخلق بالحمد فى قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، واختتم بالحمد فى قوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

آخر تفسير سورة الزمر والله الحمد^(٥) [أولاً وآخرًا ظاهرًا وباطنًا]^(٦)

(٣) فى أ: «ويمجدونه».

(٦) زيادة من س.

(٢) فى ت: «شعور».

(٥) فى أ: «والله أعلم».

(١) فى س: «ثم تطير فتذهب».

(٤) فى ت، س: «جميعه».

تفسير سورة غافر^(١)

وهي مكية.

قد كره بعض السلف، منهم محمد بن سيرين أن يقال: «الحواميم»، وإنما يقال: «آل حم». قال عبد الله بن مسعود: «آل حم» ديباج القرآن. وقال ابن عباس: إن لكل شيء لباباً، وللباب القرآن «آل حم» - أو قال: الحواميم. قال مسعر بن كدام: كان يقال لهن: «العرائس». روى ذلك كله الإمام العلم^(٢) أبو عبيد القاسم بن سلام، رحمه الله، في كتاب: «فضائل القرآن»^(٣).

وقال حميد بن زنجويه: حدثنا عبيد الله بن موسى، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص عن عبيد الله^(٤) قال: إن مثل القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد لأهله منزلاً، فمر بأثر غيث فبينما هو يسير فيه ويتعجب [منه]^(٥)، إذ هبط على روضات دُمثات فقال: عجبت من الغيث الأول، فهذا أعجب وأعجب فقليل له: إن مثل الغيث الأول مثل عظم^(٦) القرآن، وإن مثل هؤلاء الروضات الدُمثات، مثل آل حم في القرآن. أورده البغوي^(٧).

وقال ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب: أن الجراح بن أبي الجراح حدثه عن ابن عباس، قال: لكل شيء لباب، وللباب القرآن الحواميم^(٨).

وقال ابن مسعود: إذا وقعت في «آل حم» فقد وقعت في روضات أتأثق فيهن^(٩).

وقال أبو عبيد: حدثنا الأشجعي، حدثنا مسعر - هو ابن كدام - عن حدثه: أن رجلاً رأى أبا الدرداء [رضي الله عنه]^(١٠) يبنى مسجداً، فقال له: ما هذا؟ فقال: أبنيه من أجل «آل حم»^(١١).

وقد يكون هذا المسجد الذي بناه أبو الدرداء، هو المسجد المنسوب إليه داخل قلعة دمشق. وقد يكون صيانتها وحفظها ببركته وبركة ما وضع له، فإن هذا الكلام يدل على النصر على الأعداء، كما قال رسول الله^(١٢) ﷺ لأصحابه في بعض الغزوات: «إن يئتم الليلة فقولوا: حم، لا ينصرون». وفي رواية: «لا تنصرون»^(١٣).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن الحكم بن ظبيان بن خلف المازني، ومحمد بن

(١) في ت، س: «المؤمن». (٢) في أ: «العالم».

(٣) فضائل القرآن (ص ١٣٧، ١٣٨).

(٤) في ت: «عبد الله».

(٥) زيادة من ت، س، أ.

(٦) في أ: «عظيم».

(٧) معالم التنزيل للبغوي (٧/ ١٣٤).

(٨) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص ١٣٧) والبغوي في تفسيره (٧/ ١٣٤).

(٩) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص ١٣٧). (١٠) زيادة من ت، أ.

(١١) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص ١٣٧).

(١٢) في ت: «النبى».

(١٣) رواه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٦٥) وأبو داود في السنن برقم (٢٥٩٧) والترمذي في السنن برقم (١٦٨٢) عن المهلب بن أبي صفرة عن سمع النبي ﷺ.

الليث الهمداني قالاً: حدثنا موسى بن مسعود، حدثنا عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي، عن زرارة ابن مصعب، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ آية الكرسي وأول حم المؤمن، عصم ذلك اليوم من كل سوء».

ثم قال: لا نعلمه يروى إلا بهذا الإسناد. ورواه الترمذى من حديث المليكي، وقال: تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه^(١).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حَم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ (٣)﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة، فقد تقدم فى أول «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقد قيل: إن ﴿حَم﴾ اسم من أسماء الله عز وجل، وأنشدوا فى ذلك^(٢).

يُذَكِّرُنِي حَامِيمَ وَالرَّمْحُ شَاجِرٌ فَهَلَا تَلَا حَامِيمَ قَبْلَ التَّقَدُّمِ

وقد ورد^(٣) فى الحديث الذى رواه أبو داود والترمذى، من حديث الثورى، عن أبى إسحاق، عن المهلب بن أبى صفرة قال: حدثنى من سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن بيّتم الليلة فقولوا: حم، لا ينصرون» وهذا إسناد صحيح^(٤).

واختار أبو عبيد أن يروى: «فقولوا: حم، لا ينصروا» أى: إن قلتم ذلك لا ينصروا، جعله جزاء لقوله: فقولوا.

وقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أى: تنزيل هذا الكتاب - وهو القرآن - من الله ذى العزة والعلم، فلا يرام جنبه، ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابُه.

وقوله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ أى: يغفر ما سلف من الذنب، ويقبل التوبة فى المستقبل لمن تاب إليه وخضع لديه.

وقوله: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ أى: لمن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، وعنا عن^(٥) أوامر الله، وبغى [وقد اجتمع فى هذه الآية الرجاء والخوف]^(٦). وهذه كقوله تعالى: ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، يقرن هذين الوصفين كثيراً فى مواضع متعددة من القرآن؛ ليبقى العبد بين الرجاء والخوف.

وقوله: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ قال ابن عباس: يعنى: السعة والغنى. وكذا قال مجاهد، وقتادة.

وقال يزيد بن الأصم: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾: يعنى: الخير الكثير.

(١) سنن الترمذى برقم (٢٨٧٩).

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٢٦/٢٤) وفى صحيح البخارى (٥٥٣/٨) «فتح» منسوباً إلى شريح بن أوفى العيسى.

(٣) فى أ: «روى».

(٤) سنن أبى داود برقم (٢٥٩٧) وسنن الترمذى برقم (١٦٨٢).

(٥) فى أ: «على».

(٦) زيادة من أ.

وقال عكرمة: ﴿ذِي الطُّولِ﴾: ذى المن.

وقال قتادة: [يعنى]^(١): ذى النعم والفواضل.

والمعنى: أنه المتفضل علي عباده، المتطول عليهم بما هو فيه من المن والأنعام، التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها، ﴿وَأَنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا [إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ]^(٢)﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى: لا نظير له فى جميع صفاته، فلا إله غيره، ولا رب سواه ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أى: إليه المرجع والمآب، فيجازى كل عامل بعمله، ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

وقال أبو بكر بن عياش: سمعت أبا إسحاق السبيعي يقول: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب [رضى الله عنه]^(٣) فقال: يا أمير المؤمنين، إني قتلْتُ، فهل لى من توبة؟ فقرأ عليه: ﴿حَمَّ﴾. تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم. غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب وقال: اعمل ولا تيأس. رواه ابن أبي حاتم - واللفظ له - وابن جرير^(٤).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن مروان الرقي، حدثنا عمر - يعنى ابن أيوب - أخبرنا جعفر بن برقان، عن يزيد بن الأصم^(٥) قال: كان رجل من أهل الشام ذو بأس، وكان يفد إلى عمر بن الخطاب [رضى الله عنه]^(٦)، ففقدته عمر فقال: ما فعل فلان بن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، يتابع فى هذا الشراب. قال: فدعا عمر كاتبه، فقال: اكتب: «من عمر بن الخطاب إلى فلان ابن فلان، سلام عليك، [أما بعد]^(٧): إني أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب، ذى الطول، لا إله إلا هو إليه المصير». ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه، وأن يتوب الله عليه^(٨). فلما بلغ الرجل كتاب عمر جعل يقرؤه ويردده، ويقول: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، قد حذرني عقوبته، ووعدني أن يغفر لى.

ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث جعفر بن برقان، وزاد: «فلم يزل يرددّها على نفسه، ثم بكى، ثم نزع فأحسن التزع فلما بلغ عمر [رضى الله عنه]^(٩) خبره قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أحاكم زل زلة فسددوه ووقفوه، وادعوا الله له أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه^(١٠).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن شبة^(١١)، حدثنا حماد بن واقد - أبو عمر الصفار -، حدثنا ثابت البناني، قال: كنت مع مصعب بن الزبير فى سواد الكوفة، فدخلت حائطاً أصلى ركعتين، فافتتحت: ﴿حَمَّ﴾ المؤمن، حتى بلغت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فإذا رجل خلفى على بغلة شهباء عليه مقطعات يمينية، فقال: إذا قلت: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ فقل: «يا غافر الذنب، اغفر لى ذنبي».

(١) زيادة من ت.

(٤) تفسير الطبرى (٢٤/٢٧).

(٥) فى ت: «وروى أيضا بإسناده عن يزيد بن الأصم».

(٦) زيادة من ت.

(٨) فى س، أ: «أن يقبل بقلبه ويتوب عليه».

(٩) زيادة من أ.

(١٠) حلية الأولياء (٩٧/٤).

(١١) فى أ: «ابن أبى شبة».

وإذا قلت: ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾، فقل: «يا قَابِلِ التَّوْبِ، اقبل توبتي». وإذا قلت: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾، فقل: «يا شديد العقاب، لا تعاقبني». قال: فالتفت فلم أر أحداً، فخرجت إلى الباب فقلت: مرَّ بكم رجل عليه مقطعات يمنية؟ قالوا: ما رأينا أحداً فكانوا يُروْنَ أنه إلياس.

ثم رواه من طريق أخرى، عن ثابت، بنحوه. وليس فيه ذكر إلياس.

﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (٤) كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥) وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦)﴾.

يقول تعالى: ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه، ﴿فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ أى: فى أموالهم ونعيمها وزهرتها، كما قال: ﴿لَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿نُمتِعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤].

ثم قال تعالى مسلماً لنبيه (١) محمد ﷺ فى تكذيب من كذبه من قومه، بأن له أسوة من سلف من الأنبياء؛ فإنه قد كذبهم (٢) أمهم وخالفوهم، وما آمن بهم منهم إلا قليل (٣)، فقال: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾، وهو أول رسول بعثه الله ينهى عن عبادة الأوثان، ﴿وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أى: من كل أمة، ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أى: حرصوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله (٤)، ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ أى: مآحلوا بالشبهة (٥) ليردوا الحق الواضح الجلى.

وقد قال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا على بن عبد العزيز، حدثنا عارم أبو النعمان، حدثنا مُعْتَمِر ابن سليمان قال: سمعت أبا يحدث عن حش، عن عكرمة، عن ابن عباس (٦) [رضى الله عنه] (٧)، عن النبي ﷺ قال: «من أعان باطلا ليدحض بباطله حقاً، فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله» (٨).

وقوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أى: أهلكتهم على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أى: فكيف بلغك عذابي لهم، ونكالى بهم؟ قد كان شديداً موجعاً مؤلماً.

قال قتادة: كان والله شديداً.

(١) فى ت: «الرسوله».

(٢) فى س، أ: «كذبهم».

(٣) فى ت، س: «القليل».

(٤) فى ت، س، أ: «ما جاوزوا به من الشبهة».

(٥) فى ت، س، أ: «رسولهم».

(٦) فى ت: «وقد روى الطبرانى بإسناده».

(٧) زيادة من أ.

(٨) المعجم الكبير (٢١٥/١١) ورواه الحاكم فى المستدرک (١٠٠/٤) من طريق على بن عبد العزيز به موقوفاً وقال: «صحيح الإسناد».

وتعقبه الذهبى بقوله: «فيه حش الرحبى وهو ضعيف».

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أى: كما حقت كلمة العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة، كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك يا محمد بطريق الأولى والأخرى؛ لأن من كذبك ^(١) فلا وثوق له بتصديق غيرك.

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)﴾.

يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حملة العرش الأربعة، ومن حوله من الكروبيين، بأنهم يسبحون بحمد ربهم، أى: يقرنون بين التسييح الدال على نفى النقائص، والتحميد المقتضى لإثبات صفات المدح، ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أى: خاشعون له أذلاء بين يديه، وأنهم ﴿يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: من أهل الأرض ممن آمن بالغيب، فقيض الله سبحانه ملائكته المقربين أن يدعوا للمؤمنين بظهر الغيب، ولما كان هذا من سجايا الملائكة، عليهم الصلاة والسلام، كانوا يؤمنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب، كما ثبت فى صحيح مسلم: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين، ولك بمثله» ^(٢).

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن محمد - هو ابن أبى شيبة - حدثنا عبدة بن سليمان، عن محمد بن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة، عن عكرمة عن ابن عباس ^(٣) [رضى الله عنه] ^(٤)؛ أن رسول الله ﷺ صدق أمية فى شىء من شعره، فقال:

رَجُلٌ وَثُورٌ تَحْتَ رِجْلِ يَمِينِهِ وَالنَّسْرُ لِلْأُخْرَى، وَلَيْثٌ مُرْصَدٌ

فقال رسول الله ﷺ: «صدق». فقال:

وَالشَّمْسُ تَطْلُعُ كُلَّ آخِرِ لَيْلَةٍ
تَأْبَى فَمَا تَطْلُعُ لَنَا فِي رِسْلِهَا
حَمَرَاءُ يُصْبِحُ لَوْنُهَا يَتَوَرَّدُ
إِلَّا مَعْدَبَةٌ وَإِلَّا تُجْلَدُ

فقال النبى ﷺ: «صدق» ^(٥).

وهذا إسناد جيد: وهو يقتضى أن حملة العرش اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية،

(١) فى س: «كذب بك».

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٧٣٢) من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه.

(٣) فى ت: «وقد روى الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس».

(٤) زيادة من ت، أ.

(٥) المسند (٢٥٦/١) وقال الهيثمى فى المجمع (١٢٧/٨): «رجاله ثقات إلا أن ابن إسحاق مدلس».

كما قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

وهنا سؤال، وهو أن يقال: ما الجمع بين المفهوم من هذه الآية، ودلالة هذا الحديث؟ وبين الحديث الذي رواه أبو داود:

حدثنا محمد بن الصباح البزار؛ حدثنا الوليد بن أبي ثور، عن سِماك، عن عبد الله بن عَمِيرَةَ^(١)، عن الأحنف بن قيس، عن العباس بن عبد المطلب، قال: كنت بالبطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ فمرت بهم سحابة، فنظر إليها فقال: «ما تسمون هذه؟» قالوا: السحاب. قال: «والمزن؟» قالوا: والمزن. قال: «والعنان؟» قالوا: والعنان - قال أبو داود: ولم أتقن العنان جيداً - قال: «هل تدرون بُعد ما بين السماء والأرض؟» قالوا: لا ندري. قال: «بُعد ما بينهما إما واحدة، أو اثنتان، أو ثلاث^(٢) وسبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك» حتى عدَّ سبع سموات «ثم فوق السماء السابعة بحر^(٣)، بين^(٤) أسفله وأعلاه مثل بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال، بين أظلافهن ورُكُبهن مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم الله، عز وجل، فوق ذلك» ثم رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، من حديث سِماك بن حرب، به^(٥). وقال الترمذي: حسن غريب.

وهذا يقتضى أن حملة العرش ثمانية، كما قال شهر بن حوشب: حملة العرش ثمانية، أربعة يقولون: «سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك». وأربعة يقولون: «سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك».

ولهذا يقولون إذا استغفروا^(٦) للذين آمنوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أى: إن رحمتك تَسَعُ ذنوبهم وخطاياهم، وعلمك محيط بجميع أعمالهم [وأقوالهم]^(٧) وحركاتهم وسكناتهم، ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أى: فاصفح عن المسيئين^(٨) إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عما كانوا فيه، واتبعوا ما أمرتهم به، من فعل الخيرات وترك المنكرات، ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أى: وزحزحهم عن عذاب الجحيم، وهو العذاب الموجه الأليم^(٩). ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أى: اجمع بينهم وبينهم، لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع فى منازل متجاورة، كما قال [تعالى]^(١٠): ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] أى: ساوينا بين الكل فى المنزلة، لتقر أعينهم، وما نقصنا العالى حتى يساوى الدانى، بل رفعنا الناقص فى العمل^(١٢)، فساويناه بكثير العمل، تفضلاً منا ومنة.

(١) فى ت: «عمرة». (٢) فى ت، س: «أو اثنين أو ثلاثة».

(٣) فى ت: «ثم فوق السماء بحراً»، وفى س: «ثم فوق السابعة بحر».

(٥) سنن أبى داود برقم (٤٧٢٣ - ٤٧٢٥) وسنن الترمذى برقم (٣٣٢٠) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٣).

(٦) فى ت: «استغفروا للمؤمنين». (٧) زيادة من أ.

(٩) فى ت: «المؤلم». (١٠) زيادة من ت، س، أ.

(١٢) فى ت، أ: «رفعنا ناقص العمل».

قال سعيد بن جبیر: إن المؤمن إذا دخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه، وأين هم؟ فيقال: إنهم لم يبلغوا طبقتك^(١) في العمل. فيقول: إني إنما عملت لى ولهم. فيُلحَقُونَ به في الدرجة، ثم تلا سعيد بن جبیر هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

قال مطرف بن عبد الله بن الشخير: أنصح عباد الله للمؤمنين الملائكة، ثم تلا هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾، وأغش عباد الله للمؤمنين الشياطين.

وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أى: الذى لا يمانع ولا يغالب، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الحكيم فى أقوالك وأفعالك، من شرعك وقدرك^(٢).

﴿وَفَهُمُ السَّيِّئَاتِ﴾ أى: فعلها أو وبألها ممن وقعت منه، ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ أى: لطفت به ونجيت من العقوبة، ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١) ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) هُوَ الَّذِي يُرِيكُم آيَاتِهِ وَيُنَزِّل لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤)﴾.

يقول تعالى مخبرا عن الكفار: أنهم يُنَادُونَ يوم القيامة وهم فى غَمَرَات النيران يتلظون، وذلك عندما^(٣) باشروا من عذاب الله ما لا قبل لأحد به، فمقتوا عند ذلك أنفسهم وأبغضوها غاية البغض، بسبب ما أسلفوا^(٤) من الأعمال السيئة، التى كانت سبب دخولهم إلى النار، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخبارا عاليا، نادوهم [به]^(٥) نداء بأن مقت الله لهم فى الدنيا حين كان يُعرض عليهم الإيمان، فيكفرون، أشد من مقتكم أيها المذبذبون أنفسهم اليوم فى هذه الحالة.

قال قتادة فى قوله: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ يقول: لمقت الله أهل الضلالة حين عُرض عليهم الإيمان فى الدنيا، فتركوه وأبوا أن يقبلوه، أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة^(٦).

وهكذا قال الحسن البصرى، ومجاهد، والسدى، وذُرُّ بن عبد الله^(٧) الهمداني، وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم، وابن جرير الطبرى، رحمهم الله.

(١) فى ت: «رقتك».

(٢) فى أ: «وقدرك».

(٣) فى ت، س: «أسلفوه».

(٤) فى أ: «عذاب الله فى يوم القيامة».

(٥) فى س: «عبيد الله».

(٦) فى أ: «بعدها».

(٧) زيادة من ت، أ.

وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ قال الثوري، عن أبي (١) إسحاق، عن أبي الأحوص، عن ابن مسعود [رضي الله عنه] (٢): هذه الآية كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨] وكذا قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، وأبو مالك. وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية.

وقال السدي: أميتوا في الدنيا ثم أحيوا في قبورهم فخطبوا، ثم أميتوا ثم أحيوا يوم القيامة. وقال ابن زيد: أحيوا حين أخذ عليهم الميثاق من صلب آدم، ثم خلقهم في الأرحام ثم أماتهم [ثم أحياهم] (٣) يوم القيامة.

وهذان القولان - من السدي، وابن زيد - ضعيفان؛ لأنه يلزمهما على ما قالوا ثلاث إحياءات وإماتات. والصحيح قول ابن مسعود وابن عباس ومن تابعهما. والمقصود من هذا كله: أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله، عز وجل، في عرصات القيامة، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، فلا يجابون. ثم إذا رأوا النار وعابنوها ووقفوا عليها، ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنكال، سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة، فلا يجابون، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْقَوْمُ عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكَذَّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨] فإذا دخلوا النار وذاقوا مسها وحسبها ومقامعها وأغللها، كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم، ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]، ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ. قَالَ اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾، [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨]، وفي هذه الآية الكريمة تطفوا في السؤال، وقدموا بين يدي كلامهم مقدمة، وهي قولهم: ﴿رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ أي: قدرتك عظيمة، فإنك أحييتنا بعد ما كنا أمواتا، ثم أمتنا ثم أحييتنا، فأنت قادر على ما تشاء، وقد اعترفنا بذنوبنا، وإننا كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا، ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا؟ فإنك قادر على ذلك؛ لنعمل غير الذي كنا نعمل، فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإننا ظالمون. فأجيبوا ألا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا. ثم علل المنع من ذلك بأن سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه بل تجحده وتنفيه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾، أي: أنتم هكذا تكونون، وإن رددتم إلى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقوله: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ أي: هو الحاكم في خلقه، العادل الذي لا يجور، فيهدي من

(٣) زيادة من ت، س، أ.

(٢) زيادة من أ.

(١) في أ: «ابن».

من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، لا إله إلا هو.

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أى: يظهر قدرته لخلقه^(١) بما يشاهدونه فى خلقه العلوى والسفلى من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها، ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾، وهو المطر الذى يخرج به من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس، من اختلاف ألوانه وطعمه، وروائح وأشكاله وألوانه، وهو ماء واحد، فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أى: يعتبر ويتفكر فى هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿إِلَّا مَنْ يَنْسِبُ﴾ أى: من هو بصير منيب إلى الله، عز وجل.

وقوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أى: فأخلصوا الله وحده العبادة والدعاء، وخالفوا المشركين فى مسلكهم ومذهبهم.

قال^(٢) الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن ثمر، حدثنا هشام - يعنى بن عروة بن الزبير - عن أبى الزبير محمد بن مسلم بن مدرس المكي قال: كان عبد الله بن الزبير يقول فى دبر كل صلاة حين يسلم^(٣): «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» قال: وكان رسول الله ﷺ يهلل بهن^(٤) دبر كل صلاة^(٥).

ورواه مسلم وأبو داود والنسائى، من طرق، عن هشام بن عروة، وحجاج بن أبى عثمان، وموسى بن عقبة، ثلاثتهم عن أبى الزبير، عن عبد الله بن الزبير قال: كان رسول الله ﷺ يقول فى دبر الصلاة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له^(٦)» وذكر تمامه^(٧).

وقد ثبت فى الصحيح عن ابن الزبير؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير. لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون»^(٨).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الربيع، حدثنا الحَصِيب بن ناصح، حدثنا صالح - يعنى المرئى - عن هشام بن حسان، عن ابن سيرين، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «ادعوا الله

(١) فى أ: «بخلقه». (٢) فى ت: «روى». (٣) فى أ: «عقب الصلوات المكتوبات».

(٤) فى ت: «بهن فى دبر».

(٥) المسند (٤/٤).

(٦) فى ت: «لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير».

(٧) صحيح مسلم برقم (٥٩٤).

(٨) صحيح مسلم برقم (٥٩٤) وسنن أبى داود برقم (١٥٠٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٢٦٢).

وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه^(١).

﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧)﴾.

يقول تعالى [مخبرا]^(٢) عن عظمته وكبريائه، وارتفاع عرشه العظيم العالِي على جميع مخلوقاته كالسقف لها، كما قال تعالى: ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ. تَعْرَجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ. [فَاصْبِرْ] ^(٣)﴾ [المعارج: ٣، ٤]، وسيأتى بيان أن هذه مسافة ما بين العرش إلى الأرض السابعة، في قول جماعة من السلف والخلف، وهو الأرجح إن شاء الله [تعالى]^(٤). وقد ذكر غير واحد أن العرش من ياقوتة حمراء، اتساع ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة. وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة. وقد تقدم في حديث «الأوعال» ما يدل على ارتفاعه عن^(٥) السموات السبع بشيء عظيم.

وقوله: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، كقوله تعالى: ﴿يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ ^(٦) [النحل: ٢]، وكقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ [بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ] ^(٨)﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤]؛ ولهذا قال: ﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾: اسم من أسماء يوم القيامة، حذر منه عباده.

وقال ابن جرير: قال ابن عباس: يلتقى فيه آدم وآخر ولده.

وقال ابن زيد: يلتقى فيه العباد.

وقال قتادة، والسدي، وبلال بن سعد، وسفيان بن عيينة^(٩): يلتقى فيه أهل السماء وأهل الأرض.

وقال قتادة أيضا: يلتقى فيه أهل السماء وأهل الأرض، والخالق والخلق.

وقال ميمون بن مهران: يلتقى [فيه]^(١٠) الظالم والمظلوم.

(١) ورواه الترمذي في السنن برقم (٣٤٧٩) عن معاوية بن صالح، ورواه الحاكم في المستدرک (٤٩٣/١) عن عفان بن مسلم وموسى ابن إسماعيل، ورواه الطبرانی في کتاب الدعاء برقم (٦٢) عن مخلد بن خدّاش، كلهم من طريق صالح المري به. قال الطبرانی في المعجم الأوسط: «لم يرو هذا الحديث عن هشام بن حسان إلا صالح المري»، ومداره على صالح المري وهو متروك.
(٢) زيادة من ت، س، أ.
(٣) زيادة من ت.
(٤) زيادة من ت.
(٥) في ت، س: «من».
(٦) في س: «فاعبدوه» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.
(٧) في ت: «إنه» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.
(٨) زيادة من ت.
(٩) في ت: «قتادة وغيره».
(١٠) زيادة من أ.

وقد يقال: إن يوم القيامة^(١) هو يشمل هذا كله، ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمل من خير وشر. كما قاله آخرون.

وقوله: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ أى: ظاهرون بإدب كلهم، لا شيء يكنهم ولا يظلمهم ولا يستترهم. ولهذا قال: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾: أى: الجميع فى علمه على السواء.

وقوله: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ قد تقدم فى حديث ابن عمر: أنه تعالى^(٢) يطوى السموات والأرض بيده، ثم يقول: أنا الملك، أنا الجبار، أنا المتكبر، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟^(٣).

وفى حديث الصور: أنه تعالى إذا قبض أرواح جميع خلقه، فلم يبق سواه، وحده لا شريك له، حيثنذ يقول: لمن الملك اليوم؟ ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه قائلاً: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أى: الذى هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه^(٤).

وقد قال^(٥) ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن غالب الدقاق، حدثنا عبيد بن عبيدة، حدثنا معتمر، عن أبيه، حدثنا أبو نصر، عن ابن عباس [رضى الله عنهما]^(٦) قال: ينادى مناد بين يدى الساعة: يأبىها الناس، أنتكم الساعة. فيسمعها الأحياء والأموات، قال: وينزل الله [عز وجل]^(٧) إلى سماء الدنيا ويقول: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

وقوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: يخبر تعالى عن عدله فى حكمه بين خلقه، أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر، بل يجزى بالحسنة عشر أمثالها، وبالسئنة واحدة؛ ولهذا قال: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ كما ثبت فى صحيح مسلم^(٨)، عن أبى ذر، عن رسول الله ﷺ - فيما يحكى عن ربه عز وجل - أنه قال: «يا عبادى، إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا - إلى أن قال -: يا عبادى، إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم^(٩) ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»^(١٠).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أى: يحاسب الخلائق كلهم، كما يحاسب نفساً واحدة، كما قال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعُتْكُمْ إِلَّا كُنُفْسٍ وَاحِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال [تعالى]^(١١): ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠)﴾.

(١) فى ت، س: «التلاق».

(٢) فى ت: «أن الله».

(٣) سورة الزمر، الآية ٦٧.

(٤) انظر حديث الصور بتمامه عند تفسير الآية: ٧٣ من سورة الانعام.

(٥) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم».

(٦) زيادة من أ.

(٧) زيادة من ت، أ.

(٨) فى ت: «البخارى» وهو خطأ.

(٩) فى ت، س: «لكم».

(١٠) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧).

(١١) زيادة من س.

يوم الآزقة هو: اسم من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لاقتربها، كما قال تعالى: ﴿ أَزِفَتِ
الْآزِقَةُ . لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ [النجم: ٥٧، ٥٨] وقال: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾
[القمر: ١]، وقال: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ [الأنبياء: ١] وقال: ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾
[النحل: ١] وقال: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّتُ وُجُوهَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴾ [الملك: ٢٧].

وقوله: ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطِمِينَ ﴾ [أى ساكتين]^(١)، قال قتادة: وقفت القلوب فى
الحناجر من الخوف، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها وكذا قال عكرمة، والسدى، وغير واحد.
ومعنى ﴿ كَاطِمِينَ ﴾ أى: ساكتين، لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا
يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبا: ٣٨].
وقال ابن جرير^(٢): ﴿ كَاطِمِينَ ﴾ أى: باكين.

وقوله: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ أى: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من
قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير.
وقوله: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ يخبر تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء،
جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها، ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله حقّ
الحياء، ويتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه تعالى يعلم العين الخائنة وإن أبدت
أمانة، ويعلم ما تنطوى عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر.

قال ابن عباس فى قوله: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾: وهو الرجل يدخل على أهل
البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسنة، أو تمر به وبهم المرأة الحسنة، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا
غضّ، فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غض [بصره عنها]^(٣) وقد اطلع الله من قلبه أنه ودّ لو اطلع على
فرجها. رواه ابن أبى حاتم.

وقال الضحاك: ﴿ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ﴾: هو الغمز، وقول الرجل: رأيت، ولم يره؛ أو: لم أر، وقد
رأى.

وقال ابن عباس: يعلم [الله]^(٤) تعالى من العين فى نظرها، هل تريد الخيانة أم لا؟ وكذا قال
مجاهد، وقتادة.

وقال ابن عباس فى قوله: ﴿ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾: يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزنى بها أم لا؟
وقال السدى: ﴿ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ أى: من الوسوسة.

(٢) فى ت: «جرير».

(١) زيادة من ت.

(٤) زيادة من س.

(٣) زيادة من س، أ.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أى: يحكم بالعدل.

وقال الأعمش: عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس [رضى الله عنهما]^(١) فى قوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾: قادر على أن يجرى بالحسنة الحسنة، وبالسئنة السيئة ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وهذا الذى فسر به ابن عباس فى هذه الآية كقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ^(٢) الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أى: من الأصنام والأوثان والأنداد، ﴿لَا يَقْضُونَ شَيْءٌ﴾ أى: لا يملكون شيئاً ولا يحكمون بشيء ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أى: سميع لأقوال خلقه، بصير بهم، فيهدى من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحاكم العادل فى جميع ذلك.

﴿أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢)﴾.

يقول تعالى: أو لم يسر هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد ﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أى: من الأمم المكذبة بالأنبياء، ما حل بهم من العذاب والنكال، مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة، ﴿وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: أثروا فى الأرض من البنايات والمعالم والديارات، ما لا يقدر عليه هؤلاء، كما قال: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيهَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهَا﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وقال: ﴿وَآثَارُوا الْأَرْضِ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩] أى: ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد، أخذهم الله بذنوبهم، وهى كفرهم برسلمهم، ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ أى: وما دفع عنهم عذاب الله أحد، ولا رده عنهم راد، ولا وقاهم واق.

ثم ذكر علة أخذه إياهم وذنبهم التى ارتكبوها واجترموها، فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى: بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات، ﴿فَكَفَرُوا﴾ أى: مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا، ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ أى: أهلكتهم ودمر عليهم وللكافرين أمثالها، ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى: ذو قوة عظيمة وبطش شديد، وهو ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى: عقابه أليم شديد وجيع. أعادنا الله منه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)﴾.

(٢) فى س: «لتجزى».

(١) زيادة من أ.

يقول تعالى مسلماً لنبيه ﷺ^(١) في تكذيب من كذبه من قومه، ومبشراً له بأن العقابة والنصرة له في الدنيا والآخرة، كما جرى لموسى بن عمران^(٢)، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات، والدلائل^(٣) الواضحات؛ ولهذا قال: ﴿بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ والسلطان هو: الحجة والبرهان ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾، هو: ملك القبط بالديار المصرية، ﴿وَهَامَانَ﴾، وهو: وزيره في مملكته، ﴿وَقَارُونَ﴾، وكان أكثر الناس في زمانه مالا وتجارة ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أى: كذبه وجعلوه ساحراً مُمَخَّرَافاً موهماً كذاباً في أن الله أرسله. وهذه كقوله [تعالى]^(٤): ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ. أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ أى: بالبرهان القاطع الدال على أن الله تعالى أرسله إليهم، ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بنى إسرائيل. أما الأول: فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى، أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم، أو لمجموع الأمرين. وأما الأمر الثانى: فللعلة الثانية، لإهانة هذا الشعب، ولكي يتشاءموا بموسى، عليه السلام؛ ولهذا قالوا: ﴿أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِنَا مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

قال قتادة: هذا أمر بعد أمر.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أى: وما مكرهم وقصدهم الذى هو تقليل عدد بنى إسرائيل لئلا ينصروا عليهم، إلا ذاهب وهالك فى ضلال. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾: وهذا عزم من فرعون - لعنه الله - على قتل موسى، عليه السلام، أى: قال لقومه: دعونى حتى أقتل لكم هذا، ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أى: لا أبالى منه. وهذا فى غاية الجحد والتجهرم والعناد.

وقوله - قبحه الله -: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾، يعنى: موسى، يخشى فرعون أن يضلَّ موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم. وهذا كما يقال فى المثل: «صار فرعون مُذَكِّراً»، يعنى: واعظاً، يشفق على الناس من موسى، عليه السلام.

وقرأ الاكثرون: «أن يبدل دينكم وأن يُظْهِرَ فى الأرض الفساد» وقرأ آخرون: ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ وقرأ بعضهم: «يُظْهِرَ فى الأرض الفساد»، بالضم.

وقال موسى: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أى: لما بلغه قول فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ قال موسى: استجرتُ بالله وعُذْتُ به من شره وشر أمثاله؛ ولهذا قال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾، أيها المخاطبون، ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أى: عن الحق، مجرم، ﴿لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ

(٢) فى أ: «الموسى عليه السلام».

(٤) زيادة من ت، س.

(١) فى س: «لنبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه».

(٣) فى ت: «والدلائل».

الْحِسَابُ؛ ولهذا جاء فى الحديث عن أبى موسى، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوما قال: «اللهم، إنا نعوذ بك من شرورهم، وندراً بك فى نحورهم»^(١).

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنَ بَاسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) .

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبظياً من آل فرعون.

قال السدى: كان ابن عم فرعون، ويقال: إنه الذى نجا مع موسى. واختاره ابن جرير^(٢)، وردَّ قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً؛ لأن فرعون انفعّل لكلامه واستمعه، وكف عن قتل موسى، عليه السلام، ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجل^(٣) بالعقوبة؛ لأنه منهم^(٤).

وقال ابن جرّيج، عن ابن عباس: لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون، والذى قال: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠] رواه ابن أبى حاتم.

وقد كان هذا الرجل يكتُم إيمانه عن قومه القبط، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾، فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل، و«أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»، كما ثبت بذلك الحديث، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون، وهى قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [أى: لأجل أن يقول ربى الله]^(٥)، اللهم إلا ما رواه البخارى فى صحيحه حيث قال:

حدثنا على بن عبد الله، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعى، حدثنى يحيى بن أبى كثير، حدثنى محمد بن إبراهيم التيمى، حدثنى^(٦) عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرنى بأشدّ شيء مما صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال: بينا رسول الله ﷺ يصلى بفناء الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبى معيط، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه فى عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر، رضى الله عنه، فأخذ بمنكبة^(٧) ودفع عن النبى ﷺ، ثم قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

(١) رواه أحمد فى مسنده (٤/٤١٤).

(١) تفسير الطبرى (٢٤/٣٨).

(٣) فى ت: «يقابل».

(٤) فى ت، س: «متهم».

(٥) زيادة من ت، س، أ.

(٧) فى ت، س: «بمنكبيه».

(٦) فى ت: «فى صحيحه بإسناده عن».

انفرد به البخارى من حديث الأوزاعى قال: وتابعه محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عروة، عن أبيه، به^(١).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا هارون بن إسحاق الهمداني، حدثنا عبدة، عن هشام - يعنى ابن عروة - عن أبيه، عن عمرو بن العاص أنه سئل: ما أشد ما رأيت قريشاً بلغوا من رسول الله ﷺ؟ قال: مر بهم ذات يوم فقالوا له: أنت تنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟ فقال: «أنا ذاك» فقاموا إليه، فأخذوا بمجامع ثيابه، فرأيتُ أبا بكر محتضنه من ورائه، وهو يصيح بأعلى صوته، وإن عينيه ليسيلان، وهو يقول: يا قوم، «أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ؟» حتى فرغ من الآية كلها.

وهكذا رواه النسائي من حديث عبدة، فجعله من مسند عمرو بن العاص، رضى الله عنه^(٢).

وقوله: «وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ» أى: كيف تقتلون رجلاً لكونه يقول: «ربى الله»، وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق؟ ثم تنزل معهم فى المخاطبة فقال: «وَأَنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ» يعنى: إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به، فمن العقل والرأى التام والحزم أن تتركوه ونفسه، فلا تؤذوه، فإن يك كاذباً فإن الله سيجازيه على كذبه بالعقوبة فى الدنيا والآخرة، وإن يك صادقاً وقد أذيتموه يصبكم بعض الذى يعدكم، فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب فى الدنيا والآخرة، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقاً، فينبغى على هذا ألا تتعرضوا له، بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه.

وهكذا أخبر الله [تعالى]^(٣) عن موسى، عليه السلام، أنه طلب من فرعون وقومه المواجهة فى قوله: «وَلَقَدْ فَتَنَّا قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ. أَنْ أَذْأُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ. وَإِنِّي عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ. وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِلُونِ» [الدخان: ١٧ - ٢١] وهكذا قال رسول الله ﷺ لقريش أن يتركوه يدعوا إلى الله [تعالى]^(٤) عباد الله، ولا يمسوه بسوء، وأن يصلوا ما بينه وبينهم من القرابة فى ترك أذيته، قال الله تعالى: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» [الشورى: ٢٣] أى: إلا ألا تؤذونى فيما بينى وبينكم من القرابة، فلا تؤذونى وتركوا بينى وبين الناس. وعلى هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية، وكان فتحاً مبيناً.

وقوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ» أى: لو كان هذا الذى يزعم أن الله أرسله إليكم كاذباً كما تزعمون، لكان أمره بينا، يظهر لكل أحد فى أقواله وأفعاله، كانت تكون فى غاية الاختلاف والاضطراب، وهذا نرى أمره سيديداً ومنهجه مستقيماً، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله، وأرشدته إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله.

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨١٥).

(٢) النسائي فى السنن الكبرى برقم (١١٤٦٢).

(٣) زيادة من ت، س، أ.

(٤) زيادة من أ.

ثم قال المؤمن محذراً قومه زوال نعمة الله عنهم^(١) وحلول نقمة الله بهم: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور فى الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض، فراعوا هذه النعمة بشكر الله، وتصديق رسوله ﷺ، واحذروا نقمة الله إن كذبتُم رسوله، ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ أى: لا تغنى عنكم هذه الجنود وهذه العساكر، ولا ترد عنا شيئاً من بأس الله إن أرادنا بسوء.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لقومه، راداً على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذى كان أحق بالملك من فرعون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ أى: ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسى وقد كذب فرعون، فإنه كان يتحقق صدق موسى فيما جاء به^(٢) من الرسالة ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

فقوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ كذب فيه وافترى، وخان الله ورسوله ورعيته، فغشهم وما نصحهم وكذا قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أى: وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد وقد كذب أيضاً فى ذلك، وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه، قال الله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه: ٧٩]، وفى الحديث: «ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام»^(٣).

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ (٣٠) مثل دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُكُونُ مَدْبَرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٍ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥).

هذا إخبار من الله، عز وجل، عن هذا الرجل الصالح، مؤمن آل فرعون: أنه حذر قومه بأس الله فى الدنيا والآخرة فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ أى: الذين كذبوا رسل الله فى قديم الدهر، كقوم نوح وعاد وثمود، والذين من بعدهم من الأمم المكذبة، كيف حل بهم بأس الله، وما رده عنهم راد، ولا صده عنهم صاد.

(١) فى س، أ: «عليهم». (٢) فى س: «جاءه».

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧١٥٠، ٧١٥١) ومسلم فى صحيحه برقم (١٤٢) بنحوه من حديث معقل بن يسار رضى الله عنه.

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ أى: إنما أهلكهم الله بذنوبهم، وتكذيبهم رسله، ومخالفتهم أمره. فأنفذ فيهم قدره، ثم قال: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ يعنى: يوم القيامة وسمى بذلك، قال بعضهم: لما جاء فى حديث الصور: إن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر، وماجت وارتجت، فنظر الناس إلى ذلك، ذهبوا هاربين ينادى بعضهم بعضا.

وقال آخرون، منهم الضحاك: بل ذلك إذا جرى بهمهم، ذهب الناس هرباً^(١)، ففتلقاهم الملائكة فتردهم إلى مقام المحشر، وهو قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ [الحاقة: ١٧]، وقوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣].

وقد روى عن ابن عباس، والحسن، والضحاك: أنهم قرؤوا: «يوم التناد»، بتشديد الدال، من ند البعير: إذا شرد وذهب.

وقيل: لأن الميزان عنده ملك، وإذا وزن عمل العبد^(٢) فرجح نادى بأعلى صوته: ألا قد سعد فلان بن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً. وإن خف عمله نادى: ألا قد شقى فلان بن فلان.

وقال قتادة: ينادى كل قوم بأعمالهم: ينادى أهل الجنة أهل الجنة، وأهل النار أهل النار.

وقيل: سمي بذلك لمناداة أهل الجنة أهل النار: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤]. ومناداة أهل النار أهل الجنة: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]، ولمناداة أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار، كما هو مذكور فى سورة الأعراف.

واختار البغوى وغيره: أنه سمي بذلك لمجموع ذلك. وهو قول حسن جيد، والله أعلم^(٣).

وقوله: ﴿يَوْمَ تُؤَلَّفُونَ مَدِيرِينَ﴾ أى: ذاهبين هاربين، ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ. إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١١، ١٢]، ولهذا قال: ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أى: ما لكم مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه، ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أى: من أضله [الله]^(٤) فلا هادى له غيره.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ﴾ يعنى: أهل مصر، قد بعث الله فيهم رسولا من قبل موسى، وهو يوسف، عليه السلام، كان عزيز أهل مصر، وكان رسولا يدعو إلى الله أمته^(٥) القبط، فما أطاعوه تلك الساعة^(٦) إلا لمجرد الوزارة والجاه الدنيوى؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا زُلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ أى: يتستهم فقلتم طامعين: ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أى: كحالكهم هذا

(١) فى س، أ: «هرباً منه». (٢) فى ت: «أعمال العبد».

(٣) معالم التنزيل للبغوى (١٤٧/٧، ١٤٨).

(٤) زيادة من ت، س. (٥) فى أ: «أمة». (٦) فى ت، س، أ: «تلك الطاعة».

(٧) فى س: «تكون».

ثم قال: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أى: الذين يدفعون الحق بالباطل، ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله، فإن الله يمقت على ذلك أشد المقت؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: والمؤمنون أيضا يُبغضون من تكون هذه صفته، فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه، فلا يعرف بعد ذلك معروفا، ولا ينكر منكرا؛ ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ﴾ أى: على اتباع الحق ﴿جَبَّارٍ﴾.

وروى ابن أبى حاتم، عن عكرمة - وحكى عن الشعبى - أنهما قالا: لا يكون الإنسان جبارا حتى يقتل نفسين.

وقال أبو عمران الجوني، وقتادة: آية الجبابة القتل بغير حق.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧)﴾.

يقول تعالى مخبرا عن فرعون، وعتوه، وتمرده، وافتراءه فى تكذيبه موسى، عليه السلام، أنه أمر وزيره هامان أن يبنى له صرحا، وهو: القصر العالى المنيف الشاهق. وكان اتخاذه من الآجر المضروب من الطين المشوى، كما قال: ﴿فَأَوْقَدَ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ [القصص: ٣٨]، ولهذا قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون البناء بالآجر، وأن يجعلوه فى قبورهم. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ قال سعيد بن جبیر، وأبو صالح: أبواب السموات. وقيل: طرق السموات ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾، وهذا من كفره وتمرده، أنه كذب موسى فى أن الله، عز وجل، أرسله إليه، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أى: بصنيعه هذا الذى أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئا يتوصل به إلى تكذيب موسى، عليه السلام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ قال ابن عباس [رضى الله عنهما]^(١)، ومجاهد: يعنى إلا فى خسار.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَأَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠)﴾.

يقول المؤمن لقومه ممن تمرد وطفى وآثر الحياة الدنيا، ونسى الجبار الأعلى، فقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ

اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٤١﴾ ، لا كما كذب فرعون في قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ .

ثم زهدهم في الدنيا التي [قد]^(١) آثروها على الآخرة، وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى [ﷺ]^(٢)، فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ أى: قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب [وتزول]^(٣) وتضمحل، ﴿وَالْآخِرَةُ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ أى: الدار التي لا زوال لها، ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها، بل إما نعيم وإما جحيم، ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلْ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أى: واحدة مثلها، ﴿وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى: لا يتقدر بجزاء بل يشبهه الله، ثوابا كثيرا لا انقضاء له ولا نفاذ.

﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أُمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)﴾ .

يقول لهم المؤمن: ما بالي أدعوكم إلى النجاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله الذي بعثه ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ. تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ؟﴾ أى: جهل^(٤) بلا دليل ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ أى: هو في عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه، ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ يقول: حقا.

قال السدى، وابن جرير: معنى قوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾: حقا.

وقال الضحاك: ﴿لَا جَرَمَ﴾: لا كذب.

وقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿لَا جَرَمَ﴾، يقول: بلى، إن الذي تدعونني إليه من الأصنام والأنداد ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ .

قال مجاهد: الوثن ليس بشيء.

وقال قتادة: يعنى الوثن، لا ينفع ولا يضر.

وقال السدى: لا يجيب داعيه، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

(١) زيادة من ت، س، أ.

(٢) زيادة من ت.

(٤) فى ت، أ: «على جهل».

(٣) زيادة من ت.

وقوله: ﴿وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ أى: فى الدار الآخرة، فيجازى كلا بعمله؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنْ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أى: خالدين فيها بإسرافهم، وهو شركهم بالله.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ أى: سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه، ونصحتكم ووضحت لكم، وتذكرونه، وتندمون حيث لا ينفعكم الندم، ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أى: وأتوكل على الله وأستعينه، وأقاطعكم وأبعدكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِصِيرِ الْعِبَادِ﴾ أى: هو بصير بهم، فيهدى من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة، والحكمة التامة، والقدر النافذ.

وقوله [تعالى] ^(١): ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا﴾ أى: فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فنجاه الله مع موسى، عليه السلام، وأما فى الآخرة فبالجنة ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ وهو: الغرق فى اليم، ثم النقلة منه إلى الجحيم. فإن أرواحهم تعرض على النار صباحا ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم فى النار؛ ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أى: أشده ألما وأعظمه نكالا. وهذه الآية أصل كبير فى استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ فى القبور، وهى قوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

ولكن هاهنا سؤال، وهو أنه لاشك أن هذه الآية مكية، وقد استدلوا بها على عذاب القبر فى البرزخ، وقد قال الإمام أحمد:

حدثنا هاشم - هو ابن القاسم أبو النضر - حدثنا إسحاق بن سعيد ^(٢) - هو ابن عمرو بن سعيد ابن العاص - حدثنا سعيد - يعنى أباه - عن عائشة؛ أن يهودية كانت تخدمها، فلا تصنع عائشة إليها شيئا من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وراك الله عذاب القبر. قالت: فدخل رسول الله ﷺ على فقالت: يا رسول الله، هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة؟ قال: «لا، وعم ذلك؟». قالت: هذه اليهودية، لا نصنع إليها شيئا من المعروف إلا قالت: وراك الله عذاب القبر. قال: «كذبت يهود» ^(٣). وهم على الله أكذب، لا عذاب دون يوم القيامة. ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملا بثوبه، محمرة عيناه، وهو ينادى بأعلى صوته: «القبر كقطع الليل المظلم. أيها الناس، لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا وضحكتم قليلا. أيها الناس، استعيذوا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق» ^(٤).

وهذا إسناد صحيح على شرط البخارى ومسلم، ولم يخرجاه.

وروى أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا سفيان، عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة - قال: سألتها امرأة يهودية فأعطتها، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر. فأنكرت عائشة ذلك، فلما رأت رسول الله ﷺ قالت له، فقال: «لا». قالت عائشة: ثم قال لنا رسول الله ﷺ بعد ذلك: «وإنه أوحى إلى أنكم تفتنون فى قبوركم».

(٣) فى أ: «يهودية».

(٢) فى أ: «سعد».

(١) زيادة من أ.

(٤) المسند (٦/٨١).

وهذا أيضا على شرطهما^(١).

فيقال: فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية، وفيها الدليل على عذاب البرزخ؟ والجواب: أن الآية دلت على عرض الأرواح إلى النار غدوا وعشيا في البرزخ، وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها في القبور، إذ قد يكون ذلك مختصا بالروح، فأما حصول ذلك للجسد وتألمه بسببه، فلم يدل عليه إلا السنة في الأحاديث المرضية الآتية ذكرها.

وقد يقال: إن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار في البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن في قبره بذنب، ومما يدل على هذا ما رواه الإمام أحمد:

حدثنا عثمان بن عمر، حدثنا يونس، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة، رضى الله عنها، أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأة من اليهود، وهى تقول: أشعرت أنكم تفتنون فى قبوركم؟ فارتاع رسول الله ﷺ وقال: «إنما يفتن يهود». قالت عائشة: فلبثنا ليالى، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشعرت أنه أوحى إلى أنكم تفتنون فى القبور؟». وقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ بعد يستعيز من عذاب القبر.

وهكذا رواه مسلم، عن هارون بن سعيد وحرمله، كلاهما عن ابن وهب، عن يونس بن يزيد الأيلي، عن الزهري، به^(٢).

وقد يقال: إن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح في البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يتصل بالأجساد فى قبورها، فلما أوحى إليه فى ذلك بخصوصيته استعاذ منه، والله، سبحانه وتعالى، أعلم.

وقد روى البخارى من حديث شعبة، عن أشعث بن أبى الشعثاء، عن أبيه، عن مسروق، عن عائشة^(٣)، رضى الله عنها، أن يهودية دخلت عليها فقالت: أعاذك الله من عذاب القبر^(٤). فسألت عائشة^(٥) رسول الله ﷺ عن عذاب القبر؟ فقال: «نعم، عذاب القبر حق». قالت عائشة: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر^(٦).

فهذا يدل على أنه بادر إلى تصديق اليهودية فى هذا الخبر، وقرر عليه. وفى الأخبار المتقدمة: أنه أنكر ذلك حتى جاءه الوحى، فلعلهما قضيتان، والله أعلم، وأحاديث عذاب القبر كثيرة جدا.

وقال قتادة فى قوله: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾: صباحا ومساء، ما بقيت الدنيا، يقال لهم: يا آل فرعون، هذه منازلكم، توبيخا ونقمة وصغارا لهم.

وقال ابن زيد: هم فيها اليوم، يُغْدَى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة.

(١) المسند (٢٣٨/٦).

(٢) المسند (٢٤٨/٦) وصحيح مسلم برقم (٥٨٤).

(٣) فى ت: «وقد روى البخارى بإسناده من عائشة».

(٤) فى ت: «عائشة رضى الله عنها».

(٥) صحيح البخارى برقم (١٣٧٢).

(٤) فى ت: «القبور» وفى أ: «وقاك الله من عذاب القبر».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد، حدثنا المحاربي، حدثنا ليث، عن عبد الرحمن بن ثروان، عن هزيل، عن عبد الله بن مسعود^(١)، رضى الله عنه، قال: إن أرواح الشهداء فى أجواف طير خضر تسرح بهم فى الجنة حيث شاؤوا، وإن أرواح ولدان المؤمنين فى أجواف عصافير تسرح فى الجنة حيث شاءت، فتأوى إلى قناديل معلقة فى العرش، وإن أرواح آل فرعون فى أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح عليها، فذلك عرضها.

وقد رواه الثورى، عن أبى قيس، عن الهزيل بن شرحبيل، من كلامه فى أرواح آل فرعون. وكذلك قال السدى.

وفى حديث الإسراء من رواية أبى هارون العبدى، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال فيه: «ثم انطلق بى إلى خلق كثير من خلق الله، رجال كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم، مصفدون على سابلة آل فرعون، وآل فرعون يعرضون على النار غدوا وعشيا. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، وآل فرعون كالإبل المسومة^(٢) يخبطون الحجارة والشجر ولا يعقلون»^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا زيد بن أكرم، حدثنا عامر بن مذكّر الحارثى، حدثنا عتبة - يعنى ابن يقظان - عن قيس بن مسلم، عن طارق، عن^(٤) شهاب، عن ابن مسعود، عن النبى ﷺ قال: «ما أحسن محسن من مسلم أو كافر إلا أثابه الله». قال: قلنا: يا رسول الله، ما إثابة الكافر؟ فقال: «إن كان قد وصل رحما أو تصدق بصدقة أو عمل حسنة، أثابه الله المال والولد والصحة وأشباه ذلك». قلنا: فما إثابته فى الآخرة؟ قال: «عذابا دون العذاب»، وقرأ: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

ورواه البزار فى مسنده، عن زيد بن أكرم، ثم قال: لا نعلم له إسنادا غير هذا^(٥).

وقال ابن جرير: حدثنا عبد الكريم بن أبى عمير، حدثنا حماد بن محمد الفزارى البلخى قال: سمعت^(٦) الأوزاعى وسأله رجل فقال: رحمك الله. رأينا طيورا تخرج من البحر، تأخذ ناحية الغرب بيضا، فوجا فوجا، لا يعلم عددها إلا الله، عز وجل، فإذا كان العشى رجع مثلها سودا. قال: وفطنتم إلى ذلك؟ قال: نعم. قال: إن تلك^(٧) الطير فى حواصلها أرواح آل فرعون، تعرض على النار غدوا وعشيا، فترجع إلى وكورها وقد احترقت ريشها وصارت سودا، فنبئت عليها من الليل ريش أبيض، وتتناثر السود، ثم تغدو على النار غدوا وعشيا، ثم ترجع إلى وكورها. فذلك دأبهم فى الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، قال: وكانوا

(٢) فى س: «المنسومة».

(١) فى ت: «وروى ابن أبي حاتم بإسناده عن ابن مسعود».

(٤) فى س: «ابن».

(٣) انظر تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء.

(٥) مسند البزار برقم (٩٤٥) «كشف الأستار» ورواه الحاكم فى المستدرک (٢٥٣/٢) من طريق على بن الحسين به، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبي. قلت: فيه عتبة بن يقظان وهو واه.

(٧) فى ت: «ذلك».

(٦) فى ت: «وروى ابن جرير بإسناده إلى».

يقولون: إنهم ستمائة ألف مقاتل^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق، أخبرنا مالك، عن نافع، عن ابن عمر^(٢) قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار. فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله، عز وجل، إلى يوم القيامة».

أخرجاه في الصحيحين، من حديث مالك، به^(٣).

﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوْ لَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠)﴾.

يخبر تعالى عن تحاج أهل النار في النار، وتخاصمهم، وفرعون وقومه من جملتهم ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ﴾ وهم: الاتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم: القادة والسادة والكبراء: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أى: أطعناكم فيما دعوتونا إليه فى الدنيا من الكفر والضلال، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ أى: قسما تتحملونه عنا. ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ أى: لا نتحمل عنكم شيئا، كفى بنا ما عندنا، وما حملنا من العذاب والنكال. ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ أى: يقسم^(٤) بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾؛ لما علموا أن الله، سبحانه، لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم، بل قد قال: ﴿اخْسَوْوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] سألوا الخزنة - وهم كالبوابين^(٥) لأهل النار - أن يدعوا لهم الله أن يخفف عن الكافرين ولو يوما واحدا من العذاب، فقالت لهم الخزنة رادين عليهم: ﴿أَوْ لَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى: أو ما قامت عليكم الحجج فى الدنيا على السنة الرسل؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا﴾ أى: أنتم لأنفسكم، فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نود خلاصكم، ونحن منكم برآء، ثم نخبركم أنه سواء دعوتكم أو لم تدعوا، لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم؛ ولهذا قالوا^(٦): ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أى: إلا من ذهاب، لا يتقبل ولا يستجاب.

(١) تفسير الطبرى (٤٦/٢٤).

(٢) فى أ: «ابن عمر رضى الله عنهما».

(٣) المسند (١١٣/٢) وصحيح البخارى برقم (١٣٧٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٦٦).

(٤) فى ت: «قسم» . (٥) فى ت، أ: «السجاني» . (٦) فى ت: «قال» .

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذرتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هَدَى وَذَكَرْنَاهُ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لَذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦)﴾ .

قد أورد أبو جعفر بن جرير ، رحمه الله تعالى ، عند قوله تعالى : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ سؤالا فقال : قد عُلِمَ أن بعض الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا^(١) وشعيا ، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجرا كإبراهيم^(٢) ، وإما إلى السماء كعيسى^(٣) ، فأين النصرة في الدنيا؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين^(٤) .

أحدهما : أن يكون الخبر خرج عاما ، والمراد به البعض ، قال : وهذا سائغ في اللغة .

الثاني : أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم ، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم ، كما فُعِلَ بقتلة يحيى وزكريا^(٥) وشعيا ، سلط عليهم من أعدائهم من أمانهم وسفك دمائهم ، وقد ذكر أن النمرود أخذ الله أخذ عزيز مقتدر ، وأما الذين راموا صلب المسيح ، عليه السلام ، من اليهود ، فسلط الله عليهم الروم فأهانوهم وأذلّوهم ، وأظهرهم الله عليهم . ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم إماما عادلا ، وحكما مقسطا ، فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود ، ويقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام . وهذه نصرة عظيمة ، وهذه سنة الله في خلقه في قديم الدهر وحديثه : أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ، ويقر أعينهم ممن آذاهم ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «يقول الله تعالى : من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب»^(٦) . وفي الحديث الآخر : «إنى لأتار لأوليائى كما يثار الليث الحرب»^(٧) ؛ ولهذا أهلك تعالى قوم نوح وعاد وثمود ، وأصحاب الرس ، وقوم لوط ، وأهل^(٨) مدين ، وأشباههم وأضرابهم ، ممن كذب الرسل وخالف الحق . وأنجى الله من بينهم المؤمنين ، فلم يهلك منهم أحدا ، وعذب الكافرين ، فلم يفلت منهم أحدا^(٩) .

قال السدى : لم يبعث الله رسولا قط إلى قوم فيقتلونه ، أو قوما من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون ، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله لهم من ينصرهم ، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا . قال : فكانت^(١٠) الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا ، وهم منصورون فيها .

(١) فى ت ، أ : «كيحيى بن زكريا» . (٢) فى أ : «كإبراهيم عليه السلام» . (٣) فى أ : «كعيسى عليه السلام» .

(٤) تفسير الطبرى (٤٨/٢٤) .

(٥) فى ت : «يحيى بن زكريا» .

(٦) صحيح البخارى برقم (٦٥٠٢) .

(٧) لم أجده بهذا اللفظ ، وقد رواه أبو نعيم فى الحلية (١١/١) موقوفا على ابن عباس : «وأنا الثائر لأوليائى يوم القيامة» .

(٨) فى أ : «وأصحاب» . (٩) فى س : «واحدا» . (١٠) فى ت ، س : «وكانت» .

وهكذا نصر الله [سبحانه] ^(١) نبيه محمدا ﷺ وأصحابه على من خالفه وناواه، وكذبه وعاداه، فجعل كلمته هي العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان. وأمره بالهجرة من بين ظهرائي قومه إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصارا وأعوانا، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر، فنصره عليهم وخذلهم له، وقتل صناديدهم، وأسر سراتهم، فاستاقهم مقرنين في الأصفاد، ثم من عليهم بأخذه الفداء منهم، ثم بعد مدة قريبة فتح [عليه] ^(٢) مكة، ففرت عينه ببلده، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم، فأنقذه الله به مما كان فيه من الشرك والكفر، وفتح له اليمن، ودانت له جزيرة ^(٣) العرب بكمالها، ودخل الناس في دين الله أفواجا. ثم قبضه الله، تعالى، إليه، لما له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين الله، ودعوا عباد الله إلى الله. وفتحوا البلاد والرسايق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب، حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها. ثم لا يزال هذا الدين قائما منصورا ظاهرا إلى قيام ^(٤) الساعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أى: يوم القيامة تكون النصره أعظم وأكبر وأجل.

قال مجاهد: الأشهاد: الملائكة.

وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ بدل من قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾.

وقرأ آخرون: «يَوْمُ» بالرفع، كأنه فسر به ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾. يَوْمُ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ، وهم المشركون ﴿مَعَذِرَتُهُمْ﴾ أى: لا يقبل منهم عذر ولا فدية، ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أى: الإبعاد والطرده من الرحمة، ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وهى النار. قاله السدى، بسئ المنزل والمقيل.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أى: سوء العاقبة.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾، وهو ما بعثه الله به من الهدى والنور، ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ أى: جعلنا لهم العاقبة، وأورثناهم ^(٥) بلاد فرعون وأمواله وحواصله وأرضه، بما صبروا على طاعة الله واتباع رسوله موسى، عليه السلام، وفى الكتاب الذى أورثوه - وهو التوراة - ﴿هُدًى وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ وهى: العقول الصحيحة السليمة.

وقوله: ﴿فَاصْبِرْ﴾ أى: يا محمد، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ أى: وعدناك أنا سنعلى كلمتك، ونجعل العاقبة لك ولمن اتبعك، والله لا يخلف الميعاد. وهذا الذى أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك.

وقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنْبِكَ﴾، هذا تهيج للأمة على الاستغفار، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ﴾ أى: فى أواخر النهار وأوائل الليل، ﴿وَالْإِبْكَارِ﴾، وهى أوائل النهار وأواخر الليل.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أى: يدفعون الحق بالباطل، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله، ﴿إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾

(٣) فى ت: «جزائر».

(٢) زيادة من ت، وفى أ: «عليهم».

(١) زيادة من أ.

(٥) فى ت: «وأورثنا بنى إسرائيل».

(٤) فى ت: «يوم».

أى: ما فى صدورهم إلا كبر على اتباع الحق، واحتقار لمن جاءهم به، وليس ما يرومونه من إخمال الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع، وقولهم وقصدهم هو الموضوع، ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أى: من حال مثل هؤلاء، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أو^(١): من شر^(٢) مثل هؤلاء المجادلين فى آيات الله بغير سلطان. هذا تفسير ابن جرير.

وقال كعب وأبو العالية: نزلت هذه الآية فى اليهود: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبَرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ قال أبو العالية: وذلك أنهم ادعوا أن الدجال منهم، وأنهم يملكون به الأرض. فقال الله لنبيه ﷺ أمرا له أن يستعيد من فتنة الدجال، ولهذا قال: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وهذا قول غريب، وفيه تعسف بعيد، وإن كان قد رواه ابن أبى حاتم فى كتابه، والله أعلم.

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمَسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩)﴾.

يقول تعالى منها على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة، وأن ذلك سهل عليه، يسير لديه - بأنه خلق السموات والأرض، وخلقهم أكبر من خلق الناس بدءاً وإعادة، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأخرى، كما قال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُمْ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣) [الأحقاف: ٣٣]. وقال هاهنا: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها، كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله خلق السموات والأرض، وينكرون المعاد، استبعاداً وكفراً وعناداً، وقد اعترفوا بما هو أولى مما أنكروا.

ثم قال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمَسِيءُ﴾ أى: كما لا يستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئاً، والبصير الذى يرى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرق عظيم، كذلك لا يستوى المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار، ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أى: ما أقل ما يتذكر كثير من الناس.

ثم قال: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ﴾^(٤) أى: لكائنة وواقعة، ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: لا يصدقون بها، بل يكذبون بوجودها.

(٢) فى أ: «شك».

(١) فى ت: «أى».

(٣) فى ت، أ: «أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شيء قدير» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه، حيث إن ناسخا المخطوطتين ت، أ قد خلطا بين الآية الحادية والثمانين من سورة يس وبين الآية الثالثة والثلاثين من سورة الأحقاف.

(٤) فى ت: «آتية» وهو خطأ.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا أشهب، حدثنا مالك، عن^(١) شيخ قديم من أهل اليمن - قدم من ثم - قال: سمعت أن الساعة إذا دنت اشتد البلاء على الناس، واشتد حر الشمس.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (٦٠).

هذا من فضله، تبارك وتعالى، وكرمه: أنه ندب عباده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجابة، كما كان سفيان الثوري يقول: يا مَنْ أَحَبُّ عباده إِلَيْهِ مَنْ سَأَلَهُ فَأَكْثَرَ سؤَالَهُ، ويا مَنْ أَبْغَضَ عباده إِلَيْهِ مَنْ لَمْ يَسْأَلْهُ، وليس كذلك^(٢) غيرك يارب.

رواه ابن أبي حاتم.

وفى هذا المعنى يقول الشاعر:

اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سؤَالَهُ وَبُنَى آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

وقال قتادة: قال كعب الأحبار: أعطيت هذه الأمة ثلاثاً لم تُعْطَهنَّ^(٣) أمة قبلهم إلا نبى: كان إذا أرسل الله نبيا قيل له: «أنت شاهد على أمتك»، وجعلتكم^(٤) شهداء على الناس. وكان يقال له: «ليس عليك في الدين من حرج». وقال لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. وكان يقال له: «ادعنى»^(٥) أستجب لك» وقال لهذه الأمة: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ رواه ابن أبي حاتم.

وقال^(٦) الإمام الحافظ أبو يعلى. أحمد بن على بن المثنى الموصلى فى مسنده: حدثنا أبو إبراهيم الترمذاني، حدثنا صالح المري قال: سمعت الحسن يحدث عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، عن النبي ﷺ - فيما يروى عن ربه عز وجل - قال: «أربع خصال، واحدة منهن لى، وواحدة لك، وواحدة فيما بينى وبينك، وواحدة فيما بينك وبين عبادى»^(٧): فأما التى لى فتعبدنى لا تشرك بى شيئا، وأما التى لك علىّ فما عملت من خير جزيتك به، وأما التى بينى وبينك: فمَنك الدعاء وعلى الإجابة، وأما التى بينك وبين عبادى: فارض لهم ما^(٨) ترضى لنفسك»^(٩).

وقال^(١٠) الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن زر، عن يسيع الكندى، عن النعمان بن بشير، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

(١) فى ت: «روى ابن أبي حاتم عن». (٢) فى ت، أ: «وليس أحد كذلك». (٣) فى س: «يعطهن».

(٤) فى ت، أ: «وجعلتكم». (٥) فى س: «ادعوني». (٦) فى ت: «وروى».

(٧) فى ت: «العباد». (٨) فى ت، أ: «بما».

(٩) مسند أبى يعلى (١٤٣/٥) ورواه البزار فى مسنده برقم (١٩) «كشف الأستار» من طريق الحجاج بن المنهال عن صالح المري به، وقال: «تفرد به صالح المري». قال الهيثمى فى المجمع (٥١/١): «فى إسناده صالح المري وهو ضعيف، وتدليس الحسن أيضا» والمحمل هنا على صالح بن بشير المري فهو ضعيف جدا وقد تفرد به.

(١٠) فى ت: «وروى».

وهكذا رواه أصحاب السنن: الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وابن أبى حاتم، وابن جرير، كلهم من حديث الأعمش، به^(١). وقال الترمذى: حسن صحيح.

ورواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن جرير أيضا، من حديث شعبة، عن منصور، عن ذر، به^(٢).

وأخرجه الترمذى أيضا من حديث الثورى، عن منصور والأعمش، كلاهما عن ذر، به^(٣).

ورواه ابن حبان والحاكم فى صحيحيهما، وقال الحاكم: صحيح الإسناد^(٤).

وقال^(٥) الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنى أبو مليح المدني - شيخ من أهل المدينة - سمعه عن أبى صالح، وقال مرة: سمعت أبا صالح يحدث عن أبى هريرة [رضى الله عنه]^(٦) قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يدع الله، عز وجل، غضب الله عليه».

تفرد به أحمد^(٧)، وهذا إسناد لا بأس به.

وقال^(٨) الإمام أحمد أيضا: حدثنا مروان الفزارى، حدثنا صبيح أبو المليح: سمعت أبا صالح يحدث عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يسأله يغضب الله عليه»^(٩).

قال ابن معين: أبو المليح هذا اسمه: صبيح. كذا قيده بالضم عبد الغنى بن سعيد. وأما أبو صالح هذا فهو^(١٠) الخوزى^(١١)، سكن شعب الخوز^(١٢). قاله البزار فى مسنده. وكذا وقع فى روايته أبو المليح الفارسى، عن أبى صالح الخوزى، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يسأل الله يغضب الله عليه»^(١٣).

وقال^(١٤) الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمى: حدثنا همام، حدثنا إبراهيم، عن الحسن، حدثنا نائل بن نجيح، حدثنى عائذ بن حبيب، عن محمد بن سعيد قال: لما مات محمد ابن مسلمة الأنصارى، وجدنا فى ذؤابة^(١٥) سيفه كتابا: «بسم الله الرحمن الرحيم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لربكم فى بقية دهركم نفحات»^(١٦)، فتعرضوا له، لعل دعوة أن توافق رحمة فيسعد^(١٧) بها صاحبها سعادة لا يخسر بعدها أبدا»^(١٨).

(١) المسند (٢٧١/٤) وسنن الترمذى برقم (٣٣٧٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٦٤) وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٢٨) وتفسير الطبرى (٥١/٢٤).

(٢) سنن أبى داود برقم (١٤٧٩) وسنن الترمذى برقم (٢٩٦٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٤٦) وتفسير الطبرى (٥١/٢٤).

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٢٤٧).

(٤) صحيح ابن حبان برقم (٢٣٩٦) «موارد» والمستدرک (٤٩١/١).

(٥) فى ت: «وروى».

(٦) المسند (٤٧٧/٢) وتفرد به أحمد بهذا اللفظ، وإلا فقد رواه ابن ماجه فى السنن برقم (٣٨٢٧) من طريق وكيع بهذا الإسناد بلفظ: «من لم يسأل الله يغضب الله عليه».

(٨) فى ت: «وروى».

(٩) المسند (٤٤٢/٢).

(١٠) فى ت، س: «وهو».

(١١) فى أ: «الجزرى».

(١٢) فى أ: «الجزر».

(١٣) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٣٧٣) وقال: «أبو المليح اسمه صبيح، وسمعت محمدا يقوله، وقال: يقال له: فارسى».

(١٤) فى ت: «وروى».

(١٥) فى ت: «رواية».

(١٦) فى ت: «فى بقية أيام نفحات»، وفى س، أ: «فى بقية أيام دهركم نفحات».

(١٧) فى ت: «يسعد».

(١٨) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٣٣/١٩) من وجه آخر.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أى: عن دعائى وتوحيدي، ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أى: صاغرين حقيرين، كما قال^(١) الإمام أحمد:

حدثنا يحيى بن سعيد، عن ابن عجلان، حدثنى عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبى ﷺ قال: «يُحْشَرُ المتكبرون يوم القيامة أمثال الذرّ، فى صور الناس، يعلوهم كل شىء من الصغار، حتى يدخلوا^(٢) سجننا فى جهنم - يقال له: بولس - تعلوهم نار الأنيار، يسقون من طينة الخبال: عصارة أهل النار»^(٣).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا أبو بكر بن محمد بن يزيد بن خنيس: سمعت أبى يحدث عن وهيب^(٤) بن الورد: حدثنى رجل قال: كنت أسير ذات يوم فى أرض الروم، فسمعت هاتفا من فوق رأس جبل وهو يقول: يارب، عجبت لمن عرفك كيف يرجو أحدا غيرك! يارب، عجبت لمن عرفك كيف يطلب حوائجه إلى أحد غيرك - قال: ثم ذهبت، ثم جاءت الطامة الكبرى - قال: ثم عاد الثانية فقال: يارب، عجبت لمن عرفك كيف يتعرض لشيء من سخطك يُرضى^(٥) غيرك. قال وهيب: وهذه الطامة الكبرى. قال: فناديته: أجنى أنت أم إنسى؟ قال: بل إنسى، اشغل نفسك بما يعينك عما لا يعينك.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٦١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنِي تُؤَفَّكُونَ (٦٢) كَذَلِكَ يُؤَفِّكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَبَارِكْ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥) .

يقول تعالى ممتنا على خلقه، بما جعل لهم من الليل الذى يسكنون فيه ويستريحون من حركات ترددهم فى المعاش بالنهار، وجعل النهار مبصرا، أى: مضيئا، ليتصرفوا فيه بالأسفار، وقطع الأقطار، والتمكن من الصناعات، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أى: لا يقومون بشكر نعم^(٧) الله عليهم.

ثم قال: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى: الذى فعل هذه الأشياء هو الله الواحد الأحد، خالق الأشياء، الذى لا إله غيره، ولا رب سواه، ﴿فَآَنِي تُؤَفَّكُونَ﴾ أى: فكيف تعبدون غيره من الأصنام، التى لا تخلق شيئا، بل هى مخلوقة منحوتة.

(٢) فى ت: «يدخلون».

(١) فى ت: «روى».

(٣) المسند (١٧٩/٢).

(٥) فى ت، س: «برضى».

(٤) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده عن وهيب».

(٧) فى أ: «ما نعم».

(٦) فى ت: «ولكن أكثرهم» وهو خطأ.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أى: كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله، كذلك أفاك الذين من قبلهم، فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الجهل والهوى، وجحدوا حجج الله وآياته.

وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أى: جعلها مستقرا لكم، بساطا مهادا تعيشون عليها، وتتصرفون فيها، وتمشون فى مناكبها، وأرسلها بالجبال لثلا تميد بكم، ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أى: سقفا للعالم محفوظا، ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ أى: فخلقكم فى أحسن الأشكال، ومنحكم أكمل الصور فى أحسن تقويم، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أى: من المأكّل والمشارب فى الدنيا. فذكر أنه خلق الدار، والسكان، والأرزاق - فهو الخالق الرازق، كما قال فى سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا^(١) رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٠، ٢١] وقال هاهنا بعد خلق هذه الأشياء: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: أى: فتعالى وتقدس وتزهر رب العالمين كلهم.

ثم قال: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى: هو الحى أزلاً وأبداً، لم يزل ولا يزال، وهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى: لا نظير له ولا عديل له، ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أى: موحدين له مقرين بأنه لا إله إلا هو ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قال ابن جرير: كان جماعة من أهل العلم يأمرّون من قال: «لا إله إلا الله» أن يتبعها بالحمد لله رب العالمين، عملا بهذه الآية.

ثم روى عن محمد بن على بن الحسن بن شقيق، عن أبيه، عن الحسين بن واقد، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس^(٢) قال: من قال: «لا إله إلا الله» فليقل على أثرها: «الحمد لله رب العالمين» فذلك^(٣) قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقال أبو أسامة وغيره، عن إسماعيل بن أبى خالد، عن سعيد بن جبيرة قال: إذا قرأت: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ١٤]، فقل: «لا إله إلا الله» وقل على أثرها: «الحمد لله رب العالمين» ثم قرأ هذه الآية: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦٦) هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون (٦٧) هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كُنْ فَيَكُونُ (٦٨) ﴿

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله ينهى أن يُعبد أحد سواه من الأصنام والانداد

(١) فى س: «اتقوا» وهو خطأ.

(٢) فى ت: «ثم روى بإسناده عن ابن عباس».

(٣) فى ت، س: «وذلك».

والأوثان. وقد بين تعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه، في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفْثَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ أى: هو الذى يخلقكم فى هذه الأطوار كلها، وحده لا شريك له، وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك كله، ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ﴾ أى: من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم، بل تسقطه أمه سقطاً، ومنهم من يتوفى صغيراً، وشاباً، وكهلاً قبل الشيخوخة، كقوله ﴿لَنَبْنِيَنَّ لَكُمْ وَنَقْرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥] وقال هاهنا: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، قال ابن جريج، تذكرون البعث.

ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أى: هو المتفرد بذلك، لا يقدر على ذلك أحد سواه، ﴿فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أى: لا يخالف ولا يمانع، بل ما شاء كان [لا محالة]^(١).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرِفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦)﴾.

يقول تعالى: ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله، ويجادلون فى الحق والباطل، كيف تُصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال، ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ أى: من الهدى والبيان، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾: هذا تهديد شديد، ووعد أكيد، من الرب، جل جلاله، لهؤلاء، كما قال تعالى: ﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المسلات: ١٥].

وقوله: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ﴾ أى: متصلة بالأغلال، بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم، تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم؛ ولهذا قال: ﴿يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾، كما قال: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ. يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤]. وقال بعد ذكره أكلهم الزقوم وشربهم الحميم: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ مَرْجِعُهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٨] وقال: ﴿وَأَصْحَابُ الشَّامَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّامَالِ فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ. وَظِلٌّ مِنْ يَحْمُومٍ. لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٍ﴾ إلى أن قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ. لَا تَكُلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ. فَمَالَتُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ. فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ. فَشَارِبُونَ شَرْبَ الْهَمِيمِ هَذَا نَزَّلْنَاهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٥٦]. وقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتِ الزُّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ. كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ. كَغَلْيِ الْحَمِيمِ. خَذُوهُ فاعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ. ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ. ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ. إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٥٠].

أى: يقال لهم ذلك على وجه التقرير والتوبيخ، والتحقير والتصغير، والتهكم والاستهزاء بهم.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا منصور بن عمار، حدثنا بشير^(١) بن طلحة الخزامي، عن خالد بن دُرَيْك، عن يعلى بن مُنِيَّة - رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ - قال: «ينشئ الله سحابة لأهل النار سوداء مظلمة، ويقال: يا أهل النار، أى شيء تطلبون؟ فيذكرون بها سحاب الدنيا فيقولون: نسأل برد الشراب، فتمطرهم أغلالاً تزيد فى أغلالهم، وسلاسل تزيد فى سلاسلهم، وجمرات يُلْهَبُ النار عليهم». هذا حديث غريب^(٢).

وقوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ. مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أى: قيل لهم: أين الأصنام التى كنتم تعبدونها من دون الله؟ هل ينصرونكم اليوم؟ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أى: ذهبوا فلم ينفَعونا، ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ أى: جحدوا عبادتهم، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَّهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]؛ ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أى: تقول لهم الملائكة: هذا الذى أنتم فيه جزاء على فرحكم فى الدنيا بغير الحق، ومرحكم وأشركم وبطركم، ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أى: فبئس المَثْوَى الذى فيه الهوان والعذاب الشديد، لمن استكبر عن آيات الله، واتباع دلائله وحججه.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرَبِّيكَ بِعُضِّ الْأُذِيِّ نَعْدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّا يَرْجِعُونَ﴾ (٧٧) ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون (٧٨).

يقول تعالى أمراً رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه؛ فإن الله سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك، وجعل العقوبة لك ولمن اتبعك فى الدنيا والآخرة، ﴿فَإِمَّا نُرَبِّيكَ بِعُضِّ الْأُذِيِّ نَعْدُهُمْ﴾ أى: فى الدنيا. وكذلك وقع، فإن الله أقر أعينهم من كبرائهم وعظماهم، أبعدوا فى يوم بدر. ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب فى أيام حياته ﷺ.

وقوله: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّا يَرْجِعُونَ﴾ أى: فنذيقهم العذاب الشديد فى الآخرة.

ثم قال مسلياً له: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ كما قال فى «سورة النساء» سواء، أى: منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ثم كانت للرسول العاقبة والنصرة، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾، وهم أكثر من ذكر

(١) فى أ: «بشر».

(٢) ورواه الطبرانى فى الأوسط برقم (٤٨٤٦) وابن عدى فى الكامل (٣٩٤/٦) من طريق أحمد بن منيع عن منصور به، وقال الطبرانى: «لا يروى عن يعلى إلا بهذا الإسناد، تفرد به منصور». وقال الهيثمى فى المجمع (٣٩٠/١٠): «فيه من فيه ضعف قليل، وفيه من لم أعرفه».

بأضعاف أضعاف، كما تقدم التنبيه على ذلك في سورة النساء^(١)، والله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى: ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعادات، إلا أن يأذن الله^(٢) له فى ذلك، فيدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾: وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾، فينجو المؤمنون، ويهلك الكافرون؛ ولهذا قال: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (٨١)﴾.

يقول تعالى ممثنا على عباده، بما خلق لهم من الأنعام، وهى الإبل والبقر والغنم، ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢]، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب، ويحمل عليها الأثقال فى الأسفار والرحال إلى البلاد النائية، والأقطار الشاسعة. والبقر تؤكل، ويشرب لبنها، وتحث عليها الأرض. والغنم تؤكل، ويشرب لبنها. والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها، فيتخذ منه الأثاث والثياب والامتعة، كما فصل وبين فى أماكن تقدم ذكرها فى «سورة الأنعام»^(٣)، و«سورة النحل»^(٤)، وغير ذلك؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أى: حججه وبراهينه فى الآفاق وفى أنفسكم، ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾؟ أى: لا تقدرون على إنكار شيء من آياته، إلا أن تعاندوا وتكابروا.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥)﴾.

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل فى قديم الدهر، وماذا حل بهم من العذاب الشديد، مع

(١) راجع تفسير الآية: ١٦٤ من سورة النساء.

(٢) فى أ: «إلا بإذن الله».

(٣) راجع تفسير الآيات: ١٤١ - ١٤٤ من سورة الأنعام.

(٤) راجع تفسير الآيات: ٥ - ٨ من سورة النحل.

شدة قواهم، وما أثروه في الأرض، وجمعه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئا، ولا رد عنهم ذرة من بأس الله؛ وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل^(١) بالبينات، والحجج القاطعات، والبراهين الدامغات، لم يلتفتوا إليهم، ولا أقبلوا عليهم، واستغنوا بما عندهم من العلم في رعمهم عما جاءتهم به الرسل.

قال مجاهد: قالوا: نحن أعلم منهم، لن نبعث ولن نعذب.

وقال السدي: فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم، فأتاهم من بأس الله ما لا قبل لهم به.

﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أى: أحاط بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أى: يكذبون ويستبعدون وقوعه.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أى: عاينوا وقوع العذاب بهم، ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ أى: وحدوا الله وكفروا بالطاغوت، ولكن حيث لا تُقال العثرات، ولا تنفع المَعذرة. وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، قال الله [تبارك و^(٢) تعالى: ﴿آلَانَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾؟ [يونس: ٩١] أى: فلم يقبل الله منه؛ لأنه قد استجاب لنبيه موسى دعاءه عليه حين قال: ﴿وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]. و[هكذا]^(٣) هاهنا قال: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ أى: هذا حكم الله في جميع^(٤) من تاب عند معاينة العذاب: أنه لا يقبل؛ ولهذا جاء في الحديث: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»^(٥) أى: فإذا غرغر وبلغت الروح الحنجرة، وعاین الملك، فلا توبة حيثئذ؛ ولهذا قال: ﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

آخر تفسير «سورة غافر»^(٦)، والله الحمد والمنة

(٣) زيادة من س، أ.

(٢) زيادة من س، أ.

(١) فى أ: «رسلهم».

(٤) فى أ: «فى جميع عباده».

(٥) رواه الترمذى فى السنن برقم (٣٥٣٧) وابن ماجه فى السنن برقم (٤٢٥٣) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

(٦) فى س: «المؤمن».

تفسير سورة فصلت^(١)

وهي مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حَم ١﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ .

يقول تعالى: ﴿حَم . تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يعني: القرآن منزل من الرحمن الرحيم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤] .

وقوله: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أى: يُبَيَّن معانيه وأحكامه^(٢)، ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أى: في حال كونه لفظاً عربياً، بينا واضحا، فمعانيه مفصلة، وألفاظه واضحة غير مشككة، كقوله: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمْتَ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] أى: هو معجز من حيث لفظه ومعناه، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] .

وقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أى: إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماء الراسخون، ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أى: تارة يبشر المؤمنين، وتارة ينذر الكافرين، ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أى: أكثر قريش، فهم لا يفهمون منه شيئا مع بيانه ووضوحه، ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أى: فى غلف مغطاة ﴿مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أى: صمم عما جئتنا به، ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فلا يصل إلينا شيء مما تقول، ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ أى: اعمل أنت على طريقتك، ونحن على طريقتنا لا نتابعك .

قال الإمام العَلَم عبد بن حميد فى مسنده: حدثنى ابن أبى شيبه، حدثنا على بن مُسهر، عن الأجلح، عن الذَّيَّال بن حَرَملة الأسدى، عن جابر بن عبد الله، رضى الله عنه، قال: اجتمعت قريش يوما فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذى قد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلمه ولننظر ماذا يرد عليه؟ فقالوا: ما نعلم أحدا غير عتبة ابن ربيعة . فقالوا: أنت يا أبا الوليد . فاتاه عتبة فقال: يا محمد، أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التى عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع

(١) فى س: «تفسير حم السجدة» .

(٢) فى أ: «آياته» .

قولك، إنا والله ما رأينا سَخْلَةً قط أشأم على قومك^(١) منك؛ فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً! والله ما ننظر^(٢) إلا مثل صيحة الجبلى أن يقوم بعضنا إلى^(٣) بعض بالسيوف، حتى نتفانى! أيها الرجل، إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً^(٤)، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش [شتت]^(٥) فلنزوجك عشرا. فقال رسول الله ﷺ: «فَرَعْتُ؟» قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. حَم. تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ حتى بلغ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودٍ﴾. فقال عتبة: حسبك! حسبك! ما عندك غير هذا؟ قال: «لا». فرجع إلى قريش، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئا أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته. قالوا: فهل أجابك؟ [قال: نعم، قالوا: فما قال؟]^(٦) قال: لا، والذي نصبها نبياً ما فهمت شيئا مما قال، غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود. قالوا: ويلك! يكلمك الرجل بالعربية ما تدري ما قال؟! قال: لا، والله ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة.

وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى في مسنده، عن أبي بكر بن أبي شيبة بإسناده، مثله سواء^(٧).

وقد ساقه البغوى في تفسيره بسنده عن محمد بن فضيل، عن الأجلح - وهو ابن عبد الله الكندى [الكوفى]^(٨) - وقد ضَعَّفَ بعض الشيء عن الذَّيَّالِ بن حرملة، عن جابر، فذكر الحديث إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودٍ﴾ فأمسك عتبة على فيه، وناشده بالرحم، ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم. فقال أبو جهل: يا معشر قريش، والله ما نرى عتبة إلا قد صَبَّأَ إلى محمد، وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجة [قد]^(٩) أصابته، فانطلقوا بنا إليه. فانطلقوا إليه فقال أبو جهل: يا عتبة، ما حبسك عنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك طعامه، فإن كانت لك^(١٠) حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد. فغضب عتبة، وأقسم ألا يكلم محمداً أبداً، وقال: والله، لقد علمتم أنى من أكثر قريش مالا، ولكنى أتيت وقصصت عليه [القصة]^(١١) فأجابنى بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، وقرأ السورة إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودٍ﴾، فأمسكتُ بفيه، وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئا لم يكذب، فخشيت أن ينزل بكم العذاب^(١٢).

وهذا السياق أشبه من سياق البزار وأبى يعلى، والله أعلم.

وقد أورد هذه القصة الإمام محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب السيرة على خلاف هذا النمط،

فقال:

- (١) فى س: «جماعته». (٢) فى س: «ننتظر». (٣) فى أ: «على». (٤) فى س، أ: «رجلا واحدا». (٥) زيادة من س، أ. (٦) زيادة من أ. (٧) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١١٢١) ومسند أبى يعلى (٣/٣٤٩) وفى إسناده الأجلح الكندى ضعفه النسائى وغيره. (٨) زيادة من س، أ. (٩) زيادة من أ. (١٠) فى س، أ: «بك». (١١) زيادة من س، أ. (١٢) معالم التنزيل للبغوى (٧/١٦٧).

حدثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي قال: حَدَّثْتُ أَنْ عَتَبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ - وَكَانَ سَيِّدًا - قَالَ يَوْمًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي نَادَى قَرِيشٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحْدَهُ: يَا مَعْشَرَ قَرِيشٍ أَلَا أَقُومُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَأُكَلِّمُهُ وَأُعْرِضُ عَلَيْهِ أُمُورًا لَعَلَّهُ يَقْبَلُ بَعْضُهَا، فَنُعْطِيهِ أَيُّهَا شَاءَ وَيَكْفِ عَنَّا؟ وَذَلِكَ حِينَ أَسْلَمَ حَمْزَةُ، وَرَأَوْا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَزِيدُونَ وَيَكْثُرُونَ، فَقَالُوا: بَلَى يَا أَبَا الْوَلِيدِ، فَقُمْ إِلَيْهِ فَكَلِّمَهُ^(١). فَقَامَ إِلَيْهِ عَتَبَةُ حَتَّى جَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّكَ مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ مِنَ السُّطَّةِ فِي الْعَشِيرَةِ، وَالْمَكَانِ فِي النَّسَبِ، وَإِنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ قَوْمَكَ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، فَفَرَقْتَ بِهِ جَمَاعَتَهُمْ، وَسَفَهْتَ بِهِ أَحْلَامَهُمْ، وَعَبْتَ بِهِ آلِهَتَهُمْ وَدِينَهُمْ، وَكَفَرْتَ بِهِ مِنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِمْ، فَاسْمَعْ مِنِّي أَعْرِضْ عَلَيْكَ أُمُورًا نَنْظُرُ فِيهَا لَعَلَّكَ تَقْبَلُ مِنَّا بَعْضُهَا. قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ، أَسْمَعْ». قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنْ كُنْتُ إِنَّمَا تَرِيدُ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنْ^(٢) هَذَا الْأَمْرِ مَا لَا، جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ مِنْ أَكْثَرِنَا أَمْوَالًا^(٣). وَإِنْ كُنْتُ تَرِيدُ بِهِ شَرَفًا سَوْدَنَّاكَ عَلَيْنَا، حَتَّى لَا نَقْطَعَ أَمْرًا دُونَكَ. وَإِنْ كُنْتُ تَرِيدُ بِهِ مَلِكًا مَلِكُنَاكَ عَلَيْنَا. وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ رَئِيًّا تَرَاهُ لَا تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ عَنْ نَفْسِكَ، طَلَبْنَا لَكَ الطَّبَّ، وَبَدَلْنَا فِيهِ أَمْوَالِنَا حَتَّى نَبْرُثَكَ مِنْهُ، فَإِنَّهُ رَجَا غَلْبَ التَّابِعِ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُدَاوِيَ مِنْهُ - أَوْ كَمَا قَالَ لَهُ - حَتَّى إِذَا فَرَّغَ عَتَبَةُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَمِعُ مِنْهُ قَالَ: «أَفَرِغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟». قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَاسْتَمِعْ مِنِّي» قَالَ: أَفْعَلْ. قَالَ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. حَمْدٌ. تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾. ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهَا يَقْرَؤُهَا عَلَيْهِ. فَلَمَّا سَمِعَ عَتَبَةُ أَنْصَتَ لَهَا، وَأَلْقَى يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مَعْتَمِدًا عَلَيْهِمَا يَسْمَعُ مِنْهُ، ثُمَّ انْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّجْدَةِ مِنْهَا، فَسَجَدَ، ثُمَّ قَالَ: «قَدْ سَمِعْتُ يَا أَبَا الْوَلِيدِ مَا سَمِعْتُ، فَأَنْتَ وَذَلِكَ^(٤)»، فَقَامَ عَتَبَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَقْسَمُ - يَحْلِفُ^(٥) بِاللَّهِ - لَقَدْ جَاءَكُمْ أَبُو الْوَلِيدِ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ. فَلَمَّا جَلَسَ إِلَيْهِمْ قَالُوا: مَا وَرَاءَكَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟ قَالَ: وَرَأَيْتُ أَنِّي قَدْ سَمِعْتُ قَوْلًا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَاللَّهِ مَا هُوَ بِالسَّحَرِ وَلَا بِالشَّعْرِ وَلَا بِالْكَهَانَةِ. يَا مَعْشَرَ قَرِيشٍ، أَطِيعُونِي وَاجْعَلُونِي لِي، خَلُودًا بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ فَاعْتَزِلُونَهُ، فَوَاللَّهِ لَيَكُونَنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي سَمِعْتُ نَبَأًا، فَإِنْ تَصَبَّه الْعَرَبُ فَقَدْ كَفَيْتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ، وَإِنْ يَظْهَرُ عَلَى الْعَرَبِ فَمُلْكُهُ مَلِكُكُمْ، وَعِزُّهُ عِزُّكُمْ، وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ. قَالُوا: سَحَرَكُ وَاللَّهِ يَا أَبَا الْوَلِيدِ بِلِسَانِهِ! قَالَ: هَذَا رَأْيِي فِيهِ، فَاصْنَعُوا مَا بَدَا لَكُمْ^(٦).

وهذا السياق أشبه من الذي قبله، والله أعلم.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ
وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾.

(١) في أ: «وكلمه».

(٢) في أ: «في».

(٣) في س: «مالا».

(٤) في أ: «وحالكم».

(٥) في س: «نحلف».

(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٩٣).

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾، لا كما تعبدونه^(١) من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين، إنما الله إله واحد، ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أى: أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل، ﴿وَاسْتَغْفِرُوا﴾ أى: لسالف الذنوب، ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أى: دمار لهم وهلاك عليهم، ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى: الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله. وكذا قال عكرمة.

وهذا كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وكقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى. وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، وقوله: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّى﴾ [النازعات: ١٨]. والمراد بالزكاة هاهنا: طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك. وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام، وتكون سببا لزيادته وبركته وكثرة نفعه، وتوفيقا إلى استعماله فى الطاعات.

وقال السدى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ. الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أى: الذين لا يدينون بالزكاة.

وقال معاوية بن قرة: ليس هم من أهل الزكاة.

وقال قتادة: يمنعون زكاة أموالهم.

وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير. وفيه نظر؛ لأن إيجاب الزكاة إنما كان فى السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة، على ما ذكره غير واحد، وهذه الآية مكية، اللهم إلا أن يقال: لا يبعد أن يكون أصل الزكاة الصدقة كان مأمورا به فى ابتداء البعثة، كقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بين أمرها بالمدينة، ويكون هذا جمعا بين القولين، كما أن أصل الصلاة كان واجبا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فى ابتداء البعثة، فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف، فرض الله على رسوله ﷺ^(٢) الصلوات الخمس، وفصل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك، شيئا فشيئا، والله أعلم.

ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قال مجاهد وغيره: لا مقطوع ولا محبوب^(٣)، كقوله: ﴿مَا كَثِيرٌ فِيهِ أَبْدًا﴾ [الكهف: ٣]، وكقوله تعالى: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٌ﴾ [هود: ١٠٨].

وقال السدى: غير ممنون عليهم. وقد رد عليه بعض الأئمة هذا التفسير، فإن المنة لله على أهل الجنة؛ قال الله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهِ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال أهل الجنة: ﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السُّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، وقال رسول الله ﷺ: «إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل».

(٣) فى أ: «غير مقطوع ولا محسوب».

(٢) زيادة من س، أ.

(١) فى س: «يعبدونه».

﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) .

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا معه غيره، وهو الخالق لكل شيء، القاهر لكل شيء، المقدر لكل شيء، فقال: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا﴾ أى: نظراء وأمثالا تعبدونها^(١) معه، ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم. وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ففصل هاهنا ما يختص بالأرض مما يختص بالسما، فذكر أنه خلق الأرض أولا لأنها كالأساس، والأصل أن يُبْدَأَ بالأساس، ثم بعده بالسقف، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ الآية [البقرة: ٢٩].

فأما قوله: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا . رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا . وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا . وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا . أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا . وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا . مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٣] ففي هذه الآية أن دَحَى الأرض كان بعد خلق السماء^(٢)، فالدَحَى هو مفسر بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾، وكان هذا بعد خلق السماء، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص، وبهذا أجاب ابن عباس فيما ذكره البخارى عند تفسير هذه الآية من صحيحه، فإنه قال:

وقال المنهال، عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف على، قال: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧]، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]؛ فقد كنتموا في هذه الآية؟ وقال: ﴿أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾^(٣)، إلى قوله: ﴿دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٠]، فذكر خلق السماء قبل [خلق]^(٤) الأرض ثم قال: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿طَائِعِينَ﴾، فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء؟ وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦]، ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، فكانه كان ثم مضى.

قال - يعنى ابن عباس -: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ في النفخة الأولى، ثم ينفخ في الصور، ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، فلا أنساب بينهم عند

(١) فى س: «يعبدونها».

(٢) فى أ: «السماوات».

(٣) فى س: «والسما».

(٤) زيادة من س.

ذلك ولا يتساءلون، ثم فى النفخة الأخرى ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾.

وأما قوله: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾، فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، فقال المشركون: تعالوا نقول: «لم نكن مشركين»، فيختم على أفواههم، فتتطق أيديهم، فعند ذلك يعرف^(١) أن الله لا يكتُم حديثًا، وعنده ﴿يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [الحجر: ٢].

وخلق الأرض فى يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء، فسواهن فى يومين آخرين، ثم دَحَى الأرض، ودَحِيَّهَا: أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجماد والآكام وما بينهما فى يومين آخرين، فذلك قوله: ﴿دَحَاهَا﴾، وقوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، فَخَلَقَتِ الْأَرْضُ وما فيها من شئ فى أربعة أيام، وخلقت السموات فى يومين.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، سَمَى نفسه بذلك، وذلك قوله، أى: لم يزل كذلك؛ فإن الله لم يرد شيئًا إلا أصاب به الذى أراد، فلا يختلفن عليك القرآن، فإن كلا من عند الله عز وجل. قال البخارى: حدثني يوسف بن عدى، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن زيد بن أبى أنيسة^(٢)، عن المنهال - هو ابن عمرو - بالحديث^(٣).

فقوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ يعنى: يوم الأحد ويوم الإثنين ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أى: جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس، ﴿وَوَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾، وهو: ما يحتاج^(٤) أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التى تزرع وتغرس، يعنى: يوم الثلاثاء والأربعاء، فهما مع اليومين السابقين أربعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءٌ لِلْسَّائِلِينَ﴾ أى: لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه.

وقال مجاهد وعكرمة فى قوله: ﴿وَوَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾: جعل فى كل أرض ما لا يصلح فى غيرها، ومنه: العصب باليمن، والسابرى بسابور، والطيايسة بالرّى.

وقال ابن عباس، وقتادة، والسدى فى قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ لِلْسَّائِلِينَ﴾ أى: لمن أراد السؤال عن ذلك.

وقال ابن زيد: معناه ﴿وَوَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءٌ لِلْسَّائِلِينَ﴾ أى: على وفق مراد من له حاجة إلى رزق أو حاجة، فإن الله قدر له ما هو محتاج إليه.

وهذا القول يشبه ما ذكره فى قوله تعالى: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والله أعلم.

وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾، وهو: بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض،

(١) فى أ: «عرفوا».

(٢) فى أ: «شبية».

(٣) صحيح البخارى (٥٥٦/٨) «فتح».

(٤) فى س: «ما محتاج».

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أى: استجيبا لأمرى، وانفعلا لفعلى، طائعتين أو مكرهتين.

قال الثورى، عن ابن جريج، عن سليمان بن موسى، عن مجاهد، عن ابن عباس فى قوله [تعالى] (١): ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ قال: قال الله تعالى للسموات: أطلعى شمسى وقمرى ونجومى. وقال للأرض: شققى أنهارك، وأخرجى ثمارك. فقالتا: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

واختاره ابن جرير - رحمه الله.

﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أى: بل نستجيب لك مطيعين بما فينا، مما تريد خلقه من الملائكة والإنس والجن جميعا مطيعين (٢) لك. حكاه ابن جرير عن بعض أهل العربية، قال: وقيل: تنزيلا لهن معاملة من يعقل بكلامهما.

وقيل (٣): إن المتكلم من الأرض بذلك هو مكان الكعبة، ومن السماء ما يسامته منها، والله أعلم.

وقال الحسن البصرى: لو أبيا عليه أمره لعذبهما عذابا يجدان ألمه. رواه ابن أبى حاتم.

﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أى: ففرغ من تسويتهن سبع سموات فى يومين، أى: آخرين، وهما يوم الخميس ويوم الجمعة.

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أى: ورتب مقرا فى كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة، وما فيها من الأشياء التى لا يعلمها إلا هو، ﴿وَزَيْنًا لِّلْأَرْضِ بِمَصَابِيحَ﴾، وهن الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض، ﴿وَحِفْظًا﴾ أى: حرسا من الشياطين أن تستمع إلى الملائكة الأعلى.

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أى: العزيز الذى قد عز كل شىء فغلبه وقهره، العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم.

قال ابن جرير: حدثنا هناد بن السرى، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبى سعيد (٤) البقال، عن عكرمة، عن ابن عباس - قال هناد: قرأت سائر الحديث - أن اليهود أتت النبی ﷺ فسألته عن خلق السموات والأرض، فقال: «خلق الله الأرض يوم الأحد ويوم الإثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من منافع، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب، فهذه أربعة: ﴿قُلْ أَنتَكُم لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. وجعل فيها رؤاسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين»: لمن سأل، قال: «وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقيت منه، فخلق فى أول ساعة من هذه الثلاثة الآجال، حين يموت من مات، وفى الثانية ألقى الآفة على كل شىء مما ينتفع به الناس، وفى الثالثة آدم، وأسكنه الجنة، وأمر إبليس بالسجود له، وأخرجه منها فى آخر ساعة». ثم قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد؟ قال: «ثم استوى على العرش». قالوا: قد أصبت لو أتممت! قالوا:

(٢) فى س: «مطيعون».

(٤) فى س: «سعد».

(١) زيادة من س.

(٣) فى س، أ: «ويقال».

ثم استراح . فغضب النبي ﷺ غضبا شديداً، فنزل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ . فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق: ٣٨] ^(١).

هذا الحديث فيه غرابة . فأما حديث ابن جريج، عن إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع، عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل»، فقد رواه مسلم، والنسائي في كتابيهما، عن حديث ابن جريج، به ^(٢). وهو من غرائب الصحيح، وقد علَّله البخاري في التاريخ فقال: رواه بعضهم عن أبي هريرة [رضى الله عنه] ^(٣)، عن كعب الأحبار، وهو الأصح.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيقَهُمْ عَذَابَ الْخَزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨)﴾ .

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق: إن أعرضتم عما جئكم به من عند الله، فإنى أنذركم حلول نقمة الله بكم، كما حلت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين ﴿صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أى: ومن شاكلهما ^(٤) ممن فعل كفعلهما، ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ ، كقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّدْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ [الأحقاف: ٢١] أى: فى القرى المجاورة لبلادهم، بعث الله إليهم الرسل

(١) تفسير الطبرى (٦١/٢٤)، ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (٨٧٨) والحاكم فى المستدرک (٥٤٣/٢) من طريق هناد به، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد» وتعبه الذهبي فقال: «أبو سعيد البقال: قال ابن معين: لا يكتب حديثه».

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٩)، والنسائي فى السنن الكبرى برقم (١١٠١٠).

(٣) زيادة من ت.

(٤) فى أ: «شاكلهم».

يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له، ومبشرين ومنذرين، ورأوا ما أحل الله بأعدائه من النقم، وما ألبس^(١) أوليائه من النعم، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا، بل كذبوا وجحدوا، وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أى: لو أرسل الله رسلاً^(٢) لكانوا ملائكة من عنده، ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أى: أيها البشر ﴿كَافِرُونَ﴾ أى: لا تتبعكم وأنتم بشر مثلنا. قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ [يَغِيرُ الْحَقَّ]^(٣)﴾ أى: بغوا وعتوا وعصوا، ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنْنا قُوَّةً﴾ أى: منوا بشدة تركيبيهم وقواهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون به من بأس الله! ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أى: أفما يتفكرون^(٤) فيمن يبارزون بالعداوة؟ فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها، وإن بطشه شديد، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، فبارزوا الجبار بالعداوة، وجحدوا بآياته وعصوا رسوله، فلهذا قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ قال بعضهم: وهى الشديدة الهبوب. وقيل: الباردة. وقيل: هى التى لها صوت.

والحق أنها متصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريحا شديدة قوية؛ لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم، وكانت باردة شديدة البرد جدا، كقوله تعالى: ﴿بَرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦] أى: باردة شديدة، وكانت ذات صوت مزعج، ومنه سمى النهر المشهور ببلاد المشرق «صرصرا»^(٥)، لقوة صوت جريه.

وقوله: ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحْسَاتٍ﴾ أى: متتابعات، ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]، كقوله: ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩] أى: ابتدئوا بهذا العذاب فى يوم نحس عليهم، واستمر بهم هذا النحس سبع ليال وثمانية أيام، حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾ [أى]^(٦): أشد خزيا لهم، ﴿وَهُمْ لَا يَنْصُرُونَ﴾ أى: فى الآخرة^(٧)، كما لم ينصروا فى الدنيا، وما كان لهم من الله من واق يقيهم العذاب ويدرأ عنهم النكال.

وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ قال ابن عباس، وأبو العالية، وسعيد بن جبير، وقتادة، والسدى، وابن زيد: بينا لهم^(٨).

وقال الثورى: دعوناهم.

﴿فَاسْتَجَبُوا أَعْمَى عَلَى الْهُدَى﴾ أى: بصرناهم، وبيننا لهم، ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح ﷺ^(٩)، فخالفوه وكذبوه، وعقروا ناقة الله التى جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم، ﴿فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ أى: بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلا وهوانا وعذابا ونكالا، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: من التكذيب والجحود.

(١) فى س: «ألبس الله».

(٢) فى ت: «رسولا».

(٣) زيادة من ت، أ.

(٤) فى ت، س: «أفما يتفكرون».

(٥) فى ت، س: «صرصر».

(٦) زيادة من أ.

(٧) فى ت: «الآخرة».

(٨) فى ت: «وسعيد بن جبير وغيرهم».

(٩) فى ت، س: «عليه السلام».

﴿وَنَجِّنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾^(١) أى: من بين أظهرهم، لم يسهم سوء، ولا نالهم من ذلك ضرر، بل نجاهم الله مع نبيهم صالح [عليه السلام]^(٢) بإيمانهم، وتقواهم لله، عز وجل.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدَتْمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تَرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿﴾ (٢٤).

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أى: اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار^(٣)، ﴿يُوزَعُونَ﴾ أى: تجمع الزبانية أولهم على آخرهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِثًا﴾ [مريم: ٨٦] أى: عطاشا.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ أى: وقفوا عليها، ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٤) أى: بأعمالهم مما قدموه وأخروه، لا يُكْتَمُ منه حرف.

﴿وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدَتْمْ عَلَيْنَا﴾؟ أى: لاموا أعضائهم وجلودهم حين شهدوا عليهم، فعند ذلك أجابتهم الأعضاء: ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى: فهو لا يخالف ولا يمانع، وإليه ترجعون.

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا علي بن قادم، حدثنا شريك، عن عبيد المكتب، عن الشعبي^(٥)، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم وتبسم^(٦)، فقال: «ألا تسألونى عن أى شىء ضحكت؟» قالوا: يا رسول الله، من أى شىء ضحكت؟ قال: «عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: أى ربى، أليس وعدتنى ألا تظلمنى؟ قال: بلى، فيقول: فإنى لا أقبل على شاهد إلا من نفسى. فيقول الله تبارك وتعالى: أو ليس كفى بى شهيدا، وبالملائكة الكرام الكاتبين؟! قال: فيردد هذا الكلام مرارا». قال: «فيختم على فيه، وتتكلم أركانه بما كان يعمل، فيقول: بُعداً لَكُنَّ وسُحُقا، عنكن كنت أجادل».

ثم رواه^(٧) هو وابن أبى حاتم، من حديث أبى عامر الأسدى، عن الثورى، عن عبيد المكتب، عن فضيل بن عمرو، عن الشعبي^(٨) ثم قال: «لأنعلم رواه عن أنس غير الشعبي». وقد أخرجه مسلم

(٣) فى ت، أ: «جهنم».

(٢) زيادة من ت، أ.

(١) زيادة من ت، أ.

(٦) فى أ: «أو تبسم».

(٥) فى ت: «وروى الحافظ أبو بكر البزار بإسناده».

(٤) فى ت: «يكسبون» وهو خطأ.

(٧) فى ت: «ورواه».

(٨) ورواه ابن أبى الدنيا فى التوبة برقم (١٨) من طريق مهران بن أبى عمر عن سفيان الثورى بنحوه.

والنسائي جميعاً عن أبي بكر بن أبي النضر، عن أبي النضر، عن عبيد الله بن عبد الرحمن الأشجعي، عن الثوري، به ^(١). ثم قال النسائي: «لا أعلم أحداً رواه عن الثوري غير الأشجعي». وليس كما قال كما رأيت، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا إسماعيل بن علية، عن يونس ابن عبيد، عن حميد بن هلال قال: قال أبو بردة: قال أبو موسى: ويدعى الكافر والمنافق للحساب، فيعرض عليه ربه - عز وجل - عمله، فيجحد ويقول: أي رب، وعزتك لقد كتب على هذا الملك ما لم أعمل! فيقول له الملك: أما عملت كذا، في يوم كذا، في مكان كذا؟ فيقول: لا وعزتك، أي رب ماعملت. [قال] ^(٢): فإذا فعل ذلك خُتِمَ على فيه - قال الأشعري: فإني لأحسب أول ما ينطق منه فحذه اليمنى.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زهير، حدثنا حسن، عن ابن لهيعة: قال دراج، عن أبي الهيثم ^(٣)، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة، عرّف الكافر بعمله، فجحد وخاصم، فيقال: هؤلاء جيرانك، يشهدون عليك؟ فيقول: كذبوا. فيقول: أهلك [و] ^(٤) عشيرتك؟ فيقول: كذبوا. فيقول: احلفوا. فيحلفون، ثم يصمتهم الله وتشهد عليهم ألسنتهم، ويدخلهم النار» ^(٥).

وقال ابن أبي حاتم: وحدثنا أبي، حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث: سمعت أبي: حدثنا علي بن زيد، عن مسلم بن صبيح أبي الضحى، عن ابن عباس: أنه قال لابن الأزرق: إن يوم القيامة يأتي على الناس منه حين، لا ينطقون ولا يعتذرون ولا يتكلمون حتى يؤذن لهم، ثم يؤذن لهم فيختصمون، فيجحد الجاحد بشركه بالله، فيحلفون له كما يحلفون لكم، فيبعث الله عليهم حين يجحدون شهداء من أنفسهم، جلودهم وأبصارهم وأيديهم وأرجلهم، ويختتم علي أفواههم، ثم يفتح لهم الأفواه فتخاصم الجوارح، فتقول: «أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ»، فتقر الألسنة بعد الجحود.

وقال ^(٦) ابن أبي حاتم: حدثنا عبدة بن سليمان، حدثنا ابن المبارك، حدثنا صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جبير الحضرمي، عن رافع أبي الحسن - وصف رجلاً جحد - قال: فيشير الله إلى لسانه، فيربو في فمه ^(٧) حتى يملأه، فلا يستطيع أن ينطق بكلمة، ثم يقول لأرأيه ^(٨) كلها: تكلموا واشهدوا عليه. فيشهد عليه سمعه وبصره وجلده، وفرجه ويده ورجلاه: صنعنا، عملنا، فعلنا.

وقد تقدم أحاديث كثيرة، وآثار عند قوله تعالى في سورة يس: «الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا

أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» [يس: ٦٥]، بما أغنى عن إعادته هاهنا.

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٦٩)، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٦٥٣).

(٢) زيادة من أ.

(٣) في ت: «وقال الحافظ أبو يعلى بإسناده».

(٤) زيادة من أ.

(٥) مسند أبي يعلى (٥٢٦٢)، ودراج عن أبي الهيثم، ضعيف.

(٨) في أ: «لأركانها».

(٧) في ت، س، أ: «فيه».

(٦) في ت: «وروي».

وقال ابن أبي حاتم - رحمه الله - : حدثنا أبي، حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا يحيى بن سليم الطائفي، عن ابن خثيم، عن أبي الزبير^(١)، عن جابر بن عبد الله قال: لما رجعت إلى النبي ﷺ مهاجرة البحر قال: «ألا تحدثون بأعاجيب^(٢) ما رأيتم بأرض الحبشة؟» فقال فتية منهم: بلى يا رسول الله، بينا^(٣) نحن جلوس إذ مرت علينا عجوز من عجائز رهايينهم، تحمل على رأسها قلة من ماء، فمرت بفتى منهم، فجعل إحدى يديه بين كتفيها، ثم دفعها فخرت على ركبتيها، فانكسرت قلتها. فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت: سوف تعلم يا غدر، إذا وضع الله الكرسي، وجمع الأولين والآخرين، وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم كيف أمرى وأمرك عنده غدا؟ قال: يقول رسول الله ﷺ: «صَدَقْتُ، [و]^(٤) صدقت، كيف يُقدس الله قوما لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم؟».

هذا حديث غريب من هذا الوجه. ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأهوال: أخبرنا إسحاق بن إبراهيم قال: أخبرنا يحيى بن سليم، به^(٥).

وقوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أى: تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم: ما كنتم تتكتمون^(٦) منا الذى كنتم تفعلونه، بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصي، ولا تبالون منه في زعمكم؛ لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ . وَذَلِكَ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ أى: هذا الظن الفاسد - وهو اعتقادكم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون - هو الذى أتلّفكم وأرداكم عند ربكم، ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أى: فى مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهلكم.

قال الإمام أحمد - رحمه الله - : حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عمارة، عن عبد الرحمن ابن يزيد^(٨)، عن عبد الله قال: كنت مستترًا بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر: قرشى، وختناه ثقفيان - أو: ثقفى وختناه قرشيان - كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فتكلموا بكلام لم أسمعه، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه^(٩)، وإذا لم نرفعه لم يسمعه، فقال الآخر: إن سمع منه شيئاً سمعه كله. قال: فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وكذا رواه الترمذى عن هناد، عن أبي معاوية، بإسناده نحوه^(١٠). وأخرجه أحمد ومسلم والترمذى أيضاً، من حديث سفيان الثورى، عن الأعمش، عن عمارة بن عمير، عن وهب بن

(١) فى ت: «وروى ابن أبي حاتم بإسناده».

(٢) فى أ: «رسول الله».

(٣) فى ت: «بأعجب».

(٤) زيادة من أ.

(٥) فى ت، س، أ: «بينما».

(٦) الأهوال لابن أبي الدنيا برقم (٢٤٣)، ورواه ابن ماجه فى السنن برقم (٤٠١٠) حدثنا سويد بن سعيد فذكره. قال البوصيرى فى زوائد ابن ماجه: «هذا إسناده حسن، سويد مختلف فيه».

(٧) فى أ: «تكتمون».

(٨) فى ت: «رواه الإمام أحمد بإسناده».

(٩) فى ت: «يسمعه».

(١٠) المسند (٣٨١/١)، وسنن الترمذى برقم (٣٢٤٩).

ربيعة، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، بنحوه^(١). ورواه البخارى ومسلم أيضا، من حديث السفينانين، عن منصور، عن مجاهد، عن أبى معمر عبد الله بن سخرية، عن ابن مسعود، به^(٢).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ قال: «إنكم تُدْعَوْنَ مُقَدَّمًا عَلَى أَفْوَاهِكُمْ بِالْفَدَامِ، فَأُولَ شَيْءٍ بَيِّنٌ»^(٣) عن أحدكم فخذوه وكفه^(٤)»^(٥).

قال معمر: وتلا الحسن: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: أنا مع عبدى عند ظنه بى، وأنا معه إذا دعانى»، ثم افتر الحسن ينظر فى هذا، فقال: ألا إنما عمل الناس على قدر ظنونهم بربهم، فأما المؤمن فأحسن الظن بربه فأحسن العمل، وأما الكافر والمنافق فأساء الظن بالله فأساء العمل. ثم قال: قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا النضر بن إسماعيل القاص^(٦) - وهو أبو المغيرة - حدثنا ابن أبى ليلى، عن أبى الزبير، عن جابر^(٧) قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن بالله الظن، فإن قوما قد أرداهم سوء ظنهم بالله، فقال الله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾»^(٨).

وقوله: ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أى: سواء عليهم أصبروا أم لم يصبروا هم فى النار، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها. وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذارا^(٩) فما لهم أعذار، ولا تُقال لهم عثرات.

قال ابن جرير: ومعنى قوله: ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا﴾ أى: يسألوا الرجعة إلى الدنيا، فلا جواب لهم - قال: وهذه كقوله تعالى إخبارا عنهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالَ اخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ - ١٠٨].

﴿وَقَيضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَزَيْنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ

(١) المسند (٤٠٨/١) وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٥)، وسنن الترمذى برقم (٣٢٤٩).

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨١٧)، وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٥).

(٣) فى أ: «ينطق».

(٤) فى أ: «وكفه».

(٥) تفسير عبد الرزاق (١٥١/٢)، والمصنف (٢٠١١٥)، ورواه النسائى فى السنن (٤/٥) وابن ماجه فى السنن برقم (٢٥٣٦) من طريق عن بهز بن حكيم بنحوه.

(٦) فى أ: «القاضى».

(٧) فى ت: «وروى الإمام أحمد عن جابر».

(٨) المسند (٣٩٠/٣).

(٩) فى ت، أ: «أعذارهم».

أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرَنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ .

يذكر تعالى أنه هو الذى أضل المشركين، وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته، وهو الحكيم فى أفعاله، بما قَيَّضَ لَهُم من القرآن من شياطين الإنس والجن: ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أى: حَسَّنُوا لَهُم أَعْمَالَهُمْ فى الماضى، وبالنسبة إلى المستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أى: كلمة العذاب كما حق على أمم قد خلت من قبلهم، ممن فعل كفعلهم، من الجن والإنس، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أى: استووا هم وإياهم فى الخسار والدمار.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ أى: تواصوا فيما بينهم ألا يطيعوا للقرآن، ولا ينقادوا لأوامره^(١)، ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ أى: إذا تلى لا تستمعوا له. كما قال مجاهد: ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ يعنى: بالمكاء^(٢) والصفير والتخليط فى المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن قريش تفعله.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ : عيبه^(٣).

وقال قتادة: اجحدوا به، وأنكروه وعادوه.

﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾: هذا حال هؤلاء الجهلة من الكفار، ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن. وقد أمر الله - سبحانه - عباده المؤمنين بخلاف ذلك فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ثم قال تعالى: منتصرا للقرآن، ومنتقما ممن عاداه من أهل الكفران: ﴿فَلَنَذِقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أى: فى مقابلة ما اعتمدوه فى القرآن وعند سماعه، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: بشر أعمالهم، وسيئ أفعالهم ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرَنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾.

قال سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن مالك بن الحصين الفزاري، عن أبيه^(٤)، عن على،

(٢) فى ت، أ: «بالمكاء والتصدية».

(٤) فى ت: «عن أبيه روى».

(١) فى ت: «لأمره».

(٣) فى ت، س: «قعوا فيه، عيبه».

رضى الله عنه، فى قوله: ﴿اللَّذِينَ أَضَلَّانَا﴾ قال: إبليس وابن آدم الذى قتل أخاه.

وهكذا روى حبة العُرْنَى عن على، مثل ذلك.

وقال السدى، عن على: فإبليس يدعو به كل صاحب شرك، وابن آدم يدعو به كل صاحب كبيرة، فإبليس - لعنه الله - هو الداعى إلى كل شر من شرك فما دونه، وابن آدم الأول. كما ثبت فى الحديث: «ما قتلت نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل»^(١).

وقوله^(٢): ﴿نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَفْدَامِنَا﴾ أى: أسفل منا فى العذاب ليكونا أشد عذابا منا؛ ولهذا قالوا: ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ أى: فى الدرك الأسفل من النار، كما تقدم فى «الأعراف» من سؤال الاتباع من الله أن يعذب قاداتهم أضعاف عذابهم، قال: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] أى: إنه تعالى قد أعطى كلا منهم ما يستحقه من العذاب والنكال، بحسب عمله وإفساده، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (٣١) نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢)﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أى: أخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم.

قال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا الجراح، حدثنا سلم^(٣) بن قتيبة أبو قتيبة الشَّعِيرَى، حدثنا سهيل^(٤) بن أبى حزم، حدثنا ثابت^(٥)، عن أنس بن مالك قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾، قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم^(٦)، فمن قالها حتى يموت^(٧) فقد^(٨) استقام عليها.

وكذا رواه النسائى فى تفسيره، والبخارى وابن جرير، عن عمرو بن على الفلاس، عن سلم^(٩) بن قتيبة، به^(١٠). وكذا رواه ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن الفلاس، به. ثم قال ابن جرير:

حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن أبى إسحاق، عن عامر بن سعد^(١١)،

(١) الحديث أخرجه الجماعة سوى أبى داود، وانظر تخريجه عند الآية: ٢٩ من سورة المائدة.

(٢) فى س: «وقولهم».

(٣) فى أ: «مسلم».

(٤) فى أ: «سهل».

(٥) فى ت: «قال الحافظ أبو يعلى الموصلى بسنده».

(٦) فى أ: «ثم كفروا».

(٧) فى ت: «حين».

(٨) فى ت، س: «فهو ممن».

(٩) فى أ: «مسلم».

(١٠) مستند أبى يعلى (٢١٣/٦)، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٧٠)، وتفسير الطبرى (٧٣/٢٤).

(١١) فى أ: «سعيد».

عن سعيد^(١) بن غمران^(٢) قال: قرأت^(٣) عند أبي بكر الصديق هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ قال: هم الذين لم يشركوا بالله شيئاً.

ثم روى من حديث الأسود بن هلال قال: قال أبو بكر، رضي الله عنه: ما تقولون في هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾؟ قال: فقالوا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾: من ذنب. فقال: لقد حملتموها على غير المحمل، ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ فلم يلتفتوا إلى إله غيره. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والسدي، وغير واحد^(٤).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهراني^(٥)، أخبرنا حفص بن عمر العدني، عن الحكم ابن أبان، عن عكرمة قال: سئل ابن عباس^(٦)، رضى الله عنهما: أى آية في كتاب الله أرخص؟ قال قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله.

وقال الزهري: تلا عمر هذه الآية على المنبر، ثم قال: استقاموا - والله - لله بطاعته، ولم يروغوا روغان الثعالب.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ على أداء فرائضه. وكذا قال قتادة، قال: وكان الحسن يقول: اللهم، أنت ربنا، فارزقنا الاستقامة. وقال أبو العالية: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾: أخلصوا له العمل والدين.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْمٌ، حدثنا يعلى بن عطاء، عن عبد الله بن سفيان الثقفي، عن أبيه^(٧)؛ أن رجلاً قال: يا رسول الله، مرني بأمر في الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال: «قل: آمنت بالله، ثم استقم». قلت: فما أتقى؟ فأومأ إلى لسانه. ورواه النسائي من حديث شعبة، عن يعلى بن عطاء، به^(٨).

ثم قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إبراهيم بن سعد، حدثني ابن شهاب، عن محمد بن عبد الرحمن بن ماعز الغامدي، عن سفيان^(٩) بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله، حدثني بأمر أعصم به. قال: «قل: ربى الله، ثم استقم». قلت: يا رسول الله، ما أكثر ما تخاف على؟ فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه، ثم قال: «هذا».

وهكذا^(١٠) رواه الترمذي وابن ماجه، من حديث الزهري، به^(١١). وقال الترمذي: حسن صحيح.

(١) فى ت: «رواه ابن جرير عن سعيد». (٢) فى أ: «مهران». (٣) فى ت: «قُرِئَتْ».

(٤) فى ت: «مجاهد وغيره». (٥) فى أ: «الطبراني».

(٦) فى ت: «وروى ابن أبى الدنيا بسنده عن ابن عباس أنه سئل». (٧) فى ت: «وروى الإمام أحمد بسنده».

(٨) المسند (٤/٣٨٤)، والنسائي فى السنن الكبرى برقم (١١٤٨٩).

(٩) فى ت: «وروى أحمد عن سفيان». (١٠) فى أ: «هكذا وكذا».

(١١) المسند (٣/٤١٣)، وسنن الترمذي برقم (٢٤١٠)، وسنن ابن ماجه برقم (٣٩٧٢).

وقد أخرجه مسلم في صحيحه والنسائي، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله، قل لى فى الإسلام قولاً، لا أسأل عنه أحدا بعدك. قال: «قل: آمنت بالله، ثم استقم». وذكر تمام الحديث^(١).

وقوله: ﴿تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال مجاهد، والسدى، وزيد بن أسلم، وابنه: يعنى عند الموت قائلين: ﴿أَلَا تَخَافُوا﴾ قال مجاهد، وعكرمة، وزيد بن أسلم: أى مما تقدمون عليه من أمر الآخرة، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [أى]^(٢): على ما خلفتموه من أمر الدنيا، من ولد وأهل، ومال أو دين، فإننا نخلفكم فيه، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير.

وهذا كما فى حديث البراء^(٣)، رضى الله عنه: «إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجى أيتها الروح الطيبة فى الجسد الطيب كنت تعمرينه، اخرجى إلى روح وريحان، ورب غير غضبان».

وقيل: إن الملائكة تنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم. حكاه ابن جرير عن ابن عباس، والسدى.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عبد السلام بن مطهر، حدثنا جعفر بن سليمان: سمعت ثابتاً قرأ سورة «حم. السجدة»^(٤)، حتى بلغ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾. فوقف فقال: بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعثه الله من قبره، يتلقاه الملكان اللذان كانا معه فى الدنيا، فيقولان له: لا تخف ولا تحزن، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾. قال: فيؤمن الله خوفه، ويقر عينه، فما عظمة يخشى الناس يوم القيامة إلا هى للمؤمن قرة عين، لما هداه الله، ولما كان يعمل له فى الدنيا.

وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته، وفى قبره، وحين يبعث. رواه ابن أبى حاتم.

وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حسن جداً. وهو الواقع.

وقوله: ﴿نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أى: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم، أى: قرناءكم فى الحياة الدنيا، نسددكم ونوفقكم، ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم فى الآخرة نؤنس منكم الوحشة فى القبور، وعند النفخة فى الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾ أى: فى الجنة من جميع ما تختارون^(٥) مما تشتهيه النفوس، وتقر به العيون، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ أى: مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم، [أى]^(٦): كما اخترتم، ﴿نَزْلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أى: ضيافة وعطاء وإنعاماً من غفور لذنوبكم، رحيم بكم رؤوف، حيث غفر، وستر، ورحم، ولطف.

(١) صحيح مسلم برقم (٣٨).

(٢) زيادة من ت، س، أ.

(٣) حديث البراء سبق تخريجه عند تفسير الآية: ٤٠ من سورة الاعراف إلا أن هذا اللفظ هو لفظ حديث أبى هريرة رضى الله عنه

وهو مخرج فى نفس الموضع. (٤) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم عن ثابت أنه قرأ السجدة».

(٥) فى ت، س، أ: «وأبشروا» وهو خطأ. (٦) فى ت: «تختارونه».

(٧) زيادة من ت.

وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديث «سوق الجنة» عند قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ . نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾، فقال:

حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا عبد الحميد بن حبيب^(١) بن أبي العشرين أبي سعيد، حدثنا الأوزاعي، حدثني حسان بن عطية، عن سعيد بن المسيب: أنه لقي أبا هريرة [رضى الله عنه]^(٢)، فقال أبو هريرة: نسأل^(٣) الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة. فقال سعيد: أو فيها سوق؟ قال: نعم، أخبرني رسول الله ﷺ أن أهل الجنة إذا دخلوا فيها، نزلوا بفضل أعمالهم، فيؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة في أيام الدنيا فيزورون الله، عز وجل، ويرز لهم عرشه، ويتبدى لهم في روضة من رياض الجنة، وتوضع لهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من ياقوت، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة، ويجلس [فيه]^(٤) أدناهم وما فيهم دنىء على كئيبان المسك والكافور، ما يرون بأن أصحاب الكراسي بأفضل منهم مجلسا.

قال أبو هريرة: قلت: يا رسول الله، وهل نرى ربنا [يوم القيامة]^(٥)؟ قال: «نعم، هل تتمارون^(٦) في رؤية الشمس والقمر ليلة البدر؟» قلنا: لا. قال ﷺ: «فكذلك لا تتمارون في رؤية ربكم تعالى، ولا يبقى في ذلك المجلس أحد إلا حاضره الله محاضرة، حتى إنه ليقول للرجل منهم: يا فلان بن فلان، أتذكر يوم عملت كذا وكذا؟ - يذكّره ببعض غدراته في الدنيا - فيقول: أى رب، أفلم تغفر لى؟ فيقول: بلى، فبسعة مغفرتى بلغت منزلتك هذه. قال: فبينما هم على ذلك، غشيتهم سحابة من فوقهم، فأمطرت عليهم طيبا لم يجدوا مثل ريحه شيئا قط». قال: «ثم يقول ربنا - عز وجل -: قوموا إلى ما أعددت لكم من الكرامة، وخذوا ما اشتهيت». قال: «فأتى سوقا قد حفت به الملائكة، فيها ما لم تنظر العيون إلى مثله، ولم تسمع الآذان، ولم يخطر على القلوب. قال: فيحمل لنا ما اشتهينا، ليس يباع فيه شيء ولا يشتري، وفي ذلك السوق يلتقى أهل الجنة بعضهم بعضا». قال: «فيقبل الرجل ذو المنزلة الرفيعة، فيلقى من هو دونه - وما فيهم دنىء فيروعه ما يرى عليه من اللباس، فما ينقضى آخر حديثه حتى يتمثل عليه أحسن منه؛ وذلك لأنه لا ينبغي لأحد أن يحزن فيها.

ثم ننصرف إلى منازلنا، فيتلقانا أزواجنا فيقلن: مرحبا وأهلا بحبنا، لقد جئت وإن بك من الجمال والطيب أفضل مما فارقتنا عليه. فيقول: إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار - عز وجل - وبحقنا أن ننقلب بمثل^(٧) ما انقلبنا به».

وقد رواه الترمذى في «صفة الجنة» من جامعه، عن محمد بن إسماعيل، عن هشام بن عمار، ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار، به نحوه^(٨). ثم قال الترمذى: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٣) فى أ: «أسأل».

(٢) زيادة من ت.

(١) فى أ: «الوليد».

(٦) فى ت، س، أ: «تتمارون».

(٥) زيادة من أ.

(٤) زيادة من أ.

(٧) فى أ: «على».

(٨) سنن الترمذى برقم (٢٥٤٩)، وسنن ابن ماجه برقم (٤٣٣٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن أبي عدي، عن حميد، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». قلنا^(١): يا رسول الله، كلنا نكره الموت؟ قال: «ليس ذلك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حضر جاءه البشير من الله بما هو صائر إليه، فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله فأحب الله لقاءه» قال: «وإن الفاجر - أو الكافر - إذا حضر^(٢) جاءه بما هو صائر إليه من الشر - أو: ما يلقي من الشر - فكره لقاء الله، فكره الله لقاءه». وهذا حديث صحيح^(٣)، وقد ورد في الصحيح من غير هذا الوجه^(٤).

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ أى: دعا عباد الله إليه، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أى: وهو فى نفسه مهتد بما يقوله، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومتعد، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه، بل ياتر بالخير ويترك الشر، ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى. وهذه عامة فى كل من دعا إلى خير، وهو فى نفسه مهتد، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك، كما قال محمد بن سيرين، والسدى، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقيل: المراد بها المؤذنون الصلحاء، كما ثبت فى صحيح مسلم: «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة»^(٥). وفى السنن مرفوعاً: «الإمام ضامن، والمؤذن مؤتمن، فأرشد الله الأئمة، وغفر للمؤذنين»^(٦).

وقال^(٧) ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن عروبة الهروى، حدثنا غسان قاضى هراة وقال أبو زرعة: حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن مطر، عن الحسن، عن سعد بن أبى وقاص أنه قال: «سهام المؤذنين عند الله يوم القيامة كسهام المجاهدين، وهو بين الأذان والإقامة كالمتشحط فى سبيل الله فى دمه».

قال: وقال ابن مسعود: «لو كنت مؤذناً ما باليت ألا أحج ولا أعتمر ولا أجاهد».

(١) فى أ: «قال».

(٢) فى أ: «احتضر».

(٣) المسند (١٠٧/٣).

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٥٠٧)، ومسلم فى صحيحه برقم (٢٦٨٣) من طريق قتادة عن أنس عن عبادة بن الصامت بنحو الحديث المتقدم.

(٥) صحيح مسلم برقم (٣٨٧) من حديث معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه.

(٦) رواه أحمد فى مسنده (٢٣٢/٢)، وأبو داود فى السنن برقم (٥/٨)، والترمذى فى السنن برقم (٢٠٧).

(٧) فى ت: «وروى».

قال: وقال عمر بن الخطاب: لو كنت مؤذنا لكمل أمرى، وما باليت ألا أنتصب لقيام الليل ولا لصيام النهار، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اغفر للمؤذنين» ثلاثا، قال: فقلت: يا رسول الله، تركتنا، ونحن نجتلد على الأذان بالسيوف. قال: «كلا يا عمر، إنه يأتى^(١) على الناس زمان يتركون الأذان على ضعفائهم، وتلك لحوم حرمها الله على النار، لحوم المؤذنين»^(٢).

قال: وقالت عائشة: ولهم هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، قالت: فهو المؤذن إذا قال: «حى على الصلاة» فقد دعا إلى الله.

وهكذا قال ابن عمر، وعكرمة: إنها نزلت فى المؤذنين.

وقد ذكر البغوى عن أبى أمامة الباهلى، رضى الله عنه، أنه قال فى قوله: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، قال: يعنى صلاة ركعتين بين الأذان والإقامة.

ثم أورد البغوى حديث «عبد الله بن المغفل» قال: قال رسول الله ﷺ: «بين كل أذانين صلاة». ثم قال فى الثالثة: «لن شاء»^(٣) وقد أخرجه الجماعة فى كتبهم، من حديث عبد الله بن بريدة، عنه^(٤) وحديث الثورى، عن زيد العمى، عن أبى إياس معاوية بن قرة، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال الثورى: لا أراه إلا وقد رفعه إلى النبى ﷺ: «الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة».

ورواه أبو داود، والترمذى، والنسائى فى «اليوم واللييلة»، كلهم من حديث الثورى، به^(٥). وقال الترمذى: هذا حديث حسن.

ورواه النسائى أيضا من حديث سليمان التيمى، عن قتادة، عن أنس، به^(٦).

والصحيح أن الآية عامة فى المؤذنين وفى غيرهم، فأما حال نزول هذه الآية فإنه لم يكن الأذان مشروعا بالكلية؛ لأنها مكية، والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة، حين أريه عبد الله بن زيد بن عبدربه الأنصارى فى منامه، فقصه على رسول الله ﷺ، فأمره أن يلقيه على بلال فإنه أندى صوتا، كما هو مقرر فى موضعه، فالصحيح إذا أنها عامة، كما قال عبد الرزاق، عن معمر، عن الحسن البصرى: أنه تلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، فقال: هذا حبيب الله، هذا ولى الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله فى دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحا فى إجابته، وقال:

(١) فى ت، س: «سيأتى».

(٢) ورواه الإسماعيلى فى مسنده كما فى مسند عمر لابن كثير (١٤٤/١) من طريق إبراهيم بن طهمان عن مطر عن الحسن البصرى عن عمر به والحسن لم يسمع من عمر.

(٣) معالم التنزيل للبغوى (١٧٤/٧).

(٤) صحيح البخارى برقم (٦٢٧)، وصحيح مسلم برقم (٨٣٨)، وسنن أبى داود برقم (٢٢٨٣)، وسنن الترمذى برقم (١٨٥)، وسنن النسائى (٢٨/٢)، وسنن ابن ماجه برقم (١١٦٢).

(٥) سنن أبى داود برقم (٥٢١) وسنن الترمذى برقم (٢١٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٨٩٦).

(٦) النسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٨٩٩).

إننى من المسلمين، هذا خليفة الله.

وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ أى: فرق عظيم بين هذه وهذه، ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أى: من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه، كما قال عمر [رضى الله عنه]^(١): ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

وقوله: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ وهو الصديق، أى: إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادتته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك، والحنو عليك، حتى يصير كأنه ولي لك حميم، أى: قريب إليك من^(٢) الشفقة عليك والإحسان إليك.

ثم قال: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أى: وما يقبل^(٣) هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك، فإنه يشق على النفوس، ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أى: ذو نصيب وافر من السعادة فى الدنيا والأخرى.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم.

وقوله: ﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أى: إن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه، فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذى سلطه عليك، فإذا استعذت بالله ولجأت إليه، كفه عنك ورد كيده. وقد كان رسول الله ﷺ: إذا قام إلى الصلاة يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه»^(٤).

وقد قدمنا أن هذا المقام لا نظير له فى القرآن إلا فى «سورة الأعراف» عند قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ. وَإِمَّا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠]، وفى سورة المؤمنين عند قوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ. وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ. وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦ - ٩٨].

[لكن الذى ذكر فى الأعراف أخف على النفس مما ذكر فى سورة السجدة؛ لأن الإعراض عن الجاهل وتركه أخف على النفس من الإحسان إلى المسمى فتتلذذ النفس من ذلك ولا انتقاد له إلا بمعالجة ويساعدها الشيطان فى هذه الحال، فتفعل له وتستعصى على صاحبها، فتحتاج إلى مجاهدة وقوة إيمان؛ فلهذا أكد ذلك هاهنا بضمير الفصل والتعريف باللام فقال: ﴿وَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٥).

(٣) فى أ: «يتقبل».

(٢) فى ت، أ: «فى».

(١) زيادة من ت، س.

(٤) انظر تخريج الحديث عند تفسير الآية: ٩٧ من سورة «المؤمنون».

(٥) زيادة من ت، س.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ (٣٨) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)﴾ .

يقول تعالى منها خلقه علي قدرته العظيمة، وأنه الذي لا نظير له، وأنه على ما يشاء، قادر، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أى: إنه خلق الليل بظلامه، والنهار بضياءه، وهما متعاقبان لا يقران، والشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضياءه وتقدير منازلها في فلكه، واختلاف سيره في سمائه، ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار، والجمع والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق، وأوقات العبادات والمعاملات.

ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي، نبه تعالى علي أنهما مخلوقان عبادان من عبيده، تحت قهره وتسخير، فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أى: ولا تشركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا﴾ أى: عن أفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره، ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعنى: الملائكة، ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾، كقوله: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سفيان - يعنى ابن وكيع - حدثنا أبى، عن ابن أبى ليلى، عن أبى الزبير، عن جابر^(١) قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الليل ولا النهار، ولا الشمس ولا القمر، ولا الرياح فإنها ترسل رحمة لقوم، وعذابا لقوم»^(٢).

وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أى: على قدرته على إعادة الموتى ﴿أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أى: هامة لا نبات فيها، بل هى ميتة، ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أى: أخرجت من جميل ألوان الزروع والثمار، ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَا

(١) فى ت: «روى الحافظ أبو يعلى عن جابر».

(٢) مسند أبى يعلى (٤/١٣٩)، قال الهيثمى فى المجمع (٨/٧١): «إسناده ضعيف».

يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ .

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾، قال ابن عباس: الإلحاد: وضع الكلام على غير مواضعه.

وقال قتادة، وغيره: هو الكفر والعناد.

وقوله: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ أى: فيه تهديد شديد، ووعد أكيد، أى: إنه تعالى عالم بمن يلحد في آياته وأسمائه وصفاته، وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال؛ ولهذا قال: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؟ أى: أيستوى هذا وهذا؟ لا يستويان.

ثم قال - عز وجل - تهديداً^(١) للكفرة: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ قال مجاهد، والضحاك، وعطاء الخراساني: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾: وعيد، أى: من خير أو شر، إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ قال الضحاك، والسدي، وقاتدة: وهو القرآن، ﴿وإنه لكتاب عزيز﴾ أى: منيع الجنب، لا يرام أن يأتى أحد بمثله، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أى: ليس للبطلان إليه سبيل؛ لأنه منزل من رب العالمين؛ ولهذا قال: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أى: حكيم فى أقواله وأفعاله، حميد بمعنى محمود، أى: فى جميع ما يأمر به وينهى عنه الجميع محموده عواقبه وغاياته.

ثم قال: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ قال قتادة، والسدي، وغيرهما: ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك، فكما قد كذبت فقد كذبوا، وكما صبروا على أذى قومهم لهم، فاصبر أنت على أذى قومك لك. وهذا اختيار ابن جرير، ولم يحك هو، ولا ابن أبى حاتم غيره.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ [لِلنَّاسِ]﴾^(٢) أى: لمن تاب إليه، ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى: لمن استمر على كفره، وطغيانه، وعناده، وشقاقه، ومخالفته.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن على بن زيد^(٣)، عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ قال رسول الله ﷺ: «لولا غفر^(٤) الله وتجاوز ما هنأ أحدا العيش، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد»^(٥).

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ

(١) فى ت، س، أ: «مهددا». (٢) زيادة من أ. (٣) فى ت: «روى ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب».

(٤) فى ت، س، أ: «غفر».

(٥) إسناده مرسل، وعلى بن زيد متفق على ضعفه.

وَأَنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَرِيبٌ ﴿٤٥﴾ .

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته، وإحكامه فى لفظه ومعناه، ومع هذا لم يؤمن به المشركون، نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت، كما قال: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ . فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٨، ١٩٩]. وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم، لقالوا على وجه التعنت وال عناد: ﴿ لَوْلَا فَصَّلَتْ آيَاتُهُ الْأَعْجَمِيَّ وَعَرَبِيَّ ﴾ أى: لقالوا: هلا أنزل مفصلاً بلغة العرب، ولأنكروا ذلك وقالوا: أعجمى وعربى؟ أى: كيف ينزل كلام أعجمى على مخاطب عربى لا يفهمه.

هكذا روى هذا المعنى عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، والسدى، وغيرهم.

وقيل: المراد بقولهم: ﴿ لَوْلَا فَصَّلَتْ آيَاتُهُ الْأَعْجَمِيَّ وَعَرَبِيَّ ﴾ أى: هلا أنزل بعضها بالأعجمى، وبعضها بالعربى.

هذا قول الحسن البصرى، وكان يقرؤها كذلك بلا استفهام فى قوله ﴿ أَعْجَمِيَّ ﴾، وهو رواية عن سعيد بن جبیر. وهو فى [التعنت و] ^(١) العناد أبلغ.

ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ ﴾ أى: قل يا محمد: هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه، وشفاء لما فى الصدور من الشكوك ^(٢) والريب، ﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ أى: لا يفهمون ما فيه، ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ أى: لا يهتدون إلى ما فيه من البيان، كما قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شَفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿ أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ قال مجاهد: يعنى بعيد من قلوبهم.

قال ابن جرير: معناه: كأن من يخاطبهم يناديه ^(٣) من مكان بعيد، لا يفهمون ما يقول ^(٤). قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عَمًى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقال الضحاك: ينادون يوم القيامة بأشنع أسمائهم.

وقال السدى: كان عمر بن الخطاب [رضى الله عنه] ^(٥) جالسا عند رجل من المسلمين يقضى، إذ قال: يالبيكاه. فقال عمر: لم تلبى؟ هل رأيت أحدا، أو دعاك أحد؟ قال: دعانى داع من وراء ^(٦) البحر. فقال عمر: أولئك ينادون من مكان بعيد. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ ﴾ أى: كذب وأودى، ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الشورى: ١٤] بتأخير

(٣) فى أ: «يدعوهم».

(٢) فى أ: «الشرك».

(١) زيادة من ت، س.

(٤) تفسير الطبرى (٨١/٢٤).

(٦) فى ت، س، أ: «خلف».

(٥) زيادة من ت.

الحساب إلى يوم المعاد، ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أى: لعجل لهم العذاب، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلاً، ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أى: وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا، بل كانوا شاكين فيما قالوا^(١)، غير محققين لشيء كانوا فيه. هكذا وجه ابن جرير، وهو محتمل، والله أعلم.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٤٦) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِّنْ مَّحِيصٍ (٤٨).

يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ أى: إنما يعود نفع ذلك على نفسه، ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أى: إنما يرجع وبال ذلك عليه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أى: لا يعاقب أحداً إلا بذنب، ولا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه.

ثم قال: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أى: لا يعلم ذلك أحد سواه، كما قال ﷺ، وهو سيد البشر لجبريل وهو من سادات الملائكة - حين سألته عن الساعة، فقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»، وكما^(٢) قال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ [النازعات: ٤٤]، وقال: ﴿لَا يُجْلِيهَا لَوْقَتُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقوله: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أى: الجميع بعلمه، لا يعزب عن علمه^(٣) مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء. وقد قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال جلت عظمته: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وقال: ﴿وَمَا يَعْمرُّ مِنْ مَّعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١].

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ أى: يوم القيامة ينادى الله المشركين على رؤوس الخلائق: أين شركائى الذين عبدتموهم معى؟ ﴿قَالُوا أَدْذَنَّاكَ﴾ أى: أعلمناك، ﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أى: ليس أحد منا اليوم يشهد أن معك شريكا، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ أى: ذهبوا فلم ينفعوهم، ﴿وَزَنُوا مَا لَهُمْ مِّنْ مَّحِيصٍ﴾ أى: وظن المشركون يوم القيامة، وهذا بمعنى اليقين، ﴿مَا لَهُمْ مِّنْ مَّحِيصٍ﴾ أى: لا محيد لهم عن عذاب الله، كقوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

(٢) فى ت: «ولهذا».

(١) فى ت، س: «قالوه».

(٣) فى ت: «عمله».

﴿لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُؤَسُّ قُنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَنْ أَذْقَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ .

يقول تعالى: لا يَمَلُّ الإنسان من دعائه ربه بالخير - وهو: المال، وصحة الجسم، وغير ذلك - وإن مسه الشر - وهو: البلاء أو الفقر - ﴿فَيُؤَسُّ قُنُوطٌ﴾ أى: يقع فى ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير.

﴿وَلَنْ أَذْقَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ أى: إذا أصابه خير ورزق بعد ما كان فى شدة ليقولن: هذا لى، إني كنت أستحقه عند ربى، ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أى: يكفر بقيام الساعة، أى: لأجل أنه خوّل نعمة يفخر، ويبطر، ويكفر، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾. أن رآه استغنى ﴿[العلق: ٦، ٧]﴾.

﴿وَلَنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أى: ولئن كان ثمّ معاد فليحسننّ إلى ربى، كما أحسن إلى فى هذه الدار، يتمنى على الله، عز وجل، مع إساءته العمل وعدم اليقين. قال تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنكال.

ثم قال: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ أى: أعرض عن الطاعة، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله، عز وجل، كقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بَرَكْنَهُ﴾ [الذاريات: ٣٩].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أى: الشدة، ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أى: يطيل المسألة فى الشىء الواحد فالكلام العريض: ما طال لفظه وقل معناه، والوجيز: عكسه، وهو: ما قل ودل. وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾^(١) فلما كشفنا عنه ضره مرّ كأن لم يدعنا إلى ضره مسه ﴿[يونس: ١٢]﴾.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا يَكْفُلُوا شَيْءٌ مِّمَّنْ حِيطَ ﴿٥٤﴾﴾ .

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾؟ أى: كيف تُروّون حالكم عند الذى أنزله على رسوله؟ ولهذا قال: ﴿مَنْ أَضَلُّ

(١) فى ت، س: «أو قائما أو قاعدا» وهو خطأ.

مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ؟ أَى: فى كفر وعناد ومشاقة للحق، ومَسَلَكٌ بعيد من الهدى.

ثم قال: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أَى: سنظهر لهم دلائلنا وحُجُجنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله، عز وجل، على رسوله ﷺ بدلائل خارجية ﴿فِي الْآفَاقِ﴾، من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان.

قال ^(١) مجاهد، والحسن، والسدى: ودلائل فى أنفسهم، قالوا: وقعة بدر، وفتح مكة، ونحو ذلك من الوقائع التى حَلَّتْ بهم، نصر الله فيها محمداً وصحبه، وخذل فيها الباطل وحزبه.

ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاق والهيئات العجيبة، كما هو مبسوط فى علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى. وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة، من حسن وقبيح وبين ذلك، وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التى لا يقدر بحوله، وقوته، وحيله، وحذره أن يجوزها، ولا يتعدها، كما أنشده ابن أبى الدنيا فى كتابه «التفكر والاعتبار»، عن شيخه أبى جعفر القرشى:

وَإِذَا نَظَرْتَ تُرِيدُ مُعْتَبِرًا	فَانْظُرْ إِلَيْكَ فَفِيكَ مُعْتَبِرٌ
أَنْتَ الَّذِي يُمْنَى وَيُصْبِحُ فِيهِ	دُنْيَا وَكُلُّ أُمُورِهِ عِبَرٌ
أَنْتَ الْمَصْرُوفُ كَانَ فِي صِغَرٍ	ثُمَّ اسْتَقَلَّ بِشَخْصِكَ الْكِبَرُ
أَنْتَ الَّذِي تَنْعَاهُ خَلْقُهُ	يَنْعَاهُ مِنْهُ الشَّعْرُ وَالْبَشَرُ
أَنْتَ الَّذِي تُعْطَى وَتُسَلَبُ لَا	يُنْجِيهِ مِنْ أَنْ يُسَلَبَ الْحَذَرُ
أَنْتَ الَّذِي لَا شَيْءَ مِنْهُ لَهُ	وَأَحَقُّ مِنْهُ بِمَالِهِ الْقَدَرُ

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ؟﴾ أَى: كفى بالله ^(٢) شهيداً على أفعال عباده وأقوالهم، وهو يشهد أن محمداً صادق فيما أخبر به عنه، كما قال: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦].

وقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ أَى: فى شك من قيام الساعة؛ ولهذا لا يتفكرون فيه، ولا يعملون له، ولا يحذرون منه، بل هو عندهم هَدَرٌ لا يعبؤون به وهو واقع لا ريب فيه وكائن لا محالة.

قال ابن أبى الدنيا: حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا خَلْفَ بن تميم، حدثنا عبد الله بن محمد بن سعيد الأنصارى: أن عمر بن عبد العزيز صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإننى لم أجمعكم لأمر أحدثه فيكم، ولكن فكرت فى هذا الأمر الذى أنتم إليه صائرون، فعلمت أن المصدق بهذا الأمر أحق، والمكذب به هالك ثم نزل.

(٢) فى ت: «به».

(١) فى ت، أ: «قاله».

ومعنى قوله، رضى الله عنه: «أن المصدق به أحق» أى: لأنه لا يعمل له عمل مثله، ولا يحذر منه ولا يخاف من هوله، وهو مع ذلك مصدق به، موثق بوقوعه، وهو مع ذلك يتمادى فى لعبه وغفلته وشهواته وذنوبه، فهو أحق بهذا الاعتبار، والأحق فى اللغة: ضعيف العقل.

وقوله: «والمكذب به هالك»: هذا واضح، والله أعلم.

ثم قال تعالى - مقررًا على أنه على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط، وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه تبارك وتعالى - : ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ أى: المخلوقات كلها تحت قهره وفى قبضته، وتحت طى علمه، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

[آخر تفسير سورة حم السجدة]^(١)

(١) زيادة من ت، س، أ.

تفسير سورة الشورى

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حَمَّ (١) عَسَقَ (٢) كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٦)﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة . وقد روى ابن جرير هاهنا أثرا غريبا عجيبا منكرا، فقال :

حدثنا أحمد بن زهير، حدثنا عبد الوهاب بن نجدة الحوطي، حدثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج، عن أرطاة بن المنذر ^(١) قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال له - وعنده حذيفة بن اليمان - : أخبرني عن تفسير قول الله : ﴿حَمَّ . عَسَقَ﴾ ، قال : فأطرق ثم أعرض عنه، ثم كرر مقالته فأعرض عنه، فلم يجبه بشيء وكره مقالته، ثم كررها الثالثة فلم يُجِرْ إليه شيئا . فقال حذيفة ^(٢) : أنا أنبئك بها، قد عرفت لم كرهها؟ نزلت في رجل من أهل بيته يقال له «عبد الإله» - أو : عبد الله - ينزل على نهر من أنهار المشرق تُبنى عليه مدينتان ^(٣)، يشق النهر بينهما شقا، فإذا أذن الله في زوال ملكهم وانقطاع دولتهم ومدتهم، بعث الله على إحداهما نارا ليلا، فتصبح سوداء مظلمة قد احترقت، كأنها لم تكن مكانها، وتصبح صاحبها متعجبة : كيف أفلتت؟ فما هو إلا بياض يومها ذلك، حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد منهم، ثم يخسف الله بها وبهم جميعا، فذلك قوله : ﴿حَمَّ . عَسَقَ﴾ ، يعني : عزيمة من الله تعالى وفتنة وقضاء حُمَّ : ﴿حَمَّ﴾ ، عين : يعني عدلا منه، سين : يعني سيكون، ق : يعني واقع بهاتين المدينتين ^(٤) .

وأغرب منه ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في الجزء الثاني من مسند ابن عباس، وعن أبي ذر، عن النبي ﷺ في ذلك، ولكن إسناده ضعيف جدا ومنقطع، فإنه قال :

حدثنا أبو طالب عبد الجبار بن عاصم، حدثنا أبو عبد الملك الحسن بن يحيى الخُشَنِي الدمشقي، عن أبي معاوية قال : صعد عمر بن الخطاب المنبر فقال : أيها الناس، هل سمع منكم أحد رسول الله ﷺ يفسر ﴿حَمَّ . عَسَقَ﴾ ؟ فوثب ابن عباس فقال، أنا : قال : ﴿حَمَّ﴾ اسم من أسماء الله تعالى، قال : فعين؟ قال : «عاين المولون عذاب يوم بدر»، قال : فسين؟ قال : «سيعلم الذين ظلموا أي منقلب

(١) في ت : «وقد روى ابن جرير هاهنا أثرا غريبا عجيبا بسنده» .

(٢) في ت، م، أ : «مدينتين» .

(٤) تفسير الطبري (٥/٢٥)، ورواه نعيم بن حماد في الفتن برقم (٥٦٨) من طريق أبي المغيرة عن أرطاة بن المنذر عن حدثه عن ابن عباس فذكره .

ينقلبون» قال: فقاف؟ فسكت، فقام أبو ذر ففسر كما قال ابن عباس، رضى الله عنهما، وقال: قاف: قارعة من السماء تغشى الناس^(١).

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أى: كما أنزل إليك هذا القرآن، كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك. وقوله: ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ﴾ أى: فى انتقامه، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى أقواله وأفعاله.

قال الإمام مالك - رحمه الله - عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علىّ فيفصم عنيّ قد وعيت ما قال. وأحياناً يأتينى الملك رجلاً فيكلمنى، فأعنى ما يقول». قالت عائشة^(٢): فلقد رأيته ينزل عليه الوحي فى اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً.

أخرجاه فى الصحيحين، ولفظه للبخارى^(٣).

وقد^(٤) رواه الطبرانى عن عبد الله ابن الإمام أحمد، عن أبيه، عن عامر بن صالح، عن هشام ابن عروة، عن أبيه، عن عائشة، عن الحارث بن هشام؛ أنه سأل رسول الله ﷺ: كيف ينزل عليك الوحي؟ فقال: «مثل^(٥) صلصلة الجرس، فيفصم عنيّ وقد وعيت ما قاله» قال: «وهو أشده علىّ» قال: «وأحياناً يأتينى الملك فيتمثل لى فيكلمنى، فأعنى ما يقول»^(٦).

وقال الإمام^(٧) أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، عن عمرو بن الوليد، عن عبد الله بن عمرو^(٨)، رضى الله عنهما، قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، هل تحس بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلىّ إلا ظننت أن نفسى تُقبض». تفرد به أحمد^(٩).

وقد ذكرنا كيفية إتيان الوحي إلى رسول الله ﷺ فى أول شرح البخارى، بما أغنى عن إعادته هاهنا، والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: الجميع عبيد له وملك له، تحت قهره وتصريفه، ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾، كقوله تعالى: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، والآيات فى هذا كثيرة.

وقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، والسدى، وكعب الأحبار: أى فرقاً، من العظمة ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَسْبُحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ كقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ

(١) ورواه ابن عساكر فى تاريخه كما فى الدر المنثور (٣٣٦/٧).

(٢) فى ت: «عائشة رضى الله عنها».

(٣) الموطأ (٢٠٢/١)، وصحيح البخارى برقم (٢)، وصحيح مسلم برقم (٢٣٣٣).

(٤) فى أ: «ولقد».

(٥) فى أ: «فقال: فى مثل».

(٦) المعجم الكبير (٢٥٩/٣).

(٧) فى ت: «وروى».

(٨) فى ت: «عمر».

(٩) المسند (٢٢٢/٢).

شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴿٧﴾ [غافر: ٧].

وقوله: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: إعلام بذلك وتنويه به.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعنى: المشركين، ﴿اللَّهُ حَفِظُهُ عَلَيْهِمْ﴾ أى: شهيد على أعمالهم، يحصيها ويعدّها عدّاً، وسيجزّيهم بها أوفر الجزاء. ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أى: إنما أنت نذير، والله على كل شيء وكيل.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٨)﴾.

يقول تعالى: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك، ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أى: واضحا جليا بينا، ﴿لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ وهى مكة، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أى: من سائر البلاد شرقا وغربا، وسميت مكة «أم القرى»؛ لأنها أشرف من سائر البلاد، لأدلة كثيرة مذكورة فى مواضعها. ومن أوجز ذلك وأدله ما قال الإمام أحمد: (١)

حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري، أخبرنا أبو سلمة بن عبد الرحمن أن عبد الله بن عدى بن الحمراء الزهري أخبره: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول (٢) - وهو واقف بالحزورة فى سوق مكة -: «والله، إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت» (٣).

وهكذا رواية الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، من حديث الزهري، به (٤). وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقوله: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾، وهو يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد.

وقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى: لا شك فى وقوعه، وأنه كائن لا محالة.

وقوله: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾، كقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩] أى: يغبى أهل الجنة أهل النار، وكقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ (٥) يَوْمَ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ. وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدودٍ. يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٣-١٠٥].

قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا ليث، حدثنى أبو قبيل المعافى، عن شفى (٦)

(١) فى ت: «ما رواه».

(٢) فى ت: «ما رواه».

(٣) المسند (٤/٣٠٥).

(٤) سنن الترمذى برقم (٣٩٢٥)، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٤٢٥٢)، وسنن ابن ماجه برقم (٣١٠٨).

(٥) قبلها فى ت، م، أ: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ». (٦) فى ت: «روى». (٧) فى أ: «شقيق».

الأصباحي، عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان؟» قال: قلنا: لا، إلا أن تخبرنا يا رسول الله. قال للذي في يده اليمنى: «هذا كتاب من رب العالمين، بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم - لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبدا» ثم قال للذي في يساره: «هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم - لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبدا» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلأى شيء إذاً نعمل إن كان هذا أمر قد فرغ منه؟ فقال ^(١) رسول الله ﷺ: «سدّدوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختتم له بعمل الجنة ^(٢)، وإن عمل أى عمل، وإن صاحب النار ليختتم له بعمل النار ^(٣)، وإن عمل أى عمل» ثم قال بيده فقبضها، ثم قال: «فرغ ربكم عز وجل من العباد» ثم قال باليمنى فنبذ بها فقال: «فريق فى الجنة»، ونبذ باليسرى فقال: «فريق فى السعير».

وهكذا رواه الترمذى والنسائى جميعا، عن قتيبة، عن الليث بن سعد وبكر بن مضر، كلاهما عن أبى قبيل، عن شُفَى بن مائع ^(٤) الأصباحي، عن عبد الله بن عمرو، به ^(٥).

وقال الترمذى: حسن صحيح غريب.

وساقه البغوى فى تفسيره من طريق بشر بن بكر ^(٦)، عن سعيد بن عثمان، عن أبى الزاهرية، عن عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ، فذكره بنحوه. وعنده زيادات منها: ثم قال: «فريق فى الجنة وفريق فى السعير، عدل من الله عز وجل» ^(٧).

ورواه ^(٨) ابن أبى حاتم عن أبيه، عن عبد الله بن صالح - كاتب الليث - عن الليث، به.

ورواه ابن جرير عن يونس، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن أبى قبيل، عن شُفَى، عن رجل من الصحابة، فذكره ^(٩).

ثم روى عن يونس، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث وحيوة بن ^(١٠) شُرَيْح، عن يحيى بن أبى أسيد؛ أن أبا فراس ^(١١) حدثه: أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: إن الله لما خلق آدم نفذه نفص المزود ^(١٢)، وأخرج منه كل ذريته، فخرج أمثال النعف، فقبضهم قبضتين، ثم قال: شقى وسعيد، ثم ألقاهما، ثم قبضهما. فقال: فريق فى الجنة وفريق فى السعير ^(١٣).

وهذا الموقف أشبه بالصواب، والله أعلم.

(١) فى ت، م: «قال».

(٢) فى م: «بعمل أهل الجنة».

(٣) فى م، ت، أ: «بعمل أهل النار».

(٤) فى أ: «رافع».

(٥) المسند (١٦٧/٢)، وسنن الترمذى برقم (٢١٤١)، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٧٣).

(٦) فى م: «بكبير».

(٧) معالم التنزيل للبغوى (١٨٥/٧).

(٨) فى ت: «روى».

(٩) تفسير الطبرى (٧/٢٥).

(١٠) فى أ: «عن».

(١٢) فى م: «المزود».

(١٣) فى ت: «عن أبى فراس».

(١٤) تفسير الطبرى (٧/٢٥).

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد - يعنى ابن سلمة - أخبرنا الجريري، عن أبي نضرة، أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ يقال له: أبو عبد الله - دخل عليه أصحابه يعودونه وهو يبكى، فقالوا له: ما يبكيك؟، ألم يقل لك رسول الله ﷺ: «خذ من شاربك ثم أقره حتى تلقاني» قال: بلى، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله قبض يمينه قبضة، وأخرى باليد الأخرى، قال: هذه لهذه، وهذه لهذه ولا أبالي» فلا أدري فى أى القبضتين أنا^(١).

وأحاديث القدر فى الصحاح والسنن والمسانيد كثيرة جداً، منها حديث على، وابن مسعود، وعائشة، وجماعة جمة.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى: إما على الهداية أو على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم، فهدى من يشاء^(٢) إلى الحق، وأضل من يشاء عنه، وله الحكمة والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن أبي سويد، حدثه عن ابن حجية: أنه بلغه^(٣) أن موسى، عليه السلام، قال: يارب خلّقك الذين^(٤) خلقتهم، جعلت منهم فريقاً فى الجنة وفريقاً فى النار، لو ما أدخلتهم كلهم الجنة! فقال: يا موسى، ارفع ذرّعك. فرفع، قال: قد رفعت. قال: ارفع. فرفع، فلم يترك شيئاً، قال: يارب، قد رفعت، قال: ارفع. قال: قد رفعت، إلا ما لا خير فيه. قال: كذلك أدخل خلقى كلهم الجنة، إلا ما لا خير فيه.

﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٩) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذَرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢).

يقول تعالى منكرًا على المشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله، ومخبراً أنه الولي الحق الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده، فإنه القادر على إحياء الموتى وهو على كل شىء قدير.

ثم قال: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أى: مهما اختلفتم فيه من الأمور، وهذا عام فى جميع الأشياء، ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أى: هو الحاكم فيه بكتابه، وسنة نبيه ﷺ، كقوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

﴿ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبِّي﴾ أى: الحاكم فى كل شىء، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أى: أرجع فى جميع

الأمر.

(١) المسند (٤/١٧٦).

(٢) فى أ: «شاء».

(٣) فى ت: «وروى ابن جرير بسنده».

(٤) فى ت: «الذى».

وقوله: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: خالقهما وما بينهما، ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أى: من جنسكم وشكلكم، منةً عليكم وتفضلاً جعل من جنسكم ذكراً وأنثى، ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أى: وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج.

وقوله: ﴿يَذَرُوكُمْ فِيهِ﴾ أى: يخلقكم فيه، أى: فى ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال يذركم^(١) فيه ذكوراً وإناثاً، خلقاً من بعد خلق، وجيلاً بعد جيل، ونسلًا بعد نسل، من الناس والأنعام.

وقال البغوى، رحمه الله: ﴿يَذَرُوكُمْ فِيهِ﴾ أى: فى الرحم. وقيل: فى البطن. وقيل: فى هذا الوجه من الخلقة.

قال مجاهد: ونسلاً بعد نسل من الناس والأنعام.

وقيل: «فى» بمعنى «الباء»، أى: يذركم به.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أى: ليس كخالق الأزواج كلها شيء؛ لأنه الفرد الصمد الذى لا نظير له، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وقوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقدم تفسيره فى «سورة الزمر»، وحاصل ذلك أنه المتصرف الحاكم فيهما، ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أى: يوسع على من يشاء، ويضيق على من يشاء، وله الحكمة والعدل التام، ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤)﴾.

يقول تعالى لهذه الأمة: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، فذكر أول الرسل بعد آدم وهو نوح، عليه السلام، وآخرهم وهو محمد ﷺ، ثم ذكر من بين ذلك من أولى العزم وهم: إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، عليهم السلام. وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة، كما اشتملت آية «الأحزاب» عليهم فى قوله:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ الآية [الأحزاب: ٧]. والدين الذى جاءت به الرسل كلهم هو: عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وفى

(١) فى أ: «نوعكم».

الحديث: «نحن معشر^(١) الأنبياء أولاد علات ديننا واحد» أى: القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم، كقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أى: وصى الله [سبحانه و^(٢)] تعالى جميع الأنبياء، عليهم السلام، بالائتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف.

وقوله: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أى: شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد.

ثم قال: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ أى: هو الذى يُقدِّر الهداية لمن يستحقها، ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾، أى: إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم، وقيام الحجة عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغى والعناد والمشاقة.

ثم قال [الله]^(٣) تعالى: ﴿وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: لولا الكلمة السابقة من الله بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد، لعجل لهم العقوبة فى الدنيا سريعاً.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أَوْرَثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعنى: الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذب للحق ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَرِيبٌ﴾ أى: ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم مقلدون لأبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا برهان، وهم فى حيرة من أمرهم، وشك مريب، وشقاق بعيد.

﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (١٥).

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات، كل منها منفصلة عن التى قبلها، [لها]^(٤) حكم برأسه - قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسي، فإنها أيضاً عشرة^(٥) فصول كهذه.

قوله^(٦): ﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ﴾ أى: فللذى أوحينا إليك من الدين الذى وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولى العزم وغيرهم، فادعُ الناس إليه.

وقوله: ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ أى: واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله، كما أمركم الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعنى: المشركين فيما اختلقوه، وكذبوه، وافتروه من عبادة الأوثان.

وقوله: ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ أى: صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على

(٣) زيادة من م.
(٦) فى ت: «فقلوه».

(٢) زيادة من ت، م، أ.
(٥) فى ت: «عشر».

(١) فى ت، م: «معاشر».
(٤) زيادة من ت، أ.

الأنبياء، لا نفرق^(١) بين أحد منهم.

وقوله: ﴿وَأَمَرْتُ لَأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أى: فى الحكم كما أمرنى الله.

وقوله: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمُ﴾ أى: هو المعبود، لا إله غيره، فنحن نفر بذلك اختياراً، وأنتم وإن لم تفعلوه اختياراً، فله يسجد من فى العالمين طوعاً واختياراً.

وقوله: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أى: نحن برآء منكم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

وقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ قال مجاهد: أى لا خصومة. قال السدى: وذلك قبل نزول آية السيف. وهذا متجه؛ لأن هذه الآية مكية، وآية السيف بعد الهجرة.

وقوله: ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ أى: يوم القيامة، كقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦].

وقوله: ﴿وَالِيهِ الْمَصِيرُ﴾ أى: المرجع والمآب يوم الحساب.

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (١٦) **اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ** (١٧) **يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ** (١٨).

يقول تعالى - متوعدا الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به -: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ أى: يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى، ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أى: باطلة عند الله، ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ أى: منه، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أى: يوم القيامة.

قال ابن عباس، ومجاهد: جادلوا المؤمنين بعد ما استجابوا لله ولرسوله، ليصدوهم عن الهدى، وطمعوا أن تعود الجاهلية.

وقال قتادة: هم اليهود والنصارى، قالوا لهم: ديننا خير من دينكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير منكم، وأولى بالله منكم. وقد كذبوا فى ذلك.

ثم قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ يعنى: الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه ﴿وَالْمِيزَانَ﴾، وهو: العدل والإنصاف، قاله مجاهد، وقاتة.

وهذه كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ . أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ . وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ - ٩].

(١) فى ت: «لا يفرق».

وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾: فيه ترغيب فيها، وترهيب منها، وترهيد في الدنيا.
 وقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أى: يقولون: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سبأ: ٢٩]، وإنما يقولون ^(١) ذلك تكذيباً واستبعاداً، وكفراً وعناداً، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أى: خائفون وجلّون من وقوعها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أى: كائنة لا محالة، فهم مستعدون لها عاملون من أجلها.

وقد روى من طرق تبلغ درجة التواتر، فى الصحاح والحسان، والسنن والمسانيد، وفى بعض ألفاظه؛ أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ بصوت جهورى، وهو فى بعض أسفاره، فناداه فقال: يا محمد. فقال له النبى ﷺ نحوا من صوته «هاؤم». فقال: متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك، إنها كائنة، فما أعددت لها؟». فقال: حُب الله ورسوله. فقال: «أنت مع من أحببت» ^(٢).

فقوله فى الحديث: «المرء مع من أحب»، هذا متواتر لا محالة، والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة، بل أمره بالاستعداد لها.

وقوله: ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ أى: يحاجّون فى وجودها ويدفعون وقوعها، ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أى: فى جهل بين؛ لأن الذى خلق السموات والأرض قادرٌ على إحياء الموتى بطريق الأولى والأخرى، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (١٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢).

يقول تعالى مخبراً عن لطفه بخلقه فى رزقه إياهم عن آخرهم، لا ينسى أحداً منهم، سواء فى رزقه البرّ والفاجر، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦]. ولها ^(٣) نظائر كثيرة

وقوله: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أى: يوسع على من يشاء، ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ أى: لا يعجزه شيء.

(١) فى ت: «يقول».

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦١٦٧)، ومسلم فى صحيحه برقم (٢٦٣٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه.

(٣) فى ت: «ولهذا».

ثم قال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ أى: عمل الآخرة، ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ أى: نقويه ونعينه على ما هو بصدد، ونكثر نغماه، ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما يشاء الله. ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ أى: ومن كان إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا، وليس له إلى الآخرة همة^(١) البتة بالكلية، حرّمه الله الآخرة، والدنيا إن شاء أعطاه منها، وإن لم يشأ لم يحصل^(٢) له لا هذه ولا هذه، وفاز هذا الساعى بهذه النية بالصفقة الخاسرة فى الدنيا والآخرة.

والدليل على هذا أن هذه الآية هاهنا مقيدة بالآية التى فى «سبحان» وهى قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا . كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ١٨ - ٢١].

وقال الثورى، عن مغيرة، عن أبى العالية، عن أبى بن كعب [رضى الله عنه]^(٣) قال: قال رسول الله ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسَّاء والرفعة، والنصر والتمكين فى الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له فى الآخرة من نصيب»^(٤).

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ أى: هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس، من تحريم ما حرّموا عليهم، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل الميتة والدم والقمار، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة^(٥) الباطلة، التى كانوا قد اخترعوها فى جاهليتهم، من التحليل والتحريم، والعبادات الباطلة، والأقوال الفاسدة.

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت عمرو بن لُحى بن قَمْعَةَ يَجْرُ قُصْبَهُ فى النار»^(٦). لأنه أول من سبب السوائب. وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وهو الذى حمّل قريشا على عبادة الأصنام، لعنه الله وقبحه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِّي بَيْنَهُمْ﴾ ، أى: لعوجلوا بالعقوبة، لولا ما تقدم من الإنظار إلى يوم المعاد، ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: شديد موجع^(٧) فى جهنم وبئس المصير.

ثم قال تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أى: فى عرصات القيامة، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أى: الذى يخافون منه واقع بهم لا محالة، هذا حالهم يوم معادهم، وهم فى هذا الخوف والوجل، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ، فأين هذا من هذا:

(٣) زيادة من ت.

(٢) فى أ: «يجعل».

(١) فى ت: «وهم».

(٤) رواه البغوى فى شرح السنة (٣٣٥/١٤) من طريق الثورى به.

(٥) فى أ: «الجهالات».

(٦) انظر تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية: ١٠٣ من سورة المائدة.

(٧) فى ت، أ: «وجيع».

أين من هو فى العَرَصات فى الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه، ممن هو فى روضات الجنات، فيما يشاء من مآكل ومشرب وملابس ومساكن ومناظر ومناكح وملاذ، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

قال الحسن بن عرفة: حدثنا عمر بن عبد الرحمن الأبار، حدثنا محمد بن سعد الأنصارى^(١)، عن أبى طيبة، قال: إن الشَّرب من أهل الجنة لتظلمهم السحابة فتقول: ما أمطرُكم. قال: فما يدعو داع من^(٢) القوم بشئ إلا أمطرتهم، حتى إن القائل منهم ليقول: أمطرينا كواعب أترابا.

رواه ابن جرير، عن الحسن بن عرفة، به.

ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أى: الفوز العظيم، والنعمة التامة السابعة الشاملة العامة.

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤).

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنة، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: هذا حاصل لهم، كائن لا محالة، ببشارة الله لهم به.

وقوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش: لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم ما لا تعطوني، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عنى، وتذرونى أبلغ رسالات^(٣) ربى، إن لم تنصرونى فلا تؤذونى بما بينى وبينكم من القرابة.

قال البخارى: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عبد الملك بن ميسرة قال: سمعت طاوسا^(٤) عن ابن عباس: أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾، فقال سعيد بن جبیر: قريى آل محمد. فقال ابن عباس: عَجَلْتُ، إن النبى ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة. انفرد به البخارى^(٥).

ورواه الإمام أحمد، عن يحيى القطان، عن شعبة به. وهكذا روى عامر الشعبي، والضحاك، وعلى بن أبى طلحة، والعموفى، ويوسف بن مهران، وغير واحد، عن ابن عباس، مثله. وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدى، وأبو مالك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى^(٦): حدثنا هاشم بن يزيد الطبرانى وجعفر القلانسى قالوا: حدثنا

(٣) فى ت، م، أ: «رسالة».

(٢) فى أ: «فى».

(١) فى ت: «روى الحسن بن عرفة بسنده».

(٤) فى ت: «روى البخارى بسنده».

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨١٨)، والمسند (٢٢٩/١).

(٦) فى ت: «وروى الطبرانى».

آدم بن أبي إياس، حدثنا شريك، عن خُصَيْف، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال لهم رسول الله ﷺ: «لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تودّوني في نفسي لقرايتي منكم، وتحفظوا القراية التي بيني وبينكم»^(١).

وروى الإمام أحمد، عن حسن بن موسى: حدثنا قَزَعَة، يعنى ابن سُويّد - وابن أبي حاتم - عن أبيه، عن مسلم بن إبراهيم، عن قَزَعَة بن سويد - عن ابن أبي نَجِيج، عن مجاهد، عن ابن عباس؛ أن النبي ﷺ قال: «لا أسألكم على ما آتيتكم من البيئات والهدى أجراً، إلا أن تُؤادوا الله، وأن تقربوا إليه بطاعته»^(٢).

وهكذا روى قتادة عن الحسن البصري، مثله.

وهذا كأنه تفسير بقول ثان، كأنه يقول: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ أى: إلا أن تعملوا بالطاعة التي تقربكم عند الله زلفى.

وقول ثالث: وهو ما حكاه البخارى وغيره، رواية عن سعيد بن جبير، ما معناه، أنه قال: معنى ذلك أن تودوني في قرايتي، أى: تحسنوا إليهم وتبروهم.

وقال السدى، عن أبي الديلم قال: لما جىء بعلى بن الحسين أسيراً، فأقيم على درج دمشق، قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذى قتلکم واستأصلکم، وقطع قرنى الفتنة. فقال له على بن الحسين: أقرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: أقرأت آل حم؟ قال: قرأت القرآن، ولم أقرأ آل حم. قال: ما قرأت: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾؟ قال: وإنكم أنتم^(٣) هم؟ قال: نعم.

وقال أبو إسحاق السبيعي: سألت عمرو بن شعيب عن قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، فقال: قربى النبي ﷺ. رواهما ابن جرير^(٤).

ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا عبد السلام، حدثني يزيد ابن أبي زياد، عن مقسم، عن ابن عباس قال: قالت الأنصار: فعلنا وفعلنا، وكأنهم فخرُوا. فقال ابن عباس - أو: العباس، شك عبد السلام -: لنا الفضل عليكم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاهم فى مجالسهم فقال: «يا معشر الأنصار، ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بى؟» قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «ألم تكونوا ضللاً فهداكم الله بى؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «أفلا تحييونى؟» قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: «ألا تقولون: ألم يخرجك قومك فأويناك؟ أو لم يكذبوك فصدقناك؟ أو لم يخذلوك فنصرناك؟» قال: فما زال يقول حتى جثوا على الركب، وقالوا: أموالنا وما فى أيدينا لله ولرسوله. قال: فنزلت: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(٥).

وهكذا رواه ابن أبي حاتم، عن على بن الحسين، عن عبد المؤمن بن على، عن عبد السلام، عن

(١) المعجم الكبير (١١/٤٣٥).

(٢) المسند (١/٢٦٨).

(٣) فى ت، أ: «لأنتم».

(٤) تفسير الطبرى (١٧/٢٥).

(٥) تفسير الطبرى (١٦/٢٥).

يزيد بن أبى زياد - وهو ضعيف - بإسناده مثله، أو قريباً منه.

وفى الصحيحين - فى قسم غنائم حنين - قريب من هذا السياق، ولكن ليس فيه ذكر نزول هذه الآية. وذكرُ نزولها فى المدينة فيه نظر؛ لأن السورة مكية، وليس يظهر بين هذه الآية الكريمة وبين السياق مناسبة، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا رجل سماه، حدثنا حسين الأشقر، عن قيس، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير^(١)، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ لَأَسْأَلَكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم؟ قال: «فاطمة وولدها، عليهم السلام»^(٢).

وهذا إسناده^(٣) ضعيف، فيه مبهم لا يعرف، عن شيخ شيعى متخرق^(٤)، وهو حسين الأشقر، ولا يقبل خبره فى هذا المحل. وذكرُ نزول هذه الآية فى المدينة بعيد؛ فإنها مكية ولم يكن إذ ذاك لفاطمة أولاد بالكلية، فإنها لم تتزوج بعلى إلا بعد بدر من^(٥) السنة الثانية من الهجرة.

والحق تفسير الآية بما فسرهما به الإمام حبر الأمة، وترجمان القرآن، عبد الله بن عباس، كما رواه عنه البخارى [رحمه الله]^(٦): «ولا تنكر الوصاة»^(٧) بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة، من أشرف بيت وجد على وجه الأرض، فخراً وحسباً ونسباً، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجليلة، كما كان عليه سلفهم، كالعباس وبنيه، وعلى وأهل بيته وذريته، رضى الله عنهم أجمعين.

و [قد ثبت]^(٨) فى الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته بغير خُم: «إنى تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتى، وإنهما لم يفترقا حتى يردا على الحوض»^(٩).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إسماعيل بن أبى خالد، عن يزيد بن أبى زياد، عن عبد الله بن الحارث^(١٠)، عن العباس بن عبد المطلب قال: قلت: يا رسول الله، إن قريشا إذا لقي بعضهم بعضاً لقوهم ببشر حسن، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها؟ قال: فغضب النبى ﷺ غضباً شديداً، وقال: «والذى نفسى بيده، لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم الله ولرسوله»^(١١).

ثم قال أحمد^(١٢): حدثنا جرير، عن يزيد بن أبى زياد، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد المطلب ابن ربيعة قال: دخل العباس على رسول الله ﷺ فقال: إنا لنخرج فنرى قريشا تُحدث، فإذا رأونا

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».

(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٤٤٤/١١) من طريق حرب الطحان عن حسين الأشقر به.

(٣) فى أ: «الإسناده». (٤) فى أ: «مخترق». (٥) فى أ: «فى».

(٦) زيادة من ت، م، أ. (٧) فى ت: «ولا ينكر الوصاية». (٨) زيادة من ت، أ.

(٩) صحيح مسلم برقم (٢٤٠٨) بنحوه من حديث زيد بن الأرقم.

(١٠) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده».

(١١) المسند (٢٠٧/١).

(١٢) فى ت: «ثم روى الإمام أحمد».

سكتوا. فغضب رسول الله ﷺ ودرَّ عِرْقُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ^(١)، ثم قال: «والله لا يدخل قلب امرئ^(٢) إيمان حتى يحبكم الله ولقرايتي»^(٣).

وقال البخارى: حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب، حدثنا خالد، حدثنا شعبة، عن واقد قال: سمعتُ أبى يحدث^(٤) عن ابن عمر، عن أبى بكر الصديق، رضى الله عنه، قال: ارقبوا محمدا ﷺ فى أهل بيته^(٥).

وفى الصحيح: أن الصديق قال لعلى، رضى الله عنهما: والله لقراية رسول الله ﷺ أحب إلى أن أصل من قرايتي^(٦) ^(٧).

وقال عمر بن الخطاب للعباس، رضى الله عنهما: والله لإسلامك يوم أسلمت، كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم؛ لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب.

فحال الشيخين، رضى الله عنهما، هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك؛ ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين، رضى الله عنهما، وعن سائر الصحابة أجمعين.

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أبى حيان التيمى، حدثنى يزيد ابن حيان قال: انطلقت أنا وحسين بن ميسرة، وعمر^(٨) بن مسلم إلى زيد^(٩) بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت يا زيد^(١٠) خيراً كثيراً، رأيت رسول الله ﷺ، وسمعت حديثه، وغزوت معه، وصليت معه. لقد رأيت يا زيد خيراً كثيراً. حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ. فقال: يا ابن أخى، والله كبرت^(١١) سنى، وقدم عهدى، ونسيت بعض الذى كنت أعمى من رسول الله ﷺ، فما حدثتكم فاقبلوه، وما لا فلا تُكَلِّفُونِيهِ. ثم قال: قام رسول الله ﷺ يوماً خطيباً فينا، بماء يدعى خُماً - بين مكة والمدينة - فحمد الله وأثنى عليه، وذكر ووعظ، ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس، إنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيب، وإنى تارك فيكم الثقلين، أولهما: كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فحث على كتاب الله ورغب فيه، وقال: «وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى، أذكركم الله فى أهل بيتى». فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: إن نساءه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِّ الصدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال: هم آل على، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل العباس. قال: أكل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم. وهكذا رواه مسلم [فى الفضائل]^(١٢)، والنسائى من طرق عن يزيد بن حيان به^(١٣).

(١) فى ت، أ: «عينه».

(٢) فى ت، أ: «امرئ مسلم».

(٣) المسند (٢٠٧/١).

(٤) فى ت: «وروى البخارى بإسناده».

(٥) صحيح البخارى برقم (٣٧١٣).

(٦) فى أ: «أحب إلى من أن أصل قرايتي».

(٧) صحيح البخارى برقم (٣٧١٢).

(٨) فى ت، أ: «وعمر».

(٩) فى أ: «يزيد».

(١٠) فى أ: «يزيد».

(١١) زيادة من ت، م، أ.

(١٢) فى ت، أ: «والله لقد كبرت».

(١٣) المسند (٣٦٦/٤) وصحيح مسلم برقم (٢٤٠٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨١٧٥).

وقال أبو عيسى الترمذى^(١): حدثنا علي بن المنذر الكوفى، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا الأعمش، عن عطية، عن أبى سعيد - والأعمش، عن حبيب بن أبى ثابت، عن زيد بن أرقم - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله جبل ممدود من^(٢) السماء إلى الأرض، والآخر عترتى: أهل بيتى، ولن يتفرقا حتى يردا على الخوض، فانظروا كيف تخلفونى فيهما».

تفرد بروايته الترمذى^(٣)، ثم قال: هذا حديث حسن غريب.

وقال الترمذى أيضا^(٤): حدثنا نصر بن عبد الرحمن الكوفى، حدثنا زيد بن الحسن، عن جعفر ابن محمد، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله^(٥) قال: رأيت رسول الله ﷺ فى حجته يوم عرفة، وهو على ناقته القصواء يخطب، فسمعتة يقول: «يا أيها الناس، إنى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله، وعترتى: أهل بيتى».

تفرد به الترمذى أيضا^(٦)، وقال: حسن غريب، وفى الباب عن أبى ذر، وأبى سعيد، وزيد بن أرقم، وحذيفة بن أسيد.

ثم قال الترمذى: حدثنا أبو داود سليمان بن الأشعث، حدثنا يحيى بن معين، حدثنا هشام بن يوسف، عن عبد الله بن سليمان النوفلى، عن محمد بن على بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عباس^(٧) قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم^(٨) من نعمه، وأحبونى^(٩) بحب الله، وأحبوا أهل بيتى بحبى».

ثم قال^(١٠): حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه^(١١).

وقد أوردنا أحاديث أخر عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣]^(١٢)، بما أغنى عن إعادتها هاهنا، والله الحمد والمنة.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا مفضل بن عبد الله، عن أبى إسحاق، عن حنّس قال: سمعت أبا ذر وهو آخذ بحلقة الباب يقول: يا أيها الناس، من عرفنى فقد عرفنى، ومن أنكرنى فأنا أبو ذر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما مثل أهل بيتى فيكم مثل سفينة نوح، من

(٢) فى ت: «بين».

(١) فى ت: «وروى الترمذى».

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٧٨٨).

(٤) فى ت: «وروى الترمذى».

(٦) سنن الترمذى برقم (٣٧٨٦).

(٧) فى ت: «وروى الترمذى أيضا عن ابن عباس».

(٩) فى ت: «فأحبونى».

(١١) سنن الترمذى برقم (٣٧٨٩).

(١٢) انظر: تفسير الآية: ٣٣ من سورة الاحزاب.

(٥) فى ت: «عبد الله رضى الله عنه».

(٨) فى ت: «يغذوكم به».

(١٠) فى ت: «وقال».

دخلها نجا، ومن تخلف عنها هلك»^(١).

هذا بهذا الإسناد ضعيف.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ أى: ومن يعمل حسنة ﴿نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ أى: أجرا وثوابا، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال بعض السلف: [إن]^(٢) من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أى: يغفر الكثير من السيئات، ويكثر القليل من الحسنات، فيستر ويغفر، ويضاعف فيشكر.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ أى: لو افتريت عليه كذبا كما يزعم هؤلاء الجاهلون ﴿يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ أى: لطبع على قلبك وسلبك ما كان آتاك من القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤- ٤٧] أى: لانتقمنا منه أشد الانتقام، وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه.

وقوله: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ ليس معطوفا على قوله: ﴿يَخْتِمْ﴾ فيكون مجزوما، بل هو مرفوع على الابتداء، قاله ابن جرير، قال: وحذفت من كتابته «الواو» في رسم المصحف الإمام، كما حذفت فى^(٣) قوله: ﴿سَدُّعُ الزَّبَانِيَةِ﴾ [العلق: ١٨]، وقوله: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ [الإسراء: ١١].

وقوله: ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ معطوف على ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ﴾ أى: يحققه ويثبت ويبينه ويوضحه بكلماته، أى بحججه وبراهينه، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: بما تكنه الضمائر، وتنطوى عليه السرائر.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦) وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨).

يقول تعالى عمتنا على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه: أنه من كرمه وحلمه أنه يعفو ويصفح ويستر ويغفر، كقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقد ثبت فى صحيح مسلم، رحمه الله، حيث قال:

(١) ورواه الحاكم فى المستدرک وصححه (٣/ ١٥٠) من طريق مفضل بن صالح عن أبى إسحاق به، وتعبه الذهبى بقوله: «فيه مفضل ابن صالح واه»، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣/ ٣٧) من طريق عبد الله بن داهر عن عبد الله بن عبد القدوس عن الأعمش عن أبى إسحاق به، وفى إسناده عبد الله بن داهر الرازى متروك.
(٢) زيادة من ت، م، أ.
(٣) فى ت، أ: «من».

حدثنا محمد بن الصباح وزهير بن حرب قال^(١): حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا إسحاق بن أبي طلحة، حدثني أنس بن مالك - وهو عمه^(٢) - قال: قال رسول الله ﷺ: «الله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كان راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم، أنت عبدى وأنا ربك - أخطأ من شدة الفرح»^(٣).

وقد ثبت أيضا في الصحيح من رواية عبد الله بن مسعود نحوه^(٤) (٥).

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري في قوله: «وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ»: إن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الله أشد فرحا بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته»^(٦) في المكان الذي يخاف أن يقتله العطش فيه»^(٧).

وقال همام بن الحارث: سئل ابن مسعود عن الرجل يفجر بالمرأة ثم يتزوجها؟ قال: لا بأس به، وقرأ: «وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ» الآية رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث شريك القاضي، عن إبراهيم بن مهاجر، عن إبراهيم النخعي، عن همام، فذكره^(٨).

وقوله: «وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ» أى: يقبل التوبة في المستقبل، ويعفو عن السيئات في الماضي، «وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ» أى: هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقلتم، ومع هذا يتوب على من تاب إليه.

وقوله: «وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» قال السدى: يعنى يستجيب لهم. وكذا قال ابن جرير: معناه يستجيب الدعاء لهم^(٩) [لأنفسهم]^(١٠) ولأصحابهم وإخوانهم. وحكاه عن بعض النحاة، وأنه جعلها كقوله: «فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ» [آل عمران: ١٩٥].

ثم روى هو وابن أبي حاتم، من حديث الأعمش، عن شقيق بن سلمة، عن سلمة بن سبرة قال: خطبنا معاذ بالشام فقال: أنتم المؤمنون، وأنتم أهل الجنة. والله إنى أرجو أن يدخل الله من تسبون من فارس والروم الجنة، وذلك بأن أحدكم إذا عمل له - يعنى أحدهم عملا - قال: أحسنت رحمك^(١١) الله، أحسنت بارك الله فيك، ثم قرأ: «وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم

(١) فى أ: «قالا».

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٧٤٧).

(٣) فى ت: «مثله».

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٧٤٤).

(٥) فى ت: «راحلته».

(٦) تفسير عبد الرزاق (١٥٦/٢) وقد روى متصلا، فرواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٦٧٥) من طريق عبد الرزاق عن معمر عن همام ابن منبه عن أبى هريرة به.

(٧) تفسير الطبرى (١٨/٢٥).

(٨) فى ت، م: «لهم الدعاء».

(٩) فى ت، م، أ: «يرحمك».

(١٠) زيادة من ت، م.

مِنْ فَضْلِهِ ﴿٤٩﴾ .

وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية أنه جعل^(١) [مثل]^(٢) قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمْعُونَ الْقَوْلَ﴾ [الزمر: ١٨] أى: هم الذين يستجيبون للحق ويتبعونه، كقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦] والمعنى الأول أظهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أى: يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك؛ ولهذا قال ابن أبى حاتم:

حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن المصفى، حدثنا بقية، حدثنا إسماعيل بن عبد الله الكندى، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله^(٤) قال: قال رسول الله ﷺ فى قوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾، قال: «الشفاعة لمن وجبت له النار، ممن صنع إليهم معروفاً^(٥) فى الدنيا»^(٦).

وقال قتادة عن إبراهيم النخعى اللخمي فى قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، قال: يشفعون فى إخوانهم، ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال: يشفعون فى إخوان إخوانهم. وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾: لما ذكر المؤمنين وما لهم من الثواب الجزيل، ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجه المؤلم يوم معادهم وحسابهم.

وقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق، لحملهم ذلك على البغى والطغيان من بعضهم على بعض، أشرا وبطرا.

وقال قتادة: كان يقال: خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك. وذكر قتادة حديث: «إنما أخاف عليكم ما يخرج الله من زهرة الحياة الدنيا»، وسؤال السائل: أيتى الخير بالشر؟ الحديث.

وقوله: ﴿وَلَكِنْ يُنْزَلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أى: ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم، وهو أعلم بذلك، فيغنى من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر. كما جاء فى الحديث المروى: «إن من عبادى لمن^(٧) لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادى لمن لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه».

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أى: من بعد إياس الناس من نزول المطر، ينزله عليهم فى وقت حاجتهم وفقرهم إليه، كقوله: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْسِلِينَ﴾ [الروم: ٤٩].

وقوله: ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أى: يعم بها الوجود على أهل ذلك القطر وتلك الناحية.

(١) فى ت، م: «جعله».

(٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت: «كقوله». (٤) فى ت: «روى ابن أبى حاتم بسنده عن عبد الله».

(٥) فى أ: «المعروف».

(٦) ورواه ابن أبى عاصم فى السنة برقم (٨٤٦) من طريق محمد بن مصفى عن بقية به، وفى إسناده إسماعيل الكندى. قال الذهبى فى الميزان (١/ ٢٣٥): «عن الأعمش، وعنه بقية، بخبر عجيب منكرو».

(٧) فى ت: «من».

قال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، قُحطَ المطر وقنط الناس؟ فقال عمر، رضى الله عنه: مطرتم، ثم قرأ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾^(١).

﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أى: هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم فى دنياهم وأخراهم، وهو المحمود العاقبة فى جميع ما يقدره ويفعله.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١).

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر ﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ أى: ذرأ فيهما، أى: فى السموات والأرض، ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾، وهذا يشمل الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوانات، على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم، وطباعهم وأجناسهم، وأنواعهم، وقد فرقهم فى أرجاء أقطار الأرض والسموات، ﴿وَهُوَ﴾ مع هذا كله ﴿عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ أى: يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق فى صعيد واحد، يسمعهم الداعى، وينفذهم البصر، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق.

وقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أى: مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما هو^(٢) عن سيئات تقدمت لكم، ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ أى: من السيئات، فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]. وفى الحديث الصحيح: «والذى نفسى بيده، ما يصيب المؤمن من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هم ولا حزن، إلا كفر الله عنه بها من خطاياها، حتى الشوكة^(٣) يشاكها»^(٤).

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا أيوب قال: قرأت فى كتاب أبى قلابة قال: نزلت: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وأبو بكر يأكل، فأمسك وقال: يا رسول الله، إنى لراء ما عملت من خير وشر؟ فقال: «أرأيت ما رأيت مما تكره، فهو من مثاقيل ذرّ الشر، وتدخر مثاقيل الخير حتى تعطاه يوم القيامة» قال: قال أبو إدريس: فإنى أرى مصداقها فى كتاب الله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾^(٥).

ثم رواه من وجه آخر، عن أبى قلابة، عن أنس^(٦)، قال: والأول أصح.

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٩/٢٥).

(٢) فى ت، أ: «هى».

(٣) فى ت، أ: «بالشوكة».

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٦٤١، ٥٦٤٢) وصحيح مسلم برقم (٢٥٧٣) «من حديث أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله عنهما».

(٥) تفسير الطبرى (٢٥/٢٠).

(٦) تفسير الطبرى (٢٥/٢١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع، حدثنا مروان بن معاوية الفزاري، حدثنا الأزهر بن راشد الكاهلي، عن الخضر بن القوأس البجلي، عن أبي سخيعة^(١)، عن علي، رضى الله عنه، قال: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله عز وجل، وحدثنا به رسول الله ﷺ، قال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾. وسأفسرها لك يا علي: «ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا، فبما كسبت أيديكم»^(٢)، والله تعالى أحلم من أن يثني عليه العقوبة في الآخرة، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله^(٣) تعالى أكرم من أن يعود بعد عفوّه».

وكذا رواه الإمام أحمد، عن مروان بن معاوية وعبد، عن أبي سخيعة قال: قال علي... فذكر نحوه مرفوعاً^(٤).

ثم روى ابن أبي حاتم [نحوه]^(٥) من وجه آخر موقوفاً فقال: حدثنا أبي، حدثنا منصور بن أبي مزاحم، حدثنا أبو سعيد بن أبي الوضاح، عن أبي الحسن، عن أبي جحيفة قال: دخلت على علي ابن أبي طالب، رضى الله عنه، فقال: ألا أحدثكم بحديث ينبغي لكل مؤمن أن يعيه^(٦)؟ قال: فسألناه، فتلا^(٧) هذه الآية: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾. قال: ما عاقب الله به في الدنيا فالله أحلم من أن يثني عليه العقوبة يوم القيامة، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعود في عفوّه يوم القيامة.

وقال^(٨) الإمام أحمد: حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا طلحة - يعنى ابن يحيى - عن أبي بردة، عن معاوية - هو ابن أبي سفيان، رضى الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كفر الله عنه به من سيئاته»^(٩).

وقال أحمد أيضاً: حدثنا حسين، عن زائدة، عن ليث، عن مجاهد^(١٠)، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا كثرت ذنوب العبد، ولم يكن له ما يكفرها، ابتلاه الله بالحرز ليكفرها»^(١١).

وقال^(١٢) ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا أبو أسامة، عن إسماعيل بن مسلم، عن الحسن - هو البصري - قال في قوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ قال: لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «والذى نفس محمد بيده، ما من خدش عود، ولا اختلاج عرق، ولا عثرة قدم، إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر»^(١٣).

وقال^(١٤) أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عمر بن علي، حدثنا هشيم، عن منصور، عن الحسن، عن

(١) فى ت: «وروى ابن أبي حاتم بإسناده». (٢) فى أ: «أيديكم ويعفو عن كثير». (٣) فى ت: «والله».

(٤) المسند (٨٥/١).

(٥) فى أ: «يصيبه».

(٦) فى ت: «وروى».

(٧) فى ت: «قبل».

(٨) المسند (٩٨/٤) قال الهيثمى فى المجمع (٣٠١/٢): «رجال أحمد رجال الصحيح».

(٩) فى ت، م: «عن مجاهد، وروى أيضاً».

(١٠) المسند (١٥٧/٦).

(١١) فى ت: «وروى».

(١٢) ورواه هناد بن السرى فى الزهد برقم (٤٣١) من طريق إسماعيل بن مسلم به مرسلًا.

(١٣) فى ت: «وروى».

عمران بن حصين، رضى الله عنه، قال: دخل عليه بعض أصحابه وقد كان ابتلى فى جسده، فقال له بعضهم إنا لَنَبْتَسُّ لَكَ لما نرى فيك. قال: فلا تبتس بما ترى، فإن ما ترى بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾.

[قال: (١)] وحدثننا أبى: حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحماني، حدثنا جرير، عن أبى البلاد (٢) قال: قلت للعلاء بن بدر: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، وقد ذهب بصرى وأنا غلام؟ قال: فبذنوب والديك.

وحدثنا أبى: حدثنا على بن محمد الطنافسى، حدثنا وكيع، عن عبد العزيز بن أبى رواد، عن الضحاك (٣) قال: ما نعلم أحدا حفظ القرآن ثم نسيه (٤) إلا بذنب، ثم قرأ الضحاك: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾. ثم يقول الضحاك: وأى مصيبة أعظم من نسيان القرآن.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢)﴾ إِنَّ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوقِنُ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِّنْ مَّحِصٍ (٣٥)﴾.

يقول تعالى: ومن آياته الدالة على قدرته وسلطانه، تسخيره البحر لتجرى فيه الفلك بأمره، وهى الجوارى فى البحر كالأعلام، أى: كالجبال، قاله مجاهد، والحسن، والسدى، والضحاك، أى: هى (٥) فى البحر كالجبال فى البر، ﴿إِنَّ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ أى: التى تسير بالسفن (٦)، لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك (٧) السفن، بل تظل راكدة لا تجىء ولا تذهب، بل واقفة على ظهره، أى: على وجه الماء ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أى: فى الشدائد ﴿شَكُورٍ﴾ أى: إن فى تسخيره البحر وإجرائه الهوى بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم، لدلالات على نعمه تعالى على خلقه ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أى: فى الشدائد، ﴿شَكُورٍ﴾ فى الرخاء.

وقوله: ﴿أَوْ يُوقِنُ بِمَا كَسَبُوا﴾ أى: ولو شاء لأهلك السفن وغرقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون عليها (٨)، ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ أى: من ذنوبهم. ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر (٩).

وقال بعض علماء التفسير: معنى قوله: ﴿أَوْ يُوقِنُ بِمَا كَسَبُوا﴾ أى: لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية، فأخذت السفن وأحالتها (١٠) عن سيرها المستقيم، فصرفت ذات اليمين أو ذات الشمال، أبقة لا تسير على طريق، ولا إلى جهة مقصد.

(٣) فى ت: «وروى أيضا عن الضحاك».

(٦) فى ت: «تسير بها السفن».

(٩) فى م: «كل من يركب فى البحر»، وفى أ: «كل من يركب البحر».

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى أ: «أبى العلاء».

(٤) فى أ: «سيه». (٥) فى أ: «هذه».

(٧) فى ت: «يتحرك». (٨) فى ت، م، أ: «فيها».

(١٠) فى ت، أ: «فأجالتها»، وفى م: «فأجالتها».

وهذا القول هو يتضمن هلاكها، وهو مناسب للأول^(١)، وهو أنه تعالى لو شاء لسكن الريح فوقفت، أو لقواه فشردت وأبقت وهلك. ولكن من لطفه^(٢) ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة، كما يرسل المطر بقدر الكفاية، ولو أنزله كثيرا جدا لهدم البنيان، أو قليلا لما أنبت الزرع^(٣) والثمار، حتى إنه يرسل إلى مثل بلاد مصر سيحا من أرض أخرى غيرها^(٤)؛ لأنهم لا يحتاجون إلى مطر، ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم، وأسقط جدرانهم.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّخِصٍ﴾ أى: لا محيد لهم عن بأسنا ونقمنا، فإنهم مقهورون بقدرتنا.

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ (٣٩).

يقول تعالى محقرا بشأن الحياة الدنيا وزينتها، وما فيها من الزهرة والنعيم الفانى، بقوله: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به، فإنما هو متاع الحياة الدنيا، وهى دار دنيئة فانية زائلة لا محالة، ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أى: وثواب الله خير من الدنيا، وهو باق سرمدى، فلا تقدموا الفانى على الباقي؛ ولهذا قال: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: للذين صبروا على ترك الملاذ فى الدنيا، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى: ليعينهم على الصبر فى أداء الواجبات وترك المحرمات.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾، وقد قدمنا الكلام على الإثم والفواحش فى «سورة الأعراف» ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أى: سجيتهم [وخلقهم وطبعهم]^(٥) تقتضى الصفح والعفو عن الناس، ليس سجيتهم الانتقام من الناس.

وقد ثبت فى الصحيح: أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمة الله^(٦). وفى حديث آخر: «كان يقول لأحدنا^(٧) عند المعتبة: ماله؟ تربت جبينه»^(٨).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان، عن زائدة، عن منصور^(٩)، عن إبراهيم قال: كان المؤمنون يكرهون أن يستذلوا، وكانوا إذا قدروا عفوا.

(١) فى ت، أ: «للقول الأول». (٢) فى أ: «لطف الله». (٣) فى ت، م: «الزروع».

(٤) فى أ: «عليها». (٥) زيادة من أ.

(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦١٢٦) من حديث عائشة بلفظ: «وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه فى شيء قط، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم بها الله».

(٧) فى أ: «للرجل».

(٨) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٠٣١) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه.

(٩) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أى: اتبعوا رسله وأطاعوا أمره، واجتنبوا زجره، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾، وهى أعظم العبادات لله عز وجل، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنِهِمْ﴾ أى: لا يبرمون أمرا حتى يتشاوروا^(١) فيه، ليتساعدوا بآرائهم فى مثل الحروب وما جرى مجراها، كما قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ولهذا كان عليه [الصلاة]^(٢) السلام، يشاورهم فى الحروب ونحوها، ليطيب بذلك قلوبهم. وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب [رضى الله عنه]^(٣) الوفاة حين طعن، جعل الأمر بعده شورى فى ستة نفر، وهم: عثمان، وعلى، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، رضى الله عنهم أجمعين، فاجتمع رأى الصحابة كلهم على تقديم عثمان عليهم، رضى الله عنهم، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، وذلك بالإحسان إلى خلق الله، الأقرب إليهم منهم فالأقرب.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ أى: فيهم قوة الانتصار من ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بعاجزين ولا أذلة، بل يقدرّون على الانتقام من بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدرّوا وعفوا، كما قال يوسف، عليه السلام، لإخوته: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [وهو أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ]^(٤)﴾ [يوسف: ٩٢]، مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه، وكما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصده عام الحديبية، ونزلوا من جبل التنعيم، فلما قدر عليهم منّ عليهم^(٥) مع قدرته على الانتقام، وكذلك عفوه عن غَوْرَث بن الحارث، الذى أراد الفتك به [عليه السلام]^(٦) حين اختلط سيفه وهو نائم، فاستيقظ، عليه السلام، وهو فى يده صلّتا، فانتهره، فوضعه من يده، وأخذ رسول الله ﷺ السيف من يده، ودعا أصحابه، ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل، وعفا عنه. وكذلك عفا عن لبيد بن الأعصم^(٧)، الذى سحره، عليه السلام، ومع هذا لم يعرض له، ولا عاتبه، مع قدرته عليه. وكذلك عفوه، عليه السلام، عن المرأة اليهودية - وهى زينب أخت^(٨) مرحب اليهودى الخيبرى الذى قتله محمود بن مسلمة - التى سمت الذراع يوم خيبر، فأخبره الذراع بذلك، فدعاها فاعترفت فقال: «ما حملك على ذلك» قالت: أردت إن كنت نبيا لم يضرك، وإن لم تكن نبيا استرحنا منك، فأطلقها، عليه الصلاة والسلام، ولكن لما مات منه بشر بن البراء قتلها به، والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة جدا، والحمد لله^(٩).

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٠) وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) .

قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا

(١) فى أ: «يشاورون». (٢) زيادة من ت. (٣) زيادة من ت. (٤) زيادة من أ. (٥) فى ت، م، أ: «عنهم». (٦) زيادة من ت. (٧) فى ت: «أعصم». (٨) فى ت، م: «بنت». (٩) فى أ: «والله الحمد والمنة».

اعْتَدَى عَلَيْكُمْ» [البقرة: ١٩٤]. وكقوله^(١) ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٩]، فشرع العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، كقوله [تعالى]^(٢) : ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ [المائدة: ٤٥]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أى: لا يضيع ذلك عند الله كما صح فى الحديث: «وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا». وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أى: المعتدين، وهو المبتدئ بالسيئة.

[وقال بعضهم: لما كانت الأقسام ثلاثة: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات، ذكر الأقسام الثلاثة فى هذه الآية فذكر المقتصد وهو الذى يفيض بقدر حقه لقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾، ثم ذكر السابق بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، ثم ذكر الظالم بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ فأمر بالعدل، وندب إلى الفضل، ونهى من الظلم]^(٣).

ثم قال: ﴿وَلَمَنْ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مَن سَبِيلٍ﴾ أى: ليس عليهم جناح فى الانتصار ممن ظلمهم.

قال ابن جرير^(٤): حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيغ^(٥)، حدثنا معاذ بن معاذ، حدثنا^(٦) ابن عون قال: كنت أسأل عن الانتصار: ﴿وَلَمَنْ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مَن سَبِيلٍ﴾، فحدثنى على ابن زيد^(٧) بن جدعان، عن أم محمد - امرأة أبيه - قال ابن عون: زعموا أنها كانت تدخل على أم المؤمنين عائشة^(٨) - قالت: قالت أم المؤمنين: دخل علينا رسول الله ﷺ، وعندنا زينب بنت جحش، فجعل يصنع بيده شيئا فلم يَفْطِنْ لها، فقلت بيده حتى^(٩) فَطَنَتْهَا، فأمسك. وأقبلت زينب تقحم لعائشة، فنهاها، فأبت أن تنتهى. فقال لعائشة: «سَبِّهَا» فسبها فغلبتها، وانطلقت زينب فأتت عليا فقالت: إن عائشة تقمع بكم، وتفعل بكم. فجاءت فاطمة فقال^(١٠) لها: «إنها حبة أبيك ورب الكعبة» فانصرفت، وقالت لعلى: إني قلت له كذا وكذا، فقال لى كذا وكذا. قال: وجاء على إلى النبى ﷺ فكلمه فى ذلك^(١١).

هكذا ورد هذا السياق، وعلى بن زيد بن جدعان يأتى فى رواياته بالمنكرات غالبا، وهذا فيه نكارة، والحديث الصحيح خلاف هذا السياق، كما رواه النسائى وابن ماجه من حديث خالد بن سلمة الفأفاء، عن عبد الله البهي، عن عروة قال: قالت عائشة، رضى الله عنها: ما علمت حتى دخلت على زينب بغير إذن وهى غضبى، ثم قالت لرسول الله ﷺ: حسبك إذا قلبت لك ابنة أبى بكر ذُرَيْعَتَيْهَا ثم أقبلت على فأعرضت عنها، حتى قال النبى ﷺ: «دونك فانتصرى» فأقبلت عليها حتى رأيتها وقد يبس ريقها فى فمها، ما^(١٢) ترد على شيئا. فرأيت النبى ﷺ يتهلل وجهه. وهذا لفظ

(١) فى ت: «وقوله».

(٢) زيادة من ت.

(٣) زيادة من ت، أ.

(٤) فى ت: «وروى ابن جرير»

(٥) فى أ: «سويح».

(٦) فى ت: «عن».

(٧) فى ت: «يزيد».

(٨) فى ت: «عائشة رضى الله عنها».

(٩) فى أ: «فقلت له حتى».

(١٠) فى ت: «فقلت».

(١١) تفسير الطبرى (٢٤/٢٥).

(١٢) فى م: «لم».

وقال البزار: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا أبو غسان، حدثنا أبو الأحوص، عن أبي حمزة، عن إبراهيم، عن الأسود^(٢)، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «من دعا على من ظلمه فقد انتصر».

ورواه الترمذى من حديث أبي الأحوص، عن أبي حمزة - واسمه ميمون - ثم قال: «لأنعرفه إلا من حديثه، وقد تكلم فيه من قبل حفظه»^(٣).

وقوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ أى: إنما الحرج والعنت ﴿عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أى: يبدؤون الناس بالظلم. كما جاء فى الحديث الصحيح: «المُسْتَبَّانِ ما قالا، فعلى البادئ ما لم يعتد المظلوم». ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: شديد موجه.

قال أبو بكر بن أبى شيبة: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا سعيد بن زيد - أخو حماد بن زيد - حدثنا عثمان الشحام، حدثنا^(٤) محمد بن واسع قال: قدمت مكة فإذا على الخندق منظرًا، فأخذت فانطلق بى إلى مروان بن المهلب، وهو أمير على البصرة، فقال: حاجتك يا أبا عبد الله. قلت: حاجتى إن استطعت أن تكون كما قال أخو بنى عدى. قال: ومن أخو بنى عدى؟ قال: العلاء بن زياد، استعمل صديقًا له مرة على عمل، فكتب إليه: أما بعد فإن استطعت ألا تبيت إلا وظهرك خفيف، وبطنك خميص، وكفك نقيه من دماء المسلمين وأموالهم، فإنك إذا فعلت^(٥) ذلك لم يكن عليك سبيل، ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فقال^(٦): صدق والله ونصح ثم قال: ما حاجتك يا أبا عبد الله؟ قلت: حاجتى أن تلحقنى بأهلى. قال: نعم. رواه ابن أبى حاتم^(٧).

ثم إنه تعالى لما ذم الظلم وأهله وشرع القصاص، قال نادياً إلى العفو والصفح: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ أى: صبر على الأذى وستر السيئة، ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

قال سعيد بن جبیر: [يعنى]^(٨) لمن حق الأمور التى أمر الله بها، أى: لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة^(٩) التى عليها ثواب جليل وثناء جميل.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عمران بن موسى الطرسوسى، حدثنا عبد الصمد بن يزيد - خادم الفضيل بن عياض - قال: سمعت^(١٠) الفضيل بن عياض يقول^(١١): إذا أتاك رجل

(١) النسائي فى السنن الكبرى برقم (١١٤٧٦) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٨١) قال البوصيرى فى الزوائد (١١٥/٢): «هذا إسناد صحيح على شرط مسلم».

(٢) فى ت: «وروى البزار بسنده».

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٥٥٢) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (٣٤٧/١٠) وابن عدى فى الكامل (٤١٢/٦) من طريق أبى الأحوص به، وقال ابن عدى: «لا أعلم من يرويه عن أبى حمزة غير أبى الأحوص».

(٤) فى ت: «عن». (٥) فى أ: «قبلت». (٦) فى ت، أ: «فقال مروان».

(٧) المصنف لابن أبى شيبة (٦٣/١٤)

(٨) زيادة من أ.

(٩) فى ت: «المحمودة». (١٠) فى ت «وعن».

(١١) فى ت: «قال».

يشكو إليك رجلاً فقل: «يا أخى، اعف عنه». فإن العفو أقرب للتقوى، فإن قال: لا يحتمل قلبى العفو، ولكن أنتصر كما أمرنى الله ^(١) عز وجل. فقل له ^(٢): إن كنت تحسن أن تنتصر وإلا فارجع إلى باب العفو، فإنه باب واسع، فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله، وصاحب العفو ينال على فراشه بالليل، وصاحب الانتصار يقلب الأمور ^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى - يعنى ابن سعيد القطان - عن ابن عجلان، حدثنا سعيد بن أبى سعيد ^(٤)، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، أن رجلاً شتم أبا بكر والنبي ﷺ جالس، فجعل النبي ﷺ يعجب ويتبسم، فلما أكثر رد عليه بعض قوله، فغضب النبي ﷺ وقام، فلحقه أبو بكر فقال: يا رسول الله، إنه كان يشتمنى وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت! قال: «إنه كان معك ملك يرد عنك، فلما رددت عليه بعض قوله حضر ^(٥) الشيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان». ثم قال: «يا أبا بكر، ثلاث كلهن حق، ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضى عنها الله، إلا أعز الله بها نصرته، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة، إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة، إلا زاده الله بها قلة».

وكذا رواه أبو داود، عن عبد الأعلى بن حماد، عن سفيان بن عيينة - قال: ورواه صفوان بن عيسى، كلاهما عن محمد بن عجلان ^(٦). ورواه من طريق الليث، عن سعيد المقبري، عن بشير بن المحرر، عن سعيد بن المسيب مراسلاً ^(٧).

وهذا الحديث فى غاية الحسن فى المعنى، وهو سببٌ سبه للصديق ^(٨).

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (٤٦)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة: إنه ما شاء ^(٩) كان ولا راد له، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له ^(١٠)، وأنه من هداه فلا مضل له، ومن يضل ^(١١) فلا هادى له، كما قال: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

ثم قال مخبراً عن الظالمين، وهم المشركون بالله ﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ أى: يوم القيامة يتمنون

(١) فى ت: «ربى». (٢) فى ت، أ: «قال له الفضيل». (٣) بعدها: «رواه ابن أبى حاتم».

(٤) فى ت: «وروى الإمام أحمد بسنده». (٥) فى ت، م، أ: «وقع».

(٦) المسند (٤٣٦/٢) وسنن أبى داود برقم (٤٨٩٦، ٤٨٩٧).

(٧) سنن أبى داود برقم (٤٨٩٧).

(٨) فى ت، أ: «وهذا الحديث فى غاية الحسن وهو مناسب للصديق»، وفى م: «وهذا الحديث فى غاية الحسن فى المعنى وهو مناسب للصديق».

(٩) فى ت: «ما شاء الله». (١٠) فى أ: «فلا مؤاخذه له». (١١) فى ت، م: «يضلل الله».

الرجعة إلى الدنيا، ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾، كما قال [تعالى] ^(١): ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

وقوله: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أى: على النار ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾، أى: الذى قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله، ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيِّ﴾ قال مجاهد: يعنى ذليل، أى ينظرون إليها مُسَارِقَةً خوفا منها، والذى يحذرون منه واقع بهم لا محالة، وما هو أعظم مما فى نفوسهم، أجارنا الله من ذلك.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: يقولون يوم القيامة: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ أى: الخسار ^(٢) الأكبر ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى: ذهب بهم إلى ^(٣) النار، فعدموا لذتهم فى دار الأبد، وخسروا أنفسهم، وفرق بينهم وبين أصحابهم وأحبابهم وأهاليهم وقراباتهم ^(٤)، فخسروهم، ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أى: دائم سرمدى أبدي، لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أى: ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال، ﴿وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أى: ليس له خلاص.

﴿استَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّלْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبَهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ (٤٨).

لما ذكر تعالى ما يكون فى يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة، حذّر منه وأمر بالاستعداد له، فقال: ﴿استَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أى: إذا أمر بكونه فإنه كلمح البصر يكون، وليس له دافع ولا مانع.

وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أى: ليس لكم حصن تتحصنون فيه، ولا مكان يستركم وتتكرون فيه، فتغيبون عن بصره، تبارك وتعالى، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته، فلا ملجأ منه إلا إليه، ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ . كَلَّا لَا وَزَرَ . إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٠ - ١٢].

وقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ يعنى: المشركين ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ أى: لست عليهم بمصيطر. وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]. وقال هاهنا: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ أى: إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم.

(٢) فى أ: «الخاسر».

(١) زيادة من ت.

(٤) فى ت: «أقراباتهم».

(٣) فى ت: «فى».

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبْنَاهَا﴾ أى: إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك، ﴿وَإِن تَصِبُّهُمْ﴾ يعنى الناس ﴿سَيْئَةً﴾ أى: جذب ونقمة وبلاء وشدة، ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ أى: يجحد ما تقدم من النعمة^(١) ولا يعرف إلا الساعة الراهنة، فإن أصابته نعمة أشرب ويطر، وإن أصابته محنة يشرب وقنط، كما قال رسول الله ﷺ [للنساء] (٢): «يا معشر النساء، تصدقن فإنى رأيتكن أكثر أهل النار» فقالت امرأة: ولم يارسول الله؟ قال: «لأنكن تكثرن الشكاية، وتكفرن العشير، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم تركت يوما قالت: ما رأيت منك خيرا قط»^(٣). وهذا حال أكثر الناس^(٤) إلا من هداه الله وألهمه رشده، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالمؤمن كما قال رسول الله ﷺ: «إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»^(٥).

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يَزْوِجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)﴾ .

يخير تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، ولا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع، وأنه يخلق ما يشاء، و﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِاثًا﴾ أى: يرزقه البنات فقط - قال البغوى: ومنهم لوط، عليه السلام ﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ أى: يرزقه البنين فقط. قال البغوى: كإبراهيم الخليل، عليه السلام - لم يولد له أنثى، ﴿أَوْ يَزْوِجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِاثًا﴾ أى: ويعطي من يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى، أى: من هذا وهذا^(٦). قال البغوى: كمحمد، عليه الصلاة والسلام ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ أى: لا يولد له. قال البغوى: كيعقوب وعيسى، عليهما السلام، فجعل الناس أربعة أقسام، منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكورا وإناثا، ومنهم من يمنعه هذا وهذا، فيجعله عقيما لا نسل له ولا يولد له، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ أى: بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام، ﴿قَدِيرٌ﴾ أى: على من يشاء، من تفاوت الناس فى ذلك.

وهذا المقام شبيه بقوله تعالى عن عيسى: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١] أى: دلالة لهم على قدرته، تعالى وتقديسه، حيث خلق الخلق على أربعة أقسام، فآدم، عليه السلام، مخلوق من تراب، لا من ذكر ولا أنثى، وحواء، عليها السلام، [مخلوقة]^(٧) من ذكر بلا أنثى، وسائر الخلق سوى عيسى [عليه السلام]^(٨) من ذكر وأنثى، وعيسى، عليه السلام، من أنثى بلا ذكر فتمت الدلالة بخلق عيسى ابن مريم، عليهما السلام؛ ولهذا قال: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ﴾، فهذا المقام فى الآباء، والمقام الأول فى الأبناء، وكل منهما أربعة أقسام، فسبحان العليم القدير.

(١) فى ت، م: «النعم».

(٢) زيادة من ت، م، أ.

(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٧٩) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنه، وبرقم (٨٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٤) فى ت، م، أ: «النساء».

(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٩٩) من حديث صهيب رضى الله عنه.

(٦) فى ت: «هذا من هذا».

(٧) زيادة من ت، م، وفى أ: «عيسى ابن مريم عليهما السلام».

(٨) زيادة من م.

﴿وَمَا كَانَ لَبَشْرٍ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ۝٥١﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ۝٥٣﴾ .

هذه مقامات ^(١) الوحي بالنسبة إلى جناب الله، عز وجل، وهو أنه تعالى تارة يقذف في روع النبي ﷺ شيئاً لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل، كما جاء في صحيح ابن حبان، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي: أَنْ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ رِزْقَهَا وَأَجْلَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ» ^(٢).

وقوله: ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾، كما كلم موسى، عليه السلام، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم، فحجب عنها.

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله: «ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أبابك كفاحاً» الحديث ^(٣)، وكان [أبوه] ^(٤) قد قتل يوم أحد، ولكن هذا فى عالم البرزخ، والآية إنما هى فى الدار ^(٥) الدنيا.

وقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾، كما ينزل جبريل [عليه السلام] ^(٦) وغيره من الملائكة على الأنبياء، عليهم السلام، ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾، فهو على عليم خبير حكيم.

وقوله ^(٧): ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يعنى: القرآن، ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أى: على التفصيل الذى شرع لك فى القرآن، ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ﴾ أى: القرآن ﴿نُورًا نَّهْدِي بِهِ مِنْ نَّشَاءٍ مِنْ عِبَادِنَا﴾، كتوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ﴾ [أى] ^(٨) يامحمد ﴿لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وهو الخلق ^(٩) القويم، ثم فسرهُ بقوله: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ [الَّذِي] ^(١٠)﴾ أى: شرعه الذى أمر به الله، ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما، الحاكم الذى لا معقب لحكمه، ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾، أى ترجع الأمور، فيفصلها ويحكم فيها .

آخر تفسير سورة «[حم]» ^(١١) الشورى والحمد لله رب العالمين

(١) فى ت: «مقدمات».

(٢) ورواه البغوى فى شرح السنة (٣٠٤/١٤) من طريق إسماعيل بن أبى خالد عن زيد الياضى عن ابن مسعود به .

(٣) رواه الترمذى فى السنن برقم (٣٠١٠) وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه» .

(٤) زيادة من ت، أ.

(٨) زيادة من م .

(٧) فى ت: «فقوله» .

(٦) زيادة من م .

(١١) زيادة من أ.

(١٠) زيادة من أ.

(٩) فى ت، م، أ: «الحق» .

تفسير سورة الزخرف

وهي مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حَمْدٌ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ (٥) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨)﴾ .

يقول تعالى: ﴿حَمْدٌ . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أى: البين ^(١) الواضح الجلى المعانى والألفاظ؛ لأنه نزل ^(٢) بلغة العرب التى هى أفصح اللغات للتخاطب ^(٣) بين الناس؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ أى: أنزلناه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أى: بلغة العرب فصيحاً واضحاً، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أى: تفهمونه وتندبرونه، كما قال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥] .

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾: بين شرفه فى الملأ الأعلى، ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ﴾ أى: القرآن ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ أى: اللوح المحفوظ، قاله ابن عباس، ومجاهد، ﴿لَدَيْنَا﴾ أى: عندنا، قاله قتادة وغيره، ﴿لَعَلِيَّ﴾ أى: ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل، قاله قتادة، ﴿حَكِيمٌ﴾ أى: محكم برىء من اللبس والزيغ .

وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله، كما قال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ . لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٨٠] وقال: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ . فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١١ - ١٦]؛ ولهذا استنبط العلماء، رحمهم الله، من هاتين الآيتين: أن المحدث لا يمس المصحف، كما ورد به الحديث إن صح؛ لأن ^(٤) الملائكة يعظمون المصاحف المشتملة على القرآن فى الملأ الأعلى، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى، لأنه نزل عليهم، وخطابه متوجه إليهم، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم، والانقياد له بالقبول والتسليم، لقوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾ .

وقوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾: اختلف المفسرون فى معناها، فقيل: معناها: أتحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به؟ قاله ابن عباس، ومجاهد وأبو صالح، والسدى، واختاره ابن جرير ^(٥) .

وقال قتادة فى قوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾: والله لو أن هذا القرآن رفع حين رده

(٣) فى ت، م: «التخاطب» .

(٢) فى ت، م: «منزل» .

(١) فى أ: «النير» .

(٥) فى ت: «ومجاهد وغيرهما» .

(٤) فى ت، أ: «إن صح ، وقوله: «لا تمس المصحف إلا وأنت طاهر» لأن» .

أوائل^(١) هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله عاد بعائده ورحمته، وكرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة، أو ما شاء الله من ذلك.

وقول قتادة لطيف المعنى جداً، وحاصله أنه يقول في معناه: أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير والذكر^(٢) الحكيم - وهو القرآن - وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، يل أمر^(٣) به ليتهدى من قدر هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته.

ثم قال تعالى - مسلياً لنبهه في تكذيب من كذبه من قومه، وأمره بالصبر عليهم - ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ أى: فى شيع الأولين، ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أى: يكذبونه ويسخرون به.

وقوله: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أى: فأهلكنا المكذبين بالرسول، وقد كانوا أشد بطشاً من هؤلاء المكذبين لك يا محمد. كقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ [غافر: ٨٢] والآيات فى ذلك كثيرة.

وقوله: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾: قال مجاهد: سنتهم. وقال قتادة: عقوبتهم. وقال غيرهما: عبرتهم، أى: جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين أن يصيبهم ما أصابهم، كقوله فى آخر هذه السورة: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سُلَافًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦]. وكقوله: ﴿سُنَّتِ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [غافر: ٨٥] وقال: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لَتَسْتَوْفُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤).

يقول تعالى: ولئن سألت - يا محمد - هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره: ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ أى: ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله [تعالى] (٤) وحده لا شريك له، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد.

ثم قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهَادًا﴾ أى: فراشاً قراراً ثابتة، يسيرون عليها ويقومون وينامون وينصرفون، مع أنها مخلوقة على تيار الماء، لكنه أرساها بالجبال لثلاً تميد هكذا ولا هكذا، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أى: طرقاً بين الجبال والأودية ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أى: فى سيركم من بلد إلى بلد،

(٢) فى ت، م، أ: «إلى الخير وإلى الذكر».

(٤) زيادة من أ.

(١) فى ت: «أول».

(٣) فى ت، م: «يأمر».

وقطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم.

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ أى: بحسب الكفاية لزروعكم ^(١) وثماركم وشربكم، لأنفسكم ولأنعامكم.

وقوله: ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أى: أرضاً ميتة، فلما جاءها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج.

ثم نبه بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها، فقال: ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

ثم قال: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أى: مما تنبت الأرض من سائر الأصناف، من نبات وزروع وثمار وأزاهير، وغير ذلك [أى] ^(٢) من الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ﴾ أى: السفن ﴿وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أى: ذللها لكم وسخرها لأكلكم لحومها، وشربكم ألبانها وركوبكم ظهورها؛ ولهذا قال: ﴿لَتَسْتَزُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ ^(٣) أى: لتستروا ^(٤) متمكنين مرتفقين ﴿عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أى: على ظهور هذا الجنس، ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ أى: فيما سخر لكم ﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أى: مقاومين. ولولا تسخير ^(٥) الله لنا هذا ما قدرنا عليه.

قال ابن عباس ^(٦)، وقتادة، والسدى، وابن زيد: ﴿مُقْرِنِينَ﴾ أى: مطيقين ^(٧). ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ أى: لصائرون إليه بعد مماتنا، وإليه سيرنا الأكبر. وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة، كما نبه بالزاد الدنيوى على [الزاد] ^(٨) الأخرى فى قوله: ﴿وَتَزُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، وباللباس الدنيوى على الأخرى فى قوله تعالى: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [ذلك من آيات الله] ^(٩) ﴿[الأعراف: ٢٦]﴾.

ذكر الأحاديث الواردة عند ركوب الدابة:

حديث أمير المؤمنين على بن أبى طالب، رضى الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا شريك بن عبد الله، عن أبى إسحاق، عن على بن ربيعة قال: رأيت علياً، رضى الله عنه، أتى ^(١٠) بدابة، فلما وضع رجله فى الركاب قال: باسم الله. فلما استوى عليها قال: الحمد لله، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾. وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ، ثم حمد الله ثلاثاً، وكبر ثلاثاً، ثم قال: سبحانك، لا إله إلا أنت، قد ظلمت نفسى فاغفر لى. ثم ضحك، فقلت له: من أى شىء ضحكك ^(١١) يا أمير المؤمنين؟ فقال: رأيت رسول الله ﷺ صنع كما صنعت ^(١٢)، ثم ضحك. فقلت: مم ضحكك يا رسول الله؟ فقال: «يعجب الرب ^(١٣) من عبده إذا قال: رب، اغفر لى. ويقول: علم عبدى أنه لا يغفر الذنوب غيرى».

(١) فى ت، م: «الزروعكم». (٢) زيادة من ت. (٣) فى ت: «ظهره».

(٤) فى أ: «لستقروا». (٥) فى م: «ولولا ما يسخر». (٦) فى أ: «عباس».

(٧) فى أ: «مطيعين». (٨) زيادة من ت، م، أ. (٩) زيادة من أ. (١٠) فى ت: «أنه أتى».

(١١) فى ت، م: «مم ضحكك». (١٢) فى ت، م، أ: «فعل مثل ما فعلت». (١٣) فى ت، م: «الرب عز وجل».

وهكذا رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، من حديث أبى الأحوص - زاد النسائى: ومنصور - عن أبى إسحاق السبيعى، عن على بن ربيعة الأسدى الوالى، به ^(١) ^(٢). وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقد قال عبد الرحمن بن مهدي، عن شعبة: قلت لأبى إسحاق السبيعى: ممن سمعت هذا الحديث؟ قال: من يونس بن خباب. فلقيت يونس بن خباب فقلت: ممن سمعته؟ فقال: من رجل سمعه من على بن ربيعة. ورواه بعضهم عن يونس بن خباب، عن شقيق بن عقبة الأسدى، عن على ابن ربيعة الوالى، به ^(٣).

حديث عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما:

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا أبو بكر بن عبد الله، عن على بن أبى طلحة، عن عبد الله بن عباس؛ أن رسول الله ﷺ أُرْدِفَه على دابته، فلما استوى عليها كبر رسول الله ﷺ ثلاثاً، وحمد ^(٤) ثلاثاً، وهلل الله واحدة. ثم استلقى عليه فضحك، ثم أقبل عليه فقال: «ما من امرئ مسلم يركب دابة فيصنع كما صنعت، إلا أقبل الله، عز وجل، عليه، فضحك إليه كما ضحك إليك». تفرد به أحمد ^(٥).

حديث عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما:

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، حدثنا حماد بن سلمة، عن أبى الزبير، عن على بن عبد الله البارقي، عن عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما؛ أن النبى ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثاً ثم قال: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ. وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ». ثم يقول: «اللهم إني أسألك فى سفرى هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى. اللهم، هون علينا السفر واطو لنا البعيد. اللهم، أنت الصاحب فى السفر، والخليفة فى الأهل. اللهم، اصحبنا فى سفرنا، واخلفنا فى أهلنا». وكان إذا رجع إلى أهله قال: «آيئون تائبون إن شاء الله، عابدون، لربنا حامدون».

وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائى، من حديث ابن جريج، والترمذى من حديث حماد بن سلمة، كلاهما عن أبى الزبير، به ^(٦).

حديث آخر:

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم، عن

(١) فى ت: «رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى».

(٢) المسند (٩٧/١) وسنن أبى داود برقم (٢٦٠٢) وسنن الترمذى برقم (٣٤٤٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٨٠٠).

(٣) تحفة الأشراف للزمزى (٤٣٦/٧). (٤) فى ت، أ: «وحمد الله ثلاثاً».

(٥) المسند (٣٣٠/١) قال الهيثمى فى المجمع (١٣١/١٠): «فيه أبو بكر بن أبى مريم وهو ضعيف».

(٦) المسند (١٤٤/٢) وصحيح مسلم برقم (١٣٤٢) وسنن أبى داود برقم (٢٥٩٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٣٨٢) وسنن الترمذى برقم (٣٤٤٧).

عمرو بن الحكم بن ثوبان^(١)، عن أبي لاس الخزاعي قال: حملنا رسول الله ﷺ على إبل من إبل الصدقة إلى الحج. فقلنا: يا رسول الله، ما نرى^(٢) أن تحملنا هذه! فقال: «ما من بعير إلا في ذروته شيطان، فاذكروا اسم الله عليها إذا ركبتموها كما أمركم^(٣)، ثم امتهنوها لأنفسكم، فإنما يحمل الله عز وجل^(٤)».

أبو لاس اسمه: محمد بن الأسود بن خلف.

حديث آخر في معناه:

قال أحمد: حدثنا عتّاب، أخبرنا عبد الله (ح) وعلى بن إسحاق، أخبرنا عبد الله - يعني ابن المبارك - أخبرنا أسامة بن زيد، أخبرني محمد بن حمزة؛ أنه سمع أباه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «على ظهر كل بعير شيطان، فإن ركبتموها فسموا الله، عز وجل، ثم لا تقصروا عن حاجاتكم^(٥)».

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ (١٥) أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوْ مِنْ يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيَسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) .

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فيما افتروه وكذبوه في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم وبعضها لله، كما ذكر الله عنهم في سورة «الأنعام»، في قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦]. وكذلك جعلوا له من قسمي^(٦) البنات والبنين أحسهما وأردأهما وهو البنات، كما قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى . تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]. وقال هاهنا: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾.

ثم قال: ﴿أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ؟﴾، وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار. ثم ذكر تمام الإنكار فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفة، وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به،

(١) في ت: «رواه الإمام أحمد بسنده». (٢) في م: «ما ترى». (٣) في ت: «أمرتم».

(٤) المسند (٢٢١/٤) ورجاله ثقات.

(٥) المسند (٤٩٤/٣) وقال الهيثمي في المجمع (١٣١/١٠): «رجاله رجال الصحيح غير محمد بن حمزة وهو ثقة».

(٦) في ت: «من كل قسم».

ويتوارى من القوم من خجله من ذلك، يقول تعالى: فكيف تأنفون أنتم من ذلك، وتنسبونه إلى الله عز وجل؟

ثم قال: ﴿أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحُلِيِّ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أى: المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلّى منذ تكون طفلة، وإذا خاصمت فلا عبارة لها، بل هى عاجزة عيية، أو مَنْ يكون هكذا ينسب إلى جناب الله عز وجل^(١)؟!، فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن، فى الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلّى وما فى معناه، ليجبر ما فيها من نقص، كما قال بعض شعراء العرب:

وَمَا الْحُلَى إِلَّا رِيَّةٌ مِنْ نَقِصَةٍ يَتَمُّ مِنْ حُسْنٍ إِذَا الْحُسْنُ قَصُرَا
وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْجَمَالُ مَوْفَرًا كَحُسْنِكَ، لَمْ يَحْتَجْ إِلَى أَنْ يَزُورَا

وأما نقص معناها، فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار عند الانتصار، لا عبارة لها ولا همة، كما قال بعض العرب وقد بشر بنت: «ما هى بنعم الولد: نصرها بالبكاء، وبرها سرقة».

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ أى: اعتقدوا فيهم ذلك، فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك، فقال: ﴿أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ﴾ أى: شاهدوه وقد خلقهم الله إناثا، ﴿سُتُكْتُبَ شَهَادَتُهُمْ﴾ أى: بذلك، ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ عن ذلك يوم القيامة. وهذا تهديد شديد، ووعد أكيد.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ أى: لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام، التى هى على صور^(٢) الملائكة التى هى بنات الله، فإنه عالم بذلك وهو يقررنا عليه، فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ:

أحدها: جَعَلَهُمُ اللَّهُ وَلَدًا، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوا كبيرا.

الثانى: دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا.

الثالث: عبادتهم لهم مع ذلك كله، بلا دليل ولا برهان، ولا إذن من الله عز وجل، بل بمجرد الآراء والأهواء، والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء، والخطب فى الجاهلية الجاهلاء.

الرابع: احتجاجهم بتقريرهم على ذلك قَدَرًا [والحجة إنما تكون بالشرع]^(٣)، وقد جهلوا فى هذا الاحتجاج جهلاً كبيراً، فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار، فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه، قال [تعالى]^(٤): ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

(١) فى ت: «الله تعالى»، وفى م، أ: «الله العظيم».

(٢) فى أ: «صورة».

(٣) زيادة من أ.

(٤) زيادة من أ.

وقال فى هذه الآية - بعد أن ذكر حجتهم هذه -: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى: بصحة ما قالوه واحتجوا به ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، أى: يكذبون ويتقولون.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أى^(١): ما يعلمون قدرة الله على ذلك.

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (٢٥).

يقول تعالى منكرا على المشركين فى عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ﴾؟ أى: من قبل شركهم، ﴿فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أى: فيما هم فيه، أى: ليس الأمر كذلك، كقوله: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُمْ يَنْتَكِبُونَ﴾ [الروم: ٣٥] أى: لم يكن ذلك.

ثم قال: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ أى: ليس لهم مستند^(٢) فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد، بأنهم كانوا على أمة، والمراد بها الدين هاهنا، وفى قوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وقولهم: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾ أى: وراءهم ﴿مُهْتَدُونَ﴾، دعوى منهم بلا دليل.

ثم بين تعالى أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل، تشابهت قلوبهم، فقالوا مثل مقالتهم: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ. أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أى: يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿أَوْ لَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾؟ أى: ولو علموا وتيقنوا صحة ما جئتهم به، لما انقادوا لذلك بسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأمله.

قال الله تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أى: من الأمم المكذبة بأنواع من العذاب، كما فصله تعالى فى قصصهم، ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾؟ أى: كيف بادوا وهلكوا، وكيف نجى الله المؤمنين؟

(١) فى ت، م: «يعنى».

(٢) فى أ: «سند».

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُم يَقْسِمُونَ رَحِمْتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكئونَ (٣٤) وَزُخْرَفًا وَإِنَّ كُلَّ ذَلِكُ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥)﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وخليله إمام الخلفاء، ووالد من بعث بعده من الأنبياء، الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها: أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان، فقال: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ أي: هذه الكلمة، وهي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان، وهي «لا إله إلا الله»، أي: جعلها دائمة في ذريته يقتدى به فيها من هداة الله من ذرية إبراهيم، عليه السلام، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: إليها .

وقال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي، وغيرهم^(١) في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ يعني: لا إله إلا الله، لا يزال في ذريته من يقولها . وروى نحوه عن ابن عباس .

وقال ابن زيد: كلمة الإسلام . وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة .

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ﴾ يعني: المشركين، ﴿وَأَبَاءَهُمْ﴾ أي: فتطاول عليهم العمر في ضلالهم^(٢)، ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بين الرسالة والندارة .

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي: كابروه وعاندوه ودفعوا^(٣) بالصدور والراح كفرا وحسدا وبغيا، ﴿وَقَالُوا﴾ [أي]^(٤): كالمعترضين على الذي أنزله تعالى وتقدس: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي: هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من القريتين؟ يعنون مكة والطائف . قاله ابن عباس، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظي، وقتادة، والسدي، وابن زيد .

(١) في ت: «وغيرهما» .

(٢) في م: «ضلالتهم» .

(٣) في أ: «ودفعوه» .

(٤) زيادة من ت، م .

وقد ذكر غير واحد منهم ^(١): أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود الثقفي.

وقال مالك عن زيد بن أسلم، والضحاك، والسدي: يعنون الوليد بن المغيرة، ومسعود بن عمرو الثقفي.

وعن مجاهد: عمير بن عمرو بن مسعود الثقفي. وعنه أيضا: أنهم يعنون الوليد بن المغيرة، وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي.

وعن مجاهد: يعنون عتبة بن ربيعة بمكة، وابن عبد ياليل بالطائف.

وقال السدي: عنوا [بذلك] ^(٢) الوليد بن المغيرة، وكنانة بن عبد عمرو بن عمير الثقفي.

والظاهر: أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان.

قال الله تعالى رادا عليهم فى هذا الاعتراض: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ ؟ أى: ليس الأمر مردودا إليهم، بل إلى الله، عز وجل، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، فإنه لا ينزلها إلا على أركى الخلق قلبا ونفسا، وأشرفهم بيتا، وأطهرهم أصلا.

ثم قال تعالى مبينا أنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم، وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة، فقال: ﴿لَنَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾.

وقوله: ﴿لَتَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾، قيل: معناه ليسخر ^(٣) بعضهم بعضا فى الأعمال، لاحتياج هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، قاله السدي وغيره.

وقال قتادة، والضحاك: ليملك بعضهم بعضا. وهو ^(٤) راجع إلى الأول.

ثم قال: ﴿وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أى: رحمة الله بخلقه خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى: لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال - هذا معنى قول ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسدي، وغيرهم - ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرْ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سَقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ ^(٥) أى: سلالم ودرجا من فضة - قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي: وابن زيد، وغيرهم - ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾، أى: يصعدون، ﴿وَلَبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا﴾ ^(٦) أى: أغلاقا على أبوابهم ﴿وَسُرُورًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ﴾، أى: جميع ذلك يكون فضة، ﴿وَزُخْرَفًا﴾، أى: وذهبا. قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي، وابن زيد ^(٧).

(٣) فى أ: «لتسخير».

(١) فى م، أ: «منهم وقتادة».

(٦) فى ت: «أبوابا وسرورا».

(٤) فى ت، أ: «وهذا».

(٥) زيادة من ت.

(٧) فى ت: «ابن عباس وغيرهم».

ثم قال: ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله [تعالى] ^(١) أى: يعجل ^(٢) لهم بحسناتهم التى يعملونها فى الدنيا مآكل ومشارب، ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله حسنة يجزيهم بها، كما ورد به الحديث الصحيح ^(٣). [وقد] ^(٤) ورد فى حديث آخر: «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى منها كافرا شربة ماء»، أسنده البغوى من رواية زكريا بن منظور، عن أبى حازم، عن سهل بن سعد، عن النبى ﷺ، فذكره ^(٥). ورواه الطبرانى من طريق زمعة بن صالح، عن أبى حازم، عن سهل بن سعد، عن النبى ﷺ: «لو عدلت الدنيا جناح بعوضة، ما أعطى كافرا منها شيئا» ^(٦).

ثم قال: ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أى: هى لهم خاصة لا يشاركونهم فيها [أحد] ^(٧) غيرهم؛ ولهذا لما قال عمر بن الخطاب لرسول الله ﷺ حين صعد إليه فى تلك المشربة لما ألى من نسائه، فرآه [عمر] ^(٨) على رمال حصير قد أثر بجنبه ^(٩) فابتدرت عيناه بالبكاء، وقال: يا رسول الله، هذا كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه. وكان رسول الله ﷺ متكئا فجلس وقال: «أو فى ^(١٠) شك أنت يا ابن الخطاب؟» ثم قال: «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا». وفى رواية: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟» ^(١١).

وفى الصحيحين أيضا وغيرهما: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا فى صحافها، فإنها لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة». وإنما خولهم الله تعالى فى الدنيا لحقارتها، كما روى الترمذى وابن ماجه، من طريق أبى حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى منها كافرا شربة ماء أبدا»، قال الترمذى: حسن صحيح ^(١٢).

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ ^(٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ^(٣٧) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ^(٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ^(٣٩) أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّهْمَ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ^(٤٠) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ^(٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ^(٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت: «يجعل».

(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٨٠٨) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه.

(٤) زيادة من م.

(٥) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ٢١٣).

(٦) المعجم الكبير (٦/ ١٧٨) وفى إسناده زمعة بن صالح وهو ضعيف.

(٧، ٨) زيادة من أ. (٩) فى ت، م، أ: «بجلده».

(١٠) فى ت: «أفى».

(١١) انظر تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية: ١٣١ من سورة طه.

(١٢) سنن الترمذى برقم (٢٣٢٠) وسنن ابن ماجه برقم (٤١١٠).

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥) .

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْبُدْ﴾ أى: يتعاضى ويتغافل ويعرض، ﴿عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ والعشا فى العين: ضعف بصرها. والمراد هاهنا: عشا البصيرة، ﴿نُقِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ كقوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وكقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وكقوله: ﴿وَقِضْنَا لَهُمْ قَرْنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾. حتى إِذَا جَاءَنَا﴾ أى: هذا الذى تغافل عن الهدى نقىض له من الشياطين من يضله، ويهديه إلى صراط الجحيم. فإذا وافى الله يوم القيامة يتبرم بالشیطان الذى وكل به، ﴿قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [أى: فبئس القرين كنت لى فى الدنيا]^(١). وقرأ بعضهم: «حتى إذا جاءنا» يعنى: القرين والمقارن.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن سعيد الجريرى قال: بلغنا أن الكافر إذا بعث من قبره يوم القيامة سَفَعَ بيده شيطان فلم يفارقه، حتى يصيرهما الله تعالى إلى النار، فذلك حين يقول: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾^(٢).

والمراد بالمشرقين هنا^(٣) هو ما بين المشرق والمغرب. وإنما استعمل هاهنا تغليبا، كما يقال^(٤): القمران، والعمران، والأبوان، [والعسران]^(٥). قاله ابن جرير وغيره.

[ولما كان الاشتراك فى المصيبة فى الدنيا يحصل به تسلية لمن شاركه فى مصيبته، كما قالت الخنساء تبكى أخاها:

وَلَوْ لَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي عَلَى قَتْلِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَكُونُ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أَسَلَّى النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسَى

قطع الله بذلك بين أهل النار، فلا يحصل لهم بذلك تأسى وتسلية ولا تخفيف]^(٦)

ثم قال^(٧) تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أى: لا يغنى عنكم اجتماعكم فى النار واشتراككم فى العذاب الأليم.

وقوله: ﴿أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أى: ليس ذلك إليك، إنما عليك البلاغ، وليس عليك هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحكم العدل^(٨) فى ذلك.

(١) زيادة من ت.

(٢) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٦١).

(٣) فى ت، م، أ: «ههنا».

(٤) فى ت، م: «قيل».

(٥) زيادة من أ.

(٧) فى ت: «فقال».

(٨) فى ت، م، أ: «الحاكم العادل».

(٦) زيادة من ت، أ.

ثم قال: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ أى: لابد أن ننتقم منهم ونعاقبهم، ولو ذهب أنت، ﴿أَوْ^(١) نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ أى: نحن قادرون على هذا وعلى هذا. ولم يقبض الله رسوله حتى أقر عينه من أعدائه، وحكمه فى نواصيهم، وملكه ما تضمنته صياصيهم. هذا معنى قول السدى، واختاره ابن جرير.

وقال ابن جرير^(٢): حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن^(٣) ثور، عن معمر قال: تلا قتادة: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ فقال: ذهب النبي ﷺ وبقيت النعمة، ولم ير الله^(٤) نبيه ﷺ فى أمته شيئا يكرهه، حتى مضى^(٥)، ولم يكن نبى قط إلا ورأى^(٦) العقوبة فى أمته، إلا نبيكم ﷺ. قال: وذكر لنا أن رسول الله ﷺ أرى ما يصيب أمته من بعده، فما رُئى ضاحكا منبسطا حتى قبضه الله عز وجل^(٧).

وذكر من رواية سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة نحوه. ثم روى ابن جرير عن الحسن نحو ذلك أيضا.

وفى الحديث: «النجوم أمانة للسماء، فإذا ذهب النجوم أتى السماء ما تُوعَدُ، وأنا أمانة لأصحابى، فإذا ذهب أتى أصحابى ما يوعدون»^(٨).

ثم قال تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أى: خذ بالقرآن المنزل على قلبك، فإنه هو الحق، وما يهدى إليه هو الحق المفضى إلى صراط الله المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم.

ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ قيل: معناه: لشرف^(٩) لك ولقومك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدى، وابن زيد. واختاره ابن جرير، ولم يحك سواه.

وأورد البغوى هاهنا حديث الزهرى، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر فى قريش لا ينازعهم فيه أحد إلا أكبه الله على وجهه ما أقاموا الدين». رواه البخارى^(١٠).

وقيل^(١١): معناه: أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم، فهم أفهم الناس له، فينبغى أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخُلص من المهاجرين السابقين الأولين، ومن شابههم وتابعهم.

وقيل: معناه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أى: لتذكير لك ولقومك، وتخصيصهم بالذكر لا ينفى من سواهم، كقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وكقوله: ﴿وَأَنْذِرْ

(١) فى ت، أ: «وإما» وهو خطأ. (٢) فى ت: «وروى هو قال».

(٣) فى ت: «أبو».

(٤) فى أ: «الله تعالى».

(٥) فى ت، م: «قبض».

(٦) فى ت، م، أ: «إلا وقد رأى».

(٧) تفسير الطبرى (٢٥ / ٤٥).

(٨) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٥٣١) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه.

(٩) فى م: «الشرف».

(١٠) معالم التنزيل للبغوى (٧ / ٢١٥) وصحيح البخارى برقم (٣٥٠٠).

(١١) زيادة من ت، م.

عَشِيرَتِكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ [الشعراء: ٢١٤].

﴿وَسَوْفَ تَسْأَلُونَ﴾ أى: عن هذا القرآن وكيف كنتم فى العمل به والاستجابة له .

وقوله: ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ ؟ أى: جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد، كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. قال مجاهد: فى قراءة عبد الله بن مسعود: «واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك رسلنا». وهكذا حكاه قتادة والضحاك والسدى، عن ابن مسعود. وهذا كأنه تفسير لا تلاوة، والله أعلم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: واسألهم ليلة الإسراء، فإن الأنبياء جُمِعُوا له. واختار ابن جرير الأول، [والله أعلم]^(١).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَذُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله موسى، عليه السلام، أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة، والأتباع والرعايا، من القبط وبنى إسرائيل، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وأنه بعث معه آيات عظيمة، كيداه وعصاه، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ومن نقص الزروع والأنفس والثمار، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها، وكذبوها وسخروا منها، وضحكوا من جاءهم بها. ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾، ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم، وجهلهم وخبالهم. وكلما جاءتهم آية من هذه الآيات يضرعون إلى موسى، عليه السلام، ويتلطفون له فى العبارة بقولهم: ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾ أى: العالم، قاله ابن جرير. وكان علماء زمانهم هم السحرة. ولم يكن السحر عندهم فى زمانهم مذموما، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم؛ لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب ذلك، وإنما هو تعظيم فى زعمهم، ففى كل مرة يَعدُّون موسى [عليه السلام]^(٢) إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا ويرسلوا معه بنى إسرائيل. وفى كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه، وهذا كقوله [تعالى]^(٣): ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ. وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَىٰ ﴿٤﴾ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَتَرْسِلَنَّا مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِالْغَوَىٰ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٣ - ١٣٥].

(٤) فى ت، م: «يايها الساحر» وهو خطأ .

(٢، ٣) زيادة من ت.

(١) زيادة من أ.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ ۖ أُسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۝٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ۝٥٦﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده: أنه جمع قومه، فنادى فيهم متبجحا مفتخرا بملك مصر وتصرفه فيها: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾، قال قتادة: قد كانت لهم جنان وأنهار ماء، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟ أى: أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، يعنى: وموسى وأتباعه^(١) فقراء ضعفاء. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾. فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ. فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣ - ٢٥].

وقوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ قال السدى: يقول: بل أنا خير من هذا الذى هو مهين. وهكذا قال بعض نحاة البصرة: إن «أم» هاهنا بمعنى «بل». ويؤيد هذا ما حكاه الفراء عن بعض القراء أنه قرأها: «أما أنا خير من هذا الذى هو مهين». قال ابن جرير: ولو صححت هذه القراءة لكان معناها صحيحا واضحا، ولكنها خلاف قراءة الأمصار، فإنهم قرؤوا: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾؟ على الاستفهام.

قلت: وعلى كل تقدير فإنما يعنى فرعون - عليه اللعنة^(٢) - أنه خير من موسى، عليه السلام، وقد كذب فى قوله هذا كذبا بينا واضحا، فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

ويعنى بقوله: ﴿مَهِينٌ﴾ كما قال سفيان: حقير. وقال قتادة، والسدى: يعنى: ضعيف. وقال ابن جرير: يعنى: لا ملك له ولا سلطان ولا مال.

﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يعنى: لا يكاد يفصح عن كلامه^(٣)، فهو عيبى حصر^(٤).

قال السدى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أى: لا يكاد يفهم. وقال قتادة، والسدى، وابن جرير: يعنى عيبى اللسان. وقال سفيان: يعنى فى لسانه شىء من الجمرة حين^(٥) وضعها فى فيه وهو صغير.

وهذا الذى قاله فرعون - لعنه الله - كذب واختلاق، وإنما حمّله على هذا الكفر والعناد، وهو ينظر إلى موسى، عليه السلام، بعين كافرة شقية، وقد كان موسى^(٦)، عليه السلام، من الجلالة والعظمة والبهاء فى صورة يبهر^(٧) أبصار ذوى [الأبصار و]^(٨) الألباب. وقوله: ﴿مَهِينٌ﴾ كذب، بل هو المهين الحقير خَلْقَةً وخلقاً ودينا. وموسى [عليه السلام]^(٩) هو الشريف الرئيس الصادق البار

(١) فى أ: «ومن معه». (٢) فى ت، م، أ: «لعنة الله». (٣) فى ت: «بكلامه». (٤) فى ت، أ: «حصر». (٥) فى ت: «التى». (٦) فى ت: «الموسى». (٧) فى ت، م: «تهير». (٨) زيادة من ت. (٩) زيادة من ت، م.

الراشد^(١). وقوله: ﴿وَلَا يَكَادُيبِينَ﴾ افتراء أيضا، فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة، فقد سأل الله، عز وجل، أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله^(٢) له في [ذلك في]^(٣) قوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٢٦]، وبتقدير أن يكون قد بقي شيء لم يسأل إزالته، كما قاله الحسن البصري، وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإبلاغ والإفهام، فالأشياء الخلقية^(٤) التي ليست من فعل العبد لا يعاب بها ولا يذم عليها، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل فهو يدرى هذا، وإنما أراد الترويح على رعيته، فإنهم كانوا جهلة أغبياء، وهكذا قوله: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ﴾^(٥) مِّنْ ذَّهَبٍ ﴿أَي: وهى ما يجعل فى الأيدى من الخلى، قاله ابن عباس وقتادة وغير واحد، ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مَقَرِّينَ﴾ ﴿أَي: يكتنفونه خدمة له ويشهدون بتصديقه، نظر^(٦) إلى الشكل الظاهر، ولم يفهم السر المعنوى الذى هو أظهر مما نظر إليه، لو كان يعلم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ ﴿أَي: استخف عقولهم، فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿آسَفُونَا﴾ أسخطونا.

وقال الضحاك، عنه: أغضبونا. وهكذا قال ابن عباس أيضا، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب القرظى، وقتادة، والسدى، وغيرهم^(٧) من المفسرين.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد الله^(٨) ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى، حدثنا ابن لهيعة، عن عقبة بن مسلم التجيبى^(٩) عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيت الله عز وجل يعطى العبد ما شاء، وهو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك استدراج منه له»، ثم تلا: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١٠).

وحدثنا أبى، حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحماني، حدثنا قيس بن الربيع، عن قيس بن مسلم^(١١)، عن طارق بن شهاب قال: كنت عند عبد الله فذكر عنده موت الفجأة، فقال: تخفيف على المؤمن، وحسرة على الكافر. ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

وقال عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه: وجدت النقمة مع الغفلة، يعنى قوله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾: قال أبو مجلز: ﴿سَلَفًا﴾ لمثل من عمل بعملهم.

(١) فى ت: «الرشيء». (٢) فى ت: «استجاب الله دعاءه له». (٣) زيادة من ت، م.

(٤) فى ت: «الخلقة»، وفى م: «الخلق». (٥) فى أ: «أسورة». (٦) فى ت، أ: «نظرا».

(٧) فى ت: «وغير واحد». (٨) فى أ: «عبد الله». (٩) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده».

(١٠) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٩٢٦) «مجمع البحرين»، والبيهقى فى شعب الإيمان برقم (٤٥٤٠) من طريق عبد الله

ابن صالح عن حملة بن عمران به، ورواه أحمد فى مسنده (٤ / ١٤٥) عن رشدين بن سعد، والدولابى فى الكنى (١ / ١١١)

عن حجاج بن سليمان كلاهما عن حملة بن عمران به، وقد حسنه الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء.

(١١) فى ت: «وروى أيضا».

وقال هو ومجاهد: ﴿وَمَثَلًا﴾ أى : عبرة لمن بعدهم .

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعَلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَا يَصْدَنْكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلَأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ (٦٥)﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن تعنت قريش فى كفرهم وتعمدهم العناد والجدل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قال غير واحد، عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة والضحاك، والسدى: يضحكون^(١)، أى: أعجبوا بذلك .

وقال قتادة: يجزعون ويضحكون . وقال إبراهيم النخعي: يعرضون .

وكان السبب فى ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق فى السيرة حيث قال: وجلس رسول الله ﷺ فيما بلغنى - يوماً مع الوليد بن المغيرة فى المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفى المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ، فعرض له النضر بن الحارث، فكلّمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ الآيات [الأنبياء: ٩٨] . ثم قام رسول الله ﷺ، وأقبل عبد الله بن الزبعرى التميمي^(٢)، حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله بن الزبعرى: أما والله لو وجدته لَخَصَمْتُهُ، سلوا^(٣) محمداً: أكل ما يعبد من دون الله فى جهنم مع من عبده، فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيزاً، والنصارى تعبد المسيح [عيسى]^(٤) ابن مريم؟ فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى، ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «كل من أحب أن يعبد من دون الله، فهو مع من عبده، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته»، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] أى: عيسى ووزير ومن عبده^(٥) معهما من الأحرار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله، عز وجل، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله . ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ الآيات [الأنبياء: ٢٦]، ونزل

(١) فى ت، أ: «وعكرمة وغيرهم يعجبون» . (٢) فى ت، م، أ: «السهمي» . (٣) فى ت، م: «فسلوا» .

(٤) فى ت، م: «عبدوا» .

(٥) زيادة من ت، م، أ .

فيما يذكر من أمر عيسى وأنه يعبد من دون الله . وعجب^(١) الوليد ومن حضره من حجته وخصومته : ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أى : يصدون عن أمرك بذلك من قوله . ثم ذكر عيسى فقال : ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ . وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ . وَإِنَّهُ لَعَلِمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ أى : ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام ، فكفى به دليلا على علم الساعة ، يقول : ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾^(٢) .

وذكر ابن جرير من رواية العوفى ، عن ابن عباس قوله : ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قال : يعنى قريشا ، لما قيل لهم : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء : ٩٨] إلى آخر الآيات ، فقالت له قريش : فما ابن مريم ؟ قال : «ذاك عبد الله ورسوله» . فقالوا : والله ما يريد هذا إلا أن نتخذه ربا ، كما اتخذت النصرى عيسى ابن مريم ربا ، فقال الله تعالى^(٣) : ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ .

وقال^(٤) الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا شيبان ، عن عاصم بن أبى النجود ، عن أبى رزين ، عن أبى يحيى - مولى ابن عقيل الأنصارى - قال : قال ابن عباس : لقد علمت آية من القرآن ما سألتى عنها رجل قط ، فما أدرى أعلمها الناس فلم يسألوا عنها ، أم لم يفتنوا لها فيسألوا عنها . قال : ثم طفق يحدثنا ، فلما قام تلاومنا ألا نكون سألناه عنها . فقلت : أنا لها إذا راح غدا . فلما راح الغد قلت : يا ابن عباس ، ذكرت أمس أن آية من القرآن لم يسألك عنها رجل قط ، فلا تدري أعلمها الناس^(٥) أم لم يفتنوا لها ؟ فقلت : أخبرنى عنها وعن اللاتى قرأت قبلها . قال : نعم ، إن رسول الله ﷺ قال لقريش : «يا معشر قريش ، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير» ، وقد علمت قريش أن النصرى تعبد عيسى ابن مريم ، وما تقول فى محمد ، فقالوا : يا محمد ، ألسنت زعم أن عيسى كان نبيا وعبدا من عباد الله صالحا ، فإن كنت صادقا كان^(٦) آلهتهم كما تقولون ؟ قال : فأنزل الله : ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ . قلت : ما يصدون ؟ قال : يضحكون ، ﴿وَإِنَّهُ لَعَلِمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ قال : هو خروج عيسى ابن مريم قبل القيامة^(٧) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن يعقوب الدمشقى ، حدثنا آدم ، حدثنا شيبان ، عن عاصم ابن أبى النجود ، عن أبى أحمد مولى الأنصار^(٨) ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «يا معشر قريش ، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير» . فقالوا له : ألسنت تزعم أن عيسى كان نبيا وعبدا من عباد الله صالحا ، فقد كان يعبد من دون الله ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ

(١) فى أ : «وتعجب» .

(٢) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (٣٥٨/١) .

(٣) فى ت ، م : «عز وجل» . (٤) فى ت : «وروى» . (٥) فى أ : «أعلمها الناس فلم يسألوا عنها» .

(٦) فى م ، أ : «فإن» .

(٧) المسند (٣١٨/١) .

(٨) فى أ : «الأنصارين» .

الجزء السابع - سورة الزخرف: الآيات (٦٧ - ٦٥) ————— ٢٣٥
 مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ^(١).

وقال مجاهد فى قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾: قالت قريش: إنما يريد محمد أن نعبد كما عبد قوم عيسى عيسى. ونحو هذا قال قتادة.

وقوله: ﴿وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾: قال قتادة: يقولون: آلهتنا خير منه. وقال قتادة: قرأ ابن مسعود: «وقالوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هَذَا»، يعنون محمدا ﷺ.

وقوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أى: مراء، وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية؛ لأنها لما لا يعقل، وهى قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. ثم هى خطاب لقريش، وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه، فتعين أن مقاتلتهم إنما كانت جدلا منهم، ليسوا يعتقدون صحتها.

وقد قال^(٢) الإمام أحمد، رحمه الله تعالى: حدثنا ابن نمير، حدثنا حجاج بن دينار، عن أبى غالب، عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أوتوا الجدل»، ثم تلا هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

وقد رواه الترمذى، وابن ماجه، وابن جرير، من حديث حجاج بن دينار، به^(٣). ثم قال الترمذى: حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديثه كذا قال.

وقد روى من وجه آخر عن أبى أمامة بزيادة، فقال ابن أبى حاتم: حدثنا حميد بن عياش الرملى، حدثنا مؤمل، حدثنا حماد، أخبرنا ابن مخزوم، عن القاسم أبى عبد الرحمن الشامى، عن أبى أمامة - قال حماد: لا أدري رفعه^(٤) أم لا؟ - قال: ما ضلت أمة بعد نبيها إلا كان أول ضلالها التكذيب بالقدر، وما ضلت أمة بعد نبيها إلا أعطوا الجدل، ثم قرأ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾^(٥).

وقال ابن جرير أيضا: حدثنا أبو كريب، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، عن عباد بن عباد، عن جعفر، عن القاسم^(٦)، عن أبى أمامة قال: إن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يتنازعون فى القرآن، فغضب غضبا شديدا حتى كأنما صب على وجهه الخل، ثم قال: «لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، فإنه ما ضل قوم قط إلا أوتوا^(٧) الجدل»، ثم تلا: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ

(١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٢/١٥٤).

(٢) فى ت: «روى».

(٣) المسند (٥/٢٥٦) وسنن الترمذى برقم (٣٢٥٣) وسنن ابن ماجه برقم (٤٨) وتفسير الطبرى (٥٣/٢٥).

(٤) فى أ: «أرفعه».

(٥) وفى إسناده القاسم بن عبد الرحمن الشامى، ضعفه ابن حبان، وقال: «كان يروى عن أصحاب رسول الله ﷺ المضطرب».

(٦) فى أ: «جعفر بن القاسم». (٧) فى ت: «أوتوا».

خَصْمُونَ^(١).

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ يعنى: عيسى، عليه السلام، ما هو إلا عبد [من عباد الله]^(٢) أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة، ﴿وَجَعَلْنَاهُ مِثْلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أى: دلالة وحجة وبرهانا على قدرتنا على ما نشاء.

وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ أى: بدلكم^(٣) ﴿مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾، قال السدى: يخلفونكم فيها. وقال ابن عباس، وقتادة: يخلف بعضهم بعضا، كما يخلف بعضهم بعضا. وهذا القول يستلزم الأول. وقال مجاهد: يعمرّون الأرض بدلكم.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ﴾: تقدم تفسير ابن إسحاق: أن المراد من ذلك: ما بُعث به عيسى، عليه السلام، من إحياء الموتى وإبراء الأكهم والأبرص، وغير ذلك من الأسقام. وفى هذا نظر. وأبعد منه ما حكاه قتادة، عن الحسن البصرى وسعيد بن جبیر: أى الضمير فى ﴿وَإِنَّهُ﴾، عائد على القرآن، بل الصحيح أنه عائد على عيسى [عليه السلام]^(٤)، فإن السياق فى ذكره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أى: قبل موت، عيسى، عليه الصلاة والسلام، ثم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩]، ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى: «وإنه لعلم للساعة» أى: أمانة ودليل على وقوع الساعة، قال مجاهد: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ﴾ أى: آية للساعة خروج عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة. وهكذا روى عن أبى هريرة [رضى الله عنه]^(٥)، وابن عباس، وأبى العالية، وأبى مالك، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضحاك، وغيرهم.

وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ، أنه أخبر بنزول عيسى [ابن مريم]^(٦)، عليه السلام، قبل يوم القيامة إماماً عادلاً، وحكما مقسطاً.

وقوله: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أى: لا تشكروا^(٧) فيها، إنها واقعة وكائنة لا محالة، ﴿وَاتَّبِعُون﴾ أى: فيما أخبركم به ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾. وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أى: عن اتباع الحق ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾. وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ أى: بالنبوة ﴿وَلَأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾.

قال ابن جرير: يعنى من الأمور الدينية لا الدنيوية^(٨). وهذا الذى قاله حسن جيد، ثم رد قول من زعم أن «بعض» هاهنا بمعنى «كل»، واستشهد بقول لبيد الشاعر:

(١) تفسير الطبرى (٥٣/٢٥).

(٢) زيادة من ت، م.

(٣) فى ت: «بدلا منكم».

(٤، ٥) زيادة من ت.

(٦) زيادة من ت، م.

(٧) فى ت، م، أ: «تشكون».

(٨) تفسير الطبرى (٥٥/٢٥).

تَرَكَ أَمْكَنَةً إِذَا لَمْ أَرْضَهَا ^(١) أَوْ يَعْتَلِقَ ^(٢) بَعْضَ النُّفُوسِ حَمَامُهَا ^(٣)

وأولوه على أنه أراد جميع النفوس. قال ابن جرير: وإنما أراد نفسه فقط، وعبر بالبعض عنها. وهذا الذى قاله محتمل.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: [فيما] ^(٤) أمركم به، ﴿وَأَطِيعُوا﴾، فيما جئتكم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أى: أنا وأنتم عبيد له، فقراء إليه، مشتركون فى عبادته وحده لا شريك له، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أى: هذا الذى جئتكم به هو الصراط المستقيم، وهو عبادة الرب، عز وجل، وحده.

وقوله: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أى اختلفت الفرق وصاروا شيعا فيه، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله - وهو الحق - ومنهم من يدعى أنه ولد الله، ومنهم من يقول: إنه الله - تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا - ولهذا قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٦٦) ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣) .

يقول تعالى: هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسول ﴿إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؟ أى: فإنها كائنة لا محالة وواقعة، وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين [لها] ^(٥) فإذا جاءت إنما تحيى وهم لا يشعرون بها، فحينئذ يندمون كل الندم، حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم.

وقوله: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ أى: كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله، عز وجل، فإنه دائم بدوامه. وهذا كما قال إبراهيم، عليه السلام، لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن الحارث ^(٦)، عن على، رضى الله

(٢) فى أ: «يقتلوا».

(١) فى أ: «أرمنها».

(٣) البيت فى تفسير الطبرى (٥٥/٢٥) وديوان لبيد العامرى (ص ٣١٣).

(٤) زيادة من ت، م، أ.

(٥) زيادة من أ.

(٦) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم عن على».

عنه: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ قال: خليلان مؤمنان، وخليلان كافران، فتوفى أحد المؤمنين وبشر بالجنة فذكر خليله، فقال: اللهم، إن فلانا خليلي كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر، وينبئني أنى ملائكتك، اللهم فلا تضله بعدى حتى تریه مثل ما أريتني، وترضى عنه كما رضيت عني. فيقال له: اذهب فلو تعلم ما له عندى لضحكت كثيرا وبكيت قليلا. قال: ثم يموت الآخر، فتجتمع أرواحهما، فيقال: ليثن أحدكما ^(١) على صاحبه، فيقول كل واحد منهما لصاحبه: نعم الأخ، ونعم الصاحب، ونعم الخليل. وإذا مات أحد الكافرين وبشر بالنار ذكر خليله فيقول: اللهم، إن خليلي فلانا كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك، ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير، ويخبرني أنى غير ملائكتك، اللهم فلا تهده بعدى حتى تریه مثل ما أريتني، وتسخط عليه كما ^(٢) سخطت على. قال: فيموت الكافر الآخر، فيجمع بين أرواحهما فيقال: ليثن كل واحد منكما على صاحبه. فيقول كل واحد منهما لصاحبه: بئس الأخ، وبئس الصاحب، وبئس الخليل. رواه ابن أبي حاتم ^(٣).

وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين.

وروى الحافظ ابن عساكر - فى ترجمة هشام بن أحمد - عن هشام بن عبد الله بن كثير: حدثنا أبو جعفر محمد بن الخضر بالرقعة، عن معافى: حدثنا حكيم بن نافع، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن رجلين تحابا فى الله، أحدهما بالشرق والآخر بالمغرب، لجمع الله بينهما يوم القيامة، يقول: هذا الذى أحببته فى» ^(٤).

وقوله: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ثم بشرهم فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ أى: أمنت قلوبهم وبواطنهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم.

قال المعتمر بن سليمان، عن أبيه: إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع، فينادى مناد: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ فيرجوها الناس كلهم، قال: فيتبعها: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾، قال: فيبأس الناس منها غير المؤمنين. ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ أى: يقال لهم: ادخلوا الجنة ﴿أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ أى: نظراؤكم ﴿تُحْبَرُونَ﴾ أى: تنعمون وتسعدون، وقد تقدم تفسيرها فى سورة الروم.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ﴾ أى: زبady آية الطعام، ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ وهى: آنية الشراب، أى: من ذهب لا خراطيم لها ولا عرى، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِي الْأَنْفُسُ﴾ - وقرأ بعضهم: «تشتهيه

(١) فى أ: «أحدهما».

(٢) فى ت: «مثل ما».

(٣) تفسير عبد الرزاق (١٦٤/٢).

(٤) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٧٩/٢٧).

الأنفس» - ﴿وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ أى: طيب الطعم والريح وحسن المنظر.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، أخبرني إسماعيل بن أبي سعيد^(١)، عن^(٢) عكرمة - مولى ابن عباس - أخبره أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة وأسفلهم درجة لرجل لا يدخل الجنة بعده أحد، يفسح له فى بصره مسيرة مائة عام فى قصور من ذهب، وخيام من لؤلؤ، ليس فيها موضع شبر إلا معمور يغدى عليه ويراح بسبعين ألف صحيفة من ذهب، ليس فيها صحيفة إلا فيها لون ليس فى الأخرى، مثله شهوته فى آخرها كشهوته فى أولها، لو نزل به جميع أهل الأرض لوسع عليهم مما أعطى، لا ينقص ذلك مما أوتى شيئاً»^(٣).

وقال^(٤) ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين بن الجعيد، حدثنا عمرو بن سواد السرحى، حدثنا عبد الله بن وهب، عن ابن لهيعة، عن عقيل بن خالد، عن الحسن، عن أبى هريرة: أن أبا أمامة، رضى الله عنه، حدث أن رسول الله ﷺ حدثهم - وذكر الجنة - فقال: «والذى نفس محمد بيده، لياخذن أحدكم اللقمة فيجعلها فى فيه، ثم يخطر على باله طعام آخر، فيتحول الطعام الذى فى فيه على الذى اشتهى» ثم قرأ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٥).

وقال^(٦) الإمام أحمد: حدثنا حسن - هو ابن موسى - حدثنا سكين بن عبد العزيز، حدثنا الأشعث الضريز، عن شهر بن حوشب، عن أبى هريرة^(٨) قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة إن له لسبع درجات، وهو على السادسة وفوقه السابعة، وإن له ثلثمائة خادم، ويغدى عليه ويراح كل يوم بثلاثمائة صحيفة - ولا أعلمه إلا قال: من ذهب - فى كل صحيفة لون ليس فى الأخرى، وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره، ومن الأشربة ثلاثمائة إناء، فى كل إناء لون ليس فى الآخر، وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره، وإنه يقول: يارب، لو أذنت لى لأطعمت أهل الجنة وسقيتهم، لم ينقص مما عندى شىء، وإن له من الحور العين لاثنتين وسبعين زوجة، سوى أزواجه من الدنيا، وإن الواحدة منهن لياخذ مقعدها قدر ميل من الأرض»^(٩).

﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا﴾ أى: فى الجنة ﴿خَالِدُونَ﴾ أى: لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حولا. ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: أعمالكم الصالحة كانت سببا لشمول رحمة الله إياكم، فإنه لا يدخل أحداً عمله الجنة، ولكن بفضل من الله ورحمته.

(١) فى م: «سعد».

(٣) تفسير عبد الرزاق (١٦٥/٢).

(٤) فى ت: «وروى».

(٦) وفى إسناده الحسن البصرى لم يسمع من أبى هريرة.

(٧) فى ت: «وروى».

(٨) فى ت: «أبى هريرة رضى الله عنه».

(٩) المسند (٥٣٧/٢).

(٢) فى أ: «أن».

(٥) فى ت: «ما تشتهى» وهو خطأ.

وإنما الدرجات تفاوتها ^(١) بحسب عمل الصالحات.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا الفضل بن شاذان المقرئ، حدثنا يوسف بن يعقوب - يعنى الصفار - حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن أبي صالح ^(٢)، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى منزله من الجنة حسرة، فيقول: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧] وكل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ليكون ^(٣) له شكرا». قال: وقال رسول الله ﷺ: «ما من أحد إلا وله منزل فى الجنة ومنزل فى النار، فالكافر يرث المؤمن منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة» وذلك ^(٤) قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ^(٥).

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أى: من جميع الأنواع، ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أى: مهما اخترتم وأردتم. ولما ذكر [الله تعالى] ^(٦) الطعام والشراب، ذكر بعده الفاكهة لتمام [هذه] ^(٧) النعمة والغبطة.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (٧٤) لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا اكْتُمُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠).

لما ذكر [تعالى] ^(٨) حال السعداء، ثنى بذكر الأشقياء، فقال: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ. لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ﴾ أى: ساعة واحدة ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أى: آيسون من كل خير، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ أى: بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجج عليهم وإرسال الرسل إليهم، فكذبوا وعصوا، فجوزوا بذلك جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد.

﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾ وهو: خازن النار.

قال البخارى: حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن عطاء ^(٩)، عن صفوان بن يعلى، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا

(١) فى أ: «وإنما الدرجات ينال تفاوتها».

(٢) فى ت: «وروى ابن أبي حاتم بسنده».

(٣) فى ت، م: «فيكون».

(٤) ورواه أحمد فى مسنده (٥١٢/٢) من طريق أبي بكر بن عياش به مختصراً.

(٥، ٦) زيادة من ت.

(٨) زيادة من أ.

(٩) فى ت: «روى البخارى بإسناده».

رَبُّكَ ﴿١﴾ أَى: ليقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه، فإنهم كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]. وقال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ (٢) الأَشَقَى . الَّذِي يَصَلَّى النَّارَ الْكُبْرَى . ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿[الأعلى: ١١ - ١٣]، فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك، ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَأْكُوثُونَ﴾: قال ابن عباس: مكث ألف سنة، ثم قال: إنكم ماكثون. رواه ابن أبى حاتم.

أى: لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها.

ثم ذكر سبب شقوتهم وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أَى: بيناه لكم ووضحناه وفسرناه، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ أَى: ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه، وتصد عن الحق وتأباه، وتبغض أهله، فعودوا على أنفسكم بالملامة، واندموا حيث لا تنفعكم (٣) الندامة.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ أَمْرًا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ قال مجاهد: أرادوا كيد شر فكذبناهم.

وهذا الذى قاله مجاهد كما قال تعالى: ﴿وَمَكْرُوءًا مَكْرُوءًا وَمَكْرُوءًا مَكْرُوءًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]، وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون فى رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه، فكادهم الله، ورد وبال ذلك عليهم؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ أَى: سرهم وعلايتهم، ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أَى: نحن نعلم ما هم عليه، والملائكة أيضا يكتبون أعمالهم، صغيرها وكبيرها.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) قَدَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩) ﴿

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أَى: لو فرض هذا لعبده

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨١٩).

(٢) فى م: «وسيجنبها».

(٣) فى ت، م: «لا تنفع».

على ذلك؛ لأنى عبد من عبده، مطيع لجميع ما يأمرنى به، ليس عندى استكبار ولا إباء عن عبادته، فلو فرض كان هذا، ولكن هذا ممتنع فى حقه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضا، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

[و] ^(١) قال بعض المفسرين فى قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: الآنفين. ومنهم سفيان الثورى، والبخارى حكاه فقال: ويقال: ﴿أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾: الجاحدين، من عبد يعبد.

وذكر ابن جرير لهذا القول من الشواهد ما رواه عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب: حدثنى ابن أبى ذئب عن أبى قُسيط ^(٢)، عن بَعَجَةَ بن زيد الجهنى؛ أن امرأة منهم دخلت على زوجها - وهو رجل منهم أيضا - فولدت له فى ستة أشهر، فذكر ذلك زوجها لعثمان بن عفان، رضى الله عنه، فأمر بها أن ترجم، فدخل عليه على بن أبى طالب، رضى الله عنه، فقال: إن الله يقول فى كتابه: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وقال: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، قال: فوالله ما عبد عثمان، رضى الله عنه، أن بعث إليها: ترد - قال يونس: قال ابن وهب: عبد: اشتكف ^(٣).

[و] ^(٤) قال الشاعر:

مَتَى مَا يَشَاءُ ذُو الْوَدِّ يَصْرِمُ خَلِيلَهُ وَيَعْبُدُ عَلَيْهِ لَا مَحَالَةَ ظَالِمًا ^(٥)

وهذا القول فيه نظر؛ لأنه كيف يلتزم مع الشرط فيكون تقديره: إن كان هذا فأنا ممتنع منه؟ هذا فيه نظر، فليتأمل. اللهم إلا أن يقال: «إن» ليست شرطا، وإنما هى نافية كما قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾، يقول: لم يكن للرحمن ولد فأنا أول الشاهدين.

وقال قتادة: هى كلمة من كلام العرب: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: إن ذلك لم يكن فلا ينبغى.

وقال أبو صخر: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: فأنا أول من عبده بأن لا ولد له، وأول من وحده. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال مجاهد: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: أول من عبده ووحده وكذبكم.

(١) زيادة من ت، م.

(٢) فى ت: «ما رواه بإسناده».

(٣) تفسير الطبرى (٦١ / ٢٥).

(٤) زيادة من ت، م.

(٥) البيت فى تفسير الطبرى (٦٠ / ٢٥).

وقال البخارى: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾: الآنفين. وهما لغتان، رجل عابد وعبد^(١).

والأول أقرب على أنه شرط وجزاء، ولكن هو ممتنع.

وقال السدى [فى قوله]^(٢): ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ يقول: لو كان له ولد كنت أول من عبده، بأن له ولدا، لكن لا ولد له. وهو اختيار ابن جرير، ورد قول من زعم أن «إن» نافية.

ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أى: تعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد، فإنه فرد أحد صمد، لا نظير له ولا كفاء له، فلا^(٣) ولد له.

وقوله: ﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا﴾ أى: فى جهلهم وضلالهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ فى دنياهم ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾، وهو يوم القيامة، أى: فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم، ومآلهم، وحالهم فى ذلك اليوم.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ أى: هو إله من فى السماء، وإله من فى الأرض، يعبده أهلها، وكلهم خاضعون له، أذلاء بين يديه، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣] أى: هو المدعو الله فى السموات والأرض.

﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أى: هو خالقهما ومالكهما والمتصرف فيهما، بلا مدافعة ولا ممانعة، فسبحانه وتعالى عن الولد، وتبارك: أى استقر له السلامة من العيوب والنقائص؛ لأنه الرب العلى العظيم، المالك للأشياء، الذى بيده أزمة الأمور نقضا وإبراما، ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أى: لا يجليها لوقتها إلا هو، ﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى: فيجازى كلا بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أى: من الأصنام والأوثان ﴿الشَّفَاعَةَ﴾ أى: لا يقدرون على الشفاعة لهم، ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، هذا استثناء منقطع، أى: لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم، فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له.

ثم قال: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أى: ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أى: هم يعترفون^(٤) أنه الخالق للأشياء جميعها، وحده لا شريك له فى ذلك، ومع هذا يعبدون معه غيره، ممن لا يملك شيئا ولا يقدر على شيء، فهم فى

(١) صحيح البخارى (٥٦٨/٨) «فتح البارى».

(٢) زيادة من أ.

(٣) فى ت: «ولا».

(٤) فى ت: «يعرفون».

ذلك فى غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل ؛ ولهذا قال : ﴿ فَأَنْتَى يُؤْفَكُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَقِيلَ ^(١) يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى : وقال محمد : قيله ، أى : شكى إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه ، فقال : يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ، كما أخبر تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٣٠] وهذا الذى قلناه هو [معنى] ^(٢) قول ابن مسعود ، ومجاهد ، وقتادة ، وعليه فسر ابن جرير ^(٣) .

قال البخارى : وقرأ عبد الله - يعنى ابن مسعود - : « وقال الرسول يارب » ^(٤) .

وقال مجاهد فى قوله : ﴿ وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، قال : فأبر الله قول محمد .

وقال قتادة : هو قول نبيكم ﷺ ، يشكو قومه إلى ربه عز وجل .

ثم حكى ابن جرير فى قوله : ﴿ وَقِيلَ يَا رَبِّ ﴾ قراءتين ، إحداهما النصب ، ولها توجيهان : أحدهما أنه معطوف على قوله : ﴿ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ [الزخرف : ٨٠] والثانى : أن يقدر فعل ، وقال : قيله . والثانية : الخفض ، وقيله ، عطفا على قوله : ﴿ وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ ، تقديره : وعلم قيله .

وقوله : ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ أى : المشركين ، ﴿ وَقُلْ سَلَامٌ ﴾ أى : لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيئ ، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلا وقولا ، ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ^(٥) ﴾ ، هذا تهديد منه تعالى لهم ، ولهذا أحل بهم بأسه الذى لا يرد ، وأعلى دينه وكلمته ، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد ، حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا ، وانتشر الإسلام فى المشارق والمغارب .

آخر تفسير سورة الزخرف

(٢) زيادة من ت ، أ .

(١) فى ت : « وقيل هو » .

(٣) تفسير الطبرى (٦٢ / ٢٥) .

(٤) صحيح البخارى (٥٦٨ / ٨) «فتح البارى» .

(٥) فى م : « تعلمون » .

تفسير سورة الدخان

وهي مكية.

قال الترمذی: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا زيد بن الحباب، عن عمر بن أبي خثعم، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة^(١)، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ (حم الدخان) في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك».

ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، و عمر^(٢) بن أبي خثعم يضعف. قال البخارى: منكر الحديث^(٣).

ثم قال: حدثنا نصر بن عبد الرحمن الكوفى، حدثنا زيد بن الحباب، عن هشام أبى المقدام، عن الحسن^(٤)، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ (حم الدخان) في ليلة الجمعة، غفر له».

ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام^(٥) أبو المقدام يضعف، والحسن لم يسمع من أبي هريرة. كذا قال أيوب، ويونس بن عبيد، وعلى بن زيد^(٦).

وفى مسند البزار من رواية أبى الطفيل عامر بن واثلة، عن زيد بن حارثة؛ أن رسول الله ﷺ قال لابن صيَّاد: «إني قد خبأت خبأ فما هو؟» وخبأ له رسول الله ﷺ سورة الدخان، فقال: هو الدُّخ. فقال: «اخسأ ما شاء الله كان». ثم انصرف^(٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حَم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦) رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٧) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٨)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن القرآن العظيم: إنه أنزل في ليلة مباركة، وهي ليلة القدر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] وكان ذلك في شهر رمضان، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ

(١) فى ت: «روى الترمذى بإسناده».

(٣) سنن الترمذى برقم (٢٨٨٨).

(٤) فى ت: «وروى الترمذى بإسناده».

(٦) سنن الترمذى برقم (٢٨٨٩).

(٧) مسند البزار برقم (٣٣٩٩) «كشف الأستار» ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨٨/٥) من طريق زياد بن الفرات عن أبى الطفيل به. قال الهيثمى فى المجمع (٤/٨): «فيه زياد بن الحسن بن فرات، ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن حبان».

(٢) فى ت: «الوجه، وفى إسناده عمر».

(٥) فى ت: «الوجه، وفى إسناده هشام».

رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴿البقرة: ١٨٥﴾، وقد ذكرنا الأحاديث ^(١) الواردة في ذلك في «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته.

ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان - كما روى عن عكرمة - فقد أبعد النجعة، فإن نص القرآن أنها في رمضان. والحديث الذي رواه عبد الله بن صالح، عن الليث، عن عقيل، عن الزهري: أخبرني عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس أن رسول الله ﷺ قال: «تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان، حتى إن الرجل لينكح ويولد له، وقد أخرج اسمه في الموتى» ^(٢) فهو حديث مرسل، ومثله لا يعارض به النصوص.

وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ أي: معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً، لتقوم حجة الله على عباده.

وقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي: في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها. وهكذا روى عن ابن عمر، وأبي مالك، ومجاهد، والضحاك، وغير واحد من السلف.

وقوله: ﴿حَكِيمٍ﴾ أي: محكم، لا يبدل ولا يغير؛ ولهذا قال: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا﴾ أي: جميع ما يكون ويقدره الله تعالى وما يوحى ^(٣) فبأمره وإذنه وعلمه، ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي: إلى الناس رسلاً يتلو عليهم آيات الله مبينات، فإن الحاجة كانت ماسة إليه؛ ولهذا قال: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: الذي أنزل هذا القرآن هو رب السموات والأرض وخالفهما ومالكهما وما فيهما، ﴿إِن كُنتُمْ مُوقِنِينَ﴾ أي: إن كنتم متحققين.

ثم قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [فآمنوا بالله ورسوله] ^(٤) الآية [الأعراف: ١٥٨].

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ١٠ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ١١ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ١٢ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّجْنُونٌ ١٤ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ١٦﴾.

يقول تعالى: بل هؤلاء المشركون في شك يلعبون، أي: قد جاءهم اليقين ^(٥)، وهم يشكون فيه ويمترون، ولا يصدقون به، ثم قال متوعدا لهم ومتهدداً: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾.

قال سليمان بن مهران الأعمش، عن أبي الضحى مسلم بن صبيح ^(٦)، عن مسروق قال: دخلنا

(١) في ت: «الآثار».

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٦٥/٢٥) والبيهقي في شعب الإيمان برقم (٣٨٣٩) من طريق الليث عن عقيل به.

(٣) في أ: «يوجه». (٤) زيادة من ت، أ. (٥) في ت: «المبين». (٦) في ت: «روى البخاري ومسلم في صحيحهما».

المسجد - يعنى مسجد الكوفة - عند أبواب كندة، فإذا رجل يقص على أصحابه: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾، تدرّون ما ذلك الدخان؟ ذلك دخان يأتي يوم القيامة، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام. قال: فأتينا ابن مسعود فذكرنا ذلك له، وكان مضطجعا ففزع فقعد، وقال^(١): إن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: «الله أعلم»، سأحدثكم عن ذلك، إن قريشا لما أبطأت عن الإسلام واستعصت^(٢) على رسول الله ﷺ، دعا عليهم بسنين كسنى يوسف، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان - وفي رواية: فجعل الرجل ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد - [قال]^(٣) قال الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ . يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فأتى رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله، استسقى الله لمضر، فإنها قد هلكت. فاستسقى لهم فسقوا، فأنزل الله: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ قال ابن مسعود: فيكشف العذاب عنهم يوم القيامة، فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، فأنزل الله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾، قال: يعنى يوم بدر.

قال ابن مسعود: فقد مضى خمسة: الدخان، والروم، والقمر، والبطشة، واللزام. وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين^(٤). ورواه الإمام أحمد فى مسنده، وهو عند الترمذى والنسائى فى تفسيرهما^(٥)، وعند ابن جرير وابن أبى حاتم من طرق متعددة، عن الأعمش، به^(٦). وقد وافق ابن مسعود على تفسير الآية بهذا، وأن الدخان مضى، جماعة من السلف كمجاهد، وأبى العالية، وإبراهيم النخعى، والضحاك، وعطية العوفى، وهو اختيار ابن جرير.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا جعفر بن مسافر، حدثنا يحيى بن حسان، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا^(٧) عبد الرحمن الأعرج فى قوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ قال: كان يوم فتح مكة.

وهذا القول غريب جداً، بل منكر.

وقال آخرون: لم يمض الدخان بعد، بل هو من أمارات^(٨) الساعة، كما تقدم من حديث أبى سريحة^(٩) حذيفة بن أسيد الغفارى، رضى الله عنه، قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس -

(١) فى ت، م: «فقال».

(٢) فى أ: «واستعصبت».

(٣) زيادة من أ.

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٢٠) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٨).

(٥) فى م: «تفسيريهما».

(٦) المسند (١/ ٣٨٠، ٤٣١) وسنن الترمذى برقم (٣٢٥٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٨١) وتفسير الطبرى (٦٦/٢٥).

(٧) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده عن».

(٨) فى ت: «آيات».

(٩) فى ت: «أبى سريحة فى».

أو: تحشر الناس -: تبيت معهم حيث باتوا، وتقبل معهم حيث قالوا». تفرد بإخراجه مسلم في صحيحه^(١).

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لابن الصياد: «إني خبأت لك خبأ»، قال: هو الدُّخ. فقال له: «اخسأ فلن تعدو قدرك». قال: وخبأ له رسول الله ﷺ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾^(٢).

وهذا فيه إشعار بأنه من المنتظر المرتقب، وابن صياد كاشف على طريقة الكهان بلسان الجان، وهم يُقرطمون العبارة؛ ولهذا قال: «هو الدُّخ»، يعنى: الدخان. فعندها عرف رسول الله ﷺ مادته وأنها شيطانية، فقال له: «اخسأ فلن تعدو قدرك».

ثم قال ابن جرير: وحدثني عصام بن رَوَاد بن الجراح، حدثنا أبي، حدثنا سفيان بن سعيد الثوري، حدثنا منصور بن المعتمر، عن رِبْعِي بن حِرَاش قال: سمعت حذيفة بن اليمان يقول^(٣): قال رسول الله ﷺ: «إن أول الآيات الدجال، ونزول عيسى ابن مريم، ونار تخرج من قعر عدن أبين، تسوق الناس إلى المحشر، تقبل معهم إذا قالوا، والدخان - قال حذيفة: يا رسول الله، وما الدخان؟ فتلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ - يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً وليلة، أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكمة^(٤)، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران، يخرج من منخريه وأذنيه وديبره»^(٥).

قال ابن جرير: لو صح هذا الحديث لكان فاصلاً، وإنما لم أشهد له بالصحة؛ لأن محمد بن خلف العسقلاني حدثني أنه سأل روادا عن هذا الحديث: هل سمعه من سفيان؟ فقال له: لا. قال: فقلت: أقرأته عليه؟ قال: لا. قال: فقلت له: فقرئ عليه وأنت حاضر فأقر به؟ فقال: لا. فقلت له: فمن أين جئت به؟ فقال: جاءني به قوم فعرضوه على، وقالوا لى: اسمعه منا. فقرؤوه على ثم ذهبوا به، فحدثوا به عنى، أو كما قال^(٦).

وقد أجاد ابن جرير فى هذا الحديث ههنا، فإنه موضوع بهذا السند، وقد أكثر ابن جرير من سياقه فى أماكن من هذا التفسير، وفيه منكرات كثيرة جداً، ولا سيما فى أول سورة «بنى إسرائيل» فى ذكر المسجد الأقصى، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا خليل، عن الحسن، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يهيج الدخان بالناس، فأما المؤمن فيأخذه كالزكمة، وأما الكافر فينفخه حتى يخرج من كل مسمع منه».

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٠١).

(٢) صحيح البخارى برقم (٣٠٥٥) وصحيح مسلم برقم (٢٩٣٠) من حديث عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما.

(٣) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم عن حذيفة قال». (٤) فى ت، م: «الزكامة».

(٥) تفسير الطبرى (٦٨/٢٥) ومن طريقه رواه الثعلبى فى تفسيره كما فى تخريج أحاديث الكشاف للزليعى (١١٧٤) والبعغوى فى معالم التنزيل (٢٣٠/٧).

(٦) تفسير الطبرى (٦٨/٢٥).

ورواه سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي سعيد الخدري موقوفاً. ورواه عوف، عن الحسن قوله.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثني محمد بن عوف، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثني أبي، حدثني ضَمَضَم بن زُرْعَة، عن شُرَيْح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم أنذركم ثلاثاً: الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر فيتنفخ حتى يخرج من كل مسمع منه، والثانية الدابة، والثالثة الدجال».

ورواه الطبراني عن هاشم بن يزيد، عن محمد بن إسماعيل بن عياش، به^(١). وهذا إسناد جيد.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن صالح بن مسلم، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي، رضى الله عنه، قال: لم تمض آية الدخان بعد، يأخذ المؤمن كهيئة الزكام، وتنفخ الكافر حتى ينفد.

وروى ابن جرير من حديث الوليد بن جميع، عن عبد الملك بن المغيرة، عن عبد الرحمن بن البيلماني، عن ابن عمر قال: يخرج الدخان فيأخذ المؤمن كهيئة الزكام، ويدخل في مسمع الكافر والمنافق حتى يكون كالرأس الحنيد، أي: المشوى على الرضف.

ثم قال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن ابن جريج^(٢)، عن عبد الله بن أبي مليكة قال: غدوت على ابن عباس، رضى الله عنهما، ذات يوم فقال: ما نمت الليلة حتى أصبحت. قلت: لم؟ قال: قالوا: طلع الكوكب ذو الذنب، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق، فما نمت حتى أصبحت^(٣). وهكذا رواه ابن أبي حاتم^(٤)، عن أبيه، عن ابن أبي عمر، عن سفيان، عن عبد الله بن أبي يزيد، عن عبد الله بن أبي مليكة، عن ابن عباس فذكره. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن. وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين أجمعين، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما، التي أوردناها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة، مع أنه ظاهر القرآن.

قال الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ أي: بين واضح يراه كل أحد. وعلى ما فسر به ابن مسعود، رضى الله عنه: إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد. وهكذا قوله: ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ أي: يتغشاهم ويغمهم^(٥)، ولو كان أمراً خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما

(١) تفسير الطبري (٦٨/٢٥) والمعجم الكبير (٢٩٢/٣) وقول الخافظ ابن كثير هنا: «هذا إسناد جيد» متعقب، فإن لهذه النسخة ثلاث علل:

الأولى: محمد بن إسماعيل بن عياش، قال أبو حاتم: «لم يسمع من أبيه شيئاً، حملوه على أن يحدث فحدث». الثانية: ضَمَضَم بن زُرْعَة، ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن معين، ومحمد بن إسماعيل بن عياش، قال أبو داود: «لم يكن بذلك». الثالثة: شُرَيْح بن عبيد، قد كلف في سماعه من أبي مالك الأشعري، قال أبو حاتم: «شريح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري، مرسل».

(٢) في ت: «وروى ابن أبي حاتم بإسناده».

(٣) تفسير الطبري (٦٨/٢٥).

(٥) في أ: «ويغمهم».

(٤) في ت: «ورواه ابن جرير هكذا»، وفي أ: «وهكذا رواه ابن جرير».

قيل فيه : ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ .

وقوله : ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى : يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً، كقوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور : ١٣ ، ١٤] ، أو يقول بعضهم لبعض ذلك .

وقوله : ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أى : يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم ، كقوله : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام : ٢٧] . وكذا قوله : ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾ [إبراهيم : ٤٤] ، وهكذا قال هاهنا : ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ . ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ .

يقول : كيف لهم بالتذكر ، وقد أرسلنا إليهم رسولا بين الرسالة والندارة ، ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه ، بل كذبوه وقالوا : معلم مجنون . وهذا كقوله تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ . يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر : ٢٣ ، ٢٤] ، وقوله ^(١) تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ . وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ . وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ . وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سبأ : ٥١ - ٥٤] .

وقوله : ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ ، يحتمل معنيين :

أحدهما : أنه يقوله ^(٢) تعالى : ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا ، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب ، كقوله : ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون : ٧٥] ، وكقوله : ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ لَعَادُوا لِمَا نَهَوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام : ٢٨] .

والثاني : أن يكون المراد : إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلا بعد انعقاد أسبابه ^(٤) ووصوله إليكم ، وأنتم مستمررون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال ، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم ، كقوله تعالى : ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس : ٩٨] ، ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم ، بل كان قد انعقد سببه [ووصوله] ^(٥) عليهم ، ولا يلزم أيضاً أن يكونوا قد أقلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه ، قال الله تعالى إخباراً عن شعيب أنه قال لقومه حين قالوا : ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ . قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف : ٨٨ ، ٨٩] ، وشعيب [عليه السلام] ^(٦) لم يكن قط على ملتهم وطريقتهم .

وقال قتادة : ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ : إلى عذاب الله .

(١) فى ت ، م : «وكقوله» . (٢) فى ت : «كاشف» . (٣) فى أ : «يقول» .

(٤) فى ت ، م ، أ : «سببه» . (٥) زيادة من ت ، أ . (٦) زيادة من ت ، م ، أ .

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾: فسر ذلك ابن مسعود بيوم بدر. وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود على تفسيره الدخان بما تقدم، وروى أيضاً عن ابن عباس [وجماعة]^(١) من رواية العوفي، عنه. وعن أبي بن كعب وجماعة، وهو محتمل.

والظاهر أن ذلك يوم القيامة، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضاً.

قال^(٢) ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن علي، حدثنا خالد الحذاء، عن عكرمة قال: قال ابن عباس: قال ابن مسعود: البطشة الكبرى: يوم بدر، وأنا أقول: هي يوم القيامة^(٣). وهذا إسناد صحيح عنه، وبه يقول الحسن البصري، وعكرمة في أصح الروايتين^(٤)، عنه.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَذُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هُوَ لَاءَ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرِكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ (٣٣)﴾.

يقول تعالى: ولقد اخترنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون، وهم قبط مصر، ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: موسى كليمه، عليه السلام، ﴿أَنْ أَذُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾، كقوله: ﴿فَأَرْسِلْ^(٥) مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بَايَةً مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه: ٤٧].

وقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: مأمون على ما أبلغكموه.

وقوله: ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لا تستكبروا على اتباع آياته، والانقياد لحججه والإيمان ببراهيمه^(٦)، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

﴿إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾^(٧) أي: بحجة ظاهرة واضحة، وهي ما أرسله الله به من الآيات البينات والأدلة القاطعة^(٨).

(٢) في ت: «وروى».

(١) زيادة من ت.

(٣) تفسير الطبري (٧٠/٢٥).

(٤) في ت: «القولين».

(٦) في أ: «بالوحيته».

(٥) في ت، م، أ: «وأن أرسل» وهو خطأ.

(٨) في ت، م، أ: «القاطعات».

(٧) زيادة من ت، م، أ.

﴿وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ قال ابن عباس، وأبو صالح: هو الرجم باللسان وهو الشم.

وقال قتادة: [هو]^(١) الرجم بالحجارة.

أى^(٢): أعوذ بالله الذى خلقنى وخلقكم [من]^(٣) أن تصلوا إلى بسوء من قول أو فعل.

﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاغْتَرِلُونِ﴾ أى: فلا تتعرضوا^(٤) إلىّ، ودعوا الأمر بينى وبينكم مسألة إلى أن يقضى الله بيننا. فلما طال مقامه بين أظهرهم، وأقام حجج الله عليهم، كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفراً وعناداً، دعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ. قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩]. وهكذا قال هاهنا: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾، فعند ذلك أمره الله تعالى أن يخرج بينى إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه؛ ولهذا قال: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾، كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: ٧٧].

وقوله هاهنا: ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ وذلك أن موسى، عليه السلام، لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر، أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان، ليصير حائلاً بينهم وبين فرعون، فلا يصل إليهم. فأمره الله^(٥) أن يتركه على حاله ساكناً، وبشره بأنهم جند مغرقون فيه^(٦)، وأنه لا يخاف دركاً ولا يخشى.

قال ابن عباس: ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْواً﴾ كهيئته وامضة. وقال مجاهد: ﴿رَهْواً﴾: طريقاً يبساً كهيئته، يقول: لا تأمره يرجع، اتركه حتى يرجع آخرهم. وكذا قال عكرمة، والربيع بن أنس، والضحاك، وقتادة، وابن زيد، وكعب الأحبار، وسماك بن حرب، وغير واحد^(٧).

ثم قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ﴾ وهى البساتين ﴿وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ﴾ والمراد بها الأنهار والآبار، ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ وهى المساكن الكريمة الأنيقة والأماكن الحسنة.

وقال مجاهد، وسعيد بن جبیر: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾: المنابر.

وقال ابن لهيعة، عن وهب^(٨) بن عبد الله المعافى، عن عبد الله بن عمرو قال: نيل مصر سيد الأنهار، سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب، وذلك له، فإذا أراد الله أن يجرى نيل مصر أمر كل نهر أن يمده، فأمدته الأنهار بمائها، وفجر الله له الأرض عيوناً، فإذا انتهى جريه إلى ما أراد الله، أوحى الله إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره.

(٣) زيادة من ت، م.

(٦) فى ت: «أى فى البحر»، وفى أ: «أى فيه».

(٢) فى أ: «إنى».

(٥) فى م: «تعالى».

(٨) فى م: «ولهب».

(١) زيادة من ت.

(٤) فى أ: «تعرضوا».

(٧) فى ت: «وغيرهما».

وقال في قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا^(١) مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَآكِهِينَ﴾، قال: كانت الجنان بحافتي هذا النيل من أوله إلى آخره في الشقين جميعاً، ما بين أسوان إلى رشيد، وكان له تسعة^(٢) خلج: خليج الإسكندرية، وخليج دمياط، وخليج سردوس، وخليج منف، وخليج الفيوم، وخليج المنهى، متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء، وزروع ما بين الجبلين كله من أول مصر إلى آخر ما يبلغه الماء، وكانت جميع أرض مصر تروى من ستة عشر ذراعاً، لما قدروا ودبروا من قناطرها وجسورها وخليجها.

﴿وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَآكِهِينَ﴾ أى: عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاؤوا ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد، فسلبوا ذلك جميعه فى صبيحة واحدة، وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير، واستولى على البلاد المصرية وتلك الخواصل الفرعونية والممالك القبطية بنو إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] وقال فى موضع آخر^(٣): ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وقال هاهنا: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ وهم بنو إسرائيل، كما تقدم.

وقوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ أى: لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد فى أبواب السماء فتبكي على فقدهم، ولا لهم فى الأرض بقاع عبدوا الله فيها فقدتهم؛ فلهذا استحقوا ألا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم، وعتوهم وعنادهم.

قال الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده: حدثنا أحمد بن إسحاق البصرى، حدثنا مكى بن إبراهيم، حدثنا موسى بن عبيدة، حدثنى يزيد الرقاشى، حدثنى أنس بن مالك^(٤)، عن النبى ﷺ قال: «ما من عبد إلا وله فى السماء بابان: باب يخرج منه رزقه، وباب يدخل منه^(٥) عمله وكلامه، فإذا مات فقداه وبكىا عليه»، وتلا هذه الآية: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ وذكر أنهم لم يكونوا يعملوا^(٦) على الأرض عملاً صالحاً يبكى عليهم. ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب، ولا عمل صالح فتفقدهم فتبكى عليهم^(٧).

ورواه ابن أبى حاتم من حديث موسى بن عبيدة وهو الربذى.

وقال ابن جرير: حدثنى يحيى بن طلحة، حدثنا عيسى بن يونس، عن صفوان بن عمرو، عن شريح بن عبيد الحضرمى قال: قال رسول الله ﷺ^(٨): «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً. ألا لا غربة على مؤمن، ما مات مؤمن فى غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكى عليه السماء والأرض». ثم

(١) فى ت، م: «فأخرجنهم» وهو خطأ، ولعل الناسخ أراد الآية: ٥٧ من سورة الشعراء. (٢) فى ت، م: «تسع».

(٣) فى ت، م، أ: «الآية». (٤) فى ت: «وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى بإسناده عن أنس بن مالك رضى الله عنه».

(٥) فى ت، أ: «فيه». (٦) فى ت، م: «يعملون».

(٧) مسند أبى يعلى (١٦٠/٧) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٢٥٥) من طريق موسى بن عبيدة به مختصراً، وقال الترمذى: «هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وموسى بن عبيدة وي زيد بن أبان الرقاشى يضعفان فى الحديث».

(٨) فى ت: «وروى ابن جرير أن رسول الله ﷺ قال».

قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ ثم قال: «إنهما لا يبكيان على الكافر»^(١).

وقال^(٢) ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عصام، حدثنا أبو أحمد - يعني الزبيري - حدثنا العلاء ابن صالح، عن المنهال بن عمرو، عن عباد بن عبد الله قال: سأل رجل علياً، رضى الله عنه: هل تبكى السماء والأرض على أحد؟ فقال له: لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد قبلك، إنه ليس [من]^(٣) عبد إلا له مصلى فى الأرض، ومصعد عمله من السماء. وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح فى الأرض، ولا عمل يصعد فى السماء، ثم قرأ على، رضى الله عنه: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا طلق بن غنّام، عن زائدة، عن منصور، عن منهال، عن سعيد بن جبيرة قال: أتى ابن عباس رجلاً فقال: يا أبا عباس، أ رأيت قول الله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾، فهل تبكى السماء والأرض على أحد؟ قال: نعم، إنه ليس أحد من الخلائق إلا وله باب فى السماء منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذى كان يصعد فيه عمله وينزل منه رزقه بكى عليه، وإذا فقد مصلاه من الأرض التى كان يصلى فيها ويذكر الله فيها بكى عليه، وإن قوم فرعون لم تكن لهم فى الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى الله منهم خير، فلم تبك عليهم السماء والأرض^(٤).

وروى العوفى، عن ابن عباس، نحو هذا.

وقال سفيان الثوري، عن أبي يحيى القتات، عن مجاهد، عن^(٥) ابن عباس [رضى الله عنهما]^(٦) قال: كان يقال: تبكى الأرض على المؤمن أربعين صباحاً. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وغير واحد.

وقال مجاهد أيضاً: ما مات مؤمن إلا بكى عليه السماء والأرض أربعين صباحاً، قال: فقلت له: أتبكى الأرض؟ فقال: أتعجب؟ وما للأرض لا تبكى على عبد، كان يعمرها بالركوع والسجود؟ وما للسماء لا تبكى على عبد كان لتكبيره وتسيحه فيها دوى كدوى النحل؟

وقال قتادة: كانوا أهون على الله من أن تبكى عليهم السماء والأرض.

وقال ابن حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا عبد السلام بن عاصم، حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا المستورد بن سابق، عن عبيد المكتب، عن إبراهيم قال: ما بكت السماء منذ كانت الدنيا إلا على اثنين. قلت لعبيد: أليس السماء والأرض تبكى على المؤمن؟ قال: ذاك مقامه حيث يصعد عمله. قال: وتدرى ما بكاء السماء؟ قلت^(٧): لا. قال: تحمر وتصير وردة كالدهان، إن يحيى

(١) تفسير الطبرى (٧٥/٢٥) ورواه ابن أبى الدنيا فى ذكر الموت كما فى الدر المنثور (٤١٢/٧) وهو مرسل.

(٢) فى ت: «وروى».

(٣) زيادة من ت، أ.

(٤) تفسير الطبرى (٧٤/٢٥).

(٥) فى ت: «وعن».

(٦) فى أ: «قال».

(٧) زيادة من ت.

ابن زكريا لما قتل احمرت السماء وقطرت دماً. وإن حسين بن علي لما قتل احمرت السماء.

وحدثنا علي بن الحسن، حدثنا أبو غسان محمد بن عمرو - زُنيج - حدثنا جرير، عن يزيد بن أبي زياد قال: لما قتل حسين^(١) بن علي، رضى الله عنهما، احمرت آفاق السماء أربعة أشهر. قال يزيد: واحمرارها بكاؤها. وهكذا قال السدى الكبير.

وقال عطاء الخراساني: بكاؤها: أن تحمر أطرافها.

وذكروا^(٢) أيضاً في مقتل الحسين أنه ما قلب حجر يومئذ إلا وجد تحته دم عبيط، وأنه كسفت الشمس، واحمر الأفق، وسقطت حجارة. وفي كل ذلك نظر، والظاهر أنه من سُخِف الشيعة وكذبهم، ليعظموا الأمر - ولا شك أنه عظيم - ولكن لم يقع هذا الذي اختلقوه وكذبوه، وقد وقع ما هو أعظم من [ذلك]^(٣) - قتل الحسين، رضى الله عنه - ولم يقع شيء مما ذكروه، فإنه قد قتل أبوه علي بن أبي طالب، وهو أفضل منه بالإجماع ولم يقع^(٤) [شيء من]^(٥) ذلك، وعثمان بن عفان قتل محصوراً مظلوماً، ولم يكن شيء من ذلك. وعمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قتل في المحراب في صلاة الصبح، وكان المسلمين لم تطرقهم مصيبة قبل ذلك، ولم يكن شيء من ذلك. وهذا رسول الله ﷺ وهو سيد البشر في الدنيا والآخرة يوم مات لم يكن شيء مما ذكروه. ويوم مات إبراهيم ابن النبي ﷺ خسفت الشمس، فقال الناس: [الشمس]^(٦) خسفت لموت إبراهيم، فصلى بهم رسول الله ﷺ صلاة الكسوف، وخطبهم وبين لهم أن الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته^(٧).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ. مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾: يمتن عليهم تعالى بذلك، حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله لهم، وتسخيره إياهم في^(٨) الأعمال المهينة الشاقة.

وقوله: ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾^(٩) أى: مستكبراً جباراً عنيداً، كقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا﴾^(١٠) [القصص: ٤].

وقوله: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٦]، وقوله: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾^(١١) [العنكبوت: ٣٩]، [فكان فرعون]^(١٢) سرفاً^(١٣) فى أمره، سخيف الراى على نفسه.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ - قال مجاهد: ﴿اخْتَرْنَاَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾: على من هم بين ظهريه. وقال قتادة: اختيروا على أهل زمانهم ذلك. وكان يقال: إن

(١) فى ت، م: «الحسين». (٢) فى ت: «وذكر».

(٣) زيادة من أ. (٤) فى ت، أ: «يكن».

(٥) زيادة من ت، أ.

(٦) زيادة من ت، وفى أ: «خسفت الشمس».

(٧) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٠٤٣) ومسلم فى صحيحه برقم (٩١٥).

(٨) فى أ: «من». (٩)، (١٠) زيادة من أ.

(١١) زيادة من أ. (١٢) زيادة من ت، أ. (١٣) فى ت، أ: «سرفاً».

لكل زمان عالماً. وهذه^(١) كقوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [الأعراف: ١٤٤] أى: أهل زمانه، وكقوله لمريم: ﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢] أى: فى زمانها؛ فإن خديجة أفضل منها، وكذا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، أو مساوية لها فى الفضل، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام.

وقوله: ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ ﴾ أى: [من]^(٢) الحجج والبراهين وخوارق العادات ﴿ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴾ أى: اختبار ظاهر جلى لمن اهتدى به.

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (٣٥) فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) ﴾

يقول تعالى منكرًا على المشركين فى إنكارهم البعث والمعاد، وأنه ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا، ولا حياة بعد الممات، ولا بعث ولا نشور. ويحتجون بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا، فإن كان البعث حقًا ﴿ فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾. وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا فى هذه الدار، [بل]^(٣) بعد انقضائها وذهابها وفراغها يعيد الله العالمين خلقًا جديدًا، ويجعل الظالمين ل نار جهنم وقودًا، يوم تكون^(٤) شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا.

ثم قال تعالى متهددًا لهم، ومتوعدًا ومنذرًا لهم بأسه الذى لا يرد، كما حل بأشباهم^(٥) ونظرائهم من المشركين والمنكرين للبعث وكقوم تبع - وهم سبأ - حيث أهلكهم الله وخرب بلادهم، وشردهم فى البلاد، وفرقهم شذر مذر، كما تقدم ذلك فى سورة سبأ، وهى مُصدِّرة بإنكار المشركين للمعاد. وكذلك هاهنا شبههم بأولئك، وقد كانوا عرباً من قحطان كما أن هؤلاء عرب من عدنان، وقد كانت حمير - وهم سبأ - كلما ملك فيهم رجل سموه تَبَّعًا، كما يقال: كسرى لمن ملك الفرس، وقصر لمن ملك الروم، وفرعون لمن ملك مصر كافرًا، والنجاشى لمن ملك الحبشة، وغير ذلك من أعلام الأجناس. ولكن اتفق أن بعض تابعتهم خرج من اليمن وسار فى البلاد حتى وصل إلى سمرقند، واشتد^(٦) ملكه وعظم سلطانه وجيشه، واتسعت مملكته وبلاده، وكثرت رعاياه وهو الذى مَصَّرَ الحيرة فاتفق أنه مرَّ بالمدينة النبوية وذلك فى أيام الجاهلية، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقتلوه بالنهار، وجعلوا يَقْرُونَهُ بالليل، فاستحيا منهم وكف عنهم، واستصحب معه حبرين من أحبار يهود كانا قد نصحاه وأخبراه أنه لا سبيل له على هذه البلدة؛ فإنها مُهَاجِرُ نَبِيٍّ يكون فى آخر الزمان، فرجع عنها وأخذهما معه إلى بلاد اليمن، فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة فنهاه [عن ذلك]^(٧) أيضاً، وأخبراه بعظمة هذا البيت، وأنه من بنىة إبراهيم الخليل وأنه سيكون له شأن عظيم على يدي

(٣) زيادة من ت، أ.

(٢) زيادة من ت.

(١) فى م: «وهذا».

(٦) فى أ: «واستمد».

(٥) فى ت: «بأشبايعهم».

(٤) فى ت: «تكونوا»، وفى م: «تكونون».

(٧) زيادة من أ.

ذلك النبي المبعوث في آخر الزمان، فعظمها وطاف بها^(١)، وكساها الملاء والوصائل والخبير. ثم كر راجعاً إلى اليمن ودعا أهلها إلى التهود معه، وكان إذ ذاك دين موسى، عليه السلام، فيه من يكون على الهداية قبل بعثة المسيح، عليه السلام، فتهود معه عامة أهل اليمن. وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق في كتابه السيرة^(٢). وقد ترجمه الحافظ ابن عساكر في تاريخه ترجمة حافلة، أورد فيها أشياء كثيرة مما ذكرنا وما لم نذكر^(٣). وذكر أنه ملك دمشق، وأنه كان إذا استعرض الخيل صُفَّت له من دمشق إلى اليمن، ثم ساق من طريق عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن ابن أبي ذئب^(٤)، عن المقبري، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما أدري أَلحدود طهارة لأهلها أم لا؟ ولا أدري تبع لعيناً^(٥) كان أم لا؟ ولا أدري ذو القرنين نبياً كان أم ملكاً؟» وقال غيره: «أعزيراً كان نبياً أم لا». وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن محمد بن حماد الظهراني^(٦)، عن عبد الرزاق^(٧).

قال الدارقطني: تفرد به عبد الرزاق^(٨)، ثم روى ابن عساكر من طريق محمد بن كُرَيْبٍ، عن أبيه، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، مرفوعاً: «عزيرٌ لا أدري أنبياً كان أم لا؟ ولا أدري أَلعين تبع أم لا؟»^(٩).

ثم أورد ما جاء في النهي عن سبه ولعنته، كما سيأتي. وكأنه - والله أعلم - كان كافراً ثم أسلم، وتابع دين الكليم^(١٠) على يدي من كان من أحبار اليهود في ذلك الزمان على الحق قبل بعثة المسيح، عليه السلام، وحج البيت في زمن الجُرْهُمِيِّين، وكساه الملاء والوصائل من الحرير والحرير ونحر عنده ستة آلاف بدنة وعظمه وأكرمه. ثم عاد إلى اليمن. وقد ساق قصته بطولها الحافظ ابن عساكر، من طرق متعددة مطولة^(١١) مبسطة، عن أبي بن كعب، وعبد الله بن سلام، وعبد الله بن عباس وكعب الأحبار. وإليه المرجع في ذلك كله، وإلى عبد الله بن سلام أيضاً، وهو أثبت وأكبر وأعلم. وكذا روى قصته وهب بن مُنْبَهٍ، ومحمد بن إسحاق في السيرة كما هو مشهور فيها. وقد اختلط على الحافظ ابن عساكر في بعض السياقات ترجمة تبع هذا بترجمة آخر متأخر عنه بدهر طويل، فإن تبعاً هذا المشار إليه في القرآن أسلم قومه على يديه، ثم لما مات^(١٢) عادوا بعده إلى عبادة الأصنام والنيران، فعاقبهم الله تعالى كما ذكره في سورة سبأ، وقد بسطنا قصتهم هنالك، والله الحمد والمنة.

وقال سعيد بن جبير: كسا تبع الكعبة، وكان سعيد ينهى عن سبه.

(١) في ت: «فعظم الكعبة فطاف بها».

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١٩/١).

(٣) تاريخ دمشق (٣/ ٥٠٠) «القسم المخطوط».

(٤) في ت، أ: «ذؤيب».

(٦) في م: «الطبراني».

(٧) ورواه الحاكم في المستدرك (٣٦/١) من طريق عبد الرزاق به، ورواه أبو داود في سننه برقم (٤٦٧٤) من طريق عبد الرزاق به إلا أنه قال: «عزيرٌ بدل: «ذو القرنين».

(٨) قال الحافظ ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٥٠): «وحديث عبادة بن الصامت: «إن الحدود كفارة لأهلها» أصح وأثبت سنداً» ثم ساقه من طريق البخاري بسنده إلى عبادة بن الصامت.

(٩) تاريخ دمشق (٣/ ٥٠١) «القسم المخطوط».

(١٠) في ت، م، أ: «الخليل». (١١) في م: «طويلة». (١٢) في ت، م، أ: «توفى».

وَتَبِعَ هَذَا هُوَ تَبِعَ الْأَوْسَطَ، واسمه أسعد أبو^(١) كُرَيْب بن مَلِكِيكَرْب^(٢) اليماني، ذكروا أنه ملك على قومه ثلاثمائة سنة وستا^(٣) وعشرين سنة، ولم يكن في حمير أطول مدة منه، وتوفى قبل مبعث رسول الله ﷺ بنحو من سبعمائة عام. وذكروا أنه لما ذكر له الحبران من يهود المدينة أن هذه البلدة مُهَاجِرُ نَبِيٍّ آخَرٍ فِي الزَّمَانِ^(٤)، اسمه أحمد، قال في ذلك شعرا واستودعه عند أهل المدينة. وكانوا يتوارثونه ويروونه خلفاً عن سلف. وكان ممن يحفظه أبو أيوب خالد بن زيد الذي نزل رسول الله ﷺ في داره، وهو:

شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدَ أَنَّهُ
فَلَوُ مَدَّ عُمُرِي إِلَى عُمُرِهِ
وَجَاهَدْتُ بِالسَّيْفِ أَعْدَاءَهُ
رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ بَارَى النَّسَمِ
لَكُنْتُ وَزِيْرًا لَهُ وَابْنُ عَمِّ
وَفَرَجْتُ عَنْ صَدْرِهِ كُلَّ غَمِّ

وذكر ابن أبي الدنيا أنه حُفِرَ قَبْرُ بَصْنَعَاءَ فِي الْإِسْلَامِ، فوجدوا فيه امرأتين صحيحتين، وعند رؤوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب: «هذا قبر حبي وليس - وروى: حبي وقماضر - ابنتي تَبِعَ، ماتتا وهما تشهدان أن لا إله إلا الله ولا تشركان به شيئاً، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما.

وقد ذكرنا في «سورة سبأ» شعر سبأ في ذلك أيضاً.

قال قتادة: ذكر لنا أن كعباً كان يقول في تبع: نَعَتُ نَعْتَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ، ذم الله تعالى قومه ولم يذمه، قال: وكانت عائشة تقول: لا تسبوا تبعاً؛ فإنه قد كان رجلاً صالحاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الله بن لَهِيْعَةَ، عن أبي زُرْعَةَ - يعني عمرو بن جابر الحضرمي - قال: سمعت سهل بن سعد الساعدي يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا تبعاً؛ فإنه قد كان أسلم».

ورواه الإمام أحمد في مسنده عن حسن بن موسى، عن ابن لَهِيْعَةَ، به^(٥).

وقال الطبراني: حدثنا أحمد بن علي الأبار، حدثنا أحمد بن محمد بن أبي بَزَّةَ، حدثنا مؤمل ابن إسماعيل، حدثنا سفيان، عن سَمَّاك بن حرب، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «لا تسبوا تبعاً؛ فإنه قد أسلم»^(٦).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن ابن أبي ذئب، عن المقبري، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أدري، تبع نبياً كان أم غير نبى»^(٧).

(١) في ت: «بن». (٢) في م: «مليكيرب». (٣) في ت، م، أ: «وستة».

(٤) في ت، م، أ: «نبي في آخر الزمان».

(٥) المسند (٣٤٠/٥) قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشف: «فيه ابن لهيعة، وعمرو بن جابر، وهما ضعيفان».

(٦) المعجم الكبير (٢٩٦/١١) وقال الهيثمي في المجمع (٧٦/٨): «فيه أحمد بن أبي بزة المكي، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات».

(٧) ورواه الثعلبي في تفسيره كما في تخريج الكشف للزيلعي (٢٧٠/٣) من طريق عبد الرزاق بهذا اللفظ.

وتقدم بهذا السند من رواية ابن أبي حاتم كما أورده ابن عساكر: «لا أدري، تَبَعَ كان لعينا»^(١) أم لا؟». فالله أعلم.

ورواه ابن عساكر من طريق زكريا بن يحيى البدى^(٢)، عن عكرمة، عن ابن عباس موقوفاً.
وقال عبد الرزاق: أخبرنا عمران أبو الهذيل، أخبرني تميم بن عبد الرحمن قال: قال عطاء بن
أبى رباح: لا تسبوا تَبَعاً؛ فإن رسول الله ﷺ نهى^(٣) عن سبه^(٤).

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عدله وتنزيهه نفسه عن اللعب والعبث والباطل، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

ثم قال: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ وهو يوم القيامة، يفصل الله فيه بين الخلائق، فيعذب الكافرين ويشيب المؤمنين.

وقوله: ﴿مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى: يجمعهم كلهم أولهم وآخرهم، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً﴾ أى: لا ينفع قريب قريباً، كقوله: ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وكقوله: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً . يُبْصِرُونَهُمْ﴾ [المعارج: ١٠، ١١] أى: لا يسأل أخاً له عن حاله وهو يراه عياناً.

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أى: لا ينصر القريب قريبه، ولا يأتيه نصره من خارج.
ثم قال: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ أى: لا ينفع يومئذ إلا من رحمه الله، عز وجل، لخلقه^(٥) ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أى: هو عزيز ذو رحمة واسعة.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ (٤٦) خَذُوهُ فَاغْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠)﴾.

يقول تعالى مخبراً عما يعذب به [عباده]^(٦) الكافرين الجاحدين للقائه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ .

(١) فى أ: «نبيا».

(٢) فى أ: «المدنى».

(٣) فى ت، أ: «قد نهى».

(٤) تفسير عبد الرزاق (١٧١/٢).

(٦) زيادة من ت، أ.

(٥) فى أ: «إلا رحمة الله بخلقه».

طَعَامُ الْأَيْتِمِ ﴿١﴾ وَالْأَيْتِمِ: أى فى قوله وفعله، وهو الكافر. وذكر غير واحد أنه أبو جهل، ولا شك فى دخوله فى هذه الآية، ولكن ليست خاصة به.

قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم^(١)، عن همام بن الحارث؛ أن أبا الدرداء كان يقرئ رجلاً: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ . طَعَامُ الْأَيْتِمِ﴾، فقال: طعام اليتيم. فقال أبو الدرداء قل: إن شجرة الزقوم طعام الفاجر. أى: ليس له طعام غيرها. قال مجاهد: ولو وقعت منها قطرة فى^(٢) الأرض لأفسدت على أهل الأرض معاشهم. وقد تقدم نحوه مرفوعاً.

وقوله: ﴿كَأَلْمُهْلِ﴾ قالوا: كعكر الزيت ﴿تَغْلَى^(٣) فِي الْبُطُونِ . كَفَلَى الْحَمِيمِ﴾ أى: من حرارتها ورداءتها. وقوله: ﴿خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ﴾ أى: [خذوا]^(٤) الكافر، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية: ﴿خَذُوهُ﴾ ابتدره سبعون ألفاً منهم.

﴿فَأَعْتَلُوهُ﴾ أى: سوقوه سحباً ودفعا فى ظهره.

قال مجاهد: ﴿خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ﴾ أى: خذوه فادفعوه.

وقال الفرزدق:

لَيْسَ الْكِرَامُ بِنَاحِلِكَ أَبَاهُمْ حَتَّى تُرَدَّ إِلَى عَطِيَّةٍ تُعْتَلُ^(٥) (٦)

﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أى: وسطها، ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾، كقوله: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ . يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج: ١٩، ٢٠].

وقد تقدم أن الملك يضربه بمقموعة من حديد، تفتح^(٧) دماغه، ثم يصب الحميم على رأسه فينزل فى بدنه، فيسلت ما فى بطنه من أمعائه، حتى تمرق^(٨) من كعبيه - أعاذنا الله تعالى من ذلك.

وقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أى: قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: أى لست بعزيز ولا كريم.

وقد قال^(٩) الأُموي فى مغازيه: حدثنا أسباط، حدثنا أبو بكر الهذلى، عن عكرمة قال: لقي رسول الله ﷺ أبا جهل - لعنه الله - فقال: «إن الله تعالى أمرنى أن أقول لك: ﴿أُولَى لَكَ فَأُولَى . ثُمَّ أُولَى لَكَ فَأُولَى﴾» [القيامة: ٣٤، ٣٥] قال: فترع ثوبه من يده^(١٠) وقال: ما تستطيع لى أنت ولا صاحبك من شىء. ولقد علمت أنى أمتنع^(١١) أهل البطحاء، وأنا العزيز الكريم. قال: فقتله الله تعالى يوم بدر وأذله وغيره بكلمته، وأنزل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾^(١٢).

وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾، كقوله: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي

(١) فى ت: «وروى ابن جرير بإسناده».

(٤) زيادة من ت.

(٦) البيت فى تفسير الطبرى (٢٥ / ٨٠).

(٧) فى أ: «يفتح».

(١٠) فى ت، أ: «بدنه».

(١٢) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٤١٨ / ٧) وهو مرسل.

(٣) فى ت: «يغلى».

(٢) فى ت: «على».

(٥) فى أ: «مقتل».

(٩) فى ت: «روى».

(٨) فى أ: «يمزق».

(١١) فى ت: «أنى من أمتنع».

كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحَرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ [الطور: ١٣ - ١٥]، ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسِرَّنَاهُ بِلسَانِكَ لِأَعْلَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر [حال] ^(١) السعداء - ولهذا سُمي القرآن مثنى - فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ أى: الله فى الدنيا ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أى: فى الآخرة وهو الجنة، قد أمنوا فيها من الموت والخروج، ومن كل هم وحزن وجزع ^(٢) وتعب ونصب، ومن الشيطان وكيد، وسائر الآفات والمصائب ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾. وهذا فى مقابلة ما أولئك فيه من شجر ^(٣) الزقوم، وشرب الحميم. وقوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو: رفيع الحرير، كالقمصان ونحوها ^(٤)، ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾، وهو ما فيه بريق ولمعان وذلك كالرياش، وما يلبس على أعالى القماش، ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ أى: على السرر، لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ أى: هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحور العين الحسان اللاتي ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦، ٧٤]، ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٨]، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

قال ^(٥) ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا نوح بن حبيب، حدثنا نصر بن مزاحم العطار، حدثنا عمر بن سعد، عن رجل، عن أنس - رفعه نوح - قال: لو أن حوراء بَرَقَتْ فى بحر لُجِّى، لَعَذَّبَ ذلك الماء لعدوبة ريقها ^(٦).

وقوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ أى: مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه، بل يحضر إليهم ^(٧) كلما أرادوا.

وقوله: ﴿لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾: هذا الاستثناء يؤكد النفى، فإنه استثناء منقطع، ومعناه: أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً، كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار ثم يذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة، خلود فلا ^(٨) موت، ويا أهل النار، خلود فلا ^(٩) موت» وقد تقدم الحديث فى سورة مريم ^(١٠).

(١) زيادة من ت. (٢) فى م: «وجوع». (٣) فى ت، م: «شرب».

(٤) فى ت: «وغيرها». (٥) فى ت: «وروى».

(٦) ورواه أبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٣٨٦) من وجه آخر، فرواه من طريق محمد بن إسماعيل الحسانى، عن منصور الواسطى، عن أبى النصر الأبار، عن أنس مرفوعاً بنحوه.

(٧) فى ت، م، أ: «لهم». (٨، ٩) فى أ: «بلا».

(١٠) انظر: تخريج الحديث عند الآية: ٣٩ من سورة مريم.

وقال عبد الرزاق: حدثنا سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي مسلم الأغر، عن أبي سعيد وأبي هريرة، رضى الله عنهما، قالوا: قال رسول الله: «يقال لأهل الجنة: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً». رواه مسلم، عن إسحاق بن راهويه وعبد بن حميد، كلاهما عن عبد الرزاق به^(١).

هكذا يقول أبو إسحاق وأهل العراق «أبو مسلم الأغر»، وأهل المدينة يقولون: «أبو عبد الله الأغر»^(٢).

وقال أبو بكر بن أبي داود السجستاني: حدثنا أحمد بن حفص، عن أبيه، عن إبراهيم بن طهمان، عن الحجاج - هو ابن حجاج^(٣) - عن عبادة^(٤)، عن عبيد الله بن عمرو، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من اتقى الله دخل الجنة، ينعم فيها ولا يبأس، ويحيا فيها فلا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه»^(٥).

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن يحيى، حدثنا عمرو بن محمد الناقد، حدثنا سليمان ابن عبيد الله الرقي، حدثنا مصعب بن إبراهيم، حدثنا عمران بن الربيع الكوفي، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن محمد بن المنكدر، عن جابر، رضى الله عنه، قال: سئل نبي الله ﷺ: أينام أهل الجنة؟ فقال: «النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون»^(٦).

وهكذا رواه أبو بكر بن مُردويه في تفسيره: حدثنا أحمد بن القاسم بن صدقة المصري، حدثنا المقدم بن داود، حدثنا عبد الله بن المغيرة، حدثنا سفيان الثوري، عن محمد بن المنكدر، عن جابر ابن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون»^(٧).

وقال أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا الفضل بن يعقوب، حدثنا محمد بن يوسف الفريابي، عن سفيان، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قيل: يا رسول الله، هل ينام أهل الجنة؟ قال: «لا، النوم أخو الموت». ثم قال: «لا نعلم أحداً أسنده عن ابن المنكدر، عن جابر إلا الثوري، ولا عن الثوري، إلا الفريابي»^(٨) هكذا قال، وقد تقدم خلاف ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أى: مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم، وسلمهم ونجاهم وزحزحهم من^(٩) العذاب الأليم فى دركات الجحيم، فحصل لهم المطلوب، ونجاهم من المهروب؛

(١) صحيح مسلم برقم (٢٨٣٧).

(٢) والاول هو الصواب كما بين ذلك الإمام المزي فى تهذيب الكمال.

(٣) فى أ: «الحجاج».

(٤) فى م، أ: «قنادة».

(٥) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٨٩٥) «مجمع البحرين» من طريق أحمد بن حفص به.

(٦) المعجم الأوسط برقم (٤٨٧٥) «مجمع البحرين» وفى إسناده مصعب بن إبراهيم العيسى، منكر الحديث.

(٧) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٧/ ٩٠) من طريق أحمد بن القاسم عن المقدم بن داود به، وقال: «غريب من حديث الثوري، تفرد به عبد الله».

(٨) مسند البزار برقم (٣٥١٧) «كشف الأستار» قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٤١٥): «رجال البزار رجال الصحيح».

(٩) فى ت: «عن».

ولهذا قال: ﴿ فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أى: إنما كان هذا ^(١) بفضلهم وإحسانه إليهم، كما ثبت فى الصحيح ^(٢) عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اعملوا وسددوا وقاربوا، واعلموا أن أحداً لن يدخله عمله الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله برحمته منه وفضل» ^(٣).

وقوله: ﴿ فَإِنَّمَا يَسِرَّتْهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى: إنما يسرنا هذا القرآن الذى أنزلناه سهلاً واضحاً بيناً جلياً بلسانك الذى هو أفصح اللغات وأجلاها وأحلاها وأعلاها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى: يتفهمون ويعملون. ثم لما كان مع هذا البيان والوضوح من الناس من كفر وخالف وعاند، قال الله تعالى لرسوله مسلماً له وواعداً له بالنصر، ومتوعداً لمن كذبه بالعطب والهلاك: ﴿ فَارْتَقِبْ ﴾ أى: انتظر ﴿ إِنَّهُمْ مُّرتَقِبُونَ ﴾ أى: فسيعلمون ^(٤) لمن يكون النصر والظفر وعلو الكلمة فى الدنيا والآخرة، فإنها لك يا محمد وإخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتبعكم من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر: ٥١]، [٥٢].

آخر تفسير سورة الدخان، والله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة

(١) فى ت: «ذلك».

(٢) فى أ: «الصحيحين».

(٣) صحيح البخارى برقم (٦٤٦٧) من حديث عائشة، رضى الله عنها.

(٤) فى م: «فستعلمون».

تفسير سورة الجاثية

وهي مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ (١) نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاختِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥)﴾ .

يُرشد تعالى خلقه إلى التفكير في آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة التي خلق بها السموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع، من الملائكة والجن والإنس، والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات، وما في البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار، في تعاقبها دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضائه، وما أنزل الله تعالى من السحاب من المطر في وقت الحاجة إليه، وسماء رزقاً؛ لأن به يحصل الرزق، ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أى: بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شئ.

وقوله: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ﴾ أى: جنوباً وشاماً^(١)، ودبوراً وصباً، بحرية وبرية، ليلية ونهارية. ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو للقاح، ومنها ما هو غذاء الأرواح، ومنها ما هو عقيم [لا ينتج]^(٢).

وقال أولاً: ﴿لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣)﴾، ثم ﴿يُوقِنُونَ﴾، ثم ﴿يَعْقِلُونَ﴾، وهو تَرَقُّ من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى. وهذه الآيات شبيهة بآية «البقرة» وهى قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاختِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. وقد أورد ابن أبى حاتم هاهنا عن وهب بن منبه أثراً طويلاً غريباً فى خلق الإنسان من الأخلاط الأربعة.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيُلْ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩) مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ

(١) فى ت، أ: «لشمالاً».

(٢) زيادة من ت، م، أ.

(٣) فى ت، أ: «لشمالاً».

وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ﴿١١﴾ .

يقول تعالى: هذه آيات الله - يعنى القرآن بما فيه من الحجج والبيّنات - ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أى: متضمنة الحق من الحق، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها، فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟! ثم قال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أى: أفاك فى قوله كذاب، حلاف مهين أئيم فى فعله وقيله (١) كافر بآيات الله؛ ولهذا قال: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أى: تقرأ عليه ﴿ثُمَّ يَصِرُ﴾ أى: على كفره وجحوده استكباراً وعناداً ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أى: كأنه ما سمعها، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [أى] (٢): فأخبره أن له عند الله يوم القيامة عذاباً أليماً موجعا.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ أى: إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به واتخذته سخرياً وهزواً، ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أى: فى مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به؛ ولهذا روى مسلم فى صحيحه عن ابن عمر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو (٣).

ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده (٤) فقال: ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أى: كل من اتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة، ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا﴾ أى: لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم، ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أى: ولا تغنى عنهم الآلهة التي عبدوها من دون الله شيئاً، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿هَذَا هُدًى﴾ يعنى القرآن، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ﴾: وهو المؤلم (٥) الموجع.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) قُلِ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥) .

يذكر تعالى نعمه على عبده فيما سخر لهم من البحر ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ﴾، وهى السفن فيه بأمره تعالى، فإنه هو الذى أمر البحر أن يحملها ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أى: فى المتاجر والمكاسب، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى: على حصول المنافع المجلوبة إليكم من الأقاليم النائية والآفاق القاصية.

(٢) زيادة من ت، م.

(١) فى ت، أ: «ولقبه».

(٣) صحيح مسلم برقم (١٨٦٩).

(٥) فى أ: «المقلق».

(٤) فى أ: «القيامة».

ثم قال: تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: من الكواكب والجبال، والبحار والأنهار، وجميع ما تنتفعون به، أى: الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه؛ ولهذا قال: ﴿جَمِيعاً مِنْهُ﴾ أى: من عنده وحده لا شريك له فى ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

وروى ابن جرير من طريق العوفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾ كل شىء هو من الله، وذلك الاسم فيه اسم من أسمائه، فذلك جميعاً منه، ولا ينازعه فيه المنازعون، واستيقن أنه كذلك.

وقال ^(١) ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن خلف العسقلانى، حدثنا الفريانى، عن سفيان، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن أبى أراكة قال: سأل رجل عبد الله بن عمرو قال: مم خلق الخلق؟ قال: من النور والنار، والظلمة والثرى. قال: واثبت ابن عباس فأسأله. فأتاه فقال له مثل ذلك، فقال: ارجع إليه فسله: مم خلق ذلك كله؟ فرجع إليه فأسأله، فتلا: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾ هذا أثر غريب، وفيه نكارة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أى: يصفحوا عنهم ويحملوا ^(٢) الأذى منهم. وهذا كان فى ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك لتأليف قلوبهم ^(٣)، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلال والجهد. هكذا روى عن ابن عباس، و قتادة.

وقال مجاهد [فى قوله] ^(٤): ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾: لا يبالون ^(٥) نعم الله.

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: إذا صفحوا ^(٦) عنهم فى الدنيا، فإن الله مجازيهم بأعمالهم السيئة فى الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أى: تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون بأعمالكم [عليه] ^(٧)، فيجزىكم بأعمالكم خيرها وشرها.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠)﴾.

(٣) فى ت، م، أ: «كالتأليف لهم».

(٢) فى أ: «ويحملوا».

(١) فى ت: «وروى».

(٥) فى أ: «ينالون».

(٤) زيادة من أ.

(٧) زيادة من ت، م، أ.

(٦) فى أ: «أى اصفحوا».

يذكر تعالى ما أنعم به على بنى إسرائيل من إنزال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم، وجعله الملك فيهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أى: من المأكّل والمشارب، ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أى: فى زمانهم، ﴿وَأَتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ أى: حججا وبراهين وأدلة قاطعات، فقامت ^(١) عليهم الحجج ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة، وإنما كان ذلك بغيا منهم على بعضهم بعضا، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أى: سيفصل بينهم بحكمه العدل. وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم، وأن تقصد منهجهم؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبَعْهَا﴾ أى: اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو، وأعرض عن المشركين، وقال هاهنا: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . إِنَّهُمْ لَن يَغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أى: وماذا تغنى ^(٢) عنهم ولايتهم لبعضهم بعضا، فإنهم لا يزيدونهم إلا خسارا ودمارا وهلاكًا، ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾، وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات. ثم قال: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ يعنى: القرآن ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ .

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاءً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) .

يقول تعالى: لا يستوى المؤمنون والكافرون، كما قال: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال هاهنا: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أى: عملوها وكسبوها ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ أى: نساويهم بهم فى الدنيا والآخرة! ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أى: ساء ما ظنوا بنا وبعدنا أن نساوى بين الأبرار والفجار فى الدار الآخرة، وفى هذه الدار.

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا مؤمل بن إهاب، حدثنا بكير ^(٣) بن عثمان التَّنُوخِي، حدثنا الوَضِيع بن عطاء، عن يزيد بن مرثد الباجي ^(٤)، عن أبي ذر، رضى الله عنه، قال: إن الله بنى دينه على أربعة أركان، فمن صبر عليهن ولم يعمل بهن لقى الله [وهو] ^(٥) من الفاسقين. قيل: وما هن يا أبا ذر؟ قال: يسلم حلال الله لله، وحرام الله لله، وأمر الله لله، ونهى الله لله، لا يؤتمن عليهن إلا الله.

(٢) فى ت: «وما يغنى».

(١) فى ت: «فقامت به».

(٤) فى ت: «وروى الحافظ أبو يعلى بإسناده».

(٣) فى أ: «بكرك».

(٥) زيادة من ت.

قال أبو القاسم رحمه الله: «كما أنه لا يجتنى من الشوك»^(١) العنب، كذلك لا ينال الفجار منازل الأبرار»^(٢). هذا حديث غريب من هذا الوجه. وقد ذكر محمد بن إسحاق في كتاب «السيرة» أنهم وجدوا حجرا بمكة في أس الكعبة مكتوب^(٣) عليه: تعملون السيئات وترجون الحسنات؟ أجل، كما يجتنى من الشوك العنب»^(٤).

وقد روى الطبراني من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة، عن أبي الضحى، عن مسروق^(٥)؛ أن تميما الداري قام ليلة حتى أصبح يردد هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ؟﴾؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، وقال^(٦): ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أى: بالعدل، ﴿وَلَنُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٧).

ثم قال [تعالى]^(٨): ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أى: إنما ياتمر بهواه، فمهما رآه حسنا فعله، ومهما رآه قبيحا تركه: وهذا قد يستدل به على المعتزلة فى قولهم بالتحسين والتقبيح العقلين.

وعن مالك فيما روى عنه من التفسير: لا يهوى شيئا إلا عبده.

وقوله: ﴿وَأُضِلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾، يحتمل قولين.

أحدها^(٩): وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك. والآخر: وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه، وقيام

الحجة عليه. والثاني يستلزم الأول، ولا ينعكس.

﴿وَحُتِمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ أى: فلا يسمع ما ينفعه، ولا يعى شيئا يهتدى به، ولا يرى حجة يستضيء بها؛ ولهذا قال: ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله: ﴿مَنْ يَضِلُّ اللَّهُ فَمَا هَادِي لَهُ﴾^(١٠) ويذرهم في طغيانهم يعمهون ﴿[الأعراف: ١٨٦].

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦).

يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركى العرب فى إنكار المعاد: ﴿وَقَالُوا

(١) فى ت: «الشوكة».

(٢) وذكره ابن حجر فى المطالب العالية (٣/ ١٥٤) وعزاه لأبي يعلى، وأظنه فى الكبير، ويزيد بن مرثد الهمداني روايته عن أبي ذر مرسله. تنبيه: وقع هنا «الباجى» ولم تقع لى هذه النسبة له.

(٣) فى ت، م: «مكتوبا» وهو الصواب.

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٩٦).

(٥) فى ت: «وقد روى الطبراني بسنده».

(٦) فى ت، م، أ: «وقوله».

(٧) المعجم الكبير (٢/ ٥٠).

(٨) فى أ: «أحدهما».

(٩) زيادة من ت.

(١٠) فى ت، م: «ومن يضل الله فما له من هاد» وهو خطأ.

مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ۚ أَى: ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولا قيامة وهذا يقوله مشركو^(١) العرب المنكرون للمعاد، ويقولوه الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البداية^(٢) والرجعة، ويقولوه الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع المعتقدون أن فى كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شىء إلى ما كان عليه. وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول^(٣) وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا^(٤): ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾، قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، أى: يتوهمون ويتخيلون.

فأما الحديث الذى أخرجه صاحبها الصحيح، وأبو داود، والنسائى، من رواية سفيان بن عيينة، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يؤذنى ابن آدم؛ يسب الدهر وأنا الدهر، بيدى الأمر، أقلب ليله ونهاره»^(٥). وفى رواية: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر»^(٦).

وقد أورده ابن جرير بسياق غريب جدا فقال: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا سفيان بن عيينة، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، وهو الذى يهلكنا، يميتنا ويحيينا، فقال الله فى كتابه: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾» قال: «ويسبون الدهر، فقال الله عز وجل: يؤذنى ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدى الأمر أقلب الليل والنهار»^(٧).

وكذا رواه ابن أبى حاتم، عن أحمد بن منصور، عن شُرَيْحِ بْنِ النُّعْمَانِ، عن ابن عيينة، مثله: ثم روى عن يونس، عن ابن وهب، عن الزهرى، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر، بيدى الليل والنهار». وأخرجه^(٨) صاحبها الصحيح والنسائى، من حديث يونس بن زيد، به^(٩).

وقال محمد بن إسحاق، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبى هريرة، رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله: استقرضت عبدى فلم يعطنى، وسببى عبدى، يقول: وادهره. وأنا الدهر»^(١٠).

قال الشافعى وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة فى تفسير قوله، عليه الصلاة والسلام: «لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر»: كانت العرب فى جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة، قالوا: يا

(١) فى أ: «منكرو». (٢) فى أ: «البداوة». (٣) فى ت، أ: «وكابروا العقول».

(٤) فى ت، أ: «قال».

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٢٦) وصحيح مسلم برقم (٢٢٤٦) وسنن أبى داود برقم (٥٢٧٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٦٨٧).

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٢٤٦).

(٧) تفسير الطبرى (٩٢/٢٥).

(٨) فى ت: «أخرجاه» وهو خطأ، والصواب: «أخرجه»؛ حتى لا يجتمع عاملان على معمول واحد.

(٩) صحيح البخارى برقم (٦١٨١) وصحيح مسلم برقم (٢٢٤٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٦٨٦).

(١٠) رواه الطبرى فى تفسيره (٩٢/٢٥) من طريق سلمة عن محمد بن إسحاق به، وخالفه يزيد بن هارون، فرواه عن محمد بن إسحاق، عن أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة، به، وأخرجه الحاكم فى المستدرک (٤٥٣/٢) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم».

خيبة الدهر. فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله [عز وجل]^(١)، فكأنهم إنما سبوا، الله عز وجل؛ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نُهي^(٢) عن سب الدهر بهذا الاعتبار؛ لأن الله هو الدهر الذى يعنونه، ويسندون إليه تلك الأفعال.

هذا أحسن ما قيل فى تفسيره، وهو المراد، والله أعلم. وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية فى عدهم الدهر من الأسماء الحسنى، أخذوا من هذا الحديث.

وقوله^(٣) تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ^(٤) آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أى: إذا استدل عليهم وبين لهم الحق، وأن الله قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها، ﴿مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اثْبُتُوا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: أحيوهم إن كان ما تقولونه حقا. قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ أى: كما تشاهدون ذلك، يخرجكم من العدم إلى الوجود، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] أى: الذى قدر على البداء قادر على الإعادة بطريق الأولى والأخرى. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى: إنما يجمعكم ليوم القيامة لا يعيدكم فى الدنيا حتى تقولوا: ﴿اثْبُتُوا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾^(٥) [التغابن: ٩] ﴿لَا يَوْمَ أَجَلْتُ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المرسلات: ١٢، ١٣]، ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ﴾ [هود: ١٠٤] وقال هاهنا: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى: لا شك فيه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: فلهذا ينكرون المعاد، ويستبعدون قيام الأجساد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا. وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦، ٧] أى: يرون وقوعه بعيدا، والمؤمنون يرون ذلك سهلا قريبا.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومَذِ الْيَوْمَ الْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَتَرَىٰ كُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩)﴾.

يخير تعالى أنه مالك السموات والأرض، الحاكم فيهما^(٦) فى الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أى: يوم^(٧) القيامة ﴿يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾، وهم الكافرون بالله الجاحدون ما أنزله على رسله من الآيات البينات والدلائل الواضحات.

وقال ابن أبى حاتم: قدم سفيان الثورى المدينة، فسمع المعافرى^(٨) يتكلم ببعض ما يضحك به الناس. فقال له: يا شيخ، أما علمت أن الله يوماً يخسر فيه المبطلون؟ قال: فما زالت تعرف فى المعافرى^(٩) حتى لحق بالله، عز وجل. ذكره ابن أبى حاتم.

(٢) فى أ: «أنهى».

(٤) فى م: «عليه» وهو خطأ.

(٦) فى م: «فيما».

(٨، ٩) فى ت، م، أ: «العاشر».

(١) زيادة من ت، م.

(٣) فى ت: «وقال».

(٥) فى ت: «الفصل» وهو خطأ.

(٧) فى ت، أ: «تقوم».

ثم قال: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أى: على ركبها من الشدة والعظمة، ويقال: إن هذا [يكون]^(١) إذا جرى بجهنم فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبته، حتى إبراهيم الخليل، ويقول: نفسى، نفسى، لا أسألك اليوم إلا نفسى، وحتى إن عيسى ليقول: لا أسألك اليوم إلا نفسى، لا أسألك [اليوم]^(٢) مريم التى ولدتنى.

قال مجاهد، وكعب الأحبار، والحسن البصرى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أى: على الركب. وقال عكرمة: ﴿جَاثِيَةً﴾: متميزة على ناحيتها^(٣)، وليس على الركب. والأول أولى.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو، عن عبد الله بن باباه^(٤)؛ أن رسول الله ﷺ قال: «كأنى أراكم جاثين بالكوم دون جهنم»^(٥).

وقال إسماعيل بن رافع المدينى^(٦)، عن محمد بن كعب، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، مرفوعاً فى حديث الصورة^(٧): فيتميز الناس، وتجتو الأمم، وهى التى يقول الله: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾^(٨).

وهذا فيه جمع بين القولين: ولا منافاة، والله أعلم.

وقوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ يعنى: كتاب أعمالها، كقوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩]؛ ولهذا قال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: تجازون بأعمالكم خيرها وشرها، كقوله تعالى: ﴿يُنَبِّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ . بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٣ - ١٥].

ثم قال: ﴿هَذَا﴾^(٩) كتابنا ينطقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ أى: يستحضر^(١٠) جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص^(١١)، كقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم. قال ابن عباس وغيره: تكتب الملائكة أعمال العباد، ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابلون الملائكة الذين فى ديوان الأعمال على ما بأيديهم مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ فى كل ليلة قدر، مما كتبه^(١٢) الله فى القدم على العباد قبل أن يخلقهم، فلا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً، ثم قرأ: ﴿إِنَّا كُنَّا

(١) زيادة من أ.

(٢) فى أ: «ناصيتها».

(٣) فى ت: «وقال ابن أبى حاتم بإسناده».

(٤) زيادة من ت.

(٥) ورواه أبو نعيم فى زوائد زهد ابن المبارك برقم (٣٦٠) وأبو نعيم فى الحلية (٢٩٩/٧) من طريق سفيان بن عيينة به.

(٦) فى أ: «المدنى».

(٧) فى ت، م، أ: «الصور».

(٨) انظر تفسير حديث الصور عند الآية: ٧٣ من سورة الأنعام.

(٩) فى ت، م، أ: «ولهذا» وهو خطأ.

(١٠) فى أ: «ما قد كتبه».

(١١) فى م: «نقصان».

(١٢) فى أ: «سيحضر».

نَسْتَسْخِ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٠﴾

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣١﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ ﴿٣٣﴾ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٣٥﴾ ذَلِكَ بِأَنكُم بَأْتَكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٦﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ ﴾

يخبر تعالى عن حكمه في خلقه يوم القيامة، فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحات^(١)، وهى الخالصة الموافقة للشرع، ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾، وهى الجنة، كما ثبت فى الصحيح أن الله قال للجنة: «أنت رحمتى، أرحم بك من أشاء»^(٢).

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أى: البين الواضح.

ثم قال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أى: يقال لهم ذلك تقريرا وتوبيخا: أما^(٣) قرئت عليكم آيات الرحمن فاستكبرتم عن اتباعها، وأعرضتم عند^(٤) سماعها، ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أى: فى أفعالكم، مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب؟ ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أى: إذا قال لكم المؤمنون ذلك، ﴿قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ أى: لا نعرفها، ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أى: إن نتوهم وقوعها إلا توهمنا، أى مرجوحا^(٥)؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ﴾ أى: بمتحققين، قال الله تعالى: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أى: وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أى: أحاط بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أى: من العذاب والنكال، ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ أى: نعاملكم معاملة الناسى لكم فى نار جهنم ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أى: فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به، ﴿وَمَاوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ﴾. وقد ثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: «ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟

(١) فى ت، أ: «الصالحة».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٥٠) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

(٣) فى أ: «لما».

(٤) فى أ: «مرجوعا».

(٥) فى أ: «لما».

ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذكرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، يارب. فيقول: أفظننت أنك مُلاقى؟ فيقول: لا. فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتني^(١).

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ أى: إنما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخريا، تسخرون وتستهزئون بها، ﴿وَعَرَّيْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أى: خدعتكم فاطمأنتم إليها، فأصبحتم من الخاسرين؛ ولهذا قال: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ أى: من النار ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أى: لا يطلب منهم العتبي، بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب.

ثم لما ذكر حكمه فى المؤمنين والكافرين قال: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ﴾ أى: المالك لهما وما فيهما؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال مجاهد: يعنى السلطان. أى: هو العظيم الممجّد، الذى كل شىء خاضع لديه فقير إليه. وقد ورد فى الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى^(٢): العظمة إزارى، والكبرياء ردائى، فمن نازعنى واحداً منهما أسكنته نارى». ورواه مسلم من حديث الأعمش، عن أبى إسحاق، عن الأغر أبى مسلم، عن أبى هريرة وأبى سعيد، رضى الله عنهما، عن رسول الله ﷺ، بنحوه^(٣).

وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أى: الذى لا يغالب ولا يمانع، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، تعالى وتقدس، لا إله إلا هو^(٤).

آخر تفسير سورة الجاثية [ولله الحمد والمنة]^(٥)

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٦٨) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

(٢) فى ت: «أن الله تعالى يقول».

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٦٢٠).

(٤) فى أ: «لا إله غيره ولا رب سواه». (٥) زيادة من ت، م، أ.

تفسير سورة الأحقاف

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حَم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ اتَّخَذُوا لِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦)﴾ .

يخبر تعالى أنه نزل الكتاب على عبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، ووصف نفسه بالعزة التى لا ترام، والحكمة فى الأقوال والأفعال، ثم قال: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أى: لا على وجه العبث والباطل، ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: إلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص .

قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ﴾ أى: لاهون^(١) عما يراد بهم، وقد أنزل إليهم كتاب وأرسل إليهم رسول، وهم معرضون عن ذلك كله، أى: وسيعلمون غب ذلك .

ثم قال: ﴿قُلْ﴾ أى: لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره: ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أى: أرشدونى إلى المكان الذى استقلوا بخلقه من الأرض، ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أى: ولا شرك لهم فى السموات ولا فى الأرض، وما يملكون من قطمير، إن الملك والتصرف كله إلا الله، عز وجل، فكيف تعبدون معه غيره، وتشركون به؟ من أرشدكم إلى هذا؟ من دعاكم إليه؟ أهو أمركم به؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال: ﴿اتَّخَذُوا لِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أى: هاتوا كتاباً من كتب الله المنزلة على الأنبياء^(٢)، عليهم الصلاة والسلام، يأمركم بعبادة هذه الأصنام، ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى: دليل بين على هذا المسلك الذى سلكتموه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: لا دليل لكم نقلياً ولا عقلياً على ذلك؛ ولهذا قرأ آخرون: «أو أثر من علم» أى: أو علم صحيح ياثرونه عن أحد من قبلهم، كما قال مجاهد فى قوله: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾: أو أحد ياثُر علماً .

(١) فى ت، م، أ: «لاهين» .

(٢) فى ت، م، أ: «هاتوا كتاباً من الكتب المنزلة على أنبيائهم» .

قال العوفي، عن ابن عباس: أو بينة من الأمر.

وقال^(١) الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثنا صفوان بن^(٢) سليم، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن ابن عباس قال سفيان: لا أعلم إلا عن النبي ﷺ: «أو أثرة من علم» قال: «الخط»^(٣).

وقال أبو بكر بن عياش: أو بقية من علم. وقال الحسن البصري: «أو أثارة»^(٤): شيء يستخرجه فيثيره.

وقال ابن عباس، ومجاهد، وأبو بكر بن عياش أيضا: «أو أثارة من علم» يعنى الخط.

وقال قتادة: «أو أثارة من علم»: خاصة من علم.

وكل هذه الأقوال متقاربة، وهى راجعة إلى ما قلناه، وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله وأكرمه، وأحسن مثواه.

وقوله: «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ»^(٥) أى: لا أضل ممن يدعو أصناما، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة، وهى غافلة عما يقول، لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش؛ لأنها جماد، حجارة، صم.

وقوله: «وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ»^(٦)، كقوله تعالى: «وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا»^(٧) [مريم: ٨١، ٨٢] أى: سيخونونهم^(٨) أخرج ما يكونون إليهم، وقال الخليل: «إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ» [العنكبوت: ٢٥].

﴿وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧) أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم (٨) قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين (٩) .

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فى كفرهم وعنادهم: إنهم إذا تتلى عليهم آيات الله بينات، أى: فى حال بيانها ووضوحها وجلالاتها، يقولون: «هذا سحر مبين»^(١) أى: سحر واضح، وقد كذبوا وافتروا وضلوا وكفروا «أم يقولون افتراه»^(٢) يعنون: محمدا ﷺ. قال الله [تعالى]^(٣): «قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»^(٤) أى: لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلنى - وليس كذلك - لعاقبنى أشد

(١) فى ت: «وروى» . (٢) فى أ: «عن» وهو خطأ .

(٣) المسند (١/٢٢٦) .

(٤) فى أ: «سجدونهم» . (٥) زيادة من ت، أ .

العقوبة، ولم يَقْدِرْ أحد من أهل الأرض، لا أنتم ولا غيركم، أن يجيرني منه، كقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً . إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ [الجن: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، هذا تهديد لهم، ووعيد أكيد، وترهيب شديد.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: ترغيب لهم إلى التوبة والإنابة، أى: ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم، تاب عليكم وعفا عنكم، وغفر [لكم]^(١) ورحم. وهذه الآية كقوله فى سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٥، ٦].

وقوله: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ أى: لست بأول رسول طرق العالم، بل قد جاءت الرسل من قبلى، فما أنا بالأمر الذى لا نظير له حتى تستكرونى وتستبعدوا^(٢) بعثتى إليكم، فإنه قد أرسل الله قبلى جميع الأنبياء إلى الأمم.

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾: ما أنا بأول رسول. ولم يحك ابن جرير ولا ابن أبى حاتم غير ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى هذه الآية: نزل بعدها ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]. وهكذا قال عكرمة، والحسن، وقتادة: إنها منسوخة بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، قالوا: ولما نزلت هذه الآية قال رجل من المسلمين: هذا قد بين الله ما هو فاعل بك يا رسول الله، فما هو فاعل بنا؟ فأنزل الله: ﴿لِيَدْخُلِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ [الفتح: ٥].

هكذا قال، والذي هو ثابت فى الصحيح أن المؤمنين قالوا: هنيئاً لك يا رسول الله، فما لنا؟ فأنزل الله هذه الآية.

وقال الضحاك: ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾: ما أدري بماذا أومر، وبماذا أنهى بعد هذا؟

وقال أبو بكر الهذلي، عن الحسن البصري فى قوله: ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ قال: أما فى الآخرة فمعاذ الله، قد علم أنه فى الجنة، ولكن قال: لا أدري ما يفعل بى ولا بكم فى الدنيا، أخرج كما أخرجت الأنبياء [من]^(٣) قبلى؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلى؟ ولا أدري أيخسف بكم أو تُرمون بالحجارة؟

وهذا القول هو الذى عوّل عليه ابن جرير، وأنه لا يجوز غيره، ولا شك أن هذا هو اللائق به، صلوات الله وسلامه عليه، فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه، وأما فى الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركى قريش إلى ماذا: أيؤمنون أم يكفرون، فيعذبون

(٣) زيادة من أ.

(٢) فى ت، م، أ: «وتستبعدون».

(١) زيادة من أ.

فسيأتصلون بكفرهم^(١)؟ فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد:

حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن ابن شهاب، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أم العلاء - وهى امرأة من نسائهم - أخبرته - وكانت بايعت رسول الله ﷺ - قالت: طار لهم فى السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمان بن مظعون. فاشتكى عثمان عندنا فمرضناه، حتى إذا توفى أدرجناه فى أثوابه، فدخل علينا رسول الله ﷺ فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، شهادتى عليك، لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه؟» فقلت: لا أدري بأبى أنت وأمى! فقال رسول الله ﷺ: «أما هو فقد جاءه^(٢) اليقين من ربه، وإنى لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بى!» قالت: فقلت: والله لا أزكى أحداً بعده أبداً. وأحزنى ذلك، فنمت فرأيت لعثمان عينا تجرى، فجئت إلى رسل الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك^(٣) عمله».

فقد انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم^(٤)، وفى لفظ له: «ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به»^(٥). وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ، بدليل قولها: «فأحزنى ذلك». وفى هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذى^(٦) نص الشارع على تعيينهم، كالعشرة، وابن سلام، والغميصاء، وبلال، وسراقة، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد^(٧) جابر، والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة، وزيد بن حارثة، وجعفر، وابن رواحة، وما أشبه هؤلاء.

وقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ﴾ أى: إنما أتبع ما ينزله الله على من الوحي، ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: بين النذارة، وأمرى^(٨) ظاهر لكل ذى لب وعقل.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) .

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ أى: ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذى جئتكم به قد أنزله

(٣) فى ت: «ذلك».

(٢) فى أ: «جاءه والله».

(١) فى ت، أ: «كغيرهم».

(٤) المسند (٤٣٦/٦) وصحيح البخارى برقم (١٢٤٣).

(٥) صحيح البخارى برقم (٢٦٨٧).

(٨) فى أ: «رأى».

(٧) فى ت: «أبو».

(٦) فى أ: «الذين».

عَلَىٰ لِأَبْلَغِكُمُوهُ وَقَدْ كَفَرْتُمْ بِهِ وَكَذَّبْتُمُوهُ، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ أَى: وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء قبلى، بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به.

وقوله: ﴿فَأَمَّنْ﴾ أَى: هذا الذى شهد بصدقه من بنى إسرائيل لمعرفته بحقيقته ﴿وَأَسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أنتم: عن اتباعه.

وقال مسروق: فأمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه، وكفرتم أنتم بنبيكم وكتابكم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وهذا الشاهد اسم جنس يعم عبد الله بن سلام وغيره، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبدالله بن سلام. وهذه كقوله: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨].

قال مسروق، والشعبى: ليس بعبد الله بن سلام، هذه الآية مكية، وإسلام عبد الله بن سلام كان بالمدينة. رواه عنهما ابن جرير وابن أبى حاتم، واختاره ابن جرير .

وقال مالك، عن أبى النضر، عن عامر بن سعد^(١)، عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشى على وجه الأرض: «إنه من أهل الجنة»، إلا لعبد الله بن سلام، قال: وفيه نزلت: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾.

رواه البخارى ومسلم والنسائى، من حديث مالك، به^(٢). وكذا قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعكرمة، ويوسف بن عبد الله بن سلام، وهلال بن يساف، والسدى، والثورى، ومالك بن أنس وابن زيد؛ أنهم كلهم قالوا: إنه عبد الله بن سلام.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أَى: قالوا عن المؤمنين بالقرآن: لو كان القرآن خيرا ما سبقنا هؤلاء إليه^(٣). يعنون بلالا وعمارا وصهيبا وخبابا وأشباههم وأقرانهم^(٤) من المستضعفين والعبيد والإماء، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية. وقد غلطوا فى ذلك غلطا فاحشا، وأخطؤوا خطأ بينا، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣] أَى: يتعجبون: كيف اهتدى هؤلاء دوننا؛ ولهذا قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وأما أهل السنة^(٥) والجماعة فيقولون فى كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة: هو بدعة؛ لأنه لو كان خيرا لسبقونا إليه، لأنهم

(١) فى أ: «سعيد».

(٢) صحيح البخارى برقم (٣٨١٢) وصحيح مسلم برقم (٢٤٨٣) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٢٥٢).

(٣) فى ت: «ما سبقونا إليه هؤلاء».

(٤) فى أ: «وأضرابهم».

(٥) فى م، ت، أ: «يعنى المؤمنين، وأما أهل السنة».

لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها^(١).

وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أى: بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ﴾ أى: كذب ﴿قَدِيمٌ﴾ أى: ماثور عن الأقدمين، فينتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذى قال رسول الله ﷺ: «بطر^(٢) الحق، وغمط الناس»^(٣).

ثم قال: ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابُ مُوسَى﴾ وهو التوراة ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يعنى: القرآن ﴿مُصَدِّقٌ﴾ أى: لما قبله من الكتب ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أى: فصيحاً بيناً واضحاً، ﴿لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُبَشِّرَ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أى: مشتمل على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾: تقدم تفسيرها فى سورة «حم، السجدة»^(٤).

وقوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى: فيما يستقبلون، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم وسبوغها^(٥) عليهم.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦)﴾.

لما ذكر تعالى فى الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه، عطف بالوصية بالوالدين، كما هو مقرون فى غير ما آية من القرآن، كقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وقال: ﴿أَنْ أَشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة. وقال هاهنا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ أى: أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما.

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا شعبة، أخبرنى سَمَّاكُ بن حرب قال: سمعت مُصْنَعُ بن سعد^(٦) يحدث عن سعد قال: قالت أم سعد لسعد: أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين، فلا أكل طعاماً، ولا أشرب شراباً حتى تكفر بالله. فامتنعت من الطعام الشراب، حتى جعلوا يفتحون فاهما بالعصا، ونزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ الآية [العنكبوت: ٨].

(١) فى ت، م: «إليه».

(٢) فى أ: «الكبر بطر».

(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه.

(٦) فى أ: «حرب».

(٤) راجع تفسير هذه الآية عند الآية: ٣٠ من سورة السجدة. (٥) فى أ: «وشيوخها».

ورواه مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه، من حديث شعبة بإسناده، نحوه وأطول منه^(١).

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ أى: قاست بسببه فى حال حملها مشقة وتعباً، من وِحَامٍ وغشيان وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أى: بمشقة أيضاً من الطلق وشدته، ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾.

وقد استدلل على، رضى الله عنه، بهذه الآية مع التى فى لقمان: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، وقوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قوى صحيح. ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة، رضى الله عنهم.

قال محمد بن إسحاق بن يسار، عن يزيد بن عبد الله بن قُسيط، عن بَعَجَةَ^(٢) بن عبد الله الجهنى قال: تزوج رجل منا امرأة من جُهَيْنَةَ، فولدت له لتمام ستة أشهر، فانطلق زوجها إلى عثمان فذكر ذلك له، فبعث إليها، فلما قامت لتلبس ثيابها بكى أختها، فقالت: ما يبيكيك؟! فوالله ما التبس بى أحد من خلق الله غيره قط، فيقضى الله فى ما شاء. فلما أتى بها عثمان أمر برجمها، فبلغ ذلك علياً فأتاه، فقال له: ما تصنع؟ قال: ولدت تماماً لسته أشهر، وهل يكون ذلك؟ فقال له [على]^(٣) أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قال: أما سمعت الله يقول: ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾. وقال: ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾^(٤) حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ، فلم نجد به بقى إلا ستة أشهر، قال: فقال عثمان: والله ما فطنت لهذا، على بالمرأة فوجدوها قد فُرِغَ منها، قال: فقال بَعَجَةُ: فوالله ما الغراب بالغراب، ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه. فلما رآه أبوه قال: ابنى إني والله لا أشك فيه، قال: وأبلاه^(٥) الله بهذه القرحة قرحة الأكلة، فما زالت تأكله حتى مات^(٦).

رواه ابن أبى حاتم، وقد أوردناه من وجه آخر عند قوله: ﴿فَأَنَّا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا قُرَّة بن أبى المغراء، حدثنا على بن مسهر، عن داود بن أبى هند، عن عكرمة، عن ابن عباس^(٧) قال: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر، كفاه من الرضاع أحد^(٨) وعشرون شهراً، وإذا وضعته لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعته لسته أشهر فحولين كاملين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أى: قوى وشب وارتحل ﴿وَيَبْلُغُ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أى: تنهى عقله وكمل فهمه وحلمه. ويقال: إنه لا يتغير غالباً عما يكون عليه ابن الأربعين.

(١) مسند الطيالسى برقم (٢٠٨) وصحيح مسلم برقم (١٧٤٨) وسنن أبى داود برقم (٢٧٤٠) وسنن الترمذى برقم (٣٠٧٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١١٩٦) لكن النسائى لم يرو الشاهد هنا وإنما روى أوله.

(٢) فى ت، أ: «معمر».

(٣) زيادة من ت، أ.

(٤) زيادة من أ.

(٥) فى ت، م، أ: «وابتلاه».

(٦) ورواه ابن المنذر وابن أبى حاتم كما فى الدر المنثور للسيوطى (٤٤١/٧).

(٧) فى ت: «عن عكرمة وروى عن ابن عباس».

(٨) فى ت: «بأحد»، وفى أ، هـ: «أحد».

قال أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن القاسم بن عبد الرحمن قال: قلت لمسروق: متى يؤخذ الرجل بذنوبه؟ قال: إذا بَلَغْتَ الأربعين، فَخُذْ حذرَكَ.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا عبيد الله القواريرى، حدثنا عَزْرَةُ بن قيس الأزدي - وكان قد بلغ مائة سنة - حدثنا أبو الحسن السلولى^(١) عنه وزادنى^(٢) قال: قال محمد بن عمرو بن عثمان، عن عثمان، عن النبي ﷺ قال: «العبد المسلم إذا بلغ أربعين سنة، خفف الله حسابَه، وإذا بلغ^(٣) ستين سنة رزقه الله الإنابة إليه، وإذا بلغ سبعين سنة أحبه أهل السماء، وإذا بلغ ثمانين سنة ثبت الله حسناته ومحا سيئاته، وإذا بلغ تسعين سنة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وشَفَّعه الله فى أهل بيته، وكتب فى السماء: أسير^(٤) الله فى أرضه»^(٥).

وقد روى هذا من غير هذا الوجه، وهو فى مسند الإمام أحمد^(٦) ^(٧).

وقد قال الحجاج بن عبد الله الحكمى أحد أمراء بنى أمية بدمشق: تركت المعاصى والذنوب أربعين سنة حياء من الناس، ثم تركتها حياء من الله، عز وجل.

وما أحسن قول الشاعر:

صَبَا مَا صَبَا حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ فَلَمَّا عَلَاهُ قَالَ لِلْبَاطِلِ: ابْطُلْ^(٨)

﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾ أى: ألهمنى ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ أى: فى المستقبل، ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ﴾ أى: نسلى وعقبى، ﴿ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ هذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله، عز وجل، ويعزم عليها.

وقد روى أبو داود فى سننه، عن ابن مسعود، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم أن يقولوا فى التشهد: «اللهم، ألف بين قلوبنا، وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبيل^(٩) السلام، ونجنا من الظلمات إلى النور، وجننا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وبارك لنا فى أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا، وأزواجنا، وذرياتنا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمتك، مشين بها قابليها، وأتممها علينا»^(١٠).

قال الله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أى: هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، التائبون إلى الله المنيبون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا، ويتجاوز عن سيئاتهم، فيغفر لهم الكثير من الزلل، ويتقبل منهم اليسير من العمل، ﴿ فِى أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾ أى: هم فى جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله كما وعد

(١) فى م، أ: «أبو الحسن الكوفى - عمرو بن أوس».

(٢) فى ت، م: «رزقه».

(٣) فى ت، م، أ: «أمين».

(٤) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/٢٠٥): «رواه أبو يعلى فى الكبير وفيه عَزْرَةُ بن قيس الأزدي، وهو ضعيف».

(٥) فى ت: «وهذا الحديث فى مسند الإمام أحمد».

(٦) رواه الإمام أحمد من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه، المسند (٣/٢١٨).

(٧) فى ت، م، أ: «أبعد».

(٨) فى ت: «سبيل».

(٩) سنن أبى داود برقم (٩٦٩).

الله من تاب إليه وأناب؛ ولهذا قال: ﴿وَعَدَ الصِّدِّيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

قال^(١) ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن الحكم بن أبان، عن الغطريف، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس^(٢)، عن رسول الله ﷺ، عن الروح الأمين، عليه^(٣) السلام، قال: «يؤتى^(٤) بحسنات العبد وسيئاته^(٥)، فيقتص^(٦) بعضها ببعض، فإن بقيت حسنة وسع الله له في الجنة» قال: فدخلت على يزداد فحدثت بمثل هذا الحديث قال: قلت: فإن ذهبت الحسنة؟ قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَيتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدِّيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾^(٧).

وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن محمد بن عبد الأعلى الصنعاني، عن المعتمر بن سليمان، بإسناده مثله - وزاد: عن الروح الأمين. قال: قال الرب، جل جلاله: يؤتى بحسنات العبد وسيئاته... فذكره، وهو حديث غريب، وإسناده جيد لا بأس به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سليمان بن معبد، حدثنا عمرو بن عاصم الكلابي، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر^(٨) جعفر بن أبي وحشية، عن يوسف بن سعد^(٩)، عن محمد بن حاطب قال: ونزل في دارى حيث ظهر على أهل البصرة، فقال لى يوما: لقد شهدت أمير المؤمنين عليا، وعنده عمارا وصعصعة والأشتر ومحمد بن أبى بكر، فذكروا عثمان فنالوا منه، وكان على، رضى الله عنه، على السرير، ومعه عود فى يده، فقال قائل منهم: إن عندكم من يفصل بينكم فسألوه، فقال على: كان عثمان من الذين قال الله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَيتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدِّيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ قال: والله عثمان وأصحاب عثمان - قالها ثلاثا - قال يوسف: فقلت لمحمد بن حاطب: الله لسمعت هذا من على؟ قال: الله لسمعت هذا من على، رضى الله عنه.

﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَهٗ أَفْ لَّكُمَا أَتَعَدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون (٢٠)﴾.

(١) فى ت: «وروى».

(٢) فى ت: «ابن عباس رضى الله عنه».

(٣) فى م: «عليهما».

(٤) فى ت: «تؤتى».

(٥) فى أ: «وسيئاته يوم القيامة».

(٦) فى أ: «فيقتص».

(٧) تفسير الطبرى (١٢/٢٦) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٩١/٣) من طريق معتمر بن سليمان به، وقال أبو نعيم: «هذا حديث غريب

من حديث جابر، والغطريف تفرد به عنه الحكم بن أبان العدنى».

(٨) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده».

(٩) فى أ: «بشير».

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما وما لهم عنده من الفوز والنجاة، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفِ لَكُمْ﴾ - وهذا عام في كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر فقلوه ضعيف؛ لأن عبد الرحمن بن أبي بكر أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه.

وروى العوفي، عن ابن عباس: أنها نزلت في ابن لأبي بكر الصديق. وفي صحة هذا نظر، والله أعلم.

وقال ابن جرير، عن مجاهد: نزلت في عبد الله بن أبي بكر. وهذا أيضا قاله ابن جريج.

وقال آخرون: عبد الرحمن بن أبي بكر. وقاله^(١) السدي. وإنما هذا عام في كل من عق والديه وكذب بالحق، فقال لوالديه: ﴿أَفِ لَكُمْ﴾ عقهما.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا يحيى بن أبي زائدة، عن إسماعيل بن أبي خالد، أخبرني عبد الله بن المديني قال: إني لفي المسجد حين خطب مروان، فقال: إن الله أرى^(٢) أمير المؤمنين في يزيد رأيا حسنا، وإن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر عمر، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: أهرقية؟! إن أبا بكر والله ما جعلها في أحد من ولده، ولا أحد من أهل بيته، ولا جعلها معاوية في ولده إلا رحمة وكرامة لولده. فقال مروان: ألسنت الذي قال لوالديه: أف لكما؟ فقال عبد الرحمن: ألسنت ابن اللعين الذي لعن رسول الله ﷺ أباك؟ قال: وسمعتهما عائشة فقالت: يا مروان، أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا؟ كذبت، ما فيه نزلت، ولكن نزلت في فلان بن فلان. ثم انتحب مروان، ثم نزل عن المنبر حتى أتى باب حجرتها، فجعل يكلمها حتى انصرف^(٣).

وقد رواه البخاري بإسناد آخر ولفظ آخر، فقال: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن يوسف بن مَاهَك قال: كان مروان على الحجاز، استعمله معاوية بن أبي سفيان، فخطب وجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئا، فقال: خذوه. فدخل بيت عائشة، رضى الله عنها، فلم يقدروا عليه، فقال^(٤) مروان: إن هذا الذي أنزل فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفِ لَكُمْ أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن، إلا أن الله أنزل عذري^(٥).

طريق أخرى: قال النسائي: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أمية بن خالد، حدثنا شعبة، عن محمد بن زياد قال: لما بايع معاوية لابنه، قال مروان: سنة أبي بكر وعمر. فقال عبد الرحمن بن أبي

(١) في ت، م: «وهذا قول».

(٢) في م، أ: «الله قد رأى».

(٣) ورواه ابن مردويه في تفسيره كما في الدر المنثور (٤٤٤/٧).

(٤) في أ: «فلم يقدر عليه فقام فقال».

(٥) صحيح البخاري برقم (٤٨٢٧).

بكر: سنة هرقل وقيصر. فقال مروان: هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوَالِدَيْهِ أَفِ لَكُمْ﴾ الآية، فبلغ ذلك عائشة فقالت: كذب مروان! والله ما هو به، ولو شئت أن أسمى الذي أنزلت فيه لسميته، ولكن رسول الله ﷺ لعن أبا مروان ومروان في صلبه، فمروان فضض^(١) من لعنة الله^(٢).

وقوله: ﴿أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ﴾ أى: [أن]^(٣) أبعث ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ أن^(٤): قد مضى الناس فلم يرجع منهم مخبر، ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾ أى: يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما: ﴿وَيْلَكَ آمَنَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ قال الله [تعالى]^(٥): ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أى: دخلوا فى زمرة أشباههم وأضرابهم من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ بعد قوله: ﴿وَالَّذِي قَالَ﴾ دليل على ما ذكرناه من أنه جنس يعم كل من كان كذلك.

وقال الحسن، وقتادة: هو الكافر الفاجر العاق لوالديه، المكذب بالبعث.

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة سهل بن داود، من طريق هشام بن عمار: حدثنا حماد ابن عبد الرحمن، حدثنا خالد بن الزبرقان الحلبي، عن سليمان بن حبيب المحاربي، عن أبى أمامة الباهلي، عن النبى ﷺ قال: «أربعة لعنهم الله من فوق عرشه، وأمنت عليهم الملائكة: مفضل المساكين - قال خالد: الذى يهوى بيده إلى المسكين فيقول: هلم أعطيك، فإذا جاءه قال: ليس معى شىء - والذى يقول للمكفوف: اتق الدابة، وليس بين يديه شىء. والرجل يسأل عن دار القوم فيدلونه على غيرها، والذى يضرب الوالدين حتى يستغيثا»^(٦). غريب جدا.

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أى: لكل عذاب بحسب عمله، ﴿وَلِيُوقِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ أى: لا يظلمهم مثقال ذرة فما دونها.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: درجات النار تذهب سفلا، ودرجات الجنة تذهب علوا.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ أى: يقال لهم ذلك تقريرا وتوبيخا. وقد تورع [أمير المؤمنين]^(٧) عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، عن^(٨) كثير من طيبات المأكّل والمشارب، وتنزه عنها، ويقول: [إنى]^(٩) أخاف أن أكون كالذين قال الله تعالى لهم وقرعهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾.

(١) فى أ: «بعض».

(٢) النسائي فى السنن الكبرى برقم (١١٤٩١).

(٣) زيادة من ت. (٤) فى ت، أ: «أى».

(٥) زيادة من ت، م.

(٦) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٢١/١٠) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٥١/٤) من طريق هشام بن عمار به. قال ابن أبى حاتم فى العلل (٤١٣/٢): «سألت أبى عن هذا الحديث فقال: هذا حديث منكر». قال الهيثمى فى المجمع (٢٥١/٤):

«حماد بن عبد الرحمن العكى عن خالد بن الزبرقان، وكلاهما ضعيف».

(٧) زيادة من ت، م، أ. (٨) فى أ: «على».

(٩) زيادة من ت، م، أ.

وقال أبو مجلز: ليتفقَدَنَّ أقوامٌ حَسَنَاتٍ كانت لهم في الدنيا، فيقال لهم: ﴿أَذْهَبَتْ طَيِّبَاتُكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾.

وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾، فجوزوا من جنس عملهم، فكما نَعَمُوا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصي، جازاهم الله بعذاب الهون، وهو الإهانة والحزى والآلام الموجهة، والحسرات المتتابعة، والمنازل في الدركات المقطعة، أجارنا الله من ذلك كله.

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمְطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٥).

يقول تعالى مسلماً لنبيه في تكذيب من كذبه من قومه: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ وهو هود، عليه السلام، بعثه الله إلى عاد الأولى، وكانوا يسكنون الأحقاف - جمع حَقْف وهو: الجبل من الرمل - قاله ابن زيد. وقال عكرمة: الأحقاف: الجبل والغار. وقال علي بن أبي طالب، رضى الله عنه: الأحقاف: واد بحضرموت، يدعى بُرْهُوت، تلقى فيه أرواح الكفار. وقال قتادة: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ عَادًا كَانُوا حَيَا بِالْيَمَنِ أَهْلَ رَمْلٍ مُشْرِفِينَ عَلَى الْبَحْرِ بِأَرْضٍ يُقَالُ لَهَا: الشَّحْرُ.

قال ابن ماجه: «باب إذا دعا فليبدأ بنفسه»: حدثنا الحسين بن علي الخلال، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحمنا الله، وأخا عاد»^(١).

وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعني: وقد أرسل الله إلى من حَوْلَ بلادهم من القرى مرسلين ومنذرين، كقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦]، وكقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا^(٢) فَقُلْ أُنذِرْتَكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ. إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ^(٣)﴾ [فصلت: ١٣، ١٤] أى: قال لهم هود ذلك، فأجابه قومه قائلين: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ﴾ أى: لتصدنا ﴿عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ

(١) سنن ابن ماجه (٣٨٥٢) وقال البوصيرى في الزوائد (٢٠٤/٣): «هذا إسناد صحيح وله شواهد في صحيح مسلم وغيره من حديث أبي بن كعب».

(٢) فى ت، م، أ، هـ: «إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم»، والصواب ما أثبتناه.

(٣) فى م: «تولوا»، وهو خطأ.

كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١﴾ استعجلوا عذاب الله وعقوبته، استبعاداً منهم وقوعه، كقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

﴿قَالَ﴾ (١) إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ ﴿٢﴾ أى: الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فيفعل (٢) ذلك بكم، وأما أنا فمن شأنى أنى أبلغكم ما أرسلت به، ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ أى: لا تعقلون ولا تفهمون.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾ أى: لما رأوا العذاب مستقبلهم، اعتقدوا أنه عارض ممطر، ففرحوا به واستبشروا به (٣)، وقد كانوا محلين محتاجين إلى المطر، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: هو العذاب الذى قلتُم: ﴿فَأَتَانَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

﴿تُدْمِرُ﴾ أى: تخرّب ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من بلادهم، مما من شأنه الخراب ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أى: بإذن الله لها فى ذلك، كقوله: ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢] أى: كالشئء البالى. ولهذا قال: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا تَرَى إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ﴾ أى: قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم باقية، ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا، وخالف أمرنا.

وقد ورد حديث فى قصتهم وهو غريب جداً من غرائب الحديث وأفراده، قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثنى أبو المنذر سلام بن سليمان النحوى قال: حدثنا عاصم بن أبى النُّجُود، عن أبى وائل، عن الحارث البكرى قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمى إلى رسول الله ﷺ، فمررت بالربذة، فإذا عجوز من بنى تميم منقطع بها، فقالت لى: يا عبد الله، إن لى إلى رسول الله ﷺ حاجة، فهل أنت مبلغى إليه؟ قال: فحملتها فأتيت بها المدينة، فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد السيف بين يدى رسول الله ﷺ، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها. قال: فجلست، فدخل منزله - أو قال: رحله - فاستأذنت عليه، فأذن لى، فدخلت فسلمت، فقال: «هل كان بينكم وبين تميم شئ؟ قلت: نعم، وكانت لنا الدبرة (٤) عليهم، ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها، فسألتنى أن أحملها إليك، وها هى بالباب: فأذن لها فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزا فاجعل الدهناء، فحميت العجوز واستوفزت، وقالت: يا رسول الله، فإلى أين يضطر مضطرك؟ قال: قلت: إن مثلى ما قال الأول: «مَعَزَى حَمَلَتْ حَتْفَهَا»، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لى خصما، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد. قال: «هيه، وما وافد عاد؟» - وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه (٥) - قلت: إن عاداً قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له: قَيْل، فمر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهرا يسقيه الخمر وتغنيه جارتان يقال لهما «الجرادتان» - فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة فقال: اللهم،

(٢) فى م، أ: «سيفعل».

(٤) فى ت، أ: «الدائرة».

(١) فى م: «وقال» وهو خطأ.

(٣) فى م، ت: «فرحوا به واستبشروا به».

(٥) فى أ: «يستطعمه».

إنك تعلم أنى لم أجيئ إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عادا ما كنت تسقيه. فمرت به سحبات سود، فنودى منها: «اختر»، فأوماً إلى سحابة منها سوداء، فنودى منها: «خذها رماداً رمداً»^(١)، لا تبقى من عاد أحداً». قال: فما بلغنى أنه أرسل عليهم من الريح إلا كقدر ما يجرى فى خاتمى هذا، حتى هلكوا - قال أبو وائل: وصدق - وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: «لا تكن كوافد عاد».

رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه، كما تقدم فى سورة «الأعراف»^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا عمرو: أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن يسار، عن عائشة^(٣) أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم. قالت: وكان^(٤) إذا رأى غيماً - أو ريحاً - عرف ذلك فى وجهه، قالت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت فى وجهك الكراهية؟ فقال: «يا عائشة، ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا»^(٥). وأخرجه^(٦) من حديث ابن وهب^(٦).

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن المقدم بن شريح، عن أبيه، عن عائشة، أن رسول الله ﷺ كان إذا رأى ناشئاً فى أفق من آفاق السماء، ترك عمله، وإن كان فى صلاته، ثم يقول: «اللهم، إني أعوذ بك من شر ما فيه»^(٧). فإن كشفه الله حمد الله، وإن أمطرت قال: «اللهم، صيباً نافعا»^(٨).

طريق أخرى: قال مسلم فى صحيحه: حدثنا أبو الطاهر، أخبرنا ابن وهب، سمعت ابن جريج يحدث عن عطاء بن أبى رباح، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم، إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به». قالت: وإذا تَخَلَّت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سرى عنه، فعرفت ذلك عائشة، فسألته، فقال: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرُنَا﴾»^(٩).

وقد ذكرنا قصة هلاك عاد^(١٠) فى سورتي «الأعراف» وهود^(١١) بما أغنى عن إعادته هاهنا، والله

(١) فى ت: «رمدا».

(٢) المسند (٤٨٢/٣) وانظر تخريج بقية هذا الحديث عند الآية: ٧٣ من سورة الأعراف.

(٣) فى ت: «عائشة رضى الله عنها».

(٤) فى ت، م: «وكان رسول الله ﷺ».

(٥) فى ت: «أخرجه».

(٦) المسند (٦٦/٦)، وصحيح البخارى برقم (٤٨٢٨، ٤٨٢٩)، وصحيح مسلم برقم (٨٩٩).

(٧) فى م: «من سوء عاقبته».

(٨) المسند (١٩٠/٦).

(٩) صحيح مسلم برقم (٨٩٩).

(١٠) فى ت، م، أ: «هلاك قوم عاد».

(١١) راجع قصة هلاك قوم عاد عند تفسير الآيات: ٦٥-٧٢ من سورة الأعراف، والآيات: ٥٠-٦٠ من سورة هود.

الحمد والمنة.

وقال الطبراني: حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا إسماعيل بن زكريا الكوفي، حدثنا أبو مالك عن مسلم الملائي، عن مجاهد وسعيد بن جبير^(١)، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما فتح على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم، ثم أرسلت عليهم [فحملتهم] البدو إلى الحضرم فلما رآها أهل الحضرم قالوا: هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتنا. وكان أهل البوادي فيها، فألقى أهل البادية على أهل الحضرة حتى هلكوا. قال: عنت على خزائنها حتى خرجت من خلال الأبواب^(٢)»^(٣).

﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨)﴾.

يقول تعالى: ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد، وأعطيناهم منها^(٤) ما لم نعطيكم مثله ولا قريبا منه، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: وأحاط بهم العذاب والنكال الذي كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه، أي: فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم، فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ﴾ يعني: أهل مكة، قد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسول مما حولها كعاد، وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن وثمود، وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن، ومدين وكانت في طريقهم وعمرهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط، كانوا يمرون بها أيضا.

وقوله: ﴿وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ﴾ أي: بينها ووضحناها، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ أي: فهلا نصرهم عند احتياجهم إليهم، ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أي: بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم، ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ أي: كذبهم، ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: وافترأهم في اتخاذهم إياهم آلهة، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها، واعتمادهم عليها.

(٢) في ت: «البيوت».

(١) في ت: «وروى الطبراني بإسناده».

(٣) المعجم الكبير (٤٢/١٢)، قال الهيثمي في المجمع (١١٣/٧): «فيه مسلم الملائي وهو ضعيف».

(٤) في ت: «فيها».

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢)﴾ .

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو: سمعت عكرمة، عن الزبير: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾، قال: بنخلة، ورسول الله ﷺ يصلى العشاء الآخرة، ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، قال سفيان: اللبد: بعضهم على بعض، كاللبد بعضه على بعض^(١).

تفرد به أحمد، وسيأتي من رواية ابن جرير، عن عكرمة، عن ابن عباس: أنهم سبعة من جن نصيبين.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة (ح) - وقال الحافظ^(٢) أبو بكر البيهقي فى كتابه «دلائل النبوة»: أخبرنا أبو الحسن على بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا إسماعيل القاضى، أخبرنا مسدد، حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر، عن سعيد بن جبیر^(٣)، عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شئ حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها وانظروا ما هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء. فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ، وهو بنخلة عامدا إلى سوق عكاظ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا - والله - الذى حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك حين رجعوا إلى قومهم، قالوا: يا قومنا، إنا سمعنا قرآنا عجبا، يهدى إلى الرشـد فأما به، ولن نشرك بربنا أحدا، وأنزل الله على نبيه^(٤): ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ١]، وإنما أوحى إليه قول الجن.

رواه البخارى عن مُسَدَّد بنحوه، وأخرجه مسلم عن شيبان بن فروخ، عن أبى عوانة، به. ورواه

(١) المسند (١/١٦٧).

(٢) فى م: «الحافظ الشهير».

(٣) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده».

(٤) فى ت، م، أ: «نبيه ﷺ».

الترمذى والنسائى فى التفسير، من حديث أبى عوانة^(١).

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو أحمد، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن سعيد بن جبير^(٢)، عن ابن عباس، قال: كان الجن يستمعون^(٣) الوحى، فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشرة، فيكون ما سمعوا حقاً وما زادوا باطلاً، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك، فلما بعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتى مقعده إلا رمى بشهاب يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إبليس فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث. فبث جنوده، فإذا بالنبي ﷺ يصلى بين جبلى نخلة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدث الذى حدث فى الأرض.

رواه الترمذى والنسائى فى كتابى التفسير من سننهما، من حديث إسرائيل، به^(٤). وقال الترمذى: حسن صحيح.

وهكذا رواه أيوب عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس. وكذا رواه العوفى، عن ابن عباس أيضاً، بمثل هذا السياق بطوله، وهكذا قال الحسن البصرى: إنه، عليه السلام، ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله عليه بخبرهم.

وذكر محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن محمد بن كعب القرظى قصة خروج رسول الله ﷺ إلى الطائف ودعائه إياهم إلى الله عز وجل، وإبائهم عليه. فذكر القصة بطولها، وأورد ذلك الدعاء الحسن: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى» إلى آخره. قال: فلما انصرف عنهم بات بنخلة، فقرأ تلك الليلة من القرآن فاستمعه الجن من أهل نصيبين^(٥).

وهذا صحيح، ولكن قوله: «إن الجن كان استماعهم تلك الليلة». فيه نظر؛ لأن الجن كان استماعهم فى ابتداء الإيحاء، كما دل عليه حديث ابن عباس المذكور، وخروجه، عليه السلام، إلى الطائف كان بعد موت عمه، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين، كما قرره ابن إسحاق وغيره [والله أعلم]^(٦).

وقال أبو بكر بن أبى شيبة: حدثنا أبو أحمد الزبيرى، حدثنا سفيان، عن عاصم، عن زر^(٧)، عن عبد الله بن مسعود قال: هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا: أنصتوا. قال^(٨): صه، وكانوا تسعة^(٩) أحدهم زبيعة، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّندِرِينَ﴾ إلى: ﴿صَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١٠).

(١) المسند (٢٥٢/١)، ودلائل النبوة للبيهقى (٢٢٥/٢).

(٢) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده». (٣) فى ت، م: «فيستمعون».

(٤) صحيح البخارى برقم (٧٧٣)، وصحيح مسلم برقم (٤٤٩)، وسنن الترمذى برقم (٣٣٢٣)، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٦٤).

(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤١٩/١). (٦) زيادة من ت. (٧) فى ت: «وروى أبو بكر بن أبى شيبة بسنده».

(٨) فى ت، م، أ: «قالوا». (٩) فى أ: «سبعة».

(١٠) ورواه الحاكم فى المستدرک (٤٥٦/٢) من طريق أبى بكر بن أبى شيبة به، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى.

فهذا مع الأول من رواية ابن عباس يقتضى أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم فى هذه المرة وإنما استمعوا قراءته، ثم رجعوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالا قوما بعد قوم، وفوجا بعد فوج، كما سيأتى بذلك الأخبار فى موضعها والآثار، مما سنورها^(١) هاهنا إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

فأما ما رواه البخارى ومسلم جميعا، عن أبى قدامة عبيد الله بن سعيد السرخسى، عن أبى أسامة حماد بن أسامة، عن مسعر بن كدام، عن معن بن عبد الرحمن قال: سمعت أبى قال: سألت مسروقاً: من آذن النبى ﷺ ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثنى أبوك - يعنى ابن مسعود^(٢) - أنه آذنته بهم شجرة^(٣) - فيحتمل أن يكون هذا فى المرة الأولى، ويكون إثباتا مقدما على نفسى ابن عباس، ويحتمل أن يكون هذا فى بعض المرات المتأخرات، والله أعلم. ويحتمل أن يكون فى الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة، أى: أعلمته باستماعهم، والله أعلم.

قال الحافظ البيهقى: وهذا الذى حكاه ابن عباس رضى الله عنهما^(٤)، إنما هو فى أول ما سمعت^(٥) الجن قراءة رسول الله ﷺ وعلمت حاله، وفى ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرههم، ثم بعد ذلك أتاه داعى الجن فقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله، عز وجل، كما رواه عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه^(٦).

ذكر الرواية عنه بذلك:

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا داود، عن الشعبى - وابن أبى زائدة، أخبرنا داود، عن الشعبى^(٧) - عن علقمة قال: قلت لعبد الله بن مسعود: هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحد؟ فقال: ما صحبه منا أحد، ولكننا فقدناه ذات ليلة بمكة، فقلنا: اغتيل؟ استطير؟ ما فعل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما كان فى وجه الصبح - أو قال: فى السحر - إذا نحن به يجرى من قبل حراء، فقلنا: يا رسول الله - فذكروا له الذى كانوا فيه - فقال: «إنه أتانى داعى الجن، فأتيتهم فقرأت عليهم». قال: فانطلق، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم - قال: وقال الشعبى: سأله الزاد - قال عامر: سأله بمكة، وكانوا من جن الجزيرة، فقال: «كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما كان عليه لحما، وكل بكرة أو روثة علف لدوابكم - قال - فلا تستنجوا بهما، فإنهما زاد إخوانكم من الجن».

وهكذا رواه مسلم فى صحيحه، عن على بن حجر، عن إسماعيل بن عليه، به نحوه^(٨).

وقال مسلم أيضا: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود - وهو ابن أبى هند - عن عامر قال: سألت علقمة: هل كان ابن مسعود، رضى الله عنه، شهد مع رسول الله ﷺ ليلة

(١) فى ت: «نورها». (٢) فى ت: «ابن مسعود رضى الله عنه».

(٣) صحيح البخارى برقم (٣٨٥٩)، وصحيح مسلم برقم (٤٥٠).

(٤) فى م، أ: «عنه». (٥) فى أ: «ما استمعت».

(٦) دلائل النبوة للبيهقى (٢/٢٢٧).

(٧) فى ت: «فروى الإمام أحمد بسنده».

(٨) المسند (١/٤٣٦)، وصحيح مسلم برقم (٤٥٠).

الجن؟ قال: فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعود؛ فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا، ولكننا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا: استطيع؟ اغتيل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء، قال: فقلنا: يا رسول الله، فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم. فقال: «أتاني داعي الجن، فذهبت معهم، فقرأت عليهم القرآن». قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد فقال: «كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكل بكرة أو روثة علف لدوابكم». قال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بهما، فإنهما طعام إخوانكم»^(١).

طريق أخرى عن ابن مسعود: قال أبو جعفر بن جرير: حدثني أحمد بن عبد الرحمن، حدثني عمي، حدثني يونس، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله؛ أن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بت الليلة أقرأ على الجن ربعا»^(٢) بالحجون»^(٣).

طريق أخرى: فيها أنه كان معه ليلة الجن، قال ابن جرير، رحمه الله: حدثني أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، حدثنا عمي عبد الله بن وهب، أخبرني يونس، عن ابن شهاب، عن أبي عثمان ابن سنة الخزاعي - وكان من أهل الشام^(٤) - أن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه وهو بمكة: «من أحب منكم أن يحضر أمر الجن الليلة فليفعل». فلم يحضر منهم أحد غيري، قال: فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة خط لى برجله خطأ، ثم أمرنى أن أجلس فيه، ثم انطلق حتى قام، فافتتح القرآن فغشيته أسودة كثيرة حالت بينى وبينه، حتى ما أسمع صوته، ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين، حتى بقى منهم رهط، ففرغ رسول الله ﷺ مع الفجر، فانطلق فتبرز، ثم أتاني فقال: «ما فعل الرهط؟» فقلت: هم أولئك يا رسول الله، فأعطاهم عظما وروثا زادا، ثم نهى أن يستطيب أحد بروت أو عظم.

ورواه ابن جرير عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، عن أبي زرعة وهب الله بن راشد، عن يونس بن يزيد الأيلي، به^(٥).

ورواه البيهقي في الدلائل، من حديث عبد الله بن صالح - كاتب الليث - عن الليث، عن يونس، به^(٦).

وقد روى إسحاق بن راهويه، عن جرير، عن قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن مسعود، فذكر نحو ما تقدم^(٧).

(١) صحيح مسلم برقم (٤٥٠).

(٢) في م: «وقفا»، وفي أ: «رفعا».

(٣) تفسير الطبري (٢١/٢٦)، ورواه أحمد في المسند (٤١٦/١) من طريق يونس عن الزهري، به.

(٤) في ت: «روى مسلم وروى ابن جرير بسنده».

(٥) تفسير الطبري (٢١/٢٦).

(٦) دلائل النبوة للبيهقي (٢/٣٣٠)، ورواه الحاكم في المستدرک (٥٠٣/٢) من طريق عبد الله بن صالح، به، قال الذهبي: «هو صحيح عند جماعة».

(٧) وفي إسناده قابوس بن أبي ظبيان، ضعفه أبو حاتم والنسائي وأحمد، وقال ابن حبان: «ينفرد عن أبيه بما لا أصل له، وربما رفع المرسل وأسنده الموقوف».

ورواه الحافظ أبو نعيم، من طريق موسى بن عبيدة، عن سعيد بن الحارث، عن أبي المعلى^(١)، عن ابن مسعود، فذكر نحوه أيضا^(٢).

طريق أخرى: قال أبو نعيم: حدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثني أبي قال: حدثنا عفان وعكرمة قالوا: حدثنا معتمر قال: قال أبي: حدثني أبو ثيمة، عن عمرو - ولعله قد يكون قال: البكالي - يحدثه عمرو، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، قال: استتبعتني رسول الله ﷺ فانطلقنا حتى أتينا مكان كذا وكذا، فخط لى خطأ فقال: «كن بين ظهر هذه لا تخرج منها؛ فإنك إن خرجت منها هلكت» فذكر الحديث بطوله وفيه غرابة شديدة^(٣).

طريق أخرى: قال ابن جرير: وحدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن معمر، عن يحيى ابن أبي كثير^(٤)، عن عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفي؛ أنه قال لابن مسعود: حدثت أنك كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن؟ قال: أجل. قال: فكيف كان؟ فذكر الحديث كله، وذكر أن النبي ﷺ خط عليه خطأ، وقال: «لا تبرح منها» فذكر مثل العجاجة السوداء غشيت رسول الله ﷺ، فذعر ثلاث مرات، حتى إذا كان قريبا من الصبح، أتاني النبي ﷺ^(٥) فقال: «أمت؟» فقلت: لا والله، ولقد هممت مرارا أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تفرعهم بعصاك، تقول: «اجلسوا» فقال: «لو خرجت لم آمن أن يخطفك»^(٦) بعضهم. ثم قال: «هل رأيت شيئا؟» فقلت: نعم، رأيت رجلا سودا مستشعرين^(٧) ثيابا بياضا. قال: «أولئك جن نصيين سألوني المتاع - والمتاع: الزاد - فمتعتهم بكل عظم حائل، أو بكرة، أو روثة» - فقلت: يا رسول الله، وما يغنى ذلك عنهم؟ فقال: «إنهم لا يجدون عظما إلا وجدوا عليه لحمه يوم أكل، ولا روثا إلا وجدوا فيها حبها يوم أكلت، فلا يستنقن أحد منكم إذا خرج من الخلاء بعظم ولا بكرة ولا روثة»^(٨).

طريق أخرى: قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمى وأبو نصر بن قتادة قالوا: أخبرنا أبو محمد يحيى بن منصور القاضي، حدثنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم البوشنجى، حدثنا روح بن صلاح، حدثنا موسى بن على بن رباح، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود قال: استتبعتني رسول الله ﷺ فقال: «إن نفرا من الجن - خمسة عشر بنى إخوة وبنى عم - يأتوننى الليلة، فأقرأ عليهم القرآن»، فانطلقت معه إلى المكان الذى أراد، فخط لى خطأ وأجلسنى فيه، وقال لى: «لا تخرج من هذا». فبت فيه حتى أتاني رسول الله ﷺ مع السحر فى يده عظم حائل وروثة حُممة فقال لى: «إذا ذهبت إلى الخلاء فلا تستنج بشيء من هؤلاء». قال: فلما أصبحت قلت: لأعلمن علمى حيث كان رسول الله ﷺ قال، فذهبت فرأيت موضع مبرك^(٩) ستين بعيرا^(١٠).

طريق أخرى: قال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس

(١) فى أ: «إسماعيل».

(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨٠ / ١٠) من طريق موسى بن عبيدة الربذى، به.

(٣) لم أجده فى دلائل النبوة وهو فى المسند للإمام أحمد (٣٩٩ / ١).

(٤) فى م: «رسول الله».

(٥) تفسير الطبرى (٢٦ / ٢١).

(٦) فى أ: «منزل».

(٧) فى أ: «منزل».

(٨) دلائل النبوة للبيهقى (٢ / ٢٣١).

(٩) فى ت: «روى ابن جرير بسنده».

(١٠) فى ت، أ: «مستشعرين».

(١١) فى أ: «يخطفك».

ابن محمد الدُّورى، حدثنا عثمان بن عمر^(١)، عن المستمر بن الريان، عن أبى الجوزاء، عن عبد الله ابن مسعود قال: انطلقت مع رسول الله ﷺ ليلة الجن، حتى أتى الحجون، فخط لى خطأ، ثم تقدم إليهم فازدحموا عليه، فقال سيد لهم، يقال له: «وردان»: أنا أرحلهم عنك. فقال: إني لن يعجيرنى من الله أحد^(٢).

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا سفيان، عن أبى فزارة العيسى، حدثنا أبو زيد - مولى عمرو بن حريث - عن ابن مسعود قال: لما كان ليلة الجن قال لى النبى ﷺ: «أمعك ماء؟» قلت: ليس معى ماء، ولكن معى إداوة فيها نبيذ. فقال النبى: «تمر طيبة، وماء طهور» فتوضأ. ورواه أبو داود، والترمذى، وابن ماجه، من حديث أبى زيد، به^(٣).

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، أخبرنا ابن لهيعة، عن قيس بن الحجاج، عن حنش الصنعانى، عن ابن عباس، عن عبد الله بن مسعود؛ أنه كان مع رسول الله ﷺ ليلة الجن، فقال رسول الله: «يا عبد الله، أمعك ماء؟» قال: معى نبيذ فى إداوة، فقال^(٤): «اصبب على». فتوضأ، فقال النبى ﷺ: «يا عبد الله، شراب وطهور»^(٥).

تفرد به أحمد من هذا الوجه، وقد أورده الدارقطنى من طريق آخر، عن ابن مسعود، [به]^(٦) (٧).

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنى أبى عن ميناء، عن عبد الله قال: كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن، فلما انصرف تنفس، فقلت: ما شأنك؟ قال: «نعت إلى نفسى يا ابن مسعود».

هكذا رأيته فى المسند مختصراً^(٨)، وقد رواه الحافظ أبو نعيم فى كتابه «دلائل النبوة»، فقال: حدثنا سليمان بن أحمد بن أيوب، حدثنا إسحاق بن إبراهيم - وحدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبى قال: حدثنا عبد الرزاق، عن أبيه، عن ميناء، عن ابن مسعود قال: كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن، فتنفس، فقلت: ما لك يا رسول الله؟ قال: «نعت إلى نفسى يا ابن مسعود». قلت: استخلف. قال: «من؟». قلت: أبو بكر. فسكت^(٩)، ثم مضى ساعة فتنفس، فقلت: ما شأنك بأبى أنت وأمى يا رسول الله؟ قال: «نعت إلى نفسى يا ابن مسعود». قلت: استخلف. قال: «من؟» قلت: عمر [بن الخطاب]^(١٠). فسكت ثم مضى ساعة، ثم تنفس فقلت: ما شأنك؟ قال: «نعت إلى نفسى». قلت: فاستخلف. قال ﷺ: «من؟» قلت: على بن أبى طالب. قال ﷺ: «أما والذى نفسى بيده، لئن أطاعوه ليدخلن الجنة أجمعين أكتعين»^(١١).

(١) فى أ: «عن عمير».

(٢) دلائل النبوة للبيهقى (٢/٢٣١).

(٣) المسند (١/٤٤٩)، وسنن أبى داود برقم (٨٤)، وسنن الترمذى برقم (٨٨) وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٤).

(٤) فى م: «قال».

(٥) المسند (١/٣٩٨) وقد تفرد به ابن لهيعة، وهو ضعيف.

(٦) زيادة من م.

(٧) سنن الدارقطنى (١/٧٧) من طريق داود بن أبى هند عن عامر بن علقمة بن قيس. قال: قلت لعبد الله بن مسعود: أشهد رسول الله ﷺ أحد منكم ليلة أتاه داعى الجن؟ قال: لا، قال الدارقطنى: «هذا الصحيح عن ابن مسعود».

(٨) المسند (١/٤٤٩).

(٩) فى ت، م: «أبو بكر. قال: فسكت».

(١٠) زيادة من م.

(١١) المعجم الكبير للطبرانى (١٠/٨٢) وفيه ميناء بن أبى ميناء، كذاب.

وهو حديث غريب جدا، وأحرى به ألا يكون محفوظا، وبتقدير صحته فالظاهر أن هذا بعد وفودهم إليه بالمدينة على ما سنورده، فإن في ذلك الوقت في آخر الأمر لما فتحت مكة، ودخل الناس والجان أيضا في دين الله أفواجا، نزلت سورة^(١): ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، وهى السورة التى نعت نفسه الكريمة فيها إليه، كما قد نص على ذلك ابن عباس، ووافقه عمر بن الخطاب عليه، وقد ورد فى ذلك حديث سنورده عند تفسيرها، والله أعلم. وقد رواه أبو نعيم أيضا، عن الطبرانى عن محمد بن عبد الله الحضرمي، عن على بن الحسين بن أبى بردة، عن يحيى بن سعيد^(٢) الأسلمى، عن حرب بن صبيح، عن سعيد بن مسلمة، عن أبى مرة الصنعاني، عن أبى عبد الله الجدلى، عن ابن مسعود، فذكره وذكر فيه قصة الاستخلاف^(٣)، وهذا إسناد غريب، وسياق عجيب.

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن أبى رافع، عن ابن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ^(٤) خط حوله، فكان أحدهم^(٥) مثل سواد النخل، وقال لى: «لا تبرح مكانك»، فأقرأهم كتاب الله، فلما رأى الزُّط قال: كأنهم هؤلاء. وقال النبى ﷺ: «أمعك ماء؟» قلت: لا. قال: «أمعك نبيذ؟» قلت: نعم. فتوضأ به^(٦).

طريق أخرى مرسله: قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبد الله الطهراني^(٧)، أخبرنا حفص بن عمر العدنى، حدثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ قال: هم اثنا عشر ألفا جاؤوا من جزيرة الموصل، فقال النبى ﷺ لابن مسعود: «أنظرنى حتى آتيك»، وخط عليه خطا، وقال: «لا تبرح حتى آتيك». فلما خشيه ابن مسعود كاد أن يذهب، فذكر قول رسول الله ﷺ فلم يبرح، فقال له النبى ﷺ: «لو ذهبت ما التقينا إلى يوم القيامة»^(٨).

طريق أخرى مرسله أيضا: قال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ قال: ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من نينوى، وأن نبى الله ﷺ قال: «إنى أمرت أن أقرأ على الجن فأيكمن يتبعنى؟» فأطرقوا، ثم استتبعهم فأطرقوا، ثم استتبعهم الثالثة فقال رجل: يا رسول الله، إن ذاك ل ذو ندبة فأتبعه ابن مسعود أخو هذيل، قال: فدخل النبى ﷺ شعبا يقال له: «شعب الحجون»، وخط عليه، وخط على ابن مسعود ليثبته بذلك، قال: فجعلت أهال وأرى أمثال النسر تمشى فى دفوفها، وسمعت لغطا شديدا، حتى خفت على نبى الله ﷺ، ثم تلا القرآن، فلما رجع رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، ما اللغط الذى سمعت؟ قال: «اختصموا فى قتيل، فقضى بينهم بالحق». رواه ابن جرير، وابن أبى حاتم^(٩).

(١) فى ت: «سورة النصر».

(٢) فى م: «سورة النصر».

(٣) المعجم الكبير للطبرانى (١٠/٨١) وفى إسناده يحيى الأسلمى وهو ضعيف.

(٤) فى م، أ: «أن رسول الله ﷺ ليلة الجن».

(٥) فى أ: «فكان يجيء أحدهم».

(٦) المسند (١/٤٥٥).

(٧) فى م: «الطبرانى».

(٨) وفى إسناده الحكم بن أبان، وهو ضعيف.

(٩) تفسير الطبرى (٢٦/٢٠).

فهذه الطرق كلها تدل^(١) على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصداً، فتلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله، عز وجل، وشرع الله لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوقت. وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن [و] ^(٢) لم يشعر بهم، كما قاله ابن عباس، رضى الله عنهما ^(٣). ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود. وأما ابن مسعود فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ودعائه إياهم، وإنما كان بعيداً منه، ولم يخرج مع النبي ﷺ أحد سواه، ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة، هذه طريقة البيهقي.

وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم لم يكن معه ابن مسعود ولا غيره، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام أحمد، وهى عند مسلم. ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى والله أعلم، كما روى ابن أبي حاتم فى تفسير: ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾، من حديث ابن جريج قال: قال عبدالعزيز بن عمر: أما الجن الذين لقوه بنخلة فجن نينوى، وأما الجن الذين لقوه بمكة فجن نصيين، وتأوله البيهقي على أنه يقول: «فتنا بشر ليلة بات بها قوم»، على غير ابن مسعود ممن لم يعلم بخروجه ﷺ إلى الجن، وهو محتمل على بعد، والله أعلم.

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عمرو محمد بن عبد الله ^(٤) الأديب، أخبرنا أبو بكر الإسماعيلي، أخبرنا الحسن بن سفيان، حدثني سويد بن سعيد، حدثنا عمرو بن يحيى، عن جده سعيد بن عمرو، قال ^(٥): كان أبو هريرة يستمع رسول الله ﷺ بإداوة لوضوئه وحاجته، فأدركه يوماً فقال: «من هذا؟» قال: أنا أبو هريرة. قال: «أنتى بأحجار أستنج بها، ولا تأتنى بعظم ولا روثة». فأتته بأحجار فى ثوبى، فوضعتها إلى جنبه حتى إذا فرغ وقام اتبعته، فقلت: يا رسول الله، ما بال العظم والروثة ^(٦)؟ قال: «أتانى وفد جن نصيين، فسألونى الزاد، فدعوت الله لهم ألا يمروا بعظم ولا بروثة إلا وجدوا طعاماً» ^(٧).

أخرجه البخارى فى صحيحه، عن موسى بن إسماعيل، عن عمرو بن يحيى، بإسناده قريباً منه ^(٨). فهذا يدل مع ما تقدم على أنهم وفدوا عليه بعد ذلك. وسنذكر ما يدل على تكرار ذلك.

وقد روى عن ابن عباس غير ما ذكر ^(٩) عنه أولاً من وجه جيد، فقال ابن جرير:

حدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الحميد الحماني، حدثنا النضر بن عري، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ الآية، [قال] ^(١٠): كانوا سبعة نفر من أهل نصيين، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلاً إلى قومهم ^(١١).

فهذا يدل على أنه قد روى القصتين.

- (١) فى ت: «فهذه الأحاديث التى ذكرناها كلها تدل».
- (٢) زيادة من ت.
- (٣) فى ت، أ: «عنه».
- (٤) فى أ: «عبد الوهاب».
- (٥) فى ت: «وقال الحافظ أبو بكر البيهقي بسنده».
- (٦) فى ت: «الروث».
- (٧) دلائل النبوة للبيهقي (٢/٢٣٣).
- (٨) صحيح البخارى برقم (٣٨٦٠).
- (٩) فى أ: «ما روى».
- (١٠) زيادة من أ.
- (١١) تفسير الطبرى (٢٦/٢٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا سويد بن عبد العزيز، حدثنا رجل سماه، عن ابن جريج، عن مجاهد: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ الآية، قال: كانوا سبعة نفر، ثلاثة من أهل حران، وأربعة من أهل نصيبين، وكانت أسماؤهم حى وحسى ومسى، وشاصر وناصر، والأرد وإبيان والأحقم.

وذكر أبو حمزة الثمالى أن هذا الحى من الجن كان يقال لهم: بنو الشيصبان، وكانوا أكثر الجن عددا وأشرفهم نسبا، وهم كانوا عامة جنود إبليس.

وقال سفيان الثوري، عن عاصم، عن ذر، عن ابن مسعود: كانوا تسعة، أحدهم زوبعة، أتوه من أصل نخلة.

وتقدم عنه أنهم كانوا خمسة عشر، وفي رواية: أنهم كانوا على ستين راحلة. وتقدم عنه أن اسم سيدهم وردان، وقيل: كانوا ثلاثمائة، وتقدم عن عكرمة أنهم كانوا اثني عشر ألفا، فلعل هذا الاختلاف دليل على تكرر وفادتهم عليه صلوات الله وسلامه عليه، ومما يدل على ذلك ما قاله^(١) البخارى فى صحيحه:

حدثنا يحيى بن سليمان، حدثني ابن وهب، حدثني عمر - هو ابن محمد - أن سالما حدثه، عن عبد الله بن عمر قال: ما سمعت عمر يقول لشيء قط: «إني لأظنه كذا» إلا كان كما يظن، بينما عمر بن الخطاب جالس، إذ مر به رجل جميل، فقال: لقد أخطأ ظني - أو: إن هذا على دينه فى الجاهلية - أو لقد كان كاهنهم - على بالرجل، فدعى له^(٢)، فقال له ذلك، فقال: ما رأيت كاليوم استقبل له رجل مسلم. قال: فإنى أعزم عليك إلا ما أخبرتنى. قال: كنت كاهنهم فى الجاهلية. قال: فما أعجب ما جاءتك به جنتك. قال: بينما أنا يوما فى السوق جاءتنى أعرف فيها الفزع، فقالت:

أَلَمْ تَرِ الْجِنَّ وَإِبِلَاسَهَا وَيَأْسَهَا مِنْ بَعْدِ انْكَاسِهَا

وَلَحُوقَهَا بِالْقَلَاصِ وَأَحْلَاسَهَا

قال عمر: صدق، بينما أنا نائم عند آلهم، إذ جاء رجل بعجل فذبحه، فصرخ به صارخ، لم أسمع صارخا قط أشد صوتا منه، يقول: يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح يقول: «لا إله إلا الله» فوثب^(٣) القوم، فقلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا؟ ثم نادى يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح يقول: «لا إله إلا الله». فقممت، فما نشبنا أن قيل: هذا نبى.

هذا سياق البخارى^(٤)، وقد رواه البيهقى من حديث ابن وهب، بنحوه، ثم قال: «وظاهر هذه الرواية يوهم أن عمر بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل الذى ذبح، وكذلك هو صريح^(٥) فى رواية ضعيفة عن عمر فى إسلامه، وسائر الروايات تدل على أن هذا الكاهن هو الذى أخبر بذلك عن

(١) فى م: «ما رواه». (٢) فى ت، م، أ: «دعى فجى» به له. (٣) فى م، أ: «قال: فوثب».

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٨٦٦).

(٥) فى ت، م، أ: «صريحا» وهو خطأ.

رؤيته وسماعه، والله أعلم^(١).

وهذا الذى قاله البيهقى هو المتجه، وهذا الرجل هو سواد بن قارب، وقد ذكرت هذا^(٢) مستقصى فى سيرة عمر، رضى الله عنه، فمن أرادته فليأخذه من ثم، والله الحمد [والمنة]^(٣).

قال البيهقى: «حديث سواد بن قارب، ويشبه أن يكون هذا هو الكاهن الذى لم يذكر اسمه فى الحديث الصحيح».

أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب المفسر من أصل سماعه، أخبرنا أبو عبد الله محمد ابن عبد الله الصفار الأصبهاني، قراءة عليه، حدثنا أبو جعفر أحمد بن موسى الحمار الكوفي بالكوفة، حدثنا زياد بن يزيد بن بادويه أبو بكر القصرى، حدثنا محمد بن النواس الكوفي، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبى إسحاق، عن البراء [رضى الله عنه]^(٤) قال: بينما عمر بن الخطاب يخطب الناس على منبر رسول الله ﷺ، إذ قال: أيها الناس، أفياكم سواد بن قارب؟ قال: فلم يجبه أحد تلك السنة، فلما كانت السنة المقبلة قال: أيها الناس، أفياكم سواد بن قارب؟ قال: يا أمير المؤمنين، وما سواد بن قارب؟ قال: فقال له عمر: إن سواد بن قارب كان بدءً إسلامه شيئاً عجيباً، قال: فبينما نحن كذلك إذ طلع سواد بن قارب، قال: فقال له عمر: يا سواد، حدثنا ببده إسلامك، كيف كان؟ قال سواد: إني كنت نازلاً بالهند، وكان لى رثى من الجن، قال: فبينما أنا ذات ليلة نائم، إذ جاءنى فى منامى ذلك. قال: قم فافهم واعقل إن كنت تعقل، قد بعث رسول من لوى بن غالب، ثم أنشأ يقول:

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَأُنْجَسِهَا^(٥) وَشَدَّهَا الْعِيسَ بِأَحْلَاسِهَا
تَهْوَى إِلَى مَكَّةَ تَبْغَى الْهُدَى مَا مُؤْمِنُو الْجِنِّ كَأَرْجَاسِهَا
فَأَنْهَضَ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ وَاسْمُ بَعِينِكَ إِلَى رَاسِهَا

قال: ثم أنبهنى فأفرغنى، وقال: يا سواد بن قارب، إن الله بعث نبياً فانهض إليه تهتد وترشد. فلما كان من الليلة الثانية أتانى فأنبهنى، ثم أنشأ يقول كذلك:

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَتَطْلُبُهَا وَشَدَّهَا الْعِيسَ بِأَقْتَابِهَا
تَهْوَى إِلَى مَكَّةَ تَبْغَى الْهُدَى لَيْسَ قُدَامَها كَأَذْنَابِهَا
فَأَنْهَضَ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ وَاسْمُ بَعِينِكَ إِلَى نَابِهَا^(٦)

فلما كان فى الليلة الثالثة أتانى فأنبهنى، ثم قال:

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَتَخْبَارُهَا وَشَدَّهَا الْعِيسَ بِأَكْوَارِهَا
تَهْوَى إِلَى مَكَّةَ تَبْغَى الْهُدَى لَيْسَ ذَوُو الشَّرِّ كَأَخْيَارِهَا
فَأَنْهَضَ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ مَا مُؤْمِنُو الْجِنِّ كَكُفَّارِهَا

(١) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٢٤٥).

(٢) فى ت: «ذلك».

(٤) زيادة من ت.

(٣) زيادة من أ.

(٦) فى أ: «يابها».

(٥) فى أ: «وأجاسها».

قال: فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة، وقع في قلبي حب الإسلام من أمر رسول الله ﷺ ما شاء الله، قال: فانطلقت إلى رحلي فشددته على راحلتي، فما حلت [عليه]^(١) نسعة ولا عقدت أخرى حتى أتيت رسول الله ﷺ، فإذا هو بالمدينة - يعني مكة - والناس عليه كعرف الفرس، فلما رأى النبي ﷺ قال: «مرحبا بك يا سواد بن قارب، قد علمنا ما جاء بك». قال: قلت: يا رسول الله، قد قلت شعرا، فاسمعه مني. قال سواد: فقلت:

أَتَانِي رُئْيًى بَعْدَ لَيْلٍ وَهَجْعَةٍ	وَلَمْ يَكُ فِيمَا قَدْ بَلَوْتُ بِكَاذِبٍ
ثَلَاثَ لَيَالٍ قَوْلُهُ كُلُّ لَيْلَةٍ:	أَتَاكَ رَسُولُ ^(٢) مِنْ لُؤْيَ بْنِ غَالِبٍ
فَشَمَرْتُ عَنْ سَاقِي الْإِزَارِ وَوَسَطْتُ	بِی الدَّعْلَبِ الْوَجْنَاءُ عِنْدَ السَّبَاسِبِ
فَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ لَا شَيْءَ غَيْرُهُ	وَأَنَّكَ مَأْمُونٌ عَلَى كُلِّ غَائِبٍ
وَأَنَّكَ أَدْنَى الْمُرْسَلِينَ شَفَاعَةٍ	إِلَى اللَّهِ يَا ابْنَ الْأَكْرَمِينَ الْأَطَايِبِ
فَمُرْنَا بِمَا يَأْتِيكَ يَا خَيْرَ مُرْسَلٍ ^(٣)	وَأِنْ كَانَ فِيمَا جَاءَ شَيْبُ الذَّوَائِبِ
وَكُنْ لِي شَفِيعًا يَوْمَ لَا ذُو شَفَاعَةٍ	سِوَاكَ بِمَغْنٍ عَنْ سَوَادِ بْنِ قَارِبٍ

قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجمه، وقال لي: «أفلحت يا سواد». فقال له عمر: هل يأتيك رثيك الآن؟ فقال: منذ قرأت القرآن لم يأتني، ونعم العوض كتاب الله من الجن^(٤).

ثم أسنده البيهقي من وجهين آخرين^(٥). وما يدل على وفادتهم إليه، عليه السلام^(٦)، بعد ما هاجر إلى المدينة، الحديث الذي رواه الحافظ أبو نعيم في كتاب «دلائل النبوة» [فقال]^(٧):

حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن عبدة المصيصي، حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع، حدثنا معاوية بن سلام، عن زيد بن أسلم: أنه سمع أبا سلام يقول: حدثني من حدثه عمرو بن غيلان الثقفي قال: أتيت عبد الله بن مسعود فقلت له: حدثت أنك كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن؟ قال: أجل. قلت: حدثني كيف كان شأنه؟ فقال: إن أهل الصفة أخذ كل رجلٍ منهم رجل^(٨) يعشيه، وتركت فلم يأخذني أحد منهم، فمر بي رسول الله ﷺ فقال: «من هذا؟». فقلت: أنا ابن مسعود. فقال: «ما أخذك أحد يعشيك؟» فقلت: لا. قال: «فانطلق لعلی أجِد لك شيئا». قال: فانطلقنا حتى أتى حجرة أم سلمة فتركني^(٩) ودخل إلى أهله، ثم خرجت الجارية فقالت: يا ابن مسعود، إن رسول الله ﷺ لم يجد لك عشاء، فارجع إلى مضجعك. قال: فرجعت إلى المسجد، فجمعت حصباء المسجد فتوسدته، والتفت بثوبي، فلم ألبث إلا قليلا حتى جاءت الجارية، فقالت:

(١) زيادة من أ. (٢) في ت، م: «نبي». (٣) في ت: «من مشي».

(٤) دلائل النبوة للبيهقي (١/٢٤٨).

(٥) دلائل النبوة للبيهقي (١/٢٥٢).

(٦) في أ: «على الإسلام».

(٩) في أ: «فتركني قائما».

(٨) في ت، أ: «رجلا» وهو خطأ.

(٧) زيادة من أ.

أحب رسول الله ^(١). فاتبعتها وأنا أرجو العشاء، حتى إذا بلغت مقامى، خرج رسول الله ^(٢) وفي يده عسيب من نخل، فعرض به على صدرى فقال: «أتنتلق أنت معى ^(٣) حيث انطلقت؟» قلت: ما شاء الله. فأعادها على ثلاث مرات، كل ذلك أقول: ما شاء الله. فانطلق وانطلقت معه، حتى أتينا بقيق الغرقد، فخط بعصاه خطأ، ثم قال: «اجلس فيها، ولا تبرح حتى آتيك». ثم انطلق يمشى وأنا أنظر إليه خلال النخل، حتى إذا كان من حيث لا أراه ثارت ^(٤) العجاجة السوداء، ففرقت فقلت: ألحق برسول الله ^(٥)، فإنى أظن أن ^(٦) هوازن مكروا برسول الله ^(٧) ليقتلوه، فأسعى إلى البيوت، فأستغيث الناس. فذكرت أن رسول الله ^(٨) أوصانى: ألا أبرح مكانى الذى أنا فيه، فسمعت رسول الله ^(٩) يقرعهم بعصاه ويقول: «اجلسوا». فجلسوا حتى كاد ينشق عمود الصبح، ثم ثاروا وذهبوا، فأتانى رسول الله ^(١٠) فقال: «أمنت بعدى؟» فقلت: لا ^(١١)، ولقد فزعت الفرعة الأولى، حتى رأيت أن أتى البيوت فأستغيث الناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك، وكنت أظنها هوازن، مكروا برسول الله ^(١٢) ليقتلوه. فقال: «لو أنك خرجت من هذه الحلقة ما آمنهم ^(١٣) عليك أن يختطفك بعضهم، فهل رأيت من شئ منهم؟» فقلت: رأيت رجالا سودا مستشعرين ^(١٤) بياض بيض. فقال رسول الله ^(١٥): «أولئك وفد جن نصيبين، أتونى فسألونى الزاد والمتاع، فمتعهم بكل عظم حائل أو روثة أو بكرة». قلت: وما يغنى عنهم ذلك؟ قال: «إنهم لا يجدون عظما إلا وجدوا عليه لحمه الذى كان عليه يوم أكل، ولا روثة إلا وجدوا فيها حبها الذى كان فيها يوم أكلت، فلا يستنقى أحد منكم بعظم ولا بكرة ^(١٦)» ^(١٧).

وهذا إسناد غريب جداً ^(١٨)، ولكن فيه رجل مبهم لم يسم [والله أعلم] ^(١٩)، وقد روى الحافظ أبو نعيم من حديث بقية بن الوليد، حدثنى نمير بن زيد القنبر ^(٢٠)، حدثنا أبى، حدثنا قحافة بن ربيعة، حدثنى الزبير بن العوام قال: صلى بنا رسول الله ^(٢١) صلاة الصبح فى مسجد المدينة، فلما انصرف قال: «أيكم يتبعنى إلى وفد الجن الليلة؟» فأسكت القوم ثلاثا، فمر بى فأخذ بيدى، فجعلت أمشى معه حتى حبست عنا جبال المدينة كلها، وأفضينا إلى أرض براز فإذا برجال طوال كأنهم الرماح، مستشعرين ^(٢٢) بياضهم من بين أرجلهم، فلما رأيتهم غشيتنى رعدة شديدة، ثم ذكر نحو حديث ابن مسعود المتقدم ^(٢٣)، وهذا حديث غريب، والله أعلم.

ومما يتعلق بوفود الجن ما رواه الحافظ أبو نعيم: حدثنا أبو محمد بن حيان، حدثنا أبو الطيب أحمد بن روح، حدثنا يعقوب الدؤرقى، حدثنا الوليد بن بكير التميمى، حدثنا حصين بن عمر ^(٢٤)،

- | | |
|--|---|
| (١) فى ت: «رسول الله ^(٢٥) ». | (٢) فى ت، م: «انطلق معى»، وفى أ: «انطلق أنت معى». |
| (٣) فى ت، م، أ: «ثارت مثل العجاجة». | (٤) فى ت، م، أ: «هذه». |
| (٦) فى ت، م: «ما أمنت»، وفى أ: «ما آمن». | (٥) فى أ: «لا والله». |
| (٩) لم أجده فى دلائل النبوة المطبوعة لأبى نعيم. | (٧) فى ت، أ: «مستفرين». |
| (١٢) فى ت، أ: «حدثنى بهز بن يزيد الليثى». | (٨) فى ت: «ولا روثة». |
| (١٣) فى ت، أ: «مستفرين». | (١٠) فى ت، أ: «وهذا سياق غريب». |
| (١٤) لم أجده فى دلائل النبوة المطبوعة لأبى نعيم. | (١١) زيادة من ت، أ. |
| (١٥) فى م: «عمير». | |

أخبرني عبيد المكتب، عن إبراهيم قال: خرج نفر من أصحاب عبد الله^(١) يريدون الحج، حتى إذا كانوا في بعض الطريق، إذا هم بحية تشنى^(٢) على الطريق أبيض، ينفخ منه ريح المسك، فقلت لأصحابي: امضوا، فلست ببارج حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمر هذه الحية. قال: فما لبثت أن ماتت، فعمدت إلى خرقة بيضاء فلففتها فيها، ثم نحيتها عن الطريق فدفتها، وأدركت أصحابي في المتعشى. قال: فوالله إنا لقعود إذ أقبل^(٣) أربع نسوة من قبل المغرب، فقالت واحدة منهن: أيكم دفن عمر؟ قلنا: ومن عمرو، قالت: أيكم دفن الحية؟ قال: قلت: أنا. قالت: أما والله لقد دفنت صواما قواما، يأمر بما أنزل الله، ولقد آمن بنبيكم، وسمع صفته من^(٤) السماء قبل أن يبعث بأربعمئة عام. قال الرجل فحمدنا^(٥) الله، ثم قضينا حجتنا^(٦)، ثم مررت بعمر بن الخطاب في المدينة فأنبأته بأمر الحية، فقال: صدقت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لقد آمن بي قبل أن أبعث بأربعمئة سنة»^(٧). وهذا حديث غريب جدا، والله أعلم.

قال أبو نعيم: وقد روى الثوري، عن أبي إسحاق، عن الشعبي، عن رجل من ثقيف، بنحوه. وروى عبد الله بن أحمد والظَّهراني، عن صفوان بن المعطل - هو الذي نزل ودفن تلك الحية من بين الصحابة - وأنهم قالوا: أما إنه آخر التسعة موتا الذين أتوا رسول الله ﷺ يستمعون القرآن^(٨).

وروى أبو نعيم من حديث الليث بن سعد، عن عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون، عن عمه^(٩)، عن معاذ بن عبيد الله^(١٠) بن معمر قال: كنت جالسا عند عثمان بن عفان، فجاء رجل فقال: يا أمير المؤمنين، إني كنت بفلاة من الأرض، فذكر أنه رأى ثعبانين^(١١) اقتتلا ثم قتل أحدهما الآخر، قال: فذهبت إلى المعترك، فوجدت حيات كثيرة مقتولة، وإذا ينفخ من بعضها ريح المسك، فجعلت أشمها واحدة واحدة، حتى وجدت ذلك من حية صفراء رقيقة، فلففتها في عمامتي ودفنتها. فبينما أنا أمشي إذ ناداني^(١٢) مناد: يا عبد الله، لقد هُديت! هذان حيان^(١٣) من الجن بنو أشعيان وبنو أقيش التقوا، فكان من القتلى ما رأيت، واستشهد الذي دفنته، وكان من الذين سمعوا الوحي من رسول الله ﷺ. قال: فقال عثمان لذلك الرجل: إن كنت صادقا فقد رأيت عجبا، وإن كنت كاذبا فعليك كذبك^(١٤).

فقله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ أَى: طائفة من الجن، ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا

(١) في م: «عبيد الله». (٢) في أ: «تمشى». (٣) في ت، م: «جاء». (٤) في ت: «في». (٥) في أ: «فحمدت». (٦) في ت، م، أ: «حجنا». (٧) دلائل النبوة لأبي نعيم (ص ٣٠٦). (٨) لم أجده في دلائل النبوة المطبوعة لأبي نعيم. (٩) في ت: «وروى أبو نعيم بإسناده». (١٠) في ت، م، أ: «عبد الله». (١١) في ت، أ، م: «إعصارين». (١٢) في أ: «هذا جان». (١٣) في ت، م: «نادى». (١٤) دلائل النبوة لأبي نعيم (ص ٣٠٥).

حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ﴿١﴾ أَى: استمعوا^(١) وهذا أدب منهم.

وقد قال الحافظ البيهقي: حدثنا الإمام أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان، أخبرنا أبو الحسن محمد بن عبد الله الدقاق، حدثنا محمد بن إبراهيم البوشنجي، حدثنا هشام بن عمار الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، عن زهير بن محمد، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: قرأ رسول الله ﷺ سورة «الرحمن» حتى ختمها، ثم قال: «ما لى أراكم سكوتا، لَلْجَنِّ كَانُوا أَحْسَنَ مِنْكُمْ رَدًّا، مَا قَرَأْتُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ مَرَّةٍ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إِلَّا قَالُوا: وَلَا بَشَىءَ مِنْ آلَائِكَ - أَوْ نَعْمَكَ - رَبَّنَا نَكْذِبُ، فَلَكَ الْحَمْدُ».

ورواه الترمذى فى التفسير، عن أبى مسلم عبد الرحمن بن واقد، عن الوليد بن مسلم، به^(٢). قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن، فذكره، ثم قال الترمذى: «غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد، عن زهير» كذا قال. وقد رواه البيهقي من حديث مروان بن محمد الطاطرى، عن زهير بن محمد، به مثله^(٣) (٤).

وقوله: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أَى: فرغ. كقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ [الجمعة: ١٠]، ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ مَنَاسِكُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠] ﴿وَوَلُّوا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ أَى: رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ، كقوله: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وقد استدل بهذه الآية على أنه فى الجن نُذُرٌ، وليس فيهم رسل: ولا شك أن الجن لم يبعث الله منهم رسولاً؛ لقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال عن إبراهيم الخليل: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

فكل نبي بعثه الله بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته، فأما قوله تعالى فى [سورة] (٥) الأنعام: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فالمراد من مجموع الجنسين، فيصدق على أحدهما وهو الإنس، كقوله: ﴿يَخْرِجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ﴾ [الرحمن: ٢٢] أَى: أحدهما. ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم فقال مخبراً عنهم: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ (٦)، ولم يذكروا عيسى؛ لأن عيسى، عليه السلام، أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم، وهو فى الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة، فالعمدة هو التوراة؛ فلهذا قالوا: أنزل من بعد موسى. وهكذا قال ورقة بن نوفل، حين أخبره النبي

(١) فى ت، م: «استمعوه».

(٢) دلائل النبوة للبيهقى (١/٢٣٢)، وسنن الترمذى برقم (٣٢٩١).

(٣) فى ت: «بمعناه».

(٤) دلائل النبوة للبيهقى (١/٢٣٢).

(٦) زيادة من أ.

(٥) زيادة من ت.

ﷺ بقصة نزول جبريل [عليه السلام]^(١) عليه أول مرة، فقال: بَخْ بَخْ، هذا الناموس الذى كان يأتى موسى، يا ليتنى أكون فيها جذعاً.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى: من الكتب المنزلة قبله على الأنبياء. وقولهم: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ أى: فى الاعتقاد والإخبار، ﴿وَالْإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: فى الأعمال، فإن القرآن يشتمل على شيئين^(٢) خبر وطلب^(٣)، فخره صدق، وطلبه عدل، كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، فالهدى هو: العلم النافع، ودين الحق: هو العمل الصالح. وهكذا قالت الجن: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ فى الاعتقادات، ﴿وَالْإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى: فى العمليات.

﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾: فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً صلوات الله وسلامه عليه^(٤) إلى الثقلين الإنس والجن حيث دعاهم إلى الله، وقرأ عليهم السورة التى فيها خطاب الفريقين، وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم، وهى سورة الرحمن؛ ولهذا قال^(٥): ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾. وقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾: قيل: إن «من» هاهنا زائدة، وفيه نظر؛ لأن زيادتها فى الإثبات قليل. وقيل: إنها على بابها للتبويض، ﴿وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى: ويقيكم من عذابه الأليم.

وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة؛ ولهذا قالوا هذا فى هذا المقام، وهو مقام تبجح ومبالغة، فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا لأوشك أن يذكره.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، قال: حدثت عن جرير، عن ليث، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: لا يدخل مؤمنو الجن الجنة؛ لأنهم من ذرية إبليس، ولا تدخل ذرية إبليس الجنة.

والحق أن مؤمنهم كمؤمنى الإنس يدخلون الجنة، كما هو مذهب جماعة^(٦) من السلف، وقد استدل بعضهم لهذا بقوله: ﴿لَمْ يَطْمِئِنُّوَ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٧٤]، وفى هذا الاستدلال نظر، وأحسن منه قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، [٤٧]، فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القولى أبلغ من الإنس، فقالوا: «ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد» فلم يكن تعالى ليمتن عليهم بجزاء لا يحصل لهم، وأيضاً فإنه إذا كان يجازى كافرهم بالنار - وهو مقام عدل - فلأن يجازى مؤمنهم بالجنة - وهو مقام فضل - بطريق الأولى والأحرى. ومما يدل أيضاً على ذلك عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧]، وما

(٣) فى أ: «خبراً وطلباً».

(٦) فى ت، أ: «طائفة».

(٢) فى ت: «نوعين».

(٥) فى م: «قالوا».

(١) زيادة من أ.

(٤) فى ت: «ﷺ».

أشبه ذلك من الآيات. وقد أفردت هذه المسألة فى جزء على حدة، والله الحمد والمنة. وهذه الجنة لا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقا، أفلا يسكنها من آمن به وعمل له صالحا؟ وما ذكروه هاهنا من الجزاء على الإيمان من تكفير الذنوب والإجارة من العذاب الأليم، هو يستلزم دخول الجنة؛ لأنه ليس فى الآخرة إلا الجنة أو النار، فمن أجبر من النار دخل الجنة لا محالة. ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن^(١) الشارع أن مؤمنى الجن لا يدخلون الجنة وإن أجبروا من النار، ولو صح لقلنا به، والله أعلم. وهذا نوح، عليه السلام، يقول لقومه: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ^(٢) إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٤]، ولا خلاف أن مؤمنى قومه فى الجنة، فكذلك هؤلاء. وقد حكى فيهم أقوال غريبة فعن عمر بن عبد العزيز: أنهم لا يدخلون بَحْبُوحَةَ الجنة، وإنما يكونون فى رِبَضِها وحولها وفى أرجائها. ومن الناس من زعم أنهم فى الجنة يراهم بنو آدم ولا يرون هم بنو آدم عكس ما كانوا عليه فى الدار الدنيا. ومن الناس من قال: لا يأكلون فى الجنة ولا يشربون، وإنما يلهمون التسبيح والتحميد والتقديس، عوضاً عن الطعام والشراب كالملائكة، لأنهم من جنسهم. وكل هذه الأقوال فيها نظر، ولا دليل عليها.

ثم قال مخبراً عنه: ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: بل قدرة الله شاملة له ومحيطه به، ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أى: لا يجيرهم منه أحدٌ ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا مقام تهديد وترهيب، فدعوا قومهم بالترغيب والترهيب؛ ولهذا نجع فى كثير منهم، وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً وفوداً، كما تقدم بيانه.

﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٣) ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (٣٤) فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهارٍ بلاغٌ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون (٣٥).

يقول تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا﴾ أى: هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة، المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ﴾ أى: ولم يكرهه خلقهن، بل قال لها: «كوني» فكانت، بلا مانعة ولا مخالفة، بل طائعة مجيبة خائفة وجلية، أفليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى؟ كما قال فى الآية الأخرى: ﴿لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، ولهذا قال: ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(١) فى أ: «من».

(٢) فى ت، أ: «ويجركم» وهو خطأ.

ثم قال متهددا ومتوعدا لمن كفر به: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أى: يقال لهم: أما هذا حق؟ أفسح هذا؟ أم أنتم لا تبصرون؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا﴾ أى: لا يسعهم إلا الاعتراف، ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، ثم قال تعالى أمراً رسوله^(١) بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أى: على تكذيب قومهم لهم. وقد اختلفوا فى تعداد أولى العزم على أقوال، وأشهرها أنهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ، قد نص الله على أسمائهم من بين الأنبياء فى آيتين من^(٢) سورتي «الأحزاب» و«الشورى»، وقد يحتمل أن يكون المراد بأولى العزم جميع الرسل، وتكون ﴿مِنْ﴾ فى قوله: ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ لبيان الجنس، والله أعلم. وقد قال ابن أبى حاتم:

حدثنا محمد بن الحجاج الحضرمي، حدثنا السري بن حيّان، حدثنا عباد بن عباد، حدثنا مجالد ابن سعيد، عن الشعبي، عن مسروق قال: قالت لى عائشة [رضى الله عنها]^(٣): ظل رسول الله ﷺ صائماً ثم طواه، ثم ظل صائماً ثم طواه، ثم ظل صائماً، [ثم]^(٤) قال: «يا عائشة، إن الدنيا لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد. يا عائشة، إن الله لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهاها والصبر عن محبوبها، ثم لم يرض منى إلا أن يكلفنى ما كلفهم، فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ وإنى - والله - لأصبرن كما صبروا جهدى، ولا قوة إلا بالله»^(٥).

﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ أى: لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم، كقوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا﴾ [الزمل: ١١]، وكقوله: ﴿فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧].

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾، كقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَةً أَوْ ضحاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وكقوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥]، [وحاصل ذلك أنهم استقصروا مدة لبثهم فى الدنيا وفى البرزخ حين عاينوا يوم القيامة وشدائدها وطولها]^(٦)

وقوله: ﴿بَلَاغٌ﴾: قال ابن جرير: يحتمل معنيين، أحدهما: أن يكون تقديره: وذلك لبث بلاغ. والآخر: أن يكون تقديره: هذا القرآن بلاغ.

وقوله: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أى: لا يهلك على الله إلا هالك، وهذا من عدله تعالى أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب.

آخر تفسير سورة الأحقاف

(٣) زيادة من ت.

(١) فى ت: «الرسوله». (٢) فى ت: «فى».

(٤) زيادة من ت، م، أ.

(٥) ورواه الديلمي فى مسند الفردوس برقم (٨٦٢٨) «مكرر» من طريق محمد بن حجاج الحضرمي به.

(٦) زيادة من ت، أ.

تفسير سورة القتال

[وهي مدنية^(١)].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ ۝ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۝ (٣)﴾ .

يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: بآيات الله، ﴿وَصَدُّوا﴾ غيرهم ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى: أبطلها وأذهبها، ولم يجعل لها جزاء ولا ثوابا، كقوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: آمنت قلوبهم وسرائرهم، وانقادت جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم، ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط فى صحة الإيمان بعد بعثته صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ جملة معترضة حسنة؛ ولهذا قال: ﴿كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ قال ابن عباس: أى أمرهم. وقال مجاهد: شأنهم. وقال قتادة وابن زيد: حالهم. والكل متقارب. وقد جاء فى حديث تسميت العاطس: «يهديكُم الله، ويصلح بالكم»^(٢).

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ أى: إنما أبطلنا أعمال الكفار، وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شؤونهم؛ لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل، أى: اختاروا الباطل على الحق، ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أى: يبين لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه فى معادهم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فِيمَا مَنَا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَ بَعْضُكُم

(١) زيادة من ت، م، أ.

(٢) رواه أبو داود فى السنن برقم (٥٠٣٨)، والترمذى فى السنن برقم (٢٧٣٩)، وابن ماجه فى السنن برقم (٣٧١٥)، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح».

بَعْضُ وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصَرُوا اللَّهُ يَنصِرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ .

يقول تعالى مرشدا للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أى: إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصدا بالسيوف، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمَوْهُمْ فَشَدُّوا﴾ أى: أهلكتموهم قتلا ﴿فَشَدُّوا﴾ [وثاق] ^(١) الأسارى الذين تأسروهم، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون في أمرهم، إن شئتم منتقم عليهم فأطلقتم أسرارهم مجانا، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه. والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، فإن الله، سبحانه، عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء، والتقليل من القتل يومئذ فقال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ ^(٢) لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يَشْخَنَ فِي الْأَرْضِ تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

ثم قد ادعى بعض العلماء أن هذه الآية - المخيرة بين مفاداة الأسير والمن عليه - منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ^(٣)﴾ الآية [التوبة: ٥]، رواه العوفي عن ابن عباس. وقاله قتادة، والضحاك، والسدي، وابن جريج.

وقال الآخرون - وهم الأكثرون - : ليست منسوخة.

ثم قال بعضهم: إنما الإمام مخير بين المن على الأسير ومفاداته فقط، ولا يجوز له قتله.

وقال آخرون منهم: بل له أن يقتله إن شاء، لحديث قتل النبي ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط من أسارى بدر، وقال ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ حين قال له: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: «إِنْ تَقَتَّلْ تَقَتَّلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تَمَنَّيْتَ تَمَنَّيْتَ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تَرِيدُ الْمَالَ فَسَلِّ تَعْطُ مِنْهُ مَا شِئْتَ ^(٤)».

وزاد الشافعى، رحمه الله، فقال: الإمام مخير بين قتله أو المن عليه، أو مفاداته أو استرقاقه أيضا. وهذه المسألة مُحَرَّرَةٌ فى علم الفروع، وقد دللنا على ذلك فى كتابنا «الأحكام»، والله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾: قال مجاهد: حتى ينزل عيسى ابن مريم عليه

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت، م: «تكون». (٣) زيادة من أ. (٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٣٧٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

السلام^(١). وكأنه أخذه من قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال»^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن إبراهيم بن سليمان، عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرشي^(٣)، عن جبيرة بن نفير، أن سلمة بن نفيل أخبرهم: أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: «إني سببت الخيل، وألقيت السلاح، ووضعت الحرب أوزارها، وقلت: «لا قتال» فقال له النبي ﷺ: «الآن جاء القتال، لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس يُزيغ^(٤) الله قلوب أقوام فيقاتلونهم: ويرزقهم الله^(٥) منهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك. ألا إن عقر دار المؤمنين الشام، والخيْلُ معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة».

وهكذا رواه النسائي من طريقين، عن جبيرة بن نفير، عن سلمة بن نفيل السكوني، به^(٦).

وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا داود بن رشيد، حدثنا الوليد بن مسلم، عن محمد بن مهاجر عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرشي، عن جبيرة بن نفير، عن النّوّاس بن سمعان قال: لما فتح على رسول الله ﷺ فتح فقالوا: يا رسول الله، سببت الخيل، ووضعت السلاح، ووضعت الحرب أوزارها، قالوا: لا قتال، قال: «كذبوا، الآن، جاء القتال، لا يزال الله يُرفّع^(٧) قلوب قوم يقاتلونهم، فيرزقهم منهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، وعقر دار المسلمين بالشام».

وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي عن داود بن رشيد، به^(٨). والمحفوظ أنه من رواية سلمة ابن نفيل كما تقدم. وهذا يقوى القول بعدم النسخ، كأنه شرع هذا الحكم في الحرب إلى ألا يبقى حرب.

وقال قتادة: ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾: حتى لا يبقى شرك. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]. ثم قال بعضهم: ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أى: أوزار المحاربين، وهم المشركون، بأن يتوبوا إلى الله عز وجل. وقيل: أوزار أهلها^(٩) بأن يبذلوا الوسع في طاعة الله، عز وجل.

وقوله: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أى: هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده، ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ أى: ولكن شرع لكم الجهاد وقاتل الأعداء ليختبركم، ويبلو أخباركم. كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في سورتي «آل عمران» و«براءة» في قوله: ﴿أَمْ

(١) زيادة من ت.

(٢) رواه أبو داود في السنن برقم (٢٤٨٤) من حديث عمران بن حصين رضى الله عنه.

(٣) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده». (٤) فى أ: «يرفع». (٥) فى أ: «قاتلونهم ويرزقه الله».

(٦) المسند (١٠٤/٤) وسنن النسائي (٢١٤/٦).

(٧) فى أ: «يرفع».

(٨) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (١٦١٧) «موارد» من طريق أبى يعلى عن داود بن رشيد به، ورواه النسائي فى السنن (٢١٤/٦)

من طريق إبراهيم بن أبى عيلة، عن الوليد بن عبد الرحمن الجرشى، عن جبيرة بن نفير عن سلمة بن نفيل مرفوعاً بنحوه.

(٩) فى ت، أ: «وقيل: أوزارها».

حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ [آل عمران: ١٤٢].
وقال في سورة براءة: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥].

ثم لما كان من شأن القتال أن يُقتل كثيرٌ من المؤمنين، قال: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى: لن يذهبها بل يكثرها وينميها ويضاعفها. ومنهم من يجرى عليه عمله فى طول برزخه، كما ورد بذلك الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده، حيث قال:

حدثنا زيد بن يحيى الدمشقى، حدثنا ابن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن كثير بن مرة^(١)، عن قيس الجذامى - رجل كانت له صحبة - قال: قال رسول الله ﷺ: «يعطى الشهيد ست خصال عند أول قطرة من دمه: يُكفر عنه كل خطيئة، ويرى مقعده من الجنة، ويزوج من الحور العين، ويؤمن من الفرع الأكبر، ومن عذاب القبر، ويحلى حلة^(٢) الإيمان^(٣)». تفرد^(٤) به أحمد، رحمه الله.

حديث آخر: قال أحمد^(٥) أيضا: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن بحير^(٦) ابن سعيد، عن خالد بن معدان، عن المقدام بن معد يكرب الكندى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشهيد عند الله ست خصال: أن يغفر له فى أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلة^(٧) الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويؤمن من الفرع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع فى سبعين إنسانا من أقرابه».

وقد أخرجه الترمذى وصححه ابن ماجه^(٨).

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو، وعن أبى قتادة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يُغفر للشهيد كل شيء إلا الدين»^(٩). وروى من حديث جماعة من الصحابة، وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته». ورواه أبو داود^(١٠). والأحاديث فى فضل الشهيد^(١١) كثيرة جدا.

وقوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أى: إلى الجنة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩].

(١) فى ت: «أحمد بإسناده». (٢) فى أ: «بحلة».

(٣) المسند (٤/ ٢٠٠) قال الهيثمى فى المجمع (٢٩٣/٥): «فيه عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، وثقه أبو حاتم وجماعة وضعفه جماعة».

(٤) فى ت: «انفرد». (٥) فى ت: «وروى أحمد». (٦) فى م، أ: «يحيى».

(٧) فى ت، م، أ: «حلية».

(٨) المسند (٤/ ١٣١)، وسنن الترمذى برقم (١٦٦٣)، وسنن ابن ماجه برقم (٢٧٩٩).

(٩) صحيح مسلم برقم (١٨٨٦).

(١٠) سنن أبى داود برقم (٢٥٢٢).

(١١) فى ت، م: «الشهداء».

وقوله: ﴿وَيُصْلِحْ بِأَلَهُمْ﴾ أى: أمرهم وحالهم، ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ أى: عرفهم بها وهداهم إليها.

قال مجاهد: يهتدى أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحدا. وروى مالك عن ابن زيد بن أسلم نحو هذا.

وقال محمد بن كعب: يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة، كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة.

وقال مقاتل بن حيان: بلغنا أن الملك الذي كان وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة، ويتبعه ابن آدم حتى يأتي أقصى منزل هو له، فيعرفه كل شيء أعطاه الله في الجنة، فإذا انتهى إلى أقصى منزله في الجنة دخل [إلى]^(١) منزله وأزواجه، وانصرف الملك عنه، ذكرهن^(٢) ابن أبي حاتم، رحمه الله.

وقد ورد الحديث الصحيح بذلك أيضا، رواه البخارى من حديث قتادة، عن أبى المتوكل الناجى، عن أبى سعيد الخدرى [رضى الله عنه]^(٣)؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، يتقاصون مظالم كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة، والذي نفسى بيده، إن أحدهم بمنزله فى الجنة أهدى منه بمنزله كان فى الدنيا»^(٤).

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَصَرَّوْا اللَّهَ يَصْرُكُمْ وَيُثِبْ أَقْدَامَكُمْ﴾، كقوله: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَصْرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، فإن الجزاء من جنس العمل؛ ولهذا قال: ﴿وَيُثِبْ أَقْدَامَكُمْ﴾، كما جاء في الحديث: «من بلغ ذا سلطان حاجة من لا يستطيع إبلاغها، ثبت الله قدمه على الصراط يوم القيامة».

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ﴾، عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله ولرسوله ﷺ. وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تَعَسَ عبد الدينار، تَعَسَ عبد الدرهم، تَعَسَ عبد القطيفة - [وفي رواية: تَعَسَ عبد الخميصة]^(٥) - تَعَسَ وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»، أي: فلا شفاه الله.

وقوله: ﴿وَأَصْلُ أَعْمَالِهِمْ﴾ أى: أحبطها وأبطلها؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ﴾
 أى: لا يريدونه ولا يحبونه، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

(٣) زيادة من ت .

(۲) فی ت: «ذكر هذا».

(١) زيادة من ت، م، أ.

(٤) صحيح البخارى برقم (٦٥٣٥).

(د) زیادة من ت، أ.

وَالْكَافِرِينَ أَمَثَلُهَا ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكَنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ .

يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ يعنى: المشركين بالله المكذبين لرسوله ﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أى: عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم، أى: ونجى المؤمنين من بين أظهرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَالْكَافِرِينَ أَمَثَلُهَا﴾، ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾، ولهذا قال أبو سفيان صخر بن حرب رئيس المشركين يوم أحد حين سأل عن النبى ﷺ، وعن أبى بكر وعمر فلم يجب، وقال: أما هؤلاء فقد هلكوا، وأجابه عمر بن الخطاب فقال: كذبت يا عدو الله، بل أبقى الله لك ما يسوؤك، وإن الذين عددت لأحياء [كلهم]^(١). فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، أما إنكم ستجدون مثله لم آمر بها ولم تسؤنى، ثم ذهب يرتجز ويقول: اعل هُبْل، اعل هُبْل. فقال رسول الله ﷺ: «ألا تحييه؟» قالوا: يا رسول الله، وما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجل» ثم قال أبو سفيان: لنا العزى، ولا عزى لكم. فقال: «ألا تحييه؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»^(٢).

ثم قال [تعالى]^(٣): ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ أى: فى دنياهم، يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام، خضما وقضما ليس لهم همة إلا فى ذلك. ولهذا ثبت فى الصحيح: «المؤمن يأكل فى معى واحد، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء»^(٤).

ثم قال: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ أى: يوم جزائهم.

وقوله: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ يعنى: مكة، ﴿أَهْلَكَنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة، فى تكذيبهم لرسول الله ﷺ، وهو سيد المرسلين^(٥) وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله، عز وجل، قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله، بسببهم، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء، فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم فى الدنيا والآخرة؟ فإن رفع عن كثير منهم العقوبة فى الدنيا لبركة وجود الرسول نبى الرحمة، فإن العذاب يوفر على

(١) زيادة من أ.

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٠٤٣) من حديث البراء رضى الله عنه.

(٣) زيادة من أ.

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٣٩٣)، ومسلم فى صحيحه برقم (٢٠٦٠) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

(٥) فى ت: «الرسول».

الكافرين به في معادهم، ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠].

وقوله: ﴿مَنْ قَرَيْتَكَ الَّتِي أَخْرَجْتُكَ﴾ أى: الذين أخرجوك من بين أظهرهم.

وقال ابن أبى حاتم: ذكر أبى، عن محمد بن عبد الأعلى، عن المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن حنّس^(١)، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار أراه قال: التفت^(٢) إلى مكة - وقال: «أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأنت أحب بلاد الله إلىّ، ولو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك»^(٣). فأعدى الأعداء من عداء على الله فى حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بذحول الجاهلية، فانزل الله على نبيه ﷺ: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتُكَ أَهْلُكُنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (١٤) **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (١٥).**

يقول: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّهِ﴾ أى: على بصيرة ويقين فى أمر الله ودينه، بما أنزل الله فى كتابه من الهدى والعلم، وبما جبّله الله عليه من الفطرة المستقيمة، ﴿كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أى: ليس هذا، كهذا كقوله: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩]، وكقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

ثم قال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾ قال عكرمة: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ أى: نعمتها^(٥): ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: يعنى غير متغير. وقال قتادة، والضحاك، وعطاء الخراسانى: غير منتن. والعرب تقول: أسن الماء، إذا تغيّر ريحه.

وفى حديث مرفوع أورده ابن أبى حاتم: ﴿غَيْرِ آسِنٍ﴾ يعنى: الصافى الذى لا كدر فيه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن عبد الله بن مرة^(٦)، عن مسروق قال: قال عبد الله: أنهار الجنة تُفَجَّرُ من جبل من مسك.

(٣) فى ت، م: «وداراه».

(٢) فى ت: «أن رسول الله».

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».

(٤) ورواه الطبرى فى تفسيره (٣١/٢٦).

(٦) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».

(٥) فى ت، م، أ: «نعيمها».

﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ أى: بل فى غاية البياض والحلاوة والدسومة. وفى حديث مرفوع: «لم يخرج من ضُرُوعِ الماشية».

﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمَرٍ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ﴾ أى: ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل [هى]^(١) حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل، ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ [الصفات: ٤٧]، ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩]، ﴿بَيضَاءَ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ﴾ [الصفات: ٤٦]، وفى حديث مرفوع: «لم تعصرها الرجال بأقدامها».

[قوله]^(٢): ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ أى: وهو فى غاية الصفاء، وحسن اللون والطعم والريح، وفى حديث مرفوع: «لم يخرج من بطون النحل».

وقال^(٣) الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا الجريري، عن حكيم بن معاوية، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «فى الجنة بحر اللبن، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعد».

ورواه الترمذى فى «صفة الجنة»، عن محمد بن بشار، عن يزيد بن هارون، عن سعيد بن إياس الجريري، به^(٤). وقال: حسن صحيح.

وقال أبو بكر بن مردويه^(٥): حدثنا أحمد بن محمد بن عاصم، حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا الحارث بن عبيد أبو قدامة الإيادى، حدثنا أبو عمران الجونى، عن أبى بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «هذه الأنهار تشخب من جنة عدن فى جوبة، ثم تصدع بعد أنهارا»^(٦).

وفى الصحيح: «إذا سألتكم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، ومنه تَجَرَّ أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»^(٧).

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا مصعب بن إبراهيم بن حمزة الزبيرى، وعبد الله بن الصقر السكرى قالا: حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامى، حدثنا عبد الرحمن بن المغيرة، حدثنى عبد الرحمن بن عياش، عن دلهم بن الأسود بن عبد الله بن حاجب بن عامر بن المتفق العقيلى، عن أبيه، عن عمه لقيط بن عامر، قال دلهم: وحدثني أيضا أبو الأسود، عن عاصم بن لقيط أن لقيط

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) زيادة من ت.

(٣) فى ت: «وروى».

(٤) المسند (٥/٥) وسنن الترمذى برقم (٢٥٧١) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٢٠٤/٦) عن طريق الجريري به، وقال: «غريب عن الجريري تفرد به عن حكيم».

(٥) فى ت: «وروى ابن مردويه».

(٦) ورواه أبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٣١٤) من طريق معلى بن أسد عن الحارث بن عبيد به.

(٧) سبق تخريج الحديث عند تفسير الآية: ١٣٣ من سورة آل عمران.

ابن عامر خرج وافداً إلى رسول الله ﷺ، قلت: يا رسول الله، فعلام نطلع من الجنة؟ قال: «على أنهار غسل مصفى، وأنهار من خمر»^(١) ما بها صداع ولا ندامة، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وماء غير آسن، وفاكهة، لعمر إلهك ما تعلمون وخير من مثله، وأزواج مطهرة» قلت: يا رسول الله، أو لنا فيها أزواج مصلمات؟ قال: «الصالحات للصالحين، تلذونهن مثل لذاتكم في الدنيا ويلذونكم، غير ألا توالد»^(٢).

وقال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا: حدثنا يعقوب بن عبيدة^(٣)، عن يزيد بن هارون، أخبرني الجريري، عن معاوية بن قرة، عن أبيه^(٤)، عن أنس بن مالك قال: لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجري في أخدود في الأرض، والله إنها لتجري سائحة على وجه الأرض، حافاتهما قباب اللؤلؤ، وطينها المسك الأذفر^(٥).

وقد رواه أبو بكر ابن مردويه، من حديث مهدي بن حكيم، عن يزيد بن هارون، به مرفوعاً^(٦).

وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾، كقوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥].
وقوله: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢].

وقوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أى: مع ذلك كله.

وقوله: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ أى: أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد في النار؟ ليس هؤلاء كهؤلاء، أى: ليس من هو في الدرجات كمن هو^(٧) في الدرجات، ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ أى: حاراً^(٨) شديد الحر، لا يستطاع. ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ أى: قطع ما فى بطونهم من الأمعاء والأحشاء، عياداً بالله من ذلك.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى

(١) فى ت، م، أ: «كأس».

(٢) المعجم الكبير (٢١١/١٩) من حديث طويل كان الحافظ اختصره، وصورة السند فى المعجم الكبير: «حدثنا مصعب بن إبراهيم بن حمزة الزبيرى وعبد الله بن الصقر العسكرى - وصوابه: السكرى - قالوا: حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامى، حدثنا عبد الرحمن بن المغيرة بن عبد الله بن خالد بن حزام، حدثنى عبد الرحمن بن عياش الأنصارى ثم المسعودى عن دلهم بن الأسود عن عاصم بن لقيط أن لقيط بن عامر خرج... الحديث». وهناك عطف بالواو يومهم أن هناك إسناداً آخر رواه الطبرانى، وليس عنده إلا من هذا الطريق، وقد رواه عبد الله بن الإمام أحمد فى زوائد المسند (١٣/٤) من طريق إبراهيم بن حمزة بن مصعب بن الزبير عن عبد الرحمن بن المغيرة الحزامى عن عبد الرحمن بن عياش عن دلهم بن الأسود بن عبد الله بن حاجب بن عامر بن المنتفق العقيلي عن أبيه عن عمه لقيط بن عامر فذكره.

(٣) فى م: «عبيد».

(٤) فى ت: «وروى ابن أبي الدنيا بسنده».

(٥) وذكره المنذرى فى التريغيب والترهيب (٥١٨/٤) وقال: «الموقوف أشبه بالصواب».

(٦) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٢٠٥/٦) من طريق محمد بن أحمد الزهرى عن مهدي بن حكيم بن مهدي به مرفوعاً.

(٧) فى م: «هو خالد».

(٨) فى ت: «صار».

وَأَتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لَذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه ولا يفهمون منه شيئا، فإذا خرجوا من عنده ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من الصحابة: ﴿مَاذَا قَالَ أَنفَا﴾ أى: الساعة، لا يعقلون ما يقال ^(١)، ولا يكثرثون له.

قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أى: فلا فهم صحيح، ولا قصد صحيح.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ أى: والذين قصدوا الهداية وفقهم الله لها فهداهم إليها، وثبتهم عليها وزادهم منها، ﴿وَأَتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أى: ألهمهم رشدهم.

وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أى: وهم غافلون عنها، ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أى: أمارات اقترابها، كقوله تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى﴾ [النجم: ٥٦، ٥٧]، وكقوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] وقوله: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة؛ لأنه خاتم الرسل الذى أكمل الله به الدين، وأقام به الحجة على العالمين. وقد أخبر - صلوات الله وسلامه عليه - بأمارات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبي قبله، كما هو مبسوط فى موضعه.

وقال الحسن البصرى: بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة. وهو كما قال؛ ولهذا جاء فى أسمائه، عليه السلام، أنه نبي التوبة، ونبي الملحمة، والحاشر الذى يحشر الناس على قدميه، والعاقب الذى ليس بعده نبي.

وقال البخارى: ^(٢) حدثنا أحمد بن المقدم، حدثنا فضيل بن سليمان، حدثنا أبو حازم، حدثنا ^(٣) سهل بن سعد قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا، بالوسطى والتى تليها: «بعثت أنا والساعة كهاتين» ^(٤).

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ أى: فكيف للكافرين بالتذكر ^(٥) إذا جاءتهم القيامة، حيث لا ينفعهم ذلك ^(٦)، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر:

(٣) فى ت: «عن».

(٢) فى ت: «وروى».

(١) فى أ: «ما يقول».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٩٣٦).

(٦) فى ت: «التذكير».

(٥) فى أ: «بالتذكير».

[٢٣]، ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥٢].

وقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾: هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله، ولا يتأتى^(١) كونه أمراً بعلم ذلك؛ ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني». اللهم اغفر لي هزلي وجدلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي^(٢). وفي الصحيح أنه كان يقول في آخر الصلاة: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت إلهي لا إله إلا أنت»^(٣). وفي الصحيح أنه قال: «يا أيها الناس، توبوا إلى ربكم، فإنني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»^(٤).

وقال^(٥) الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عاصم الأحول قال: سمعت^(٦) عبد الله، بن سرجس قال: أتيت رسول الله ﷺ فأكلت معه من طعامه، فقلت: غفر الله لك يا رسول الله فقلت: أستغفر لك^(٧)؟ فقال: «نعم، ولكم»، وقرأ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، ثم نظرت إلى نُغْضِ كتفه الأيمن - أو: كتفه الأيسر، شعبة الذي شك - فإذا هو كهيئة الجمع عليه التآليل.

رواه مسلم، والترمذي، والنسائي^(٨)، وابن جرير، وابن أبي حاتم، من طرق، عن عاصم الأحول، به^(٩).

وفي الحديث الآخر الذي رواه أبو يعلى: حدثنا مُحَرَّرُ بن عون^(١٠)، حدثنا عثمان بن مطر، حدثنا عبد الغفور، عن أبي نَصِيرَةَ، عن أبي رجاء، عن أبي بكر الصديق، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار، فأكثرُوا منهما، فإن إبليس قال: أهلك^(١١) الناس بالذنوب، وأهلكوني بـ «لا إله إلا الله»، والاستغفار فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء، فهم يحسبون أنهم مهتدون»^(١٢).

وفي الأثر المروي: «قال إبليس: وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في

(١) في أ: «إلا هو ولا ينافي».

(٢) صحيح البخارى برقم (٦٣٩٨).

(٣) صحيح مسلم برقم (٧٦٩).

(٤) صحيح البخارى برقم (٦٣٠٧).

(٥) في ت: «وروى».

(٦) في ت، م، أ: «أستغفر لك رسول الله ﷺ».

(٨) في ت: «والنسائي وابن ماجه».

(٩) المسند (٨٢/٥)، وصحيح مسلم برقم (٢٣٤٦) والشماثل للترمذي برقم (٢٢) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٤٩٦).

(١٠) في م: «محمد بن عوف» وفي هـ: «محمد بن عون». والتصويب من مسند أبي يعلى.

(١١) في م: «قال: إنما أهلكك».

(١٢) مسند أبي يعلى (١٢٣/١)، وقال الهيثمي في المجمع (٢٠٧/١٠): «فيه عثمان بن مطر وهو ضعيف».

أجسادهم. فقال الله عز وجل: وعزتي وجلالي ولا أزال أغفر لهم ما استغفروني»^(١).

والأحاديث في فضل الاستغفار كثيرة جدا.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أى: يعلم تصرفكم فى نهاركم ومستقركم فى ليلكم، كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وكقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦]. وهذا القول ذهب إليه ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير. وعن ابن عباس: متقلبكم فى الدنيا، ومثواكم فى الآخرة.

وقال السدى: متقلبكم فى الدنيا، ومثواكم فى قبوركم.

والأول أولى وأظهر، والله أعلم.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ (٢٣)﴾.

يقول تعالى مخبرا عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله، عز وجل^(٢)، وأمر به نكل عنه كثير من الناس، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

وقال هامنا: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أى: مشتملة على حكم القتال؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أى: من فرعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء. ثم قال مشجعا لهم: ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ أى: وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا، أى: فى الحالة الراهنة، ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أى: جد الحال، وحضر القتال، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ أى: أخلصوا له النية، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.

وقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا

(١) رواه أحمد فى مسنده (٢٩/٣) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه.

(٢) فى ت: «الله تعالى».

أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٠﴾ أى: تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجاهلاء، تسفكون الدماء، وتقطعون الأرحام؛ ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾، وهذا نهى عن الإفساد فى الأرض عموماً، وعن قطع الأرحام خصوصاً، بل قد أمر [الله] (١) تعالى بالإصلاح فى الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب فى المقال والفعال وبذل الأموال. وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ، من طرق عديدة، ووجوه كثيرة.

قال البخارى: حدثنا خالد بن مخلد، حدثنا سليمان، حدثني معاوية بن أبى مزرّد، عن سعيد ابن يسار (٢)، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «خلق الله الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن عز وجل، فقال: مه! فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. فقال: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذاك (٣)». قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (٤).

ثم رواه البخارى من طريقين آخرين، عن معاوية بن أبى مزرّد، به. قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾» (٥). ورواه مسلم من حديث معاوية بن أبى مزرّد، به (٦).

وقال (٧) الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، أخبرنا عيينة بن عبد الرحمن بن جوشن، عن أبيه، عن أبى بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أحرى أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا، مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة، من البغى وقطيعة الرحم».

رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه، من حديث إسماعيل - هو ابن علية - به (٨). وقال الترمذى: هذا حديث صحيح.

وقال (٩) الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمون أبو محمد المثنى، حدثنا محمد بن عباد المخزومى، عن ثوبان، عن رسول الله ﷺ قال: «من سره النساء فى الأجل، والزيادة فى الرزق، فليصل رحمه» (١٠). تفرد به أحمد، وله شاهد فى الصحيح.

(١) زيادة من ت، م، أ.

(٢) فى ت: «فروى البخارى بسنده».

(٣) فى أ: «فذلك لك».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٣٠).

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٣١، ٤٨٣٢) لكن زاد أبو الحباب بين معاوية وسعيد بن يسار.

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٥٥٤) من طريق معاوية بن أبى مزرّد عن عمه أبى الحباب عن سعيد بن يسار به.

(٧) فى ت: «وروى».

(٨) المسند (٣٨/٥)، وسنن أبى داود برقم (٤٩٠٢)، وسنن الترمذى برقم (٢٥١١)، وسنن ابن ماجه برقم (٤٢١١)

(٩) فى ت: «وروى».

(١٠) المسند (٢٧٩/٥) وشاهده حديث أنس بن مالك رضى الله عنه مرفوعاً: «من سره أن ييسط عليه رزقه، أو ينسأ فى أثره، فليصل رحمه». رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٩٨٦)، ومسلم فى صحيحه برقم (٢٥٥٧) واللفظ لمسلم.

وقال^(١) أحمد أيضا: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حجاج بن أرطاة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لى ذوى أرحام، أصل ويقطعون، وأعفو ويظلمون، وأحسن ويسئون، أفأكافئهم؟ قال: «لا، إذن تتركون جميعا، ولكن جُدْ بالفضل وصلهم؛ فإنه لن يزال معك ظهير من الله، عز وجل، ما كنت على ذلك»^(٢).
تفرد به من هذا الوجه، وله شاهد^(٣) من وجه آخر.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يعلى، حدثنا فطر، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو^(٤) قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرحم معلقة بالعرش، وليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها»، رواه البخاري^(٥) (٦).

وقال أحمد: حدثنا بهز، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا قتادة، عن أبي ثمامة الثقفى، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «توضع الرحم يوم القيامة لها حُجَّة كحُجَّة المغزل، تتكلم بلسان طُلُقٍ ذُلُقٍ، فتصل من وصلها وتقطع من قطعها»^(٧).

وقال^(٨) الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو، عن أبي قابوس، عن عبد الله بن عمرو - يبلغ به النبي ﷺ - قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض»^(٩) يرحمكم أهل السماء، والرحم شُجَّة من الرحمن، من وصلها وصلته، ومن قطعها بته». .

وقد رواه أبو داود^(١٠) والترمذى، من حديث سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، به^(١١). وهذا هو الذى يروى بتسلسل الأولي^(١٢)، وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا هشام الدستوائى، عن يحيى بن أبى كثير، عن إبراهيم بن عبد الله بن قارظ؛ أن أباه حدثه: أنه دخل على عبد الرحمن بن عوف وهو مريض، فقال له عبد الرحمن: وصلتكَ رَحْمٌ، إن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: أنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها من اسمى، فمن يصلها أصله، ومن يقطعها أقطعه فأبته - أو قال: من ييتها أبته». .
تفرد به من هذا الوجه^(١٣). ورواه أحمد أيضا من حديث الزهرى، عن أبى سلمة، عن الرداد -

(١) فى ت: «وروى».

(٢) المسند (٢/ ١٨١).

(٣) فى أ: «شواهد».

(٤) فى ت: «عن ابن عمر».

(٥) فى ت: «انفرد به».

(٦) المسند (٢/ ١٦٣)، وصحيح البخارى برقم (٥٩٩١).

(٧) المسند (٢/ ١٨٩)، قال الهيمى فى المجموع (٨/ ١٥٠): «رجال أحمد رجال الصحيح غير أبى ثمامة الثقفى، وثقه ابن حبان».

(٨) فى ت: «رواه».

(٩) فى أ: «ارحموا من فى الأرض».

(١٠) فى ت: «وقد رواه أحمد وأبو داود».

(١١) المسند (٢/ ١٦٠)، وسنن أبى داود برقم (٤٩٤١)، وسنن الترمذى برقم (١٩٢٤).

(١٢) وأروى هذا الحديث بالإجازة مسلسلاً بأول ما سمع، إلا أن الأولي تنقطع فيما فوق سفيان، وعلى هذا فشرط المسلسل غير

متحقق عند التدقيق.

(١٣) المسند (١/ ١٩١).

أو أبى الرّدّاد - عن عبد الرحمن بن عوف، به^(١). ورواه أبو داود والترمذى، من رواية أبى سلمة، عن أبيه^(٢). والأحاديث فى هذا كثيرة.

وقال الطبرانى: حدثنا على بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن عمار الموصلى، حدثنا عيسى بن يونس، عن محمد بن عبد الله بن علاثة^(٣)، عن الحجاج بن الفُرافصة، عن أبى عمر البصرى، عن سلمان^(٤) قال: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»^(٥).

وبه قال رسول الله ﷺ: «إذا ظهر القول، وخزن العمل، وائتلفت الألسنة، وتباغضت القلوب، وقطع كل ذى رحم رحمه، فعند ذلك لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم»^(٦).

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) ﴿

يقول تعالى آمراً بتدبر القرآن وتفهمه، ونهاياً عن الإعراض عنه، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ أى: بل على قلوب أقفالها، فهى مُطَبَّقة لا يخلص إليها شىء من معانيه.

قال ابن جرير: حدثنا بشر، قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد قال: حدثنا حماد بن زيد، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه قال: تلا رسول الله ﷺ يوماً: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾، فقال شاب من أهل اليمن: بل عليها^(٨) أقفالها حتى يكون الله عز وجل يفتحها أو يفرجها. فما زال الشاب فى نفس عمر، رضى الله عنه، حتى ولى، فاستعان به^(٩).

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ﴾ أى: فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أى: زين لهم ذلك وحسنه، ﴿وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ أى: غرهم

(١) المسند (١/١٩٤) وقال الترمذى فى السنن: «روى معمر عن الزهري هذا الحديث عن أبى سلمة عن رداد الليثى عن عبد الرحمن ابن عوف، قال محمد - يعنى البخارى -: حديث معمر خطأ» والصحيح الرواية الآتية فى السنن.

(٢) سنن أبى داود برقم (١٦٢٤)، وسنن الترمذى برقم (١٩٠٧).

(٣) فى هـ: «الحجاج بن يونس». والتصويب من المعجم الكبير. (٤) فى هـ: «سليمان» والتصويب من المعجم الكبير.

(٥) المعجم الكبير (٦/٢٦٣)، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/٢٨٧): «فيه جماعة لم أعرفهم». وله شاهد من حديث أبى هريرة رواه أحمد فى المسند (٢/٢٩٥).

(٦) المعجم الكبير (٦/٢٦٣) والكلام عليه كالذى قبله.

(٧) فى ت، م: «ابن».

(٨) تفسير الطبرى (٢٦/٣٧).

وخذعهم، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أى: مالتوهم وناصحوهم فى الباطن على الباطل، وهذا شأن المنافقين يظهرهم خلاف ما يبطنون؛ ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أى: [يعلم]^(١) ما يسرون وما يخفون، الله مطلع عليه وعالم به، كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾ [النساء: ٨١].

ثم قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ أى: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعتصت الأرواح فى أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٥٠]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسُطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ أى: بالضرب ﴿أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعَرَّفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعَرَّفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ (٣١).

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ أى: اعتقد^(٢) المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم^(٣) ذوو البصائر، وقد أنزل تعالى فى ذلك سورة «براءة»، فبين فيها فضائحهم وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم؛ ولهذا إنما كانت تسمى الفاضحة. والأضغان: جمع ضغن، وهو ما فى النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره.

وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعَرَّفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ يقول تعالى: ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم، فعرفت^(٤) عيانا، ولكن لم يفعل تعالى ذلك فى جميع المنافقين سترا منه على خلقه، وحملا للأمور على ظاهر السلامة، ورد السرائر إلى عالمها، ﴿وَلَتَعَرَّفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أى: فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، يفهم المتكلم من أى الحزبين هو بمعانى كلامه وفحواه، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أبداه الله على صفحات وجهه، وفتلت لسانه. وفى الحديث: «ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله

(٢) فى م: «أيعتقد».

(٤) فى ت: «تعرفهم».

(١) زيادة من ت.

(٣) فى أ: «يفهمه».

جلبابها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر»^(١). وقد ذكرنا ما يستدل به على نفاق الرجل، وتكلمنا على نفاق العمل والاعتقاد^(٢) فى أول «شرح البخارى»، بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقد ورد فى الحديث تعيين جماعة من المنافقين. قال الإمام أحمد:

حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن سلمة، عن عياض بن عياض، عن أبيه، عن أبى مسعود عقبة ابن عمرو، رضى الله عنه، قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن منكم^(٣) منافقين، فمن سميت فليقم». ثم قال: «قم يا فلان، قم يا فلان، قم يا فلان». حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً ثم قال: «إن فيكم - أو: منكم^(٤) - فاتقوا الله». قال: فمر عمر برجل ممن سمى مقلع قد كان يعرفه، فقال: ما لك؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ، فقال: بعداً لك سائر اليوم^(٥). وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أى: ولنختبرنكم بالأوامر والنواهي، ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾. وليس فى تقدم علم الله تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب، فالمراد: حتى نعلم وقوعه؛ ولهذا يقول ابن عباس فى مثل هذا: إلا لنعلم، أى: لرى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ﴾ (٣٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرَكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥).

يخبر تعالى عمن كفر وصد عن سبيل الله، وخالف الرسول وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى: أنه لن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله الذى عقبه بردته مثقال بعوضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات.

وقد قال الإمام محمد بن نصر المروزى فى كتاب الصلاة: حدثنا أبو قدامة، حدثنا وكيع، حدثنا أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية قال^(٦): كان أصحاب رسول الله ﷺ يظنون أنه لا يضر مع «لا إله إلا الله» ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، فنزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، فخافوا أن يبطل الذنب العمل.

(١) سياتى تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية: ٢٩ من سورة الفتح.

(٢) فى أ: «النفاق العملى والاعتقادى». (٣) فى ت: «فيكم».

(٤) فى ت: «فيكم».

(٥) المسند (٢٧٣/٥) قال الهشيمى فى المجمع (١١٢/١): «فيه عياض بن أبى عياض عن أبيه ولم أر من ترجمهما».

(٦) فى ت: «روى الإمام أحمد بإسناده».

ثم روى من طريق عبد الله بن المبارك: أخبرني بكير بن معروف، عن مقاتل بن حيان، عن نافع، عن ابن عمر قال: كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾. فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش، حتى نزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك، فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش، ونرجو لمن لم يصيبها^(١).

ثم أمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة، ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للأعمال؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أى: بالردة؛ ولهذا قال بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ الآية .

ثم قال لعباده المؤمنين: ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ أى: لا تضعفوا عن الأعداء، ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾ أى: المهادنة والمسالمة، ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوتكم وكثرة عددكم وعددكم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ أى: في حال علوكم على عدوكم، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة^(٢) بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المعاهدة والمهادنة مصلحة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم إلى ذلك.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾: فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء، ﴿وَلَنْ يَتْرَكَ أَعْمَالَكُمْ﴾ أى: ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها، بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئا.

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تَزْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾
 (٣٦) **إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخُلُوا وَيَخْرِجَ أَصْغَانَكُمْ** (٣٧) **هَآ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنَفْسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَخِلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ** (٣٨) .

يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا وتهويناً لشأنها: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ﴾ أى: حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله عز وجل؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنْ تَزْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أى: هو غنى عنكم لا يطلب منكم شيئا، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم

(١) تعظيم قدر الصلاة للمروزي برقم (٦٩٨، ٦٩٩).

(٢) فى ت: «فئة كثيرة».

الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم، ويرجع ثوابه إليكم.

ثم قال: ﴿إِنْ يَسْأَلُكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا﴾ أى: يحرركم^(١) تبخلوا: ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾.

قال قتادة: «قد علم الله أن فى إخراج الأموال إخراج الأضغان». وصدق قتادة فإن المال محبوب، ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه.

وقوله: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُفَقُّوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَخْلُ﴾ أى: لا يجيب إلى ذلك ﴿وَمَنْ يَخْلُ فَإِنَّمَا يَخْلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أى: إنما نقص نفسه من الأجر، وإنما يعود وبإل ذلك عليه، ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ أى: عن كل ما سواه، وكل شىء فقير إليه دائما؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾ أى: بالذات إليه. فوصفه بالغنى وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم، [أى]^(٢) لا ينفكون عنه.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أى: عن طاعته واتباع شرعه^(٣) ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ أى: ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره.

وقال^(٤) ابن أبى حاتم، وابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرنى مسلم بن خالد، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبى هريرة [رضى الله عنه]^(٥) أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾، قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين إن تولينا استبدل بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ قال: فضرب بيده على كتف سلمان الفارسى ثم قال: «هذا وقومه، ولو كان الدين عند الثريا لتناولوه رجال من الفرس»^(٦).

تفرد به مسلم بن خالد الزنجى، ورواه عنه غير واحد، وقد تكلم فيه بعض الأئمة، والله أعلم.

آخر تفسير سورة القتال

(١) فى أ: «يحوجكم».

(٢) زيادة من ت.

(٣) فى ت: «شرعته»، وفى أ: «شريعته».

(٤) فى ت: «وروى».

(٥) زيادة من ت.

(٦) تفسير الطبرى (٤٣/٢٦)، ومسلم بن خالد الزنجى ضعفه ابن معين، وقال البخارى: منكر الحديث لكنه لم ينفرد به، فقد توبع:

١- تابعه شيخ من أهل المدينة عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه به، أخرجه الترمذى برقم (٣٢٦٠) وقال: «هذا حديث غريب فى إسناده مقال».

٢- وتابعه عبد الله بن جعفر بن نجيح عن العلاء عن أبيه به، أخرجه الترمذى برقم (٣٢٦١) وعبد الله بن جعفر والد على بن المدينى

ضعيف.

تفسير سورة الفتح

وهى مدنية .

قال الإمام أحمد^(١): حدثنا وكيع، حدثنا شعبة، عن معاوية بن قرة قال: سمعت عبد الله بن مغفل يقول: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح فى مسيره سورة الفتح على راحلته فرجع فيها - قال معاوية: لولا أنى أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت لكم قراءته، أخرجاه من حديث شعبة به^(٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) ﴾ .

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية فى ذى القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ليقضى عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتى من قابل، فأجابهم إلى ذلك على تكره من جماعة من الصحابة، منهم عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، كما سيأتى تفصيله فى موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله. فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع، أنزل الله، عز وجل، هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحاً باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه، كما روى عن ابن مسعود، رضى الله عنه، وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية.

وقال الأعمش، عن أبى سفيان، عن جابر قال: ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية^(٣).

وقال^(٤) البخارى: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن البراء قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر. فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأناها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم تمضمض ودعا، ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا^(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو نوح، حدثنا مالك بن أنس، عن زيد بن أسلم، عن أبيه^(٦)، عن عمر بن الخطاب قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر، قال: فسألته عن شىء - ثلاث مرات - فلم

(١) فى ت: «وروى البخارى ومسلم والإمام أحمد».

(٢) المسند (٢٤/٥) وصحيح البخارى برقم (٤٨٣٥) وصحيح مسلم برقم (٧٩٤).

(٣) رواه الطبرى (٤٤/٢٦).

(٤) فى ت: «وروى».

(٥) صحيح البخارى برقم (٤١٥٠).

(٦) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده».

يرد على، قال: فقلت لنفسى: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، نزلت رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك؟ قال: فركبت راحلتى فتقدمت مخافة أن يكون نزل فى شىء، قال: فإذا أنا بمناد ينادى: يا عمر، أين عمر؟ قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل فى شىء، قال: فقال النبى ﷺ: «نزلت^(١) على الليلة^(٢) سورة هى أحب إلى من الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾». ورواه البخارى، والترمذى، والنسائى من طرق، عن مالك، رحمه الله^(٣)، وقال على بن المدينى: هذا إسناد مدينى [جيد]^(٤) لم نجده إلا عندهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن قتادة، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: نزلت على النبى ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مرجعه من الحديبية، قال النبى ﷺ: «لقد أنزلت على آية أحب إلى مما على الأرض»، ثم قرأها عليهم النبى ﷺ فقالوا: هنيئاً مريئاً يا نبي الله، لقد بين الله، عز وجل، ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٌ﴾ حتى بلغ: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥]، أخرجاه فى الصحيحين من رواية قتادة به^(٥).

وقال^(٦) الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا مجمع بن يعقوب، قال: سمعت أبى يحدث عن عمه عبد الرحمن بن أبى يزيد الأنصارى عن عمه مجمع بن جارية الأنصارى - وكان أحد^(٧) القراء الذين قرؤوا القرآن - قال: شهدنا الحديبية فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون الأباعر، فقال الناس بعضهم لبعض: ما للناس؟ قالوا: أوحى إلى رسول الله ﷺ، فخرجنا مع الناس نوجف، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم، فاجتمع الناس عليه، فقرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، قال: فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: أى رسول الله، وفتح هو؟ قال: «إى الذى نفس محمد بيده، إنه لفتح». فقسمت خيبر على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية، فقسمها رسول الله ﷺ على ثمانية عشر سهماً، وكان الجيش ألفاً وخمسمائة فارس، فأعطى الفارس سهمين، وأعطى الراسل سهماً.

رواه أبو داود فى الجهاد عن محمد بن عيسى، عن مجمع بن يعقوب، به^(٨).

وقال^(٩) ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيح، حدثنا أبو بحر، حدثنا شعبة، حدثنا جامع بن شداد، عن عبد الرحمن بن أبى علقمة، قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول^(١٠): لما

(١) فى م: «نزل». (٢) فى ت، م: «البارحة».

(٣) المسند (٣١/١) وصحيح البخارى برقم (٤٨٣٣) وسنن الترمذى برقم (٣٢٦٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٩٩).

(٤) زيادة من م.

(٥) المسند (١٩٧/٣) وصحيح البخارى برقم (٤١٤٨) وصحيح مسلم برقم (١٧٨٦).

(٦) فى ت: «وروى». (٧) فى ت: «أحب».

(٨) المسند (٤٢٠/٣) وسنن أبى داود برقم (٢٧٣٦).

(٩) فى ت: «وروى». (١٠) فى ت: «عن ابن مسعود قال».

أقبلنا من الحديدية أعرسنا فمنا، فلم نستيقظ إلا بالشمس قد طلعت، فاستيقظنا ورسول الله ﷺ نائم، قال: فقلنا: «امضوا»^(١). فاستيقظ رسول الله ﷺ: فقال: «افعلوا كما كنتم تفعلون وكذلك [يفعل]^(٢) من نام أو نسي». قال: وفقدنا ناقة رسول الله ﷺ، فطلبناها، فوجدناها قد تعلق خطامها بشجرة، فاتيته بها فركبها^(٣)، فبينما نحن نسير إذ أتاه الوحي، قال: وكان إذا أتاه [الوحي]^(٤) اشتد عليه، فلما سرى عنه أخبرنا أنه أنزل عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾.

وقد رواه أحمد وأبو داود، والنسائي من غير وجه، عن جامع بن شداد به^(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان عن زياد بن علاقة، قال: سمعت المغيرة ابن شعبة^(٦) يقول: كان النبي ﷺ يصلى حتى ترم قدماه، ف قيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

أخرجه^(٨) وبقية الجماعة إلا أبا داود من حديث زياد به^(٩).

وقال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ابن وهب، حدثني أبو صخر، عن ابن قسيط، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه^(١٠).

فقال له عائشة: يا رسول الله، أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً؟».

أخرجه مسلم في الصحيح من رواية عبد الله بن وهب، به^(١١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عبد الله بن عون الخراز - وكان ثقة بمكة - حدثنا محمد بن بشر^(١٢) حدثنا مسعر، عن قتادة، عن أنس، قال: قام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه - أو قال: ساقاه - ف قيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟». غريب من هذا الوجه^(١٣).

(١) في م: «أنصتوا».

(٢) في ت: «فركب».

(٣) في ت: «وروى الإمام أحمد بسنده».

(٤) في أ: «رسول الله».

(٥) تفسير الطبري (٤٣/٢٦) والمسند (٤٦٤/١) وسنن أبي داود برقم (٤٤٧) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٨٨٥٣).

(٦) في ت: «أخرجه البخاري ومسلم».

(٧) في أ: «رسول الله».

(٨) في ت: «أخرجه البخاري ومسلم».

(٩) المسند (٥٥/٤) وصحيح البخاري برقم (٤٨٣٦) وصحيح مسلم برقم (٢٨١٩) وسنن الترمذي برقم (٤١٢) وسنن النسائي (٢١٩/٣) وسنن ابن ماجه برقم (١٤١٩).

(١٠) في أ: «ينفطر قدماه».

(١١) المسند (١١٥/٦) وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٠).

(١٢) في أ: «بشير».

(١٣) ورواه أبو يعلى في المسند (٢٨٠/٥) من طريق عبد الله بن عون الخراز به، ورواه البزار في مسنده برقم (٢٣٨٠) «كشف الأستار»

من طريق الحسين بن الأسود عن محمد بن بشر به، وقال البزار: «لا نعلم أحداً حدث بهذا الحديث بهذا الإسناد إلا الحسين بن بشر وعبد الله بن عون الخراز، وقد رواه غيرهما عن محمد بن بشر عن مسعر، عن زياد بن علاقة، عن المغيرة بن شعبة، وهو الصواب»، فكلهم الإمام البزار هنا موضح لقول الحافظ ابن كثير: «غريب من هذا الوجه».

فقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ أى: بينا ظاهراً، والمراد به صلح الحديبية فإنه حصل بسببه خير جزيل، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض^(١)، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان.

وقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾: هذا من خصائصه - صلوات الله وسلامه عليه - التى لا يشاركه فيها غيره. وليس صحيح فى ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو - صلوات الله وسلامه عليه - فى جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التى لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم فى الدنيا والآخرة. ولما كان أطوع خلق الله لله، وأكثرهم^(٢) تعظيماً لأوامره^(٣) ونواهيته، قال حين بركت به الناقة: «حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذى نفسى بيده، لا يسألونى اليوم شيئاً يعظمون به حرمت الله إلا أجبتهم إليها»^(٤). فلما أطاع الله فى ذلك وأجاب إلى الصلح، قال الله له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا. لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة، ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أى: بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم، ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أى: بسبب خضوعك لأمر الله يرفعك الله وينصرك على أعدائك، كما جاء فى الحديث الصحيح: «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»^(٥). وعن عمر بن الخطاب [رضى الله عنه]^(٦) أنه قال: ما عاقبت - أى فى الدنيا والآخرة - أحداً عصى الله تعالى فىك بمثل أن تطيع الله فيه.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٤) ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً (٥) ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧).

يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أى: جعل الطمأنينة. قاله ابن عباس، وعنه: الرحمة.

وقال قتادة: الوقار فى قلوب المؤمنين. وهم الصحابة يوم الحديبية، الذين استجابوا لله ولرسوله، وانقادوا لحكم الله ورسوله، فلما اطمأنت قلوبهم لذلك، واستقرت، زادهم إيماناً مع إيمانهم.

(٣) فى ت: «لاوامر الله» .

(٢) فى ت، أ: «وأشدهم» .

(١) فى م: «بعضاً» .

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢) .

(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٥٨٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٦) زيادة من ت .

وقد استدلل بها البخارى وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان فى القلوب .

ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين ، فقال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: ولو أرسل عليهم ملكا واحدا لأباد خضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال، لما له فى ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة، والبراهين الدامغة؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ، ثم قال تعالى: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾، قد تقدم حديث أنس: قالوا: هنيئا لك يا رسول الله، هذا لك فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ماكنين فيها أبدا، ﴿وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أى: خطاياهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، بل يعفو ويصفح ويغفر، ويستر ويرحم ويشكر، ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ، كقوله: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] .

وقوله: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أى: يهتمون الله فى حكمه، ويظنون بالرسول وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية؛ ولهذا قال: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ أى: أبعدهم من رحمته، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ .

ثم قال مؤكدا لقدرته على الانتقام من الأعداء - أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين -: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ .

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٨) لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠) .

يقول تعالى لنبىه محمد - صلوات الله وسلامه عليه (١) - ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ أى: على الخلق، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أى: للمؤمنين، ﴿وَنَذِيرًا﴾ أى: للكافرين. وقد تقدم تفسيرها فى سورة «الأحزاب» (٢) ﴿لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُعَزِّرُوهُ وَيُوقِّرُوهُ﴾ ، من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام ، ﴿وَيُسَبِّحُوهُ﴾ أى: يسبحون الله ، ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أى: أول النهار وآخره .

ثم قال تعالى لرسوله ﷺ تشريفا له وتعظيما وتكريما: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ ، كقوله: ﴿مَنْ يَطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] ، ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أى: هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسوله

(١) فى ت، م: «صلى الله عليه وسلم» .

(٢) عند الآية الخامسة والأربعين .

ﷺ، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وقد قال^(١) ابن حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا الفضل بن يحيى الأنباري، حدثنا علي بن بكار، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سل سيفه في سبيل الله، فقد بايع الله»^(٢).

وحدثنا أبي، حدثنا يحيى بن المغيرة، أخبرنا جرير، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ في الحجر: «والله لبيعته الله يوم القيامة له عينان ينظر بهما، ولسان ينطق به، ويشهد على من استلمه بالحق، فمن استلمه فقد بايع الله»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يَبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾^(٣).

ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي: إنما يعود وبال ذلك على الناكث، والله غني عنه، ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثوابا جزيلا. وهذه البيعة هي بيعة الرضوان، وكانت تحت شجرة سمر بالحديبية، وكان الصحابة الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ قيل: ألف وثلثمائة. وقيل: أربعمائة. وقيل: وخمسمائة. والأوسط^(٤) أصح.

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك:

قال البخاري: حدثنا قتيبة، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن جابر قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة.

ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة، به^(٥). وأخرجاه أيضا من حديث الأعمش، عن سالم ابن أبي الجعد، عن جابر قال: كنا يومئذ ألفا وأربعمائة، ووضع يده في ذلك الماء، فنبع الماء من بين أصابعه، حتى رويوا كلهم^(٦).

وهذا مختصر من سياق آخر حين ذكر قصة عطشهم يوم الحديبية، وأن رسول الله ﷺ أعطاهم سهما من كنانته، فوضعه في بئر الحديبية، فجاشت بالماء، حتى كفتهم، فقيل لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: كنا ألفا وأربعمائة، ولو كنا مائة ألف لكفانا^(٧). وفي رواية [في]^(٨) الصحيحين عن جابر: أنهم كانوا خمس عشرة مائة^(٩).

(١) في ت: «وروي».

(٢) ورواه ابن مردويه كما في الجامع الصغير، ورمز له السيوطي بالضعف.

(٣) ورواه الترمذي في السنن برقم (٩٦١) من طريق قتيبة عن جرير بإسناده إلى قوله: «يشهد على من استلمه بالحق» ولم يذكر الآية، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن».

(٤) في ت: «والأول».

(٥) صحيح البخاري برقم (٤٨٤٠) وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).

(٦) صحيح البخاري برقم (٤١٥٤) وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).

(٧) رواه البخاري في صحيحه برقم (٥٦٣٩).

(٨) زيادة من م، أ.

(٩) صحيح البخاري برقم (٤١٥٢) وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).

وروى البخارى من حديث قتادة، قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة.

قلت: فإن جابر بن عبد الله، رضى الله عنهما، قال: كانوا أربع عشرة مائة. قال رحمه الله: وهم، هو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة^(١).

قال البيهقي: هذه الرواية تدل على أنه كان فى القديم يقول: خمس عشرة مائة، ثم ذكر الوهم فقال: أربع عشرة مائة^(٢).

وروى العوفى عن ابن عباس: أنهم كانوا ألفا وخمسمائة وخمسة وعشرين. والمشهور الذى رواه غير واحد عنه: أربع عشرة مائة، وهذا هو الذى رواه البيهقي، عن الحاكم، عن الأصم، عن العباس الدورى، عن يحيى بن معين، عن شابة بن سوار، عن شعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفا وأربعمائة^(٣). وكذلك هو فى رواية سلمة بن الأكوع، ومعتل بن يسار، والبراء بن عازب. وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازى والسير. وقد أخرج صاحبها الصحيح من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله بن أبى أوفى يقول: كان أصحاب الشجرة ألفا وأربعمائة، وكانت أسلم يومئذ ثمن المهاجرين^(٤).

وروى محمد بن إسحاق فى السيرة، عن الزهرى، عن عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم، أنهما حدثاه قالوا: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد قتالا، وساق معه الهدى سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل، كل بدنة عن عشرة نفر، وكان جابر بن عبد الله فيما بلغنى عنه يقول: كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مائة^(٥).

كذا قال ابن إسحاق وهو معدود من أوهامه، فإن المحفوظ فى الصحيحين أنهم كانوا بضع عشرة مائة.

ذكر سبب هذه البيعة العظيمة:

قال محمد بن إسحاق بن يسار فى السيرة: ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب لبيعته إلى مكة ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشا على نفسى، وليس بمكة من بنى عدى بن كعب من يمنعى، وقد عرفت قريش عداوتى إياها، وغلظى^(٦) عليها، ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى، عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمة.

(١) صحيح البخارى برقم (٤١٥٣).

(٢) دلائل النبوة للبيهقى (٩٧/٤).

(٣) دلائل النبوة للبيهقى (٩٨/٤).

(٤) صحيح البخارى برقم (٤١٥٥)، وصحيح مسلم برقم (١٨٥٧).

(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣٠٨/٢).

(٦) فى ت، م: «غلظتى».

فخرج عثمان إلى مكة، فلقه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ^(١) ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل.

قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر: أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: «لا نبرح حتى نناجز القوم». ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة. فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت. وكان جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت، ولكن بايعنا على الألف.

فبايع الناس، ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بني سلمة، فكان جابر يقول: والله لكأنني أنظر إليه لأصقا بإبط ناقته، قد ضبأ إليها يستتر بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي كان من أمر عثمان باطل.^(٢)

وذكر ابن لهيعة، عن الأسود^(٣)، عن عروة بن الزبير قريبا من هذا السياق، وزاد في سياقه: أن قريشا بعثوا وعندهم عثمان [بن عفان]^(٤) سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص إلى رسول الله ﷺ، فبينما هم عندهم إذا وقع كلام بين^(٥) بعض المسلمين وبعض المشركين، وتراموا بالنبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتهن كل من الفريقين من عنده من الرسل، ونادى منادى رسول الله ﷺ: ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله ﷺ، وأمر بالبيعة، فاخرجوا على اسم الله فبايعوا، فسار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة فبايعوه على ألا يفروا أبدا، فأرعب ذلك المشركين^(٦)، وأرسلوا من كان عندهم من المسلمين، ودعوا إلى المودة والصلح.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا تميم^(٧)، حدثنا الحسن بن بشر^(٨)، حدثنا الحكم بن عبد الملك، عن قتادة، عن أنس^(٩) بن مالك، قال: لما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان [رضى الله عنه]^(١٠) رسول رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، فبايع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إن عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله». فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيرا من أيديهم لأنفسهم^(١١).

(١) زيادة من ت، م.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/٣١٥).

(٣) في ت: «أبي الأسود».

(٤) في ت: «المشركون» وهو خطأ.

(٥) في أ، م: «هشام».

(٥) في م «من».

(٨) في أ: «بشير».

(١٠) زيادة من ت.

(٩) في ت: «وروى البيهقي بسنده».

(١١) لم أجده في دلائل النبوة، ولعله في غيره.

قال ابن هشام^(١): وحدثني من أثق به عمن حدثه بإسناد له، عن ابن أبي مليكة^(٢)، عن ابن عمر قال: بايع رسول الله ﷺ لعثمان، فضرب بإحدى يديه على الأخرى.

وقال عبد الملك بن هشام النحوي: فذكر وكيع، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي: أن أول من بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان أبو سنان الأسدي^(٣).

وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي: حدثنا سفيان، حدثنا ابن أبي خالد، عن الشعبي، قال: لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، كان أول من انتهى إليه أبو سنان [الأسدي رضى الله عنه]^(٤)، فقال: أبسط يدك أبياعك. فقال النبي ﷺ: «علام تباعني؟». فقال أبو سنان: على ما في نفسك. هذا أبو سنان [بن]^(٥) وهب الأسدي [رضى الله عنه]^(٦)^(٧).

وقال البخاري: حدثنا شجاع بن الوليد، سمع النضر بن محمد: حدثنا صخر [بن الربيع]^(٨)، عن نافع، قال: إن الناس يتحدثون أن ابن عمر أسلم قبل عمر، وليس كذلك، ولكن عمر يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار أن يأتي به ليقا تل عليه، ورسول الله ﷺ يبايع عند الشجرة، وعمر لا يدرى بذلك، فبايعه عبد الله، ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر، وعمر يستلثم للقتال، فأخبره أن رسول الله ﷺ يبايع تحت الشجرة، فانطلق، فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ، وهى التى يتحدث الناس أن ابن عمر^(٩) أسلم قبل عمر.

ثم قال البخاري: وقال هشام بن عمار: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عمر بن محمد العمري، أخبرني نافع، عن ابن عمر، أن الناس كانوا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية قد تفرقوا فى ظلال الشجر، فإذا الناس محدقون بالنبي ﷺ فقال - يعنى عمر -: يا عبد الله، انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله ﷺ. فوجدهم يبايعون، فبايع ثم رجع إلى عمر فخرج فبايع.

وقد أسنده البيهقي عن أبي^(١٠) عمرو الأديب، عن أبي بكر الإسماعيلي، عن الحسن بن سفيان، عن دحيم: حدثني الوليد بن مسلم فذكره^(١١).

وقال الليث، عن أبي الزبير، عن جابر، قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة فبايعناه، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهى سمرة، وقال: بايعناه على ألا نفر، ولم نبايعه على الموت. رواه مسلم، عن قتيبة، عنه^(١٢).

وروى مسلم عن يحيى بن يحيى، عن يزيد بن زريع، عن خالد، عن الحكم بن عبد الله بن الأعرج، عن معقل بن يسار، قال: لقد رأيتنى يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس^(١٣)، وأنا رافع

(١) فى أ: «شهاب».

(٢) السيرة النبوية (٣١٦/٢).

(٣) زيادة من أ.

(٤) (٥)، (٦) زيادة من م، أ.

(٧) ورواه البيهقي فى دلائل النبوة (١٣٧/٤) من طريق الحميدي به.

(٨) زيادة من ت، أ.

(٩) فى أ: «عبد الله بن عمر».

(١٠) فى أ: «ابن».

(١١) صحيح البخارى برقم (٤١٨٧).

(١٢) صحيح مسلم برقم (١٨٥٦).

(١٣) فى م: «والناس يبايعون النبي».

غصنا من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مائة، قال: ولم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه على ألا نفر^(١).

وقال البخارى: حدثنا المكي بن إبراهيم، عن زيد بن أبى عبيد، عن سلمة بن الأكوع، قال: بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال يزيد: قلت: يا أبا مسلم^(٢)، على أى شيء كنتم تباعون يومئذ؟ قال: على الموت^(٣).

وقال البخارى أيضا: حدثنا أبو عاصم، حدثنا يزيد بن أبى عبيد عن سلمة، قال: بايعت رسول الله ﷺ يوم الحديبية ثم تنحيت، فقال: «ياسلمة، ألا تباع؟» قلت: بايعت، قال: «أقبل فبايع». فدنوت فبايعته. قلت: علام بايعته ياسلمة؟ قال: على الموت. وأخرجه مسلم من وجه آخر عن يزيد ابن أبى عبيد^(٤). وكذا روى البخارى عن عباد بن تميم، أنهم بايعوه على الموت^(٥).

وقال البيهقى: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو الفضل بن إبراهيم، حدثنا أحمد بن سلمة، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا أبو عامر العقدي عبد الملك بن عمرو، حدثنا عكرمة بن عمار اليمامى، عن إياس بن سلمة، عن أبيه سلمة^(٦) بن الأكوع قال: قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة، وعليها خمسون شاة لا ترويهما، فقعده رسول الله ﷺ على جباها - يعنى الركى - فإما دعا وإما بصق فيها، فجاشت، فسقينا واستقينا. قال: ثم إن رسول الله ﷺ دعا إلى البيعة فى أصل الشجرة. فبايعته أول الناس، ثم بايع وباع، حتى إذا كان فى وسط الناس قال ﷺ: «بابعنى يا سلمة». قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتك فى أول الناس. قال: «وأىضا». قال: ورأى رسول الله ﷺ عزلا فأعطانى حقة - أو درقة - ثم بايع حتى إذا كان فى آخر الناس قال ﷺ: «ألا تباع يا سلمة؟». قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتك^(٧) فى أول الناس وأوسطهم. قال: «وأىضا». فبايعته الثالثة، فقال: «يا سلمة، أين حجفتك أو درقتك التى أعطيتك؟». قال: قلت: يا رسول الله، لقينى عامر عزلا فأعطيتها إياه: فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «إنك كالذى قال الأول: اللهم أبغنى حبيبا هو أحب إلى من نفسى» قال: ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا فى الصلح حتى مشى بعضنا فى بعض فاصطلحنا. قال: وكنت خادما لطلحة بن عبيد الله، رضى الله عنه، أسقى فرسه وأحسه^(٨) وأكل من طعامه، وتركت أهلى ومالى مهاجرا إلى الله ورسوله. فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعض، أتيت شجرة فكسحت شوكةا، ثم اضطجعت^(٩) فى أصلها فى ظلها، فأتانى أربعة من مشركى أهل مكة، فجعلوا يقعون فى رسول الله ﷺ فأبغضتهم، وتحولت إلى شجرة أخرى فعلقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك إذا نادى مناد من أسفل الوادى: يا للمهاجرين، قتل ابن زنيم. فاخترطت سيفى، فشددت على أولئك الأربعة وهم

(١) صحيح مسلم برقم (١٨٥٨).

(٢) فى م: «سلمة».

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٩٦٠).

(٤) صحيح مسلم برقم (١٨٦٠).

(٥) صحيح البخارى برقم (٢٩٥٩).

(٦) فى ت: «وقال البيهقى بسنده عن سلمة».

(٧) فى ت: «بايعت».

(٨) فى ت، م، أ: «واضطجعت»

(٩) فى ت، م: «وأجنبه».

رقود، فأخذت سلاحهم وجعلته ضغثاً في يدي، ثم قلت^(١): والذي كرم وجهه محمد ﷺ، لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه، قال: ثم جثت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ، قال: وجاء عمى عامر برجل من العَبَلات يقال له: «مكرز» من المشركين يقوده، حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله ﷺ وقال: «دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه»، فعفا عنهم رسول الله ﷺ، وأنزل الله [عز وجل]^(٢): ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [الفتح: ٢٤].

وهكذا رواه مسلم عن إسحاق بن إبراهيم بن راهويه بسنده نحوه، أو قريباً منه^(٣).

وثبت في الصحيحين من حديث أبي عوانة، عن طارق، عن سعيد بن المسيب، قال: كان أبي ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فانطلقنا من قابل حاجين، فخفى علينا مكانها، فإن كان تبينت لكم، فأنتم أعلم^(٤).

وقال أبو بكر الحميدى: حدثنا سفيان، حدثنا أبو الزبير، حدثنا^(٥) جابر، قال: لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، وجدنا رجلاً منا يقال له «الجد بن قيس» مختبئاً تحت إبط بعيره». رواه مسلم من حديث ابن جريج، عن ابن الزبير، به^(٦).

وقال الحميدى أيضاً: حدثنا سفيان^(٧)، عن عمرو، سمع جابراً، قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة، فقال لنا رسول الله ﷺ «أنتم خير أهل الأرض اليوم». قال جابر: لو كنت أبصر^(٨) لأريتكم موضع الشجرة. قال سفيان: إنهم اختلفوا في موضعها. أخرجاه من حديث سفيان^(٩).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا الليث. عن أبي الزبير، عن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة»^(١٠).

وقال^(١١) ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن هارون الفلاس المخرمي، حدثنا سعد بن عمرو الأشعني، حدثنا محمد بن ثابت العبدى، عن خدّاش بن عياش، عن أبي الزبير، عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل من بايع تحت الشجرة كلهم الجنة إلا صاحب الجمل الأحمر». قال: فانطلقنا نبتدره فإذا رجل قد أضل بعيره، فقلنا: تعال فبايع. فقال: أصيب بعيرى أحب إلى من أن أبايع^(١٢).

(١) فى ت، م: «وقلت».

(٢) دلائل النبوة للبيهقى (١٣٨/٤)، وصحيح مسلم برقم (١٨٠٧).

(٣) صحيح البخارى برقم (٤١٦٤)، وصحيح مسلم برقم (١٨٥٩). واللفظ لمسلم.

(٤) فى م: «عن».

(٥) مسند الحميدى (٥٣٧/٢)، وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).

(٦) فى ت: «وفى الصحيحين من حديث سفيان».

(٧) فى ت، م: «أنظر».

(٨) مسند الحميدى (٥١٤/٢)، وصحيح البخارى برقم (٤١٥٤)، وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).

(٩) المسند (٣٥٠/٣).

(١٠) فى ت: «وروى».

(١١) وفى إسناده محمد بن ثابت العبدى، ضعفه ابن معين، وشيخه خدّاش بن عياش وثقه ابن حبان، وقال الترمذى: «لا نعرف خدّاشاً هذا من هو».

وقال عبد الله بن أحمد: حدثنا عبيد الله بن معاذ، حدثنا أبي، حدثنا قرة، عن أبي الزبير^(١)، عن جابر، عن النبي ﷺ أنه قال: «من يصعد الشنية، ثنية المار، فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل». فكان أول من صعد خيل بني^(٢) الخزرج، ثم تبادر الناس بعد، فقال رسول الله ﷺ: «كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر». فقلنا: تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ^(٣). فقال: والله لأن أجد ضالتي أحب إلى من أن يستغفر لي صاحبكم. فإذا هو رجل ينشد ضالة^(٤). رواه مسلم عن عبيد الله، به^(٥).

وقال ابن جريج: أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابرا يقول: أخبرتنى أم مبشر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النار - إن شاء الله - من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد». قالت: بلى يا رسول الله. فانتهرها، فقالت لحفصة: ﴿وَأَنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، فقال النبي ﷺ: «قد قال الله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَاءً﴾» [مريم: ٧٢]، رواه مسلم^(٦). وفيه أيضا عن قتيبة، عن الليث، عن أبي الزبير، عن جابر؛ أن عبداً لحاطب بن أبي بلتعة جاء يشكو حاطباً، فقال: يا رسول الله، ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله ﷺ: «كذبت، لا يدخلها؛ فإنه قد شهد بدرا والحديبية»^(٧).

ولهذا قال تعالى في الثناء عليهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْ أَجْرٍ أَعْظَمًا﴾ [الفتح: ١٠]، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَّنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنَّ السَّوِّءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٤) ﴿

(١) في ت: «وقال عبد الله بن أحمد بسنده».

(٢) زيادة من ت.

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٠).

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٤٩٦).

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٤٩٤).

(٦) في أ: «ضالته».

يقول تعالى مخبراً رسوله^(١) - صلوات الله وسلامه عليه^(٢) - بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام في أهلهم وشغلهم^(٣)، وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ، فاعتذروا بشغلهم بذلك، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول^(٤) ﷺ، وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقية والمصانعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً﴾ أى: لا يقدر أحد أن يرد ما أَرَادَهُ فيكم تعالى وتقدس، وهو العليم بسرائركم وضمائركم، وإن صانعتُمونا وتابعتُمونا^(٥)؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾.

ثم قال: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أى: لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص، بل تخلف نفاق، ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أى: اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شأفتهم، وتستباد خضراؤهم، ولا يرجع منهم مخبر، ﴿وظننتم ظنَّ السَّوءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أى: هلكى. قاله ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد. وقال قتادة: فاسدين. وقيل: هى بلغة عمان.

ثم قال: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أى: من لم يخلص العمل فى الظاهر والباطن لله، فإن الله تعالى سيعذبه فى السعير، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه فى نفس الأمر.

ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف فى أهل السموات والأرض: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أى: لمن تاب إليه وأتاب، وخضع لديه.

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً (١٥)﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الأعراب الذين تخلفوا عن النبي ﷺ فى غزوة^(٦) الحديبية، إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه إلى خيبر يفتتحونها: أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم، فأمر الله رسوله ﷺ ألا يأذن لهم فى ذلك، معاقبة لهم من جنس ذنبهم. فإن الله تعالى وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم لا يشركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، فلا^(٧) يقع غير ذلك شرعاً وقدرًا؛ ولهذا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ . قال مجاهد، وقتادة، وجوير: وهو الوعد الذى وعد به أهل الحديبية. واختاره ابن جرير^(٨).

(٣) فى ت، أ: «والشغل بهم».

(٢) فى ت: «ﷺ».

(١) فى ت، م: «لرسوله».

(٦) فى ت، م، أ: «عمرة».

(٥) فى ت: «أو نافقتُمونا».

(٤) فى م: «رسول الله».

(٧) فى ت: «ولا».

(٨) تفسير الطبرى (٢٦ / ٥٠).

وقال ابن زيد: هو قوله: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣].

وهذا الذى قاله ابن زيد فيه نظر؛ لأن هذه الآية التى فى «براءة» نزلت فى غزوة تبوك، وهى متأخرة عن غزوة^(١) الحديبية.

وقال ابن جريج: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ يعنى: بتشبيطهم المسلمين عن الجهاد. ﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أى: وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم^(٢) الخروج معهم، ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أى: أن نشركم فى المغنم، ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى: ليس الأمر كما زعموا، ولكن لا فهم لهم^(٣).

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلَمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا اللَّهَ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٦) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٧).

اختلف المفسرون فى هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم، الذين هم أولو بأس شديد، على أقوال: أحدها: أنهم هوازن. رواه شعبة عن أبى بشر، عن سعيد بن جبير - أو عكرمة^(٤)، أو جميعا - ورواه هشيم عن أبى بشر، عنهما. وبه يقول قتادة فى رواية عنه.

الثانى: ثقف، قاله الضحاك.

الثالث: بنو حنيفة، قاله جوير. ورواه محمد بن إسحاق، عن الزهري. وروى مثله عن سعيد وعكرمة.

الرابع: هم أهل فارس. رواه على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، وبه يقول عطاء، ومجاهد، وعكرمة - فى إحدى الروايات عنه.

وقال كعب الأحبار: هم الروم. وعن ابن أبى ليلى، وعطاء، والحسن، وقاتادة: هم فارس والروم. وعن مجاهد: هم أهل الأوثان. وعنه أيضا: هم رجال أولو بأس شديد، ولم يعين فرقة. وبه يقول ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الأشج، حدثنا عبد الرحمن بن الحسن القواريرى، عن معمر^(٥)، عن

(٣) فى ت، أ: «لأنهم عدو لهم».

(٢) فى ت، م: «قبل أن يسألوكم».

(١) فى ت، م، أ: «عمرة».

(٥) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».

(٤) فى ت: «هوازن قاله عكرمة».

الزهرى، فى قوله: ﴿سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال: لم يأت أولئك بعد.

وحدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان، عن ابن أبى خالد، عن أبيه، عن أبى هريرة فى قوله: ﴿سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال: هم البارزون.

قال: وحدثنا سفيان، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما صغار الأعين، ذلف الأنف، كأن وجوههم المجان المطرقة». قال سفيان: هم الترك^(١).

قال ابن أبى عمر: وجدت فى مكان^(٢) آخر: ابن أبى خالد عن أبيه قال: نزل علينا أبو هريرة ففسر قول رسول الله ﷺ: «تقاتلون قوماً نعالهم الشعر»، قال: هم البارزون، يعنى الأكراد^(٣).

وقوله: ﴿تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ يعنى: يشرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمرا عليهم، ولكم النصرة عليهم، أو يسلمون فيدخلون فى دينكم بلا قتال بل باختيار.

ثم قال: ﴿فَإِنْ تَطِيعُوا﴾ أى: تستجيبوا وتنفروا فى الجهاد وتؤدوا الذى عليكم فيه، ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ يعنى: زمن الحديبية، حيث دعيتم^(٤) فتخلفتم، ﴿يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

ثم ذكر الأعدار فى ترك الجهاد، فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذى يطرا أياما ثم يزول، فهو فى حال مرضه ملحق بذوى الأعدار اللازمة حتى يبرأ.

ثم قال تعالى مرغبا فى الجهاد وطاعة الله ورسوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أى: ينكل عن الجهاد، ويقبل على المعاش ﴿يُعَذِّبُهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فى الدنيا بالمذلة، وفى الآخرة بالنار.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩)﴾.

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وقد تقدم ذكر عدتهم، وأنهم كانوا ألفا وأربعمائة، وأن الشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية.

(١) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف برقم (١٩١٩٩) والبخارى فى صحيحه برقم (٢٩٢٩) من طريق سفيان عن الزهرى بإسناده: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما كان وجوههم المجان المطرقة» ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٩٢٨) من طريق صالح، عن الأعرج عن أبى هريرة بنحوه.

(٢) فى ت: «وقال ابن أبى عمرو وحديث فى موضع».

(٣) وقد ذكر بعض المؤرخين أن أصحاب بابك المخرمى كانوا ينتعلون الشعر، فهم المقصودون بهذا الحديث.

(٤) فى ت: «ذهبتهم».

قال البخارى: حدثنا محمود، حدثنا عبيد الله، عن إسرائيل، عن طارق بن عبد الرحمن قال: انطلقت حاجاً فمررت بقوم يصلون، فقلت^(١): ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة، حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان. فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته، فقال سعيد: حدثني أبى أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم، فأنتم أعلم^(٢).

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أى: من الصدق والوفاء، والسمع والطاعة، ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾: وهى الطمأنينة، ﴿عَلَيْهِمْ وَأَنْابَهُمْ فَتَحَا قَرْيَةً﴾: وهو ما أجرى الله على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة فى الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾^(٣) وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا.

قال^(٤) ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا موسى - يعنى ابن عبيدة - حدثنى إياس^(٥) بن سلمة، عن أبيه، قال: بينما نحن قائلون. إذا نادى منادى رسول الله ﷺ: أيها الناس، البيعة البيعة، نزل روح القدس. قال: ففُتْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه، فذلك قول الله تعالى^(٦): ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [قال]^(٧): فبايع لعثمان بإحدى يديه على الأخرى، فقال الناس: هنيئاً لابنِ عفان، طوف بالبيت ونحن^(٨) هاهنا. فقال رسول الله ﷺ: «لو مكث كذا كذا سنة ما طاف حتى أطوف»^(٩).

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (٢٠) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سَنَةِ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤).

(١) فى م: «وقلت».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤١٦٣).

(٣) فى ت: «تأخذونها».

(٤) فى ت: «عن أبان».

(٥) زيادة من ت، م.

(٦) فى ت: «وروى».

(٧) فى ت، م: «فذلك قوله تعالى».

(٨) فى ت، م: «وذكر».

(٩) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٩٠ / ١) من طريق عبيد الله بن موسى به، قال الهيثمى فى المجمع (٨٤ / ٩): «فيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف».

قال مجاهد فى قوله: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾: هى جميع المغانم إلى اليوم، ﴿فَعَجَلْ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعنى: فتح خبير.

وروى العوفى عن ابن عباس: ﴿فَعَجَلْ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعنى: صلح الحديبية.

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ أى: لم ينلکم سوء مما كان أعداؤکم أضمره لکم من المحاربة والقتال. وكذلك كف أیدی الناس [عنکم]^(١) الذين خلفتموهم وراء أظهرکم عن عیالکم وحريمکم، ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: يعتبرون بذلك، فإن الله حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء، مع قلة عددهم، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العليم بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه فى الظاهر، كما قال: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

﴿وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أى: بسبب انقيادکم لأمره واتباعکم طاعته، وموافقتم رسولہ^(٢).

وقوله: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أى: وغنيمة أخرى وفتحا آخر معينا لم تكونوا تقدرّون عليها، قد يسرها الله عليكم، وأحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون.

وقد اختلف المفسرون فى هذه الغنيمة، ما المراد بها؟ فقال العوفى عن ابن عباس: هى خبير. وهذا على قوله فى قوله تعالى: ﴿فَعَجَلْ لَكُمْ هَذِهِ﴾: إنها صلح الحديبية. وقاله الضحاك، وابن إسحاق، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال قتادة: هى مكة. واختاره ابن جرير.

وقال ابن أبى ليلى، والحسن البصرى: هى فارس والروم.

وقال مجاهد: هى كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة.

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا شعبة، عن سَمَک الحنفى، عن ابن عباس: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ قال: هذه الفتوح التى تفتح إلى اليوم^(٣).

وقوله: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ يقول تعالى مبشرا لعباده المؤمنين: بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسولہ وعباده المؤمنين عليهم، ولانهزم جيش الكفار^(٤) فارا مدبرا لا يجدون وليا ولا نصيرا؛ لأنهم محاربون لله ولرسولہ ولحزبه^(٥) المؤمنين.

ثم قال: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أى: هذه سنة الله وعادته فى خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان فى موطن فيصل إلى نصر الله الإيمان على الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائه من المشركين، مع قلة عدد المسلمين وعددهم، وكثرة المشركين وعددهم^(٦).

(٣) فى ت: «إلى يوم القيامة».

(٦) فى ت، م: «ومددهم».

(٢) فى ت، م: «الرسول».

(٥) فى ت، أ: «ولعباده».

(١) زيادة من ت.

(٤) فى م: «الكفر».

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾: هذا امتنان من الله على عباده المؤمنين حين كف أيدي المشركين عنهم، فلم يصل^(١) إليهم منهم سوء، وكف أيدي المؤمنين من المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلا من الفريقين، وأوجد بينهم صلحا فيه خيرة للمؤمنين، وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة. وقد تقدم في حديث سلمة بن الأكوع حين جاؤوا بأولئك السبعين الأسارى فأوثقوهم بين يدي رسول الله ﷺ فنظر إليهم وقال: «أرسلوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه». قال: وفي ذلك أنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾ الآية.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة في السلاح، من قبل جبل التنعيم، يريدن غرة رسول الله ﷺ، فدعا عليهم فأخذوا - قال عفان: فعفا عنهم - ونزلت هذه الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

ورواه مسلم وأبو داود في سننه، والترمذي والنسائي في التفسير من سننهما، من طرق، عن حماد بن سلمة، به^(٢).

وقال أحمد - أيضا - : حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا الحسين بن واقد، حدثنا ثابت البناني، عن^(٣) عبد الله بن مغفل المزني قال: كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ، وعلى بن أبي طالب. وسهيل بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعلی: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فأخذ سهيل بيده وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم. اكتب في قضيتنا ما نعرف. قال: «اكتب بسمك اللهم»، وكتب: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة». فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله، اكتب في قضيتنا ما نعرف. فقال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله». فبينما نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح، فثاروا في^(٤) وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله بأسماعهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحد؟ أو هل^(٥) جعل لكم أحد أمانا؟». فقالوا: لا. فخلى سبيلهم، فأنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾. رواه النسائي من حديث حسين بن واقد، به^(٦).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب القمي، حدثنا جعفر، عن ابن أبيزى قال: لما

(١) في ت: «تصل».

(٢) المسند (١٢٢/٣) وصحيح مسلم برقم (١٨٠٨) وسنن أبي داود برقم (٢٦٨٨) وسنن الترمذي برقم (٣٢٦٤) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٥١٠).

(٥) في ت: «وهل».

(٤) في ت، م: «إلى».

(٣) في ت: «بن».

(٦) المسند (٨٦/٤) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٥١١).

خرج النبي ﷺ بالهدى وانتهى إلى ذى الحليفة، قال له عمر: يا نبي الله، تدخل على قوم لك حرب بغير سلاح ولا كُرَاع؟ قال: فبعث إلى المدينة، فلم يدع فيها كُرَاعاً ولا سلاحاً إلا حملة، فلما دنا من مكة منعه أن يدخل، فسار حتى أتى منى، فنزل بمنى، فاتاه عينه أن عكرمة بن أبي جهل قد خرج عليك في خمسمائة، فقال لخالد بن الوليد: «يا خالد، هذا ابن عمك أذاك في الخيل^(١)»، فقال خالد: أنا سيف الله، وسيف رسوله - فيومئذ سمي سيف الله - يا رسول الله، ارم بي أين شئت. فبعثه على خيل، فلقي عكرمة في الشعب فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد في الثانية فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد في الثالثة فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، فأنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ [مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ]﴾^(٢) إلى: ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾. قال: فكف الله النبي عنهم من بعد أن أظفروهم^(٣) عليهم لبقايا من المسلمين كانوا بقوا فيها كراهية أن تطأهم الخيل^(٤).

ورواه ابن أبي حاتم عن ابن أبيزى بنحوه. وهذا السياق فيه نظر؛ فإنه لا يجوز أن يكون عام الحديبية؛ لأن خالدا لم يكن أسلم، بل قد كان طليعة المشركين^(٥) يومئذ، كما ثبت في الصحيح. ولا يجوز أن يكون في عمرة القضاء، لأنهم قاضوه على أن يأتي من العام المقبل^(٦) فيعتمر ويقيم بمكة ثلاثة أيام، فلما قدم لم يمانعوه ولا حاربوه ولا قاتلوه. فإن قيل: فيكون يوم الفتح؟ فالجواب: ولا يجوز أن يكون يوم الفتح؛ لأنه لم يسق عام الفتح هدياً، وإنما جاء محارباً مقاتلاً في جيش عرمرم، فهذا السياق فيه خلل، قد وقع فيه شيء فليتأمل، والله أعلم.

وقال ابن إسحاق: حدثني من لا أتهم، عن عكرمة مولى ابن عباس: أن قريشاً بعثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا من أصحابه أحداً، فأخذوا أحداً، فأتى بهم رسول الله ﷺ، فعفا عنهم وخلي سبيلهم، وقد كانوا رموا إلى^(٧) عسكر رسول الله ﷺ^(٨) بالحجارة والنبل. قال ابن إسحاق: وفي ذلك أنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾ الآية^(٩).

وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً يقال له: «ابن زُئيم» اطلع على الثنية من الحديبية، فرماه المشركون بسهم فقتلوه، فبعث رسول الله ﷺ خيلاً، فأتوه باثني عشر فارساً من الكفار، فقال لهم: «هل لكم على عهد؟ هل لكم على ذمة؟». قالوا: لا. فأرسلهم، وأنزل الله في ذلك: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾ الآية.

(٢) زيادة من ت.

(١) في أ: «الجليل».

(٣) في أ: «أظفركم».

(٤) تفسير الطبري (٥٩/٢٦).

(٥) في أ: «للمشركين».

(٦) في ت: «قابل».

(٧) في أ: «في».

(٨) في ت، م: «عسكر المسلمين».

(٩) رواه الطبري في تفسيره (٥٩/٢٦).

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيكُم مِّنْهُمْ مَّعْرَةٌ بَغِيرِ عِلْمٍ لِّدُخْلِ اللَّهِ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦)﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الكفار من مشركى العرب من قريش ومن مالاهم^(١) على نصرتهم على رسول الله ﷺ: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: هم الكفار دون غيرهم، ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أى: وأنتم أحق به، وأنتم أهله فى نفس الأمر، ﴿وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ﴾ أى: وصدوا الهدى أن يصل^(٢) إلى محله، وهذا من بغيهم وعنادهم، وكان الهدى سبعين بدنة، كما سيأتى بيانه.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾ أى: بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم، لكننا سلطناكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خضراءهم، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة^(٣) القتل؛ ولهذا قل: ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيكُم مِّنْهُمْ مَّعْرَةٌ﴾ أى: إثم وغرامة ﴿بَغِيرِ عِلْمٍ لِّدُخْلِ اللَّهِ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أى: يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام.

ثم قال: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أى: لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أى: لسلطناكم عليهم فلقتلتموهم قتلا ذريعا.

قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أبو الزُّبَّاع - روح بن الفرّج - حدثنا عبد الرحمن بن أبى عباد المكي، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله^(٤) أبو سعيد - مولى بنى هاشم - حدثنا حُجْر بن خلف: سمعت عبد الله بن عوف^(٥) يقول^(٦): سمعت^(٧) جنيد بن سبع يقول^(٨): قاتلت رسول الله ﷺ أول النهار كافرا، وقاتلت معه آخر النهار مسلما، وفيما نزلت: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾. قال: كنا تسعة نفر: سبعة رجال وامرأتين^(٩).

ثم رواه من طريق أخرى عن محمد بن عباد المكي به، وقال فيه: عن أبى جمعة جنيد بن سبع، فذكره^(١٠) والصواب أبو جعفر: حبيب بن سباع. ورواه ابن أبى حاتم من حديث حجر بن خلف^(١١).

(١) فى ت: «ولا هم» .
(٢) فى ت: «يبلغ» .
(٣) فى أ: «حال» .
(٤) فى م، أ: «عبيد الله» .
(٥) فى أ: «عمرو» .
(٦) فى ت: «عن» .
(٧) فى ت: «قال» .
(٨) فى ت: «عن» .
(٩) المعجم الكبير (٢/ ٢٩٠) .
(١٠) المعجم الكبير (٤/ ٢٤) .
(١١) فى أ: «حنيف» .

به. وقال: كنا ثلاثة^(١) رجال وتسع نسوة، وفيما نزلت: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا عبد الله ابن عثمان بن جبلة، عن أبي حمزة^(٢)، عن عطاء، عن سعيد بن جبير^(٣)، عن ابن عباس: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يقول: لو تزيل الكفار من المؤمنين، لعذبهم الله عذابا أليما بقتلهم إياهم.

وقوله: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ﴾، وذلك حين أبوا أن يكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم»، وأبوا أن يكتبوا: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾، وهى قول: «لا إله إلا الله»، كما قال ابن جرير، وعبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن قزعة أبو على البصرى، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا شعبة، عن ثوير^(٤)، عن أبيه، عن الطفيل - يعنى: ابن أبي بن كعب^(٥) [رضى الله عنه]^(٦) - عن أبيه، [أنه]^(٧) سمع رسول الله ﷺ يقول: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾، قال: «لا إله إلا الله».

وكذا رواه الترمذى عن الحسن بن قزعة، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديثه، وسألت أبا زرعة عنه فلم يعرفه إلا من هذا الوجه^(٨).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادى، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنى الليث، حدثنى عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب^(٩)، عن سعيد بن المسيب، أن أبا هريرة أخبره، أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله»، وأنزل الله فى كتابه، وذكر قوما فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصفات: ٣٥]، وقال الله جل ثناؤه: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ وهى: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، فاستكبروا عنها واستكبر عنها المشركون^(١٠) يوم الحديبية، وكاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة.

وكذا رواه بهذه الزيادات ابن جرير من حديث الزهرى^(١١)، والظاهر أنها مدرجة من كلام الزهرى، والله أعلم.

وقال مجاهد: ﴿كَلِمَةُ التَّقْوَى﴾: الإخلاص. وقال عطاء بن أبى رباح: هى لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير.

(١) فى م: ثلاث.

(٢) فى أ: «عن أبى هريرة».

(٣) فى ت: «روى ابن أبى حاتم بسنده».

(٤) فى أ: «ثور».

(٥) فى ت: «كما روى ابن جرير بسنده عن أبى بن كعب».

(٦) زيادة من ت.

(٧) زيادة من ت، م.

(٨) تفسير الطبرى (٦٦/٢٦) وزوائد عبد الله على المسند (١٣٨/٥) وسنن الترمذى برقم (٣٢٦٥).

(٩) فى ت: «وروى بن أبى حاتم بسنده».

(١٠) فى أ: «قريش».

(١١) تفسير الطبرى (٦٦/٢٦).

وقال يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، عن الزهري، عن عروة، عن المسور: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له.

وقال الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن عباية بن ربيع، عن علي: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: لا إله إلا الله، والله أكبر. وكذا قال ابن عمر، رضى الله عنهما.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: يقول: شهادة أن لا إله إلا الله، وهى رأس كل تقوى.

وقال سعيد بن جبير: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: لا إله إلا الله، والجهاد فى سبيله.

وقال عطاء الخراسانى: هى: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

وقال عبد الله بن المبارك، عن معمر، عن الزهري: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: بسم الله الرحمن الرحيم.

وقال قتادة: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: لا إله إلا الله.

﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾: كان المسلمون أحق بها، وكانوا أهلها.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أى: هو عليم بمن يستحق الخير من يستحق الشر.

وقد قال النسائي: حدثنا إبراهيم بن سعيد، حدثنا شباية بن سوار، عن أبي رزين، عن عبد الله ابن العلاء بن زبر، عن بسر بن عبيد الله، عن أبي إدريس، عن أبي بن كعب أنه كان يقرأ: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ﴾ [الفتح: ٢٦]، ولو حميتهم كما حموا لفسد المسجد الحرام. فبلغ ذلك عمر فأغلظ له، فقال: إنك لتعلم أنى كنت أدخل على رسول الله ﷺ فيعلمنى مما علمه الله. فقال عمر: بل أنت رجل عندك علم وقرآن، فاقراً وعلم مما علمك الله ورسوله^(١).

وهذا ذكر الأحاديث الواردة فى قصة الحديبية وقضية الصلح:

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا محمد بن إسحاق بن يسار، عن الزهري، عن عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالوا: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد قتالا، وساق معه الهدى سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل، فكانت كل بدنة عن عشرة، وخرج رسول الله ﷺ حتى إذ كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي^(٢)، فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجت معها العوذ المطافيل، قد لبست جلود النمر، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموه إلى كراع الغميم، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش! قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر

(١) النسائي فى السنن الكبرى برقم (١١٥٠٥).

(٢) فى ت: «بشر بن كعب الكلبى».

الناس؟ فإن أصابوني كان الذى أرادوا، وإن أظهرنى الله [عليهم]^(١) دخلوا فى الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهدكم على الذى بعثنى الله به حتى يظهرنى الله أو تنفرد هذه السالفة». ثم أمر الناس فسلخوا ذات اليمين بين ظهري الحمض على طريق تخرجه^(٢) على ثنية المزار والحديبية من أسفل مكة. قال: فسلك بالجيش تلك الطريق، فلما رأت خيل قريش فترة الجيش قد خالفوا عن طريقهم، ركضوا راجعين إلى قريش، فخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا سلك ثنية المزار، بركت ناقته، فقال الناس: خلأت. فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت، وما ذلك»^(٣) لها بخلقى، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، والله لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم، إلا أعطيتهم إياها». [ثم]^(٤) قال للناس: «انزلوا». قالوا: يا رسول الله، ما بالوادي من ماء ينزل عليه الناس. فأخرج رسول الله ﷺ سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل فى قلب من تلك القلب، فغرز فيه فجاش بالماء حتى ضرب الناس عنه بعطن. فلما اطمأن رسول الله ﷺ، إذا بُدِّل بن ورقاء فى رجال من خزاعة، فقال لهم كقوله لبشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، وإن محمداً لم يأت لقتال، إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحقه، فاتهموهم.

قال محمد بن إسحاق: قال الزهري: [و]^(٥) كانت خزاعة فى عيَّة رسول الله ﷺ مشركها ومسلمها، لا يخفون على رسول الله ﷺ شيئاً كان بمكة، فقالوا: وإن كان إنما جاء لذلك فوالله لا يدخلها أبداً علينا عَنوة، ولا يتحدث بذلك العرب. ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص، أحد بنى عامر بن لؤى، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا رجل غادر». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه رسول الله ﷺ بنحو ما كلم به أصحابه، ثم رجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ^(٦)؛ فبعثوا إليه الحليس بن علقمة الكنانى، وهو يومئذ سيد الأحابيش، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا من قوم يتألهون، فابعثوا الهدى» فى وجهه، فبعثوا الهدى، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عُرْض الوادى فى قلائده قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله، رجع ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى^(٧)، فقال: يا معشر قريش، قد رأيت ما لا يحل صدّه، الهدى فى قلائده قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله. قالوا: اجلس، إنما أنت أعرابى لا علم لك. فبعثوا إليه عروة بن مسعود الثقفى، فقال: يا معشر قريش، إن قد رأيت ما يلقي منكم من تبعثون إلى محمد إذا جاءكم، من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والد وأنى ولد، وقد سمعت بالذى نابكم، فجمعت من أطاعنى من قومى، ثم جئت حتى آسيتكم بنفسى. قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم. فخرج^(٨) حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه، فقال: يا محمد، جمعت أوباش الناس، ثم جئت بهم لبيضتك لتفضها، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمر، يعاهدون الله

(١) فى ت: «وما ذاك».

(٢) زيادة من ت، م.

(٣) فى أ: «بحرصه».

(٤) زيادة من ت، م.

(٥) فى أ: «ثم خرج».

(٦) زيادة من أ.

(٧) زيادة من ت، م، أ.

(٨) فى ت: «فلما رجع إلى أصحابه».

ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وإيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً. قال: وأبو بكر قاعد خلف رسول الله ﷺ، فقال: امصص بظر اللات! أنحن نكشف عنه؟! قال: من هذا يا محمد؟ قال: «هذا ابن أبى قحافة». قال: أما والله لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بها، ولكن هذه بها. ثم تناول لحية رسول الله ﷺ، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ فى الحديد^(١)، قال: ففرع يده. ثم قال: أمسك يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل - والله - لا تصل إليك. قال: ويحك! ما أظطعك وأغلظك! فتبسم رسول الله ﷺ. قال: من هذا يا محمد؟ قال ﷺ: «هذا ابن أخيك المغيرة ابن شعبة». قال: أغدر، وهل غسلت سوائك إلا بالأمس؟! قال فكلمه رسول الله ﷺ بمثل ما كلم به أصحابه، وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً. قال: فقام من عند رسول الله ﷺ^(٢) وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ وضوءاً إلا ابتدروه، ولا ييصق بصاقاً إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه. فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش، إني جئت كسرى فى ملكه، وجئت قيصراً والنجاشى فى ملكهما، والله ما رأيت ملكاً قط مثل محمد فى أصحابه، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبداً، فروا رأيكم. قال: وقد كان رسول الله ﷺ قبل ذلك قد بعث خراش بن أمية الخزاعى إلى مكة، وحمله على جمل له يقال له: «الثعلب»، فلما دخل مكة عقرت^(٣) به قرش، وأرادوا قتل خراش، فمنعتهم الأحابيش، حتى أتى رسول الله ﷺ، فدعا عمر ليعثه إلى مكة، فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسى، وليس بها من بنى عدى أحد يمنعنى، وقد عرفت قرش عداوتى إياها وغلظتى عليها، ولكن أدلك على رجل هو أعز منى: عثمان بن عفان. قال: فدعاه رسول الله ﷺ، فبعثه إلى قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب أحد، وإنما جاء زائراً لهذا البيت، معظماً لحرمة. فخرج عثمان حتى أتى مكة، فلقى أبان بن سعيد بن العاص، فنزل عن دابته وحمله بين يديه وردف خلفه، وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ^(٤) قال: واحتبسته قريش عندها، قال: وبلغ رسول الله أن عثمان قد قتل.

قال محمد: فحدثنى الزهرى: أن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو، وقالوا: ائت محمداً فصالحه ولا يكون فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً. فاتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ تكلموا وأطالا الكلام، وتراجعا حتى جرى بينهما الصلح، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، أو ليس برسول الله؟ أو لسنا بالمسلمين؟ أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطى الذلة فى ديننا؟ فقال أبو بكر: يا عمر،

(٢) زيادة من ت، أ.

(٤) زيادة من ت، أ.

(١) فى ت: «بالحد».

(٣) فى ت: «عثرت».

الزم غرضه حيث كان، فأني أشهد أنه رسول الله. [ثم] ^(١) قال عمر: وأنا أشهد. ثم أتى رسول الله فقال: يا رسول الله، أو لسننا بالمسلمين أو ليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى». قال: فعلام نعطي الذلة في ديننا؟ فقال: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيعني». ثم قال عمر: مازلت أصوم وأصلي وأتصدق وأعتق من ^(٢) الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيرا. قال: ثم دعا رسول الله ﷺ على بن أبي طالب [رضى الله عنه] ^(٣) فقال: اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل بن عمرو: ولا أعرف هذا، ولكن اكتب: «باسمك اللهم»، فقال رسول الله: «اكتب باسمك اللهم». هذا ما صلح ^(٤) عليه محمد رسول الله، سهل بن عمرو، فقال سهيل بن عمرو: ولو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب هذا ما اصطلاح عليه محمد بن عبد الله، وسهيل ابن عمرو، على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، وكيف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى رسول الله ^(٥) من أصحابه بغير إذن وليه، رده عليهم، ومن أتى قريشا ممن مع رسول الله ﷺ ^(٦) لم يردوه عليه وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا أسلال ولا أغلال، وكان في شرطهم حين كتبوا الكتاب: أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده، دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد رسول الله وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم، وأنك ترجع عنا عامنا هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فتدخلها بأصحابك، وأقمتم بها ثلاثاً معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيوف في القرب، فبينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب، إذا جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو في الحديد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ ^(٧) قال: وقد كان أصحاب رسول الله يخرجوا وهم لا يشكون في الفتح، لرؤيا رآها رسول الله ﷺ فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل رسول الله ﷺ ^(٨) على نفسه، دخل الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا أن يهلكوا. فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وقال: يا محمد، قد لجأت ^(٩) القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: «صدقت». فقام إليه فأخذ بتلابيبه. قال: وصرخ أبو جندل بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أتردونني إلى أهل الشرك فيفتنونني في ديني؟ قال: فزاد الناس شرا إلى ما بهم، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً فأعطيناهم على ذلك وأعطينا عليه عهداً ^(١٠)، وإنا لن نغدر بهم». قال: فوثب إليه عمر بن الخطاب فجعل يمشى مع [أبي] ^(١١) جندل إلى جنبه وهو يقول: اصبر أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، قال: ويدني قائم السيف منه، قال: يقول: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه قال: فضن الرجل بأبيه. قال: ونفذت القضية، فلما فرغا من الكتاب،

(٣) زيادة من ت.

(٦) زيادة من ت.

(٩) في ت، أ: «قمت».

(٢) في ت: «عن».

(٥) في أ: «محمد».

(٨) زيادة من ت، أ.

(١١) زيارة من ت، م، أ.

(١) زيادة من م، أ.

(٤) في أ: «ما صالح».

(٧) زيادة من ت.

(١٠) في ت، م، أ: «عهدنا».

وكان رسول الله ﷺ يصلى فى الحرم، وهو مضطرب فى الحل، قال: فقام رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس، انحروا^(١) واحلقوا». قال: فما قام أحد. قال: ثم عاد بمثلها، فما قام رجل حتى عاد ﷺ بمثلها، فما قام رجل.

فرجع رسول الله ﷺ فدخل على أم سلمة فقال: «يا أم سلمة، ما شأن الناس؟». قالت: يا رسول الله، قد دخلهم ما رأيت، فلا تُكَلِّمهن^(٢) منهم إنساناً، واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك. فخرج رسول الله ﷺ لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره، ثم جلس فحلق، قال: فقام الناس ينحرون ويحلقون. قال: حتى إذا كان بين مكة والمدينة فى وسط الطريق نزلت سورة الفتح.

هكذا ساقه أحمد من هذا الوجه، وهكذا رواه يونس بن بكير وزياد البكائي، عن ابن إسحاق، بنحوه^(٣)، وفيه إغراب، وقد رواه أيضاً عن عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهرى، به نحوه^(٤) وخالفه فى أشياء وقد رواه البخارى، رحمه الله، فى صحيحه، فساقه سياقه^(٥) حسنة مطولة بزيادات جيدة، فقال فى كتاب الشروط^(٦) من صحيحه:

حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر: أخبرنى الزهرى: أخبرنى عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه، قالوا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية فى بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدى وأشعره، وأحرم منها بعمره وبعث عيناً له من خزاعة، وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه، فقال: إن قريشاً قد جمعوا لك جمعوا، وقد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلون وصادوك ومانعوك. فقال: «أشيروا أيها الناس علىّ، أترون أن نميل على عيالهم، وذراى هؤلاء الذين يريدون أن صدونا عن البيت؟»، وفى لفظ: «أترون أن نميل على ذراى هؤلاء الذين أعانواهم. فإن يأتونا كان الله قد قطع عُنُقاً من المشركين وإلا تركناهم محزونين»، وفى لفظ: «فإن قعدوا قعدوا موتورين مجهودين محروبين وإن نجوا يكن عُنُقاً قطعها الله، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟». فقال أبو بكر [رضى الله عنه]^(٧): يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت، لا نريد قتل أحد ولا حرباً، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه. وفى لفظ: فقال أبو بكر، رضى الله عنه: الله ورسوله علم إنما جئنا معتمرين، ولم نجئ لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه. فقال النبى ﷺ: «فروحوا إذن»، وفى لفظ: «فامضوا على اسم الله».

حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبى ﷺ: «إن خالد بن الوليد فى خيل لقريش طليعة،

(١) فى ت، أ: «انحروا فى الحرم».

(٢) فى ت، أ: «فلا تكلمن».

(٣) المسند (٣٢٣/٤) والسيرة النبوية لابن هشام (٣١٦/٢).

(٤) رواه أحمد فى مسنده (٣٢٨/٤) من طريق عبد الرزاق به.

(٥) فى م: «بسياقات».

(٦) فى ت، م: «الشروط».

(٧) زيادة من أ.

فخذوا ذات اليمين». فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها، بركت به راحلته. فقال الناس: حل حل فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل». ثم قال: «والذى نفسى بيده، لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمان الله، إلا أعطيتهم إياها». ثم زجرها فوثبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء، يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبث^(١) الناس حتى نزحوه، وشكى^(٢) إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع من كنانته سهماً ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بدیل بن ورقاء الخزاعي فى نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصيح رسول الله ﷺ^(٣) من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى، نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلون وصادوك عن البيت. فقال النبي ﷺ: «إنا لم نحى لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب فأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددناهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى، ولينفذ^(٤) الله أمره». قال بدیل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشا فقال: إنا قد جئنا من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن نخبرنا عنه بشيء. وقال: ذوو الرأى منهم: هات ما سمعته يقول. قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ، فقام عروة بن مسعود فقال: أى قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى. قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهمونى؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أنى استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا على جئتكم بأهلى وولدى ومن أطاعنى؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعونى آتة. قالوا: آتة. فأتاه فجعل يكلم رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ له نحوا من قوله لبديل بن ورقاء. فقال عروة عند ذلك: أى محمد، أرايت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟ وإن تك الأخرى فإنى والله لأرى وجوها، وإنى لأرى أشواباً^(٥) من الناس خليقا أن يفروا ويدعوك، فقال أبو بكر، رضى الله عنه: امصص بظُر اللات! أنحن نفر وندعه؟! قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذى نفسى بيده لو لا يد كانت لك عندى لم أجرك بها، لأجبتك. قال: وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة، رضى الله عنه قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال له: آخر يدك من لحية النبي ﷺ. فرفع عروة رأسه وقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة. فقال: أى غدر، ألسنت أسعى فى غدرتك؟! وكان المغيرة بن شعبة صحب قوما فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه فى شيء».

(٣) زيادة من م.

(٢) فى أ: «شكوا».

(٥) فى أ: «أوباشاً».

(١) فى ت، م: «يلبث».

(٤) فى ت، م: «أر لينفذ».

ثم إن عروة جعل يرمى أصحاب النبي ﷺ بعينه^(١)، قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ^(٢) نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه، تعظيماً له ﷺ، فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها. فقال رجل منهم من بنى كنانة: دعوني آته. فقالوا: آتته، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه، قال النبي ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها له» فبعثت له، واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت. فقال^(٣) رجل منهم يقال له: «مكرز بن حفص»، فقال: دعوني آته. فقالوا: آتته. فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: «هذا مكرز [بن حفص]^(٤) وهو رجل فاجر»، فجعل يكلم النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو.

وقال معمر: أخبرني أيوب، عن عكرمة أنه قال: لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ: «قد سهل لكم من أمركم».

قال معمر: قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينك^(٥) كتاباً فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ: «[اكتب]^(٦): بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل [بن عمرو]^(٧): أما «الرحمن» فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: «باسمك اللهم»، كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال النبي ﷺ: «اكتب: باسمك اللهم». ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله». فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: «محمد بن عبد الله»، فقال النبي ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذبتُموني. اكتب محمد بن عبد الله» قال الزهري: وذلك لقوله: «والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمة الله إلا أعطيتهم إياها». فقال له النبي ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به». فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضُعْطَةً، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: «وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا». فقال المسلمون: سبحان الله! كيف يُردُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟! فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل

(٣) في أ: «فقام».

(٢) زيادة من ت.

(١) في ت: «بعينه».

(٥) في ت: «بينكم».

(٤) زيادة من أ.

(٧) زيادة من ت، م.

(٦) زيادة من أ.

ابن عمرو يرسفُ في قيوده، قد^(١) خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن تردّه إلى، فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد». قال: فوالله إذا لا أصالحك على شيء أبدا. فقال النبي ﷺ: «فأجزه لى» فقال: ما أنا بمجيز ذلك لك، قال: «بلى فافعل». قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بلى قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أى معشر المسلمين، أردّ إلى المشركين وقد جئت مسلما؟ ألا ترون ما قد لقيت؟! وكان قد عذّب عذابا شديدا فى الله عز وجل. قال عمر [بن الخطاب]^(٢) رضى الله عنه: فأتيت نبي الله ﷺ، فقلت: ألسنت نبي الله حقا؟ قال ﷺ: «بلى». قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى». قلت: فلم نعطي الدنية فى ديننا إذا؟ قال: «إنى رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصرى»، قلت: أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرتك أنا نأتيه^(٣) العام؟». قلت: لا، قال: «فإنك آتية ومطوّف به». قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنية فى ديننا إذا؟ قال: أيها الرجل، إنه رسول الله، وليس يعصى ربه، وهو ناصره، فاستمسك بعُرْزِه، فوالله إنه على الحق. قلت: أو ليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال: بلى، قال: فأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك تأتيه وتطوف به.

قال الزهرى: قال عمر: فعملت لذلك أعمالا. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول^(٤) الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا». قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات!! فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، قالت له أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رآوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما، ثم جاءه نسوة مؤمنات، فأنزل الله، عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ حتى بلغ: ﴿بَعْضُ الْكُوفَرِ﴾ [المتحنة: ١٠]. فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبى سفيان، والأخرى صفوان بن أمية. ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير - رجل من قريش - وهو مسلم، فأرسلوا فى طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذى جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إنى لأرى سيفك هذا يا فلان جيدا، فاستله الآخر، فقال: أجل! والله إنه لجيد، لقد جربت منه ثم جربت، فقال أبو بصير: أرنى أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتى برّد، وفرّ الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ^(٥) حين رآه: «لقد رأى هذا دُعْرًا»، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال:

(٣) فى ت: «أنك تأتيه».

(٢) زيادة من ت.

(١) فى ت: «حتى».

(٥) فى م: «النبي».

(٤) فى ت: «النبي».

قتل والله صاحبي، وإنى لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يا رسول الله، قد - والله - أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم نجاني الله منهم، فقال النبي ﷺ: «ويل أمه مسعرُ حرب! لو كان له أحد». فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم، وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ، تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم: «فمن أتاه منهم فهو آمن». فأرسل النبي ﷺ إليهم، وأنزل الله عز جل: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ حتى بلغ: ﴿حِمَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، وكانت حميتهم أنهم لم يقرأوا أنه رسول الله، ولم يقرأوا بيسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت.

هكذا ساقه البخاري هاهنا^(١)، وقد أخرجه في التفسير، وفي عمرة الحديبية، وفي الحج، وغير ذلك من حديث معمر وسفيان بن عيينة، كلاهما عن الزهري، به^(٢) ووقع في بعض الأماكن عن الزهري، عن عروة، عن مروان والمِسْوَر بن [مَخْرَمَةَ]^(٣)، عن رجال من أصحاب النبي ﷺ بذلك^(٤). وهذا أشبه والله أعلم، ولم يسقه أبسط من هاهنا، وبينه وبين سياق ابن إسحاق تباين في مواضع، وهناك فوائد ينبغي إضافتها إلى ما هاهنا، ولذلك سقنا تلك الرواية وهذه، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

وقال البخاري في التفسير: حدثنا أحمد بن إسحاق السُّلَمي، حدثنا يعلى، حدثنا عبد العزيز بن سياه، عن حبيب بن أبي ثابت، قال: أتيت أبا وائل أسأله فقال: كنا بصفين فقال رجل: ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله؟ فقال على بن أبي طالب: نعم. فقال سهل بن حنيف: اتهموا أنفسكم، فلقد رأيتنا يوم الحديبية - يعنى: الصلح الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين - ولو نرى قتالا لقاتلنا، فجاء عمر فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ فقال: «بلى». قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال: «يا ابن الخطاب، إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبدا»، فرجع متغيظا، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على الحق وهم على الباطل، فقال: يا ابن الخطاب، إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبدا، فنزلت سورة الفتح^(٥).

وقد رواه البخاري أيضا في مواضع آخر ومسلم والنسائي من طرق آخر عن أبي وائل سفيان^(٦)

(١) صحيح البخاري برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٢) صحيح البخاري برقم (٤١٨٠).

(٣) زيادة من م.

(٤) رواه البخاري في صحيحه في أول الشروط برقم (٢٧١١).

(٥) صحيح البخاري برقم (٤٨٤٤).

(٦) في هـ: «شقيق».

ابن سلمة، عن سهيل^(١) بن حنيف به^(٢)، وفي بعض ألفاظه: «يا أيها الناس، اتهموا الرأي، فلقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أقدر على أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لرددته» وفي رواية: فنزلت سورة الفتح، فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب فقرأها عليه.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس، أن قریشا صالحوا النبي ﷺ، فيهم سهيل بن عمرو، فقال النبي ﷺ لعلی: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: لا ندرى ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب ما نعرف: «باسمك اللهم». فقال: «اكتب من محمد رسول الله». قال: لو نعلم^(٣) أنك رسول الله لا تبعناك، ولكن اكتب: اسمك واسم أبيك. فقال النبي ﷺ: «اكتب: من محمد بن عبد الله». واشتروطوا على النبي ﷺ أن^(٤) من جاء منكم لا نرده عليكم، ومن جاءكم منا رددموه علينا، فقال: يا رسول الله، أكتب هذا؟ قال: «نعم، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله». رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة، به^(٥).

وقال أحمد أيضا: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا عكرمة بن عمار قال: حدثني سماك، عن عبد الله بن عباس قال: لما خرجت الحزورية اعتزلوا، فقلت لهم: إن رسول الله ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين، فقال لعلی: «اكتب يا على: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول الله: «امح يا على، اللهم إنك تعلم أنى رسولك، امح يا على، واكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله». والله لرسول الله خير من على، وقد محا نفسه، ولم يكن محوه ذلك يحماه من النبوة، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم. ورواه أبو داود من حديث عكرمة بن عمار اليمامي، بنحوه^(٦).

وروى الإمام أحمد، عن يحيى بن آدم: حدثنا زهير، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: نحر رسول الله ﷺ يوم الحديبية سبعين بدنة فيها جمل لأبى جهل، فلما صدت عن البيت حنت كما تحن إلى أولادها^(٧).

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨)﴾.

(١) فى م: «سهل».

(٢) صحيح البخارى برقم (٣١٨١، ٧٣٠٨، ٤١٨٩، ٣١٨٢) وصحيح مسلم برقم (١٧٨٥) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥٠٤).

(٣) فى م: «علمنا».

(٤) فى م: «أنه».

(٥) المسند (٢٦٨/٣) وصحيح مسلم برقم (١٧٨٤).

(٦) المسند (٣٤٢/١) وسنن أبى داود برقم (٤٠٣٧).

(٧) المسند (٣١٤/١).

كان رسول الله ﷺ قد أَرىَ فى المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تفسر^(١) هذا العام، فلما قع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل، وقع فى نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فى ذلك، فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرتكم أنك تأتية»^(٢) عامك هذا قال: لا، قال: «فإنك آتية ومطوف به». وبهذا أجاب الصديق، رضى الله عنه، أيضا حَذَوْ الْقُدَّةَ بِالْقُدَّةِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾: [و]^(٣) هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء فى شيء، [وقوله]^(٤): ﴿آمِنِينَ﴾ أى: فى حال دخولكم. وقوله: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾، حال مقدرة؛ لأنهم فى حال حرمهم^(٥) لم يكونوا محلّقين ومقصرين، وإنما كان هذا فى ثانى الحال، كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره، وثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «رحم الله المحلقين». قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «والمقصرين» فى الثالثة أو الرابعة^(٦).

وقوله: ﴿لَا تَخَافُون﴾: حال مؤكدة فى المعنى، فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم فى البلد لا يخافون من أحد. وهذا كان فى عمرة القضاء فى ذى القعدة سنة سبع، فإن النبى ﷺ لما رجع من الحديبية فى ذى القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذى الحجة والمحرم، وخرج فى صفر إلى خيبر ففتحها الله عليه بعضها عنوة وبعضها صلحا، وهى إقليم عظيم كثير النخل^(٧) والزروع، فاستخدم^(٨) من فيها من اليهود عليها على الشطر، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم، ولم يشهدا أحد غيرهم إلا الذبن قدموا من الحبشة، جعفر بن أبى طالب وأصحابه، وأبو موسى الأشعرى وأصحابه، ولم يغب منهم أحد، قال ابن زيد: إلا أبا دجاجة سمّاك بن خرشة، كما هو مقرر فى موضعه ثم رجع إلى المدينة، فلما كان فى ذى القعدة [فى]^(٩) سنة سبع خرج إلى مكة معتمرا هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذى الحليفة، وساق معه الهدى، قيل: كان ستين بدنة، فلبى وسار وأصحابه يلبون. فلما كان قريبا من مر الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيول والسلاح أمامه، فلما رآه المشركون رعبوا رعبا شديدا، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم، وأنه قد نكث العهد الذى بينه وبينهم من وضع القتال عشر سنين، وذهبوا فأخبروا أهل مكة، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسى والنبل والرماح إلى بطن يأجج، وسار إلى مكة بالسيف مغمدة فى قربها، كما شارطهم عليه. فلما كان فى أثناء الطريق بعثت قريش مكرّز

(٣) زيادة من ت.

(٢) فى ت، م: «آتية».

(١) فى أ: «تتعين».

(٥) فى م، أ: «دخولهم».

(٤) زيادة من ت، م.

(٦) صحيح البخارى برقم (١٧٢٧) وصحيح مسلم برقم (١٣٠١) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

(٩) زيادة من ت.

(٨) فى ت: «واستخدم».

(٧) فى أ: «النخيل».

ابن حفص فقال: يا محمد، ما عرفناك تنقض العهد. قال: «وما ذاك؟». قال^(١): دخلت: علينا بالسلح والقسى والرماح. فقال: «لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى يأجج»، فقال: بهذا عرفناك، بالبر والوفاء. وخرجت رؤوس الكفار من مكة لثلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ و[لا]^(٢) إلى أصحابه غيظا وحنقا، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا فى الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فدخلها عليه الصلاة والسلام، وبين يديه أصحابه يلبون، والهدى قد بعثه إلى ذى طوى، وهو راكب ناقته القصواء التى كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصارى آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها، وهو يقول:

باسم الذى لا دين إلا دينه	باسم الذى محمدٌ رسوله
خلُّوا بنى الكُفَّار عَنْ سَبِيلِهِ	اليوم نضربكم على تأويله
كما ضربناكم على تنزيله	ضرباً يزيلُ الهام عَنْ مَقِيلِهِ
ويُذهِلُ الخليل عن خليله	قد أنزل الرحمن فى تنزيله
فى صُحُفٍ تتلى على رُسُولِهِ	بأن خير القَتْلِ فى سبيله

يا رب إنى مؤمن بقبيله

فهذا مجموع من روايات متفرقة.

قال يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق: حدثنى عبد الله بن أبى بكر^(٣) بن حزم قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة فى عمرة القضاء، دخلها وعبد الله بن رواحة آخذ بخطام ناقته ﷺ^(٤)، وهو يقول:

خلُّوا بنى الكفار عن سبيله	إنى شهيدُ أنه رَسُولُهُ
خلُّوا فكل ^(٥) الخير فى رسوله	يا رب إنى مؤمن بقبيله
نحن قتلناكم على تأويله	كما قتلناكم على تنزيله
ضرباً يُزيلُ الهام عن مَقِيلِهِ	ويذهِلُ الخليل عن خليله ^(٦)

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهرى، عن أنس بن مالك قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة فى عمرة القضاء، مشى عبد الله بن رواحة بين يديه، وفى رواية وابن رواحة آخذ بغرزه، وهو يقول:

(٣) فى ت: «محمد».

(٢) زيادة من ت، م، أ.

(٥) فى ت: «وكل».

(١) فى ت، م: «فقال».

(٤) فى ت: «مشى عبد الله بن رواحة بين يديه».

(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣٧١/٢).

خلوا بنى الكفار عن سبيله
قد نزل الرحمن فى تنزيله
بأن خير القتل فى سبيله
يا رب إنى مؤمن بقبيله
نحن قتلناكم على تأويله
كما قتلناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن الصباح، حدثنا إسماعيل - يعنى: ابن زكريا - عن عبد الله - يعنى: ابن عثمان - عن أبى الطفيل^(١)، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ لما نزل مرّ الظهران فى عمرته، بلغ أصحاب رسول الله ﷺ أن قريشا [تقول]^(٢): ما يتباعثون من العجف. فقال أصحابه: لو انتحرنّا من ظهرنا، فأكلنا من لحمه، وحسّونا من مرّقه، أصبحنا غدا حين ندخل على القوم وبنا جمامة. قال: «لا تفعلوا، ولكن اجمعوا لى^(٣) من أزوادكم». فجمعوا له وبسطوا الأنطاع، فأكلوا حتى تركوا وحشا كل واحد منهم فى جرابه، ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى دخل المسجد، وقعدت قريش نحو الحجر، فاضطجع بردائه، ثم قال: «لا يرى^(٤) القوم فيكم غميرة» فاستلم الركن ثم رمّل، حتى إذا تغيب بالركن اليمانى مشى إلى الركن الأسود، فقالت قريش: ما ترضون بالمشى أما إنكم لتنقزّون نقزّ الأطباء، ففعل ذلك ثلاثة أشواط، فكانت سنة. قال أبو الطفيل: فأخبرنى ابن عباس: أن رسول الله ﷺ فعل ذلك فى حجة الوداع^(٥).

وقال^(٦) أحمد أيضا: حدثنا يونس؛ حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة، وقد وهتهم حمى يثرب، ولقوا منها سوءا، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قوم قد وهتهم حمى يثرب، ولقوا منها شرا، وجلس المشركون من الناحية التى تلى الحجر، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فأمر رسول الله ﷺ [أصحابه]^(٧) أن يرملوا الأشواط الثلاثة؛ ليرى المشركون جلدهم، قال: فرملوا ثلاثة أشواط، وأمرهم أن يمشوا بين الركنين حيث لا يراهم المشركون، ولم يمنع النبى ﷺ أن يرملوا الأشواط كلها إلا إبقاء عليهم، فقال المشركون: أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا.

أخرجاه فى الصحيحين من حديث حماد بن زيد، به^(٨) وفى لفظ: قدم النبى ﷺ وأصحابه صبيحة رابعة، أى من ذى القعدة، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم وفد قد وهتهم حمى يثرب، فأمرهم النبى ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة، ولم يمنعهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم.

(١) فى ت: «وروى الإمام أحمد بسنده».

(٢) زيادة من ت، أ.

(٣) فى ت، أ: «إلى».

(٤) فى ت: «لا ترى».

(٥) المسند (١/ ٣٠٥).

(٦) فى ت: «وروى».

(٨) المسند (١/ ٢٩٥) وصحيح البخارى برقم (٤٢٥٦) وصحيح مسلم برقم (٢٢٦٦).

قال البخارى: وزاد ابن سلمة - يعنى: حماد بن سلمة - عن أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما قدم النبى ﷺ لعامة الذى استأمن قال: «ارملوا». ليرى المشركون قوتهم، والمشركون من قبل قعيقعان.

وحدثنا محمد، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عطاء، عن ابن عباس قال: إنما سعى النبى ﷺ بالبيت وبالصفا والمروة، ليرى المشركون قوته^(١).

ورواه فى مواضع آخر، ومسلم والنسائى، من طرق، عن سفيان بن عيينة، به^(٢).

وقال أيضا: حدثنا على بن عبد الله، حدثنا سفيان، حدثنا إسماعيل بن أبى خالد، سمع ابن أبى أوفى يقول: لما اعتمر رسول الله ﷺ سترناه من غلمان المشركين ومنهم؛ أن يؤذوا رسول الله ﷺ. انفرد به البخارى دون مسلم^(٣).

وقال^(٤) البخارى أيضا: حدثنا محمد بن رافع، حدثنا سريج بن النعمان، حدثنا فليح، وحدثنى محمد بن الحسين بن إبراهيم، حدثنا أبى، حدثنا فليح بن سليمان، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ خرج معتمرا، فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه وحلق رأسه بالحدبية، وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل، ولا يحمل سلاحا عليهم إلا سيوفا، ولا يقيم بها إلا ما أحبوا. فاعتمر من العام المقبل، فدخلها كما كان صالحهم، فلما أن قام بها ثلاثا، أمره أن يخرج فخرج. وهو فى صحيح مسلم أيضا^(٥).

وقال البخارى أيضا: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن البراء، قال: اعتمر النبى ﷺ فى ذى القعدة، فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب كتبوا: «هذا ما قاضانا عليه محمد رسول الله». قالوا: لا نقر بهذا، ولو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئا، ولكن أنت محمد بن عبد الله. قال: «أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله». ثم قال لعلى بن أبى طالب: «امح رسول الله». قال: لا، والله لا أمحوك أبدا. فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب، وليس يحسن يكتب، فكتب: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله: لا يدخل مكة السلاح إلا السيف فى القراب، وألا يخرج من أهلها بأحد أراد أن يتبعه، وألا يمنع من أصحابه أحدا إن أراد أن يقيم بها» فلما دخلها ومضى الأجل، أتوا عليا فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج النبى ﷺ فتبعته ابنة حمزة تنادى: يا عم، يا عم. فتناولها على فأخذ بيدها، وقال لفاطمة: دونك ابنة عمك فحملتها، فاختصم فيها على وزيد

(١) صحيح البخارى برقم (٤٢٥٧).

(٢) صحيح البخارى برقم (١٦٤٩) وصحيح مسلم برقم (١٢٦٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٣٩٧٣).

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٢٥٥).

(٤) فى ت: «روى».

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٢٥٢).

وجعفر، فقال على: أنا أخذتها وهى ابنة عمى، وقال جعفر: ابنة عمى وخالتها تحتى، وقال زيد: ابنة أخى، فقصى بها النبى ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم»، وقال لعلى: «أنت منى وأنا منك»، وقال لجعفر: «أشبهت خلقى وخلقى» وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا». قال على: ألا تتزوج ابنة حمزة؟ قال: «إنها ابنة أخى من الرضاعة» انفرد به من هذا الوجه^(١).

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أى: فعلم الله تعالى من الخير والمصلحة فى صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموه أنتم، ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ أى: قبل دخولكم الذى وعدتم به فى رؤيا النبى ﷺ، ﴿فَتَحًّا قَرِيبًا﴾: وهو الصلح الذى كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين.

ثم قال تعالى، مبشرا للمؤمنين بنصرة الرسول صلوات الله [وسلامه]^(٢) عليه على عدوه وعلى سائر أهل الأرض: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أى: بالعلم النافع والعمل الصالح؛ فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم وعمل، فالعلم الشرعى صحيح، والعمل الشرعى مقبول، فأخباراتها حق وإنشاءاتها عدل، ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أى: على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، ومليين^(٣) ومشركين، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أى: أنه رسوله، وهو ناصره.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوَافٍ يُعْجَبُ الزُّرَّاعُ لَيَغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٢٩).

يخبر تعالى عن محمد صلوات الله عليه^(٤)، أنه رسوله حقا بلا شك ولا ريب، فقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾، وهذا مبتدأ وخبر، وهو مشتمل على كل وصف جميل، ثم ثنى بالثناء على أصحابه فقال: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدا عنيفا على الكفار، رحيما برا بالأخيار، غضوباً عوساً فى وجه الكافر، ضحوكا بشوشاً فى وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقال النبى ﷺ: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى

(١) صحيح البخارى برقم (٤٢٥١).

(٢) زيادة من ت. (٣) فى أ: «مسلمين».

(٤) فى ت: «ﷺ»، وفى م: «صلوات الله وسلامه عليه».

منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»^(١)، وقال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه^(٢) كلا الحديثين فى الصحيح.

وقوله: ﴿تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَتَغَوْنَ فُضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾: وصفهم بكثرة العمل وكثرة^(٣) الصلاة، وهى خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله، عز جل، والاحتساب عند الله جزيل الثواب، وهو الجنة^(٤) المشتعلة على فضل الله، وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه، تعالى، عنهم وهو أكبر من الأول، كما قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وقوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ يعنى: السمات الحسن.

وقال مجاهد وغير واحد: يعنى: الخشوع والتواضع.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن محمد الطنّافسى، حدثنا حسين الجعفى، عن زائدة^(٥)، عن منصور، عن مجاهد: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ قال: الخشوع، قلت: ما كنت أراه إلا هذا الأثر فى الوجه، فقال: ربما كان بين عينى من هو أقسى قلباً من فرعون.

وقال السدى: الصلاة تحسن وجوههم.

وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار.

وقد أسنده ابن ماجه فى سننه، عن إسماعيل بن محمد الطلّحى، عن ثابت بن موسى، عن شريك، عن الأعمش، عن أبى سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ بِاللَّيْلِ حَسَنَ وَجْهَهُ بِالنَّهَارِ» والصحيح أنه موقوف^(٧).

وقال بعضهم: إن للحسنة نورا فى القلب، وضياء فى الوجه، وسعة فى الرزق، ومحبة فى قلوب الناس.

وقال أمير المؤمنين عثمان: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفلّأت لسانه. والغرض أن الشئ الكامن فى النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله أصلح الله ظاهره للناس، كما روى عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أنه قال: من أصلح سريرته أصلح الله علانيته.

وقال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا محمود بن محمد المروزى، حدثنا حامد بن آدم المروزى،

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٠١١) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه.

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٨١) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٥٨٥) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه.

(٣) فى ت، م: «وذكر». (٤) فى م: «المحبة». (٥) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».

(٦) فى ت: «عن النبى».

(٧) سنن ابن ماجه برقم (١٣٣٣).

حدثنا الفضل بن موسى، عن محمد بن عبيد الله العرزمي، عن سلمة بن كهيل^(١)، عن جندب بن سفيان البجلي قال: قال النبي ﷺ: «ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله رداءها، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر»، العرزمي متروك^(٢).

وقال^(٣) الإمام أحمد: حدثنا حسن بن^(٤) موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة، لخرج عمله للناس كائن ما^(٥) كان»^(٦).

وقال^(٧) الإمام أحمد [أيضا]^(٨): حدثنا حسن، حدثنا زهير، حدثنا قابوس بن أبي ظبيان: أن أباه حدثه عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، قال: «إن الهدى الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة» ورواه أبو داود عن عبد الله بن محمد النفيلي، عن زهير، به^(٩).

فالصحابة [رضى الله عنهم]^(١٠) خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبه في سمتهم وهديهم.

وقال مالك، رحمه الله: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: «والله لهؤلاء خير من الخواريين فيما بلغنا». وصدقوا في ذلك، فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوه الله بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة^(١١)؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾، ثم قال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ [فَأَزْرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سَوْقِهِ] ﴿أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾^(١٢) أى: فراخه، ﴿فَأَزْرَهُ﴾ أى: شدة ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ أى: شب وطال، ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سَوْقِهِ يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ﴾ أى: فكذلك أصحاب محمد ﷺ آزره وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع، ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾.

ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك - رحمه الله، في رواية عنه - بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية. ووافقه طائفة من العلماء على ذلك. والأحاديث في فضائل الصحابة والنهي عن التعرض لهم بمساء كثيرة^(١٣)، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم.

(١) في ت: «وروى أبو القاسم الطبراني بإسناده».

(٢) المعجم الكبير (١٧١/٢) وحامد بن آدم كذاب.

(٣) في ت: «وروى».

(٦) المسند (٢٨/٣).

(٧) في ت: «وروى».

(٩) المسند (٢٩٦/١) وسنن أبي داود برقم (٤٧٧٦).

(١٠) زيادة من ت، م، أ.

(١١) في م: «المقدسة».

(٤) في أ: «عن».

(٥) في ت: «من».

(٨) زيادة من ت.

(١٢) زيدة من م.

(١٣) في م: «كبيرة».

ثم قال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ﴾ «من» هذه لبيان الجنس، ﴿مَغْفِرَةً﴾ أى: لذنوبهم. ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أى: ثوابا جزيلا ورزقا كريما، ووعد الله حق وصدق، لا يخلف ولا يبدل، وكل من اقتفى أثر الصحابة فهو فى حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذى لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، رضى الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم^(١)، وقد فعل.

قال مسلم فى صحيحة: حدثنا يحيى بن يحيى، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابى، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه»^(٢).

آخر تفسير سورة الفتح، والله الحمد والمنة

(١) فى ت، م، أ: «مأواهم».

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٥٤٠).

تفسير سورة الحجرات

وهي مدنية^(١).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١)
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٣).

هذه آداب^(٢)، أدب بها الله عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [واتَّقُوا اللَّهَ]^(٣)، أى: لا تسرعوا فى الأشياء بين يديه، أى: قبله، بل كونوا تبعاً له فى جميع الأمور، حتى يدخل فى عموم هذا الأدب الشرعى حديثٌ معاذ، [إذ]^(٤) قال له النبى ﷺ حين بعثه إلى اليمن: «بم تحكم؟» قال: بكتاب الله. قال: «فإن لم تجد؟». قال: بسنة رسول الله. قال: «فإن لم تجد؟». قال: أجتهد رأيى، فضرب فى صدره وقال: «الحمد لله الذى وفق رسولَ رسولِ الله، لما يرضى رسول الله».

وقد رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه^(٥). فالغرض منه أنه آخر رأيه ونظيره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة، ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدى الله ورسوله. قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة.

وقال العوفى عنه: نهى^(٦) أن يتكلموا بين يدى كلامه.

وقال مجاهد: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء، حتى يقضى الله على لسانه.

وقال الضحاك: لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم.

وقال سفيان الثورى: ﴿لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بقول ولا فعل.

(١) فى أ: «وهي مدنية ثمان عشرة آية».

(٣) زيادة من م.

(٥) سبق الكلام عليه فى مقدمة الكتاب.

(٦) فى ت، م، أ: «نهوا».

(٢) فى م: «آيات».

(٤) زيادة من ت، وفى أ: «حيث».

وقال الحسن البصرى: ﴿لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قال: لا تدعوا قبل الإمام.

وقال قتادة: ذكر لنا أن ناسا كانوا يقولون: لو أنزل في كذا كذا، وكذا لو صنع كذا، فكره الله ذلك، وتقدم فيه.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: فيما أمركم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أى: لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾: هذا أدب ثان أدب الله به المؤمنين ألا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ [فوق صوته] ^(١). وقد روى أنها نزلت في الشيخين أبى بكر وعمر، رضى الله عنهما.

وقال البخارى: حدثنا بسرة بن صفوان اللخمي، حدثنا نافع بن عمر، عن ابن أبى مليكة قال: كاد الخير أن يهلكا، أبو بكر وعمر، رضى الله عنهما، رفعوا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بنى تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخى بنى مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر - قال نافع: لا أحفظ اسمه - فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي. قال: ما أردت خلافاً. فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ الآية، قال ابن الزبير: فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه: يعنى أبا بكر، رضى الله عنه. انفرد به دون مسلم ^(٢).

ثم قال البخارى: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، حدثني ابن أبى مليكة: أن عبد الله بن الزبير أخبره: أنه قدم ركب من بنى تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد. وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلى - أو: إلا - خلافي. فقال عمر: ما أردت خلافاً، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، حتى انقضت الآية، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية [الحجرات: ٥].

وهكذا رواه هاهنا منفرداً به أيضاً ^(٣).

وقال ^(٤) الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا الفضل بن سهل، حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا حصين بن عمر، عن مخارق، عن طارق بن شهاب، عن أبى بكر الصديق قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾، قلت: يا رسول الله، والله لا أكلمك إلا كأخى السرار ^(٥).

(١) زيادة من ت، م، أ.

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٤٥) -

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٨٤٧) .

(٤) فى ت: «وروى».

(٥) مسند البزار برقم (٢٢٥٧) «كشف الاستار» وقال: «لا نعلمه يروى متصلاً إلا عن أبى بكر، وحصين حدث بأحاديث لم يتابع عليها، ومخارق مشهور، ومن عداه أجلاء».

حصين بن عمر هذا - وإن كان ضعيفاً - لكن قد رويناه من حديث عبد الرحمن بن عوف، وأبي هريرة [رضى الله عنه] ^(١) بنحو ذلك، والله أعلم ^(٢).

وقال البخارى: حدثنا على بن عبد الله، حدثنا أزهر بن سعد، أخبرنا ابن عون، أنبأني موسى ابن أنس ^(٣)، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، أن النبى ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه. فأتاه فوجده فى بيته مُكْساً رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يَرْفَعُ صوته فوق صوت النبى ﷺ، فقد حبط عمله، فهو من أهل النار. فأتى الرجل النبى ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا، قال موسى: فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال: «أذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة» تفرد به البخارى من هذا الوجه ^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا ^(٥) سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، وكان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت فقال: أنا الذى كنت أرفع صوتى على رسول الله ﷺ حبط عملى، أنا من أهل النار، وجلس فى أهله حزيناً، ففقدته رسول الله ﷺ، فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له: تفقدك رسول الله ﷺ، ما لك؟ قال: أنا الذى أرفع صوتى فوق صوت النبى ﷺ، وأجهر له بالقول، حبط عملى، أنا من أهل النار. فأتوا النبى ﷺ فأخبروه بما قال، فقال: «لا، بل هو من أهل الجنة». قال أنس: فكنا نراه يمشى بين أظهرنا، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة. فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس بن شماس، وقد تحنط ولبس كفته، فقال: بشما تُعوّدون أقرانكم. فقاتلهم حتى قُتل ^(٦) ^(٧).

وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت البنانى، عن أنس بن مالك قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى آخر الآية، جلس ثابت فى بيته، قال: أنا من أهل النار. واحتبس عن النبى ﷺ، فقال ^(٨) النبى ﷺ لسعد بن معاذ: «يا أبا عمرو، ما شأن ثابت؟ أشتكى؟» فقال سعد: إنه لجارى، وما علمت له بشكوى. قال: فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله ^(٩) ﷺ، فقال ثابت: أنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أنى من أرفعكم صوتاً على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار. فذكر ذلك سعد للنبى ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بل، هو من أهل الجنة».

(١) زيادة من أ.

(٢) أما حديث أبى هريرة، فرواه الحاكم فى المستدرک (٢/٤٦٢) من طريق محمد بن عمرو عن أبى سلمة عنه، وقال: «صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى.

(٣) فى ت: «وروى البخارى بسنده».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٤٦).

(٥) فى ت: «حتى قتل رحمه الله».

(٦) فى ت: «ابن».

(٧) المسند (٣/١٣٧).

(٨) فى م: «النبى».

(٩) فى م: «فسأل».

ثم رواه مسلم عن أحمد بن سعيد^(١) الدارمي، عن حيّان بن هلال، عن سليمان بن المغيرة، به، قال: ولم يذكر سعد بن معاذ. وعن قطن بن نُسَيْر عن جعفر بن سليمان^(٢)، عن ثابت، عن أنس بنحوه. وقال: ليس فيه ذكر سعد بن معاذ.

حدثنا هُرَيْم^(٣) بن عبد الأعلى الأسدي، حدثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبي يذكر، عن ثابت، عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية، واقتصر الحديث، ولم يذكر سعد بن معاذ، وزاد: فكنا نراه يمشى بين أظهرنا رجلٌ من أهل الجنة^(٤).

فهذه الطرق الثلاث مُعَلَّلة لرواية حماد بن سلمة، فيما تفرد به من ذكر سعد بن معاذ. والصحيح: أن حال نزول هذه الآية لم يكن سعد بن معاذ موجوداً؛ لأنه كان قد مات بعد بنى قريظة بأيام قلائل سنة خمس، وهذه الآية نزلت في وفد بنى تميم، والوفود إنما تواتروا في سنة تسع من الهجرة، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثنا أبو ثابت بن ثابت بن قيس بن شماس، حدثني عمي إسماعيل بن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس، عن أبيه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ قال: قعد ثابت بن قيس^(٥) في الطريق يبكي، قال: فمر به عاصم بن عدى من بنى العجلان، فقال: ما يبكيك يا ثابت؟ قال: هذه الآية، أتخوف أن تكون نزلت في وأنا صيت، رفيع الصوت. قال: فمضى عاصم بن عدى إلى رسول الله ﷺ قال: وغلبه البكاء، فأتى امرأته جميلة ابنة عبد الله بن أبي بن سلول فقال لها: إذا دخلتُ بيتَ فَرَسَى فشديّ على الضبّة بمسمار، فضرِبته بمسمار حتى إذا خرج عطفه، وقال: لا أخرج حتى يتوفاني الله، عز وجل، أو يرضى عني رسول الله ﷺ. قال: وأتى عاصم رسول الله ﷺ فأخبره خبره، فقال: «أذهب فادعه لي». فجاء عاصم إلى المكان فلم يجده، فجاء إلى أهله فوجده في بيت الفرس، فقال له: إن رسول الله ﷺ يدعوك. فقال: اكسر الضبّة. قال: فخرجاً فأتيا^(٦) النبي ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا ثابت؟». فقال: أنا صيت وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت في: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾. فقال له رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟». فقال: رضيت ببشرى الله ورسوله ﷺ، ولا أرفع صوتي أبداً على صوت النبي ﷺ. قال: وأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾^(٨) (٩).

وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين كذلك، فقد نهى الله عز وجل، عن رفع الأصوات

(٣) في م: «هذبة».

(٢) في م: «مسلم».

(١) في أ: «سعد».

(٤) صحيح مسلم برقم (١١٩).

(٥) في أ: «ثابت بن قيس بن شماس».

(٦) في أ: «حتى أتيا».

(٧) في أ: «يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا».

(٨) في أ بعدها: «لهم مغفرة وأجر عظيم» بدل «الآية».

(٩) تفسير الطبري (٧٥/٢٦).

بحضرة رسول الله ﷺ، وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب [رضى الله عنه]^(١) أنه سمع صوت رجلين في مسجد رسول الله ﷺ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء، فقال: أتديران أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالوا: من أهل الطائف. فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً^(٢).

وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره، كما كان يكره في حياته؛ لأنه محترم حيا وفي قبره، صلوات الله وسلامه عليه^(٣)، دائما. ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾، كما قال: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

وقوله: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أى: إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله لغضبه، فيحبط الله عمل من أغضبه وهو لا يدري، كما جاء فى الصحيح: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالاً يكتب له بها الجنة. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالاً يهوى بها فى النار أبعد ما بين السموات والأرض»^(٤).

ثم ندب الله عز وجل^(٥)، إلى خفض الصوت عنده، وحث على ذلك، وأرشد إليه، ورغب فيه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أى: أخلصها لها وجعلها أهلاً ومحلاً، ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

وقد قال^(٦) الإمام أحمد فى كتاب الزهد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن منصور، عن مجاهد، قال: كتب إلى عمر^(٧): يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهى المعصية ولا يعمل بها، أفضل، أم رجل يشتهى المعصية ولا يعمل بها؟ فكتب عمر، رضى الله عنه: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٨).

﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ (٤) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٥).

ثم إنه تعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات، وهى بيوت نساءه، كما يصنع أجلاف الأعراب، فقال: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

ثم أرشد إلى الأدب فى ذلك فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أى:

(٢) فى ت، م: «النبى».

(١) زيادة من ت.

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٧٠) من طريق السائب بن يزيد فذكره.

(٤) فى ت: «ﷺ».

(٥) صحيح البخارى برقم (٦٤٧٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٦) فى ت: «سبحانه وتعالى».

(٨) فى ت: «عمر بن الخطاب رضى الله عنه».

(٧) فى ت: «وقد روى».

(٩) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٥٥٢/٧) وعزاه لأحمد فى الزهد.

لكان لهم فى ذلك الخير والمصلحة فى الدنيا والآخرة.

ثم قال داعيا لهم إلى التوبة والإنابة: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقد ذكر أنها نزلت فى الأقرع بن حابس التميمى، فيما أورده غير واحد، قال الإمام أحمد:

حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا موسى بن عقبة، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن، عن الأقرع ابن حابس؛ أنه نادى رسول الله ﷺ من وراء الحجرات، فقال: يا محمد، يا محمد - وفى رواية: يا رسول الله - فلم يجبه. فقال: يا رسول الله، إن حمدى لزين، وإن ذمى لشين، فقال: «ذاك الله، عز وجل»^(١).

وقال ابن جرير: حدثنا أبو عمار الحسين بن حريث المروزى، حدثنا الفضل بن موسى، عن الحسين بن واقد، عن أبى إسحاق^(٢)، عن البراء فى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ قال: جاء رسول الله^(٣) فقال: يا محمد، إن حمدى زين، وذمى شين. فقال: «ذاك الله، عز وجل»^(٤).

وهكذا ذكره الحسن البصرى، وقتادة مرسلًا.

وقال سفيان الثورى، عن حبيب بن أبى عمرة قال: كان بشر بن غالب وليد بن عطار - أو بشر ابن عطار وليد بن غالب - وهما عند الحجاج جالسان - فقال بشر بن غالب للبيد بن عطار: نزلت فى قومك بنى تميم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ قال: فذكرت ذلك لسعيد بن جبيرة فقال: أما إنه لو علم بآخر الآية أجابه: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ [الحجرات: ١٧]، قالوا: أسلمنا، ولم يقاتلك بنو أسد^(٥).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عمرو بن على الباهلى، حدثنا المعتمر بن سليمان: سمعت داود الطفاوى يحدث عن أبى مسلم^(٦) البجلي^(٧)، عن زيد بن أرقم قال: اجتمع أناس من العرب فقالوا: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يك نبيا فنحن أسعد الناس به، وإن يك ملكا نعش بجناحه. قال: فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما قالوا، فجاءوا إلى حجرته فجعلوا ينادونه وهو فى حجرته: يا محمد، يا محمد. فأنزل الله [عز وجل]^(٨): ﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾. قال: فأخذ رسول الله ﷺ بأذنى فمدها، فجعل يقول: «لقد صدق الله قولك يا زيد، لقد صدق الله قولك يا زيد».

(١) المسند (٣/٤٨٨)، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠٨/٧): «إسناد أحمد رجاله الصحيح إن كان أبو سلمة سمع من الأقرع بن حابس، وإلا فهو مرسل».

(٢) فى ت: «وروى ابن جرير بسنده».

(٣) فى ت، أ: «رسول الله ﷺ».

(٤، ٥) تفسير الطبرى (٢٦/٧٧).

(٦) فى م، أ: «سلمة».

(٧) فى ت: «وروى ابن جرير بسنده».

(٨) زيادة من أ.

ورواه ابن جرير، عن الحسن بن عرفة، عن المعتمر بن سليمان، به (١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)﴾ .

يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق ليحتاط له، لئلا يحكم بقوله فيكون - في نفس الأمر - كاذباً أو مخطئاً، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه، وقد نهى الله عن اتباع سبيل المفسدين، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر، وقبلها آخرون لأننا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال. وقد قررنا (٢) هذه المسألة في كتاب العلم من شرح البخارى، والله الحمد والمنة.

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبى معيط، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بنى المصطلق. وقد روى ذلك من طرق، ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد في مسنده من رواية ملك بنى المصطلق، وهو الحارث بن ضرار، والدجويرية (٣) بنت الحارث أم المؤمنين، رضى الله عنها، قال الإمام أحمد:

حدثنا محمد بن سابق، حدثنا عيسى بن دينار، حدثنى أبى أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعى يقول: قدمت على رسول الله ﷺ، فدعانى إلى الإسلام، فدخلت فيه وأقررت به، ودعانى إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله، أرجع إليهم فادعهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لى جمعت زكاته، ويُرسل إلى رسول الله رسولاً لإبّان كذا وكذا ليأتيك ما جمعت من الزكاة. فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبّان الذى أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسول فلم يأت، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخط من الله ورسوله، فدعا بسرّاءت قومه، فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وقت لى وقتاً يرسل إلى رسول الله ليقبض ما كان عندى من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخلف، ولا أرى حبس رسول الله ﷺ إلا من سخطه كانت، فانطلقوا فنأتى رسول الله ﷺ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرّق - أى: خاف - فرجع فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن الحارث منعنى الزكاة وأراد قتلى. فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث. وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث، فقالوا: هذا الحارث، فلما

(١) تفسير الطبرى (٧٧/٢٦)، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢١٠/٥) من طريق إسحاق بن راهويه عن معتمر بن سليمان به، قال الهيثمى فى المجمع (١٠٨/٧): «فيه داود الطفاوى وثقه ابن حبان، وضعفه ابن معين، وبقيه رجاله ثقات».

(٢) فى أ: «ميمونة».

(٣) فى ت: «قرت».

غشيهم قال لهم: إلى من بُعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعت الزكاة وأردت قتله. قال: لا، والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته بته ولا أتانى. فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: «منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟». قال: لا، والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتانى، وما أقبلت إلا حين احتبس على رسول رسول الله ﷺ^(١) خشيت أن يكون كانت سخطه من الله ورسوله. قال: فنزلت الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾ إلى قوله: ﴿حَكِيمٌ﴾.

ورواه ابن أبي حاتم عن المنذر بن شاذان التمار، عن محمد بن سابق به. ورواه الطبراني من حديث محمد بن سابق، به^(٢)، غير أنه سماه الحارث بن سرار، والصواب: الحارث بن ضرار، كما تقدم.

وقال^(٣) ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا جعفر بن عون، عن موسى بن عبيدة، عن ثابت مولى أم سلمة، عن أم سلمة قالت: بعث رسول الله ﷺ رجلاً في صدقات بنى المصطلق بعد الوقعة^(٤)، فسمع بذلك القوم، فتلحقوه يعظمون أمر رسول الله ﷺ، قالت: فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، قالت: فرجع إلى رسول الله ﷺ^(٥) فقال: إن بنى المصطلق قد منعوني^(٦) صدقاتهم. فغضب رسول الله ﷺ والمسلمون. قالت: فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله ﷺ، فصفوا له حين صلى الظهر، فقالوا: نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله، بعثت إلينا رجلاً مصدقاً، فسررنا بذلك، وقرت به أعيننا، ثم إنه رجع من بعض الطريق، فخشينا أن يكون ذلك غضباً من الله ومن رسوله، فلم يزالوا يكلمونه حتى جاء بلال فأذن بصلاة العصر، قالت: ونزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾^(٧).

وروى ابن جرير أيضاً من طريق العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية قال: كان رسول الله ﷺ بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بنى المصطلق ليأخذ منهم الصدقات، وإنهم لما أتاهم الخبر فرحوا وخرجوا يتلقون رسول رسول الله ﷺ، وإنه لما حدث الوليد أنهم خرجوا يتلقونه، رجع الوليد إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن بنى المصطلق قد منعوا الصدقة. فغضب رسول الله ﷺ من ذلك غضباً شديداً، فبينا هو يحدث نفسه أن يغزوهم إذ أتاه الوفد فقالوا: يا رسول الله، إنا حدثنا أن رسولك رجع من نصف الطريق، وإنا خشينا أن ما رده كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله. وإن النبي ﷺ استغشهم وهم بهم، فأنزل الله^(٨) عذرهم في الكتاب، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ إلى آخر الآية^(٩).

(١) في ت: «احتبس على يا رسول الله».

(٢) المسند (٢٧٩/٤) والمعجم الكبير (٢٧٤/٣)، قال الهيثمي في المجمع (١٠٩/٧): «رجال أحمد ثقات»، وهذا متعقب، فإن دينار والدعيس لم يوثقه إلا ابن حبان، ولا يعرف له راوي غير ابنه عيسى.

(٣) في ت: «وروى». (٤) في ت: «الوقعة». (٥) في ت، م، أ: «رسول الله ﷺ».

(٦) في ت، م: «منعوا».

(٧) تفسير الطبري (٧٨/٢٦) وفي إسناده موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف، وثابت مولى أم سلمة مجهول.

(٨) في م: «الله عز وجل».

(٩) تفسير الطبري (٧٨/٢٦).

وقال مجاهد وقتادة: أرسل رسول الله الوليد بن عقبة إلى بنى المصطلق ليُصدّقهم، فتلقوه بالصدقة، فرجع فقال: إن بنى المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك - زاد قتادة: وإنهم قد ارتدوا عن الإسلام - فبعث رسول الله خالد بن الوليد إليهم، وأمره أن يثبت ولا يعجل. فانطلق حتى أتاهم ليلاً، فبعث عيونه، فلما جاؤوا أخبروا خالداً أنهم مستمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد فرأى الذى يعجبه، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فأنزل الله هذه الآية. قال قتادة: فكان رسول الله ﷺ يقول: «التَّيِّبُ مِنَ اللَّهِ، وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ».

وكذا ذكر غير واحد من السلف، منهم: ابن أبى ليلى، ويزيد بن رومان، والضحاك، ومقاتل ابن حيان، وغيرهم فى هذه الآية: أنها نزلت فى الوليد بن عقبة، والله أعلم^(١).

وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أى: اعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظّموه ووقروه، وتأدّبوا معه، وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم. ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم، كما قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

ثم بيّن [تعالى]^(٢) أن رأيهم سخيّف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال: ﴿لَوْ يَطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾ أى: لو أطاعكم فى جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحرّجكم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أى: حبيه إلى نفوسكم وحسنه فى قلوبكم.

قال^(٣) الإمام أحمد: حدثنا بهز، حدثنا على بن مسعدة، حدثنا قتادة، عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «الإسلام علانية، والإيمان فى القلب» قال: ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات، ثم يقول: «التقوى هاهنا، التقوى هاهنا»^(٤).

﴿وَكُرْهُ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ أى: وبغض إليكم الكفر والفسوق، وهى: الذنوب

(١) وقد ذهب إلى ذلك كثير من المفسرين، وهذا القول فيه نظر؛ فإن الروايات التى ساقّت القصة معلولة، وأحسنها وهى رواية أحمد عن الحارث بن ضرار الخزاعى، فى إسنادها مجهول، وقد أنكر القاضى أبو بكر بن العربى فى كتابه «العواصم من القواصم» (ص ١٠٢) هذه القصة قال: «وقد اختلف فيه، فقيل: نزلت فى ذلك - أى فى شأن الوليد. وقيل: فى على، والوليد فى قصة أخرى - وقيل: إن الوليد سيق يوم الفتح فى جملة الصبيان إلى رسول الله ﷺ فمسح رؤوسهم وبرك عليهم إلا هو فقال: إنه كان على رأسى خلق، فامتنع ﷺ من مسه، فمن يكون فى مثل هذه السن يرسل مصدقاً، وبهذا الاختلاف يسقط العلماء الأحاديث القوية، وكيف يفسق رجل هذا الكلام؟ فكيف برجل من أصحاب محمد ﷺ وللشيخ عبد الرحمن المعلمى رحمه الله كلام على الوليد بن عقبة فى الأنوار الكاشفة (ص ٢٦٣) أثبت فيه أنه لم يؤثر له رواية عن رسول الله ﷺ ومن جملة ما نفاه هذا الحديث الذى ذكره ابن العربى.

(٢) فى ت: «وروى».

(٣) زيادة من ت.

(٤) المسند (٣/ ١٣٤) قال الهيثمى فى المجمع (١/ ٥٢): «رجاله رجال الصحيح ما خلا على بن مسعدة، وقد وثقه ابن حبان وأبو داود الطيالسى وأبو حاتم وابن معين وضعفه آخرون».

الكبار . والعصيان وهى جميع المعاصى . وهذا تدرج لكمال النعمة .

وقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ أى: المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون، الذين قد آتاهم الله رشدهم.

قال^(١) الإمام أحمد: حدثنا مروان بن معاوية الفزاري، حدثنا عبد الواحد بن أيمن المكي، عن ابن رفاعة الزرقى، عن أبيه قال: لما كان يوم أحد^(٢) وانكفأ المشركون، قال رسول الله ﷺ: «استووا حتى أثنى على ربي، عز وجل» فصاروا خلفه صفوفاً، فقال: «اللهم، لك الحمد كله. اللهم، لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادى لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت. ولا معطى لما منعت، ولا مانع لما أعطيت. ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت. اللهم، ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك. اللهم، إني أسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول. اللهم، إني أسألك النعيم يوم العيلة، والأمن يوم الخوف. اللهم، إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا، ومن شر ما منعنا. اللهم، حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين. اللهم، توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين. اللهم، قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك. اللهم، قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق».

ورواه النسائى فى اليوم واللييلة عن زياد بن أيوب، عن مروان بن معاوية، عن عبد الواحد بن أيمن، عن عبيد بن رفاعة، عن أبيه، به^(٣).

وفى الحديث المرفوع: «من سرته حسنته، وساءت سيئته، فهو مؤمن»^(٤).

ثم قال: ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ أى: هذا العطاء^(٥) الذى منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى: عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم فى أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره.

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)﴾.

(١) فى ت: «روى».

(٢) فى أ: «الحدبية».

(٣) المسند (٢٤٤/٣) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٤٤٥).

(٤) رواه أحمد فى مسنده (١٨/١) والترمذى فى السنن برقم (٢١٦٥) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه».

(٥) فى ت: «القضاء».

يقول تعالى آمراً بالإصلاح بين المسلمين^(١) الباغين بعضهم على بعض: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾، فسامهم مؤمنين مع الاقتتال. وبهذا استدلل البخارى وغيره على أنه لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم. وهكذا ثبت فى صحيح البخارى من حديث الحسن، عن أبى بكره أن رسول الله ﷺ خطب يوماً ومعه على المنبر الحسن بن على، فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول: «إن ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»^(٢). فكان كما قال، صلوات الله وسلامه عليه، أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق، بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة.

وقوله: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا النَّبِغَةَ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أى: حتى ترجع إلى أمر الله^(٣) وتسمع للحق وتطيعه، كما ثبت فى الصحيح عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوما». قلت: يا رسول الله، هذا نصرته مظلوما فكيف أنصره ظالماً؟ قال: «تمنعه من الظلم، فذاك نصرتك إياه»^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عارم، حدثنا معتمر قال: سمعت أبى يحدث: أن أنساً قال: قيل للنبي ﷺ، لو أتيت عبد الله بن أبى؟ فانطلق إليه نبي الله ﷺ وركب حماراً، وانطلق المسلمون يمشون، وهى أرض سبخة، فلما انطلق إليه النبي ﷺ قال: «إليك عنى، فوالله لقد آذانى ريح حمارك» فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك. قال: فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدى والنعال، فبلغنا أنه أنزلت فيهم: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾.

ورواه البخارى فى «الصلح» عن مُسَدَّد، ومسلم فى «المغازى» عن محمد بن عبد الأعلى، كلاهما عن المعتمر بن سليمان، عن أبيه، به نحوه^(٥).

وذكر سعيد بن جبير: أن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسعف والنعال، فأنزل الله هذه الآية، فأمر بالصلح بينهما.

وقال السدى: كان رجل من الأنصار يقال له: «عمران»، كانت له امرأة تدعى أم زيد^(٦)، وإن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها وجعلها فى عُلَّةٍ له لا يدخل عليها أحد من أهلها. وإن المرأة بعثت إلى أهلها، فجاء قومها وأنزلوها لينطلقوا بها، وإن الرجل قد كان خرج، فاستعان أهل الرجل، فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها، فتدافعوا واجتلدوا بالنعال، فنزلت فيهم هذه

(١) فى أ: «المقتتلين».

(٢) صحيح البخارى برقم (٢٧٠٤).

(٣) فى ت، م: «إلى أمر الله ورسوله».

(٤) صحيح البخارى برقم (٢٤٤٣).

(٥) المسند (١٥٧/٣) وصحيح البخارى برقم (٢٦٩١) وصحيح مسلم برقم (١٧٩٩).

(٦) فى أ: «يزيد».

الآية. فبعث إليهم رسول الله ﷺ وأصلح بينهم، وفاؤوا إلى أمر الله.

وقوله: ﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أى: اعدلوا بينهم فيما كان أصاب بعضهم لبعض، بالقسط، وهو العدل، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا محمد بن أبى بكر المقدمي، حدثنا عبد الأعلى، عن معمر، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب^(١)، عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن المقسطين فى الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدى الرحمن، بما أقسطوا فى الدنيا».

ورواه النسائى^(٢) عن محمد بن المثنى، عن عبد الأعلى، به^(٣). وهذا إسناد جيد قوى، رجاله على شرط الصحيح.

وحدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عمرو بن أوس، عن عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور على يمين العرش، الذين يعدلون فى حكمهم وأهاليهم وما ولُّوا». ورواه مسلم والنسائى، من حديث سفيان بن عيينة، به^(٤).

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أى: الجميع إخوة فى الدين، كما قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»^(٥). وفى الصحيح: «والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه»^(٦). وفى الصحيح أيضا: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين، ولك بمثل»^(٧). والأحاديث فى هذا كثيرة، وفى الصحيح: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحيمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحُمى والسَّهر». وفى الصحيح أيضا: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضا» وشبك بين أصابعه^(٨).

وقال أحمد: حدثنا أحمد بن الحجاج، حدثنا عبد الله، أخبرنا مصعب بن ثابت، حدثنى أبو حازم قال: سمعت سهل بن سعد الساعدى يحدث عن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان، كما يألم الجسد لما فى الرأس»^(٩). تفرد به ولا بأس بإسناده.

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».

(٢) فى ت: «مسلم».

(٣) النسائى فى السنن الكبرى برقم (٥٩١٧).

(٤) صحيح مسلم برقم (١٨٢٧) وسنن النسائى (٣٢١/٨).

(٥) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٤٤٢) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٥٨٠) من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما.

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٦٩٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٧) صحيح مسلم برقم (٢٧٣٢) من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه.

(٨) صحيح البخارى برقم (٦٠١١) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه.

(٩) المسند (٣٤٠/٥) وقال الهيثمى فى المجمع (١٨٧/٨): «رجال أحمد رجال الصحيح».

وقوله: ﴿فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ يعنى: الفئتين المقتلين، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: فى جميع أموركم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١)﴾ .

ينهى تعالى عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَضُ النَّاسِ» ويروى: «وغمط الناس»^(١). والمراد من ذلك: احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام، فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدرا عند الله وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له؛ ولهذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾، فنص على نهى الرجال وعطف بنهى النساء.

وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أى: لا تلمزوا الناس. والهماز اللَّماز من الرجال مذموم ملعون، كما قال [تعالى]^(٢): ﴿وَيْلٌ لَّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، فالهمز بالفعل واللمز بالقول، كما قال: ﴿هَمَازٌ مِّثْلُ نِسَاءٍ بِنِيمٍ﴾ [القلم: ١١] أى: يحتقر الناس ويهمزهم طاعناً عليهم، ويمشى بينهم بالنميمة وهى: اللمز بالمقال؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، كما قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] أى: لا يقتل بعضكم بعضاً^(٣).

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومقاتل بن حَيَّان: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أى: لا يطن بعضكم على بعض.

وقوله: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أى: لا تتداعوا بالألقاب، وهى التى يسوء الشخص سماعها.

قال^(٤) الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا داود بن أبى هند، عن الشعبى قال: حدثنى أبو جَبْرِ^(٥) بن الضحاك قال: فىنا نزلت فى بنى سلمة: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فىنا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دُعِيَ أحد منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله، إنه يغضب من هذا. فنزلت: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾.

ورواه أبو داود عن موسى بن إسماعيل، عن وهيب، عن داود، به^(٦).

وقوله: ﴿بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أى: بئس الصفة والاسم الفسوق وهو: التنابز بالألقاب، كما كان أهل الجاهلية يتناعتون، بعدما دخلتم^(٧) فى الإسلام وعقلموه، ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾

(١) صحيح مسلم برقم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

(٢) زيادة من ت. (٣) فى م: «أى: لا يطن بعضكم على بعض».

(٤) فى ت: «عن أبى جبيرة».

(٦) المسند (٤/ ٢٦٠)، وسنن أبى داود برقم (٤٩٦٢)، ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٢٦٨) من طريق داود بن أبى هند به، وقال الترمذى: «حديث حسن صحيح».

(٧) فى ت: «دخلوا».

أى: من هذا ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢).

يقول تعالى ناهيا عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس فى غير محله؛ لأن بعض ذلك يكون إثما محضاً، فليجتنب كثير منه احتياطاً، وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أنه قال: ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيراً، وأنت تجد لها فى الخير محملاً^(١).

وقال أبو عبد الله بن ماجه: حدثنا أبو القاسم بن أبى ضمرة نصر بن محمد بن سليمان الحمصى، حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن أبى قيس النضرى، حدثنا^(٢) عبد الله بن عمر^(٣) قال: رأيت النبى ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك». والذى نفس محمد بيده، حرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك، ماله ودمه، وأن يظن به إلا خير^(٤). تفرد به ابن ماجه من هذا الوجه^(٥).

وقال مالك، عن أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً».

رواه البخارى عن عبد الله بن يوسف، ومسلم عن يحيى بن يحيى، وأبو داود عن العتبى [ثلاثتهم]^(٧)، عن مالك، به^(٨).

وقال سفيان بن عيينة، عن الزهرى، عن أنس [رضى الله عنه]^(٩) قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام».

رواه مسلم والترمذى - وصححه - من حديث سفيان بن عيينة، به^(١٠).

(١) رواه أحمد فى الزهد كما فى الدر المنثور (٥٦٥/٧).

(٢) فى ت: «وروى ابن ماجه بسنده عن». (٣) فى ت: «بن عمر رضى الله عنه». (٤) فى ت، م: «خيراً».

(٥) سنن ابن ماجه برقم (٣٩٣٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢٢٣/٣)، «هذا إسناد فيه مقال، نصر بن محمد ضعفه أبو حاتم وذكره ابن حبان فى الثقات، وباقى رجال الإسناد ثقات».

(٦) فى ت، م: «فإنه». (٧) زيادة من أ.

(٨) الموطأ (٩٠٨/٢)، وصحيح البخارى برقم (٦٠٦٦)، وصحيح مسلم برقم (٢٥٦٣).

(٩) زيادة من ت.

(١٠) صحيح مسلم برقم (٢٥٥٩)، وسنن الترمذى برقم (١٩٣٥).

وقال^(١) الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله القرمطي العدوي، حدثنا بكر بن عبد الوهاب المدني، حدثنا إسماعيل بن قيس الأنصاري، حدثني عبد الرحمن بن محمد بن أبي الرجال، عن أبيه، عن جده حارثة بن النعمان قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لازمات لأمتي: الطيرة، والحسد، وسوء الظن». فقال رجل: ما يذهبهن يا رسول الله عن هن فيه؟ قال: «إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض»^(٢)»^(٣).

وقال^(٤) أبو داود: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن زيد قال: أتى ابن مسعود، رضى الله عنه، برجل^(٥)، فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمرا. فقال عبد الله: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به^(٦).

سماه ابن أبي حاتم في روايته الوليد بن عقبة بن أبي معيط^(٧).

وقال^(٨) الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا ليث، عن إبراهيم بن نسيط الخولاني، عن كعب بن علقمة، عن أبي الهيثم، عن دُخَيْن كاتب عقبة قال: قلت لعقبة: إن لنا جيرانا يشربون الخمر، وأنا داع لهم الشرط فيأخذونهم. قال: لا تفعل، ولكن عظمهم وتهدهم. قال: ففعل فلم ينتهوا. قال: فجاءه دخين فقال: إني قد نهيتهم فلم ينتهوا، وإني داع لهم الشرط فيأخذونهم. قال: لا تفعل، ولكن عظمهم وتهدهم. قال: ففعل فلم ينتهوا. قال: فجاءه دُخَيْن فقال: إني قد نهيتهم فلم ينتهوا، وإني داع لهم الشرط فتأخذهم. فقال له عقبة: ويحك لا تفعل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها».

ورواه أبو داود والنسائي من حديث الليث بن سعد، به نحوه^(٩).

وقال سفيان الثوري، عن ثور، عن راشد بن سعد، عن معاوية قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم» أو: «كدت أن تفسدهم». فقال أبو الدرداء: كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ، نفعه الله بها. رواه أبو داود منفردا به من حديث الثوري، به^(١٠).

وقال أبو داود أيضا: حدثنا سعيد بن عمرو الحضرمي، حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا ضَمَضَم بن زُرْعَة، عن شُرَيْح بن عبيد، عن جُبَيْر بن نُفَيْر، وكثير بن مُرَّة، وعمرو بن الأسود، والمقدام بن معد يكرب^(١١)، وأبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس،

(١) في ت: «وروى». (٢) في ت: «وإذا نظرت فاغضض»، وفي م، أ: «وإذا تطيرت فاعمض».

(٣) المعجم الكبير (٢٢٨/٣)، قال الهيثمي في المجمع (٧٨/٨): «فيه إسماعيل بن قيس الأنصاري وهو ضعيف».

(٤) في ت: «وروى».

(٥) لفظة «برجل» غير موجودة بسنن أبي داود.

(٦) سنن أبي داود برقم (٤٨٩٠).

(٧) وذلك لما أكثر الناس في الوليد بن عقبة، وقد كان ابن مسعود على بيت المال في ولاية الوليد بن عقبة في عهد عثمان رضى الله عنه، وقصة جلد الوليد على الخمر مشهورة في الصحيحين.

(٨) في ت: «وروى».

(٩) المسند (١٥٣/٤)، وسنن أبي داود برقم (٤٨٩٢)، والنسائي في السنن الكبرى برقم (٧٢٨٣).

(١٠) سنن أبي داود برقم (٤٨٨٨).

(١١) في م: «معدى كرب».

[وقوله]^(٢): ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أى: على بعضكم بعضا. والتجسس غالبا يطلق فى الشر، ومنه الجاسوس. وأما التجسس فيكون غالبا فى الخير، كما قال تعالى إخبارا عن يعقوب [عليه السلام]^(٣) أنه قال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقد يستعمل كل منهما فى الشر، كما ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا»^(٤).

وقال الأوزاعى: التجسس: البحث عن الشيء. والتجسس: الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون، أو يسمع على أبوابهم. والتدابر: الصَّرم. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾: فيه نهى عن الغيبة، وقد فسرهما الشارع كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود: حدثنا القَعْنَبِيُّ، حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن العلاء، عن أبيه، عن أبى هريرة^(٥) قال: قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: «ذكرك أخاك بما يكره». قيل: أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته».

ورواه الترمذى عن قتيبة، عن الدَّرَّأَوْدِيِّ، به^(٦). وقال: حسن صحيح. ورواه ابن جرير عن بُنْدَارٍ، عن غُنْدَرٍ، عن شعبة، عن العلاء^(٧). وهكذا قال ابن عمر، ومسروق، وقتادة، وأبو إسحاق، ومعاوية بن قرة.

وقال^(٨) أبو داود: حدثنا مُسَدَّدٌ، حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثنى على بن الأقرم، عن أبى حذيفة، عن عائشة قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا! قال غير مسدد: تعنى قصيرة - فقال: «لقد قلت كلمة لو مُزِجَتْ بماء البحر لمزجته». قالت: وحكيت له إنسانا، فقال ﷺ: «ما أحب أنى حكيت إنسانا، وإن لى كذا وكذا».

ورواه الترمذى من حديث يحيى القطان، وعبد الرحمن بن مَهْدِيٍّ، ووكيع، ثلاثتهم عن سفيان الثوري، عن على بن الأقرم، عن أبى حذيفة سلمة بن صهيب الأرحبى، عن عائشة، به. وقال: حسن صحيح^(٩).

وقال ابن جرير: حدثنى ابن أبى الشوارب: حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا سليمان الشيبانى، حدثنا حسان بن المخارق^(١٠)؛ أن امرأة دخلت على عائشة، فلما قامت لتخرج أشارت عائشة بيدها

(١) سنن أبى داود برقم (٤٨٨٩).

(٢) (٣، ٢) زيادة من ت.

(٤) صحيح البخارى برقم (٢٤٤٢).

(٥) فى ت: «أبى هريرة رضى الله عنه».

(٦) سنن أبى داود برقم (٤٨٧٤)، وسنن الترمذى برقم (١٩٣٥).

(٧) تفسير الطبرى (٨٦/٢٦).

(٨) فى ت: «وروى».

(٩) سنن أبى داود برقم (٤٨٧٥)، وسنن الترمذى برقم (٢٥٠٢، ٢٥٠٣).

(١٠) فى ت: «وروى ابن جرير بسنده».

إلى النبي ﷺ - أى: إنها قصيرة - فقال النبي ﷺ: «اغتنبها»^(١).

والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته، كما فى الجرح والتعديل والنصيحة، كقوله ﷺ^(٢)، لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر: «اذهبوا له، بنس أخو العشيرة»^(٣)، وكقوله لفاطمة بنت قيس - وقد خطبها معاوية وأبو الجهم -: «أما معاوية فصعلوك»^(٤)، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه»^(٥). وكذا ما جرى مجرى ذلك. ثم بقيتها على التحريم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد^(٦)؛ ولهذا شبهها تعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت، كما قال تعالى: «أَيَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ؟» أى: كما تكرهون هذا طبعاً، فاكروهوا ذاك شرعاً؛ فإن عقوبته أشد من هذا وهذا من التنفير عنها والتحذير منها، كما قال، عليه السلام، فى العائد فى هبته: «كالكلب يقيء» ثم يرجع فى قيئه»، وقد قال: «ليس لنا مثل السوء». وثبت فى الصحاح^(٧) والحسان والمسانيد من غير وجه أنه، عليه السلام، قال فى خطبة [حجة]^(٨) الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا»^(٩).

وقال^(١٠) أبو داود: حدثنا واصل بن عبد الأعلى، حدثنا أسباط بن محمد، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام: ماله وعرضه ودمه، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

ورواه الترمذى^(١١) عن عبيد بن أسباط بن محمد، عن أبيه، به^(١٢). وقال: حسن غريب.

وحدثنا عثمان بن أبى شبة^(١٣)، حدثنا الأسود بن عامر، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن سعيد بن عبد الله^(١٤) بن جريج، عن أبى برزة الأسلمى قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه فى بيته».

تفرد به أبو داود^(١٥). وقد روى من حديث البراء بن عازب، فقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده: حدثنا إبراهيم بن دينار، حدثنا مصعب بن سلام، عن حمزة بن حبيب الزيات، عن أبى إسحاق

(١) تفسير الطبرى (٢٦ / ٨٧).

(٢) فى ت: «عليه السلام».

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣١٣٢) من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٤) فى أ: «فصعلوك لا مال له».

(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٤٨٠).

(٦) فى ت، م: «الشديد».

(٧) فى ت، م: «الصحيح».

(٨) زيادة من ت، م، أ.

(٩) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٢١٨) من حديث جابر رضى الله عنه.

(١٠) فى ت: «وروى».

(١١) فى ت: «رواه الترمذى وحسنه».

(١٢) سنن أبى داود برقم (٤٨٨٢)، وسنن الترمذى برقم (١٩٢٧).

(١٣) فى ت: «وروى أبو داود».

(١٤) فى أ: «عبيد الله».

(١٥) سنن أبى داود برقم (٤٨٨٠).

السَّيِّعِي^(١)، عن البراء بن عازب^(٢) قال: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتها - أو قال: في خدورها - فقال: «يا معشر من آمن بلسانه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه»^(٣) في جوف بيته»^(٤).

طريق أخرى عن ابن عمر: قال أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي: أخبرنا عبد الله بن ناجية، حدثنا يحيى بن أكثم، حدثنا الفضل بن موسى الشيباني، عن الحسين بن واقد، عن أوفى بن دلهم، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يُفَضِّصِ الإيمانُ إلى قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من يتبع عورات المسلمين يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله». قال: ونظر ابن عمر يوما إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك، وللمؤمن أعظم حرمة عند الله منك»^(٥).

قال أبو داود: وحدثنا حيوة بن شريح، حدثنا بَقِيَّةُ، عن ابن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن وقاص بن ربيعة، عن المستورد؛ أنه حدثه: أن النبي ﷺ قال: «من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها في^(٦) جهنم^(٧)»، ومن كُسى ثوبا برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله في^(٨) جهنم. ومن قام برجل مقام سمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة. تفرد به أبو داود^(٩).

وحدثنا ابن مصفى، حدثنا بَقِيَّةُ وأبو المغيرة قالوا: حدثنا صفوان، حدثني راشد بن سعد وعبد الرحمن بن جبير، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عُرِجَ بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم، قلت: من هؤلاء يا جبرائيل^(١٠)؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم».

تفرد به أبو داود، وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبي المغيرة عبد القدوس بن الحجاج الشامي، به^(١١).

وقال^(١٢) ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عبدة، حدثنا أبو عبد الصمد عبد العزيز ابن عبد الصمد العمى، حدثنا أبو هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدري [رضى الله عنه]^(١٣) قال: قلنا يا رسول الله، حدثنا ما رأيت ليلة أُسرى بك؟... قال: «ثم انطلق بى إلى خلق من خلق الله كثير، رجال ونساء مُوَكَّلَ بهم رجال يعمدون إلى عُرُضِ جَنَبِ أحدهم فيَحْدُونُ منه الحُدُوءَ من مثل النعل ثم يضعونه في^(١٤) أحدهم، فيقال له: «كل كما^(١٤) أكلت»، وهو يجد من أكله الموت - يا

(١) فى ت: «وروى الحافظ أبو يعلى فى مسنده بسنده».

(٢) فى ت: «البراء بن عازب رضى الله عنه».

(٣) فى ت: «يفضحه ولو فى».

(٤) مسند أبى يعلى (٢٣٧/٣)، قال الهيثمى فى المجمع (٩٣/٨): «رجاله ثقات».

(٥) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٠٣٢) من طريق الفضل بن موسى به، وقال: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسين بن واقد».

(٦) فى ت، م، أ: «من».

(٧) فى ت: «فى نار جهنم».

(٨) فى أ: «من».

(٩) سنن أبى داود برقم (٤٨٨١).

(١٠) فى ت، م: «جبريل».

(١١) سنن أبى داود برقم (٤٨٧٨)، والمسند (٢٢٤/٣).

(١٢) فى ت: «وروى».

(١٣) زيادة من ت.

(١٤) فى ت: «ما».

محمد - لو يجد الموت وهو يكره عليه فقلت: يا جبرائيل^(١)، من هؤلاء: قال: هؤلاء الهمّازون اللمّازون أصحاب النيمة. فيقال^(٢): «أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ» وهو يكره على أكل لحمه.

هكذا أورد هذا الحديث، وقد سقناه بطوله في أول تفسير «سورة سبحان» والله الحمد^(٣).

وقال أبو داود الطيالسي في مسنده: حدثنا الربيع، عن يزيد، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن يصوموا يوماً ولا يفطرون أحدٌ حتى آذن له. فصام الناس، فلما أمسوا جعل الرجل يجيء إلى رسول الله ﷺ فيقول: ظلمت منذ اليوم صائماً، فآذن لي. فأفطر فيأذن له، ويجيء الرجل فيقول ذلك، فيأذن له، حتى جاء رجل فقال: يا رسول الله، إن فتاتين من أهلك ظلتا منذ اليوم صائمتين، فآذن لهما فليفطرا فأعرض عنه، ثم أعاد، فقال رسول الله ﷺ: «ما صامتا، وكيف صام من ظل يأكل لحوم الناس؟ اذهب، فمرهما إن كانتا صائمتين أن يستقينا». ففعلتا، فقأت كل واحدة منهما علقَةً علقَةً فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «لو ماتتا وهما فيهما لأكلتهما النار»^(٤).

إسناد ضعيف، ومتن غريب. وقد رواه الحافظ البيهقي من حديث يزيد بن هارون: حدثنا سليمان التيمي قال: سمعت رجلاً يحدث في مجلس أبي عثمان التَّهْدِي عن عبيد - مولى رسول الله^(٥) - أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ، وأن رجلاً أتى رسول الله فقال: يا رسول الله، إن هاهنا امرأتين صامتا، وإنهما كادتا تموتان من العطش - أراه قال: بالهجرة - فأعرض عنه - أو: سكت عنه - فقال: يا نبي الله، إنهما - والله قد ماتتا أو كادتا تموتان^(٦). فقال: ادعهما. فجاءتا، قال: فجيء بقدر - أو عُس - فقال لإحدهما: قيئي. فقأت من قيح ودم وصديد، حتى قاءت نصف القدح. ثم قال للأخرى: قيئي فقأت قيحا ودماً وصديداً ولحماً ودماً عبيطاً وغيره حتى ملأت القدح. فقال: إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما، جلست إحدهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس.

وهكذا قد رواه الإمام أحمد عن يزيد بن هارون وابن أبي عدي. كلاهما عن سليمان بن طرخان التيمي، به مثله أو نحوه^(٧). ثم رواه أيضاً من حديث مُسَدَّد، عن يحيى القطان، عن عثمان بن غياث، حدثني رجل أظنه في حلقة أبي عثمان، عن سعد - مولى رسول الله ﷺ - أنهم أمروا بصيام، فجاء رجل في نصف النهار فقال: يا رسول الله، فلانة وفلانة قد بلغتا الجهد. فأعرض عنه مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «ادعهما». فجاء بعُس - أو: قَدَح - فقال لإحدهما: «قيئي»، فقأت لَحْماً ودماً عبيطاً وقيحاً، وقال للأخرى مثل ذلك، فقال: «إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما، أتت إحدهما للأخرى فلم تزالا تأكلان لحوم الناس حتى امتلأت أجوافهما

(٣) عند الآية الأولى.

(٢) في أ: «فقال».

(١) في ت، م: «جبريل».

(٤) مسند الطيالسي برقم (٢١٠٧).

(٦) في ت: «أن تموتا».

(٥) في ت، م: «رسول الله ﷺ».

(٧) المسند (٤٣١/٥) ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت برقم (١٧١) من طريق يزيد بن هارون عن سليمان التيمي به.

قيحا»^(١).

وقال البيهقي: كذا قال «عن سعد»، والأول - وهو عبيد - أصح.

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا عمرو بن الضحاك بن مَخْلَد، حدثنا أبي أبو عاصم، حدثنا ابن جُرَيْج، أخبرني أبو الزبير^(٢) عن ابن عمّ لأبي هريرة أن ماعزاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى قد زنت فأعرض عنه - قالها أربعاً - فلما كان فى الخامسة قال: «زنت؟» قال: نعم. قال: «وتدرى ما الزنا؟» قال: نعم، أتيت منها حراماً ما يأتى الرجل من امرأته حلالاً. قال: «ما تريد إلى هذا القول؟» قال: أريد أن تطهرنى. قال: فقال رسول الله ﷺ: «أدخلت ذلك منك فى ذلك منها كما يغيب الميل فى المكحلة والرشاء»^(٣) فى البئر؟ قال: نعم، يا رسول الله. قال: فأمر برجمه فرجم، فسمع النبى ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذى ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب. ثم سار النبى ﷺ حتى مرّ بجيفة حمار فقال: «أين فلان وفلان؟ أنزلا فكلنا من جيفة هذا الحمار» قالوا: غفر الله لك يا رسول الله، وهل يؤكل هذا؟ قال: فما نلتما من أخيكما^(٤) أنفاً أشد أكلًا من، والذى نفسى بيده، إنه الآن لفى أنهار الجنة ينغمس فيها»^(٥) [إسناده صحيح]^(٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنى أبى، حدثنا واصل - مولى ابن عيينة - حدثنى خالد بن عُرْفُطَةَ، عن طلحة بن نافع، عن جابر بن عبد الله قال: كنا مع النبى ﷺ فارتفعت ريح جيفة منتنة، فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين»^(٧)»^(٨).

طريق أخرى: قال عبد بن حميد فى مسنده: حدثنا إبراهيم بن الأشعث، حدثنا الفضيل بن عياض، عن سليمان، عن أبى سفيان - وهو طلحة بن نافع - عن جابر قال: كنا مع النبى ﷺ فى سفر فهاجت ريح منتنة^(٩)، فقال النبى ﷺ: «إن نفرًا من المنافقين اغتابوا ناساً من المسلمين، فلذلك بعثت هذه الريح» وربما قال: «فلذلك هاجت هذه الريح»^(١٠).

وقال السدى فى قوله: «أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا»: زعم أن سلمان الفارسى كان مع رجلين من أصحاب النبى ﷺ فى سفر يخدمهما ويخف لهما، وينال من طعامهما، وأن سلمان لما سار الناس ذات يوم وبقي سلمان نائماً، لم يسر معهم، فجعل صاحبه يكلمانه^(١١) فلم يجده، فضربا الخباء فقالا: ما يريد سليمان - أو: هذا العبد - شيئاً غير هذا: أن يجىء إلى طعام مقدور، وخباء مضروب! فلما جاء سلمان أرسلاه إلى رسول الله ﷺ يطلب لهما إداماً، فانطلق فأتى رسول

(١) المسند (٤٣١/٥).

(٢) فى ت: «وروى الحافظ أبو يعلى بمسنده».

(٣) فى ت، م، أ: «والعصا». (٤) فى ت: «من عرض أخيكما».

(٥) مسند أبى يعلى (٥٢٤/٦) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٢٢٧/٨) من طريق عمرو بن الضحاك به؛ ورواه أبو داود فى السنن برقم (٤٤٢٩) من طريق الضحاك به.

(٦) زيادة من ت.

(٧) فى ت، م، أ: «الناس».

(٨) المسند (٣٥١/٣) قال الهيثمى فى المجمع (٩١/٨): «رجاله ثقات».

(٩) فى م: «ريح شديدة منتنة».

(١٠) المنتخب برقم (١٠٢٦).

(١١) فى م: «يكلماه».

الله ﷺ^(١) ومعه قَدَحٌ له، فقال: يا رسول الله، بعثني أصحابي لِتُؤَدِمَهُمْ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ؟ قَالَ: «مَا يَصْنَعُ أَصْحَابُكَ بِالْأُدْمِ؟ قَدْ اتَّذَمُّوا». فَرَجَعَ سَلْمَانُ يُخْبِرُهُمَا بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاَنْطَلَقَا حَتَّى أَتَيَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَا: لَا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا أَصَبْنَا طَعَامًا مِنْذُ نَزَلْنَا. قَالَ: «إِنْ كُنتُمَا قَدْ اتَّذَمَّمْتُمَا بِسَلْمَانَ بِقَوْلِكُمَا».

قال: ونزلت: «أَيُّحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا»، إِنْ كَانَ نَائِمًا^(٢).

وروى الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه «المختارة» من طريق حَبَّانَ بن هلال، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: كانت العرب تخدم بعضها بعضا فى الأسفار، وكان مع أبى بكر وعمر رجل يخدمهما، فناما فاستيقظا ولم يهبيء لهما طعاما، فقالا: إِنْ هَذَا لَنُزُومٌ، فَأَيْقِظَاهُ، فَقَالَا لَهُ: ائْتِ رَسُولَ اللَّهِ فَقُلْ لَهُ: إِنْ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ يَقْرَأَانِكَ السَّلَامَ، وَيَسْتَأْذِنَانِكَ.

فقال: «إِنْهُمَا قَدْ اتَّذَمَّا» فجاءا فقالا: يا رسول الله، بِأَى شَيْءٍ اتَّذَمَّمْنَا؟ فقال: «بِلَحْمِ أَخِيكُمَا، وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ، إِنِّى لَأَرَى لَحْمَهُ بَيْنَ ثَنَائِيكُمَا». فقالا: استغفر لنا يا رسول الله فقال: «مُرَاهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمَا»^(٣).

وقال^(٤) الحافظ أبو يعلى: حدثنا الحكم بن موسى، حدثنا محمد بن مسلم، عن محمد بن إسحاق عن عمه موسى بن يسار، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَكَلَ مِنْ لَحْمِ أَخِيهِ فِي الدُّنْيَا، قُرَّبَ لَهُ لَحْمُهُ فِي الْآخِرَةِ، فَيَقَالُ لَهُ: كُلْهُ مَيْتًا كَمَا أَكَلْتَهُ حَيًّا. قَالَ: فَيَأْكُلُهُ وَيَكْلَحُ وَيَصِيحُ». غريب جدا^(٥).

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: فيما أمركم به ونهاكم عنه، فراقبوه فى ذلك واخشوا منه، ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ أى: تواب على من تاب إليه، رحيم بمن رجع إليه، واعتمد عليه.

قال الجمهور من العلماء: طريق المغتاب للناس فى توبته أن يُقْلَعَ^(٦) عن ذلك، ويعزم على ألا يعود. وهل يشترط الندم على ما فات؟ فيه نزاع، وأن يتحلل من الذى اغتابه. وقال آخرون: لا يشترط أن يتحلله فإنه إذا^(٧) أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه، فطريقه إذاً أن يثنى عليه بما فيه فى المجالس التى كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته، فتكون^(٨) تلك بتلك، كما قال الإمام أحمد^(٩):

حدثنا أحمد بن الحجاج، أخبرنا عبد الله، أخبرنا يحيى بن أيوب، عن عبد الله بن سليمان؛ أن إسماعيل بن يحيى المَعَاظِرَى أخبره أن سهل بن معاذ بن أنس الجُهَنَى أخبره، عن أبيه، عن^(١٠) النبى

(١) زيادة من ت.

(٢) رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره كما فى الدر المنثور (٧/ ٥٧٠).

(٣) المختارة برقم (١٦٩٧). (٤) فى ت: «وروى».

(٥) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٩٦١) «مجمع البحرين» من طريق محمد بن سلمة عن محمد بن إسحاق به، وقال: لم يروه عن ابن إسحاق إلا محمد بن سلمة، وقد وقع هنا «محمد بن مسلم» وأظنه تصحيفا، لكنى لا أستطيع الجزم بذلك، قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٩٢): «فيه ابن إسحاق وهو مدلس ومن لم أعرفه».

(٦) فى م: «يرجع».

(٧) فى ت: «لو».

(٨) فى ت: «لتكون».

(٩) فى ت: «أن».

(١٠) فى ت: «روى».

ﷺ قال: «من حمى مؤمنا من منافق يعيبه»^(١)، بعث الله إليه ملكا يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم. ومن رمى مؤمنا بشيء يريد شينه، حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال». وكذا رواه أبو داود من حديث عبد الله - وهو ابن المبارك - به بنحوه^(٢).

وقال^(٣) أبو داود أيضا: حدثنا إسحاق بن الصباح، حدثنا ابن أبي مريم، أخبرنا الليث: حدثني يحيى بن سليم؛ أنه سمع إسماعيل بن بشير يقول: سمعت جابر بن عبد الله، وأبا طلحة بن سهل الأنصاري يقولان: قال^(٤) رسول الله ﷺ: «ما من امرئ يخذل امرأ مسلما في موضع تنتهك فيه حرمة ويتقص فيه من عرضه، إلا خذله الله في موطن يحب فيها نصرته. وما من امرئ ينصر امرأ مسلما في موضع يتقص فيه من عرضه، ويتهك فيه من حرمة»^(٥)، إلا نصره الله في موطن يحب فيها نصرته». تفرد به أبو داود^(٦).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١٣) .

يقول تعالى مخبرا للناس أنه خلقهم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها، وهما آدم وحواء، وجعلهم شعوب، وهى أعم من القبائل، وبعد القبائل مراتب آخر كالفضائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك.

وقيل: المراد بالشعوب بطون العجم، وبالقبائل بطون العرب، كما أن الأسباط بطون بني إسرائيل. وقد لخصت هذا في مقدمة مفردة جمعتها من كتاب: «الإنباه» لأبى عمر^(٧) بن عبد البر، ومن كتاب «القصد والأمم، في معرفة أنساب العرب والعجم». فجميع الناس فى الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهى طاعة الله ومتابعة رسوله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضاً، منبها على تساويهم فى البشرية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ أى: ليحصل التعارف بينهم، كل يرجع إلى قبيلته.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾، كما يقال: فلان بن فلان من كذا وكذا، أى: من قبيلة كذا وكذا.

وقال سفيان الثوري: كانت حمير ينتسبون إلى مَخَالِيفِهَا، وكانت عرب الحجاز ينتسبون إلى قبائلها.

وقد قال^(٨) أبو عيسى الترمذى: حدثنا أحمد بن محمد، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن عبد

(١) فى أ: «بغية».

(٢) المسند (٤٤١/٣)، وسنن أبى داود برقم (٤٨٨٣).

(٣) فى ت: «وروى».

(٤) فى ت: «أن».

(٥) فى أ: «عرضه».

(٦) سنن أبى داود برقم (٤٨٨٤).

(٨) فى ت: «وروى».

(٧) فى م: «عمرو».

الملك ابن عيسى الثقفى، عن يزيد - مولى المنبث - عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم؛ فإن صلة الرحم محبة فى الأهل، مثرة فى المال، منسأة فى الأثر». ثم قال: غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه^(١).

وقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ أى: إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب. وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ:

قال^(٢) البخارى، رحمه الله: حدثنا محمد بن سلام، حدثنا عبدة، عن عبيد الله، عن سعيد بن أبى سعيد، عن أبى هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ: أى الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف نبى الله، ابن نبى الله، ابن خليل الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألونى؟» قالوا: نعم. قال: «فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا»^(٣).

وقد رواه البخارى فى غير موضع من طرق عن عبدة بن سليمان^(٤). ورواه النسائى فى التفسير من حديث عبيد الله - وهو ابن عمر العمرى - به^(٥).

حديث آخر: قال مسلم^(٦)، رحمه الله: حدثنا عمرو الناقد، حدثنا كثير بن هشام، حدثنا جعفر ابن برقان، عن يزيد بن الأصم، عن أبى هريرة^(٧) قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

ورواه ابن ماجه عن أحمد بن سنان، عن كثير بن هشام، به^(٨).

حديث آخر: وقال^(٩) الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن أبى هلال، عن بكر، عن أبى ذر قال: إن النبى ﷺ قال له: «انظر، فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضل به بتقوى»^(١٠). تفرد به أحمد^(١١).

حديث آخر: وقال^(١٢) الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أبو عبيدة عبد الوارث بن إبراهيم العسكرى، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو بن جبلة، حدثنا عبيد بن حنين الطائى، سمعت محمد بن حبيب بن خراش العَصْرِى، يحدث عن أبيه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول^(١٣): «المسلمون إخوة، لا

(١) سنن الترمذى برقم (١٩٧٩).

(٢) فى ت: «فروى».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٩).

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٣٨٣، ٣٣٧٤).

(٥) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٢٥٠).

(٦) فى ت: «وروى».

(٧) فى ت: «أبى هريرة رضى الله عنه».

(٨) صحيح مسلم برقم (٢٥٦٤)، وسنن ابن ماجه برقم (٤١٤٣).

(٩) فى ت: «وروى».

(١٠) فى ت: «بتقوى الله».

(١١) المسند (١٥٨/٥).

(١٢) فى ت: «أن رسول الله ﷺ قال».

(١٣) فى ت: «وروى».

فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى»^(١).

حديث آخر: قال^(٢) أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا أحمد بن يحيى الكوفى، حدثنا الحسن بن الحسين، حدثنا قيس - يعنى ابن الربيع - عن شبيب بن غرقدة^(٣)، عن المستظل بن حصين، عن حذيفة^(٤) قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم بنو آدم. وآدم خلق من تراب، وليتهين قوم يفخرون بأبائهم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان».

ثم قال: لا نعرفه عن حذيفة إلا من هذا الوجه^(٥).

حديث آخر: قال^(٦) ابن أبى حاتم: حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا يحيى بن زكريا القطان، حدثنا موسى بن عبيدة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: طاف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته القصواء يستلم الأركان^(٧) بمحجن فى يده، فما وجد لها مناخاً فى المسجد حتى نزل ﷺ على أيدي الرجال، فخرج بها إلى بطن المسيل فأنىخت. ثم إن رسول الله ﷺ خطبهم على راحلته، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل^(٨) ثم قال: «يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعظمها بابائها، فالتاس رجالان: رجل بر تقى كريم على الله، وفاجر شقى هين على الله. إن الله يقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» ثم قال: «أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم».

هكذا^(٩) رواه عبد بن حميد، عن أبى عاصم الضحاك بن مخلد، عن موسى بن عبيدة، به^(١٠).

حديث آخر: قال^(١١) الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن على بن رباح عن عقبة بن عامر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد، كلكم بنو آدم طَفَّ الصاع لم يملؤه، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى، وكفى بالرجل أن يكون بذيًا بخيلًا فاحشًا».

وقد رواه ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب، عن ابن لهيعة، به^(١٢). ولفظه: «الناس لآدم وحواء، طَفَّ الصاع لم يملؤه، إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة، إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

(١) المعجم الكبير (٢٥/٤)، وقال الهيثمى فى المجمع (٨٤/٨): «فيه عبد الرحمن بن عمرو بن جبلة، وهو متروك».

(٢) فى ت: «وروى». (٣) فى أ: «عروة».

(٤) فى ت: «عن حذيفة رضى الله عنه». (٥) مسند البزار برقم (٣٥٨٤)، وقال الهيثمى فى المجمع (٨٦/٨): «فيه الحسن بن الحسين العرنى، وهو ضعيف».

(٦) فى ت: «وروى».

(٧) فى ت: «الركن». (٨) فى ت، أ: «بما هو أهله».

(٩) فى ت: «وهكذا».

(١٠) المنتخب لعبد بن حميد برقم (٧٩٣) وفيه موسى بن عبيدة الربذى وهو ضعيف.

(١١) فى ت: «وروى».

(١٢) المسند (١٥٨/٤)، وتفسير الطبرى (٨٩/٢٦)، قال الهيثمى فى المجمع (٨٤/٨): «فيه ابن لهيعة وفيه لين، وبقيّة رجاله وثقوا».

قلت: الراوى عنه فى رواية الطبرى عبد الله بن وهب، فهذه متابعة قوية ليحيى بن إسحاق.

وليس هو فى شىء من الكتب الستة من هذا الوجه .

حديث آخر: قال^(١) الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا شريك، عن سَمَاك، عن عبد الله بن عَمِيرَةَ زوج دُرَّة ابنة أبى لهب، عن دُرَّة بنت أبى لهب قالت: قام رجل إلى النبى ﷺ وهو على المنبر، فقال: يا رسول الله، أى الناس خير؟ فقال ﷺ: «خير الناس أقرؤهم، وأتقاهم لله، عز وجل، وأمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأوصلهم للرحم»^(٢).

حديث آخر: قال^(٣) الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو الأسود، عن القاسم بن محمد، عن عائشة قالت: ما أعجب رسول الله ﷺ شىء من الدنيا، ولا أعجبه أحد قط، إلا ذو تقى. تفرد به أحمد رحمه الله^(٤).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أى: عليم بكم، خبير بأموركم، فيهدى من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، ويفضل من يشاء على من يشاء، وهو الحكيم العليم الخبير فى ذلك كله. وقد استدلل بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة، من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة فى النكاح لا تشترط، ولا يشترط سوى الدين، لقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. وذهب الآخرون إلى أدلة أخرى مذكورة فى كتب الفقه، وقد ذكرنا طرفا من ذلك فى «كتاب الأحكام»، والله الحمد والمنة. وقد روى الطبرانى عن عبد الرحمن أنه سمع رجلا من بنى هاشم يقول: أنا أولى الناس برسول الله. فقال: غيرك أولى به منك، ولك منه نسبه.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨).

(١) فى ت: «وروى».

(٢) المسند (٤٣٢/٦)، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٥٧/٢٤) من طريق شريك به، وقال الهيثمى فى المجمع (٢٦٣/٧): «رجالهما ثقات، وفى بعضهم كلام لا يضر».

(٣) فى ت: «وروى».

(٤) المسند (٦٩/٦).

يقول تعالى منكرًا على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾. وقد استفيد من هذه الآية الكريمة: أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل، عليه السلام، حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص منه.

قال^(١) الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه قال: أعطى رسول الله ﷺ رجلاً ولم يعط رجلاً منهم شيئاً، فقال سعد: يا رسول الله، أعطيت فلاناً وفلاناً ولم تعط فلاناً شيئاً، وهو مؤمن؟ فقال النبي ﷺ: «أو مسلم» حتى أعادها سعد ثلاثاً، والنبي ﷺ يقول: «أو مسلم» ثم قال النبي ﷺ: «إني لأعطي رجلاً وأدع من هو أحب إليّ منهم فلا أعطيه شيئاً؛ مخافة أن يكبوا في النار على وجوههم».

أخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري، به^(٢).

فقد فرق النبي ﷺ بين المسلم والمؤمن، فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام. وقد قررنا ذلك بأدلته في أول شرح كتاب الإيمان من «صحيح البخاري» والله الحمد والمنة. ودل ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلماً ليس منافقاً؛ لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام، فدل هذا على^(٣) أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فادبوا في ذلك. وهذا معنى قول ابن عباس وإبراهيم النخعي، وقتادة، واختاره ابن جرير. وإنما قلنا هذا لأن البخاري، رحمه الله، ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يُظهرون الإيمان وليسوا كذلك. وقد روى عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وابن زيد أنهم قالوا في قوله: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أي: استسلمنا خوف القتل والسب. قال مجاهد: نزلت في بني أسد بن خزيمة. وقال قتادة: نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ.

والصحيح الأول؛ أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد، فادبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا، كما ذكر المنافقون في سورة براءة. وإنما قيل لهؤلاء تأديباً: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد.

ثم قال: ﴿وَإِنْ تَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ [شيئاً]^(٤)﴾ أي: لا ينقصكم من أجوركم شيئاً، كقوله: ﴿وَمَا أَلْتَأْتُهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لمن تاب إليه وأناب.

(١) في ت: «وروى».

(٢) المسند (١٧٦/١)، وصحيح البخاري برقم (٢٧)، وصحيح مسلم برقم (١٥٠).

(٣) زيادة من ت.

(٤) في ت: «إلى».

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: إنما المؤمنون الكمل ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أى: لم يشكوا ولا تزلزلوا، بل ثبتوا^(١) على حال واحدة، وهى التصديق المحض، ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى: وبذلوا مهجهم^(٢) ونفائس أموالهم فى طاعة الله ورضوانه، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أى: فى قولهم إذا قالوا: «إنهم مؤمنون»، لا كبعض الأعراب الذين ليس معهم من الدين إلا الكلمة الظاهرة.

وقال^(٣) الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رشدين، حدثنى عمرو بن الحارث، عن أبى السمح، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد^(٤) قال: إن النبى ﷺ قال: «المؤمنون فى الدنيا على ثلاثة أجزاء: [الذين]^(٥) آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله. والذى يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم. ثم الذى إذا أشرف على طمع تركه الله، عز وجل»^(٦).

وقوله: ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أى: أتخبرونه^(٧) بما فى ضمائرکم، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: لا يخفى عليه من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

ثم قال [تعالى]^(٨): ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾، يعنى: الأعراب [الذين]^(٩) يمينون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول، يقول الله رداً عليهم: ﴿قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ﴾، فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم، والله المنة عليكم فيه، ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: فى دعواكم ذلك، كما قال النبى ﷺ للأنصار يوم حنين: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلّالاً فهداكم الله بى؟ وكنتم متفرقين فآلفكم الله بى؟ وعالة فأغناكم الله بى؟». كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمّن^(١٠).

وقال^(١١) الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا يحيى بن سعيد الأموى، عن محمد بن قيس، عن أبى عون، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس [رضى الله عنهما]^(١٢) قال: جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أسلمنا وقتلتك العرب، ولم تقاتلك، فقال رسول الله ﷺ: «إن فقهم قليل، وإن الشيطان ينطق^(١٣) على ألسنتهم». ونزلت هذه الآية: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

(٣) فى ت: «وروى».

(٢) فى ت: «مهجهم».

(١) فى ت: «ثبتوا».

(٤) فى ت: «أبى سعيد رضى الله عنه».

(٦) المسند (٨/٣) وفى إسناده دراج بن أبى الهيثم، وهو ضعيف.

(٧) فى ت: «أتخبرون».

(٨) زيادة من ت.

(٩) زيادة من ت، أ.

(١٠) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٣٣٠) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رضى الله عنه.

(١٢) زيادة من ت.

(١٣) فى أ: «ينطق».

ثم قال: لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه، ولا نعلم روى أبو عون محمد بن عبيد الله، عن سعيد بن جبير، غير^(١) هذا الحديث^(٢).

ثم كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وبصره بأعمال المخلوقات فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

آخر تفسير الحجرات، والله الحمد والمنة

(١) فى أ: «سوى».

(٢) ورواه النسائي فى السنن الكبرى برقم (١١٥١٩) من طريق يحيى بن سعيد الأموى به.

تفسير سورة ق

وهي مكية.

وهذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح، وقيل: من الحجرات. وأما ما يقوله العامة^(١): إنه من (عم) فلا أصل له، ولم يقله أحد من العلماء المعبرين^(٢) فيما نعلم. والدليل على أن هذه السورة هي أول المفصل ما رواه أبو داود في سننه، باب «تحزيب القرآن» ثم قال:

حدثنا مُسَدَّدٌ، حدثنا قُرَّان بن تمام، (ح) وحدثنا عبد الله بن سعيد أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد سليمان بن حيان - وهذا لفظه - عن عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى، عن عثمان بن عبد الله ابن أوس، عن جده - قال عبد الله بن سعيد: حدثني أوس بن حذيفة - ثم اتفقا. قال: قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف، قال: فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة، وأنزل رسول الله ﷺ بنى مالك في قبة له - قال مُسَدَّدٌ: وكان في الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من ثقيف، قال: كان رسول الله ﷺ [٣] كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا - قال أبو سعيد: قائما على رجله حتى يراوح بين رجله من طول القيام - فأكثر ما يحدثنا ما لقي من قومه قريش، ثم يقول: لا سواء^(٤) وكنا مستضعفين مستذلين - قال مُسَدَّدٌ: بمكة - فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب بيننا وبينهم، ندال عليهم ويدالون علينا. فلما كانت ليلة أبطأ^(٥) عن الوقت الذي كان يأتينا فيه، فقلنا: لقد أبطأت عنا^(٦) الليلة! قال: «إنه طرأ على حزبي من القرآن، فكرهت أن أجىء حتى أتمه». قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف تحزبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده.

ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن أبي خالد الأحمر، به. ورواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدي، عن عبد الله بن عبد الرحمن، هو ابن^(٧) يعلى الطائفي به^(٨).

إذا علم هذا، فإذا عدت ثمانيا وأربعين سورة، فالتى بعدهن سورة «ق». بيانه: ثلاث: البقرة، وآل عمران، والنساء. وخمس: المائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، وبراءة. وسبع: يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والنحل. وتسع: سبحان، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والنور، والفرقان. وإحدى عشرة: الشعراء، والنمل، والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والم السجدة، والأحزاب، وسبأ، وفاطر، ويس. وثلاث عشرة: الصافات، وص، والزمر، وغافر، وحم السجدة، وحم عسق، والزخرف، والدخان، والجاثية،

(٣) زيادة من م، أ.

(٢) في أ: «المفسرين».

(١) في م، أ: «العوام».

(٦) في أ: «علينا».

(٥) في م: «أبطأ علينا».

(٤) في م، أ: «لا أساء».

(٧) في أ: «أبو».

(٨) سنن أبي داود برقم (١٣٩٣)، وسنن ابن ماجه برقم (١٣٤٥)، والمسند (٩/٤).

والأحقاف، والقتال، والفتح، والحجرات. ثم بعد ذلك الحزب المفصل كما قاله الصحابة، رضى الله عنهم. فتعين أن أوله سورة «ق» وهو الذى قلناه^(١)، والله الحمد والمنة.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا مالك، عن ضمرة بن سعيد، عن عبيد الله^(٢) بن عبد الله؛ أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي: ما كان رسول الله ﷺ يقرأ فى العيد؟ قال: بقف، واقتربت.

ورواه مسلم وأهل السنن الأربعة، من حديث مالك، به^(٣). وفى رواية لمسلم عن فليح^(٤) عن ضمرة، عن عبيد الله^(٥)، عن أبى واقد قال: سألتنى عمر، فذكره^(٦).

حديث آخر: وقال أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن ابن إسحاق، حدثنى عبد الله بن محمد بن أبى بكر بن عمرو بن حزم، عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد^(٧) بن زُرارة، عن أم هشام بنت حارثة قالت: لقد كان تنورنا وتنور النبى ﷺ واحداً سنتين، أو سنة وبعض سنة، وما أخذت ﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ إلا على لسان رسول الله ﷺ، كان يقرأها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس.

رواه مسلم [أيضاً]^(٨) من حديث ابن إسحاق، به^(٩).

وقال أبو داود: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن خبيب^(١٠)، عن عبد الله بن محمد بن معن، عن ابنة الحارث بن النعمان قالت: ما حفظت «ق» إلا من فى رسول الله ﷺ، يخطب بها كل جمعة. قالت: وكان تنورنا وتنور رسول الله ﷺ واحداً.

وكذا رواه مسلم، والنسائى، وابن ماجه، من حديث شعبة، به^(١١).

والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة فى المجمع الكبار، كالعيد والجمع، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب.

﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ۝٥﴾.

(١) فى م: «قدمناه».

(٢) فى م: «عبد الله».

(٣) المسند (٢١٧/٥)، وصحيح مسلم برقم (٨٩١)، وسنن أبى داود برقم (١١٥٤)، وسنن الترمذى برقم (٥٣٤)، وسنن النسائى (١٨٣/٣)، وسنن ابن ماجه برقم (١٢٨٢).

(٤) فى م، أ: «مالك».

(٥) فى م: «عبد الله».

(٦) صحيح مسلم برقم (٨٩١).

(٧) فى م، أ: «أسعد».

(٨) زيادة من م.

(٩) المسند (٤٣٥/٦) وصحيح مسلم برقم (٨٧٣).

(١٠) فى م، أ: «خبیب».

(١١) سنن أبى داود برقم (١١٠٠)، وصحيح مسلم برقم (٨٧٣)، وسنن النسائى (١٥٧/٢) لكنه ليس من هذا الطريق.

﴿ق﴾: حرف من حروف الهجاء المذكورة^(١) فى أوائل السور، كقوله: (ص، ن، الم، حم، طس) ونحو ذلك، قاله مجاهد وغيره. وقد أسلفنا الكلام عليها، فى أول «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته.

وقد روى عن بعض السلف أنهم قالوا ﴿ق﴾: جبل محيط بجميع الأرض، يقال له جبل قاف. وكأن هذا - والله أعلم - من خرافات بنى إسرائيل التى أخذها عنهم بعض الناس، لما رأى من جواز الرواية عنهم فيما^(٢) لا يصدق ولا يكذب. وعندى أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبسون به على الناس أمر دينهم، كما افترى فى هذه الأمة - مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها - أحاديث عن النبى ﷺ وما بالعهد من قدم، فكيف بأمة بنى إسرائيل مع طول المدى، وقلة الحفاظ النقاد فيهم، وشربهم الخمر^(٣)، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته! وإنما أباح الشارع الرواية عنهم فى قوله: «وحدثوا عن بنى إسرائيل، ولا حرج» فيما قد يجوزه العقل، فأما فيما تُحيله العقول ويحكم عليه بالبطلان، ويغلب على الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل - والله أعلم.

وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين، وكذا طائفة كثيرة من الخلف، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب فى تفسير القرآن المجيد، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم، والله الحمد والمنة، حتى إن الإمام أبا محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى، رحمه الله، أورد هاهنا أثراً غريباً لا يصح سنده عن ابن عباس فقال:

حدثنا أبى قال: حدثت عن محمد بن إسماعيل المخزومى: حدثنا ليث بن أبى سليم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: خلق الله من وراء هذه الأرض بحراً محيطاً، ثم خلق من وراء ذلك جبلاً يقال له «ق» السماء الدنيا مرفوفة عليه. ثم خلق الله من وراء ذلك الجبل أرضاً مثل تلك الأرض سبع مرات. ثم خلق من وراء ذلك بحراً محيطاً بها، ثم خلق من وراء ذلك جبلاً يقال له «ق» السماء الثانية مرفوفة عليه، حتى عد سبع أرضين، وسبعة أبحر، وسبعة أجبل، وسبع سموات. قال: وذلك قوله: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: ٢٧].

فإسناد هذا الأثر فيه انقطاع، والذى رواه ابن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ق﴾ قال: هو اسم من أسماء الله، عز وجل.

والذى ثبت عن مجاهد: أنه حرف من حروف الهجاء، كقوله: (ص، ن، حم، طس، الم) ونحو ذلك. فهذه تُبعد ما تقدم عن ابن عباس.

وقيل: المراد «قضى الأمر والله»، وأن قوله: ﴿ق﴾ دلت على المحذوف من بقية الكلم^(٤) كقول

(١) فى م: «الذى تقدم ذكرها».

(٢) فى م: «بما».

(٣) فى أ: «الخمر».

(٤) فى م، أ: «الكلمة».

الشاعر:

قلت لها: قفى فقالت: قاف

وفى هذا التفسير نظر؛ لأن الحذف فى الكلام إنما يكون إذا دل دليل عليه، ومن أين يفهم هذا من ذكر هذا الحرف؟

وقوله: ﴿وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ أى: الكريم العظيم الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

واختلفوا فى جواب القسم ما هو؟ فحكى ابن جرير عن بعض النحاة أنه قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ﴾.

وفى هذا نظر، بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم، وهو إثبات النبوة، وإثبات المعاد، وتقريره وتحقيقه وإن لم يكن القسم متلقى لنظراً، وهذا كثير فى أقسام القرآن كما تقدم فى قوله: ﴿ص وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ١، ٢]، وهكذا قال هاهنا: ﴿ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ. بَلِ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أى: تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر كقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢] أى: وليس هذا بعجيب؛ فإن الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس.

ثم قال مخبراً عنهم فى عجبهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوقوعه: ﴿أَنَذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أى: يقولون: أنذا متنا وبلينا، وتقطعت الأوصال منا، وصرنا تراباً، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟ ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أى: بعيد الوقوع، ومعنى هذا: أنهم يعتقدون استحالة وعدم إمكانه، قال الله تعالى راداً عليهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أى: ما تأكل من أجسادهم فى البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان؟ وأين ذهبت؟ وإلى أين صارت؟ ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ﴾ أى: حافظ لذلك، فالعلم شامل، والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة.

قال العوفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أى: ما تأكل من لحومهم وأبشارهم، وعظامهم وأشعارهم. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، وغيرهم.

ثم بين تعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد فقال: ﴿بَلِ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ أى: وهذا حال كل من خرج عن الحق، مهما قال بعد ذلك فهو باطل. والمريج: المختلف المضطرب الملتبس المنكر خلاله، كقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ. يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ الْأَفْكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩].

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (٦) وَالْأَرْضَ

مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١) .

يقول تعالى منها للعباد على قدرته العظيمة التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا؟﴾ أى: بالمصاييح، ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾. قال مجاهد: يعنى من شقوق. وقال غيره: فتوق. وقال غيره: من صدوع. والمعنى متقارب، كقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤] أى: كليل، أى: عن أن يرى عيباً أو نقصاً.

وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ أى: وسعناها وفرشناها، ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ وهى: الجبال؛ لئلا تئبد بأهلها وتضطرب؛ فإنها مقررة على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها، ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أى: من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع، ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، وقوله: ﴿بَهِيجٍ﴾ أى: حسن نضر، ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ أى: ومشاهدة خلق السموات [والأرض] ^(١) وما جعل [الله] ^(٢) فيهما من الآيات العظيمة تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب، أى: خاضع خائف وجل رجّاع إلى الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ أى: نافعاً، ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ أى: حدائق من بساتين ونحوها، ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ وهو: الزرع الذى يراد لحبه وادخاره.

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ أى: طوالا شاهقات. وقال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسدى، وغيرهم: الباسقات الطوال. ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ أى: منضود. ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ أى: للخلق، ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا﴾، وهى الأرض التى كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهترت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، من أزاهير وغير ذلك، مما يحار الطرف فى ^(٣) حسننها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها، فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيى الله الموتى. وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث ^(٤)، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُمْ بَقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الاحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ^(٥) فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

(٣) فى م: «من».

(٢) زيادة من أ.

(١) زيادة من م، أ.

(٥) فى م: «هامدة» وهو خطأ.

(٤) فى م، أ: «البعث».

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)﴾ .

يقول تعالى متهددا لكفار قريش بما أحله بأشباههم ونظرائهم وأمثالهم من المكذبين قبلهم، من النقمات والعذاب الأليم في الدنيا، كقوم نوح وما عذبهم الله به من الغرق العام^(١) لجميع أهل الأرض، وأصحاب الرس وقد تقدمت قصتهم في سورة «الفرقان»^(٢) ﴿وَتَمُودُ. وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾، وهم أمتة الذين بعث إليهم من أهل سدوم ومعاملتها من الغور، وكيف خسف الله بهم الأرض، وأحال أرضهم بحيرة منتنة خبيثة؛ بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحق، ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام، ﴿وَقَوْمُ تَبَّعٍ﴾ وهو اليماني. وقد ذكرنا من شأنه في سورة الدخان بما أغنى عن إعادته هاهنا والله الحمد.

﴿كُلُّ كَذَّبَ الرُّسُلِ﴾ أى: كل من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذب رسوله^(٣)، ومن كذب رسولا^(٤) فكأنما كذب جميع الرسل، كقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وإنما جاءهم رسول واحد، فهم في نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم، ﴿فَحَقَّ وَعِيدُ﴾ أى: فحق عليهم ما أوعدهم الله، على التكذيب من العذاب والنكال فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك.

وقوله: ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ أى: أفأعجزنا^(٥) ابتداء الخلق حتى هم في شك من الإعادة، ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ والمعنى: أن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل منه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]. وقد تقدم في الصحيح: «يقول الله تعالى: يؤذني ابن آدم، يقول: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته»^(٦).

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنَفَخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ

(١) في م: «العظيم».

(٢) تقدم ذلك في سورة الفرقان عند الآية رقم (٣٨).

(٣) في م: «فأعجزنا».

(٤) في م: «برسول».

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

يَوْمَ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) .

يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه، وعلمه محيط بجميع أموره، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر. وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله (١) تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل» (٢).

وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ يعني: ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده (٣) إليه. ومن تأوله على العلم فإنما فر لثلا يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، كما قال في المحتضر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥]، يعني ملائكته. وكما قال [تعالى] (٤): ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فالملائكة نزلت بالذكر - وهو القرآن - بإذن الله، عز وجل. وكذلك (٥) الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار (٦) الله لهم على ذلك، فالملك لمة في الإنسان كما أن للشيطان لمة وكذلك: «الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ يعني: الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان. ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي: مترصد (٧) ﴿مَا يَلْفِظُ﴾ أي: ابن آدم ﴿مِنْ قَوْلٍ﴾ أي: ما يتكلم بكلمة (٨) ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي: إلا ولها من يراقبها معتد (٩) لذلك يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ. كِرَامًا كَاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢].

وقد اختلف العلماء: هل يكتب الملك كل شيء من الكلام؟ وهو قول الحسن وقتادة، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب كما هو قول ابن عباس، على قولين، وظاهر الآية الأول، لعموم قوله: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة الليثي، عن أبيه، عن جده علقمة، عن بلال بن الحارث المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه» (١٠). وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله عليه بها (١١) سخطه إلى يوم يلقاه». قال: فكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعه حديث بلال بن الحارث.

ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، من حديث محمد بن عمرو به (١٢). وقال الترمذي: حسن

(١) في أ: «إن الله تعالى».
(٢) صحيح البخاري برقم (٥٢٦٩)، وصحيح مسلم برقم (١٢٧).
(٣) في أ: «الوريد».
(٤) زيادة من م، أ.
(٥) في أ: «ولذلك».
(٦) في م: «باقندار».
(٧) في م: «مرصد».
(٨) في م: «بكلام».
(٩) في م: «معد».
(١٠) في أ: «القيامة».
(١١) في م: «له بها عليه».
(١٢) المسند (٤٦٩/٣) وسنن الترمذي برقم (٢٣١٩)، والنسائي في السنن الكبرى، كما في تحفة الاشراف (١٠٣/٢)، وسنن ابن ماجه برقم (٣٩٦٩).

صحيح. وله شاهد^(١) فى الصحيح^(٢).

وقال الأحنف بن قيس: صاحب اليمين يكتب الخير، وهو أمير على صاحب الشمال، فإن أصاب العبد خطيئة قال له: أمسك، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها، وإن أبى كتبها. رواه ابن أبى حاتم.

وقال الحسن البصرى وتلا هذه الآية: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾: يا ابن آدم، بسطت لك صحيفة، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذى عن يسارك فيحفظ سيئاتك فاعمل^(٣) ما شئت، أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك، وجعلت فى عنقك معك فى قبرك، حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا. اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾. [الإسراء: ١٣، ١٤] ثم يقول: عدل - والله - فىك من جعلك حسيب نفسك.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ قال: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر، حتى إنه ليكتب قوله: «أكلت، شربت، ذهبت، جئت، رأيت»، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله، فأقر منه ما كان فيه من خير أو شرب، وألقى سائرته، وذلك قوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]، وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يثن فى مرضه، فبلغه عن طاوس أنه قال: يكتب الملك كل شئ حتى الأنين. فلم يثن أحمد حتى مات رحمه الله^(٤).

وقوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، يقول تعالى: وجاءت - أيها الإنسان - سكرة الموت بالحق، أى: كشفت لك عن اليقين الذى كنت تترى فيه، ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أى: هذا هو الذى كنت تفر منه قد جاءك، فلا محيد ولا مناص، ولا فكاك ولا خلاص. وقد اختلف المفسرون فى المخاطب بقوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، فالصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو. وقيل: الكافر، وقيل: غير ذلك.

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا: حدثنا إبراهيم بن زياد - سبلان - أخبرنا عبّاد بن عبّاد عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبيه، عن جده علقمة بن وقاص^(٥) أن عائشة، رضى الله عنها، قالت: حضرت أبى وهو يموت، وأنا جالسة عند رأسه، فأخذته غشية فتمثلت ببيت من الشعر:

من لا يزال دمه مقلّعا فإنه لا بد مرة^(٦) مدقوق^(٧)

(١) فى أ: «شواهد».

(٢) شاهده حديث أبى هريرة رضى الله عنه أخرجه البخارى فى صحيحه برقم (٦٤٧٨).

(٣) فى أ: «فاملل».

(٤) رواه صالح بن الإمام أحمد فى سيرة أبيه.

(٥) فى أ: «أبى وقاص» وهو خطأ. انظر ترجمته فى تهذيب التهذيب.

(٦) البيت فى النهاية لابن الأثير (١١٥/٤) وعنده: لا بد يوما أن يهراق.

(٧) فى أ: «من دمه».

قالت: فرفع رأسه فقال: يا بنية، ليس كذلك ولكن كما قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.

وحدثنا^(١) خلف بن هشام؛ حدثنا أبو شهاب [الخطاط]^(٢)، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن البهي قال: لما أن ثقل أبو بكر^(٣)، رضى الله عنه، جاءت عائشة، رضى الله عنها، فتمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر^(٤)

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذلك، ولكن قولى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾. وقد أوردت لهذا الأثر طرقا [كثيرة]^(٥) فى سيرة الصديق عند ذكر وفاته، رضى الله عنه.

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ: لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «سبحان الله! إن للموت لسكرات». وفى قوله: ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ قولان:

أحدهما: أن «ما» هاهنا موصولة، أى: الذى كنت منه تحيد - بمعنى: تبتعد وتأنى وتفر - قد حل بك ونزل بساحتك.

والقول الثانى: أن «ما» نافية بمعنى: ذلك ما كنت تقدر على الفرار منه ولا الحيد عنه.

وقد قال الطبرانى فى المعجم الكبير: حدثنا محمد بن على الصائغ المكى، حدثنا حفص بن عمر الحدى، حدثنا معاذ بن محمد الهذلى، عن يونس بن عبيد، عن الحسن، عن سمرّة قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل الذى يفر من الموت مثل الثعلب، تطلبه الأرض يذّين، فجاء يسعى حتى إذا أعمى وأسهر دخل جحره، فقالت له الأرض: يا ثعلب، دينى. فخرج وله حصاص، فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه ومات»^(٦).

ومضمون هذا المثل: كما لا انفكاك له ولا محيد عن الأرض كذلك الإنسان لا محيد له عن الموت.

وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾. قد تقدم الكلام على حديث النفخ فى الصور والفرع والصعق والبعث^(٧)، وذلك يوم القيامة. وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له». قالوا: يا رسول الله كيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل». فقال القوم: حسبنا الله ونعم الوكيل.

(٣) فى م: «أبا بكر».

(١) فى أ: «وحدثت». (٢) زيادة من م، أ.

(٤) البيت لحاتم الطائى، وهو فى ديوانه ص (٥٠) أ. هـ مستفادا من طبعة الشعب.

(٦) المعجم الكبير (٢٢٢/٧)، وقال الهيثمى فى المجمع (٣٢٠/٢): «فيه معاذ بن محمد الهذلى، قال العقيلي: لا يتابع على رفع حديثه».

(٧) فى م: «للفزع وللصعق وللبعث».

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أى: ملك يسوقه إلى المحشر، وملك يشهد عليه بأعماله. هذا هو الظاهر من الآية الكريمة. وهو اختيار ابن جرير، ثم روى من حديث إسماعيل بن أبى خالد عن يحيى بن رافع - مولى لثقيف - قال: سمعت عثمان بن عفان يخطب^(١)، فقرأ هذه الآية: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، فقال: سائق يسوقها إلى الله، وشاهد يشهد عليها بما عملت. وكذا قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد.

وقال مُطَرِّف، عن أبى جعفر - مولى أشجع - عن أبى هريرة: السائق: الملك، والشهيد: العمل. وكذا قال الضحاك والسدى.

وقال العوفى عن ابن عباس: السائق من الملائكة، والشهيد: الإنسان نفسه، يشهد على نفسه. وبه قال الضحاك بن مزاحم أيضا.

وحكى ابن جرير ثلاثة أقوال فى المراد بهذا الخطاب فى قوله: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

أحدها: أن المراد بذلك الكافر. رواه على بن أبى طلحة، عن ابن عباس. وبه يقول الضحاك بن مزاحم وصالح بن كيسان.

والثانى: أن المراد بذلك كل أحد من بر وفاجر؛ لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة والدنيا كالنم. وهذا اختيار ابن جرير، ونقله عن حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس.

والثالث: أن المخاطب بذلك النبى ﷺ. وبه يقول زيد بن أسلم، وابنه. والمعنى على قولهما: لقد كنت فى غفلة من هذا الشأن^(٢) قبل أن يوحى إليك، فكشفنا عنك غطاءك بأنزاله إليك، فبصرك اليوم حديد.

والظاهر من السياق خلاف هذا، بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو، والمراد بقوله: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ يعنى: من هذا اليوم، ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أى: قوى؛ لأن كل واحد يوم القيامة يكون مستبصرا، حتى الكفار فى الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة، لكن لا ينفعهم ذلك. قال الله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصُرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ (٢٣) أَلْقِيََا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا

أَطْعِمْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩) .

يقول تعالى مخبراً عن الملك الموكل بعمل ابن آدم: أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل^(١)، ويقول: ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أى: معتد^(٢) محضر^(٣) بلا زيادة ولا نقصان.

وقال مجاهد: هذا كلام الملك السائق يقول: هذا ابن آدم الذى وكلتني به، قد أحضرته.

وقد اختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد، وله اتجاه وقوة.

فعند ذلك يحكم الله، سبحانه وتعالى، فى الخليقة بالعدل فيقول: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

وقد اختلف النحاة فى قوله: ﴿أَلْقِيَا﴾، فقال بعضهم: هى لغة لبعض العرب يخاطبون المفرد بالثنية، كما روى عن الحجاج أنه كان يقول: يا حرسى، اضربا عنقه، ومما أنشد ابن جرير على هذه اللغة قول الشاعر:

فإن ترجرانى - يا ابن عفان - أنزجر وإن تتركانى أحمر عرضاً ممنعا^(٤)

وقيل: بل هى نون التوكيد، سهلت إلى الألف. وهذا بعيد؛ لأن هذا إنما يكون فى الوقف، والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب، فلما أدى الشهيد عليه، أمرهما الله تعالى بإلقائه فى نار جهنم وبئس المصير.

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أى: كثير الكفر والتكذيب بالحق، ﴿عَنِيدٍ﴾: معاند للحق، معارض له بالباطل مع علمه بذلك. ﴿مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ أى: لا يؤدى ما عليه من الحقوق، ولا بر فيه ولا صلة ولا صدقة، ﴿مُعْتَدٍ﴾ أى: فيما ينفقه ويصرفه، يتجاوز فيه الحد.

وقال قتادة: معتد فى منطقته وسيرته وأمره.

﴿مُرِيبٍ﴾ أى: شاك فى أمره، مرِيب لمن نظر فى أمره ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أى: أشرك بالله فعبد معه غيره، ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾. وقد تقدم فى الحديث: أن عتقاً من النار يبرز للخلائق فينادى بصوت يسمع الخلائق: إني وكلت بثلاثة، بكل جبار عنيد، ومن جعل مع الله إلهاً آخر، وبالمصورين ثم تلو^(٥) عليهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا معاوية - هو ابن هشام - حدثنا شيبان، عن فراس، عن عطية^(٦)، عن أبى سعيد الخدرى عن نبي الله ﷺ أنه قال: «يخرج عتق من النار يتكلم، يقول: وكلت اليوم بثلاثة:

(١) فى أ: «بما عمل». (٢) فى م، أ: «معد». (٣) فى أ: «محصى».

(٤) تفسير الطبرى (١٠٣/٢٦).

(٥) فى م، أ: «تنطوى».

(٦) فى م: «حدثنا شيبان هو ابن هشام عن فراس عن عطية».

بكل جبار، ومن جعل مع الله إلهاً آخر، ومن قتل نفساً بغير نفس^(١). فتنتوى عليهم، فتقذفهم في غمرات جهنم^(٢).

﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم: هو الشيطان الذي وكل به: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ أى: يقول عن الإنسان الذي قد وافى القيامة كافراً، يتبرأ منه شيطانه، فيقول: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ أى: ما أضللتته، ﴿وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أى: بل كان هو في نفسه ضالاً قابلاً للباطل معانداً للحق. كما أخبر تعالى في الآية الأخرى في قوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقوله: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ يقول^(٣) الرب عز وجل للإنسى وقرينه من الجن، وذلك أنهما يختصمان بين يدي الحق فيقول الإنسى: يا رب، هذا أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى. ويقول الشيطان: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أى: عن منهج الحق. فيقول الرب عز وجل لهما: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ أى: عندى، ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ أى: قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل، وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج والبيّنات والبراهين.

﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ﴾: قال مجاهد: يعنى قد قضيت ما أنا قاض، ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أى: لست أعذب أحداً بذنب أحد، ولكن لا أعذب أحداً إلا بذنبه، بعد قيام الحجة عليه.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ (٣٠) وَأَزَلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيزٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥).

يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة: هل امتلأت؟ وذلك أنه وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين، فهو سبحانه يأمر بمن^(٤) يأمر به إليها، ويلقى وهى تقول: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ أى: هل بقى شئ تزيدونى؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية، وعليه تدل الأحاديث:

قال البخارى عند تفسير هذه الآية: حدثنا عبد الله بن أبى الأسود، حدثنا حرمى بن عمارة حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ قال: «يُلْقَى فِي النَّارِ، وتقول: هل من مزيد، حتى يضع قدمه فيها، فتقول: قط قط»^(٥).

(١) فى م: «حق».

(٢) المسند (٣/ ٤٠).

(٣) فى م: «يقوله».

(٤) فى م: «من».

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٤٨).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط، وعزتك وكرمك ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا آخر فيسكنهم في فضول^(١) الجنة»^(٢).

ثم رواه مسلم من حديث قتادة، بنحوه^(٣). ورواه أبان العطار وسليمان التيمي، عن قتادة، بنحوه^(٤).

حديث آخر: قال^(٥) البخاري: حدثنا محمد بن موسى القطان، حدثنا أبو سفيان الحميري سعيد ابن يحيى بن مهدي، حدثنا عوف، عن محمد، عن أبي هريرة - رفعه، وأكثر ما كان يوقفه أبو سفيان -: «يقال لجهنم: هل امتلأت، وتقول: هل من مزيد، فيضع الرب، عز وجل، قدمه عليها^(٦)، فتقول: قط قط»^(٧).

رواه أيوب وهشام بن حسان عن محمد بن سيرين، به^(٨).

طريق أخرى: قال^(٩) البخاري: وحدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن همام^(١٠)، عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «تحتج الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم. قال الله، عز وجل، للجنة: أنت رحمتي، أرحم بك من أشياء من عبادي. وقال للنار: إنما أنت عذابي، أعذب بك من أشياء من عبادي، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله، فتقول: قط قط، فهناك تمتلئ ويزوى^(١١) بعضها إلى بعض ولا يظلم الله من خلقه أحدا، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقا آخر»^(١٢).

حديث آخر: قال^(١٣) مسلم في صحيحه: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجت الجنة والنار، فقالت النار: في الجبارون والمتكبرون. وقالت الجنة: في ضعفاء الناس ومساكينهم. فقضى بينهما، فقال للجنة: إنما أنت رحمتي، أرحم بك من أشياء من عبادي. وقال للنار: إنما أنت عذابي، أعذب بك من

(١) في أ: «فضل».

(٢) المسند (٣/٢٣٤).

(٣) صحيح مسلم برقم (٤٨٤٨).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٦/١٠٦).

(٥) في م: «وقال».

(٦) في م: «عليها قدمه».

(٧) صحيح البخاري برقم (٤٨٤٩).

(٨) رواه أحمد في مسنده (٥٠٧/٢) من طريق هشام بن حسان به. ورواه الطبري في تفسيره (٢٦/١٠٧) من طريق أيوب وهشام بن حسان به.

(٩) في م: «وقال».

(١٠) في م: «همام بن منبه».

(١١) في أ: «ينزوي».

(١٢) صحيح البخاري برقم (٤٨٥٠).

(١٣) في م: «وقال».

أشاء من عبادى، ولكل واحدة منكما ملؤها» انفرد به مسلم دون البخارى^(١) من هذا الوجه. والله، سبحانه وتعالى، أعلم.

وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى، عن أبى سعيد بأبسط من هذا السياق فقال:

حدثنا حسن وروح قالوا: حدثنا حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن أبى سعيد الخدرى؛ أن رسول الله ﷺ قال: «افتخرت الجنة والنار، فقالت النار: يا رب، يدخلنى الجبابرة والمتكبرون والملوك والأشراف. وقالت الجنة: أى رب، يدخلنى الضعفاء والفقراء والمساكين. فيقول الله، عز وجل، للنار: أنت عذابى، أصيب بك من أشاء. وقال للجنة: أنت رحمتى، وسعت كل شىء، ولكل واحدة منكما ملؤها، فيلقى فى النار أهلها فتقول: هل من مزيد؟ قال: ويلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ ويلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يأتيتها^(٢) عز وجل، فيضع قدمه عليها، فتزوى وتقول: قدنى، قدنى. وأما الجنة فيبقى فيها ما شاء الله أن يبقى، فينشئ الله لها خلقا ما يشاء»^(٣).

حديث آخر: وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده: حدثنا عقبة بن مكرم، حدثنا يونس، حدثنا عبد الغفار بن القاسم، عن عدى بن ثابت، عن زب بن حبش، عن أبى بن كعب؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يعرفنى الله، عز وجل، نفسه يوم القيامة، فأسجد سجدة يرضى بها عنى، ثم أمدحه مدحة يرضى بها عنى، ثم يؤذن لى فى الكلام، ثم تمر أمتى على الصراط - مضروب بين ظهراى جهنم - فيمرون أسرع من الطرف والسهم، وأسرع من أجود الخيل، حتى يخرج الرجل منها يحبو، وهى الأعمال. وجهنم تسأل المزد، حتى يضع فيها قدمه، فينزوى بعضها إلى بعض وتقول: قط قط! وأنا على الخوض». قيل: وما الخوض يا رسول الله؟ قال: «والذى نفسى بيده، إن شرا به أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، وأبرد من الثلج، وأطيب ريحا من المسك. وآيته أكثر من عدد النجوم، لا يشرب منه إنسان فيظماً أبداً، ولا يصرف فيروى أبداً»^(٤). وهذا القول هو اختيار ابن جرير.

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو يحيى الحماني^(٥) عن نصر الخزاز، عن عكرمة، عن ابن عباس، ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِحِجْهِمْ هَلْ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ قال: ما امتلأت، قال: تقول: وهل فى من مكان يزداد فى.

وكذا روى الحكم بن أبان عن عكرمة: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾: وهل فى مدخل واحد، قد

(١) صحيح مسلم برقم (٢٨٤٧).

(٢) فى م: «يأتيتها ربها».

(٣) المسند (١٣/٣).

(٤) ورواه ابن أبى عاصم فى السنة برقم (٧٩٠) من طريق عقبة بن مكرم به.

وقال الألبانى: «إسناده موضوع، آفته عبد الغفار بن القاسم، وهو أبو مريم الأنصارى، كان يضع الحديث كما قال ابن المدينى

وأبو داود».

(٥) فى م: «الحماني».

امتلاأت.

[و] ^(١) قال الوليد بن مسلم، عن يزيد بن أبي مريم أنه سمع مجاهداً يقول: لا يزال يقذف فيها حتى تقول: قد امتلاأت فتقول: هل [فى] ^(٢) من مزيد؟ وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو هذا. فعند هؤلاء أن قوله تعالى: ﴿هَلِ امْتَلَأْتُ﴾، إنما هو بعد ما يضع عليها قدمه، فتزوى وتقول حينئذ: هل بقى فى [من] ^(٣) مزيد؟ يسع شيئاً.

قال العوفى، عن ابن عباس: وذلك حين لا يبقى فيها موضع [يسع] ^(٤) إبرة. فالله ^(٥) أعلم. وقوله: ﴿وَأَزْلَفْتُ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: قال قتادة، وأبو مالك، والسدى: ﴿أَزْلَفْتُ﴾ أدنيت وقربت من المتقين، ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾، وذلك يوم القيامة، وليس ببعيد؛ لأنه واقع لا محالة، وكل ما هو آت آت.

﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ ^(٦)﴾ أى: رجاء تائب مقلع، ﴿حَفِيفٍ ^(٧)﴾ أى: يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ^(٧) ينكته.

وقال عبيد بن عمير: الأواب: الحفيظ الذى لا يجلس مجلساً [فيقوم] ^(٨) حتى يستغفر الله، عز وجل.

﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ^(٩)﴾ أى: من خاف الله فى سره حيث لا يراه أحد إلا الله. كقوله [عليه السلام] ^(٩): «ورجل ذكر الله خالياً، ففاضت عيناه».

﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ^(١٠)﴾ أى: ولقى الله يوم القيامة بقلب سليم منيب إليه خاضع لديه. ﴿ادْخُلُوهَا ^(١١)﴾ أى: الجنة ﴿بِسَلَامٍ﴾، قال قتادة: سلموا من عذاب الله، وسلم عليهم ملائكة الله. وقوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ^(١٢)﴾ أى: يخلدون فى الجنة فلا يموتون أبداً، ولا يظعنون أبداً، ولا يبعثون عنها حولا.

وقوله: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا ^(١٣)﴾ أى: مهما اختاروا وجدوا، من أى أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا بَقِيَّةٌ، عن بَحِيرٍ ^(١٤) بن سعد، عن خالد بن معدان، عن كثير بن مرة قال: من المزيد أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول: ماذا تريدون فأمره لكم؟ فلا يدعون بشيء إلا أمطرتهم. قال كثير: لئن أشهدنى الله ذلك لأقولن: أمطرنا جوارى مزيّنات.

(٥) فى م: «والله».

(٨) زيادة من م، أ.

(٤) زيادة من م، أ.

(٧) زيادة من م.

(١٠) فى م: «يحيى».

(١-٣) زيادة من م.

(٦) فى أ: ﴿أواب حفيظ﴾.

(٩) زيادة من م، أ.

وفى الحديث عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال له: «إنك لتشتهى الطير فى الجنة، فيخر بين يديك مشوياً»^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا على بن عبد الله، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنى أبى، عن عامر الأحول، عن أبى الصديق^(٢)، عن أبى سعيد الخدرى؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا اشتهى المؤمن الولد فى الجنة، كان حمله ووضعه وسنّه فى ساعة واحدة».

ورواه الترمذى وابن ماجه عن بُنْدَار، عن معاذ بن هشام، به^(٣). وقال الترمذى: حسن غريب، وزاد «كما يشتهى».

وقوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. وقد تقدم فى صحيح مسلم عن صُهَيْب بن سنان الرومى: أنها النظر إلى وجه الله الكريم. وقد روى البزار وابن أبى حاتم، من حديث شريك القاضى، عن عثمان بن عمير أبى اليقظان، عن أنس بن مالك فى قوله عز وجل: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قال: يظهر لهم الرب، عز وجل، فى كل جمعة^(٤).

وقد رواه الإمام أبو عبد الله الشافعى مرفوعاً فقال فى مسنده: أخبرنا إبراهيم بن محمد، حدثنى موسى بن عبيدة، حدثنى أبو الأزهر معاوية بن إسحاق بن طلحة، عن عبد الله بن عبيد بن عمير^(٥) أنه سمع أنس بن مالك يقول: أتى جبرائيل بمرآة بيضاء فيها نكتة إلى رسول الله، فقال النبى ﷺ: «ما هذه؟». فقال: هذه الجمعة، فضلت بها أنت وأمتك، فالتاس لكم فيها تبع، اليهود والنصارى، ولكم فيها خير، ولكم فيها ساعة لا يوافقها مؤمن^(٦) يدعو الله بخير إلا استجيب له، وهو عندنا يوم المزيّد. قال النبى ﷺ: «يا جبريل، وما يوم المزيّد؟». قال: إن ربك اتخذ فى الفردوس واديا أفيح فيه كذب المسك، فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله ما شاء^(٧) من ملائكته، وحوله منابر من نور، عليها مقاعد النبيّن، وحف تلك المنابر بمنابر من ذهب، مكللة بالياقوت والزبرجد، عليها الشهداء والصدّيقون^(٨) فجلسوا من ورائهم على تلك الكتب، فيقول الله عز وجل: أنا ربكم، قد صدقتكم وعدى، فسلونى أعطكم. فيقولون: ربنا، نسألك رضوانك، فيقول: قد رضيت عنكم، ولكم على ما تمّنينتم، ولدى مزيّد. فهم يحبون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه ربهم من الخير، وهو اليوم الذى استوى فيه ربكم على العرش، وفيه خلق آدم، وفيه تقوم الساعة».

(١) رواه الحسن بن عرفة فى جزئه برقم (٢٢) والبزار فى مسنده برقم (٣٥٣٢) «كشف الأستار» وابن عدى فى الكامل (٦/٦٨٩) من طريق خلف بن خليفة عن حميد الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن ابن مسعود مرفوعاً به.

وفيه حميد الأعرج، قال البخارى: منكر الحديث، وقال ابن حبان: أحاديثه شبه الموضوععة.

(٢) فى م: «عن أبى بكر الصديق».

(٣) المسند (٩/٣) وسنن الترمذى برقم (٢٥٦٣) وسنن ابن ماجه برقم (٤٣٣٨).

(٤) فى أ: «جهة».

(٥) فى م: «عن عبيد الله بن عمير»، وفى الأصل: «عبد الله عمير» والتصويب من الأم للشافعى.

(٦) فى م: «رسول الله». (٧) فى أ: «لا يوافقها عبد مؤمن» (٨) فى م: «ناساً».

(٩) فى أ: «الصالحون».

[و] ^(١) هكذا أورده الإمام الشافعى فى كتاب «الجمعة» من الأم ^(٢)، وله طرق على أنس بن مالك، رضى الله عنه. وقد أورد ابن جرير هذا من رواية عثمان بن عمير، عن أنس بأبسط من هذا ^(٣)، وذكر هاهنا أثراً مطولاً عن أنس بن مالك موقوفاً وفيه غرائب كثيرة ^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل فى الجنة ليتكىء فى الجنة سبعين سنة قبل أن يتحول ثم تأتیه امرأة فتضرب على منكبه ^(٥) فينظر وجهه فى خدها أصفى من المرأة، وإن أدنى لؤلؤة عليها تضىء ما بين المشرق والمغرب. فتسلم عليه، فيرد السلام، فيسألها: من أنت؟ فتقول: أنا من المزيّد. وإنه ليكون عليها سبعون حلة، أدناها مثل النعمان، من طوبى، فينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك، وإن عليها من التيجان، إن أدنى لؤلؤة منها لتضىء ما بين المشرق والمغرب» ^(٦).

وهكذا رواه عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث، عن دراج، به ^(٧).

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ (٣٦)
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُّغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ
 رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) ﴿

يقول تعالى: وكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ هَؤُلَاءِ المنكرين ^(٨): ﴿مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أى: كانوا أكثر منهم وأشد قوة، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾: قال ابن عباس: أثروا فيها. وقال مجاهد: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾: ضربوا فى الأرض. وقال قتادة: فساروا فى البلاد، أى ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طفتم أنتم فيها ويقال لمن طوف فى البلاد: نقب فيها. قال امرؤ القيس:

لقد نَقَّبْتُ فى الآفَاقِ حَتَّى رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَّابِ ^(٩)

(١) زيادة من م.

(٢) الأم (١/١٨٥).

(٣) (٤، ٢٦/١٠٩).

(٥) فى أ: «منكيه».

(٦) المسند (٣/٧٥) وفيه: دراج عن أبى الهيثم، ضعيف.

(٧) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٦/١١٠) والكلام عليه كسابقه.

(٨) فى م، أ: «المكذبين».

(٩) البيت فى تفسير الطبرى (٢٦/١١٠).

وقوله: ﴿هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ﴾ أى: هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره؟ وهل نفعهم ما جمعوه ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل؟ فأنتم أيضاً لا مفر لكم ولا محيد ولا مناص ولا محيص.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى﴾ أى: لعبرة ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أى: لُبٌّ يعى به. وقال مجاهد: عقل ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أى: استمع الكلام فوعاه، وتعلقه بقلبه وتفهمه بلبه. وقال مجاهد: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ يعنى: لا يحدث نفسه بغيره، ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ وقال: شاهد بالقلب^(١).

وقال الضحاك: العرب تقول: ألقى فلان سمعه: إذا استمع بأذنيه وهو شاهد يقول غير غائب. وهكذا قال الثورى وغير واحد.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾: فيه تقرير المعاد؛ لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن، قادر على أن يحيى الموتى بطريق الأولى والأخرى.

وقال قتادة: قالت اليهود - عليهم لعائن الله -: خلق الله السموات والأرض فى ستة أيام، ثم استراح فى اليوم السابع، وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة، فأنزل الله تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ أى: من إعياء ولا نصب ولا تعب، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْى بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وكما قال: ﴿لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وقال: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

وقوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ يعنى: المكذبين، اصبر عليهم واهجرهم هجراً جميلاً، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾، وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسرائئلتين قبل طلوع الشمس فى وقت الفجر، وقبل الغروب فى وقت العصر، وقيام الليل كان واجباً على النبى ﷺ وعلى أمته حولاً، ثم نسخ فى حق الأمة وجوبه. ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسرائئل بخمس صلوات، ولكن منهن^(٢) صلاة الصبح والعصر، فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا إسماعيل بن أبى خالد، عن قيس بن أبى حازم^(٣)، عن جرير بن عبد الله قال: كنا جلوساً عند النبى ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر، لا تضامون فيه، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا». ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾.

(٣) فى أ: «حاتم».

(٢) فى أ: «بينهن».

(١) فى م: «القلب».

ورواه البخارى ومسلم وبقية الجماعة، من حديث إسماعيل، به^(١).

وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أى: فصل له، كقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

﴿وَأَذْبَارَ السُّجُودِ﴾: قال ابن أبى نجیح، عن مجاهد، عن ابن عباس: هو التسبيح بعد الصلاة.

ويؤيد هذا ما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أنه قال: جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالدرجات^(٢) العُلَى والنعيم المقيم. فقال: «وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلى، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق! قال: «أفلا أعلمكم شيئاً إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين». قال: فقالوا: يا رسول الله، سمع إخواننا أهل الأموال^(٣) بما فعلنا، ففعلوا مثله. قال: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»^(٤).

والقول الثانى: أن المراد بقوله: ﴿وَأَذْبَارَ السُّجُودِ﴾: هما الركعتان بعد المغرب، روى ذلك عن عمر وعلى، وابنه الحسن وابن عباس، وأبى هريرة، وأبى أمامة، وبه يقول مجاهد، وعكرمة، والشعبى، والنخعى والحسن وقتادة، وغيرهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وعبد الرحمن، عن سفيان، عن أبى إسحاق، عن عاصم بن ضمره، عن على قال: كان رسول الله ﷺ يصلى على أثر كل صلاة مكتوبة ركعتين^(٥) إلا الفجر والعصر. وقال عبد الرحمن: دبر كل صلاة.

ورواه أبو داود والنسائى، من حديث سفيان الثورى، به^(٦). زاد النسائى: ومطرف، عن أبى إسحاق، به^(٧).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا هارون بن إسحاق الهمداني، حدثنا ابن فضيل، عن رشدين بن كريب، عن أبيه عن ابن عباس قال: بت ليلة عند رسول الله ﷺ فصلى ركعتين خفيفتين، اللتين قبل الفجر. ثم خرج إلى الصلاة فقال: «يا ابن عباس، ركعتين قبل صلاة الفجر إذار النجوم، وركعتين بعد المغرب إذار السجود».

ورواه الترمذى عن أبى هشام الرفاعى، عن محمد بن فضيل، به^(٨). وقال: غريب لا نعرفه إلا

(١) المسند (٣٦٥/٤) وصحيح البخارى برقم (٤٨٥١) وصحيح مسلم برقم (٦٣٣) وسنن أبى داود برقم (٣٧٢٩) وسنن الترمذى برقم

(٢٥٥١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٣٠) وسنن ابن ماجه برقم (١١٧).

(٢) فى أ: «بالأجور». (٣) فى أ: «الإيمان».

(٤) صحيح البخارى برقم (٦٣٢٩) وصحيح مسلم برقم (٥٩٥).

(٥) فى م: «ركعتين مكتوبة».

(٦) المسند (١٢٤/١) وسنن أبى داود برقم (١٢٧٥) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٣٤١).

(٧) النسائى فى السنن الكبرى برقم (٣٤٦).

(٨) سنن الترمذى برقم (٣٢٧٥).

من هذا الوجه .

وحديث ابن عباس، وأنه بات في بيت خالته ميمونة وصلى تلك الليلة مع النبي ﷺ ثلاث عشرة ركعة، ثابت في الصحيحين^(١) وغيرهما، فأما هذه الزيادة فغريبة [و]^(٢) لا تعرف إلا من هذا الوجه، ورشدين بن كريب ضعيف، ولعله من كلام ابن عباس موقوفا عليه، والله أعلم.

﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ (٤٥)﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَأَسْمِعْ﴾ يا محمد ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ قال قتادة: قال كعب الأحبار: يأمر الله [تعالى]^(٣) ملكاً^(٤) أن ينادى على صخرة بيت المقدس: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ يعنى: النفخة في الصور التي تأتي بالحق الذي كان أكثرهم فيه يمترون. ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ أى: من الأحداث، ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ أى: هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه، وإليه مصير^(٥) الخلائق كلهم، فيجازى كلا بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقوله: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾: وذلك أن الله تعالى^(٦) ينزل مطراً من السماء تنبت به أجساد الخلائق في قبورها، كما ينبت الحب في الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله إسرافيل فينفخ في الصور، وقد أودعت الأرواح في ثقب في الصور، فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض، فيقول الله، عز وجل: وعزتى وجلالى، لترجعن كل روح إلى الجسد الذى كانت تعمرة، فترجع كل روح إلى جسدها، فتدب فيه كما يدب السم في اللدغ وتنشق^(٧) الأرض عنهم، فيقومون إلى موقف الحساب سراعاً، مبادرين إلى أمر الله، عز وجل، ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨]، وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢]، وفي صحيح مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من تشق عنه الأرض»^(٨).

(١) صحيح البخارى برقم (١١٩٨) وصحيح مسلم برقم (٧٦٣).

(٢) فى م: «تصير».

(٤) فى م: «ملكاً».

(٢، ٣) زيادة من م.

(٧) فى م: «وتتشقق».

(٦) فى م: «عز وجل».

(٨) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٢٧٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ولم أهد إليه من حديث أنس.

وقوله: ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أى: تلك إعادة سهلة علينا، يسيرة لدينا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بُعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنْ أَلَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨].

وقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أى: نحن علمنا محيط بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يهيدنك ذلك، كقوله [تعالى] (١): ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ . وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٩].

وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أى: ولست بالذى تجبر هؤلاء على الهدى، وليس ذلك مما كلفت به.

وقال مجاهد، وقتادة، والضحاك: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أى: لا تتجبر عليهم. والقول الأول أولى، ولو أراد ما قالوه لقال: ولا تكن جباراً عليهم، وإنما قال: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ بمعنى: وما أنت بمجبرهم على الإيمان إنما أنت مبلغ. قال الفراء: سمعت العرب تقول: جبر فلان فلانا على كذا (٢)، بمعنى أجبره (٣).

ثم قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أى: بلغ أنت رسالة ربك، فإنما (٤) يتذكر من يخاف الله ووعيده ويرجو وعده، كقوله [تعالى] (٥): ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، ولهذا قال هاهنا: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ كان قتادة يقول: اللهم، اجعلنا ممن يخاف وعيدك، ويرجو موعودك، يا بار، يا رحيم.

آخر تفسير سورة (ق)، والحمد لله وحده، وحسبنا الله ونعم الوكيل

(٢) فى م: «جبر فلان على فلان كذا».

(١) زيادة من م.

(٣) انظر تفسير الطبرى (١١٥/٢٦).

(٥) زيادة من م.

(٤) فى م: «فإنما».

تفسير سورة الذاريات

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالذَّارِيَّاتِ ذُرُوءًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَّاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ ۝٩ قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ ۝١٠ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾ .

قال شعبه^(١) بن الحجاج، عن سَمَاك، عن خالد بن عَرْعَرَةَ أنه سمع علياً وشعبة أيضاً، عن القاسم بن أبي بزة، عن أبي الطُّفَيْل، سمع علياً. وثبت أيضاً من غير وجه، عن أمير المؤمنين على ابن أبي طالب: أنه صعد منبر الكوفة فقال: لا تسألوني عن آية في كتاب الله، ولا عن سنة عن رسول الله، إلا أنبأتكم بذلك. فقام إليه ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين، ما معنى قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَّاتِ ذُرُوءًا﴾؟ قال: الريح [قال]^(٢): ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾؟ قال: السحاب. [قال]^(٣): ﴿فَالْجَارِيَّاتِ يُسْرًا﴾؟ قال: السفن. [قال]^(٤): ﴿فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا﴾؟ قال: الملائكة^(٥).

وقد روى في ذلك حديث مرفوع، فقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن هانئ، حدثنا سعيد بن سلام العطار، حدثنا أبو بكر بن أبي سَبْرَةَ، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: جاء صَبِيغُ التَّمِيمِيِّ إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن ﴿الذَّارِيَّاتِ ذُرُوءًا﴾؟ فقال: هي الرياح، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. قال: فأخبرني عن ﴿الْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا﴾؟ قال: هي الملائكة، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. قال: فأخبرني عن ﴿الْجَارِيَّاتِ يُسْرًا﴾؟ قال: هي السفن، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. ثم أمر به فضرب مائة، وجعل في بيت، فلما برأ^(٦) [دعا به و]^(٧) ضربه مائة أخرى، وحمله على قَتَب، وكتب إلى أبي موسى الأشعري: امنع الناس من مجالسته. فلم يزل كذلك حتى أتى أبا موسى فحلف بالآيمان الغليظة ما يجد في نفسه مما كان يجد شيئا. فكتب في ذلك إلى عمر، فكتب عمر: ما إخاله إلا صدق، فخل بينه وبين مجالسة الناس.

(١) في أ: «سعيد» . (٤-٢) زيادة من م .

(٥) رواه الطبري في تفسيره (١١٥/٢٦) عن محمد بن المثني عن محمد بن جعفر عن شعبه به .

(٦) في م: «برد» . (٧) زيادة من م، أ .

قال أبو بكر البزار: فأبو بكر بن أبي سبرة لين، وسعيد بن سلام ليس من أصحاب الحديث^(١). قلت: فهذا الحديث ضعيف رفعه، وأقرب ما فيه أنه موقوف على عمر، فإن قصة صبيغ بن عسل مشهورة مع عمر^(٢)، وإنما ضربه لأنه ظهر له من أمره فيما يسأل تعنتا وعنادا، والله أعلم. وقد ذكر الحافظ ابن عساكر هذه القصة في ترجمة صبيغ مطولة^(٣). وهكذا فسرهما ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والسدي، وغير واحد. ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم غير ذلك.

وقد قيل: إن المراد بالذاريات: الريح كما تقدم، وبالحاملات وقرأ: السحاب كما تقدم؛ لأنها تحمل الماء، كما قال زيد بن عمرو بن نفيل:

وَأَسْلَمْتُ نَفْسِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ الْمَزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلَالًا^(٤)

فأما الجاريات يسراً، فالمشهور عن الجمهور - كما تقدم -: أنها السفن، تجرى ميسرة في الماء جريا سهلا. وقال بعضهم: هي النجوم تجرى يسرا^(٥) في أفلاكها، ليكون ذلك ترقيا من الأدنى إلى الأعلى، إلى ما هو أعلى منه، فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك، والمقسمات أمرا الملائكة فوق ذلك، تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية. وهذا قسم من الله عز وجل على وقوع المعاد؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ أى: لخبر صدق، ﴿وَأَنَّ الدِّينَ﴾، وهو: الحساب ﴿لَوَاقِعٌ﴾ أى: لكائن لا محالة.

ثم قال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾، قال ابن عباس: ذات البهاء والجمال والحسن والاستواء. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبو مالك^(٦)، وأبو صالح، والسدي، وقتادة، وعطية العوفى، والربيع بن أنس، وغيرهم.

وقال الضحاك، والمنهال بن عمرو، وغيرهما: مثل تجعد الماء والرمل والزرع إذا ضربته الريح، فينسج بعضه بعضا طرائق [طرائق]^(٧)، فذلك الحبك.

قال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّةَ، حدثنا أيوب، عن أبي قلابة، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «إن من ورائكم الكذاب المضل، وإن رأسه من ورائه حُبْكُ حُبْكٍ» يعني بالحبك: الجعودة^(٨).

وعن أبي صالح: ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾: الشدة. وقال خصيف: ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾: ذات الصفاقة.

(١) مسند البزار برقم (٢٢٥٩) «كشف الأستار» وقال الهيثمي في المجمع (١١٢/٧): «فيه أبو بكر بن أبي سبرة، وهو متروك».

(٢) في م: «مع التميمي عمر».

(٣) تاريخ دمشق (٢٣٠/٨) «القسم المخطوط».

(٤) البيت في سيرة ابن هشام (٢٣١/١). (٥) في أ: «سيرا».

(٦) في م: «وابن مالك».

(٧) زيادة من م، أ.

(٨) تفسير الطبري (١١٨/٢٦) ورواه أحمد في مسنده (٤١٠/٥) من طريق إسماعيل بن علي به.

وقال الحسن بن أبى الحسن البصرى: ﴿ذَاتِ الْحُبْكِ﴾: حبكت بالنجوم.

وقال قتادة: عن سالم بن أبى الجعد، عن معدان بن أبى طلحة، عن عمرو البكالى، عن عبد الله ابن عمرو: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبْكِ﴾ يعنى: السماء السابعة.

وكأنه - والله أعلم - أراد بذلك السماء التى فيها الكواكب الثابتة، وهى عند كثير من علماء الهيئة فى الفلك الثامن الذى فوق السابع، والله أعلم. وكل هذه الأقوال ترجع إلى شىء واحد، وهو الحسن والبهاء، كما قال ابن عباس، رضى الله عنهما^(١)، فإنها من حسنها مرتفعة شفافة صفيقة، شديدة البناء، متسعة الأرجاء، أنيقة البهاء، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات.

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ أى: إنكم أيها المشركون المكذبون للرسول لفي قول مختلف مضطرب، لا يلتزم ولا يجتمع.

وقال قتادة: إنكم لفي قول مختلف، [يعنى]^(٢) ما بين مصدق بالقرآن ومكذب به.

﴿يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أُولَئِكَ﴾ أى: إنما يروج على من هو ضال فى نفسه؛ لأنه قول باطل إنما ينقاد له ويضل بسببه ويؤفك عنه من هو مأفوك ضال غمر، لا فهم له، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ. لَا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصفات: ١٦١-١٦٣].

قال ابن عباس، والسدى: ﴿يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أُولَئِكَ﴾: يضل عنه من ضل. وقال مجاهد: ﴿يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أُولَئِكَ﴾ يؤفن عنه من أفن. وقال الحسن البصرى: يصرف عن هذا القرآن من كذب به.

وقوله: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ - قال مجاهد: الكذابون. قال: وهى مثل التى فى عبس: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: ١٧]، والخراصون الذين يقولون لا نبعث ولا يوقنون.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ أى: لعن المرتابون.

وهكذا كان معاذ، رضى الله عنه، يقول فى خطبه: هلك المرتابون. وقال قتادة: الخراصون أهل الغرة والظنون.

وقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾: قال ابن عباس وغير واحد: فى الكفر والشك غافلون لاهون.

﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ﴾: وإنما يقولون هذا تكذيبا وعنادا وشكا واستبعادا. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغير واحد: ﴿يُفْتَنُونَ﴾: يعذبون [قال مجاهد]^(٣): كما

(٣) زيادة من م، أ.

(٢) زيادة من أ.

(١) فى م، أ: «عنه».

يفتن الذهب على النار.

وقال جماعة آخرون كمجاهد أيضاً، وعكرمة، وإبراهيم النخعي، وزيد بن أسلم، وسفيان الثوري: ﴿يُفْتَنُونَ﴾: يحرقون.

﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾: قال مجاهد: حريقكم. وقال غيره: عذابكم. ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أى: يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المتقين لله، عز وجل: إنهم يوم معادهم يكونون فى جنات وعيون، بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال، والحريق والأغلال.

وقوله: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾: قال ابن جرير: أى عاملين بما آتاهم الله^(١) من الفرائض. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أى: قبل أن يفرض^(٢) عليهم الفرائض كانوا محسنين فى الأعمال أيضاً. ثم روى عن ابن حميد، حدثنا مهران، عن سفيان، عن أبي عمر، عن مسلم البطين، عن ابن عباس فى قوله: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قال: من الفرائض، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾: قبل الفرائض يعملون. وهذا الإسناد ضعيف، ولا يصح^(٣) عن ابن عباس. وقد رواه عثمان بن أبى شيبة، عن معاوية بن هشام، عن سفيان، عن أبى عمر البزار، عن مسلم^(٤) البطين، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، فذكره. والذي فسر به ابن جرير فيه نظر؛ لأن قوله: ﴿آخِذِينَ﴾ حال من قوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾، فالمتقون فى حال كونهم فى الجنات والعيون آخذون ما آتاهم ربهم^(٥)، أى: من النعيم والسرور والغبطة.

وقوله^(٦): ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ أى: فى الدار الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾، كقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] ثم إنه تعالى بين إحسانهم فى العمل فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، اختلف المفسرون فى ذلك على قولين:

أحدهما: أن «ما» نافية، تقديره: كانوا قليلاً من الليل لا يهجعونه. قال ابن عباس: لم تكن

(١) فى م: «ربهم».

(٢) فى م: «تفرض».

(٣) فى م: «لا يصح».

(٤) فى م: «الله».

(٥) فى م: «وقولهم».

(٦) فى م: «عن أبى مسلم».

تمضى عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئاً. وقال قتادة، عن مطرف بن عبد الله: قلَّ ليلة تأتي عليهم لا يصلون فيها لله، عز وجل، إما من أولها وإما من أوسطها. وقال مجاهد: قلَّ ما يرقدون ليلة حتى^(١) الصباح لا يتهجدون. وكذا قال قتادة. وقال أنس بن مالك، وأبو العالية: كانوا يصلون بين المغرب والعشاء. وقال أبو جعفر الباقر، كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة.

والقول الثانى: أن «ما» مصدرية، تقديره: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ونومهم. واختاره ابن جرير. وقال الحسن البصرى: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: كابدوا قيام الليل، فلا ينامون من الليل إلا أقله، ونشطوا فمدّوا إلى السحر، حتى كان الاستغفار بسحر. وقال قتادة: قال الأحنف بن قيس: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: كانوا لا ينامون إلا قليلاً، ثم يقول: لست من أهل هذه الآية. وقال الحسن البصرى: كان الأحنف بن قيس يقول: عرضت عملى على عمل أهل الجنة، فإذا قوم قد باينونا بونا بعيداً، إذا قوم لا نبلغ أعمالهم، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون. وعرضت عملى على عمل أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم يكذبون^(٢) بكتاب الله وبرسل الله، يكذبون بالبعث بعد الموت، فوجدت من خيرنا منزلةً قوماً خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال رجل من بنى تميم لأبى: يا أبا أسامة، صفة لا أجدها فينا، ذكر الله قوماً فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، ونحن والله قليلاً من الليل ما نقوم. فقال له أبى: طوبى لمن رقد إذا نعس، واتقى الله إذا استيقظ.

وقال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، انخفل الناس إليه، فكنت فيمن انخفل. فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «يا أيها الناس، أطعموا الطعام، وصلّوا الأرحام، وأفشوا السلام، وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثني حبي بن عبد الله، عن أبى عبد الرحمن الحبلى، عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها». فقال أبو موسى الأشعرى: لمن هى يارسول الله؟ قال: «لن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وبات لله قائماً، والناس نيام»^(٤).

وقال معمر فى قوله: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: كان^(٥) الزهرى والحسن يقولان:

(١) فى م: «إلى».

(٢) فى م: «فيكذبون».

(٣) رواه أحمد فى المسند (٤٥١/٥) والترمذى فى السنن برقم (٢٤٨٥) وابن ماجه فى السنن برقم (١٣٣٤).

قال الترمذى: «حسن صحيح».

(٤) المسند (١٧٣/٢) وقال الهيثمى فى المجمع (١٦/٥): «فيه ابن لهيعة وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات» ولعل تحسين الحافظ الهيثمى لحديث ابن لهيعة لأنه قد تويع: تابعه عبد الله بن وهب - روايته عن ابن لهيعة صحيحة - أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير برقم (١٠٣) «الجزء المفقود».

(٥) فى م: «قال».

كانوا كثيرا من الليل ما يصلون.

وقال ابن عباس، وإبراهيم النخعي: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: ما ينامون.

وقال الضحاك: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ. كَانُوا قَلِيلًا﴾ ثم ابتداء فقال: ﴿مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

وقوله عز وجل: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. قال مجاهد، وغير واحد: يصلون. وقال آخرون: قاموا الليل، وأخروا الاستغفار إلى الأسحار. كما قال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، فإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن. وقد ثبت في الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فيعطى سؤله؟ حتى يطلع الفجر»^(١).

وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى إخبارا عن يعقوب: أنه قال لبيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨] قالوا: أخرهم إلى وقت السحر.

وقوله: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾: لما وصفهم بالصلاة ثنى بوصفهم^(٢) بالزكاة والبر والصلة، فقال: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ^(٣)﴾ أى: جزء مقسوم قد أفرزوه ﴿لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾، أما السائل فمعروف، وهو الذى يبتدئ بالسؤال، وله حق، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا وكيع وعبد الرحمن قالوا: حدثنا سفيان، عن مصعب بن محمد، عن يعلى بن أبى يحيى، عن فاطمة بنت الحسين، عن أبيها الحسين بن على قال: قال رسول الله ﷺ: «للسائل حق وإن جاء على فرس».

ورواه أبو داود من حديث سفيان الثوري، به^(٤) ثم أسنده من وجه آخر عن على بن أبى طالب^(٥). وروى من حديث الهرماس بن زياد مرفوعا^(٦).

وأما ﴿الْمَحْرُومِ﴾، فقال ابن عباس، ومجاهد: هو المحارف الذى ليس له فى الإسلام سهم. يعنى: لا سهم له فى بيت المال، ولا كسب له، ولا حرفة يتقوت منها.

وقالت أم المؤمنين عائشة: هو المحارف الذى لا يكاد يتيسر له مكسبه.

وقال الضحاك: هو الذى لا يكون له مال إلا ذهب، قضى الله له ذلك.

(١) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٧٥٨).

(٢) فى م، أ: «وصفهم».

(٣) فى م، أ: «حق للسائل والمحروم».

(٤) المسند (٢٠١/١) وسنن أبى داود برقم (١٦٦٥).

(٥) سنن أبى داود برقم (١٦٦٦).

(٦) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٠٣/٢٢) من طريق سليمان الدمشقى عن عثمان بن فايد عن عكرمة بن عمار عن الهرماس مرفوعا به وفيه عثمان بن فايد وهو ضعيف.

وقال أبو قلابة: جاء سيل باليمامة فذهب بمال رجل، فقال رجل من الصحابة: هذا المحروم.
وقال ابن عباس أيضاً، وسعيد بن المسيب، وإبراهيم النخعي، ونافع - مولى ابن عمر - وعطاء
ابن أبي رباح **﴿المَحْرُوم﴾**: المحارف.
وقال قتادة، والزهرى: **﴿المَحْرُوم﴾**: الذى لا يسأل الناس شيئاً، قال الزهرى وقد قال رسول
الله ﷺ: «ليس المسكين بالطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذى
لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفطن له فيتصدق عليه»^(١).

وهذا الحديث قد أسنده الشيخان فى صحيحيهما من وجه آخر^(٢).
وقال سعيد بن جبیر: هو الذى يجىء وقد قُسمَ المغنم، فيرضخ له.
وقال محمد بن إسحاق: حدثنى بعض أصحابنا قال: كنا مع عمر بن عبد العزيز فى طريق مكة
فجاء كلب فانتزع عمر كتف شاة فرمى بها إليه، وقال: يقولون: إنه المحروم.
وقال الشعبى: أعيانى أن أعلم ما المحروم.

واختار ابن جرير أن المحروم: [هو]^(٣) الذى لا مال له بأى سبب كان، قد ذهب ماله، سواء
كان لا يقدر على الكسب، أو قد هلك ماله أو نحوه^(٤) بآفة أو نحوها.
وقال الثورى، عن قيس بن مسلم، عن الحسن بن محمد؛ أن رسول الله ﷺ بعث سرية فغنموا،
فجاء قوم لم يشهدوا الغنيمة فنزلت هذه الآية: **﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾**^(٥).

وهذا يقتضى أن هذه مدنية، وليس كذلك، بل هى مكية شاملة لما بعدها.
وقوله: **﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾** أى: فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته
الباهرة، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال، والفقار والأنهار والبحار،
واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت فى
العقول والفهوم والحركات، والسعادة والشقاوة، وما فى تركيبهم من الحكم فى وضع كل عضو من
أعضائهم^(٦) فى المحل الذى هو محتاج إليه فيه؛ ولهذا قال: **﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾**: قال
قتادة: من تفكر فى خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة.

ثم قال: **﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾** يعنى: المطر، **﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾** يعنى: الجنة. قاله ابن عباس،

(١) تفسير الطبرى (١٢٥/٢٦) وسياى موصولاً.

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٥٣٩) وصحيح مسلم برقم (١٠٣٩) من طريق شريك بن عبد الله عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة مرفوعاً.

(٣) فى م: «أو ثمرة».

(٤) زيادة من م.

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (١٢٥/٢٦).

(٦) فى م، أ: «أجسادهم».

ومجاهد، وغير واحد.

وقال سفيان الثوري: قرأ واصل الأحدب هذه الآية: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فقال: ألا إني ^(١) أرى رزقى فى السماء، وأنا أطلبه فى الأرض؟ فدخل خربة فمكث [فيها] ^(٢) ثلاثا لا يصيب شيئا، فلما أن كان فى اليوم الثالث إذا هو بدوخلة من رطب، وكان له أخ أحسن نية منه، فدخل معه فصارتا دوخلتين، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق الموت بينهما ^(٣).

وقوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنْكُمْ تُنطِقُونَ﴾: يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء، كائن لا محالة، وهو حق لا مرية فيه، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا فى نطقكم حين تنطقون. وكان معاذ، رضى الله عنه، إذا حدث بالشئ يقول لصاحبه: إن هذا لحق كما أنك هاهنا.

قال مسدد، عن ابن أبى عدى، عن عوف، عن الحسن البصرى قال: بلغنى أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله أقواماً أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا».

ورواه ابن جرير، عن بNDAR، عن ابن أبى عدى، عن عوف، عن الحسن، فذكره مرسل ^(٤).

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَةٍ فَفَصَّكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠)﴾.

هذه القصة قد تقدمت فى سورة «هود» و«الحجر» ^(٥) أيضا. وقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ أى: الذين أرصد لهم الكرامة. وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل.

وقوله: ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾: الرفع أقوى وأثبت من النصب، فرده أفضل من التسليم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَيَّيْتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾ [النساء: ٨٦]، فالخليل اختار الأفضل.

وقوله: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾: وذلك أن الملائكة وهم: جبريل وإسرافيل وميكائيل قدموا عليه فى صور شباب حسان عليهم مهابة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾.

(١) فى م: «لا أرى رزقى». (٢) زيادة من م. (٣) فى م: «بينهما الموت».

(٤) تفسير الطبرى (١٢٧/٢٦).

(٥) تقدم تفسير ذلك فى سورة هود عند الآيات: ٦٩ - ٧٣، وكذلك فى سورة الحجر عند الآيات: ٥١ - ٥٦.

وقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ أى: انسل خفية فى سرعة، ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ أى: من خيار ماله. وفى الآية الأخرى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩] أى: مشوى على الرضف، ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ أى: أدناه منهم، ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾: تلتطف فى العبارة وعرض حسن.

وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة؛ فإنه جاء بطعامه ^(١) من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولا فقال: «نأتيكم بطعام؟» بل جاء به بسرعة ^(٢) وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتى سمين مشوى، فقربه إليهم، لم يضعه، وقال: اقتربوا، بل، وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرا يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق، فافعل ^(٣).

وقوله: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: هذا محال على ما تقدم فى القصة فى السورة الأخرى، وهو ^(٤) قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُّوطٍ. وَأَمْرَأَتُهُ قَانِئَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ [هود: ٧٠، ٧١] أى: استبشرت بهلاكهم؛ لتمردهم وعتوهم على الله، فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب. ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ. قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٢، ٧٣]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَبَشِّرُوهُ بَغْلَامٍ عَليمٍ﴾، فالبشارة له هى بشارة لها؛ لأن الولد منها، فكل منهما بشر به.

وقوله: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَةٍ﴾ أى: فى صرخة عظيمة ^(٥) ورنه، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو صالح، والضحاك، وزيد بن أسلم، والثورى، والسدى، وهى قولها: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ﴾. ﴿فَصَكَتَ﴾ ^(٦) وَجْهَهَا أى: ضربت بيدها على جبينها، قاله مجاهد وابن ^(٧) سابط.

وقال ابن عباس: لطمت، أى تعجبا كما تتعجب ^(٨) النساء من الأمر الغريب، ﴿وَقَالَتِ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أى: كيف ألد وأنا عجوز [عقيم] ^(٩)، وقد كنت فى حال الصبا عقيما لا أحبل؟ ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ ^(١٠) أى: عليم بما تستحقون من الكرامة، حكيم فى أقواله وأفعاله.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ^(٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ^(٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ^(٣٣) مُّسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ^(٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مَن

(١) فى م: «بطعام». (٢) فى أ: «فى سرعة».

(٣) وقد توسع الإمام ابن القيم رحمه الله فى كتابه «جلاء الأفهام» (ص ١٨١ - ١٨٤) فى الكلام على آداب الضيافة فى هذه الآيات.

(٤) فى م: «وهى». (٥) فى م، أ: «وعيطه».

(٦) فى م: «وصكت». (٨) فى م: «يتعجب».

(٩) زيادة من أ. (١٠) فى م: «العليم الحكيم» وهو خطأ.

الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) .

قال الله مخبراً عن إبراهيم، عليه السلام: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ. إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ. يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٤ - ٧٦].

وقال هاهنا: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أى: ما شأنكم وفيهم جتتم؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعنون قوم لوط، ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ. مَسْوْمَةٌ﴾ أى: معلمة ﴿عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أى: مكتتة عنده بأسمائهم، كل حجر عليه اسم صاحبه، فقال فى سورة العنكبوت: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢]. وقال هاهنا: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته، ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. احتج بهذه [الآية] ^(١) من ذهب إلى رأى المعتزلة، ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام؛ لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين. وهذا الاستدلال ضعيف؛ لأن هؤلاء كانوا قوماً مؤمنين، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس، فاتفق الاسمان هاهنا لخصوصية الحال، ولا يلزم ذلك فى كل حال.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أى: جعلناها عبرة، لما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وجعلنا ^(٢) محلّتهم بحيرة منتنة خبيثة، ففى ذلك عبرة للمؤمنين، ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بُرْكَانَهُ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّمِيمِ (٤٢) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُتَنْصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦)﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَفِي مُوسَى﴾ [آية] ^(٣) ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أى: بدليل باهر وحجة قاطعة، ﴿فَتَوَلَّىٰ بُرْكَانَهُ﴾ أى: فأعرض فرعون عما جاءه ^(٤) به موسى من الحق المبين، استكباراً

(٢) فى م، أ: «وجعل».

(٤) فى م: «جاء».

(١) زيادة من م.

(٣) زيادة من م.

وعنادا .

وقال مجاهد: تعزز بأصحابه. وقال قتادة: غلب عدو الله على قومه. وقال ابن زيد: ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾ أى: بجموعه التى معه، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠].

والمعنى الأول قوى كقوله: ﴿ثَانِي عَظْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٩] أى: معرض عن الحق مستكبر، ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أى: لا يخلو أمرك فيما جئتنى به من أن تكون ساحرا أو مجنونا، قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ﴾ أى: ألقيناهم فى اليم، وهو البحر، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أى: وهو ملوم كافر جاحد فاجر معاند.

ثم قال: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ أى: المفسدة التى لا تنتج شيئا. قاله الضحاك، وقتادة، وغيرهما.

ولهذا قال: ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أى: مما تفسده الريح ﴿إِلَّا جَعَلْتُهُ كَالرِّمِيمِ﴾ أى: كالشيء الهالك البالى.

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى عبد الله بن وهب، حدثنى عبد الله - يعنى: ابن عياش^(١) - القتباني، حدثنى عبد الله بن سليمان، عن دراج، عن عيسى بن هلال الصَّدْفِي، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «الريح مسخرة من الثانية - يعنى من الأرض الثانية - فلما أراد الله أن يهلك عاداً أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحا تهلك عاداً، قال: أى رب، أرسل عليهم [من]^(٢) الريح قدر منخر الثور؟ قال له الجبار: لا، إذا تكفأ الأرض ومن عليها، ولكن أرسل [عليهم]^(٣) بقدر خاتم. فهى التى يقول^(٤) الله فى كتابه: ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتُهُ كَالرِّمِيمِ﴾.

هذا الحديث رفعه منكر^(٥)، والأقرب أن يكون موقوفا على عبد الله بن عمرو، من زاملتيه اللتين^(٦) أصابهما يوم اليرموك، والله أعلم.

قال سعيد بن المسيب وغيره فى قوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ قالوا: هى الجنوب. وقد ثبت فى الصحيح من رواية شعبة، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور»^(٧).

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ قال ابن جرير: يعنى إلى وقت فناء آجالكم.

(٤) فى م، أ: «قال».

(٢، ٣) زيادة من م.

(١) فى م: «ابن عباس».

(٥) رواه الحاكم فى المستدرک (٤/ ٥٩٤) وابن منده فى كتاب التوحيد (١/ ١٨٦) من طريق عبد الله بن وهب بأطول منه.

وقال ابن منده: إسناده متصل مشهور ورواته مصريين. وصححه الحاكم وتعقبه الذهبي بقوله: «بل منكر، فيه عبد الله بن عياش، ضعفه أبو داود، وعند مسلم أنه ثقة، ودراج وهو كثير المناكير».

(٦) فى م: «اللذين».

(٧) صححه مسلم برقم (٩٠٠).

والظاهر أن هذه كقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ [فصلت: ١٧].

وهكذا قال هاهنا: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ. فَعْتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾، وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام وجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بُكَرَةٌ النهار ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ أى: من هَرَبٍ ولا نهوض، ﴿وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾ أى: ولا يقدرون على أن ينتصروا مما هم فيه.

وقوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أى: وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ وكل هذه القصص قد تقدمت مبسطة في أماكن كثيرة، من سور متعددة.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٤٧) ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١).

يقول تعالى منها على خلق العالم العلوى والسفلى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ أى: جعلناها سقفا [محفوظا] ^(١) رفيعا ﴿بِأَيْدٍ﴾ أى: بقوة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والثوري، وغير واحد، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، أى: قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد، حتى استقلت كما هي، ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أى: جعلناها فراشا للمخلوقات، ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أى: وجعلناها مهذا لأهلها، ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أى: جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، حتى الحيوانات [جن وإنس، ذكور وإناث] ^(٢) والنباتات؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أى: لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له، ﴿فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أى: الجؤوا إليه، واعتمدوا فى أموركم عليه، ﴿إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أى: [و] ^(٣) لا تشركوا به شيئا، ﴿إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَئِ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ

أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ .

يقول تعالى مسليا نبيه ﷺ: وكما قال لك هؤلاء المشركون، قال المكذبون الأولون لرسولهم: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾! قال الله تعالى: ﴿أَتَوَصَّوْا بِهِ﴾ أى: أوصى بعضهم بعضا بهذه المقالة؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُونَ﴾ أى: لكن هم قوم طغاة، تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم. قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أى: فأعرض عنهم يا محمد، ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٌ﴾ يعنى: فما نلومك على ذلك ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: إنما تنتفع^(١) بها القلوب المؤمنة.

ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أى: إنما خلقتهم لأمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أى: إلا ليقروا بعبادتي طوعا أو كرها^(٢) وهذا اختيار ابن جرير.

وقال ابن جريج: إلا ليعرفون. وقال الربيع بن أنس: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أى: إلا للعبادة. وقال السدى: من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع، ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] هذا منهم عبادة، وليس ينفعهم مع الشرك. وقال الضحاك: المراد بذلك المؤمنون.

وقوله: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ قال^(٣) الإمام أحمد:

حدثنا يحيى بن آدم وأبو سعيد قالا: حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عبد الرحمن بن يزيد^(٤)، عن عبد الله بن مسعود قال: أقرأني رسول الله ﷺ: ﴿إِنِّي لَأَنَا الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.

ورواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، من حديث إسرائيل، وقال الترمذى: حسن صحيح^(٦).

ومعنى الآية: أنه تعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا عمران - يعنى ابن زائدة بن شَيط - عن أبيه، عن أبى خالد - هو الوالى - عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: «يا ابن

(١) فى م، أ: «فإنما ينتفع». (٢) فى م: «وكرها».

(٣) فى م: «وقال».

(٤) فى أ: «زيد».

(٥) فى م: «النبي».

(٦) المسند (٣٩٤/١) وسنن أبى داود برقم (٣٩٩٣) وسنن الترمذى برقم (٢٩٤٠) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥٢٧).

آدم، تَفَرَّغَ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك». ورواه الترمذى وابن ماجه، من حديث عمران بن زائدة، وقال الترمذى: حسن غريب^(١).

وقد روى الإمام أحمد عن وكيع وأبى معاوية، عن الأعمش، عن سلام أبى شُرْحَيْل، سمعت حبة وسواء ابنى خالد يقولان: أتينا رسول الله ﷺ وهو يعمل عملا أو يبنى بناء - وقال أبو معاوية: يصلح شيئا - فأعناه عليه، فلما فرغ دعا لنا وقال: «لا تيأسا من الرزق ما تهزرت رؤوسكما، فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة، ثم يعطيه الله ويرزقه»^(٢). و[قد ورد]^(٣) فى بعض الكتب الإلهية: «يقول الله تعالى: ابن آدم، خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب فاطلبنى تجدنى؛ فإن وجدتنى وجدت كل شىء، وإن فُتكت فاتك كل شىء، وأنا أحب إليك من كل شىء». وقرله: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا﴾ أى: نصيبا من العذاب، ﴿مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أى: فلا يستعجلوا ذلك، فإنه واقع [بهم]^(٤) لا محالة ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ يعنى: يوم القيامة.

آخر تفسير سورة الذاريات

(١) المسند (٣٥٨/٢) وسنن الترمذى برقم (٢٤٦٦) وسنن ابن ماجه برقم (٤١٠٧).

(٢) المسند (٤٦٩/٣).

(٣) زيادة من م، أ.

(٤) زيادة من أ.

تفسير سورة الطور

وهى مكية.

قال مالك، عن الزهري، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فما سمعت أحدا أحسن صوتا - أو: قراءة - منه.

أخرجاه من طريق مالك^(١) وقال البخاري:

حدثنا عبد الله بن يوسف، أخبرنا مالك، عن محمد بن عبد الرحمن بن نوفل، عن عروة، عن زينب بنت أبي سلمة، عن أم سلمة قالت: شكت إلى رسول الله ﷺ أني أشتكى، فقال: «طوفى من وراء الناس وأنت راكبة» فطفت، ورسول الله ﷺ يصلى إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور^(٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّعْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)﴾.

يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة: أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم. فالطور هو: الجبل الذي يكون فيه أشجار، مثل الذي كلم الله عليه موسى، وأرسل منه عيسى، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طورا، إنما يقال له: جبل.

﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ قيل: هو اللوح المحفوظ. وقيل: الكتب المنزلة المكتوبة التي تقرأ على الناس جهارا؛ ولهذا قال: ﴿فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ. وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾. ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال في حديث الإسراء - بعد مجاوزته إلى السماء السابعة - : «ثم رفع بي^(٣) إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم» يعنى: يتعبدون فيه ويطوفون، كما

(١) صحيح البخاري برقم (٤٨٥٤) وصحيح مسلم برقم (٤٦٣).

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٨٥٣) وصحيح مسلم (١٢٧٦).

(٣) في م: «لى».

يطوف أهل الأرض بكعبتهم كذلك ذاك البيت، هو كعبة أهل السماء السابعة؛ ولهذا وجد إبراهيم الخليل، عليه السلام، مسندا ظهره إلى البيت المعمور؛ لأنه باني الكعبة الأرضية، والجزء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها، ويصلون إليه، والذي في السماء الدنيا يقال له: بيت العزة. والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا روح بن جناح، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «في السماء السابعة بيت يقال له: «المعمور» بحيال الكعبة، وفي السماء الرابعة نهر يقال له: «الحيوان» يدخله جبريل كل يوم، فينغمس فيه انغماسة، ثم يخرج فينتفض انتفاضة يخبر عنه سبعون ألف قطرة، يخلق الله من كل قطرة ملكا يؤمرون أن يأتوا البيت المعمور، فيصلوا^(١) فيه فيفعلون، ثم يخرجون فلا يعودون إليه أبدا، ويولى عليهم أحدهم، يؤمر أن يقف بهم من السماء موقفا يسبحون الله فيه إلى أن تقوم الساعة».

هذا حديث غريب جدا، تفرد به روح بن جناح هذا، وهو القرشي الأموي مولاهم أبو سعد الدمشقي، وقد أنكر هذا الحديث عليه جماعة من الحفاظ منهم: الجوزجاني، والعقيلي، والحاكم أبو عبد الله النيسابوري، وغيرهم.

قال الحاكم: لا أصل له من حديث أبي هريرة، ولا سعيد، ولا الزهري^(٢).

وقال ابن جرير: حدثنا هناد بن السري، حدثنا أبو الأحوص، عن سماك بن حرب، عن خالد ابن^(٣) عرعة؛ أن رجلا قال لعلی: ما البيت المعمور؟ قال: بيت في السماء يقال له: «الضُّراح»، وهو بحيال الكعبة من فوقها، حرمة في السماء كحرمة البيت في الأرض، يصلى فيه كل يوم سبعون ألفا من الملائكة، لا^(٤) يعودون فيه أبدا^(٥).

وكذا رواه شعبة وسفيان الثوري، عن سَمَاكٍ وعندهما أن ابن الكواء هو السائل عن ذلك. ثم رواه ابن جرير عن أبي كُرَيْبٍ، عن طَلْقِ بْنِ غَنَامٍ، عن زائدة، عن عاصم، عن علي بن ربيعة قال: سأل ابن الكواء عليا عن البيت المعمور، قال: مسجد في السماء يقال له: «الضُّراح»، يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة، ثم لا يعودون فيه أبدا. ورواه من حديث أبي الطُّفَيْلِ، عن علي بمثله.

وقال العوفي، عن ابن عباس: هو بيت حذاء العرش، تعمه الملائكة، يصلى فيه كل يوم سبعون

(١) في م: «يفصلون».

(٢) ورواه ابن عدى في الكامل (١٤٤/٣) من طريق هشام بن عمار به، وقال: «سمعت ابن حبان يقول: قال السعدي: روح بن جناح ذكر عن الزهري حديثا معضلا في البيت المعمور» ثم ساقه بإسناده وتعقبه بقوله: «ولا يعرف هذا الحديث إلا بروح بن جناح عن الزهري».

(٤) في م: «ثم لا».

(٣) في م: «عن».

(٥) تفسير الطبري (١٠/٢٧).

ألفا من الملائكة ثم لا يعودون إليه. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والربيع بن أنس، والسدى، وغير واحد من السلف.

وقال قتادة: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال يوما لأصحابه: «هل تدرون ما البيت المعمور؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه مسجد في السماء بحيال الكعبة، لو خر لخر عليها، يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم».

وزعم الضحاك أنه يعمره طائفة من الملائكة يقال لهم: الحن^(١)، من قبيلة إيليس^(٢)، فالله أعلم. وقوله: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾: قال سفيان الثوري، وشعبة، وأبو الأحوص، عن سَمَاك، عن خالد بن عَرَعَرَةَ، عن علي: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ يعني: السماء، قال سفيان: ثم تلا: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]. وكذا قال مجاهد، وقاتادة، والسدى، وابن جريج، وابن زيد، واختاره ابن جرير.

وقال الربيع بن أنس: هو العرش، يعني: أنه سقف لجميع المخلوقات، وله اتجاه، وهو يُراد مع غيره كما قاله الجمهور.

وقوله: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾: قال الربيع بن أنس: هو الماء الذي تحت العرش، الذي ينزل [الله]^(٣) منه المطر الذي يحيى به الأجساد في قبورها يوم معادها. وقال الجمهور: هو هذا البحر. واختلف في معنى قوله: ﴿الْمَسْجُورِ﴾، فقال بعضهم: المراد أنه يوقد يوم القيامة نارا كقوله: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦] أى: أضرمت فتصير^(٤) نارا تتأجج، محيطة بأهل الموقف. رواه سعيد ابن المسيب، عن علي بن أبي طالب، ورؤى عن ابن عباس. وبه يقول سعيد بن جبير، ومجاهد، وعبد الله بن عبيد بن عمير^(٥)، وغيرهم.

وقال العلاء بن بدر: إنما سمي البحر المسجور لأنه لا يشرب منه ماء، ولا يسقى به زرع، وكذلك البحار يوم القيامة. كذا رواه عنه ابن أبي حاتم.

وعن سعيد بن جبير: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ يعني: المرسل. وقال قتادة: ﴿وَالْبَحْرِ﴾^(٦) الْمَسْجُورِ: المملوء. واختاره ابن جرير ووجهه بأنه ليس موقدا اليوم فهو مملوء.

وقيل: المراد به: الفارغ، قال الأصمعي، عن أبي عمرو بن العلاء، عن ذى الرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ قال: الفارغ؛ خرجت أمة تستسقى فرجعت فقالت: «إن الخوض مسجور»، تعنى: فارغا. رواه ابن مردويه في مسانيد الشعراء.

(١) في م، أ: «الجن».

(٢) تفسير الطبرى (١١/٢٧).

(٣) زيادة من م، أ.

(٤) في م: «فصيرت».

(٥) في م: «وعبيد الله بن عمير».

(٦) زيادة من م.

وقيل: المراد بالمسجور: الممنوع المكفوف عن الأرض؛ لثلاثاً^(١) يغمرها فيغرق أهلها. قاله^(٢) على ابن أبي طلحة، عن ابن عباس، وبه يقول السدي وغيره، وعليه يدل الحديث الذي رواه الإمام أحمد، رحمه الله، في مسنده، فإنه قال:

حدثنا يزيد، حدثنا^(٣) العوام، حدثني شيخ كان مرابطاً بالساحل قال: لقيت أبا صالح مولى عمر بن الخطاب فقال: حدثنا عمر بن الخطاب، عن رسول الله ﷺ قال: «ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات، يستأذن الله أن ينفضخ^(٤) عليهم، فيكفه الله عز وجل»^(٥).

وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلي: حدثنا الحسن بن سفيان، عن إسحاق بن راهويه، عن يزيد - وهو ابن هارون - عن العوام بن حوشب، حدثني شيخ مرابط قال: خرجت ليلة لحرسى^(٦) لم يخرج أحد من الحرس غيري، فأتيت الميناء فصعدت، فجعل يخیل إلى أن البحر يشرف يحاذي رؤوس الجبال، فعل ذلك مرارا وأنا مستيقظ، فلقيت أبا صالح فقال: حدثنا عمر بن الخطاب: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من ليلة إلا والبحر يشرف ثلاث مرات، يستأذن الله أن ينفضخ عليهم، فيكفه الله عز وجل». فيه رجل مبهم لم يسم^(٧).

وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾: هذا هو المقسم عليه، أى: الواقع^(٨) بالكافرين، كما قال في الآية الأخرى: ﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ أى: ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك.

قال الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن داود، عن صالح المري، عن جعفر بن^(٩) زيد العبدى قال: خرج عمر يعس المدينة ذات ليلة، فمر بدار رجل من المسلمين، فوافقه قائماً يصلى، فوقف يستمع قراءته فقرأ: ﴿وَالطُّورِ﴾ حتى بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾. مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ قال: قسم - ورب الكعبة - حق. فنزل عن حمارة واستند إلى حائط، فمكث ملياً، ثم رجع إلى منزله، فمكث شهراً يعود الناس لا يدرون ما مرضه، رضى الله عنه^(١٠).

وقال الإمام أبو عبيد في «فضائل القرآن»: حدثنا محمد بن صالح، حدثنا هشام بن حسان، عن الحسن: أن عمر قرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾. مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ^(١١)، فربما لها ربوة، عيد منها عشرين يوماً^(١٢).

وقوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾: قال ابن عباس وقتادة: تتحرك تحريكاً. وعن ابن عباس: هو تشققها، وقال مجاهد: تدور دوراً. وقال الضحاك: استدارتها وتحريكها لأمر الله، وموج بعضها في

(١) فى م: «لا». (٢) فى م: «وقال». (٣) فى م: «بن». (٤) فى م: «ينفضخ».

(٥) المسند (٤٣/١) ورواه من طريق ابن الجوزى فى العلل المتناهية (٥٢/١) وقال: «العوام ضعيف، والشيخ مجهول».

(٦) فى م: «لحرثى».

(٧) وذكره المؤلف فى مسند عمر (٦٠٨/٢) من رواية الإسماعيلي، وقال: «فيه رجل مبهم لم يسم، والله أعلم بحاله».

(٨) فى م: «واقع». (٩) فى أ: «عن».

(١٠) وذكره المؤلف فى مسند عمر (٦٠٧/٢) من رواية ابن أبي الدنيا وفى إسناده صالح المري، ووقع فى مسند عمر «المدنى» فإن كان المري فهو ضعيف.

(١١) زيادة من م.

(١٢) فضائل القرآن لأبى عبيد (ص ٦٤).

بعض. وهذا اختيار ابن جرير أنه التحرك^(١) في استدارة. قال: وأنشد أبو عبيدة معمر بن المثنى بيت الأعشى:

كَأَن مَشِيَّتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا مَوْرُ السَّحَابَةِ، لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلٌ^(٢)

﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا﴾ أى: تذهب فتصير هباء منبثا، وتنسف نسفا، ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أى: ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم، وعقابة لهم، ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أى: هم فى الدنيا يخوضون فى الباطل، ويتخذون دينهم هزوا ولعبا، ﴿يَوْمَ يَدْعُونَ﴾ أى: يدفعون ويساقون، ﴿إِلَىٰ نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَا﴾: وقال مجاهد، والشعبي، ومحمد بن كعب، والضحاك، والسدى، والثورى: يدفعون فيها دفعا ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أى: تقول لهم الزبانية ذلك تقريرا وتوبيخا، ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾. اصلوها أى: ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أى: سواء صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا، لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها^(٣)، ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: ولا يظلم الله أحدا، بل يجازى كلا بعمله.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَكِنِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)﴾.

يخبر تعالى عن حال السعداء فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾، وذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال، ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أى: يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم، من أصناف الملاذ، من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك، ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أى: وقد نجاهم من عذاب النار، وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حدثها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة، التى فيها من السرور ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، كقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]. أى: هذا بذاك، تفضلا منه وإحسانا.

وقوله: ﴿مُتَكِنِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ قال الثورى، عن حصين، عن مجاهد، عن ابن عباس: السرر فى الحجال.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو اليمان، حدثنا صفوان بن عمرو؛ أنه سمع الهيثم بن

(١) فى م، أ: «المتحرك».

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (١٣/٢٧).

(٣) فى أ: «فيها».

مالك الطائي يقول: إن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليتكئ المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحول عنه ولا يمله، يأتيه ما اشتتهت نفسه ولذت عينه»^(١).

وحدثنا أبي، حدثنا هُدْبَةُ بن خالد، عن سليمان بن المغيرة، عن ثابت قال: بلغنا أن الرجل ليتكئ في الجنة سبعين سنة، عنده من أزواجه وخدمه وما أعطاه الله من الكرامة والنعيم، فإذا حانت منه نظرة فإذا أزواج له لم يكن رآهن قبل ذلك، فيقلن: قد آن لك أن تجعل لنا منك نصيباً.

ومعنى ﴿مَصْفُوفَةٍ﴾ أى: وجوه بعضهم إلى بعض، كقوله: ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الصفافات: ٤٤]. ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ أى: وجعلناهم قرينات صالحات، وزوجات حسنا من الحور العين.

وقال مجاهد: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ﴾: أنكحناهم بحور عين، وقد تقدم وصفهن فى غير موضع بما أغنى عن إعادته.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) ﴿

يخبر تعالى عن فضله وكرمه، وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه: أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم فى الإيمان يلحقهم بأبائهم فى المنزلة وإن لم يبلغوا عملهم، لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم فى منازلهم، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه، بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل، ولا ينقص ذاك من عمله ومنزلته، للتساوى بينه وبين ذاك؛ ولهذا قال: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾.

قال الثورى، عن عمرو بن مرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: إن الله ليرفع ذرية المؤمن فى درجته، وإن كانوا دونه فى العمل، لتقر بهم عينه ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾.

رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث سفيان الثورى، به. وكذا رواه ابن جرير من حديث شعبة عن عمرو بن مرة به^(٢). ورواه البزار، عن سهل بن بحر^(٣)، عن الحسن بن حماد الوراق، عن قيس بن الربيع، عن عمرو بن مرة، عن سعيد، عن ابن عباس مرفوعاً، فذكره، ثم قال: وقد رواه

(١) وإسناده منقطع. الهيثم بن مالك لم يدرك النبى ﷺ.

(٢) تفسير الطبرى (٢٧/ ١٥).

(٣) فى أ: «يحى».

الثوري، عن عمرو بن مرة، عن سعيد، عن ابن عباس موقوفاً^(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا العباس بن الوليد بن مزيد^(٢) البيروتي، أخبرني محمد بن شعيب^(٣) أخبرني شيبان، أخبرني ليث، عن حبيب بن أبي ثابت الأسدي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قول الله، عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قال: هم ذرية المؤمن، يموتون على الإيمان: فإن كانت منازل آبائهم أرفع من منازلهم ألحقوا بأبائهم، ولم ينقصوا من أعمالهم التي عملوا شيئاً.

وقال الحافظ الطبراني: حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن غزوان، حدثنا شريك، عن سالم الأفتس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس - أظنه عن النبي ﷺ - قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده، فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك. فيقول: يا رب، قد عملت لى ولهم. فيؤمر بإلحاقهم به، وقرأ ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ﴾ الآية^(٤).

وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: يقول: والذين أدرك ذريتهم الإيمان فعملوا بطاعتي، ألحقتهم بإيمانهم إلى الجنة، وأولادهم الصغار تلحق بهم.

وهذا راجع إلى التفسير الأول، فإن ذاك مفسر أصرح من هذا. وهكذا يقول الشعبي، وسعيد بن جبير، وإبراهيم، وقتادة، وأبو صالح، والربيع بن أنس، والضحاك، وابن زيد. وهو اختيار ابن جرير. وقد قال عبد الله بن الإمام أحمد:

حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا حمد بن فضيل، عن محمد بن عثمان، عن زاذان، عن علي قال: سألت خديجة النبي ﷺ عن ولدين ماتا لها في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «هما في النار». فلما رأى الكراهة في وجهها قال: «لو رأيت مكانهما لأبغضتهما». قالت: يا رسول الله، فولدى منك. قال: «في الجنة». قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الآية] (٥) (٦).

هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء، فقد

(١) مسند البزار برقم (٢٢٦٠) «كشف الأستار» وقال الهيثمي في المجمع (١١٤/٧): «فيه قيس بن الربيع وثقه شعبة والثوري، وفيه ضعف».

(٢) في م، أ: «يزيد». (٣) في م: «شعبة».

(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٤٤٠/١١) حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن غزوان به.

ورواه في المعجم الصغير برقم (٦٤٠) حدثنا عبد الله بن يزيد الدقيقي حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن غزوان به.

ولم أجد رواية الحسين بن إبراهيم التستري.

(٥) زيادة من م.

(٦) روائد عبد الله على المسند (١٣٤/١) وقال الهيثمي في المجمع (٢١٧/٧): «فيه محمد بن عثمان ولم أعرفه وبقيته رجاله رجال الصحيح».

قال الإمام أحمد:

حدثنا يزيد، حدثنا حماد بن سلمة، عن عاصم بن أبي النجود، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول: يا رب، أنى لى هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك»^(١).

إسناده^(٢) صحيح، ولم يخرجوه من هذا الوجه، ولكن له شاهد فى صحيح مسلم، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(٣).

وقوله: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ﴾ لما أخبر عن مقام الفضل، وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضى ذلك، أخبر عن مقام العدل، وهو أنه لا يؤخذ أحدا بذنب أحد، بل ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ﴾ أى: مرتهن بعمله، لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس، سواء كان أبا أو ابنا، كما قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ. إِلَّا أَصْحَابُ اليمينِ. فِي جناتٍ يتساءلون. عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [المثدر: ٣٨ - ٤١].

وقوله: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أى: وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى، مما يستطاب ويشتهى.

وقوله: ﴿يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أى: يتعاطون فيها كأسا، أى: من الخمر. قاله الضحاك.

﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتيمٌ﴾ أى: لا يتكلمون عنها^(٤) بكلام لاغ، أى: هذيان، ولا إثم، أى: فحش، كما تتكلم به الشربة من أهل الدنيا.

وقال ابن عباس: اللغو: الباطل. والتأيم: الكذب.

وقال مجاهد: لا يستهون ولا يؤثمون.

وقال قتادة: كان ذلك فى الدنيا مع الشيطان.

فتره الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فنفى عنها - كما تقدم - صداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيئ الفارغ عن الفائدة المتضمن هذيانا وفحشا، وأخبر بحسن منظرها، وطيب طعمها ومخبرها فقال: ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ. لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٦، ٤٧]، وقال: ﴿لَا يُصْـدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩]، وقال هاهنا: ﴿يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتيمٌ﴾.

(١) المسند (٢/ ٥٠٩).

(٢) فى م: «إسناده».

(٣) صحيح مسلم برقم (١٦٣١).

(٤) فى م: «فيها».

وقوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾: إخبار عن خدامهم وحشمهم في الجنة كأنهم اللؤلؤ الرطب، المكنون في حسنهم وبهائهم^(١) ونظافتهم وحسن ملابسهم، كما قال: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانِ مُخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨].

وقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أى: أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، وهذا كما يتحادث أهل الشراب على شرابهم إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم، ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أى: قد كنا في الدار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه، ﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ أى: فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف، ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أى: نتضرع إليه، فاستجاب [الله]^(٢) لنا وأعطانا سؤلنا، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

وقد ورد في هذا المقام حديث، رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده فقال: حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا سعيد بن دينار، حدثنا الربيع بن صبيح، عن الحسن، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإخوان، فيجىء سرير هذا حتى يحاذى سرير هذا، فيتحدثان، فيتكى هذا ويتكى هذا، فيتحدثان بما كان في الدنيا، فيقول أحدهما لصاحبه: يا فلان، تدرى أى يوم غفر الله لنا؟ يوم كنا في موضع كذا وكذا، فدعونا الله - عز وجل - فغفر لنا». ثم قال البزار: لا نعرفه يروى إلا بهذا الإسناد^(٣).

قلت: وسعيد بن دينار الدمشقي قال أبو حاتم: هو مجهول، وشيخه الربيع بن صبيح قد تكلم فيه غير واحد من جهة حفظه، وهو رجل صالح ثقة في نفسه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عائشة؛ أنها قرأت هذه الآية: ﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ . إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾، فقالت: اللهم من علينا وقنا عذاب السموم، إنك أنت البر الرحيم. قيل للأعمش: في الصلاة؟ قال: نعم^(٤).

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) .

(١) في م: «وبياضهم». (٢) زيادة من أ.

(٣) مسند البزار برقم (٣٥٥٣) «كشف الأستار» وقال الهيثمي في المجمع (٤٢١/١٠): «رجاله رجال الصحيح غير سعيد بن دينار، والربيع بن صبيح وهما ضعيفان وقد وثقا».

(٤) ورواه عبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان كما في الدر المنثور للسيوطي (٦٣٤/٧).

يقول^(١) تعالى أمراً رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، بأن يبلغ رسالته إلى عباده، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه. ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور فقال: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ أى: لست بحمد الله بكاهن كما تقول^(٢) الجهلة من كفار قريش. والكاهن: الذى يأتيه الرئى من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء، ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾: وهو الذى يتخبطه الشيطان من المس.

ثم قال تعالى منكرًا عليهم فى قولهم فى الرسول، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبَ الْمُتُونِ﴾ أى: قوارع الدهر. والمتون: الموت. يقولون: ننظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فستريح منه ومن شأنه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أى: انتظروا فإنى منتظر معكم، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنصرة فى الدنيا والآخرة.

قال محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبى نجیح، عن مجاهد، عن ابن عباس: إن قريشا لما اجتمعوا فى دار الندوة فى أمر النبى ﷺ قال قائل منهم: احتبسوه^(٣) فى وثاق، ثم تربصوا به ريب المتون حتى يهلك، كما هلك من هلك قبله من الشعراء: زهير والنابعة، إنما هو كأحدهم. فأنزل الله فى ذلك من قولهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبَ الْمُتُونِ﴾^(٤).

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا﴾ أى: عقولهم تأمرهم بهذا الذى يقولونه فىك من الأقوال الباطلة التى يعلمون فى أنفسهم أنها كذب وزور؟ ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أى: ولكن هم قوم ضلال معاندون، فهذا هو الذى يحملهم على ما قالوه فىك.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ أى: اختلقه وافتراه من عند نفسه، يعنون القرآن: قال الله: ﴿بَلْ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: كفرهم هو الذى يحملهم^(٥) على هذه المقالة. ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أى: إن كانوا صادقين فى قولهم: «تقوله وافتراه» فليأتوا بمثل ما جاء به محمد ﷺ^(٦) من هذا القرآن، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس، ما جاؤوا بمثله، ولا بعشر سور [من]^(٧) مثله، ولا بسورة من مثله.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سَلْمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ

(١) فى م: «قال».

(٢) فى م: «يقوله».

(٣) فى أ: «احتبسوه».

(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (١٩/٢٧) من طريق ابن إسحاق به.

(٥) زيادة من أ.

(٦) زيادة من م.

(٧) زيادة من م.

الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ .

هذا المقام فى إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية، فقال تعالى: ﴿أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أى: أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أى: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذى خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئا المذكور.

قال البخارى: حدثنا الحميدى، حدثنا سفيان قال: حدثنى عن الزهرى، عن محمد بن جبير ابن مطعم، عن أبيه قال: سمعت النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ . أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ كاد قلبى أن يطير^(١).

وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين من طرق، عن الزهرى، به^(٢). وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبى ﷺ بعد وقعة بدر فى فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركا، وكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حملة على الدخول فى الإسلام بعد ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ أى: أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ وهذا إنكار عليهم فى شركهم بالله، وهم يعلمون أنه الخالق وحده، لا شريك له. ولكن عدم إيقانهم هو الذى يحملهم على ذلك، ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ أى: أَمْ يتصرفون فى الملك ويبيدهم مفاتيح الخزائن، ﴿أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ أى: المحاسبون للخلائق، ليس الأمر كذلك، بل الله، عز وجل، هو المالك المتصرف الفعال لما يريد.

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلْمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أى: مرقاة إلى الملاء الأعلى، ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أى: فليأت الذى يستمع لهم بحجة ظاهرة على صحة ما هم فيه من الفعال والمقال، أى: وليس لهم سبيل إلى ذلك، فليسوا على شىء، ولا لهم دليل.

ثم قال منكرا عليهم فيما نسبوه إليه من البنات، وجعلهم الملائكة إناثا، واختيارهم لأنفسهم الذكور على الإناث، بحيث إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم. هذا وقد جعلوا الملائكة بنات الله، وعبدوهم مع الله، فقال: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ أى: أجرة على إبلاغك إياهم رسالة الله؟ أى: لست تسألهم على ذلك شيئا، ﴿فَهُمْ مِنْ مَّعْرَمٍ مَثْقُلُونَ﴾ أى: فهم^(٣) من أدنى شىء يتبرمون منه، ويثقلهم ويشق عليهم، ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ أى: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله، ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ يقول تعالى: أم يريد هؤلاء بقولهم

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٥٤).

(٢) صحيح البخارى برقم (٧٦٥)، (٤٠٢٣) وصحيح مسلم برقم (٤٦٣).

(٣) فى م، أ: «فإنهم».

هذا فى الرسول وفى الدين غرور الناس وكيد الرسول وأصحابه، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم، فالذين كفروا هم المكيدون، ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. وهذا إنكار شديد على المشركين فى عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله. ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون، فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ (٤٤) فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩) .

يقول تعالى مخبرا عن المشركين بالعناد والمكابرة للمحسوس: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا﴾ أى: عليهم يعذبون به، لما صدقوا ولما (١) أيقنوا، بل يقولون: هذا ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ أى: متراكم. وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]. قال الله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ﴾ أى: دعهم - يا محمد - ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾، وذلك يوم القيامة، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أى: لا ينفعهم كيدهم ومكرهم الذى استعملوه فى الدنيا، لا يُجدى عنهم يوم القيامة شيئا، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

ثم قال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أى: قبل ذلك فى الدار الدنيا، كقوله: ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: نعذبهم فى الدنيا، ونبتليهم فيها بالمصائب، لعلهم يرجعون وينيبون (٢)، فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا جلى عنهم مما كانوا فيه، عادوا إلى أسوأ (٣) ما كانوا عليه، كما جاء فى بعض الأحاديث: «إن المنافق إذا مرض وعوفى مثله فى ذلك كمثله البعير، لا يدرى فيما عقلوه ولا فيما أرسلوه» (٤). وفى الأثر الإلهى: كم أعصيك ولا تعاقبنى؟ قال الله: يا عبدى، كم أعافيك (٥) وأنت لا تدري؟

وقوله: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أى: اصبر على أذاهم ولا تباليهم، فإنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا، والله يعصمك من الناس.

وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾: قال الضحاك: أى إلى الصلاة: سبحانك اللهم

(٣) فى أ: «أشتر».

(٢) فى أ: «ينسون».

(١) فى م: «ولا».

(٤) رواه أبو داود فى السنن برقم (٣٠٨٩) من حديث عامر الرام رضى الله عنه.

(٥) فى م، أ: «أعافيك».

وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك.

وقد روى مثله عن الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهما.

وروى مسلم في صحيحه، عن عمر أنه كان يقول هذا في ابتداء الصلاة^(١). ورواه أحمد وأهل السنن، عن أبي سعيد وغيره، عن النبي ﷺ أنه كان يقول ذلك^(٢).

وقال أبو الجوزاء: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أى: من نومك من فراشك. واختاره ابن جرير: ويتأيد هذا القول بما رواه الإمام أحمد:

حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعي، حدثني عُمَيْرُ^(٣) بن هانئ، حدثني جنادة بن أبي أمية، حدثنا عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال: «من تعار من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: رب اغفر لي - أو قال: ثم دعا - استجيب له، فإن عزم فتوضأ، ثم صلى تقبلت صلاته».

وأخرجه البخاري في صحيحه، وأهل السنن، من حديث الوليد بن مسلم، به^(٤).

وقال ابن أبي نجيج، عن مجاهد: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال: من كل مجلس.

وقال الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال: إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه قال: سبحانك اللهم وبحمدك.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم الدمشقي، حدثنا محمد ابن شعيب، أخبرني طلحة بن عمرو الحضرمي، عن عطاء بن أبي رباح؛ أنه حدثه عن قول الله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾، يقول: حين تقوم من كل مجلس، إن كنت أحسنت ازددت خيرا، وإن كان غير ذلك كان هذا كفارة له.

وقد قال عبد الرزاق في جامعه: أخبرنا معمر، عن عبد الكريم الجزري، عن أبي عثمان الفقير؛ أن جبريل علم النبي ﷺ إذا قام من مجلسه أن يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. قال معمر: وسمعت غيره يقول: هذا القول كفارة المجالس^(٥).

وهذا مرسل، وقد وردت أحاديث مسندة من طرق - يقوى بعضها بعضا - بذلك، فمن ذلك حديث ابن جريج، عن سُهَيْلِ بْنِ^(٦) أَبِي صَالِحٍ، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال:

(١) صحيح مسلم برقم (٣٩٩).

(٢) المسند (٥٠/٣) وسنن أبي داود برقم (٧٧٥) وسنن الترمذي برقم (٢٤٢) وسنن النسائي (١٣٢/٢) وسنن ابن ماجه برقم (٨٠٤).

(٣) فى أ: «عمر».

(٤) المسند (٣١٣/٥) وصحيح البخارى برقم (١١٥٤) وسنن أبي داود برقم (٥٠٦٠) وسنن الترمذى برقم (٣٤١٤) والنسائى فى

السنن الكبرى برقم (١٠٦٩٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٧٨).

(٥) المصنف برقم (١٩٧٩٦).

(٦) فى م: «عن».

«من جلس في مجلس فكثر^(١) فيه لفظه فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر^(٢) له ما كان في مجلسه ذلك».

رواه الترمذى - وهذا لفظه - والنسائي في اليوم والليلة، من حديث ابن جريج. وقال الترمذى: حسن صحيح. وأخرجه الحاكم في مستدركه وقال: إسناده على شرط مسلم، إلا أن البخارى علله^(٣).

قلت: علله الإمام أحمد، والبخارى، ومسلم، وأبو حاتم، وأبو زرعة، والدارقطنى، وغيرهم. ونسبوا الوهم فيه إلى ابن جريج. على أن أبا داود قد رواه في سننه من طريق غير^(٤) ابن جريج إلى أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ بنحوه^(٥). ورواه أبو داود - واللفظ له - والنسائي، والحاكم في المستدرک، من طريق الحجاج بن دينار، عن هاشم^(٦)، عن أبى العالية، عن أبى بَرزَةَ الأسلمى قال: كان رسول الله ﷺ يقول بأخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك». فقال رجل: يا رسول الله، إنك لتقول قولاً ما كنت تقولهُ فيما مضى؟! قال: «كفارة لما يكون في المجلس»^(٧).

وقد روى مرسلًا عن أبى العالية، والله^(٨) أعلم. وهكذا رواه النسائي والحاكم، من حديث الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن رافع بن خديج، عن النبى ﷺ مثله سواء^(٩). وروى مرسلًا أيضًا، والله أعلم. وكذا رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو؛ أنه قال: «كلمات لا يتلکم بهن أحد في مجلسه عند قيامه ثلاث مرات، إلا كفر بهن عنه، ولا يقولهن في مجلس خير ومجلس ذكر، إلا ختم له بهن كما يختم بالخاتم على الصحيفة: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»^(١٠)، وأخرجه الحاكم من حديث أم المؤمنين عائشة، وصححه، ومن رواية جبير بن مطعم^(١١). ورواه أبو بكر الإسماعيلي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، كلهم عن النبى ﷺ. وقد أفردت لذلك جزءاً على حدة بذكر طرقه وألفاظه وعلله، وما يتعلق به، والله الحمد والمنة^(١٢).

وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أى: اذكره واعبد به بالتلاوة والصلاة في الليل، كما قال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

(١) فى : «فأكثر».

(٢) سنن الترمذى برقم (٣٤٣٣) والنسائي فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٣٠) والمستدرک (١/٥٣٦).

(٤) فى أ: «عن».

(٥) سنن أبى داود برقم (٤٨٥٨).

(٦) فى أ: «عن أبى هاشم».

(٧) سنن أبى داود برقم (٤٨٥٩) والنسائي فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٥٩) والمستدرک (١/٥٣٧).

(٨) فى م: «فأله».

(٩) النسائي فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٦٠) والمستدرک (١/٥٣٧).

(١٠) سنن أبى داود برقم (٤٨٥٧).

(١١) المستدرک (١/٥٣٧).

(١٢) وقد ذكرت أحاديث كفارة المجلس عند تفسير الصفات فى خاتمتها.

وقوله: ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾: قد تقدم فى حديث ابن عباس أنهما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر، فإنهما مشروعتان عند إدبار النجوم، أى: عند جنوحها للغيبوبة. وقد روى^(١) [فى حديث]^(٢) ابن سيلان، عن أبى هريرة مرفوعاً: «لا تَدْعُوهُمَا، وإن طردتكم الخيل». يعنى: ركعتى الفجر^(٣)، رواه أبو داود. ومن هذا الحديث حكى عن بعض أصحاب الإمام أحمد القول بوجوبهما، وهو ضعيف لحديث: «خمس صلوات فى اليوم والليلة». قال: هل على غيرها^(٤)؟ قال: «لا إلا أن تطوع»^(٥). وقد ثبت فى الصحيحين عن عائشة، رضى الله عنها، أنها قالت: لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتى الفجر^(٦). وفى لفظ لمسلم: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»^(٧).

آخر تفسير سورة الطور [والله أعلم]^(٨)

(١) فى م، أ: «ورد».

(٢) زيادة من م، أ.

(٣) رواه أبو داود فى السنن برقم (١٢٥٨).

(٤) فى أ: «غيرهن».

(٥) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٦) ومسلم فى صحيحه برقم (١١) من حديث طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه.

(٦) صحيح البخارى برقم (١١٦٩) وصحيح مسلم برقم (٧٢٤).

(٧) صحيح مسلم برقم (٧٢٥).

(٨) زيادة من أ.

تفسير سورة النجم

وهي مكية.

قال البخارى: حدثنا نصر بن على، أخبرنى أبو أحمد، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن الأسود بن يزيد، عن عبد الله قال: أولُ سورة أنزلت فيها سَجْدَةٌ: ﴿وَالنَّجْمِ﴾، قال: فسجد رسول الله ﷺ وسجد من خلفه، إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من ترأب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قُتِلَ كافرًا، وهو أمية بن خلف^(١).

وقد رواه البخارى أيضا فى مواضع، ومسلم وأبو داود والنسائى، من طرق، عن أبى إسحاق، به^(٢). وقوله فى المتن: إنه أمية بن خلف فى هذه الرواية مشكل، فإنه قد جاء من غير هذه الطريق أنه عتبة بن ربيعة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾.

قال الشعبى وغيره: الخالق يُقسِم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغى له أن يقسم إلا بالخالق. رواه ابن أبى حاتم.

واختلف المفسرون فى معنى قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ فقال ابن أبى نجیح، عن مجاهد: يعنى بالنجم: الثريا إذا سقطت مع الفجر. وكذا روى عن ابن عباس، وسفيان الثورى. واختاره ابن جرير. وزعم السدى أنها الزهرة.

وقال الضحاك: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾: إذا رمى به الشياطين. وهذا القول له اتجاه.

وروى الأعمش، عن مجاهد فى قوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ يعنى: القرآن إذا نزل. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ . لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٨٠].

وقوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾: هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادة للرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بأنه بار راشد تابع للحق، ليس بضال، وهو: الجاهل الذى يسلك على غير طريق

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٦٣).

(٢) صحيح البخارى برقم (١٠٧٠)، (٣٨٥٣)، (٣٩٧٢) وصحيح مسلم برقم (٥٧٦) وسنن أبى داود برقم (١٤٠٦) وسنن النسائى (١٦٠/٢).

بغير علم، والغاوى: هو العالم بالحق العادل عنه قصداً إلى غيره، فتره الله [سبحانه وتعالى] (١) رسوله وشرعه عن مشابهة أهل (٢) الضلال كالتصارى وطرائق اليهود، وعن (٣) علم الشيء وكتمانه والعمل بخلافه، بل هو، صلوات الله وسلامه عليه، وما بعثه الله به من الشرع العظيم فى غاية الاستقامة والاعتدال والسداد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أى: ما يقول قولاً عن هوى وغرض، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ أى: إنما يقول ما أمر به، يبلغه إلى الناس كاملاً موفراً من غير زيادة ولا نقصان، كما رواه الإمام أحمد.

حدثنا يزيد، حدثنا حريز بن عثمان، عن عبد الرحمن بن ميسرة، عن أبى أمامة؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ليدخلن الجنة بشفاعتي رجل ليس بنبي مثل الحين - أو: مثل أحد الحين -: ربيعة ومضر». فقال رجل: يا رسول الله، أو ما ربيعة من مضر؟ قال: «إنما أقول ما أقول» (٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن عبيد الله بن الأحنس، أخبرنا الوليد بن عبد الله، عن يوسف بن ماهر، عن عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله، ورسول الله ﷺ بشر، يتكلم فى الغضب. فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «اكتب، فوالذى نفسى بيده، ما خرج منى إلا حق».

ورواه أبو داود عن مسدد وأبى بكر بن أبى شيبة، كلاهما عن يحيى بن سعيد القطان، به (٥).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا الليث، عن ابن عجلان، عن زيد بن أسلم، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «ما أخبرتكم أنه الذى من عند الله، فهو الذى لا شك فيه». ثم قال: لا نعلمه يروى إلا بهذا الإسناد (٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا ليث، عن محمد، عن سعيد بن أبى سعيد، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «لا أقول إلا حقاً». قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول الله؟ قال: «إنى لا أقول إلا حقاً» (٧).

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا

(١) زيادة من م. (٢) فى م: «أصحاب». (٣) فى م: «وهى».

(٤) المسند (٥/ ٢٥٧) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٨١): «رجال أحمد رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن ميسرة وهو ثقة».

(٥) المسند (٢/ ١٦٢) وسنن أبى داود برقم (٣٦٤٦).

(٦) مسند البزار برقم (٢٠٣) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ١٧٩): «فيه أحمد بن منصور الرمادى وهو ثقة، وفيه كلام لا يضر وبقيته رجاله رجال الصحيح، وعبد الله بن صالح مختلف فيه».

(٧) المسند (٢/ ٣٤٠) ورواه الترمذى فى السنن برقم (١٩٩٠) من طريق المقرئ به وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

رَأَى (١١) أَفْتَمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨) .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله محمد ﷺ أنه علّمه الذي جاء به إلى الناس ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾، وهو جبريل، عليه السلام، كما قال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١].

وقال هاهنا: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أى: ذو قوة. قاله مجاهد، والحسن، وابن زيد. وقال ابن عباس: ذو منظر حسن.

وقال قتادة: ذو خلق طويل حسن.

ولا منافاة بين القولين؛ فإنه، عليه السلام، ذو منظر حسن، وقوة شديدة. وقد ورد الحديث الصحيح من رواية أبى هريرة وابن عمرو^(١) أن النبى ﷺ قال: «لا تحل الصدقة لغنى، ولا لذي مِرَّةٍ سَوَى»^(٢).

وقوله: ﴿فَاسْتَوَى﴾ يعنى: جبريل، عليه السلام. قاله مجاهد والحسن وقاتدة، والربيع بن أنس ﴿وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى﴾ يعنى: جبريل، استوى فى الأفق الأعلى. قاله عكرمة وغير واحد. قال عكرمة: والأفق الأعلى: الذى يأتى منه الصبح. وقال مجاهد: هو مطلع الشمس. وقال قتادة: هو الذى يأتى منه النهار. وكذا قال ابن زيد، وغيرهم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا مُصَرِّفُ بن عمرو اليامى أبو القاسم، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن طلحة بن مصرف، حدثنى أبى، عن الوليد - هو ابن قيس - عن إسحاق بن أبى الكهتلة أظنه ذكره عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ لم ير جبريل فى صورته إلا مرتين، أما واحدة فإنه سألَه أن يراه فى صورته ففسد الأفق. وأما الثانية فإنه كان معه حيث سعد، فذلك^(٣) قوله: ﴿وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى﴾.

وقد قال ابن جرير هاهنا قولاً لم أره لغيره، ولا حكاه هو عن أحد، وحاصله: أنه ذهب إلى أن المعنى: ﴿فَاسْتَوَى﴾ أى: هذا الشديد القوى ذو المرة هو ومحمد صلى الله عليهما وسلم ﴿بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى﴾ أى: استويا جميعاً بالأفق، وذلك ليلة الإسراء كذا قال، ولم يوافقه أحد على ذلك. ثم

(١) فى م: «ابن عمرو وأبى هريرة».

(٢) حديث عبد الله بن عمرو: رواه أبو داود فى السنن برقم (١٦٣٤) والترمذى فى السنن برقم (٦٥٢) عن ربحان بن يزيد عنه وحديث أبى هريرة: رواه النسائى فى السنن (٩٩/٥) وابن ماجه فى السنن برقم (١٨٣٩) عن سالم بن أبى الجعد عنه.

(٣) فى م: «فكذلك».

شرع يوجه ما قال من حيث العربية فقال: وهذا كقوله تعالى: ﴿أُنْذِرْ كُنَّا تُرَابًا وَأَبَاؤُنَا﴾ [النمل: ٦٧]، فعطف بالآباء على المكْنَى في ﴿كُنَّا﴾ من غير إظهار «نحن»، فكذلك قوله: ﴿فَاسْتَوَى. وَهُوَ﴾ قال: وذكر الفراء عن بعض العرب أنه أنشده:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ النَّبْعَ يَصْلُبُ عُودُهُ وَلَا يَسْتَوِي وَالْخُرُوعُ الْمُتَقَصِّفُ^(١)

وهذا الذى قاله من جهة العربية متجه، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك؛ فإن هذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء، بل قبلها، ورسول الله ﷺ فى الأرض، فهبط عليه جبريل، عليه السلام، وتدلّى إليه، فاقترّب منه وهو على الصورة التى خلقه الله عليها، له ستمائة جناح، ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدرّة المنتهى، يعنى ليلة الإسراء، وكانت هذه الرؤية الأولى فى أوائل البعثة بعد ما جاءه جبريل، عليه السلام، أول مرة، فأوحى الله إليه صدر سورة «اقرأ»، ثم فتر الوحي فترة ذهب النبى ﷺ فيها مرارا ليرتدى من رؤوس الجبال، فكلما همّ بذلك ناداه جبريل من الهواء: «يا محمد، أنت رسول الله حقاً، وأنا جبريل». فيسكن لذلك جأشه، وتقر عينه، وكلما طال عليه الأمر عابِدَ لمثلها، حتى تبدّى له جبريل ورسول الله ﷺ فى الأبطح فى صورته التى خلقه الله عليها، له ستمائة جناح قد سد عظم خلقه الأفق، فاقترّب منه^(٢)، وأوحى إليه عن الله، عز وجل، ما أمره به، فعرف عند ذلك عظمة الملك الذى جاءه بالرسالة، وجلالة قدره، وعلو مكانته عند خالقه الذى بعثه إليه. فأما الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده حيث قال:

حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا الحارث بن عبيد، عن أبى عمران الجونى، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «بيننا أنا قاعد إذ جاء جبريل، عليه السلام، فوكّز بين كتفى، فقمّت إلى شجرة فيها كوكرى الطير، فقعد فى أحدهما وقعدت فى الآخر. فسَمَتِ وارتفعت حتى سدّت الخافقين وأنا أقلب طرفى، ولو شئت أن أمس السماء لمست، فالتفت إلى جبريل كأنه حلس لاط^(٣) فعرفت فضل علمه بالله على. وفتح لى باباً من أبواب السماء ورأيت النور الأعظم، وإذا دون الحجاب رفرفة الدر والياقوت. وأوحى إلى ما شاء الله أن يوحى».

ثم قال البزار: لا يرويه إلا الحارث بن عبيد، وكان رجلاً مشهوراً من أهل البصرة^(٤).

قلت: الحارث بن عبيد هذا هو أبو قدامة الإيادى، أخرج له مسلم فى صحيحه إلا أن ابن معين ضعفه، وقال: ليس هو بشيء. وقال الإمام أحمد: مضطرب الحديث. وقال أبو حاتم الرازى: كتب حديثه ولا يحتج به. وقال ابن حبان: كثر وهمّه فلا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد. فهذا الحديث من غرائب رواياته، فإن فيه نكارة وغبابة ألفاظ وسياقاً عجيباً، ولعله منام، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شريك، عن عاصم، عن أبى وائل، عن عبد الله

(١) البيت فى تفسير الطبرى (٢٧/٢٥) وهو لجرير بن عطية.

(٢) فى م: «وأقرب منه».

(٣) فى م: «لاطى».

(٤) مسند البزار برقم (٥٨).

قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سدّ الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم^(١). انفرد به أحمد^(٢).

وقال أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن إدريس بن منبه، عن وهب بن منبه، عن ابن عباس قال: سأل النبي ﷺ جبريل أن يراه في صورته، فقال: ادع ربك. فدعا ربه، عز وجل، فطلع عليه سواد من قبل المشرق، فجعل يرتفع وينتشر، فلما رآه النبي ﷺ صعق، فأتاه فنَعَشَهُ ومسح البزاق عن شِدْقِهِ.

انفرد به أحمد^(٣). وقد رواه ابن عساكر في ترجمة «عتبة بن أبي لهب»، من طريق محمد بن إسحاق، عن عثمان بن عروة بن الزبير، عن أبيه، عن هبار بن الأسود قال: كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزا إلى الشام، فتجهزت معهما، فقال ابنه عتبة: والله لأنطلقن إلى محمد ولأؤذينه في ربه، سبحانه، فانطلق حتى أتى النبي ﷺ، فقال: يا محمد، هو يكثر بالذي دنى فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى. فقال النبي ﷺ: «اللهم ابعث إليه كلبا من كلابك». ثم انصرف عنه فرجع إلى أبيه فقال: يا بني، ما قلت له؟ فذكر له ما قال له، قال: فما قال لك؟ قال: قال: «اللهم سلط عليه كلبا من كلابك» قال: يا بني، والله ما آمنُ عليك دُعَاءُ فسرنا حتى نزلنا الشراة، وهى مأسدة، ونزلنا إلى صومعة راهب، فقال الراهب: يا معشر العرب، ما أنزلكم هذه البلاد، فإنها تسرح الأسدُ فيها كما تسرح الغنم؟ فقال لنا أبو لهب: إنكم قد عرفتم كبر سنى وحقى، وإن هذا الرجل قد دعا على ابني دعوة - والله - ما آمنها عليه، فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة، وافرشوا لابنى عليها، ثم افرشوا حولها. ففعلنا، فجاء الأسد فشَمَّ وجوهنا، فلما لم يجد ما يريد تَقَبَّضَ، فوثب، فإذا هو فوق المتاع، فشم وجهه ثم هزمه هَزْمَةً فَفَضَخَ رأسه. فقال أبو لهب: قد عرفت أنه لا ينفلت عن دعوة محمد^(٤).

وقوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ أى: فاقترَب جبريل إلى محمد لما هبط عليه إلى الأرض، حتى كان بينه وبين محمد ﷺ قَاب قَوْسَيْنِ، أى: بقدرهما إذا مَدَّا. قاله^(٥) مجاهد، وقتادة.

وقد قيل: إن المراد بذلك بُعد ما بين وتر القوس إلى كبدها.

وقوله: ﴿أَوْ أَدْنَى﴾، قد تقدم أن هذه الصيغة تستعمل في اللغة لإثبات المخبر عنه ونفى ما زاد عليه، كقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، أى: ما هى بألين من الحجارة، بل هى مثلها أو تزيد عليها فى الشدة والقسوة. وكذا قوله: ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٠١].

(١) فى أ: «أعلم».

(٢) المسند (١/٣٩٥).

(٣) المسند (١/٣٢٢).

(٤) لم أجد ترجمة عتبة بن أبي لهب فى تاريخ دمشق المخطوط ولا فى مختصره لابن منظور.

وقد روى الأثر أبو نعيم فى دلائل النبوة ص (٣٨٩) من طريق محمد بن إسحاق به.

(٥) فى م: «قال».

١٤٧]، أى: ليسوا أقل منها بل هم مائة ألف حقيقة، أو يزيدون عليها. فهذا تحقيق للمخبر به لا شك ولا تردد^(١)، فإن هذا ممتنع هاهنا، وهكذا هذه الآية: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾.

وهذا الذى قلناه، من أن هذا المقرب الدانى الذى صار بينه وبين محمد ﷺ، إنما هو جبريل، عليه السلام، هو قول أم المؤمنين عائشة، وابن مسعود، وأبى ذر، وأبى هريرة، كما سنورد أحاديثهم قريبا إن شاء الله. وروى مسلم فى صحيحه، عن ابن عباس أنه قال: «رأى محمد ربه بفؤاده مرتين»^(٢). فجعل هذه إحداهما. وجاء فى حديث شريك بن أبى نمر، عن أنس فى حديث الإسراء: «ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى» ولهذا تكلم^(٣) كثير من الناس فى متن هذه الرواية، وذكروا أشياء فيها من الغرابة، فإن صح فهو محمول على وقت آخر وقصة أخرى، لا أنها تفسر لهذه الآية؛ فإن هذه كانت ورسول الله ﷺ فى الأرض لا ليلة الإسراء؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾، فهذه هى ليلة الإسراء، والأولى كانت فى الأرض.

وقد قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا سليمان الشيبانى، حدثنا زر بن حبیش قال: قال عبد الله بن مسعود فى هذه الآية: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾، قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل له ستمائة جناح»^(٤).

وقال ابن وهب: حدثنا ابن لهيعة، عن أبى الأسود، عن عروة، عن عائشة قالت: كان أول شأن رسول الله ﷺ أنه رأى فى منامه جبريل بأجیاد، ثم إنه خرج ليقضى حاجته فصرخ به جبريل: يا محمد، يا محمد. فنظر رسول الله ﷺ يمينا وشمالا فلم ير شيئا^(٥) - ثلاثا - ثم رفع بصره فإذا هو ثان إحدى رجله مع^(٦) الأخرى على أفق السماء فقال: يا محمد، جبريل، جبريل - يسكنه - فهرب النبى ﷺ حتى دخل فى الناس، فنظر فلم ير شيئا، ثم خرج من الناس، ثم نظر فرآه، فدخل فى الناس فلم ير شيئا، ثم خرج فنظر فرآه، فذلك قول الله عز وجل: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ. [مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ]»^(٧)، إلى قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾، يعنى جبريل إلى محمد، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾: ويقولون: القاب نصف الإصبع. وقال بعضهم: ذراعين كان بينهما.

رواه ابن جرير وابن أبى حاتم، من حديث ابن وهب^(٨). وفى حديث الزهري عن أبى سلمة، عن جابر شاهد لهذا.

وروى البخارى عن طلق بن غنام، عن زائدة، عن الشيبانى قال: سألت زرا عن قوله: ﴿فَكَانَ

(١) فى م، أ: «ولا تردد».

(٢) صحيح مسلم برقم (١٧٦).

(٣) فى م: «ولهذا قد تكلم».

(٤) تفسير الطبرى (٢٧/٢٧).

(٥) فى م: «أحدأ».

(٦) فى م، أ: «على».

(٧) زيادة من م.

(٨) تفسير الطبرى (٢٧/٢٧).

قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى . فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿٥﴾ قال: حدثنا عبد الله أن محمداً ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح^(١).

وقال ابن جرير: حدثني ابن بزيع البغدادي، حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه حلته^(٢) رفرف، قد ملأ ما بين السماء والأرض^(٣).

فعلى ما ذكرناه يكون قوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ معناه: فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى. أو: فأوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى بواسطة جبريل وكلا المعنيين صحيح، وقد ذكر عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾، قال: أوحى إليه: «ألم أجذك يتيما»، ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

وقال غيره: أوحى [الله]^(٤) إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك.

وقوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى . أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى﴾: قال مسلم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن زياد بن حصين، عن أبي العالية، عن ابن عباس: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ قال: رآه بفؤاده مرتين^(٥).

وكذا رواه سَمَكٌ، عن عكرمة، عن ابن عباس، مثله. وكذا قال أبو صالح والسدي وغيرهما: إنه رآه بفؤاده مرتين [أو مرة]^(٦)، وقد خالفه ابن مسعود وغيره^(٧)، وفي رواية عنه أنه أطلق الرؤية، وهي محمولة على المقيدة بالفؤاد. ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب، فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة، رضى الله عنهم، وقول البغوي في تفسيره: وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه، وهو قول أنس والحسن وعكرمة. فيه نظر، والله أعلم^(٨).

وقال الترمذي: حدثنا محمد بن عمرو بن نُبَّهان^(٩) بن صفوان، حدثنا يحيى بن كثير العنبري، عن سلم بن جعفر، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: رأى محمد ربه قلت: أليس الله يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾؟ [الأُنعام: ١٠٣] قال: ويحك! ذاك إذا تَجَلَّى بنوره الذي هو نُورُهُ، وقد رأى ربه مرتين.

(١) صحيح البخاري برقم (٤٨٥٧).

(٢) في م، أ: «ليا».

(٣) تفسير الطبري (٢٧/٢٩).

(٤) زيادة من أ.

(٥) صحيح مسلم برقم (١٧٦).

(٦) زيادة من م.

(٧) في م: «ابن عمرو عنه».

(٨) انظر تفسير البغوي (٧/٤٠٣).

(٩) في م: «منهال».

ثم قال: حسن غريب^(١).

وقال أيضا: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن مجالد، عن الشعبي قال: لقي ابن عباس كعباً بعرفة، فسأله عن شيء فكبر حتى جاوبته الجبال، فقال ابن عباس: إنا بنو هاشم فقال كعب: إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى، فكلّم موسى مرتين ورآه محمد مرتين. وقال مسروق: دخلت على عائشة فقلت: هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد تكلمت بشيء قفّ له شعري. فقلت: رويداً، ثم قرأت: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾.

فقالت: أين يذهب بك؟ إنما هو جبريل، من أخبرك أن محمداً رأى ربه أو كتم شيئاً مما أمر به، أو يعلم الخمس التي قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ [لقمان: ٣٤]، فقد أعظم الفرية^(٢)، ولكنه رأى جبريل، لم يره في صورته إلا مرتين، مرة عند سدرة المنتهى ومرة في جياذ^(٣)، وله ستمائة جناح قد سد الأفق^(٤).

وقال النسائي: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أتعجبون أن تكون الخلّة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد، عليهم السلام؟!^(٥).

وفى صحيح مسلم، عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنى أراه». وفى رواية: «رأيت نورا»^(٦).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، عن موسى بن عبيدة، عن محمد ابن كعب قال: قالوا: يا رسول الله، رأيت^(٧) ربك؟ قال: «رأيت بفؤادى مرتين» ثم قرأ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾.

ورواه ابن جرير، عن ابن حميد، عن مهران، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب، عن بعض أصحاب النبي ﷺ قال: قلنا: يا رسول الله، هل رأيت ربك؟ قال: «لم أره بعيني، ورأيت به فؤادى مرتين» ثم تلا: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾^(٨).

(١) سنن الترمذى برقم (٣٢٧٩).

(٢) فى م: «أعظم على الله الفرية».

(٣) فى م: «أجنادين».

(٤) سنن الترمذى برقم (٣٢٧٨).

(٥) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥٣٩).

(٦) صحيح مسلم برقم (١٧٨).

(٧) فى أ: «هل رأيت».

(٨) تفسير الطبرى (٢٧/٢٧).

ثم قال ابن أبي حاتم: وحدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، أخبرني عباد بن منصور قال: سألت عكرمة: «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى»، فقال عكرمة: تريد أن أخبرك أنه قد رآه؟ قلت: نعم. قال: قد رآه، ثم قد رآه. قال: فسألت عنه الحسن فقال: رأى جلاله وعظمته ورداءه.

وحدثنا أبي، حدثنا محمد بن مجاهد، حدثنا أبو عامر العقدي، أخبرنا أبو خلدة، عن أبي العالية قال: سئل رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «رأيت نهرا، ورأيت وراء النهر حجابا، ورأيت وراء الحجاب نورا لم أر غير»^(١).

وذلك غريب جدا، فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد:

حدثنا أسود بن عامر، حدثنا حماد بن سلمة، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ربي عز وجل»^(٢).

فإنه حديث إسناده على شرط الصحيح، لكنه مختصر من حديث المنام كما رواه الإمام أحمد أيضا:

حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن أيوب، عن أبي قلابة عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «أتاني ربي الليلة في أحسن صورة - أحسبه يعني في النوم - فقال: يا محمد، أتدرى فيم يختصم الملائكة؟» قال: «قلت: لا. فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي - أو قال: نحرِي - فعلمت ما في السموات وما في الأرض، ثم قال: يا محمد، هل تدرى فيم يختصم الملائكة الأعلى؟» قال: «قلت: نعم، يختصمون في الكفارات والدرجات». قال: «وما الكفارات والدرجات؟» قال: «قلت: المكث في المساجد بعد الصلوات، والمشي على الأقدام إلى الجمعات»^(٣)، وإبلاغ الوضوء في المكاره، من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه. وقال: قل يا محمد إذا صليت: اللهم، إني أسألك الخيرات»^(٤) وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة أن تقبضني إليك غير مفتون». قال: «والدرجات بذل الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام»^(٥).

وقد تقدم في آخر سورة «ص»، عن معاذ، نحوه^(٦). وقد رواه ابن جرير من وجه آخر عن ابن عباس، وفيه سياق آخر وزيادة غريبة فقال:

حدثني أحمد بن عيسى التميمي، حدثني سليمان بن عمر بن سيَّار، حدثني أبي، عن سعيد بن زريق، عن عمر بن سليمان^(٧)، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «رأيت ربي في

(١) ورواه ابن المنذر كما في الدر المنثور (٦٤٨/٧) وهو مرسل.

(٢) المسند (٢٨٥/١).

(٣) في هـ، أ: «الجماعات». (٤) في م: «إني أسألك فعل الخيرات».

(٥) المسند (٣٦٨/١).

(٦) انظر تفسير الآية: ٦٩ من سورة «ص».

(٧) في أ: «سليم».

أحسن صورة فقال لى: يا محمد، هل تدرى فيم يختصم الملائة الأعلى؟ فقلت: لا يارب. فوضع يده بين كتفى فوجدت بردها بين ثديي، فعلمت ما فى السموات والأرض، فقلت: يارب، فى الدرجات والكفارات، ونقل الأقدام إلى الجمعات^(١)، وانتظار الصلاة بعد الصلاة. فقلت: يارب، إنك اتخذت إبراهيم خليلًا، وكلمت موسى تكليمًا، وفعلت وفعلت، فقال: ألم أشرح لك صدرك؟ ألم أضع عنك وزرك؟ ألم أفعل بك؟ ألم أفعل؟ قال: «فأفضى إلى بأشياء لم يؤذن لى أن أحدثكموها» قال: «فذاك قوله فى كتابه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى . فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى . مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾»، فجعل نور بصرى فى فؤادى، فنظرت إليه بفؤادى. إسناده ضعيف^(٢).

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر بسنده إلى هبار بن الأسود، رضى الله عنه؛ أن عتبة بن أبى لهب لما خرج فى تجارة إلى الشام قال لأهل مكة: اعلّموا أنى كافر بالذى دنا فتدلى. فبلغ قوله رسول الله ﷺ، فقال: «سَلَطَ اللهُ عَلَيْهِ كَلْبًا مِنْ كَلَابِهِ». قال هبار: فكنيت معهم، فنزلنا بأرض كثيرة الأسد، قال: فلقد رأيت الأسد جاء فجعل يَشِمُّ رؤوس القوم واحدا واحدا، حتى تخطى إلى عتبة فاقتطع رأسه من بينهم^(٣).

وذكر ابن إسحاق وغيره فى السيرة: أن ذلك كان بأرض الزرقاء، وقيل: بالسرقة، وأنه خاف ليلئذ، وأنهم جعلوه بينهم وناموا من حوله، فجاء الأسد فجعل يزار، ثم تخطاهم إليه فضغم رأسه، لعنه الله.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى . عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى . عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾، هذه هى المرة الثانية التى رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل على صورته التى خلقه الله عليها، وكانت ليلة الإسراء. وقد قدمنا الأحاديث الواردة فى الإسراء بطرقها وألفاظها فى أول سورة «سبحان» بما أغنى عن إعادته هاهنا، وتقدم أن ابن عباس، رضى الله عنهما، كان يثبت الرؤية ليلة الإسراء، ويستشهد بهذه الآية. وتابعه جماعة من السلف والخلف، وقد خالفه جماعات من الصحابة، رضى الله عنهم، والتابعين وغيرهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن عاصم بن بهدلة، عن زر بن حبیش، عن ابن مسعود فى هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى . عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾، قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل وله ستمائة جناح، ينتثر من ريشه التهاويل: الدر والياقوت»^(٤). وهذا إسناده جيد قوى.

وقال أحمد أيضا: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا شريك، عن جامع بن أبى راشد، عن أبى وائل،

(١) فى ١: «الجماعات».

(٢) تفسير الطبرى (٢٧/٢٨).

(٣) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٧/٦٣) ولم يقع لى فى ترجمته فيما بين يدى من مخطوطات تاريخ دمشق.

(٤) المسند (١/٤٦٠).

عن عبد الله قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق: يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم^(١). إسناده حسن أيضا.

وقال أحمد أيضا: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني حسين، حدثني عاصم بن بهدلة قال: سمعت شقيق بن سلمة يقول: سمعت ابن مسعود يقول: قال: رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل على سدره^(٢) المنتهى، وله ستمائة جناح» سألت عاصما عن الأجنحة، فأبى أن يخبرني، قال: فأخبرني بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب^(٣). وهذا أيضا إسناده جيد.

وقال أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني حسين، حدثني عاصم بن بهدلة^(٤)، حدثني^(٥) شقيق^(٦) قال^(٧): سمعت ابن مسعود يقول: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل، عليه السلام، في خضر معلق به الدر^(٨)»^(٩). إسناده جيد أيضا.

وقال الإمام أحمد: حدثني يحيى، عن إسماعيل، حدثنا عامر قال: أتى مسروق عائشة فقال: يا أم المؤمنين، هل رأى محمد ﷺ ربه عز وجل؟ قالت: سبحان الله لقد قفّ شعري لما قلت، أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب: من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، ومن أخبرك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [الأنعام: ٣٤]، ومن أخبرك أن محمدا قد كتم^(١٠)، فقد كذب، ثم قرأت: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين^(١١).

وقال أحمد أيضا: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن داود، عن الشعبي، عن مسروق قال: كنت عند عائشة فقلت: أليس الله يقول: ﴿وَلَقَدْ رَأَاهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾؟ فقلت: أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله ﷺ عنها، فقال: «إنما ذاك جبريل». لم يره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين، رآه منهبطا من السماء إلى الأرض، ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض. أخرجاه في الصحيحين، من حديث الشعبي، به^(١٢).

رواية أبي ذر، قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن عبد الله بن شقيق

(١) لم أجده في المسند وذكره الحافظ ابن حجر في أطراف المسند (١٥٨/٤).

(٢) في م: «السدر».

(٣) المسند (٤٠٧/١).

(٤) في أ: «حصين».

(٥) في م: «قال سمعت».

(٨) في م: «الدر، به».

(٩) المسند (٤٠٧/١).

(١٠) في أ: «كتم شيئا من الوحى».

(١١) المسند (٤٩/٦).

(١٢) في أ: «سألت».

(١٣) المسند (٢٤١/٦) وصحيح البخارى برقم (٤٨٥٥) وصحيح مسلم برقم (١٧٧) بنحوه.

قال: قلت لأبي ذر: لو رأيتُ رسولَ الله ﷺ لسألتُهُ. قال: وما كنتَ تسأله؟ قال: كنتُ أسأله: هل رأى ربه، عز وجل؟ فقال: إني قد سألتُهُ فقال: «قد رأيته، نورا أنى أراه»^(١).

هكذا وقع في رواية الإمام أحمد، وقد أخرجه مسلم من طريقين بلفظين فقال: حدثنا أبو بكر ابن أبي شيبة، حدثنا وكيع، عن يزيد بن إبراهيم، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق، عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنى أراه».

وقال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألتُهُ. فقال: عن أى شيء كنتَ تسأله؟ قال: قلت: كنتُ أسأله: هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألت فقال: «رأيت نورا»^(٢).

وقد حكى الخلال في «علله» أن الإمام أحمد سئل عن هذا الحديث فقال: ما زلتُ منكراً له، وما أدري ما وجهه^(٣).

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن عون الواسطي، أخبرنا هشيم، عن منصور، عن الحكم، عن إبراهيم، عن أبيه، عن أبي ذر قال: رآه بقلبه، ولم يره بعينه.

وحاول ابن خزيمة أن يدعى انقطاعه بين عبد الله بن شقيق وبين أبي ذر، وأما ابن الجوزي فتأوله على أن أبا ذر لعلة سأل رسول الله ﷺ قبل الإسراء، فأجابه بما أجابه به، ولو سأله بعد الإسراء لأجابه بالإثبات. وهذا ضعيف جداً، فإن عائشة أم المؤمنين، رضى الله عنها، قد سألت عن ذلك بعد الإسراء، ولم يثبت لها الرؤية. ومن قال: إنه خاطبها على قدر عقلها، أو حاول تخطئتها فيما ذهبت إليه - كابن خزيمة في كتاب التوحيد^(٤) - فإنه هو المخطئ، والله أعلم.

وقال النسائي: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هشام^(٥) عن منصور، عن الحكم، عن يزيد بن شريك، عن أبي ذر قال: رأى رسول الله ﷺ ربه بقلبه، ولم يره ببصره^(٦).

وقد ثبت في صحيح مسلم، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن علي بن مسهر، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي هريرة، رضى الله عنه؛ أنه قال في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾، قال: رأى جبريل^(٧)، عليه السلام^(٨).

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته مرتين. وكذا قال قتادة، والربيع بن أنس، وغيرهم.

(١) المسند (٥/١٤٧).

(٢) صحيح مسلم برقم (١٧٨).

(٣) وجه الإنكار لا محل له في المتن، فإن له شواهد وهو دليل على نفى الرؤية في الدنيا.

(٤) التوحيد لابن خزيمة (ص ٢٠٥، ٢٠٦)، (ص ٢٢٥). (٥) في م، أ: «هشيم».

(٦) النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٥٣٦).

(٧) في أ: «رأى رسول الله ﷺ جبريل».

(٨) صحيح مسلم برقم (١٧٥).

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾: قد تقدم في أحاديث الإسراء أنه غشيتها الملائكة مثل الغربان، وغشيتها نور الرب، وغشيتها ألوان ما أدرى ما هي .

وقال الإمام أحمد: حدثنا مالك بن مغول، حدثنا الزبير بن عدي، عن^(١) طلحة، عن مرة، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدره المنتهى، وهي في السماء السابعة^(٢)، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها، ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قال: فراش من ذهب، قال: وأعطى رسول الله ﷺ ثلاثاً: أعطى الصلوات الخمس، وأعطى خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته المقحّمات . انفرد به مسلم^(٣).

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع، عن أبي العالية، عن أبي هريرة أو غيره - شك أبو جعفر - قال: لما أسرى برسول الله انتهى إلى السدره، فقيل له: هذه السدره [قال]^(٤): غشيتها نور الخلاق، وغشيتها الملائكة مثل الغربان حين يقعن على الشجر، قال: فكلّمه عند ذلك، فقال له: سل .

وقال^(٥) ابن أبي نجیح، عن مجاهد: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قال: كان أغصان السدره لؤلؤا وياقوتا وزبرجدا، فرأها محمد، ورأى ربه بقلبه .

وقال ابن زيد: قيل: يا رسول الله، أى شيء رأيت يغشى تلك السدره؟ قال: «رأيتُ يغشاها فراشٌ من ذهب، ورأيت على كل ورقة من ورقها ملكاً قائماً يسبح الله، عز وجل»^(٦).

وقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ قال ابن عباس: ما ذهب عينا ولا شمالا، ﴿وَمَا طَغَى﴾: ما جاوز ما أمر به .

وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة، فإنه ما فعل إلا ما أمر به، ولا سأل فوق ما أعطى . وما أحسن ما قال الناظم:

رَأَى جَنَّةَ الْمَأْوَى وَمَا فَوْقَهَا، وَلَوْ رَأَى غَيْرَهُ مَا قَدَرَاهُ لَتَاهَا

وقوله: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾، كقوله: ﴿لَنُرِيكَ^(٧) مِنْ آيَاتِنَا﴾ [طه: ٢٣] أى: الدالة على قدرتنا وعظمتنا . وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة لم تقع؛ لأنه قال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾، ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ولقال ذلك للناس، وقد تقدم تقرير ذلك في سورة «سبحان» وقد قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو النضر، حدثنا محمد بن طلحة، عن الوليد بن قيس، عن إسحاق بن أبي الكهتلة^(٨)

(١) فى أ: «بن». (٢) فى م: «السادسة».

(٣) المسند (٤٢٢/١) وصحيح مسلم برقم (١٧٣).

(٤) زيادة من أ. (٥) فى م: «فقال».

(٦) وهذا من مراسيل عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف.

(٧) فى م: «لنريه». (٨) فى م، أ: «الكهتلة».

قال محمد: أظنه عن ابن مسعود - أنه قال: إن محمدا لم ير جبريل في صورته إلا مرتين، أما مرة فإنه سأله أن يُريه نفسه في صورته، فأراه صورته فسد الأفق. وأما الأخرى فإنه صعد معه حين صعد به. وقوله: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾. ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى قال: فلما أحسَّ^(١) جبريل ربه، عز وجل، عاد في صورته وسجد. فقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى. عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى. مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى. لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ قال: خلق جبريل، عليه السلام. هكذا رواه الإمام أحمد، وهو غريب^(٢).

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣) أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (٢٤) فَلِللَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (٢٥) وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (٢٦)﴾.

يقول تعالى مقررًا للمشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان، واتخاذهم لها البيوت مضاهاةً للكعبة التي بناها خليل الرحمن، عليه [الصلاة و]^(٣) السلام: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ﴾؟ وكانت «اللات»^(٤) صخرة بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش.

قال ابن جرير: وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله [تعالى]^(٥)، فقالوا: اللات، يعنون مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا. وحكى عن ابن عباس، ومجاهد، والربيع بن أنس: أنهم قرؤوا «اللات» بتشديد التاء، وفسروه بأنه كان رجلا يُلْتُ للحجيج في الجاهلية السوق، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه.

وقال البخاري: حدثنا مسلم - هو ابن إبراهيم - حدثنا أبو الأشهب، حدثنا أبو الجوزاء، عن ابن عباس^(٦): «اللات والعزى» قال: كان اللات رجلا يلت السوق، سوق الحاج^(٧).

قال ابن جرير: وكذا العزى من العزيز.

وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة، وهى بين مكة والطائف، كانت قريش يعظمونها، كما

(١) فى أ: «أخبر».

(٢) المسند (١/٤٠٧).

(٣) زيادة من م.

(٤) فى م: «العزى».

(٦) فى م: «عن ابن عباس عن».

(٥) زيادة من م.

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٨٥٩).

قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزى ولا عزى لكم فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم»^(١).

وروى البخارى من حديث الزهرى، عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف فقال فى حلفه: واللوات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله. ومن قال لصاحبه: تعال أقامرك، فليصدق»^(٢).

وهذا محمول على من سبق لسانه فى^(٣) ذلك، كما كانت ألسنتهم قد اعتادته فى زمن الجاهلية، كما قال النسائى: أخبرنا أحمد بن بكّار وعبد الحميد بن محمد قالا: حدثنا مَخْلَدٌ، حدثنا يونس، عن أبيه، حدثنى مصعب بن سعد بن أبى وقاص، عن أبيه قال: حلفت باللات والعزى، فقال لى أصحابى: بش ما قلت! قلت هجرا! فأتيت رسول الله ﷺ، فذكرت ذلك له، فقال: «قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير. وانفث عن شمالك ثلاثا، وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم لا تعد»^(٤).

وأما «مناة» فكانت بالْمُشَلَّل^(٥) - عند قُدَيْد، بين مكة والمدينة - وكانت خزاعة والأوس والخزرج فى جاهليتها يعظمونها، ويهلّون منها للحج إلى الكعبة. وروى البخارى عن عائشة نحوه^(٦). وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة التى نص عليها فى كتابه العزيز، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها.

قال ابن إسحاق فى السيرة: وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، بها^(٧) سدة وحجاب، وتهدى لها كما يهدى^(٨) للكعبة، وتطوف بها كطوافاتها بها، وتنحر عندها، وهى تعرف فضل الكعبة عليها؛ لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم، عليه السلام، ومسجده. فكانت لقريش وبنى كنانة العزى بنخلة، وكانت سدنتها وحجابها^(٩) بنى شيان من سليم حلفاء بنى هاشم^(١٠).

قلت: بعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدمها، وجعل يقول:

يَا عَزَّى، كُفْرَانُكَ لَا سُبْحَانَكَ إِنِّى رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكَ

وقال النسائى: أخبرنا على بن المنذر، أخبرنا ابن فضيل، حدثنا الوليد بن جُمَيْع، عن أبى الطُّفَيْل قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة، وكانت بها العزى، فأثاها خالد وكانت على ثلاث سَمُرَات، ففقطع السَمُرَات، وهدم البيت الذى كان عليها. ثم أتى النبى ﷺ

(١) تقدم تخريج الحديث عند تفسير سورة «محمد» الآية: ١١.

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٦٠).

(٣) فى م: «إلى».

(٤) سنن النسائى (٨/٧).

(٥) فى أ: «بالمنال».

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٨٦١).

(٧) فى م: «لها».

(٨) فى م: «تهدى».

(٩) فى م: «وحجبتها».

(١٠) السيرة النبوية لابن هشام (٨٣/١).

فأخبره، فقال: «ارجع فإنك لم تصنع شيئاً». فرجع خالد، فلما أبصرته السدنة - وهم حجبته - أمعنوا في الحيل وهم يقولون: «يا عزي، يا عزي». فأتاها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحفن^(١) التراب على رأسها، فغمسها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «تلك العزي»^(٢).

قال ابن إسحاق: وكانت اللات لثقيف بالطائف، وكان سدنتها وحجابها بنى معتب^(٣). قلت: وقد بعث إليها رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة وأبا سفيان صخر بن حرب، فهدهما وجعلها مكانها مسجد الطائف.

قال ابن إسحاق: وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر من ناحية المثلل بقديد، فبعث رسول الله ﷺ [إليها]^(٤) أبا سفيان صخر بن حرب، فهدهما. ويقال: على بن أبي طالب.

قال: وكانت ذو الخلصة^(٥) لدوس وخثعم وبجيلة، ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة.

قلت: وكان يقال لها: الكعبة اليمانية، وللکعبة التي بمكة الكعبة الشامية.

فبعث إليه رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلي فهده.

قال: وكانت فلس^(٦) لطىء ولما يليها بجبلى طيى من^(٧) سلمى وأجا.

قال ابن هشام: فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ بعث إليه على بن أبي طالب فهده، واصطفى منه سيفين: الرسوب والمخزم، فنقله إياهما رسول الله ﷺ، فهما سيفا على^(٨).

قال ابن إسحاق: وكان حمير وأهل اليمن بيت بصنعاء يقال له: ريام. وذكر أنه كان به كلب أسود، وأن الحبرين اللذين ذهبا مع تبع استخرجاه وقتلاه، وهدهما البيت.

قال ابن إسحاق: وكانت «رضاء» بيتا لبنى ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، ولها يقول المستوغر بن ربيعة بن كعب بن سعد حين هدهما في الإسلام:

ولقد شددتُ على رضاء شدةً فتركتُها ففراً بقاع أسحماً

قال ابن هشام: إنه عاش ثلاثمائة وثلاثين^(٩) سنة، وهو القائل:

ولقد ستمتُ من الحياة وطولها وعمرتُ من عدد السنين مئناً
مائةٌ حدتها بعدها مئتان لى وازددت^(١٠) من عدد الشهور سنناً
هل ما بقى إلا كما قد فاتنا يومٌ يمرُّ وليلةٌ تحدونا

(١) فى م: «تحنو».

(٢) النسائي فى السنن الكبرى رقم (١١٥٦٧).

(٣) فى م: «مغيت».

(٤) زيادة من أ.

(٥) فى أ: «الخليفة».

(٦) فى م: «قيس».

(٧) فى م، أ: «بين».

(٨) السيرة النبوية لابن هشام (٨٧/١).

(٩) فى أ: «وستون».

(١٠) فى م، أ: «وعمرت».

قال ابن إسحاق: وكان ذو الكعبات لبكر وتغلب ابني وائل، وإياد بسنداد وله يقول أعشى بنى قيس بن ثعلبة:

بَيْنَ الْخَوَرَنَقِ وَالسَّديرِ وَبَارِقِ والبيت ذى الكعبات من سَدَاد^(١)

ولهذا قال [تعالى]^(٢): ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ؟﴾.

ثم قال: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ؟﴾ أى: أتجعلون له ولدا، وتجعلون ولده أنثى، وتختارون لأنفسكم الذكور، فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت ﴿قِسْمَةً ضِيزَى﴾ أى: جورا باطلا، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التى لو كانت بين مخلوقين كانت جورا وسفها.

ثم قال منكرا عليهم فيما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافتراء والكفر، من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ﴾ أى: من تلقاء أنفسكم ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أى: من حجة، ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ أى: ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم، وإلا حظ نفوسهم فى رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين، ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ أى: ولقد أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة، ومع هذا ما اتبعوا ما جاؤوهم به، ولا انقادوا له.

ثم قال: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ أى: ليس كل من تمنى خيرا حصل له، ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [النساء: ١٢٣]، ما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال، ولا كل من ود^(٣) شيئا يحصل له.

قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق، حدثنا أبو عوانة، عن عمر^(٤) بن أبى سلمة، عن أبيه، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى، فإنه لا يدرى ما يكتب له من أمنيته». تفرد به أحمد^(٥).

وقوله: ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾ أى: إنما الأمر كله لله، مالك الدنيا والآخرة، والمتصرف فى الدنيا والآخرة، فهو الذى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾، كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]، فإذا كان هذا فى حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله، وهم لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله، وأنزل بالنهى عن ذلك جميع كتبه؟

(٢) زيادة من م.

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٨٧/١)، ٨٨.

(٤) فى أ: «عمرو».

(٣) فى م: «رد».

(٥) المسند (٣٥٧/١) وقال الهيثمى فى المجمع (١٥١/١٠): «رجاله رجال الصحيح».

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْإِنثَى (٢٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى (٣٠)﴾.

يقول تعالى منكرا على المشركين في تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى، وجعلهم لها أنها بنات الله، كما قال: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى: ليس لهم علم صحيح يصدق ما قالوه، بل هو كذب وزور وافتراء، وكفر شنيع. ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أى: لا يجدى شيئا، ولا يقوم أبدا مقام الحق. وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث»^(١).

وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أى: أعرض عن الذى أعرض عن الحق واهجره.

وقوله: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أى: وإنما^(٢) أكثر^(٣) همه ومبلغ علمه الدنيا، فذاك هو غاية ما لا خير فيه. ولذلك^(٤) قال: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أى: طلب الدنيا والسعى لها هو غاية ما وصلوا إليه.

وقد روى الإمام أحمد عن أم المؤمنين عائشة [رضى الله عنها]^(٥) قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»^(٦) وفى الدعاء المأثور: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا».

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى﴾ أى: هو الخالق لجميع المخلوقات، والعالم بمصالح عباده، وهو الذى يهدى من يشاء، ويضل من يشاء، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته، وهو العادل الذى لا يجور أبداً، لا فى شرعه ولا فى قدره.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا

(١) صحيح البخارى برقم (٥١٤٣) وصحيح مسلم برقم (٢٥٦٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٢) فى م: «وإنما».
(٣) فى أ: «أكبر».
(٤) فى م، أ: «ولهذا».

(٥) زيادة من م.
(٦) المسند (٧١/٦).

أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴿٣٢﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه الغني عما سواه، الحاكم في خلقه بالعدل، وخلق الخلق بالحق، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ أى: يجازى كلا بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ثم فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، أى: لا يتعاطون المحرمات والكبائر، وإن وقع منهم بعض الصغائر فإنه يغفر لهم ويستتر عليهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكَفَّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]. وقال هاهنا: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ . وهذا استثناء منقطع؛ لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر^(١)، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ، قال: «إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فَرِثْنَا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تمنى وتشتهى، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه».

أخرجاه فى الصحيحين، من حديث عبد الرزاق، به^(٢).

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن^(٣) ثور، حدثنا معمر، عن الأعمش، عن أبي الضحى؛ أن ابن مسعود قال: «زنا العينين النظر، وزنا الشفتين التقبيل، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين المشى، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه، فإن تقدم بفرجه كان زانياً، وإلا فهو اللمم»^(٤). وكذا قال مسروق، والشعبي.

وقال عبد الرحمن بن نافع - الذى يقال له: ابن لبابة الطائفى - قال: سألت أبا هريرة عن قول الله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: القبلة، والغمزة، والنظرة، والمباشرة، فإذا مس الختان الختان فقد وجب الغسل، وهو الزنا.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾: إلا ما سلف. وكذا قال زيد بن أسلم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن منصور، عن مجاهد أنه قال: فى هذه الآية: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: الذى يلم بالذنب ثم يدعه، قال الشاعر:

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيَّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا؟!

(١) فى م: «معمر بن أرطاة» وزيادة «ابن أرطاة» خطأ. انظر: تعليق أحمد شاكر على المسند حديث رقم (٧٧٠٥).

(٢) المسند (٢٧٦/٢) وصحيح البخارى برقم (٦٦١٢) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٧).

(٣) فى أ: «أبو».

(٤) تفسير الطبرى (٣٩/٢٧).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن منصور، عن مجاهد في قول الله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: الرجل يلم بالذنب ثم ينزع عنه، قال: وكان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت وهم يقولون: إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك ما ألما؟!

وقد رواه ابن جرير وغيره مرفوعاً^(١).

قال ابن جرير: حدثني سليمان بن عبد الجبار، حدثنا أبو عاصم، حدثنا زكريا بن إسحاق، عن عمرو بن دينار، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب وقال: قال رسول الله ﷺ:

إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك ما ألما؟!

وهكذا رواه الترمذي، عن أحمد بن عثمان أبي^(٢) عثمان البصري، عن أبي عاصم النبيل. ثم قال: هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث زكريا بن إسحاق. وكذا قال البزار: لا نعلمه يروى متصلاً إلا من هذا الوجه. وساقه ابن أبي حاتم والبيهقي من حديث أبي عاصم النبيل، وإنما ذكره البيهقي في تفسير سورة «تنزيل»، وفي صحته مرفوعاً نظراً^(٣).

ثم قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا يونس، عن الحسن، عن أبي هريرة - أراه رفعه - : ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: «اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود، واللمة من السرقة ثم يتوب ولا يعود، واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود»، قال: «ذلك»^(٤) الإلمام^(٥).

وحدثنا ابن بشار، حدثنا ابن أبي عدي، عن عوف، عن الحسن، في قول الله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: اللمم من الزنا أو السرقة أو شرب الخمر، ثم لا يعود.

وحدثني يعقوب، حدثنا ابن علية، عن أبي رجاء، عن الحسن في قول الله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: هو الرجل يصيب اللمة من الزنا، واللمة من شرب الخمر، فيجتنبها ويتوب منها.

وقال ابن جرير^(٦)، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾: يلم بها في الحين. قلت: الزنا؟ قال: الزنا ثم يتوب.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن عيينة، عن عمرو، عن عطاء، عن ابن

(١) تفسير الطبري (٣٩/٢٧).

(٢) في م: «أى».

(٣) سنن الترمذي برقم (٣٢٨٤) وتفسير البيهقي (١٢٨/٧).

(٤) في م: «فتلك» وفي أ: «فعلك».

(٥) تفسير الطبري (٣٩/٢٧).

(٦) في أ: «جريح».

عباس قال: ﴿اللَّمَمُ﴾: الذى يلم المرة.

وقال السدى: قال أبو صالح: سئلت عن ﴿اللَّمَمُ﴾ فقلت: هو الرجل يصيب الذنب ثم يتوب. وأخبرت بذلك ابن عباس فقال: لقد أعانك عليها ملك كريم. حكاه البغوى.

وروى ابن جرير من طريق المثني بن الصباح - وهو ضعيف - عن عمرو بن شعيب؛ أن عبد الله ابن عمرو قال: ﴿اللَّمَمُ﴾: ما دون الشرك.

وقال سفيان الثورى، عن جابر الجعفى، عن عطاء، عن ابن الزبير: ﴿إِلَّا اللَّمَمُ﴾ قال: ما بين الحدين: حد الدنيا^(١) وعذاب الآخرة. وكذا رواه شعبة، عن الحكم، عن ابن عباس، مثله سواء.

وقال العوفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿إِلَّا اللَّمَمُ﴾: كل شىء بين^(٢) الحدين: حد الدنيا^(٣) وحد الآخرة، تكفره الصلوات، وهو^(٤) اللمم، وهو دون كل موجب، فأما حد الدنيا فكل حد فرض الله عقوبته فى الدنيا، وأما حد الآخرة فكل شىء ختمه الله بالنار، وأخر عقوبته إلى الآخرة. وكذا قال عكرمة، وقتادة، والضحاك.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أى: رحمته وسعت كل شىء، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها، كقوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أى: هو بصير بكم، عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التى تصدر^(٥) عنكم وتقع منكم، حين أنشأ أباكم آدم من الأرض، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذر، ثم قسمهم فريقين: فريقا للجنة، وفريقا للسعير^(٦). وكذا قوله: ﴿وَإِذْ أَنْتُمُ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾: قد كتب الملك الذى يؤكل به رزقه وأجله وعمله، وشقى أم سعيد.

قال مكحول: كنا أجنة فى بطون أمهاتنا، فسقط منا من سقط، وكنا فيمن بقى ثم كنا مرضع فهللك منا من هلك. وكنا فيمن بقى ثم صرنا يفعه، فهللك منا من هلك. وكنا فيمن بقى ثم صرنا شباباً فهللك منا من هلك. وكنا فيمن بقى ثم صرنا شيوخاً - لا أبا لك - فماذا بعد هذا ننتظر؟^(٧) رواه ابن أبى حاتم عنه.

وقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ أى: تمدحوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾، كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩].

وقال مسلم فى صحيحه: حدثنا عمرو الناقد، حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا الليث، عن يزيد

(١) فى م، أ: «الزنا». (٢) فى م: «من». (٣) فى أ: «الزنا». (٤) فى م: «فهو». (٥) فى م، أ: «ستصدر». (٦) فى أ: «فريقا فى الجنة وفريقا فى السعير». (٧) فى م، أ: «ينتظر».

ابن أبي حبيب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، قال: سميت ابنتي برة، فقالت لى زينب بنت أبي سلمة: إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم، وسميت برة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تزكوا أنفسكم، إن الله أعلم بأهل البر منكم». فقالوا: بم نسميها؟ قال: «سموها زينب»^(١).

وقد ثبت أيضا في الحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا خالد الحذاء، عن عبد الرحمن بن أبي بكر، عن أبيه قال: مدح رجل رجلاً رجلاً عند النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ويلك! قطعت عُنُقَ صاحبك - مراراً - إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل: أحسب فلانا - والله حسبه، ولا أزكى على الله أحداً - أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك»^(٢).

ثم رواه عن غندر، عن شعبة، عن خالد الحذاء، به. وكذا رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه، من طرق، عن خالد الحذاء، به^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، وعبد الرحمن قالا: حدثنا سفيان، عن منصور، عن إبراهيم، عن همام بن الحارث قال: جاء رجل إلى عثمان فأثنى عليه في وجهه، قال: فجعل المقداد بن الأسود يحثو في وجهه التراب ويقول: أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المداحين أن نحثو في وجوههم التراب. ورواه مسلم وأبو داود، من حديث الثوري، عن منصور، به^(٤).

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١)﴾.

يقول تعالى ذاماً لمن تولى عن طاعة الله: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى. وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢]، ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ قال ابن عباس: أطاع قليلاً ثم قطعه. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبیر، وعكرمة، وقتادة، وغير واحد. قال عكرمة، وسعيد: كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئراً، فيجدون في أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل، فيقولون: «أكدينا»، ويتركون العمل. وقوله: ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ أى: أعند هذا الذى قد أمسك يده خشية الإنفاق، وقطع

(١) صحيح مسلم برقم (٢١٤٢).

(٢) المسند (٤٥/٥).

(٣) المسند (٤١/٥) وصحيح البخاري برقم (٢٦٦٢) وصحيح مسلم برقم (٣٠٠٠) وسنن أبي داود برقم (٤٨٠٥) وسنن ابن ماجه برقم (٣٧٤٤).

(٤) صحيح مسلم برقم (٣٠٠٢) وسنن أبي داود برقم (٤٨٠٤).

معروفه، أعنده علم الغيب أنه سينفذ ما فى يده، حتى قد أمسك عن معروفه، فهو يرى ذلك عياناً؟! أى: ليس الأمر كذلك، وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلا وشحا وهلعاً؛ ولهذا جاء فى الحديث: «أنفق بلالاً، ولا تخش من ذى العرش إقلاقاً»^(١)، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَبْأَ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى. وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ قال سعيد بن جبیر، والثورى: أى بلغ جميع ما أمر به.

وقال ابن عباس: ﴿وَفَّى﴾ لله بالبلاغ. وقال سعيد بن جبیر: ﴿وَفَّى﴾ ما أمر به. وقال قتادة: ﴿وَفَّى﴾ طاعة الله، وأدى رسالته إلى خلقه. وهذا القول هو اختيار ابن جرير، وهو يشمل الذى قبله، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، فقام بجميع الأوامر، وترك جميع النواهي، وبلغ الرسالة على التمام والكمال، فاستحق بهذا أن يكون للناس إماماً يُقتدى به فى جميع أحواله وأفعاله وأقواله، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عوف الحمصى، حدثنا آدم بن أبى إياس العسقلانى، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا جعفر بن الزبير، عن القاسم، عن أبى أمانة قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾، قال: «أتدري ما وفى؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «وفى عمل يومه بأربع ركعات من أول النهار».

ورواه ابن جرير من حديث جعفر بن الزبير، وهو ضعيف^(٢).

وقال الترمذى فى جامعه: حدثنا أبو جعفر السمنانى، حدثنا أبو مسهر، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن بحير بن سعد^(٣)، عن خالد بن معدان، عن جبیر بن نُفَيْر، عن أبى الدرداء وأبى ذر، عن رسول الله ﷺ عن الله، عز وجل، أنه قال: «ابن آدم، اركع لى أربع ركعات من أول النهار، أكفك آخره»^(٤).

قال ابن أبى حاتم، رحمه الله: حدثنا أبى، حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا زبَّان بن قائد، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذى وفى؟ إنه كان يقول كلما أصبح وأمسى:

(١) جاء من حديث أبى هريرة وبلال وابن مسعود. أما حديث أبى هريرة: فرواه أبو نعيم فى الخلية (٢/ ٢٨٠) والطبرانى فى المعجم الكبير (٣٤١/ ١) من طريقين عن محمد بن سيرين عنه به.

وأما حديث بلال: فرواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣٥٩/ ١) من طريق أبى إسحاق عن مسروق عنه به.

وأما حديث ابن مسعود: فرواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٩١/ ١٠) من طريق يحيى بن وثاب عن مسروق عنه به.

(٢) تفسير الطبرى (٤٣/ ٢٧).

(٣) فى م، أ: «يحيى بن سعيد».

(٤) سنن الترمذى برقم (٤٧٥) وقال: «هذا حديث حسن غريب».

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧] حتى ختم الآية. ورواه ابن جرير عن أبي كريب، عن رشدين بن سعد، عن ^(١) زيان، به ^(٢).

ثم شرع تعالى يبين ما كان أوحاه في صحف إبراهيم وموسى فقال: ﴿أَلَا تَرَوْا زُرَّةً وَزَرَ أُخْرَى﴾ أى: كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها، لا يحمله عنها أحد كما قال: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]، ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أى: كما لا يحمل عليه وزر غيره، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه. ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعى، رحمه الله، ومن اتبعه أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى؛ لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم؛ ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة، رضى الله عنهم، ولو كان خيرا لسبقونا إليه، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما، ومنصوص من الشارع عليهما

وأما الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: من ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده، أو علم ينتفع به» ^(٣)، فهذه الثلاثة فى الحقيقة هى من سعيه وكده وعمله، كما جاء فى الحديث: «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه» ^(٤). والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هى من آثار عمله ووقفه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ ^(٥) الآية [يس: ١٢]. والعلم الذى نشره فى الناس فاقتدى به الناس بعده، هو أيضا من سعيه وعمله، وثبت فى الصحيح: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا».

وقوله: ﴿وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يَرَىٰ﴾ أى: يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] أى: فيخبركم به، ويجزيكم عليه أتم الجزاء، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وهكذا قال هاهنا: ﴿ثُمَّ يَجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ أى: الأوفر.

(١) فى م: «بن».

(٢) تفسير الطبرى (٤٣/٢٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٩٢/٢٠) من كلا الطريقين، وقال الهيثمى فى المجمع (١١٧/١٠): «فيه ضعفان وثقوا».

قلت فى الأولى: ابن لهيعة وهو ضعيف.

وفى الثانية: رشدين بن سعد وهو ضعيف.

وفيهما: زيان بن فائد وهو ضعيف.

(٣) صحيح مسلم برقم (١٦٣١).

(٤) رواه أحمد فى المسند (٣١/٦) وأبو داود فى السنن برقم (٣٥٢٨) والترمذى فى السنن برقم (١٣٥٨) والنسائى فى السنن (٢٤٠/٧) من حديث عائشة رضى الله عنها، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح».

(٥) فى م: «وآثارهم وكل شيء أحصيناه».

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ (٤٢) ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ (٤٣) ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ (٤٤) ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ (٤٥) ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ (٤٦) ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ (٤٧) ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ (٤٨) ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ﴾ (٤٩) ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ (٥٠) ﴿وَتَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ﴾ (٥١) ﴿وَقَوْمَ نوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَىٰ﴾ (٥٢) ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ (٥٣) ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ (٥٤) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ (٥٥) .

يقول تعالى [مخبراً]^(١): ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ أى: المعاد يوم القيامة.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سُوَيْدُ بْنُ سَعِيدٍ، حدثنا مسلم بن خالد، عن عبد الرحمن ابن سابط، عن عمرو بن ميمون الأودى قال: قام فينا معاذ بن جبل فقال: يا بنى أود، إني رسول الله إليكم، تعلمون أن المعاد إلى الله، إلى الجنة أو إلى النار.

وذكر البغوى من رواية أبى جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن أبى بن كعب، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾، قال: لا فكرة فى الرب^(٢).

قال البغوى: وهذا مثل ما روى عن أبى هريرة مرفوعاً: «تفكروا فى الخلق ولا تفكروا فى الخالق، فإنه لا تحيط^(٣) به الفكرة».

كذا أورده، وليس بمحفوظ بهذا اللفظ^(٤)، وإنما الذى فى الصحيح: «يأتى الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغ أحدكم ذلك فليستعذ بالله وليتته^(٥)». وفى الحديث الآخر الذى فى السنن: «تفكروا فى مخلوقات الله، ولا تفكروا^(٦) فى ذات الله، فإن الله خلق ملكاً ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة ثلاثمائة سنة» أو كما قال^(٧).

وقوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ أى: خلق فى عباده الضحك والبكاء وسببهما وهما مختلفان ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾، كقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢]، ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ﴾

(١) زيادة من أ.

(٢) معالم التنزيل للبغوى (٤١٧/٧).

(٣) فى م: «يحيط».

(٤) معالم التنزيل للبغوى (٤١٧/٧) ورواه ابن عساكر فى المجلس التاسع والثلاثون ومائة من الأمالى (١/٥٠) كما فى السلسلة الصحيحة (٣٩٥/٤) من طريق محمد بن سلمة البلخى عن بشر بن الوليد عن عبد العزيز بن أبى سلمة عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة به، وفيه بشر بن الوليد وهو ضعيف.

(٥) صحيح البخارى برقم (٣٢٧٦) وصحيح مسلم برقم (١٣٤).

(٦) فى أ: «ولا تفكروا».

(٧) لم أجده بهذا اللفظ، وقد روى أبو داود القطعة الثانية فى سننه برقم (٤٧٢٧) من حديث جابر رضى الله عنه، مرفوعاً بلفظ: «أذن لى أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش، وإن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام». والقطعة الأولى: رويت من حديث أبى ذر مرفوعاً: «تفكروا فى خلق الله، ولا تفكروا فى الله فهلكوا». أخرجه أبو الشيخ فى العظمة برقم (٤).

الذَكَرَ وَالْأُنْثَى . مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴿١﴾ ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى . أَلَمْ يَكْ نُطْفَةً مِّنْ مَّنِيِّ يُمْنَى ﴿١﴾ . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى . أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: ٣٦ - ٤٠] .

وقوله: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى﴾ أى: كما خلق البداءة هو قادر على الإعادة، وهى النشأة الآخرة يوم القيامة. ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ أى: مَلَكُ عباده المال، وجعله لهم قُنيَةً مقيما عندهم، لا يحتاجون إلى بيعه، فهذا تمام النعمة عليهم. وعلى هذا يدور كلام كثير من المفسرين، منهم أبو صالح، وابن جرير، وغيرهما. وعن مجاهد: ﴿أَغْنَى﴾: مَوْلٌ، ﴿وَأَقْنَى﴾: أخدم. وكذا قال قتادة. وقال ابن عباس، ومجاهد أيضا: ﴿أَغْنَى﴾: أعطى، ﴿وَأَقْنَى﴾: رَضَى.

وقيل: معناه: أغنى نفسه وأفقر الخلائق إليه، قاله الحضرمي بن لاحق.

وقيل: ﴿أَغْنَى﴾ من شاء من خلقه و ﴿أَقْنَى﴾: أفقر من شاء منهم، قاله ابن زيد. حكاهما ابن جرير^(٢)، وهما بعيدان من حيث اللفظ.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد وغيرهم: هو هذا النجم الوقاد الذى يقال له: «مِرْزَمُ الْجُوزَاء»، كانت طائفة من العرب يعبدونه.

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ وهم: قوم هود. ويقال لهم: عاد بن إرم بن سام بن نوح، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٦-٨]، فكانوا من أشد الناس أقواهم وأعتاهم على الله وعلى رسوله، فأهلكهم الله ﴿بَرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٦، ٧].

وقوله: ﴿وَتَمُودَ فَمَا أَبْقَى﴾ أى: دمرهم فلم يبق منهم أحدا، ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّنْ قَبْلُ﴾ أى: من قبل هؤلاء، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمُ أَظْلَمَ وَأَطْفَى﴾ أى: أشد تمردا من الذين من بعدهم، ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ يعنى: مدائن لوط، قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود؛ ولهذا قال: ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾ يعنى: من الحجارة التى أرسلها عليهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣].

قال قتادة: كان فى مدائن لوط أربعة آلاف ألف إنسان، فانضرم عليهم الوادى شيئا من نار ونفط وقطران كفم الآتون^(٣). رواه^(٤) ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن محمد بن وهب بن عطية، عن الوليد ابن مسلم، عن خليل، عنه به. وهو غريب جدا.

(١) فى م: «تمنى».

(٢) تفسير الطبرى (٢٧/٤٤).

(٣) فى أ: «كتم الأنوف».

(٤) فى م: «ورواه».

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ أى: ففى أى نعم الله عليك أيها الإنسان تمتري؟ قاهل قتادة.

وقال ابن جرير: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ يا محمد. والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير.

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَى﴾ (٥٦) أَرَزْتَ الْآزِفَةَ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨)

أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢).

﴿هَذَا نَذِيرٌ﴾ يعنى: محمداً ﷺ ﴿مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَى﴾ أى: من جنسهم، أرسل كما أرسلوا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩].

﴿أَرَزْتَ الْآزِفَةَ﴾ أى: اقتربت القرية، وهى القيامة، ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أى: لا يدفعها إذاً من دون الله أحد، ولا يطلع على علمها سواه.

ثم قال تعالى منكراً على المشركين فى استماعهم القرآن وإعراضهم عنه وتلهيهم: ﴿تَعْجَبُونَ﴾^(١) من أن يكون صحيحاً، ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾^(٢) منه استهزاء وسخرية، ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ أى: كما يفعل الموقنون به، كما أخبر عنهم: ﴿وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ بَيْنَهُمْ خَشَعًا﴾ [الإسراء: ٩٠].

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ قال سفيان الثوري، عن أبيه، عن ابن عباس قال: الغناء، هى يمانية، اسمٌ لنا: غن^(٣) لنا. وكذا قال عكرمة.

وفى رواية عن ابن عباس: ﴿سَامِدُونَ﴾: معرضون. وكذا قال مجاهد، وعكرمة. وقال الحسن: غافلون. وهو رواية عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب. وفى رواية عن ابن عباس: تستكبرون. وبه يقول السدى.

ثم قال أمراً لعباده بالسجود له والعبادة المتابعة لرسوله ﷺ والتوحيد والإخلاص: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ أى: فاخضعوا له وأخلصوا ووجدوا.

قال البخارى: حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا أيوب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: سجد النبي ﷺ بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس. انفرد به دون مسلم^(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن خالد، حدثنا رباح، عن معمر، عن ابن طاوس، عن عكرمة بن خالد، عن جعفر بن المطلب بن أبى وداعة، عن أبيه قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم، فسجد وسجد من عنده، فرفعت رأسى وأبيت أن أسجد، ولم يكن أسلم يومئذ المطلب،

(١) فى م: «يعجبون».

(٢) فى م: «يضحكون».

(٣) فى م، أ: «تغنى».

(٤) فى م: «فليسجدوا» وهو خطأ.

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٦٢).

فكان بعد ذلك لا يسمع أحدا يقرأها^(١) إلا سجد معه.

وقد رواه النسائي في الصلاة، عن عبد الملك بن عبد الحميد، عن أحمد بن حنبل، به^(٢).

ذكر حديث له مناسبة بما تقدم من قوله تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَىٰ. أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾، فإن النذير هو: الحذر لما يعين من الشر، الذي يخشى وقوعه فيمن أنذرهم، كما قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦]. وفي الحديث: «أنا النذير العريان». أى: الذي أعجله شدة ما عاين من الشر عن أن يلبس عليه شيئاً، بل بادر إلى إنذار قومه قبل ذلك، فجاءهم عرياناً مسرعاً، مناسب لقوله: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ أى: اقتربت القرية، يعنى: يوم القيامة، كما قال فى أول السورة التى بعدها: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، قال الإمام أحمد:

حدثنا أنس بن عياض، حدثني أبو حازم - لا أعلم إلا عن سهل بن سعد - قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه». وقال أبو حازم: قال رسول الله ﷺ - قال أبو ضمرة: لا أعلم إلا عن سهل بن سعد - قال: «مثل ومثل الساعة كهاتين» وفرق بين أصبعيه الوسطى والتى تلى الإبهام، ثم قال: «مثل ومثل الساعة كمثل فرسى رهان»، ثم قال: «مثل ومثل الساعة كمثل رجل بعثه قومه طليعة، فلما خشى أن يسبق الأح بثوبه: أتيتم أتيتم». ثم يقول رسول الله ﷺ: «أنا ذلك»^(٣). وله شواهد من وجوه آخر من صحاح وحسان، والله الحمد والمنة، وبه الثقة والعصمة.

آخر [تفسير]^(٤) سورة النجم والله الحمد والمنة

(١) فى م، أ: «يقرأ بها».

(٢) المسند (٣٩٩/٦) وسنن النسائي (١٦٠/٢).

(٣) المسند (٣٣١/٥).

(٤) زيادة من م، أ.

تفسير سورة القمر^(١)

وهي مكية.

قد تقدم في حديث أبي واقد^(٢): أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بقاف، واقتربت الساعة، في الأضحى والفطر، وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار، لاشتمالهما على ذكر الوعد والوعيد وبدء الخلق وإعادته، والتوحيد وإثبات النبوات، وغير ذلك من المقاصد العظيمة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥)﴾ .

يخير تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها. كما قال تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ [سُبْحَانَهُ] (٣)﴾ [النحل: ١]، وقال: ﴿اَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١] وقد وردت الأحاديث بذلك، قال الحافظ أبو بكر البزار:

حدثنا محمد بن المثنى وعمرو بن علي قالوا: حدثنا خلف بن موسى، حدثني أبي، عن قتادة، عن أنس، أن رسول الله ﷺ خطب أصحابه ذات يوم، وقد كادت الشمس أن تغرب فلم يبق منها إلا شَفْ^(٤) يسير، فقال: «والذي نفسى بيده، ما بقى من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه، وما نرى من الشمس إلا يسيرا»^(٥).

قلت: هذا حديث مداره على خلف بن موسى بن خلف العمي، عن أبيه. وقد ذكره ابن حبان في الثقات، وقال: ربما أخطأ.

حديث آخر يعضد الذى قبله ويفسره، قال الإمام أحمد: حدثنا الفضل بن دكين، حدثنا شريك، حدثنا سلمة بن كهيل، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: كنا جلوسا عند النبي ﷺ والشمس على قُعَيْقَعَانَ بعد العصر، فقال: «ما أعماركم في أعمار من مضى إلا كما بقى من النهار فيما مضى»^(٦).

(١) في أ: «اقتربت».

(٢) انظر أول تفسير سورة: «ق».

(٣) زيادة من أ

(٤) في أ: «شئ».

(٥) رواه الطبري في تاريخه (١١/١) حدثنا ابن بشار ومحمد بن المثنى عن خلف بن موسى به.

قال الهيثمي في المجمع (٣١١/١٠): «رواه البزار من طريق خلف بن موسى عن أبيه وقد وثق».

(٦) المسند (١١٥/٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين، حدثنا محمد بن مَطَرَف، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بُعِثْتُ والسَّاعَةُ»^(١) هكذا. وأشار بإصبعيه: السبابة والوسطى. أخرجه من حديث أبي حازم سلمة بن دينار^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عُبَيْد، حدثنا الأعمش، عن أبي خالد، عن وهب السَّوَّائِي قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ أنا والسَّاعَةُ كهذه من هذه إن كادت لتسبقها»^(٣) وجمع الأعمش بين السبابة والوسطى^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا الأزاعي، حدثنا إسماعيل بن عبيد^(٥) الله، قال: قدم أنس بن مالك على الوليد بن عبد الملك فسأله: ماذا سمعت من رسول الله ﷺ يذكر به الساعة؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنتم والسَّاعَةُ كهاتين».

تفرد به أحمد، رحمه الله^(٦). وشاهد ذلك أيضا في الصحيح في أسماء رسول الله ﷺ: أنه الحاشر الذي يُحْشَرُ الناس على قدميه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا بَهْزُ بن أسد، حدثنا سليمان بن المغيرة، حدثنا حميد بن هلال، عن خالد بن عمير قال: خطب عتبة بن غَزْوَانَ - قال بهز: وقال قبل هذه المرة - خطبنا رسول الله ﷺ قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإن الدنيا قد آذنت بَصْرُمُ وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صُبابَةٌ كصبابَةِ الإناء يتصا بها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يُلقَى من شفير جهنم فيهِوى فيها سبعين عاما^(٧) ما يدرك لها قعراً، والله لتملؤنه، أفعجبتم ! والله لقد ذكر لنا أن ما بين مصرَاعَى الجنة مسيرة أربعين عاما، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ الزحام» وذكر تمام الحديث، انفرد به مسلم^(٨).

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني يعقوب، حدثني ابن عُلَيَّة، أخبرنا عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السُّلَمِي قال: نزلنا المدائن فكنا منها على فَرَسَخ، فجاءت^(٩) الجمعة، فحضر أبي وحضرت معه، فخطبنا حذيفة، فقال: ألا إن الله يقول: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ»، ألا وإن الساعة قد اقتربت، ألا وإن القمر قد انشق، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق، ألا وإن اليوم المضمار، وغدا السباق، فقلت لأبي: أيستبق الناس غدا؟ فقال: يا بني، إنك جاهل، إنما هو السباق بالأعمال.

(١) في م: «بعثت أنا والسَّاعَةُ».

(٢) المسند (٣٨٨/٥) وصحيح البخاري برقم (٦٥٠٣) وصحيح مسلم برقم (٢٩٥٠).

(٣) في م، أ: «لتسبقني».

(٤) المسند (٣٠٩/٤).

(٥) في أ: «عبد».

(٦) المسند (٢٢٣/٣).

(٧) في م: «خريفا».

(٨) المسند (١٧٤/٤) وصحيح مسلم برقم (٢٩٦٧).

(٩) في أ: «حانت».

ثم جاءت الجمعة الأخرى فحضرنا فخطب حذيفة، فقال: ألا إن الله، عز وجل، يقول: ﴿اقْتَرَبَ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق، ألا وإن اليوم المصنوع وغدا السباق، ألا وإن الغاية النار، والسابق من سبق إلى الجنة^(١).

وقوله: ﴿وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾: قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ، كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: «خمس قد مضين: الروم، والدخان، والزام، والبطشة، والقمر»^(٢). وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات.

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك:

رواية أنس بن مالك:

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ آية، فانشق القمر بمكة مرتين، فقال: ﴿اقْتَرَبَ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾. ورواه مسلم، عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق^(٣).

وقال البخاري: حدثني عبد الله بن عبد الوهاب، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، عن أنس بن مالك؛ أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقيين، حتى رأوا حراء بينهما^(٤).

وأخرجاه أيضا من حديث يونس بن محمد المؤدّب، عن شيبان، عن قتادة^(٥). ورواه مسلم أيضا من حديث أبي داود الطيالسي، ويحيى القطان، وغيرهما، عن شعبة، عن قتادة، به^(٦).

رواية جبير بن مطعم، رضى الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن كثير، حدثنا سليمان بن كثير، عن حصين بن عبد الرحمن، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين: فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد. فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم.

نفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه، وأسنده البيهقي في «الدلائل» من طريق محمد بن كثير،

(١) تفسير الطبري (٢٧ / ٥١).

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٧٦٧).

(٣) المسند (١٦٥ / ٣) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٢).

(٤) صحيح البخاري برقم (٣٨٦٨).

(٥) صحيح البخاري برقم (٤٨٦٧) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٢).

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٨٠٢) ورواه البخاري في صحيحه برقم (٤٨٦٨) من طريق يحيى عن شعبة به.

عن أخيه سليمان بن كثير، عن حصين بن عبد الرحمن، [به] ^(١) ^(٢). وهكذا رواه ابن جرير ^(٣) من حديث محمد بن فضيل وغيره، عن حصين، به ^(٤). ورواه البيهقي أيضا من طريق إبراهيم بن طهمان وهشيم، كلاهما عن حصين، عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، عن جده فذكره ^(٥).

رواية عبد الله بن عباس [رضى الله عنهما] ^(٦):

قال البخاري: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا بكر، عن جعفر، عن عراك بن مالك، عن عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس قال: انشق القمر في زمان رسول الله ﷺ ^(٧) الله ﷻ ^(٨).

ورواه البخاري أيضا ومسلم، من حديث بكر بن مضر، عن جعفر بن ربيعة، عن عراك [بن مالك] ^(٩)، به مثله ^(١٠).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن مثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود بن أبي هند، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ قال: قد مضى ذلك، كان قبل الهجرة، انشق القمر حتى رأوا شقيه.

وروى العوفي، عن ابن عباس نحو هذا.

وقال الطبراني: حدثنا أحمد بن عمرو البزار، حدثنا محمد بن يحيى القطعي، حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ابن جريج، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كُشف القمر على عهد رسول الله ﷺ فقالوا: سحر القمر. فنزلت: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ إلى قوله: ﴿مُسْتَمِرٌّ﴾ ^(١١).

رواية عبد الله بن عمر:

قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو بكر أحمد بن الحسن القاضي قالوا: حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس بن محمد الدوري، حدثنا وهب بن جرير، عن شعبة، عن الأعمش، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمر في قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ قال: وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فلقَتَيْنِ: فِلَقَةٌ من دون الجبل، وفِلَقَةٌ من خلف الجبل، فقال النبي ﷺ: «اللهم اشهد».

(١) زيادة من م.

(٢) المسند (٨١/٤) ودلائل النبوة للبيهقي (٢/٢٦٨).

(٣) في أ: «جبير».

(٤) تفسير الطبري (٢٧/٥١).

(٥) دلائل النبوة (٢/٢٦٨).

(٦) في م، أ: «النبي».

(٧) زيادة من م.

(٨) صحيح البخاري برقم (٤٨٦٦).

(٩) زيادة من أ.

(١٠) صحيح البخاري برقم (٣٦٣٨) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٣).

(١١) المعجم الكبير (١١/٢٥٠).

وهكذا رواه مسلم والترمذى، من طرق عن شعبة، عن الأعمش، عن مجاهد، به^(١). قال مسلم كرواية مجاهد عن أبى معمر عن ابن مسعود. وقال الترمذى: حسن صحيح.

رواية عبد الله بن مسعود:

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن ابن أبى نَجِيع، عن مجاهد، عن أبى مَعْمَر، عن ابن مسعود، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقين حتى نظروا إليه، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا».

وهكذا رواه البخارى ومسلم، من حديث سفيان بن عيينة، به^(٢). وأخرجاه من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن أبى معمر عبد الله بن سَخْبَرَةَ، عن ابن مسعود، به^(٣).

وقال ابن جرير: حدثنى عيسى بن عثمان بن عيسى الرملى، حدثنا عمى يحيى بن عيسى، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن رجل، عن عبد الله، قال: كنا مع رسول الله ﷺ بمنى فانشق القمر، فأخذت فرقة خلف الجبل، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا، اشهدوا»^(٤).

قال البخارى: وقال أبو الضحى، عن مسروق عن عبد الله: بمكة^(٥).

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا أبو عوانة، عن المغيرة، عن أبى الضحى، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقالت قريش: هذا سحر ابن أبى كبشة. قال: فقالوا: انظروا ما يأتيكم به السفّار، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. قال: فجاء السفّار فقالوا: ذلك^(٦).

وقال البيهقى: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا العباس ابن محمد الدّورى، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا هُشَيْم، حدثنا مغيرة، عن أبى الضحى، عن مسروق، عن عبد الله، قال: انشق القمر بمكة حتى صار فرقتين، فقال كفار قريش أهل مكة: هذا سحر سحرهم به ابن أبى كبشة، انظروا السفّار، فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سحر سحرهم به. قال: فسئل السفّار، قال: وقدموا من كل جهة، فقالوا: رأيناه. رواه ابن جرير من حديث المغيرة، به^(٧)، وزاد: فأنزل الله عز وجل: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾. ثم قال ابن جرير:

(١) دلائل النبوة للبيهقى (٢/٢٦٧) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠١) وسنن الترمذى برقم (٣٢٨٨).

(٢) المسند (١/٣٧٧) وصحيح البخارى برقم (٤٨٦٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٠).

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٨٦٤) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٠).

(٤) تفسير الطبرى (٢٧/٥٠).

(٥) صحيح البخارى برقم (٣٨٦٩).

(٦) مسند الطيالسى برقم (٢٩٥).

(٧) دلائل النبوة للبيهقى (٢/٢٦٦) وتفسير الطبرى (٢٧/٥٠).

حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، أخبرنا أيوب، عن محمد - هو ابن سيرين - قال: نبئت أن ابن مسعود، رضى الله عنه، كان يقول: لقد انشق القمر^(١).

وقال ابن جرير أيضا: حدثني محمد بن عمار، حدثنا عمرو بن حماد، حدثنا أسباط، عن سِمَاك، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عبد الله، قال: لقد رأيت الجبل من فَرْج القمر حين انشق.

ورواه الإمام أحمد عن مُؤَمَّل، عن إسرائيل، عن سِمَاك، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عبد الله، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، حتى رأيت الجبل من بين فرجتي القمر^(٢).

وقال ليث، عن مجاهد: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين، فقال النبي ﷺ لأبى بكر: «اشهد يا أبا بكر». فقال المشركون: سحر القمر حتى انشق^(٣).

وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً﴾ أى: دليلا وحجة وبرهانا ﴿يُعْرِضُوا﴾ أى: لا ينقادون له، بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم، ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ أى: ويقولون: هذا الذى شاهدناه من الحجج، سحر سحرنا به.

ومعنى ﴿مُسْتَمِرٌّ﴾ أى: ذاهب. قاله مجاهد، وقتادة، وغيرهما، أى: باطل مضمحل، لا دوام له. ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أى: كذبوا بالحق إذ جاءهم، واتبعوا ما أمرتهم به آراؤهم وأهواؤهم من جهلهم وسخافة عقولهم.

وقوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ قال^(٤) قتادة: معناه: أن الخير واقع بأهل الخير، والشر واقع بأهل الشر. وقال ابن جريج: مستقر بأهله. وقال مجاهد: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ أى: يوم القيامة.

وقال السدى: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ أى: واقع.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ﴾ أى: من الأخبار عن قصص الأمم المكذبين بالرسول، وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب، مما يتلى عليهم فى هذا القرآن، ﴿مَا فِيهِ مِزْدَجَرٌ﴾ أى: ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادى على التكذيب.

وقوله: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ أى: فى هدايته تعالى لمن هداه وإضلاله لمن أضله، ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾^(٥) أى: أى شىء تغنى النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة، وختم على قلبه؟ فمن الذى يهديه من بعد الله؟ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

(١) تفسير الطبرى (٢٧/٥١).

(٢) المسند (١/٤١٣).

(٣) تفسير الطبرى (٢٧/٥١).

(٤) فى م: «قاله».

(٥) فى م، أ: «بمعنى».

(٦) فى م، أ: «فما تغنى».

﴿قَتُولَ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾ (٦) خُشْعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ .

يقول تعالى: فتول يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضون ويقولون: هذا سحر مستمر، أعرض عنهم وانتظرهم، ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾ أى: إلى شيء منكر فظيع، وهو موقف الحساب، وما فيه من البلاء، بل والزلازل والأهوال، «خاشعاً أبصارهم» أى: ذليلة أبصارهم، ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ وهى: القبور، ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ أى: كأنهم فى انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعى ﴿جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ فى الآفاق؛ ولهذا قال: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أى: مسرعين ﴿إِلَى الدَّاعِ﴾، لا يخالفون ولا يتأخرون، ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أى: يوم شديد الهول عبوس قمطير ﴿فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المذثر: ٩، ١٠].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ (٩) فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٧﴾ .

يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ﴾ قبل قومك يا محمد ﴿قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ أى: صرحوا له بالتكذيب واتهموه بالجنون، ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ قال مجاهد: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ أى: استطير جنونا. وقيل: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ أى: انتهروه وزجروه وأوعدوه: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]. قاله ابن زيد، وهذا متوجه حسن. ﴿فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ أى: إني ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم ﴿فَانتَصِرْ﴾ أنت لديك. قال الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾. قال السدى: هو الكثير ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أى: نبعت جميع أرجاء الأرض، حتى التناير التى هى محال النيران نبعت عيوناً، ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ أى: من السماء ومن الأرض ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أى: أمر مقدر.

قال ابن جرير، عن ابن عباس: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾: كثير، لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده، ولا من السحاب؛ فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم، فالتقى الماءان على أمر قد قدر.

وروى ابن أبى حاتم أن ابن الكوّاء سأل علياً عن المجرة فقال: هى شرج السماء، ومنها فتحت

السماء بماء منهمر .

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾: قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، والقرظي، وقتادة، وابن زيد: هي المسامير، واختاره ابن جرير، قال: وواحدها دسار، ويقال: دسير، كما يقال: حبيك وحباك، والجمع حُبْك.

وقال مجاهد: الدسر: أضلاع السفينة. وقال عكرمة والحسن: هو صدرها الذي يضرب به الموج.

وقال الضحاك: الدسر: طرفها وأصلها.

وقال العوفي، عن ابن عباس: هو كَلْكُلُها.

وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أى: بأمرنا بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءنا ﴿جَزَاءَ لِمَن كَانَ كُفْرًا﴾ أى: جزاء لهم على كفرهم بالله وانتصاراً لنوح، عليه السلام.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾ قال قتادة: أبقي الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة. والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن، كقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤١، ٤٢]. وقال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ﴾ أى: فهل من يتذكر ويتعظ؟

قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الأسود، عن ابن مسعود قال: أقرأني رسول الله ﷺ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ﴾ فقال رجل: يا أبا عبد الرحمن، مُدَكِّرٌ أو مُدَكَّرٌ؟ قال: أقرأني رسول الله ﷺ: ﴿مُدَكِّرٍ﴾^(١).

وهكذا رواه البخاري: حدثنا يحيى، حدثنا وكيع، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الأسود^(٢) بن يزيد، عن عبد الله قال: قرأت على النبي ﷺ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ﴾. فقال النبي ﷺ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ﴾^(٣).

وروى البخاري أيضاً من حديث شعبة، عن أبي إسحاق، عن الأسود، عن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ﴾^(٤).

وقال: حدثنا أبو نعيم، حدثنا زهير، عن أبي إسحاق؛ أنه سمع رجلاً يسأل الأسود: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ﴾، أو: ﴿مُدَكِّرٍ﴾؟ قال: سمعت عبد الله يقرأ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ﴾. وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأها: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ﴾ دالاً.

(١) المسند (١/ ٣٩٥).

(٢) في م: «عن أبي الأسود».

(٣) صحيح البخاري برقم (٤٨٧٤).

(٤) صحيح البخاري برقم (٤٨٦٩).

وقد أخرج مسلم هذا الحديث وأهل السنن إلا ابن ماجه، من حديث أبي إسحاق^(١).

وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٌ﴾ أى: كيف كان عذابي لمن كفر بى وكذب رسلى ولم يتعظ بما جاءت به نُذُرى، وكيف انتصرت لهم، وأخذت لهم بالثأر.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أى: سهلنا لفظه، ويسرنا معناه لمن أرادَه، ليتذكر الناس. كما قال: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ^(٢) أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

قال مجاهد: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ يعنى: هوّنّا قراءته.

وقال السدى: يسرنا تلاوته على الألسن.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: لولا أن الله يسره على لسان آدميين، ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله، عز وجل.

قلت: ومن تيسيره، تعالى، على الناس تلاوة القرآن ما تقدّم عن النبي ﷺ أنه قال: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف». وأوردنا الحديث بطرقه وألفاظه بما أغنى عن إعادته هاهنا، والله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ أى: فهل من متذكر بهذا القرآن الذى قد يسّر الله حفظه ومعناه؟

وقال محمد بن كعب القرظى: فهل من متزجر عن المعاصى؟

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا الحسن بن رافع، حدثنا ضَمْرَةُ^(٣)، عن ابن شوذب، عن مطر - هو الوراق - فى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾: هل من طالب علم فيعان عليه؟

وكذا علقه البخارى بصيغة الجزم، عن^(٤) مطر الوراق و[كذا]^(٥) رواه ابن جرير^(٦)، وروى عن قتادة مثله.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ (٢٢)﴾.

يقول تعالى مخبرا عن عاد قوم هود: إنهم كذبوا رسولهم أيضا، كما صنع قوم نوح، وأنه تعالى

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٧١) وصحيح مسلم برقم (٨٢٣) وسنن أبى داود برقم (٣٩٩٤) وسنن الترمذى برقم (٢٩٣٧) وسنن النسائى (١٥٠/٢).

(٢) فى م: «ليذكر».

(٣) فى أ: «حمزة».

(٤) فى أ: «على».

(٥) زيادة من م.

(٦) تفسير الطبرى (٥٧/٢٧).

أرسل ﴿عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾، وهى الباردة الشديدة البرد، ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ﴾ أى: عليهم. قاله الضحاك، وقتادة، والسدى. ﴿مُسْتَمِرًّا﴾: عليهم نحسه ودماره؛ لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الذنوى بالأخروى.

وقوله: ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ وذلك أن الريح كانت تأتى أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار، ثم تنكسه على أم رأسه، فيسقط إلى الأرض، فتثلج رأسه فيبقى جثة بلا رأس؛ ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾. فكيف كان عذابي ونذر. وَلَقَدْ يَسْرَنَّا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ.

﴿كَذَبَتْ ثُمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ (٢٤) أَوْلَقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسْرَنَّا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ (٣٢)﴾.

وهذا إخبار عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحا، ﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ﴾، يقولون: لقد خبنا وخسرنا إن سلمنا كلنا قيادنا لواحد منا! ثم تعجبوا من إلقاء الوحي عليه خاصة من دونهم، ثم رموه بالكذب فقالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ﴾ أى: متجاوز فى حد الكذب. قال الله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ﴾ وهذا تهديد لهم شديد ووعيد أكيد.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ﴾ أى: اختبارا لهم؛ أخرج الله لهم ناقة عظيمة عشاء من صخرة صماء طبق ما سألوا، لتكون حجة الله عليهم فى تصديق صالح، عليه السلام، فيما جاءهم به.

ثم قال أمرا لعبده ورسوله صالح: ﴿فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ أى: انتظر ما يؤول إليه أمرهم، واصبر عليهم، فإن العاقبة والنصر لك فى الدنيا والآخرة، ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أى: يوم لهم ويوم للناقة؛ كقوله: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

وقوله: ﴿كُلُّ شَرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾: قال مجاهد: إذا غابت حضروا الماء، وإذا جاءت حضروا اللبن.

ثم قال تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾: قال المفسرون: هو عاقر الناقة، واسمه قُدَّار بن سالف، وكان أشقى قومه. كقوله: ﴿إِذْ أَنْبَعَتْ أَشْقَاهَا﴾ [الشمس: ١٢]، ﴿فَتَعَاطَى﴾ أى: فجسرت^(١) ﴿فَعَقَرَ﴾. فكيف كان عذابي ونذر^(٢) أى: فعاقبتهم، فكيف كان عقابي^(٣) [لهم] على كفرهم بى

(٣) زيادة من م، أ.

(٢) فى م: «عذابي».

(١) فى م: «حسر».

وتكذيبهم رسولى؟ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ أى: فبادوا عن آخرهم لم تبق (١) منهم باقية، وخمدوا وهمدوا كما يهدم يبس الزرع والنبات. قاله غير واحد من المفسرين. والمحتظر - قال السدى -: هو المرعى بالصحراء حين يبس وتحرق ونسفته الريح.

وقال ابن زيد: كانت العرب يجعلون حظاراً على الإبل والمواشى من يبس الشوك، فهو المراد من قوله: ﴿كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾.

وقال سعيد بن جبیر: ﴿هَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾: هو التراب المتناثر من الحائط. وهذا قول غريب، والأول أقوى، والله أعلم.

﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطٌ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدْكِرٍ (٤٠)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قوم لوط كيف كذبوا رسولهم وخالفوه، وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور، وهى الفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين؛ ولهذا أهلكهم الله هلاكاً لم يهلكه أمة من الأمم، فإنه تعالى أمر جبريل، عليه السلام، فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عَنَانِ السماء، ثم قلبها عليهم وأرسلها، وأتبع بحجارة من سجيل منضود؛ ولهذا قال هاهنا. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ وهى: الحجارة، ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ أى: خرجوا من آخر الليل فنجا مما أصاب قومهم، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد حتى ولا امرأته، أصابها ما أصاب قومها، وخرج نبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالماً لم يمسه سوء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ. وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا﴾ أى: ولقد كان قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم بأس الله وعذابه، فما التفتوا إلى ذلك، ولا أصغوا إليه، بل شكوا فيه وتمازوا به، ﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ﴾، وذلك ليلة وردَ عليه الملائكة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل فى صورة شباب مُرد حسان محنّة من الله بهم، فأضافهم لوط [عليه السلام] (٢) وبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها، فأعلمتهم بأضياف لوط، فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب، وذلك عشية، ولوط، عليه السلام، يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه، ويقول لهم: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ يعنى: نساءهم، ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١] ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أى: ليس لنا فيهن أرب، ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩] فلما اشتد الحال وأبوا إلا الدخول، خرج عليهم جبريل، عليه السلام، فضرب أعينهم بطرف جناحه، فانطمست أعينهم. يقال: إنها غارت من وجوههم.

وقيل: إنه لم تبق لهم عيون بالكلية، فرجعوا على أدبارهم يتحسسون بالحيطان، ويتوعدون لوطا، عليه السلام، إلى الصباح.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ﴾ أى: لا محيد لهم عنه، ولا انفكاك لهم منه، ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرِ. وَلَقَدْ يَسْرُنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ (٤٢) أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمَرٌ (٤٦)﴾.

يقول تعالى مخبرا عن فرعون وقومه أنهم جاءهم رسول الله موسى وأخوه هارون بالبشارة إن آمنوا، والنذارة إن كفروا، وأيدهما بمعجزات عظيمة وآيات متعددة، فكذبوا بها كلها، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، أى: فأبادهم الله ولم^(١) يبق منهم مخبرا ولا عينا ولا أثرا.

ثم قال: ﴿أَكْفَارُكُمْ﴾ أى: أيها المشركون من كفار قريش ﴿خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾ يعنى: من الذين تقدم ذكرهم ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل، وكفرهم بالكتب: أنتم خير أم أولئك؟ ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أى: أم معكم^(٢) من الله براءة ألا ينالكم عذاب ولا نكال؟

ثم قال مخبرا عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾ أى: يعتقدون أنهم مناصرون^(٣) بعضهم بعضا، وأن جمعهم يغنى عنهم من أرادهم بسوء، قال الله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ أى: سيتفرق شملهم ويغلبون.

قال البخارى: حدثنا إسحاق؛ حدثنا خالد، عن خالد - وقال أيضا: حدثنا محمد، حدثنا^(٤) عفان بن مسلم، عن وهيب، عن خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أن النبي ﷺ قال - وهو فى قبة له يوم بدر -: «أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم»^(٥) أبدا. فأخذ أبو بكر، رضى الله عنه، بيده وقال: حسبك يا رسول الله! ألححت على ربك. فخرج وهو يثب فى الدرع وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ. بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمَرٌ﴾.

وكذا رواه البخارى والنسائى فى غير موضع، من حديث خالد - وهو مهرا^(٦) الحذاء - به^(٧).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو الربيع الزهرانى، حدثنا حماد، عن أيوب، عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [قال^(٨)]: قال عمر: أى جمع يهزم؟ أى جمع

(٣) فى م، أ: «يتناصرون».

(٢) فى م: «معهم».

(١) فى م: «فلم».

(٦) فى م، أ: «وهو ابن مهرا».

(٥) فى م: «بعد اليوم فى الأرض».

(٤) فى م: «بن».

(٧) صحيح البخارى برقم (٢٩١٥، ٣٩٥٣، ٤٨٧٥، ٤٨٧٧) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥٥٧).

(٨) زيادة من أ.

يغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع، وهو يقول: ﴿سَيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ فعرفت تأويلها يومئذ^(١).

وقال البخارى: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف؛ أن ابن جريج أخبرهم: أخبرني يوسف بن ماهك قال: إني عند عائشة أم المؤمنين، قالت: نزل على محمد ﷺ بمكة - وإنى لجارية ألعب - ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ هكذا رواه هاهنا مختصرا^(٢). ورواه في فضائل القرآن مطولا^(٣)، ولم يخرجهم مسلم.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَّذْكَرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدٍ صَدَقَ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾.

يخبرنا^(٤) تعالى عن المجرمين أنهم في ضلال وسُعر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق.

ثم قال: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أى: كما كانوا في سُعر وشك وتردد أورثهم ذلك النار، وكما كانوا ضلالاً، سُحبوا فيها على وجوههم، لا يدرون أين يذهبون، ويقال لهم تقرعياً وتوبيخاً: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، كقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] وكقوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ . الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١-٣]، أى: قدر قدراً، وهدى الخلاق إليه؛ ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها قبل برئها، وردوا بهذه الآية وبما^(٥) شاكلها من الآيات، وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتات على الفرقة القدرية الذين نبغوا^(٦) فى أواخر عصر الصحابة. وقد تكلمنا على هذا المقام مفصلاً، وما ورد فيه من الأحاديث فى شرح «كتاب الإيمان» من «صحيح البخارى»، رحمه الله، ولنذكر هاهنا الأحاديث المتعلقة بهذه الآية الكريمة:

قال أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان الثوري، عن زياد بن إسماعيل السهمي، عن محمد بن عباد بن جعفر، عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونهم فى القدر، فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.

(١) رواه عبد الرزاق فى تفسيره (٢/٢٠٩) من طريق معمر عن أيوب به.

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٧٦).

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٩٣).

(٤) فى م: «يخير».

(٥) فى م: «وما».

(٦) فى أ: «سعوا».

وهكذا رواه مسلم والترمذى وابن ماجه، من حديث وكيع، عن سفيان الثوري، به^(١).

وقال البزار: حدثنا عمرو بن على، حدثنا الضحاك بن مخلد، حدثنا يونس بن الحارث، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: ما نزلت هذه الآيات: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾. إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ، إلا فى أهل القدر^(٢).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سهل^(٣) بن صالح الأنطاكى، حدثنى قُرَّةُ بن حبيب، عن كنانة، حدثنا جرير بن حازم، عن سعيد بن عمرو بن جَعْدَةَ، عن ابن زُرَّارة، عن أبيه، عن النبى ﷺ؛ أنه تلا هذه الآية: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾. إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ، قال: «نزلت فى أناس من أمتى يكونون فى آخر الزمان يكذبون بقدر الله»^(٤).

وحدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا مروان بن شجاع الجزرى، عن عبد الملك بن جُرَيْج، عن عطاء ابن أبى رباح، قال: أتيت ابن عباس وهو ينزع من زمزم، وقد ابتلت أسافل ثيابه، فقلت له: قد تَكَلَّمْ فى القدر. فقال: أو [قد]^(٥) فعلوها؟ قلت: نعم. قال: فوالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾. إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ، أولئك شرار هذه الأمة، فلا تعودوا مرضاهم، ولا تُصلُّوا على موتاهم، إن رأيت أحدا منهم فقأت عينيه بأصبعى هاتين.

وقد رواه الإمام أحمد من وجه آخر، وفيه مرفوع، فقال:

حدثنا أبو المغيرة، حدثنا الأوزاعى، عن بعض إخوته، عن محمد بن عبيد المكي، عن عبد الله ابن عباس، قال: قيل له: إن رجلا قدم علينا يُكذِّبُ بالقدر فقال: دلونى عليه - وهو أعمى - قالوا: وما تصنع به يا أبا عباس قال: والذي نفسى بيده لئن استمكننت منه لأعصن أنفه حتى أقطعه، ولئن وقعت رقبته فى يدي لأدقنها؛ فإنى^(٦) سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كأنى بنساء بنى فهر يَطْفَنَ بالخزرج، تصطفق ألياتهن مشركات، هذا أول شرك هذه الأمة، والذي نفسى بيده، ليتنهين بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يكون قَدْرٌ خيرا، كما أخرجوه من أن يكون قدر شرا»^(٧).

ثم رواه أحمد عن أبى المغيرة، عن الأوزاعى، عن العلاء بن الحجاج، عن محمد بن عبيد، فذكر مثله^(٨). لم يخرجوه.

(١) المسند (٤٤٤/٢) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٦) وسنن الترمذى برقم (٣٢٩٠) وسنن ابن ماجه برقم (٨٣).

(٢) مسند البزار برقم (٢٢٦٥) «كشف الأستار»، وقال الهيثمى فى المجمع (١١٧/٧): «فيه يونس بن الحارث، وثقه ابن معين وابن حبان وفيه ضعف، وبقيّة رجاله ثقات».

(٣) فى أ: «سهيل».

(٤) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٧٦/٥) من طريق قرة بن حبيب عن جرير بن حازم - وأظن أن كنانة ساقط منه - عن سعيد بن عمرو به.

وقال الهيثمى فى المجمع (١١٧/٧): «فيه من لم أعرفه».

(٥) زيادة من م.

(٦) فى أ: «قال».

(٧، ٨) المسند (٣٣٠/١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثني أبو صخر، عن نافع قال: كان لابن عمر صديق من أهل الشام يكتبه^(١)، فكتب إليه عبد الله بن عمر: إنه بلغني أنك تكلمت في شيء من القدر، فأياك أن تكتب إليّ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون في أمتي أقوام يكذبون بالقدر».

رواه أبو داود، عن أحمد بن حنبل، به^(٢).

وقال أحمد: حدثنا أنس بن عياض، حدثنا عمر بن عبد الله مولى غفرة، عن عبد الله بن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لكل أمة مجوس، ومجوس أمتي الذين يقولون: لا قدر. إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»^(٣).

لم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه.

وقال أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا رشدين، عن أبي صخر حميد بن زياد، عن نافع، عن ابن عمر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون في هذه الأمة مسخ، ألا وذاك في المكذبين بالقدر والزندقية».

ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث أبي صخر حميد بن زياد، به^(٤). وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

وقال أحمد: حدثنا إسحاق بن الطباع، أخبرني مالك، عن زياد بن سعد، عن عمرو بن مسلم، عن طاوس اليماني قال: سمعت ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس».

ورواه مسلم منفردا به، من حديث مالك^(٥)^(٦).

وفى الحديث الصحيح: «استعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك أمر فقل: قَدَّرَ الله وما شاء فعل، ولا تقل: لو أني فعلت لكان كذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان»^(٧).

وفى حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال له: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء، لم يكتبه الله لك، لم ينفعوك. ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يكتبه الله عليك، لم يضروك. جفت الأقلام وطويت الصحف»^(٨).

(١) في م: «فكاتبه».

(٢) المسند (٩٠/٢) وسنن أبي داود برقم (٤٦١٣).

(٣) المسند (٨٦/٢).

(٤) المسند (١٠٨/٢) وسنن الترمذي برقم (٢١٥٢) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٦١).

(٥) في م: «ورواه مسلم من حديث مالك منفردا به».

(٦) المسند (١١٠/٢) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٥).

(٧) رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة، رضى الله عنه.

(٨) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٩٣/١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن سوار، حدثنا الليث^(١)، عن معاوية، عن أيوب بن زياد، حدثني عبادة بن الوليد بن عبادة، حدثني أبي قال: دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه، أوصني واجتهد لى. فقال: أجلسونى. فلما أجلسوه قال: يا بنى، إنك لم تطعم طعام الإيمان، ولم تبلغ حق حقيقة العلم بالله، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره. قلت: يا أبتاه، وكيف لى أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك. يا بنى، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم. ثم قال له: اكتب. فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة» يابنى، إن مت ولست على ذلك دخلت النار^(٢).

ورواه الترمذى عن يحيى بن موسى البلخى، عن أبى داود الطيالسى، عن عبد الواحد بن سليم، عن عطاء بن أبى رباح، عن الوليد بن عبادة، عن أبيه، به. وقال: حسن صحيح غريب^(٣).

وقال سفيان الثورى، عن منصور، عن ربعى بن خراش، عن رجل، عن على بن أبى طالب، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله، بعثنى بالحق، ويؤمن بالموت، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر خيره وشره».

وكذا رواه الترمذى من حديث النضر بن شميل، عن شعبة عن منصور، به^(٤). ورواه من حديث أبى داود الطيالسى، عن شعبة، عن^(٥) منصور عن ربعى، عن على فذكره وقال: «هذا عندى أصح». وكذا رواه ابن ماجه من حديث شريك، عن منصور، عن ربعى، عن على، به^(٦).

وقد ثبت فى صحيح مسلم من رواية عبد الله بن وهب وغيره، عن أبى^(٧) هانئ الخولانى، عن أبى عبد الرحمن الحبلى، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة» زاد ابن وهب: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» [هود: ٧]. ورواه الترمذى وقال: حسن صحيح غريب^(٨).

وقوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾. وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته فى خلقه كما أخبر

(١) فى م: «ليث».

(٢) المسند (٣١٧/٥).

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٣١٩).

(٤) سنن الترمذى برقم (٢١٤٥) ورواه أحمد فى مسنده (١٣٣/١) عن وكيع، والحاكم فى مستدركه (٣٣/١) عن أبى حذيفة، كلاهما عن سفيان الثورى به.

وقد رجح هذه الرواية الدارقطنى فى العلل (١٩٦/٣) فقال: «حديث شريك وورقاء وجريز وعمرو بن أبى قيس عن منصور عن ربعى عن على. وخالفهم سفيان الثورى وزائدة أبو الأحوص وسليمان التيمي فرووه: عن منصور عن ربعى عن رجل من بنى راشد عن على وهو الصواب».

(٥) فى م: «بن».

(٦) سنن الترمذى برقم (٢١٤٥) وسنن ابن ماجه برقم (٨١).

(٧) فى أ: «أم».

(٨) صحيح مسلم برقم (٢٦٥٣) وسنن الترمذى برقم (٢١٥٦).

بنفوذ قدره فيهم، فقال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ أى: إنما نأمر بالشئ مرة واحدة، لا نحتاج إلى تأكيد بثنائية، فيكون ذلك الذى نأمر به حاصلًا موجودًا كلمح البصر^(١)، لا يتأخر طرفة عين، وما أحسن ما قال بعض الشعراء:

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ، قَوْلُهُ^(٢) فَيَكُونُ

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ يعنى: أمثالكم وسلفكم من الأمم السالفة المكذبين بالرسول، ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ أى: فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك، وقدر لهم من العذاب، كما قال: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ: ٥٤].

وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ أى: مكتوب عليهم فى الكتب التى بأيدي الملائكة، عليهم السلام ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ أى: من أعمالهم ﴿مُسْتَطَرٌّ﴾ أى: مجموع عليهم، ومسطر فى صحائفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا سعيد بن مسلم بن بانك: سمعت عامر بن عبد الله بن الزبير، حدثنى عوف بن الحارث - وهو ابن أخى عائشة لأمها - عن عائشة، أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالبا».

ورواه النسائى وابن ماجه، من طريق سعيد بن مسلم بن بانك المدنى^(٣). وثقه^(٤) أحمد، وابن معين، وأبو حاتم، وغيرهم.

وقد رواه الحافظ ابن عساكر فى ترجمة سعيد بن مسلم هذا من وجه آخر^(٥)، ثم قال سعيد: فحدثت بهذا الحديث عامر بن هشام فقال لى: ويحك يا سعيد بن مسلم. لقد حدثنى سليمان بن المغيرة أنه عمل ذنبا فاستصغره، فأتاه آت فى منامه فقال له: يا سليمان:

لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الذَّنُوبِ صَغِيرًا	إِنَّ الصَّغِيرَ غَدًا يَعُودُ ^(٦) كَبِيرًا
إِنَّ الصَّغِيرَ وَلَوْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ	عِنْدَ الْإِلَهِ مُسَطَّرٌ تَسْطِيرًا
فَازْجِرْ هَوَاكَ عَنِ الْبَطَالَةِ لَا تَكُنْ	صَعْبَ الْقِيَادِ وَشِمْرَنَ ^(٧) تَشْمِيرًا
إِنَّ الْمَحُبَّ إِذَا أَحَبَّ إِلَهُهُ	طَارَ الْفُؤَادُ وَاللَّهْمُ التَّفَكِيرًا
فَاسْأَلْ هِدَايَتَكَ الْإِلَهِ بَيْنِيَّةً	فَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ^(٨)

(٢) فى أ: «فى الوجود».

(١) فى م: «كلمح بالبصر».

(٣) المسند (١٥١/٦) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٤٣).

(٤) فى أ: «الذى وثقه».

(٥) تاريخ دمشق (٣٥٣/٧) «المخطوط» من طريق أبى عامر العقلى والقنعى، كلاهما عن سعيد بن مسلم به.

(٧) فى م: «وشمر».

(٦) فى أ: «يكون».

(٨) تاريخ دمشق (٣٥٣/٧) «القسم المخطوط».

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ أى: بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر، والسحب فى النار على وجوههم، مع التوبيخ والتقريع والتهديد.

وقوله: ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ﴾ أى: فى دار كرامة الله ورضوانه وفضله، وامتنانه وجوده وإحسانه، ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أى: عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون؛ وقد قال الإمام أحمد:

حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن عمرو بن أوس، عن عبد الله بن عمرو^(١) - يَبْلُغُ به النبى ﷺ - قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين: الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا».

انفرد بإخراجه مسلم والنسائى، من حديث سفيان بن عيينة، بإسناده مثله^(٢).

آخر تفسير سورة «اقتربت»، والله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة

(١) فى م: «عبد الله بن أبى عمرو» وهو خطأ.

(٢) صحيح مسلم برقم (١٨٢٧)، وسنن النسائى (٨/ ٢٢١).

تفسير سورة الرحمن

وهى مكية.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن عاصم، عن زرّ، أن رجلاً قال لابن مسعود: كيف تعرف هذا الحرف: «ماء غير ياسن أو آسن»؟ فقال: كل القرآن قد قرأت. قال: إني لأقرأ المفصل؛ أجمع فى ركعة واحدة. فقال: أهذا كهذا الشعر، لا أبالك؟ قد علمت قرائن النبى ﷺ التى كان يقرن قريتين قريتين من أول المفصل، وكان أول مفصل ابن مسعود: ﴿الرَّحْمَنُ﴾^(١).

وقال أبو عيسى الترمذى: حدثنا عبد الرحمن بن واقد أبو مسلم، حدثنا الوليد بن مسلم، عن زهير بن محمد، عن محمد بن المنكدر، عن جابر، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقراً عليهم، سورة «الرحمن»، من أولها إلى آخرها، فسكتوا فقال: «لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، قالوا: لا بشيء من نعمك - ربنا - نكذب، فلك الحمد»^(٢).

ثم قال: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم، عن زهير بن محمد. ثم حكى عن الإمام أحمد أنه كان لا يعرفه، ينكر^(٣) رواية أهل الشام عن زهير بن محمد هذا.

ورواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عمرو بن مالك، عن الوليد بن مسلم. وعن عبد الله بن أحمد ابن شويه، عن هشام بن عمار، كلاهما عن الوليد بن مسلم، به. ثم قال: لا نعرفه يروى إلا من هذا الوجه^(٤).

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا محمد بن عباد بن موسى، وعمرو بن مالك البصرى، قالوا: حدثنا يحيى بن سليم، عن إسماعيل بن أمية، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قرأ سورة «الرحمن» - أو: قُرئت عنده - فقال: «ما لى أسمع الجن أحسن جواباً لربها منكم؟» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «ما أتيت على قول الله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالت الجن: لا بشيء من نعمة^(٥) ربنا نكذب».

ورواه الحافظ البزار، عن عمرو بن مالك، به^(٦). ثم قال: لا نعلمه يروى عن النبى ﷺ إلا من هذا الوجه، بهذا الإسناد.

(١) المسند (٤١٢/١).

(٢) سنن الترمذى برقم (٣٢٩١).

(٣) فى م، أ: «يستنكر».

(٤) ورواه الحاكم فى المستدرک (٤٧٣/٢) من طريق هشام بن عمار وعبد الرحمن بن واقد، كلاهما عن الوليد بن مسلم به.

(٥) فى م، أ: «نعم».

(٦) مسند البزار (٢٢٦٩) «كشف الاستار» وشيخه عمرو بن مالك الراسى ضعفه الجمهور، وبقيّة رجاله ثقات.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)﴾.

يخبر تعالى عن فضله ورحمته بخلقه: أنه أنزل على عباده القرآن، ويسر حفظه وفهمه على من رحمه، فقال: ﴿الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ قال الحسن: يعنى: النطق^(١). وقال الضحاك، وقتادة، وغيرهما: يعنى: الخير والشر. وقول الحسن هاهنا أحسن وأقوى؛ لأن السياق فى تعليمه تعالى القرآن، وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفيتين، على اختلاف مخارجها وأنواعها.

وقوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أى: يجران متعاقبين بحساب مُقَنَّ لا يختلف ولا يضطرب، ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وعن عكرمة أنه قال: لو جعل الله نور جميع أبصار الإنس والجن والدواب والطيور فى عيني عبد، ثم كشف حجابا واحدا من سبعين حجابا دون الشمس، لما استطاع أن ينظر إليها. ونور الشمس جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسي، ونور الكرسي جزء من سبعين جزءاً من نور العرش، ونور العرش جزء من سبعين جزءاً من نور الستر. فانظر ماذا أعطى الله عبده من النور فى عينيه وقت النظر إلى وجه ربه الكريم عياناً. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾: قال ابن جرير: اختلف المفسرون فى معنى قوله: ﴿وَالنَّجْمُ﴾ بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق، فروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال: النجم ما انبسط على وجه الأرض - يعنى من النبات. وكذا قال سعيد بن جبير، والسدى، وسفيان الثورى. وقد اختاره ابن جرير، رحمه الله.

وقال مجاهد: النجم الذى فى السماء. وكذا قال الحسن، وقتادة. وهذا القول هو الأظهر، والله أعلم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ

(١) فى أ: «المنطق».

وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدُّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴿الْحَج: ١٨﴾.

وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ يعنى: العدل، كما قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وهكذا قال هاهنا: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ أى: خلق السموات والأرض بالحق والعدل، لتكون^(١) الأشياء كلها بالحق والعدل؛ ولهذا قال: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أى: لا تبخسوا الوزن، بل زنوا بالحق والقسط، كما قال [تعالى]^(٢): ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء: ١٨٢].

وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْامِ﴾ أى: كما رفع السماء وضع الأرض ومهداها، وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات، لتستقر لما على وجهها من الأنام، وهم: الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألستهم، فى سائر أقطارها وأرجائها.

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: الأنام: الخلق. ﴿فِيهَا فَكِيهَةٌ﴾ أى: مختلفة الألوان والطعوم والروائح، ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾: أفردته بالذكر لشرفه ونفعه، رطباً ويابساً. والأكمام - قال ابن جرير، عن ابن عباس: هى أوعية الطلع. وهكذا قال غير واحد من المفسرين، وهو الذى يطلع فيه القنو ثم ينشق عن العنقود، فيكون بسراً، ثم رطباً، ثم ينضج ويتناهى ينعه واستواؤه.

قال ابن أبى حاتم^(٣): ذُكِرَ عن عمرو بن على الصيرفى: حدثنا أبو قتيبة، حدثنا يونس بن الحارث الطائفى، عن الشعبى قال: كتب قيصر إلى عمر بن الخطاب: أخبرك أن رسلى أتتني من قبلك، فزعمت أن قبلكم شجرة ليست بخليقة لشيء من الخير، تخرج مثل أذان الحمير، ثم تشقق مثل اللؤلؤ، ثم تخضر فتكون مثل الزمرد^(٤) الأخضر، ثم تحمر فتكون كالياقوت الأحمر، ثم تينع وتنضج فتكون كأطيب فالودج أكل، ثم تيس فتكون عصمة للمقيم وزاداً للمسافر، فإن تكن رسلى صدقتني فلا أرى هذه الشجرة إلا من شجر الجنة. فكتب إليه عمر بن الخطاب^(٥): من عمر أمير المؤمنين إلى قيصر ملك الروم، إن رسلك قد صدقوك^(٦)، هذه الشجرة عندنا، وهى الشجرة التى أنبتها الله على مريم حين نفست بعيسى ابنها، فاتق الله ولا تتخذ عيسى إلها من دون الله، فإن ﴿مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾^(٧) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَفْضَلُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾^(٨) [آل عمران: ٥٩، ٦٠].

وقيل: الأكمام: رفاتها، وهو: الليف الذى على عنق النخلة. وهو قول الحسن وقتادة.

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾: قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ يعنى: التين.

(١) فى م: «ليكون».

(٢) زيادة من أ.

(٣) فى أ: «ابن جرير».

(٤) فى م: «كالزمرد».

(٥) فى م: «عمر بن عبد الله».

(٦) فى م، أ: «صدقك».

(٧) فى م: «تكونن».

(٨) ورواه ابن عساكر فى تاريخ دمشق (٢٩/١٤) «القسم المخطوط» من طريق محمد بن منصور بن أبى الجهم عن عمرو بن على الصيرفى به.

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿العَصْف﴾: ورق الزرع الأخضر الذي قطع رؤوسه، فهو يسمى العصف إذا ييس. وكذا قال قتادة، والضحاك، وأبو مالك: عصفه: تبته.

وقال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ يعني: الورق.

وقال الحسن: هو ريحانكم هذا.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾: خضر^(١) الزرع.

ومعنى هذا - والله أعلم - أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما له في حال نباته عصف، وهو: ما على السنبلة، وريحان، وهو: الورق الملتف على ساقها.

وقيل: العصف: الورق أول ما ينبت الزرع بقلًا. والريحان: الورق، يعني: إذا أدجن وانعقد فيه الحب. كما قال زيد بن عمرو بن نفيل في قصيدته المشهورة.

وَقُولَا لَهُ: مَنْ يَنْبُتُ الْحَبُّ فِي الثَّرَى
فَيُصْبِحَ مِنْهُ الْبَقْلُ يَهْتَزُّ رَابِيَا؟
وَيُخْرِجَ مِنْهُ حَبَّهُ فِي رُؤُوسِهِ؟
فَقِي ذَاكَ آيَاتٍ لِمَنْ كَانَ وَاعِيَا^(٢)

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: فبأي الآلاء^(٣) - يا معشر الثقلين، من الإنس والجن - تكذبان؟ قاله مجاهد، وغير واحد. ويدل عليه السياق بعده، أي: النعم ظاهرة عليكم وأنتم مغمورون بها، لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها^(٤)، فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون: «اللهم، ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد». وكان ابن عباس يقول: «لا، بأيتها يا رب». أي: لا نكذب بشيء منها.

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة، عن أسماء بنت أبي بكر قالت: سمعت رسول الله ﷺ وهو يقرأ، وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر، والمشركون يستمعون^(٥) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾^(٦).

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥)﴾.

(١) في أ: «خضرة».

(٢) انظر الآيات في السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٢٨).

(٣) في م: «الآلاء».

(٤) في م: «جحدها».

(٥) في م: «يسمعون».

(٦) المسند (٦/٣٤٩).

يذكر تعالى خلقه الإنسان من صلصال كالفخار، وخلق^(١) الجان من مارج من نار، وهو: طرف لهبها. قاله الضحاك، عن ابن عباس. وبه يقول عكرمة، ومجاهد، والحسن، وابن زيد.

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ﴾: من لهب النار، من أحسنها.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ﴾: من خالص النار. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم».

ورواه مسلم، عن محمد بن رافع وعبد بن حميد، كلاهما عن عبد الرزاق، به^(٢).

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾: تقدم تفسيره ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ يعنى: مشرقى الصيف والشتاء، ومغربى الصيف والشتاء. وقال فى الآية الأخرى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها فى كل يوم، ويرونها منه إلى الناس. وقال فى الآية الأخرى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [الزمل: ٩]. وهذا المراد منه جنس المشارق والمغرب، ولما كان فى اختلاف هذه المشارق والمغرب مصالح للخلق من الجن والإنس قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟

وقوله: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾: قال ابن عباس: أى أرسلهما.

وقوله: ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾: قال ابن زيد: أى: منعهما أن يلتقيا، بما جعل بينهما من البرزخ الحاجز الفاصل بينهما.

والمراد بقوله: ﴿الْبَحْرَيْنِ﴾: الملح والحلو، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس. وقد قدمنا الكلام على ذلك فى سورة «الفرقان» عند قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣]. وقد اختار ابن جرير هاهنا أن المراد بالبحرين: بحر السماء وبحر الأرض، وهو مروى عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وعطية، وابن أبزى.

قال ابن جرير: لأن اللؤلؤ يتولد من ماء السماء، وأصداف^(٣) بحر الأرض^(٤). وهذا وإن كان هكذا ليس المراد [بذلك]^(٥) ما ذهب إليه، فإنه لا يساعده اللفظ؛ فإنه تعالى قد قال: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أى: وجعل بينهما برزخا، وهو: الحاجز من الأرض، لئلا يبغي هذا على هذا، وهذا على

(١) فى أ: «خلق».

(٢) المسند (١٦٨/٦) وصحيح مسلم برقم (٢٩٩٦).

(٣) فى م: «واختلاف».

(٤) تفسير الطبرى (٢٧ / ٧٥).

(٥) زيادة من م، أ.

هذا، فيفسد كل واحد منهما الآخر، ويزيله عن صفته التي هي مقصودة منه. وما بين السماء والأرض لا يسمى برزخا وحجرا محجورا.

وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾: أى: من مجموعتهما، فإذا وجد ذلك لأحدهما^(١) كفى، كما قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] والرسول إنما كانوا فى الإنسان خاصة دون الجن، وقد صح هذا الإطلاق. واللؤلؤ معروف، وأما المرجان فقليل: هو صغار اللؤلؤ. قاله مجاهد، وقتادة، وأبو رزين، والضحاك. وروى عن على.

وقيل: كباره وجيده. حكاه ابن جرير عن بعض السلف. ورواه ابن أبى حاتم عن الربيع بن^(٢) أنس، وحكاه عن السدى عمن حدثه، عن ابن عباس. وروى مثله عن على، ومجاهد أيضا، ومرة الهمدانى.

وقيل: هو نوع من الجواهر أحمر اللون. قال السدى، عن أبى مالك، عن مسروق، عن عبد الله قال: المرجان: الخرز الأحمر. قال السدى وهو البُسْدُ^(٣) بالفارسية.

وأما قوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢]، فاللحم من كل من الأجاج والعذب، والحلية، وإنما هى من الملح دون العذب.

قال ابن عباس: ما سقطت قط قطرة من السماء فى البحر، فوقعت فى صدفة إلا صار منها لؤلؤة. وكذا قال عكرمة، وزاد: فإذا لم تقع فى صدفة نبتت بها عنبرة. وروى من غير وجه عن ابن عباس نحوه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِيٍّ، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن عبد الله بن عبد الله، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال: إذا أمطرت السماء، فتحت الأصداف فى البحر أفواهاها، فما وقع فيها - يعنى: من قطر - فهو اللؤلؤ.

إسناده^(٤) صحيح، ولما كان اتخاذ هذه الحلية نعمة على أهل الأرض، امتن بها عليهم فقال^(٥): ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقوله: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ﴾ يعنى: السفن التى تجرى فى البحر، قال مجاهد: ما رفع قلعه من السفن فهى منشأة وما لم يرفع قلعه فليس بمنشأة، وقال قتادة: ﴿الْمُنشَآتُ﴾: يعنى المخلوقات. وقال غيره: المنشآت - بكسر الشين - يعنى: البادئات.

﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ أى: كالجبال فى كبرها، وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، مما فيه من صلاح للناس فى^(٦) جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع؛ ولهذا قال [تعالى]^(٧): ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٣) فى م، أ: «الكسد».

(٦) فى م: «من».

(٢) فى أ: «عن».

(٥) فى م: «وقال».

(١) فى أ: «أحدهما».

(٤) فى م: «إسناده».

(٧) زيادة من: أ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا العرار بن سويد، عن عميرة بن سعد، قال: كنت مع علي بن أبي طالب، رضى الله عنه، علي شاطئ الفرات، إذا أقبلت سفينة مرفرغ شراعها، فبسط على يديه ثم قال: يقول الله عز وجل: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ . والذي أنشأها تجرى في [بحر من] ^(١) بحوره ما قتلت عثمان، ولا ملأت على قتله.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠)﴾.

يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السموات، إلا من شاء الله، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم؛ فإن الرب - تعالى وتقدس - لا يموت، بل هو الحي الذي لا يموت أبدا.

قال قتادة: أنبأ بما خلق، ثم أنبأ أن ذلك كله كان ^(٢).

وفي الدعاء المأثور: يا حي، يا قيوم، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت، برحمتك نستغيث ^(٣)، أصلح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلا أنفسنا طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك.

وقال الشعبي: إذا قرأت: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، فلا تسكت حتى تقرأ: ﴿وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]. وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية الكريمة بأنه ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أى: هو أهل أن يجل فلا يعصى، وأن يطاع فلا يخالف، كقوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، وكقوله إخبارا عن المتصدقين: ﴿إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩].

قال ابن عباس: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾: ذو العظمة والكبرياء.

ولما أخبر عن تساوى أهل الأرض كلهم في الوفاة، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة، فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقوله: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾: وهذا إخبار عن غناه عما سواه، وافتقار الخلائق إليه في جميع الآتات، وأنهم يسألونه بلسان حالهم وقالهم، وأنه كل يوم هو في شأن.

(٣) فى م: «استغيث».

(٢) فى م: «فان».

(١) زيادة من م.

قال الأعمش، عن مجاهد، عن عبيد بن عمير: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، قال: من شأنه أن يجيب داعيا، أو يعطى سائلا، أو يفك عانيا، أو يشفى سقيما.

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: كل يوم هو يجيب داعيا، ويكشف كربا، ويجيب مضطرا، ويغفر ذنبا.

وقال قتادة: لا يستغنى عنه أهل السموات والأرض، يحيى حيا، ويميت ميتا، ويربى صغيرا، ويفك أسيرا، وهو منتهى حاجات الصالحين وصريخهم، ومنتهى شكواهم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان الحمصي، حدثنا حرير بن عثمان، عن سويد ابن جبلة - هو الفزاري - قال: إن ربكم كل يوم هو في شأن، فيعتق رقابا، ويعطى رغابا، ويقحم عقابا.

وقال ابن جرير: حدثني عبد الله بن محمد بن عمرو الغزوي، حدثني إبراهيم بن محمد بن يوسف الفريابي، حدثني عمرو بن بكر السكسكي^(١)، حدثنا الحارث بن عبدة بن رباح الغساني، عن أبيه، عن منيب بن عبد الله بن منيب الأزدي، عن أبيه قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، فقلنا: يا رسول الله، وما ذاك الشأن، قال: «أن يغفر ذنبا، ويفرج كربا، ويرفع قوما، ويضع آخرين»^{(٢) (٣)}.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، وسليمان بن أحمد الواسطي، قالوا: حدثنا الوزير^(٤) بن صبيح الثقفي أبو روح الدمشقي - والسياق لهشام - قال: سمعت يونس بن ميسرة ابن حلبس، يحدث عن أم الدرداء عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾» قال: «من شأنه أن يغفر ذنبا، ويفرج كربا، ويرفع قوما، ويضع آخرين»^{(٥) (٦)}.

وقد رواه ابن عساكر من طرق متعددة، عن هشام بن عمار، به. ثم ساقه من حديث أبي همام الوليد بن شجاع، عن الوزير بن صبيح قال: ودلنا عليه الوليد بن مسلم، عن مطرف، عن الشعبي، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ، فذكره. قال: والصحيح الأول. يعني إسناده الأول^(٧).

قلت: وقد روى موقوفا، كما^(٨) علقه البخاري بصيغة الجزم، فجعله من كلام أبي الدرداء^(٩)، فالله أعلم.

(٢) في أ: «قوما».

(١) في م: «السكسكي».

(٣) تفسير الطبري (٢٧/٧٩) ورواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٣٤٠١) «مجمع البحرين» والبخاري في مسنده برقم (٢٢٦٦) «كشف الاستار»، من طريق عمرو بن بكر السكسكي - وهو متروك - عن الحارث بن عبدة به.

(٥) في أ: «قوما».

(٤) في م: «أبو رزين».

(٦) رواه ابن ماجه برقم (٢٠٢) من طريق هشام بن عمار به.

قال البوصيري في الزوائد (١/٨٨): «هذا إسناده حسن لتقاصر الوزير عن درجة الحفظ والإتقان».

(٨) في م، أ: «وقد».

(٧) تاريخ دمشق (١٧/٧٧١) «القسم المخطوط».

(٩) صحيح البخاري (٨/٦٢٠) «فتح»، ورواه البيهقي في شعب الإيمان موصولا برقم (١١٠٢) من طريق إسماعيل بن عبد الله عن أم الدرداء عن أبي الدرداء موقوفا.

وقال البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا محمد بن الحارث، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن البيلماني، عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، قال: «يغفر ذنبا، ويكشف كربا»^(١).

ثم قال ابن جرير: وحدثنا أبو كريب، حدثنا عبيد الله بن موسى، عن أبي حمزة الثمالي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، أن الله خلق لوحا محفوظا من درة بيضاء، دفتاه ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابه نور، عرضه ما بين السماء والأرض، ينظر فيه كل يوم ثلثمائة وستين نظرة، يخلق في كل نظرة، ويحيى ويميت، ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء^(٢).

﴿سَنَفَرُغْ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئَ مِّنْ نَّارٍ وَنَحَاسٍ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦)﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿سَنَفَرُغْ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾، قال: وعيد من الله للعباد، وليس بالله شغل وهو فارغ. وكذا قال الضحاك: هذا وعيد. وقال قتادة: قد دنا من الله فراغ لخلقه. وقال ابن جريج: ﴿سَنَفَرُغْ لَكُمْ﴾ أي: سننقضي لكم.

وقال البخاري: سنحاسبكم^(٣)، لا يشغله شيء عن شيء، وهو معروف في كلام العرب، يقال^(٤): «لا تفرغن لك» وما به شغل، يقول: «لا أخذتك على غرتك»^(٥).

وقوله: ﴿أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾: الثقلان: الإنس والجن، كما جاء في الصحيح: «يسمعها كل شيء إلا الثقلين» وفي رواية: «إلا الجن والإنس». وفي حديث الصور: «الثقلان الإنس والجن» ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثم قال: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾. أي: لا تستطيعون هربا من أمر الله وقدره، بل هو محيط بكم، لا تقدرון على التخلص من حكمه، ولا النفوذ عن حكمه فيكم، أينما ذهبتم أحيط بكم، وهذا في مقام المحشر، الملائكة محدقة بالخلائق، سبع صفوف من كل جانب، فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي: إلا بأمر الله، ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَلَمْ أَقُرْ كَلًّا لَا وَزَرَ. إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٠-١٢]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا

(١) مسند البزار برقم (٢٢٦٨) «كشف الاستار». قال ابن حجر: «البيلماني ضعيف».

(٢) تفسير الطبري (٧٩/٢٧).

(٣) في م: «سيحاسبكم».

(٤) في أ: «يقول».

(٥) في م: «غرة».

أَغْشَيْتَ وَجُوهَهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿يُونُسُ: ٢٧﴾؛ ولهذا قال: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الشواظ: هو لهب النار.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: الشواظ: الدخان.

وقال مجاهد: هو: اللهيب^(١) الأخضر المنقطع. وقال أبو صالح: الشواظ: هو اللهيب^(٢) الذي فوق النار ودون الدخان. وقال الضحاك: ﴿شَوْاظٌ مِّن نَّارٍ﴾: سيل من نار.

وقوله: ﴿وَنُحَاسٌ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَنُحَاسٌ﴾: دخان النار. وروى مثله عن أبي صالح، وسعيد بن جبير، وأبي سنان.

قال ابن جرير: والعرب تسمى الدخان نحاسا - بضم النون وكسر ها - والقراء^(٣) مجمعة على الضم، ومن النحاس بمعنى الدخان قول نابغة جعدة^(٤):

يُضِيءُ كَضَوْءِ سَرَاةِ السَّلِيِّ ط، لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ فِيهِ نُحَاسًا

يعنى: دخانا، هكذا قال^(٥).

وقد روى الطبراني من طريق جُوَيْرٍ، عن الضحاك؛ أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس عن الشواظ فقال: هو اللهيب الذي لا دخان معه. فسأله شاهدا على ذلك من اللغة، فأئشده قول أمية بن أبي الصلت في حسان:

أَلَا مِنْ مُبْلَغٍ حَسَّانٍ عَنِّي مَغْلُغْلَةً تَدَبَّ^(٦) إِلَى عُكَّازٍ
أَلَيْسَ أَبْـُـوَكُ فِينَا كَانَ قَيْنًا لَدَى^(٧) الْقَيْنَاتِ فَسَلَا فِي الْحَفَازِ
يَمَانِيًا يَظَلُّ يَشُدُّ^(٨) كِيَرًا وَيَنْفِخُ دَائِبًا لَهَبَ الشَّوَاظِ

قال: صدقت، فما النحاس؟ قال: هو الدخان الذي لا لهب له. قال: فهل تعرفه العرب؟ قال: نعم، أما سمعت نابغة بنى ذبيان يقول^(٩):

يُضِيءُ كَضَوْءِ سَرَاةِ السَّلِيِّ ط، لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ فِيهِ نُحَاسًا^(١٠)

وقال مجاهد: النحاس: الصُّفْرُ، يَذَابُ^(١١) فيصب على رؤوسهم. وكذا قال قتادة. وقال

(١، ٢) فى م، أ: «اللهب». (٣) فى م: «القراءة».

(٤) فى م، أ: «نابغة بنى جعدة»، وفى تفسير الطبرى: «نابغة بنى ذبيان» ولم أجده فى ديوانه، والبيت فى مجاز القرآن لأبى عبيد: منسوباً للنابغة الجعدى ٢/ ٢٤٤، ٢٤٥. والبيت أيضا فى ديوان الجعدى واللسان، مادة «نحس» مستفادا من هامش ط. الشعب.

(٥) تفسير الطبرى (٢٧/ ٨١).

(٦) فى م: «يدب». (٧) فى م: «إلى». (٨) فى م: «يشب».

(٩) كذا، وقد سبق تخريج البيت ونسبته إلى الجعدى.

(١٠) المعجم الكبير (١٠/ ٣٠٥) وفيه جوير وهو متروك لم يلق ابن عباس.

(١١) فى م: «المذاب».

الضحاك: ﴿وَنَحَّاسٌ﴾: سيل من نحاس.

والمعنى على كل قول: لو ذهبتم هارين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا^(١)؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٧﴾.

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بَسِيمَاهُمَ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥)﴾.

يقول [تعالى]^(٢): ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ يوم القيامة، كما دلت عليه هذه الآية مع ما شاكلها من الآيات الواردة في معناها، كقوله: ﴿وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشْقَى السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ. وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١، ٢].

وقوله: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ أى: تذوب كما يذوب الدردى والنضة في السبك، وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها، فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم. وقد قال الإمام أحمد:

حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا عبد الرحمن بن أبى الصهباء، حدثنا نافع أبو غالب الباهلى، حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يبعث الناس يوم القيامة والسماء تطش عليهم»^(٣).

قال الجوهري: الطش: المطر الضعيف.

وقال الضحاك، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾، قال: هو الأديم الأحمر. وقال أبو كدينة عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾: كالفرس الورد. وقال العوفى، عن ابن عباس: تغير لونها. وقال أبو صالح: كالبرذون الورد، ثم كانت بعد كالدّهان.

وحكى البغوى وغيره: أن الفرس الورد تكون فى الربيع صفراء، وفى الشتاء حمراء، فإذا اشتد البرد اغبرّ لونها.

وقال الحسن البصرى: تكون ألوانا. وقال السدى: تكون كلون البغلة الوردية، وتكون كالمهل كدردى الزيت. وقال مجاهد: ﴿كَالدِّهَانِ﴾: كألوان الدهان. وقال عطاء الخراسانى: كلون دهن الورد فى الصفرة. وقال قتادة: هى اليوم خضراء، ويومئذ لونها إلى الحمرة، يوم ذى ألوان. وقال أبو الجوزاء:

(١) فى م: «لترجعوا».

(٢) زيادة من م.

(٣) المسند (٢٢٦/٣).

فى صفاء الدهن. وقال [أبو صالح]^(١) بن جريج: تصوير السماء كالدهن الذائب، وذلك حين يُصَيِّبها حر جهنم.

وقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾، وهذه كقوله: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦]، فهذا فى حال، وثمّ حال يسأل الخلائق فيها عن جميع أعمالهم، قال الله تعالى: ﴿فَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]؛ ولهذه قال قتادة: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾، قال: قد كانت مسألة، ثم ختم على أفواه القوم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: لا يسألهم: هل عملتم كذا وكذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟ فهو قول ثان.

وقال مجاهد فى هذه الآية: لا يسأل الملائكة عن المجرم، يُعْرِفُونَ بِسِيَمَاهُمْ.

وهذا قول^(٢) ثالث. وكأن هذا بعد ما يؤمر بهم إلى النار، فذلك الوقت لا يسألون عن ذنوبهم، بل يقادون إليها^(٣) ويلقون فيها، كما قال تعالى: ﴿يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيَمَاهُمْ﴾ أى: بعلامات تظهر عليهم.

وقال الحسن وقتادة: يعرفونهم باسوداد الوجوه وزرقة العيون.

قلت: وهذا كما يعرف المؤمنون بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء.

وقوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ أى: تجمع الزبانية ناصيته مع قدميه، ويلقونه فى النار كذلك.

وقال الأعمش، عن ابن عباس: يؤخذ بناصيته وقدمه^(٤)، فيكسر كما يكسر الخطب فى التنور.

وقال الضحاك: يجمع بين ناصيته وقدميه^(٥) فى سلسلة من وراء ظهره.

وقال السدى: يجمع بين ناصية الكافر وقدميه، فتربط ناصيته بقدمه، ويقتل ظهره.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع، حدثنا معاوية بن سلام، عن أخيه زيد بن سلام، أنه سمع أبا سلام - يعنى جده - أخبرنى عبد الرحمن، حدثنى رجل من كندة قال: أتيت عائشة فدخلت عليها، وبينى وبينها حجاب، فقلت: حدثك رسول الله ﷺ أنه يأتى عليه ساعة لا يملك لأحد فيها شفاعة؟ قالت: نعم، لقد سألته عن هذا وأنا وهو فى شعار واحد، قال: «نعم، حين يوضع الصراط، ولا أملك لأحد فيها شفاعة، حتى أعلم أين يسلك بى؟ ويوم تبيض وجوه وتسود وجوه، حتى أنظر ماذا يفعل بى - أو قال: يوحى - وعند الجسر حين يستحد ويستحضر» فقالت: وما يستحد وما يستحضر؟ قال: «يستحد حتى يكون مثل شفرة السيف، ويستحضر حتى يكون

(٣) فى م: «إلى النار».

(٢) فى م: «جواب».

(١) زيادة من أ.

(٥) فى أ: «قدمه».

(٤) فى أ: «قدميه».

مثل الجمرة، فأما المؤمن فيجيزه لا يضره، وأما المنافق فيتعلق حتى إذا بلغ أوسطه خر من قدمه فيهوى بيده إلى قدميه، فتضربه الزبانية بخطاف في ناصيته وقدمه، فتقذفه في جهنم، فيهوى^(١) فيها مقدار خمسين عاما». قلت: ما ثقل الرجل؟ قالت: ثقل عشر خلفات سمان، فيومئذ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام.

هذا حديث غريب [جدا]^(٢)، وفيه ألفاظ منكر رفعها، وفي الإسناد من لم يُسمَّ، ومثله لا يحتاج به^(٣)، والله أعلم.

وقوله: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها ما هي حاضرة تشاهدونها عياناً، يقال لهم ذلك تقرّيعاً وتوبيخاً وتصغيراً وتحقيراً.

وقوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آناً﴾ أي: تارة يعذبون في الحميم، وتارة يسقون من الحميم، وهو الشراب الذي هو كالنحاس المذاب، يقطع الأمعاء والأحشاء، وهذه كقوله تعالى: ﴿إِذَا الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسلُ يَسْحَبُونَ﴾. فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

وقوله: ﴿آناً﴾ أي: حار، وقد بلغ الغاية في الحرارة، لا استطاع من شدة ذلك.

قال ابن عباس في قوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آناً﴾ قد انتهى غليه، واشتد حره. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبیر، والضحاك، والحسن، والثوري، والسدي.

وقال قتادة: قد أتى طبخه منذ خلق الله السموات والأرض. وقال محمد بن كعب القرظي: يؤخذ العبد فيحركُ بناصيته في ذلك الحميم، حتى يذوب^(٤) اللحم ويبقى العظم والعينان في الرأس. وهي كالتى يقول الله تعالى: ﴿فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾. والحميم الآن: يعنى الحار. وعن القرظي رواية أخرى: ﴿حَمِيمٍ آناً﴾ أي: حاضراً. وهو قول ابن زيد أيضاً، والحاضر، لا ينافي ما روى عن القرظي أولاً أنه الحار، كقوله تعالى: ﴿تَسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٥]، أى حارة شديدة الحر لا تستطيع. وكقوله: ﴿غَيْرِ نَاطِرِينَ إِيَّاهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣] يعنى: استواءه ونضجه. فقوله: ﴿حَمِيمٍ آناً﴾ أي: حميم حار جداً. ولما كان معاقبة العصاة^(٥) المجرمين وتنعيم المتقين من فضله ورحمته وعدله ولطفه بخلقه، وكان إنذاره لهم عذابه وبأسه مما يجرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصي وغير ذلك، قال ممتناً بذلك على بريته: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عِينَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣)﴾.

(١) فى م: «فهوى».

(٢) زيادة من م.

(٣) رواه عبد الرزاق فى المصنف كما فى الدر المنثور (٧/ ٧٠٤) عن رجل من كنده بنحوه.

(٤) فى أ: «العاصين».

(٥) فى م: «حتى تذوب».

قال ابن شوذب، وعطاء الخراساني: نزلت هذه الآية: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ في أبي بكر الصديق.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن مصفى، حدثنا بَقِيَّةُ، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن عطية بن قيس في قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾: نزلت في الذي قال: أحرقوني بالنار، لعلني أضل الله، قال: تاب يوما وليلة بعد أن تكلم بهذا، فقبل الله منه وأدخله الجنة.

والصحيح أن هذه الآية عامة كما قاله ابن عباس وغيره، يقول تعالى: ولمن خاف مقامه بين يدي الله، عز وجل، يوم القيامة، ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [النازعات: ٤٠]، ولم يطغ ولا أثر الدنيا، وعلم أن الآخرة خير وأبقى، فأدى فرائض الله، واجتنب محارمه، فله يوم القيامة عند ربه جنتان، كما قال البخاري، رحمه الله.

حدثنا عبد الله بن أبي الأسود، حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد العمي، حدثنا أبو عمران الجوني، عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة، آتيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن».

وأخرجه بقية الجماعة إلا أبا داود، من حديث عبد العزيز، به^(١).

وقال حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أبي بكر بن أبي موسى، عن أبيه - قال حماد: ولا أعلمه إلا قد رفعه - في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾، وفي قوله: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٌ﴾ [قال]^(٢): جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين.

وقال ابن جرير: حدثنا زكريا بن يحيى بن أبان المصري^(٣)، حدثنا ابن أبي مريم، أخبرنا محمد ابن جعفر، عن محمد بن أبي حرملة، عن عطاء بن يسار، أخبرني أبو الدرداء؛ أن رسول الله ﷺ قرأ يوما هذه الآية: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾، فقلت: وإن زنى أو سرق؟ فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾، فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾. فقلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: «وإن رغم أنف أبي الدرداء».

ورواه النسائي من حديث محمد بن أبي حرملة، به^(٤). ورواه النسائي أيضا عن مؤمل^(٥) بن هشام، عن إسماعيل، عن الجريري، عن موسى، عن محمد بن سعد بن أبي وقاص، عن أبي الدرداء، به^(٦). وقد روى موقوفا على أبي الدرداء. وروى عنه أنه قال: إن من خاف مقام ربه لم يزن

(١) صحيح البخاري برقم (٤٨٧٨) وصحيح مسلم برقم (١٨٠) وسنن الترمذي برقم (٢٥٢٨) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٧٧٦٥) وسنن ابن ماجه برقم (١٨٦).

(٢) زيادة من أ.

(٣) في م: «المقرى».

(٤) تفسير الطبري (٤٩٠/٥) «ط. المعارف»، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٥٦٠).

(٥) في أ: «موسى».

(٦) النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٥٦١).

ولم يسرق.

وهذه الآية عامة في الإنس والجن، فهي من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا؛ ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثم نعت هاتين الجنةين فقال: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ أى: أغصان نضرة حسنة، تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. هكذا^(١) قال عطاء الخراساني وجماعة: إن الأفنان أغصان الشجر، يس بعضُها بعضا.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن علي، حدثنا مسلم بن قتيبة، حدثنا عبد الله ابن النعمان، سمعت عكرمة يقول: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾، يقول: ظل الأغصان على الحيطان، ألم تسمع قول الشاعر حيث يقول:

ما هاجَ شَوْقَكَ من هَدِيلِ حَمَامَةٍ تَدْعُو على فَنَنِ الغُصُونِ حَمَامَا
تَدْعُو أبا فَرْخَيْنِ صادفَ طاورِيسَا ذا مَخْلِبَيْنِ مِنَ الصَّقُورِ قَطَامَا^(٢)

وحكى البغوي عن مجاهد، وعكرمة، والضحاك، والكلبي: أنه الغصن المستقيم^(٣) [طوالا]^(٤).

قال: وحدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبد السلام بن حرب، حدثنا عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾: ذواتا ألوان.

قال: و[قد]^(٥) روى عن سعيد بن جبير، والحسن، والسدي، وخُصِيف، والنضر بن عربي^(٦)، وأبى سنان مثل ذلك. ومعنى هذا القول أن فيهما فنونا من الملاذ، واختاره ابن جرير.

وقال عطاء: كل غصن يجمع فنونا من الفاكهة. وقال الربيع بن أنس: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾: واسعتا الفناء.

وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا منافاة بينها، والله أعلم. وقال قتادة: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ ينبئ بسعتها وفضلها^(٧) ومزيتها على ما سواها.

وقال محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن أسماء^(٨) قالت: سمعت رسول الله ﷺ - وذكر سدره المنتهى - فقال: «يسير في ظل الفَنَنِ منها راكب مائة سنة - أو قال: يستظل في ظل الفَنَنِ منها مائة راكب - فيها فراش الذهب، كأن ثمرها القلال».

(١) في أ: «وكذا».

(٢) رواه عبد بن حميد وابن المنذر وأبو بكر بن حبان في الفنون وابن الأنباري في الوقف والابتداء. كما في الدر المنثور (٧/٩٠٧).

(٣) في م: «الغصن المنيف طولا». (٤) زيادة من أ.

(٥) زيادة من م.

(٦) في أ: «عدى». (٧) في م: «بفضلها وسعتها».

(٨) في م: «أسماء بنت يزيد»، وفي أ: «أسماء بنت أبي بكر».

رواه الترمذى من حديث يونس بن (١) بكير، به (٢).

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أى: تسرحان لسقى تلك الأشجار والأغصان فتثمر من جميع الألوان، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾: قال الحسن البصرى: إحداهما يقال لها: «تسنيم»، والأخرى «السلسيل».

وقال عطية: إحداهما من ماء غير آسن، والأخرى من خمر لذة للشاربين.

ولهذا قال بعد هذا: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ أى: من جميع أنواع الثمار مما يعلمون وخير مما يعلمون، ومما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قال إبراهيم بن الحكم بن أبان، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس: ما فى الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهى فى الجنة حتى الحنظلة (٣).

وقال ابن عباس: ليس فى الدنيا مما فى الآخرة إلا الأسماء، يعنى: أن بين ذلك بوناً عظيماً، وفرقاً بينا فى التفاضل.

﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فُرْشٍ بَطَانُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١)﴾.

يقول تعالى: ﴿مُتَكَبِّرِينَ﴾ يعنى: أهل الجنة. والمراد بالانكاء هاهنا: الاضطجاع. ويقال: الجلوس على صفة التربع. ﴿عَلَى فُرْشٍ بَطَانُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو: ما غلظ من الديباج. قاله عكرمة، والضحاك، وقتادة.

وقال أبو عمران الجونى: هو الديباج المغرى (٤) بالذهب. فنبه على شرف الظهارة بشرف البطانة. وهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى.

قال أبو إسحاق، عن هُبَيْرَةَ بن يَرِيم (٥)، عن عبد الله بن مسعود قال: هذه البطائن فكيف لو رأيتم الظواهر؟

وقال مالك بن دينار: بطائنهما من إستبرق، وظواهرهما من نور.

(١) فى: م، أ: «عن».

(٢) سنن الترمذى برقم (٢٥٤١) وقال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب».

(٥) فى أ: «سرية».

(٤) فى م، أ: «المعول».

(٣) فى م: «الحنظل».

وقال سفيان الثوري - أو شريك -: بطائنها من إستبرق، وظواهرها من نور جامد.

وقال القاسم بن محمد^(١): بطائنها من إستبرق، وظواهرها من الرحمة.

وقال ابن شوذب، عن أبي عبد الله الشامي: ذكر الله البطائن ولم يذكر الظواهر، وعلى الظواهر المحابس، ولا يعلم ما تحت المحابس إلا الله. ذكر ذلك كله الإمام ابن أبي حاتم.

﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٌ﴾ أى: ثمرها قريب إليهم، متى شاءوا تناولوه، على أى صفة كانوا، كما قال: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣]، وقال: ﴿وَدَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤] أى: لا تمنع ممن تناولها، بل تنحط إليه من أغصانها، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك: ﴿فِيهِنَّ﴾ أى: فى الفرش ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أى غشيضات عن غير أزواجهن، فلا يرين شيئا أحسن فى الجنة من أزواجهن. قاله ابن عباس، وقتادة، وعطاء الخراساني، وابن زيد.

وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعلهما: والله ما أرى فى الجنة شيئا أحسن منك، ولا فى الجنة شيء أحب إلى منك، فالحمد لله الذى جعلك لى وجعلنى لك.

﴿لَمْ يَطْمِئْهُمْ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾ أى: بل هن أبكار عرب أتراب، لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن. وهذه أيضا من الأدلة على دخول مؤمنى الجن الجنة.

قال أروطة بن المنذر: سئل ضمرّة بن حبيب: هل يدخل الجن الجنة؟ قال: نعم، وينكحون، للجن جنيات، وللإنس إنسيات. وذلك قوله: ﴿لَمْ يَطْمِئْهُمْ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثم قال ينعتهن للخطاب: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾، قال مجاهد، والحسن، [والسدى]^(٢)، وابن زيد، وغيرهم: فى صفاء الياقوت وبياض المرجان، فجعلوا المرجان هاهنا اللؤلؤ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن حاتم، حدثنا عبيدة بن حميد، عن عطاء بن السائب، عن عمرو بن ميمون الأودى^(٣)، عن عبد الله بن مسعود، عن النبى ﷺ قال: «إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة من الحرير^(٤)، حتى يرى مخها، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾، فأما الياقوت فإنه حجرٌ لو أدخلت فيه سلكا ثم استصفيته لرأيته من ورائه».

وهكذا رواه الترمذى من حديث عبيدة بن حميد وأبى الأحوص، عن عطاء بن السائب، به^(٥). ورواه موقوفا، ثم قال: وهو أصح^(٦).

(١) فى م: «مخيمر».

(٢) زيادة من: م.

(٣) فى أ: «الأودى».

(٤) حتى يرى مخها، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾، فأما الياقوت فإنه حجرٌ لو أدخلت فيه سلكا ثم استصفيته لرأيته من ورائه».

(٥) سنن الترمذى برقم (٢٥٣٣).

(٦) سنن الترمذى برقم (٢٥٣٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا يونس، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين، على كل واحدة سبعون حلة، يرى مخ ساقها من وراء الثياب».

تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه^(١). وقد رواه مسلم من حديث إسماعيل بن عُلَيَّة، عن أيوب، عن محمد بن سيرين، قال: إما تفاخروا وإما تذاكروا، الرجال أكثر في الجنة أم النساء؟ فقال أبو هريرة: أو لم يقل أبو القاسم ﷺ: «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على أضواء كوكب دُرَى في السماء، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم، وما في الجنة أعزب»^(٢).

وهذا الحديث مُخَرَّجٌ في الصحيحين، من حديث هَمَّام بن مُنَبِّه وأبى زُرْعَة، عن أبي هريرة، رضى الله عنه^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا محمد بن طلحة، عن حميد، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لَعْدُوَّةٌ في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها، وَلَقَابٌ قوس أحدكم - أو موضع قيده^(٤) - يعنى: سوطه - من الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لمئات ما بينهما ريحا، ولطاب ما بينهما، وَلَنَصِيفُها على رأسها خير من الدنيا وما فيها».

ورواه البخارى من حديث أبى إسحاق، عن حميد، عن أنس بنحوه^(٥).

وقوله: «هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ» أى: ما لمن أحسن في الدنيا العمل^(٦) إلا الإحسان إليه في الدار الآخرة. كما قال تعالى: «لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ» [يونس: ٢٦].

وقال البغوى: أخبرنا أبو سعيد الشَّريحي، حدثنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني ابن فنجوية، حدثنا ابن شيبه، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن بهرام، حدثنا الحجاج بن يوسف المَكْتَب، حدثنا بشر بن الحسين، عن الزبير بن عدي، عن أنس بن مالك، قال: قرأ رسول الله ﷺ: «هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ»، قال: «هل تدرون ما قال ربكم؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «يقول: هل جزاء ما أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة»^(٧).

ولما كان في الذى ذَكَرَ نعم عظيمة لا يقاومها عمل، بل مجرد تفضل وامتنان، قال بعد ذلك

(١) المسند (٢/٣٤٥).

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٨٣٤).

(٣) صحيح البخارى برقم (٣٢٤٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٤).

(٤) فى م: «قده»، وفى أ: «قدمه».

(٥) المسند (٣/١٤١) وصحيح البخارى برقم (٢٧٩٦).

(٦) فى م: «العمل فى الدنيا».

(٧) معالم التنزيل للبغوى (٧/٤٥٦) وفيه بشر الأصهبانى يروى عن الزبير بن عدى عن أنس بنسخة موضوعة.

كله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ومما يتعلق بقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾، ما رواه الترمذى والبغوى، من حديث أبى النصر هاشم بن القاسم، عن أبى عقيل الثقفى، عن أبى فروة يزيد بن سنان الرهاوى، عن بكير ابن فيروز^(١)، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة».

ثم قال الترمذى: غريب، لا نعرفه إلا من حديث أبى النصر^(٢).

وروى البغوى من حديث على بن حُجر، عن إسماعيل بن جعفر، عن محمد بن أبى حرملة - مولى حويطب بن عبد العزى - عن عطاء بن يسار، عن أبى الدرداء؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقص على المنبر وهو يقول: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾، قلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾. فقلت الثانية: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال [رسول الله ﷺ]^(٣): ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾. فقلت الثالثة: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: «وإن، رغم أنف أبى الدرداء»^(٤).

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مَدَاهِمَتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ (٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَكِنِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حَسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨)﴾.

هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما فى المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾.

وقد تقدم فى الحديث: «جنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آتيتهما وما فيهما، فالأوليان^(٥) للمقربين، والآخران^(٦) لأصحاب اليمين».

(١) فى أ: «فيروز الديلمى».

(٢) سنن الترمذى برقم (٢٤٥٠) وتفسير البغوى (٧/ ٤٥١).

(٣) زيادة من م، أ.

(٤) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ٤٥٢).

(٥) فى م: «والأخيرتان».

(٦) فى م: «والأولتان».

وقال أبو موسى: جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين.

وقال ابن عباس: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾: من دونهما في الدرج. وقال ابن زيد: من دونهما في الفضل.

والدليل على شرف الأولين على الآخرين وجوه: أحدها: أنه نعت الأولين قبل هاتين، والتقديم يدل على الاعتناء ثم قال: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾. وهذا ظاهر في شرف التقدم^(١) وعلوه على الثاني. وقال هناك: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾: وهى الأغصان أو الفنون فى الملاذ، وقال هاهنا: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ أى: سوداوان من شدة الرى.

قال ابن عباس فى قوله: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾: قد اسودتا من الخضرة، من شدة الرى من الماء.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن فضيل، حدثنا عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾: قال: خضراوان. وروى عن أبى أيوب الأنصارى، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن أبى أوفى، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد - فى إحدى الروايات - وعطاء، وعطية العوفى، والحسن البصرى، ويحيى بن رافع، وسفيان الثورى، نحو ذلك.

وقال محمد بن كعب: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾: ممتلئتان من الخضرة. وقال قتادة: خضراوان من الرى ناعمتان. ولا شك فى نضارة الأغصان على الأشجار المشبكة بعضها فى بعض. وقال هناك: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾، وقال هاهنا: ﴿نَضَّاءَتَانِ﴾، وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أى فياضتان. والجرى أقوى من النضخ.

وقال الضحاك: ﴿نَضَّاءَتَانِ﴾ أى: ممتلئتان لا تنقطعان.

وقال هناك: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾، وقال هاهنا: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَانٌ﴾، ولا شك أن الأولى أعم وأكثر فى الأفراد والتنويع على فاكهة، وهى نكرة فى سياق الإثبات لا تعم؛ ولهذا فسر قوله: ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَانٌ﴾ من باب عطف الخاص على العام، كما قرره البخارى وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما.

قال عبد بن حميد: حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا حصين بن عمر، حدثنا مخارق، عن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطاب قال: جاء أناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أفى^(٢) الجنة فاكهة؟ قال: «نعم، فيها فاكهة ونخل ورمان». قالوا: أفياكلون كما يأكلون فى الدنيا؟ قال: «نعم وأضعاف». قالوا: فيقتضون الحوائج؟ قال: «لا، ولكنهم يعرقون ويرشحون، فيذهب الله ما فى بطونهم من أذى»^(٣).

(١) فى أ: «التقديم».

(٢) فى م: «فى».

(٣) المنتخب برقم (٣٥) وفيه حصين بن عمر وهو متروك.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الْفَضْلُ بْنُ دُكَيْنٍ، حَدَّثَنَا سَفِيَانُ، عَنْ حَمَادٍ، عَنْ سَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: نَخْلُ الْجَنَّةِ سَعْفَهَا كَسَوَ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ، مِنْهَا مُقَطَّعَاتُهُمْ، وَمِنْهَا حُلَلُهُمْ وَكَرْبُهَا ذَهَبٌ أَحْمَرٌ، وَجَذْوَعُهَا زَمْرَدٌ أَخْضَرٌ، وَثَمَرُهَا أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَلْيَنُ مِنَ الزَّبَدِ، وَلَيْسَ لَهُ عَجَمٌ.

وَحَدَّثَنَا أَبِي: حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا حَمَادٌ - هُوَ ابْنُ سَلْمَةَ - عَنْ أَبِي هَارُونَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «نَظَرْتُ إِلَى الْجَنَّةِ فَإِذَا الرَّمَانَةُ مِنْ رَمَانِهَا كَمَثَلِ الْبَعِيرِ الْمُقْتَبِ»^(١).

ثُمَّ قَالَ: «فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ» قِيلَ: الْمُرَادُ خَيْرَاتٌ كَثِيرَةٌ حَسَنَةٌ فِي الْجَنَّةِ، قَالَه قَتَادَةُ. وَقِيلَ: خَيْرَاتٌ جَمْعُ خَيْرَةٍ، وَهِيَ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ الْحَسَنَةُ الْخُلُقُ الْحَسَنَةُ الْوَجْهَ، قَالَه الْجُمْهُورُ. وَرَوَى مَرْفُوعًا عَنْ أُمِّ سَلْمَةَ^(٢). وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ الَّذِي سَنَوَدَّهِ فِي سُورَةِ «الْوَاقِعَةِ»^(٣): أَنَّ الْخَوْرَ الْعَيْنَ يَغْنِينُ: نَحْنُ الْخَيْرَاتِ الْحَسَنَاتِ، خَلَقْنَا لِأَزْوَاجِ كِرَامٍ. وَلِهَذَا قَرَأَ بَعْضُهُمْ: «فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ»، بِالتَّشْدِيدِ «حَسَنَاتٌ». فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ.

ثُمَّ قَالَ: «حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ»، وَهَنَاكَ قَالَ: «فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ»، وَلَا شَكَّ أَنَّ التِّي قَدْ قَصَّرَتْ طَرَفَهَا بِنَفْسِهَا أَفْضَلَ مِنْ قُصِّرَتْ، وَإِنْ كَانَ الْجَمِيعُ مَخْدَرَاتٍ.

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَوْدِيُّ، حَدَّثَنَا وَكَيْعٌ، عَنْ سَفِيَانٍ، عَنْ جَابِرٍ، عَنْ الْقَاسِمِ بْنِ أَبِي بَزَّةٍ، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: إِنْ لِكُلِّ مُسْلِمٍ خَيْرَةٌ، وَلِكُلِّ خَيْرَةٍ خِيَمَةٌ، وَلِكُلِّ خِيَمَةٍ أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ، يَدْخُلُ عَلَيْهَا^(٤) كُلُّ يَوْمٍ تَحْفَةٌ وَكِرَامَةٌ وَهَدِيَّةٌ لَمْ تَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ، لَا مَرَّاحَاتٍ وَلَا طَمَاحَاتٍ، وَلَا بَخْرَاتٍ وَلَا ذَفَرَاتٍ، حُورٌ عَيْنٌ، كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ.

وَقَوْلُهُ: «فِي الْخِيَامِ»، قَالَ الْبُخَارِيُّ:

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ، حَدَّثَنَا أَبُو عَمْرَانَ الْجَوْنِيُّ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ، عَنْ أَبِيهِ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنْ فِي الْجَنَّةِ خِيَمَةٌ مِنْ لَوْلُؤَةٍ مَجُوفَةٍ، عَرْضُهَا سِتُونَ^(٥) مِيلًا، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ مَا يَرَوْنَ الْآخِرِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ».

وَرَوَاهُ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي عَمْرَانَ، بِهِ^(٦). وَقَالَ: «ثَلَاثُونَ مِيلًا». وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي عَمْرَانَ، بِهِ، وَلَفْظُهُ: «إِنْ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخِيَمَةٌ مِنْ لَوْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مَجُوفَةٍ، طَوْلُهَا سِتُونَ مِيلًا،

(١) رَوَاهُ الثَّعْلَبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ كَمَا فِي تَخْرِيجِ الْإِحْيَاءِ (٢٧٨٧/٦) وَابْنُ عَسَاكِرَ فِي تَارِيخِ دِمَشْقَ كَمَا فِي تَهْذِيبِهِ (٤٦٢/٥) مِنْ طَرِيقِ أَبِي هَارُونَ الْعَبْدِيِّ بِهِ.

وَأَبُو هَارُونَ الْعَبْدِيُّ اسْمُهُ عِمَارَةُ بْنُ جُوَيْنٍ كَذَبَهُ بَعْضُ الْأَثَمَةِ.

(٢) رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ (٣٦٧/٢٣) مَطْوُلاً وَفِيهِ سَلِيمَانُ بْنُ أَبِي كَرِيمَةَ. وَهُوَ ضَعِيفٌ.

(٣) عِنْدَ تَفْسِيرِ الْآيَاتِ: ٣٥ - ٣٨ مِنْ نَفْسِ السُّورَةِ

(٤) فِي م: «عَلَيْهِمْ».

(٥) فِي أ: «سَبْعُونَ».

(٦) صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ بِرَقْمِ (٤٨٧٩)، (٣٢٤٣).

للمؤمن فيها أهل^(١) يطوف عليهم المؤمن، فلا يرى بعضهم بعضاً^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن أبي الربيع، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن قتادة، أخبرني خُلَيْدُ الْعَصْرِيِّ، عن أبي الدرداء قال: الخيمة لؤلؤة واحدة، فيها سبعون باباً من در.

وحدثنا أبي، حدثنا عيسى بن أبي فاطمة، حدثنا جرير، عن هشام، عن محمد بن المثنى، عن ابن عباس في قوله: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾، قال: [في]^(٣) خيام اللؤلؤ، وفي الجنة خيمة واحدة من لؤلؤة، أربعة فراسخ في أربعة فراسخ، عليها أربعة آلاف مصراع من الذهب.

وقال عبد الله بن وهب: أخبرنا عمرو أن دَرَّاجاً أبا السَّمْح حدثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ، قال: «أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم، واثنان وسبعون زوجة، وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت، كما بين الجابية وصنعاء».

ورواه الترمذي من حديث عمرو بن الحارث، به^(٤).

وقوله: ﴿لَمْ يَطْمِئْنُوا أَنْفٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾: [قد]^(٥) تقدم مثله سواء، إلا أنه زاد في وصف الأوائل بقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقوله: ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الرفرف: المحابس. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضحاك، وغيرهما: هي المحابس. وقال العلاء بن بدر^(٦): الرفرف على السرير، كهيئة المحابس المتدلى.

وقال عاصم الجحدري: ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ يعني: الوسائد. وهو قول الحسن البصري في رواية عنه.

وقال أبو داود الطيالسي، عن شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾، قال: الرفرف: رياض الجنة.

وقوله: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾: قال ابن عباس، وقتادة، والضحاك، والسدي: العبقرى: الزرابى. وقال سعيد بن جبير: هي عتاق الزرابى، يعني: جياها.

وقال مجاهد: العبقرى: الديباج.

وسئل الحسن البصري عن قوله: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ فقال: هي بسط أهل الجنة - لا أبالكم -

(١) في م: «أهلون».

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٨٣٨).

(٣) زيادة من م.

(٤) سنن الترمذي برقم (٢٥٦٢) وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين». ولم ينفرد به رشدين بل تابعه ابن وهب كما هنا، وفي إسناده دراج يروى عن أبي الهيثم مناكير.

(٥) زيادة من: م، أ. (٦) في م: «زيد».

فاطلبوها. وعن الحسن [البصري]^(١) رواية: أنها المرافق. وقال زيد بن أسلم: العبقرى: أحمر وأصفر وأخضر. وسئل العلاء بن زيد عن العبقرى، فقال: البسط أسفل من ذلك. وقال أبو حَزْرَةَ^(٢) يعقوب ابن مجاهد: العبقرى: من ثياب أهل الجنة، لا يعرفه أحد. وقال أبو العالية: العبقرى: الطنافس المخمّلة، إلى الرقة ما هي. وقال القتيبي: كل ثوب مَوْشَى عند العرب عبقرى. وقال أبو عبيدة: هو منسوب إلى أرض يعمل بها الوشى. وقال الخليل بن أحمد: كل شيء يسر^(٣) من الرجال وغير ذلك يسمى عند العرب عبقرىا. ومنه قول النبي ﷺ في عمر: «فلم أر عبقرىا يفري فريه»^(٤).

وعلى كل تقدير فصفة مرافق أهل الجنّتين الأولين أرفع وأعلى من هذه الصفة؛ فإنه قد قال هناك: ﴿مُتَكِّينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَّانُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾، فنعت بطائن فرشهم وسكت عن ظهارتها^(٥)، اكتفاء بما مدح به البطائن بطريق الأولى والأخرى. وتام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المتقدمة: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ فوصف أهلها بالإحسان وهو أعلى المراتب والنهايات، كما فى حديث جبريل لما سأل عن الإسلام، ثم الإيمان. فهذه وجوه عديدة فى تفضيل الجنّتين الأولين على هاتين الآخرين^(٦)، ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من أهل الأولين.

ثم قال: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أى: هو أهل أن يجل فلا يعصى، وأن يكرم فيعبد، ويشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى.

وقال ابن عباس: ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾: ذى العظمة والكبرياء.

وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، عن عمير ابن هانئ، عن أبي العذراء، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَجِدُوا الله يغفر لكم»^(٧). وفى الحديث الآخر: «إن من إجلال الله إكرام ذى الشبهة المسلم، وذى السلطان، وحامل القرآن»^(٩) غير الغالى فيه ولا الجافى عنه^(١٠).

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو يوسف الجيزى^(١١)، حدثنا مؤمل بن إسماعيل، حدثنا حماد، حدثنا حميد الطويل، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «الظُّلُوبَا بيا ذا الجلال والإكرام».

وكذا رواه الترمذى، عن محمود بن غيلان، عن مؤمل بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، به^(١٢)،

(١) زيادة من م، أ. (٢) فى أ: «حزيرة». (٣) فى م، أ: «نفيس».

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٦٨٢) وصحيح مسلم برقم (٢٣٩٣) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

(٥) فى م: «ظهارتها». (٦) فى م: «الآخرتين». (٧) فى أ: «عمر».

(٨) المسند (١٩٩/٥) وقال الهيثمى فى المجمع (٣١/١): «وفى إسناده أبو العذراء وهو مجهول».

(٩) فى م: «الذكر».

(١٠) رواه أبو داود فى السنن برقم (٤٨٤٣) والبيهقى فى السنن الكبرى (١٦٣/٨) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه.

(١١) فى الأصل وبقية النسخ: «الحربى» والتصويب من أبى يعلى.

(١٢) مسند أبى يعلى (٤٤٥/٦) وسنن الترمذى برقم (٣٥٢٢).

وقال ابن طاهر: «وقد تابع المؤمل فيه روح بن عباد وروح حافظ ثقة».

أخرجه ابن مردويه فى تفسيره كما فى تخريج الكشاف للزيلعى (٣٩٦/٣) من طريق روح بن عباد عن حماد بن سلمة عن

ثم قال: غلط المؤمل فيه، وهو غريب وليس بمحفوظ، وإنما يروى هذا عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن، عن النبي ﷺ.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن إسحاق، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن يحيى بن حسان المقدسى، عن ربيعة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أَلْظُوا بِذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ».

ورواه النسائي من حديث عبد الله بن المبارك، به^(١).

قال الجوهري: أَلْظَ فلان بفلان: إذا لزمه^(٢).

وقال ابن مسعود: «أَلْظُوا بِيَاذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» أى: الزموا. ويقال: الإلظاظ هو الإلحاح.

قلت: وكلاهما قريب من الآخر - والله أعلم - وهو المداومة واللزوم والإلحاح. وفى صحيح مسلم والسنن الأربعة، من حديث عبد الله بن الحارث، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقعد - يعنى: بعد الصلاة - إلا قدر ما يقول: «اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت ذا الجلال والإكرام»^(٣).

آخر تفسير سورة الرحمن، والله الحمد [والمنة]^(٤)

(١) المسند (١٧٧/٤) والنسائي فى السنن الكبرى برقم (١١٥٦٣).

(٢) لسان العرب (٤٥٩/٧).

(٣) صحيح مسلم برقم (٥٩٢) وسنن أبى داود برقم (١٥١٢) وسنن الترمذى برقم (٢٩٨) وسنن النسائي (٦٩/٣) وسنن ابن ماجه برقم (٩٢٤).

(٤) زيادة من م، أ

تفسير سورة الواقعة

وهي مكية.

قال أبو إسحاق، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله، قد شئت؟ قال: «شيتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعمّ يتساءلون، وإذا الشمس كورت».

رواه الترمذى وقال: حسن غريب^(١).

وقال الحافظ ابن عساكر فى ترجمة عبد الله بن مسعود بسنده إلى عمرو بن الربيع بن طارق المصرى: حدثنا السرى بن يحيى الشيبانى، عن أبى شجاع، عن أبى ظبية قال: مرض عبد الله مرضه الذى توفى فيه، فعاده عثمان بن عفان فقال: ما تشتكى؟ قال: ذنوبى. قال: فما تشتهى؟ قال: رحمة ربي. قال: ألا أمر لك بطبيب؟ قال: الطبيب أمرضنى. قال: ألا أمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لى فيه. قال: يكون لبناتك من بعدك؟ قال: أتخشى على بناتى الفقر؟ إني أمرت بناتى يقرأن كل ليلة سورة الواقعة، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة، لم تصبه فاقة أبدا»^(٢).

ثم قال ابن عساكر: كذا قال، والصواب: عن «شجاع»، كما رواه عبد الله بن وهب، عن السرى. وقال عبد الله بن وهب: أخبرنى السرى بن يحيى أن شجاعا حدثه، عن أبى ظبية، عن عبد الله بن مسعود، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا». فكان أبو ظبية لا يدعها^(٣).

وكذا رواه أبو يعلى، عن إسحاق بن إبراهيم، عن محمد بن منيب، عن السرى بن يحيى، عن شجاع، عن أبى ظبية، عن ابن مسعود، به. ثم رواه عن إسحاق بن أبى إسرائيل، عن محمد بن منيب العدنى، عن السرى بن يحيى، عن أبى ظبية، عن ابن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة الواقعة فى كل ليلة، لم تصبه فاقة أبدا». لم يذكر فى سنده «شجاعا»^(٤). قال: وقد أمرت بناتى أن يقرأنها كل ليلة.

وقد رواه ابن عساكر أيضا من حديث حجاج بن نصير وعثمان بن اليمان، عن السرى بن يحيى، عن شجاع، عن أبى فاطمة، قال: مرض عبد الله، فأتاه عثمان بن عفان يعوده، فذكر الحديث

(١) سنن الترمذى برقم (٣٢٩٧).

(٢) تاريخ دمشق (ق ٢٩٤) «مصورة معهد المخطوطات» ورواه ابن عبد البر فى التمهيد (٥/٢٦٩) من طريق حبشى بن عمرو بن الربيع، عن أبيه عمرو بن الربيع المصرى، به.

(٣) ورواه ابن الجوزى فى العلل المتناهية (١/١١٢) من طريق خالد بن خدّاش، عن عبد الله بن وهب، به.

(٤) ورواه عن أبى يعلى أبو بكر بن السنّى فى عمل اليوم والليلة برقم (٦٧٤).

بطوله. قال عثمان بن اليمان: كان أبو فاطمة هذا مولى لعلی بن أبی طالب^(١).

وقال [الإمام]^(٢) أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا إسرائيل ويحيى بن آدم، حدثنا إسرائيل، عن سِمَاك بن حرب؛ أنه سمع جابر بن سَمُرَةَ يقول: كان رسول الله ﷺ يصلي الصلوات كنحو من صلاتكم التي تصلون اليوم، ولكنه كان يخفف. كانت صلاته أخف من صلاتكم، وكان يقرأ في الفجر «الواقعة» ونحوها من السور^(٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝ (١) لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۝ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۝ (٤) وَيُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۝ (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ۝ (٦) وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝ (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ (١٢)﴾.

الواقعة: من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لتحقيق كونها ووجودها، كما قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٥]

وقوله: ﴿لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أى: ليس لوقوعها إذا أراد الله كونها صارف يصرفها، ولا دافع يدفعها، كما قال: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٧]، وقال: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ [المعارج: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُنْ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمَلِكُ يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣].

ومعنى ﴿كَاذِبَةٌ﴾ - كما قال محمد بن كعب -: لا بد أن تكون. وقال قتادة: ليس فيها مشنوية ولا

(١) تاريخ دمشق (ق ٢٩٤) «مصورة معهد المخطوطات».

وكذا رواه حجاج بن المنهال عن السرى بن يحيى فقال:

عن أبى فاطمة: أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٢٤٩٨) وقد أعمل الزيلعى، رحمه الله، هذا الحديث بأربع علل ترجع بعدها ضعفه:

الأولى: الانقطاع كما ذكره الدارقطنى وابن أبى حاتم فى علله نقلا عن أبيه.

الثانية: نكارة متنه. قاله الإمام أحمد.

الثالثة: ضعف رواته: السرى بن يحيى، وشجاع، كما ذكره ابن الجوزى.

الرابعة: الاضطراب، فمنهم من يقول: أبو طيبة بالطاء المهملة ومنهم من يقول: أبو طيبة بالظاء المعجمة.

ومنهم من يقول: أبو فاطمة، ومنهم من يقول: شجاع، ومنهم من يقول: أبو شجاع، وقد اجتمع على ضعفه: الإمام أحمد وأبو حاتم وابنه والدارقطنى والبيهقى وابن الجوزى وتلويحا وتصريحا، والله أعلم.

(٢) زيادة من م.

(٣) المسند (١٠٤/٥).

ارتداد ولا رجعة.

قال ابن جرير: والكاذبة: مصدر كالعاقبة والعافية.

وقوله: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾^(١) أى: تخفض^(١) أقواما إلى أسفل سافلين إلى الجحيم، وإن كانوا فى الدنيا أعزّاء. وترفع آخرين إلى أعلى عليّين، إلى النعيم المقيم، وإن كانوا فى الدنيا وضعاء. وهكذا قال الحسن، وقتادة وغيرهما.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا يزيد بن عبد الرحمن بن مصعب المعنى، حدثنا حميد بن عبد الرحمن الرؤاسى، عن أبيه، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾: تخفض أناساً وترفع آخرين.

وقال عبيد الله^(٢) العتكى، عن عثمان بن سراقه، ابن خالة عمر بن الخطاب: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [قال^(٣)]: الساعة خفضت أعداء الله إلى النار، ورفعت أولياء الله إلى الجنة.

وقال محمد بن كعب: تخفض رجالا كانوا فى الدنيا مرتفعين، وترفع رجالا كانوا فى الدنيا مخفوضين.

وقال السُّدِّى: خفضت المتكبرين، ورفعت المتواضعين.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾: أسمع القريب والبعيد. وقال عكرمة: خفضت فأسمعت الأدنى، ورفعت فأسمعت الأقصى. وكذا قال الضحاك، وقتادة.

وقوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ أى: حركت تحريكا فاهتزت واضطربت بطولها وعرضها. ولهذا قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغير واحد فى قوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ أى: زلزلت زلزالا [شديدا]^(٤).

وقال الربيع بن أنس: ترج بما فيها كرج الغربال بما فيه.

وهذه كقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

وقوله: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ أى: فُتَّتْ فُتًّا^(٥). قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، وغيرهم.

وقال ابن زيد: صارت الجبال كما قال [الله]^(٦) تعالى: ﴿كُنْياً مَّهِلًا﴾ [المزمل: ١٤].

وقوله: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾: قال أبو إسحاق، عن الحارث، عن على، رضى الله عنه: ﴿هَبَاءٌ

(٣) زيادة من م.

(٢) فى أ: «عبد الله».

(١) فى م: «تخفض».

(٦) زيادة من أ.

(٥) فى م: «فتفتتا».

(٤) زيادة من: م.

مُنْبَثًا ﴿ كَرِهَ الْجَبَّارُ السَّعْدِيُّ ﴾ ثم يذهب، فلا يبقى منه شيء.

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾: الهباء الذي يطير من النار، إذا اضطربت^(١) يطير منه الشر، فإذا وقع لم يكن شيئاً.

وقال عكرمة: المنبث: الذي ذرته الريح وبثته. وقال قتادة: ﴿هَبَاءً مُنْبَثًا﴾: كيبس الشجر الذي تذروه^(٢) الرياح.

وهذه الآية كآخواتها الدالة على زوال الجبال عن أماكنها يوم القيامة، وذهابها وتسييرها ونسفها - أي قلعها - وصيرورتها كالهعن المنفوش.

وقوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ أي: ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف: قوم عن يمين العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيمن، ويؤتون كتبهم بأيمانهم، ويؤخذ بهم ذات اليمين. قال السدي: وهم جمهور أهل الجنة. وآخرون عن يسار العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر، ويؤتون كتبهم بشمائلهم، ويؤخذ بهم ذات الشمال، وهم عامة أهل النار - عياداً بالله من صنيعهم - وطائفة سابقون بين يديه وهم أخص وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين الذين هم سادتهم، فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء، وهم أقل عدداً من أصحاب اليمين؛ ولهذا قال: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ. وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ. وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ وهكذا قسمهم إلى هذه الأنواع الثلاثة في آخر السورة وقت احتضارهم، وهكذا ذكرهم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ﴾ الآية [فاطر: ٣٢]، وذلك على أحد القولين في الظالم لنفسه كما تقدم بيانه.

قال سفيان الثوري، عن جابر الجعفي، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ قال: هي التي في سورة الملائكة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾.

وقال ابن جريج، عن ابن عباس: هذه الأزواج الثلاثة هم المذكورون في آخر السورة وفي سورة الملائكة.

وقال يزيد الرقاشي: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ قال: أصنافاً ثلاثة.

وقال^(٣) مجاهد: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [قال^(٤)]: يعني: فرقا ثلاثة. وقال ميمون بن مهران: أفواجا ثلاثة. وقال عبيد الله^(٥) العتكي، عن عثمان بن سراقه، ابن خالة عمر بن الخطاب: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾: اثنان في الجنة، وواحد في النار.

(١) في م: «اضطربت».

(٢) في م: «تذروه».

(٥) في أ: «عبد الله».

(٤) زيادة من م.

(٣) في أ: «عن».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن الصباح، حدثنا الوليد بن أبي ثور، عن سَمَاك، عن النعمان بن بشير، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧] قال: الضرباء، كل رجل من قوم كانوا يعملون عمله، وذلك بأن الله يقول: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً. فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ. وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ. وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ قال: هم الضرباء^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبد الله المثني، حدثنا البراء الغنوي، حدثنا الحسن، عن معاذ بن جبل؛ أن رسول الله ﷺ تلا^(٢) هذه الآية: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾^(٣)، ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾^(٤) فقبض بيده قبضتين فقال: «هذه للجنة»^(٥) ولا أبالي، وهذه للنار^(٦) ولا أبالي^(٧).

وقال أحمد أيضا: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا خالد بن أبي عمران، عن القاسم بن محمد، عن عائشة، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «أتدرون من السابقون إلى ظل يوم القيامة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «الذين إذا أعطوا الحق، قبلوه، وإذا سئلوه بذلوه، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم»^(٨).

وقال محمد بن كعب وأبو حُرْزَةَ يعقوب بن مجاهد: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾: هم الأنبياء، عليهم السلام. وقال السُّدِّي: هم أهل عليين. وقال ابن أبي نَجِيج، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾، قال: يوشع بن نون، سبق إلى موسى، ومؤمن آل «يس»، سبق إلى عيسى، وعلى بن أبي طالب، سبق إلى محمد رسول الله ﷺ. رواه ابن أبي حاتم، عن محمد بن هارون الفلاس، عن عبد الله بن إسماعيل المدائني البزاز، عن شُعَيْب بن الضحَّاك المدائني، عن سفيان ابن عيينة، عن ابن أبي نَجِيج، به.

وقال ابن أبي حاتم: وذكر محمد^(٩) بن أبي حماد، حدثنا مِهْرَان، عن خارجة، عن قُرَّة، عن ابن سيرين: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾: الذين صلوا للقبلتين.

ورواه ابن جرير^(١٠) من حديث خارجة، به.

وقال الحسن وقتادة: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ أي: من كل أمة.

وقال الأوزاعي، عن عثمان بن أبي سودة أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾، ثم قال: أولهم رواحا إلى المسجد، وأولهم خروجا في سبيل الله.

(١) سيأتي تخريج الحديث عند الآية: ٧ من سورة التكوير.

(٢) في م، أ: «وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين».

(٣) في م، أ: «هذه في الجنة».

(٤) في م، أ: «هذه في الجنة».

(٥) المسند (٢٣٩/٥) والحسن لم يسمع من معاذ.

(٦) المسند (٦٧/٦).

(٧) في م، أ: «وإذا سئلوه بذلوه، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم».

(٨) في م، أ: «وذكر عن محمد».

(٩) في أ: «قرأ».

(١٠) في م، أ: «وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال».

(١١) في م، أ: «وهذه في النار».

وهذه الأقوال كلها صحيحة، فإن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا، كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢٢]، فمن سابق إلى هذه الدنيا وسبق إلى الخير، كان فى الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزء من جنس العمل، وكما تدين تدان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا يحيى بن زكريا القزاز^(١) الرازى، حدثنا خارجة بن مُصعب، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو، قال: قالت الملائكة: يا رب، جعلت لبنى آدم الدنيا فهم يأكلون ويشربون ويتزوجون، فاجعل لنا الآخرة. فقال: لا أفعل. فراجعوا ثلاثا، فقال: لا أجعل من خلقت بيدي كمن قلت له: كن، فكان. ثم قرأ عبد الله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

وقد روى هذا الأثر الإمام عثمان^(٢) بن سعيد الدارمى فى كتابه: «الرد على الجهمية»، ولفظه: فقال الله عز وجل: «لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي، كمن قلت له: كن، فكان»^(٣).

﴿ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُتَكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخْلَدُونَ (١٧) بَأْكُوبٍ وَأَبَاقٍ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَا يَصُدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهِمْ (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦)﴾.

يقول تعالى مخبرا عن هؤلاء السابقين المقربين أنهم ﴿ثَلَاثَةٌ﴾ أى: جماعة ﴿مِّنَ الْأَوَّلِينَ. وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾. وقد اختلفوا فى المراد بقوله: ﴿الأولين﴾، و﴿الآخرين﴾. فقليل: المراد بالأولين: الأمم الماضية، والآخرين: هذه الأمة. هذا رواية عن مجاهد، والحسن البصرى، رواها عنهما ابن أبى حاتم. وهو اختيار ابن جرير، واستأنس بقوله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة»^(٤). ولم يحك غيره، ولا عزاه إلى أحد.

(١) فى أ: «الفرارى».

(٢) فى أ: «عمر».

(٣) وقد رواه عثمان بن سعيد الدارمى فرفعه كما فى البداية والنهاية (٥٥/١) للمؤلف وقال: «وهو أصح» وله شاهد من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب، رواه ابن الجوزى فى الملل المتناهية (٤٨/١) وقال: «هذا حديث لا يصح».

(٤) لم أجد الحديث فى تفسير الطبرى، والحديث أخرجه البخارى فى صحيحه برقم (٨٩٦) ومسلم فى صحيحه برقم (٨٨٥) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

ومما يستأنس به لهذا القول، ما رواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع، حدثنا شريك، عن محمد بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: لما نزلت: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ. وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾، شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ، فنزلت: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ. وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ فقال النبي ﷺ: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، ثلث أهل الجنة، بل أنتم نصف أهل الجنة - أو: شطر أهل الجنة - وتقاسمونهم النصف الثاني».

ورواه الإمام أحمد، عن أسود بن عامر، عن شريك، عن محمد، بباع الملاء، عن أبيه، عن أبي هريرة فذكره^(١). وقد روى من حديث جابر نحو هذا، ورواه الحافظ ابن عساكر من طريق هشام بن عمار: حدثنا عبد ربه بن صالح، عن عروة بن رويم، عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ: لما نزلت: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾، ذكر فيها ثلثة من الأولين وقليل من الآخرين، قال عمر: يا رسول الله، ثلثة من الأولين وقليل منا؟ قال: فأمسك آخر السورة سنة، ثم نزل: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ. وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «يا عمر، تعال فاسمع ما قد أنزل الله: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ. وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾، ألا وإن من آدم إلى ثلثة، وأمتي ثلثة، ولن نستكمل ثلثتنا حتى نستعين بالسودان من رعاة الإبل، ممن شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له».

هكذا أورده في ترجمة «عروة بن رويم»^(٢)، إسنادا ومتنا، ولكن في إسناده نظر. وقد وردت طرق كثيرة متعددة بقوله ﷺ: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة» الحديث بتمامه^(٣)، وهو مفرد في «صفة الجنة» ولله الحمد والمنة. وهذا الذي اختاره ابن جرير هاهنا، فيه نظر، بل هو قول ضعيف؛ لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة. والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم، والله أعلم. فالقول الثاني في هذا المقام، هو الراجح، وهو أن يكون المراد بقوله: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: من صدر هذه الأمة، ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ أي: من هذه الأمة.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا عفان، حدثنا عبد الله بن بكر^(٤) المزني، سمعت الحسن: أتى على هذه الآية: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾، فقال: أما السابقون، فقد مضوا، ولكن اللهم اجعلنا من أهل اليمين.

ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا أبو الوليد، حدثنا السري بن يحيى قال: قرأ الحسن: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ثلثة ممن مضى من هذه الأمة.

(١) المسند (٢/٣٩١).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (١١/٢٧٩) «مصورة معهد المخطوطات».

(٣) منها حديث عمران بن حصين، أخرجه الترمذي في السنن برقم (٣١٦٨) وحديث عبد الله بن مسعود، أخرجه أحمد في المسند.

(٤) (١/٤٢٠).

(٤) في أ: «بكير»، وفي م: «أبي بكر».

وحدثنا أبي، حدثنا عبد العزيز بن المغيرة المنقري، حدثنا أبو هلال، عن محمد بن سيرين، أنه قال في هذه الآية: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ. وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ قال: كانوا يقولون، أو يرجون، أن يكونوا كلهم من هذه الأمة. فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة. ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها، فيحتمل أن يعم الأمر^(١) جميع الأمم كل أمة بحسبها؛ ولهذا ثبت في الصحيح وغيرها، من غير وجه، أن رسول الله ﷺ قال: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»^(٢) الحديث بتمامه.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا زياد أبو عمر، عن الحسن، عن عمار بن ياسر، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل أمتي مثل المطر، لا يدرى أوله خير أم آخره»^(٣)، فهذا الحديث، بعد الحكم بصحة إسناده، محمول على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة في إبلاغه إلى من بعدهم، كذلك هو محتاج إلى القائمين به في أواخرها، وتثبيت الناس على السنة وروايتها وإظهارها، والفضل للمتقدم. وكذلك الزرع الذي يحتاج^(٤) إلى المطر الأول وإلى المطر الثاني، ولكن العمدة الكبرى على الأول، واحتياج الزرع إليه أكد، فإنه لولاه ما نبت في الأرض، ولا تعلق أساسه فيها؛ ولهذا قال، عليه السلام: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، إلى قيام الساعة». وفي لفظ: «حتى يأتي أمر الله وهم كذلك». والغرض: أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلة؛ لشرف دينها، وعظم نبينا. ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ أنه أخبر أن في هذه الأمة سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب. وفي لفظ: «مع كل ألف سبعون ألفا». وفي آخر^(٥): «مع كل واحد سبعون ألفا».

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا هشام^(٦) بن مرثد^(٧) الطبراني، حدثنا محمد - هو ابن إسماعيل بن عياش - حدثني أبي، حدثني ضَمُصَم - يعني ابن زُرْعَة - عن شريح - هو ابن عبيد - عن أبي مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «أما والذي نفسي بيده، ليبعثن منكم يوم القيامة مثل الليل الأسود زمرة جميعها يحيطون الأرض، تقول الملائكة لما جاء مع محمد ﷺ أكثر مما جاء مع الأنبياء، عليهم السلام»^(٨).

وحسن أن يذكر هاهنا [عند قوله: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ. وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾]^(٩) الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في «دلائل النبوة» حيث قال: أخبرنا أبو نصر ابن قتادة، أخبرنا أبو عمرو ابن مطر، حدثنا جعفر - [هو]^(١٠) ابن محمد بن المستفاض الفريابي - حدثني أبو وهب الوليد بن عبد

(١) في م: «الأمة».

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم (٣٦٥١) من حديث عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه.

(٣) المسند (٣١٩/٤).

(٤) في م: «هو محتاج».

(٥) في أ: «آخره».

(٦) في أ: «هاشم».

(٧) في هـ وبقيّة النسخ: «يزيد» والتصويب من المعجم الكبير.

(٨) المعجم الكبير (٢٩٧/٣) وفي إسناده محمد بن إسماعيل بن عياش وهو ضعيف لم يسمع من أبيه.

(٩) زيادة من أ.

(١٠) زيادة من م.

الملك بن عبيد الله^(١) بن مُسَرِّحِ الحِرَّانِي، حدثنا سليمان بن عطاء القرشي الحراني، عن مسلمة^(٢) ابن عبد الله الجهنّي، عن عمه أبي مَشْجَعَة بن رَبِيعِي، عن ابن زَمَل الجهنّي، رضى الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى الصبح قال، وهو ثاب رجله: «سبحان الله وبحمده. أستغفر الله، إن الله كان تواباً» سبعين مرة، ثم يقول: «سبعين بسبعمئة»، لا خير لمن كانت ذنوبه في يوم واحد أكثر من سبعمئة». ثم يقول ذلك مرتين، ثم يستقبل الناس بوجهه، وكان يعجبه الرؤيا، ثم يقول: «هل رأى أحد منكم شيئاً؟» قال ابن زمل: فقلت: أنا يا رسول الله. فقال: «خير تلقاه، وشر توقاه، وخير لنا، وشر على أعدائنا، والحمد لله رب العالمين. اقصص رؤياك». فقلت: رأيت جميع الناس على طريق رحب سهل لا حب، والناس على الجادة منطلقين، فبينما هم كذلك، إذ أشفى ذلك الطريق على مرج لم تر عيني مثله، يرف رفيفاً، يقطر ماؤه، فيه من أنواع الكلال، قال: وكأني بالرعدة^(٣) الأولى حين أشفوا على المرج كبروا، ثم أكبوا رواحلهم في الطريق، فلم يظلموه يمينا ولا شمالاً. قال: فكأني أنظر إليهم منطلقين. ثم جاءت الرعدة الثانية وهم أكثر منهم أضعافاً، فلما أشفوا على المرج كبروا، ثم أكبوا رواحلهم في الطريق، فمنهم المرتع، ومنهم الآخذ الضغث. ومضوا على ذلك. قال: ثم قدم عظم الناس، فلما أشفوا على المرج كبروا وقالوا: (هذا خير المنزل). كأني أنظر إليهم يميلون يمينا وشمالاً، فلما رأيت ذلك، لزمت الطريق حتى آتى أقصى المرج، فإذا أنا بك يا رسول الله على منبر فيه سبع درجات وأنت في أعلاها درجة، وإذا عن يمينك رجل آدم شتل أقتى، إذا هو تكلم يسمو فيفرج الرجال طولاً، وإذا عن يسارك رجل ربعة باذ^(٤) كثير خيلان الوجه، كأتما حمم شعره بالماء، إذا هو تكلم، أصغيتم إكراماً له. وإذا أمام ذلك رجل شيخ أشبه الناس بك خلقاً ووجهاً، كلكم تؤمونه تريدونه، وإذا أمام ذلك ناقة عجفاء شارف، وإذا أنت يا رسول الله كأنك تبعثها. قال: فامتقع لون رسول الله ﷺ ساعة ثم سرى عنه، وقال رسول الله ﷺ: «أما ما رأيت من الطريق السهل الرحب اللا حب، فذاك ما حملتم^(٥) عليه من الهدى وأنتم عليه. وأما المرج الذى رأيت، فالدنيا^(٦) مضيت أنا وأصحابي لم نتعلق منها بشيء، ولم تتعلق منا، ولم نردها ولم تردنا. ثم جاءت^(٧) الرعدة الثانية من بعدنا وهم أكثر منا أضعافاً، فمنهم المرتع، ومنهم الآخذ الضغث، ونجوا^(٨) على ذلك. ثم جاء عظم الناس، فمالوا في المرج يمينا وشمالاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وأما أنت، فمضيت على طريقة صالحة، فلن تزال عليها حتى تلقاني. وأما المنبر الذى رأيت فيه سبع درجات وأنا في أعلاها درجة، فالدنيا سبعة آلاف سنة، أنا في آخرها ألفاً. وأما الرجل الذى رأيت على يميني الآدم الشتل، فذاك موسى، عليه السلام، إذا تكلم، يعلو الرجال بفضل كلام الله إياه. والذى رأيت عن يساري الباز الربعة الكثير خيلان الوجه، كأتما حمم شعرة بالماء، فذاك عيسى ابن مريم، نكرمه لإكرام الله إياه. وأما الشيخ الذى رأيت أشبه الناس بى خلقاً ووجهاً فذاك أبونا إبراهيم، كلنا نؤمه

(٣) فى أ: «وكانوا بالردة».

(٦) فى م، أ: «فالدنيا ونضارة عيشها».

(١) فى م، أ: «عبد الله».

(٤) فى م: «بار».

(٧) فى م: «ثم كانت».

(٢) فى م، أ: «مسلم».

(٥) فى أ: «حملتكم».

(٨) فى م: «ثم نجوا».

ونقتدى به. وأما الناقة التى رايت ورأيتنى أبعثها، فهى الساعة، علينا تقوم، لا نبى بعدى، ولا أمة بعد أمتى». قال: فما سأل رسول الله ﷺ عن رؤيا بعد هذا إلا أن يجىء الرجل، فيحدثه بها متبرعا^(١).

وقوله: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾: قال ابن عباس: أى مرمولة بالذهب، يعنى: منسوجة به. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، وزید بن أسلم، وقتادة، والضحاك، وغيره.

وقال السدى: مرمولة بالذهب واللؤلؤ. وقال عكرمة: مشبكة بالدر والياقوت. وقال ابن جرير: ومنه سمى وطين الناقة الذى تحت بطنها، وهو فعيل بمعنى مفعول؛ لأنه مضفور، وكذلك السرر فى الجنة مضفورة بالذهب واللالى.

وقال: ﴿مُتَكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ أى: وجوه بعضهم إلى بعض، ليس أحد وراء أحد. ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وُلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أى: مخلدون على صفة واحدة، لا يكبرون عنها ولا يشيرون ولا يتغيرون، ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ﴾، أما الأكواب، فهى: الكيزان التى لا خراطيم لها ولا آذان. والأباريق: التى جمعت الوصفين. والكؤوس: الهنابات، والجميع من خمر من عين جارية معين، ليس من أوعية تنقطع وتفرغ، بل من عيون سارحة.

وقوله: ﴿لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾ أى: لا تصدع رؤوسهم ولا تنزف عقولهم، بل هى ثابتة مع الشدة المطربة واللذة الحاصلة.

وروى الضحاك، عن ابن عباس أنه قال: فى الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقىء والبول. فذكر الله خمر الجنة ونزهها عن هذه الخصال.

وقال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، وعطية، وقتادة، والسدى: ﴿لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ يقول: ليس لهم فيها صداع رأس.

وقالوا فى قوله: ﴿وَلَا يُنْزِفُونَ﴾ أى: لا تذهب بعقولهم.

وقوله: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ. وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أى: ويطوفون عليهم بما يتخيرون من الثمار.

وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخيير لها، ويدل على ذلك حديث «عكراش ابن ذؤيب» الذى رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى، رحمه الله، فى مسنده: حدثنا العباس بن الوليد النرسى، حدثنا العلاء بن الفضل بن عبد الملك بن أبى سوية، حدثنا عبيد الله بن عكراش، عن أبيه عكراش بن ذؤيب، قال: بعثنى بنو مرة فى صدقات أموالهم إلى رسول الله ﷺ، فقدمت المدينة فإذا هو جالس بين المهاجرين والأنصار، وقدمت عليه بإبل كأنها عروق الأرطى، قال: «من الرجل؟»

(١) دلائل النبوة (٣٦/٧) وفى إسناده سليمان بن عطاء بن قيس، قال ابن حبان فى المجروحين (٣٢٩/١): «شيخ يروى عن مسلمة ابن عبد الله الجهنى، عن عمه أبى مشجعة بن ربيع بأشياء موضوعة لا تشبه حديث الثقات، فلست أدرى التخليط فيها منه أو من مسلمة بن عبد الله».

قلت: عكرّاش بن ذؤيب. قال: «ارفع في النسب»، فانتسبت له إلى «مرة بن عبيد»، وهذه صدقة «مرة بن عبيد». فتبسم رسول الله ﷺ. قال: هذه إبل قومي، هذه صدقات قومي. ثم أمر بها أن توسم بميسم إبل الصدقة وتضم إليها. ثم أخذ بيدي فانطلقنا إلى منزل أم سلمة، فقال: «هل من طعام؟» فأتينا بحفنة كثيرة الثريد والودر، فجعل يأكل منها، فأقبلت أخبط بيدي في جوانبها، فقبض رسول الله ﷺ بيده اليسرى على يدي اليمنى، فقال: «يا عكرّاش، كل من موضع واحد، فإنه طعام واحد». ثم أتينا بطبق فيه تمر، أو رطب - شك عبيد الله رطباً كان أو تمراً - فجعلت أكل من بين يدي، وجالت يد رسول الله ﷺ في الطبق، وقال: «يا عكرّاش، كل من حيث شئت، فإنه غير لون واحد». ثم أتينا بماء، فغسل رسول الله ﷺ يده ومسح بـكُلِّ كفيه وجهه وذراعيه ورأسه ثلاثاً، ثم قال: «يا عكرّاش، هذا الوضوء مما غيرت النار».

وهكذا رواه الترمذى مطولاً وابن ماجه جميعاً، عن محمد بن بشار، عن أبى الهذيل العلاء بن الفضل، به^(١). وقال الترمذى: غريب لا نعرفه إلا من حديثه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا بهز بن أسد وعفان - وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا شيبان - قالوا: حدثنا سليمان بن المغيرة، حدثنا ثابت، قال: قال أنس: كان رسول الله ﷺ تعجبه الرؤيا، فرمى رأى الرجل الرؤيا فسأل عنه إذا لم يكن يعرفه، فإذا أثنى عليه معروف، كان أعجب لرؤياه إليه. فأتته امرأة فقالت: يا رسول الله، رأيت كأنى أتيت فأخرجت من المدينة، فأدخلت الجنة فسمعت وجبة انتحبت لها الجنة، فنظرت فإذا فلان ابن فلان، وفلان ابن فلان، فسمت اثني عشر رجلاً، كان النبي ﷺ قد بعث سرية قبل ذلك، فجيء بهم عليهم ثياب طلّس تشخب أوداجهم، فقيل: اذهبوا بهم إلى نهر البيذخ - أو: البيذخ - قال: فغمسوا فيه، فخرجوا ووجوههم كالقمر ليلة البدر، فأتوا بصحفة من ذهب فيها بُسر فأكلوا من بسرّه ما شاؤوا، فما يقبلونها من وجهه إلا أكلوا من الفاكهة ما أرادوا، وأكلت معهم. فجاء البشير من تلك السرية، فقال: كان^(٢) من أمرنا^(٣) كذا وكذا، وأصيب^(٤) فلان وفلان. حتى عد اثني عشر رجلاً، فدعا رسول الله ﷺ المرأة فقال: «قصي رؤياك». فقصتها، وجعلت تقول: فجيء بفلان وفلان كما قال.

هذا فقط أبى يعلى، قال الحافظ الضياء: وهذا على شرط مسلم^(٥).

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا معاذ بن المثني، حدثنا على بن المديني، حدثنا ريحان ابن سعيد، عن عباد بن منصور، عن أيوب، عن أبى قلابة، عن أبى أسماء، عن ثوبان، قال: قال

(١) سنن الترمذى برقم (١٨٤٨) وسنن ابن ماجه برقم (٣٢٧٤) وعبيد الله بن عكرّاش تكلم فيه، وتكلم في حديثه هذا.

قال البخارى: «لا يثبت حديثه» ونقل العقيلي عنه أنه قال: «في إسناده نظر».

(٢) في م، أ: «فقال: ما كان».

(٣) في م، أ: «رؤيا».

(٤) في م، أ: «فأصيب».

(٥) المسند للإمام أحمد (١٣٥/٣) ومسند أبى يعلى برقم (٣٢٨٩) (٤٤/٦) وقال الهيثمى في المجمع (١٧٥/٧): «رجاله رجال الصحيح».

رسول الله ﷺ: «إن الرجل إذا نزع ثمرة في الجنة، عادت مكانها أخرى»^(١).

وقوله: «وَلَحْمٌ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ»، قال الإمام أحمد:

حدثنا سيار بن حاتم، حدثنا جعفر بن سليمان الضبعي، حدثنا ثابت، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن طير الجنة كأمثال البخت، يرعى»^(٢) في شجر الجنة». فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن هذه لطير ناعمة، فقال: «أكلتها»^(٣) أنعم منها - قالها ثلاثا - وإنى لأرجو أن تكون ممن يأكل منها». تفرد به أحمد من هذا الوجه^(٤).

وروى الحافظ أبو عبد الله المقدسي في كتابه «صفة الجنة» من حديث إسماعيل بن علي الخطبى، عن أحمد بن علي الخيوطي، عن عبد الجبار بن عاصم، عن عبد الله بن زياد، عن زرعة، عن نافع، عن ابن عمر، قال: ذكرت عند النبي ﷺ طوبى، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، هل بلغك ما طوبى؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «طوبى شجرة في الجنة، ما يعلم طولها إلا الله، يسير الراكب تحت غصن من أغصانها سبعين خريفا، ورقها الحلل، يقع عليها الطير كأمثال البخت». فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن هناك لطيرا ناعما؟ قال: «أنعم منه من يأكله، وأنت منهم إن شاء الله»^(٥).

وقال قتادة في قوله: «وَلَحْمٌ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ»: ذكر لنا أن أبا بكر قال: يا رسول الله، إنى أرى طيرها ناعمة كما أهلها ناعمون. قال: «من يأكلها - والله يا أبا بكر»^(٦) - أنعم منها، وإنها لأمثال البخت، وإنى لأحتسب على الله أن تأكل منها»^(٧) يا أبا بكر»^(٨).

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثني مجاهد بن موسى، حدثنا معن بن عيسى، حدثني ابن أخى ابن شهاب، عن أبيه، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ سئل عن الكوثر فقال: «نهر أعطانيه ربي، عز وجل، في الجنة، أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طيور أعناقها يعنى كأعناق الجزر». فقال عمر: إنها لناعمة. قال رسول الله ﷺ: «أكلها أنعم منها».

وكذا رواه الترمذى عن عبد^(٩) بن حميد، عن القَعْنَبِيِّ، عن محمد بن عبد الله بن مسلم بن شهاب، عن أبيه، عن أنس وقال: حسن^(١٠).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبى، حدثنا علي بن محمد الطَّنَافِسى، حدثنا أبو معاوية عن عبيد الله^(١١) بن الوليد الوَصَّافى، عن عطية العوفى، عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) المعجم الكبير (١٠٢/٢) وفي إسناده عباد متكلم فيه.

(٢) فى م: «ترعى»

(٣) فى م، أ: «أكلها».

(٤) المسند (٢٢١/٣).

(٥) ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى الدر المنثور (٦٤٩/٤).

(٦) فى م: «يا أبا بكر والله».

(٧) فى م: «أن أكل منها».

(٨) وهذا مرسل، وقد روى من طريق الحسن مرسلًا أيضا، أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٣/١٢).

(٩) فى م: «عبيد» وهو خطأ.

(١٠) سنن الترمذى برقم (٢٥٤٢) وقال فيه: «حسن غريب».

(١١) فى أ: «عبد الله».

«إن في الجنة لطيرا فيه سبعون ألف ريشة، فيقع على صحيفة الرجل من أهل الجنة فينتفض، فيخرج من كل ريشة - يعنى: لونا - أبيض من اللبن، وألين من الزبد، وأعذب من الشهد، ليس منها لون يشبه صاحبه^(١) ثم يطير»^(٢).

هذا حديث غريب جدا، والوصافي وشيخه ضعيفان. ثم قال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن صالح - كاتب الليث - حدثني الليث، حدثنا خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن أبي حازم، عن عطاء، عن كعب، قال: إن طائر الجنة أمثال البخت، يأكل^(٣) مما خلق من ثمرات الجنة، ويشرب^(٤) من أنهار الجنة، فيصطفقن له، فإذا اشتهى منها شيئا أتاه حتى يقع بين يديه، فيأكل من خارجه وداخله ثم يطير لم ينقص منه شيء. صحيح إلى كعب.

وقال الحسن بن عرفة: حدثنا خلف بن خليفة، عن حميد الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال لى رسول الله ﷺ: «إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويا»^(٥).

وقوله: ﴿وَحُورٌ عَيْنٌ. كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾: قرأ بعضهم بالرفع، وتقديره: ولهم فيها حور عين. وقراءة الجر تحتل معنيين، أحدهما: أن يكون الإعراب على الاتباع بما قبله؛ لقوله: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وُلَدَانٌ مُّخَلَّدُونَ. بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ. لَا يَصُدُّعُونَ عَنْهَا وَلَا يَنْزِفُونَ. وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ. وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ. وَحُورٌ عَيْنٌ﴾، كما قال: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ﴾ [المائدة: ٦٦]، وكما قال: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [الإنسان: ٢١]. والاحتمال الثاني: أن يكون مما يطوف به الولدان المخلدون عليهم الحور العين، ولكن يكون ذلك في القصور، لا بين بعضهم بعضا، بل في الخيام يطوف عليهم الخدام بالحور العين، والله أعلم.

وقوله: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ أى: كأنهن اللؤلؤ الرطب فى بياضه وصفائه، كما تقدم فى «سورة الصافات» ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩] وقد تقدم فى سورة «الرحمن» وصفهن أيضا؛ ولهذا قال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: هذا الذى أحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل.

ثم قال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا. إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ أى: لا يسمعون فى الجنة كلاما لاغيا، أى: غثا^(٦) خاليا عن المعنى، أو مشتملا على معنى حقير أو ضعيف، كما قال: ﴿لَا تَسْمَعُ

(١) فى أ: «الآخر».

(٢) ورواه هناد فى الزهد برقم (١١٩) حدثنا أبو معاوية به.

(٣) فى م: «يأكلن».

(٤) فى م: «يشربن».

(٥) جزء الحسن بن عرفة برقم (٢٢) وحميد الأعرج منكر الحديث.

(٦) فى م: «عبا».

فِيهَا لَاغِيَةٌ ﴿ [الغاشية: ١١] أَى : كلمة لاغية ﴿ وَلَا تَأْتِيَمًا ﴾ أَى : ولا كلاماً فيه قبح ^(١) ، ﴿ إِلَّا قِيَلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ أَى : إلا التسليم منهم بعضهم على بعض ، كما قال : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٣] وكلامهم أيضاً سالم من اللغو والإثم .

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرْبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠) ﴾ .

لما ذكر تعالى مآل السابقين - وهم المقربون - عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين - وهم الأبرار - كما قال ميمون بن مهران : أصحاب اليمين منزلة دون المقربين ، فقال : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ أَى : أى شىء أصحاب اليمين ؟ وما حالهم ؟ وكيف مآلهم ^(٢) ؟ ثم فسر ذلك فقال : ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ . قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وأبو الأحوص ، وقسامة بن زهير ، والسفر بن نسير ، والحسن ، وقتادة ، وعبد الله بن كثير ، والسدي ، وأبو حُرْزَة ، وغيرهم : هو الذى لا شوك فيه . وعن ابن عباس : هو الموقر بالثمر . وهو رواية عن عكرمة ، ومجاهد . وكذا قال قتادة أيضاً : كنا نَحَدِّثُ أَنَّهُ الْمُوقَرُ الَّذِى لَا شَوْكَ فِيهِ .

والظاهر أن المراد هذا وهذا ؛ فإن سدر الدنيا كثير الشوك قليل الثمر ، وفى الآخرة على عكس من هذا ، لا شوك فيه ، وفيه الثمر الكثير الذى قد أثقل أصله ، كما قال الحافظ أبو بكر بن سلمان النجاد .

حدثنا محمد ^(٣) بن محمد هو البغوى ، حدثنى حمزة بن عباس ^(٤) ، حدثنا عبد الله بن عثمان ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، أخبرنا صفوان بن عمرو ، عن سليم بن عامر قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إن الله لينفعنا بالأعراب ومساثلهم ؛ قال : أقبل أعرابى يوماً فقال : يا رسول الله ، ذكر الله فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها ؟ فقال رسول الله ﷺ : « وما هى ؟ » . قال : السدر ، فإن له شوكاً موزياً ، فقال رسول الله ﷺ : « أليس الله يقول : ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ ، خَصَدَ اللَّهُ شَوْكَهُ ، فجعل مكان كل شوكة ثمرة ، فإنها لتنبت ثمراً تَفْتَقُ الثمرةُ منها عن اثنين ^(٥) وسبعين لوناً من طعام ، ما فيها لون يشبه الآخر » ^(٦) .

طريق أخرى : قال أبو بكر بن أبى داود : حدثنا محمد بن المصفى ، حدثنا محمد بن المبارك ، حدثنا يحيى بن حمزة ، حدثنى ثور بن يزيد ، حدثنى حبيب بن عبيد ، عن عتبة بن عبد السلمي

(١) فى م : « قبيحاً » . (٢) فى أ : « وكيف حالهم » . (٣) فى أ : « وحدثنا عبد الله » .

(٤) فى م ، أ : « بن العباس » . (٥) فى أ : « عن ماتى » .

(٦) ورواه الحاكم فى المستدرک (٤٧٦ / ٢) من طريق الربيع ، عن بشر بن بكر ، عن صفوان بن عمرو ، عن سليم بن عامر ، عن أبى أمامة قال : كان أصحاب رسول الله ، فذكر مثله ، وقال الحاكم : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

قال: كنت جالساً مع رسول الله ﷺ ، فجاء أعرابي فقال : يا رسول الله ، أسمعك تذكر في الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكاً منها ؟ يعني : الطلح ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الله يجعل مكان كل شوك منها ثمرة مثل خصوة التيس الملبود ، فيها سبعون لونا من الطعام ، لا يشبه لون آخر » ^(١) .

وقوله : ﴿ وَطَلَحٍ مَّنْضُودٍ ﴾ : الطلح : شجر عظام يكون بأرض الحجاز ، من شجر العضاء ، واحدته طلحة ، وهو شجر كثير الشوك ، وأنشد ابن جرير لبعض الحداة ^(٢) :

بَشْرَهَا دَلِيلُهَا وَقَالَا :
غَدَا تَرَيْنَ الطَّلَحَ وَالْجَبَالَا

قال مجاهد : ﴿ مَّنْضُودٍ ﴾ أى : متراكم الثمر ، يذكر بذلك قريشاً ؛ لأنهم كانوا يعجبون من وجّ ، وظلاله من طلح وسدر .

وقال السدي : ﴿ مَّنْضُودٍ ﴾ : مصفوف . قال ابن عباس : يشبه طلح الدنيا ، ولكن له ثمر أحلى من العسل .

قال الجوهري : والطلح لغة فى الطلع .

قلت : وقد روى ابن أبى حاتم من حديث الحسن بن سعد ، عن شيخ من همدان قال : سمعت علياً يقول : هذا الحرف فى ﴿ وَطَلَحٍ مَّنْضُودٍ ﴾ قال : طلع منضود ، فعلى هذا يكون هذا من صفة السدر ، فكأنه وصفه بأنه مخضود وهو الذى لا شوك له ، وأن طلعه منضود ، وهو كثرة ثمره ، والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو معاوية ، عن إدريس ، عن جعفر بن إياس ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد : ﴿ وَطَلَحٍ مَّنْضُودٍ ﴾ قال : الموز . قال : وروى عن ابن عباس ، وأبى هريرة ، والحسن ، وعكرمة ، وقسامة بن زهير ، وقتادة ، وأبى حَزْرَةَ ، مثل ذلك ، وبه قال مجاهد ، وابن زيد - وزاد فقال : أهل اليمن يسمون الموز الطلح . ولم يحك ابن جرير غير هذا القول ^(٣) .

وقوله : ﴿ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴾ : قال البخارى : حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة - يبلغ به النبى ﷺ - قال : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴾ » .

ورواه مسلم من حديث الأعرج ، به ^(٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سُرَيْج ، حدثنا فُلَيْح ، عن هلال بن على ، عن عبد الرحمن بن أبى عمرة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴾ » .

(١) البعث لابن أبى داود برقم (٦٩) ورواه الطبرانى فى مسند الشاميين برقم (٤٩٢) وعنه أبو نعيم فى الحلية (٦ / ١٠٣) عن أبى زرعة ،

عن أبى مسهر ، عن يحيى بن حمزة به ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٤١٤) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٢ ، ٣) تفسير الطبرى (٢٧ / ١٠٤) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٨١) وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٦) .

وكذا رواه البخارى ، عن محمد بن سنان^(١) ، عن فليح ، به^(٢) ، وكذا رواه عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن هَمَّام ، عن أبى هريرة^(٣) . وكذا رواه حماد بن سلمة ، عن محمد بن زياد ، عن أبى هريرة^(٤) ، والليث بن سعد ، عن سعيد المقبرى ، عن أبيه ، عن أبى هريرة^(٥) ، وعوف ، عن ابن سيرين ، عن أبى هريرة [به]^(٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالا : حدثنا شعبة ، سمعت أبا الضحاك يحدث عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين ، أو مائة سنة ، هى شجرة الخلد »^(٧) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا يزيد بن هارون ، عن محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله قال : « فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام ما يقطعها ، واقرؤوا إن شئتم : ﴿ وَظِلٌّ مَّمْدُودٌ ﴾ » .

إسناد جيد، ولم يخرجوه^(٨) . وهكذا رواه ابن جرير ، عن أبى كريب ، عن عبدة وعبد الرحيم ، عن محمد بن عمرو ، به . وقد رواه الترمذى ، من حديث عبد الرحيم بن سليمان، به^(٩) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران ، حدثنا إسماعيل بن أبى خالد ، عن زياد - مولى بنى مخزوم - عن أبى هريرة قال : إن فى الجنة لشجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿ وَظِلٌّ مَّمْدُودٌ ﴾ . فبلغ ذلك كعباً فقال : صدق ، والذى أنزل التوراة على موسى والفرقان على محمد ، لو أن رجلاً ركب حقة أو جذعة ، ثم دار حول^(١٠) تلك الشجرة ما بلغها حتى يسقط هرمًا ، إن الله غرسها بيده ونفخ فيها من روحه ، وإن أفنانها لمن وراء سور الجنة ، وما فى الجنة نهر إلا وهو يخرج من أصل تلك الشجرة^(١١) .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا محمد بن منهل الضير ، حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة ، عن أنس ، عن النبى ﷺ فى قول الله عز وجل : ﴿ وَظِلٌّ مَّمْدُودٌ ﴾ ، قال : « فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها » .

وكذا رواه البخارى ، عن روح بن عبد المؤمن ، عن يزيد بن زريع^(١٢) ، وهكذا رواه أبو داود

(١) فى هـ : « محمد بن شيان » والمثبت من م ، أ ، وصحيح البخارى .

(٢) المسند (٤٨٢ / ٢) وصحيح البخارى برقم (٣٢٥٢) .

(٣) المصنف لعبد الرزاق برقم (٢٠٨٧٧) .

(٤) رواه أحمد فى المسند (٤٦٩ / ٢) .

(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٨٢٦) .

(٦) زيادة من م .

(٧) المسند (٤٤٥ / ٢) .

(٨) رواه ابن ماجه فى السنن برقم (٤٣٣٥) من طريق عبد الرحمن بن عثمان ، عن محمد بن عمرو ، به مثله .

(٩) تفسير الطبرى (١٠٥ / ٢٧) وسنن الترمذى برقم (٣٢٩٢) .

(١٠) فى م : « بأعلى » ، وفى أ : « بأصل » .

(١١) تفسير الطبرى (١٠٥ / ٢٧) .

(١٢) صحيح البخارى برقم (٣٢٥١) .

الطيالسى ، عن عمران بن دأور القطان ، عن قتادة ، به . وكذا رواه مَعْمَرٌ ، وأبو هلال ، عن قتادة ، به . وقد أخرج البخارى ومسلم من حديث أبى سعيد وسهل بن سعد ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها » (١) .

فهذا حديث ثابت عن رسول الله ﷺ ، بل متواتر مقطوع بصحته عند أئمة الحديث النقاد ، لتعدد طرقه ، وقوة أسانيدِهِ ، وثقة رجاله .

وقد قال الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثنا أبو كُرَيْبٍ ، حدثنا أبو بكر ، حدثنا أبو حُصَيْنٍ قال : كنا على باب فى موضع ، ومعنا أبو صالح وشقيق - يعنى: الضبى - فحدث أبو صالح قال : حدثنى أبو هُرَيْرَةَ قال : إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين عاما . قال أبو صالح : أتَكْذِبُ أبا هريرة ؟ قال : ما أكذب أبا هريرة ، ولكنى أكذبك أنت . فشق ذلك على القراء يومئذ (٢) .

قلت : فقد أبطل من يكذب بهذا الحديث ، مع ثبوته وصحته ورفعته إلى رسول الله ﷺ .

وقال الترمذى : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا زياد بن الحسن بن الفَرَاتِ الْقَزَّازِ ، عن أبيه ، عن جده ، عن أبى حازم ، عن أبى هُرَيْرَةَ قال : قال رسول الله ﷺ : « ما فى الجنة شجرة إلا ساقها من ذهب » . ثم قال : حسن غريب (٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن أبى الربيع ، حدثنا أبو عامر العقدي ، عن زمعة بن صالح ، عن سلمة بن وهرام ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : الظل الممدود شجرة فى الجنة على ساق ظلها ، قدر ما يسير الراكب فى نواحيها مائة عام . قال : فيخرج إليها أهل الجنة ؛ أهل الغرف وغيرهم ، فيتحدثون فى ظلها . قال : فيشتهى بعضهم ويذكر لهو الدنيا ، فيرسل الله ريحاً من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو فى الدنيا .

هذا أثر غريب ، وإسناده جيد قوى حسن .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا ابن (٤) يمان ، حدثنا سفيان ، حدثنا أبو إسحاق ، عن عمرو بن ميمون فى قوله : ﴿ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴾ قال : سبعون ألف سنة . وكذا رواه ابن جرير عن بُنْدَارٍ ، عن ابن مهدي ، عن سفيان ، مثله . ثم قال ابن جرير :

حدثنا ابن حميد ، حدثنا مِهْرَانُ ، عن سفيان ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو بن ميمون : ﴿ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴾ قال : خمسمائة ألف سنة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو الوليد الطيالسى ، حدثنا حُصَيْنُ بن نافع ، عن الحسن فى قول الله تعالى : ﴿ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴾ قال : فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة لا يقطعها .

(١) صحيح البخارى برقم (٦٥٥٢ ، ٦٥٥٣) وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٧ ، ٢٨٢٨) .

(٢) تفسير الطبرى (١٠٦/٢٧) .

(٣) سنن الترمذى برقم (٢٥٢٥) .

(٤) فى ١ : « حدثنا أبو » .

وقال عوف ، عن الحسن : بلغني أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها » . رواه ابن جرير ^(١) .

وقال شبيب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : في الجنة شجر لا يحمل ، يُستظلُّ به . رواه ابن أبي حاتم .

وقال الضحاك ، والسدي ، وأبو حزرّة في قوله : ﴿ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴾ : لا ينقطع ، ليس فيها شمس ولا حر ، مثل قبل طلوع الفجر .

وقال ابن مسعود : الجنة سَجَسَج ، كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

وقد تقدمت الآيات كقوله : ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ [النساء: ٥٧] ، وقوله : ﴿ أَكُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ [الرعد: ٣٥] ، وقوله : ﴿ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴾ [المرسلات: ٤١] إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله : ﴿ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ قال الثوري : [يعنى] ^(٢) يجرى في غير أخدود .

وقد تقدم الكلام عند ^(٣) تفسير قوله تعالى : ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ الآية [محمد: ١٥] ، بما أغنى عن إعادته هاهنا .

وقوله : ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ . لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ أى : وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة في الألوان ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ﴿ كُلُّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مِثْلَهَا ﴾ [البقرة: ٢٥] أى : يشبه الشكل الشكل ، ولكن الطعم غير الطعم . وفي الصحيحين في ذكر سدرة المنتهى قال : « فإذا ورقها كآذان الفيلة ونبقها مثل قلال هجر » ^(٤) .

وفيها أيضاً ، من حديث مالك ، عن زيد ، عن عطاء بن يسار ، عن ابن عباس قال : خُسِفَت الشمس ، فصلى رسول الله ﷺ والناس معه ، فذكر الصلاة . وفيه : قالوا : يا رسول الله ، رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا ، ثم رأيناك تكعكت ^(٥) . قال : « إني رأيت الجنة ، فتناولت منها عنقوداً ، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا » ^(٦) .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو خيثمة ، حدثنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا عبيد الله ، حدثنا ابن ^(٧) عقيل ، عن جابر قال : بينا نحن في صلاة الظهر ، إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا معه ، ثم تناول شيئاً ليأخذه ثم تأخر ، فلما قضى الصلاة قال له أبى بن كعب : يا رسول الله ، صنعت اليوم

(١) تفسير الطبري (٢٧/ ١٠٥) .

(٢) زيادة من م ، أ ، فى م ، أ : « على » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٣٢٠٧) وصحيح مسلم برقم (١٦٢) من حديث أنس ، رضى الله عنه .

(٤) فى أ : « تكفكت » .

(٥) صحيح البخارى برقم (١٠٥٢) وصحيح مسلم برقم (٩٠٧) .

(٦) فى م ، أ : « حدثنا أبو » .

فى الصلاة شيئاً ما كنت تصنعه ؟ قال : « إنه عُرِضَتْ عَلَى الجنة ، وما فيها من الزَّهْرَةِ والنُّصْرَةِ ، فتناولت منها قطعاً من عنب لآتيكم به ، فحِيلَ بينى وبينه ، ولو آتيتكم به لاكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه » (١) .

وروى مسلم ، من حديث أبى الزبير ، عن جابر ، نحوه (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا على بن بحر ، حدثنا هشام بن يوسف ، أخبرنا معمر ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن عامر بن زيد البكالى : أنه سمع عتبة بن عبد السلمي يقول : جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ ، فسأله عن الخوض وذكر الجنة ، ثم قال (٣) الأعرابى : فيها فاكهة ؟ قال : « نعم ، وفيها شجرة تدعى طوبى » ، فذكر شيئاً لا أدري ما هو ، قال : أى شجر أرضنا تشبه ؟ قال : « ليست تشبه شيئاً من شجر أرضك » . فقال النبى ﷺ : « أتيت الشام ؟ » قال : لا . قال : « تشبه شجرة بالشام تدعى الجوزة ، تنبت على ساق واحد ، وينفرش أعلاها » . قال : ما عظم أصلها ؟ قال : « لو ارتحلت جذعة من إبل أهلك ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر ترقوتها هرماء » . قال : فيها عنب ؟ قال : « نعم » . قال : فما عظم العنقود ؟ قال : « مسيرة شهر للغراب الأبقع ، ولا يفتر » . قال : فما عظم الحبة ؟ قال : « هل ذبح أبوك تيساً من غنمه قط عظيماً ؟ » قال : نعم . قال : « فسلخ إهابه فأعطاه أمك ، فقال : اتخذى لنا منه دلوأ ؟ » . قال : نعم . قال الأعرابى : فإن تلك الحبة لشبعنى وأهل بيتى ؟ قال : « نعم وعامة عشيرتك » (٤) .

وقوله : ﴿ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ أى : لا تنقطع شتاء ولا صيفاً ، بل أكلها دائم مستمر أبداً ، مهما طلبوا وجدوا ، لا يمتنع عليهم بقدرة الله شىء .
قال قتادة : لا يمنعونهم من تناولها عود ولا شوك ولا بُعد . وقد تقدم فى الحديث : « إذا تناول الرجل الثمرة عادت مكانها أخرى » .

وقوله : ﴿ وَفُرشٌ مَرْفُوعَةٌ ﴾ أى : عالية وطيبة ناعمة .

قال النسائى وأبو عيسى الترمذى : حدثنا أبو كريب ، حدثنا رشدين بن سعد ، عن عمرو بن الحارث ، عن دراج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد ، عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ وَفُرشٌ مَرْفُوعَةٌ ﴾ قال : « ارتفاعها كما بين السماء والأرض ، ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام » (٥) .

ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه ، إلا من حديث رشدين بن سعد . قال : وقال بعض أهل العلم : معنى هذا الحديث : ارتفاع الفرش فى الدرجات ، وبعد ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض .

(١) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية : ٣٥ من سورة الرعد .

(٢) تقدم الحديث فى الموضع السابق .

(٣) فى م : « فقال » .

(٤) المسند (٤/ ١٨٤) .

(٥) سنن الترمذى برقم (٢٥٤٠) ووقع فيه : « هذا حديث غريب لا نعرفه » ليس فيه : « حسن » وكذا وقع فى تحفة الأشراف .

هكذا قال : إنه لا يعرف هذا إلا من رواية رشدين بن سعد ، وهو المصرى ، وهو ضعيف . وهكذا رواه أبو جعفر بن جرير ، عن أبي كُرَيْب ، عن رشدين ^(١) . ثم رواه هو وابن أبي حاتم ، كلاهما عن يونس بن عبد الأعلى ، عن ابن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، فذكره . وكذا رواه ابن أبي حاتم أيضاً عن نعيم بن حماد ، عن ابن وهب . وأخرجه الضياء فى صفة الجنة من حديث حرملة ، عن ابن وهب ، به مثله . ورواه الإمام أحمد عن حسن بن موسى ، عن ابن لهيعة ، حدثنا دراج ، فذكره ^(٢) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو معاوية ، عن جُوَيْر ، عن أبي سهل - يعنى : كثير بن زياد - عن الحسن : ﴿ وَفُرْشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴾ قال : ارتفاع فراش الرجل من أهل الجنة مسيرة ثمانين سنة .

وقوله : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً . فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا . عُرُبًا أَتْرَابًا . لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ : جرى الضمير على غير مذكور . لكن لما دل السياق ، وهو ذكر الفرش ، على النساء اللاتى يضاجعن فيها ، اكتفى بذلك عن ذكرهن ، وعاد الضمير عليهن ، كما فى قوله : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ . فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ [ص: ٣١ ، ٣٢] يعنى : الشمس ، على المشهور من قول المفسرين .

قال الأخفش فى قوله : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً ﴾ : أضمرهن ولم يذكرهن قبل ذلك . وقال أبو عبيدة : ذكرن فى قوله : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ . كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ [الواقعة: ٢٢ ، ٢٣] .

فقوله : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ ﴾ أى : أعدناهن فى النشأة الآخرة بعدما كنَّ عجائز ^(٣) رُمُصًا ، صرن أبكاراً عرباً ، أى : بعد الثبوبة عدن أبكاراً عرباً ، أى : متحبيات إلى أزواجهن بالحلاوة والظرافة والملاحة .

وقال بعضهم : ﴿ عُرُبًا ﴾ أى : غَنَجَات .

قال موسى بن عبيدة الرِّبْدَى ، عن يزيد الرقاشى ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً ﴾ ، قال : « نساء عجائز كنَّ فى الدنيا عُمُصًا رُمُصًا » . رواه الترمذى ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم . ثم قال الترمذى : غريب ، وموسى ويزيد ضعيفا ^(٤) ^(٥) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عوف الحمصى ، حدثنا آدم - يعنى : ابن أبي إياس - حدثنا شيبان ، عن جابر ، عن يزيد بن مرة ، عن سلمة بن يزيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى قوله : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً ﴾ يعنى : « الثيب والأبكار اللاتى كنَّ فى الدنيا » ^(٦) .

(١) تفسير الطبرى (١٠٦/٢٧) .

(٢) المسند (٧٥/٣) .

(٣) فى أ : « ماكن عجاف » .

(٤) فى أ : « ماكن عجاف » .

(٥) سنن الترمذى برقم (٣٢٩٦) وتفسير الطبرى (١٠٧/٢٧) .

(٦) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٤٠/٧) وأبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٣٨٩) من طريق شيبان به ، وجابر بن يزيد ضعيف .

وقال عبد بن حميد : حدثنا مصعب بن المقدم ، حدثنا المبارك بن فضالة ، عن الحسن قال : أنت عجوز فقالت : يا رسول الله ، ادع الله أن يدخلني الجنة . فقال : « يا أم فلان ، إن الجنة لا تدخلها عجوز » . قال : فَوَلَّتْ تبكى ، قال : « أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز ، إن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً . فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ » .

وهكذا رواه الترمذي في الشمائل ، عن عبد بن حميد ^(١) .

وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا بكر بن سهل الديلمى ، حدثنا عمرو بن هاشم البيروتى ، حدثنا سليمان بن أبي كريمة ، عن هشام بن حسان ، عن الحسن ، عن أمه ، عن أم سلمة قالت : قلت : يا رسول الله ، أخبرني عن قول الله : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ [الواقعة: ٢٢] ، قال : « حور : بيض ، عين : ضخام العيون ، شُفْرُ الحوراء بمنزلة جناح النسر » . قلت : أخبرني عن قوله ﴿ كَأَمْثَالِ ^(٢) اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ [الواقعة: ٢٣] ، قال : « صفاؤهن صفاء الدر الذى فى الأصداف ، الذى لم تَمَسَّهُ الأيدي » . قلت : أخبرني عن قوله : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ [الرحمن: ٧٠] . قال : « خيرات الأخلاق ، حسان الوجوه » . قلت : أخبرني عن قوله : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [الصفات: ٤٩] ، قال : « رقتهن كركة الجلد الذى رأيت فى داخل البيضة مما يلى القشر ، وهو : الغرقىء » . قلت : يا رسول الله ، أخبرني عن قوله : ﴿ غُرُبًا أَوْ تَرَابًا ﴾ . قال : « هن اللواتى قبضن فى دار الدنيا عجائز رُمِصًا شُمطًا ، خلقهن الله بعد الكبر ، فجعلهن عذارى عُرُبًا متعشقات متحبيات ، أترابا على ميلاد واحد » . قلت : يا رسول الله ، نساء الدنيا أفضل أم الحور العين ؟ قال : « بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين ، كفضل الظهارة على البطانة » . قلت : يا رسول الله ، وبم ذاك ؟ قال : « بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله ، عز وجل ، أليس الله وجوههن النور ، وأجسادهن الحرير ، بيض الألوان ، خضر الثياب ، صفر الحلى ، مَجَامِرُهُنَّ الدُّرُّ ، وأمشاطهن الذهب ، يقلن : نحن الخالدات فلا نموت أبداً ، ونحن الناعمات فلا نبأس أبداً ، ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً ، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً ، طوبى لمن كُنَّا له وكان لنا » . قلت : يا رسول الله ، المرأة منا تتزوج زوجين والثلاثة والأربعة ، ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها ، من يكون زوجها ؟ قال : « يا أم سلمة ، إنها تُخَيَّرُ فتختار أحسنهم خلقاً ، فتقول : يا رب ، إن هذا كان أحسن خلقاً معى فزوجنيه ، يا أم سلمة ^(٣) ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة » ^(٤) .

وفى حديث الصور الطويل المشهور ^(٥) : أن رسول الله ﷺ يشفع للمؤمنين كلهم فى دخول الجنة فيقول الله : قد شفتك وأذنت لهم فى دخولها . فكان رسول الله ﷺ يقول : « والذى بعثنى بالحق ، ما أنتم فى الدنيا بأعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم ،

(١) الشمائل المحمدية للترمذي برقم (٢٣٠) .

(٢) فى أ : « كأنهن » وهو خطأ .

(٣) فى أ : « يا أم سليم » .

(٤) المعجم الكبير (٢٣/٣٦٨) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/١١٩) : « فيه إسماعيل بن أبى كريمة ضعفه أبو حاتم وابن عدى » .

(٥) حديث الصور مضى عند تفسير الآية : ٧٣ من سورة الأنعام .

فيدخل الرجل منهم على ثنتين وسبعين زوجة ، سبعين مما ينشئ الله ، وثنتين من ولد (١) آدم ، لهما فضل على من أنشأ الله ، بعبادتهما الله في الدنيا ، يدخل على الأولى منهما في غرفة من ياقوته ، على سرير من ذهب مَكَّلَل باللؤلؤ ، عليه سبعون زوجاً من سندس وإستبرق وإنه ليضع يده بين كتفها ، ثم ينظر إلى يده من صدرها من وراء ثيابها وجلدها ولحمها ، وإنه لينظر إلى مخ ساقها كما ينظر أحدكم إلى السلك في قصبة الياقوت ، كبده لها مرآة - يعني : وكبدها له مرآة - فبينما هو عندها لا يملها ولا تمل ، ولا يأتيها من مرة إلا وجدها عذراء ، ما يفتر ذكره ولا تشتكي قبلها إلا أنه لا منى ولا منية ، فبينما هو كذلك إذ نودي : إنا قد عرفنا أنك لا تمل ولا تمل ، إلا أن لك أزواجاً غيرها ، فيخرج ، فيأتيهن واحدة واحدة (٢) ، كلما جاء واحدة قالت : والله ما في الجنة شيء أحسن منك ، وما في الجنة شيء أحب إلى منك .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرني عمرو بن الحارث ، عن درّاج ، عن ابن حُجيرة (٣) ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال له : أنطأ في الجنة ؟ قال : « نعم والذي نفسي بيده ، دحماً ، دحماً ، فإذا قام عنها رجعت مطهرة بكرة » (٤) .

وقال الطبراني : حدثنا إبراهيم بن جابر الفقيه البغدادي ، حدثنا محمد بن عبد الملك الدقيق الواسطي ، حدثنا معلى بن عبد الرحمن الواسطي ، حدثنا شريك ، عن عاصم الأحول ، عن أبي المتوكل ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكاراً » (٥) . وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا عمران ، عن قتادة ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا في النساء » . قلت : يا رسول الله ، ويُطيق ذلك ؟ قال : « يعطى قوة مائة » .

ورواه الترمذي من حديث أبي داود وقال : صحيح غريب (٦) .

وروى أبو القاسم الطبراني من حديث حسين بن علي الجعفي ، عن زائدة ، عن هشام بن حسان ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة قال : قيل : يا رسول الله ، هل نصل إلى نساءنا في الجنة ؟ قال : « إن الرجل ليصل في اليوم إلى مائة عذراء » (٧) .

قال الحافظ أبو عبد الله المقدسي : هذا الحديث عندي على شرط الصحيح ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ عُرُباً ﴾ : قال سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس : يعني متحبيات إلى أزواجهن ، ألم تر إلى الناقة الضبعة ، هي كذلك .

وقال الضحّاك ، عن ابن عباس : العُرب : العواشق لأزواجهن ، وأزواجهن لهن عاشقون . وكذا قال عبد الله بن سرجس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وأبو العالية ، ويحيى بن أبي كثير ، وعطية ،

(١) في م : « من ابن » . (٢) في م : « واحدة بعد واحدة » . (٣) في أ : « عن ابن حجرة » .

(٤) رواه ابن حبان في صحيحه برقم (٢٦٣٣) « موارد » وأبو نعيم في صفة الجنة برقم (٣٩٣) من طريق ابن وهب به ، ودراج متكلم فيه .

(٥) المعجم الصغير (٩١/١) وفيه معلى بن عبد الرحمن وهو كذاب .

(٦) مسند الطيالسي برقم (٢٠١٢) وسنن الترمذي برقم (٢٥٣٦) .

(٧) المعجم الصغير (١٣، ١٢/٢) .

والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم .

وقال ثور بن زيد ، عن عكرمة قال : سئل ابن عباس عن قوله : ﴿ عَرُبًا ﴾ قال : هي الملقّة لزوجها .

وقال شعبة ، عن سِمَاك ، عن عكرمة : هي الغنجة .

وقال الأجلح بن عبد الله ، عن عكرمة : هي الشكلة .

وقال صالح ^(١) بن حيّان ، عن عبد الله بن بريدة في قوله : ﴿ عَرُبًا ﴾ قال : الشكلة بلغة أهل مكة ، والغنجة ^(٢) بلغة أهل المدينة .

وقال تميم بن حذلم : هي حسن التبعّل .

وقال زيد بن أسلم ، وابنه عبد الرحمن : العُرب : حسنات الكلام .

وقال ابن أبي حاتم : ذكر عن سهل بن عثمان العسكري : حدثنا أبو علي ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ عَرُبًا ﴾ قال : « كلامهن عربى » .

وقوله : ﴿ أَتْرَابًا ﴾ : قال الضحاك ، عن ابن عباس يعنى : فى سن واحدة ، ثلاث وثلاثين سنة .

وقال مجاهد : الأتراب : المستويات . وفى رواية عنه : الأمثال . وقال عطية : الأقران . وقال السدى : ﴿ أَتْرَابًا ﴾ أى : فى الأخلاق المتواخيات بينهم ، ليس بينهم تباغض ولا تحاسد ، يعنى : لا كما كن ضرائر [فى الدنيا] ^(٣) ضرائر متعادات .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة ، عن عبد الله بن الكهف ، عن الحسن ومحمد : ﴿ عَرُبًا أَتْرَابًا ﴾ قالوا : المستويات الأسنان ، يأتلفن جميعاً ، ويلعبن جميعاً .

وقد روى أبو عيسى الترمذى ، عن أحمد بن منيع ، عن أبي معاوية ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن النعمان بن سعد ، عن علي ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن فى الجنة لمجتمعاً للحدور العين ، يرفعن أصواتاً لم تسمع الخلائق بمثلاً ، يقلن ^(٤) : نحن الخالدات فلا نبيد ، ونحن الناعمات فلا نبأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكُنّا له » . ثم قال : هذا حديث غريب ^(٥) .

وقال الحافظ أبو يعلى ^(٦) : حدثنا أبو خيثمة ، حدثنا إسماعيل بن عمر ، حدثنا ابن أبي ذئب ، عن فلان بن عبد الله بن رافع ، عن بعض ولد أنس بن مالك ، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إن الحدور العين ليغنين ^(٧) فى الجنة ، يقلن : نحن خيرات حسان ، خبئنا لأزواج كرام » ^(٨) .

(١) فى ١ : « أبو صالح » . (٢) فى م : « والمتوجة » . (٣) زيادة من م . (٤) فى م ، أ : « قال : قلن » .

(٥) سنن الترمذى برقم (٢٥٦٤) .

(٦) فى هـ : « ابن » ، والصواب ما أثبتناه من م ، أ . (٧) فى م : « ليتغنين » .

(٨) ذكره الحافظ ابن حجر فى المطالب العلية (٤٠٢/٤) وعزاه لأبى يعلى ، ونقل المحقق قول البصري : « رواه أبو يعلى وفيه راو لم يسم » . ورواه ابن أبي الدنيا فى صفة الجنة برقم (٢٥٤) : حدثنا أبو خيثمة ، حدثنا إسماعيل بن عمر ، حدثنا ابن أبي ذئب ، عن ابن عبد الله بن رافع ، عن بعض ولد أنس بن مالك ، عن أنس بن مالك به .

قلت : إسماعيل بن عَمْرٍو هذا هو أبو المنذر الواسطي أحد الثقات الأثبات . وقد روى هذا الحديث الإمام عبد الرحيم بن إبراهيم الملقب بدَحِيمٍ ، عن ابن أبي فُديكٍ ، عن ابن أبي ذئب ، عن عون بن الخطاب بن عبد الله بن رافع ، عن ابن لأنس ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الحور العين يغنين في الجنة : نحن الجوار الحسن ، خلقنا لأزواج كرام » (١) .

وقوله : ﴿ لأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أى : خلقنا لأصحاب اليمين ، أو : ادخرن لأصحاب اليمين ، أو : زوجن لأصحاب اليمين . والأظهر أنه متعلق بقوله : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً . فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً . غُرُباً أَتْرَاباً . لأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ ، فتقديره : أنشأناهن لأصحاب اليمين . وهذا توجيه ابن جرير (٢) .

روى عن سليمان الداراني - رحمه الله - قال : صليت ليلة ، ثم جلست أدعو ، وكان البرد شديداً ، فجعلت أدعو بيد واحدة ، فأخذتني عيني فتمت ، فرأيت حوراء لم ير مثلها وهى تقول : يا أبا سليمان ، أدعو بيد واحدة وأنا أغدّي لك في النعيم من خمسمائة سنة !

قلت : ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ لأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ متعلقاً بما قبله ، وهو قوله : ﴿ أَتْرَاباً . لأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أى : فى أسنانهم . كما جاء فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم ، من حديث جرير ، عن عُمارة بن القعقاع ، عن أبى زُرْعَةَ ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري فى السماء إضاءة ، لا يبولون ولا يتغوطون ، ولا يتفلون ، ولا يتمخضون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألوة ، وأزواجهم الحور العين ، أخلاقهم على خلق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ، ستون ذراعاً فى السماء » (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون وعفان قالا : حدثنا حماد بن سلمة - وروى الطبرانى ، واللفظ له ، من حديث حماد بن سلمة - عن على بن زيد بن جُدعان ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يدخل أهل الجنة الجنة جُرداً مُرداً بيضاً جَعاداً مُكحّلين ، أبناء ثلاث وثلاثين ، وهم على خلق آدم ستون ذراعاً فى عرض سبعة أذرع » (٤) .

وروى الترمذى من حديث أبى داود الطيالسى ، عن عمران القطان ، عن قتادة ، عن شهر بن حوشب ، عن عبد الرحمن بن غنم ، عن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « يدخل أهل الجنة الجنة جُرداً مُرداً مكحّلين أبناء ثلاثين ، أو ثلاث وثلاثين سنة » . ثم قال : حسن غريب (٥) .

(١) ورواه أبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٤٣٢) من طريق دحيم به ، ورواه البيهقى فى البعث برقم (٤٢٠) من طريق ابن عبد الحكم ، وابن أبى داود فى البعث برقم (٧٥) عن كثير بن عبيد كلاهما عن ابن أبى فديك به نحوه ، ورواه الطبرانى فى الأوسط برقم (٤٨٨٧) « مجمع البحرين » من طريق الحسن بن داود عن ابن أبى فديك ، عن ابن أبى ذئب ، عن عون بن الخطاب ، عن أنس به نحوه . قال المنذرى فى الترغيب والترهيب (٢٢٦/٤) : « رواه ابن أبى الدنيا والطبرانى وإسناده مقارب ، ورواه البيهقى عن ابن لأنس لم يسمه عن أنس » وأشار البخارى إلى اختلاف فيه فى التاريخ الكبير (١٦/٧) .

(٢) تفسير الطبرى (١٠٩/٢٧) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٣٣٢٧) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٤) .

(٤) المسند (٢/٢٩٥) والمعجم الأوسط برقم (٤٨٩٤) « مجمع البحرين » .

(٥) سنن الترمذى برقم (٢٥٤٥) .

وقال ابن وهب : أخبرنا عمرو بن الحارث أن دراجاً أبا السمح حدثه عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « من مات من أهل الجنة من صغير أو كبير ، يُردون بنى ثلاث وثلاثين فى الجنة ، لا يزيدون عليها أبداً ، وكذلك أهل النار » .

ورواه الترمذى عن سويد بن نصر ، عن ابن المبارك ، عن رشدين بن سعد ، عن عمرو بن الحارث ، به (١) .

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنا القاسم بن هاشم ، حدثنا صفوان بن صالح ، حدثنى رواد ابن الجراح العسقلانى ، حدثنا الأوزاعى ، عن هارون بن رثاب ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم ، ستين ذراعاً بذراع الملك ! على حسن يوسف ، وعلى ميلاد عيسى ثلاث وثلاثين سنة ، وعلى لسان محمد ، جرداً مرداً مكحلون » (٢) .

وقال أبو بكر بن أبى داود : حدثنا محمود بن خالد وعباس بن الوليد قالا : حدثنا عمر ، عن الأوزاعى ، عن هارون بن رثاب ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « يبعث (٣) أهل الجنة على صورة آدم فى ميلاد ثلاث وثلاثين ، جرداً مرداً مكحلين ، ثم يذهب بهم إلى شجرة فى الجنة فيكسون منها ، لا تبلى ثيابهم ، ولا يفنى شبابهم » (٤) .

وقوله : ﴿ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ أى : جماعة من الأولين ، وجماعة من الآخرين .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا المنذر بن شاذان ، حدثنا محمد بن بكار ، حدثنا سعيد بن بشير ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن عمران بن حصين ، عن عبد الله بن مسعود - قال : وكان بعضهم يأخذ عن بعض - قال : أكرينا ذات ليلة عند رسول الله ﷺ ثم غدونا عليه ، فقال : « عرضت على الأنبياء وأتباعها بأعمها ، فيمر على النبى ، والنبى فى العصابة ، والنبى فى الثلاثة ، والنبى ليس معه أحد - وتلا قتادة هذه الآية : ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ [هود: ٧٨] - قال : حتى مرّ على موسى ابن عمران فى كبكبة من بنى إسرائيل ، قال : « قلت : ربى ، من هذا ؟ » قال : هذا أخوك موسى بن عمران ومن معه (٥) من بنى إسرائيل » . قال : « قلت : رب ، فأين أمتى ؟ قال : انظر عن يمينك فى الظراب (٦) » . قال : « فإذا وجوه الرجال » . قال : « قال : أرضيت ؟ » . قال : قلت : « قد رضيت ، رب » . قال : انظر إلى الأفق عن يسارك . فإذا وجوه الرجال . قال : أرضيت؟ قلت : « رضيت ، رب » . قال : فإن مع هؤلاء سبعين ألفاً ، يدخلون الجنة بغير حساب » . قال : وأنشأ عكاشة بن محصن من بنى أسد - قال سعيد : وكان بدرياً - قال : يا نبى الله ، ادع الله أن يجعلنى منهم . قال : فقال : « اللهم اجعله منهم » . قال : أنشأ (٧) رجل آخر ، قال : يا نبى الله ، ادع الله

(١) سنن الترمذى برقم (٢٥٦٢) ورواه من طريق ابن وهب ، وأبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٢٥٩) .

(٢) صفة الجنة لابن أبى الدنيا برقم (٢١٥) .

(٣) فى أ : « يدخل » .

(٤) البعث لابن أبى داود برقم (٦٤) وانظر كلام المحقق الفاضل فى سماع هارون بن رثاب عن أنس .

(٥) فى م : « ومن تبعه » .

(٦) فى م ، أ : « الضراب » .

(٧) فى م : « ثم أنشأ » .

أن يجعلنى منهم . فقال : « سبقك بها عكاشة » . قال : فقال رسول الله ﷺ : « فإن استطعتم - فداكم أبى وأمى - أن تكونوا من أصحاب السبعين فافعلوا ، وإلا فكونوا ^(١) من أصحاب الطراب ^(٢) ، وإلا فكونوا من أصحاب الأفق ، فإنى قد رأيت ناساً كثيراً قد تأشّبوا حوله » ^(٣) . ثم قال : « إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة » . فكبرنا ، ثم قال : « إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة » . قال : فكبرنا ، قال : « إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة » . قال : فكبرنا . ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ . قال : فقلنا بيننا : من هؤلاء السبعون ألفاً ؟ فقلنا : هم الذين ولدوا فى الإسلام ، ولم يشركوا . قال : فبلغه ذلك ، فقال : « بل هم الذين لا يكتون ولا يسترقون ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتكولون » .

وكذا رواه ابن جرير من طريقين آخرين ، عن قتادة ، به نحوه ^(٤) . وهذا الحديث له طرق كثيرة من غير هذا الوجه فى الصحاح وغيرها .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهراً ، حدثنا سفيان ، عن أبان بن أبى عياش ، عن سعيد بن جبّير ، عن ابن عباس : ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ قال : قال رسول الله ﷺ « هما جميعاً من أمتى » ^(٥) .

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ^(٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ^(٤٢) وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ^(٤٣) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ^(٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ^(٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحَنْثِ الْعَظِيمِ ^(٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ ^(٤٧) أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ^(٤٨) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ^(٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ^(٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ^(٥١) لَأَكُلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُقُومٍ ^(٥٢) فَمَالَتُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ^(٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ^(٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ ^(٥٥) هَذَا نَزْلُ يَوْمِ الدِّينِ ^(٥٦) ﴾ .

لما ذكر تعالى حال أصحاب اليمين ، عطف عليهم بذكر أصحاب الشمال ، فقال : ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ أى : أى شيء هم أصحاب الشمال ؟ ثم فسّر ذلك فقال : ﴿ فِي سَمُومٍ ﴾ وهو : الهواء الحار ﴿ وَحَمِيمٍ ﴾ وهو : الماء الحار ﴿ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ﴾ : قال ابن عباس : ظل الدخان . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وأبو صالح ، وقاتدة ، والسدّي ، وغيرهم . وهذه كقوله تعالى : ﴿ انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ . انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ . لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْلَّهِبِ .

(١) فى م : « ولا تكونوا » .

(٢) فى أ : « الضراب » .

(٣) فى م : « حوالهم » .

(٤) تفسير الطبرى (٢٧/ ١٠٩) .

(٥) تفسير الطبرى (٢٧/ ١١٠) ورواه ابن عدى فى الكامل (١/ ٣٨٧) من طريق محمد بن كثير ، عن سفيان الثورى ، عن أبان بن أبى عياش به ، وقال ابن عدى : « أبان بن أبى عياش له روايات غير ما ذكرت ، وعامة ما يرويه لا يتابع عليه » .

(٦) فى م : « ولما » .

إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ . كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ . وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿ [المرسلات: ٢٩-٣٤] ، ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَظِلٌّ مِّنْ يَّحْمُومٍ ﴾ وهو الدخان الأسود ﴿ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ أى : ليس طيب الهبوب ولا حَسَنَ المنظر ، كما قال الحسن وقتادة : ﴿ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ أى : ولا كريم المنظر . وقال الضحاك : كل شراب ليس بعذب فليس بكريم .

وقال ابن جرير : العرب تتبع هذه اللفظة فى النفى ، فيقولون : « هذا الطعام ليس بطيب ولا كريم ، هذا اللحم ليس بسمين ولا كريم ، وهذه الدار ليست بنظيفة ولا كريمة » .

ثم ذكر تعالى استحقاقهم لذلك ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ أى : كانوا فى الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذات أنفسهم ، لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل .

﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ ﴾ أى : يُصَمِّمُونَ ولا ينوون توبة ﴿ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴾ وهو الكفر بالله ، وجعل الأوثان والأنداد أرباباً من دون الله .

قال ابن عباس : ﴿ الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴾ : الشرك . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، والضحاك ، وقتادة ، والسدى ، وغيرهم .

وقال الشعبي : هو اليمين الغموس .

وكانوا يقولون : ﴿ أَئِنَّا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ ؟ يعنى : أنهم يقولون ذلك مكذبين به مستبعدين لوقوعه ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أى : أخبرهم يا محمد أن الأولين والآخرين من بنى آدم سيجمعون إلى عَرَصَاتِ القيامة ، لا تغادر منهم أحداً ، كما قال : ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ . وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ . يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٣-١٠٥] . ولهذا قال هاهنا : ﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أى : هو موقت بوقت مُّحَدَّد ، لا يتقدم ولا يتأخر ، ولا يزيد ولا ينقص .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ . لَا تَكُلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُقُومٍ . فَمَا لُثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ : وذلك أنهم يقبضون ويُسَجِّرُونَ حتى يأكلوا من شجر الزقوم ، حتى يملؤوا منها بطونهم ، ﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ . فَشَارِبُونَ شَرْبَ الْهِيمِ ﴾ وهى الإبل العطاش ، واحداها أهيم ، والأنثى هيماء ، ويقال : هائم وهائمة .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة : الهيم : الإبل العطاش الظماء .

وعن عكرمة أنه قال : الهيم : الإبل المراض ، تمص الماء مصاً ولا تروى .

وقال السدى : الهيم : داء يأخذ الإبل فلا تروى أبداً حتى تموت ، فكَذَلِكَ أَهْلُ جَهَنَّمَ لَا يَرَوْنَ مِنَ الْحَمِيمِ أَبَداً .

وعن خالد بن معدان : أنه كان يكره أن يشرب شُرْبَ الهيم عبّة واحدة من غير أن يتنفس ثلاثاً .

ثم قال تعالى : ﴿ هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أى : هذا الذى وصفنا هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم ، كما قال فى حق المؤمنين : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ [الكهف: ١٠٧] أى : ضيافة وكرامة .

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ (٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) .

يقول تعالى مُقررًا للمعاد (١) ، ورداً على المكذبين به من أهل الزيف والإلحاد ، من الذين قالوا : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الصفات: ١٦] ، وقولهم ذلك صدر منهم على وجه التكذيب والاستبعاد، فقال : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ ﴾ أى : نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، أفليس الذى قدر على البداء بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأخرى ؛ فلهذا قال : ﴿ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ أى : فهلا تصدقون بالبعث ! ثم قال مستدلاً عليهم بقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ . أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ أى : أنتم تقرونه فى الأرحام وتخلقونه فيها ، أم الله الخالق لذلك ؟ ثم قال : ﴿ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ ﴾ أى : صرفناه بينكم .

وقال الضحاك : ساوى فيه بين أهل السماء والأرض .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أى : وما نحن بعاجزين ﴿ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ﴾ أى : نغير خلقكم يوم القيامة ، ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أى : من الصفات والأحوال .

ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أى : قد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، فهلا تتذكرون وتعرفون أن الذى قدر على هذه النشأة - وهى البداءة - قادر على النشأة الأخرى ، وهى الإعادة بطريق الأولى والأخرى ، وكما قال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧] ، وقال : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا ﴾ [مریم: ٦٧] ، وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٧- ٧٩] ، وقال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى . أَلَمْ يَكْ نُطْفِئْهُ مِنْ مَّيِّمٍ يَمَنِى . ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى . أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ ؟ [القيامة: ٣٦- ٤٠] .

(١) فى أ : « للعباد » .

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمَغْرُمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ .

يقول : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ ؟ وهو شق الأرض وإثارتها والبذر فيها ، ﴿ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ﴾ ؟
أى : تنبتونه فى الأرض ﴿ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ أى : بل نحن الذين نقره قراره وننبته فى الأرض .

قال ابن جرير : وقد حدثنى أحمد بن الوليد القرشى ، حدثنا مسلم بن أبى مسلم الجرمى ، حدثنا مخلد بن الحسين ، عن هشام ، عن محمد ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقولن : زرعت ، ولكن قل : حرثت » ، قال أبو هريرة : ألم تسمع إلى قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ . أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ .

ورواه البزار عن محمد بن عبد الرحيم ، عن مسلم الجميع ، به (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد ، عن عطاء ، عن أبى عبد الرحمن : لا تقولوا : زرنا ، ولكن قولوا : حرثنا .

وروى عن حُجْر المدْرِىَّ أنه كان إذا قرأ : ﴿ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ وأمثالها ، يقول : بل أنت يا رب .

وقوله : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ أى : نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا ، وأبقيناه لكم رحمة بكم ، ولو نشاء لجعلناه حطاماً ، أى : لأيسناه قبل استوائه واستحصاده ، ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ . ثم فسر ذلك بقوله : ﴿ إِنَّا لَمَغْرُمُونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أى : لو جعلناه حطاماً لظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ فى المقالة ، تنوعون كلامكم ، فتقولون تارة : ﴿ إِنَّا لَمَغْرُمُونَ ﴾ أى : لَمُلْقُونَ .

وقال مجاهد ، وعكرمة : إنا لمولع بنا . وقال قتادة : معذبون . وتارة تقولون : بل نحن محرومون .

وقال مجاهد أيضاً : ﴿ إِنَّا لَمَغْرُمُونَ ﴾ ملقون للشر ، أى : بل نحن مُحَارَفُونَ ، قاله قتادة ، أى : لا يثبت لنا مال ، ولا ينتج لنا ربح .

(١) تفسير الطبرى (١١٤/٢٧) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (١١٣٥) والبيهقى فى السنن الكبرى (١٣٨/٦) من طريق مسلم بن أبى مسلم الجرمى ، عن مخلد بن الحسين به نحوه ، وضعفه السيوطى فى الدر المنثور (٢٣/٨) وأشار البيهقى إلى ضعفه فقال بعد أن ذكره من قول مجاهد : « وقد روى فيه حديث مرفوع غير قوى » .

وقال مجاهد : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أى : محدودون ، يعنى : لا حظ لنا .

قال ابن عباس ، ومجاهد : ﴿ فَظَلَّمْتُمْ تَفَكُّهُونَ ﴾ : تعجبون . وقال مجاهد أيضاً : ﴿ فَظَلَّمْتُمْ تَفَكُّهُونَ ﴾ : تفجعون وتحزنون على ما فاتكم من زرعكم .

وهذا يرجع إلى الأول ، وهو التعجب من السبب الذى من أجله أصيبوا فى مالهم . وهذا اختيار ابن جرير (١) .

وقال عكرمة : ﴿ فَظَلَّمْتُمْ تَفَكُّهُونَ ﴾ : تلامون . وقال الحسن ، وقتادة ، والسدى : ﴿ فَظَلَّمْتُمْ تَفَكُّهُونَ ﴾ : تندمون . ومعناه إما على ما أنفقتم ، أو على ما أسلفتم من الذنوب .

قال الكسائي (٢) : تفكه من الأضداد ، تقول العرب : تفككت بمعنى تنعمت ، وتفككت بمعنى حزنت .

ثم قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ . أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ ﴾ يعنى : السحاب . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد . ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾ يقول : بل نحن المنزلون . ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ﴾ أى : زعاقاً مرّاً لا يصلح لشرب ولا زرع ، ﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ أى : فهلا تشكرون نعمة الله عليكم فى إنزاله المطر عليكم عذبا زلالاً ! ﴿ لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ . يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ١٠ ، ١١] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عثمان بن سعيد بن مرة ، حدثنا فضيل بن مرزوق ، عن جابر ، عن أبى جعفر ، عن النبى ﷺ : أنه إذا شرب الماء قال : « الحمد لله الذى سقانا عذبا فراتا برحمته ، ولم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا » (٣) .

ثم قال : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ ﴾ أى : تقدحون من الزناد ، وتستخرجونها (٤) من أصلها ، ﴿ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾ أى : بل نحن الذين جعلناها مودعة فى موضعها ، وللعرب شجرتان ، إحداهما : المرخ ، والأخرى : العفّار ، إذا أخذ منهما غصنان أخضران ، فحك أحدهما بالآخر ، تناثر من بينهما شرر النار .

وقوله : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴾ : قال مجاهد ، وقتادة : أى تذكّر النار الكبرى .

قال قتادة : ذكر لنا رسول الله ﷺ قال : « يا قوم ، ناركم هذه التى توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » . قالوا : يا رسول الله ، إن كانت لكافية ! قال : « قد ضربت بالماء ضربتين - أو : مرتين - حتى يستنفع بها بنو آدم ويدنوا منها » (٥) .

(١) تفسير الطبرى (١١٥/٢٧) .

(٢) فى ١ : « قال السدى » .

(٣) وهذا مرسل ، وعزه الهنذى فى كنز العمال (١١١/٧) إلى أبى نعيم فى الحلية .

(٤) فى م : « وتستخرجون » .

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (١١٧/٢٧) .

وهذا الذى أرسله قتادة رواه الإمام أحمد فى مسنده ، فقال :

حدثنا سفيان ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، وضربت بالبحر مرتين ، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد » (١) .

وقال الإمام مالك ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نار بنى آدم التى يوقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » . فقالوا : يا رسول الله ، إن كانت لكافية . فقال : « إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً » .

رواه البخارى من حديث مالك ، ومسلم من حديث أبى الزناد (٢) ، ورواه مسلم ، من حديث عبد الرزاق ، عن معمر عن همام ، عن أبى هريرة ، به (٣) . وفى لفظ : « والذى نفسى بيده ، لقد فضّلت عليها بتسعة وستين جزءاً ، كلهن مثل حرها » .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا أحمد بن عمرو الخلال ، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامى ، حدثنا معن بن عيسى القرزى ، عن مالك ، عن عمه أبى السهيل ، عن أبيه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أتدرون ما مثل ناركم هذه من نار جهنم ؟ لهى أشد سواداً من [دخان] (٤) ناركم هذه بسبعين ضعفاً » (٥) .

قال الضياء المقدسى : وقد رواه ابن (٦) مصعب ، عن مالك ولم يرفعه ، وهو عندى على شرط الصحيح .

وقوله : ﴿ وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، والنضر بن عربى : معنى ﴿ لِلْمُقْوِينَ ﴾ : المسافرين ، واختاره ابن جرير ، وقال : ومنه قولهم : « أقوت الدار إذا رحل أهلها » .

وقال غيره : القى والقوّاء : القفر الخالى البعيد من العمران .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : المقوى هنا الجائع .

وقال ليث بن أبى سليم ، عن مجاهد : ﴿ وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴾ : للحاضر والمسافر ، لكل طعام لا يصلحه إلا النار . وكذا روى سفيان ، عن جابر الجعفى ، عن مجاهد .

وقال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد قوله : ﴿ لِلْمُقْوِينَ ﴾ : المستمتعين ، الناس أجمعين . وكذا ذكر عن عكرمة .

(١) المسند (٢/٢٤٤) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٣٢٦٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٤٣) .

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٨٤٣) .

(٤) زيادة من المعجم الأوسط للطبرانى .

(٥) المعجم الأوسط برقم (٤٨٤٣) «مجمع البحرين» .

(٦) فى م ، أ : « وقد رواه أبو » .

وهذا التفسير أعم من غيره ، فإن الحاضر والبادي من غنى وفقير الكل^(١) محتاجون للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع . ثم من لطف الله تعالى أن أودعها في الأحجار ، وخالص الحديد ، بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك في متاعه وبين ثيابه ، فإذا احتاج إلى ذلك في منزله أخرج زنده وأورى ، وأوقد ناره فأطبخ بها واصطلى ، واشتوى واستأنس بها ، وانتفع بها سائر الانتفاعات . فلهذا أفرد المسافرون وإن كان ذلك عاماً في حق الناس كلهم . وقد يستدل له بما رواه الإمام أحمد وأبو داود من حديث أبي خدّاش حَبَّان بن زيد الشَّرْعَبِي الشَّامِي ، عن رجل من المهاجرين من قَرْن ، أن رسول الله ﷺ قال : « المسلمون شركاء في ثلاثة : النار والكلا والماء »^(٢) .

وروى ابن ماجة بإسناد جيد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث لا يُمنعن : الماء والكلا والنار »^(٣) .

وله من حديث ابن عباس مرفوعاً مثل هذا وزيادة: «وثنمه حرام»^(٤)، ولكن في إسناده «عبد الله ابن خراش بن حوشب» وهو ضعيف ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أى : الذى بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة : الماء العذب الزلال البارد ، ولو شاء لجعله ملحاً أجاجاً كالبحار المغرقة . وخلق النار المحرقة ، وجعل ذلك مصلحة للعباد ، وجعل هذه منفعة لهم فى معاش دنياهم ، وزاجراً لهم فى المعاد .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) ﴾ .

قال جُوَيْر ، عن الضحاك : إن الله لا يقسم بشيء من خلقه ، ولكنه استفتاح يستفتح به كلامه . وهذا القول ضعيف . والذى عليه الجمهور أنه قسم من الله عز وجل ، يقسم بما شاء من خلقه ، وهو دليل على عظمتة . ثم قال بعض المفسرين : « لا » هاهنا زائدة ، وتقديره : أقسم بمواقع النجوم . ورواه ابن جرير ، عن سعيد بن جبير . ويكون جوابه : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ .

وقال آخرون : ليست « لا » زائدة لا معنى لها ، بل يؤتى بها فى أول القسم إذا كان مقسماً به على منفى ، كقول عائشة ، رضى الله عنها : « لا ، والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط » وهكذا هاهنا تقدير الكلام : « لا ، أقسم بمواقع النجوم ليس الأمر كما زعمتم فى القرآن أنه سحر أو كهانة ، بل هو قرآن كريم » .

(١) فى م ، أ : « الجميع » .

(٢) المسند (٣٦٤/٥) وسنن أبى داود برقم (٣٤٧٧) .

(٣) سنن ابن ماجة برقم (٢٤٧٣) .

(٤) سنن ابن ماجة برقم (٢٤٧٢) .

وقال ابن جرير : وقال بعض أهل العربية : معنى قوله : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ ﴾ : فليس الأمر كما تقولون ، ثم استأنف القسم بعد ف قيل : أقسم .

واختلفوا فى معنى قوله : ﴿ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ ، فقال حكيم بن جبير ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، يعنى : نجوم القرآن ؛ فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا ، ثم نزل مُفَرَّقاً ^(١) فى السنين بعد . ثم قرأ ابن عباس هذه الآية .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : نزل القرآن جملة من عند الله من اللوح المحفوظ إلى السَّفَرَةِ الكرام الكاتبين فى السماء الدنيا ، فنجمته السفرة على جبريل عشرين ليلة ، ونجمه جبريل على محمد ﷺ عشرين سنة ، فهو قوله : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ : نجوم القرآن .

وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والسدى ، وأبو حَزْرَةَ .

وقال مجاهد أيضا : ﴿ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ فى السماء ، ويقال : مطالعها ومشارقها . وكذا قال الحسن ، وقتادة ، وهو اختيار ابن جرير . وعن قتادة : مواقعها : منازلها . وعن الحسن أيضا : أن المراد بذلك انتشارها يوم القيامة . وقال الضحاك : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ يعنى بذلك : الأنواء التى كان أهل الجاهلية إذا مطروا قالوا : مطرنا بنوء كذا وكذا .

وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ أى : وإن هذا القسم الذى أقسمت به لقسم عظيم ، لو تعلمون ^(٢) عظمته لعظمتهم المقسم به عليه ، ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ أى : إن هذا القرآن الذى نزل على محمد لكتاب عظيم . ﴿ فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ أى : معظم فى كتاب معظم محفوظ موقر .

قال ابن جرير : حدثنى إسماعيل بن موسى ^(٣) ، أخبرنا شريك ، عن حكيم - هو ابن جبير - عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ قال : الكتاب الذى فى السماء .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ [لَا يَمَسُّهُ] ^(٤) إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ يعنى : الملائكة . وكذا قال أنس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، وأبو الشعثاء جابر بن زيد ، وأبو نَهِيك ، والسدى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهم .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، حدثنا معمر ، عن قتادة : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ قال : لا يمسّه عند الله إلا المطهرون ، فأما فى الدنيا فإنه يمسّه المجوسى النجس ، والمنافق الرجس . وقال : وهى فى قراءة ابن مسعود : ﴿ مَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ .

وقال أبو العالية : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ : ليس أنتم أصحاب الذنوب .

وقال ابن زيد : زَعَمْتُ كفار قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين ، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسّه إلا المطهرون كما قال : ﴿ وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ

(٢) فى أ : « لو علمتم » .

(٤) زيادة من م .

(١) فى أ : « متفرقا » .

(٣) فى م ، أ : « موسى بن إسماعيل » .

لَمَعَزُولُونَ ﴿الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢﴾ .

وهذا القول قول جيد ، وهو لا يخرج عن الأقوال التي قبله .

وقال الفراء : لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به .

وقال آخرون : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ أى : من الجنابة والحدث . قالوا : ولفظ الآية خبر ومعناها الطلب ، قالوا : والمراد بالقرآن هاهنا المصحف ، كما روى مسلم عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو ، مخافة أن يناله العدو^(١) . واحتجوا فى ذلك بما رواه الإمام مالك فى موطنه ، عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : أن فى الكتاب الذى كتبه رسول الله ﷺ لعمر بن حزم : ألا يمس القرآن إلا طاهر^(٢) . وروى أبو داود فى المراسيل ، من حديث الزهري قال : قرأت فى صحيفة عند أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : أن رسول الله ﷺ قال : « ولا يمس القرآن إلا طاهر »^(٣) .

وهذه وجادة جيدة . قد قرأها الزهري وغيره ، ومثل هذا ينبغي^(٤) الأخذ به . وقد أسنده الدارقطني عن عمرو بن حزم ، وعبد الله بن عمر ، وعثمان بن أبى العاصي ، وفى إسناد كل منها نظر^(٥) ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : هذا القرآن منزل من [الله]^(٦) رب العالمين ، وليس هو كما يقولون : إنه سحر ، أو كهانة ، أو شعر ، بل هو الحق الذى لا مِرْيَةَ فيه ، وليس وراءه حق نافع .

وقوله : ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴾ : قال العوفي ، عن ابن عباس : أى مكذبون غير مصدقين . وكذا قال الضحاك ، وأبو حذرة ، والسدي .

وقال مجاهد : ﴿ مُدْهِنُونَ ﴾ أى : تريدون أن تمالئوهم فيه وتركوا إليهم .

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ ﴾ : قال بعضهم : يعنى : وتجعلون رزقكم بمعنى شكركم أنكم تكذبون ، أى : تكذبون بدل الشكر .

وقد روى عن على وابن عباس أنهما قرآها : «وتجعلون شكركم أنكم تكذبون» كما سيأتى .

وقال ابن جرير : وقد ذكر عن الهيثم بن عدى : أن من لغة أزد شَنْوَةٌ : ما رزق فلان بمعنى : ما شكر فلان .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا إسرائيل ، عن عبد الأعلى ، عن أبى

(١) صحيح مسلم برقم (١٨٦٩) وهو أيضاً فى صحيح البخارى برقم (٢٩٩٠) .

(٢) الموطأ (١/١٩٩) .

(٣) المراسيل برقم (٢٥٧) .

(٤) فى أ : « لا ينبغي » .

(٥) سنن الدارقطني (١/١٢٢، ١٢٢) .

(٦) فى أ : « بشركم » .

(٧) زيادة من أ .

عبد الرحمن، عن علي ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ ، يقول : « شكركم ﴾ أنكم تكذبون ﴾ ، تقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا ، بنجم كذا وكذا » (١) .

وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه ، عن مُخَوَّل (٢) بن إبراهيم النهدي - وابن جرير ، عن محمد بن المثني ، عن عبيد الله بن موسى ، وعن يعقوب بن إبراهيم ، عن يحيى بن أبي بكير ، ثلاثتهم عن إسرائيل ، به مرفوعاً (٣) . وكذا رواه الترمذي عن أحمد بن مَنِيع ، عن حسين بن محمد - وهو المروزي - به ، وقال : « حسن غريب » . وقد رواه سفيان عن عبد الأعلى ، ولم يرفعه (٤) .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : ما مُطر قوم قط إلا أصبح بعضهم كافراً ، يقولون : مُطرنا بنوء كذا وكذا . وقرأ ابن عباس : « وتجعلون شكركم أنكم تكذبون » .

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس .

وقال مالك في الموطأ ، عن صالح بن كيسان ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، عن زيد بن خالد الجهني أنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : « هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . « قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب . وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب » .

أخرجاه في الصحيحين ، وأبو داود ، والنسائي ، كلهم من حديث مالك ، به (٥) .

وقال مسلم : حدثنا محمد بن سلمة المرادي وعَمْرُو بن سَوَّاد ، حدثنا عبد الله بن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، أن أبا يونس حدثه عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين ، ينزل الغيث ، فيقولون : بكوكب كذا وكذا » .

تَفَرَّدَ به مسلم من هذا الوجه (٦) .

وقال ابن جرير : حدثني يونس ، أخبرنا سفيان ، عن محمد بن إسحاق ، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله لَيُصْبِحُ الْقَوْمَ بِالنِّعْمَةِ أَوْ يُمَسِّهِمْ بِهَا ، فيصبح بها قوم كافرين ، يقولون : مُطرنا بنوء كذا وكذا » .

(١) المسند (١٠٨/١) .

(٢) في أ : « عن محمد » .

(٣) تفسير الطبري (١١٩/٢٧) .

(٤) سنن الترمذي برقم (٣٢٩٥) .

(٥) الموطأ (١٩٢/١) وصحيح البخاري برقم (٨٤٦) وصحيح مسلم برقم (٧١) وسنن أبي داود برقم (٣٩٠٦) وسنن النسائي (١٦٤/٣) .

(٦) صحيح مسلم برقم (٧٢) .

قال محمد - هو ابن إبراهيم - : فذكرت هذا الحديث لسعيد بن المسيب ، فقال : ونحن قد سمعنا من أبي هريرة ، وقد أخبرني من شهد عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، وهو يستسقى ، فلما استسقى التفت إلى العباس فقال : يا عباس ، يا عم رسول الله ، كم بقى من نوء الثريا ؟ فقال : العلماء يزعمون أنها تعترض فى الأفق بعد سقوطها سبعا . قال : فما مضت سابعة حتى مطروا (١) .

وهذا مَحْمُول على السؤال عن الوقت الذى أجرى الله فيه العادة بإنزال المطر ، لا أن ذلك النوء يؤثر بنفسه فى نزول المطر ؛ فإن هذا هو المنهى عن اعتقاده . وقد تقدم شئ من هذه الأحاديث عند قوله : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ [فاطر: ٢] .

وقال ابن جرير : حدثني يونس ، أخبرنا سفيان ، عن إسماعيل بن أمية - أحسبه أو غيره - أن رسول الله ﷺ سمع رجلا - ومطروا - يقول : مطرنا ببعض عَشَانِينَ الأسد . فقال : « كذبت ! بل هو رزق الله » (٢) .

ثم قال ابن جرير : حدثني أبو صالح الصرارى ، حدثنا أبو جابر محمد بن عبد الملك الأزدي (٣) ، حدثنا جعفر بن الزبير ، عن القاسم ، عن أبي أمامة ، عن النبي ﷺ قال : « ما مُطِرَ قوم من ليلة إلا أصبح قوم بها كافرين » (٤) . ثم قال : « ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ » ، يقول قائل : مطرنا بنجم كذا وكذا » (٥) .

وفى حديث عن أبي سعيد مرفوعاً : « لو قُحِطَ الناس سبع سنين ثم مطروا لقالوا : مطرنا بنوء المجدح » (٦) .

وقال مجاهد : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ : قال : قولهم فى الأنواء : مطرنا بنوء كذا ، وبنوء كذا ، يقول : قولوا : هو من عند الله ، وهو رزقه . وهكذا قال الضحاک وغير واحد .

وقال قتادة : أما الحسن فكان يقول : بشئ ما أخذ قوم لأنفسهم ، لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب . فمعنى قول الحسن هذا : وتجعلون حظكم من كتاب الله أنكم تكذبون به ؛ ولهذا قال قبله : ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ . وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ .

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ ﴾ أى : الروح ﴿ الْحُلُقُومِ ﴾ أى : الحلق ، وذلك حين الاحتضار ،

(١) تفسير الطبرى (٢٧/ ١٢٠) .

(٢) فى ١ : « كافرون » وهو خطأ .

(٣) فى ١ : « الأردى » .

(٥) تفسير الطبرى (٢٧/ ١٢٠) .

(٦) رواه الإمام أحمد فى مسنده (٧/ ٣) وابن حبان فى صحيحه برقم (٦٠٦) « موارد » من طريق عمرو بن دينار ، عن عتاب بن حنين ، عن أبي سعيد بلفظ : « لو أمسك الله القطر عن الناس سبع سنين ثم أرسله لأصبحت طائفة بها كافرين يقولون : مطرنا بنوء المجدح » .

كما قال : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ . وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ . وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ . وَالتَّتَفَتِ النَّفْسُ بِالسَّاقِ . إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقِ ﴾ [القيامة: ٢٦ - ٣٠] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴾ أى : إلى المحتضر وما يكابده من سكرات الموت ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴾ أى : بملائكتنا ﴿ وَلَكِنْ لَا تَبْصُرُونَ ﴾ أى : ولكن لا ترونهم . كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ . ثُمَّ رَدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوَلَاهُمْ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ [الأنعام: ٦١ ، ٦٢] .

وقوله : ﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ . تَرْجِعُونَهَا ﴾ : معناه : فهلا ترجعون هذه النفس التى قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول ^(١) ، ومقرها فى الجسد إن كنتم غير مدنيين .

قال ابن عباس : يعنى محاسيين . وروى عن مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، والسدى ، وأبى حَزْرَةَ ، مثله .

وقال سعيد بن جبير ، والحسن البَصْرِيُّ : ﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ : غير مصدقين أنكم تدانون وتبعثون وتجزون ، فردوا هذه النفس .

وعن مجاهد : ﴿ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ : غير موقنين .

وقال ميمون بن مِهْرَانَ : غير معذيين مقهورين .

﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (٨٨) ﴿ فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ ﴾ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) .

هذه الأحوال الثلاثة هى أحوال الناس عند احتضارهم : إما أن يكون من المقربين ^(٢) ، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين . وإما يكون من المكذبين الضالين عن الهدى ، الجاهلين بأمر الله ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ ﴾ أى : المحتضر ﴿ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ، وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات ، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات ، ﴿ فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ ﴾ أى : فلهم روح وريحان ، وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت ، كما تقدم فى حديث البراء : أن ملائكة الرحمة تقول : « أيتها الروح الطيبة فى الجسد الطيب كنت تعميريه ، اخرجى إلى روح وريحان ، ورب غير غضبان » .

قال على بن طلحة ^(٣) ، عن ابن عباس : ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ يقول : راحة وريحان ، يقول : مستراحة .

(١) فى م : « الأولى » . (٢) فى أ : « المقربين العلية » . (٣) فى م ، أ : « على بن أبى طلحة » .

وكذا قال مجاهد : إن الروح : الاستراحة .

وقال أبو حَزْرَةَ : الراحة من الدنيا . وقال سعيد بن جبیر ، والسدى : الروح : الفرح . وعن مجاهد : ﴿ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ ﴾ : جنة ورخاء . وقال قتادة : فروح ورحمة^(١) . وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبیر : ﴿ وَرِيحَانٌ ﴾ : ورزق .

وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة ، فإن من مات مقرباً حصل له جميع ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة ، والفرح والسرور والرزق الحسن ، ﴿ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ ﴾ .

وقال أبو العالية : لا يفارق أحد من المقربين حتى يُؤْتَى بغصن من ريحان الجنة ، فيقبض روحه فيه .

وقال محمد بن كعب : لا يموت أحدٌ من الناس حتى يعلم : أمن أهل الجنة هو أم [من]^(٢) أهل النار ؟

وقد قدمنا أحاديث الاحتضار عند قوله تعالى في سورة إبراهيم : ﴿ يَتَّبِعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ [فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ] ﴾^(٣) [إبراهيم : ٢٧] ، ولو كتبت هاهنا لكان حسناً ! ومن جملتها حديث تميم الدارى ، عن النبي ﷺ ، يقول : « يقول الله للملك الموت : انطلق إلى فلان^(٤) فائتني به ، فإنه قد جربته بالسراء والضراء فوجدته حيث أحب ، اتتني به فلاريحنه . قال : فينطلق إليه ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة ، معهم أكفان وحنوط من الجنة ، ومعهم ضبائر الريحان ، أصل الريحانة واحد وفي رأسها عشرون لوناً ، لكل لون منها ريح سوى ريح صاحبه ، ومعهم الحرير الأبيض فيه المسك » .

وذكر تمام الحديث بطوله كما تقدم^(٥) ، وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية : قال^(٦) الإمام أحمد :

حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا هارون ، عن بُدَيْلِ بْنِ مِيسَرَةَ^(٧) ، عن عبد الله بن شقيق ، عن عائشة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقرأ : ﴿ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ ﴾ برفع الراء .

وكذا رواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، من حديث هارون - وهو ابن موسى الأعور - به^(٨) ، وقال الترمذى : لا نعرفه إلا من حديثه .

وهذه القراءة هي قراءة يعقوب وحده ، وخالفه الباقر فقرأوا^(٩) : ﴿ فَرُوحٌ ﴾ بفتح الراء .

(١) فى أ : « فروح وريحان » .

(٢) زيادة من أ .

(٣) زيادة من م .

(٤) فى م ، أ : « إلى ولى » .

(٥) انظر : تفسير سورة إبراهيم الآية : ٢٧ .

(٦) فى م : « فقال » .

(٧) فى أ : « بن قيس » .

(٨) المسند (٦٤/٦) وسنن أبى داود برقم (٣٩٩١) وسنن الترمذى برقم (٢٩٣٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٦٦) .

(٩) فى م : « فقرأ » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا أبو الأسود محمد بن عبد الرحمن ابن نوفل : أنه سمع درة بنت معاذ تحدث ، عن أم هانئ : أنها سألت رسول الله ﷺ : أنتزاور إذا متنا ، ويرى بعضنا بعضاً ؟ فقال رسول الله ﷺ : « تكون النسم^(١) طيراً يعلق بالشجر ، حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس في جسدها »^(٢) .

هذا الحديث فيه بشارة لكل مؤمن ، ومعنى « يعلق » : يأكل ، ويشهد له بالصحة أيضاً ما رواه الإمام أحمد عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي ، عن الإمام مالك بن أنس ، عن الزهري ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن أبيه ، عن رسول الله ﷺ قال : « إنما نَسَمَةُ المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة ، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه »^(٣) . وهذا إسناد عظيم ، ومتن قوي .

وفي الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : « إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر ، تسرح في الجنة^(٤) حيث شاءت ، ثم تأوى إلى قناديل معلقة بالعرش »^(٥) الحديث .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا همام ، حدثنا عطاء بن السائب قال : كان أول يوم عرفت فيه عبد الرحمن بن أبي ليلى : رأيت شيخاً^(٦) أبيض الرأس واللحية على حمار ، وهو يتبع جنازة ، فسمعتة يقول : حدثني فلان بن فلان ، سمع رسول الله ﷺ يقول : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » . قال : فأكب القوم ييكون ، فقال : « ما يُكيكم ؟ » فقالوا : إنا نكره الموت . قال : « ليس ذاك ، ولكنه إذا حُضِرَ ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ . فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ ﴾ ، فإذا بُشِّرَ بذلك أحب لقاء الله عز وجل ، والله ، عز وجل ، للقاءه أحب ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ . فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ [وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ] ﴾^(٧) فإذا بشر بذلك كره لقاء الله ، والله للقاءه أكره .

هكذا رواه الإمام أحمد^(٨) ، وفي الصحيح عن عائشة - رضى الله عنها - شاهد لمعناه^(٩) .

وقوله : ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أى : وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين ، ﴿ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أى : تبشرهم الملائكة بذلك ، تقول لأحدهم : سلام لك ، أى : لا بأس عليك ، أنت إلى سلامة ، أنت من أصحاب اليمين .

وقال قتادة ، وابن زيد : سلم من عذاب الله ، وسلمت عليه ملائكة الله . كما قال عكرمة : تسلم عليه الملائكة ، وتخبره أنه من أصحاب اليمين .

(١) فى م ، أ : « النسمه » .

(٢) المسند (٤٢٤/٦) .

(٣) المسند (٤٥٥/٣) .

(٤) فى م : « فى رياض الجنة » .

(٥) تقدم الحديث عند تفسير الآية : ١٦٩ من سورة آل عمران ، وانظر تخريجه هناك .

(٦) فى أ : « شخصاً » .

(٧) زيادة من م .

(٨) المسند (٢٥٩/٤) .

(٩) صحيح مسلم برقم (٢٦٨٤) .

وهذا معنى حسن ، ويكون ذلك كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ . نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٠-٣٢] .

وقال البخارى : ﴿ فَسَلَامٌ لَكَ ﴾ أى : مُسلم لك ، إنك من أصحاب اليمين . وألغيت « إن » (١) وهو : معناها ، كما تقول : أنت مُصدق مسافر عن قليل . إذا كان قد قال : إني مسافر عن قليل . وقد يكون كالدعاء له ، كقولك : سقياً لك من الرجال ، إن رفعت « السلام » فهو من الدعاء (٢) .

وقد حكاه ابن جرير هكذا عن بعض أهل العربية ، ومال إليه ، والله أعلم (٣) .

وقوله : ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ . فَنُزِّلْ مِنْ حَمِيمٍ . وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ ﴾ أى : وأما إن كان المحتضر من المكذبين بالحق ، الضالين عن الهدى ، ﴿ فَنُزِّلْ ﴾ أى : فضيافة ﴿ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ وهو المذاب الذى يصهر به ما فى بطونهم والجلود ، ﴿ وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ ﴾ أى : وتقرير له فى النار التى تغمره من جميع جهاته .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ أى : إن هذا الخبر لهو الحق اليقين الذى لا مرية فيه ، ولا محيد لأحد عنه .

﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ : قال أحمد :

حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا موسى بن أيوب الغافقى ، حدثني عمى إياس بن عامر ، عن عقبة بن عامر الجهنى قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ قال : « اجعلوها فى ركوعكم » ، ولما نزلت : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ [الأعلى : ١] ، قال رسول الله ﷺ : « اجعلوها فى سجودكم » .

وكذا رواه أبو داود وابن ماجه ، من حديث عبد الله بن المبارك ، عن موسى بن أيوب ، به (٤) .

وقال روح بن عبادة : حدثنا حجاجُ الصَّوَّافُ ، عن أبى الزبير ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال : سبحان الله العظيم وبحمده ، غُرِسَتْ له نخلة فى الجنة » .

هكذا رواه الترمذى من حديث روح (٥) ، ورواه هو والنسائى أيضاً من حديث حماد بن سلمة ، من حديث أبى الزبير عن جابر ، عن النبى ﷺ (٦) ، وقال الترمذى : حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث أبى الزبير .

(١) فى م : « من » .

(٢) صحيح البخارى (٦٢٥/٨) « فتح » .

(٣) تفسير الطبرى (١٢٣/٢٧) .

(٤) المسند (١٥٥/٤) وسنن أبى داود برقم (٢٨٦٩) وسنن ابن ماجه برقم (٨٨٧) .

(٥) سنن الترمذى برقم (٣٤٦٤) .

(٦) سنن الترمذى برقم (٣٤٦٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٦٦٣) لكن النسائى رواه من طريق حماد بن سلمة ، عن حجاج الصواف ، عن أبى الزبير خلافاً للترمذى ، فإنه لم يذكر فى هذه الرواية حجاج الصواف فليتبناه .

وقال البخارى فى آخر كتابه : حدثنا أحمد بن إشكاب ، حدثنا محمد بن فضيل ، حدثنا عُمارة ابن القعقاع ، عن أبى زُرعة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » .
ورواه بقية الجماعة إلا أبا داود ، من حديث محمد بن فضيل ، بإسناده ، مثله ^(١) .

(١) صحيح البخارى برقم (٧٥٦٣) وصحيح مسلم برقم (٢٦٩٤) وسنن الترمذى برقم (٣٤٦٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٦٦٦) وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٠٦) .

تفسير سورة الحديد

وهي مدنية .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد ، حدثني بحير بن سعد ، عن خالد بن معدان ، عن ابن أبي بلال ، عن عَرَبَاضِ بن سارية ، أنه حدثهم أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد ، وقال : « إن فيهن آية أفضل من ألف آية » .

وهكذا رواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، من طرق عن بقية ، به^(١) . وقال الترمذى : حسن غريب .

ورواه النسائى عن ابن أبي السرح ، عن ابن وهب ، عن معاوية بن صالح ، عن بحير بن سعد ، عن خالد بن معدان قال : كان رسول الله ﷺ . . . فذكره مُرْسَلًا ، لم يذكر عبد الله بن أبي بلال ، ولا العرباض بن سارية^(٢) .

والآية المشار إليها فى الحديث هى - والله أعلم - قوله : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ، كما سيأتى بيانه إن شاء الله وبه الثقة^(٣) .

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) .

يخبر تعالى أنه يسبح له ما فى السموات والأرض ، أى : من الحيوانات والنباتات ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّعْيُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : الذى قد خضع له كل شىء ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى خلقه وأمره وشرعه ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أى : هو المالك المتصرف فى خلقه ، فيحيى ويميت ، ويعطى من يشاء ما يشاء ، ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى : ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وقوله : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ : وهذه الآية هى المشار إليها فى حديث العرباض ابن سارية : أنها أفضل من ألف آية .

(١) المسند (١٢٨/٤) وسنن أبي داود برقم (٥٠٥٧) وسنن الترمذى برقم (٣٤٠٦) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٢٦) .

(٢) سنن النسائى الكبرى برقم (١٠٥٥١) .

(٣) فى م ، أ : « سيأتى بيانه قريباً إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل » .

وقال أبو داود : حدثنا عباس بن عبد العظيم ، حدثنا النضر بن محمد ، حدثنا عكرمة — يعنى ابن عمار — حدثنا أبو زُمَيْل قال : سألت ابن عباس فقلت : ما شيء أجده فى صدرى ؟ قال : ما هو ؟ قلت : والله لا أتكلم به . قال : فقال لى : أشيء من شك ؟ قال — ضحك — قال : ما نجا من ذلك أحد . قال : حتى أنزل الله : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ [لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ] ^(١) ﴾ [الآية : يونس : ٩٤] قال : وقال لى : إذا وجدت فى نفسك شيئاً فقل : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ^(٢) .

وقد اختلفت عبارات المفسرين فى هذه الآية وأقوالهم على نحو من بضعة عشر قولاً .

وقال البخارى : قال يحيى : الظاهر على كل شيء علماً ، والباطن على كل شيء علماً ^(٣) .

قال شيخنا الحافظ المزى : يحيى هذا هو ابن زياد الفراء ، له كتاب سماه : « معانى القرآن » .

وقد ورد فى ذلك أحاديث ، فمن ذلك ما قال الإمام أحمد : حدثنا خلف بن الوليد ، حدثنا ابن عياش ، عن سُهَيْل بن أبى صالح ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ كان يدعو ^(٤) عند النوم : « اللهم ، رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالق الحب والنوى ، لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول ليس ^(٥) قبلك شيء ، وأنت الآخر ليس ^(٦) بعدك شيء ، وأنت الظاهر ليس فوقك شيء ، وأنت الباطن ليس دونك شيء . اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر » ^(٧) .

ورواه مسلم فى صحيحه : حدثنى زهير بن حرب ، حدثنا جرير عن سُهَيْل قال : كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام : أن يضطجع على شقه الأيمن ، ثم يقول : اللهم ، رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، فالق الحب والنوى ، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان ، أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته ، اللهم ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر .

وكان يروى ذلك ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ ^(٨) .

وقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده عن عائشة أم المؤمنين نحو هذا ، فقال : حدثنا عقبة ، حدثنا يونس ، حدثنا السرى بن إسماعيل ، عن الشعبي ، عن مسروق ، عن عائشة أنها قالت : كان رسول الله ﷺ يأمر بفراشه فيفرش له مستقبل القبلة ، فإذا أوى إليه توسد كفه اليمنى ، ثم همس — ما يدرى ما يقول — فإذا كان فى آخر الليل رفع صوته فقال : « اللهم ، رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، إله كل شيء ، ورب كل شيء ، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان ،

(١) زيادة من م .

(٢) سنن أبى داود برقم (٥١١٠) .

(٣) صحيح البخارى (٣٦١ / ١٣) « فتح » .

(٤) فى م : « يقول » .

(٥) المسند (٢ / ٤٠٤) .

(٨) صحيح مسلم برقم (٢٧١٣) .

(٥ ، ٦) فى م : « فليس » .

فالتق الحب والنوى ، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته . اللهم ، أنت الأول الذي ليس (١) قبلك شيء ، وأنت الآخر الذي ليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر » (٢) .

السرى بن إسماعيل هذا ابن عم الشعبي ، وهو ضعيف جداً ، والله أعلم .

وقال أبو عيسى الترمذى عند تفسير هذه الآية : حدثنا عبد بن حميد وغير واحد - المعنى واحد - قالوا : حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا شيبان بن عبد الرحمن ، عن قتادة قال : حدث الحسن ، عن أبي هريرة قال : بينما رسول الله ﷺ جالس وأصحابه ، إذ أتى عليهم سحاب ، فقال نبي الله ﷺ : « هل تدرون ما هذا ؟ » . قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « هذا العنان ، هذه رَوَايا الأرض تسوقه إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه » . ثم قال : « هل تدرون ما فوقكم ؟ » . قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها الرقيع ، سقف محفوظ ، وموج مكفوف » . ثم قال : « هل تدرون كم بينكم وبينها » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « بينكم وبينها خمسمائة سنة » . ثم قال : « هل تدرون ما فوق ذلك ؟ » . قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن فوق ذلك سماء (٣) بعد ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة - حتى عدّ سبع سموات - ما بين كل سماءين كما بين السماء والأرض » . ثم قال : « هل تدرون ما فوق ذلك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن فوق ذلك العرش ، وبينه وبين السماء بعد (٤) ما بين السماءين » . ثم قال : « هل تدرون ما الذى تحتكم ؟ » . قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها الأرض » . ثم قال : « هل تدون ما الذى تحت ذلك ؟ » . قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن تحتها أرضاً أخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة - حتى عدّ (٥) سبع أرضين - بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة » . ثم قال : « والذى نفس محمد بيده ، لو أنكم دكيتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله » ، ثم قرأ : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

ثم قال الترمذى : هذا حديث غريب من هذا الوجه ، ويروى عن أيوب ويونس - يعنى ابن عبيد - وعلى بن زيد قالوا : لم يسمع الحسن من أبي هريرة . وفسر بعض أهل العلم هذا الحديث فقالوا : إنما هبط على علم الله وقدرته وسلطانه ، وعلم الله وقدرته وسلطانه فى كل مكان ، وهو على العرش ، كما وصف فى كتابه . انتهى كلامه (٦) .

وقد روى الإمام أحمد هذا الحديث عن سريج ، عن الحكم بن عبد الملك ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ ، فذكره ، وعنده بعد ما بين الأرضين مسيرة سبعمائة عام ، وقال : « لو دلّيتم أحدكم بحبل إلى الأرض السفلى السابعة لهبط على الله » ، ثم قرأ : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٧) .

(١) فى م : « فليس » .

(٢) مسند أبى يعلى (٨/ ٢١٠) .

(٣) فى م : « سماء بعد سماء » .

(٤) سنن الترمذى برقم (٣٢٩٨) .

(٥) المسند (٢/ ٣٧٠) .

(٤) فى م ، أ : « مثل بعد » .

(٥) فى م : « عدد » .

ورواه ابن أبي حاتم والبخاري من حديث أبي جعفر الرازي ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن أبي هريرة ... فذكر الحديث ، ولم يذكر ابن أبي حاتم آخره وهو قوله : « لو دليتم بحبل » ، وإنما قال : « حتى عد سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمسمائة عام » ، ثم تلا : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾ .

وقال البخاري : لم يروه عن النبي ﷺ إلا أبو هريرة .

ورواه ابن جرير ، عن بشر ، عن يزيد ، عن سعيد ، عن قتادة : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۝ ﴾ ، ذكر لنا أن نبي الله ﷺ بينما هو جالس في أصحابه إذ ثار عليهم سحب ، فقال : « هل تدرون ما هذا ؟ » (١) ، وذكر الحديث مثل سياق الترمذي سواء ، إلا أنه مرسل من هذا الوجه ، ولعل هذا هو المحفوظ ، والله أعلم . وقد روى من حديث أبي ذر الغفاري ، رضى الله عنه وأرضاه ، رواه البخاري في مسنده ، والبيهقي في كتاب الأسماء والصفات (٢) ، ولكن في إسناده نظر ، وفي متنه غرابة ونكارة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقال ابن جرير عند قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ۝ ﴾ [الطلاق: ١٢] : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة قال : التقى أربعة من الملائكة بين السماء والأرض ، فقال بعضهم لبعض : من أين جئت ؟ قال أحدهم : أرسلني ربي ، عز وجل ، من السماء السابعة وتركته ثم ، قال الآخر : أرسلني ربي ، عز وجل ، من الأرض السابعة وتركته ثم ، قال الآخر : أرسلني ربي من المشرق وتركته ثم ، قال الآخر : أرسلني ربي من المغرب وتركته ثم (٣) .

وهذا [حديث] (٤) غريب جداً ، وقد يكون الحديث الأول موقوفاً على قتادة كما روى هاهنا من قوله ، والله أعلم .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝ (٥) يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ (٦) ﴾ .

يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ثم أخبر باستوائه على العرش بعد خلقهن ، وقد تقدم الكلام على هذه الآية وأشباهاها في سورة « الأعراف » (٥) بما أغنى عن إعادته هاهنا .

(١) تفسير الطبري (٢٧/١٢٤) .

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٥٠٦) من طريق أحمد بن عبد الجبار ، عن أبي معاوية ، عن الأعمش ، عن أبي نصر ، عن أبي ذر ، ومن طريق البيهقي رواه الجوزقاني في الأباطيل (١/٦٨) وقال : « هذا حديث منكر » .

(٣) تفسير الطبري (٢٨/٩٩) .

(٤) زيادة من م .

(٥) عند تفسير الآية : ٥٤ .

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من زرع ونبات وثمار ، كما قال : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

وقوله : ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : من الأمطار ، والثلوج والبرد ، والأقذار والأحكام مع الملائكة الكرام ، وقد تقدم فى سورة « البقرة » أنه ما ينزل من قطرة من السماء إلا ومعها ملك يُقررها فى المكان الذى يأمر الله به حيث يشاء تعالى .

وقوله : ﴿ وَمَا يَعْرِجُ فِيهَا ﴾ أى : من الملائكة والأعمال ، كما جاء فى الصحيح : « يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ » (١) .

وقوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أى : رقيب عليكم ، شهيد على أعمالكم حيث أنتم ، وأين كنتم ، من بر أو بحر ، فى ليل أو نهار ، فى البيوت أو القفار ، الجميع فى علمه على السواء ، وتحت بصره وسمعه ، فيسمع كلامكم ويرى مكانكم ، ويعلم سرركم ونجواكم ، كما قال : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَشْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [هود : ٥] . وقال : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ [الرعد : ١٠] ، فلا إله غيره ولا رب سواه . وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجبريل ، لما سأله عن الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وروى الحافظ أبو بكر الإسماعيلي من حديث نصر بن خزيمة بن جنادة بن محفوظ بن علقمة ، حدثنى أبى ، عن نصر بن علقمة ، عن أخيه ، عن عبد الرحمن بن عائذ قال : قال عمر : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : زدنى كلمة أعيش بها . فقال : « استَحِ الله كما تستحى رجلاً من صالحِ عشيرتك لا يفارقك » (٢) .

هذا حديث غريب ، وروى أبو نعيم من حديث عبد الله بن معاوية الغاضرى مرفوعاً : « ثلاث من فَعَلَهُنَّ فَقَدْ طَعِمَ الْإِيمَانَ : من عبد الله وحده ، وأعطى زكاة ماله طيبةً بها نفسه فى كل عام ، ولم يعط الهرمة ولا الدرنه ، ولا الشرط اللثيمة ولا المريضة ، ولكن من أوسط أموالكم . وزكى نفسه » . وقال رجل : يا رسول الله ، ما تركية المرء نفسه ؟ فقال : « يعلم أن الله معه حيث كان » (٣) .

وقال نعيم بن حماد ، رحمه الله : حدثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار الحمصى ، عن محمد بن مهاجر ، عن عروبة بن رُويم ، عن عبد الرحمن بن غنم ، عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت » . غريب (٤) .

(١) صحيح مسلم برقم (١٧٩) من حديث أبى موسى الأشعرى ، رضى الله عنه .
(٢) وذكره المؤلف فى مسند عمر بن الخطاب (٦٠٩/٢) من طريق الإسماعيلي وقال : « إسناده غريب ، وفى حديث القدر : « فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وله شاهد من حديث سعيد بن يزيد عن ابن عم له قال : قلت : يا رسول الله أوصنى ، قال : « استح من الله كما تستحى من الرجل الصالح من قومك » . أخرجه مجشلى فى تاريخ واسط (ص ٢٠٩) .

(٣) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٩٦/٤) من طريق الزبيدى عن يحيى بن جابر ، أن عبد الرحمن بن جبير حدثه أن أباه حدثه أن عبد الله بن معاوية الغاضرى به ، ورواه أبو داود من طريق الزبيدى عن يحيى بن جابر ، عن جبير بن نفير به نحوه ، والأول أصح .

(٤) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٧) « مجمع البحرين » عن مطلب ، عن نعيم بن حماد به وقال : « تفرد به عثمان » .

وكان الإمام أحمد ينشد هذين البيتين :

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ : عَلَى رَقِيبٍ
وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ يَغْفِلُ سَاعَةً وَلَا أَنْ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ

وقوله : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أى : هو المالك للعالمين والآخرة ، كما قال : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ [الليل: ١٣] ، وهو المحمود على ذلك ، كما قال : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ﴾ [القصص: ٧٠] ، وقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [سبأ: ١] . فجميع ما فى السموات والأرض ملك له ، وأهلها عبيد أرقاء أذلاء بين يديه كما قال : ﴿ إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٣-٩٥] . ولهذا قال : ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أى : إليه المرجع يوم القيامة ، فيحكم فى خلقه بما يشاء ، وهو العادل الذى لا يجوز ولا يظلم مثقال ذرة ، بل إن يكن أحدهم عمل حسنة واحدة يضاعفها إلى عشر أمثالها ، ﴿ وَيُؤْتِ مَنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠] . وكما قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] .

وقوله : ﴿ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ أى : هو المتصرف فى الخلق ، يقلب الليل والنهار ويقدرهما بحكمته كما يشاء ، فتارة يطول الليل ويقصر النهار ، وتارة بالعكس ، وتارة يتركهما معتدلين . وتارة يكون الفصل شتاء ثم ربيعاً ثم قيظاً ثم خريفاً ، وكل ذلك بحكمته وتقديره لما يريد به خلقه ، ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى : يعلم السرائر وإن دقت ، وإن خفيت .

﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (٧) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لَتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) .

= ورواه أبو نعيم فى الحلية (١٢٤/٦) عن الطبرانى ، عن يحيى بن عثمان ، عن نعيم بن حماد به ، وقال : « غريب من حديث عروة لم نكتبه إلا من حديث محمد بن مهاجر » . وعثمان بن سعيد لم يعرفه الهيثمى فى المجمع (٦٠/١) ، وذكره ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل (١٥٢/٦) ونقل عن يحيى بن معين أنه ثقة .

أمر تعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل ، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار ، وحث على الإنفاق مما جعلكم مستخلفين فيه ، أى : مما هو معكم على سبيل العارية ، فإنه قد كان فى أيدي من قبلكم ثم صار إليكم ، فأرشد تعالى إلى استعمال ما استخلفهم فيه من المال فى طاعته ، فإن ^(١) يفعلوا وإلا حاسبهم عليه وعاقبهم لتركهم الواجبات فيه .

وقوله : ﴿ مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ : فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفاً عنك ، فلعل وارثك أن يطيع الله فيه ، فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك ، أو يعصى الله فيه فتكون قد سعت فى معاونته على الإثم والعدوان .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، سمعت قتادة يحدث ، عن مُطَرِّفٍ - يعنى ابن عبد الله بن الشَّخِير - عن أبيه قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : « ﴿ أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ ﴾ [التكاثر: ١] ، يقول ابن آدم : مالى مالى ! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأَمْضيت ؟ » .

ورواه مسلم من حديث شعبة ، به ^(٢) ، وزاد : « وما سوى ذلك فذهاب وتاركة للناس » .

وقوله : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ترغيب فى الإيمان والإنفاق فى الطاعة ، ثم قال : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾ ؟ أى : وأى شئ يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم ، يدعوكم إلى ذلك ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به ؟ . وقد روي فى الحديث من طُرُق فى أوائل شرح « كتاب الإيمان » من صحيح البخارى : أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه : « أى المؤمنين أعجب إليكم إيماناً ؟ » قالوا : الملائكة . قال : « وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟ » قالوا : فالأنبياء . قال : « وما لهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم ؟ » . قالوا : فنحن ؟ قال : « وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيماناً قوم يجيئون بعدكم ، يجدون صُحُفاً يؤمنون بما فيها » ^(٣) .

وقد ذكرنا طرفاً من هذا فى أول سورة « البقرة » عند قوله : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ [البقرة: ٣] .

وقوله : ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ ﴾ كما قال : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [المائدة: ٧] . ويعنى بذلك : بيعة الرسول ﷺ .

وزعم ابن جرير : أن المراد بذلك الميثاق الذى أخذ عليهم فى صلب آدم ، وهو مذهب مجاهد ، فالله أعلم .

وقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أى : حججاً واضحة ، ودلائل باهرات ، وبراهين قاطعات ، ﴿ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أى : من ظلمات الجهل والكفر ، والآراء

(١) فى م : « وإن لم » .

(٢) المسند (٢٤/٤) وصحيح مسلم برقم (٢٩٥٨) .

(٣) سبق تخريج الحديث عند تفسير الآية ٣ من سورة البقرة .

المتضادة إلى نور الهدى واليقين والإيمان ، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أى : فى إنزاله الكتب وإرساله الرسل لهداية الناس ، وإزاحة العلل وإزالة الشبهة .

ولما أمرهم أولاً بالإيمان والإنفاق ، ثم حثهم على الإيمان ، وبين أنه قد أزال عنهم موانعه ، حثهم^(١) أيضاً على الإنفاق فقال : ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى : أنفقوا ولا تخشوا فقراً^(٢) وإقلاقاً ، فإن الذى أنفقتم فى سبيله هو مالك السموات والأرض ، ويده مقاليدهما ، وعنده خزائنها ، وهو مالك العرش بما حوى ، وهو القائل : ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩] ، وقال : ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] فمن توكل على الله أنفق ، ولم يخش من ذى العرش إقلاقاً ، وعلم أن الله سيخلفه عليه :

وقوله : ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ﴾ أى : لا يستوى هذا ومن لم يفعل كفعله ، وذلك أن قبل فتح مكة كان الحال شديداً ، فلم يكن يؤمن حيثئذ إلا الصديقون ، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ؛ ولهذا قال : ﴿أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ .

والجمهور على أن المراد بالفتح هاهنا فتح مكة . وعن الشعبى وغيره أن المراد بالفتح هاهنا : صلح الحديبية ، وقد يستدل لهذا القول بما قال الإمام أحمد :

حدثنا أحمد بن عبد الملك ، حدثنا زهير ، حدثنا حميد الطويل ، عن أنس قال : كان بين خالد ابن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيرون علينا بأيام سبقتونا بها ؟ فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي ﷺ فقال : «دعوا لى أصحابى ، فوالذى نفسى بيده ، لو أنفقتم مثل أحد - أو : مثل الجبال - ذهباً ، ما بلغت أعمالهم»^(٣) .

ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجه بهذا الخطاب كان بين صلح الحديبية وفتح مكة ، وكانت هذه المشاجرة بينهما فى بنى جذيمة الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد بعد الفتح ، فجعلوا يقولون : «صبأنا ، صبأنا» ، فلم يحسنوا أن يقولوا : «أسلمنا» ، فأمر خالد بقتلهم وقتل من أسر منهم ، فخالفه عبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن عمر وغيرهما . فاختصم خالد وعبد الرحمن بسبب ذلك^(٤) .

والذى فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : «لا تسبوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده ، لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»^(٥) .

وروى ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، من حديث ابن وهب : أخبرنا هشام بن سعد ، عن زيد بن

(١) فى م : «ثم حثهم» . (٢) فى أ : «قرأ» .

(٣) المسند (٢٦٦/٣) .

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧١٨٩) من حديث ابن عمر ، رضى الله عنه .

(٥) صحيح البخارى برقم (٣٦٧٣) وصحيح مسلم برقم (٢٥٤١) من حديث أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه .

أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخدري أنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية ، حتى إذا كنا بعسفان قال رسول الله ﷺ : « يوشك أن يأتي قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم » . فقلنا : من هم يا رسول الله ؟ أقرش ؟ قال : « لا ، ولكن أهل اليمن ، هم أرق أفئدة وألين قلوباً » . فقلنا : هم خير منا يا رسول الله ؟ قال : « لو كان لأحدهم جبل من ذهب فأنفقه ، ما أدرك مدّ أحدكم ولا نصيفه ، ألا إن هذا فضل ما بيننا وبين الناس ، ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ » (١) .

[وهذا الحديث غريب بهذا السياق ، والذي في الصحيحين من رواية جماعة ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد - ذكر الخوارج - : « تحقرون صلاتكم مع صلاتهم ، وصيامكم مع صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » (٢) . الحديث . ولكن روى ابن جرير هذا الحديث من وجه آخر ، فقال :

حدثني ابن البرقي ، حدثنا ابن أبي مريم ، أخبرنا محمد بن جعفر ، أخبرني زيد بن أسلم ، عن أبي سعيد التمار ، عن أبي سعيد الخدري : أن رسول الله ﷺ قال : « يوشك أن يأتي قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم » . قلنا : من هم يا رسول الله ؟ قرش ؟ قال : « لا ، ولكن أهل اليمن ، لأنهم أرق أفئدة ، وألين قلوباً » . وأشار بيده إلى اليمن ، فقال : « هم أهل اليمن ، ألا إن الإيمان يمان ، والحكمة يمانية » . فقلنا : يا رسول الله ، هم خير منا ؟ قال : « والذي نفسي بيده ، لو كان لأحدهم جبل من ذهب ينفقه ما أدى مدّ أحدكم ولا نصيفه » . ثم جمع أصابعه ومد خنصره ، وقال : « ألا ، إن هذا فضل ما بيننا وبين الناس ، ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ » (٣) (٤) .

فهذا السياق ليس فيه ذكر الحديبية ، فإن كان ذلك محفوظاً كما تقدم ، فيحتمل أنه أنزل قبل الفتح إخباراً عما بعده ، كما في قوله تعالى في سورة « المزمل » - وهي مكية ، من أوائل ما نزل - : ﴿ وَآخَرُونَ يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الآية [المزمل : ٢٠] فهي بشارة بما يستقبل ، وهكذا هذه . والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ يعني : المنفقين قبل الفتح وبعده ، كلهم لهم ثواب على ما عملوا ، وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء ، كما قال : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٩٥] . وهكذا (٥) الحديث الذي في الصحيح : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ،

(١) تفسير الطبري (١٢٧/٢٧) .

(٢) صحيح البخاري برقم (٦٩٣١) وصحيح مسلم برقم (١٠٦٤) .

(٣) زيادة من م ، أ .

(٤) تفسير الطبري (١٢٧/١٧) .

(٥) في م ، أ : « وهذا » .

وفى كل خير^(١)، وإنما نبّه بهذا لئلا يُهدرَ جانب الآخر بمدح الأول دون الآخر ، فيتوهم متوهم ذمه ؛ فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه ، مع تفضيل الأول عليه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أى : فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، ومن فعل ذلك بعد ذلك ، وما ذلك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام ، وإنفاقه فى حال الجهد والقلّة والضيق . وفى الحديث : « سبق درهم مائة ألف »^(٢) . ولا شك عند أهل الإيمان أن الصديق أبا بكر ، رضى الله عنه ، له الحظ الأوفر من هذه الآية ، فإنه سيّد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء ، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله ، عز وجل ، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها .

وقد قال أبو محمد الحسين بن مسعود البغوى عند تفسير هذه الآية : أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي^(٣) ، أخبرنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى ، أخبرنا عبد الله بن حامد بن محمد ، أخبرنا أحمد بن إسحاق بن أيوب ، أخبرنا محمد بن يونس ، حدثنا العلاء بن عمرو الشيبانى ، حدثنا أبو إسحاق الفزارى ، حدثنا سفيان بن سعيد ، عن آدم بن على ، عن ابن عمر قال : كنت عند النبي ﷺ وعنده أبو بكر الصديق ، وعليه عباءة قد خلّتها فى صدره بخلال ، فنزل جبريل فقال : مالى أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلّتها فى صدره بخلال ؟ فقال : « أنفق ماله علىّ قبل الفتح » . قال : فإن الله يقول : اقرأ عليه السلام ، وقل له : أراض أنت عنيّ فى فقرك هذا أم ساخط ؟ فقال رسول الله : « يا أبا بكر ، إن الله يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : أراض أنت عنيّ فى فقرك هذا أم ساخط ؟ » فقال : أبو بكر ، رضى الله عنه : أسخط علىّ ربى عز وجل ؟ ! إني عن ربى راض^(٤) .

هذا الحديث ضعيف الإسناد من هذا الوجه .

وقوله : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ قال عمر بن الخطاب : هو الإنفاق فى سبيل الله ، قيل : هو النفقة على العيال . والصحيح أنه أعم من ذلك ، فكل من أنفق فى سبيل الله بنية خالصة وعزيمة صادقة ، دخل فى عموم هذه الآية ؛ ولهذا قال : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾^(٥) [البقرة: ٢٤٥] أى : جزاء جميل ، ورزق باهر — وهو الجنة — يوم القيامة .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا خلف بن خليفة ، عن حميد الأعرج ، عن عبد الله بن الحارث ، عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ قال أبو الدحداح الأنصارى : يا رسول الله ، وإن الله ليريد منا القرض ؟ قال : « نعم ، يا أبا الدحداح » . قال : أرني يدك يا رسول الله . قال : فناوله يده ، قال : فإنى قد أقرضت ربى حائطى — وله حائط^(٦) فيه ستمائة نخلة ، وأم الدحداح فيه وعيالها — قال : فجاء

(١) صحيح مسلم برقم (٢٦٦٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) رواه النسائى فى السنن (٥٩/٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) فى أ : « الشرعى » .

(٤) معالم التنزيل للبغوى (٣٤/٨) وفيه : « إني عن ربى راض » مرتين ، ووجه ضعفه أنه فى العلاء بن عمرو . قال ابن حبان : « يروى عن

أبى إسحاق الفزارى العجائب ، لا يجوز الاحتجاج به بحال » وساق الحديث .

(٥) فى أ ، م ، هـ : « أضغافاً كثيرة وله أجر كريم » وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه .

(٦) فى أ : « وحائط له » .

أبو الدحداح فنادها : يا أم الدحداح . قالت : ليك . فقال : اخرجي ، فقد أقرضته ربي ، عز وجل - وفي رواية : أنها قالت له : ربح بيعك يا أبا الدحداح . ونقلت منه متاعها وصبيانها ، وأن رسول الله ﷺ قال : « كم من عَذَق رَدَّاح في الجنة لأبي الدحداح » . وفي لفظ : « رب نخلة مدلاة عروقها درّ ويقوت ، لأبي الدحداح في الجنة » (١) .

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) ينادونهم أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥) .

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المتصدقين : أنهم (٢) يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم في عَرَصات القيامة ، بحسب أعمالهم ، كما قال عبد الله بن مسعود في قوله : ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم ﴾ ، قال : على قدر أعمالهم يمرون على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه يتقد مرة ويطلقاً مرة (٣) . ورواه ابن أبي حاتم ، وابن جرير .

وقال قتادة : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول : « من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن أبين وصنعاء فدون ذلك ، حتى إن من المؤمنين من يضيء نوره موضع قدميه » (٤) .

وقال سفيان الثوري ، عن حصين ، عن مجاهد عن جنادة بن أمية قال : إنكم مكتوبون عند الله بأسمائكم ، وسماكم وحلاككم ، ونجواكم ومجالسكم ، فإذا كان يوم القيامة قيل : يا فلان ، هذا نورك . يا فلان ، لا نور لك . وقرأ : ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم ﴾ .

وقال الضحاك : ليس لأحد إلا يعطى نوراً يوم القيامة ، فإذا انتهوا إلى الصراط طُفئ نور المنافقين ، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طُفئ نور المنافقين ، فقالوا : ربنا ، أقم لنا نورنا .

وقال الحسن [في قوله] (٥) : ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم ﴾ : يعني : على الصراط .

(١) ورواه أبو يعلى في مسنده (٤٠٤/٨) عن محرز بن عون ، عن خلف بن خليفة به ، وضعفه الحافظ ابن حجر في المطالب العالية برقم (٤٠٨٠) كما ذكره المحقق الفاضل حسين أسد .

(٢) في م : « أنه » . (٣) في م : « ويطفاً أخرى » .

(٤) تفسير الطبري (١٢٨/٢٧) .

(٥) زيادة من أ .

وقد قال ابن أبي حاتم ، رحمه الله : حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب ، أخبرنا عمي ^(١) ، عن يزيد بن أبي حبيب ، عن سعد ^(٢) بن مسعود : أنه سمع عبد الرحمن بن جُبَيْر يحدث : أنه سَمِعَ أبا الدرداء وأبا ذر يخبران عن النبي ﷺ قال : « أنا أول من يؤذن له يوم القيامة بالسجود ، وأول من يؤذن له برفع رأسه ، فأنظر من بين يدي ومن خلفي ، وعن يميني وعن شمالي ، فأعرف أمتي من بين الأمم » . فقال له رجل : يا نبي الله ، كيف تعرف أمتك من بين الأمم ، ما بين نوح إلى أمتك؟ قال : « أعرفهم ، مُحَجَّلُونَ من أثر الوضوء ، ولا يكون لأحد من الأمم غيرهم ، وأعرفهم يُؤْتُونَ كتبهم بأيمانهم ، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم ، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم وذريتهم ^(٣) » ^(٤) .

وقوله : ﴿ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ : قال الضحاك : أى وبأيمانهم كتبهم ، كما قال : ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِإِيمَانِهِ ﴾ [الإسراء: ٧١] .

وقوله : ﴿ بُشْرَاكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أى : يقال لهم : بشراكم اليوم جنات ، أى : لكم البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار ، ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى : ماكثين فيها أبداً ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِسْ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ : وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة فى العرصات من الأحوال المزعجة، والزلازل العظيمة، والأمر الفظيعة ^(٥) ، وإنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله ، وعمل بما أمر الله ، وترك ما عنه زجر .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبدة بن سليمان ، حدثنا ابن المبارك ، حدثنا صفوان بن عمرو ، حدثنى سليم بن عامر قال : خرجنا على جنازة فى باب دمشق ، ومعنا أبو أمامة الباهلى ، فلما صلى على الجنازة وأخذوا فى دفنها ، قال أبو أمامة : أيها الناس ، إنكم قد أصبحتم وأمسيتم فى منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات ، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر ، وهو هذا - يشير إلى القبر - بيت الوحدة ، وبيت الظلمة ، وبيت الدود ، وبيت الضيق ، إلا ما وسع الله ، تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة ، فإنكم فى بعض تلك المواطن [حتى] ^(٦) يغشى الناس أمر من الله ، فتبيض وجوه وتسود وجوه ، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر فتغشى الناس ظلمة شديدة ، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نوراً ، ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئاً ، وهو المثل الذى ضربه الله فى كتابه ، قال : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور: ٤٠] ، فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضيء الأعمى بنور ^(٧) البصير ، ويقول المنافقون للذين آمنوا : ﴿ انظُرُونَا نَقْتِسِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً ﴾ ، وهى خدعة الله التى خدع

(١) فى أ : « أخى » . (٢) فى م : « سعيد » . (٣) فى م : « وبأيمانهم » .

(٤) ورواه الحاكم فى المستدرک (٤٧٨/٢) من طريق عبد الله بن صالح ، عن الليث بن سعد ، عن يزيد بن أبى حبيب به نحوه ، وله طريق آخر سيأتى عند تفسير سورة التحريم .

(٥) فى أ : « العظيمة » . (٦) فى هـ : « يوم » ، والمثبت من م ، أ . (٧) فى م : « يبصر » .

بها المنافقين ^(١) حيث قال : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٢] . فيرجعون إلى المكان الذى قسم فيه النور ، فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب ، ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ الآية . يقول سليم بن عامر : فما يزال المنافق مغترّاً حتى يقسم النور، ويميز الله بين المؤمن والمنافق .

ثم قال : حدثنا أبى ، حدثنا يحيى بن عثمان ، حدثنا ابن حيوه ، حدثنا أرطاة بن المنذر ، حدثنا يوسف بن الحجاج ، عن أبى أمامة قال : تَبَعْتُ ظِلْمَةَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فما من مؤمن ولا كافر يرى كفه ، حتى يبعث الله بالنور إلى المؤمنين بقدر أعمالهم ، فيتبعهم المنافقون فيقولون : ﴿ انظُرُونَا نَقْتَسِبْ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ .

وقال العوفى ، والضحاك ، وغيرهما ، عن ابن عباس : بينما الناس فى ظلمة إذ بعث الله نوراً، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه ، وكان النور ^(٢) دليلاً من الله إلى الجنة ، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا اتبعوهم ، فأظلم الله على المنافقين ، فقالوا حينئذ : ﴿ انظُرُونَا نَقْتَسِبْ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ ، فإننا كنا معكم فى الدنيا . قال المؤمنون : ﴿ ارْجِعُوا ﴾ من حيث جئتم من الظلمة ، فالتمسوا هنالك النور .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا الحسن بن علوية القطان ، حدثنا إسماعيل بن عيسى العطار، حدثنا إسحاق بن بشر أبو ^(٣) حذيفة ، حدثنا ابن جريج ، عن ابن أبى مليكة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم سترأ منه على عباده ، وأما عند الصراط فإن الله يعطى كل مؤمن نوراً ، وكل منافق نوراً ، فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات ، فقال المنافقون : ﴿ انظُرُونَا نَقْتَسِبْ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ . وقال المؤمنون : ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ [التحریم: ٨] . فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً » ^(٤) .

وقوله : ﴿ فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ : قال الحسن ، وقتادة : هو حائط بين الجنة والنار .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هو الذى قال الله تعالى : ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ [الأعراف: ٤٦] . وهكذا روى عن مجاهد ، رحمه الله ، وغير واحد ، وهو الصحيح .
﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ أى : الجنة وما فيها ﴿ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ أى : النار . قاله قتادة ، وابن زيد ، وغيرهما .

قال ابن جرير : وقد قيل : إن ذلك السور سورُ بيت المقدس عند وادى جهنم . ثم قال : حدثنا ابن البرقى ، حدثنا عمرو بن أبى سلمة ، عن سعيد بن عطية بن قيس ، عن أبى العوام —

(١) فى م : « المنافقون » وهو خطأ . (٢) فى م ، أ : « النور لهم » .

(٣) فى م ، أ ، هـ : « ابن » ، والصواب ما أثبتناه من المعجم الكبير .

(٤) المعجم الكبير (١١ / ١٢٢) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٣٩٥) : « فيه إسحاق بن بشر وهو متروك » .

مؤذن بيت المقدس — قال : سمعت عبد الله بن عمرو يقول : إن السور الذى ذكر ^(١) الله فى القرآن : ﴿ فَضْرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ هو السور الشرقى باطنه المسجد وما يليه ، وظاهره وادى جهنم .

ثم روى عن عبادة بن الصامت ، وكعب الأحبار ، وعلى بن الحسين زين العابدين ، نحو ذلك . وهذا محمول منهم على أنهم أرادوا بهذا تقريب المعنى ومثالاً لذلك ، لا أن هذا هو الذى أريد من القرآن هذا الجدار المعين ونفس المسجد وما وراءه من الوادى المعروف بوادى جهنم ؛ فإن الجنة فى السموات فى أعلى عليين ، والنار فى الدركات أسفل سافلين . وقول كعب الأحبار : إن الباب المذكور فى القرآن هو باب الرحمة الذى هو أحد أبواب المسجد ، فهذا من إسرائيلياته وتُرّهاته . وإنما المراد بذلك : سورٌ يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين ، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه ، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب وبقي المنافقون من ورائه فى الحيرة والظلمة والعذاب ، كما كانوا فى الدار الدنيا فى كفر وجهل وشك وحيرة ﴿ ينادونهم أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ﴾ أى : ينادى المنافقون المؤمنين : أما ^(٢) كنا معكم فى الدار الدنيا ، نشهد معكم الجمعات ، ونصلى معكم الجماعات ، ونقف معكم بعرفات ، ونحضر معكم الغزوات ، ونؤدى معكم سائر الواجبات ؟ ﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ أى : فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين : بلى ، قد كنتم معنا ، ﴿ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ ، قال بعض السلف : أى فتتم أنفسكم باللذات والمعاصى والشهوات ﴿ تَرَبَّصْتُمْ ﴾ أى : أخرتم التوبة من وقت إلى وقت .

وقال قتادة : ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ بالحق وأهله ﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ أى : بالبعث بعد الموت ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ أى : قلتم : سيغفر لنا . وقيل : غرتكم الدنيا ﴿ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أى : ما زلت فى هذا حتى جاء الموت ﴿ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ أى : الشيطان .

قال قتادة : كانوا على خدعة من الشيطان ، والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله فى النار .

ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين : أنكم كنتم معنا [أى] ^(٣) : بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها ، وإنما كنتم فى حيرة وشك ، فكتمتم تراؤون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلاً .

قال مجاهد : كان المنافقون مع المؤمنين أحياء يناكحونهم ويغشونهم ويعاشرونهم ، وكانوا معهم أمواتاً ، ويعطون النور جميعاً يوم القيامة ، ويطفأ النور من المنافقين إذا بلغوا السور ، ويمار بينهم حيثئذ .

وهذا القول من المؤمنين لا ينافى قولهم الذى أخبر الله به عنهم ، حيث يقول — وهو أصدق القائلين — : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ . فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ الْمُجْرِمِينَ . مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ . قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ . وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ . وَكُنَّا

(٣) زيادة من م .

(٢) فى م : « إنا » .

(١) فى م : « ذكره » .

نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ . حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿ [المدرثر: ٣٨ - ٤٧] ، فهذا إنما خرج منهم على وجه التقرير لهم والتوبيخ . ثم قال تعالى : ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [المدرثر: ٤٨] ، كما قال تعالى هاهنا : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدى به من عذاب الله ، ما قبل منه .

وقوله : ﴿ مَاوَاكُمُ النَّارُ ﴾ أى : هى مصيركم وإليها منقلبكم .

وقوله : ﴿ هِيَ مَوْلَاكُمْ ﴾ أى : هى أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيا بكم ، وبشس المصير .

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (١٦) اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) .

يقول الله تعالى : أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله ، أى : تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن ، تفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه .

قال عبد الله بن المبارك : حدثنا صالح المرمى ، عن قتادة ، عن ابن عباس أنه قال : إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة ، من نزول القرآن ، فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ الآية ، رواه ابن أبى حاتم ، عن الحسن بن محمد بن الصباح ، عن حسين المروزى ، عن ابن المبارك ، به .

ثم قال هو ومسلم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث ، عن سعيد بن أبى هلال - يعنى الليث - عن عون بن عبد الله ، عن أبىه ، عن ابن مسعود ، رضى الله عنه ، قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الآية] (١) إلا أربع سنين (٢) .

كذا رواه مسلم فى آخر الكتاب . وأخرجه النسائى عند تفسير هذه الآية ، عن هارون بن سعيد الأيلى ، عن ابن وهب ، به (٣) . وقد رواه ابن ماجة من حديث موسى بن يعقوب الزمعى (٤) ، عن أبى حزم ، عن عامر بن عبد الله بن الزبير ، عن أبىه ، مثله (٥) . فجعله من مسند ابن الزبير . لكن رواه البزار فى مسنده من طريق موسى بن يعقوب ، عن أبى حازم ، عن عامر ، عن ابن الزبير ،

(١) زيادة من م .

(٢) صحيح مسلم برقم (٣٠٢٧) .

(٣) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٦٨) .

(٤) فى أ : « الربعى » .

(٥) سنن ابن ماجة برقم (٤١٩٢) .

عن ابن مسعود ، فذكره (١) .

وقال سفيان الثوري ، عن المسعودي ، عن القاسم قال : مَلَّ أصحاب رسول الله ﷺ ملة ، فقالوا : حدثنا يا رسول الله . فأنزل الله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ [يوسف: ٣] قال : ثم ملّوا ملة فقالوا : حدثنا يا رسول الله ، فأنزل الله تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ [الزمر: ٢٣] . ثم ملّوا ملة فقالوا : حدثنا يا رسول الله . فأنزل الله : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (٢) .

وقال قتادة : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ : ذُكِرَ لَنَا أَنَّ شَدَادَ بْنَ أَوْسٍ كَانَ يَرُوي عن رسول الله ﷺ قال : « إِنْ أَوَّلُ مَا يَرِفَعُ (٣) مِنَ النَّاسِ الْخُشُوعُ » (٤) .

وقوله : ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ : نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى ، لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم ، واشتروا به ثمناً قليلاً ، ونبذوه وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المؤتلفة ، وقلدوا الرجال في دين الله ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، فعند ذلك قست قلوبهم ، فلا يقبلون موعظة ، ولا تلين قلوبهم بوعده ولا وعيد .

﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أى : فى الأعمال ، فقلوبهم فاسدة ، وأعمالهم باطلة . كما قال : ﴿ فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [المائدة: ١٣] ، أى : فسدت قلوبهم فقست وصار من سجيته تحريف الكلم عن مواضعه ، وتركوا الأعمال التى أمروا بها ، وارتكبوا مانهو عنه ؛ ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم فى شىء من الأمور الأصلية والفرعية .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا شهاب بن خراش ، حدثنا حجاج بن دينار ، عن منصور بن المعتمر ، عن الربيع بن عميلة الفزارى قال : حدثنا عبد الله بن مسعود حديثاً ما سمعت أعجب إلى منه ، إلا شيئاً من كتاب الله - أو : شيئاً قاله النبى ﷺ - قال : « إِنْ بَنَى إِسْرَائِيلُ لِمَا طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ اخْتَرَعُوا كِتَاباً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ، اسْتَهْوَتْهُ قُلُوبُهُمْ وَاسْتَحْلَتْهُ أَلْسِنَتُهُمْ (٥) وَاسْتَلْذَتَهُ ، وَكَانَ الْحَقُّ يَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ كَثِيرٍ مِنْ شَهَوَاتِهِمْ فَقَالُوا : تَعَالَوْا نَدْعُ

(١) مسند البزار برقم (١٤٤٣) وقال : « لا نعلم روى ابن الزبير عن ابن مسعود إلا هذا الحديث » .

(٢) روى ابن جرير فى تفسيره (٥٥٢/١٥) ط - المعارف ، من طريق المسعودى عن عون بن عبد الله نحوه مرسلأ دون ذكر الشاهد هنا .

(٣) فى أ : « يرفع الله » .

(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣١/٢٧) ووصله الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٩٥/٧) فرواه من طريق عمران القطان ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن شداد بن أوس مرفوعاً به ، وعمران القطان متكلم فيه .

(٥) فى أ : « أنفسهم » .

بنى إسرائيل إلى كتابنا هذا ، فمن تابعنا عليه تركناه ، ومن كره أن يتابعنا ^(١) قتلناه . ففعلوا ذلك ، وكان فيهم رجل فقيه ، فلما رأى ما يصنعون عمداً إلى ما يعرف من كتاب الله فكتبه فى شىء لطيف ، ثم أدرجه ، فجعله فى قرن ثم علق ذلك القرن فى عنقه ، فلما أكثروا القتل قال بعضهم لبعض : يا هؤلاء ، إنكم قد أفشيتم القتل فى بنى إسرائيل ، فادعوا فلانا فاعرضوا عليه كتابكم ، فإنه إن تابعكم فسيتابعكم بقية الناس ، وإن أبى فاقتلوه . فدعوا فلاناً ذلك الفقيه فقالوا : تؤمن بما فى كتابنا ؟ قال : وما فيه ؟ اعرضوه علىّ . فعرضوه عليه إلى آخره ، ثم قالوا : أتؤمن بهذا ؟ قال : نعم ، آمنت بما فى هذا وأشار بيده إلى القرن - فتركوه ، فلما مات نبشوه فوجدوه متعلّقاً ^(٢) ذلك القرن ، فوجدوا فيه ما يعرف من كتاب الله ، فقال بعضهم لبعض : يا هؤلاء ، ما كنا نسمع هذا أصابه فتنة . فافتقرت بنو إسرائيل على ثنتين وسبعين ملة ، وخير مللهم ملة أصحاب ذى القرن .

قال ابن مسعود : [وإنكم] ^(٣) أوشك بكم إن بقيتم - أو : بقى من بقى منكم ^(٤) - أن تروا أموراً تنكرونها ، لا تستطيعون لها غيراً ، فبحسب المرء منكم أن يعلم الله من قلبه أنه لها كاره .

وقال أبو جعفر الطبرى : حدثنا ابن ^(٥) حميد ، حدثنا جرير ، عن مغيرة ، عن أبى معشر ، عن إبراهيم قال : جاء عتريس بن عرقوب ^(٦) إلى ابن مسعود فقال : يا عبد الله ^(٧) ، هلك من لم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . فقال عبد الله : هلك من لم يعرف قلبه معروفاً ولم ينكر قلبه منكراً ؛ إن بنى إسرائيل لما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم ، اخترعوا كتاباً من بين أيديهم وأرجلهم ، استهوتهم قلوبهم واستحلته ألسنتهم ، وقالوا : نعرض بنى إسرائيل على هذا الكتاب فمن آمن به تركناه ، ومن كفر به قتلناه . قال : فجعل رجل منهم كتاب الله فى قرن ، ثم جعل القرن بين ثنودتيه فلما قيل له : أتؤمن بهذا ؟ قال : آمنت به - ويومئ إلى القرن بين ثنودتيه - ومالى لا أومن بهذا الكتاب ؟ فمن خير مللهم اليوم ملة صاحب القرن ^(٨) .

وقوله : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ : فيه إشارة إلى أنه ، تعالى ، يلين القلوب بعد قسوتها ، ويهدى الحيارى بعد ضلّتها ، ويفرّج الكرب بعد شدتها ، فكما يحيى الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتّان [الوابل] ^(٩) ، كذلك يهدى القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل ، ويولج إليها النور بعد ما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل ، فسبحان الهادى لمن يشاء بعد الإضلال ، والمضل لمن أراد بعد الكمال ، الذى هو لما يشاء فعال ، وهو الحكم العدل فى جميع الفعال ، اللطيف الخبير الكبير المتعال .

(١) فى أ : « يتابعنا عليه » .
(٢) فى أ : « معلقاً » .
(٣) زيادة من م .
(٤) فى م : « معكم » .
(٥) فى أ : « أبو » .
(٦) فى أ : « جابر بن سويد عن قرب » .
(٧) فى أ : « يا أبا عبد الله » .
(٨) تفسير الطبرى (٢٧ / ١٣٢) .
(٩) زيادة من أ .

﴿ إِنَّ الْمُسْدِقِينَ وَالْمُسْدَقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ (١٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩) .

يخبر تعالى عما يثيب به المصدقين والمصدقات بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والمسكنة ، ﴿ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ أى : دفعوه بنية خالصة ابتغاء وجه الله ، لا يريدون جزاء ممن أعطوه ولا شكوراً ؛ ولهذا قال : ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمْ ﴾ أى : يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها ، ويزداد على ذلك إلى سبعمائة ضعف وفوق ذلك ، ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ أى : ثواب جزيل حسن ، ومرجع صالح ومآب كريم .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ ﴾ : هذا تمام الجملة ، وصف المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون .

قال العوفي ، عن ابن عباس قوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ ﴾ : هذه مفصلة ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ .

وقال أبو الضحى : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ ﴾ ثم استأنف الكلام فقال : ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ . وهكذا قال مسروق ، والضحاك ، ومقاتل بن حيان ، وغيرهم .

وقال الأعمش عن أبي الضحى ، عن مسروق ، عن عبد الله فى قوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ قال : هم ثلاثة أصناف : يعنى المصدقين ، والصديقين ، والشهداء ، كما قال [الله] (١) تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ [النساء: ٦٩] ، ففرق بين الصديقين والشهداء ، فدل على أنهما صنفان . ولا شك أن الصديق أعلى مقاماً من الشهيد ، كما رواه الإمام مالك بن أنس ، رحمه الله ، فى كتابه الموطأ ، عن صفوان بن سليم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم ، كما تراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم » . قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : « بلى ، والذى نفسى بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » .

اتفق البخارى ومسلم على إخراجه من حديث مالك ، به (٢) .

وقال آخرون : بل المراد من قوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ فأخبر عن المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون وشهداء . حكاه ابن جرير عن مجاهد ، ثم قال ابن جرير :

(١) زيادة من أ .

(٢) صحيح البخارى برقم (٣٢٥٦) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣١) .

حدثني صالح بن حرب أو معمر ، حدثنا إسماعيل بن يحيى ، حدثنا ابن عجلان ، عن زيد بن أسلم ، عن البراء بن عازب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مؤمنو أمتي شهداء » . قال : ثم تلا ﷺ هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ [لَهُمْ أَجْرُهُمْ] ﴾ ^(١) . هذا حديث غريب ^(٢) .

وقال أبو إسحاق ، عن عمرو بن ميمون في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ قال : يجيئون يوم القيامة معاً كالإصبعين .

وقوله : ﴿ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أى : فى جنات النعيم ، كما جاء فى الصحيحين : « إن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال : ماذا تريدون ؟ فقالوا : نحب أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فىك فنقتل كما قُتلنا أول مرة . فقال : إني قضيت أنهم إليها لا يرجعون » ^(٣) .

وقوله : ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ أى : لهم عند ربهم أجر جليل ونور عظيم يسعى بين أيديهم ، وهم فى ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا فى الدار الدنيا من الأعمال ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا يحيى بن إسحاق ، حدثنا ابن لهيعة ، عن عطاء بن دينار ، عن أبى يزيد الخولاني قال : سمعت فضالة بن عبيد يقول : سمعت عمر بن الخطاب يقول : سمعت النبی ﷺ يقول : « الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان ، لقي العدو فصدق الله فقتل ، فذلك ^(٤) الذى ينظر الناس إليه هكذا — ورفع رأسه حتى سقطت قلنسوة رسول الله ﷺ أو قلنسوة عمر — والثانى مؤمن ^(٥) لقي العدو فكأنما يضرب ظهره بشوك الطلح ، جاءه سهم غرّب فقتله ، فذاك فى الدرجة الثانية ، والثالث رجل مؤمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً لقي العدو فصدق الله حتى قتل ، فذاك فى الدرجة الثالثة ، والرابع رجل مؤمن أسرف على نفسه إسرافاً كثيراً ، لقي العدو فصدق الله حتى قتل ، فذاك فى الدرجة الرابعة » ^(٦) .

وهكذا رواه على بن المدينى ، عن أبى داود الطيالسى ، عن ابن المبارك ، عن ابن لهيعة ، وقال : هذا إسناد مصرى صالح . ورواه الترمذى من حديث ابن لهيعة وقال : حسن غريب ^(٧) .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ : لما ذكر السعداء ومآلهم ، عطف بذكر الأشقياء وبين حالهم .

(١) زيادة من م .

(٢) تفسير الطبرى (٢٧ / ١٣٣) .

(٣) صحيح مسلم برقم (١٨٨٧) من حديث ابن مسعود ، رضى الله عنه ، ولم أقع عليه عند البخارى .

(٤) فى م : « فذاك » .

(٥) فى أ : « رجل » .

(٦) المسند (٢٣ / ١) .

(٧) سنن الترمذى برقم (١٦٤٤) .

﴿ اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) ﴾ .

يقول تعالى موهناً أمر الحياة الدنيا ومحقرّاً لها : ﴿ أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ أى : إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا ، كما قال : ﴿ زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَإِ ﴾ [آل عمران: ١٤] .

ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا فى أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ وهو : المطر الذى يأتى بعد قنوط الناس ، كما قال : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا [وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ] ^(١) ﴾ [الشورى: ٢٨] .

وقوله : ﴿ اَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ أى : يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذى نبت بالغيث ؛ وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار ، فإنهم أحرص شىء عليها وأميل الناس إليها ، ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ أى : يهيج ذلك الزرع فتراه مصفراً بعد ما كان خضراً ^(٢) نضراً ، ثم يكون بعد ذلك كله حطاماً ، أى : يصير ييساً متحطماً ، هكذا الحياة الدنيا تكون أولاً شابة ، ثم تكتهل ، ثم تكون عجوزاً شوهاء ، والإنسان كذلك يكون فى أول عمره وعنفوان شبابه غضاً طرياً لين الأعطاف ، بهى المنظر ، ثم إنه يشرع فى الكهولة فتتغير طباعه وينفد ^(٣) بعض قواه ، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً ، ضعيف القوى ، قليل الحركة ، يعجزه الشىء اليسير ، كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم: ٥٤] . ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة ، وأن الآخرة كائنة لا محالة ، حذر من أمرها ورغب فيما فيها من الخير ، فقال : ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ أى : وليس فى الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا وإما هذا : إما عذاب شديد ، وإما مغفرة من الله ورضوان .

وقوله : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ أى : هى متاع فانٍ غارٍ ^(٤) لمن ركن إليه ، فإنه يغتر

(١) زيادة من أ .

(٢) فى أ : « ما أخضر » .

(٣) فى أ : « ويفقد » .

(٤) فى أ : « عار » .

بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة .

قال ابن جرير : حدثنا علي بن حرب الموصلي ، حدثنا المحاربى ، حدثنا محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها . اقرؤوا : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ » (١) .

وهذا الحديث ثابت فى الصحيح بدون هذه الزيادة (٢) ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن غير ووكيع ، كلاهما عن الأعمش ، عن شقيق ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لِلْجَنَّةِ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ » . انفراد بإخراجه البخارى فى « الرقاق » ، من حديث الثورى ، عن الأعمش ، به (٣) .

ففى هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان ، وإذا كان الأمر كذلك ؛ فلهذا حثه الله (٤) على المبادرة إلى الخيرات ، من فعل الطاعات ، وترك المحرمات ، التى تكفر عنه الذنوب والزلات ، وتحصل له الثواب والدرجات ، فقال تعالى : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ : والمراد جنس السماء والأرض ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] . وقال هاهنا : ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ أى : هذا الذى أهلهم الله له هو من فضله ومنه عليهم وإحسانه إليهم ، كما قدّمنا فى الصحيح : أن فقراء المهاجرين قالوا : يارسول الله ، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم . قال : « وما ذاك ؟ » . قالوا : يُصَلُّونَ كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويعتقون ولا نُعتق . قال : « أفلا أدلكم على شىء إذا فعلتموه سبقتكم من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم : تسبحون وتكبرون وتحمدون دُبُر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين » . قال : فرجعوا فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا ، ففعلوا مثله ! فقال رسول الله ﷺ : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » (٥) .

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ

(١) تفسير الطبرى (١٣٤/٢٧) وليس فى المطبوع هذه الزيادة ، فلعل الحافظ رآها فى نسخة أخرى .

(٢) صحيح البخارى برقم (٦٤١٥) من حديث سهل بن سعد ، رضى الله عنه .

(٣) المسند (٣٨٧/١) وصحيح البخارى برقم (٦٤٨٨) .

(٤) فى م : « فلهذا حث تعالى » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٨٤٣) وصحيح مسلم برقم (٥٩٥) .

مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ .

يخبر تعالى عن قدره السابق في خلقه قبل أن يبرأ البرية ، فقال : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ ، أى : فى الآفاق وفى نفوسكم ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ أى : من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمة .

وقال بعضهم : ﴿ مَنْ قَبْلَ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ : عائد على النفوس . وقيل : عائد على المصيبة . والأحسن عوده على الخليقة والبرية ؛ لدلالة الكلام عليها ، كما قال ابن جرير :

حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن عُلَيَّةَ ، عن منصور بن عبد الرحمن قال : كنت جالسا مع الحسن ، فقال رجل : سله عن قوله : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ فسألته عنها ، فقال : سبحان الله ! ومن يشك فى هذا ؟ كل مصيبة بين السماء والأرض ، ففى كتاب الله من قبل أن يبرأ النسمة ^(١) .

وقال قتادة : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال : هى السنون . يعنى : الجَدْبُ ، ﴿ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ يقول : الأوجاع والأمراض . قال : وبلغنا أنه ليس أحد يصيبه خدش عود ولا نكبة قدم ، ولا خلجان عرق إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر .

وهذه الآية الكريمة من أدل دليل على القَدَرِية نفاة العلم السابق — قبحهم الله — وقال الإمام أحمد :

حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حيوة وابن لَهَيْعَةَ قالا : حدثنا أبو هانئ الخولاني : أنه سمع أبا عبد الرحمن الحُبْلَى يقول : سمعت عبد الله بن عَمْرٍو بن العاص يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قَدَّرَ اللَّهُ الْمَقَادِيرَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » .

ورواه مسلم فى صحيحه ، من حديث عبد الله بن وهب وحيوة بن شُرَيْح ونافع بن يزيد ، ثلاثتهم عن أبى هانئ ، به . وزاد ابن وهب : « وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ » . ورواه الترمذى وقال : حسن صحيح ^(٢) .

وقوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أى : إن علمه تعالى الأشياء قبل كونها وكتابتها لها طبق ما يوجد فى حينها ، سهل على الله ، عز وجل ^(٣) ؛ لأنه يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

(١) تفسير الطبرى (٢٧/١٣٥) .

(٢) المسند (٢/١٦٩) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٣) وسنن الترمذى برقم (٢١٥٦) .

(٣) فى ١ : « تعالى » .

وقوله : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ أى : أعلمناكم بتقديم علمنا وسبق كتابتنا ^(١) للأشياء قبل كونها ، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها ، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم ، وما أخطاكم لم يكن ليصيبكم ، فلا تأسوا على ما فاتكم ، فإنه ^(٢) لو قدر شيء لكان ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ أى : جاءكم ، ويقراً : « آتاكم » أى : أعطاكم . وكلاهما متلازمان ، أى : لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم ، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم ، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم ، فلا تتخذوا نعم ^(٣) الله أشراً وبطراً ، تفخرون بها على الناس ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ ، أى : مختال فى نفسه متكبر فخور ، أى : على غيره .

وقال عكرمة : ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ، ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً .

ثم قال : ﴿ الَّذِينَ يَخْلُونُ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ أى : يفعلون المنكر ويحضون الناس عليه ، ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ أى : عن أمر الله وطاعته ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ كما قال موسى عليه السلام : ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٨] .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٢٥) .

يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى : بالمعجزات ، والحجج الباهرات ، والدلائل القاطعات ، ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ وهو : النقل المصدق ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ وهو : العدل . قاله مجاهد ، وقتادة ، وغيرهما . وهو الحق الذى تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة ، كما قال : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ [هود: ١٧] ، وقال : ﴿ فَطَرَتِ اللَّهُ النَّبِيَّ فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠] ، وقال : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٧] ؛ ولهذا قال فى هذه الآية : ﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ أى : بالحق والعدل وهو : اتباع الرسل فيما أخبروا به ، وطاعتهم فيما أمروا به ، فإن الذى جاؤوا به هو الحق الذى ليس وراءه حق ، كما قال : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥] أى : صدقاً فى الإخبار ، وعدلاً فى الأوامر والنواهي . ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوؤوا غرف الجنات ، والمنازل العاليات ، والسرر المصفوفات : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٤٣] .

وقوله : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ أى : وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه ؛ ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية ، وكلها جدال مع المشركين ، وبيان وإيضاح للتوحيد ، وتبيان ودلائل ، فلما قامت الحجة على من

(٣) فى أ : « نعمة » .

(٢) فى م : « لانه » .

(١) فى أ : « كتابنا » .

خالف^(١) ، شرع الله الهجرة ، وأمرهم بالقتال بالسيوف ، وضرب الرقاب والهوام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده .

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود ، من حديث عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان ، عن حسان بن عطية ، عن أبي المنيب^(٢) الجرشي الشامي ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « بُعِثْتُ بالسيف بين يَدَي الساعة حتى يُعَبِّدَ الله وحده لا شريك له ، وجُعِلَ رزقي تحت ظلِّ رُمحِي ، وجُعِلَ الذلَّة والصَّغار على من خالف أمرِي ، ومن تشبَّه بقوم فهو منهم »^(٣) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ يعني : السلاح كالسيوف ، والحراب ، والسنان ، والنصال ، والدروع ، ونحوها . ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ أى : فى معاشهم كالسكة والفأس والقدوم ، والمنشار ، والإزميل ، والمجرفة ، والآلات التى يستعان بها فى الحراثة والحياكة والطبخ والخبز وما لا قوام للناس بدونه ، وغير ذلك .

قال عليّ^(٤) بن أحمد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : ثلاثة أشياء نزلت مع آدم : السندان^(٥) والكلبتان والميقعة^(٦) - يعنى المطرقة . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم .

وقوله : ﴿ وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ أى : من نيته فى حمل السلاح نصره الله ورسله ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أى : هو قوى عزيز ، ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس ، وإنما شرع الجهاد ليلو بعضهم ببعض .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُّهُتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾^(٢٦) ثُمَّ قَفَيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾^(٢٧) .

يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً ، عليه السلام ، لم يرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته ، وكذلك إبراهيم ، عليه السلام ، خليل الرحمن ، لم ينزل من السماء كتاباً ولا أرسل رسولاً ولا أوحى إلى بشر من بعده ، إلا وهو من سلالة ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ [يعنى]^(٧) : حتى كان آخر أنبياء بنى إسرائيل عيسى ابن مريم الذى بشر بعده بمحمد ، صلوات الله وسلامه عليهما ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ

(٢) فى أ : « المسبب » .

(١) فى م : « على من تخلف منهم » .

(٣) المسند (٢/ ٥٠) وسنن أبى داود برقم (٤٠٣١) .

(٥) فى أ : « السندان » .

(٤) فى أ : « قال عليّ » .

(٧) زيادة من أ .

(٦) فى م : « المدقة » ، وفى أ : « والمفعة » .

وَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ ﴿ وهو الكتاب الذى أوحاه الله إليه ﴾ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴿ وهم الحواريون ﴾ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴿ أى : رأفة وهى الخشية ﴾ وَرَحْمَةً ﴿ بالخلق .

وقوله : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾ أى : ابتدعها أمة النصارى ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أى : ما شرعناها لهم ، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم .

وقوله : ﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ : فيه قولان ، أحدهما : أنهم قصدوا بذلك رضوان الله ، قاله سعيد بن جبير ، وقتادة . والآخر : ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله .

وقوله : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أى : فما قاموا بما التزموه حق القيام . وهذا ذم لهم من وجهين ، أحدهما : فى الابتداء فى دين الله مالم يأمر به الله . والثانى : فى عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قرينة يقربهم إلى الله ، عز وجل .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا إسحاق بن أبى حمزة أبو يعقوب الرازى ، حدثنا السندى بن عبدويه ^(١) ، حدثنا بكير بن معروف ، عن مقاتل بن حيان ، عن القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله ابن مسعود ، عن أبيه ، عن جده ابن مسعود قال : قال لى رسول الله ﷺ : « يا ابن مسعود » . قلت : لبيك يا رسول الله . قال : « هل علمت أن بنى إسرائيل افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة ؟ لم ينج منها إلا ثلاث فرق ، قامت بين الملوك والجبابة بعد عيسى ابن مريم ، عليه السلام ، فدعت إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم ، فقاتلت الجبابة فقتلت فصبرت ونجت ، ثم قامت طائفة أخرى لم يكن لها قوة بالقتال ، فقامت بين الملوك والجبابة ، فدعوا إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم ، فقتلت وقطعت بالناشير وحرقت بالنيران ، فصبرت ونجت . ثم قامت طائفة أخرى لم يكن لها قوة بالقتال ولم تطق القيام بالقسط ، فلحقت بالجببال فتعبدت وترهبت ، وهم الذين ذكرهم الله ، عز وجل : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ » ^(٢) .

وقد رواه ابن جرير بلفظ آخر من طريق أخرى فقال : حدثنا يحيى بن أبى طالب ، حدثنا داود ابن المحبر ، حدثنا الصعق بن حزن ، حدثنا عقيل الجعدى ، عن أبى إسحاق الهمدانى ، عن سويد ابن غفلة ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « اختلف من كان قبلنا على ثلاث وسبعين فرقة ، نجا منهم ثلاث وهلك سائرهم . . . » وذكر نحو ما تقدم ، وفيه : « ﴿ فَاتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ هم الذين آمنوا بى وصدقونى ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ وهم الذى كذبونى وخالفونى » ^(٣) .

ولا يقدح فى هذه المتابعة لحال داود بن المحبر ، فإنه أحد الوضاعين للحديث ، لكن ^(٤) قد أسنده

(١) فى م : « السندى بن عبد ربه » ، وفى أ : « السرى بن عبد ربه » .

(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢١١ / ١٠) من طريق هشام بن عمار ، عن الوليد بن مسلم ، عن بكير بن معروف به نحوه ، وبكير بن معروف متكلم فيه .

(٣) تفسير الطبرى (٢٧ / ١٣٨) .

(٤) فى م : « ولكن » .

أبو يعلى ، وسنده ^(١) عن شيبان بن فروخ ، عن الصَّعْق بن حَزْن ، به مثل ذلك ^(٢) . فقوى الحديث من هذا الوجه .

وقال ابن جرير ، وأبو عبد الرحمن النسائي - واللفظ له - : أخبرنا الحسين بن حُرَيْث ، حدثنا الفضل بن موسى ، عن سفيان بن سعيد ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ^(٣) ، قال : كان ملوك بعد عيسى ، عليه السلام ، بدلت التوراة والإنجيل ، فكان منهم مؤمنون يقرؤون التوراة والإنجيل ، فقليل للملوكهم : ما نجد شيئاً أشد من شتم يشتمونا هؤلاء ، إنهم يقرؤون : ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤] ، هذه ^(٤) الآيات ، مع ما يعيروننا به من أعمالنا فى قراءتهم ، فادعهم فليقرؤوا كما نقرأ ، وليؤمنوا كما آمننا . فدعاهم فجمعهم وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل ، إلا ما بدلوا منها ، فقالوا : ما تريدون إلى ذلك ؟ دعونا : فقالت طائفة منهم : ابنوا لنا أسطوانة ، ثم ارفعونا إليها ، ثم أعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا فلا نرد عليكم . وقالت طائفة : دعونا نسيح فى الأرض ونهيم ونشرب كما يشرب الوحش ، فإن قدرتم علينا فى أرضكم فاقتلونا . وقالت طائفة : ابنوا لنا دوراً فى الفيافي ، ونحفر الآبار ونحترث ^(٥) البقول فلا نرد عليكم ولا نمر بكم . وليس أحد من القبائل إلا له حميم فيهم ، ففعلوا ذلك فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ والآخرى قالوا : نتعبد كما تعبد فلان ، ونسيح كما ساح فلان ، ونتخذ دوراً كما اتخذ فلان ، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم ^(٦) ، فلما بعث النبى ﷺ ولم يبق منهم إلا القليل ، انحط منهم رجل من صومعته ، وجاء سائح من سياحته ، وصاحب الدير من دير ، فأمنوا به وصدقوه ، فقال الله ، عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ أجرين بإيمانهم بعيسى ابن مريم وبالتوراة والإنجيل ، وبإيمانهم بمحمد ﷺ وتصديقهم قال ^(٧) : ﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ [الحديد: ٢٨] : القرآن ، واتباعهم النبى ﷺ ، قال : ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ الذين يتشبهون بكم ﴿ أَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ ^(٨) .

هذا السياق فيه غرابة ، وسيأتى تفسير هاتين الآيتين الآخرين على غير هذا ، والله أعلم .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا أحمد بن عيسى ، حدثنا عبد الله بن وهب ، حدثنى سعيد بن عبد الرحمن بن أبى العمياء : أن سهل بن أبى أمامة حدثه أنه دخل هو وأبوه على أنس بن

(١) فى أ : « فى مسنده » .

(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٠ / ٢٧٢) من طريق محمد الحضرمي ، عن شيبان به ، ورواه الحاكم فى المستدرک (٢ / ٤٨٠) من طريق عبد الرحمن بن المبارك ، عن الصَّعْق بن حزن به . قال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وتعقبه الذهبى . قلت : « ليس بصحيح ، فإن فيه الصَّعْق بن حزن ، عن عقيل بن يحيى ، والصَّعْق وإن كان موثقاً ، فإن شيخه قال فيه البخارى : منكر الحديث » .

(٥) فى م : « ونحترث » .

(٤) فى م ، أ : « هؤلاء » .

(٣) فى م ، أ : « عنه » .

(٧) فى م : « كما قال » .

(٦) فى م : « به » .

(٨) تفسير الطبرى (٢٧ / ١٣٨) وسنن النسائي (٨ / ٢٣١) .

مالك بالمدينة زمان عمر بن عبد العزيز وهو أمير ، وهو يصلى صلاة خفيفة ^(١) ، كأنها صلاة مسافر أو قريباً منها ، فلما سلم قال : يرحمك الله ، أرأيت هذه الصلاة المكتوبة ، أم شيء تنفله ؟ قال : إنها المكتوبة ، وإنها صلاة رسول الله ﷺ ما أخطأت إلا شيئاً سهوت عنه ، إن رسول الله ﷺ كان يقول : « لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم ، فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد عليهم ، فتلك بقاياهم فى الصوامع والديارات ، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » . ثم غدوا من الغد فقالوا : نركب فننظر ونعتبر . قال : نعم ، فركبوا جميعاً ، فإذا هم بديار فقر قد باد أهلها وانقرضوا وفنوا ، خاوية على عروشها فقالوا : تعرف هذه الديار ؟ قال : ما أعرفنى بها وبأهلها . هؤلاء أهل الديار ، أهلكهم البغى والحسد ، إن الحسد يطفئ نور الحسنات ، والبغى يصدق ذلك أو يكذبه ، والعين تزنى والكف والقدم والجسد واللسان ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه ^(٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يعمر ، حدثنا عبد الله ، أخبرنا سفيان ، عن زيد العمى ، عن أبي إياس ، عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : « لكل نبي رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله ، عز وجل » ^(٣) .

ورواه الحافظ أبو يعلى ، عن عبد الله بن محمد بن أسماء ، عن عبد الله بن المبارك به ولفظه : « لكل أمة رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله » ^(٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسين - هو ابن محمد - حدثنا ابن عياش - يعنى إسماعيل - عن الحجاج بن مروان ^(٥) الكلاعى ، وعقيل بن مدرك السلمى ، عن أبي سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، أن رجلاً جاء فقال : أوصنى . فقال : سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك ، أوصيك بتقوى الله ، فإنه رأس كل شيء ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن ، فإنه روحك فى السماء وذكرك فى الأرض . تفرد به أحمد ^(٦) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢٨) لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴿٢٩﴾ .

قد تقدم فى رواية النسائي عن ابن عباس : أنه حمل هذه الآية على مؤمنى أهل الكتاب ، وأنهم يؤتون أجرهم مرتين كما فى الآية التى فى القصص ^(٧) ، وكما فى حديث الشعبى عن أبى بردة ، عن

(١) فى أ ، م « خفيفة وقعة » .

(٢) مسند أبى يعلى (٦ / ٣٦٥) .

(٣) المسند (٣ / ٢٦٦) وفيه زيد العمى ضعيف .

(٤) مسند أبى يعلى (٧ / ٢١٠) .

(٥) فى م : « هارون » .

(٦) المسند (٣ / ٨٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٤ / ٢١٥) : « رجال أحمد ثقات » .

(٧) عند تفسير الآية : ٥٤ .

أبى موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران ، ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران » . أخرجاه فى الصحيحين ^(١) .

ووافق ابن عباس على هذا التفسير الضحاك ، وعتبة بن أبى حكيم ، وغيرهما ، وهو اختيار ابن جرير .

وقال سعيد بن جبیر : لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله هذه الآية فى حق هذه الأمة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ أى : ضعفين ، وزادهم : ﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ يعنى : هدى يتبصر به من العمى والجهالة ، ويغفر لكم فضلهم بالنور والمغفرة . ورواه ابن جرير عنه .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩] .

وقال سعيد بن عبد العزيز : سأل عمر بن الخطاب حبراً من أحبار يهود : كم أفضل ما ضعفت ^(٢) لكم حسنة ؟ قال : كفل ثلاثمائة وخمسون ^(٣) حسنة . قال : فحمد الله عمر على أنه أعطانا كفلين . [ثم] ^(٤) ذكر سعيد قول الله ، عز وجل : ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ قال سعيد : والكفلان فى الجمعة مثل ذلك . رواه ابن جرير ^(٥) .

وما يؤيد هذا القول ما رواه الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا أيوب عن نافع ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالاً ، فقال : من يعمل لى من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط ؟ ألا فعلت اليهود . ثم قال : من يعمل لى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ؟ ألا فعلت النصارى . ثم قال : من يعمل لى من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ ألا فأنتم الذى عملتم . فغضبت النصارى واليهود ، وقالوا : نحن أكثر عمالاً وأقل عطاء . قال : هل ظلمتكم من أجركم شيئاً ؟ قالوا : لا . قال : فإنما هو فضلى أوتيته من أشياء » ^(٦) .

قال أحمد : وحدثناه مؤمل ، عن سفيان ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر ، نحو حديث نافع ، عنه ^(٧) .

انفرد بإخراجه البخارى ، فرواه عن سليمان ^(٨) بن حرب ، عن حماد ، [عن أيوب] ^(٩) ، عن

(١) صحيح البخارى برقم (٩٧) وصحيح مسلم برقم (١٥٤) .

(٢) فى م : « ضعف » .

(٣) فى م : « وخمسين » .

(٤) زيادة من أ .

(٥) تفسير الطبرى (٢٧/١٤١) .

(٦) المسند (٢/٦٦) .

(٧) المسند (٢/١١١) .

(٨) فى أ : « سليم » .

(٩) زيادة من صحيح البخارى .

نافع، به ^(١). وعن قتبية ، عن الليث ، عن نافع ، بمثله ^(٢) .

وقال البخارى : حدثنى محمد بن العلاء ، حدثنا أبو أسامة ، عن بريد ^(٣) ، عن أبى بردة ، عن أبى موسى ، عن النبى ﷺ قال : « مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً يوماً إلى الليل على أجر معلوم ، فعملوا إلى نصف النهار فقالوا : لا حاجة لنا إلى أجرِكَ الذى شرطت لنا ، وما عملنا باطل . فقال لهم : لا تفعلوا ، أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً ، فأبوا وتركوا ، واستأجر آخرين بعدهم فقال : أكملوا بقية يومكم ولكم الذى شرطت لهم من الأجر ، فعملوا حتى إذا كان حين صلوا العصر قالوا : ماعملنا باطل ، ولك الأجر الذى جعلت لنا فيه . فقال : أكملوا بقية عملكم ؛ فإن ما بقى من النهار شيء يسير . فأبوا ، فأستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم ، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس ، فاستكملوا أجر الفريقين كليهما ، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور » انفرد به البخارى ^(٤) .

ولهذا قال تعالى : ﴿لَيْسَ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أى : ليتحققوا أنهم لا يقدرُونَ على ردِّ ما أعطاه الله ، ولا [على] ^(٥) إعطاء ما منع الله ، ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ .

قال ابن جرير : ﴿لَيْسَ يَعْلَمَ﴾ أى : ليعلم . وقد ذكر عن ابن مسعود أنه قرأها : « لكى يعلم » . وكذا حطَّان ^(٦) بن عبد الله ، وسعيد بن جبير ، قال ابن جرير : لأن العرب تجعل « لا » صلة فى كل كلام دخل فى أوله أو آخره جحد غير مصرح ، فالسابق كقوله : ﴿مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] ، ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩] ، ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥] .

(١) صحيح البخارى برقم (٢٢٦٨) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٣٤٥٩) .

(٣) فى أ : « يزيد » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٢٢٧١) .

(٥) فى م : « خطاب » .

(٥) زيادة من أ .

تفسير سورة المجادلة

وهي مدنية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١ ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن تميم بن سلمة ، عن عروة ، عن عائشة قالت : الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ، ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ إلى آخر الآية (١) .

وهكذا رواه البخاري في كتاب التوحيد تعليقاً فقال : وقال الأعمش ، عن تميم بن سلمة ، عن عروة ، عن عائشة ، فذكره (٢) . وأخرجه النسائي ، وابن ماجه ، وابن أبي حاتم ، وابن جرير ، من غير وجه ، عن الأعمش ، به (٣) .

وفي رواية لابن أبي حاتم عن الأعمش ، عن تميم بن سلمة ، عن عروة ، عن عائشة ، أنها قالت : تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء ، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفى على بعضه ، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وهي تقول : يا رسول الله ، أكل شبابي ، ونثرت (٤) له بطني ، حتى إذا كبرت سني ، وانقطع ولدي ، ظاهر مني ، اللهم إني أشكو إليك . قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ . وقال (٥) : وزوجها أوس بن الصامت .

وقال ابن لهيعة ، عن أبي الأسود ، عن عروة : هو أوس بن الصامت — وكان أوس امراً به لم ، فكان إذا أخذه لمه (٦) واشتد به يظهر من امرأته ، وإذا ذهب لم يقل شيئاً . فأتت رسول الله تستفتيه في ذلك ، وتشتكي إلى الله ، فأنزل الله : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ الآية .

وهكذا روى هشام بن عروة ، عن أبيه : أن رجلاً كان به لم ، فذكر مثله .

(١) المسند (٤٦/٦) .

(٢) صحيح البخاري برقم (٧٣٨٥) .

(٣) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٥٧٠) وسنن ابن ماجه برقم (١٨٨) وتفسير الطبري (٥/٢٨) .

(٤) في أ : « وبرت » .

(٥) في م : « وقالت » .

(٦) في م : « أخذه لم » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن إسماعيل أبو سلمة ، حدثنا جرير - يعنى ابن حازم - قال : سمعت أبا يزيد يحدث قال : لقيت امرأة عمر - يقال لها : خولة بنت ثعلبة - وهو يسير مع الناس ، فاستوقفته فوقف لها ودنا منها وأصغى إليها رأسه ، ووضع يديه على منكبيها حتى قضت حاجتها وانصرفت . فقال له رجل : يا أمير المؤمنين ، حبست رجالاً قريش على هذه العجوز؟! قال : ويحك ! وتدرى من هذه ؟ قال : لا . قال : هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات ، هذه خولة بنت ثعلبة ، والله لو لم تنصرف عني إلى الليل ما انصرفت حتى تقضى حاجتها إلا أن تحضر صلاة فأصليها ، ثم أرجع إليها حتى تقضى حاجتها (١) .

هذا منقطع بين أبي يزيد وعمر بن الخطاب . وقد روى من غير هذا الوجه .

وقال ابن أبي حاتم أيضاً : حدثنا المنذر بن شاذان (٢) ، حدثنا يعلى ، حدثنا زكريا عن عامر قال : المرأة التي جادلت في زوجها خولة بنت الصامت ، وأمها معاذة التي أنزل الله فيها : ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِياتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣] .

صوابه : خولة امرأة أوس بن الصامت .

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكَمْ تَوْعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِاطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) ﴿ .

قال الإمام أحمد : حدثنا سعد (٣) بن إبراهيم ويعقوب قالا : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن إسحاق ، حدثني معمر بن عبد الله بن حنظلة ، عن ابن عبد الله بن سلام ، عن خويلة (٤) بنت ثعلبة قالت : في - والله - وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة « المجادلة » ، قالت : كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه ، قالت : فدخل على يوماً فراجعته بشيء فغضب فقال : أنت على كظهر أمي . قالت : ثم خرج فجلس في نادى قومه ساعة ، ثم دخل على فإذا هو يريدني عن نفسي . قالت : قلت : كلا ، والذي نفس خويلة (٥) بيده ، لا تخلص إلي وقد قلت ما قلت ، حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه . قالت : فوائبني وامتنعت منه ، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف ، فألقيته عني ، قالت : ثم خرجت إلى بعض جاراتي ، فاستعرت منها ثياباً ، ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ ، فجلست بين يديه ، فذكرت له ما لقيت منه ، وجعلت أشكو إليه ما

(١) ورواه الدارمي في الرد على الجهمية (ص ٢٦) من طريق أبي يزيد ، عن عمر بن الخطاب به . قال الذهبي في العلو (ص ١١٣) :

« هذا إسناد صالح فيه انقطاع ، أبو يزيد لم يلحق عمر » .

(٢) في ١ : « حدثنا الوليد بن المنذر به شاذان » .

(٣) في ١ : « سعيد » .

(٤) في ١ : « خولة » .

ألقى من سوء خلقه . قالت : فجعل رسول الله ﷺ يقول : « يا خويلة ^(١) ، ابن عمك شيخ كبير ، فاتقى الله فيه » . قالت : فوالله ما برحت حتى نزل في القرآن ، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ، ثم سرى عنه ، فقال لى : « يا خويلة ^(٢) ، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك » . ثم قرأ على : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، قالت : فقال لى رسول الله ﷺ : « مريه فليعتق رقبة » . قالت : فقلت : يا رسول الله ، ما عنده ما يعتق . قال : « فليصم شهرين متتابعين » . قالت : فقلت : والله إنه شيخ كبير ، ما به من صيام . قال : « فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر » . قالت : فقلت : يا رسول الله ، ما ذاك عنده . قالت : فقال رسول الله ﷺ : « فإننا سنعيه بعرق من تمر » . قالت : فقلت : يا رسول الله ، وأنا سأعيه بعرق آخر ، قال : « فقد أصبت وأحسنست ، فاذهبى فتصدقى به عنه ، ثم استوصى بابن عمك خيراً » . قالت : ففعلت .

ورواه أبو داود في كتاب الطلاق من سننه من طريقين ، عن محمد بن إسحاق بن يسار ، به ^(٣) . وعنده : خولة بنت ثعلبة ، ويقال فيها : خولة بنت مالك بن ثعلبة . وقد تصغر فيقال : خويلة . ولا منافاة بين هذه الأقوال ، فالأمر فيها قريب ، والله أعلم .

هذا هو الصحيح فى سبب نزول صدر هذه السورة ، فأما حديث سلمة بن صخر فليس فيه أنه كان سبب النزول ، ولكن أمر بما أنزل الله فى هذه السورة ، من العتق أو الصيام ، أو الإطعام ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا محمد بن إسحاق ، عن محمد بن عمرو بن عطاء ، عن سليمان ابن يسار ، عن سلمة بن صخر الأنصارى قال : كنتُ امرأً قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيرى ، فلما دخل رمضان تظهرت من امرأتى حتى ينسلخ رمضان ، فرقاً من أن أصيب فى ليلتى شيئاً فاتابع فى ذلك إلى أن يدركنى النهار ، وأنا لا أقدر أن أنزع ، فبينا هى تخدمنى من الليل إذ تكشف لى منها شيء ، فوثبت عليها ، فلما أصبحت غدوت على ^(٤) قومى فأخبرتهم خبرى وقلت : انطلقوا معى إلى النبى ﷺ فأخبره بأمرى . فقالوا : لا ، والله لا نفعل ؛ نتخوف أن ينزل فينا ^(٥) — أو يقول فينا رسول الله ﷺ — مقالة يبقى علينا عارها ، ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك . قال : فخرجتُ حتى أتيتُ النبى ﷺ ، فأخبرته خبرى . فقال لى : « أنت بذاك » . فقلت : أنا بذاك . فقال : « أنت بذاك » . فقلت : أنا بذاك . قال « أنت بذاك » قلت : نعم ، ها أناذا فامض فى حكم الله تعالى ^(٦) ، فإنى صابر له . قال : « أعتق رقبة » . قال : فضربت صفحة رقبتى ^(٧) بيدي وقلت : لا ، والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها . قال : « فصم شهرين » . قلت : يا رسول الله ، وهل أصابنى ما أصابنى إلا فى الصيام ؟ قال : « فتصدق » . فقلت : والذي بعثك بالحق ،

(١ ، ٢) فى أ : « يا خولة » .

(٣) المسند (٦ / ٤١٠) وسنن أبى داود برقم (٢٢١٤ ، ٢٢١٥) .

(٤) فى م : « إلى » .

(٥) فى م : « رسول الله » .

(٦) فى أ : « فىنا شيء » .

(٨) فى م : « عنى » .

(٧) فى م ، أ : « عز وجل » .

لقد بتنا ليلتنا هذه وَخَشَى مالنا عشاء . قال : « اذهب إلى صاحب صدقة بنى زُرَيْق فقل له فليدفعها إليك ، فأطعم عنك منها وسقاً من تمر ستين مسكيناً ، ثم استعن بسائره عليك وعلى عيالك » . قال : فرجعت إلى قومي فقلت : وجدت عندكم الضيقَ وسوءَ الرأي ، وجدت عند رسول الله ﷺ السَّعةَ والبركة ، قد أمر لي بصدقتم ، فادفعوها إلي . فدفعوها إلي .

وهكذا رواه أبو داود ، وابن ماجه ، واختصره الترمذى وحسنه (١) .

وظاهر السياق : أن هذه القصة كانت بعد قصة أوس بن الصامت وزوجته خويلة بنت ثعلبة ، كما دلَّ عليه سياق تلك وهذه بعد التأمل .

قال خَصِيف ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : أول من ظاهر من امرأته أوس بن الصامت ، أخو عبادة بن الصامت ، وامرأته خولة بنت ثعلبة بن مالك ، فلما ظاهر منها خَشِيت أن يكون ذلك طلاقاً ، فأتت رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إن أوساً ظاهر مني ، وإننا إن افترقنا هلكنا ، وقد نَثَرْتُ بطنى منه ، وقَدِمْتُ صُحْبَتَهُ . وهى تشكو ذلك وتبكي ، ولم يكن جاء فى ذلك شيء . فأنزل الله : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فدعاه رسول الله ﷺ فقال : « أتقدر على رقبة تعتقها ؟ » . قال : لا ، والله يا رسول الله ما أقدر عليها ؟ قال : فجمع له رسول الله ﷺ ، حتى أعتق عنه ، ثم راجع أهله رواه ابن جرير (٢) .

ولهذا ذهب ابن عباس والأكثر إلى ما قلناه ، والله أعلم .

فقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ أصل الظهار مشتق من الظهر ، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا تظاهر أحد من امرأته قال لها : أنت على كَظْهرِ أمى ، ثم فى الشرع كان الظهار فى سائر الأعضاء قياساً على الظهر ، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقاً ، فأرخص الله لهذه الأمة وجعل فيه كفارة ، ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتمدونه فى جاهليتهم . هكذا قال غير واحد من السلف .

قال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن أبى حمزة ، عن عِكْرِمَةَ ، عن ابن عباس قال : كان الرجل إذا قال لامرأته فى الجاهلية : أنت على كَظْهرِ أمى ، حُرِّمَتْ عليه ، فكان أول من ظاهر فى الإسلام أوس ، وكانت تحته ابنة عم له يقال لها : « خويلة بنت ثعلبة » (٣) . فظاهر منها ، فأسقط فى يديه ، وقال : ما أراك إلا قد حُرِّمْتَ على . وقالت له مثل ذلك ، قال : فانطلقى إلى رسول الله ﷺ . فأتت رسول الله فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه ، فقال : « يا خويلة ، ما أمرنا فى أمرِك بشيء » (٤) . فأنزل الله على رسوله ﷺ ، فقال : « يا خويلة ، أبشري » قالت : خيراً . فقرأ عليها : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَحَاوُرَكُمَا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَحَاوُرَكُمَا ﴾

(١) المسند (٣٧/٤) وسنن أبى داود برقم (٢٢١٣) وسنن ابن ماجه برقم (٢٠٦٢) وسنن الترمذى برقم (٣٢٩٩) .

(٢) تفسير الطبرى (٦/٢٨) .

(٤) فى م : « ما أمرنا فيك بشيء » .

(٣) فى أ : « بنت خويلد » وهو خطأ .

يَتَمَاسًا ﴿١﴾ . قالت : وأى رقبة لنا ؟ والله ما يجد رقبة غيرى . قال : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ قالت : والله لولا أنه يشرب فى اليوم ثلاث مرات لذهب بصره ! قال : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مَسْكِينًا ﴾ . قالت : من أين ؟ ما هى إلا أكلة إلى مثلها ! قال : فدعا بشطر وسق - ثلاثين صاعاً ، والوسق : ستون صاعاً - فقال : « ليطعم ستين مسكينا وليراجعك » ^(١) ، وهذا إسناد جيد قوى ، وسياق غريب ، وقد روى عن أبى العالية نحو هذا ، فقال ابن أبى حاتم :

حدثنا محمد بن عبد الرحمن الهروى ، حدثنا على بن عاصم ، عن داود بن أبى هند ، عن أبى العالية قال : كانت خولة بنت دُلَيْج تحت رجل من الأنصار ، وكان ضرير البصر فقيراً سيئ الخلق ، وكان طلاق أهل الجاهلية إذا أراد الرجل أن يطلق امرأته ، قال : « أنت على كظهر أمى » . وكان لها منه عَيْلٌ أو عَيْلان ، فنازعته يوماً فى شىء فقال : « أنت على كظهر أمى » . فاحتملت عليها ثيابها حتى دخلت على النبى ﷺ ، وهو فى بيت عائشة ، وعائشة تغسل شق رأسه ، فقدمت عليه ومعها عَيْلها ، فقالت : يا رسول الله ، إن زوجى ضرير البصر ، فقير لا شىء له سيئ الخلق ، وإنى نازعته فى شىء فغضب ، فقال : « أنت على كظهر أمى » ، ولم يرد به الطلاق ، ولى منه عَيْلٌ أو عَيْلان ، فقال : « ما أعلمك إلا قد حرمت عليه » . فقالت : أشكو إلى الله ما نزل بى وأبا صبيى . قال : ودارت عائشة فغسلت شق رأسه الآخر ، فدارت معها ، فقالت : يا رسول الله ، زوجى ضرير البصر ، فقير سيئ الخلق ، وإن لى منه عَيْلاً أو عيلين ، وإنى نازعته فى شىء فغضب ، وقال : « أنت على كظهر أمى » ، ولم يرد به الطلاق ! قالت : فرفع إلى رأسه وقال : « ما أعلمك إلا قد حرمت عليه » . فقالت : أشكو إلى الله ما نزل بى وأبا صبيى ؟ قال : ورأت عائشة وجه النبى ﷺ تَغَيَّرَ ، فقالت لها : « وراءك وراءك ؟ » فتنحت ، فمكث رسول الله ﷺ فى غشيانة ذلك ما شاء الله ، فلما انقطع الوحى قال : « يا عائشة ، أين المرأة » فدعتها ، فقال لها رسول الله ﷺ : « اذهبنى فأتنى بزوجك » . فانطلقت تسعى فجاءت به . فإذا هو - [كما قالت] ^(٢) - ضرير البصر ، فقير سيئ الخلق . فقال النبى ﷺ : « أستعِذ بالله السميع العليم ، بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا [وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ] ^(٣) ﴿ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا [فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ] ^(٤) ﴾ . قال النبى ﷺ : « أتجد رقبة تعتقها من قبل أن تمسها ؟ » . قال : لا . قال : « أتستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟ » . قال : والذى بعثك بالحق ، إنى إذا لم أكل المرتين والثلاث يكاد أن يعشو بصرى . وقال : « أفستطيع أن تطعم ستين مسكيناً ؟ » . قال : لا ، إلا [أن] ^(٥) تعيننى . قال : فأعانه رسول الله ﷺ فقال : « أطعم ستين مسكيناً » . قال :

(١) تفسير الطبرى (٣/٢٨) ورواه البزار فى مسنده برقم (١٠٧٦) « كشف الأستار » من طريق عبيد الله بن موسى ، عن أبى حمزة به وقال : « لا نعلمه بهذا اللفظ فى الظهار عن النبى ﷺ إلا بهذا الإسناد ، وأبو حمزة لين الحديث ، وقد خالف فى روايته ومتن حديثه الثقات فى أمر الظهار ؛ لأن الزهري رواه عن حميد بن عبد الرحمن ، عن أبى هريرة ، وهذا إسناد لا نعلم بين علماء أهل الحديث اختلافاً فى صحته ، وأنه ﷺ دعا بإناء فيه خمسة عشر صاعاً ، وحديث أبى حمزة منكر ، وفيه لفظ يدل على خلاف الكتاب ؛ لأنه قال : « وليراجعك ، وقد كانت امرأته ، فما معنى مراجعتها امرأته ولم يطلقها ، وهذا عما لا يجوز على رسول الله ﷺ ، وإنما أتى هذا من رواية أبى حمزة الثمالى » .

(٥) زيادة من م .

(٤) زيادة من أ .

(٣، ٢) زيادة من م .

وَحَوَّلَ اللَّهُ الطَّلَاقَ ، فجعله ظهاراً .

ورواه ابن جرير ، عن ابن المثنى ، عن عبد الأعلى ، عن داود ، سمعت أبا العالية ، فذكره نحوه ، بأخصر من هذا السياق ^(١) .

وقال سعيد بن جبير : كان الإيلاء والظهار من طلاق الجاهلية ، فوقت الله الإيلاء أربعة أشهر ، وجعل في الظهار الكفارة . رواه ابن أبي حاتم ، بنحوه .

وقد استدل الإمام مالك على أن الكافر لا يدخل في هذه الآية بقوله : ﴿ مِنْكُمْ ﴾ فالخطاب للمؤمنين ، وأجاب الجمهور بأن هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له ، واستدل الجمهور عليه بقوله : ﴿ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ على أن الأمة لا ظهار منها ، ولا تدخل في هذا الخطاب .

وقوله : ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهُاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدَنَّهُمْ ﴾ أى : لا تصير المرأة بقول الرجل : « أنت على كأمى » أو « مثل أمى » أو « كظهر أمى » ^(٢) ، وما أشبه ذلك ، لا تصير أمه بذلك ، إنما أمه التى ولدته ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ أى : كلاماً فاحشاً باطلاً ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴾ أى : عما كان منكم فى حال الجاهلية . وهكذا أيضاً عما خرج من سبق اللسان ، ولم يقصد إليه المتكلم ، كما رواه أبو داود : أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول لامرأته : يا أختى . فقال : « أختك هى ؟ » ، فهذا إنكار ^(٣) ، ولكن لم يحرمها عليه بمجرد ذلك ؛ لأنه لم يقصده ، ولو قصده لحرمت عليه ؛ لأنه لا فرق على الصحيح بين الأم وبين غيرها من سائر المحارم من أخت وعمة وخالة وما أشبه ذلك .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَظَاهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ : اختلف السلف والأئمة فى المراد بقوله : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ ، فقال بعض الناس : العود هو أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرره ، وهذا القول باطل ، وهو اختيار ابن حزم ^(٤) . وقول داود ، وحكاه أبو عمر بن عبد البر عن بكير ابن الأشج والفراء ، وفرقة من أهل الكلام .

وقال الشافعى : هو أن يمسكها بعد الظهار زماناً يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق .

وقال أحمد بن حنبل : هو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه فلا يحل له حتى يكفر بهذه الكفارة .

وقد حكى عن مالك : أنه العزم على الجماع والإمساك ^(٥) ، وعنه أنه الجماع .

وقال أبو حنيفة : هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه ، ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية ، فمتى تظاهر ^(٦) الرجل من امرأته فقد حرمها تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة . وإليه ذهب أصحابه ، والليث بن سعد .

(١) تفسير الطبرى (٣/٢٨) .

(٢) فى م : « كظهر أمى أو كأمى أو مثل أمى » .

(٣) سنن أبى داود برقم (٢٢١٠) من حديث أبى تيممة الهجيمى ، رضى الله عنه .

(٤) فى هـ ، أ : « ابن جرير » والمثبت من م . مستفاداً من هامش ط - الشعب .

(٥) فى م : « أو الإمساك » .

(٦) فى م : « ظاهر » .

وقال ابن لهيعة : حدثني عطاء ، عن سعيد بن جبير : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ يعنى : يريدون أن يعودوا فى الجماع الذى حرموه على أنفسهم .

وقال الحسن البصرى : يعنى الغشيان فى الفرج . وكان لا يرى بأساً أن يغشى فيما دون الفرج قبل أن يكفر .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ مَنِ قَبِلَ أَنْ يَتَمَاسَّ ﴾ والمس : النكاح . وكذا قال عطاء ، والزهرى ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان .

وقال الزهرى : ليس له أن يقبلها ولا يمسه حتى يكفر .

وقد روى أهل السنن من حديث عكرمة ، عن ابن عباس أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إنى ظهرت من امرأتى فوقعت عليها قبل أن أكفر . فقال : « ما حملك على هذا يرحمك الله ؟ » . قال : رأيت خلخالها فى ضوء القمر . قال : « فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله ، عز وجل » ^(١) . وقال الترمذى : حسن غريب صحيح ^(٢) . ورواه أبو داود والنسائى من حديث عكرمة مرسلًا . قال النسائى : وهو أولى بالصواب ^(٣) .

وقوله : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أى : فإعتاق رقبة كاملة من قبل أن يتماسا ، فهاهنا الرقبة مطلقة غير مقيدة بالإيمان ، وفى كفارة القتل مقيدة بالإيمان ، فحمل الشافعى ، رحمه الله ، ما أطلق هاهنا على ما قيد هناك لاتحاد الموجب ، وهو عتق الرقبة ، واعتضد ^(٤) فى ذلك بما رواه عن مالك بسنده ، عن معاوية بن الحكم السلمى ، فى قصة الجارية السوداء ، وأن رسول الله ﷺ قال : « أعتقها فإنها مؤمنة » . وقد رواه أحمد فى مسنده ، ومسلم فى صحيحه ^(٥) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا يوسف ^(٦) بن موسى ، حدثنا عبد الله بن غير ، عن إسماعيل بن مسلم ، عن عمرو بن دينار ، عن طاوس ، عن ابن عباس قال : أتى رسول الله ﷺ رجل فقال : إنى تظاهرت ^(٧) من امرأتى ثم وقعت عليها قبل أن أكفر . فقال رسول الله ﷺ : « ألم يقل الله ﴿ مَنِ قَبِلَ أَنْ يَتَمَاسَّ ﴾ . قال : أعجبتنى ؟ قال : « أمسك حتى تكفر » ^(٨) .

ثم قال البزار : لا يروى عن ابن عباس بأحسن من هذا ، وإسماعيل بن مسلم تكلم فيه ، وروى عنه جماعة كثيرة من أهل العلم . وفيه من الفقه أنه لم يأمره إلا بكفارة واحدة .

(١) رواه أبو داود فى السنن برقم (٢٢٢٣) والترمذى فى السنن برقم (١٩٩٠) والنسائى فى السنن (١٦٧/٦) وابن ماجه فى السنن برقم (٢٠٦٥) .

(٢) فى م : « حسن صحيح غريب » .

(٣) سنن أبى داود برقم (٢٢٢٢، ٢٢٢١) وسنن النسائى (١٦٨/٦) .

(٤) فى م : « واعتمد » .

(٥) الموطأ (٧٧٧/٢) والمسند (٤٤٧/٥) وصحيح مسلم برقم (٥٣٧) .

(٦) فى أ : « حدثنا يونس » . (٧) فى م : « إنى تظاهرت » .

(٨) ورواه الحاكم فى المستدرک (٢٠٤/٢) والبيهقى فى السنن الكبرى (٣٨٦/٧) من طريق إسماعيل بن مسلم ، عن عمرو بن دينار به نحوه ، وقال الذهبي : « فيه إسماعيل بن مسلم وهو واه » .

وقوله : ﴿ ذَلِكُمْ تَوْعَظُونَ بِهِ ﴾ أى : تزجرون به ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أى : خير بما يصلحكم ، عليهم بأحوالكم .

وقوله : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ : وقد تقدمت الأحاديث الواردة ^(١) بهذا على الترتيب ، كما ثبت فى الصحيحين فى قصة الذى جامع امرأته فى رمضان .

﴿ ذَلِكَ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى : شرعنا هذا لهذا .

وقوله : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أى : محارمه فلا تنتهكوها .

وقوله : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : الذين لم يؤمنوا ولا التزاموا بأحكام هذه الشريعة ، لا تعتقدوا أنهم ناجون من البلاء ، كلا ، ليس الأمر كما زعموا ، بل لهم عذاب أليم ، أى : فى الدنيا والآخرة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (٥) يَوْمَ يَعْثُفُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَنْبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٧) .

يخبر تعالى عن شاقوا الله ورسوله وعاندوا شرعه ﴿ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى : أهينوا ولعنوا وأخزوا ، كما فعل بمن أشبههم من قبلهم ﴿ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أى : واضحات لا يخالفها ويعاندها إلا كافر فاجر مكابر ، ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ أى : فى مقابلة ما استكبروا عن اتباع شرع الله ، والانقياد له ، والخضوع لديه .

ثم قال : ﴿ يَوْمَ يَعْثُفُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ وذلك يوم القيامة ، يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، ﴿ فَيَنْبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى : يخبرهم ^(٢) بالذى صنعوا من خير وشر ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ أى : ضبطه الله وحفظه عليهم ، وهم قد نسوا ما كانوا عليه ، ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى : لا يغيب عنه شيء ، ولا يخفى ولا ينسى شيئاً .

ثم قال تعالى مخبراً عن إحاطة علمه بخلقه وإطلاعه عليهم ، وسماعه كلامهم ، ورؤيته مكانهم حيث كانوا وأين كانوا ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى

(٢) فى ١ : « فيجزيهم » .

(١) فى م : « الأمرة » .

ثَلَاثَةٌ ﴿ أَى : من سر ثلاثة ﴾ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴿ أَى : يطلع عليهم ويسمع كلامهم وسرهم ونجواهم ، ورسله أيضاً مع ذلك تكتب ما يتناجون به ، مع علم الله به وسمعه لهم ، كما قال : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [التوبة: ٧٨] . وقال : ﴿ أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠] ؛ ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علم الله تعالى ^(١) ، ولا شك فى إرادة ذلك ولكن سمعه أيضاً مع علمه محيط بهم ، وبصره نافذ فيهم ، فهو ، سبحانه ، مطلع على خلقه ، لا يغيب عنه من أمورهم شىء .

ثم قال : ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ قال الإمام أحمد : افتتح الآية بالعلم ، واختتمها بالعلم .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسِبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُونَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبَرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠) ﴾ .

قال ابن أبي نجیح ، عن مجاهد [فى قوله] (٢) : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ﴾ قال : اليهود . وكذا قال مقاتل بن حيان ، وزاد : كان بين النبي ﷺ وبين اليهود مودة ، وكانوا إذا مر بهم رجل من أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتناجون بينهم ، حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله — أو : بما يكره المؤمن — فإذا رأى المؤمن ذلك خشيهم ، فترك طريقه عليهم . فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى ، فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى ، فأُنزل الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامى ، حدثنى سفيان بن حمزة ، عن كثير بن زيد ، عن ربيع بن عبد الرحمن بن أبى سعيد الخدرى ، عن أبيه ، عن جده قال : كنا نتناوب رسول الله ﷺ ، نبیت عنده ؛ يطرُقه من الليل أمر (٣) ، وتبدو له حاجة . فلما كانت ذات ليلة كثر أهل التوب والمحتسبون ، حتى كنا أندية نتحدث ، فخرج علينا رسول الله ﷺ فقال : « ما هذا النجوى ؟ ألم تُنْهَوْا عن النجوى ؟ » . قلنا : تبنا إلى الله يا رسول الله ، إنا كنا فى ذكر المسيح ،

(١) فى م : « علمه تعالى » .

(٢) زيادة من أ .

(٣) فى م : « أمراً » وهو خطأ .

فَرَقَا مِنْهُ . فقال : « أَلَا أَخْبِرْكُمْ بِمَا هُوَ أَخَوْفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنْهُ ؟ » . قلنا : بلى يا رسول الله . قال : « الشُّرْكُ الْخَفِيُّ ، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يَعْمَلُ لِمَكَانٍ رَجُلٌ » . هذا إِسْنَادٌ غَرِيبٌ ، وفيه بعض الضعفاء (١) .

وقوله : ﴿ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴾ أى : يتحدثون فيما بينهم بالإثم ، وهو ما يختص بهم ، والعدوان ، وهو ما يتعلق بغيرهم ، ومنه معصية الرسول ومخالفته ، يُصِرُّونَ عَلَيْهَا ويتواصون بها .

وقوله : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ : قال ابن أبي حاتم :

حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا ابن غير ، عن الأعمش ، [عن مسلم] (٢) عن مسروق ، عن عائشة قالت : دخل على رسول الله ﷺ يهود فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم . فقالت عائشة : وعليكم السام [واللعنة] (٣) . قالت : فقال رسول الله ﷺ : « يا عائشة ، إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش » . قلت : ألا تسمعهم يقولون : السام عليك ؟ فقال رسول الله : « أو ما سمعت أقول (٤) : وعليكم ؟ » . فأنزل الله : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ (٥) .

وفى رواية فى الصحيح أنها قالت لهم : عليكم السام والذام واللعنة . وأن رسول الله ﷺ قال : « إنه يستجاب لنا فيهم ، ولا يستجاب لهم فينا » (٦) .

وقال ابن جرير : حدثنا بشر ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس مع أصحابه ، إذ أتى عليهم يهودى فسلم عليهم ، فردوا عليه ، فقال نبي الله ﷺ : « هل تدرُونَ ما قال ؟ » . قالوا : سلم يا رسول الله . قال : « بل قال : سام عليكم ، أى : تسامون دينكم » . قال رسول الله : « ردوه » . فردوه عليه . فقال نبي الله : « أقلت : سام عليكم ؟ » . قال : نعم . فقال رسول الله ﷺ : « إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا : عليك » أى : عليك ما قلت (٧) .

وأصل حديث أنس مخرج فى الصحيح ، وهذا الحديث فى الصحيح عن عائشة ، بنحوه (٨) .

وقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ أى : يفعلون هذا ، ويقولون ما يحرفون من الكلام وإيهام السلام ، وإنما هو شتم فى الباطن ، ومع هذا يقولون فى أنفسهم : لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول له فى الباطن ؛ لأن الله يعلم ما نُسره ، فلو كان هذا نبياً حقاً لأوشك أن

(١) رواه الإمام أحمد فى المسند (٣٠/٣) وابن ماجه فى السنن برقم (٤٢٠٤) من طريق كثير بن زيد به نحوه ، وقال البوصيرى فى الزوائد (٢٩٦/٣) : « هذا إسناد حسن ، كثير بن زيد وربيع بن عبد الرحمن مختلف فيهما » .

(٢) زيادة من المسند (٢٢٩/٦) .

(٣) زيادة من أ . (٤) فى أ : « ما أقول » .

(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢١٦٥) من طريق يعلى بن عبيد ، عن الأعمش به نحوه .

(٦) انظر : صحيح البخارى برقم (٦٠٣٠) وصحيح مسلم برقم (٢١٦٦) من حديث عائشة ، رضى الله عنها .

(٧) تفسير الطبرى (١١/٢٧) .

(٨) صحيح مسلم برقم (٢١٦٣) .

يعاجلنا الله بالعقوبة فى الدنيا ، فقال الله تعالى : ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أى : جهنم كفايتهم فى الدار الآخرة ﴿ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا حماد ، عن عطاء بن السائب ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عمرو ؛ أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ : سام عليك ، ثم يقولون فى أنفسهم : ﴿ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ ؟ ، فنزلت هذه الآية : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ إسناده حسن ولم يخرجوه (١) .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ قال : كان المنافقون يقولون لرسول الله إذا حيَّوه : « سام عليك » ، قال الله : ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

ثم قال الله مُؤدِّباً عبادة المؤمنين ألا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴾ أى : كما يتناجى به الجهلة من كفره أهل الكتاب ومن مآلهم على ضلالهم من المنافقين ، ﴿ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أى : فيخبركم (٢) بجميع أعمالكم وأقوالكم التى قد أحصاها عليكم ، وسيجزىكم بها .

وقال الإمام أحمد : حدثنا بهز وعفان قالا : أخبرنا همام ، حدثنا قتادة ، عن صفوان بن مُحَرِّز قال : كنت أخذاً بيد ابن عمر ، إذ عرض له رجل فقال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستتره من الناس ، ويقرره بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرَّره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه قد هلك ، قال : فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم . ثم يُعْطَى كتابَ حسناته ، وأما الكفار (٣) والمنافقون فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين » .

أخرجاه فى الصحيحين ، من حديث قتادة (٤) .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أى : إنما النجوى - وهى المسارة - حيث يتوهم مؤمن بها سوءاً ﴿ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يعنى : إنما يصدر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه ، ﴿ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى : ليسوءهم ، وليس ذلك بضارهم شيئاً إلا بإذن الله ، ومن أحسن من ذلك شيئاً فليستعذ بالله وليتوكل على الله ، فإنه لا يضره شيء بإذن الله .

وقد وردت السنة بالنهى عن التناجى حيث يكون فى ذلك تأذٍ على مؤمن ، كما قال الإمام أحمد :

(١) المسند (٢/ ١٧٠) .

(٢) فى أ : « فيجزيكم » .

(٣) فى م : « الكافرون » .

(٤) المسند (٢/ ٧٤) وصحيح البخارى برقم (٤٦٨٥) وصحيح مسلم برقم (١٧٦٨) .

حدثنا وكيع وأبو معاوية قالا : حدثنا الأعمش ، عن أبي وائل ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما ، فإن ذلك يحزنه » . أخرجاه من حديث الأعمش (١) .

وقال عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن أيوب ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه ؛ فإن ذلك يحزنه » . انفرد بإخراجه مسلم عن أبي الربيع وأبي كامل ، كلاهما عن حماد بن زيد ، عن أيوب ، به (٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (١١) .

يقول تعالى مؤدباً عباده المؤمنين ، وأمرأ لهم أن يحسن بعضهم إلى بعض في المجالس : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ ﴾ ، وقرئ : ﴿ فِي الْمَجَالِسِ ﴾ ، ﴿ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ وذلك أن الجزء من جنس العمل ، كما جاء في الحديث الصحيح : « من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة » (٣) وفي الحديث الآخر : « ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، [ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة] (٤) والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » (٥) . ولهذا أشباه كثيرة ؛ ولهذا قال : ﴿ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ .

قال قتادة : نزلت هذه الآية في مجالس (٦) الذكر ، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلاً ضنوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ ، فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض .

وقال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية يوم جمعة وكان رسول الله ﷺ يومئذ في الصفة ، وفي المكان ضيق ، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء أناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجالس ، فقاموا حيال رسول الله ﷺ ، فقالوا : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته . فرد النبي ﷺ ، ثم سلموا على القوم بعد ذلك ، فردوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم ، فعرف النبي ﷺ ما يحملهم على القيام ، فلم يفسح لهم ، فشق ذلك على النبي ﷺ ، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار ، من غير أهل بدر : « قم يا فلان ، وأنت يا فلان » . فلم يزل

(١) المسند (٤٣١/١) وصحيح مسلم برقم (٢١٨٤) ولم ألق عليه عند البخاري عن الأعمش ، وإنما هو عنده عن منصور ، عن أبي وائل برقم (٦٢٩٠) .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢١٨٣) .

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم (٤٥٠) ومسلم في صحيحه برقم (٥٣٣) من حديث عثمان ، رضى الله عنه .

(٤) زيادة من صحيح مسلم (٢٦٩٩) .

(٥) رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة ، رضى الله عنه .

(٦) في م : « في مجلس » .

يقيمهم بعدة ^(١) نفر الذين هم قيام بين يديه من المهاجرين والأنصار أهل بدر ، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه ، وعرف النبي ﷺ الكراهة في وجوههم ، فقال المنافقون : ألسنم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس ؟ والله ما رأيناه قبل عدل على هؤلاء ، إن قوماً أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب لئبيهم ، فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه . فبلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « رحم الله رجلاً فسح ^(٢) لأخيه » . فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعاً ، فتفسح القوم لإخوانهم ، ونزلت هذه الآية يوم الجمعة . رواه ابن أبي حاتم .

وقد قال الإمام أحمد ، والشافعي : حدثنا سفيان ، عن أيوب ، عن نافع ، عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه فيجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا » . وأخرجاه في الصحيحين من حديث نافع ، به ^(٣) .

وقال الشافعي : أخبرنا عبد المجيد ، عن ابن جريج قال : قال سليمان بن موسى ، عن جابر بن عبد الله . أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقيم أحدكم أخاه يوم الجمعة ، ولكن ليقل : افسحوا » . على شرط السنن ولم يخرجوه ^(٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الملك بن عمرو ، حدثنا فليح ، عن أيوب بن عبد الرحمن بن [أبي] ^(٥) صغصة ، عن يعقوب بن أبي يعقوب ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن افسحوا يفسح الله لكم » ^(٦) .

ورواه أيضاً عن سريج ^(٧) بن يونس ، ويونس بن محمد المؤدب ، عن فليح ، به . ولفظه : « لا يقوم الرجل للرجل من مجلسه ، ولكن افسحوا يفسح الله لكم » تفرد به أحمد ^(٨) .

وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال : فمنهم من رخص في ذلك محتجاً بحديث : « قوموا إلى سيدكم » ^(٩) . ومنهم من منع ذلك محتجاً بحديث : « من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً ، فليتبوأ مقعده من النار » ^(١٠) . ومنهم من فصل فقال : يجوز عند القدوم من سفر ، وللحاكم في محل ولايته ، كما دل عليه قصة سعد بن معاذ ، فإنه لما استقدمه النبي ﷺ حاكماً

(١) في أ : « بعدد » . (٢) في م ، أ : « يفسح » .

(٣) لم يقع هذا الحديث لى في مسند أحمد هكذا ، وإنما هو فيه (٢٢/٢) : عن ابن نمير ، عن عبيد الله بن عمر ، عن نافع ، عن ابن عمر ، (٤٥/٢) عن غندر ، عن شعبة ، عن أيوب بن موسى ، عن نافع ، عن ابن عمر . وهو في صحيح البخارى برقم (٦٢٦٩) وصحيح مسلم برقم (٢١٧٧) .

(٤) مسند الشافعي برقم (٤٥٤) « بدائع المن » .

(٥) زيادة من المسند (٥٢٣/٢) .

(٦) المسند (٥٢٣/٢) .

(٧) في م ، أ : « شريح » .

(٨) المسند (٣٣٨/٢) .

(٩) رواه البخارى في صحيحه برقم (٣٠٤٣) ومسلم في صحيحه برقم (١٧٦٨) من حديث أبي سعيد الخدري ، رضى الله عنه .

(١٠) رواه أبو داود في السنن برقم (٥٢٢٩) والترمذى في السنن برقم (٢٧٥٥) من حديث معاوية رضى الله عنه ، وقال الترمذى :

« إسناده حسن » .

فى بنى قريظه فرآه مقبلاً قال للمسلمين: «قوموا إلى سيدكم». وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه، والله أعلم. فأما اتخاذه ديدناً فإنه من شعار العجم. وقد جاء فى السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ ، وكان إذا جاء لا يقومون له ، لما يعلمون من كراهته (١) لذلك (٢) (٣) .

وفى الحديث المروى فى السنن : أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس ، ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس ، وكان الصحابة ، رضى الله عنهم ، يجلسون منه على مراتبهم ، فالصديق يجلسه عن يمينه ، وعمر عن يساره ، وبين يديه غالباً عثمان وعلى ؛ لأنهما كانا ممن يكتب (٤) الوحي ، وكان يأمرهم بذلك ، كما رواه مسلم من حديث الأعمش ، عن عمارة بن عمير ، عن أبى معمر ، عن أبى مسعود ، أن رسول الله ﷺ كان يقول : « لِيَلِينِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنَّهْيِ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ » (٥) . وما ذاك إلا ليعقلوا عنه ما يقوله ، صلوات الله وسلامه عليه ؛ ولهذا أمر أولئك النفر بالقيام ليجلس الذين وردوا من أهل بدر ، إما لتقصير أولئك فى حق البدرين ، أو ليأخذ البدريون من العلم بنصيبهم ، كما أخذ أولئك قبلهم ، أو تعليمًا بتقديم الأفاضل إلى الأمام .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن الأعمش ، عن عُمارة بن عمير (٦) التيمى (٧) ، عن أبى معمر ، عن أبى مسعود قال : كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا فى الصلاة ويقول : « استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، ليليني منكم أولو الأحلام والنهي ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » . قال أبو مسعود (٨) : فأنتم اليوم أشد اختلافًا .

وكذا رواه مسلم وأهل السنن ، إلا الترمذى ، من طرق عن الأعمش ، به (٩) .
وإذا كان هذا أمره لهم فى الصلاة أن يليه العقلاء (١٠) ثم العلماء ، فبطريق الأولى أن يكون ذلك فى غير الصلاة .

وروى أبو داود من حديث معاوية بن صالح ، عن أبى الزاهرية ، عن كثير بن مرة ، عن عبد الله ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « أقيموا الصفوف ، وحاذوا بين المناكب ، وسُدُّوا الخلل ، وَلِيُنْوَ بِأَيْدِي إِخْوَانِكُمْ ، وَلَا تَذَرُوا فُرْجَاتِ الشَّيْطَانِ ، وَمَنْ وَصَلَ صَفًّا وَصَلَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ قَطَعَ صَفًّا قَطَعَهُ اللَّهُ » (١١) .

(١) فى م : « من كراهيته » .

(٢) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٧٥٤) من حديث أنس ، رضى الله عنه .

(٣) وللإمام النووى - رحمه الله - رسالة سماها : « الترخيص بالقيام لذوى الفضل والمزية من أهل الإسلام » أظن فى الكلام على هذه المسألة ، وهى مطبوعة بدار الفكر بدمشق .

(٤) فى م : « يكتبان » .

(٥) صحيح مسلم برقم (٤٣٢) .

(٦) فى أ : « بكير » . (٧) فى م ، أ : « الليثى » . (٨) فى أ : « سعيد » .

(٩) المسند (١٢٢/٤) وصحيح مسلم برقم (٤٣٢) وسنن أبى داود برقم (٦٧٤) وسنن النسائى (٨٧/٢) وسنن ابن ماجه برقم (٩٧٦) .

(١٠) فى أ : « الفضلاء » .

(١١) سنن أبى داود برقم (٦٦٦) .

ولهذا كان أبى بن كعب - سيد القراء - إذا انتهى إلى الصف الأول انتزع منه رجلاً يكون من أفناء^(١) الناس ، ويدخل هو فى الصف المقدم ، ويحتج بهذا الحديث : « ليلينى منكم أولو الأحلام والنهى » . وأما عبد الله بن عمر فكان لا يجلس فى المكان الذى يقوم له صاحبه عنه ، عملاً بمقتضى ما تقدم من روايته الحديث الذى أوردناه . ولتقتصر على هذا المقدار^(٢) من الأمثلة المتعلقة بهذه الآية ، وإلا فبسطه يحتاج^(٣) إلى غير هذا الموضع ، وفى الحديث الصحيح : بينا رسول الله ﷺ جالس ، إذ أقبل ثلاثة نفر ، فأما أحدهم فوجد فرجة فى الحلقة فدخل فيها ، وأما الآخر فجلس وراء الناس ، وأدبر الثالث ذاهباً . فقال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بخبر الثلاثة ، أما الأول فأوى إلى الله فأواه الله ، وأما الثانى فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه »^(٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عتاب بن زياد ، أخبرنا عبد الله ، أخبرنا أسامة بن زيد ، عن عمرو ابن شعيب ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما » .

ورواه أبو داود والترمذى ، من حديث أسامة بن زيد الليثى ، به^(٥) . وحسنه الترمذى .

وقد روى عن ابن عباس ، والحسن البصرى وغيرهما أنهم قالوا^(٦) فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ ﴾^(٧) فَافْسَحُوا ، يعنى : فى مجالس الحرب ، قالوا : ومعنى قوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا ﴾ أى : انهضوا للقتال .

وقال قتادة : ﴿ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا ﴾ أى : إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا .

وقال مقاتل [بن حيان]^(٨) : إذا دعيتم إلى الصلاة فارتفعوا إليها .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كانوا إذا كانوا عند النبى ﷺ فى بيته فأرادوا الانصراف أحب كل منهم أن يكون هو آخرهم خروجاً من عنده ، فربما يشق^(٩) ذلك عليه - عليه السلام - وقد تكون له^(١٠) الحاجة ، فأمرهم أنهم إذا أمروا بالانصراف أن ينصرفوا ، كقوله : ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا ﴾^(١١) فَارْجِعُوا [النور: ٢٨] .

وقوله : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أى : لا تعتقدوا أنه إذا فسح أحد منكم لأخيه إذا أقبل ، أو إذا أمر بالخروج فخرج ، أن يكون ذلك نقصاً فى حقه ، بل هو رفعة ومزية^(١٢) عند الله ، والله تعالى لا يضيع ذلك له ، بل يجزيه بها فى الدنيا والآخرة ، فإن من تواضع لأمر الله رفع الله قدره ، ونشر ذكره ؛ ولهذا قال : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ

(١) فى م ، أ : « أفناء » . (٢) فى م : « القدر » . (٣) فى م : « محتاج » .

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٦) ومسلم فى صحيحه برقم (٢١٧٦) .

(٥) المسند (٢/٢١٣) وسنن أبى داود برقم (٤٨٤٥) وسنن الترمذى برقم (٢٧٥٢) .

(٦) فى م ، أ : « أنهما قالا » . (٧) فى أ : « المجالس » . (٨) زيادة من م .

(٩) فى م : « شق » . (١٠) فى م : « لهم » . (١١) فى م : « وإذا قيل ارجعوا » وهو خطأ .

(١٢) فى م : « ورتبة » ، وفى أ : « ومنزلة » .

آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٢﴾ أى : خير بمن يستحق ذلك وبمن لا يستحقه .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو كامل ، حدثنا إبراهيم ، حدثنا ابن شهاب ، عن أبي الطفيل عامر ابن وائلة ، أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعسفان ، وكان عمر استعمله على مكة ، فقال له عمر : من استخلفت على أهل الوادي ؟ قال : استخلفت عليهم ابن أبزى . قال : وما ابن أبزى ؟ فقال : رجل من موالينا . فقال عمر [بن الخطاب] (١) : استخلفت عليهم مولى ؟ . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه قارئ لكتاب الله ، عالم بالفرائض ، قاض . فقال عمر ، رضى الله عنه : أما إن نبيكم ﷺ قد قال : « إن الله يرفع بهذا الكتاب قوماً ويضع به آخرين » (٢) .

وهكذا رواه مسلم من غير وجه ، عن الزهري ، به (٣) . وروى من غير وجه عن عمر بنحوه (٤) . وقد ذكرت (٥) فضل العلم وأهله وما ورد فى ذلك من الأحاديث مستقصاة فى شرح « كتاب العلم » من صحيح البخارى ، ولله الحمد والمنة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٢) أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) ﴾ .

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين إذا أراد أحدهم أن يناجى رسول الله ﷺ ، أى : يساره فيما بينه وبينه ، أن يقدم بين يدي ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ .

ثم قال : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا ﴾ أى : إلا من عجز عن ذلك لفقده ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فما أمر بها إلا من قدر عليها .

ثم قال : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ أى : أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ، ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا

(١) زيادة من م .

(٢) المسند (١/٣٥) .

(٣) صحيح مسلم برقم (٨١٧) .

(٤) جاء من طريق حماد بن سلمة عن حميد ، عن الحسن بن مسلم : أن عمر استعمل ابن عبد الحارث على مكة ، فذكر نحوه ، أخرجه أبو يعلى فى مسنده (١/١٨٥) وفيه انقطاع . وأيضاً من طريق الأعمش عن حبيب بن أبى ثابت : أن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال : خرجت مع عمر ، فاستقبلنا أمير مكة - نافع بن علقمة - فذكر نحو الحديث المتقدم ، أخرجه أبو يعلى فى مسنده (١/١٨٦) .

(٥) فى م : « ذكرنا » . (٦) فى أ : « ذلكم » وهو خطأ .

الرَّكَاءَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ فنسخ وجوب ذلك عنهم .

وقد قيل : إنه لم يعمل بهذه الآية قبل نسخها سوى على بن أبى طالب ، رضى الله عنه .

قال ابن أبى نجیح ، عن مجاهد قال : نهوا عن مناجاة النبى ﷺ حتى يتصدقوا ، فلم يناجيه إلا على بن أبى طالب ، قدم ديناراً صدقة تصدق به ، ثم ناجى النبى ﷺ فسأله عن عشر خصال ، ثم أنزلت الرخصة .

وقال ليث بن أبى سليم ، عن مجاهد ، قال على ، رضى الله عنه : آية فى كتاب الله ، عز وجل ، لم يعمل بها أحد قبلى ، ولا يعمل بها أحد بعدى ، كان عندى دينار فصرفته بعشر دراهم ، فكنت إذا ناجيت ^(١) رسول الله ﷺ تصدقت بدرهم ، فنسخت ولم يعمل بها أحد قبلى ، ولا يعمل بها أحد بعدى ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ الآية .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران ، عن سفيان ، عن عثمان بن المغيرة ، عن سالم بن أبى الجعد ، عن على بن علقمة الأمارى ، عن على [بن أبى طالب] ^(٢) — رضى الله عنه — قال : قال النبى ﷺ : « ما ترى ، دينار ؟ » . قال : لا يطيقون . قال : « نصف دينار ؟ » . قال : لا يطيقون . قال : « ما ترى ؟ » . قال : شعيرة ، فقال له النبى ﷺ : « إنك زهيد ^(٣) » . قال : قال على : فبى خفف الله عن هذه الأمة ، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ ، فنزلت : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ ^(٤) .

ورواه الترمذى عن سفيان بن وكيع ، عن يحيى بن آدم ، عن عبيد الله الأشجعى ، عن سفيان الثورى ، عن عثمان بن المغيرة الثقفى ، عن سالم بن أبى الجعد ، عن على بن علقمة الأمارى ، عن على بن أبى طالب قال : لما نزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ [إلى آخرها] ^(٦) ، قال ^(٧) لى النبى ﷺ : « ما ترى ، دينار ؟ » قلت ^(٨) : لا يطيقونه . وذكره بتمامه ، مثله ، ثم قال : « هذا حديث حسن غريب ، إنما نعرفه من هذا الوجه » . ثم قال : ومعنى قوله : « شعيرة » : يعنى وزن شعيرة من ذهب ^(٩) .

ورواه أبو يعلى ، عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن يحيى بن آدم ، به ^(١٠) .

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ إلى ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ : كان المسلمون يقدمون بين يدى النجوى صدقة ، فلما

(١) فى أ : « جئت » . (٢) زيادة من أ . (٣) فى م ، أ : « إنك لزهد » .

(٤) زيادة من م .

(٥) تفسير الطبرى (١٥/٢٨) وعلى بن علقمة فيه ضعف . قال البخارى : فى حديثه نظر .

(٦) زيادة من م . (٧) فى م : « فقال » . (٨) فى م : « قال » .

(٩) سنن الترمذى برقم (٣٣٠٠) .

(١٠) مسند أبى يعلى (٣٢٢/١) .

نزلت الزكاة نسخ هذا .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قوله : ﴿ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ﴾ وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه ، فأراد الله أن يخفف عن نبيه ، عليه السلام . فلما قال ذلك صبر كثير من الناس وكفوا عن المسألة ، فأنزل الله بعد هذا : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ﴾ (١) فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ فوسع الله عليهم ولم يضيق .

وقال عكرمة والحسن البصرى فى قوله : ﴿ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ﴾ : نسختها الآية التى بعدها : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ﴾ (٢) إلى آخرها .

وقال سعيد [بن أبى عروبة] (٣) ، عن قتادة ومقاتل بن حيان : سأل الناس رسول الله ﷺ ، حتى أحفوه بالمسألة ، فقطعهم الله بهذه الآية ، فكان الرجل منهم إذا كانت له الحاجة إلى نبي الله ﷺ فلا يستطيع أن يقضيها حتى يقدم بين يديه صدقة ، فاشتد ذلك عليهم ، فأنزل الله الرخصة بعد ذلك : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وقال معمر ، عن قتادة : ﴿ إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ﴾ : إنها منسوخة ، ما كانت إلا ساعة من نهار . وهكذا روى عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن أيوب ، عن مجاهد قال على : ما عمل بها أحد غيرى حتى نسخت وأحسبه قال : وما كانت إلا ساعة .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٦) لَنْ تَغْنَى عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْذَرُوا عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) .

يقول تعالى منكرًا على المنافقين موالاتهم الكفار فى الباطن ، وهم فى نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٣] . وقال هاهنا : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ يعنى :

اليهود ، الذين كان المنافقون يمالئونهم ويوالونهم فى الباطن . ثم قال : ﴿ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ أى : هؤلاء المنافقون ، ليسوا فى الحقيقة لا منكم أيها المؤمنون ، ولا من الذين تولوهم وهم اليهود .

ثم قال : ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يعنى : المنافقين يحلفون على الكذب وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا ، وهى اليمين الغموس ، ولا سيما فى مثل حالهم اللعين ، عياداً بالله منه ^(١) ، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا جاؤوا الرسول حلفوا بالله [له] ^(٢) أنهم مؤمنون ، وهم فى ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به ؛ لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه ، وإن كان فى نفس الأمر مطابقاً ؛ ولهذا شهد الله بكذبهم فى إيمانهم وشهادتهم لذلك .

ثم قال : ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى : أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة ، وهى موالاة الكافرين ونصحهم ، ومعاداة المؤمنين وغشهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى : أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، واتقوا بالإيمان الكاذبة ، فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فاعتر بهم ، فحصل بهذا صد عن سبيل الله لبعض الناس ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ أى : فى مقابلة ما امتنعوا من الحلف باسم الله العظيم فى الإيمان الكاذبة الحائثة .

ثم قال : ﴿ لَنْ تَغْنَى عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أى : لن يدفع ذلك عنهم بأساً ^(٣) إذا جاءهم ، ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ يَوْمَ يَعْتَنِيهِمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ أى : يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم فلا يغادر منهم أحداً ، ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ﴾ أى : يحلفون بالله ^(٤) ، عز وجل ، أنهم كانوا على الهدى والاستقامة ، كما كانوا يحلفون للناس فى الدنيا ؛ لأن من عاش على شىء مات عليه وبعث عليه ، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس ، فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ﴾ أى : حلفهم ذلك لربهم ، عز وجل . ثم قال منكرأ عليهم حسابهم ^(٥) : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ فأكد الخبر عنهم بالكذب .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن نفي ، حدثنا زهير ، عن ^(٦) سَمَاك بن حرب ، حدثنى سعيد بن جبیر ؛ أن ابن عباس حدثه : أن النبى ﷺ كان فى ظل حجرة من حُجَرِهِ ، وعنده نفر من المسلمين قد كان يَقلصُ عنهم الظل ، قال : « إنه سيأتىكم إنسان ينظر بعينى شيطان ، فإذا أتاكم فلا تكلموه » . فجاء رجل أزرق ، فدعاه رسول الله ﷺ فكلمه ، فقال : « علام تشمنى أنت وفلان وفلان ؟ » - نفر دعاهم بأسمائهم - قال : فانطلق الرجل فدعاهم ، فحلفوا له واعتذروا إليه ، قال : فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ .

(١) فى م : « عياداً بالله من ذلك » .

(٢) زيادة من م .

(٣) فى م : « بأس الله » .

(٤) فى م : « لله » .

(٥) فى م ، أ : « حسابهم » .

(٦) فى م : « حدثنا » .

وهكذا رواه الإمام أحمد من طريقين ، عن سماك ، به ^(١) . ورواه ابن جرير ، عن محمد بن المنثري ، عن غندر ، عن شعبة ، عن سماك ، به نحوه ^(٢) ، وأخرجه أيضاً من حديث سفيان الثوري ، عن سماك ، بنحوه . إسناده جيد ولم يخرجوه .

وحال هؤلاء كما أخبر تعالى عن المشركين حيث يقول : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَّهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٣ ، ٢٤] . ثم قال : ﴿ اسْتَحْذِرُوا الشَّيْطَانَ فَإِنْسَاهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ ﴾ أى : استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم أن يذكروا الله ، عز وجل ، وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه ؛ ولهذا قال أبو داود :

حدثنا أحمد بن يونس ، حدثنا زائدة ، حدثنا السائب بن حبّيش ، عن معدان بن أبي طلحة اليعمرى ، عن أبي الدرداء : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من ثلاثة فى قرية ولا بدو ، لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان ، فعليك بالجماعة ، فإنما يأكل الذئب القاصية » . قال زائدة : قال السائب : يعنى الصلاة فى الجماعة ^(٣) .

ثم قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ﴾ يعنى : الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله . ثم قال : ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذْلِينَ ﴾ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لِأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) .

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المعاندين المحادين ^(٤) لله ورسوله ، يعنى : الذى هم فى حدّ والشرع فى حدّ ، أى : مجانبون للحق مشاقون له ، هم فى ناحية والهدى فى ناحية ، ﴿ أُولَئِكَ فِي الْأَذْلِينَ ﴾ أى : فى الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب ، الأذلين فى الدنيا والآخرة .

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لِأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ أى : قد حكم وكتب فى كتابه الأول وقدره الذى لا يُخَالَف ولا يُمانع ، ولا يبدل ، بأن النصر له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين فى الدنيا والآخرة ، وأن العاقبة

(١) المسند (١/ ٢٤٠) .

(٢) تفسير الطبرى (١٧/ ٢٨) .

(٣) سنن أبى داود برقم (٥٤٧) .

(٤) فى أ : « المحاربين » .

للمتقين ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر: ٥١ ، ٥٢] . وقال هاهنا : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أى : كتب القوى العزيز أنه الغالب لأعدائه . وهذا قدر محكم وأمر مبرم ، أن العقابة والنصرة للمؤمنين فى الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ أى : لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين ، كما قال تعالى : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ الآية [آل عمران: ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤] .

وقد قال سعيد بن عبد العزيز وغيره : أنزلت هذه الآية : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ إلى آخرها فى أبى عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح ، حين قتل أباه يوم بدر ؛ ولهذا قال عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، حين جعل الأمر شورى بعده فى أولئك الستة ، رضى الله عنهم : « ولو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته » .

وقيل فى قوله : ﴿ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ﴾ : نزلت فى أبى عبيدة ، قتل أباه يوم بدر ﴿ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ : فى (١) الصديق ، هم يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن ، ﴿ أَوْ إِخْوَانَهُمْ ﴾ : فى مصعب بن عمير ، قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ ﴿ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ : فى عمر ، قتل قريباً له يومئذ أيضاً ، وفى حمزة وعلى وعبيدة بن الحارث ، قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ ، والله أعلم .

قلت : ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين فى أسارى بدر ، فأشار الصديق بأن يفادوا ، فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين ، وهم بنو العم والعشيرة ، ولعل الله أن يهديهم . وقال عمر : لا أرى ما رأى يا رسول الله ، هل (٢) تمكنى من فلان - قريب لعمر - فأقتله ، وتمكن عالياً من عقيل ، وتمكن فلاناً من فلان ، ليعلم الله أنه ليست (٣) فى قلوبنا هودة للمشركين القصة بكاملها .

وقوله : ﴿ أَوْلَيْتُكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ أى : من اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه ، فهذا ممن كتب الله فى قلبه الإيمان ، أى : كتب له السعادة وقررها فى قلبه وزين الإيمان فى بصيرته .

(٣) فى م : « ليس » .

(٢) فى م : « بل » .

(١) فى م : « وفى » .

وقال السدى : ﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾ : جعل في قلوبهم الإيمان .

وقال ابن عباس : ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ أى : قواهم .

وقوله : ﴿ وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ : كل هذا تقدم تفسيره غير مرة .

وفى قوله : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ : سر بديع ، وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر فى الله عوضهم الله بالرضا عنهم ، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم ، والفوز العظيم ، والفضل العميم .

وقوله : ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى : هؤلاء حزبُ الله ، أى : عباد الله ^(١) وأهل كرامته .

وقوله : ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ : تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرهم ^(٢) فى الدنيا والآخرة ، فى مقابلة ما أخبر عن أولئك بأنهم حزب الشيطان . ثم قال : ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا هارون بن حميد الواسطى ، حدثنا الفضل بن عنبسة ، عن رجل قد سماه - يقال ^(٣) : هو عبد الحميد بن سليمان ، انقطع من كتابى - عن الذئال بن عباد قال : كتب أبو حازم الأعرج إلى الزهرى : أعلم أن الجاه جاهان ، جاه يجريه الله على أيدي أوليائه لأوليائه ، وإنهم الخامل ذكرهم ، الخفية شخوصهم ، ولقد جاءت صفتهم على لسان رسول الله ﷺ : « إن الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء ، الذين إذا غابوا لم يُفْتَقَدُوا ، وإذا حضروا لم يُدْعَوْا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، يخرجون من كل فتنة سوداء مظلمة » ^(٤) . فهؤلاء أولياء الله الذين قال الله : ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

وقال نعيم بن حماد : حدثنا محمد بن ثور ، عن يونس ، عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « اللهم ، لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي يداً ولا نعمة ، فإنى وجدت فيما أوحيت به إلى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ » . قال سفيان : يرون أنها نزلت فيمن يخالط السلطان . ورواه أبو أحمد العسكري .

(١) فى م : « عباده » .

(٢) فى م : « ونصرتهم » .

(٣) فى م : « فقال » .

(٤) الحديث أخرجه ابن ماجه فى السنن برقم (٣٩٨٩) من طريق ابن لهيعة ، عن عيسى بن عبد الرحمن ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن عمر مرفوعاً ، وفيه ابن لهيعة وقد توبع ، تابعه عياش بن عباس ، عن عيسى بن عبد الرحمن به ، رواه الحاكم فى المستدرک (٣٢٨/٤) وقال : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

تفسير سورة الحشر

[وكان ابن عباس يقول : سورة بنى النضير ^(١) . وهى مدنية .

قال سعيد بن منصور : حدثنا هُشَيْمٌ ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : أنزلت فى بنى النضير .

ورواه البخارى ومسلم من وجه آخر ، عن هُشَيْمٍ ، به ^(٢) . ورواه البخارى من حديث أبى عَوَانَةَ ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : قل : سورة النَّضِيرِ ^(٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِ الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥) .

يخبر تعالى أن جميع ما فى السموات وما فى الأرض من شىء يسبح له ويمجده ويقده ، ويصلى له ويوحده ^(٤) ، كقوله : ﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ] ^(٥) ﴿ [الإسراء: ٤٤] . وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : منيع الجناب ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى قدره وشرعه .

وقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعنى : يهود بنى النضير . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والزهرى ، وغير واحد : كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم

(١) زيادة من أ .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٨٢) وصحيح مسلم برقم (٣٣١) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٨٨٣) .

(٤) فى م : « وحده » .

(٥) زيادة من م .

عهداً وذمة ، على ألا يقاتلهم ولا يقتلوه ، فنقضوا العهد الذى كان بينهم وبينه ، فأحل الله بهم بأسه الذى لا مَرَدَّ^(١) له ، وأنزل عليهم قضاءه الذى لا يُصَدَّ ، فأجلاهم النبى ﷺ ، وأخرجهم من حصونهم الحصينة التى ما طمع فيها المسلمون ، وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله ، فما أغنى عنهم من الله شيئاً ، وجاءهم ما لم يكن ببالهم ، وسيّرهم رسول الله وأجلاهم من المدينة ، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أذرعات من أعالي الشام ، وهى أرض المحشر والمنشر ، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر . وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم ، فكانوا يخربون ما فى بيوتهم من المنقولات التى يمكن أن تحمل معهم ؛ ولهذا قال : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الْأَبْصَارِ ﴾ أى : تفكروا فى عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله ، وكذب كتابه ، كيف يحل به من بأسه المخزى له فى الدنيا ، مع ما يدخره له فى الآخرة من العذاب الأليم .

قال أبو داود : حدثنا محمد بن داود بن سفيان ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن الزهرى ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن رجل من أصحاب النبى ﷺ ، أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبى ، ومن كان معه يعبد [معه]^(٢) الأوثان من الأوس والخزرج ، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر : إنكم آويتم صاحبنا ، وإنا نقسم بالله لنتقاتلن ، أو لتخرجنه ، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا ، حتى نقتل مُقاتلتكم ونستبيح نساءكم ، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبى ومن كان معه من عبدة الأوثان ، اجتمعوا لقتال النبى ﷺ ، فلما بلغ ذلك النبى ﷺ لقيهم ، فقال : « لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريد أن تكيدوا به أنفسكم ، تريدون أن تقتلوا أبناءكم وإخوانكم ؟ » ، فلما سمعوا ذلك من النبى ﷺ تفرقوا ، فبلغ ذلك كفار قريش ، فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود : إنكم أهل الحلقة والحصون ، وإنكم لتقاتلن مع صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا ، ولا يحول بيننا وبين خدَم نساءكم شىء - وهى الخلاخيل - فلما بلغ كتابهم النبى ﷺ اجتمعت بنو النضير بالغدر ، فأرسلوا إلى النبى ﷺ : اخرج إلينا فى ثلاثين رجلاً من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حبراً ، حتى نلتقى بمكان المنصف فيسمعوا منك ، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك ، فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ [بالكتائب]^(٣) فحصرهم ، قال لهم : « إنكم والله لا تأمنوا عندى إلا بعهد تعاهدونى عليه » . فأبوا أن يعطوه عهداً ، فقاتلهم يومهم ذلك ، ثم غدا الغد على بنى قريظة بالكتائب ، وترك بنى النضير ، ودعاهم إلى أن يعاهدوه ، فعاهدوه ، فانصرف عنهم . وغدا إلى بنى النضير بالكتائب فقاتلهم ، حتى نزلوا على الجلاء . فجلبت بنو النضير ، واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها ، وكان نخل بنى النضير لرسول الله ﷺ خاصة ، أعطاه الله إياها وخصه بها ، فقال : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ يقول : بغير قتال ، فأعطى النبى ﷺ أكثرها للمهاجرين ، قسمها بينهم ، وقسم منها لرجلين من الأنصار وكانا ذوى حاجة ، ولم يقسم من الأنصار غيرهما ، وبقي

(١) فى م : « لا يرد » .

(٢) ، (٣) زيادة من سنن أبى داود .

منها صدقة رسول الله ﷺ التي في أيدي بني فاطمة (١) .

ولنذكر ملخص غزوة بني النضير على وجه الاختصار ، وبالله المستعان .

وكان سبب ذلك فيما ذكره أصحاب المغازي والسير : أنه لما قُتل أصحابُ بئر معونة ، من أصحاب رسول الله (٢) ﷺ ، وكانوا سبعين ، وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمري ، فلما كان في أثناء الطريق راجعاً إلى المدينة قتل رجلين من بني عامر ، وكان معهما عهد من رسول الله ﷺ وأمان لم يعلم به عمرو ، فلما رجع أخبر رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : « لقد قتلت رجلين ، لأدينهما » . وكان بين بني النضير وبني عامر حلف وعهد ، فخرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك الرجلين ، وكان منازل بني النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقيها .

قال محمد بن إسحاق بن يسار في كتابه السيرة : ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير ، يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر ، اللذين قتل (٣) عمرو بن أمية الضمري ؛ للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقد لهما ، فيما حدثني يزيد بن رومان ، وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف . فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم في دية ذينك القتيلين قالوا : نعم ، يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببت ، مما استعنت بنا عليه . ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن (٤) تجدوا الرجل على مثل حاله هذه — ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم — فَمَنْ (٥) رجل يعلو على هذا البيت ، فيلقى عليه صخرة ، فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم ، فقال : أنا لذلك ، فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال ، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه ، فيهم أبو بكر وعمر وعلى ، رضى الله عنهم . فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة ، فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه قاموا في طلبه فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة ، فسألوه عنه ، فقال : رأيته داخلًا المدينة . فاقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به ، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم . ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا منه في الحصون ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل والتحريق فيها . فنادوه : أن يا محمد ، قد كنت تنهى عن الفساد وتعييه على من صنعه ، فما بال قطع النخل وتحريقها ؟

وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج ، منهم عبد الله بن أبي [بن] (٦) سلول ، ووديدة ، ومالك بن أبي قوقل (٧) ، وسويد وداعس ، قد بعثوا إلى بني النضير : أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لن نسلمكم ، إن قوتلتهم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خَرَجنا معكم فتربصوا ذلك من نصرهم ، فلم يفعلوا ، وقذف الله في قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ، ففعل ، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه ، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به . فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام ، وخلصوا الأموال لرسول الله ﷺ ، فكانت لرسول الله خاصة

(١) سنن أبي داود برقم (٣٠٠٤) .

(٢) في م : « أصحاب النبي » .

(٣) في م : « قتلها » .

(٤) في م : « لم » .

(٥) في أ : « فمر » .

(٦) في أ : « نوفل » .

(٧) زيادة من م ، أ .

يضعها حيث شاء ، فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار . إلا أن سهل بن حنيف وأبا دُجانة سماك بن خرشة ذكرا فقرأ ، فأعطاهما رسول الله ﷺ .

قال : ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلان : يامين بن عُمير ^(١) بن كعب بن عمرو بن جحاش ، وأبو سعد بن وهب أسلما على أموالهما فأحرزاهما .

قال ابن إسحاق : وقد حدثني بعض آل يامين : أن رسول الله ﷺ قال ليامين : « ألم تر ما لقيتُ من ابن عمك ، وما هم به من شأني » . فجعل يامين بن عُمير ^(٢) لرجل جعل على أن يقتل عمرو بن جحاش ، فقتله فيما يزعمون .

قال ابن إسحاق : ونزل في بنى النضير سورة الحشر بأسرها ^(٣) .

وهكذا روى يونس بن بُكَيْر ، عن ابن إسحاق ، بنحو ما تقدم ^(٤) .

فقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعنى : بنى النضير ﴿ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا سفيان ، عن أبي سعد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : من شك في أن أرض المحشر هاهنا — يعنى الشام فليتل ^(٥) هذه الآية : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ ، قال لهم رسول الله ﷺ : « اخرجوا » . قالوا : إلى أين ؟ قال : « إلى أرض المحشر » .

وحدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة ، عن عوف ، عن الحسن قال : لما أجلى رسول الله ﷺ بنى النضير ، قال : « هذا أول الحشر ، وأنا على الأثر » .

ورواه ابن جرير ، عن بُنْدَار ، عن ابن أبي عدى ، عن عوف ، عن الحسن ، به ^(٦) .

وقوله : ﴿ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ﴾ أى : فى مدة حصاركم لهم وقصرها ، وكانت ستة أيام ، مع شدة حصونهم ومنعتها ؛ ولهذا قال : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ أى : جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم فى بال ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل: ٢٦] .

وقوله : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ أى : الخوف والهلع والجزع ، وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصره الذى نصر بالرعب مسيرة شهر ، صلوات الله وسلامه عليه .

(١ ، ٢) فى م : « بن عمرو » .

(٣) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٩٠-١٩٢) وتفسير الطبرى (٢٨/ ٢١) .

(٤) فى م : « ما تقدم » . (٥) فى م ، أ : « فليقرأ » .

(٦) تفسير الطبرى (٢٨/ ٢٠) ورواه ابن سعد فى الطبقات (٢/ ٤٢) عن هوزة بن خليفة ، عن عوف ، عن الحسن به وهو مرسل .

وقوله : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ : قد تقدم تفسير ابن إسحاق لذلك ، وهو نقض ^(١) ما استحسنوه من سقوفهم وأبوابهم ، وتَحْمِلُهَا عَلَى الْإِبْلِ ، وكذا قال عروة بن الزبير ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغير واحد .

وقال مقاتل بن حيان : كان رسول الله ﷺ يقاتلهم ، فإذا ظهر على دَرَبٍ أو دار ، هدم حيطانها ليتسع المكان للقتال . وكان ^(٢) اليهود إذا علّوا مكاناً أو غلبوا على دَرَبٍ أو دار ، نقبوا من أدبارها ثم حصنوها ودربوها ، يقول الله تعالى : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴾ أى : لولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء ، وهو النفي من ديارهم وأموالهم ، لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسبى ، ونحو ذلك ، قاله الزهري ، عن عُرْوَةَ ، والسُّدِّيَّ وابن زيد ؛ لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم فى الدار الدنيا مع ما أعد لهم فى الآخرة من العذاب فى نار جهنم .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن صالح - كاتب الليث - حدثنى الليث ، عن عقيل ، عن ابن شهاب قال : أخبرنى عروة بن الزبير قال : ثم كانت وقعة بنى النضير ، وهم طائفة من اليهود ، على رأس ستة أشهر من وقعة بدر . وكان منزلهم بناحية من المدينة ، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء ، وأن لهم ما أقلت الإبل من الأموال والأمتعة إلا الحلقة ، وهى السلاح ، فأجلاهم رسول الله ﷺ قبل الشام . قال : والجلاء أنه كُتِبَ عليهم فى آى من التوراة ، وكانوا من سبط لم يصيبهم الجلاء قبل ما سلط عليه رسول الله ﷺ ، وأنزل الله فيهم : ﴿ سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

وقال عكرمة : الجلاء : القتل . وفى رواية عنه : الفناء .

وقال قتادة : الجلاء : خروج الناس من البلد إلى البلد .

وقال الضحاك : أجلاهم إلى الشام ، وأعطى كل ثلاثة بغيراً وسقاء ، فهذا الجلاء .

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أحمد بن كامل القاضى ، حدثنا محمد بن سعيد ^(٣) العوفى ، حدثنى أبى ، عن عمى ، حدثنى أبى عن جدى ، عن ابن عباس قال : كان النبى ﷺ قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مَبْلَغٍ ، فأعطوه ما أراد منهم ، فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم ، وأن يخرجهم من أرضهم ومن ديارهم وأوطانهم ، وأن يسيرهم إلى أذرعات الشام ، وجعل لكل ثلاثة منهم بغيراً وسقاء ، والجلاء إخراجهم من أرضهم ^(٥) إلى أرض أخرى ^(٦) .

وروى أيضاً من حديث يعقوب بن محمد الزهري ، عن إبراهيم بن جعفر بن محمود بن محمد

(٣) فى أ : « سعد » .

(٢) فى م : « وكانت » .

(١) فى أ : « بعض » .

(٥) فى م : « أرض » .

(٤) فى م : « كان رسول الله » .

(٦) دلائل النبوة للبيهقي (٣/٣٥٩) وإسناده مسلسل بالضعفاء .

ابن مسلمة ، عن أبيه ، عن جده ، عن محمد بن مسلمة ؛ أن رسول الله ﷺ بعثه إلى بني النضير ، وأمره أن يؤجلهم في الجلاء ثلاث ليال (١) (٢) .

وقوله : ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ أى : حتم لازم لا بد لهم منه .

وقوله : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى : إنما فعلَ الله بهم ذلك وسلَّطَ عليهم رسوله وعباده المؤمنين ؛ لأنهم خالفوا الله ورسوله ، وكذبوا بما أنزل الله على رسوله المتقدمين في (٣) البشارة بمحمد ﷺ ، وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم . ثم قال : ﴿وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ اللين : نوع من التمر ، وهو جيد .

قال أبو عبيدة : وهو ما خالف العجوة والبرني من التمر .

وقال كثيرون (٤) من المفسرين : اللينة : ألوان التمر سوى العجوة .

قال ابن جرير : هو جميع النخل . ونقله عن مجاهد : وهو البويرة أيضاً ؛ وذلك أن رسول الله ﷺ لما حاصرهم أمر بقطع نخيلهم (٥) إهانة لهم ، وإرهاباً وإرعاباً لقلوبهم . فروى محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان أنهم قالوا : [فبعث بنو النضير] (٦) يقولون لرسول الله ﷺ : إنك تنهى عن الفساد ، فما بالك تأمر بقطع الأشجار ؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة ، أى : ما قطعتم وما تركتم من الأشجار ، فالجميع بإذن الله ومشيتته وقدرته (٧) ورضاه ، وفيه نكاية العدو (٨) ، وخزى لهم ، وإرغام لأنوفهم .

وقال مجاهد : نهى بعض المهاجرين بعضاً عن قطع النخل ، وقالوا : إنما هي مغانم المسلمين . فنزل (٩) القرآن بتصديق من نهى عن قطعه ، وتحليل من قطعه من الإثم ، وإنما قطعه وتركه بإذنه .

وقد روى نحو هذا مرفوعاً ، فقال النسائي : أخبرنا الحسن بن محمد ، عن (١٠) عفان ، حدثنا حفص بن غياث ، حدثنا حبيب بن أبي عمرة ، عن سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس ، فى قوله : ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ قال : يستنزلونهم من حصونهم وأمروا بقطع النخل ، فحاك فى صدورهم ، فقال المسلمون : قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً ، فلنسألن رسول الله ﷺ : هل لنا فيما قطعنا من أجر ؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر ؟ فأنزل الله : ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ﴾ (١١) .

(١) فى م : « أيام » .

(٢) دلائل النبوة (٣/ ٣٦٠) .

(٣) فى م : « من » .

(٤) فى م : « كثير » .

(٥) فى م : « نخيلهم » .

(٦) فى هـ بياض ، وفى م : « بنو قريظة » وهو خطأ ، والمثبت من تفسير الطبرى . ومستفاداً من هامش ط . الشعب .

(٧) فى م : « وقدره » .

(٨) فى م : « للعدو » .

(٩) فى م : « فأنزل » .

(١٠) فى م : « بن » .

(١١) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٥٧٤) .

وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده : حدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا حفص ، عن ابن جريج ، عن سليمان بن موسى ، عن جابر - وعن أبى الزبير ، عن جابر - قال : رخص لهم فى قطع النخل ، ثم شدد عليهم ، فأتوا ^(١) النبى ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، علينا إثم فيما قطعنا ؟ أو علينا وزر فيما تركنا ؟ فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ^(٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن موسى بن عقبة ، عن نافع ، عن ابن عمر ؛ أن رسول الله ﷺ قطع نخل بنى النضير وحرّق .

وأخرجه صاحبها الصحيح من رواية موسى بن عقبة ، بنحوه ^(٣) ، ولفظ البخارى من طريق عبد الرزاق ، عن ابن جريج ، عن موسى بن عقبة ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : حاربت ^(٤) النضير وقريظة ، فأجلى بنى النضير وأقر قريظة ومنّ عليهم حتى حاربت قريظة فقتل رجالهم وقسم ^(٥) نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين ، إلا بعضهم لحقوا بالنبى ﷺ فأمنهم وأسلموا ، وأجلى يهود المدينة كلهم بنى قينقاع ، وهم رهط عبد الله بن سلام ، ويهود بنى حارثة ، وكل يهود بالمدينة .

ولهما أيضا عن قتيبة ، عن الليث بن سعد ، عن نافع ، عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ حرّق نخل بنى النضير وقطع - وهى البؤيرة - فأنزل الله ، عز وجل فيه : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ ^(٦) .

وللبخارى ، رحمه الله ، من رواية جُوَيْرِيَةَ بن أسماء عن نافع ، عن عبد الله بن عمر ؛ أن رسول الله ﷺ حرّق نخل بنى النضير ^(٧) . ولها يقول حسان بن ثابت ، رضى الله عنه :

وَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِي لُؤَى
حَرِيقَ بِالْبُؤِيرَةِ مُسْتَطِيرٌ

فأجابه أبو سفيان بن الحارث يقول :

أَدَامَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْ صَنِيعٍ
وَحَرَّقَ فِي نَوَاحِيهَا السَّعِيرُ
سَتَعْلَمُ أَيْنَا مِنْهَا بِنُزِهِ
وَتَعْلَمُ أَىٰ أَرْضَيْنَا نَضِيرُ

(١) فى م : « فسألوا » .

(٢) مسند أبى يعلى (١٣٥/٤) وفيه سفيان بن وكيع ، وهو ضعيف .

تنبيه : رواية سليمان بن موسى عن جابر لم أجدها فى مسند أبى يعلى المطبوع فلعلها سقطت .

(٣) المسند (٧/٢) وصحيح البخارى برقم (٢٠٢١) وصحيح مسلم برقم (١٧٤٦)

(٤) فى م : « حارب » . (٥) فى م : « فقتل من رجالهم وسبى وقسم » .

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٨٨٤) وصحيح مسلم برقم (١٧٤٦) .

(٧) فى هـ ، أ : « نخل بنى النضير ، وقطع البؤيرة » ، وقوله : « وقطع البؤيرة » غير ثابت فى البخارى ، ويبدو أنه سهو من الناسخ .

مستفاداً من هامش ط - الشعب .

كذا رواه البخارى (١) ، ولم يذكره ابن إسحاق .

وقال محمد بن إسحاق : وقال كعب بن مالك يذكر إجلاء بنى النضير وقتل ابن الأشرف :

لَقَدْ خَزَيْتَ ^(٢) بَغْدَرْتِهَا الْحُبُورُ	كَذَاكَ الدَّهْرُ ذُو صَرْفٍ يَدُورُ
وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِرَبِّ	عَظِيمٍ أَمْرُهُ أَمْرٌ كَبِيرُ
وَقَدْ أَوْتُوا مَعًا فَهْمًا وَعِلْمًا	وَجَاءَهُمْ مِنَ اللَّهِ النَّذِيرُ
نَذِيرٌ صَادِقٌ أَدَّى ^(٣) كِتَابًا	وَآيَاتٍ مُبَيِّنَةً تُنِيرُ
فَقَالَ ^(٤) : مَا أَتَيْتُ بِأَمْرٍ صَدَقَ	وَأَنْتَ بِمَنْكَرٍ مِنْهَا جَدِيرُ
فَقَالَ : بَلَى لَقَدْ أُدِيتُ حَقًّا	يُصَدِّقُنِي بِهِ الْفَهْمُ الْخَبِيرُ
فَمَنْ يَتَّبِعْهُ يُهْدَ لِكُلِّ رُشْدٍ	وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ يُجْزَا الْكَفُورُ
فَلَمَّا أَشْرَبُوا غَدْرًا وَكُفْرًا	وَجَدَّ بِهِمْ عَنِ الْحَقِّ النَّفُورُ
أَرَى اللَّهَ النَّبِيَّ بَرَأَى صَدُقَ	وَكَانَ اللَّهُ يَحْكُمُ لَا يَجُورُ
فَأَيْدِيَهُ وَسَلَّطَهُ عَلَيْهِمْ	وَكَانَ نَصِيرُهُ نَعْمَ النَّصِيرُ
فَعُودَرِ مِنْهُمْ كَعْبٌ صَرِيحًا	فَذَلَّتْ بَعْدَ مَصْرَعِهِ النَّصِيرُ
عَلَى الْكَافِّينَ ثُمَّ وَقَدْ عَلَتْهُ	بِأَيْدِينَا مُشْهَرَةٌ ذُكُورُ
بِأَمْرِ مُحَمَّدٍ إِذْ دَسَّ لَيْلًا	إِلَى كَعْبٍ أَخَا كَعْبٍ يَسِيرُ
فَمَا كَرِهَ فَأَنْزَلَهُ بِمَكْرٍ	وَمَحْمُودُ أَخُو ثِقَةٍ جَسُورُ
فَتَلَّكَ بَنُو النَّضِيرِ بَدَارَ سَوْءٍ	أَبَارَهُمْ بِمَا اجْتَرَمُوا الْمُبِيرُ
غَدَاةً أَتَاهُمْ فِي الزَّخْفِ رَهَوًّا	رَسُولُ اللَّهِ وَهُوَ بِهِمْ بَصِيرُ
وَعَسَّانُ الْحِمَاةُ مُوَازِرُوهُ	عَلَى الْأَعْدَاءِ وَهَوْلِهِمْ وَزِيرُ
فَقَالَ: السَّلَامُ وَيَحْكُمُ فَصَدَّوْا	وَحَالَفَ أَمْرَهُمْ كَذِبُ وَزُورُ
فَذَاقُوا غَبَّ أَمْرِهِمْ دَبَالًا	لِكُلِّ ثَلَاثَةٍ مِنْهُمْ بَعِيرُ
وَأَجْلَوْا عَامِدِينَ لَقَيْنُقَاعَ	وَعُودَرِ مِنْهُمْ نَخْلٌ وَدُورُ ^(٥)

قال : وكان مما (٦) قيل من الأشعار فى بنى النضير قول ابن لُقَيْمِ الْعَبْسِيِّ - ويقال : قالها قيس

(١) صحيح البخارى برقم (٤٠٣٢) .

(٢) فى أ : « خربت » .

(٥) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (١٩٩/٢) .

(٦) فى م : « وما كان » .

(٤) فى م : « فقالوا » .

(٣) فى م : « أوتى » .

ابن بحر بن طريف ، قال ابن هشام الأشجعي :

أهلى فداءً لامرئ غير هالك
يَقِيلُونَ فِي جَمْرِ الْغَضَاةِ وَبُدِّلُوا
فَإِنْ يَكُ ظَنِّي صَادِقًا بِمُحَمَّدٍ
يَوْمَ بِهَا عَمَرُو بَنُ بُهْثَةَ إِنَّهُمْ
عَلَيْهِنَّ أَبْطَالُ مَسَاعِيرُ فِي الْوَعَى
وَكُلَّ رَقِيقِ الشَّفَرَتَيْنِ مُهَنْدٍ
فَمَنْ مَبْلَغُ عَنَى قُرَيْشًا رِسَالَةً
بِأَنَّ أَخَاكُمْ فَاعْلَمَنَّ مُحَمَّدًا
فَدِينُوا لَهُ بِالْحَقِّ تَجَسُّمُ أُمُورِكُمْ
نَبِي تَلَاَفْتِهِ مِنَ اللَّهِ رَحْمَةً
فَقَدْ كَانَ فِي بَدْرِ لَعَمْرِي عِبْرَةً
غَدَاةً أَتَى فِي الْخَزْرَجِيَّةِ عَامِدًا
مُعَانًا بِرُوحِ الْقُدُسِ يَنْكِي عَدُوهُ
رَسُولًا مِنَ الرَّحْمَنِ يَتْلُو كِتَابَهُ
أَرَى أَمْرَهُ يَزْدَادُ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ

أَحَلَّ (١) الْيَهُودَ بِالْحَسَى (٢) الزُّنْمَ
أَهْيَضَبَ عَوْدًا بِالْوَدَى الْمُكَمَّمِ
يَرَوْنَ خَيْلَهُ بَيْنَ الصَّلَا وَيَرْمَرُمُ (٣)
عَدُو وَمَا حَى صَدِيقَ كُمُجْرَمٍ
يَهْزُونَ أَطْرَافَ الْوَشِيجِ الْمُقَوَّمِ
تُورَثَنَّ مِنْ أَزْمَانٍ عَادَ وَجَرَهُمُ
فَهَلْ بَعْدَهُمْ فِي الْمَجْدِ مِنْ مُتَكْرَمٍ
تَلِيدُ النَّدَى بَيْنَ الْحَجُونِ وَزَمَزَمَ
وَتَسْمُوا مِنَ الدُّنْيَا إِلَى كُلِّ مُعْظَمٍ
وَلَا تَسْأَلُوهُ أَمْرَ غَيْبٍ مُرْجَمٍ
لَكُمْ يَا قُرَيْشَ وَالْقَلِيبِ الْمُلَمَّمِ
إِلَيْكُمْ مُطِيعًا لِلْعَظِيمِ الْمُكْرَمِ
رَسُولًا مِنَ الرَّحْمَنِ حَقًّا بِمَعْلَمٍ
فَلَمَّا أَنَارَ الْحَقُّ لَمْ يَتَلَعَثْ
عُلُوًّا لِأَمْرِ حَمَّهِ اللَّهُ مُحْكَمٍ (٤)

وقد أورد ابن إسحاق ، رحمه الله ، هاهنا أشعاراً كثيرة ، فيها آداب ومواعظ وحكم ، وتفصيل للقصة ، تركنا باقيها اختصاراً واكتفاء بما ذكرناه ، ولله الحمد والمنة .

قال ابن إسحاق : كانت وقعة بني النضير بعد وقعة أحد وبعد بئر معونة . وحكى البخارى ، عن الزهرى ، عن عروة أنه قال : كانت وقعة بني النضير بعد بدر بستة أشهر (٥) .

﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِللَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ

(١) فى أ : « أجلى » .

(٢) فى م ، أ : « بالحس » .

(٣) فى أ : « بين الصفا وبزمزم » .

(٤) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (١٩٥ / ٢) .

(٥) صحيح البخارى (٣٢٩ / ٧) « فتح » .

الْأَغْنِيَاءَ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ .

يقول تعالى مبيناً لمال الفىء ، وما صفته ؟ وما حكمه ؟ فالفىء : كل مال أخذ من الكفار بغير قتال ولا إيجاب خيل ولا ركاب ، كأموال بنى النضير هذه ، فإنها مما لم يُوجف المسلمون عليه ^(١) بخيل ولا ركاب ، أى : لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة ، بل نزل أولئك من الرعب الذى ألقى الله فى قلوبهم من هيبة رسول الله ﷺ ، فأفاءه الله على رسوله ؛ ولهذا تصرف فيه كما شاء ، فردّه على المسلمين فى وجوه البر والمصالح التى ذكرها الله ، عز وجل ، فى هذه الآيات ، فقال : ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ أى : من بنى النضير ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ يعنى : الإبل ، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَسْلُطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى : هو قدير لا يُغالب ولا يُمانع ، بل هو القاهر لكل شىء .

ثم قال : ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أى : جميع البلدان التى تُفتَح هكذا ، فحكمها حكم أموال بنى النضير ؛ ولهذا قال : ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ إلى آخرها والى بعدها . فهذه مصارف أموال الفىء ووجوهه .

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن عمرو ومَعْمَر ، عن الزهرى ، عن مالك بن أوس بن الحَدَثَان ، عن عمر ، رضى الله عنه ، قال : كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يُوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة ^(٢) ، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته ^(٤) - وقال مرة : قوت ^(٥) سنته - وما بقى جعله فى الكراع والسلاح فى سبيل الله ، عز وجل .

هكذا أخرجه أحمد هاهنا مختصراً ، وقد أخرجه الجماعة فى كتبهم - إلا ابن ماجة - من حديث سفيان ، عن عمرو بن دينار ، عن الزهرى ، به ^(٦) . وقد رويناه مطولاً ، فقال أبو داود ، رحمه الله :

حدثنا الحسن بن على ومحمد بن يحيى بن فارس - المعنى واحد - قالوا : حدثنا بشر بن عُمَر الزهرانى ، حدثنى مالك بن أنس ، عن ابن شهاب ، عن مالك بن أوس قال : أرسل إلى عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، حين تعالى النهار ، فجيئته فوجدته جالساً على سرير مُفضياً إلى رُماله ، فقال حين دخلت عليه : يا مال ، إنه قد دَفَّ أهل أبيات ^(٧) من قومك ، وقد أمرت فيهم بشىء ، فاقسم فيهم . قلت : لو أمرت غيرى بذلك ؟ فقال : خذه . فجاءه ^(٨) يرفا ، فقال : يا أمير

(٣) فى م : « خاصة » .

(٢) فى م : « عليه المسلمون » .

(١) فى م : « من غير » .

(٥) فى أ : « مسيرة » .

(٤) فى م : « سنة » .

(٦) المسند (٢٥/١) وصحيح البخارى برقم (٤٨٨٥) وصحيح مسلم برقم (١٧٥٧) وسنن أبى داود برقم (٢٩٦٥) وسنن الترمذى برقم

(١٧١٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٧٥) .

(٨) فى م : « فجاءه » .

(٧) فى أ : « أهل بنات » .

المؤمنين، هل لك في عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ؟ فقال : نعم . فأذن لهم فدخلوا ، ثم جاءه يرفا فقال : يا أمير المؤمنين ، هل لك في العباس وعلى ؟ قال : نعم . فأذن لهم فدخلوا ، فقال العباس : يا أمير المؤمنين ، اقض بيني وبين هذا - يعنى : علياً - فقال بعضهم : أجل يا أمير المؤمنين ، اقض بينهما وأرحهما . قال مالك بن أوس : خيّل إليّ أنهما قدّما أولئك النفر لذلك . فقال عمر ، رضى الله عنه : اتندا . ثم أقبل على أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : « لا نُورث ، ما تركنا صدقة » . قالوا : نعم . ثم أقبل على عليّ والعباس فقال : أنشدكما بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمان أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ، ما تركنا صدقة » . فقالا : نعم . فقال : فإن الله خص رسوله بخاصة لم يخص بها أحداً من الناس ، فقال : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . فكان الله أفاء على رسوله أموال بنى النضير ، فوالله ما استأثر بها عليكم ولا أحرزها دونكم ، فكان رسول الله ﷺ يأخذ منها نفقة سنة - أو : نفقته ونفقة أهله سنة - ويجعل ما بقى أسوة المال . ثم أقبل على أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض : هل تعلمون ذلك ؟ قالوا : نعم . ثم أقبل على عليّ والعباس فقال : أنشدكما بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض : هل تعلمان ذلك ؟ قالوا : نعم . فلما توفى رسول الله ﷺ قال أبو بكر : « أنا وليّ رسول الله » ، فجنّت أنت وهذا إلى أبى بكر ، تطلب أنت ميراثك من ابن أخيك ، ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها ، فقال أبو بكر ، رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « لا نورث ، ما تركنا صدقة » . والله يعلم إنه لصادق بار راشد تابع للحق . فوليها أبو بكر ، فلما توفى قلتُ : أنا وليّ رسول الله ﷺ ووليّ أبى بكر ، فوليتها ما شاء الله أن أليها ، فجنّت أنت وهذا ، وأنتما جميع وأمركما واحد ، فسألتمايها ، فقلت : إن شئتما فأنا أدفعها إليكما على أنّ عليكما عهد الله أن تليها بالذى كان رسول الله ﷺ يليها ، فأخذتماها منى على ذلك ، ثم جئتمانى لأقضى بينكما بغير ذلك . والله لا أقضى بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة ، فإن عجزتما عنها فردّها إلى .

أخرجوه من حديث الزهري ، به^(١) . وقال الإمام أحمد :

حدثنا عارم وعفان قالوا : حدثنا معتمر ، سمعت أبى يقول : حدثنا أنس بن مالك ، عن نبيّ الله ﷺ أن الرجل كان يجعل له من ماله النخلات ، أو كما شاء الله ، حتى فُتحت عليه قريظة والنضير . قال : فجعل يرُدّ بعد ذلك ، قال : وإن أهلى أمرونى أن أتى النبيّ ﷺ فأسأله الذى كان أهله أعطوه أو بعضه ، وكان نبيّ الله ﷺ قد أعطاه أمّ أيمن ، أو كما شاء الله ، قال : فسألتُ النبيّ ﷺ فأعطانيهن ، فجاءت أمّ أيمن فجعلت الثوب فى عنقى وجعلت تقول : كلا ، والله الذى لا إله إلا هو لا يُعطيكنّ وقد أعطانيهن ، أو كما قالت ، فقال نبيّ الله : « لك كذا وكذا » . قال : وتقول :

(١) سنن أبى داود برقم (٢٩٦٣) وصحيح البخارى برقم (٣٠٩٤) وصحيح مسلم برقم (١٧٥٧) وسنن النسائى (١٣٦/٧) وسنن الترمذى برقم (١٦١٠) .

كلا ، والله . قال : ويقول : « لك كذا وكذا » . قال : وتقول : كلا والله . قال : « ويقول : لك كذا وكذا » . قال : حتى أعطاها ، حسبت أنه قال : عشرة أمثال أو قال قريباً من عشرة أمثاله ، أو كما قال .

رواه البخارى ومسلم من طُرُق عن معتمر ، به (١) .

وهذه المصارف المذكورة فى هذه الآية هى المصارف المذكورة فى خمس الغنيمة . وقد قدمنا الكلام عليها فى سورة « الأنفال » بما أغنى عن إعادته هاهنا ، ولله الحمد (٢) .

وقوله : ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ أى : جعلنا هذه المصارف لمال الفئ لثلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها ، بمحض الشهوات والآراء ، ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء .

وقوله : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ أى : مهما أمركم به فافعلوه ، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه ، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا يحيى بن أبى طالب ، حدثنا عبد الوهاب ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن العوفى ، عن يحيى بن الجزار ، عن مسروق قال : جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت : بلغنى أنك تنهى عن الواشمة والواصلة ، أشىء وجدته فى كتاب الله أو عن رسول الله ﷺ ؟ قال : بلى ، شىء وجدته فى كتاب الله وعن رسول الله ﷺ . قالت : والله لقد تصفحت ما بين دفتى المصحف فما وجدت الذى تقول ! . قال : فما وجدت فيه : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ ؟ قالت : بلى . قال : فإنى سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن الواصلة والواشمة والنامصة . قالت : فلعله فى بعض أهلك . قال : فادخلنى فانظرى . فدخلت فنظرت ثم خرجت ، قالت : ما رأيتُ بأساً . فقال لها : أما حفظت وصية العبد الصالح : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود: ٨٨] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن منصور ، [عن إبراهيم] (٣) ، عن علقمة ، عن عبد الله — هو ابن مسعود — قال : لعن الله الواشحات والمستوشحات والمتنمصات ، والمتفلجات للحسن ، المغيرات خلق الله ، عز وجل . قال : فبلغ امرأة فى البيت يقال لها : « أم يعقوب » ، فجاءت إليه فقالت : بلغنى أنك قلت كيت وكيت . قال : ما لى لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ ، وفى كتاب الله . فقالت : إني لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته . فقال : إن كنت قرأته فقد وجدته . أما قرأت : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ ؟ قالت : بلى . قال : فإن النبى ﷺ نهى عنه . قالت : [إني] (٤) لأظن أهلك يفعلونه . قال : اذهبي فانظري .

(١) المسند (٢١٩/٣) وصحيح البخارى برقم (٣١٢٨ ، ٤٠٣٠ ، ٤١٢٠) وصحيح مسلم برقم (١٧٧١) .

(٢) فى أ : « ولله الحمد والمنة » .

(٣) زيادة من مسند الإمام أحمد والبخارى ومسلم .

(٤) زيادة من م ، أ ، والمسند .

فذهبت فلم تر من حاجتها شيئاً ، فجاءت فقالت : ما رأيتُ شيئاً . قال : لو كانت كذلك لم تُجَامعنا .
أخرجاه في الصحيحين ، من حديث سفيان الثوري ^(١) .

وقد ثبت في الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » ^(٢) .

وقال النسائي : أخبرنا أحمد بن سعيد ، حدثنا يزيد ، حدثنا منصور بن حيان ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عمر وابن عباس : أنهما شهدا على رسول الله ﷺ : أنه نهى عن الدُّبَاءِ والْحَنْتَمِ والنَّقِيرِ والمَزَقَةِ ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ ^(٣) .

وقوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أى : اتقوه في امتثال أوامره وترك زواجره ؛ فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه ، وارتكب ما عنه زجره ونهاه .

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصَرُونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ ^(٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ^(٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ^(١٠) ۝ .

يقول تعالى مبيناً حال الفقراء المستحقين لمال الفئء أنهم ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً ﴾ أى : خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ﴿ وَيَنْصَرُونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ أى : هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم ، وهؤلاء هم سادات المهاجرين .

ثم قال تعالى مادحاً للأنصار ، ومبيناً فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حسدِهم ، وإيثارهم مع الحاجة ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى : سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم .

قال عمر : وأوصى الخليفة [من] ^(٤) بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم كرامتهم . وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبل ، أن يقبل من محسنهم ،

(١) المسند (٤٣٣/١) وصحيح البخارى برقم (٤٨٨٧) وصحيح مسلم برقم (٢١٢٥) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٧٢٨٨) وصحيح مسلم برقم (١٣٣٧) .

(٣) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٥٧٨) .

(٤) زيادة من أ .

وأن يعفو^(١) عن مسيئهم . رواه البخارى هاهنا أيضا^(٢) .

وقوله : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ أى : مِنْ كَرَمِهِمْ وشرف أنفسهم ، يُحِبُّونَ المهاجرين^(٣) ويواسونهم بأموالهم .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، أخبرنا حميد ، عن أنس قال : قال المهاجرون : يا رسول الله ، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساةً فى قليل ولا أحسن بذلاً فى كثير ، لقد كفَّونا المؤنة ، وأشركونا فى المهنة ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله ! قال : « لا ، ما أثبتتم عليهم ودعوتهم الله لهم »^(٤) .

لم أره فى الكتب من هذا الوجه .

وقال البخارى : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا سفيان ، عن يحيى بن سعيد ، سمع أنس بن مالك حين خرج معه إلى الوليد قال : دعا النبى ﷺ الأنصار أن يُقطع لهم البحرين ، قالوا : لا ، إلا أن تُقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها . قال : « إما لا ، فاصبروا حتى تلقونى ، فإنه سيصيبكم [بعدى]^(٥) أثره » .

تفرد به البخارى من هذا الوجه^(٦) .

وقال البخارى : حدثنا الحكم بن نافع ، أخبرنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة قال : قالت الأنصار : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل . قال : لا . فقالوا : تكفونا المؤنة ونشرككم فى الثمرة ؟ قالوا : سمعنا وأطعنا . تفرد به دون مسلم^(٧) .

﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ﴾ أى : ولا يجدون فى أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف ، والتقديم فى الذكر والرتبة .

قال الحسن البصرى : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً ﴾ يعنى : الحسد .

﴿ مِمَّا أُوتُوا ﴾ : قال قتادة : يعنى فيما أعطى إخوانهم . وكذا قال ابن زيد . ومما يستدل به على هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد حيث قال :

حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهرى ، عن أنس قال : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ ، فقال : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » . فطلع رجل من الأنصار تَنْظُفُ^(٨) لحيته من وضوئه ، قد تَعَلَّقَ^(٩) نعليه بيده الشمال ، فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى . فلما كان فى اليوم الثالث قال رسول الله ﷺ مثل مقالته^(١٠) أيضاً ، فطلع

(١) فى م : « وأن يعفى » .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٨٨) .

(٣) فى أ : « يحبون من هاجر إليهم » .

(٤) المسند (٣ / ٢٠٠) .

(٥) زيادة من صحيح البخارى .

(٦) صحيح البخارى برقم (٣٧٩٤) .

(٧) صحيح البخارى برقم (٢٣٢٥) .

(٨) فى م : « يتفض » .

(٩) فى م : « قد علق » .

(١٠) فى م : « مثل حاله » .

ذلك الرجل على مثل حاله الأولى ^(١) . فلما قام رسول الله ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقال : إني لأحيت أبى فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً ، فإن رأيت أن تؤويني ^(٢) إليك حتى تمضي فعلت . قال : نعم . قال أنس : فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالي ^(٣) ، فلم يره يقوم من الليل شيئاً ، غير أنه إذا تعار وتقلب على فراشه ، ذكر الله وكبر ، حتى يقوم لصلاة الفجر . قال عبد الله : غير أني لم أسمعهم يقول إلا خيراً ، فلما مضت الثلاث ليل وكدت أن أحتقر عمله ، قلت : يا عبد الله ، لم يكن بيني وبين أبى غضب ولا هجر ^(٤) ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرار ^(٥) : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » . فطلعت أنت الثلاث المرات ^(٦) ، فأردت أن أوى إليك لأنظر ما عملك فأقتدى به ، فلم أرك تعمل كثير ^(٧) عمل ، فما الذى بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت . فلما وليت دعاني فقال : ما هو إلا ما رأيت ، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً ، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله : هذه التي بلغت بك ، وهي التي لا تنطق ^(٨) .

ورواه النسائي في اليوم والليلة ، عن سويد بن نصر ، عن ابن المبارك ، عن معمر به ^(٩) . وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين ، لكن رواه عقيل وغيره عن الزهري ، عن رجل ، عن أنس ^(١٠) . فإله أعلم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾ يعني : ﴿ مِمَّا أُوتُوا ﴾ : المهاجرون . قال : وتكلم في أموال بني النضير بعض من تكلم من الأنصار ، فعاتبهم الله في ذلك ، فقال : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، قال : وقال رسول الله : « إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم » . فقالوا : أموالنا بيننا قطائع . فقال رسول الله ﷺ : « أو غير ذلك ؟ » . قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : « هم قوم لا يعرفون العمل ، فتكفونهم وتقاسمونهم ^(١١) الثمر » . فقالوا : نعم يا رسول الله ^(١٢) .

وقوله : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ^(١٣) يعني : حاجة ، أى : يقدمون المحاويع على حاجة أنفسهم ، ويبدؤون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك .

وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أفضل الصدقة جهد المقل » . وهذا المقام

(١) في م : « الأول » .
(٢) في أ : « أن تؤويني » .
(٣) في م : « الليالي الثلاث » .
(٤) في م ، أ : « ولا هجرة » .
(٥) في م : « مرات » .
(٦) في م : « المرات » .
(٧) في م : « كبير » .
(٨) في م : « لا نطق » ، وفي أ : « لا تطيق » .
(٩) المسند (١٦٦/٣) وسنن النسائي الكبرى برقم (١٠٦٩٩) .
(١٠) انظر : تحفة الأشراف للمزى (٣٩٥/١) وكلام الحافظ ابن حجر في النكت الظراف بهامشه .
(١١) في م : « ويقاسمونكم » .
(١٢) رواه الطبري في تفسيره (٢٨/٢٨) .
(١٣) ذكر في م « بقية الآية » .

أعلى من حال الذين وَصَفَ اللَّهُ بقوله : ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ ^(١) ﴾ [الإنسان: ٨] . وقوله : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ [البقرة: ١٧٧] .

فإن هؤلاء يتصدقون وهم يحبون ما تصدقوا به ، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به ، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه . ومن هذا المقام تصدق الصديق ، رضى الله عنه ، بجميع ماله ، فقال له رسول الله ﷺ : « ما أبقيت لأهلك ؟ » . فقال : أبقيت لهم الله ورسوله . وهذا ^(٢) الماء الذى عُرِضَ ^(٣) على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك ، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه ، وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء ، فردّه الآخر إلى الثالث ، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم ، رضى الله عنهم وأرضاهم .

وقال البخارى : حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن كثير ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنا فضيل بن غزوان ، حدثنا أبو حازم الأشجعى ، عن أبي هريرة قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، أصابنى الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا ، فقال النبى ﷺ : « ألا رجل يضيّف هذا الليلة ، رحمه الله ؟ » . فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله . فذهب إلى أهله فقال لامرأته : ضيّف رسول الله ﷺ لا تدّخره شيئا . فقالت : والله ما عندى إلا قوت الصبية . قال : فإذا أراد الصبية العشاء فتوّميهن وتعالى فأطفئى السراج ونطوى بطوننا الليلة . ففعلت ، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ ، فقال : « لقد عجب الله ، عز وجل - أو : ضحك - من فلان وفلانة » . وأنزل الله عز وجل : ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ^(٤) .

وكذا رواه البخارى فى موضع آخر ، ومسلم والترمذى والنسائى من طرق ، عن فضيل بن غزوان ، به نحوه ^(٥) . وفى رواية لمسلم تسمية هذا الأنصارى بأبى طلحة ، رضى الله عنه .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى : من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح .

قال أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا داود بن قيس الفراء ، عن عبيد الله بن مقسم ، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » .

انفرد بإخراجه مسلم ، فرواه عن القعنبي ، عن داود بن قيس ، به ^(٦) .

وقال الأعمش وشعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن عبد الله بن الحارث ، عن زهير بن الأقرم ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا الظلم ؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الفحش ، فإن الله لا يحب الفحش ولا التّفحّش ، وإياكم والشح ؛ فإنه أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالفجور ففجروا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا » .

(١) فى ١ : « حبه مسكيا » . (٢) فى م : « وهكذا » . (٣) فى م : « اعرضوه » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٨٩) .

(٥) صحيح البخارى برقم (٣٧٩٨) وصحيح مسلم برقم (٢٠٥٤) وسنن الترمذى برقم (٣٣٠٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٨٢) .

(٦) المسند (٣/٣٢٣) وصحيح مسلم برقم (٢٥٧٨) .

ورواه أحمد وأبو داود من طريق شعبة ، والنسائي من طريق الأعمش ، كلاهما عن عمرو بن مرة ، به (١) .

وقال الليث ، عن يزيد [بن الهاد] (٢) ، عن سهيل بن أبي صالح ، عن صفوان بن أبي يزيد ، عن القعقاع بن اللجلاج (٣) ، عن أبي هريرة ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى جوف عبد أبداً ، ولا يجتمع الشح والإيمان فى قلب عبد أبداً » (٤) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبدة بن سليمان ، أخبرنا ابن المبارك ، حدثنا المسعودي ، عن جامع بن شداد ، عن الأسود بن هلال قال : جاء رجل إلى عبد الله فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إنى أخاف أن أكون قد هلك ! فقال له عبد الله : وما ذاك ؟ قال : سمعت الله يقول : « وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » ، وأنا رجل شحيح ، لا أكاد أن أخرج من يدي شيئاً ! فقال عبد الله : ليس ذلك (٥) بالشح الذى ذكر فى القرآن ، إنما الشح الذى ذكر الله فى القرآن أن تأكل مال أخيك ظلماً ، ولكن ذلك (٦) البخل ، وبش الشيء البخل (٧) .

وقال سفيان الثوري ، عن طارق بن عبد الرحمن ، عن سعيد بن جبير ، عن أبي الهياج الأسدي قال : كنت أطوف بالبيت ، فرأيت رجلاً يقول : « اللهم قنى شح نفسى » . لا يزيد على ذلك ، فقلت له ، فقال : إنى إذا وقيت شح نفسى لم أسرق ولم أزن ولم أفعل ، وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف ، رضى الله عنه . ورواه ابن جرير (٨) .

وقال ابن جرير : حدثني محمد بن إسحاق ، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي ، حدثنا إسماعيل بن عيَّاش ، حدثنا مُجَمَّع بن جارية الأنصاري ، عن عمه يزيد بن جارية ، عن أنس بن مالك ، عن رسول الله ﷺ قال : « برئ من الشح من أدى الزكاة ، وقرى الضيف ، وأعطى فى النائة » (٩) .

وقوله : « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » : هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفئ ، وهم المهاجرون ثم الأنصار ، ثم التابعون بإحسان ، كما قال فى آية براءة : « وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ » [التوبة: ١٠٠] . فالتابعون لهم بإحسان

(١) المسند (١٥٩/٢) وسنن أبي داود برقم (١٦٩٨) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٥٨٣) .

(٢) زيادة من م ، أ .

(٣) فى م : « الجلاج » .

(٤) رواه النسائي فى السنن (١٣/٦) .

(٥) فى م : « ليس ذاك » .

(٦) فى م : « ذاك » .

(٧) رواه الطبري فى تفسيره (٢٩/٢٨) من طريق جامع به .

(٨) تفسير الطبري (٢٩/٢٨) .

(٩) تفسير الطبري (٢٩/٢٨) ورواه البيهقي فى شعب الإيمان برقم (١٠٨٤٢) من طريق محمد بن إسحاق به ، وروى مرسلاً ، رواه الطبراني فى المعجم الكبير (١٨٨/٤) من طريق عمرو بن يحيى وإبراهيم بن إسماعيل ، وابن حبان فى الثقات (٢٠٢/٤) من طريق ابن المبارك ، كلهم عن مجمع بن يحيى ، عن عمه مرسلاً .

هم : المتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة ، الداعون لهم فى السر والعلانية ؛ ولهذا قال فى هذه الآية الكريم : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ ﴾ أى : قائلين : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا ﴾ أى : بغضاً وحسداً ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ . وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة : أن الرافضى الذى يسب الصحابة ليس له فى مال الفىء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء فى قولهم : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا موسى بن عبد الرحمن المسروقي ، حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر ، عن أبيه ، عن عائشة أنها قالت : أمروا أن يستغفروا لهم ، فسبواهم ! ثم قرأت هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ الآية .

وقال إسماعيل بن علية ، عن عبد الملك بن عمير ، عن مسروق ، عن عائشة قالت : أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ ، فسببتموهم . سمعتُ نبيكم ﷺ يقول : « لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها » . ورواه البغوى (١) .

وقال أبو داود : حدثنا مسدد ، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا أيوب ، عن الزهرى قال : قال عمر ، رضى الله عنه : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ قال الزهرى : قال عمر : هذه لرسول الله ﷺ خاصة ، قرى [عربية : فذك وكذا] (٢) وكذا ، فما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وللفقراء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ ، ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ ، فاستوعبت هذه الآية الناس ، فلم يبق أحد من المسلمين إلا له فيها حق — قال أيوب : أو قال : حظ — إلا بعض من تملكون من أرقائكم . كذا رواه أبو داود ، وفيه انقطاع (٣) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن أيوب ، عن عكرمة ابن خالد ، عن مالك بن أوس بن الحدثان قال : قرأ عمر بن الخطاب : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ حتى بلغ ﴿ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٦٠] ، ثم قال هذه لهؤلاء ، ثم قرأ : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ [الأنفال : ٤١] ، ثم قال : هذه لهؤلاء ، ثم قرأ : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ حتى بلغ للفقراء ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ ﴾ ، ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ ثم قال : استوعبت هذه الآية المسلمين عامة ،

(١) معالم التنزيل للبغوى (٨/ ٨٠) وله شاهد فى صحيح مسلم برقم (٣٠٢٢) عن عروة قال : قالت لى عائشة : « يا بن أختى ، أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي ﷺ فسبواهم » .

(٢) زيادة من م ، أ ، وسنن أبى داود .

(٣) سنن أبى داود برقم (٢٩٦٦) .

(٤) زيادة من م .

وليس أحد إلا له فيها حق^(١) ، ثم قال : لئن عشت لياتين الراعى - وهو بسرّو حمير - نصيبه فيها ، لم يعرق فيها جبينه .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يَقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) ﴿ .

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبي وأضرابه ، حين بعثوا إلى يهود بنى النضير يعدّونهم النصر من أنفسهم ، فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ﴾ ، قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى : لكاذبون فيما وعدوهم به إما أنهم^(٢) قالوا لهم قولاً ومن نيتهم ألا يفوا لهم به ، وإما أنهم^(٣) لا يقع منهم الذى قالوه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ ﴾ أى : لا يقاتلون معهم ، ﴿ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ ﴾ أى : قاتلوا معهم ﴿ لَيُولَنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴾ ، وهذه بشارة مستقلة بنفسها .

ثم قال تعالى : ﴿ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى : يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله ، كقوله : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ [النساء: ٧٧] ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ لَا يَقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾^(٤) يعنى : أنهم من جنبهم وهالعم لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقابلة^(٥) ، بل إما فى حصون أو من وراء جدر^(٦) محاصرين ، فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة .

(٤) فى م ، أ : « أو من وراء جدار » .

(٢، ٣) فى م : « إما لأنهم » .

(١) فى أ : « فيها جزء » .

(٦) فى م ، أ : « أو من وراء جدار » .

(٥) فى م : « والمقاتلة » .

ثم قال : ﴿ بِأَسْهُمَ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ أى : عداوتهم [فيما]^(١) بينهم شديدة ، كما قال : ﴿ وَيُذِيقُ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام: ٦٥] ؛ ولهذا قال : ﴿ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ أى : تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين ، وهم مختلفون غاية الاختلاف .

قال إبراهيم النخعي : يعنى : أهل الكتاب والمنافقين ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال مجاهد ، والسدى ، ومقاتل بن حيان : [يعنى]^(٢) : كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر .

وقال ابن عباس : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يعنى : يهود بنى قينقاع . وكذا قال قتادة ، ومحمد ابن إسحاق .

وهذا القول أشبه بالصواب ، فإن يهود بنى قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلاهم قبل هذا .

وقوله : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِئٌ مِنْكَ ﴾ يعنى : مثل هؤلاء اليهود فى اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين ، وقول المنافقين لهم : ﴿ وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ﴾ ثم لما حقت الحقائق وجدَّ بهم الحصار والقتال ، تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة ، مثالهم فى هذا كمثل الشيطان إذ^(٣) سول للإنسان — والعياذ بالله — الكفر ، فإذا دخل فيما سوله^(٤) تبرأ منه وتنصل ، وقال : ﴿ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وقد ذكر بعضهم هاهنا قصة لبعض عباد بنى إسرائيل هى كالمثال لهذا المثل ، لا أنها المرادة وحدها بالمثل ، بل هى منه مع غيرها من الوقائع المشاكلة لها ، فقال ابن جرير :

حدثنا خلاد بن أسلم ، أخبرنا النضر بن شميل ، أخبرنا شعبة ، عن أبى إسحاق ، سمعت عبد الله بن نهيك قال : سمعت علياً ، رضى الله عنه ، يقول : إن راهباً تعبد ستين سنة ، وإن الشيطان أراد فاعياه ، فعمد إلى امرأة فأجنتها ولها إخوة ، فقال لإخوتها : عليكم بهذا القس فيداويها . قال : فجاؤوا بها إليه فداواها ، وكانت عنده ، فبينما هو يوماً عندها إذ أعجبته ، فأتاها فحملت ، فعمد إليها فقتلها ، فجاء إخوتها ، فقال الشيطان للراهب : أنا صاحبك ، إنك أعيتتني ، أنا صنعت هذا بك فأطعنى أنجك مما صنعت بك ، اسجد لى سجدة . فسجد له ، فلما سجد له قال : إنى برىء منك ، إنى أخاف الله رب العالمين ، فذلك قوله : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِئٌ مِنْكَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾^(٥) .

وقال ابن جرير : حدثنى يحيى بن إبراهيم المسعودى ، حدثنا أبى ، عن أبيه ، عن جده ، عن الأعمش ، عن عمارة ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن عبد الله بن مسعود فى هذه الآية : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِئٌ مِنْكَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال : كانت

(٣) فى م : « إذا » .

(٢) زيادة من أ .

(١) زيادة من م ، أ .

(٤) فى م ، أ : « سوله له » .

(٥) تفسير الطبرى (٢٨/٣٣) .

امرأة ترعى الغنم ، وكان لها أربعة أخوة ، وكانت تأوى بالليل إلى صومعة راهب . قال : فنزل الراهب ففجّر بها ، فحملت ، فأتاه الشيطان فقال له : اقتلها ثم ادفنها ، فإنك رجل مُصدقٌ يسمع قولك . فقتلها ثم دفنها . قال : فأتى الشيطانُ إخوتها في المنام فقال لهم : إن الراهب صاحب الصومعة فجّر بأختكم ، فلما أحبلها قتلها ثم دفنها في مكان كذا وكذا . فلما أصبحوا قال رجل منهم : والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدرى أقصها عليكم أم أترك ؟ قالوا : لا ، بل قصها علينا . قال : فقصها ، فقال الآخر : وأنا والله لقد رأيت ذلك ، فقال الآخر : وأنا والله لقد رأيت ذلك . فقالوا : فوالله ما هذا إلا لشيء . قال : فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب ، فأتوه فأنزلوه ، ثم انطلقوا به فلقبه الشيطان فقال : إني أنا الذى أوقعتك فى هذا ، ولن ينجيك منه غيرى ، فاسجد لى سجدة واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه . قال : فسجد له ، فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه ، وأخذَ فقتل (١) .

وكذا روى عن ابن عباس ، وطاوس ، ومقاتل بن حيان ، نحو ذلك . واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو برصيصا ، والله أعلم . وهذه القصة مخالفة لقصة جريج العابد ، فإن جريجاً اتهمته امرأة بغى بنفسها ، وادعت أن حملها منه ، ورفعت أمره إلى ولى الأمر ، فأمر به فأنزل من صومعته وخربت صومعته وهو يقول : ما لكم ؟ ما لكم ؟ فقالوا : يا عدو الله ، فعلت بهذه المرأة كذا وكذا . فقال جريج : اصبروا . ثم أخذ ابنها وهو صغير جداً ثم قال : يا غلام ، من أبوك؟ قال (٢) : أبى الراعى — وكانت قد أمكنته من نفسها فحملت منه — فلما رأى بنو إسرائيل ذلك عظموه كلهم تعظيماً بليغاً وقالوا : نعيد صومعتك من ذهب . قال : لا ، بل أعيدوها من طين ، كما كانت .

وقوله : ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى : فكانت عاقبة الأمر بالكفر والفاعل له ، وتصيرهما (٣) إلى نار جهنم خالدين فيها ، ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ أى : جزاء كل ظالم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عون بن أبى جُحيفة ، عن المنذر ابن جريز ، عن أبيه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فى صدر النهار ، قال : فجاءه قوم حُفَاة عُرَاة مُجْتَابَى النمار — أو : العبَاء — مُتَقَلِّدَى السيوف عامتهم من مُضَر ، بل كلهم من مضر ، فتغير وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة ، قال : فدخل ثم خرج ، فأمر بلالاً فاذن وأقام الصلاة ، فصلى ثم خطب ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ إلى آخر الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] . وقرأ الآية التى فى الحشر : ﴿ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ ،

(١) تفسير الطبرى (٢٨/٣٣) .

(٢) فى م : « ومصيرهما » .

(٣) فى م : « فقال » .

تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ ، مِنْ دَرَاهِمِهِ ، مِنْ ثَوْبِهِ ، مِنْ صَاعِ بُرَّةٍ ، مِنْ صَاعِ تَمْرَةٍ - حَتَّى قَالَ - : وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ . قَالَ : فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بَصُرَةٌ كَادَتْ كَفَّهُ تَعَجُّزَ عَنْهَا ، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ ، ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمِينَ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ ، حَتَّى رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ وَجْهَهُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سَنَةً حَسَنَةً ، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأُجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ ، مَنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سَنَةً سَيِّئَةً ، كَانَ عَلَيْهِ وَزْرُهَا وَوزر من عمل بها ، مَنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ » .

انفرد بإخراجه مسلم من حديث شعبة ، بإسناد مثله (١) .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ : أَمْرٌ بِتَقْوَاهُ ، وَهِيَ تَشْمَلُ فِعْلَ مَا بِهِ أَمْرٌ ، وَتَرْكُ مَا عَنْهُ زَجْرٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَتَنْظُرُنَّ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ أَيْ : حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تَحَاسِبُوا ، وَانْظُرُوا مَاذَا ادْخَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ لِيَوْمِ مَعَادِكُمْ وَعَرْضِكُمْ عَلَى رَبِّكُمْ ، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ : تَأْكِيدُ ثَانٍ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : اعْلَمُوا أَنَّهُ عَالِمٌ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ وَأَحْوَالِكُمْ (٢) ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ، وَلَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْ أُمُورِكُمْ جَلِيلٌ وَلَا حَقِيرٌ .

وَقَالَ (٣) : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ أَيْ : لَا تَنْسُوا ذِكْرَ اللَّهِ فَيَنْسِيَكُمْ الْعَمَلُ لِمَصَالِحِ أَنْفُسِكُمْ الَّتِي تَنْفَعُكُمْ فِي مَعَادِكُمْ ، فَإِنَّ الْجُزْءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أَيْ : الْخَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ ، الْهَالِكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، الْخَاسِرُونَ يَوْمَ مَعَادِهِمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩] .

وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيُّ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ بْنُ نُجْدَةَ الْحَوَاطِي ، حَدَّثَنَا [أَبُو] (٤) الْمَغِيرَةُ ، حَدَّثَنَا حَرِيزُ بْنُ عَثْمَانَ ، عَنْ نَعِيمِ بْنِ نَمْحَةَ قَالَ : كَانَ فِي خُطْبَةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَمَا تَعْلَمُونَ أَنْكُمْ تَغْدُونَ وَتَرُوحُونَ لِأَجَلٍ مَعْلُومٍ ؟ فَمَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقْضِيَ الْأَجَلَ وَهُوَ فِي عَمَلِ اللَّهِ ، عَزَّ وَجَلَّ ، فَلْيَفْعَلْ ، وَلَنْ تَنَالُوا ذَلِكَ إِلَّا بِاللَّهِ ، عَزَّ وَجَلَّ . إِنْ قَوْمًا جَعَلُوا آجَالَهُمْ لغيرِهِمْ ، فَهَآكُمُ اللَّهُ أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ أَيْنَ مِنْكُمْ تَعْرِفُونَ مِنْ إِخْوَانِكُمْ ؟ قَدَمُوا عَلَى مَا قَدَمُوا فِي أَيَّامِ سَلْفِهِمْ ، وَخَلَوْا بِالشَّقْوَةِ وَالسَّعَادَةِ ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ الْأَوَّلُونَ الَّذِينَ بَنُوا الْمَدَائِنَ وَحَصَّنُوهَا بِالْحَوَائِطِ ؟ قَدْ صَارُوا تَحْتَ الصَّخَرِ وَالْآبَارِ ، هَذَا كِتَابُ اللَّهِ لَا تَفْنَى عَجَائِبُهُ فَاسْتَضِيئُوا مِنْهُ لِيَوْمِ ظُلْمَةٍ ، [وَاتَّضَحُوا بِسُنَائِهِ وَبَيَانِهِ] (٥) إِنْ اللَّهَ أَثْنَى عَلَى زَكْرِيَا وَأَهْلَ بَيْتِهِ فَقَالَ : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾

(١) المسند (٣٥٨/٤) وصحيح مسلم برقم (١٠١٧) .

(٢) في م : « وخفيها » .

(٣) في م : « وخفيها » .

(٤) زيادة من المعجم الكبير للطبراني .

(٥) زيادة من م ، والمعجم الكبير .

[الأنبياء: ٩٠] ، لا خير فى قول لا يراد به وجه الله ، ولا خير فى مال لا ينفق فى سبيل الله ، ولا خير فىمن يغلب جهله حلمه ، ولا خير فىمن يخاف فى الله لومة لائم (١) .

هذا إسناد جيد ، ورجاله كلهم ثقات ، وشيخ حريز بن عثمان ، وهو نعيم بن نعمة ، لا أعرفه بنفى ولا إثبات ، غير أن أبا داود السجستاني قد حكم بأن شيوخ حريز كلهم ثقات . وقد روى لهذه الخطبة شواهد من وجوه آخر ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ أى (٢) : لا يستوى هؤلاء وهؤلاء فى حكم الله يوم القيامة ، كما قال : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١] ، وقال : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ﴾ الآية [غافر: ٥٨] . وقال : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨] ؟ فى آيات آخر دالات على أن الله ، سبحانه ، يكرم الأبرار ، ويهين الفجار ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ أى : الناجون المسلمون من عذاب الله ، عز وجل .

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) ﴾ .

يقول تعالى معظماً لأمر القرآن ، ومبيناً علو قدره ، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب ، وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد والوعيد الأكيد : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ أى : فإن كان الجبل فى غلظته وقساوته ، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه ، لخشع وتتصدع من خوف الله ، عز وجل ، فكيف يليق بكم أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع ، وتتصدع من خشية الله ، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

قال العوفى : عن ابن عباس فى قوله : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ [لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا] ﴾ (٣) إلى آخرها ، يقول : لو أنى أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه ، لتصدع (٤) وخشع من ثقله ، ومن خشية الله . فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع . ثم

(١) المعجم الكبير (١/ ٦٠) .

(٢) بياض فى م .

(٣) زيادة من م .

(٤) فى م : « لصدع » .

قال : كذلك يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون . وكذا قال قتادة ، وابن جرير .

وقد ثبت في الحديث المتواتر : أن رسول الله ﷺ لما عمل له المنبر ، وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد ، فلما وضع المنبر أول ما وضع ، وجاء النبي ﷺ ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر ، فعند ذلك حَنَّ الجذع وجعل ^(١) يئن كما يئن الصبي الذي يُسَكَّن ^(٢) ، لما كان يُسمع من الذكر والوحى عنده . ففى بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصرى بعد إirاده : «فأنتم أحق أن تشناقوا إلى رسول الله ﷺ من الجذع» ^(٣) . وهكذا هذه الآية الكريمة ، إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته ، لحشعت وتصدعت من خشيته ^(٤) ، فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم ؟ وقد قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنْ قَرَأْنَا سُورَةَ الْبُرُوجِ أَوْ نُفِخَ فِي الصُّورِ أَوْ كُتِبَ بِهِ الْمَوْتُ ﴾ الآية [الرعد: ٣١] . وقد تقدم أن معنى ذلك : أى لكان هذا القرآن . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٧٤] .

ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ : أخبر تعالى أنه الذى لا إله إلا هو فلا رب غيره ، ولا إله للوجود سواه ، وكل ما يعبد من دونه فباطل ، وأنه عالم الغيب ^(٥) والشهادة ، أى : يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا فلا يخفى عليه شيء فى الأرض ، ولا فى السماء من جليل وحقير وصغير وكبير ، حتى الذر فى الظلمات .

وقوله : ﴿ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ : قد تقدم الكلام على ذلك فى أول التفسير ، بما أغنى عن إعادته هاهنا . والمراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات ، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، وقد قال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦] ، وقال : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: ٥٤] ، وقال : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨] .

وقال ^(٦) : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ ﴾ : أى : المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة .

وقوله : ﴿ الْقُدُّوسُ ﴾ : قال وهب بن منبه : أى الطاهر . وقال مجاهد ، وقاتة : أى المبارك : وقال ابن جريج : تقدسه الملائكة الكرام .

(١) حديث حنين الجذع رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٥٨٣) من حديث ابن عمر ، وبرقم (٣٥٨٤، ٣٥٨٥) من حديث جابر ، رضى الله عنه .

(٢) فى م : « يسكن » .

(٣) رواه أبو القاسم البغوى كما فى البداية والنهاية للمؤلف (١٣٢/٦) من طريق شيبان بن فروخ ، عن مبارك بن فضالة ، عن الحسن ، عن أنس فى قصة الجذع ، ثم زاد : فكان الحسن إذا حدث بهذا الحديث بكى ثم قال : « يا عباد الله الخشبة تحن إلى رسول الله شوقاً إليه لمكانه من الله ، فأنتم أحق أن تشناقوا إلى لقائه » .

(٤) فى م : « من خشية الله » . (٥) فى م : « بالغيب » . (٦) فى م : « ثم قال » .

﴿ السَّلَامُ ﴾ أى : من جميع العيوب والنقائص ؛ بكماله ^(١) فى ذاته وصفاته وأفعاله .

وقوله : ﴿ الْمُؤْمِنُ ﴾ قال الضحاك ، عن ابن عباس : [أى] ^(٢) أمن خلقه من أن يظلمهم . وقال قتادة : أمن بقوله : إنه حق . وقال ابن زيد : صدق عباده المؤمنين فى إيمانهم به .

وقوله : ﴿ الْمُهِمِّنُ ﴾ : قال ابن عباس وغير واحد : أى ^(٣) : الشاهد على خلقه بأعمالهم ، بمعنى : هو رقيب عليهم ، كقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [البروج: ٩] ، وقوله : ﴿ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس: ٤٦] .

وقوله : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ الآية [الرعد: ٣٣] .

وقوله : ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ أى : الذى قد عز كل شيء فقهره ، وغلب الأشياء فلا ينال جنباه ؛ لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه ؛ ولهذا قال : ﴿ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ أى : الذى لا تليق الجبرية إلا له ، ولا التكبر إلا لعظمته ، كما تقدم فى الصحيح : « العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نارعى واحداً منهما عذبتة » .

وقال قتادة : الجبار : الذى جبر خلقه على ما يشاء .

وقال ابن جرير : الجبار : المصلحُ أمور خلقه ، المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم .

وقال قتادة : المتكبر : يعنى عن كل سوء .

ثم قال : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ^(٤) ﴾ .

وقوله : ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ : الخلق : التقدير ، والبراء : هو الفرى ، وهو التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود ، وليس كل من قدر شيئاً ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله ، عز وجل . قال الشاعر يمدح آخر ^(٥) :

ولأنت تفرى ما خلقت وبعـ ضُ القوم يخلق ثم لا يفرى

أى : أنت تنفذ ما خلقت ، أى : قدرت ، بخلاف غيرك فإنه لا يستطيع ما يريد . فالخلق : التقدير . والفرى : التنفيذ . ومنه يقال : قدر الجلاد ثم فرى ، أى : قطع عل ما قدره بحسب ما يريده .

وقوله تعالى : ﴿ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ أى : الذى إذا أراد شيئاً قال له : كن ، فيكون على الصفة التى يريد ، والصورة التى يختار . كقوله : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الإنفطار: ٨] ولهذا قال : ﴿ الْمُصَوِّرُ ﴾ أى : الذى ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التى يريدها .

(٣) فى م : « إنه » .

(٢) زيادة من م .

(١) فى م : « لكماله » .

(٤) فى م : « يصفون » وهو خطأ .

(٥) هو زهير بن أبى سلمى يمدح به هرم بن سنان ، والبيت فى ديوانه (ص ٩٤) ١ . هـ مستفاداً من حاشية ط الشعب .

وقوله : ﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ : قد تقدم الكلام على ذلك فى « سورة الأعراف » ، وذكر الحديث المروى فى الصحيحين عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » . وتقدم سياق الترمذى وابن ماجة له ، عن أبى هريرة أيضاً ، وزاد بعد قوله : « وهو وتر يحب الوتر » - واللفظ للترمذى - : « هو الله الذى لا إله إلا هو ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكيم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلى ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولى ، الحميد ، المحصى ، المبدئ ، المعيد ، المحيى ، المميت ، الحى ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقتر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الولى ، المتعالى ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المعنى ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور » .

وسياق ابن ماجة بزيادة ونقصان ، وتقديم وتأخير ، وقد قدمنا ذلك مبسوطاً مطولاً بطرقه وألفاظه بما أغنى عن إعادته هنا (١) (٢) .

وقوله : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ كقوله : ﴿ تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : فلا يرام جنابه ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى شرعه وقدره . وقد قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، حدثنا خالد - يعنى : ابن طهمان ، أبو العلاء الخفاف - حدثنا نافع ابن أبى نافع ، عن معقل بن يسار ، عن النبى ﷺ قال : « من قال حين يصبح ثلاث مرات : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر ، وكلَّ الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسى ، وإن مات فى ذلك اليوم مات شهيداً ، ومن قالها حين يمسى كان بتلك المنزلة » .

ورواه الترمذى عن محمود بن غيلان ، عن أبى أحمد الزبيرى ، به (٣) ، وقال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(١) فى م : « ها هنا » .

(٢) تقدم تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية : ١٨٠ من سورة الأعراف .

(٣) المسند (٢٦/٥) وسنن الترمذى برقم (٢٩٢٢) .

تفسير سورة الممتحنة

وهى مدنية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ وَالسِّتَنَّهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) ﴾ .

كان سبب نزول هذه السورة (١) الكريمة قصة حاطب بن أبى بلتعة ، وذلك أن حاطباً هذا كان رجلاً من المهاجرين ، وكان من أهل بدر أيضاً ، وكان له بمكة أولاد ومال (٢) ، ولم يكن من قريش أنفسهم ، بل كان حليفاً (٣) لعثمان . فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة لما نقض أهلها العهد ، فأمر النبي ﷺ المسلمين بالتجهيز لغزوهم ، وقال : « اللهم ، عمّ عليهم خبرنا » . فعمد حاطب هذا فكتب كتاباً ، وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة ، يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ [من غزوهم] (٤) ، ليتخذ بذلك عندهم يداً ، فأطلع الله رسوله على ذلك (٥) ، استجابة لدعائه . فبعث فى أثر المرأة فأخذ الكتاب منها ، وهذا بين فى الحديث المتفق على صحته . قال الإمام أحمد :

حدثنا سفيان ، عن عمرو ، أخبرنى حسن بن محمد بن على ، أخبرنى عبيد الله (٦) بن أبى رافع — وقال مرة : إن عبيد الله بن أبى رافع أخبره : أنه سمع علياً ، رضى الله عنه ، يقول : بعثنى رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد ، فقال : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب ، فخذوه منها » . فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة ، قلنا : أخرجى الكتاب . قالت : ما معى كتاب . قلنا : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب . قال : فأخرجت الكتاب من عقاصها ، فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله ﷺ ، فإذا فيه : من حاطب بن أبى بلتعة

(٢) فى م : « وأموال » .

(٤) زيادة من م .

(٦) فى م : « عبد الله »

(١) فى هـ : « الآية » ، والمثبت من م ، أ .

(٣) فى أ : « ضيفاً » .

(٥) فى م : « فأصلح الله على ذلك رسوله » .

إلى ناس من المشركين بمكة ، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : « يا حاطب ، ما هذا ؟ » . قال : لا تعجل على ، إني كنت امرأاً مُلصقاً في قريش ، ولم أكن من أنفسهم ، وكان من كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم بمكة ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي ، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضى بالكفر بعد الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « إنه صدقكم » . فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق . فقال : « إنه قد شهد بدرأ ، وما يدريك لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

وهكذا أخرجه الجماعة إلا ابن ماجة ، من غير وجه ، عن سفيان بن عيينة ، به ^(١) . وزاد البخارى فى كتاب « المغازى » : فأنزل الله السورة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ ^(٢) . وقال فى كتاب التفسير : قال عمرو : ونزلت فيه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ قال ^(٣) : « لا أدري الآية فى الحديث أو قال عمرو » . قال البخارى : قال على - يعنى : ابن المدينى - : قيل لسفيان فى هذا : نزلت ﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ ؟ فقال سفيان : هذا فى حديث الناس ، حفظته من عمرو ، ما تركت منه حرفاً ، وما أرى ^(٤) أحداً حفظه غيرى ^(٥) .

وقد أخرجاه فى الصحيحين من حديث حُصَيْن بن عبد الرحمن ، عن سعد ^(٦) بن عبيدة ، عن أبى عبد الرحمن السلمى ، عن على قال : بعثنى رسول الله ﷺ وأباً مرثد ، والزبير بن العوام ، وكلنا فارس ، وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب إلى المشركين : فأدركنها تسير على بغير لها حيث قال رسول الله ﷺ فقلنا : الكتاب ؟ فقالت : ما معى كتاب . فأخذناها فالتمسنا فلم نر كتاباً ، فقلنا : ما كذب رسول الله ﷺ ! لتخرجن الكتاب أو لنُجردنك . فلما رأت الجد أهوت إلى حُجْزَتِها وهى مُحْتَجِزَةٌ بكساء فأخرجته . فانطلقنا بها إلى رسول الله ﷺ ، فقال عمر : يا رسول الله ، قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعنى فلاضرب عنقه . فقال : « ما حملك على ما صنعت ؟ » . قال : والله ما بى إلا أن أكون مؤمناً بالله ورسوله ، أردت أن تكون لى عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلى ومالى ، وليس أحد من أصحابك إلا له هنالك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله . فقال : « صدق ، لا تقولوا له إلا خيراً » . فقال عمر : إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعنى فلاضرب عنقه . فقال : « أليس من أهل بدر ؟ » فقال : « لعل الله قد اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة - أو :

(١) المسند (١/٧٩، ٨٠) وصحيح البخارى برقم (٣٠٠٧، ٤٨٩٠) وصحيح مسلم برقم (٢٤٩٤) وسنن أبى داود برقم (٢٦٥٠) وسنن الترمذى برقم (٣٣٠٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٨٥) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٢٧٤) .

(٣) فى م : « وقال » .

(٤) فى م : « ولا أرى » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٩٠) .

(٦) فى م : « عن سعيد » .

قد غفرت لكم » . فدمعت عينا عمر ، وقال : الله ورسوله أعلم ^(١) .

هذا لفظ البخارى فى « المغازى » فى غزوة بدر ، وقد روى من وجه آخر عن على قال ابن أبى حاتم :

حدثنا على بن الحسن الهسنبجاني ، حدثنا عبيد بن يعيش ، حدثنا إسحاق بن سليمان الرازي ، عن أبى سنان — هو سعيد بن سنان — عن عمرو بن مرة الجملى ، عن أبى البخترى الطائى ^(٢) ، عن الحارث ، عن على قال : لما أراد النبى ﷺ أن يأتى مكة ، أسر إلى أناس من أصحابه أنه يريد مكة ، فيهم حاطب بن أبى بلتعة وأفشى فى الناس أنه يريد خيبر . قال : فكتب حاطب بن أبى بلتعة إلى أهل مكة أن رسول الله ﷺ يريدكم . فأخبر رسول الله ﷺ قال : فبعثنى رسول الله ﷺ وأبا مرثد ، وليس منا رجل إلا وعند ^(٣) فرس ، فقال : « اتنوا روضة خاخ ، فإنكم ستلقون بها امرأة معها كتاب ، فخذوه منها » . فانطلقنا حتى رأيناها بالمكان الذى ذكر رسول الله ﷺ . فقلنا لها : هات الكتاب . فقالت : ما معى كتاب . فوضعنا متاعها وفتشناها ^(٤) فلم نجده فى متاعها ، فقال أبو مرثد : لعله ألا يكون معها . فقلت : ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا ^(٥) . فقلنا لها : لتخرجنه أو لنُعرينك . فقالت : أما تتقون الله ؟ ! أستم مسلمين ؟ فقلنا : لتخرجنه أو لنُعرينك . قال عمرو بن مرة : فأخرجته من حُجُزَتِها . وقال حبيب بن أبى ثابت : أخرجه ^(٦) من قبلها . فأتينا به رسول الله ﷺ ، فإذا الكتاب من حاطب بن أبى بلتعة . فقام عمر فقال : يا رسول الله ، خان الله ورسوله ، فائذن لى فلاضرب عنقه . فقال رسول الله : « أليس قد شهد بدرأ ؟ » . قالوا : بلى . قال عمر : بلى ، ولكنه قد نكث وظاهر أعداءك عليك . فقال رسول الله ﷺ : « فاعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم ، إنى بما تعملون بصير » . ففاضت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم . فأرسل رسول الله ﷺ إلى حاطب فقال : « يا حاطب ، ما حملك على ما صنعت ؟ » . فقال : يا رسول الله ، إنى كنت امرأة مُلصَقاً فى قريش ، وكان لى بها مال وأهل ، ولم يكن من أصحابك أحد إلا وله بمكة من يمنع أهله وماله ، فكتبت إليهم بذلك ووالله — يا رسول الله — إنى لمؤمن بالله ورسوله . فقال رسول الله ﷺ : « صدق حاطب ، فلا تقولوا لحاطب إلا خيراً » . قال ^(٧) حبيب ابن أبى ثابت : فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ الآية .

وهكذا رواه ابن جرير ، عن ابن حميد ، عن مهران ، عن أبى سنان — سعيد بن سنان — بإسناده مثله ^(٨) . وقد ذكر ذلك أصحاب المغازى والسير ، فقال محمد بن إسحاق بن يسار فى السيرة :

حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا قال : لما أجمع رسول

(١) صحيح البخارى برقم (٣٩٨٣) وصحيح مسلم برقم (٢٤٩٤) .

(٢) فى هـ : « عن أبى إسحاق البخترى الطائى » والمثبت من الطبرى .

(٣) فى م ، أ : « وعنده » .

(٤) فى م : « وفتشناه » .

(٥) فى م : « ولا كُذِب » .

(٦) فى م : « فأخرجته » .

(٧) فى م : « فقال » .

(٨) تفسير الطبرى (٣٨/٢٣) .

الله ﷺ المسير^(١) إلى مكة ، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر فى السير إليهم ، ثم أعطاه امرأة - زعم محمد بن جعفر أنها من مزينة ، وزعم غيره أنها : سارة ، مولاة لبنى عبد المطلب - وجعل لها جُعلاً على أن تبلغه قريشاً فجعلته فى رأسها ، ثم قتلت عليه قرونها ، ثم خرجت به . وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام فقال : « أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بكتاب إلى قريش ، يحذرهم ما قد أجمعنا^(٢) له من أمرهم » .

فخرجوا حتى أدركاها بالخليفة - خليفة^(٣) بنى أبى أحمد - فاستنزلاها بالخليفة ، فالتمسا فى رحلها فلم يجدا شيئاً ، فقال لها على بن أبى طالب : إني أحلف بالله ما كذب رسول الله وما كذبنا^(٤) ، ولتُخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك . فلما رأت الجد منه قالت : أعرض . فأعرض ، فحلت قرون رأسها ، فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليه . فأتى به رسول الله ﷺ فدعا رسول الله حاطباً فقال : « يا حاطب ما حملك على هذا ؟ » . فقال : يا رسول الله ، أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله^(٥) ، ما غيّرت ولا بدّلت ، ولكن كنت امرأ ليس لى فى القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم وكّد وأهل فصانعتهم عليهم . فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، دعنى فلاضرب عنقه ، فإن الرجل قد نافق . فقال رسول الله ﷺ : « وما يدريك يا عمر ! لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم » . فأنزل الله ، عز وجل ، فى حاطب : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ إلى قوله : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ﴾ [الممتحنة: ٤] إلى آخر القصة^(٦) .

وروى معمر ، عن الزهرى ، عن عروة نحو ذلك . وهكذا ذكر مقاتل بن حيان : أن هذه الآيات نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة : أنه بعث سارة مولاة بنى هاشم ، وأنه أعطاه عشرة دراهم ، وأن رسول الله ﷺ بعث فى أثرها عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، رضى الله عنهما ، فأدركاها بالجحفة . . . وذكر تمام القصة كنحو ما تقدم . وعن السدى قريب منه . وهكذا قال العوفى ، عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغير واحد : إن هذه الآيات نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة .

فقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ يعنى : المشركين والكفار الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين ، الذين شرع الله^(٧) عداوتهم ومصارمتهم ، ونهى أن يتخذوا أولياء وأصدقاء وأخلاء ، كما قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة: ٥١] .

(٣) فى أ : « بالخليفة خليفة » .

(٢) فى م ، أ : « اجتمعنا » .

(١) فى م : « السير » .

(٥) فى م : « ورسوله » .

(٤) فى م : « ولا كذبنا » .

(٦) ورواه الطبرى فى تفسيره (٢٣/٣٩) من طريق أبى إسحاق .

(٧) فى م : « شرع لهم » .

وهذا تهديد شديد ووعد أكيد ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥٧] . وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٤٤] . وقال تعالى : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران: ٢٨] ؛ ولهذا قَبِلَ رسول الله ﷺ عَذْرَ حاطب لما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش ، لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد .

ويذكر هاهنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد :

حدثنا مصعب بن سلام ، حدثنا الأجلح ، عن قيس بن أبي مسلم ، عن ربيع بن حراش ، سمعت حذيفة يقول : ضَرَبَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْثَالًا : وَاحِدًا وَثَلَاثَةً وَخَمْسَةً وَسَبْعَةً ، وَتِسْعَةً ، وَأَحَدَ عَشَرَ - قَالَ : فَضَرَبَ لَنَا مِنْهَا مَثَلًا وَتَرَكَ سَائِرَهَا ، قَالَ : « إِنْ قَوْمًا كَانُوا أَهْلَ ضَعْفٍ وَمَسْكَنَةٍ ، قَاتَلَهُمْ أَهْلٌ تَجِبَرٌ وَعِدَاءٌ ، فَأَظْهَرَ اللَّهُ أَهْلَ الضَّعْفِ عَلَيْهِمْ ، فَعَمَدُوا إِلَى عَدُوِّهِمْ فَاسْتَعْمَلُوهُمْ وَسَلَّطُوهُمْ ، فَاسْخَطُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ » (١) .

وقوله : ﴿ يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ : هذا مع ما قبله من التهيج على عداوتهم وعدم موالاتهم ؛ لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم ، كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ أى : لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم بالله رب العالمين ، كقوله : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج: ٨] ، وكقوله : ﴿ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغِيرَ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ [الحج: ٤٠] .

وقوله : ﴿ إِنْ كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ﴾ أى : إِنْ كُنتُمْ كَذَلِكَ فَلَا تَتَّخِذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ، إِنْ كُنتُمْ خَرَجْتُمْ مُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِي بَاغِينَ لِمَرْضَاتِي عَنْكُمْ فَلَا تَوَالُوا أَعْدَائِي وَأَعْدَاءَكُمْ ، وَقَدْ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ حَقًّا عَلَيْكُمْ وَسَخَطًا لِدِينِكُمْ .

وقوله : ﴿ تُسْرِوْنَ إِلَيْهِم بِالْمُدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ﴾ أى : تَفْعَلُونَ ذَلِكَ وَأَنَا الْعَالِمُ بِالسَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ وَالظُّوَاهِرِ ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . إِنْ يَتَّقُوكُمْ يُكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ ﴾ أى : لَوْ قَدَرُوا عَلَيْكُمْ لَمَا اتَّقَوْا (٢) فَيَكُمُ مِنْ أَذَى يَنَالُوكُمْ بِهِ بِالْمَقَالِ وَالْفِعَالِ . ﴿ وَوَدُّوا لَوْ تُكْفُرُونَ ﴾ أى : وَيَحْرِصُونَ عَلَى أَلَّا تَنَالُوا خَيْرًا ، فَهَمُّ عداوتهم لكم كَامَنَةٌ وَظَاهِرَةٌ ، فَكَيْفَ تَوَالُونَ مِثْلَ هَؤُلَاءِ ؟ وَهَذَا تَهْيِيجٌ عَلَى عداوتهم أَيْضًا .

وقوله : ﴿ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أى : قَرَابَاتِكُمْ لَا تَنْفَعُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ (٣) إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِكُمْ سُوءًا ، وَنَفَعُهُمْ لَا يَصِلُ إِلَيْكُمْ إِذَا أَرْضَيْتُمُوهُمْ بِمَا

(١) المسند (٤٠٧/٥) وقال الهيثمي في المجمع (٢٣٢/٥) : « وفيه الأجلح الكندي وهو ثقة وقد ضعف ، وبقية رجاله ثقات » .

(٢) فى م : « عند الله ولا أولادكم » .

(٣) فى أ : « لما أبقوا » .

يسخط الله ، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخسر وضلّ عمله ، ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد ، ولو كان قريباً إلى نبي من الأنبياء . قال الإمام أحمد :

حدثنا عفان ، حدثنا حماد ، عن ثابت ، عن أنس ، أن رجلاً قال : يا رسول الله : أين أبى؟ قال : « فى النار » فلما ^(١) قفى دعاه فقال : « إن أبى وأباك فى النار » .

ورواه مسلم وأبو داود ، من حديث حماد بن سلمة ، به ^(٢) .

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝ (٦) ﴾ .

يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكافرين وعداوتهم ومجانبتهم والتبري منهم :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ أى : وأتباعه الذين آمنوا معه ﴿ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ ﴾ أى : تبرأنا منكم ﴿ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ أى : بدينكم وطريقكم ، ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا ﴾ يعنى : وقد شرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم ، ما دمت على كفركم فنحن أبداً نتبرأ منكم ونبغضكم ﴿ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ ﴾ أى : إلى أن توحّدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له ، وتخلعوا ما تعبدون معه من الأنداد والأوثان .

وقوله : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ أى : لكم فى إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها ، إلا فى استغفار إبراهيم لأبيه ، فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه . وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يدعون لأبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم ، ويقولون : إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه ، فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ . وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٣ ، ١١٤] . وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى :

(١) فى م : « قال : فلما » .

(٢) المسند (٣/ ٢٦٨) وصحيح مسلم برقم (٢٠٣) وسنن أبى داود برقم (٤٧١٨) .

ليس لكم فى ذلك أسوة ، أى : فى الاستغفار للمشركين ، هكذا قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، ومقاتل ، والضحاك وغير واحد .

ثم قال تعالى مخبراً عن قول إبراهيم والذين معه ، حين فارقوا قومهم وتبرؤوا منهم ، فليجؤوا إلى الله وتضرعوا^(١) إليه فقالوا : ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ أى : توكلنا عليك فى جميع الأمور ، وسلمنا أمورنا إليك ، وفوضناها إليك ﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ أى : المعاد فى الدار الآخرة . ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قال مجاهد : معناه : لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا : لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا . وكذا قال الضحاك .

وقال قتادة لا تظهرهم علينا فيفتنوا بذلك ، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحق هم عليه . واختاره ابن جرير^(٢) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : لا تسلطهم علينا فيفتنونا .

وقوله : ﴿ وَاعْفُ رَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى : واستر ذنوبنا عن غيرك ، واعف عنها فيما بيننا وبينك ، ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى : الذى لا يضام من لاذ بجناحك^(٣) ، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك .

ثم قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ : وهذا تأكيد لما تقدم ومستثنى منه ما تقدم أيضاً لأن هذه الأسوة المثبة^(٤) هاهنا هى الأولى بعينها .

وقوله : ﴿ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ : تهيج إلى ذلك كل مقرر^(٥) بالله والمعاد .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ أى : عما أمر الله به ، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ كقوله : ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٨] .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : ﴿ الْغَنِيُّ ﴾ : الذى [قد]^(٦) كمل فى غناه ، وهو الله ، هذه صفته لا تنبغى إلا له ، ليس له كفاء ، وليس كمثل شئ ، سبحانه الله الواحد القهار . ﴿ الْحَمِيدُ ﴾ : المستحمد إلى خلقه ، أى : هو المحمود فى جميع أفعاله وأقواله ، لا إله غيره ، ولا رب سواه .

﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٧) لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن

(١) فى م : « وضرعوا » .

(٢) تفسير الطبرى (٤٢/٢٨) .

(٣) فى أ : « بجناحك » .

(٤) فى أ : « المينة » .

(٥) فى م : « لكل موقن » .

(٦) زيادة من م .

تَبَرُّوهُمْ وَتَقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) .

يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد أن أمرهم بعداوة الكافرين : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُمْ مَّوَدَّةً ﴾ أى : محبة بعد البغضة ، ومودة بعد النفرة ، وألفة بعد الفرقة . ﴿ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ﴾ أى : على ما يشاء من الجمع بين الأشياء المتنافرة والمتباينة والمختلفة ، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة والقساوة ، فتصبح مجتمعة متفقة ، كما قال تعالى ممتناً على الأنصار : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٣] . وكذا قال لهم النبي ﷺ : « أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي ، وَكُنْتُمْ مَتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي ؟ » (١) . وقال الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ . وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٢] ، ٦٣ . وفى الحديث « أَحَبُّ حَبِيبِكَ هَوْنًا مَا ، فَعَسَى أَن يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا . وَأَبْغَضُ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا ، فَعَسَى أَن يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا » (٢) . وقال الشاعر (٣) :

وَقَدْ يَجْمَعُ اللَّهُ الشَّيْئَيْنِ بَعْدَمَا
يَظُنَّانِ كُلُّ الظَّنِّ لَا تَلَاقِيَا

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أى : يغفر للكافرين كفرهم إذا تابوا منه وأنبأوا إلى ربهم وأسلموا له ، وهو الغفور الرحيم بكل من تاب إليه ، من أى ذنب كان .

وقد قال مقاتل بن حيان : إن هذه الآية نزلت فى أبى سفيان ، صخر بن حرب ، فإن رسول الله ﷺ تزوج ابنته ، فكانت هذه مودة ما بينه وبينه .

وفى هذا الذى قاله مقاتل نظر ؛ فإن رسول الله تزوج بأُم حبيبة بنت أبى سفيان قبل الفتح ، وأبو سفيان إنما أسلم (٤) ليلة الفتح بلا خلاف . وأحسن من هذا ما رواه ابن أبى حاتم حيث قال :

قُرئ على محمد بن عَزِيز : حدثنى سلامة ، حدثنى عقيل ، حدثنى ابن شهاب ؛ أن رسول الله ﷺ استعمل أبا سفيان بن حرب على بعض اليمن ، فلما قبض رسول الله ﷺ أقبل فلقى ذا الخمار مرتدًا ، فقاتله ، فكان أول من قاتل فى الردة وجاهد عن الدين . قال ابن شهاب : وهو ممن أنزل

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٣٣٠) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم ، رضى الله عنه .

(٢) رواه الترمذى فى السنن برقم (١٩٩٧) من طريق سويد بن عمرو ، عن حماد بن سلمة ، عن أيوب ، عن محمد بن سيرين ، عن أبى هريرة مرفوعاً به ، وقال الترمذى : « هذا حديث غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه ، وقد روى هذا الحديث عن أيوب بإسناد غير هذا رواه الحسن بن أبى جعفر ، وهو حديث ضعيف أيضاً بإسناد له عن على ، عن النبي ﷺ ، والصحيح عن على موقوف قوله » .

(٣) هو قيس بن الملوح كما فى ديوانه (ص ٣١٥) واللسان ، مادة « شتت » أ . هـ . مستفاداً من حاشية ط - الشعب .

(٤) فى م : « وإنما أسلم أبو سفيان » .

الله فيه : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .

وفى صحيح مسلم ، عن ابن عباس : أن أبا سفيان قال : يا رسول الله ، ثلاث أعطينهن . قال : « نعم » . قال : وتؤمرنى حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين . قال : « نعم » . قال : ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك . قال : « نعم » . قال : وعندى أحسن العرب وأجمله ، أم حبيبة بنت أبى سفيان أزوجكها . . . الحديث . وقد تقدم الكلام عليه (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ أى : لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم فى الدين ، كالنساء والضعفة منهم ، ﴿ تَبَرَّوْهُمْ ﴾ أى : تحسنوا إليهم ﴿ وَتَقْسُطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ أى : تعدلوا ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا هشام بن عروة ، عن فاطمة بنت المنذر ، عن أسماء — هى بنت أبى بكر ، رضى الله عنهما — قالت : قَدِمْتُ أُمِّى وهى مشركة فى عهد قريش إذ عاهدوا ، فأتيتُ النبى (٣) ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إن أُمِّى قدمت وهى راغبة ، أفأصلها ؟ قال : « نعم ، صلى أمك » أخرجاه (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عارم ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، حدثنا مصعب بن ثابت ، حدثنا عامر بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه قال : قدمت قُتَيْلَةُ على ابنتها أسماء ابنة أبى بكر بهدايا : صَنَابٍ وأَقْطَ (٥) وسمن ، وهى مشركة ، فأبت أسماء أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها . فسألت عائشة النبى ﷺ ، فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ إلى آخر الآية ، فأمرها أن تقبل هديتها ، وأن تدخلها بيتها .

وهكذا رواه ابن جرير وابن أبى حاتم ، من حديث مصعب بن ثابت ، به (٦) . وفى رواية لأحمد وابن (٧) جرير : « قُتَيْلَةُ بنت عبد العزى بن [عبد] (٨) أسعد ، من بنى مالك بن حسل (٩) . وزاد ابن أبى حاتم : « فى المدة التى كانت بين قريش ، ورسول الله ﷺ » .

-
- (١) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٨/ ١٣٠) وعزاه لابن أبى حاتم ، وهو مرسل .
 (٢) صحيح مسلم برقم (٢٥٠١) من حديث ابن عباس ، رضى الله عنه ، وقول الحافظ : « تقدم الكلام عليه » لا أدرى ما مقصوده ، فإنه ذكر الحديث عند تفسير الآية ٢٢٧ من سورة الشعراء ، ولم يتكلم عليه بشيء ، وقد يكون تكلم عليه فى مكان آخر لم أقع عليه ، والله أعلم . والحديث استشكل ، فقول أبى سفيان فى الحديث : وعندى أم حبيبة أزوجكها ، منقوض بأن أبا سفيان إنما أسلم يوم فتح مكة ، والنبى ﷺ تزوج أم حبيبة قبل ذلك بزمان طويل . انظر كلام الإمام النووى فى : المنهاج (١٦/ ٦٣) وإجابته على ذلك .
 (٣) فى م : « رسول الله » .
 (٤) الحديث وقع لى من غير هذا الطريق ، انظر : المسند (٦/ ٣٤٤، ٣٤٧) وصحيح البخارى برقم (٥٩٧٨، ٣١٨٣، ٢٦٢٠) وصحيح مسلم برقم (١٠٠٣) .
 (٥) فى م : « وصاب وقرظ » ، وفى أ : « وصاب وقرظ » ، والمثبت من الطبرى .
 (٦) المسند (٤/ ٤) وتفسير الطبرى (٢٨/ ٤٣) .
 (٧) فى م : « ولابن » .
 (٨) زيادة من مسند الإمام أحمد .
 (٩) فى أ : « قبيلة بنت العزى بن سعد من بنى مالك بن حنبل » .

وقال أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار : حدثنا عبد الله بن شبيب ، حدثنا أبو بكر ابن أبي شيبة ، حدثنا أبو قتادة العدوي ، عن ابن أخي الزهري ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة وأسماء أنهما قالتا : قدمت علينا أمنا المدينة ، وهى مشركة ، فى الهدنة التى كانت بين قريش وبين رسول الله ﷺ ، فقلنا : يا رسول الله ، إن أمنا قدمت علينا المدينة راغبة ، أفنصلها ؟ قال : «نعم ، ففصلها» (١) .

ثم قال : وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة إلا من هذا الوجه . قلت : وهو منكر بهذا السياق ؛ لأن أم عائشة هى أم رومان ، وكانت مسلمة مهاجرة ، وأم أسماء غيرها ، كما هو مصرح باسمها فى هذه الأحاديث المتقدمة ، والله أعلم . وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ : تقدم تفسير ذلك فى سورة « الحجرات » ، وأورد الحديث الصحيح : « المقسطون على منابر من نور عن يمين العرش ، الذين يعدلون فى حكمهم ، وأهاليهم ، وما ولّوا » (٢) .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ ﴾ : أى : إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم العداوة ، فقاتلوكم وأخرجوكم ، وعاونوا على إخراجكم ، ينهاكم الله عن موالاتهم ويأمركم بمعاداتهم . ثم أكد الوعيد على موالاتهم فقال : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مِهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُنَّ مَا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُم أَن تَكَحُّوهنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ أَلَا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) ﴾ .

(١) مسند البزار برقم (١٨٧٣) « كشف الأستار » وقال الهيثمى : « حديث أسماء فى الصحيح ، وأم عائشة غير أم أسماء » ؛ ولهذا أنكره الحافظ هنا ، وفيه عبد الله بن شبيب شيخ البزار ضعيف .

(٢) صحيح مسلم برقم (١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو ، رضى الله عنهما .

تقدم فى سورة « الفتح » ذكر صلح الحديبية الذى وقع بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش ، فكان فيه : « على ألا يأتيتك منا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا » . وفى رواية : « على أنه لا يأتيتك منا أحد - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا » . وهذا قول عروة ، والضحاك ، وعبد الرحمن بن زيد ، والزهرى ، ومقاتل ، والسدى . فعلى هذه الرواية تكون هذه الآية مخصصة للسنة ، وهذا من أحسن أمثلة ذلك ، وعلى طريقة بعض السلف ناسخة ، فإن الله ، عز وجل ، أمر عباده المؤمنين إذا جاءهم النساء مهاجرات أن يمتحنوهن ، فإن علموهن مؤمنات فلا يرجعوهن إلى الكفار ، لا هن حل لهن ولا هم يحلون لهن .

وقد ذكرنا فى ترجمة عبد الله بن أبى أحمد بن جحش ، من المسند الكبير ، من طريق أبى بكر ابن أبى عاصم ، عن محمد بن يحيى الذهلى ، عن يعقوب بن محمد ، عن عبد العزيز بن عمران ، عن مجمع بن يعقوب ، عن حسين بن أبى لبانة ، عن عبد الله بن أبى أحمد قال : هاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط فى الهجرة ، فخرج أخوها عمارة والوليد حتى قدما على رسول الله ﷺ ، فكلماه فيها أن يردها إليهما ، فنقض الله العهد بينه وبين المشركين فى النساء خاصة ، ومنعهن أن يرددن إلى المشركين ، وأنزل الله آية الامتحان (١) .

قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا يونس بن بكير ، عن قيس بن الربيع ، عن الأغر بن الصباح ، عن خليفة بن حصين ، عن أبى نصر الأسدى قال : سئل ابن عباس : كيف كان امتحان رسول الله ﷺ النساء ؟ قال : كان يمتحنهن : بالله ما خرجت من بغض زوج ؟ وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ؟ وبالله ما خرجت التماس دنيا ؟ وبالله ما خرجت إلا حباً لله ولرسوله ؟ (٢) .

ثم رواه من وجه آخر ، عن الأغر بن الصباح ، به . وكذا رواه البزار من طريقه ، وذكر فيه أن الذى كان يحلفهن عن أمر رسول الله ﷺ له عمر بن الخطاب (٣) .

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾ : كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبد الله (٤) ورسوله .

وقال مجاهد : ﴿ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾ : فاسألوهن : ما جاء بهن ؟ فإن كان جاء بهن غضبٌ على أزواجهن أو سخطه أو غيره ، ولم يؤمن فارجعوهن إلى أزواجهن .

وقال عكرمة : يقال لها : ما جاء بك إلا حب الله ورسوله ؟ وما جاء بك عشق رجل منا ، ولا

(١) جامع المسانيد و السنن لابن كثير (٢٤٣/٧) ورواه ابن الأثير فى أسد الغابة (٦٧/٣) من طريق أبى بكر بن أبى عاصم ، وعبد العزيز ابن عمران ضعيف .

(٢) تفسير الطبرى (٤٤/٢٨) .

(٣) مسند البزار برقم (٢٢٧٢) « كشف الأستار » وقال : « لا نعلمه يروى عن ابن عباس إلا بهذا الإسناد ، ولا روى عن أبى نصر إلا خليفة » . قال الهيثمى فى المجمع (١٢٣/٧) : « وفيه قيس بن الربيع ، وثقه شعبة والثورى ، وضعفه غيرهما ، وبقيّة رجاله ثقات » . وتعقبه ابن حجر فى مختصر الزوائد (١١٢/١) . قلت : « أعله الشيخ بقیس ، وقد ذكر البخارى أن أبا نصر لم يسمع من ابن عباس فى العلة » .

(٤) فى م : « وأن محمداً عبده » .

فرار من زوجك ؟ فذلك قوله : ﴿ فَأَمْتَحْنُوهُنَّ ﴾ .

وقال قتادة : كانت محتتهن أن يستحلفن بالله : ما أخرجكن النشوز ؟ وما أخرجكن إلا حب الإسلام وأهله وحرص عليه ؟ فإذا قلن ذلك قبل ذلك منهن .

وقوله : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ : فيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقيناً .

وقوله : ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لِهِنَّ ﴾ : هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين ، وقد كان جائزاً في ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة ؛ ولهذا كان أبو العاص بن الربيع زوج ابنة النبي ﷺ زينب ، رضى الله عنها ، وقد كانت مسلمة وهو على دين قومه ، فلما وقع في الأسارى يوم بدر بعثت امرأته زينب في فدائه بقلادة لها كانت لأُمها خديجة ، فلما رآها رسول الله ﷺ رَقَّ لها رَقَّةً شديدةً ، وقال للمسلمين : « إن رأيتم أن تطلقوها أسيرها فافعلوا » . ففعلوا ، فأطلقه رسول الله ﷺ على أن يبعث ابنته إليه ، فوفى له بذلك وصدقه فيما وعده ، وبعثها إلى رسول الله ﷺ مع زيد بن حارثة ، رضى الله عنه ، فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر ، وكانت سنة اثنتين إلى أن أسلم زوجها العاص بن الربيع سنة ثمان فردها عليه بالنكاح الأول ، ولم يحدث لها صداقاً ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا يعقوب ، حدثنا أبي ، حدثنا ابن إسحاق ، حدثني داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ رد ابنته زينب على أبي العاص [بن الربيع] ^(١) ، وكانت هجرتها قبل إسلامه بست سنين على النكاح الأول ، ولم يحدث شهادة ولا صداقاً .

ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه ^(٢) . ومنهم من يقول : « بعد سنتين » ، وهو صحيح ؛ لأن إسلامه كان بعد تحريم المسلمات على المشركين بستتين . وقال الترمذي : « ليس بإسناده بأس ، ولا نعرف ^(٣) وجه هذا الحديث ، ولعله جاء من حفظ داود بن الحصين . وسمعت عبد بن حميد يقول : سمعت يزيد بن هارون يذكر عن ابن إسحاق هذا الحديث ، وحديث ابن الحجاج - يعنى ابن أُرطاة - عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، أن رسول الله ﷺ رد ابنته على أبي العاص ابن الربيع بمهر جديد ونكاح جديد . فقال يزيد : حديث ابن عباس أجودُ إسناداً ، والعمل على حديث عمرو بن شعيب » .

قلت : وقد رَوَى حديث الحجاج بن أُرطاة ، عن عمرو بن شعيب الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه ^(٤) ، وضعفه الإمام أحمد وغير واحد ، والله أعلم .

(١) زيادة من مسند الإمام أحمد .

(٢) المسند (٢٦١/١) وسنن أبي داود برقم (٢٢٤٠) وسنن الترمذي برقم (١١٤٣) وسنن ابن ماجه برقم (٢٠٠٩) .

(٣) فى م : « ولا يعرف » .

(٤) المسند (٢٠٧/٢) وسنن الترمذي برقم (١١٤٢) وسنن ابن ماجه برقم (٢٠١٠) .

وأجاب الجمهور عن حديث ابن عباس بأن ذلك كان قضية عين يحتمل أنه لم تنقض عدتها منه ؛ لأن الذى عليه الأكثرون أنها متى انقضت العدة ولم يسلم ^(١) انفسخ نكاحها منه .

وقال آخرون : بل إذا انقضت العدة هى بالخيار ، إن شاءت أقامت على النكاح واستمرت ، وإن شاءت فسخته وذهبت فتزوجت ، وحملوا عليه حديث ابن عباس ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَآتَوْهُمْ مَا أَنْفَقُوا ﴾ يعنى : أزواج المهاجرات من المشركين ، ادفعوا إليهم الذى غرموه عليهن من الأصدقة . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والزهرى ، وغير واحد .

وقوله : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ﴾ يعنى : إذا أعطيتموهن أصدقتهن فانكحوهن ، أى : تزوجوهن بشرطه من انقضاء العدة والولى وغير ذلك .

وقوله : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ ﴾ : تحريم من الله ، عز وجل ، على عباده المؤمنين نكاح المشركات ، والاستمرار معهن .

وفى الصحيح ، عن الزهرى ، عن عروة ، عن المسور ومروان بن الحكم : أن رسول الله ﷺ لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاء نساء من المؤمنات ، فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ [فَامْتَحِنُوهُنَّ] ^(٢) ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ ﴾ ، فطلق عمر بن الخطاب يومئذ امرأتين ، تزوج إحداهما معاوية بن أبى سفيان ، والأخرى صفوان بن أمية ^(٣) .

وقال ابن ثور ، عن معمر ، عن الزهرى : أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ ، وهو بأسفل الحديبية ، حين صالحهم على أنه من أتاه منهم رده إليهم ، فلما جاءه النساء نزلت هذه الآية ، وأمره أن يرد الصداق إلى أزواجهن ، وحكم على المشركين مثل ذلك إذا جاءتهم امرأة من المسلمين أن يردوا الصداق إلى زوجها ، وقال : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ ﴾ ^(٤) .

وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وقال : وإنما حكم الله بينهم بذلك ، لأجل ما كان بينهم وبينهم من العهد .

وقال محمد بن إسحاق ، عن الزهرى : طلق عمر يومئذ قريبة بنت أبى أمية بن المغيرة ، فتزوجها معاوية ، وأم كلثوم بنت عمرو بن جروال الخزاعية ، وهى أم عبيد الله ، فتزوجها أبو جهم ابن حذيفة بن غانم ، رجل من قومه ، وهما على شركهما ، وطلق طلحة بن عبيد الله أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، فتزوجها بعده خالد بن سعيد بن العاص ^(٥) .

وقوله : ﴿ وَأَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ أَلْوَا مَا أَنْفَقُوا ﴾ أى : وطالبوا بما أنفقتم على أزواجكم اللاتى

(٢) زيادة من م .

(١) فى م : « ولم تسلم » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٨ / ٤٦) .

(٥) تفسير الطبرى (٢٨ / ٤٧) مع اختلاف يسير .

يذهبن إلى الكفار ، إن ذهبن ، وليطالبوا بما أنفقوا على أزواجهن اللاتي هاجرن إلى المسلمين .
 وقوله : ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ أى : فى الصلح واستثناء النساء منه ، والأمر بهذا كله هو حكم الله يحكم به بين خلقه : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى : عليم بما يصلح عباده ، حكيم فى ذلك .
 ثم قال : ﴿ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ﴾
 قال مجاهد ، وقتادة : هذا فى الكفار الذين ليس لهم عهد ، إذا فرت إليهم امرأة ولم يدفعوا إلى زوجها شيئاً ، فإذا جاءت منهم امرأة لا يدفع إلى زوجها شيئاً ، حتى يدفع إلى زوج الذاهبة إليهم مثل نفقته عليها .

وقال ابن جرير : حدثنا يونس ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى يونس ، عن الزهرى قال : أقر المؤمنون بحكم الله ، فأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين التى أنفقوا على نسائهم ، وأبى المشركون أن يقرروا بحكم الله فيما فرض عليهم من أداء نفقات المشركين التى أنفقوا على نسائهم ، وأبى المشركون أن يقرروا بحكم الله فيما فرض عليهم من أداء نفقات المسلمين ، فقال الله للمؤمنين به : ﴿ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ فلو أنها ذهبت بعد هذه الآية امرأة من أزواج المؤمنين إلى المشركين ، ردّ المؤمنون إلى زوجها النفقة التى أنفق عليها من العقب الذى بأيديهم ، الذى أمروا أن يردوه على المشركين من نفقاتهم التى أنفقوا على أزواجهن اللاتي آمن وهاجرن ، ثم ردوا إلى المشركين فضلاً إن كان بقى لهم . والعقب : ما كان [بأيدي المؤمنين] ^(١) من صداق نساء الكفار حين آمن وهاجرن ^(٢) .

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى هذه الآية : يعنى إن لحقت امرأة رجل من المهاجرين بالكفار ، أمر له رسول الله ﷺ أنه يعطى من الغنيمة مثل ما أنفق .

وهكذا قال مجاهد : ﴿ فَعاقِبْتُمْ ﴾ : أصبتم غنيمة من قريش أو غيرهم ﴿ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ﴾ يعنى : مهر مثلها . وهكذا قال مسروق ، وإبراهيم ، وقتادة ، ومقاتل ، والضحاك ، وسفيان بن حسين ، والزهرى أيضاً .

وهذا لا ينافى الأول ؛ لأنه إن أمكن الأول ^(٣) فهو أولى ، وإلا فمن الغنائم اللاتي تؤخذ من أيدي الكفار . وهذا أوسع ، وهو اختيار ابن جرير ، ولله الحمد والمنة ^(٤) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٢) .

(١) زيادة من تفسير الطبرى .

(٢) تفسير الطبرى (٤٨/٢٨) .

(٣) فى م : « أمكن بالأول » .

(٤) فى م : « والله أعلم » .

قال البخارى : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن أخى ابن شهاب ، عن عمه قال : أخبرنى عروة أن عائشة زوج النبى ﷺ ، أخبرته : أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَّكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . قال عروة : قالت عائشة : فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات ، قال لها رسول الله ﷺ : « قد بايعتك » ، كلاماً ، ولا والله ما مست يده يد امرأة قطّ فى المبايعة ، ما يبايعهن إلا بقوله : « قد بايعتك على ذلك » . هذا لفظ البخارى (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا سفيان ، عن محمد بن المنكدر ، عن أميمة بنت رقيقة قالت : أتيت رسول الله (٢) ﷺ فى نساء لنبايعه ، فأخذ علينا ما فى القرآن : ﴿ أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا ﴾ الآية ، وقال : « فيما استطعتن وأطقتن » ، قلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا ، قلنا : يا رسول الله ، ألا تصافحنا ؟ قال « إني لا أصافح النساء ، إنما قولى لامرأة واحدة (٣) كقولى لمائة امرأة » .

هذا إسناد صحيح ، وقد رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه ، من حديث سفيان بن عيينة - والنسائى أيضاً من حديث الثورى - ومالك بن أنس كلهم ، عن محمد بن المنكدر ، به (٤) . وقال الترمذى : حسن صحيح ، لا نعرفه إلا من حديث محمد بن المنكدر .

وقد رواه أحمد أيضاً من حديث محمد بن إسحاق ، عن محمد بن المنكدر ، عن أميمة ، به . وزاد : « ولم يصافح منا امرأة » (٥) . وكذا رواه ابن جرير من طريق موسى بن عقبة ، عن محمد ابن المنكدر ، به (٦) . ورواه ابن أبى حاتم من حديث أبى جعفر الرازى ، عن محمد بن المنكدر : حدثتني أميمة بنت رقيقة - وكانت أخت خديجة خالة فاطمة ، من فيها إلى فى ، فذكره .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب ، حدثنا أبى ، عن ابن إسحاق ، حدثنى سليط بن أيوب بن الحكم بن سليم ، عن أمه سلمى بنت قيس - وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ قد صلت معه القبلتين ، وكانت إحدى نساء بنى عدى بن النجار - قالت : جئت رسول الله ﷺ نبأه فى نسوة من الأنصار ، فلما شرط علينا : ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتره بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف - قال : « ولا تغششن أزواجكن » . قالت : فبايعناه ، ثم انصرفنا ، فقلت لامرأة منهن : ارجعى فسلّى رسول الله ﷺ : ما غش أزواجنا ؟ قال : فسألته فقال : « تأخذ ماله ، فتحابى به غيره » (٧) .

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٩١) ووقع فى رواية أبى ذر : « حدثنا إسحاق ، حدثنا يعقوب بن إبراهيم » .

(٢) فى م : « أتيت النبى » . (٣) فى م : « واحدة منك » .

(٤) المسند (٣٥٧/٦) وسنن الترمذى برقم (١٥٩٧) وسنن النسائى (١٤٩/٧) وسنن ابن ماجه برقم (٢٨٧٤) .

(٥) المسند (٣٥٧/٦) .

(٦) تفسير الطبرى (٥٣/٢٨) .

(٧) المسند (٣٧٩/٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن أبي العباس ، حدثنا عبد الرحمن بن عثمان بن إبراهيم بن محمد بن حاطب ، حدثني أبي ، عن أمه عائشة بنت قدامة - يعني : ابن مضعون - قالت : أنا مع أمي رائطة بنت سفيان الخزاعية ، والنبي ﷺ يبايع النسوة ويقول : « أبايكن على ألا تشركن بالله شيئاً ، ولا تسرقن ، ولا تزنين ، ولا تقتلن أولادكن ، ولا تأتين بهتان فتفترينه بين أيديكن وأرجلكن ، ولا تعصينني في معروف » . [قالت : فأطرقن . فقال لهن النبي ﷺ] (١) : « قلن : نعم فيما استطعتن » . فكن يقرن وأقول معهن ، وأمى تلقني : قولي (٢) : « أي بنية ، نعم [فيما استطعت] (٣) فكن أقول كما يقلن (٤) .

وقال البخاري : حدثنا أبو معمر ، حدثنا عبد الوارث ، حدثنا أيوب ، عن حفصة بنت سيرين ، عن أم عطية قالت : بايعنا رسول الله ﷺ ، فقرأ (٥) علينا : « أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا » ، ونهانا عن النياحة ، فقبضت امرأة يدها ، فقالت : أسعدتني فلانة أريد أن أجزيها . فما قال لها رسول الله شيئاً ، فانطلقت ورجعت فبايعها .

ورواه مسلم (٦) . وفي رواية : « فما وفي منهن امرأة غيرها ، وغير أم سليم ابنة ملحان » .

وللبخاري عن أم عطية قالت : أخذ علينا رسول الله ﷺ عند البيعة ألا ننوح ، فما وقت منا امرأة غير خمس نسوة : أم سليم ، وأم العلاء ، وابنة أبي سبرة امرأة معاذ ، وامرأتان - أو : ابنة أبي سبرة ، وامرأة معاذ ، وامرأة أخرى (٧) .

وقد كان رسول الله ﷺ يتعاهد النساء بهذه البيعة يوم العيد ، كما قال البخاري :

حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا هارون بن (٨) معروف ، حدثنا عبد الله بن وهب ، أخبرني ابن جريج : أن الحسن بن مسلم أخبره ، عن طائوس ، عن ابن عباس قال : شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان ، فكلهم يصلونها قبل الخطبة ثم يخطب بعد ، فنزل نبي الله ﷺ ، فكأنني أنظر إليه حين (٩) يجلس الرجال بيده ، ثم أقبل يشقههم حتى أتى النساء مع بلال فقال : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبَهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ » ، حتى فرغ من الآية كلها . ثم قال حين فرغ : « أنتن على ذلك ؟ » . فقالت امرأة واحدة ، لم يجبه غيرها : نعم يا رسول الله - لا يدرى الحسن (١٠) من هي - قال : « فتصدقن » ، قال : وبسط بلال ثوبه فجعلن (١١) يلقين الفتح

(١) زيادة من مسند الإمام أحمد .

(٢) زيادة من مسند الإمام أحمد ، وفي هـ ، م ، أ : « تقول لي » .

(٣) زيادة من مسند الإمام أحمد .

(٤) المسند (٦/ ٣٦٥) .

(٥) في م : « فشرط » .

(٦) صحيح البخاري برقم (٤٨٩٢) وصحيح مسلم برقم (٩٣٦) .

(٧) صحيح البخاري برقم (١٣٠٦) .

(٨) في م : « حدثنا » .

(٩) في م : « إليه حتى » .

(١٠) في م ، أ : « لا يدرى حسن » .

(١١) في م : « فجعلن » .

والخواتيم فى ثوب بلال (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا خلف بن الوليد ، حدثنا ابن عياش ، عن سليمان بن سليم ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : جاءت أميمة بنت رقيقة إلى رسول الله ﷺ تباعه على الإسلام ، فقال : « أباعك على ألا تشركى بالله شيئاً ، ولا تسرقى ، ولا تزنى ، ولا تقتلى ولدك ، ولا تأتى ببهتان تفتريه بين يديك ورجليك ، ولا تنوحى ، ولا تبرجى تبرج الجاهلية الأولى » (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن الزهري ، عن أبي إدريس الخولاني ، عن عبادة بن الصامت قال : كنا عند رسول الله ﷺ فى مجلس فقال : « تباعونى على ألا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم — قرأ الآية التى أخذت على النساء ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ ﴾ فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به ، فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه ، فهو إلى الله ، إن شاء غفر له ، وإن شاء عذبه » . أخرجاه فى الصحيحين (٣) .

وقال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن مرثد (٤) بن عبد الله اليزنى (٥) ، عن أبى عبد الله عبد الرحمن بن عسيلة الصنابجى (٦) ، عن عبادة بن الصامت قال : كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثنى عشر رجلاً ، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء ، وذلك قبل أن يفرض الحرب ، على ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف ، وقال : « فإن وفيتم فلکم الجنة » رواه ابن أبى حاتم .

وقد روى ابن جرير من طريق العوفى ، عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ أمر عمر بن الخطاب فقال : « قل لهن : إن رسول الله يبايعكن على ألا تشركن بالله شيئاً » — وكانت هند بنت عتبة بن ربيعة التى شقت بطن حمزة منكراً فى النساء — فقالت : « إني إن أتكلم يعرفنى ، وإن عرفنى قتلنى » . وإنما تنكرت فرقاً من رسول الله ﷺ ، فسكت النسوة اللاتى مع هند ، وأبين أن يتكلمن . فقالت هند وهى منكورة : كيف تقبل من النساء شيئاً لم تقبله من الرجال ؟ ففطن (٧) إليها رسول الله وقال لعمر : « قل لهن : ولا تسرقن » . قالت هند : والله إني لأصيب من أبى سفيان الهنات ، ما أدرى أيحلهن لى أم لا ؟ قال أبو سفيان : ما أصبت من شىء مضى أو قد بقى ، فهو لك حلال . فضحك رسول الله ﷺ وعرفها ، فدعاها فأخذت بيده ، فعادت (٨) به ، فقال : « أنت هند ؟ » . قالت : عفا الله عما سلف . فصرف عنها رسول الله ﷺ فقال : « ولا تزنين » ، فقالت : يا رسول الله ، وهل تزنى الحرة ؟ قال : « لا ، والله ما تزنى الحرة » . فقال : « ولا

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٩٥) .

(٢) المسند (١٩٦/٢) .

(٣) المسند (٣١٤/٥) وصحيح البخارى برقم (٤٨٩٤) وصحيح مسلم برقم (٩-١٧) .

(٤) فى أ : « الصالحى » .

(٥) فى أ : « المزنى » .

(٦) فى م : « يزيد » .

(٧) فى أ : « ففطن » .

(٨) فى أ : « ففطن » .

يقتلن أولادهن . قالت هند : أنت قتلتهم يوم بدر ، فأنت وهم أبصر . قال : ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِيْهُتَانِ يَفْتَرِيْهِ بَيْنَ أَيْدِيْهِنَّ وَأَرْجُلَيْهِنَّ ﴾ قال : ﴿ وَلَا يَعْصِيْكَ فِيْ مَعْرُوفٍ ﴾ . قال : منعهن أن ينحن ، وكان أهل الجاهلية يمزقن الثياب ويخدشن الوجوه ، ويقطعن الشعور ، ويدعون بالشبور . والشبور : الويل ^(١) .

وهذا أثر غريب ، وفي بعضه نكارة ، والله أعلم ؛ فإن أبا سفيان وامرأته لما أسلما لم يكن رسول الله ﷺ يخيفهما ، بل أظهرهما الصفاء والود له ، وكذلك كان الأمر من جانبه ، عليه السلام ، لهما .

وقال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية يوم الفتح ، فبايع رسول الله ﷺ الرجال على الصفا ، وعمر يبايع النساء تحتها عن رسول الله ﷺ ، فذكر بقيته كما تقدم وزاد : فلما قال : ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ ، قالت هند : ريبناهم صغاراً فقتلتموهم كباراً . فضحك عمر بن الخطاب حتى استلقى . رواه ابن أبي حاتم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا نصر بن علي ، حدثني غبطة بنت سليمان ، حدثتني عمتي ، عن جدتها ^(٢) ، عن عائشة قالت : جاءت هند بنت عتبة إلى رسول الله ﷺ لتبايعه ، فنظر إلى يدها فقال : « اذهبي فغيري يدك » . فذهبت فغيرتها بحناء ، ثم جاءت فقال : « أبايعك على ألا تشركي بالله شيئاً » ، فبايعها وفي يدها سواران من ذهب ، فقالت : ما تقول في هذين السوارين ؟ فقال : « جمرتان من جمر جهنم » ^(٣) .

فقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعُكَ ﴾ أي : من جاءك منهن يبايع على هذه الشروط ، فبايعها ، ﴿ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ ﴾ أي : أموال الناس الأجانب ، فأما إذا كان الزوج مقصراً في نفقتها ، فلها أن تأكل من ماله بالمعروف ، ما جرت به عادة أمثالها ، وإن كان بغير علمه ، عملاً بحديث هند بنت عتبة أنها قالت : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني ، فهل على جناح إن أخذت من ماله بغير علمه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك » . أخرجاه في الصحيحين ^(٤) .

وقوله : ﴿ وَلَا يَزْنِينَ ﴾ كقوله : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢] . وفي حديث سمرّة ذكر عقوبة الزناة بالعذاب الأليم في نار الجحيم ^(٥) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة قالت : جاءت فاطمة بنت عتبة تباع النبي ﷺ فأخذ عليها : ﴿ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ ﴾ الآية ، قالت : فوضعت يدها على رأسها حياء ، فأعجبه ما رأى منها ، فقالت عائشة :

(١) تفسير الطبري (٥٢/٢٨) .

(٢) في أ : « حدثني عمي عن جدتي » .

(٣) ورواه أبو يعلى في المسند (١٩٥/٨) عن نصر بن علي به نحوه ، وقال الهيثمي في المجمع (٣٧/٦) : « فيه من لم أعرفهن » .

(٤) صحيح البخاري برقم (٧١٨٠) وصحيح مسلم برقم (١٧١٤) .

(٥) رواه الإمام أحمد في المسند (١٥/٥) .

أَقْرَى أَيْتَهَا الْمَرْأَةُ ، فَوَاللَّهِ مَا بَايَعْنَا إِلَّا عَلَى هَذَا . قَالَتْ : فَنَعَمْ إِذَا . فَبَايَعَهَا بِالْآيَةِ (١) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا ابن فضيل ، عن حصين ، عن عامر — هو الشعبي — قال : بايع رسول الله ﷺ النساء ، وعلى يده ثوب قد وضعه على كفه ، ثم قال : « ولا تقتلن أولادكن » . فقالت امرأة : تقتل آباءهم وتوصينا بأولادهم ؟ قال : وكان بعد ذلك إذا جاءه النساء يبايعنه ، جمعهن فعرض عليهن ، فإذا أقررن رجعن .

وقوله : ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ : وهذا يشمل قتله بعد وجوده ، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق ، ويعم قتله وهو جنين ، كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء ، تطرح نفسها لثلاث تحبل إما لغرض فاسد أو ما أشبهه .

وقوله : ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بَهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ : قال ابن عباس : يعنى لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم . وكذا قال مقاتل . ويؤيد هذا الحديث الذى رواه أبو داود :

حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، حدثنا عمرو — يعنى : ابن الحارث — عن ابن الهاد ، عن عبد الله بن يونس ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية الملاعة : « أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم ، فليست من الله فى شيء ، ولن يدخلها الله جنته ، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه ، احتجب الله منه ، وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين » (٢) .

وقوله : ﴿ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ يعنى : فما أمرتهن به من معروف، ونهيتهن عنه من منكر .

قال البخارى : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا وهب بن جرير ، حدثنا أبى قال : سمعت الزبير ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ قال : إنما هو شرط شرطه الله للنساء (٣) .

وقال ميمون بن مهران : لم يجعل الله لنييه طاعة إلا لمعروف (٤) ، والمعروف : طاعة .

وقال ابن زيد : أمر الله بطاعة رسوله ، وهو خيرة الله من خلقه فى المعروف .

وقد قال غيره عن ابن عباس ، وأنس بن مالك ، وسالم بن أبى الجعد ، وأبى صالح ، وغير واحد : نهاهن يومئذ عن النوح . وقد تقدم حديث أم عطية فى ذلك أيضاً .

وقال ابن جرير : حدثنا بشر ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد ، عن قتادة فى هذه الآية : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ أخذ عليهن النياحة ، ولا تحدثن الرجال إلا رجلاً منكن محرماً . فقال عبد الرحمن بن عوف : يا نبى الله ، إن لنا أضيافاً ، وإنا نغيب عن نساتنا . فقال رسول الله ﷺ : « ليس أولئك

(١) المسند (١٥١/٦) .

(٢) سنن أبى داود برقم (٢٢٦٣) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٨٩٣) .

(٤) فى م : « فى معروف » .

عَنْتُ ، ليس أولئك عَنْتُ » (١) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا إبراهيم بن موسى الفراء ، أخبرنا ابن أبي زائدة ، حدثني مبارك ، عن الحسن قال : كان فيما أخذ النبي ﷺ : « ألا تحدثن الرجال إلا أن تكون ذات محرم ، فإن الرجل لا يزال يحدث المرأة حتى يَمْذَى بين فخذيه » .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا هارون ، عن عمرو ، عن عاصم (٢) ، عن ابن سيرين ، عن أم عطية الأنصارية قالت : كان فيما اشترط علينا (٣) من المعروف حين بايعنا (٤) ألا ننوح ، فقالت امرأة من بني فلان : إن بني فلان أسعدوني ، فلا حتى أجزيهم (٥) فانطلقت فأسعدتهم ، ثم جاءت فبايعت ، قالت : فما وفي منهن غيرها ، وغير أم سليم ابنة ملحان أم أنس بن مالك (٦) .

وقد روى البخاري هذا الحديث من طريق حفصة بنت سيرين ، عن أم عطية نسيبة الأنصارية ، رضى الله عنها (٧) . وقد روى نحوه من وجه آخر أيضاً .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا عمر بن فروخ القَتَّاب ، حدثني مصعب بن نوح الأنصاري قال : أدركت عجوزاً لنا كانت بايع رسول الله ﷺ . قالت : فأتيته لأبايعه ، فأخذ علينا فيما أخذ ألا ننحن . فقالت عجوز : يا رسول الله (٨) ، إن ناساً قد كانوا (٩) أسعدوني على مصائب أصابتنى ، وإنهم قد أصابتهم مصيبة ، فأنا أريد أن أسعدهم . قال : « فانطلقى فكافئهم » . فانطلقت فكافأتهن ، ثم إنها أتته فبايعته ، وقال : هو (١٠) المعروف الذى قال الله عز وجل : ﴿ وَلَا يَعْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ (١١) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن منصور الرمادى ، حدثنا القَعْنَبِي (١٢) ، حدثنا الحجاج بن صفوان ، عن أسيد (١٣) بن أبي أسيد البراد ، عن امرأة من المبايعات قالت : كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ : ألا نعصيه فى معروف : ألا نخمش وجوهاً (١٤) ، ولا ننشر شعراً ، ولا نشق جيباً ، ولا ندعوا وىلاً .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا وكيع ، عن يزيد مولى الصهباء ، عن شهر بن حوشب ، عن أم سلمة ، عن رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ وَلَا يَعْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ ، قال : « النوح » .

(١) تفسير الطبرى (٥١/٢٨) .

(٢) فى م : « عن عمرو بن عاصم » .

(٣) فى م : « علينا رسول الله » .

(٤) فى م ، أ : « حين بايعناه » .

(٥) فى أ : « حتى أحذتهم » .

(٦) تفسير الطبرى (٥٢/٢٨) .

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٨٩٢) .

(٨) فى م : « يا نبي الله » .

(٩) فى م : « كانوا قد » .

(١٠) فى م : « هذا » .

(١١) فى م : « كانوا قد » .

(١٢) تفسير الطبرى (٥٢/٢٨) .

(١٣) فى م : « الضبى » .

(١٤) فى م ، أ : « وجهاً » .

(١٥) فى أ : « عن أسد » .

ورواه الترمذى فى التفسير ، عن عبد بن حميد ، عن أبى نعيم — وابن ماجه ، عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن وكيع — كلاهما عن يزيد بن عبد الله الشيبانى مولى ^(١) الصهباء ، به ^(٢) . وقال الترمذى : حسن غريب .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد ^(٣) بن سنان القزاز ، حدثنا إسحاق بن إدريس ، حدثنا إسحاق ابن عثمان أبو يعقوب ، حدثنى إسماعيل بن عبد الرحمن بن عطية ، عن جدته أم عطية قالت : لما قدم رسول الله ﷺ جمع نساء الأنصار فى بيت ، ثم أرسل إلينا عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، فقام على الباب وسلم علينا ، فردد — أو : فرددنا — عليه السلام ، ثم قال : « أنا رسولُ رسول الله ﷺ إليكن » . قالت : فقلنا : مرحباً برسول الله وبرسول رسول الله . فقال : « تبايعن على ألا تشركن بالله شيئاً » ، ولا تسرقن ولا تزنين ؟ » قالت : قلنا : نعم . قالت : فمديده من خارج الباب — أو : البيت — ومددنا أيدينا من داخل البيت ، ثم قال : « اللهم اشهد » . قالت : وأمرنا فى العيدين أن نخرج فيه الحيض والعواتق ، ولا جمعة علينا ، ونهانا عن اتباع الجنائز . قال إسماعيل : فسألت جدتى عن قوله : ﴿ وَلَا يَعْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ . قالت : النياحة ^(٤) .

وفى الصحيحين من طريق الأعمش ، عن عبد الله بن مرة ، عن مسروق ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس منا من ضرب الحدود ، وشقَّ الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية » ^(٥) .

وفى الصحيحين أيضاً عن أبى موسى : أن رسول الله ﷺ برئ من الصالقة والحالقة والشاقة ^(٦) .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا هُدْبَةُ بن خالد ، حدثنا أبان بن يزيد ، حدثنا يحيى بن أبى كثير : أن زيدا حدثه : أن أبا سلام حدثه : أن أبا مالك الأشعرى حدثه : أن رسول الله ﷺ قال : « أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر فى الأحساب ، والطعن فى الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة . وقال : النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ، ودرع من جرب » .

ورواه مسلم فى صحيحه منفرداً به ، من حديث أبان بن يزيد العطار ، به ^(٧) .

وعن أبى سعيد : أن رسول الله ﷺ لعن النائحة والمستمعة . رواه أبو داود ^(٨) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ (١٣) .

(١) فى أ : « عن أبى » .

(٢) سنن الترمذى برقم (٣٣٠٧) وسنن ابن ماجه برقم (١٥٧٩) .

(٣) فى م : « حدثنا أحمد » .

(٤) تفسير الطبرى (٥٣/٢٨) .

(٥) صحيح البخارى برقم (١٢٩٧) وصحيح مسلم برقم (١٠٣) .

(٦) صحيح البخارى برقم (١٢٩٦) وصحيح مسلم برقم (١٠٤) .

(٧) مسند أبى يعلى (١٤٨/٣) وصحيح مسلم برقم (٩٣٤) .

(٨) سنن أبى داود برقم (٣١٢٨) .

ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين فى آخر « هذه السورة » كما نهى عنها فى أولها فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ يعنى : اليهود والنصارى وسائر الكفار ، ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والإبعاد ، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء وقد يشسوا من الآخرة ، أى : من ثواب الآخرة ونعيمها فى حكم الله عز وجل .

وقوله : ﴿ كَمَا يَشِ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ : فيه قولان ، أحدهما : كما يشس الكفار الأحياء من قراباتهم الذين فى القبور أن يجتمعوا بهم بعد ذلك ؛ لأنهم لا يعتقدون بعثا ولا نشورا ، فقد انقطع رجاؤهم منهم فيما يعتقدونه .

قال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ إلى آخر السورة ، يعنى : من مات من الذين كفروا فقد يشس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم أو يعثهم الله عز وجل .

وقال الحسن البصرى : ﴿ كَمَا يَشِ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ قال : الكفار الأحياء قد يشسوا من الأموات .

وقال قتادة : كما يشس الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا . وكذا قال الضحاك . رواهن ابن جرير .

والقول الثانى : معناه : كما يشس الكفار الذين هم فى القبور من كل خير .

قال الأعمش ، عن أبى الضُّحَى ، عن مسروق ، عن ابن مسعود : ﴿ كَمَا يَشِ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ قال : كما يشس هذا الكافر إذا مات وعاین ثوابه واطلع عليه . وهذا قول مجاهد ، وعكرمة ، ومقاتل ، وابن زيد ، والكلبى ، ومنصور . وهو اختيار ابن جرير .

تفسير سورة الصف

وهي مدنية .

قال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا ابن المبارك ، عن الأوزاعي ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن أبي سلمة - وعن عطاء بن يسار ، عن أبي سلمة ، عن عبد الله بن سلام قال : تذاكرنا : أيكم يأتي رسول الله ﷺ فيسأله : أي الأعمال أحب إلى الله ؟ فلم يقم أحد منا ، فأرسل رسول الله ﷺ إلينا رجلاً ، فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة ، يعنى سورة الصف كلها . هكذا رواه الإمام أحمد (١) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا العباس بن الوليد بن مزيد البيروتي (٢) قراءة قال : أخبرني أبي ، سمعت الأوزاعي ، حدثني يحيى بن أبي كثير ، حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن ، حدثني عبد الله بن سلام . أن أناساً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : لو أرسلنا إلى رسول الله ﷺ نسأله عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ؟ فلم يذهب إليه أحد منا ، وهبنا أن نسأله عن ذلك ، قال : فدعا رسول الله ﷺ أولئك نفر رجلاً رجلاً حتى جمعهم ، ونزلت فيهم هذه السورة : (سبح) الصف قال عبد الله بن سلام : فقرأها علينا رسول الله ﷺ كلها . قال أبو سلمة : وقرأها علينا عبد الله بن سلام كلها ، قال يحيى بن أبي كثير وقرأها علينا أبو سلمة كلها . قال الأوزاعي : وقرأها علينا يحيى بن أبي كثير كلها . قال أبي : وقرأها علينا الأوزاعي كلها .

وقد رواه الترمذي عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي : حدثنا محمد بن كثير ، عن الأوزاعي ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن أبي سلمة ، عن عبد الله بن سلام قال : فعدنا نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا ، فقلنا : لو نعلم : أي الأعمال أحب إلى الله عز وجل لعملناه . فأنزل الله : ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . [كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا] (٣) ﴾ قال عبد الله بن سلام : فقرأها علينا رسول الله ﷺ . قال أبو سلمة : فقرأها علينا ابن سلام . قال يحيى : فقرأها علينا أبو سلمة . قال ابن كثير : فقرأها علينا الأوزاعي . قال عبد الله : فقرأها علينا ابن كثير .

ثم قال الترمذي : وقد خولف محمد بن كثير في إسناد هذا الحديث عن الأوزاعي ، فروى ابن المبارك ، عن الأوزاعي ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن هلال بن أبي ميمونة ، عن عطاء بن يسار ، عن عبد الله بن سلام - أو : عن أبي سلمة ، عن عبد الله بن سلام (٤) . قلت : وهكذا رواه الإمام أحمد ، عن يعمر ، عن ابن المبارك ، به (٥) .

(١) المسند (٥/٤٥٢) .

(٢) زيادة من أ .

(٣) في أ : « السوروى » .

(٤) سنن الترمذي برقم (٩/٣٣٠) .

(٥) المسند (٥/٤٥٢) .

قال الترمذى : وروى الوليد بن مسلم هذا الحديث عن الأوزاعى ، نحو رواية محمد بن كثير . قلت : وكذا رواه الوليد بن يزيد ، عن الأوزاعى ، كما رواه ابن كثير .

قلت : وقد أخبرنى بهذا الحديث الشيخ المسند أبو العباس أحمد بن أبى طالب الحجار قراءة عليه وأنا أسمع ، أخبرنا أبو المنجأ عبد الله بن عمر بن اللتى^(١) ، أخبرنا أبو الوقت عبد الأول بن عيسى ابن شُعَيْب السَّجَزَى قال : أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن المظفر بن محمد بن داود الداودى ، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حموية السرخسى ، أخبرنا عيسى بن عمر بن عمران السمرقندى ، أخبرنا الإمام الحافظ أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى بجميع مسنده^(٢) ، أخبرنا محمد بن كثير ، عن الأوزاعى . . . فذكر بإسناده مثله ، وتسلسل لنا قراءتها إلى شيخنا أبى العباس الحجار ، ولم يقرأها ، لأنه كان أمياً ، وضاق الوقت عن تلقينها إياه . ولكن أخبرنى الحافظ الكبير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى ، رحمه الله : أخبرنا القاضى تقى الدين سليمان بن الشيخ أبى عمر ، أخبرنا أبو المنجأ بن اللتى^(٣) . . . فذكره بإسناده ، وتسلسل^(٤) لى من طريقة ، وقرأها على بكمالها ، ولله الحمد والمنة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنَيَانٌ مَرصُوصٌ (٤) .

تقدم الكلام على قوله : ﴿ سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ غير مرة ، بما أغنى عن إعادته .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ؟ إنكار على من يعدّ عداً ، أو يقول قولاً لا يفي به ، ولهذا استد بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً ، سواء ترتب عليه غرم للموعد أم لا . واحتجوا أيضاً من السنة بما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان »^(٥) . وفى الحديث الآخر فى الصحيح : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلّة من نفاق حتى يدّعها »^(٦) . — فذكر منهن إخلاف الوعد . وقد استقصينا الكلام على هذين الحديثين فى أول « شرح البخارى » ، ولله الحمد والمنة . ولهذا أكد تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

(١) فى أ : « اللتى » .

(٢) فى أ : « سند » .

(٣) فى أ : « اللتى » .

(٤) فى أ : « وتسلسل » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٣٣) وصحيح مسلم برقم (٥٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٦) صحيح البخارى برقم (٣٤) وصحيح مسلم برقم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما .

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود ، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : أتانا رسول الله ﷺ [فى بيتنا] ^(١) وأنا صبي قال : فذهبت لأخرج لألعب ، فقالت أمى : يا عبد الله : تعال أعطك . فقال لها رسول الله ﷺ : « وما أردت أن تُعطيني ؟ » . قالت : تمرا . فقال : « أما إنك لو لم تفعلنى كُتبت عليك كذبة » ^(٢) .

وذهب الإمام مالك ، رحمه الله ، إلى أنه إذا تعلق بالوعد غُرم على الموعد وجب الوفاء به ، كما لو قال لغيره : « تزوج ولك على كل يوم كذا » . فتزوج ، وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك ، لأنه تعلق به حق آدمى ، وهو مبنى على المضايقة . وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقا ، وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فرضية الجهاد عليهم ، فلما فرض نكل عنه بعضهم ، كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تظْلَمُونَ فَتِيلًا . أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ﴾ [النساء : ٧٧ ، ٧٨] . وقال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ الآية [محمد : ٢٠] وهكذا هذه الآية معناها ، كما قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ، قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لو ددنا أن الله — عز وجل — دلنا على أحب الأعمال إليه ، فنعمل به . فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به ^(٣) لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقرؤا به . فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين ، وشق عليهم أمره ، فقال الله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ؟ . وهذا اختيار ابن جرير ^(٤) .

وقال مقاتل بن حيان : قال المؤمنون : لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملنا به . فدلهم الله على أحب الأعمال إليه ، فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ ، فبين لهم ، فابتلوا يوم أحد بذلك ، فولوا عن النبى ﷺ مدبرين ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ؟ وقال : أحبكم إلى من قاتل فى سبيلى .

ومنهم من يقول : أنزلت فى شأن القتال ، يقول الرجل : « قاتلت » ، ولم يقاتل ^(٥) . « وطعنت » ، ولم يطعن و« ضربت » ، ولم يضرب و« صبرت » ، ولم يصبر . وقال قتادة ، والضحاك : نزلت ^(٦) توبيخاً لقوم كانوا يقولون : « قتلنا ، ضربنا ، طعنا ، وفعلنا » . ولم يكونوا فعلوا ذلك .

(١) زيادة من المسند .

(٢) المسند (٤٤٧/٣) وسنن أبى داود برقم (٤٩٩١) .

(٣) فى م : « إيمان بالله » .

(٤) تفسير الطبرى (٥٦/٢٨) .

(٦) فى م : « أنزلت » .

(٥) فى م : « ولم أقاتل » .

وقال ابن يزيد : نزلت في قوم من المنافقين ، كانوا يعدون المسلمين النصر ، ولا يقون لهم بذلك .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ؟ ، قال : في الجهاد .
وقال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ فما بين ذلك : في نفر من الأنصار ، فيهم عبد الله بن رواحة ، قالوا في مجلس : لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله ، لعملنا بها حتى نموت . فأنزل الله هذا فيهم . فقال عبد الله بن رواحة : لا أبرح ^(١) حبيسا في سبيل الله حتى أموت . فقتل شهيدا .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا فروة بن أبي المغراء ، حدثنا علي بن مسهر ^(٢) ، عن داود بن أبي هند ، عن أبي حرب بن أبي الأسود الدبلي ^(٣) ، عن أبيه قال : بعث أبو موسى إلى قراء أهل البصرة ، فدخل عليه منهم ثلاثمائة رجل ، كلهم قد قرأ القرآن ، فقال : أنتم قراء أهل البصرة وخيارهم . وقال : كنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحات ، فأنسيناها ، غير أنى قد حفظت منها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ . فتكتب شهادة في أعناقكم ، فتسألون عنها يوم القيامة .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ ، فهذا إخبار منه تعالى بمحبة عباده المؤمنين إذا اصطفوا لمواجهة أعداء الله في حومة الوغى ، يقاتلون في سبيل الله من كفر بالله ، لتكون كلمة الله هي العليا ، ودينه هو الظاهر العالى على سائر الأديان .

قال الإمام أحمد : حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا هشيم ، قال مجالد أخبرنا عن أبي الوداك ، عن أبي سعيد الخدري ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث يضحك الله إليهم : الرجل يقوم من الليل ، والقوم إذا صفوا للصلاة ، والقوم إذا صفوا للقتال » .
ورواه ابن ماجة من حديث مجالد ، عن أبي الوداك جبر بن نوف ، به ^(٤) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين ، حدثنا الأسود - يعنى ابن شيان - حدثني يزيد بن عبد الله بن الشخير قال : قال مطرف : كان يبلغنى عن أبي ذر حديث كنت أشتهى لقاءه ، فلقيته فقلت : يا أبا ذر ، كان يبلغنى عنك حديث ، فكنت أشتهى لقاءك ، فقال : لله أبوك ! فقد لقيت ، فهات . فقلت : كان يبلغنى عنك أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدثكم أن الله يحب ثلاثة ويبغض ثلاثة ؟ قال : أجل ، فلا إخالنى أكذب على خليلي ﷺ . قلت : فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله ؟ قال : رجل غزا في سبيل الله ، خرج محتسبا مجاهدا فلقى العدو فقتل ، وأنتم تجدونه في كتاب الله المنزل ، ثم قرأ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ . . . وذكر الحديث .

(١) فى ١ : « فما أبرح » .

(٢) فى ١ : « شهر » .

(٣) فى ١ : « الدبلى » .

(٤) المسند (٨٠ / ٣) وسنن ابن ماجة برقم (٢٠٠) وقال البوصيرى فى الزوائد (٨٧ / ١) : « هذا إسناد فيه مقال ، مجالد بن سعيد وإن أخرج له مسلم فى صحيحه فلما روى له مقرونا بغيره قال ابن عدى : عامة ما يرويه غير محفوظ » .

هكذا أورد هذا الحديث من هذا الوجه بهذا السياق ، وبهذا اللفظ ، واختصره . وقد أخرجه الترمذى والنسائى من حديث شعبة ، عن منصور بن المعتمر ، عن ربِيع بن حِرَاش ، عن زيد بن ظَبْيَان ، عن أبى ذَرٍّ بأبسط من هذا السياق وأتم^(١) وقد أوردناه فى مواضع آخر ، ولله الحمد .

وعن كعب الأحبار أنه قال : يقول الله تعالى لمحمد ﷺ : « عبدى المتوكل المختار ليس بفظ ولا غليظ ولا سخَّاب فى الأسواق ، ولا يخزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، مولده بمكة ، وهجرته بطابة ، وملكه بالشام ، وأمه الحمادون يحمَدُون الله على كلِّ حال ، وفى كل منزلة ، لهم دَوَى كدوى النحل فى جو السماء بالسحر ، يُوضُونَ أطرافهم ، ويأْتِزِرُونَ على أنصافهم ، صفهم فى القتال مثل صفهم فى الصلاة » . ثم قرأ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَنِيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ ، « رعاة الشمس ، يصلون الصلاة حيث أدركتهم ، ولو على ظهر دابة » رواه ابن أبى حاتم .

وقال سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ قال : كان رسول الله ﷺ لا يقاتل العدو إلا أن يضافهم ، وهذا تعليم من الله للمؤمنين . قال : وقوله : ﴿ كَانَهُمْ بَنِيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ : ملتصق بعضه فى بعض ، من الصف فى القتال .

وقال مقاتل بن حيان : ملتصق بعضه إلى بعض .

وقال ابن عباس : ﴿ كَانَهُمْ بَنِيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ : مُثَبَّت ، لا يزول ، ملتصق بعضه ببعض .

وقال قتادة : ﴿ كَانَهُمْ بَنِيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ : ألم تر إلى صاحب البنيان ، كيف لا يحب أن يختلف بنيانه ؟ فكَذَلِكَ الله عز وجل [يحب أن] ^(٢) لا يختلف أمره ، وإن الله صف المؤمنين فى قتالهم وصفحهم فى صلاتهم ، فعليكم بأمر الله ، فإنه عصمة لمن أخذ به . أورد ذلك كله ابن أبى حاتم .

وقال ابن جرير : حدثنى سعيد بن عمرو السكونى ، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد ، عن أبى بكر بن أبى مريم ، عن يحيى بن جابر الطائى ، عن أبى بحرية ^(٣) قال : كانوا يكرهون القتال على الخيل ، ويستحبون القتال على الأرض ، لقول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَنِيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ قال : وكان أبو بحرية ^(٤) يقول : إذا رأيتمنى التفت فى الصف فَجُئْتُوا فى لَحْيى ^(٥) .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَتُذَوْنِنِى وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنَّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَى مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ

(١) سنن الترمذى برقم (٢٥٦٨) وسنن النسائى (٥/٨٤، ٣/٢٠٧) وقال الترمذى : « هذا حديث صحيح » .

(٢) زيادة من م ، أ . (٣) فى أ : « عن أبى يحيى به » . (٤) فى أ : « أبو بحيرة » .

(٥) تفسير الطبرى (٥٧/٢٨) .

بَعْدَى اسْمِهِ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام أنه قال لقومه : ﴿ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ أى : لم توصلون الأذى إلىّ وأنتم تعلمون صدقى فيما جئتكم به من الرسالة ؟ . وفى هذا تسليّة لرسول الله ﷺ فيما أصاب (١) من الكفار من قومه وغيرهم ، وأمر له بالصبر ؛ ولهذا قال : « رحمة الله على موسى : لقد أودى بأكثر من هذا فصبر » (٢) . وفيه نهى للمؤمنين أن ينالوا من النبي ﷺ أو يوصلوا إليه أذى ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب : ٦٩] .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أى : فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به ، أزاع الله قلوبهم عن الهدى ، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَقَلَبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٠] وقال ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء : ١١٥] ولهذا قال الله تعالى فى هذه الآية : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ يعنى : التوراة قد بشرت بى ، وأنا مصداق ما أخبرت عنه ، وأنا مُبَشِّرٌ بمن بعدى ، وهو الرسول النبى الأُمى العربى المكى أحمد . فعيسى ، عليه السلام ، هو خاتم أنبياء بنى إسرائيل ، وقد أقام (٣) فى ملأ بنى إسرائيل مبشراً بمحمد ، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، الذى لا رسالة بعده ولا نبوة . وما أحسن ما أورد البخارى الحديث الذى قال فيه :

حدثنا أبو اليمان ، حدثنا شعيب ، عن الزهري قال : أخبرنى محمد بن جُبَيْر بن مُطْعَم ، عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن لى أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يَمْحُو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب » .

ورواه مسلم ، من حديث الزهري ، به نحوه (٤) .

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا المسعودى ، عن عمرو بن مُرَّة ، عن أبى عُبَيْدَةَ ، عن أبى موسى قال : سَمَىٰ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَفْسَهُ أَسْمَاءً ، منها ما حفظنا فقال : « أنا محمد ، وأحمد ، والحاشر ، والمقفى ، ونبى الرحمة ، والتوبة ، والملحمة » .

ورواه مسلم من حديث الأعمش ، عن عمرو بن مُرَّة ، به (٥) .

(١) فى م : « فيما أصابه » .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٤٠٥) ومسلم فى صحيحه برقم (١٠٦٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

(٣) فى م : « وقد قام » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٩٦) وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٤) .

(٥) مسند الطيالسى برقم (٤٩٢) وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٥) .

وقد قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١]

قال ابن عباس : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد : لئن بعث محمد وهو حي ليتبعه ، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعه وينصره .

وقال محمد بن إسحاق : حدثني ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان ، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك . قال : « دعوة أبي إبراهيم ، وبُشْرَى عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي ^(١) كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام » ^(٢) .

وهذا إسناد جيد . ورؤى له شواهد من وجوه آخر ، فقال الإمام أحمد :

حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا معاوية بن صالح ، عن سعيد بن سويد الكلبي ، عن عبد الأعلى بن هلال ^(٣) السلمي ، عن العرياض بن سارية قال : قال رسول الله ﷺ : « إني عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل في طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى بي ، ورؤيا أمي التي رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين » ^(٤) .

وقال أحمد أيضا : حدثنا أبو النضر ، حدثنا الفرج بن فضالة ، حدثنا لقمان بن عامر قال : سمعت أبا أمامة قال : قلت يا نبي الله ، ما كان بدء أمرك ؟ قال : « دعوة أبي إبراهيم ، وبُشْرَى عيسى ، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام » ^(٥) .

وقال أحمد أيضا : حدثنا حسن بن موسى : سمعت خديجاً أخا زهير بن معاوية ، عن أبي إسحاق ، عن عبد الله بن عتبة ، عن عبد الله بن مسعود قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي ونحن نحو من ثمانين رجلاً ، منهم : عبد الله بن مسعود ، وجعفر ، وعبد الله بن [عُرْفُطَةَ] ^(٦) ، وعثمان بن مظعون ، وأبو موسى . فأتوا النجاشي ، وبعثت قريش عمرو بن العاص ، وعمارة بن الوليد بهدية ، فلما دخلا على النجاشي سجدوا له ، ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله ، ثم قالوا له : إن نفرأ من بني عمنأ نزلوا أرضك ، ورغبوا عنا وعن ملتنا . قال : فأين هم ؟ قالوا : هم في أرضك ، فابعث إليهم . فبعث إليهم . فقال جعفر : أنا خطيبكم اليوم . فاتبعوه فسلم ولم يسجد ،

(١) في م : « حملتي » .

(٢) رواه الحاكم في المستدرک (٢/ ٦٠٠) من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق به ، وقال : « خالد بن معدان من خيار التابعين ، صحب معاذ بن جبل فمن بعده من الصحابة ، فإذا أسند حديث إلى الصحابة فإنه صحيح الإسناد وإن لم يخرجاه » . قلت : وقد ورد موصولاً كما سيأتي في رواية أحمد .

(٣) في أ : « بلال » .

(٤) المسند (٤/ ١٢٧) وسعيد بن سويد لم يوثقه غير ابن حبان .

(٥) المسند (٥/ ٢٦٢) .

(٦) زيادة من المسند ، ومكانه يياض في ه ، م ، أ .

فقالوا له : ما لك لا تسجد للملك ؟ قال : إنا لا نسجد إلا لله عز وجل . قال : وما ذاك ؟ قال : إن الله بعث إلينا رسوله ، فأمرنا ألا نسجد لأحد إلا لله عز وجل ، وأمرنا بالصلاة والزكاة .

قال عمرو بن العاص : فإنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم . قال : ما تقولون في عيسى ابن مريم وأمه ؟ قالوا : نقول كما قال الله عز وجل : هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البتول ، التي لم يمسهما بشر ولم يقرضها^(١) ولد . قال : فرفع عوداً من الأرض ثم قال : يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان ، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ، ما يساوى هذا . مرحبا بكم وبمن جئتم من عنده ، أشهد أنه رسول الله ، وأنه الذي نجد في الإنجيل ، وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم . انزلوا حيث شئتم ، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه . وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما ، ثم تعجل عبد الله بن مسعود حتى أدرك بدرأ ، وزعم أن النبي ﷺ استغفر له حين بلغه موته^(٢) .

وقد رويت هذه القصة عن جعفر وأم سلمة رضى الله عنهما ، وموضع ذلك كتاب السيرة . والمقصود أن الأنبياء عليهم السلام لم تزل تنعته وتحكيه في كتبها على أئمتها ، وتأمرهم باتباعه ونصره وموازرته إذا بعث . وكان ما اشتهر الأمر في أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل والد الأنبياء بعده ، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولا منهم ، وكذا على لسان عيسى ابن مريم ؛ ولهذا قالوا : « أخبرنا عن بدء أمرك » يعنى : في الأرض ، قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى ابن مريم ، ورؤيا أمى التى رأت » أى : ظهر في أهل مكة أثر ذلك والإرهاص بذكره صلوات الله وسلامه عليه .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ قال ابن جريج وابن جرير : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم ﴾ أحمد ، أى : المبشر به في الأعصار المتقدمة ، المنوّه بذكره في القرون السالفة ، لما ظهر أمره وجاء بالبينات قال الكفرة المخالفون : ﴿ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٧) يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (٨) هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٩) .

يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ ﴾ أى : لا أحد أظلم ممن يفتري الكذب على الله (٣) ، ويجعل له أندادا وشركاء ، وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

(١) فى أ : « ولم يعترضها » .

(٢) المسند (١/٤٦١) .

(٣) فى م : « يفتري على الله الكذب » .

ثم قال : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ ﴾ أى : يحاولون ^(١) أن يردّوا الحق بالباطل ، ومثلهم فى ذلك كمثل من يريد أن يطفى شعاع الشمس بفيه ، وكما أن هذا مستحيل كذلك ذاك مستحيل ^(٢) ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ ، وقد تقدم الكلام على هاتين الآيتين فى سورة «براءة» ، بما فيه كفاية ، ولله الحمد والمنة ^(٣) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِر لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) ﴾ .

تقدم فى حديث عبد الله بن سلام أن الصحابة ، رضى الله عنهم ، أرادوا أن يسألوا عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ليفعلوه ، فأنزل الله هذه السورة ، ومن جملتها هذا الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ثم فسر هذه التجارة العظيمة التى لا تبور ، التى هى محصلة للمقصود ومزيلة للمحذور فقال : ﴿ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : من تجارة الدنيا ، والكد لها والتصدى لها وحدها .

ثم قال : ﴿ يَغْفِر لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ أى : إن فعلتم ما أمرتكم ^(٤) به ودلتكم عليه ، غفرت لكم الزلات ، وأدخلتكم الجنات ، والمسكن الطيبات ، والدرجات العليات ؛ ولهذا قال : ﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ﴾ أى : وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها ، وهى : ﴿ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ أى : إذا قاتلتم فى سبيله ونصرتكم دينه ، تكفل الله بنصركم . قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] . وقال تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠] .

وقوله : ﴿ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ أى : عاجل . فهذه الزيادة هى خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة ، لمن أطيع الله ورسوله ، ونصر الله ودينه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

(٢) فى م ، أ : « كذاك ذلك » .

(٤) فى أ : « ما أمركم » .

(١) فى أ : « أى يجادلون » .

(٣) فى أ : « والله أعلم » .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ (١٤) .

يقول تعالى أمرا عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم ، بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم ، وأن يستجيبوا لله ولرسوله ، كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال : ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ؟ أى : من مُعْنَى فى الدعوة إلى الله عز وجل ؟ ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ — وهم أتباع عيسى عليه السلام — : ﴿ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ أى : نحن أنصارك على ما أرسلت به ومُؤازروك على ذلك ؛ ولهذا بعثهم دعاءً إلى الناس فى بلاد الشام فى الإسرائيليين واليونانيين . وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول فى أيام الحج : « من رجل يُؤوينى حتى أبلغ رسالة ربى ، فإن قريشا قد منعونى أن أبلغ رسالة ربى » (١) . حتى قَبِضَ الله عز وجل له الأوس والخزرج من أهل المدينة ، فبايعوه ووازره ، وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم ، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وَفَّوْا له بما عاهدوا الله عليه ؛ ولهذا سماهم الله ورسوله : الأنصار ، وصار ذلك علما عليهم ، رضى الله عنهم ، وأرضاهم .

وقوله : ﴿ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ﴾ أى : لما بلغ عيسى ابن مريم عليه السلام رسالة ربه إلى قومه ، ووازره من وازره من الحواريين ، اهتدت طائفة من بنى إسرائيل بما جاءهم به ، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به ، وجحدوا نبوته ، ورموه وأمه بالعظائم ، وهم اليهود — عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة — وغلت فيه طائفة ممن اتبعه ، حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة ، وافترقوا فرقا وشيعا ، فمن قائل منهم : إنه ابن الله . وقائل : إنه ثالث ثلاثة : الأب ، والابن ، وروح القدس . ومن قائل : إنه الله . وكل هذه الأقوال مفصلة فى سورة النساء .

وقوله : ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ ﴾ أى : نصرناهم على من عاداهم من فرق النصارى ، ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ أى : عليهم ، وذلك ببعثة محمد ﷺ ، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله .

حدثنى أبو السائب ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن المنهال — يعنى ابن عمرو — عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما أراد الله عز وجل أن يرفع عيسى إلى السماء ، خرج إلى أصحابه وهم فى بيت اثنا عشر رجلا ، من عين فى البيت ، ورأسه يقطر ماء ، فقال : إن منكم من يكفر بى اثنتى عشر (٢) مرة بعد أن آمن بى . قال : ثم قال : أيكم يلقي عليه شبهة فيقتل مكاني ، ويكون معى فى درجتى ؟ قال : فقام شاب من أحدثهم سنا فقال : أنا . قال : فقال له : اجلس . ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب فقال : أنا . فقال له : اجلس . ثم عاد عليهم

(١) رواه الإمام أحمد فى المسند (٣/٣٢٢) من حديث جابر رضى الله عنه .

(٢) فى م ، أ : « اثنتى عشرة » .

فقام الشاب ، فقال : أنا . فقال : نعم ، أنت ذاك . قال : فألقى عليه شبه عيسى ، ورُفِعَ عيسى عليه السلام من روضة في البيت إلى السماء ، قال : وجاء الطلبُ من اليهود ، فأخذوا شِبْهَهُ فقتلوه وصلبوه ، وكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به ، فتفرقوا ثلاث فرق . قالت فرقة : كان الله فينا ما شاء ، ثم صعد إلى السماء . وهؤلاء اليعقوبية . وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ، ثم رفعه إليه وهؤلاء النسطورية ، وقالت فرقة كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه إليه ، وهؤلاء المسلمون ، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة ، فقتلوهما ، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ ، ﴿ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ﴾ ^(١) يعني : الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى ، والطائفة التي آمنت في زمن عيسى ، ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ ، بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ .

هذا لفظه في كتابه عند تفسير هذه الآية الكريمة . وهكذا رواه النسائي عند تفسير هذه الآية من سننه ، عن أبي كُرَيْبٍ محمد بن العلاء ، عن أبي معاوية ، بمثله سواء ^(١) .

فأمة محمد ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق ، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك ، وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ، كما وردت [بذلك] ^(٢) الأحاديث الصحاح ، والله أعلم .

(١) تفسير الطبري (٦٠ / ٢٨) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٥٩١) .

(٢) زيادة من م، أ .

تفسير سورة الجمعة

وهى مدنية .

عن ابن عباس ، وأبى هريرة : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمتناقين . رواه مسلم فى صحيحه (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (١)
هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) ﴿ .

يخبر تعالى أنه يُسَبِّحُ له ما فى السموات وما فى الأرض ، أى : من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها ، كما قال : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

ثم قال : ﴿ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ ﴾ أى : هو مالك السموات والأرض المتصرف فيهما بحكمه ، وهو ﴿ الْقُدُّوسِ ﴾ أى : المنزه عن النقائص ، الموصوف بصفات الكمال ﴿ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ : تقدم تفسيره غير مرة .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ الأميون هم : العرب كما قال تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ٢٠] وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفى من عداهم ، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكد ، كما فى قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : ٤٤] ، وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به . وكذا قوله : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] وهذا وأمثاله لا ينافى قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، وقوله : ﴿ لَأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩] ، وقوله إخبارا عن القرآن : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : ١٧] ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق (٢) ، أحمرهم وأسودهم ، وقد قدمنا تفسير ذلك فى سورة الأنعام ، بالآيات والأحاديث الصحيحة ، ولله الحمد والمنة .

(١) صحيح مسلم برقم (٨٧٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وبرقم (٨٧٩) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما .

(٢) فى ١ : « الثقلين » .

وهذه الآية هي مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم ، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . فبعثه الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة ، على حين فترة من الرسل ، وطُمُوس من السبل ، وقد اشتدت الحاجة إليه ، وقد مقت الله أهل الأرض عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب — أى : نذرا يسيرا — ممن تمسك بما بعث الله به عيسى ابن مريم عليه السلام ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ . وذلك أن العرب كانوا [قديمًا] ^(١) متمسكين بدين إبراهيم [الخليل] ^(٢) عليه السلام فبدلوه وغيروه ، وقلوبه وخالفوه ، واستبدلوا بالتوحيد شركا ^(٣) ، وباليقين شكًا ، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله ^(٤) ، وكذلك أهل الكتابين قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغيروها وأولوها ، فبعث الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق ، فيه هدايتهم ، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم ، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ، ورضا الله عنهم ، والنهي عما يقربهم إلى النار وسخط الله . حاكم ، فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب فى الأصول والفروع . وجمع له تعالى ، وله الحمد والمنة ، جميع المحاسن ممن كان قبله ، وأعطاه ما لم يُعط أحدًا من الأولين ، ولا يعطيه أحدًا من الآخرين ، فصلوات الله وسلامه عليه [دائماً] ^(٥) إلى يوم الدين .

وقوله : ﴿ وَآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ : قال الإمام أبو عبد الله البخارى رحمه الله .

حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنا سليمان بن بلال ، عن ثور ، عن أبي الغيث ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، قال : كنا جلوسا عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة : ﴿ وَآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ ، قالوا : من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثا ، وفينا سلمان الفارسى ، فوضع رسول الله ﷺ يده على سليمان ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال — أو : رجلٌ — من هؤلاء » .

ورواه مسلم ، والترمذى ، والنسائى وابن أبى حاتم ، وابن جرير ، من طرق عن ثور بن زيد الدبلى ^(٦) ، عن سالم أبى الغيث ، عن أبى هريرة ، به ^(٧) .

ففى هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية ، وعلى عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس ؛ لأنه فسر قوله : ﴿ وَآخِرِينَ مِنْهُمْ ﴾ بفارس ؛ ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم ، يدعوهم إلى الله عز وجل ، وإلى اتباع ما جاء به ؛ ولهذا قال مجاهد وغير واحد فى قوله : ﴿ وَآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ قال : هم الأعاجم ، وكل من صدق النبي ﷺ من غير العرب .

(٣) فى ١ : « شركا فيه » .

(٢) زيادة من م .

(١) زيادة من م ، أ .

(٥) زيادة من م ، أ .

(٤) فى م : « لم يأذن الله بها » .

(٦) فى ١ : « الدبلى » .

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٨٩٧) وصحيح مسلم برقم (٢٥٤٦) وسنن الترمذى برقم (٣٣١٠) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٩٢)

وتفسير الطبرى (٦٢/٢٨) .

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي ، حدثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدي^(١) ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا أبو محمد عيسى بن موسى ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: « إن في أصلاب أصلاب رجال [من أصحابي رجالا] ^(٢) ونساء من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب » ، ثم قرأ: ﴿ وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ ^(٣) يعني : بقية من بقى من أمة محمد ﷺ .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى : ذو العزة والحكمة فى شرعه وقدره .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ يعني : ما أعطاه الله محمدا ﷺ من النبوة العظيمة ، وما خص به أمته من بعثته ﷺ إليهم .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٥) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنُوا الْوَمْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ .

يقول تعالى ذاماً لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها ، فلم يعملوها بها ، مثلهم فى ذلك كمثل الحمار يحمل أسفارا ، أى : كمثل الحمار إذا حمل كتبا لا يدرى ما فيها ، فهو يحملها حملا حسيا^(٤) ولا يدرى ما عليه . وكذلك هؤلاء فى حملهم الكتاب الذى أوتوه ، حفظوه لفظا ولم يفهموه^(٥) ، ولا عملوا بمقتضاه ، بل أولوه وحرفوه وبدلوه ، فهم أسوأ حالا من الحمير ؛ لأن الحمار لا فهم له ، وهؤلاء لهم فهم لم يستعملوها ؛ ولهذا قال فى الآية الأخرى : ﴿ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] . وقال هاهنا : ﴿ بئسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وقال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا ابن نمير ، عن مجالد ، عن الشعبي ، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : « من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب ، فهو كمثل الحمار يحمل أسفارا ، والذي يقول له « أنصت » ، ليس له جمعة » ^(٦) .

(١) فى أ : « الترمذى » .

(٢) زيادة من الدر المنثور . مستفاداً من هامش ط . الشعب .

(٣) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٠١/٦) وابن أبى عاصم فى السنة برقم (٣٠٩) من طريق الوليد بن مسلم ، عن أبى محمد -

عيسى بن موسى - به ، وقال الهيثمى فى المجمع (٤٠٨/١٠) : « إسناده جيد »

(٤) فى م : « ولم يفهموه » .

(٥) فى أ : « حسناً » .

(٦) المسند (٢٣٠/١) وقال الهيثمى فى المجمع (١٨٤/٢) : « فيه مجالد بن سعيد وقد ضعفه الناس ووثقه النسائي فى رواية » .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى : إن كنتم تزعمون أنكم على هدى ، وأن محمداً وأصحابه على ضلالة ، فادعوا بالموت على الضال من الفتنين ﴿ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فيما تزعمونه . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ ﴾ أى : بما يعملون لهم ^(١) من الكفر والظلم والفجور ، ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ . وقد قدمنا فى سورة « البقرة » الكلام على هذه المباهلة لليهود ، حيث قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . وَلَتَجِدَنَّهِنَّ أحرصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمَزْحَرٍ مِّنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ٩٤ - ٩٦] .

وقد أسلفنا الكلام هناك ، وبيننا أن المراد أن يدعوا على الضال ^(٢) من أنفسهم أو خصومهم ، كما تقدمت مباهلة النصارى فى آل عمران : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [آل عمران : ٦١] ومباهلة المشركين فى سورة مريم : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ [مريم : ٧٥] .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن يزيد الرقى أبو يزيد ، حدثنا فرات ، عن ^(٣) عبد الكريم بن مالك الجزرى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال أبو جهل لعنه الله : إن رأيت محمداً عند الكعبة لآتيته حتى أطأ على عنقه . قال : فقال رسول الله ﷺ : « لو فعل لأخذته الملائكة عياناً ، ولو أن اليهود تمَنَّوا الموت لما تَوَّا ورأوا مقاعدهم من ^(٤) النار . ولو خرج الذين يُباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلاً » .

رواه البخارى والترمذى والنسائى ، من حديث عبد الرزاق عن معمر ، عن عبد الكريم ، [به] ^(٥) ^(٦) قال البخارى : « وتبعه ^(٧) عمرو بن خالد ، عن عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الكريم » . ورواه النسائى أيضا عن عبد الرحمن بن عبيد الله الحلبي ، عن عبيد الله بن عمرو الرقى ، به أتم ^(٨) .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ كقوله تعالى فى سورة النساء : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾ [النساء : ٧٨] .

وفى معجم الطبرانى من حديث معاذ بن محمد الهذلى ، عن يونس ، عن الحسن ، عن سمرّة مرفوعا : « مثل الذى يفر من الموت كمثل الثعلب تطلبه الأرض بدين ، فجاء يسعى حتى إذا أعيأ وانبهر دخل جحره ، فقالت له الأرض : يا ثعلب دينى . فخرج له حصاّص ، فلم يزل كذلك حتى

(٣) فى م : « بن » .

(٢) فى م : « الضلال » .

(١) فى أ : « هم » .

(٥) زيادة من أ .

(٤) فى أ : « فى » .

(٦) المسند (٢٤٨/١) وصحيح البخارى برقم (٤٩٥٨) وسنن الترمذى برقم (٣٣٤٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٨٥) .

(٧) فى م ، أ : « وتابعه » .

(٨) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٠٦١) .

تقطعت عنقه ، فمات » (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ .

إنما سميت الجمعة جمعة ؛ لأنها مشتقة من الجمع ، فإن أهل الإسلام يجتمعون فيه في كل أسبوع مرةً بالمعابد الكبار وفيه كَمُل جميع الخلائق ، فإنه اليوم السادس من السنة التي خلق الله فيها السموات والأرض . وفيه خلق (٢) آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها . وفيه تقوم الساعة . وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه (٣) إياه كما ثبتت بذلك الأحاديث الصحاح (٤) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا عبيدة بن حميد ، عن منصور ، عن أبي معشر ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن قرئع الضبي ، حدثنا سلمان قال : قال أبو القاسم عليه السلام : « يا سلمان ، ما يوم الجمعة ؟ » . قلت : الله ورسوله أعلم . فقال رسول الله ﷺ : « يوم جمع فيه أبواك - أو : أبوكم » (٥) .

وقد روى عن أبي هريرة ، من كلامه ، نحو هذا ، فالله أعلم .

وقد كان يقال له في اللغة القديمة يوم العروبة . وثبت أن الأمم قبلنا أمروا به فَضَّلُوا عنه ، واختار اليهود يوم السبت الذي لم يقع فيه خلق (٦) ، واختار النصارى يوم الأحد الذي ابتدئ فيه الخلق ، واختار الله لهذه الأمة [يوم] (٧) الجمعة الذي أكمل الله فيه الخليفة ، كما أخرجه البخاري ومسلم من حديث عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا . ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم ، فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالتاس لنا فيه تبع ، اليهود غداً ، والنصارى بعد غد » (٨) . لفظ البخاري .

(١) المعجم الكبير (٢٢٢/٧) ورواه العجلي في الضعفاء (٢٠٠/٤) ومن طريقه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٤٠٥/٢) وقال ابن الجوزي : « هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ ، ومعاذ في حديثه وهم ، ولا يتابع على رفعه ، وإنما هو موقوف على سمرة » .

(٢) في أ : « خلق الله » . (٣) في أ : « أعطاه الله » .

(٤) منها حديث أبي هريرة رضى الله عنه رواه مسلم في صحيحه برقم (٨٥٤) وبرقم (٨٥٢) وحديث أوس بن أوس رضى الله عنه رواه أحمد في المسند (٨/٤) .

(٥) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣٧/٦) والحاكم في المستدرک (٢٧٧/١) من طريق جرير بن عبد الحميد ، عن منصور ، عن أبي معشر به ، وقال الحاكم : « صحيح الإسناد واحتج الشيخان بجميع رواية غير قرئع سمعت أبا علي القاري يقول : أردت أن أجمع مسانيد قرئع الضبي فإنه من زهاد التابعين فلم يسند تمام العشرة » .

(٦) في م : « خلق آدم » . (٧) زيادة من م ، أ .

(٨) هذا اللفظ لم أقع عليه من هذا الطريق في صحيح البخاري وهو في صحيح مسلم برقم (٨٥٥) وهذا لفظه .

وفى لفظ لمسلم : « أضل الله من كان قبلنا ^(١) . فكان لليهود يوم السبت ، وكان للنصارى يوم الأحد . فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة ، فجعل الجمعة والسبت والأحد ، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة ، نحن الآخرون من أهل الدنيا ، والأولون يوم القيامة ، المقضى بينهم ^(٢) قبل الخلائق » .

وقد أمر الله المؤمنين بالاجتماع لعبادته يوم الجمعة ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أى : اقصدوا واعمدوا ^(٣) واهتموا فى مسيركم إليها ، وليس المراد بالسعى هاهنا المشى السريع ، وإنما هو الاهتمام بها ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [الإسراء: ١٩] . وكان عمر بن الخطاب وابن مسعود رضى الله عنهما يقرآنها : « فامضوا إلى ذكر الله » . فأما المشى السريع إلى الصلاة فقد نهى عنه ، لما أخرجه فى الصحيحين ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة ، وعليكم السكينة والوقار ، ولا تسرعوا ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا » . لفظ البخارى ^(٤) .

وعن أبى قتادة قال : بينما نحن نصلّى مع النبى ﷺ إذ سمع جلبة رجال ، فلما صلى قال : « ما شأنكم ؟ » . قالوا : استعجلنا إلى الصلاة . قال : « فلا تفعلوا ، إذا أتيتم الصلاة فامشوا وعليكم بالسكينة ^(٥) ، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا » . أخرجه ^(٦) .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون ، ولكن اتوها تمشون ، وعليكم السكينة والوقار ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا » .

رواه الترمذى من حديث عبد الرزاق كذلك ^(٧) ، وأخرجه من طريق يزيد بن زريع ، عن معمر ، عن الزهرى ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، بمثله ^(٨) .

قال الحسن : أما والله ما هو بالسعى على الأقدام ، ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ، ولكن بالقلوب والنية والخشوع .

وقال قتادة فى قوله : ﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ يعنى : أن تسعى بقلبك وعملك ، وهو المشى إليها ، وكان يتأول قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى ﴾ [الصفات: ١٠٢] أى : المشى معه . روى عن محمد بن كعب ، وزيد بن أسلم ، وغيرهما نحو ذلك .

ويستحب لمن جاء الجمعة أن يغتسل قبل مجيئه إليها ، لما ثبت فى الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل » ^(٩) .

(١) بعدها فى أ : « ثم هذا يومهم الذى فرض الله عليهم » .

(٣) فى أ : « واعدوا » .

(٤) صحيح مسلم برقم (٨٥٦) .

(٥) فى م : « فعليكم السكينة والوقار » .

(٦) صحيح البخارى برقم (٦٣٦) وصحيح مسلم برقم (٦٠٢) .

(٧) سنن الترمذى برقم (٣٢٨) .

(٨) سنن الترمذى برقم (٣٢٧) .

(٩) صحيح البخارى برقم (٨٧٧) وصحيح مسلم برقم (٨٤٤) .

ولهما عن أبي سعيد ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ « غُسلُ يوم الجمعة واجب على كل محتلم » (١) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « حق لله على كل مسلم أن يغتسل فى كل سبعة أيام ، يغسل رأسه وجسده » . رواه مسلم (٢) .

وعن جابر ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « على كل رجل مسلم فى كل سبعة أيام غسل يوم ، وهو يوم الجمعة » . رواه أحمد ، والنسائي ، وابن حبان (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا ابن المبارك ، عن الأوزاعى ، عن حسان بن عطية ، عن أبي الأشعث الصنعانى ، عن أوس بن أوس الثقفى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من غَسَلَ واغتسل يوم الجمعة ، وبكر وابتكر ، ومشى ولم يركب ، ودنا من الإمام واستمع ولم يلغُ كان له بكل خطوة أجر سنة ، أجر صيامها وقيامها » .

وهذا الحديث له طرق وألفاظ ، وقد أخرجه أهل السنن الأربعة وحسنه الترمذى (٤) .

وعن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « من اغتسل يوم الجمعة غُسلَ الجنابة ، ثم راح فكأنما قرب بدنه ، ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن ، ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر » أخرجاه (٥) .

ويستحب له أن يلبس أحسن ثيابه ، ويتطيب ويتسوك ، ويتنظف ويتطهر . وفى حديث أبي سعيد المتقدم : « غُسلُ يوم الجمعة واجب على كل محتلم ، والسواكُ ، وأن يمس من طيب أهله » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب ، حدثنا أبى ، عن محمد بن إسحاق ، حدثنى محمد بن إبراهيم التيمى ، عن عمران بن أبى يحيى ، عن عبد الله بن كعب بن مالك ، عن أبى أيوب الأنصارى : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب أهله — إن كان عنده — ولبس من أحسن ثيابه ، ثم خرج حتى يأتى المسجد فيركع (٦) — إن بدا له — ولم يؤذ أحداً ، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلى ، كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى » (٧) .

وفى سنن أبى داود وابن ماجه ، عن عبد الله بن سلام ، رضى الله عنه ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول على المنبر : « ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبى مهنته » (٨) .

(١) صحيح البخارى برقم (٨٧٩) وصحيح مسلم برقم (٨٤٦) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٨٩٧) وصحيح مسلم برقم (٨٤٩) .

(٣) المسند (٣٠٤/٣) وسنن النسائي (٩٢/٣) وصحيح ابن حبان برقم (٥٥٨) « موارد » .

(٤) المسند (١٠٤/٤) وسنن أبى داود برقم (٣٤٥) وسنن الترمذى برقم (٤٩٦) وسنن النسائي (٩٥/٣) وسنن ابن ماجه برقم (١٠٨٧) .

(٥) صحيح البخارى برقم (٨٨١) وصحيح مسلم برقم (٨٥٠) .

(٦) فى م ، أ : « فركع » .

(٧) المسند (٤٢٠/٥) .

(٨) سنن أبى داود برقم (١٠٧٨) وسنن ابن ماجه برقم (١٠٩٥) .

وعن عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم الجمعة ، فرأى عليهم ثياب النّمار ، فقال : « ما على أحدكم إن وجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعه ، سوى ثوبى مهنته » . رواه ابن ماجه (١) .

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ ﴾ : المراد بهذا النداء هو النداء الثانى الذى كان يفعل بين يدى رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المنبر ، فإنه كان حيثنذ يؤذن بين يديه ، فهذا هو المراد ، فأما النداء الأول الذى زاده أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضى الله عنه ، فإنما كان هذا لكثرة الناس ، كما رواه البخارى رحمه الله حيث قال : حدثنا آدم — هو ابن أبى إياس — حدثنا ابن أبى ذئب ، عن الزهرى ، عن السائب بن يزيد قال : كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر ، فلما كان عثمان [بعد زمن] (٢) ، وكثر الناس ، زاد النداء الثانى (٣) على الزوراء (٤) يعنى : يؤذن به على الدار التى تسمى بالزوراء ، وكانت أرفع دار بالمدينة ، بقرب المسجد .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا محمد بن راشد المكحولى ، عن مكحول : أن النداء كان فى يوم الجمعة مؤذن واحد حين يخرج الإمام ، ثم تقام الصلاة ، وذلك النداء الذى يحرم عنده البيع والشراء (٥) إذا نودى به ، فأمر عثمان ، رضى الله عنه ، أن ينادى قبل خروج الإمام حتى يجتمع الناس .

وإنما يؤمر بحضور الجمعة [الرجال] (٦) الأحرار دون النساء والعبيد والصبيان ، ويعذر المسافر والمريض ، وقِيم المريض ، وما أشبه ذلك من الأعذار ، كما هو مقرر فى كتب الفروع .

وقوله : ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ أى : اسعوا إلى ذكر الله واتركوا البيع إذا نودى للصلاة : ولهذا اتفق العلماء على تحريم البيع بعد النداء الثانى . واختلفوا : هل يصح إذا تعاطاه متعاط أم لا ؟ على قولين ، وظاهر الآية عدم الصحة كما هو مقرر فى موضعه ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : ترككم البيع وإقبالكم إلى ذكر الله وإلى الصلاة خير لكم ، أى : فى الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون .

وقوله : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ ﴾ أى : فرغ منها ، ﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ : لَمَّا حَجَرَ عَلَيْهِمْ فى التصرف بعد النداء وأمرهم بالاجتماع ، أذن لهم بعد الفراغ فى الانتشار فى الأرض والابتغاء من فضل الله . كان عراك بن مالك رضى الله عنه إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد ، فقال : اللهم ، أجبتُ دعوتك ، وصليتُ فريضتك ، وانتشرت كما أمرتنى ،

(١) سنن ابن ماجه برقم (١٠٩٦) وقال البوصيرى فى الزوائد (١/٣٦٥) : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » .

(٢) ما بين المعقوفين غير ثابت فى الصحيح . مستفاداً من هامش ط . الشعب .

(٣) فى الصحيح : « النداء الثالث » ومثله فى سنن ابن ماجه ، كتاب الإقامة ، باب ما جاء فى الأذان يوم الجمعة ، حديث رقم (١١٣٥) ٣٥٩/١ مستفاداً من هامش ط . الشعب .

(٤) صحيح البخارى برقم (٩١٢) .

(٥) فى م : « الشراء والبيع » . (٦) زيادة من أ .

فارزقنى من فضلك ، وأنت خير الرازقين . رواه أبى حاتم .

وروى ^(١) عن بعض السلف أنه قال : من باع واشترى يوم الجمعة بعد الصلاة ، بارك الله له سبعين مرة ، لقول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أى : فى حال بيعكم وشرائكم ، وأخذكم وعطائكم ، اذكروا الله ذكرا كثيرا ، ولا تشغلکم الدنيا عن الذى ينفعكم فى الدار الآخرة ؛ ولهذا جاء فى الحديث : « من دخل سوقا من الأسواق فقال : لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير كُتبت ^(٢) له ألف ألف حسنة ، ومُحى عنه ألف ألف سيئة » ^(٣) .

وقال مجاهد : لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيرا ، حتى يذكر الله قائما وقاعدا ومضطجعا .

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (١١) .

يعاتب تبارك وتعالى على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التى قدمت المدينة يومئذ ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ أى : على المنبر تخطب . هكذا ذكره غير واحد من التابعين ، منهم : أبو العالية ، والحسن ، وزيد بن أسلم ، وقتادة .

وزعم مقاتل بن حبان : أن التجارة كانت لدحية بن خليفة قبل أن يسلم ، وكان معها طبل ، فانصرفوا إليها وتركوا رسول الله ﷺ قائما على المنبر إلا القليل منهم . وقد صحَّ بذلك الخبر ، فقال الإمام أحمد :

حدثنا بن إدريس ، عن حُصَيْن ، عن سالم بن أبى الجعد ، عن جابر قال : قَدِمَتْ عِيرُ الْمَدِينَةِ ، ورسول الله ﷺ يخطب ، فخرج الناس وبقى اثنا عشر رجلا ، فنزلت : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾ .

أخرجاه فى الصحيحين ، من حديث سالم ، به ^(٤) .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا زكريا بن يحيى ، حدثنا هُشَيْم ، عن حُصَيْن ، عن سالم بن أبى الجعد وأبى سفيان ، عن جابر بن عبد الله قال : بينما النبى ﷺ يخطب يوم الجمعة ، فقدت عيرُ إلى المدينة ، فابتدراها أصحابُ رسول الله ﷺ ، حتى لم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلا ، فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لو تابعتكم حتى لم يبق منكم أحد ، لسال بكم الوادى

(١) فى م : « وروى أيضا » . (٢) فى أ : « كتب الله » .

(٣) جاء من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، رواه الإمام أحمد فى المسند (٤٧/١) والترمذى فى السنن برقم (٣٤٢٨) وابن ماجه فى السنن برقم (٢٢٣٥) وقال الترمذى : « هذا حديث غريب » .

(٤) المسند (٣١٣/٣) وصحيح البخارى برقم (٤٨٩٩) وصحيح مسلم برقم (٨٦٣) .

ناراً » ، ونزلت هذه الآية : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً ﴾ ، وقال : كان فى الاثنى عشر الذين ثَبَّتُوا مع رسول الله ﷺ : أبو بكر ، وعمر ، رضى الله عنهما (١) .

وفى قوله : ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِماً ﴾ : دليل على أن الإمام يخطب يوم الجمعة قائماً . وقد رَوَى مسلم فى صحيحه عن جابر بن سَمُرَةَ قال : كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما ، يقرأ القرآن ويذكر الناس .

لكن هاهنا شيء ينبغى أن يُعْلَم وهو : أن هذه القصة قد قيل : إنها كانت لما كان رسول الله ﷺ يقدم الصلاة يوم الجمعة على الخطبة ، كما رواه أبو داود فى كتاب المراسيل : حدثنا محمود بن خالد ، عن الوليد ، أخبرنى أبو معاذ بُكَيْر بن معروف ، أنه سمع مُقَاتِل بن حَيَّان يقول : « كان رسول الله ﷺ يصلى يوم الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين ، حتى إذا كان يومٌ والنبي ﷺ يخطب ، وقد صلى الجمعة ، فدخل رجل فقال : إن دحية بن خليفة قد قدمَ بتجارة (٢) . يعنى : فانفضوا ، ولم يبق معه إلا نفر يسير .

وقوله : ﴿ قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى : الذى عند الله من الثواب فى الدار الآخرة ﴿ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ أى : لمن توكل عليه ، وطلب الرزق فى وقته .

(١) مسند أبى يعلى (٤٦٨/٣) .

(٢) المراسيل برقم (٦٢) .

تفسير سورة المنافقون

وهى مدنية (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين : أنهم إنما يتفوهون بالإسلام إذا جاؤوا النبي ﷺ ، فأما فى باطن الأمر فليسوا كذلك ، بل على الضد من ذلك ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ أى : 'إذا حضروا عندك (٢) واجهوك بذلك ، وأظهروا لك ذلك ، وليسوا كما يقولون : ولهذا اعترض بجملة مخبرة أنه رسول الله ، فقال : ﴿ اللَّهُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى : فيما أخبروا به ، وإن كان مطابقاً للخارج ؛ لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه ؛ ولهذا كذبهم بالنسبة إلى اعتقادهم .

وقوله : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى : اتقوا الناس بالآيمان الكاذبة والخلقات الآثمة ، ليصدقوا فيما يقولون ، فاغتر بهم من لا يعرف جليلة أمرهم ، فاعتقدوا أنهم مسلمون (٣) ، فرموا اقتدى بهم فيما يفعلون وصدقهم فيما يقولون ، وهم من (٤) شأنهم إنهم كانوا (٥) فى الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبلاً ، فحصل بهذا القدر ضرر كبير (٦) على كثير من الناس . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . ولهذا كان الضحاک بن مزاحم يقرؤها : « اتَّخَذُوا إِيْمَانَهُمْ جُنَّةً » أى : تصديقهم الظاهر جنة ، أى : تقية يتقون به القتل . والجمهور يقرؤها (٧) : ﴿ أَيْمَانَهُمْ ﴾ جميع يمين .

[وقوله] (٨) : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أى : إنما قُدِّرَ عليهم

(١) فضائل هذه السورة ذكرت فى أول سورة الجمعة .

(٤) فى م : « فى » .

(٣) فى أ : « فاعتقدهم مسلمين » .

(٢) فى أ : « إليك » .

(٧) فى م ، أ : « قرؤوها » .

(٦) فى أ : « كثير » .

(٥) فى أ : « كانوا يقولون » .

(٨) زيادة من م ، أ .

النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران ، واستبدالهم الضلالة بالهدى ﴿ فَطُوعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أى : فلا يصل إلى قلوبهم هدى ، ولا يخلص إليها خير ، فلا تعى ولا تهتدى .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ﴾ أى : كانوا أشكالا حسنة وذوى فصاحة والسنة ، إذا سمعهم السامع يصغى إلى قولهم ^(١) لبلاغتهم ، وهم مع ذلك فى غاية الضعف والخور والهلع والجزع والجبن ؛ ولهذا قال : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : كلما وقع أمر أو كائنة أو خوف ، يعتقدون ، لجنبهم ، أنه نازل بهم ، كما قال تعالى : ﴿ أَشْحَذَ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالنَّسَةِ حَدَادٍ أَشْحَذَ عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب: ١٩] ، فهم جهامات وصور بلا معانى . ولهذا قال : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُهُمْ فَاتْلَهُمُ اللَّهُ أَنْتَى يُؤْفَكُونَ ﴾ أى : كيف يُصرفون عن الهدى إلى الضلال .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا عبد الملك بن قدامة الجُمَحَى ، عن إسحاق بن بكر ^(٢) بن أبى الفرات ، عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى . عن أبيه ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « إن للمنافقين علامات يعرفون بها : تحيتهم لعنة ، وطعامهم نُهبة ، وغنيمتهم غلول ، ولا يقربون المساجد إلا هُجْراً ولا يأتون الصلاة إلا دُبْراً ، مستكبرين لا يَأْلَفُونَ ولا يُؤْلَفُونَ ، حُسْبٌ بالليل ، صُحْبٌ بالنهار » . وقال يزيد مرة : سُحِبُ بالنهار ^(٣) .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ٥ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ٦ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ٧ يَقُولُونَ لَنْ رَجَعَنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٨ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين - عليهم لعائن الله - أنهم ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ ﴾ أى : صدوا وأعرضوا عما قيل لهم ، استكباراً عن ذلك ، واحتقاراً لما قيل لهم . ولهذا قال : ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ . ثم جازاهم على ذلك فقال : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ ، كما قال فى سورة «براءة» ، وقد تقدم الكلام عن ذلك ، وإيراد الأحاديث المروية هنالك .

(٢) فى أ : « بكر » .

(١) فى م : « إلى قلوبهم » .

(٣) المسند (٢/ ٢٩٣) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ابن أبي عمير العدني ^(١) قال : قال سفيان ﴿ لَوْوَا رُءُوسَهُمْ ﴾ : قال ابن أبي عمر : حوّل سفيان وجهه على يمينه ، ونظر بعينه شزراً ، ثم قال : هم ^(٢) هذا .

وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل في عبد الله بن أبي ابن سلول ، كما سنورده قريباً إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان .

وقد قال محمد بن إسحاق في السيرة : ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة - يعني مرجعه من أحد - وكان عبد الله بن أبي ابن سلول - كما حدثني ابن شهاب الزهري - له مقام يقومه كل جمعة لا ينكر ، شرفاً له من نفسه ومن قومه ، وكان فيهم شريفاً ، إذا جلس النبي ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام ، فقال : أيها الناس ، هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم ، أكرمكم الله به ، وأعزكم به ، فانصروه وعزّروه ، واسمعوا له وأطيعوا . ثم جلس ، حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع - يعني مرجعه بثلاث الجيش - ورجع الناس قام يفعل ذلك كما كان يفعله ، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا : اجلس ، أي عدو الله ، لست لذلك بأهل ، وقد صنعت ما صنعت . فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنا قلت بجزراً ؛ أن قمت أشدد أمره . فلقية رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا : ويلك . ما لك ؟ قال : قمت أشدد أمره ، فوثب على رجال من أصحابه يجذبونني ويعنفونني ، لكأنا قلت بجزراً ، أن قمت أشدد أمره . قالوا : ويلك . ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ . فقال : والله ما أبتغي أن يستغفر لي ^(٣) .

وقال قتادة والسدي : أنزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي ، وذلك أن غلاماً من قرابته انطلق إلى رسول الله ﷺ فحدثه بحديث عنه وأمر شديد ، فدعاه رسول الله ﷺ ، فإذا هو يحلف بالله ويتبرأ من ذلك ، وأقبلت الأنصار على ذلك الغلام فلاموه وعذّموه ^(٤) ، وأنزل الله فيه ما تسمعون ، وقيل لعدو ^(٥) الله : لو أتيت رسول الله ﷺ ؟ فجعل يلوى رأسه ، أي : لست فاعلاً ^(٦) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو الربيع الزهراني ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا أيوب ، عن سعيد بن جبير : أن رسول الله ﷺ كان إذا نزل منزلاً لم يرتحل حتى يصلي فيه ، فلما كانت غزوة تبوك بلغه أن عبد الله بن أبي ابن سلول قال : ﴿ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ . فارتحل قبل أن ينزل آخر النهار ، وقيل لعبد الله بن أبي : ائت النبي ﷺ حتى يستغفر لك . فأنزل الله : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ ﴾ .

وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن جبير . وقوله : إن ذلك كان في غزوة تبوك ، فيه نظر ، بل ليس بجيد ؛ فإن عبد الله بن أبي ابن سلول لم يكن ممن خرج في غزوة تبوك ، بل رجع بطائفة من الجيش . وإنما المشهور عند أصحاب المغازي والسير أن ذلك كان في غزوة المريسيع ، وهي غزوة بني المصطلق .

(٢) في م ، أ : « هو » .

(١) في أ : « العدوي » .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١٠٥/٢) .

(٥) في م ، أ : « وقيل لعبد » .

(٤) في م : « وعزلوه » ، وفي أ : « وعزموه » .

(٦) رواه الطبري في تفسيره (٧١/٢٨) .

قال يونس بن بُكَيْرٍ ، عن ابن إسحاق : حدثني محمد بن يحيى بن حَبَّان ، وعبد الله بن أبي بكر ، وعاصم بن عُمَر بن قتادة ، في قصة بنى المصطلق : فبينما رسول الله مقيم هناك ، اقتتل على الماء جَهْجَاه بن سعيد الغفاري — وكان أجيرا — لعمر بن الخطاب ، وسانان بن وَبَر^(١) قال ابن إسحاق : فحدثني محمد بن يحيى بن حَبَّان قال : ازدحما على الماء فاقتتلا ، فقال سنان : يا معشر الأنصار . وقال الجهجاه : يا معشر المهاجرين — وزيد بن أرقم ونفر من الأنصار عند عبد الله بن أبي — فلما سمعها قال : قد ثاورونا في بلادنا . والله ما مثلنا وجلايب قریش هذه إلا كما قال القائل : «سَمَنَ كلبك يأكلك» . والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من عنده من قومه وقال : هذا ما صنعتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو كففتهم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها . فسمعها زيد بن الأرقم ، فذهب بها إلى رسول الله ﷺ وهو غُلَيْمٌ — وعنده بن الخطاب رضى الله عنه — فأخبره الخبر ، فقال عمر رضى الله عنه : يا رسول الله مرُّ عَبَاد بن بشر^(٢) فليضرب عنقه . فقال ﷺ : « فكيف إذا تحدث الناس — يا عمر — أن محمدا يقتل أصحابه ؟ لا ، ولكن ناد يا عمر في الرحيل » .

فلما بلغ عبد الله بن أبي أن ذلك قد بلغ رسول الله ﷺ ، أنه فاعتذر إليه ، وحلف بالله ما قال ما قال عليه زيد بن أرقم — وكان عند قومه بمكان — فقالوا : يا رسول الله ، عسى أن يكون هذا الغلام أوهم ولم يثبت ما قال الرجل .

وراح رسول الله ﷺ مُهَجَرًا في ساعة كان لا يروح فيها ، فلقه أسيد بن الحضير فسلم عليه بتحية النبوة ، ثم قال : والله لقد رُحْتُ في ساعة مُنْكَرَةٍ ما كنت تروح فيها . فقال رسول الله ﷺ : « أما بلغك^(٣) ما قال صاحبك ابن أبي ؟ . زعم أنه إذا قدم المدينة أنه سيخرج الأعز منها الأذل » . قال : فأنت — يا رسول الله — العزيز وهو الذليل . ثم قال : يا رسول الله ارفق به فوالله لقد جاء الله بك وإنا لننظم له الْخَرْزَ لِنُتَوَّجِهَ ، فإنه ليرى^(٤) أن قد استلبته ملكا .

فسار رسول الله ﷺ بالناس حتى أمسوا ، وليته حتى أصبحوا ، وصَدَرَ يومه حتى اشتد الضحى . ثم نزل بالناس ليشغلهم عما كان من الحديث ، فلم يأمن الناس أن وجدوا مَسَّ الأرض فناموا ، ونزلت سورة المنافقين^(٥) .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أبو بكر بن إسحاق ، أخبرنا بشر بن موسى ، حدثنا الحُمَيْدِي ، حدثنا سفيان ، حدثنا^(٦) عمرو بن دينار ، سمعت جابر بن عبد الله يقول : كنا مع رسول الله ﷺ في غَزَاة فَكَسَعَ رجلٌ من المهاجرين رجلا من الأنصار ، فقال الأنصاري : يا لأنصار . وقال المهاجري : يا للمهاجرين . فقال رسول الله ﷺ : « ما بال دعوى الجاهلية ؟ دعوها فإنها منتنة » . وقال عبد الله بن أبي ابن سلول — وقد فعلوها — : والله لئن رجعنا

(٣) في م : « ما بلغك » .

(٢) في أ : « بشير » .

(١) في م : « سنان بن يزيد » .

(٤) في م : « يرى » .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٩٠ - ٢٩٢) .

(٦) في م : « عن » .

إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال جابر : وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول الله ﷺ ثم كثر المهاجرون بعد ذلك ، فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق . فقال النبي ﷺ : « دعه ؛ لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » (١) .

ورواه الإمام أحمد عن حسين بن محمد المروزي ، عن سفيان بن عيينة (٢) . ورواه البخاري عن الحميدى ، ومسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة وغيره ، عن سفيان ، به نحوه (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن الحكم ، عن محمد بن كعب القرظي ، عن زيد بن أرقم قال : كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فقال عبد الله بن أبي : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال : فأتيت النبي ﷺ فأخبرته ، قال : فحلف عبد الله بن أبي أنه لم يكن شيء من ذلك . قال : فلامني قومي وقالوا : ما أردت إلى هذا؟ قال : فانطلقت فمنت كئيها حزينا ، قال : فأرسل إلى نبي الله ﷺ فقال : « إن الله قد أنزل عذرك وصدقك » . قال : فترلت هذه الآية ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا ﴾ حتى بلغ : ﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ .

ورواه البخاري عند هذه الآية ، عن آدم بن أبي إياس ، عن شعبة (٥) ، ثم قال : « وقال ابن أبي زائدة ، عن الأعمش ، عن عمرو ، عن ابن أبي ليلي ، عن زيد ، عن النبي ﷺ ورواه الترمذي والنسائي عندها أيضا من حديث شعبة ، به (٦) .

طريق أخرى عن زيد : قال الإمام أحمد ، رحمه الله ، حدثنا يحيى بن آدم ، ويحيى بن أبي بكير (٧) قال : حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق قال : سمعت زيد بن أرقم - وقال ابن أبي بكير (٨) : عن زيد بن أرقم - قال : خرجت مع عمي في غزاة ، فسمعت عبد الله بن أبي ابن سلول يقول لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله ، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فذكرت ذلك لعمي ، فذكره عمي لرسول الله ﷺ فأرسل إلى رسول الله ﷺ فحدثته فأرسل إلى عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه فحلفوا ما قالوا : فكذبني رسول الله ﷺ وصدقته ، فأصابني هم لم يصبنى مثله قط ، وجلست في البيت ، فقال عمي : ما أردت إلا أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك . قال : حتى أنزل الله : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ قال : فبعث إلى رسول الله ﷺ فقرأها رسول الله ﷺ على ، ثم قال : « إن الله قد صدقك » (٩) .

ثم قال أحمد أيضا : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا زهير ، حدثنا أبو إسحاق : أنه سمع زيد

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٥٣/٤) .

(٢) المسند (٣٩٢/٣) .

(٣) صحيح البخاري برقم (٤٩٠٧) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٤) .

(٤) في م : « رسول الله » .

(٥) المسند (٣٦٨/٤) وصحيح البخاري برقم (٤٩٠٢) .

(٦) سنن الترمذي برقم (٣٣١٤) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٥٩٤) .

(٧) في أ : « بكر » . (٨) في م : « وقال أبو بكر » .

(٩) المسند (٣٧٣/٤) .

ابن أرقم يقول : خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فأصاب الناس شدة ، فقال عبد الله بن أبي لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله . وقال : ، لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فأتيت النبي ﷺ فأخبرته بذلك ، فأرسل إلى عبد الله بن أبي فسأله ، فاجتهد يمينه ما فعل . فقالوا : كذب زيد يا رسول الله . فوقع في نفسى ما قالوا ، حتى أنزل الله تصديقى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ . قال : ودعاهم رسول الله ﷺ ليستغفر لهم ، فلووا رؤوسهم . وقوله تعالى : ﴿ كَانَهُمْ خَشَبٌ مُسْتَدَّةٌ ﴾ قال : كانوا رجالا أجمل شئ .

وقد رواه البخارى ومسلم والنسائى ، من حديث زهير ^(١) . ورواه البخارى أيضا والترمذى من حديث إسرائيل ، كلاهما عن عن أبي إسحاق عمرو ^(٢) بن عبد الله السبيعى الهمدانى الكوفى ، عن زيد ، به ^(٣) .

طريق أخرى عن زيد : قال أبو عيسى الترمذى : حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن إسرائيل ، عن السدى ، عن أبي سعد ^(٤) الأزدى قال : حدثنا زيد بن أرقم قال : غزونا مع رسول الله ﷺ وكان معنا أناس من الأعراب ، فكنا نبتدر الماء ، وكان الأعراب يسبقونا يسبق الأعرابى أصحابه يملأ الحوض ، ويجعل حوله حجارة ، ويجعل النطع عليه حتى يجيء أصحابه . قال : فأتى رجل من الأنصار الأعرابى ، فأرخى زمام ناقته لتشرب ، فأبى أن يدعه ، فانتزع حجراً ففاض الماء ، فرفع الأعرابى خشبة ، فضرب بها رأس الأنصارى فشجّه ، فأتى عبد الله ابن أبى رأس المنافقين فأخبره — وكان من أصحابه — فغضب عبد الله بن أبى ، ثم قال : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله — يعنى الأعراب — وكانوا يحضرون رسول الله ﷺ عند الطعام . فقال عبد الله لأصحابه : إذا انفضوا من عند محمد فائتوا محمداً بالطعام ، فليأكل هو ومن عنده ، ثم قال لأصحابه : إذا رجعتم إلى المدينة فليخرج الأعز منها الأذل . قال زيد : وأنا ردّفت عمى ، فسمعت عبد الله فأخبرت عمى ، فانطلق فأخبر رسول الله ﷺ ، فأرسل إليه رسول الله ، فحلف وجحد ، قال : فصدقه رسول الله ﷺ وكذبنى ، فجاء إلى عمى فقال : ما أردت إلا أن مقتك رسول الله ﷺ وكذبك والمسلمون . فوقع على من الغم ما لم يقع على أحد قط ، فبينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ في سفر وقد خفقت برأسى من الهم ، إذ أتانى رسول الله ﷺ فعرك أذنى ، وضحك فى وجهى ، فما كان يسرنى أن لى بها الخلد فى الدنيا ، ثم إن أبا بكر لحقنى وقال : ما قال لك رسول الله ﷺ قلت : ما قال لى رسول الله ﷺ شيئاً ، غير أن عرك أذنى وضحك فى وجهى . فقال : أبشر . ثم لحقنى عمر فقلت له مثل قولى لأبى بكر . فلما أن أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين .

انفرد بإخراجه الترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح . وهكذا رواه الحافظ البيهقى عن

(١) المسند (٣٧٣/٤) وصحيح البخارى برقم (٤٩٠٣) وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٢) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٩٨) .

(٢) فى ١ : « عن أبى إسحاق عن عمرو » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٠٠) وسنن الترمذى برقم (٣٣١٢) .

(٤) فى م : « عن أبى سعيد » .

الحاكم عن أبى العباس محمد بن أحمد المحبوبي ، عن سعيد بن مسعود ، عن عبيد الله بن موسى ، به ^(١) . وزاد بعد قوله « سورة المنافقين » ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ حتى بلغ : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا ﴾ حتى بلغ : ﴿ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ .

وقد روى عبد الله بن لهيعة ، عن أبى الأسود ، عن عروة بن الزبير فى المغازى - وكذا ذكر موسى بن عقبة فى مغازيه أيضا هذه القصة بهذا السياق ، ولكن جعلوا الذى بلغ رسول الله ﷺ كلام عبد الله بن أبى ابن سلول إنما هو أوس بن أرقم ، من بنى الحارث بن الخزرج . فلعله مبلغ آخر ، أو تصحيف من جهة السمع ، والله أعلم .

وقد قال ابن أبى حاتم ، رحمه الله : حدثنا محمد بن عزيز الأيلي ، حدثنى سلامة ، حدثنى عقيل ، أخبرنى محمد بن مسلم ، أن عروة بن الزبير وعمرو بن ثابت الأنصارى أخبراه : أن رسول الله ﷺ غزا غزوة المريسيع ، وهى التى هدم رسول الله ﷺ فيها مائة الطاغية التى كانت بين قفا المشلل وبين البحر ، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فكسر مائة ، فاقتتل رجالان فى غزوة رسول الله ﷺ تلك ، أحدهما من المهاجرين ، والآخر من بهز ، وهم حلفاء الأنصار ، فاستعلى الرجل الذى من المهاجرين على البهزى ، فقال البهزى : يا معشر الأنصار ، فنصره رجال من الأنصار ، وقال المهاجرى : يا معشر المهاجرين . فنصره رجال من المهاجرين ، حتى كان بين أولئك الرجال من المهاجرين والرجال من الأنصار شئ من القتال ، ثم حُجز بينهم فانكفأ كل منافق - أو : رجل فى قلبه مرض - إلى عبد الله بن أبى ابن سلول ، فقال : قد كنت تُرَجى وتُدفع فأصبحت لا تضر ولا تنفع ، قد تناصرت علينا الجلابيب - وكانوا يدعون كل حديث هجرة ^(٢) : الجلابيب - فقال عبد الله بن أبى عدو الله : [والله] ^(٣) لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال مالك بن الدخشم - وكان من المنافقين - : أولم أقل لكم لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا . فسمع بذلك عمر بن الخطاب ، فأقبل يمشى حتى جاء ^(٤) رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، ائذن لى فى هذا الرجل الذى قد أفتن الناس ، أضرب عنقه - يريد عمر عبد الله بن أبى - فقال رسول الله ﷺ لعمر : « أو قاتله أنت إن أمرتك بقتله ؟ » . قال : عمر [نعم] ^(٥) والله لئن أمرتنى بقتله لأضربن عنقه . فقال رسول الله ﷺ : « اجلس » . فأقبل أسيد بن الحضير ^(٦) - وهو أحد الأنصار ، ثم أحد بنى عبد الأشهل - حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، ائذن لى فى هذا الرجل الذى قد أفتن الناس [حتى] ^(٧) أضرب عنقه . فقال رسول الله ﷺ : « أو قاتله أنت إن أمرتك بقتله ؟ » . قال : نعم ، والله لئن أمرتنى بقتله لأضربن بالسيف تحت قُرط أذنيه . فقال رسول الله ﷺ : « اجلس » . ثم قال رسول الله ﷺ : « آذنوا بالرحيل » . فَهَجَرَ بالناس ، فسار

(١) سنن الترمذى برقم (٣٣١٣) ودلائل النبوة للبيهقى (٥٤/٤) .

(٢) فى أ : « حتى أتى » .

(٣) زيادة من م .

(٤) فى م : « أهجرة » .

(٥) زيادة من م .

(٦) فى م : « حضير » .

(٧) زيادة من م ، أ .

يومه وليلته والغد حتى متع النهار ، ثم نزل . ثم هجر بالناس مثلها ، فصبح ^(١) بالمدينة فى ثلاث سارها من قفا المشلل فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أرسل إلى عمر فدعاه ، فقال له رسول الله : «أى عمر ، أكنت قاتله لو أمرتك بقتله ؟ » قال ^(٢) عمر : نعم ، فقال رسول الله ﷺ : « والله لو قتلته يومئذ لأرغمت أنوف رجال لو أمرتهم اليوم بقتله امتثلوه ^(٣) فيتحدث الناس أنى قد وقعت على أصحابى فأقتلهم صبراً » . وأنزل الله عز وجل : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا ﴾ إلى قوله : ﴿ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ ^(٤) الآية .

وهذا سياق غريب ، وفيه أشياء نفيسة لا توجد إلا فيه .

وقال محمد بن إسحاق بن يسار : حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة : أن عبد الله بن أبى — يعنى لما بلغه ما كان من أمر أبيه — أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلا فمرنى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فو الله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده منى ، إنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس ، فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر ، فأدخل النار . فقال رسول الله ﷺ : « بل نترفق به ونحسن صحبته ، ما بقى معنا » ^(٥) .

وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما : أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة ، وقف عبد الله بن عبد الله هذا على باب المدينة ، واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبى قال له ابنه : وراءك . فقال : مالك ؟ ويلك . فقال : والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ ، فإنه العزيز وأنت الذليل . فلما جاء رسول الله ﷺ — وكان إنما يسير ساقية فشكا إليه عبد الله بن أبى ابنه ، فقال ابنه عبد الله : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له . فأذن له رسول الله ﷺ ، فقال : أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن .

وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير فى مسنده : حدثنا سفيان بن عيينة ، حدثنا أبو هارون المدنى قال : قال عبد الله بن عبد الله بن أبى ابن سلول لأبيه : والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول : رسول الله ﷺ الأعز وأنا الأذل . قال وجاء النبی ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنه بلغنى أنك تريد أن تقتل أبى ، فو الذى بعثك بالحق ما تأملت وجهه قط هيبة له ، ولئن شئت أن آتيك برأسه لآتينك ، فإنى أكره أن أرى قاتل أبى ^(٦) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ٩ ﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِى إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ١٠ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا

(١) فى م : « حتى صبح » .

(٢) فى م : « فقال » .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (٢٩٢/٢) .

(٦) مسند الحميدى (٥٢٠/٢) .

(٤) زيادة من م ، أ .

(٣) فى م : « لقتلوه » .

جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ .

يقول تعالى أمراً لعباده المؤمنين بكثرة ذكره ونهايا لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك ومخبراً لهم بأنه من التَّهَى بمتاع الحياة الدنيا وزيتها عما خُلِقَ له من طاعة ربه وذكره ، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهلهم يوم القيامة ، ثم حثهم على الإنفاق في طاعته فقال : ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ، فكل مُفَرِّط يندم عند الاحتضار ، ويسأل طول المدة ولو شيئاً يسيراً ، يستعجب ويستدرك ما فاتته ، وهيئات ! كان ما كان ، وأتى ما هو آت ، وكل بحسب تفريطه ، أما الكفار فكما قال [الله] (١) تعالى : ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤] . وقال تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُعْتَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩ ، ١٠٠] .

ثم قال تعالى : ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أى : لا ينظر أحداً بعد حلول أجله ، وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقاً فى قوله وسؤاله ممن لو رُدَّ لعاد إلى شر مما كان عليه ؛ ولهذا قال : ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ .

وقال أبو عيسى الترمذى : حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا جعفر بن عون ، حدثنا أبو جناب الكلبي ، عن الضحاك بن مزاحم ، عن ابن عباس قال : من كان له مال يبلغه حج بيت ربه ، أو تجب فيه عليه زكاة ، فلم يفعل ، سأل الرجعة عند الموت . فقال رجل : يا ابن عباس ، اتق الله ، فإنما يسأل الرجعة الكفار . فقال : سأتلو عليك بذلك قرأناً : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ] وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا [(٢) وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قال : فما يوجب الزكاة ؟ قال : إذا بلغ المال مائتين فصاعداً . قال : فما يوجب الحج ؟ قال : الزاد والبغير .

ثم قال : حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا عبد الرزاق ، عن الثورى ، عن يحيى بن أبى حية - وهو أبو جناب الكلبي - عن الضحاك ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ ، بنحوه (٣) .

ثم قال : وقد رواه سفيان بن عيينة وغيره ، عن أبى جناب ، عن ابن الضحاك ، عن ابن عباس ، من قوله . وهو أصح ، وضعف أبا جناب الكلبي .

(١) زيادة من أ .

(٢) زيادة من م ، وفى هـ : « إلى قوله » .

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٣١٦) .

قلت : رواية الضحاك عن ابن عباس فيها انقطاع ، والله أعلم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ابن نُفَيْل ، حدثنا سليمان بن عطاء ، عن مسلمة الجهني ، عن عمه - يعنى أبا مشجعة بن رَبِيعٍ - عن أبي الدرداء ، رضى الله عنه ، قال : ذكرنا عند رسول الله ﷺ الزيادة فى العمر فقال : « إن الله لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها ، وإنما الزيادة فى العمر أن يرزق الله العبدَ ذُرِّيَّةً صالحة يدعون له ، فليحقه دعاؤهم فى قبره » ^(١) .

آخر تفسير سورة « المنافقون » ^(٢) ، ولله الحمد والمنة

(١) ورواه ابن عدى فى الكامل (٢٨٥/٣) من طريق الوليد بن عبد الملك ، عن سليمان بن عطاء به وسليمان بن عطاء مجمع على ضعفه .

(٢) فى أ : « المنافقين » .

تفسير سورة التغابن

وهى مدنية ، وقيل : مكية .

قال الطبرانى : حدثنا محمد بن هارون بن محمد بن بكار الدمشقى ، حدثنا العباس بن الوليد الخلال ، حدثنا الوليد بن الوليد ، حدثنا ابن ثوبان ، عن عطاء بن أبى رباح ، عن عبد الله بن عمرو ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود يولد إلا مكتوب فى تشبيك رأسه خمس آيات من سورة التغابن » (١) .

أورده ابن عساكر فى ترجمة « الوليد بن صالح » (٢) ، وهو غريب جداً ، بل منكر .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ .

هذه السورة هى آخر المُسَبِّحات ، وقد تقدم الكلام على تسبيح المخلوقات لبارئها ومالكها ؛ ولهذا قال : ﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ أى : هو المتصرف فى جميع الكائنات ، المحمود على جميع ما يخلقه ويقدره .

وقوله : ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى : مهما أراد كان بلا ممانع ولا مدافع ، وما لم يشأ لم يكن .

وقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ أى : هو الخالق لكم على هذه الصفة ، وأراد منكم ذلك ، فلا بد من وجود مؤمن وكافر ، وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال ، وهو شهيد على أعمال عباده ، وسيجزئهم بها أتم الجزاء ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

ثم قال : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أى : بالعدل والحكمة ، ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ ﴾ أى : أحسن أشكالكم ، كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ

(١) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٣٢٩٠) عن أحمد ، عن أيوب بن محمد الوزان ، عن الوليد بن الوليد به ، وقال : « لم يروه عن ابن ثوبان إلا الوليد القلانسى » والوليد ضعيف .

(٢) تاريخ دمشق (١٧/ ٨٣١) « المخطوط » .

فَعَدَّلَكَ . فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿ [الانفطار: ٦- ٨] ، وكقوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ الآية [غافر: ٦٤] ، وقوله : ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى : المرجع والمآب .

ثم أخبر تعالى عن علمه بجميع الكائنات السماوية والأرضية والنفسية ، فقال : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بَأْنُهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشْرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنَىٰ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الأمم الماضين ، وما حل بهم من العذاب والنكال ؛ فى مخالفة الرسل والتكذيب بالحق ، فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى : خبرهم وما كان من أمرهم ، ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أى : وخيم تكذيبهم وردى أفعالهم ، وهو ما حل بهم فى الدنيا من العقوبة والحزى ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : فى الدار الآخرة مضاف إلى هذا الدنيوى . ثم علل ذلك فقال : ﴿ ذَلِكَ بَأْنُهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى : بالحجج والدلائل والبراهين ﴿ فَقَالُوا أَبَشْرٌ يَهْدُونَنَا ؟ ﴾ أى : استبعدوا أن تكون الرسالة فى البشر ، وأن يكون هداهم على يدى بشر مثلهم ، ﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا ﴾ أى : كذبوا بالحق ونكلوا عن العمل ، ﴿ وَاسْتَغْنَى اللَّهُ ﴾ أى : عنهم ، ﴿ وَاللَّهُ غَنَىٰ حَمِيدٌ ﴾ .

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَّنْ يُعْثُوا قُلُوبَنَا وَلَبَّىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثَنَّ ثُمَّ لَتُنْبُؤَنَّ بِمَا عَمَلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين والكفار والملحدين أنهم يزعمون أنهم لا يبعثون : ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثَنَّ ثُمَّ لَتُنْبُؤَنَّ بِمَا عَمَلْتُمْ ﴾ أى : لتُخْبَرَنَّ بجميع أعمالكم ، جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها ، ﴿ وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أى : بعتكم ومجازاتكم .

وهذه هى الآية الثالثة التى أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه ، عز وجل ، على وقوع المعاد ووجوده ، فالأولى فى سورة يونس : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ بِأَقْحَقِّ هُوَ قُلْ إِيَّايَ وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ [يونس: ٥٣] ، والثانية فى سورة سبأ : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمْ ﴾ الآية

[سبأ: ٣] ، والثالثة هي هذه [﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبُّونَ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾] (١) .

ثم قال تعالى : ﴿ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ﴾ يعنى : القرآن ، ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أى : فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾ : وهو يوم القيامة ، سُمى بذلك لأنه يجمع فيه الأولون والآخرين فى صعيد واحد ، يسمعهم الداعى وَيَفْذُهُمُ الْبَصَرُ ، كما قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ [هود: ١٠٣] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الواقعة: ٤٩ ، ٥٠] .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ قال ابن عباس : هو اسم من أسماء يوم القيامة . وذلك أن أهل الجنة يغبنون أهل النار . وكذا قال قتادة ومجاهد .

وقال مقاتل بن حيان : لا غبن أعظم من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة ، ويذهب بأولئك إلى النار . قلت : وقد فسر ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ . وقد تقدم تفسير مثل هذه (٢) غير مرة .

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) .

يقول تعالى مخبراً بما أخبر به فى سورة الحديد : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ [الحديد: ٢٢] ، وهكذا قال هاهنا : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ : قال ابن عباس : بأمر الله ، يعنى : عن قدره (٣) ومشئته .

﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى : ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره ، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله ، هدى الله قلبه ، وعوّضه عما فاته من الدنيا هدى فى قلبه ، وبقيناً صادقاً ، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه ، أو خيراً منه .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ يعنى : يهد قلبه لليقين ، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

(١) زيادة من م ، أ .

(٢) فى م : « هذا » ، وفى أ : « ذلك » .

(٣) فى أ : « عن قدرته » .

وقال الأعمش ، عن أبي ظبيان قال : كنا عند علقمة فقرأ عند هذه الآية : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ ، فسئل عن ذلك فقال : هو الرجل تصيبه المصيبة ، فيعلم أنها من عند الله ، فيرضى ويسلم . رواه ابن جرير^(١) ، وابن أبي حاتم^(٢) .

وقال سعيد بن جبير ، ومقاتل بن حيان : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ يعنى : يسترجع ، يقول : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦] .

وفى الحديث المتفق عليه : « عجباً للمؤمن ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته ضرراً صبر فكان خيراً له ، وإن أصابته سرّاً شكر فكان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن »^(٣) .

وقال أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا الحارث بن يزيد ، عن علي بن رباح ؛ أنه سمع جنادة بن أبي أمية يقول : سمعت عبادة بن الصامت يقول : إن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، أى العمل أفضل ؟ قال : « إيمان بالله ، وتصديق به ، وجهاد فى سبيله » . قال : أريد أهون من هذا يا رسول الله . قال : « السماحة والصبر » . قال : أريد أهون من ذلك يا رسول الله . قال : « لا تنهم الله فى شيء ، قضى لك به » . لم يخرجوه^(٤) .

وقوله : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ : أمر بطاعة الله ورسوله فيما شرع ، وفعل ما به أمر وترك ما عنه نهى^(٥) وزجر ، ثم قال : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ أى : إن نكلتم عن العمل فإنما عليه ما حمل من البلاغ ، وعليكم ما حملتم من السمع والطاعة . قال الزهري : من الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلىنا التسليم^(٦) .

ثم قال تعالى مخبراً أنه الأحد الصمد ، الذى لا إله غيره ، فقال : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، فالأول خبر عن التوحيد ، ومعناه معنى الطلب ، أى : وحدوا الإلهية له ، وأخلصوا لديه ، وتوكلوا عليه ، كما قال تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل: ٩] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِنْ تَقَرُّضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) .

(١) تفسير الطبرى (٧٩/٢٨) .

(٢) فى م : « وابن أبي حاتم فى تفسيرهما » .

(٣) الحديث رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب الرومى ، رضى الله عنه .

(٤) المسند (٣١٨/٥) .

(٥) فى م : « ما ينهى عنه » .

(٦) رواه البخارى فى صحيحه معلقاً (٥٠٣/١٣) « فتح » .

يقول تعالى مخبراً على الأزواج والأولاد : أن منهم من هو عدو الزوج والوالد ، بمعنى : أنه يلتهم به عن العمل الصالح ، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ قال ابن زيد : يعنى على دينكم .

وقال مجاهد : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ ﴾ قال : يحمل الرجل على قطيعة الرحم أو معصية ربه ، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه .

وقال ابن أبي حاتم ، حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن خلف العسقلاني ^(١) ، حدثنا الفريابي ، حدثنا إسرائيل ، حدثنا سمك بن حرب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس - وسأله رجل عن هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ - قال : فهؤلاء رجال أسلموا من مكة ، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوه ، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهاوا في الدين ، فهموا أن يعاقبهم ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وكذا رواه الترمذى عن محمد بن يحيى ، عن الفريابي - وهو محمد بن يوسف - به ^(٢) . وقال : حسن صحيح . ورواه ابن جرير والطبرانى ، من حديث إسرائيل ، به ^(٣) . وروى من طريق العوفى ، عن ابن عباس ، نحوه ، وهكذا قال عكرمة مولاة سواء .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ : يقول تعالى : إنما الأموال والأولاد فتنة ، أى : اختبار وابتلاء من الله لخلقهم . ليعلم من يطيعه ممن يعصيه .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ كما قال : ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ [ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَآبِ ﴾ [التى بعدها] ^(٤) [آل عمران: ١٤، ١٥] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثني حسين بن واقد ، حدثني عبد الله بن بريدة ، سمعت أبي ^(٥) بريدة يقول : كان رسول الله ﷺ يخطب ، فجاء الحسن والحسين ، رضى الله عنهما ، عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ، ثم قال : « صدق الله ورسوله ، إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما » .

(١) فى م : « الصيدلانى » .

(٢) سنن الترمذى برقم (٣٣١٧) .

(٣) تفسير الطبرى (٢٨/ ٨٠) والمعجم الكبير للطبرانى (٢٧٥/ ١١) .

(٤) زيادة من م ، وفى هـ : « الآية » .

(٥) فى هـ ، م ، ١ : « أبى » ، والمثبت من المسند .

ورواه أهل السنن من حديث حُسَيْن بن واقد ، به ^(١) . وقال الترمذى : حسن غريب ، إنما نعرفه من حديثه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سُرَيْج بن النعمان ، حدثنا هُشَيْم ، أخبرنا مجالد ، عن الشعبي ، حدثنا الأشعث بن قيس قال : قدمت على رسول الله ﷺ في وفد كندة ، فقال لى : « هل لك من ولد ؟ » قلت : غلام ولد لى فى مَخْرَجى إليك من ابنة جمد ، وَلَوَدِدْتُ أَنْ بِمَكَانِهِ : شَبَعَ القوم . قال : « لا تقولن ذلك ، فإن فيهم قرة عين ، وأجراً إذا قبضوا » ، ثم قال : « ولئن قلت ذاك : إنهم لمحبنة محزنة إنهم لمحبنة محزنة » تفرد به أحمد ^(٢) ، رحمه الله تعالى .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا محمود بن بكر ، حدثنا أبى ، عن عيسى [بن أبى وائل] ^(٣) ، عن ابن أبى ليلى ، عن عطية ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « الولد ثمرة القلوب ، وإنهم مَحَبَّةٌ مَبْخَلَةٌ محزنة » ثم قال : لا يعرف إلا بهذا الإسناد ^(٤) .

وقال الطبرانى : حدثنا هاشم بن مرثد ^(٥) ، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش ، حدثنى أبى ، حدثنى ضَمُضَمُ بْنُ زُرْعَةَ ، عن شريح بن عبيد ، عن أبى مالك الأشعرى ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « ليس عدوك الذى إن قتلته كان فوزاً لك ، وإن قتلك دخلت الجنة ، ولكن الذى لعله عدو لك ولدك الذى خرج من صلبك ، ثم أعدى عدو لك مألوك الذى ملكك يمينك » ^(٦) .

وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ أى : جهدكم وطاقتكم . كما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » ^(٧) .

وقد قال بعض المفسرين — كما رواه مالك ، عن زيد بن أسلم — إن هذه الآية العظيمة ناسخة للتى فى « آل عمران » وهى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَةَ ، حدثنى يحيى بن عبد الله بن بُكَيْرٍ ، حدثنى ابن لهيعة ، حدثنى عطاء — هو ابن دينار — عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ قال : لما نزلت الآية اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى ورمت عراقبيهم وتقرحت جباههم ، فأنزل الله تخفيفاً على المسلمين : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ ، فنسخت الآية الأولى .

(١) المسند (٣٥٤/٥) وسنن أبى داود برقم (١١٠٩) وسنن الترمذى برقم (٣٧٧٤) وسنن النسائى (١٠٨/٣) وسنن ابن ماجه برقم (٣٦٠٠) .

(٢) المسند (٢١١/٥) .

(٣) زيادة من أ .

(٤) مسند البزار برقم (١٨٩٢) « كشف الأستار » قال الهيثمى فى المجمع (١٥٥/٨) : « وفيه عطية العوفى وهو ضعيف » المجبة : مظنة للجن ، والمبخله : سبب للخل ، والمحزنة : سبب للحزن .

(٥) فى هـ ، م ، أ : « مزيد » ، والمثبت من المعجم الكبير .

(٦) المعجم الكبير (٢٩٤/٣) وفيه ضعف وانقطاع وقد تقدم بيانه مراراً .

(٧) صحيح البخارى برقم (٧٢٨٨) وصحيح مسلم برقم (١٣٣٧) .

وروى عن أبى العالية ، وزيد بن أسلم ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، والسدّى ، ومقاتل بن حيان ، نحو ذلك .

وقوله : ﴿ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا ﴾ أى : كونوا منقادين لما يأمركم الله به ورسوله ، ولا تحيدوا عنه بمئة ولا يسرة ، ولا تقدموا بين يدى الله ورسوله ، ولا تتخلفوا عما به أمرتم ، ولا تركبوا ما عنه زُجرتم .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ ﴾ أى : وابذلوا مما رزقكم الله على الأقارب والفقراء والمساكين وذوى الحاجات ، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن إليكم ، يكن خيراً لكم فى الدنيا والآخرة ، وإن لا تفعلوا يكن شراً لكم فى الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ : تقدم تفسيره فى سورة « الحشر » وذكر الأحاديث الواردة فى معنى هذه الآية ، بما أغنى عن إعادته هاهنا ، ولله الحمد والمنة ، وقوله : ﴿ إِنْ تَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ أى : مهما أنفقتم من شىء فهو يخلفه ، ومهما تصدقتم من شىء فعليه جزاءه ، ونزل ذلك منزلة القرض له ، كما ثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول : « مَنْ يَقْرِضْ غَيْرَ ظُلْمٍ وَلَا عَدِيمٍ » ^(١) . ولهذا قال : ﴿ يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ ﴾ كما تقدم فى سورة البقرة : ﴿ فَيُضَاعِفْهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة: ٢٤٥] .

﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ أى : ويكفر عنكم السيئات . ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ ﴾ أى : يجزى على القليل بالكثير ﴿ حَلِيمٌ ﴾ أى : [يعفو و] ^(٢) يصفح ويغفر ويستر ، ويتجاوز عن الذنوب والزلات والخطايا والسيئات .

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ : تقدم تفسيره غير مرة .

(١) صحيح مسلم برقم (٧٥٨) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه
(٢) زيادة من م .

تفسير سورة الطلاق

وهي مدنية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ (١) .

خُوطب النبي ﷺ أولاً تشريفاً وتكريماً ، ثم خاطب الأمة تبعاً فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن ثواب بن سعيد الهباري ، حدثنا أسباط بن محمد ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن أنس قال : طلق رسول الله ﷺ حفصة ، فأنت أهلها ، فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾ فقيل له : راجعها فإنها صوامة قوامة ، وهي من أزواجك ونسائك في الجنة .

ورواه ابن جرير ، عن ابن بشار ، عن عبد الأعلى ، عن سعيد ، عن قتادة . . . فذكره مرسلًا^(١) . وقد ورد من غير وجه : أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها .

وقال البخاري : حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث وعقيل ، عن ابن شهاب ، أخبرني سالم : أن عبد الله بن عمر أخبره : أنه طلق امرأة له وهي حائض ، فذكر عمرُ لرسول الله ﷺ ، فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال : « ليراجعها ، ثم يمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض فتطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها ، فتلك العدة التي أمر الله ، عز وجل »^(٢) .

هكذا رواه البخاري هاهنا وقد رواه في مواضع من كتابه ، ومسلم ، ولفظه : « فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء »^(٣) .

ورواه أصحاب الكتب والمسانيد من طرق متعددة وألفاظ كثيرة^(٤) ، ومواضع استقصائها كتب الأحكام .

(١) تفسير الطبري (٨٥/٢٨) .

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٩٠٨) .

(٣) صحيح البخاري برقم (٥٢٥١) وصحيح مسلم برقم (١٤٧١) .

(٤) المسند (٢/٢٦، ٤٣، ٥١، ٥٤، ٥٨) وسنن أبي داود برقم (٢١٧٩) وسنن النسائي (١٣٨/٦) وسنن ابن ماجه برقم (٢٠٢٣) .

وأَمْسُ لَفْظٌ يورَدُ هاهنا ما رواه مسلم في صحيحه ، من طريق ابن جُرَيْج : أخبرني أبو الزبير : أنه سمع عبد الرحمن بن أيمن - مولى عزة يسأل ابن عمر - وأبو الزبير يسمع ذلك : كيف ترى في رجل طلق امرأته حائضاً ؟ فقال : طَلَّقَ ابن عمر امرأته حائضاً على عهد رسول الله ﷺ ، فسأل عمر رسول الله ﷺ فقال : إن عبد الله بن عمر طلق امرأته وهي حائض ، فقال رسول الله ﷺ : «ليراجعها» فردّها ، وقال : « إذا طهرت فليطلق أو يمسك » . قال ابن عمر : وقرأ النبي ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾ (١) .

وقال الأعمش ، عن مالك بن الحارث ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن عبد الله في قوله : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾ قال : الطهر من غير جماع (٢) . وروى عن ابن عمر ، وعطاء ، ومجاهد ، والحسن ، وابن سيرين ، وقتادة ، وميمون بن مهران ، ومقاتل بن حيان مثل ذلك . وهو رواية عن عكرمة ، والضحاك .

وقال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾ قال : لا يطلقها وهي حائض ولا في طهر قد جامعها فيه ، ولكن : تتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة . وقال عكرمة : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾ : العدة : الطهر ، والقرء الحيضة ، أن يطلقها حبلى مستبينا حملها ، ولا يطلقها وقد طاف عليها ، ولا يدرى حبلى هي أم لا .

ومن هاهنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى طلاق سنة وطلاق بدعة ، فطلاق السنة : أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، أو حاملاً قد استبان حملها . والبدعى : هو أن يطلقها في حال الحيض ، أو في طهر قد جامعها فيه ، ولا يدرى أحملت أم لا ؟ وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة ، وهو طلاق الصغيرة والآيسة ، وغير المدخول بها ، وتحرير الكلام في ذلك وما يتعلق به مستقصى في كتب الفروع ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقوله : ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾ أى : احفظوها واعرفوا ابتداءها وانتهاءها ؛ لثلاث تطول العدة على المرأة فتمتنع من الأزواج . ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ أى : في ذلك .

وقوله : ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ ﴾ أى : في مدة العدة لها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدة منه ، فليس للرجل أن يخرجها ، ولا يجوز لها أيضاً الخروج لأنها معتقلة (٣) لحق الزوج أيضاً .

وقوله : ﴿ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ﴾ أى : لا يخرجن من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة ، فتخرج من المنزل ، والفاحشة المبينة تشمل الزنا ، كما قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، والشعبي ، والحسن ، وابن سيرين ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وأبو قلابة ، وأبو صالح ، والضحاك ، وزيد بن أسلم ، وعطاء الخراساني ، والسدي ، وسعيد بن

(١) صحيح مسلم برقم (١٤٧١) .

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٨٣/٢٨) .

(٣) فى أ : « لأنها متعلقة » .

أبى هلال ، وغيرهم . وتشمل ما ذا ^(١) نشزت المرأة أو بدت على أهل الرجل وأذتهم فى الكلام والفعال ، كما قاله أبى بن كعب ، وابن عباس ، وعكرمة ، وغيرهم .

وقوله : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أى : شرائعه ومحارمه ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ ﴾ أى : يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا ياتمر بها ﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ أى : بفعل ذلك .

وقوله : ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ أى : إنما أبقينا المطلقة فى منزل الزوج فى مدة العدة ، لعل الزوج يندم على طلاقها ويخلق الله فى قلبه رجعتها ، فيكون ذلك أيسر وأسهل .

قال الزهرى ، عن عبيد الله بن عبد الله ، عن فاطمة بنت قيس فى قوله : ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ قال : هى الرجعة . وكذا قال الشعبي ، وعطاء ، وقتادة ، والضحاك ، ومقاتل ابن حيان ، والثورى . ومن هاهنا ذهب من ذهب من السلف ومن تابعهم ، كالإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله ، إلى أنه لا تجب السكنى للمبتوتة ، وكذا المتوفى عنها زوجها ، واعتمدوا أيضاً على حديث فاطمة بنت قيس الفهرية ، حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات ، وكان غائباً عنها باليمن ، فأرسل إليها بذلك ، فأرسل إليها وكيله بشعير — [يعنى] ^(٢) : نفقة — فتسخطته فقال : والله ليس لك علينا نفقة . فأنت رسول الله ﷺ ، فقال : « ليس لك عليه نفقة » . ولمسلم : ولا سكنى ، وأمرها أن تعتد فى بيت أم شريك ، ثم قال : « تلك امرأة يغشاها أصحابى ، اعتدى عند ابن أم مكتوم ، فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك » الحديث ^(٣) .

وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى بلفظ آخر ، فقال :

حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا مجالد ، حدثنا عامر قال : قدمت المدينة فأتيت فاطمة بنت قيس ، فحدثتني أن زوجها طلقها على عهد رسول الله ﷺ ، فبعثه رسول الله ﷺ فى سرية . قالت : فقال لى أخوه : اخرجنى من الدار . فقلت : إن لى نفقة وسكنى حتى يحل الأجل . قال : لا . قالت : فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : إن فلانا طلقنى ، وإن أخاه أخرجنى ومنعنى السكنى والنفقة ، [فأرسل إليه] ^(٤) فقال : « مالك ولابنة آل قيس » ، قال : يا رسول الله ، إن أخى طلقها ثلاثاً جميعاً . قالت : فقال رسول الله ﷺ : « انظرى يا بنت آل قيس ، إنما النفقة والسكنى للمرأة على زوجها ما كان له عليها رجعة ، فإذا لم يكن له عليها رجعة فلا نفقة ولا سكنى . اخرجنى فانزلى على فلانة » . ثم قال : « إنه يُتحدَّثُ إليها ، انزلى على ابن أم مكتوم ، فإنه أعمى لا يراك » وذكر تمام الحديث ^(٥) .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا أحمد بن عبد الله البزار التُّستَرى ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم الصواف ، حدثنا بكر بن بكار ، حدثنا سعيد بن يزيد البجلي ، حدثنا عامر الشعبي : أنه دخل على فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس القرشى ، وزوجها أبو عمرو بن حفص بن المغيرة

(١) فى م ، أ : « وتشمل ما إذا » .

(٣) صحيح مسلم برقم (١٤٨٠) .

(٤) زيادة من المسند .

(٥) المسند (٦/٣٧٣) .

(٢) زيادة من م .

المخزومي ، فقالت : إن أبا عمرو بن حفص أرسل إلى وهو منطلق في جيش إلى اليمن بطلاقي ، فسألت أوليائه النفقة على والسكنى ، فقالوا : ما أرسل إلينا في ذلك شيئاً ، ولا أوصانا به . فانطلقت إلى رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إن أبا عمرو بن حفص أرسل إلى بطلاقي ، فطلبت السكنى والنفقة على ، فقال أولياؤه : لم يرسل إلينا في ذلك بشيء . فقال رسول الله ﷺ : « إنما النفقة والسكنى للمرأة إذا كان لزوجها عليها رجعة ، فإذا كانت لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره فلا نفقة لها ولا سكنى » .

وكذا رواه النسائي ^(١) عن أحمد بن يحيى الصوفى ، عن أبي نعيم الفضل بن دكين ، عن سعيد ابن يزيد وهو الأحمسى البجلي الكوفى . قال أبو حاتم الرازى : هو شيخ ، يروى عنه ^(٢) .

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ^(٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ^(٣) ﴾ .

يقول تعالى : فإذا بلغت المعتدات أجلهن ، أى : شارفن على انقضاء العدة وقاربن ذلك ، ولكن لم تفرغ العدة بالكلية ، فحينئذ إما أن يعزم الزوج على إمساكها ، وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده . ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أى : محسناً إليها فى صحبتها ، وإما أن يعزم على مفارقتها ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أى : من غير مقابحة ولا مشاتمة ولا تعنيف ، بل يطلقها على وجه جميل وسبيل حسن .

وقوله : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴾ أى : على الرجعة إذا عزمتم عليها ، كما رواه أبو داود وابن ماجه ، عن عمران ^(٣) بن حصين : أنه سُئِلَ عن الرجل يطلق امرأته ثم يقع بها ولم يشهد على طلاقها ولا رجعتها فقال : طَلَّقْتَ لغير سنة ، ورجعت لغير سنة ، أشهد على طلاقها وعلى رجعتها ، ولا تعدُّ ^(٤) ^(٥) .

وقال ابن جرير : كان عطاء يقول : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴾ قال : لا يجوز فى نكاح ولا طلاق ولا رجاء إلا شاهدا عدل ، كما قال الله ، عز وجل ، إلا أن يكون من عذر .

وقوله : ﴿ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أى : هذا الذى أمرناكم به من الإشهاد وإقامة الشهادة ، إنما يأتى به من يؤمن بالله وأنه شرع هذا ، ويخاف عقاب ^(٦) الله فى الدار الآخرة .

(١) المعجم الكبير (٣٨٢/٢٤) وسنن النسائي (١٤٤/٦) .

(٢) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٧٤/٤) .

(٣) فى م : «عن عمرو» .

(٥) سنن أبي داود برقم (٢١٨٦) وسنن ابن ماجه برقم (٢٠٢٥) .

(٦) فى م : « ويخاف عذاب » .

ومن هاهنا ذهب الشافعى - فى أحد قوليهِ - إلى وجوب الإِشهاد فى الرجعة ، كما يجب عنده فى ابتداء النكاح . وقد قال بهذا طائفة من العلماء ، ومن قال بهذا يقول : إن الرجعة لا تصح إلا بالقول ليقع الإِشهاد عليها .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ أى : ومن يتق الله فيما أمره به ، وترك ما نهاه عنه ، يجعل له من أمره مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، أى : من جهة لا تخطر بباله .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، أخبرنا كهمس بن الحسن ، حدثنا أبو السليل ، عن أبى ذر قال : جعل رسول الله ﷺ يتلو على هذه الآية : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ، حتى فرغ من الآية ، ثم قال : « يا أبا ذر ، لو أن الناس كلهم أخذوا بها كفتهم » . قال : فجعل يتلوها ويردها على حتى نَعَسْتُ ، ثم قال : « يا أبا ذر ، كيف تصنع إن ^(١) أخرجت من المدينة ؟ » . قلت : إلى السعة والدعة ^(٢) أنطلق ، فأكون حمامة من حمام مكة . قال : « كيف تصنع إن أخرجت من مكة ؟ » . قال : قلت : إلى السعة والدعة ، وإلى الشام والأرض المقدسة . قال : « وكيف تصنع إن أخرجت من الشام ؟ » . قلت : إذا - والذى بعثك بالحق ^(٣) - أضع سيفى على عاتقى . قال : « أواخر من ذلك ؟ » . قلت : أواخر من ذلك ؟ قال : « تسمع وتطيع ، وإن كان عبداً حبشياً » ^(٤) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن منصور الرمادى ، حدثنا يعلى بن عبيد ، حدثنا زكريا ، عن عامر ، عن شُتَيْرٍ ^(٥) ابن شَكَل قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقول : إن أجمع آية فى القرآن : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [النحل : ٩٠] ، وإن أكثر آية فى القرآن فرجاً : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ .

وفى المسند : حدثنى مهدى بن جعفر ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن الحكم بن مصعب ، عن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، عن أبيه ، عن جده عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » ^(٦) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ يقول : ينجيه من كل كرب فى الدنيا والآخرة ، ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ .

وقال الربيع بن خثيم : ﴿ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ أى : من كل شىء ضاق على الناس .

وقال عكرمة : من طلق كما أمره الله يجعل له مخرجاً . وكذا روى عن ابن عباس ، والضحاك .

(٣) فى أ : « بالحق نيا » .

(٢) فى م : « إلى الدعة والسعة » .

(١) فى م : « إذا » .

(٤) المسند (١٧٨/٥) .

(٥) فى أ : « عن بسر » .

(٦) المسند (٢٤٨/١) .

وقال ابن مسعود ، ومسروق : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ : يعلم أن الله إن شاء منع ، وإن شاء أعطى ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِب ﴾ أى (١) : من حيث لا يدرى .

وقال قتادة : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ أى : من شبهات الأمور والكرب (٢) عند الموت ، ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِب ﴾ ومن حيث لا يرجو أو لا يأمل .

وقال السدى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ ﴾ : يطلق للسنّة ، ويراجع للسنّة ، وزعم أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له : « عوف بن مالك الأشجعي » كان له ابن ، وأن المشركين أسروه ، فكان فيهم ، وكان أبوه يأتى رسول الله ﷺ فيشكو إليه مكان ابنه وحاله التى هو بها وحاجته ، فكان رسول الله ﷺ يأمره بالصبر ، ويقول له : « إن الله سيجعل لك فرجاً (٣) » . فلم يلبث بعد ذلك إلا يسيراً أن انفلت ابنه من أيدي العدو فمر بغنم من أغنام العدو ، فاستاقها فجاء بها إلى أبيه ، وجاء معه بغنى (٤) قد أصابه من الغنم ، فنزلت هذه الآية : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ .

رواه ابن جرير (٥) ، وروى أيضاً من طريق سالم بن أبى الجعد مرسلًا نحوه (٦) .

وقال الإمام أحمد ، حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن عبد الله بن عيسى ، عن عبد الله بن أبى الجعد ، عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « إن العبد ليُحرّم الرزق بالذنب يُصيّبه ، ولا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر » .

ورواه النسائي وابن ماجه ، من حديث سفيان - وهو الثورى - به (٧) .

وقال محمد بن إسحاق : جاء مالك الأشجعي إلى رسول الله ﷺ فقال له : أسر ابني عوف . فقال له رسول الله ﷺ : « أرسل إليه أن رسول الله يأمرك أن تكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله » . وكانوا قد شدوه بالقدر فسقط القدر عنه ، فخرج ، فإذا هو بناقاة لهم فركبها ، وأقبل فإذا بسرح القوم الذين كانوا شدوه فصاح بهم ، فاتبع أولها آخرها ، فلم يفجأ أبويه إلا وهو ينادى بالبواب ، فقال أبوه : عوف ورب الكعبة . فقالت أمه : واسوأناه . وعوف كيف يقدم لما هو فيه من القدر - فاستبقا الباب والخادم ، فإذا عوف قد ملأ الفناء إبلا ، فقصص على أبيه أمره وأمر الإبل ، فقال أبوه : قفا حتى أتى رسول الله ﷺ فأسأله عنها . فأتى رسول الله ﷺ فأخبره بخبر عوف وخبر الإبل ، فقال له رسول الله ﷺ : « اصنع بها ما أحببت ، وما كنت صانعاً بمالك » . ونزل : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ .

(١) فى م : «أو» . (٢) فى أ : «والكروب» . (٣) فى م ، أ : «مخرجاً» .

(٤) فى م : «بغنى» .

(٥) تفسير الطبرى (٨٩/٢٨) .

(٦) تفسير الطبرى (٩٠/٢٨) وقد جاء موصلاً ، أخرجه الحاكم فى المستدرک (٤٩٢/٢) من طريق عبيد بن كثير العامرى ، عن عباد بن يعقوب ، عن يحيى بن آدم ، عن إسرائيل ، عن عمار بن أبى معاوية ، عن سالم بن أبى الجعد ، عن جابر ، رضى الله عنه ، قال : نزلت هذه الآية ... فذكر نحو رواية السدى ، وقال الحاكم : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » وتعقبه الذهبى بقوله : « بل منكر ، فيه عباد بن يعقوب رافضى جبل ، وعبيد بن كثير العامرى متروك ، قاله الأزدى » .

(٧) المسند (٢٧٧/٥) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٢٢) .

يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴿١﴾ .

رواه ابن أبي حاتم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق ، حدثنا إبراهيم بن الأشعث ، حدثنا الفضيل بن عياض ، عن هشام بن حسان ^(١) ، عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ : « من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وكله إليها » ^(٢) .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ : قال الإمام أحمد :

حدثنا يونس ، حدثنا ليث ، حدثنا قيس بن الحجاج ، عن حنّس الصنعاني ، عن عبد الله بن عباس : أنه حدثه أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوماً ، فقال له رسول الله ﷺ : « يا غلام ، إني معلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك ، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف » .

وقد رواه الترمذي من حديث الليث بن سعد ، وابن لهيعة ، به ^(٣) . وقال : حسن صحيح .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا بشير بن سلمان ، عن سيار أبي الحكم ، عن طارق بن شهاب ، عن عبد الله — هو ابن مسعود — قال : قال رسول الله ﷺ : « من نزل به حاجة فأنزلها بالناس كان قمناً أن لا تُسهّل حاجته ، ومن أنزلها بالله أتاه الله برزق عاجل ، أو بموت أجل » .

ثم رواه عبد الرزاق ، عن سفيان ، عن بشير ، عن سيار أبي حمزة ، ثم قال : وهو الصواب ، وسيار أبو الحكم لم يحدث عن طارق ^(٤) .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِهِ ﴾ أى : منفذ قضاياه وأحكامه فى خلقه بما يريد ويشاؤه ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ كقوله : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: ٨] .

﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ (٤)

(١) فى م ، أ ، هـ : « الحسن » مستفاداً من هامش ط . الشعب .

(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الصغير (١١٦/١) ومن طريقه الخطيب فى تاريخه (١٩٧/٧) من طريق جعفر بن محمد البغدادي ، عن محمد بن علي بن الحسن بن شقيق به ، وقال الطبرانى : « لم يروه عن هشام إلا الفضيل ، تفرد به إبراهيم بن الأشعث » وقال الهيثمى فى المجمع (٣٠٤/١٠) : « وفيه إبراهيم بن الأشعث صاحب الفضيل وهو ضعيف ، وقد ذكره ابن حبان فى الثقات وقال : يغرب ويخطئ ويخالف ، وبقية رجاله ثقات » .

(٣) المسند (٢٩٣/١) وسنن الترمذى برقم (٢٣٢٦) .

(٤) المسند (٤٤٢/١) .

ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾ .

يقول تعالى مبيناً لعدة الآيسة - وهى التى قد انقطع عنها الحيض لكبرها - : أنها ثلاثة أشهر ، عوضاً عن الثلاثة قروء فى حق من تحيض ، كما دلت على ذلك آية « البقرة » (١) ، وكذا الصغار اللائى لم يغلن سن الحيض أن عدتهن كعدة الآيسة ثلاثة أشهر ؛ ولهذا قال : ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ . وقوله : ﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾ فيه قولان :

أحدهما - وهو قول طائفة من السلف ، كمجاهد ، والزهرى ، وابن زيد - : أى إن رأين دما وشككتن فى كونه حيضاً أو استحاضة ، وارتبتم فيه .

والقول الثانى : إن ارتبتم فى حكم عدتهن ، ولم تعرفوه فهو ثلاثة أشهر . وهذا مروى ، عن سعيد بن جبير . وهو اختيار ابن جرير ، وهو أظهر فى المعنى ، واحتج عليه بما رواه عن أبى كريب وأبى السائب قالا : حدثنا ابن إدريس ، أخبرنا مطرف ، عن عمرو بن سالم قال : قال أبى بن كعب : يا رسول الله ، إن عدداً من عدد النساء لم تذكر فى الكتاب : الصغار والكبار وأولات الأحمال (٢) . قال : فأنزل الله ، عز وجل : ﴿وَاللَّائِي يَسْنَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ .

ورواه ابن أبى حاتم بأبسط من هذا السياق فقال : حدثنا أبى ، حدثنا يحيى بن المغيرة ، أخبرنا جرير ، عن مطرف ، عن عمر (٣) بن سالم ، عن أبى بن كعب قال : قلت لرسول الله ﷺ : إن ناساً من أهل المدينة لما أنزلت هذه الآية التى فى « البقرة » فى عدة النساء قالوا : لقد بقى من عدة النساء عددٌ لم يُذكرن فى القرآن : الصغار والكبار اللائى قد انقطع عنهن الحيض ، وذوات الحمل . قال : فأنزلت التى فى النساء القصوى : ﴿وَاللَّائِي يَسْنَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ .

وقوله : ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ : يقول تعالى : ومن كانت حاملاً فعدتها بوضعه ، ولو كان بعد الطلاق أو الموت بفوق ناقة (٤) ، فى قول جمهور العلماء من السلف والخلف ، كما هو نص هذه الآية الكريمة ، وكما وردت به السنة النبوية . وقد روى عن على ، وابن عباس ، رضى الله عنهما (٥) ، أنهما ذهبا فى المتوفى عنها زوجها أنها تعتد بأبعد الأجلين من الوضع أو الأشهر ، عملاً بهذه الآية الكريمة ، والتى فى سورة « البقرة » . وقد قال البخارى :

حدثنا سعد (٦) بن حفص ، حدثنا شيبان ، عن يحيى قال : أخبرنى أبو سلمة قال : جاء رجل إلى ابن عباس - وأبو هريرة جالس - فقال : أفتنى فى امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة . فقال ابن عباس : آخر الأجلين . قلت أنا : ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ . قال أبو هريرة :

(١) هى الآية ٢٢٨ .

(٢) فى أ : « الأحمال أجلهن » .

(٤) فى أ : « بفراق تامة » .

(٣) فى أ : « عن عمرو » .

(٦) فى أ : « سعيد » .

(٥) فى أ : « عنهما » .

أنا مع ابن أخى - يعنى أبا سلمة - فأرسل ابن عباس غلامه كريبا إلى أم سلمة يسألها ، فقالت : قُتِلَ زوج سُبَيْعَةَ الأَسْلَمِيَّةِ وهى حبلى ، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة ، فخطبت ، فأنكحها رسول الله ﷺ ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها ^(١) .

هكذا أورد البخارى هذا الحديث هاهنا مختصراً . وقد رواه هو ومسلم وأصحاب الكتب مطولاً من وجوه آخر ^(٢) ، وقال الإمام أحمد :

حدثنا حماد بن أسامة ، أخبرنا هشام ، عن أبيه ، عن المسور بن مخرمة ؛ أن سُبَيْعَةَ الأَسْلَمِيَّةِ تُوفِي عنها زوجها وهى حامل ، فلم تمكث إلا ليالى حتى وضعت ، فلما تَعَلَّتْ من نفاسها خُطِبَتْ ، فاستأذنت رسول الله ﷺ فى النكاح ، فأذن لها أن تُنكِحَ ، فنكحت .

ورواه البخارى فى صحيحه ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه من طرق عنها ^(٣) ، كما قال مسلم ابن الحجاج :

حدثنى أبو الطاهر ، أخبرنا ابن وهب ، حدثنى يونس بن يزيد ، عن ابن شهاب ، حدثنى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : أن أباه كتب إلى عمر بن عبد الله بن الأرقم الزهرى يأمره أن يدخل على سُبَيْعَةَ بنت الحارث الأَسْلَمِيَّةِ فيسألها عن حديثها وعما قال لها رسول الله ﷺ حين استفتته . فكتب عمر بن عبد الله يخبره أن سُبَيْعَةَ أخبرته أنها كانت تحت سَعْدِ ^(٤) بن خولة - وكان ممن شهد بدرًا - فتوفى عنها فى حجة الوداع وهى حامل ، فلم تَشَبَّ أن وضعت حملها بعد وفاته ، فلما تَعَلَّتْ من نفاسها تجملت للخطاب ، فدخل عليها أبو السنابل بن بَعَكْ فَقَالَ لها : ما لى أراك متجملة ؟ لعلك تَرَجِينَ النكاح ، إنك والله ما أنت بناكح حتى تَمَرَ عليك أربعة أشهر وعشر . قالت سُبَيْعَةُ : فلما قال لى ذلك جَمَعْتُ عَلَى ثِيَابِي حين أَمْسَيْتُ فَأَتَيْتُ رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك ، فأفتانى بأنى قد حَلَلْتُ حين وضعتُ حملى ، وأمرنى بالتزوج ^(٥) إن بدا لى .

هذا لفظ مسلم . ورواه البخارى مختصراً ^(٦) ، ثم قال البخارى بعد [ذلك ، أى : بعد ^(٧)] رواية الحديث الأول عند هذه الآية :

وقال ^(٨) سليمان بن حرب وأبو النعمان : حدثنا حماد بن زيد ، عن أيوب ، عن محمد - هو ابن سيرين - قال : كنت فى حلقة فيها عبد الرحمن بن أبى ليلى ، رحمه الله ، وكان أصحابه يعظمونه ، فذكر آخر الأجلين ، فحدثتُ بحديث سُبَيْعَةَ بنت الحارث عن عبد الله بن عتبة ، قال :

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٠٩) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٣١٨) وصحيح مسلم برقم (١٤٨٥) وسنن النسائى (١٩١/٦) .

(٣) المسند (٣٢٧/٤) وصحيح البخارى برقم (٥٣٢٠) وسنن النسائى (١٩٠/٦) وسنن ابن ماجه برقم (٢٠٢٩) كلهم من هذا الطريق الذى ساقه الإمام أحمد ، وأما مسلم وأبو داود فهو هذا الطريق الآتى بعده ، صحيح مسلم برقم (١٤٨٤) وسنن أبى داود برقم (٢٣٠٦) .

(٤) فى أ : « سعيد » . (٥) فى م ، أ : « بالتزويج » .

(٦) صحيح مسلم برقم (١٤٨٤) وصحيح البخارى برقم (٥٣١٩) ، (٣٩٩١) .

(٧) زيادة من أ . (٨) فى م : « وقال أبو سليمان » .

فَضَمَزَكِي^(١) بعض أصحابه ، قال محمد : ففطنت له فقلت : إني لجرىءٌ أن أكذبَ على عبد الله وهو في ناحية الكوفة . قال : فاستحيا وقال : ولكن عمّه لم يقل ذلك . فلقيت أبا عطية مالك بن عامر فسألته ، فذهب يحدثني بحديث سُبَيْعة ، فقلت : هل سمعت عن عبد الله فيها شيئا ؟ فقال : كنا عند عبد الله فقال : أتجعلون عليها التخليط ، ولا تجعلون عليها الرخصة ؟ نزلت^(٢) سورة النساء القصص بعد الطولي : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾^(٣) .

ورواه ابن جرير ، من طريق سفيان بن عيينة وإسماعيل بن علية ، عن أيوب به مختصرا^(٤) . ورواه النسائي في التفسير عن محمد بن عبد الأعلى ، عن خالد بن الحارث ، عن ابن عون ، عن محمد بن سيرين ، فذكره^(٥) .

وقال ابن جرير : حدثني زكريا بن يحيى بن أبان المصري ، حدثنا سعيد بن أبي مريم ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثني ابن شبرمة الكوفي ، عن إبراهيم ، عن علقمة بن قيس ؛ أن عبد الله بن مسعود قال : من شاء لاعته ، ما نزلت : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها . قال : وإذا وضعت المتوفى عنها زوجها فقد حلت . يريد بآية المتوفى عنها زوجها : ﴿ وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيُذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة: ٢٣٤] .

وقد رواه النسائي من حديث سعيد بن أبي مريم ، به^(٦) . ثم قال ابن جرير :

حدثنا أحمد بن منيع ، حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد ، عن الشعبي قال : ذُكِرَ عند ابن مسعود آخر الأجلين ، فقال : من شاء قاسمته بالله أن هذه الآية التي في النساء القصص نزلت بعد الأربعة الأشهر والعشر ثم قال أجل الحامل أن تضع ما في بطنها^(٧) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطي ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن أبي الضحى ، عن مسروق قال : بلغ ابن مسعود أن عليا ، رضي الله عنه ، يقول : آخر الأجلين . فقال : من شاء لاعته ، إن التي في النساء القصص نزلت بعد البقرة : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ .

ورواه أبو داود وابن ماجه ، من حديث أبي معاوية ، عن الأعمش^(٨) .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : حدثني محمد بن أبي بكر المقدمي ، أخبرنا عبد الوهاب الثقفي ، حدثني المثني ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عمرو ، عن أبي بن كعب قال : قلت للنبي ﷺ : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ، المطلقة ثلاثا أو المتوفى

(١) في أ : « فضمزكي » . (٢) في م : « أنزلت » .

(٣) صحيح البخاري برقم (٤٩١٠) .

(٤) تفسير الطبري (٩٢/٢٨) .

(٥) هو في سنن النسائي (١٩٦/٦) ولم أقع عليه في الكبرى .

(٦) تفسير الطبري (٩٢/٢٨) وسنن النسائي (١٩٧/٦) .

(٧) تفسير الطبري (٩٢/٢٨) .

(٨) سنن أبي داود برقم (٢٣٠٧) وسنن ابن ماجه برقم (٢٠٣٠) .

عنها ^(١) ؟ فقال : « هي المطلقة ثلاثا والمتوفى عنها » ^(٢) .

هذا حديث غريب جدا ، بل منكر ؛ لأن في إسناده المثنى بن الصباح ، وهو متروك الحديث بمرة ، ولكن رواه ابن أبي حاتم بسند آخر ، فقال :

حدثنا محمد بن داود السُّمَّانِي ، حدثنا عمرو بن خالد - يعني : الحراني - حدثنا ابن لهيعة ، عن عمرو بن شعيب ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي بن كعب ، أنه لما نزلت هذه الآية قال لرسول الله ﷺ : لا أدرى أمشركة أم مبهمة ، قال رسول الله ﷺ : « أية آية ؟ » . قال : ﴿ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ، المتوفى عنها والمطلقة ؟ قال : « نعم » .

وكذا رواه ابن جرير ، عن أبي كُرَيْب ، عن موسى بن داود ، عن ابن لهيعة ، به . ثم رواه عن أبي كريب أيضا ، عن مالك بن إسماعيل ، عن ابن عيينة ، عن عبد الكريم بن أبي المخارق أنه حدث عن أبي بن كعب قال : سألت رسول الله ﷺ عن : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ قال : « أجل ، كل حامل أن تضع ما في بطنها » ^(٣) .

عبد الكريم هذا ضعيف ، ولم يدرك أبا .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ أى : يسهل له أمره ، ويسره عليه ، ويجعل له فرجا قريبا ومخرجاً عاجلاً .

ثم قال : ﴿ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ ﴾ أى : حكمه وشرعه أنزله إليكم بواسطة رسوله ﷺ ، ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ أى : يذهب عنه المحذور ، ويجزل له الثواب على العمل اليسير .

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لَتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فِستَرْضِعْ لَهُ أُخْرَى ﴾ (٦) لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (٧) .

يقول تعالى آمراً عباده إذا طلق أحدهم المرأة أن يسكنها في منزل حتى تنقضى عدتها ، فقال : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ ﴾ أى : عندكم ، ﴿ مِنْ وَجْدِكُمْ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد : يعنى سَعَتِكُمْ . حتى قال قتادة : وإن لم تجد إلا جنب بيتك فأسكنها فيه .

(١) فى م : « عنها زوجها » .

(٢) زوائد المسند (١١٦/٥) .

(٣) تفسير الطبرى (٩٣/٢٨) وقال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٦٥٤/٨) بعد ما ساق هذه الرواية : « وهذا المرفوع وإن كان لا يخلو شئ من أسانيده عن مقال ، لكن كثرة طرقه تشعر بأن له أصلاً ، ويعضده قصة سبيعة المذكورة » .

وقوله : ﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ : قال مقاتل بن حيان : يعنى يضاجرها لتفتدى منه بمالها أو تخرج من مسكنه .

وقال الثورى ، عن منصور ، عن أبى الضحى : ﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ قال : يطلقها ، فإذا بقى يومان راجعها .

وقوله : ﴿ وَإِنْ كُنْ أُولَاتٍ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ : قال كثير من العلماء منهم ابن عباس ، وطائفة من السلف ، وجماعات من الخلف : هذه فى البائن ، إن كانت حاملاً أنفق عليها حتى تضع حملها ، قالوا : بدليل أن الرجعية تجب نفقتها ، سواء كانت حاملاً أو حائلاً .

وقال آخرون : بل السياق كله فى الرجعيات ، وإنما نص على الإنفاق على الحامل وإن كانت رجعية ؛ لأن الحمل تطول مدته غالباً ، فاحتيج إلى النص على وجوب الإنفاق إلى الوضع ؛ لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة .

واختلف العلماء : هل النفقة لها بواسطة الحمل ، أو للحمل وحده ؟ على قولين منصوصين عن الشافعى وغيره ، ويتفرع عليها مسائل مذكورة فى علم الفروع .

وقوله : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ ﴾ أى : إذا وضعن حملهن وهن طوالق ، فقد بنَّ بانقضاء عدتهن ، ولها حينئذ أن ترضع الولد ، ولها أن تمتنع منه ، ولكن بعد أن تغذيه باللبأ — وهو باكورة اللبن الذى لا قوام للولد غالباً إلا به — فإن أرضعت استحققت أجره مثلها ، ولها أن تعاقده أباه أو وليه على ما يتفقان عليه من أجره ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَأَتِمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أى : ولتكن أموركم فيما بينكم بالمعروف ، من غير إضرار ولا مضارة ، كما قال فى سورة «البقرة» : ﴿ لَا تَضَارَّ وَالِدَةُ بَوْلِدَهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] .

وقوله : ﴿ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمَ فَسْتَرْضِعْ لَهُ أُخْرَى ﴾ أى : وإن اختلف الرجل والمرأة ، فطلبت المرأة أجره الرضاع كثيراً ولم يجبها الرجل إلى ذلك ، أو بذل الرجل قليلاً ولم توافقه عليه ، فليسترضع له غيرها . فلو رضيت الأم بما استؤجرت عليه الأجنبية فهى أحق بولدها .

وقوله : ﴿ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ﴾ أى : لينفق على المولود والده ، أو وليه ، بحسب قدرته ، ﴿ وَمَنْ قَدَرِ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ كقوله : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] .

روى ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا حكام ، عن أبى سنان قال : سأل عمر بن الخطاب عن أبى عبيدة ، فقيل : إنه يلبس الغليظ من الثياب ، ويأكل أخشن الطعام ، فبعث إليه بألف دينار ، وقال للرسول : انظر ما يصنع بها إذا هو أخذها : فما لبث أن لبس اللين من الثياب ، وأكل أطيب الطعام ، فجاء الرسول فأخبره ، فقال : رحمه الله ، تأول هذه الآية : ﴿ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَنْ قَدَرِ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ .

قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ﴿١﴾ .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير : حدثنا هاشم بن مرثد الطبراني ، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش ، أخبرني أبي ، أخبرني ضَمُضَم بن زُرْعَة ، عن شُرَيْح بن عبيد ، عن أبي مالك الأشعري — واسمه الحارث — قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة نفر ، كان لأحدهم عشرة دنانير ، فتصدق منها بدينار . وكان لآخر عشر أوراق ، فتصدق منها بأوقية . وكان لآخر مائة أوقية ، فتصدق منها بعشر أواق » . فقال رسول الله ﷺ : « هم في الأجر سواء ، كل قد تصدق بعشر ماله ، قال الله تعالى : ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ﴾ » (٢) .

هذا حديث غريب من هذا الوجه .

وقوله : ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ : وعدٌ منه تعالى ، ووعدُه حق ، وهو لا يخلفه ، وهذه كقوله تعالى : ﴿ فَإِن مَّعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِن مَّعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥ ، ٦] .

وقد روى الإمام أحمد حديثا يحسن أن نذكره هاهنا ، فقال : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا عبد الحميد بن بهرام ، حدثنا شهر بن حوشب قال : قال أبو هريرة : بينا رجل وامرأة له في السلف الخالي لا يقدران على شيء ، فجاء الرجل من سفره ، فدخل على امرأته جائعا قد أصاب (٣) مَسْبَغَةً شديدة ، فقال لامرأته : عندك شيء ؟ قالت : نعم ، أبشر ، أتاك رزق الله . فاستحثها ، فقال : ويحك ! ابتغي إن كان عندك شيء . قالت : نعم ، هنيئة — ترجو رحمة الله — حتى إذا طال عليه الطوى (٤) قال : ويحك ! قومي فابتغي إن كان عندك شيء فأتيني به ، فإني قد بلغتُ وجهدتُ . فقالت : نعم ، الآن يُنْضِجُ التَّنُورُ فلا تعجل . فلما أن سكت عنها ساعة وتحيّنت أن يقول لها ، قالت من عند نفسها : لو قمتُ فنظرتُ إلى تنوري ؟ فقامتُ فنظرتُ إلى تنورها ملآن جنوب الغنم ، ورَحِييها تطحنان . فقامت إلى الرحي فنفضتها ، واستخرجت ما في تنورها من جنوب الغنم .

قال أبو هريرة : فو الذي نفس أبي القاسم بيده ، هو (٥) قول محمد ﷺ : « لو أخذت ما في رَحِييها ولم تنفضها لطحتنها إلى يوم القيامة » (٦) .

وقال في موضع آخر : حدثنا أبو عامر ، حدثنا أبو بكر ، عن هشام ، عن محمد — هو ابن سيرين — عن أبي هريرة قال : دخل رجل على أهله ، فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البرية ، فلما رأت امرأته قامت إلى الرحي فوضعتها ، وإلى التنور فسجّرتة ، ثم قالت : اللهم ارزقنا . فنظرت ، فإذا الجفنة قد امتلأت ، قال : وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئاً ، قال : فرجع الزوج قال : أصبتم بعدى شيئا ؟ قالت امرأته : نعم ، من ربنا . قام إلى الرحي ، فذكر ذلك للنبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ : « أما إنه لو لم ترفعها ، لم تزل تدور إلى يوم القيامة » (٧) .

(١) تفسير الطبري (٩٦/٢٨) .

(٢) المعجم الكبير (٢٩٢/٣) وفي إسناده ضعف وانقطاع كما تقدم مراراً .

(٣) في م ، ١ : « أصابته » .

(٤) في م : « الطول » .

(٥) في م : « عن » .

(٦) المسند (٤٢١/٢) .

(٧) المسند (٥١٣/٢) .

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا﴾ (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّیُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ .

يقول تعالى متوعداً لمن خالف أمره ، وكذب رسله ، وسلك غير ما شرعه ، ومخبراً عما حل بالأمم السالفة بسبب ذلك ، فقال : ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ أى : تمردت وطفّت واستكبرت عن اتباع أمر الله ومتابعة رسله ، ﴿فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا﴾ أى : منكرًا فظيعاً .

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أى : غبّ مخالفتها ، وندموا حيث لا ينفع الندم ، ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ . أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴿أى : فى الدار الآخرة ، مع ما عَجَّلَ لَهُمْ فى الدنيا .

ثم قال بعد ما قص من خبر هؤلاء : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ أى : الأفهام المستقيمة ، لا تكونوا مثلهم فيصيبكم ما أصابهم يا أولى الألباب ، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى : صدقوا بالله ورسله ، ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ يعنى : القرآن . كقوله : ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] .

وقوله : ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ : قال بعضهم : ﴿رَسُولًا﴾ منصوب على أنه بدل اشتمال وملابسة ؛ لأن الرسول هو الذى بلغ الذكر .

وقال ابن جرير : الصواب أن الرسول ترجمة عن الذكر ، يعنى : تفسيراً له ؛ ولهذا قال : ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ أى : فى حال كونها بينة واضحة جلية ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ كقوله : ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم : ١] ، وقال تعالى : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة : ٢٥٧] ، أى : من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم . وقد سمي الله تعالى الوحي الذى أنزله نوراً ؛ لما يحصل به من الهدى ، كما سماه روحاً ؛ لما يحصل به من حياة القلوب ، فقال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى : ٥٢] .

وقوله : ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ

أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١٢﴾ : قد تقدم تفسير مثل هذا غير مرة ، بما أغنى عن إعادته .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ (١٢) .

يقول تعالى مخبراً عن قدرته التامة وسلطانه العظيم ، ليكون ذلك باعثاً على تعظيم ما شرع من الدين القويم : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ كقوله إخباراً عن نوح أنه قال لقومه : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ [نوح: ١٥] . وقال تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [الإسراء: ٤٤] .

وقوله : ﴿ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ أى : سبعا أيضا ، كما ثبت في الصحيحين : « من ظلم قيد شبر من الأرض طوّقه من سبع أرضين »^(١) . وفي صحيح البخارى : « خُسِفَ به إلى سبع أرضين »^(٢) . وقد ذُكرت طرّقه وألفاظه وعزوه فى أول « البداية والنهاية »^(٣) عند ذكر خلق الأرض ، ولله الحمد والمنة .

ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم ، فقد أبعد النَّجَّةَ ، وأغرق فى النزع ، وخالف القرآن والحديث بلا مستند . وقد تقدم فى سورة « الحديد » عند قوله : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ [الآية: ٣] ذكر الأرضين السبع ، وبعد ما بينهن ، وكثافة كل واحدة منهن خمسمائة عام . وهكذا قال ابن مسعود وغيره ، وكذا الحديث الآخر : « ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن ، والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن فى الكرسي ، إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة »^(٤) .

وقال ابن جرير : حدثنا عمرو بن على ، حدثنا وكيع ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم بن مهاجر ، عن مجاهد ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ قال : لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتم ، وكفركم تكذيبكم بها .

وحدثنا ابن حميد ، حدثنا يعقوب بن عبد الله بن سعد القُمي الأشعري ، عن جعفر بن أبى المغيرة الخزاعى ، عن سعيد بن جبيرة قال : قال رجل لابن عباس : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ الآية . فقال ابن عباس : ما يؤمنك إن أخبرتك بها فتكفر .

وقال ابن جرير : حدثنا عمرو بن على ومحمد بن المثنى قالا : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن أبى الضُّحى ، عن ابن عباس فى هذه الآية : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ قال عمرو : قال فى كل أرض مثل إبراهيم ، ونحو ما على الأرض من

(١) صحيح البخارى برقم (٢٤٥٣) وصحيح مسلم برقم (١٦١٢) من حديث عائشة ، رضى الله عنها .

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٤٥٤) من حديث ابن عمر ، رضى الله عنهما .

(٣) البداية والنهاية (١٦/١) ما جاء فى سبع أرضين .

(٤) سبق تخريج الحديث عند تفسير الآية : ٢٥٥ من سورة البقرة .

الخلق . وقال ابن المنثى فى حديثه : فى كل سماء إبراهيم ^(١) .

وقد روى البيهقى فى كتاب « الأسماء والصفات » هذا الأثر عن ابن عباس بأبسط من هذا [السياق]^(٢) ، فقال : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، وحدثنا أحمد بن يعقوب ، حدثنا عبيد بن غنام النخعى ، أخبرنا على بن حكيم ، حدثنا شريك ، عن عطاء بن السائب ، عن أبى الضحى ، عن ابن عباس أنه قال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ قال : سبع أرضين ، فى كل أرض نبي كنبيكم ، وآدم كآدم ، ونوح كنوح ، وإبراهيم كإبراهيم ، وعيسى كعيسى .

ثم رواه البيهقى من حديث شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن أبى الضحى ، عن ابن عباس فى قول الله ، عز وجل : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ قال : فى كل أرض نحو إبراهيم ، عليه السلام .

ثم قال البيهقى : إسناده هذا عن ابن عباس صحيح ، وهو شاذ بكرة ، لا أعلم لأبى الضحى عليه متابعا ، والله أعلم .

قال الإمام أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا القرشى فى كتابه « التفكير والاعتبار » : حدثنى إسحاق بن حاتم المدائنى ، حدثنا يحيى بن سليمان ، عن عثمان بن أبى دهرش قال : بلغنى أن رسول الله ﷺ انتهى إلى أصحابه وهم سكوت لا يتكلمون ، فقال : « ما لكم لا تتكلمون ؟ » . فقالوا : نتفكر فى خلق الله ، عز وجل . قال : « فكذاك فافعلوا ، تفكروا فى خلقه ولا تفكروا فيه ، فإن بهذا المغرب أرضاً بيضاء ، نورها ساحتها ^(٤) نورها - مسيرة الشمس أربعين يوماً ، بها خلق ^(٥) الله لم يعصوا الله طرفة عين قط » . قالوا : فأين الشيطان عنهم ؟ قال : « ما يدرون خلق الشيطان أم لم يخلق ؟ » . قالوا : أمن ولد آدم ؟ قال : « ما يدرون خلق آدم أم لم يخلق » ^(٦) .

وهذا حديث مرسل ، وهو منكر جداً ، و« عثمان بن أبى دهرش » ذكره ابن حاتم فى كتابه فقال : روى عن رجل من آل الحكم بن أبى العاص ، وعنه سفيان بن عيينة ، ويحيى بن سليم الطائفى ، وابن المبارك - سمعت أبى يقول ذلك ^(٧) .

(١) تفسير الطبرى (٩٩/٢٨) .

(٢) زيادة من م .

(٣) فى م : « نورها بيضاء » .

(٤) فى م : « بيضاء » .

(٥) فى م : « خلق من خلق » .

(٦) الحديث ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٤٠٨/٢) وعزاه لابن أبى الدنيا .

(٧) الجرح والتعديل (١٤٩/٦) .

تفسير سورة التحريم

وهي مدنية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١ ﴾
 قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ٢ ﴿ وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى
 بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا
 بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ٣ ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ
 تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ٤ ﴿
 عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ
 سَائِحَاتٍ ثَيَّابَاتٍ وَأَبْكَارًا ٥ ﴾ .

اختلف في سبب نزول صدر هذه السورة ، فقيل : نزلت في شأن مارية ، وكان رسول الله ﷺ قد حرّمها ، فنزل قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ ... الآية .

قال أبو عبد الرحمن النسائي : أخبرنا إبراهيم بن يونس بن محمد ، حدثنا أبي ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس : أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرّمها ، فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ ؟ إلى آخر الآية ^(١) .

وقال ابن جرير : حدثني ابن عبد الرحيم البرقي ^(٢) ، حدثنا ابن أبي مريم ، حدثنا أبو غسان ، حدثني زيد بن أسلم : أن رسول الله ﷺ أصاب أم إبراهيم في بيت بعض نسائه ، فقالت : أي رسول الله ، في بيتي وعلى فراشي ؟ ! فجعلها عليه حراماً . فقالت : أي رسول الله ، كيف يحرم عليك الحلال ؟ فحلف لها بالله لا يصيبها . فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ ؟ قال زيد : فقوله : أنت على حرام لغو ^(٣) .

وهكذا روى عبد الرحمن بن زيد ، عن أبيه .

وقال ابن جرير أيضاً : حدثنا يونس ، أخبرنا ابن وهب ، عن مالك ، عن زيد بن أسلم ، قال : قل لها : « أنت على حرام ، والله لا أطوك » .

(١) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٠٧) .

(٢) في أ : « الرقي » .

(٣) تفسير الطبري (٢٨/ ١٠٠) .

وقال سفيان الثوري وابن عُلَيَّة ، عن داود بن أبي هند ، عن الشعبي ، عن مسروق قال : آلى رسول الله ﷺ وحرّم ، فعُوتِبَ في التحريم ، وأمر بالكفارة في اليمين . رواه ابن جرير . وكذا روى عن قتادة ، وغيره ، عن الشعبي ، نفسه . وكذا قال غير واحد من السلف ، منهم الضحاك ، والحسن ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان ، وروى العوفي ، عن ابن عباس القصة مطولة .

وقال ابن جرير : حدثنا سعيد بن يحيى ، حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن إسحاق ، عن الزهري ، عن عبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس قال : قلت لعمر بن الخطاب : من المراتان ؟ قال : عائشة وحفصة . وكان بدء الحديث في شأن أم إبراهيم القبطية ، أصابها النبي ﷺ في بيت حفصة في نوبتها^(١) ، فوجدت حفصة ، فقالت : يا نبي الله ، لقد جئت إلى شيئاً ما جئت إلى أحد من أزواجك ، في يومي ، وفي دوري ، وعلى فراشي . قال : « ألا ترضين أن أحرّمها فلا أقربها ؟ » . قالت : بلى . فحرّمها وقال : « لا تذكرى ذلك لأحد » . فذكرته لعائشة ، فأظهره الله عليه ، فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ الآيات^(٢) فبلغنا أن رسول الله ﷺ كفر [عن]^(٣) يمينه ، وأصاب جاريته^(٤) .

وقال الهيثم بن كليب في مسنده : حدثنا أبو قلابة عبد الملك بن محمد الرقاشي ، حدثنا مسلم ابن إبراهيم ، حدثنا جرير بن حازم ، عن أيوب ، عن نافع ، عن ابن عمر ، عن عمر قال : قال النبي ﷺ لحفصة : « لا تخبرى أحداً ، وإن أم إبراهيم على حرام » . فقالت : أتحرّم ما أحل الله لك ؟ قال : « فوالله لا أقربها » . قال : فلم يقربها حتى أخبرت عائشة . قال : فأنزل الله : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ .

وهذا إسناد صحيح ، ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة ، وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه المستخرج^(٥) .

وقال ابن جرير : حدثني يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن علية ، حدثنا هشام الدستوائي قال : كتب إلى يحيى يحدث عن يعلى بن حكيم ، عن سعيد بن جبیر : أن ابن عباس كان يقول في الحرام : يمين تكفرها ، وقال ابن عباس : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١] يعني : أن رسول الله حرم جاريته فقال الله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ ؟ إلى قوله : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ ، فكفر يمينه ، فصير الحرام يميناً^(٦) .

ورواه البخاري عن معاذ بن فضالة ، عن هشام — هو الدستوائي — عن يحيى — هو ابن كثير — عن ابن حكيم — وهو يعلى — عن سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس في الحرام : يمين تكفر . وقال

(٣) زيادة من أ .

(٢) في م ، أ : « الآيات كلها » .

(١) في أ : « في يومها » .

(٤) تفسير الطبري (١٠٢/٢٨) وأصله في الصحيح وسأتي .

(٥) المختارة للضياء المقدسي برقم (١٨٩) .

(٦) تفسير الطبري (١٠١/٢٨) .

ابن عباس : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١] (١) .

ورواه مسلم من حديث هشام الدستوائي به (٢) .

وقال النسائي : أخبرنا عبد الله بن عبد الصمد بن علي ، حدثنا مَخْلَدٌ - هو ابن يزيد - حدثنا سفيان ، عن سالم ، عن سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس قال : أتاه رجل فقال : إني جعلت امرأتي على حراماً ؟ قال : كذبتَ ليست عليك بحرام . ثم تلا هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ ؟ عليك أغلظ الكفارات ، عتق رقبة .

تفرد به النسائي من هذا الوجه ، بهذا اللفظ (٣) .

وقال الطبراني : حدثنا محمد بن زكريا ، حدثنا عبد الله بن رجاء ، حدثنا إسرائيل ، عن مسلم ، عن مجاهد ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ ؟ قال : حرم رسول الله ﷺ سرَّيته (٤) .

ومن هاهنا ذهب من ذهب من الفقهاء ممن قال بوجوب الكفارة على من حرم جاريته أو زوجته أو طعاماً أو شرباً أو ملبساً أو شيئاً من المباحات ، وهو مذهب الإمام أحمد وطائفة . وذهب الشافعي إلى أنه لا تجب الكفارة فيما عدا الزوجة والجارية ، إذا حرم عنيهما أو أطلق التحريم فيهما في قوله ، فأما إن نوى بالتحريم طلاق الزوجة أو عتق الأمة ، نفذ فيهما .

وقال ابن أبي حاتم : حدثني أبو عبد الله الظهراني (٥) ، أخبرنا حفص بن عمر العدني ، أخبرنا الحكم بن أبان ، حدثنا عكرمة ، عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ ؟ في المرأة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ .

وهذا قول غريب ، والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسل ، كما قال البخاري عند هذه الآية :

حدثنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا هشام بن يوسف ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن عبيد (٦) ابن عمير ، عن عائشة قالت : كان النبي ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ، ويمكث عندها ، فتواطأت أنا وحفصة على : أيتنا دخل عليها ، فلتقل له : أكلت مغافير ؟ إني أجد منك ريح مغافير . قال : « لا ، ولكنني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ، فلن أعود له ، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً » ، ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ (٧) .

هكذا أورد هذا الحديث هاهنا بهذا اللفظ ، وقال في كتاب « الأيمان والنذور » :

حدثنا الحسن بن محمد ، حدثنا الحجاج ، عن ابن جريج قال : زعم عطاء أنه سمع عبيد بن عمير يقول : سمعتُ عائشة تزعم أن رسول الله ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب

(١) صحيح البخاري برقم (٤٩١١) .

(٢) صحيح مسلم برقم (١٤٧٣) .

(٣) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٠٩) .

(٤) المعجم الكبير (٨٦/١١) .

(٥) في أ : « عن عبد » .

(٦) في م : « الطبراني » .

(٧) صحيح البخاري برقم (٤٩١٢) .

عندها عَسَلًا ، فتواصيتُ أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها النبي ﷺ فَلَتَقُلْ : إني أجد منك ريح مغافير؛ أكلت مغافير؟ فدخل على إحدهما النبي ﷺ ، فقالت ذلك له ، فقال : « لا ، بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ، ولن أعود له » . فنزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ ؟ إلى : ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ لعائشة وحفصة ، ﴿ وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا ﴾ لقوله : « بل شربت عسلا » . وقال إبراهيم بن موسى ، عن هشام : « ولن أعود له ، وقد حلفت ، فلا تخبرى بذلك أحداً » (١) .

وهكذا رواه في كتاب «الطلاق» بهذا الإسناد ، ولفظه قريب منه (٢) . ثم قال : المغافير : شبيه بالصمغ ، يكون في الرمث فيه حلاوة ، أغفر الرمث : إذا ظهر فيه . واحدها مغفور ، ويقال : مغافير . وهكذا قال الجوهري ، قال : وقد يكون المغفور أيضاً للعُشر والثُمام والسَّكَم والطلح . قال : والرَّمث ، بالكسر : مرعى من مراعى الإبل ، وهو من الحَمْض . قال : والعرفط : شجر من الغضاه ينضج المغفور [منه] (٣) .

وقد روى مسلم هذا الحديث في كتاب «الطلاق» من صحيحه ، عن محمد بن حاتم ، عن حجاج بن محمد ، عن ابن جريج ، أخبرني عطاء ، عن عبيد بن عمير ، عن عائشة ، به (٤) . ولفظه كما أورده البخاري في «الآيمان والنذور» .

ثم قال البخاري في كتاب «الطلاق» : حدثنا فروة بن أبي المغراء ، حدثنا علي بن مُسَهَر ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يحب الحلوى والعسل ، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه ، فيدنو من إحدها . فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس ، فَغَرْتُ فسألت عن ذلك ، فقل لي : أهدت لها امرأة من قومها عَكَّةً عَسَل ، فسقت النبي ﷺ منه شربة ، فقلت : أما والله لنحتالَن له . فقلت لسودة بنت زمعة : إنه سيدنو منك ، فإذا دنا منك فقلولي : أكلت مغافير؟ فإنه سيقول ذلك (٥) : لا . فقلولي له : ما هذه الريح التي أجد؟ فإنه سيقول لك : سقتني حفصة شربة عسل . فقلولي : جَرَسَتْ نَحْلُهُ العَرْفُطَ . وسأقول ذلك ، وقلولي أنت له يا صفية ذلك ، قالت - تقول سودة - : والله (٦) ما هو إلا أن قام على الباب ، فأردت أن أناديه بما أمرتني فرقاً منك ، فلما دنا منها قالت له سودة : يا رسول الله ، أكلت مغافير؟ قال : « لا » . قالت : فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال : « سقتني حفصة شربة عسل » . قالت : جَرَسَتْ نَحْلُهُ العَرْفُطَ . فلما دار إلي قلت نحو ذلك ، فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك ، فلما دار إلى حفصة قالت له : يا رسول الله ، ألا أسقيك منه؟ قال : « لا حاجة لي فيه » . قالت - تقول سودة - : والله لقد حرَمَنَاهُ . قلت لها : اسكتي (٧) .

(١) صحيح البخاري برقم (٦٦٩١) .

(٢) صحيح البخاري برقم (٥٢٦٧) .

(٣) زيادة من الصحاح ، مادة «عرفط» ١١٤٢/٣ .

(٤) صحيح مسلم برقم (١٤٧٤) .

(٥) في م : « سيقول لك » .

(٦) في م : « فوالله » .

(٧) صحيح البخاري برقم (٥٢٦٨) .

هذا لفظ البخارى . وقد رواه مسلم عن سُوَيْد بن سَعِيد ، عن على بن مُسْهِر ، به . وعن أبى كُرَيْب وهارون بن عبد الله والحسن بن بشر ، ثلاثتهم عن أبى أسامة حماد بن أسامة ، عن هشام بن عروة ، به ^(١) . وعنده قالت : وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه أن يوجد منه الريح يعنى : الريح الخبيثة ؛ ولهذا قلن له : أكلت مغاير لأن ريحها فيه شيء . فلما قال : « بل شربت عسلا » . قلن : جَرَسَتْ نحلُّه العرْفَطَ ، أى : رَعَتْ نحلُّه شَجَر العرْفَط الذى صَمَغُهُ المغاير ؛ فلهذا ظهر ريحُهُ فى العسل الذى شربته .

قال الجوهري : جَرَسَتْ نحلُّه العرْفَط تَجْرَسُ : إذا أكلته ، ومنه قيل للنحل : جوارس ، قال الشاعر :

تَظَلَّ عَلَى الثَّمَرَاءِ مِنْهَا جَوَارِسُ

وقال : الجَرَسُ والجَرَسُ : الصوت الخفى . ويقال : سمعت جرس الطير : إذا سمعت صوت مناقيرها على شيء تأكله ، وفى الحديث : « فيسمعون جَرَسَ طير الجنة » . قال الأصمعى : كنت فى مجلس شعبة قال : « فيسمعون جَرَسَ طير الجنة » بالشين [المعجمة] ^(٢) ، فقلت : « جرس » ؟ فنظر إلى فقال : خذوها عنه ، فإنه أعلم بهذا منا ^(٣) .

والغرض أن هذا السياق فيه أن حفصة هى الساقية للعسل ، وهو من طريق هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن خالته عائشة . وفى طريق ابن جريج عن عطاء ، عن عبيد بن عمير ، عن عائشة أن زينب بنت جَحَش هى التى سقت العسل ، وأن عائشة وحفصة تواطأتا وتظاهرتا عليه ، فالله أعلم . وقد يقال : إنهما واقعتان ، ولا بُدَّ فى ذلك ، إلا أن كونهما سبباً لنزول هذه الآية فيه نظر ، والله أعلم .

ومما يدل على أن عائشة وحفصة ، رضى الله عنهما ، هما المتظاهرتان الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده حيث قال : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا مَعْمَر ، عن الزهرى ، عن عبيد الله بن عبد الله بن أبى ثور ، عن ابن عباس قال : لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبى ﷺ اللتين قال الله تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ ، حتى حج عمر وحججت معه ، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة . فتبرز ثم أتاني ، فسكبت على يديه فتوضأ ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، من المرأتان من أزواج النبى ﷺ ، اللتان قال الله تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ ؟ فقال عمر : واعجبا لك يا ابن عباس — قال الزهرى : كره — والله ما سألته عنه ولم يكتمه قال : هى حفصة وعائشة . قال : ثم أخذ يسوق الحديث . قال : كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نساؤهم ، قال : وكان منزلى فى دار بنى أمية بن زيد بالعوالى . قال : فغضبت يوماً على امرأتى فإذا هى تراجعنى ، فأنكرت أن تُراجعننى ، فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبى ^(٤)

(١) صحيح مسلم برقم (١٤٧٤) .

(٢) زيادة من م .

(٣) انظر : الصحاح للجوهري ٩٠٨/٢ ولسان العرب لابن منظور ، مادة « جرس » .

(٤) فى م : « إن أزواج رسول الله » .

ﷺ ليراجعنه ، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل . قال : فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت : أتراجعين رسول الله ﷺ ؟ قالت : نعم . قلت : وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل ؟ قالت : نعم . قلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ، فإذا هي قد هلكت ؟ لا تراجعى رسول الله ولا تسأليه شيئاً ، وسلينى من مالى ما بدا لك ، ولا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم وأحب إلى رسول الله ﷺ منك — يريد عائشة — قال : وكان لى جار من الأنصار، وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ ينزل يوماً وأنزل يوماً ، فيأتينى بخبر الوحي وغيره ، وآتیه بمثل ذلك . قال : وكنا نتحدث أن غسان تُنعل الخيل لتغزونا ، فنزل صاحبى يوماً ثم أتى عشاء، فضرب بابى ثم نادانى ، فخرجت إليه فقال : حدث أمر عظيم ! فقلت : وما ذاك ؟ أجاءت غسان؟ قال : لا ، بل أعظم من ذلك وأطول ! طلق رسول الله ﷺ نساءه ، فقلت : قد خابت حفصة وخسرت ، قد كنت أظن^(١) هذا كائنا . حتى إذا صليتُ الصبحَ شددتُ على ثيابى ثم نزلت ، فدخلت على حفصة وهي تبكى فقلت : أطلقكن رسول الله ﷺ فقالت : لا أدري ، هو هذا معتزل فى هذه المشربة^(٢) . فأتيت غلاماً له أسود فقلت : استأذن لعمر . فدخل الغلام ثم خرج إلى فقال : ذكرت لك له فصمت . فانطلقت حتى أتيت المنبر ، فإذا عنده رهط جلوس يبكى بعضهم ، فجلست قليلاً، ثم غلبنى ما أجد، فأتيت الغلام فقلت : استأذن لعمر . فدخل ثم خرج فقال : فقد ذكرت لك له فصمت . فخرجت فجلست إلى المنبر ، ثم غلبنى ما أجد فأتيت الغلام فقلت : استأذن لعمر . فدخل ثم خرج إلى فقال : قد ذكرت لك له فصمت . فوليت مدبراً فإذا الغلام يدعونى فقال : ادخل ، قد أذن لك . فدخلتُ فسلمتُ على رسول الله ﷺ فإذا هو متكئ على رُمال^(٣) حصير .

قال الإمام أحمد : وحدثنا يعقوب فى حديث صالح : رُمال حصير قد أثر فى جنبه ، فقلت : أطلقت يا رسول الله نساءك ؟ فرفع رأسه إلى وقال : « لا » . فقلت : الله أكبر ، لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوماً نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، فغضبت على امرأتى يوماً ، فإذا هي تراجعنى ، فأنكرت أن تراجعنى ، فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبى ﷺ ليراجعنه ، وتهجره أحداهن اليوم إلى الليل . فقلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ، فإذا هي قد هلكت . فتبسم رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ، قد دخلت على حفصة فقلت : لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم — أو : أحب — إلى رسول الله ﷺ منك . فتبسم أخرى ، فقلت : أستأنس يا رسول الله . قال : « نعم » . فجلست فرفعت رأسى فى البيت ، فوالله ما رأيت فى البيت شيئاً يرد البصر إلا أهبة ثلاثة^(٤) . فقلت : ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك ، فقد وسع على فارس والروم ، وهم لا يعبدون الله . فاستوى جالساً وقال : « أفى شك أنت يا بن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا » . فقلت : استغفر لى يا رسول الله . وكان أقسم ألا يدخل عليهن شهراً ؛ من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله ، عز وجل^(٥) .

(٣) فى م : « على رمل » .

(٢) المشربة : هى الغرفة .

(١) فى م : « أظن أن » .

(٤) فى م : « معان » .

(٥) المسند (١/٣٣، ٣٤) .

وقد رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى ، من طرق ، عن الزهرى ، به ^(١) وأخرجه الشيخان من حديث يحيى بن سعيد الأنصارى ، عن عبيد بن حنين ، عن ابن عباس ، قال : مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية ، فما أستطيع أن أسأله هيبه له ، حتى خرج حاجاً فخرجت معه ، فلما رجعنا وكنا ببعض الطريق ، عدل إلى الأراك لحاجة له ، قال : فوقفت حتى فرغ ، ثم سرت معه فقلت : يا أمير المؤمنين ، من اللتان ^(٢) تظاهرتا على النبى ﷺ ؟ ^(٣) .

هذا لفظ البخارى ، ولمسلم : من المرأتان اللتان قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ﴾ ؟ قال : عائشة وحفصة . ثم ساق الحديث بطوله ، ومنهم من اختصره .

وقال مسلم أيضاً : حدثنى زهير بن حرب ، حدثنا عمر بن يونس الحنفى ، حدثنا عكرمة بن عمار ، عن سماك بن الوليد — أبى زميل — حدثنى عبد الله بن عباس ، حدثنى عمر بن الخطاب قال : لما اعتزل نبى الله ﷺ نساءه ، دخلت المسجد ، فإذا الناس يَنْكُتُونَ بالحصى ، ويقولون : طلق رسول الله ﷺ نساءه ! وذلك قبل أن يُؤْمَرَ بالحجاب . فقلت : لأعلمن ذلك اليوم . . . فذكر الحديث فى دخوله على عائشة وحفصة ، ووعظه إياهما ، إلى أن قال : فدخلت ، فإذا أنا برباح غلام رسول الله ﷺ على أسكفة المشربة ، فناديت فقلت : يا رباح ، استأذن لى على رسول الله ﷺ . . . فذكر نحو ما تقدم ، إلى أن قال : فقلت يا رسول الله ما يشق عليك من أمر النساء ، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك ، وقلما تكلمت — وأحمد الله — بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولى ، ونزلت هذه الآية ، آية التخيير : ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يَبْدُلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ ﴾ ، ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ . فقلت : أطلقتهن ؟ قال : « لا » . فقامت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتى : لم يطلق نساءه ، ونزلت هذه الآية : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣] . فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر ^(٤) .

وكذا قال سعيد بن جبیر ، وعكرمة ، ومقاتل بن حیان ، والضحاك ، وغيرهم : ﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ : أبو بكر وعمر — زاد الحسن البصرى : عثمان . وقال ليث بن أبى سليم ، عن مجاهد : ﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : على بن أبى طالب .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا محمد بن أبى عمر ، حدثنا محمد بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين قال : أخبرنى رجل ثقة يرفعه إلى على قال : قال رسول الله ﷺ [فى] ^(٥) قوله : ﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : هو على بن أبى طالب . إسناده ضعيف . وهو منكر جداً .

وقال البخارى : حدثنا عمرو بن عون ، حدثنا هشيم ، عن حميد ، عن أنس ، قال : قال :

(١) صحيح البخارى برقم (٢٤٦٨، ٥١٩١) وصحيح مسلم برقم (١٤٧٩) وسنن الترمذى برقم (٣٣١٨) وسنن النسائى (١٣٧/٤) .

(٢) فى م : « المرأتان اللتان » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩١٣) وصحيح مسلم برقم (١٤٧٩) .

(٤) صحيح مسلم برقم (١٤٧٩) .

(٥) زيادة من م ، أ .

عمر: اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه ، فقلت لهن : ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُدْلِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ ﴾ فنزلت هذه الآية (١) .

وقد تقدّم أنه وافق القرآن في أماكن ، منها في نزول الحجاب ، ومنها في أسارى بدر ، ومنها قوله : لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ؟ فأنزل الله : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: ١٢٥] .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا [أبي ، حدثنا] (٢) الأنصاري ، حدثنا حميد ، عن أنس قال : قال عمر بن الخطاب : بلغني شيء كان بين أمهات المؤمنين وبين النبي ﷺ ، فاستقرتتهن (٣) أقول : لتكفن عن رسول الله أو ليدلته الله أزواجاً خيراً منك . حتى أتيت على آخر أمهات المؤمنين ، فقالت : يا عمر ، أما لي برسول الله ما يعظ نساءه ، حتى تعظهن ؟ ! فأمسكت ، فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُدْلِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيَّابَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ .

وهذه المرأة التي ردته عما كان فيه من وعظ النساء هي أم سلمة ، كما ثبت ذلك في صحيح البخاري (٤) .

وقال الطبراني ، حدثنا إبراهيم بن نائلة الأصبهاني ، حدثنا إسماعيل البجلي ، حدثنا أبو عوانة ، عن أبي سنان ، عن الضحاك ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا ﴾ ، قال : دخلت حفصة على النبي ﷺ في بيتها وهو يطأ مارية ، فقال لها رسول الله ﷺ : « لا تخبري عائشة حتى أبشرك ببشارة ، فإن أباك يلى الأمر من بعد أبي بكر إذا أنا مت » . فذهبت حفصة فأخبرت عائشة ، فقالت عائشة لرسول الله ﷺ : من أباك هذا ؟ قال : « ﴿ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ » . فقالت عائشة : لا أنظر إليك حتى تحرم مارية . فحرمها ، فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ﴾ (٥) .

إسناده فيه نظر ، وقد تبين مما أوردناه تفسير هذه الآيات الكريمات .

ومعنى قوله : ﴿ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ ﴾ ظاهر .

وقوله ﴿ سَائِحَاتٍ ﴾ أى : صائحات ، قاله أبو هريرة ، وعائشة ، وابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعطاء ، ومحمد بن كعب القرظي ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو مالك ، وإبراهيم النخعي ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، والربيع بن أنس ، والسدي ، وغيرهم . وتقدم فيه حديث مرفوع عند قوله : ﴿ السَّائِحُونَ ﴾ من سورة « براءة » ، ولفظه : « سياحة هذه الأمة الصيام » .

وقال زيد بن أسلم ، وابنه عبد الرحمن : ﴿ سَائِحَاتٍ ﴾ أى : مهاجرات ، وتلا عبد الرحمن :

(١) صحيح البخاري برقم (٤٩١٦) .

(٢) زيادة من م ، أ . (٣) في م : « فاستقرتته » .

(٤) صحيح البخاري برقم (٤٤٨٣) ولم أر فيه التصريح بأنها أم سلمة والله أعلم .

(٥) المعجم الكبير (١١٧/١٢) ووجه ضعفه : أن فيه إسماعيل البجلي وهو ضعيف ، والضحاك لم يلق ابن عباس فهو منقطع .

﴿السَّائِحُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] أى : المهاجرون . والقول الأول أولى ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ ثِيَّاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ أى : منهن ثيبات ، ومنهن أبكارا ، ليكون ذلك أشهى إلى النفوس ، فإن التنوع ييسط النفس ؛ ولهذا قال : ﴿ ثِيَّاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ .

وقال أبو القاسم الطبرانى فى معجمه الكبير : حدثنا أبو بكر بن صدقة ، حدثنا محمد بن محمد ابن مرزوق ، حدثنا عبد الله بن أمية ، حدثنا عبد القدوس ، عن صالح بن حيّان ، عن ابن بريدة ، عن أبيه : ﴿ ثِيَّاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ قال : وعد الله نبيه ﷺ فى هذه الآية أن يزوجه ، فالثيب : آسية امرأة فرعون ، وبالأبكار : مريم بنت عمران (١) .

وذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة « مريم عليها السلام » من طريق سويد بن سعيد (٢) : حدثنا محمد بن صالح بن عمر ، عن الضحاك ومجاهد ، عن ابن عمر قال : جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ بموت خديجة فقال : إن الله يقرئها السلام ، وييسرها بيت فى الجنة من قَصَب ، بعيد من اللهب (٣) ، لا نَصَب فيه ولا صَخَب ، من لؤلؤة جوفاء بين بيت مريم بنت عمران وبيت آسية بنت مزاحم (٤) .

ومن حديث أبى بكر الهذلى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن النبى ﷺ دخل على خديجة ، وهى فى الموت ، فقال . « يا خديجة ، إذا لقيت ضرائك فافترئين منى السلام » . فقالت : يا رسول الله ، وهل تزوجت قبلى ؟ قال : « لا » ، ولكن الله زوجنى مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وكلثم أخت موسى . ضعيف أيضاً (٥) .

وقال أبو يعلى : حدثنا إبراهيم بن عرعة ، حدثنا عبد النور بن عبد الله ، حدثنا يونس (٦) بن شعيب ، عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « أَعْلَمْتُ أَنَّ اللَّهَ زَوْجَنِي فِي الْجَنَّةِ مَرِيَمَ بِنْتَ عِمْرَانَ ، وَكُلْثَمَ أُخْتِ مُوسَى ، وَآسِيَةَ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ » . فقلت : هنيئاً لك يا رسول الله (٧) .

وهذا أيضاً ضعيف وروى مرسلًا عن ابن أبى داود .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزَىٰ

(١) لم أقع عليه فى المطبوع من المعجم الكبير للطبرانى .

(٢) فى أ : « بن سعد » . (٣) فى أ : « من اللهو » .

(٤) تاريخ دمشق (ص ٣٨٣) « تراجم النساء » ط . المجمع العلمى بدمشق .

(٥) تاريخ دمشق (ص ٣٨٤) « تراجم النساء » ط . المجمع العلمى بدمشق .

(٦) فى م ، أ ، هـ : « يوسف » والثبوت من المعجم الكبير للطبرانى .

(٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣٠٩/٨) والعقيلي فى الضعفاء (٤٥٩/٤) من طريق عبد النور بن عبد الله به ، وعبد النور كذاب ،

قال العقيلي : « وليس بمحفوظ » .

اللَّهُ النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ .

قال سفيان الثوري ، عن منصور ، عن رجل ، عن علي ، رضى الله عنه ، فى قوله تعالى : ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ يقول : أدبواهم ، علموهم .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ يقول : اعملوا بطاعة الله ، واتقوا معاصى الله ، ومروا أهليكم بالذكر ، ينجيكم الله من النار .

وقال مجاهد : ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ قال : اتقوا الله ، وأوصوا أهليكم بتقوى الله .

وقال قتادة : يأمرهم بطاعة الله ، وينهاهم عن معصية الله ، وأن يقوم عليهم بأمر الله ، ويأمرهم به ويساعدهم عليه ، فإذا رأيت لله معصية ، قدعتهم عنها وزجرتهم عنها .

وهكذا قال الضحاك ومقاتل : حق على المسلم أن يعلم أهله ، من قرابته وإمائه وعبيده ، ما فرض الله عليهم ، وما نهاهم الله عنه .

وفى معنى هذه الآية الحديث الذى رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، من حديث عبد الملك بن الربيع بن سبرة ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « مروا الصبى بالصلاة إذا بلغ سبع سنين ، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها » (١) .

هذا لفظ أبى داود ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن .

وروى أبو داود ، من حديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبى ﷺ مثل ذلك (٢) .

قال الفقهاء : وهكذا فى الصوم ؛ ليكون ذلك تمريناً له على العبادة ، لكى يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المعصية وترك المنكر ، والله الموفق .

وقوله : ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ : ﴿ وَقُودُهَا ﴾ أى : حطبها الذى يلقى فيها جثث بنى آدم . ﴿ وَالْحِجَارَةُ ﴾ قيل : المراد بذلك الأصنام التى كانت تعبد لقوله : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨] .

وقال ابن مسعود ، ومجاهد ، وأبو جعفر الباقر ، والسدى : هى حجارة من كبريت - زاد مجاهد : أتنن من الجيفة .

وروى ذلك ابن أبى حاتم ، رحمه الله ، ثم قال : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الرحمن بن سنان المنقرى ، حدثنا عبد العزيز - يعنى ابن أبى رواد - قال : بلغنى أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ ، وعنده بعض أصحابه ، وفيهم

(١) المسند (٤٠٤/٣) وسنن أبى داود برقم (٤٩٤) وسنن الترمذى برقم (٤٠٧) .

(٢) سنن أبى داود برقم (٤٩٥) .

شيخ ، فقال الشيخ : يا رسول الله ، حجارة جهنم كحجارة الدنيا ؟ فقال : النبي ﷺ : « والذي نفسى بيده ، لَصَخْرَةٌ مِنْ صَخَرِ جَهَنَّمَ أَكْبَرُ مِنْ جِبَالِ الدُّنْيَا كُلِّهَا » . قال : فوقع الشيخ مغشياً عليه ، فوضع النبي ﷺ يده على فؤاده فإذا هو حَيٌّ فناداه قال : « يا شيخ » ، قل : « لا إله إلا الله » . فقالها ، فيشره بالجنة ، قال : فقال أصحابه : يا رسول الله ، أمن بيننا ؟ قال : « نعم ، يقول الله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ » [إبراهيم: ١٤] . هذا حديث مرسل غريب .

وقوله : ﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ أى : طباعهم غليظة ، قد نزعَت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله ، ﴿ شِدَادٌ ﴾ أى : تركيبيهم فى غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج .

قال (١) ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا سلمة بن شبيب ، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان ، حدثنا أبى ، عن عكرمة أنه قال : إذا وصل أول أهل النار إلى النار ، وجَدُوا على الباب أربعمئة ألف من خَزَنَةِ جَهَنَّمَ ، سود وجوههم ، كالحة أنيابهم ، قد نزع الله من قلوبهم الرحمة ، ليس فى قلب واحد منهم مثقال ذرة من الرحمة ، لو طير الطير من منكب أحدهم لطار شهرين قبل أن يبلغ منكبه الآخر ، ثم يجدون على الباب التسعة عشر ، عرض صدر أحدهم سبعون خريفاً ، ثم يهونون من باب إلى باب خمسمئة سنة ، ثم يجدون على كل باب منها مثل ما وجدوا على الباب الأول ، حتى ينتهوا إلى آخرها .

وقوله : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ أى : مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه ، لا يتأخرون عنه طرفة عين ، وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه . وهؤلاء هم الزبانية عياداً بالله منهم . وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى : يقال للكفرة يوم القيامة : لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم ، وإنما تجزون اليوم بأعمالكم .

ثم قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ أى : توبة صادقة جازمة ، تحو ما قبلها من السيئات وتلم شعث التائب وتجمعه ، وتكفه عما كان يتعاطاه من الدنات .

قال ابن جرير : حدثنا ابن مثنى ، حدثنا محمد ، حدثنا شعبة ، عن سَمَاقِ بْنِ حَرْبٍ : سمعت النعمان بن بشير يخطب : سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ قال : يذنب الذنب ثم لا يرجع فيه .

وقال الثورى ، عن سَمَاقِ ، عن النعمان ، عن عمر قال : التوبة النصوح : أن يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه ، أو لا يعود فيه .

وقال أبو الأحوص وغيره ، عن سَمَاقِ ، عن النعمان ، سئل عمر عن التوبة النصوح ، فقال : أن يتوب الرجل من العمل السيئ ، ثم لا يعود إليه أبداً .

وقال الأعمش ، عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله : ﴿ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ قال : يتوب ثم لا يعود .

(١) فى م : « كما قال » .

وقد روى هذا مرفوعاً فقال الإمام أحمد : حدثنا علي بن عاصم ، عن إبراهيم الهَجَرى ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « التوبة من الذنب أن يتوب منه ، ثم لا يعود فيه » . تفرد به أحمد من طريق إبراهيم بن مسلم الهَجَرى ، وهو ضعيف ، والموقوف أصح ^(١) ، والله أعلم .

ولهذا قال العلماء : التوبة النصوح هو أن يُقْلَعَ عن الذنب فى الحاضر ، ويندمَ على ما سلف منه فى الماضى ، ويعزمَ على ألا يفعل فى المستقبل . ثم إن كان الحق لآدمى رده إليه بطريقه .

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن عبد الكريم ، أخبرنى زياد بن أبى مريم ، عن عبد الله ابن مَعْقِل قال : دخلت مع أبى على عبد الله بن مسعود فقال : أنت سمعت النبى ﷺ يقول : « الندم توبة ؟ » . قال : نعم . وقال مرة : نعم سمعته يقول : « الندم توبة » .

ورواه ابن ماجه ، عن هشام بن عمار ، عن سفيان بن عيينة ، عن عبد الكريم - وهو ابن مالك الجَزَرى - به ^(٢) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنى الوليد بن بُكَيْر أبو خباب ، عن عبد الله ابن محمد العدوى ، عن أبى سنان البصرى ، عن أبى قلابة ، عن زر بن حبيش ، عن أبى بن كعب قال : قيل لنا أشياء تكون فى آخر هذه الأمة عند اقتراب الساعة ، منها نكاح الرجل امرأته أو أمته فى دبرها ، وذلك مما حرم الله ورسوله ، ويمقت الله عليه ورسوله ، ومنها : نكاح الرجل الرجل ، وذلك مما حرم الله ورسوله ، ويمقت الله عليه ورسوله . ومنها : نكاح المرأة المرأة ، وذلك مما حرم الله ورسوله ، ويمقت الله عليه ورسوله . وليس لهؤلاء صلاة ما أقاموا على هذا ، حتى يتوبوا إلى الله توبة نصوحاً . قال زر : فقلت لأبى بن كعب : فما التوبة النصوح ؟ فقال : سألت عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : « هو الندم على الذنب حين يفرط منك ، فتستغفر الله بندايتك منه عند الحاضر ، ثم لا تعود إليه أبداً » ^(٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عمرو بن على ، حدثنا عباد بن عمرو ، حدثنا أبو عمرو ابن العلاء ، سمعت الحسن يقول : التوبة النصوح : أن تُبْغِضَ الذنبَ كما أحببته ، وتستغفر منه إذا ذكرته .

فأما إذا حَزَمَ بالتوبة وصَمَمَ عليها فإنها تَجُبُّ ما قبلها من الخطيئات ، كما ثبتت فى الصحيح : «الإسلام يَجُبُّ ما قبله ، والتوبة تجب ما قبلها » ^(٤) .

وهل من شرط التوبة النصوح الاستمرارُ على ذلك إلى الممات ، كما تقدم فى الحديث وفى الأثر : « لا يعود فيه أبداً » ، أو يكفى العزم على ألا يعود فى تكفير الماضى ، بحيث لو وقع منه

(١) المسند (١/٤٤٦) .

(٢) المسند (١/٣٧٦) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٥٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/٣٠٨) : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » .

(٣) ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٥٤٥٧) من طريق إسماعيل الصفار ، عن الحسن بن عرفة به ، وقال : « إسناده ضعيف » .

(٤) صحيح مسلم برقم (١٢١) من حديث عمرو بن العاص ، رضى الله عنه .

ذلك الذنب بعد ذلك لا يكون ذلك ضاراً فى تكفير ما تقدم ، لعموم قوله ، عليه السلام : « التوبة تجب ما قبلها ؟ » . ولأول أن يحتج بما ثبت فى الصحيح أيضاً : « من أحسن فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية ، ومن أساء فى الإسلام أخذ بالأول والآخر » ^(١) . فإذا كان هذا فى الإسلام الذى هو أقوى من التوبة ، فالتوبة بطريق الأولى ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ و ﴿ عَسَىٰ ﴾ من الله موجبة ، ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزَىٰ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ أى : ولا يخزيهم معه يعنى : يوم القيامة ، ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ كما تقدم فى سورة الحديد .

﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُم لَنَا نُورٌ وَغَفِرَ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ : قال مجاهد ، والضحاك ، والحسن البصرى وغيرهم : هذا يقوله المؤمنون حين يرون يوم القيامة نور المنافقين قد طفي .

وقال محمد بن نصر المروزي : حدثنا محمد بن مقاتل المروزي ، حدثنا ابن المبارك ، أخبرنا ابن لهيعة ، حدثني يزيد بن أبى حبيب ، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، أنه سمع أبا ذر وأبا الدرداء قالا : قال رسول الله ﷺ : « أنا أول من يؤذن له فى السجود يوم القيامة ، وأول من يؤذن له برفع رأسه ، فأنظر بين يدي فأعرف أمتى من بين الأمم ، وأنظر عن يميني فأعرف أمتى من بين الأمم ، وأنظر عن شمالي فأعرف أمتى من بين الأمم » . فقال رجل : يا رسول الله ، وكيف تعرف أمتك من بين الأمم . قال : « غرُّ مُحجَّلون من آثار الطُّهور » ^(٢) ، ولا يكون أحد من الأمم كذلك غيرهم ، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم ، وأعرفهم بسيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم » ^(٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن إسحاق الطالقاني ، حدثنا ابن المبارك ، عن يحيى بن حسان ، عن رجل من بنى كنانة قال : صليت خلف النبي ﷺ ، عام الفتح ، فسمعتة يقول : « اللهم ، لا تخزنى يوم القيامة » ^(٤) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (٩) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) .

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين ، هؤلاء بالسلاح والقتال ، وهؤلاء بإقامة

(١) صحيح البخارى برقم (٦٩٢١) وصحيح مسلم برقم (١٢٠) من حديث عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه .

(٢) فى م : « الوضوء » .

(٣) تعظيم قدر الصلاة برقم (٢٦١) ورواه أحمد فى المسند (١٩٩/٥) من هذا الطريق — طريق ابن المبارك — وعن حسن ، عن ابن لهيعة

به نحوه ، قال المنذرى فى الترغيب والترهيب (١٥١/١) : « رواه أحمد ، وفى إسناده ابن لهيعة ، وهو حديث حسن فى المتابعات » .

وهو هنا من رواية ابن المبارك وهى رواية صحيحة .

(٤) المسند (٢٣٤/٤) .

الحدود عليهم ، ﴿ وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : فى الدنيا ، ﴿ وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أى : فى الآخرة (١) .

ثم قال : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : فى مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم ، أن ذلك لا يجدى عنهم شيئاً ، ولا ينفعهم عند الله ، إن لم يكن الإيمان حاصلاً فى قلوبهم ، ثم ذكر المثل فقال : ﴿ امْرَأَتُ نُوحٍ وَامْرَأَتُ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ ﴾ أى : نبين رسولين عندهما فى صحبتها (٢) ليلاً ونهاراً ، يؤاكلانهما ويصاحبانهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ أى : فى الإيمان ، لم يوافقاهما على الإيمان ، ولا صدقاهما فى الرسالة ، فلم يُجِدْ ذلك كله شيئاً ، ولا دفع عنهما محذورا ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أى : لكفرهما ، ﴿ وَقِيلَ ﴾ أى : للمرأتين : ﴿ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ ﴾ .

وليس المراد : ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ فى فاحشة ، بل فى الدين ، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع فى الفاحشة ؛ لحمة الأنبياء ، كما قدمنا فى سورة النور .

قال سفيان الثوري ، عن موسى بن أبى عائشة ، عن سليمان بن قتة : سمعتُ ابن عباس يقول فى هذه الآية : ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ قال : ما زنتا ، أما امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه .

وقال العوفي ، عن ابن عباس قال : كانت خيانتهم أنهما كانتا على عورتيهما فكانت امرأة نوح تطَّلَع على سر نوح ، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابة من قوم نوح به ، وأما امرأة لوط فكانت إذا أضاف لوط أحداً أخبرت به أهل المدينة ممن يعمل سوء .

وهكذا قال عكرمة ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، وغيرهم .

[وقال الضحاك عن ابن عباس : ما بغت امرأة نبى قط ، إنما كانت خيانتهم فى الدين] (٣) .

وقد استدل بهذه الآية الكريمة بعض العلماء على ضعف الحديث الذى يأتريه كثير من الناس : من أكل مع مغفور له غفر له . وهذا الحديث لا أصل له ، وإنما يروى هذا عن بعض الصالحين أنه رأى النبى ﷺ فى المنام فقال : يا رسول الله ، أنت قلت : من أكل مع مغفور له غفر له ؟ قال : « لا ، ولكنى الآن أقوله » (٤) .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتُ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢) ﴾ .

(٣) زيادة من م .

(٢) فى م : « فى صحبتهم » .

(١) فى م : « فى الأخرى » .

(٤) قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « هذا ليس له إسناد عند أهل العلم ولا هو فى شيء من كتب المسلمين ، إنما يروونه عن سنان ، وليس معناه صحيحاً على الإطلاق ، فقد يأكل مع المسلمين الكفار والمناقون » أ.هـ نقله الألبانى فى الضعيفة (٣٢٦/١) وذكره الإمام ابن القيم فى المنار المنيف (ص ١٤٠) وقال : « موضوع ، وغاية ما روى فيه أنه منام رآه بعض الناس » .

وهذا مَثَلٌ ضربه الله للمؤمنين أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم ، كما قال تعالى : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ [آل عمران : ٢٨] .

قال قتادة : كان فرعون أعتى أهل الأرض وأبعده فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها لتعلموا أن الله حكيمٌ عدل ، لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه .

وقال ابن جرير : حدثنا إسماعيل بن حفص الأبلج ، حدثنا محمد بن جعفر ، عن سليمان التيمي ، عن أبي عثمان النهدي ^(١) ، عن سلمان قال : كانت امرأة فرعون تُعَذِّبُ في الشمس ، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها ، وكانت ترى بيتها في الجنة .

ثم رواه عن محمد بن عبيد المحاربي عن أسباط بن محمد ، عن سليمان التيمي ، به ^(٢) .

ثم قال ابن جرير : حدثني يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا بن عُلَيْة ، عن هشام الدستوائي ، حدثنا القاسم بن أبي بزة قال : كانت امرأة فرعون تسأل : من غلب ؟ فيقال : غلب موسى وهارون . فتقول : آمنت برب موسى وهارون ، فأرسل إليها فرعون فقالت : انظروا أعظم صخرة تجدونها ، فإن مضت على قولها فألقوها عليها ، وإن رجعت عن قولها فهي امرأته ، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت بيتها في الجنة ، فمضت على قولها ، وانتزع الله روحها ، وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح ^(٣) .

فقولها : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ : قال العلماء : اختارت الجار قبل الدار . وقد ورد شيء من ذلك في حديث مرفوع ، ﴿ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ أى : خلصنى منه ، فإنى أبرأ [إليك] ^(٤) من عمله ، ﴿ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ . وهذه المرأة هى آسية بنت مزاحم ، رضى الله عنها .

وقال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية قال : كان إيمان امرأة فرعون من قبل إيمان امرأة خازن فرعون ، وذلك أنها جلست تمشط ابنة فرعون ، فوقع المشط من يدها ، فقالت تعس من كفر بالله ؟ فقالت لها ابنة فرعون : ولك رب غير أبى ؟ قالت : ربي ورب أبى ورب كل شيء الله . فلطمتها بنت فرعون وضربتها ، وأخبرت أباه ، فأرسل إليها فرعون فقال : تعبدين ربا غيرى ؟ قالت : نعم ، ربي وربك ورب كل شيء الله ، وإياه أعبد فعذبها فرعون وأوتد لها أوتاداً ، فشد رجلها ويدها وأرسل عليها الحيات ، وكانت كذلك ، فأتى عليها يوماً فقال لها : ما أنت منتهية ؟ فقالت له : ربي وربك ورب كل شيء الله . فقال لها : إنى ذابح ابنك فى فيك إن لم تفعلنى . فقالت له : اقض ما أنت قاض . فذبح ابنها فى فيها ، وإن روح ابنها بشرها ، فقال لها : أبشرى يا أمه ، فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا . فصبرت ثم أتى [عليها] ^(٥) فرعون يوماً آخر فقال لها

(١) فى أ : « الترمذى » .

(٢) (٣ ، ٢) تفسير الطبرى (٢٨ / ١١٠) .

(٤) زيادة من م ، أ .

(٥) زيادة من م .

مثل ذلك ، فقالت له ، مثل ذلك ، فذبح ابنها الآخر فى فيها ، فبشرها روحه أيضاً ، وقال لها .
 اصبرى يا أمه فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا . قال : وسمعت امرأة فرعون كلام روح ابنها
 الأكبر ثم الأصغر ، فأمنت امرأة فرعون ، وقبض الله روح امرأة خازن فرعون ، وكشف الغطاء عن
 ثوبها ومنزلتها وكرامتها فى الجنة لامرأة فرعون حتى رأت فازدادت إيماناً و يقيناً وتصديقاً ، فاطلّع
 فرعون على إيمانها ، فقال للملأ : ما تعلمون من آسية بنت مزاحم ؟ فأثنوا عليها ، فقال لهم : إنها
 تعبد غيرى . فقالوا له : اقتلها . فأوتد لها أوتاداً ، فشد يديها ورجليها ، فدعت آسية ربها فقالت :
 ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ . فوافق ذلك أن حضرها فرعون ، فضحكت حين رأت بيتها فى
 الجنة ، فقال فرعون : ألا تعجبون من جنونها ، إنا نعذبها وهى تضحك ، فقبض الله روحها ،
 رضى الله عنها (١) .

وقوله : ﴿ وَمَرْيَمُ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ أى : حفظته وصانته . الإحصان : هو
 العفاف والحرية ، ﴿ فَنفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ أى : بواسطة الملك ، وهو جبريل ، فإن الله بعثه إليها
 فتمثل لها فى صورة بشر سوى ، وأمره الله تعالى أن ينفخ فيه فى جيب درعها ، فنزلت النفخة
 فولجت فى فرجها ، فكان منه الحمل بعبسى ، عليه السلام . ولهذا قال : ﴿ فَنفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا
 وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ ﴾ أى : بقدره وشرعه ﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا يونس ، حدثنا داود بن أبى الفرات ، عن علباء ، عن عكرمة ، عن
 ابن عباس قال : خط رسول الله ﷺ فى الأرض أربعة خطوط ، وقال : « أتدرون ما هذا ؟ »
 قالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال رسول الله ﷺ : « أفضل نساء أهل الجنة : خديجة بنت خويلد ،
 وفاطمة بنت محمد ، ومريم ابنة عمران ، وآسية ابنة مزاحم امرأة فرعون » (٢)

وثبت فى الصحيحين من حديث شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن مرة الهمدانى ، عن أبى
 موسى الأشعرى ، عن النبى ﷺ أنه قال : « كَمُلَ من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية
 امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل
 الثريد على سائر الطعام » (٣) .

وقد ذكرنا طرق هذه الأحاديث وألفاظها والكلام عليها فى قصة عيسى ابن مريم ، عليهما السلام ،
 فى كتابنا « البداية والنهاية » ولله الحمد والمنة (٤) ، وذكرنا ما ورد من الحديث من أنها تكون هى
 وآسية بنت مزاحم من أزواجه ، عليه السلام ، فى الجنة عند قوله : ﴿ ثِيَّاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ .

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٨ / ١٠) .

(٢) المسند (٢٩٣ / ١) وقال الهيثمى فى المجمع (٩ / ٢٢٣) : « رجاله رجال الصحيح »

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٤١٨) وصحيح مسلم برقم (٢٤٣١) .

(٤) البداية والنهاية (٥٥ / ٢ - ٥٨) .

تفسير سورة الملك

وهى مكية .

قال أحمد : حدثنا حجاج بن محمد وابن جعفر قالا : حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن عباس الجشمي ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن سورة في القرآن ثلاثين آية شفعت ل صاحبها حتى غفر له : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ » .

ورواه أهل السنن الأربعة ، من حديث شعبة ، به ^(١) . وقال الترمذى : هذا حديث حسن .

وقد روى الطبرانى والحافظ الضياء المقدسى ، من طريق سلام بن مسكين ^(٢) ، عن ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ » ^(٣) .

وقال الترمذى : حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب ، حدثنا يحيى بن مالك النكري ، عن أبيه ، عن أبي الجوزاء ، عن ابن عباس قال : ضرب بعض أصحاب النبي ﷺ خباءه على قبر ، وهو لا يحسب أنه قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها ، فأتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، ضربت خبائي على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر ، فإذا إنسان يقرأ سورة الملك ﴿ تَبَارَكَ ﴾ حتى ختمها ، فقال رسول الله ﷺ : « هى المانعة ، هى المنجية ، تنجيه من عذاب القبر » ^(٤) . ثم قال : « هذا حديث غريب من هذا الوجه . وفى الباب عن أبي هريرة . ثم روى الترمذى أيضاً من طريق ليث بن أبي سليم ، عن أبي الزبير ، عن جابر : أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ ﴿ اَلَمْ . تَنْزِيل ﴾ [سورة السجدة] ، و ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ . وقال ليث عن طاوس : يفضلان كل سورة في القرآن سبعين حسنة ^(٥) .

وقال الطبرانى : حدثنا محمد بن الحسين بن عجلان ^(٦) الأصبهاني ، حدثنا سلمة بن شبيب ، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان ، عن أبيه ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لوددت أنها فى قلب كل إنسان من أمتى » يعنى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ ^(٧) .

(١) المسند (٣٢١/٢) وسنن أبي داود برقم (١٤٠٠) وسنن الترمذى برقم (٢٨٩١) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦١٢) وسنن ابن ماجه برقم (٣٧٨٦) .

(٢) فى أ : « سليمان » .

(٣) المعجم الصغير للطبرانى (١٧٦/١) والمختارة للضياء المقدس برقم (١٧٣٨، ١٧٣٩) .

(٤) سنن الترمذى برقم (٢٨٩٠) وفى إسناده يحيى النكري ضعيف وذكر الذهبى هذا الحديث من مناكيره فى الميزان .

(٥) سنن الترمذى برقم (٢٨٩٢) .

(٦) فى م ، أ ، هـ : « محمد بن الحسن بن علاف » وهو خطأ والمثبت من المعجم الكبير للطبرانى ومن تاريخ أصبهان .

(٧) المعجم الكبير (٢٤٢/١١) ورواه الحاكم فى المستدرک (٥٦٥/١) من طريق حفص بن عمر ، عن الحكم بن أبان به ، وقال الحاكم :

« حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » وتعقبه الذهبى بقوله : « فيه حفص العدنى وهو واه » .

هذا حديث غريب ، وإبراهيم ضعيف ، وقد تقدم مثله في سورة « يس » ، وقد روى هذا الحديث عبد بن حميد في مسنده بأبسط من هذا ، فقال :

حدثنا إبراهيم بن الحكم ، عن أبيه ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال لرجل : ألا أتخفك بحديث تفرح به ؟ قال : بلى . قال : اقرأ : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ وعلمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك ، فإنها المنجية والمجادلة ، تجادل - أو تخاصم - يوم القيام عند ربها لقارئها ، وتطلب له [أن ينجيه] ^(١) من عذاب النار ، وينجي بها صاحبها من عذاب القبر ؛ قال رسول الله ﷺ : « لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي » ^(٢) .

وقد روى الحافظ ابن عساكر في تاريخه ، في ترجمة أحمد بن نصر بن زياد ، أبي عبد الله القرشي النيسابوري المقرئ الزاهد الفقيه ، أحد الثقات الذين روى عنهم البخاري ومسلم ، لكن في غير الصحيحين ، وروى عنه الترمذي وابن ماجه وابن خزيمة ، وعليه تفقه في مذهب أبي عبيد بن حريبه ، وخلق سواهم ، ساق بسنده من حديثه عن فرات بن السائب ، عن الزهري ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن رجلاً ممن كان قبلكم مات ، وليس معه شيء من كتاب الله إلا ﴿ تَبَارَكَ ﴾ ، فلما وضع في حفرته أتاه الملك فثارت السورة في وجهه ، فقال لها : إنك من كتاب الله ، وأنا أكره مساءتك ، وإنني لا أملك لك ولا له ولا لنفسي ضراً ولا نفعاً ، فإن أردت هذا به فانطلقى إلى الرب تبارك وتعالى فاشفعى له . فتنتلقى إلى الرب فتقول : يا رب ، إن فلاناً عمَدَ إليَّ من بين كتابك فتعلَّمَنِي وتلاني أفتحرقه ^(٣) أنت بالنار وتعذبه وأنا في جوفه ؟ فإن كنت فاعلا ذاك به فامحنى من كتابك . فيقول : ألا أراك غضبت ؟ فتقول : وحق لي أن أغضب . فيقول : اذهبي فقد وهبته لك ، وشفعتك فيه . قال : فتجئ فيخرج الملك ، فيخرج كاسف البال لم يحل منه بشيء . قال : فتجئ فتضع فاما على فيه ، فتقول : مرحباً بهذا الفم ، فربما تلاني ، ومرحباً بهذا الصدر ، فربما وعاني ، ومرحباً بهاتين القدمين ، فربما قامتا بي . وتؤنسه في قبره مخافة الوحشة عليه . قال : فلما حدث بهذا رسول الله ﷺ لم يبق صغير ولا كبير ولا حرٌ ولا عبد ، إلا تعلمها ، وسماها رسول الله ﷺ المنجية ^(٤) .

قلت : وهذا حديث منكر جداً ، وفرات بن السائب هذا ضعفه الإمام أحمد ، ويحيى بن معين ، والبخاري ، وأبو حاتم ، والدارقطني وغير واحد . وقد ذكره ابن عساكر من وجه آخر ، عن الزهري ، من قوله مختصراً . وروى البيهقي في كتاب « إثبات عذاب القبر » عن ابن مسعود موقوفاً ومرفوعاً ما يشهد لهذا ^(٥) وقد كتبناه في كتاب الجنائز من الأحكام الكبرى ، ولله الحمد ^(٦) .

(١) زيادة من م ، أ .

(٢) ذكره البوصيري في إتحاف المهرة (ق ٢١٤ سليمانبة) من مسند عبد بن حميد .

(٣) في أ : « أفتجزيه » .

(٤) تاريخ دمشق (٢/ ٢٥٦) « المخطوط » .

(٥) إثبات عذاب القبر للبيهقي برقم (٩٩) وقد فصل الكلام عليه الفاضل محمد طرهوني في موسوعة فضائل القرآن (٢/ ١٩٣) .

(٦) في أ : « ولله الحمد والمنة والثناء الحسن الجميل » .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَلْوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۝ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۝ (٥) ۞ .

يمجد تعالى نفسه الكريمة ، ويخبر أنه بيده الملك ، أى : هو المتصرف فى جميع المخلوقات بما يشاء لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله . ولهذا قال : ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ .

ثم قال : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ۞ : واستدل بهذه الآية من قال : إن الموت أمر وجودى لانه مخلوق . ومعنى الآية : أنه أوجد الخلائق من العدم ، ليلوهم ويختبرهم أيهم أحسن عملا ؟ كما قال : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۞ [البقرة: ٢٨] . فسمى الحال الأول - وهو العدم - موتاً ، وسمى هذه النشأة حياة . ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۞ [البقرة: ٢٨] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا خُلَيْدٌ ، عن قتادة فى قوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ۞ قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « إن الله أذل بنى آدم بالموت ، وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت ، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء » . ورواه معمر ، عن قتادة (١) .

وقوله : ﴿ لِيَلْوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۞ أى : خير عملا ، كما قال محمد بن عجلان : ولم يقل أكثر عملا .

ثم قال : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۞ أى : هو العزيز العظيم المنيع الجنب ، وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه وأتاب ، بعدما عصاه وخالف أمره ، وإن كان تعالى عزيزاً ، هو مع ذلك يغفر ويرحم ويصفح ويتجاوز .

ثم قال : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۞ أى : طبقة بعد طبقة ، وهل هن متواصلات بمعنى أنهن علويات بعضهن على بعض ، أو متفاصلات بينهن خلاء ؟ فيه قولان ، أصحهما الثانى ، كما دل على ذلك حديث الإسراء وغيره .

(١) ورواه الطبرى فى تفسيره (٢/٢٩) من طريق معمر ، عن قتادة ، ومن طريق سعيد ، عن قتادة به مراسلاً .

وقوله : ﴿ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ ﴾ أى : بل هو مصطحب مستو ، ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا مخالفة ، ولا نقص ولا عيب ولا خلل ؛ ولهذا قال : ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ أى : انظر إلى السماء فتأملها ، هل ترى فيها عيباً أو نقصاً أو خللاً أو فطوراً ؟ .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، والثوري ، وغيرهم فى قوله : ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ أى : شقوق .

وقال السدى : ﴿ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ أى : من خروق . وقال ابن عباس فى رواية : ﴿ مِن فُطُورٍ ﴾ أى : من وهى^(١) . وقال قتادة : ﴿ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ أى : هل ترى خللاً يا بن آدم ؟ .
وقوله : ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ قال : مرتين . ﴿ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا ﴾ قال ابن عباس : ذليلاً ؟ وقال مجاهد ، وقاتدة : صاغراً .

﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ : قال ابن عباس : يعنى : وهو كليل . وقال مجاهد ، وقاتدة ، والسدى : الحسير : المنقطع من الإعياء .

ومعنى الآية : إنك لو كررت البصر ، مهما كررت ، لانقلب إليك ، أى : لرجع إليك البصر ، ﴿ خَاسِئًا ﴾ عن أن يرى عيباً أو خللاً ، ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ أى : كليل وقد انقطع من الإعياء من كثرة التكرار ، ولا يرى نقصاً .

ولما نفى عنها فى خلقها النقص بين كمالها وزينتها فقال : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ وهى الكواكب التى وضعت فيها من السيارات والثوابت .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ : عاد الضمير فى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾ على جنس المصابيح لا على عينها ؛ لأنه لا يرمى بالكواكب التى فى السماء ، بل بشهب من دونها ، وقد تكون مستمدة منها ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ أى : جعلنا^(٢) للشياطين هذا الخزى فى الدنيا ، وأعدنا لهم عذاب السعير فى الآخرة ، كما قال : فى أول الصفات : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ . لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ . إِلَّا مَنِ خَطِفُ الْخُطْفَةِ فَآتَبْعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصفات: ٦-١٠] .

قال قتادة : إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال : خلقها زينة للسماء ، ورجوما للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم .

(١) فى هـ ، أ : « من وهاء » والمثبت من تفسير الطبرى . مستفاداً من هوامش ط . الشعب .

(٢) فى م : « أى : جعلناها » .

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١) .

يقول تعالى : ﴿ و ﴾ اعتدنا ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أى : بئس المآل والمنقلب . ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا ﴾ : قال ابن جرير : يعنى الصياح .
﴿ وَهِيَ تَفُورُ ﴾ : قال الثورى : تغلى بهم كما يغلى الحبّ القليل فى الماء الكثير .

وقوله : ﴿ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ أى : تكاد ينفصل بعضها من بعض ، من شدة غيظها عليهم وحنقها بهم ، ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ . قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ : يذكر تعالى عدله فى خلقه ، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه ، كما قال : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥] . وقال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحْتِ أَبْوَابَهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر: ٧١] . وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة ، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة ، فقالوا : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ أى : لو كانت لنا عقول نتفهم بها أو نسمع ما أنزل الله من الحق ، لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاغترار به ، ولكن لم يكن لنا فهم نعى به ما جاءت به الرسل ، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم ، قال الله تعالى : ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن أبى البختريّ الطائى قال: أخبرنى من سمعه من رسول الله ﷺ أنه قال : « لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم »^(١). وفى حديث آخر: « لا يدخل أحد النار ، إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة »^(٢).

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (١٢) وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) .

(١) المسند (٤/ ٢٦٠) .

(٢) فى المسند (٢/ ٥٤١) من حديث أبى هريرة مرفوعا : « لا يدخل أحد النار إلا أرى مقعده من الجنة » وهو فى الصحيح .

يقول تعالى مخبراً عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائباً عن الناس ، فيتكف عن المعاصي ويقوم بالطاعات ، حيث لا يراه أحد إلا الله ، بأنه له مغفرة وأجر كبير ، أى : يكفر عنه ذنوبه ، ويجازى بالثواب الجزيل ، كما ثبت فى الصحيحين : « سبعة يظلهم الله فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله » ، فذكر منهم : « رجلاً دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجلاً تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » (١) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده : حدثنا طالوت بن عباد ، حدثنا الحارث بن عبيد ، عن ثابت ، عن أنس قال : قالوا : يا رسول الله ، إنا نكون عندك على حال ، فإذا فارقناك كنا على غيره؟ قال : « كيف أنتم وربيكم ؟ » قالوا : الله ربنا فى السر والعلانية . قال : « ليس ذلكم النفاق » (٢) . لم يروه عن ثابت إلا الحارث بن عبيد فيما نعلمه .

ثم قال تعالى منبهاً على أنه مطلع على الضمائر والسرائر : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى : بما خطر فى القلوب ، ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ ؟ أى : ألا يعلم الخالق . وقيل : معناه : ألا يعلم الله مخلوقه ؟ والأول أولى ، لقوله : ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ .

ثم ذكر نعمته على خلقه فى تسخير له الأرض وتذليله إياها لهم ، بأن جعلها قارة ساكنة لا تمتد (٣) ولا تضطرب (٤) ، بما جعل فيها من الجبال ، وأنبع فيها من العيون ، وسلك فيها من السبل ، وهىأها فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار ، فقال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ أى : فسافروا حيث شئتم من أقطارها ، وترددوا فى أقاليمها وأرجائها فى أنواع المكاسب والتجارات ، واعلموا أن سعيكم لا يجدى عليكم شيئاً ، إلا أن ييسره الله لكم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ ، فالسعى فى السبب لا ينافى التوكل ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حيوة ، أخبرنى بكر بن عمرو ، أنه سمع عبد الله بن هبيرة يقول : إنه سمع أبا تميم الجيشانى يقول : إنه سمع عمر بن الخطاب يقول : إنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا » .

رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه ، من حديث ابن هبيرة (٥) ، وقال الترمذى : حسن صحيح . فأثبت لها رواحا وغدوا لطلب الرزق ، مع توكلها على الله ، عز وجل ، وهو المسخر المسير المسبب . ﴿ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ أى : المرجع يوم القيامة .

(١) صحيح البخارى برقم (٦٦٠) وصحيح مسلم برقم (١٠٣١) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٢) مسند البزار برقم (٥٢) « كشف الأستار » وقال الحافظ ابن حجر فى مختصر الزوائد (٦٧/١) : « الحارث له مناكير وإن أخرج له فى الصحيح » .

(٣) فى أ : « لا تميد » . (٤) فى م : « لا تضطرب ولا تميد » .

(٥) المسند (٣٠ / ١) وسنن الترمذى برقم (٢٣٤٤) وسنن ابن ماجه برقم (٤١٦٤) .

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدى : ﴿ مَنَّاكِهَا ﴾ : أطرافها وفجاجها ونواحيها . وقال ابن عباس وقتادة : ﴿ مَنَّاكِهَا ﴾ : الجبال .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عمرو بن حكام الأزدي ، حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن يونس بن جبیر ، عن بشير بن كعب : أنه قرأ هذه الآية : ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَّاكِهَا ﴾ فقال لأم ولد له : إن علمت ﴿ مَنَّاكِهَا ﴾ فأنت عتيقة . فقالت : هي الجبال . فسأل أبو الدرداء فقال : هي الجبال .

﴿ أَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) .

وهذا أيضاً من لطفه ورحمته بخلقه أنه قادر على تعذيبهم ، بسبب كفر بعضهم به وعبادتهم معه غيره وهو مع هذا يحلم ويصفح ، ويؤجل ولا يعجل ، كما قال : ﴿ وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٥] .

وقال هاهنا : ﴿ أَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ أى : تذهب وتحجى وتضطرب ، ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ أى : ريحا فيها حصباء تدمغكم ، كما قال : ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٨] . وهكذا توعدهم هاهنا بقوله : ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ أى : كيف يكون إنذارى وعاقبة من تخلف عنه وكذب به .

ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أى : من الأمم السابقة والقرون الخالية ، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى : فكيف كان إنكارى عليهم ومعاقبتى لهم ؟ أى : عظيماً شديداً أليماً .

ثم قال تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ أى : تارة يصففن أجنحتهن فى الهواء ، وتارة تجمع جناحاً وتشر جناحاً ﴿ مَا يُمَسِّكُهُنَّ ﴾ أى : فى الجو ﴿ إِلَّا الرَّحْمَنُ ﴾ أى : بما سخر لهن من الهواء ، من رحمته ولطفه ، ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ أى : بما يصلح كل شىء من مخلوقاته . وهذه كقوله : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٧٩] .

﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ (٢٠) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى

وَجْهَهُ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٢٧﴾ ﴿٢٧﴾ .

يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا غيره ، يبتغون عندهم نصراً ورزقاً ، منكرًا عليهم فيما اعتقدوه ، ومُخبراً لهم أنه لا يحصل لهم ما أملوه ، فقال : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدُ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ﴾ أي : ليس لكم من دونه من ولى ولا واق ، ولا ناصر لكم غيره ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ .

ثم قال : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ﴾ ؟ أي : من هذا الذى إذا قطع الله رزقه عنكم يرزقكم بعده ؟ ! أي : لا أحد يعطى ويمنع ويخلق ويرزق ، وينصر إلا الله ، عز وجل ، وحده لا شريك له ، أي : وهم يعلمون ذلك ، ومع هذا يعبدون غيره ؛ ولهذا قال : ﴿ بَلْ لَّجُّوا ﴾ أي : استمروا فى طغيانهم وإفكهم وضلالهم ﴿ فِي عَتَوٍ وَنُفُورٍ ﴾ أي : معاندة واستكباراً ونفوراً على أدبارهم عن الحق ، [أي] ^(١) : لا يسمعون له ولا يتبعونه .

ثم قال : ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ؟ : وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشى مُكِبًّا على وجهه ، أي : يمشى منحنيا لا مستويا على وجهه ، أي : لا يدرى أين يسلك ولا كيف يذهب ؟ بل تائه حائر ضال ، أهذا أهدى ﴿ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا ﴾ أي : منتصب القامة ﴿ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أي : على طريق واضح بين ، وهو فى نفسه مستقيم ، وطريقه مستقيمة . هذا مثلهم فى الدنيا ، وكذلك يكونون فى الآخرة . فالؤمن يحشر يمشى سويًّا على صراط مستقيم ، مُفَضَّصٌ به إلى الجنة الفيحاء ، وأما الكافر فإنه يحشر يمشى على وجهه إلى نار جهنم ، ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ . وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ . مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ . بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ [الصافات: ٢٢- ٢٦] .

قال الإمام أحمد ، رحمه الله : حدثنا ابن نمير ، حدثنا إسماعيل ، عن نُفَيْع قال : سمعت أنس بن مالك يقول : قيل : يا رسول الله ، كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ فقال : « أليس الذى أمشاهم على أرجلهم قادراً على أن يمشيهم على وجوههم » ^(٢) .

وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين من طريق [يونس بن محمد ، عن شيبان ، عن قتادة ، عن

(١) زيادة من م .

(٢) المسند (٣/ ١٦٧) .

أنس ، به نحوه [(١) (٢)] .

وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ ﴾ أى : ابتداء خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ أى : العقول والإدراك ، ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أى : ما أقل تستعملون هذه القوى التى أنعم الله بها عليكم ، فى طاعته وامتنال أوامره وترك زواجره .

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : بشكم ونشركم فى أقطار الأرض وأرجائها ، مع اختلاف ألسنتكم فى لغاتكم وألوانكم ، وحلاكم وأشكالكم وصوركم ، ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أى : تُجمعون بعد هذا التفرق والشتات ، يجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بدأكم .

ثم قال مخبراً عن الكفار المنكرين المعاد المستبعدين وقوعه : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى : متى [يقع] (٣) هذا الذى تخبرنا بكونه من الاجتماع بعد هذا التفرق ؟ ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى : لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا الله ، عز وجل ، لكنه أمرنى أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة فاحذروه ، ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ : وإنما على البلاغ ، وقد أدبته إليكم .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : لما قامت القيامة وشاهدها الكفار ، ورأوا أن الأمر كان قريباً ؛ لأن كل ما هو آت آت وإن طال زمنه ، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك ، لما يعلمون ما لهم هناك من الشر ، أى : فأحاط بهم ذلك ، وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم فى بال ولا حساب ، ﴿ وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ . وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا (٤) وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الزمر: ٤٧ ، ٤٨] ؛ ولهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ : ﴿ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴾ أى : تستعجلون .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِى اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ : يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمه : ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِى اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى : خلصوا أنفسكم ، فإنه لا منقذ لكم من الله إلا التوبة والإنابة ، والرجوع إلى دينه ، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنكال ، فسواء عذبنا الله أو رحمنا ، فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم .

ثم قال : ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أى : آمنا برب العالمين الرحمن الرحيم ، وعليه

(١) زيادة من م ، أ .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧٦٠) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٦) .

(٣) زيادة من م .

(٤) فى م : « ما عملوا » وهو خطأ .

توكلنا فى جميع أمورنا ، كما قال : ﴿ فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود:١٢٣] . ولهذا قال : ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ؟ أى : منا ومنكم ، ولمن تكون العاقبة فى الدنيا والآخرة ؟ .

ثم قال : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا ﴾ أى : ذاهبا فى الأرض إلى أسفل ، فلا يُنال بالفتوس الحداد ، ولا السواعد الشداد ، والغائر : عكس النابع ؛ ولهذا قال : ﴿ فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾ ؟ أى : نابع سائح جار على وجه الأرض ، لا يقدر على ذلك إلا الله ، عز وجل ، فمن فضله وكرمه [أن] ^(١) أنبع لكم المياه وأجراها فى سائر أقطار الأرض ، بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة ، فله الحمد والمنة .

[آخر تفسير سورة « تبارك » ، ولله الحمد] ^(٢)

(١) زيادة من أ .

(٢) زيادة من م ، وفى أ : « آخر تفسير سورة الملك ولله الحمد والثناء الحسن الجميل » .

تفسير سورة « ن »

وهي مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتَبْصُرُ وَيُصْرُونَ (٥) بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) .

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول «سورة البقرة» ، وأن قوله : ﴿ ن ﴾ كقوله : ﴿ ص ﴾ ، ﴿ ق ﴾ ، ونحو ذلك من الحروف المقطعة في أوائل السور ، وتحرير القول في ذلك بما أغنى عن إعادته .
وقيل : المراد بقوله : ﴿ ن ﴾ : حوت عظيم على تيار الماء العظيم المحيط ، وهو حامل (١) للأرضين السبع ، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير :

حدثنا ابن بشار ، حدثنا يحيى ، حدثنا سفيان — هو الثوري — حدثنا سليمان — هو الأعمش — عن أبي ظبيان ، عن ابن عباس قال : أول ما خلق الله القلم قال : اكتب . قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب القدر . فجري بما يكون من ذلك اليوم إلى يوم قيام الساعة . ثم خلق « النون » ورفع بخار الماء ، ففتتقت منه السماء ، وبسطت الأرض على ظهر النون ، فاضطرب النون فمادت الأرض ، فأثبتت بالجبال ، فإنها لتفخر على الأرض (٢) .

وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن سنان ، عن أبي معاوية ، عن الأعمش ، به . وهكذا رواه شعبة ، ومحمد بن فضيل ، ووكيع ، عن الأعمش ، به . وزاد شعبة في روايته : ثم قرأ : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ . وقد رواه شريك ، عن الأعمش ، عن أبي ظبيان — أو مجاهد — عن ابن عباس ، فذكر نحوه . ورواه معمر ، عن الأعمش : أن ابن عباس قال ... فذكره ، ثم قرأ : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ . ثم قال ابن جرير :

حدثنا ابن حميد ، حدثنا جرير ، عن عطاء ، عن أبي الضحى ، عن ابن عباس قال : إن أول شيء خلق ربي ، عز وجل ، القلم ، ثم قال له : اكتب . فكتب ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة . ثم خلق « النون » فوق الماء ، ثم كبس الأرض عليه (٣) .

(١) في أ : « وهو الحامل » .

(٢) تفسير الطبري (٩/٢٩) .

(٣) تفسير الطبري (١٠/٢٩) .

وقد روى الطبراني ذلك مرفوعاً فقال : حدثنا أبو حبيب ^(١) زيد بن المهدي المروزي ^(٢) ، حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقاني ، حدثنا مؤمل بن إسماعيل ، حدثنا حماد بن زيد ، عن عطاء بن السائب ، عن أبي الضحى مسلم بن صبيح ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما خلق الله القلم والحوت ، قال للقلم : اكتب ، قال : ما أكتب ، قال : كل شيء كائن إلى يوم القيامة . ثم قرأ : ﴿ نَ وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ، فالنون : الحوت . والقلم : القلم ^(٣) .

حديث آخر في ذلك : رواه ابن عساكر عن أبي عبد الله مولى بنى أمية ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول شيء خلقه الله القلم ، ثم خلق « النون » وهى : الدواة . ثم قال له : اكتب . قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب ما يكون - أو : ما هو كائن - من عمل أو رزق أو أثر أو أجل . فكتب ذلك إلى يوم القيامة ، فذلك قوله : ﴿ نَ وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ . ثم ختم على القلم فلم يتكلم إلى يوم القيامة ، ثم خلق العقل وقال : وعزتي لأكملنك فيمن أحببت ، ولأنقصنك ممن أبغضت ^(٤) .

وقال ابن أبي نجيح : إن إبراهيم بن أبي بكر أخبره عن مجاهد قال : كان يقال : النون : الحوت [العظيم] ^(٥) الذى تحت الأرض السابعة .

وذكر البغوى وجماعة من المفسرين : إن على ظهر هذا الحوت صخرة سمكها كغلظ السموات والأرض ، وعلى ظهرها ثور له أربعون ألف قرن ، وعلى متنه الأرضون السبع وما فيهن وما بينهن ^(٦) ، قاله أعلم . ومن العجيب ^(٧) أن بعضهم حمل على هذا المعنى الحديث الذى رواه الإمام أحمد :

حدثنا إسماعيل ، حدثنا حميد ، عن أنس : أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم رسول الله ﷺ المدينة ، فأتاه فسأله عن أشياء ، قال : إنى سائلك عن أشياء لا يعلمها إلا نبي ، قال : ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ وما بال الولد يتزع إلى أبيه ؟ والولد يتزع إلى أمه ؟ قال : « أخبرنى بهن جبريل آفأ » . قال ابن سلام : فذاك عدو اليهود من الملائكة . قال : « أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم ^(٨) من المشرق إلى المغرب . وأول طعام يأكله أهل الجنة زيادة كبد حوت . وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد ، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع » .

(١) فى أ : « أبو صهيب » . (٢) فى أ : « المهدي » .

(٣) المعجم الكبير (٤٣٣/١١) وقال : « لم يرفعه عن حماد بن زيد إلا مؤمل بن إسماعيل » . ومؤمل كثير الخطأ ، فلعله أخطأ فى رفعه . (٤) تاريخ دمشق (٤٩٢/١٧) « المخطوط » (٤٥٤/١) من طريق يحيى البغاسنى ، عن أبي عبد الله ، عن أبي صالح ، به . ورواه ابن عدى فى الكامل (٢٦٩/٦) من طريق محمد بن وهب ، عن مسلم ، عن مالك ، عن سمى ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة مرفوعاً بنحوه ، وقال : « هذا بهذا الإسناد باطل منكر » وآفته محمد بن وهب . قال الذهبى فى الميزان : « صدق ابن عدى فى أن هذا الحديث باطل » .

(٥) زيادة من م .

(٦) معالم التنزيل (١٨٦/٨) وهذا من الإسرائيليات كما ذكر ذلك الشيخ محمد أبو شهبة فى كتابه : « الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير » (ص ٣٠٥) وقال الإمام ابن القيم فى المنار المنيف (ص ٧٦) فى ذكر علامات الوضع : « أن يكون الحديث مما تشهد الشواهد الصحيحة على بطلانه ، ومن هذا حديث : « إن الأرض على صخرة ، والصخرة على قرن ثور ، فإذا حرك الثور قرنه تحركت الصخرة ، فتحركت الأرض ، وهى الزلزلة » والعجب من مسود كُتبه بهذه الهذيان » . أ. هـ .

(٧) فى أ : « ومن العجب » . (٨) فى أ : « تحشر الناس » .

ورواه البخارى من طرق عن حميد ، ورواه مسلم أيضا ^(١) . وله من حديث ثوبان - مولى رسول الله ﷺ - نحو هذا . وفى صحيح مسلم من حديث أبى أسماء الرحبى ، عن ثوبان : أن حبراً سأل رسول الله ﷺ عن مسائل ، فكان منها أن قال : فما تحفهم ؟ - يعنى أهل الجنة حين يدخلون الجنة - قال : « زيادة كبد الحوت » . قال : فما غذاؤهم على إثرها ؟ قال : « ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل من أطرافها » . قال : فما شربهم عليه ؟ قال : « من عين فيها تسمى سلسيلا » ^(٢) .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ ن ﴾ : لوح من نور .

قال ابن جرير : حدثنا الحسين بن شبيب المكتب ، حدثنا محمد بن زياد الجزرى ، عن فرات بن أبى الفرات ، عن معاوية بن قرة ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ ن وَالْقَلَمُ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ : لوح من نور ، وقلم من نور ، يجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة ^(٣) . وهذا مرسل غريب .

وقال ابن جرير ^(٤) : أخبرنا أن ذلك القلم من نور طوله مائة عام .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ ن ﴾ : دواة ، والقلم : القلم . قال ابن جرير :

حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن الحسن وقتادة فى قوله : ﴿ ن ﴾ قالوا : هى الدواة .

وقد روى فى هذا حديث مرفوع غريب جداً فقال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن خالد ، حدثنا الحسن بن يحيى ، حدثنا أبو عبد الله مولى بنى أمية ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خلق الله النون ، وهى الدواة » ^(٥) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يعقوب ، حدثنا أخى عيسى بن عبد الله ، حدثنا ثابت الشمالى ، عن ابن عباس قال : إن الله خلق النون - وهى الدواة - وخلق القلم ، فقال : اكتب . قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل معمول ، بر أو فجور ، أو رزق مقسوم حلال أو حرام . ثم ألزم كل شىء من ذلك ، شأنه : دخوله فى الدنيا ، ومقامه فيها كم ؟ وخروجه منها كيف ؟ ثم جعل على العباد حفظة ، وللكتاب خزاناً ، فالحفظة ينسخون كل يوم من الخزان عمل ذلك اليوم ، فإذا فنى الرزق وانقطع الأثر وانقضى الأجل ، أتت الحفظة الخزنة يطلبون عمل ذلك اليوم ، فتقول لهم الخزنة : ما نجد لصاحبكم عندنا شيئاً . فترجع الحفظة فيجدونها قد ماتوا . قال : فقال ابن عباس : أليست قوماً عرباً تسمعون الحفظة يقولون : ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٩] ؟ وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل ^(٦) .

(١) المسند (١٨٩/٣) وصحيح البخارى برقم (٣٩٣٨) ولم أقع عليه فى صحيح مسلم .

(٢) صحيح مسلم برقم (٣١٥) .

(٣) تفسير الطبرى (١٠/٢٩) .

(٤) فى أ : « ابن جرير » .

(٥) ورواه ابن عساکر فى تاريخ دمشق (٤٩٢/١٧) « المخطوط » من طريق الفريابى ، عن هشام ، عن الحسن بن يحيى به مطولاً ، وقد تقدم قريباً فى هذه السورة .

(٦) تفسير الطبرى (١٠/٢٩) .

وقوله : ﴿وَالْقَلَمَ﴾ : الظاهر أنه جنس القلم الذى يكتب به كقوله : ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٣ - ٥] . فهو قسم منه تعالى ، وتبنيه لخلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التى بها تنال العلوم ؛ ولهذا قال : ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : يعنى : وما يكتبون .

وقال أبو الضُّحى ، عن ابن عباس : ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أى : وما يعملون .

وقال السدى : ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ : يعنى الملائكة وما تكتب من عمل العباد .

وقال آخرون : بل المراد هاهنا بالقلم الذى أجراه الله بالقدر حين كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرضين بخمسين ألف سنة . وأوردوا فى ذلك الأحاديث الواردة فى ذكر القلم ، فقال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان ويونس بن حبيب قالوا : حدثنا أبو داود الطيالسى ، حدثنا عبد الواحد بن سليم السلمى ، عن عطاء - هو ابن أبى رباح - حدثنى الوليد بن عباد بن الصامت قال : دعانى أبى حين حضره الموت فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب . قال : يا رب ما أكتب ؟ قال : اكتب القدر [ما كان] ^(١) وما هو كائن إلى الأبد » .

وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد من طرق ، عن الوليد بن عباد ، عن أبيه ، به ^(٢) . وأخرجه الترمذى من حديث أبى داود الطيالسى ، به ^(٣) . وقال : حسن صحيح غريب . ورواه أبو داود فى كتاب « السنة » من سننه ، عن جعفر بن مسافر ، عن يحيى بن حسان ، عن ابن رباح ، عن إبراهيم بن أبى عبله ^(٤) ، عن أبى حفصة - واسمه حبيش بن شريح الحبشى الشامى - عن عباد ، فذكره ^(٥) .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الله الطوسى ، حدثنا على بن الحسن بن شقيق ، أنبأنا عبد الله بن المبارك ، حدثنا رباح بن زيد ، عن عمر بن حبيب ، عن القاسم بن أبى بزة ^(٦) ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أنه كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال : « إن أول شيء خلقه الله القلم ، فأمره فكتب كل شيء » . غريب من هذا الوجه ، ولم يخرجوه ^(٧) .

وقال ابن أبى نجیح ، عن مجاهد : ﴿وَالْقَلَمَ﴾ يعنى : الذى كتب به الذكر .

وقوله : ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أى : يكتبون ، كما تقدم .

(١) زيادة من منحة المعبود . مستفاداً من هامش ط - الشعب .

(٢) المسند (٣١٧/٥) .

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٣١٩) .

(٤) فى أ : « عن ابن أبى عبله » .

(٥) سنن أبى داود برقم (٤٧٠٠) .

(٦) فى أ : « بن أبى مرة » .

(٧) تفسير الطبرى (١١/٢٩) .

وقوله : ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ أى : لست ، ولله الحمد ، بمجنون ، كما قد يقوله الجهلة من قومك ، والمكذبون بما جتتهم به من الهدى والحق المبين ، فنسبوك فيه إلى الجنون ، ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أى : بل لك الأجر العظيم ، والثواب الجزيل الذى لا ينقطع ولا يبسد ، على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق ، وصبرك على أذاهم . ومعنى ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أى : غير مقطوع كقوله : ﴿ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود: ١٠٨] ، ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين: ٦] أى : غير مقطوع عنهم . وقال مجاهد : ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أى : غير محسوب ، وهو يرجع إلى ما قلناه .

وقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ : قال العوفى ، عن ابن عباس : أى : وإنك لعلى دين (١) عظيم ، وهو الإسلام . وكذلك قال مجاهد ، وأبو مالك ، والسدى ، والربيع بن أنس ، والضحاك ، وابن زيد .

وقال عطية : لعلى أدب عظيم . وقال معمر ، عن قتادة : سئلت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ . قالت : كان خلقه القرآن ، تقول : كما هو فى القرآن .

وقال سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة قوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ : ذكر لنا أن سعد (٢) ابن هشام سأل عائشة عن خلق رسول الله ﷺ . فقالت : أليست تقرأ القرآن ؟ قال : بلى . قالت : فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة ، عن زُرارة بن أوفى (٣) ، عن سعد بن هشام قال : سألت عائشة فقلت : أخبرينى يا أم المؤمنين — عن خُلُقِ رسول الله ﷺ . فقالت : أنقرأ القرآن ؟ قلت : نعم . فقالت : كان خلقه القرآن (٤) .

هذا حديث طويل . وقد رواه الإمام مسلم فى صحيحه ، من حديث قتادة بطوله (٥) . وسيأتى فى سورة « المزمل » إن شاء الله تعالى .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا يونس ، عن الحسن قال : سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ ، فقالت : كان خلقه القرآن (٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود ، حدثنا شريك ، عن قيس بن وهب ، عن رجل من بنى سواد قال : سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ . فقالت : أما تقرأ القرآن : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ؟ قال : قلت : حدثينى عن ذلك . قالت : صنعت له طعاماً ، وصنعت له حفصة طعاماً ، فقلت لجارىتى : اذهبي فإن جاءت هى بالطعام فوضعه قبل فاطرحتى الطعام ! قالت : فجاءت بالطعام . قالت : فألقت (٧) الجارية ، فوقع القصعة فانكسرت — وكان نطعاً (٨) — قالت : فجمعه رسول الله

(١) فى أ : « لعلى خلق » . (٢) فى أ : « أن سعيد » . (٣) فى أ : « زُرارة بن أبى أوفى » .

(٤) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٢٤٥) .

(٥) صحيح مسلم برقم (٧٤٦) .

(٦) المسند (٦/ ٢١٦) .

(٧) فى أ : « فالتفت » .

(٨) فى هـ ، م ، أ : « نطع » ، والمثبت من المسند .

ﷺ وقال : « اقتضوا - أو : اقتضى - شك أسود - ظرفاً مكان ظرفك » . قالت : فما قال شيئاً ^(١) .

وقال ابن جرير : حدثنا عبيد بن آدم بن أبي أياس ، حدثنا أبي ، حدثنا المبارك بن فضالة ، عن الحسن ، عن سعد ^(٢) بن هشام : قال : أتيت عائشة أم المؤمنين فقلت لها : أخبريني بخُلُقِ النبي ^(٣) ﷺ . فقالت : كان خلقه القرآن . أما تقرأ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وقد روى أبو داود والنسائي ، من حديث الحسن ، نحوه ^(٤) .

وقال ابن جرير : حدثني يونس ، أنبأنا ابن وهب ، وأخبرني معاوية بن صالح ، عن أبي الزاهرية ، عن جبير بن نفير قال : حججتُ فدخلتُ على عائشة ، رضى الله عنها ، فسألتها عن خُلُقِ رسول الله ﷺ . فقالت : كان خُلُقُ رسول الله ﷺ القرآن .

هكذا رواه أحمد ، عن عبد الرحمن بن مهدي . ورواه النسائي في التفسير ، عن إسحاق بن منصور ، عن عبد الرحمن بن مهدي ، عن معاوية بن صالح ، به ^(٥) .

ومعنى هذا أنه ، عليه السلام ، صار امتثالُ القرآن ، أمراً ونهياً ، سجيةً له ، وخلقاً تطبَّعه ، وترك طبعه الجبلي ، فمهما أمره القرآن فعله ، ومهما نهاه عنه تركه . هذا مع ما جبَّله الله عليه من الخلق العظيم ، من الحياء والكرم والشجاعة ، والصفح والحلم ، وكل خلق جميل . كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال : خدمتُ رسولَ الله ﷺ عشر سنين فما قال لى : « أف » قط ، ولا قال لشيء فعلته : لم فعلته ؟ ولا لشيء لم أفعله : ألا فعلته ؟ وكان ﷺ أحسن الناس خلقاً ، ولا مَسْتُ خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ ، ولا شَمَمْتُ مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عَرَقِ رسول الله ﷺ ^(٦) .

وقال البخاري : [حدثنا أحمد بن سعيد أبو عبد الله ^(٧)] ، حدثنا إسحاق بن منصور ، حدثنا إبراهيم بن يوسف ، عن أبيه ، عن أبي إسحاق قال : سمعت البراء يقول : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً ، وأحسن الناس خلقاً ، ليس بالطويل البائن ، ولا بالقصير ^(٨) .

والأحاديث في هذا كثيرة ، ولأبي عيسى الترمذي في هذا كتاب « الشمائل » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة قالت : ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً له قط ، ولا امرأة ، ولا ضرب بيده شيئاً قط ، إلا أن

(١) المسند (١١/٦) .

(٢) في هـ ، أ : « سعيد » ، والمثبت من م وتفسير الطبري .

(٣) في م : « رسول الله » .

(٤) تفسير الطبري (١٣/٢٩) وسنن أبي داود برقم (١٣٥٢) وسنن النسائي (٣/٢٢٠) .

(٥) تفسير الطبري (١٣/٢٩) والمسند (٦ / ١٨٨) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١١٣٨) .

(٦) صحيح البخاري برقم (٦٠٣٨) وصحيح مسلم برقم (٢٣٠٩) .

(٧) زيادة من م ، أ ، وصحيح البخاري .

(٨) صحيح البخاري برقم (٣٥٤٩) .

يجاهد فى سبيل الله . ولا خير بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثماً ، فإذا كان إثماً كان أبعد الناس من الإثم ، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمة الله ، فيكون هو ينتقم لله ، عز وجل (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سعيد بن منصور ، حدثنا عبد العزيز بن محمد ، عن محمد بن عجلان ، عن القعقاع بن حكيم ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق » . تفرد به (٢) .

وقوله : ﴿ فَسْتَبْصِرْ وَيُصْبِرُونَ . بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾ أى : فستعلم يا محمد ، وسيعلم مخالفوك ومكذبوك : من المفتون الضال منك ومنهم . وهذه كقوله تعالى : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشْرُ ﴾ [القمر: ٢٦] ، وكقوله : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤] .

قال ابن جريج : قال ابن عباس فى هذه الآية : ستعلم ويعلمون يوم القيامة .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾ أى : الجنون . وكذا قال مجاهد ، وغيره . وقال قتادة وغيره : ﴿ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾ أى : أولى بالشيطان .

ومعنى المفتون ظاهر ، أى : الذى قد افتتن عن الحق وضل عنه ، وإنما دخلت الباء فى قوله : ﴿ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾ لتدل على تضمين الفعل فى قوله : ﴿ فَسْتَبْصِرْ وَيُصْبِرُونَ ﴾ وتقديره : فستعلم ويعلمون ، أو : فستخبر ويخبرون بأىكم المفتون . والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ أى : هو يعلم تعالى أى الفريقين منكم ومنهم هو المهتدى ، ويعلم الحزب الضال عن الحق .

﴿ فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تَدَّهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) وَلَا تَطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عَتَلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تَتَلَّىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ (١٦) ﴾ .

يقول تعالى : كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم والخلق العظيم ﴿ فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

﴿ وَدُّوا لَوْ تَدَّهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ : قال ابن عباس : لو تُرَخَّصَ لهم فَيُرَخَّصُونَ .

وقال مجاهد : ودوا لو تركن إلى آلهتهم وتترك ما أنت عليه من الحق .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ : وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانتة إنما يتقى بأيمانه الكاذبة التى يجترئ بها على أسماء الله تعالى ، واستعمالها فى كل وقت فى غير محلها .

(١) المسند (٦/ ٢٣٢) .

(٢) المسند (٢/ ٣٨١) .

قال ابن عباس : المهين الكاذب . وقال مجاهد : هو الضعيف القلب . قال الحسن : كل حلاف مكابر مهين ضعيف .

وقوله : ﴿ هَمَّازٍ ﴾ : قال ابن عباس وقتادة : يعنى الاغتياب .

﴿ مَشَاءٍ بَنَمِيمٍ ﴾ يعنى : الذى يمشى بين الناس ، ويحرش بينهم وينقل الحديث لفساد ذات البين ، وهى الخالقة ، وقد ثبت فى الصحيحين من حديث مجاهد ، عن طاوس ، عن ابن عباس قال : مر رسول الله ﷺ بقبرين فقال : « إنيهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير ، أما أحدهما فكان لا يستتر ^(١) من البول ، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة » الحديث . وأخرجه بقية الجماعة فى كتبهم ، من طرق عن مجاهد ، به ^(٢) .

وقال أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم ، عن همام ، أن حذيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة قتات » .

رواه الجماعة — إلا ابن ماجه — من طرق ، عن إبراهيم ، به ^(٣) .

وحدثنا عبد الرزاق ، حدثنا الثورى ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن همام ، عن حذيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة قتات » يعنى : نماما ^(٤) .

وحدثنا يحيى بن سعيد القطان أبو سعيد الأحول ، عن الأعمش ، حدثني إبراهيم — منذ نحو ستين سنة — عن همام بن الحرث قال : مر رجل على حذيفة فقيل : إن هذا يرفع الحديث إلى الأمراء . فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول — أو : قال — : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة قتات » ^(٥) .

وقال أحمد : حدثنا هاشم ، حدثنا مهدي ، عن واصل الأحذب ، عن أبى وائل قال : بلغ حذيفة عن رجل أنه ينم الحديث ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ قال : « لا يدخل الجنة نمام » ^(٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن ابن خثيم ، عن شهر بن حوشب ، عن أسماء بنت يزيد بن السكن ؛ أن النبى ﷺ قال : « ألا أخبركم بخياركم ؟ » . قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « الذين إذا رؤوا ذكر الله ، عز وجل » . ثم قال : « ألا أخبركم بشراكم ؟ المشاؤون بالنميمة ، المفسدون بين الأحبة ، الباغون للبراء العنت » .

ورواه ابن ماجه ، عن سويد بن سعيد ، عن يحيى بن سليم ، عن ابن خثيم ، به ^(٧) .

(١) فى أ : « لا يستبرى » .

(٢) صحيح البخارى برقم (٢١٨) وصحيح مسلم برقم (٢٩٢) وسنن أبى داود برقم (٢٠) وسنن الترمذى برقم (٧٠) وسنن النسائى (٢٨/١) وسنن ابن ماجه برقم (٣٤٧) .

(٣) المسند (٣٨٢/٥) وصحيح البخارى برقم (٦٥٠٦) وصحيح مسلم برقم (١٠٥) وسنن أبى داود برقم (٤٨٧١) وسنن الترمذى برقم (٢٠٢٦) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٤) .

(٤ ، ٥) المسند (٣٨٩/٥) .

(٦) المسند (٣٩١/٥) .

(٧) المسند (٤٥٩/٦) وسنن ابن ماجه برقم (٤١١٩) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢٧٣/٣) : « هذا إسناد حسن ، شهر وسويد مختلف فيهما ، وباقى رجال الإسناد ثقات » .

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن ابن أبي حُسَيْن، عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن ابن غنم - يبلغ به النبي ﷺ: « خيار عباد الله الذين إذا رُؤوا ذُكِرَ الله، وشرار عباد الله المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبراء العنت » (١).

وقوله: ﴿ مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَتِيمٌ ﴾ أى: يمنع ما عليه وما لديه من الخير ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ فى تناول ما أحل الله له، يتجاوز فيها الحد المشروع ﴿ أَتِيمٌ ﴾ أى: يتناول المحرمات.

وقوله: ﴿ عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ ﴾: أما العتل: الفظ الغليظ الصحيح، الجموع المنوع.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وعبد الرحمن، عن سفيان، عن معبد (٢) بن خالد، عن حارثة بن وهب قال: قال رسول الله ﷺ: « ألا أنبئكم بأهل الجنة؟ كل ضيعف متضعف لو أقسم على الله لأبره، ألا أنبئكم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر ». وقال وكيع: « كل جواظ جعظرى مستكبر ».

أخرجاه فى الصحيحين وبقية الجماعة، إلا أبا داود، من حديث سفيان الثورى وشعبة، كلاهما عن معبد بن خالد، به (٣).

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا موسى بن على قال: سمعت أبا يحدث عن عبد الله بن عمرو بن العاص؛ أن النبي ﷺ قال عند ذكر أهل النار: « كل جعظرى جواظ مستكبر جماع مناع ». تفرد به أحمد (٤).

قال أهل اللغة: الجعظرى: الفظ الغليظ، والجواظ: الجموع المنوع.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا عبد الحميد، عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن ابن غنم، قال: سئل رسول الله ﷺ عن العتل الزنيم، فقال: « هو الشديد الخلق المصحح، الأكل الشروب، الواجد للطعام والشراب، الظلوم للناس، رحيب الجوف » (٥).

وبهذا الإسناد قال رسول الله ﷺ: « لا يدخل الجنة الجواظ الجعظرى، والعتل الزنيم » (٦) وقد أرسله أيضاً غير واحد من التابعين.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن معمر، عن زيد بن أسلم قال قال رسول الله ﷺ: « تبكى السماء من عبد أصبح الله جسمه، وأرحب جوفه، وأعطاه من الدنيا مقضماً، فكان للناس ظلوماً. قال: فذلك العتل (٧) الزنيم » (٨).

(١) المسند (٤/٢٢٧).

(٢) فى أ: « سعيد ».

(٣) المسند (٤/٣٠٦) وصحيح البخارى برقم (٤٩١٨) وصحيح مسلم برقم (٢٨٥٣) وسنن الترمذى برقم (٢٦٠٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٥) وسنن ابن ماجه برقم (٤١١٦).

(٤) المسند (٢/١٦٩) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٣٩٣): « رجاله رجال الصحيح ».

(٥) المسند (٤/٢٢٧) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٣٩٣): « إسناده حسن، إلا أن ابن غنم لم يسمع من النبي ﷺ » وقال فى موضع آخر (٧/١٢٨): « فيه شهر بن حوشب وثقه جماعة وفيه ضعف، وعبد الرحمن بن غنم ليس له صحبة على الصحيح ».

(٦) المسند (٤/٢٢٧).

(٧) فى م، أ: « العبد ».

(٨) تفسير الطبرى (١٩/١٦) وهو مرسل.

وهكذا رواه ابن أبي حاتم من طريقين مرسلين ، ونص عليه غير واحد من السلف ، منهم مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم : أن العتل هو : المصحح الخلق ، الشديد القوى فى المأكل والمشرب والمنكح ، وغير ذلك ، وأما الزنيم فقال البخارى :

حدثنا محمود ، حدثنا عبيد الله ، عن ^(١) إسرائيل ، عن أبى حصين ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : ﴿ عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ ﴾ قال : رجلٌ من قريش له زَمَّةٌ مثل زَمَّةِ الشاة .

ومعنى هذا : أنه كان مشهوراً بالشر ^(٢) كشهرة الشاة ذات الزممة من بين أخواتها . وإنما الزنيم فى لغة العرب : هو الدعى فى القوم . قاله ابن جرير وغير واحد من الأئمة ، قال : ومنه قول حسان ابن ثابت ، يعنى يذم بعض كفار قريش :

وَأَنْتَ زَنِيمٌ نَيْطٌ فِى آلِ هَاشِمٍ كَمَا نَيْطَ خَلْفَ الرَّأبِ الْقَدَحُ الْفَرْدُ ^(٣)

وقال آخر :

زَنِيمٌ لَيْسَ يُعْرِفُ مَنْ أَبُوهُ بَغَى الْأُمُّ ذُو حَسَبٍ لَثِيمٌ

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا عمار بن خالد الواسطى ، حدثنا أسباط ، عن هشام ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ زَنِيمٌ ﴾ قال : الدعى الفاحش اللثيم . ثم قال ابن عباس :

زَنِيمٌ تَدَاعَاهُ الرِّجَالُ زِيَادَةً كَمَا زِيدَ فِى عَرْضِ الْأَدِيمِ الْأَكَارِعُ ^(٤)

وقال العوفى عن ابن عباس : الزنيم : الدعى . ويقال : الزنيم : رجل كانت به زممة ، يعرف بها . ويقال : هو الأخنس بن شريق الثقفى ، حليف بنى زهرة . وزعم أناس من بنى زهرة أن الزنيم الأسود بن عبد يغوث الزهرى ، وليس به .

وقال ابن أبى نجیح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : أنه زعم أن الزنيم الملقق النسب .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنى يونس ، حدثنا ابن وهب ، حدثنى سليمان بن بلال ، عن عبد الرحمن ابن حرملة ، عن سعيد بن المسيب ، أنه سمعه يقول فى هذه الآية : ﴿ عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ ﴾ قال سعيد : هو الملقق فى القوم ، ليس منهم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عقبة بن خالد ، عن عامر بن قدامة قال : سئل عكرمة عن الزنيم ، قال : هو ولد الزنا .

وقال الحكم بن أبان ، عن عكرمة فى قوله تعالى : ﴿ عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ ﴾ قال : يعرف المؤمن من الكافر مثل الشاة الزنماء . والزنماء من الشياه : التى فى عنقها هَتَّان معلقتان فى حلقتها .

وقال الثورى ، عن جابر ، عن الحسن ، عن سعيد بن جبیر قال : الزنيم : الذى يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزمنمتها . والزنيم : الملقق . رواه ابن جرير .

(١) فى أ : « بن » . (٢) فى أ : « بالسوء » .

(٣) تفسير الطبرى (١٩/١٧) .

(٤) البيت فى اللسان ، مادة « زنم » منسوباً إلى الخطيم التميمى .

وروى أيضا من طريق داود بن أبي هند عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال فى الزنيم : قال : نَعْتُ فلم يعرف حتى قيل : زنيم . قال : وكانت له زَنَمَةٌ فى عنقه يُعَرَفُ بها . وقال آخرون : كان دَعِيًّا .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا ابن إدريس ، عن أبيه ، عن أصحاب التفسير قالوا^(١) : هو الذى تكون له زَنَمَةٌ مثل زَنَمَةِ الشاة .

وقال الضحاك : كانت له زَنَمَةٌ فى أصل أذنه ، ويقال : هو اللثيم الملتصق فى النسب .

وقال أبو إسحاق : عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : هو المريب الذى يعرف بالشر .

وقال مجاهد : الزنيم يعرف بهذا الوصف كما تعرف الشاة . وقال أبو رَزِين : الزنيم علامة الكفر . وقال عكرمة : الزنيم الذى يعرف باللؤم كما تعرف الشاة بزَنَمَتِها .

والأقوال فى هذا كثيرة ، وترجع إلى ما قلناه ، وهو أن الزنيم هو : المشهور بالشر ، الذى يعرف به من بين الناس ، وغالباً يكون دعيًّا ولد زنا ، فإنه فى الغالب يتسلط الشيطان عليه مالا يتسلط علي غيره ، كما جاء فى الحديث : « لا يدخل الجنة ولد زنا »^(٢) . وفى الحديث الآخر : « ولد الزنا شرُّ الثلاثة إذا عمل بعمل أبويه »^(٣) .

وقوله : ﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ : يقول تعالى : هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين ، كفر بآيات الله وأعرض عنها ، وزعم أنها كذب مأخوذ من أساطير الأولين ، كقوله : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَدْتُ لَهُ لِمَهْيَدًا . ثُمَّ يُطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا . سَأَرْهُقُهُ صُعُودًا . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَسَىٰ وَیَسَّرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدر: ١١ - ٢٦] . وقال تعالى هاهنا : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ ﴾ .

قال ابن جرير : سنين أمره بياناً واضحاً ، حتى يعرفوه ولا يخفى عليهم ، كما لا تخفى السمة على الخراطيم^(٤) . وهكذا قال قتادة : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ ﴾ : شين لا يفارقه آخر ما عليه .

(١) فى أ : « قال » .

(٢) رواه الإمام أحمد فى المسند (٢٠٣/٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (٤٩٢٥، ٤٩٢٦) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه ، وقد ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات (١١١/٣) قال : « وفيه مخالفة للأصول وأعظمها قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الأنعام: ١٦٤] » . قال الإمام ابن القيم متعباً على ابن الجوزى فى المنار المنيف (ص ١٣٣) : « ليست معرضة بها إن صحت ، فإنه لم يحرم الجنة بفعل والديه ، بل لأن النطفة الخبيثة لا يتخلق منها طيب فى الغالب ، ولا يدخل الجنة إلا نفس طيبة ، فإن كانت فى هذا الجنس طيبة دخلت الجنة ، وكان الحديث من العام المخصوص ، وقد ورد فى ذمه : « أنه شر الثلاثة » وهو حديث حسن ومعناه صحيح بهذا الاعتبار ، فإن شر الأبوين عارض ، وهذه نطفة خبيثة فشره فى أصله وشر الأبوين فى فعلهما » . قلت : ويوجه أيضاً بالتحديد الذى فى حديث عائشة الآتى بأنه شر الثلاثة إذا عملَ عملَ أبويه ، وكلام ابن الجوزى منطبق على حديث : « ولد الزنا فى النار إلى سبعة أبناء » . وهو موضوع .

(٣) رواه الإمام أحمد (١٠٩/٦) من حديث عائشة ، رضى الله عنها ، و(٣١١/٢) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٤) فى م : « على الخرطوم » .

وفى رواية عنه : سيما ^(١) على أنفه . وكذا قال السدى .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ : يقاتل يوم بدر ، فيُخْطَم بالسيف فى القتال . وقال آخرون : ﴿سَنَسِمُهُ﴾ : سمة أهل النار ، يعنى : نسود وجهه يوم القيامة ، وعبر عن الوجه بالخرطوم . وحكى ذلك كله أبو جعفر ابن جرير ، ومال إلى أنه لا مانع من اجتماع الجميع عليه فى الدنيا والآخرة ، وهو مُتَّجِه .

وقد ^(٢) قال ابن أبي حاتم فى سورة ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ : حدثنا أبي ، حدثنا أبو صالح كاتب الليث ، حدثني الليث ، حدثني خالد عن ^(٣) سعيد ، عن عبد الملك بن عبد الله ، عن عيسى بن هلال الصدفى ، عن عبد الله بن عمرو ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن العبد يكتب مؤمناً أحقاباً ثم أحقاباً ^(٤) ثم يموت والله عليه ساخط . وإن العبد يكتب كافراً أحقاباً ثم أحقاباً ، ثم يموت والله عليه ^(٥) راض . ومن مات هَمَازاً لَمَازاً مُلقباً للناس ، كان علامته يوم القيامة أن يسميه الله على الخرطوم ، من كلا الشفتين » ^(٦) .

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَنْوُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ (٢٤) وَغَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣)﴾ .

هذا مَثَلُ ضَرْبِهِ الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة ، وأعطاهم من النعم الجسيمة ، وهو بَعَثُهُ محمداً ﷺ إليهم ، فقابلوه بالكذب والرد والمহারبة ؛ ولهذا قال : ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ أى : اختبرناهم ، ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ وهى البستان المشتمل على أنواع الثمار

(١) فى م : « سنسمه سيما » .

(٢) فى م : « ولهذا » .

(٣) فى م ، أ ، هـ : « بن » والصواب ما أثبتناه من المعجم الكبير للطبرانى .

(٤) فى أ : « أحيانا ثم أحيانا » .

(٥) فى م : « عنه » .

(٦) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير برقم (٦٠) « القطعة المفقودة » والمعجم الأوسط برقم (٣٢٣٤) « مجمع البحرين » عن المطلب الأزدى ، عن عبد الله بن صالح به . وقال فى الأوسط : « لا يروى عن عبد الله بن عمرو إلا بهذا الإسناد ، تفرد به الليث » .

والفواكه ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ أى : حلفوا فيما بينهم ليجذّن ثمرها ليلاً ، لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ، ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء ، ﴿ وَلَا يَسْتَنْوْنَ ﴾ أى : فيما حلفوا به . ولهذا حنّهم الله فى إيمانهم ، فقال : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ أى : أصابتها آفة سماوية ، ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ : قال ابن عباس : أى كالليل الأسود . وقال الثورى ، والسدى : مثل الزرع إذا حُصد ، أى : هشيماً ييساً .

وقال ابن أبى حاتم : ذكر عن أحمد بن الصباح : أنبأنا بشير بن زاذان ، عن عمر بن صبح (١) ، عن ليث بن أبى سليم ، عن عبد الرحمن بن سابط ، عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «إياكم والمعاصي ، إن العبد ليزنّب الذنب فيحرم به رزقاً قد كان هيباً له » ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ . فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ ، قد حرّموا خير جنتهم بذنوبهم (٢) .

﴿ فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ ﴾ أى : لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى الجذاذ ، ﴿ أَنْ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ ﴾ أى : تريدون الصرام . قال مجاهد : كان حرثهم عنباً ﴿ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴾ أى : يتناجون فيما بينهم بحيث لا يسمعون أحداً كلامهم . ثم فسر الله عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به ، فقال : ﴿ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ . أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴾ أى : يقول بعضهم لبعض : لا تمكنوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم ! قال الله تعالى : ﴿ وَغَدُوا عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ أى : قوة وشدة . وقال مجاهد : ﴿ وَغَدُوا عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ أى : جد . وقال عكرمة : غيظ . وقال الشعبي : ﴿ عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ : على المساكين . وقال السدى : ﴿ عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ أى : كان اسم قريتهم حرد . فأبعد السدى فى قوله هذا ! .

﴿ قَادِرِينَ ﴾ أى : عليها فيما يزعمون ويرومون . ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ أى : فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها ، وهى على الحالة التى قال الله ، عز وجل ، قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مُدْلِهَمَةً ، لا يُنتفع بشيء منها ، فاعتقدوا أنهم قد أخطؤوا الطريق ؛ ولهذا قالوا : ﴿ إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ أى : قد سلكنّا إليها غير الطريق فتهنأ عنها . قاله ابن عباس وغيره . ثم رجعوا عما كانوا فيه ، وتيقنوا أنها هى فقالوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أى : بل هذه هى ، ولكن نحن لا حظّ لنا ولا نصيب .

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبیر ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب ، والربيع بن أنس ، والضحاك ، وقتادة : أى : أعدلهم وخيرهم : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ ! قال مجاهد ، والسدى ، وابن جريج : ﴿ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ أى : لولا تستثنون . قال السدى : وكان استثناءهم فى ذلك الزمان تسييحاً .

(١) فى أ : « بن صبح » .

(٢) وفى إسناده عمر بن صبح قال ابن حبان : كان ممن يضع الحديث . وقال الدارقطنى : متروك . وقال الأزدى : كذاب . وله شاهد من حديث ثوبان ، رضى الله عنه ، رواه الإمام أحمد فى المسند (٢٧٧/٥) .

قال ابن جريج : هو قول القائل : إن شاء الله . وقيل : معناه : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ أى : هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم ، ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ، أتوا بالطاعة حيث لا تنفع ، وندموا واعترفوا حيث لا ينجع ؛ ولهذا قالوا : ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ . فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴿ أى : يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجذاذ ، فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب ، ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أى : اعتدنا وبغينا وطغينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا ، ﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ قيل : رغبوا فى بدلها لهم فى الدنيا . وقيل : احتسبوا ثوابها فى الدار الآخرة ، والله أعلم .

ثم قد ذكر بعض السلف أن هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن — قال سعيد بن جبير : كانوا من قرية يقال لها ضروان ^(١) ، على ستة أميال من صنعاء . وقيل : كانوا من أهل الحبشة — وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة ، وكانوا من أهل الكتاب ، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة ، فكان ما استغله منها يرد فيها ما يحتاج إليها ويدخر لعياله قوت سنتهم ، ويتصدق بالفاضل . فلما مات ورثه بنوه ، قالوا : لقد كان أبونا أحق إذ كان يصرف من هذه شيئاً للفقراء ، ولو أننا منعناهم لتوفر ذلك علينا . فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم ، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية ، ورأس المال والربح والصدقة ، فلم يبق لهم شيء .

قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ ﴾ أى : هكذا عذاب من خالف أمر الله ، وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه ، ومنع حق المساكين والفقراء ^(٢) وذوى الحاجات ، وبدل نعمة الله كفراً ﴿ وَلَْعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم ، وعذاب الآخرة أشق . وقد ورد فى حديث رواه الحافظ البيهقى من طريق جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، عن أبيه ، عن جده ؛ أن رسول الله ﷺ نهى عن الجداد ^(٣) بالليل ، والحصاد بالليل ^(٤) .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْغَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٤١) ﴾ .

(١) فى أ : « جردان » .

(٢) فى أ : « حق المسكين والفقير » .

(٣) فى م ، أ ، هـ : « الجذاذ » بالذال وهو خطأ والمثبت من سنن البيهقى .

(٤) سنن البيهقى الكبرى (١٣٣/٤) والجداد — بالدال بالفتح والكسر — قال ابن الأثير فى النهاية (٢٤٤/١) : « هى صرام النخل ، وهو قطع ثمرتها ، يقال : جد الثمرة يجردها جداً ، وإنما نهى عن ذلك لأجل المساكين حتى يحضروا فى النهار فيتصدق عليهم منه » .

لما ذكر [الله] ^(١) تعالى حال أهل الجنة الدنيوية ، وما أصابهم فيها من النعمة حين عصوا الله ، عز وجل ، وخالفوا أمره ، بين أن لمن اتقاه وأطاعه فى الدار الآخرة جنات النعيم التى لا تبيد ولا تفرغ ولا ينقضى نعيمها .

ثم قال : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ ؟ أى : أنساوى بين هؤلاء وهؤلاء فى الجزاء ؟ كلا ورب الأرض والسماء ؛ ولهذا قال : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ ! أى : كيف تظنون ذلك ؟ .

ثم قال : ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ . إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ يقول : أفبايديكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه بنقل الخلف عن السلف ، متضمن حكما مؤكداً كما تدعونه؟ ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ . أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْغَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ أى : أمعكم عهود منا ومواثيق مؤكدة ، ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ أى : إنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتنون ، ﴿ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴾ ؟ أى : قل لهم : من هو المتضمن المتكفل بهذا ؟ ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ﴾ أى : من الأصنام والأنداد ، ﴿ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ .

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرَاهُمْ ذُلًّا وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣) فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) ﴾ .

لما ذكر تعالى أن للمتقين عنده ^(٢) جنات النعيم ، بين متى ذلك كائن وواقع ، فقال : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ يعنى : يوم القيامة وما يكون فيه من الأحوال والزلازل والبلاء والامتحان والأمور العظام . وقد قال البخارى هاهنا :

حدثنا آدم ، حدثنا الليث ، عن خالد بن يزيد ، عن سعيد بن أبى هلال ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « يُكْشَفُ رَبَّنَا عَنْ سَاقِهِ ، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة ، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً » ^(٣) .

وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين وفى غيرهما من طرق ^(٤) ، وله ألفاظ ، وهو حديث طويل مشهور .

وقد قال عبد الله بن المبارك ، عن أسامة بن زيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ

(١) زيادة من م . (٢) فى م : « عند ربهم » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩١٩) .

(٤) وهو حديث الشفاعة وقد سبق سياقه بطرقه وألفاظه عند تفسير أول سورة الإسراء .

عَنْ سَاقٍ ﴿ قَالَ : هُوَ يَوْمَ كَرَّبٍ وَشَدَّةٍ . رواه ابن جرير ثم قال :

حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران ، عن سفيان ، عن المغيرة ، عن إبراهيم ، عن ابن مسعود -
أو : ابن عباس ، الشك من ابن جرير - : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ قال : عن أمر عظيم ، كقول
الشاعر :

وقامت الحرب بنا على ساق^(١)

وقال ابن أبي نَجِيج ، عن مجاهد : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ قال : شدة الأمر^(٢) .

وقال ابن عباس : هي أول^(٣) ساعة تكون في يوم القيامة .

وقال بن جُرَيْج ، عن مجاهد : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ قال : شدة الأمر وجده .

وقال علي ابن أبي طلحة ، عن ابن عباس قوله : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ : هو الأمر الشديد
المُفْطَع من الهول يوم القيامة .

وقال العوفي ، عن ابن عباس قوله : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ يقول : حين يكشف الأمر
وتبدو الأعمال . وكشفه دخول الآخرة ، وكشف الأمر عنه . وكذا روى الضحاك عن ابن عباس .
أورد ذلك كله أبو جعفر بن جرير ثم قال :

حدثني أبو زيد عمر بن شَبَّه ، حدثنا هارون بن عمر المخزومي ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا
أبو سعيد روح بن جناح ، عن مولي لعمر بن عبد العزيز ، عن أبي بردة بن أبي موسى ، عن أبيه ،
عن النبي ﷺ قال : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ قال : « عن نور عظيم ، يخرون له سجداً » .
ورواه أبو يعلى ، عن القاسم بن يحيى ، عن الوليد بن مسلم ، به^(٤) . وفيه رجل مبهم^(٥) ،
فأله أعلم .

(١) البيت في تفسير الطبري (٢٩/٢٤) .

(٢) في أ : « الأمر وجده » .

(٣) في م : « هي أشد » .

(٤) تفسير الطبري (٢٩/٢٧) ومسنَد أبي يعلى (١٣/٢٦٩) .

تنبيه : ظن بعض الناس أن الحافظ ابن كثير سلك هنا مسلك التأويل لصفة الساق، وهذا فهم خاطئ ؛ وذلك لأن الحافظ ابن
كثير فسر هذه الآية بحديث أبي سعيد ، رضى الله عنه ، ثم ذكر ما قيل في هذه الآية، وقد تكلم الإمام ابن القيم عن هذه الآية
كلاماً بديعاً قال ، رحمه الله ، في الصواعق المرسلة (١/٢٥٢، ٢٥٣) : « والصحابة متنازعون في تفسير هذه الآية : هل المراد
الكشف عن الشدة ؟ أو المراد بها أن الرب تعالى يكشف عن ساقه ؟ ولا يحفظ عن الصحابة والتابعين نزاع فيها يذكر أنه من الصفات
أم لا في غير هذا الموضوع ، وليس في ظاهر القرآن ما يدل على أن ذلك صفة لله ؛ لأنه سبحانه لم يصف الساق إليه ، وإنما ذكره
مجرداً عن الإضافة منكرًا ، والذين أثبتوا ذلك صفة كاليدن والأصبع لم يأخذ ذلك من ظاهر القرآن ، وإنما أثبتوه بحديث أبي سعيد
الخدرى المتفق على صحته ، وهو حديث الشفاعة الطويل وفيه : « فيكشف الرب عن ساقه فيخرون له سجداً » . ومن حمل الآية
على ذلك قال : قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ ﴾ [القلم : ٤٢] : مطابق لقوله ﷺ : « فيكشف عن ساقه
فيخرون له سجداً » . وتكثيره للتعظيم والتفخيم كأنه قال : يكشف عن ساق عظيمة ، جلّت عظمتها وتعالى شأنها أن يكون لها نظير أو
مثل أو شبيه ، قالوا : وحمل الآية على الشدة لا يصح بوجه ؛ فإن لغة القوم في مثل ذلك أن يقال : كشف الشدة عن القوم لا كشف
عنها كما قال تعالى : ﴿ قَلَمًا كُفِّنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴾ [الزخرف : ٥٠] ، وقال : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَفَّنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ ﴾
[المؤمنون : ٧٥] ، فالعذاب والشدة هو المكشوف لا المكشوف عنه ، وأيضاً فهناك تحدث الشدة وتشتد ، ولا تزال إلا بدخول الجنة ،
وهناك لا يدعون إلى السجود ، وإنما يدعون إليه أشد ما كانت الشدة انتهت نقلاً عن التحذير من مختصرات الصابوني ، وانظر :
عقيدة الحافظ ابن كثير للشيخ عبد الآخر الغنيمي (ص ٤٨، ٤٩) والتحذير للشيخ بكر أبو زيد (ص ٣٥٠ - ٣٥٣) .

(٥) في أ : « رجل متهم » .

وقوله : ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أى : فى الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم فى الدنيا ، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه . ولما دعوا إلى السجود فى الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم ، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه فى الآخرة ، إذا تجلّى الرب ، عز وجل ، فسجد له المؤمنون ، لا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد ، بل يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً ، كلما أراد أحدهم أن يسجد خرّ لقفاه ، عكس السجود ، كما كانوا فى الدنيا ، بخلاف ما عليه المؤمنون .

ثم قال تعالى : ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهِذَا الْحَدِيثِ ﴾ يعنى : القرآن . وهذا تهديد شديد ، أى : دعنى وإياه منى ومنه ، أنا أعلم به كيف أستدرجه ، وأمدته فى غيه وأنظر ^(١) ، ثم أخذه أخذ عزيز مقتدر ؛ ولهذا قال : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : وهم لا يشعرون ، بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة ، وهو فى نفس الأمر إهانة ، كما قال : ﴿ أَيْحَسِبُونَ أَنَّما نُمدُّهم به من مَالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥ ، ٥٦] ، وقال : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤] . ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ أى : وأؤخرهم وأنظرهم وأمدهم ^(٢) ، وذلك من كيدى ومكرى بهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ أى : عظيم لمن خالف أمرى ، وكذب رسلى ، واجترأ على معصيتى .

وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إِنَّ اللَّهَ لِيُمْلِي لِلظَّالِمِ ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَقْلُتْهُ » . ثم قرأ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢] ^(٣) .

وقوله : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ . أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ : تقدم تفسيرهما فى سورة «الطور» ^(٤) ^(٥) . والمعنى فى ذلك : أنك يا محمد تدعوهم إلى الله ، عز وجل ، بلا أجر تأخذه منهم ، بل ترجوا ثواب ذلك عند الله ، عز وجل ، وهم يكذبون بما جئتكم به ، بمجرد الجهل والكفر والعناد .

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ۚ (٤٨) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۚ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) وَإِنَّ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢) ﴾ .

(١) فى أ : « وأنظره » . (٢) فى أ : « وأمد لهم » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٦) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٣) من حديث أبى موسى الأشعرى ، رضى الله عنه .

(٤) فى م : « فى سورة النور » .

(٥) عند تفسير الآيتين : ٤١ ، ٤٠ .

يقول تعالى : ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد على أذى قومك لك وتكذيبهم ؛ فإن الله سيحكم لك عليهم ، ويجعل العاقبة لك ولأتباعك فى الدنيا والآخرة ، ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ يعنى : ذا النون ، وهو يونس بن متى ، عليه السلام ، حين ذهب مغاضباً على قومه ، فكان من أمره ما كان من ركوبه فى البحر والتقام الحوت له ، وشروء الحوت به فى البحار وظلمات غمرات اليم ، وسماعه تسييح البحر بما فيه للعلی القدير ، الذى لا يُردّ ما أنفذه من التقدير ، فحيث نادى فى الظلمات : ﴿أَنْ لَّإِلَهِ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] . قال الله : ﴿فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨] ، وقال تعالى : ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصفاء: ١٤٣ ، ١٤٤] وقال ههنا : ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، والسدى : مغموم . وقال عطاء الخراساني ، وأبو مالك : مكروب . وقد قدمنا فى الحديث أنه لما قال : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ، خرجت الكلمة تحفّ حول العرش ، فقالت الملائكة : يا رب ، هذا صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة . فقال الله : أما تعرفون هذا ؟ قالوا : لا . قال : هذا يونس . قالوا : يارب ، عبدك الذى لا يزال يرفع له عمل صالح ودعوة مجابة ؟ قال : نعم . قالوا : أفلا ترحم ما كان يعمل فى الرخاء فتنجيه من البلاء ؟ فأمر الله الحوت فألقاه بالعراء ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ .

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبى وائل ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ينبغي لأحد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » .

ورواه البخارى من حديث سفيان الثورى ^(١) . وهو فى الصحيحين من حديث أبى هريرة ^(٢) .

وقوله : ﴿وَأِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهما : ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ : لَيَنْفُذُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ، أى : لَيَعِينُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ، بمعنى : يحسدونك لبغضهم إياك لولا وقاية الله لك ، وحمايته إياك منهم . وفى هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق ، بأمر الله ، عز وجل ، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة :

حديث أنس بن مالك ، رضى الله عنه : قال أبو داود : حدثنا سليمان بن داود العتكي ، حدثنا شريك (ح) ، وحدثنا العباس العنبري ، حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا شريك ، عن العباس بن ذريح ، عن الشعبي — قال العباس : عن أنس — قال : قال النبي ﷺ : « لا رقية إلا من عين أو حمة أو دم لا يرقأ » . لم يذكر العباس العين . وهذا لفظ سليمان ^(٣) .

حديث بُريدة بن الحُصيب ، رضى الله عنه : قال أبو عبد الله بن ماجه : حدثنا محمد بن عبد الله ابن نمير ، حدثنا إسحاق بن سليمان ، عن أبى جعفر الرازى ، عن حصين ، عن الشعبي ، عن

(١) المسند (١/ ٣٩٠) وصحيح البخارى برقم (٤٦٠٣) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٦٣١) وصحيح مسلم برقم (٢٣٧٦) .

(٣) سنن أبى داود برقم (٣٨٨٩) .

بُرَيْدَةَ بن الحَصِيب قال : قال رسول الله ﷺ : « لا رقية إلا من عين أو حُمة » (١) .

هكذا رواه ابن ماجه ، وقد أخرجه مسلم فى صحيحه ، عن سعيد بن منصور ، عن هشيم ، عن حُصَيْن بن عبد الرحمن ، عن عامر الشعبي ، عن بريدة موقوفاً ، وفيه قصة (٢) . وقد رواه شعبة ، عن حصين ، عن الشعبي ، عن بريدة . قاله الترمذى (٣) . وروى هذا الحديث الإمام البخارى من حديث محمد بن فضيل ، وأبو داود من حديث مالك بن مغول ، والترمذى من حديث سفيان ابن عيينة ، ثلاثتهم عن حصين ، عن عامر الشعبي ، عن عمران بن حُصَيْن موقوفاً (٤) .

حديث أبى جندب بن جنادة : قال الحافظ أبو يعلى الموصلى ، رحمه الله : حدثنا إبراهيم بن محمد بن عرعرة بن البرند السامى ، حدثنا ديلم بن غزوان ، حدثنا وهب بن أبى ديب ، عن أبى حرب ، عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن العين لتولع الرجل بإذن الله ، فيتصاعد حالقا ، ثم يتردى منه » إسناده غريب ، ولم يخرجوه (٥) .

حديث حابس التميمى : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا حرب ، حدثنا يحيى بن أبى كثير ، حدثنى حية بن حابس التميمى : أن أباه أخبره : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا شئ فى الهام ، والعين حق ، وأصدق الطيرة (٦) الفأل » (٧) .

وقد رواه الترمذى عن عمرو بن على ، عن أبى غسان يحيى بن كثير ، عن على بن المبارك ، عن يحيى بن أبى كثير ، به (٨) . ثم قال غريب . قال : وروى شيبان ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن حية بن حابس ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ .

قلت : كذلك رواه الإمام أحمد ، عن حسن بن موسى وحُسين بن محمد ، عن شيبان ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن حية ، حدثه عن أبيه ، عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « لا بأس فى الهام ، والعين حق ، وأصدق الطيرة الفأل » (٩) .

حديث ابن عباس : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن الوليد ، عن سفيان ، عن دُويد ، حدثنى إسماعيل بن ثوبان ، عن جابر بن زيد ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « العين

(١) سنن ابن ماجه برقم (٣٥١٣) .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٢٠) .

(٣) سنن الترمذى (٣٤٥/٤) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٧٠٥) وسنن أبى داود برقم (٣٨٨٤) وسنن الترمذى برقم (٢٠٧٥) .

(٥) ورواه ابن عدى فى الكامل (١٠٤/٣) من طريق أبى يعلى لكنه وقع فيه : إبراهيم ، عن ديلم ، عن وهب بن أبى ديب ، عن محجن ، عن أبى زر به ، فأسقط أبو حرب ، وسيأتى توجيه ذلك من كلام ابن عدى ، ورواه الإمام أحمد فى المسند (١٤٦/٥) من طريق يونس بن محمد ، وابن عدى فى الكامل (١٠٤/٣) من طريق الصلت بن مسعود كلاهما عن ديلم بن غزوان ، عن وهب ، عن أبى حرب ، عن محجن ، عن أبى ذر به ، قال ابن عدى : « وهذا الحديث يرويه ديلم عن وهب بن أبى ديب ، وأظن أنه وهم من رواية الصلت حيث قال : عن وهب بن أبى ديب ، عن أبى حرب ، عن محجن ، ولعل أبا حرب هو محجن » .

(٦) فى م : « الطير » ، وفى أ : « الظن » .

(٧) المسند (٧٠/٥) .

(٨) سنن الترمذى برقم (٢٠٦١) .

(٩) المسند (٧٠/٥) .

حق ، العين حق ، تستنزل الحالق » ^(١) غريب .

طريق أخرى : قال مسلم فى صحيحه : حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى ، أخبرنا مسلم ابن إبراهيم ، حدثنا وهيب ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ قال : « العين حق ، ولو كان شيء سابقَ القَدَرِ سَبَقَت العين ، وإذا اغتسلتم فاغسلوا » . انفرد به دون البخارى ^(٢) .

وقال عبد الرزاق ، عن سفيان الثورى ، عن منصور ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يُعوذُ الحسن والحسين ، يقول : « أعيذكما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة » ، ويقول : « هكذا كان إبراهيم يُعوذُ إسحاق وإسماعيل ، عليهما السلام » .

أخرجه البخارى وأهل السنن من حديث المنهال ، به ^(٣) .

حديث أبى أمامة أسعد بن سهل بن حنيف ، رضى الله عنه : قال ابن ماجه : حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا سفيان ، عن الزهرى ، عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف قال : مر عامر بن ربيعة بسهل بن حنيف ، وهو يغتسل ، فقال : لم أر كاليوم ولا جلدَ مخبأة . فما لبث أن لُبِطَ به ، فأتى به رسول الله ﷺ فقيل له : أدرك سهلاً صريعاً . قال : « من تتهمون به ؟ » . قالوا : عامر بن ربيعة . قال : « علام يقتل أحدكم أخاه ؟ إذا رأى أحدكم من أخيه ما يُعجبه فليدعُ له بالبركة » . ثم دعا بماء فأمر عامراً أن يتوضأ فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ، وركبتيه ، ودأخله إزاره ، وأمره أن يصب عليه .

قال سفيان : قال معمر ، عن الزهرى : وأمر أن يكفأ الإناء من خلفه ^(٤) .

وقد رواه النسائى ، من حديث سفيان بن عيينة ومالك بن أنس ، كلاهما عن الزهرى ، به . ومن حديث سفيان بن عيينة أيضاً عن معمر ، عن الزهرى ، عن أبى أمامة : ويكفأ الإناء من خلفه . ومن حديث ابن أبى ذئب عن الزهرى ، عن أبى أمامة أسعد بن سهل بن حنيف ، عن أبيه ، به . ومن حديث مالك أيضاً ، عن محمد بن أبى أمامة بن سهل ، عن أبيه ، به ^(٥) .

حديث أبى سعيد الخدرى : قال ابن ماجه : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا عباد ، عن الجريرى ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد قال : كان رسول الله ﷺ يتعوذ من أعين ^(٦) الجان وأعين الإنس . فلما نزل ^(٧) المعوذتان أخذهما وترك ما سوى ذلك .

(١) المسند (٢٧٤/١) .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢١٨٨) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٣٣٧١) وسنن أبى داود برقم (٤٧٣٧) وسنن الترمذى برقم (٢٠٦٠) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٨٤٤) .

وسنن ابن ماجه برقم (٣٥٢٥) .

(٤) سنن ابن ماجه برقم (٣٥٠٩) .

(٥) سنن النسائى الكبرى برقم (٧٦١٧ - ٧٦١٩) .

(٦) فى م : « من عين » .

(٧) فى م : « فلما نزلت » .

ورواه الترمذى والنسائى من حديث سعيد بن إياس ^(١) أبى مسعود الجُريرى ، به ^(٢) . وقال الترمذى : حسن .

حديث آخر عنه : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث ، حدثنى أبى ، حدثنى عبد العزيز بن صهيب ، حدثنى أبو نضرة ، عن أبى سعيد : أن جبريل أتى رسول الله ﷺ فقال : اشتكى يا محمد ؟ قال : « نعم » . قال : باسم الله أريقك ، من كل شئ يؤذيك ، من شر كل نفس وعين يشفيك ، باسم الله أريقك ^(٣) .

ورواه عن عفان ، عن عبد الوارث ، مثله . ورواه مسلم وأهل السنن — إلا أبا داود — من حديث عبد الوارث ، به ^(٤) .

قال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا عفان ، حدثنا وهيب ، حدثنا داود ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد — أو : عن جابر بن عبد الله ؛ أن رسول الله ﷺ اشتكى ، فأتاه جبريل فقال : باسم الله أريقك ، من كل شئ يؤذيك ، من كل حاسد وعين الله يشفيك ^(٥) .

ورواه أيضاً ، عن محمد بن عبد الرحمن الطفاوى ، عن داود ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد ، به ^(٦) .

قال أبو زُرعة الرازى : روى عبد الصمد بن عبد الوارث ، عن أبيه ، عن عبد العزيز ، عن أبى نضرة ، وعن عبد العزيز ، عن أنس ، فى معناه ، وكلاهما صحيح .

حديث أبى هريرة : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ : « إن العين حق » ^(٧) . أخرجه من حديث عبد الرزاق ^(٨) .

وقال ابن ماجه : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا إسماعيل بن عُلَية ، عن الجريرى ، عن مضارب بن حزن ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « العين حق » . تفرد به . ورواه أحمد ، عن إسماعيل بن عُلَية ، عن سعيد الجريرى ، به ^(٩) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير ، حدثنا ثور — يعنى ابن يزيد — عن مكحول ، عن أبى

(١) فى م : « سعيد بن أبى إياس » .

(٢) سنن ابن ماجه برقم (٣٥١١) وسنن الترمذى برقم (٢٠٥٨) وسنن النسائى (٢٧١/٨) .

(٣) المسند (٢٨/٣) .

(٤) المسند (٥٦/٣) وصحيح مسلم برقم (٢١٨٦) وسنن الترمذى برقم (٩٧٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٨٤٣) وسنن ابن ماجه برقم (٣٥٢٣) .

(٥) المسند (٧٥/٣) .

(٦) المسند (٥٨/٣) .

(٧) المسند (٣١٨/٢) .

(٨) صحيح البخارى برقم (٥٧٤٠) وصحيح مسلم برقم (٢١٨٧) .

(٩) سنن ابن ماجه برقم (٣٥٠٧) والمسند (٤٨٧/٢) .

هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « العَيْنُ حَقٌّ ، وَيَحْضُرُهَا الشَّيْطَانُ ، وَحَسَدُ ابْنِ آدَمَ » (١) .

وَقَالَ أَحْمَدُ : حَدَّثَنَا خَلْفُ بْنُ الْوَلِيدِ ، حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ قَيْسٍ : سُئِلَ أَبُو هُرَيْرَةَ : هَلْ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ : الطَّيْرَةُ فِي ثَلَاثٍ : فِي الْمَسْكَنِ وَالْفَرَسِ وَالْمَرْأَةِ ؟ قَالَ : قُلْتُ : إِذَا أَقُولُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا لَمْ يَقُلْ ! وَلَكِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « أَصْدَقُ الطَّيْرِ الْفَالُ ، وَالْعَيْنُ حَقٌّ » (٢) .

حَدِيثُ أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ : قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : حَدَّثَنَا سَفْيَانُ ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ ، عَنْ عُرْوَةَ ابْنِ عَامِرٍ ، عَنْ عُبَيْدِ بْنِ رِفَاعَةَ الزُّرْقِيِّ قَالَ : قَالَتْ أَسْمَاءُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنْ بَنَى جَعْفَرُ تَصْيِيهِمَ الْعَيْنِ ، أَفَأَسْتَرْقِي لَهُمْ ؟ قَالَ : « نَعَمْ ، فَلَوْ كَانَ شَيْءٌ يَسْبِقُ الْقَدَرَ لَسَبَقْتَهُ الْعَيْنُ » .

وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ ، مِنْ حَدِيثِ سَفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ ، بِهِ (٣) . وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ أَيْضًا وَالنَّسَائِيُّ ، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ ، عَنْ مَعْمَرٍ ، عَنْ أَيُّوبَ ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ ، عَنْ عُرْوَةَ ابْنِ عَامِرٍ ، عَنْ عُبَيْدِ بْنِ رِفَاعَةَ ، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ ، بِهِ (٤) . وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ : حَسَنٌ صَحِيحٌ .

حَدِيثُ عَائِشَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : قَالَ ابْنُ مَاجَةَ : حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي الْخَصْبِيِّ ، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ ، عَنْ سَفْيَانَ ، وَمِسْعَرٍ ، عَنْ مَعْبُدِ بْنِ خَالِدٍ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَدَّادٍ ، عَنْ عَائِشَةَ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَهَا أَنْ تَسْتَرْقِيَ مِنَ الْعَيْنِ (٥) .

وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَثِيرٍ ، عَنْ سَفْيَانَ ، عَنْ مَعْبُدِ بْنِ خَالِدٍ ، بِهِ . وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ سَفْيَانَ وَمِسْعَرَ ، كِلَاهُمَا عَنْ مَعْبُدٍ ، بِهِ (٦) . ثُمَّ قَالَ ابْنُ مَاجَةَ :

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ ، حَدَّثَنَا أَبُو هِشَامٍ الْخَزَوَمِيُّ ، حَدَّثَنَا وَهَبٌ ، عَنْ أَبِي وَقْدٍ ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « اسْتَعِذُوا بِاللَّهِ ، فَإِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ » . تَفَرَّدَ بِهِ (٧) .

وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ : حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ ، عَنْ الْأَعْمَشِ ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ ، عَنْ الْأَسْوَدِ ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : كَانَ يُؤْمَرُ الْعَائِنُ فَيَتَوَضَّأُ وَيَغْسِلُ مِنْهُ الْمَعِينُ (٨) .

حَدِيثُ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ : قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ ، حَدَّثَنَا أَبُو أُوَيْسٍ (٩) ، حَدَّثَنَا الزُّهْرِيُّ ، عَنْ أَبِي أَمَامَةَ بْنِ سَهْلٍ بْنِ حُنَيْفٍ : أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ وَسَارُوا مَعَهُ

(١) المسند (٤٣٩/٢) .

(٢) المسند (٢٨٩/٢) .

(٣) المسند (٤٣٨/٦) وسنن الترمذی برقم (٢٠٥٩) وسنن ابن ماجه برقم (٣٥١٠) .

(٤) سنن الترمذی برقم (٢٠٥٩) وسنن النسائی الکبری برقم (٧٥٣٧) .

(٥) سنن ابن ماجه برقم (٣٥١٠) .

(٦) صحيح البخاری برقم (٥٧٣٨) وصحيح مسلم برقم (٢١٩٥) .

(٧) سنن ابن ماجه برقم (٣٥٠٨) وقال البوصیری فی الزوائد (١٣٤/٣) : « هذا إسناد فيه مقال » .

(٨) سنن أبي داود برقم (٣٨٨٠) .

(٩) فی م : « أبو إدريس » .

نحو مكة، حتى إذا كانوا بشعب الحرّار - من الجحفة - اغتسل سهل بن حنيف - وكان رجلاً أبيض حسن الجسم والجلد - فنظر إليه عامر بن ربيعة، أخو بني عدى بن كعب، وهو يغتسل، فقال: ما رأيت كالיום ولا جلد مُخبّأة. فلَبَطَ سهل، فأتى رسول الله ﷺ فقيل له: يا رسول الله، هل لك في سهل. والله ما يرفع رأسه ولا يُفَيّق. قال: «هل تتهمون فيه من أحد؟». قالوا: نظر إليه عامر بن ربيعة. فدعا رسول الله ﷺ عامرا، فتغيظ عليه، وقال: «علام يقتل أحدكم أخاه، هلا إذا رأيت ما يعجبك بركت؟». ثم قال له: «اغتسل له» - فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجله وداخله إزاره في قدح - ثم صبّ ذلك الماء عليه. يصبّه رجل على رأسه وظهره من خلفه، ثم يكفأ^(١) القدح وراءه. ففعل ذلك، فراح سهل مع الناس، ليس به بأس^(٢).

حديث عامر بن ربيعة: قال الإمام أحمد في مسند عامر: حدثنا وكيع، حدثنا أبي، حدثنا عبد الله ابن عيسى، عن أمية بن هند بن سهل بن حنيف، عن عبد الله بن عامر قال: انطلق عامر بن ربيعة وسهل بن حنيف يريدان الغسل، قال: فانطلقا يلتزمان الخمر - قال: فوضع عامر جبة كانت عليه من صوف، فنظرت إليه فأصبته بعيني فتزل الماء يغتسل. قال: فسمعت له في الماء فرقة، فأتيته فناديته ثلاثاً فلم يجبني. فأتيت النبي ﷺ فأخبرته. قال: فجاء يمشي فخاض الماء كأنني أنظر إلى بياض ساقه، قال: فضرب صدره بيدي ثم قال: «اللهم، اصرف عنه حرها وبردها ووصبها». قال: فقام. فقال رسول الله ﷺ: «إذا رأى أحدكم من أخيه، أو من نفسه أو من ماله، ما يعجبه، فليبرك، فإن العين حق»^(٣).

حديث جابر: قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا أبو داود، حدثنا طالب بن حبيب بن عمرو بن سهل الأنصاري - ويقال له: ابن الضّجّيع، ضجّيع حمزة، رضى الله عنه - حدثني عبد الرحمن بن جابر بن عبد الله، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثر من يموت من أمتي بعد كتاب الله وقضائه وقدره بالأنفس»^(٤).

قال البزار: يعنى العين. قال: ولا نعلم يروى هذا الحديث عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد. قلت: بل قد روى من وجه آخر عن جابر؛ قال الحافظ أبو عبد الرحمن محمد بن المنذر الهروى - المعروف بشكر - في كتاب العجائب، وهو مشتمل على فوائد جليّة وغريبة: حدثنا الرهاوى، حدثنا يعقوب بن محمد، حدثنا على بن أبي على الهاشمي، حدثنا محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «العين حق، لتورد الرجل القبر، والجمل القدر، وإن أكثر هلاك أمتي في العين»^(٥).

(١) فى ١: «ثم يلقى».

(٢) المسند (٤٨٦/٣).

(٣) المسند (٤٤٧/٣).

(٤) مسند البزار برقم (٣٠٥٢) «كشف الاستار» وقال الهيثمى فى المجمع (١٠٦/٥): «رجاله رجال الصحيح، خلا طالب بن حبيب ابن عمرو، وهو ثقة».

(٥) ورواه ابن عدى فى الكامل (١٨٥/٥) من طريق رحيم عن ابن أبي فديك، عن على بن أبي على الهلبى، به. وقال: «غير محفوظ» وعلى بن أبي على هو آفته، قال أحمد: يروى أحاديث منكر عن جابر.

ثم رواه عن شعيب بن أيوب ، عن معاوية بن هشام ، عن سفيان ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « قد تُدخل الرجل العينُ في القبر ، وتدخل الجمل القدر » (١) .

حديث عبد الله بن عمرو : قال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا رشدين بن سعد ، عن الحسن بن ثوبان ، عن هشام بن أبي رُقِيّة ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « لا عدوى ولا طيرة ، ولا هامة ولا حَسَد ، والعين حق » . تفرد به أحمد (٢) .

حديث عن علي : روى الحافظ ابن عساكر من طريق خَيْثَمَة بن سليمان الحافظ : حدثنا عبيد بن محمد الكَشَوْرِي ، حدثنا عبد الله بن عبد الله بن عبد ربه البصري ، عن أبي رجاء ، عن شعبة ، عن أبي إسحاق ، عن الحارث ، عن علي ؛ أن جبريل أتى النبي ﷺ فوافقه مغتما ، فقال : يا محمد ، ما هذا الغم الذي أراه في وجهك ؟ قال : « الحسن والحسين أصابتهم عين » . قال : صدق بالعين ، فإن العين حق ، أفلا عوذتهما بهؤلاء الكلمات ؟ قال : « وما هن يا جبريل ؟ » . قال : قل : اللهم ذا السلطان العظيم ، ذا المن (٣) القديم ، ذا الوجه الكريم ، ولي الكلمات التامات ، والدعوات المستجابات ، عاف الحسن والحسين من أنفس الجن ، وأعين الإنس . فقالها النبي ﷺ فقاما يلعبان بين يديه . فقال النبي ﷺ : « عَوِّذُوا أَنْفُسَكُمْ ونساءكم وأولادكم بهذا التعويذ ، فإنه لم يتعوذ المتعوذون بمثله » .

قال الخطيب البغدادي : تفرد بروايته أبو رجاء محمد بن عبيد الله الحِطِّي (٤) من أهل تُسْتَر . ذكره ابن عساكر في ترجمة « طراد بن الحسين » ، من تاريخه (٥) .

وقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ أى : يزدرونه بأعينهم ويؤذونه بالسنتهم ، ويقولون : ﴿ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ أى : لمجيئه بالقرآن ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

(١) ورواه ابن عدى في الكامل (٤٠٨/٦) وأبو نعيم في الحلية (٩٠/٧) من طرق عن شعيب بن أيوب به ، وقال أبو نعيم : « غريب من حديث الثوري ، تفرد به معاوية » وكذا قال ابن عدى .

(٢) المسند (٢٢٢/٢) .

(٣) فى م : « والمن » .

(٤) وقع فى تاريخ دمشق : « محمد بن عبد الله الحنظلي » وفى كنز العمال : « محمد بن عبد الله الخطيبى » ولم يتبين لى الصواب ، والله أعلم .

(٥) تاريخ دمشق (٥٠٣/٨) « المخطوط » .

تفسير سورة الحاقة

وهي مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَاقَّةُ ١ ﴾ مَا الْحَاقَّةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ٣ كَذَبَتْ ثُمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ٤
فَإِذَا ثُمُودٌ فَأَهْلِكُوهَا بِالطَّاغِيَةِ ٥ وَأَمَّا وَعَادٌ فَأَهْلِكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ
سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ٧ فَهَلْ
تَرَى لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ ٨ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ٩ فَعَصُوا رَسُولَ
رَبِّهِمْ فَاخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً
وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ١٢ ﴾ .

الحاقة من أسماء يوم القيامة ؛ لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد ؛ ولهذا عظم تعالى أمرها فقال :
﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ؟ ﴾

ثم ذكر تعالى إهلاكه الأمم المكذبين بها فقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ثُمُودُ فَأَهْلِكُوهَا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ ، وهي
الصبحة التي أسكتتهم ، والزلزلة التي أسكنتهم . هكذا قال قتادة : الطاغية الصيحة . وهو اختيار
ابن جرير (١) .

وقال مجاهد : الطاغية الذنوب . وكذا قال الربيع بن أنس ، وابن زيد : إنها الطغيان ، وقرأ ابن
زيد : ﴿ كَذَبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾ [الشمس : ١١] .

وقال السدّي : ﴿ فَأَهْلِكُوهَا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ قال : يعنى : عاقر الناقة .

﴿ وَأَمَّا وَعَادٌ فَأَهْلِكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ﴾ أى : باردة . قال قتادة ، والربيع ، والسدى ، والثورى :
﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ أى : شديدة الهبوب . قال قتادة : عتت عليهم حتى نَقَبَتْ عن أفئدتهم .

وقال الضحاك : ﴿ صَرْصَرٍ ﴾ : باردة ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ : عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة . وقال
على وغيره : عتت على الخزنة فخرجت بغير حساب .

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أى : سلطها عليهم ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ أى : كوامل متتابعات
مشائيم .

(١) تفسير الطبرى (٢٩/٣١) .

قال ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والثوري ، وغير واحد : ﴿ حُسُومًا ﴾ : متتابعات .

وعن عكرمة والربيع : مشائيم عليهم ، كقوله : ﴿ فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ ﴾ [فصلت: ١٦] قال الربيع : وكان أولها الجمعة . وقال غيره الأربعاء . ويقال : إنها التي تسميها الناس الأعجاز ؛ كأن الناس أخذوا ذلك من قوله تعالى : ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ . وقيل : لأنها تكون في عجر الشتاء ، ويقال : أيام العجوز ؛ لأن عجوزاً من قوم عاد دخلت سرباً فقتلها الريح في اليوم الثامن . حكاه البغوي ^(١) . والله أعلم .

قال ابن عباس : ﴿ خَاوِيَةٍ ﴾ : خربة . وقال غيره : بالية ، أى : جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض فيخر ميتاً على أم رأسه ، فينشدخ رأسه وتبقى جثته هامدة كأنها قائمة النخلة إذا خرت بلا أغصان .

وقد ثبت في الصحيحين ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نُصِرْتُ بِالصَّبَا ، وأَهْلَكْتُ عَادٌ بِالْذَّبُورِ » ^(٢) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن يحيى بن الضريس العبدى ، حدثنا ابن فضيل ، عن مسلم ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ما فتح الله على عاد من الريح التي أهلكوا فيها إلا مثل موضع الخاتم ، فَمَرَّتْ بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم ، فجعلتهم بين السماء والأرض . فلما رأى ذلك أهل الحاضرة الريح ^(٣) وما فيها قالوا : هذا عارض ممطرنا . فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة » ^(٤) .

وقال الثوري عن ليث ، عن مجاهد : الريح لها جناحان وذنب .

﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ ؟ أى : هل تحس منهم من أحد من بقاياهم أنه ^(٥) ممن ينتسب إليهم؟ بل بادوا عن آخرهم ولم يجعل الله لهم خلفاً .

ثم قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ ﴾ : قُرئ بكسر القاف ، أى : ومن عنده في زمانه من أتباعه من كفار القبط . وقرأ آخرون بفتحها ، أى : ومن قبله من الأمم المشبهين له .

وقوله : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾ وهم المكذبون بالرسول . ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ أى : بالفعلة الخاطئة ، وهى التكذيب بما أنزل الله .

قال الربيع : ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ أى : بالمعصية . وقال مجاهد : بالخطايا .

(١) معالم التنزيل للبغوي (٢٠٨/٨) .

(٢) صحيح البخارى برقم (١٠٣٥) وصحيح مسلم برقم (٩٠٠) .

(٣) فى م : « فلما رأى أهل الحاضر من عاد الريح » .

(٤) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٤٢١/١٢) وأبو الشيخ فى العظمة برقم (٨٠٦) من طريق محمد بن فضيل عن مسلم ، به . وقال

الهيثمى فى المجمع (١١٣/٧) : « فيه مسلم الملائى وهو ضعيف » .

(٥) فى م : « أو » .

ولهذا قال : ﴿ فَعَصُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ : وهذا جنس ، أى : كُلُّ كَذَبَ رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ . كما قال : ﴿ كُلُّ (١) كَذَبَ الرُّسُلِ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [ق: ١٤] . ومن كذب رسول الله فقد كذب بالجميع ، كما قال : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٥] ، ﴿ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٢٣] ، ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٤١] . وإنما جاء إلى كل أمة رسول واحد ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ فَعَصُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴾ أى : عزيمة شديدة أليمة .

قال مجاهد : ﴿ رَابِيَةً ﴾ : شديدة . وقال السدى : مهلكة .

ثم قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ ﴾ أى : زاد على الحد بإذن الله وارتفع على الوجود . قال ابن عباس وغيره : ﴿ طَغَا الْمَاءُ ﴾ : كثر — وذلك بسبب دعوة نوح ، عليه السلام ، على قومه حين كذبوه وخالفوه ، فعبدوا غير الله فاستجاب الله له وعمَّ أهل الأرض بالطوفان إلا من كان مع نوح فى السفينة ، فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته .

قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مِهْرَان ، عن أبى سِنَانٍ سعيد بن سنان ، عن غير واحد ، عن على بن أبى طالب قال : لم تنزل قطرة من ماء إلا بكيل على يدى ملك ، فلما كان يوم نوح أذن للماء دون الخزان ، فطغى الماء على الخزان فخرج ، فذلك قول الله : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ ولم ينزل شئ من الريح إلا بكيل على يدى ملك ، إلا يوم عاد ، فإنه أذن لها دون الخزان فخرجت ، فذلك قوله : ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ عتت على الخزان (٢) .

ولهذا قال تعالى ممتناً على الناس : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ ، وهى السفينة الجارية على وجه الماء ، ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾ عاد الضمير على الجنس للدلالة المعنى عليه ، أى : وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء فى البحار ، كما قال : ﴿ وَجَعَلْ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ . لَتَسْتَوتُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ [الزخرف: ١٢، ١٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ [يس: ٤١] ، [٤٢] .

وقال قتادة : أبقى الله السفينة حتى أدركها أوائل هذه الأمة . والأول أظهر ؛ ولهذا قال : ﴿ وَتَعِيَهَا أَذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ أى : وتفهم هذه النعمة ، وتذكرها أذن واعية .

قال ابن عباس : حافظة سامعة (٣) . وقال قتادة : ﴿ أذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ : عقلت (٤) عن الله فانتفعت بما سمعت من كتاب الله ، وقال الضحاك : ﴿ وَتَعِيَهَا أَذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ : سمعتها أذن ووعت . أى : من له سمع صحيح وعقل رجيح . وهذا عام فيمن فهم ، ووعى .

(١) فى م ، أ ، هـ : « إن كل إلا » .

(٢) تفسير الطبرى (٣٢/٢٩) .

(٣) فى م : « سامعة حافظة » .

(٤) فى م : « تحفظت » ، وفى أ : « حفظت » .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زُرْعَةَ الدمشقي ، حدثنا العباس بن الوليد بن صبح الدمشقي ، حدثنا زيد بن يحيى ، حدثنا علي بن حوشب ، سمعت مكحولاً يقول : لما نزل ^(١) على رسول الله ﷺ : ﴿ وَتَعِيَهَا أَذُنٌ وَأَعِيَّةٌ ﴾ قال رسول الله ﷺ : « سألت ربي أن يجعلها أذنً عليّ » . [قال مكحول] ^(٢) : فكان عليّ يقول : ما سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً قط فنسيته .

وهكذا رواه ابن جرير ، عن علي بن سهل ، عن الوليد بن مسلم ، عن علي بن حوشب ، عن مكحول ^(٣) ، به . وهو حديث مرسل .

وقال ابن أبي حاتم أيضاً : حدثنا جعفر بن محمد بن عامر ، حدثنا بشر ^(٤) بن آدم ، حدثنا عبد الله ابن الزبير أبو محمد - يعنى والد أبي أحمد الزبيرى - حدثنى صالح بن الهيثم ، سمعت بريدة الأسلمى يقول : قال رسول الله ﷺ لعلى : « إني أمرت أن أدنيك ولا أفصيك ، وأن أعلمك وأن تعي ، وحق لك أن تعي » . قال : فنزلت هذه الآية ﴿ وَتَعِيَهَا أَذُنٌ وَأَعِيَّةٌ ﴾ .

ورواه ابن جرير عن محمد بن خلف ، عن بشر بن آدم ، به ^(٥) . ثم رواه ابن جرير من طريق آخر عن أبي داود الأعمى ، عن بريدة ، به . ولا يصح أيضاً .

﴿ فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) .

يقول تعالى مخبراً عن أهوال يوم القيامة ، وأول ذلك نفخة الفزع ، ثم يعقبها نفخة الصعق حين يُصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور ، وهى هذه النفخة . وقد أكدها هاهنا بأنها واحدة ؛ لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع ، ولا يحتاج إلى تكرار وتأکید .

وقال الربيع : هى النفخة الأخيرة . والظاهر ما قلناه ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ أى : فمدت مدّ الأديم العكاظى ، وتبدلت الأرض غير الأرض ، ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ أى : قامت القيامة . ﴿ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ . قال سماك ، عن شيخ من بنى أسد ، عن علي قال : تنشق السماء من المجرة . رواه ابن أبي حاتم .

وقال ابن جريج : هى كقوله : ﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ [النبا: ١٩] .

(٢) زيادة من م ، أ .

(١) فى م ، أ : « لما نزلت » .

(٣) تفسير الطبرى (٣٥/٢٩) .

(٤) فى أ : « حدثنا بشير » .

(٥) تفسير الطبرى (٣٦/٢٩) ورواه ابن عساكر فى تاريخ دمشق كما فى الكنز برقم (٣٦٤٢٦) وقال ابن عساكر : « هذا إسناد لا يعرف والحديث شاذ » .

وقال ابن عباس : منخرقة ، والعرش بحذائها .

﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ : الملك : اسم جنس ، أى : الملائكة على أرجاء السماء .

قال ابن عباس : على ما لم يه منها ، أى : حافتها . وكذا قال سعيد بن جبير ، والأوزاعى . وقال الضحاك : أطرافها . وقال الحسن البصرى : أبوابها . وقال الربيع بن أنس فى قوله : ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ يقول : على ما استدق من السماء ، ينظرون إلى أهل الأرض .

وقوله : ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَّةٌ﴾ : أى : يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة . ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش العرش العظيم ، أو : العرش الذى يوضع فى الأرض يوم القيامة لفصل القضاء ، والله أعلم بالصواب . وفى حديث عبد الله بن عميرة ، عن الأحنف بن قيس ، عن العباس بن عبد المطلب ، فى ذكر حَمَلَة العرش أنهم ثمانية أو عال (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد يحيى بن سعيد (٢) ، حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنى أبو السمع البصرى ، حدثنا أبو قَبِيل حَيَّ بن هانئ : أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول : حملة العرش ثمانية ، ما بين موق أحدهم إلى مؤخر عينه مسيرة مائة عام .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى قال : كتب إلى أحمد بن حفص بن عبد الله النيسابورى : حدثنى أبى ، حدثنا إبراهيم بن طهمان ، عن موسى بن عقبة ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « أذن لى أن أحدثكم عن ملك من حَمَلَة العرش : بَعْدُ ما بين شحمة أذنه وعنقه بخفق الطير سبعمائة عام » .

وهذا إسناد جيد ، رجاله ثقات . وقد رواه أبو داود فى كتاب « السنة » من سننه : حدثنا أحمد ابن حفص بن عبد الله ، حدثنا أبى ، حدثنا إبراهيم بن طهمان ، عن موسى بن عقبة ، عن محمد ابن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « أذن لى أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش : أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام » . هذا لفظ أبى داود (٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا يحيى بن المغيرة ، حدثنا جرير ، عن أشعث ، عن جعفر ، عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَّةٌ﴾ . قال : ثمانية صفوف من الملائكة . قال : وروى عن الشعبى [وعكرمة] (٤) ، والضحاك . وابن جريج ، مثل ذلك . وكذا روى السُدِّى عن أبى مالك ، عن ابن عباس : ثمانية صفوف . وكذا روى العوفى ، عنه .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : الكَرُوبِيُّونَ ثمانية أجزاء ، كل جنس (٥) منهم بقدر (٦) الإنس والجن والشياطين والملائكة .

وقوله : ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ : تعرضون على عالم السر والنجوى الذى

(١) حديث الأوعال رواه أبو داود فى السنن برقم (٤٧٢٣) وتقدم عند تفسير الآية : ٧ من سورة غافر .

(٢) فى م : « حدثنا أبو سعيد عن ابن سعيد » .

(٣) سنن أبى داود برقم (٤٧٢٧) .

(٦) فى أ : « بعة » .

(٥) فى م : « كل جزء » .

(٤) زيادة من م ، أ .

لا يخفى عليه شيء من أموركم ، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر ؛ ولهذا قال : ﴿ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ .

وقد قال ابن أبي الدنيا : أخبرنا إسحاق بن إسماعيل ، أخبرنا سفيان بن عيينة ، عن جعفر بن بُرقان ، عن ثابت بن الحجاج قال : قال عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، فإنه أخف عليكم في الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا علي بن علي بن رفاعة ، عن الحسن ، عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدالٌ ومعاذيرٌ ، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي ، فأخذ يمينه وأخذ بشماله » .

ورواه ابن ماجه ، عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن وكيع ، به (٢) . وقد رواه الترمذي عن أبي كريب ، عن وكيع ، عن علي بن علي ، عن الحسن ، عن أبي هريرة ، به (٣) .

وقد روى ابن جرير عن مجاهد بن موسى ، عن يزيد ، عن سليمان بن حيان ، عن مروان الأصغر ، عن أبي وائل ، عن عبد الله قال : يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات : عرضتان ، معاذير وخصومات ، والعرضة الثالثة تطير الصحف في الأيدي . ورواه سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة مرسلا ، مثله (٤) .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَهٗ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهٗ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ .

يخبر تعالى عن سعادة من أوتي كتابه يوم القيامة بيمينه ، وفرحه بذلك ، وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه : ﴿ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَهٗ ﴾ أى : خذوا اقروا كتابيه ؛ لأنه يعلم أن الذى فيه خير وحسنات محضة ؛ لأنه ممن بدل الله سيئاته حسنات .

قال عبد الرحمن بن زيد : معنى : ﴿ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَهٗ ﴾ أى : ها اقروا كتابيه ، و «ؤم» زائدة . كذا قال ، الظاهر أنها بمعنى : هاكم .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا بشر بن مطر (٥) الواسطى ، حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا

(١) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا برقم (٢) وذكره المؤلف فى مسند عمر (٦١٨/٢) وقال : « أثر مشهور وفيه انقطاع ، وثابت بن الحجاج هذا جزى تابعى صغير لم يدرك ، ولم يرو عنه سوى جعفر بن برقان ، وله عند أبى داود فى السنن حديثان » .

(٢) المسند (٤١٤/٤) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٧٧) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣١٥/٣) : « هذا إسناد رجاله ثقات إلا أنه منقطع ، الحسن لم يسمح من أبى موسى . قاله على بن المدينى وأبو حاتم و أبو زرعة » .

(٣) سنن الترمذى برقم (٢٤٢٥) .

(٤) تفسير الطبرى (٣٨/٢٩) .

(٥) فى ١ : « بشر بن مطير » .

عاصم الأحول ، عن أبي عثمان قال: المؤمن يعطى كتابه [بيمينه] ^(١) فى ستر من الله ، فيقرأ سيئاته ، فكلما قرأ سيئة تغير لونه حتى يمر بحسناته فيقرأها ، فيرجع إليه لونه . ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات ، قال : فعند ذلك يقول : ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهٗ ﴾ .

وحدثنا أبى ، حدثنا إبراهيم بن الوليد بن سلمة ، حدثنا روح بن عبادة ، حدثنا موسى بن عبيدة ^(٢) ، أخبرنى عبد الله بن عبد الله بن حنظلة - غسيل الملائكة - قال : إن الله يَقِفُ عبده يوم القيامة فيبدي سيئاته فى ظهر صحيفته ، فيقول له : أنت عملت هذا ؟ فيقول : نعم ، أى رب . فيقول له : إني لم أفضحك به ، وإني قد غفرت لك . فيقول عند ذلك : ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهٗ . إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهٗ ﴾ ، حين نجا من فضحه يوم القيامة .

وقد تقدم فى الصحيح حديثُ ابن عمر حين سئل عن النجوى ، فقال : سمعت النبى ﷺ يقول : « يُدْنِي اللهُ العبدَ يومَ القيامةِ ، فيُقرُّه بذنوبه كلها ، حتى إذا رأى أنه قد هلك قال الله : إني سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم . ثم يُعطى كتابَ حسناته بيمينه ، وأما الكافر والمنافق فيقول الأَشهاد : ﴿ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: ١٨] ^(٣) .

وقوله : ﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهٗ ﴾ أى : قد كنت موقنا فى الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة ، كما قال : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٤٦] .

قال الله : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ أى : مرضية ، ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ أى : رفيعة قصورها ، حسان حورها ، نعيمة دورها ، دائم حبورها .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو عتبة الحسن بن على بن مسلم السَّكُونى ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن سعيد بن يوسف ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن أبى سلام الأسود قال : سمعتُ أبا أمامة قال : سأل رجلُ رسولَ الله ﷺ : هل يتزاور أهل الجنة ؟ قال : « نعم ، إنه ليهبط أهل الدرجة العليا إلى أهل الدرجة السفلى ، فيحيونهم ويسلمون عليهم ، ولا يستطيع أهل الدرجة السفلى يصعدون إلى الأعلى ، تقصر بهم أعمالهم » ^(٤) .

وقد ثبت فى الصحيح : « إن الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » ^(٥) .

وقوله : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ قال البراء بن عازب : أى قريبة ، يتناولها أحدهم ، وهو نائم على سريره . وكذا قال غير واحد .

قال الطبرانى : [حدثنا إسحاق بن إبراهيم الدبرى] ^(٦) ، عن عبد الرزاق ، عن سفيان الثورى ،

(١) زيادة من م . فى أ : « موسى بن أبى عبيدة » .

(٢) انظر : تفسير الآية : ١٨ من سورة هود وتخرجه هناك .

(٣) ورواه أبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٤٢١) من طريق جعفر بن الزبير وبشر بن نمير ، عن القاسم ، عن أبى أمامة مرفوعاً بنحوه ، وجعفر بن الزبير وبشر بن نمير متروكان واتهما بالوضع .

(٤) صحيح البخارى برقم (٢٧٩٠) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٦) زيادة من المعجم الكبير للطبرانى (٢٧٢/٦) .

عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، عن عطاء بن يسار ، عن سلمان الفارسي قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة أحد إلا بجواز : (بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من الله لفلان بن فلان ، أدخلوه جنة عالية ، قطوفها دانية » (١) .

وكذا رواه الضياء في صفة الجنة من طريق سعدان بن سعيد ، عن سليمان التيمي ، عن أبي عثمان النهدي ، عن سلمان ، عن رسول الله ﷺ قال : يعطى المؤمن جَوَازًا على الصراط : (بسم الله الرحمن الرحيم) ، هذا كتاب من الله العزيز الحكيم لفلان ، أدخلوه جنة عالية ، قطوفها دانية » (٢) .

وقوله : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ أى : يقال لهم ذلك ؛ تفضلا عليهم ، وامتنانا وإنعاما وإحسانا . وإلا فقد ثبت فى الصحيح ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اعملوا وَسَدُّوا وَقَارِبُوا واعلموا أن أحدا منكم لن يدخله عمله الجنة » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمّدنى الله برحمة منه وفضل » (٣) .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ (٢٩) خُدُّوه فَعْلُوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧) ﴾ .

وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أعطى أحدهم كتابه فى العَرَصات بشماله ، فحينئذ يندم غاية الندم ، فيقول : ﴿ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ . وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ . يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴾ .

قال الضحاك : يعنى مودة لا حياة بعدها . وكذا قال محمد بن كعب ، والربيع ، والسدى .

وقال قتادة : تمنى (٤) الموت ، ولم يكن شئ فى الدنيا أكره إليه منه .

﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ ﴾ أى : لم يدفع عنى مالى ولا جاهى عذاب الله وبأسه ، بل خلّص الأمر إلى وحدى ، فلا معين لى ولا مجير . فعندها يقول الله ، عز وجل : ﴿ خُدُّوه فَعْلُوهُ .

(١) المعجم الكبير للطبرانى (٢٧٢/٦) وعبد الرحمن بن زياد ضعيف ، ورواه ابن عدى فى الكامل (٣٤٤/١) من طريق إسحاق الدبرى ، به . وقال : « حدث عن عبد الرزاق بحديث منكر » ثم ذكر هذا الحديث .

(٢) ورواه ابن الجوزى فى العلل المتناهية (٤٤٦/٢) من طريق أبى بكر — محمد بن خشام — عن العباس البلخى ، عن سعدان بن سعيد الحكمى ، عن سليمان التيمي ، به . وقال ابن الجوزى : « هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ أما الطريق الأول — أى طريق عبد الرزاق — ففيه عبد الرحمن بن زياد قال أحمد بن حنبل : نحن لا نروى عن عبد الرحمن . وقال ابن حبان : يروى الموضوعات عن الثقات ويدلس . وأما الطريق الثانى ، فقال الدارقطنى : تفرد به سعدان عن التيمي . قال ابن الجوزى : سعدان مجهول ، وكذلك محمد بن خشام » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٦٧٣) وصحيح مسلم برقم (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٤) فى م : « يعنى » .

ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٢٥﴾ أى : يأمر الزبانية أن تأخذه عنفاً من المحشر، فَتَغْلَهُ ، أى : تضع الأغلال فى عنقه ، ثم تُورده إلى جهنم فتصليه إياها ، أى : تغمره فيها .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد ، عن عمرو بن قيس ، عن المنهال ابن عمرو قال : إذا قال الله ، عز وجل : ﴿ خُذُوهُ ﴾ ابتدره سبعون ألف ملك ، إن الملك منهم ليقول هكذا ، فيلقى سبعين ألفا فى النار .

وروى ابن أبى الدنيا فى « الأهوال » : إنه يبتدره أربعمائة ألف ، ولا يبقى شىء إلا دَقَّه ، فيقول : ما لى ولك ؟ فيقول : إن الرب عليك غضبان ، فكل شىء غضبان عليك .

وقال الفضيل - هو ابن عياض - : إذا قال الرب ، عز وجل : ﴿ خُذُوهُ فَعَلُّوهُ ﴾ ابتدره سبعون ألف ملك ، أيهم يجعل الغل فى عنقه .

﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ أى : اغمروه فيها .

وقوله : ﴿ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ : قال كعب الأحبار : كل حلقة منها قدر حديد الدنيا .

وقال العوفى عن ابن عباس ، وابن جرير : بذراع الملك . وقال ابن جريج ، قال ابن عباس : ﴿ فَاسْلُكُوهُ ﴾ تدخل فى استه ثم تخرج من فيه ، ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد فى العود حين يشوى .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : يسلك فى دبره حتى يخرج من منخريه ، حتى لا يقوم على رجليه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا على بن إسحاق ، أخبرنا عبد الله ، أخبرنا سعيد بن يزيد ، عن أبى السمح ، عن عيسى بن هلال الصَّدْفَى ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « لو أن رَصَاصَةً مثل هذه - وأشار إلى [مثل] ^(١) جُمُجْمَةٍ - أرسلت من السماء إلى الأرض ، وهى مسيرة خمسمائة سنة ، لبلغت الأرض قبل الليل ، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة ، لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار ، قبل أن تبلغ قعرها أو أصلها » .

وأخرجه الترمذى ، عن سُوَيْد بن نصر ^(٢) ، عن عبد الله بن المبارك ، به ^(٣) . قال : هذا حديث حسن .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ . وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ أى : لا يقوم بحق الله عليه من طاعته وعبادته ، ولا ينفع خلقه ويؤدى حقهم ؛ فإن لله على العباد أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وللعباد بعضهم على بعض حق الإحسان والمعاونة على البر والتقوى ؛ ولهذا أمر الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وقبض النبى ﷺ وهو يقول : « الصلاة ، وما ملكت أيمانكم » ^(٤) .

(١) زيادة من المسند والترمذى .

(٢) فى أ : « سويد بن سعيد » .

(٣) المسند (١٩٧/٢) وسنن الترمذى برقم (٢٥٨٨) .

(٤) جاء من حديث أنس ، وعلى وأم سلمة ، وسفيانة ، رضى الله عنهم ، وحديث على ، رضى الله عنه : « كان آخر كلام النبى ﷺ ... فذكره ، رواه الإمام أحمد فى المسند (٧٨/١) وأبو داود فى السنن برقم (٥١٥٤) .

وقوله : ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ . وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسْلِينَ . لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ أى : ليس له اليوم من ينقذه من عذاب الله ، لا حميم - وهو القريب - ولا شفيح يطاع ، ولا طعام له هاهنا إلا من غسلين .

قال قتادة : هو شر طعام أهل النار . وقال الربيع ، والضحاك : هو شجرة فى جهنم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا منصور بن أبى مزاحم ، حدثنا أبو سعيد المؤدب ، عن خُصَيْف ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : ما أدرى ما الغسلين ، ولكنى أظنه الزقوم .

وقال شبيب بن بشر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : الغسلين : الدم والماء يسيل من لحومهم . وقال على بن أبى طلحة عنه : الغسلين : صديد أهل النار .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) ﴾ .

يقول تعالى مُقسماً لخلقه بما يشاهدونه من آياته فى مخلوقاته الدالة على كماله فى أسمائه وصفاته ، وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم : إن القرآن كلامه ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله ، الذى اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة ، فقال : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ . وَمَا لَا تُبْصِرُونَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ يعنى : محمداً ، أضافه إليه على معنى التبليغ ؛ لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل ؛ ولهذا أضافه فى سورة التكوير إلى الرسول المكى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ ﴾ وهذا جبريل ، عليه السلام .

ثم قال : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ يعنى : محمداً ﷺ ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ ﴾ يعنى : أن محمداً ﷺ رأى جبريل على صورته التى خلقه الله عليها ، ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ أى : بمتهم ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢٥] ، وهكذا قال هاهنا : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ . وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴾ ، فأضافه تارة إلى قوله الرسول المكى ، وتارة إلى الرسول البشرى ؛ لأن كلا منهما مبلغ عن الله ما استأمنه عليه من وحيه وكلامه ؛ ولهذا قال : ﴿ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا صفوان ، حدثنا شريح بن عبيد الله قال : قال عمر ابن الخطاب : خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم ، فوجدته قد سبقنى إلى المسجد ، فقمتم خلفه ، فاستفتح سورة الحاقة ، فجعلت أعجب من تأليف القرآن . قال : فقلت : هذا والله شاعر كما قالت قريش . قال : فقرأ : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ ﴾ . قال : فقلت : كاهن . قال : فقرأ : ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ . تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ . وَلَوْ

تَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٤﴾ إلى آخر السورة . قال : فوقع الإسلام في قلبي كل موقع ^(١) .

فهذا من جملة الأسباب التي جعلها الله مؤثرة في هداية عمر بن الخطاب ، كما أوردنا كيفية إسلامه في سيرته المفردة ، ولله الحمد ^(٢) .

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذْكُرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا ﴾ أى : محمد ﷺ لو كان كما يزعمون مفتريا علينا ، فزاد في الرسالة أو نقص منها ، أو قال شيئا من عنده فنسبه إلينا ، وليس كذلك ، لعاجلناه بالعقوبة . ولهذا قال : ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ قيل : معناه لانتقمنا منه باليمين ؛ لأنها أشد في البطش . وقيل : لأخذنا بيمينه .

﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ : قال ابن عباس : وهو نياط القلب ، وهو العرق الذي القلب معلق فيه . وكذا قال عكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحكم ، وقتادة ، والضحاك ، ومسلم البطين ، وأبو صخر حميد بن زياد .

وقال محمد بن كعب : هو القلب ومرآقه وما يليه .

وقوله : ﴿ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ أى : فما يقدر أحد منكم على أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا به شيئا من ذلك . والمعنى في هذا ^(٣) : بل هو صادق بار راشد ؛ لأن الله ، عز وجل ، مقرر له ما يبلغه عنه ، مؤيد له بالمعجزات الباهرات ^(٤) والدلالات القاطعات .

ثم قال : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكُرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يعنى : القرآن كما قال : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت: ٤٤] .

ثم قال ^(٥) : ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴾ أى : مع هذا البيان والوضوح ، سيوجد منكم من يكذب بالقرآن .

ثم قال : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ قال ابن جرير : وإن التكذيب لحسرة على الكافرين يوم القيامة وحكاه عن قتادة بمثله .

(١) المسند (١٧/١) .

(٢) فى أ : « ولله الحمد والمنة » .

(٣) فى م : « فى ذلك » .

(٤) فى م : « القاهرات » .

(٥) فى م : « كما قال » .

وروى ابن أبى حاتم ، من طريق السدى ، عن أبى مالك : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ يقول :
لندامة . ويحتمل عود الضمير على القرآن ، أى : وإن القرآن والإيمان به لحسرة فى نفس الأمر على
الكافرين ، كما قال : ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [الشعراء: ٢٠٠، ٢٠١] ،
وقال تعالى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبأ: ٥٤] ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ أى :
الخبر الصدق الحق الذى لا مرية فيه ، ولا شك ولا ريب .
ثم قال : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أى : الذى أنزل هذا القرآن العظيم .

[آخر تفسير سورة « الحاقة » ، ولله الحمد (١)] (٢)

(١) فى أ : « ولله الحمد والمنة والثناء والحمد الجميل » .

(٢) زيادة من م ، أ .

تفسير سورة سأل سائل

وهي مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقِيعٍ ۖ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۖ (٢) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرَجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۖ (٤) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۖ (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۖ (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۖ (٧) ﴾ .

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقِيعٍ ﴾ : فيه تضمين دل عليه حرف « الباء » ، كأنه مُقَدَّر : يستعجل سائل بعذاب واقع . كقوله : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ [الحج: ٤٧] ، أى : وعذابه واقع لا محالة .

قال النسائي : حدثنا بشر بن خالد ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقِيعٍ ﴾ قال : النضر بن الحارث بن كلدة .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقِيعٍ ﴾ قال : ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع .

وقال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ ﴾ دعا داع بعذاب واقع يقع فى الآخرة ، قال : وهو قولهم : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢] .

وقال ابن زيد وغيره : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقِيعٍ ﴾ أى : واد فى جنهم ، يسيل يوم القيامة بالعذاب . وهذا القول ضعيف ، بعيد عن المراد . والصحيح الأول لدلالة السياق عليه .

وقوله : ﴿ وَقِيعٍ ﴾ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أى : مُرْصَدٌ مُعَدٌّ لِلْكَافِرِينَ .

وقال ابن عباس : ﴿ وَقِيعٍ ﴾ : جاء ﴿ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ أى : لا دافع له إذا أراد الله كونه ؛ ولهذا قال : ﴿ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ قال الثورى ، عن الأعمش ، عن رجل ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ قال : ذو الدرجات .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ يعنى : العلو والفواضل .

وقال مجاهد : ﴿ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ : معارج السماء . وقال قتادة : ذى الفواضل والنعم .

وقوله : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ : قال عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن قتادة : ﴿ تَعْرُجُ ﴾ : تصعد .

وأما الروح فقال أبو صالح : هم خلق من خلق الله . يشبهون الناس ، وليسوا ناسا . قلت : ويحتمل أن يكون المراد به جبريل ، ويكون من باب عطف الخاص على العام . ويحتمل أن يكون اسم جنس لأرواح بنى آدم ، فإنها إذا قبضت يُصعد بها إلى السماء ، كما دل عليه حديث البراء . وفي الحديث الذى رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، من حديث المنهال ، عن زاذان ، عن البراء مرفوعاً - الحديث بطوله فى قبض الروح الطيبة - قال فيه : « فلا يزال يصعد بها من سماء إلى سماء حتى ينتهى بها إلى السماء ^(١) السابعة » . والله أعلم بصحته ، فقد تكلم فى بعض رواته ، ولكنه مشهور ، وله شاهد فى حديث أبى هريرة فيما تقدم من رواية الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه ، من طريق ابن أبى ذئب ، عن محمد بن عمرو بن عطاء ، عن سعيد ابن يسار ، عنه . وهذا إسناد رجاله على شرط الجماعة ، وقد بسطنا لفظه عند قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] .

وقوله : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ : فيه أربعة أقوال :

أحدها : أن المراد بذلك مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل السافلين ، وهو قرار الأرض السابعة ، وذلك مسيرة خمسين ألف سنة ، هذا ارتفاع العرش عن المركز فى وسط الأرض السابعة . وذلك اتساع العرش من قطر إلى قطر مسيرة خمسين ألف سنة ، وأنه من ياقوتة حمراء ، كما ذكره ابن أبى شيبة فى كتاب صفة العرش . وقد قال ابن أبى حاتم عند هذه الآية :

حدثنا أحمد بن سلمة ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، أخبرنا حَكَّام ، عن عُمَرُ بن معروف ، عن ليث ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قوله : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قال : منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق السموات مقدار خمسين ألف سنة ويوم كان مقداره ألف سنة . يعنى بذلك : تَنَزَّلَ الأمر من السماء إلى الأرض ، ومن الأرض إلى السماء فى يوم واحد ، فذلك مقداره ألف سنة ؛ لأن ما بين السماء والأرض مقدار مسيرة خمسمائة سنة .

وقد رواه ابن جرير عن ابن حميد ، عن حَكَّام بن سلم ، عن عُمَرُ بن معروف ، عن ليث ، عن مجاهد قوله ، لم يذكر ابن عباس ^(٢) .

قال ابن أبى حاتم : وحدثنا أبى ، حدثنا على بن محمد الطَّنَافِسىّ ، حدثنا إسحاق بن منصور ، حدثنا نوح المؤدب ، عن عبد الوهاب بن مجاهد ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : غلظ كل أرض خمسمائة عام ، وبين كل أرض إلى أرض خمسمائة عام ، وذلك سبعة آلاف عام . وغلظ كل سماء

(١) فى م : « السماء التى فيها الله » .

(٢) تفسير الطبرى (٢٩ / ٤٤) .

خمسائة عام ، وبين السماء إلى السماء خمسمائة عام ، وذلك أربعة عشر ألف عام ، وبين السماء السابعة وبين العرش مسيرة ستة وثلاثين ألف عام ، فذلك قوله : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ .

القول الثانى : أن المراد بذلك مدة بقاء الدنيا منذ خلق الله هذا العالم إلى قيام الساعة ، قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبو زرعة ، أخبرنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا ابن أبى زائدة ، عن ابن جريج ، عن مجاهد : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قال : الدنيا عمرها خمسون ألف سنة . وذلك عمرها يوم سماها الله تعالى يوم ، ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ ﴾ قال : اليوم : الدنيا .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد - وعن الحكم بن أبان ، عن عكرمة : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قال : الدنيا من أولها إلى آخرها مقدار خمسين ألف سنة ، لا يدرى أحدكم مضى ، ولا كم بقى إلا الله ، عز وجل ^(١) .

القول الثالث : أنه اليوم الفاصل بين الدنيا والآخرة ، وهو قول غريب جداً . قال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان ، حدثنا بهلول بن المورق ^(٢) ، حدثنا موسى ابن عبيدة ، أخبرنى محمد بن كعب : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قال : هو يوم الفصل بين الدنيا والآخرة .

القول الرابع : أن المراد بذلك يوم القيامة ، قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أحمد بن سنان الواسطى ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، عن إسرائيل ، عن سيماء ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قال : يوم القيامة . وهذا إسناد صحيح . ورواه الثورى عن سيماء بن حرب ، عن عكرمة ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ : يوم القيامة . وكذا قال الضحاك ، وابن زيد .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قال : فهذا يوم القيامة ، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة .

وقد وردت أحاديث فى معنى ذلك ، قال الإمام أحمد :

حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا دراج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد قال : قيل لرسول الله ﷺ : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ : ما أطول هذا اليوم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخفّ عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا » .

(١) تفسير عبد الرزاق (٢/٢٥٣) .

(٢) فى أ : « بهلول بن المعروف » .

ورواه ابن جرير ، عن يونس ، عن ابن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، عن دراج ، به (١) .
إلا أن درّاجاً وشيخه ضعيفان ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن أبي عمر الغداني قال : كنت عند أبي هريرة فمر رجل من بني عامر بن صعصعة ، فقيل له : هذا أكثر عامري مالا . فقال أبو هريرة : ردوه (٢) . فقال : نبئت أنك ذو مال كثير ؟ فقال العامري : إى والله ، إن لى لمائة حمراً ومائة أدماً ، حتى عد من ألوان الإبل ، وأفنان الرقيق ، ورباط الخيل فقال أبو هريرة : إياك وأخفاف الإبل وأظلاف النعم (٣) — يُردّد ذلك عليه ، حتى جعل لون العامري يتغير — فقال : ما ذاك يا أبا هريرة ؟ قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « من كانت له إبلٌ لا يعطى حقها فى نجدتها ورسّلها — قلنا يا رسول الله : ما نجدتها ورسّلها ؟ قال : « فى عُسرها ويسرها — » فإنها تأتى يوم القيامة كأغذ ما كانت وأكثره وأسمنه وآشره ، حتى يبطح لها بقاع قرقر ، فتطؤه بأخفافها ، فإذا جاوزته أخرها أعيدت عليه أولها ، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين الناس فىرى سبيله ، وإذا كانت له بقر لا يعطى حقها فى نجدتها ورسّلها ، فإنها تأتى يوم القيامة كأغذ ما كانت وأكثره وأسمنه وآشره ثم يبطح لها بقاع قرقر فتطؤه كل ذات ظلف بظلفها ، وتنطحه كل ذات قرن بقرنها ، إذا جاوزته أخرها أعيدت عليه أولها ، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين الناس فىرى سبيله . وإذا كانت له غنم لا يعطى حقها فى نجدتها ورسّلها ، فإنها تأتى يوم القيامة كأغذ ما كانت وأسمنه وآشره ، حتى يبطح لها بقاع قرقر ، فتطؤه كل ذات ظلف بظلفها وتنطحه كل ذات قرن بقرنها ، ليس فيها عَقْصاء ولا عضباء ، إذا جاوزته أخرها أعيدت عليه أولها ، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين الناس ، فىرى سبيله » . فقال العامري : وما حق الإبل يا أبا هريرة ؟ قال : أن تعطى الكريمة ، وتمنح الغزيرة ، وتفقر الظهر ، وتسقى اللبن (٤) ، وتطرق الفحل .

وقد رواه أبو داود من حديث شعبة ، والنسائي من حديث سعيد بن أبي عروبة ، كلاهما عن قتادة ، به (٥) .

طريق أخرى لهذا الحديث : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو كامل ، عن سهيل (٦) بن أبي صالح ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من صاحب كنز لا يودى حقه إلا جعل صفائح يحمى عليها فى نار جهنم ، فتكوى بها بجهته وجنبه وظهره ، حتى يحكم الله بين عباده فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار » . وذكر بقية الحديث فى الغنم والإبل كما تقدم ، وفيه : « الخيل لثلاثة ؛ لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى

(١) المسند (٧٥/٣) وتفسير الطبرى (٤٥/٢٩) ودراج عن أبي الهيثم ضعيف .

(٢) فى أ : «ردوه إلىّ» . (٣) فى م : «الغنم» . (٤) فى م : «وتسقى الإبل» .

(٥) المسند (٤٨٩/٢) وسنن أبي داود برقم (١٦٦٠) وسنن النسائي (١٢/٥) .

(٦) فى أ : «عن سهل» .

رجل وزر « إلى آخره (١) .

ورواه مسلم فى صحيحه بتمامه منفرداً به دون البخارى ، من حديث سُهَيْل (٢) ، عن أبيه ، عن أبى هريرة (٣) ، وموضع استقصاء طرقة وألفاظه فى كتاب الزكاة فى « الأحكام » ، والغرض من إيراده هاهنا قوله : « حتى يحكم الله بين عباده ، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » .

وقد روى ابن جرير عن يعقوب (٤) عن ابن عُلَيَّة وعبد الوهاب ، عن أيوب ، عن ابن أبى مُلَيْكَةَ قال : سأل رجل ابن عباس عن قوله : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مَقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قال : فاتهمه ، فقليل له فيه ، فقال : ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ؟ فقال : إنما سألتك لتحديثى . قال : هما يومان ذكرهما الله ، الله أعلم بهما ، وأكره أن أقول فى كتاب الله بما لا أعلم (٥) .

وقوله : ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ أى : اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك ، واستعجالهم العذاب استبعاداً لوقوعه ، كقوله : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ [الشورى: ١٨] قال : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴾ أى : وقوع العذاب وقيام الساعة يراه الكفرة بعيد الوقوع ، بمعنى مستحيل الوقوع ، ﴿ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ أى : المؤمنون يعتقدون كونه قريباً ، وإن كان له أمد لا يعلمه إلا الله ، عز وجل ، لكن كل ما هو آت فهو قريب وواقع لا محالة .

﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴾ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ الْمَجْزُمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بَيْنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتُهُ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤) كَلَّا إِنَّهَا لَأُظْلَى (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى (١٦) تَدْعُو مَنْ أَذْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (١٨) .

يقول تعالى : العذاب واقع بالكافرين ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴾ . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعطاء ، وسعيد بن جبیر ، وعكرمة ، والسدى ، وغير واحد ، كدردى الزيت ، ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ أى : كالصوف المنفوش ، قاله مجاهد ، وقتادة ، والسدى . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ [القارعة: ٥] .

وقوله : ﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يُبْصِرُونَهُمْ ﴾ أى : لا يسأل القريب عن حاله ، وهو يراه فى أسوأ الأحوال ، فتشغله نفسه عن غيره .

قال العوفى عن ابن عباس : يعرف بعضهم بعضاً ، ويتعارفون بينهم ، ثم يفر بعضهم من بعض

(١) المسند (٢/ ٢٦٢) .

(٢) فى أ : « سهل » .

(٣) صحيح مسلم برقم (٩٨٧) .

(٤) فى أ : « عن منصور » .

(٥) تفسير الطبرى (٢٩/ ٤٥) .

بعد ذلك ، يقول : ﴿ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ .

وهذه الآية الكريمة كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاحْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ [لقمان: ٣٣] . وكقوله : ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [فاطر: ١٨] . وكقوله : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠١] . وكقوله : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧] .

وقوله : ﴿ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بَنِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ . وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ . وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴾ . كلا ﴿ أَى : لا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض ، وبأعز ما يجده من المال ، ولو بملء الأرض ذهباً ، أو من ولده الذى كان فى الدنيا حشاشة كبده ، يود يوم القيامة إذا رأى الأحوال أن يفتدى من عذاب الله به ، ولا يقبل منه . قال مجاهد والسدى : ﴿ فَصِيلَتِهِ ﴾ : قبيلته وعشيرته . وقال عكرمة : فخذته الذى هو منهم . وقال أشهب ، عن مالك : ﴿ فَصِيلَتِهِ ﴾ : أمه . وقوله : ﴿ إِنَّهَا لَظَى ﴾ يصف النار وشدة حرها ﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى ﴾ . قال ابن عباس ، ومجاهد : جلدة الرأس . وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى ﴾ : الجلود والهام . وقال مجاهد : ما دون العظم من اللحم . وقال سعيد بن جبير : العصب . وقال أبو صالح : ﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى ﴾ يعنى : أطراف اليدين والرجلين . وقال أيضا : نزاعة لحم الساقين . وقال الحسن البصرى ، وثابت البنانى : ﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى ﴾ أى : مكارم وجهه . وقال الحسن أيضا : تحرق كل شىء فيه ، ويبقى فؤاده يصيح . وقال قتادة : ﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى ﴾ أى : نزاعة لهامته ومكارم وجهه وخلقه وأطرافه . وقال الضحاك : تبرى اللحم والجلد عن العظم ، حتى لا تترك منه شيئاً . وقال ابن زيد : الشوى : الأرباب العظام . فقوله : نزاعة ، قال : تقطع عظامهم ، ثم يُجَدَّد خلقهم وتبدل جلودهم .

وقوله : ﴿ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى . وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ أى : تدعو النار إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها ، وقدر لهم أنهم فى الدار الدنيا يعملون عملها ، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طلق ذلق ، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر كما يلتقط الطير الحب . وذلك أنهم — كما قال الله ، عز وجل — كانوا من ﴿ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴾ أى : كذب بقلبه ، وترك العمل بجوارحه ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ أى : جمع المال بعضه على بعض فأوعاه ، أى : أوكاه ومنع حق الله منه من الواجب عليه فى النفقات ومن إخراج الزكاة . وقد ورد فى الحديث : « لَا تُوعَى فَيُوعَى اللَّهُ عَلَيْكَ » ^(١) وكان عبد الله بن عكيم لا يربط له كيسا ويقول : سمعت الله يقول : ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ .

وقال الحسن البصرى : يا بن آدم ، سمعت وعيد الله ثم أوعيت الدنيا .

وقال قتادة فى قوله : ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ قال : كان جموعاً قموماً للخبيث .

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٤٣٤) ومسلم فى صحيحه برقم (١٠٢٩) من حديث أسماء بنت أبى بكر الصديق ، رضى الله عنهما .

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُتَشَفِّقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (٣٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ ، ثم فسرهُ بقوله : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴾ أى : إذا أصابه الضرُّ فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب ، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير ، ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ أى : إذا حصلت له (١) نعمة من الله بخل بها على غيره ، ومنع حق الله فيها .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا موسى بن عُلَيِّ بْنِ رَبَاح : سمعت أبي يحدث عن عبد العزيز بن مروان بن الحكم قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « شر ما فى رجل شُحٌّ هالِع ، وجبن خالِع » .

ورواه أبو داود عن عبد الله بن الجراح ، عن أبي عبد الرحمن المقرئ ، به (٢) . وليس لعبد العزيز عنده سواه .

ثم قال : ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ أى : الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم إلا من عصمه الله ووقفه ، وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه ، وهم المصلون : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ قيل : معناه يحافظون على أوقاتهم وواجباتهم . قاله ابن مسعود ، ومسروق ، وإبراهيم النخعي .

وقيل : المراد بالدوام هاهنا السكون والخشوع ، كقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ ، ٢] . قاله عتبة بن عامر . ومنه الماء الدائم ، أى : الساكن الراكد .

وقيل : المراد بذلك الذين إذا عملوا عملاً داوموا عليه وأثبتوه ، كما جاء فى الصحيح عن عائشة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ » . وفى لفظ : « ما داوم عليه صاحبه » ، قالت : وكان رسول الله ﷺ إذا عمل عملاً داوم عليه . وفى لفظ : أثبتة (٣) .

(١) فى م : « عنده » .

(٢) المسند (٢/ ٣٢٠) وسنن أبى داود برقم (٢٥١١) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٣، ٦٤٦٥) وصحيح مسلم برقم (٧٨٥) من حديث عائشة ، رضى الله عنها .

وقال قتادة في قوله : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ : ذكر لنا أن دانيال ، عليه السلام ، نعت أمة محمد ﷺ فقال : يصلون صلاة لو صلاها قوم نوح ما غرقوا ، أو قوم عاد ما أرسلت عليهم الريح العقيم ، أو ثمود ما أخذتهم الصيحة . فعليكم بالصلاة فإنها خلقت للمؤمنين حسن .
وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ . لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ أى : فى أموالهم نصيب مقرر لذوى الحاجات . وقد تقدم الكلام على ذلك فى « سورة الذاريات » .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الدِّينِ ﴾ أى : يوقنون بالمعاد والحساب والجزاء ، فهم يعملون عمل من يرجو الثواب ويخاف العقاب ؛ ولهذا قال : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ أى : خائفون وجلون ، ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ أى : لا يأمنه أحد ممن عقل عن الله أمره إلا بأمان من الله تبارك وتعالى .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ أى : يكفونها عن الحرام ويمنعونها أن توضع فى غير ما أذن الله [فيه] ^(١) . ولهذا قال : ﴿ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ أى : من الإماء ، ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ . وقد تقدم تفسير ذلك فى أول سورة ^(٢) ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ بما أغنى عنى إعادته هاهنا .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ أى : إذا أؤتمنوا لم يخونوا ، وإذا عاهدوا لم يخذروا . وهذه صفات المؤمنين ، وضدها صفات المنافقين ، كما ورد فى ^(٣) الحديث الصحيح : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » . وفى رواية : « إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » ^(٤) .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ أى : محافظون عليها لا يزيدون فيها ، ولا ينقصون منها ، ولا يكتُمونها ، ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٣] .

ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ ^(٥) يُحَافِظُونَ ﴾ أى : على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها ، فافتتح الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها ، فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها ، كما تقدم فى أول سورة : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، سواء ؛ ولهذا قال هناك : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ . الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠ ، ١١] ، وقال هاهنا : ﴿ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَّمُونَ ﴾ أى : مكرمون بأنواع الملاذ والمسار .

﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكَ مَهْطِعِينَ ^(٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ^(٣٧) أَيْطَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ^(٣٨) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ^(٣٩) فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ

(٣) فى م : « كما ورد به » .

(٢) فى م : « سورة المؤمنون » .

(١) زيادة من م .

(٤) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية : ٨ من سورة المؤمنون .

(٥) فى أ : « على صلاتهم » .

الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ .

يقول تعالى منكرًا على الكفار الذين كانوا فى زمن (١) النبى ﷺ وهم مشاهدون له ، ولما أرسله الله به من الهدى وأيده الله به من المعجزات الباهرة ، ثم هم مع هذا كله فارون منه ، متفرقون عنه ، شاردون يمينًا وشمالًا ، فرقًا فرقًا ، وشيعًا شيعًا ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ . كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَنْفَرَةٌ . فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ الآية [المدر: ٤٩ - ٥١] وهذه مثلها ؛ فإنه قال تعالى : ﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكَ مُهْطِعِينَ ﴾ أى : فما لهؤلاء الكفار الذين عندك يا محمد ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أى : مسرعين نافرين منك ، كما قال الحسن البصرى : ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أى : منطلقين ، ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ واحدها عزة ، أى : متفرقين . وهو حال من مهطعين ، أى : فى حال تفرقهم واختلافهم ، كما قال الإمام أحمد فى أهل الأهواء : فهم مخالفون للكتاب ، مختلفون فى الكتاب ، متفقون على مخالفة الكتاب .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكَ مُهْطِعِينَ ﴾ قال : قبلك ينظرون ، ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ قال : العزین : العُصْب من الناس ، عن يمين وشمال معرضين يستهزئون به .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا أبو عامر ، حدثنا قره ، عن الحسن (٢) فى قوله : ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ متفرقين ، يأخذون يمينًا وشمالًا يقولون : ما قال هذا الرجل ؟ وقال قتادة : ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ : عامدين ، ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ أى : فرقًا حول النبى ﷺ لا يرغبون فى كتاب الله ، ولا فى نبيه ﷺ .

وقال الثورى ، وشعبة ، وعيسى بن يونس وعبثر بن القاسم (٣) ، ومحمد بن فضيل ، ووکیع ، ويحيى القطان ، وأبو معاوية ، كلهم عن الأعمش ، عن المسيب بن رافع ، عن تميم بن طرفة ، عن جابر بن سمرة ؛ أن رسول الله ﷺ خرج عليهم (٤) وهم حلق ، فقال : « ما لى أراكم عزين ؟ » رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن جرير ، من حديث الأعمش ، به (٥) .

(١) فى م : « عن الحسين » .

(١) فى أ : « فى زمان » .

(٤) فى م : « خرج على أصحابه » .

(٣) فى م : « وعبثر بن القاسم وعيسى بن يونس » .

(٥) المسند (٩٣/٥) وصحيح مسلم برقم (٤٣٠) وسنن أبى داود برقم (٤٨٢٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٢٢) وتفسير الطبرى

(٥٤/٢٩) .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا مؤمل ، حدثنا سفيان ، عن عبد الملك بن عمير ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه وهم حلق حلق ، فقال : « ما لى أراكم عزين ؟ » (١) .

وهذا إسناد جيد ، ولم أره فى شيء من الكتب الستة من هذا الوجه .

وقوله : ﴿ أَيُطَمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ أى : أيطمع هؤلاء — والحالة هذه — من فرارهم عن الرسول ونفارهم عن الحق — أن يدخلوا جنات النعيم ؟ بل مأواهم نار الجحيم .

ثم قال تعالى مقررًا لوقوع المعاد والعذاب بهم الذى أنكروا كونه واستبعدوا وجوده ، مستدلا عليهم بالبداة التى لإعادة أهون منها وهم معترفون بها ، فقال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : من المني الضعيف ، كما قال : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ [المرسلات: ٢٠] . وقال : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ . إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ . يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ . فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق: ٥ - ١٠] .

ثم قال : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ أى : الذى خلق السموات والأرض ، وجعل مشرقا ومغربا ، وسخر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب فى مغاربها . وتقرير الكلام : ليس الأمر كما تزعمون أن لا معاد ولا حساب ، ولا بعث ولا نشور ، بل كل ذلك واقع وكائن لا محالة . ولهذا أتى بـ « لا » فى ابتداء القسم ليدل على أن المقسم عليه نفى ، وهو مضمون الكلام ، وهو الرد على زعمهم الفاسد فى نفى يوم القيامة ، وقد شاهدوا من عظيم قدرة الله تعالى ما هو أبلغ من إقامة القيامة ، وهو خلق السموات والأرض ، وتسخير ما فيهما من المخلوقات من الحيوانات والجمادات ، وسائر صنوف الموجودات ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧] وقال تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ (٢) الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِمْ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣] . وقال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨١ ، ٨٢] . وقال هاهنا : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ . عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ أى : يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه ، فإن قدرته صالحة لذلك ، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أى : بعاجزين . كما قال تعالى : ﴿ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ . بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ [القيامة: ٣ ، ٤] . وقال تعالى : ﴿ نَحْنُ قَادِرُونَ أَنْ نَبْنِيَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٠ ، ٦١] .

واختار ابن جرير ﴿ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ أى : أمة تطيعنا ولا تعصينا وجعلها ، كقوله : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨] . والمعنى الأول أظهر للدلالة

(١) تفسير الطبرى (٢٩/٥٤) .

(٢) فى أ : « أو ليس » .

الآيات الآخر عليه ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ فَذَرَهُمْ ﴾ أى : يا محمد ﴿ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا ﴾ أى : دعهم فى تكذيبهم وكفرهم وعنادهم ، ﴿ حَتَّىٰ يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ أى : فسيعلمون غب ذلك ويذوقون وباله ، ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصَبٍ يُوْفَضُونَ ﴾ أى : يقومون من القبور إذا دعاهم الرب ، تبارك وتعالى ، لموقف الحساب ، ينهضون سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك : إلى عَلم يسعون . وقال أبو العالية ، ويحيى بن أبى كثير : إلى غاية يسعون إليها .

وقد قرأ الجمهور : « نَصَبٌ » بفتح النون وإسكان الصاد ، وهو مصدر بمعنى المنسوب . وقرأ الحسن البصرى : ﴿ نَصَبٍ ﴾ بضم النون والصاد ، وهو الصنم ، أى : كأنهم فى إسراعهم إلى الموقف كما كانوا فى الدنيا يهرولون إلى النصب إذا عاينوه يوفضون ، يبتدرون ، أيهم يستلمه أول . وهذا مروى عن مجاهد ، ويحيى بن أبى كثير ، ومسلم البطين^(١) ، وقتادة ، والضحاك ، والربيع ابن أنس ، وأبى صالح ، وعاصم بن بهدكة ، وابن زيد ، وغيرهم .

وقوله : ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ ﴾ أى : خاضعة ﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أى : فى مقابلة ما استكبروا فى الدنيا عن الطاعة ، ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ .

آخر تفسير سورة « سأل سائل » ولله الحمد والمنة

(١) فى م : « وأبو مسلم البطين » .

تفسير سورة نوح

وهي مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١ ﴾ قَالَ يَا قَوْمِ
إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٢ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ٣ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ
وَيُخْرِكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٤ ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن نوح ، عليه السلام ، أنه أرسله إلى قومه آمرا له أن ينذرهم بأس الله قبل
حلوله بهم ، فإن تابوا وأنبأوا رفع عنهم ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .
قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى : بين النذارة ، ظاهر الأمر واضحه ، ﴿ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾
أى : اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمه ﴿ وَأَطِيعُوا ﴾ فيما أمركم به وأنهاكم عنه . ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ
ذُنُوبِكُمْ ﴾ أى : إذا فعلتم ما أمرتكم به وصدقتم ما أرسلت به إليكم ، غفر الله لكم ذنوبكم .

و « من » هاهنا قيل : إنها زائدة . ولكن القول بزيادتها فى الإثبات قليل . ومنه قول بعض
العرب : « قد كان من مطر » . وقيل : إنها بمعنى « عن » ، تقديره : يصفح لكم عن ذنوبكم .
واختاره ابن جرير ^(١) . وقيل : إنها للتبعيض ، أى : يغفر لكم الذنوب العظام التى وعدكم على
ارتكابكم إياها الانتقام .

﴿ وَيُخْرِكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى : يمد فى أعماركم ويدراً عنكم العذاب الذى إن لم تنزجروا
عما نهاكم عنه ، أوقعه بكم ^(٢) .

وقد يستدل بهذه الآية من يقول : إن الطاعة والبر وصلة الرحم ، يزداد بها فى العمر حقيقة ؛
كما ورد به الحديث : « صلة الرحم تزيد فى العمر » .

وقوله : ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة ،
فإنه إذا أمر [الله] ^(٣) تعالى بكون ذلك لا يرد ولا يمانع ، فإنه العظيم الذى قهر كل شئ ، العزيز
الذى دانت لعزته جميع المخلوقات .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ٦ ﴾ وَإِنِّي

(١) تفسير الطبرى (٥٧/٢٩) .

(٢) زيادة من أ .

(٣) فى أ : « أو يعذبكم » .

كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا
 اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ
 اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ
 وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ
 أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ
 الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ
 إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بَسَاطًا ﴿١٩﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح ، عليه السلام ، أنه اشتكى إلى ربه ، عز وجل ، ما لقي من
 قومه ، وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين عاما ، وما بين لقومه
 ووضح لهم ودعاهم إلى الرشيد والسبيل الآقوم ، فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ أي :
 لم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار ، امثالاً لأمرك وابتغاءً لطاعتك ، ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴾
 أي : كلما دعوتهم ليقربوا من الحق قروا منه وحادوا عنه ، ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا
 أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ أي : سدوا آذانهم لئلا يسمعوها ما أدعوهم إليه . كما أخبر
 تعالى عن كفار قريش : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾
 [فصلت: ٢٦].

﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ : قال ابن جريج ، عن ابن عباس : تنكروا له لئلا يعرفهم . وقال سعيد
 ابن جبير ، والسدي : غطوا رؤوسهم لئلا يسمعوها ما يقول .
 ﴿ وَأَصْرُوا ﴾ أي : استمروا على ما هم فيه ^(١) من الشرك والكفر العظيم الفظيع ، ﴿ وَاسْتَكْبَرُوا
 اسْتِكْبَارًا ﴾ أي : واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له .

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴾ أي : جهره بين الناس ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ ﴾ أي : كلاماً ظاهراً
 بصوت عال ، ﴿ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ أي : فيما بيني وبينهم ، فنوع عليهم الدعوة لتكون أنجع فيهم
 ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ أي : ارجعوا إليه وارجعوا عما أنتم فيه وتوبوا إليه من قريب ،
 فإنه من تاب إليه تاب عليه ، ولو كانت ذنوبه ^(٢) مهما كانت في الكفر والشرك ؛ ولهذا قال : ﴿ فَقُلْتُ
 اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ أي : متواصلة الأمطار . ولهذا يستحب
 قراءة هذه السورة في صلاة الاستسقاء لأجل هذه الآية . وهكذا روى عن أمير المؤمنين عمر بن
 الخطاب : أنه صعد المنبر ليستسقى ، فلم يزد على الاستغفار ، وقرأ الآيات في الاستغفار . ومنها

(٢) في أ: « ولو كان ذنبه » .

(١) في م: « ما هم عليه » .

هذه الآية : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ ثم قال : لقد طلبت الغيث بمجاديع السماء ^(١) التى ستنزل بها المطر .

وقال ابن عباس وغيره : يتبع بعضه بعضا .

وقوله : ﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ أى : إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه ، كثر الرزق عليكم ، وأسقاكم من بركات السماء ، وأنبت لكم من بركات الأرض ، وأنبت لكم الزرع ، وأدّر لكم الضرع ، وأمدكم بأموال وبنين ، أى : أعطاكم الأموال والأولاد ، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار ، وخللها بالأنهار الجارية بينها .

هذا مقام الدعوة بالترغيب . ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب فقال : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ أى : عظمة . قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقال ابن عباس : لا تعظمون الله حق عظمتة ، أى : لا تخافون من بأسه ونقمتة ، ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ قيل : معناه من نقطة ، ثم من علقه ، ثم من مضغة . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة ، ويحيى بن رافع ، والسدى ، وابن زيد .

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ ؟ أى : واحدة فوق واحدة ، وهل هذا يتلقى من جهة السمع فقط ؟ أو هى من الأمور المدركة بالحوس ، مما علم من التسيير والكسوفات ، فإن الكواكب السبعة السيارة يكشف بعضها بعضا ، فأدناها القمر فى السماء الدنيا وهو يكشف ما فوقه ، وعطارد فى الثانية ، والزهرة فى الثالثة ، والشمس فى الرابعة ، والمريخ فى الخامسة ، والمشتري فى السادسة ، وزحل فى السابعة . وأما بقية الكواكب - وهى الثوابت - ففى فلك ثامن يسمونه فلك الثوابت . والمشرعون منهم يقولون : هو الكرسي ، والفلك التاسع ، وهو الأطلس . والأثير عندهم الذى حركته على خلاف حركة سائر الأفلاك ، وذلك أن حركته مبدأ الحركات ، وهى من المغرب إلى المشرق ؛ وسائر الأفلاك عكسه من المشرق إلى المغرب ، ومعها يدور سائر الكواكب تبعا ، ولكن للسيارة حركة معاكسة لحركة أفلاكها ، فإنها تسير من المغرب إلى المشرق . وكل يقطع فلكه بحسبه ، فالقمر يقطع فلكه فى كل شهر مرة ، والشمس فى كل سنة مرة ، وزحل فى كل ثلاثين سنة مرة ، وذلك بحسب اتساع أفلاكها ، وإن كانت حركة الجمع فى السرعة متناسبة . هذا ملخص ما يقولونه فى هذا المقام ، على اختلاف بينهم فى مواضع كثيرة ، لسنا بصدد بيانها ، وإنما المقصود أن الله سبحانه : ﴿ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴾ أى : فاوت بينهما فى الاستنارة ، فجعل كلا منهما أنموذجا على حدة ، ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها ، وقدّر القمر منازل وبروجا ، وفاوت نوره ، فتارة يزداد حتى يتناهى ثم يشرع فى النقص حتى يستسر ، ليدل على مضى الشهور والأعوام ، كما قال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

(١) فى م : « بمجادح » ، وفى أ : « بمخارج » .

يَعْلَمُونَ ﴿ [يونس: ٥] .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ : هذا اسم مصدر ، والإتيان به هاهنا أحسن ، ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾ أى : إذا متم ﴿ وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ أى : يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بَسَاطًا ﴾ أى : بسطها ومهدا وقررها وثبتها بالجبال الراسيات الشم الشامخات ﴿ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ أى : خلقها لكم لتستقروا عليها وتسلكوا فيها ^(١) أين شئتم ، من نواحيها وأرجائها وأقطارها ، وكل هذا مما ينبههم به نوح ، عليه السلام على قدرة الله وعظمته فى خلق السموات والأرض ، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية ، فهو الخالق الرازق ، جعل السماء بناءً ، والأرض مهادا ، وأوسع ^(٢) على خلقه من رزقه ، فهو الذى يجب أن يعبد ويوحى ولا يشرك به أحد ؛ لأنه لا نظير له ولا عديل ^(٣) له ، ولا ند ولا كفاء ، ولا صاحبة ولا ولد ، ولا وزير ولا مشير ، بل هو العلى الكبير .

﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (٢١) وَمَكْرُؤًا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿ (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿ (٢٤) .

يقول تعالى مخبرا عن نوح ، عليه السلام ، أنه أنهى إليه ، وهو العليم الذى لا يعزب عنه شئ ، أنه مع البيان المتقدم ذكره ، والدعوة المتنوعة المتشعبة على الترتيب تارة والترهيب أخرى : أنهم عصوه وكذبوه وخالفوه ، واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر الله ، ومتع ببال وأولاد ، وهى فى نفس الأمر استدراج وإنظار لا إكرام ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾ : قرئ ﴿ وَوَلَدَهُ ﴾ بالضم وبالفتح ، وكلاهما متقارب .

وقوله : ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكْرًا كَبِيرًا ﴾ ، قال مجاهد : ﴿ كَبِيرًا ﴾ أى : عظيماً . وقال ابن زيد : ﴿ كَبِيرًا ﴾ أى : كبيرا . والعرب تقول : أمر عجيب وعجَاب وعُجَاب . ورجل حُسان . وحُسان : وجمال وجمال ، بالتخفيف والتشديد ، بمعنى واحد .

والمعنى فى قوله : ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكْرًا كَبِيرًا ﴾ أى : باتباعهم فى تسويلهم لهم بأنهم على الحق والهدى ، كما يقولون لهم يوم القيامة : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ﴾ [سبأ: ٣٣] . ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكْرًا كَبِيرًا ﴾ . وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿ . وهذه أسماء أصنامهم التى كانوا يعبدونها من دون الله .

قال البخارى : حدثنا إبراهيم ، حدثنا هشام ، عن ابن جريج ، وقال عطاء ، عن ابن عباس : صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد : أما ود : فكانت لكلب بدومة الجندل ؛ وأما

(١) فى م : « منها » .

(٢) فى م : « ووسع » .

(٣) فى م ، أ : « ولا عدل » .

سواع: فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ، ثم لبني غُطَيْف بالجُرُف عند سبأ ، وأما يَعوقُ: فكانت لهَمدان ، وأما نسر: فكانت لحمير لآل ذى كَلاع، وهى ^(١) أسماء رجال صالحين من قوم نوح، عليه السلام ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم . ففعلوا ، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخَ ^(٢) العلم عُبدت ^(٣) .

وكذا روى عن عكرمة ، والضحاك ، وقتادة ، وابن إسحاق ، نحو هذا .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : هذه أصنام كانت ^(٤) تعبد فى زمن نوح .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران ، عن سفيان ، عن موسى ، عن محمد بن قيس ^(٥) [ويغوث] وَيَعُوقُ وَنَسْرًا ﴿ ٥ 〉 قال : كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صَوَّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم . فصوروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دَبَّ إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسْقَوْنَ المطر ، فعبدوهم ^(٦) .

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة شيث ، عليه السلام ، من طريق إسحاق بن بشر قال : وأخبرنى جُوَيْر ومقاتل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس أنه قال : ولد لآدم ، عليه السلام ، أربعون ولدا، عشرون غلاما وعشرون جارية، فكان من عاش منهم: هابيل، وقابيل، وصالح، وعبد الرحمن — والذى كان سماه عبد الحارث — وودَّ ، وكان ودَّ يقال له « شيث » ويقال له : « هبة الله » وكان إخوته قد سَوَّدوه ، وولد له سَوَاع ويغوث ويعوق ونسر ^(٧) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو عُمَرَ الدَّورِيُّ ، حدثنى أبو إسماعيل المؤدَّب ، عن عبد الله بن مسلم بن هُرْمَز عن أبى حَزْرَةَ ، عن عروة بن الزُّبَيْر قال : اشتكى آدم ، عليه السلام ، وعنده بنوه : ود ، ويغوث ، [ويعوق] ^(٨) ، وسواع ، ونسر — وكان ودَّ أكبرهم وأبرهم به .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن منصور ، حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا يعقوب ، عن أبى المطهر قال : ذكروا عند أبى جعفر — وهو قائم يصى — يزيد بن المهلب ، قال : فلما انفتل من صلاته قال : ذكركم يزيد بن المهلب ، أما إنه قتل فى أول أرض عُبد فيها غيرُ الله . قال : ثم ذكر وداً — قال : وكان ودُّ رجلا مسلما وكان محببا فى قومه ، فلما مات عسكروا حول قبره فى أرض بابل وجزعوا عليه ، فلما رأى إبليس جَزَعهم عليه ، تشبه فى صورة إنسان ، ثم قال : إنى أرى جزعكم على هذا الرجل ، فهل لكم أن أصور لكم مثله ، فيكون فى نادىكم فتذكرونه ؟ قالوا :

(١) فى أ : « ونسرا وهى » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٢٠) .

(٤) فى م : « كانت هذه أصنام » .

(٥) زيادة من م .

(٦) تفسير الطبرى (٦٢/٢٩) .

(٧) تاريخ دمشق (١٦٥/٨) « المخطوط » .

(٨) زيادة من م ، أ .

نعم. فصوّر لهم مثله ، قال : ووضعوه فى ناديم وجعلوا يذكرونه . فلما رأى ما بهم من ذكره قال : هل لكم أن أجعل فى منزل كل واحد منكم تمثالا مثله ، فيكون ^(١) له فى بيته فتذكرونه ؟ قالوا : نعم. قال : فمثل لكل أهل بيت تمثالا مثله ، فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به ، قال : وأدرك أبناءهم فجعلوا يرون ما يصنعون به ، وتناسلوا ودرّس أمر ذكرهم إياه ، حتى اتخذوه إلها يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم ، فكان أول ما عبد غير الله : الصنم الذى سموه ودّا .

وقوله : ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ يعنى : الأصنام التى اتخذوها أضلوا بها خلقا كثيرا ، فإنه استمرت عبادتها فى القرون إلى زماننا هذا فى العرب والعجم وسائر صنوف بنى آدم . وقد قال الخليل ، عليه السلام ، فى دعائه : ﴿ وَاجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ . رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ﴾ [إبراهيم : ٣٥ ، ٣٦] .

وقوله : ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ : دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم ، كما دعا موسى على فرعون ومثله فى قوله : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٨٨] . وقد استجاب الله لكل من النبيين فى قومه ، وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به .

﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾ (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨) .

يقول تعالى : ﴿ مِمَّا خَطَايَاهُمْ ﴾ وقرئ : ﴿ خَطِيئَاتِهِمْ ﴾ ﴿ أُغْرِقُوا ﴾ أى : من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾ أى : نقلوا من تيار البحار ^(٢) إلى حرارة النار ، ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾ أى : لم يكن لهم معين ولا مُغيث ولا مُجبر ينقذهم من عذاب الله كقوله : ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ [هود : ٤٣] .

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ أى : لا تترك على [وجه] ^(٣) الأرض منهم أحداً ولا تومر ^(٤) وهذه من صيغ تأكيد النفي .

قال الضحاك : ﴿ دَيَّارًا ﴾ : واحدا . وقال السدّى : الديار : الذى يسكن الدار .

فاستجاب الله له ، فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولد نوح لصلبه الذى اعتزل عن أبيه ، وقال : ﴿ سَأْوَى إِلَيَّ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود : ٤٣] .

(١) فى م : « ليكون » .

(٢) فى م : « البحر » .

(٣) زيادة من م ، أ .

(٤) فى م : « ولاد ومربا » .

وقال ابن أبي حاتم: قرئ^(١) على يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني شبيب ابن سعد، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لو رحم الله من قوم نوح أحدا، لرحم امرأة، لما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل، فلما بلغها الماء صعدت^(٢) به منكبها، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها. فلو رحم الله منهم أحدا لرحم هذه المرأة»^(٣).

هذا حديث غريب، ورجاله ثقات. ونجى الله أصحاب السفينة الذين آمنوا مع نوح، عليه السلام، وهم الذين أمره الله بحملهم معه.

وقوله: ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ أي: إنك إن أبقيت منهم أحدا أضلوا عبادك، أي: الذين تخلقهم بعدهم ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ أي: فاجراً في الأعمال كافر القلب، وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً.

ثم قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا﴾: قال الضحاك: يعني: مسجدي، ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها، وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن، وقد قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حيوة، أنبأنا سالم بن غيلان: أن الوليد بن قيس التميمي أخبره: أنه سمع أبا سعيد الخدري - أو: عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد: - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا تصحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي».

ورواه أبو داود والترمذي، من حديث عبد الله بن المبارك، عن حيوة بن شريح، به^(٤). ثم قال الترمذي: إنما نعرفه من هذا الوجه.

وقوله: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾: دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات، وذلك يعم الأحياء منهم والأموات؛ ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء، اقتداء بنوح، عليه السلام، وبما جاء في الآثار، والأدعية [المشهورة]^(٥) المشروعة.

وقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾: قال السدي: إلا هلاكاً. وقال مجاهد: إلا خساراً، أي: في الدنيا والآخرة.

آخر تفسير سورة «نوح» [عليه السلام ولله الحمد والمنة] ^(٦)

(١) في هـ: «لما قرئ» والمثبت من م، أ.

(٢) وله شاهد من حديث عائشة رواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٣٥٩١) والحاكم في المستدرک (٣٤٢/٢) من طريق سعيد بن أبي مریم، عن موسى بن يعقوب، عن فائد مولى عبيد الله بن علي بن أبي رافع: أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة أخبره أن عائشة أخبرته أن رسول الله ﷺ قال: «لو رحم الله من قوم نوح أحدا لرحم أم الصبي» وذكره نحوه، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجناه» وتعقبه الذهبي بقوله: «إسناده مظلم، وموسى بن يعقوب المذكور في إسناده ليس بذلك».

(٤) المسند (٣٨/٣) وسنن أبي داود برقم (٤٨٣٢) وسنن الترمذي برقم (٢٣٩٥).

(٥) زيادة من م.

(٦) زيادة من أ.

تفسير سورة الجن

وهي مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۖ (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۖ (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۖ (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۖ (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۖ (٧) ﴾ .

يقول تعالى أمرا رسوله ﷺ أن يخبر قومه : أن الجن استمعوا القرآن فآمَنوا به وصدقوه وانقادوا له ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾ أى : إلى السداد والنجاح ، ﴿ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [الأحقاف: ٢٩] . وقد قدمنا الأحاديث الواردة فى ذلك بما أغنى عن إعادتها هاهنا .

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ أى : فعله وأمره وقدرته .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : جد الله : آلاؤه وقدرته ونعمته على خلقه .

وروى عن مجاهد وعكرمة : جلال ربنا . وقال قتادة : تعالى جلاله وعظمته وأمره . وقال السدى : تعالى أمر ربنا . وعن أبى الدرداء ، ومجاهد أيضا وابن جريج : تعالى ذكره . وقال سعيد ابن جبیر : ﴿ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ أى : تعالى ربنا .

فأما ما رواه ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ^(١) ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن عطاء ، عن ابن عباس قال : الجد : أب . ولو علمت الجن أن فى الإنس جدا ما قالوا : تعالى جد ربنا .

فهذا إسناد جيد ، ولكن لست أفهم ما معنى هذا الكلام ؛ ولعله قد سقط شيء ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ أى : تعالى عن اتخاذ صاحبة والأولاد ، أى : قالت

(١) فى م : « عبد الله بن سويد الكوفى » .

الجن : تنزه الرب تعالى جلاله وعظمته ، حين أسلموا وآمنوا بالقرآن ، عن اتخاذ الصاحبة والولد .
ثم قالوا : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴾ ، قال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ،
والسدي : ﴿ سَفِيهُنَا ﴾ يعنون : إبليس ، ﴿ شَطَطًا ﴾ ، قال السدي ، عن أبي مالك : ﴿ شَطَطًا ﴾ أى :
جورا . وقال ابن زيد : ظلما كبيرا .

ويحتمل أن يكون المراد بقولهم : ﴿ سَفِيهُنَا ﴾ : اسم جنس لكل من زعم أن لله صاحبة أو
ولدا . ولهذا قالوا : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا ﴾ أى : قبل إسلامه ﴿ عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴾ أى : باطلا
وزورا ؛ ولهذا قالوا : ﴿ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أى : ما حسبنا أن الإنس
والجن يتمالثون على الكذب على الله فى نسبة الصاحبة والولد إليه . فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا
به ، علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله فى ذلك .

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أى : كنا نرى أن لنا
فضلا على الإنس ؛ لأنهم كانوا يعوذون بنا ، أى : إذا نزلوا واديا أو مكانا موحشا من البرارى
وغيرها كما كان عادة العرب فى جاهليتها . يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجن ، أن يصيبهم بشيء
يسوؤهم كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه فى جوار رجل كبير وذمامه وخفارته ، فلما رأت الجن أن
الإنس يعوذون ^(١) بهم من خوفهم منهم ، ﴿ زَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أى : خوفا وإرهابا وذعرا ، حتى تبقوا
أشد منهم مخافة وأكثر تعوذا بهم ، كما قال قتادة : ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أى : إثما ، وازدادت الجن
عليهم بذلك جراءة .

وقال الثورى ، عن منصور عن إبراهيم : ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أى : ازدادت الجن عليهم جراءة .
وقال السدي : كان الرجل يخرج بأهله فيأتى الأرض فينزلها فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادى من
الجن أن أضرب أنا فيه أو مالى أو ولدى أو ماشيتى ، قال : فإذا عاذ بهم من دون الله ، رَهَقَتْهم الجن
الأذى عند ذلك .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد يحيى بن سعيد القطان ، حدثنا وهب بن جرير ، حدثنا
أبى ، حدثنا الزبير بن الحرث ، عن عكرمة قال : كان الجن يَفَرُّونَ مِنَ الْإِنسِ كما يَفَرُّ الْإِنسُ مِنْهُمْ
أو أشد ، وكان الإنس إذا نزلوا واديا هرب الجن ، فيقول سيد القوم : نعوذ بسيد أهل هذا الوادى .
فقال الجن : نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم . فدنوا من الإنس فأصابوهم بالخبل والجنون ، فذلك
قول الله : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ .

وقال أبو العالية ، والربيع ، وزيد بن أسلم : ﴿ رَهَقًا ﴾ أى : خوفا . وقال العوفى ، عن ابن
عباس : ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أى : إثما . وكذا قال قتادة . وقال مجاهد : زاد الكفار طغيانا .

(١) فى م : « سيعوذون » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا فروة بن أبي المغراء الكندي ، حدثنا القاسم بن مالك - يعنى المزنى - عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن أبيه ، عن كُردم بن أبي السائب الأنصارى قال : خرجت مع أبي من المدينة فى حاجة ، وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ بمكة ، فأوانا المبيت إلى راعى غنم . فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملاً من الغنم ، فوثب الراعى فقال : يا عامر الوادى ، جارك . فنادى مناد لا نراه ، يقول : يا سرحان ، أرسله . فأتى الحمل يشتد حتى دخل فى الغنم لم تصبه كدمة . وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ .

ثم قال : وروى عن عبيد بن عمير ، ومجاهد ، وأبى العالية ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، وإبراهيم النخعى ، نحوه .

وقد يكون هذا الذئب الذى أخذ الحمل - وهو ولد الشاة - كان جنباً حتى يُرهب الإنسان ويخاف منه ، ثم رده عليه لما استجار به ، ليضله ويهينه ، ويخرجه عن دينه ، والله أعلم .
وقوله : ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴾ أى : لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولا . قاله الكلبي ، وابن جرير .

﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ۝ (٨) وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا ۝ (٩) وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝ (١٠) ﴾ .

يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن ، وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرساً شديداً ، وحفظت من سائر أرجائها ، وطردت الشياطين عن مقاعدها التى كانت تقعد فيها قبل ذلك ؛ لئلا يسرقوا شيئا من القرآن . فيلقوه على السنة الكهنة ، فيلبس الأمر ويختلط ولا يدري من الصادق . وهذا ^(١) من لطف الله بخلقه ^(٢) ، ورحمته بعباده ، وحفظه لكتابه العزيز ، ولهذا قالت الجن : ﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا . وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا ﴾ أى : من يروم أن يسرق السمع اليوم يجد له شهاباً مرصداً له ، لا يتخطاه ولا يتعداه ، بل يمحقه ويهلكه ، ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ أى : ما ندري هذا الأمر الذى قد حدث فى السماء ، لا ندري أشراً أريد بمن فى الأرض أم فى الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشداً ؟ وهذا من أدبهم فى العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل ، والخير أضافوه إلى الله عز وجل . وقد ورد فى الصحيح : « والشر ليس إليك » . وقد كانت الكواكب يرمى بها قبل ذلك ، ولكن ليس بكثير بل فى الأحيان بعد الأحيان ، كما فى حديث ابن عباس ^(٣) : « بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذا رمى بنجم فاستنار ، فقال : « ما كنتم تقولون

(١) فى م : « فكان هذا » .

(٢) فى م : « عليه » .

(٣) فى م : « كما فى حديث العباس » .

فى هذا ؟ » فقلنا : كنا نقول : يولد عظيم ، يموت عظيم . فقال : « ليس كذلك ، ولكن الله إذا قضى الأمر فى السماء » ، وذكر تمام الحديث ، وقد أوردناه فى سورة « سبأ » بتمامه (١) . وهذا هو السبب الذى حَمَلَهُمْ على تطلب السبب فى ذلك ، فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها ، فوجدوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه فى الصلاة ، فعرفوا أن هذا هو الذى حُفِظَتْ من أجله السماء ، فأمن من آمن منهم ، وتمرد فى طغيانه من بقى ، كما تقدم حديث ابن عباس فى ذلك ، عند قوله فى سورة « الأحقاف » : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٩] . ولا شك أنه لما حدث هذا الأمر ، وهو كثرة الشهب فى السماء والرمى بها ، هال ذلك الإنس والجن وانزعجوا له وارتاعوا لذلك ، وظنوا أن ذلك لخراب العالم — كما قال السدى : لم تكن السماء تحرس إلا أن يكون فى الأرض نبي أو دين لله ظاهر ، وكانت الشياطين قبل محمد ﷺ قد اتخذت المقاعد فى السماء الدنيا ، يستمعون ما يحدث فى السماء من أمر . فلما بعث الله محمداً نبياً ، رُجموا ليلة من الليالى ، ففرع لذلك أهل الطائف ، فقالوا : هلك أهل السماء ، لما رأوا من شدة النار فى السماء واختلاف الشهب . فجعلوا يعتقدون أرقاءهم ويُسيِّون مواشيهم ، فقال لهم عبد ياليل بن عمرو ابن عمير : ويحكم يا معشر أهل الطائف . أمسكوا عن أموالكم ، وانظروا إلى معالم النجوم ، فإن رأيتموها مستقرة فى أمكنتها فلم يهلك أهل السماء ، إنما هذا من أجل ابن أبى كبشة — يعنى : محمداً ﷺ — وإن أنتم لم تروها فقد هلك أهل السماء . فنظروا فأروها ، فكفوا عن أموالهم . وفزعت الشياطين فى تلك الليلة ، فأتوا إبليس فحدثوه بالذى كان من أمرهم ، فقال : اتنوني من كل أرض بقبضة من تراب أشمها . فأتوه فشَمَ فقال : صاحبكم بمكة . فبعث سبعة نفر من جن نصيبين ، فقدموا مكة فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلى فى المسجد الحرام يقرأ القرآن ، فدنوا منه حرصاً على القرآن حتى كادت كلالهم تصيبه ، ثم أسلموا . فأنزل الله تعالى أمرهم على نبيه ﷺ ، وقد ذكرنا هذا الفصل مستقصى فى أول البعث من (كتاب السيرة) المطول ، والله أعلم ، ولله الحمد والمنة .

﴿ وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا ۝ (١١) وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ۝ (١٢) وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝ (١٣) وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۝ (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝ (١٥) وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ۝ (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝ (١٧) ﴾ .

يقول مخبراً عن الجن : إنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم : ﴿ وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أى : غير ذلك ، ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا ﴾ أى : طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة .

(١) عند تفسير الآية : ٢٣ .

(٢) فى م : « نبي الله » .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد : ﴿ كُنَّا طَرَاتِقَ قِدْدَا ﴾ أى : منا المؤمن ، ومنا الكافر .
وقال أحمد بن سليمان النجاد فى أماليه ، حدثنا أسلم بن سهل بحشَلُ ، حدثنا على بن الحسن ابن سليمان - وهو أبو الشعثاء الحضرمي ، شيخ مسلم - حدثنا أبو معاوية ^(١) قال : سمعتُ الأعمش يقول : تروح إلينا جنى ، فقلت له : ما أحب الطعام إليكم ؟ فقال الأرز . قال : فأتيناهم به ، فجعلت أرى اللقم ترفع ولا أرى أحدا . فقلت : فيكم من هذه الأهواء التى فىنا ؟ قال : نعم . قلت : فما الراضية فيكم ^(٢) ؟ قال ^(٣) : شرنا . عرضت هذا الإسناد على شيخنا الحافظ أبى الحجاج المزرى فقال : هذا إسناد صحيح إلى الأعمش .

وذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة العباس بن أحمد الدمشقي قال ^(٤) : سمعتُ بعض الجن وأنا فى منزلى بالليل ينشد :

قُلُوبُ بَرَاهَا الْحَبُّ حَتَّى تَعَلَّقَتْ مَذَاهِبُهَا فِي كُلِّ غَرْبٍ وَشَارِقٍ
تَهِيمٌ بِحَبِّ اللَّهِ ، وَاللَّهُ رَبُّهَا مُعَلَّقَةٌ بِاللَّهِ دُونَ الْخَلَائِقِ ^(٥)

وقوله : ﴿ وَأَنَا ظَنَّنَا أَنَّ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴾ أى : نعلم أن قدرة الله حاكمة علينا ، وأنا لا نعجزه فى الأرض ، ولو أمعنا فى الهرب ، فإنه علينا قادر ^(٦) ، لا يعجزه أحد منا .
﴿ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ ﴾ : يفتخرون بذلك ، وهو مفخر ^(٧) لهم ، وشرف رفيع ، وصفة حسنة .
وقولهم : ﴿ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ ، قال ابن عباس ، وقتادة ، وغيرهما : فلا يخاف أن ينقص من حسناته أو يحمل عليه غير سيئاته ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه : ١١٢] .

﴿ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمُونَ وَمِنَ الْقَاسِطُونَ ﴾ أى : منا المسلم ومنا القاسط ، وهو : الجائر عن الحق الناكب عنه ، بخلاف المقسط فإنه العادل ، ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾ أى : طلبوا لأنفسهم النجاة ، ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ أى : وقوداً تُسعر بهم .
وقوله : ﴿ وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا . لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ ، اختلف المفسرون فى معنى هذا على قولين :

أحدهما : وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام وعدلوا إليها واستمروا عليها ، ﴿ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾ أى : كثيراً . والمراد بذلك سعة الرزق ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [المائدة : ٦٦] ، وكقوله :

(٣) فى م : « قالوا » .

(٢) فى أ : « منكم » .

(١) فى أ : « أبو عوانة » .

(٤) فى م : « أنه قال » .

(٥) تاريخ دمشق (٨/ ٨٨٧) المخطوط () .

(٧) فى أ : « وهو مفتخر » .

(٦) فى م : « فإنه قادر علينا » .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦] . وعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أى : لنختبرهم ، كما قال مالك ، عن زيد بن أسلم: ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ ﴾ : لنبتليهم ، من يستمر على الهداية من يرتد إلى الغواية ؟ .

ذكر من قال بهذا القول : قال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ وَأَنَّ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ يعنى بالاستقامة : الطاعة . وقال مجاهد : ﴿ وَأَنَّ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ قال : الإسلام . وكذا قال سعيد بن جبیر ، وسعيد بن المسيب ، وعطاء ، والسدى ، ومحمد بن كعب القرظى .

وقال قتادة : ﴿ وَأَنَّ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ يقول : لو آمنوا كلهم لأوسعنا عليهم من الدنيا . وقال مجاهد : ﴿ وَأَنَّ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ أى : طريقة الحق . وكذا قال الضحاك ، واستشهد على ذلك بالآيتين اللتين ذكرناهما ، وكل هؤلاء أو أكثرهم قالوا فى قوله : ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أى : لنبتليهم به .

وقال مقاتل : فزلت فى كفار قريش حين منعوا المطر سبع سنين .

والقول الثانى : ﴿ وَأَنَّ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ : الضلالة ﴿ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ﴾ أى : لأوسعنا عليهم فى الرزق استدراجا ، كما قال : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤] ، وكقوله : ﴿ أَيْحَسِبُونَ أَنَّ مَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥ ، ٥٦] ، وهذا قول أبى مجلز لاحق بن حميد؛ فإنه فى قوله : ﴿ وَأَنَّ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ أى : طريقة الضلالة . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، وحكاه البغوى عن الربيع بن أنس ، وزيد بن أسلم ، والكلبى ، وابن كيسان . وله اتجاه ، ويتأيد بقوله : ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ نَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ أى : عذاباً شاقاً شديداً موجعاً مؤلماً .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، وابن زيد : ﴿ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ أى : مشقة لا راحة معها .

وعن ابن عباس : جبل فى جهنم . وعن سعيد بن جبیر : بئر فيها .

﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ (١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا

يُوعِدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفُ نَاصِرًا وَأَقْلُ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ .

يقول تعالى أمراً عباده أن يُوحِّدوه في مجال عبادته ، ولا يُدعى معه أحد ولا يشرك به ^(١) ، كما قال قتادة في قوله : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ . قال : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم ، أشركوا بالله ، فأمر الله نبيه ﷺ أن يوحِّدوه وحده .

وقال ابن أبي حاتم : ذكر على بن الحسين : حدثنا إسماعيل ابن بنت السدى ، أخبرنا رجل سماه ، عن السدى ، عن أبي مالك - أو أبي صالح - عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ قال : لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد إلا المسجد الحرام ، ومسجد إيليا : بيت المقدس .

وقال الأعمش : قالت الجن : يا رسول الله ، ائذن لنا نشهد معك الصلوات في مسجدك . فأنزل الله : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ يقول : صلوا ، لا تخالطوا الناس .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران ، حدثنا سفيان ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن محمود ، عن سعيد بن جبير ، : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ ﴾ قال : قالت الجن لنبي الله ﷺ ^(٢) : كيف لنا أن نأتى المسجد ونحن ناؤون [عنك] ^(٣) ؟ ، وكيف نشهد الصلاة نحن ناؤون عنك ؟ فنزلت : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ ^(٤) .

وقال سفيان ، عن خُصَيْف ، عن عكرمة : نزلت في المساجد كلها .

وقال سعيد بن جبير . نزلت في أعضاء السجود ، أى : هى لله فلا تسجدوا بها لغيره . وذكروا عند هذا القول الحديث الصحيح ، من رواية عبد الله بن طاوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أسجد على سبعة أعظم : على الجبهة - أشار ^(٥) بيديه إلى أنفه - واليدين والركبتين وأطراف القدمين » ^(٦) .

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ ، قال العوفى ، عن ابن عباس يقول : لما سمعوا النبي ﷺ يتلو القرآن كادوا يركبونه ؛ من الحرص ، لما سمعوه يتلو القرآن ، ودنوا منه فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول فجعل يقرئه : ﴿ قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ ﴾ ، يستمعون القرآن .

هذا قول ، وهو مروى عن الزبير بن العوام ، رضى الله عنه .

وقال ابن جرير : حدثني محمد بن معمر ، حدثنا أبو مسلم ، عن أبي عوَّانة ، عن أبي بشر ،

(٣) زيادة من م .

(٢) فى م : « قالت الجن للنبي » .

(١) فى م : « ولا يشرك به أحدًا » .

(٤) تفسير الطبرى (٧٣/٢٩) .

(٥) فى م : « وأشار » .

(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٨١٢) ، صحيح مسلم برقم (٤٩٠) .

عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال الجن لقومهم : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ ، قال : لما رأوه يصلى وأصحابه ، يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده ، قالوا : عجبوا من طوعية أصحابه له ، قال : فقالوا لقومهم : ﴿ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ .

وهذا قول ثان ، وهو مروى عن سعيد بن جبير أيضا .

وقال الحسن : لما قام رسول الله ﷺ يقول : « لا إله إلا الله » ، ويدعو الناس إلى ربهم ، كادت العرب تلبد عليه جميعاً .

وقال قتادة فى قوله : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ قال : تَلَبَّدَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ لِيُطْفِئُوهُ ، فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَنْصُرَهُ وَيُمْضِيهِ ^(١) ويظهره على من ناوأه .

وهذا قول ثالث ، وهو مروى عن ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقول ابن زيد ، واختيار ابن جرير ، وهو الأظهر لقوله بعده : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ أى : قال لهم الرسول — لما آذوه ^(٢) وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ، ليبطلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته : ﴿ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي ﴾ أى : إنما أعبد ربى وحده لا شريك له ، وأستجير به وأتوكل عليه ، ﴿ وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ .

وقوله : ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ أى : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ ، وعبد من عباد الله ليس إلىّ من الأمر شيء فى هدايتكم ولا غوايتكم ، بل المرجع فى ذلك كله إلى الله عز وجل .

ثم أخبر عن نفسه أيضا أنه لا يجيره من الله أحد ، أى : لو عصيته فإنه لا يقدر أحد على إنقاذه من عذابه ، ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ ، قال مجاهد ، وقتادة ، والسدى : لا ملجأ . وقال قتادة أيضا : ﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ أى : لا نصير ولا ملجأ . وفى رواية : لا ولى ولا موئل .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ﴾ : قال بعضهم : هو مستثنى من قوله : ﴿ لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ ، ﴿ إِلَّا بَلَاغًا ﴾ ، ويحتمل أن يكون استثناء من قوله : ﴿ لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ ﴾ أى : لا يجيرنى منه ويخلصنى إلا إبلاغى الرسالة التى أوجب أداءها علىّ ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴾ أى : إنما أبلغكم رسالة الله ، فمن يعص بعد ذلك فله جزاء على ذلك نار جهنم خالدين فيها أبداً ، لا محيد لهم عنها ، ولا خروج

(١) فى م : « ويعينه » .

(٢) فى م : « لما نادوه » .

(٣) فى م : « فإن » وهو خطأ .

لهم منها .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْأَلُونَ مَنْ أَوْفَىٰ نَصْرًا وَأَقْلَبَ عَدَدًا ﴾ أى : حتى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والإنس ما يوعدون يوم القيامة فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصرًا وأقل عدداً ، هم أم المؤمنون الموحدون لله عز وجل ، أى : بل المشركين لا ناصر لهم بالكلية ، وهم أقل عدداً من جنود الله عز وجل .

﴿ قُلْ إِن أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴾ (٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨) ﴿ .

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول للناس : إنه لا علم له بوقت الساعة ، ولا يدرى أقرب وقتها أم بعيد ؟ ﴿ قُلْ إِن أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴾ ؟ أى : مدة طويلة .

وفى هذه الآية الكريمة دليل على أن الحديث الذى يتداوله كثير من الجهلة من أنه عليه السلام ، لا يؤلف تحت الأرض ، كذب لا أصل له ، ولم نره فى شيء من الكتب . وقد كان ﷺ يُسأل عن وقت الساعة فلا يجيب عنها ، ولما تَبَدَّى له جبريل فى صورة أعرابى كان فيما سأله أن قال : يا محمد ، فأخبرنى عن الساعة ؟ قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » (١) . ولما ناداه ذلك الأعرابى بصوت جهورى فقال : يا محمد ، متى الساعة ؟ قال : « ويحك . إنها كائنة ، فما أعددت لها ؟ » . قال : أما إنى لم أعد لها كثير (٢) صلاة ولا صيام ، ولكنى أحب الله ورسوله . قال : « فانت مع من أحببت » . قال أنس : فَمَا فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث (٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن مُصَفَّى ، حدثنا محمد بن حمير (٤) ، حدثنى أبو بكر بن أبى مريم ، عن عطاء بن أبى رباح ، عن أبى سعيد الخُدْرى ، عن النبى ﷺ قال : « يا بنى آدم ، إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى ، والذى نفسى بيده ، إنما توعدون لآت » (٥) .

وقد قال أبو داود فى آخر « كتاب الملاحم » : حدثنا موسى بن سهيل ، حدثنا حجاج بن إبراهيم ، حدثنا ابن وهب ، حدثنى معاوية بن صالح ، عن عبد الرحمن بن جُبَيْر ، عن أبيه ، عن أبى ثعلبة الخُشْنى قال : قال رسول الله ﷺ : « لن يعجز الله هذه الأمة من نصف يوم » (٦) .

(١) هو جزء من حديث جبريل الطويل ، رواه مسلم فى صحيحه برقم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٢) فى م : « كبير » .

(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٦٣٩) من حديث أنس ، رضى الله عنه .

(٤) فى أ : « محمد بن جبير » .

(٥) ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (١٠٥٦٤) من طريق الحسن بن سفيان ، عن محمد بن المصفى ، به .

(٦) سنن أبى داود برقم (٤٣٤٩) ، ورواه الحاكم فى المستدرک (٤/٤٢٤) من طريق ابن وهب ، به . وقال الحاكم : « صحيح على شرطهما ولم يخرجاه » .

انفرد به أبو داود ، ثم قال أبو داود :

حدثنا عمرو بن عثمان . حدثنا أبو المغيرة ، حدثني صفوان ، عن شريح بن عبيد ، عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنه قال : « إني لأرجو ألا تعجز أمتي عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم » . قيل لسعد : وكم نصف يوم ؟ قال : خمسمائة عام . انفرد به أبو داود (١) .

وقوله : ﴿ عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾ ، هذه كقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] . وهكذا قال هاهنا : إنه يعلم الغيب والشهادة ، وإنه لا يطلع أحد من خلقه على شيء من علمه إلا بما أطلعه تعالى عليه ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾ ، وهذا يعم الرسول الملكى والبشرى .

ثم قال : ﴿ فَإِنَّهُ يَسْأَلُكُمُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ أى : يَخْتَصُّ بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من أمر الله ، ويساوقونه على ما معه من وحى الله ؛ ولهذا قال : ﴿ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ .

وقد اختلف المفسرون فى الضمير الذى فى قوله : ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ ، إلى من يعود ؟ فقيل : إنه عائد على النبي ﷺ .

قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يعقوب القمى (٢) ، عن جعفر ، عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْأَلُكُمُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ قال : أربعة حفظة من الملائكة مع جبريل ، ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ محمد ﷺ ﴿ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ .

ورواه ابن أبى حاتم من حديث يعقوب القمى (٣) ، به . وهكذا رواه الضحاك ، والسدى ، ويزيد بن أبى حبيب .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة : ﴿ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ ، قال : ليعلم نبي الله أن الرسل قد بلغت عن الله ، وأن الملائكة حفظتها ودفعها عنها . وكذا رواه سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة . واختاره ابن جرير .

وقيل غير ذلك ، كما رواه العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْأَلُكُمُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ ، قال : هى معقبات من الملائكة يحفظون النبي من الشيطان ، حتى يتبين الذى أرسل به إليهم ، وذلك حين يقول ، ليعلم أهل الشرك أن قد أبلغوا رسالات ربهم .

وكذا قال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : ﴿ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ قال : ليعلم من كذب الرسل أن قد أبلغوا رسالات ربهم . وفى هذا نظر .

(١) سنن أبى داود برقم (٤٣٥٠) ، وشريح بن عبيد لم يدرك سعد بن أبى وقاص ، فهو منقطع .

(٢) ، (٣) فى ١ : « العمى » .

وقال البغوى : قرأ يعقوب : « لِيُعْلَمَ » بالضم ، أى : ليعلم الناس أن الرسل بُلِّغُوا .

ويحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الله عز وجل ، وهو قول حكاه ابن الجوزى فى « زاد المسير »^(١) . ويكون المعنى فى ذلك : أنه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته ، ويحفظ ما بين إيلهم من الوحى ؛ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، ويكون ذلك كقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ ﴾ [البقرة: ١٤٣] ، وكقوله : ﴿ وَلِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلِيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ [العنكبوت: ١١] ، إلى أمثال ذلك ، مع العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعاً لا محالة ؛ ولهذا قال بعد هذا : ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ .

(١) زاد المسير (٨/ ٣٨٦) .

تفسير سورة المزمل

وهي مكية .

قال الحافظ أبو بكر [أحمد] ^(١) بن عمرو بن عبد الخالق البزار : حدثنا محمد بن موسى القطان الواسطي ، حدثنا معلى بن عبد الرحمن ، حدثنا شريك ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن جابر قال : اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا : سمو هذا الرجل اسماً تصدر ^(٢) الناس عنه . فقالوا : كاهن . قالوا : ليس بكاهن . قالوا : مجنون . قالوا : ليس بمجنون . قالوا : ساحر . قالوا : ليس بساحر . ففترق المشركون على ذلك ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ، فتمزمل في ثيابه وتدثر فيها . فأتاه جبريل ، عليه السلام ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ ، ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ .

ثم قال البزار : معلى بن عبد الرحمن : قد حدث عنه جماعة من أهل العلم ، واحتملوا حديثه ، لكنه تفرد بأحاديث لا يتابع عليها ^(٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ (٢) نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝ (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝ (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝ (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝ (٧) وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝ (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝ (٩) ﴾ .

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزمل ، وهو : التغطية في الليل ، وينهض إلى القيام لربه عز وجل ، كما قال تعالى : ﴿ تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦] . وكذلك كان رسول الله ﷺ ممثلاً ما أمره الله تعالى به من قيام الليل ، وقد كان واجباً عليه وحده ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مُمَكِّدًا ﴾ [الإسراء: ٧٩] . وهاهنا بين له مقدار ما يقوم ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

قال ابن عباس ، والضحاك ، والسدي : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ يعني : يا أيها النائم . وقال قتادة : المزمل في ثيابه ، وقال إبراهيم النخعي : نزلت وهو مُتَزَمِّلٌ بقطيفة .

وقال شبيب بن بشر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ قال : يا محمد ،

(٢) في أ : « فصدوا » .

(١) زيادة من م ، أ .

(٣) مسند البزار برقم (٢٢٧٦) « كشف الأستار » ، ورواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٣٤٠٨) من طريق محمد بن موسى القطان به مثله ، وقال الهيثمي في المجمع (١٣٠ / ٧) : « وفيه معلى بن عبد الرحمن الواسطي وهو كذاب » .

زُمَّلَتِ الْقُرْآنَ .

وقوله : ﴿ تَصَفَّهُ ﴾ : بدل من الليل ، ﴿ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ أى : أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل ، لا حرج عليك فى ذلك .

وقوله : ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ أى : اقرأه على تمهل ، فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره . وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه ، قالت عائشة : كان يقرأ السورة فيرتلها ، حتى تكون أطول من أطول منها . وفى صحيح البخارى ، عن أنس : أنه سُئِلَ عن قراءة رسول الله ﷺ ، فقال : كانت مدأ ، ثم قرأ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، يمد بسم الله ، ويمد الرحمن ، ويمد الرحيم (١) .

وقال ابن جرير ، عن ابن أبى مليكة عن أم سلمة : أنها سُئِلَت عن قراءة رسول الله ﷺ ، فقالت : كان يقطع قراءته آية آية ، ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . مَا لَكَ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ . رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذى (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، عن سفيان ، عن عاصم ، عن زرّ ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبى ﷺ قال : « يقال لصاحب (٣) القرآن : اقرأ وارْقَ ، ورتّل كما كنت تُرتّل فى الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » .

ورواه أبو داود ، والترمذى والنسائى ، من حديث سفيان الثورى ، به (٤) . وقال الترمذى : حسن صحيح .

وقد قدمنا فى أول التفسير الأحاديث الدالة على استحباب الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة ، كما جاء فى الحديث : « زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ » ، و « ليس منا من لم يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ » ، و « لقد أوتى هذا مزمّار من مزامير آل داود » يعنى : أبا موسى ، فقال أبو موسى : لو كنت أعلم أنك كنت تسمع قراءتى لحبّرت لك تحبيراً (٥) .

وعن ابن مسعود أنه قال : لا تنثروه نثر الرمل (٦) ، ولا تهذّوه هذّ الشعر ، قفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة . رواه البغوى (٧) .

وقال البخارى : حدثنا آدم ، حدثنا شعبة ، حدثنا عمرو بن مرة : سمعت أبا وائل قال : جاء رجل إلى ابن مسعود فقال : قرأت المفضل (٨) الليلة فى ركعة . فقال : هذا كهذّ الشعر . لقد عرفت

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠٤٦) .

(٢) المسند (٣٠٢/٦) ، وسنن أبى داود برقم (٤٠٠١) ، والشامى للترمذى برقم (٢٩٩) .

(٣) فى م : « لقارئ » .

(٤) المسند (١٩٢/٢) وسنن أبى داود برقم (١٤٦٤) ، وسنن الترمذى برقم (٢٩١٤) ، وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٥٦) .

(٥) انظر هذه الأحاديث فى : فضائل القرآن فى المقدمة .

(٦) فى أ : « الدقل » .

(٧) معالم التنزيل للبغوى (٢١٥/٨) .

(٨) فى أ : « المفضل » .

النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهما . فذكر عشرين سورة من المَفَصَّل ، سورتين في ركعة (١) .

وقوله : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ ، قال الحسن ، وقتادة : أى العمل به .

وقيل : ثَقِيلٌ وقت نزوله ؛ من عظمته . كما قال زيد بن ثابت : أنزل على رسول الله ﷺ وفَخَذَهُ على فخذي ، فكادت تُرَضُّ فخذي (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبي حبيب ، عن عمرو بن الوليد ، عن عبد الله بن عمرو قال : سألتُ النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله ، هل تحس بالوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أسمعُ صَلاصِيلَ ، ثم أسكتُ عند ذلك ، فما من مرة يوحى إلى إلا ظننت أن نفسى تفيض » ، تفرد به أحمد (٣) .

وفى أول صحيح البخارى عن عبد الله بن يوسف ، عن مالك ، عن هشام ، عن أبيه ، عن عائشة : أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ : كيف يأتيك الوحى ؟ فقال : « أحيانا يأتينى فى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علىّ ، فَيَفْصِمُ عَنى وقد وَعَيْت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعنى ما يقول » . قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى ﷺ فى اليوم الشديد البرد ، فَيَفْصِمُ عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا . هذا لفظه (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود ، أخبرنا عبد الرحمن ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : إن كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته ، فتضرب بجرانها (٥) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ؛ أن النبي ﷺ كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته ، وضعت جرانها ، فما تستطيع أن تحرك حتى يُسْرِى عنه (٦) .

وهذا مرسل . الجران : هو باطن العنق .

واختار ابن جرير أنه ثَقِيلٌ (٧) من الوجهين معا ، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كما ثقل فى الدنيا ثقل يوم القيامة فى الموازين .

وقوله : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ ، قال أبو إسحاق ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : نشأ : قام بالحبشة .

وقال عمر ، وابن عباس ، وابن الزبير : الليل كله ناشئة . وكذا قال مجاهد ، وغير واحد ،

(١) صحيح البخارى برقم (٧٧٥) .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٥٩٢) .

(٣) المسند (٢/٢٢٢) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٢) .

(٥) المسند (٦/١١٨) .

(٦) تفسير الطبرى (٢٩/٨٢) .

(٧) فى أ : « أنه يقبل » .

يقال : نشأ : إذا قام من الليل . وفى رواية عن مجاهد : بعد العشاء . وكذا قال أبو مجلز ، وقتادة ، وسالم وأبو حازم ، ومحمد بن المنكدر .

والغرض أن ناشئة الليل هى : ساعاته وأوقاته ، وكل ساعة منه تسمى ناشئة ، وهى الآتات . والمقصود أن قيام الليل هو ^(١) أشد مواطأة بين القلب واللسان ، وأجمع على التلاوة ؛ ولهذا قال : ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ أى : أجمع للخاطر فى أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار ؛ لأنه وقت انتشار الناس ولَغَط الأصوات وأوقات المعاش .

و [قد] ^(٢) قال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنا الأعمش ، أن أنس بن مالك قرأ هذه الآية : « إن ناشئة الليل هى أشد وطأً وأصوب قِيلاً » فقال له رجل : إنما نقرؤها ﴿ وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ ، فقال له : إن أصوب وأقوم وأهياً وأشباه هذا واحد ^(٣) . ولهذا قال : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ . قال ابن عباس ، وعكرمة ، وعطاء بن أبى مسلم : الفراغ والنوم .

وقال أبو العالية ، ومجاهد ، وأبو مالك ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، وسفيان الثوري : فراغاً طويلاً .

وقال قتادة : فراغاً وبغية ومُنْقَلَباً .

وقال السدى : ﴿ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ : تطوعاً كثيراً .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ [إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ] ^(٤) سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ قال : لحوائجك ، فأفرغ لدينك الليل . قال : وهذا حين كانت صلاة الليل فريضة ، ثم إن الله مَنَّ على العباد فخففها ووضعتها ، وقرأ : ﴿ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ إلى آخر الآية ، ثم قال : ﴿ إِنَّ رَيْكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ ﴾ ، حتى بلغ : ﴿ فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ ﴾ [الليل نصفه أو ثلثه . ثم جاء أمر أوسع وأفسح وضع الفريضة عنه وعن أمته] ^(٥) فقال : وقال : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مُمَكِّدًا ﴾ [الإسراء: ٤٩] . وهذا الذى قاله كما قاله .

والدليل عليه ما رواه الإمام أحمد فى مسنده حيث قال : حدثنا يحيى ، حدثنا سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة ، عن زُرارة بن أوفى ، عن سعد بن هشام : أنه طلق امرأته ثم ارتحل إلى المدينة لبيع عقاراً له بها ويجعله فى الكرَاع والسلاح ، ثم يجاهد الروم حتى يموت . فلحق رهطاً من قومه فحدثوه أن رهطاً من قومه ستة أرادوا ذلك على عهد رسول الله ﷺ فقال : « أليس لكم فى أسوة ^(٦) ؟ »

(١) فى م : « هى » . (٢) زيادة من م .

(٣) مسند أبى يعلى (٨٨/٧) ونقل المحقق فى الحاشية عن أبى بكر بن الأنبارى أنه قال : « حديث لا يصح عن أحد من أهل العلم ، لأنه مبنى على رواية الأعمش عن أنس ، فهو مقطوع ليس بم متصل ، فيؤخذ من قبل أن الأعمش رأى أنساً ولم يسمع منه » .

(٤) زيادة من أ .

(٥) زيادة من تفسير الطبرى .

(٦) فى أ : « أسوة حسنة » .

فنهاهم عن ذلك ، فأشهدهم على رجعتها ، ثم رجع إلينا فأخبرنا أنه أتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال : ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم . قال : ائت عائشة فاسألها ثم ارجع إلى فأخبرني بردها عليك . قال : فأتيت على حكيم بن أفلح فاستلحقته إليها ، فقال : ما أنا بقاربها ؛ إنني نهيتها أن تقول في هاتين الشيعتين شيئا ، فأبت فيهما إلا مضياً . فأقسمت عليه ، فجاء معي ، فدخلنا عليها فقالت : حكيم ؟ وعرفته ، قال : نعم . قالت : من هذا معك ؟ قال : سعد ابن هشام . قالت : من هشام ؟ قال : ابن عامر . قال : فترحمت عليه وقالت : نعم المرء كان عامر . قلت : يا أم المؤمنين ، أنبئني عن خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : أأست تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى (١) . قالت : فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن . فهمت أن أقوم ، ثم بدا لي قيام رسول الله ﷺ ، قلت : يا أم المؤمنين ، أنبئني عن قيام رسول الله ﷺ . قالت : أأست تقرأ هذه السورة : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ ﴾ ؟ قلت : بلى . قالت : فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة ، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم ، وأمسك الله خاتمها في السماء اثني عشر شهراً ، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة . فهمت (٢) أن أقوم ، ثم بدا لي وتر رسول الله ﷺ ، قلت : يا أم المؤمنين ، أنبئني عن وتر رسول الله ﷺ . قالت : كنا نعد له سواكه وطهوره ، فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل ، فيتسوك ثم يتوضأ ثم يصلي ثمانى ركعات لا يجلس فيهن إلا عند الثامنة ، فيجلس ويذكر ربه ويدعو [ويستغفر ثم ينهض ولا يسلم . ثم يصلي التاسعة فيقعد فيحمد ربه ويذكره ويدعو] (٣) ثم يسلم تسليماً يسمعنا ، ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم . فتلك إحدى عشر ركعة يا بنى . فلما أسن رسول الله ﷺ وأخذ اللحم ، أوتر بسبع ، ثم صلى ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم ، فتلك تسع يا بنى . وكان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها ، وكان (٤) إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض ، صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة ، ولا أعلم نبى الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة ، ولا قام ليلة حتى أصبح ، ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان .

فأتيت ابن عباس فحدثته بحديثها ، فقال : صدقت ، أما لو كنت أدخل عليها لأتيتها حتى تشافهني مشافهة .

هكذا رواه الإمام أحمد بتمامه . وقد أخرجه مسلم في صحيحه ، من حديث قتادة ، بنحوه (٥) .

طريق أخرى عن عائشة في هذا المعنى : قال ابن جرير : حدثنا وكيع ، حدثنا زيد بن الحباب - وحدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران قال جميعا ، واللفظ لابن وكيع : عن موسى بن عبيدة ، حدثني محمد بن طحلاء ، عن أبى سلمة ، عن عائشة قالت : كنت أجعل لرسول الله ﷺ حصيراً يصلى عليه من الليل ، فتسامع الناس به فاجتمعوا ، فخرج كالمغضب - وكان بهم رحيماً ، فخشى أن يكتب

(١) فى أ : « نعم » . (٢) فى م : « ثم هممت » .

(٣) زيادة من المسند .

(٤) فى أ : « وكان رسول الله ﷺ » .

(٥) المسند (٥٤/٦) ، وصحيح مسلم برقم (٧٤٦) .

عليهم قيام الليل - فقال : « أيها الناس ، اكلفُوا من الأعمال ما تطيقون ، فإن الله لا يَمَلُّ من الثواب حتى تملوا من العمل ، وخير الأعمال ما ديمَ عليه » . ونزل القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ ، حتى كان الرجل يربط الحبل ويتعلق ، فمكثوا بذلك ثمانية أشهر ، فرأى الله ما يبتغون من رضوانه ، فرحمهم فردهم إلى الفريضة ، وترك قيام الليل ^(١) .

ورواه ابن أبي حاتم من طريق موسى بن عبيدة الربذي ، وهو ضعيف . والحديث في الصحيح ^(٢) بدون زيادة نزول هذه السورة ، وهذا السياق قد يُوهم أن نزول هذه السورة بالمدينة ، وليس كذلك ، وإنما هي مكية . وقوله في هذا السياق : إن بين نزول أولها وآخرها ثمانية أشهر - غريب ؛ فقد تقدم في رواية أحمد أنه كان بينهما سنة .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة ، عن مسعر ، عن سماك ، عن الحنفى ، سمعت ابن عباس يقول : أول ما نزل : أول المزمل ، كانوا يقومون نحوا من قيامهم في شهر رمضان ، وكان بين أولها وآخرها قريب من سنة . وهكذا رواه ابن جرير عن أبي كريب ، عن أبي أسامة ، به ^(٣) .

وقال الثوري ومحمد بن بشر العبدي ، كلاهما عن مسعر ، عن سماك ، عن ابن عباس : كان بينهما سنة . وروى ابن جرير ، عن أبي كريب ، عن وكيع ، عن إسرائيل ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، مثله .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران ، عن سفيان ، عن قيس بن وهب ، عن أبي عبد الرحمن قال : لما نزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ ، قاموا حولاً حتى وُرمَت أقدامهم وسُوقُهم ، حتى نزلت : ﴿ فَافْرَعُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ ، قال : فاستراح الناس ^(٤) .

وكذا قال الحسن البصري .

وقال ابن أبي حاتم : [حدثنا أبو زُرْعَةَ ، حدثنا عُبَيْدُ اللَّهِ بن عمر القواريري ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنا أبي] ^(٥) ، عن قتادة ، عن زُرَّارة بن أوفى ، عن سعد بن هشام قال : فقلت - يعني لعائشة - : أخبرينا عن قيام رسول الله ﷺ . قالت : أَلَسْتُ تَقْرَأُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ ؟ قلت : بلى . قالت : فإنها كانت قيام رسول الله ﷺ وأصحابه ، حتى انتفخت أقدامهم ، وحُبِسَ آخرها في السماء ستة عشر شهراً ، ثم نزل .

وقال معمر ، عن قتادة : ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ : قاموا حولاً أو حولين ، حتى انتفخت سُوقُهم

(١) تفسير الطبري (٧٩/٢٩) .

(٢) صحيح البخاري برقم (٦٤٦٥) ، وصحيح مسلم برقم (٧٨٢) .

(٣) تفسير الطبري (٧٨/٢٩) .

(٤) تفسير الطبري (٧٩/٢٩) .

(٥) زيادة من م ، أ .

وأقدمهم فأنزل الله تخفيفها بعد في آخر السورة .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يعقوب القمي ^(١) ، عن جعفر ، عن سعيد — هو ابن جبير — قال : لما أنزل الله على نبيه ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ ﴾ قال : مكث النبي ﷺ على هذه الحال عشر سنين يقوم الليل ، كما أمره ، وكانت طائفة من أصحابه يقومون معه ، فأنزل الله عليه بعد عشر سنين : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ ، فخفف الله تعالى عنهم بعد عشر سنين ^(٢) .

ورواه ابن أبي حاتم ، عن أبيه ، عن عمرو بن رافع ، عن يعقوب القمي ^(٣) ، به .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا [أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا] ﴾ فأمر الله نبيه والمؤمنين بقيام الليل إلا قليلاً ^(٤) ، فشق ذلك على المؤمنين ، ثم خفف الله عنهم ورحمهم ، فأنزل بعد هذا : ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ ﴾ ، فوسع الله — وله الحمد — ولم يضيق .

وقوله : ﴿ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ أى : أكثر من ذكره ، وانقطع إليه ، وتفرغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك ، وما تحتاج إليه من أمور دنيائك ، كما قال : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ [الشرح: ٧] أى : إذا فرغت من مهامك فانصب في طاعته وعبادته ، لتكون فارغ البال . قاله ابن زيد بمعناه أو قريب منه .

قال ابن عباس ومجاهد ، وأبو صالح ، وعطية ، والضحاك ، والسدي : ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ أى : أخلص له العبادة .

وقال الحسن : اجتهد وتبتل إليه نفسك .

وقال ابن جرير : يقال للعباد : متبتل ، ومنه الحديث المروى : أنه نهى عن التبتل ، يعنى : الانقطاع إلى العبادة وترك التزوج ^(٥) .

وقوله : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ أى : هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب الذى لا إله إلا هو ، وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل ، ﴿ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود: ١٢٣] ، وكقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، وآيات ^(٦) كثيرة فى هذا المعنى ، فيها الأمر بإفراد العبادة والطاعة لله ، وتخصيصه بالتوكل عليه .

(١) فى ١ : « العمى » .

(٢) تفسير الطبرى (٧٩/٢٩) وهو مرسل .

(٣) فى ١ : « العمى » .

(٤) فى م : « فى آيات » .

(٥) زيادة من م ، أ .

(٥) فى م : « التزويج » .

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيرًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ .

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ بالصبر على ما يقوله من كذبه من سفهاء قومه ، وأن يهجرهم هجراً جميلاً ، وهو الذى لا عتاب معه . ثم قال له متوعداً لكفار قومه ومتهدداً — وهو العظيم الذى لا يقوم لغضبه شيء — : ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ ﴾ أى : دعنى والمكذبين المترفين أصحاب الأموال ، فإنهم أقدر على الطاعة من غيرهم وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم ، ﴿ وَمَهْلِكُمْ قَلِيلًا ﴾ أى : رويداً ، كما قال : ﴿ نَمَتَعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا ﴾ وهى : القيود . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وطاوس ، ومحمد بن كعب ، وعبد الله بن بريدة ، وأبو عمران الجونى ، وأبو مجلز ، والضحاك ، وحمام بن أبى سلمان ، وقتادة والسدى ، وابن المبارك والثورى ، وغير واحد ، ﴿ وَجَحِيمًا ﴾ وهى السعير المضطربة . ﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ ﴾ ، قال ابن عباس : ينشب فى الحلق فلا يدخل ولا يخرج ، ﴿ وَعَذَابًا أَلِيمًا . يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ أى : تزلزل ، ﴿ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ أى : تصير ككتبان الرمل بعد ما كانت حجارة صماء ، ثم إنها تنسف نسفاً فلا يبقى منها شيء إلا ذهب ، حتى تصير الأرض قاعاً صفصفاً ، لا ترى فيها عوجاً ، أى : وادياً ، ولا أمثاً ، أى : رابية ، ومعناه : لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع .

ثم قال مخاطباً لكفار قريش ، والمراد سائر الناس : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ ﴾ أى : بأعمالكم ، ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا . فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدى ، والثوري : ﴿ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ أى : شديداً ، أى : فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول ، فيصيبكم ما أصاب فرعون ، حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٥] ، وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتهم ؛ لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران . ويروى عن ابن عباس ومجاهد .

وقوله : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ ، يحتمل أن يكون ﴿ يَوْمًا ﴾ معمولاً لتتقون ، كما حكاه ابن جرير عن قراءة ابن مسعود : « فكيف تخافون أيها الناس يوما يجعل الولدان شيبا إن كفرتم بالله ولم تصدقوا به » ؟ ويحتمل أن يكون معمولاً لكفرتم ، فعلى الأول : كيف

يحصلُ لكم أمان من يوم هذا الفرع العظيم إن كفرتم ؟ وعلى الثاني : كيف يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه ؟ وكلاهما معنى حسن ، ولكن الأول أولى ، والله أعلم .

ومعنى قوله : ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ أى : من شدة أهواله وزلازله وبلابله ، وذلك حين يقول الله لأدم : ابعث بعث النار . فيقول : من كم ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة .

قال الطبرانى : حدثنا يحيى بن أيوب العلاف ، حدثنا سعيد بن أبى مريم ، حدثنا نافع بن يزيد ، حدثنا عثمان بن عطاء الخراسانى ، عن أبيه ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ قرأ : ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ قال : « ذلك يوم القيامة ، وذلك يوم يقول الله لأدم : قم فابعث من ذريتك بعثا إلى النار . قال : من كم يا رب ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ، وينجو واحد » . فاشتد ذلك على المسلمين ، وعرف ذلك رسول الله ﷺ ثم قال حين أبصر ذلك فى وجوههم : « إن بنى آدم كثير ، وإن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ، وإنه لا يموت منهم رجل حتى يرثه لصلبه ألف رجل . ففيهم وفى أشباههم جنة لكم » (١) .

هذا حديث غريب ، وقد تقدم فى أول سورة الحج ذكر هذه الأحاديث .

وقوله : ﴿ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ﴾ : قال الحسن ، وقتادة : أى بسببه من شدته وهوله . ومنهم من يعيد الضمير على الله عز وجل . وروى عن ابن عباس ومجاهد ، وليس بقوى ؛ لأنه لم يجر له ذكر هاهنا .

وقوله تعالى : ﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴾ أى : كان وعد هذا اليوم مفعولا ، أى : واقعاً لا محالة ، وكائن لا محيد عنه .

﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (١٩) إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّنْ نَّحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنْكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٠) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ ﴾ أى : السورة ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ أى : يتذكر بها أولو الألباب ؛ ولهذا قال : ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ أى : ممن شاء الله هدايته ، كما قيده فى السورة الأخرى : ﴿ وَمَا

(١) المعجم الكبير للطبرانى (١١/٣٦٦) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/١٣٠) : « وفيه عثمان بن عطاء الخراسانى وهو ضعيف » .

تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿ [الإنسان: ٣٠] .

ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ أى : تارة هكذا ، وتارة هكذا ، وذلك كله من غير قصد منكم ، ولكن لا تقدرُونَ على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل ؛ لأنه يشق عليكم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ يَقْدَرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى : تارة يعتدلان ، وتارة يأخذ هذا من هذا ، أو هذا من هذا ، ﴿ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ ﴾ أى : الفرض الذى أوجبه عليكم ﴿ فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّر مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ أى : من غير تحديد بوقت ، أى : ولكن قوموا من الليل ما تيسر . وعبر عن الصلاة بالقراءة ، كما قال فى سورة سبحان : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ ﴾ أى : بقراءتك ، ﴿ وَلَا تَخَافُ بِهَا ﴾ .

وقد استدل أصحاب الإمام أبى حنيفة ، رحمه الله ، بهذه الآية ، وهى قوله : ﴿ فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّر مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ على أنه لا يتعين قراءة الفاتحة فى الصلاة ، بل لو قرأ بها أو غيرها من القرآن ، ولو بآية ، أجزأه ؛ واعتضدوا بحديث المسىء صلاته الذى فى الصحيحين : « ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن » .

وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت ، وهو فى الصحيحين أيضا : أن رسول الله ﷺ قال : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » ^(١) . وفى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كل صلاة لا يقرأ فيها بأَم الكتاب فهى خِذَاج ، فهى خِذَاج ، فهى خِذَاج ، غير تمام » ^(٢) . وفى صحيح ابن خزيمة عن أبى هريرة مرفوعاً : « لا تجزئ صلاة من لم يقرأ بأَم القرآن » ^(٣) .

وقوله : ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى : علم أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار فى ترك قيام الليل ، من مرضى لا يستطيعون ذلك ، ومسافرين ^(٤) فى الأرض يبتغون من فضل الله فى المكاسب والمتاجر ، وآخرين مشغولين ^(٥) بما هو الأهم فى حقهم من الغزو فى سبيل الله . وهذه الآية — بل السورة كلها — مكية ، ولم يكن القتال شرع بعد ، فهى من أكبر دلائل النبوة ، لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلية . ولهذا قال : ﴿ فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّر مِنْهُ ﴾ ^(٦) أى : قوموا بما تيسر عليكم منه .

قال ابن جرير : حدثنا يعقوب ، حدثنا ابن عُلَيَّة ، عن أبى رجاء محمد ، قال : قلت للحسن : يا أبا سعيد ، ما تقول فى رجل قد استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه ، ولا يقوم به ، إنما يصلي المكتوبة؟ قال : يتوسدُ القرآن ، لعن الله ذاك ، قال الله تعالى للعبد الصالح : ﴿ وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِّمَا

(١) صحيح البخارى برقم (٧٥٦) ، وصحيح مسلم برقم (٣٤٩) .

(٢) صحيح مسلم برقم (٣٩٥) .

(٣) صحيح ابن خزيمة برقم (٤٩٠) .

(٦) فى م : « من القرآن » .

(٥) فى أ : « وآخرون مشغولون » .

(٤) فى أ : « ومسافرون » .

عَلَّمَنَاهُ ﴿ [يوسف: ٦٨] ، ﴿ وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ﴾ [الأَنْعَام: ٩١] . قلت : يا أبا سعيد ، قال الله : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ ؟ قال : نعم ، ولو خمس آيات .

وهذا ظاهر من مذهب الحسن البصرى : أنه كان يرى حقاً واجباً على حَمَلَةِ الْقُرْآن أن يقوموا ولو بشيء منه فى الليل ؛ ولهذا جاء فى الحديث : أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل نام حتى أصبح ، فقال : « ذاك رجل بال الشيطان فى أذنه » ^(١) . فقيل : معناه : نام عن المكتوبة . وقيل : عن قيام الليل . وفى السنن : « أوتروا يا أهل القرآن » ^(٢) . وفى الحديث الآخر : « من لم يوتر فليس منا » ^(٣) .

وأغرب من هذا ما حكى عن أبى بكر عبد العزيز ، من الخنابلة ، من إيجابه قيام شهر رمضان ، فالله أعلم .

وقال الطبرانى : حدثنا أحمد بن سعيد بن فرقد الجُدِّى ، حدثنا أبو [حمة] ^(٤) محمد بن يوسف الزبيدى ، حدثنا عبد الرحمن ، [عن محمد بن عبد الله] ^(٥) بن طاوس — من ولد طاوس — عن أبيه ، عن طاوس ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ قال : « مائة آية » ^(٦) .

وهذا حديث غريب جداً لم أره إلا فى معجم الطبرانى ، رحمه الله .

وقوله : ﴿ وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ أى : أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم ، وآتوا الزكاة المفروضة . وهذا يدل لمن قال : إن فرض الزكاة نزل بمكة ، لكن مقادير النصب والمخرج لم تُبين إلا بالمدينة . والله أعلم .

وقد قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وغير واحد من السلف : إن هذه الآية نَسَخَت الذى كان الله قد أوجبه على المسلمين أولاً من قيام الليل . واختلفوا فى المدة التى بينهما على أقوال كما تقدم . وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لذلك الرجل : « خمس صلوات فى اليوم والليلة » . قال : هل على غيرها ؟ قال : « لا ، إلا أن تطوَّع » ^(٧) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ يعنى : من الصدقات ، فإن الله يجازى على ذلك أحسن الجزاء وأوفره ، كما قال : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة: ٢٤٥] .

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١١٤٤) ، ومسلم فى صحيحه برقم (٧٧٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

(٢) جاء من حديث على وعبد الله بن مسعود ، رضى الله عنهما ، أما حديث على ، فقد رواه أبو داود فى السنن برقم (١٤١٦) ، والترمذى فى السنن برقم (٤٥٣) ، والنسائى فى السنن (٢٢٨/٣) ، وابن ماجه فى السنن برقم (١١٦٩) ، وقال الترمذى : « حديث على حديث حسن » ، وأما حديث ابن مسعود ، فرواه أبو داود فى السنن برقم (١٤١٧) ، وابن ماجه برقم (١١٧٠) .

(٣) جاء من حديث بريدة وأبى هريرة ، رضى الله عنهما ، أما حديث بريدة ، فرواه أحمد فى المسند (٣٥٧/٥) ، وأبو داود فى السنن برقم (١٤١٩) ، وأما حديث أبى هريرة ، فرواه أحمد فى المسند (٤٤٣/٣) .

(٤) زيادة من المعجم الكبير للطبرانى (٢٩/١١) .

(٥) زيادة من م ، أ .

(٦) المعجم الكبير (٢٩/١١) .

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٦) ، وصحيح مسلم برقم (١١) من حديث طلحة رضى الله عنه .

وقوله : ﴿ وَمَا تَقْدِمُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا ﴾ أى : جميع ما تقدموه بين أيديكم فهو [خير] ^(١) لكم حاصل ، وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم فى الدنيا .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا أبو خيثمة ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن الحارث بن سويد ^(٢) قال : قال عبد الله : قال رسول الله ﷺ : « أياكم ماله أحب إليه من مال وارثه ؟ » . قالوا : يا رسول الله ، ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه . قال : « اعلّموا ما تقولون » . قالوا : ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله ؟ قال : « إنما مال أحدكم ما قدّم ومال وارثه ما أخر » .

ورواه البخارى من حديث حفص بن غياث ، والنسائى من حديث ^(٣) أبى معاوية ، كلاهما عن الأعمش ، به ^(٤) .

ثم قال تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أى : أكثروا من ذكره واستغفاره فى أموركم كلها ؛ فإنه غفور رحيم لمن استغفره .

آخر تفسير سورة « المزمل » ولله الحمد

(١) زيادة من م . (٢) فى أ : « الحارث بن يزيد » . (٣) فى م ، أ : « من طريق » . (٤) مسند أبى يعلى (٩٧/٩) ، وصحيح البخارى برقم (٦٤٤٢) ، وسنن النسائى الكبرى برقم (٦٤٣٩) .

تفسير سورة المدثر

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبِّكَ فَكْبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ﴾ .

ثبت فى صحيح البخارى [من حديث يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة] (١) ، عن جابر أنه كان يقول : أول شىء نزل من القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ .

وخالفه (٢) الجمهور فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولا قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ، كم سيأتى [بيان] (٣) ذلك هنالك .

قال البخارى : حدثنا يحيى ، حدثنا وكيع ، عن على بن المبارك ، عن يحيى بن أبى كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن ، قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ . قلت : يقولون : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ؟ فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك ، وقلت له مثل ما قلت لى ، فقال جابر : لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال : « جاورت بحراء ، فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت فنظرت عن يمينى فلم أر شيئا ، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئا ، ونظرت أمامى فلم أر شيئا ، ونظرت خلفى فلم أر شيئا . فرفعت رأسى فرأيت شيئا ، فأتيته خديجة فقلت : دثرونى . وصبوا على ماء باردا . قال : فدثرونى وصبوا على ماء باردا قال : فنزلت ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبِّكَ فَكْبِّرْ ﴾ » (٤) .

هكذا ساقه من هذا الوجه ، وقد رواه مسلم (٥) من طريق عقيل ، عن ابن شهاب ، عن أبى سلمة قال : أخبرنى جابر بن عبد الله : أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحى : « فبينما أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء ، فرفعت بصرى قبل السماء ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض ، فجثت (٦) منه حتى هويت إلى الأرض ، فجثت إلى أهلى ، فقلت : زملونى زملونى . فزملونى ، فأنزل الله ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ إلى : ﴿ فَاهْجُرْ ﴾ —

(٣) زيادة من م .

(٢) فى م : « وخالف » .

(١) زيادة من م .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٩٢٢) .

(٥) صحيح مسلم برقم (١٦١) .

(٦) فى م : « فجثت » .

قال أبو سلمة : والرجز : الأوثان — ثم حمى الوحي وتتابع .

هذا لفظ البخارى ^(١) . وهذا السياق هو المحفوظ ، وهو يقتضى أنه قد نزل الوحي قبل هذا ، لقوله : « فإذا الملك الذى جاءنى ^(٢) بحراء » ، وهو جبريل حين أتاه بقوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . ثم إنه حصل بعد هذا فترة ، ثم نزل الملك بعد هذا . ووجه الجمع أن أول شيء نزل بعد فترة الوحي هذه السورة ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا حجاج ، حدثنا ليث ، حدثنا عقيل ، عن ابن شهاب ^(٣) قال : سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن يقول : أخبرنى جابر بن عبد الله : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ثم فتر الوحي عنى فترة ، فبينما أنا أمشى سمعتُ صوتاً من السماء ، فرفعت بصرى قبل السماء ، فإذا الملك الذى جاءنى [بحراء الآن] ^(٤) قاعد على كرسى بين السماء والأرض ، فجئتُ ^(٥) منه فرقاً ، حتى هويت إلى الأرض ، فجئت أهلى فقلت لهم : زملونى زملونى . فزملونى ، فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبِّكَ فَكْبِرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ . ثم حمى الوحي [بعد] ^(٦) وتتابع . أخرجه من حديث الزهرى ، به ^(٧) .

وقال الطبرانى : حدثنا محمد بن على بن شعيب السمسار ، حدثنا الحسن بن بشر ^(٨) البجلي ، حدثنا المعافى بن عمران ، عن إبراهيم بن يزيد ، سمعت ابن أبى مليكة يقول : سمعت ابن عباس يقول : إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاما ، فلما أكلوا . قال : ما تقولون فى هذا الرجل ؟ فقال بعضهم : ساحر . وقال بعضهم : ليس بساحر . وقال بعضهم : كاهن . وقال بعضهم : ليس بكاهن . وقال بعضهم : شاعر . وقال بعضهم ليس بشاعر . وقال بعضهم : [بل] ^(٩) سحر يؤثر . فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر . فبلغ ذلك النبي ﷺ فحزن وقنع رأسه ، وتدنَّى ، فأنزل الله ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبِّكَ فَكْبِرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ . وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ . وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ ^(١٠) .

فقوله : ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ أى : شمر عن ساق العزم ، وأنذر الناس . وبهذا حصل الإرسال ، كما حصل بالأول النبوة . ﴿ وَرَبِّكَ فَكْبِرْ ﴾ أى : عظم . وقوله : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ ، قال الأجلح الكندى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أنه أتاه رجل فسأله عن هذه الآية : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ ،

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٢٦) .

(٢) فى م : « الذى كان » .

(٣) فى أ : « ابن هشام » .

(٤) زيادة من م ، أ ، والمسند .

(٥) فى م : « فجئيت » .

(٦) زيادة من المسند .

(٧) المسند (٣/٣٢٥) ، وصحيح البخارى برقم (٤٩٢٦) ، وصحيح مسلم برقم (١٦١) .

(٨) فى أ : الحسن بن بشير .

(٩) زيادة من م .

(١٠) المعجم الكبير للطبرانى (١١/١٢٥) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/١٣١) : « وفيه إبراهيم بن يزيد الخورى وهو ضعيف » .

قال: لا تلبسها ^(١) على معصية ولا على غدره . ثم قال : أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي :

فإني بحمد الله لا ثوبَ فاجر
لبستُ ، ولا من غدره أتقن ^(٢)

وقال ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس [فى هذه الآية] ^(٣) : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال : فى كلام العرب : نقى الثياب . وفى رواية بهذا الإسناد : فطهر من الذنوب . وكذا قال إبراهيم ، والشعبي ، وعطاء .

وقال الثورى ، عن رجل ، عن عطاء ، عن ابن عباس فى هذه الآية : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال : من الإثم . وكذا قال إبراهيم النخعى .

وقال ^(٤) مجاهد : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال : نفسك ، ليس ثيابه . وفى رواية عنه : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ : عملك فأصلح ، وكذا قال أبو رزين . وقال فى رواية أخرى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أى : لست بكاهن ولا ساحر ، فأعرض عما قالوا .

وقال قتادة : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أى : طهرها من المعاصي ، وكانت العرب تسمى الرجل إذا نكث ولم يف بعهد الله إنه لمُدْنَس ^(٥) الثياب . وإذا وفى وأصلح : إنه لمطهر الثياب .

وقال عكرمة ، والضحاك : لا تلبسها على معصية .

وقال الشاعر ^(٦) :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل

وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [يعنى] ^(٧) : لا تك ثيابك التى تلبس من مكسب غير طائب ، ويقال : لا تلبس ثيابك على معصية .

وقال محمد بن سيرين : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أى : اغسلها بالماء .

وقال ابن زيد : كان المشركون لا يتطهرون ، فأمره الله أن يتطهر ، وأن يطهر ثيابه .

وهذا القول اختاره ابن جرير ، وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب ، فإن العرب تطلق الثياب عليه ، كما قال امرؤ القيس :

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل
وإن كنت قد أزمعت هجرى فأجملى
وإن تك قد ساءتك منى خليقة
فسللى ثيابى من ثيابك تسلى ^(٨)

وقال سعيد بن جبير : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ : وقلبك ونيك فطهر .

(١) فى أ : « لا تسلبها » .

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٩١/٢٩) .

(٣) زيادة من م .

(٤) فى م : « وعن » .

(٥) فى م : « لدنس » .

(٦) هو دكين بن رجاء ، وانظر : الشعر والشعراء لابن قتيبة (٦١٢/٢) مستفاداً من حاشية الشعب .

(٧) زيادة من م .

(٨) ديوان امرئ القيس (ص٣٧) مستفاداً من حاشية الشعب .

وقال محمد بن كعب القرظي ، والحسن البصري : وَخُلِقَكَ فَحَسِّن .

وقوله : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ ، قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَالرُّجْزَ ﴾ ، وهو الأصنام ، فاهجر . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والزهرى ، وابن زيد : إنها الأوثان .

وقال إبراهيم ، والضحاك : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ أى : اترك المعصية .

وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبسه بشيء من ذلك ، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ [الأحزاب: ١] . ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٢] .

وقوله : ﴿ وَلَا تَمَنَّ تَسْتَكْثِرُ ﴾ : قال ابن عباس : لا تعط العطية تلتبس أكثر منها . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، وعطاء ، وطاوس ، وأبو الأحوص ، وإبراهيم النخعي ، والضحاك ، وقتادة ، والسدى ، وغيرهم .

وروى عن ابن مسعود أنه قرأ : « ولا تمن أن تستكثر » .

وقال الحسن البصري : لا تمن بعملك على ربك تستكثره . وكذا قال الربيع بن أنس ، واختاره ابن جرير . وقال خُصَيْف ، عن مجاهد فى قوله : ﴿ وَلَا تَمَنَّ تَسْتَكْثِرُ ﴾ قال : لا تضعف أن تستكثر من الخير ، قال : تمن فى كلام العرب : تضعف .

وقال ابن زيد : لا تمن بالنبوة على الناس ، تستكثروهم بها ، تأخذ عليه عوضا من الدنيا .

فهذه أربعة أقوال ، والأظهر القول الأول ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ أى : اجعل صبرك على أذاهم لوجه الله عز وجل ، قاله مجاهد .

وقال إبراهيم النخعي : اصبر على عطيتك لله تعالى (١) .

وقوله : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ . فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ ، قال ابن

عباس ، ومجاهد ، والشعبي ، وزيد بن أسلم ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، والربيع بن أنس ، والسدى ، وابن زيد : ﴿ النَّاقُورُ ﴾ : الصور . قال مجاهد : وهو كهيئة القرن .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أسباط بن محمد ، عن مُطَرِّف ، عن

عطية العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾ ، فقال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ، ينتظر متى يؤمر فينفخ ؟ » فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » .

وهكذا رواه الإمام أحمد عن أسباط ، به (٢) . ورواه ابن جرير عن أبى كُرَيْب ، عن ابن فضيل

(١) فى أ : « لله عز وجل » .

(٢) المسند (١/٣٢٦) ، وقال الحافظ عند تفسير الآية : ١٧٣ من سورة آل عمران : « حديث جيد » .

وأسباط ، كلاهما عن مطرف ، به . ورواه من طريق أخرى ، عن العوفى ، عن ابن عباس ، به (١) .
وقوله : ﴿ فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ أى : شديد ، ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ أى : غير سهل
عليهم . كما قال تعالى : ﴿ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ [القمر: ٨] .

وقد روينا عن زُرَّارة بن أوفى - قاضى البصرة - : أنه صلى بهم الصبح ، فقرأ هذه السورة ،
فلما وصل إلى قوله : ﴿ فَإِذَا نَقَرُ فِي النَّاقُورِ . فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ :
شَهِقَ شَهْقَةً ، ثم خر ميتاً ، رحمه الله (٢) .

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣)
وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ
صُعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ
عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ
الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩)
عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) ﴾ .

يقول تعالى متوعدا لهذا الخبيث الذى أنعم الله عليه بنعم الدنيا ، فكفر بأنعم الله ، وببدلها
كفرا ، وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها ، وجعلها من قول البشر . وقد عدد الله عليه نعمه
حيث قال : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ أى : خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد ، ثم
رزقه الله ، ﴿ مَالًا مَمْدُودًا ﴾ أى : واسعا كثيرا . قيل : ألف دينار . وقيل : مائة ألف دينار .
وقيل : أرضا يستغلها . وقيل غير ذلك . وجعل له ﴿ بَنِينَ شُهُودًا ﴾ ، قال مجاهد : لا يغيبون ،
أى : حضورا عنده لا يسافرون فى التجارات ، بل مواليتهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم وهم قعود
عند أبيهم ، يتمتع بهم ويتملئ بهم . وكانوا - فيما ذكره السدى ، وأبو مالك ، وعاصم بن عمر بن
قتادة - ثلاثة عشر . وقال ابن عباس ، ومجاهد : كانوا عشرة . وهذا أبلغ فى النعمة [وهو إقامتهم
عنده] (٣) .

﴿ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴾ أى : مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك ، ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ .
كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾ أى : معاندا ، وهو الكفر على نعمه بعد العلم . قال الله : ﴿ سَأُرْهِقُهُ
صُعُودًا ﴾ ، قال الإمام أحمد :

حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، عن درَّاج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد ، عن رسول الله

(١) تفسير الطبرى (٩٥/٢٩) .

(٢) رواه أبو نعيم فى الحلية (٢/٢٥٨، ٢٥٩) .

(٣) زيادة من م، أ .

ﷺ قال : « ويل : واد فى جهنم ، يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره ، والصَّعُودُ : جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً ، ثم يهوى به كذلك فيه أبداً » .

وقد رواه الترمذى عن عبد بن حميد ، عن الحسن بن موسى الأشيب ، به ^(١) . ثم قال : غريب ، لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة عن دراج . كذا قال . وقد رواه ابن جرير ، عن يونس ، عن عبد الله بن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، عن دراج ^(٢) . وفيه غرابة ونكارة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة وعلى بن عبد الرحمن — المعروف بعلان المصرى ^(٣) — قال : حدثنا منجاب ، أخبرنا شريك ، عن عمار الدهنى ، عن عطية العوفى ، عن أبى سعيد ، عن النبى ﷺ : ﴿ سَأْرَهْقُهُ صَعُودًا ﴾ ، قال : « هو جبل فى النار من نار يكلف أن يصعده ، فإذا وضع يده ذابت ، وإذا رفعها عادت ، وإذا وضع رجله ذابت ، وإذا رفعها عادت » . ورواه البزار وابن جرير ، من حديث شريك ، به ^(٤) .

وقال قتادة ، عن ^(٥) ابن عباس : صعود : صخرة [فى جهنم] ^(٦) عظيمة يسحب عليها الكافر على وجهه .

وقال السدى : صعودا : صخرة ملساء فى جهنم ، يكلف أن يصعدها .

وقال مجاهد : ﴿ سَأْرَهْقُهُ صَعُودًا ﴾ أى : مشقة من العذاب . وقال قتادة : عذابا لا راحة فيه . واختاره ابن جرير .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ أى : إنما أرهقناه صعودا ، أى : قربناه من العذاب الشاق ؛ لبعده عن الإيمان ، لأنه فكر وقدر ، أى : تَرَوَّى ماذا يقول فى القرآن حين سئل عن القرآن ، ففكر ماذا يختلق من المقال ، ﴿ وَقَدَّرَ ﴾ أى : تروى ، ﴿ فَفَقُلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ دعاء عليه ، ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ أى : أعاد النظرة ^(٧) والتروى ، ﴿ ثُمَّ عَبَسَ ﴾ أى : قبض بين عينيه وقطب ، ﴿ وَبَسَرَ ﴾ أى : كبح وكره ، ومنه قول توبة بن الحمير الشاعر :

وَقَدْ رَأَيْتُ مِنْهَا صُدُودٌ رَأَيْتُهُ
وَأَعْرَاضُهَا عَنْ حَاجَتِي وَبُسُورُهَا ^(٨)

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ أى : صُرف عن الحق ، ورجع القهقرى مستكبرا عن الانقياد للقرآن ، ﴿ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سَحَرٌ يُوْثَرُ ﴾ أى : هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ أى : ليس بكلام الله .

(١) المستند (٧٥/٣) ، وسنن الترمذى برقم (٣١٦٤) .

(٢) تفسير الطبرى (٩٧/٢٩) .

(٣) فى م : « البصرى » .

(٤) تفسير الطبرى (٩٧/٢٩) ، ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٣٤٠٩) « مجمع البحرين » من طريق منجاب بن الحارث به مرفوعاً . وقال الطبرانى : « لم يرفع هذا الحديث عن عمار الدهنى إلا شريك ، ورواه سفيان بن عيينة عن عمار الدهنى فوافقه » .

(٥) فى م : « وقال » . (٦) زيادة من م . (٧) فى م : « النظر » .

(٨) البيت فى تفسير الطبرى (٩٨/٢٩) .

وهذا المذكور فى هذا السياق هو : الوليد بن المغيرة المخزومى ، أحد رؤساء قريش — لعنه الله — وكان من خبره فى هذا ما رواه العوفى ، عن ابن عباس قال : دخل الوليد بن المغيرة على أبى بكر بن أبى قحافة فسأله ^(١) عن القرآن ، فلما أخبره خرج على قريش فقال : يا عجباً لما يقول ابن أبى كبشة . فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذى من الجنون ، وإن قوله لمن كلام الله . فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا فقالوا : والله لئن صبا الوليد لتصبون قريش . فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال : أنا والله أكفيكم شأنه . فانطلق حتى دخل عليه بيته فقال للوليد : ألم تر قومك قد جمعوا لك الصدقة ؟ فقال : ألسنت أكثرهم مالا وولدا . فقال له أبو جهل : يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبى قحافة لتصيب من طعامه . فقال الوليد : أقد ^(٢) تحدث به عشيرتى ؟! فلا والله لا أقرب ابن أبى قحافة ، ولا عمر ، ولا ابن أبى كبشة ، وما قوله إلا سحر يؤثر . فأنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ إلى قوله : ﴿ لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ ﴾ .

وقال قتادة : زعموا أنه قال : والله لقد نظرت فيما قال الرجل فإذا هو ليس بشعر ، وإن له الحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو وما يعلو ، وما أشك أنه سحر . فأنزل الله : ﴿ فَقُلْ كَيْفَ قَدَرْتُ ﴾ الآية ، ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾ : قبض ما بين عينيه وكلح .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، أخبرنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن عباد بن منصور ، عن عكرمة : أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبی ﷺ فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رق له . فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام ، فأتاه فقال : أى عم ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا . قال : لم ؟ قال : يعطونكه ، فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبله . قال : قد علمت قريش أنى أكثرها مالا . قال : فقل فيه قولاً يعلم قومك أنك ^(٣) منكر لما قال ، وأنت كاره له . قال : فماذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار منى ، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من ذلك . والله إن لقوله الذى يقول لحلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه ليعلو وما يعلو . قال : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه . قال : فدعنى حتى أفكر فيه . فلما فكر قال : هذا سحر يآثره عن غيره . فنزلت : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ ، [قال قتادة : خرج من بطن أمه وحيداً] ^(٤) حتى بلغ : ﴿ تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ ^(٥) .

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغير واحد نحوه من هذا . وقد زعم السدى أنهم لما اجتمعوا فى دار الندوة ليجمعوا رأيهم على قول يقولونه فيه ، قبل أن يقدم عليهم وفود العرب للحج ليصدوهم عنه ، فقال قائلون : شاعر . وقال آخرون : ساحر . وقال آخرون : كاهن . وقال آخرون : مجنون . كما قال تعالى : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٨] ، كل هذا والوليد يفكر فيما يقوله فيه ، ففكر وقدر ، ونظر وعبس وبسر ، فقال : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ ، قال الله عز وجل : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ أى : سأغمره فيها من جميع جهاته . ثم

(٣) فى م : « أنه » .

(٢) فى أ : « أرقد » .

(١) فى م ، أ : « يسأله » .

(٤) زيادة من تفسير الطبرى .

(٥) تفسير الطبرى (٩٨/٢٩) .

قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴾ ؟ وهذا تهويل لأمرها وتفخيم . ثم فسر ذلك بقوله : ﴿ لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ ﴾ أى : تأكل لحومهم وعروقهم وعصَبهم وجلودهم ، ثم تبدل غير ذلك ، وهم فى ذلك لا يموتون ولا يحيون ، قاله ابن بريدة وأبو سنان وغيرهما .

وقوله : ﴿ لَوْأَحَ لِّلْبَشْرِ ﴾ ، قال مجاهد : للجلد ، وقال أبو رزين : تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل . وقال زيد بن أسلم : تلوح أجسادهم عليها . وقال قتادة : ﴿ لَوْأَحَ لِّلْبَشْرِ ﴾ أى : حراقة للجلد . وقال ابن عباس : تحرق بشرة الإنسان .

وقوله : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ أى : من مقدّمى الزبانية ، عظيم خلقهم ، غليظ خلُقهم .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا إبراهيم بن موسى ، حدثنا ابن أبى زائدة ، أخبرنى حريث ، عن عامر ، عن البراء فى قوله : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ ، قال : إن رهطا من اليهود سألو رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ عن خزنة جهنم ، فقال : الله ورسوله أعلم . فجاء رجل فأخبر النبى ﷺ فنزل عليه ساعتئذ : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ ، فأخبر أصحابه وقال : « ادعهم ، أما إنى سائلهم عن تربة الجنة إن أتونى ، أما إنها ^(١) دَرَمَكَة بيضاء » . فجأؤوه فسألوه عن خزنة جهنم ، فأهوى بأصابع كفيه مرتين وأمسك الإبهام فى الثانية ، ثم قال : « أخبرونى عن تربة الجنة » . فقالوا : أخبرهم يا ابن سلام . فقال : كأنها خُبْزَة بيضاء . فقال رسول الله ﷺ : « أما إن الخبز إنما يكون من الدَرَمَك » ^(٢) .

هكذا وقع عند ابن أبى حاتم عن البراء ، والمشهور عن جابر بن عبد الله ، كما قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا منده ، حدثنا أحمد بن عبدة ، أخبرنا سفيان ويحيى بن حكيم ، حدثنا سفيان ، عن مجالد ، عن الشعبي ، عن جابر بن عبد الله قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا محمد ، غلب أصحابك اليوم . فقال : « بأى شىء ؟ » قال : سألتهم يهود هل أعلمكم نبيكم عدة خزنة أهل النار ؟ قالوا : لا نعلم حتى نسأل نبينا ﷺ . قال رسول الله ﷺ : « أفغلب قوم سئلوا عما لا يدرون فقالوا : لا ندرى ^(٣) حتى نسأل نبينا ؟ على بأعداء الله ، لكن سألو ^(٤) نبيهم أن يريهم الله جهرة » . فأرسل إليهم فدعاهم . قالوا : يا أبا القاسم ، كم عدد خزنة أهل النار ؟ قال : « هكذا » ، وطبق كفيه ، ثم طبق كفيه ، مرتين ، وعقد واحدة ، وقال لأصحابه : « إن سئلتهم عن تربة الجنة فهى الدَرَمَك » . فلما سألوه فأخبرهم بعدة خزنة أهل النار ، قال لهم رسول الله ﷺ : « ما تربة الجنة ؟ » فنظر بعضهم إلى بعض ، فقالوا : خبزة يا أبا القاسم . فقال : « الخبز من الدَرَمَك » .

وهكذا رواه الترمذى عند هذه الآية عن ابن أبى عمر ، عن سفيان ، به ^(٥) . وقال هو والبزار :

(١) فى م : « إنها كأنها » .

(٢) ورواه البيهقى فى البعث برقم (٥٠٩) من طريق مسروق بن المزيان ، عن ابن أبى زائدة به ، وقال : « حديث ابن أبى مطر - أى حريث - ليس بالقوى ، وحديث جابر أصح » وهو الآتى بعده .

(٣) فى م : « قالوا لا نعلم » .

(٤) فى م ، ١ : « لكنهم قد سألو » .

(٥) سنن الترمذى برقم (٣٣٢٧) .

لا نعرفه ^(١) إلا من حديث مجالد . وقد رواه الإمام أحمد ، عن علي بن المديني ، عن سفيان ،
فقص الدر McK فقط ^(٢) .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ
وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ
وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ (٣١) كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢)
وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن
شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ ﴾ أى : خزائنها ، ﴿ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾ أى : [زبانية] ^(٣) غلاظا
شدادا . وذلك رد على مشركى قريش حين ذكر عدد الخزنة ، فقال أبو جهل : يا معشر قريش ، أما
يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم ^(٤) ؟ فقال الله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾
أى : شديدى الخلق لا يقاومون ولا يغالبون . وقد قيل : إن أبا الأشدين — واسمه : كلدة بن أسيد
ابن خلف — قال : يا معشر قريش ، اكفونى منهم اثنين وأنا أكفيكم سبعة عشر ، إعجابا منه بنفسه ،
وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينتزعه من تحت
قدميه ، فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه . قال السهيلي : وهو الذى دعا رسول الله ﷺ إلى مصارعة
وقال : إن صرعتنى آمنت بك ، فصرعه النبى ﷺ مرارا ، فلم يؤمن . قال : وقد نسب ابن إسحاق
خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب ^(٥) .

قلت : ولا منافاة بين ما ذكرناه ، والله أعلم .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر اختباراً منا
للناس ، ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ أى : يعلمون أن هذا الرسول حق ؛ فإنه نطق بمطابقة ما
بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله .

﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ أى : إلى إيمانهم . أى : بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمد
ﷺ ، ﴿ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أى : من المنافقين
﴿ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ ؟ أى : يقولون : ما الحكمة فى ذكر هذا هاهنا ؟ قال الله

(١) فى م : « لا يعرف » .

(٢) المسند (٣/ ٣٦١) .

(٣) زيادة من م .

(٤) فى أ : « فتغلبوهم » .

(٥) الروض الأنف للسهيلى (١/ ٢٠٠) .

تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ أى : من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان فى قلوب أقوام ، ويتزلزل عند آخرين ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة .

وقوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى : ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى ، لثلاثتهم متوهم أنما هم تسعة عشر فقط ، كما قد قاله طائفة من أهل الضلالة والجهالة من الفلاسفة اليونانيين . ومن تابعهم ^(١) من الملتين الذين سمعوا هذه الآية ، فأرادوا تنزيلها على العقول العشرة والنفوس التسعة ، التى اخترعوا دعواها وعجزوا عن إقامة الدلالة على مقتضاها ، فأفهموا ^(٢) صدر الآية وقد كفروا بآخرها ، وهو قوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ .

وقد ثبت فى حديث الإسراء المروى فى الصحيحين وغيرهما . عن رسول الله ﷺ أنه قال فى صفة البيت المعمور الذى فى السماء السابعة : « فإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون إليه آخر ما عليهم » ^(٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود ، حدثنا إسرائيل ، عن إبراهيم بن مهاجر ، عن مجاهد ، عن مورك ، عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « إنى أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، أظنت السماء وحق لها أن تنط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد ، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً ، ولا تلذذتم بالنساء على ^(٤) الفُرُشَات ، ولخرجتم إلى الصُّعَدَات تجأرون إلى الله عز وجل » . فقال أبو ذر : والله لوددت أنى شجرة تُعْضَد .

ورواه الترمذى وابن ماجة ، من حديث إسرائيل ^(٥) ، وقال الترمذى : حسن غريب ، ويروى عن أبى ذر موقوفاً .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا خير ^(٦) بن عرفة المصرى ، حدثنا عروة بن مروان الرقى ، حدثنا عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الكريم بن مالك ، عن عطاء بن أبى رباح ، عن جابر ابن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « ما فى السموات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم ، أو ملك ساجد ، أو ملك راکع ، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً : سبحانك ! ما عبدناك حقَّ عبادتك ، إلا أنا لم نشرك بك شيئاً » ^(٧) .

وقال محمد بن نصر المروزى فى « كتاب الصلاة » : حدثنا عمرو بن زرارة ، أخبرنا عبد الوهاب ابن عطاء ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن صفوان بن مُحَرَّر ، عن حكيم بن حزام قال : بينما رسول الله ﷺ مع أصحابه إذ قال لهم : « هل تسمعون ما أسمع ؟ » قالوا : ما نسمع من شىء . فقال

(١) فى م : « ومن شايعهم » . (٢) فى أ : « فما فهموا » .

(٣) هذا جزء من حديث أنس الطويل فى الإسراء ، وهو فى صحيح البخارى برقم (٧٥١٧) ، وصحيح مسلم برقم (١٦٢) . وهذا القدر قد وقع لمسلم من هذا الوجه ، وانظر أحاديث الإسراء عند تفسير أول سورة الإسراء .

(٤) فى أ : « فى » .

(٥) المسند (١٧٣/٥) ، وسنن الترمذى برقم (٢٣١٢) ، وسنن ابن ماجة برقم (٤١٩٠) .

(٦) فى م : « حدثنا حسين » .

(٧) المعجم الكبير (١٨٤/٢) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٥٢/١) : « وفيه عروة بن مروان » . قلت : قال الدارقطنى : ليس بالقوى .

رسول الله ﷺ : « أسمع أطيظ السماء وما تلام أن تتطّ ، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك راعٍ أو ساجد »^(١) .

وقال أيضا : حدثنا محمد بن عبد الله بن قهزاذ^(٢) ، حدثنا أبو معاذ الفضل بن خالد النحوى ، حدثنا عبيد بن سليمان الباهلى ، سمعت الضحّاك بن مزاحم ، يحدث عن مسروق بن الأجدع ، عن عائشة أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما فى السماء الدنيا موضع قدم إلا وعليه ملك ساجد أو قائم ، وذلك قول الملائكة : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الصّٰفُّوْنَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُوْنَ ﴾ » [الصفات: ١٦٤ - ١٦٦] ^(٣) .

وهذا مرفوع^(٤) غريب جدا رواه^(٥) عن محمود بن آدم ، عن أبى معاوية ، عن الأعمش ، عن أبى الضحّى ، عن مسروق ، عن ابن مسعود أنه قال : إن من السموات سماء ما فيها موضع شبر إلا وعليه جبهة ملك أو قدماء قائما ، ثم قرأ : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصّٰفُّوْنَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُوْنَ ﴾ ^(٦) .

ثم قال : حدثنا أحمد بن سيار : حدثنا أبو جعفر محمد بن خالد الدمشقى المعروف بابن أمه ، حدثنا المغيرة بن عثمان^(٧) بن عطية من بنى عمرو بن عوف ، حدثنى سليمان بن أيوب [من بنى] ^(٨) سالم بن عوف . حدثنى عطاء بن زيد بن مسعود من بنى الحبلّى ، حدثنى سليمان بن عمرو بن الربيع ، من بنى سالم ، حدثنى عبد الرحمن بن العلاء ، من بنى ساعدة ، عن أبيه العلاء بن سعد - وقد شهد الفتح وما بعده - أن النبى ﷺ قال يوما لجلسائه : « هل تسمعون ما أسمع ؟ » قالوا : وما تسمع يا رسول الله ؟ قال : « أطّت السماء وحقّ لها أن تَتَطّ ، إنه ليس فيها موضع قدمٍ إلا وعليه ملك قائم أو راعٍ أو ساجد ، وقال الملائكة : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصّٰفُّوْنَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُوْنَ ﴾ » ^(٩) وهذا إسناد غريب جداً .

ثم قال : حدثنا [محمد بن يحيى ، حدثنا] ^(١٠) إسحاق بن محمد بن إسماعيل الفَرَوى ، حدثنا عبد الملك بن قدامة ، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عمر : أن عمر جاء والصلاة قائمة ، ونفر ثلاثة جلوس ، أحدهم أبو جحش الليثى ، فقال : قوموا فصلوا مع رسول الله . فقام اثنان وأبى أبو جحش أن يقوم ، وقال : لا أقوم حتى يأتى رجل هو أقوى منى ذراعين ، وأشد منى بطشاً فيصرعنى ، ثم يدس وجهى فى التراب . قال عمر : فصرعته ودسسته وجهه فى التراب ، فأتى عثمان بن عفان فحجزنى عنه ، فخرج عمر مغضبا حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال : « ما رأيك يا أبا حفص ؟ » . فذكر له ما كان منه ، فقال رسول الله ﷺ : « إن رضى

(١) تعظيم قدر الصلاة للمروزي برقم (٢٤٨) .

(٢) فى م : « مهزاذ » .

(٣) تعظيم قدر الصلاة برقم (٢٥٣) .

(٤) فى أ : « وهذا مرفوعا » وهو خطأ .

(٦) تعظيم قدر الصلاة برقم (٢٥٤) .

(٧) فى هـ : « عمر » .

(٨) زيادة من م .

(٩) تعظيم قدر الصلاة برقم (٢٥٥) .

(١٠) زيادة من تعظيم قدر الصلاة (٢٥٦) .

عمر رحمةً ، والله لوددتُ أنك جئتني برأس الخبيث » ، فقام عمر يُوجِّهُ نحوه ، فلما أبعد ناداه فقال : « اجلس حتى أخبرك بغنى الرب عز وجل عن صلاة أبي جحش ، إن لله فى السماء الدنيا ملائكة خشوعاً ^(١) لا يرفعون رؤوسهم حتى تقوم الساعة . فإذا قامت رفعوا رؤوسهم ثم قالوا : ربنا ، ما عبدناك حق عبادتك ، وإن لله فى السماء الثانية ملائكة سجوداً لا يرفعون رؤوسهم حتى تقوم الساعة فإذا قامت الساعة رفعوا رؤوسهم ، وقالوا : سبحانك ! ما عبدناك حق عبادتك » فقال له عمر : وما يقولون يا رسول الله ؟ فقال : « أما أهل السماء الدنيا فيقولون : سبحان ذى الملك والملكوت . وأما أهل السماء الثانية فيقولون : سبحان ذى العزة والجبروت . وأما أهل السماء الثالثة فيقولون : سبحان الحى الذى لا يموت . فقلها يا عمر فى صلاتك » . فقال عمر : يا رسول الله ، فكيف بالذى كنت علمتني وأمرتني أن أقوله فى صلاتي ؟ فقال : « قل هذا مرة وهذا مرة » . وكان الذى أمره به أن يقول : « أعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بك منك ، جل وجهك » ^(٢) . وهذا حديث غريب جداً ، بل منكر نكارة شديدة ، وإسحاق الفروى روى عنه البخارى ، وذكره ابن حبان فى الثقات ، وضعفه أبو داود والنسائى والعقيلى والدارقطنى . وقال أبو حاتم الرازى : كان صدوقاً إلا أنه ذهب بصره فربما لقن ، وكتبه صحيحة . وقال مرة : هو مضطرب ، وشيخه عبد الملك بن قدامة أبو قتادة الجمحى : تكلم فيه أيضاً . والعجب من الإمام محمد بن نصر كيف رواه ولم يتكلم عليه ، ولا عرّف بحاله ، ولا تعرض لضعف بعض رجاله ؟! غير أنه رواه من وجه آخر عن سعيد بن جبير مرسلًا بنحوه . ومن طريق أخرى عن الحسن البصرى مرسلًا ، قريباً منه ، ثم قال محمد بن نصر :

حدثنا محمد بن عبد الله بن قهزاذ ، أخبرنا النضر ، أخبرنا عباد بن منصور قال : سمعت عدى ابن أرتاة وهو يخطبنا على منبر المدائن قال : سمعت رجلاً من أصحاب النبى ﷺ ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن لله تعالى ملائكة تُرعدُ فرائصهم من خيفته ، ما منهم ملك تقطر منه دمعة من عينه إلا وقعت على ملك يصلى ، وإن منهم ملائكة سجوداً منذ خلق الله السموات والأرض لم يرفعوا رؤوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة ، وإن منهم ملائكة ركوعاً لم يرفعوا رؤوسهم منذ خلق الله السموات والأرض ولا يرفعونها إلى يوم القيامة ، فإذا رفعوا رؤوسهم نظروا إلى وجه الله عز وجل ، قالوا : سبحانك ! ما عبدناك حق عبادتك » ^(٣) .

وهذا إسناد لا بأس به .

وقوله : ﴿ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴾ ، قال مجاهد وغير واحد : ﴿ وَمَا هِيَ ﴾ أى : النار التى وصفت ، ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴾ .

(١) فى م ، أ : « خشوع » .

(٢) تعظيم قدر الصلاة برقم (٢٥٦) ، ورواه الحاكم فى المستدرک (٨٧/٣) من طريق إسحاق الفروى به ، وقال : « حديث صحيح الإسناد على شرط البخارى ولم يخرجاه » ، وتعبه الذهبى . قلت : « منكر غريب ، وما هو على شرط البخارى ، وفيه عبد الملك بن قدامة الجمحى ضعيف ، تفرد به » .

(٣) تعظيم قدر الصلاة برقم (٢٦٠) .

ثم قال : ﴿ كَلَّا وَالْقَمَرَ . وَاللَّيْلَ إِذَا دَبَّرَ ﴾ أى : ولى ، ﴿ وَالصُّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ ﴾ أى : أشرق ، ﴿ إِنَّهَا لِإِحْدَى الْكُبَرِ ﴾ أى : العظائم ، يعنى : النار ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وغير واحد من السلف : ﴿ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ أى : لمن شاء أن يقبل النذارة ويهتدى للحق ، أو يتأخر عنها ويولى ويردها .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفَرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يَرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً (٥٢) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمِنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٦) .

يقول تعالى مخبراً أن : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ أى : معتقلة بعملها يوم القيامة ، قاله ابن عباس وغيره : ﴿ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ ، فإنهم ﴿ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى : يسألون المجرمين وهم فى الغرفات وأولئك فى الدركات قائلين لهم : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ . قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ ﴾ أى : ما عبدنا ربنا ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا ، ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ أى : نتكلم فيما لا نعلم . وقال قتادة : كلما غوى غاوى غويننا معه ، ﴿ وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ . حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ يعنى : الموت . كقوله : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر : ٩٩] ، وقال رسول الله ﷺ : « أما هو - يعنى عثمان بن مظعون - فقد جاءه اليقين من ربه » (١) .

قال الله تعالى : ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ أى : من كان متصفاً بهذه (٢) الصفات فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعته شافع فيه ؛ لأن الشفاعة إنما تنجع إذا كان المحل قابلاً ، فأما من وفى الله كافراً يوم القيامة فإنه له النار لا محالة ، خالداً فيها .

ثم قال تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ أى : فما لهؤلاء الكفرة الذين قبلك عما تدعوهم إليه وتذكرهم به معرضين ، ﴿ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفَرَةٌ . فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ أى : كأنهم فى نفارهم عن الحق ، وإعراضهم عنه حمر من حمر الوحش إذا فرت ممن يريد صيدها من أسد ، قاله أبو هريرة ، وابن عباس - فى رواية عنه - وزيد بن أسلم ، وابنه عبد الرحمن . أو : رام ، وهو رواية (٣) عن

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٢٤٣) من حديث أم العلاء رضى الله عنها .

(٢) فى م : « بمثل هذه » . (٣) فى م : « وهما روايتان » .

ابن عباس ، وهو قول الجمهور .

وقال حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ^(١) ، عن ابن عباس : الأسد ، بالعربية ، ويقال له بالحبشية : قسورة ، وبالفارسية : شير ^(٢) ، وبالنبطية : أويا .

وقوله : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً ﴾ أى : بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاباً كما أنزل على النبي . قاله مجاهد وغيره ، كقوله : ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يُجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ، وفي رواية عن قتادة : يريدون أن يؤتوا براءة بغير عمل .

فقوله : ﴿ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴾ أى : إنما أفسدهم عدم إيمانهم بها ، وتكذيبهم بوقوعها . ثم قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ﴾ أى : حقاً إن القرآن تذكرة ، ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ . وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ ، كقوله : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الإنسان: ٣٠] .

وقوله : ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ أى : هو أهل أن يخاف منه ، وهو أهل أن يغفر ذنب من تاب إليه وأناب . قاله قتادة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا زيد ^(٣) بن الحباب ، أخبرني سهيل - أخو حزم ^(٤) - حدثنا ثابت البناني ، عن أنس بن مالك قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ وقال : « قال ربكم : أنا أهل أن أتقى ، فلا يجعل معي إله ، فمن اتقى أن يجعل معي إلهها كان أهلاً أن أغفر له » .

ورواه الترمذى ، وابن ماجه من حديث زيد بن الحباب ، والنسائي من حديث المعافى بن عمران كلاهما عن سهيل بن عبد الله القطعي ، به ^(٥) . وقال الترمذى : حسن غريب ، وسهيل ليس بالقوى . ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه ، عن هذبة بن خالد ، عن سهيل ، به . وهكذا رواه أبو يعلى ، والبزار ، والبغوى ، وغيرهم ، من حديث سهيل القطعي ، به ^(٦) .

آخر تفسير سورة « المدثر » ولله الحمد والمنة

[وحسبنا الله ونعم الوكيل] ^(٧)

(١) فى أ : « يوسف بن ماهك » .

(٢) فى أ : « بتار » .

(٣) فى أ : « حدثنا يزيد » .

(٤) فى م : « أخو حمزة » .

(٥) المسند (١٤٢/٣) ، وسنن الترمذى برقم (٣٣٢٨) ، وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٩٩) ، وتفسير النسائي (٤٧٥/٢) .

(٦) مسند أبى يعلى (٦٦/٦) ، ومعالم التنزيل للبغوى (٢٧٦/٨) .

(٧) زيادة من م .

تفسير سورة القيامة

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ① وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ② ﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ③ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ④ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ⑤ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ⑥ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ⑦ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ⑧ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ⑨ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ⑩ كَلَّا لَا وَزَرَ ⑪ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ⑫ يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ⑬ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ⑭ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ⑮ ﴾

قد تقدم غير مرة أن المقسم عليه متى كان متنفياً ، جاز الإتيان بلا قبل القسم لتأكيد النفي . والمقسوم عليه هاهنا هو إثبات الميعاد ، والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد من عدم بعث الأجساد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ ، قال الحسن : أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة . وقال قتادة : بل أقسم بهما جميعاً . هكذا ^(١) حكاه ابن أبي حاتم . وقد حكى ابن جرير ، عن الحسن والأعرج أنهما قرآ : « لَا أُقْسِمُ [بيوم القيامة] » ^(٢) ، وهذا يوجه قول الحسن ؛ لأنه أثبت القسم بيوم القيامة ونفى القسم بالنفس اللوامة . والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً كما قاله قتادة رحمه الله ، وهو المروى عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، واختاره ابن جرير .

فأما يوم القيامة فمعروف ، وأما النفس اللوامة ، فقال قرة بن خالد ، عن الحسن البصري في هذه الآية : إن المؤمن - والله - ما نراه إلا يلوم نفسه : ما أردت بكلمتي ؟ ما أردت بأكلتي ؟ ما أردت بحديث نفسي ؟ وإن الفاجر يمضي قُدُماً ما يعاتب نفسه .

وقال جُوَيْرٍ : بلغنا عن الحسن أنه قال في قوله : ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ ، قال : ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا يلوم نفسه يوم القيامة .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن صالح بن ^(٣) مسلم ، عن إسرائيل ، عن سِمَاك : أنه سأل عِكْرِمَةَ عن قوله : ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ قال : يلوم ^(٤) على الخير والشر : لو فعلت كذا وكذا .

(١) في م : « كذا » .

(٢) زيادة من م .

(٣) في م : « عن » .

(٤) في م : « تلوم » .

ورواه ابن جرير ، عن أبي كُرَيْب ، عن وَكِيع عن إسرائيل ^(١) .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا مؤمل ، حدثنا سفيان ، عن ابن جُرَيْج ، عن الحسن ابن مسلم ، عن سعيد بن جبیر فی : ﴿ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ ، قال : تلوم على الخير والشر .

ثم رواه من وجه آخر عن سعيد أنه سأل ابن عباس عن ذلك : فقال : هي النفس اللّوؤم ^(٢) .

وقال ابن أبي نَجِيج ، عن مجاهد : تندم على ما فات وتلوم عليه .

وقال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : اللوامة : المذمومة .

وقال قتادة : ﴿ اللَّوَّامَةُ ﴾ : الفاجرة .

قال ابن جرير : وكل هذه الأقوال متقاربة بالمعنى ، والأشبه بظاهر التنزيل أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر ، وتندم على ما فات .

وقوله : ﴿ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ أى : يوم القيامة ، أيطن أنا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة ؟ ﴿ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ ، قال سعيد بن جبیر والعوفى ، عن ابن عباس : أن نجعله ^(٣) خُفًّا أو حافراً . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقاتدة ، والضحاك ، وابن جرير . ووجه ابن جرير بأنه تعالى لو شاء لجعل ذلك فى الدنيا .

والظاهر من الآية أن قوله : ﴿ قَادِرِينَ ﴾ ، حال من قوله : ﴿ نَجْمَعَ ﴾ أى : أيطن الإنسان أنا لا نجمع عظامه ؟ بل سنجمعها قادرين على أن نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ، أى : قدرتنا صالحة لجمعها ، ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان ، فنجعل بَنَانَهُ — وهى أطراف أصابعه — مستوية . وهذا معنى قول ابن قتبية ، والزجاج .

وقوله : ﴿ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ ، قال سعيد ، عن ابن عباس : يعنى يمضى قدما .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ يعنى : الأمل ، يقول الإنسان : أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة ، ويقال : هو الكفر بالحق بين يدي القيامة .

وقال مجاهد : ﴿ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ : يمضى أمامه راكباً رأسه . وقال الحسن : لا يلقى ابن آدم إلا تنزع نفسه إلى معصية الله قُدماً قُدماً ، إلا من عصمه الله .

وروى عن عكرمة ، وسعيد بن جبیر ، والضحاك ، والسدى ، وغير واحد من السلف : هو الذى يَعَجِّلُ الذُّنُوبَ وَيُسَوِّفُ التَّوْبَةَ .

وقال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : هو الكافر يكذب بيوم الحساب . وكذا قال ابن زيد ، وهذا هو الأظهر من المراد ؛ ولهذا قال بعده : ﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ ؟ أى : يقول متى يكون يوم

(١ ، ٢) تفسير الطبرى (٢٩/١٠٩) .

(٣) فى أ: « أن نحوله » .

القيامة ؟ وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه ، وتكذيب لوجوده ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [سبا: ٢٩، ٣٠] .

وقال تعالى هاهنا : ﴿ فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ ﴾ ، قال أبو عمرو بن العلاء : ﴿ بَرَقَ ﴾ بكسر الراء ، أى : حار . وهذا الذى قاله شبيهه بقوله تعالى : ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤٣] ، بل ينظرون من الفزع هكذا وهكذا ، لا يستقر لهم بصر على شىء ؛ من شدة الرعب .

وقرأ آخرون : « بَرَقَ » بالفتح ، وهو قريب فى المعنى من الأول . والمقصود أن الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخضع وتحار وتذل من شدة الأهوال ، ومن عظم ما تشاهده يوم القيامة من الأمور .

وقوله : ﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ أى : ذهب ضوؤه ، ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ ، قال مجاهد : كُورًا . وقرأ ابن زيد عند تفسير هذه الآية : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ [التكوير: ١، ٢] وروى عن ابن مسعود أنه قرأ : « وَجُمِعَ بين الشمس والقمر » .

وقوله : ﴿ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُ ﴾ أى : إذا عاين ابن آدم هذه الأهوال يوم القيامة ، حيثئذ يريد أن يفر ويقول : أين المفر ؟ أى : هل من ملجأ أو موئل ؟ قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ . إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ . قال ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وغير واحد من السلف : أى لا نجاة .

وهذه كقوله : ﴿ مَا لَكُمْ مِّنْ مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَّكِيرٍ ﴾ [الشورى: ٤٧] أى : ليس لكم مكان تتنكرون فيه ، وكذا قال هاهنا : ﴿ لَا وَزَرَ ﴾ أى : ليس لكم مكان تعتصمون فيه ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ أى : المرجع والمصير .

ثم قال تعالى : ﴿ يُنَبِّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ أى : يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها ، أولها وآخرها ، صغيرها وكبيرها ، كما قال تعالى : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩] . وهكذا قال هاهنا : ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ أى : هو شهيد على نفسه ، عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَىٰ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤] .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ يقول : سمعُه وبصرُه ويداه ورجلاه وجوارحه .

وقال قتادة : شاهد على نفسه . وفى رواية قال : إذا شئت - والله - رأيته بصيرا بعيوب الناس وذنوبهم غافلا عن ذنوبه ، وكان يقال : إن فى الإنجيل مكتوبا : يا ابن آدم ، تُبصر القذاة فى عين أخيك ، وتترك الجذل^(١) فى عينك لا تبصره .

(١) فى م: « وتترك الجذع » .

وقال مجاهد : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ : ولو جادل عنها فهو بصير عليها . وقال قتادة : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ : ولو اعتذر يومئذ بباطل لا يقبل منه . وقال السدي : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ : حجته . وكذا قال ابن زيد ، والحسن البصري ، وغيرهم . واختاره ابن جرير .

وقال قتادة ، عن زرارة ، عن ابن عباس : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ ، يقول : لو ألقى ثيابه . وقال الضحاك : ولو أرخى ستوره ، وأهل اليمن يسمون الستر : المذار .

والصحيح قول مجاهد وأصحابه ، كقوله : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣] ، وكقوله : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [المجادلة: ١٨] .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ هي الاعتذار^(١) ، ألم تسمع أنه قال : ﴿ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ ﴾ [غافر: ٥٢] ، وقال : ﴿ وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ ﴾ [النحل: ٨٧] ، ﴿ فَأَلْقُوا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ﴾ [النحل: ٢٨] ، وقولهم : ﴿ وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ .

﴿ لَا تَحْرَكَ بِهِ لِسَانُكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) .

هذا تعليم من الله عز وجل لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك ، فإنه كان يبادر إلى أخذه ، ويسابق الملك في قراءته ، فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له ، وتكفل له أن يجمعه في صدره ، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه ، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه . فالحالة (٢) الأولى جمعه في صدره ، والثانية تلاوته ، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه ؛ ولهذا قال : ﴿ لَا تَحْرَكَ بِهِ لِسَانُكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ أي : بالقرآن ، كما قال : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤] .

ثم قال : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ أي : في صدرك ، ﴿ وَقُرْآنَهُ ﴾ أي : أن تقرأه ، ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ ﴾ أي : إذا تلاه عليك الملك عن الله عز وجل ، ﴿ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ أي : فاستمع له ، ثم اقرأه كما أقرأك ، ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ أي : بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه ، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، عن أبي عوانة ، عن موسى بن أبي عائشة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، فكان يحرك شفثيه — قال : فقال لي ابن عباس : أنا أحرك شفثي^(٣) كما كان رسول الله ﷺ يحرك شفثيه . وقال

(٣) في أ : « أنا أحركهما » .

(٢) في م : « فالحال » .

(١) في أ : « هي الاعتذار » .

لى سعيد : وأنا أحرك شفتى كما رأيت ابن عباس يحرك شفتيه — فأنزل الله عز وجل : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ ، قال : جمعه فى صدرك ، ثم تقرأه ، ﴿ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ : فاستمع له وأنصت ، ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ . فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل قرأه كما أقرأه (١) .

وقد رواه البخارى ومسلم ، من غير وجه ، عن موسى بن أبى عائشة ، به (٢) . ولفظ البخارى : فكان إذا أتاه جبريل أطرق ، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عز وجل (٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو يحيى التيمى ، حدثنا موسى بن أبى عائشة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يلقي منه شدة ، وكان إذا نزل عليه عرف فى تحريكه شفتيه ، يتلقى أوله ويحرك شفتيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره ، فأنزل الله : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ .

وهكذا قال الشعبى ، والحسن البصرى ، وقتادة ، ومجاهد ، والضحاك ، وغير واحد : إن هذه الآية نزلت فى ذلك .

وقد روى ابن جرير من طريق العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ قال : كان لا يفتر من القراءة مخافة أن ينساه ، فقال الله : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَجْمَعَهُ لَكَ ﴾ وَقُرْآنَهُ : أن نقرئك فلا تنسى .

وقال ابن عباس وعطية العوفى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ : تبين حلاله وحرامه . وكذا قال قتادة .

وقوله : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ . وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴾ أى : إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفة ما أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ من الوحي الحق والقرآن العظيم : أنهم إنما همتهم إلى الدار الدنيا العاجلة ، وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴾ ، من النصارة ، أى حسنة بهيئة مشرقة مسرورة ، ﴿ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ أى : تراه عيانا ، كما رواه البخارى ، رحمه الله ، فى صحيحه : « إنكم سترون ربكم عيانا » (٤) . وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل فى الدار الآخرة فى الأحاديث الصحاح ، من طرق متواترة عند أئمة الحديث ، لا يمكن دفعها ولا منعها ؛ لحديث أبى سعيد وأبى هريرة — وما فى الصحيحين — : أن ناسا قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : « هل تَصَارُونَ فى رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سَحَاب ؟ » قالوا : لا . قال : « فإنكم تَرَوْنَ ربكم كذلك » (٥) . وفى الصحيحين عن جرير قال : نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال : « إنكم تَرَوْنَ ربكم كما تَرَوْنَ هذا القمر ، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل

(١) المسند (١/٣٤٣) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٩٢٧، ٤٩٢٨) ، وصحيح مسلم برقم (٤٤٨) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٢٩) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٥٤، ٥٧٣، ٤٨٥) من حديث جرير رضى الله عنه .

(٥) صحيح البخارى برقم (٧٤٣٧، ٧٤٣٨) ، وصحيح مسلم برقم (١٨٢) .

غروبها فافعلوا» ^(١) . وفى الصحيحين عن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ : « جَتَّان من ذهب آتيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آتيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » ^(٢) . وفى أفراد مسلم ، عن صهيب ، عن النبى ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة» قال : « يقول الله تعالى : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ » قال : « فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم ، وهى الزيادة » . ثم تلا هذه الآية : ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] ^(٣) .

وفى أفراد مسلم ، عن جابر فى حديثه : « إن الله يَتَجَلَّى للمؤمنين يضحك » ^(٤) — يعنى فى عرصات القيامة — ففى هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون ^(٥) إلى ربهم عز وجل فى العرصات ، وفى روضات الجنات .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا عبد الملك بن أبجر ، حدثنا ثوير ^(٦) بن أبى فاختة ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر فى ملكه ألفى سنة ، يرى أقصاه كما يرى أدناه ، ينظر إلى أزواجه وخدمه . وإن أفضلهم منزلة لينظر فى وجه الله كل يوم مرتين » ^(٧) .

ورواه الترمذى عن عبد بن حميد ، عن شبابة ، عن إسرائيل ، عن ثوير قال : « سمعت ابن عمر . . . » فذكره ، قال : « ورواه عبد الملك بن أبجر ، عن ثوير ، عن مجاهد ، عن ابن عمر ، قوله » . وكذلك رواه الثورى ، عن ثوير ، عن مجاهد ، عن ابن عمر ، ولم يرفعه ^(٨) . ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن ، ولكن ذكرنا ذلك مفرقاً فى مواضع من هذا التفسير ، وبالله التوفيق ^(٩) . وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة ، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام . وهذاة الأنام .

ومن تأول ذلك بأن المراد بـ ﴿إِلَى﴾ مفرد الآلاء ، وهى النعم ، كما قال الثورى ، عن منصور ، عن مجاهد : ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ ، فقال تنتظر الثواب من ربها . رواه ابن جرير من غير وجه عن مجاهد . وكذا قال أبو صالح أيضاً — فقد أبعد هذا القائل ^(١٠) النجعة ، وأبطل فيما ذهب إليه . وأين هو من قوله تعالى : ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ ؟ [المطففين: ١٥] ، قال الشافعى ، رحمه الله : ما حَجَبَ الفجار إلا وقد عَلمَ أن الأبرار يرونه عز وجل . ثم قد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ بما دل عليه سياق الآية الكريمة ، وهى قوله: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ . قال ابن جرير :

(١) صحيح البخارى برقم (٧٤٣٤ ، ٧٤٣٦) ، وصحيح مسلم برقم (٦٣٣) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٧٤٤٤) ، وصحيح مسلم برقم (١٨٠) .

(٣) صحيح مسلم برقم (١٨١) .

(٤) صحيح مسلم برقم (١٩١) .

(٥) فى م ، أ : « حدثنا يزيد » .

(٦) فى م ، أ : « حدثنا يزيد » .

(٧) المسند (١٣/٢) .

(٨) سنن الترمذى برقم (٣٣٣٠) .

(٩) وانظر : كتاب النهاية فى الفتن والملاحم للحافظ ابن كثير (٢/ ٣٠٠) فقد أطال فى ذكر أحاديث الرؤية .

(١٠) فى م : « الناظر » .

حدثنا محمد بن إسماعيل البخارى، حدثنا آدم، حدثنا المبارك، عن الحسن: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ قال: حسنة، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، قال: تنظر إلى الخالق، وحق لها أن تنظر وهى تنظر إلى الخالق (١).

وقوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ. تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾: هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة باسرة. قال قتادة: كالحلة. وقال السدى: تغير ألوانها. وقال ابن زيد: ﴿بَاسِرَةٌ﴾ أى: عابسة.

﴿تَظُنُّ﴾ أى: تستيقن، ﴿أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾، قال مجاهد: داهية. وقال قتادة: شر. وقال السدى: تستيقن أنها هالكة. وقال ابن زيد: تظن أن ستدخل النار.

وهذا المقام كقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وكقوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ. ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ. وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَیْرَةٌ. تَرَهَقَهَا فَتْرَةٌ. أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٣٨-٤٢]، وكقوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ. عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ. تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾، إلى قوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ. لِّسَعِيهَا رَاضِيَةٌ. فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٢- ١٠]، فى أشباه ذلك من الآيات والسياقات.

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالتَّفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٥) أَيْحَسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نَظْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَلَخَلَ فُسُوًى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠).

يخبر تعالى عن حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال - ثبتنا الله هناك بالقول الثابت - فقال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾، إن جعلنا ﴿كَلَّا﴾ رادعة فمعناها: لست يا ابن آدم تكذب هناك بما أخبرت به، بل صار ذلك عندك عيانا. وإن جعلناها بمعنى (حقا) فظاهر، أى: حقا إذا بلغت التراقي، أى: انتزعت روحك من جسدك وبلغت تراقيك، والتراقي: جمع ترقوة، وهى العظام التى بين ثغرة النحر والعاتق، كقوله: ﴿فَلَوْلَا (٢) إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ. وَأَنْتُمْ حِينُذْ تَنْظُرُونَ. وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ. فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ. تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٣- ٨٧]. وهكذا قال هاهنا: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾، ويذكر هاهنا حديث بسر بن جحاش الذى تقدم فى سورة «يس» (٣). والتراقي: جمع ترقوة، وهى قريبة من الحلقوم.

(١) تفسير الطبرى (١١٩/٢٩).

(٢) فى أ: «كلا» وهو خطأ.

(٣) حديث بسر بن جحاش، رواه الإمام أحمد فى المسند (٤/ ٣١٠) من طريق جبير بن نفير، عن بسر بن جحاش: أن رسول الله ﷺ بصق يوماً فى كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال: «قال الله تعالى: ابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك، مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق وأنى أوان الصدقة؟!» وقد سبق عند تفسير الآية: ٧٧ من سورة يس.

﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ قال : عكرمة ، عن ابن عباس : أى من راق يرقى ؟ وكذا قال أبو قلابة :
﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ أى : من طبيب شاف . وكذا قال قتادة ، والضحاك ، وابن زيد .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا نصر بن على ، حدثنا روح بن المسيب أبو رجاء
الكلبي ، حدثنا عمرو بن مالك ، عن أبى الجوزاء ، عن ابن عباس : ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ قال : قيل :
من يرقى بروحه : ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ فعلى هذا يكون من كلام الملائكة .

وبهذا الإسناد ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَالتَّتِى السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ قال : التفت عليه الدنيا
والآخرة . وكذا قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَالتَّتِى السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ ، يقول :
آخر يوم من أيام الدنيا ، وأول يوم من أيام الآخرة ، فتلتقى الشدة بالشدة إلا من رحم الله .

وقال عكرمة : ﴿ وَالتَّتِى السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ : الأمر العظيم بالأمر العظيم . وقال مجاهد : بلاء
ببلاء . وقال الحسن البصرى فى قوله : ﴿ وَالتَّتِى السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ ، هما ساقاك إذا التفتا ^(١) . وفى
رواية عنه : ماتت رجلاه فلم تحمله ، وقد كان عليهما جوالا . وكذا قال السدى ، عن أبى مالك .

وفى رواية عن الحسن : هو لفهما فى الكفن .

وقال الضحاك : ﴿ وَالتَّتِى السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ : اجتمع عليه أمران : الناس يجهزون جسده ،
والملائكة يجهزون روحه .

وقوله : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ أى : المرجع والمآب ، وذلك أن الروح ترفع إلى السموات ،
فيقول الله عز وجل : ردوا عبادى إلى الأرض ، فإنى خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم
تارة أخرى . كما ورد فى حديث البراء الطويل . وقد قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ
وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ . ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ
الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢] .

وقوله : ﴿ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى . وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ : هذا إخبار عن الكافر الذى كان فى الدار
الدنيا مكذبا للحق بقلبه ، متوليا عن العمل بقلبه ، فلا خير فيه باطنا ولا ظاهرا ، ولهذا قال : ﴿ فَلَا
صَدَقَ وَلَا صَلَّى . وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى . ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمْتَطِي ﴾ أى : جدلا ^(٢) أشرا بطرا كسلانا ، لا
همة له ولا عمل ، كما قال : ﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ [المطففين: ٣٤] ، وقال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ
فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا . إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَحُورَ ﴾ أى : يرجع ، ﴿ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ [الانشقاق: ١٣- ١٥] .

وقال الضحاك : عن ابن عباس : ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمْتَطِي ﴾ [أى] ^(٣) : يختال . وقال قتادة ،
وزيد بن أسلم : يتبختر .

قال الله تعالى : ﴿ أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ . ثُمَّ أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ ﴾ ، وهذا تهديد ووعيد أكيد منه تعالى
للكافر به المتبختر فى مشيته ، أى : يحق لك أن تمشى هكذا وقد كفرت بخالقك وبارئك ، كما يقال

(١) فى أ : « إذا التقيا » .

(٢) فى م : « أى جزلان » .

(٣) زيادة من م .

فى مثل هذا على سبيل التهكم والتهديد كقوله : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٩] ، وكقوله : ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُعْجِرُونَ ﴾ [المرسلات: ٤٦] ، وكقوله : ﴿ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ [الزمر: ١٥] ، وكقوله : ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصلت: ٤٠] . إلى غير ذلك .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطى ، حدثنا عبد الرحمن — يعنى ابن مهدى — عن إسرائيل ، عن موسى بن أبى عائشة قال : سألت سعيد بن جبير قلت : ﴿ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى . ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى . ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ؟ ﴾ قال : قال النبي ﷺ لأبى جهل ، ثم نزل به القرآن .

وقال أبو عبد الرحمن النسائي : حدثنا إبراهيم بن يعقوب ^(١) ، حدثنا أبو النعمان ، حدثنا أبو عوانة — (ح) وحدثنا أبو داود : حدثنا محمد بن سليمان ^(٢) ، حدثنا أبو عوانة — عن موسى بن أبى عائشة ، عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : ﴿ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى . ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ؟ ﴾ قال : قاله رسول الله ﷺ ^(٣) ثم أنزله الله عز وجل ^(٤) .

قال ابن أبى حاتم : وحدثنا أبى ، حدثنا هشام بن خالد ، حدثنا شعيب بن إسحاق ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله : ﴿ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى . ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴾ : وعيد على أثر وعيد ، كما تسمعون ، وزعموا أن عدو الله أبا جهل أخذ نبي الله بمجامع ثيابه ، ثم قال : « أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى » . فقال عدو الله أبو جهل : أتوعدنى يا محمد ؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئا ، وإنى لأعز من مشى بين جبلتيها .

وقوله : ﴿ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتْرَكَ سُدًى ﴾ قال السدى : يعنى : لا يبعث .

وقال مجاهد ، والشافعى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى لا يؤمر ولا ينهى .

والظاهر أن الآية تعم الحالين ، أى : ليس يترك فى هذه الدنيا مهملا لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك فى قبره سدى لا يبعث ، بل هو مأمور منهى فى الدنيا ، محشور إلى الله فى الدار الآخرة . والمقصود هنا إثبات المعاد ، والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد ^(٥) ، ولهذا قال مستدلا على الإعادة بالبداء فقال : ﴿ أَلَمْ يَكْ نُطْفَئْ مِنْ مَنِيِّ يُمْنِي ﴾ ؟ أى : أما كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين ، يمنى يراق من الأصلاب فى الأرحام . ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴾ أى : فصار علقة ، ثم مضغة ، ثم شكّل ونفخ فيه الروح ، فصار خلقا آخر سويا سليم الأعضاء ، ذكرا أو أنثى بإذن الله وتقديره ؛ ولهذا قال : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ .

ثم قال : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ أى : أما هذا الذى أنشأ هذا الخلق السوى من هذه النطفة الضعيفة بقادر على أن يعيده كما بدأه ؟ وتناول القدرة للإعادة إما بطريق الأولي بالنسبة إلى البداء ، وإما مساوية على القولين فى قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ ﴾

(١) فى م ، أ ، هـ : يعقوب بن إبراهيم « والمثبت من سنن النسائي الكبرى (١١٦٣٨) .

(٢) فى م : « عن ابن سليمان » . (٣) فى م : « قاله رسول الله ﷺ لأبى جهل » .

(٤) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٣٨) .

(٥) فى أ : « والفساد » .

عَلَيْهِ [الروم: ٢٧] . والأول أشهر كما تقدم فى سورة « الروم » بيانه وتقريره ، والله أعلم .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا شعبة ، عن شعبة ، عن موسى ابن أبى عائشة ، عن آخر : أنه كان فوق سطح يقرأ ويرفع صوته بالقرآن ، فإذا قرأ : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ ؟ قال : سبحانك اللهم فبلى . فسل عن ذلك فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك . وقال أبو داود ، رحمه الله : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن موسى بن أبى عائشة قال : كان رجل يصلى فوق بيته ، فكان إذا قرأ : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ ؟ قال^(١) : سبحانك ، فبلى ، فسألوه عن ذلك فقال : سمعته من رسول الله ﷺ .

تفرد به أبو داود^(٢) ، ولم يسم هذا الصحابى ، ولا يضر ذلك .

وقال أبو داود أيضا : حدثنا عبد الله بن محمد الزهرى ، حدثنا سفيان ، حدثنى إسماعيل بن أمية : سمعت أعرابيا يقول : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ منكم باليتين والزيتون فانتهى إلى آخرها : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ ؟ فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين . ومن قرأ : ﴿ لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ فانتهى إلى : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ ؟ فليقل : بلى . ومن قرأ : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ ﴾ فبلغ : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ ؟ فليقل : آمنا بالله .

ورواه أحمد ، عن سفيان بن عيينة . ورواه الترمذى عن ابن أبى عمر ، عن سفيان بن عيينة^(٣) . وقد رواه شعبة ، عن إسماعيل بن أمية قال : قلت له : من حدثك ؟ قال رجل صدق ، عن أبى هريرة^(٤) .

وقال ابن جرير : حدثنا بشر ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا قَرَأَهَا قَالَ : « سُبْحَانَكَ وَبِلَى »^(٥) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطى ، حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، حدثنا سفيان ، عن أبى إسحاق ، عن مسلم البطين ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس أنه مر بهذه الآية : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ ؟ ، قال : سبحانك ؛ فبلى .

آخر تفسير سورة « القيامة » ولله الحمد والمنة

(١) فى م : « فقال » .

(٢) سنن أبى داود برقم (٨٨٤) ، ومن طريقه البيهقى فى السنن الكبرى (٣١٠ / ٢) .

(٣) سنن أبى داود برقم (٨٨٧) ، والمسند (٢٤٩ / ٢) ، وسنن الترمذى برقم (٣٣٤٧) . وقد جاء تسمية هذا الأعرابى فى رواية الحاكم ،

فرواه فى المستدرک (٥١٠ / ٢) من طريق يزيد بن عياض ، عن إسماعيل بن أمية ، عن أبى اليسع ، عن أبى هريرة بنحوه وقال :

« هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » . قلت : يزيد بن عياض كذاب .

(٤) انظر : تحفة الأشراف للمزى (١٠٥ / ١١) ، وقد ذكر له متابعات أخرى .

(٥) تفسير الطبرى (١٢٥ / ٢٩) .

تفسير سورة الإنسان

وهي مكية .

قد تقدم في صحيح مسلم ، عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿ اَلَمْ . تَنْزِيل ﴾ السجدة ، و ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ ﴾ (١) .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرنا ابن زيد : أن رسول الله ﷺ قرأ هذه السورة : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِّنَ الدَّهْرِ ﴾ ، وقد أنزلت عليه وعنده رجل أسود ، فلما بلغ صفة الجنان ، زفر زفرة فخرجت نفسه . فقال رسول الله ﷺ : « أخرج نفس (٢) صاحبكم - أو قال : أخيكم - الشوق إلى الجنة » . مرسل غريب (٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝ (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝ (٣) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر (٤) ، لحقارته وضعفه ، فقال : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ ؟

ثم بين ذلك فقال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ أى : أخلط . والمشج والمشيح : الشيء الخليط (٥) ، بعضه فى بعض .

قال ابن عباس فى قوله : ﴿ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ يعنى : ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا ، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور ، وحال إلى حال ، ولون إلى لون . وهكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والحسن ، والربيع بن أنس : الأمشاج : هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة .

(١) تقدم حديث أبى هريرة عند تفسير أول سورة السجدة وخرجناه هناك ، أما حديث ابن عباس فلم يتقدم ، وهو فى صحيح مسلم برقم (٨٧٩) .

(٢) فى أ : « روح » .

(٣) وقد جاء موصولاً ، فرواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٧٧٤) « مجمع البحرين » من طريق عفيف بن سالم ، عن أيوب بن عتبة ، عن عطاء ، عن ابن عمر : أن رجلاً من الحبشة ، فذكر قصة طويلة وفيها : أن نزلت هذه السورة وهو عند الرسول فقال : يا رسول الله ، هل ترى عيني فى الجنة مثل ما ترى عينك ؟ فقال النبى : « نعم » فبكى الحبشى حتى فاضت نفسه . وقال الطبرانى : « لا يروى عن ابن عمر إلا بهذا الإسناد ، تفرد به عفيف » . وسيأتى الحديث عند آخر السورة من رواية الطبرانى .

(٤) فى أ : « مذكوراً » . (٥) فى م : « المختلط » .

وقوله : ﴿ نَبِّئْهُمْ ﴾ أى : نخبه ، كقوله : ﴿ لِيَلْبِسَكُمْ أَكْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢] .
﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ أى : جعلناه سمعاً وبصراً يتمكن بهما من الطاعة والمعصية .

وقوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ أى : بيناه له ووضحناه وبصرناه به ، كقوله : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [فصلت: ١٧] ، وكقوله : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠] ،
أى : بينا له طريق الخير وطريق الشر . وهذا قول عكرمة ، وعطية ، وابن زيد ، ومجاهد - فى المشهور عنه - والجمهور .

وروى عن مجاهد ، وأبى صالح ، والضحاك ، والسدى أنهم قالوا فى قوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ : يعنى خروجه من الرحم . وهذا قول غريب ، والصحيح المشهور الأول .

وقوله : ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ : منصوب على الحال من « الهاء » فى قوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ تقديره : فهو فى ذلك إما شقى وإما سعيد ، كما جاء فى الحديث الذى رواه مسلم ، عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « كل الناس يَغْدُو ، فبائع نفسه فموبقها أو مُعْتَقَهَا » (١) .
وتقدم فى سورة « الروم » عند قوله : ﴿ فَطَرَتَ اللَّهُ التِّي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠] ، من رواية جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يُعْرَبَ عنه لسانه ، فإذا أعرب عنه لسانه ، فإما شاكراً وإما كفوراً » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو عامر ، حدثنا عبد الله بن جعفر ، عن عثمان بن محمد ، عن المقبرى ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « ما من خارج يخرج إلا ببابه رايتان : راية بيد ملك ، وراية بيد شيطان ، فإن خرج لما يُحِبُّ الله أتبعه الملك برايته ، فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته . وإن خرج لما يُسَخِطُ الله أتبعه الشيطان برايته ، فلم يزل تحت راية الشيطان ، حتى يرجع إلى بيته » (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن ابن خثيم ، عن عبد الرحمن بن سابط ، عن جابر بن عبد الله : أن النبى ﷺ قال لكعب بن عُجْرَةَ : « أعاذك الله من إمارة السفهاء » .
قال : وما إمارة السفهاء ؟ قال : « أمراء يكونون من بعدى ، لا يهتدون بهداى ، ولا يستنون بسنتى ، فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم ، فأولئك ليسوا منى ولست منهم ، ولا يردون على حوضى . ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم ، فأولئك منى وأنا منهم ، وسيردون على حوضى . يا كعب بن عُجْرَةَ ، الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، والصلاة قربان - أو قال : برهان . يا كعب بن عُجْرَةَ ، إنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت ، النار أولى به . يا كعب ، الناس غاديان ، فمبتاع نفسه فمعتقها ، وبائع نفسه فموبقها » .

ورواه عن عَفَّان ، عن وَهَّاب (٣) ، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم ، به (٤) .

(١) صحيح مسلم برقم (٢٢٣) .

(٢) المسند (٢ / ٣٢٣) .

(٣) فى ١ : « عن وهب » .

(٤) المسند (٣ / ٣٢١) .

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴾ (٤) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالْإِذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لُوجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ .

يخبر تعالى عما أُرصد له للكافرين من خلقه به من السلاسل والأغلال والسعير ، وهو اللهب والحريق في نار جهنم ، كما قال : ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ . فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧١ ، ٧٢] .

ولما ذكر ما أعده ^(١) لهؤلاء الأشقياء من السعير قال بعده : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ ، وقد علم ما في الكافور من التبريد والرائحة الطيبة ، مع ما يضاف إلى ذلك من اللذذة في الجنة .

قال الحسن : برد الكافور في طيب الزنجبيل ؛ ولهذا قال : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أى : هذا الذى مُزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفاً بلا مزج ويروون بها ؛ ولهذا ضمن يشرب « يروى » حتى عداه بالباء ، ونصب ﴿ عَيْنًا ﴾ على التمييز .

قال بعضهم : هذا الشراب ^(٢) في طيبه كالكافور . وقال بعضهم : هو من عين كافور . وقال بعضهم : يجوز أن يكون منصوباً بـ ﴿ يَشْرَبُ ﴾ . حكى هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير .

وقوله : ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أى : يتصرفون فيها حيث شاؤوا وأين شاؤوا ، من قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم .

والتفجير هو الإنباع ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ [الإسراء: ٩٠] . وقال : ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴾ [الكهف: ٣٣] .

قال مجاهد : ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ : يقودونها حيث شاؤوا ، وكذا قال عكرمة ، وقتادة . وقال الثوري : يصرفونها حيث شاؤوا .

وقوله : ﴿ يُوفُونَ بِالْإِذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ أى : يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من [فعل] ^(٣) الطاعات الواجبة بأصل الشرع ، وما أوجبه على أنفسهم بطريق النذر .

(٣) زيادة من م ، أ .

(٢) فى م : « الطعام » .

(١) فى أ : « أعده الله » .

قال الإمام مالك ، عن طلحة بن عبد الملك الأيلي ، عن القاسم بن مالك ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » ، رواه البخارى من حديث مالك ^(١) .

ويتركون المحرمات التى نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد ، وهو اليوم الذى شره مستطير ، أى : منتشر عام على الناس إلا من رحم الله .

قال ابن عباس : فاشياً . وقال قتادة : استطار - والله - شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض .

قال ابن جرير : ومنه قولهم : استطار الصدع فى الزجاج واستطال . ومنه قول الأعشى :

فَبَآتَتْ وَقَدَ أَسَارَتْ فِي الْفُؤَا دَ صَدْعًا ، عَلَى نَآيِهَا ، مُسْتَطِيرًا ^(٢)

يعنى : ممتدا فاشياً .

وقوله : ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ : قيل : على حب الله تعالى . وجعلوا الضمير عائداً إلى الله عز وجل لدلالة السياق عليه . والأظهر أن الضمير عائد على الطعام ، أى : ويطعمون الطعام فى حال محبتهم وشهوتهم له ، قاله مجاهد ، ومقاتل ، واختاره ابن جرير ، كقوله تعالى : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ [البقرة: ١٧٧] ، وكقوله تعالى : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢] .

وروى البيهقى ، من طريق الأعمش ، عن نافع قال : مرض ابن عمر فاشتبهى عنباً - أول ما جاء العنب - فأرسلت صفيه - يعنى امرأته - فاشتريت عنقوداً بدرهم ، فاتبع الرسول السائل ، فلما دخل به قال السائل : السائل . فقال ابن عمر : أعطوه إياه . فأعطوه إياه . ثم أرسلت بدرهم آخر فاشتريت عنقوداً فاتبع الرسول السائل ، فلما دخل قال السائل : السائل . فقال ابن عمر : أعطوه إياه . فأعطوه إياه . فأرسلت صفيه إلى السائل فقالت : والله إن عدت لا تصيب منه خيراً أبداً . ثم أرسلت بدرهم آخر فاشتريت به ^(٣) .

وفى الصحيح : « أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح ، شحيح ، تأمل الغنى ، وتخشى الفقر » ^(٤) ، أى : فى حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ . أما المسكين واليتيم ، فقد تقدم بيانهما وصفتهما . وأما الأسير : فقال سعيد بن جبير ، والحسن ، والضحاك : الأسير : من أهل القبله . وقال ابن عباس : كان أسراؤهم يومئذ مشركين . ويشهد لهذا أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى ، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء ، وهكذا قال سعيد بن جبير ، وعطاء ، والحسن ، وقاتدة .

(١) صحيح البخارى برقم (٦٦٩٦ ، ٦٧٠٠) .

(٢) تفسير الطبرى (١٢٩/٢٩) .

(٣) السنن الكبرى للبيهقى (١٨٥/٤) .

(٤) صحيح مسلم برقم (١٠٣٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وقد وصى رسول الله ﷺ بالإحسان إلى الأرقاء في غير ما حديث ، حتى إنه كان آخر ما أوصى أن جعل يقول : « الصلاة وما ملكت أيمانكم » (١) .

وقال عكرمة : هم العبيد - واختاره ابن جرير - لعموم الآية للمسلم والمشرک .

وقال مجاهد : هو المحبوس ، أى : يطعمون لهؤلاء الطعام وهم يشتهونه ويحبونه ، قائلين بلسان الحال : ﴿ إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ﴾ أى : رجاء ثواب الله ورضاه ، ﴿ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ أى : لا نطلب منكم مجازاة تكافئونا بها ولا أن تشكرونا عند الناس .

قال مجاهد وسعيد بن جبیر : أما والله ما قالوه بألستهم ، ولكن علم الله به من قلوبهم ، فأننى عليهم به ليرغب فى ذلك راغب .

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ أى : إنما نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه ، فى اليوم العبوس القمطير .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ عَبُوسًا ﴾ : ضيقا ، ﴿ قَمْطَرِيرًا ﴾ : طويلا .

وقال عكرمة وغيره ، عنه ، فى قوله : ﴿ يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ أى : يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران .

وقال مجاهد : ﴿ عَبُوسًا ﴾ : العابس الشفتين ، ﴿ قَمْطَرِيرًا ﴾ قال : تقيض الوجه بالبُسور .

وقال سعيد بن جبیر ، وقتادة : تعبس فيه الوجوه من الهول ، ﴿ قَمْطَرِيرًا ﴾ : تقليص الجبين وما بين العينين ، من الهول .

وقال ابن زيد : العبوس : الشر . والقمطير : الشديد .

وأوضح العبارات وأجلاها وأحلاها ، وأعلاها وأولاها - قول ابن عباس ، رضى الله عنه .

قال ابن جرير : والقمطير هو : الشديد ؛ يقال : هو يوم قمطير ويوم قُمَاطِرٍ ، ويوم عَصِيبٍ وعَصْبَصَبٍ ، وقد اقمطر اليوم يقمطر اقمطارا ، وذلك أشد الأيام وأطولها فى البلاء والشدة ، ومنه قول بعضهم :

بَنَى عَمَّنَا ، هَلْ تَذْكُرُونَ بَلَاءَنَا ؟
عَلَيْكُمْ إِذَا مَا كَانَ يَوْمٌ قُمَاطِرُ (٢)

قال الله تعالى : ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ ، وهذا من باب التجانس البليغ ، ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ﴾ أى : آمنهم مما خافوا منه ، ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً ﴾ أى : فى وجوههم ، ﴿ وَسُرُورًا ﴾ أى : فى قلوبهم . قاله الحسن البصرى ، وقتادة ، وأبو العالية ، والربيع ابن أنس . وهذه كقوله تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ [عبس: ٣٨ ، ٣٩] . وذلك أن القلب إذا سرَّ استنار الوجه ، قال كعب بن مالك فى حديثه الطويل : وكان رسول الله ﷺ

(١) رواه أحمد فى المسند (٧٨/١) من حديث على رضى الله عنه .

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (١٣١/٢٩) غير منسوب .

إذا سُرَّ ، استنار وجهه حتى كأنه قطعة (١) قَمَر (٢) . وقالت عائشة : دخل على رسول الله ﷺ مسرورا تبرق أسارير وجهه (٣) . الحديث .

وقوله : ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى : بسبب صبرهم أعطاهم ونولهم وبوأهم ﴿ جَنَّةٌ وَحَرِيرًا ﴾ أى : منزلا رحبا ، وعيشا رغداً (٤) ، ولباساً حسناً .

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة هشام بن سليمان الداراني قال : قرئ على أبى سليمان الداراني سورة : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ ﴾ ، فلما بلغ القارئ إلى قوله : ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ ، قال بما صبروا على ترك الشهوات فى الدنيا ، ثم أنشد :

كَمْ قَتِيلَ بِشَهْوَةٍ وَأَسِيرَ أَفْ مِنْ مُشْتَهَى خِلَافِ الْجَمِيلِ
شَهَوَاتُ الْإِنْسَانِ تَوْرَثُهُ الذُّلُّ وَتُثْلِقِيهِ فِي الْبَلَاءِ الطَّوِيلِ (٥)

﴿ مُتَكِينٍ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (١٥) قَوَارِيرَ مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (١٨) وَيُطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِّنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَّشْكُورًا (٢٢) .

يخبر تعالى عن أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم ، وما أسبغ عليهم من الفضل العَمِيم فقال : ﴿ مُتَكِينٍ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ . وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة « الصافات » ، وذكر الخلاف فى الاتكاء : هل هو الاضطجاع ، أو التمرق ، أو التربع ، أو التمكن فى الجلوس ؟ وأن الأرائك هى السرر تحت الحجال .

وقوله : ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ أى : ليس عندهم حرٌّ مزعج ، ولا برد مؤلم ، بل هى مزاج واحد دائم سَرْمَدِيٍّ ، ﴿ لَا يَغْوَنَ عَنْهَا حَوْلًا ﴾ [الكهف: ١٠٨] .

(١) فى م : « كأنه فلقة » .

(٢) حديث توبة كعب بن مالك فى صحيح البخارى برقم (٣٩٥١، ٤٦٧٣) ، وفى صحيح مسلم برقم (٢٧٦٩) ، وتقدم عند تفسير الآية : ١١٨ من سورة « التوبة » .

(٣) حديث عائشة فى لحاق أسامة بأبيه زيد . رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٥٥٥) ، ومسلم فى صحيحه برقم (١٤٥٩) .

(٤) فى م : « رغيدا » .

(٥) انظر : مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٨٦/٢٧) ووقع صدره فيه :

كَمْ قَتِيلَ لَشَهْوَةٍ وَأَسِيرَ

﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا ﴾ أى : قريبة إليهم أغصانها ، ﴿ وَذَلَّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ أى : متى تعاطاه دنا القطفُ إليه وتدلّى من أعلى غصنه ، كأنه سامع طائع ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ [الرحمن: ٥٤] . وقال تعالى : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ٢٣] .

قال ^(١) مجاهد : ﴿ وَذَلَّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ : إن قام ارتفعت بقدره ، وإن قعد تدلّت ^(٢) له حتى ينالها ، وإن اضطجع تدلّت ^(٣) له حتى ينالها ، فذلك قوله : ﴿ تَذْلِيلًا ﴾ . وقال قتادة : لا يرد أيديهم عنها شوكٌ ولا بُعدٌ .

وقال مجاهد : أرض الجنة من ورق ، وترابها المسك ، وأصول شجرها من ذهب وفضة ، وأفنانها من اللؤلؤ الرطب والزبرجد والياقوت ، والورقُ والتمر بين ذلك . فمن أكل منها قائما لم يؤذه ، ومن أكل منها قاعدا لم يؤذه ، ومن أكل مضطجعا لم يؤذه .

وقوله : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ أى : يطوف عليهم الخدم بأوانى الطعام ، وهى من فضة ، وأكواب الشراب وهى الكيزان التى لا عرى لها ولا خراطيم .

وقوله ^(٤) : ﴿ قَوَارِيرَ . قَوَارِيرَ مِّنْ فِضَّةٍ ﴾ ، فالأول منصوب بخبر « كان » أى : كانت قوارير . والثانى منصوب إما على البدلية ^(٥) ، أو تمييز ؛ لأنه بينه بقوله : ﴿ قَوَارِيرَ مِّنْ فِضَّةٍ ﴾ .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن البصرى ، وغير واحد : بياض الفضة فى صفاء الزجاج ، والقوارير لا تكون إلا من زجاج . فهذه الأكواب هى من فضة ، وهى مع هذا شفافة يرى ما فى باطنها من ظاهرها ، وهذا مما لا نظير له فى الدنيا .

قال ابن المبارك ، عن إسماعيل ، عن رجل ، عن ابن عباس : ليس فى الجنة شئ إلا قد أعطيت فى الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة . رواه ابن أبى حاتم .

وقوله : ﴿ قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ أى : على قدر ربيهم ، لا تزيد عنه ولا تنقص ، بل هى مُعَدَّة لذلك ، مقدرة بحسب رى صاحبها . هذا معنى قول ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأبى صالح ، وقتادة ، وابن أبى ، وعبد الله بن عبيد بن عمير ، وقتادة ، والشعبى ، وابن زيد . وقاله ابن جرير وغير واحد . وهذا أبلغ فى الاعتناء والشرف والكرامة .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ : قدرت للكف . وهكذا قال الربيع بن أنس . وقال الضحاك : على قدر أكف الخدام . وهذا لا ينافى القول الأول ، فإنها مقدرة فى القدر والرى .

وقوله : ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا ^(٦) زَنْجَبِيلًا ﴾ أى : ويسقون — يعنى الأبرار أيضا — فى هذه الأكواب ﴿ كَأْسًا ﴾ أى : خمراً ، ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴾ ، فتارة يُمزج لهم الشراب بالكافور

(٤) فى م ، أ : « وهذه » .

(٢) ، (٣) فى أ : « تدلّت » .

(١) فى م : « وقال » .

(٦) فى أ : « كان مزاجه » وهو خطأ .

(٥) فى أ : « على البداية » .

وهو بارد ، وتارة بالزنجبيل وهو حار ، ليعتدل الأمر ، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة .
وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صرفاً ، كما قاله قتادة وغير واحد . وقد تقدم فى قوله :
﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾ ، وقال ههنا : ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴾ أى : الزنجبيل عين فى الجنة
تسمى سلسبيل .

قال عكرمة : اسم عين فى الجنة . وقال مجاهد : سميت بذلك لسلاسة سيلها وحِدَّة جَرِيهَا .
وقال قتادة : ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴾ : عين سَلْسَة مُسْتَقِيد ^(١) ماؤها .
وحكى ابن جرير عن بعضهم أنها سميت بذلك لسلاستها فى الحلق . واختار هو أنها تَعَمَّ ذلك
كله ، وهو كما قال .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا ﴾ أى : يطوف على
أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان الجنة ﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أى : على حالة واحدة مخلدون عليها ، لا
يتغيرون عنها ، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن . ومن فسرهم بأنهم مُخَرَّصُونَ فى آذانهم الأقرطة ،
فإنما عبر عن المعنى بذلك ؛ لأن الصغير هو الذى يليق له ذلك دون الكبير .

وقوله : ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا ﴾ أى : إذا رأيتهم فى انتشارهم فى قضاء حوائج
السادة ، وكثرتهم ، وصباحة وجوههم ، وحُسْن ألوانهم وثيابهم وحليهم ، حسبتهم لؤلؤا منثورا .
ولا يكون فى التشبيه أحسن من هذا ، ولا فى المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن .

قال قتادة ، عن أبى أيوب ، عن عبد الله بن عمرو : ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه
ألف خادم ، كل خادم على عمل ما عليه صاحبه .

وقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ﴾ أى : وإذا رأيت يا محمد ، ﴿ ثُمَّ ﴾ أى : هناك ^(٢) ، يعنى فى الجنة
ونعيمها وسعتها وارتفاعها وما فيها من الخبرة والسرور ، ﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا ﴾ أى : مملكة لله
هناك عظيمة وسلطاناً باهراً .

وثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجا منها ، وآخر أهل الجنة دخولا
إليها : إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها .

وقد قدّمنا ^(٣) فى الحديث المروى من طريق ثوير بن أبى فاختة ، عن ابن عمر قال : قال رسول
الله ﷺ : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر فى ملكه مسيرة ألفى ^(٤) سنة ينظر إلى أقصاه كما ينظر
إلى أدناه » . فإذا كان هذا عطاؤه تعالى لأدنى من يكون فى الجنة ، فما ظنك بما هو أعلى منزلة ،
وأحظى عنده تعالى .

وقد روى الطبرانى هاهنا حديثاً غريباً جداً فقال : حدثنا على بن عبد العزيز ، حدثنا محمد بن

(١) فى أ : « مستعذب » . (٢) فى أ : « أى هنالك » .

(٣) عند تفسير الآية ٢٣ من سورة « القيامة » .

(٤) فى أ : « مسيرة ألف » .

عمار الموصلى ، حدثنا عفيف ^(١) بن سالم ، عن أيوب بن عتبة ، عن عطاء ، عن ابن عمر قال : جاء رجل من الحبشة إلى رسول الله ﷺ : فقال له رسول الله : « سل واستفهم » . فقال : يا رسول الله ، فُضِّلْتُمْ علينا بالصور والألوان والنبوة ، أفرأيت إن آمنتُ بما آمنتَ به وعملتُ بمثل ما عملتَ به ، إنى لكائن معك فى الجنة ؟ قال : « نعم ، والذى نفسى بيده ، إنه ليرى بياض الأسود فى الجنة من مسيرة ألف عام » . ثم قال رسول الله ﷺ : « من قال : لا إله إلا الله ، كان له بها عهدٌ عند الله ، ومن قال : سبحان الله ويحمده ، كتب له مائة ألف حسنة ، وأربعة وعشرون ألف حسنة » . فقال رجل : كيف نهلك بعد هذا يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن الرجل ليأتى يوم القيامة بالعمل لو وُضِعَ على جبل لأثقله ، فتقوم النعمة — أو : نعم الله — فتكاد تستنفد ذلك كله ، إلا أن يتغمده الله برحمته » . ونزلت هذه السورة : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ ﴾ إلى قوله : ﴿ مُلْكًا كَبِيرًا ﴾ . فقال الحبشى : وإن عيني لترى ما ترى عينك فى الجنة ؟ قال : « نعم » . فاستبكي حتى فاضت نفسه . قال ابن عمر : فلقد رأيت رسول الله ﷺ يذليه فى حُفْرَتِهِ بيده ^(٢) .

وقوله : ﴿ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ أى : لباس أهل الجنة فيها الحرير ، ومنه سندس ، وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم ، والإستبرق منه ما فيه بريق ولمعان ، وهو مما يلي الظاهر ، كما هو المعهود فى اللباس ^(٣) ، ﴿ وَحَلَّوْا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ وهذه صفة الأبرار ، وأما المقربون فكما قال : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [الحج: ٢٣] .

ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلى قال ^(٤) بعده : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ أى : طهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرديئة ، كما روينا عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنه قال : إذا انتهى أهل الجنة إلى باب الجنة وجدوا هنالك عينين فكأنما ألهموا ذلك فشربوا من إحداهما [فأذهب الله] ^(٥) ما فى بطونهم من أذى ، ثم اغتسلوا من الأخرى فجزت عليهم نضرة النعيم .

وقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴾ أى : يقال لهم ذلك تكريماً لهم وإحساناً إليهم كقوله : ﴿ كُلُّوْا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٢٤] ، وكقوله : ﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٣] .

وقوله : ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴾ أى : جزاكم الله على القليل بالكثير .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾ (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا

(١) فى م ، أ ، هـ : « حدثنا عتبة » والمثبت من المعجم الأوسط للطبرانى .

(٢) المعجم الأوسط برقم (٤٧٧٤) « مجمع البحرين » ، وقال : « لا يروى عن ابن عمر إلا بهذا الإسناد ، تفرد به عفيف » .

(٣) فى أ : « فى اللبس » . (٤) فى أ : « فقال » . (٥) مكانها فى هـ ، كلمة غير واضحة ، والمثبت من م ، أ .

(٢٦) إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١) .

يقول تعالى ممتناً على رسوله ﷺ بما نزله عليه من القرآن العظيم تنزيلاً : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ أى : كما أكرمتك بما أنزلت عليك ، فاصبر على قضائه وقدره ، واعلم أنه سيدبرك بحسن تدبيره ، ﴿ وَلَا تَطْعِ مِنْهُمْ نِئْماً أَوْ كُفُوراً ﴾ أى : لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدك عما أنزل إليك (١) ، بل بَلِّغْ ما أنزل إليك من ربك ، وتوكل على الله ؛ فإن الله يعصمك من الناس . فالأثم هو الفاجر فى أفعاله ، والكفور هو الكافر بقلبه .

﴿ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ أى : أولَ النهار وآخره . ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلًا ﴾ ، كقوله : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩] ، وكقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ . قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: ١ - ٤] .

ثم قال تعالى منكرأ على الكفار ومن أشبههم فى حُبِّ الدنيا والإقبال عليها والانصباب إليها ، وترك الدار الآخرة وراء ظهورهم : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ يعنى : يوم القيامة .

ثم قال : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد : يعنى خلقهم . ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ أى : وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة ، وبَدَّلْنَاهُمْ فَأَعَدْنَاهُمْ خلقاً جديداً . وهذا استدلال بالبداة على الرجعة .

وقال ابن زيد ، وابن جرير : ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ [أى] (٢) : وإذا شئنا أتينا بقوم آخرين غيرهم ، كقوله : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا ﴾ (٣) [النساء: ١٣٣] ، وكقوله : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [إبراهيم: ١٩ ، ٢٠ ، وفاطر ١٦ ، ١٧] .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ ﴾ يعنى : هذه السورة ﴿ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ أى : طريقاً ومسلكاً ، أى : من شاء اهتدى بالقرآن ، كقوله : ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾

(٣) فى أ : « وكان الله على كل شىء » وهو خطأ .

(٢) زيادة من م .

(١) فى أ : « عليك » .

وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ [النساء: ٣٩] .

ثم قال : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أى : لا يقدر أحد أن يهذى نفسه ، ولا يدخل فى الإيمان ^(١) ولا يجر لنفسه نفعاً ، ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ . إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أى : عليم بمن يستحق الهداية فَيُسِّرُهَا له ، ويقيض له أسبابها ، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

ثم قال : ﴿ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى : يهذى من يشاء ويضل من يشاء ، ومن يهده فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادى له .

[آخر سورة « الإنسان »] ^(٢) [والله أعلم] ^(٣)

(٣) زيادة من أ .

(٢) زيادة من م ، أ .

(١) فى م : « فى إيمان » .

تفسير سورة والمرسلات

وهي مكية .

قال البخارى : حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، [حدثنا أبى] ^(١) ، حدثنا الأعمش ، حدثنى إبراهيم ، عن الأسود ، عن عبد الله — هو ابن مسعود — قال : بينما نحن مع النبى ﷺ ، فى غار بمنى ، إذ نزلت عليه : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ ﴾ ، فإنه ليتلوها وإنى لأتلقاها من فيه ، وإن فاه لرطب بها ، إذ وثبت علينا حية ، فقال النبى ﷺ : « اقلوها » . فابتدرناها فذهبت ، فقال النبى ﷺ : « وَقِيَتْ شُرْكَكُمْ كَمَا وَقِيْتُمْ شَرَّهَا » .

وأخرجه مسلم أيضا ، من طريق الأعمش ^(٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان بن عيينة ، عن الزهري ، عن عبيد الله ، عن ابن عباس ، عن أمه : أنها سمعت النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالمرسلات عرفاً ^(٣) .

وفى رواية مالك ، عن الزهري ، عن عبيد الله ، عن ابن عباس : أن أم الفضل سمعته يقرأ : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴾ ، فقالت : يا بنى ، ذكرتنى بقراءتك هذه السورة ، إنها لآخر ما سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بها فى المغرب .

أخرجاه فى الصحيحين ، من طريق مالك ، به ^(٤) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ^(١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ^(٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ^(٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا ^(٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ^(٥) عُدْرًا أَوْ نُذْرًا ^(٦) إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَوَاقِعَ ^(٧) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ^(٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ^(٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ^(١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِيتَتْ ^(١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ^(١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ ^(١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ^(١٤) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ^(١٥) ﴾ .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا زكريا بن سهل المروزى ، حدثنا على بن الحسين بن شقيق ، أخبرنا الحسين بن واقد ، حدثنا الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴾ قال : الملائكة .

(١) زيادة من م ، أ ، والبخارى .

(٢) صحيح البخارى برقم (١٨٣٠) ، وصحيح مسلم برقم (٢٢٣٤) .

(٣) المسند (٣٣٨ / ٦) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٧٦٣) ، وصحيح مسلم برقم (٤٦٢) .

قال : ورؤى عن مسروق ، وأبى الضحى ، ومجاهد - فى إحدى الروايات - والسدى ، والربيع ابن أنس ، مثل ذلك .

ورؤى عن أبى صالح أنه قال : هى الرسل . وفى رواية عنه : هى الملائكة . وهكذا قال أبو صالح فى ﴿ الْعَاصِفَاتِ ﴾ و ﴿ النَّاشِرَاتِ ﴾ [و ﴿ الْفَارِقَاتِ ﴾] ^(١) و ﴿ الْمُلْقِيَاتِ ﴾ : أنها الملائكة .

قال الثورى ، عن سلمة بن كهيل ، عن مسلم البطين ، عن أبى العبيدين قال : سألت ابن مسعود عن ﴿ الْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴾ قال : الريح . وكذا قال فى : ﴿ الْعَاصِفَاتِ عَصْفًا . وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴾ : إنها الريح . وكذا قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وأبو صالح - فى رواية عنه - وتوقف ابن جرير فى ﴿ الْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴾ ، هل هى الملائكة أرسلت بالعرف ، أو كعرف الفرس يتبع بعضهم بعضا ؟ أو : هى الريح إذا هبت شيئا فشيئا ؟ وقطع بأن العاصفات عصفا هى الرياح ، كما قاله ابن مسعود ومن تابعه . ومن قال ذلك فى العاصفات أيضا : على بن أبى طالب ^(٢) ، والسدى ، وتوقف فى ﴿ النَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴾ ، هل هى الملائكة أو الريح ؟ كما تقدم . وعن أبى صالح : أن الناشرات نشرا : المطر .

والأظهر أن : ﴿ الْمُرْسَلَاتِ ﴾ هى الرياح ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ ﴾ [الحجر: ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ [الأعراف: ٥٧] ، وهكذا العاصفات هى : الرياح ، يقال : عصفت الريح إذا هبت بتصويت ، وكذا الناشرات هى : الرياح التى تنشر السحاب فى آفاق السماء ، كما يشاء الرب عز وجل .

وقوله : ﴿ فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا . فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا . عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾ يعنى : الملائكة . قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، ومسروق ، ومجاهد ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، والسدى ، والثورى . ولا خلاف هاهنا ؛ فإنها تنزل بأمر الله على الرسل ، تفرق بين الحق والباطل ، والهدى والغى ، والحلال والحرام ، وتلقى إلى الرسل وحيا فيه إعدار إلى الخلق ، وإنذار لهم عقاب الله إن خالفوا أمره .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَوَاقِعَ ﴾ : هذا هو المقسم عليه بهذه الأقسام ، أى : ما وعدتم به من قيام الساعة ، والنفخ فى الصور ، وبعث الأجساد ، وجمع الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، ومجازاة كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، إن هذا كله ﴿ لَوَاقِعَ ﴾ أى : لكائن لا محالة .

ثم قال : ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ أى : ذهب ضوءها ، كقوله : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ [التكوير: ٢] ، وكقوله : ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْشَرَّتْ ﴾ [الانفطار: ٢] .

﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴾ أى : انفطرت وانشقت ، وتدلَّت أرجاؤها ، ووهت أطرافها .

﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ أى : ذهب بها ، فلا يبقى لها عين ولا أثر ، كقوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ

(٢) فى ١ : « على بن أبى طلحة » .

(١) زيادة من ١ .

الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿ [طه: ١٠٥-١٠٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٧] . وقوله : ﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتْ ﴾ : قال العوفي ، عن ابن عباس : جمعت . وقال ابن زيد : وهذه كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ ﴾ [المائدة: ١٠٩] . وقال مجاهد : ﴿ أَقْبَتْ ﴾ : أجلت . وقال الثوري ، عن منصور ، عن إبراهيم : ﴿ أَقْبَتْ ﴾ : أوعدت . وكأنه يجعلها كقوله : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٦٩] .

ثم قال : ﴿ لَأَيَّ يَوْمٍ أُجِلَّتْ . لِيَوْمِ الْفَصْلِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ . وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ، يقول تعالى : لَأَيَّ يَوْمٍ أُجِلَّتْ الرسل وأرجئ أمرها ؟ حتى تقوم الساعة ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهُ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ . يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٧، ٤٨] . وهو يوم الفصل ، كما قال : ﴿ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴾ .

ثم قال معظمًا لشأنه : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ . وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أى : ويل لهم من عذاب الله غدا . وقد قدمنا فى الحديث أن «ويل» : واد فى جهنم . ولا يصح .

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُنَبِّعُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيَّ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا (٢٧) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٨) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴾ ؟ يعنى : من المكذبين للرسل المخالفين لما جاؤوهم به ، ﴿ ثُمَّ نُنَبِّعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴾ أى : ممن أشبههم ؛ ولهذا قال : ﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ . وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ . قاله ابن جرير (١) .

ثم قال ممتنا على خلقه ومحتجا على الإعادة بالبداة : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ ؟ أى : ضعيف حقير بالنسبة إلى قُدرة البارى عز وجل ، كما تقدم فى سورة «يس» فى حديث بُسْر بن جِحَاش : «ابن آدم ، أنى تُعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ؟» (٢) .

(١) تفسير الطبرى (١٤٤/٢٩) .

(٢) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية : ٢٦ من سورة «القيامة» .

﴿ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ : يعنى : جمعناه فى الرَّحِمِ ، وهو قرار الماء من الرجل والمرأة ، والرحم معد لذلك ، حافظ لما أودع فيه من الماء .

وقوله : ﴿ إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ : يعنى : إلى مدة معينة من ستة أشهر أو تسعة أشهر ؛ ولهذا قال : ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ . وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ . ﴾

ثم قال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا . أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴾ : قال ابن عباس : ﴿ كِفَاتًا ﴾ : كُنَّا . وقال مجاهد : يُكْفَتُ الْمَيْتُ فلا يَرَى منه شئ . وقال الشعبى : بطنها لأمواتكم ، وظهرها لأحيائكم . وكذا قال مجاهد وقتادة .

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَّ شَامِخَاتٍ ﴾ : يعنى : الجبال ، أرسى بها الأرض لثلاث تيمد وتضطرب .

﴿ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴾ : عذبا زلالا من السحاب ، أو مما أنبعه الله من عيون الأرض .

﴿ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ : أى : ويل لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها ، ثم بعد هذا يستمر على تكذيبه وكفره .

﴿ انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ (٢٩) انْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعْبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعَنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) .

يقول تعالى مخاطبا للكفار المكذبين بالمعاد والجزاء والجنة والنار ، أنهم يقال لهم يوم القيامة : ﴿ انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ . انْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعْبٍ ﴾ : يعنى : لَهَبُ النَّارِ إذا ارتفع وصعد معه دخان ، فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب ، ﴿ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴾ : أى : ظل الدخان المقابل للهب لا ظليل هو فى نفسه ، ولا يغنى من اللهب ، يعنى : ولا يقيهم حر اللهب .

وقوله : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ : أى : يتطاير الشرر من لهبها كالقصر . قال (١) ابن مسعود : كالحصون . وقال ابن عباس وقتادة ، ومجاهد ، ومالك عن زيد بن أسلم ، وغيرهم : يعنى أصول الشجر .

﴿ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾ : أى : كالإبل السود . قاله مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك . واختاره ابن جرير .

وعن ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير : ﴿ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾ : يعنى : حبال السفن . وعنه —

(١) فى م : « قاله » .

أعنى ابن عباس - : ﴿ جَمَالَاتٌ صُفْرٌ ﴾ : قطع نحاس^(١) .

وقال البخارى : حدثنا عمرو بن على ، حدثنا يحيى ، أخبرنا سفيان ، عن عبد الرحمن بن عباس قال : سمعت ابن عباس : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ ، قال : كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع وفوق ذلك ، فنرفعه للشتاء ، فنسميه القَصْرَ ، ﴿ كَأَنَّهُ جَمَالَاتٌ صُفْرٌ ﴾ : حبال السفن ، تجمع حتى تكون كأوساط الرجال^(٢) ، ﴿ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ أى : لا يتكلمون . ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ أى : لا يقدرون على الكلام ، ولا يؤذن لهم فيه ليعتذروا ، بل قد قامت عليهم الحجة ، ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون . وعرضات القيامة حالات ، والرب تعالى يخبر عن هذه الحالة تارة ، وعن هذه الحالة تارة ؛ ليدل على شدة الأهوال والزلازل يومئذ . ولهذا يقول بعد كل فصل من هذا الكلام : ﴿ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعَانِكُمْ وَالْأَوَّلِينَ . فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ : وهذه مخاطبة من الخالق لعباده يقول لهم : ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعَانِكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴾ يعنى : أنه جمعهم بقدرته فى صعيد واحد ، يُسمعهم الداعى وَيَنْفِذُهُمُ البصر .

وقوله : ﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ : تهديد شديد ووعيد أكيد ، أى : إن قدرتم على أن تتخلصوا من قبضتى ، وتَنْجُوا من حكمى فافعلوا ، فإنكم لا تقدرون على ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن: ٣٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ﴾ [هود: ٥٧] ، وفى الحديث : « يا عبادى ، إنكم لن تَبْلُغُوا نَفْعِي فتتفعونى ، ولن تَبْلُغُوا ضَرِي فتضرونى » .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن المنذر الطريقى الأودى ، حدثنا محمد بن فضيل ، حدثنا حُصَيْن بن عبد الرحمن ، عن^(٣) حسان بن أبى المخارق ، عن أبى عبد الله الجَدَلِى قال : أتيت بيت المقدس ، فإذا عبادة بن الصامت ، وعبد الله بن عمرو ، وكعب الأحبار يتحدثون فى بيت المقدس ، فقال عبادة : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين بصعيد واحد ، ينفذهم البصر وَيُسمعهم الداعى ، ويقول الله : ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعَانِكُمْ وَالْأَوَّلِينَ . فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ ، اليوم لا ينجو منى جبار عنيد ، ولا شيطان مريد . فقال عبد الله بن عمرو^(٤) : فإننا نحدث يومئذ أنه يخرج عُنُقُ من النار فتنتطلق حتى إذا كانت بين ظهرائى الناس نادى : أيها الناس ، إني بُعثتُ إلى ثلاثة أنا أعرف بهم من الأب بولده ومن الأخ بأخيه ، لا يُغَيِّبُهُم عَنِّي وَزَرٌ ، ولا تُخْفِيهِم عَنِّي خافية : الذى جعل مع الله إلها آخر ، وكلّ جبار عنيد ، وكلّ شيطان مريد . فتطوى عليهم فتقذف بهم فى النار قبل الحساب بأربعين سنة^(٥) .

(١) فى م : « النحاس » .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٩٣٣) .

(٣) فى م : « عمر » .

(٤) فى م : « ابن » .

(٥) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٧٠ / ١٣) عن محمد بن فضيل به نحوه .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاحِهِ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُّوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (٤٦) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبَأَىٰ حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عباده المتقين^(١) الذين عبدوه بأداء الواجبات ، وترك المحرمات : أنهم يوم القيامة يكونون فى جنات وعيون ، أى : بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه ، من ظل اليعموم ، وهو الدخان الأسود المنتن .

﴿ وَفَوَاحِهِ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أى : ومن سائر أنواع الثمار ، مهما طلبوا وجدوا . ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى : يقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم .

ثم قال تعالى مخبراً خيراً مستأنفاً : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى : هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل ، ﴿ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ﴾ : خطاب للمكذبين بيوم الدين ، وأمرهم أمر تهديد ووعيد فقال تعالى : ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا ﴾ أى : مدة قليلة قريبة قصيرة ، ﴿ إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ﴾ أى : ثم تساقون إلى نار جهنم التى تقدم ذكرها ، ﴿ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ نَمَتَّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ٦٩ ، ٧٠] .

وقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴾ أى : إذا أمر هؤلاء الجهلاء الكفار أن يكونوا من المصلين مع الجماعة ، امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ فَبَأَىٰ حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ ؟ أى : إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن ، فبأى كلام يؤمنون به؟! كقوله تعالى : ﴿ فَبَأَىٰ حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الحاثية: ٦] .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن إسماعيل بن أمية : سمعت رجلاً أعرابياً بدوياً يقول : سمعت أبا هريرة يرويه إذا قرأ : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴾ ، فقرأ : ﴿ فَبَأَىٰ حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ ؟ فليقل : آمنت بالله وبما أنزل .

وقد تقدم هذا الحديث فى سورة « القيامة »^(٢) .

آخر تفسير سورة « المرسلات » [ولله الحمد والمنة]^(٣)

(١) فى أ : « المؤمنين » .

(٢) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية الأخيرة من سورة القيامة من رواية الترمذى وأبى داود .

(٣) زيادة من م ، أ .

تفسير سورة النبأ

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦) ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على المشركين فى تساؤلهم عن يوم القيامة إنكاراً لوقوعها : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ ﴾ أى : عن أى شئ يتساءلون ؟ عن أمر القيامة ، وهو النبأ العظيم ، يعنى : الخبر الهائل المفزع الباهر .

قال قتادة ، وابن زيد : النبأ العظيم : البعث بعد الموت . وقال مجاهد : هو القرآن . والأظهر الأول لقوله : ﴿ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ يعنى : الناس فيه على قولين : مؤمن به وكافر . ثم قال تعالى متوعداً لمنكرى القيامة : ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ ، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد .

ثم شرع تعالى يُبَيِّنُ قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة ، الدالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره ، فقال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴾ ؟ أى : ممهدة للخلائق ذُلُولا لهم ، قارةً ساكنة ثابتة ، ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ أى : جعلها لها أوتاداً أرساها بها وثبتها وقررها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها .

ثم قال : ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ يعنى : ذكراً وأنثى ، يستمتع كل منهما بالآخر ، ويحصل التناسل بذلك ، كقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١] .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ أى : قطعاً للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد ^(١) والسعى

(١) فى أ : « الاسترداد » .

فى المعاش^(١) فى عرض النهار . وقد تقدم مثل هذه الآية فى سورة « الفرقان »^(٢) .

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ أى : يغشى الناس ظلامه وسواده ، كما قال : ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ [الشمس: ٤] ، وقال الشاعر^(٣) :

فَلَمَّا لَبَسْنَ اللَّيْلَ ، أَوْ حِينَ نَصَبَتْ لَهُ مِنْ خَذَا آذَانَهَا وَهُوَ جَانِحٌ

وقال قتادة فى قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ أى : سكتاً .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ أى : جعلناه مشرقاً مُبِيراً^(٤) مضيئاً ، ليتمكن الناس من التصرف فيه والذهاب والمجئ للمعاش والتكسب والتجارات ، وغير ذلك .

وقوله : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ يعنى : السموات السبع ، فى اتساعها وارتفاعها وإحكامها وإتقانها ، وتزيينها بالكواكب الثابتة والسيارات ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ يعنى : الشمس المنيرة على جميع العالم التى يتوهج ضوءها لأهل الأرض كلهم .

وقوله : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ : قال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ الْمُعْصِرَاتِ ﴾ : الريح .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد ، حدثنا أبو داود الحفري^(٥) ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن المنهال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ ﴾ قال : الرياح . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، ومقاتل ، والكلبى ، وزيد بن أسلم ، وابنه عبد الرحمن : إنها الرياح . ومعنى هذا القول أنها تستدر المطر من السحاب .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ مِنَ الْمُعْصِرَاتِ ﴾ أى : من السحاب . وكذا قال عكرمة أيضاً ، وأبو العالية ، والضحاك ، والحسن ، والربيع بن أنس ، والثورى . واختاره ابن جرير . وقال الفراء : هى السحاب التى تَحَلَّبُ بالمطر ولم تُمطر بعد ، كما يقال : امرأة معصر ، إذا دنا حيضها ولم تحض .

وعن الحسن ، وقتادة : ﴿ مِنَ الْمُعْصِرَاتِ ﴾ يعنى : السموات . وهذا قول غريب .

والأظهر أن المراد بالمعصرات : السحاب ، كما قال [الله]^(٦) تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِى السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ [الروم: ٤٨] أى : من بينه .

وقوله : ﴿ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ : قال مجاهد ، وقتادة ، والربيع بن أنس : ﴿ ثَجَّاجًا ﴾ : منصبا . وقال الثورى : متتابعاً . وقال ابن زيد : كثيراً .

(١) فى م : « فى المعاش » .

(٢) عند تفسير الآية ٤٧ .

(٣) هو ذو الرمة ، والبيت فى تفسير الطبرى (٣٠ / ٣) .

(٤) فى أ : « نيرا » .

(٥) فى أ : « الجونى » .

(٦) زيادة من م .

قال ابن جرير : ولا يعرف فى كلام العرب فى صفة الكثرة الشج ، وإنما الشج : الصب المتتابع . ومنه قول النبى ﷺ : « أَفْضَلُ الْحَجِّ الْعَجِّ وَالشَّجِّ » . يعنى : صَبَّ دَمَاءِ الْبُذْنِ ^(١) . هكذا قال . قلت : وفى حديث المستحاضة حين قال لها رسول الله ﷺ : « أَنْعَتِ لَكَ الْكُرْسُفَ » - يعنى : أن تحتشى بالقطن - : قالت ^(٢) : يا رسول الله ، هو أكثر من ذلك ، إنما أثج ثجاً ^(٣) . وهذا فيه دلالة على استعمال الشج فى الصب المتتابع الكثير ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا . وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ أى : لنخرج بهذا الماء الكثير الطيب النافع المبارك ﴿ حَبًّا ﴾ يذخر للإناسى والأنعام ، ﴿ وَنَبَاتًا ﴾ أى : خضراً يؤكل رطباً ، ﴿ وَجَنَّاتٍ ﴾ أى : بساتين وحدائق من ثمرات متنوعة ، وألوان مختلفة ، وطعوم وروائح متفاوتة ، وإن كان ذهلك ^(٤) فى بقعة واحدة من الأرض مجتمعاً ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ . قال ابن عباس ، وغيره : ﴿ أَلْفَافًا ﴾ : مجمعة . وهذه كقوله تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قُطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٍ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَغْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ ﴾ الآية [الرعد: ٤] .

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴾ (١٧) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَابًا (٢٢) لَا بُشِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وَفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠) .

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفصل ، وهو يوم القيامة ، أنه مؤقت بأجل معدود ، لا يزداد عليه ولا ينقص منه ، ولا يعلم وقته على التعيين إلا الله عز وجل ، كما قال : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ [هود: ١٠٤] .

﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ : قال مجاهد : زُمَرًا ^(٥) . قال ابن جرير : يعنى تأتى كل أمة مع رسولها ، كقوله : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنْاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ [الإسراء: ٣١] ^(٦) .

وقال البخارى : ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ : حدثنا محمد ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما بين النفختين أربعون » .

(١) تفسير الطبرى (٥/٣٠) ، وهذا الحديث جاء من حديث ابن عمر ، وأبى بكر ، وجابر ، وابن مسعود رضى الله عنهم ، وانظر تخريجها والكلام عليها فى : نصب الراية للإمام الزيلعى (٣/٣٣ - ٣٥) .

(٢) فى أ : « فقالت » .

(٣) حديث المستحاضة هو حديث حمدة بنت جحش ، وقد رواه الإمام أحمد فى المسند (٤٣٩/٦) ، وأبو داود فى السنن برقم (٢٨٧) ، والترمذى فى السنن برقم (١٢٨) .

(٤) فى م : « زمرأ زمرا » .

(٥) فى م ، أ : « ذلك » .

(٦) تفسير الطبرى (٦٠/٣٠) .

قالوا : أربعون يوماً ؟ قال : « أبيت » . قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : « أبيت » . قالوا : أربعون سنة ؟ قال : « أبيت » . قال : « ثم يُنزلُ الله من السماء ماءً فينبتُونَ كما يَنْبِتُ البَقْلُ ، ليس من الإنسان شيءٌ إلا يَبْلَى ، إلا عِظْماً واحداً ، وهو عَجَبُ الذَّنْبِ ، ومنه يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(١) .

﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ أى : طرقاً ومسالكاً لنزول الملائكة ، ﴿ وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ ، كقوله : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ [النمل: ٨٨] ، وكقوله : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ المنفوشِ ﴾ [القارعة: ٥] .

وقال هاهنا : ﴿ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ أى : يخيل إلى الناظر أنها شيء ، وليست بشيء ، وبعد هذا تذهب بالكلية ، فلا عين ولا أثر ، كما قال : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧] ، وقال : ﴿ وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [الكهف: ٤٧] .

وقوله : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ أى : مرصدة مُعَدَّة ، ﴿ لِلطَّاغِينَ ﴾ وهم : المردة العصاة المخالفون للرسل ، ﴿ مَابًا ﴾ أى : مرجعاً ومنقلباً ومصيراً ونزلاً . وقال الحسن ، وقتادة فى قوله : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ يعنى : أنه لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز بالنار ، فإن كان معه جواز نجا ، وإلا احتبس . وقال سفيان الثوري : عليها ثلاث قناطر .

وقوله : ﴿ لَا يَبْنِي فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ أى : ماكين فيها أحقاباً ، وهى جمع « حُقْب » ، وهو : المدة من الزمان . وقد اختلفوا فى مقداره ، فقال ابن جرير ، عن ابن حميد ، عن مهران ، عن سفيان الثوري ، عن عَمَّارِ الدَّهْنِيِّ ، عن سالم بن أبى الجعد قال : قال على بن أبى طالب لهلال الهجرى : ما تجدون الحُقْبَ فى كتاب الله المنزل ؟ قال : نجده ثمانين سنة ، كل سنة اثنا عشر شهراً ، كل شهر ثلاثون يوماً ، كل يوم ألف سنة ^(٢) .

وهكذا روى عن أبى هريرة ، وعبد الله بن عمرو ، وابن عباس ، وسعيد بن جببر ، وعمرو بن ميمون ، والحسن ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، والضحاك . وعن الحسن والسدى أيضاً : سبعون سنة كذلك . وعن عبد الله بن عمرو : الحُقْبُ أربعون سنة ، كل يوم منها كآلف سنة مما تعدون . رواهما ابن أبى حاتم .

وقال بُشَيْر ^(٣) بن كعب : ذُكِرَ لى أن الحُقْبَ الواحد ثلاثمائة سنة ، كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً ^(٤) ، كل يوم ألف سنة . رواه ابن جرير ^(٥) ، وابن أبى حاتم .

ثم قال ابن أبى حاتم : ذكر عن عُمَرُ بن على بن أبى بكر الأسفَذَنِيِّ ^(٦) : حدثنا مروان بن معاوية الفَرَّارِى ، عن جعفر بن الزبير ، عن القاسم ، عن أبى أمامة ، عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ لَا يَبْنِي

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٣٥) .

(٢) تفسير الطبرى (٨/٣٠) .

(٣) فى أ : « وقال بشر » .

(٤) تفسير الطبرى (٨/٣٠) .

(٦) فى أ : « الأسعدى » .

(٤) فى م : « كل سنة اثنا عشر شهراً ، كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً » .

فِيهَا أَحْقَابًا ﴿١﴾ ، قال : فالحقْب [ألف] ^(١) شهر ، الشهر ثلاثون يوما ، والسنة اثنا عشر شهرا ، والسنة ثلاثمائة وستون يوما ، كل يوم منها ألف سنة مما تعدون ، فالحقْب ثلاثون ألف ألف سنة ^(٢) . وهذا حديثٌ منكرٌ جداً ، والقاسم والراوى عنه وهو جعفر بن الزبير كلاهما متروك .

وقال البزار : حدثنا محمد بن مردّاس ، حدثنا سليمان بن مسلم أبو المعلّى قال : سألت سليمان التيمي : هل يخرج من النار أحد ؟ فقال : حدثني نافع ، عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ أنه قال : «والله لا يخرج من النار أحد حتى يمكث فيها أحقابا» . قال : والحُقْب : بضع وثمانون سنة ، والسنة ثلاثمائة وستون يوما مما تعدون ^(٣) .

ثم قال : سليمان بن مسلم بصرى مشهور .

وقال السّدى : ﴿ لَا بَشِيْنَ فِيْهَا أَحْقَابًا ﴾ : سبعمائة حُقْب ، كل حُقْب سبعون سنة ، كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً ، كل يوم كآلف سنة مما تعدون .

وقد قال مقاتل بن حَيَّان : إن هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَّزِيْدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ .

وقال خالد بن معدان : هذه الآية وقوله : ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ [هود: ١٠٧] فى أهل التوحيد . رواهما ابن جرير .

ثم قال : يحتمل أن يكون قوله : ﴿ لَا بَشِيْنَ فِيْهَا أَحْقَابًا ﴾ متعلقاً بقوله : ﴿ لَا يَذُوقُوْنَ فِيْهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ ، ثم يحدث الله لهم بعد ذلك عذاباً من شكل آخر ونوع آخر . ثم قال : والصحيح أنها لا انقضاء لها ، كما قال قتادة والربيع بن أنس . وقد قال قبل ذلك :

حدثني محمد بن عبد الرحيم البرقي ، حدثنا عمرو بن أبى سلمة ، عن زهير ، عن سالم : سمعت الحسن يسأل عن قوله : ﴿ لَا بَشِيْنَ فِيْهَا أَحْقَابًا ﴾ قال : أما الأحقاب فليس لها عِدَّة إلا الخلود فى النار ، ولكن ذكروا أن الحُقْب سبعون سنة ، كل يوم منها كآلف سنة مما تعدون .

وقال سعيد ، عن قتادة : قال الله تعالى : ﴿ لَا بَشِيْنَ فِيْهَا أَحْقَابًا ﴾ وهو : ما لا انقطاع له ، وكلما مضى حُقْب جاء حُقْب بعده ، وذكر لنا أن الحُقْب ثمانون سنة .

وقال الربيع بن أنس : ﴿ لَا بَشِيْنَ فِيْهَا أَحْقَابًا ﴾ ، لا يعلم عدة هذه الأحقاب إلا الله ، ولكن الحُقْب الواحد ثمانون سنة ، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً ، كل يوم كآلف سنة مما تعدون . رواهما أيضاً ابن جرير ^(٤) .

(١) زيادة من إتحاف المهرة للبوصيرى .

(٢) ورواه ابن أبى عمر العدنى فى مسنده كما فى إتحاف المهرة للبوصيرى (ق ٢١٨ سليمانىة) عن مروان ، عن جعفر بن الزبير بنحوه ، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٩٢/٨) من طريق يعقوب بن كعب ، عن مروان ، عن جعفر ، عن القاسم ، عن أبى أمامة مرفوعاً : «الحقْب الواحد : ثلاثون ألف سنة» .

(٣) مسند البزار برقم (٢٢٤٩) «كشف الأستار» ورواه الديلمى فى مسند الفردوس برقم (٧٠٢٩) من طريق زياد بن أبى زيد ، عن سليمان بن مسلم به نحوه ، وقال الهيثمى فى المجمع (٣٩٥/١٠) : «فيه سليمان بن مسلم الخشاب ، وهو ضعيف جداً» .

(٤) تفسير الطبرى (٩/٣٠) .

وقوله : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ أى : لا يجدون فى جَهَنَّمَ برداً لقلوبهم ، ولا شراباً طيباً يتغذون به . ولهذا قال : ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ . قال أبو العالية : استثنى من البرد الحميم ومن الشراب الغساق . وكذا قال الربيع بن أنس .

فأما الحميم : فهو الحار الذى قد انتهى حره وحُموه . والغَسَّاق : هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم ، فهو بارد لا يستطيع من برده ، ولا يواجه من ننته . وقد قدمنا الكلام على الغساق فى سورة « ص » ^(١) بما أغنى عن إعادته ، أجارنا الله من ذلك ، بمنه وكرمه .

قال ابن جرير : وقيل : المراد بقوله : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا ﴾ يعنى : النوم ، كما قال الكندى :

بَرَدَتْ مَرَأَشُفَهَا عَلَى فِصْدَتِي عَنْهَا وَعَنْ قُبُلَاتِهَا ، الْبَرْدُ

يعنى بالبرد : النعاس والنوم ^(٢) . هكذا ذكره ولم يعزه إلى أحد . وقد رواه ابن أبى حاتم ، من طريق السدى ، عن مرة الطيب . ونقله عن مجاهد أيضا . وحكاه البغوى عن أبى عبيدة ، والكسائى أيضا .

وقوله : ﴿ جَزَاءُ وِفَاقًا ﴾ أى : هذا الذى صاروا إليه من هذه العقوبة وفق أعمالهم الفاسدة التى كانوا يعملونها فى الدنيا . قاله مجاهد ، وقتادة ، وغير واحد .

ثم قال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ أى : لم يكونوا يعتقدون أن ثم داراً يجازون فيها ويحاسبون ، ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴾ أى : وكانوا يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه التى أنزلها على رسله ، فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة .

وقوله : ﴿ كِذَابًا ﴾ أى : تكديبا ، وهو مصدر من غير الفعل . قالوا : وقد سُمع أعرابى يستفتى الفراء على المروة : الحلقُ أحب إليك أو القصار ؟ وأنشد بعضهم ^(٣) :

لَقَدْ طَالَ مَا ثَبَّتْنِي عَنْ صَحَابَتِي وَعَنْ حُوجِ قِضَاؤِهَا مِنْ شَفَائِيَا

وقوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴾ أى : وقد عَلِمْنَا أعمالَ العباد كلهم ، وكتبناها عليهم ، وسنجزئهم على ذلك ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وقوله : ﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ أى : يقال لأهل النار : ذوقوا ما أنتم فيه ، فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه ، ﴿ وَأَخْرُجُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجًا ﴾ [ص: ٥٨] .

قال قتادة : عن أبى أيوب الأزدي ، عن عبد الله بن عمرو قال : لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه : ﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ . قال : فهم فى مزيد من العذاب أبداً .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن محمد بن مصعب الصورى ، حدثنا خالد بن عبد

(١) انظر تفسير الآية : ٥٧ من سورة « ص » .

(٢) تفسير الطبرى (٩/٣٠) .

(٣) البيت فى تفسير الطبرى (١١/٣٠) .

الرحمن، حدثنا جسر^(١) بن فرقد، عن الحسن قال: سألت أبا برزة الأسلمي عن أشد آية في كتاب الله على أهل النار. قال: سمعت رسول الله ﷺ قرأ: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾، فقال: «هلك القوم بمعاصيهم الله عز وجل»^(٢).

جسر^(٣) بن فرقد: ضعيف الحديث بالكلية.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا (٣٥) جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن السعداء وما أعد لهم تعالى من الكرامة والنعيم المقيم، فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾. قال ابن عباس والضحاك: منتزها. وقال مجاهد، وقتادة: فازوا، فنجوا من النار. والأظهر هاهنا قول ابن عباس؛ لأنه قال بعده: ﴿حَدَائِقَ﴾، وهي البساتين من النخيل وغيرها ﴿وَأَعْنَابًا. وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ أى: حوراً كواعب. قال ابن عباس ومجاهد، وغير واحد: ﴿كَوَاعِبَ﴾ أى: نواهد، يعنون أن تُدَيِّهَن نواهد لم يتدلين لأنهن أبكار عُرِبَ أتراب، أى: فى سن واحدة، كما تقدم بيانه فى سورة «الواقعة».

قال ابن أبى حاتم: حدثنا عبد الله بن أحمد بن عبد الرحمن الدشتكى، حدثنى أبى، عن أبى سفيان عبد الرحمن بن عبد رب بن تيم اليشكرى، حدثنا عطية بن سليمان أبو الغيث، عن أبى عبد الرحمن القاسم بن أبى القاسم الدمشقى، عن أبى أمامة: أنه سمعه يحدث عن النبى ﷺ أنه قال: «إِنْ قُمُصْ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَتَبْدُو مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، وَإِنَّ السَّحَابَةَ لَتَمْرِبُهُمْ فَتَنَادِيهِمْ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، مَاذَا تَرِيدُونَ أَنْ أَمْطَرَكُم؟ حَتَّىٰ إِنَّمَا لَتَمْطَرَهُمُ الْكَوَاعِبُ الْأَتْرَابُ»^(٤).

وقوله: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾، قال ابن عباس: مملوءة متتابعة. وقال عكرمة: صافية. وقال مجاهد، والحسن وقتادة، وابن زيد: ﴿دِهَاقًا﴾: الملائى المترعة. وقال مجاهد^(٥)، وسعيد بن جبیر: هى المتتابعة.

وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا﴾، كقوله: ﴿لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣] أى: ليس فيها كلام لاغٍ عارٍ عن الفائدة، ولا إثم كذب، بل هى دار السلام، وكل كلام فيها سالم من النقص.

(١) فى أ: «حدثنا حسن».

(٢) ورواه البيهقى فى البعث برقم (٦٣٥) من طريق محمد بن غالب، عن مسلم بن إبراهيم، عن جسر بن فرقد به، فذكره موقوفاً، ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى تخريج الكشاف للزيلعى (١٤٥/٤) من طريق جعفر بن جسر بن فرقد، عن أبيه، عن الحسن به، ورواه الثعلبى فى تفسيره كما فى تخريج الكشاف للزيلعى (١٤٥/٤) من طريق مهدي بن ميمون، عن الحسن بن دينار، عن الحسن، عن أبى برزة مرفوعاً بنحوه.

(٣) فى أ: «حسن».

(٤) ورواه أبو نعيم فى تاريخ أصبهان (١٩٥/١) من طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن سعد، عن أبى سفيان - عبد الرحمن بن عبد رب بن تيم اليشكرى به.

(٥) فى م: «وقال قتادة».

وقوله : ﴿ جَزَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴾ أى : هذا الذى ذكرناه جازاهم الله به وأعطاهموه ، بفضلله ومنه وإحسانه ورحمته ؛ ﴿ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴾ أى : كافياً وافراً شاملاً كثيراً ؛ تقول العرب : «أعطاني فأحسبني» أى : كفاني . ومنه «حسبى الله» ، أى : الله كافى .

﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿ (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿ (٣٩) إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿ (٤٠) .

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله ، وأنه رب السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ، وأنه الرحمن الذى شملت رحمته كل شيء .

وقوله : ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ أى : لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه ، كقوله : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، وكقوله : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [هود: ١٠٥] .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ ﴾ ، اختلف المفسرون فى المراد بالروح هاهنا ، ما هو ؟ على أقوال :

أحدها : رواه العوفى ، عن ابن عباس : أنهم أرواح بنى آدم .

الثانى : هم بنو آدم . قاله الحسن ، وقتادة ، وقال قتادة : هذا ^(١) مما كان ابن عباس يكتمه .

الثالث : أنهم خلق من خلق الله ، على صور بنى آدم ، وليسوا بملائكة ولا يبشر ، وهم يأكلون ويشربون . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وأبو صالح والأعمش .

الرابع : هو جبريل . قاله الشعبي ، وسعيد بن جبیر ، والضحاك . ويستشهد لهذا القول بقوله : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ، ١٩٤] . وقال مقاتل بن حيان : الروح : أشرف الملائكة ، وأقرب إلى الرب عز وجل ، وصاحب الوحي . والخامس : أنه القرآن . قاله ابن زيد ، كقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢] .

والسادس : أنه ملك من الملائكة بقدر جميع المخلوقات ؛ قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : قوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ ﴾ ، قال : هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً .

وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن خلف العسقلانى ، حدثنا رواد ^(٢) بن الجراح ، عن أبى

(٢) فى أ : « حدثنا داود » .

(١) فى م : « وهذا » .

حمزة ، عن الشعبي ، عن علقمة ، عن ابن مسعود قال : الروح : فى السماء الرابعة هو أعظم من السموات ومن الجبال ومن الملائكة ، يسبح كل يوم اثنى عشر ألف تسبيحة ، يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً من الملائكة يجيء يوم القيامة صفأ وحده^(١) ، وهذا قول غريب جداً .

وقد قال الطبرانى : حدثنا محمد بن عبد الله بن عرس المصرى ، حدثنا وهب [الله بن رزق أبو هريرة ، حدثنا بشر بن بكر] ^(٢) ، حدثنا الأوزاعى ، حدثنى عطاء ، عن عبد الله بن عباس : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن لله ملكا لو قيل له : التقم السموات السبع والأرضين بلقمة واحدة ، لفعل ، تسبيحه : سبحانك حيث كنت » ^(٣) .

وهذا حديث غريب جداً ، وفى رفعه نظر ، وقد يكون موقوفاً على ابن عباس ، ويكون مما تلقاه من الإسرائيليات ، والله أعلم .

وتوقف ابن جرير فلم يقطع بواحد من هذه الأقوال كلها ، والأشبه - والله أعلم - أنهم بنو آدم .

وقوله : ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ ، كقوله : ﴿ لَا تَكَلِّمْ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [هود: ١٠٥] . وكما ثبت فى الصحيح : « ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل » .

وقوله : ﴿ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ أى : حقاً ، ومن الحق : « لا إله إلا الله » ، كما قاله أبو صالح ، وعكرمة .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ﴾ أى : الكائن لا محالة ، ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَاءً ﴾^(٤) أى : مرجعاً وطريقاً يهتدى إليه ومنهجاً يمر به عليه .

وقوله : ﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ يعنى : يوم القيامة لتأكد وقوعه صار قريباً ، لأن كل ما هو آت آت .

﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أى : يعرض عليه جميع أعماله ، خيرها وشرها ، قديمها وحديثها ، كقوله : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ [الكهف: ٤٩] ، وكقوله : ﴿ يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة: ١٣] .

﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ أى : يود الكافر يومئذ أنه كان فى الدار الدنيا تراباً ، ولم يكن خلقاً ، ولا خرج إلى الوجود . وذلك حين عاين عذاب الله ، ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سطرت عليه بأيدى الملائكة السفرة الكرام البررة . وقيل : إنما يود ذلك حين يحكم الله بين

(١) تفسير الطبرى (١٥/٣٠) .

(٢) زيادة من م ، أ .

(٣) المعجم الكبير (٩٥/١١) ، والمعجم الأوسط برقم (٦٦) « مجمع البحرين » ، وقال فى الأوسط : « لم يروه عن الأوزاعى إلا بشر ، تفرد به وهب » ، وهب لم أر من ترجم له .

(٤) فى م : « سيلاً » وهو خطأ .

الحيوانات التى كانت فى الدنيا ، يفصل بينها بحكمه العدل الذى لا يجور ، حتى إنه ليقصص للشاة الجماء من القرناء . فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها : كونى ترابا ، فتصير ترابا . فعند ذلك يقول الكافر : ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ أى : كنت حيوانا فأرجع إلى التراب . وقد ورد معنى هذا فى حديث الصّور المشهور ^(١) ، وورد فيه آثار عن أبى هريرة ، وعبد الله بن عمرو ، وغيرهما .

[آخر تفسير سورة « عم » ^(٢)] ^(٣)

(١) حديث الصور تقدم بطوله عند تفسير الآية : ٧٣ من سورة « الأنعام » .
(٢) فى م : « النبأ » .
(٣) زيادة من م ، أ .

تفسير سورة النازعات

وهي مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝٤ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتَّبِعُنَا الرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَأَنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝١٠ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ۝١١ قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ۝١٤ ﴾ .

قال ابن مسعود ، وابن عباس ، ومسروق ، وسعيد بن جبیر ، وأبو صالح ، وأبو الضحی ، والسدي : ﴿ النَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾ : الملائكة ، يعنون حين تنزع أرواح بني آدم ، فمنهم من تأخذ روحه بعنف فتغرق في نزعها ، و [منهم] ^(١) من تأخذ روحه بسهولة وكأنما حلته من نشاط ، وهو قوله : ﴿ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾ ، قاله ابن عباس .

وعن ابن عباس : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ ﴾ : هي أنفس الكفار ، تُنَزَعُ ثم تُنْشَطُ ، ثم تغرق في النار . رواه ابن أبي حاتم .

وقال مجاهد : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾ : الموت . وقال الحسن ، وقتادة : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا . وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾ : هي النجوم .

وقال عطاء بن أبي رباح في قوله : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ ﴾ و ﴿ النَّاشِطَاتِ ﴾ : هي القسي في القتال . والصحيح الأول ، وعليه الأكثرون .

وأما قوله : ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴾ ، فقال ابن مسعود : هي الملائكة . ورؤى عن علي ، ومجاهد ، وسعيد بن جبیر ، وأبي صالح مثل ذلك .

وعن مجاهد : ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴾ : الموت . وقال قتادة : هي النجوم . وقال عطاء بن أبي رباح : هي السفن .

وقوله : ﴿ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴾ : رؤى عن علي ، ومسروق ، ومجاهد ، وأبي صالح ، والحسن البصري : يعنى الملائكة ؛ قال الحسن : سبقت إلى الإيمان والتصديق به . وعن مجاهد : الموت . وقال قتادة : هي النجوم . وقال عطاء : هي الخيل في سبيل الله .

(١) زيادة من م .

وقوله : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ ، قال على ، ومجاهد ، وعطاء ، وأبو صالح ، والحسن ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، والسدى : هى الملائكة - زاد الحسن : تدبر الأمر من السماء إلى الأرض . يعنى : بأمر ربها عز وجل . ولم يختلفوا فى هذا ، ولم يقطع ابن جرير بالمراد فى شىء من ذلك ، إلا أنه حكى فى ﴿ الْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ : أنها الملائكة ، ولا أثبت ولا نفى .

وقوله : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ ، قال ابن عباس : هما النفختان الأولى والثانية . وهكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، وغير واحد .

وعن مجاهد : أما الأولى - وهى قوله : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ - فكقوله جلت عظمتة : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ [المزمل : ١٤] ، والثانية - وهى الرادفة - فهى كقوله : ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الحاقة : ١٤] .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن الطفيل بن أبى بن كعب ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « جاءت الراجفة ، تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » . فقال رجل : يا رسول الله ، أرأيت إن جعلت صلاتى كلها عليك ؟ قال : « إذا يكفيك الله ما أهمك من دنياك وآخرتك » .

وقد رواه الترمذى ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم ، من حديث سفيان الثورى ، بإسناده مثله ^(١) ، ولفظ الترمذى وابن أبى حاتم : كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : « يا أيها الناس ، اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » .

وقوله : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ : قال ابن عباس : يعنى خائفة . وكذا قال مجاهد ، وقتادة . ﴿ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ أى : أبصار أصحابها . وإنما أضيف إليها ؛ للملابسة ، أى : ذليلة حقيرة ؛ مما عاينت من الأهوال .

وقوله : ﴿ يَقُولُونَ أَنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾ ؟ يعنى : مشركى قريش ومن قال بقولهم فى إنكار المعاد ، يستبعدون وقوع البعث بعد المصير إلى الحافرة ، وهى القبور ، قاله مجاهد . وبعد تمزق أجسادهم وتفتت عظامهم ونخورها ؛ ولهذا قالوا : ﴿ أءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴾ ؟ وقرئ : « ناخرة » .

وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : أى بالية . قال ابن عباس : وهو العظم إذا بلى ودخلت الريح فيه . ﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ .

وعن ابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وأبى مالك ، والسدى ، وقتادة : الحافرة : الحياة بعد الموت . وقال ابن زيد : الحافرة : النار . وما أكثر أسماءها ! هى النار ، والجحيم ، وسقر ، وجهنم ، والهاوية ، والحافرة ، ولظى ، والحطمة .

وأما قولهم : ﴿ تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ ، فقال محمد بن كعب : قالت قريش : لئن أحيانا الله بعد أن نموت لنخسرن .

(١) المسند (١٣٦/٥) ، وسنن الترمذى برقم (٢٤٥٧) ، وتفسير الطبرى (٢١/٣٠) .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ أى : فإنما هو أمر من الله لا مشنوية فيه ولا تأكيد ، فإذا الناس قيام ينظرون ، وهو أن يأمر تعالى إسرافيل فينفخ فى الصور نفخة البعث ، فإذا الأولون والآخرون قيام بين يدى الرب عز وجل ينظرون ، كما قال : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر: ٥٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [النحل: ٧٧].

قال مجاهد : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ : صيحة واحدة .

وقال إبراهيم التيمى : أشد ما يكون الرب غَضَبًا على خلقه يوم يبعثهم .

وقال الحسن البصرى : زجرة من الغضب . وقال أبو مالك ، والربيع بن أنس : زجرة واحدة : هى النفخة الآخرة .

وقوله : ﴿ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ ، قال ابن عباس : ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ : الأرض كلها . وكذا قال سعيد بن جبير ، وقتادة ، وأبو صالح .

وقال عكرمة ، والحسن ، والضحاك ، وابن زيد : ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ : وجه الأرض .

وقال مجاهد : كانوا بأسفلها فأخرجوا إلى أعلاها . قال : و ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ : المكان المستوى .

وقال الثورى : ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ : أرض الشام ، وقال عثمان بن أبى العاتكة : ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ : أرض بيت المقدس . وقال وهب بن منبه : ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ : جبل إلى جانب بيت المقدس . وقال قتادة أيضا : ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ : جهنم .

وهذه أقوال كلها غريبة ، والصحيح أنها الأرض وجهها الأعلى .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا خَزَر بن المبارك الشيخ الصالح ، حدثنا بشر ابن السرى ، حدثنا مصعب بن ثابت ، عن أبى حازم ، عن سهل بن سعد الساعدى : ﴿ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ قال : أرض بيضاء عفراء كالخُبْزَةِ النِّقَى .

وقال الربيع بن أنس : ﴿ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ ، يقول الله عز وجل : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨] ، ويقول : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٥، ١٠٦] . وقال : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [الكهف: ٤٧] : وبرزت الأرض التى عليها الجبال ، وهى لا تعد من هذه الأرض ، وهى أرض لم يعمل عليها خطيئة ، ولم يهراق عليها دم .

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ إِلَى

فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ
الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ
الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢٦﴾ .

يخبر تعالى رسوله محمداً ﷺ عن عبده ورسوله موسى ، عليه السلام ، أنه ابتعنه إلى فرعون ،
وأيده بالمعجزات ، ومع هذا استمر على كفره وطغيانه ، حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر . وكذلك
عاقبة من خالفك وكذب بما جئت به ؛ ولهذا قال في آخر القصة : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾ .

فقوله : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ ؟ أى : هل سمعت بخبره ؟ ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ ﴾ أى : كلمة
نداء ، ﴿ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ ﴾ أى : المطهر ، ﴿ طُوًى ﴾ : وهو اسم الوادى على الصحيح ، كما تقدم
فى سورة « طه » . فقال له : ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ أى : تجبر وتمرد وعتا ، ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ
إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴾ ؟ أى : قل له : هل لك أن تجيب إلى طريقة ومسلك تزكّى به ، أى : تسلم وتطيع .
﴿ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أى : أدلك إلى عبادة ربك ، ﴿ فَتَخْشَى ﴾ أى : فيصير قلبك خاضعا له مطيعا
خاشيا بعد ما كان قاسيا خبيثا بعيدا من الخير . ﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴾ يعنى : فأظهر له موسى مع هذه
الدعوة الحق حجة قوية ، ودليلا واضحا على صدق ما جاء به من عند الله ، ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴾ أى :
فكذب بالحق وخالف ما أمره به من الطاعة . وحاصله أنه كفر قلبه فلم يفعل ^(١) لموسى بباطنه ولا
بظاهره ، وعلمه بأن ما جاء به أنه حق لا يلزم منه أنه مؤمن به ؛ لأن المعرفة علم القلب ، والإيمان
عمله ، وهو الانقياد للحق والخضوع له .

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ﴾ أى : فى مقابلة الحق بالباطل ، وهو جمعه السحرة ليقابلوا ما جاء
به موسى ، عليه السلام ، من المعجزة الباهرة ، ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴾ أى : فى قومه ، ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ
الْأَعْلَى ﴾ .

قال ابن عباس ، ومجاهد : وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾
[القصص: ٣٨] بأربعين سنة .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ أى : انتقم الله منه انتقاما جعله به عبرة
ونكالا لأمثاله من المتمردين فى الدنيا ، ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ نَسْفُ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ [هود: ٩٩] ، كما قال
تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [القصص: ٤١] . هذا هو الصحيح
فى معنى الآية ، أن المراد بقوله : ﴿ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ أى : الدنيا والآخرة ، وقيل : المراد بذلك
كلماته الأولى والثانية . وقيل : كفره وعصيانه . والصحيح الذى لا شك فيه الأول .

وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾ أى : لمن يتعظ وينزجر .

(١) فى ١ : « فلم يفعل » .

﴿ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾ (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣) .

يقول تعالى محتجاً على منكرى البعث فى إعادة الخلق بعد بدئه : ﴿ أَنْتُمْ ﴾ : أيها الناس ﴿ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ﴾ ؟ يعنى : بل السماء أشد خلقاً منكم ، كما قال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧] ، وقال : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ^(١) ﴾ [يس: ٨١] ، فقلوه : ﴿ بَنَاهَا ﴾ ، فسرّه بقوله : ﴿ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ أى : جعلها عالية البناء ، بعيدة الفناء ، مستوية الأرجاء ، مكللة بالكواكب فى الليلة الظلماء .

وقوله : ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أى : جعل ليلها مظلماً أسود حالكا ، ونهارها مضيئاً مشرقاً نيراً واضحاً .

قال ابن عباس : أغطش ليلها : أظلمه . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبیر ، وجماعة كثيرون .

﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أى : أنار نهارها .

وقوله : ﴿ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ ، فسرّه بقوله : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ . وقد تقدم فى سورة « حم السجدة » ^(٢) أن الأرض خلقت قبل السماء ، ولكن إنما دُحيت بعد خلق السماء ، بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل . وهذا معنى قول ابن عباس ، وغير واحد ، واختاره ابن جرير .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن جعفر الرقى ، حدثنا عبيد الله — يعنى ابن عمرو — عن زيد بن أبى أنيسة ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس : ﴿ دَحَاهَا ﴾ : وَدَحِيهَا أَنْ أَخْرَجَ مِنْهَا الْمَاءَ وَالْمَرْعَى ، وَشَقَّ [فِيهَا] ^(٣) الْأَنْهَارَ ، وَجَعَلَ فِيهَا الْجِبَالَ وَالرَّمَالَ وَالسَّبِيلَ وَالْأَكَامَ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ . وقد تقدم تقرير ذلك هنالك .
وقوله : ﴿ وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا ﴾ أى : قررّها وأثبتّها وأكّدها فى أماكنها ، وهو الحكيم العليم ، الرؤوف بخلقه الرحيم .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا العوام بن حوشب ، عن سليمان بن أبى سليمان ، عن أنس بن مالك ، عن النبى ﷺ قال : « لما خلق الله الأرض جعلت تَمِيدَ ، فخلق الجبال فألقاها عليها ، فاستقرت ، فتعجبت الملائكة من خلق الجبال فقالت : يا رب ، فهل من

(١) فى م ، أ : « بلى إنه على كل شىء قدير » وهو خطأ .

(٢) عند تفسير الآية : ٩ .

(٣) زيادة من أ .

خلقتك شيء أشد من الجبال ؟ قال نعم ، الحديد . قالت : يا رب ، فهل من خلقتك شيء أشد من الحديد ؟ قال : نعم ، النار . قالت : يا رب ، فهل من خلقتك شيء أشد من النار ؟ قال : نعم ، الماء . قالت : يا رب ، فهل من خلقتك شيء أشد من الماء ؟ قال : نعم ، الريح . قالت : يا رب ، فهل من خلقتك شيء أشد من الريح ؟ قال : نعم ، ابن آدم ، يتصدق بيمينه يخفيها من ^(١) شماله ^(٢) .

وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا جرير ، عن عطاء ، عن أبي عبد الرحمن السلمي ، عن علي قال : لما خلق الله الأرض قمصت وقالت : تخلق على آدم وذريته ، يلقون على نبتهم ويعملون على بالخطايا ، فأرسلها الله بالجبال ، فمنها ما ترون ، ومنها ما لا ترون ، وكان أول قرار الأرض كلحم الجزور إذا نحر ، يختلج لحمه . غريب ^(٣) .

وقوله : ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ أي : دحا الأرض فأنبع عيونها ، وأظهر مكنونها ، وأجرى أنهارها ، وأنبت زروعها وأشجارها وثمارها ، وثبت جبالها ، لتستقر بأهلها ويقر قرارها ، كل ذلك متاعاً لخلقها ولما يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها في هذه الدار إلى أن ينتهي الأمد ، وينقضي الأجل .

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴾ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا (٤٥) كَانَهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) .

يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴾ : وهو يوم القيامة . قاله ابن عباس ، سميت بذلك لأنها تطم على كل أمر هائل مقطع ، كما قال تعالى : ﴿ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ [القمر: ٤٦] .

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴾ أي : حينئذ يتذكر ابن آدم جميع عمله خيره وشره ، كما قال : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ [الفجر: ٢٣] .

﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ﴾ أي : أظهرت للناظرين فرآها الناس عياناً ، ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴾ أي : تمرد وعتا ، ﴿ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أي : قدمها على أمر دينه وأخراه ، ﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ أي : فإن مصيره إلى الجحيم ، وإن مطعمه من الزقوم ، ومشربه من الحميم . ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾

(١) في أ : « عن » .

(٢) المسند (٣/ ١٢٤) ، ورواه الترمذي في السنن برقم (٣٣٦٩) عن محمد بن بشار ، عن يزيد بن هارون به ، وقال الترمذي : « هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه » .

(٣) تفسير الطبري (٣٠/ ٣٠) .

وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣٤﴾ أَيْ : خاف القيام بين يدي الله عز وجل ، وخاف حُكْمَ الله فيه ، ونهى نفسه عن هواها ، وَرَدَّهَا إِلَى طَاعَةِ مَوْلَاهَا ﴿٣٥﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٦﴾ أَيْ : منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء .

ثم قال تعالى : ﴿٣٧﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا . إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴿٣٨﴾ أَيْ : ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق ، بل مَرَدُّهَا وَمَرْجِعُهَا إِلَى الله عز وجل ، فهو الذى يعلم وقتها على التعيين ، ﴿٣٩﴾ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴿٤٠﴾ [الأعراف: ١٨٧] ، وقال هاهنا : ﴿٤١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴿٤٢﴾ . ولهذا ^(١) لما سأل جبريلُ رسولَ الله ﷺ عن وقت الساعة قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » ^(٢) .

وقوله : ﴿٤٣﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا ﴿٤٤﴾ أَيْ : إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذرهم من بأس الله وعذابه ^(٣) ، فمن خشى الله وخاف مقامه ^(٤) ووعيده ، اتبعك فأفلح وأنجح ، والخيبة والخسار على من كذبك وخالفك .

وقوله : ﴿٤٥﴾ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾ أَيْ : إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مُدَّةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، حتى كأنها عندهم كانت عشيّة من يوم أو ضُحَى من يوم .

قال جُوَيْرٍ ، عن الضحّاك ، عن ابن عباس : ﴿٤٥﴾ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾ ، أما عَشِيَّةٌ : فما بين الظهر إلى غروب الشمس ، ﴿٤٥﴾ أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾ : ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار .

وقال قتادة : وقت الدنيا فى أعين القوم حين عاينوا الآخرة .

[آخر تفسير سورة « النازعات »] ^(٥) [ولله الحمد والمنة] ^(٦)

(١) فى م: « وهذا » .

(٢) هذا جزء من حديث جبريل الطويل وهو فى صحيح مسلم برقم (٨) .

(٣) فى م: « وعقابه » .

(٤) فى م: « وخاف عقابه » .

(٥) زيادة من م ، أ .

تفسير سورة عبس

وهي مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَزَكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمِنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) ﴾ .

ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطبُ بعضَ عظماء قريش ، وقد طمع في إسلامه ، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابنُ أم مكتوم — وكان ممن أسلم قديماً — فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويلح عليه ، وودَّ النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل ؛ طمعاً ورغبة في هدايته . وعَبَسَ في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه ، وأقبل على الآخر ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى ؟ أَى : يحصل له زكاة وطهارة في نفسه ، ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ أَى : يحصل له اتعاظ وانزجار عن المحارم ، ﴿ أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى . فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴾ أَى : أما الغنى فأنت تتعرض له لعله يهتدى ، ﴿ وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَزَكَّى ﴾ ؟ أَى : ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة . ﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى . وَهُوَ يَخْشَى ﴾ أَى : يقصدك ويؤمك ليهتدى بما تقول له ، ﴿ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ أَى : تتشاغل . ومن هاهنا أمر الله عز وجل رسوله ﷺ ألا يخص بالإنذار أحداً ، بل يساوى فيه بين الشريف والضعيف ، والفقر والغنى ، والسادة والعبيد ، والرجال والنساء ، والصغار والكبار . ثم الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة .

قال الحافظ أبو يعلى في مسنده : حدثنا محمد — هو ابن مهدى — حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن قتادة [عن أنس] ^(١) في قوله : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ ، جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ وهو يكلم أبا بن خلف ، فأعرض عنه ، فأنزل الله : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾ ، فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه .

قال قتادة : وأخبرني أنس بن مالك قال : رأيته يوم القادسية وعليه درع ومعه راية سوداء —

(١) تنبيه : ما بين المعقوفين ليس في أصل مسند أبي يعلى وتفسير عبد الرزاق . وهو من النسخ ، وأظنه مقحماً . والله أعلم .

يعنى ابن أم مكتوم (١) .

وقال أبو يعلى وابن جرير: حدثنا سعيد بن يحيى الأموى ، حدثنى أبى ، عن هشام بن عروة ، عن عروضة عليه عن عروّة ، عن عائشة قالت : أنزلت : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ فى ابن أم مكتوم الأعمى ، أتى إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول : أرشدنى . قالت : وعند رسول الله ﷺ من عظماء المشركين . قالت : فجعل النبى ﷺ يُعرض عنه ويقبل على الآخر ، ويقول : « أترى بما أقول بأسا ؟ » . فيقول : لا . ففى هذا أنزلت : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ (٢) .

وقد روى الترمذى هذا الحديث ، عن سعيد بن يحيى الأموى ، بإسناده ، مثله ، ثم قال : وقد رواه بعضهم عن هشام بن عروة ، عن أبيه قال : أنزلت ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ فى ابن أم مكتوم ، ولم يذكر فيه عن عائشة (٣) .

قلت : كذلك هو فى الموطأ (٤) .

ثم روى ابن جرير وابن أبى حاتم أيضا من طريق العوفى ، عن ابن عباس قوله : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾ ، قال : بينا رسول الله ﷺ يناجى عتبة بن ربيعة ، وأبا جهل بن هشام ، والعباس بن عبد المطلب — وكان يتصدى لهم كثيرا ، ويحرص (٥) عليهم أن يؤمنوا — فأقبل إليه رجل أعمى — يقال له عبد الله بن أم مكتوم — يمشى وهو يناجيهم ، فجعل عبد الله يستقرئ النبى ﷺ آية من القرآن ، وقال : يا رسول الله ، علمنى مما علمك الله . فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، وعبس فى وجهه ، وتولى وكره كلامه ، وأقبل على الآخرين ، فلما قضى رسول الله ﷺ نجواه ، وأخذ ينقلب إلى أهله ، أمسك الله بعض بصره ، ثم خفق برأسه ، ثم أنزل الله : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى . أَوْ يَذْكُرُ فِتْنَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ . فلما نزل فيه ما نزل ، أكرمه رسول الله ﷺ وكلمه وقال له النبى ﷺ : « ما حاجتك ؟ هل تريد من شىء ؟ » وإذا ذهب من عنده قال : « هل لك حاجة فى شىء ؟ » . وذلك لما أنزل الله تعالى : ﴿ أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى . فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى . وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى ﴾ (٦) .

فيه غرابة ونكارة ، وقد تكلم فى إسناده .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن منصور الرمادى ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثنا الليث ، حدثنى يونس ، عن ابن شهاب قال : قال سالم بن عبد الله ، عن عبد الله بن عمر :

(١) مسند أبى يعلى (٤٣١/٥) ، وتفسير عبد الرزاق (٢٨٢/٢) .

(٢) مسند أبى يعلى (٢٦١/٨) ، وتفسير الطبرى (٣٢٠/٣٠) .

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٣٢٨) .

(٤) الموطأ (٢٠٣/١) .

(٥) فى أ : « ويجعل » .

(٦) تفسير الطبرى (٣٢/٣٠) ، ووجه غرابته ما نقله السهلى فى الروض الأنف عن شيخه ابن العربى قال : « قول المفسرين فى الذى شغل النبى ﷺ أنه الوليد بن المغيرة ، وأمىة بن خلف ، والعباس كله باطل ، فإن أمىة والوليد كانا بمكة ، وابن أم مكتوم كان بالمدينة ما حضر معهما ، ولا حضرا معه وماتا كافرين ، أحدهما قبل الهجرة والآخر فى بدر ، ولم يقصد أمىة المدينة قط ، ولا حضر عنده مفردا ولا مع آخر » انتهى .

سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن بلالا يؤذن بليل ، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم » . وهو الأعمى الذى أنزل الله فيه : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾ ، وكان يؤذن مع بلال . قال سالم : وكان رجلاً ضريراً البصر ، فلم يك يؤذن حتى يقول له الناس - حين ينظرون إلى بزوغ الفجر - : أذُنُ (١) .

وهكذا ذكر عروة بن الزبير ، ومجاهد ، وأبو مالك ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، وغير واحد من السلف والخلف : أنها نزلت (٢) فى ابن أم مكتوم . والمشهور أن اسمه عبد الله ، ويقال : عمرو . والله أعلم .

وقوله : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ أى : هذه السورة ، أو الوصية بالمساواة بين الناس فى إبلاغ العلم من (٣) شريفهم ووضيعهم .

وقال قتادة والسدى : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ يعنى : القرآن ، ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴾ أى : فمن شاء ذكر الله فى جميع أموره . ويحتمل عود الضمير على الوحي ؛ لدلالة الكلام عليه .

وقوله : ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ أى : هذه السورة أو العظة ، وكلاهما متلازم ، بل جميع القرآن ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ﴾ أى : معظمة موقرة ﴿ مَرْفُوعَةٍ ﴾ أى : عالية القدر ، ﴿ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ أى : من الدنس والزيادة والنقص .

وقوله : ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ . قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وابن زيد : هى الملائكة .

وقال وهب بن منبه : هم أصحاب محمد ﷺ ، وقال قتادة : هم القراء . وقال ابن جريج ، عن ابن عباس : السفارة بالنبطية : القراء .

وقال ابن جرير : الصحيح أن السفارة الملائكة ، والسفيرة يعنى بين الله وبين خلقه ، ومنه يقال : السفير : الذى يسعى بين الناس فى الصلح والخير ، كما قال الشاعر :

وَمَا أَدْعُ السَّفَارَةَ بَيْنَ قَوْمِي وَمَا أَمْشِيْ بَغْشَ إِنْ مَشَيْتُ (٤)

وقال البخارى : سَفَرَةٌ : الملائكة . سَفَرْتُ : أصلحت بينهم . وجعلت الملائكة إذا نَزَكَتْ بَوْحَى الله وتأديته كالسفير الذى يصلح بين القوم (٥) .

وقوله : ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ أى : خلقتهم كريم حسن شريف ، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة . ومن هاهنا ينبغى لحامل القرآن أن يكون فى أفعاله وأقواله على السداد والرشاد .

قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا هشام ، عن قتادة ، عن زُرَّارة بن أوفى ، عن سعد ابن هشام ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرؤه وهو عليه شاق له أجران » .

(١) أصل الحديث فى صحيح مسلم برقم (١٠٩٢) .

(٢) فى م : « أنها أنزلت » .

(٤) تفسير الطبرى (٣٠ / ٣٥) .

(٥) صحيح البخارى (٦٩١ / ٨) « فتح » .

أخرجه الجماعة من طريق قتادة ، به (١) .

﴿ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَيْنًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلَآئِنَّمَكُمُ (٣٢) ﴾ .

يقول تعالى ذاماً لمن أنكر البعث والنشور من بنى آدم : ﴿ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ . قال الضحاك ، عن ابن عباس : ﴿ قُتِلَ الْإِنْسَانُ ﴾ : لعن الإنسان . وكذا قال أبو مالك . وهذا لجنس الإنسان المكذب ؛ لكثرة تكذيبه بلا مستند ، بل بمجرد الاستبعاد وعدم العلم .

قال ابن جرير (٢) : ﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ : ما أشد كفره ! وقال ابن جرير : ويحتمل أن يكون المراد : أى شيء جعله كافراً ؟ أى : ما حمله على التكذيب بالمعاد (٣) .

وقال قتادة — وقد حكاه البغوي عن مقاتل والكلبي — : ﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ : ما ألعنه .

ثم بين تعالى له كيف خلقه الله من الشيء الحقير ، وأنه قادر على إعادته كما بدأه ، فقال : ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ . مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴾ أى : قدر أجله وورقه وعمله وشقى أو سعيد . ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ ﴾ ، قال العوفي ، عن ابن عباس : ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه . وكذا قال عكرمة ، والضحاك ، وأبو صالح ، وقاتادة ، والسدي ، واختاره ابن جرير (٤) .

وقال مجاهد : هذه كقوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣] أى : بينا (٥) له ووضّحناه وسهلنا عليه علمه (٦) ، وهكذا قال الحسن ، وابن زيد . وهذا هو الأرجح ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أى : إنه بعد خلقه له ﴿ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أى : جعله ذا قبر . والعرب تقول : « قبرت الرجل » : إذا وكى ذلك منه ، وأقبره الله . وعَصَبْتُ قرن الثور ، وأعصبه الله ، وبترت ذنب البعير وأبتره الله . وطردت عنى فلاناً ، وأطرده الله ، أى : جعله طريداً ، قال الأعشى :

لَوْ أَسْنَدَتْ مَيِّتًا إِلَى نَحْرِهَا (٧) عَاشَ ، وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَى قَابِرِ (٨)

(١) المسند (٤٨/٦) وصحيح البخارى برقم (٤٩٣٧) وصحيح مسلم برقم (٧٩٨) وسنن أبى داود برقم (١٤٥٤) وسنن الترمذى برقم (٢٩٠٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٤٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣٧٧٩) .

(٢) فى أ: « ابن جريح » .

(٣) تفسير الطبرى (٣٥/٣٠) ، وقد تصرف الحافظ هنا فى كلامه .

(٤) تفسير الطبرى (٣٦/٣٠) .

(٥) فى أ : « أى بيناه » .

(٦) فى أ : « عمله » .

(٧) فى م ، أ : « إلى صدرها » .

(٨) البيت فى تفسير الطبرى (٣٦/٣٠) .

وقوله : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ أى : بعثه بعد موته ، ومنه يقال : البعث والنشور ، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠] ، ﴿ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ [البقرة: ٢٥٩] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أصبغ بن الفرج ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث : أن دراجا أبا السمح أخبره ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد ، عن النبى ﷺ قال : « ياكل التراب كل شىء من الإنسان إلا عَجَبُ ذَنْبِهِ ^(١) » . قيل : وما هو يا رسول الله ؟ قال : « مثل حبة خردل منه ينشؤون » ^(٢) .

وهذا الحديث ثابت فى الصحيح من رواية الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، بدون هذه الزيادة ، ولفظه : « كل ابن آدم يبلى إلا عَجَبُ الذَّنْبِ ، منه خلق وفيه يركَّب » ^(٣) .

وقوله : ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ ، قال ابن جرير : يقول : كلا ، ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر ؛ من أنه قد أدى حق الله عليه فى نفسه وماله ، ﴿ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ يقول : لم يؤد ما فُرض عليه من الفرائض لربه عز وجل .

ثم روى - هو وابن أبى حاتم - من طريق ابن أبى نَجِيج ، عن مجاهد قوله : ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ قال : لا يقضى أحد أبدا كل ما افترض عليه . وحكاه البغوى ، عن الحسن البصرى ، بنحو من هذا . ولم أجد للمتقدمين فيه كلاماً سوى هذا . والذي يقع لى فى معنى ذلك - والله أعلم - أن المعنى : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ أى : بعثه ، ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ [أى] ^(٤) : لا يفعله الآن حتى تنقضى المدة ، ويفرغ القدر من بنى آدم ممن كتب تعالى ^(٥) له أن سيوجد منهم ، ويخرج إلى الدنيا ، وقد أمر به تعالى كونا وقدرًا ، فإذا تهاهى ذلك عند الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم .

وقد روى ابن أبى حاتم ، عن وهب بن منبه قال : قال عزير ، عليه السلام : قال الملك الذى جاءنى : فإن القبور هى بطن الأرض ، وإن الأرض هى أم الخلق ، فإذا خلق الله ما أراد أن يخلق ، وتمت هذه القبور التى مدّ الله لها ، انقطعت الدنيا ومات من عليها ، ولفظت الأرض ما فى جوفها ، وأخرجت القبور ما فيها ، وهذا شبيه بما قلناه من معنى الآية ، والله - سبحانه وتعالى - أعلم بالصواب .

وقال ^(٦) : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ : فيه امتنان ، وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعد ما كانت عظاما بالية وترابا متمزقا ، ﴿ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ أى : أنزلناه من السماء على الأرض ، ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴾ أى : أسكناه فيها فدخل فى تخومها وتخلل فى

(١) فى أ: « إلا عجز الذنب » .

(٢) ورواه الحاكم فى المستدرک (٦٠٩/٤) من طريق بحر بن نصر ، عن ابن وهب به ، وقال : « حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » قلت : دراج عن أبى الهيثم ضعيف .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٨١٤) ، وصحيح مسلم برقم (٢٩٥٥) .

(٤) زيادة من م ، أ . (٥) فى م : « ممن كتب الله » . (٦) فى أ : « وقوله » .

أجزاء الحب المودع فيها ، فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض ، ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ ، فالحب : كل ما يذكر من الحبوب ، والعنب معروف ، والقضب هو : الفصفصة التى تأكلها الدواب رطبة . ويقال لها : القَتَّ أيضا . قال ذلك ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك ، والسدى .

وقال الحسن البصرى : القضب : العلف .

﴿ وَزَيْتُونًا ﴾ : وهو معروف ، وهو أَدَمٌ وعصيره أدم ، ويستصبح به ، ويدهن به . ﴿ وَنَخْلًا ﴾ يؤكل بلحا بسرا ، ورطبا ، وتمرا ، ونيثا ، ومطبوخا ، ويعتصر منه رُبُّ وخل . ﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ أى : بساتين . قال الحسن ، وقتادة : ﴿ غُلْبًا ﴾ : نخل غلاظ كرام . وقال ابن عباس ، ومجاهد : « الحدائق » : كل ما التف واجتمع . وقال ابن عباس أيضا : ﴿ غُلْبًا ^(١) ﴾ : الشجر الذى يستظل به . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ أى : طوال . وقال عكرمة : ﴿ غُلْبًا ﴾ أى : غلاظ الأوساط . وفى رواية : غلاظ الرقاب ^(٢) ، ألم تر إلى الرجل إذا كان غليظ الرقبة قيل : والله إنه لأغلب . رواه ابن أبى حاتم ، وأنشد ابن جرير للفرزدق :

عَوَى فَأَثَارَ أَغْلَبَ ضَيْغَمِيًّا فَوَيْلَ ابْنِ الْمَرَاغَةِ مَا اسْتَنَارَا ^(٣)

وقوله : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ : أما الفاكهة فهو ما يتفكه به من الثمار . قال ابن عباس : الفاكهة : كل ما أكل رطبا . والأبّ ما أنبت الأرض ، مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس - وفى رواية عنه : هو الحشيش للبهائم . وقال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأبو مالك : الأب : الكلا . وعن مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وابن زيد : الأب للبهائم كالفاكهة لبنى آدم . وعن عطاء : كل شئ نبت على وجه الأرض فهو أبّ . وقال الضحاك : كل شئ أنبتته الأرض سوى الفاكهة فهو أبّ .

وقال ابن إدريس ، عن عاصم بن كليب ، عن أبيه ، عن ابن عباس : الأب : نبت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس . ورواه ابن جرير من ثلاث طرق ، عن ابن إدريس ، ثم قال : حدثنا أبو كريب وأبو السائب قالا : حدثنا ابن إدريس ، حدثنا عبد الملك ، عن سعيد بن جبير قال : عدّ ابن عباس وقال : الأب : ما أنبتت الأرض للأنعام . هذا لفظ أبى كريب ، وقال أبو السائب : ما أنبتت الأرض مما يأكل الناس وتأكل الأنعام .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : الأب : الكلا والمرعى . وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وابن زيد ، وغير واحد .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : حدثنا محمد بن يزيد ، حدثنا العوام بن حوشب ، عن إبراهيم التيمي قال : سئل أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه ، عن قوله تعالى : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ فقال : أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى إن قلتُ فى كتاب الله ما لا أعلم ^(٤) .

(٢) فى م : « الأرقاب » .

(١) فى م : « الغلب » .

(٣) تفسير الطبرى (٣٠/٣٧) .

(٤) فضائل القرآن لأبى عبيد (ص ٢٢٧) ، وسبق الكلام عليه فى مقدمة التفسير .

وهذا منقطع بين إبراهيم التيمي والصدّيق . فأما ما رواه ابن جرير حيث قال :

حدثنا ابن بشار ، حدثنا ابن أبي عدي ، حدثنا حميد ، عن أنس قال : قرأ عمر بن الخطاب ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ ، فلما أتى على هذه الآية : ﴿وَفَاكَّهُ وَأَبًا﴾ قال : عرفنا ما الفاكهة ، فما الأب ؟ فقال : لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف ^(١) .

فهو إسناد صحيح ، وقد رواه غير واحد عن أنس ، به . هو محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه ، وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض ، لقوله : ﴿فَأَنْبَتَا فِيهَا حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكَّهُ وَأَبًا﴾ .

وقوله : ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ أى : عيشة لكم ولأنعامكم فى هذه الدار إلى يوم القيامة .

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفَرَةٌ (٣٨) ضَاكِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)﴾ .

قال ابن عباس : ﴿الصَّاحَّةُ﴾ : اسم من أسماء يوم القيامة ، عظمه الله ، وحذّره عباده .

قال ابن جرير : لعله اسم للنفخة فى الصور . وقال البغوى : ﴿الصَّاحَّةُ﴾ : يعنى صيحة القيامة ؛ سميت بذلك لأنها تصخّ الأسماع ، أى : تبلغ فى إسماعها حتى تكاد تُصمّها ^(٢) .

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ أى : يراهم ، ويفر منهم ، ويتبعد عنهم ؛ لأن الهول عظيم ، والخطب جليل .

قال عكرمة : يلقي الرجل زوجته فيقول لها : يا هذه ، أى بعل كنت لك ؟ فتقول : نعم البعل كنت ! وتثنى بخير ما استطاعت ، فيقول لها : فإننى أطلبُ إليك اليومَ حسنةً واحدةً تهينها ^(٣) لى لعلنى أنجو مما ترين . فتقول له : ما أيسر ما طلبت ، ولكنى لا أطيق أن أعطيك شيئاً أتخوف مثل الذى تخاف . قال : وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلق به فيقول : يا بنى ، أى والد كنت لك ؟ فيثنى بخير . فيقول له : يا بنى ، إننى احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلنى أنجو بها مما ترى . فيقول ولده : يا أبت ، ما أيسر ما طلبت ، ولكنى أتخوف مثل الذى تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً . يقول الله تعالى : ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ .

وفى الحديث الصحيح - فى أمر الشفاعة - : أنه إذا طلب إلى كل من أولى العزم أن يشفع عند الله فى الخلائق ، يقول : نفسى نفسى ، لا أسأله اليوم إلا نفسى ، حتى إن عيسى ابن مريم يقول :

(١) تفسير الطبرى (٣٨/٣٠) ، ورواه ابن أبى شيبه فى المصنف (١٨٠/٧) من طريق يزيد به ، وتقدم الكلام عليه فى مقدمة التفسير .

(٢) فى أ : « تصمها » .

(٣) فى أ : « تهينها » .

لا أسأله اليوم إلا نفسي ، لا أسأله مريم التى ولدتنى . ولهذا قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ (١) .

قال قتادة : الأحب فالأحب ، والأقرب فالأقرب ، من هول ذلك اليوم .

وقوله : ﴿ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ أى : هو فى شُغْلٍ شاغل عن غيره .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عمار بن الحارث ، حدثنا الوليد بن صالح ، حدثنا ثابت أبو زيد العبادانى ، عن هلال بن خبَّاب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « تحشرون حفاة عراة مشاة غرلاً » . قال : فقالت زوجته : يا رسول الله ، أو يرى (٢) بعضنا عورة بعض ؟ قال : « ﴿ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ » . أو قال : « ما أشغله عن النظر » .

وقد رواه النسائى منفردا به ، عن أبى داود ، عن عارم ، عن ثابت بن يزيد — وهو أبو زيد الأحول البصرى ، أحد الثقات — عن هلال بن خبَّاب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، به (٣) . وقد رواه الترمذى عن عبد بن حميد ، عن محمد بن الفضل ، عن ثابت بن يزيد ، عن هلال بن خبَّاب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ قال : « تُحْشَرُونَ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرُلًا » . فقالت امرأة : أبصر — أو : يرى — بعضنا عورة بعض ؟ قال : « يا فلانة ، ﴿ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ » (٤) . ثم قال الترمذى : وهذا حديث حسن صحيح ، وقد روى من غير وجه عن ابن عباس ، رضى الله عنه (٥) .

وقال النسائى : أخبرنى عمرو بن عثمان ، حدثنا بَقِيَّةٌ ، حدثنا الزبيدى ، أخبرنى الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة ، أن رسول الله ﷺ قال : « يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً » . فقالت عائشة : يا رسول الله ، فكيف بالعورات ؟ فقال : « ﴿ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ » (٦) .

انفرد به النسائى من هذا الوجه .

ثم قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أزهر بن حاتم ، حدثنا الفضل بن موسى ، عن عائذ ابن شريح ، عن أنس بن مالك قال : سألت عائشة ، رضى الله عنها ، رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى ، إنى سائلتك عن حديث فتخبرنى أنتَ به . فقال : « إن كان عندى منه علم » . قالت : يا نبى الله ، كيف يحشر الرجال ؟ قال : « حفاة عراة » . ثم انتظرت ساعة فقالت : يا نبى الله ، كيف يحشر النساء ؟ قال : « كذلك حفاة عراة » . قالت : واسوأته من يوم القيامة ! قال : « وعن أى ذلك تسألين ؟ إنه قد نزل على آية لا يضررك كان عليك ثياب أو لا يكون » .

(١) أحاديث الشفاعة سبقت عند تفسير أول سورة الإسراء .

(٢) فى م : « يا رسول الله ، نظر أو يرى » .

(٣) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٤٧) .

(٤) سنن الترمذى برقم (٣٣٣٢) .

(٥) فى أ : « رضى الله تعالى عنهما » .

(٦) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٤٨) .

قالت : أية آية هي يا نبي الله ؟ قال : ﴿ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (١) .

وقال البغوى فى تفسيره : أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي ، أخبرنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي ، أخبرنى الحسين بن عبد الله ، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن ، حدثنا محمد بن عبد العزيز ، حدثنا ابن أبى أويس ، حدثنا أبى ، عن محمد بن أبى عياش ، عن عطاء بن يسار ، عن سودة زوج النبی ﷺ قالت : قال رسول الله ﷺ : « يبعث الناس حفاة عراة غُرلاً قد أجمهم العرق ، وبلغ شحوم الآذان » . فقلت : يا رسول الله ، واسوأناه ينظر بعضنا إلى بعض ؟ فقال : « قد شغل الناس ، ﴿ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ » (٢) .

هذا حديث غريب من هذا الوجه جدا ، وهكذا رواه ابن جرير عن أبى عمار الحسين بن حريث المروزي ، عن الفضل بن موسى ، به (٣) . ولكن قال أبو حاتم الرازي : عائذ بن شريح ضعيف ، فى حديثه ضعف (٤) .

وقوله : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفَرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أى : يكون الناس هنالك فريقين : ﴿ وَجُوهٌ مُّسْفَرَةٌ ﴾ أى : مستنيرة ، ﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أى : مسرورة فرحة من سرور قلوبهم ، قد ظهر البشر على وجوههم ، وهؤلاء أهل الجنة . ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَافِرَةٌ . تَرَهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ أى : يعلوها ويغشاها (٥) قتر ، أى : سواد .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا سهل بن عثمان العسكرى ، حدثنا أبو على محمد مولى جعفر بن محمد ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « يلجم الكافر العرق ثم تقع الغبرة على وجوههم » . قال : فهو قوله : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَافِرَةٌ ﴾ (٦) .

وقال ابن عباس : ﴿ تَرَهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ أى : يغشاها سواد الوجوه .

وقوله : ﴿ أَوَلَيْكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ أى : الكفرة قلوبهم ، الفجرة فى أعمالهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِراً كَفَّاراً ﴾ [نوح: ٢٧] .

آخر تفسير سورة « عبس » ولله الحمد والمنة

- (١) ورواه الطبرى فى تفسيره (٣٩/٣٠) ، عن الحسين بن حريث عن الفضل بن موسى به .
- (٢) معالم التنزيل للبغوى (٨/٣٤٠) ، ورواه الحاكم فى المستدرک (٥١٤/٢) من طريق إسماعيل بن إسحاق ، عن إسماعيل بن أبى أويس به نحوه . وقال : « هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه بهذا اللفظ » .
- (٣) تفسير الطبرى (٣٩/٣٠) .
- (٤) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم (١٦/٧) .
- (٥) فى م : « تعلوها وتغشاها » .
- (٦) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٨/٤٢٤) ، وله شاهد من حديث ابن مسعود : رواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٥٨٢) «موارد» من طريق شريك ، عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص ، عن ابن مسعود مرفوعاً : « إن الكافر ليلجمه العرق يوم القيامة فيقول : أرحنى ولو إلى النار » .

تفسير سورة التكوير

وهي مكية .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا عبد الله بن بحير القاص : أن عبد الرحمن بن يزيد الصنعاني أخبره : أنه سمع ابن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ : « من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ، و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ﴾ ، و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ » .

وهكذا رواه الترمذي ، عن العباس بن عبد العظيم العنبري ، عن عبد الرزاق ، به ^(١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُحْضَرَتْ (١٤) .

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ يعني : أظلمت . وقال العوفي ، عنه : ذهب ، وقال مجاهد : اضمحلّت وذهبت . وكذا قال الضحاك . وقال قتادة : ذهب ضوءها . وقال سعيد بن جبیر : ﴿ كُوِّرَتْ ﴾ : غُوِّرَتْ . وقال الربيع بن خثيم : ﴿ كُوِّرَتْ ﴾ يعني : رمى بها . وقال أبو صالح : ﴿ كُوِّرَتْ ﴾ : ألقيت . وعنه أيضا : نكست . وقال زيد بن أسلم : تقع في الأرض .

قال ابن جرير : والصواب من القول عندنا في ذلك أن التكوير جمع الشيء بعضه إلى ^(٢) بعض ، ومنه تكوير العمامة [وهو لفها على الرأس ، وتكوير الكاره ، وهي] ^(٣) جمع الثياب بعضها إلى ^(٤) بعض ، فمعنى قوله : ﴿ كُوِّرَتْ ﴾ : جمع بعضها إلى بعض ، ثم لفت فرمى بها ، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها ^(٥) .

(١) المسند (٢٧/٢) ، وسنن الترمذي برقم (٣٣٣٣) ، وقال الترمذي : « هذا حديث حسن غريب » .

(٢) في م : « على » .

(٣) زيادة من تفسير الطبري .

(٤) في م : « على » .

(٥) تفسير الطبري (٤١/٣٠) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج وعمرو بن عبد الله الأودي ، حدثنا أبو أسامة ، عن مجالد ، عن شيخ من بَجِيلَة ، عن ابن عباس : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ قال : يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر ، ويبعث الله ريحا دبوراً فتضرمها نارا . وكذا قال عامر الشعبي . ثم قال ابن أبي حاتم :

حدثنا أبي ، حدثنا أبو صالح ، حدثني معاوية بن صالح ، عن ابن يزيد بن أبي مريم ، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال في قول الله : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ، قال : « كورت في جهنم » ^(١) . وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده : حدثنا موسى بن محمد بن حيّان ، حدثنا دُرُسْتُ بن زياد ، حدثنا يزيد الرقاشي ، حدثنا أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « الشمس والقمر ثوران ^(٢) عقيران في النار » ^(٣) .

هذا حديث ضعيف ؛ لأن يزيد الرقاشي ضعيف ، والذي رواه البخاري في الصحيح بدون هذه الزيادة ، ثم قال البخاري :

حدثنا مُسَدَّدٌ ، حدثنا عبد العزيز بن المختار ، حدثنا عبد الله الداناجُ ، حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ : « الشمس والقمر يكوران يوم القيامة » ^(٤) .

انفرد به البخاري وهذا لفظه ، وإنما أخرجه في كتاب « بدء الخلق » ، وكان جديراً أن يذكره هاهنا أو يكرره ، كما هي عادته في أمثاله ! وقد رواه البزار فجَوَّدَ إirاده فقال :

حدثنا إبراهيم بن زياد البغدادى ، حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا عبد العزيز بن المختار ، عن عبد الله الداناج قال : سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن خالد بن عبد الله القسرى في هذا المسجد - مسجد الكوفة ، وجاء الحسن فجلس إليه فَحَدَّثَ قال : حدثنا أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن الشمس والقمر نوران في النار يوم القيامة » . فقال الحسن : وما ذنبهما ؟ فقال : أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول : أحسبه قال : وما ذنبهما .

ثم قال : لا يروى عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه ، ولم يرو عبد الله الداناج عن أبي سلمة سوى هذا الحديث .

وقوله : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ أى : انتثرت ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴾ [الانفطار: ٢] ، وأصل الانكدار : الانصباب .

قال الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب قال : ست آيات قبل يوم القيامة ، بينا الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم ، فبينما هم كذلك إذ

(١) ورواه الديلمي في مسنده ، كما في الدر المنثور للسيوطي (٤٢٦/٨) .

(٢) في م ، أ ، هـ : « ثوران » ، والصواب بالثاء .

(٣) مسند أبي يعلى (١٤٨/٧) ، ورواه ابن حبان في المجروحين (٢٩٣/١) من طريق درست بن زياد به ، وقال في درست بن زياد : « كان منكر الحديث جداً ، لا يحل الاحتجاج بخبره . وروى عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك ، فذكر هذا الحديث » .

(٤) صحيح البخاري برقم (٣٢٠٠) .

وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت ، ففزع الجن إلى الإنس وإلى الجن ، واختلطت الدواب والطيور والوحوش ، فماجوا بعضهم فى بعض : ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ قال : اختلطت ، ﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ قال : أهملها أهلها ، ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ قال : قالت الجن : نحن نأتيكم بالخبر . قال : فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجج ، قال : فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى وإلى السماء السابعة العليا ، قال فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الرياح فأماتتهم .

رواه ابن جرير ^(١) - وهذا لفظه - وابن أبى حاتم ، ببعضه ، وهكذا قال مجاهد والربيع بن خثيم ^(٢) ، والحسن البصرى ، وأبو صالح ، وحامد بن أبى سليمان ، والضحاك فى قوله : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ أى : تناثرت .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ أى : تغيرت . وقال يزيد ابن أبى مريم عن النبى ﷺ : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ قال : « انكدرت فى جهنم ، وكل من عبد من دون الله فهو فى جهنم ، إلا ما كان من عيسى وأمه ، ولو رضيا أن يُعبدَا لدخلاها » . رواه ابن أبى حاتم بالإسناد المتقدم .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ أى : زالت عن أماكنها ونُسِفَتْ ، فتركت الأرض قاعا صفصفا . وقوله : ﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ . قال عكرمة ، ومجاهد : عشار الإبل . قال مجاهد : ﴿ عُطِّلَتْ ﴾ : تركت وسييت .

وقال أبى بن كعب ، والضحاك : أهملها أهلها : وقال الربيع بن خثيم ^(٣) : لم تحلب ولم تُصَرَّ ، تخلى منها أربابها . وقال الضحاك : تركت لا راعى لها .

والمعنى فى هذا كله متقارب . والمقصود أن العشار من الإبل - وهى : خيارها والحوامل منها التى قد وَصَلَتْ فى حملها إلى الشهر العاشر ، واحدا ^(٤) : عَشْرَاء ، ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع - قد اشتغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها ، بعد ما كانوا أرغب شئ فيها ، بما دهمهم من الأمر العظيم المُفْظِعُ الهائل ، وهو أمر القيامة وانعقاد أسبابها ، ووقوع مقدماتها .

وقيل : بل يكون ذلك يوم القيامة ، يراها أصحابها كذلك ولا سبيل لهم إليها . وقد قيل فى العشار : إنها السحاب يُعْطَلُ عن المسير بين السماء والأرض ، لخراب الدنيا . و[قد] ^(٥) قيل : إنها الأرض التى تُعْشَرُ . وقيل : إنها الديار التى كانت تسكن تُعْطَلُ لذهاب أهلها . حكى هذه الأقوال كلها الإمام أبو عبد الله القرطبى فى كتابه « التذكرة » ، ورجح أنها الإبل ، وعزاه إلى أكثر الناس ^(٦) .

(١) تفسير الطبرى (٤١/٣٠) .

(٢) ، (٣) فى أ : « خثيم » .

(٤) فى م : « واحدا » .

(٥) زيادة من م .

(٦) التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة (ص ٢١٢، ٢١٣) .

قلت : بل لا يعرف عن السلف والأئمة سواء ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ أى : جمعت . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨] . قال ابن عباس : يحشر كل شيء حتى الذباب . رواه ابن أبي حاتم . وكذا قال الربيع بن خثيم^(١) والسدي ، وغير واحد . وكذا قال قتادة في تفسير هذه الآية : إن هذه الخلائق [موافية]^(٢) فيقضى الله فيها ما يشاء .

وقال عكرمة : حشرها : موتها .

وقال ابن جرير : حدثني علي بن مسلم الطوسي ، حدثنا عباد بن العوام ، أخبرنا حصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ قال : حشر البهائم : موتها ، وحشر كل شيء الموت غيره^(٣) الجن والإنس ، فإنهما يوقفان يوم القيامة .

حدثنا أبو كريب ، حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن أبيه ، عن أبي يعلى ، عن الربيع بن خثيم^(٤) : ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ قال : أتى عليها أمر الله . قال سفيان : قال أبي : فذكرته لعكرمة ، فقال : قال ابن عباس : حشرها : موتها .

وقد تقدم عن أبي بن كعب أنه قال : ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ : اختلطت .

قال ابن جرير : والأولى قول من قال : ﴿ حُشِرَتْ ﴾ : جمعت ، قال الله تعالى : ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ [ص: ١٩] ، أى : مجموعة .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ ، قال ابن جرير : حدثني يعقوب ، حدثنا ابن علية ، عن داود ، عن سعيد بن المسيب قال : قال علي ، رضي الله عنه ، لرجل من اليهود : أين جهنم ؟ قال : البحر . فقال : ما أراه إلا صادقا . ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ [الطور: ٦] ، ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ [مُخَفَّفَةً]^(٥) (٦) .

وقال ابن عباس وغير واحد : يرسل الله عليها الدبور فتسعرها ، وتصير ناراً تأجج ، وقد تقدم الكلام على ذلك عند قوله : ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ .

وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد ، حدثنا أبو طاهر ، حدثني عبد الجبار بن سليمان أبو سليمان النفاط — شيخ صالح يشبه مالك بن أنس — عن معاوية بن سعيد قال : إن هذا البحر بركة — يعنى بحر الروم — وسط الأرض ، والأنهار كلها تصب فيه ، والبحر الكبير يصب فيه ، وأسفله آبار مطبقة بالنحاس ، فإذا كان يوم القيامة أسجر .

(٣) فى م: « غير » .

(٢) زيادة من م ، أ .

(١) فى أ : « خثيم » .

(٤) فى أ : « خثيم » .

(٥) زيادة من تفسير الطبرى .

(٦) تفسير الطبرى (٤٣/٣٠) .

وهذا أثر غريب عجيب . وفى سنن أبى داود : « لا يركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غاز ، فإن تحت البحر نارا ، وتحت النار بحرا » الحديث ، وقد تقدم الكلام عليه فى سورة « فاطر » (١) .

وقال مجاهد ، والحسن بن مسلم : ﴿ سَجَرَتْ ﴾ : أوقدت . وقال الحسن : يبست . وقال الضحاك ، وقتادة : غاض ماؤها فذهب ولم يبق فيها قطرة . وقال الضحاك أيضا : ﴿ سَجَرَتْ ﴾ فجرت . وقال السدى : فتحت وسيرت . وقال الربيع بن خثيم (٢) : ﴿ سَجَرَتْ ﴾ : فاضت . وقوله : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ أى : جمع كل شكل إلى نظيره ، كقوله : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ [الصفات: ٢٢] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن الصباح البزار ، حدثنا الوليد بن أبى ثور ، عن سَمَاك ، عن النعمان بن بشير أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ قال : الضرباء ، كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون عمله » ، وذلك بأن الله عز وجل يقول : ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً . فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ . وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ [الواقعة: ٧ - ١٠] ، قال : هم الضرباء (٣) .

ثم رواه ابن أبى حاتم من طريق آخر ، عن سَمَاك بن حرب ، عن النعمان بن بشير أن عمر خطب الناس فقرا : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ فقال : تزوجها : أن تؤلف (٤) كل شيعة إلى شيعتهم . وفى رواية : هما الرجلان يعملان العمل فيدخلان به الجنة أو النار (٥) .

وفى رواية عن النعمان قال : سئل عمر عن قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ فقال : يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح ، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء فى النار ، فذلك تزويج الأنفس .

وفى رواية عن النعمان أن عمر قال للناس : ما تقولون فى تفسير هذه الآية : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ ؟ فسكتوا . قال : ولكن هو الرجل يزوج نظيره من أهل الجنة ، والرجل يزوج نظيره من أهل النار ، ثم قرأ : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ .

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ قال : ذلك حين يكون الناس أزواجا ثلاثة .

وقال ابن أبى نجيع ، عن مجاهد : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ قال : الأمثال من الناس جمع

(١) لم يتقدم الكلام على الحديث فى سورة « فاطر » ، وهو فى سنن أبى داود برقم (٢٤٨٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما .

(٢) فى أ : « خثيم » .

(٣) ورواه ابن مردويه فى تفسيره ، كما فى الدر المنثور (٤٢٩/٨) .

(٤) فى أ : « أن يؤلف الله » .

(٥) ورواه أبو بكر بن حمدان كما فى مسند عمر (٢/٦٢٠) للمؤلف من طريق خلف بن الوليد ، عن إسرائيل عن سَمَاك بنحوه ، ورواه عبد الرزاق فى تفسيره (٢/٢٨٤، ٢٨٥) ، عن الثورى ، عن سَمَاك ، عن النعمان ، وعن إسرائيل ، عن سَمَاك ، عن النعمان ، ورواه الحاكم فى المستدرک (٢/٥١٥) من طريق سفيان عن سَمَاك ، عن النعمان بن بشير رضى الله عنه .

بينهم . وكذا قال الربيع بن خثيم^(١) والحسن ، وقتادة . واختاره ابن جرير ، وهو الصحيح .

قول آخر فى قوله : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ ، قال ابن أبى حاتم :

حدثنا على بن الحسين بن الجنيد ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن أشعث [بن سوار]^(٢) ، عن جعفر ، عن سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس قال : يسيل واد من أصل العرش من ماء فيما بين الصيحتين ، ومقدار ما بينهما أربعون عاما ، فینبت منه كل خلق بلى ، من الإنسان أو طیر أو دابة ، ولو مر عليهم مار قد عرفهم قبل ذلك لعرفهم علي الأرض . قد نبتوا ، ثم تُرسل الأرواح فتزوج الأجساد ، فذلك قول الله تعالى^(٣) : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ .

وكذا قال أبو العالية ، وعكرمة ، وسعيد بن جبیر ، والشعبى ، والحسن البصرى أيضا فى قوله : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ أى : زوجت بالأبدان . وقيل : زوج المؤمنون بالخور العين ، وزوج الكافرون بالشیاطین . حكاه القرطبى فى « التذكرة »^(٤) .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ ، هكذا قراءة الجمهور : ﴿ سُئِلَتْ ﴾ . والمؤودة هى التى كان أهل الجاهلية يدسونها فى التراب كراهية البنات ، فيوم القيامة تسأل المؤودة على أى ذنب قتلت ، ليكون ذلك تهديداً لقاتلها ، فإذا^(٥) سئل المظلوم فما ظن الظالم إذا ؟ !

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴾ أى : سألت . وكذا قال أبو الضحى : « سألت » أى : طلبت بدمها . وعن السدى ، وقتادة ، مثله^(٦) .

وقد وردت أحاديث تتعلق بالمؤودة ، فقال الإمام أحمد :

حدثنا عبد الله بن يزيد ، حدثنا سعيد بن أبى أيوب ، حدثنى أبو الأسود — وهو : محمد بن عبد الرحمن بن نوفل — عن عروة ، عن عائشة ، عن جُدّامة بنت وهب — أخت عكاشة — قالت حضرت رسول الله ﷺ فى ناس وهو يقول : « لقد هممت أن أنهى عن الغيلة ، فنظرت فى الروم وفارس فإذا هم يُغِيلُونَ أولادهم ، ولا يضر أولادهم ذلك شيئا » . ثم سأله عن العزل ، فقال رسول الله ﷺ : « ذلك الوأد الخفى ، وهو المؤودة سئلت » .

ورواه مسلم من حديث أبى عبد الرحمن المقرئ — وهو عبد الله بن يزيد — عن سعيد بن أبى أيوب^(٧) . ورواه أيضا ابن ماجه ، عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن يحيى بن إسحاق السيلحى ، عن يحيى بن أيوب^(٨) . ورواه مسلم أيضا وأبو داود والترمذى ، والنسائى ، من حديث مالك بن

(١) فى أ : « خثيم » .

(٢) زيادة من م .

(٣) فى م ، أ : « قول الله عز وجل » .

(٤) التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة (ص ٢١٣) .

(٥) فى م : « فإنه إذا » .

(٦) انظر : تفسير الطبرى (٤٥/٣٠) ، والبحر المحيط لأبى حيان (٤٣٣/٨) .

(٧) المسند (٤٣٤/٦) ، وصحيح مسلم برقم (١٤٤٢) .

(٨) سنن ابن ماجه برقم (٢٠١١) .

أنس ، ثلاثهم عن أبي الأسود ، به (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن أبي عدي ، عن داود بن أبي هند ، عن الشعبي ، عن علقمة ، عن سلمة بن يزيد الجعفي قال : انطلقت أنا وأخي إلى رسول الله ﷺ فقلنا : يا رسول الله ، إن أمنا مليكة كانت تصل الرحم وتقرى الضيف ، وتفعل [وتفعل] (٢) هلكت في الجاهلية ، فهل ذلك نافعها شيئا ؟ قال : « لا » . قلنا : فإنها كانت وأدت أختا لنا في الجاهلية ، فهل ذلك نافعها شيئا ؟ قال : « الوائدة والموودة في النار ، إلا أن يدرك الوائدة الإسلام ، فيعفو الله عنها » .

ورواه النسائي ، من حديث داود بن أبي هند ، به (٣) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطي ، حدثنا أبو أحمد الزبيري (٤) ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن علقمة وأبي الأحوص ، عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « الوائدة والموودة في النار » (٥) .

وقال أحمد أيضا : حدثنا إسحاق الأزرق ، أخبرنا عوف ، حدثني حسناء (٦) ابنة معاوية الصُريمية ، عن عمها قال : قلت : يا رسول الله ، من في الجنة ؟ قال : « النبي في الجنة ، والشهيد في الجنة ، والمولود في الجنة ، والموودة في الجنة » (٧) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا قرعة قال : سمعت الحسن يقول : قيل : يا رسول الله ، من في الجنة ؟ قال : « الموودة في الجنة » .

هذا حديث مرسل من مراسيل الحسن ، ومنهم من قبله .

وقال ابن أبي حاتم : حدثني أبو عبد الله الظهراني ، حدثنا حفص بن عمر العدني ، حدثنا الحكم بن أبان ، عن عكرمة قال : قال ابن عباس : أطفال المشركين في الجنة ، فمن زعم أنهم في النار فقد كذب ، يقول الله عز وجل (٨) : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ . قال ابن عباس : هي المدفونة .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا إسرائيل ، عن سمك بن حرب ، عن النعمان بن بشير ، عن عمر بن الخطاب في قوله : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ (٩) ، قال : جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنني وأدت بنات لي في الجاهلية ، فقال : « أعتق عن كل واحدة منهن رقبة » . قال : يا رسول الله ، إنني صاحب إبل ؟ قال : « فأنحر عن كل واحدة منهن بدنة » .

(١) صحيح مسلم برقم (١٤٤٢) ، وسنن أبي داود برقم (٣٨٨٢) وسنن الترمذي برقم (٢٠٧٧) وسنن النسائي (١٠٦/٦) .

(٢) زيادة من م ، أ والمسند .

(٣) المسند (٤٧٨/٣) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٤٩) .

(٤) في أ : « التبريزي » .

(٥) ورواه أبو داود في السنن برقم (٤٧١٧) من طريق أبي إسحاق ، عن عامر ، عن علقمة ، عن ابن مسعود به ، ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١١٤/١٠) من طريق أبي إسحاق ، عن الشعبي ، عن علقمة ، عن ابن مسعود ، به .

(٦) في م ، أ : « خنساء » .

(٧) المسند (٥٨/٥) .

(٩) زيادة من أ .

(٨) في م : « الله تعالى » .

قال الحافظ أبو بكر البزار: خولف فيه عبد الرزاق، ولم نكتبه إلا عن الحسين بن مهدي ، عنه^(١) .
وقد رواه ابن أبي حاتم فقال : أخبرنا أبو عبد الله الطهراني^(٢) - فيما كتب إلى - قال : حدثنا عبد الرزاق . . . فذكره بإسناده مثله ، إلا أنه قال : « وأدت ثمان بنات لى فى الجاهلية » . وقال فى آخره : « فأهد إن شئت عن كل واحدة^(٣) بدنة » . ثم قال :

حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن رجاء ، حدثنا قيس بن الربيع ، عن الأغر بن الصباح ، عن خليفة بن حصين قال : قدم قيس بن عاصم على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى وأدت اثنتى عشرة ابنة لى فى الجاهلية - أو : ثلاث عشرة - قال^(٤) : « اعتق عددن نسما » . قال : فأعتق عددن نسما ، فلما كان فى العام المقبل جاء بمائة ناقة ، فقال : يا رسول الله ، هذه صدقة قومى على أثر ما صنعت بالمسلمين . قال على بن أبى طالب : فكنا نريحها ، ونسميها القيسية^(٥) .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ : قال الضحاك : أعطى كل إنسان صحيفته يمينه أو بشماله . وقال قتادة : [صحيفتك]^(٦) يا ابن آدم ، تُملى فيها ، ثم تطوى ، ثم تشر عليك يوم القيامة ، فلينظر^(٧) رجل ماذا يملى فى صحيفته .

وقوله : ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾ : قال مجاهد : اجتذبت . وقال السدى : كشفت . وقال الضحاك : تنكشط فتذهب .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ﴾ : قال السدى : أحميت . وقال قتادة : أوقدت . قال : وإنما يسعها غضب الله وخطايا بنى آدم .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنْزِلَتْ ﴾ : قال الضحاك ، وأبو مالك ، وقتادة ، والربيع بن خثيم^(٨) أى : قربت إلى أهلها .

وقوله : ﴿ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرْتَ ﴾ ، هذا هو الجواب ، أى : إذا وقعت هذه الأمور حيثنذ تعلم كل نفس ما عملت وأحضر ذلك لها ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران : ٣٠] . وقال تعالى : ﴿ يَبْنِى الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة : ١٣] .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبدة ، حدثنا ابن المبارك ، أخبرنا محمد بن مطرف ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه قال : لما نزلت : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ، قال عمر : لما بلغ ﴿ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرْتَ ﴾ قال : لهذا أجرى الحديث .

(١) مسند البزار برقم (٢٢٨٠) « كشف الأستار » .

(٢) فى م ، أ : « الطهرانى » . (٣) فى م : « واحدة منهن » . (٤) فى م : « فقال » .

(٥) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣٣٨/١٨) من طريق يحيى الحماني، عن قيس بن الربيع به نحوه، والحماني ضعيف لكنه توبع هنا .

(٦) زيادة من تفسير الطبرى (٤٦/٣٠) . مستفاداً من هامش ط . الشعب .

(٧) فى م : « فينظر » . (٨) فى أ : « خثيم » .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنْصِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنْصِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩) ﴾ .

روى مسلم فى صحيحه ، والنسائى فى تفسيره عند هذه الآية ، من حديث مسعر بن كدام ، عن الوليد بن سريخ ، عن عمرو بن حريث قال : صليت خلف النبى ﷺ الصبح ، فسمعتة يقرأ : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنْصِ . الْجَوَارِ الْكُنْصِ . وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ (١) .

ورواه النسائى عن بندار ، عن غندر ، عن شعبة ، عن الحجاج بن عاصم ، عن أبى الأسود ، عن عمرو بن حريث ، به نحوه (٢) .

قال ابن أبى حاتم وابن جرير ، من طريق الثورى ، عن أبى إسحاق ، عن رجل من مراد ، عن على : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنْصِ . الْجَوَارِ الْكُنْصِ ﴾ قال : هى النجوم تخنس بالنهار ، وتظهر بالليل .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن المثنى ، حدثنا محمد بن جعفر قال : حدثنا شعبة ، عن سماك بن حرب ، سمعت خالد بن عرعة ، سمعت عليا وسئل عن : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنْصِ . الْجَوَارِ الْكُنْصِ ﴾ فقال : هى النجوم ، تخنس بالنهار وتكنس بالليل (٣) .

وحدثنا أبو كريب ، حدثنا وكيع ، عن إسرائيل ، عن سماك ، عن خالد ، عن على قال : هى النجوم .

وهذا إسناد جيد صحيح إلى خالد بن عرعة ، وهو السهمى الكوفى ، قال أبو حاتم الرازى : روى عن على ، وروى عنه سماك والقاسم بن عوف الشيبانى (٤) . ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً ، والله أعلم .

وروى يونس ، عن أبى إسحاق ، عن الحارث ، عن على : أنها النجوم . رواه ابن أبى حاتم . وكذا روى عن ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والسدى ، وغيرهم : أنها النجوم .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا هوزة بن خليفة ، حدثنا عوف ، عن بكر بن عبد الله فى قوله : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنْصِ . الْجَوَارِ الْكُنْصِ ﴾ قال : هى النجوم الدرارى ، التى تجرى تستقبل المشرق .

(١) صحيح مسلم برقم (٤٥٦) ، وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٥١) .

(٢) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٥٠) .

(٣) تفسير الطبرى (٤٧/٣٠) .

(٤) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم (٣/٣٤٣) .

وقال بعض الأئمة : إنما قيل للنجوم : « الخنس » ، أى : فى حال طلوعها ، ثم هى جوار فى فللكها ، وفى حال غيوبتها يقال لها : « كُنْس » من قول العرب : أوى الظبي إلى كناسة : إذا تغيب فيه .
وقال الأعمش ، عن إبراهيم قال : قال عبد الله : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنْسِ ﴾ قال : بقر الوحش .
وكذا قال الثورى ، عن أبى إسحاق ، عن أبى ميسرة ، عن عبد الله : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنْسِ .
الْجَوَارِ الْكُنْسِ ﴾ ، ما هى يا عمرو ؟ قلت : البقر . قال : وأنا أرى ذلك .
وكذا روى يونس بن أبى إسحاق ، عن أبيه .

وقال أبو داود الطيالسى ، عن عمرو ، عن أبيه ، عن سعيد بن جبيرة ، عن ابن عباس : ﴿ الْجَوَارِ الْكُنْسِ ﴾ قال : البقر [الوحش] ^(١) تكنس إلى الظل . وكذا قال سعيد بن جبيرة .
وقال العوفى ، عن ابن عباس : هى الظباء . وكذا قال سعيد أيضا ، ومجاهد ، والضحاك .
وقال أبو الشعثاء جابر بن زيد : هى الظباء والبقر .

وقال ابن جرير : حدثنا يعقوب ، حدثنا هشيم ، أخبرنا مغيرة ^(٢) ، عن إبراهيم ومجاهد : أنهما تذاكرا هذه الآية : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنْسِ . الْجَوَارِ الْكُنْسِ ﴾ ، فقال إبراهيم لمجاهد : قل فيها بما سمعت . قال : فقال مجاهد : كنا نسمع فيها شيئا ، وناس يقولون : إنها النجوم . قال : فقال إبراهيم : قل فيها بما سمعت . قال : فقال مجاهد : كنا نسمع أنها بقر الوحش حين تكنس فى حُجْرَتِهَا . قال : فقال إبراهيم : إنهم يكذبون على على ، هذا كما رووا عن على أنه ضمن الأسفل الأعلى ، والأعلى الأسفل .

وتوقف ابن جرير فى قوله : ﴿ الْخُنْسِ . الْجَوَارِ الْكُنْسِ ﴾ ، هل هو النجوم ، أو الظباء وبقر الوحش ؟ قال : ويحتمل أن يكون الجميع مرادا .
وقوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ﴾ ، فيه قولان :

أحدهما : إقباله بظلامه . قال مجاهد : أظلم . وقال سعيد بن جبيرة : إذا نشأ . وقال الحسن البصرى : إذا غشى الناس . وكذا قال عطية العوفى .

وقال على بن أبى طلحة ، والعوفى عن ابن عباس : ﴿ إِذَا عَسَسَ ﴾ : إذا أدبر . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وكذا قال زيد بن أسلم ، وابنه عبد الرحمن : ﴿ إِذَا عَسَسَ ﴾ أى : إذا ذهب فتولى .

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن أبى البختري ، سمع أبا عبد الرحمن السلمى قال : خرج علينا على ، رضى الله عنه ، حين ثَوَّبَ المثوب بصلاة الصبح فقال : أين السائلون عن الوتر : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ ؟ هذا حين أدبر حسن .

(٢) فى أ: « سفيان » .

(١) زيادة من م .

وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله : ﴿ إِذَا عَسَسَ ﴾ : إذا أدبر . قال لقوله : ﴿ وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ أى : أضاء ، واستشهد بقول الشاعر ^(١) أيضا :

حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ لَهُ تَنَفَّسًا وانجَابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وَعَسَسَا

أى : أدبر . وعندى أن المراد بقوله : ﴿ عَسَسَ ﴾ : إذا أقبل ، وإن كان يصح استعماله فى الإدبار ، لكن الإقبال هاهنا أنسب ؛ كأنه أقسم تعالى بالليل ^(٢) وظلامه إذا أقبل ، وبالفجر وضيائه إذا أشرق ، كما قال : ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى . وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ﴾ [الليل: ١ ، ٢] ، وقال : ﴿ وَالضُّحَى . وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى ﴾ [الضحى: ١ ، ٢] ، وقال : ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا ﴾ [الأنعام: ٩٦] ، وغير ذلك من الآيات .

وقال كثير من علماء الأصول : إن لفظة « عسس » تستعمل فى الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك ، فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما ، والله أعلم .

قال ابن جرير : وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب يزعم أن « عسس » : دنا من أوله وأظلم . وقال الفراء : كان أبو البلاد ^(٣) النحوى يُنشد بيتاً :

عَسَسَ حَتَّى لَوْ يَشَاءُ ادَّنَا كَانَ لَهُ مِنْ ضَوْئِهِ مَقْبِسٌ

يريد : لو يشاء إذ دنا ، أدغم الذال فى الدال . وقال الفراء : وكانوا يَرَوْنَ أن هذا البيت مصنوع ^(٤) .

وقوله : ﴿ وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ ، قال الضحاك : إذا طلع . وقال قتادة : إذا أضاء وأقبل . وقال سعيد بن جبیر : إذا نشأ . وهو المروى عن على ، رضى الله عنه . وقال ابن جرير : يعنى : وَضَوْءُ النَّهَارِ إِذَا أَقْبَلَ وَتَبَيَّنَ .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ يعنى : إن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم ، أى : ملك شريف حسن الخلق ، بهى المنظر ، وهو جبريل ، عليه الصلاة والسلام . قاله ابن عباس ، والشعبي ، وميمون بن مهران ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، والربيع بن أنس ، وغيرهم .

﴿ ذِي قُوَّةٍ ﴾ كقوله : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى . ذُو مِرَّةٍ [فَاسْتَوَى] ^(٥) ﴾ [النجم: ٥ ، ٦] ، أى : شديد الخلق ، شديد البطش والفعل ، ﴿ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ أى : له مكانة عند الله عز وجل ومنزلة رفيعة .

قال أبو صالح فى قوله : ﴿ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ قال : جبريل يدخل فى سبعين حجاباً من

(١) البيت فى تفسير الطبرى (٥٠/٣٠) منسوباً إلى علقمة بن قوط .

(٢) فى م : « بالفجر » . (٣) فى أ : « أبو البلاد » .

(٤) تفسير الطبرى (٥٠/٣٠) .

(٥) زيادة من أ .

نور بغير إذن ، ﴿مُطَاعٌ ثُمَّ﴾ أى : له وجاهة ، وهو مسموع القول مطاع فى الملأ الأعلى .

قال قتادة : ﴿مُطَاعٌ ثُمَّ﴾ أى : فى السموات ، يعنى : ليس هو من أفناء الملائكة ، بل هو من السادة والأشراف ، مُعْتَنَى به ، انتخب لهذه الرسالة العظيمة .

وقوله : ﴿أَمِينٌ﴾ : صفة لجبريل بالأمانة ، وهذا عظيم جدا أن الرب عز وجل يزكى عبده ورسوله الملكى جبريل كما زكى عبده ورسوله البشرى محمداً ﷺ بقوله : ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ .

قال الشعبى ، وميمون بن مهران ، وأبو صالح ، ومن تقدم ذكرهم : المراد بقوله : ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ يعنى : محمداً ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ يعنى : ولقد رأى محمداً جبريل الذى يأتى بالرسالة عن الله عز وجل على الصورة التى خلقه الله عليها له ستمائة جناح ﴿بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ أى : البين ، وهى الرؤية الأولى التى كانت بالبطحاء ، وهى المذكورة فى قوله : ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى . ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى . وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى . فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: ٥ - ١٠] ، كما تقدم تفسير ذلك وتقريره . والدليل أن المراد بذلك جبريل ، عليه السلام . والظاهر - والله أعلم - أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء ؛ لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية وهى الأولى ، وأما الثانية وهى المذكورة فى قوله : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى . عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى . عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى . إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم: ١٣ - ١٦] ، فتلك إنما ذكرت فى سورة « النجم » ، وقد نزلت بعد [سورة] (١) الإسراء .

وقوله : ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ أى : وما محمد على ما أنزله الله إليه بظنين ، أى : بمتهم . ومنهم من قرأ ذلك بالضاد ، أى : ببخيل ، بل يبذله لكل أحد .

قال سفيان بن عيينة : ظنين وضنين سواء ، أى : ما هو بكاذب ، وما هو بفاجر . والظنين : المتهم ، والضنين : البخيل .

وقال قتادة : كان القرآن غيباً ، فأنزله الله على محمد ، فما ضنَّ به على الناس ، بل بلغه ونشره وبذله لكل من أَرَادَهُ . وكذا قال عكرمة ، وابن زيد ، وغير واحد . واختار ابن جرير قراءة الضاد (٢) .

قلت : وكلاهما متواتر ، ومعناه صحيح كما تقدم .

وقوله : ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ أى : وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم ، أى : لا يقدر على حمله ، ولا يريده ، ولا ينبغى له . كما قال : ﴿وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢] .

(١) زيادة من م .

(٢) تفسير الطبرى (٥٣/٣٠) .

وقوله : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ ؟ أى : فأين تذهب عقولكم فى تكذيبكم بهذا القرآن ، مع ظهوره ووضوحه ، وبيان كونه جاء (١) من عند الله عز وجل ، كما قال الصديق ، رضى الله عنه ، لوفد بنى حنيفة حين قدموا مسلمين ، وأمرهم فتلوا عليه شيئاً من قرآن مسيلمه الذى هو فى غاية الهذيان والركاكة ، فقال : ويحكم ، أين يُذهب بعقولكم (٢) ؟ والله إن هذا الكلام لم يخرج من إله ، أى : من إله .

وقال قتادة : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ أى : عن كتاب الله وعن طاعته .

وقوله : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ أى : هذا القرآن ذكر لجميع الناس ، يتذكرون به ويتعظون ، ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ أى : من أراد الهداية فعليه بهذا القرآن ، فإنه منجاة له وهداية ، ولا هداية فيما سواه ، ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : ليست المشيئة موكولة إليكم ، فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل ، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله عز وجل رب العالمين .

قال سفيان الثورى ، عن سعيد بن عبد العزيز ، عن سليمان بن موسى : لما نزلت هذه الآية : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ ، قال أبو جهل : الأمر إلينا ، إن شئنا استقمنا ، وإن شئنا لم نستقم . فأنزل الله : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

آخر تفسير سورة « التكوير » ولله الحمد [والمنة] (٤)

(١) فى م « حقا » .

(٢) فى م : « أين تذهب عقولكم » .

(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (٥٣/٣٠) .

(٤) زيادة من م .

تفسير سورة الانفطار

وهى مكية .

قال النسائي : أخبرنا محمد بن قدامة ، حدثنا جرير عن الأعمش ، عن محارب بن دثار ، عن جابر قال : قام معاذ فضلى العشاء الآخرة فطوّل ، فقال النبى ﷺ : « أفنان يا معاذ ؟ ! » [أفنان يا معاذ؟!]^(١) أين كنت عن سبح اسم ربك الأعلى ، والضحى ، وإذا السماء انفطرت ؟ ! »^(٢) .

وأصل الحديث مخرج فى الصحيحين^(٣) ، ولكن ذكرَ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ فى^(٤) أفراد النسائي . وتقدم من رواية عبد الله بن عمر ، عن النبى ﷺ قال : « من سرّه أن ينظرَ إلى القيامة رأى عين فليقرأ : ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ و ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّت﴾ »^(٥) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكُوَاكِبُ انْتَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)﴾ .

يقول تعالى : ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ أى : انشقت . كما قال : ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل : ١٨] .

﴿وَإِذَا الْكُوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ أى : تساقطت .

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : فجر الله بعضها فى بعض . وقال الحسن : فجر الله بعضها فى بعض ، فذهب ماؤها . وقال قتادة : اختلط مالحها بعذبها . وقال الكلبي : ملئت .

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ : قال ابن عباس : بُحِثَتْ . وقال السدى : تُبْعَثَرُ : تُحَرَّكُ فيخرج من فيها . ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ أى : إذا كان هذا حصل هذا .

وقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ ؟ : هذا تهديد ، لا كما يتوهمه بعض الناس

(١) زيادة من سنن النسائي .

(٢) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٥٢) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٧١١،٧٠٠) وصحيح مسلم برقم (٤٦٥) .

(٤) فى م ، أ : « من » .

(٥) تقدم تخريج الحديث عند تفسير سورة التكوير ، وهو فى سنن الترمذى برقم (٣٣٣٣) .

من أنه إرشاد إلى الجواب ؛ حيث قال : ﴿ الْكَرِيم ﴾ ، حتى يقول قائلهم : غره كرمه . بل المعنى فى هذه الآية : ما غرك يا ابن آدم بربك الكريم — أى : العظيم — حتى أقدمت على معصيته ، وقابلته بما لا يليق ؟ كما جاء فى الحديث : « يقول الله يوم القيامة : ابن ^(١) آدم ، ما غرك بى ؟ ابن آدم ، ماذا أجبت المرسلين ؟ » .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان : أن عمر سمع رجلا يقرأ : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيم ﴾ ، فقال عمر : الجهل ^(٢) .

وقال أيضا : حدثنا عمر بن شبة ، حدثنا أبو خلف ، حدثنا يحيى البكاء ، سمعت ابن عمر يقول وقرأ هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيم ﴾ قال ابن عمر : غره — والله — جهله .

قال : ورؤى عن ابن عباس ، والربيع بن خثيم ^(٣) ، والحسن ، مثل ذلك .

وقال قتادة : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيم ﴾ : شىء ، ما غرّ ابن آدم غير هذا العدو الشيطان .

وقال الفضيل بن عياض : لو قال لى : « ما غرك بى ^(٤) » ، لقلت : ستورك المُرْخاة .

وقال أبو بكر الوراق : لو قال لى : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيم ﴾ لقلت : غرنى كرم الكريم .

قال البغوى : وقال بعض أهل الإشارة : إنما قال : ﴿ بِرَبِّكَ الْكَرِيم ﴾ دون سائر أسمائه وصفاته ، كأنه لقنه الإجابة ^(٥) .

وهذا الذى تخيله هذا القائل ليس بطائل ؛ لأنه إنما أتى باسمه ﴿ الْكَرِيم ﴾ ؛ لينبه ^(٦) على أنه لا ينبغي أن يُقَابَل الكريم بالأفعال القبيحة ، وأعمال السوء .

و[قد] ^(٧) حكى البغوى ، عن الكلبي ومقاتل أنهما قالوا : نزلت هذه الآية فى الأسود بن شريق ، ضرب النبی ﷺ ولم يعاقب فى الحالة الراهنة ، فأنزل الله : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيم ﴾ ؟ ^(٨) .

وقوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ أى : ما غرك بالرب الكريم ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ أى : جعلك سويا معتدل القامة منتصبها ، فى أحسن الهيئات والأشكال .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر ، حدثنا حريز ، حدثنى عبد الرحمن بن ميسرة ، عن جبير ابن نفير ، عن بسر بن جحاش القرشى : أن رسول الله ﷺ بصق يوما فى كفه ، فوضع عليها إصبعه ، ثم قال : « قال الله عز وجل : ابن ^(٩) آدم ، أننى تُعْجِزْنِي وقد خلقتك من مثل هذه ؟ حتى

(١) فى م : « يا ابن » .

(٢) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٤٣٩/٨) وعزاه لابن المنذر وسعيد بن منصور أيضا .

(٣) فى أ : « خثيم » .

(٤) فى أ : « بربك » .

(٥) معالم التنزيل للبغوى (٣٥٦/٨) .

(٦) فى أ : « للتنبيه » .

(٨) معالم التنزيل للبغوى (٣٥٦/٨) .

(٩) فى م : « يا ابن » .

إذا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ ، مشيت بين بردين وللأرض منك وَثِدٌ ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ ، حتى إذا بلغت التراقي قلت : أَتصدقُ ، وأُنِّي أوانُ الصدقة .

وكذا رواه ابن ماجة ، عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن يزيد بن هارون ، عن حريز بن عثمان ، به (١) .

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي : وتابعه يحيى بن حمزة ، عن ثور بن يزيد ، عن عبد الرحمن بن ميسرة (٢) .

وقوله : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ : قال مجاهد : في أي شبه أب أو أم أو خال أو عم ؟ وقال ابن جرير : حدثني محمد بن سنان القزاز ، حدثنا مُطَهَّرُ بْنُ الْهَيْثَمِ ، حدثنا موسى بن عُليّ ابن رَبَّاح ، حدثني أبي ، عن جدي : أن النبي ﷺ قال له : « ما ولد لك ؟ » قال : يا رسول الله ، ما عسى أن يُولدَ لي ؟ إما غلام وإما جارية . قال : « فمن يشبه ؟ » . قال : يا رسول الله ، من عسى أن يشبه ؟ إما أباه وإما أمه . فقال النبي ﷺ عندها : « مه . لا تقولَنَّ هكذا ، إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها الله كل نسب بينها وبين آدم ؟ أما قرأت هذه الآية في كتاب الله : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ » (٣) قال : سَلَكَكَ (٤) .

وهكذا رواه ابن أبي حاتم والطبراني ، من حديث مُطَهَّرِ بْنِ الْهَيْثَمِ ، به (٥) . وهذا الحديث لو صح لكان فيصلا في هذه الآية ، ولكن إسناده ليس بالثابت ؛ لأن « مُطَهَّرَ بْنَ الْهَيْثَمِ » قال فيه أبو سعيد بن يونس : كان متروك الحديث . وقال ابن حبان : يُروى عن موسى بن علي وغيره ما لا يُشبهُ حديثَ الأثبات . ولكن في الصحيحين عن أبي هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إن امرأتى وكَلَدَتْ غُلَاماً أَسْوَدَ ؟ . قال : « هل لك من إبل ؟ » . قال : نعم . قال : « فما ألونها ؟ » قال : حُمْرٌ . قال : « فهل فيها من أورق ؟ » قال : نعم . قال : « فأني أتاها ذلك ؟ » قال : عسى أن يكون نَزْعَةٌ عِرْقٌ . قال : « وهذا عسى أن يكون نزعَة عرق » (٦) .

وقد قال عكرمة في قوله : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ : إن شاء في صورة قرد ، وإن شاء في صورة خنزير . وكذا قال أبو صالح : إن شاء في صورة كلب ، وإن شاء في صورة حمار ، وإن شاء في صورة خنزير .

وقال قتادة : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ ، قال : قادر — والله — ربنا على ذلك . ومعنى هذا القول عند هؤلاء : أن الله ، عز وجل ، قادر على خلق النطفة على شكل قبيح من الحيوانات

(١) المسند (٤/ ٢١٠) وسنن ابن ماجة برقم (٢٧٠٧) وقال البوصيري في الزوائد (٢/ ٣٦٥) : « إسناده صحيح رجاله ثقات » .

(٢) تحفة الأشراف للمزي (٢/ ٩٧) .

(٣) تفسير الطبري (٣٠/ ٥٥) .

(٤) في م : « شكلك » .

(٥) المعجم الكبير (٥/ ٧٤) .

(٦) صحيح البخاري برقم (٥٣٠٥) وصحيح مسلم برقم (١٥٠٠) .

المنكرة الخلق ، ولكن بقدرته ولطفه وحلمه يخلقه على شكل حسن مستقيم معتدل تام ، حسن المنظر والهيئة .

وقوله : ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالذِّينِ ﴾ أى : بل إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصى ، تكذيب فى قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ يعنى : وإن عليكم لملائكة حفظة كراما فلا تقابلوهم بالقبائح ، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن محمد الطنافسى ، حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ومسعر ، عن علقمة بن مرثد ، عن مجاهد قال : قال رسول الله ﷺ : « أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين : الجنابة والغائط . فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بحرم حائط أو ببيعه ، أو ليستره أخوه » .

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار ، فوصله بلفظ آخر ، فقال : حدثنا محمد بن عثمان بن كرامة ، حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن حفص بن سليمان ، عن علقمة بن مرثد ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ينهاكم عن التعرّى ، فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم ، الكرام الكاتبين ، الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات : الغائط ، والجنابة ، والغسل . فإذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بثوبه ، أو بجرم حائط ، أو ببيعه » .

ثم قال : حفص بن سليمان لين الحديث ، وقد روى عنه ، واحتمل حديثه (١) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا زياد بن أيوب ، حدثنا مبشر بن إسماعيل الحلبي ، حدثنا تمام ابن نجيح ، عن الحسن - يعنى البصرى - عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من حافظين يرفعان إلى الله ، عز وجل ، ما حفظا فى يوم ، فى أول الصحيفة وفى آخرها استغفار إلا قال الله تعالى : قد غفرت لعبدى ما بين طرفى الصحيفة » .

ثم قال : تفرد به تمام بن نجيح ، وهو صالح الحديث (٢) .

قلت : وثقه ابن معين وضعفه البخارى ، وأبو زرعة ، وابن أبى حاتم والنسائى ، وابن عدى . ورماه ابن حبان بالوضع . وقال الإمام أحمد : لا أعرف حقيقة أمره .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا إسحاق بن سليمان البغدادي المعروف بالقلوسى (٣) ، حدثنا بيان بن حمران (٤) ، حدثنا سلام ، عن منصور بن زاذان ، عن محمد بن سيرين ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله ملائكة (٥) يعرفون بنى آدم - وأحسبه قال : ويعرفون أعمالهم - فإذا نظروا إلى عبد يعمل بطاعة الله ذكروه بينهم وسموه ، وقالوا : أفلح الليلة فلان ، نجا الليلة فلان . وإذا نظروا إلى عبد يعمل بمعصية الله ذكروه بينهم وسموه ، وقالوا : هلك الليلة فلان » .

(١) مسند البزار برقم (٣١٧) « كشف الأستار » .

(٢) مسند البزار برقم (٣٢٥٢) « كشف الأستار » .

(٣) فى مسند البزار : « القلوسى » نسبة إلى القلوس .

(٤) فى أ : « عمران » .

(٥) فى م : « إن ملائكة الله » .

ثم قال البزار : سلام هذا ، أحسبه سلام المدائني ، وهو لين الحديث ^(١) .

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩) ﴾ .

يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم ، وهم الذين أطاعوا الله عز وجل ، ولم يقابلوه بالمعاصي .

وقد روى ابن عساكر في ترجمة « موسى بن محمد » ، عن هشام بن عمار ، عن عيسى بن يونس بن أبي إسحاق ، عن عبيد الله ، عن محارب ، عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال : « إنما سماهم الله الأبرار لأنهم برّوا الآباء والأبناء » ^(٢) .

ثم ذكر ما يصير إليه الفجار من الجحيم والعذاب المقيم ؛ ولهذا قال : ﴿ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أى : يوم الحساب والجزاء والقيامة ، ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ أى : لا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة ، ولا يخفف عنهم من عذابها ، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة ، ولو يوما واحدا .

وقوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ تعظيم لشأن يوم القيامة ، ثم أكد بقوله : ﴿ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ ، ثم فسر بقوله : ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ أى : لا يقدر واحد ^(٣) على نفع أحد ولا خلاصه مما هو فيه ، إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى .

ونذكر هاهنا حديث : « يا بنى هاشم ، أنقذوا أنفسكم من النار ، لا أملك لكم من الله شيئا » . وقد تقدم فى آخر تفسير سورة « الشعراء » ؛ ولهذا قال : ﴿ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ ، كقوله : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦] ، وكقوله : ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ﴾ [الفرقان: ٢٦] ، وكقوله : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ٤] .

قال قتادة : ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ ، والأمر — والله — اليوم لله ، ولكنه يومئذ لا ينازعه أحد .

آخر تفسير سورة « الانفطار » ولله الحمد

(١) مسند البزار برقم (٢١٩٥) « كشف الأستار » .

(٢) تاريخ دمشق (١٧/ ٤٠٠ « المخطوط ») .

(٣) فى أ : « أحد » .

تفسير سورة المطففين

وهى مدنية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦)﴾ .

قال النسائي وابن ماجه : أخبرنا محمد بن عقيل — زاد ابن ماجه : وعبد الرحمن بن بشر — قالا : حدثنا على بن الحسين بن واقد ، حدثنى أبى ، عن يزيد — هو ابن أبى سعيد النحوى ، مولى قریش — عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما قدم نبى الله ﷺ المدينة كانوا من أنحب الناس كيلا ، فأنزل الله : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ، فحسنوا الكيل بعد ذلك (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا جعفر بن النضر بن حماد ، حدثنا محمد بن عبيد ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن عبد الله بن الحارث ، عن هلال بن طلق قال : بينا أنا أسير مع ابن عمر فقلت : من أحسن الناس هيئة وأوفاه كيلا ؟ أهل مكة أو المدينة ؟ قال : حق لهم ، أما سمعت الله يقول : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو السائب ، حدثنا ابن فضيل ، عن ضرار ، عن عبد الله المكتب ، عن رجل ، عن عبد الله قال : قال له رجل : يا أبا عبد الرحمن ، إن أهل المدينة ليوفون الكيل . قال : وما يمنهم أن يوفوا الكيل وقد قال الله عز وجل : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ حتى بلغ : ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢) .

فالمراد بالتطفيف هاهنا : البخس فى المكيال والميزان ، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس ، وإما بالنقصان إن قضاهم . ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخسار والهلاك وهو الويل ، بقوله : ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ أى : من الناس ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ أى : يأخذون حقهم بالوفاء والزائد ، ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ أى : ينقصون . والأحسن أن يجعل « كالوا » و« وزنوا » متعديا ، ويكون هم فى محل نصب ، ومنهم من يجعلها ضميرا مؤكدا للمستتر فى قوله : « كالوا » و« وزنوا » ، ويحذف المفعول لدلالة الكلام عليه ، وكلاهما متقارب .

(١) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٥٤) وسنن ابن ماجه برقم (٢٢٢٣) .

(٢) تفسير الطبرى (٥٨/٣٠) .

وقد أمر الله - تعالى - بالوفاء فى الكيل والميزان ، فقال : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٥] ، وقال : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [الأنعام: ١٥٢] ، وقال : ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٩] . وأهلك الله قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يبخسون الناس فى المكيال والميزان .

ثم قال تعالى متوعدا لهم : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ؟ أى : أما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدي من يعلم السرائر والضمائر ، فى يوم عظيم الهول ، كثير الفزع ، جليل الخطب ، من خسر فيه أدخل نارا حامية ؟

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : يقومون حفاة عراة غرلاً ، فى موقف صعب حرج ضيق ضنك على المجرم ، ويغشاهم من أمر الله - ما تعجز القوى والحواس عنه .

قال الإمام مالك : عن نافع ، عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : « ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه » .

رواه البخارى ، من حديث مالك وعبد الله بن عون ، كلاهما عن نافع ، به ^(١) . ورواه مسلم من الطريقين أيضا . وكذلك رواه صالح [وثابت بن كيسان] ^(٢) وأيوب بن يحيى ، وعبد الله وعبيد الله ابنا عمر ، ومحمد بن إسحاق ، عن نافع ، عن ابن عمر ، به ^(٣) .

ولفظ الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، أخبرنا ابن إسحاق ، عن نافع ، عن ابن عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ : لعظمة الرحمن عز وجل يوم القيامة ، حتى إن العرق ليلجم الرجال إلى أنصاف آذانهم » ^(٤) .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن إسحاق ، حدثنا ابن المبارك ، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، حدثنى سليم بن عامر ، حدثنى المقداد - يعنى ابن الأسود الكندى - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان يومُ القيامة أدنيت الشمس من العباد ، حتى تكون قيد ميل أو ميلين ، قال : فتصهرهم الشمس ، فيكونون فى العرق كقدر أعمالهم ، منهم من يأخذه إلى عقبه ، ومنهم من يأخذه إلى ركبته ، ومنهم من يأخذه إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه إجماما » .

رواه مسلم ، عن الحكم بن موسى ، عن يحيى بن حمزة - والترمذى ، عن سويد ، عن ابن المبارك - كلاهما عن ابن جابر ، به ^(٥) .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا الحسن بن سوار ، حدثنا الليث بن سعد ، عن معاوية

(١) صحيح البخارى برقم (٢٨٦٢ ، ٦٥٣١) .

(٢) زيادة من أ .

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٢) .

(٤) المسند (٣١/٢) .

(٥) المسند (٣/٦) وصحيح مسلم برقم (٢٨٦٤) وسنن الترمذى برقم (٢٤٢١) .

ابن صالح : أن أبا عبد الرحمن حدثه ، عن أبي أمامة : أن رسول الله ﷺ قال : « تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل ، ويزاد في حرها كذا وكذا ، تغلى منها الهوام كما تغلى القدور ، يُعرقون فيها على قدر خطاياهم ، منهم من يبلغ إلى كعبيه ، ومنهم من يبلغ إلى ساقه ، ومنهم من يبلغ إلى وسطه ، ومنهم من يلجمه العرق » . انفرد به أحمد (١) .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا أبو عثانة حى بن يؤمن ، أنه سمع عقبة بن عامر يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تدنو الشمس من الأرض فيعرق الناس ، فمن الناس من يبلغ عرقه عقيبته ، ومنهم من يبلغ إلى نصف الساق ، ومنهم من يبلغ إلى ركبتيه ، ومنهم من يبلغ العجز ، ومنهم من يبلغ الخصرة ، ومنهم من يبلغ منكبيه ، ومنهم من يبلغ وسط فيه — وأشار بيده فألجمها فاه ، رأيت رسول الله ﷺ يشير هكذا — ومنهم من يغطيه عرقه » . وضرب بيده إشارة . انفرد به أحمد (٢) .

وفى حديث : أنهم يقومون سبعين سنة لا يتكلمون . وقيل : يقومون ثلاثمائة سنة . وقيل : يقومون أربعين ألف سنة . ويقضى بينهم فى مقدار عشرة (٣) آلاف سنة ، كما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة مرفوعا : « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » (٤) .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو عون الزيادى ، أخبرنا عبد السلام بن عجلان ، سمعت أبا يزيد المدنى ، عن أبى هريرة (٥) قال : قال النبى ﷺ لبشير (٦) الغفارى : « كيف أنت صانع فى يوم يقوم الناس فيه ثلاثمائة سنة لرب العالمين ، من أيام الدنيا ، لا يأتهم فيه خبر من السماء ولا يؤمر فيه بأمر ؟ » . قال بشير : المستعان الله . قال : « فإذا أويت إلى فراشك فتعوذ بالله من كرب يوم القيامة ، وسوء الحساب » .

ورواه ابن جرير من طريق عبد السلام ، به (٨) .

وفى سنن أبى داود : أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ بالله من ضيق المقام يوم القيامة (٩) .

وعن ابن مسعود : يقومون أربعين سنة رافعى رؤوسهم إلى السماء ، لا يكلمهم أحد ، قد ألجم العرق برّهم وفاجرهم .

وعن ابن عمر : يقومون مائة سنة . رواهما ابن جرير (١٠) .

وفى سنن أبى داود والنسائى وابن ماجه ، من حديث زيد بن الحباب ، عن معاوية بن صالح ،

(١) المسند (٥/٢٥٤) .

(٢) المسند (٤/١٥٧) .

(٣) فى أ : « عدة » .

(٤) صحيح مسلم برقم (٩٨٧) .

(٥) فى م : « عن أبى هريرة مرفوعا » .

(٦) فى م ، أ : « قال رسول الله » .

(٧) فى أ : « لبشر » .

(٨) تفسير الطبرى (٣٠/٥٩) .

(٩) سنن أبى داود برقم (٧٦٦) من حديث عائشة رضى الله عنها .

(١٠) تفسير الطبرى (٣٠/٥٩) .

عن أزهر بن سعيد الحواري ، عن عاصم بن حميد ، عن عائشة : أن رسول الله ﷺ كان يفتح قيام الليل : يكبر عشرا ، ويحمد عشرا ، ويسبح عشرا ، ويستغفر عشرا ، ويقول : « اللهم اغفر لي واهدني ، وارزقني وعافني » . ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة ^(١) .

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سَجِينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ (٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩) وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بَيِّومَ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧) ﴾ .

يقول : حقا ﴿ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سَجِينٍ ﴾ أى : إن مصيرهم ومأواهم لفي سجين — فعيل من السَّجَن ، وهو الضيق — كما يقال : فسَّيق وشرب وشمير وسكير ، ونحو ذلك . ولهذا عظم أمره فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ ﴾ ؟ أى : هو أمر عظيم ، وسجن مقيم وعذاب أليم .

ثم قد قال قائلون : هى تحت الأرض السابعة . وقد تقدم فى حديث البراء بن عازب ، فى حديثه الطويل : يقول الله عز وجل فى روح الكافر : اكتبوا كتابه فى سجين .

وسجين : هى تحت الأرض السابعة . وقيل : صخرة تحت السابعة خضراء . وقيل : بئر فى جهنم .

وقد روى ابن جرير فى ذلك حديثا غريبا منكرا لا يصح فقال : حدثنا إسحاق بن وهب الواسطى ، حدثنا مسعود بن موسى بن مُشكان الواسطى ، حدثنا نصر بن خزيمة الواسطى ، عن شعيب بن صفوان ، عن محمد بن كعب القرظى ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « الفلق : جب فى جهنم ^(٢) مغطى ، وأما سجين فمفتوح » ^(٣) .

والصحيح أن « سجينا » مأخوذ من السَّجَن ، وهو الضيق ، فإن المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق ، وكل ما تعالى منها اتسع ، فإن الأفلاك السبعة كل واحد منها أوسع وأعلى من الذى دونه ، وكذلك الأرضون كل واحدة أوسع من التى دونها ، حتى ينتهى السفول المطلق والمحل الأضيق إلى المركز فى وسط الأرض السابعة . ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهى أسفل السافلين ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [التين: ٥، ٦] . وقال هاهنا : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سَجِينٍ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ ﴾ ، وهو يجمع الضيق والسفول ، كما قال :

(١) سنن أبى داود برقم (٧٦٦) وسنن النسائى (٢٠٨/٣) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٥٦) .

(٢) فى م : « فى وادى جهنم » .

(٣) تفسير الطبرى (٦١/٣٠) .

﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [الفرقان: ١٣] .

وقوله : ﴿ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ ليس تفسيرا لقوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ ﴾ ، وإنما هو تفسير ^(١) لما كتب لهم من المصير إلى سجين ، أى : مرقوم مكتوب مفروغ منه ، لا يزداد فيه أحد ولا ينقص منه أحد ؛ قاله محمد بن كعب القرظي .

ثم قال : ﴿ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أى : إذا صاروا يوم القيامة إلى ما أوعدهم الله من السَّجْن والعذاب المهين . وقد تقدم الكلام على قوله : ﴿ وَيَلْ ﴾ بما أغنى عن إعادته ، وأن المراد من ذلك ^(٢) الهلاك والدمار ، كما يقال : ويل لفلان . وكما جاء فى المسند والسنن من رواية بهز بن حكيم بن معاوية بن حيدة ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « ويل للذى يُحَدِّثُ فيكذب ، ليضحك الناس ، ويل له ، ويل له ، ويل له » ^(٣) .

ثم قال تعالى مفسرا للمكذبين الفجار الكفرة : ﴿ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بَيِّمَ الدِّينِ ﴾ أى : لا يصدقون بوقوعه ، ولا يعتقدون كونه ، ويستبعدون أمره . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ أى : معتد فى أفعاله ؛ من تعاطى الحرام والمجازاة فى تناول المباح والأثيم ^(٤) فى أقواله : إن حدث كذب ، وإن وعد أخلف ، وإن خاصم فجر .

وقوله : ﴿ إِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى : إذا سمع كلام الله من الرسول ، يكذب به ، ويظن به ظن السوء ، فيعتقد أنه مفتعل مجموع من كتب الأوائل ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنزَلُ رَبُّكُمْ قَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [النحل: ٢٤] ، وقال : ﴿ وَقَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥] ، قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أى : ليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا ، إن هذا القرآن أساطير الأولين ، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ ، وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرين الذى قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ . والرين يعترى قلوب الكافرين ، والغيم للأبرار ، والغين للمقربين .

وقد روى ابن جرير والترمذى والنسائى وابن ماجة من طرق ، عن محمد بن عجلان ، عن الققعاق بن حكيم ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « إن العبد إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء فى قلبه ، فإن تاب منها صُقل قلبه ، وإن زاد زادت ، فذلك قول الله : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ » ^(٥) .

وقال الترمذى : حسن صحيح . ولفظ النسائى : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت فى قلبه نكتة ، فإن هو نزع واستغفر وتاب صُقل قلبه ، فإن عاد زيد فيها حتى يعلو قلبه ، فهو الران الذى قال

(١) فى م : « تقرير » . (٢) فى أ : « ذلك أنه » .

(٣) المسند (٧/٥/٥) وسنن أبى داود برقم (٤٩٩٠) وسنن الترمذى برقم (٢٣١٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٥٥) .

(٤) فى أ : « والإثم » .

(٥) تفسير الطبرى (٦٢/٣٠) وسنن الترمذى برقم (٣٣٣٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٥٨) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٤٤) .

الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ .

وقال أحمد : حدثنا صفوان بن عيسى ، أخبرنا ابن عجلان ، عن القعقاع بن حكيم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صُقل قلبه ، فإن زاد زادت حتى يعلو قلبه ، وذاك الران الذي ذكر الله في القرآن : ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ » (١) .

وقال الحسن البصري : هو الذنب على الذنب ، حتى يعمى القلب ، فيموت . وكذا قال مجاهد ابن جبر وقتادة ، وابن زيد ، وغيرهم .

وقوله : ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ أي : لهم يوم القيامة منزل ونزل سجين ، ثم هم يوم القيامة مع (٢) ذلك محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم .

قال الإمام أبو عبد الله الشافعي : [في] (٣) هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عز وجل يومئذ (٤) .

وهذا الذي قاله الإمام الشافعي ، رحمه الله ، في غاية الحسن ، وهو استدلال بمفهوم هذه الآية ، كما دل عليه منطوق قوله : ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] . وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح (٥) المتواترة في رؤية المؤمنين ربهم عز وجل في الدار الآخرة ، رؤية بالأبصار في عرصات القيامة ، وفي روضات الجنات الفاخرة .

وقد قال ابن جرير [محمد بن عمار الرازي] (٦) : حدثنا أبو معمر المنقرى ، حدثنا عبد الوارث ابن سعيد ، عن عمرو بن عبيد ، عن الحسن في قوله : ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ ، قال : يكشف الحجاب ، فينظر إليه المؤمنون والكافرون ، ثم يحجب عنه الكافرون وينظر إليه المؤمنون . كل يوم غدوة وعشية — أو كلاما هذا معناه .

قوله : ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ أي : ثم هم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحمن من أهل النيران ، ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي : يقال لهم ذلك على وجه التقرير والتوبيخ ، والتصغير والتحقير .

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيَيْنَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُونَ (١٩) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ

(١) المسند (٢٩٧/٢) .

(٢) في م: « بعد » .

(٣) زيادة من م ، أ .

(٤) رواه البيهقي في مناقب الشافعي (٤١٩/١) .

(٥) في م: « الصحيحة » .

(٦) زيادة من م ، أ .

الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمَزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ .

يقول تعالى : حقا ﴿ إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ ﴾ وهم بخلاف الفجار ، ﴿ لَفِي عِلِّيْنِ ﴾ أى : مصيرهم إلى عليين ، وهو بخلاف سجين .

قال الأعمش ، عن شمر بن عطية ، عن هلال بن يساف قال : سأل ابن عباس كعبا وأنا حاضر عن سجين ، قال : هى الأرض السابعة ، وفيها أرواح الكفار . وسأله عن عليين فقال : هى السماء السابعة ، وفيها أرواح المؤمنين . وهكذا قال غير واحد : إنها السماء السابعة .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيْنِ ﴾ : يعنى : الجنة .

وفى رواية العوفى ، عنه : أعمالهم فى السماء عند الله . وكذا قال الضحاك .

وقال قتادة : عليون : ساق العرش اليمنى . وقال غيره : عليون عند سدره المنتهى .

والظاهر : أن عليين مأخوذ من العلو ، وكلما علا الشئ وارتفع عظم واتسع ؛ ولهذا قال معظمنا أمره ومفخما شأنه : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلِيُّونَ ﴾ . ثم قال مؤكدا لما كتب لهم : ﴿ كِتَابٌ مَرْقُومٌ . يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ، وهم الملائكة ، قاله قتادة .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : يشهده من كل سماء مقربوها .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ أى : يوم القيامة هم فى نعيم مقيم ، وجنات فيها فضل عظيم ، ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ وهى : السرر تحت الحجال ، ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ قيل : معناه : ينظرون فى ملكهم وما أعطاهم الله من الخير والفضل الذى لا ينقضى ولا يبيد . وقيل : معناه ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ إلى الله عز وجل . وهذا مقابلة ^(١) لما وُصف به أولئك الفجار : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ ، فذكر عن هؤلاء أنهم يباحون النظر إلى الله عز وجل وهم على سررهم وفرشهم ، كما تقدم فى حديث ابن عمر : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر فى ملكه مسيرة ألفى سنة ، يرى أقصاه كما يرى أذناه ، وإن أعلاه لمن ينظر إلى الله فى اليوم مرتين » ^(٢) .

وقوله : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ أى : تعرف إذا نظرت إليهم فى وجوههم نضرة النعيم ، أى : صفة الترافة والحشمة والسرور والدعة والرياسة ؛ مما هم فيه من النعيم العظيم .

وقوله : ﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴾ أى : يسقون من خمر من الجنة . والرحيق : من أسماء الخمر . قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقاتدة ، وابن زيد .

قال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا زهير ، عن سعد ^(٣) أبى المجاهد الطائى ، عن عطية بن سعد العوفى ، عن أبى سعيد الخدرى — أراه قد رفعه إلى النبى ﷺ — قال : « أيما مؤمن سقى

(١) فى أ : « مقابل » .

(٢) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآيتين : ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامة .

(٣) فى أ : « عن سعيد » .

مؤمننا شربة^(١) على ظمأ ، سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم . وأيما مؤمن أطعم مؤمنا على جوع ، أطعمه الله من ثمار الجنة . وأيما مؤمن كسا مؤمنا ثوبا على عرى ، كساه الله من خضر الجنة^(٢) .

وقال ابن مسعود فى قوله : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ أى : خلطه مسك .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : طيب الله لهم الخمر ، فكان آخر شىء جعل فيها مسك ، ختم بمسك . وكذا قال قتادة والضحاك .

وقال إبراهيم والحسن : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ أى : عاقبته مسك .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يحيى بن واضح ، حدثنا أبو حمزة ، عن جابر ، عن عبد الرحمن بن سابط ، عن أبى الدرداء : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ قال : شراب أبيض مثل الفضة ، يختمون به شرابهم . ولو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجها ، لم يبق ذو روح إلا وجد طيبها^(٣) .

وقال ابن أبى نجيج ، عن مجاهد : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ قال : طيبه مسك .

وقوله : ﴿ وَفِى ذَلِكَ فَلَيْتَتَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ أى : وفى مثل هذا الحال فليتفاخر المتفاخرون ، وليتباهى ويكثر^(٤) ويستبق إلى مثله المستبقون . كقوله : ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ [الصافات: ٦١] .

وقوله : ﴿ وَمَزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴾ أى : ومزاج هذا الرحيق الموصوف من تسنيم ، أى : من شراب يقال له تسنيم ، وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه . قاله أبو صالح والضحاك ؛ ولهذا قال : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ أى : يشربها المقربون صرَفًا ، وتُمَزَّجُ لأصحاب اليمين مَزَجًا . قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، ومسروق ، وقاتدة ، وغيرهم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ .

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم كانوا فى الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين ، أى : يستهزئون بهم ويحتقرونهم^(٥) ، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم ، أى : محتقرين لهم ، ﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ أى : إذا انقلب ، أى : رجع هؤلاء المجرمون إلى منازلهم ، انقلبوا إليها فاكهين ،

(١) فى م : « شربة ماء » .

(٢) المسند (١٣/٣) وعطية العوفى ضعيف .

(٣) تفسير الطبرى (٦٨/٣٠) .

(٤) فى م ، أ : « ويتكاثر » .

(٥) فى أ : « يحقرونهم » .

أى : مهما طلبوا وجدوا ، ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم ، بل اشتغلوا بالقوم المؤمنين يحتقرونهم ويحسدونهم ، ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءَ لَضَالُّونَ ﴾ أى : لكونهم على غير دينهم ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ أى : وما بُعث هؤلاء المجرمون ^(١) حافطين على هؤلاء المؤمنين ما يصدر من أعمالهم وأقوالهم ، ولا كلفوا بهم ؟ فلم اشتغلوا بهم وجعلوهم نصب أعينهم ، كما قال تعالى : ﴿ قَالَ اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا . إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ . إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨-١١١] .

ولهذا قال هاهنا : ﴿ فَالْيَوْمَ ﴾ يعنى : يوم القيامة ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ أى : فى مقابلة ما ضحك بهم أولئك ، ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ أى : إلى الله عز وجل ، فى مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون ، ليسوا بضالين ، بل هم من أولياء الله المقربين ، ينظرون إلى ربهم فى دار كرامته .

وقوله : ﴿ هَلْ ثَوَابَ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ؟ أى : هل جوزى الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقص أم لا ؟ يعنى : قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله .

آخر [تفسير سورة] ^(٢) « المطففين »

(١) فى أ : « المجرمين » وهو خطأ .

(٢) زيادة من أ .

تفسير سورة الانشقاق

وهي مكية .

قال مالك ، عن عبد الله بن يزيد ، عن أبي سلمة : أن أبا هريرة قرأ بهم : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ ، فسجد فيها ، فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها . رواه مسلم والنسائي ، من طريق مالك ، به (١) .

وقال البخاري : حدثنا أبو النعمان ، حدثنا معتمر ، عن أبيه ، عن بكر ، عن أبي رافع قال : صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ ، فسجد ، فقلت له ، قال : سجدت خلف أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه (٢) .

ورواه أيضا عن مسدد ، عن معتمر ، به . ثم رواه عن مسدد ، عن يزيد بن زريع ، عن التيمي ، عن بكر ، عن أبي رافع ، فذكره (٣) . وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائي من طرق ، عن سليمان بن طرخان التيمي ، به (٤) . وقد روى مسلم وأهل السنن من حديث سفیان بن عيينة - زاد النسائي : وسفيان الثوري - كلاهما عن أيوب بن موسى ، عن عطاء بن ميناء ، عن أبي هريرة قال : سجدنا مع رسول الله ﷺ في ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ و ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (٥) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ وذلك يوم القيامة ، ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ أى : استمعت لربها

(١) صحيح مسلم برقم (٥٧٨) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٦٠) .

(٢) صحيح البخاري برقم (٧٦٦) .

(٣) صحيح البخاري برقم (٧٦٨) .

(٤) صحيح مسلم برقم (٥٧٨) وسنن أبي داود برقم (١٤٠٨) وسنن النسائي (١٦١/٢) .

(٥) صحيح مسلم برقم (٥٧٨) وسنن أبي داود برقم (١٤٠٧) وسنن الترمذي برقم (٥٧٣) وسنن النسائي (١٦٢/٢) .

وأطاعت أمره فيما أمرها به من الانشقاق ﴿ وَحَقَّتْ ﴾ أى : وحق لها أن تطيع أمره ؛ لأنه العظيم الذى لا يُمانع ولا يغالب ، بل قد قهر كل شئ وذل له كل شئ .
ثم قال : ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ أى : بُسِطت وفرشت ووسَّعت .

قال ابن جرير ، رحمه الله : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ^(١) ثور ، عن معمر ، عن الزهرى ، عن على بن الحسين : أن النبى ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة مدَّ الله الأرض مدَّ الأديم حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه ، فأكون أول من يدعى ، وجبريل عن يمين الرحمن ، والله ما رآه قبلها ، فأقول : يا رب ، إن هذا أخبرنى أنك أرسلته إلى ؟ فيقول الله عز وجل : صدق . ثم أشفع فأقول : يا رب ، عبادك عبدوك فى أطراف الأرض . قال : وهو المقام المحمود » ^(٢) .

وقوله : ﴿ وَالْقَتْمَ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ أى : أَلْقَتْ ما فى بطنها من الأموات ، وتخلت منهم . قاله مجاهد ، وسعيد ، وقتادة ، ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ كما تقدم .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ أى : ساع إلى ربك سعياً ، وعامل عملاً ، ﴿ فَمَلَاكِيهِ ﴾ ، ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر . ويشهد له ما رواه أبو داود الطيالسى ، عن الحسن بن جعفر ، عن أبى الزبير ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « قال جبريل : يا محمد ، عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه » ^(٣) .

ومن الناس من يعيد الضمير على قوله : ﴿ رَبِّكَ ﴾ أى : فملاق ^(٤) ربك ، ومعناه : فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك . وعلى هذا فكلا القولين متلازم .

قال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ يقول : تعمل عملاً تلقى الله به ، خيراً كان أو شراً .

وقال قتادة : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ : إن كدحك — يا ابن آدم — لضعيف ، فمن استطاع أن يكون كدحه فى طاعة الله فليفعل ، ولا قوة إلا بالله .

ثم قال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَوْتَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ . فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ أى : سهلاً بلا تعسير ، أى : لا يحقق عليه جميع دقائق أعماله ؛ فإن من حوسب كذلك يهلك ^(٥) لا محالة .

(١) فى أ : « حدثنا أبو » .

(٢) تفسير الطبرى (٧٢/٣٠) ورواه عبد الرزاق فى تفسيره (٣٢٨/١) ومن طريقه الطبرى فى تفسيره (٩٩/١٥) عن معمر ، عن الزهرى ، عن على بن الحسين به مرسلًا ، ورواه أبو نعيم فى الحلية (١٤٥/٣) من طريق محمد بن جعفر ، عن إبراهيم بن سعد ، عن الزهرى ، عن على بن الحسين ، عن رجل من أهل العلم به ، وقال : « صحيح تفرد بهذه الألفاظ على بن الحسين لم يروه عنه إلا الزهرى ولا عنه إلا إبراهيم بن سعد ، وعلى بن الحسين هو أفضل وأتقى من أن يروه عن رجل لا يعتمد فيه إلى العلم ويطلق القول به » . وقال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٤٠٠/٨) : « رجاله ثقات ، وهو صحيح إن كان الرجل صحابياً » . لكن الحديث له علة وهى الاختلاف على الزهرى فى اسم الصحابى ، فرواه الحاكم فى المستدرک (٥٧٠/٥) من طريق إبراهيم بن حمزة الزبيرى ، عن إبراهيم بن سعد ، عن الزهرى ، عن على بن حسين ، عن جابر مرفوعاً بنحوه ، وقال الحاكم : « صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه » .

(٣) مسند الطيالسى برقم (١٧٥٥) .

(٥) فى م ، أ : « كذلك هلك » .

(٤) فى م : « أى ملاق » .

قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، أخبرنا أيوب ، عن عبد الله بن أبي مُلَيْكَةَ ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « من نُوقِشَ الحِسابُ عُدِّبَ » . قالت : فقلت : أليس قال الله : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ ؟ ، قال : « ليس ذاك بالحساب ، ولكن ذلك العرض ، من نُوقِشَ الحساب يوم القيامة عذب » .

وهكذا رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير ، من حديث أيوب السخيتاني ، به (١) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا روح بن عبادة ، حدثنا أبو عامر الخزاز ، عن ابن أبي مُلَيْكَةَ ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « إنه ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا معذبا » . فقلت : أليس الله يقول : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ ؟ ، قال : « ذاك العرض ، إنه من نُوقِشَ الحساب عُدِّبَ » ، وقال بيده على إصبعه كأنه ينكُتُ .

وقد رواه أيضا عن عمرو بن علي ، عن ابن أبي عدي ، عن أبي يونس القشيري ، عن ابن أبي مُلَيْكَةَ ، عن القاسم ، عن عائشة ، فذكر الحديث (٢) . أخرجاه من طريق أبي يونس القشيري ، واسمه حاتم بن أبي صغيرة (٣) ، به (٤) .

قال ابن جرير : حدثنا نصر بن علي الجهضمي ، حدثنا مسلم ، عن الحريش بن الحرث أخى الزبير ، عن ابن أبي مليكة ، عن عائشة قالت : من نُوقِشَ الحساب - أو : من حُوسِبَ - عُدِّبَ . قال : ثم قالت : إنما الحساب اليسيرُ عرض على الله عز وجل وهو يراهم (٥) .

وقال أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا محمد بن إسحاق ، حدثني عبد الواحد بن حمزة بن (٦) عبد الله بن الزبير ، عن عباد بن عبد الله بن الزبير ، عن عائشة قالت : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول في بعض صلواته : « اللهم حاسبني حسابا يسيرا » . فلما انصرف قلت : يا رسول الله ، ما الحساب اليسير ؟ قال : « أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه ، إنه من نُوقِشَ الحسابُ يا عائشة يومئذ هلك » . صحيح على شرط مسلم (٧) .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ أى : ويرجع إلى أهله فى الجنة . قاله قتادة ، والضحاك ، ﴿ مَسْرُورًا ﴾ أى : فرحان مغتبطا بما أعطاه الله عز وجل .

وقد روى الطبراني عن ثوبان - مولى رسول الله ﷺ - أنه قال : إنكم تعملون أعمالا لا تعرف ، ويوشك العازب (٨) أن يثوب إلى أهله ، فمسرور ومكظوم (٩) .

(١) المسند (٤٧/٦) وصحيح البخارى برقم (٤٩٣٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٧٦) وسنن الترمذى برقم (٣٣٣٧) وسنن النسائى الكبير برقم (١١٦٥٩) وتفسير الطبرى (٧٤/٣٠) .

(٢) تفسير الطبرى (٧٤/٣٠) .

(٣) فى أ : « صفة » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٩٣٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٧٦) .

(٥) تفسير الطبرى (٧٤/٣٠) .

(٦) فى م : « عن » .

(٧) المسند (٤٨/٦) .

(٨) فى م ، أ ، هـ : « العارف » والمثبت من المعجم الكبير .

(٩) المعجم الكبير (٩٤/٢) من طريق يحيى الحماني ، عن جعفر بن سليمان ، عن أبي عبد الله الشامي ، عن عائذ الله ، عن ثوبان به مرفوعاً ، ويحيى الحماني ضعيف .

وقوله : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ أى : بشماله من وراء ظهره ، تُثْنَى يده إلى ورائه ويعطى كتابه بها كذلك ، ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾ أى : خساراً وهلاكاً ، ﴿وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ . إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿أى : فرحاً لا يفكر فى العواقب ، ولا يخاف مما أمامه ، فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل ، ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ أى : كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ولا يعيده بعد موته . قاله ابن عباس ، وقتادة ، وغيرهما . والْحُورُ : هو الرجوع . قال الله : ﴿بَلَى إِنْ رَبُّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ يعنى : بلى سيعيده الله كما بدأه ، ويجازيه على أعماله خيراً وشرها ، فإنه ﴿كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ أى : عليماً خبيراً .

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (١٩) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥)﴾ .

رُوى عن على ، وابن عباس ، وعُبادة بن الصامت ، وأبى هريرة ، وشداد بن أوس ، وابن عمر ، ومحمد بن على بن الحسين ، ومكحول ، وبكر بن عبد الله المزنى ، وبكير^(١) بن الأشج ، ومالك ، وابن أبى ذئب ، وعبد العزيز بن أبى سلمة الماجشون أنهم قالوا : الشفق : الحمرة . وقال عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن ابن خثيم^(٢) ، عن ابن لبيبة ، عن أبى هريرة قال : الشفق : البياض^(٣) .

فالشفق هو : حمرة الأفق إما قبل طلوع الشمس — كما قاله مجاهد — وإما بعد غروبها — كما هو معروف^(٤) عند أهل اللغة .

قال الخليل بن أحمد : الشفق : الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة ، فإذا ذهب قيل : غاب الشفق .

وقال الجوهري : الشفق : بقية ضوء الشمس وحرمتها فى أول الليل إلى قريب من العتمة .

وكذا قال عكرمة : الشفق الذى يكون بين المغرب والعشاء .

وفى صحيح مسلم ، عن عبد الله بن عمرو ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « وقت المغرب ما لم يغب الشفق »^(٥) .

ففى هذا كله دليل على أن الشفق هو كما قاله الجوهري والخليل . ولكن صح عن مجاهد أنه

(١) فى ١ : « وبكر » .

(٢) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٢٩٢) .

(٤) فى م : « كما هو المعروف » .

(٥) صحيح مسلم برقم (٦١٢) .

قال فى هذه الآية : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴾ : هو النهار كله . وفى رواية عنه أيضا أنه قال : الشفق : الشمس . رواهما ابن أبى حاتم .

وإنما حمله على هذا قرنه بقوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ أى : جمع . كأنه أقسم بالضياء والظلام .

وقال ابن جرير : أقسم الله بالنهار مدبراً ، وبالليل مقبلاً . قال ابن جرير : وقال آخرون : الشفق اسم للحمرة والبياض . وقالوا : هو من الأضداد (١) .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة : ﴿ وَمَا وَسَقَ ﴾ : وما جمع . قال قتادة : وما جمع من نجم ودابة . واستشهد ابن عباس بقول الشاعر (٢) :

مُسْتَوْسَقَاتٍ لَوْ تَجَدَّنَ سَائِقَا

قد قال عكرمة : ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ يقول : ما ساق من ظلمة ، إذا كان الليل ذهب كل شيء إلى مأواه .

وقوله : ﴿ وَالْقَمَرَ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ : قال ابن عباس : إذا اجتمع واستوى . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، وسعيد بن جبیر ، ومسروق ، وأبو صالح ، والضحاك ، وابن زيد .

﴿ وَالْقَمَرَ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ : إذا استوى . وقال الحسن : إذا اجتمع ، إذا امتلأ . وقال قتادة : إذا استدار .

ومعنى كلامهم : أنه إذا تكامل نوره وأبدر ، جعله مقابلاً لليل وما وسق .

وقوله : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ : قال البخارى : أخبرنا سعيد بن النضر ، أخبرنا هُشَيْمٌ ، أخبرنا أبو بشر ، عن مجاهد قال : قال ابن عباس : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ : حالا بعد حال - قال هذا نبيكم ﷺ .

هكذا رواه البخارى بهذا اللفظ (٣) ، وهو محتمل أن يكون ابن عباس أسند هذا التفسير عن النبى ﷺ ، كأنه قال : سمعت هذا من نبيكم ﷺ ، فيكون قوله : « نبيكم » مرفوعاً على الفاعلية من « قال » وهو الأظهر ، والله أعلم ، كما قال أنس : لا يأتى عام إلا والذى بعده شر منه ، سمعته من نبيكم ﷺ .

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا هُشَيْمٌ ، أخبرنا أبو بشر ، عن مجاهد ؛ أن ابن عباس كان يقول : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ قال : يعنى نبيكم ﷺ ، يقول : حالا بعد حال . هذا لفظه (٤) .

(١) تفسير الطبرى (٧٦/٣٠) .

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٧٦/٣٠) وقد ذكره المبرد فى الكامل :

إن لنا قلائصاً حقائقاً مستوسقات لو يجدن سائقاً

وهو منسوب لابن صرمة .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٤٠) .

(٤) تفسير الطبرى (٧٨/٣٠) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ : حالا بعد حال . وكذا قال عكرمة ومرة الطيّب ، ومجاهد ، والحسن ، والضحاك [ومسروق وأبو صالح] ^(١) .

ويحتمل أن يكون المراد : ﴿ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ : حالا بعد حال . قال : هذا ، يعنى المراد بهذا نبيكم ﷺ ، فيكون مرفوعا على أن « هذا » و « نبيكم » يكونان مبتدأ وخبرا ، والله أعلم . ولعل هذا قد يكون هو المتبادر إلى كثير من الرواة ، كما قال أبو داود الطيالسى وغندر : حدثنا شعبة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ قال : محمد ﷺ . ويؤيد هذا المعنى قراءة عمر ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وعامة أهل مكة والكوفة : « لَتَرْكَبَنَّ » بفتح التاء والباء .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة ، عن إسماعيل ، عن الشعبي : ﴿ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ قال : لتركبن يا محمد سماء بعد سماء . وهكذا روى عن ابن مسعود ، ومسروق ، وأبى العالية : ﴿ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ : سماء بعد سماء . قلت : يعنون ليلة الإسراء .

وقال أبو إسحاق ، والسدى ^(٢) ، عن رجل ، عن ابن عباس : ﴿ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ : منزلا على منزل . وكذا رواه العوفى ، عن ابن عباس مثله - وزاد : « ويقال : أمرا بعد أمر ، وحالا بعد حال » . وقال السدى نفسه : ﴿ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ : أعمال من قبلكم منزلا بعد منزل . قلت : كأنه أراد معنى الحديث الصحيح : « لتركبن سنن من كان قبلكم ، حذو القذة بالقذة » ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن ؟ » ^(٣) . وهذا محتمل .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة ، حدثنا ابن جابر ، أنه سمع مكحولاً يقول فى قول الله : ﴿ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ قال : فى كل عشرين سنة ، تحدثون أمرا لم تكونوا عليه .

وقال الأعمش : حدثنى إبراهيم قال : قال عبد الله : ﴿ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ قال : السماء تنشق ثم تحمر ، ثم تكون لونا بعد لون .

وقال الثورى ، عن قيس بن وهب ، عن مرة ، عن ابن مسعود : ﴿ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ قال : السماء مرة كالدّهان ، ومرة تنشق .

وروى البزار من طريق جابر الجعفى ، عن الشعبي ، عن علقمة ، عن عبد الله بن مسعود : ﴿ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ ، يا محمد ، يعنى حالا بعد حال . ثم قال : ورواه جابر ، عن مجاهد ، عن ابن عباس .

(١) فى م : « عن السدى » .

(٢) زيادة من م .

(٣) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية : ٣٤ من سورة التوبة .

وقال سعيد بن جبیر : ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ قال : قوم كانوا فى الدنيا خسيس أمرهم ، فارتفعوا فى الآخرة ، وآخرون كانوا أشرفا فى الدنيا ، فاتضعوا فى الآخرة .

وقال عكرمة : ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ : حالا بعد حال ، فطيماً بعد ما كان رضيعاً ، وشيخاً بعد ما كان شاباً .

وقال الحسن البصرى : ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ يقول : حالا بعد حال ، رخاء بعد شدة ، وشدة بعد رخاء ، وغنى بعد فقر ، وفقر بعد غنى ، وصحة بعد سقم ، وسقماً بعد صحة .

وقال ابن أبى حاتم : ذكر عن عبد الله بن زاهر : حدثنى أبى ، عن عمرو بن شمر ، عن جابر — هو الجعفى — عن محمد بن على ، عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن ابن آدم لفى غفلة مما خلق له ؛ إن الله إذا أراد خلقه قال للملك : اكتب رزقه ، اكتب أجله ، اكتب أثره ، اكتب شقياً أو سعيداً ، ثم يرتفع ذلك الملك ويبحث الله إليه ملكاً فيحفظه حتى يدرك ، ثم يرتفع ذلك الملك ، ثم يوكل الله به ملكين يكتبان حسناته وسيئاته ، فإذا حضره الموت ارتفع ذاك الملكان ، وجاءه ملك الموت فقبض روحه ، فإذا دخل قبره ردَّ الروح فى جسده ، ثم ارتفع ملك الموت ، وجاءه ملكا القبر فامتحناه ، ثم يرتفعان ، فإذا قامت الساعة انحط عليه ملك الحسنات وملك السيئات ، فانتشطا كتابا معقودا فى عنقه ، ثم حضرا معه : واحد سائفا وآخر شهيدا » ، ثم قال الله عز وجل : ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ [ق: ٢٢] . قال رسول الله ﷺ : ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ قال : «حالا بعد حال» . ثم قال النبى ﷺ : «إن قدامكم لأمرأ عظيما لا تقدرؤنه ، فاستعينوا بالله العظيم» (١) .

هذا حديث منكر ، وإسناده فيه ضعفاء ، ولكن معناه صحيح ، والله — سبحانه وتعالى — أعلم .

ثم قال ابن جرير بعد ما حكى أقوال الناس فى هذه الآية من القراء والمفسرين : والصواب من التأويل قول من قال لَتَرْكَبُنَّ أَنْتَ — يا محمد — حالا بعد حال وأمرأ بعد أمر من الشدائد . والمراد بذلك — وإن كان الخطاب إلى رسول الله ﷺ مُوجَّهًا (٢) — جميع الناس ، وأنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأهواله أحوالاً (٣) .

وقوله : ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ أى : فماذا يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ؟ وما لهم إذا قرئت عليهم آيات الرحمن (٤) وكلامه — وهو هذا القرآن — لا يسجدون إعظاماً وإكراماً واحتراماً ؟

وقوله : ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ أى : من سجيتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق .

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ : قال مجاهد وقتادة : يكتمون فى صدورهم .

(١) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٦٠٠ / ٧) لابن أبى الدنيا فى ذكر الموت وابن أبى حاتم وأبو نعيم فى الحلية .

(٢) فى م : «متوجهاً» .

(٣) تفسير الطبرى (٨٠ / ٣٠) .

(٤) فى أ : «آيات الله» .

﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى : فأخبرهم — يا محمد — بأن الله عز وجل قد أعد لهم عذاباً أليماً .
 وقوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ : هذا استثناء منقطع ، يعنى لكن الذين آمنوا —
 أى : بقلوبهم — وعملوا الصالحات بجوارحهم ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ ﴾ أى : فى الدار الآخرة .
 ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ : قال ابن عباس : غير منقوص . وقال مجاهد ، والضحاك : غير محسوب .
 وحاصل قولهما أنه غير مقطوع ، كما قال تعالى : ﴿ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود: ١٠٨] . وقال
 السدى : قال بعضهم : ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ : غير منقوص . وقال بعضهم : ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ عليهم .
 وهذا القول الآخر عن بعضهم قد أنكره غير واحد ؛ فإن الله عز وجل له المنّة على أهل الجنة فى
 كل حال وآن ولحظة ، وإنما دخلوها بفضلِهِ ورحمته لا بأعمالهم ، فله عليهم المنّة دائماً سرمداً ،
 والحمد لله وحده أبداً ؛ ولهذا يلهمون تسبيحه وتحميده كما يلهمون النَّفْسَ : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ
 الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠] .

آخر تفسير سورة « الانشقاق » ولله الحمد

تفسير سورة البروج

وهي مكية .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا رُزَيْقُ بْنُ أَبِي سَلَمَى ، حدثنا أبو المهزَم ، عن أبي هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج ، والسماء والطارق ^(١) .

وقال أحمد : حدثنا أبو سعيد - مولى بنى ^(٢) هاشم - حدثنا حماد بن عباد السدوسي ، سمعت أبا المهزم يحدث عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ أمر أن يقرأ بالسموات في العشاء ^(٣) . تفرد به أحمد .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قَتَلَ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) ۝ ﴾

يقسم الله بالسماء وبروجها ، وهي : النجوم العظام ، كما تقدم بيان ذلك في قوله : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ۝ ﴾ [الفرقان: ٦١] .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، والسدى : البروج : النجوم . وعن مجاهد أيضا : البروج التي فيها الحرس .

وقال يحيى بن رافع : البروج : قصور في السماء . وقال المنهال بن عمرو : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ ﴾ : الخلق الحسن .

واختار ابن جرير أنها : منازل الشمس والقمر ، وهي اثنا عشر برجاً ، تسير الشمس في كل واحد منها شهراً ، ويسير القمر في كل واحد يومين وثلاثاً ، فذلك ثمانية وعشرون منزلة ^(٤) ، ويستسرّ ليلتين .

(١) المسند (٣٢٦/٢) .

(٢) في م : « مولى ابن » .

(٣) المسند (٣٢٧/٢) .

(٤) في م : « منزلاً » .

وقوله: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ. وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾: اختلف المفسرون في ذلك، وقد قال ابن أبي حاتم:

حدثنا عبد الله بن محمد بن عمرو الغزى ^(١)، حدثنا عبيد الله - يعني ابن موسى - حدثنا موسى بن عبيدة، عن أيوب بن خالد بن صفوان بن أوس الأنصاري، عن عبد الله بن رافع، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ يوم القيامة ﴿وشاهدٍ﴾ يوم الجمعة. وما طلعت شمس ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه، ولا يستعذ فيها من شر إلا أعاده، ﴿ومشهودٍ﴾ يوم عرفة» ^(٢).

وهكذا روى هذا الحديث ابن خزيمة، من طرق عن موسى بن عبيدة الربذي - وهو ضعيف الحديث - وقد روى موقوفاً على أبي هريرة، وهو أشبه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد، حدثنا شعبة، سمعت على بن زيد ويونس بن عبيد يحدثان عن عمار - مولى بني هاشم - عن أبي هريرة - أما على فرفعه إلى النبي ﷺ، وأما يونس فلم يعد أبا هريرة - أنه قال في هذه الآية: ﴿وشاهدٍ ومَشْهُودٍ﴾ قال: يعني الشاهد يوم الجمعة، ويوم مشهود يوم القيامة ^(٣).

وقال أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن يونس، سمعت عماراً - مولى بني هاشم - يحدث عن أبي هريرة وأنه قال في هذه الآية: ﴿وشاهدٍ ومَشْهُودٍ﴾ قال: الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، والموعود يوم القيامة ^(٤).

وقد روى عن أبي هريرة أنه قال: اليوم الموعود يوم القيامة. وكذلك قال الحسن، وقتادة، وابن زيد. ولم أرهم يختلفون في ذلك، ولله الحمد.

ثم قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثني أبي، حدثنا ضَمَضَم بن زُرْعَة، عن شُرَيْح بن ^(٥) عبيد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «اليوم الموعود يوم القيامة، وإن الشاهد يوم الجمعة، وإن المشهود يوم عرفة، ويوم الجمعة ذخره الله لنا» ^(٦).

ثم قال ابن جرير: حدثنا سهل بن موسى الرازي، حدثنا ابن أبي فديك، عن ابن حرملة، عن سعيد بن المسيب أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سيد الأيام يوم الجمعة، وهو الشاهد، والمشهود يوم عرفة» ^(٧).

(١) في أ: «المقرئ».

(٢) ورواه الترمذي في السنن برقم (٣٣٣٩) من طريق روح بن عباد وعبيد الله بن موسى، عن موسى بن عبيدة به نحوه، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث موسى بن عبيدة، وموسى بن عبيدة يضعف في الحديث، ضعف يحيى بن سعيد وغيره».

(٣) المسند (٢٩٨/٢) ووقع فيه: «يعني الشاهد يوم عرفة، والموعود يوم القيامة».

(٤) المسند (٢٩٩، ٢٩٨/٢).

(٥) في أ: «عن».

(٦) تفسير الطبري (٨٢/٣٠) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٩٨/٣) عن هاشم بن مرثد، عن محمد بن إسماعيل به، وفيه ضعف وانقطاع، وقد تقدم هذا الإسناد مراراً.

(٧) تفسير الطبري (٨٢/٣٠).

وهذا مرسل من مراسيل سعيد بن المسيب ، ثم قال ابن جرير :

حدثنا أبو كُريْب ، حدثنا وَكِيع ، عن شعبة ، عن على بن زيد ، عن يوسف المكي ، عن ابن عباس قال : الشاهد هو محمد ﷺ ، والمشهود يوم القيامة ، ثم قرأ : ﴿ ذَلِكْ يَوْمَ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود: ١٠٣] (١) .

وحدثنا ابن حميد ، حدثنا جرير ، عن مغيرة ، عن شباك قال : سأل رجل الحسن بن على عن : ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ قال : سألت أحداً قبلى ؟ قال : نعم ، سألت ابن عمر وابن الزبير ، فقالا : يوم الذبيح ويوم الجمعة . فقال : لا ، ولكن الشاهد محمد ﷺ . ثم قرأ : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾ [النساء: ٤١] ، والمشهود يوم القيامة ، ثم قرأ : ﴿ ذَلِكْ يَوْمَ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ (٢) .

وهكذا قال الحسن البصرى . وقال سفيان الثوري ، عن ابن حرملة ، عن سعيد بن المسيب : ﴿ وَمَشْهُودٍ ﴾ يوم القيامة .

وقال مجاهد ، وعكرمة ، والضحاك : الشاهد : ابن آدم ، والمشهود : يوم القيامة .

وعن عكرمة أيضاً : الشاهد : محمد ﷺ ، والمشهود : يوم الجمعة .

[وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : الشاهد : الله ، والمشهود : يوم القيامة] (٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو نعيم الفضل بن دُكَيْن ، حدثنا سفيان ، عن أبى يحيى الققات ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ قال : الشاهد : الإنسان . والمشهود : يوم الجمعة . هكذا رواه ابن أبى حاتم .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران ، عن سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ الشاهد : يوم عرفة ، والمشهود : يوم القيامة .

وبه عن سفيان - هو الثوري - عن مغيرة ، عن إبراهيم قال : يوم الذبيح ، ويوم عرفة ، يعنى الشاهد والمشهود .

قال ابن جرير : وقال آخرون : المشهود يوم الجمعة . ورووا فى ذلك ما حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، حدثنى عمى عبد الله بن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث ، عن سعيد بن أبى هلال ، عن زيد بن أيمن ، عن عبادة بن نُسَيٍّ ، عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « أَكْثَرُوا عَلَىَّ مِنَ الصَّلَاةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، فَإِنَّهُ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ، تَشْهَدُهُ الْمَلَائِكَةُ » (٤) .

وعن سعيد بن جبير : الشاهد : الله ، وتلا ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ [النساء: ٧٩] ، والمشهود :

(١) (٢) تفسير الطبرى (٨٣/٣٠) .

(٣) زيادة من م ، أ ، والطبرى .

(٤) تفسير الطبرى (٨٤/٣٠) .

نحن . حكاية البغوى ، وقال : الأكثرون على أن الشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود : يوم عرفة .

وقوله : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ أى : لعن أصحاب الأخدود ، وجمعه : أخاديد ، وهى الحفيرة فى الأرض ، وهذا خبر عن قوم من الكفار عمّدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله ، عز وجل ، فقهرّوهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم ، فأبوا عليهم ، فحفروا لهم فى الأرض أخدوداً وأججوا فيه نار ، وأعدوا لها وقوداً يسعرونها به ، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم ، فقفّوهم فيها ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ أى : مشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ أى : وما كان لهم عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الذى لا يضام من لاذ بجنابه ، المنيع الحميد فى جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ، وإن كان قد قدر على عباده هؤلاء هذا الذى وقع بهم بأيدي الكفار به ، فهو العزيز الحميد ، وإن خفى سبب ذلك على كثير من الناس .

ثم قال : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من تمام الصفة أنه المالك لجميع السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ، ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى : لا يغيب عنه شيء فى جميع السموات والأرض ، ولا تخفى عليه خافية .

وقد اختلف أهل التفسير فى أهل هذه القصة ، من هم . فعن على ، رضى الله عنه ، أنهم أهل فارس حين أراد ملكهم تحليل تزويج^(١) المحارم ، فامتنع عليه علماؤهم ، فعمد إلى حفر أخدود فقفّ فيه من أنكر عليه منهم ، واستمر فيهم تحليل المحارم إلى اليوم .

وعنه أنهم كانوا قوماً باليمن اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم ، فغلب مؤمنوهم على كفارهم ، ثم اقتتلوا فغلب الكفار المؤمنين ، فخذوا لهم الأخاديد ، وأحرقوهم فيها .
وعنه أنهم كانوا من أهل الحبشة ، واحدهم^(٢) حبشى .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴾ قال : ناس من بنى إسرائيل ، خدّوا أخدوداً فى الأرض ، ثم أوقدوا فيه نارا ، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساءً ، فعرضوا عليها ، وزعموا أنه دانيال وأصحابه .

وهكذا قال الضحاك بن مزاحم ، وقيل غير ذلك . وقد قال الإمام أحمد :

حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن^(٣) عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن صُهَيْب : أن رسول الله ﷺ قال : « كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر الساحر قال للملك : إني قد كبرت سنّى وحضر أجلى ، فادفع إلى غلاما أعلمه السحر . فدفع إليه غلاما فكان يعلمه السحر ، وكان بين الساحر وبين الملك راهب ، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه ، فأعجبه نحوه وكلامه ، وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال : ما حبسك ؟ وإذا أتى أهله ضربوه

(١) فى أ : « تزوج » .

(٢) فى م ، أ : « ونيهم » .

(٣) فى أ : « بن » .

وقالوا: ما حبسك ؟ فشكا ذلك إلى الراهب ، فقال : إذا أراد الساحر أن يضربك فقل : حبسنى أهلى . وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل : حبسنى الساحر .

قال : فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة ، قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا ، فقال : اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر . قال : فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر ، فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس . ورمأها فقتلها ، ومضى الناس . فأخبر الراهب بذلك فقال : أى بُنى ، أنت أفضل منى ، وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل على . فكان الغلام يُرى الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم ، وكان جليس للملك فعلمى ، فسمع به ، فأتاه بهدايا كثيرة فقال : اشفنى ولك ما ههنا أجمع . فقال : ما أنا أشفى أحداً ، إنما يشفى الله ، عز وجل ، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك . فآمن فدعا الله فشفاه . ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس ، فقال له الملك : يا فلان ، من ردّ عليك بصرك ؟ فقال : ربى ؟ فقال : أنا ؟ قال : لا ، ربى وربك الله . قال : ولك رب غيرى ؟ قال : نعم ، ربى وربك الله . فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ، فبعث إليه فقال : أى بُنى ، بلغ من سحرِكَ أن تبرئ الأكمه والأبرص وهذه الأدواء ؟ قال : ما أشفى أنا أحداً ، إنما يشفى الله ، عز وجل . قال : أنا ؟ قال : لا . قال : أولك رب غيرى ؟ قال : ربى وربك الله . فأخذه أيضاً بالعذاب ، فلم يزل به حتى دل على الراهب ، فأتى بالراهب فقال : ارجع عن دينك ، فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه ، وقال للأعمى : ارجع عن دينك ، فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه إلى الأرض . وقال للغلام : ارجع عن دينك ، فأبى ، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا ، وقال : إذا بلغت ذروته ، فإن رجع عن دينه وإلا فدهدهوه [من فوقه] ^(١) فذهبوا به ، فلما علوا به الجبل قال : اللهم ، اكفنيهم بما شئت . فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون . وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك فقال : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كافنيهم الله . فبعث به مع نفر فى قُرُور فقال : إذا لجمتكم به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فغرقوه فى البحر . فلجمجوا به البحر فقال الغلام : اللهم ، اكفنيهم بما شئت . فغرقوا أجمعون ، وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كافنيهم الله . ثم قال للملك : إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما أمرك به ، فإن أنت فعلت ما أمرك به قتلتنى ، وإلا فإنك لا تستطيع قتلى . قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس فى صعيد واحد ثم تصلبى على جذع ، وتأخذ سهماً من كنانتى ثم قل : « بسم الله رب الغلام » ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى . ففعل ، ووضع السهم فى كبد قوسه ثم رماه ، وقال : « باسم الله رب الغلام » . فوقع السهم فى صدغه ، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات ، فقال الناس : آمنا برب الغلام . فقيل للملك : أرايت ما كنت تحذر ؟ فقد — والله — نزل بك ، قد آمن الناس كلهم . فأمر بأفواه السكك فَخُدَّتْ فيها الأخاديد ، وأضرمت فيها النيران ، وقال : من رجع عن دينه فدعوه وإلا فأقحموه فيها . قال : فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون ، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه ، فكانها تقاعست أن تقع فى النار ، فقال الصبى : اصبرى يا أماه ، فإنك على الحق .

وهكذا رواه مسلم فى آخر الصحيح عن هُذَبة بن خالد ، عن حماد بن سلمة به نحوه ^(١) .
ورواه النسائي عن أحمد بن سليمان ، عن عفان ، عن حماد بن سلمة ^(٢) . ومن طريق حماد بن زيد ،
كلاهما عن ثابت ، به واختصروا أوله . وقد جَوَّدَه الإمام أبو عيسى الترمذى ، فرواه فى تفسير هذه
السورة عن محمود بن غيلان وعبد بن حميد - المعنى واحد - قالوا : أخبرنا عبد الرزاق ، عن معمر ،
عن ثابت البناني ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن صُهَيْب قال : كان رسول الله ﷺ إذا صلى
العصر هَمَسَ - والهَمَس فى قول بعضهم : تحريك شفثيه كأنه يتكلم - فقليل له : إنك - يا رسول
الله - إذا صليت العصر همست ؟ قال : « إن نبيا من الأنبياء ، كان أعجب بأتمته فقال : من يقوم
لهؤلاء ؟ . فأوحى الله إليه أن خيرهم بين أن أنتقم منهم ، وبين أن أسلط عليهم عدوهم . فاخترأوا
النقمة ، فسَلَطَ عليهم الموت ، فمات منهم فى يوم سبعون ألفا » . قال : وكان إذا حَدَّثَ بهذا
الحديث ، حَدَّثَ بهذا الحديث الآخر قال : كان ملك من الملوك ، وكان لذلك الملك كاهن تكهن له ،
فقال الكاهن : انظروا لى غلاماً فهِمّاً - أو قال : فطناً لَقِناً - فأعَلَّمَه علمى هذا . . . فذكر القصة
بتمامها ، وقال فى آخره ^(٣) : « يَقُولُ الله عز وجل : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ﴾ »
حتى بلغ : ﴿ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ ﴾ . قال : فأما الغلام فإنه دفن قال : فيذكر أنه أخرج فى زمان عمر بن
الخطاب ، وإصبعه على صُدْغِه كما وضعها حين قتل . ثم قال الترمذى : حسن غريب ^(٤) .

وهذا السياق ليس فيه صراحة أن سياق هذه القصة من كلام النبى ﷺ . قال شيخنا الحافظ أبو
الحجاج المزي : فيحتمل أن يكون من كلام صُهَيْب الرومى ، فإنه كان عنده علم من أخبار النصارى ،
والله أعلم .

وقد أورد محمد بن إسحاق بن يسار هذه القصة فى السيرة بسياق آخر ، فيها مخالفة لما تقدم فقال :
حدثنى يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القرظى - وحدثنى أيضاً بعض أهل نجران ، عن
أهلها - : أن أهل نجران كانوا أهل شرك يعبدون الأوثان ، وكان فى قرية من قرأها قريباً من نجران -
ونجران هى القرية العظمى التى إليها جماع أهل تلك البلاد - ساحرٌ يعلم غلمان أهل نجران السحر ،
فلما نزلها فَيَمُون ^(٥) - ولم يسموه لى بالاسم الذى سماه ابن منبه ، قالوا : رجل نزلها - ابنتى ^(٦)
خيمة بين نجران وبين تلك القرية التى فيها الساحر ، وجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك
الساحر يعلمهم السحر ، فبعث الثامر ابنه عبد الله بن الثامر مع غلمان أهل نجران ، فكان إذا مر
بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من عبادته وصلاته ، فجعل يجلس إليه ويسمع منه ، حتى أسلم فوحد
الله وعبدته ، وجعل يسأله عن شرائع الإسلام حتى إذا فقه فيه جعل يسأله عن الاسم الأعظم ، وكان
يعلمه ، فكتمه إياه وقال له : يا ابن أخى ، إنك لن تحمله ؛ أخشى ضعفك عنه . والثامر أبو عبد الله
لا يظن إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان ، فلما رأى عبد الله أن صاحبه قد ضن به
عنه ، وتخوف ضعفه فيه ، عمد إلى أقذاح فجمعها ، ثم لم يبق لله اسماً يعلمه إلا كتبه فى قدح ،

(١) المسند (١٦/٦) وصحيح مسلم برقم (٣٠٠٥) .

(٢) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٦١) .

(٣) فى أ : « فى أواخره » .

(٤) سنن الترمذى برقم (٣٣٤٠) .

(٥) فى م : « فابتنى » .

(٦) فى أ : « ميمون » .

وكل اسم فى قدح ، حتى إذا أحصاها أوقد ناراً ثم جعل يقذفها فيها قدحاً قدحاً ، حتى إذا مر بالاسم الأعظم قذف فيها بقدحه ، فوثب القدح حتى خرج منها لم يضره شيء ، فأخذه ثم أتى به صاحبه فأخبره أنه قد علم الاسم الأعظم الذى كتمه فقال : وما هو : قال : هو كذا وكذا . قال : وكيف علمته ؟ فأخبره بما صنع . قال : أى ابن أخى ، قد أصبته فأمسك على نفسك ، وما أظن أن تفعل .

فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحداً به ضر إلا قال : يا عبد الله ، أتوحدُ الله وتدخلُ فى ديني وأدعو الله لك فيعافيكَ مما أنت فيه من البلاء ؟ فيقول : نعم . فيوحد الله ويسلم ، فيدعو الله له فيشفى ، حتى لم يبق بنجران أحد به ضر إلا أتاه ، فاتبعه على أمره ودعا له فعوفى ، حتى رُفِع شأنه إلى ملك نجران ، فدعاه فقال له : أفسدت على أهل قريتي ، وخالفت ديني ودين آبائي ، لأمثلن بك . قال : لا تقدر على ذلك . قال : فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل ، فيُطرح على رأسه ، فيقع إلى الأرض ما به بأس ، وجعل يبعث به إلى مياه نجران ، بُحور لا يلقى فيها شيء إلا هلك ، فيلقى به فيها ، فيخرج ليس به بأس . فلما غلبه قال له عبد الله بن الثامر : إنك — والله — لا تقدر على قتلى حتى تُوحِدَ الله فتؤمن بما آمنت به ، فإنك إن فعلت سلطت على فقتلتني . قال : فوحدَ الله ذلك الملك ، وشهد شهادة عبد الله بن الثامر ، ثم ضربه بعصا فى يده فشججه شجة غير كبيرة ، فقتله ، وهلك الملك مكانه . واستجمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر — وكان على ما جاء به عيسى ابن مريم ، عليه السلام ، من الإنجيل وحكمه — ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحداث ، فمن هنالك كان أصل دين النصرانية بنجران .

قال ابن إسحاق : فهذا حديث محمد بن كعب القرظي وبعض أهل نجران عن عبد الله بن الثامر ، والله أعلم أى ذلك كان .

قال : فسار إليهم ذو نواس بجنده ، فدعاهم إلى اليهودية ، وخيرهم بين ذلك أو القتل ، فاختراروا القتل ، فخذ الأخدود ، فحرق بالنار وقتل بالسيف ومثل بهم ، حتى قتل منهم قريباً من عشرين ألفاً ، ففى ذى نواس وجنده أنزل الله ، عز وجل ، على رسوله ﷺ : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١) .

هكذا ذكر محمد بن إسحاق فى السيرة أن الذى قتل أصحاب الأخدود هو ذو نواس ، واسمه : زرعة ، ويسمى فى زمان مملكته بيوسف ، وهو ابن تَبَّان أسعد أبى كَرَب ، وهو تبع الذى غزا المدينة وكسى الكعبة ، واستصحب معه حبرين من يهود المدينة ، فكان تَهَوَّد من تَهَوَّد من أهل اليمن على يديهما ، كما ذكره ابن إسحاق مبسوطاً ، فقتل ذو نواس فى غداة واحدة فى الأخدود عشرين ألفاً ، ولم ينج منهم سوى رجل واحد يقال له : دوس ذو ثعلبان ، ذهب فارساً ، وطردوا وراءه فلم يُقدَّر عليه ، فذهب إلى قيصر ملك الشام ، فكتب إلى النجاشى ملك الحبشة ، فأرسل معه جيشاً من نصارى الحبشة يقدمهم أرباط وأبرهة ، فاستنقذوا اليمن من أيدي اليهود ، وذهب ذو نواس هارباً

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣٤/١) .

فَلَجَّجَ فِي الْبَحْرِ ، فغرق . واستمر مُلْكُ الْحَبَشَةِ فِي أَيْدِي النَّصَارَى سَبْعِينَ سَنَةً ، ثُمَّ اسْتَنْقَذَهُ سَيْفُ ابْنِ ذِي يَزْنَ الْحَمِيرِيِّ مِنْ أَيْدِي النَّصَارَى ، لَمَّا اسْتَجَاشَ بِكَسْرَى مَلِكِ الْفَرَسِ ، فَأَرْسَلَ مَعَهُ مِنْ فِي السَّجُونِ ، وَكَانُوا قَرِيباً مِنْ سَبْعِمِائَةٍ ، فَفَتَحَ بِهِمُ الْيَمْنَ ، وَرَجَعَ الْمَلِكُ إِلَى حَمِيرٍ . وَنَذَرَ طَرَفاً مِنْ ذَلِكَ — إِنْ شَاءَ اللَّهُ — فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ .

وقال ابن إسحاق : وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : أَنَّهُ حَدَّثَ : أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ كَانَ فِي زَمَانِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، حَقَرَ خَرَبَةً مِنْ خَرَبِ نَجْرَانَ لِبَعْضِ حَاجَتِهِ ، فَوَجَدَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الثَّامِرِ تَحْتَ دَفْنٍ فِيهَا قَاعِدًا ، وَاضْعَا يَدَهُ عَلَى ضَرْبَةٍ فِي رَأْسِهِ ، مُمْسِكًا عَلَيْهَا بِيَدِهِ ، فَإِذَا أَخَذَتْ يَدَهُ عَنْهَا ثَعْبَتْ دَمًا ، وَإِذَا أُرْسِلَتْ يَدُهُ رُدَّتْ عَلَيْهَا ، فَأَمْسَكَتْ دَمَهَا ، وَفِي يَدِهِ خَاتَمٌ مَكْتُوبٌ فِيهِ : رَبِّي اللَّهُ . فَكُتِبَ فِيهِ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ يَخْبِرُهُ بِأَمْرِهِ ، فَكُتِبَ عُمَرُ إِلَيْهِمْ : أَنَّ أَقْرَوَهُ عَلَى حَالِهِ ، وَرَدُّوا عَلَيْهِ الدَّفْنَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ . ففعلوا (١) .

وقد قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا ، رحمه الله : حدثنا أبو بلال الأشعري ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، حدثني بعض أهل العلم : أَنَّ أَبَا مُوسَى لَمَّا افْتَتَحَ أَصْبَهَانَ وَجَدَ حَائِطًا مِنْ حَيْطَانِ الْمَدِينَةِ قَدْ سَقَطَ ، فَبَنَاهُ فَسَقَطَ ، ثُمَّ بَنَاهُ فَسَقَطَ ، فَقِيلَ لَهُ : إِنْ تَحْتَهُ رَجُلًا صَالِحًا . فَحَفَرَ الْأَسَاسَ فَوَجَدَ فِيهِ رَجُلًا قَائِمًا مَعَهُ سَيْفٌ ، فِيهِ مَكْتُوبٌ : أَنَا الْحَارِثُ بْنُ مُضَاضٍ ، نَقِمْتُ عَلَى أَصْحَابِ الْأَخْدُودِ . فَاسْتَخْرَجَهُ أَبُو مُوسَى ، وَبَنَى الْحَائِطَ ، فَثَبَتَ .

قلت : هُوَ الْحَارِثُ بْنُ مُضَاضٍ بْنُ عَمْرِو بْنِ مُضَاضٍ بْنِ عَمْرِو الْجَرَهْمِيِّ ، أَحَدُ مَلُوكِ جَرَهْمِ الَّذِينَ وَلُوا أَمْرَ الْكَعْبَةِ بَعْدَ وَلَدِ نَبْتٍ (٢) بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ، وَوَلَدُ الْحَارِثِ هَذَا هُوَ : عَمْرِو بْنُ الْحَارِثِ بْنُ مُضَاضٍ هُوَ آخِرُ مَلُوكِ جَرَهْمِ بِمَكَّةَ ، لَمَّا أَخْرَجْتَهُمْ خَزَاعَةُ وَأَجْلَوْهُمْ إِلَى الْيَمَنِ ، وَهُوَ الْقَاتِلُ فِي شَعْرِهِ الَّذِي قَالَ ابْنُ هِشَامٍ (٣) إِنَّهُ أَوَّلُ شَعْرٍ قَالَهُ الْعَرَبُ :

كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجُّونِ إِلَى الصَّفَا أَنَيْسٌ ، وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ
بَلَى ، نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا فَأَبَادَنَا صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالْجُدُودُ الْعَوَائِرُ

وهذا يقتضي أن هذه القصة كانت قديماً بعد زمان إسماعيل ، عليه السلام ، بقرب من خمسمائة سنة أو نحوها ، وما ذكره ابن إسحاق يقتضي أن قصتهم كانت في زمان الفترة التي بين عيسى ومحمد ، عليهما من الله السلام ، وهو أشبه ، والله أعلم .

وقد يحتمل أن ذلك قد وقع في العالم كثيراً ، كما قال ابن أبي حاتم :

حدثنا أبي ، حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا صفوان ، عن عبد الرحمن بن جبير قال : كانت الأخدود في اليمن زمان تبع ، وفي القسطنطينية زمان قسطنطين حين صرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد ، فاتخذوا آتونا ، وألقى فيه النصارى الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد . وفي العراق في أرض بابل بختنصر ، الذي وضع الصنم وأمر الناس أن يسجدوا له ، فامتنع دانيال وصاحباؤه :

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣٦/١) .

(٢) في م : « ثابت » .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١١٥/١) .

عزريا وميشائيل ، فأوقد لهم أتونا وألقى فيه الحطب والنار ، ثم ألقاهما فيه ، فجعلها الله عليهما برداً وسلاماً ، وأنقذهما منها ، وألقى فيها الذين بغوا عليه وهم تسعة رهط ، فأكلتهم النار .

وقال أسباط ، عن السدى فى قوله : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ قال : كانت الأخدود ثلاثة : خدّ بالعراق ، وخذّ بالشام ، وخذّ باليمن . رواه ابن أبى حاتم .

وعن مقاتل قال : كانت الأخدود ثلاثة : واحدة بنجران باليمن ، والأخرى بالشام ، والأخرى بفارس ، أما التى بالشام فهو انطنانوس الرومى ، وأما التى بفارس فهو بختنصر ، وأما التى بأرض العرب فهو يوسف ذو نواس . فأما التى بفارس والشام فلم ينزل الله فيهم قرآناً ، وأنزل فى التى كانت بنجران .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدشتكى ، حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع - هو ابن أنس - فى قوله : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ قال : سمعنا أنهم كانوا قوماً فى زمان الفترة فلما رأوا ما وقع فى الناس من الفتنة والشر وصاروا أحزاباً ، ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٣، الروم: ٣٢] ، اعتزلوا إلى قرية سكنوها ، وأقاموا على عبادة الله ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [البينة: ٥] ، وكان هذا أمرهم حتى سمع بهم جبار من الجبارين ، وحُدث حديثهم ، فأرسل إليهم فأمرهم أن يعبدوا الأوثان التى اتخذوا ^(١) ، وأنهم أبوا عليه كلهم وقالوا : لا نعبد إلا الله وحده ، لا شريك له . فقال لهم : إن لم تعبدوا هذه الآلهة التى عبدتُ فإنى قاتلكم . فأبوا عليه ، فخذَّ أخدوداً من نار ، وقال لهم الجبار - ووقفهم عليها - : اختاروا هذه أو الذى نحن فيه . فقالوا : هذه أحب إلينا . وفيهم نساء وذرية ، ففزعوا الذرية ، فقالوا لهم : لا نار من بعد اليوم . فوقعوا فيها ، فقبضت أرواحهم من قبل أن يمسخهم حرّاً ، وخرجت النار من مكانها فأحاطت بالجبارين ، فأحرقهم الله بها ، ففى ذلك أنزل الله ، عز وجل : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

ورواه ابن جرير : حَدَّثْتُ عَنْ عَمَار ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي جَعْفَرٍ ، بِهِ نَحْوُهُ ^(٢) .

وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أى : حرقوا ^(٣) . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن أبى زى .

﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ﴾ أى : لم يقلعوا عما فعلوا ، ويندموا على ما أسلفوا .

﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ ، وذلك أن الجزاء من جنس العمل . قال الحسن البصرى : انظروا إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة .

(١) فى أ : « التى اتخذوها » .

(٢) تفسير الطبرى (٨٨/٣٠) .

(٣) فى م : « حرقوا بالنار » .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُدْئِي وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَالٌ لَمَّا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنُ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ .

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين أن ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ (١) ، بخلاف ما أعد لأعدائه من الحريق والجحيم ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ .

ثم قال : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ أى : إن بطشه وانتقامه من أعدائه الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره ، لشديد عظيم قوى ؛ فإنه تعالى ذو القوة المتين ، الذى ما شاء كان كما يشاء فى مثل لمح البصر ، أو هو أقرب ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُدْئِي وَيُعِيدُ ﴾ أى : من قوته وقدرته التامة يبدئ الخلق ثم يعيده كما بدأه ، بلا ممانع ولا مدافع . ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ﴾ أى : يغفر ذنب من تاب إليه وخضع لديه ، ولو كان الذنب من أى شىء كان .

والودود - قال ابن عباس وغيره - : هو الحبيب ، ﴿ ذُو الْعَرْشِ ﴾ [أى : صاحب العرش] (٢) المعظم (٣) العالى على جميع الخلائق .

و ﴿ الْمَجِيدُ ﴾ فيه قراءتان : الرفع على أنه صفة للرب ، عز وجل . والجر على أنه صفة للعرش ، وكلاهما معنى صحيح .

﴿ فَعَالٌ لَمَّا يُرِيدُ ﴾ أى : مهما أراد فعله ، لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل ؛ لعظمته وقهره وحكمته وعدله ، كما روينا عن أبى بكر الصديق أنه قيل له - وهو فى مرض الموت - : هل نظر إليك الطبيب ؟ قال : نعم . قالوا : فما قال لك ؟ قال : قال لى : إنى فعال لما أريد .

وقوله : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ . فِرْعَوْنُ وَثَمُودَ ﴿ أى : هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس ، وأنزل عليهم من النعمة التى لم يردّها عنهم أحد ؟

وهذا تقرير لقوله : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ أى : إذا أخذ الظالم أخذه أخذاً أليماً شديداً ، أخذ عزيز مقتدر .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن محمد الطنافسى ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو بن ميمون قال : مر النبى ﷺ على امرأة تقرأ : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ ، فقام يسمع (٤) ، فقال : « نعم ، قد جاءنى » (٥) .

(٣) فى أ : « العظيم » .

(٢) زيادة من أ .

(١) فى أبعدها : « خالدين فيها » .

(٥) وهذا مرسل .

(٤) فى أ : « يستمع » .

وقوله : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴾ أى : هم فى شك وريب وكفر وعناد ، ﴿ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾ أى : هو قادر عليهم ، قاهر لا يفوتونه ولا يعجزونه ، ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴾ أى : عظيم كريم ، ﴿ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ أى : هو فى الملاء الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل .

قال ابن جرير : حدثنا عمرو بن على ، حدثنا قُرَّة بن سليمان ، حدثنا حرب بن سُريج^(١) ، حدثنا عبد العزيز بن صهيب عن أنس بن مالك فى قوله : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ قال : إن اللوح المحفوظ الذى ذكر الله : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ ، فى جبهة إسرئيل^(٢) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو صالح ، حدثنا معاوية بن صالح : أن أبا الأعيس - هو عبد الرحمن بن سَلْمَانَ - قال : ما من شىء قضى الله - القرآن فما قبله وما بعده - إلا وهو فى اللوح المحفوظ . واللوحة المحفوظ بين عيني إسرئيل ، لا يؤذن له بالنظر فيه .

وقال الحسن البصرى : إن هذا القرآن المجيد عند الله فى لوح محفوظ ، ينزل منه ما يشاء على من يشاء من خلقه .

وقد روى البغوى من طريق إسحاق بن بشر^(٣) : أخبرنى مقاتل وابن جريج ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : إنه فى صدر اللوح لا إله إلا الله وحده ، دينه الإسلام ، ومحمد عبده ورسوله ، فمن آمن بالله وصدق بوعده واتبع رسله ، أدخله الجنة . قال : واللوح لوح من درة بيضاء ، طوله ما بين السماء والأرض ، وعرضه ما بين المشرق والمغرب ، وحافته الدر والياقوت ، ودفتاه ياقوتة حمراء ، وقلمه نور ، وكلامه معقود بالعرش ، وأصله فى حجر ملك^(٤) .

قال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العرش .

وقال الطبرانى : حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا منجاب بن الحارث ، حدثنا إبراهيم بن يوسف ، حدثنا زياد بن عبد الله ، عن ليث ، عن عبد الملك بن سعيد بن جبير ، عن أبيه ، عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء ، صفحاتها من ياقوتة حمراء ، قلمه نور وكتابه نور ، لله فيه كل يوم ستون وثلاثمائة لحظة ، يخلق ويرزق ، ويميت ويحيى ، ويعزُّ ويذلُّ ، ويفعل ما يشاء »^(٥) .

آخر تفسير سورة « البروج » ولله الحمد^(٦)

(١) فى أ : « شريح » .

(٢) تفسير الطبرى (٩٠/٣٠) .

(٣) فى أ : « بشير » .

(٤) معالم التنزيل للبغوى (٣٨٩/٨) .

(٥) المعجم الكبير (٧٢/١٢) وزياد وليث بن أبى سليم ضعيفان ، وقد جاء موقوفاً على ابن عباس ، رواه الطبرانى فى المعجم الكبير

(١٠/٣١٦) من طريق بكير بن شهاب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس بنحوه .

(٦) فى أ : « والله أعلم » .

تفسير سورة الطارق

وهي مكية .

قال عبد الله ابن الإمام أحمد : حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن محمد — قال : عبد الله وسمعتُه أنا منه — حدثنا مروان بن معاوية الفزاري ، عن عبد الله بن عبد الرحمن الطائفي ، عن عبد الرحمن ابن خالد بن أبي جبَل^(١) العَدَوَانِي ، عن أبيه : أنه أبصر رسول الله ﷺ في مُشْرِقٍ ثَقِيفٍ وهو قائم على قوس — أو : عصا — حين أتاهم يبتغي عندهم النصر ، فسمعتُه يقول : ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ ، حتى ختمها — قال : فوعيتها في الجاهلية وأنا مشرك ، ثم قرأتها في الإسلام — قال : فدعنتي ثقيف فقالوا: ماذا سمعت^(٢) من هذا الرجل ؟ فقرأتها عليهم ، فقال من معهم من قريش : نحن أعلم بصاحبنا ، لو كنا نعلم ما يقول حقاً لاتبعناه^(٣) .

وقال النسائي : حدثنا عمرو بن منصور ، حدثنا أبو نعيم ، عن مسعر ، عن محارب بن دثار ، عن جابر قال : صلى معاذ المغرب ، فقرأ البقرة والنساء ، فقال النبي ﷺ : « أفئتان يا معاذ ؟ ما كان يكفيك أن تقرأ بالسما والطارق ، والشمس وضحاها ، ونحو هذا ؟ »^(٤) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣)﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠)﴾ .

يقسم^(٥) تعالى بالسما وما جعل فيها من الكواكب النيرة ؛ ولهذا قال : ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ ثم قال : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ ، ثم فسره بقوله : ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ .

قال قتادة وغيره : إنما سمي النجم طارقاً ؛ لأنه إنما يرى بالليل ويختفي بالنهار . ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح : نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً^(٦) ، أى : يأتيهم فجأة بالليل . وفي

(١) فى أ : « جهل » .

(٢) فى م : « ما سمعت » .

(٣) المسند (٤/٢٣٥) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/١٣٦) : « عبد الرحمن ذكره ابن أبى حاتم ولم يخرج أحد وبقيته رجاله ثقات » .

(٤) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٦٤) .

(٥) فى أ : « أقسم » .

(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٢٤٣) من حديث جابر ، رضى الله عنه .

الحديث الآخر المشتمل على الدعاء : « إِنْ طَارَقَا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ » ^(١) .

وقوله : ﴿ الثَّاقِبُ ﴾ : قال ابن عباس : المضىء . وقال السدى : يثقب الشياطين إذا أرسل عليها . وقال عكرمة : هو مضىء ومحرق للشيطان .

وقوله : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ أى : كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات ، كما قال تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١] .

وقوله : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ : تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذى خلق منه ، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد ؛ لأن من قدر على البداءة فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى ، كما قال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧] .

وقوله : ﴿ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ يعنى : المنى ؛ يخرج دفقاً من الرجل ومن المرأة ، فيتولد منهما الولد بإذن الله ، عز وجل ^(٢) ؛ ولهذا قال : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ يعنى : صلب الرجل وترائب المرأة ، وهو صدرها .

قال شبيب بن بشر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ : صلب الرجل وترائب المرأة ، أصفر رقيق ، لا يكون الولد إلا منهما . وكذا قال سعيد بن جبير ، وعكرمة ، وقتادة والسدى ، وغيرهم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة ، عن مسعر : سمعت الحكم ذكر عن ابن عباس : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ قال : هذه الترائب . ووضع يده على صدره .

وقال الضحاك وعطية ، عن ابن عباس : تربية المرأة موضع القلادة . وكذا قال عكرمة ، وسعيد ابن جبير . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : الترائب : بين ثدييها .

وعن مجاهد : الترائب ما بين المنكبين إلى الصدر . وعنه أيضاً : الترائب أسفل من التراقي .

وقال سفيان الثوري : فوق الثديين . وعن سعيد بن جبير : الترائب أربعة أضلاع من هذا الجانب الأسفل .

وعن الضحاك : الترائب بين الثديين والرجلين والعينين .

وقال الليث بن سعد عن معمر بن أبى حبيبة ^(٣) المدنى : أنه بلغه فى قول الله عز وجل : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ قال : هو عصارة القلب ، من هناك يكون الولد .

وعن قتادة : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ : من بين صلبه ونحره .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ ، فيه قولان :

أحدهما : على رجوع هذا الماء الدافق إلى مقره الذى خرج منه لقادر على ذلك . قاله مجاهد ،

(١) رواه الإمام أحمد فى المسند (٤١٩/٣) من حديث عبد الرحمن بن خنيس ، رضى الله عنه .

(٢) فى أ : « بإذن الله تعالى » . (٣) فى أ : « حبة » .

وعكرمة ، وغيرهما .

والقول الثانى : إنه على رجع هذا الإنسان المخلوق من ماء دافق ، أى : إعادته وبعثه إلى الدار الآخرة لقادر ؛ لأن من قدر على البدء قدر على الإعادة .

وقد ذكر الله ، عز وجل ، هذا الدليل في القرآن في غير ما موضع ، وهذا القول قال به الضحاك ، واختاره ابن جرير ، ولهذا قال : ﴿ يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ أى : يوم القيامة تبلى فيه السرائر ، أى : تظهر وتبدو ، ويبقى السر علانية والمكنون مشهورا . وقد ثبت فى الصحيحين ، عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : « يرفع لكل غادر لواء عند استه ^(١) » ، يقال : هذه غدره فلان بن فلان ^(٢) .

وقوله : ﴿ فَمَالَهُ ﴾ أى : الإنسان يوم القيامة ﴿ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ أى : فى نفسه ﴿ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ أى : من خارج منه ، أى : لا يقدر على أن ينقذ نفسه من عذاب الله ، ولا يستطيع له أحد ذلك .

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُوَيْدًا (١٧) ﴾ . قال ابن عباس : الرجع : المطر . وعنه : هو السحاب فيه المطر . وعنه : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ : تمطر ثم تمطر .

وقال قتادة : ترجع رزق العباد كل عام ، ولولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم .

وقال ابن زيد : ترجع نجومها وشمسها وقمرها ، يأتين من هاهنا .

﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ : قال ابن عباس : هو انصداعها عن النبات . وكذا قال سعيد بن جببر ، وعكرمة ، وأبو مالك ، والضحاك ، والحسن ، وقاتدة ، والسدى ، وغير واحد . وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴾ : قال ابن عباس : حق . وكذا قال قتادة .

وقال آخر : حكم عدل .

﴿ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ أى : بل هو حق جد .

ثم أخبر عن الكافرين بأنهم يكذبون به ويصدون عن سبيله ، فقال : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾ أى : يمكرون بالناس فى دعوتهم إلى خلاف القرآن .

ثم قال : ﴿ فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ ﴾ أى : أنظرهم ولا تستعجل لهم ، ﴿ أَمَهُلُهُمْ رُوَيْدًا ﴾ أى : قليلا . أى : وترى ماذا أحل بهم من العذاب والنكال والعقوبة والهلاك ، كما قال : ﴿ نَمَتَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان : ٢٤] .

آخر تفسير سورة « الطارق » ولله الحمد ^(٣)

(١) فى أ : « عند رأسه » .

(٢) صحيح البخارى برقم (٣١٨٨) وصحيح مسلم برقم (١٧٣٥) .

(٣) فى أ : « والله أعلم » .

تفسير سورة سبح

وهي مكية .

والدليل على ذلك ما رواه البخارى : حدثنا عبدان : أخبرنى أبى ، عن شعبة ، عن أبى إسحاق ، عن البراء بن عازب قال : أول من قدم علينا من أصحاب النبى ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ، فجعلنا يُقرئنا القرآن . ثم جاء عمار وبلال وسعد . ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين . ثم جاء النبى ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به ، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون : هذا رسول الله قد جاء ، فما جاء حتى قرأت : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ فى سورٍ مثلها (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا إسرائيل ، عن ثوير بن أبى فاختة ، عن أبيه ، عن على قال : كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ . تفرد به أحمد (٢) . وثبت فى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى » (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر ، عن أبيه ، عن حبيب بن سالم ، عن أبيه ، عن النعمان بن بشير : أن رسول الله ﷺ قرأ فى العيدين بـ ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ، و ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ ، وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعاً (٤) .

هكذا وقع فى مسند الإمام أحمد إسناد هذا الحديث . وقد رواه مسلم - فى صحيحه - وأبو داود والترمذى والنسائى ، من حديث أبى عوانة وجريز وشعبة ، ثلاثتهم عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر ، عن أبيه ، عن حبيب بن سالم ، عن النعمان بن بشير ، به (٥) . قال الترمذى : « وكذا رواه الثورى ومسعر ، عن إبراهيم - قال : ورواه سفيان بن عيينة عن إبراهيم - عن أبيه ، عن حبيب بن سالم ، عن أبيه ، عن النعمان . ولا يعرف لحبيب رواية عن أبيه » .

وقد رواه ابن ماجة عن محمد بن الصباح ، عن سفيان بن عيينة ، عن إبراهيم بن المنتشر ، عن أبيه عن حبيب بن سالم ، عن النعمان به (٦) . كما رواه الجماعة ، والله أعلم .

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٤١) .

(٢) المسند (٩٦١/١) وقال الهيثمى فى المجمع (١٣٦/٧) : « فيه ثوير بن أبى فاختة وهو متروك » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٠٧) وصحيح مسلم برقم (٤٦٥) .

(٤) المسند (٢٧١/٤) .

(٥) صحيح مسلم برقم (٨٧٨) وسنن أبى داود برقم (١١٢٢) وسنن الترمذى برقم (٥٣٣) وسنن النسائى (١١٢/٣) .

(٦) سنن ابن ماجة برقم (١٢٨١) .

ولفظ مسلم وأهل السنن: كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ، و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ ، وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما .

وقد روى الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي بن كعب ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الرحمن بن أبيزى ، وعائشة أم المؤمنين : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الوتر بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ، و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ — زادت عائشة : والمعوذتين ^(١) .

وهكذا روى هذا الحديث — من طريق — جابر وأبى أمامة صدق بن عجلان ، وعبد الله بن مسعود ، وعمران بن حصين ، وعلى بن أبي طالب ، رضى الله عنهم ^(٢) . ولولا خشية الإطالة لأوردنا ما تيسر من أسانيد ذلك ومتونه ولكن في الإرشاد بهذا الاختصار كفاية ، والله أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُيْسِرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكَرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى (٩) سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣)﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا موسى — يعنى ابن أيوب الغافقى — حدثنا عمى إياس بن عامر ، سمعت عقبة بن عامر الجهنى لما نزلت : ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤ ، ٩٦] ، قال لنا رسول الله ﷺ : « اجعلوها فى ركوعكم » . فلما نزلت : ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال : « اجعلوها فى سجودكم » .

ورواه أبو داود وابن ماجه ، من حديث ابن المبارك ، عن موسى بن أيوب ، به ^(٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن مسلم البطين ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ : ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ، قال : « سبحان ربى الأعلى » .

وهكذا رواه أبو داود عن زهير بن حرب ، عن وكيع ، به ^(٤) . وقال : « خولف فيه وكيع ،

(١) حديث أبى بن كعب فى المسند (١٢٣/٥) وحديث ابن عباس فى المسند (٢٩٩/١) وحديث ابن أبيزى فى المسند (٤٠٦/٣) وحديث عائشة فى المسند (٢٢٧/٦) .

(٢) وقد توسع الحافظ ابن حجر فى ذكر طرق هذا الحديث والكلام عليها فى كتابه تلخيص الحبير (١٩/٢) .

(٣) المسند (١٥٥/٤) وسنن أبى داود برقم (٨٦٩) وسنن ابن ماجه برقم (٨٨٧) .

(٤) المسند (٢٣٢/١) وسنن أبى داود برقم (٨٨٣) .

رواه أبو وكيع وشعبة ، عن أبي إسحاق ، عن سعيد ، عن ابن عباس ، موقوفا .

وقال الثوري ، عن السدي ، عن عبد خير قال : سمعت علياً قرأ (١) : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ، فقال : سبحان ربى الأعلى .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا حكام عن عنبسة ، عن أبي إسحاق الهمداني : أن ابن عباس كان إذا قرأ : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ، يقول : سبحان ربى الأعلى ، وإذا قرأ : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [القيامة: ١] فأتى على آخرها : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ [القيامة: ٤٠] يقول : سبحانك وبلى (٢) .

وقال قتادة : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ : ذَكَرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا قَرَأَهَا ، قَالَ : «سبحان ربى الأعلى» .

وقوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ أى : خلق الخليفة وسوى كل مخلوق فى أحسن الهيئات .

وقوله : ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ : قال مجاهد : هدى الإنسان للشقاوة والسعادة ، وهدى الأنعام لمراتها .

وهذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لفرعون : ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه: ٥٠] أى : قدر قدراً ، وهدى الخلائق إليه ، كما ثبت فى صحيح مسلم ، عن عبد الله ابن عمرو : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله قَدَّرَ مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » (٣) .

وقوله : ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴾ أى : من جميع صنوف النباتات والزرع ، ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾ : قال ابن عباس : هشيماً متغيراً . وعن مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد ، نحوه .

قال ابن جرير : وكان بعض أهل العلم بكلام العرب (٤) يرى أن ذلك من المؤخر الذى معناه التقديم ، وأن معنى الكلام : والذى أخرج المرعى أحوى ، أى : أخضر إلى السواد ، فجعله غثاء بعد ذلك . ثم قال ابن جرير : وهذا وإن كان محتملاً إلا أنه غير صواب ؛ لمخالفته أقوال أهل التأويل .

وقوله : ﴿ سَنُقَرِّئُكَ ﴾ أى : يا محمد ﴿ فَلَا تَنْسَى ﴾ . وهذا إخبار من الله ، عز وجل ، ووعد منه له ، بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها ، ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ . وهذا اختيار ابن جرير .

وقال قتادة : كان رسول الله ﷺ لا ينسى شيئاً إلا ما شاء الله .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ فَلَا تَنْسَى ﴾ : طلب ، وجعلوا معنى الاستثناء على هذا ما يقع من

(١) فى أ : « يقرأ » .

(٢) تفسير الطبرى (٩٦/٣٠) .

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٦٥٣) .

(٤) فى أ : « بكلام العربية » .

النسخ ، أى : لا تنسى ما نقرئك إلا ما شاء الله رفعه ؛ فلا عليك أن تتركه .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴾ أى : يعلم ما يجهر به العباد وما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم ، لا يخفى عليه من ذلك شىء .

وقوله تعالى : ﴿ وَنُيْسِرُكَ لِلْإِسْرَى ﴾ أى : نسهل عليك أفعال الخير وأقواله ، ونشرع لك شرعا سهلا سمحا مستقيما عدلا ، لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر .

وقوله : ﴿ فَذَكَرْ إِنْ نَفَعْتَ الذِّكْرَى ﴾ أى : ذكر حيث تنفع التذكرة . ومن هاهنا ^(١) يؤخذ الأدب فى نشر العلم ، فلا يضعه عند غير أهله ، كما قال أمير المؤمنين على ، رضى الله عنه : ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم . وقال : حدث الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله ؟!

وقوله : ﴿ سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾ أى : سيتعظ بما تبلغه — يا محمد — من قلبه يخشى الله ويعلم أنه ملاقيه ، ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى . الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى . ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ أى : لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه ، بل هى مضرة عليه ؛ لأن بسببها يشعر ما يعاقب به من أليم العذاب ، وأنواع النكال .

قال الإمام أحمد : حدثنا ابن أبى عدى ، عن سليمان — يعنى التيمى — عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « أما أهل النار الذين هم أهلها لا ^(٢) يموتون ولا يحيون ، وأما أناس يريد الله بهم الرحمة فيميتهم فى النار فيدخل عليهم الشفعاء ^(٣) ، فيأخذ الرجل أنصاره فينبتهم — أو قال : ينبتون — فى نهر الحياء — أو قال : الحياة — أو قال : الحيوان — أو قال : نهر الجنة فينبتون — نبات الحبة فى حميل السيل » . قال : وقال النبى ﷺ : « أما ترون الشجرة تكون خضراء ، ثم تكون صفراء أو قال : تكون صفراء ثم تكون خضراء ؟ » . قال : فقال بعضهم : كأن النبى ﷺ كان بالبادية ^(٤) .

وقال أحمد أيضا : حدثنا إسماعيل ، حدثنا سعيد بن يزيد ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « أما أهل النار الذين هم أهلها ، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن أناس — أو كما قال — تصيبهم النار بذنوبهم — أو قال : بخطاياهم — فيميتهم إماتة ، حتى إذا صاروا فحما أذن فى الشفاعة ، فجىء بهم ضبائر ضبائر ، فنبتوا على أنهار الجنة ، فيقال : يا أهل الجنة ، اقبضوا عليهم . فينبتون نبات الحبة تكون فى حميل السيل » . قال : فقال رجل من القوم حينئذ : كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية .

ورواه مسلم فى حديث بشر بن الفضل ^(٥) وشعبة ، كلاهما عن أبى مسleme سعيد بن زيد ، به

(٣) فى أ : « الشفاعة » .

(٢) فى أ : « فإنهم لا » .

(١) فى م : « ومن هذا » .

(٤) المسند (٥/٣) .

(٥) فى أ : « الفضل » .

مثله ^(١) . ورواه أحمد أيضا عن يزيد ، عن سعيد بن إياس الجريري ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ قال : « إن أهل النار الذين لا يريد الله إخراجهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، وإن أهل النار الذين يريد الله إخراجهم يميتهم فيها إماتة ، حتى يصيروا فحماً ، ثم يخرجون ضبائر فيلقون على أنهار الجنة ، أو : يرش ^(٢) عليهم من أنهار الجنة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل » ^(٣) .

وقد قال الله إخباراً عن أهل النار : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا تُكُونُ ﴾ [الزخرف: ٧٧] ، وقال تعالى : ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر: ٣٦] . إلى غير ذلك من الآيات في هذا المعنى .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ١٥ ﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ١٦ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ١٧ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ١٨ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ١٩ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ أى : طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة ، وتابع ما أنزل الله على رسوله ، صلوات الله وسلامه عليه ، ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ أى : أقام الصلاة فى أوقاتها ؛ ابتغاء رضوان الله وطاعة لأمر الله وامتنالاً لشرع الله . وقد قال الحافظ أبو بكر البزار :

حدثنا عباد بن أحمد العرزمي ، حدثنا عمى محمد بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن عطاء بن السائب ، عن عبد الرحمن بن سابط ، عن جابر بن عبد الله ، عن النبي ﷺ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ ، قال : « من شهد أن لا إله إلا الله ، وخلع الأنداد ، وشهد أنى رسول الله » ، ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ قال : « هى الصلوات الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بها » . ثم قال ^(٤) : لا يروى عن جابر إلا من هذا الوجه ^(٥) .

وكذا قال ابن عباس : إن المراد بذلك الصلوات الخمس . واختاره ابن جرير .

وقال ابن جرير : حدثني عمرو بن عبد الحميد الأملى ^(٦) ، حدثنا مروان بن معاوية ، عن أبي خلدة قال : دخلت على أبي العالية فقال لى : إذا غدوت غداً إلى العيد فمرّ بى . قال : فمررت به فقال : هل طعمت شيئا ؟ قلت : نعم . قال : أفضت على نفسك من الماء ؟ قلت : نعم . قال : فأخبرنى ما فعلت بزكاتك ؟ قلت : وكأنك قلت : قد وجّهتها ؟ قال : إنما أردت لك لهذا . ثم قرأ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ . وقال : إن أهل المدينة لا يرون صدقة أفضل منها ومن سقاية الماء .

(١) المسند (١١/٣) وصحيح مسلم برقم (١٨٥) .

(٢) فى م : « فيرش » .

(٣) المسند (٢٠/٣) .

(٤) فى م : « وقال » .

(٥) مسند البزار برقم (٢٢٨٤) « كشف الاستار » وقال الهيثمى فى المجمع (١٣٧/٧) : « رواه البزار عن شيخه عباد بن أحمد العرزمي وهو متروك » .

(٦) فى أ : « الأيلى » .

قلت : وكذلك رويانا عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كان يأمر الناس بإخراج صدقة الفطر، ويتلو هذه الآية ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ .

وقال أبو الأحوص : إذا أتى أحدكم سائل وهو يريد الصلاة ، فليقدم بين يدي صلاته زكاته ، فإن الله يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ .

وقال قتادة في هذه الآية ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ : زكى ماله وأرضى خالقه .

ثم قال تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى : تقدمونها على أمر الآخرة ، وتبدونها على ما فيه نفعهم وصلاتهم في معاشهم ومعادهم ، ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ أى : ثواب الله فى الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى ، فإن الدنيا دنية فانية ، والآخرة شريفة باقية ، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى ، ويهتم بما يزول عنه قريبا ، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد ؟!

قال الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا ذؤيد ، عن أبي إسحاق ، عن عروة ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدنيا دارٌ من لا دارَ له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له » (١) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يحيى بن واضح ، حدثنا أبو حمزة ، عن عطاء ، عن عرقبة الثقفى قال : استقرأت ابن مسعود : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ فلما بلغ : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ترك القراءة ، وأقبل على أصحابه وقال : آثرنا الدنيا على الآخرة . فسكت القوم ، فقال : آثرنا الدنيا لأننا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها ، وزويت عنا الآخرة فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل (٢) .

وهذا منه على وجه التواضع والهضم ، أو هو إخبار عن الجنس من حيث (٣) هو ، والله أعلم . وقد قال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود الهاشمي ، حدثنا إسماعيل بن جعفر ، أخبرني عمرو بن أبي عمرو ، عن المطلب بن عبد الله ، عن أبي موسى الأشعري : أن رسول الله ﷺ قال : « من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنيته ، فأثروا ما يبقى على ما يفنى » . تفرد به أحمد .

وقد رواه أيضا عن أبي سلمة الخزاعي ، عن الدراوردي ، عن عمرو بن أبي عمرو ، به مثله سواء (٤) .

وقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ : قال الحافظ أبو بكر البزار :

(١) المسند (٧١/٦) وقال الهيثمي فى المجمع (٢٨٨/١٠) : « رجاله رجال الصحيح غير ذؤيد وهو ثقة » .

(٢) تفسير الطبرى (١٠٠/٣٠) .

(٣) فى ١ : « من جنسه » .

(٤) المسند (٤١٢/٤) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٤٧٣) « موارد » من طريق يعقوب بن عبد الرحمن ، عن عمرو بن أبي عمرو .

حدثنا نصر بن علي ، حدثنا مُعْتَمِر بن سليمان ، عن أبيه عن عطاء بن السائب ، عن عِكْرَمَةَ ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ قال النبي ﷺ : « كان كل هذا - أو : كان هذا - في صحف إبراهيم وموسى » (١) .

ثم قال : لا نعلم أسند الثقات عن عطاء بن السائب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس غير (٢) هذا ، وحديث آخر أورده قبل هذا .

وقال النسائي : أخبرنا زكريا بن يحيى ، أخبرنا نصر بن علي ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، عن عطاء بن السائب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ قال : كلها في صحف إبراهيم وموسى ، فلما نزلت : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ [النجم: ٣٧] قال : وفى ﴿ أَلَا تَرَى وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى ﴾ [النجم: ٣٨] (٣) .

يعنى أن هذه الآية كقوله في سورة « النجم » : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى . وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى . أَلَا تَرَى وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى . وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى . ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى . وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَى ﴾ [النجم: ٣٦ : ٤٢] . . . الآيات إلى آخرهن . وهكذا قال عكرمة - فيما رواه ابن جرير ، عن ابن حميد ، عن مهران ، عن سفيان الثوري ، عن أبيه ، عن عكرمة - في قوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ ، يقول : الآيات التي في سبح اسم ربك الأعلى .

وقال أبو العالية : قصة هذه السورة في الصحف الأولى .

واختار ابن جرير أن المراد بقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ إشارة إلى قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى . بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ ، ثم قال : ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أى : مضمون هذا الكلام ﴿ لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ (٤) .

وهذا اختيار حسن قوى . وقد روى عن قتادة وابن زيد ، نحوه . والله أعلم .

آخر تفسير سورة « سبح » ولله الحمد والمنة

(١) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٦٨) .

(٢) فى أ : « نحو » .

(٣) مسند البزار برقم (٢٢٨٥) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (١٣٧/٧) : « فيه عطاء بن السائب وقد اختلط ، وبقيّة رجاله رجال الصحيح » .

(٤) تفسير الطبرى (١٠١/٣٠) .

تفسير سورة الغاشية

وهي مكية .

قد تقدم عن النعمان بن بشير : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بـ ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ،
والغاشية في صلاة العيد ويوم الجمعة .

وقال الإمام مالك ، عن ضمرة بن سعيد ، عن عبيد الله بن عبد الله : أن الضحاك بن قيس
سأل النعمان بن بشير : بم كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة ؟ قال : ﴿ هَلْ أَتَاكَ
حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ .

رواه أبو داود عن القعنبي ، والنسائي عن قتيبة ، كلاهما عن مالك ، به ^(١) . ورواه مسلم وابن
ماجة ، من حديث سفيان بن عيينة ، عن ضمرة بن سعيد ، به ^(٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ١ ﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ٢ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ٣ تَصَلَّى نَارًا
حَامِيَةً ٤ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ٥ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ٦ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ
جُوعٍ ٧ ﴾ .

الغاشية : من أسماء يوم القيامة . قاله ابن عباس ، وقتادة ، وابن زيد ؛ لأنها تغشى الناس
وتعمهم . وقد قال ابن أبي حاتم :

حدثنا أبي ، حدثنا علي بن محمد الطَّنَافِسيّ ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن أبي إسحاق ، عن
عمرو بن ميمون قال : مر النبي ﷺ على امرأة تقرأ : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ فقام يستمع ويقول :
« نعم ، قد جاءني » ^(٣) .

وقوله : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ أى : ذليلة . قاله قتادة . وقال ابن عباس : تخشع ولا ينفعها
عملها .

وقوله : ﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴾ أى : قد عملت عملاً كثيراً ، ونصبت فيه ، وصليت يوم القيامة نارا
حامية .

وقال الحافظ أبو بكر البرقاني : حدثنا إبراهيم بن محمد المزكى ، حدثنا محمد بن إسحاق

(١) الموطأ (١١١/١) وسنن أبي داود برقم (١١٢٣) وسنن النسائي (١١٢/٣) .

(٢) صحيح مسلم برقم (٨٧٨) وسنن ابن ماجه برقم (١١١٩) .

(٣) وهذا مرسل وقد تقدم .

وقال الحافظ أبو بكر البرقاني : حدثنا إبراهيم بن محمد المزكي ، حدثنا محمد بن إسحاق السراج ، حدثنا هارون بن عبد الله ، حدثنا سيار^(١) ، حدثنا جعفر قال : سمعت أبا عمران الجوني يقول : مر عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، بدير راهب ، قال : فناداه : يا راهب [يا راهب]^(٢) . فأشرف . قال : فجعل عمر ينظر إليه ويبكى . فقيل له : يا أمير المؤمنين ، ما يبكيك من هذا ؟ قال : ذكرت قول الله ، عز وجل ، فى كتابه : ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ . تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴾ ، فذاك الذى أبكاني^(٣) .

وقال البخارى : قال ابن عباس : ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ : النصارى .

وعن عكرمة ، والسدى : ﴿ عَامِلَةٌ ﴾ فى الدنيا بالمعاصى ﴿ نَّاصِبَةٌ ﴾ فى النار بالعذاب والأغلال^(٤) .

قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة : ﴿ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴾ أى : حارة شديدة الحر ﴿ تُسْقَى مِنْ عَيْنِ آيَةٍ ﴾ أى : قد انتهى حرها وغليانها . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، والسدى .

وقوله : ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : شجر من

نار .

وقال سعيد بن جبير : هو الزقوم . وعنه : أنها الحجارة .

وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وأبو الجوزاء ، وقتادة : هو الشبرق . قال قتادة : قريش تسميه فى الربيع الشبرق ، وفى الصيف الضريع . قال عكرمة : وهو شجرة ذات شوك لا طئة بالأرض .

وقال البخارى : قال مجاهد : الضريع نبت يقال له : الشبرق ، يسميه أهل الحجاز : الضريع إذا يبس ، وهو سم^(٥) .

وقال معمر ، عن قتادة : ﴿ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴾ : هو الشبرق ، إذا يبس سُمى الضريع .

وقال سعيد ، عن قتادة : ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴾ : من شر الطعام وأبشعه وأخبثه .

وقوله : ﴿ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ يعنى : لا يحصل به مقصود ، ولا يندفع به محذور .

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ (٨) لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً

(١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ

(١٥) وَزُرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) .

(١) فى أ : « حدثنا سيار » .

(٢) زيادة من م ، أ .

(٣) ورواه عبد الرزاق فى تفسيره (٢٩٩/٢) عن جعفر بن سليمان ، عن أبى عمران به ، ورواه الحاكم فى المستدرک (٥٢٢/٢) من طريق

الخضر بن أبان ، عن سيار ، عن جعفر به ، وقال الحاكم : « هذه حكاية فى وقتها ، فإن أبا عمران الجوني لم يدرك زمان عمر » .

(٤) فى م : « والإهلاك » .

(٥) صحيح البخارى (٧٠٠/٨) « فتح » .

لما ذكر حال الأشقياء ، ثنى بذكر السعداء فقال : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ نَاعِمَةٌ ﴾ أى : يعرف النعيم فيها . وإنما حَصَلَ لها ذلك بسعيها .

وقال سفيان : ﴿ لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ ﴾ : قد رضيت عملها .

وقوله : ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ أى : ربيعة بهية فى الغرفات آمنون ، ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾ أى : لا يسمع فى الجنة التى هم فيها كلمة لغو . كما قال : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ﴾ [مريم: ٦٢] ، وقال : ﴿ لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ ﴾ [الطور: ٢٣] . وقال : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ [الواقعة: ٢٥ ، ٢٦] .

﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ أى : سارحة . وهذه نكرة فى سياق الإثبات ، وليس المراد بها عينا واحدة ، وإنما هذا جنس ، يعنى : فيها عيون جاريات .

وقال ابن أبى حاتم : قُرئ على الربيع بن سليمان : حدثنا أسد بن موسى ، حدثنا ابن ثوبان ، عن عطاء بن قُرة ، عن عبد الله بن ضَمرة ، عن أبى هُريرة قال : قال النبى ﷺ : « أنهار الجنة تفجر من تحت تلال - أو : من تحت جبال - المسك » (١) .

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴾ أى : عالية ناعمة كثيرة الفرش ، مرتفعة السَّمَك ، عليها الحور العين . قالوا : فإذا أراد ولىُّ الله أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له ، ﴿ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ يعنى : أوانى الشرب معدة مُرصدة (٢) لمن أرادها من أربابها ، ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾ : قال ابن عباس : النمارق : الوسائد . وكذا قال عكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، والسدى ، والثورى ، وغيرهم .

وقوله : ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ : قال ابن عباس : الزرابى : البسط . وكذا قال الضحاك ، وغير واحد .

ومعنى مَبْثُوثَةٌ ، أى : هاهنا وهاهنا لمن أراد الجلوس عليها .

ونذكر هاهنا الحديث الذى رواه أبو بكر بن أبى داود : حدثنا عمرو بن عثمان ، حدثنا أبى ، عن محمد بن مهاجر ، عن الضحاك المعافى ، عن سليمان بن موسى : حدثنى كُرَيْبُ أنه سمع أسامة بن زيد يقول : قال رسول الله ﷺ : « ألا هل من مُشَمَّرٍ للجنة ، فإن الجنة لا خَطَرُ لها ، هى ورب الكعبة نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمررة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحُلُلٌ كثيرة ، ومقام فى أبد فى دارٍ سليمة ، وفاكهة وخضرة ، وحبرة ونعمة ، فى محلة عالية بهية؟ » . قالوا : نعم يا رسول الله ، نحن المشمرون لها . قال : « قولوا : إن شاء الله » . قال القوم : إن شاء الله .

ورواه ابن ماجه عن العباس بن عثمان الدمشقى ، عن الوليد بن مسلم (٣) ، عن محمد بن

(١) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٦٢٢) « موارد » من طريق القراطيسى ، عن أسد بن موسى به .

(٢) فى م : « موضوعة » .

(٣) فى أ : « سلمة » .

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦) ﴾ .

يقول تعالى آمراً عباده بالنظر فى مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ ؟ فإنها خلق عجيب ، وتركيبها غريب ، فإنها فى غاية القوة والشدة ، وهى مع ذلك تلين للحمل الثقيل ، وتنقاد للقائد الضعيف ، وتؤكل ، وينتفع بوبرها ، ويشرب لبنها . ونبهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل ، وكان شريح القاضى يقول : اخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ؟ أى : كيف رفعها الله ، عز وجل ، عن الأرض هذا الرفع العظيم ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ [ق:٦] .

﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ أى : جعلت منصوبة قائمة ثابتة راسية لثلا تמיד الأرض بأهلها ، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن .

﴿ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ ؟ أى : كيف بسطت ومدت ومهدت ، فنبه البدوى على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذى هو راكب عليه ، والسماء التى فوق رأسه ، والجبل الذى تجاهه ، والأرض التى تحته — على قدرة خالق ذلك وصانعه ، وأنه الرب العظيم الخالق المتصرف المالك ، وأنه الإله الذى لا يستحق العبادة سواه . وهكذا أقسم « ضِمَام » فى سؤاله على رسول الله ﷺ ، كما رواه الإمام أحمد حيث قال :

حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، عن أنس قال : كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شىء ، فكان يعجبنا أن يجىء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع ، فجاء رجل من أهل البادية فقال : يا محمد ، إنه أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك . قال : « صدق » . قال : فمن خلق السماء ؟ قال : « الله » . قال : فمن خلق الأرض ؟ قال : « الله » . قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال : « الله » . قال : فبالذى خلق السماء والأرض ونصب هذه الجبال ، أكله أرسلك ؟ قال : « نعم » . قال : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات فى يومنا وليلتنا . قال : « صدق » . قال : فبالذى أرسلك ، أكله أمرك بهذا ؟

(١) البعث لابن أبى داود برقم (٧١) وسنن ابن ماجة برقم (٤٣٣٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/٣٢٥) : « هذا إسناد فيه مقال ، الضحاك المعافى ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال الذهبى فى طبقات التهذيب : « مجهول » . سليمان بن موسى مختلف فيه وباقى رجال الإسناد ثقات » .

قال : « نعم » . قال : وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا ؟ قال : « صدق » . قال : فبالذي أرسلتك ، ألكه أمرك بهذا ؟ . قال : « نعم » . قال : وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا . قال : « صدق » . قال : ثم ولي فقال : والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن شيئا . فقال النبي ﷺ : « إن صدق ليدخلن الجنة » .

وقد رواه مسلم ، عن عمرو الناقد ، عن أبي النضر هاشم بن القاسم ، به^(١) . وعلقه البخاري ، ورواه الترمذي والنسائي ، من حديث سليمان بن المغيرة به^(٢) . ورواه الإمام أحمد والبخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث الليث بن سعد ، عن سعيد المقبري ، عن شريك ابن عبد الله بن أبي نمر ، عن أنس ، به بطوله^(٣) ، وقال في آخره : « وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر » .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا إسحاق ، حدثنا عبد الله بن جعفر ، حدثني عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما كان يحدث عن امرأة في الجاهلية على رأس جبل ، معها ابن لها ترعى غنما ، فقال لها ابنها : يا أمه ، من خلقتك ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق أبي ؟ قالت : الله . قال : فمن خلقتني ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق السماء ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق الأرض ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق الجبل ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق هذه الغنم ؟ قالت : الله . قال : إني لأسمع لله شأنا . وألقى نفسه من الجبل فتقطع .

قال ابن عمر : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحدثنا هذا .

قال ابن دينار : كان ابن عمر كثيراً ما يحدثنا بهذا^(٤) .

في إسناده ضعف ، وعبد الله بن جعفر هذا هو المديني ، ضعفه ولده الإمام علي بن المديني وغيره .

وقوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ أى : فذكر — يا محمد — الناس بما أرسلت به إليهم ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ؛ ولهذا قال : ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهما : لست عليهم بجبار .

وقال ابن زيد : لست بالذي تكرههم على الإيمان .

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله عز وجل » . ثم قرأ : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ .

(١) المسند (١٤٣/٣) وصحيح مسلم برقم (١٢) .

(٢) صحيح البخاري (١٤٨/١) « فتح » وسنن الترمذي برقم (٦١٩) وسنن النسائي الكبرى برقم (٢٤٠١) .

(٣) المسند (١٦٨/٣) وصحيح البخاري برقم (٦٣) وسنن أبي داود برقم (٤٨٦) وسنن النسائي الكبرى برقم (٢٤٠٢) وسنن ابن ماجه برقم (١٤٠٢) .

(٤) ورواه ابن عدى في الكامل (١٧٨/٤) عن أبي يعلى به مثله . وقال : « غير محفوظ ، لا يحدث به عن ابن دينار غير عبد الله بن جعفر » .

وهكذا رواه مسلم في كتاب « الإيمان » ، والترمذى والنسائى فى كتابى^(١) « التفسير » من سننهما ، من حديث سفيان بن سعيد الثورى ، به بهذه الزيادة^(٢) . وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين من رواية أبى هريرة ، بدون ذكر هذه الآية^(٣) .

وقوله : ﴿ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴾ أى : تولى عن العمل بأركانه ، وكفر بالحق بجنانه ولسانه . وهذه كقوله : ﴿ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى . وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ [القيامة : ٣١ ، ٣٢] . ولهذا قال : ﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾ . قال الإمام أحمد :

حدثنا قتيبة ، حدثنا ليث ، عن سعيد بن أبى هلال ، عن على بن خالد^(٤) : أن أبا أمانة الباهلى مرّ على خالد بن يزيد بن معاوية ، فسأله عن ألين كلمة سمعها من رسول الله ﷺ ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا كلكم يدخل الجنة ، إلا من شردّ على الله شراد البعير على أهله » .

تفرد^(٥) بإخراجه الإمام أحمد^(٦) ، وعلى بن خالد هذا ذكره ابن أبى حاتم عن أبيه ، ولم يزد على ما هاهنا : « روى عن أبى أمانة ، وعنه سعيد بن أبى هلال »^(٧) .

وقوله : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ أى : مرجعهم ومنقلبهم ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ أى : نحن نحاسبهم على أعمالهم ونجازيهم بها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

آخر تفسير سورة « الغاشية » ولله الحمد والمنة

(١) فى أ : « فى كتاب » .

(٢) المسند (٣/٣٠٠) وصحيح مسلم برقم (٢١) وسنن الترمذى برقم (٣٣٤١) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٧٠) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٩٤٦) وصحيح مسلم برقم (٢١) .

(٤) فى أ : « على بن أبى خالد » والمثبت من « م » والمسند .

(٥) فى م : « انفرد » .

(٦) المسند (٥/٢٥٨) .

(٧) الجرح والتعديل (٦/١٨٤) وقد ذكر الهيثمى فى المجمع (١٠/٤٠٣) « أنه ثقة » .

تفسير سورة الفجر

وهي مكية .

قال النسائي : أخبرنا عبد الوهاب بن الحكم ، أخبرني يحيى بن سعيد ، عن سليمان ، عن محارب بن دثار وأبي صالح ، عن جابر قال : صلى معاذ صلاةً ، فجاء رجل فصلّى معه فطَوّل ، فصلّى في ناحية المسجد ثم انصرف ، فبلغ ذلك معاذًا فقال : منافق . فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فسأل الفتى ، فقال : يا رسول الله ، جئت أصلى معه فطَوّل علىّ ، فانصرفت واصلتُ في ناحية المسجد ، فعلقت ناضحي . فقال رسول الله ﷺ : « أَتَانِ يَا مُعَاذُ ؟ أَيْنَ أَنْتَ مِنْ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ و﴿الشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ و﴿الْفَجْرِ﴾ و﴿اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ » (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)﴾ .

أما الفجر فمعروف ، وهو : الصبح . قاله علي ، وابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والسدي . وعن مسروق ، ومجاهد ، ومحمد بن كعب : المراد به فجر يوم النحر خاصة ، وهو خاتمة الليالي العشر .

وقيل : المراد بذلك الصلاة التي تفعل عنده ، كما قاله عكرمة .

وقيل : المراد به جميع النهار . وهو رواية عن ابن عباس .

والليالي العشر : المراد بها عشر ذى الحجة . كما قاله ابن عباس ، وابن الزبير ، ومجاهد ، وغير واحد من السلف والخلف . وقد ثبت في صحيح البخاري ، عن ابن عباس مرفوعا : « ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام » — يعني عشر ذى الحجة — قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : « ولا الجهاد في سبيل الله ، إلا رجلا خرج بنفسه وماله ، ثم لم يرجع من ذلك بشيء » (٢) .

(١) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٧٣) .

(٢) صحيح البخاري برقم (٩٦٩) .

وقيل : المراد بذلك العشر الأول من المحرم ، حكاه أبو جعفر ابن جرير ولم يعزه إلى أحد ^(١) .
وقد روى أبو كُدَيْنَةَ ، عن قابوس بن أبي ظبيان ، عن أبيه ، عن ابن عباس : ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾
قال : هو العشر الأول من رمضان .

والصحيح القول الأول ؛ قال الإمام أحمد :

حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا عِيَّاش بن عتبة ، حدثني خَيْر بن نُعَيْم ، عن أبي الزبير ، عن جابر ، عن النبي ﷺ قال : « إن العشر عشر الأضحى ، والوتر يوم عرفة ، والشفع يوم النحر » .
ورواه النسائي عن محمد بن رافع وعبد بن عبد الله ، كل منهما عن زيد بن الحباب ، به ^(٢) .
ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم ، من حديث زيد بن الحباب ، به ^(٣) . وهذا إسناد رجاله لا بأس بهم ، وعندى أن المتن في رفعه نكارة ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَالشَّفْعُ وَالْوَتْرُ ﴾ : قد تقدم في هذا الحديث أن الوتر يوم عرفة ، لكونه التاسع ، وأن الشفع يوم النحر لكونه العاشر . وقاله ابن عباس ، وعكرمة ، والضحاك أيضا .

قول ثان : وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثني عتبة بن خالد ، عن واصل ابن السائب قال : سألت عطاء عن قوله : ﴿ وَالشَّفْعُ وَالْوَتْرُ ﴾ قلت : صلاتنا وترنا هذا ؟ قال : لا ، ولكن الشفع يوم عرفة ، والوتر ليلة الأضحى .

قول ثالث : قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عامر بن إبراهيم الأصبهاني ، حدثني أبي ، عن النعمان - يعني ابن عبد السلام - عن أبي سعيد بن عوف ، حدثني بمكة قال : سمعتُ عبد الله ابن الزبير يخطبُ الناس ، فقام إليه رجلٌ فقال : يا أمير المؤمنين ، أخبرني عن الشفع والوتر . فقال : الشفع قول الله ، عز وجل : ﴿ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ ، والوتر قوله : ﴿ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة: ٢٠٣] .

وقال ابن جريج : أخبرني محمد بن المرتفع أنه سمع ابن الزبير يقول : الشفع أوسط أيام ^(٤) التشريق ، والوتر آخر أيام التشريق .

وفى الصحيحين من رواية أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسما ، مائة إلا واحدا ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » ^(٥) .

قول رابع : قال الحسن البصري ، وزيد بن أسلم : الخلق كلهم شفع ، ووتر ، أقسم تعالى بخلقه . وهو رواية عن مجاهد ، والمشهور عنه الأول .

(١) في أ : « إلى واحد » .

(٢) المسند (٣/٣٢٧) وسنن النسائي الكبرى برقم (١٦٧١) .

(٣) تفسير الطبري (١٠٨/٣٠) .

(٤) في أ : « الشفع الأيام من » .

(٥) صحيح البخاري برقم (٦٤١٠) وصحيح مسلم برقم (٢٦٧٧) .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ قال : الله وتر واحد ، وأنتم شفع .
ويقال : الشفع صلاة الغداة ، والوتر : صلاة المغرب .

قول خامس : قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عبيد بن موسى ، عن إسرائيل ، عن أبي يحيى ، عن مجاهد : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ قال : الشفع الزوج ، والوتر : الله عز وجل .

وقال أبو عبد الله ، عن مجاهد : الله الوتر ، وخلقه الشفع ، الذكر والأنثى .

وقال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد قوله : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ : كل شيء خلقه الله شفع ، السماء والأرض ، والبر والبحر ، والجن والإنس ، والشمس والقمر ، ونحو هذا . ونحا مجاهد في هذا ما ذكره في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩] أى : لتعلموا أن خالق الأزواج واحد .

قول سادس : قال قتادة ، عن الحسن : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ : هو العدد ، منه شفع ومنه وتر .

قول سابع : في الآية الكريمة رواه ابن أبي حاتم وابن جرير من طريق ابن جريج ، ثم قال ابن جرير : ورؤى عن النبي ﷺ خبر يؤيد القول الذي ذكرنا عن أبي الزبير : حدثني عبد الله بن أبي زياد القطواني ، حدثنا زيد بن الحباب ، أخبرني عياش بن عقبة ، حدثني خير^(١) بن نعيم ، عن أبي الزبير ، عن جابر : أن رسول الله ﷺ قال : « الشفع اليومان ، والوتر اليوم الثالث »^(٢) .

هكذا ورد هذا الخبر بهذا اللفظ ، وهو مخالف لما تقدم من اللفظ في رواية أحمد والنسائي وابن أبي حاتم ، وما رواه هو أيضا ، والله أعلم .

قال أبو العالية ، والربيع بن أنس ، وغيرهما : هي الصلاة ، منها شفع كالباعية والثانية ، ومنها وتر كالمغرب ، فإنها ثلاث ، وهي وتر النهار . وكذلك صلاة الوتر في آخر التهجد من الليل .

وقد قال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة ، عن عمران بن حصين : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ قال : هي الصلاة المكتوبة ، منها شفع ومنها وتر . وهذا منقطع وموقوف ، ولفظه خاص بالمكتوبة . وقد روى متصلا مرفوعا إلى النبي ﷺ ولفظه عام ، قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو داود — هو الطيالسي — حدثنا همام ، عن قتادة ، عن عمران بن عصام : أن شيخا^(٣) حدثه من أهل البصرة ، عن عمران بن حصين : أن رسول الله ﷺ سئل عن الشفع والوتر ، فقال : « هي الصلاة ، بعضها شفع ، وبعضها وتر »^(٤) .

هكذا وقع في المسند ، وكذا رواه ابن جرير عن بُندار ، عن عفان وعن أبي كُرَيْب ، عن عبيد الله بن موسى ، كلاهما عن همام — وهو ابن يحيى — عن قتادة ، عن عمران بن عصام ، عن

(١) في أ : « حدثني القطراني » .

(٢) تفسير الطبري (١٠٩/٣٠) .

(٣) في أ : « أن جيرا » .

(٤) المسند (٤٣٧/٤) .

شيخ، عن عمران بن حصين^(١) . وكذا رواه أبو عيسى الترمذى ، عن عمرو بن على ، عن ابن مَهْدَى وأبى داود ، كلاهما عن همام ، عن قتادة ، عن عمران بن عصام ، عن رجل من أهل البصرة، عن عمران بن حصين ، به . ثم قال : غريب ، لا نعرفه إلا من حديث قتادة ، وقد رواه خالد بن قيس أيضا عن قتادة^(٢) .

وقد روى عن عمران بن عصام ، عن عمران نفسه ، والله أعلم .

قلت : ورواه ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطى ، حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا همام^(٣) ، عن قتادة ، عن عمران بن عصام الضبعى — شيخ من أهل البصرة — عن عمران بن حصين ، عن النبى ﷺ فذكره ، هكذا رأيته فى تفسيره ، فجعل الشيخ البصرى هو عمران بن عصام [الضبعى]^(٤) .

وهكذا رواه ابن جرير : حدثنا نصر بن على ، حدثنى أبى ، حدثنى خالد بن قيس ، عن قتادة ، عن عمران بن عصام ، عن عمران بن حصين ، عن النبى ﷺ فى الشفع والوتر قال : « هى الصلاة منها شفع ، ومنها وتر »^(٥) .

فأسقط ذكر الشيخ المبهم ، وتفرد به عمران بن عصام الضبعى أبو عمارة البصرى ، إمام مسجد بنى ضُبَيْعة وهو والد أبى جَمْرَة^(٦) نصر بن عمران الضبعى . روى عنه قتادة ، وابنه أبو جمرة^(٧) ، والمثنى بن سعيد ، وأبو التياح يزيد بن حميد . وذكره ابن حَبَّان فى كتاب الثقات^(٨) ، وذكره خليفة ابن خياط فى التابعين^(٩) من أهل البصرة ، وكان شريفا نبيلاً حظياً عند الحجاج بن يوسف ، ثم قتله يوم الزاوية سنة ثلاث^(١٠) وثمانين لخروجه مع ابن الأشعث ، وليس له عند الترمذى سوى هذا الحديث الواحد . وعندى أن وقفه على عمران بن حصين أشبه ، والله أعلم .

ولم يجزم ابن جرير بشيء من هذه الأقوال فى الشفع والوتر .

وقوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ ﴾^(١١) : قال العوفى ، عن ابن عباس : أى إذا ذهب .

وقال عبد الله بن الزبير : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ ﴾ : حتى يذهب بعضه بعضاً .

وقال مجاهد ، وأبو العالية ، وقتادة ، ومالك ، عن زيد بن أسلم وابن زيد : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ ﴾ إذا سار .

وهذا يمكن حمله على ما قاله ابن عباس ، أى : ذهب . ويحتمل أن يكون المراد إذا سار ،

(١) تفسير الطبرى (١٠٩/٣٠) .

(٢) سنن الترمذى برقم (٣٣٤٢) .

(٣) فى أ : « أخبرنا هشام » .

(٥) تفسير الطبرى (١٠٩/٣٠) .

(٦، ٧) فى أ : « أبى حمزة » .

(٨) الثقات (٢٣٤/٥) .

(٩) فى أ : « التابعين » .

(١٠) فى م : « سنة ثنتين » .

(١١) فى م : « يسرى » .

أى: أقبل . وقد يقال : إن هذا أنسب ؛ لأنه فى مقابلة قوله : ﴿وَالْفَجْرِ﴾ ، فإن الفجر هو إقبال النهار وإدبار الليل ، فإذا حمل قوله : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ﴾ ^(١) ، على إقباله كان قَسَمًا بإقبال الليل وإدبار النهار ، وبالعكس ، كقوله : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٧، ١٨] . وكذا قال الضحاك : ﴿ [وَاللَّيْلِ] (٢) إِذَا يَسِرُّ﴾ أى : يجرى .

وقال عكرمة : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ﴾ يعنى : ليلة جَمَعَ . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم .

ثم قال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن عصام ، حدثنا أبو عامر ، حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو قال : سمعت محمد بن كعب القرظى ، يقول فى قوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ﴾ قال : اسر يا سار ولا تبين إلا بجمع .

وقوله : ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ أى : لذى عقل ولب وحجا [ودين] ^(٣) ، وإنما سمي العقل حجراً لأنه يمنع الإنسان من تعاطى ما لا يليق به من الأفعال والأقوال ، ومنه حجر البيت لأنه يمنع الطائف من اللصوق بجداره الشامى . ومنه حجر اليمامة ، وحجر الحاكم على فلان : إذا منعه التصرف ، ﴿ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢] ، كل هذا من قبيل واحد ، ومعنى متقارب ، وهذا القسم هو بأوقات العبادة ، وبنفس العبادة من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب التى يتقرب بها [إليه عباده] ^(٤) المتقون المطيعون له ، الخائفون منه ، المتواضعون لديه ، الخاشعون لوجهه الكريم .

ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم وطاعتهم قال بعده : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ ، وهؤلاء كانوا متمردين عتاة جبارين ، خارجين عن طاعته مكذبين لرسله ، جاحدين لكتبه . فذكر تعالى كيف أهلكتهم ودمرهم ، وجعلهم أحاديث وعبرا ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ وهؤلاء عاد الأولى ، وهم أولاد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح ، قاله ابن إسحاق وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هوداً ، عليه السلام ، فكذبوه وخالفوه ، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم ، وأهلكهم بريح صرصر عاتية ، ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَّخْلٍ خَاوِيَةٍ . فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧، ٨] . وقد ذكر الله قصتهم فى القرآن فى غير ما موضع ، ليعتبر بمصرعهم المؤمنون .

فقوله تعالى : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ ^(٥) : عطف بيان ؛ زيادة تعريف بهم .

وقوله : ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ : لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التى ترفع بالأعمدة الشداد ، وقد كانوا أشد الناس فى زمانهم ^(٦) خلقة وأقواهم بطشا ، ولهذا ذكرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها فى طاعة ربهم الذى خلقهم ، فقال : ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ [لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ]﴾ ^(٧) [الأعراف: ٦٩] . وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا

(١) فى م : « يسرى » .

(٢) زيادة من م ، أ .

(٣) زيادة من م .

(٤) زيادة من م ، أ .

(٥) فى م : « بعاد إرم » .

(٦) فى م : « زيادتهم » .

(٧) فى م ، أ ، هـ : « ولا تنعوا فى الأرض مفسدين » والصواب ما أثبتناه .

عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً [فصلت: ١٥] ، وقال هاهنا : ﴿ الَّذِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ أى : القبيلة التى لم يخلق مثلها فى بلادهم ، لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبيهم .

قال مجاهد : إرم : أمة قديمة . يعنى : عادا الأولى ، كما قال قتادة بن دعامة ، والسدّي : إن إرم بيت مملكة عاد . وهذا قول حسن جيد قوى .

وقال مجاهد ، وقتادة ، والكلبي فى قوله : ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ : كانوا أهل عمود لا يقيمون .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : إنما قيل لهم : ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ لطولهم .

واختار الأول ابن جرير ، ورد الثانى فأصاب .

وقوله : ﴿ الَّذِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ : أعاد ابن زيد الضمير على العمد ؛ لارتفاعها ، وقال : بنوا عُمْدًا بالأحقاف لم يخلق مثلها فى البلاد . وأما قتادة وابن جرير فأعاد الضمير على القبيلة ، أى : لم يخلق مثل تلك القبيلة فى البلاد ، يعنى فى زمانهم . وهذا القول هو الصواب ، وقول ابن زيد ومن ذهب مذهبه ضعيف ؛ لأنه لو كان أراد ذلك لقال : التى لم يعمل مثلها فى البلاد ، وإنما قال : ﴿ لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو صالح كاتب الليث ، حدثنى معاوية بن صالح ، عمن حدثه ، عن المقدام ، عن النبى ﷺ أنه ذكر إرم ذات العمد فقال : « كان الرجل منهم يأتى على صخرة فيحملها على الحى فيهلكهم » (١) .

ثم قال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أبو الطاهر ، حدثنا أنس بن عياض ، عن ثور بن زيد الديلى . قال : قرأت كتابا - قد سمي حيث قرأه - : أنا شداد بن عاد ، وأنا الذى رفعت العمد ، وأنا الذى شددت بذراعى نظرا واحدا ، وأنا الذى كنتز كنتزا على سبعة أذرع ، لا يخرج به إلا أمة محمد ﷺ .

قلت : فعلى كل قول سواء كانت العمد أبنية بنوها ، أو أعمدة بيوتهم للبدو ، أو سلاحا يقاتلون به ، أو طول الواحد منهم - فهم قبيلة وأمة من الأمم ، وهم المذكورون فى القرآن فى غير ما موضع ، المقرونون بشمود كما هاهنا ، والله أعلم . ومن زعم أن المراد بقوله : ﴿ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ مدينة إما دمشق ، كما روى عن سعيد بن المسيب وعكرمة ، أو اسكندرية كما روى عن القرظى (٢) ، أو غيرهما ، ففيه نظر ، فإنه كيف يلتزم الكلام على هذا : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ ، إن جعل ذلك بدلا أو عطف بيان ، فإنه لا يتسق الكلام حينئذ . ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد ، وما أحل الله بهم من بأسه الذى لا يرد ، لا أن المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم .

(١) ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى فتح البارى لابن حجر (٧٠١/٨) .

(٢) فى أ : « القرطبي » .

وإنما نهبت على ذلك لثلاث يُغْتَرَّ بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية ، من ذكر مدينة يقال لها : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ ، مبنية بلبن الذهب والفضة ، قصورها ودورها وبساتينها ، وأن حصباؤها ^(١) لآلئ وجواهر ، وترابها بنادق المسك ، وأنهارها سارحة ، وثمارها ساقطة ، ودورها لا أنيس بها ، وسورها ^(٢) وأبوابها تَصْفُرُ ، ليس بها داع ولا مجيب . وأنها تنتقل فتارة تكون بأرض الشام ، وتارة باليمن ، وتارة بالعراق ، وتارة بغير ذلك من البلاد — فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين ، من وضع بعض زنادقتهم ، ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس أن تصدقهم في جميع ذلك .

وذكر الثعلبي وغيره أن رجلا من الأعراب — وهو عبد الله بن قلابة — في زمان معاوية ذهب في طلب أباعر له شردت ، فبينما هو يتيه في ابتغائها ، إذ طلع على مدينة عظيمة لها سور وأبواب ، فدخلها فوجد فيها قريبا مما ذكرناه من صفات المدينة الذهبية التي تقدم ذكرها ، وأنه رجع فأخبر الناس ، فذهبوا معه إلى المكان الذي قال فلم يروا شيئا .

وقد ذكر ابن أبي حاتم قصة ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ هاهنا مطولة جداً ، فهذه الحكاية ليس يصح إسنادها ، ولو صح إلى ذلك الأعرابي فقد يكون اختلق ذلك ، أو أنه أصابه نوع من الهوس والخبال ^(٣) ، فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج ، وليس كذلك . وهذا مما يقطع بعدم صحته . وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة والطامعين والمتحيلين ، من وجود مطالب تحت الأرض ، فيها قناطر الذهب والفضة ، وألوان الجواهر واليواقيت ^(٤) والآلئ والإكسير الكبير ، لكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذ منها ، فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة والسفهاء ، فيأكلونها بالباطل في صرفها في بخاخير وعقاير ، ونحو ذلك من الهذيان ، ويَطْنُرُونَ بهم . والذي يجرم به أن في الأرض دفائن جاهلية وإسلامية وكنوزاً كثيرة ، من ظفر بشيء منها أمكنه تحويله ^(٥) ، فأما على الصفة التي زعموها فكذب واقتراء وبهت ، ولم يصح في ذلك شيء مما يقولونه إلا عن نقلهم أو نقل من أخذ عنهم ، والله سبحانه وتعالى الهادي للصواب .

وقول ابن جرير : يحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ إِرَمَ ﴾ قبيلة أو بلدة كانت عاد تسكنها فلذلك لم تُصَرَفَ فيه نظر ؛ لأن المراد من السياق إنما هو الإخبار عن القبيلة ، ولهذا قال بعده : ﴿ وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ يعني : يقطعون الصخر بالوادي . قال ابن عباس : ينحتونها ويخرقونها . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد . ومنه يقال : « مُجْتَابِي النَّمَارِ » . إذا خرّقوها ، واجتأب الثوب : إذا فتحه . ومنه الجيب أيضا . وقال الله تعالى : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾ [الشعراء: ١٤٩] .

وأشدد ابن جرير وابن أبي حاتم هاهنا قول الشاعر :

(٣) في م : « والخيال » .

(٢) في م : « وسورها » .

(١) في أ : « وأن حصباؤها » وهو خطأ .

(٥) في م : « تحويلها » .

(٤) في م : « والياقوت » .

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ - مَا خَلَا اللَّهَ - بَائِدٌ كَمَا بَادَ حَيٌّ مِنْ شَنِيفٍ وَمَارِدٌ
هُمْ ضَرَبُوا فِي كُلِّ صَمَاءٍ صَعْدَةً بِأَيْدٍ شِدَادٍ أَيْدَاتِ السَّوَادِ (١)

وقال ابن إسحاق : كانوا عربا ، وكان منزلهم بوادي القرى . وقد ذكرنا قصة « عاد » مستقصاة في سورة « الأعراف » بما أغنى عن إعادته .

وقوله : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾ : قال العوفي ، عن ابن عباس : الأوتاد : الجنود الذين يشدون له أمره . ويقال : كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم في أوتاد من حديد يعلقهم بها . وكذا قال مجاهد : كان يوتد الناس بالأوتاد . وهكذا قال سعيد بن جبير ، والحسن ، والسدي . قال السدي : كان يربط الرجل ، كل قائمة من قوائمه في وتد ثم يرسل عليه صخرة عظيمة فتشده (٢) .

وقال قتادة : بلغنا أنه كانت له مَطَالٌ وملاعب ، يلعب له تحتها ، من أوتاد وحبال .

وقال ثابت البناني ، عن أبي رافع : قيل لفرعون ﴿ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾ ؛ لأنه ضرب لامرأته أربعة أوتاد ، ثم جعل على ظهرها رحي عظيمة حتى ماتت .

وقوله : ﴿ الَّذِينَ طَفَوْا فِي الْبِلَادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ أي : تمردوا وعتوا وعاثوا في الأرض بالفساد والأذية للناس ، ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ أي : أنزل عليهم رجزا من السماء ، وأحل بهم عقوبة لا يردّها عن القوم المجرمين .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبَالْمِرْصَادِ ﴾ : قال ابن عباس : يسمع ويرى . يعني : يرصد (٣) خلقه فيما يعملون ، ويجازي كلا بسعيه في الدنيا والأخرى ، وسيعرض الخلائق كلهم عليه ، فيحكم فيهم بعدله ، ويقابل كلا بما يستحقه . وهو المنزه عن الظلم والجور .

وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديثاً غريباً جداً - وفي إسناده نظر وفي صحته - فقال : حدثنا أبي ، حدثنا أحمد بن أبي الخوارى ، حدثنا يونس الخذاء ، عن أبي حمزة البيسانى ، عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : « يا معاذ ، إن المؤمن لدى الحق أسير . يا معاذ ، إن المؤمن لا يسكن روعه ولا يأمن اضطرابه حتى يُخَلَّفَ جسر جهنم خلف ظهره . يا معاذ ، إن المؤمن قيده القرآن عن كثير من شهواته ، وعن أن يهلك فيها هو بإذن الله ، عز وجل ، فالقرآن دليله ، والخوف محجته ، والشوق مطيته ، والصلاة كهفه ، والصوم جنته ، والصدقة فكاكه ، والصدق أميره ، والحياء وزيره ، وربّه ، عز وجل ، من وراء ذلك كله بالمرصاد » (٤) .

قال ابن أبي حاتم : يونس الخذاء وأبو حمزة مجهولان ، وأبو حمزة عن معاذ مرسل . ولو كان عن أبي حمزة لكان حسناً . أي : لو كان من كلامه لكان حسناً . ثم قال ابن أبي حاتم :

(١) تفسير الطبرى (١١٣/٣٠) .

(٢) في أ : « يرصد » .

(٣) في أ : « فشده » .

(٤) ورواه أبو نعيم في الحلية (٣١/١٠) من طريق إسحاق بن أبي حسان ، عن أحمد بن أبي الخوارى به ، ورواه أبو نعيم في الحلية (٢٦/١) من طريق عبد الملك بن أبي كريمة ، عن أبي حاجب ، عن عبد الرحمن ، عن معاذ مرفوعاً بنحوه .

حدثنا أبى ، حدثنا صفوان بن صالح ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن صفوان بن عمرو ، عن أئفح بن عبد الكلاعى : أنه سمعه وهو يعظ الناس يقول : إن لجهنم سبع قناطر — قال : والصراف عليهن ، قال : فيحبس الخلائق عند القنطرة الأولى ، فيقول : ﴿وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مُسْتَوُونَ﴾ [الصفافات: ٢٤] ، قال : فيحاسبون على الصلاة ويسألون عنها ، قال : فيهلك فيها من هلك ، وينجو من نجا ، فإذا بلغوا القنطرة الثانية حوسبوا على الأمانة كيف أدوها ، وكيف خانوها ؟ قال : فيهلك من هلك وينجو من نجا . فإذا بلغوا القنطرة الثالثة سئلوا عن الرحم كيف وصلوها وكيف قطعوها ؟ قال : فيهلك من هلك وينجو من نجا . قال : والرحم يومئذ متدلّية إلى الهوى فى جهنم تقول : اللهم من وصلنى فصله ، ومن قطعنى فاقطعه . قال : وهى التى يقول الله عز وجل : ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَلِ الْمِرْصَادِ﴾ . هكذا أورد هذا الأثر ، ولم يذكر تمامه .

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَلْ لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠)﴾ .

يقول تعالى منكرأ على الإنسان فى اعتقاده إذا وسع الله عليه فى الرزق ليختبره فى ذلك ، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له وليس كذلك ، بل هو ابتلاء وامتحان . كما قال تعالى : ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥ ، ٥٦] . وكذلك فى الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحناه وضيق عليه فى الرزق ، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له . قال الله : ﴿كَلَّا﴾ أى : ليس الأمر كما زعم ، لا فى هذا ولا فى هذا ، فإن الله يعطى المال من يحب ومن لا يحب ، ويضيق على من يحب ومن لا يحب ، وإنما المدار فى ذلك على طاعة الله فى كل من الحالين ، إذا كان غنيا بأن يشكر الله على ذلك ، وإذا كان فقيراً بأن يصبر .

وقوله : ﴿بَلْ لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ فيه أمر بالإكرام له ، كما جاء فى الحديث الذى رواه عبد الله ابن المبارك ، عن سعيد بن أبى أيوب ، عن يحيى بن سليمان ، عن زيد بن أبى عتاب ^(١) ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : « خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه » ثم قال بأصبعه : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » ^(٢) .

وقال أبو داود : حدثنا محمد بن الصباح بن سفيان ، أخبرنا عبد العزيز — يعنى ابن أبى حازم — حدثنى أبى ، عن سهل — يعنى ابن سعد — أن رسول الله ﷺ قال : « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة » . وقرن ^(٣) بين إصبعيه : الوسطى والتى تلى الإبهام ^(٤) .

(١) فى م : « غياث » .
(٢) الزهد لابن المبارك برقم (٦٥٤) ورواه ابن ماجة فى السنن برقم (٣٦٧٩) من طريق ابن المبارك ، وقال البوصيرى فى الزوائد (١٦٥/٣) : « هذا إسناد ضعيف ، يحيى بن سليمان — أبو صالح — قال فيه البخارى : منكر ، وقال أبو حاتم : مضطرب الحديث ، وذكره ابن حبان فى الثقات » .
(٣) فى أ : « وفرق » .
(٤) سنن أبى داود برقم (٥١٥٠) وهو فى صحيح البخارى برقم (٦٠٠٥) من طريق ابن أبى حازم به .

﴿ وَلَا تَحَاضُنْ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينَ ﴾ يعني : لا يأمرؤن بالإحسان إلى الفقراء والمساكين ، ويحث بعضهم على بعض في ذلك ، ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ ﴾ يعني : الميراث ﴿ أَكْلًا لَّمًّا ﴾ أى : من أى جهة حصل لهم ، من حلال أو حرام ، ﴿ وَتَحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ أى : كثيراً - زاد بعضهم : فاحشاً .

﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وِثْقَهُ أَحَدٌ (٢٦) يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) .

يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة ، فقال : ﴿ كَلَّا ﴾ أى : حقا ﴿ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ أى : وطئت ومهدت وسويت الأرض والجبال ، وقام الخلائق من قبورهم لربهم ، ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ يعني : لفصل القضاء بين خلقه ، وذلك بعد ما يستشفعون ^(١) إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمد ﷺ ، بعدما يسألون أولى العزم من الرسل واحداً بعد واحد ، فكلهم يقول : لست بصاحب ذاكم ، حتى تنتهى النوبة إلى محمد ﷺ ^(٢) فيقول : « أنا لها ، أنا لها » . فيذهب فيشفع عند الله فى أن يأتى لفصل القضاء فيشفعه الله فى ذلك ، وهى أول الشفاعات ، وهى المقام المحمود كما تقدم بيانه فى سورة «سبحان» ^(٣) ، فيجىء الرب تعالى لفصل القضاء كما يشاء ، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفاً .

وقوله : ﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ : قال الإمام مسلم بن الحجاج فى صحيحه : حدثنا عمر بن حفص بن ^(٤) غياث ، حدثنا أبى ، عن العلاء بن خالد الكاهلى ، عن شقيق ، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها » .

وهكذا رواه الترمذى عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى ، عن عمر بن حفص ، به ^(٥) ، ورواه أيضا عن عبد بن حميد ، عن أبى عامر ، عن سفيان الثورى ، عن العلاء بن خالد ، عن شقيق ابن سلمة - وهو أبو وائل - عن عبد الله بن مسعود ، قوله ولم يرفعه ^(٦) . وكذا رواه ابن جرير ، عن الحسن بن عرفة ، عن مروان بن معاوية الفزارى ، عن العلاء بن خالد ، عن شقيق ، عن عبد الله ، قوله ^(٧) .

(١) فى أ : « يشفعون » .

(٢) فى م : « صلوات الله وسلامه عليه » .

(٣) عند تفسير الآية : ٧٩ .

(٤) فى أ : « نبأنا » .

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٨٤٢) وسنن الترمذى برقم (٢٥٧٣) .

(٦) سنن الترمذى برقم (٢٥٧٣) .

(٧) تفسير الطبرى (٣٠ / ١٢٠) .

وقوله : ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ أى : عمله وما كان أسلفه فى قديم دهره وحديثه ، ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ أى : وكيف تنفعه الذكرى ؟ ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ يعنى : يندم على ما كان سلف منه من المعاصى - إن كان عاصيا - ويود لو كان ازداد من الطاعات - إن كان طائعا - كما قال الإمام أحمد بن حنبل :

حدثنا على بن إسحاق ، حدثنا عبد الله - يعنى ابن المبارك - حدثنا ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان ، عن جبير بن نفير ، عن محمد بن أبى عميرة - وكان من أصحاب رسول الله ﷺ - قال : لو أن عبداً خر على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت هَرماً فى طاعة الله ، لَحَقَرَهُ يوم القيامة ، ولو دَّ يردَّ إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب .

ورواه بحير بن سعد ، عن خالد بن معدان ، عن عتبة بن عبد ، عن رسول الله ﷺ (١) .

قال الله تعالى : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ﴾ أى : ليس أحد أشد عذاباً من تعذيب الله من عصاه ، ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ أى : وليس أحد أشد قبضاً ووثقا من الزبانية لمن كفر بربهم ، عز وجل ، هذا فى حق المجرمين من الخلائق والظالمين (٢) . فأما النفس الزكية المطمئنة وهى الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق فيقال لها : ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أى : إلى جواره وثوابه وما أعد لعباده فى جنته ، ﴿رَاضِيَةً﴾ أى : فى نفسها ﴿مَرْضِيَّةً﴾ أى : قد رضيت عن الله ورضى عنها وأرضاها ، ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ أى : فى جملتهم ، ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ . وهذا يقال لها عند الاحتضار ، وفى يوم القيامة أيضا ، كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره ، وكذلك هاهنا .

ثم اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية ، فروى الضحاك ، عن ابن عباس : نزلت فى عثمان ابن عفان . وعن بُرَيْدَةَ بن الحُصَيْب : نزلت فى حمزة بن عبد المطلب ، رضى الله عنه .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : يقال للأرواح المطمئنة يوم القيامة : ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ ، يعنى : صاحبك ، وهو بدنّها الذى كانت تعمّره فى الدنيا ، ﴿رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ .

وروى عنه أنه كان يقرؤها : « فادخلى فى عبدى وادخلى جنتى » . وكذا (٣) قال عكرمة والكلبى ، واختاره ابن جرير ، وهو غريب ، والظاهر الأول ؛ لقوله : ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢] ، ﴿وَأَن مَّرَدَّنَا (٤) إِلَى اللَّهِ﴾ [غافر: ٤٣] أى : إلى حكمه والوقوف بين يديه .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الدشتكى ، حدثنا أبى ، عن أبيه ، عن أشعث ، عن جعفر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى

(١) المسند (٤/ ١٨٥) .

(٢) فى أ : « والعالمين » .

(٤) فى م : « وأن مصيرنا » وهو خطأ .

قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ ، قال : نزلت وأبو بكر جالس ، فقال : يا رسول الله ، ما أحسن هذا . فقال : « أما إنه سيقال لك هذا » (١) .

ثم قال : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا ابن يمان ، عن أشعث ، عن سعيد بن جبير قال : قرأت عند النبي ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ ، فقال أبو بكر ، رضى الله عنه : إن هذا حسن . فقال له النبي ﷺ : « أما إن الملك سيقول لك هذا عند الموت » . وكذا رواه ابن جرير ، عن أبي كُرَيْب ، عن ابن يمان ، به . وهذا مرسل حسن (٢) .

ثم قال ابن أبي حاتم : وحدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا مروان بن شجاع الجزري ، عن سالم الأفيطس ، عن سعيد بن جبير قال : مات ابن عباس بالطائف ، فجاء طير لم ير على خلقه (٣) ، فدخل نعشه ، ثم لم ير خارجاً منه فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر ، ما يدرى من تلاها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي . وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴾ .

رواه الطبراني عن عبد الله بن أحمد عن أبيه ، عن مروان بن شجاع ، عن سالم بن عجلان الأفيطس ، به فذكره (٤) .

وقد ذكر الحافظ محمد بن المنذر الهروي - المعروف بشكر - في كتاب « العجائب » بسنده عن قُبَّاث بن رزين أبي هاشم قال : أسرت في بلاد الروم ، فجمعنا الملك وعرض علينا دينه ، على أن من امتنع ضربت عنقه . فارتد ثلاثة ، وجاء الرابع فامتنع ، فضربت عنقه ، وألقى رأسه في نهر هناك ، فرسب في الماء ثم طفا على وجه الماء ، ونظر إلى أولئك الثلاثة فقال : يا فلان ، ويا فلان ، ويا فلان - يناديهم بأسمائهم - قال الله تعالى في كتابه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي . وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴾ . ثم غاص في الماء ، [قال] (٥) ، فكادت النصارى أن يسلموا ، ووقع سرير الملك ، ورجع أولئك الثلاثة إلى الإسلام . قال : وجاء الفداء من عند الخليفة أبي جعفر المنصور فخلصنا .

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة رواحة بنت أبي عمرو الأوزاعي ، عن أبيها : حدثني سليمان بن حبيب المحاربي ، حدثني أبو أمامة : أن رسول الله ﷺ قال لرجل : « قل : اللهم ، إني أسألك نفساً بك مطمئنة ، تؤمن بقلائك ، وترضى بقضائك ، وتقنع بعطائك » (٦) .

ثم روى عن سليمان بن زَبْر أنه قال : حديث رواحة هذا واحد أمه .

آخر تفسير سورة « الفجر » ولله الحمد [والمنة] (٧)

(١) ورواه ابن مردويه والضياء المقدسي في المختارة كما في الدر المنثور (٥١٣/٨) .

(٢) تفسير الطبري (١٢٢/٣٠) ورواه عبد بن حميد وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية كما في الدر المنثور (٥١٣/٨) .

(٣) في م : « على خلقته » .

(٤) المعجم الكبير (١٠/ ٢٩٠) وقال الهيثمي في المجمع (٢٨٥/٩) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٥) زيادة من م .

(٦) تاريخ دمشق (ص ١٠٠) « تراجم النساء » ط - المجمع العربي بدمشق ، ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١١٨/٨) من طريق عبد الرحمن بن عبد الغفار ، عن رواحة بنت عبد الرحمن به .

(٧) زيادة من م ، أ .

تفسير سورة البلد

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا
الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (٦)
أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ
النَّجْدَيْنِ (١٠) ﴾ .

هذا قسم من الله عز وجل ^(١) بمكة أم القرى فى حال كون الساكن فيها حالا ؛ لينبه على عظمة قدرها فى حال إحرام أهلها .

قال خَصِيف ، عن مجاهد : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ : لا رد عليهم ؛ أقسم بهذا البلد .
وقال شبيب بن بشر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ يعنى : مكة ،
﴿ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ قال : أنت - يا محمد - يحل لك أن تقابل به . وكذا روى عن سعيد بن
جبير ، وأبى صالح ، وعطية ، والضحاك ، وقتادة ، والسدى ، وابن زيد .
وقال مجاهد : ما أصبت فيه فهو حلال لك .

وقال قتادة : ﴿ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ قال : أنت به من غير حَرَج ولا إثم .

وقال الحسن البصرى : أحلها الله له ساعة من نهار .

وهذا المعنى الذى قالوه قد وَرَدَ به الحديث المتفق على صحته : « إن هذا البلد حرمه الله يوم
خلق السموات والأرض ، فهو حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَا يُعْصَدُ شَجَرُهُ وَلَا يُخْتَلَى خِلَاهُ .
وَإِنَّمَا أَحَلَّتْ لِي سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ ، أَلَا فَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ
الْغَائِبَ » . وفى لفظ [آخر] ^(٢) : « فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ فَقُولُوا : إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ
وَلَمْ يَأْذِنْ لَكُمْ » ^(٣) .

وقوله : ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ : قال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْبٍ ، حدثنا ابن عطية ، عن شريك ،
عن خَصِيف ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ : الوالد : الذى يلد ، وما
ولد : العاقر الذى لا يولد له .

(٢) زيادة من م .

(١) فى أ : « تعالى » .

(٣) الحديث فى صحيح البخارى برقم (١٠٤، ١٠٥، ١٨٣٢، ٤٢٩٥) وصحيح مسلم برقم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس رضى الله عنه .

ورواه [ابن جرير و] ^(١) ابن أبي حاتم ، من حديث شريك — وهو ابن عبد الله القاضي — به .

وقال عكرمة : الوالد : العاقر ، وما ولد : الذى يلد . رواه ابن أبي حاتم .

وقال مجاهد ، وأبو صالح ، وقتادة ، والضحاك ، وسفيان الثوري ، وسعيد بن جبير ، والسدى ، والحسن البصرى ، وخُصيف ، وشرحيل بن سعد وغيرهم : يعنى بالوالد آدم ، وما ولد ولده . وهذا الذى ذهب إليه مجاهد وأصحابه حسنٌ قوى ؛ لأنه تعالى لما أقسم بأُم القرى وهى المساكن أقسم بعده بالسكن ، وهو آدم أبو البشر وولده .

وقال أبو عمران الجونى : هو إبراهيم وذريته . رواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم .

واختار ابن جرير أنه عام فى كل والد وولده . وهو محتمل أيضا .

وقوله : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ : روى عن ابن مسعود ، وابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وإبراهيم النخعى ، وخيثمة ، والضحاك ، وغيرهم : يعنى منتصبا — زاد ابن عباس فى رواية عنه — فى ^(٢) بطن أمه .

والكبد : الاستواء والاستقامة . ومعنى هذا القول : لقد خلقنا الإنسان سويا مستقيما كقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦، ٧] ، وكقوله : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] .

وقال ابن [أبى نجيح] ^(٣) جريج وعطاء ^(٤) ، عن ابن عباس : فى كبد ، قال : فى شدة خلقى ، ألم تر إليه . . . وذكر مولده ونبات أسنانه .

قال مجاهد : ﴿فِي كَبَدٍ﴾ : نطفة ، ثم علقه ، ثم مضغة يتكبد فى الخلق — قال مجاهد : وهو كقوله : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥] ، وأرضعته كرها ، ومعيشته كره ، فهو يكابد ذلك .

وقال سعيد بن جبير : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ : فى شدة وطَلَب معيشة . وقال عكرمة : فى شدة وطول . وقال قتادة : فى مشقة .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن عاصم ، حدثنا أبو عاصم ، أخبرنا عبد الحميد بن جعفر ، سمعت محمد بن على أبا جعفر الباقر سأل رجلا من الأنصار عن قول الله : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ قال : فى قيامه واعتداله . فلم يُنكر عليه أبو جعفر .

وروى من طريق أبى مودود: سمعت الحسن قرأ هذه الآية : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ قال: يكابد أمرا من أمر الدنيا ، وأمرا من أمر الآخرة — وفى رواية : يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة .

(٣) زيادة من م .

(٢) فى م ، أ : « منتصبا فى » .

(١) زيادة من أ .

(٤) فى م ، أ : « عن عطاء » .

وقال ابن زيد : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ قال : آدم خلق في السماء ، فسمى ذلك الكبد .
واختار ابن جرير أن المراد [بذلك] ^(١) مكابدة الأمور ومشاقها .

وقوله : ﴿ أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ : قال الحسن البصري : يعني أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ يأخذ ماله .

وقال قتادة : ﴿ أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ قال : ابن آدم يظن أن لن يُسأل عن هذا المال :
من أين اكتسبه ؟ وأين أنفقه ؟

وقال السدي : ﴿ أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ قال : الله عز وجل .

وقوله : ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴾ أى : يقول ابن آدم : أنفقت مالا لبدا ، أى : كثيرا . قاله
مجاهد [والحسن] ^(٢) ، و قتادة ، والسدي ، وغيرهم .

﴿ أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ : قال مجاهد : أى أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ لم يره الله عز وجل . وكذا قال
غيره من السلف .

وقوله : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴾ أى : يبصر بهما ، ﴿ وَلِسَانًا ﴾ أى : ينطق به ، فَيُعْبَرُ عما فى
ضميره ، ﴿ وَشَفَتَيْنِ ﴾ ^(٣) يستعين بهما على الكلام وأكل الطعام ، وجمالا لوجهه وفمه .

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أبى الربيع الدمشقى ، عن مكحول قال : قال النبى ﷺ :
« يقول الله تعالى : يا ابن آدم ، قد أنعمت عليك نعماً عظيماً لا تحصى عددها ولا تطيق شكرها ،
وإن مما أنعمت عليك أن جعلت لك عينين تنظر بهما ، وجعلت لهما غطاءً ، فانظر بعينيك إلى ما
أحللت لك ، وإن رأيت ما حرمت عليك فأطبق عليهما غطاءهما . وجعلت لك لساناً ، وجعلت له
غلافاً ، فانطق بما أمرك وأحللت لك ، فإن عَرَضَ لك ما حرمت عليك فأغلق عليك لسانك .
وجعلت لك فرجاً ، وجعلت لك ستراً ، فأصّب بفرجك ما أحللت لك ، فإن عَرَضَ لك ما حرمت
عليك فأرْخَ عليك سترك . يا ابن آدم ، إنك لا تحمل سخطى ، ولا تطيق انتقامى » ^(٤) .

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ : قال سفيان الثوري ، عن عاصم ، عن زرّ ، عن عبد الله — هو ابن مسعود — :
﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ قال : الخير والشر . وكذا روى عن على ، وابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ،
وأبى وائل ، وأبى صالح ، ومحمد بن كعب ، والضحاك ، وعطاء الخراسانى فى آخرين .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرنى بن لهيعة ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن سنان بن سعد ،
عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « هما نجدان ، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من
نجد الخير » ^(٥) .

(٣) فى م : ﴿ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ .

(٢) زيادة من م ، أ .

(١) زيادة من م .

(٤) تاريخ دمشق (٤٦/١٩) « المخطوط » .

(٥) ورواه ابن عدى فى الكامل (٣٥٦/٣) من طريق ابن وهب .

تفرد به سنان بن سعد — ويقال : سعد بن سنان — وقد وثقه ابن معين . وقال الإمام أحمد والنسائي والجوزجاني : منكر الحديث . وقال أحمد : تركت حديثه لاضطرابه . وروى خمسة عشر حديثاً منكراً كلها ، ما أعرف منها حديثاً واحداً . يشبه حديثه حديث الحسن — يعنى البصرى — لا يشبه حديث أنس .

وقال ابن جرير : حدثني يعقوب ، حدثنا ابن عُلَيَّة ، عن أبي رجاء قال : سمعت الحسن يقول : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ قال : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يقول : « يا أيها الناس ، إنهما النجدان ، نجد الخير ونجد الشر ، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير » (١) .

وكذا رواه حبيب بن الشهيد ، ويونس بن عبيد ، وأبو وهب ، عن الحسن مرسلًا . وهكذا أرسله قتادة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن عصام الأنصارى ، حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، حدثنا عيسى ابن عقّال (٢) ، عن أبيه ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ قال : التدين .

وروى عن الربيع بن خثيم (٣) ، وقتادة وأبى (٤) حازم ، مثل ذلك . ورواه ابن جرير عن أبى كريب ، عن وكيع ، عن عيسى بن عقّال ، به . ثم قال : والصواب القول الأول .

ونظير هذه الآية قوله : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا . إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٢، ٣] .

﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُ رَقَبَةً (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ (٢٠) ﴾ .

قال ابن جرير : حدثني عمر بن إسماعيل بن مجالد ، حدثنا عبد الله بن إدريس ، عن أبيه ، عن عطية ، عن ابن عمر فى قوله : ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ قال : جبل فى جهنم .

وقال كعب الأحبار : ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ : هو سبعون درجة فى جهنم . وقال الحسن البصرى : ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ ، قال : عقبة فى جهنم . وقال قتادة : إنها قحمة شديدة فاقتحموها بطاعة الله عز وجل . وقال قتادة (٥) : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ . ثم أخبر عن اقتحامها فقال : ﴿ فَكُ رَقَبَةً . أَوْ إِطْعَامٌ ﴾ .

(١) تفسير الطبرى (٣٠/١٢٨) .

(٤) فى م : « وابن » .

(٣) فى أ : « خثيم » .

(٢) فى أ : « عفان » .

(٥) فى جميع النسخ : « وقال قتادة : وقوله ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ . وحدثنا « وقوله » ليستقيم المعنى . مستفادا من هامش ط . الشعب .

وقال ابن زيد : ﴿ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ أى : أفلا سلك الطريق التى فيها النجاة والخير . ثم بينها فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُ رَقَبَةً . أَوْ إِطْعَامًا ﴾ .

قرئ : ﴿ فَكُ رَقَبَةً ﴾ بالإضافة ، وقرئ على أنه فعل ، وفيه ضمير الفاعل والرقبة مفعوله وكلتا ^(١) القراءتين معناهما متقارب .

قال الإمام أحمد : حدثنا على ^(٢) بن إبراهيم ، حدثنا عبد الله - يعنى ابن سعيد ^(٣) بن أبى هند - عن إسماعيل بن أبى حكيم - مولى آل الزبير - عن سعيد بن مرجانة : أنه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرب منها إرباً منه من النار ، حتى إنه ليعتق باليد اليد ، وبالرجل الرجل ، وبالفرج الفرج » . فقال على بن الحسين : أنت سمعت هذا من أبى هريرة ؟ فقال سعيد : نعم . فقال على بن الحسين لغلام له - أفره غلامه - : ادع مطرفاً . فلما قام بين يديه قال : اذهب فأنت حر لوجه الله .

وقد رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى ، من طرق ، عن سعيد بن مرجانة ، به ^(٤) . وعند مسلم أن هذا الغلام الذى أعتقه على بن الحسين زين العابدين كان قد أعطى فيه عشرة آلاف درهم .

وقال قتادة ، عن سالم بن أبى الجعد ، عن معدان بن أبى طلحة ، عن أبى نجيع ^(٥) قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أيما مسلم أعتق رجلاً مسلماً ، فإن الله جاعلٌ وفاء كل عظم من عظامه عظماً من عظام محرره من النار ، وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة ، فإن الله جاعل وفاء كل عظم من عظامها عظماً من عظامها من النار » .

رواه ابن جرير هكذا ^(٦) . وأبو نجيع هذا هو عمرو بن عبسة السلمى ، رضى الله عنه .

قال الإمام أحمد : حدثنا حيوة بن شريح ، حدثنا بقية ، حدثنى بحير بن سعد ، عن خالد بن معدان ، عن كثير بن مرة ، عن عمرو بن عبسة ^(٧) : أنه حدثهم : أن النبى ﷺ قال : « من بنى مسجداً ليذكر الله فيه ، بنى الله له بيتاً فى الجنة . ومن أعتق نفساً مسلمة ، كانت فديته من جهنم . ومن شاب شبية فى الإسلام ، كانت له نورا يوم القيامة » ^(٨) .

طريق أخرى : قال أحمد : حدثنا الحكم بن نافع ، حدثنا حريز ؛ عن سليم بن عامر : أن شرحبيل بن السمط قال لعمرو بن عبسة ^(٩) : حدثنا حديثاً ليس فيه تزويد ولا نسيان . قال عمرو : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أعتق رقبة مسلمة كانت فكاهه من النار ، عضواً بعضو . ومن

(١) فى م : « وكلا » . (٢) فى م : « حدثنا مكى » . (٣) فى م : « سعد » .

(٤) المسند (٤٢٢/٢) وصحيح البخارى برقم (٢٥١٧، ٦٧١٥) وصحيح مسلم برقم (١٥٠٩) وسنن الترمذى برقم (١٥٤١) وسنن النسائى الكبرى برقم (٤٨٧٥) .

(٥) فى أ : « عن ابن أبى نجيع » .

(٦) تفسير الطبرى (١٢٩/٣٠) ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (٤٨٧٩) من طريق قتادة .

(٧) فى أ : « ابن عبسة » .

(٨) المسند (٣٨٦/٤) .

(٩) فى أ : « عبسة » .

شاب شيبة فى سبيل الله ، كانت له نورا يوم القيامة ، ومن رمى بسهم فبلغ فأصاب أو أخطأ ، كان كمتعق رقبة من بنى إسماعيل » (١) .

وروى أبو داود ، والنسائي بعضه (٢) .

طريق أخرى : قال أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا الفرّج ، حدثنا لقمان ، عن أبى أمامة ، عن عمرو بن عبّسة (٣) : قال السلمى (٤) : قلت له : حدثنا حديثاً سمعته رسول الله ﷺ ليس فيه انتقاص ولا وهم . قال : سمعته يقول : « من وُلد له ثلاثة أولاد فى الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا الحنث ، أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم ، ومن شاب شيبة فى سبيل الله كانت له نورا يوم القيامة ، ومن رمى بسهم فى سبيل الله ، بلغ به العدو ، أصاب أو أخطأ ، كان له عتق رقبة . ومن أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار ، ومن أنفق زوجين فى سبيل الله ، فإن للجنة ثمانية أبواب ، يدخله الله من أى باب شاء منها » (٥) .

وهذه أسانيد جيدة قوية ، ولله الحمد [والمنة] (٦) .

حديث آخر : قال أبو داود : حدثنا عيسى بن محمد الرملى ، حدثنا ضَمْرَة ، عن ابن أبى عبّلة ، عن الغريف بن الديلمى قال : أتينا واثلة بن الأسقع فقلنا له : حدثنا حديثاً ليس فيه زيادة ولا نقصان . فغضب وقال : إن أحذكم ليقراً ومصحفه معلق فى بيته ، فيزيد وينقص . قلنا : إنما أردنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ . قال : أتينا رسول الله ﷺ فى صاحب لنا قد أوجب — يعنى النار — بالقتل ، فقال : « أعتقوا عنه يُعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار » .

وكذا رواه النسائي من حديث إبراهيم بن أبى عبّلة ، عن الغريف بن عياش الديلمى ، عن واثلة ، به (٧) .

حديث آخر : قال أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا هشام ، عن قتادة ، عن قيس الجذامى ، عن عقبة بن عامر الجهنى : أن رسول الله ﷺ قال : « من أعتق رقبة مسلمة فهو فداؤه من النار » (٨) .

وحدثنا عبد الوهاب الخفاف ، عن سعيد ، عن قتادة قال : ذكر أن قيساً الجذامى حَدَّثَ عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال : « من أعتق رقبة مؤمنة فهى فكأكه من النار » (٩) .

تفرد به أحمد من هذا الوجه .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم وأبو أحمد قالا : حدثنا عيسى بن عبد

(١) المسند (١١٣/٤) .

(٢) سنن أبى داود برقم (٣٩٦٦) وسنن النسائي الكبرى برقم (٤٨٨٥، ٤٨٨٦) .

(٣) فى أ : « عبّسة » . (٤) فى م : « السلمى قال » .

(٥) المسند (٣٨٦/٤) .

(٦) زيادة من أ .

(٧) سنن أبى داود برقم (٣٩٦٤) وسنن النسائي الكبرى برقم (٤٨٩٠، ٤٨٩١) .

(٨) المسند (١٥٠/٤) .

(٩) المسند (١٤٧/٤) .

الرحمن البجلي - من بنى بجيلة - من بنى سليم - عن طلحة - قال أبو أحمد : حدثنا طلحة بن مصرف - عن عبد الرحمن بن عوسجة ، عن البراء بن عازب قال : جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، علمني عملاً يدخلني الجنة . فقال : « لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة . أعتق النسيئة ، وفك الرقبة » . فقال : يا رسول الله ، أو ليستا بواحدة ؟ قال : « لا ، إن عتق النسيئة أن تنفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين في عتقها . والمنحة الوكوف ، والفىء على ذى الرحم الظالم ؛ فإن لم تُطَقْ ذلك فأطعم الجائع ، واسقِ الظمآن ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من الخير »^(١) .

وقوله : ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ : قال ابن عباس : ذى مجاعة . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وغير واحد . والسَّغَبُ : هو الجوع .
وقال إبراهيم النخعي : فى يومِ الطعامِ فيه عزيزٌ .
وقال قتادة : فى يومِ يشتهى فيه الطعام .

وقوله : ﴿ يَتِيمًا ﴾ أى : أطعم فى مثل هذا اليوم يتيماً ، ﴿ ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ أى : ذا قرابة منه . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، والحسن ، والضحاك ، والسدى . كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، أخبرنا هشام ، عن حفصة بنت سيرين ، عن سليمان بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الصدقة على المسكين ^(٢) صدقة ، وعلى ذى الرحم اثنتان ، صدقة وصلة » .
وقد رواه الترمذى والنسائى ^(٣) ، وهذا إسناد صحيح .

وقوله : ﴿ أَوْ مُسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ أى : فقيراً مُدَقَّعاً لاصقاً بالتراب ، وهو الدقعاء أيضاً .
قال ابن عباس : ﴿ ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ هو المطروح فى الطريق ^(٤) ، الذى لا بيت له ، ولا شئ يقيه من التراب - وفى رواية : هو الذى لصق بالدقعاء من الفقر والحاجة ، ليس له شئ - وفى رواية عنه : هو البعيد التربة .

قال ابن أبى حاتم : يعنى الغريب عن وطنه .
وقال عكرمة : هو الفقير المديون المحتاج .
وقال سعيد بن جبير : هو الذى لا أحد له .
وقال ابن عباس ، وسعيد ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان : هو ذو العيال .
وكل هذه قريبة المعنى .

وقوله : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾^(٥) أى : ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة ^(٦) ،

(١) المسند (٢٩٩/٤) .

(٢) فى ١ : « على المسلمين » .

(٣) المسند (٢١٤/٤) وسنن الترمذى برقم (٦٥٨) وسنن النسائى (٩٢/٥) وقال الترمذى : « حديث سلمان بن عامر حديث حسن » .

(٤) فى م : « بالطريق » . (٥) فى م : « آمنوا وعملوا الصالحات » . (٦) فى ١ : « الظاهرة » .

مؤمنٌ بقلبه ، محتسب ثواب ذلك عند الله عز وجل . كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩] وقال : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ الآية ^(١) [النحل: ٩٧] .

وقوله : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ أى : كان من المؤمنين العاملين صالحا ، المتواصين بالصبر على أذى الناس ، وعلى الرحمة بهم . كما جاء فى الحديث : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » ^(٢) . وفى الحديث الآخر : « لا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ » ^(٣) .

وقال أبو داود : حدثنا [أبو بكر] ^(٤) بن أبى شيبة ، حدثنا سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن ابن عامر ^(٥) ، عن عبد الله بن عمرو - يرويه - قال : « من لم يَرْحَمْ صغيرنا وَيَعْرِفْ حَقَّ كبيرنا ، فليس منا » ^(٦) .

وقوله : ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ أى : المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين . ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ أى : أصحاب الشمال ، ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ﴾ أى : مطبقة عليهم ، فلا محيد لهم عنها ، ولا خروج لهم منها .

قال أبو هريرة ، وابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، ومحمد بن كعب القرظى ، وعطية العوفى ، والحسن ، وقتادة ، والسدى : ﴿ مُّؤَصَّدَةٌ ﴾ أى : مطبقة - قال ابن عباس : مغلقة الأبواب . وقال مجاهد : أصد الباب بلغة قريش : أى أغلقه .

وسياتى فى ذلك حديث فى سورة : ﴿ وَيَلْ لَّكُلِّ هُمْزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ .

وقال الضحاك : ﴿ مُّؤَصَّدَةٌ ﴾ : حيط لا باب له .

وقال قتادة : ﴿ مُّؤَصَّدَةٌ ﴾ : مطبقة فلا ضوء فيها ولا فُرَج ، ولا خروج منها آخر الأبد .

وقال أبو عمران الجونى : إذا كان يوم القيامة أمر الله بكل جبار وكل شيطان وكل من كان يخاف الناس فى الدنيا شره ، فأوثقوا فى الحديد ، ثم أمر بهم إلى جهنم ، ثم أوصدوها عليهم ، أى : أطبقوها - قال : فلا والله لا تستقر أقدامهم على قرار أبدا ، ولا والله لا ينظرون فيها إلى أديم سماء أبدا ، ولا والله لا تلتقى جفون أعينهم على غمض نوم أبدا ، ولا والله لا يذوقون فيها بارد شراب أبدا . رواه ابن أبى حاتم .

آخر تفسير سورة « البلد » ولله الحمد والمنة

(١) فى م : « الآيات » .

(٢) رواه الإمام أحمد فى المسند (١٦٠ / ٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما .

(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٣١٩) من حديث جرير رضى الله عنه .

(٤) زيادة من أ .

(٥) فى أ : « جابر » .

(٦) سنن أبى داود برقم (٤٩٤٣) .

تفسير سورة الشمس وضحاها

وهى مكية .

تقدم حديث جابر الذى فى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هلا صليت بـ ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ، و ﴿ الشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴾ و ﴿ اللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ﴾ ؟ » .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴾ (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاها (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) .

قال مجاهد : ﴿ وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴾ أى : وضوئها . وقال قتادة : ﴿ وَضُحَاهَا ﴾ : النهار كله . قال ابن جرير : والصواب أن يقال : أقسم الله بالشمس ونهارها ؛ لأن ضوء الشمس الظاهر هو النهار (١) .

﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاها ﴾ : قال مجاهد : تبعها . وقال العوفي ، عن ابن عباس : ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاها ﴾ قال : يتلو النهار . وقال قتادة : ﴿ إِذَا تَلَاها ﴾ ليلة الهلال ، إذا سقطت الشمس رأى الهلال . وقال ابن زيد : هو يتلوها فى النصف الأول من الشهر ، ثم هى تتلوه . وهو يتقدمها فى النصف الأخير من الشهر .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : إذا تلاها ليلة القدر .

وقوله : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴾ : قال مجاهد : أضاء . وقال قتادة : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴾ : إذا غشيها النهار .

قال ابن جرير : وكان بعض أهل العربية يتأول ذلك بمعنى : والنهار إذا جلا الظلمة ، لدلالة الكلام عليها .

قلت : ولو أن هذا القائل تأول [ذلك] (٢) بمعنى ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴾ أى : البسيطة ، لكان أولى ، ولصح [تأويله فى] (٣) قول الله (٤) : ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ ، فكان أجود وأقوى ، والله أعلم . ولهذا قال مجاهد : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴾ إنه كقوله : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ [الليل: ٢] .

(١) تفسير الطبرى (١٣٣/٣٠) .

(٤) فى م ، أ : « قوله » .

(٢، ٣) زيادة من م ، أ .

وأما ابن جرير فاختار عود الضمير فى ذلك كله على الشمس ، لجريان ذكرها . وقالوا فى قوله : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ يعنى : إذا يغشى الشمس حين تغيب ، فتظلم الآفاق .

وقال بَقِيَّةُ بن الوليد ، عن صفوان ، حدثنى يزيد بن ذى حمامة ^(١) قال : إذا جاء الليل قال الرب جل جلاله : غشى عبادى خلقى العظيم ، فالليل يهابه ، والذى خلقه أحق أن يهاب . رواه ابن أبى حاتم .

وقوله : ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ : يحتمل أن تكون « ما » هاهنا مصدرية ، بمعنى : والسماء وبناها . وهو قول قتادة ، ويحتمل أن تكون بمعنى « من » يعنى : والسماء وبانيها . وهو قول مجاهد ، وكلاهما متلازم ، والبناء هو الرفع ، كقوله : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ أى : بقوة ﴿وَأَنَا لَمُوسِعُونَ . وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧ ، ٤٨] .

وهكذا قوله : ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ : قال مجاهد : ﴿طَحَاهَا﴾ : دحاه . وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿وَمَا طَحَاهَا﴾ أى : خلق فيها .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿طَحَاهَا﴾ : قسمها .

وقال مجاهد ، وقتادة والضحاك ، والسدى ، والثورى ، وأبو صالح ، وابن زيد : ﴿طَحَاهَا﴾ : بسطها .

وهذا أشهر الأقوال ، وعليه الأكثر من المفسرين ، وهو المعروف عند أهل اللغة ، قال الجوهري : طحوته مثل دحوته ، أى : بسطته .

وقوله : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ أى : خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة ، كما قال تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] . وقال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟ » .
أخرجاه من رواية أبى هريرة ^(٢) .

وفى صحيح مسلم من رواية عياض بن حمار المجاشعى ، عن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله عز وجل : إني خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم » ^(٣) .

وقوله : ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أى : فأرشدها إلى فجورها وتقواها ، أى : بين لها ذلك ، وهداها إلى ما قدر لها .

قال ابن عباس : ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ : بين لها الخير والشر . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، والثورى .

(١) فى أ : « ذى حماية » .

(٢) صحيح البخارى برقم (١٣٨٥) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٨) .

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥) .

وقال سعيد بن جبير : ألهمها الخير والشر . وقال ابن زيد : جعل فيها فجورها وتقواها .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا صفوان بن عيسى وأبو عاصم النبيل قالا : حدثنا عَزْرَةَ بن ثابت ، حدثني يحيى بن عقيل ، عن يحيى بن يَعْمَر ، عن أبي الأسود الدَّيْلِي (١) قال : قال لى عمران بن حصين : أرأيت ما يعمل فيه الناس ويتكادحون فيه ، أشيء قضى عليهم ومضى عليهم من قَدَرٍ قد سبق ، أو فيما يُسْتَقْبَلُونَ مما أتاهم به نبيهم ﷺ ، وأكدت عليهم الحجة ؟ قلت : بل شيء قضى (٢) عليهم . قال : فهل يكون ذلك ظلماً ؟ قال : ففزعت منه فزعاً شديداً ، قال : قلت له : ليس شيء إلا وهو خلقه وملك يده ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . قال : سددك الله ، إنما سألت لأخبر (٣) عقلك ، إن رجلاً من مُزَيْنَةٍ - أو جهينة - أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون ، أشيء قضى عليهم ومضى عليهم من قَدَرٍ قد سبق ، أم شيء مما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ، وأكدت به عليهم الحجة ؟ قال : « بل شيء قد قضى (٤) عليهم » . قال : ففيم نعمل ؟ قال : « من كان الله خلقه لإحدى المتزلتين يهيئه لها ، وتصديق ذلك فى كتاب الله : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ » .

رواه أحمد ومسلم ، من حديث عَزْرَةَ بن ثابت به (٥) .

وقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ : يحتمل أن يكون المعنى : قد أفلح من زكى نفسه ، أى : بطاعة الله - كما قال قتادة - وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل . ويروى نحوه عن مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير . وكقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ [الأعلى : ١٤ ، ١٥] .

﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ أى : دسها ، أى : أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى ، حتى ركب المعاصى وترك طاعة الله عز وجل .

وقد يحتمل أن يكون المعنى : قد أفلح من زكى الله نفسه ، وقد خاب من دَسَّى الله نفسه ، كما قال (٦) العوفى وعلى بن أبى طلحة ، عن ابن عباس .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى وأبو زُرْعَةَ قالا : حدثنا سهل (٧) بن عثمان ، حدثنا أبو مالك - يعنى عمرو بن هشام - عن جُوَيْرٍ ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى قول الله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ قال النبى ﷺ : « أفلحت نفس زكاهها الله » (٨) .

ورواه ابن أبى حاتم من حديث أبى مالك ، به . وجويز [هذا] (٩) : هو ابن سعيد ، متروك الحديث ، والضحاك لم يلق ابن عباس .

(١) فى أ : « الديلمى » . (٢) فى أ : « شيء قد قضى » . (٣) فى م : « إنما سألتك لأخبر » .

(٤) فى م : « قضى الله » .

(٥) تفسير الطبرى (١٣٥/٣٠) والمسند (٤٣٨/٤) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٠) .

(٦) فى م : « كما قاله » . (٧) فى أ : « سهل » .

(٨) ورواه الديلمى فى مسند الفردوس برقم (٤٦٠٠) من طريق جوير به .

(٩) زيادة من م .

وقال الطبراني : حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح ، حدثنا أبى ، حدثنا ابن لهيعة ، عن عمرو بن دينار ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا مر بهذه الآية : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ وقف ، ثم قال : « اللهم آت نفسي تقواها ، أنت وليها ومولاها ، وخير من زكاها » (١) .

حديث آخر : قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَةَ ، حدثنا يعقوب بن حميد المدني ، حدثنا عبد الله بن عبد الله الأموي ، حدثنا معن بن محمد الغفاري ، عن حنظلة بن على الأسلمي ، عن أبى هريرة قال : سمعت النبي ﷺ يقرأ : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ قال : « اللهم آت نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » (٢) . لم يخرجوه من هذا الوجه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن نافع - يعنى ابن عمر - عن صالح بن سعيد ، عن عائشة : أنها فقّدت النبي ﷺ من مضجعه ، فلمسته بيدها ، فوقعت (٣) عليه وهو ساجد ، وهو يقول : « رب ، أعط نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » (٤) تفرد به .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا عاصم الأحول ، عن عبد الله بن الحارث ، عن زيد بن أرقم قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم ، إني أعوذ بك من العجز والكسل والهزم ، والجبن والبخل وعذاب القبر . اللهم ، آت نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها . اللهم ، إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، وعلم لا ينفع ، ودعوة لا يستجاب لها » . قال زيد : كان رسول الله ﷺ يعلمناهن ونحن نعلمكوهن .

رواه مسلم من حديث أبى معاوية ، عن عاصم الأحول ، عن عبد الله بن الحارث - وأبى عثمان النهدي ، عن زيد بن أرقم ، به (٥) .

﴿ كَذَبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥) ﴾ .

يخبر تعالى عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم ، بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغى .

وقال محمد بن كعب : ﴿ بِطَغْوَاهَا ﴾ أى : بأجمعها .

والأول أولى ، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما . فأعقبهم ذلك تكذيباً فى قلوبهم بما جاءهم به

(١) المعجم الكبير (١٠٦/١١) وزاد : « عن عمرو بن دينار وعطاء بن أبى رباح » وقال الهيثمى فى المجمع (١٣٨/٧) : « إسناده حسن » .

(٢) ورواه ابن أبى عاصم فى السنة برقم (٣١٨) عن يعقوب بن حميد به .

(٣) فى م : « فوثبت » .

(٤) المسند (٢٠٩/٦) .

(٥) المسند (٣٧١/٤) وصحيح مسلم برقم (٢٧٢٢) .

رسولهم من الهدى واليقين .

﴿ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ أى : أشقى القبيلة ، هو قُدَار بن سالف عاقر الناقة ، وهو أحيمر ثمود ، وهو الذى قال تعالى : ﴿ فَنادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ [القمر: ٢٩] . وكان هذا الرجل عزيزاً فيهم ، شريفاً فى قومه ، نسيباً رئيساً مطاعاً ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا ابن نمير ، حدثنا هشام ، عن أبيه ، عن عبد الله بن زَمْعَةَ قال : خطب رسول الله ﷺ ، فذكر الناقة ، وذكر الذى عقرها ، فقال : « ﴿ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ : انبعث لها رجل عارم عزيز منيع فى رهطه ، مثل زمعة » .

ورواه البخارى فى التفسير ، ومسلم فى صفة النار ، والترمذى والنسائى فى التفسير من سننهما (١) ، وكذا ابن جرير وابن أبى حاتم [من طرق] (٢) عن هشام بن عروة ، به (٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَةَ ، حدثنا إبراهيم بن موسى ، حدثنا عيسى بن يونس ، حدثنا محمد بن إسحاق ، حدثني يزيد بن محمد بن خُثَيْم (٤) ، عن محمد بن كعب القرظى ، عن محمد بن خُثَيْم (٥) أبى يزيد عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ لعلى : « ألا أحدثك بأشقى الناس ؟ » . قال : بلى : قال : « رجلان ؛ أحيمر ثمود الذى عَقَرَ الناقة ، والذى يضربك يا علىّ علىّ هذا - يعنى قرنه - حتى تبتل منه هذه » يعنى : لحيته (٦) .

وقوله : ﴿ فَقَالَ لَهُمُ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ يعنى : صالحاً ، عليه السلام : ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ ﴾ أى : احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء ، ﴿ وَسُقْيَاهَا ﴾ أى : لا تعتدوا عليها فى سقياها ، فإن لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم . قال الله : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ أى : كذبوه فيما جاءهم به فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة التى أخرجها الله من الصخرة آية لهم وحجة عليهم ، ﴿ فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمُ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ ﴾ أى : غضب عليهم ، فدمر عليهم ، ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ أى : فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء .

قال قتادة : بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم ، وذكرهم وأنثاهم ، فلما اشترك القوم فى عقرها دمدم الله عليهم بذنوبهم (٧) فسواها .

وقوله : ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ : وقرئ : « فلا يخاف عقباها » .

(١) فى م : « من سننهما » .

(٢) زيادة من م .

(٣) المسند (١٧/٤) وصحيح البخارى برقم (٤٩٤٢) وصحيح مسلم برقم (٢٨٥٥) وسنن الترمذى برقم (٣٣٤٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٧٥) وتفسير الطبرى (١٣٧/٣٠) .

(٤، ٥) فى أ : « خثيم » .

(٦) ورواه البخارى فى التاريخ الكبير (٧١/١) عن إبراهيم بن موسى به ، ورواه أبو نعيم فى الدلائل (ص ٤٨٥) من طريق محمد بن سلمة ، عن ابن إسحاق به ، وقال البخارى : « هذا إسناد لا يعرف سماع يزيد من محمد ولا محمد بن كعب من ابن خثيم ولا

ابن خثيم من عمار » .

(٧) فى م ، أ : « بذنبهم » .

قال ابن عباس : لا يخاف الله من أحد تبعة . وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وبكر بن عبد الله المزني ، وغيرهم .

وقال الضحاك والسدي : ﴿ لَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ أى : لم يخف^(١) الذى عقرها عاقبة ما صنع .
والقول الأول أولى ؛ لدلالة السياق عليه ، والله أعلم .

آخر تفسير « الشمس وضحاها »

(١) فى أ : « لم يخف الله » .

تفسير سورة الليل^(١)

وهي مكية .

تقدم قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ : « فهلا صليت بـ ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ، و ﴿ الشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴾ ، و ﴿ اللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ﴾ ؟ » .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ^(١) وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ^(٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ^(٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ^(٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ^(٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ^(٦) فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ^(٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ^(٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ^(٩) فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ^(١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ^(١١) ﴾ .

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا شعبة ، عن مغيرة ، عن إبراهيم ، عن علقمة : أنه قدم الشام فدخل مسجد دمشق ، فصلى فيه ركعتين وقال : اللهم ، ارزقني جليساً صالحاً . قال : فجلس إلى أبي الدرداء ، فقال له أبو الدرداء : ممن أنت؟ قال : من أهل الكوفة . قال : كيف سمعت ابن أم عبد يقرأ : ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى . وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ﴾ ؟ قال علقمة : « والذكر والأنثى » . فقال أبو الدرداء : لقد سمعتها من رسول الله ﷺ ، فما زال هؤلاء حتى شككوني . ثم قال : ثم ألم يكن فيكم صاحب الوساد وصاحب السر الذي لا يعلمه أحد غيره ، والذي أجير من الشيطان على لسان النبي ﷺ ؟ ^(٢) .

وقد رواه البخاري هاهنا ومسلم ، من طريق الأعمش ، عن إبراهيم قال : قدم أصحاب عبد الله على أبي الدرداء ، فطلبهم فوجدتهم ، فقال : أيكم يقرأ على قراءة عبد الله ؟ قالوا : كلنا ، قال : أيكم أحفظ ؟ فأشاروا إلى علقمة ، فقال : كيف سمعته يقرأ : ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ﴾ ؟ قال : « والذكر والأنثى » . قال : أشهد أنني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ هكذا ، وهؤلاء يريدوني أن أقرأ : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ ، والله لا أتابعهم ^(٣) .

هذا لفظ البخاري: هكذا قرأ ذلك ابن مسعود ، وأبو الدرداء — ورفع أبو الدرداء — وأما الجمهور فقرأوا ذلك كما هو مثبت في المصحف الإمام العثماني في سائر الآفاق : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ ،

(١) في أ : « تفسير سورة الليل إذا يغشى » .

(٢) المسند (٤٤٩/٦) وتكملة الحديث « وصاحب الوساد : ابن مسعود ، وصاحب السر : حذيفة ، والذي أجير من الشيطان : عمار » .

(٣) صحيح البخاري برقم (٤٩٤٤) وصحيح مسلم برقم (٨٢٤) .

فأقسم تعالى ب ﴿ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ أى : إذا غشى الخليفة بظلامه ، ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ أى : بضيائه وإشراقه ، ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ ، كقوله : ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ [النبا: ٨] ، وكقوله : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات: ٤٩] .

ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة كان القسم عليه أيضاً متضاداً؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ أى : أعمال العباد التى اكتسبوها متضادة أيضاً ومتخالفة ، فمن فاعل خيراً ومن فاعل شراً ، قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴾ أى : أعطى ما أمر بإخراجه ، واتقى الله فى أموره ، ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ أى : بالمجازاة على ذلك — قاله قتادة ، وقال خصيف : بالثواب . وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وأبو صالح ، وزيد بن أسلم : ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ أى : بالخلف . وقال أبو عبد الرحمن السلمي ، والضحاك : ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ أى : بلا إله إلا الله . وفى رواية عن عكرمة : ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ أى : بما أنعم الله عليه . وفى رواية عن زيد بن أسلم : ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ قال : الصلاة والزكاة والصوم . وقال مرة : وصدقة الفطر .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان بن صالح الدمشقى ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا زهير بن محمد ، حدثنى مَنْ سَمِعَ أبا العالية الرياحى يحدث عن أبى بن كعب قال : سألت رسول الله ﷺ عن الحسنى قال : « الحسنى : الجنة » ^(١) .

وقوله : ﴿ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ : قال ابن عباس : يعنى للخير . وقال زيد بن أسلم : يعنى للجنة . وقال بعض السلف : من ثواب الحسنة ^(٢) الحسنة بعدها ، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ ﴾ أى : بما عنده ، ﴿ وَاسْتَغْنَى ﴾ : قال عكرمة ، عن ابن عباس : أى بخل بماله ، واستغنى عن ربه ، عز وجل . رواه ابن أبى حاتم .

﴿ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴾ أى : بالجزاء فى الدار الآخرة ، ﴿ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ أى : لطريق الشر ، كما قال تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠] ، والآيات فى هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله ، عز وجل ، يُجازى من قصد الخير بالتوفيق له ، ومن قصد الشر بالخذلان . وكل ذلك بقدر مُقدَّر ، والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة :

رواية أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه : قال الإمام أحمد : حدثنا على بن عيَّاش ، حدثنى العطاء بن خالد ، حدثنى رجل من أهل البصرة ، عن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ، عن أبيه قال : سمعت أبى يذكر أن أباه سمع أبا بكر وهو يقول : قلت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، أنعمل على ما فرغ منه أو على أمر مؤتلف ؟ قال : « بل على أمر قد فرغ منه » .

(١) ورواه الطبرى فى تفسيره (٦٩/١٥) ط — المعارف ، من طريق عمرو بن أبى سلمة عن زهير به .

(٢) فى أ : « عن ثواب الحسنى » .

قال : ففيم العملُ يا رسول الله ؟ قال : « كل ميسر لما خلق له » ^(١) .

رواية على ، رضى الله عنه : قال البخارى ، حدثنا أبو نعيم : حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن سعد ^(٢) بن عبيدة ، عن أبي عبد الرحمن السلمى ، عن على بن أبى طالب قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى بَقِيعِ الْغَرْقَدِ فى جنازة ، فقال : « ما منكم من أحد إلا وقد كُتِبَ مقعده من الجنة ومقعده من النار » . فقالوا : يا رسول الله ، أفلا نتكل ؟ فقال : « اعملوا ، فكل ميسر لما خلق له » . قال : ثم قرأ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ ، إلى قوله : ﴿ لِلْعُسْرَى ﴾ ^(٣) .

وكذا رواه من طريق شعبة ووكيع ، عن الأعمش ، بنحوه ^(٤) . ثم رواه عن عثمان بن أبى شيبة ، عن جرير ، عن منصور ، عن سعد بن عبيدة عن أبى عبد الرحمن ، عن على بن أبى طالب ، رضى الله عنه : كنا فى جنازة فى بَقِيعِ الْغَرْقَدِ ، فأتى رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ، ومعه مَخْصَرَةٌ فَتَكَسَّ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمَخْصَرَتِهِ ، ثم قال : « ما منكم من أحد - أو : ما من نفس منفوسة إلا كتب مكانها من الجنة والنار ، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة » . فقال رجل : يا رسول الله ، أفلا نتكل ونندع العمل ؟ فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة ، ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصير إلى أهل الشقاء ؟ فقال : « أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاء فييسرون إلى عمل أهل الشقاء » . ثم قرأ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ الآية ^(٥) .

وقد أخرجه بقية الجماعة ، من طرق ، عن سعد بن عبيدة ، به ^(٦) .

رواية عبد الله بن عمر : وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا شعبة عن عاصم بن عبيد الله قال : سمعتُ سالم بن عبد الله يُحدث عن ابن عمر : قال : قال عمر : يا رسول الله ، أرأيت ما نعمل فيه ؟ أفى أمر قد فرغ أو مبتدأ أو مبتدع ؟ قال : « فيما قد فرغ منه ، فاعمل يا ابن الخطاب ، فإن كُلاً مُيسَّر ، أما من كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء » .

ورواه الترمذى فى القدر ، عن بُندار ، عن ابن مَهْدَى ، به ^(٧) وقال : حسن صحيح .

حديث آخر من رواية جابر : قال ابن جرير : حدثنى يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى عمرو ابن الحارث ، عن أبى الزبير ، عن جابر بن عبد الله أنه قال : يا رسول الله ، أنعمل لأمر قد فرغ

(١) المسند (٥/١) .

(٢) فى م : « سعيد » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٤٥) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٩٤٦، ٤٩٤٧) .

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٩٤٨) .

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٦٤٧) وسنن أبى داود برقم (٤٦٩٤) وسنن الترمذى برقم (٣٣٤٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٧٨) وسنن

ابن ماجه برقم (٧٨) .

(٧) المسند (٥٢/٢) وسنن الترمذى برقم (٢١٣٥) .

منه ، أو لأمر نستأنفه ؟ فقال : « لأمر قد فرغ منه » . فقال سراقه : فقيم العمل إذاً ؟ فقال رسول الله ﷺ : « كل عامل مُيسر لعمله » .

ورواه مسلم عن أبي الطاهر ، عن ابن وهب ، به ^(١) .

حديث آخر : قال ابن جرير : حدثني يونس ، حدثنا سفيان ، عن عمرو بن دينار ، عن طلق ابن حبيب ، عن بشير ^(٢) بن كعب العدوي قال : سألت غلامان شابان النبي ﷺ فقالا : يا رسول الله ، أنعمل فيما جفّت به الأقلام وجرت به المقادير ، أو في شيء يستأنف ؟ فقال : « بل فيما جفت به الأقلام ، وجرت به المقادير » . قالوا : فقيم العمل إذاً ؟ قال : « اعملوا فكل عامل ميسر لعمله الذي خلق له » . قالوا : فالآن نجد ونعمل ^(٣) .

رواية أبي الدرداء : قال الإمام أحمد : حدثنا هيثم ^(٤) بن خارجة ، حدثنا أبو الربيع سليمان بن عتبة السلمي ، عن يونس بن ميسرة بن حلبس ، عن أبي إدريس ، عن أبي الدرداء قال : قالوا : يا رسول الله ، أرايت ما نعمل ، أمر قد فرغ منه أم شيء نستأنفه ؟ قال : « بل أمر قد فرغ منه » . قالوا : فكيف بالعمل يا رسول الله ؟ قال : « كل امرئ مهياً لما خلق له » ^(٥) .

تفرد به أحمد من هذا الوجه .

حديث آخر : قال ابن جرير : حدثني الحسن بن سلمة بن أبي كبشة ، حدثنا عبد الملك بن عمرو ، حدثنا عباد بن راشد ، عن قتادة ، حدثني خُلَيْدُ الْعَصْرِي ، عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من يوم غربت فيه شمسهُ إلا وبجَنَّتِيهَا ملكان يناديان بصوت يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، وأعط ممسكاً تلفاً » . وأنزل الله في ذلك القرآن : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى . فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى . وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى . وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى . فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ ^(٦) .

ورواه ابن أبي حاتم ، عن أبيه ، عن ابن أبي كبشة ، بإسناده مثله .

حديث آخر : قال ابن أبي حاتم : حدثني أبو عبد الله الطهراني ، حدثنا حفص بن عمر العدناني ، حدثنا الحكم بن أبان عن عكرمة ، عن ابن عباس ؛ أن رجلاً كان له نخل ، ومنها نخلة فرعها إلى ^(٧) دار رجل صالح فقير ذي عيال ، فإذا جاء الرجل فدخل داره وأخذ الثمر من نخلته ، فتسقط الثمرة فيأخذها صبيان الفقير فنزل من نخلته فنزع ^(٨) الثمرة من أيديهم ، وإن أدخل أحدهم

(١) تفسير الطبري (١٤٤/٣٠) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٨) .

تنبيه : لم يقع ذكر سراقه في رواية الطبري ولا في رواية أبي الطاهر في صحيح مسلم ، وإنما وقع في صحيح مسلم من طريق آخر .

(٢) في أ : « بشر » .

(٣) تفسير الطبري (١٤٤/٣٠) .

(٤) في أ : « حدثنا هشيم » .

(٥) المسند (٤٤١/٦) .

(٦) تفسير الطبري (١٤٢/٣٠) .

(٧) في م ، أ : « في » .

(٨) في أ : « فينزع » .

الثمرة فى فمه أدخل أصبعه فى حلق الغلام ونزع الثمرة من حلقه . فشكا ذلك الرجل إلى النبي ﷺ ، وأخبره بما هو فيه من صاحب النخلة ، فقال له النبي ﷺ : « اذهب » . ولقى النبي ﷺ صاحب النخلة ، فقال له النبي ﷺ : « أعطنى نخلتك التى فرعها فى دار فلان ولك بها نخلة فى الجنة » فقال له : لقد أعطيت ، ولكن يعجبني ثمرها ، وإن لى لنخلا كثيراً ما فيها نخلة أعجب إلى ثمرة من ثمرها . فذهب النبي ﷺ فتبعه رجل كان يسمع الكلام من رسول الله ﷺ ومن صاحب النخلة . فقال الرجل : يا رسول الله ، إن أنا أخذت النخلة فصارت لى النخلة فأعطيته أتعطينى بها ما أعطيته بها نخلة فى الجنة ؟ قال : « نعم » . ثم إن الرجل لقي صاحب النخلة ، ولكلاهما نخل ، فقال له : أخبرك أن محمداً ، [قد] ^(١) أعطانى بنخلتى المائلة فى دار فلان نخلة فى الجنة ، فقلت ، له : قد أعطيت ولكن يعجبني ثمرها . فسكت عنه الرجل ، فقال له : أترك إذا بعته ؟ قال : لا ، إلا أن أعطى بها شيئاً ، ولا أظننى أعطاه . قال : وما منك بها ^(٢) ؟ قال : أربعون نخلة . فقال الرجل : لقد جئت بأمر عظيم ، نخلتك تطلب بها أربعين نخلة ؟! ثم سكتا وأنشأ فى كلام [آخر] ^(٣) ، ثم قال : أنا أعطيتك أربعين نخلة ، فقال : أشهد لى إن كنت صادقاً . فأمر بأناس فدعاهم فقال : اشهدوا أنى قد أعطيته من نخلى أربعين نخلة بنخلته التى فرعها فى دار فلان ابن فلان . ثم قال : ما تقول ؟ فقال صاحب النخلة : قد رضيت . ثم قال بعد : ليس بينى وبينك بيع لم تفرق قال ^(٤) له : قد أقالك الله ، ولست بأحمق حين أعطيتك أربعين نخلة بنخلتك المائلة . فقال صاحب النخلة : قد رضيت على أن تعطينى الأربعين على ما أريد . قال : تعطينيها على ساق . ثم مكث ساعة ، ثم قال : هى لك على ساق وأوقف له شهوداً وعد له أربعين نخلة على ساق ، ففترقا ، فذهب الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن النخلة المائلة فى دار فلان قد صارت لى ، فهى لك . فذهب رسول الله ﷺ إلى الرجل صاحب الدار فقال له : « النخلة لك ولعيالك » . قال عكرمة : قال ابن عباس : فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى . فَسَنِيَرَهُ لِلْيُسْرَى . وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيَرَهُ لِلْعُسْرَى ﴾ إلى آخر السورة ^(٥) .

هكذا رواه ابن أبى حاتم ، وهو حديث غريب جداً .

قال ابن جرير : وذكر أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه : حدثنى هارون ابن إدريس الأصم ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى ، حدثنا محمد بن إسحاق ، عن محمد ابن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ، عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو بكر يعتق على الإسلام بمكة ، فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن ، فقال له أبوه : أى بنى ، أراك تعتق أناساً ضعفاء ، فلو أنك تعتق رجالاً جلداء يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك ؟! فقال : أى أبت ، إنما أريد — أظنه قال — ما عند الله : قال : فحدثنى بعض أهل بيتى أن هذه الآية

(٢) فى م ، أ : « فيها » .

(١) زيادة من م .

(٤) فى م : « فقال » .

(٣) زيادة من م .

(٥) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٨/ ٥٣٢) وقال : « أخرج ابن أبى حاتم بسند ضعيف عن ابن عباس » .

أنزلت فيه : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى . فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ : قال مجاهد : أى إذا مات . وقال أبو صالح ، ومالك عن زيد بن أسلم : إذا تردى فى النار .

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١) ﴾ .

قال قتادة : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾ أى : نبين الحلال والحرام . وقال غيره : من سلك طريق الهدى وصل إلى الله . وجعله كقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ [النحل: ٩] . حكاه ابن جرير .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴾ أى : الجميع ملكنا (٢) وأنا المتصرف فيهما .

وقوله : ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴾ : قال مجاهد : أى توهج .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن سماك بن حرب ، سمعت النعمان بن بشير يخطب يقول : سمعت رسول الله ﷺ يخطب يقول : « أنذركم النار [أنذرتكم النار، أنذرتكم النار] (٣) » حتى لو أن رجلاً كان بالسوق لسمعه من مقامى هذا . قال : حتى وقعت خميسة كانت على عاتقه عند رجليه (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، حدثني أبو إسحاق : سمعت النعمان بن بشير يخطب ويقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجلٌ توضع فى أخمص قدميه جمرتان يغلى منها دماغه » . رواه البخارى (٥) .

وقال مسلم : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا أبو أسامة ، عن الأعمش ، عن أبى إسحاق ، عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلى منهما دماغه كما يغلى الرجل ، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً ، وإنه لأهونهم عذاباً » (٦) .

وقوله : ﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴾ أى : لا يدخلها دخولا يحيط به من جميع جوانبه إلا الأشقى .

ثم فسر فقال : ﴿ الَّذِي كَذَّبَ ﴾ أى : بقلبه ، ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ أى : عن العمل بجوارحه وأركانه .

(١) تفسير الطبرى (١٤٢/٣٠) .

(٢) فى م : « ملكاً » .

(٣) زيادة من م ، أ ، والمسنَد .

(٤) المسند (٢٧٢/٤) .

(٥) المسند (٢٧٤/٤) وصحيح البخارى برقم (٦٥٦٢، ٦٥٦١) .

(٦) صحيح مسلم برقم (٢١٣) .

قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا عبد ربه^(١) بن سعيد ، عن المقبري ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل النار إلا شقى » . قيل : ومن الشقى ؟ قال : « الذى لا يعمل بطاعة ، ولا يترك لله معصية »^(٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يونس وسُريج قالا : حدثنا فليح ، عن هلال بن على ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كل أمتى تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى » . قالوا : ومن يأبى يا رسول الله ؟ قال : « من أطاعنى دخل الجنة ، ومن عصانى فقد أبى » . ورواه البخارى عن محمد بن سنان ، عن فليح ، به^(٣) .

وقوله : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴾ أى : وسيزحزح عن النار التقى النقى الأتقى . ثم فسره بقوله : ﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾ أى : يصرف ماله فى طاعة ربه ؛ ليزكى نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا ، ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴾ أى : ليس بذله حاله^(٤) فى مكافأة من أسدى إليه معروفًا ، فهو يعطى فى مقابلة ذلك ، وإنما دفعه ذلك ﴿ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴾ أى : طمعاً فى أن يحصل له رؤيته فى الدار الآخرة فى روضات الجنات ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ أى : ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات .

وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فى أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه ، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك . ولا شك أنه داخل فيها ، وأولى الأمة^(٥) بعمومها ، فإن لفظها لفظ العموم ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى . وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴾ ، ولكنه مقدم الأمة وسابقهم فى جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة ؛ فإنه كان صديقاً تقياً كريماً جواداً بذالاً لأمواله فى طاعة مولاه ، ونصرة رسول الله ، فكم من دراهم^(٦) ودنانير^(٧) بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم ، ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها ، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل ؛ ولهذا قال له عروة بن مسعود - وهو سيد ثقيف ، يوم صلح الحديبية - : أما والله لولا يد لك كانت عندى لم أجرك بها لأجبتك . وكان الصديق قد أغلظ له فى المقالة ، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل ، فكيف بمن عداهم ؟ ولهذا قال : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى . إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى . وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ . وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « من أنفق زوجين فى سبيل الله دَعَتَهُ خَزَنَةُ الْجَنَّةِ : يا عبد الله ، هذا خير » ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، ما على من يُدعى منها ضرورة فهل يدعى منها كلها أحد ؟ قال : « نعم ، وأرجو أن تكون منهم »^(٨) .

آخر تفسير سورة « الليل » ولله الحمد والمنة^(٩)

(١) فى أ : « حدثنا عبد الله » .

(٢) المسند (٣٤٩/٢) .

(٣) المسند (٣٦١/٢) وصحيح البخارى برقم (٧٢٨٠) .

(٥) فى أ : « الآية » .

(٤) فى أ : « ماله » .

(٦) فى م ، أ : « من درهم » .

(٧) فى أ : « ودينار » .

(٨) صحيح البخارى برقم (٢٨٤١) وصحيح مسلم برقم (١٠٢٧) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٩) فى أ : « ولله الحمد والمنة والثناء الحسن الجميل » .

تفسير سورة الضحى

وهى مكية .

روينا من طريق أبى الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبى بزة المقرئ قال : قرأت على عكرمة بن سليمان ، وأخبرنى أنه قرأ على إسماعيل بن قسطنطين وشبل بن عباد ، فلما بلغت ﴿وَالضُّحَى﴾ قال لى : كبر حتى تختم مع خاتمة كل سورة ، فإننا قرأنا على ابن كثير فأمرنا بذلك . وأخبرنا أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك . وأخبره مجاهد أنه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك ، وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أبى بن كعب فأمره بذلك ، وأخبره أبى أنه قرأ على رسول الله ﷺ فأمره بذلك ^(١) .

فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزى ، من ولد القاسم بن أبى بزة ، وكان إماماً فى القراءات ، فأما فى الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازى وقال : لا أحدث عنه ، وكذلك أبو جعفر العقيلي قال : هو منكر الحديث . لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة فى شرح الشاطبية عن الشافعى أنه سمع رجلاً يكبر هذا التكبير فى الصلاة ، فقال له : أحسنت وأصبت السنة . وهذا يقتضى صحة هذا الحديث .

ثم اختلف القراء فى موضع هذا التكبير وكيفيته ، فقال بعضهم : يكبر من آخر ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ . وقال آخرون : من آخر ﴿وَالضُّحَى﴾ . وكيفية التكبير عند بعضهم أن يقول : الله أكبر ويقتصر ، ومنهم من يقول الله أكبر ، لا إله إلا الله والله أكبر .

وذكر الفراء فى مناسبة التكبير من أول سورة « الضحى » : أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ وفتر تلك المدة [ثم] ^(٢) جاءه الملك فأوحى إليه : ﴿وَالضُّحَى﴾ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴿ السورة بتمامها ، كبر فرحاً وسروراً . ولم يرو ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف ، فالله أعلم ^(٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالضُّحَى﴾ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ

(١) ورواه الحافظ الذهبى فى ميزان الاعتدال (١/١٤٥) ثم قال : « هذا حديث غريب ، وهو مما أنكر على البزى ، قال أبو حاتم : هذا منكر » .

(٢) زيادة من م .

(٣) والصواب أن هذا مما لم يصح فيه شيء عن النبى ﷺ ولا عن صحابته ، رضى الله عنهم ، وما روى فيها مما لا تقوم به الحجة ، وشيخ الإسلام - ابن تيمية - قد تكلم على هذا التكبير كلاماً شديداً فى الفتاوى (١٣/٤١٧-٤١٩) ، وانظر : الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/٣١٠) ومرويات دعاء ختم القرآن لبكر أبو زيد (ص٦) ومن كتابه استفدت هذا ، فجزاه الله خيراً .

ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) ﴿

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا سفيان ، عن الأسود بن قيس قال : سمعت جندباً يقول : اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين ، فأثت امرأة فقالت : يا محمد ، ما أرى شيطانك إلا قد تركك . فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ (١) .

رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، وابن أبى حاتم ، وابن جرير ، من طرق ، عن الأسود بن قيس ، عن جندب — هو ابن عبد الله البجلي ثم العلقى (٢) به (٣) ، وفى رواية سفيان بن عيينة عن الأسود بن قيس : سمع جندباً قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ ، فقال المشركون : ودَّع محمد . فأنزل الله : ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ (٤) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج وعمر بن عبد الله (٥) الأودى قالا : حدثنا أبو أسامة ، حدثنى سفيان ، حدثنى الأسود بن قيس ، أنه سمع جندباً يقول : رمى رسول الله ﷺ بحجر فى أصبعه فقال :

هل أنت إلا أصبع دमित وفى سبيل الله ما لقيت ؟

قال : فمكث ليلتين أو ثلاثاً لا يقوم ، فقالت له امرأة : ما أرى شيطانك إلا قد تركتك (٦) . فنزلت : ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ . والسياق لأبى سعيد .

قيل : إن هذه المرأة هى : أم جميل امرأة أبى لهب ، وذكر أن إصبعه ، عليه السلام ، دमित . وقوله — هذا الكلام الذى اتفق أنه موزون — ثابت فى الصحيحين (٧) ، ولكن الغريب هاهنا جعله سبباً لتركه القيام ، ونزول هذه السورة . فأما ما رواه ابن جرير :

حدثنا ابن أبى الشوارب ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا سليمان الشيبانى ، عن عبد الله ابن شداد : أن خديجة قالت للنبي ﷺ : ما أرى ربك إلا قد قلاك . فأنزل الله : ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ .

وقال أيضاً : حدثنا أبو كريب ، حدثنا وكيع ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه قال : أبطأ جبريل على النبي ﷺ ، فجزع جزعاً شديداً ، فقالت خديجة : إني أرى ربك قد قلاك مما نرى من جزعك . قال : فنزلت : ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ إلى آخرها (٨) .

(١) المسند (٣١٢/٤) .

(٢) فى أ : « العلقى » .

(٣) صحيح البخارى برقم (١١٢٤، ١١٢٥، ٤٩٨٣، ٤٩٥٠، ٤٩٥١) وصحيح مسلم برقم (١٧٩٧) وسنن الترمذى برقم (٣٣٤٥) وسنن

النسائى الكبرى برقم (١١٦٨١) وسنن ابن ماجه برقم (٣٢٥٠) .

(٤) هذه الرواية فى مسلم والترمذى .

(٥) فى أ : « وعمر بن عبد الله بن عبد الله الأودى » .

(٦) فى م : « قد تركك » .

(٧) صحيح البخارى برقم (٢٨٠٢) وصحيح مسلم برقم (١٧٩٦) .

(٨) تفسير الطبرى (١٤٨/٣٠) .

فإنه حديث مرسل من [هذين الوجهين] ^(١) ولعل ذكر خديجة ليس محفوظاً ، أو قالته على وجه التأسف والتحزن ، والله أعلم .

وقد ذكر بعض السلف — منهم ابن إسحاق — أن هذه السورة هي التى أوحاها جبريل إلى رسول الله ﷺ ، حين تبدى له فى صورته التى خلقه الله عليها ، ودنا إليه وتدلّى منهبطاً عليه وهو بالأبطح ، ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ [النجم: ١٠] . قال : قال له هذه السورة : ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ ﴾ .

قال العوفى ، عن ابن عباس : لما نَزَلَ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ القرآن ، أبطأ عنه جبريل أياماً ، فتغير بذلك ، فقال المشركون : ودعه ربه وقلاه . فأنزل الله : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ .

وهذا قسم منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء ، ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ ﴾ أى : سكن فأظلم وادلهم . قاله مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، وغيرهم . وذلك دليل ظاهر على قدرة خالق هذا وهذا ، كما قال : ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَىٰ . وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ [الليل: ١ ، ٢] ، وقال : ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام: ٩٦] .

وقوله : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ أى : ما تركك ، ﴿ وَمَا قَلَىٰ ﴾ أى : وما أبغضك ، ﴿ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ أى : والدار الآخرة خير لك من هذه الدار . ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهد الناس فى الدنيا ، وأعظمهم لها إطراحاً ، كما هو معلوم [بالضرورة] ^(٢) من سيرته . ولما خيّر ، عليه السلام ، فى آخر عمره بين الخلد فى الدنيا إلى آخرها ثم الجنة ، وبين الصيرورة إلى الله عز وجل ، اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا المسعودى ، عن عمرو بن مرة ، عن إبراهيم النخعى ، عن علقمة ، عن عبد الله — هو ابن مسعود — قال : اضطجع رسول الله ﷺ على حصير ، فأثر فى جنبه ، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه وقلت : يا رسول الله ، ألا أذنتنا حتى نسط لك على الحصير شيئاً ؟ فقال رسول الله ﷺ : « ما لى وللدنيا ؟ ! ما أنا والدنيا ؟ ! إنما مثلى ومثل الدنيا كراكب ظلّ تحت شجرة ، ثم راح وتركها » ^(٣) .

ورواه الترمذى وابن ماجة ، من حديث المسعودى به ^(٤) . وقال الترمذى : حسن صحيح .

وقوله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ أى : فى الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه فى أمته ، وفيما أعدّه له من الكرامة ، ومن جملة نهر الكوثر الذى حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ، وطينه [من] ^(٥) مسك أذفر ، كما سيأتى .

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعى ، عن إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر المخزومى ، عن

(٣) فى ١ : « وتركها » .

(٢) زيادة من م .

(١) زيادة من م ، أ .

(٤) المسند (٣٩١/١) وسنن الترمذى برقم (٢٣٧٧) وسنن ابن ماجة برقم (٤١٠٩) .

(٥) زيادة من أ .

على بن عبد الله بن عباس عن أبيه قال : عرض على رسول الله ما هو مفتوح على أمته من بعده كنزاً كنزاً ، فأنزل الله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ فأعطاه فى الجنة ألف ألف قصر ، فى كل قصر ما ينبغى له من الأزواج والخدم . رواه ابن جرير ^(١) من طريقه ، وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس : ومثل هذا ما يقال إلا عن توقيف .

وقال السدى ، عن ابن عباس : من رضا محمد ﷺ ألا يدخل أحد من أهل بيته النار . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم .

وقال الحسن : يعنى بذلك الشفاعة . وهكذا قال أبو جعفر الباقر .

وقال أبو بكر بن أبى شيبة : حدثنا معاوية بن هشام ، عن على بن صالح ، عن زيد بن أبى زياد ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّا أَهْلُ بَيْتِ اخْتَارَ اللَّهُ لَنَا الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا ﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ » ^(٢) .

ثم قال تعالى يعدد نعمه على عبده ورسوله محمد ، صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ﴾ ، وذلك أن أباه توفى وهو حمل فى بطن أمه ، وقيل : بعد أن ولد ، عليه السلام ، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين . ثم كان فى كفالة جده عبد المطلب ، إلى أن توفى وله من العمر ثمان سنين ، فكفله عمه أبو طالب . ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره ويؤقره ، ويكف عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره ، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان ، وكل ذلك بقدر الله وحسن تدبيره ، إلى أن توفى أبو طالب قبل الهجرة بقليل ، فأقدم عليه سفهاء قريش وجُهاً لهم ، فاختر الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج ، كما أجرى الله سنته على الوجه الأتم والأكمل . فلما وصل إليهم أووه ونصروه وحاطوه وقاتلوا بين يديه ، رضى الله عنهم أجمعين ، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به .

وقوله : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ كقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : ٥٢] ومنهم من قال [إن] ^(٣) المراد بهذا أنه ، عليه السلام ، ضل فى شعاب مكة وهو صغير ، ثم رجع . وقيل : إنه ضل وهو مع عمه فى طريق الشام ، وكان راكباً ناقة فى الليل ، فجاء إبليس يعدل بها عن الطريق ، فجاء جبريل ، فنفخ إبليس نفخة ذهب منها إلى الحبشة ، ثم عدل بالراحلة إلى الطريق . حكاها البغوى .

(١) فى أ : « رواه ابن جرير وابن أبى حاتم » .

(٢) ورواه البغوى فى شرح السنة (٢٤٨/١٤) من طريق ابن أبى شيبة فذكره دون الآية ، ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (٢٣٦/١٥) بهذا الطريق ولم يذكر الآية ، ولعل ذكرها وقع فى كتاب التفسير ، ورواه ابن ماجة فى السنن برقم (٤٠٨٢) عن عثمان بن أبى شيبة ، عن معاوية بن هشام به ، وقال البوصيرى فى الزوائد (٢٦٢/٣) : « هذا إسناد فيه يزيد بن أبى زياد الكوفى مختلف فيه » .

(٣) زيادة من م .

وقوله : ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ أى : كنت فقيراً ذا عيال ، فأغناك الله عمن سواه ، فجمع له بين مقامى ، الفقير الصابر والغنى الشاكر ، صلوات الله وسلامه عليه .

وقال قتادة فى قوله : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى . وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى . وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ قال : كانت هذه منازل الرسول ﷺ قبل أن يبعثه الله ، عز وجل . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم .

وفى الصحيحين - من طريق عبد الرزاق - عن معمر ، عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن ^(١) الغنى غنى النفس » ^(٢) .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً ، وقنعه ^(٣) الله بما آتاه » ^(٤) .

ثم قال : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ أى : كما كنت يتيماً فأواك الله فلا تقهر اليتيم ، أى : لا تذله وتنهره وتهنه ، ولكن أحسن إليه ، وتلطف به .

قال قتادة : كن لليتيم كالأب الرحيم .

﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ أى : وكما كنت ضالاً فهذاك الله ، فلا تنهر السائل فى العلم المسترشد .

قال ابن إسحاق : ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ أى : فلا تكن جباراً ، ولا متكبراً ، ولا فحاشاً ، ولا فظاً على الضعفاء من عباد الله .

وقال قتادة : يعنى رد المسكين برحمة ولين .

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّث ﴾ أى : وكما كنت عائلاً فقيراً فأغناك الله ، فحدث بنعمة الله عليك ، كما جاء فى الدعاء المأثور النبوى : « واجعلنا شاكرين لنعمتك ^(٥) مثنين بها ، قابليها ، وأتمها علينا » .

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن علية ، حدثنا سعيد بن إياس الجُريرى ، عن أبى نصره قال : كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يحدث بها .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : حدثنا منصور بن أبى مزاحم ، حدثنا الجراح بن مكيح ، عن أبى عبد الرحمن ، عن الشعبى ، عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ على المنبر : « من لم يشكر القليل ، لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله . والتحدث بنعمة الله شكر ، وتركها كفر . والجماعة رحمة ، والفرقة عذاب » ^(٦) إسناده ضعيف .

(١) فى م : « وإنما » .

(٢) لم أقع عليه فى الصحيحين من هذا الطريق ، وقد جاء فيهما من طرق آخر عن أبى هريرة ، انظر : صحيح البخارى برقم (٦٤٤٦) وصحيح مسلم برقم (١٠٥١) .

(٣) فى أ : « ومتعه » .

(٤) صحيح مسلم برقم (١٠٥٤) .

(٥) فى أ : « لنعمك » .

(٦) زوائد المسند (٢٧٨/٤) .

وفى الصحيحين ، عن أنس ، أن المهاجرين قالوا : يا رسول الله ، ذهب الأنصار بالأجر كله . قال : « لا ، ما دعوتكم الله لهم ، وأثبتتم عليهم » ^(١) .

وقال أبو داود : حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا الربيع بن مسلم ، عن محمد بن زياد ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » .

ورواه الترمذى عن أحمد بن محمد ، عن ابن المبارك ، عن الربيع بن مسلم ^(٢) ، وقال : صحيح .

وقال أبو داود : حدثنا عبد الله بن الجراح ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر ، عن النبي ﷺ قال : « من أبلى بلاء فذكره فقد شكره ، وإن كتمه فقد كفره » . تفرد به أبو داود ^(٣) .

وقال أبو داود : حدثنا مُسَدَّدٌ ، حدثنا بشر ^(٤) ، حدثنا عمارة بن غزوة ، حدثني رجل من قومي ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « من أعطى عطاءً فوجد فليجز به ، فإن لم يجد فليثن به ، فمن أثنى به فقد شكره ، ومن كتمه فقد كفره » . قال أبو داود : ورواه يحيى بن أيوب ، عن عمارة بن غزوة ، عن شرحبيل عن جابر — كرهوه فلم يسموه . تفرد به أبو داود ^(٥) .

وقال مجاهد : يعنى النبوة التى أعطاك ربك . وفى رواية عنه : القرآن .

وقال ليث ، عن رجل ، عن الحسن بن على : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ قال : ما عملت من خير فحدّث إخوانك .

وقال محمد بن إسحاق : ما جاءك الله ^(٦) من نعمة وكرامة من النبوة فحدّث بها واذكرها ، وادع إليها . وقال : فجعل رسول الله ﷺ يذكر ما أنعم الله به عليه من النبوة سرّاً إلى من يطمئن إليه من أهله ، وافترضت عليه الصلاة ، فصلى .

آخر تفسير سورة « الضحى » [ولله الحمد] ^(٧)

(١) لم أقع عليه فى الصحيحين ، ورواه الإمام أحمد فى المسند (٣/ ٢٠٠) .

(٢) سنن أبى داود برقم (٤٨١١) وسنن الترمذى برقم (١٩٥٤) .

(٣) سنن أبى داود برقم (٤٨١٤) .

(٤) فى ١ : « بشير » .

(٥) سنن أبى داود برقم (٤٨١٣) .

(٦) فى م : « ما جاءك من الله » .

(٧) زيادة من أ .

تفسير سورة ألم نشرح

وهي مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۚ (١) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۖ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۚ (٢) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۚ (٣) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۚ (٤) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۚ (٥) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ۚ (٦) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ : أما شرحنا لك صدرك ، أى : نورناه وجعلناه فسيحاً رحباً واسعاً كقوله : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ، وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرعه فسيحاً واسعاً سمحاً سهلاً لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ : شرح صدره ليلة الإسراء ، كما تقدم من رواية مالك بن صعصعة ^(١) ، وقد أورده الترمذى هاهنا . وهذا وإن كان واقعاً ، ولكن لا منافاة ، فإن من جملة شرح صدره الذى فُعل بصدرة ليلة الإسراء ، وما نشأ عنه من الشرح المعنوى أيضاً ، والله أعلم .

قال عبد الله بن الإمام أحمد : حدثنى محمد بن عبد الرحيم ^(٢) أبو يحيى البزار ^(٣) ، حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا معاذ بن محمد بن معاذ بن محمد بن أبي بن كعب ، حدثنى أبى محمد بن معاذ ، عن معاذ ، عن محمد ، عن أبى بن كعب : أن أبا هريرة كان جريئاً على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره ، فقال : يا رسول الله ، ما أول ما رأيت من أمر النبوة ؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالسا وقال : « لقد سألت يا أبا هريرة ، إنى لفى الصحراء ابن عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسى ، وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟ [قال: نعم] ^(٤) فاستقبلانى بوجوه لم أرها [لخلق] ^(٥) قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط . فأقبلا إلى يمشيان ، حتى أخذ كل واحد منهما بعصدي ، لا أجد لأحدهما مسا ، فقال أحدهما لصاحبه : أضجعه . فأضجعانى بلا قصر ولا هصر . فقال أحدهما لصاحبه : افلق صدره . فهوى أحدهما إلى صدرى ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع ، فقال له : أخرج الغلّ والحسد . فأخرج شيئاً كههيئة العلقة ثم نبذها فطرحها ، فقال له : أدخل الرأفة والرحمة ، فإذا مثل الذى أخرج شبه الفضة ، ثم هز

(١) تقدم تخريج الحديث عند تفسير أول سورة الإسراء .

(٢) فى م ، أ : « البزار » .

(٣) فى أ : « محمد بن عبد الرحمن » .

(٤، ٥) زيادة من المسند .

إيهام رجلى اليمنى فقال : اغدُ واسلم . فرجعت بها أعدو ، رقة على الصغير ، ورحمة للكبير » (١) .

وقوله : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ﴾ بمعنى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: ٢] ﴿ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ : الإنقاض : الصوت . وقال غير واحد من السلف فى قوله : ﴿ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أى : أثقلت حمله .

وقوله : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ : قال مجاهد : لا أذكرُ إلا ذُكرتَ معى : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

وقال قتادة : رفع الله ذكره فى الدنيا والآخرة ، فليس خطيب ولا مُتَشهد ولا صاحبُ صلاة إلا ينادى بها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

قال ابن جرير : حدثنى يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنا عمرو بن الحارث ، عن دراج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أتانى جبريل فقال : إن ربي وربك يقول : كيف رفعت ذكرك ؟ قال : الله أعلم . قال : إذا ذُكرتُ ذُكرتَ معى » ، وكذا رواه ابن أبى حاتم عن يونس بن عبد الأعلى ، به ، ورواه أبو يعلى من طريق ابن لهيعة ، عن دراج (٢) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرعة ، حدثنا أبو عمر الحَوْضى ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « سألت ربي مسألة وَدَدْتُ أَنَّى لَمْ أَكُنْ سَأَلْتُهُ ، قلت : قد كانت قبلى أنبياء ، منهم من سخرت له الريح (٣) ، ومنهم من يحيى الموتى . قال : يا محمد ، ألم أجذك يتيماً فأويتك ؟ قلت : بلى يا رب . قال : ألم أجذك ضالاً فهديتك ؟ قلت : بلى يا رب . قال : ألم أجذك عائلاً فأغنيتك ؟ قلت : بلى يا رب . قال ألم أشرح (٤) لك صدرك ؟ ألم أرفع لك ذكرك ؟ قلت : بلى يا رب » (٥) .

وقال أبو نعيم فى « دلائل النبوة » : حدثنا أبو أحمد الغطريفى ، حدثنا موسى بن سهل الجَوْنى ، حدثنا أحمد بن القاسم بن بهرام الهيتى ، حدثنا نصر بن حماد ، عن عثمان بن عطاء ، عن الزهرى ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لما فرغت مما أمرنى الله به من أمر السموات والأرض قلت : يا رب ، إنه لم يكن نبى قبلى إلا وقد كرمته ، جعلت إبراهيم خليلاً ، وموسى كليماً ، وسخرت لداود الجبال ، ولسليمان الريح والشياطين ، وأحييت لعيسى الموتى ، فما جعلت لى ؟ قال : أو ليس قد أعطيتك أفضل من ذلك كله ، أنى لا أذكر إلا ذُكرتَ معى ، وجعلت صدور أمتك أناجيل يقرؤون القرآن ظاهراً ، ولم أعطها أمة ، وأعطيتك كنزاً من كنوز عرشى : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » (٦) .

(١) زوائد المسند (١٣٩/٥) وقال الهيثمى فى المجمع (٢٢٢/٨) : « رجاله ثقات وثقهم ابن حبان » .

(٢) تفسير الطبرى (١٥١/٣٠) .

(٣) فى أ : « البحر » . (٤) فى أ : « ألم نشرح » .

(٥) ورواه الحاكم فى المستدرك (٥٢٦/٢) من طريق أحمد بن سلمة ، عن عبد الله بن الجراح ، عن حماد بن زيد به ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

(٦) وذكره المؤلف فى البداية والنهاية (٢٨٨/٦) ثم قال : « وهذا إسناد فيه غرابة ، ولكن أورد له شاهداً من طريق أبى القاسم بن منيع البغوى ، عن سليمان بن داود المهرانى ، عن حماد بن زيد ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس مرفوعاً بنحوه » .

وحكى البغوى ، عن ابن عباس ومجاهد : أن المراد بذلك : الأذان . يعنى : ذكره فيه ، وأورد من شعر حسان بن ثابت :

أَغَرَّ ، عَلَيْهِ لِلنَّبِوةِ خَاتَمٌ
وَضَمَّ إِلَهُ اسْمَ النَّبِىِّ إِلَى اسْمِهِ
وَشَقَّى لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ
مِنَ اللَّهِ مِنْ نُورٍ يَلُوحُ وَيَشْهَدُ
إِذَا قَالَ فِى الْخَمْسِ الْمُؤَذِّنُ : أَشْهَدُ
قَدْؤُ الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدٌ^(١)

وقال آخرون : رفع الله ذكره فى الأولين والآخرين ، ونوه به ، حين أخذ الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا به ، وأن يأمرُوا أمهم^(٢) بالإيمان به ، ثم شهر ذكره فى أمته فلا يُذكر الله إلا ذكر معه .

وما أحسن ما قال الصرصرى ، رحمه الله :

لَا يَصِحُّ الْأَذَانُ فِى الْفَرَضِ إِلَّا
بِاسْمِهِ الْعَذْبُ فِى الْفَمِ الْمَرْضَى
وقال أيضاً :

[أَلَمْ تَرَ أَنَّا لَا يَصِحُّ أَذَانُنَا
وَلَا فَرَضُنَا إِنْ لَمْ نُكْرِرْهُ فِيهِمَا]^(٣)

وقوله : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ : أخبر تعالى أن مع العسر يوجد اليسر ، ثم أكد هذا الخبر .

قال ابن حاتم : حدثنا أبو زُرْعَةَ ، حدثنا محمود بن غيلان ، حدثنا حميد بن حماد بن خُوَارٍ أبو الجهم ، حدثنا عائذ بن شريح قال : سمعت أنس بن مالك يقول : كان النبى ﷺ جالسا^(٤) وحياله حجر ، فقال : « لو جاء العسر فدخل هذا الحجر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه » ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾^(٥) .^(٦)

ورواه أبو بكر البزار فى مسنده عن محمد بن مَعْمَرٍ ، عن حميد بن حماد ، به ولفظه : « لو جاء العسر حتى يدخل هذا الحجر لجاء اليسر حتى يخرجه » ثم قال : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ ، ثم قال البزار : لا نعلم رواه عن أنس إلا عائذ بن شريح^(٧) .

قلت : وقد قال فيه أبو حاتم الرازى : فى حديثه ضعف ، ولكن رواه شعبة عن معاوية بن قرة ، عن رجل ، عن عبد الله بن مسعود موقوفا .

(١) معالم التنزيل للبغوى (٤٦٤/٨) .

(٢) فى أ : « أمهم » . (٣) زيادة من م ، أ . (٤) فى أ : « جالس » وهو خطأ .

(٥) كذا فى م ، أ ، هـ : « إن » وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه .

(٦) ورواه الحاكم فى المستدرک (٢٥٥/٢) من طريق محمود بن غيلان به ، وقال الحاكم : « هذا حديث عجيب غير أن الشيخين لم يحتجا بعائذ بن شريح » . وقال الذهبى : « تفرد حميد بن حماد ، عن عائذ ، وحميد منكر الحديث كعائذ » .

(٧) مسند البزار برقم (٢٢٨٨) « كشف الأستار » ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٣٤١٦) من طريق محمد بن معمر به .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا أبو قَطَن^(١) ، حدثنا المبارك بن فضالة ، عن الحسن قال : كانوا يقولون : لا يغلب عسر واحد يسرين اثنين .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن^(٢) ثور ، عن مَعْمَر ، عن الحسن قال : خرج النبي ﷺ يوماً مسروراً فرحاً وهو يضحك ، وهو يقول : « لَنْ يَغْلِبَ عُسْرُ يَسْرِينَ ، لَنْ يَغْلِبَ عُسْرُ يَسْرِينَ ، فَإِنْ^(٣) مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » .

وكذا رواه من حديث عوف الأعرابي ويونس بن عبيد ، عن الحسن مرسلاً^(٤) .

وقال سعيد ، عن قتادة : ذَكَرَ لَنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَشَّرَ أَصْحَابَهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ فَقَالَ : « لَنْ يَغْلِبَ عُسْرُ يَسْرِينَ » .

ومعنى هذا : أَنَّ الْعُسْرَ مَعْرُوفٌ فِي الْحَالِينَ ، فَهُوَ مُفْرَدٌ ، وَالْيُسْرُ مُنْكَرٌ فَتَعَدَّدَ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : « لَنْ يَغْلِبَ عُسْرُ يَسْرِينَ » ، يَعْنِي قَوْلَهُ : ﴿ فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ ، فَالْعُسْرُ الْأَوَّلُ عَيْنٌ^(٥) الثَّانِي ، وَالْيُسْرُ تَعَدَّدَ .

وقال الحسن بن سفيان : حدثنا يزيد بن صالح ، حدثنا خارجة ، عن عباد بن كثير ، عن أبي الزناد ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « نَزَلَ^(٦) الْمَعُونَةُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى قَدَرِ الْمُؤْنَةِ ، وَنَزَلَ الصَّبْرُ عَلَى قَدَرِ الْمُصِيبَةِ »^(٧) .

ومما يروى عن الشافعي ، رضى الله عنه ، أَنَّهُ قَالَ :

صَبْرًا جَمِيلًا مَا أَقْرَبَ الْفَرْجَا
مَنْ رَاقَبَ اللَّهَ فِي الْأُمُورِ نَجَا
مَنْ صَدَّقَ اللَّهَ لَمْ يَنْلَهُ أَدَى
وَمَنْ رَجَاهُ يَكُونُ حَيْثُ رَجَا

وقال ابن دُرَيْدٍ : أَنشَدَنِي أَبُو حَاتِمٍ السَّجِسْتَانِي :

إِذَا اشْتَمَلَتْ عَلَى الْيَأْسِ الْقُلُوبُ
وَضَاقَ لَهَا بِهِ الصَّدْرُ الرَّحِيبُ
وَأَوْطَأَتْ الْمَكَارِهِ وَأَاطَمَأَنْتْ
وَأُرْسَتْ فِي أَمَاكِنِهَا الْخُطُوبُ
وَلَمْ تَرَ لَانْكَشَافِ الضَّرِّ وَجْهًا
وَلَا أَغْنَى بِحِيلَتِهِ الْأَرِيبُ

(١) فِي أ : « مَطَر » . (٢) فِي أ : « حَدَّثَنَا أَبُو » .

(٣) كَذَا فِي م ، أ ، هـ : « إِنْ » وَهُوَ خَطَأٌ . مِنْ ابْنِ جَرِيرٍ (١٥١/٣٠) .

(٤) تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ (١٥١/٣٠) وَرَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي تَفْسِيرِهِ (٣٠٩/٢) عَنْ مَعْمَرٍ ، عَنْ الْحَسَنِ بِهَذَا مَرْسَلًا ، وَقَدْ جَاءَ مَوْقُوفًا عَلَى ابْنِ مَسْعُودٍ ، رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي تَفْسِيرِهِ (٣٠٩/٢) مِنْ طَرِيقِ مَيْمُونٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ عَنْهُ ، وَجَاءَ مَرْفُوعًا عَنْ جَابِرٍ ، رَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ فِي تَفْسِيرِهِ ، وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ : « إِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ » .

(٥) فِي م : « هُوَ » .

(٦) فِي أ : « نَزَلَتْ » .

(٧) وَرَوَاهُ الْبِزَارُ فِي مُسْنَدِهِ بِرَقْمٍ (١٥٠٦) « كَشَفَ الْأَسْتَارَ » وَابْنُ عَدَى فِي الْكَامِلِ (١١٥/٤) مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الدَّرَاوَرْدِيِّ عَنْ طَارِقِ وَعْبَادِ بْنِ كَثِيرٍ ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ بِهِ . وَقَالَ الْبِزَارُ : « لَا نَعْلَمُهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَادِ » . وَقَالَ ابْنُ عَدَى : « وَطَارِقُ بْنُ عَمَّارٍ يَعْرِفُ بِهَذَا الْحَدِيثِ » . وَالْحَدِيثُ مَعْلُولٌ . انْظُرْ : الْعِلَلُ لِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ (١٣٣، ١٢٦/٢) وَالْكَامِلُ لِابْنِ عَدَى (١١٥/٤، ٣٧/٢، ٤٠٢، ٢٣٨/٦) .

أناك على قُنُوط منك غَوْتُ يمن به اللطيف المستجيبُ
وكل الحادثات إذا تناهت فموصول بها الفرج القريب
وقال آخر :

وَلَرُبْ نازلة يضيق بها الفتى ذرعا ، وعند الله منها المخرج
كملت ، فلما استحكمت حلقاتها فرجت ، وكان يظنها لا تفرج

وقوله : ﴿ فَإِذَا فَرَعْتَ فَانصَبْ . وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ أى : إذا فَرَعْتَ من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها ، فانصب فى العبادة ، وقم إليها نشيطا فارغ البال ، وأخلص لربك النية والرغبة . ومن هذا القبيل قوله ﷺ فى الحديث المتفق على صحته : « لا صلاة بحضرة طعام ، ولا وهو يدافعه الأخبثان » ^(١) . وقوله ﷺ : « إذا أقيمت الصلاة وحضر العشاء ، فابدؤوا بالعشاء » ^(٢) .

قال مجاهد فى هذه الآية : إذا فرغت من أمر الدنيا فقمتم إلى الصلاة ، فانصب لربك ، وفى رواية عنه : إذا قمت إلى الصلاة فانصب فى حاجتك ، وعن ابن مسعود : إذا فرغت من الفرائض فانصب فى قيام الليل . وعن ابن عياض نحوه . وفى رواية عن ابن مسعود : ﴿ فَانصَبْ . وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ بعد فراغك من الصلاة وأنت جالس .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ فَإِذَا فَرَعْتَ فَانصَبْ ﴾ يعنى : فى الدعاء . وقال زيد بن أسلم ، والضحاك : ﴿ فَإِذَا فَرَعْتَ ﴾ أى : من الجهاد ﴿ فَانصَبْ ﴾ أى : فى العبادة . ﴿ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ : قال الثورى : اجعل نيتك ورغبتك إلى الله ، عز وجل .

آخر تفسير سورة « ألم نشرح » ولله الحمد

(١) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٥٦٠) من حديث عائشة ، رضى الله عنها .
(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٤٦٥) من حديث عائشة ، رضى الله عنها .

تفسير سورة التين والزيتون

وهي مكية .

قال مالك وشعبة ، عن عدى بن ثابت ، عن البراء بن عازب : كان النبي ﷺ يقرأ في سفر في إحدى الركعتين بالتين والزيتون ، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه . أخرجه الجماعة في كتبهم (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ (٨)﴾ .

اختلف المفسرون هاهنا على أقوال كثيرة فقليل : المراد بالتين مسجد دمشق . وقيل : هي نفسها . وقيل : الجبل الذي عندها .

وقال القرطبي : هو مسجد أصحاب الكهف (٢) .

وروى العوفي ، عن ابن عباس : أنه مسجد نوح الذي على الجودي .

وقال مجاهد : هو تينكم هذا .

﴿وَالزَّيْتُونَ﴾ : قال كعب الأحبار ، وقتادة ، وابن زيد ، وغيرهم : هو مسجد بيت المقدس .

وقال مجاهد ، وعكرمة : هو هذا الزيتون الذي تعصرون .

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ : قال كعب الأحبار وغير واحد : هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى .

﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ : يعنى : مكة . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وإبراهيم النخعي ، وابن زيد ، وكعب الأحبار . ولا خلاف في ذلك .

وقال بعض الأئمة : هذه محالٌ ثلاثة ، بعث الله في كل واحد منها نبياً مرسلًا من أولى العزم أصحاب الشرائع الكبار ، فالأول : محلة التين والزيتون ، وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم . والثاني : طور سينين ، وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران . والثالث : مكة ، وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً ، وهو الذي أرسل فيه محمداً ﷺ .

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٥٢) وصحيح مسلم برقم (٤٦٤) وسنن أبى داود برقم (١٢٢١) وسنن الترمذى برقم (٣١٠) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٨٢) وسنن ابن ماجه برقم (٨٣٤، ٨٣٥) .

(٢) تفسير القرطبي (١١١/٢٠) عن محمد بن كعب .

قالوا : وفى آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة : جاء الله من طور سيناء - يعنى الذى كلم الله عليه موسى [بن عمران] ^(١) - وأشرق من ساعير - يعنى جبل بيت المقدس الذى بعث الله منه عيسى - واستعلن من جبال فاران - يعنى : جبال مكة التى أرسل الله منها محمداً - فذكرهم ^(٢) على الترتيب الوجودى بحسب ترتيبهم فى الزمان ، ولهذا أقسم بالأشرف ، ثم الأشرف منه ، ثم بالأشرف منهما .

وقوله ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ : هذا هو المقسم عليه ، وهو أنه تعالى خلق الإنسان فى أحسن صورة ، وشكل منتصب القامة ، سوى الأعضاء حسننها .

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ أى : إلى النار . قاله مجاهد ، وأبو العالية ، والحسن ، وابن زيد ، وغيرهم . ثم بعد هذا الحسن والنضارة مصيره إلى النار إن لم يطع الله ويتبع الرسل ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ .

وقال بعضهم : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ أى : إلى أرذل العمر . روى هذا عن ابن عباس ، وعكرمة - حتى قال عكرمة : من جمع القرآن لم يُردَّ إلى أرذل العمر . واختار ذلك ابن جرير . ولو كان هذا هو المراد لما حسن استثناء المؤمنين من ذلك ؛ لأن الهرم قد يصيب بعضهم ، وإنما المراد ما ذكرناه ، كقوله : ﴿ وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [العصر : ١-٣] .

وقوله : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أى : غير مقطوع ، كما تقدم .

ثم قال : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ ﴾ يعنى : يا ابن آدم ﴿ بَعْدُ بِالْذِّينِ ﴾ ؟ أى : بالجزاء فى المعاد وقد علمت البداية ، وعرفت أن من قدر على البداية ، فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى ، فأى شيء يحملك على التكذيب بالمعاد وقد عرفت هذا ؟

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا عبد الرحمن ، عن سفيان ، عن منصور قال : قلت لمجاهد : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالْذِّينِ ﴾ عنى به النبى ﷺ قال : معاذ الله ! عنى به الإنسان . وهكذا قال عكرمة وغيره .

وقوله : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ أى : أما هو أحكم الحاكمين ، الذى لا يجور ولا يظلم أحداً ، ومن عدله أن يقيم القيامة فينصف المظلوم فى الدنيا ممن ظلمه . وقد قدمنا فى حديث أبى هريرة مرفوعاً : « فإذا قرأ أحدكم ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ فأتى على آخرها : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِ ﴾ فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين » ^(٣) .

آخر تفسير [سورة] ^(٤) « والتين والزيتون » ، ولله الحمد

(١) زيادة من م . (٢) فى م : « مخبراً عنهم » .

(٣) انظر : تفسير الآية الأخيرة من سورة القيامة .

(٤) زيادة من م ، أ .

تفسير سورة اقرأ

وهي أول شيء نزل من القرآن .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة قالت : أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حُبب إليه الخلاء ، فكان يأتي حراء فيتحنث فيه - وهو : التعبد - الليالي ذوات العدد ، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فتزود^(١) لمثلها حتى فجأه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فيه فقال : اقرأ . قال رسول الله ﷺ : « فقلت : ما أنا بقارئ » . قال : « فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ . فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ . فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ حتى بلغ : ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ » قال : فرجع بها ترجف بوادره^(٢) حتى دخل على خديجة فقال : « زملوني زملوني » . فزملوه حتى ذهب عنه الروع . فقال : يا خديجة ، ما لي : فأخبرها الخبر وقال : « قد خشيت على » . فقالت له : كلا ، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا ؛ إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن قصي - وهو ابن عم خديجة ، أخى أبيها ، وكان امرأ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربي ، وكتب بالعربية من الإنجيل^(٣) ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى - فقالت خديجة : أي ابن عم ، اسمع من ابن أخيك . فقال ورقة : ابن أخى ، ما ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ ما رأى ، فقال ورقة : هذا الناموس الذى أنزل على موسى^(٤) ، ليتنى^(٥) فيها جذعا أكون حيا حين يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ : « أومخرجي هم ؟ » . فقال ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بما جئت به^(٦) إلا عودى ، وإن يُدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً . [ثم]^(٧) لم ينشَب ورقة أن تُوفى ، وفتر الوحي فترة حتى حزن رسول الله ﷺ - فيما بلغنا - حزناً غدا منه مرارا كي يتردى من رؤوس شَوَاهِق الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقي نفسه منه ، تبدى له

(١) فى م ، أ : « فتزوده » .

(٢) فى أ : « يرجف فؤاده » .

(٣) فى م ، « وكتب من الإنجيل بالعربية » .

(٤) فى م : « على عيسى » .

(٥) فى أ : « ليتنى » .

(٦) فى أ : « بمثل ما جئت به » .

(٧) زيادة من م ، أ ، والمسند .

جبريل فقال : يا محمد ، إنك رسولُ الله حقاً . فيسكن بذلك جأشه ، وتقرُّ نفسه فيرجع . فإذا طالَّت عليه فترة الوحي غداً لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل ، فقال له مثل ذلك .

وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من حديث الزهري ^(١) ، وقد تكلمنا على هذا الحديث من جهة سنده ومثله ومعانيه في أول شرحنا للبخاري مستقصى ، فمن أرادَه فهو هناك محرر ، ولله الحمد والمنة .

فأول شيء [نزل] ^(٢) من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات ^(٣) ، وهُنَّ أول رحمة رَحِمَ الله بها العباد ، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم . وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقه ، وأن من كَرَّمَهُ تعالى أن عَلمَ الإنسان ما لم يعلم ، فشرفه وكرمه بالعلم ، وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة ، والعلم تارة يكون في الأذهان ، وتارة يكون في اللسان ، وتارة يكون في الكتابة بالبنان ، ذهني ولفظي ورسمي ، والرسمي يستلزمهما من غير عكس ، فلهذا قال : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . وفي الأثر : قيدا العلم بالكتابة ^(٤) . وفيه أيضاً : « من عمل بما علم رزقه ^(٥) الله علم ما لم يكن [يعلم] ^(٦) » .

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ^(٦) أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى ^(٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى ^(٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ^(٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى ^(١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ^(١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ^(١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ^(١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ^(١٤) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ^(١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ^(١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ^(١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ^(١٨) كَلَّا لَا تَطِعَهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ^(١٩) ﴾ .

يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان ، إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله . ثم تهده وتوعده ووعظه فقال : ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ أي : إلى الله المصير والمرجع ، وسيحاسبك على مالك : من أين جمعته ؟ وفيه صرفته ؟

قال ابن أبي حاتم : حدثنا زيد بن إسماعيل الصائغ ، حدثنا جعفر بن عون ، حدثنا أبو عَمَيْسٍ ، عن عون قال : قال عبد الله : منهومان لا يشبعان ، صاحب العلم وصاحب الدنيا ، ولا يستويان ،

(١) المسند (٢٣٢/٦) وصحيح البخاري برقم (٤٩٥٣، ٦٩٨٢، ٤٩٥٥، ٣٣٩٢) وصحيح مسلم برقم (١٦٠) .

(٢) زيادة من م ، أ . (٣) في م : « المباركة » .

(٤) جاء عن عمر - رضى الله عنه - موقوفاً ، رواه الحاكم في المستدرک (١٠٦/١) وابن أبي شيبة في المصنف (٤٩/٩) والدارمي في السنن برقم (٥٠٣) . وعن أنس موقوفاً ، رواه الحاكم في المستدرک (١٠٦/١) والرامهرمزي في المحدث الفاضل (ص٣٦٨) ، وجاء مرفوعاً من حديث أنس ، رواه الخطيب في تقييد العلم (ص٧٠) والرامهرمزي في المحدث الفاضل (ص٣٦٨) . ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، رواه الحاكم في المستدرک (١٠٦/١) وابن عبد البر في جمع بيان العلم (٧٣/١) والموقوف أصح .

(٥) في م : « أورثه » . (٦) زيادة من م ، أ .

فأما صاحب العلم فيزداد رضا الرحمن ، وأما صاحب الدنيا فيتمادى فى الطغيان . قال : ثم قرأ عبد الله : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ۚ . أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى ۚ ۖ . وَقَالَ لِلآخِرِ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۚ ﴾ [فاطر: ٢٨] .

وقد روى هذا مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ: «منوهان لا يشبعان: طالب علم، وطالب دنيا» (١) .
ثم قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى . عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴾ : نزلت فى أبى جهل ، لعنه الله ، توعده النبى ﷺ على الصلاة عند البيت ، فوعظه الله تعالى بالتى هى أحسن أولاً ، فقال : ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴾ أى : فما ظنك إن كان هذا الذى تنهاه على الطريق المستقيمة فى فعله ، أو ﴿ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴾ بقوله ، وأنت تزجره وتتوعده على صلاته ؛ ولهذا قال : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ أى : أما علم هذا الناهى لهذا المهتدى أن الله يراه ويسمع كلامه ، وسيجزيه على فعله أتم الجزاء .

ثم قال تعالى متوعداً ومتهدداً : ﴿ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ ﴾ أى : لئن لم يرجع عما هو فيه من الشقاق والعناد ﴿ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ أى : لنسمنها سواداً يوم القيامة .

ثم قال : ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ يعنى : ناصية أبى جهل كاذبة فى مقالها خاطئة فى فعالها .
﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ أى : قومه وعشيرته ، أى : ليدعهم يستنصر بهم ، ﴿ سَدْعُ الزَّبَانِيَةِ ﴾ : وهم ملائكة العذاب ، حتى يعلم من يغلب : أحزبنا أو حزبه .

قال البخارى : حدثنا يحيى ، حدثنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن عبد الكريم الجزرى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة لأطأن على عنقه . فبلغ النبى ﷺ ، فقال : « لئن فعله لأخذته الملائكة » . ثم قال : تابعه عمرو بن خالد ، عن عبيد الله — يعنى ابن عمرو — عن عبد الكريم (٢) .

وكذا رواه الترمذى والنسائى فى تفسيرهما من طريق عبد الرزاق ، به (٣) . وهكذا رواه ابن جرير ، عن أبى كريب ، عن زكريا بن عدي ، عن عبيد الله بن عمرو ، به (٤) .

وروى أحمد ، والترمذى (٥) ، وابن جرير — وهذا لفظه — من طريق داود بن أبى هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يصلى عند المقام فمر به أبو جهل بن هشام فقال : يا محمد ، ألم أنهك عن هذا ؟ — وتوعده — فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره ، فقال : يا محمد ،

(١) رواه الحاكم فى المستدرک (٩٢/١) من طريق قتادة ، عن أنس به مرفوعاً ، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٢٣/١٠) من طريق زيد بن وهب ، عن ابن مسعود به مرفوعاً ، وفى إسناده ضعيف .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٩٥٨) .

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٣٤٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٨٥) .

(٤) تفسير الطبرى (١٦٥/٣٠) .

(٥) فى م ، أ : « والترمذى والنسائى » .

بأى شئ تهددنى ؟ أما والله إنى لأكثر هذا الوادى نادياً ! فأنزل الله : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَدَّعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ قال ابن عباس : لو دعا نادية لأخذته ملائكة العذاب من ساعته ^(١) . وقال الترمذى : حسن صحيح .

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا إسماعيل بن زيد أبو يزيد ، حدثنا فرأت ، عن عبد الكريم ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال أبو جهل : لئن رأيت رسول الله يصلى عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه . قال : فقال : « لو فعل لأخذته الملائكة عياناً ، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلاً » ^(٢) .

وقال ابن جرير أيضاً : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يحيى بن واضح ، أخبرنا يونس بن أبى إسحاق ، عن الوليد بن العيزار ، عن ابن عباس قال : قال أبو جهل : لئن عاد محمد يصلى عند المقام لأقتلنه . فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . [خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ] ^(٣) ﴾ ، حتى بلغ هذه الآية : ﴿ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ . فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَدَّعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ . فجاء النبى ﷺ فصلى ^(٤) فقيل : ما يمنعك ؟ قال : قد اسود ما بينى وبينه من الكتاب . قال ابن عباس : والله لو تحرك لأخذته الملائكة والناس ينظرون إليه ^(٥) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا المعتمر ، عن أبيه ، حدثنا نعيم بن أبى هند ، عن أبى حازم ، عن أبى هريرة قال : قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ قالوا : نعم . قال : فقال : واللات والعزى لئن رأيته يصلى كذلك لأطأن على رقبته ^(٦) ، ولأعقرن وجهه فى التراب ، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلى ليطأ على رقبته ، قال : فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبه ويتقى بيديه ، قال : فقيل له : ما لك ؟ فقال : إن بينى وبينه خندقاً من نار وهولاً وأجنحة . قال : فقال رسول الله : « لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً » . قال : وأنزل الله — لا أدرى فى حديث أبى هريرة أم لا — : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴾ إلى آخر السورة .

وقد رواه أحمد بن حنبل ، ومسلم ، والنسائى ، وابن أبى حاتم ، من حديث معتمر بن سليمان ، به ^(٧) .

وقوله : ﴿ كَلَّا لَا تُطْعَمُهُ ﴾ يعنى : يا محمد ، لا تطعه فيما ينهاك عنه من المداومة على العبادة وكثرتها ، وصل حيث شئت ولا تباله ؛ فإن الله حافظك وناصرك ، وهو يعصمك من الناس ، ﴿ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ ، كما ثبت فى الصحيح — عند مسلم — من طريق عبد الله بن وهب ، عن

(١) المسند (٣٢٩/١) وسنن الترمذى برقم (٣٣٤٩) وتفسير الطبرى (١٦٤/٣٠) .

(٢) المسند (٢٤٨/١) .

(٣) زيادة من أ . (٤) فى أ : « يصلى » .

(٥) تفسير الطبرى (١٦٥/٣٠) .

(٦) فى م : « على عنقه » .

(٧) تفسير الطبرى (١٦٥/٣٠) والمسند (٣٧٠/٢) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٨٣) .

عمرو بن الحارث ، عن عمارة بن غزية ، عن سُمَيٍّ ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء » ^(١) .

وتقدم أيضاً : أن رسول الله ﷺ كان يسجد فى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ و ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ .

آخر تفسير سورة « اقرأ » ^(٢)

(١) صحيح مسلم برقم (٤٨٢) .

(٢) فى م ، أ : « آخر تفسيرها » .

تفسير سورة القدر^(١)

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥) ﴾ .

يخبر الله تعالى أنه أنزل القرآن ليلة القدر ، وهى الليلة المباركة التى قال الله ، عز وجل : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ [الدخان: ٣] وهى ليلة القدر ، وهى من شهر رمضان ، كما قال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة: ١٨٥] .

قال ابن عباس وغيره : أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفصلاً بحسب الوقائع فى ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ .

ثم قال تعالى مُعْظَمًا لِّشَأْنِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ ، التى اختصها بإنزال القرآن العظيم فيها ، فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .

قال أبو عيسى الترمذى عند تفسير هذه الآية : حدثنا محمود بن غيلان ، حدثنا أبو داود الطيالسى ، حدثنا القاسم بن الفضل الحداني^(٢) ، عن يوسف بن سعد قال : قام رجل إلى الحسن بن على بعد ما بايع معاوية فقال : سَوِّدَتْ وَجُوهَ الْمُؤْمِنِينَ - أو : يا مسود وجوه المؤمنين - فقال : لا تؤنبنى ، رحمك الله ؛ فإن النبى ﷺ أَرَىٰ بَنَى أُمِيَّةَ عَلَىٰ مَنبَرِهِ ، فسأه ذلك ، فنزلت : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ يا محمد ، يعنى نهراً فى الجنة ، ونزلت : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ ، يملكها بعدك بنو أمية يا محمد . قال القاسم : فعددنا فإذا هى ألف شهر ، لا تزيد يوماً ولا تنقص يوماً^(٣) .

ثم قال الترمذى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث القاسم بن الفضل ، وهو ثقة وثقه يحيى القطان وابن مهدى . قال : وشيخه يوسف بن سعد - ويقال : يوسف بن مازن - رجل مجهول ، ولا نعرف هذا الحديث ، على هذا اللفظ إلا من هذا الوجه .

وقد روى هذا الحديث الحاكم فى مستدركه ، من طريق القاسم^(٤) بن الفضل ، عن يوسف بن

(٢) فى أ : « الجذامى » .

(١) فى أ : « سورة ليلة القدر » .

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٣٥٠) .

(٤) فى أ : « من حديث الحاكم » .

مازن ، به ^(١) . وقول الترمذى : إن يوسف هذا مجهول — فيه نظر ؛ فإنه قد روى عنه جماعة ، منهم : حماد بن سلمة ، وخالد الحذاء ، ويونس بن عبيد . وقال فيه يحيى بن معين : هو مشهور ، وفى رواية عن ابن معين [قال] ^(٢) : هو ثقة . ورواه ابن جرير من طريق القاسم بن الفضل ، عن عيسى بن مازن ، كذا قال ، وهذا يقتضى اضطراباً فى هذا الحديث ، والله أعلم . ثم هذا الحديث على كل تقدير منكر جداً ، قال شيخنا الإمام الحافظ الحجة أبو الحجاج المزي : هو حديث منكر .

قلت : وقول القاسم بن الفضل الحُدّانى ^(٣) : إنه حسب مدة بنى أمية فوجدها ألف شهر لا تزيد يوماً ولا تنقص ، ليس بصحيح ؛ فإن معاوية بن أبى سفيان ، رضى الله عنه ، استقل بالملك حين سَلِمَ إليه الحسن بن على الإمرة سنة أربعين ، واجتمعت البيعة لمعاوية ، وسمى ذلك عام الجماعة ، ثم استمروا فيها متتابعين بالشام وغيرها ، لم تخرج عنهم إلا مدة دولة عبد الله بن الزبير فى الحرمين والأهواز وبعض البلاد قريباً من تسع سنين ، لكن لم تزل يدهم عن الإمرة بالكلية ، بل عن بعض البلاد ، إلى أن استلبهم بنو العباس الخلافة فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، فيكون مجموع مدتهم اثنتين وتسعين سنة ، وذلك أزيد من ألف شهر ، فإن الألف شهر عبارة عن ثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر ، وكأن القاسم بن الفضل أسقط من مدتهم أيام ابن الزبير ، وعلى هذا فتقارب ما قاله للصحة فى الحساب ، والله أعلم .

ومما يدل على ضعف هذا الحديث أنه سيقَ لزم دولة بنى أمية ، ولو أريد ذلك لم يكن بهذا السياق ؛ فإن تفضيل ليلة القدر على أيامهم لا يدل على ذم أيامهم ، فإن ليلة القدر شريفة جداً ، والسورة الكريمة إنما جاءت لمُدح ليلة القدر ، فكيف تُمدح بتفضيلها على أيام بنى أمية التى هى مذمومة ، بمقتضى هذا الحديث ، وهل هذا إلا كما قال القائل :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يَنْقُصُ قَدْرَهُ إِذَا قِيلَ إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَى مِنَ الْعَصَا

وقال آخر :

إِذَا أَنْتَ فَضَّلْتَ امْرَأً ذَا بَرَاةٍ عَلَى نَاقِصٍ كَانَ الْمَدِيحُ مِنَ النَّقْصِ

ثم الذى يفهم من ولاية ^(٤) الألف شهر المذكورة فى الآية هى أيام بنى أمية ، والسورة مكية ، فكيف يحال على ألف شهر هى دولة بنى أمية ، ولا يدل عليها لفظ الآية ولا معناها ؟! والمنبر إنما صنع بالمدينة بعد مدة من الهجرة ، فهذا كله مما يدل على ضعف هذا الحديث ونكارتة ، والله أعلم ^(٥) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَةَ ، حدثنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا مسلم — يعنى ابن خالد — عن ابن أبى نَجِيح ، عن مجاهد : أن النبی ﷺ ذكر رجلاً من بنى إسرائيل لبس السلاح فى

(١) المستدرک (٣/ ١٧٠) ومن طريقه البيهقى فى دلائل النبوة (٦/ ٥٠٩) .

(٢) زيادة من م .

(٣) فى أ : « الجذامى » . (٤) فى م : « ثم من الذى يفهم من الآية أن » .

(٥) وانظر : البداية والنهاية (٦/ ٢٤٣، ٢٤٤) فقد توسع أيضاً فى الكلام على هذا الحديث .

سبيل الله ألف شهر ، قال : فَعَجِبَ المسلمون من ذلك ، قال : فَأَنْزَلَ الله عز وجل : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ التى لبس ذلك الرجل السلاح فى سبيل الله ألف شهر (١) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا حَكَّام بن سَلَم ، عن المثني بن الصباح ، عن مجاهد قال : كان فى بنى إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح ، ثم يجاهد العدو بالنهار حتى يمسي ، ففعل ذلك ألف شهر ، فَأَنْزَلَ الله هذه الآية : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ قيام تلك الليلة خير من عمل ذلك الرجل (٢) .

وقال ابن أبى حاتم : أخبرنا يونس ، أخبرنا ابن وهب ، حدثنى مسلمة بن عُلَيَّ ، عن علي بن عروة قال : ذكر رسول الله ﷺ يوماً أربعة من بنى إسرائيل ، عبدوا الله ثمانين عاماً ، لم يعصوه طرفة عين : فذكر أيوب ، وزكريا ، وحزقيل بن العجوز ، ويوشع بن نون — قال : فعجب (٣) أصحاب رسول الله ﷺ من ذلك ، فَأَنَاءَ جبريل فقال : يا محمد ، عَجِبْتَ أمتك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة ، لم يعصوه طرفة عين ؛ فقد أنزل الله خيراً من ذلك . فقرأ عليه : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ ، هذا أفضل مما عجبت أنت وأمتك . قال : فَسَرَّ بذلك رسول الله ﷺ والناس معه (٤) .

وقال سفيان الثوري : بَلَغْنِي عن مجاهد : لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ . قال : عَمَلُهَا ، صِيَامُهَا وَقيامُهَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ . رواه ابن جرير .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَةَ ، حدثنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا ابن أبى زائدة ، عن ابن جُرَيْج ، عن مجاهد : ليلة القدر خير من ألف شهر ، ليس فى تلك الشهور ليلة القدر . وهكذا قال قتادة بن دعامة ، والشافعى ، وغير واحد .

وقال عمرو بن قيس الملائي : عمل فيها خير من عمل ألف شهر .

وهذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر — وليس فيها ليلة القدر — هو اختيار ابن جرير . وهو الصواب لا ما عداه ، وهو كقوله ﷺ : « رِبَاطُ لَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ فِي مَا سِوَاهُ مِنَ الْمَنَازِلِ » . رواه أحمد (٥) . وكما جاء فى قاصد الجمعة بهيئة حسنة ، ونية صالحة : « أَنَّهُ يُكْتَبُ لَهُ عَمَلُ سَنَةٍ ، أَجْرُ صِيَامِهَا وَقيامُهَا » إلى غير ذلك من المعانى المشابهة لذلك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا أيوب ، عن أبى قلابَةَ ، عن أبى هُرَيْرَةَ قال : لما حضر رمضان قال رسول الله ﷺ : « قَدْ جَاءَكُمْ شَهْرُ رَمَضَانَ ، شَهْرُ مَبَارَكٍ ، افْتَرَضَ اللَّهُ

(١) ورواه الثعلبى فى تفسيره والواحدي فى أسباب النزول كما فى تخريج الكشاف للزيلعى (٢٥٣/٤) من طريق مسلم بن خالد ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد به مراسلاً .

(٢) تفسير الطبرى (١٦٧/٣٠) .

(٣) فى أ : « فتعجب » .

(٤) وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٥٦٩/٨) وعزه لابن أبى حاتم .

(٥) المسند (٦٢/١) من حديث عثمان ، رضى الله عنه .

عليكم صيامه ، تفتح فيه أبواب الجنة ، وتغلق فيه أبواب الجحيم ، وتغل فيه الشياطين ، فيه ليلة خير من ألف شهر ، من حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ .
ورواه النسائي ، من حديث أيوب ، به (١) .

ولما كانت ليلة القدر تعدل عبادتها عبادة ألف شهر ، ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذنبه » (٢) .

وقوله : ﴿ تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ أى : يكثر تَنْزُلُ الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركاتها ، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة ، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن ويحيطون بحلق الذكر ، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيما له .

وأما الروح فقليل : المراد به هاهنا جبريل ، عليه السلام ، فيكون من باب عطف الخاص على العام . وقيل : هم ضرب من الملائكة . كما تقدم في سورة « النبأ » . والله أعلم .
وقوله : ﴿ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ : قال مجاهد : سلام هى من كل أمر .

وقال سعيد بن منصور : حدثنا عيسى بن يونس ، حدثنا الأعمش ، عن مجاهد في قوله : ﴿ سَلَامٌ هِيَ ﴾ قال : هى سالمة ، لا يستطيع الشيطان (٣) أن يعمل فيها سوءاً أو يعمل فيها أذى .

وقال قتادة وغيره : تقضى فيها الأمور ، وتقدر الآجال والأرزاق ، كما قال تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان: ٤] .

وقوله : ﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ : قال سعيد بن منصور : حدثنا هُشَيْمٌ ، عن أبي إسحاق ، عن الشعبي في قوله تعالى : ﴿ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ . سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ قال : تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد ، حتى يطلع الفجر .

وروى ابن جرير عن ابن عباس أنه كان يقرأ : « من كل امرئ . سلام هى حتى مطلع الفجر » .
وروى البيهقي في كتابه « فضائل الأوقات » عن عليٍّ أثراً غريباً في نزول الملائكة ، ومروهم على المصلين ليلة القدر ، وحصول البركة للمصلين .

وروى ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار أثراً غريباً عجيباً مطولاً جداً ، في تنزل الملائكة من سدرة المنتهى صحبة جبريل ، عليه السلام ، إلى الأرض ، ودعائهم للمؤمنين والمؤمنات (٤) .

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا عمران — يعنى القطان — عن قتادة ، عن أبي ميمونة ، عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر : « إنها ليلة سابعة — أو : تاسعة — وعشرين ، وإن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى » (٥) .

(١) المسند (٢/ ٢٣٠) وسنن النسائي (٤/ ١٢٩) .

(٢) صحيح البخارى برقم (١٩٠١) وصحيح مسلم برقم (٧٦٠) .

(٣) فى أ : « الشياطين » .

(٤) سيأتى إيراد الأثر عند تفسير آخر السورة .

(٥) مسند الطيالسى برقم (٢٥٤٥) .

وقال الأعمش ، عن المنهال ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى فى قوله : ﴿ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ . سَلَامٌ ﴾ قال : لا يحدث فيها أمر .

وقال قتادة وابن زيد فى قوله : ﴿ سَلَامٌ هِيَ ﴾ ^(١) : هى خير كلها ، ليس ^(٢) فيها شر إلى مطلع الفجر . ويؤيد هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد :

حدثنا حيوة ^(٣) بن شريح ، حدثنا بَقِيَّةٌ ، حدثنى بحير بن سعد ، عن خالد بن معدان ، عن عبادة بن الصامت : أن رسول الله ﷺ قال : « ليلة القدر فى العشر البواقي ، من قامهن ابتغاء حسبتهن ، فإن الله يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وهى ليل وتر : تسع أو سبع ، أو خامسة ، أو ثالثة ، أو آخر ليلة » . وقال رسول الله ﷺ : « إن أماراة ليلة القدر أنها صافية بَلَجَةٌ ، كأن فيها قمراً ساطعاً ، ساكنة سجية ، لا برد فيها ولا حر ، ولا يحل لكوكب يُرمى به فيها حتى تصبح . وأن أمارتها أن الشمس صبيحتها تخرج مستوية ، ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر ، ولا يحل للشيطان أن يخرج معها يومئذ » ^(٤) .

وهذا إسناد حسن ، وفى المتن غرابة ، وفى بعض ألفاظه نكارة .

وقال أبو داود الطيالسى ، حدثنا زَمْعَةُ ، عن سلمة بن وهرام ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال فى ليلة القدر : « ليلة سمحة طلقة ، لا حارة ولا باردة ، وتصبح شمس ^(٥) صبيحتها ضعيفة حمراء » ^(٦) .

وروى ابن أبى عاصم النبيل بإسناده عن جابر بن عبد الله ، أن رسول الله ﷺ قال : « إني رأيت ليلة القدر فأنسيتها ، وهى فى العشر الأواخر ، من لياليها ليلة ^(٧) طلقة بلجة ، لا حارة ولا باردة ، كأن فيها قمراً ، لا يخرج شيطانها حتى يضيء فجرها » ^(٨) .

فصل

اختلف العلماء : هل كانت ليلة القدر فى الأُمم السالفة ، أو هى من خصائص هذه الأمة ؟ على قولين :

قال أبو مصعب أحمد بن أبى بكر الزهرى : حدثنا مالك : أنه بلغه : أن رسول الله ﷺ أرى أعمار الناس قبله - أو : ما شاء الله من ذلك - فكأنه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل الذى بلغ غيرهم فى طول العمر ، فأعطاه الله ليلة القدر خيراً من ألف شهر ^(٩) . وقد أسند من وجه آخر .

(١) فى م : « قال » . (٢) فى م : « لا تحدث » . (٣) فى أ : « حدثنا عبدة » .

(٤) المسند (٣٢٤/٥) .

(٥) فى م : « وتصبح شمسها » .

(٦) مسند الطيالسى برقم (٢٦٨٠) وفيه : « صفيقة » بدل : « ضعيفة » .

(٧) فى أ : « لياليها وهى ليلة » .

(٨) عزاه إليه صاحب الكنز (٥٤٠/٨) برقم (٢٤٠٦٩) ولم أقع عليه فى السنة ، ورواه ابن خزيمة فى صحيحه برقم (٢١٩٠) من طريق

عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن أبى الزبير ، عن جابر بنحوه .

(٩) الموطأ برواية الزهرى برقم (٨٨٩) .

وهذا الذى قاله مالك يقتضى تخصيص هذه الأمة بليلة القدر ، وقد نقله صاحب « العدة » أحد أئمة الشافعية من جمهور العلماء ، فالله أعلم . وحكى الخطابى عليه الإجماع [ونقله الرافعى جازماً به عن المذهب] ^(١) ، والذى دل عليه الحديث أنها كانت فى الأمم الماضين كما هى فى أمتنا .

قال أحمد بن حنبل : حدثنا يحيى بن سعيد ، عن عكرمة بن عمار : حدثنى أبو زُمَيْل سَمَّاكَ الحَنْفَى : حدثنى مالك بن مَرْثَد بن عبد الله ، حدثنى مَرْثَد قال : سألت أبا ذر قلت : كيف سألت رسول الله ﷺ عن ليلة القدر ؟ قال : أنا كنت أسأل الناس عنها ، قلت : يا رسول الله ، أخبرنى عن ليلة القدر ، أفى رمضان هى أو فى غيره ؟ قال : « بل هى فى رمضان » . قلت : تكون مع الأنبياء ما كانوا ، فإذا قبضوا رفعت ؟ أم هى إلى يوم القيامة ؟ قال : « بل هى إلى يوم القيامة » . قلت : فى أى رمضان هى ؟ قال : « التمسوها فى العشر الأول ، والعشر الأواخر » . ثم حَدَّثَ رسولُ الله ﷺ وحَدَّثَ ، ثم اهتبلت غفلته قلت : فى أى العشرين هى ؟ قال : « ابتغوها فى العشر الأواخر ، لا تسألنى عن شئ بعدها » . ثم حَدَّثَ رسولُ الله ﷺ ، ثم اهتبلت غفلته فقلت : يارسول الله ، أقسمت عليك بحقى عليك لَمَّا أخبرتنى فى أى العشر هى ؟ فغضب على غضباً لم يغضب مثله منذ صحبتته ، وقال : « التمسوها فى السبع الأواخر ، لا تسألنى عن شئ بعدها » .

ورواه النسائى عن الفلاس ، عن يحيى بن سعيد القطان ، به ^(٢) .

ففيه دلالة على ما ذكرناه ، وفيه أنها تكون باقية إلى يوم القيامة فى كل سنة [بعد النبى ﷺ] ^(٣) ، لا كما زعمه بعض طوائف الشيعة من رفعها بالكلية ، على ما فهموه من الحديث الذى سنورده بعد من قوله ، عليه السلام : « فرفعت ، وعسى أن يكون خيراً لكم » ؛ لأن المراد رفع عِلْم وقتها عيناً . وفيه دلالة على أنها ليلة القدر يختص ^(٤) وقوعها بشهر رمضان من بين سائر الشهور ، لا كما روى عن ابن مسعود ومن تابعه من علماء أهل الكوفة ، من أنها توجد فى جميع السنة ، وترجى فى جميع الشهور على السواء .

وقد ترجم أبو داود فى سننه على هذا فقال : « باب بيان أن ليلة القدر فى كل رمضان » : حدثنا حُمَيْد بن زَنْجُوَيْه النسائى ^(٥) ، أخبرنا سعيد بن أبى مريم ، حدثنا محمد بن جعفر بن أبى كثير ، حدثنى موسى بن عقبة ، عن أبى إسحاق ، عن سعيد بن جبير ، عن عبد الله بن عمر قال : سئل رسول الله ﷺ وأنا أسمع عن ليلة القدر ، فقال : « هى فى كل رمضان » ^(٦) .

وهذا إسناد رجاله ثقات إلا أن أبا داود قال : رواه شعبة وسفيان عن أبى إسحاق فأوقفاه .

وقد حكى عن أبى حنيفة ، رحمه الله ، رواية أنها ترجى ^(٧) فى جميع شهر رمضان . وهو وجه [حكاه] ^(٨) الغزالى ، واستغربه الرافعى جداً .

(١) زيادة من م .

(٢) المسند (١٧١/٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (٣٤٢٧) .

(٣) زيادة من أ .

(٤) سنن أبى داود برقم (١٣٨٧) .

(٥) فى م : « أنها ترجى » .

(٦) زيادة من م ، أ .

(٧) فى م : « مختص » .

(٨) فى م : « الشامى » .

فصل

ثم قد قيل : إنها في أول ليلة من شهر رمضان ، يحكى هذا عن أبي رزين . وقيل : إنها تقع ليلة سبع عشرة . وروى فيه أبو داود حديثاً مرفوعاً عن ابن مسعود . وروى موقوفاً عليه ، وعلى زيد بن أرقم ، وعثمان بن أبي العاص .

وهو قول عن محمد بن إدريس الشافعى ، ويحكى عن الحسن البصرى . ووجهه بأنها ليلة بدر ، وكانت ليلة جمعة هي السابعة عشرة ^(١) من شهر رمضان ، وفي صبيحتها كانت وقعة بدر ، وهو اليوم الذى قال الله تعالى فيه : ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ [الأنفال : ٤١] .

وقيل : ليلة تسع عشرة ، يحكى عن على وابن مسعود أيضاً ، رضى الله عنهما .

وقيل : ليلة إحدى وعشرين ؛ لحديث أبى سعيد الخدرى قال : اعتكف رسول الله ﷺ [فى] ^(٢) العشر الأول من رمضان واعتكفنا معه ، فأتاه جبريل فقال : إن الذى تطلب أمامك . فاعتكف العشر الأوسط واعتكفنا معه ، فأتاه جبريل فقال : [إن] ^(٣) الذى تطلب أمامك . ثم قام النبى ﷺ خطيباً صبيحة عشرين من رمضان ، فقال : « من كان اعتكف معى فليرجع ، فإنى رأيت ليلة القدر ، وإنى أنسيتها ، وإنها ^(٤) فى العشر الأواخر فى وتر ، وإنى رأيت كأنى أسجد فى طين وماء » . وكان سقف المسجد جريداً من النخل ، وما نرى فى السماء شيئاً ، فجاءت قزعة فمطرنا ، فصلى بنا النبى ﷺ حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ﷺ تصديق رؤياه . وفى لفظ : « فى صبح إحدى وعشرين » أخرجاه فى الصحيحين ^(٥) .

قال الشافعى : وهذا الحديث أصح الروايات .

وقيل : ليلة ثلاث وعشرين ؛ لحديث عبد الله بن أنيس ^(٦) فى « صحيح مسلم » ^(٧) وهو قريب السياق من رواية أبى سعيد ، فالله أعلم .

وقيل : ليلة أربع وعشرين ، قال أبو داود الطيالسى : حدثنا حماد بن سلمة ، عن الجُريرى ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « ليلة القدر ليلة أربع وعشرين » ^(٨) . إسناده رجاله ثقات .

وقال أحمد : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن أبى الخير ، عن الصنابحى ، عن بلال قال : قال رسول الله ﷺ : « ليلة القدر ليلة أربع وعشرين » ^(٩) .

(٣) زيادة من م ، أ .

(٢) زيادة من م .

(١) فى أ : « فى السابع عشر » .

(٤) فى م : « ثم إنها » .

(٥) صحيح مسلم برقم (١١٦٧) .

(٦) فى أ : « أويس » .

(٧) صحيح مسلم برقم (١١٦٨) .

(٨) مسند الطيالسى برقم (٢١٦٧) .

(٩) المسند (١٢/٦) .

ابن لهيعة ضعيف . وقد خالفه ما رواه البخارى عن أصبغ ، عن ابن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن أبى الخير ، عن أبى عبد الله الصنابحي قال : قال : أخبرنى بلال — مؤذن رسول الله ﷺ — أنها أول السبع من العشر الأواخر ، فهذا الموقف أصح ، والله أعلم . وهكذا روى عن ابن مسعود ، وابن عباس ، وجابر ، والحسن ، وقتادة ، وعبد الله بن وهب : أنها ليلة أربع وعشرين . وقد تقدم فى سورة « البقرة » ^(١) حديث وائلة بن الأسقع مرفوعاً : « إن القرآن أنزل ليلة أربع وعشرين » .

وقيل : تكون ليلة خمس وعشرين ؛ لما رواه البخارى ، عن عبد الله بن عباس : أن رسول الله ﷺ قال : « التمسوها فى العشر الأواخر من رمضان ، فى تسعة تبقى ، فى سابعة تبقى ، فى خامسة تبقى » . فسره كثيرون بليالى الأوتار ، وهو أظهر وأشهر . وحمله آخرون على الإشفاق كما رواه مسلم عن أبى سعيد ، أنه حمله على ذلك . والله أعلم .

وقيل : إنها تكون ليلة سبع وعشرين ؛ لما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى بن كعب ، عن رسول الله ﷺ : « إنها ليلة سبع وعشرين » .

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان : سمعت عبدة وعاصماً ، عن زرّ : سألت أبى بن كعب قلت : أبا المنذر ، إن أخاك ابن مسعود يقول : من يُقِم الحَوْل يُصَبُّ ليلة القدر . قال : يرحمه الله ، لقد علم أنها فى شهر رمضان ، وأنها ليلة سبع وعشرين . ثم حلف . قلت : وكيف تعلمون ذلك ؟ قال : بالعلامة — أو : بالآية — التى أخبرنا بها ، تطلع ذلك اليوم لا شعاع لها ، أعنى الشمس ^(٢) .

وقد رواه مسلم من طريق سفيان بن عيينة وشعبة والأوزاعى ، عن عبدة ، عن زرّ ، عن أبى ، فذكره ، وفيه : فقال : والله الذى لا إله إلا هو ، إنها لفى رمضان — يحلف بما يستثنى — والله إني لأعلم أى ليلة القدر هى التى أمرنا رسول الله ﷺ بقيامها ، هى ليلة سبع وعشرين ، وأمارتها أن تطلع الشمس فى صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها ^(٣) .

وفى الباب عن معاوية ، وابن عمر ، وابن عباس ، وغيرهم ^(٤) ، عن رسول الله ﷺ : أنها ليلة سبع وعشرين . وهو قول طائفة من السلف ، وهو الجادة من مذهب أحمد بن حنبل ، رحمه الله ، وهو رواية عن أبى حنيفة أيضاً . وقد حكى عن بعض السلف أنه حاول استخراج كونها ليلة سبع وعشرين من القرآن ، من قوله : ﴿ هِيَ ﴾ لأنها الكلمة السابعة والعشرون من السورة ، والله أعلم .

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا إسحاق بن إبراهيم الدبّرى ، أخبرنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن قتادة وعاصم : أنهما سمعا عكرمة يقول : قال ابن عباس : دعا عمر بن الخطاب

(١) عند تفسير الآية : ١٨٥ .

(٢) المسند (٥/ ١٣٠) .

(٣) صحيح مسلم برقم (٧٦٢) .

(٤) وانظر هذه الأحاديث وغيرها فى : الدر المنثور للسيوطى (٨ / ٥٧٠ — ٥٨٠) .

أصحاب محمد ^(١) ، فسألهم عن ليلة القدر ، فأجمعوا على أنها فى العشر الأواخر . قال ابن عباس : فقلت لعمر : إني لأعلم - أو : إني لأظن - أى ليلة القدر هى ؟ فقال عمر : أى ليلة هى ؟ [فقلت] ^(٢) : سابعة تمضى - أو : سابعة تبقى - من العشر الأواخر . فقال عمر : ومن أين علمت ذلك ؟ قال ابن عباس : فقلت : خلق الله سبع سموات ، وسبع أرضين ، وسبعة أيام ، وإن الشهر يدور على سبع ، وخلق الإنسان من سبع ، ويأكل من سبع ، ويسجد على سبع ، والطواف بالبيت سبع ، ورمى الجمار سبع . . . لأشياء ذكرها . فقال عمر : لقد فطنت لأمر ما فطنا له . وكان قتادة يزيد عن ابن عباس فى قوله : ويأكل من سبع ، قال : هو قول الله تعالى : ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعَبْأًا وَقَضْبًا ﴾ ^(٣) الآية [عبس : ٢٧ ، ٢٨] ^(٤) .

وهذا إسناد جيد قوى ، ونص ^(٥) غريب جداً ، والله أعلم .

وقيل : إنها تكون فى ليلة تسع وعشرين . قال أحمد بن حنبل :

حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم ، حدثنا سعيد بن سلمة ، حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن عمر بن عبد الرحمن ، عن عبادة بن الصامت : أنه سأل رسول الله ^(٦) عن ليلة القدر ، فقال رسول الله ^(٧) : « فى رمضان ، فالتمسوها فى العشر الأواخر ، فإنها فى وتر إحدى وعشرين ، أو ثلاث وعشرين ، أو خمس وعشرين ، أو سبع وعشرين ، [أو تسع وعشرين] ^(٨) ، أو فى آخر ليلة » ^(٩) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود - وهو : أبو داود الطيالسى - حدثنا عمران القطان ، عن قتادة ، عن أبى ميمونة ^(١٠) ، عن أبى هريرة . أن رسول الله ^(١١) قال فى ليلة القدر : « إنها ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين ، وإن الملائكة تلك الليلة فى الأرض أكثر من عدد الحصى » ^(١٢) .

تفرد به أحمد ، وإسناده لا بأس به .

وقيل : إنها تكون فى آخر ليلة ، لما تقدم من هذا الحديث آنفاً ^(١٣) ، ولما رواه الترمذى والنسائى ، من حديث عبيدة بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبى بكرة ، أن رسول الله ^(١٤) قال : « فى تسع ييقين ، أو سبع ييقين ، أو خمس ييقين ، أو ثلاث ، أو آخر ليلة » . يعنى : التمسوا ليلة القدر ^(١٥) .

(٢) زيادة من م ، أ .

(١) فى أ : « أصحاب رسول الله » .

(٣) زيادة من المعجم الكبير (٣٢٢ / ١٠) .

(٤) المعجم الكبير (٣٢٢ / ١٠) .

(٥) فى م : « ومتن » .

(٦) زيادة من أ ، والمسند .

(٧) المسند (٣٢١ / ٥) .

(٨) فى أ : « عن أبى معاوية » .

(٩) المسند (٥١٩ / ٢) .

(١٠) فى أ : « أيضاً » .

(١١) سنن الترمذى برقم (٧٩٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (٣٤٠٤) .

وقال الترمذى : حسن صحيح . وفى المسند من طريق أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ فى ليلة القدر : « إنها آخر ليلة » (١) .

فصل

قال [الإمام] (٢) الشافعى فى هذه الروايات : صدرت من النبى ﷺ جواباً للسائل إذا قيل له : التمس ليلة القدر فى الليلة الفلانية ؟ يقول : « نعم » . وإنما ليلة القدر ليلة مُعَيَّنَةٌ : لا تنتقل . نقله الترمذى عنه بمعناه . وروى عن أبى قلابَةَ أنه قال : ليلة القدر تنتقل فى العشر الأواخر (٣) .

وهذا الذى حكاه عن أبى قلابَةَ نص عليه مالك ، والثورى ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، وأبو ثور ، والمزنى ، وأبو بكر بن خزيمة ، وغيرهم . وهو محكى عن الشافعى — نقله القاضى عنه ، وهو الأشبه — والله أعلم .

وقد يستأنس لهذا القول بما ثبت فى الصحيحين ، عن عبد الله بن عمر : أن رجلاً من أصحاب النبى ﷺ أروا ليلة القدر فى المنام فى السبع الأواخر من رمضان ، فقال رسول الله ﷺ : « أرى رؤياكم قد تواطأت فى السبع الأواخر ، فمن كان متحريها فَلْيَتَحَرَّها فى السبع الأواخر » (٤) .

وفىها أيضاً عن عائشة ، رضى الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال : « تَحَرَّوْا ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر من رمضان » (٥) . ولفظه للبخارى .

ويحتج للشافعى أنها لا تنتقل ، وأنها معينة من الشهر ، بما رواه البخارى فى صحيحه ، عن عبادة بن الصامت قال : خرج رسول الله ﷺ ليخبرنا بليلة القدر ، فتلاحى رجلان من المسلمين ، فقال : « خرجت لأخبركم بليلة القدر ، فتلاحى فلان وفلان ، فرفعت ، وعسى أن يكون خيراً لكم ، فالتمسوها فى التاسعة والسابعة والخامسة » (٦) .

وجه الدلالة منه : أنها لو لم تكن معينة مستمرة التعيين ، لما حصل لهم العلم بعينها فى كل سنة ، إذا (٧) لو كانت تنتقل لما علموا تَعَيُّنُها إلا ذلك العام فقط ، اللهم إلا أن يقال : إنه إنما خرج ليعلمهم بها تلك السنة فقط .

وقوله : « فتلاحى فلان وفلان فرفعت » : فيه استئناس لما يقال : إن المماراة تقطع الفائدة والعلم النافع ، وكما جاء فى الحديث : « إن العبد لِيُحْرَمَ الرزقَ بالذَّنْبِ يُصِيبُهُ » .

وقوله : « فرفعت » أى : رفع علم تَعَيُّنِها لكم ، لا أنها رفعت بالكلية من الوجود ، كما يقوله

(١) لم أقع عليه فى المسند ، وقد ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٥٧٢/٨) وعزاه لأحمد ، ولعلى أستركه فيما بعد .

(٢) زيادة من أ .

(٣) سنن الترمذى (١٥٩/٣) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٢٠١٥) وصحيح مسلم برقم (١١٦٥) .

(٥) صحيح البخارى برقم (٢٠١٧) وصحيح مسلم برقم (١١٦٩) .

(٦) صحيح البخارى برقم (٢٠٢٣) .

(٧) فى أ : « إذ » .

جهلة الشيعة ؛ لأنه قد قال بعد هذا : « فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة » .

وقوله : « وعسى أن يكون خيراً لكم » يعنى : عدم تعيينها لكم ، فإنها إذا كانت مبهمة اجتهد طلابها في ابتغائها في جميع محال رجائها ، فكان أكثر للعبادة ، بخلاف ما إذا علموا ^(١) عينها فإنها كانت الهمم تتقاصر على قيامها فقط . وإنما اقتضت الحكمة إبهامها لتعم العبادة جميع الشهر في ابتغائها ، ويكون الاجتهاد في العشر الأواخر ^(٢) أكثر . ولهذا كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان ، حتى توفاه الله ، عز وجل . ثم اعتكف أزواجه من بعده . أخرجاه من حديث عائشة ^(٣) .

ولهما عن ابن عمر : كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان ^(٤) .

وقالت عائشة : كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر ، أحيا الليل ، وأيقظ أهله ، وشد المنزر . أخرجاه ^(٥) .

ولمسلم عنها ^(٦) : كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره ^(٧) .

وهذا معنى قولها : « وشد المنزر » . وقيل : المراد بذلك : اعتزال النساء . ويحتمل أن يكون كناية عن الأمرين ، لما رواه الإمام أحمد :

حدثنا سُرَيْج ، حدثنا أبو مَعْشَر ، عن هشام بن عُرْوَةَ ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا بقى عشر من رمضان شَدَّ منزره ، واعتزل نساءه . انفرد به أحمد ^(٨) .

وقد حكى عن مالك ، رحمه الله ، أن جميع ليالى العشر في تطلب ليلة القدر على السواء ، لا يترجح منها ليلة على أخرى : رأيته في شرح الرافعى ، رحمه الله .

والمستحب الإكثار من الدعاء في جميع الأوقات ، وفي شهر رمضان أكثر ، وفي العشر الأخير منه ، ثم في أوتاره أكثر . والمستحب أن يكثّر من هذا الدعاء : « اللهم ، إنك عَفُوٌّ تحب العفو ، فاعف عني » ؛ لما رواه الإمام أحمد :

حدثنا يزيد - هو ابن هارون - حدثنا الجريري ^(٩) - وهو سعيد بن إياس - عن عبد الله بن بُريدة ، أن عائشة قالت : يا رسول الله ، إن وافقت ليلة القدر فما أدعو ؟ قال : « قولى : اللهم إنك عفو تحب العفو ، فاعف عني » ^(١٠) .

(١) فى أ : « إذا عملوا » .

(٢) فى أ : « الأخير » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٠٢٦) وصحيح مسلم برقم (١١٧٢) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٢٠٢٥) وصحيح مسلم برقم (١١٧١) .

(٥) صحيح البخارى برقم (٢٠٢٤) وصحيح مسلم برقم (١١٧٤) .

(٦) فى م : « عنهما » .

(٧) صحيح مسلم برقم (١١٧٥) .

(٨) المسند (٦٦/٦) .

(٩) فى م : « الجوهري » .

(١٠) المسند (١٨٢/٦) .

وقد رواه الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، من طريق كَهْمَس بن الحسن ، عن عبد الله بن بريدة ، عن عائشة قالت : قلت : يا رسول الله ، أُرِيتَ إن علمتُ أى ليلة القدر ، ما أقول فيها ؟ قال : « قولى : اللهم ، إنك عَفُوٌّ تحب العفو ، فاعف عني » (١) .

وهذا لفظ الترمذى ، ثم قال : « هذا حديث حسن صحيح » . وأخرجه الحاكم فى مستدركه ، وقال : « هذا صحيح على شرط الشيخين » (٢) . ورواه النسائى أيضاً من طريق سفيان الثورى ، عن علقمة بن مرثد ، عن سليمان بن بُرَيْدة عن عائشة قالت : يا رسول الله ، أُرِيتَ إن وافقت ليلة القدر ، ما أقول فيها ؟ قال : « قولى : اللهم ، إنك عَفُوٌّ تحب العفو ، فاعف عني » (٣) .

ذكر أثر غريب ونبأ عجيب ، يتعلق بليلة القدر ، رواه الإمام أبو محمد بن أبى حاتم ، عند تفسير هذه السورة الكريمة فقال :

حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن أبى زياد القَطَوانى ، حدثنا سيار بن حاتم ، حدثنا موسى بن سعيد - يعنى الراسبى - عن هلال أبى جبلة ، عن أبى عبد السلام ، عن أبىه ، عن كعب أنه قال : إن سدرة المنتهى على حد السماء السابعة ، مما يلى الجنة ، فهى على حدّ هواء الدنيا وهواء الآخرة ، علوها فى الجنة ، وعروقها وأغصانها من تحت الكرسي ، فيها ملائكة لا يعلم عدّتهم (٤) إلا الله ، عز وجل ، يعبدون الله ، عز وجل ، على أغصانها فى كل موضع شعرة منها ملك . ومقام جبريل ، عليه السلام ، فى وسطها ، فينادى الله جبريل أن ينزل فى كل ليلة قَدْرٌ مع الملائكة الذين يسكنون سدرة المنتهى ، وليس فيهم ملك إلا قد أعطى الرأفة والرحمة للمؤمنين ، فينزلون على (٥) جبريل فى ليلة القدر ، حين تغرب الشمس ، فلا تبقى بقعة فى ليلة القدر إلا وعليها ملك ، إما ساجد وإما قائم ، يدعو للمؤمنين والمؤمنات ، إلا أن تكون كنيسة أو بيعة ، أو بيت نار أو وثن ، أو بعض أماكنكم التى تطرحون فيها الخبث ، أو بيت فيه سكران ، أو بيت فيه مُسكر ، أو بيت فيه وثن منصوب ، أو بيت فيه جرس مُعلّق ، أو مَبولة ، أو مكان فيه كساحة البيت ، فلا يزالون ليلتهم تلك يدعون للمؤمنين والمؤمنات ، وجبريل لا يدع أحداً من المؤمنين (٦) إلا صافحه ، وعلامة ذلك مَنْ اقشعر جلده ورق قلبه ودَمَعَتْ عيناه ، فإن ذلك من مصافحة جبريل .

وذكر كعب أنه من قال فى ليلة القدر : « لا إله إلا الله » ، ثلاث مرات ، غَفَرَ الله له بواحدة ، ونجا من النار بواحدة ، وأدخله الجنة بواحدة . فقلنا لكعب الأحبار : يا أبا إسحاق ، صادقاً ؟ فقال كعب (٧) : وهل يقول : « لا إله إلا الله » فى ليلة القدر إلا كل صادق ؟ والذى نفسى بيده ، إن ليلة القدر لتثقل على الكافر والمنافق ، حتى كأنها على ظهره جبل ، فلا تزال الملائكة هكذا حتى يطلع الفجر . فأول من يصعد جبريل حتى يكون فى وجه الأفق الأعلى من الشمس ، فيسقط جناحيه -

(١) سنن الترمذى برقم (٣٥١٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٨٨) وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٥٠) .

(٢) المستدرک (١/ ٥٣٠) .

(٣) سنن النسائى الكبرى برقم (١٠٧١٣) .

(٤) فى م : أ : « عددهم » .

(٥) فى أ : « مع » .

(٦) فى أ : « من الناس » .

(٧) فى م : « كعب الأحبار » .

وله جناحان أخضران ، لا ينشرهما إلا فى تلك الساعة - فتصير الشمس لا شعاع لها ، ثم يدعو ملكاً^(١) فيصعد ، فيجتمع نور الملائكة ونور جناحي جبريل ، فلا تزال الشمس يومها ذلك متحيرة ، فيقيم جبريل ومن معه بين الأرض وبين السماء الدنيا يومهم ذلك ، فى دعاء ورحمة واستغفار للمؤمنين والمؤمنات ، ولمن صام رمضان احتساباً ، ودعا لمن حدث نفسه إن عاش إلى قابل صام رمضان لله . فإذا أمسوا^(٢) دخلوا السماء الدنيا ، فيجلسون حلقة [حلقة]^(٣) ، فتجتمع إليهم ملائكة سماء الدنيا ، فيسألونهم عن رجل رجل ، وعن امرأة امرأة^(٤) ، فيحدثونهم حتى يقولوا : ماذا فعل فلان ؟ وكيف وجدتموه العام ؟ فيقولون : وجدنا فلانا عام أول فى هذه الليلة متعبداً ووجدناه العام مبتدعاً ، ووجدنا فلانا مبتدعاً ووجدناه العام عابداً قال : فيكفون عن الاستغفار لذلك ، ويقبلون على الاستغفار لهذا ، ويقولون : وجدنا فلانا وفلانا يذكران الله ، ووجدنا فلاناً راکعاً ، وفلاناً ساجداً ، ووجدناه تالياً لكتاب الله . قال : فهم كذلك يومهم وليلتهم ، حتى يصعدون إلى السماء الثانية ، ففى كل سماء يوم وليلة ، حتى ينتهوا مكانهم من^(٥) سدرة المنتهى ، فتقول لهم سدرة المنتهى : يا سكانى ، حدثونى عن الناس وسموهم لى . فإن لى عليكم حقاً ، وإنى أحب من أحب الله . فذكر كعب أنهم يعدون لها ، ويحكون لها الرجل والمرأة بأسمائهم وأسماء آبائهم . ثم تقبل الجنة على السدرة فتقول : أخبرنى بما أخبرك^(٦) سكانك من الملائكة . فتخبرها ، قال : فتقول الجنة : رحمة الله على فلان ، ورحمة الله على فلانة ، اللهم عجلهم إلى ، فيبلغ جبريل مكانه قبلهم ، فيلهم الله فيقول : وجدت فلاناً ساجداً فاغفر له . فيغفر له ، فيسمع جبريل جميع حملة العرش فيقولون : رحمة الله على فلان ، ورحمة الله على فلانة ، ومغفرته^(٧) لفلان ، ويقول^(٨) : يا رب ، وجدت عبدك فلاناً الذى وجدته عام أول على السنة والعبادة ، ووجدته العام قد أحدث حدثاً وتولى عما أمر به . فيقول الله : يا جبريل ، إن تاب فأعتبني قبل أن يموت بثلاث ساعات غفرت له . فيقول جبريل : لك الحمد إلهى ، أنت أرحم من جميع خلقك ، وأنت أرحم بعبادك من عبادك بأنفسهم ، قال : فيرتج العرش وما حوله ، والحجب والسموات ومن فيهن ، تقول : الحمد لله الرحيم ، الحمد لله الرحيم .

قال : وذكر كعب أنه من صام رمضان وهو يحدث نفسه إذا أفطر بعد رمضان ألا يعصى الله ، دخل الجنة بغير مسألة ولا حساب .

آخر تفسير سورة « ليلة القدر » [ولله الحمد والمنة]^(٩)

(١) فى م : « ملكا ملكا » .
(٢) فى أ : « فإذا استنوا » .
(٣) زيادة من م .
(٤) فى م : « عن رجل عن رجل وعن امرأة عن امرأة » .
(٥) فى أ : « فى » .
(٦) فى أ : « بما أخبروك » .
(٧) فى م : « ومغفرة » .
(٨) فى أ : « ويقولون » .
(٩) زيادة من م .

تفسير سورة لم يكن

وهي مدنية .

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد - وهو ابن سلمة - أخبرنا علي - هو ابن زيد - عن عمار بن أبي عمار قال : سمعت أبا حية البدرى - وهو : مالك بن عمرو بن ثابت الأنصارى - قال : لما نزلت : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ إلى آخرها ، قال جبريل : يا رسول الله ، إن ربك يأمرك أن تقرئها أبيّاً . فقال النبي ﷺ لأبي : « إن جبريل أمرني أن أقرئك هذه السورة » . قال أبي : وقد ذكرت ثم يا رسول الله ؟ قال : « نعم » . قال : فبكى أبي ^(١) .

حديث آخر : وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، سمعت قتادة يحدث عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب : « إن الله أمرني أن أقرأ عليك : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ » قال : وسماني لك ؟ قال : « نعم » . فبكى .

ورواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، من حديث شعبة ، به ^(٢) .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا مؤمل ، حدثنا سفيان ، حدثنا أسلم المنقرى ، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبزى ، عن أبيه ، عن أبي بن كعب قال : قال لى رسول الله ﷺ : « إني أمرت أن أقرأ عليك سورة كذا وكذا » . قلت : يا رسول الله ، وقد ذكرتُ هناك ؟ قال : « نعم » . فقلت له : يا أبا المنذر ، ففَرَحْتَ بذلك . قال : وما يمعنى والله يقول : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨] . قال مؤمل : قلت لسفيان : القراءة فى الحديث؟ قال : نعم . تفرد به من هذا الوجه ^(٣) .

طريق أخرى : قال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالا : حدثنا شعبة ، عن عاصم بن بهدكة ، عن زر بن حبیش ، عن أبي بن كعب قال : إن رسول الله ﷺ قال لى : « إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن » . قال : فقرأ : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ ، قال : فقرأ فيها : ولو أن ابن آدم سأل واديا من مال ، فأعطيه ^(٤) ، لسأل ثانياً ، ولو سأل ثانياً فأعطيه ^(٥) لسأل ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب . وإن ذلك الدين عند الله الحنيفية ، غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية ، ومن يفعل خيراً فلن يكفره .

(١) المسند (٣/ ٤٨٩) .

(٢) المسند (٣/ ١٣٠) وصحيح البخارى (٤٩٥٩) وصحيح مسلم برقم (٧٩٩) وسنن الترمذى برقم (٣٧٩٢) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٩١) .

(٣) المسند (٥/ ١٢٣) .

(٤ ، ٥) فى ١ : « فأعطيه » .

ورواه الترمذى من حديث أبى داود الطيالسى ، عن شعبة ، به ^(١) . وقال : حسن صحيح .

طريق أخرى : قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا أحمد بن خليفه الحلبي ، حدثنا محمد بن عيسى الطباع ، حدثنا معاذ بن محمد بن معاذ بن أبى بن كعب ، عن أبيه ، عن جده ، عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أبا المنذر ، إنى أمرت أن أعرض عليك القرآن » . قال : بالله آمنت ، وعلى يدك أسلمت ، ومنك تعلمت . قال : فرد النبي ﷺ القول . [قال] ^(٢) : فقال : يارسول الله ، أذكرت هناك ؟ قال : « نعم ، باسمك ونسبك فى الملأ الأعلى » . قال : فاقرا إذا يارسول الله ^(٣) .

هذا غريب من هذا الوجه ، والثابت ما تقدم . وإنما قرأ عليه النبي ﷺ هذه السورة تثبيتاً له ، وزيادة لإيمانه ، فإنه — كما رواه أحمد والنسائى ، من طريق أنس ، عنه ^(٤) ، ورواه أحمد وأبو داود ، من حديث سليمان بن صرد عنه ^(٥) ، ورواه أحمد عن عفان ، عن حماد ، عن حميد ، عن أنس ، عن عبادة بن الصامت ، عنه ^(٦) ، ورواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى ، من حديث إسماعيل بن أبى خالد ، عن عبد الله بن عيسى ، عن عبد الرحمن بن أبى لیلی ، عنه ^(٧) ، كان قد أنكر على إنسان ، وهو : عبد الله بن مسعود ، قراءة شيء من القرآن على خلاف ما أقرأه رسول الله ﷺ فرفعه إلى النبي ﷺ فاستقرأهما ، وقال ، لكل منهما : « أصبت » . قال أبى : فأخذنى من الشك ولا إذ كنت فى الجاهلية . فضرب رسول الله ﷺ فى صدره ، قال أبى : ففضت عرقاً ، وكأنما أنظر إلى الله فرقاً . وأخبره رسول الله ﷺ أن جبريل أتاه فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف . فقلت : « أسأل الله معافاته ومغفرته » . فقال : على حرفين . فلم يزل حتى قال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف . كما قدمنا ذكر هذا الحديث بطرقه وألفاظه فى أول التفسير . فلما نزلت هذه السورة الكريمة وفيها : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً . فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴾ ، قرأها عليه رسول الله ﷺ قراءة إبلاغ وتثبيت وإنذار ، لا قراءة تعلم واستذكار ، والله أعلم .

وهذا كما أن عمر بن الخطاب لما سأل رسول الله ﷺ يوم الحديبية عن تلك الأسئلة ، وكان فيما قال : أو لم تكن تخبرنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال : « بلى ، أفأخبرتك أنك تأتية عامك هذا؟ » . قال : لا ، قال : « فإنك آتية ، ومطوف به » . فلما رجعوا من الحديبية ، وأنزل الله على النبي ﷺ سورة « الفتح » ، دعا عمر بن الخطاب وقرأها عليه ، وفيها قوله : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ ﴾ الآية [الفتح: ٢٧] ، كما تقدم .

وروى الحافظ أبو نعيم فى كتابه «أسماء الصحابة» من طريق محمد بن إسماعيل الجعفرى المدنى :

(١) المسند (١٣١/٥) وسنن الترمذى برقم (٣٧٩٣) .

(٢) زيادة من م ، أ .

(٣) المعجم الكبير (٢٠٠/١) .

(٤) المسند (١٢٢/٥) وسنن النسائى (٥٤/٢) .

(٥) المسند (١٢٤/٥) وسنن أبى داود برقم (١٤٧٧) .

(٦) المسند (١١٤/٥) .

(٧) المسند (١٢٧/٥) وصحيح مسلم برقم (٨٢٠) وسنن أبى داود برقم (١٤٧٨) وسنن النسائى (١٥٣/٢) .

حدثنا عبد الله بن سلمة بن أسلم ، عن ابن شهاب ، عن إسماعيل بن أبي حكيم المدني ، حدثني فضيل ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله ليسمع قراءة ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ، فيقول : أبشر عبدى ، فوعزتى لأمكنته ^(١) لك فى الجنة حتى ترضى . »

حديث غريب جداً . وقد رواه الحافظ أبو موسى المدينى وابن الأثير ، من طريق الزهرى ، عن إسماعيل بن أبي حكيم ، عن نظير المزنى - أو : المدني - عن النبى ﷺ : « إن الله ليسمع قراءة ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ » ويقول : أبشر عبدى ، فوعزتى لا أنساك على حال من أحوال الدنيا والآخرة ، ولأمكن لك فى الجنة حتى ترضى ^(٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ ^(١)
رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ^(٢) فِيهَا كُتُبٌ قِيمَةٌ ^(٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ^(٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ^(٥) .

أما أهل الكتاب فهم : اليهود والنصارى ، والمشركون : عبدة الأوثان والنيران ، من العرب ومن العجم . وقال مجاهد : لم يكونوا ﴿ مُنْفَكِينَ ﴾ يعنى : منتهين حتى يتبين لهم الحق . وكذا قال قتادة .
﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ أى : هذا القرآن ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ . ثم فسر البينة بقوله : ﴿ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴾ يعنى : محمداً ﷺ ، وما يتلوه من القرآن العظيم ، الذى هو مكتتب فى الملائ الأعلى ، فى صحف مطهرة كقوله : ﴿ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس : ١٣ - ١٦] .
وقوله : ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قِيمَةٌ ﴾ : قال ابن جرير : أى فى الصحف المطهرة كتب من الله قيمة : عادلة مستقيمة ، ليس فيها خطأ ؛ لأنها من عند الله ، عز وجل .
قال قتادة : ﴿ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴾ : يذكر القرآن بأحسن الذكر ، ويشنى عليه بأحسن الشئ .

وقال ابن زيد : ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قِيمَةٌ ﴾ : مستقيمة معتدلة .
وقوله : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴾ كقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا

(١) فى م : « لأملأن » ، وفى أ : « لأمكن » .

(٢) أسد الغابة لابن الأثير (٥٤٩/٤) وذكره الحافظ ابن حجر فى الإصابة (٥٢٨/٣) من طريق أبى موسى ، وهى من طريق محمد بن إسماعيل بن جعفر ، عن عبد الله بن سلمة ، عن الزهرى به ، وقال : « عبد الله بن سلمة واهى الحديث » .

كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ [آل عمران: ١٠٥] يعنى بذلك : أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا ، بعد ما أقام الله عليهم الحجج والبيّنات تفرقوا واختلّفوا فى الذى أرادته الله من كتبهم ، واختلّفوا اختلافاً كثيراً ، كما جاء فى الحديث المروى من طرق : «إن اليهود اختلّفوا على إحدى وسبعين فرقة ، وإن النصارى اختلّفوا على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا واحدة .» قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابى » (١).

وقوله : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ كقوله : ﴿ وَمَا أُرْسِلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ؛ ولهذا قال : حنفاء ، أى : متحنفين عن الشرك إلى التوحيد . كقوله : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] ، وقد تقدم تقرير الحنيف فى سورة « الأنعام » (٢) بما أغنى عن إعادته هاهنا .

﴿ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ وهى أشرف عبادات البدن ، ﴿ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ﴾ وهى الإحسان إلى الفقراء (٣) والمحاويج . ﴿ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ أى : الملة القائمة العادلة ، أو : الأمة المستقيمة المعتدلة .

وقد استدلل كثير من الأئمة ، كالزهري والشافعى ، بهذه الآية الكريمة على أن الأعمال داخلة فى الإيمان ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨) .

يخبر تعالى عن مآل الفجار ، من كفره أهل الكتاب ، والمشركين المخالفين لكتب الله المنزلة وأنبياء الله المرسله : أنهم يوم القيامة ﴿ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى : ماكثين ، لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿ أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ أى : شر الخليقة التى برأها الله وذراها .

ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار - الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بأبدانهم - بأنهم خير

(١) جاء هذا الحديث من حديث أبى هريرة ، وأنس ، وسعد بن أبى وقاص ، ومعاوية ، وعمرو بن عوف المزنى ، وعوف بن مالك ، وأبى أمامة ، وجابر بن عبد الله - رضى الله عنهم - قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « هو حديث صحيح مشهور » وانظر : تخریج أحاديث الكشاف للزيلعى (١/٤٤٧ - ٤٥٠) .

(٢) عند تفسير الآية : ١٦١ .

(٣) فى أ : « الفقير » .

البرية .

وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء ، على تفضيل المؤمنين من البرية ^(١) على الملائكة ؛ لقوله : ﴿ أُولَٰئِكَ هُم خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ .

ثم قال : ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أى : يوم القيامة ، ﴿ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أى : بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ .

﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ : ومقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم ، ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ فيما منحهم من الفضل العميم .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ أى : هذا الجزاء حاصل لمن خشى الله واتقاه حق تقواه ، وعنده كأنه يراه ، قد علم أنه إن لم يره فإنه يراه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنا أبو معشر ، عن أبي وهب — مولى أبي هريرة — عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بخير البرية ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « رجل آخذ بعنان فرسه فى سبيل الله ، كلما كانت هيعة استوى عليه . ألا أخبركم بخير البرية ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « رجل فى ثلّة من غنمه ، يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة . ألا أخبركم بشر ^(٢) البرية ؟ » قالوا : بلى . قال : « الذى يسأل بالله ، ولا يعطى به » ^(٣) .

آخر تفسير سورة « لم يكن » ^(٤)

(١) فى أ : « من البشر » .

(٢) فى أ : « بخير » .

(٣) المسند (٣٩٦/٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٢٧٩/٥) : « أبو معشر — نجيح — ضعيف ، وأبو معشر (كذا فيه ، والصواب : أبو وهب) مولى أبي هريرة لم أعرفه » .

(٤) فى م : « آخر تفسيرها » .

تفسير سورة إذا زلزلت

وهي مكية .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا سعيد ، حدثنا عياش بن عباس ، عن عيسى ابن هلال الصّدفي ، عن عبد الله بن عمرو قال : أتى رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أقرئني يا رسول الله . قال (١) له : « اقرأ ثلاثاً من ذات الر » . فقال له الرجل : كبر سني واستد (٢) قلبي ، وغلظ لساني . قال : « فاقراء من ذات (٣) حم » ، فقال مثل مقالته الأولى . فقال : « اقرأ ثلاثاً من المسبحات » ، فقال مثل مقالته . فقال الرجل : ولكن أقرئني - يا رسول الله - سورة جامعة . فأقرأه : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ حتى إذا فرغ منها قال الرجل : والذي بعثك بالحق ، لا أزيد عليها أبداً . ثم أدبر الرجل ، فقال رسول الله ﷺ : « أفلح الرويجل ! أفلح الرويجل ! » ثم قال : « علىّ به » . فجاءه فقال له : « أمرتُ بيوم الأضحى جعله الله عيداً لهذه الأمة » . فقال له الرجل : رأيت إن لم أجد إلا منيحة أنثى فأضحى بها ؟ قال : « لا ، ولكنك تأخذ من شعرك ، وتقلّم أظفارك ، وتقص شاربك ، وتحلق عانتك ، فذاك تمام أضحيتك عند الله ، عز وجل » . وأخرجه أبو داود والنسائي ، من حديث أبي عبد الرحمن المقرئ (٤) ، به (٥) .

وقال الترمذي : حدثنا محمد بن موسى الحرشي البصري : حدثنا الحسن بن سلم (٦) بن صالح العجلي ، حدثنا ثابت البناني ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ ، عدلت له بنصف القرآن » . ثم قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسن بن سلم (٧) (٨) .

وقد رواه البزار عن محمد بن موسى الحرشي ، عن الحسن بن سلم (٩) ، عن ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تعدلُ ثلث القرآن ، و ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ تعدلُ ربع القرآن » . هذا لفظه .

وقال الترمذي أيضاً : حدثنا علي بن حجر ، حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا يمان بن المغيرة العنزي ، حدثنا عطاء ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ تعدلُ نصف القرآن ، و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تعدلُ ثلث القرآن ، و ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ تعدلُ ربع القرآن » . ثم قال : غريب ، لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة (١٠) .

(٣) في أ : « من ذوات » .

(٢) في م : « واشتد » .

(١) في م : « فقال » .

(٤) في أ : « المقبري » .

(٥) المسند (١٦٩/٢) وسنن أبي داود برقم (١٣٩٩) وسنن النسائي (٢١٢/٧) .

(٦) في أ : « مسلم » .

(٧) في م ، أ : « مسلم » .

(٨) سنن الترمذي برقم (٢٨٩٣) .

(٩) في م ، أ : « مسلم » .

(١٠) سنن الترمذي برقم (٢٨٩٤) .

وقال أيضاً : حدثنا عقبة بن مكرم العمي البصري ، حدثني ابن أبي فديك ، أخبرني سلمة بن وردان ، عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه : « هل تزوجت يا فلان؟ » قال : لا ، والله يا رسول الله ، ولا عندي ما أتزوج ؟! قال : « أليس معك ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ؟ » . قال : بلى . قال : « ثلث القرآن » . قال : « أليس معك ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ؟ » . قال : بلى . قال : « ربيع القرآن » . قال : « أليس معك ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ؟ » . قال : بلى . قال : « ربيع القرآن » . قال : « أليس معك ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زُلْزُلًا ﴾ ؟ » . قال : بلى . قال : « ربيع القرآن » . ثم قال : هذا حديث حسن ^(١) .

تفرد بهن ثلاثهين الترمذي ، لم يروه من غيره من أصحاب الكتب .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ^(١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ^(٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ^(٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ^(٤) بَأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ^(٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ ^(٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ^(٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ^(٨) ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ أي : تحركت من أسفلها . ﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ يعني : ألقَتْ ما فيها من الموتى . قاله غير واحد من السلف . وهذه كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج : ١] ، وكقوله : ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ . وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ [الانشقاق : ٣، ٤] .

وقال مسلم في صحيحه : حدثنا واصل بن عبد الأعلى ، حدثنا محمد بن فضيل ، عن أبيه ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « تقىء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجىء القاتل فيقول : فى هذا قَتَلْتُ ، ويجىء القاطع فيقول : فى هذا قَطَعْتُ رحمى ، ويجىء السارق فيقول : فى هذا قَطَعْتُ يدي ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً » ^(٣) .

وقوله : ﴿ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴾ أي : استنكر أمرها بعد ما كانت قارة ساكنة ثابتة ، وهو مستقر على ظهرها ، أي : تقلبت الحال ، فصارت متحركة مضطربة ، قد جاءها من أمر الله ما قد أعد لها من الزلزال الذى لا محيد لها عنه ، ثم ألقَتْ ما فى بطنها من الأموات من الأولين والآخرين ، وحينئذ استنكر الناس أمرها وتبدلت الأرض غير الأرض والسموات ، وبرزوا لله الواحد القهار .

وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ أي : تحدث بما عمل العاملون على ظهرها .

(١) زيادة من سنن الترمذي .

(٢) سنن الترمذي برقم (٢٨٩٥) .

(٣) صحيح مسلم برقم (١٠١٣) .

قال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم ، حدثنا ابن المبارك — وقال الترمذى وأبو عبد الرحمن النسائى ، واللفظ له : حدثنا سويد بن نصر ، أخبرنا عبد الله — هو ابن المبارك — عن سعيد بن أبى أيوب ، عن يحيى بن أبى سليمان ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال : « أتدرون ما أخبارها ؟ » . قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها ، أن تقول : عمل كذا وكذا ، يوم كذا وكذا ، فهذه أخبارها » (١) .

ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

وفى معجم الطبرانى من حديث ابن لهيعة : حدثنى الحارث بن يزيد — سمع ربيعة الجرشى — : أن رسول الله ﷺ قال : « تحفظوا من الأرض ، فإنها أمكم ، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيراً أو شراً ، إلا وهى مُخبِرة » (٢) .

وقوله : ﴿ بَأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ : قال البخارى : أوحى لها وأوحى إليها ، ووحى لها ووحى إليها : واحد (٣) . وكذا قال ابن عباس : ﴿ أَوْحَى لَهَا ﴾ أى : أوحى إليها . والظاهر أن هذا مُضْمَنٌ [بمعنى] (٤) أذن لها .

وقال شبيب بن بشر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال : قال لها ربها : قولى ، فقالت .

وقال مجاهد : ﴿ أَوْحَى لَهَا ﴾ أى : أمرها . وقال القرطبى : أمرها أن تنشق عنهم .

وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا ﴾ أى : يرجعون عن مواقف الحساب ، ﴿ أَشْتَاتًا ﴾ أى : أنواعاً وأصنافاً ، ما بين شقى وسعيد ، مأمور به إلى الجنة ، ومأمور به إلى النار .

قال ابن جريج : يتصدعون أشتاتاً فلا يجتمعون آخر ما عليهم .

وقال السدى : ﴿ أَشْتَاتًا ﴾ : فرقا .

وقوله تعالى : ﴿ لِيرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى : ليعملوا ويجازوا بما عملوه فى الدنيا ، من خير وشر . ولهذا قال : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ .

قال البخارى : حدثنا إسماعيل بن عبد الله ، حدثنى مالك عن يزيد بن أسلم ، عن أبى صالح السمان عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « الخيل لثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر ، فأمّا الذى له أجر ، فرجل ربطها فى سبيل الله فأطال طيلها فى مرج أو روضة ، فما أصابت فى طيلها ذلك فى المرج والروضة كان له حسنات ، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً أو

(١) المسند (٢/٣٧٤) وسنن الترمذى برقم (٣٣٥٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٩٣) .

(٢) المعجم الكبير (٥/٦٥) وقال الهيثمى فى المجمع (١/٢٤١) : « وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف » .

(٣) صحيح البخارى (٨/٧٢٦) « فتح » .

(٤) زيادة من م ، أ .

شرفين ، كانت آثارها وأرواثها حسنات له ، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقى به كان ذلك حسنات له ، وهى لذلك الرجل أجر . ورجل ربطها تغنياً وتعفيفاً ، ولم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها ، فهى له ستر . ورجل ربطها فخراً ورتاء ونواء ، فهى على ذلك وزر . فسئل رسول الله ﷺ عن الحُمُر ، فقال : « ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الفائزة الجامعة : ﴿ فَمَنْ (١) يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ .

ورواه مسلم ، من حديث زيد بن أسلم ، به (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا جرير بن حازم ، حدثنا الحسن ، عن صعبعة بن معاوية - عم الفرزدق - : أنه أتى النبى ﷺ فقرأ عليه : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ ، قال : حسبي ! لا أبالى ألا أسمع غيرها (٣) .

وهكذا رواه النسائى فى التفسير ، عن إبراهيم بن يونس بن محمد المؤدب ، عن أبيه ، عن جرير ابن حازم ، عن الحسن البصرى قال : حدثنا صعبعة عم الفرزدق ، فذكره (٤) .

وفى صحيح البخارى ، عن عدى مرفوعاً : « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، ولو بكلمة طيبة » (٥) . وفى الصحيح : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تغفر من دلوك فى إناء المستسقى ، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط » (٦) . وفى الصحيح أيضاً : « يا نساء (٧) المؤمنات ، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة » (٨) . يعنى : ظلفها . وفى الحديث الآخر : « ردوا السائل ولو بظلف مُحرق » (٩) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى ، حدثنا كثير بن زيد ، عن المطلب بن عبد الله ، عن عائشة ، أن رسول الله ﷺ قال : « يا عائشة ، استترى من النار ولو بشق تمرة ، فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان » . تفرد به أحمد (١٠) .

وروى عن عائشة أنها تصدقت بعنبة ، وقالت : كم فيها من مثقال ذرة (١١) .

وقال أحمد : حدثنا أبو عامر ، حدثنا سعيد بن مسلم ، سمعت عامر بن عبد الله بن الزبير :

(١) فى م ، أ : « من » وهو خطأ .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٩٦٢) وصحيح مسلم برقم (٩٨٧) .

(٣) المسند (٥٩/٥) .

(٤) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٩٤) .

(٥) صحيح البخارى برقم (٧٥١٢) .

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٦٢٦) من حديث أبى ذر الغفارى ، رضى الله عنه .

(٧) فى م : « يا معشر نساء » ، وفى أ : « معشر النساء » .

(٨) صحيح البخارى برقم (٢٥٦٦) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٩) رواه أحمد فى المسند (٣٨١/٥) وأبو داود فى السنن برقم (١٦٦٧) والترمذى فى السنن برقم (٦٦٥) من حديث أم بجيد الأنصارية ، رضى الله عنها . وقال الترمذى : « حديث أم بجيد حديث حسن صحيح » .

(١٠) المسند (٧٩/٦) .

(١١) هو فى الموطأ (٩٩٧/٢) بلاغاً عن عائشة .

حدثني عوف بن الحارث بن الطفيل : أن عائشة أخبرته : أن النبي ﷺ كان يقول : « يا عائشة ، إياك ومحقرات الذنوب ، فإن لها من الله طالباً » .

ورواه النسائي وابن ماجة ، من حديث سعيد بن مسلم بن بآنك ، به (١) .

وقال ابن جرير : حدثني أبو الخطاب الحساني ، حدثنا الهيثم بن الربيع ، حدثنا سماك بن عطية ، عن أيوب ، عن أبي قلابة ، عن أنس قال : كان أبو بكر يأكل مع النبي ﷺ فنزلت هذه الآية : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ ، فرجع أبو بكر يده وقال : يا رسول الله ، إنني أجزى بما عملت من مثقال ذرة من شر ؟ فقال : « يا أبا بكر ، ما رأيت في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر ويدخر الله لك مثاقيل ذر الخير حتى تُوفاه يوم القيامة » (٢) .

ورواه ابن أبي حاتم ، عن أبيه [عن] (٤) أبي الخطاب ، به . ثم قال ابن جرير :

حدثنا ابن بشار ، حدثنا عبد الوهاب ، حدثنا أيوب قال : في كتاب أبي قلابة ، عن أبي إدريس : أن أبا بكر كان يأكل مع النبي ﷺ ، فذكره (٥) .

ورواه أيضاً عن يعقوب ، عن ابن عُلَيَّة ، عن أيوب ، عن أبي قلابة : أن أبا بكر ، وذكره .

طريق أخرى : قال ابن جرير : حدثني يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني حبي بن عبد الله ، عن أبي عبد الرحمن الحبلى ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : لما نزلت : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ وأبو بكر الصديق ، رضى الله عنه ، قاعد ، فبكى حين أنزلت ، فقال له رسول الله ﷺ : « ما يبكيك يا أبا بكر ؟ » . قال : يبكي هذه السورة . فقال له رسول الله ﷺ : « لولا أنكم تخطئون وتذنبون ، فيغفر الله لكم ، لخلق الله أمة يخطئون ويذنبون فيغفر لهم » (٦) .

حديث آخر : قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة وعلى بن عبد الرحمن بن [محمد بن] (٧) المغيرة - المعروف بعلان المصري - قال : حدثنا عمرو بن خالد الحراني ، حدثنا ابن لهيعة ، أخبرني هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخدري قال : لما نزلت : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ قلت : يا رسول الله ، إنني لراء عملي ؟ قال : « نعم » . قلت : تلك الكبار الكبار ؟ قال : « نعم » . قلت : الصغار الصغار ؟ قال : « نعم » . قلت : وا تُكَلِّ أُمِّي . قال : « أبشر يا سعيد ؛ فإن الحسنة بعشر أمثالها - يعني إلى

(١) المسند (١٥١/٦) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٤٣) .

(٢) في أ : « من » وهو خطأ .

(٣) تفسير الطبري (١٧٣/٣٠) ورواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٣٤١٨) « مجمع البحرين » من طريق أبي الخطاب ، به ، وقال : « لم يروه عن أيوب إلا سَمَأك ، ولا عنه إلا الهيثم . تفرد به زيادة » . قلت : الهيثم بن الربيع ضعيف .

(٤) زيادة من م ، أ .

(٥) تفسير الطبري (١٧٤/٣٠) ورواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٧١٠٣) والطبراني في المعجم الكبير برقم (٨٧) « القطعة المفقودة » من طريق ابن وهب ، به .

(٦) تفسير الطبري (١٧٥/٣٠) .

(٧) زيادة من الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (١٩٥/١/٣) .

سبعمائة ضعف — ويضاعف الله لمن يشاء ، والسيئة بمثلها أو يغفر الله ، ولن ينجو أحد منكم بعمله». قلت : ولا أنت يا رسول الله ^(١) ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة » ^(٢) . قال أبو زرعة : لم يرو هذا غير ابن لهيعة .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير ، حدثني ابن لهيعة ، حدثني ^(٣) عطاء بن دينار ، عن سعيد بن جبير في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ ، وذلك لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان: ٨] ، كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشيء القليل الذي أعطوه ، فيجئ المسكين إلى أبوابهم فيستقلون أن يعطوه التمرة والكسرة والجوزة ونحو ذلك ، فيردونه ويقولون : ما هذا بشيء . إنما نُؤَجَّر على ما نعطى ونحن نحبه . وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير : الكذبة والنظرة والغيبة وأشباه ذلك ، يقولون : إنما وعد الله النار على الكبائر . فرغبهم في القليل من الخير أن يعملوه ، فإنه يوشك أن يكثُر ، وحذرهم اليسير من الشر ، فإنه يوشك أن يكثُر ، فنزلت : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ يعني : وزن أصغر النمل ﴿ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ يعني : في كتابه ، ويسره ذلك . قال : يكتب لكل بر وفاجر بكل سيئة سيئة واحدة . وبكل حسنة عشر حسنات ، فإذا كان يوم القيامة ضاعف الله حسنات المؤمنين أيضاً ، بكل واحدة عشر ، ويمحو عنه بكل حسنة عشر سيئات ، فمن زادت حسناته على سيئاته مثقال ذرة ، دخل الجنة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود ، حدثنا عمران ، عن قتادة ، عن عبد ربه ، عن أبي عياض ، عن عبد الله بن مسعود ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه » . وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلاً ، كمثّل قوم نزلوا أرض فلاة ، فحضر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجئ بالعود ، والرجل يجئ بالعود ، حتى جمعوا سواداً ، وأججوا ناراً ، وأنضجوا ما قذفوا فيها ^(٤) .

[آخر تفسير سورة « إذا زلزلت »] ^(٥) [ولله الحمد والمنة] ^(٦)

(١) في أ : « يا نبي الله » .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٥٩٤) وعزاه لابن أبي حاتم ، ولآخره شاهد في الصحيح من حديث أبي هريرة ، رضى الله عنه .

(٣) في م : « عن » .

(٤) المسند (١/ ٤٠٢) .

(٦) زيادة من أ .

(٥) زيادة من م ، أ .

تفسير سورة العاديات

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (١١)﴾ .

يقسم تعالى بالخيول إذا أجريت في سبيله فعدت وضبحت ، وهو : الصوت الذى يسمع من الفرس حين تعدو . ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ يعنى : اصطكاك نعالها للصخر فتقذح منه النار .

﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ يعنى : الإغارة وقت الصباح ، كما كان رسول الله ﷺ يغير صباحاً ويتسمع (١) أذانا ، فإن سمع (٢) وإلا أغار .

[وقوله] (٣) : ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ يعنى : غباراً في [مكان] (٤) معترك الخيول .

﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ أى : توسطن ذلك المكان كلهن جمع .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عبدة ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن عبد الله : ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ قال : الإبل .

وقال على : هى الإبل . وقال ابن عباس : هى الخيل . فبلغ علياً قول ابن عباس ، فقال : ما كانت لنا خيل يوم بدر . قال ابن عباس : إنما كان ذلك فى سرية بعثت .

قال ابن أبى حاتم وابن جرير : حدثنا يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى أبو صخر ، عن أبى معاوية البجلي ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس حدثه ، قال : بينا أنا فى الحجر جالساً ، جاءنى رجل فسألنى عن : ﴿الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ ، فقلت له : الخيل حين تغير فى سبيل الله ، ثم تأوى إلى الليل ، فيصنعون طعامهم ، ويورون نارهم . فانفتل عنى فذهب إلى على ، رضى الله عنه ، وهو عند سقاية زمزم فسأله عن ﴿الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ ، فقال : سألت عنها أحداً قبلى ؟ قال : نعم ، سألت ابن عباس فقال : الخيل حين تغير فى سبيل الله . قال : اذهب فادعه لى . فلما وقف على رأسه قال : تفتى الناس بما لا علم لك ، والله لئن كان أول غزوة فى الإسلام بدر ، وما كان معنا إلا فرسان : فرس للزبير وفرس للمقداد ، فكيف تكون العاديات ضبحاً ؟ إنما العاديات ضبحاً من عرفة

(٣، ٤) زيادة من م ، أ .

(٢) فى م : « فإن سمع أذانا » .

(١) فى أ : « ويستمع » .

إلى المزدلفة ، ومن المزدلفة إلى منى .

قال ابن عباس : فنزعت عن قولي ورجعت إلى الذي قال على ، رضى الله عنه (١) .

وبهذا الإسناد عن ابن عباس قال : قال على : إنما ﴿الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ من عرفة إلى المزدلفة ، فإذا أؤوا إلى المزدلفة أؤروا النيران .

وقال العوفي عن ابن عباس : هي الخيل .

وقد قال بقول على : إنها الإبل جماعة . منهم : إبراهيم ، وعبيد بن عمير وبقول ابن عباس آخرون ، منهم : مجاهد وعكرمة ، وعطاء وقتادة ، والضحاك . واختاره ابن جرير .

قال ابن عباس ، وعطاء : ما ضبحت دابة قط إلا فرس أو كلب .

وقال ابن جرير (٢) ، عن عطاء سمعت ابن عباس يصف الضبح : أح أح .

وقال أكثر هؤلاء فى قوله : ﴿فَالْمُورِيَّاتِ قَدْحًا﴾ يعنى : بحوافرها . وقيل : أسعرن الحرب بين ركبانهن . قاله قتادة .

وعن ابن عباس ومجاهد : ﴿فَالْمُورِيَّاتِ قَدْحًا﴾ يعنى : مكر الرجال .

وقيل : هو إيقاد النار إذا رجعوا إلى منازلهم من الليل .

وقيل : المراد بذلك : نيران القبائل .

وقال من فسرهما بالخيل : هو إيقاد النار بالمزدلفة .

وقال ابن جرير : والصواب الأول ؛ أنها الخيل حين تقدح بحوافرها .

وقوله : ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : يعنى إغارة الخيل صباحاً فى سبيل الله .

وقال من فسرهما بالإبل : هو الدفع صباحاً من المزدلفة إلى منى .

وقالوا كلهم فى قوله : ﴿فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا﴾ هو : المكان الذى إذا حلت فيه أثارت به الغبار ، إما فى حج أو غزو .

وقوله : ﴿فَوْسَطُنَ بِهِ جَمْعًا﴾ قال العوفي ، عن ابن عباس ، وعطاء ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك : يعنى جمع الكفار من العدو .

ويحتمل أن يكون : فوسطن بذلك المكان جميعهن ، ويكون ﴿جَمْعًا﴾ منصوباً على الحال المؤكدة .

وقد روى أبو بكر البزار هاهنا حديثاً [غريباً جداً] (٣) فقال : حدثنا أحمد بن عبدة ، حدثنا حفص بن جُمَيْع ، حدثنا سِمَاك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : بعث رسول الله ﷺ خيلاً

(١) تفسير الطبرى (٣٠/١٧٦) .

(٢) فى أ : « جرير » .

(٣) زيادة من م ، أ .

فأشهرت شهراً لا يأتيه منها خبر ، فنزلت : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ ، ضبحت بأرجلها ، ﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴾ : قدحت بحوافرها الحجارة فأورت ناراً ، ﴿ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴾ : صبّحت القوم بغارة ، ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴾ : أثارت بحوافرها التراب ، ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ قال : صبحت القوم جميعاً ^(١) .

وقوله : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ : هذا هو المقسم عليه ، بمعنى : أنه لنعم ربه لجحود كفور . قال ابن عباس ، ومجاهد وإبراهيم النخعي ، وأبو الجوزاء ، وأبو العالية ، وأبو الضحى ، وسعيد بن جبير ، ومحمد بن قيس ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، وابن زيد : الكنود : الكفور . قال الحسن : هو الذى يعد المصائب ، وينسى نعم ربه .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو كريب ، حدثنا عبيد الله ، عن إسرائيل ، عن جعفر بن الزبير ، عن القاسم ، عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ ، قال : « الكفور الذى يأكل وحده ، ويضرب عبده ، ويمنع رفاه » ^(٢) .

ورواه ابن أبى حاتم ، من طريق جعفر بن الزبير - وهو متروك - فهذا إسناد ضعيف . وقد رواه ابن جرير أيضاً من حديث حريز بن عثمان ، عن حمزة بن هانئ ، عن أبى أمامة موقوفاً ^(٣) .

وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ : قال قتادة وسفيان الثوري : وإن الله على ذلك لشهيد .

ويحتمل أن يعود الضمير على الإنسان ، قاله محمد بن كعب القرظي ، فيكون تقديره : وإن الإنسان على كونه كنوداً ^(٤) لشهيد ، أى : بلسان حاله ، أى : ظاهر ذلك عليه فى أقواله وأفعاله ، كما قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ ﴾ [التوبة : ١٧] .

وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ أى : وإنه لحب الخير - وهو المال - لشديد . وفيه مذهبان : أحدهما : أن المعنى : وإنه لشديد المحبة للمال .

والثانى : وإنه لحريص بخيل ؛ من محبة المال . وكلاهما صحيح .

ثم قال تعالى مُرْهَدًا فى الدنيا ، وَمُرْعَبًا فى الآخرة ، ومنبهاً على ما هو كائن بعد هذه الحال ، وما يستقبله الإنسان من الأهوال : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى الْقُبُورِ ﴾ أى : أخرج ما فيها من الأموات ، ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِى الصُّدُورِ ﴾ قال ابن عباس وغيره : يعنى أبرز وأظهر ما كانوا يسرون فى نفوسهم ، ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ أى : لعالم بجميع ما كانوا يصنعون ويعملون ، مجازيهم ^(٥) عليه أوفر الجزاء ، ولا يظلم مثقال ذرة .

آخر [تفسير] ^(٦) سورة « والعاديات » ولله الحمد [والمنة ، وحسبنا الله] ^(٧)

(١) مسند البزار برقم (٢٢٩١) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (١٤٢/٧) : « فيه حفص بن جميع وهو ضعيف » .

(٢) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٨٠/٣٠) عن أبى كريب ، به .

(٣) تفسير الطبرى (١٨٠/٣٠) .

(٤) فى م : « لکنودا » .

(٥) فى أ : « ويجازيهم » .

(٦) (٧، ٦) زيادة من م .

تفسير سورة القارعة

وهي مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْقَارِعَةُ ١ ﴾ مَا الْقَارِعَةُ ٢ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ ﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤ ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥ ﴾ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦ ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧ ﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨ ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ٩ ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ١٠ ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ١١ ﴾ .

﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ : من أسماء يوم القيامة ، كالحاقة ، والطامة ، والصاخة ، والغاشية ، وغير ذلك .

ثم قال معظماً أمرها ومهولاً لشأنها : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ ؟ ثم فسر ذلك بقوله : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ أى : فى انتشارهم وتفرقهم ، وذهابهم ومجيئهم ، من حيرتهم مما هم فيه ، كأنهم فراش مبثوث ^(١) ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ كَانَهُمْ جُرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴾ [القمر: ٧] .

وقوله : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ يعنى : قد صارت كأنها الصوف المنفوش ، الذى قد شرع فى الذهاب والتمزق .

قال مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبیر ، والحسن ، وقتادة ، وعطاء الخراسانى ، والضحاك ، والسدى : ﴿ الْعِهْنُ ﴾ : الصوف .

ثم أخبر تعالى عما يؤول إليه عمل العاملين ، وما يصيرون إليه من الكرامة أو الإهانة ، بحسب أعمالهم ، فقال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ أى : رجحت حسنانه على سيئاته ، ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ يعنى : فى الجنة . ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ أى : رجحت سيئاته على حسناته .

وقوله : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ قيل : معناه : فهو ساقط هاو بأمر رأسه فى نار جهنم . وعبر عنه بأمه — يعنى ^(٢) دماغه — روى نحو هذا عن ابن عباس ، وعكرمة ، وأبى صالح ، وقتادة — قال قتادة : يهوى فى النار على رأسه ^(٣) . وكذا قال أبو صالح : يهوى فى النار على رؤوسهم .

وقيل : معناه : ﴿ فَأُمُّهُ ﴾ التى يرجع إليها ، ويصير فى المعاد إليها ﴿ هَاوِيَةٌ ﴾ ، وهى اسم من أسماء النار .

قال ابن جرير : وإنما قيل : للهاوية أمه ؛ لأنه لا مأوى له غيرها ^(٤) .

(٣) فى م : « على رؤوسهم » .

(٢) فى م : « وهو » .

(١) فى أ : « منتشر » .

(٤) تفسير الطبرى (١٨٣/٣٠) .

وقال ابن زيد : الهاوية : النار ، هي أمه ومأواه التي يرجع إليها ويأوى إليها ، وقرأ : ﴿وَمَا وَاهُمُ النَّارُ﴾ [آل عمران: ١٥١] .

قال ابن أبي حاتم : وروى عن قتادة أنه قال : هي النار ، وهي مأواهم . ولهذا قال تعالى مفسراً للهاوية : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ . نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ .

قال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى : حدثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن الأشعث بن عبد الله الأعمى قال : إذا مات المؤمن ذهب بروحه إلى أرواح المؤمنين ، فيقولون : رَوْحُوا أَخَاكُمْ ، فإنه كان في غَمِّ الدنيا . قال : ويسألونه : ما فعل فلان ^(١) ؟ فيقول : مات ، أو ما جاءكم ؟ فيقولون : ذهب به إلى أمه الهاوية ^(٢) .

وقد رواه ابن مردويه من طريق أنس بن مالك مرفوعاً ، بأبسط من هذا . وقد أوردناه في كتاب صفة النار ، أجازنا ^(٣) الله منها بمنه وكرمه ^(٤) .

وقوله : ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ أى : حارة شديدة الحر ، قوية اللهب والسعير .

قال أبو مصعب ، عن مالك ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة : أن النبي ﷺ قال : « نار بنى آدم التي تُوقدون جزء من سبعين جزء من نار جهنم » . قالوا : يا رسول الله ، إن كانت لكافية . فقال : « إنها فضّلت عليها بتسعة وستين جزءاً » ^(٥) .

ورواه البخارى ، عن إسماعيل بن أبى أويس ، عن مالك . ورواه مسلم عن قتبية ، عن المغيرة ابن عبد الرحمن ، عن أبى الزناد ، به ^(٦) . وفى بعض ألفاظه : « إنها فضّلت عليها بتسعة وستين جزءاً ، كلهن مثل حرّها » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا حماد - وهو ابن سلمة - عن محمد بن زياد - سمع ^(٧) أبا هريرة يقول : سمعت أبا القاسم ﷺ يقول : « نار بنى آدم التي توقدون ، جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » . فقال رجل : إن كانت لكافية . فقال : « لقد فضّلت عليها بتسعة وستين جزءاً حرّاً فحرّاً » ^(٨) .

تفرد به أحمد من هذا الوجه ، وهو على شرط مسلم .

(١) فى م ، أ : « بفلان » .

(٢) تفسير الطبرى (١٨٢/٣٠) .

(٣) فى أ : « أعاذنا » .

(٤) قال السيوطى فى الدر المنثور (٦٠٦/٨) : « وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات المؤمن تلقته أرواح المؤمنين يسألونه : ما فعل فلان ؟ ما فعلت فلانة ؟ فإن كان مات ولم يأتهم قالوا : خولف به إلى أمه الهاوية بتست الأم وبشت المريبة حتى يقولوا : ما فعل فلان هل تزوج ؟ ما فعلت فلانة هل تزوجت ؟ فيقولون : دعوه فيستريح فقد خرج من كرب الدنيا » .

(٥) الموطأ برواية الزهرى برقم (٢٠٩٨) وهو فى رواية يحيى (٩٩٤/٢) .

(٦) صحيح البخارى برقم (٣٢٦٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٤٣) .

(٧) فى م ، أ : « سمعت » .

(٨) المسند (٤٦٧/٢) .

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا سفيان ، عن أبي الزباد ^(١) ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ - وعمرو ، عن يحيى بن جعدة - : « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، وضربت ^(٢) بالبحر مرتين ، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد » ^(٣) .

وهذا على شرط الصحة ^(٤) ، ولم يخرجوه من هذا الوجه ، وقد رواه مسلم في صحيحه من طريق [ابن أبي الزناد] ^(٥) ^(٦) .

ورواه البزار من حديث عبد الله بن مسعود ، وأبي سعيد الخدري : « ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً » ^(٧) .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا ^(٨) عبد العزيز - هو ابن محمد الدراوردي - عن سهيل عن أبيه ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « هذه النار جزء من مائة جزء من جهنم » ^(٩) .

تفرد به أيضاً من هذا الوجه ، وهو على شرط مسلم أيضاً .

وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا أحمد بن عمرو الخلال ، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي ، حدثنا معن بن عيسى القزاز ، عن مالك ، عن عمه أبي سهيل ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أتدرون ما مثل ناركم هذه من نار جهنم ؟ لهي أشد سواداً من دخان ناركم هذه بسبعين ضعفاً » ^(١٠) .

وقد رواه أبو مصعب ، عن مالك ، ولم يرفعه . وروى الترمذي وابن ماجه ، عن عباس الدوري ، عن يحيى ابن أبي بكير : حدثنا شريك ، عن عاصم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت ، فهي سوداء مظلمة » ^(١١) .

وقد روى هذا من حديث أنس ^(١٢) وعمر بن الخطاب .

(١) في أ : « عن أبي الزناد » .

(٣) المسند (٢/٢٤٤) .

(٤) في م ، أ : « على شرط الصحيحين » .

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٨٤٣) .

(٧) أما حديث ابن مسعود ، فهو في مسند البزار برقم (١٨٦٤) من طريق عبيد بن إسحاق ، عن زهير ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو ابن ميمون ، عن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، وقال البزار : « هكذا رواه زهير ولا نعلم رواه عن زهير إلا عبيد بن إسحاق . ورواه عمرو بن ثابت ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو الأصم ، عن عبد الله ، عن النبي ﷺ نحوه ، ورواه غير عمرو ابن ثابت ، عن أبي إسحاق ، عمرو الأصم ، عن عبد الله موقوفاً » . وأما حديث أبي سعيد ، فقد رواه أيضاً الترمذي في السنن برقم (٢٥٩٠) من طريق فراس ، عن عطية ، عن أبي سعيد - رضى الله عنه - وقال الترمذي : « هذا حديث حسن غريب » .

(٨) في أ : « بن » .

(٩) المسند (٢/٣٧٩) .

(١٠) المعجم الأوسط برقم (٤٨٤٣) « مجمع البحرين » وقال الهيثمي في المجمع (٣٨٧/١٠) : « رجاله رجال الصحيح » .

(١١) سنن الترمذي برقم (٢٥٩١) وسنن ابن ماجه برقم (٤٣٢٠) وقال الترمذي : « حديث أبي هريرة في هذا موقوف أصح ، ولا أعلم أحداً رفعه غير يحيى بن بكير عن شريك » .

(١٢) حديث أنس رواه ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان من طريق مبارك بن فضالة ، عن ثابت ، عن أنس مرفوعاً ، وقد تقدم عند تفسير الآية : ٨١ من سورة التوبة .

وجاء فى الحديث - عند الإمام أحمد - من طريق أبى عثمان النهدى ، عن أنس - وأبى نضرة العبدى ، عن أبى سعيد وعجلان مولى المشمعل ، عن أبى هريرة - عن النبى ﷺ أنه قال : « إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان يغلى منهما دماغه » (١) .

وثبت فى الصحيح (٢) أن رسول الله ﷺ قال : « اشتكت النار إلى ربها فقالت : يا رب ، أكل بعضى بعضاً ، فأذن لها بنفسين : نفس فى الشتاء ، ونفس فى الصيف . فأشد ما تجدون فى الشتاء من بردها ، وأشد ما تجدون فى الصيف من حرها » (٣) .

وفى الصحيحين : « إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة ، فإن شدة الحر من فيح جهنم » (٤) .

آخر تفسير سورة « القارعة »

(١) حديث أبى سعيد فى المسند (١٣/٣) وحديث أبى هريرة فى المسند (٤٣٢/٢) .

(٢) فى م : « فى الصحيحين » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٣٢٦٠) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٣٣) وصحيح مسلم برقم (٦١٥) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

تفسير سورة التكاثر

وهي مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)﴾ .

يقول تعالى : شغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها ، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر ، وصرتن من أهلها ؟!

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا زكريا بن يحيى الوقار المصري ، حدثني خالد بن عبد الدايم ، عن ابن زيد بن أسلم ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ عن الطاعة ، ﴿ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ : حتى يأتيكم الموت ^(١) .

وقال الحسن البصري : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ في الأموال والأولاد .

وفى صحيح البخارى ، فى « الرقاق » منه : وقال لنا أبو الوليد : حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك ، عن أبي بن كعب قال : كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ يعنى : « لو كان لابن آدم واد من ذهب » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة : سمعت قتادة يحدث عن مُطَرِّف - يعنى ابن عبد الله بن الشَّخِير - عن أبيه قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : « ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ ، يقول ابن آدم : مالى مالى . وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ؟ » .

ورواه مسلم والترمذى والنسائى ، من طريق شعبة ، به ^(٢) .

وقال مسلم فى صحيحه : حدثنا سُوَيْد بن سعيد ، حدثنا حفص بن ميسرة ، عن العلاء ، عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول العبد : مالى مالى ؟ وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو تصدق فاقتنى ^(٣) ، وما سوى ذلك فذاهب وتاركة للناس » . تفرد به مسلم ^(٤) .

(١) وهذا معضل ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف .

(٢) المسند (٢٤/٤) وصحيح مسلم برقم (٢٩٥٨) وسنن الترمذى برقم (٣٣٥٤) وسنن النسائى (٢٣٨/٦) .

(٣) فى أ : « فأبقى » .

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٩٥٩) .

وقال البخارى : حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، سمع أنس بن مالك يقول : قال رسول الله ﷺ : « يتبع الميت ثلاثة ، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد : يتبعه أهله وماله وعمله ، فيرجع أهله وماله ، ويبقى عمله » .

وكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى ، من حديث سفيان بن عيينة ، به ^(١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى ، عن شعبة ، حدثنا قتادة ، عن أنس : أن النبى ﷺ قال : « يهرم ابن آدم وتبقى منه اثنتان : الحرص والأمل » . أخرجاه فى الصحيحين ^(٢) .

وذكر الحافظ ابن عساكر ، فى ترجمة الأحنف بن قيس ^(٣) - واسمه الضحاك - أنه رأى فى يد رجل درهما فقال : لمن هذا الدرهم ؟ فقال الرجل : لى . فقال : إنما هو لك إذا أنفقت فى أجر أو ابتغاء شكر . ثم أنشد الأحنف متمثلا قول الشاعر :

أنتَ للمال إذا أمسكته فإذا أنفقتَه فالمالُ لكُ

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة قال : صالح بن حيان حدثنى عن ابن بريدة فى قوله : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ . قال : نزلت فى قبيلتين من قبائل الأنصار ، فى بنى حارثة وبنى الحارث ، تفاخروا وتكاثروا ، فقالت إحداهما : فيكم مثل فلان بن فلان ، وفلان ؟ وقال الآخرون مثل ذلك ، تفاخروا ^(٤) بالأحياء ، ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور . فجعلت إحدى الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان ؟ يشيرون إلى القبر - ومثل فلان ؟ وفعل الآخرون مثل ذلك ، فأنزل الله : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ . حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ ، لقد كان لكم فيما رأيتم عبرة وشغل .

وقال قتادة : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ . حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ : كانوا يقولون نحن أكثر من بنى فلان ^(٥) ، ونحن أعدُّ من بنى فلان ، وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم ، والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم .

والصحيح أن المراد بقوله : ﴿ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ أى : صرتم إليها ودفنتم فيها ، كما جاء فى الصحيح : أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعوده ، فقال : « لا بأس ، طهور إن شاء الله » . فقال : قلت : طهور ؟! بل هى حمى تفور ، على شيخ كبير ، تُزيه القبور ! قال : « فَنَعَمْ إِذَا » ^(٦) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا محمد بن سعيد الأصبهاني ، أخبرنا حكام بن سلم الرازى ، عن عمرو بن أبى قيس ، عن الحجاج ، عن المنهال ، عن زر بن حبیش ، عن على قال : ما زلنا نشك فى عذاب القبر حتى نزلت : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ . حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ .

(١) صحيح البخارى برقم (٦٥١٤) وصحيح مسلم برقم (٢٩٦٠) وسنن الترمذى برقم (٢٣٧٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (٢٠٦٤) .

(٢) المسند (١١٥/٣) وصحيح البخارى برقم (٦٤٢١) وصحيح مسلم برقم (١٠٤٧) .

(٣) تاريخ دمشق (٤٤٣/٨) المخطوط .

(٤) فى م : « وتفاخروا » .

(٥) فى أ : « من بنى إسرائيل » .

(٦) صحيح البخارى برقم (٧٤٧٠، ٥٦٥٦، ٥٦٦٢) .

ورواه الترمذى عن أبى كُرَيْب ، عن حَكَّام بن سلم ^(١) ، [به] ^(٢) ، وقال : غريب ^(٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا سلمة بن داود العُرضى ^(٤) ، حدثنا أبو المليح الرقى ، عن ميمون بن مهران قال : كنت جالسا عند عمر بن عبد العزيز ، فقرأ : ﴿ أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ . حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ فلبث هنيهة ^(٥) فقال : يا ميمون ، ما أرى المقابر إلا زيارة ، وما للزائر بد من أن يرجع إلى منزله .

قال أبو محمد : يعنى أن يرجع إلى منزله - إلى جنة أو نار . وهكذا ذُكرَ أن بعض الأعراب سمع رجلا يتلو هذه الآية : ﴿ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ فقال : بُعثَ اليوم ^(٦) ورب الكعبة . أى : إن الزائر سيرحل من مقامه ذلك إلى غيره .

وقوله : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ : قال الحسن البصرى : هذا ^(٧) وعيد بعد وعيد .

وقال الضحاك : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعنى : الكفار ، ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعنى : أيها المؤمنون .

وقوله : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ أى : لو علمتم حق العلم ، لما ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة ، حتى صرتم إلى المقابر .

ثم قال : ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ هذا تفسير الوعيد المتقدم ، وهو قوله : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ توعدهم بهذا الحال ، وهى رؤية النار ^(٨) ، التى إذا زفرت زفرة خرَّ كل ملك مقرب ، ونبي مرسل على ركبته ، من المهابة والعظمة ومعاناة الأهوال ، على ما جاء به الأثر المروى فى ذلك .

وقوله : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ أى : ثم لتسئلن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم ، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك . ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَةَ ، حدثنا زكريا بن يحيى الخزاز ^(٩) المقرئ ، حدثنا عبد الله ابن عيسى أبو خالد الخزاز ، حدثنا يونس بن عبيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه سمع عمر بن الخطاب يقول : خرج رسول الله ﷺ عند الظهر ، فوجد أبا بكر فى المسجد فقال : « ما أخرجك هذه الساعة ؟ » قال : أخرجنى الذى أخرجك يا رسول الله . قال : وجاء عمر بن الخطاب فقال : « ما أخرجك يا ابن الخطاب ؟ » قال أخرجنى الذى أخرجكما . قال : فقعد عمر ، وأقبل رسول الله ﷺ يحدثهما ، ثم قال : « هل بكما من قوة ، تنطلقان إلى هذا النخل فتصبيان طعاماً وشراباً

(٢) زيادة من م ، أ .

(١) فى أ : « سليم » .

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٣٥٥) .

(٦) فى أ : « القوم » .

(٥) فى أ : « هنية » .

(٤) فى أ : « العرمى » .

(٩) فى أ : « الخزاز » .

(٨) فى م : « أهل النار » .

(٧) فى أ : « هو » .

وظلا؟» قلنا : نعم . قال : « مُروا بنا إلى منزل ابن التَّيهان أبي الهيثم الأنصارى » . قال : فتقدم رسول الله ﷺ بين أيدينا ، فسلم واستأذن - ثلاث مرات - وأم الهيثم من وراء الباب تسمع الكلام ، تريد أن يزيدها رسول الله ﷺ من السلام ، فلما أراد أن ينصرف خرجت أم الهيثم تسعى خلفهم ، فقالت : يا رسول الله ، قد - والله - سمعت تسليمك ، ولكن أردت أن تزيدنا من سلامك . فقال لها رسول الله ﷺ : « خيراً » . ثم قال : « أين أبو الهيثم ؟ لا أراه » . قالت : يا رسول الله ، هو قريب ذهب يستعذبُ الماء ، ادخلوا فإنه يأتى الساعة إن شاء الله ، فبسطة - بساطا تحت شجرة ، فجاء أبو الهيثم ففرح بهم وقرت عيناه بهم ، فصعد على نخلة فصرم لهم أعذاقاً ، فقال له رسول الله ﷺ : « حَسْبُكَ يَا أبا الهيثم » . قال : يا رسول الله ، تأكلون من بُسرهِ ، ومن رطبهِ ، ومن تَدْنُوهِ ، ثم أتاهاهم بماء فشرَبوا عليه ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا من النعيم الذى تسألون عنه »^(١) . هذا غريب من هذا الوجه .

وقال ابن جرير : حدثني الحسين بن على الصدائى ، حدثنا الوليد بن القاسم ، عن يزيد بن كيسان ، عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : بينما أبو بكر وعمر جالسان ، إذ جاءهما النبى ﷺ فقال : « ما أجلسكما هاهنا ؟ » قالا : « الذى بعثك بالحق ما أخرجنا من بيوتنا إلا الجوع . قال : «والذى بعثنى بالحق ما أخرجنى غيره » . فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار ، فاستقبلتهم المرأة ، فقال لها النبى ﷺ : « أين فلان ؟ » فقالت : ذهب يستعذب^(٢) لنا ماء . فجاء صاحبهم يحمل قربته فقال : مرحبا ، ما زار العباد شىء أفضل من شىء^(٣) زارنى اليوم . فعلق قربته بكرب نخلة^(٤) ، وانطلق فجاءهم بعدق ، فقال النبى ﷺ : « ألا كنت اجتנית ؟ » فقال : أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم . ثم أخذ الشفرة ، فقال النبى ﷺ : « إياك والحلوب ؟ » فذبح لهم يومئذ ، فأكلوا . فقال النبى ﷺ : « لتسئلن عن هذا يوم القيامة . أخرجكم من بيوتكم الجوع ، فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا ، فهذا من النعيم »^(٥) .

ورواه مسلم من حديث يزيد بن كيسان ، به^(٦) . ورواه أبو يعلى وابن ماجه ، من حديث المحاربى ، عن يحيى بن عبيد الله ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، عن أبي بكر الصديق ، به^(٧) . وقد رواه أهل السنن الأربعة ، من حديث عبد الملك بن عمير ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، بنحو من هذا السياق وهذه القصة^(٨) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سُرَيْج ، حدثنا حشرج ، عن أبي نُصرة ، عن أبي عسيب - يعنى

(١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٥٣/١٩) من طريق زكريا بن يحيى ، عن عبد الله بن عيسى ، به . وقال الهيثمى فى المجمع (٣١٧/١٠) : « فيه عبد الله بن عيسى - أبو خلف - وهو ضعيف » .

(٢) فى م : « ليستعذب » . (٣) فى م : « من نبى » . (٤) فى أ : « بكور نخلته » .

(٥) تفسير الطبرى (١٨٥/٣٠) .

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٠٣٨) .

(٧) مسند أبى يعلى (٧٩/١) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٨١) .

(٨) سنن أبى داود برقم (٥١٢٨) وسنن الترمذى برقم (٢٨٢٢) ، وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٩٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣٧٤٥) .

مولى رسول الله - قال : خرج رسول الله ﷺ ليلاً فمر بى ، فدعاني فخرجت إليه ، ثم مر بأبى بكر فدعاه فخرج إليه ، ثم مر بعمر فدعاه فخرج إليه ، فانطلق حتى أتى ^(١) حائطاً لبعض الأنصار ، فقال لصاحب الحائط : « أطعمنا » . فجاء بعذق فوضعه ، فأكل رسول الله ﷺ وأصحابه ، ثم دعا بماء بارد فشرب ، وقال : « لتسئلن عن هذا يوم القيامة » . قال : فأخذ عمرُ العذقَ فضرب به الأرض ، حتى تناثر البُسْرُ قبل رسول الله ﷺ ثم قال : يا رسول الله ، إنا لمسؤول ^(٢) عن هذا يوم القيامة ؟ قال : « نعم ، إلا من ثلاثة : خرقة لف بها الرجل عورته ، أو كسرة سدَّ بها جوعته ، أو جحر تدخَّل فيه من الحر والقر » ^(٣) . تفرد به أحمد .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا حماد ، حدثنا عمار ، سمعت جابر بن عبد الله يقول : أكل رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رطباً ، وشربوا ماء ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا من النعيم الذى تسألون عنه » .

ورواه النسائي ، من حديث حماد بن سلمة [عن عمار بن أبى عمار عن جابر] ^(٤) ، به ^(٥) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا محمد بن عمرو ، عن صفوان بن سليم ، عن محمود ^(٦) بن الربيع قال : لما نزلت : ﴿ أَلْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ ، فقرأ حتى بلغ : ﴿ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ ، قالوا : يا رسول الله ، عن أى ^(٧) نعيم نُسأل ؟ وإنما هما الأسودان الماء والتمر ، وسيوفنا على رقابنا ، والعدو حاضر ، فعن أى نعيم نُسأل ؟ قال ^(٨) : « أما إن ذلك سيكون » ^(٩) .

وقال أحمد : حدثنا أبو عامر ، عبد الملك بن عمرو ، حدثنا عبد الله بن سليمان ، حدثنا معاذ ابن عبد الله بن حبيب ، عن أبيه ، عن عمه قال : كنا فى مجلس فطلع علينا النبى ﷺ وعلى رأسه أثر ماء ، فقلنا : يا رسول الله ، نراك طيب النفس . قال : « أجل » . قال : ثم خاض الناس فى ذكر الغنى ، فقال رسول الله ﷺ : « لا بأس بالغنى لمن اتقى الله ، والصحة لمن اتقى الله خير من الغنى ، وطيب النفس من النعيم » .

ورواه ابن ماجه ، عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن خالد بن مخلد ، عن عبد الله بن سليمان ، به ^(١٠) .

وقال الترمذى : حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا شبابة ، عن عبد الله بن العلاء ، عن الضحاك بن عبد الرحمن بن عزم الأشعري قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال النبى ﷺ : « إن أول ما يسأل عنه - يعنى يوم القيامة - العبد من النعيم أن يقال له : ألم نُصِحْ لك جسمك ، ونُرْوَك من الماء البارد ؟ » .

(١) فى أ : « حتى دخل » .

(٣) المسند (٨١/٥) .

(٤) زيادة من أ .

(٥) المسند (٣٥١/٣) وسنن النسائي (٢٤٦/٦) .

(٦) فى أ : « عن محمد » .

(٩) المسند (٤٢٩/٥) .

(١٠) المسند (٣٧٢/٥) وسنن ابن ماجه برقم (٢١٤١) وقال البوصيرى فى الزوائد (١٥٨/٢) : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » .

(٧) فى م : « أى يوم » .

(٨) فى م : « فقال » .

تفرد به الترمذى . ورواه ابن حبان فى صحيحه ، من طريق الوليد بن مسلم ، عن عبد الله بن العلاء بن زبير ، به (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا مُسَدَّد ، حدثنا سفيان ، عن محمد بن عمرو ، عن يحيى بن حاطب ، عن عبد الله بن الزبير قال : قال الزبير : لما نزلت : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ (٢) لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ، قالوا : يا رسول الله ، لأى نعيم نسأل عنه ، وإنما هما الأسودان التمر والماء ؟ قال : « إن ذلك سيكون » . وكذا رواه الترمذى وابن ماجه ، من حديث سفيان — هو ابن عيينة — به (٣) . ورواه أحمد عنه (٤) ، وقال الترمذى : حسن .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو عبد الله الظهرانى ، حدثنا حفص بن عمر العدنى ، عن الحكم ابن أبان ، عن عكرمة قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ ، قالت الصحابة : يا رسول الله ، وأى نعيم نحن فيه ، وإنما نأكل فى أنصاف بطوننا خبز الشعير ؟ فأوحى الله إلى نبيه ﷺ : قل لهم : أليس تحتدون النعال ، وتشربون الماء البارد ؟ فهذا من النعيم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا محمد بن سليمان بن الأصبهاني ، عن ابن أبى لیلی — أظنه عن عامر — عن ابن مسعود ، عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ ، قال : « الأمن والصحة » (٦) .

وقال زيد بن أسلم ، عن رسول الله ﷺ : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ يعنى : شبع البطون ، وبارد الشراب ، وظلال المساكن ، واعتدال الخلق ، ولذة النوم . رواه ابن أبى حاتم بإسناده المتقدم ، عنه فى أول السورة .

وقال سعيد بن جبیر : حتى عن شربة عسل . وقال مجاهد : عن كل لذة من لذات الدنيا . وقال الحسن البصرى : نعيم الغداء والعشاء ، وقال أبو قلابة : من النعيم أكل العسل والسمن بالخبز النقى . وقول مجاهد هذا أشمل هذه الأقوال .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ ، قال : النعيم : صحة الأبدان والأسماع والأبصار ، يسأل الله العباد فيما استعملوها ، وهو أعلم بذلك منهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] .

وثبت فى صحيح البخارى ، وسنن الترمذى والنسائى وابن ماجه ، من حديث عبد الله بن سعيد ابن أبى هند ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من

(١) سنن الترمذى برقم (٣٣٥٨) وصحيح ابن حبان برقم (٧٣٢٠) « الإحسان » .

(٢) زيادة من أ .

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٣٥٦) وسنن ابن ماجه برقم (٤١٥٨) .

(٤) المسند (١٧٤/١) .

(٥) زيادة من أ .

(٦) ورواه عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد برقم (٨٥٥) من طريق محمد بن سليمان الأصبهاني ، به .

الناس : الصحة والفرغ » (١) .

ومعنى هذا : أنهم مقصرون فى شكر هاتين النعمتين ، لا يقومون بواجبهما ، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه ، فهو مغبون .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا القاسم بن محمد بن يحيى المروزى ، حدثنا على بن الحسن ابن شقيق ، حدثنا أبو حمزة ، عن ليث ، عن أبى فزارة ، عن يزيد بن الأصم ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما فوق الإزار ، وظل الحائط ، وخبز ، يحاسب به العبد يوم القيامة ، أو يسأل عنه » (٢) ، ثم قال : لا نعرفه إلا بهذا الإسناد .

وقال الإمام أحمد : حدثنا بهز وعفان قالا : حدثنا حماد — قال عفان فى حديثه : قال إسحاق ابن عبد الله ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « يقول الله ، عز وجل — قال عفان : يوم القيامة — : يابن آدم ، حملتك على الخيل والإبل ، وزوجتك النساء ، وجعلتك تربع (٣) وترأس ، فأين شكر ذلك ؟ » (٤) . تفرد به من هذا الوجه .

آخر تفسير سورة « التكاثر » (٥) [ولله الحمد والمنة] (٦)

(١) صحيح البخارى برقم (٦٤١٢) وسنن الترمذى برقم (٢٣٠٤) وسنن ابن ماجه برقم (٤١٧٠) .

(٢) مسند البزار برقم (٣٦٤٣) « كشف الاستار » وليث بن أبى سليم ضعيف .

(٣) فى أ : « ترتع » .

(٤) المسند (٤٩٢/٢) .

(٦) زيادة من أ .

(٥) فى م : « ألهاكم » .

تفسير سورة العصر

وهي مكية.

ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب [لعنه الله] ^(١) ، وذلك بعد ما بعث رسول الله ﷺ وقبل أن يسلم عمرو ، فقال له مسيلمة : ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة ؟ قال ^(٢) : لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة . فقال : وما هي ؟ فقال : ﴿ وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ . ففكر مسيلمة هنيهة ثم قال : وقد أنزل على مثلها . فقال له عمرو : وما هو ؟ فقال : يا وِبر يا وِبر ، إنما أنت أذنان وصدْر ، وسائرَكَ حفز نَفَز . ثم قال : كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو : والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب ^(٣) .

وقد رأيت أبا بكر الخرائطي أسند ^(٤) في كتابه المعروف بـ « مساوى الأخلاق » ، في الجزء الثانى منه ، شيئاً من هذا أو قريباً منه ^(٥) .

والوِبر : دويبة تشبه الهر ، أعظم شئ فيه أذناه ، وصدرة وباقيه دميم . فأراد مسيلمة أن يركب من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن ، فلم يرج ذلك على عابد الأوثان في ذلك الزمان .

وذكر الطبراني من طريق حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن عبد الله بن حصن [أبى مدينة] ، قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا ، لم يتفرقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر « سورة العصر » إلى آخرها ، ثم يسلم أحدهما على الآخر ^(٦) .

وقال الشافعى ، رحمه الله : لو تدبر الناس هذه السورة ، لوسعتهم .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا ﴾

(١) زيادة من أ . (٢) في م : « فقال » .

(٣) وفي صحة هذه القصة نظر ؛ فإن إسلام عمرو بن العاص متقدم على تنبئ مسيلمة ، فإن مسيلمة الكذاب تنبأ سنة عشر من الهجرة ، وكان قد وفد على النبي ﷺ مع قومه سنة عشرة من الهجرة ، كما في السيرة النبوية لابن هشام (٧٤/٣) . وعمرو بن العاص أسلم سنة ثمان على الأصح كما في الإصابة للحافظ ابن حجر (٢/٣) . ثم وقفت على ما نقله الحافظ ابن حجر في الإصابة (٢٢٥/٣) : أن عمراً بن العاص أرسله رسول الله ﷺ إلى البحرين وتوفي رسول الله ﷺ وهو هناك وأنه مر على مسيلمة وأنه أعطاه الأمان ثم قال له : إن محمداً أرسل في جسيم الأمر وأرسلت في المحقرات ... فذكر نحو القصة ، وعزاه لابن شاهين في الصحابة ، فعلى هذا يكون ما جاء هنا بعد إسلام عمرو بن العاص وليس قبل إسلامه ، والله أعلم .

(٤) في أ : « استدلل » .

(٥) لم أقف عليه في المطبوع من مساوى الأخلاق ، وقد ذكر الحافظ ابن حجر أن ابن شاهين وصل هذه القصة من طريق الليث عن خالد بن يزيد ، عن سعيد بن أبى هلال : « أن قرّة بن هبيرة قدم على رسول الله ... ثم ذكر أن رسول الله أرسل عمراً إلى البحرين ، فذكر نحو القصة » . انظر : الإصابة (٢٢٥/٣) .

(٦) المعجم الأوسط برقم (٥٠٩٧) « مجمع البحرين » .

بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ .

العصر : الزمان الذى يقع فيه حركاتُ بنى آدم ، من خير وشر .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : هو العشى ، والمشهور الأول .

فأقسم تعالى بذلك على أن الإنسان لفى خسر ، أى : فى خسارة وهلاك ، ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ، فاستثنى من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم ، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ وهو أداء الطاعات ، وترك المحرمات ، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ على المصائب والأقدار ، وأذى من يؤذى ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر .

آخر تفسير سورة « العصر » ولله الحمد والمنة

تفسير سورة ويل لكل همزة لمزة

وهي مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّصَدَّةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩) ﴾ .

الهماز : بالقول ، واللماز : بالفعل . يعنى : يزدرى بالناس ^(١) ويتنقص بهم . وقد تقدم بيان ذلك فى قوله : ﴿ هَمَّازٌ مِّثْلُ بَنِمِيمٍ ﴾ [القلم : ١١] .

قال ابن عباس : ﴿ هُمَزَةٌ لُّمَزَةٌ ﴾ : طعان معياف . وقال الربيع بن أنس : الهمزة ، يهمزه فى وجهه ، واللمزة ^(٢) من خلفه . وقال قتادة : يهمزه ويلمزه بلسانه وعينه ، ويأكل لحوم الناس ، ويطعن عليهم .

وقال مجاهد : الهمزة : باليد والعين ، واللمزة : باللسان . وهكذا قال ابن زيد . وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : همزة لحوم الناس .

ثم قال بعضهم : المراد بذلك الأخنس بن شريق . وقيل غيره . وقال مجاهد : هى عامة .

وقوله : ﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴾ أى : جمعه ^(٣) بعضه على بعض ، وأحصى عدده كقوله : ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ [المعارج : ١٨] . قاله السدى ، وابن جرير .

وقال محمد بن كعب فى قوله : ﴿ جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴾ : ألهاه ماله بالنهار ، هذا إلى ^(٤) هذا ، فإذا كان الليل ، نام كأنه جيفة .

وقوله : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ أى : يظن أن جمعه المال يخلده فى هذه الدار ؟ ﴿ كَلَّا ﴾ أى : ليس الأمر كما زعم ولا كما حسب . ثم قال تعالى : ﴿ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾ أى : ليلقى هذا الذى جمع مالا فعدده ^(٥) فى الحطمة وهى اسم من أسماء النار صفة ؛ لأنها تحطم من فيها . ولهذا قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ . نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ . الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴾ قال ثابت البنانى : تحرقهم إلى الأفئدة وهم أحياء ، ثم يقول : لقد بلغ منهم العذاب ، ثم يبكى .

(٣) فى م : « أى جمع » .

(٢) فى م : « ولمزة » .

(١) فى م : « على الناس » .

(٥) فى م : « فعدده » .

(٤) فى م : « فى » .

وقال محمد بن كعب : تأكل كل شيء من جسده ، حتى إذا بلغت فؤاده حَذَوَ حلقه ترجع على جسده .

وقوله : ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ﴾ أى : مطبقة كما تقدم تفسيره فى سورة البلد .

وقال ابن مردويه : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا على بن سراج ، حدثنا عثمان بن خرزاذ ، حدثنا شجاع بن أشرس ، حدثنا شريك ، عن عاصم ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ﴾ قال : « مطبقة » .

وقد رواه أبو بكر بن أبى شيبة ، عن عبد الله بن أسيد ، عن إسماعيل بن خالد ^(١) ، عن أبى صالح ، قوله ، ولم يرفعه .

﴿ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ : قال عطية العوفى : عمد من حديد . وقال السدّى : من نار . وقال شبيب بن بشر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ يعنى : الأبواب هى الممدودة ^(٢) .

وقال قتادة فى قراءة عبد الله بن مسعود : إنها عليهم مؤصدة بعمد ممددة .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : أدخلهم فى عمد فمدت عليهم بعماد ، وفى أعناقهم السلاسل فسدت بها الأبواب .

وقال قتادة : كنا نحدث أنهم يعذبون بعمد فى النار . واختاره ابن جرير .

وقال أبو صالح : ﴿ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ ، يعنى القيود الطوال .

آخر تفسير سورة « ويل لكل همزة لمزة »

(١) فى أ : « إسماعيل بن أبى خالد » .

(٢) فى أ : « هى الممددة » .

تفسير سورة الفيل

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّا كُؤِلَ (٥) ﴾ .

هذه من النعم التى امتن الله بها على قريش ، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل ، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود ، فأبادهم الله ، وأرغم أنافهم ، وخيب سعيهم ، وأضل عملهم ، وردهم بشر خيبة . وكانوا قوما نصارى ، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالا مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان . ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ ، فإنه فى ذلك العام ولد على أشهر الأقوال ، ولسان حال القدر يقول : لم ننصركم - يا معشر قريش - على الحبشة لخيريتكم عليهم ، ولكن صيانة للبيت العتيق الذى سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبى الأمى محمد ، صلوات الله وسلامه عليه (١) ، خاتم الأنبياء .

وهذه قصة أصحاب الفيل على وجه الإيجاز والاختصار والتقريب ، قد تقدم فى قصة أصحاب الأخدود (٢) : أن ذا نُوَاس - وكان آخر ملوك حمير ، وكان مشركاً - هو الذى قتل أصحاب الأخدود ، وكانوا نصارى ، وكانوا قريباً من عشرين ألفاً ، فلم يفلت منهم إلا دوس ذو ثعلبان ، فذهب فاستغاث بقيقصر ملك الشام - وكان نصرانياً - فكتب له إلى النجاشى ملك الحبشة ؛ لكونه أقرب إليهم ، فبعث معه أميرين : أرياط وأبرهة بن الصباح أبا يكسوم (٣) ، فى جيش كثيف ، فدخلوا اليمن فجاسوا خلال الديار ، واستلبوا الملك من حمير ، وهلك ذو نواس غريقاً فى البحر . واستقل الحبشة بملك اليمن وعليهم هذان الأميران : أرياط وأبرهة ، فاختلفا فى أمرهما وتصاولا وتقاتلا وتصافا ، فقال أحدهما للآخر : إنه لا حاجة بنا إلى اصطدام الجيشين بيننا ، ولكن ابرز إلى وأبرز إليك ، فأينا قتل الآخر ، استقل بعده بالملك . فأجابته إلى ذلك فتبارزا ، وخلف كل واحد منهما قناة ، فحمل أرياط على أبرهة فضربه بالسيف ، فشرم أنفه وفمه وشق وجهه ، وحمل عتودة مولى أبرهة على أرياط فقتله ، ورجع أبرهة جريحاً ، فداوى جرحه فبرأ ، واستقل بتدبير جيش الحبشة باليمن . فكتب (٤) إليه النجاشى يلومه على ما كان منه ، ويتوعده ويحلف ليطأن بلاده ويجزن ناصيته . فأرسل إليه أبرهة يترقق له ويصانعه ، وبعث مع رسوله بهدايا وتحف ، وبجراب فيها من تراب اليمن ، وجز ناصيته فأرسلها معه ، ويقول فى كتابه : ليطأ الملك على هذا الجراب فيبر قسمه ،

(١) فى أ : « ﷺ » .

(٢) عند تفسير الآية : ٤ من سورة البروج .

(٤) فى أ : « فأرسل » .

(٣) فى أ : « أبأ بكسوم » .

وهذه ناصيتي قد بعثت بها إليك . فلما وصل ذلك إليه أعجبه منه ، ورضى عنه ، وأقره على عمله . وأرسل أبرهة يقول للنجاشي : إني سأبني لك كنيسة بأرض اليمن لم يُبْنَ قبلها مثلها . فشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء ، رفيعة البناء ، عالية الفناء ، مزخرفة الأرجاء . سمىها العرب القُلَيْس ؛ لارتفاعها ؛ لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها . وعزم أبرهة الأشرم على أن يصرف حجَّ العرب إليها كما يُحَجُّ إلى الكعبة بمكة ، ونادى بذلك في مملكته ، فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك ، وغضبت قريش لذلك غضباً شديداً ، حتى قصدوا بعضهم ، وتوصل إلى أن دخلها ليلاً . فأحدث فيها وكرّاً راجعاً . فلما رأى السدنة ذلك الحدث ، رفعوا أمرهم إلى ملكهم أبرهة ، وقالوا له : إنما صنع هذا بعض قريش غضباً لبيتهم الذي ضاهيت هذا به ، فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة ، وليخربنه حجراً حجراً .

وذكر مقاتل بن سليمان أن فتية من قريش دخلوها فأججوا فيها ناراً ، وكان يوماً فيه هواء شديد فأحرقته ، وسقطت إلى الأرض .

فتأهب أبرهة لذلك ، وصار في جيش كثيف عَرَمَرَم ؛ لثلاث يصدّه أحد عنه ، واستصحب معه فيلاً عظيماً كبير الجثة لم ير مثله ، يقال له : محمود ، وكان قد بعثه إليه النجاشي ملك الحبشة لذلك . ويقال : كان معه أيضاً ثمانية أفيال . وقيل : اثنا عشر فيلاً . وقيل غيره ، والله أعلم . يعنى ليهدم به الكعبة ، بأن يجعل السلاسل في الأركان ، وتوضع في عُنُق الفيل ، ثم يزرع ليلقى الحائط جملة واحدة . فلما سمعت العرب بمسيره أعظموا ذلك جداً ، ورأوا أن حقاً عليهم المحاجة ^(١) دون البيت ، ورَدَّ من أراحه بكيد . فخرج إليه رجل [كان] ^(٢) من أشرف أهل اليمن وملوكهم ، يقال له « ذُو نُفَر » فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة ، وجهاده عن بيت الله ، وما يريد من هدمه وخرابه . فأجابوه وقاتلوا أبرهة ، فهزمهم لما يريد الله ، عز وجل ، من كرامة البيت وتعظيمه ، وأسر « ذُو نُفَر » فاستصحبه معه . ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم ، عَرَضَ له نُفَيْل بن حَبِيب الحُثَعَمِي في قومه : شهران وناهس ، فقاتلوه ، فهزمهم أبرهة ، وأسر نُفَيْل بن حَبِيب ، فأراد قتله ثم عفا عنه ، واستصحبه معه ليدله في بلاد الحجاز . فلما اقترب من أرض الطائف ، خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم ، الذي عندهم ، الذي يسمونه اللات . فأكرمهم وبعثوا معه « أبا رَغَال » دليلاً . فلما انتهى أبرهة إلى الْمُغَمَّس — وهو قريب من مكة — نزل به وأغار جيشه على سَرَح أهل مكة من الإبل وغيرها ، فأخذوه . وكان في السرح ^(٣) مائتا بعير لعبد المطلب . وكان الذي أغار على السرح بأمر أبرهة أمير المقدمة ، وكان يقال له : « الأسود بن مَقْصُود » فهجاه بعض العرب — فيما ذكره ابن إسحاق ^(٤) — وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة ، وأمره أن يأتيه بأشرف قريش ، وأن يخبره أن الملك لم يجئ لقتالكم إلا أن تصدوه عن البيت . فجاء حناطة قَدْلاً على عبد المطلب بن هاشم وبلغه عن أبرهة ما قال ، فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه ، وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم ، فإن يمنعه منه فهو بيته

(١) في أ : المحاجة .

(٢) زيادة من م ، أ .

(٣) في أ : « في السراح » .

(٤) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (٥١/١) .

وحرمه ، وإن يخلى بينه وبينه ، فوالله ما عندنا دَفْعٌ عنه . فقال له حناطة : فاذهب معي إليه . فذهب معه ، فلما رآه أبرهة أجله ، وكان عبد المطلب رجلاً جميلاً حسن المنظر ، ونزل أبرهة عن سريره ، وجلس معه على البساط ، وقال لترجمانه : قل له : حاجتك ؟ فقال للترجمان : إن حاجتي أن يرد على الملك مائتي بعير أصابها لى . فقال أبرهة لترجمانه : قل له : لقد كنت أعجبتي حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني ، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه ، لا تكلمني فيه ؟! فقال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل ، وإن للبيت ربا سيمنعه . قال : ما كان ليمنع مني ! قال : أنت وذاك .

ويقال : إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشراف العرب فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت ، فأبى عليهم ، ورد أبرهة على عبد المطلب إبله ، ورجع عبد المطلب إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة ، والتحصن في رؤوس الجبال ، تخوفاً عليهم من مَعرة الجيش . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، وقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لَاهُمْ^(١) إِنَّ الْمَرْءَ يَمُ
نَعُ رَحْلَهُ فَاْمُنْعُ حَلَالِكَ
لَا يَغْلِبُنَّ صَالِيَهُمْ
وَمَحَالُهُمْ غَدَوْاً مَحَالِكَ

قال ابن إسحاق : ثم أرسل عبد المطلب حلقة الباب ، ثم خرجوا إلى رؤوس الجبال^(٢) . وذكر مقاتل بن سليمان أنهم تركوا عند البيت مائة بدنة مقلدة ، لعل بعض الجيش^(٣) ينال منها شيئاً بغير حق ، فينتقم الله منه .

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة ، وهياً فيله - وكان اسمه محموداً - وعبأ جيشه ، فلما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال : « أبرك محمود ، أو ارجع راشداً من حيث جئت ، فإنك في بلد الله الحرام » . ثم أرسل أذنه ، فبرك الفيل . وخرج نفيل بن حبيب يشد حتى أصعد في الجبل . وضربوا الفيل ليقوم فأبى . فضربوا في رأسه بالطبرزين^(٤) وأدخلوا محاجن لهم في مرقاه فبزغوه بها ليقوم ، فأبى ، فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول . ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك . ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك . ووجهوه إلى مكة فبرك . وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبكسان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر في منقاره ، وحجران في رجله ، أمثال الحمص والعدس ، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك ، وليس كلهم أصابت . وخرجوا هاربين يتدرون الطريق ، ويسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق هذا . ونفيل على رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز ، ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النعمة ، وجعل نفيل يقول :

(١) في أ : « اللهم » .

(٢) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (٥٢/١) .

(٣) في م ، أ : « بعض الحبشة » .

(٤) في أ : « بالطورين من الآلات » .

أَيْنَ الْمَفْرُ؟ وَالْإِلَهُ الطَّالِبُ (١) والأشْرُمُ الْمَغْلُوبُ غَيْرُ الْغَالِبِ (٢)

قال ابن إسحاق : وقال نُفَيْلُ فِي ذَلِكَ أَيْضاً :

أَلَا حُيِّتَ عَنَا يَا رُدَيْنَا نَعْمَانُكُمْ مَعَ الْإِصْبَاحِ عَيْنَا
رُدَيْنَةُ ، لَوْ رَأَيْتَ - وَلَا تَرَيَهُ لَدَى جَنْبِ الْمُحْصَبِ - مَا رَأَيْنَا
إِذَا لَعَذَرْتَنِي وَحَمَدْتَ أَمْرِي وَلَمْ تَأْسَى عَلَى مَا فَاتَ بَيْنَنَا
حَمَدْتُ اللَّهَ إِذْ أَبْصَرْتُ طَيْراً وَخَفْتُ حَجَارَةً تُلْقَى عَلَيْنَا
فَكُلَّ الْقَوْمِ يَسْأَلُ عَنْ نُفَيْلٍ كَأَنَّ عَلَى الْحُبْشَانِ دَيْنَا !

وذكر الواقدي بأسانيده أنهم لما تعبوا لدخول الحرم وهيؤوا الفيل ، جعلوا لا يصرفونه إلى جهة من سائر الجهات إلا ذهب [فيها] (٣) ، فإذا وجهوه إلى الحرم ربض وصاح . وجعل أبرهة يحمل على سائس الفيل وينهره ويضربه ، ليقهر الفيل على دخول الحرم . وطال الفصل في ذلك . هذا وعبد المطلب وجماعة من أشراف مكة ، منهم (٤) المطعم بن عدي ، وعمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ، ومسعود [بن عمرو] (٥) الثقفي ، على حراء ينظرون إلى ما الحبشة يصنعون ، وماذا يلقون من أمر الفيل ، وهو العجب العجيب . فبينما هم كذلك ، إذ بعث الله عليهم طيراً أبابيل ، أى قطعاً قطعاً صفراً دون الحمام ، وأرجلها حمر ، ومع كل طائر ثلاث أحجار ، وجاءت فحلقت عليهم ، وأرسلت تلك الأحجار عليهم فهلكوا .

وقال محمد بن كعب : جاؤوا بفيلين فأما محمود فربض ، وأما الآخر فشجع (٦) فحُصِبَ .

وقال وهب بن منبه : كان معهم فيلة ، فأما محمود - وهو فيل الملك - فربض ، ليقبض به بقية الفيلة ، وكان فيها فيل تشجع فحُصِبَ ، فهربت بقية الفيلة .

وقال عطاء بن يسار ، وغيره : ليس كلهم أصابه العذاب في الساعة الراهنة ، بل منهم من هلك سريعاً ، ومنهم من جعل يتساقط عضواً عضواً وهم هاربون ، وكان أبرهة ممن يتساقط عضواً عضواً ، حتى مات ببلاد خثعم .

قال ابن إسحاق : فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون على كل منهل (٧) ، وأصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع صدره عن (٨) قلبه فيما يزعمون .

وذكر مقاتل بن سليمان : أن قريشاً أصابوا مالاً جزيلاً من أسلابهم ، وما كان معهم ، وأن عبد المطلب أصاب يومئذ من الذهب ما ملأ حفرة .

(١) في م : « الغالب » .

(٢) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (٥٣/١) وتفسير الطبري (١٩٦/٣٠) .

(٣) زيادة من م ، أ .

(٤) في م ، أ : « فيهم » .

(٥) زيادة من م ، أ .

(٦) في م : « كل سهل » .

(٧) في أ : « من » .

(٨) في أ : « فخشع » .

وقال ابن إسحاق : وحدثني يعقوب بن عتبة : أنه حدث (١) أن أول ما رؤيت الحصبة والجُدري بأرض العرب ذلك العام ، وأنه أول ما رؤى به مرائر الشجر الحرمل ، والحنظل والعُشر ، ذلك العام (٢) .

وهكذا روى عن عكرمة ، من طريق جيد .

قال ابن إسحاق : فلما بعث الله محمداً ﷺ كان فيما يعد به على قريش من نعمته (٣) عليهم وفضله ، ما ردّ عنهم من أمر الحبشة ، لبقاء أمرهم ومدتهم ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ . وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سَجِيلٍ . فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ . ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ . إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [سورة قريش] أى : لثلا غير شيئاً من حالهم التى كانوا عليها ، لما أراد الله بهم من الخير لو قبلوه .

قال ابن هشام : الأبايل الجماعات ، ولم تتكلم العرب بواحدة . قال : وأما السجيل ، فأخبرني يونس النحوى وأبو عبيدة أنه عند العرب : الشديد الصلب . قال : وذكر بعض المفسرين أنهما كلمتان بالفارسية ، جعلتهما العرب كلمة واحدة ، وإنما هو سنج وجل يعنى بالسنج : الحجر ، والجل : الطين . يقول : الحجارة من هذين الجنسين : الحجر والطين . قال : والعصف : ورق الزرع الذى لم يقضب ، واحدته عصفه . انتهى ما ذكره (٤) .

وقد قال حماد بن سلمة : عن عاصم ، عن زر ، عن عبد الله - وأبو سلمة بن عبد الرحمن - : ﴿ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ قال : الفرق (٥) .

وقال ابن عباس ، والضحاك : أبابيل يتبع بعضها بعضاً . وقال الحسن البصرى ، وقتادة : الأبايل : الكثيرة . وقال مجاهد : أبابيل : شتى متتابعة مجتمعة . وقال ابن زيد : الأبايل : المختلفة ، تأتى من هاهنا ، ومن هاهنا ، أتتهم من كل مكان .

وقال الكسائى : سمعت [النحويين يقولون : أبول مثل العجول . قال : وقد سمعت] (٦) بعض النحويين يقول : واحد الأبايل : إيل .

وقال ابن جرير : [حدثنا ابن المثنى] (٧) ، حدثني عبد الأعلى ، حدثني داود ، عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن نوفل ؛ أنه قال فى قوله : ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ هى : الأقاطيع ، كالإبل المؤبلة .

(١) فى أ : « أنه حدثه » .

(٢) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (٥٤/١) .

(٣) فى أ : « من بعته » .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٥٥/١) .

(٥) فى أ : « الغرق » .

(٦، ٧) زيادة من تفسير الطبرى (٣٠/١٩١) .

وحدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا وَكِيع ، عن ابن عون ، عن ابن سيرين ، عن ابن عباس : ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ قال : لها خراطيم كخراطيم الطير ، وأكف كأكف الكلاب .

وحدثنا يعقوب ، حدثنا هُشَيْم ، أخبرنا حصين عن عكرمة في قوله : ﴿ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ قال : كانت طيراً خضراً خرجت من البحر ، لها رؤوس كرؤوس السباع .

وحدثنا ابن بشار ، حدثنا ابن مهدي ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن عبيد ابن عمير : ﴿ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ قال : هي طير ^(١) سود بحرية ، في منقارها ^(٢) وأظافيرها الحجارة . وهذه أسانيد صحيحة .

وقال سعيد بن جبير : كانت طيراً خضراً لها مناقير صفر ، تختلف عليهم .

وعن ابن عباس ، ومجاهد ، وعطاء : كانت الطير الأبابل مثل التي يقال لها عنقاء مغرب . رواه عنهم ابن أبي حاتم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زُرْعَةَ ، حدثنا عبد الله بن محمد بن أبي شيبة ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن عبيد بن عمير ، قال : لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل ، بعث عليهم طيراً أنشئت من البحر ، أمثال الخطاطيف . كل طير منها تحمل ثلاثة أحجار مُجَزَّعة : حجرين في رجله وحجراً في منقاره . قال : فجاءت حتى صفت على رؤوسهم ، ثم صاحت وألقت ما في أرجلها ومناقيرها ، فما يقع حجر على رأس رجل إلا خرج من دبره ، ولا يقع على شيء من جسده إلا وخرج من الجانب الآخر . وبعث الله ريحاً شديدة فضربت الحجارة فزادتها شدة فأهلكوا جميعاً .

وقال السُّدِّي ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿ حِجَارَةٌ مِّنْ سِجِّيلٍ ﴾ قال : طين في حجارة : « سنك - وكل » وقد قدمنا بيان ذلك بما أغنى عن إعادته هاهنا .

وقوله : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّاكُولٍ ﴾ : قال سعيد بن جبير : يعنى التبن الذى تسميه العامة : هبور . وفى رواية عن سعيد : ورق الخنطة . وعنه أيضاً : العصف : التبن . والمأكول : القصيل يجز للدواب . وكذلك قال الحسن البصرى .

وعن ابن عباس : العصف : القشرة التى على الحبة ، كالغلاف على الخنطة .

وقال ابن زيد : العصف : ورق الزرع ، وورق البقل ، إذا أكلته البهائم فرائثه ، فصار درينا ^(٣) .

والمعنى : أن الله ، سبحانه وتعالى ، أهلكهم ودمرهم ، وردهم بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيراً ، وأهلك عامتهم ، ولم يرجع منهم بخير إلا وهو جريح ، كما جرى للملكهم أبرهة ، فإنه انصدع صدره عن قلبه حين وصل إلى بلده صنعاء ، وأخبرهم بها ^(٤) جرى لهم ، ثم مات . فملك بعده ابنه

(٣) فى م : « دونا » .

(٢) فى ١ : « فى مناقيرها » .

(١) فى م : « هى طيور » .

(٤) فى م : « بما » .

يَكْسُومُ، ثم من بعده أخوه مسروق بن أبرهة^(١). ثم خرج سيف بن ذى يَزَنَ الحميري إلى كسرى فاستغاثه^(٢) على الحبشة، فأنفذ معه من جيوشه فقاتلوا معه، فرد الله إليهم ملكهم، وما كان في آبائهم من الملك، وجاءته وفود العرب للتهنئة.

وقد قال محمد بن إسحاق: حدثنا عبد الله بن أبي بكر، عن عمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد ابن زرارة، عن عائشة قالت: لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مُقْعَدَيْنِ، يستطعمان^(٣). ورواه الواقدي، عن عائشة مثله. ورواه أيضاً عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: كانا مقعدين يستطعمان الناس، عند إساف ونائلة، حيث يذبح المشركون ذبائحهم.

قلت: كان اسم قائد الفيل: أنيساً.

وقد ذكر الحافظ أبو نعيم في كتاب «دلائل النبوة» من طريق ابن وهب، عن ابن لهيعة عن عقيل بن خالد، عن عثمان بن المغيرة قصة أصحاب الفيل، ولم يذكر أن أبرهة قدم من اليمن، وإنما بعث على الجيش رجلاً يقال له: شمر بن مفسود، وكان الجيش عشرين ألفاً، وذكر أن الطير طرقتهم ليلاً، فأصبحوا صرعى.

وهذا السياق غريب جداً، وإن كان أبو نعيم قد قواه ورَّجحه على غيره. والصحيح أن أبرهة الأشرم الحبشي قدم مكة كما دل على ذلك السياقات والأشعار. وهكذا روى ابن لهيعة، عن الأسود، عن عروة: أن أبرهة بعث الأسود بن مفسود على كتيبة معهم الفيل، ولم يذكر قدوم أبرهة نفسه، والصحيح قدومه، ولعل ابن مفسود كان على مقدمة الجيش، والله أعلم.

ثم ذكر ابن إسحاق شيئاً من أشعار العرب، فيما كان من قصة أصحاب الفيل، فمن ذلك شعر عبد الله بن الزبيري:

تَنَكَّلُوا عَنْ بَطْنِ مَكَّةَ إِنَّهَا	كَانَتْ قَدِيمًا لَا يُرَامُ حَرِيمُهَا
لَمْ تُخْلَقِ الشَّعْرَى لِيَالِي حُرْمَتِ	إِذْ لَا عَزِيزَ مِنَ الْأَنَامِ يَرُومُهَا
سَائِلَ أَمِيرِ الْجَيْشِ عَنْهَا مَا رَأَى؟	فَلَسَوْفَ يُنْبِئُ الْجَاهِلِينَ عَلِيمُهَا
سَتُونَ أَلْفًا لَمْ يَوْوَبُوا أَرْضَهُمْ	بَلْ لَمْ يَعِشْ بَعْدَ الْإِيَابِ سَقِيمُهَا
كَانَتْ بِهَا عَادٌ وَجُرْهُمُ قَبْلَهُمْ	وَاللَّهُ مِنْ فَوْقِ الْعِبَادِ يُقِيمُهَا ^(٤)

وقال أبو قيس^(٥) بن الأسلت الأنصاري المري^(٦):

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٦١، ٦٢).

(٢) في م: «فاستغاثه».

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٥٧).

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٥٨).

(٥) في م، أ: «المدني».

(٦) في م: «أبو القيس».

ومن صنّعه يوم فيل الحَبُوبِ ش ، إذ كل ما بَعَثُوهُ رَزَمَ
محاجنهم تحت أقرابه وقد شَرَمُوا أنفه فانخرم
وقد جعلوا سوطه مغولاً إذا يَمَمُّوه قَفَاهُ كَلِيمٍ
فَسَوَّلَ^(١) أدبر أدراجَه وقد بَاءَ بالظلم من كان ثم
فأرسل من فوقهم حاصباً يَلْفُهُمْ مِثْلَ لَفِّ الْقَزَمِ
تحت على الصَّبرِ أحبارُهم وَقَدْ تَأَجُّوا كَثُوجَ الْغَنَمِ

وقال أبو الصلت بن أبي ربيعة الثقفى ، ويروى لأمية بن أبي الصلت بن أبي ربيعة :

إن آيات ربِّنا باقياتُ مَا يُمَارَى فِيهِنَّ إِلَّا الْكُفُورُ
خُلِقَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ فَكُلٌّ مُسْتَبِينَ حَسَابُهُ مَقْدُورُ
ثم يجلو النهارَ ربُّ رحيمٍ بِمِهَاةٍ شُعَاعُهَا مَنْشُورُ
حَبَسَ الْفِيلُ بِالْمَغْمَسِ حَتَّى صَارَ يَحْبُو ، كَأَنَّهُ مَعْقُورُ
لَا زَمًا حَلَقَهُ الْجِرَانُ كَمَا قَطَرُ مِنْ ظَهْرٍ كَبَكَبٍ مَحْدُورُ
حَوْلَهُ مِنْ مُلُوكٍ كِنْدَةٍ أَبْطَالُ مَلَاوِيثُ فِي الْحُرُوبِ صُقُورُ
خَلَفُوهُ ثُمَّ ابْدَعُوا جَمِيعاً ، كُلَّهُم عَظْمٌ سَاقَهُ مَكْسُورُ
كُلَّ دِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ الـ لَهُ إِلَّا دِينَ الْحَنِيفَةِ بَورُ

وقد قدمنا فى تفسير « سورة الفتح » أن رسول الله ﷺ لما أطل يوم الحديبية على الشية التى تهبط به على قريش ، بركت ناقته ، فزجروها فألحَّت ، فقالوا : خلأت القصواء ، أى : حرّنت . فقال رسول الله ﷺ : « ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل » ثم قال : « والذى نفسى بيده ، لا يسألونى اليوم خطة يُعَظَمُونَ فيها حُرُمَاتِ الله ، إلا أجبتهم إليها » . ثم زجرها فقامت . والحديث من أفراد البخارى^(٢) .

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة : « إن الله حبس عن مكة الفيل ، وسلَّط عليها رسوله والمؤمنين ، وإنه قد عادت حُرُمَتُهَا اليوم كحرمتها بالأمس ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب »^(٣) .

آخر تفسير سورة « الفيل »

(١) فى م ، أ : « فولى و » .
(٢) تقدم تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية : ٢٦ من سورة الفتح ، وهو فى صحيح البخارى برقم (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .
(٣) صحيح البخارى برقم (١١٢) وصحيح مسلم برقم (١٣٥٥) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

تفسير سورة لإيلاف قريش

وهي مكية .

ذكر حديث غريب في فضلها : قال البيهقي في كتاب « الخلافيات » : حدثنا أبو عبد الله الحافظ ، حدثنا بكر بن محمد بن حمدان الصيرفي بمرو ، حدثنا أحمد بن عبيد الله النرسي (١) ، حدثنا يعقوب بن محمد الزهري ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن ثابت بن شريحيل ، حدثني عثمان بن عبد الله [بن] (٢) أبي عتيق ، عن سعيد بن عمرو بن جعدة بن هبيرة ، عن أبيه ، عن جدته أم هانئ بنت أبي طالب ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « فضل الله قريشاً بسبع خلال : أنى منهم (٣) ، وأن النبوة فيهم ، والحجابة ، والسقاية فيهم ، وأن الله نصرهم على الفيل ، وأنهم عبدوا الله ، عز وجل ، عشر سنين لا يعبد غيرهم ، وأن الله أنزل فيهم سورة من القرآن » ثم تلاها رسول الله : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ . إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ (٤) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ .

هذه السورة مفصولة عن التي قبلها في المصحف الإمام ، كتبوا بينهما سطر ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ وإن كانت متعلقة بما قبلها . كما صرح بذلك محمد بن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ؛ لأن المعنى عندهما : حبسنا عن مكة الفيل وأهلكنا أهله ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ أى : لاثتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمين .

وقيل : المراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن ، وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك ، ثم يرجعون إلى بلدهم آمين في أسفارهم ؛ لعظمتهم عند الناس ، لكونهم سكان حرم الله ، فمن عرفهم احترمهم ، بل من صوفى إليهم وسار معهم أمن بهم . هذا (٥) حالهم في أسفارهم ورحلتهم في شتائهم وصيفهم . وأما في حال إقامتهم في البلد ، فكما قال الله : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٧] . ولهذا قال : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ . إِيْلَافِهِمْ ﴾ ، بدل من الأول ومفسر له . ولهذا قال : ﴿ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ .

(١) في م ، أ ، هـ : « الزينى » وهو خطأ . (٢) زيادة من م ، أ . (٣) في أ : « أنى فيهم » .

(٤) ورواه البيهقي في مناقب الشافعي (٣٤/١) وهو في المستدرک (٥٣٦/٢) وقال الحاكم : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ، وتعبه الذهبي فقال : « فيه يعقوب بن محمد الزهري ضعيف ، وإبراهيم صاحب مناكير هذا أنكرها » وقد حسن الحافظ العراقي هذا الحديث . وللشيخ ناصر الدين الألباني مبحث حول هذا الحديث في السلسلة الصحيحة برقم (١٩٤٤) ذهب إلى تحسينه ، والله أعلم .

(٥) في م : « وهذا » .

وقال ابن جرير : الصواب أن « اللام » لام التعجب ، كأنه يقول : اعجبوا لإيلاف قريش ونعمتي عليهم في ذلك . قال : وذلك لإجماع المسلمين على أنهما سورتان منفصلتان مستقلتان (١) .

ثم أرشدتهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة فقال : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ أى : فليؤحدوه بالعبادة ، كما جعل لهم حرماً آمناً وبيتاً محرماً ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٩١] .

وقوله : ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ ﴾ أى : هو رب البيت ، وهو الذى أطعمهم من جوع ، ﴿ وَأَمَّنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ أى : تفضل عليهم بالأمن والرخص (٢) ، فليفرده بالعبادة وحده لا شريك له ، ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا ندأ ولا وثناً . ولهذا من استجاب لهذا الأمر جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة ، ومن عصاه سلبهما منه ، كما قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمَنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [النحل: ١١٢، ١١٣] .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا عبد الله بن عمرو العدننى ، حدثنا قبيصة ، حدثنا سفيان ، عن ليث ، عن شهر بن حوشب ، عن أسماء بنت يزيد قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ويل أمكم ، قريش ، لإيلاف قريش » (٣) . ثم قال :

حدثنا أبى ، حدثنا المؤمل بن الفضل الحرانى ، حدثنا عيسى - يعنى ابن يونس - عن عبيد الله ابن أبى زياد ، عن شهر بن حوشب ، عن أسامة بن زيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . ويحكم يا معشر قريش ، اعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمكم من جوع وآمنكم من خوف » .

هكذا رأيته عن أسامة بن زيد ، وصوابه عن أسماء بنت يزيد بن السكن ، أم سلمة الأنصارية ، رضى الله عنها (٤) . فلعلة وقع غلط فى النسخة أو فى أصل الرواية ، والله أعلم .

آخر تفسير سورة « لإيلاف قريش »

(١) تفسير الطبرى (١٩٨/٣٠) .

(٢) فى ١ : « والترخص » .

(٣) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٧٨، ١٧٧/٢٤) من طريق قبيصة بن عقبة ، عن سفيان ، به .

(٤) وكذا فى رواية الإمام أحمد فى المسند (٤٦٠/٦) عن على بن يحيى ، عن عيسى بن يونس ، عن عبد الله بن أبى زياد ، عن شهر بن حوشب ، عن أسماء بنت يزيد عن النبى ﷺ .

تفسير السورة التى يذكر فيها الماعون

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يُحِضُّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)﴾ .

يقول تعالى : أَرَأَيْتَ - يا محمد - (١) الذى يكذب بالدين ؟ وهو : المعاد والجزاء والثواب ، ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ أى : هو الذى يقهر اليتيم ويظلمه حقه ، ولا يطعمه ولا يحسن إليه ، ﴿وَلَا يُحِضُّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ . وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [الفجر: ١٧، ١٨] يعنى : الفقير الذى لا شىء له يقوم بأوده وكفايته .

ثم قال : ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ، قال ابن عباس ، وغيره : يعنى المنافقين ، الذين يصلون فى العلانية ولا يصلون فى السر .

ولهذا قال : ﴿لِلْمُصَلِّينَ﴾ أى : الذين هم من أهل الصلاة وقد التزموا بها ، ثم هم عنها ساهون ، إما عن فعلها بالكلية ، كما قاله ابن عباس ، وإما عن فعلها فى الوقت المقدر لها شرعا ، فيخرجها عن وقتها بالكلية ، كما قاله مسروق ، وأبو الضحى .

وقال عطاء بن دينار : والحمد لله الذى قال : ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ، ولم يقل : فى صلاتهم ساهون .

وإما عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائما أو غالبا . وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به . وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها ، فاللفظ يشمل هذا كله ، ولكل من اتصف بشىء من ذلك قسط من هذه الآية . ومن اتصف بجميع ذلك ، فقد تم نصيبه منها ، وكمل له النفاق العملى . كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، يجلس يرقب الشمس ، حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً » (٢) . فهذا آخر صلاة العصر التى هى الوسطى ، كما ثبت به النص إلى آخر وقتها ، وهو وقت كراهة ، ثم قام إليها فنقرها نقر الغراب ، لم يطمئن ولا خشع فيها أيضا ؛ ولهذا قال : « لا يذكر الله فيها إلا قليلاً » . ولعله إنما حملة على القيام إليها مراعاة الناس ، لا ابتغاء وجهه

(١) فى م : « يا محمد أَرَأَيْتَ » .

(٢) صحيح مسلم برقم (٦٢٢) ولم أقع عليه فى صحيح البخارى ، ولم يعزه المزى له فى تحفة الأشراف .

الله ، فهو إذا لم يصل بالكلية . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالً يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢] . وقال هاهنا : ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ .

وقال الطبراني: حدثنا يحيى بن عبد الله بن عبدويه ^(١) البغدادي ، حدثني أبي ، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء ، عن يونس ، عن الحسن ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : « إن في جهنم لوادياً ^(٢) ، تستعيز جهنم من ذلك الوادى في كل يوم أربعمئة مرة ، أعد ذلك الوادى للمرائين من أمة محمد : لحامل كتاب الله ، وللمصدق في غير ذات الله ، وللحاج إلى بيت الله ، وللخارج في سبيل الله » ^(٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا الأعمش ، عن عمرو بن مرة قال : كنا جلوساً عند أبي عبيدة فذكروا الرياء ، فقال رجل يكنى بأبي يزيد : سمعت عبد الله بن عمرو يقول : قال رسول الله ﷺ : « من سمع الناس بعمله ، سمع الله به سامع خلقه ، وحقره وصغره » ^(٤) .
ورواه أيضاً عن غندر ويحيى القطان ، عن شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن رجل ، عن عبد الله ابن عمرو ، عن النبي ﷺ ، فذكره ^(٥) .

ومما يتعلق بقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ : أن من عمل عملاً لله فاطلع عليه الناس ، فأعجبه ذلك ، أن هذا لا يعد رياء ، والدليل على ذلك ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى في مسنده : حدثنا هارون بن معروف ، حدثنا مخلد بن يزيد ، حدثنا سعيد بن بشير ، حدثنا الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : كنت أصلى ، فدخل على رجل ، فأعجبني ذلك ، فذكرته لرسول الله ﷺ ، فقال : « كتب لك أجران : أجر السر ، وأجر العلانية » ^(٦) .

قال أبو على هارون بن معروف : بلغني أن ابن المبارك قال : نعم الحديث للمرائين .

وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، وسعيد بن بشير متوسط ، وروايته عن الأعمش عزيزة . وقد رواه غيره عنه .

قال أبو يعلى أيضاً : حدثنا محمد بن المثني بن موسى ، حدثنا أبو داود ، حدثنا أبو سنان ، عن حبيب بن أبي ثابت ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رجل : يا رسول الله ، الرجل يعمل العمل يسره ، فإذا اطلع عليه أعجبه . قال : قال رسول الله ﷺ : « له أجران : أجر السر

(١) في م ، أ : « عبد ربه » . (٢) في م ، أ : « لواد » .

(٣) المعجم الكبير (١٢/١٧٥) ، وقال المنذرى في الترغيب والترهيب (١/٦٧) : « رفع حديث ابن عباس غريب ، ولعله موقوف ، والله أعلم » .

(٤) المسند (٢١٢/٢) .

(٥) المسند (١٦٢/٢) .

(٦) ورواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٤٩٤٩) « مجمع البحرين » ، وقال الطبراني : « لم يروه عن سعيد إلا محمد بن معاذ ، ومحمد بن بكار » . وقال الهيثمي في المجمع (١٠/٢٩٠) : « رجاله ثقات » . قلت : سعيد بن بشير ضعفه الأئمة .

وأجر العلانية» (١).

وقد رواه الترمذى عن محمد بن المثني ، وابن ماجه عن بُندَار ، كلاهما عن أبى داود الطيالسى ، عن أبى سنان الشيبانى (٢) — واسمه : ضرار بن مرة . ثم قال الترمذى : غريب ، وقد رواه الأعمش وغيره . عن حبيب ، عن [النبي ﷺ] (٣) ، مرسلًا .

وقد قال أبو جعفر بن جرير : حدثني أبو كُرَيْب ، حدثنا معاوية بن هشام ، عن شيبان النحوى ، عن جابر الجعفى ، حدثني رجل ، عن أبى برزة الأسلمى قال : قال رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ قال : « الله أكبر ، هذا خير لكم من أن لو أعطى كل رجل منكم مثل جميع الدنيا ، هو الذى إن صلى لم يَرْجُ خير صلاته ، وإن تركها لم يخف ربه » (٤) . فيه جابر الجعفى ، وهو ضعيف ، وشيخه مُبهم لم يُسم ، والله أعلم .

وقال ابن جرير أيضا : حدثني زكريا بن أبان المصرى ، حدثنا عمرو بن طارق ، حدثنا عكرمة بن إبراهيم ، حدثني عبد الملك بن عمير (٥) ، عن مصعب بن سعد ، عن سعد بن أبى وقاص قال : سألت رسول الله ﷺ عن : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ قال : « هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها » (٦) .

وتأخير الصلاة عن وقتها يحتمل تركها بالكلية ، أو صلاتها بعد وقتها شرعا ، أو تأخيرها عن أول الوقت [سهواً حتى ضاع] (٧) الوقت .

وكذا رواه الحافظ أبو يعلى عن شيبان بن فروخ ، عن عكرمة بن إبراهيم ، به . ثم رواه عن أبى الربيع ، عن جابر ، عن عاصم ، عن مصعب ، عن أبيه موقوفاً (٨) . وهذا أصح إسناداً ، وقد ضعف البيهقى (٩) رفعه ، وصحح وقفه ، وكذلك الحاكم .

وقوله : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ أى : لا أحسنوا عبادة ربهم ، ولا أحسنوا إلى خلقه حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به ، مع بقاء عينه ورجوعه إليهم . فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القُرْبَات أولى وأولى . وقد قال ابن أبى نجیح ، عن مجاهد : قال على : الماعون : الزكاة . وكذا رواه السدى ، عن أبى صالح ، عن على . وكذا روى من غير وجه عن ابن عمر . وبه يقول محمد بن الحنفية ، وسعيد بن جبیر ، وعكرمة ، ومجاهد ، وعطاء ، وعطية العوفى ، والزهرى ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد .

(١) الحديث فى مسند الطيالسى برقم (٢٤٣٠) .

(٢) سنن الترمذى برقم (٢٣٨٥) ، وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٢٦) .

(٣) فى م ، أ ، هـ : « عن أبى صالح » ، والمثبت من تحفة الأحوذى ، مستفاداً من هامش ط . الشعب .

(٤) تفسير الطبرى (٢٠٢/٣٠) .

(٥) فى أ : « بن عمر » .

(٦) تفسير الطبرى (٢٠٢/٣٠) .

(٧) زيادة من م ، أ .

(٨) مسند أبى يعلى (٦٣/٢) .

(٩) السنن الكبرى (٢١٤/٢) .

وقال الحسن البصري : إن صلى راعى ، وإن فاتته لم يأس عليها ، ويمنع زكاة ماله . وفى لفظ : صدقة ماله .

وقال زيد بن أسلم : هم المنافقون ، ظهرت الصلاة فصلوها ، وضمنت الزكاة فمنعوها .

وقال الأعمش وشعبة ، عن الحكم ، عن يحيى بن الجزار : أن أبا العبيدين سأل عبد الله بن مسعود عن الماعون ، فقال : هو ما يتعاوره الناس بينهم من الفأس ، والقدر ، [والدلو] ^(١) .

[وقال المسعودى ، عن سلمة بن كهيل ، عن أبى العبيدين : أنه سئل ابن مسعود عن الماعون ، فقال : هو ما يتعاطاه الناس بينهم ، من الفأس والقدر ^(٢) ، والدلو ، وأشبه ذلك .

وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن عبيد المحاربى ، حدثنا أبو الأحوص ، عن أبى إسحاق ، عن أبى العبيدين وسعد بن عياض ، عن عبد الله قال : كنا أصحاب رسول الله ^(٣) ﷺ نتحدث أن الماعون الدلو ، والفأس ، والقدر ، لا يستغنى عنهن .

وحدثنا خلاد بن أسلم ، أخبرنا النضر بن شميل ، أخبرنا شعبة ، عن أبى إسحاق قال : سمعت سعد بن عياض يحدث عن أصحاب النبى ﷺ مثله ^(٤) .

وقال الأعمش ، عن إبراهيم ، عن الحارث بن سويد ، عن عبد الله : أنه سئل عن الماعون ، فقال : ما يتعاوره الناس بينهم : الفأس والدلو ، وشبهه .

وقال ابن جرير : حدثنا عمرو بن على الفلاس ، حدثنا أبو داود — هو الطيالسى — حدثنا أبو عوانة ، عن عاصم بن بهدكة ، عن أبى وائل ، عن عبد الله قال : كنا مع نبينا ﷺ ونحن نقول : الماعون : منع الدلو وأشبه ذلك ^(٥) .

وقد رواه أبو داود والنسائى ، عن قتيبة ، عن أبى عوانة بإسناده ، نحوه ^(٦) . ولفظ النسائى عن عبد الله قال : كل معروف صدقة ، كنا ^(٧) نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية الدلو والقدر .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن عاصم ، عن زر ، عن عبد الله قال : الماعون : العوارى : القدر ، والميزان ، والدلو .

وقال ابن أبى نجیح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ يعنى : متاع البيت . وكذا قال مجاهد وإبراهيم النخعى ، وسعيد بن جبیر ، وأبو مالك ، وغير واحد : إنها العارية للأمتعة .

وقال ليث بن أبى سليم ، عن مجاهد ^(٨) ، عن ابن عباس : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ قال : لم يجئ أهلها بعد .

(٣) فى م : « كنا أصحاب محمد » .

(١) زيادة من م ، أ .

(٤) تفسير الطبرى (٢٠٥/٣٠) .

(٥) تفسير الطبرى (٢٠٦/٣٠) .

(٦) سنن أبى داود برقم (١٦٥٧) ، وسنن النسائى الكبيرى برقم (١١٧٠١) .

(٨) فى م : « ومجاهد » .

(٧) فى م : « وكنا » .

وقال العوفى عن ابن عباس : ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ قال : اختلف الناس فى ذلك ، فمنهم من قال : يمنعون الزكاة . ومنهم من قال : يمنعون الطاعة . ومنهم من قال : يمنعون العارية . رواه ابن جرير . ثم روى عن يعقوب بن إبراهيم ، عن ابن عُلَيَّة ، عن ليث بن أبى سليم ، عن أبى إسحاق ، عن الحارث ، عن على : الماعون : منع الناس الفأس ، والقدر ، والدلو .

وقال عكرمة : رأس الماعون زكاةُ المال ، وأدناه المنخل ، والدلو ، والإبرة . رواه ابن أبى حاتم . وهذا الذى قاله عكرمة حسن ؛ فإنه يشمل الأقوال كلها ، وترجع كلها إلى شىء واحد . وهو ترك المعاونة بمال أو منفعة . ولهذا قال محمد بن كعب : ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ قال : المعروف . ولهذا جاء فى الحديث : « كل معروف صدقة » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا وكيع ، عن ابن أبى ذئب ، عن الزهرى : ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ قال : بلسان قريش : المال .

وَرَوَى هَاهُنَا حَدِيثاً غَرِيباً عَجِيباً فى إسناده ومتنه ، فقال : حدثنا أبى ، وأبو زُرْعَةَ قالا : حدثنا قيس ابن حفص الدارمى ، حدثنا دلهم بن دَهْثَم العجلي ، حدثنا عائذ بن ربيعة النُميرى ، حدثنى قرّة بن دُعْمُوص النُميرى : أنهم وفدوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، ما تعهد إلينا ؟ قال : « لا تمنعوا الماعون » . قالوا : يا رسول الله ، وما الماعون ؟ قال : « فى الحَجَر ، وفى الحديد ، وفى الماء » . قالوا : فأى حديدة ؟ قال : « قدوركم النحاس ، وحديد الفأس الذى تمتهنون به » . قالوا : وما الحَجَر ؟ قال : « قدوركم الحجارة » (١) .

غريب جدا ، ورفع منكر ، وفى إسناده من لا يعرف ، والله أعلم .

وقد ذكر ابن الأثير فى الصحابة ترجمة « على النُميرى » ، فقال : روى ابن قانع بسنده إلى عائذ ابن ربيعة بن قيس النُميرى ، عن على بن فلان النُميرى : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « المسلم أخو المسلم . إذا لقيه حيّاه بالسلام ، ويرد عليه ما هو خير منه ، لا يمنع الماعون » . قلت : يا رسول الله ، ما الماعون ؟ قال : « الحَجَر ، والحديد ، وأشباه ذلك » (٢) .

آخر تفسير سورة « الماعون »

(١) ورواه ابن مردويه أيضاً ، كما فى الدر المنثور (٦٤٤) .

(٢) أسد الغابة (٦٢٤/٣) .

تفسير سورة الكوثر

وهى مدنية ، وقيل : مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣) ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن فضيل ، عن المختار بن قُفْل ، عن أنس بن مالك قال : أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة ، فرفع رأسه مبتسما ، إما قال لهم وإما قالوا له : لم ضحكك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنه أنزلت على أنفا سورة » . فقرأ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ، حتى ختمها ، قال : « هل تدرون ما الكوثر ؟ » ، قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « هو نهر أعطانيه ربى ، عز وجل ، فى الجنة ، عليه خير كثير ، تردُّ عليه أمتى يوم القيامة ، آتيته عدد الكواكب ، يُختلجُ العبد منهم فأقول : يا رب ، إنه من أمتى . فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » (١) .

هكذا رواه الإمام أحمد بهذا الإسناد الثلاثى ، وهذا السياق .

وقد ورد فى صفة الحوض يوم القيامة أنه يَشْخَبُ فيه ميزابان من السماء عن نهر الكوثر ، وأن عليه آنية عددَ نجوم السماء . وقد روى هذا الحديث مسلم وأبو داود والنسائى ، من طريق محمد بن فضيل ، وعلى بن مُسْهِر ، كلاهما عن المختار بن قُفْل ، عن أنس . ولفظ مسلم قال : « بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا فى المسجد ، إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسما ، قلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : « أنزلت على أنفا سورة » ، فقرأ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ . ثم قال : « أتدرون ما الكوثر ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنه نهر وَعَدَنِيه ربى ، عز وجل ، عليه خير كثير ، هو حوض تردُّ عليه أمتى يوم القيامة ، آتيته عدد النجوم » (٢) ، فيختلجُ العبد منهم ، فأقول : رب إنه من أمتى . فيقول : إنك لا تدري ما أحدث بعدك » (٣) .

وقد استدلل به كثير من القراء على أن هذه السورة مدنية ، وكثير من الفقهاء على أن البسملة من السورة ، وأنها منزلة معها .

فأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ، فقد تقدم فى هذا الحديث أنه نهر فى الجنة . وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى ، عن أنس فقال : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ، أخبرنا ثابت ،

(١) المسند (١٠٢/٣) .

(٢) فى م ، أ : « عدد نجوم السماء » .

(٣) صحيح مسلم برقم (٤٠٠) وسنن أبى داود برقم (٤٧٤٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٧٠٢) .

عن أنس أنه قرأ هذه الآية ^(١) : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ . قال : قال رسول الله ﷺ : « أُعْطِيتُ الكوثر ، فإذا هو نهر يجرى ، ولم يُشَقْ شَقاً ، وإذا حافتاه قباب اللؤلؤ ، فضربت بيدي في تربته ، فإذا مسكه ذَفْرَةٌ ، وإذا حصاه اللؤلؤ » ^(٢) .

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا محمد بن أبي عدي ، عن حميد ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « دخلت الجنة فإذا أنا بنهر ، حافتاه خيام اللؤلؤ ، فضربت بيدي إلى ما يجرى فيه الماء ، فإذا مسك أذفر . قلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي أعطاكه الله ، عز وجل » ^(٣) .

ورواه البخاري في صحيحه ، ومسلم ، من حديث شيبان بن عبد الرحمن ، عن قتادة ، عن أنس ابن مالك قال : لما عُرِجَ بالنبي ﷺ إلى السماء قال : « أُتِيتُ على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف » ^(٤) ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر . وهذا لفظ البخاري ^(٥) ، رحمه الله .

وقال ابن جرير : حدثنا الربيع ، أخبرنا ابن وهب ، عن سليمان بن هلال ، عن شريك بن أبي نمر ، قال : سمعت أنس بن مالك يحدثنا قال : لما أسرى برسول الله ﷺ ، مضى به جبريل في ^(٦) السماء الدنيا ، فإذا هو بنهر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد ، فذهب يشم ترابه ، فإذا هو مسك . قال : « يا جبريل ، ما هذا النهر ؟ قال : هو الكوثر الذي خبأ لك ربك » ^(٧) .

وقد تقدم [في] ^(٨) حديث الإسراء في سورة « سبحان » ، من طريق شريك عن أنس [عن النبي ﷺ] ^(٩) . وهو مخرج في الصحيحين ^(١٠) .

وقال سعيد ، عن قتادة ، عن أنس : أن رسول الله ﷺ قال : « بينا أنا أسير في الجنة إذ عَرَضَ لى نهر ، حافتاه قباب اللؤلؤ مُجَوَّفٌ ، فقال الملك الذي معه : أتدرى ما هذا ؟ هذا الكوثر الذي أعطاك الله . وضرب بيده إلى أرضه ، فأخرج من طينه المسك » ^(١١) . وكذا رواه سليمان بن طرخان ، ومعمر وهمام وغيرهم ، عن قتادة ، به .

وقال ابن جرير : حدثنا أحمد بن أبي سريج ^(١٢) ، حدثنا أبو أيوب العباسي ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، حدثني محمد بن عبد الله ، ابن أخى ابن شهاب ، عن أبيه ، عن أنس قال : سئل رسول

(١) في م : « هذه السورة » .

(٢) المسند (٢٤٧/٢) .

(٣) المسند (١٠٣/٣) .

(٤) في م ، أ : « المجوفة » .

(٥) صحيح البخاري برقم (٤٩٤٦) .

(٦) في م : « إلى » .

(٧) تفسير الطبري (٢٠٧/٣٠) .

(٨ ، ٩) زيادة من م .

(١٠) انظر : تفسير أول سورة الإسراء .

(١١) رواه الطبري في تفسيره (٢٠٨/٣٠) عن بشر ، عن يزيد ، عن سعيد ، به .

(١٢) في أ : « شريح » .

الله ﷻ عن الكوثر ، فقال : « هو نهر أعطانيه الله فى الجنة ، ترابه مسك ، [ماؤه] ^(١) أبيض من اللبن ، وأحلى من العسل ، ترده طير أعناقها مثل أعناق الجُرُ » . فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إنها لناعمة؟ قال : « أكلها أنعم منها » ^(٢) .

وقال أحمد : حدثنا أبو سلمة الخزاعى ، حدثنا الليث ، عن يزيد بن الهاد ، عن عبد الوهاب ، عن عبد الله بن مسلم بن شهاب ، عن أنس ، أن رجلاً قال : يا رسول الله ، ما الكوثر ؟ قال : « نهر فى الجنة أعطانيه ربى ، لهو أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، فيه طيور أعناقها كأعناق الجزر » . قال عمر : يا رسول الله ، إنها لناعمة ؟ قال : « أكلها أنعم منها يا عمر » ^(٣) .

رواه ^(٤) ابن جرير ، من حديث الزهرى ، عن أخيه عبد الله ، عن أنس : أنه سأل رسول الله ﷻ عن الكوثر ، فذكر مثله سواء ^(٥) .

وقال البخارى : حدثنا خالد بن يزيد الكاهلى ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن أبى عبيدة ، عن عائشة قال : سألتها عن قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ، قالت : نهر [عظيم] ^(٦) أعطيه نبيكم ﷺ ، شاطئاه عليه درّ مجوف ، آتيه كعدد النجوم ^(٧) .

ثم قال البخارى : رواه زكريا وأبو الأحوص ومطرف ، عن أبى إسحاق .

ورواه أحمد والنسائى ، من طريق مُطَرَف ، به ^(٨) .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا وَكِيع ، عن سفيان ، وإسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن أبى عبيدة ، عن عائشة قالت : الكوثر نهر فى الجنة ، شاطئاه در مُجَوَف . وقال إسرائيل : نهر فى الجنة عليه من الآنية عدد نجوم السماء .

وحدثنا ابن حُمَيْد ، حدثنا يعقوب القُمى ^(٩) ، عن حفص بن حميد ، عن شَمْرِ بن عطية ، عن شقيق ^(١٠) أو مسروق قال : قلت لعائشة : يا أم المؤمنين ، حدثينى عن الكوثر . قالت : نهر فى بطنان الجنة . قلت : وما بطنان الجنة ؟ قالت : وسطها ، حافتاه قصور اللؤلؤ والياقوت ، ترابه المسك ، وحصاؤه اللؤلؤ والياقوت .

وحدثنا أبو كريب ، حدثنا وكيع ، عن أبى جعفر الرازى ، عن ابن أبى نجيح ، عن عائشة

(١) زيادة من أ .

(٢) تفسير الطبرى (٢٠٩/٣٠) .

(٣) المسند (٢٢٠/٣) .

(٤) فى م : « ورواه » .

(٥) تفسير الطبرى (٢٠٩/٣٠) .

(٦) زيادة من أ .

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٩٦٥) .

(٨) المسند (٨١/٦) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٧٠٥) .

(٩) فى أ : « العمى » .

(١٠) فى أ : « سفيان » .

قالت: من أحب أن يسمع خرير الكوثر ، فَلْيَجْعَلْ أَصْبَعِيهِ فِي أُذُنِيهِ ^(١) .

وهذا منقطع بين ابن أبي نجيح وعائشة ، وفي بعض الروايات : « عن رجل ، عنها » . ومعنى هذا أنه يسمع نظير ذلك ، لا أنه يسمعه نفسه ، والله أعلم .

قال السهيلي : ورواه الدارقطني مرفوعاً ، من طريق مالك بن مَعُوْل ^(٢) ، عن الشعبي ، عن مسروق ، عن عائشة ، عن النبي ﷺ ^(٣) .

ثم قال البخاري : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا هُشَيْمٌ ، أخبرنا أبو بشر ، عن سعيد بن جُبَيْرٍ ، عن ابن عباس أنه قال في الكوثر : هو الخير الذي أعطاه الله إياه . قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبیر : فإن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة ؟ فقال سعيد : النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه ^(٤) .

ورواه أيضا من حديث هُشَيْمٍ ، عن أبي بشر وعطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس قال : الكوثر : الخير الكثير ^(٥) .

[وقال الثوري ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس قال : الكوثر : الخير الكثير] ^(٦) .

وهذا التفسير يعم النهر وغيره ؛ لأن الكوثر من الكثرة ، وهو الخير الكثير ، ومن ذلك النهر كما قال ابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبیر ، ومجاهد ، ومحارب بن دُثَارٍ ، والحسن بن أبي الحسن البصري . حتى قال مجاهد : هو الخير الكثير في الدنيا والآخرة .

وقال عكرمة : هو النبوة والقرآن ، وثواب الآخرة .

وقد صح عن ابن عباس أنه فسرهُ بالنهر أيضا ، فقال ابن جرير :

حدثنا أبو كُرَيْبٍ ، حدثنا عمر بن عبيد ، عن عطاء ، عن سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس قال : الكوثر : نهر في الجنة ، حافتاه ذهب وفضة ، يجري على الياقوت والدر ، ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل .

وروى العوفي ، عن ابن عباس ، نحو ذلك .

وقال ابن جرير : حدثني يعقوب ، حدثنا هُشَيْمٌ ، أخبرنا عطاء بن السائب ، عن محارب بن دُثَارٍ ، عن ابن عمر أنه قال : الكوثر نهر في الجنة ، حافتاه ذهب وفضة ، يجري على الدر

(١) تفسير الطبري (٢٠٧/٣٠) ، ورواه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة برقم (٦٧) من طريق محمد بن ربيعة ، عن أبي جعفر الرازي ، عن مجاهد ، عن عائشة مرفوعاً .

(٢) في م : « يزيد بن مغول » .

(٣) الروض الأثف للسهيلي (٢٤١/١) .

(٤) صحيح البخاري برقم (٤٩٦٦) .

(٥) صحيح البخاري برقم (٦٥٧٨) .

(٦) زيادة من تفسير الطبري (٢٠٧/٣٠) .

والياقوت ، ماؤه أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل .

وكذا رواه الترمذى عن ابن حميد ، عن جرير ، عن عطاء بن السائب ، به مثله ^(١) ، موقوفا .
وقد روى مرفوعا فقال الإمام أحمد :

حدثنا على بن حفص ، حدثنا ورقاء قال . . . وقال عطاء [بن السائب] ^(٢) عن محارب بن دثار ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « الكوثر نهر فى الجنة حافته من ذهب ، والماء يجرى على اللؤلؤ ، وماؤه أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل » .

وهكذا رواه الترمذى ، وابن ماجه ، وابن أبى حاتم ، وابن جرير ، من طريق محمد بن فضيل ، عن عطاء بن السائب ، به مرفوعا ^(٣) . وقال الترمذى : حسن صحيح .

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن علية ، أخبرنا عطاء بن السائب قال : قال لى محارب بن دثار : ما قال سعيد بن جبير فى الكوثر ؟ قلت : حدثنا عن ابن عباس أنه قال : هو الخير الكثير . فقال : صدق ، والله إنه للخير الكثير . ولكن حدثنا ابن عمر قال : لما نزلت : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ، قال رسول الله ﷺ : « الكوثر نهر فى الجنة ، حافته من ذهب ، يجرى على الدر والياقوت » ^(٤) .

وقال ابن جرير : حدثنى ابن البرقى ، حدثنا ابن أبى مریم ، حدثنا محمد بن جعفر بن أبى كثير ، أخبرنى حرام بن عثمان ، عن عبد الرحمن الأعرج ، عن أسامة بن زيد : أن رسول الله ﷺ أتى حمزة بن عبد المطلب يوما فلم يجده ، فسأل امرأته عنه - وكانت من بنى النجار - فقالت : خرج يا نبي الله أنفا عامداً نحوك ، فأظنه أخطأك فى بعض أزقة بنى النجار ، أو لا تدخل يا رسول الله ؟ فدخل ، فقدمت إليه حيساً ، فأكل منه ، فقالت : يا رسول الله ، هنيئا لك ومريثا ، لقد جئت وأنا أريد أن آتيك فأهنيك وأمرئك ؛ أخبرنى أبو عمار أنك أعطيت نهرا فى الجنة يدعى الكوثر . فقال : « أجل ، وعرضه - يعنى أرضه - ياقوت ومرجان ، وزبرجد ولؤلؤ » ^(٥) .

حرام بن عثمان ضعيف . ولكن هذا سياق حسن ، وقد صح أصل هذا ، بل قد تواتر من طريق تفيد القطع عند كثير من أئمة الحديث ، وكذلك أحاديث الحوض [ولنذكرها هاهنا] ^(٦) .

وهكذا روى عن أنس ، وأبى العالية ، ومجاهد ، وغير واحدٍ من السلف : أن الكوثر : نهر فى الجنة . وقال عطاء : هو حوض فى الجنة .

وقوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴾ أى : كما أعطيناك الخير الكثير فى الدنيا والآخرة ، ومن ذلك

(١) تفسير الطبرى (٢٠٧/٣٠) ولم يقع لى فى سنن الترمذى من هذا الطريق ولا ذكره المزى فى تحفة الأشراف .

(٢) زيادة من م .

(٣) المسند (١٥٨/٢) وسنن الترمذى برقم (٣٣٦١) وسنن ابن ماجه برقم (٤٣٣٤) وتفسير الطبرى (٢١٠/٣٠) .

(٤) ، (٥) تفسير الطبرى (٢١٠/٣٠) .

(٦) زيادة من أ ، وكذا قال الحافظ ، ولم يقع فى النسخ ذكر أحاديث الحوض ، وقد ذكرها الحافظ ابن كثير فى كتابه (النهاية فى الفتن

والملاحم ١/٣٧٤ - ٤١٢) ولولا خشية الإطالة لذكرناها هاهنا فلتراجع هناك .

النهر الذي تقدم صفته - فاخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة ونَحْرَكَ ، فاعبده وحده لا شريك له ، وانحر على اسمه وحده لا شريك له . كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] ، قال ابن عباس ، وعطاء ، ومجاهد ، وعكرمة ، والحسن : يعنى بذلك نحر البدن ونحوها . وكذا قال قتادة ، ومحمد بن كعب القرظي ، والضحاك ، والربيع ، وعطاء الخراساني ، والحكم ، وإسماعيل ^(١) بن أبي خالد ، وغير واحد من السلف . وهذا بخلاف ما كان المشركون عليه من السجود لغير الله ، والذبح على غير اسمه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ الآية [الأنعام: ١٢١] .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ وَأَنْحَرْ ﴾ : وضع اليد اليمنى على اليسرى تحت النحر . يُروى هذا عن علي ، ولا يصح . وعن الشعبي مثله .

وعن أبي جعفر الباقر : ﴿ وَأَنْحَرْ ﴾ يعنى : ارفع اليدين عند افتتاح الصلاة .

وقيل : ﴿ وَأَنْحَرْ ﴾ أى : استقبل بنحرك القبلة . ذكر هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير .

وقد روى ابن أبي حاتم هاهنا حديثا منكرا جدا فقال : حدثنا وهب بن إبراهيم الفامي ^(٢) - سنة خمس وخمسين ومائتين - حدثنا إسرائيل بن حاتم المروزي ، حدثنا مقاتل بن حيان ، عن الأصبغ بن نباتة ، عن علي بن أبي طالب قال : لما نزلت هذه السورة على النبي ﷺ : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴾ ، قال رسول الله : « يا جبريل ، ما هذه النحية التي أمرني بها ربى ؟ » فقال : ليست بنحية ، ولكنه يأمرك إذا تحرمت للصلاة ، ارفع يديك إذا كبرت وإذا ركعت ، وإذا رفعت رأسك من الركوع ، وإذا سجدت ، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين فى السموات السبع ، وإن لكل شىء زينة ، وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة .

وهكذا ^(٣) رواه الحاكم فى المستدرک ، من حديث إسرائيل بن حاتم ، به ^(٤) .

وعن عطاء الخراساني : ﴿ وَأَنْحَرْ ﴾ أى : ارفع صلبك بعد الركوع واعتدل ، وأبرز نحرک ، يعنى به الاعتدال . رواه ابن أبي حاتم .

[كل هذه الأقوال غريبة جدا] ^(٥) . والصحيح القول الأول ، أن المراد بالنحر ذبح المناسك ؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يصلى العيد ^(٦) ، ثم ينحر نسكه ويقول : « من صلى صلاتنا ، ونسكنا ، فقد أصاب النسك . ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له » . فقام أبو بردة بن نيار فقال : يا رسول

(١) فى م : « وسعيد » . (٢) فى أ : « الفامي » . (٣) فى م : « وقد » .

(٤) المستدرک (٥٣٧/٢) ، ورواه من طريق البيهقي فى السنن (٧٥/٢) ، ورواه ابن حبان فى المجروحين (١٧٧/١) من طريق إسرائيل بن حاتم ، به . وقال ابن حبان : « هذا متن باطل إلا ذكر رفع اليدين فيه ، وهذا خبر رواه عمر بن صبيح ، عن مقاتل بن حيان ، وعمر بن صبيح يضع الحديث فطفر عليه إسرائيل بن حاتم فحدث به عن مقاتل » .

(٥) زيادة من م ، أ . (٦) فى م : « يصلى يوم العيد » .

الله ، إِنِّي نَسَكْتُ شَاتِي قَبْلَ الصَّلَاةِ ، وَعَرَفْتُ أَنَّ الْيَوْمَ يَوْمٌ يَشْتَهَى فِيهِ اللَّحْمُ . قَالَ : « شَاتِكَ شَاةٌ لَحْمٌ » . قَالَ : فَإِنَّ عِنْدِي عَنَاقًا هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ شَاتَيْنِ ، أَفْتَجْزِي عَنْكِ ؟ قَالَ : « تَجْزِيكَ ، وَلَا تَجْزِي أَحَدًا بِعَدِّكَ » ^(١) .

قال أبو جعفر بن جرير : والصواب قول من قال : معنى ذلك : فاجعل صلاتك كلها لربك خالصا دون ما سواه من الأنداد والآلهة ^(٢) ، وكذلك نحرك اجعله له دون الأوثان ؛ شكراً له على ما أعطاك من الكرامة والخير ، الذي لا كِفَاءَ له ، وخصك به ^(٣) .

وهذا الذي قاله في غاية الحسن ، وقد سبقه إلى هذا المعنى : محمد بن كعب القرظي ، وعطاء . وقوله : ﴿ إِنَّ شَاتِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ أى : إن مبغضك - يا محمد - ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين ، هو الأبتَر الأقل الأذل المنقطع ذكره .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبيرة ، وقتادة : نزلت في العاص بن وائل . وقال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان قال : كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول : دعوه فإنه رجل أبتَر لا عقب له ، فإذا هلك انقطع ذكره . فأنزل الله هذه السورة . وقال شمر بن عطية : نزلت في عقبة بن أبي مُعَيْط .

وقال ابن عباس أيضاً ، وعكرمة : نزلت في كعب بن الأشرف وجماعة من كفار قريش . وقال البزار : حدثنا زياد بن يحيى الحَسَّانِي ، حدثنا بن أبي عدي ، عن داود ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش : أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا الْمُصْنَبِ ^(٤) المنبت من قومه يزعم أنه خير منا ، ونحن أهل الحجيج ، وأهل السدانة وأهل السقاية ؟ فقال : أنتم خير منه . قال : فتزلت : ﴿ إِنَّ شَاتِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ .

هكذا رواه البزار ^(٥) ، وهو إسناده صحيح .

وعن ^(٦) عطاء : نزلت في أبي لهب ، وذلك حين مات ابن رسول الله ﷺ فذهب أبو لهب إلى المشركين وقال : بُتِرَ محمد الليلة . فأنزل الله في ذلك : ﴿ إِنَّ شَاتِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ .

وعن ابن عباس : نزلت في أبي جهل . وعنه : ﴿ إِنَّ شَاتِكَ ﴾ يعنى : عدوك . وهذا يَعُمُّ جميع من اتصف بذلك ممن ذكر ، وغيرهم .

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٩٨٣) من حديث البراء ، رضى الله عنه .

(٢) فى م : « والأولاد » .

(٣) تفسير الطبرى (٢١٢/٣٠) .

(٤) فى م : « هذا الضبر » .

(٥) مسند البزار برقم (٢٢٩٣) « كشف الأستار » وقع فيه : « حدثنا الحسن بن على الواسطى ، حدثنا يحيى بن راشد ، عن داود فذكر مثله ، ورواه أيضاً النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٧٠٧) .

(٦) فى م : « وقال » .

وقال عكرمة : الأبر : الفرد . وقال السُّدِّي : كانوا إذا مات ذكورُ الرجل قالوا : بُتر . فلما مات أبناء رسول الله ﷺ قالوا : بتر محمد . فأنزل الله : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ .

وهذا يرجع إلى ما قلناه من أن الأبر الذى إذا مات انقطع ذكره ، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه ينقطع ذكره ، وحاشا وكلا ، بل قد أبقي الله ذكره على رؤوس الأشهاد ، وأوجب شرعه على رقاب العباد ، مستمرا على دوام الآباد ، إلى يوم الحشر والمعاد^(١) ، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم التناد .

آخر تفسير سورة « الكوثر » ، ولله الحمد والمنة

(١) فى م : « والتناد » .

تفسير سورة قل يا أيها الكافرون

وهي مكية (١).

ثبت في صحيح مسلم ، عن جابر : أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة ، وبـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ في ركعتي الطواف (٢) .

وفي صحيح مسلم ، من حديث أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن مجاهد ، عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب ، بضعا وعشرين مرة - أو : بضعة عشرة مرة - ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ، و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (٣) .

وقال أحمد أيضا : حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : رَمَقْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ - أو : خمسًا وعشرين - مرة ، يقرأ في الركعتين قبل الفجر ، والركعتين بعد المغرب بـ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (٤) .

وقال أحمد : حدثنا أبو أحمد - هو محمد بن عبد الله بن الزبير الزبيري - حدثنا سفيان - هو الثوري - عن أبي إسحاق ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : رَمَقْتُ النَّبِيَّ ﷺ شَهْرًا ، وكان يقرأ في الركعتين قبل الفجر بـ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ، و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

وكذا رواه الترمذي وابن ماجه ، من حديث أبي أحمد الزبيري (٥) . وأخرجه النسائي من وجه آخر ، عن أبي إسحاق ، به (٦) . وقال الترمذي : هذا حديث حسن .

وقد تقدم في الحديث أنها تعدل ربع القرآن ، و﴿ إِذَا زُلْزِلَتْ ﴾ تعدل ربع القرآن .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم (٧) بن القاسم ، حدثنا زهير ، حدثنا أبو إسحاق ، عن فروة ابن نوفل - هو ابن معاوية - عن أبيه ، أن رسول الله ﷺ قال له : « هل لك في ربيبة لنا تكفلها؟ » قال : أراها زينب . قال : ثم جاء فسأله النبي ﷺ عنها ، قال : « ما فعلت الجارية؟ » قال : تركتها عند أمها . قال : « فمجيء ما جاء بك؟ » قال : جئت لتعلمني شيئاً أقوله عند منامي . قال : « اقرأ : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ، ثم نم على خاتمتها ، فإنها براءة من الشرك » . تفرد به أحمد (٨) .

(١) بعدها في م : البسمة .

(٢) صحيح مسلم برقم (١٢١٨) من حديث طويل وهو منسك جابر المشهور .

(٣) المسند (٢٤/٢) .

(٤) المسند (٩٩/٢) .

(٥) المسند (٩٤/٢) وسنن الترمذي برقم (٤١٧) وسنن ابن ماجه برقم (١١٤٩) .

(٦) سنن النسائي (١٧٠/٢) .

(٧) في أ : « هشيم » .

(٨) لم أقع عليه في المطبوع من المسند ، وذكره الحافظ ابن حجر في أطراف المسند (٤٢٥/٥) .

وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا أحمد بن عمرو القطراني ، حدثنا محمد بن الطفيل ، حدثنا شريك ، عن أبي إسحاق ، عن جبلة بن حارثة - وهو أخو زيد بن حارثة - أن النبي ﷺ قال : « إذا أويت إلى فراشك فاقرا : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ حتى تمر بآخرها ، فإنها براءة من الشرك »^(١) . [والله أعلم وهو حسبي ونعم الوكيل]^(٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثنا شريك ، عن أبي إسحاق ، عن فروة بن نوفل ، عن الحارث بن جبلة قال : قلت : يا رسول الله ، علمني شيئا أقوله عند منامي . قال : « إذا أخذت مضجعتك من الليل فاقرا : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ، فإنها براءة من الشرك »^(٣) .

وروى الطبراني من طريق شريك ، عن جابر^(٤) ، عن معقل الزبيدي ، عن [عباد أبي الأخضر عن خباب]^(٥) ، أن رسول الله ﷺ كان إذا أخذ مضجعه قرأ : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ حتى يختمها^(٦) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ .

هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي أمرة بالإخلاص فيه، فقوله: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾، شمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن (المواجهين)^(٧) بهذا الخطاب هم كفار قريش . وقيل : إنهم من جهلهم دَعَوْا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة ، ويعبدون معبوده سنة ، فأنزل الله هذه السورة ، وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية ، فقال : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ يعني : من الأصنام والأنداد ، ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ، وهو الله وحده لا شريك له . ف « ما » هاهنا بمعنى « من » .

ثم قال : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ أى : ولا أعبد عبادتكم ، أى : لا أسلكها ولا أقتدى بها ، وإنما أعبد الله على الوجه الذى يحبه ويرضاه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ أى : لا تقتدون بأوامر الله وشرعه فى عبادته ، بل قد اخترعتم شيئا من تلقاء أنفسكم ، كما قال : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ [النجم: ٢٣] ، فتبرأ منهم فى جميع ما هم فيه ، فإن العابد لابد له من معبود يعبد ، وعبادة^(٨)

(١) المعجم الكبير (٢/٢٨٧) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/١٢١) : « رجاله وثقوا » .

(٢) زيادة من أ .

(٣) لم أقع عليه فى المطبوع من المسند ، وذكره الحافظ ابن حجر فى أطراف المسند (٢/٢٢٠) .

(٤) وقع فى المعجم الكبير : « عن شريك وجابر » مقروناً وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه .

(٥) زيادة من المعجم الكبير (٤/٨١) .

(٦) المعجم الكبير (٤/٨١) ورواه البزار فى مسنده برقم (٣١١٣) « كشف الأستار » ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/١٢١) : « وفيه جابر الجعفى ، وهو ضعيف » .

(٨) فى م : « وعبادته » .

(٧) فى أ : « ولكن المواجهون » .

يسلكها إليه ، فالرسول وأتباعه يعبدون الله بما شرعه ؛ ولهذا كان كلمة الإسلام « لا إله إلا الله محمد رسول الله » أى : لا معبود إلا الله ولا طريق إليه إلا بما جاء به الرسول ﷺ ، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن بها الله ؛ ولهذا قال لهم الرسول ﷺ : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٤١] ، وقال : ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ [القصص: ٥٥] .

وقال البخارى : يقال : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ : الكفر ، ﴿ وَلِيَ دِينِ ﴾ : الإسلام . ولم يقل : « دينى » لأن الآيات بالنون ، فحذف الياء ، كما قال : ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٨] ، و﴿ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٨٠] . وقال غيره : لا أعبد ما تعبدون الآن ، ولا أجيئكم فيما بقى من عمرى ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، وهم الذين قال : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ [المائدة: ٦٤] . انتهى ما ذكره (١) .

ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربية أن ذلك من باب التأكيد ، كقوله : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٥ ، ٦] ، وكقوله : ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ [التكاثر: ٦] ، [٧] . وحكاها بعضهم — كابن الجوزى ، وغيره — عن ابن قتيبة ، قاله أعلم . فهذه ثلاثة أقوال : أولها ما ذكرناه أولاً . الثانى : ما حكاها البخارى وغيره من المفسرين أن المراد : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ : فى الماضى ، ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ : فى المستقبل . الثالث : أن ذلك تأكيد محض .

وثم قول رابع ، نصره أبو العباس بن تيمية فى بعض كتبه ، وهو أن المراد بقوله : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ : نفى الفعل لأنها جملة فعلية ، ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ : نفى قبوله لذلك بالكلية ؛ لأن النفى بالجملة الاسمية أكد فكأنه نفى الفعل ، وكونه قابلاً لذلك ومعناه نفى الوقوع ونفى الإمكان الشرعى أيضاً . وهو قول حسن أيضاً ، والله أعلم .

وقد استدلل الإمام أبو عبد الله الشافعى وغيره بهذه الآية الكريمة : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ على أن الكفر كله ملة واحدة تورثه (٢) اليهود من النصارى ، وبالعكس ؛ إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به ؛ لأن الأديان — ما عدا الإسلام — كلها كالشئ الواحد فى البطلان . وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم تورث النصارى من اليهود وبالعكس ؛ لحديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يتوارث أهل ملتين شتى » (٣) .

آخر تفسير سورة « قل يا أيها الكافرون » ولله الحمد والمنة

(١) صحيح البخارى (٧٣٣/٨) « فتح » .

(٢) فى م : « فورت » .

(٣) رواه أحمد فى المسند (١٩٥/٢) وأبو داود فى السنن برقم (٢٩١١) .

تفسير سورة إذا جاء نصر الله والفتح^(١)

وهي مدنية .

قد تقدم أنها تعدل ربع القرآن ، و ﴿ إِذَا زُلْزِلَتْ ﴾ تعدل ربع القرآن .

وقال النسائي : أخبرنا محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ، أخبرنا جعفر ، عن أبي العُمَيْس (ح) وأخبرنا أحمد بن سليمان ، حدثنا جعفر بن عون ، حدثنا أبو العُمَيْس ، عن عبد المجيد بن سهيل^(٢) ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : قال لي ابن عباس : يا ابن عتبة ، أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت^(٣) ؟ قلت : نعم ، ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ . قال : صدقت^(٤) .

وروى الحافظ أبو بكر البیهقي ، من حديث موسى بن عبيدة الرّبذی^(٥) ، عن صدقة بن يسار ، عن ابن عمر قال : أنزلت هذه السورة : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق ، فعرف أنه الوداع ، فأمر براحلته القصواء فراحلت ، ثم قام فخطب الناس ، فذكر خطبته المشهورة^(٦) .

وقال الحافظ البیهقي : أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان ، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار ، حدثنا الأسفاطي ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا عباد بن العوام ، عن هلال بن خباب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ، دعا رسول الله ﷺ فاطمة^(٧) وقال : «إنه قد نُعِيَتْ إلى نفسي» ، فبكت ثم ضحكت ، وقالت : أخبرني أنه نُعِيَتْ إليه نفسه فبكت ، ثم قال : «اصبري فإنك أول أهلي لحاقاً بي» فضحكت^(٨) .

وقد رواه النسائي - كما سيأتي - بدون ذكر فاطمة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝ (٣) ﴾ .

قال البخاري : حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا أبو عوانة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد في نفسه ، فقال :

(١) في م : « تفسير سورة النصر » . (٢) في أ : « سهل » . (٣) في م : « نزلت من القرآن » .

(٤) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٧١٣) ورواه مسلم في صحيحه برقم (٣٠٢٤) من طريق جعفر بن عون به .

(٥) في أ : « الزبيرى » .

(٦) سنن البیهقي الكبرى (١٥٢/٥) ، وموسى بن عبيدة ضعيف .

(٧) في أ : « فاطمة ابنته » .

(٨) دلائل النبوة للبيهقي (١٦٧/٧) .

لم يَدْخُلْ هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه من علمتم ^(١) . فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم ، فما رُئِيتُ أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريههم فقال : ما تقولون في قول الله ، عز وجل : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا . وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً ، فقال لى : أؤكدك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا . فقال : ما تقول ؟ فقلت : هو أجلُ رسول الله ﷺ أعلمه له ، قال : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ فذلك علامة أجلك ، ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ . فقال عمر بن الخطاب : لا أعلم منها إلا ما تقول . تفرد به البخارى ^(٢) .

وروى ابن جرير ، عن محمد بن حميد ، عن مهران ، عن الثوري ، عن عاصم ، عن أبي رزين ، عن ابن عباس ، فذكر مثل هذه القصة ، أو نحوها ^(٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن فضيل ، حدثنا عطاء ، عن سعيد بن جببر ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ، قال رسول الله ﷺ : « نُعِيتَ إِلَى نَفْسِي » . . بأنه مقبوض في تلك السنة . تفرد به أحمد ^(٤) .

وروى العوفى ، عن ابن عباس ، مثله . وهكذا قال مجاهد ، وأبو العالية ، والضحاك ، وغير واحد : إنها أجل رسول الله ﷺ نُعِيَ إِلَيْهِ .

وقال ابن جرير : حدثني إسماعيل بن موسى ، حدثنا الحسين بن عيسى الحنفى ^(٥) ، عن معمر ، عن الزهرى ، عن أبي حازم ، عن ابن عباس قال : بينما رسول الله ﷺ فى المدينة إذ قال : « الله أكبر ، الله أكبر ! جاء نصر الله والفتح ، جاء أهل اليمن » . قيل : يا رسول الله ، وما أهل اليمن ؟ قال : « قوم رقيقة قلوبهم ، لينة طباعهم ، الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية » ^(٦) .

ثم رواه عن ابن عبد الأعلى ، عن ابن ثور ، عن معمر ، عن عكرمة ، مرسلًا .

وقال الطبرانى : حدثنا زكريا بن يحيى ، حدثنا أبو كامل الجحدري ، حدثنا أبو عوانة ، عن هلال بن خباب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ، حتى ختم السورة ، قال : نُعِيتَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ نفسه حين نزلت ، قال : فأخذ بأشد ما كان قط اجتهداً فى أمر الآخرة . وقال رسول الله ﷺ بعد ذلك : « جاء الفتح ونصر الله ، وجاء أهل اليمن » . فقال رجل : يا رسول الله ، وما أهل اليمن ؟ قال : « قوم رقيقة قلوبهم ، لينة قلوبهم ، الإيمان يمان ، والفقه يمان » ^(٧) .

(١) فى م : « من قد علمتم » .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٠) .

(٣) تفسير الطبرى (٢١٥/٣٠) .

(٤) المسند (٢١٧/١) .

(٥) فى أ : « الثقفى » .

(٦) تفسير الطبرى (٢١٥/٣٠) .

(٧) المعجم الكبير (٣٢٨/١١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن عاصم ، عن أبي رزين ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ علم النبي ﷺ أنه قد نُعِيَتْ إليه نفسه ، فقيل : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ، السورة كلها (١) .

حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن عاصم ، عن أبي رزين : أن عمر سأل ابن عباس عن هذه الآية : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ قال : لما نزلت نُعِيَتْ إلى رسول الله ﷺ نفسه (٢) .

وقال الطبراني : حدثنا إبراهيم بن أحمد بن عمر الوكيعي ، حدثنا أبي ، حدثنا جعفر بن عون ، عن أبي العُميس ، عن أبي بكر بن أبي الجهم ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن ابن عباس قال : آخر سورة نزلت من القرآن جميعاً : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ (٣) .

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي البختري الطائي (٤) ، عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : لما نزلت هذه السورة : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ، قرأها رسول الله ﷺ حتى ختمها ، فقال : « الناس حيز ، وأنا وأصحابي حيز » . وقال : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية » . فقال له مروان : كذبت - وعنده رافع بن خديج ، وزيد بن ثابت ، قاعدان معه على السرير - فقال أبو سعيد : لو شاء هذان لحدثاك ، ولكن هذا يخاف أن تنزعه عن عرافة قومه ، وهذا يخشى أن تنزعه عن الصدقة . فرفع مروان عليه الدرة ليضربه ، فلما رآيا ذلك قالوا : صدق (٥) .

تفرد به أحمد ، وهذا الذي أنكره مروان على أبي سعيد ليس بمنكر ، فقد ثبت من رواية ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح : « لا هجرة ، ولكن جهاد ونية ، ولكن إذا استنفرتم فانفروا » . أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما (٦) .

فالذي فسر به بعض الصحابة من جلساء عمر ، رضى الله عنهم أجمعين ، من أنه قد أمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون أن نحمد الله ونشكره ونسبحه ، يعنى نصلى ونستغفره - معنى مليح صحيح ، وقد ثبت له شاهد من صلاة النبي ﷺ يوم فتح مكة وقت الضحى ثمانى ركعات ، فقال قائلون : هى صلاة الضحى . وأجيبوا بأنه لم يكن يواظب عليها ، فكيف صلاها ذلك اليوم وقد كان مسافراً لم ينو الإقامة بمكة ؟ ولهذا أقام فيها إلى آخر شهر رمضان قريباً من تسعة عشر يوماً يقصر الصلاة ويفطر هو وجميع الجيش ، وكانوا نحواً من عشرة آلاف . قال هؤلاء : وإنما كانت صلاة الفتح ، قالوا : فيستحب لأمر الجيش إذا فتح بلداً أن يصلى فيه أول ما يدخله ثمانى ركعات .

(١) المسند (١/٣٤٤) .

(٢) المسند (١/٣٥٦) .

(٣) المعجم الكبير (١٠/٣٦٩) .

(٤) فى أ : « عن أبي البختري عن الطائي » .

(٥) المسند (٣/٢٢) .

(٦) صحيح البخارى برقم (١٨٣٤، ١٣٤٩) وصحيح مسلم برقم (١٣٥٣) .

وهكذا فعل سعد بن أبي وقاص يوم فتح المدائن ، ثم قال بعضهم : يصلّيها كلها بتسليمة واحدة .
والصحيح أنه يسلم من كل ركعتين ، كما ورد في سنن أبي داود : أن رسول الله ﷺ كان يسلم يوم
الفتح من كل ركعتين . وأما ما فسر به ابن عباس وعمر ، رضى الله عنهما ، من أن هذه السورة تُعي
فيها إلى رسول الله ﷺ نفسه ^(١) الكريمة ، واعلم أنك إذا فتحت مكة - وهى قريتك التى أخرجتك -
ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، فقد فرغ شغلنا بك فى الدنيا ، فتهيا للقدوم علينا والوفود إلينا ،
فالآخرة خير لك من الدنيا ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ولهذا قال : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ .

قال النسائي : أخبرنا عمرو بن منصور ، حدثنا محمد بن محبوب ، حدثنا أبو عوانة ، عن هلال
ابن خباب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ، إلى آخر
السورة ، قال : نُعيت لرسول الله ﷺ نفسه حين أنزلت ، فأخذ فى أشد ما كان اجتهدا فى أمر
الآخرة ، وقال رسول الله ﷺ بعد ذلك : « جاء الفتح ، وجاء نصر الله ، وجاء أهل اليمن » .
فقال رجل : يا رسول الله ، وما أهل اليمن ؟ قال : « قوم رقيقة قلوبهم ، لينة قلوبهم ، الإيمان
يمان ، والحكمة يمانية ، والفقهاء يمان » ^(٢) .

وقال البخارى : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا جرير ، عن منصور ، عن أبي الضحى ،
عن مسروق ، عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : « سبحانك
اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى » يتأول القرآن .
وأخرجه بقية الجماعة إلا الترمذى ، من حديث منصور ، به ^(٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن أبي عدى ، عن داود ، عن الشعبي ، عن مسروق قال :
قالت عائشة : كان رسول الله ﷺ يكثر فى آخر أمره من قول : « سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله
وأتوب إليه » . وقال : « إن ربي كان أخبرنى أنى سأرى علامة فى أمتى ، وأمرنى إذا رأيتها أن
أسبح بحمده وأستغفره ، إنه كان توابا ، فقد رأيتها : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ
يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ » .
ورواه مسلم من طريق داود - وهو ابن أبي هند - به ^(٤) .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو السائب ، حدثنا حفص ، حدثنا عاصم ، عن الشعبي ، عن أم
سلمة قالت : كان رسول الله ﷺ فى آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ، ولا يذهب ولا يجىء ، إلا قال :
« سبحان الله وبحمده » . فقلت : يا رسول الله ، إنك تكثر من سبحان الله وبحمده ، لا تذهب
ولا تجىء ، ولا تقوم ولا تقعد إلا قلت : سبحان الله وبحمده ؟ قال : « إني أمرت بها » ، فقال :
(١) فى م : « روحه » .

(٢) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٧١٢) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٦٨) وصحيح مسلم برقم (٤٨٤) وسنن أبي داود برقم (٨٧٧) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٧١٠) وسنن
ابن ماجه برقم (٨٨٩) .

(٤) المسند (٣٥/٦) وصحيح مسلم برقم (٤٨٤) .

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ، إلى آخر السورة (١) .

غريب ، وقد كتبنا حديث كفارة المجلس من جميع طرقه وألفاظه فى جزء مفرد ، فيكتب هاهنا (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن أبي عبدة ، عن عبد الله قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ، كان يكثر إذا قرأها - ورَكَعَ - أن يقول : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى إنك أنت التواب الرحيم » ثلاثا (٣) .

تفرد به أحمد . ورواه ابن أبى حاتم عن أبيه ، عن عمرو بن مرة ، عن شعبة ، عن أبى إسحاق ، به .

والمراد بالفتح هاهنا فتح مكة قولاً واحداً ، فإن أحياء العرب كانت تتلَوُّم بإسلامها فتح مكة ، يقولون : إن ظهر على قومه فهو نبي . فلما فتح الله عليه مكة دخلوا فى دين الله أفواجا ، فلم تمض سستان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً ، ولم يبق فى سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام ، ولله الحمد والمنة . وقد روى البخارى فى صحيحه عن عمرو بن سلمة قال : لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ ، وكانت الأحياء تتلَوُّم بإسلامها فتح مكة ، يقولون : دعوه وقومه ، فإن ظهر عليهم فهو نبي . الحديث (٤) . وقد حررنا غزوة الفتح فى كتابنا : السيرة ، فمن أراد فليراجعه هناك ، ولله الحمد والمنة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا أبو إسحاق ، عن الأوزاعى ، حدثنى أبو عمار ، حدثنى جابر بن عبد الله قال : قدمت من سفر فجاءنى جابر بن عبد الله ، فسلم على (٥) ، فجعلت أحدثه عن افتراق الناس وما أحدثوا ، فجعل جابر يبكى ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس دخلوا فى دين الله أفواجا ، وسيخرجون منه أفواجا » (٦) .

[آخر تفسير سورة « إذا جاء نصر الله والفتح » ولله الحمد والمنة] (٧)

(١) تفسير الطبرى (٢١٦/٣٠) .

(٢) سبق ذكر أحاديث كفارة المجلس وذكر طرقها فى آخر تفسير سورة الصافات .

(٣) المسند (٣٨٨/١) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٣٠٢) .

(٥) فى م : « يسلم على » .

(٦) المسند (٣٤٣/٣) .

(٧) زيادة من أ .

تفسير سورة تبت

وهي مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝ (٥) ﴾ .

قال البخارى : حدثنا محمد بن سلام ، حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء ، فصعد الجبل فنادى : « يا صباحاه » . فاجتمعت إليه قريش ، فقال : « أرايتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ، أكنتم تصدقونى ؟ » . قالوا : نعم . قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » . فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا ؟ تبا لك . فأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ ، إلى آخرها (١) .

وفى رواية : فقام ينفض يديه ، وهو يقول : تبا لك سائر اليوم . ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (٢) .

الأول دعاء عليه ، والثانى خبر عنه . فأبو لهب هذا هو أحد أعمام رسول الله (٣) ﷺ واسمه : عبد العزى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عتبة . وإنما سمي « أبا لهب » لإشراق وجهه ، وكان كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغضة له ، والازدراء به ، والتنقص له ولدينه .

قال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن أبي العباس ، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد ، عن أبيه قال : أخبرنى رجل — يقال له : ربيعة بن عباد ، من بنى الدليل ، وكان جاهلياً فأسلم — قال : رأيت النبي ﷺ فى الجاهلية فى سوق ذى المجاز وهو يقول : « يا أيها الناس ، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » . والناس مجتمعون عليه ، ووراءه رجل وضىء الوجه أحول ذو غديرتين ، يقول : إنه صابئ كاذب . يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب (٤) .

ثم رواه عن سُرَيْج ، عن ابن أبي الزناد ، عن أبيه ، فذكره — قال أبو الزناد : قلت لربيعة : كنت يومئذ صغيراً ؟ قال : لا ، والله إنى يومئذ لأعقل أنى أزفر القربة . تفرد به أحمد (٥) .

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس قال : سمعت ربيعة ابن عباد الدبلى يقول : إنى لمع أبى رجل شاب ، أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل — ووراءه

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٢) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٣٥٢٥، ٤٨٠١، ١٣٩٤) .

(٣) فى م : « أعمام النبى » .

(٤) المسند (٣٤١/٤) .

(٥) المسند (٣٤١/٤) .

رجل أحول وضئ ، ذو جُمَّة - يَقِفُ رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول : « يا بني فلان ، إني رسول الله إليكم ، أمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله ما بعثنى به » . وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه : يا بني فلان ، هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى ، وحلفاءكم من الجن من بنى مالك بن أقيش ، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه . فقلت لأبى : من هذا ؟ قال : عمه أبو لهب ^(١) .

رواه أحمد أيضاً ، والطبراني بهذا اللفظ ^(٢) .

فقوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ أى : خسرت وخابت ، وضل عمله وسعيه ، ﴿ وَتَبَّ ﴾ أى : وقد تبَّ تحقق خسارته وهلاكه .

وقوله : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ ، قال ابن عباس وغيره : ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ يعنى : ولده . وروى عن عائشة ، ومجاهد ، وعطاء ، والحسن ، وابن سيرين ، مثله .

وذكر عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان ، قال أبو لهب : إذا كان ما يقول ابن أخى حقاً ، فإننى أفتدى نفسى يوم القيامة من العذاب بمالى وولدى . فأنزل الله : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ .

وقوله : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ أى : ذات شرر ولهيب وإحراق شديد ، ﴿ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ . وكانت زوجته من سادات نساء قريش ، وهى : أم جميل ، واسمها أروى بنت حرب بن أمية ، وهى أخت أبى سفيان . وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده ؛ فلهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه فى عذابه فى نار جهنم . ولهذا قال : ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ يعنى : تحمل الحطب فتلقى على زوجها ، ليزداد على ما هو فيه ، وهى مهيأة لذلك مستعدة له .

﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ : قال مجاهد ، وعروة : من مسد النار .

وعن مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والثورى ، والسدى : ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ : كانت تمشى بالنميمة ، [واختاره ابن جرير ^(٣)] .

وقال العوفى عن ابن عباس ، وعطية الجدلى ، والضحاك ، وابن زيد : كانت تضع الشوك فى طريق رسول الله ﷺ ، واختاره ابن جرير .

قال ابن جرير : وقيل : كانت تعير النبى ﷺ بالفقر ، وكانت تحتطب ، فغيرت بذلك .

كذا حكاه ، ولم يعزه إلى أحد . والصحيح الأول ، والله أعلم .

قال سعيد بن المسيب : كانت لها قلادة فاخرة ، فقالت : لأنفقها فى عداوة محمد ، يعنى : فأعقبها الله بها حبلاً فى جيدها من مسد النار .

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (١/٤٢٣) .

(٢) المسند (٣/٤٩٢) والمعجم الكبير (٥/٦٣) .

(٣) زيادة من م .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا وكيع ، عن سليم ^(١) مولى الشعبي ، عن الشعبي قال : المسد : الليف .

وقال عروة بن الزبير : المسد : سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً .

وعن الثوري : هي قلادة من نار ، طولها سبعون ذراعاً .

وقال الجوهري : الْمَسْدُ : الليف . وَالْمَسْدُ أيضاً : حبل من ليف أو خوص ، وقد يكون من جلود الإبل أو أوبارها ، ومسدت الحبل أمسده مَسْدًا : إذا أُجِدْتُ فتلته ^(٢) .

وقال مجاهد : ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ أى : طوق من حديد ، ألا ترى أن العرب يسمون البكرة مَسْدًا ؟

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي وأبو زُرْعَةَ قالا : حدثنا عبد الله بن الزبير الحُمَيْدِي ، حدثنا سُفْيَان ، حدثنا الوليد بن كثير ، عن ابن تدرس ، عن أسماء بنت أبي بكر قالت : لما نزلت : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ ، أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ، ولها ولولة ، وفي يدها فهر ، وهى تقول : مَذْمَأً أَبِينَا ودينه قَلِينَا وأمره عَصِينَا

ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد ومعه أبو بكر ، فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله ، قد أقبلت وأنا أخاف عليك أن تراك . فقال رسول الله ﷺ : « إنها لن ترانى » . وقرأ قرآنا اعتصم به ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٥] . فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله ﷺ فقالت : يا أبا بكر ، إني أخبرت أن صاحبك هجانى ؟ قال : لا ، ورب هذا البيت ما هجاك . فولت وهى تقول : قد علمت قريش أنى ابنة سيدها . قال : وقال الوليد فى حديثه أو غيره : فعثرت أم جميل فى مرطها وهى تطوف بالبيت ، فقالت : تعس مذمم . فقالت أم حكيم بنت عبد المطلب : إني لحصانُ فما أكلتم ، وثَقَافُ فما أعلم ، وكلنا من بنى العم ، وقريش بعد أعلم ^(٣) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا إبراهيم بن سعيد وأحمد بن إسحاق قالا : حدثنا أبو أحمد ، حدثنا عبد السلام بن حرب ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ ، جاءت امرأة أبي لهب ورسول الله ﷺ جالس ، ومعه أبو بكر . فقال له أبو بكر : لو تَنَحَّيْتُ لا تُؤْذِيكَ بشيء . فقال رسول الله ﷺ : « إنه سيُحال بيني وبينها » . فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر فقالت : يا أبا بكر ، هجانا صاحبك . فقال أبو بكر : لا ، ورب هذه البنية ما نطق بالشعر ولا يتفوه به . فقالت : إنك لمصدق ، فلما ولت قال أبو بكر ، رضى الله عنه : ما رأيتك ؟ قال : « لا ، ما زال ملك يسترنى حتى ولت » .

(١) فى أ : « سليمان » .

(٢) الصحاح للجوهري ، مادة « مسد » (١/٥٣٥) .

(٣) مسند الحميدى (١/١٥٣) ورواه أبو يعلى فى مسنده (١/٥٣) من طريق سفیان به ، وسبق تخريجه عند تفسير الآية : ٤٥ من سورة الإسراء .

ثم قال البزار : لا نعلمه يُروى بأحسنَ من هذا الإسناد ، عن أبي بكر ، رضى الله عنه ^(١) .
وقد قال بعض أهل العلم فى قوله تعالى : ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ أى : فى عنقها حبل من نار [جهنم] ^(٢) تُرْفَعُ به إلى شفيرها ، ثم يرمى بها إلى أسفلها ، ثم كذلك دائماً .
قال أبو الخطاب بن دحية فى كتابه التنوير ^(٣) - وقد روى ذلك - : وعُبرَ بالمسد عن حبل الدلو ، كما قال أبو حنيفة الدينورى فى كتاب « النبات » : كلَّ مَسَدٍ : رشاء ، وأنشد فى ذلك :
وَبِكْرَةٌ وَمِحْوَرٌّ صِرَارًا وَمَسَدٌ مِّنْ أَبْقِ مُغَارًا
قال : والأبْقُ : القنْبُ .
وقال الآخر :

يا مَسَدَ الْخُوصِ تَعَوِّذْ مِنِّي إِنَّ تَكُ لَدُنَّا لَيِّنَا فَإِنِّي
مَا شِئْتَ مِنْ أَشْمَطَ مُقْسِنٍ

قال العلماء : وفى هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة ، فإنه منذ نزل قوله تعالى : ﴿ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ . وَأَمْرَاتُهُ حَمَالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ ، فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان ، لم يقيض لهما أن يؤمنا ، ولا واحد منهما لا ظاهراً ولا باطناً ، لا مسراً ولا معلناً ، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الظاهرة .

[آخر تفسير « تبت » ولله الحمد والمنة] ^(٤)

(١) مسند البزار برقم (٢٢٩٤) « كشف الأستار » ، ورواه أبو يعلى فى مسنده (٣٣/١) من طريق عبد السلام بن حرب به ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٤٤/٧) : « فيه عطاء بن السائب وقد اختلط » .

(٢) زيادة من م ، أ .

(٣) التنوير فى مولد السراج المنير لابن دحية الكلبي ، عمله للملك إربل . انظر : وفيات الأعيان (١٢٢/٣) .

(٤) زيادة من م ، أ .

تفسير سورة الإخلاص

وهي مكية .

ذكر سبب نزولها وفضيلتها (١)

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعد محمد بن ميسر الصاغانى ، حدثنا أبو جعفر الرازى ، حدثنا الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب : أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : يا محمد ، انسب لنا ربك ، فأنزل الله : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (٢) .

وكذا رواه الترمذى ، وابن جرير ، عن أحمد بن منيع - زاد ابن جرير : ومحمود بن خدّاش - عن أبي سعد محمد بن ميسر به (٣) - زاد ابن جرير والترمذى - قال : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ : الذى لم يلد ولم يولد ، لأنه ليس شئ يولد إلا سيموت ، وليس شئ يموت إلا سيورث ، وإن الله جل جلاله لا يموت ولا يورث ، ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ : ولم يكن له شبه (٤) ولا عدل ، وليس كمثله شئ .

ورواه ابن أبى حاتم ، من حديث أبى سعد (٥) محمد بن ميسر ، به . ثم رواه الترمذى عن عبد ابن حميد ، عن عبيد الله بن موسى ، عن أبى جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية ، فذكره مرسلًا ولم يذكر « أخبرنا » . ثم قال الترمذى : هذا أصح من حديث أبى سعد (٦) .

حديث آخر فى معناه : قال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا سريج (٧) بن يونس ، حدثنا إسماعيل بن مجالد ، عن مجالد ، عن الشعبي ، عن جابر : أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ ، فقال : انسب لنا ربك . فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، إلى آخرها . إسناده مقارب (٨) .

وقد رواه ابن جرير عن محمد بن عوف ، عن سريج (٩) فذكره (١٠) . وقد أرسله غير واحد من السلف .

وروى عبيد بن إسحاق العطار ، عن قيس بن الربيع ، عن عاصم ، عن أبى وائل ، عن ابن مسعود قال : قالت قريش لرسول الله ﷺ : انسب لنا ربك ، فنزلت هذه السورة : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

(١) فى م ، أ : « فضلها » .

(٢) المسند (١٣٣/٥) .

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٣٦٤) وتفسير الطبرى (٣٠/٢٢١، ٢٢٣) .

(٤) فى م ، أ : « له شبه » .

(٥) فى م ، أ : « سعيد » .

(٦) سنن الترمذى برقم (٣٣٦٥) .

(٧) فى أ : « شريح » .

(٨) فى م : « إسناده متقارب » .

(٩) فى أ : « شريح » .

(١٠) مسند أبى يعلى (٣٩، ٣٨/٤) وتفسير الطبرى (٣٠/٢٢١) ، ومجالد ضعيف فى روايته عن الشعبي عن جابر .

قال الطبراني : رواه الفريابي وغيره ، عن قيس ، عن أبي عاصم ، عن أبي وائل ، مرسلًا (١) .
ثم رَوَى الطبراني من حديث عبد الرحمن بن عثمان الطائفي ، عن الوازع بن نافع ، عن أبي سلمة ،
عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل شيء نسبة ، ونسبة الله : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الله
الصَّمَدُ] » ، والصمد ليس بأجوف [(٢) (٣)] .

حديث آخر في فضلها : قال البخاري : حدثنا محمد - هو الذهلي - حدثنا أحمد بن صالح ،
حدثنا ابن وهب ، أخبرنا عمرو ، عن ابن أبي هلال : أن أبا الرجال محمد بن عبد الرحمن حدثه ،
عن أمه عمرة بنت عبد الرحمن - وكانت في حجر عائشة زوج النبي ﷺ - عن عائشة : أن النبي
ﷺ بعث رجلاً على سرية ، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم ، فيختم بـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، فلما
رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ ، فقال : « سلوه : لأي شيء يصنع ذلك ؟ » . فسألوه ، فقال : لأنها
صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها . فقال النبي ﷺ : « أخبروه أن الله تعالى يحبه » .

هكذا رواه في كتاب « التوحيد » (٤) . ومنهم من يسقط ذكر « محمد الذهلي » . ويجعله من
روايته عن أحمد بن صالح . وقد رواه مسلم والنسائي أيضاً من حديث عبد الله بن وهب ، عن عمرو
ابن الحارث ، عن سعيد بن أبي هلال ، به (٥) .

حديث آخر : قال البخاري في كتاب الصلاة : « وقال عبيد الله (٦) ، عن ثابت ، عن أنس
قال : كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء ، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة
مما يقرأ به ، افتتح بـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ حتى يفرغ منها ، ثم يقرأ سورة أخرى معها ، وكان يصنع
ذلك في كل ركعة . فكلّمه أصحابه فقالوا : إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تُجزئُك حتى تقرأ
بالأخرى ، فإذا أن تقرأ بها ، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى . فقال : ما أنا بتاركها ، إن أحببت أن
أؤمكم بذلك فعلت ، وإن كرهتم تركتكم . وكانوا يرون أنه من أفضلهم ، وكرهوا أن يؤمهم غيره .
فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر ، فقال : « يا فلان ، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرُك به أصحابك ،
وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة ؟ » . قال : إني أحبها . قال : « حبك إياها أدخلك
الجنة » (٧) .

هكذا رواه البخاري تعليقاً مجزوماً به . وقد رواه أبو عيسى الترمذي في جامعه ، عن البخاري ،
عن إسماعيل بن أبي أويس ، عن عبد العزيز بن محمد الدراوردي ، عن عبيد الله بن عمر ، فذكر
بإسناده مثله سواء (٨) ، ثم قال الترمذي : غريب من حديث عبيد الله ، عن ثابت . قال : وروى

(١) ورواه الطيالسي عن قيس ، عن عاصم ، عن أبي وائل مرسلًا ، ورواه أبو الشيخ في العظمة برقم (٨٩) .

(٢) زيادة من أ .

(٣) ورواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٣٤٢٣) « مجمع البحرين » من طريق عبد الرحمن بن نافع ، عن علي بن ثابت ، عن
الوازع ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة به ، وقال : « لا يروى عن أبي هريرة إلا بهذا الإسناد ، تفرد به عبد الرحمن » .

(٤) صحيح البخاري برقم (٧٣٧٥) .

(٥) صحيح مسلم برقم (٨١٣) ، وسنن النسائي (١٧٠/٢) .

(٦) في أ : « وقال عبد الله » .

(٧) صحيح البخاري برقم (٧٧٤) .

(٨) سنن الترمذي برقم (٢٩٠١) .

مُبَارَكُ بْنُ فَضَالَةَ ، عَنْ ثَابِتٍ ، عَنْ أَنَسٍ ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي أَحْبَبْتُ هَذِهِ السُّورَةَ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ . قَالَ : « إِنْ حَبَّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ » .

وهذا الذى علقه الترمذى قد رواه الإمام أحمد فى مسنده متصلًا ، فقال :

حدثنا أبو النضر ، حدثنا مبارك بن فضالة ، عن ثابت ، عن أنس قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : إني أحب هذه السورة : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ . فقال رسول الله ﷺ : « حبك ^(١) إياها أدخلك الجنة » ^(٢) .

حديث فى كونها تعدل ثلث القرآن : قال البخارى : حدثنا إسماعيل ، حدثنى مالك ، عن عبد الرحمن ابن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صَعَصَعَةَ ، عن أبيه ، عن أبى سعيد . أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، يرددها ، فلما أصبح جاء إلى النبى ﷺ ، فذكر ذلك له ، وكان الرجل يتقأها ، فقال النبى ﷺ ^(٣) : « والذى نفسى بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن » . زاد إسماعيل بن جعفر ، عن مالك ، عن عبد الرحمن بن عبد الله ، عن أبيه ، عن أبى سعيد قال : أخبرنى أخى قتادة بن النعمان ، عن النبى ﷺ ^(٤) .

وقد رواه البخارى أيضا عن عبد الله بن يوسف ، والقَعْنَبِيِّ . ورواه أبو داود عن القعنبي ، والنسائى عن قتيبة ، كلهم عن مالك ، به ^(٥) . وحديث قتادة بن النعمان أسنده النسائى من طريقين ، عن إسماعيل بن جعفر ، عن مالك ، به ^(٦) .

حديث آخر : قال البخارى : حدثنا عُمر بن حفص ، حدثنا أبى ، حدثنا الأعمش ، حدثنا إبراهيم والضحاك المَشْرِقى ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة ؟ » . فشق ذلك عليهم وقالوا : أينا يطيق ذلك يا رسول الله ؟ فقال : « الله الواحد الصمد ثلث القرآن » ^(٧) .

تفرد بإخراجه البخارى من حديث إبراهيم بن يزيد النَّخَعِى والضحاك بن شَرَحْبِيل الهمدانى المَشْرِقى ، كلاهما عن أبى سعيد ، قال القَرَبْرِى : سمعت أبا جعفر محمد بن أبى حاتم وراقُ أبى عبد الله قال : قال أبو عبد الله البخارى : عن إبراهيم مرسل ، وعن الضحاك مسند ^(٨) .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق ، حدثنا ابن لهيعة ، عن الحارث بن يزيد ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخدرى قال : بات قتادة بن النعمان يقرأ الليل كله بـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

(١) فى م : « إِنْ حَبَّكَ » .

(٢) المسند (١٤١/٣) .

(٣) فى م : « فقال رسول الله » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٧٣٧٤) .

(٥) صحيح البخارى برقم (٦٦٤٣، ٥٠١٣) وسنن أبى داود برقم (١٤٦١) وسنن النسائى (١٧١/٢) .

(٦) سنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٢٩) وبرقم (١٠٥٣٦) .

(٧) صحيح البخارى برقم (٥٠١٥) .

(٨) قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٦٠/٩) : « والمراد أن رواية إبراهيم النخعى عن أبى سعيد منقطعة ، ورواية الضحاك عنه متصلة »

اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ، فذكر ذلك للنبي ﷺ ، فقال : « والذي نفسى بيده ، لتعدلُ نصف القرآن ، أو ثلثه » (١) .
 حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا حُيَّ بن عبد الله ، عن أبي عبد الرحمن الحبلى ، عن عبد الله بن عمرو : أن أبا أيوب الأنصارى كان فى مجلس وهو يقول : ألا يستطيع أحدكم أن يقوم بثلاث القرآن كل ليلة ؟ فقالوا : وهل يستطيع ذلك أحد ؟ قال : فإن ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ثلث القرآن . قال : فجاء النبي ﷺ وهو يسمع أبا أيوب ، فقال : « صدق أبو أيوب » (٢) .

حديث آخر : قال أبو عيسى الترمذى : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا يزيد بن كيسان ، أخبرنى أبو حازم ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « احشُدوا ، فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن » . فحشد من حشد ، ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ . ثم دخل فقال بعضنا لبعض : قال رسول الله ﷺ : « فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن » . إنى لأرى هذا خبراً جاء من السماء ، ثم خرج نبي الله ﷺ فقال : « إنى قلت : سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، ألا وإنها تعدل ثلث القرآن » .

وهكذا رواه مسلم فى صحيحه ، عن محمد بن بشار ، به (٣) . وقال الترمذى : حسن صحيح غريب ، واسم أبى حازم سلمان .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن زائدة بن قدامة ، عن منصور ، عن هلال بن يساف ، عن الربيع بن خثيم (٤) ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الرحمن ابن أبى ليلى ، عن امرأة من الأنصار ، عن أبى أيوب ، عن النبي ﷺ قال : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة ؟ فإنه من قرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ فى ليلة ، فقد قرأ ليلتئذ ثلث القرآن » .

هذا حديث تُسَاعَى الإسناد للإمام أحمد . ورواه الترمذى والنسائى ، كلاهما عن محمد بن بشار (٥) بन्दار — زاد الترمذى وقتيبة — كلاهما عن عبد الرحمن بن مهدي ، به (٦) . فصار لهما عشاريا . وفى رواية الترمذى : « عن امرأة أبى أيوب ، عن أبى أيوب » ، به [وحسنه] (٧) . ثم قال : وفى الباب عن أبى الدرداء ، وأبى سعيد ، وقتادة بن النعمان ، وأبى هريرة ، وأنس ، وابن عمر ، وأبى مسعود . وهذا حديث حسن ، ولا نعلم أحداً رَوَى هذا الحديث أحسن من رواية « زائدة » . وتابعه على روايته إسرائيل ، والفضيل بن عياض . وقد رَوَى شُعْبَةُ وغيرُ واحد من الثقات هذا الحديث عن منصور واضطربوا فيه .

(١) المسند (١٥/٣) .

(٢) المسند (١٧٣/٢) .

(٣) سنن الترمذى برقم (٢٩٠٠) وصحيح مسلم برقم (٨١٢) .

(٤) فى أ : « بن خثيم » . (٥) فى أ : « يسار » .

(٦) سنن الترمذى برقم (٢٨٩٦) وسنن النسائى (١٧٢/٢) .

(٧) زيادة من م ، أ .

حديث آخر : قال أحمد : حدثنا هُشَيْمٌ ، عن حُصَيْنٍ ، عن هلال بن يَسَافٍ ، عن عبد الرحمن ابن أبي ليلى ، عن أبي بن كعب - أو : رجل من الأنصار - قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فكأنما قرأ بثلاث القرآن » (١) .

ورواه النسائي في « اليوم واللييلة » ، من حديث هُشَيْمٍ ، عن حُصَيْنٍ ، عن ابن أبي ليلى ، به (٢) . ولم يقع في روايته : هلال بن يساف .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا وَكِيعٌ ، عن سفيان ، عن أبي قيس (٣) ، عن عمرو بن ميمون ، عن أبي مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تعدلُ ثلث القرآن » (٤) .

وهكذا رواه ابن ماجه ، عن علي بن محمد الطنّافسي ، عن وَكِيعٍ ، به (٥) . ورواه النسائي في « اليوم واللييلة » من طرق آخر ، عن عمرو بن ميمون ، مرفوعاً وموقوفاً (٦) .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا بَهْزٌ ، حدثنا بُكَيْرُ بن أبي السَّمِيطِ (٧) ، حدثنا قتادة ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن مَعْدَانَ بن أبي طلحة ، عن أبي الدرداء ، أن رسول الله ﷺ قال : « أيعجزُ أحدكم أن يقرأ كلَّ يوم ثلث القرآن ؟ » . قالوا : نعم يا رسول الله ، نحن أضعفُ من ذلك وأعجز . قال : « فإن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء ، فـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ثلث القرآن » . ورواه مسلم والنسائي ، من حديث قتادة ، به (٨) .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا أمية بن خالد ، حدثنا محمد بن عبد الله بن مسلم - ابن أخي ابن شهاب - عن عمه الزهري ، عن حُمَيْدِ بن عبد الرحمن - هو ابن عوف - عن أمه - وهي : أم كلثوم بنت عقبة (٩) بن أبي مُعَيْطٍ - قالت : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تعدلُ ثلث القرآن » .

وكذا رواه النسائي في « اليوم واللييلة » ، عن عمرو بن علي ، عن أمية بن خالد ، به (١٠) . ثم رواه من طريق مالك ، عن الزهري ، عن حُمَيْدِ بن عبد الرحمن ، قوله (١١) . ورواه النسائي أيضا في « اليوم واللييلة » من حديث محمد بن إسحاق ، عن الحارث بن الفضيل الأنصاري ، عن الزهري ، عن حُمَيْدِ بن عبد الرحمن : أن نَفَرًا من أصحاب محمد ﷺ حَدَّثُوهُ عن النبي ﷺ أنه قال :

(١) المسند (١٤١/٥) .

(٢) سنن النسائي الكبرى برقم (١٠٥٢١) .

(٣) في م : « إسحاق » .

(٤) المسند (١٢٢/٤) .

(٥) سنن ابن ماجه برقم (٣٧٨٩) .

(٦) سنن النسائي الكبرى برقم (١٠٥٢٨ ، ١٠٥٢٥ ، ١٠٥٢٩) .

(٧) في أ : « حدثنا بكر بن أبي السمط » .

(٨) المسند (٤٤٧/١) وصحيح مسلم برقم (٨١١) وسنن النسائي الكبرى برقم (١٠٥٣٧) .

(٩) في م : « عتبة » .

(١٠) سنن النسائي الكبرى برقم (١٠٥٣١) .

(١١) سنن النسائي الكبرى برقم (١٠٥٣٣) .

« قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » تعدلُ ثلثَ القرآن لمن صلى بها ^(١) .

حديث آخر في كون قراءتها توجب الجنة : قال الإمام مالك بن أنس ، عن عبيد الله بن عبد الرحمن ، عن عبيد بن حنين قال : سمعت أبا هريرة يقول : أقبلت مع النبي ﷺ ، فسمع رجلاً يقرأ « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » ، فقال رسول الله ﷺ : « وَجِبَتْ » . قلت : وما وَجِبَتْ ؟ قال : « الجنة » . ورواه الترمذى والنسائى ، من حديث مالك ^(٢) . وقال الترمذى : حسن صحيح غريب ، لا نعرفه إلا من حديث مالك .

وتقدم حديث : « حُبَّك إياهاهـ أدخلك الجنة » .

حديث في تكرار قراءتها : قال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا قطن بن نسير ، حدثنا عيسى ابن ميمون القرشى ، حدثنا يزيد الرقاشى ، عن أنس قال : سمعت رسول الله ^(٣) ﷺ يقول : « أما يستطيع أحدكم أن يقرأ : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » ثلاث مرات في ليلة ^(٤) ، فإنها تعدلُ ثلث القرآن ؟ » ^(٥) . هذا إسناد ضعيف ، وأجود منه حديث آخر ، قال عبد الله ابن الإمام أحمد :

حدثنا محمد بن أبى بكر المَقْدَمى ، حدثنا الضحاك بن مخلد ، حدثنا ابن أبى ذئب ، عن أسيد بن أبى-أسيد ، عن معاذ بن عبد الله بن خبيب ، عن أبيه قال : أصابنا طَش وظلمة ، فانتظرنا رسول الله ﷺ يصلى لنا ، فخرج فأخذ بيدي ، فقال : « قل » . فسكت . قال : « قل » . قلت : ما أقول ؟ قال : « « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » ، والمعوذتين حين تسمى وحين تصبح ثلاثاً ، تكفك كل يوم مرتين » .

ورواه أبو داود والترمذى والنسائى ، من حديث ابن أبى ذئب ، به ^(٦) . وقال الترمذى : حسن صحيح غريب من هذا الوجه . وقد رواه النسائى من طريق أخرى ، عن معاذ بن عبد الله بن خبيب ، عن أبيه ، عن عقبة بن عامر ، فذكره [ولفظه : « يكفك كل شيء »] ^(٧) ^(٨) .

حديث آخر في ذلك : قال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنا ليث بن سعد ، حدثني الخليل بن مرة ، عن الأزهر بن عبد الله ، عن تميم الدارى قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال : لا إله إلا الله واحداً واحداً صمداً ، لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً ، ولم يكن له كفواً أحداً ، عشر مرات ، كُتِبَ له أربعون ألف حسنة » .

تفرد به أحمد ^(٩) ، والخليل بن مرة : ضعفه البخارى وغيره بمرة .

حديث آخر : قال أحمد أيضاً : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا زبَّان بن

(١) سنن النسائى الكبرى برقم (١٠٥٣٢) .

(٢) الموطأ (٢/٢٠٨) وسنن الترمذى برقم (٢٨٩٧) وسنن النسائى (٢/١٧١) .

(٣) فى م : « سمعت نبي الله » . (٤) فى أ : « فى كل ليلة » .

(٥) مسند أبى يعلى (٨/١٥٠) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/١٤٧) : « فيه عيب ، وهو متروك » .

(٦) زوائد المسند (٥/٣١٢) وسنن أبى داود برقم (٥٠٨٢) وسنن الترمذى برقم (٣٥٧٥) وسنن النسائى (٨/٢٥٠) .

(٧) زيادة من م .

(٨) سنن النسائى (٨/٢٥١) .

(٩) المسند (٤/١٠٣) .

فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني ، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال : « من قرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ حتى يخطمها ، عشر مرات ، بنى الله له قصرًا في الجنة » . فقال عمر : إذن نستكثر يا رسول الله . فقال ﷺ : « الله أكثر وأطيب » . تفرد به أحمد (١) .

ورواه أبو محمد الدارمي في مسنده فقال : حدثنا عبد الله بن يزيد ، حدثنا حيوة ، حدثنا أبو عقيل زهرة بن معبد — قال الدارمي : وكان من الأبدال — أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : إن نبى الله ﷺ قال : « من قرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ عشر مرات ، بنى الله له قصرًا في الجنة ، ومن قرأها عشرين مرة بنى الله له قصرين في الجنة ، ومن قرأها ثلاثين مرة بنى الله له ثلاثة قصور في الجنة » . فقال عمر بن الخطاب : إذن لتكثر قصورنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « الله أوسع من ذلك » (٢) . وهذا مرسل جيد .

حديث آخر : قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا نصر بن على ، حدثني نوح بن قيس ، أخبرني محمد العطار ، أخبرني أم كثير الأنصارية ، عن أنس بن مالك ، عن رسول الله ﷺ قال : « من قرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ خمسين مرة غُفرت له (٣) ذنوب خمسين سنة » (٤) . إسناده ضعيف .

حديث آخر : قال أبو يعلى : حدثنا أبو الربيع ، حدثنا حاتم بن ميمون ، حدثنا ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ في يوم : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ مائتي مرة ، كتب الله له ألفاً وخمسمائة حسنة إلا أن يكون عليه دين » (٥) . إسناده ضعيف ، حاتم بن ميمون : ضعفه البخاري وغيره . ورواه الترمذي ، عن محمد بن مرزوق البصري ، عن حاتم بن ميمون ، به . ولفظه : « من قرأ كل يوم ، مائتي مرة : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، محى عنه ذنوب خمسين سنة ، إلا أن يكون عليه دين » .

قال الترمذي : وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال : « من أراد أن ينام على فراشه ، فنام على يمينه ، ثم قرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ مائة مرة ، فإذا كان يوم القيامة يقول له الرب ، عز وجل : يا عبدى ، ادخل على يمينك الجنة » (٦) . ثم قال : غريب من حديث ثابت ، وقد روى من غير هذا الوجه ، عنه .

وقال أبو بكر البزار : حدثنا سهل بن بحر ، حدثنا حبان بن أغلب ، حدثنا أبى ، حدثنا ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ مائتي مرة ، حط الله عنه ذنوب مائتي سنة » (٧) . ثم قال : لا نعلم رواه عن ثابت إلا الحسن بن أبى جعفر ، والأغلب بن

(١) المسند (٣/٤٣٧) .

(٢) سنن الدارمي برقم (٣٤٢٩) .

(٣) فى م ، أ : « غفر الله له » .

(٤) ورواه الدارمي فى السنن برقم (٣٤٣٨) : حدثنا نصر بن على بمثله سواء .

(٥) مسند أبى يعلى (١٠٣/٦) .

(٦) سنن الترمذى برقم (٢٨٩٨) .

(٧) ورواه ابن الضريس فى فضائل القرآن برقم (٢٦٧) والخطيب فى تاريخ بغداد (٦/١٨٧) من طريق الحسن بن أبى جعفر ، عن ثابت به .

تيمم، وهما متقاربان في سوء الحفظ .

حديث آخر في الدعاء بما تضمنته من الأسماء : قال النسائي عند تفسيرها : حدثنا عبد الرحمن بن خالد ، حدثنا زيد بن الحباب ، حدثني مالك بن مغول ، حدثنا عبد الله بن بريدة ، عن أبيه : أنه دخل مع رسول الله ﷺ المسجد فإذا رجل يصلي ، يدعو يقول : اللهم ، إني أسألك بأنني أشهد أن لا إله إلا أنت ، الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد . قال : « والذي نفسى بيده ، لقد سأله باسمه الأعظم ، الذي إذا سئل به أعطى ، وإذا دعى به أجاب » (١) .

وقد أخرجه بَقِيَّةُ أصحاب السنن من طُرُق ، عن مالك بن مغول ، عن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه ، به (٢) . وقال الترمذى : حسن غريب .

حديث آخر في قراءتها عشر مرات بعد المكتوبة : قال الحافظ أبو يعلى [الموصلى] (٣) : حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا بشر بن منصور ، عن عمر بن نبهان (٤) ، عن أبي شداد ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من جاء بهنَّ مع الإيمان دَخَلَ من أى أبواب الجنة شاء ، وزُوج من الخور العين حيث شاء : من عفا عن قاتله ، وأدى ديناً خفياً ، وقرأ فى دبر كل صلاة مكتوبة عشر مرات : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ » . قال : فقال أبو بكر : أو إحداهن يا رسول الله ؟ قال : « أو إحداهن » (٥) .

حديث فى قراءتها عند دخول المنزل : قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا محمد بن عبد الله بن بكر السراج العسكرى ، حدثنا محمد بن الفرّج ، حدثنا محمد بن الزبيرقان ، عن مروان بن سالم ، عن أبي زُرْعَةَ بن (٦) عمرو بن جرير ، عن جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ حين يدخل منزله ، نفت الفقر عن أهل ذلك المنزل والجيران » (٧) . إسناده ضعيف .

حديث فى الإكثار من قراءتها فى سائر الأحوال : قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا محمد بن إسحاق المسيبى ، حدثنا يزيد بن هارون ، عن العلاء بن (٨) محمد الثقفى قال : سمعت أنس بن مالك يقول : كنا مع رسول الله ﷺ بتبوك ، فطلعت الشمس بضياء وشعاع ونور لم نرها طلعت فيما مضى

(١) سنن النسائي الكبرى كما فى تحفة الأشراف للزمزى (٩٠ / ٢) .

(٢) سنن أبى داود برقم (١٤٩٣) وسنن الترمذى برقم (٣٤٧٥) وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٥٧) .

(٣) زيادة من م . (٤) فى م ، أ ، هـ : « عمر بن شيبان » .

(٥) مسند أبى يعلى (٣٣٢ / ٣) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠٢ / ١٠) : « فيه عمر بن نبهان وهو متروك » .

(٦) فى م ، أ ، هـ : « عن » .

(٧) المعجم الكبير (٣٤٠ / ٢) .

(٨) كذا ترجمه البخارى فى التاريخ (٥٠٧ / ٦) ، وابن حبان فى المجروحين (١٨١ / ٢) ، وترجمه ابن أبى حاتم فى الجرح (٣٥٥ / ٦) ، والذهبى فى الميزان (١٠٦ / ٣) ، كذا : « العلاء بن يزيد ، أبو محمد الثقفى » وكأن هذا هو الراجح ، لكن أثبتنا الأول لكونه وقع فى النسخ هكذا ، وكذلك فى مسند أبى يعلى ، أما الدلائل فقد وقع فيه على الكنية فأثبتناه كما هو فيه .

بمثله ، فأتى جبريل النبي ﷺ فقال ^(١) : « يا جبريل ، مالى أرى الشمس طلعت اليوم ^(٢) بضياء ونور وشعاع لم أرها طلعت بمثله فيما مضى ؟ » . قال : إن ذلك معاوية بن معاوية الليثى ، مات بالمدينة اليوم ، فبعث الله إليه سبعين ألف ملك يصلون عليه . قال : « وفيم ذلك ؟ » قال : كان يكثر قراءة : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فى الليل وفى النهار ، وفى ممشاه وقيامه وعوده ، فهل لك يا رسول الله أن أقبض لك الأرض فتصلى عليه ؟ قال : « نعم » . فصلى عليه .

وكذا رواه الحافظ أبو بكر البيهقى فى [كتاب] ^(٣) « دلائل النبوة » من طريق يزيد بن هارون ، عن العلاء أبى ^(٤) محمد ^(٥) — وهو متهم بالوضع — فالله أعلم .

طريق أخرى : قال أبو يعلى : حدثنا محمد بن إبراهيم الشامى أبو عبد الله ، حدثنا عثمان بن الهيثم — مؤذن مسجد الجامع بالبصرة عندى — عن محمود أبى عبد الله ^(٦) ، عن عطاء بن أبى ميمونة ، عن أنس قال : نزل جبريل على النبي ﷺ فقال : مات معاوية بن معاوية الليثى ، فتحب أن تصلى عليه ؟ قال : « نعم » . فضرب بجناحه الأرض ، فلم تبق شجرة ولا أكمة إلا تضعضعت ، فرفع سريره فنظر إليه ، فكبر عليه وخلفه صفان من الملائكة ، فى كل صف سبعون ألف ملك ، فقال النبي ﷺ : « يا جبريل ، بم نال هذه المنزلة من الله تعالى ؟ » . قال بحبه : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، وقراءته إياها ذاهباً وجائياً قائماً ^(٧) وقاعداً ، وعلى كل حال ^(٨) .

ورواه البيهقى ، من رواية عثمان بن الهيثم المؤذن ، عن محبوب بن هلال ، عن عطاء بن أبى ميمونة ، عن أنس ، فذكره . وهذا هو الصواب ^(٩) ، ومحبوب بن هلال قال أبو حاتم الرازى : « ليس بالمشهور » ^(١٠) . وقد روى هذا من طرق أخر ، تركناها ^(١١) اختصاراً ، وكلها ضعيفة .

حديث آخر فى فضلها مع المعوذتين : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا معاذ بن رفاعه ، حدثنى على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة ، عن عقبة بن عامر قال : لقيت رسول الله ﷺ ، فابتدأته فأخذت بيده ، فقلت : يا رسول الله ، بم نجاة المؤمن ؟ قال : « يا عقبة ، احرُسْ لسانك وليسَعَكْ بيتك ، وأبكِ على خطيئتك » . قال : ثم لقينى رسول الله ﷺ ، فابتدأنى فأخذ بيدي ، فقال : « يا عقبة بن عامر ، ألا أعلمك خير ثلاث سور أنزلت فى التوراة ، والإنجيل ،

(١) فى م : « فقال لى » .

(٢) فى م : « يومئذ » .

(٣) زيادة من م .

(٤) فى أ : « العلاء بن محمد » .

(٥) مسند أبى يعلى (٢٥٦/٧) ودلائل النبوة (٢٤٥/٥) .

(٦) وقع فى أصل مسند أبى يعلى : « محمود بن عبد الله » ووقع هنا : « محمود أبى عبد الله » — كما ترى — والصواب : « محبوب ابن هلال » كما فى رواية البيهقى ، والله أعلم .

(٧) فى م : « وقائماً » .

(٨) مسند أبى يعلى (٢٥٨/٧) .

(٩) دلائل النبوة (٢٤٦/٥) ورواه ابن الضريس فى فضائل القرآن برقم (٢٧٢) ، من طريق محبوب بن هلال به ، وساقه المؤلف فى البداية والنهاية من رواية البيهقى (١٤/٥) ، وقال : « منكر من هذا الوجه » .

(١٠) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم (٣٨٩/٨) .

(١١) فى م : « تركنا ذكرها » .

والزبور ، والقرآن العظيم ؟ » . قال : قلت : بلى ، جعلني الله فداك . قال : فأقرأني : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ . ثم قال : « يا عقبة ، لا تَنْسَهُنَّ ولا تَبْتَ ليلة حتى تقرأهن » . قال : فما نسيتهن منذ قال : « لا تَنْسَهُنَّ » ، وما بت ليلة قط حتى أقرأهن . قال عقبة ، ثم لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته ، فأخذت بيده ، فقلت : يا رسول الله ، أخبرني بفواضل الأعمال . فقال : « يا عقبة ، صلِّ من قطعك ، وأعطِ من حرَمَك ، وأعرض ^(١) عمن ظلمك » ^(٢) .

روى الترمذى بعضه فى « الزهد » ، من حديث عبيد الله بن زحر ، عن على بن يزيد وقال : هذا حديث حسن ^(٣) . وقد رواه أحمد من طريق آخر :

حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا ابن عياش ، عن أسيد بن عبد الرحمن الخثعمى ، عن فروة بن مجاهد اللخمي ، عن عقبة بن عامر ، عن النبي ﷺ ، فذكر مثله سواء . تفرد به أحمد ^(٤) .

حديث آخر فى الاستشفاء بهن : قال البخارى : حدثنا قتيبة ، حدثنا الفضل ، عن عَقِيل ، عن ابن شهاب ، عن عروة ، عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع ^(٥) كفيه ، ثم نفث فيهما فقرأ فيهما : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ . ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات .

وهكذا رواه أهل السنن ، من حديث عَقِيل ، به ^(٦) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) ﴾ .

قد تقدم ذكر سبب نزولها . وقال عكرمة : لما قالت اليهود : نحن نعبد عُزَيْرَ ابن الله . وقالت النصرارى : نحن نعبد المسيح ابن الله . وقالت المجوس : نحن نعبد الشمس والقمر . وقالت المشركون : نحن نعبد الأوثان - أنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

يعنى : هو الواحد الأحد ، الذى لا نظير له ولا وزير ، ولا نديد ولا شبيه ولا عديل ، ولا يُطَلَق

(١) فى م : « واعف » .

(٢) المسند (١٤٨/٤) .

(٣) سنن الترمذى برقم (٢٤٠٦) ، وفى إسناده عبيد الله بن زحر وعلى بن يزيد والقاسم كلهم ضعفاء ، قال ابن حبان فى عبيد الله بن زحر : « يروى الموضوعات عن الأثبات ، وإذا روى عن على بن يزيد أتى الطامات ، وإذا اجتمع فى إسناده خبر عبيد الله ، وعلى ابن يزيد ، والقاسم - أبو عبد الرحمن - لم يكن ذلك الخبر إلا مما عملته أيديهم » .

(٤) المسند (١٥٨/٤) .

(٥) فى م : « ليلة جمعة » .

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٠١٧) وسنن أبى داود برقم (٥٠٥٦) وسنن الترمذى برقم (٣٤٠٢) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٦٢٤) وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٧٥) .

هذا اللفظ على أحد فى الإثبات إلا على الله ، عز وجل ؛ لأنه الكامل فى جميع صفاته وأفعاله .
وقوله : ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ ، قال عكرمة ، عن ابن عباس : يعنى الذى يصمد الخلائق إليه فى حوائجهم ومسائلهم .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : هو السيد الذى قد كمل فى سؤدده ، والشريف الذى قد كمل فى شرفه ، والعظيم الذى قد كمل فى عظمته ، والحليم الذى قد كمل فى حلمه ، والعليم الذى قد كمل فى علمه ، والحكيم الذى قد كمل فى حكمته ^(١) . وهو الذى قد كمل فى أنواع الشرف والسؤدد ، وهو الله سبحانه ، هذه صفته لا تنبغى إلا له ، ليس له كفاء ، وليس كمثل شىء ، سبحانه الله الواحد القهار .

وقال الأعمش ، عن شقيق ^(٢) ، عن أبى وائل : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ : السيد الذى قد انتهى سؤدده ، ورواه عاصم ، عن أبى وائل ، عن ابن مسعود ، مثله .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ : السيد . وقال الحسن ، وقتادة : هو الباقي بعد خلقه . وقال الحسن أيضاً : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ : الحى القيوم الذى لا زوال له . وقال عكرمة : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ : الذى لم يخرج منه شىء ولا يطعم .

وقال الربيع بن أنس : هو الذى لم يلد ولم يولد . كأنه جعل ما بعده تفسيراً له ، وهو قوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ ، وهو تفسير جيد . وقد تقدم الحديث من رواية ابن جرير ، عن أبى بن كعب فى ذلك ، وهو صريح فيه .

وقال ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، ومجاهد ، وعبد الله بن بريدة ، وعكرمة أيضاً ، وسعيد بن جبير ، وعطاء بن أبى رباح ، وعطية العوفى ، والضحاك ، والسدى : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ : الذى لا جوف له .

قال سفيان ، عن منصور ، عن مجاهد : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ : المصمت الذى لا جوف له .

وقال الشعبى : هو الذى لا يأكل الطعام ، ولا يشرب الشراب .

وقال عبد الله بن بريدة ^(٣) أيضاً : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ : نور يتلأل .

روى ذلك كله وحكاه : ابن أبى حاتم ، والبيهقى والطبرانى ، وكذا أبو جعفر بن جرير ساق أكثر ذلك بأسانيده ، وقال :

حدثنى العباس بن أبى طالب ، حدثنا محمد بن عمرو بن رومى ، عن عبيد الله بن سعيد قائد الأعمش ، حدثنى صالح بن حيان ، عن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه قال — لا أعلم إلا قد رفعه — قال : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ : الذى لا جوف له .

وهذا غريب جداً ، والصحيح أنه موقوف على عبد الله بن بريدة .

(١) فى أ : « يزيد » .

(٢) فى أ : « سفيان » .

(٣) فى م : « فى حكمه » .

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في كتاب السنة له ، بعد إيراده كثيراً من هذه الأقوال في تفسير « الصمد » : وكل هذه صحيحة ، وهى صفات ربنا ، عز وجل ، وهو الذى يُصمد إليه فى الحوائج ، وهو الذى قد انتهى سؤدده ، وهو الصمد الذى لا جوف له ، ولا يأكل ولا يشرب ، وهو الباقي بعد خلقه . وقال البيهقي نحو ذلك [أيضاً] (١) (٢) .

وقوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ أى : ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة .

قال مجاهد : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ يعنى : لا صاحبة له .

وهذا كما قال تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٠١] أى : هو مالك كل شىء وخالقه ، فكيف يكون له من خلقه من نظير يساميه ، أو قريب يدانيه ، تعالى وتقدس وتنزه . قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ، ٢٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ [الصافات: ١٥٨ ، ١٥٩] . وفى الصحيح - صحيح البخارى - : « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولدا ، وهو يرزقهم ويعافيه » (٣) .

وقال البخارى : حدثنا أبو اليمان ، حدثنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « قال الله ، عز وجل : كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقلوله : لن يُعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون على من أعادته . وأما شتمه إياى فقلوله : اتخذ الله ولداً . وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » .

ورواه أيضاً من حديث عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همام بن منبه ، عن أبي هريرة ، مرفوعاً بمثله . تفرد بهما من هذين الوجهين (٤) .

آخر تفسير سورة « الإخلاص »

(١) زيادة من م ، أ .

(٢) وقد أطنب شيخ الإسلام ابن تيمية فى بيان معنى الصمد فى الفتاوى (١٧/٢١٤) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٦٠٩٩) من حديث أبى موسى ، رضى الله عنه .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٤) وبرقم (٤٩٧٥) .

تفسير سورتى المعوذتين

وهما مدنيتان .

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا عاصم بن بهدكة ، عن زر بن حبیش قال : قلت لأبى بن كعب : إن ابن مسعود [كان] ^(١) لا يكتب المعوذتين فى مصحفه ؟ فقال : أشهد أن رسول الله ﷺ أخبرنى أن جبريل ، عليه السلام ، قال له : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ فقلتها ، قال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ فقلتها . فنحن نقول ما قال النبى ﷺ ^(٢) ، ^(٣) .

ورواه أبو بكر الحميدى فى مسنده ، عن سفيان بن عيينة ، حدثنا عبدة بن أبى لبابة وعاصم بن بهدلة ، أنهما سمعا زر بن حبیش قال : سألت أبى بن كعب عن المعوذتين ، فقلت : يا أبا المنذر ، إن أخاك ابن مسعود يحكمهما من المصحف . فقال : إنى سألت رسول الله ﷺ ، فقال : « قيل ^(٤) لى : قل ، فقلت » . فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ ^(٥) .

وقال أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن عاصم ، عن زر قال : سألت ابن مسعود عن المعوذتين فقال : سألت النبى ﷺ عنهما فقال : « قيل لى ، فقلت لكم ، فقولوا » . قال أبى : فقال لنا النبى ﷺ فنحن نقول ^(٦) .

وقال البخارى : حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، حدثنا عبدة بن أبى لبابة ، عن زر بن حبیش - وحدثنا عاصم عن زر - قال : سألت أبى بن كعب فقلت : أبا المنذر ، إن أخاك ابن مسعود يقول كذا وكذا . فقال : إنى سألت النبى ﷺ فقال : « قيل لى ، فقلت » . فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ ^(٧) .

ورواه البخارى أيضاً والنسائى ، عن قتبية ، عن سفيان بن عيينة ، عن عبدة وعاصم بن أبى النجود ، عن زر بن حبیش ، عن أبى بن كعب ، به ^(٨) .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا الأزرق بن على ، حدثنا حسان بن إبراهيم ، حدثنا الصلت بن بهرام ، عن إبراهيم ، عن علقمة قال : كان عبد الله يحك المعوذتين من المصحف ، ويقول : إنما

(١) زيادة من المسند .

(٢) فى م : « عليه السلام » .

(٣) المسند (١٢٩/٥) .

(٤) فى م : « قال » .

(٥) مسند الحميدى (١٨٥/١) .

(٦) المسند (١٢٩/٥) .

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٧) .

(٨) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٦) .

أمر رسول الله ﷺ أن يتعوذ بهما ، ولم يكن عبد الله يقرأ بهما ^(١) .

ورواه عبد الله بن أحمد من حديث الأعمش ، عن أبي إسحاق ، عن عبد الرحمن ^(٢) بن يزيد قال : كان عبد الله يحك المعوذتين من مصاحفه ، ويقول : إنهما ليستا من كتاب الله — قال الأعمش : وحدثنا عاصم ، عن زر بن حبیش ، عن أبي بن كعب قال : سألنا عنهما رسول الله ﷺ ، قال : « قيل لى ، فقلت » ^(٣) .

وهذا مشهور عند كثير من القراء والفقهاء : أن ابن مسعود كان لا يكتب المعوذتين فى مصحفه ، فلعله لم يسمعهما من النبى ﷺ ، ولم يتواتر عنده ، ثم لعله قد رجع عن قوله ذلك إلى قول الجماعة ، فإن الصحابة ، رضى الله عنهم ، كتبوها ^(٤) فى المصاحف الأئمة ، ونفذوها إلى سائر الآفاق كذلك ، ولله الحمد والمنة .

وقد قال مسلم فى صحيحه : حدثنا قتيبة ، حدثنا جرير ، عن بيان ، عن قيس بن أبى حازم ، عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ » ^(٥) .

ورواه أحمد ، ومسلم أيضا ، والترمذى ، والنسائى ، من حديث إسماعيل بن أبى خالد ، عن قيس بن أبى حازم ، عن عقبة ، به ^(٦) . وقال الترمذى : حسن صحيح .

طريق أخرى : قال الإمام أحمد : حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا ابن جابر ، عن القاسم أبى عبد الرحمن ، عن عقبة بن عامر قال : بينا أنا أقود برسول الله ﷺ فى نَقَب من تلك النقاب ، إذ قال لى : « يا عقبة ، ألا تركب ؟ » . قال : [فَأَجَلَلْتُ رسول الله ﷺ أن أركب مركبه . ثم قال : « يا عُقَيْب ، ألا تركب ؟ » . قال] ^(٧) فأشفقت أن تكون معصية ، قال : فنزل رسول الله ﷺ وركبت هنيهة ، ثم ركب ، ثم قال : « يا عُقَيْب ، ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس ؟ » . قلت : بلى يا رسول الله . فأقرأنى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ . ثم أقيمت الصلاة ، فتقدم رسول الله ﷺ فقرأ بهما ، ثم مر بى فقال : « كيف رأيت يا عُقَيْب » ^(٨) ، أقرأ بهما كلما نمت وكلما قمت .

ورواه النسائى من حديث الوليد بن مسلم وعبد الله بن المبارك ، كلاهما عن ابن جابر ، به ^(٩) .

(١) ورواه البزار فى مسنده برقم (٢٣٠١) ، من طريق محمد بن أبى يعقوب ، عن حسان بن إبراهيم به ، وقال البزار : « وهذا لم يتابع عبد الله عليه أحد من الصحابة ، وقد صح عن النبى ﷺ أنه قرأ بهما فى الصلاة ، وأثبتا فى المصحف » .

(٢) فى م : « عن عبد الله » .

(٣) زوائد المسند (١٢٩/٥) .

(٤) فى م : « أتبعوهما » .

(٥) صحيح مسلم برقم (٨١٤) .

(٦) المسند (١٤٤/٤) وصحيح مسلم برقم (٨١٤) ، وسنن الترمذى برقم (٢٩٠٢) وسنن النسائى (١٥٨/٢) .

(٧) زيادة من المسند .

(٨) فى م : « يا عقب » .

(٩) المسند (١٤٤/٤) وسنن النسائى (٢٥٣/٨) .

ورواه أبو داود والنسائي أيضاً ، من حديث ابن وهب ، عن معاوية بن صالح ، عن العلاء بن الحارث ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن عقبة ، به (١) .

طريق أخرى : قال أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا سعيد بن أبي أيوب ، حدثني يزيد ابن عبد العزيز الرعيني وأبو مرحوم ، عن يزيد بن محمد القرشي ، عن علي بن رباح ، عن عقبة بن عامر قال : أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذات في دبر كل صلاة .

ورواه أبو داود والترمذي والنسائي ، من طرق ، عن علي بن رباح (٢) . وقال الترمذي : غريب .

طريق أخرى : قال أحمد : حدثنا يحيى (٣) بن إسحاق ، حدثنا ابن لهيعة ، عن مشرَح بن هاعان ، عن عقبة بن عامر قال : قال لي رسول الله ﷺ : « اقرأ بالمعوذتين ، فإنك لن تقرأ بمثلهما » . تفرد به أحمد (٤) .

طريق أخرى : قال أحمد : حدثنا حيوة بن شريح ، حدثنا بَقِيَّة ، حدثنا بحير بن سعد ، عن خالد بن معدان ، عن جبير بن نفير ، عن عقبة بن عامر أنه قال : إن رسول الله ﷺ أهديت له بغلة شهباء ، فركبها فأخذ عقبة يقودها له ، فقال رسول الله ﷺ (٥) : « اقرأ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ » . فأعادها له حتى قرأها ، فعرف أني لم أفرح بها جداً ، فقال : « لعلك تهاونت بها ؟ فما قمت تصلي بشيء مثلها » .

ورواه النسائي عن عمرو بن عثمان ، عن بَقِيَّة ، به (٦) . ورواه النسائي أيضاً من حديث الثوري ، عن معاوية بن صالح ، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، عن أبيه ، عن عقبة بن عامر : أنه سأل رسول الله ﷺ عن المعوذتين ، فذكر نحوه (٧) .

طريق أخرى : قال النسائي : أخبرنا محمد بن عبد الأعلى ، حدثنا المعتمر ، سمعت النعمان ، عن زياد أبي الأسد ، عن عقبة بن عامر ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إن الناس لم يتعوذوا بمثل هذين : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ » (٨) .

طريق أخرى : قال النسائي : أخبرنا قتيبة ، حدثنا الليث ، عن ابن عجلان ، عن سعيد المقبري ، عن عقبة بن عامر قال : كنت أمشي مع رسول الله ﷺ فقال : « يا عقبة ، قل » . فقلت : ماذا أقول ؟ فسكت عني ، ثم قال : « قل » . قلت : ماذا أقول يا رسول الله ؟ فسكت عني ، فقلت : اللهم ، أرده علي . فقال : « يا عقبة ، قل » . قلت : ماذا أقول يا رسول الله ؟ فقال : « ﴿ قُلْ أَعُوذُ

(١) سنن النسائي (٨/٢٥٢، ٢٥٣) وسنن أبي داود برقم (١٤٦٢) .

(٢) المسند (٤/١٥٥) وسنن أبي داود برقم (١٥٢٣) ، وسنن الترمذي برقم (٢٩٠٣) وسنن النسائي (٣/٦٨) .

(٣) في م ، أ : « حدثنا محمد » .

(٤) المسند (٤/١٤٦) .

(٥) في م ، أ : « فقال رسول الله ﷺ لعقبة » .

(٦) المسند (٤/١٤٩) وسنن النسائي الكبرى برقم (٧٨٤٣، ٧٨٤٤) .

(٧) سنن النسائي (٨/٢٥٢) .

(٨) سنن النسائي الكبرى برقم (٧٨٥٦) .

بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ ، فقرأتها حتى أتيت على آخرها ، ثم قال : « قل » . قلت : ماذا أقول يا رسول الله؟ قال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ ، فقرأتها حتى أتيت على آخرها ، ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك : « ما سألت سائل بمثلهما ، ولا استعاذ مستعيز بمثلهما » (١) .

طريق أخرى : قال النسائي : أخبرنا محمد بن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا معاوية ، عن العلاء بن الحارث ، عن مكحول ، عن عقبة بن عامر : أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في صلاة الصبح (٢) .

طريق أخرى : قال النسائي : أخبرنا قتيبة ، حدثنا الليث ، عن يزيد بن أبي حبيب ، عن أبي عمران أسلم ، عن عقبة بن عامر قال : اتبعت (٣) رسول الله ﷺ وهو راكب ، فوضعت يدي على قدمه (٤) فقلت : أقرئني سورة هود أو سورة يوسف . فقال : « لن تقرأ شيئاً أنفع » (٥) عند الله من ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ (٦) .

حديث (٧) آخر : قال النسائي : أخبرنا محمود بن خالد ، حدثنا الوليد ، حدثنا أبو عمرو الأوزاعي ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث ، عن أبي عبد الله ، عن ابن عائش (٨) الجهني : أن النبي ﷺ قال له : « يا ابن عائش ، ألا أدلك - أو : ألا أخبرك - بأفضل ما يتعوذ به المتعوذون ؟ » . قال : بلى ، يا رسول الله . قال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ ، هاتان السورتان (٩) .

فهذه طرق عن عقبة كالمواترة عنه ، تفيد القطع عند كثير من المحققين في الحديث .

وقد تقدم في رواية صدى بن عجلان ، وفروة بن مجاهد ، عنه : « ألا أعلمك ثلاث سور لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان (١٠) مثلهن ؟ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ » .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا الجريري ، عن أبي العلاء قال : قال رجل : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، والناس يعتقبون ، وفي الظهر قلة ، فحانت نزل رسول الله ﷺ ونزلتني ، فلحقني فضرب [من بعدى] (١١) منكبي ، فقال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ، فقرأها رسول الله ﷺ وقرأتها معه ، ثم قال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ ، فقرأها رسول الله ﷺ وقرأتها معه ، فقال : « إذا صليت فاقرا بهما » (١٢) .

(١) سنن النسائي (٨/ ٢٥٣) .

(٢) سنن النسائي (٨/ ٢٥٢) .

(٣) في م : « أتيت » .

(٤) سنن النسائي (٨/ ٢٥٤) .

(٥) في أ : « طريق » .

(٦) سنن النسائي (٨/ ٢٥١) .

(٧) في أ : « في القرآن » .

(٨) زيادة من المسند .

(٩) المسند (٥/ ٢٤) .

(١٠) في م : « أبلغ » .

(١١) في م ، أ : « على قدميه » .

(١٢) في أ : « عباس » .

الظاهر أن هذا الرجل هو عقبة بن عامر ، والله أعلم .

ورواه النسائي عن يعقوب بن إبراهيم ، عن ابن علية ، به (١) .

حديث آخر : قال النسائي : أخبرنا محمد بن المثني ، حدثنا محمد بن جعفر ، عن عبد الله بن سعيد ، حدثني يزيد بن رومان ، عن عقبة بن عامر ، عن عبد الله الأسلمي - هو ابن أنيس - : أن رسول الله ﷺ وضع يده على صدره ثم قال : « قل » . فلم أدر ما أقول ، ثم قال لي : « قل » . قلت : « هو الله أحد » . ثم قال لي : « قل » . قلت : « أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ . مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ » ، حتى فرغت منها ، ثم قال لي : « قل » . قلت : « أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ » ، حتى فرغت منها . فقال رسول الله ﷺ : « هكذا فتَعَوَّذُ » (٢) ، ما تَعَوَّذَ المتعوذون بمثلهن قط (٣) .

حديث آخر : قال النسائي : أخبرنا عمرو بن علي أبو حفص ، حدثنا بدّل ، حدثنا شداد بن سعيد أبو طلحة ، عن سعيد الجريري ، حدثنا أبو نضرة ، عن جابر بن عبد الله قال : قال لي رسول الله ﷺ : « اقرأ يا جابر » . قلت : وما أقرأ بأبي أنت وأمي ؟ قال : « اقرأ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ » . فقرأتها ، فقال : « اقرأ بهما ، ولن تقرأ بمثلهما » (٤) .

وتقدم حديث عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهن ، وينفث في كفيه ، ويمسح بهما رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده .

وقال الإمام مالك : عن ابن شهاب ، عن عروة ، عن عائشة : أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث ، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه ، وأمسح بيده عليه ، رجاء بركتها .

ورواه البخاري عن عبد الله بن يوسف ، ومسلم عن يحيى بن يحيى ، وأبو داود عن القعنبي ، والنسائي عن قتيبة - ومن حديث ابن القاسم ، وعيسى بن يونس - وابن ماجه من حديث معن وبشر بن عمر ، ثمانيتهم عن مالك ، به (٥) .

وتقدم في آخر سورة : ﴿ ن ﴾ ، من حديث أبي نضرة ، عن أبي سعيد : أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ من أعين الجان وعين الإنسان ، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما ، وترك ما سواهما . رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه ، وقال الترمذي : حديث حسن .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) .

(١) سنن النسائي الكبرى برقم (٧٨٥٩) .

(٢) في م : « فتعوذوا » .

(٣) سنن النسائي الكبرى برقم (٧٨٤٥) .

(٤) سنن النسائي الكبرى برقم (٧٨٥٤) .

(٥) الموطأ (٩٤٢/٢) وصحيح البخاري برقم (٥٠١٦) وصحيح مسلم برقم (٣٩٠٢) وسنن أبي داود برقم (٣٩٠٢) وسنن النسائي الكبرى برقم (٧٥٤٩، ٧٥٤٤، ١٠٨٤٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣٥٢٩) .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن عاصم ، حدثنا أبو أحمد الزبيري ، حدثنا حسن بن صالح ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن جابر قال : الفلق : الصبح .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : ﴿ الْفَلَقِ ﴾ : الصبح . ورؤى عن مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعبد الله بن محمد بن عقيل ، والحسن ، وقتادة ، ومحمد بن كعب القرظي ، وابن زيد ، ومالك عن زيد بن أسلم ، مثل هذا .

قال القرظي ، وابن زيد ، وابن جرير : وهى كقوله تعالى : ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ ﴾ [الأنعام: ٩٦] .

وقال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ الْفَلَقِ ﴾ : الخلق . وكذا قال الضحاك : أمر الله نبيه أن يتعوذ من الخلق كله .

وقال كعب الأحبار : ﴿ الْفَلَقِ ﴾ : بيت فى جهنم ، إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره ، ورواه ابن أبي حاتم ، ثم قال :

حدثنا أبى ، حدثنا سهيل بن عثمان ، عن رجل سماه ، عن السدى ، عن زيد بن على ، عن آبائه أنهم قالوا : ﴿ الْفَلَقِ ﴾ : جب فى قعر جهنم ، عليه غطاء ، فإذا كشف عنه خرجت منا (١) نار تصيح منه جهنم ، من شدة حر ما يخرج منه .

وكذا رؤى عن عمرو بن عبَّسة (٢) ، والسدى ، وغيرهم . وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع منكر ، فقال ابن جرير :

حدثنى إسحاق بن وهب الواسطى ، حدثنا مسعود بن موسى بن مشكان الواسطى ، حدثنا نصر ابن خزيمة الخراسانى ، عن شعيب بن صفوان ، عن محمد بن كعب القرظي ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « ﴿ الْفَلَقِ ﴾ : جُبٌ فى جهنم مغطى » (٣) إسناده (٤) غريب ولا يصح رفعه .

وقال أبو عبد الرحمن الحبلئى : ﴿ الْفَلَقِ ﴾ : من أسماء جهنم .

قال ابن جرير : والصواب القول الأول ، أنه فلق الصبح . وهذا هو الصحيح ، وهو اختيار البخارى ، رحمه الله ، فى صحيحه (٥) .

وقوله : ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أى : من شر جميع المخلوقات . وقال ثابت البناني ، والحسن البصرى : جهنم وإبليس وذريته مما خلق .

﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ ، قال مجاهد : غاسق الليل إذا وقب غروب الشمس . حكاه البخارى عنه . ورواه ابن أبى نجيح ، عنه . وكذا قال ابن عباس ، ومحمد بن كعب القرظي ، والضحاك ، وخُصيف ، والحسن ، وقتادة : إنه الليل إذا أقبل بظلامه .

(٢) فى ١ : « عبسة » .

(١) فى م ، أ : « خرجت منه » .

(٣) تفسير الطبرى (٢٢٥/٣٠) .

(٤) فى م : « إسناده » .

(٥) تفسير الطبرى (٢٢٥/٣٠) وصحيح البخارى (٧٤١/٨) « فتح » .

وقال الزهري : ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ : الشمس إذا غربت . وعن عطية وقتادة : إذا وقب الليل : إذا ذهب . وقال أبو المهزم ، عن أبي هريرة : ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ : كوكب . وقال ابن زيد : كانت العرب تقول : الغاسق سقوط الثريا ، وكان^(١) الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها ، وترتفع عند طلوعها .

قال ابن جرير : ولهؤلاء من الأثر ما حدثني : نصر بن علي ، حدثني بكار بن عبد الله - ابن أخي همام - حدثنا محمد بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف ، عن أبيه ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ : « ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ قال : النجم الغاسق »^(٢) . قلت : وهذا الحديث لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ .

قال ابن جرير : وقال آخرون : هو القمر .

قلت : وعمدة أصحاب هذا القول ما رواه الإمام أحمد :

حدثنا أبو داود الحفري ، عن ابن أبي ذئب ، عن الحارث ، عن أبي سلمة قال : قالت عائشة ، رضى الله عنها : أخذ رسول الله ﷺ بيدي ، فأراني القمر حين يطلع ، وقال : « تَعَوَّذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الْغَاسِقِ إِذَا وَقَبَ » .

ورواه الترمذي والنسائي ، في كتابي التفسير من سننهما ، من حديث محمد بن عبد الرحمن ابن أبي ذئب ، عن خاله الحارث بن عبد الرحمن ، به^(٣) . وقال الترمذي : حسن صحيح . ولفظه : « تَعَوَّذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا ، فَإِنَّ هَذَا الْغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ » . ولفظ النسائي : « تَعَوَّذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا ، هَذَا الْغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ » .

قال أصحاب القول الأول وهو أنه الليل إذا ولج - : هذا لا ينافي قولنا ؛ لأن القمر آية الليل ، ولا يوجد له سلطان إلا فيه ، وكذلك النجوم لا تضيء ، إلا في الليل ، فهو يرجع إلى ما قلناه ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ ، قال مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة والضحاك : يعني : السواحر - قال مجاهد : إذا رقيين ونفثن في العقد .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه قال : ما من شيء أقرب من^(٤) الشرك من رقية الحية والمجانين^(٥) .

وفي الحديث الآخر : أن جبريل جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : اشتكيت يا محمد ؟ فقال : « نعم » . فقال : باسم الله أرقيك ، من كل داء يؤذيك ، ومن شر كل حاسد وعين ، الله يشفيك^(٦) .

(١) في م : « وكانت » .

(٢) تفسير الطبري (٢٢٧/٣٠) .

(٣) المسند (٦١/٦) وسنن الترمذي برقم (٣٣٦٦) وسنن النسائي الكبرى برقم (١٠١٣٨) .

(٤) في أ : « إلى » .

(٥) تفسير الطبري (٢٢٧/٣٠) .

(٦) رواه مسلم في صحيحه برقم (٢١٨٦) من حديث أبي سعيد ، رضى الله عنه .

ولعل هذا كان من شكواه ، عليه السلام ، حين سحر ، ثم عافاه الله تعالى وشفاه ، ورد كيد السحرة الحساد من اليهود فى رؤوسهم ، وجعل تدميرهم فى تدبيرهم ، وفضحهم ، ولكن مع هذا لم يعاتبه رسول الله ﷺ يوماً من الدهر ، بل كفى الله وشفى وعافى .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن يزيد بن حيّان ، عن زيد بن أرقم قال : سحر النبي ﷺ رجل من اليهود ، فاشتكى لذلك أياما ، قال : فجاءه جبريل فقال : إن رجلاً من اليهود سحرك ، عقد لك عقداً فى بئر كذا وكذا ، فأرسل إليها من يجرى بها . فبعث رسول الله ﷺ [علياً ، رضى الله تعالى عنه] ^(١) فاستخرجها ، فجاء بها فحللها ^(٢) ، قال : فقام رسول الله ﷺ كأنما نشط من عقال ، فما ذكر ذلك لليهودى ولا رآه فى وجهه [قط] ^(٣) حتى مات .

ورواه النسائي عن هناد ، عن أبى معاوية محمد بن حازم الضرير ^(٤) .

وقال البخارى فى « كتاب الطب » من صحيحه : حدثنا عبد الله بن محمد قال : سمعت سفيان ابن عيينة يقول : أول من حدثنا به ابن جريج ، يقول : حدثنى آل عروة ، عن عروة ، فسألت هشاماً عنه ، فحدثنا عن أبيه ، عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ سحر ، حتى كان يرى أنه يأتى النساء ولا يأتينهن — قال سفيان : وهذا أشد ما يكون من السحر ، إذا كان كذا — فقال : « يا عائشة ، أعلمت أن الله قد أفتانى فيما استفتيته فيه ؟ أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى ، والآخر عند رجلى ، فقال الذى عند رأسى للآخر : ما بال الرجل ؟ قال : محبوب . قال : ومن طبه ؟ قال : لبيد بن أعصم — رجل من بنى زريق حليف لليهود ، كان منافقاً — قال : وفيم ؟ قال : فى مشط ومُشاقة . قال : وأين ؟ قال : فى جُف طُلعة ذكر تحت رعوفة فى بئر ذروان » . قالت : فاتى [النبي ﷺ] ^(٥) البئر حتى استخرجه فقال : « هذه البئر التى أريتها ، وكأن ماءها نُقاعة الحناء ، وكأن نخلها رؤوس الشياطين » . قال : فاستخرج ^(٦) . [قالت] ^(٧) . فقلت : أفلا ؟ أى : تَشَرَّتْ؟ فقال : « أما الله فقد شفانى ، وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً » ^(٨) .

وأسنده من حديث عيسى بن يونس ، وأبى ضمرة أنس بن عياض ، وأبى أسامة ، ويحيى القطان وفيه : « قالت : حتى كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعل » . وعنده : « فأمر بالبئر فدفت » . وذكر أنه رواه عن هشام أيضاً ابن أبى الزناد والليث بن سعد ^(٩) .

وقد رواه مسلم ، من حديث أبى أسامة حماد بن أسامة وعبد الله بن نمير . ورواه أحمد ، عن

(١) زيادة من المسند .

(٢) فى م : « فحلها » .

(٣) زيادة من المسند .

(٤) المسند (٣٦٧/٤) وسنن النسائي (١١٢/٧) .

(٥) زيادة من صحيح البخارى .

(٦) فى أ : « فاستخرجه » .

(٧) زيادة من صحيح البخارى .

(٨) صحيح البخارى برقم (٥٧٦٥) .

(٩) صحيح البخارى برقم (٥٨٦٣، ٦٣٩١، ٥٧٦٦) .

عفان ، عن وهيب^(١) ، عن هشام ، به^(٢) .

ورواه الإمام أحمد أيضاً عن إبراهيم بن خالد ، عن رباح ، عن معمر ، عن هشام ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : لبث رسول الله ﷺ ستة أشهر يرى أنه يأتي ولا يأتي ، فأتاه ملكان ، فجلس أحدهما عند رأسه ، والآخر عند رجله ، فقال أحدهما للآخر : ما باله ؟ قال : مطبوب . قال : ومن طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم ، وذكر تمام الحديث^(٣) .

وقال الأستاذ المفسر الثعلبي في تفسيره : قال ابن عباس وعائشة ، رضى الله عنهما : كان غلام من اليهود يخدم رسول الله ﷺ فدبت إليه اليهود ، فلم يزالوا به حتى أخذ مشاطة رأس النبي ﷺ وعدة أسنان من مشطه ، فأعطاهم اليهود ، فسحروه فيها . وكان الذى تولى ذلك رجل منهم - يقال له : [لبيد]^(٤) بن أعصم - ثم دسها في بئر لبنى زريق ، يقال لها : ذروان ، فمرض رسول الله ﷺ وانتثر شعر رأسه ، ولبت ستة أشهر يرى أنه يأتي النساء ولا يأتين ، وجعل يدوب ولا يدرى ما عراه . فبينما هو نائم إذ أتاه ملكان فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجله ، فقال الذى عند رجله للذى عند رأسه : ما بال الرجل ؟ قال : طُب . قال : وما طُب ؟ قال : سحر . قال : ومن سحره ؟ قال : لبيد بن أعصم اليهودى . قال : وبم طبه ؟ قال : بمشط ومشاطة . قال : وأين هو ؟ قال : فى جُفْ طلعة تحت راعوفة فى بئر ذروان - والجف : قشر الطلع ، والراعوفة : حجر فى أسفل البئر ناتئ يقوم عليه الماتح - فانتبه رسول الله ﷺ مذعوراً ، وقال : « يا عائشة ، أما شعرت أن الله أخبرنى بدائى ؟ » . ثم بعث رسول الله ﷺ عليا والزبير وعمار بن ياسر ، فزحوا ماء البئر كأنه نقاعة الحناء ، ثم رفعوا الصخرة ، وأخرجوا الجف ، فإذا فيه مشاطة رأسه وأسنان من مشطه ، وإذا فيه وتر معقود ، فيه اثنتا عشرة^(٥) عقدة مغروزة بالإبر . فأنزل الله تعالى السورتين ، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ، ووجد رسول الله ﷺ خفة حين انحلت العقدة الأخيرة ، فقام كأنما نشط من عقال ، وجعل جبريل ، عليه السلام ، يقول : باسم الله أرقيك ، من كل شر يؤذيك ، من حاسد وعين الله يشفيك . فقالوا : يا رسول الله ، أفلا نأخذ الخبيث نقتله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أما أنا فقد شفانى الله ، وأكره أن يشر على الناس شراً »^(٦) .

هكذا أورده بلا إسناد ، وفيه غرابة ، وفى بعضه نكارة شديدة ، ولبعضه شواهد مما تقدم ، والله أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ ﴾

(١) فى م : « وهب » .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢١٨٩) والمسند (٩٦/٦) .

(٣) المسند (٦٣/٦) .

(٤) زيادة من م ، أ . (٥) فى م ، أ : « فيه اثنا عشر » .

(٦) الكشف والبيان للثعلبي (ق ١٩٤) المحمودية .

الْخَنَاسِ (٤) الَّذِي يُوسَّوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾ .

هذه ثلاث صفات ^(١) من صفات الرب ، عز وجل ؛ الربوبية ، والملك ، والإلهية : فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه ، فجميع الأشياء مخلوقة له ، مملوكة عبيد له ، فأمر المستعيز أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات ، من شر الوسواس الخناس ، وهو الشيطان الموكل بالإنسان ، فإنه ما من أحد من بنى آدم إلا وله قرين يُزِين له الفواحش ، ولا يألوه جهداً في الخبال . والمعصوم من عصَمَ الله ، وقد ثبت في الصحيح أنه : « ما منكم من أحد إلا قد وُكِّلَ به قرينة » . قالوا : وأنت يا رسول الله؟ قال : « نعم ، إلا أن الله أعانني عليه ، فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير » ^(٢) ، وثبت في الصحيح ، عن أنس في قصة زيارة صفية النبي ﷺ وهو معتكف ، وخروجه معها ليلاً ليردها إلى منزلها ، فلقية رجلاً من الأنصار ، فلما رأيا رسول الله ﷺ أسرع ، فقال رسول الله : « على رسلكما ، إنها صفية بنت حُيٍّ » . فقالا : سبحان الله ، يا رسول الله . فقال : « إن الشيطان يجري من ابن آدم ^(٣) مجرى الدم ، وإنني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً ، أو قال : شراً » ^(٤) .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا محمد بن بحر ، حدثنا عدى بن أبي عمارة ، حدثنا زياداً ^(٥) التميمي ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان واضع خطمه ^(٦) على قلب ابن آدم ، فإن ذكر ^(٧) خَنَس ، وإن نسي ^(٨) التقم قلبه ، فذلك الوسواس الخناس » ^(٩) . غريب .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عاصم ، سمعت أبا تميمه يُحدث عن رديف رسول الله ﷺ قال : عَثَرَ بالنبي ﷺ حمارة ، فقلت : تعس الشيطان . فقال النبي ﷺ : « لا تقل : تعس الشيطان ، فإنك إذا قلت : تعس الشيطان ، تعاظم ، وقال : بقوتي صرعته ، وإذا قلت : باسم الله ، تصاغر حتى يصير مثل الذباب » ^(١٠) .

تفرد به أحمد ، إسناده ^(١١) جيد قوى ، وفيه دلالة على أن القلب متى ذكر الله تصاغر الشيطان وغلب ، وإن لم يذكر الله تعاظم وغلب .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو بكر الحنفى ، حدثنا الضحاک بن عثمان ، عن سعيد المقبرى ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحدكم إذا كان في المسجد ، جاءه الشيطان فأبَسَ

(١) فى هـ : « صفة » والمثبت من م ، أ .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٨١٤) من حديث عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه .

(٣) فى أ : « من الإنسان » .

(٤) صحيح مسلم برقم (٢١٧٤) وهو فى صحيح البخارى برقم (٧١٧١، ٦٢١٩، ٢٠٣٥) من حديث صفية ، رضى الله عنها .

(٥) فى م : « زياد » وهو الصواب .

(٦) فى أ : « خرطومه » .

(٧) فى أ : « ذكر الله » .

(٨) فى أ : « نسى الله » .

(٩) مسند أبى يعلى (٢٧٨/٧) قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٧٤٢/٨) : « إسناده ضعيف » ؛ وذلك لضعف زياد النميرى والكلام فى عدى بن أبى عمارة .

(١٠) المسند (٥٩/٥) .

(١١) فى م : « إسناده » .

به كما يُبْس الرجل بدابته ، فإذا سكن له زنقه — أو : أجمه » . قال أبو هريرة : وأنتم ترون ذلك ، أما المزنوق فتراه مائلاً — كذا — لا يذكر الله ، وأما الملجم ففاتح فاه لا يذكر الله ، عز وجل . تفرد به أحمد ^(١) .

وقال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ ، قال : الشيطان جائم على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس ، فإذا ذكر الله خنس . وكذا قال مجاهد ، وقتادة . وقال المعتمر بن سليمان ، عن أبيه : ذكر لى أن الشيطان ، أو : الوسواس ينث فى قلب ابن آدم عند الحزن وعند الفرح ، فإذا ذكر الله خنس .

وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿الْوَسْوَاسِ﴾ ، قال : هو الشيطان يأمر ، فإذا أطيع خنس .

وقوله : ﴿الَّذِى يُوسِّسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ﴾ ، هل يختص هذا بنى آدم — كما هو الظاهر — أو يعم بنى آدم والجن ؟ فيه قولان ، ويكونون قد دخلوا فى لفظ الناس تغليبا .

وقال ابن جرير : وقد استعمل فيهم (رجال من الجن) فلا بدع فى إطلاق الناس عليهم .

وقوله : ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ ، هل هو تفصيل لقوله : ﴿الَّذِى يُوسِّسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ﴾ ، ثم بينهم فقال : ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ . وهذا يقوى القول الثانى . وقيل قوله : ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ ، تفسير للذى يوسوس فى صدور الناس ، من شياطين الإنس والجن ، كما قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] ، وكما قال الإمام أحمد :

حدثنا وكيع ، حدثنا المسعودى ، حدثنا أبو عمر الدمشقى ، حدثنا عبيد بن الحشاش ، عن أبي ذر قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو فى المسجد ، فجلست ، فقال : « يا أبا ذر ، هل صليت ؟ » . قلت : لا . قال : « قم فصل » . قال : فقمت فصليت ، ثم جلست فقال : « يا أبا ذر ، تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن » .

قال : قلت : يا رسول الله ، وللإنس شياطين ؟ قال : « نعم » . قال : قلت : يا رسول الله ، الصلاة ؟ قال : « خير موضوع ، من شاء أقل ، ومن شاء أكثر » . قلت : يا رسول الله فما الصوم ؟ قال : « فرض يجرى ، وعند الله مزيد » . قلت : يا رسول الله ، فالصدقة ؟ قال : « أضعاف مضاعفة » . قلت : يا رسول الله ، أيها ^(٢) أفضل ؟ قال : « جهْد من مُقِل ، أو سر إلى فقير » . قلت : يا رسول الله ، أى الأنبياء كان أول ؟ قال : « آدم » . قلت : يا رسول الله ، ونبي ^(٣) كان ؟ قال : « نعم ، نبي مُكَلَّم » . قلت : يا رسول الله ، كم المرسلون ؟ قال : « ثلثمائة وبضعة عشر ، جمًّا غفيراً » . وقال مرة : « خمسة عشر » . قلت : يا رسول الله ، أيما أنزل عليك أعظم ؟

(١) المسند (٢/ ٢٣٠) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ٢٤٢) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٢) فى م : « فأيها » .

(٣) فى م : « ونبياً » .

قال : « آية الكرسي : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ » .

ورواه النسائي ، من حديث أبي عمر الدمشقي ، به ^(١) . وقد أخرج هذا الحديث مطولاً جداً أبو حاتم بن حبان في صحيحه ، بطريق آخر ، ولفظ آخر مطول جداً ^(٢) ، قاله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن منصور ، عن ذر بن عبد الله الهمداني ، عن عبد الله بن شداد ، عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني أحدث ^(٣) نفسي بالشئ لأن آخر من السماء أحب إلى من أن أتكلم به . قال : فقال النبي ﷺ : « الله أكبر الله أكبر ، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة » .

ورواه أبو داود والنسائي ، من حديث منصور - زاد النسائي : والأعمش - كلاهما عن ذر ، به ^(٤) . آخر التفسير ، ولله الحمد والمنة ، والحمد لله رب العالمين ^(٥) . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ^(٦) . ورضى الله عن الصحابة أجمعين ^(٧) . حسبنا الله ونعم الوكيل . وكان الفراغ منه في العاشر من جمادى الأولى سنة خمس وعشرين وثمانين . والحمد له وحده ^(٨) .

(١) المسند (١٧٨/٥) وسنن النسائي (٢٧٥/٨) .

(٢) صحيح ابن حبان برقم (٩٤) « موارد » ، (٢٨٧/١) « الإحسان » من طريق إبراهيم بن هشام بن يحيى بن يحيى الغساني ، عن أبيه عن جده ، عن أبي إدريس الخولاني ، عن أبي ذر ، رضى الله عنه ، وقد قال ابن عدى عن هذا الحديث : « هذا الحديث منكر من هذا الطريق » .

(٣) في م : « لأحدث » .

(٤) المسند (٢٣٥/١) وسنن أبي داود برقم (٥١١٢) وسنن النسائي الكبرى برقم (١٠٥٠٣) .

(٥) في أ : « والحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى » .

(٦) في أ : « وسلم تسليماً أبداً دائماً إلى يوم الدين » .

(٧) في أ : « ورضى الله عن أصحاب رسول الله » .

(٨) في م : « آخر التفسير يليه فضائل القرآن للمؤلف أيضاً ، وبه يتم الكتاب إن شاء الله ، ولله الحمد والمنة على التمام ، إنه ولي الإنعام » . وقد جاء في خاتمة النسخة « هـ » هذه الخاتمة للناسخ :

« الحمد لله الذي رفع السماء بغير عمد ، وبسط الأرض وثبتها بالأطواد ، ومنح معرفته ومحبته من شاء من العباد ، وأقام لدينه أولياء ينصرونه ويقومون به ، وجعل منهم النجباء والأقطاب والأوتاد ، وأعلى منار الدين بالعلماء العاملين ، وأوضح بهم طرق الرشاد ، وقمّع بهم أهل الزيغ والأهواء والبدع والفساد ، وثبت لهم دينهم بالنقل عن نبيهم بصحيح الإسناد ، ونفى عنهم التدليس والشذوذ والانفراد . وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، المتعالى عن الشركاء والنظراء والأنداد ، المنزه عن الحلول والاتحاد والإلحاد . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وحبيبه وخليله ، سيد العباد ، صلى الله عليه وعلى آله النجباء والأنجاد ، وصحابته السادة الأبرار الأمجاد ، صلاة تدوم وتقوم ما قامت السموات والأرض بأمره ، وقابل البياض السواد .

وبعد ، فقد أمرني السيد الجليل ، من وصل الله له جناح الصنيع الجميل ، وواصل عليه السؤل ، وأوصل إليه المأمول ، وعمّر بحبه ربوع أنسى ، وأمطر بفيضه ربيع نفسى ، مولانا وسيدنا العبد الفقير إلى الله سبحانه الأمل الراجى عفوه الكريم وإحسانه ، قاضى القضاة ، حاكم الحكام ، نجم الدين حجة الإسلام والمسلمين ، سيد العلماء فى العالمين ، بهاء الملة ، لسان الشريعة ، عزّ السنة ، حصن الأمة ، خطيب الخطباء ، إمام البلغاء ، غرة الزمان ، ناصر الإيمان شيخ شيوخ العارفين ، أبو حفص عمر - ابن سيدنا ومولانا العبد الفقير إلى الله تعالى - الشيخ الإمام العلامة ، والخبير الفهامة ، قدوة العلماء العاملين ، أبى محمد حجبى السعدى الشافعى - أمر - أعلى الله أمره ، وأسد قدره ، من لا يتقلب إلا فى طاعته ، ولا يتصرف إلا فى مرضاته - أن يكتب برسم خزانة تفسير الإمام العالم الكبير ، العلامة عماد الدين ابن كثير - رحمه الله وأرضاه ، وجعل بحبوحة الجنة مقره ومثواه . فامتثلت أمره بالسمع والطاعة ، =

= وعددت هذا الأمر من أنفس البضاعة ، مع أنى فى الكتابة قليل الصناعة . فكتبت قدر ما قدرت عليه ، ووصلت إليه . فإن صادفت قبولاً وبلغت مأمولاً ، فيكون سعدى سعيداً ، ويقع سهمى سديداً . . .

فَإِنْ وَقَّعْتُ بِى قُدْرَتِى دُونَ هِمَّتِى فَمُبْلَغَ عِلْمِى وَالْمَعَاذِيرُ تُقْبَلُ

قد جمعت هذه الخزانة الشريفة أشتات العلوم على الإطلاق ، من رام مثلها فهو مُقَصِّر عن روم أسباب اللِّحاق ، خصوصاً إذا كان بها هذا التفسير الذى مادته سُنَنُ المصطفى المنبه على جوامع ما يزداد اللبيب بها بصيرة فى علمه النافع ، إذ كان ﷺ قد أوتى جوامع الكلام ، وعَلِمَ فصل الخطاب . فلم يسمع الناس كلاماً أعم نفعاً ، ولا أقصر لفظاً ، ولا أعدل وُفْراً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً . ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين فى فحواه ﷺ .

فلله دَرُّ مولانا ؛ إذا جمع الفضائل ، ونظم آحاد العقائل ، وحاز من العلم الذرى والغوارب . فلا يخفى على ذى لب أنه أغرق فى الفهم فُصُولاً ، وأغرق فى العلم أصولاً ، فأقول مختصراً ، وعما يليق بمدحه معتذراً ، عسى يمر به من تضاعيف ثنائى عليه ما يبلغنى به الزلفى فى حبه ، والقربى من قلبه ، وتلك أمنيته حين ألقى منيته ، لا أتعداها ، ولا أقتنى سواها ولله در القائل :

إذا ابنُ حَجِى حَادَتْ لَنَا يَدُهُ	لَمْ يُحْمَدِ الْأَجُودَانِ الْبَحْرَ وَالْمَطَرُ
وَأِنْ أَضَاءَتْ لَنَا أَنْوَارُ غُرَّتِهِ	تَضَاءَلِ الْأَنْوَارُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
وَأِنْ مَضَى رَأْيُهُ أَوْ جَدَّ عَزَمَتُهُ	تَأَخَّرَ الْمَاضِيَانِ السِّيفُ وَالْقَدَرُ
مَنْ لَمْ يَبْتَ حَذَرًا مِنْ خَوْفِ سَطْوَتِهِ	لَمْ يَدْرِ مَا الْمَرْعُجَانِ: الْخَوْفُ وَالْحَذَرُ؟
كَأَنَّهُ الدَّهْرُ فِي نَعْمَى وَفِي نَقَمٍ	إِذَا تَعَاقَبَ مِنْهُ النِّفْعُ وَالضَّرَرُ
كَأَنَّهُ وَزَمَامُ الدَّهْرِ فِي يَدِهِ	يَدَا عَوَاقِبِ مَا يَأْتِي وَمَا يَذَرُ

فالحمد لله الذى جعل جمال منظرك موازياً لككمال مخبرك ، وشامخ قَرَعَكَ مقارناً لراسخ عنصرك ، والله حسبى فيك من كل ما يُعوذُ العبد به المولى :

واسلم وعش لا زلت فى نعمة أنت بها من غيرك الأولى

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

كتبه الفقير محمد بن على الصوفى البواب ، لمنهات التضائية ، بدمشق المحروسة ، حامداً ومصلياً ، ومحسبلاً ومحوقلاً ، والحمد لله وحده .

يقول الفقير إلى عفو ربه سامى بن محمد بن عبد الرحمن بن سلامة : وكان الانتهاء من تحقيق تفسير القرآن العظيم فجر يوم الأربعاء الثانى من شهر ربيع الأول سنة سبع عشرة وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية فى مدينة الرياض ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

مقتوبه عن نسخة مخطیة كاملة ، ومنه مطبوعة الشعب واكثر من
قصر نسخ مخطیة اخرى يستوعب بحورها التفسیر كله .

تفسیر الفراسة العظیم

للسیاف

أبی الفیثراؤنا عییل بن محمد بن کثیر القرشی الدمشقی

(۷۰۰ - ۵۷۷ھ)

تحقیق

سایم بن محمد السلامة

إهداء من

سلطان راجه محمد بن توفیق البکیر

تأطیرها